آية الله العظمى مكارم الشيرازي

نفحات الولاية

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

الجزء ١٠-١

بسم الله الرحمن الرحیم

نفحات الولايه: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

ناصرمكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

نفحات الولايه

اشارة

عنوان و نام پديدآور : نفحات الولايه: شـرح عصـرى جامع لنهج‌البلاغه/ ناصـرمكارم شـيرازى، بمساعده مجموعه من‌الفضـلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانى.

مشخصات نشر : قم : مدرسه‌الامام على‌ابن‌ابى‌طالب (ع) ، ۱۴۲۶ق.-= ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهرى : ج.

شابک : ۳۰۰۰۰ ريال : دوره ۹۶۴-۸۱۳-۹۵۸-X: ؛ ج. ۱ ۹۶۴-۸۱۳-۹۰۷-۵ : ؛ ج. ۲ ۹۶۴-۸۱۳-۹۰۸-۳ : ؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۱۷-۲ : ؛ ج. ۴ ۹۶۴-۸۱۳-۹۱۸-۰ : ؛ ج.۵ : ۹۶۴-۸۱۳-۹۴۱-۵ ؛ ۷۰۰۰۰ ريال: ج. ۶۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۰-۵ : ؛ ۷۰۰۰۰ ريال: ج. ۷۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۱-۲ : ؛ ۷۰۰۰۰ ريال: ج. ۸۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۲-۹ : ؛ ۷۰۰۰۰ ريال: ج. ۹۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۳-۶ : ؛ ۷۰۰۰۰ ريال: ج. ۱۰۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۱۲۴-۳ :

يادداشت : عربى.

يادداشت : ج ۱- ۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

يادداشت : ج. ۶- ۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ ق.= ۱۳۹۰).

يادداشت : كتابنامه.

مندرجات : .- ج. ۶. من خطبة ۱۵۱ الى ۱۸۰.- ج. ۷. من خطبة ۱۸۱ الى ۲۰۰.- ج. ۸. من خطبة ۲۰۱ الى ۲۴۱.- ج. ۹. من رسالة ۱ الى ۳۱.- ج. ۱۰. من رسالة ۳۲ الى ۵۳

موضوع : على‌بن ابى‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق -- خطبه‌ها

موضوع : على‌بن ابى‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- كلمات قصار

موضوع : على‌بن ابى‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- نامه‌ها

موضوع : على‌بن ابى‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق . نهج‌البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده : حمرانى، عبدالرحيم

شناسه افزوده : على‌بن ابى‌طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق . نهج‌البلاغه. شرح

شناسه افزوده : مدرسة الامام على بن ابى طالب (ع)

رده بندى كنگره : BP۳۸/۰۲ /م۷ ۱۳۸۴

رده بندى ديويى : ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره كتابشناسى ملى : م۸۴-۴۰۳۴۷

[الجزء الأول

الدافع الرئيسى لتأليف هذا الكتاب

لم يحظ كتاب بالعناية والرعاية- بعد القرآن الكريم- كما حظى نهج البلاغة ولم يتيسر لغيره مثل هذه المنزلة السامية النامية.

فما أكثر البحوث والـدراسات فى تصويره الفنى وفصاحته وبلاغته وصياغته حتى أضحى موئلًا ومنهلًا وأساساً ونبراساً للـدراسات

الإسلامية ومعيناً ثرا للمعارف الإنسانية. وهل رأينا كالنهج يرغب المؤلفون بشرحه والتعرف عليه والاقتباس منه والاستشهاد به وحفظ ولو بعض حكمه ومواعظه. إنّه كتاب المعانى الروحية، والعدالة الاجتماعية، والتربية الرسالية، والقيم الخلقية، والّادلة والكمال والنقاء، ونابض بكل مفيد وسديد ورشيد، ورافض لكل ألوان الشرور والفجور والغرور ومهما استجدت من أفكار وآراء ونظريات واكتشافات خلال هذه القرون المتطاولة فلا ـ تزيده إلّاتسديداً وتأييداً وتخليداً، ولا ـ يزداد المفكرون والباحثون نحوه إلّاانسجاماً واحتراماً، لأنّه الكتاب الزاهر بالحجج البالغة والزاخرة بالموارد السائغة والجامع بين جلال البلاغة وجمال الصياغة، وبين إصالة المعانى وجزالة المبانى وبين دقّة التصوير ورقة التعبير.

لقد عكفت كأغلب الأفراد الشغفين بنهج البلاغة على مطالعة بعض أجزائه. بحسبما كانت تتطلبه الضرورة والحاجة، حتى لاحت بوادر الخامس عشر من خرداد عام ۱۹۶۳ م فالقى القبض علىَّ برفقة طائفة من كبار العلماء والمفكرين فاودعنا السجن. كانت ظروف السجن عصيبة جدّاً فى الأيام الاولى حيث عمدت جلاوزة النظام الشاهنشاهى البائد إلى حظر أغلب الأشياء عن الوصول إلينا، غير أنّ الضغوط التى مارسها الرأى العام دفعت بذلكالنظام

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۶

إلى التخفيف من وطأته والتنازل عن بعض المحظورات الثقافية؛ الأمر الذى جعلنا نطلب من أصدقائنا وذوينا إتياننا ببعض الكتب إلى السجن. أمّا أنا فقد ناشدتهم كتاب نهج البلاغة لأستغل تلكالفرصة المناسبة وأتفرغ فيها للتأمل فى هذا الكتاب العظيم، وقد منّ اللَّه علىّ ووفّقنى للتدبر والتحقيق فى دراسة القسم الثانى من هذا الكتاب والذى يشمل الرسائل والوصايا السياسية والأخلاقية، آنذاك أيقنت بأنّ نهج البلاغة لأعظم وأكبر ممّا كنّا نفكر فيه ونتصوره عنه. فقد رأيت نفسى حينها أمام بحر زاخر من العلوم والمعارف التى تعالج أهم قضايا الإنسان فى كافة أبعاده المعنوية والمادية، كما يمد الإنسان بمختلف المواهب المعنوية التى تمكنها من بلوغ شاطئ الامان فى هذه الدنيا المحفوفة بالمكاره.

آنذاك أدركت عمق خيبة وخسران أولئك الذين ولّوا ظهورهم لهذا الكنز الفيّاض والمنهل العذب وجعلوا يسيلون لعابهم لموائد الأجانب بما يعجزون عن الإتيان بمثل قطرة من بحره المتلاطم!

من عجائب هذا الكتاب الذى اقتفى آثا رالقرآن حتى طبع بصفاته وسماته إنّه وخلافاً للمدارس الفكرية والأخلاقية والسياسية التى يبليها الزمان فانّه يحمل فى طياته صفات العصرنة والتجدد وكأنّ خطب أمير المؤمنين عليه السلام ومواعظه وتوجيهاته تقرع سمعالمعاصر وتجعله يعيش أجواء مسجد الكوفة. وما أجدر عشاق الحق والحقيقة والمتعطشين لمعرفة العلوم الربّانية والمتطلعين لعيش الحياة الحرة الكريمة أن يقصدوا كل يوم ضريح هذا العالم الفذ السيد الشريف الرضى (جامع نهج البلاغة) فيؤدوا له طقوس الاجلال والاكبار ويقرأوا الفاتحة على روحه الطاهرة بفضل الجهود المضنية التى بذلها من أجل جمع كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام فزود بها البشرية جمعاء فضلًا عن المجتمعات الإسلامية.

وماذا بوسعى أن أقول بشأن نهج البلاغة الذى حار فى وصفه البلغاء وعجز عن تصويره الفصحاء وعيت عن الاحاطة بكنهه العلماء، وعليه لا أرى من جدوى فى الاستغراق فى هذا الموضوع، وأخوض فى الغرض والدافع من هذا الكتاب. فقد أقبل العلماء والادباء على هذا الكتاب النفيس- نهج البلاغة- بين حافظ وناسخ وشارح، حيث بلغ عدد شرّاحه فى العصر القديم والحديث ما جاوز الخمسين شارحاً الذين بذلوا ما بوسعهم لسبر أغواره واستخراج

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۷

كنوزه وجواهره حتى قدموا خدمة جليلة لطلاب المعرفة والحكمة، إلّاأنّ الانصاف هو أنّ هذا الكتاب ما يزال يعيش مظلومية كبرى وغربة عظمى، وليس هناك من سبيل لازالتها سوى فى تظافر الجهود وتعبئة الأفكار والطاقات من أجل إعادة النظر والاسهاب فى تفاصيل وجزئيات هذا الكتاب الثر، ولا سيما فى عصرنا الراهن الذى تشهد فيه المجتمعات الإنسانية ذروة المشاكل والمطبات التى

تعترض حياتها اليومية، إلى جانب ظهور المذاهب والمدارس الفكرية المختلفة والحملات الشعواء التى تمارسها الأجهزة الاستكبارية والدوائر النفعية الغارقة فى الأهواء والشهوات وحب الدنيا والخلود إليها ضد العقائد والأخلاق والفضيلة والتقوى بغية تحقيق أهدافها المشؤومة فى ضمان مصالحها ونهب خيرات البشرية وتجريدها من هويتها الإنسانية. أجل فالعصر الحاضر يجعل نهج البلاغة يتطلب جهوداً أكثر وأنشطة أوسع وأشمل من شأنها التوصل إلى الطرق والأساليب التى تذلل الصعاب المادية والمعنوية والفردية والاجتماعية، إلى جانب التصدى إلى النزعات الفكرية الهدامة التى تستهدف الدين والأخلاق. وعلى هذا الأساس وما أن فرغنا من نشاطنا القرآنى فى التفسير الذى دوناه- التفسير الأمثل- وكتابنا رسالة القرآن والتى حظيت باقبال المحافل العلمية والأوساط التحقيقية حتى آلينا على أنفسنا أن نواصل نفس هذه الجهود وبمعونة الاخوة الفضلاء من العلماء بخصوص نهج البلاغة على غرار الجهود والأساليب التحقيقية التى إعتمدناها فى التفسير القرآنى- الأمثل- بل إنّ التجارب السابقة قد جعلت هذا الجهد المتواضع أقرب من غيره إلى الاتقان والاكمال. نعم لقد عزمنا على مباشرة هذا العمل رغم كثرة المشاكل والعراقيل وسعة حجم المسؤوليات مستلهمين العزم والامداد من البارئ سبحانه وعبده الخالص ربيب النبى صلى الله عليه و آله أمير المؤمنين ويعسوب الدين وقائد الغر المحجلين على بن أبى طالب عليه السلام وبعد أن وعدنا الاخوة الذين وقفوا إلى جانبنا فى التفسير القرآنى بتقديم كافة أشكال الدعم والعون فى هذا المجال لكى نعد شرحا جديداً جامعاً لهذا الكتاب من شأنه تلبية حاجات العصر ووضع الحلول الوافية الشافية للمعضلات الفكرية والاجتماعية، كما استعنا فى بعض المواقيع بما أورده المفسرون والشارحون القدماء والمعاصرون من أجل إغناء كافة جوانب المواضيع، إلى جانب اعتماد الأفكار والاطروحات الحديثة المعاصرة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸

لقد باشرنا هذا العمل غرة الثالث عشر من شهر رجب المرجب لعام ۱۴۱۳ ه الميلاد الميمون لأمير المؤمنين عليه السلام وسار بخطوات بطيئة هادئة حتى استغرق إعداد المجلد الأول- رغم الجهود الجماعية المشتركة- ما يقارب الثلاث سنوات (ومن الطبيعى أن لا تشوب الأعمال العجلة فى بدايتها). حتى اتسقت لنا الامور فأخذنا نحث السير وننهض سريعاً بهذا العمل، رغم يقيننا بأننا مازلنا نحوم فى هذا المحيط المتلاطم والبحر العميق؛ الأمر الذى لايبد ويسيراً قط. والأفضل ألا أخوض فى التفاصيل التى اعتمدت فى هذا الشرح وأترك ذلك للاخوة القراء، ويسرنى هنا أن أناشد كافة الاخوة الفضلاء أن يتحفونا بآرائهم بما يقرب هذا العمل من أهدافه ومقاصده، إلى جانب النظر بعين العفو والصفح إلى الخطأ والزلل.

وأخيراً أسأل اللَّه أن يتفضل علينا باتمام هذا الجهد المتواضع بغية التزود من مائدة نهج البلاغة لنا ولكافة جياع الفكر والعقيدة، إنّه نعم المولى ونعم المجيب، وما توفيقى إلّاباللَّه عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمد للَّهرب العالمين.

قم- الحوزة العلمية

ناصر مكارم الشيرازى

۳ ربيع الثانى ۱۴۱۷ ه

۲۰/ تموز/ ۱۹۹۶ م

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹

السيد الرضى جامع نهج البلاغة

اشارة

هو أبو الحسن محمد بن الحسین الموسوی، ولد فی بغداد سنة تسع وخمسن وثلاثمائة للهجرة. أُمّه فاطمة بنت الحسین بن أبی محمد الحسن الاطروش بن علی بن الحسن بن علی بن عمر بن علی بن أبی طالب علیه السلام، وهی إمرأة فاضلة عرفت بالورع والتقوی والبصیرة الثاقبة، فقد قال فیها السید الرضی (ره):

لَوْ کانَ مِثلَک کلُّ امٍّ بَرّؤِغَنِیَ البَنُونَ بِها عَنِ الآباءِ

کما یتصل نسب جدّه بالإمام موسی بن جعفر الکاظم علیهما السلام وهو أبو أحمد الحسین بن موسی بن محمد بن موسی بن إبراهیم بن الإمام أبی إبراهیم موسی الکاظم علیه السلام. وقد کانت له منزلة عظیمة فی الدولة العباسیة والدولة البویهیة، حتی لقبه أبو نصر بهاء الدین بالطاهر الأوحد.

أقبل السید الرضی علی العلم والفقه والأدب حتی بات أبدع أبناء زمانه، وقد خلف أبیه عام ۳۸۸ بتولی نقابة الطالبیین فی حیاته، وعهد إلیه بالنظر فی المظالم والحج بالناس. إبتدأ ینظم الشعر وله من العمر عشر سنین أ وتزید قلیلًا، حکم بعض النقاد بأنّه أشعر الطالبیین، وإلی جانب ذلک فقد کان کاتباً بلیغاً مترسلًا، امّا المرحوم العلّامة الامینی فقد صرّح بشأن السید الشریف الرضی قائلا: «وسیدنا الشریف الرضی هو مفخرة من مفاخر العترة الطاهرة، وإمام العلم والحدیث والإدب، وبطل من أبطال الدین والعلم والمذهب، ومهما تشدق الکاتب فان فی البیان قصوراً عن بلوغ مداه».[۱]

أساتذة السید الرضی

لقد ذکر العلّامة الأمینی إسم أربعة عشر من أساتذة السید الرضی ومنهم:

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۱۰

۱- أبو سعید الحسن بن عبداللّه بن مرزبان النحوی المعروف بالسیرافی المتوفی عام ۳۶۸ ه فقد درس السید الرضی علیه النحو ولما یبلغ العاشرة من عمره.

۲- النحوی المعروف أبو علی الحسن بن أحمد الفارسی المتوفی عام ۳۷۷ ه.

۳- هارون بن موسی.

۴- الخطیب المشهور أبو یحیی عبد الرحیم بن محمد المعروف بابن نباتة المتوفی عام ۳۹۴ ه.

۵- القاضی عبد الجبار، العالم الشافعی المعتزلی.

۶- الفقیه والمحدث والمتکلم الشیعی الکبیر الشیخ المفید والذی یعدّ من أعظم أساتذة السید الرضی. وهناک قصة رائعة جدیرة بالسماع بشأن کیفیة تتلمذه وأخیه السید المرتضی علی ید الشیخ المفید. فقد قال مؤلف کتاب «الدرجات الرفیعة»: رأی المفید أبو عبد اللّه محمد بن النعمان الفقیه الإمام فی منامه، کأنّ فاطمة بنت رسول اللّه صلی الله علیه و آله دخلت علیه وهو فی مسجده بالکرخ ومعها والداها الحسن والحسین علیهما السلام صغیرین فسلمتهما إلیه، (وقالت له: علمهما الفقه). فانتبه متعجباً من ذلک، فلمّا تعالی النهار فی صبیحة تلک اللیلة التی رأی فیها الرؤیا دخلت إلیه المسجد فاطمة بنت الناصر، وحولها جواریها وبین یدیها ابناها محمد الرضی وعلی المرتضی صغیرین، فقام إلیها وسلّم علیها. فقالت له: أیّها الشیخ هذان ولدای، قد أحضرتهما لتعلمهما الفقه.

فبکی أبو عبد اللّه- الشیخ المفید- وقصّ علیها المنام وتولی تعلیمهما الفقه، وأنعم اللّه علیهما، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما فی آفاق الدنیا؛ وهو باق ما بقی الدهر «وردت هذه القصة فی شرح ابن أبی الحدید، ج ۱/ ۴۱».

تلامذة السيد الرضى

روى كبـار علماء الفريقين أنّ العلّامـة الأمينى ذكر تسـعة من تلامـذة السـيد الرضـى، ويمكن الإشارة هنا إلى أبرز من روى عنه ومنهم شقيقه السيد المرتضى وشيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى كانت للسيد الرضى همة كبيرة جعلته يؤسس مدرسة لطلاب العلوم

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۱

الدينيـة أسـماها «دار العلم» ولعلها أول مدرسـة يتلقى فيها الطلاب الـدروس صـباحاً بينما يخلدون إلى الراحة والسـكن مساءً فى نفس المدرسة، وهى على غرار مدرسة أخيه السـيد المرتضـى، وقد كان الشـيخ الطوسـى والقاضى عبد العزيز بن براج من تلاميذها وسبقت مدرسته «المدرسة النظامية» ببغداد بحوالى ۸۰ سنة وربما كانت تقليداً لها[۲].

كتب ومؤلفات السيد الرضى

ذكر العلّامـة الأمينى أنّ السـيد الرضـى خلف أكثر من تسـعة عشـر كتابـاً، أهمها أثره الخالـد نهـج البلاغـة الـذى يضم خطب ورسائل وكلمات الإمام على عليه السلام. ثم يورد الشيخ الأمينى أسماء واحد وثمانين كتاباً زمان السيد تعرضت لشرح نهج البلاغة أ وترجمته.

ومن أهم الكتب التى ألفها السيد الرضى:

۱- خصائص الأئمة، والذى أشار إليه المؤلف فى مقدمة نهج البلاغة.

۲- مجازات الآثار النبوية، والذى طبع عام ۱۳۲۸ ه فى بغداد.

۳- الرسائل العلمية فى ثلاثة مجلدات.

۴- معانى القرآن.

۵- حقائق التأويل فى متشابه التنزيل والذى عبّر عنه الكشى بحقائق التنزيل.

السيد الرضى والشعر

كان السـيد الرضـى نابغة فى الشـعر، علماً أنّ الشعر لم يضف شيئاً لشخصيته العظيمة، ورغم ذلك فقد جادت قريحته الشعرية بمختلف الفنون والآداب والصـنوف الشـعرية التى تكشف عن مدى قدرته فى نظم الشـعر. يذكر أنّ السـيد الرضى قد أنشد قصيدة غرّاء كشف فيها النقاب عن علو نسبه ولما يبلغ العاشـرة من عمره ولـذلك عدّه بعض الادباء أشـعر شـعراء قريش، وربّما رجّح شـعره على المتنبى، وهناك رسائل ومبادلات بينه وبين الصاحب بن عباد وأبى اسحاق

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۲

الصابى، وذكر الخطيب البغدادى فى تأريخه قائلًا: سـمعت محمد بن عبد اللّه الكاتب أنّه قال عند أبى الحسين بن محفوظ قال: سمعت من فريق من الادباء أنّهم قالوا: السـيد الرضى أشعر شعراء قريش. فردّ ابن محفوظ قائلًا: نعم، هذا كلام صحيح، ثم أضاف: كان هناك بعض الأفراد الذين يحسـنون الشـعر فى قريش إلّاأنّهم قليلوا النظم للشـعر، ولم يكن سوى السـيد الرضـى يكثر إنشاد الشـعر إلى جانب إتصافه بالعذوبة والجمال.

القابه ومناصبه

لقبه بهاء الدولة سنة ۳۸۸ بالشـريف الأجل، وفى سنة ۳۹۲ بذى المنقبتين، وفى سنة ۳۸۹ بالرضـى ذى الحسبين، وفى سنة ۴۰۱ أمر أن

تكون مخاطباته ومكاتباته بعنوان الشريف الرضى أن المناصب والولايات كانت منكثرة على عهد سيدنا الشريف من الوزارة التنفيذية والتفويضية والامارة على البلاد بقسميها العامة والخاصة، تولى الشريف نقابة الطالبيين وامارة الحاج والنظر فى المظالم سنة ۳۸۰ وهو ابن ۲۱ عاما على عهد الطائع، ثم عهد إليه فى ۱۶ محرم سنة ۴۰۳ بولاية أُمور الطالبيين فى جميع البلاد فدعى «نقيب النقباء».[۳]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۳

وفاة السيد الرضى

توفى السيد الرضى رحمه الله فى السادس من شهر محرم الحرام من سنة ست وأربعمائة- وله من العمر ما يناهز السابعة والأربعين-، وحضر جنازته الوزير فخر الملك، وجميع الأعيان والأشراف والقضاة والصلاة عليه، وقد أقيمت مراسم العزاء فى داره فى الكرخ.

روى أغلب المؤرخين أنّ جسده الطاهر قد حمل إلى كربلاء فدفن إلى جوار قبر جدّه، والذى يفهم من بعض النقول التأريخية أن قبره فى مقدمة الحائر الحسينى. ومضى أخوه المرتضى من جزعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليه السلام؛ لأنّه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته ودفنه وصلى عليه فخر الملك أبو غالب، ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمى، فألزمه بالعود إلى داره.[۴]

رثاه الكثير من الأدباء والشعراء وفى مقدمتهم أخيه السيد المرتضى الذى أنشده قائلًا:

يا للرجال لفجعة جذمت يدىوددت لو ذهبت علىّ براسى

للّه عمرك من قصير طاهرولربّ عمر طال بالأدناس

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۵

كلام بشأن نهج البلاغة وصاحبه

اشارة

يعد الحديث عن على عليه السلام أو نهج البلاغة عملًا سهلًا وفى نفس الوقت وليس بسهل! فهو ليس بسهل بالنسبة لمن يروم الغوص فى أعماق على عليه السلام والوقوف على كنهه وحقيقته والاحاطة بكافة جوانبه الفكرية وسعة إيمانه وقوة صبره وعظم فضائله وملكاته، أو أن يتعرف على نهج البلاغة كما هو فى حقيقته. ولكن من السهل الوقوف على بعض قبسات هذين النبراسين العظيمين والقمرين الزاهرين. لا- تخفى شخصية على عليه السلام على مسلم، فكل من له أدنى معرفة بعلى عليه السلام وتاريخه وسيرة حياته سيوقن بأنّه الإنسان الكامل- بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله- وأنّه آية من آيات الحق جل وعلا وان كتابه نهج البلاغة ليس الّا شعاعاً من شمسه المنيرة.

فنهج البلاغة بحر من العلم ومحيط من الحكمة وكنز لا ينضب وحديقة غناء بالزهور وسماء مزينة بالنجوم ومصدر لسعادة الإنسان فى مسيرته الدنيوية.

وممّا لاشك فيه أنّ من يروم إقتحام هذا الميدان عليه أن يعدّ الكتب والمجلدات علّه يحصى بعض حقائق الامور، بينما لا نهدف- فى هذه المقدمة- إلّاإلى التطرق إلى بعض الإشارات المقتضبة من أجل التمهيد للخوض فى شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام والتى نراها أفضل طريقة للتعريف به، وهل الجو المشمس إلّادليل على وجود الشمس.

وهنا أود أن ألفت إنتباه الاخوة القراء إلى أنّ عدداً كبيراً من العلماء والأدباء والزعماء- ولا سيما من غير المسلمين- قد تناولوا بالبحث

والـدرس کتاب نهـج البلاغـة فرأوا أعظم ممّا ظنوا وتصوروا فأطلقوا عباراتهم المعروفة بشأن نهج البلاغة بما یکشف عن مدی تأثرهم والذهول الذی أصابهم فلم یتمالکوا أنفسهم ویعبروا عن أحاسیسهم ومشاعرهم وعواطفهم.

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۱۶

ویبـدو أن کل واحـد من هؤلاء قـد تأثر بجانب معین من نهـج البلاغـة، وربما أمکننا إیجاز هذه الجوانب فی المحاور الرئیسـیة الثلاث الآتیة:

۱- فصاحة وبلاغة نهج البلاغة.

۲- المضامین العمیقة لنهج البلاغة.

۳- الجاذبیة الخارقة لنهج البلاغة.

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۱۷

۱- فصاحة النهج وبلاغته

لابدّ فی هذا الأمر من الاستشـهاد بأقوال البلغاء والفصـحاء والأدباء والشرّاح والکتّاب الذین سبروا- حسب قدرتهم- أغوار نهج البلاغة فتأثروا بما لمسوه من حلاوة وطلاوة فی فصاحته وبلاغته وسحر بیانه بما لم یعهدوه، فأطلقوا عباراتهم بشأنه ومنهم:

۱- وما أحرانا أن نتجه بادئ ذی بـدء صوب جامع نهـج البلاغة والذی یعتبر من جهابذة الفصاحة والبلاغة الذی احتل الصدارة من بین فصـحاء العرب وبلغائها وقـد أفنی عمره فی جمع خطب نهـج البلاغة، ألا وهو السـید الرضـی الذی وصـفه الکاتب المصـری المعروف الدکتور «زکی مبارک» فی کتابه «عبقریة الشـریف الرضی» قائلًا: «هو الیوم أبدع أبناء الزمان، وأنجب سادة العراق، یتحلی بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جمیع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبیین، ولو قلت إنّه أشعر قریش لم أبعد عن الصدق».

یقول الشریف الرضی فی مقدمته الرائعة لنهج البلاغة:

«کانَ أمیرُ الْمُؤمِنینَ علیه السلام مَشْرِعَ الْفَصاحَـةِ وَمَوْرِدَها وَمَنْشَأ الْبلاغَـةِ وَمَوْلِدَها وَمِنْهُ ظَهَرَ مَکْنُونُها وَعَنْهُ أخذَتْ قوانینُها وَعَلی أمْثِلَتِهِ حَذا کُلُّ قائِلٍ خَطیبٍ وَبِکلامِهِ اسْتَعانَ کُلُّ واعِظٍ بَلیغٍ وَمَعَ ذلِک فَقَدْ سَبَقَ وَقَصَّرُوا وَقَدْ تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرُوا»

، ثم یفسر هذا الکلام فیقول: «لأن کلامه علیه السلام الکلام الذی علیه مسحة من العلم الإلهی وفیه عبقة من الکلام النبوی».

۲- الشارح المعروف الذی أفنی عمراً فی شـرح وتفسیر نهج البلاغة وتحدث بشغف وإعجاب عن علی علیه السلام وهو عز الدین عبد الحمید ابن أبی الحدید المعتزلی الذی یعدّ من أشهر علماء العامة للقرن السابع الهجری [۵].

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۱۸

فقـد تحـدث مراراً وکراراً بهذا الشأن فی شـرحه وأذعن لعظمة فصاحة وبلاغة النهج. فقد قال علی سبیل المثال بشأن الخطبة ۲۲۱ التی أوردهـا علی علیه السـلام- بشأن البرزخ- «وینبغی لو اجتمع فصـحاء العرب قاطبـة فی مجلس وتلی علیهم، أن یسـجدوا له کما سـجد الشـعراء لقول عـدی ابن الرقاع: قلم أصاب من الـدواة مـدادها ... فلم قیل لهم فی ذلک قالوا إنا نعرف مواضع السـجود فی الشـعر کما تعرفون مواضع السجود فی القرآن»[۶].

ثم قـال فی موضع آخر حین عرض للمقارنـة بین کلام أمیر المؤمنین علی علیه السـلام وکلام «ابن نباتـة»[۷] الخطیب المعروف الذی عاش فی القرن الهجری الرابع: «فلیتأمل أهل المعرفة بعلم الفصاحة والبیان هذا الکلام بعین الانصاف لیعلموا أنّ سـطراً واحداً من کلام نهـج البلاغـة یساوی ألف سـطر منه بل یزیـد ویربی علی ذلک»[۸]. وینقـل أیضـاً إحـدی خطب ابن نباتـة فی الجهاد والتی تمثل قمة الفصاحة وقد ضـمنها عبارات أمیر المؤمنین علیه السلام الواردة فی الجهاد «ما غزی قوم فی عقر دارهم إلّاذلّوا» فیقول: «فانظر إلی هذه

العبارة كيف تصيح من بين الخطبة صياحاً وتنادى على نفسها نداءً فصيحاً، وتعلم سامعها أنّها ليست من المعدن الذى خرج باقى الكلام منه، ولا من الخاطر الذى صدر ذلک السجح عنه، ولعمر اللّه، لقد جمّلت الخطبة وحسنتها وزانتها وما مثلها فيها إلّاكآية من الكتاب العزيز يتمثل بها فى رسالة أو خطبة، فانّها تكون كاللؤلؤة المضيئة تزهر وتنير، وتقوم بنفسها، وتكتسى الرسالة بها رونقاً، وتكتسب بها ديباجة»[۹].

وأخيراً نختتم كلامه بما أورده فى مقدمة شرحه للنهج حيث قال: «وأمّا الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيد البلغاء وفى كلامه قيل: دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة»[۱۰].

۳- «جورج جرداق» الكاتب المسيحى اللبنانى المعروف الذى ألف كتابه المشهور

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۹

«الإمام على صوت العدالة الإنسانية» حيث أفرد فصلًا من كتابه لبيان خصائص الإمام على عليه السلام فقال بخصوص نهج البلاغة: «أمّا فى البلاغة، فهو فوق البلاغات، كلام ضم جميع جمالات اللغة العربية فى الماضى والمستقبل، حتى قيل عنه: كلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين»[۱۱].

۴- «الجاحظ» الذى عاش مطلع القرن الهجرى الثالث ويعدّ من أبرز أدباء العرب ونوابغهم، حيث أورد بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام فى كتابه المعروف «البيان والتبيين» فجعل يثنى عليه. ومن ذلک قال فى المجلد الأول من كتابه المذكور حين طالعته كلمته عليه السلام: «قيمة كل امرء ما يحسنه»[۱۲]؛ لو لم تكن فى كل هذا الكتاب إلّاهذه الجملة لكفت، بل وزادت، فأفضل الحديث ما كان قليلًا ومفهومه ظاهر جلى ويغنيک عن الكثير، وكأنّ اللّه كساه ثوباً من الجلال والعظمة وحجاباً من نور الحكمة بما يتناسب وطهر قائله وعلو فكره وشدة تقواه.

۵- «أمير يحيى العلوى» مؤلف كتاب «الطراز» حيث أورد فى كتابه عبارة عن الجاحظ انّه قال: «إنّه الرجل الذى لا يجارى فى الفصاحة ولا يبارى فى البلاغة، وفى كلامه قيل دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين، ولم يطرق سمعى كلام بعد كلام اللّه ورسوله سوى كلمات أمير المؤمنين كرم اللّه وجهه من قبيل قصار كلماته «ما هلک امرء عرف قدره» و «من عرف نفسه عرف ربه» و «المرء عدو ما جهل» و «استغن عمن شئت تكن نظيره واحسن إلى من شئت تكن أميره واحتج إلى من شئت تكن أسيره». وعليه فليس من العبث أن يعرب هذا الأديب الزيدى «صاحب كتاب الطراز» عن دهشته لاستناد كبار علماء المعانى والبيان بدواوين شعراء العرب وأدبائهم بغية السبيل إلى الفصاحة والبلاغة بعد كلام اللّه وكلام النبى صلى الله عليه و آله وولوا ظهورهم لكلمات الإمام على عليه السلام، بينما كانوا يعلمون أنّه يمثل قمة الفصاحة والبلاغة وفى كتاب نهج البلاغة كل ما يريدون من فنون أدبية من قبيل الاستعارة والتمثيل والكناية والمجاز والمعانى و ...»[۱۳].

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۰

۶- الكاتب المشهور «محمد الغزالى» الذى نقل فى كتابه «نظرات فى القرآن» عن اليازجى أنه أوصى ولده قائلًا: «إذا شئت أن تفوق أقرانک فى العلم والأدب وصناعة الانشاء فعليک بحفظ القرآن ونهج البلاغة».[۱۴]

۷- المفسر المعروف «شهاب الدين الآلوسى» الذى قال- حين بلغ اسم نهج البلاغة-:

«إنّ انتخاب هذا الاسم لهذا الكتاب نابع من كونه يشتمل على كلام فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق المتعال، وهو كلام يقترب من الاعجاز يضم البدائع فى الحقيقة والمجاز»[۱۵]

۸- الاستاذ «محمد محيى الدين عبد الحميد» الذى قال فى وصفه لنهج البلاغة: «كلّ هذه المزايا مجتمعة، وتلک الصفات متآزرة متناصرة؛ وما صاحبها من نفح إلهى وإفهام قدسى، مكنت للإمام علىّ من وجوه البيان، وملكته أعنّة الكلام، وألهمته أسمى المعانى وأكرمها، وهيأت له أشرف المواقف وأعزها، فجرت على لسانه الخطب الرائعة والرسائل الجامعة والوصايا النافعة».[۱۶]

۹- أحد شرّاح نهج البلاغة «الشیخ محمد عبده» إمام العامة والکاتب العربی المعروف، الذی قال بشأن النهج فی مقدمته علیه- بعد أن إعترف بأنّه تعرف مصادفة علی هذا الکتاب الشریف- ویبدو أنّ هذه قضیة جدیرة بالتأمل-: «حین تصفحت نهج البلاغة وتأملت موضوعاته بدا لی وکأنّ هذا الکتاب عبارة عن معارک عظیمة، الحکومة فیها للبلاغة والقوّة للفصاحة وقد حملت من کل حدب وصوب علی جنود الظنون الباطلة وسلاحها الأدلة القویّة والبراهین الساطعة».

۱۰- «السبط بن الجوزی» أحد أبرز الخطباء والمؤرخین والمفسرین المعروفین العامة، الذی صرّح فی «تذکرة الخواص» قائلًا: «وقد جمع اللَّه له بین الحلاوة والملاحة والطلاوة والفصاحة لم یسقط منه کلمة ولا بادت له حجة، أعجز الناطقین وحاز قصب السبق فی السابقین الفاظ یشرق علیها نور النبوة ویحیر الافهام والألباب».[۱۷]

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۲۱

۱۱ و ۱۲- ونختتم هذا الفصل بقولین لأدیب مسیحی معروف وهو الکاتب والمفکر العربی المشهور «میخائیل نعیمة» الذی قال: لو کان علی مقتصراً علی الإسلام لم یتعرض شخص مسیحی (یشیر إلی الکاتب والمفکر المسیحی اللبنانی جورج جرداق صاحب کتاب الإمام علی صوت العدالة الإنسانیة) لسیرته وحیاته ویتابع الأحداث التی واجهته فیترنم بشجاعته التی أصابته بالدهشة والذهول؛ ولم تقتصر شجاعة الإمام وبسالته علی میدان الحرب، فقد کان رائداً فی البلاغة وسحر البیان والاخلاق الفاضلة وعلو الهمّة وعمق الإیمان ونصرة المظلومین واتباع الحق وبسط العدل. ثم قال فی موضع آخر بأن ما قاله وفعله هذا النابغة ما لم تره عین وتسمعه أذن، وأنّه لأعظم من أن یسع المؤرخ بیانه بقلمه ولسانه. وأخیراً فقد قال فیه ابن أبی الحدید: وأمّا الشجاعة فانه أنسی الناس فیها ذکر من کان قبله، ومحا اسم من یأتی بعده، ومقاماته فی الحرب مشهورة یضرب بها الأمثال إلی یوم القیامة؛ وهو الشجاع الذی مافرّ قط، ولا ارتاع من کتیبة، ولا بارز أحداً إلّاقتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الاولی إلی ثانیة، وأمّا السخاء والجود ففیه یضرب المثل فیهما، فکان یصوم ویطوی ویؤثر بزاده، وقال الشعبی: کان أسخی الناس؛ کان علی الخلق الذی یحبه اللَّه: السخاء والجود، ما قال (لا) لسائل قط. وأمّا الحلم والصفح: فکان أحلم الناس عن ذنب، وأصفحهم عن مسیء؛ وقد ظهر صحة ما قلناه یوم الجمل حیث ظفر بمروان بن الحکم- وکان أعدی الناس له وأشدّهم بغضا- فصفح عنه، وأمّا الفصاحة فهو علیه السلام إمام الفصحاء وسید البلغاء، ومنه تعلم الناس الخطابة والکتابة، ولما قال محفن بن أبی محفن لمعاویة: جئتک من عند أعیا الناس، قال له: ویحک! کیف یکون أعیا الناس! فو اللَّه ماسن الفصاحة لقریش غیره.

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۲۳

۲- المضامین الرصینة الشاملة لنهج البلاغة

اشارة

من الممیزات التی یتصف بها نهج البلاغة التی تلفت انتباه القارئ إذا ما أقبل علیه إنّما تکمن فی شمولیته وتنوع مضامینه الرصینة، بحیث «تجعله یصدق أنّ هذه الأقوال المتقنة الدقیقة التی تعالج امور شتی تصل إلی حدِّ التضارب إنّما تصدر من عین واحدة، ومن المسلم به أنّ هذا الأمر لا یصدر إلّامن أمیر المؤمنین علی علیه السلام الذی أودع قلباً حافظاً وروحاً سامیة تفیض علوماً ومعارفاً إلهیة حقة وأسراراً جمة لا یسعها سوی ذلک القلب. ویسرنا هنا أن نستشهد بالإقوال التی ساقها کبار العلماء والمفکرین بهذا الخصوص.»

۱- ونستهل ذلک بما أروده العالم المعروف «محمد عبده» إمام العامة، فقد رسم صورة رائعة عن حاله وهو یطالع لأول مرة نهج البلاغة وما اشتمل علیه من خطب ورسائل وکلمات قصار عجزت العقول أن تجود بمثلها فصاحة وصیاغة وبلاغة، فقال: «وکان لطیف

الحِسّ، نقیّ الجوهر، وضاء النَّفس؛ سلیمَ الذّوق، مستقیم الرأی، حتسنَ الطریقة سریع البدیهة، حاضر الخاطر؛ حوّلًا قلبًا؛ عارفاً بمهمّات الامور إصداراً وإیراداً.»

۳- نقل «الشیخ البهائی» فی «کشکوله» عن کتاب «الجواهر» ان «أبو عبیدة» قال: قال علی علیه السلام تسع جمل عجزت بلغاء العرب عن الإتیان بواحدة منها؛ ثلاث فی المناجاة، وثلاث فی العلوم، وثلاث فی الادب.[۱۸] ثم خاض فی شرح هذه العبارات التی وردت ضمن کلماته فی نهج البلاغة وسائر أحادیثه.

۴- الدکتور «زکی مبارک» الذی صرّح فی کتابه «عبقریة الشریف الرضـی» قائلًا: «أعتقد أنّ دراسة نهج البلاغة تمنح الإنسان المروءة والشهامة وسمو الروح، ولا عجب فهو ینبع من نفس عظیمة واجهت الوقائع والحوادث بشجاعة الأسود»[۱۹].

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۲۴

فالکلام هنا لا یتناول سعة المعلومات وکسب المعارف والعلوم، بل قصره علی استشعار الهمة والمروءة وسمو النفس فی ظل التمعن بالنهج.

۵- «ابن أبی الحدید» هو الآخر أعطی الکلام حقّه فقال: ولم تحصل العدالة الکاملة لأحد من البشر بعد رسول الله صلی الله علیه و آله إلّالهذا الرجل، ومن أنصف علم صحة ذلک، فان شجاعته وجوده وعفته وقناعته وزهده یضرب بها الأمثال. وأمّا الحکمة والبحث فی الامور الإلهیة، فلم یکن من فن أحد من العرب، وهذا فن کانت الیونان وأوائل الحکماء وأساطین الحکمة ینفر دون به، وأول من خاض فیه من العرب علی علیه السلام ولهذا تجد المباحث الدقیقة فی العدل والتوحید مبثوثة عنه فی فرش کلامه وخطبه، ولا تجد فی کلام أحد من الصحابة والتابعین کلمة واحدة من ذلک.[۲۰]

۶- أورد «المرحوم السید الرضـی» بعض العبارات المقتضبة العمیقة المعنی فی کتابه الشریف بشأن مضامین نهج البلاغة، وهی جدیرة بالتأمل والاهتمام، من ذلک ما ذکره ذیل الخطبة «۲۱» حیث قال:

«إنّ هذا الکلام لو وزن بعد کلام اللَّه سبحانه وبعد کلام رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بکل کلام لمال به راجحاً وبرز علیه سابقاً».

أمّا الخطبة «۲۱» فهی:

«فإنّ الغایة أمامکم وإنّ وراءکم الساعة تحدوکم، تخففوا تلحقوا فانّما ینتظر بأولکم آخرکم».

کما أورد مثل هذا المعنی ذیل الحکمة «۸۱» من کلماته القصار فقال:

«وهی الکلمة التی لا تصاب لها قیمة ولا توزن بها حکمة، ولا تقرن إلیها کلمة».

۷- ونطلق الحدیث هنا للکاتب المصری المعروف «عباس محمود العقاد» الذی یعدّ من کبار الأدباء المعاصرین لنری مدی اعجابه بنهج البلاغة، فقد أورد بعض العبارات الجزیلة فی مواضع من کتاب «عبقریة الإمام علی علیه السلام» والتی تبیّن عمق معرفته بشخصیة الإمام ومدی تأثره بکلماته، فقد قال: «إن نهج البلاغة عین متدفقة بآیات التوحید والحکمة الإلهیة التی توسع معارف الباحثین فی العقائد والتوحید والمعارف الإلهیة»[۲۱].

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۲۵

وقال فی موضع آخر: «إنّ کل نموذج من کلماته شهادة؟

علی قدرته الإلهیة بیان الحقائق، أنّه لا شک من أبناء آدم الذی علم الأسماء، فهو

مصداق لقوله تعالی: «اوتوا الکتاب» «فصل الخطاب»[۲۲].

وقال أیضاً: «إنّ کلماته علیه السلام تمثل قمة الحکمة والفصاحة والبلاغة، وقد قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

«علماء أمتی کأنبیاء بنی اسرائیل»

. فهذا الحديث يصدق على على عليه السلام قبل غيره، فكلماته الحكيمة فى مصاف كلمات الأنبياء عليهم السلام ۲۳].

۸- وقال الكاتب والأديب المعاصر «محمد أمين النووى» يصف نهج البلاغة: «إنّه الكتاب الذى جعله الله حجة واضحة وقد ضمنه على عليه السلام الأمثال القرآنية والحكم الربانية بفصاحة وبلاغة قل نظيرها».[۲۴]

۹- وهـذا الأديب المصرى المعروف «طه حسين» الـذى يعتبر عميـد الأدب العربى، فقد قال بعد أن تعرض لردّ على عليه السـلام على السائل الذى كان شاكاً فى حرب الجمل: «إنى لم أر ولم أعرف جواباً بعد الوحى وكلام اللّه أعظم وأروع من هذا الجواب».[۲۵]

۱۰- المرحوم «ثقة الإسـلام الكلينى» الذى نقل فى الجلد الأول من كتابه الكافى إحدى خطبه عليه السلام فى التوحيد، فقال: «هذه من خطبه المعروفـة ولو اجتمعت الانـس والجن لبيـان حقـائق التوحيـد لعجزت عمّـا بينه على عليه السـلام ولولاـه لمـا عرف النـاس سـبيل الوحدانية».[۲۶]

۱۱- ونختتم البحث بما أورده العلّامة الفقية آية اللّه الخوئى، إذ قال: «حين يرد الإمام عليه السلام بحثاً فى خطبه من نهج البلاغة فانه لا يـترك مجالًا بعـده للحـديث حتى يخيـل لُاولئـك الـذين لاـ علـم لهـم بسيرة أمير المـؤمنين عليـه السـلام أنّه قضـى عمره فى ذلك الموضوع»[۲۷].

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۷

۳- جاذبة نهج البلاغة الخارقة

اشارة

لقد شـعر جميع من تعامل مع نهج البلاغة- من قبل أشـياع على عليه السـلام أو سائر العلماء والادباء المسلمين ومن سائر الأديان- دون استثناء بوجود قوة كامنة تشدهم إليه وتجعلهم يتأثرون به ويتكهربون بأجوائه.

والحق إنّ مثل هـذه الجاذبة التى اتسـمت بها كافة خطبه ورسائله وكلماته هى التى دفعت بفريق من العلماء لتناول هذا الكتاب النفيس بالشـرح والتفسير وتـدوين المقالات والأبحاث والاسـتغراق فى مختلف جوانب شخصـية الإمام على عليه السـلام. بدورنا نرى أن هذه الجاذبة تختزن عدّة دوافع، يمكن إيجاز أهمها فى ما يلى:

۱- لقـد شـحن نهـج البلاغـة بالأـقوال التى تصـرح بمواسـاة الطبقات المحرومـة والمستضـعفة، إلى جانب الحـديث عن مجابهـة الظلم والطغيان ومقارعـة حكام الجور والطواغيت. فقـد تعرض فى عهده الذى عهده إلى مالك الأشتر حين ولاه مصـر إلى الخطط والبرامج التى ينبغى اعتمادها فى كيفيـة إدارة شؤون البلاد. يتحدث عليه السـلام فى هذا العهد عن حقوق ووظائف الطبقات الاجتماعية السبع، حتى إذا بلغ الطبقـة المحرومـة من الناس أفصح عن مكنوبات نفسه وسيرته فى التعامل معها فيوصـى عامله قائلًا له: «اللّه اللّه فى الطبقة السـفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسـى والزمنى ...»، ثم يؤكد عليه: «فلا يشـغلنك عنهم بطر فانّك لا تعـذر بتضـييعك التافه لاحكامه الكثير المهم. فلا تشـخص همك عنهم، ولا تصـعر خـدك لهم، وتفقـد امور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال» ولم تقتصر وصاياه عليه السلام بهذا المجال فى هذا العهد فحسب، بل لم ينفك يؤكد ذلك فى كل خطبة من خطبه وموعظة من مواعظه لعماله وولاته.

۲- لقد سلك نهج البلاغة سبيل تحرير الإنسان من أسر الهوى والشهوات التى تؤدى به

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۸

إلى البؤس والشـقاء، وكذلك تحريره من قيود الطواغيت والظلمة، فهو يستفيد من كل فرصة لتحقيق هذا الهدف المقدس، إلى جانب

تأكيده على أنّه ما جاع فقير إلّابما متع به غنى، وأن تراكم الثروة يفيد تضييع الحقوق وعدم العمل بالأحكام الشرعية.[۲۸]

ويصرح الإمام عليه السلام:

«أمّا والـذى فلق الحبة، وبرأ النسـمة، لولا حضور الحاضـر وقيام الحجة بوجود الناصـر، وما أخذ اللَّه على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألقيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطة عنز»!

فهو يؤكـد على شـدة تنمره فى إعـادة روح الحريـة والعدالـة والمساواة التى لا يعرف المهادنـة فيها، بل أبعـد من ذلك فى أنّه لا يرى الامرة والحكومة سوى وسيلة ووظيفة لتحقيق هذه الاهداف ۲۹]. ويخطىء كل من يظن أنّ علياً عليه السـلام يمكنه أن يتهاون فى هذا الأمر، ولم يعرف عمق شخصية على؛ الأمر الذى أكده فى رسالته إلى عثمان بن حنيف ۳۰].

۳- النفحات العرفانيـة التى ينبض بها نهـج البلاغة إنّما تناغم الأرواح المتعطشة للحكمة فتسـقيها الشـراب الطهور الذى يسـكرها بالعلم والمعرفة!

فلاـ يرى القـارئ لخطبه فى اللَّه وصـفاته الجماليـة والجلاليـة سوى أنّه يحلق مع الملائكـة ليخترق حجب المعرفـة والكمال ۳۱] امّا إذا تحـدث عن أهوال القيامـة وسـكرات الموت والعاقبـة التى تنتظر الإنسـان فلا تراه إلّاوكأنّه أمسك بقبضـة الغافلين وأخـذ يسوقهم نحو المصير الذى منه يهربون والعاقبة التى عنها لاهون.[۳۲]

۴- قوة الجاذبيـة الاـخرى التى يختزنهـا نهـج البلاغـة والتى أشـرنا إليهـا سابقـاً أنّه عليه السـلام أمير الكلاـم فى كل موضوع يطرقه بما يجعلك تتصور أنّه بارع فى هذا الموضوع وقد أفنى عمره فى بيان عناصره ومقوماته وسائر جوانبه، ولا يحسن شيئاً آخر سواه وسرعان ما يتبدد هذا التصور حين تطالعه وقد تحدث فى موضوع آخر- فاذا تناول- على سبيل المثال- قضية

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۹

التوحيد وشـرح أسـماء اللَّه وصـفات الجلال، خيل إليك أنّه فيلسوف ربانى سبر أغوار التوحيد وانهمك فيه لسنوات متمادية وليس له مثل هـذا العمق فيما سواه؛ فليس للتجسم من سبيل إلى حـديثه، ولا من سبيل إلى سـلبه الصـفات، بل يقـدم صورة عن التوحيـد تجعل الإنسان يرى ربّه ببصيرته فى كافة السموات والأرضين حاضر فيها وفى نفسه فيمتلئ قلبه حبّاً للّهومعرفة به.

بينما لا تكاد العين تقع على خطبته فى الجهاد، حتى لا تغيب عنها صورته كآمر شـجاع ومقاتل باسل مغوار قـد ارتـدى بزته العسـكرية وأخـذ يسـتعرض أسـاليب الحرب وفنون القتـال وستراتيجيـة الـدفاع والهجوم، وكأنّه أفنى عمره فى ميادين الوغى وساحات القتال ولم تدعه يفكر فى ما سواها.

فـاذا تصـفحنا نهـج البلاغـة وطالعتنا خطبه ووصاياه لعماله وولاته حين أخـذ بزمام الامور وتزعم قيادة الامّـة، رأيناه يكشف النقاب عن عناصر تألق الحضارات وازدهارها وأسباب سقوطها وانهيارها، إلى جانب استعراض مصير الأقوام الظالمة والامم المستبدة بالاضافة إلى الاسـس والمبادئ التى من شأنها ضـمان سـلامة الأنظمـة الاجتماعيـة والسياسـية الحاكمة، بما يجعلك تظن بأنّه عكف عمراً على هذه الامور ويختص بها دون الاهتمام بسائر ميادين الحياة ونواحيها. ثم نقلب صـفحات النهج لنراه زعيماً أخلاقياً هادياً البشرية نحو تهذيب النفس ومكارم الأخلاق. يلتقيه أحـد الأصـفياء من أصـحابه ويـدعى «همام» الذى يسأله أن يصف له المتقين. فيعدد له عليه السـلام ما يقارب المئـة من صـفاتهم بعبارات أحكم صـياغتها وبلاغتها كأنّه جلس عمراً لدروس الأخلاق والتهذيب وتربية النفوس حتى يصـعق همام صعقة كانت نفسه فيها.

حقاً إنّ هـذه الأبحاث العميقـة الفريدة المتنوعة التى شـحن بها نهج البلاغة تعدّ من الخصائص والمميزات التى اتصف بها هذا الكتاب العجيب.

أقوال العظماء بشأن جاذبية نهج البلاغة

الأقوال التی ساقها كبار جهابـذة العلماء بخصوص الجاذبيـة الكامنـة فی نهـج البلاغة تعتبر من الشواهد التی تعزز ما أوردناه سابقاً بهذا الشأن:

فالسيد الرضی جامع نهج البلاغة الرائد الذی يعدّ من مشاهير الادباء العرب يصرح

نفحات الولايۀ، ج۱، ص: ۳۰

أحيانـاً حين نقله لبعض الخطب ببعض العبـارات التی تكشف عن عمق افتتـانه بمـا يورد وعـدم تمالكه لنفسه تجاه قوة سـبك عبارات صاحب النهج. ومن ذلك أنّه قال إثر نقله للخطبة رقم «۸۳» من نهج البلاغة

«وفی الخبر أنّه لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت له الجلود وبكت العيون ورجفت القلوب»

ونقرأ فی خطبـة المتقين- حين سـأله ذلـك العارف «همام» عن صـفات المتقين- أنّه حين بلغ ذلك الموضع من الخطبـة، صـعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أميرالمؤمنين عليه السلام:

«امّا واللَّه لقد خفتها عليه، هكذا تفعل المواعظ البالغة فی أهلها».

كما علق السيد الرضی على الخطبة رقم «۲۸» ليعرب عن عمق أثرها فی روحه وعقله فقال: «إنّه لو كان كلام يأخذ بالاعناق إلی الزهد فی الـدنيا، ويضـطر إلى عمـل الآـخرة لكـان هـذا الكلاـم، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار ...» وأضاف:

«ومن أعجبه قوله عليه السلام:

«ألا إنّ اليوم المضمار وغدا السباق، والسبقة الجنّة والغاية النار»

فـان فيه مع فخامـة اللفـظ، وعظم قـدر المعنى، وصـادق التمثيـل وواقع التشبيه سـراً عجيبـاً ومعنى لطيفاً ... فتأمل ذلك فان باطن كلامه عجيب، وغوره بعيد لطيف، وكذلك أكثر كلامه عليه السلام».

وقال ذيل الخطبة «۱۶»:

«إنّ فی هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان مالا تبلغه مواقع الاستحسان، وان حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به».

وفيه- مع الحـال التی وصـفنا- زوائـد من الفصاحـة لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلّا من ضـرب فی هـذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق

«وما يعقلها إلّاالعالمون».

وهكـذا نقـل ما أورده المفسـر والمحـدث المعروف «ابن عباس» حين ألقى الإمام خطبته الشقشـقية حين قام إليه رجل من أهل السواد فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه، فقال له: يا أمير المؤمنين، لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت. فقال:

«هيهات يابن عباس! تلك شقشقة هدرت ثم قرت»

. قال ابن عباس:

«فو اللَّه ما أسفت على كلام قط كأسفی على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد».

فقد قال ابن أبی الحديد:

«هو سيد المجاهدين وأبلغ الواعظين ورئيس الفقهاء والمفسرين وإمام أهل العدل والموحدين».[۳۳]

نفحات الولايۀ، ج۱، ص: ۳۱

أسناد نهج البلاغة

مـامن شـك فی أنّ خطب ورسائل نهـج البلاغـة وكلماته القصار وردت (على ضوء جمعها من قبل المرحوم السـيد الرضـی) على نحو

الروايات المرسلة؛ أى لم تذكر أسانيدها بما يجعلها متصلة بالمعصومين، وقد أدى هذه بدوره إلى تشكيك البعض أحياناً، ولا سيما بالنسبة لُاولئك الذين ظنوا بأن نهج البلاغة وبفضل مضامينه العظيمة قد يكون سنداً لاثبات حقانية مذهب الشيعة وأفضلية على عليه السلام على جميع الصحابة؛ فاتخذوا ذلك ذريعة لفرض طوق من العزلة على هذا الكتاب فى أوساط الرأى العام الإسلامى. وإن كانت هذه الزوبعة- ولحسن الحظ- لم يكن لها أدنى تأثير فى أفكار علماء وأدباء الفريقين الذين كسروا حاجز الصمت وكالوا له المديح والثناء وخاضوا فى شرحه وتفسيره، وقد مرت علينا نماذج من ذلك، مع ذلك نرى من الضرورى الخوض فى قضية أسناد النهج بغية إزالة الشك وإماطة اللثام عن حقيقة هذا الكتاب وهنا لابدّ من الالتفات إلى أمرين:

۱- أنّ أغلب خطب نهج البلاغة ورسائله وكلماته القصار- إذا لم نقل جميعها سوى معشاره- إنّما هى من قبيل المطالب المستدلة المبرهنة أو ذات الاستدلال المنطقى، بعبارة اخرى من قبيل «القضايا التى قياساتها معها». وعليه فهى ليست بحاجة إلى سلسلة السند بصفتها مباحث تعبدية، فالأعم الأغلب من المضامين وردت بشأن المعارف العقائدية من قبيل: المبدأ والمعاد والصفات وأدلة عظمة القرآن ونبى الإسلام صلى الله عليه و آله وما شاكل ذلك. كما وردت بعض المضامين كمواعظ ونصائح ودروس وعبر بشأن حياة الامم السابقة ونظم إدارة شؤون البلاد والحياة الاجتماعية والآداب ومسائل الجهاد وما إلى ذلك من المباحث المنطقية الاستدلالية الخاضعة للدليل والبرهان.

ولما كانت نتاجات كبار الفلاسفة وعلماء العلوم المختلفة وحتى النتاجات الأدبية الشعرية

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۲

لفطاحل الشعراء تؤخذ دون الحاجة إلى سلسلة الأسانيد، فان هذا الأمر يجرى على مضامين نهج البلاغة بما يجعله غنياً عن تلك السلسلة، وحقيقة الأمر أنّها تحمل أدلتها معها «قضايا قياساتها معها». نعم هناك محور صغير فى النهج قد عنى ببعض الأحكام الفرعية التعبدية، فان كان من حديث عن السند، أمكن إقتصاره على هذا المحور والذى لا يشكل قطعاً عشر كتاب نهج البلاغة. ونخلص من هذا إلى عدم جدوى هذه الضجة المفتعلة بشأن أسانيد النهج، وهى زوبعة جوفاء عديمة الأثر.

۲- بغض النظر عمّا سبق، فاننا لا نرى من عقبة فى هذا الأمر حتى وإن اعتمدنا المعايير المتعارفة لحجية السند بالنسبة لنهج البلاغة؛ وذلك لأنّ المعيار الأصلى لقبول الحديث والرواية- على ضوء ما فرغ منه فى علم الاصول وبرهن فى محله- إنّما يتأتى الوثوق بها من طرق مختلفة؛ فأحياناً يحصل الوثوق بالرواية من خلال سلسلة السند وثقة الرواة، كما يحصل أحياناً اخرى مثل هذا الوثوق بواسطة كثرة الرواة- وفى الكتب المشهورة والمعتبرة-، وأخيراً قد يكون مضمون الرواية على درجة من العمق والرصانة على أنّه إنّما صدر من النبى صلى الله عليه و آله أو الإمام المعصوم؛ الأمر الذى يجعلنا نثق بهذه الرواية وهذا ما ذكروه بالنسبة لزبور آل محمد صلى الله عليه و آله الصحيفة السجادية (إلى جانب الاسناد المعتبرة التى أوردها بهذا الشأن)، بفضلها ضمت أدعية رفيعة سامية ذات مضامين عميقة صدرت عن الإمام السجاد على بن الحسين زين العابدين عليه السلام. ولا شبهة ولا ريب أن من يتمعن فى خطب نهج البلاغة ويتدبر مضامينها ويتأمل أسرارها، فانّه لا يملك سوى الاذعان بأنّ مثل هذه الكلمات محالة الصدور عن الإنسان العادى وأنّها لم تصدر سوى عن النبى صلى الله عليه و آله أو امتداده الإمام المعصوم عليه السلام.

وعلى حد تعبير كبار علماء الفريقين: «إنّ كلامه فوق كلام المخلوقين ودون كلام الخالق».

وبناءً على هذا وعلى ضوء بزوغ الشمس دليل على وجودها، فان مضمون نهج البلاغة دليل على اعتبار سنده وصدوره عن المعصوم عليه السلام، واننا لنوقن بذلك على أنّه لم ينسب لمعصوم سوى لعلى عليه السلام. فمن ذا الذى يحتمل أنّه صدر من فرد عادى ثم نسبه لعلى عليه السلام؟! إذا كان مثل هذا الابداع أو حتى عشر من أعشاره فلم لا ينسبه لنفسه ويفوز بهذا الشرف؟ وناهيك عمّا تقدم وعلى ضوء ما نعرفه عن شخصية «السيد الرضى» ووثاقته وعلو مقامه، فاننا نقطع بأنّه لم

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۳

ينسبه إلى على عليه السلام مالم يكن قد رأى مصادره المعتبرة، فهو لا يقول روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال كذا، بل اعتاد القول «ومن خطبة عليه السلام ومن رسائله ومن كلماته القصار». فكيف وأنى لهذا العملاق أن يتحدث بهذه الثقة والقطع وينسب الكلمات لإمامه المعصوم دون أن يستند إلى أسناد معتبرة وردت بهذا الشأن؟!. أضف إلى ذلك فقد دونت عدّة مصنفات قبل «السيد الرضى» ضمت أغلب خطب ورسائل نهج البلاغة والكلمات القصار؛ الأمر الذى يثبت أنّ هذه الكلمات كانت متداولة أيضاً- قبل السيد الرضى- ومعروفة بين العلماء والمحدثين والرواة وأحياناً بين عوام الناس.

ومن شأن هذه الشهرة أن تغنينا عن الاسناد. بل ذهب بعض كبار المؤرخين أنّ الخطب التى اشتهرت بين الناس كانت أكثر بكثير من هذا المقدار الذى جمعه «السيد الرضى» فى نهج البلاغة، والواقع هو أنّ النهج عبقات من تلك الخطب. ومنهم المؤرخ المعروف «المسعودى» الذى عاش لقرن قبل «السيد الرضى»، الذى صرّح فى كتابه «مروج الذهب» بشأن خطب الإمام على عليه السلام قائلًا: «والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربع مائة ونيف وثمانون خطبة»[۳۴]، والحال لا يضم النهج أكثر من مئتين وأربعين خطبة. ونقل العالم المعروف «السبط بن الجوزى» فى كتابه «تذكرة الخواص» عن «السيد المرتضى» انّه قال: «بلغتنى أربعمة خطبة من خطب الإمام على»[۳۵]. وقال صاحب «البيان والتبيين» العالمالمعروف: «كانت خطب الإمام على عليه السلام مدونه ومحفوظة ومشهورة»[۳۶]. وقال «ابن واضح» فى كتابه «مشاكلة الناس لزمانهم»: «لقد حفظ الناس الكثير من خطب الإمام على عليه السلام، فقد ألقى أربعمئة خطبة حفظها الناس، وهى هذه الخطب المتداولة بيننا»[۳۷].

وهنا لابدّ من القول بأن جمعاً من العلماء المعاصرين والفضلاء ألفوا كتباً كمصادر وأسناد لنهج البلاغة، حيث استخرجوا أسانيد الخطب من الكتب التى صنفت قبل «السيد الرضى» وصرحوا بها فى كتبهم، من قبيل كتاب «مصادر نهج البلاغة وأسانيده» تأليف العالم المحقق

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۴

«السيد عبد الزهراء الحسينى الخطيب» الذى يجعل الباحث يقف على هذه الحقيقة، وهى أنّ السيد الرضى لم ينفرد قط بنقله لهذه الخطب.

يذكر أنّ هذا الكتاب يفيد بأنّ نهج البلاغة قد جمع من مئة وأربعة عشر كتاباً، وأنّ أكثر من عشرين منها قد دونت من قبل علماء كانوا يعيشون قبل السيد الرضى. ومن أراد المزيد فليراجع الكتاب المذكور حيث لا نرى المقام يسع للاستغراق أكثر من هذه العجالة. والذى تجدر الإشارة إليه هنا أنّ السيد الرضى قد استفاد من خمسة عشر كتاباً- ذكرها خلال بعض تعليقاته على كلمات نهج البلاغة- فى جمعه لنهج البلاغة.[۳۸]

ونستنتج ممّا مرّ معنا خواء الشكوك التى نشأت من عدم وجود الأسانيد.

شروح نهج البلاغة

حديثنا الأخير فى هذه المقدمة، كلام مختصر بشأن الشروح والتراجم التى أوردها علماء المسلمين بخصوص هذا الكتاب منذ عصر السيد الرضى حتى عصرنا الحاضر، ويبدو أن هذه الشروح إنّما تتضاعف وتزداد كلما ابتعدنا أكثر عن عصر السيد الرضى، والسبب فى ذلك يعود إلى تنامى المعرفة بهذا الكنز النفيس كل يوم، وما هذه المؤتمرات والندوات التى أقيمت وما

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۵

زالت تقام بخصوص نهج البلاغة إلّاشهادة حية اخرى على صحة ما أوردناه. فقد أشار المرحوم العلّامة الأمينى فى المجلد الرابع من كتابه الغدير فى ترجمته لحياة المرحوم السيد الرضى إلى هذه المسألة وقال: «لقد كتب أكثر من خمسين شرحاً على نهج البلاغة منذ عصر المرحوم السيد الرضى لحد الآن ...» ثم خاض فى ذكر هذه الشروح، إلى جانب ذكر مؤلفيها وتأريخ وفاتهم، وباضافة التراجم

التی ظهرت فی هذه الأواخر، فقد أحصی ما یقارب الحادی والثمانین ترجمة وشرحاً»[۳۹] وبالطبع فان کل شرح من هذه الشروح (کتفاسیر القرآن) قد سلط الضوء علی جانب من جوانب نهج البلاغة، فقد خاض البعض فی جانبه الأدبی بینما تناول البعض الآخر أبعاده التأریخیة أو الفلسفیة أو القضایا التربویة والاجتماعیة وما إلی ذلک.

هذا وقد ذکر مؤلف کتاب «مصادر نهج البلاغة» أکثر من مئة وعشرة شروح وتفاسیر لنهج البلاغة، بینما ذکر بعض الفضلاء فی کتبهم أسماء ثلاثمائة وسبعین کتاباً ألفت فی شرح نهج البلاغة وترجمته وتفسیره ۴۰]. وبالرغم من ذلک لابدّ من الاعتراف بأن هذا الکتاب ما زال لم یظفر ببغیته من سبر أغواره والغوص فی أعماقه من أجل استخراج کنه معانیه لتعالج متطلبات العصر والزمان وأنین البشریة، کیف لا ـ وأبعاده کأبعاد شخصیة علی علیه السلام التی لا ـ یحیطها الکلام ولا یلم بتفاصیلها القلم والبیان. وهنا لابدّ من القول بأن الشروح والتراجم المذکورة لیست واسعة کاملة، وأنّ بعضها قد اکتفی بمحور من محاور نهج البلاغة، ولم یشذ منها سوی النزر القلیل من الشروح التی تعاملت بشمولیة مع النهج ومنها:

۱- «أعلام نهج البلاغة» والذی اعتبره العلّامة الامینی من أقدم شروح نهج البلاغة، ومؤلفه «علی بن الناصر» من معاصری المرحوم السید الرضی.

۲- «منهاج البراعة» لمؤلفه سعید الدین هبة اللّه القطب الراوندی، وهو من أعلامالقرن الهجری السادس.

۳- شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید المعتزلی- من أعلام القرن السابع الهجری- وهو

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۶

من الشروح المشهورة ویقع فی عشرین مجلداً.

۴- شرح ابن میثم البحرانی- من علماء القرن السابع- وهو من الشروح الواسعة الرائعة.

۵- منهاج البراعة للمرحوم الحاج المیرزا حبیب اللّه الموسوی الخوئی، والمعروف بشرح الخوئی، وهو من علماء القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجری.

۶- شرح «الشیخ محمد عبدة» من مشاهیر علماء العامة الذی عاش فی القرن الثالث عشر الهجری.

وأخیراً لا یسعنا المقال لأن نذکر أسماء طائفة من الفضلاء المعاصرین الذین صنّفوا شروحاً عظیمة لهذا الکتاب النفیس. وما یجدر ذکره هو أنّ صاحب کتاب «الذریعة» الفاضل المرحوم المحدث الطهرانی قد ذکر مئة وأربعین شرحاً للنهج أوردها علماء الشیعة، بینما أحصی ستة عشر شرحاً لعلماء العامة، یعدّ أقدمها شرح الفخر الرازی المتوفی عام ۶۰۶ ه».[۴۱]

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۷

مقدمة السید الشریف الرضی رحمه الله

لماذا جمعت نهج البلاغة

أمّا بعد حمد اللّه الذی جعل الحمد ثمناً لنعمائه، ومعاذاً من بلائه، وسبیلًا إلی جنانه، وسبباً لزیادة إحسانه، والصلاة علی رسوله نبی الرحمة، وإمام الأئمة، وسراج الأمة، المنتخب من طینة الکرم، وسلالة المجد الأقدم، ومغرس الفخار المعرق، وفرع العلاء المثمر المورق. وعلی أهل بیته مصابیح الظلم، وعصم الامم، ومنار الدین الواضحة، ومثاقیل الفضل الراجحة صلی اللّه علیهم أجمعین، صلاة تکون إزاء لفضلهم، ومکافأة لعملهم، وکفاء لطیب فرعهم وأصلهم، ما أنار فجر ساطع، وخوی نجم طالع، فانی کنت فی عنفوان السن، وغضاضة الغصن، ابتدأت بتألیف کتاب فی خصائص الأئمة علیهم السلام: یشتمل علی محاسن أخبارهم وجواهر کلامهم، حدانی

عليه غرض ذكرته فى صدر الكتاب، وجعلته أمام الكلام، وفرغت من الخصائص التى تخص أمير المؤمنين علياً عليه السلام، وعاقت عن إتمام بقية الكتاب محاجزات الأيام، ومماطلات الزمان.

وكنت قد بوّبتُ ما خرج من ذلك أبوباً، وفصّلته فصولًا، فجاء فى آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير فى المواعظ والحكم والأمثال والآداب؛ دون الخطب الطويلة، والكتب المبسوطة. فاستحسن جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصلُ المقدم ذكره معجبين ببدائعه، ومتعجبين من نواصحه، وسألونى عند ذلك أن أبتدىء بتأليف كتاب يحتوى على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فى جميع فنونه، ومتشعبّات غصونه: من خطب، وكتب، ومواعظ، وأدب. علماً أنّ ذلك يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية، ما لا ـ يوجد مجتمعاً فى كلام، ولا ـ مجموع الأطراف فى كتاب؛ إذ كان أميرالمؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۸

وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها؛ ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها؛ وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا وقد تقدم وتأخروا، لأن كلامه عليه السلام الكلام الذى عليه مسحة من العلم الإلهى وفيه عبقة من الكلام النبوى، فأجبتهم إلى الابتداء بذلك عالماً بما فيه من عظيم النفع، ومنشور الذكر، ومذخور الأجر. اعتمدت به أن أبين عن عظيم قدر أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذه الفضيلة، مضافةً إلى المحاسن الدثرة، والفضائل الجمة. وأنّه عليه السلام انفرد ببلوغ غايتها عن جميع السلف الأولين الذين إنّما يؤثر عنهم منها القليل النادر، والشاذ الشارد فأما كلامه فهو البحر الذى لا يُساجل والجم الذى لا يحافل وأردت أن يسوغ لى التمثل فى الافتخار به عليه السلام بقول الفرزدق:

أولئك آبائى فجئنى بمثلهمإذا جمعتنا يا جرير المجامع

ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة: أولها: الخطب والأوامر، وثانيها:

الكتب والرسائل، وثالثها: الحكم والمواعظ؛ فأجمعت بتوفيق الله تعالى على الابتداء باختيار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والأدب. مفرداً لكل صنف من ذلك باباً، ومفصّلًا فيه أوراقاً، لتكون مقدمة لاستدراكك ما عساه يشذ عنّى عاجلًا، ويقع إلىّ آجلًا. وإذا جاء شىء من كلامه عليه السلام الخارج فى أثناء حوار، أو جواب سؤال، أو غرض آخر من الأغراض به، وأشدها ملامحة لغرضه. وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير متسقة، ومحاسن كلم غير منتظمة؛ لأنّى أورد النكت واللمع، ولا أقصد التتالى والنسق.

ومن عجائبه، عليه السلام، التى انفرد بها، وأمن المشاركة فيها، أنّ كلامه الوارد فى الزهد والمواعظ، والتذكير والزواجر، إذا تأمله المتأمل، وفكر فيه المتفكر، وخلع من قلبه أنّه كلام مثله ممن عظم قدره، ونفذ أمره، وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك فى أنّه كلام من لاحظ له فى غير الزّهادة، ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع فى كسر بيت. أو انقطع إلى سفح جبل، لا يسمع إلّاحسّه، ولا يرى إلّانفسه، ولا ـ يكاد يوقن بأنّه كلام من ينغمس فى الحرب مصلتاً سيفه، فيقطّ الرقاب، ويجدل الأبطال، ويعود به ينطف دماً، ويقطر مهجاً. وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، وبدل الأبدال وهذه من فضائله العجيبة، وخصائصه اللطيفة، التى جمع بها

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۹

بين الأضداد، وألف بين الأشتات، وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرج عجبهم منها، وهى موضع للعبرة بها، والفكرة بها.

وربما جاء فى أثناء هذا الاختيار اللفظُ المردد، والمعنى المكرر؛ والعذر فى ذلك أنّ روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً: فربما اتفق الكلام المختار فى رواية فنقل على وجه، ثم وجد بعد ذلك فى رواية اخرى موضوعاً غير موضعه الأول: إمّا بزيادة مختارة، أو لفظ أحسن عبارة فتقضى الحال أن يعاد، استظهاراً للاختيار، وغيرةً على عقائل الكلام. وربما بعد العهد أيضا بما اختير أولًا فأعيد بعضه سهواً أو نسياناً، لا قصداً واعتماداً. ورأيت من بعد تسمية هذا الكتاب ب «نهج البلاغة» إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه

طلابها، فيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد، ويمضى فى أثنائه من عجيب الكلام فى التوحيد والعدل، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شبه الخلق، ما هو بلال كل غلَّة، وشفاء كل علة، وجلاء كل شبهة.

ومن الله سبحانه أستمد التوفيق والعصمة، وأتنجّزُ التسديد والمعونة، وأستعيذه من خطأ الجنان، قبل خطأ اللسان، ومن زلة الكلم، قبل زلة القدم؛ وهو حسبى ونعم الوكيل.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۱

الخطبة الاولى

اشارة

[۴۲] ومن خطبة له عليه السلام

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من أهم خطب نهج البلاغة، وما تصدرها النهج إلّادلالة واضحة على براعة السيد الرضى فى الاختيار. فالخطبة تتضمن الرؤية الإسلامية للصفات الكمالية والجمالية، ثم تشير إلى قضية خلق العالم بصورة عامة ومن ثم خلق السموات والأرض والملائكة، كما تخوض فى خلق آدم عليه السلام وتتعرض لقصة سجود الملائكة وإعتراض إبليس وهبوط آدم عليه السلام إلى الأرض. ثم يتطرق عليه السلام إلى فلسفة بعثة الأنبياء ولا سيما خاتمهم نبى الإسلام صلى الله عليه و آله إلى جانب التحدث عن عظمة القرآن الكريم وأهمية سنّة النبى صلى الله عليه و آله، كما يتوقف عند مسألة الحج من بين الأحكام الإسلامية كفرع من فروع الدين بصفته فريضة إلهية كبرى تختزن بعض الأسرار واللطائف، بالشكل الذى يمد المتتبع لهذه الخطبة برؤية شمولية لأهم القضايا الإسلامية، من شأنها تقديم الحلول لكافة المصاعب التى تنطوى عليها والتى تعترض سبيلها.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۲

وأخيراً فالخطبة من وجهة نظر بمثابة فاتحة الكتاب، حيث تقدم صورة كلية عن المسائل التى درج عليها نهج البلاغة والتى وردت فى المحاور الرئيسية لخطبه ورسائله وكلماته القصار.

وقد قسمنا هذه الخطبة إلى خمسة عشر قسماً تناولنا كل قسم منه بالبحث بصورة مستقلة لنخلص إلى النتائج الكلية التى يمكن التوصل إليها من الخطبة كوحدة كاملة.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۳

القسم الأول: بعد العقول عن معرفة الذات الإلهية!

ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها ابتداءً خلق السماء والأرض وخلق آدم وفيها ذكر الحج وتحتوى على حمد اللّه وخلق العالم وخلق الملائكة واختيار الأنبياء ومبعث النبى والقرآن والأحكام الشرعية:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقائِلُونَ وَلا يُحْصِى نَعْماءَهُ الْعادُّونَ وَلا يُؤَدِّى حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِى لا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ وَلا يَنالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ، الَّذِى لَيسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ وَلا نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلا وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَلا أَجَلٌ مَمْدُودٌ، فَطَرَ الْخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَنَشَرَ الرِّياحَ

بِرَحْمَتِهِ وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدانَ أَرْضِهِ».

الشرح والتفسير إنّ نظرة عابرة إلى مضامين هذه الخطبة تفيد إشارة الإمام على عليه السلام إلى إثنتى عشرة صفة من الصفات الإلهية بتصوير فنى رائع ونظم شاهق:

ففى المرحلة الاولى يشير إلى كيفية عجز العباد عن إظهار المدح والثناء وأداء حق الشكر الإلهى (أشير فى هذه المرحلة إلى ثلاثة أوصاف) ويبين فى المرحلة الثانية عجز البشرية من الناحية الفكرية عن إدراك عظمة اللّه وكنه ذاته المقدسة (إشارة إلى وصفين فى هذه المرحلة) وفى المرحلة الثالثة يورد الدليل على ما أشار إليه سابقاً والذى يكمن فى خروج هذه الذات

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۴۴

عن الحدود وعدم تناهى نعمه وآلائه؛ الأمر الذى يستبطن ويعلل عجزنا عن إدراك ذاته القدسية واستحالة أداء حقّه فى الشكر والحمد (وهو يشير فى هذه المرحلة إلى أربعة أوصاف) وأخيراً يشير عليه السلام فى المرحلة الرابعة إلى خلق العالم والكائنات، وكأنه أراد أن يكشف النقاب عن هذه الحقيقة وهى أن معرفة الذات الإلهية إنّما تقتصر على هذا السبيل، والذى يمثل منتهى قدرتنا واستطاعتنا (ويشير فى هذه المرحلة إلى ثلاث من صفاته الفعلية).

ويفيد هذا الأمر أنّ الدقة والنظام هى الأسس التى استندت إليها هذه العبارات الرفيعة التى تضمنتها الخطبة التى أوردها هذا المعلم الربانى.

الآن وبعد هذه النظرة العامة نعود إلى بحث وتفسير هذه الأوصاف الاثنى عشر التى اشتملت عليها الخطبة:

فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد اللّه والثناء عليه مع التصريح بالعجز عن أداء حق الحمد، فقال عليه السلام:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقائِلُونَ».[۴۳]

وذلك لأنّ أوصافه «الكمالية» و «الجمالية» لا تعرف الحدود، فما يؤديه الملائكة والناس من حمد ومدح إنّما يتوقف على مقدار معرفتهم بالذات المطلقة لا بمقدار كمالاته جل وعلا. وأنى لسائر الأفراد بزعم المعرفة وهذا النبى الكريم الذى يمثل أعظم أنبياء اللّه يظهر عجزه عن معرفة الخالق المتعال فيصرح قائلًا:

«ما عرفناک حق معرفتک»[۴۴]

. فاذا عجز الإنسان عن معرفته فكيف يسعه حمده ومدحه؟ وعليه فان ذروة حمدنا، ما أورده الإمام عليه السلام؛ أى إظهار العجز عن حمده وثنائه والاعتراف باستحالة بلوغ هذه الدرجة على جميع مخلوقاته سبحانه.

فقد ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ اللّه أوحى إلى نبيّه موسى عليه السلام أن اشكرنى

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۴۵

حق شكرى. قال عليه السلام: إلهى! كيف أؤدى حق شكرک، وشكرک نعمة تحتاج إلى شكر (وهكذا يكون التوفيق إلى الشكر نعمة اخرى تستحق الشكر). فقال: «يا موسى الآن شكرتنى حين علمت أنّ ذلک مِنّى»[۴۵].

وهنا لابدّ من القول بأنّ الإنسان إذا ما قال: الحمد للّه، فانه أتى به كاملًا دون نقيصة، إلّاأن يكون فى حق اللّه، ولذلک جاء فى الخبر أنّ الإمام الصادق عليه السلام خرج من المسجد ولم يظفر بدابته، فقال عليه السلام، إن أعادها لى اللّه شكرته حق شكره، فلم تمض مدّة حتى أتى بها إليه فقال عليه السلام:

الحمد للّه. فقيل له: جعلت فداک ألم تقل أشكره حق شكره؟ فقال عليه السلام: ألم تسمع قولى الحمدللّه.[۴۶]

أمّا فى الوصف الثانى فقد قال:

«ولا يحصى نعمائه العادون»

. وذلک لأنّ نعمه المادية والمعنوية والظاهرية والباطنية والفردية والجماعية لأكثر وأعظم من أن تعدّ وتحصى. فبدن الإنسان- على

سبيل المثال- مؤلف ممّا لا يحصـى من الخلايا والأنسـجة (يبلغ متوسـطها عشرة مليارات) التى تشكل كل وحدة منها كائناً حياً ومركباً معقداً ونعمة من نعمه سبحانه والتى يتعذر إحصاء عددها فى عشرات الالوف من السنين، فاذا عجز الإنسان عن إحصاء نعم اللّه فى هذا الجانب اليسير فقط، فكيف يسعه أن يحصى جميع هذه النعم والآلاء على المستويات المادية أو المعنوية؟ فى الواقع ليس لدينا من علم بكافة نعمه ليتسنى لنا عدّها أو إحصائها.

فأغلب نعمه قـد أغرقت كياننا وأحاطت بوجودنا، وحيث لم نسـلبها قط فقد غفلنا عنها ولـم نحط بها (فلا يشـعر بالنعمة إلّابعد فقدانها)، أضف إلى ذلك فان ظفر الإنسان بالنعم والآلاء إنّما يتناسب طردياً واتساع مـدى علمه ومعرفته؛ الأمر الـذى يؤدى إلى الاذعان- وكما قال أميرالمؤمنين عليه السلام- بهذه الحقيقة

«ولا يحصى نعمائه العادون».

ويمكن لهذه العبارة أن تكون علة للعبارة السابقة

«لا يبلغ مدحته القائلون»

إذ كيف يمكن حمـد اللّه والثنـاء عليه فى ظـل العجز عن إحصـاء نعمه! ويبـدون أنّ هـذه النعم ما زالت لا تعرف الحـدود رغم الحالة المؤسفة فى قيام بعض الظلمة والفئات النفعية باحتكار أغلب النعم أو تضييعها من خلال البذخ

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۶

والاسراف والتبذير، وتعريض طبقات المجتمع للتعب والارهاق. ويقول عليه السلام فى الوصف الثالث:

«ولا يؤدى حقّه المجتهدون»

. وهـذه الجملة فى الحقيقة اسـتنتاج ترتب على العبارة السابقة، فاذا تعذر إحصاء النعم فكيف يمكن أداء حقها؟ بعبارة اخرى فإن حقّه بقدر عظمة ذاته القدسـية، فى حين شكرنا وحمدنا بقدر قدرتنا الزهيدة، فأين هذا الحمد من ذلك الحق! ولا يقتصر هذا المدح والثناء وأداء الحق على العجز فى الجانب العملى فحسب بل هو قائم حتى من الناحية الفكرية.

ولذلك أردف عليه السلام- وفى إطار بيانه لوصفين آخرين- قائلًا:

«الذى لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن ۴۷]»

. وكأنّ التعبير ببعد الهمم وغوص الفطن إشارة إلى حقيقة مؤداها أنّ الأفكار الخارقة مهما انطلقت فى قوس الصعود والفطن المتوهجة فى قوس النزول فأنها تبقى عاجزة عن إدراك كنه ذاته المقدسة. ولا يترك الإمام الاقرار بهذا العجز دون تقديم الدليل، فيقول:

«الذى ليس لصفته حد محدود، ولا نعت ۴۸] موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل

ممدود».

أى أنى لنـا الاحاطـة بكنه ذاته، والحـال أن فكرنـا بل جميع كياننا محـدوداً لا يحسن سوى إدراك الأشـياء المحـدودة، بينما لا تعرف الذات الإلهية من حدود من جميع النواحى، فليس هنالك من حد أو وصف قابل للإدراك لصـفاته المطلقة من الازل إلى الأبد والتى تأبى الاوليـة والاخرويـة والبدايـة والنهايـة. ولا يقتصـر هذا الأمر على الذات، فصـفاته هى الاخرى ليس لها من حدود، فعلمه لا يعرف الحدود، وقدرته لا متناهية، ولا غرو فصفاته عين ذاته التى ليس لها حد محدود.

بعبارة اخرى فانّ اللّه وجود مطلق ليس له أى قيـد وشـرط، ولو كان لقيد أو شـرط وحد من الحدود من سبيل إلى ذاته لأصـبح مركبا، فى حين نعلم بأن المركب- كما يقول الفلاسفة-

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۷

ممكن الوجود لا واجب الوجود- وعليه فواجب الوجود ذات مطلقـة غير محـدودة فى كافـة أبعادها، ولذلك كان سـبحانه وتراً واحداً ليس له كفؤاً ولا شبيهاً، لاستحالة قيام وجودين مطلقين من جميع الجهات، وذلك لأنّ هذا التناقض إنّما يؤدى إلى محدودية الطرفين،

فهذا فاقد لوجود ذلک، وذاک أيضاً فاقد لوجود هذا (تأمل هذا الموضوع).

وبعد أن تعرض الإمام عليه السلام لصفات الجمال والجلال (الصفات الثبوتية والسلبية)، أشار عليه السلام إلى جانب من صفاته الفعلية سبحانه، فقال:

«فطر[۴۹] الخلائق بقدرته، ونشر الرياح

برحمته، ووتد[۵۰] بالصخور[۵۱] ميدان ۵۲] أرضه».

لقد استوحيت هذه التعبيرات من بعض الآيات القرآنية، فالعبارة

«فطر الخلائق بقدرته»

مستوحاة من الآية الشريفة

«فاطِرِ السَّمواتِ وَالأَرضِ»

التى وردت فى عدّة سور قرآنية من قبيل: سورة يوسف/ ۱۰۱ وسورة إبراهيم/ ۱۰۰ وسورة فاطر/ ۳۵ وسائر السور المباركة.

والعبارة

«نشر الرياح برحمته»

من الآية الشريفة

«وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ».[۵۳]

والعبارة

«ووتد بالصخور ميدان أرضه»

من الآية ۱۵ من سورة النمل

«وَأَلْقى فِى الأَرْضِ رَواسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ».[۵۴]

وبالالتفات إلى ما ذكرنا من معنى «فطر» فانه شبه الخلق بشق الحجاب الظلمانى للعدم؛ الحجاب المتسق والمنسجم الذى لا شق فيه، غير أن قدرته المطلقة تشقه وتخرج منه المخلوقات، وليس من شأن أية قدرة سوى قدرته أن تفعل هذا. فقد اتفقت كلمة الفلاسفة والمفكرين على استحالة استحداثنا لشىء من العدم، أو تحويلنا من وجود إلى عدم، وكل

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۸

مامن شأن قدرتنا فعله هوتغيير شكل الموجودات من شكل إلى آخر ولا غير!

أمّا التعبير بالرحمة عن حركة الرياح فهو تعبير عذب رائع ينسجم ولطافة النسيم وهبوب الرياح وآثاره المختلفة من قبيل حركة السحب والغيوم نحو الأراضى القفار وتلقيح الأزهار ونمو النباتات واعتدال الجو وحركة السفن والفلک فى البحر وانخفاض درجات الحرارة وسائر الخيرات والبركات المكنونة فى هذه الحركة. امّا عن كيفية توتيد الأرض بهذه الجبال والصخور، فالحق لا يمكن الآن قبول النظريات والاطروحات التى أوردها قدماء العلماء بهذا الشأن إثر قولهم بسكون الأرض وعدم حركتها، حتى جاءت النظريات الحديثة التى تنسجم مع الحقائق العلمية من جهة وتتفق والآيات القرآنية والروايات الواردة بهذا الخصوص من جهة اخرى، وذلک لأنه:

۱- أنّ وجود الجبال على سطح الكرة الأرضية يؤدى إلى الحد من آثار ظاهرة المد والجزر التى تشهدها اليابسة بفعل جاذبية الشمس والقمر. فلو اجتاحت الأراضى الرخوة سطح الأرض لأصبح المد والجزر كالبحار والأنهار بما يجعل من المتعذر العيش على هذه الأرض.

۲- أنّ جذور الجبال متصلة مع بعضها تحت القشرة الأرضية وكأنّها درع قد أحاط بالأرض، ولولاها لماجت الأرض وعاشت الحركة باستمرار وفقدت استقرارها بفعل الضغط الداخلى الذى تفرزه الغازات الداخلية والمواد المذابة. وما الزلازل التى تقع إلّانتيجة طبيعية

لمثل هذا الضغط الذى يتجاوز الحدود المعينة، ولولا هذه الجبال لتواصلت هذه الزلزلة دون انقطاع.

وبناءً على ما تقدم فان هذه الصخور (الجبال) إنّما توتد الأرض وتحول دون فقدانها لاستقرارها، وناهيک عمّا تقدم فانّ الجبال تعدّ من أهم مصادر الحياة الجوفية للإنسان، وأنّ كافة العيون والأنهار إنّما تنبع من مصادر الجبال الجوفية وتلک التى على سطح الأرض.

ويتّضح ممّا ذكرنا سابقاً بشأن الدور الحيوى الذى تلعبه الرياح والجبال فى حياة الإنسان وسائر الكائنات الحية، علة تأكيد الإمام على عليه السلام هذين الأمرين بعيد الإشارة إلى مسألة الخلق والخليقة.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۹

القسم الثانى: توحيد الذات والصفات

«أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ وَكَمالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ وَكَمالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلاصُ لَهُ وَكَمالُ الْإِخْلاصِ لَهُ نَفْىُ الصِّفاتِ عَنْهُ لِشَهادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّها غَيْرُ الْمَوْصُوفِ وَشَهادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّه سُبْحانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشارَ إِلَيْهِ وَمَنْ أَشارَ إِلَيْهِ فَقَدْ عَدَّهُ».

الشرح والتفسير

تمثل هذه العبارات دورة تربوية تامة فى المعرفة الإلهية. فقد اعتمد أمير المؤمنين عليه السلام عبارات مقتضبة عميقة المعنى بحيث قدم صورة عن الحق تبارک وتعالى لا يمكن الإتيان بأحسن منها حتى ولو جمعنا كافة دروس التوحيد والمعارف إليها وجعلنا بعضها إلى جانب البعض الآخر، فانّها تعجز عن رسم مثل تلک الصورة.

فقد ذكر عليه السلام فى هذا الجانب من خطبته خمسة مراحل لمعرفة اللَّه يمكن ايجازها فى مايلى:

۱- المعرفة الإجمالية والناقصة

۲- المعرفة التفصيلية

۳- توحيد الذات والصفات

۴- الاخلاص

۵- نفى التشبيه

فقد قال عليه السلام مبتدأ

«أول الدين معرفته»

. لا شک أنّ الدين هنا يعنى مجموعة العقائد

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۵۰

والواجبات والوظائف والأخلاق، ومن المعلوم أنّ دعامتها الأساسية هى «معرفة اللَّه»، وعليه فمعرفة اللَّه تمثل الخطوة الاولى على الطريق من جانب والمحور الرئيسى لكافة أصول الدين وفروعه، وليس لهذا الدين من حيوية دون هذه المعرفة- أمّا أولئک الذين يعتقدون بأنّ هناک شيئاً آخر قبل معرفة اللَّه، إلّاوهو النظر فى طريق معرفة اللَّه والتحقيق بشأن الدين ووجوب المطالعة، فهم على خطأ كبير. وذلک لأنّ وجوب التحقيق يمثل أول الواجبات، بينما تمثل معرفة اللَّه أول دعامة للدين، أو بعبارة أُخرى فان التحقيق مقدمة ومعرفة اللَّه أولى مراحل ذى المقدمة.[۵۵]

والنقطة الاخرى المفروغ منها هى أنّ المعرفة الإجمالية قد أودعت فطرة الإنسان ولا تتطلب أدنى تبليغ بهذا الشأن، وإنما بعث الأنبياء لاستبدال هذه المعرفة الإجمالية بتلک المعرفة التفصيلية الكاملة المتقنة وإغناء جوانبها وتطهير الفكر البشرى من أدران الشرک

وأرجاسه.

ثم قال عليه السلام:

«وكمال معرفته التصديق به».

هنالك عدّة تفاسير للفارق بين التصديق والمعرفة. بادئ ذى بدء المراد هنا بالمعرفة هى المعرفة الفطرية، والمقصود بالتصديق المعرفة العلمية والاستدلالية. أو أنّ المراد بالمعرفة هنا المعرفة الإجمالية، والمقصود بالتصديق المعرفة التفصيلية. أو أنّ المعرفة تشير إلى العلم باللَّه، والتصديق يشير إلى الإيمان، لأنّ العلم لا يفارق الإيمان، فالإنسان قد يوقن بشىء إلّاأنّه لا يؤمن به قلبياً- بمعنى التسليم له والاذعان به قلبياً، أو بتعبير آخر الاعتقاد به-. وأحياناً يضرب الفضلاء مثلًا لانفصال هذين الأمرين عن بعضهما، فيقولون: إنّ أغلب الأفراد يشعرون بالهلع ولا سيما فى الليلة المظلمة حين البقاء إلى جانب ميت فى غرفة خالية، رغم علمهم بانه ميت، لكن كأن العلم لم ينفذ إلى أعماقهم ويتسلل إلى قلوبهم، فلم يحصل ذلك الإيمان المطلوب وبالتالى فقد تمخض عن هذا الهلع والخشية.

وبعبارة اخرى فانّ العلم هو تلك المعرفة القطعية بالشىء، إلّاأنّها قد تكتسب صبغة

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۵۱

سطحية فلا تنفذ إلى أعماق وجود الإنسان وروحه، فاذا نفذت إلى أعماقه وبلغت مرحلة اليقين بحيث أذعن الإنسان بذلك قلبياً، فان ذلك العلم يكتسب صفة الإيمان. ثم قال عليه السلام فى المرحلة الثالثة

«وكمال التصديق به توحيده»

. فمما لاشك فيه أنّ الإنسان لم يبلغ مرحلة التوحيد الكامل على أساس معرفته التفصيلية للَّهأو بتعبير آخر بالمعرفة القائمة على أساس الدليل والبرهان. فالتوحيد التام فى أن ينزه الذات الإلهية عن كل شبه ومثيل ونظير. وذلك لأنّ من جعل له شبيه وصنو لم يعرفه، فاللَّه وجود مطلق غنى بالذات عمّا سواه وليس كمثله شىء، ومن طبيعة الاشياء التى لها أشباه وأمثال أن تكون محدودة، لأنّ أى من الشبيهين منفصل عن الآخر وفاقد لكمالاته.

إذن فالإنسان لا يبلغ مرحلة الكمال إلّابالتصديق بذاته المنزهة فى أنّه واحد؛ واحد لا عن عدد، بل واحد بمعنى خلوه من الشبيه والمثيل.

ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلى المرحلة الرابعة وهى مرحلة الاخلاص فيقول:

«وكمال توحيده الاخلاص له».

والاخلاص من مادة الخلوص بمعنى تصفية الشىء عن الغير، بمعنى التصفية والتنزه. وهناك خلاف بين مفسرى نهج البلاغة بشأن هذا الاخلاص، وهل المراد به الاخلاص العملى أم القلبى أم العقائدى. والمراد بالاخلاص العملى هو أن يعيش الفرد ذروة التوحيد الإلهى فلا يسأل سواه ولا يرى غيره فيما يقوم به من أفعال وأعمال. وهو الأمر الذى تناوله الفقهاء فى بحث الاخلاص فى العبادة، وقد أورد «الشارح الخوئى» (ره) هذا التفسير بصفته أحد الأقوال دون أن يذكر من قال به.[۵۶]

أمّا الاخلاص القلبى والذى عبر عنه «الشارح البحرانى ابن ميثم» بالزهد الحقيقى فهو يعنى توجه القلب إلى اللَّه وعدم التفكير بما سواه، والانشغال بغيره ۵۷]. إلّاأننا نرى أنّ الاخلاص

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۵۲

مفهوم عظيم وسامى لا ينسجم وما أورده الشرّاح فى هذه العبارات، ومن المستبعد أن يكون هذا هو المراد به. أمّا المفهوم الوحيد الذى يناسبه هو تنزيه الاعتقاد باللَّه تبارك وتعالى؛ أى تنزيهه فى وحدته عن كل شبيه ومثيل، إلى جانب تقديسه عن التركيب من الأجزاء.

وقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا المعنى فى المرحلة الخامسة حين قال:

«وكمال الاخلاص له نفى الصفات عنه»

. وبعبارة اخرى فان الحديث فى المرحلة السابقة قد تناول الاخلاص على نحو الإجمال، فلما بلغ الاخلاص هنا مرحلة الكمال غاص فى التفاصيل، ليتضح من ذلك أنّ الاخلاص فى التوحيد يتطلب تنزيهه عن كافة الصفات التى يتصف بها المخلوق، سواء كانت هذه الصفات بمعنى التركب من الأجزاء أم غيرها، وذلك لأننا نعلم بأنّ جميع الممكنات بما فيها العقول والنفوس المجردة هى فى الواقع مركبة (على الأقل مركبة من الوجود والماهية) وحتى المجردات؛ أى الموجودات الخارجة عن المادة هى الاخرى ليست مستثناة من هذا التركب، أمّا الموجودات المادية فكلها متركبة من الأجزاء الخارجية، لكن الذات الإلهية المقدسة لا تشتمل على الأجزاء الخارجية ولا ـ الأجزاء العقلية، لايمكن تجزأته فى الخارج ولا فى إدراكنا وفهمنا. وكل من غفل عن هذه الحقيقة لم يظفر بالتوحيد الخالص، ومن هنا يتضح بأنّ مراده عليه السلام بقوله

«كمال توحيده نفى الصفات عنه»

ليس الصفات الكمالية؛ لأنّ كافة الصفات الكمالية من قبيل العلم والقدرة والحياة وما إلى ذلك من الصفات ثابتة له، بل المراد الصفات التى ألفناها وتعرفنا عليها وهى صفات المخلوقين المشوبة بالنقص. فالمخلوقات لها حظ من علم وقدرة، غير أنّ علمها وقدرتها محدودة ناقصة مشوبة بالجهل والضعف والعجز، بينما الذات الإلهية منزهة عن مثل هذا العلم والقدرة وأفضل دليل على ذلك ما أورده الإمام عليه السلام فى ذيل هذه الخطبة بشأن الملائكة فوصفهم بقوله:

«لا يتوهمون ربهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين»

. أضف إلى ذلك فان صفات المخلوقات منفصلة دائماً عن ذواتها، أو بعبارة اخرى فانّ صفاتها زائدة على ذواتها. فالإنسان شىء وعلمه وقدرته آخر، وبناءً على هذا فوجوده مركب من هذين الشيئين، والحال أنّ صفات اللَّه عين ذاته وليس هنالك من سبيل لهذا التركب. والواقع أنّ أعظم عقبة تعترض مسيرة التوحيد إنّما تكمن فى قضية

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۵۳

«القياس»؛ أى قياس صفات اللَّه بصفات المخلوقات المفعمة بأنواع النقص والعيب، أو الاعتقاد بالصفات الزائدة على الذات؛ الورطة التى وقعت فيها الأشاعرة «فرقة من المسلمين».[۵۸]

ولذلك أردف الإمام عليه السلام قائلًا:

«لشهادة كل صفة- من الممكنات- أنّها غير الموصوف وشهادة كل موصوف- من الممكنات- أنّه غير الصفة».

فكلامه عليه السلام دليل واضح وجلى فى أنّ الصفات الزائدة على الذات تشهد بلسان حالها أنّها غير الموصوف، وكل موصوف يشهد بأنّه ليس من الصفات، اللّهم إلّا أن نقول بأنّ صفاته عين ذاته، ونؤمن بأنّ اللَّه ذات جميعها علم وجميعها قدرة وجميعها حياة وأزلية وأبدية، وإن كان إدراك مثل هذا الاعتقاد متعذر علينا نحن المخلوقات الذين أنسنا بصفات المخلوق فقط ونرى أنّ الإنسان شىء وعلمه وقدرته شيئاً مضافاً للذات زائداً عليها، لأننا نلد من أمهاتنا وليس لنا من علم وقدرة ثم نحصل عليها لاحقاً.

ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته ويردفها بعبارة قصيرة إلّاأنّها عميقة المعنى فيقول:

«فمن وصف اللَّه سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله».

فالواقع أنّ كلام الإمام عليه السلام يفيد أن اثبات الصفات التى تتصف بها المخلوقات للَّهيستلزم التركب فى وجوده سبحانه؛ أى كما أنّ المخلوق- الإنسان- مركب من الذات والصفات فان اللَّه مركب كذلك؛ بينما لا ينسجم هذا المعنى وواجب الوجود، لأنّ كل مركب يحتاج إلى أجزائه والحاجة تتناقض والغنى المطلق لواجب الوجود.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۵۴

وهناك تفسيران آخران ذكرا لهذه العبارة:

الأول: أننا إذا اعتبرنا صفاته سبحانه غير ذاته، فانّ ذاته ستكون مركبة، لأنّ الذات والصفات على فرض التناقض ستشملان على جهات مشتركة ومتمايزة والذى يعبّر عنه «ما به الاشتراک» و «ما به الامتياز». لأنّ كليهما مشترک فى الوجود وفى نفس الوقت متمايزان عن بعضهما، وفى هذه الحالة لابدّ أن نعتبر ذاته مركبة من جهتين مختلفتين أيضاً.

الثانى: أن نؤمن بوحدة الذات الإلهية، ولا نعنى بها الوحدة العددية، بل يعنى مفهوم الوحدة بالنسبة للذات الإلهية أنّها منزهة عن الشبيه والمثيل والنظير. وبشكل عام فانّ الوجود المطلق من كل الجهات يأبى أن يكون له شبيه ومثيل، فان قلنا بأنّ صفات اللَّه كذاته أزلية وأبدية ومطلقة، نكون قد حددناه سبحانه من جانب وقلنا بشبيه له من جانب آخر (لابدّ من التأمل فى هذا الكلام) وهذا هو المعنى الذى كشف عنه الإمام عليه السلام فى إطار توضيحه للاخلاص، فقال «فمن وصف اللَّه سبحانه» أى وصفه بصفات المخلوقين «فقد قرنه» بالأشياء الاخرى

«ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزاه ومن جزاه فقد جهله»

لأنّه حين جزاه بمعنى جعل ذاته متركبة من أجزاء وحقاً لم يعرف اللَّه من اعتقد بتركب ذاته؛ وذلک لأنّه تصور كائناً على شاكلته- من حيث التركيب والمحدودية- وأسماه اللَّه.

ثم يقول عليه السلام:

«ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده»

. ويوجد احتمالان بشأن قوله عليه السلام:

«ومن أشار إليه» الأول

أن يكون المراد بها الإشارة العقلية، والثانى أن يكون المراد بها الإشارة العقلية والحسية. وتوضيح ذلک أنّ الإنسان إذا لم يعرف اللَّه بتلک الحقيقة المطلقة اللامتناهية فانّه سيمتلک فى ذهنه مفهوماً محدوداً وخاصاً عنه سبحانه، أو بتعبير آخر فانّه سيشير إليه بالإشارة العقلية، وبالطبع سيكون محدوداً فى هذه الحالة تصوراً، وذلک لتعذر إدراک وتصور اللامحدود واللامتناهى على الإنسان المحدود والمتناهى.

فالإنسان إنّما يدرک ما يحيط به من أشياء يسعه تجسيمها فى فكره المحدود، وبالطبع فان مثل هذه الموجودات محدودة. وعلى هذا الضوء فان اللَّه سيكون فى مصاف المعدودات والأشياء القابلة للعدد، لأنّ من لوازم المحدود هو إمكان تصور موجود آخر فى موضع آخر مثله.

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۵۵

والأول الوحيد الذى ليس له ثان من كان غير محدود من جميع الجهات ولا يسعه العدد. وعلى هذا الأساس فان مولى الموحدين- على بن أبى طالب عليه السلام- قد عكس حقيقة التوحيد فى هذه العبارة القصيرة ذات المعنى العميق، فوصف البارئ سبحانه بما يفوق الخيال والقياس والظن والوهم. وهى ذات الحقيقة التى كشف النقاب عنها الإمام الباقر عليه السلام حين قال:

«كل ما ميزتموه باوهامكم فى أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم»[۵۹].

والاحتمال الآخر مازال قائماً بأن يكون المراد «بالإشارة» الإشارة العقلية والإشارة الحسية أيضاً؛ وذلک لأنّ اللَّه ليس بجسم ولا عرض والاعتقاد بجسمية اللَّه جهل محض، ونتيجة ذلک كون الذات الإلهية محدودة لأنّ كل مشار إليه فهو محدود، فالمشار إليه لابدّ أن يكون فى جهة مخصوصة، وكل ما هو فى جهة فله حد وحدود.

سؤال

هنا يبرز سؤال يطرح نفسه: إذا تعذرت حتى الإشارة العقلانية للَّه، فانّ معنى ذلک تعطيل معرفة اللَّه وإغلاق أبواب المعرفة بوجه الإنسان وبالتالى سوف لن يكون هناک من مفهوم لمعرفة اللَّه. وذلک لأننا كلما حاولنا التوجه إلى تلک الذات المقدسة ارتطمنا

بمخلوق من نسج أفكارنا، كلما أردنا الاقتراب منه لم نزدد إلّابعـداً عنه، فما أحرانا والحالـة هـذه الا نقتحم ميـدان المعرفـة بغيـة عـدم الابتلاء بالشرك.

الجواب

إنّ الجواب على هـذا السؤال يتضـح من خلال الإلتفات إلى نقطـة مهمّة- من شأنها أن تحل المشـكلة هنا وفی سائر الموارد- وهی أنّ المعرفة على نوعين: معرفة إجمالية ومعرفة تفصـيلية، أو بتعبير آخر معرفة كنه الذات ومعرفة مبدأ الأفعال. فاننا حين نتأمل عالم الوجود بما يضم من العجائب والغرائب والكائنات بتلك الروعـة والجمال والعظمة، بما فی ذلك وجودنا نحن الأفراد لنشـعر بأنّ هنالك خالقاً ومـدبراً لهـذا الكون وهـذا هو العلم الإجمالی الـذی يمثل ذروة معرفـة الإنسان باللّه (غايـة مافی الأمر أننا كلما تعرفنا أكثر على أسـرار الوجود وقفنا بصورة

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۵۶

أعمق على عظمته وتعززت به معرفتنـا الإجماليـة أكثر فأكثر) إلّاأننا حين نعود بالسؤال لأنفسـنا عن ماهيته وكيفيته ونحاول الاقتراب من حقيقة ذاته المقدسة لا نحظى سوى بالحيرة والغموض؛ الأمر الذی يجعلنا نقول بأنّ السبيل إليه مفتوح على مصـراعيه وفی نفس الوقت مؤصد ومغلق تماماً.

وهنا يمكننا إيضاح هذه المسألة بمثال بسيط. فالكل يعلم بوجود قوة الجاذبية؛ لأنّ كل جسم يترك فی الهواء يسقط إلى الأرض بفعل جاذبيتهـا، ولولا- هـذه الجاذبيـة لانعـدم اسـتقرار الأجسام على سـطح الكرة الأرضـية. ولا تقتصـر معرفـة الجاذبيـة والعلم بوجودها على العلمـاء، بـل يـدركها حتى الصبيـة والأطفـال؛ ولكن ماهی حقيقـة الجاذبيـة، هل هی أمواج لا مرأيـة أم ذرات مجهولـة أم قوة اخرى؟ والعجيب أنّ قوة الجاذبيـة وخلافاً لكل ما نعرفه من قوانين عالم المادة، يبـدو أنّها لا تحتاج من زمان للانتقال من نقطـة إلى اخرى، بل على خلاـف الضوء الـذی يمثـل أسـرع حركـة فی عالم المادة، فی حين قـد يحتاج إلى مـدّة زمانيـة تصل إلى ملايين السـنين الضوئية للانتقال فی الفضاء من نقطـة معينة إلى نقطة اخرى. إمّا قوة الجذب فتنتقل فی لحظة من أية نقطة فی العالم إلى اخرى، أو أنّها تمتلك حد أقل من السرعة يفوق ما سمعناه لحد الآن.

فما هـذه القوة التی تمتلك مثل هـذه الآثار؟ وما حقيقة كنه هذه القوة؟ ليس هنالك من يسـعه تقديم جواب شاف لهذه الاسـئلة. فاذا كان علمنا ومعرفتنا بشأن القوة الجاذبـة- التی تعتبر أحـد المخلوقات- تقتصـر على المعرفـة الإجماليـة دون المعرفـة التفصـيلية، فأنى لنا توقع المعرفـة بكنه الـذات المقدسـة لخالق عالم المادة وما ورائها من وجودات لا متناهيـة؟! لكن مع ذلك فاننا نراه حاضـراً وناظراً فی كل مكان ومقارناً لكل وجود فی العالم. امّا العبارة

«ومن حده فقد عده»

فهی إشـارة إلى أمر مهم يتضـح من الكلام السابق وهو أنّ من حـد اللّه وجب عليه أن يراه معـدوداً، وبعبارة اخرى فانه يعتقـد بإمكانية وجود الشـريك له. لأـنّ المطلق من جميع الجهـات فقط هو الـذی يأبی الشبيه والمثيل والشـريك؛ بينما إن كان محـدوداً (مهما كانت عظمته وقـدرته) كان له شبيهاً ومثيلًا خارج ذاته، وبتعبير آخر فليس هناك من ضـير فی تصور موجودين محـدودين أو أكثر (مهما بلغ كبرهما)، بينما يستحيل تصور وجود ثان للمطلق من كل الجهات؛ وذلك لأنّ كل ما يتصور إنّما يعود إلى ذاته.

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۵۷

القسم الثالث: ليس كمثله شیء

اشارة

«وَ مَنْ قالَ «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قالَ «عَلامَ»؟ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ. كائِنٌ لا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شىء لا بِمُقارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَىْءٍ لا بِمُزايَلَةٍ، فاعِلٌ لا بِمَعْنَى الْحَرَكاتِ وَالْآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ».

الشرح والتفسير لقد تعرض الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة إلى عدّة نقاط حساسة ودقيقة بشأن مباحث التوحيد بكلمات قليلة ومعان عميقة يمكن إيجازها فى خمس:

۱- كون الذات الإلهية المطلقة منزهة عن المكان، فقد قال عليه السلام:

«ومن قال فيم؟ فقد ضمنه»

. فالكلمة (فى) إنّما تستعمل بشأن المكان الذى يحوى الشىء ويحيط به، من قبيل قولنا فلان فى الدار، والورد فى البستان وما إلى ذلك، ونتيجة ما تقدم هو محدودية ذاته سبحانه، بينما أشرنا سابقاً إلى أنّ كافة أدلة التوحيد تفيد كون الذات المقدسة مطلقة من جميع الجهات.

وهكذا من سأل «علام» بشأن اللَّه؟ (على العرش، على الكرسى، على السموات) فقد حده لأنه أخلى منه سائر المواضع «ومن قال علام؟ فقد أخلى منه). فمثل هذه الأسئلة تستلزم كون الذات القدسية محدودة، وهذا مالا ينسجم وكونه واجب الوجود. وبناءً على هذا فكل من تصوره على العرش أو على السموات أو أى مكان آخر فقد جرد نفسه من التوحيد الخالص، وفى الواقع فانّه يعبد مخلوقاً من نسج خياله الفكرى ويسميه اللَّه. فقد ذهب بعض الجهال إلى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۵۸

أنّ الشريفة

«الرَّحْمنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى [۶۰]

دليل على جسمية اللَّه وأنّه على العرش، بينما تفيد كلمة «استوى» معنى السيطرة على الشىء ولا تقتصر على معنى التربع على الشىء أو الاستقرار عليه، بل هناك تعبير كنائى معروف ومتداول بشأن تزعم الامور والأخذ بزمامها فى مقابل اعتزال السلطة وانفلات القدرة، فيقال

«اسْتَوى عَلى العَرْشِ»

فى مقابل «ثل عرشه» ولا يراد كسر عرش السلطة أو التربع عليه. وعليه فالذى تفيده الآية الكريمة

«اسْتَوى عَلى العَرْشِ»

هو استقرار حكومته وسلطته سبحانه على العرش. على كل حال يبدو من السذاجة والسخرية الاستدلال بهذه الآية على جسميته سبحانه.

۲- يشرح الإمام عليه السلام فى هذه العبارة «كائن لا عن حدث» أزليته سبحانه وكون ذاته غنية عن الحدود من ناحية الزمان، ثم يقول عليه السلام:

«موجود لا عن عدم»

وهذا هو الفارق بينه وبين جميع المخلوقات المسبوقة بالعدم والحدوث، بينما لم تسبق الذات الإلهية بمثل ذلك العدم والحدوث. بل لا يمكن وصفه بصفتى «الكائن» و «الموجود» دون تنقية مفهومها من صفات المخلوقات المسبوقة بالعدم.[۶۱]

۳- العبارة الاخرى تضمنت إشارة رائعة إلى كيفية الرابطة السائدة بين المخلوقات والخالق والممكنات بواجب الوجود، حيث قال عليه السلام:

«مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة»

. لقد ذهب أغلب الناس وحتى أغلب الفلاسفة والعلماء إلى أنّ الرابطة التي

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۵۹

تسود المخلوقات باللَّه، هي رابطة بين وجودين مستقلين في أنّ أحدهما مخلوق للآخر، كوجود الشعلة العظيمة والشمعة الصغيرة التي نوقدها من تلك الشعلة، في حين الحقيقة شيء آخر تماماً. فالفارق بين المخلوق والخالق هو ليس من قبيل الفارق بين وجود ضعيف وقوي قط، بل الفارق هو فارق بين وجود مستقل من جميع الجهات ووجود تابع. فعالم الوجود برمته تابع له ويتغذى في كل آن من نور وجوده عليه. فاللَّه سبحانه ليس منفصلًا عن عالم الوجودكما أنّه ليس عين الموجودات (كما ذهب إلى ذلك الصوفية التي تقول بوحدة الوجود والموجود)، وأنّ التوحيد الواقعي إنّما يتوقف على إدراك هذه الحقيقة. ويمكن إيضاح هذه الحقيقة بهذا المثال (رغم النقص الذي يشوب مثل هذه الأمثلة). فشعاع الشمس رغم وجوده وكونه غير قرص الشمس، إلّاأنّه متصل بها تابع لها، هو غيرها لكن لا على نحو المغايرة وبمعنى الانفصال والاستقلال، ومعها ولكن ليس بمعنى الالتحام والاتحاد. وهما لاشك فيه أن ارتباط موجودات هذا العالم بالذات الإلهية المقدسة أكثر قرباً وتبعية ممّا صدره هذا المثال، والحق‌لا يمكن العثور على مثال دقيق في هذا العالم لتصوير عمق هذه التبعية والوحدة وفي نفس الوقت الثنائية (أي الوحدة في الكثرة). رغم أنّ الأمثلة ومنها المثال المذكور- أو كالتصورات الذهنية للإنسان التابعة من روحه وغير المنفصلة عنها وفي نفس الوقت تابعة لها وليس لها من مفهوم دونها- يمكنها أن توضح إلى حد ما هذا الموضوع.

۴- تناول الإمام عليه السلام صفة اخرى من صفات الذات الإلهية المقدسة، فقد قال عليه السلام:

«فاعل لا بمعنى الحركات والآلة».

لقد جرت المحاورات اليومية عادة على الاصطلاح بالفاعل على الفرد الذي يقوم ببعض الأعمال من خلال حركات اليد والرجل أو الرأس والرقبة وسائر الأعضاء، ولما كانت قدرة الإنسان وسائر الكائنات محدودة وتعذر الإتيان بكافة الأفعال والأعمال على هذه الأعضاء، فانّه يستعين ببعض الوسائل والأدوات ليسد بها ذلك النقص الذي يشوب قدرته، فهو يستعين بالمطرقة لدق المسمار، وبالمنشار لنشر الخشب وبالمكائن والآلات الضخمة لنقل الأحمال الثقيلة من مكان إلى آخر، وكل هذه الامور هي من آثار الأجسام والجسمانيات.

ولما كان اللَّه منزهاً عن الجسمية، وقدرته غنية مطلقة خارجة عن الحد والحدود فان فاعليته لا تعني القيام بالحركات أبداً، كما أنّ قدرته المطلقة أغنته عن الاستعانة بالأدوات والآلات. فاللَّه سبحانه فاعل قبل أن تخلق الآلة ولو كان محتاجاً للآلة لعجز عن خلقه لاولى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۶۰

الأشياء، وبعبارة اخرى فان فعله إبداع. نعم فهو قادر على خلق عالم الوجود أو اعدامه في طرفة عين أو أقرب بإرادته وقوله (كن)، كما له خلقه تدريجياً أو في أية مدّة نبتغيها إرادته.

والذي يجدر الالتفات إليه هنا هو أننا حين نصفه سبحانه بأنّه فاعل فلا ينبغي أن نقارن فاعليته بذواتنا وأنّها تستعين بالادوات والآلات. وبالطبع فانّ هذا الكلام لا يعني أن ليس للَّه من ملائكة تتولى تدبير الأمر والتي وصفها القرآن

«... فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً».

فقد جرت عادته على ايجاد الحوادث عن طريق الأسباب، لان إرادته شاءت ذلك لامحتاج لها.

۵- ثم قال الإمام عليه السلام:

«بصير إذ لا منظور إليه من خلقه».

صحيح أن مفردة بصير مشتقة من مادة البصر، إلّاأنّها تطلق بالمعنى المجازي على اللَّه سبحانه لا الحقيقي. فكونه بصيراً يعني عليماً

بجميع الأشياء القابلة للرؤية وحتى الأشياء التي ترى ولم تخلق بعد. وبناءً على هذا فان بصيرته تعود إلى علمه اللامتناهى، حيث نعلم جميعاً بأنّ علمه أزلى. وأخيراً فقد تحدث الإمام عليه السلام عن وحدانيته سبحانه فى غناه عن الأنيس فقال:

«متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده»[۶۲]

وتوضيح ذلك هو أنّ الناس وسائر الكائنات الحية وبحكم كون قدرتها محدودة فى نيل المنافع ودفع الاضرار فانّها مضطرة للاستعانة ببنى جنسها ومن غيرها لتشعر بالأمن تجاه بعض الأخطار التى تهددها. وهنا يتفاقم شعور الإنسان بالاستيحاش لوحدته، بينما يأنس بوجود سائر الأفراد إلى جانبه ولاسيما أثناء تعرضه للأخطار والآفات والبلايا والأمراض والأوبئة. وأحياناً يندفع الإنسان الضيق النظر ليقارن اللّه بنفسه فيشعر بالدهشة والذهول كيف يكون اللّه وحيداً قبل ايجاده لهذه المخلوقات، وكيف لا يكون له من أنيس يسكن إليه، وأخيراً كيف يشعر بالاستئناس بهذه الوحدة؟! غافلًا عن أنّه وجود مطلق لا يحتاج الاستعانة

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۶۱

بأحد، وليس له من خشية لعدو ليستعين عليه بظهير، كما ليس له من صنو يستأنس به.

ولذلك كان وسيكون متوحداً.

ويتضح ممّا ذكرنا سابقاً أن لمفردة «المتوحد» مفهوم يختلف عن مفهوم «الواحد» و «الأحد».

تأمّلات

اشارة

لقد تضمنت هذه العبارات العميقة المعانى والعظيمة المضامين عدّة معطيات ودروس قيمة من شأنها حل أغلب المشاكل العقائدية على مستوى «معرفة اللّه وأسمائه وصفاته» ومنها:

۱- علاقة الخلق بالخالق ومسألة «وحدة الوجود»!

لقد كثر الكلام فى أوساط الفلاسفة والعلماء بشأن كيفية الرابطة بين الخالق والمخلوق، فقد أفرط البعض منهم حتى اعتقد بأنّ الخالق هو عين المخلوق إثر رؤيتهم القائمة على أساس وحدة الوجود والموجود. فهم يقولون ليس هنالك أثر من وجود شخصى واحد فى عالم الوجود وكل ماسواه ترشحات من ذاته، أو بتعبير آخر: هناك شىء واحد فقط أمّا الكثرة والتعدد فهى خيالات وظنون وسراب يحسبه الظمآن ماء. أحياناً يستعيضون عن الوحدة والاتحاد بقولهم بالحلول على أنّه ذات حلت فى كافة الأشياء وتتخذ لها شكلًا فى كل وقت بينما يشعر الجهال بالازدواج والحال ليس الكل إلّاشىء واحد لا غير.[۶۳] وزبدة القول أنّهم يرون عالم الوجود بمثابة بحر وقطراته سائر الموجودات. وبعبارة اخرى فان أى ازدواجية فى هذا العالم ليست سوى ضرباً من الخيال والوهم. بل يعتقد البعض منهم أنّ الفرد لا يعدّ صوفياً

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۶۲

حقيقياً مالم يؤمن بوحدة الوجود والموجود، وذلك لأنّ وحدة الوجود تشكل الركيزة الأصلية لقضية التصوف!

وبالطبع فانّ بعض كلماتهم يمكن حملها على المعانى الصحيحة والصائبة من قبيل أنّ الوجود الحقيقى القائم بالذات فى العالم واحد

وكل ما سواه تابع له مستمد وجوده منه (كما أوردنا ذلك سابقاً فى التشبيه بالمعانى الأسمية والحرفية) أو كل ما عدا الذات الإلهية المقدسة- الوجود المطلق من جميع الجهات- يمثل موجودات صغيرة ضئيلة ليس لها شأناً يذكر ولكن لا يعنى ذلك أنّها لا تمتلك وجوداً واقعياً حقيقياً. ولكن الذى لا شك فيه هو أنّ بعض أقوالهم وعقائدهم لا يمكن تبريرها والتماس التفسير الصائب لها، فهم يصرحون بأن ليس فى عالم الوجود أكثر من وجود واحد وكل ما سواه سراب وخيال، وأبعد من ذلك تصريحهم بأنّ الوثنية وعبادة الأصنام لو خرجت عن شكلها المحدود فهى عين عبادة اللّه، لأنّ كل العالم هو، وهو كل العالم. فهذا الكلام يستتبع لوازم فاسدة ليست بخافية على أحد على ضوء العقائد والتعاليم الإسلامية، ناهيك عن تعارضها والوجدان بل البديهيات وانكارها للعلة والمعلول والخالق والمخلوق والعابد والمعبود، وذلك لأنّه لم يعدّ هناك من مفهوم للفارق بين المعبود والعبد والشارع والمكلف، بل حتى الجنّة والنار وأهلهما، فكلها واحدة وكلها عين ذاته وما هذه الكثرة والتعدد الا وهم وخيال ولو أزيلت هذه الغشاوة عن أبصارنا فسوف لا نرى إلّا وجوده سبحانه! إلى جانب ذلك فان من لوازم ذلك القول بجسمية اللّه والحلول وما إلى ذلك.

وعليه فعقائدهم لا تنسجم مع الوجدانيات والأدلة العقلية ولا تتفق مع العقائد الإسلامية وتعاليم القرآن الكريم، ومن هنا انبرى المرحوم المحقق اليزدى (ره)- الفقيه المعروف- ليكتب فى عروته الوثقى فى مبحث الكفار:

«لا إشكال فى نجاسة الغلاة[۶۴] والخوارج والنواصب

وأمّا المجسّمة والمجبّرة والقائلين بوحدة الوجود من الصوفية إذا التزموا بأحكام الإسلام فالأقوى عدم نجاستهم إلّامع العلم بالتزامهم بلوازم مذهبهم من المفاسد»[۶۵].

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۶۳

وتتضمن المسألة أمرين مهمين يجدر الإلتفات إليهما: أحدهما عطف أصحاب عقيدة وحدة الوجود على المجبرة والمجسمة وجعل الجميع بمنزلة واحدة، والآخر بان عقائدهم تنطوى على مفاسد دينية إذا التزموا بها خرجوا من ربقة الإسلام وإن لم يلتزموا بها فهم مسلمون. فالكلام يفيد بما لا يقبل الشك أنّ مذهب هؤلاء يتصف ببعض المفاسد التى يؤدى الالتزام بها إلى الخروج عن صف المسلمين. أمّا الجدير بالذكر هو أنّ كافة العلماء الذين كتبوا حاشية على العروة الوثقى- حيث جرت عادة العلماء الكشف عن اجتهادهم وقدرة استنباطهم للأحكام الشرعية من مصادرها المقررة على كتابة تعليقة على العروة الوثقى- قد أقروا بما أورده صاحب العروة أو أضافوا لما ذكره بعض القيود (من قبيل قولهم بما لا يوجب إنكار التوحيد والرسالة)[۶۶].

وللوقوف على عمق المفاسد التى انطوت عليها هذه المسألة، نرى من الضرورى هنا الإشارة إلى نموذج ورد فى الدفتر الرابع للشاعر المثنوى حين نقل قصة طويلة بشأن قول «بايزيد» سبحانى ما أعظم شأنى، فقد واجه اعتراضاً من صحبه، فقال لهم: «لا إله إلّاأنا فاعبدون» فقالوا له ما تقول؟! قال: سأقول ذلك ثانية فاحملوا السكاكين واطعنونى بها. فشهر صحبه سكاكينهم وجعلوا يطعنونه، إلّاأنّهم شعروا بأن كل طعنة كانت تمزق أجسادهم لا جسده. فهذه الاسطورة الخرافية من شأنها الإشارة إلى مدى الاندفاع والتيه الذى بلغه أصحاب هذا المسلك.

وأخيراً نختتم هذا الموضوع بما أورده أحد المعاصرين من شرّاح نهج البلاغة إذ قال بهذا الخصوص: انّ هذا المذهب (القائل بوحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود) إنّما يتنكر لكافة القوانين العقلية والاسس الوجدانية وروح الأديان الإلهية، ويرفع من شأن عالم الوجود ليبلغ به المرتبة الوجودية الإلهية أو ينزل بالوجود الإلهى إلى الحضيض فيسويه بسائر مخلوقاته، ويبدو أن مثل هذا المذهب إلى الأذهان والأذواق والهروب من الإشكالات أقرب منه إلى التعقل والالمام بالواقعيات.[۶۷]

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۶۴

۲- انحراف الجهال عن حقيقة صفات اللّه

لو تأملنا بدقّة وأجلنا الفكر فى كلماته عليه السلام لاكتشفنا مدى قطعه الطريق أمام أى انحراف عن مبدأ التوحيد وحقيقة صفات اللَّه، واتضح لدينا المفهوم الحقيقى لقوله سبحانه وتعالى

«وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ»[۶۸]

و

«وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ»[۶۹]

و

«وَما يَكُونُ مِنْ نَجْوى

ثَلاثَةٍ إِلّا هُوَ رابِعُهُمْ»[۷۰]

و

«اللَّهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ»[۷۱]

و

«وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ

المَرْءِ وَقَلْبِهِ»[۷۲]

وما إلى ذلك من المضامين القرآنية الشريفة.

فهذه المسألة وإضافة لاكمالها الأبحاث المتعلقة بوحدة الوجود- بمعناها الصحيح- من شأنها أن تقف حائلًا أمام أى انحراف فى فهم الصفات الإلهية. إلّاأنّ أصحاب الضلالة قد وطأوا وادياً لا يجر عليهم سوى الخجل والخيبة، ومنهم طائفة «المجسمة» التى أضفت صفات الممكنات على اللَّه تبارك وتعالى فصوروه كجسم من الأجسام وقد انطوى على بعض الأعضاء من قبيل الجسم واليد والرجل والشعر المجعد ومن باب أولى أن يحدوه بالمكان والزمان فذهب البعض إلى إمكانية رؤيته سبحانه فى الدنيا، بينما اقتصر بها البعض الآخر على الآخرة.

فقد قال المحقق الدوانى- من مشاهير الفلاسفة- طبق نقل بحار الأنوار- أنّ: «المشبهة منهم من قال: إنّه جسم حقيقة، ثم افترقوا فقال بعضهم: إنّه مركب من لحم ودم وقال بعضهم:

هو نور متلألىء كالسبيكة البيضاء، طوله سبعة أشبار بشبر نفسه، ومنهم من قال: إنّه على صورة إنسان، فمنهم من يقول: إنّه شاب أمرد جعد قطط، ومنهم من قال: إنّه شيخ أشمط الرأس».[۷۳]

والأدهى من ذلك أنّهم قالوا ببعض الصفات الجسمية للَّهسبحانه من خلال ما نقلوه من

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۶۵

روايات عن النبى صلى الله عليه و آله- وهى روايات موضوعة بالطبع- وصحيحه. ومن ذلك أنّه سئل ابن عباس: هل رأى محمد صلى الله عليه و آله ربّه؟ قال: بلى، فسئل: كيف رآه؟ قال: رآه على كرسى ذهبى مفروش بالذهب ويحمله أربعة من الملائكة فى حديقة خضراء[۷۴].

وبغض النظر عمّا سبق فقد شحن «صحيح البخارى» و «سنن ابن ماجة» وغيرها بالروايات التى صرّحت بأنّ اللَّه سيرى فى يوم القيامة[۷۵]، حتى أنّ بعض الروايات صرّحت بأنّ أهل الجنّة سيرونه كما يرى القمر بدراً[۷۶] والحق أنّ مثل هذه الروايات دفعت بالكثير من علماء العامة للاعتقاد برؤية اللَّه يوم القيامة والاستماتة فى الدفاع عن هذه العقيدة. بينما هذا القرآن يهتف آناء الليل والنهار

«لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ»[۷۷]

وقد خاطب سبحانه كليمه موسى عليه السلام قائلًا

«لَنْ تَرانِی»[۷۸]

ونعلم بأن «لن» نافيه أبدية. وقد تصدى الإمام على عليه السلام لبيان هذه المسألة فى خطبة الأشباح، فقال عليه السلام:

«والرادع أناسى الأبصار عن أن تناله أو تدركه أو تبصره»[۷۹]

. كما قال عليه السلام فى خطبة اخرى ببلاغته وفصاحته الجلية:

«الحمد للّهالذى لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد ولا تراه النواظر ولا تحجبه السواتر»[۸۰]

. وناهيك عمّا تقدم فان هذه العقائد تمثل مخالفة صريحة لما يحكم به العقل؛ وذلك لأنّ الرؤية لو كانت جائزة على اللّه لكان جسماً له مكان وجهة، الأمر الذى يعنى محدويته وتغيره وبالتالى سلبه وجوب الوجود وجعله من ممكناته. وهنا يأتى دور عبارات أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام ومنها العبارة السابقة لتكون كالشمس فى رابعة النهار فتميط اللثام عن الحقائق وتسحق العقائد الباطلة والخرافية وتستعرض الدروس القيمة فى التوحيد ومعرفة الصفات الإلهية. ولما جرت العادة أن يقابل

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۶۶

كل إفراط بتفريط فقد انبرت طائفة بوجه المجسمة التى نزلت باللّه سبحانه إلى مرتبة الجسم فاعتمدت عقيدة التعطيل لتقول باستحالة معرفة اللّه لا على مستوى كنه ذاته ولا أوصافه، ولا تحسن سوى المفاهيم السلبية من صفات اللّه، فكل ما نفهمه من قولنا أنّه عالم هو أنّه ليس بجاهل، امّا عالميته المطلقة فهى خافية علينا تماماً، وعليه فمن مواضع فخر الإنسان أن يودع مسألة معرفة اللّه بوتقة النسيان ولا يقترب من هذا الوادى الذى ينطوى على ظلمات دامسة ويتناقض والتعاليم القرآنية المسلمة التى تقودنا إلى معرفة اللّه.

نفحات الولاية ؛ ج ۱ ؛ ص ۶۶

ختتم بحثنا بعبارات اخرى أوردها الإمام عليه السلام فى نهج البلاغة بهذا الخصوص فقال:

«لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته فهو الذى تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذى الجحود تعالى اللّه عمّا يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً»[۸۱].

فالحق أنّ هذا التعبير هو الخط المعتدل الفاصل بين الإفراط والتفريط (المشبهة والمعطلة) فى معرفة اللّه. هذا وقد شحن نهج البلاغة بالكلمات البليغة الرائعة التى تضمنتها خطبه عليه السلام بشأن صفات اللّه والسبيل الصحيح لتوحيده سبحانه، وسنتعرض فى أبحاثنا القادمة لخطبه عليه السلام بهذا الخصوص.

۳- نفى‌الحدوث الذاتى والزمانى للذات القدسية

تفيد عباراته عليه السلام بهذا الشأن أنّ الذات الإلهية منزهة عن الحدوث الذاتى والحدوث الزمانى. والمراد بالحدوث الزمانى هو وجود الشىء فى الزمان، أو بتعبير آخر مرور المدّة الزمانية على شىء لم يكن موجوداً ثم يوجد. وهذا هو المعنى المتصور بعد خلقه عالم المادة؛ لانّ الزمان انبثق من خلال خلقة العالم المادى بحيث أصبح هناك مفهوم للحدوث والعدم الزمانى.

أمّا الحدوث الذاتى فالمراد به الشىء الحادث فى ذاته بغض النظر عن ظهور عالم المادة، أو

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۶۷

بتعبير آخر لا- يترشح وجوده من باطن ذاته، بل يكون تابعاً ومعلولًا لوجود آخر، ومن المسلم به أن ليس من سبيل لهذين الحدوثين إلى الذات المقدسة الواجبة الوجود فى الماضى والمستقبل، بل وجوده هو الوجود الاصلى (عليك بالدقة والتأمل).

۴- هل يصح اطلاق لفظ «الموجود» على اللّه؟

هل يمكن اطلاق لفظ «الموجود» على اللّه؟ يبدو من تعبيره عليه السلام:

«موجود لا عن عدم»

إمكانية اطلاق هـذا اللفظ على الـذات الإلهيـة المقدسة، ولكن من المسـلم به أن المفهوم الأصـلى لهذا اللفظ الذى ورد بصـيغة اسـم المفعول والـذى يعنى أن الآـخر هو الـذى منحه الوجود، لاـ يصـدق على ذاته المقدسـة، فـالموجود هنـا يشـتمل على مفهوم آخر وهو يتضـمن معنى ذى‌الوجود؛ وهو المعنى الذى صـرّح به فى بعض شروح نهج البلاغة، بحيث يطلق الموجود تارة على الماهيات الممكنة التى اتصـفت بـالوجود، كمـا يطلق تـارة اخرى ويراد به أصل الوجود[۸۲]. وقـد ورد هـذا التعبير (الموجود) فى بعض روايـات أصول الكافى أيضاً.[۸۳]

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۶۹

القسم الرابع: تصدر الكلام بشأن خلق العالم

اشارة

«أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً بِلا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا وَلا تَجْرِبَةٍ اسْتَفادَها وَلا حَرَكَةٍ أَحْدَثَها وَلا هَمامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيها أَحالَ الْأَشْياءَ لِأَوْقاتِها وَلَأَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا عَالِماً بِهَا قَبْلَ ابْتِدائِها مُحِيطاً بِحُدُودِها وَانْتِهائِها عارِفاً بِقَرائِنِها وَأَحْنائِها».

الشـرح والتفسـير لقد تضـمنت بداية هذه الخطبة المهمة إشارات دقيقة عميقة المعانى إلى معرفة اللّه وصـفاته والتى تمثل أولى مراحل المعرفـة الإنسانيـة، ثم طرق عليه السـلام بعـد ذلك إلى خلق العالم وكيفية ابتداء الخلق والعجائب التى انطوت عليها السـماء والأرض، وإن كانت مكملة للأبحاث السابقة بشأن صفات اللّه. فقد قال عليه السلام:

«أنشأ[۸۴] الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً بلا روية[۸۵] أجالها[۸۶] ولا تجربة

استفادها ولا حركة أحدثه ولا همامة[۸۷] نفس اضطرب فيها.

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۷۰

فالإمـام عليه السـلام يبين البون الشاسع بين الخلق الإلهى والأعمال والأفعال التى تصـدر عن المخلوقات. فالإنسان مثلًا إذا أراد أن يقوم بعمـل ولم يكن لهـذا العمل من سابقـة وظن فكره وتأمله لينطلق إليه، وإن كان له سابقـة احتـذى بتجربته وتجارب الآخرين كما يعمد إلى خزينه الـذهنى والفكرى بشأن ترتيب مقـدمات العمل بغية التوصل إلى نتائجه وكيفية أدائه، وأحياناً يتيه فى ترديده وحيرته بحيث يحكم رأيه ويقوم بالعمـل على أساسه. وليس هنالك من سبيل لأى من هـذه الحالات والاحتمالات للـذات الإلهيـة المقدسـة، فما من حاجة إلى الفكر والتأمل ولا إلى التجارب السابقة ولا الحركة الفكرية اسـتناداً إلى ترتيب المقدمات والحصول على النتائج ولا الترديد والاضطراب فى الأعمال والقرارات. فليس وجود الشىء إلّاإرادته

«إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[۸۸]

. بعبـارة اخرى فان هـذه الاحتمالات الأربع إنّما تتعلق بحصيلة أعمال الأفراد الـذين له حظ محـدود من العلم والقـدرة، ولازمـة ذلك الحاجة وأفكار الآخرين وتجاربهم والشـعور بالاضـطراب والقلق. ولا سبيل لهذه الحالات إلى من خرج علمه وقدرته عن الحدود حين الخلق.

ويتّضح بجلاء ممّا قيل أنّ المراد بالحركة فى العبارة المذكورة إنّما هى حركة الفكر فى باطن النفس. ولكن هناك معنى آخر ساقه بعض المفسرون للحركة على أنّ المراد بها الحركة الجسمية الخارجية التى تعدّ من لوازم الأجسام واللَّه أعظم وأجل وأسمى من الجسم والجسمانيات. ويبدو أن المعنى الأول أنسب من الثانى؛ لأنّ الحالات الثلاث الاخرى التى وردت قبل وبعد العبارة المذكورة كلها مرتبطة باتخاذ القرار والتفكر والتأمل قبل الإتيان بالعمل.

وزبدة الكلام أنّ أفعال اللَّه ليست من جنس أفعال العباد وتختلف عنها تماماً، وذلک لأنّ

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۷۱

أفعاله سبحانه تستند إلى علمه المطلق بمصالح الأشياء ومفاسدها ومعرفته الكاملة بالنظام الأحسن للخلقة والقدرة التامة على جميع الأشياء، وإرادته قاطعة تامة لا لبس فيها ولا ترديد ولا تأمل وتفكير فى إفاضة الوجود على الموجودات، وإرادته كانت وما زالت نافذة فى الخلق.

ثم أشار عليه السلام إلى كيفية خلق الموجودات والتدبير الإلهى فى ظهور الأشياء طبقالخطط والبرامج المنظمة فقال عليه السلام:

«أحال الأشياء لأوقاتها»

أى أنّ اللَّه جعل لخلق كل موجود وقتاً معيناً (وذلک لأنّ خلقه قائم على أساس التدريج والتخطيط الزمانى بغية إيضاح عظمة تدبيره وقدرته الفريدة الفائقة). فلما فرغ من الإشارة إلى التصنيف الزمانى لخلقه الموجودات، تطرق عليه السلام إلى نظامها الخاص الداخلى والتركيبى فقال عليه السلام:

«ولام ۸۹] بين مختلفاتها».

وهذا من عجائب عالم الخلقة، فقد ألف اللَّه سبحانه بين مختلف الموجودات لتبدو متسقة وكأنّها شيء واحد، فقد لائم بين البارد والحار والظلمة والنور والموت والحياة والماء والنار. لقد خلق النار من الشجر الأخضر وخلق الإنسان والحيوان والنبات مركباً من مواد تامة الاختلاف ذات طبائع متنوعة.

وأبعد من ذلک فقد أوجد رابطة عميقة محكمة بين الروح والجسم وهما ينتميان إلى عالمين مختلفين تماماً؛ أحدهما مجرّد ونورانى وشفاف للغاية والآخر مادى وظلمانى وخشن للغاية. ثم قال عليه السلام:

«وغرز[۹۰] غرائزها».

فقد أودعها اللَّه سبحانه طبائعها ثم جعل لكل موجود طبيعته والهمه غريزته. وهذا فى الحقيقة من الحكمة الإلهية البالغة التى أودعت كل موجود صورته الطبيعية المنبعثة منه دون الحاجة إلى محرک خارجى، ولولا الدوافع الذاتية لهذه الموجودات لانقطعت استمرارية

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۷۲

الأشياء ولسادها الاضطراب والفوضى. وهناک اليوم تعبيران مختلفان بشأن هذه الدوافع الذاتية فى الإنسان أو سائر الموجودات، فأحياناً يطلق عليها اسم الفطرة وأنّ معرفة اللَّه مودعة فى الفطرة الإنسانية .. وأحياناً اخرى يعبر عنها بالغريزة. فمثلًا يقولون أنّ للإنسان غريزة جنسية، أو يقولون بأن لحركات الحيوانات عموماً صبغة غريزية. وهذا فى الواقع اصطلاح استعمله العلماء بهذا الشأن. أحدهما بشأن الدوافع التى تتسم بالبعد الفكرى (الفطرة) والآخر بخصوص تلک التى ليس لها بعداً فكرياً أو لها بعد عاطفى (الغريزة). إلّاأنّ كليهما يعنى الخلقة على أساس المعنى اللغوى.

ثم قال عليه السلام:

«والزمها[۹۱] أشباحها».

وقد تضاربت أقوال المفسرين- لنهج البلاغة- بشأن هذه العبارة، فذهب البعض ومنهم ابن أبى الحديد الذى قال ان الضمير المنصوب فى «الزمها» عائد إلى الغرائز؛ أى ألزم الغرائز أشباحها، أى أشخاصها لأنّ كلا مطبوع على غريزة لازمة، وبالنتيجة فان العبارة تأكيد على

ثبوت غرائز الموجودات. بینما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بالعبارة وجود التشخصات الخاصة لكل موجود، أى أنّ اللَّه سبحانه قد وهب كل موجود بعض الخصائص والمميزات، وبعد أن كان لها بعداً كلياً فى علم اللَّه فقد تبلورت فى الخارج على هيئة جزئيات وأشخاص وعلى ضوء هذا التفسير فان الضمير فى ألزمها يعود إلى (الإشياء) كما ذكر البعض كلا التفسيرين على نحو الاحتمال. ولكن لما كان التفسير الأول لا يتضمن انسجام الضمير وما ذهب إليه، إضافة إلى كون العبارة تتخذ طابع التأكيد لا بيان موضوع جديد، فانّ الذى يبدو أنّ التفسير الثانى أصح وأصوب من التفسير الأول. وتوضيح ذلك أن اللَّه تبارك وتعالى قد وهب كل موجود نوعين من الخصائص. الخصائص التى أودعت باطن ذاتها والتى عبر عنها الإمام عليه السلام بالغرائز، والخصائص فى الجوانب الظاهرية من قبيل الزمان والمكان وسائر الجزئيات والتى عبر عنها الإمام عليه السلام بقوله

«ألزمها أشباحها»

وعلى هذا

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۷۳

الأساس يكون الحق واستناداً لحكمته البالغة فى افاضته للخصائص الباطنية والظاهرية لكل موجود ليقوم بوظائفه الخاصة به على ما يرام ويتميز عن سائر الموجودات.

تنبيه

الهداية الفطرية والتكوينية لكافة موجودات العالم

لقد تضمنت عبارته عليه السلام إشارة لنقطة مهمّة طالما ورد التأكيد عليها كراراً فى القرآن: وهى أنّ لكافة موجودات عالم الخلقة والمادة تصنيف زمانى خاص وفى نفس الوقت الذى يحكمها التضاد والاختلاف إلّاأنّها منسجمة مع بعضها البعض ومكملة لها وأنّها مهدية على الدوام طبق نظمها الذاتى الباطنى والظاهرى وأنّها تنطلق كقافلة منتظمة ومنسجمة نحو هدفها النهائى دون أى تعثر وانحراف، بل تسير إليه على نحو الدقة دون أن تخطأه. فتفتح الزهور وتحمل أوراق الأشجار للفاكهة والثمار فى فصلى الربيع، ذبولهاوجفافها وتساقطها فى فصلى الخريف والشتاء، حركة الشمس فى الابراج الاثنى عشر، تعاقب الليل والنهار، دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وما اودع الإنسان من قوى باطنية وظاهرية كلها شواهد على الهداية التكوينية الإلهية، والتى صرّح بها القرآن على لسان موسى عليه السلام:

«رَبُّنا الَّذِی أَعْطى كُلَّ شَیءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى [۹۲]

وقال:

«فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها»[۹۳]

و

«وَ إِنْ

مِنْ شَیءٍ إِلّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلّا بِقَدَرٍ مَعْلُوم».[۹۴]

وهذا فى الحقيقة يمثل آية من آياته سبحانه فى عالم الوجود التى تجعل الإنسان أكثر معرفة بالهداية التكوينية والنظم والتصنيف الزمانى والتأليف بين الاضداد والمختلفات كلما تعمق فى التفكير بهذا العالم.

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۷۴

ثم قال عليه السلام:

«عالماً بها قبل ابتدائها محيطاً بحدودها وانتهائها عارفاً بقرائنها[۹۵]

وأحنائها[۹۶]»[۹۷].

والواقع أنّ هـذه العبـارات الثلاـث قـد جـاءت بمثابـة دليل أو إيضاح للعبارات السابقـة، وذلك لأنّ من أراد أن يخلق موجوداً فى وقته المنـاسب ويلاـئم بين الأشـياء المختلفـة ويودعهـا غرائزها الباطنيـة ولوازمها الظاهريـة فانه يحتاج إلى علم جامع كامل من جانب وإلى إحاطة وقدرة تامة وشاملة من جانب آخر. ولذلك قال عليه السلام:

«عالماً بها قبل ابتدائها ...»

ولاـ يقتصـر علمه على ابتـدائها وانتهائهـا فحسب، بل هو عالم محيط بلوازمها وعللها وآثارها أيضاً. ومن المفروغ منه أن من كان عالماً بهـذه الاـمور قـادراً على الإتيـان بهـا، فـان له أن يضع كل شـىء فى موضـعه ومكانه ويفيض على كل منها لوازمه ويسوقه فى مسيرته الوجودية إلى كماله المنشود.

تأمّلان

۱– هل يصطلح بالعارف على اللّه؟

لقد تحفظ بعض مفسرى نهج البلاغة على وصف اللّه سبحانه بالعارف. ويبدو أنّ هذا الترديد ينبع من أمرين: الأول ما أورده «الراغب» فى «المفردات» من أنّ المعرفة والعرفان تعنى إدراك الشـىء من خلال التفكر والتأمل والتدبر فى آثاره، أو بتعبير آخر إنّما يطلق اسم المعرفـة على العلم المحـدود الذى يتأتى عن طريق التفكير، ومن المسـلم به أنّ العلم الإلهى ليس كذلك. والثانى الحديث الذى روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«أنّ له (تعالى) تسعة وتسعين

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۷۵

اسماً من أحصاها دخل الجنة»

حيث يجمع العلماء على أنّ اسم العارف لم تكن واردة ضـمن هذه التسـعة والتسـعين إسـماً[۹۸] إلّاأن الدراسـة الإجمالية تفيد أنّ هذا الوصف قـد اطلق كراراً على اللّه فى الروايات الإسـلامية، وبالاضافـة إلى نهـج البلاغـة الذى تعرض هنا لهذا الأمر بصورة وصـفية وفى موضع آخر بصورة فعلية، فقد ورد هذا الوصف كثيراً فى الروايات التى نقلها أصول الكافى.[۹۹]

ويشـير هذا الأمر إلى أنّ مفردة المعرفة وان كانت فى الأصل تعنى المحدودية أو الحاجة إلى التفكر والتدبر، غير أنّها اتسعت أثر كثرة الاستعمال حتى صارت تطلق على كل نوع من العلم والمعرفة، وإن لم تكن وليدة الفكر والتدبر.

أمّا بشأن الروايات المرتبطة بالتسع وتسـعين اسـماً للّه، فينبغى القول أنّ هذه الرواية لا تقصـر الأسـماء على تسـعة وتسـعين أبداً، بل هى تشير فى الحقيقة إلى صـفات اللّه وأسمائه الحسنى، ولذلك صرّحت بعض الروايات بألف اسم للبارئ سبحانه، وأخيراً أى دليل أعظم من أن يستفيد الإمـام على عليه السـلام فى نهـج البلاغـة من هـذا الاـسم أو مشـتقاته بالنسـبة للّهوهو الأـعرف والأـعلم أكـثر من غيره بخصوص أسماء اللّه وصفاته.

۲– كيفية علم اللّه بالموجودات قبل ايجادها

إنّ أحد أعقد المباحث الفلسفية والعقائدية هو بحث «علم اللّه بالموجودات قبل ايجادها».

فاننـا نعلم بأنّ اللَّه سبحانه عالم بالحوادث التى ستقع، وهـذا ما ورد التأكيـد عليه فى الآيات القرآنيـة الشـريفة، وهو ما ورد فى العبارة المـذكورة، ومن جـانب آخر فـان علم اللَّه ليس من قبيل «العلم الحصولى»؛ أى ليس هنالك من انعكاس للصورة الذهنيـة للأشياء فى ذاته؛ وذلك لأنّه ليس له من «ذهن» كالمخلوقات، فعلمه لا يتأتى من خلال انعكاس صور الموجودات، بل

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۷۶

علمه «علمحضورى»؛ أى أنّ المخلوقـات حاضـرة عنـده، ونعلم أن ليس هنـاك من معنى للعلم الحضورى بشأن الأشـياء التى لم تظهر للوجود؛ بل هـذا الإشـكال وارد حتى بخصوص الموجودات التى زالت وانعدمت فى الماضـى؛ فان كان لنا من علم بها بفضل صورها الذهنية التى تبلورت فى أعماقنا وأفكارنا. ولكن كيف لمن ليس له ذهن وصور باطنية وليس من سبيل للحوادث إلى ذاته المقدسة أن يحيط بها؟! على سبيل المثال: لقد زالت صورة فرعون ورهطه وانقطع تأريخهم، وليس لنا سوى استحضار صورتهم فى أذهاننا، ولكن مـا كيفيـة علم اللَّه به وهو ليس من قبيـل علمنـا؟ فهـل يمكن القول بأنه ليس عالماً بالماضـى؟ أم ليس له من علم بالمستقبل؟ أبـداً لا يمكن ذلك! إذن إن كان عليماً فما كيفية هذا العلم؟

لقد أثارت هذه المسألة الجدل فى أوساط الفلاسفة والعلماء فقدموا عدّة أجوبة بهذا الشأن، سنقتصر هنا على الإشارة إلى بعضها:

۱- إنّ الله كان ومازال عالماً بكافة الأشياء بذاته التى تعتبر علة لجميعها، وبعبارة اخرى فانّ لذاته أعظم الحضور لدى لذاته، وهذا العلم بذاته هو علم إجمالى بكافة حوادث العالم وموجوداته قبل الايجاد وبعده. وتوضيـح ذلك أننا لو علمنا على نحو الدقة بعلة الأشياء فان مثل هذا العلم سيقود بالنتيجة إلى العلم بنتائجها ومعلولاتها؛ وذلك لأنّ كل علة تشتمل على كافة كمالات المعلول وزيادة، ولما كان اللَّه علـة جميع الأشـياء ويعلمهـا بـذاته ويحيط بها، وفى الواقع فان هـذا نوع من الكشف التفصـيلى تجاه جميع الأشياء من خلال العلم الاجمـالى. ويمكن توضيـح هـذا الكلام بالقول: إنّ الحوادث الماضـية لم تنعـدم بالمرة أبـداً وإنما لها وجود وحضور فى عمق حادث الحاضـر. كما أنّ الحوادث المستقبلية ليست معزولة عن الحوادث الحاضرة فهى مرتبطة بها ونابعة منها. وعلى هذا الأساس فانّ الماضى والحاضـر والمسـتقبل إنّمـا يوجـد سلسـلة من العلـل والمعاليـل بحيث أنّ العلم باحـدى حلقاتها انّما يعنى العلم بما قبلها وما بعـدها من حلقات. على سبيل المثال لو علمنا بدقّة الأوضاع الجوية للكرة الأرضـية والعوامل المؤدية لظهور الأجواء الفعلية وأحطنا بكافة جزئيات وروابـط عللهـا ومعاليلهـا، فاننـا سنسـتطيع التعرف بدقـة على أوضـاع الأجواء لما قبل أو بعـد آلاف السـنين؛ وذلك لأنّ ملف حوادث الماضى والمستقبل موجودة فى الحاضر. فاليوم يحمل انعكاساً دقيقاً عن الأمس،

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۷۷

والغد عن اليوم والعلم التام بجزئيات اليوم بمعنى العلم التام بالحوادث الماضية والمستقبلية.

فاذا التفتنا إلى هـذه الحقيقة وهو أنّ اللَّه سبحاه المصدر الأصلـى لجميع حوادث الأمس واليوم والغد وأنّ له العلم بذاته المقدسة، فان علينـا أن نقر بأنّه عالم أيضاً بحوادث المسـتقبل والحاضـر والماضـى. وبالطبع فانّ آثار كل موجود مهما كان إنّما تتبع إرادة اللَّه وأمره، إلّاأنّ سنته جرت فى منح الموجودات القدرة على القيام بفعاليتها، فاذا شاء جردها منها.[۱۰۰]

۲- الإجابـة الثانية التى يمكن إيرادها فى هذا المجال أنّه يمكن لعلمنا تصور الأمس واليوم والغد، وذلك لأننا موجودات محدودة. أمّا بالنسبـة للَّهالذى لا حـد لذاته فليس هنالك من مفهوم للأمس واليوم والغد لديه، بل إنّ كافة الأشـياء والحوادث حاضـرة عنده بجميع جزئياتها وخصوصياتها.

ويمكننا الاستشهاد بمثال على هذا الكلام:

افرض أنّ هنـاك فرداً فى زنزانـة مظلمـة ليس لهـا سوى نافـذة صـغيرة على الخـارج. فاذا مرت قافلـة من الجمال من هـذه النافـذة فانه سيشاهـد فى بدايـة الأـمر رأس وعنق جمل واحـد ثم يرى رجليه وذنبه ومن ثم سائر الجمال فى هـذه القافلـة. فصـغر النافـذة هو الـذى يشـكل السبب الذى يجعله يعيش حالة من الماضى والحاضر والمستقبل، بينما يختلف هذا الموضوع تماماً بالنسبة لذلك الفرد الواقف

على سطح فى محيط مكشوف خارج تلك الزنزانة وينظر إلى الصحراء، فهو يرى قافلة الجمال معاً خلال حركتها.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۷۹

القسم الخامس: كيفية بداية خلقة العالم

اشارة

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ وَسَكَائِك الْهَوَاءِ».

الشرح والتفسير لقد تناول الإمام عليه السلام بداية انبثاق الخلق فقال عليه السلام:

«ثم أنشأ سبحانه فتق ۱۰۱] الأجواء[۱۰۲]»

وهو يشير إلى شق الطبقات الجوية، ثم فتح جوانبها وأطرافها

«وشق ۱۰۳] الأرجاء[۱۰۴]»

وأوجد الفضاء والهواء

«وسكائك ۱۰۵] الهواء[۱۰۶]»

. فقد أشير إلى فتق الأجواء ثم ايجاد أطرافها وجوانبها

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۸۰

ومن ثم طبقاتها. وتشير العبارة بأجمعها إلى أنّ الخلق الأول فى عالم المادة كان خلق فضاء العالم، الفضاء الذى يسعه استيعاب الكرات السماوية والمنظومات وما إلى ذلك، بالضبط كالصفحة الورقية التى يعدها الرسام الماهر مسبقاً لرسم ما يشاء. ومن هنا يتضح أنّ كلمة «ثم» فى العبارة لا ـ تفيد معنى الترتيب التكوينى، بل تفيد الترتيب والتأخير البيانى؛ لأنّه قد أشير فى العبارات السابقة إلى خلق أنواع الموجودات والكائنات، ومن المتيقن ألا تكون قد أعقبت بخلق الفضاء ثم كريات السماء والأرض. وفى الواقع فقد تضمنت العبارات السابقة أبحاثاً بشأن خلق الموجودات بينما تكفلت هذه العبارة شرح تلك الأبحاث وتفصيلها. على كل حال فانّ ظاهر هذه العبارة تفيد أن الفضاء أول مخلوق فى عالم المادة، غير أنّ هناك ترديد لدى بعض الفلاسفة والمتكلمين بشأن الفضاء فى أنّه أمر وجودى أم عدمى؟ فهناك من يعتقد كما أنّ الزمان قد ظهر بعد انبثاق الموجودات وحركتها (لأنّ الزمان هو وحدة الحركة) فان المكان هوالآخر قد حصل بعد ظهور الأجسام المختلفة ومقارنتها مع بعضها. والحال يتعذر علينا تصور عدم وجود مكان مطلق إثر ظهور أول جسم إلى الوجود. فلو أردنا أن نبنى عمارة ذات عدّة طبقات فاننا نحتاج إلى فضاء تشغله تلك العمارة كحاجتنا إلى مكان على الأرض نبنيها عليه، وإذا أردنا أن نبنى عمارة أكبر فانّها ستحتاج إلى فضاء أوسع. والخلاصة فاننا نؤمن بما أورده الإمام عليه السلام بقوله

«ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء وشق الأرجاء وسكائك الهواء»

ونوكل الاستغراق فى هذا البحث إلى محله.

تأمّل: هل العالم المادى حادث؟

هناك كلام كثير يدور بين الفلاسفة والعلماء بشأن العالم فهل العالم المادى حادث أم قديم أزلى؟ فالبعض يرى أنّه قديم وأزلى بينما يعتقد الأعم الأغلب أنّه حادث. امّا دليل القائلين بالأزلية والقدم فانما يستند إلى الذات الإلهية المقدسة القديمة وكل ما سواها فهو

حادث ومخلوق وتابع لـذاته المقدسـة. وأمّا أنصار عقيدة حدوث العالم فأحياناً يسـتدلون بالأدلة الفلسـفية على مدعاهم وأحياناً اخرى بالادلة العلمية. فبرهان الحركة والسكون من الأدلة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۸۱

الفلسـفية المعروفة التى تقول بأن عالم المادة دائماً فى حالة حركة وسكون، والحركة والسـكون من «الامور الحادثة» وما كان معروضاً للحركـة والسـكون فهو حـادث أيضاً. ويمكن ايراد هـذا الـدليل بتعبير أوسع وأشـمل وهو أنّ عالم المادة دائماً فى حالـة تغيير، والتغيير والتبدل علامة على الحدوث، لأنّه لو كان أزلياً وهو مسرح على الدوام للتغير والتبدل فان ذلك سيكون جمع بين الحدوث والقدم، أى لابـدّ أن نرى التغييرات وهى من الامور الحادثـة أزلية، وهذا تناقض صـريح. ويتضح هنا أكثر فأكثر اقرار هذا الدليل للحركة الجوهرية التى تقول بأنّ الحركـة كامنـة فى ذات الأشـياء، بل هى عين ذاتها؛ لأنّ وجود الحركـة هذا الأمر الحادث فى الأزل لا معنى له. ونترك دراسـة وتحليل هـذا الـدليل إلى الأبحاث الفلسـفية الواردة بهـذا الشأن. الدليل العلمى فهو الدليل الذى يقول بأنّ العالم فى حالة تآكل دائميـة وقـد قامت الأدلة والبراهين العلمية التى تثبت ذلك، ويصدق هذا الأمر على التيارات والثوابت والأرض وما كان على سـطحها. فالتآكـل المسـتمر دليل على أن هناك نهايـة وخاتمـة لعالم المادة. لأنّ التآكل لا يمكن أن يسـتمر إلى ما لا نهايـة، فاذا قبلنا أنّ للعالم المادى نهاية، يجب أن نذعن بأن له بداية. لأن الشـىء لا يكون أزلياً مالم يكن أبدياً. فالأبدية تعنى اللانهاية، والشـىء اللامنتهى ليس بمحدود، وإذا كان ليس بمحدود فلا بداية له، وعليه فالشـىء إذا لم يكن أبدياً سوف لن يكون أزلياً. ويمكن ايراد هذه الكلمة بصيغة اخرى وهى أنّ العالم لو كان أزلياً وفى حالـة تآكل، فلابـدّ أن يكون هـذا التآكل قد أنهى عمر العالم لأنّ تناهى التآكل يساوى العدم. وبتعبير آخر على ضوء آخر النظريات العلمية أنّ العالم المادى يسير نحو الروتينية. فالذرات تتلاشى تدريجياً وتتحول إلى طاقة، والطاقة تسير نحو الروتينية (بالضبط كشعلة النار التى توقدها فى غرفة فتتحول مادة النار إلى حرارة فتنتشر هذه الحرارة تدريجياً فى وسط الغرفة حتى تكون بالتالى شيئاً روتينياً لا أثر له). وكلما مرت لا نهاية الزمان على العالم ستحصل هذه الحالة؛ أى تحول كافة المواد إلى طاقة وبالتالى تتحول هذه الطاقة الفعالة إلى طاقة روتينية وباهتة.

لكن لاـ يعنى هـذا الكلاـم أنّ زماناً قـد مرّ ولم يكن للّهمن خلق وأنّ ذاته الفياضـة قـد توقفت عن هـذا الفيض، بل بالعكس فان عملية الخلق مستمرة، إلّاأنّ المخلوقات كانت دائماً تشـهد حالة التغير والتبدل وأنّ جميع هذه المخلوقات تابعة لذاته المقدسة، أو بتعبير آخر كان له

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۸۲

حدوثاً ذاتياً لا زمانياً. وذلك لعدم إمكانية تصور الحدوث الزمانى للجميع. وما ورد فى الرواية التى قالت:

«كان اللّه ولا شىء معه»[۱۰۷]

إنّما يراد بها أنّه لم يكن شىء مصاحباً لذاته بل مخلوقاً لها (لابدّ من التأمل).

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۸۳

القسم السادس: الماء كان أول مخلوق

«فَأَجْرَى فِيهَا ماءً مُتَلاطِماً تَيَّارُهُ مُتَراكِماً زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعاصِفَةِ وَالزَّعْزَعِ الْقاصِفَةِ فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ، الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِها فَتِيقٌ وَالْماءُ مِنْ فَوْقِها دَفِيقٌ».

الشـرح والتفسـير ما يستفاد من كلمات أمير المؤمنين على عليه السـلام ولاسـيما فى هذه العبارات وما سيتبعها فى توضـيح كيفية خلق العالم هو أنّ اللّه سـبحانه قد خلق ابتداءً الماء– أو بتعبير آخر– مائعاً يشـبه الماء ثم حمله على ريح عاتية شديدة، وقد أمرت هذه الريح

أن تحفظ هذا المائع وتحول دون تشتته وتفرقه. ثم هبت ريح شديدة اخرى بهدف ايجاد أمواج فى ذلك المائع العظيم والواسع فجعلت الريح تلك الأمواج أعظم وأشد ثم دكتها على بعضها، ثم تموج ذلك المائع تمويجاً شديداً حتى ارتفع فى الفضاء، فخلق منه السموات السبع. جدير بالذكر أنّ الماء والريح والعاصفة وما شابه ذلك- فى ذلك الوقت الذى لم يكن فيه ماء ولا ريح ولا عاصفة- كناية عن موجودات شبيهة بما نراه اليوم من ماء وريح وهواء، وذلك لأنّ واضعى المفردات قد جعلوا هذه الكلمات لمثل هذه الامور، فلم يضعوا أية مفردة لما حدث أوائل خلقة العالم. وان أدنى تأمل يجعل من الممكن تفسير ما ورد من عباراته عليه السلام على ضوء آخر الفرضيات والنظريات التى طرحها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، ولا نقول إنّ هذا هو مراد الإمام عليه السلام على سبيل القطع، بل نحتمل أن يكون تفسيره كذلك.

فآخر الفرضيات التى توصل إليها العلماء بشأن بداية ظهور العالم، هو أنّ العالم برمته فى

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۸۴

البداية كان بهيئة كتلة غازية عظيمة شبيهة بالمائع، كما يمكن الاصطلاح عليها باسم «الدخان»، أو بتعبير آخر كانت الطبقات العليا من العالم دخاناً، وكان هذا الدخان يتخذ شكل المائع بفعل حالة الضغط كلما إقترب من مركز العالم.

أمّا الشىء الذى تكفل بحفظ تلك الكتلة العظيمة للغاية إنّما تمثل بالجاذبية التى تحكم جميع ذرات العالم، وقد سلطت هذه الجاذبية على ذلك الغاز المائع فشدته وحالت دون خروجه من حدوده. ثم ابتدأت هذه الكتلة العظيمة بالدوران حول نفسها (أو أنّها كانت تدور حول نفسها منذ البداية) وهنا ظهرت قوة الطرد المركزية.[۱۰۸] وقد أدت قوة الطرد المركزية هذه بتلك الكتلة العظيمة من ذلك الغاز المضغوط أن تقذف فى الفضاء الخالى، وعلى حد تعبير نهج البلاغة كما سيأتى فى العبارات التالية من هذه الخطبة

«فأمرها بتصفيق الماء الزخار وإثارة موج البحار فمخضته مخض السقاء وعصفت به عصفها بالفضاء»

ثم ظهرت منها المنظومات والكواكب والكرات الصغيرة والكبيرة للعالم؛ الأمر الذى نعته القرآن ونهج البلاغة بالسموات السبع. طبعاً كل ما نريد أن نقوله- دون الاصرار على هذا الموضوع- هو الانسجام القائم بين عبارته عليه السلام والفرضيات والنظريات العلمية الواردة بذات الشأن، حيث يمكن استيعاب كلام الإمام على عليه السلام على ضوء النظريات والاطروحات العلمية المعاصرة بخصوص ظهور السموات والارضين والكواكب والاجرام السماوية وسائر الكرات. وننتقل الآن إلى أصل عبارته، فقد قال الإمام عليه السلام:

«فاجرى فيها ماء متلاطماً[۱۰۹] تياره ۱۱۰]».

«التلاطم» بمعنى اصدام الأمواج ببعضها، والتيار يعنى الموج، ولا سيما الأمواج التى يقذفها الماء خارجاً، أفليس هذا الماء المتلاطم والمتدفق هو تلك الغازات الأولية المضغوطة التى تمثل المادة الأولية للعالم على ضوء نظريات العلماء واطروحاتهم؟ ثم أكد الإمام على عليه السلام على شدة

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۸۵

تدفق ذلك الماء وعظم تلاطمه فقال:

«متراكم ۱۱۱] زخاره ۱۱۲]».

ثم أضاف عليه السلام:

«حمله على متن الريح العاصفة[۱۱۳] والزعزعة[۱۱۴] القاصفة[۱۱۵]».

فالعاصف بمعنى الضاربة والكاسرة والزعزع بمعنى الضطربة والشديدة الهبوب وكذلك القاصفة التى تهلك الناس بشدة هبوبها، وكأنّ كل هذه المفردات تأكيدات متتالية لبيان قوة تلك الريح وسعتها وشموليتها. ثم امرت هذه العاصفة العظيمة المرعبة بحفظ أجزاء الماء مع بعضها البعض ضمن حدودها

«فأمرها برده، وسلطها على شدة[۱۱۶]، وقرنا إلى حده».

أو ليست هذه العاصفة العظيمة والشديدة إشارة إلى أمواج الجاذبية التى سلطها اللّه على جميع ذرات عالم المادة والتى كانت سبباً لتماسك أجزائها وعدم تشتتها وتناثرها، وتقييدها بالحركة فى إطار حدودها؟ فهل هناك من تعبير أروع وأدق من الريح العاصفة القاصفة لتبيين الأمواج العظيمة للجاذبية فى ظل تلك الأجواء.

وقد حصلت كل هذه الامور و

«الهواء من تحتها فتيق ١١٧] والماء من فوقها دفيق ١١٨]»

والفتيق من مادة فتق بمعنى المفتوق؛ المفتوح، ودفيق من مادة دفق بمعنى الحركة السريعة.

نفحات الولايه، ج ١، ص: ٨۶

نعم إنّ هذه الأمواج المتدفقة انّما تحد بواسطة تلك الريح العاصفة، فتحول دنها ودون تجاوزها لحدودها- وهنا يبرز هذا السؤال: كيف تظهر تلك الأمواج المتدفقة على سطح الماء رغم وجود تلك الريح العاصفة الحائلة والمانعة، فالمعروف أنّ تلك الأمواج عادة ما تظهر بفعل حركة الرياح والعواصف، رغم أنّ الرياح هنا تلعب دور المانع والحائل لتلك الأمواج، إذن ما العامل الذى يقف وراء حركة الأمواج.

يبدو أنّ العامل الذى يقف وراء ظهور هذه الأمواج هو شيء كامن فى باطنها بحيث يجعله يتلاطم على الدوام. ولكن ليست لدينا رؤية واضحة لماهية هذا العامل، إلّاأنّه ينسجم تماماً والنظريات التى أوردها العلماء المعاصرون بهذا الشأن، فهم يقولون أن انفجارات نووية متواصلة وقعت فى جوف الغازات الاولى ذات الطبيعة المائعية، وهى هذه الانفجارات التى تحدث اليوم فى الشمس. فهذه الانفجارات العظيمة قضت على سكون واستقرار هذه الغازات المائعية وأوجدت تلك التلاطمات فى أمواجها المتدفقة.

ولابد لنا من متابعة المقطع الآخر لاكمال هذا القسم فنقف على الصورة الدقيقة التى رسمها الإمام عليه السلام لإنبثاق الخليقة.

نفحات الولايه، ج ١، ص: ٨٧

القسم السابع: دور العواصف فى انبثاق الخلقة

اشارة

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّها وَأَدامَ مُرَبَّها وَأَعْصَفَ مَجْراها وَأَبْعَدَ مَنْشَأَهَا فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْماءِ الزَّخّارِ وَإِثارَةِ مَوْجِ الْبِحارِ فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقاءِ وعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَها بِالْفَضاءِ. تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ وَساجِيَهُ إِلَى مائِرِهِ حَتَّى عَبَّ عُبابُهُ ورَمَى بِالزَّبَدِ رُكامُهُ فَرَفَعَهُ فِى هَواءٍ مُنْفَتِقٍ وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَواتٍ جَعَلَ سُفْلاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً وعُلْياهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَسَمْكاً مَرْفُوعاً بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُها وَلا دِسارٍ يَنْظِمُها ثُمَّ زَيَّنَها بِزِينَةِ الْكَواكِبِ وضِياءِ الثَّواقِبِ وَأَجْرَى فِيها سِراجاً مُسْتَطِيراً وَقَمَراً مُنِيراً فِى فَلَكٍ دائِرٍ وَسَقْفٍ سائِرٍ وَرَقِيم مائِرٍ».

الشرح والتفسير كما أوردنا فانّ هذه الكلمات امتداد لعباراته السابقة ونتجه بادئ ذى بدء إلى فهم التعبيرات الدقيقة والعميقة فى كلام الإمام عليه السلام دون اصدار حكم بشأنها، ثم نتحدث بعد ذلك عن مدى انسجامها مع آراء ونظريات العلماء المعاصرين بخصوص مسألة خلق العالم.

فالإمام يشير فى كلامه إلى عدّة مراحل. فقال عليه السلام:

«ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم ١١٩] مهبها[١٢٠]».

فالريح العقيم هى الريح الخالية من السحب التى تؤدى إلى نزول المطر، وبالتالى فهى لا

نفحات الولايه، ج ١، ص: ٨٨

تلقح سحاباً ولا شجراً. ثم وصفها عليه السلام بملازمتها للماء وعدم انفصالها عنه فقال:

«وأدام مربّها[۱۲۱]»

خلافاً للرياح العادية التى تهب أحياناً وتسكن أحياناً اخرى ريح شديدة عاتية (تختلف كلياً عن الرياح والعواصف الاعتيادية) فقال عليه السلام:

«وأعصف ۱۲۲] مجريها».

وهى ريح تهب من مكان سحيق وليست على غرار الريح الاعتيادية التى تنطلق من أماكن قريبة (وأبعد منشاها).

ثم أشار فى المرحلة الثانية إلى مهمّة هذه الرياح

«فامرها بتصفيق ۱۲۳] الماء الزخار، واثارة

موج البحار»

فقامت هذه الريح العاتية العظيمة بمخض الماء كقراب السقّاء

«فمخضته ۱۲۴]

مخض السقاء». «وعصفت به عصفها بالفضاء»

ثم قال عليه السلام:

«ترد أوله إلى آخره وساجيه ۱۲۵] إلى مائره ۱۲۶]».

وقال عليه السلام فى المرحلة الثالثة بشأن تراكم المياه وارتفاعها

«حتى عب عبا[۱۲۷]»

بمعنى ارتفع أعلاه

«ورمى بالزبد ركامه ۱۲۸]».

ثم قال عليه السلام فى المرحلة الرابعة:

«فرفعه فى هواء منفتق وجو

منفهق ۱۲۹]»

فخلق منها تبارك وتعالى السموات السبع

«فسوى منه سبع سموات»

حيث جعل الأقسام السفلى، كالأمواج المكفوفة الممسوكة والطبقات العليا كالسقف المحفوظ

«جعل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۸۹

سفلاهن موجاً مكفوفاً[۱۳۰] وعلياهن سقفا محفوظاً وسمكاً[۱۳۱] مرفوعاً».

ثم أشار عليه السلام إلى عدم وجود الأعمدة التى تحملها ولا المسامير التى تحكم وثاقها فقال:

«بغير عمد[۱۳۲] يدعمها[۱۳۳] ولا دسار ينظمها[۱۳۴]»

وأخيراً تأتى المرحلة الأخيرة- الخامسة-

«ثم

زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب ۱۳۵]»

. ثم أشار عليه السلام إلى القمر والشمس وتحرك كل منهما ضمن مداره

«واجرى فيها سراجاً مستطيرا[١٣٦] وقمراً منيراً فى فلك دائر وسقف سائر ورقيم ١٣٧] مائر».

تأمّلات

١- دراسة العبارة على ضوء الفرضيات المعاصرة

للعلماء المعاصرين نظريات متعددة لا تتجاوز حدود الفرضيات بشأن خلق العالم؛ حيث لم يكن هناك مخلوق قبل مليارات السنين ليشهد كيفية ظهور العالم، مع ذلك هناك بعض الشواهد والقرائن التى تؤيد صحة بعض هذه الفرضيات. امّا العبارات التى ساقها الإمام عليه السلام فهى تنطبق تماماً على بعض الفرضيات المعروفة، سنتعرض لها الآن دون الاصرار على أنّ الإمام عليه السلام إنّما أراد هذه الفرضيات. فكما أسلفنا فى الأبحاث السابقة أن العالم كان فى البداية كتلة ضخمة من الغازات المتراكمة الكثيرة الشبه بالمائعات بحيث يصح نعتها بالماء، كما يصح

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٩٠

الاصطلاح عليها بالدخان على ضوء التصريحات القرآنية. وقد سلط خالق العالم عليه قوتين عظيمتين، حيث عبر عنهما فى العبارة المذكورة بالريح:

قوة الجاذبية التى حفظته متماسكاً وحالة دون تشتته وزواله، والقوة الدافعة التى تدفعه إلى الخارج إثر الحركة الدورانية حول نفسه وبفعل قوة الطرد المركزية، وهذه هى الريح والعاصفة الثانية. فاذا أقررنا بالحركة الدورانية للعالم الأول على أنّها كانت متذبذبة تشتد أحياناً وتنخفض أحياناً اخرى فمن الطبيعى أن تكون قد ظهرت تلك الأمواج العظيمة فى تلك الكتلة الغازية العظيمة الشبيهة بالمائع بحث تراكمت تلك الأمواج على الدوام ثم أخذت بالتساقط.

وفى الختام فان الطبقات الأكثر خفة والأقل وزناً- والتى ورد التعبير عنها بالزبد من قبل الإمام عليه السلام- قد قذف بها نحو الفضاء الخارجى (أنّ مفردة «الزبد» تطلق على ما يطفو من الماء، وكذلك على الزبدة التى تطفو لخفتها على سطح محتويات القربة).

وبهذا فقد اشتدت الحركة الدورانية، فانفصلت أجزاء كبيرة من هذه الكتلة العظيمة وانطلقت إلى الفضاء، فما كان منها أكثر شدة بلغ نقاطاً مرتفعة وأمّا ما كان منها أقل شدة فقد بلغ نقاطاً أوطئ. لكن الأجزاء التى بلغت نقاطاً مرتفعة أصبحت على هيئة سقف محفوظ وذلك بفعل قوة الجاذبية التى لم تدعها تفلت تماماً، بينما أصبحت الأجزاء السفلى الأقل ضغطاً موجاً مكفوفاً حسب تعبير الإمام عليه السلام.

ثم ظهرت فى ذلك الفضاء المترامى السموات السبع (التى سنتناولها بالحديث لاحقاً) دون أن تكون هناك عمد ترفعها ومسامير تنظمها وتحكم وثاقها، ولم تستقر فى مواقعها وتتزن فى حركتها ضمن مداراتها سوى من خلال تعادل القوتين الجاذبة والدافعة. كان الفضاء آنذاك مملوءاً بالكرات الصغيرة والكبيرة، فانطلقت قطع متناثرة من هذه الأمواج إلى الخارج، وقد انجذبت القطع الصغيرة تدريجياً نحو الكرات الكبيرة بحكم الجاذبية فأصبح الفضاء وأضاءت النجوم وزينت بالكواكب وأشرقت الشمس واضىء القمر وأخذت الأجرام تتحرك ضمن أغلفتها ومداراتها.

لقد ورد فى بعض الفرضيات بشأن ظهور العالم أنّ العامل الذى أدى إلى انفصال المنظومات والكرات السماوية عن الكتلة الاولى إنّما يعزى إلى الانفجار الداخلى العظيم والذى

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٩١

ظل سببه مجهولًا غامضاً لحد الآن. فالقى الانفجار المذكور بأجزاء عظيمة من الكتلة الغازية الاولى الشبيهة بالمائع إلى الفضاء وكون الكرات والمنظومات ولعل قوله عليه السلام:

«ثم انشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها وأدام مربها وأعصف مجراها وأبعد منشأها فامرها بتصفيق الماء الزخار ...»

إشارة إلى هذا الانفجار العظيم الذى انطلق من أعماق المادة الاولى. لكن وكما قلنا سابقاً فان الهدف من هذا الكلام هو ايضاح مدى انسجام عبارات الخطبة مع الفرضيات الواردة بشأن ظهور العالم ولا يمثل إصدار حكم بهذا الشأن أبداً.

٢- كيفية ظهور العالم

تعد مسألة كيفية ظهور العالم من أعقد المسائل التى واجهها العلماء والمفكرون. فالمسألة المذكورة تعود إلى ماقبل مليارات السنوات، ولعلها القضية التى لم تطرق فكر أحد؛ الأمر الذى حير كبار العلماء والمفكرين رغم الجهود المفنية والتحقيقات والفرضيات الضخمة التى توصلوا إليها فى هذا المجال وبالتالى لم يكن أمامهم سوى الاعتراف بالعجز عن سير تحور هذه المسألة. إلّاأنّ روح حب الاستطلاع والتعرف على المجهول التى تسود الفكر البشرى لم تدعه يقف مكتوف الايدى حيال هذه القضية والصمت إزائها. فالواقع أنّ لسان حال العلماء هو إننا وإن عجزنا عن بلوغ كنه هذا الموضوع، غير أننا نرغب برسم صورة فى أذهاننا من شأنها إشباع حب تطلعنا واقتحامنا لهذا الأمر. وبالطبع فانّ الآيات القرآنية والروايات الإسلاميه قد اكتفت بإشارات مقتضية بالنسبة لهذا الموضوع؛ الأمر الذى لا يؤدى إلّاإلى رسم صورة باهتة فى الذهن لا ترقى إلى إماطة اللثام عن طبيعتها وكنه حقيقتها. على كل حال فان العبارات الواردة فى هذه الخطبة انّما تتناغم وما ورد فى خطبته رقم ٢١١ التى قال فيها عليه السلام:

«وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعته أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبساً جامداً ثم فطر منه اطباقا ففتقها سبع سموات، بعد ارتتاقها».

من جانب آخر فقد شحنت الروايات الإسلامية بعدة أبحاث بهذا الشأن، والواضح أنّ أغلب هذه الروايات تنسجم وخطب نهج البلاغة الواردة بهذا الخصوص مع فارق جاء فى

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۹۲

أغلبها وهو تصريحها بأنّ الزبد أول شيء ظهر على الماء ثم انبعث منه البخار أو الدخان الذى كوّن السموات.[١٣٨]

ولكن وكما أوردنا آنفاً فانه ليس هنالك من تضارب بين هذه العبارات، لأنّ المادة الاولى على الأقوى كانت عبارة عن غازات مائعية مضغوطة يصدق عليها وصف الماء والبخار والدخان بالنظر لمراحلها المختلفة. والجدير بالكذر هنا هو أنّه ليس هناك من تضاد بين الروايات التى صرّحت بأنّ أول ما خلق اللّه الماء، أو الشيء الأول الذى خلقه اللّه كان نور النبى صلى الله عليه و آله أو العقل؛ وذلك لأنّ بعض الروايات تحدثت عن خلق عالم المادة بينما تحدث البعض الآخر عن خلق عالم المجردات والأرواح. كما يتبيّن عدم وجود التناقض بين ما أوردناه من مضامين الروايات وما صرّحت به الآية ١١ من سورة فصلت التى قالت:

«ثم استوى إلى السماء وهى دخان».

٣- الفرضيات السائدة بشأن العالم أبان نزول القرآن

الطريف أنّه كانت هناك نظريتين بشأن ظهور العالم فى الوسط الذى نزل فيه القرآن- أو بعبارة أدق فى العصر الذى نزل فيه القرآن-: الاولى نظرية «بطليموس» التى سادت المحافل العلمية لخمسة عشر قرناً واستمرت حتى أواخر القرون الوسطى. وعلى ضوء هذه النظرية

فانّ الأرض كانت مركز العالم وتدور حولها تسعة أفلاك؛ وهى أفلاك تشبه الأغطية البصلية وشفافة وبلورية ومتراكمة بعضها، وكان كل كوكب سيّار (عطارد، الزهرة، المريخ، المشترى وزحل) فى فلك، كما كان لكل من الشمس والقمر فلكهما. واضافة إلى هذه الأفلاك السبع، هناك فلك يرتبط بالكواكب الثابتة (المراد بالكواكب الثابتة هى تلك الكواكب التى تطلع معاً وتغرب معاً دون أن تغير مواقعها فى السماء بخلاف الكواكب الخمس التى ذكرناها). وبعد الفلك الثامن؛ أى فلك الثوابت هناك فلك الاطلس الذى ليس له أى كوكب، امّا مهمته فهى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۹۳

سوق العالم العلوى للدوران حول الأرض، وهو الفلك الذى يسمى أيضاً بفلك الأفلاك.

أمّا الفرضية الاخرى فهى الفرضية التى تستمد قوتها من فرضية بطليموس بشأن العالم وتفسره على أساس العقول العشرة.

وعلى ضوء هذه النظرية التى طرحها جمع من الفلاسفة اليونانيين فان اللَّه لم يخلق بادئ ذى بدء سوى شيء واحد هو العقل (الملك أو الروح العظيمة والمجردة التى اصطلح عليها بالعقل).

وقد خلق هذا العقل شيئين هما العقل الثانى والفلك التاسع، ثم خلق العقل الثانى العقل الثالث والفلك الثامن، وهكذا خلق عشرة عقول وتسعة أفلاك، ثم قام العقل العاشر بخلق موجودات هذا العالم. والواقع ليس هنالك من دليل على هذه السلسلة من الفرضيات، وهكذا هو الحال بالنسبة لفرضية بطليموس رغم ذلك فقد كانت هذه الفرضيات هى السائدة لقرون.

أمّا القرآن والروايات الإسلامية فقد رفضت الفرضية الاولى- فرضية بطليموس- كما رفضت الفرضية الثانية- فرضية العقول العشرة-؛ وذلك لأننا لم نر أثر لهما فى الآيات والروايات المعروفة- ولا سيما فى نهج البلاغة-، وهذا بدوره يمثل أحد الأدلة والشواهد على استقلالية القرآن وعظمة الأخبار الإسلامية واستنادها إلى الوحى لا إلى الأفكار البشرية، وإلّا لاصطبغت بصبغتها.[۱۳۹]

وقد رأينا الانسجام التام بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام وسائر الروايات الإسلامية بشأن ظهور العالم. فالمحور الأصلى فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية إنّما كان الحديث عن السموات السبع لا الأفلاك التسع ولا العقول العشرة، وسنتناول لاحقاً تفسير السموات السبع.

لكن من المؤسف أنّ قدماء شرّاح نهج البلاغة- ممن تأثروا بفرضية العقول العشرة ونظرية بطليموس بشأن ظهور العالم- قد سحبوا هذه الفرضيات على شرح نهج البلاغة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۹۴

فسعوا جاهدين لحمل الخطبة المذكورة عليها دونما أية ضرورة أو حاجة إلى ذلك؛ فهى لم تكن سوى فرضيات وقد ثبت بطلانها اليوم.

فقد أثبتت التحقيقات والمشاهدات العلمية وتجارب علماء الفلك عدم وجود فلك بالمعنى الذى ذهب إليه بطليموس، وأنّ الكواكب الثابتة والسيارة والتى يفوق عددها بكثير ممّا ظنه القدماء وأنّها تدور فى فضاء خال (وَ أنّ السيارات إنّما تدور حول الشمس لا حول الأرض والثوابت على المحاور الأخرى) وأنّ الأرض ليت مركزاً للعالم فحسب، بل هى سيارة صغيرة من سيارات المنظومة الشمسية وهذه الاخرى منظومة صغيرة من بين ملايين بل مليارات منظومات العالم العلوى. أمّا أنصار فرضية العقول العشرة ورغم تأثرها بفرضية بطليموس- التى سلم اليوم ببطلانها- إلّاأنّهم يستندون إلى قاعدّة من القواعد العقلية «والتى تصرح بان الواحد لا يصدر منه إلّاواحد» لإثبات صحة فرضيتهم ولا نرى هنا من ضرورة للاستغراق فى شرح هذه القاعدّة.

ولما كانت هذه القاعدّة تفتقر إلى الدليل من وجهة نظر أغلب العلماء، فانّ أسسها تعتبر جوفاء لا قيمة لها.[۱۴۰]

۴- ما المراد بالسموات السبع؟

لم يقتصر الحديث عن السموات السبع على نهج البلاغة- فى هذه الخطبة والخطبة ۲۱۱- فحسب بل سبقه القرآن الكريم للحديث عن هذا الموضوع ۱۴۱].

وهناك عدّة تفاسير أوردها العلماء القدماء بشأن السموات السبع، ولا نروح الخوض فيها

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹۵

جميعاً؛ الا ان التفسير الوحيد الذى يبدو صحيحاً من بينها هو ذلك الذى قال بأنّ المراد بالسموات السبع هو المعنى الواقعى لهذه الكلمة؛ فالسماء هى مجموعة من الكواكب والنجوم فى العالم العلوى، والسبع هو العدد سبعة المعروف ولا يراد به الكثرة، غاية مافى الأمر أنّ الذى نفهمه من الآيات القرآنية هو أن ما نشاهده من كواكب وسيارات ثابتة ومتحركة كلها مرتبطة بالسماء الاولى. وبناءً على هذا فان وراء هذه السماء العظيمة ستة سموات عظيمة أخر لم يتسنى لحد الآن للعلم البشرى التوصل إلى معرفتها.

والآية السادسة من سورة الصافات تؤيد هذا المعنى: «إِنّا زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ»، كما ورد هذا المعنى فى الآية ۱۲ من سورة فصلت «وَزَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ»، وجاء فى الآية الخامسة من سورة الملك «وَلَقَدْ زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ». والطريف فى الأمر أنّ المرحوم العلّامة المجلسى قد ذكر هذا التفسير- فى بحار الانوار- على أنّه إحتمال اقتدح فى ذهنه، أو استنتاجه من الآيات والروايات كما يعبر عن ذلك اليوم.[۱۴۲]

وهنا لابدّ من القول بأنّ الأجهزة العلمية لم تتمكن حتى اليوم من إماطة اللثام عن هذه العوالم الست، إلّاانّ الدليل لم يقم على نفيها علمياً، ولعل العلم يكشف أسرار هذا الموضوع مستقبلًا، بل أفادت كشوف العلماء الفلكيين أنّ هناك أشباحاً ترى من بعيد تفيد وجود عوالم اخرى، على سبيل أوردت بعض المجلات الفضائية نقلًا عن المراصد الجوية المعروفة «بالومار» قولها: لقد تمكن ناظور مرصد بالومار من كشف ملايين المجرات التى يبعد بعضها عنا ألف مليون سنة ضوئية. لكن هناك فضاء عظيم ومهيب مظلم بعد تلك المسافة البالغة ألف مليون سنة ضوئية، غير أنّه يتعذر رؤية مافيه من أشياء. ومما لاشك فيه أنّ ذلك الفضاء المهيب والمظلم يضم مئات الملايين من المجرات بحيث تكفلت جاذبيتها بحفظ البسيطة التى نعيش على وجهها. وما هذه الدنيا العظيمة التى تغص بمئات آلاف الملايين من المجرات إلّاذرة تافهة لا قيمة لها مقارنة بدنيا أعظم وأوسع ولسنا متأكدين لحد الآن من وجود دنيا اخرى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۹۶

عظيمة فيما وراء هذه الدنيا.[۱۴۳] ونخلص ممّا سبق إلى أنّ العوالم التى تمّ كشفها من قبل البشرية ورغم عظمتها وما تنطوى عليه من أسرار وأعاجيب ليست إلّاجزءاً ضئيلًا من عالم ضخم عملاق، ولعل المستقبل سيكشف النقاب عن العوالم الست الاخرى.

۵- كيفية علم الإمام عليه السلام بهذه الامور

ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ عبارات الإمام عليه السلام بشأن ظهور العالم لم ترد بصيغة فرضية واحتمال أبداً، بل صورها عليه السلام وكأنّه يشهد ذلك الظهور، وهذا دليل على استناد علمه إلى خزانة علم الغيب الإلهى أو تعليمات النبى صلى الله عليه و آله- التى تستند إلى الوحى حتى تحدث ابن أبى الحديد بهذا الشأن فقال:

«إنّ أمير المؤمنين على عليه السلام كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين، ويعلم العلوم كلها وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام ۱۴۴]».

وكيف لا يكون الإمام عليه السلام كذلك وهو القائل:

«أنا بطرق السماء أعلم منّى بطرق الأرض».[۱۴۵]

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۹۷

القسم الثامن: عالم الملائكة

اشارة

«ثُمَّ فَتَقَ ما بَيْنَ السَّمَواتِ الْعُلا فَمَلأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلائِكَتِهِ، مِنْهُمْ سُجُودٌ لا يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لا يَنْتَصِبُونَ، وَصافُّونَ لا يَتَزايَلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لا يَسْأَمُونَ، لا يَغْشاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَلا سَهْوُ الْعُقُولِ وَلا فَتْرَةُ الْأَبْدانِ وَلا غَفْلَةُ النِّسْيانِ وَمِنْهُمْ أُمَناءُ عَلَى وَحْيِهِ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضائِهِ وَأَمْرِهِ، وَمِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبادِهِ وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوابِ جِنانِهِ، وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدامُهُمْ، وَالْمارِقَةُ مِنَ السَّماءِ الْعُلْيا أَعْناقُهُمْ وَالْخارِجَةُ مِنَ الْأَقْطارِ أَرْكانُهُمْ، وَالْمُناسِبَةُ لِقَوائِمِ الْعَرْشِ أَكْتافُهُمْ ناكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصارُهُمْ مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ وَأَسْتارُ الْقُدْرَةِ، لا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ وَلا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفاتِ الْمَصْنُوعِينَ وَلا يَحُدُّونَهُ بِالْأَماكِنِ وَلا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظائِرِ».

الشرح والتفسير يواصل الإمام عليه السلام خطبته التى تطرق فيها إلى خلق السموات وكيفية ظهور العالم، فيتحدث عن خلق الموجودات السماوية وملائكة العالم العلوى فيشير بعبارات قصيرة بليغة إلى أصناف الملائكة وصفاتهم وخصائصهم وطبيعة أنشطتهم ومهامهم وعظم خلقتهم ومدى علو معرفتهم، فالواقع هو أنّ هذا القسم من الخطبة يختص بالتعريف بالملائكة. فاستهل كلامه

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۹۸

قائلًا:

«ثم فتق مابين السموات العلا»[۱۴۶]

فالذى يستفاد من هذا التعبير أنّه كانت هناك فواصل بين السموات وقد التحمت فى البداية ثم ما لبث أن انفصلت، وهذا بالضبط على الخلاف ممّا تضمنته نظرية بطليموس فى أن السموات كأغطية البصل متراكمة على بعضها دون وجود أية فجوة. ثم قال الإمام عليه السلام:

«فملأهن أطواراً[۱۴۷] من ملائكته ۱۴۸]».

وقد ورد نظير هذه العبارة فى الخطبة رقم ۹۱ المعروفة بخطبة الأشباح حيث قال:

«وملأ بهم فروج فجاجها وحشا بهم فتوق أجوائها»

كما ورد فى موضع آخر من هذه الخطبة قوله:

«وليس فى أطباق السماء موضع اهاب إلّاوعليه ملك ساجد أو ساع حافد».

ثم يتطرق عليه السلام إلى أصناف، أو بعبارة أدق أطوار الملائكة فيقسمهم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: أرباب العبادة، ثم يقسم هؤلاء إلى أقسام، فمنهم من هو ساجد أبداً لم يقم من سجوده ليركع «منهم سجود[۱۴۹] لا يركعون»، ومنهم من هو راكع أبداً لم ينتصب قط «وركوع لا ينتصبون» ومنهم الصافون فى الصلاة بين يدى خالقهم لا يتزايلون «وصافون ۱۵۰] لا يتزايلون». ذهب البعض إلى أنّ «صافون» هنا بمعنى الصف فى العبادة، بينما ذهب البعض الآخر إلى انّ معناها فتح أجنحتهم فى السماء بدليل الآية القرآنية القائلة: «أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافّاتٍ»[۱۵۱]. وهناك إحتمال آخر أن يكون المراد بها الوقوف فى صفوف منظمة والاستعداد لطاعة أوامر اللّه وامتثالها.

إلّا انّ الاحتمال الأول أكثر انسجاماً مع الجمل السابقة واللاحقة، والواقع أنّهم يمارسون الحالات الثلاث لعبادتنا فى القيام والركوع

والسجود. فالتعبير بصافين إمّا أنّه إشارة للصفوف

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۹۹

المنظمة للملائكة، أو القيام المنظم لكل منها. وهذا عين ما ورد فى خطبته عليه السلام فى وصف المتقين لهمام

«أمّا الليل فصافون أقدامهم تالين لاجزاء القرآن»[۱۵۲]

. وأخيراً المسبحون الذين لا يملون التسبيح والتحميد له سبحانه

«ومسبحون لا يسأمون»

. فظاهر هذه الجملة يفيد أنّ هؤلاء طائفة اخرى غير الطوائف الثلاث القائمة والراكعة والساجدة (و ان ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المسبحين هم الطوائف المذكورة سابقاً، حيث يمكن الاستشهاد ببعض الروايات التى تؤيد ماذهبوا إليه. فقد روى أنّه سئل النبى صلى الله عليه و آله: كيف صلاة الملائكة؟ فأطرق رسول اللّه صلى الله عليه و آله حتى نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال له: «أنّ أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة يقولون سبحان ذى الملك والملكوت وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة يقولون سبحانه ذى العزة وأهل الجبروت وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة يقولون سبحان الحى الذى لا يموت»[۱۵۳].

لكن هل المراد بهذا السجود والركوع والقيام ذات أعمالنا فى السجود والركوع والقيام أم إشارة إلى درجات خضوع الملائكة وعبادتهم حسب مراتبهم ومقاماتهم، المسألة محل بحث ونقاش. فاذا اعتبرنا الملائكة أجساماً لطيفة ولهم أيدى وأرجل ووجوه وجبهات فان المعنى الأول أنسب، وإن نفينا عنهم الأجسام، أو أقررنا بأن لهم جسم غير أنّه ليس على غرار أجسامنا فان المعنى الثانى هو الأنسب (وسنتحدث فى الأبحاث القادمة عن هذا الأمر).

على كل حال فانّ هذه المجموعة من الملائكة منهمكة فى عبادة اللّه وتسبيحه وتقديسه وكأن مهمتهم مقتصرة على العبادة فقط. والواقع هو أنّ هذه آية بيّنة من آياته سبحانه وعظمة مقامه وعلو شأنه وعدم حاجته إلى عبادة العباد، وبعبارة اخرى فانّ المحتمل أنّ فلسفة خلقة هؤلاء الملائكة هو عدم اغترار العباد من الناس بعبادتهم وليعلموا على فرض المحال أنّه لو كان بحاجة إلى العبادة فانّ هناك الملائكة المنهمكين بالعبادة فلا ينبغى أن يتصور عباد اللّه فى الأرض ان عبادتهم أو عدمها ليست لها أدنى تأثير على كبرياء اللّه وعظمته، ولو كفروا جميعاً لما ضره ذلك ذرة «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ»[۱۵۴]. ثم أشار عليه السلام إلى صفات هؤلاء الملائكة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۰۰

فقال عليه السلام:

«لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ولا فترة الأبدان ولا غفلة النسيان»

. على العكس من الناس الذين يشعرون تدريجياً بالفتور من جراء تكرار العبادة فيخالطهم النعاس فيصاب الجسم بالوهن والضعف ويعرض لهم السهو والنسيان.

إلّا أنّ الملائكة بعيدون كل البعد عن هذه الحالات والعوارض. فهم على درجة من العشق للعبادة والاستغراق فى المناجاة والتسبيح بحيث لا يعرض عليهم النوم والغفلة والفتور قط.

وبعبارة اخرى فان الفتور فى إداء الوظائف إنّما يستند إلى امور ليست لها من سبيل إلى الملائكة أبداً. فأحياناً تتمثل تلك الامور بالتعب وغفو العين وسهو العقول وضعف البدن وأحياناً اخرى بالغفلة والنسيان ولما كانت أى من هذه الامور ليست لها من سبيل إلى الملائكة، فانّهم لا يفترو فى عبادتهم قط.

ثم يعرض عليه السلام إلى القسم الثانى من الملائكة وهم السفراء بينه تعالى وبين المكلفين من البشر بتحمل الوحى الإلهى إلى الرسل

«ومنهم امناء على وحيه والسنة إلى رسله ومختلفون بقضائه وأمره»

فهم فى الواقع الواسطة بين اللَّه والأنبياء. ونفهم من هذه العبارة أنّ السفارة الإلهى لا تقتصر على جبرئيل عليه السلام، بل هو فى الحقيقة زعيم سفراء اللَّه، القرآن بدوره أشار إلى هذا الصنف من الملائكة: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ»[۱۵۵]، وقال فى آية اخرى: «قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإذنِ اللَّهِ»[۱۵۶]، كما أشار أحياناً إلى الملائكة من حملة الوحى فقال: «يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ»[۱۵۷].

كما أشارت بعض الروايات الإسلامية وسائر خطب نهج البلاغة إلى هذا المعنى أيضاً.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ المراد بالقضاء والأمر الإلهى الوارد فى العبارة التى نخوض فيها هو الأحكام والأوامر الدينية الشرعية، لا القضاء والأوامر التكوينية التى احتملها البعض

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۰۱

من شارحى نهج البلاغة؛ وذلك لعدم انسجام هذا الاحتمال والعبارات السابقة- التى طرحت مسألة امناء الوحى-، امّا مختلفون هنا فقد جاءت من مادة الاختلاف بمعنى الذهاب والاياب والتردد على الأماكن.

ثم أشار عليه السلام إلى القسم الثالث من الملائكة

«ومنهم الحفظة لعباده والسدنة[۱۵۸] لأبواب جنانه»

. «حفظة» جمع حافظ بمعنى الحارس، ويمكن أن يكون لها هنا معنيان: أحدهما حفظهما للعباد بمراقبة أعمالهم واحصائها وتسجيلها، كما أشارت إلى ذلك الآية الرابعة من سورة الطارق القائلة «وَ إنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ* كِراماً كاتِبِينَ» وضرب آخر من هؤلاء الملائكة الذين يحفظون البشر من المهالك والورطات والبلاء، ولولا ذلك لكان الإنسان مسرحاً للفناء والزوال والاعطاب، وهذا ما صرّحت به الآية الحادية عشرة من سورة الرعد: «لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ».

ولكن يبدو أنّ المعنى الأول أنسب بالالتفات إلى العبارات السابقة التى تحدثت عن الوحى والتكاليف الشرعية، والعبارة اللاحقة التى أشارت إلى الجنّة وجزاء الأعمال، وإن لم يستبعد الجمع بين المعنيين عن مفهوم العبارة.

أمّا مفردة سدنة فهى جمع سادن بمعنى البواب، وجنان على وزن كتاب واحدها جنة، والذى يستفاد من هذه العبارة إنّ للَّهعدّة جنان، ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّها ثمانية كما وصفها القرآن وهى «جنّة النعيم، جنّة الفردوس، جنةالخلد، جنّة المأوى جنّة عدن، دار السلام، دار القرار وجنّة عرضها السموات والأرض»[۱۵۹].

أمّيا فائدة وجود الملائكة الذين يحفظون أعمال العباد، فقد قيل بأنّ الإنسان يشعر بالمسؤولية أكثر لوجودهم ويكون أعظم مراقبة لنفسه وأحرص فى سلوكه وتعامله، وذلك لأنّ الهدف الأسمى هو تربية الإنسان وتهذيبه وإبعاده عن الرذيلة والانحراف.

وأمّا القسم الرابع من الملائكة فهم حملة العرش، الذين وصفهم عليه السلام بقوله «ومنهم الثابتة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۰۲

فى الأرضين السفلى أقدامهم والمارقة من السماء العيا أعناقهم والخارجة من الأقطار أركانهم والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم ناكسة[۱۶۰] دونه أبصارهم متلفعون ۱۶۱] تحته بأجنحتهم مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة وأستار القدرة» ثم يستغرق عليه السلام أكثر فى التعرض لصفاتهم فيقول: «لا يتوهمون ربّهم بالتصوير ولا يجرون عليه صفات المصنوعين ولا يحدونه بالاماكن ولا يشيرون إليه بالنظائر»[۱۶۲]. أجل فقدرتهم ليست قدرة جسمانية، بل يتمتعون بقدرة روحانية خارقة متعذرة على الإنسان، ومن هنا أوكلت لهم مهمّة حمل العرش. والواقع أنّهم بلغوا أعظم مقامات التوحيد بحيث أصبحوا قدوة فى التوحيد لكافة عباد اللَّه ولا سيما أولياء اللَّه البارزين من الناس. فهم لا يرون من مثيل وشبيه ونظير للَّه قط، كما لا يرون من حدود لذاته وصفاته سبحانه، حتى أنّهم يرونه أعظم من الخيال والقياس والظن والوهم؛ وذلك لأنّ كل ما يتصوره الإنسان أو الملك إنّما هو مخلوق للَّهواللَّه أعظم من أن يكون مخلوقاً. أمّا المراد بالعرش وحملة العرش وماهية وظائفهم والمفاهيم التى وردت فى هذه العبارات، فهذا ما سنتناوله فى هذه

الأبحاث.

تأمّلات

۱- ماهية الملائكة!

هنالك عدّة أبحاث تضمنتها الآيات القرآنية بشأن الملائكة وصفاتهم وخصائصهم وأفعالهم والمهام المختلفة الموكلة إليهم. كما شحنت الروايات الإسلامية بالأخبار التى تتحدث عن الملائكة ومقاماتهم وصفاتهم وأعمالهم، غير انّه لم يرد البحث فى التحدث عن ماهيتهم، ومن هنا كثر الكلام بين العلماء والمتكلمين بهذا الشأن. فيرى علماء الكلام، بل أغلب علماء الإسلام أنّ الملائكة موجودات ذات أجسام لطيفة.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۰۳

كما وردت بعض العبارات التى أشارت إلى النور على أنّه المادة الأصلية لخلقة الملائكة، فقد وردت العبارة المعروفة بشأنهم فى أغلب المصادر الإسلامية التى وصفتهم قائلة:

«الملك جسم نورى ...»

. أمّا المرحوم العلّامة المجلسى فقد قال:

«ترى الإمامية بل جميع المسلمين سوى طائفة قليلة من الفلاسفة أنّ الملائكة هم أجسام لطيفة نورانية ولها أن تأتى بأشكال مختلفة ... وانّ الأنبياء والأوصياء العصومين كانوا يرونهم»[۱۶۳]

. وبعبارة اخرى فانّ الملائكة أجسام نورية والجن أجسام نارية والانس أجسام كثيفة. امّا ما عليه جمع من الفلاسفة فهو أنّ الملائكة مجردون من الجسم والجسمانيات وأنّ لهم أوصاف لا يستوعبها الجسم. وقد نقل المرحوم «الشارح الخوئى» فى «منهاج البراعة» عدّة أقوال بهذا الخصوص بلغت ستة أقوال، إلّاأنّ أصحاب هذه الأقوال هم قلة قليلة جداً.

لاشك أنّ وجود الملائكة- ولا سيما بالالتفات إلى تلك الصفات والمقامات والأعمال التى ذكرها القرآن- لمن الامور الغيبية التى لا يمكن إثباتها وبتلك الخصائص والصفات إلّامن خلال الأدلة النقلية.

فالقرآن يصف خصائصهم على أنّهم:

۱- موجودات عاقلة ذات شعور.

۲- لا يعصون اللَّه وهم بأمره يعملون.

۳- إنّ اللَّه قد أوكل لهم عدّة وظائف ومهام. فمنهم حملة العرش، ومدبرات الأمر، والمأمورة بقبض الأرواح، حفظة أعمال البشر، حفظة الإنسان من المهالك والأخطار، المدد الإلهى لنصرة المؤمنين فى المعارك، عذاب الأقوام الظالمة والطاغية ومبلغى الوحى إلى الأنبياء.

۴- اختلاف مقامات الملائكة وتفاوتهم فى الدرجات.

۵- المداومة على تسبيح اللَّه وتقديسه وتمجيده.

۶- تمثلهم أحياناً بهيئة البشر وما شاكل ذلك للأنبياء وبعض العباد الصالحين كمريم عليها السلام.

وما إلى ذلك من أوصاف يتعذر إحصائها فى هذا البحث. وبحث ماهية الملائكة فى أنّها

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۰۴

مجردة عن الجسم أو غير مجردة ليس من ورائه طائل، إلّاأنّ ظاهر الآيات والروايات- إذا لم نطرح لها توجيها وتفسيراً خاصاً- هو أنّ الملائكة ليس من قبيل المواد الكثيفة والعناصر الخشنة، مع ذلك فهم ليسوا مجردات مطلقة، لتضافر الروايات والآيات التى صرّحت بعروض الزمان والمكان والأوصاف الاخرى الملازمة للأجسام عليهم. وهذا ما تؤكده عبارات الإمام عليه السلام فى هذا القسم من خطبته وكذلك ما ورد فى خطبته المعروفة بالأشباح. ولكن على كل حال فانّ الإيمان بالملائكة على نحو الإجمال لمن الامور التى أكد عليها القرآن الكريم، فقد ورد فى الآية ۲۸۵ من سورة البقرة قوله تعالى:

«آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ».[۱۶۴]

الجدير بالذكر هنا هو أنّ بعض المغفلين وارضاءً لُاولئك الذين ينكرون عوالم الغيب فقد عمدوا إلى تفسير الملائكة بالقوى والطاقات التى تختزنها الطبيعة الإنسانية وسائر الموجودات والكائنات، والحال أنّ أدنى تأمل ونظرة إجمالية للآيات القرآنية تفيد رفض هذه الفكرة تماماً؛ كيف لا وقد ثبتت بعض الصفات للملائكة من قبيل العقل والشعور والإيمان والاخلاص والعصمة.

۲- أصناف الملائكة

الملائكة على أصناف وأقسام عديدة على ضوء ما أشارت الآيات والروايات، وقد وردت فى هذه الخطبة الأصناف الأربعة الرئيسية منهم «أرباب العبادة والسفراء وحفظة العباد كالكرام الكاتبين ومنهم سدنة الجنان وحملة العرش». ولكن وكما ذكرنا سابقاً فانّ الآيات القرآنية قد أشارت إلى الأصناف الاخرى من الملائكة، ومنهم الموكلون بعذاب الاممّ الطاغية الظالمة، والموكلون بالامدادات الغيبية ونصرة المؤمنين ومدبرات الأمر وقبضة الأرواح، غير أنّه يمكن اختصار جميع هذه الطوائف فى مدبرات الأمر التى تتولى إدارة شؤون

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۱۰۵

العالم. فقد اقتضت السنة الإلهية وجرت بغية اظهار قدرته وعظمته وتحقق أهدافه وأغراضه أن تسند إدارة شؤون العالم إلى الملائكة المأتمرين بأوامر اللَّه والبعيدين كل البعد عن الوهن والضعف والفتور والسهو والنسيان والتباطؤ فى الطاعة ولكل صنف من أصناف الملائكة وظيفته المختصة به.

والحق أنّ الإنسان إذا تأمل أقسام وأصناف الملائكة وسعة وعظمة الوظائف الموكلة إليها يشعر بالتصاغر والحقارة ويتساءل من أكون فى خضم هذا العالم الواسع المليء بعمال اللَّه وجنوده الذين لا يفترون عن عبادته وطاعته وامتثال أوامره؟ واين تكون عبادتى وطاعتى من هذه العبادة والطاعة التى تؤديها الملائكة؟ وما قيمة قوتى وقدرتى مقارنة بقوة الملائكة وقدرتها؟ والخلاصة فانه يقف على عظمة هذا العالم والأعظم منه خالقه من جانب وحقارته ودنو موضعه من جانب آخر، وهذه إحدى حكم وفلسفة وجود الملائكة.

۳- العرش وحملته

لقد أشارت الآيات القرآنية عشرين مرة إلى العرش الإلهى، كما كثرت الأبحاث التى تضمنتها الروايات الإسلامية الواردة بهذا الشأن، وعلى ضوء بعض هذه الروايات فانّ عظمة العرش متعذرة على التصور البشرى، حتى قيل بهذا الخصوص: ما السموات والأرضين وما فيها مقابل العرش إلّاحلقة فى صحراء عظيمة.

كما صرّحت بعض الروايات بأنّ أعظم ملائكة اللَّه يعجزون عن بلوغ ساق العرش وانّ أسرعوا فى تحليقهم إلى يوم القيامة. كا جاء فى الخبر أنّ اللَّه خلق للعرش ألف لسان وضمنه صورة جميع مخلوقاته فى الصحارى والبحار.

كما روى أنّ اللَّه حين خلق العرش، أمر الملائكة بحمله، فما استطاعوا أن يحملوه، فخلق ملائكة، فعجزوا عن حمله، فحمله اللَّه

بقدرته، ثم أمر سبحانه ثمان من الملائكة المأمورين بحمل العرش أن احملوه.

فقالوا: وهل يسعنا حمله وقد عجزت الملائكة. فأمروا بذكر اللَّه والقول

«لاحول ولا قوّة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۰۶

إلّا باللَّه العلى العظيم»

والصلوات على محمد وآله، فلما فعلوا سهل عليهم حمله.[۱۶۵]

وتشير كل هذه الكنايات إلى عظمة عرشه سبحانه، أمّا ماهية العرش، فهى من الامور التى كثر البحث فيها بين العلماء، ونرى ان الاستغراق فى شرح هذا الأمر إنّما يبعدنا عن الهدف الأصلى، ولذلك نكتفى بإشارة مختصرة إلى هذا الموضوع:

فقد كان للملوك والسلاطين عرشان، أحدهما منخفض يعتلونه فى الأيام الاعتيادية ويسيرون شؤون الحكم ودفة امور البلاد، وآخر مرتفع يرتقونه فى الأيام الخاصة والمرام المهمة والكبيرة. وقد اصطلحت الآداب العربية على الأول بالكرسى والثانى بالعرش، وقد درجت هذه الآداب على التعبير بالعرش كناية عن القدرة والسلطة وإن افتقر العرش للدعامات المرتفعة، كما هناك المعنى الكنائى الآخر الذى يشير إلى فقدان السلطة والذى جسدته العبارة المشهورة «ثل عرشه». وللَّه هذان العرشان فى الامرة والحكومة كونه سلطان عالم الوجود (وبالطبع لما كان اللَّه ليس بجسم ولا فى زمرة الجسمانيات فالمفهوم الكنائى هو المراد هنا من العرش والكرسى).

على كل حال يبرز هذا السؤال: ما كنه هذا العرش الإلهى؟ ومن التفاسير التى يمكن ايرادها بهذا الشأن هو أنّ عالم المادة والسموات والأرضين والمنظومات والمجرات كلها بمثابة الكرسى وعرشه المنخفض كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله:

«وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ»

، والمراد بالعرش هو العالم الكامن وراء عالم المادة (المادة الكثيفة والغليظة)، التى لا تحيط بعالم المادة فحسب، بل ليس عالم المادة أمامه سوى مقدار تافه لا- أهميه له. امّا حملة العرش فمما لاشك فيه انهم ليسوا ملائكة غلاظ الهيكل وأقوياء الجسم والبنية بحيث يحملون على أكتافهم دعائم العرش الذى استوى عليه الرحمن؛ لأنّ للعرش- كما أشرنا سابقاً- معنى كنائى والقرائن العقلية التى تفيد تنزه اللَّه عن الجسم والجسمانية إنّما تؤيد صحة هذا المعنى، وعليه فحملة العرش ملائكة عظام ذوى مقامات رفيعة وليس لهم من شبيه أو نظير ولهم تدبير عالم ما وراء الطبيعة وتنفيذ أوامره سبحانه فى كل مكان، امّا التعبيرات

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۰۷

التى ساقها الإمام فى أوصافهم بقوله

«الثابتة فى الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم»

فكل هذه‌تفيد مدى قدرتهم فى تدبير شؤون العالم. طبعاً يجب علينا أن نحمل الألفاظ أينما وردت على معانيها الحقيقية، إلّاأنّه يتعذر علينا ذلك الحمل ولا يبقى أمامنا سوى المعنى الكنائى كالذى أوردناه بشأن الآية القرآنية المباركة

«يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»

إذا كانت هناك القرائن العقلية المسلمة. نعم لقد نهض هؤلاء الملائكة بالقيام بهذه الامور بالاستناد إلى قوتهم وقدرتهم، بل بحول اللَّه وقوته، كما ينهمكون بالتسبيح والتقديس وعدم الفتور عن ذكر اللَّه، وهذا ما صورته الآية السابعة من سورة المؤمن التى أكدت إلى جانب ذلك على دعائهم واستغفارهم للمؤمنين

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا».

۴- عصمة الملائكة

يتمتع الملائكـة بصـفات جمّـة وقـد تكفلت عباراته المـذكورة (الواردة بشأن الطائفـة من الملائكة المشـغولة بالعبادة) ببيان بعض هذه الصفات:

«لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان»

. كما أشار القرآن إلى تنزههم عن الذنوب والمعاصى

«بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ* لايَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»[۱۶۶]

، ووصف الموكلين بالعذاب منهم

«لا

يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ»[۱۶۷].

طبعاً يتصور البعض أنّه ليس هنالك من مفهوم لعصـمة الملائكة من عدمها، إلّاأنّ هذا التصور لا يبدو صحيحاً؛ صحيح أنّ الملائكة لا تنطوى على دوافع الـذنب والمعصـية من قبيـل الشـهوة والغضب (أو أنّهـا ضـعيفة جـداً فيهم)، ولكن لاـ ينبغى الغفلـة عن أنّهم فاعلون ومختارون ولهم القدرة على ارتكاب المخالفة، بل إنّ الآيات القرآنية تصرح بمدى خشيتهم من

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۱۰۸

العقاب الإلهى

«وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ»[۱۶۸]

، فالآيـة الشـريفة تكشف عن عصـمتهم وطهارتهم من المعاصـى فى ذات الوقت الـذى يسـعهم ارتكابها. ومن هنا تتضح مغازى بعض الروايات التى صـرّحت بتباطؤ بعض الملائكـة فى امتثال أوامر الحق وعقابهم على هـذا التباطؤ بصـفته يمثل ترك الاولى الذى يصدق على الأنبيـاء، ونعلم جميعـاً بأنّ ترك الاولى لا يعـدّ ذنباً قط، بل قـد يكون عملًا مسـتحباً، إلّاأنّه يعتبر ترك الاولى مقارنـة بعمل يفوقه، ونوكل الخوض فى تفاصيل هذا الموضوع إلى أبحاثه المختصة به.

۵- مقام معرفة حملة العرش

يفهم من العبارات الواردة بهـذا الشأن أنّ العامل الـذى جعل حملة العرش مؤهلين للقيام بهذه المسؤولية الخطيرة لا يقتصـر على قوتهم وقـدرتهم، بل يمتـد ذلك إلى سـعة وسـمو مسـتوى معرفتهم باللَّه تبارك وتعالى. فقد بلغوا أعظم مقامات التوحيد ونفى كافة أشـكال الشـرك والشبيه والمثيل للحق تعالى، ومن هنا اسـتحقوا أهلية تحمل تلك المهمّة العظيمة؛ الأمر الذى يعتبر درساً لابدّ أن يتعلمه العباد وذوى المعرفة باللَّه.

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۱۰۹

القسم التاسع: خلق آدم عليه السلام

اشارة

«ثُمَّ جَمَعَ سُبْحانَهُ مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ وَسَهْلِها، وَعَذْبِها وَسَبَخِها، تُرْبَةً سَنَّها بِالْماءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلاطَها بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ فَجَبَلَ مِنْها صُورَةً ذاتَ أَحْناءٍ وَوُصُولٍ، وَأَعْضاءٍ وَفُصُولٍ، أَجْمَدَها حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَها حَتَّى صَلْصَلَتْ لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَخَ فِيها مِنْ رُوحِهِ، فَمَثُلَتْ إِنْساناً ذا أَذْهانٍ يُجِيلُها، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِها، وَجَوارِحَ يَخْتَدِمُها وَأَدَوات يُقَلِّبُها وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِها بَيْنَ الْحَقِّ وَالْباطِلِ وَالْأَذْواقِ وَالْمَشامِّ وَالْأَلْوانِ وَالْأَجْناسِ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ الْأَلْوانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْأَشْباهِ الْمُؤْتَلِفَةِ وَالْأَضْدادِ الْمُتَعادِيَةِ، وَالْأَخْلاطِ الْمُتَبايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ».

الشرح والتفسير بعد الإشارات البليغة التى وردت فى الأقسام السابقة من هذه الخطبة العميقة المضامين بشأن خلق العالم والسموات والأرض تناولت خطبة الإمام عليه السلام هنا خلق العالم والسموات ثم عرجت هنا إلى سائر مخلوقات هذا العالم ومن بينها خلق الإنسان ومراحله المختلفة والتى قسمها عليه السلام إلى خمس مراحل تكتنف تمام مسيرة حياته وهى:

۱- خلقة آدم من ناحية الجسم والروح (يعنى فى مرحلتين).

۲- سجود الملائكة لآدم وتمرد ابليس.

۳- إسكان آدم الجنّة ثم بيان ترك الاولى الذى صدر من آدم عليه السلام وندمه وتوبته وأخيراً قبول توبته واخراجه من الجنّة والهبوط إلى الأرض.

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۱۱۰

۴- لقد أصبح لآدم ذرية ثم تكاثرت هذه الذرية فكونت المجتمعات البشرية ثم بعث اللّه أنبيائه عليهم السلام بكتبه السماوية المقدسة من أجل هداية الناس وتنظيم شؤون المجتمعات البشرية والأخذ بأيديها إلى حيث السمو الروحى والرفعة والكمال.

۵- المجتمعات البشرية من جانبها خطت خطوات عريضة نحو التكامل حتى تأهلت لتقبل الدين الخاتم حيث اصطفى اللّه رسوله محمد صلى الله عليه و آله فبعثه بالقرآن الكريم لهداية الإنسانية وانقاذها من خلال اطروحته التى تتضمن السعادة والفلاح، ثم تحدث الإمام عليه السلام عن القرآن.

مراحل خلقة آدم عليه السلام من الناحية الجسمية والروحية

قال الإمام عليه السلام بشأن خلق جسم آدم عليه السلام:

«ثم جمع سبحانه من حزن [۱۶۹] الأرض وسهلها

وعذبها[۱۷۰] وسبخها[۱۷۱] تربة».

فالعبارة تشير إلى خلق الإنسان من التراب من جهة، كما تشير من جهة اخرى أن ذلك التراب مركب من جميع المواد المختلفة على وجه الأرض لتنطوى على مختلف الاستعدادات وتشمل التنوعات والتقلبات التى تحتاجها المجتمعات البشرية فى مختلف مجالات حياتها، ثم أشارت إلى مادة اخرى هى الماء والتى اختلطت بالتراب فقال عليه السلام بهذا الشأن

«سنها[۱۷۲] بالماء حتى خلصت ولاطها[۱۷۳] بالبلة حتى لزبت ۱۷۴]».

فالواقع أنّ دور الماء هو خلط تلك الأجزاء المختلفة مع بعضها وتخليصها من شوائبها وارساء الوشيجة والرابطة بين هذه الأجزاء. ثم أشار عليه السلام إلى مسألة تبلور خلقة الإنسان من ذلك التراب والطين فقال عليه السلام:

«فجبل منها صورة ذات أحناء[۱۷۵] ووصول وأعضاء

وفصول»

. فى الواقع «أحنا» جمع «حنو» إشارة إلى انحناءات البدن من قبيل انحناء الأضلاع

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۱۱۱

والفك العلوى والسفلى وراحة القدم بحيث يتكيف البدن للقيام بمختلف الأعمال والفعاليات، وذلك لتعذر قيامه بمثل هذه الأفعال التى يمارسها اليوم لو كان البدن على هيئة جسم هندسى مكعب أو ما شابه ذلك. أمّا العبارة

«وأعضاء وفصول»

فهى تشير إلى الأعضاء المختلفة التى ترتبط مع بعضها من خلال المفاصل؛ الأمر الذى أكسب البدن القدرة العملية على ممارسة مختلف الانشطة فلو كانت يد الإنسان على سبيل المثال مستوية ذات عضو واحد وعظم واحدلا تقوى على أداء الفعاليات التى تؤديها الآن، بينما نعلم أنّ البارئ سبحانه جعلها عدّة عظام وغضاريف وعدّة أعضاء متصلة مع بعضها البعض الآخر؛ الأمر الذى جعل كل اصبع بل كل سلامية من أصابعه واضافة لليد تتمتع بعملية خاصة وهذه بدورها تعدّ آية من آيات حكمته وعظمته سبحانه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مرحلة لاحقة فقال:

«اجمدها حتى استمسكت واصلدها[۱۷۶] حتى صلصلت ۱۷۷]»

وبذلك فقد أعد الإنسان إعداداً تاماً من الناحة البدنية بحيث يسير إلى الغاية المعينة المرسومة له

«لوقت معدود وأجل معلوم ۱۷۸]»

. فقد روى فى بعض الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام أن هذه الحالة دامت أربعين سنة، فكان جسد آدم ملقى فى موضع والملائكة تمر به وتقول لأى أمر خلقت؟[۱۷۹]

ولعل هذه المدّة الزمانية- كما صرّح بذلك بعض المحققين- كانت اختباراً للملائكة أو إرشاداً وتعليماً للناس بالتأنى فى الامور وعدم الاستعجال فيها. وهنا جاءت المرحلة الثانية؛ مرحلة نفخ الروح فى الجسد ليتحول إلى هذه الطبيعة الإنسانية التى زود فيها الإنسان بقوى العقل والإدراك التى تسوقه لممارسة الأعمال:

«ثم نفخ فيها من روحه فمثلت ۱۸۰] إنساناً ذا

أذهان يجيلها»[۱۸۱]

. العبارة

«ذا أذهان يجيلها»

إشارة إلى مختلف القوى العقلية والذهنية التى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۱۲

زود بها الإنسان ويوظف كلّا منها فى مجال من مجالات حياته بحيث يلائم بينها جميعاً فى مسيرته نحو الهدف المنشود (والقوى المذكورة عبارة عن قوة الإدراك وقوة الحفظ وقوة الخيال و ...). وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ الذهن فى الأصل يعنى القوة، ثم استعمل بمعنى العقل والفهم والدراية وسائر القوى العقلانية، فالعبارة تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام قد عنى مختلف هذه القوى معتبراً كل واحدة منها نعمة وعناية من العنايات الإلهية ثم قال عليه السلام:

«وفكر يتصرف بها»

. قد يتصور أحياناً أنّ هذا التعبير من قبيل العطف التفسيرى والتعبير الآخر لمفهوم العبارة السابقة، غير أنّ الظاهر هو أنّ كل عبارة من العبارتين تشير إلى حقيقة:

فالعبارة

«ذا أذهان يجيلها»

إشارة إلى مراحل المعرفة والتصور والتصديق وفهم وإدراك الحقائق، وأمّا العبارة

«وفكر يتصرف بها»

فهی إشارة إلی الأفکار التی تخضع لمرحلة التطبیق ویتصرف الإنسان بواسطتها فی مختلف الأشیاء (لابدّ من الالتفات هنا إلی أنّ الفکر فی الأصل یعنی الحرکـة الفکریـة وتوظیف الـذهن). علی کل حال فقـد جاءت مفردة «فکر» بصیغة الجمع (کالأذهان بصیغة الجمع) لتفیدان القوی العقلیة والأفکار الإنسانیة کثیرة للغایة ومتنوعة، وهذه نقطة مهمّة أکدها کبار الفلاسفة والمفکرین وعلماء النفس، وإلیها تعزی الفوارق فی الاستعدادات الفکریـة لافراد البشریـة. فربما کان هناک الأفراد الأقوی فی قسم منها وأضعف فی القسم الآخر بینما هنالک العکس، فالمسألـة تنطوی علی أسـرار ورموز عجیبـة للغایة، وکلما غاص الإنسان فی کنهها تعرف أکثر علی عظمة الحق خالق هـذه القوی الذهنیـة والفکریـة. ثم یتطرق علیه السـلام بعـد ذلـک إلی شـیئین یسـهمان فی ایصـال الإنسـان إلی هـدفه المطلوب وهما الجوارح والأدوات التی زوده بها اللّه سبحانه لتسه له تحقیق ما یصبو إلیه

«وجوارح یختدمها[۱۸۲] وأدوات

یقلبها»

. فالواقع هو أنّه یجتاز أربع مراحل لبلوغ الهـدف: تمثلت المرحلة الاولی بالمعرفة والإدراک والتصور والتصدیق ومرحلة الفکر ومن ثم ائتمار الأعضاء والجوارح، وأخیراً الاستعانة بالأدوات المختلفة التی خلقها اللّه فی هذا العالم حین لا تجدی الأعضاء والجوارح بمفردها نفعاً، کما أنّ کل مرحلة من هذه المراحل الأربع متنوعة تتفرع منها عدّة فروع. ولما

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۱۱۳

کان بلوغ الأهداف المرسومة یتطلب تشـخیصاً وتمییزاً للحق من الباطل والصواب من عدمه وکافة المحسوسات المختلفة، فانّه یتحدث عن إحدی قوی النفس المهمّة والتی تعتبر فی الواقع المرحلة الخامسة، ألا وهی قوة التمییز ولا یراد بها سوی المعرفة

«ومعرفة یفرق بها بین الحق والباطل»

. کما یتمکن بواسطة هذه القوة من تمییز المحسوسات من قبیل الأطعمة والأذواق و ...

«والأذواق والمشام والألوان والأجناس»[۱۸۳]

. والواقع ان قـدرة التمییز والتشـخیص والمعرفـة لمن أهم قوی الإنسان العقلیـة التی تشـمل الامور المعنویة کالحق والباطل کما تشـمل الاـمور المادیـة المحسوسـة کالألوان والمشام والأذواق. فهل قوّة التمییز هـذه هی قوة مسـتقلة، أم داخلـة فی مفهوم الـذهن والفکر فی العبـارة السابقـة؟ یبـدو من کلامـه علیه السـلام أنّها قوّة مسـتقلة، جـدیر بالـذکر أنّ الحـدیث تطرق لأربعـة أصـناف من الامور المادیة والمحسوسـة وهی: الأـذواق، المشـام، الألـوان والأجنـاس التی تشـیر هنا إلی مختلف أنواع الموجودات ۱۸۴]. من قبیـل مختلف أنواع النباتات، الطیور والحیوانات وما إلی ذلک، امّا عـدم الإشارة إلی المسـموعات (الأصوات) والملموسات فلأن بیان الأقسام الثلاث کان علی نحو المثال، فذهن کل مستمع سینتقل إلی بقیة ذلک من خلال الأقسام الثلاث المذکورة. ثم ینتقل الإمام علی علیه السلام لیشیر إلی أهمّ خصائص الإنسان التی تشکل المصدر الرئیسی لأغلب ظواهر حیاته فیقول:

«معجوناً[۱۸۵] بطینة الألوان المختلفة»

. ولعـل هـذه العبـارة إشـارة إلی اختلاـف ألوان النـاس وأعراقهم المتفاوتـة، أو اختلاف لون أجزاء البـدن حیث إنّ بعضـها تام البیاض (کبیـاض العین والعظـام) والآـخر تـام السواد (کالشـعر) وسائر الألوان التی یکسـبه خلطها جمالًا خاصاً، کما یمکن أن یکون المراد بها معنی أوسع بحیث یشمل سائر الاستعدادات والغرائز المختلفة. ثم أضاف الإمام علیه السلام قائلًا:

«والأشباه المؤتلفة»

من قبیل الأوردة والشرایین والأعصاب

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۱۱۴

والعظام التی تشبه إلی حدّ بعید بضها البعض الآخر، وفی نفس الوقت تقوم بعدة وظائف ومهام. وأخیراً قال علیه السلام:

«والاضداد المتعادية والأخلاط المتباينة من الحر والبرد والبلة والجمود»[۱۸۶]

. والعبارة إشارة إلى الطبائع الرباعية المعروفة فى الطب التقليدى، والأطباء المعاصرون وأن تنكروا لهذه الطبائع لفظاً، غير أنّهم اوردوها بتعابير اخرى من قبيل الاستعاضة عن الحرارة والبرودة بارتفاع ضغط الدم وانخفاضه، كما يصطلحون بزيادة ماء الجسم وقلته بدلًا من البلة والجمود.

على كل حال فان عبارات الإمام عليه السلام آنفة الذكر إنّما تشير إلى قضية مهمّة فى أنّ اللَّه سبحانه قد خلق جسم الإنسان (بل جسمه وروحه) مركباً من مواد مختلفة وكيفيات متنوعة واستعدادات وغرائز متباينة، وأنّ هذه الفوارق والتباينات شكلت أساس التفاوت فى أساليب التفكير لدى أفراد الجنس البشرى؛ الأمر الذى أدى فى خاتمة المطاف إلى تلبية مختلف حاجات الجماعات البشرية واشغال المناصب الاجتماعية على ضوء تلك الاستعدادات بحيث تنتظم الامور ويوضع كل شىء فى موضعه فيتسق النظام العام، ولا يسع المقام الخوض أكثر فى تفاصيل هذا الموضوع.

تأمّلات

١- خلق آدم عليه السلام

نفهم من العبارات التى تضمنتها خطبة الإمام عليه السلام أنّ خلق آدم عليه السلام قد تمّ بصورة مستقلة متكاملة على هذه الصورة التى نحن عليها اليوم دون أن يطوى مراحل النشوء والارتقاء من الكائنات الحية المتسافلة؛ الأمر الذى أكده القرآن كراراً على لسان آياته الشريفة. طبعاً كلنا نعلم بأن «القرآن الكريم» وكذلك «نهج البلاغة» ليسا من قبيل كتب العلوم الطبيعية، بل هما كتابان تكفلا بهداية الإنسان وتهذيبه بالدرجة الأساس إلى جانب الإشارة حسب المقام وما

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١١٥

يتناسب وأبحاثه العقائدية والتربوية إلى بعض مسائل العلوم الطبيعية. امّا النظرية السائدة اليوم فى الأوساط العلمية بشأن خلق الإنسان فهى نظرية «تكامل الأنواع». ويرى أنصار هذه النظرية أنّ كافة أنواع الكائنات الحية لم تكن سابقاً كما هى عليه اليوم، بل كانت موجودات بسيطة أحادية الخلية ثم تكاملت بعد أن سبحت فى مياه المحيطات وغاصت فى أعماق البحار لتتكامل تدريجياً فتغيرت من نوع إلى آخر من خلال تغييرها لأشكالها فانتقلت من البحار إلى الصحارى. والإنسان هو أحد هذه الكائنات الذى قطع مسيرته التكاملية بعد أن اجتاز تلك المرحلة التى كان فيها قرداً بشكل إنسان، وعليه فقد انحدر الإنسان من تلك الكائنات المتسافلة. وبالطبع فان أنصار هذه الفرضية قد انقسموا إلى عدّة طوائف، فمنها اتباع «لامارك» و «داروين» و «الداروينية الحديثة» وطائفة «موتاسيون» (نظرية الطفرة) وما إلى ذلك من الطوائف التى تقدم كل منها أدلتها على صحة نظريتها بهذا الشأن.

ويقف مقابل هؤلاء، أتباع ثبوت الأنواع حيث يقولون بأنّ أنواع الكائنات الحية قد ظهر كل منها بصورة منفصلة منذ البداية بهذه الهيئة الحاضرة، كما أقاموا أدلتهم وبراهينهم التى تعرض بالنقد للأدلة التى اعتمدتها نظرية التطور والتكامل، ولا يسعنا الخوض فى تفاصيل هذه النظرية. ونكتفى هنا بالإشارة بصورة مقتضبة للمواضيع التالية:

١- يستفاد من القرآن الكريم وكذلك خطب نهج البلاغة مسألة ثبوت الأنواع على الأقل بالنسبة للإنسان، بينما لم ترد مثل هذه التصريحات بشأن سائر أنواع الكائنات- رغم أنّ بعض أنصار فرضية التطور والتكامل التى تشمل الإنسان بشكل عام يصرون على توجيه الآيات القرآنية وعبارات خطب نهج البلاغة بحيث تنسجم ونظرية النشوء والارتقاء، حتى ذهبوا إلى أنّ هذه الآيات والخطب أدلة على مزاعمهم. إلّاأنّ المتتبع المحايد يذعن بأنّ هذه المزاعم تنطوى على تكلفات وحرج لا يمكن قبولها إلّامن خلاله.

۲- إنّ قضيـة التكامل والارتقاء أو ثبوت الأنواع ليست من قبيل القضايا التى يمكن إثباتها من خلال التجربـة والأدلـة الحسـية والعقلية، وذلک لأنّ جذورها قد امتدت لملايين السـنين السابقة، وعليه فان كل ما يورده أنصارها أو مخالفوها إنّما هى فرضيات وأدلتها ليست سوى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۱۶

أدلة ظنية، وبناءً على ماتقوم فانه يتعذر القول بنفى آيات خلقة الإنسان وعبارات نهج البلاغة وفقاً لأقوال هؤلاء.

وبعبـارة اخرى: ان العلوم تجـد سبيلهـا وتعتمـد معاييرهـا فى مثـل هـذه الفرضـيات دون أن تقـدح فى التعـاليم الدينيـة، ومن هنا كانت الفرضـيات العلميـة تشـهد التغيير والتحول على الـدوام، فلعل الغد يفرز كشف قرائن جديدة بحيث تحظى فرضـية ثبوت الأنواع بأنصار أكثر.

على سبيل المثال فقـد طالعتنا الصـحافة فى هـذه الأواخر بخبر يفيـد العثور على جماجم بشـرية تعود لما قبل مليونى سـنة وهى لا تفرق كثيراً مع الإنسان المعاصـر؛ الأمر الذى زعزع مرتكزات فرضـية التكامل، وذلک لأنّ أصـحاب هذه الفرضـية يزعمون أنّ الإنسان الذى كان يعيش قبل مئات الآلاف من السنين لم يكن بهذه الصورة التى عليها الإنسان اليوم أبداً.

فالنتيجة التى يمكن أن نخلص إليها ممّا سـبق أنّ هذه الفرضـيات ليس لها من صـمود واستقرار وغالباً ما تتزلزل أسسها ودعائمها بفعل الاكتشافات والاختراعات الحديثة، ولكن حيث ليس من سبيل سوى هذا فى العلوم الطبيعية بصفته دعامة يعتمد عليها حتى تأتى فرضية اخرى فتطرد سابقتهـا وتقتحم الميـدان. والخلاصـة فانّ التعامل مع الفرضـيات يختلف عنه تماماً مع المسائل العلميـة القطعيـة؛ فالمسائل العلمية القطعية من قبيل تركب الماء من ذرتين أوكسجين وذرة هيدروجين هى من امور الحس والتجربة والتى يمكن البرهنة عليها من خلال الأدلـة القطعيـة، امّا الفرضـيات فهى حدسـيات تبرهن بسلسـلة من القرائن الظنيـة، وهى تحظى بالقبول والتأييـد مالم تقم القرائن العلمية المخالفة لها، دون أن يدعى أحد قطعيتها[۱۸۷].

۲- التركيب المزدوج للجسم والروح

يستفاد ممّا مرّ معنا فى هذه الخطبة المسنجمة والآيات القرآنية أنّ الإنسان خلق من عنصرين: العنصر المادى المركب من الماء والتراب (أبسط مواد العالم) والعنصر الآخر هو الروح الإلهية السامية، وهذا هو سر التضاد الباطنى للإنسان حيث تتنازعه الدوافع التى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۱۷

تسوقه إلى العـالم المـادى وتلـک التى تـدفعه إلى العـالم الملائكى. فهو يتصف بالخلق والطبيعـة الحيوانيـة من جانب ويتحلى بالطبيعة الملكوتيـة والروحانيـة من جـانب آخر. ولهـذا أيضاً فهو يتمتع بقوس صـعودى ونزولى تكاملى غايـة فى العظمـة بحيث زود بالملكات والاسـتعدادات التى تبلغ به فى قوس الصـعود درجة «أعلى عليين» بينما يهبط فى النزول والانحطاط إلى «أسـفل السافلين» وليت هناک مثل هـذه الميزة فى الكائنات سوى للإنسان ولا تمنـح سوى للمطهرين من الأفراد فتكسـبهم قيمـة ومنزلة رفيعة، ولا غرو فقد تماسـک وحفظ نفسه مقابل جميع عوامل الانحطاط وعناصـر التسافل والانسـياق نحو المادة والماديـة وقـد اجتاز كافة العقبات والمطبات. ولعل الملائكـة عجزت عن إدراک ذلـک الأـمر قبـل خلـق آدم فظنت التكرار فى هـذا الخلق دون حصول جديـد، فحسـبوا أنّ هـذه الخلقة تحصـيل حاصل من خلال تسبيحهم وتقديسـهم. والمهم فى الأمر هو أنّ اللّه سـبحانه قـد نسب الروح التى نفخها فى آدم إليه سـبحانه فقال:

«وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِی»[۱۸۸]

. ونعرف على نحو البداهـة أن ليس للّهمن جسم ولاـ روح، وأنّه يهـدف إلى بيان عظمـة الأشـياء التى يضـيفها إلى نفسه من قبيل «بيت

اللّه» و «شهر اللّه» فالهدف هو أن هذه الروح الآدمية تتمتع بآثار من صفات اللّه كالعلم والقدرة والخلاقية والابداع. والواقع هو أنّ اللّه قد نفخ فى آدم أشرف وأفضل روح، ولذلك نعت نفسه سبحانه بأحسن الخالقين فقال:

«ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ»[۱۸۹]

ويالها من مصيبة أليمة ومفجعة أن يحث الإنسان الخطى نحو السقوط بحيث يتحول إلى ما يجعله أسوأ من الانعام

«أُولئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ»[۱۹۰]

فى حين يمتلك مثل هذه الاستعدادات والقدرات والإمكانات التى تبلغ به الكمال والمقام الذى ينتظره ويؤهله لأن يتميز على كافة المخلوقات فيرتدى التاج العظيم الذى يكرمه على من سواه

«وَلَقَدْ كَرَّمْنا ...».

۳- الإنسان، اعجوبة عالم الكون

يعتبر الإنسان- فى الحقيقة- من أعجب ظواهر عالم الوجود، وقد تضمن كلام الإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۱۸

إشارة إلى غيض من فيض أسرار الوجود: الاشتمال على الجوارح والأعضاء المتنوعة والقوى المختلفة والقدرات المتفاوتة، والتركيب من العناصر المتضادة والتشكل من عدّة عوامل عجنت بصورة بالغة التعقيد بحيث جمع فيه كل شىء، حتى أصبح فى الواقع نموذج مصغر لجميع عالم الوجود، وعالم صغير يضاهى العالم الكبير.

أتزعم أنّك جرم صغيروفيك انطوى العالم الأكبر

فهذه الميزة التى يتحلى بها الإنسان تجعلنا نتعرف بصورة أعمق على أهمية خلقه من جانب، كما تلفت انتباهنا إلى مدى عظمة خالقه من جانب آخر، فمراد الإمام عليه السلام من هذه الميزة الفريدة للإنسان إنّما يكمن فى الإشارة إلى عظمة الخالق وعظمة المخلوق.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۱۹

القسم العاشر: بداية انحراف ابليس

اشارة

«وَ اسْتَأْدَى اللَّه سُبْحَانَهُ الْمَلائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ فِى الْإِذْعانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ فَقالَ سُبْحانَهُ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ وَتَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النَّارِ وَاسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصالِ فَأَعْطَاهُ اللَّه النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ وَاسْتِتْماماً لِلْبَلِيَّةِ وَإِنْجازاً لِلْعِدَةِ فَقالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

الشرح والتفسير ما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيانه لقضية خلق آدم حتى تطرق إلى موضوع آخر ذا صلة وثيقة به مستخلصاً منه الدروس والعبر التى يمكن أن تحتذيها البشرية جمعاء فى مسيرتها إلى اللّه، فقال عليه السلام:

«واستأدى اللّه سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم فى الاذعان بالسجود له والخنوع [۱۹۱] لتكرمته فقال سبحان اسجدوا لآدم فسجدوا الّا إبليس»

فالذى تفيده العبارة أنّ اللّه قد أخذ عهد الملائكة مسبقاً بالسجود لآدم حين خلقه؛ الأمر الذى وردت الإشارات إليه فى القرآن الكريم

ومنها الآیـهٔ ۷۰ و ۷۱ من سـورهٔ ص: «إِذ قـالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَهِٔ إِنِّی خـالِقٌ بَشَـراً مِنْ طِینٍ* فَـإِذا سَـوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ ساجِدِینَ».[۱۹۲] فقد کانت الملائکهٔ تدرک أنّ الوفاء بذلک العهد إنّما یحصل حین خلق آدم وتکامله بهذه

نفحات الولایهٔ، ج۱، ص: ۱۲۰

الصورهٔ الإنسانیهٔ، ولذلک أمرهم اللّه سبحانه لما أتم خلقه بالسجود «اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِیسَ»[۱۹۳].

نفحات الولایهٔ ؛ ج۱ ؛ ص۱۲۰

ب بعض شرّاح نهـج البلاغـهٔ أنّ هـذا الأمر قـد یکون مسـتغرباً لـدی الملائکـهٔ ویثیر اندهاشـهم ولعلهم یتساهلون فی امتثاله لولا تلک المقدمهٔ بذلک العهد الذی أخذ علیهم، ولذلک أعدهم اللّه سبحانه لهذا الأمر مسبقاً لیعلم أنّ مثل هذه المقدمات ضروریهٔ فی الأوامر المهمّـهٔ. ثم یتطرق علیه السـلام إلی الـدوافع التی وقفت وراء تمرد ابلیس فقال علیه السـلام: «اعترته الحمیـهٔ[۱۹۴] وغلبت علیه الشقوهٔ وتعزز بخلقهٔ النار واستوهن خلق الصلصال».

فالواقع أنّ العامل الأصلی لتمرده إنّما کان تلوثه الباطنی والذی عبر عنه بالشقوهٔ إلی جانب الکبر والغرور والحمیهٔ والأنانیهٔ التی تفرزها طبیعهٔ ذلک الدنس الباطنی والذی غلب علی فکره وأعمی بصیرته لیصده عن رؤیهٔ الواقع فیغتر بخلقهٔ النار ویراها أعظم شأناً من خلقهٔ الطین والتراب؛ التراب الذی یعتبر مصدر جمیع الخیرات والبرکات والمنافع والفوائد، بالتالی حسب أن علمه ومعرفته إنّما تفوق حکمهٔ اللّه- طبعاً لا یبدو هذا الحکم غریباً من الأفراد الذین یغرقون فی مثل هذا الحجب؛ فالإنسان الأنانی المضـروب علیه بحجاب الغرور قد یری القبـهٔ حبـهٔ والحبـهٔ قبـهٔ أحیاناً، فعباقرهٔ الفکر وجهابذهٔ العلم إذا ما ابتلوا بالغرور والأنانیهٔ وحب الذات ربما یرتکبون أفضع الأخطاء والزلاـت. فالمراد بالشـقاوهٔ هنا تلک الموانع الباطنیـهٔ والصـفات الرذیلـهٔ التی کانت لـدی الشـیطان، وهی الموانع والصـفات الاختیاریهٔ النابعـهٔ من أفعاله السابقـهٔ وهی لیست شـقوهٔ ذاتیـهٔ وغیر اختیاریهٔ؛ لأنّ الشـقاوهٔ تقابل السـعادهٔ. وتعنی السـعادهٔ توفیر الإمکانات وتمهید السبیل من أجل الحرکـهٔ نحو الصـلاح والشـقاوهٔ تعنی المطبات والصـعوبات التی تعترض هـذا السبیل؛ والمهم أنّ کل هذه الامور إنّما تنبع من ذات أفعـال الإنسـان وسـائر الموجودات المختـارهٔ لاـ أنّهـا تسـتند إلی العوامل الجبریـهٔ والقهریـهٔ. علی کل حال فان ابلیس قد ارتکب هذه المعصیهٔ الکبری والخطأ الجسیم لیسقط

نفحات الولایهٔ، ج۱، ص: ۱۲۱

بالمرهٔ فیطرد من حظیرهٔ القرب الإلهی حتی أصبح من ألعن خلق اللّه وأبعـدهم عن رحمته بفعل تلک المعصـیهٔ الخطیرهٔ؛ غیر أنّ هـذه اللعنـهٔ والطرد من الرحمـهٔ لم تکن لتوقظه فتمادی فی غیه وغروره واسـتناداً لسـیرهٔ المغرورین والمتعصبین من ذوی الأنفهٔ والحمیهٔ فقد باشـر عملًا قبیحاً آخر تمثل بتوعـده باغواء آدم وذریته، ثم سأل اللّه ویداقع اشـباع غریزهٔ غضـبه وحسده النظرهٔ إلی یوم القیامهٔ لیرتکب معصـیهٔ اخری أفـدح من سابقتها «قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ»[۱۹۵]. فاسـتجاب اللّه له لثلاث؛ استحقاقاً للغضب، وإکمالًا لابتلاء العباد وتمحیصـهم وأخیراً انجاز ما وعده به «فأعطاه اللّه النظرهٔ اسـتحقاقاً للسخطهٔ واستتماماً للبلیهٔ وانجازاً للعدهٔ»، ولکن لیس علی ضوء مـا سأل، بل جعل لـذلک أجلًا معیناً «فقال أنّک من المنظرین إلی یوم الوقت المعلوم»[۱۹۶]. أمّـا ما المراد بیوم الوقت المعلوم فهناک کلام واختلاف بین مفسری القرآن ونهج البلاغهٔ.

فـذهب البعض إلی أنّ المراد بـذلک انتهاء العالم وانقطاع مـدّهٔ التکلیف (وعلی ضوء هذا المعنی فقد کانت الموافقهٔ علی بعض سؤال ابلیس، لأنّه سأل النظرهٔ إلی یوم القیامهٔ بینما أجیب بالنظرهٔ إلی ختام الدنیا). بینما ذهب البعض الآخر أنّ المراد بذلک زمان معیّن وهو انقطاع عمر ابلیس؛ الأمر الذی لا یعلمه إلّااللّه؛ وإلّا لو أعلنه آنذاک لکان إغراءً لابلیس بالتمرد وارتکاب المعاصی. وأخیراً فقد احتمل البعض أنّ المراد یوم القیامـهٔ؛ لأـنّ الآیـهٔ الخمسـین من سورهٔ الواقعـهٔ عبرت بـالیوم المعلوم عن یوم القیامـهٔ «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِینَ وَالْآخِرِینَ* لَمَجْمُوعُونَ إِلی مِیقاتِ یَوْمٍ مَعْلُومٍ». إلّاانّ هذا الاحتمال یبدو مسـتبعداً، لأنّه وعلی ضوء هذا التفسیر قد استجیب لجمیع طلباته، فی حین

يفيد ظاهر الآيات القرآنية أنّه لم يستجب إلّالبعض طلباته، أضف إلى ذلك فانّ الآية التى وردت فى البحث قالت «يوم الوقت المعلوم» بينما قالت الآية الواردة فى سورة الواقعة «يَوْمٍ مَعْلُوم» فالآيتان متفاوتتان، وعليه فالتفسير الصحيح هو التفسير الأول أو الثانى. من جانب آخر فقد جاء فى الحديث أنّ المراد بيوم الوقت المعلوم هو زمان ظهور إمام العصر والزمان المهدى (عج) والذى ينهى بدوره عمر ابليس ۱۹۷]. وبالطبع

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۱۲۲

فان هذا لن يؤدى إلى اجتثاث جذور الذنب والمعصية عن العالم بالمرة وتنتفى قضية الطاعة والامتحان الإلهى؛ لأنّ العامل الأصلى إنّما يكمن فى هوى النفس الذى يبقى سائداً فى الإنسان، بل حتى عامل انحراف الشيطان إنّما يعزى إلى هوى نفسه.[۱۹۸]

تأمّلات

۱- عظمة مقام الإنسان

إنّ الآيات القرآنية التى تناولت قضية سجود الملائكة للإنسان فى عدّة سور لتشكل أحد الأدلة المهمّة على أن الإنسان يمثل أفضل موجود فى عالم الخلقة وأشرف مخلوقات اللّه سبحانه ۱۹۹]، كما تشير هذه الآيات إلى سجود جميع الملائكة دون استثناء وخضوعها لآدم عليه السلام، وهذا بدوره دليل واضح على أفضليته عليه السلام حتى على الملائكة، ويبدو أنّ الهدف من هذه التأكيدات القرآنية المستمرة الفات انتباه الإنسان إلى عظم شخصيته الإلهية والمعنوية؛ الأمر الذى يلعب دوراً مهماً فى تربية النفس البشرية وتهذيبها وهدايتها.

۲- كيف كان السجود لآدم؟

هناك عدّة أبحاث لدى المفسرين بشأن كيفية السجود، وهل يجوز السجود لغير اللّه تعالى.

يرى البعض أنّ ذلك السجود لم يكن إلّاللّه تعالى، غير أنّه حصل أمام آدم بينما كان معلولًا لخلق هذا الكائن العجيب؛ فى حين ذهب البعض الآخر إلى أنّ السجود كان لآدم، إلّاانّه لم يكن سجود العبادة المختص باللّه تبارك وتعالى، بل كان سجود خضوع واكرام واحترام. وجاء فى كتاب عيون الأخبار عن كتاب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال:

«كان سجودهم للّه تعالى عبوديةً ولآدم إكراماً وطاعة لكوننا فى صلبه»[۲۰۰]

. فالذى يستفاد من هذا الحديث أن

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۱۲۳

السجدة كانت تنطوى على بعدين؛ أحدهما عباة اللّه والآخر تكريم آدم عليه السلام. وشبيه ماذكر سابقاً هو ماورد فى الآية ۱۰۰ من سورة يوسف «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً». فقد جاء فى الحديث الذى روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام بشأن الآية السابقة أنّه قال:

«أمّا سجود يعقوب وولده فانّه لم يكن ليوسف وإنّما كان من يعقوب وولده طاعة للّهوتحية ليوسف كما كان السجود من الملائكة لآدم».

۳- أسئلة واستفسارات بشأن خلق الشيطان

هنالك عـدّة أسـئلة واسـتفسارات بشأن خلق الشـيطان وسوابقه وتمرده على الأوامر الإلهية ومن ثم امهاله حتى الزمان المعلوم، وبالطبع فانّ المقام لا يسع الاسهاب والوقوف على التفاصيل، ولذلك سنقتصر على التعرض بأطناب لهذه المواضيع.

سؤال:

مهل ابليس من الملائكة؟ إنّ كان الجواب بالإيجاب فلم ارتكب تلك المعصية الخطيرة مع أن الملائكة معصومون، وإن كان الجواب بالنفى فى أنّه لم يكن من الملائكة، فما علة ذكره فى عداد الملائكة على لسان الآيات القرآنية؟

جواب:

يقيناً لم يكن من الملائكة، فقد صرّح القرآن قائلًا: «كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»[۲۰۱]، إلّا أنّه قد اصطف مع الملائكة أثر جهوده فى الطاعـة والعبوديـة ولـذلك عـد واحد منهم، ولهذا السـبب أيضاً وردت بعض خطب نهج البلاغة بما فيها الخطبة رقم ۱۹۲ المسماة بالقاصـعة التى عبرت بالملك عن ابليس؛ وناهيك عن ذلك فقـد صـرّح نفسه قائلًا: «خَلَقْتَنِى مِنْ نارٍ»[۲۰۲] ونعلم جميعاً بأنّ الجن قد خلقوا من النار لا الملائكـة، وهـذا ما صـرّحت به الآيـة الخامسة عشـرة من سورة الرحمن «وَخَلَقَ الْجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ»، وقد أشارت بعض روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المعنى أيضاً[۲۰۳]. أضف إلى ذلك فقد أشار القرآن إلى ذرية ابليس وولده

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۲۴

«أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ»[۲۰۴] بينما ليست للملائكة من ذرية.

سؤال:

كيف جـاز على اللّه سـبحانه أن يسـلط ابليس على النـاس حتى أنّهم سـلبوا قـدرة الـدفاع؟ أضف إلى ذلـك فمـا الضـرورة فى الاغواء والضـلال؟ ومنحه تلك المـدّة الطويلـة من العمر والمهلة ليسـعى سـعيه فى اغواء بنى آدم وتوظيف كافة إمكاناته فى سبيل تحقيق هذا الهدف؟

جواب:

أولًا: أنّ الشيطان قد خلق طاهراً عفيفاً وقد جدّ لسنوات من أجل صون قدسيته وطهّره حتى قادته طاعته وعبوديته لأن يكون فى مصاف الملائكة، إلّاأنّه فى نهاية الأمر وأثر حبّه لذاته وكبره وغروره واستغلاله لحريته قد سلك سبيل الضلال فسقط إلى الحضيض.

ثانيـاً: من الضـرورى الالتفـات إلى نقطـة مهمّـة وهى أنّ نفوذ الوسـاوس الشـيطانية إلى باطن الإنسان ليس نفوذاً عبثياً وإجبارياً؛ بل إنّ الإنسان هو الـذى يفسـح المجال بإرادته واختياره لهـذا النفوذ سـيجعله يسـتحوذ على نفسه، حيث يمنـح الشـيطان تأشـيرة الدخول إلى حدود قلبه وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: «إِنَّ عِبادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ»[۲۰۵].

وقال فى موضع آخر «إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ».[۲۰۶]

ثالثاً: لقد تضمنت عبارات الإمام على عليه السلام رداً لطيفاً رائعاً على السؤال المذكور حيث قال:

«فأعطاه اللّه النظرة استحقاقاً لسخطه واستتماماً للبلية وانجازاً للعدة»

؛ أى أنّ اللّه قـد أجزل عقابه بمنحه هـذه المهلـة من جانب؛ لأنّ الآيات القرآنيـة تفيـد التحذير الإلهى الشديد والمتكرر لُاولئك الذين يسيرون باتجـاه الـذنوب والمعاصـى؛ فـاذا فـاد التحـذير وأثّر بهم ورجعوا عن غيّهم كان ذلك خيراً وإلّا أمهلهم ووكلهم إلى أنفسـهم ليكون عذابهم أشد: «وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ نَّما نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۲۵

«مُهِينٌ»[۲۰۷]، ومن جانب آخر فانّ وجود الشيطان يشكل اختباراً وامتحاناً ضخماً للناس، وبعبارة اخرى فانّه يمثل جسر الأفراد المؤمنين

نحو السمو والتكامل– لأنّ وجود هذا العدو المقتدر بالنسبة للمؤمنين الذين يرومون انتهاج سبيل الحق ليس فقط لايستبطن أى ضرر فحسب، بل سيكون وسيلة للتسامى والتكامل؛ حيث إننا نعلم بأنّ السمو والتكامل إنّما يتمّ عادة فى ظل التضاد وإذا ما رأى الإنسان نفسه أمام عدو شرس فانه سيوظف كافة طاقاته وقدراته ونبوغاته، وبعبارة اخرى فان وجود هذا العدو القوى سيؤدى بالإنسان إلى ممارسة مزيد من الحركة والجهد؛ الأمر الذى يقوده بالتالى إلى السمو والرقى والتكامل. بينما لايزيد هذا الأمر مرضى القلوب والآثمين المنحرفين سوى انحرافاً وبؤساً وشقاءً، والحق أنّهم استحقوا ذلك بما كسبت أيديهم: «لِيَجْعَلَ ما يُلْقِى الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» فالهدف هو أنّ اللّه يختبر اولئك القاسية قلوبهم وفيها مرض بالقاءات الشيطان، «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ»[۲۰۸].

سؤال:

كيف كانت شبهة ابليس بالتعزز بخلقة النار فيرى نفسه أفضل من آدم وبالتالى يعترض على حكمة اللّه؟

ونقول فى الجواب أنّ حب الذات والغرور تعدّ من أضخم الحجب التى تحول دون رؤية الحقائق والواقعيات؛ وهذا ما حصل لابليس، فلم يدفعه ذلك إلى التمرد والعصيان فحسب، بل اعترض على الحكمة الإلهية ليجعل ذلك حجة احتج بها فى شرف عنصره على عنصر آدم، فكيف أسجد لهذا الموجود الذى خلقته من طين بينما خلقتنى من النار، فقد ذهبت به الظنون إلى أفضلية النار على التراب، بينما لا يخفى أنّ التراب ينبوع مختلف الخيرات والبركات ومصدر جميع المواد الحيوية والمهمة والوسيلة الرئيسية لمواصلة الحياة، كما يضم فى طياته أنواع المعادن والفلزات والجواهر وليس النار كذلك. صحيح أنّ النار والحرارة تعتبر من سائر الوسائل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۲۶

الحياتية الضرورية، لكن ممّا لاشك فيه أن الدور الأساسى إنّما تقوم به المواد الموجودة فى التراب والنار ليست سوى وسيلة من أجل تكامل هذه المواد.

لقد صرّحت بعض الروايات ۲۰۹] أنّ وحدة من أكاذيب ابليس هو زعمه بأنّ النار أفضل من التراب، والحال إننا نعلم بأنّ النار عادة ما تتولد من احتكاك الأشجار أو من المواد الدهنية وانّ أصل الأشجار هو التراب، كما أنّ الدهون النباتية والحيوانية إنّما تستخرج بواسطة من الأرض. أضف إلى ذلك أنّ امتياز آدم لم يقتصر على أفضلية عنصر التراب؛ بل تكرمته إنّما استندت إلى عامل أصلى تمثل بتلك الروح العظيمة التى نفخت فيه «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى». ولنفترض جدلًا أنّ المادة الاولى فى خلقة الشيطان كانت أفضل من مثيلتها لدى آدم، فان هذا الأمر هو الآخر لا يقوى دليلًا على تمرده وعدم امتثاله لأمر اللّه بالسجود لآدم بفضل تلك الروح الإلهية التى حلت فيه واكسبته ذلك المقام العظيم، ولعل الشيطان كان يعلم بكل هذه الامور إلّاأنّ الكبر والغرور والعجب وحب الذات أعمى بصره وبصيرته عن الاذعان للحق.

۴– تبريرات جوفاء

لقد حاول بعض الفلاسفة– كما نقل ذلك ابن ميثم البحرانى رحمه الله فى شرحه لنهج البلاغة– أن يبرروا ويأولوا كافة تفاصيل قصة خلق آدم وسجود الملائكة وتمرد ابليس وعدم امتثاله لأمر اللّه ليحملوها على مفاهيم لا تنسجم وظواهر تلك القصة. ومن ذلك أنّهم قالوا أنّ المراد بالملائكة الذين امروا بالسجود لآدم هو القوى البدنية المأمورة بالخضوع أمام النفس العاقلة (الروح البشرية)، والمراد بابليس القوة الوهمية وجنود ابليس هى القوى النابعة من الوهم وهوى النفس والتى تتعارض والقوى العقلية، امّا المقصود بالجنّة التى طرد منها آدم فانّما يراد بها المعارف الحقة وأنوار الكبرياء الإلهية! وما إلى ذلك من التأويلات الجوفاء التى لا ـ أساس لها من الصحة.[۲۱۰]

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۲۷

هذا نموذج من التفسير بالرأى الذى ورد النهى عنه فى الأحاديث والروايات على أنّه سبب السقوط والابتعاد عن اللَّه سبحانه.

فكلنا نعلم بأنّ التفسير بالرأى وتحميل الأحكام الذهنية المسبقة على الآيات والروايات يعدّ على الدوام من أهم الوسائل التى تمسك بها المحرفون والمتصنعون المتلبسون بالدين الذين لا يألون جهداً فى توجيه الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بما ينسجم ورغباتهم ونزعاتهم، كما نعلم بأنّ الباب لو فتح أمام تفسير الآيات والروايات بالرأى فسوف لن يبقى هناك من أصول مسلمة ومبانى وأحكام قانونية ثابتة وسيصبح كل شىء تابع للأفكار الخاطئة والأهواء الضالة لهذا وذاك، بل سيهجر الكتاب والسنة ويصبحان طينة بيد المنحرفين والمغرضين يصنعون منها ما شاءت أهوائهم ورغباتهم. ومن هنا طالعنا إصرار كبار محققى الإسلام والباحثين بضرورة استخدام القواعد المسلمة لباب الألفاظ فى فهم معانى الكتاب والسنة. فالألفاظ لابدّ أن تحمل على معانيها الحقيقية، اللّهم إلّاأن تكون هناك قرائن جلية تدعو لحملها على المعانى المجازية؛ ويراد بها القرائن المقبولة لدى العرف والعقلاء الذين يستندون إليها فى إقامة أدلتهم وبراهينهم [۲۱۱].

وأخيراً فان ذكر قصة ابليس وعاقبته كما وردت فى عبارات الإمام على عليه السلام لتنطوى على الدروس والعبر التى ينبغى أن تحتذيها البشرية فى مسيرتها فينظروا بعين الاعتبار إلى نتائج الكبر والغرور وحب الذات والحمية والعاقبة المشؤومة لابليس وطرده من ماقم القرب لتلاحقه اللعنات والشقاء الأبدى، فتكون على حذر من سلوك هذا الطريق الخطير. ونختتم الحديث بما أورده العالم الجليل المرحوم مغنية فى شرحه لنهج البلاغة فقد خلص إلى عدّة دروس من قصة ابليس منها:

۱- من حسد صاحب فضيلة أو عادى إنساناً لرياسته وعمله فانّه على دين ابليس ومن رهطه يوم القيامة.

۲- ليس هنالك من سبيل لمعرفة الدين والأخلاق الحميدة سوى سبيل واحد وهو

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۲۸

التسليم للحق والثبات عليه مهما كانت النتيجة.

۳- أنّ أغلب الناس يصرون على الباطل لا على أساس عدم معرفتهم به، بل بسبب العناد واللجاجة ضد مخالفيهم، وهذا الاصرار الخاطئ إنّما ينتهى بهم إلى أسوأ العواقب. فلو تاب ابليس ورجع عن خطأه لقبل اللَّه توبته وقد كان له مثل هذا الاستعداد، إلّاأنّه كان يعتقد بشرط وهو ألا يأمره اللَّه بالسجود لآدم ثانية بينما اشترط اللَّه قبول توبته بذلك الشرط.[۲۱۲]

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۲۹

القسم الحادى عشر: عاقبة آدم

اشارة

«ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحانَهُ آدَمَ داراً أَرْغَدَ فِيها عَيْشَهُ وَآمَنَ فِيها مَحَلَّتَهُ وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَداوَتَهُ فاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفاسَةً عَلَيْهِ بِدارِ الْمُقام وَمُرافَقَةِ الْأَبْرارِ فَباعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلًا وَبِالِاغْتِرارِ نَدَماً ثُمَّ بَسَطَ اللَّهُ سُبْحانَهُ لَهُ فِى تَوْبَتِهِ وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ وَأَهْبَطَهُ إِلَى دارِ الْبَلِيَّةِ وَتَناسُلِ الذُّرِّيَّةِ».

الشرح والتفسير كان الحديث فى مامضى عن اختبار الملائكة وتمرد ابليس، بينما تطرق الحديث هنا عن امتحان آدم والنتيجة التى تمخض عنها هذا الامتحان. ونقول هنا ما تفيده بعض الآيات القرآنية هو أنّ آدم قد خلق للعيش فى الأرض. فقد قال سبحانه وتعالى فى الآية ۳۰ من سورة البقرة «إِنِّى جاعِلٌ فِى الْأَرضِ خَلِيفَةً»، كما أشارت الآية ۳۶ من نفس السورة إلى المراد بالأرض موضع غير

الجنّهٔ (الجنّهٔ بأی معنی کانت): «وَقُلنا اهْبِطُوا بَعْضُکَمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَکَمْ فِی الأرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلی حِینٍ».
علی کـل حـال کـان لابـدّ لآدم من دورهٔ تدریبیهٔ وامتحان إلهی یمـده بتجربـهٔ لیتعرف علی المفاهیم من قبیل الأمر والنهی والتکلیف والطاعهٔ والمعصیهٔ والندم والتوبهٔ ویتعرف عن قرب علی عدوه، ومن هنا أسکنه اللّه الجنّهٔ وأباح له التمتع بنعیمها ولم یحظر علیه سوی الاقتراب من تلک الشـجرهٔ، إلّاأنّ وساوس الشـیطان ومکره وحیله قد أثرت فی آدم ودفعته إلی ترک الاولی، فتناول من تلک الشـجرهٔ ویهبط من الجنّهٔ؛ الأمر الذی أدی بالتالی إلی یقظته وعودته
نفحات الولایهٔ، ج ۱، ص: ۱۳۰
إلی اللّه فی التوبـهٔ والإنابـهٔ، فـاحفه اللّه بلطفه وعنـایته فـالهمه کیفیـهٔ التوبـهٔ، فتاب اللّه علیه ووعـده بالعودهٔ إلی الجنّهٔ، فکان من الآثار الوضـعیهٔ لفعل آدم أن یحرم من تلک النعم والدعـهٔ فی الجنّهٔ لأن یهبط إلی الأرض فیمارس الحیاهٔ الملیئهٔ بالتعب والمشـقهٔ. ما مر معنا لحد الآن نظرهٔ کلیهٔ عامهٔ إلی خطبهٔ الإمام بشأن قصهٔ آدم علیه السلام، ونخوض الآن فی شرح تفاصیل الخطبهٔ.
قال علیه السلام:
«ثم اسکن سبحانه آدم داراً أرغد[۲۱۳] فیها عیشه»
ثم قال علیه السلام:
«وآمن فیها محلته»
فی إشارهٔ واضـحهٔ إلی أنّ الباریٔ سـبحانه قـد أفاض علیه رکنین رئیسـیین من الأرکان المهمّهٔ للحیاهٔ وهما: الأمن ووفور النعمهٔ. والواقع هو أنّ الإمام علیه السـلام قد اسـتوحی ذلک المعنی من الآیهٔ ۳۵ من سورهٔ البقرهٔ: «وَقُلْنـا یا آدَمُ اسْـکُنْ أنْتَ وَزَوْجُکَ الجَنَّهَٔ وَکُلا مِنْها رَغَداً حَیْثُ شِئْتُما». کما حذر اللّه سبحانه آدم علیه السلام من عدوه ابلیس
«وحذره ابلیس عداوته»
وبـذلک فقـد أرشـده إلی سبیل السـعادهٔ والفلاح، کما أتم علیه الحجـهٔ بابانته لطرق البؤس والشـقاء. وهذا ما صـرحت به الآیهٔ ۱۷ من سورهٔ طه إذ قالت: «فَقُلْنا یا آدَمُ إنَّ هذا عَدُوٌّ لَکَ وَلِزَوْجِکَ فَلا یُخْرِجَنَّکُما مِنَ الجَنَّهِٔ فَتَشْـقی واتماماً للحجهٔ أکثر فقد دله علی الشجرهٔ التی لا ینبغی إلیه الاقتراب منها، بینما أباح له التمتع بثمار کافهٔ أشـجار الجنّهٔ، غیر أنّ آدم علیه السـلام وبسـبب عـدم امتلاکه التجربهٔ الکافیهٔ بشأن مکائد الشیطان وحبائله قد آل أمره إلی الوقوع فی مصیدهٔ الشیطان، فأشار الإمام علیه السلام إلی هذه المسألهٔ بقوله:
«فاغتره عدوه نفاسهٔ[۲۱۴] علیه بدار المقام ومرافقهٔ
الأبرار»
. ویبـدو أن هـذه هی الوظیفـهٔ الـتی نهض بهـا الشـیطان، حیث یسـعی للاـقتراب من الصـالحین والخیرین لیوسوس لهم ویسـلبهم النعم والإلهیهٔ ویقودهم نحو البؤس والشقاء. ثم أشار علیه السلام إلی الأمر الرئیسی فی خطأ آدم علیه السلام:
«فباع الیقین بشکه»
کما ضعف تجاه الوساوس
نفحات الولایهٔ، ج ۱، ص: ۱۳۱
الشـیطانیهٔ التی کان ینبغی له مجابهتها بعزمه الراسـخ «والعزیمهٔ بوهنه»[۲۱۵] والعبارهٔ إشارهٔ للآیـهٔ ۱۱۵ من سورهٔ طه «وَلَقَـدْ عَهِدْنا إلی آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِیَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً».[۲۱۶] نعم صـحیح أنّ الشـیطان أقسم لهما بأنّه لا یرید بهما إلّاالنصـیحهٔ والخیر «وَقاسَمَهُما إنِّی لَکُما لَمِنَ النّاصِحِینَ»[۲۱۷] ولکن هـل کـان علی آدم أن یثق بوعـد اللّه القـائم علی الیقین أم یصـغی إلی کلاـم الشـیطان القـائم علی أساس الشک والوهم؟ لاشک إن نسـیان هـذه الحقیقـهٔ وإغفالها جعلت آدم یقـدم علی تلک المعاملهٔ التی لا تنطوی سوی علی الغبن والضرر فضعف عزیمته فی طاعهٔ اللّه.

وهذا بحد ذاته درس وعبرة لکافة بنی آدم فی ضرورة الاستناد إلی عوامل الیقین فی جمیع معاملاتهم واجتناب طرق الشک والغموض والابهام فی مراعاة الاحتیاط وعدم اقتحام أی میدان دون دراسة ظروفه وملابساته، وذلک لأنّ الشیاطین درجت علی تنمیق سبلها المفسدة بما یکسبها ظاهراً أنیقا فی حین لا تستبطن سوی النار المستعرة التی أوقدها لبنی آدم. أجل هنالک الدروس والعبر القیمة فی قصة آدم والتی لابدّ للبشریة من وضعها نصب عینها فی حیاتها حتی قیام الساعة.

ثم تطرق علیه السلام إلی النتائج المریرة التی أفرزتها تلک المعاملة فقال: «واستبدل بالجذل»[۲۱۸] وجلا[۲۱۹] وبالاغترار ندما».

وهنا نسأل ماهی الحوادث التی دفعت بآدم للالتفات إلی خطأه وبالتالی حسرته وندمه

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۱۳۲

علی ما فرط منه؟ یبدو أنّ الإمام علیه السلام أجمل عبارته بهذا الشأن، بینما تصدی القرآن الکریم فی أکثر من آیة لشرح التفاصیل: فحین استسلم آدم لوساوس الشیطان وأکل من تلک الشجرة المحظورة، لم تمر علیه مدّة حتی نزع عنه لباس الجنّة وبدت سوأته التی قدر لها أن تخفی، فشعر بالخجل من الملائکة وطفق یخصف علیها من ورق الجنّة، ثم أعقب ذلک ما تلقاه من أمر بالهبوط من الجنّة علی أنّه یمثل جزاء کل من یولی ظهره لأوامر اللَّه ویستجیب لوساوس الشیطان. إلّاأنّ آدم علیه السلام وخلافاً لسلوک الشیطان وتجربته الخاطئة، لم یصر علی خطأه ویرکب رأسه ویواصل معصیته، فأقبل فوراً علی اللَّه سائله بلطفه ورحمته أن یتوب علیه، فعلمه کیفیة التوبة ثم وعده العودة ثانیة إلی الجنّة «ثم بسط اللَّه سبحانه له فی توبته ولقاه کلمة رحمته ووعده المرد إلی جنّته»[۲۲۰].

علی کل حال فان قبول التوبة لم یبق علی آدم فی الجنّة، حیث لم یعدّ هنالک من مبرر لمواصلة حیاته فیها، فقد تعلم ما کان ینبغی علیه تعلمه وجرب ما کان لابدّ له من تجربته.

ولذلک أهبطه اللَّه إلی دار الدنیا- الامتحان-؛ دار التزاوج والذریة «وأهبطه إلی دار البلیة وتناسل الذریة». فالذی یستشف بوضوح من هذه العبارة أنّ الدنیا دار البلاء والامتحان، وما مر فی الجنّة کان تحضیراً لخوض هذا الامتحان، کما لا مکان فی الجنّة للتزاوج والتناسل، بل ذلک من مختصات الدنیا.

تأمّلات

۱- ما کانت جنّة آدم؟

ذهب جماعة إلی أنّ الجنّة التی سکنها آدم علیه السلام کانت جنّة الخلد التی وعد اللَّه عباده

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۱۳۳

الصالحین، بینما ذهبت جماعة اخری إلی أنّها کانت جنّة دنیویة غنیة بحدائقها وبساتینها، وقد استدلت هذه الجماعة ببعض الأدلة فیما اعتقدت:

بادئ ذی بدء أنّ الجنّة الموعودة بعد القیامة هی جنّة خالدة لا یعتریها الخروج. وقد یقال فاذا کانت کذلک فأنی لابلیس الذی یفیض کفراً وعناداً وطغیاناً أن یدخل هذه الروضة المقدسة؟

فاذا قیل بأن إبلیس لم یوسوس لآدم فی الجنّة قط، بل وسوس له وقد وقف خارجاً علی بابها، قلنا بانّ ذلک لا ینسجم وما صرّحت به الآیة ۳۶ من سورة البقرة التی قالت: «وَقُلنا اهْبِطُوا بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» التی تشمل آدم وحواء وابلیس معاً.

أضف إلی ذلک فقد صرّحت الروایات الکثیرة الواردة عن أئمة أهل البیت علیهم السلام أنّ تلک الجنّة کانت من جنان الدنیا.

فقد جاء عن حسین بن بشار أنّه قال: سألت الإمام الصادق علیه السلام عن جنّة آدم، فقال علیه السلام:

«جنّة من جنان الدنيا يطلع عليها الشمس والقمر ولو كانت من جنان الخلد ما خرج منها أبداً»[۲۲۱].
كما أورد المرحوم الكلينى فى الكافى عن حسين بن ميسر مثل هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام ۲۲۲]- امّا الإشكال الوحيد الذى يرد على هذا الكلام فانما يكمن فى العبارة السابقة من هذه الخطبة
«نفاسة عليه بدار المقام»
، لكن من الممكن أن يكون معنى هذه العبارة هو أنّه لو لم يرتكب هذه المخالفة لبقى مدّة طويلة فى هذه الجنّة ثم يهبط إلى الأرض، إلّاأنّه تركه للاولى أسرع فى إخراجه من الجنّة وهبوطه إلى الأرض، أو أن يقال أنّه أراد سبحانه أن يحرم آدم من جنّة الخلد، فلو كان آدم مطيعاً لأوامر اللّه لالتمس طريقه إلى تلك الجنّة.

۲- هل اقترف آدم معصية؟

يرى أولئك الذين يجوزون ارتكاب الذنب على الأنبياء- ولاسيما فى مثل هذه الامور- أنّ
نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۳۴
آدم عليه السلام قد ارتكب المعصية، بينما لا يرى أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام الذين يؤمنون بعصمة الأنبياء عن كل خطأ وزلل- سواء فى باب العقائد وتبليغ الأحكام الشرعية أو فى باب الأعمال والأفعال اليومية قبل النبوّة وبعدها-[۲۲۳].
أنّ آدم عليه السلام قد قارف أية معصية وأن نهى اللّه لآدم عليه السلام عن تلك الشجرة المحظورة لم يكن نهياً تحريمياً، بل كان فعلًا مكروهاً، ولما كان مقام الأنبياء ولاسيما آدم عليه السلام الذى سجدت له الملائكة لمن العلو والرفعة بحيث لا- يتوقع ارتكابهم للمكروه، فان فعلوا ذلك آخذهم الحق سبحانه فحسنات الأبرار سيئات المقربين- وبعبارة اخرى الذنوب على قسمين: ذنوب مطلقة وذنوب نسبية. الذنوب المطلقة هى الذنوب لدى الجميع من قبيل الكذب والسرقة وشرب الخمر، أمّا الذنوب النسبية فهى ليست بذنوب لدى عامة الناس، بل قد تكون مستحبة لدى البعض من الناس، بينما نفس هذه الأعمال المستحبة والمباحة قد يطلق عليها اسم المعصية فيما إذا صدرت من المقربين الذين يستبعد أن يقوموا بمثل هذه الأفعال، إلّاأنّها ليست من قبيل الذنوب المطلقة بل الذنوب النسبية والمراد بها هنا «ترك الاولى». كما ذهبت جماعة إلى النهى عن تلك الشجرة المحظورة على آدم عليه السلام كان نهياً إرشادياً لا نهياً مولوياً، على غرار نصائح الطبيب وإرشاداته حين ينصح مريضه بعدم تناول الطعام الفلانى خشية من استفحال المرض وازدياد مدته. فمن البديهى أنّ مخالفة نصائح الطبيب لا تعتبر اهانة له ولا تعدّ معصية لأوامره، بلستجر تلك المخالفة على صاحبها مزيداً من الألم والمعاناة.
وهذا هو المعنى الذى أشارت إليه بعض الآيات القرآنية بشأن قصة آدم عليه السلام: «فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقى [۲۲۴].
وقد ورد فى بعض الروايات أنّ آدم عليه السلام لم يتناول من تلك الشجرة المحظورة، بل أكل من شجرة مشابهة لها، ولذلك قال لهما الشيطان فى ضمن وساوسه إنّ اللّه لم ينهكما عن هذه الشجرة
نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۳۵
«وَقالَ ما نَهيكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ»[۲۲۵]. أضف إلى ذلك فهناك نقطة مهمّة لابدّ من الالتفات لها والتى تكمن فى قسم الشيطان لاثبات حسن نيته فى دعوتهما للأكل من تلك الشجرة «وَقاسَمَهُما إِنِّى لَكُما لَمِنَ النّاصِحِينَ»[۲۲۶] ولم يكن آدم وحواء آنذاك سمعا من يقسم كاذباً؛ الأمر الذى جعلهما يصغيان إلى وساوس الشيطان.
بالطبع لو تأملا قليلًا لاكتشفا كذب الشيطان؛ لأنّ اللّه سبحانه قد حذرهما سابقاً مكائده وأنّه عدو لهما، ومن الواضح أنّه لايمكن

الوثوق بكلام العدو وإن عززه بالإيمان المغلظة.

۳- ماحقيقة الشجرة المحظورة؟

اختلفت أقوال المفسرين بشأن الشجرة المحظورة على آدم عليه السلام هل كانت شجرة خارجية اعتيادية أم مسألة معنوية أخلاقية، وإن كانت مادية أو معنوية فما هى هذه الشجرة؟
نتناول هذه القضية بالبحث المقتضب رغم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يتعرض فى خطبته لتلك الشجرة حيث وردت الإشارات فيها إلى قصة إبليس ووساوسه لآدم عليه السلام.
فقد أشار القرآن الكريم فى ستة مواضع إلى تلك الشجرة المحظورة دون الخوض فى ماهية تلك الشجرة، غير أنّ الأخبار والروايات الإسلامية وكلمات المفسرين قد تضمنت أبحاثاً مسهبة بهذا الخصوص- حيث فسرها البعض بشجرة الحنطة (وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ الشجرة تطلق على النبات أيضاً، وهذا ما صرّحت به الآية ۱۴۶ من سورة يونس: «وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ». فى حين فسرها البعض الآخر بشجرة العنب والنخيل والكافور أيضاً.[۲۲۷]
وأخيراً فسرها البعض معنوياً على أنّ تلك الشجرة كانت علم آل محمد صلى الله عليه و آله وقيل بل العلم بصورة مطلقة كما قيل كانت الحسد. وقد ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حين سئل عن علة اختلاف الروايات بهذا الشأن أنّه قال:
«كلّه صحيح، لأنّ اشجار الجنان ليست من
نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۳۶
قبيل أشجار الدنيا. فشجرة الجنّة تحمل أنواع الثمار. ولما كرم اللَّه آدم عليه السلام واسجد له الملائكة واسكنه الجنّة حدث نفسه: هل خلق اللَّه خلقاً أكرم منّى؟ فأراه اللَّه مقام محمد وآل محمد صلى الله عليه و آله فتمنى أن يبلغ مقامهم»[۲۲۸]. جدير بالذكر أنّ التوراة صرّحت بأنّ الشجرة المحظورة كانت شجرة العلم والمعرفة (معرفة الحسن من القبيح) وشجرة الحياة الخالدة وقد نهى اللَّه آدم وحواء من التناول من تلك الشجرة فيحصلا على المعرفة ويصبحا خالدين كاللَّه.[۲۲۹]
وتكفى هذه العبارة لوحدها فى إثبات تحريف التوراة الفعلية عن التوراة الحقيقية، حيث تثبت أنّها من وضع الأفراد والجهال الذين يرون العلم والمعرفة مثلبة على آدم وأنّه استحق الطرد من الجنّة بسبب هذا الذنب. وكأن الجنّة لا تسع ذوى العلم والمعرفة، وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ بعض الروايات التى ذهبت إلى أنّ الشجرة المحظورة كانت شجرة العلم والمعرفة إنّما هى روايات موضوعة أخذت عن التوراة المحرفة.

۴- الكلمات التى تاب اللَّه بها على آدم عليه السلام.

لقد تحدث الإمام عليه السلام فى الخطبة عن تلقى آدم عليه السلام لكلمة الرحمة من اللَّه سبحانه دون الدخول فى تفاصيل هذه الكلمة. القرآن من جانبه أيضاً أشار من بعيد إلى هذه المسألة دون الحديث عن ماهيتها وكنهها. إلّاأنّ الذى يفهم من هذه التعابير أن تلك الكلمات كانت تتضمن مسائل مهمة، فقد صرّح البعض بأنّ المراد بالكلمات هو الاعتراف بالخطأ، وهذا ما أشارت إليه الآية ۲۳ من سورة الأعراف: «رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ». كما استدل البعض الآخر على هذا الاعتراف بالتقصير وطلب المغفرة بالعبارة: «لا إله إلّاأنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى أنّك خير الغافرين»[۲۳۰] وقد ورد مثل هذا المعنى فى بعض الروايات عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام.[۲۳۱]

بينما صرّحت أغلب الروايات بأنّ تلك الكلمات كانت أسماء محمد وعلى وفاطمة والحسن

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۳۷

والحسين عليهم السلام. فقد جاء فى كتاب الخصال أن ابن عباس قال: سألت النبى صلى الله عليه و آله عن الكلمات التى تلقاها آدم من ربّه فقال صلى الله عليه و آله:

«سأله بحق محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين إلّاتبت عليه فتاب اللَّه عليه إنّه هو التواب الرحيم»[۲۳۲].

جدير ذكره أنّ هذا المعنى مع فارق طفيف قد ورد فى «الدر المنثور» التفسير الروائى المشهور لدى العامة.[۲۳۳] كما جاء فى رواية اخرى عن تفسير الإمام الحسن العسكرى عليه السلام أنّ آدم عليه السلام حين ارتكب الخطيئة وطلب المغفرة من اللَّه، سأله أن يقبل توبته بعد أن اعترف بذنبه.

فقال له الحق سبحانه ألم أعلمك أن تدعونى بمحمد وآل محمد لكل شدة نزلت بك؟ فقال آدم عليه السلام: اللّهم بلى. فقال اللَّه: ادعنى بهؤلاء محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام لأقبل عذرك وأعطيك ما تريد.[۲۳۴]

وفى حديث آخر عن عائشة عن النبى صلى الله عليه و آله أنّ الكلمات التى تلقاها آدم عليه السلام هى: «اللّهم إنّك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنبى اللّهم انّى أسألك ايماناً يباشر قلبى ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنّه لا يصيبنى إلّاما كتبت لى وارضنى بما قسمت لى»[۲۳۵]

ونرى هنا أن ليس هناك من تضارب فى هذه الروايات، فلعل آدم عليه السلام قد تضرع بهذا الدعاء إلى جانب توسله بالنبى وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وأخيراً فقد فسرها البعض بالحالة المعنوية لآدم عليه السلام ومدى انشداده للَّهسبحانه؛ الأمر الذى رافق توسله بالنبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام.

وبالطبع فليس هنالك من منافاة بين عدم علم آدم عليه السلام بهذه الكلمات قبل التعليم الإلهى مع علمه بالأسماء، لأنّ الاحتمال القوى هو أنّ العلم بالأسماء يعنى العلم والالمام بأسرار الخليقة وهذا غير المقولة الاخرى التى تتناول سبل تزكية النفس وتهذيبها وتدارك التقصير والسير إلى اللَّه تبارك وتعالى.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۳۹

القسم الثانى عشر: بعثة الأنبياء وعظم مسؤوليتهم

اشارة

«وَ اصْطَفَى سُبْحانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِياءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثاقَهُمْ وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسالَةِ أَمانَتَهُمْ لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ وَاتَّخَذُوا الْأَنْدادَ مَعَهُ وَاجْتالَتْهُمُ الشَّياطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبادَتِهِ فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَواتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِياءَهُ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفائِنَ الْعُقُولِ وَيُرُوهُمْ آياتِ الْمَقْدِرَةِ: مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ وَمِهادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ وَمَعايِشَ تُحْيِيهِمْ وَآجالٍ تُفْنِيهِمْ وَأَوْصابٍ تُهْرِمُهُمْ وَأَحْداثٍ تَتابَعُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُخْلِ اللَّهُ سُبْحانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّةٍ لازِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قائِمَةٍ. رُسُلٌ لا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ وَلا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ مِنْ سابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ أَوْ غابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ. عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ وَمَضَتِ الدُّهُورُ وَسَلَفَتِ الْآباءُ وَخَلَفَتِ الْأَبْناءُ».

الشرح والتفسير لقد تحدث الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من خطبته عن قضية بعث الأنبياء. وهى المرحلة التى أعقبت مرحلة خلق

آدم وممارسة للحياة على الأرض، وقد تطرق الإمام عليه السلام بادئ ذى بدء إلى علة بعث الأنبياء وارسال الرسل، ثم أشار إلى ماهية مضمون دعوات الأنبياء ورسالاتهم، إلى جانب استعراض الخطوط الرئيسية لتعاليمهم وإرشاداتهم، وأخيراً خصائص الأنبياء وصمودهم أمام الصعاب والمشاكل والأطار العام الذى كان يحكم علاقاتهم فيما بينهم وكيفية

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۴۰

إرتباط بعضهم مع البعض الآخر. فقد استهل كلامه عليه السلام بهذا الشأن قائلًا:

«واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحى ميثاقهم ۲۳۶] وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم».

وعلى هذا الأساس فانّ الأنبياء قد عاهدوا اللّه منذ بداية الوحى برعايته وايصاله إلى الناس على أنّه أمانة وعهد فى أعناقهم.

نعم لقد تقبل الأنبياء عليهم السلام هذه المسؤولية العظيمة فجدّوا واجتهدوا فى حملها وايصالها إلى الناس كأمانة ووديعة الهية. أمّا الحديث بشأن بعض الامور من قبيل: كيف اختار اللّه هذه الصفوة من الأنبياء، وما حقيقة الوحى، وكيف يوحى للبعض بينما لا يوحى للبعض الآخر منهم، فنوكله إلى موضعه ۲۳۷].

والواقع هو أنّ العبارة المذكورة إشارة للآية: «وَ إذ أَخَذنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً»[۲۳۸].

ثم أشار عليه السلام إلى السبب الرئيسى لبعثة الأنبياء فقال:

«لما بدل أكثر خلقه عهد اللّه إليهم فجهلوا حقّه واتخذوا الأنداد[۲۳۹] معه واجتالتهم ۲۴۰] الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته».

فالواقع لقد كانت إنعدام معرفة هؤلاء باللّه سبحانه سبباً لأنّ يهووا فى أودية الشرك الرهيبة ومن ثم تتلقفهم الشياطين فتصدهم عن طاعة اللّه وعبادته. أمّا بشأن المراد بهذه العدّة وماهية العهد الإلهى، فقد أشار أغلب المفسرين وشرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد به ميثاق عالم الذر، ويمكن اعتبار ذلك إشارة إلى الفطرة[۲۴۱] التى تطرق لها الإمام عليه السلام فى عباراته اللاحقة.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۴۱

وبعبارة اخرى فان اللّه قد خلق الإنسان على هذه الفطرة الطاهرة التى تجعله يتعرف على حقيقة التوحيد فى باطنه ويتطلع إلى الخير وينبذ الشر. ولو بقيت هذه الفطرة السليمة على حالها لحفت العنايات الإلهية الإنسانية جمعاء ولهدتها إلى السمو والكمال ولسهل لهم الأنبياء السبل إلى ذلك الكمال ولقل حجم المسؤولية التى نهض بعبئها هؤلاء العظام، غير أن الانحراف عن الفطرة سواء على مستوى المعارف التوحيدية لينتهى بالنزوع نحو الشرك والوثنية وعلى المستوى العملى ليقود الاستسلام إلى الأهواء والشياطين، قد أدى إلى مواترة بعث اللّه للأنبياء وتحملهم لتلك المسؤوليات الخطيرة بغية إعادة البشرية إلى فطرتها الأصلية، وهذا ما تطرق له الإمام عليه السلام فى العبارات اللاحقة من الخطبة والتى أشار فيها إلى عظم مسؤوليات الأنبياء وما اتصفوا به من خصال عملية ومكارم أخلاقية.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى فلسفة بعثة الأنبياء فقال:

«فبعث فيهم رسله وواتر[۲۴۲] إليهم أنبيائه ليستادوهم ميثاق

فطرته ويذكروهم منسى نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى أربعة أهداف رئيسية تقف وراء بعث الأنبياء. أولها:

طلب أداء ميثاق الفطرة فقد ذكرنا أن اللّه سبحانه قد أودع المعارف التوحيدية فطرة الإنسان التى تقوده بصورة طبيعية- مالم تدنس وتلوث وتتعرف على الانحراف ودون نشأة صاحبها وولادته على الشرك بفعل انحداره من والدين مشركين- إلى عبادة الواحد الأحد وسوف يتطلع إلى الصالحات ويعشق الحق والعدل فى ظل هذه الفطرة السليمة الموحدة، فقد جاء الأنبياء ليعيدوا الأفراد المنحرفين إلى هذه الفطرة التوحيدية المودعة لديهم.

الهدف الثانى: لتذكير الناس بنعم اللّه التى اعترتها الغفلة والنسيان، فالإنسان ينطوى على نعم مادية ومعنوية جمة ولو استغلها كما ينبغى

فانّه سيشيد صروح سعادته وفلاحه فى حين سيفقد مثل هذه السعاة إذا ما نساها وتجاهل استعمالها واستغلالها. ومثله كمثل الفلاح

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۴۲

الذى لا يستفيد من المياه لسقى أشجار حديقته ولا يقطف ثمار أشجاره حين الحصاد. فاذا ما جاء أحدهم وذكره بهذه النعم المنسية فانه يكون قد أسدى له أعظم خدمة، وهذا ما ينهض به الأنبياء.

الهدف الثالث: اتمام الحجة على الناس من خلال الأدلة العقلية- إلى جانب المسائل الفطرية- وإرشادهم إلى الكمال فى ظل التعاليم السماوية والأوامر والأحكام الشرعية.

الهدف الرابع: «يثيروا لهم دفائن العقول» ليكشفوا للناس كنوز العلوم والمعارف الكامنة فى عقولهم، فقد أودع اللَّه هذه العقول كنوزاً عظيمة قيمة لو ظهرت واستغلت لشهدت العلوم والمعارف نهضة عظيمة وجبارة، غير أن هذه الكنوز اختفت واستترت اثر هذه الغفلة والتعاليم الفاسدة والذنوب والمعاصى والتلوث الأخلاقى، ومن هنا فان إحدى وظائف الأنبياء تكمن فى ازالة هذه الحجب واثارة تلك الكنوز المفعمة بالعلوم والمعارف.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الهدف الخامس فى استعراض الآيات الإلهية للناس فى عالم الخلقة فقال عليه السلام:

«ويروهم آيات المقدرة»

ثم يشير عليه السلام إلى هذه الآيات فيقول:

«من سقف فوقهم مرفوع ومهاد تحتهم موضوع ومعايش تحييهم وآجال تفنيهم وأوصاب [۲۴۳] تهرمهم [۲۴۴] وأحداث تتابع عليهم».

والواقع هى أنّ هذه الامور تمثل سلسلة من أسرار الخلقة فى السماء والأرض وعوامل الحياة وأسباب الفناء والألم والعناء والتى تذكر كل واحدة منها الإنسان باللَّه سبحانه وتعالى إضافة إلى الحوادث والوقائع التى تدعو الإنسان إلى اليقظة والاعتبار، وعليه فان الأنبياء يحملون إلى الناس تعاليم سامية ومفاهيم نبيلة من شأن كل منها رفع المستوى العلمى والمعرفى لدى الإنسان أو ايقاظه من غفلته وجعله يتحلى بالفطنة والذكاء. ثم قال عليه السلام:

«ولم يخل اللَّه سبحانه خلقه من نبى مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة»

. فالعبارة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۴۳

تشير إلى أربعة مواضيع لا يعدم الوجود بعضها طرفة عين أبدا؛ الأمر الذى يتمّ الحجة على الناس.

۱- وجود الأنبياء- سواء من كان له كتاب سماوى أم لم يكن- الذى يتضمن هداية البشرية وانتشالها من غفلتها واتمام الحجة عليها.

۲- الكتب السماوية المتداولة بين الأمم رغم وفاة الأنبياء الذين أتوا بها.

۳- الأوصياء وأئمة العصمة والذين عبر عنهم الإمام عليه السلام بقوله «حجة لازمة». وهناك من احتمل أنّ المراد بالحجة اللازمة دليل العقل، لكن يبدو هذا الاحتمال مستبعداً لأنّه لا يكفى فى هداية الناس، ولا مانع من الجمع بينهما فى هذه العبارة.

۴- سنة الأنبياء والأوصياء والأئمة والتى عبر عنها بالمحجة القائمة، حيث عنوا المحجة بالطريق الواضح والمستقيم- سواء الظاهرى أو الباطنى- الذى يوصل الإنسان إلى هدفه المنشود[۲۴۵] وبهذا فان الحق سبحانه قد أتم حجته على كافة الامم والمجتمعات البشرية فى جميع الأعصار والأمصار وأمدهم بأسباب الهداية، ثم تطرق عليه السلام لخصائص هؤلاء الأنبياء فقال:

«رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم»

. أجل كانوا مثلًا فى الرجولة والأقدام والشجاعة بحيث كان أحدهم يصمد بوجه الآلاف من خصوم الدعوة فيلقى بالنار فتشمله عناية اللَّه ورحمته ليخرج منها سالماً مرفوع الرأس، ويحطم الآخر الاصنام ثم يحتج بالأدلة القاطعة التى تفند عقائدهم الباطلة وتثبت صحة دعواه. كما كان البعض يحاصر من قبل جموع الكفر والشرك بيد عزلاء وقد شهر خصومهم سيوفهم فلم يضعفوا ويهنوا ووقفوا بكل

صمود وشموخ. والجدير بالذكر فى خصائص الأنبياء التأكيد هنا على صمودهم وشهامتهم. ثم يواصل عليه السلام حديثه عن الأنبياء وكيفية ارتباط بعضهم بالبعض الآخر ووحدة رسالتهم وهدفهم فقال:

«من سابق سمى له من بعده أو غابر[٢۴۶] عرفه من قبله»

. فقد حدد عليه السلام فى هذه العبارة اسلوب من أساليب التعرف على الأنبياء فى أن يقوم نبى ببشارة قومه

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١۴۴

بالنبى الذى يأتى من بعده وبهذا يعرف النبى من خلال البشارة به.[٢۴٧]

ثم يشير عليه السلام إلى ثبوت هذه السنة قائلًا:

«على ذلك نسلت ٢۴٨] القرون ومضت الدهور

وسلفت الآباء وخلقت الأبناء».

تأملات

١- الأنبياء بمثابة المزارعين

ما تفيده عبارة أمير المؤمنين عليه السلام أنّ القدرة الإلهية المطلقة قد أودعت الذات الإنسانية قابلية كافة أسباب الخير والصلاح والفلاح، وقد نشرت كافة البذور والرياحين العطرة ساحة قلب الإنسانية الخصبة. والأنبياء من جانبهم يقومون برى هذه البذور لتنبت أشجاراً محملة بالثمار والفاكهة فيستثيروا هذه الكنوز الكامنة فى النفس البشرية «ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسى نعمته ... ويثيروا لهم دفائن العقول» واستناداً لهذا فان الأنبياء لا يمنحون الإنسان شيئاً خارجاً عن وجوده، بل ينمون ما لديه ويظهروا له مكنونه، حتى ذهب البعض إلى أنّ التعاليم والمفاهيم التى تلقى على الإنسان إنّما تمثل تذكيراً له، فالعلوم والمعارف قد اودعت النفس البشرية وما وظيفة المعلمين- سواء الأنبياء أو امتداداتهم- سوى إثارة هذه المعارف من خلال تعاليمهم، وكأنّ هذه المعارف مصادر مياه جوفية تشق طريقها إلى سطح الأرض بعد الحفر والتنقيب ولعل التعبير بالتذكير الذى ورد على لسان الآيات القرآنية

«لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» و «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ»

شاهداً على صحة المعنى الذى أوردناه. والواقع أن هذا البحث متشعب وشامل لا يسعنا استيعابه فى هذه العجالة.

٢- حوادث الاعتبار واليقظة

لقد تضمنت العبارة المذكورة إشارة إلى حقيقة وهى أنّ الأنبياء وإلى جانب تعليمهم

نفحات الولاية، ج ١، ص: ١۴۵

الناس المعارف الإلهية الحقة وبيان آيات القدرة وعظمة خالق الوجود، فانهم يلفتون انتباه الناس إلى الحوادث ذات الدروس والعبر من قبيل حلول الأجل وانتهاء العمر وآجال النعم المادية واستعراض المحن والخطوب والوقائع الشديدة. فالعبارات الواردة فى الخطبة إشارة اخرى لفلسفة الأحداث الخطيرة التى تنطوى عليها الحياة البشرية، بحيث لولا هذه الأحداث لغطت البشرية فى سبات عميق وحجاب من الغفلة يتعذر معه صحوتها وافاقتها من سيادتها.[٢۴٩]

۳- دور الدين فى الحياة

الدرس الآخر الذى تعرضت له الخطبة هو دور الدين فى حياة الإنسان ولولا الأنبياء لتاهت البشرية فى غياهب الشرك والوثنية وعبادة الأصنام ولاستحوذت عليها الشياطين وحالت دون عبوديتها ومعرفتها باللَّه، وذلك لأنّ العقل بمفرده لا يسعه الأخذ بيد الإنسان إلى السعادة بعد تجاوز موانع الطريق ومعوقاته.

صحيح أنّ العقل نور خالد إلّاأنّ شعاعه باهت خافت مالم يستند إلى ضياء الوحى الذى يخترق المكان ولا يقف عند حدود فيهديه فى اجتياز ظلمات الطريق. ومن هنا تتضح جسامة الخطأ الذى أصاب البراهمة الذين تنكروا لبعثة الأنبياء وارسال الرسل. ولو كان العقل يدرك كافة أسرار الإنسان الباطنية والظاهرية ويحيط بالعلاقة التى تحكم الماضى والحاضر والمستقبل ولا يخطئ فى تشخيصه للأحداث لأمكن القول بالاكتفاء بإدراكه وفهمه لكافة وقائع الحياة فى هذا العالم والعالم الآخر، غير أنّ محدودية هذا الفهم والإدراكوضآلة المعاليم مقارنة بالمجاهيل (وهى المعاليم التى تتسم بالسعة والشمولية) لا تجعل من الصواب الاستناد إليها بمفردها.

طبعاً لا ننكر أنّ العقل هو حجة اللَّه؛ الأمر الذى أكده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة، بل تواترت الروايات التى صرّحت بأنّه «الرسول الباطنى» حيث ورد فى الحديث المروى عن الإمام

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۴۶

الكاظم عليه السلام أنّه قال:

«إنّ للَّهعلى الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأمّا الحجة الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام وأمّا الباطنة فالعقول»[۲۵۰]

. مع ذلك فرسالة هذا الرسول الباطن محدودة، بينما ليست كذلك رسالة الرسول الظاهر الذى يستند إلى الوحى والعلم الإلهى المطلق. وبناءً على ما تقدم فقد اتضح الرد على البراهمة السوفسطائيين الذين يقولون: ما يأتى به الأنبياء لا يخرج عن حالتين: امّا أن يدرك العقول ما يقوله أو لا يدرك، فان أدركه العقل فلا حاجة للأنبياء، وإن لم يدركه فو ليس بمعقول ولا يمكن قبوله لأن الإنسان لا يقبل قبط ما لايعقل. والإشكال الذى يرد على هذا الاستدلال هو أن هؤلاء لم يفرقوا بين اللامعقول والمجهول، وكأنّهم تصوروا أنّ العقل يدرك جميع الأشياء، والحال لدينا تصنيف ثلاثى بشأن المواضيع المطروحة. فالمواضيع التى تعرض علينا إمّا أن تكن موافقة لحكم العقل أو مخالفة له أو مجهولة. ولا يسعنا هنا إلّاأنّ نقول بكل تأكيد أن أغلب الموضوعات من قبيل القسم الثالث؛ أى هى من قبيل المجاهيل التى كرست رسالة الأنبياء وظيفتها فى هذا المجال.

أضف إلى ذلك فغالبنا ما يعترينا هاجس الخطأ والزلل فى إدراكاتنا العقلية؛ ومن هنا برزت حاجتنا الملحة للأنبياء، وبعبارة اخرى إلى تأييد العقل بالنقل الذى يسعه منحنا السكينة والاطمئنان فى إدراكاتنا العقلية ويزيل الوساوس والهواجس ويأخذ بأيدينا إلى السبيل القويم.

۴- لا تخلو الأرض من حجة

لقد أكد الإمام على عليه السلام على حقيقة اخرى وهى عدم خلو الأرض من الحجة الإلهية الظاهرية أو الباطنية

«ولم يخل اللَّه سبحانه خلقه من نبى مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة»

والطريف فى كلام الإمام عليه السلام أنّه قرن الكتب السماوية بالأنبياء والحجج الإلهية والسيرة المعتبرة. نعم وراء كل كتاب سماوى نبى من أنبياء اللَّه يكشف أسراره ويوضح معالمه ويبيّن أحكامه إلى جانب إجراءه وتنفيذ مفاهيمه، كما يواصل نهجه بواسطة سنته

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۱۴۷

واستخلافه للوصى والإمام من بعده ليحفظ رسالته ويواصل نهجه. وهذه من أهم عقائدنا فى هذا المجال، حيث ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام أنّه قال:

«لو لم يبق فى الأرض إلّااثنان لكان أحدهما الحجۀ»[۲۵۱]

. وهو الأمر الذى أكده أمير المؤمنين عليه السلام فى قصار كلماته:

«اللّهم بلى لا تخلو

الأرض من قائم للَّهبحجۀ إمّا ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج اللَّه وبيناته»[۲۵۲].

۵- مميزات الأنبياء

إنّ الأنبياء الذين يبعثهم اللَّه من أجل هدايۀ الخلق ليسوا من قبيل الأفراد العاديين، بل يتصفون بجميع الخصال والمميزات اللازمۀ لقيامهم بوظيفتهم الرساليۀ الخطيرۀ ومنها البسالۀ والشجاعۀ الفائقۀ فى ابلاغ الرسالۀ والصمود بوجه خصوم الدعوۀ من الأقوام الجاهلۀ والمعاندۀ والذود عن هذه الرسالۀ إلى حد الاستماتۀ والشهادۀ فى سبيل تحقيق أهداف الرسالۀ.

وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى تصدى الأنبياء لخصومهم والمكذبين والمستهزئين من أعدائهم؛ الأمر الذى يشاهد بوضوح فى تاريخ الأنبياء ولاسيما خاتمهم المصطفى صلى الله عليه و آله:

«رسل لا تقصر بهم قلّۀ عددهم ولا كثرۀ المكذبين لهم»

. كما أكد القرآن الكريم على تحلى الأنبياء بصفتهم مبلغى الرسالات بهذه الصفۀ: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلّا اللَّهَ»[۲۵۳].

والذى يفهم من عبارۀ الإمام عليه السلام- كما صرّح بذلك صاحب منهاج البراعۀ- أن التقيۀ لاتجوز على الأنبياء، ومن هنا يتضح بطلان ما نسبه الفخر الرازى للشيعۀ الإماميۀ من أنّها لا تجوّز على الأنبياء حتى إظهار الكفر تقيۀ.[۲۵۴] بل الأمر أبعد من ذلك لأنّ التقيۀ حرام على الأئمۀ بل وحتى الأفراد العاديين فى الحالات التى يتعرض فيها الدين للخطر، بعبارۀ اخرى قد تكون التقيۀ واجباً وقد تكون حراماً. فاذا كان تركها يؤدى إلى سفك الدماء دون حلها فهى واجبۀ،

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۱۴۸

كأن تقع جماعۀ من المسلمين فى يد الأعداء بحيث يراق دمهم إذا أظهروا إسلامهم، فهنا يجب عليهم اخفاء دينهم كى لا يمكنوا العدو من قتلهم، فى حين قد يؤدى اخفاء الدين والافصاح عن العقيدۀ أحياناً إلى ضعف المسلمين وذلتهم، ففى هذه الحالۀ يحرم على الأفراد كتم دينهم وعليهم أن يكشفوا عنها بكل شجاعۀ مهما كلف الأمر (وما واقعۀ كربلاء عنك ببعيد التى جسد فيها الإمام الحسين وصحبه الكرام حرمۀ التقيۀ حفظاً للدين).

ولما كان كتم الأنبياء لمعتقداتهم يهدد أصل رسالتهم كانت وظيفتهم ترك التقيۀ. جدير ذكره أنّ التقيۀ ليست من المفاهيم التى تقتصر على الشيعۀ أو المسلمين فحسب، بل مفهوم من المفاهيم العقلائيۀ الذى يدعو الإنسان إلى حفظ نفسه وعدم هدر دمه إذا لم يكن هناك من جدوى لابداء عقيدته.[۲۵۵]

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۱۴۹

القسم الثالث عشر: بزوغ شمس الإسلام

اشارة

«إِلَی أنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ اللَّهِ صلی الله علیه و آله لِإنْجازِ عِدَتِهِ وَإِتْمامِ نُبُوَّتِهِ مَأْخُوذاً عَلَی النَّبِیِّینَ مِیثَاقُهُ مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ، کَرِیماً مِیلادُهُ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ یَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ وَأَهْواءٌ مُنْتَشِرَةٌ وَطَرائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَیْنَ مُشَبِّهٍ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِی اسْمِهِ أَوْ مُشِیرٍ إِلَی غَیْرِهِ فَهَداهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلالَةِ وَأَنْقَذَهُمْ بِمَکانِهِ مِنَ الْجَهالَةِ ثُمَّ اخْتارَ سُبْحانَهُ لِمُحَمَّدٍ صلی الله علیه و آله لِقاءَهُ وَرَضِیَ لَهُ ما عِنْدَهُ، وَأَکْرَمَهُ عَنْ دارِ الدُّنْیا وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقامِ الْبَلْوَی فَقَبَضَهُ إِلَیْهِ کَرِیماً صلی الله علیه و آله وَخَلَّفَ فِیکُمْ ما خَلَّفَتِ الْأَنْبِیاءُ فِی أُمَمِها إِذْ لَمْ یَتْرُکُوهُمْ هَمَلًا بِغَیْرِ طَرِیقٍ واضِحٍ وَلا عَلَمٍ قائِمٍ».

الشرح والتفسیر

أشار الإمام علیه السلام فی هذا القسم من الخطبة إلی أربعة امور:

۱- قضیة بعثة نبی الإسلام محمد صلی الله علیه و آله وبعض خصائصه وصفاته وفضائله وعلائم نبوته.

۲- الوضع الذی کانت تعیشه الامّة أبان انبثاق الدعوة الإسلامیة من حیث الانحرافات الدینیة والعقائدیة وانقاذها من تلک الظلمات بنور رسالة النبی صلی الله علیه و آله.

۳- رحیل النبی صلی الله علیه و آله من الدنیا.

۴- الارث الذی خلفه النبی صلی الله علیه و آله للُامّة (القرآن الکریم).

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۱۵۰

فقد قال علیه السلام:

«إلی أن بعث اللَّه سبحانه محمداً صلی الله علیه و آله لانجاز[۲۵۶] عدته واتمام نبوته ۲۵۷]».

ثم أشار إلی شمة من فضائله والمیثاق الذی أخذ من النبیین من قبله بالبشارة به

«مأخوذاً علی النبیین میثاقه مشهورة سماته ۲۵۸]، کریماً میلاده»

ولعل العبارة الأخیرة إشارة إلی کرامة آبائه وأجداده، أو برکات ولادته التی عمت أرجاء العالم، فقد صرّحت بعض السیر التأریخیة بتهاوی أوثان الکعبة وانطفاء نار المجوس وجفاف بحیرة ساوة التی کانت تحظی بعبادة بعض الناس وتهدم قصور بعض الجبابرة تزامناً مع الولادة المیمونة للنبی الأکرم صلی الله علیه و آله وکل هذه الأحداث دلالة واضحة علی بدایة عصر جدید بانطلاقة شرارة التوحید والوقوف بوجه کافة مظاهر الشرک والالحاد. ثم قال علیه السلام:

«وأهل الأرض یومئذ ملل متفرقة وأهواء منتشرة وطرائف متشتتة بین مشبه للَّهبخلقه أو ملحد فی اسمه أو مشیر إلی غیره».

«ملحد» من مادة «لحد» علی وزن مهد بمعنی الحفرة الواقعة علی جانب ومن هنا اطلق علی مثل هذه الحفرة اسم اللحد، کما أطلق الالحاد علی کل عمل یخرج عن حالة الاعتدال ویجنح نحو الإفراط والتفریط، ومن هنا نعتت الوثنیة والشرک بالالحاد. وعلیه فالمراد بقوله علیه السلام:

«ملحد فی اسمه»

هو ما أشرنا إلیه سابقاً من نعت الأصنام بأسماء اللَّه، علی سبیل المثال کانوا یسمون أحد الأصنام باللات والآخر بالعزی والثالث بمناة، وهی الأسماء التی اشتقت علی التوالی من أسماء اللَّه والعزیز والمنان، أو أن یکون المراد منها اضفاء صفات اللَّه علی المخلوقین، ولا مانع من الجمع بین التفسیرین. ثم قال علیه السلام:

«فهداهم به من الضلالة وانقذهم بمکانه من الجهالة، ثم اختار سبحانه لمحمد صلی الله علیه و آله لقائه، ورضی له ما عنده، وأکرمه

عن دار الدنيا ورغب به عن مقام البلوى»[۲۵۹].

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۵۱

أجل فقد قبضه إليه قبض اختيار وكرامة

«فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه و آله»

وقد ورث أمته ما ورثت الأنبياء من قبله اممها

«وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء فى اممها»

– فالأنبياء لم يتركوا اممهم من بعدهم سدى، بل أضاءوا له معالم الطريق ونصبوا عليهم الحجج

«إذ لم يتركوهم هملًا»[۲۶۰] بغير طريق واضح ولا علم قائم»

. من البداهة أن يكون مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة ما ورد فى حديث الثقلين الذى تواترت الروايات بشأنه حيث قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«إنّى مخلف فيكم الثقلين: كتاب اللَّه وعترتى أهل بيتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً وقد نبأنى اللطيف الخبير إنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».[۲۶۱]

وبالطبع فانّ الإمام عليه السلام واصل حديثه فى بحث جامع عن كتاب اللَّه (القرآن الكريم) إلّاأنّه لم يتطرق إلى العترة، حيث تعرض بصورة مفصلة- كما سنشير لاحقاً- إلى العترة فى عدّة خطب من نهج البلاغة. ولعل عبارته عليه السلام:

«علم قائم»

فى آخر كلامه إشارة إلى الأوصياء. على كل حال فان حرص الأنبياء على اممهم لم يقتصر على حياتهم، بل كانوا قلقين على مستقبلهم إلى حد يفوق قلق الوالد الشفيق حال احتضاره على ولده الصغير؛ ومن هنا يتعذر تصور ترك الأنبياء لاممهم دون استخلافهم لأوصياءهم عليهم لكى لا تذهب مساعيهم فى إرشاد الامّة وهدايتها أدراج الرياح.

تأمّلان

۱- الأديان قبل البعثة البنوية

لقد تضمنت عبارته عليه السلام إشارات مقتضبة عميقة المعنى بشأن أديان العرب وغير العرب فى العصر الجاهلى وقبل البعثة النبوية. بحيث صرّح المؤرخون والمحققون بأنّ العرب وعلى غرار سائر الأقوام كانت تعيش عدّة أديان ومذاهب لا يحصى عددها إلى جانب الانحرافات والخرافات الجمة. وقد قال ابن أبى الحديد- الشارح المعروف لنهج البلاغة- بشأن أديان

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۵۲

العرب فى الجاهلية: فأمّا الامّة التى بعث النبى محمد صلى الله عليه و آله فيها فهم العرب، وكانوا أصنافاً شتى، فمنهم معطلة ومنهم غير معطلة، فأمّا المعطلة منهم، فبعضهم أنكر الخالق والبعث والاعادة، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم: «ما هِىَ إِلّا حَياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلّا الدَّهْرُ»[۲۶۲] فجعلوا الجامع لهم الطبع، والمهلك لهم الدهر. وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعث. وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله: «قالَ مَنْ يُحْيِ العِظامَ وَهِىَ رَمِيمٌ»[۲۶۳].

ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك، ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه، وهم الذين قالوا: «ما نَعْبُدُهُمْ إِلّا لِيُقَرِّبُونا إِلى اللَّهِ زُلْفى [۲۶۴]. وكان فى العرب مشبهة ومجسمة، منهم أمية بن الصلت، وهو القائل:

من فوق عرش جالس قد حط رجليه إلى كرسيه منصوب وذهب بعض متكلمى المجسمة إلى أنّ البارئ تعالى مركب من أعضاء على حروف المعجم. وقال بعضهم: إنّه ينزل على حمار فى صورة غلام أمرد، فى رجليه نعلان من ذهب، وعلى وجهه فراش من ذهب يتطاير. وقال بعضهم: إنّه فى صورة غلام أمرد صبيح الوجه، عليه كساء أسود، ملتحف به.[۲۶۵]

وأمّا الذين ليسوا بمعطلة من العرب؛ فالقليل منهم، وهم المتألهون أصحاب الورع والتحرج عن القبائح كعبد اللّه، وعبد المطلب وابنه أبى طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدّة الايادى، وعامر بن الظرب العدوانى وجماعة غير هؤلاء.[۲۶۶] أمّا البعض الآخر من شرّاح نهج البلاغة فقد صنفوا علماء العرب إلى عدّة طوائف منهم العارفين بالانساب، ومفسرى الأحلام ومتخصصين فى علم الأنواء (نوع من التنجيم المشوب بالخرافات) والكهنة الذين يوحون إلى الناس بأنّهم يخبرون عن مغيبات المستقبل. أمّا من غير العرب كان البراهمة الذين عاشوا فى الهند ينكرون كافة الأديان ولا يؤمنون سوى بالأحكام العقلية.

وطائفة اخرى من عبدة الكواكب والشمس والقمر التى تمثل أنواعاً من الوثنية[۲۶۷].

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۵۳

وإلى جانب هذه الطائفة هناك اليهود والنصارى والمجوس. وقد شهدت كل طائفة منهم انحرافاً عقائدياً، فالمجوس قالت باله الخير والشر. وقد انطوت المجوسية- التى قد تكون فى بدايتها منسوبة لبعض الأنبياء- على خرافات جمة حتى ذهب بعض المحققين إلى أنّهم يعتقدون باله الخير واله الشر الذين تقاتلا حتى تدخلت الملائكة فأصلحت ذات بينهما بشرط تفويض العالم السفلى لاله الشر مدّة سبعة آلاف سنة (ويفوض العالم العلوى لاله الخير).[۲۶۸]

بينما ابتليت النصرانية بالتثليث (الأقانيم الثلاث) كما حرفت اليهود كتاب التوراة وشحنته بالانحرافات والخرافات التى لا يسعنا الخوض فيها فى هذه الابحاث. فقد أوجز الإمام جميع هذه الطوائف فى ثلاث: الاولى: المشبهة التى جعلت للّهشريكاً، كالمجوس والنصارى أو أولئك الذين يجعلون للّهصفات المخلوقين كاليهود. الثانية: أولئك الذين عدلوا باسمه إلى غيره كأغلب الوثنيين الذين أسموا أوثانهم بأسماء اللّه سبحانه فجعلوهم شفعائهم عند اللّه. الثالثة: أولئك الذين عبدوا غير اللّه كالدهرية التى تعتقد بأنّ الطبيعة هى خالقة الوجود، أو عبدة الأصنام والكواكب والشمس والقمر التى‌ترى الاصالة للكواكب والأصنام؛ أى تراها هى اللّه.

أجل لقد بعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى ظل هذه الأوضاع ليحمل مشعل الهداية ويضىء الظلمات بنور القرآن. لقد أتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله تلك الامم بأسمى مفاهيم التوحيد وأعظم المعارف والعلوم وأرصن الصفات الإلهية، حيث جاءهم بالحنيفية السمحاء الخالية من الأساطير والخرافات والانحرافات التى سادت سائر الأديان، ولم تهدف قوانينه وتعاليمه سوى إلى حماية المحرومين والمستضعفين وبسط العدل والقسط وحتى أوجز القرآن الكريم وظيفته فى انقاذ الامّة من الضلال المبين وتعليمها الحكمة وتهذيب نفوس أبناءها: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ»[۲۶۹].

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۵۴

نعم لقد ظهرت معالم الدين الحق بظهور هذا النبى الكريم وانهارت الأساطير والخرافات لتشهد البشرية عصرها الجديد؛ الحقيقة التى أذعن لها الأعداء فضلًا عن الأصدقاء والفضل ما شهدت به الأعداء. فقد تناول الكاتب الانجليزى المعروف «برناردشو» هذا الأمر ليصف دين محمد بأنّه الدين الوحيد الذى يصلح لقيادة البشرية ويتكيف مع حياتها على مدى التأريخ بحيث يسعه استقطاب جميع الشعوب والأقوام، كما ذهب إلى القول بأن محمد منقذ البشرية جمعاء ولو قدر لزعيم على غراره أن ينهض بقيادة العالم اليوم لتغلب على كافة المشاكل التى تعانى منها الإنسانية ولقادها إلى السعادة والسلام، فمحمد أكمل إنسان عرفه الماضى والحاضر ولا يتصور أن يجود الزمان بمثله فى المستقبل.[۲۷۰]

۲- آفاق الأنبياء المستقبلية

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة أن تفكير الأنبياء والرسل لا يقتصر على عصرهم، بل يفكرون بمستقبل الامّة ومصيرها بعد وفاتهم، ومن هنا جهدوا فى تبيين كل مامن شأنه هدايتهم فى المستقبل، فلم يألوا جهداً فى إضاءة معالم الطريق وبيان سبل النجاة.

ولا شك أن نبى الإسلام لم يكن بدعا من الرسل فى هذا الشأن. أو يمكن تصور تركه للُامّة بعد رحيلها عنها؟ أفكان يسعه وداع الامّة وايكالها إلى نفسها دون دليل على الطريق؟ أو ليس حديث الثقلين المتواتر لدى الشيعة والسنة والذى قال فيه:

«إنّى مخلف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتى أهل بيتى»

نموذج من نماذج إضاءة الطريق للُامّة من بعده و صونها من اللبس و الانحراف؟

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۵۵

القسم الرابع عشر: خصائص القرآن

اشارة

«كِتابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ: مُبَيِّناً حَلالَهُ وَحَرامَهُ وَفَرائِضَهُ وَفَضائِلَهُ وَناسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ وَرُخَصَهُ وَعَزائِمَهُ وَخاصَّهُ وَعامَّهُ وَعِبَرَهُ وَأَمْثالَهُ وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشابِهَهُ، مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ وَمُبَيِّناً غَوامِضَهُ، بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ وَمُوَسَّعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِى جَهْلِهِ وَبَيْنَ مُثْبَتٍ فِى الْكِتابِ فَرْضُهُ وَمَعْلُومٍ فِى السُّنَّةِ نَسْخُهُ وَواجِبٍ فِى السُّنَّةِ أَخْذُهُ وَمُرَخَّصٍ فِى الْكِتابِ تَرْكُهُ وَبَيْنَ واجِبٍ بِوَقْتِهِ وَزائِلٍ فِى مُسْتَقْبَلِهِ وَمُبايَنٌ بَيْنَ مَحارِمِهِ مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرانَهُ أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرانَهُ وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِى أَدْناهُ مُوَسَّعٍ فِى أَقْصاهُ».

الشرح والتفسير لقد بحثت أهمية القرآن الكريم وعظمته كراراً ومراراً فى خطب نهج البلاغة بحيث تناولت كل خطبة جانباً من الجوانب القرآنية.

وقد أشار الإمام عليه السلام بشكل جامع إلى شمولية القرآن وخطوطه العريضة فى هذه العبارات، فقد هدف الإمام عليه السلام لبيان حقيقة مهمّة وهى أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله رحل عن الامّة بعد أنّ ورثها كتاب اللّه الذى نظم جميع شؤون حياة الامّة المادية والمعنوية؛ الفردية والاجتماعية فى كافة الميادين والمجالات؛ فقد قال عليه السلام:

«كتاب ربّكم فيكم»[۲۷۱]

ثم أشار عليه السلام إلى أربعة عشر نقطة بشأن شمولية القرآن وخصائصه:

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۵۶

۱- اتضاح الحلال والحرام والواجب والمستحب

«مبيناً حلاله وحرامه وفرائضه وفضائله»

. والعبارة إشارة إلى الأحكام الإسلامية الخمس المعروفة، فالفرائض إلى تشيرالواجبات، والفضائل إلى المستحبات، والحرام إلى المحرمات وأخيراً الحلال الذى يشمل المباحاة والمكروهات.[۲۷۲]

۲- بيان الناسخ والمنسوخ

«وناسخه ومنسوخه».

المراد بالناسخ والمنسوخ الأحكام الجديـدة التى تزيل الأحكام القديمة والتى تقتصر على عصر الرسالة حين نزول الوحى الذى كان يعنى إمكانية تغيير الأحكام. فبعض الأحكام وإن كانت مطلقة فى ظاهرها، غير أنّها مقيدة باطنياً ومختصة بزمان معين، فاذا انتهى ذلك الزمان نفد حكمها بحكم جديد آخر يطلق عليه اسم الناسخ من قبيل التصدق قبل مناجاة النبى صلى الله عليه و آله:
«يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً»[۲۷۳]. فقد كان هذا الأمر امتحاناً للمسلمين لم يعمل به سوى أمير المؤمنين عليه السلام حتى نسخ بقوله تعالى: «أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ»[۲۷۴].
-۳

«ورخصه وعزائمه»

. فلعل هذه العبارة إشارة إلى ما تعارف اليوم فى علم الفقه والأصول بأن حكم الواجب أو الحرام إذا رفع قد يستبدل بحكم الاباحة كقوله: «وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا»[۲۷۵]. فمن المسلم به أنّ الصيد ليس واجباً بعد الخروج من الاحرام، بل مباح، وأحياناً يستبدل بحكم ضده، كقوله: «وَ إِذا ضَرَبْتُ فِى الأَرضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ»[۲۷۶] ومعلوم أنّ صلاة القصر فى السفر واجبة ليست مباحة، فيقال للاولى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۵۷

رخصة وذلك لجواز طرفى العمل ويقال للثانية عزيمة حيث يجب على المكلف جزم عزمه بالعمل. وهنالك إحتمال آخر فى تفسير هاتين المفردتين، كأن يكون المراد بالرخص الأحكام الواجبة أو المحرمة التى استثنيت فى بعض الموارد من قبيل قوله: «فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ»[۲۷۷]. أمّا العزائم فهى الأحكام التى لا سبيل إلى الاستثناء اليها، كقوله: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً»[۲۷۸].
-۴

«وخاصه وعامه»

، فالخاص هو الحكم الذى لا يشمل كافة المسلمين كحكم الحج الذى يختص بمن له الاستطاعة «وَلِلَّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»[۲۷۹] والعام هو الحكم الذى يشمل جميع المسلمين كاقامة الصلاة «وأقيموا الصلاة». وقيل أيضاً بأ المراد بالخاص الآيات التى لها ظاهر عام غير أنّ المراد بها حالة خاصة كآية الولاية: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ»[۲۸۰]. حيث نعلم بوجود مصداق واحد لهذه الآية فقط وهو أمير المؤمنين على عليه السلام.
أمّا العام فيراد به الآيات ذات العموم والتى تشمل الجميع كقوله عز وجل: «وَالسّارِقُ وَالسّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما»[۲۸۱].
-۵

«وعبره وأمثاله»

، عبر من مادة عبرة وقد اشتقت من العبور، ولذلك يصطلح بالعبرة على الحادثة التى تعرض للإنسان ويتخطاها، والقرآن الكريم ملىء بالدروس والعبر بشأن تواريخ الأنبياء والأمم السالفة حيث تتضمن كل حادثة من تلك الحوادث المعانى والدروس للقيمة التى تستفيدها البشرية فى مسيرتها الحياتية.
أمّا الأمثال فقد تكون إشارة إلى الأمثال التى وردت فى القرآن الكريم بتلك الكثرة من قبيل: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ»[۲۸۲]، كما يمكن أن تكون إشارة إلى بعض

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۵۸

الأفراد الذين أصبحت سيرتهم وحياتهم مثلًا يحتذى به كقوله عز من قائل: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذ قالَتْ رَبِّ ابْنِ

لِی عِنْدَک بَیْتاً فِی الجَنَّةِ وَنَجِّنِی مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِی مِنَ القَوْمِ الظّالِمِینَ»[۲۸۳].

۶- کما بیّن القرآن أحکام المطلق والمقیّد

«ومرسله ومحدوده»

فالمطلق الأحکام التی بیّنت دون قید أو شرط کقوله سبحانه: «وَأَحَلَّ اللَّهُ البَیْعَ»[۲۸۴] وأمّا المقید فهو الحکم الذی وضعت له بعض القیود والحدود کقوله: «تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْکُمْ»[۲۸۵].

ومن الواضح أنّ الجمع بین المطلق والمقیّد یتطلب منا تقیید المطلق بواسطة المقیّد، ففی المثال المذکور لا تصح المعاملة إلّابتراضی الطرفین. ویمکن أن یکون المراد بالمطلق الأحکام الخالیة من القیود والشروط، فی حین الأحکام المقیّدة هی الأحکام المحدّدة بالقیود والشروط من قبیل کفارة القسم التی جاء فیها «أَوْ تَحْرِیرُ رَقَبَةٍ»[۲۸۶]، بینما جاء فی کفارة القتل الخطأ «فَتَحْرِیرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ»[۲۸۷].

-۷

«ومحکمه ومتشابهه»

. فالمراد بالمحکم الآیات الواضحة الدلالة التی لا تحتمل سوی وجه واحد کقوله سبحانه:

«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»

بینما تحتمل الآیات المتشابهة عدّة وجوه، وإن أمکن بیانها من خلال سائر الآیات القرآنیة کقوله:

«إِلی رَبِّها ناظِرَةٌ»[۲۸۸]

حیث یزال ابهام هذه الآیة وغموضها من خلال الآیات التی نزهت اللّه عن المکان والزمان والجهة والجسم والرؤیة وما إلی ذلک کقوله: «لا تُدْرِکُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ یُدْرِکُ الأَبْصارَ»[۲۸۹].

۸- من الخصائص الاخری هی بیان لمجمل القرآن وغوامضه من خلال السنّة النبویة «مفسراً مجمله ومبیناً غوامضه». فالمجمل الآیات التیی تأمر باقامة الصلاة ولم تشر إلی أرکانها وعدد رکعاتها فیقوم النبی صلی الله علیه و آله بشرحها، أمّا المراد بالغوامض الحروف القرآنیة المقطعة

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۱۵۹

والتی بیّنت بواسطة الأحادیث النبویة. ولعل الفارق بین الغوامض والمتشابهات هو أن المتشابهات تنطوی علی معان ومفاهیم للوهلة الاولی بینما یکتنف الاولی الابهام کالمثال السابق.

۹- هناک بعض الحقائق القرآنیة التی أخذ المیثاق علی معرفتها ولا یعذر أحد بجهلها فی حین یعذر فی بعضها الآخر:

«بین مأخوذ میثاق علمه وموسع علی العباد فی جهله»

فالحقائق التی لا یعذر أحد بجهلها من قبیل آیات التوحید والصفات الإلهیة التی تجب معرفتها علی جمیع المؤمنین، والثانیة من قبیل الذات الإلهیة التی لیس لأحد من سبیل إلی معرفتها وکذلک مسألة المعاد والقیامة التی ینبغی الإیمان بها، فی حین لیست هنالک من ضرورة للإلمام بالتفاصیل المتعلقة بالجنّة والنار.

۱۰- وهناک بعض الأحکام القرآنیة المختصة بزمان معیّن والتی نسختها السنّة النبویة «وبین مثبت فی الکتاب فرضه ومعلوم فی السنّة نسخه» من قبیل عقاب المرأة المحصنة بالحبس المؤبد إذا ارتکبت فاحشة الزنا «وَاللّاتِی یَأْتِینَ الفاحِشَةَ مِنْ نِسائِکُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَیْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْکُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِکُوهُنَّ فِی البُیُوتِ حَتّی یَتَوَفّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ یَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِیلًا»[۲۹۰] ثم نسخت السنّة النبویة هذا الحکم بالأحادیث التی وردت فی باب رجم المحصنة.

۱۱- الآیات الناسخة للسنّة بشأن بعض الأحکام التی صرّحت السنّة بالعمل بها بینما أجازت الآیات القرآنیة ترکها «وواجب فی السنّة

أخذه ومرخص فى الكتاب تركه» من قبيل حكم الصوم فى بداية التشريع حيث لم يكن يسع الصائم الافطار سوى أوائل الليل، فاذا نام وأفاق لم يجز له تناول شىء من المفطرات، غير أن هذه السنّة النبوية نسخت فيما بعد بالآية القرآنية الشريفة: «... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ»[۲۹۱].

۱۲- الأحكام الواجبة لبعض الأوقات

«وبين واجب بوقته وزائل فى مستقبله»

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۰

فالعبارة تشير إلى الواجب المؤقت وغير المؤقت؛ الواجب المؤقت من قبيل صوم شهر رمضان وارتفاعه فى غير هذا الشهر، خلافاً للتكاليف الدائمية كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحق والعدل الواجبة على الدوام ۲۹۲]. وذهب البعض إلى أنّ العبارة تشير إلى بعض الواجبات كالحج الذى يجب على المكلف لمرة واحدة فى العمر ثم يزول، واستدلوا على ذلك بالهجرة التى وجبت على المسلمين فى بداية انبثاق الدعوة الإسلامية- حيث كان المسلمون يعيشون حالة من المحدودية- ثم زال هذا الوجوب بعد فتح مكة، وإن كانت الهجرة على حالها إلى يومنا هذا فى المناطق التى تشهد الحالة المكية قبل الهجرة.

۱۳- فرز أنواع المحرمات عن بعضها وبيان كل واحدة منها فى إشارة إلى الكبائر التى توعد اللّه مرتكبيها والصغائر التى وعد بمغفرتها

«ومباين ۲۹۳] بين محارمه من كبير أوعد عليه نيرانه

أو صغير أرصد له غفرانه»

فالكبائر من قبيل الشرك وقتل النفس التى صرّحت الآيات القرآنية بتوعد مرتكبيها بالعذاب، فقد ورد فى الآية ۷۲ من سورة المائدة بخصوص الشرك «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْواهُ النّارُ» وفى الآية ۹۳ من سورة النساء بشأن قتل النفس «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فيها» وأمّا الصغائر فمن قبيل اللمم الواردة فى الآية ۳۲ من سورة النجم «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ وَالفَواحِشَ إِلّا اللَّمَمَ» حيث ذهب بعض المفسرين إلى أنّ المراد باللمم انعقاد النية على المعصية دون الإتيان بها أو المعاصى عديمة الأهمية.

۱۴- الأعمال التى يقبل القليل منها وورد الحث على كثيرها «وبين مقبول فى أدناه، موسع فى أقصاه». فالعبارة تشير إلى الأعمال التى ورد التأكيد على الإتيان بقليلها وللُامّة الاتيان بالمزيد.

وقد استدل بعض شرّاح نهج البلاغة على ذلك بتلاوة القرآن «فَاقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ»[۲۹۴]. فقراءة اليسير من القرآن مؤكدة وترك للناس قراءة الكثير (وهذا ما نلمسه

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۱

بوضوح فى أواخر سورة المزمل). وبالمقابل هنالك الأحكام الإلزامية التى لا يسير ولا كثير فيها من قبيل صوم شهر رمضان، حيث يلزم المكلف بصوم شهر معيّن دون زيادة أو نقيصة (الآيات ۱۸۳ إلى ۱۸۵ من سورة البقرة).

تأمّلات

۱- شمولية القرآن

المسألة الاولى التى تطالعنا فى كلام الإمام عليه السلام شمولية القرآن الكريم، أو بعبارة اخرى اعجاز القرآن من حيث المضمون؛ لأن خاض من خلال النقاط الأربعة عشر بشأن القرآن فى تفاصيله الدقيقة وتنوع مضامينه على جميع المستويات فى إطار تلبيته لمتطلبات

الإنسان و احتياجاته من حيث الامور العقائدية والقضايا العلمية والأخلاقية والأحكام الواجبة والمحرمة والعلاقة القائمة بين القرآن والسنة والأحكام الثابتة والمؤقتة والعام والخاص والمطلق والمقيّد والناسخ والمنسوخ، حيث يفيد تأمل هذه الامور مدى حساسية المضامين القرآنية المدروسة والتى تنسجم ومتطلبات الإنسانية. فالمضامين الرصينة الدقيقة والعميقة المتنوعة والشاملة- كما أشرنا إلى ذلك فى بحث اعجاز القرآن- تمثل أحد أبعاد اعجاز القرآن فأدنى لإنسان امى تربى فى وسط الجهل والظلام أن يأتى بمثل هذا الكتاب مكتفياً بما يمليه عليه فكره دون الاستناد إلى فيوضات الغيب والوحى؛ الكتاب الذى غص بالدروس والعبر والأمثال الرائعة البليغة والأحكام الجامعة والمعارف الجمة العميقة. والطريف فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام بهذا البيان القصير قد استعرض دورة جامعة فى الاصول الفقهية وأشار إلى موضوعات واسعة لم تتكامل فى علم الاصول إلّابعد قرون طويلة، ثم فصل الأحكام عن بعضها البعض ليميط اللثام عن القواعد المتعلقة بالحلال والحرام والناسخ والمنسوخ والرخصة والعزيمة والخاص والعام والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والمجمل والمبين والمؤقت وغير المؤقت والواجب والمستحب المؤكد والمستحب غير المؤكد.

۲- من عنده علم الكتاب؟

يفهم من عباراته عليه السلام أنّ النبى صلى الله عليه و آله موظف بتبيين بعض مجملات القرآن الكريم وإزالة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۶۲

غوامضه بما لا يدع لأحد من مجال للشك، ولهذا قال القرآن المجيد: «وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ»[۲۹۵]. قد يقتدح فى الأذهان سؤالًا: كيف يحتاج القرآن إلى تفسير مجمله وإزالة غوامضه وتبيين مبهمه وقد نزل هداية للناس ولابدّ للعامة من فهمه وإدراكه؟

وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى أمرين:

الأول: إن القرآن بفضله يتضمن سلسلة من القوانين والأحكام الإسلامية لا يسعه أن يخوض فى التفاصيل، فهو يشير إلى هذه القوانين على نحو العموم بينما يفوض شرحها والخوض فى تفاصيلها إلى النبى صلى الله عليه و آله. على سبيل المثال فقد وردت أحكام الصلاة والحج والصوم وبعض كلياتها فى القرآن الكريم، ونعلم جميعاً أنّ هذه العبادات تشتمل على شرائط واركان وفروع كثيرة يحتاج شرح كل ركن منها إلى كتاب مستقل، بل هناك الامور التى تتطلب عدّة مجلدات من قبيل الامور المرتبطة بالمعاملات والقضاء والحدود والشهادات والسياسات الإسلامية بصورة عامة.

الثانى: أنّ حاجة الامّة للنبى صلى الله عليه و آله فى تبيين المبهمات وتفسير المجملات تؤدى إلى تعزيز إرتباطها بالسنّة النبوية؛ الارتباط الذى يهديها وينير معالم طريقها فى جميع الميادين، وبعبارة اخرى فان القرآن ليس بدعاً من الكتب التى يتطلب فهم بعض مواضيعها من قبل الطلاب وجود المعلم، الذى يسعه ايضاح الحقائق لتلامذته من خلال الرابطة السائدة بينهما. وهنا يبدو هذا السؤال: هل يوجد مثل هذا المعلم الإلهى فى الوسط الإسلامى بعد رحيل النبى صلى الله عليه و آله أم لا؟ لاشك. لابدّ أن يستمر وجود مثل هذا المعلم وإلّا بقيت المشاكل على حالها دون حل وبيان. ومن هنا اعتقدت الشيعة بوجود الإمام المعصوم فى كل عصر والذى لديه علم الكتاب، وهذا ما يراد بالعترة الواردة فى حديث الثقلين المتواتر المروى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله، والتى أشار إلى امتناع مفارقتها للكتاب إلى يوم القيامة، فقال صلى الله عليه و آله:

«إنّى تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً وإنّهما لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض»[۲۹۶].

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۶۳

۳- معيار التمييز بين الكبائر والصغائر

هناك اختلاف بين العلماء بشأن الكبائر والصغائر. فقد اعتبرهما البعض من قبيل الامور النسبية التى تخضع للمقارنة فى أهميتها، فما كانت أهميتها كبيرة فهى من الكبائر وما كانت أهميتها صغيرة فهى من الصغائر (وقد نسب المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان هذا القول إلى الشيعة، ويبدو أنّه أراد بعض علماء الشيعة، لأنّ أغلبهم يرى غير ذلك كما سنشير لاحقاً).

وقال البعض الآخر أنّ الكبيرة كما يتضح من اسمها هى المعصية الكبيرة حقاً والتى تحظى بأهمية لدى الشرع والعقل كقتل النفس وغصب حقوق الآخرين والربا والزنا- ولعل هذا هو الدليل الذى جعل الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تصرح بأنّ المعيار فى الكبائر هو الوعيد بالعذاب الإلهى على ارتكابها، فقد جاء فى الحديث المعروف الذى روى عن الإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الرضا عليه السلام انّه قال:

«الكبائر التى أوجب اللَّه عز وجل عليها النار»[۲۹۷]

ويتضح ممّا مر معنا أنّ الصغائر ماليست لها مثل هذه الأهمية. وقد وردت بعض الأحاديث التى أشارت إلى أنّ الكبائر سبع وقيل عشرون.

۴- الناسخ والمنسوخ وفلسفتهما

لعل هذين الحكمين يثيران الجدل والذهول لدى أغلب الناس وتعجبهم من كيفية اشتمال القرآن على الآيات الناسخة والمنسوخة (فالمراد باناسخ والمنسوخ هو الحكم الذى يلغى حكماً آخر من قبيل استقبال الكعبة فى الصلاة التى نسخت حكم استقبال بيت المقدس فى الصلاة). وقد تزول هذه الدهشة والذهول بالنسبة للناسخ والمنسوخ فى القوانين الوضعية التى يشرعها أفراد البشر؛ لأهم قد يسنون اليوم قانوناً ويكتشفون غداً بعض أخطائه فيعمدون إلى نسخه، ولكن ما بال القوانين التى يشرعها الحكيم سبحانه؟

يمكن خلاصة الإجابة على السؤال المذكور فى جملة واحدة وهى أنّ علم اللَّه المطلق لا يعتريه التغيير قط، غير أنّ بعض الموضوعات تتغير بمرور الزمان. على سبيل المثال قد يكون

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۴

هناك دواء هو شفاء لمرض اليوم، إلّاأنّه قد يصبح خطراً ومضاعفاً لذلك المرض بعيد مدّة من الزمان. فالطبيب ينصح المريض باستعمال ذلك الدواء إلّاأنّه ينسخه فيما بعد ويحظر استعماله على المريض. ويصدق هذا الكلام فى الامور الدينية على القبلة مثلًا. فقد تنطوى الصلاة إلى بيت المقدس يوماً على منافع ومصالح معينة إذا كانت الكعبة بؤرة للأصنام والأوثان واتخذت لنفسها بعداً قومياً بحيث يدعو استقبالها فى الصلاة أبان انبثاق الدعوة الإسلامية إلى بعض المشاكل، فى حين تنتفى هذه المشاكل بالصلاة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس. بينما تتحول الكعبة إلى مركز للتوحيد بعيد الهجرة إلى المدينة فتنطوى الصلاة إلى جانبها على مصالح جمة وتنعدم الأضرار.

فالواقع هو أنّ أغلب أحكام النسخ من هذا القبيل؛ وبالطبع فانّ مباحث النسخ واسعة جداً لا يسعها المقام ولذلك نكتفى بهذه الإشارة العابرة إلى فلسفة النسخ.[۲۹۸]

۵- تأريخ الامم الماضية والأمثال القرآنية

يشغل تأريخ الامم السابقة ولا سيما أنبياء اللَّه حيزاً مهما من القرآن الكريم المفعم بالدروس والعبر والتجارب القيّمة التى تحتذيها

البشرية فى كل عصر ومصر؛ الأمر الذى جعل القرآن يتابع حركة الأنبياء فى مختلف السور ويسلط الضوء على تأريخ أحدهم أحياناً (كسرده لوقائع النبى إبراهيم ونوح وموسى وعيسى عليهم السلام) ويكرر قصته فى أكثر من سورة، وبالطبع لا نرى كلمة التكرار مناسبة هنا حيث إنّ القرآن يعرض لزاوية من زوايا هذه القصص فى كل مرة، فقد قال عز من قائل: «لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ»[۲۹۹]. وأحياناً أبعد من ذلك واضافة إلى التأريخ يدعو البشرية لتأمل آثار الأقوام السابقة والذى يعتبر بحد ذاته نوعاً من أنواع التأريخ التكوينى والحى «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ»[۳۰۰].

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۶۵

وإلى جانب القصص والتأريخ فقد درج القرآن على استعمال الأمثال بغية هداية الناس؛ وقد تكون هذه الأمثال نماذج حية واقعية مستقاة من حياة بعض الأفراد تارة، وتارة اخرى تشبيهات بالامور الطبيعية فى عالم النبات والحيوان وما شاكل ذلك. وقد انطوت هذه الأمثال على جمالية وروعة فى الدقة والتصوير بحيث غدت من معاجز القرآن التى يقود التأمل فيها والتدبر إلى العودة إلى العقل والرشد «وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنّاسِ فِي هذا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»[۳۰۱].

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى شمولية القرآن الكريم مؤكداً على تدبر قصصه وأمثاله.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۶۷

القسم الخامس عشر: أهمية فريضة الحج

اشارة

«وَ فَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرامِ الَّذِى جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنامِ يَرِدُونَهُ وُرُودَ الْأَنْعامِ وَيَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الْحَمامِ وَجَعَلَهُ سُبْحانَهُ عَلامَةً لِتَواضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ وَإِذْعانِهِمْ لِعِزَّتِهِ وَاخْتارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ وَوَقَفُوا مَواقِفَ أَنْبِيائِهِ وَتَشَبَّهُوا بِمَلائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ يُحْرِزُونَ الْأَرْباحَ فِي مَتْجَرِ عِبادَتِهِ وَيَتَبادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ جَعَلَهُ سُبْحانَهُ وَتَعالَى لِلْإِسْلامِ عَلَماً وَلِلْعائِذِينَ حَرَماً فَرَضَ حَقَّهُ وَأَوْجَبَ حَجَّهُ وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفادَتَهُ فَقالَ سُبْحانَهُ: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ»».

الشرح والتفسير

لا يعلم أى الأحكام الدينية أشار إليها الإمام عليه السلام بعد بيانه لخصائص القرآن، لأننا نعلم بأنّ السيد الرضى- جامع نهج البلاغة- لم يروم ذكر خطبه عليه السلام بصورة كاملة بقدر ما كان يختار منها بعض القطوف، مع ذلك فان التأكيد على فريضة الحج من بين سائر الفرائض الإسلامية المختلفة والفردية وفى خطبة تكفلت بالحديث عن بداية نشوء الخليقة والمراحل المختلفة لسير الإنسان منذ انطلاقته حتى انبثاق الدعوة الإسلامية بظهور خاتم الأنبياء محمد المصطفى صلى الله عليه و آله إنّما يتضمن معناً ومفهوماً خاصاً، كما يفيد أن حج بيت اللّه الحرام يمثل عصارة الفكر الإسلامى وشموليته للمسائل المهمّة الفردية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية والسياسية، وهذا ما سنتطرق إليه فى آخر البحث. ونخوض الآن فى تفسير هذا القسم من الخطبة:

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۶۸

فقد أشار الإمام عليه السلام فى البداية إلى مسألة وجوب الحج، حيث اعتمد عبارات فى غاية الروعة واللطافة بغية حث المسلمين على أداء هذه الفريضة الإلهية العظيمة، فقال عليه السلام:

«وفرض عليكم حج بيته الحرام»

ثم كشف عن صفة هذا البيت بقوله

«الذى جعله قبلة للأنام»[۳۰۲]

فهى القبلة التى يتجه إليها المسلمون فى صلواتهم اليومية على أنّها رمز وحدة جميع المسلمين الذين ينظمون صفوفهم فى الاتجاه اليها. ثم يتطرق عليه السلام إلى وصف الشعائر والمراسم التى يؤديها عشاق الحق فيشبههم عليه السلام بالعطاش الذين يردون على الماء العذب والطيور التى تبحث عن الملاذ

«يردونه ۳۰۳] وورود الانعام ويألهون ۳۰۴] إليه ولوه الحمام ۳۰۵]».

حقاً أنّ من أدرك معنى الحج فانّه يرد البيت على هذه الشاكلة فتكاد روحه وقلبه تسبقه إلى البيت فيعيش الوفادة عليه بكل كيانه ويستعيد به من شر الشياطين وأهواء النفس وتبعات الذنوب فيلبى دعوة الحبيب ويسعى بين الصفا والمروة ويحلق فى أجواء الكعبة التى تفيض بالمعنويات. أمّا التشبيه بالانعام فلعله إشارة إلى التواضع المطلق الذى يستشعره الحجاج تجاه بيت اللّه أو حالة الاضطراب حين الاقبال على الكعبة والطواف، أمّا التعبير بالحمام فذلك لأنّه يرمز إلى الحب والسلام والوئام.

جدير بالذكر أنّ مراسم الحج تستهل بالاحرام والتلبية التى تفيد اجابة الدعوة الإلهية، فاللّه سبحانه قد دعى زوار بيته الحرام للضيافة وقد تقاطر عليه الضيوف بقلوب مفعمة بالعشق لتعيش القرب الإلهى وهم يلمسون معانى الورع والتقوى والانس بالمحبوب. ثم

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۶۹

خاض عليه السلام فى جانب من الجوانب الفلسفية لشعيرة الحج فقال:

«وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته واذعانهم لعزته»

. فأعمال الحج من مناسك ومراسم إنّما تشتمل على أفعال غاية فى التواضع لعظمة اللّه قلما نجد نظيرها فى سائر الشعائر العبادية. وهذا ما يتجسد بوضوح فى الاحرام والتخلى عن اللباس الفاخر والاكتفاء بثياب الاحرام البيضاء غير الموصولة والطواف فى الكعبة والسعى بين الصفا والمروة والوقوف على جبل عرفة والتوقف فى منى والمشعر الحرام ورمى الجمرات والتقصير ما إلى ذلك من الأعمال التى تحطم ما تعيشه النفس البشرية من غرور وكبر. ثم يشير عليه السلام إلى أنّ الوقوف فى تلك المشاهد المشرفة والوفادة على البيت لمن المفاخر الكبرى والنعم الجزيلة التى يمن اللّه بها على بعض عباده فيقول عليه السلام:

«واختار من خلقه سماعاً[۳۰۶] أجابوا إليه ۳۰۷] دعوته وصدقوا كلمته».

فقد ورد فى بعض الأحاديث الإسلامية أنّ اللّه أمر خليله إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة بدعوة الناس إلى الحج.

فقال عليه السلام: إنّ صوتى لا يبلغهم. فجاءه الخطاب: إنّما عليك دعوتهم وعلينا الابلاغ. فارتقى الخليل عليه السلام المقام الذى كان ملاصقاً للكعبة آنذاك فجعل اصبعيه فى أذنيه وقد استقبل الشرق والغرب فنادى بأعلى صوته:

«أيّها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم»

فناداه من خلف البحار السبع مابين المشرق والمغرب بل حتى النطف فى قرارات النساء وأصلاب الرجال ممن سمع صوته

«ولبيك اللّهم لبيك»[۳۰۸]

. كما ورد فى الروايات أن من لبى حج بعدد تلبيته ومن لم يلب لم يحج ۳۰۹] ثم يواصل الإمام عليه السلام حديثه عن فلسفة الحج وآثاره وبركاته فيقول:

«ووقفوا مواقف أنبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه».

ولعل التعبير بمواقف الأنبياء يشير إلى كثرة الأنبياء من بعد إبراهيم بل حتى قبله طبقاً لبعض الروايات ممن حجوا البيت ۳۱۰] أمّا العبارة التى صرّحت بتشبههم بالملائكة المطيفين

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۰

بعرشه، فقد جاء فی الخبر الصحيح أنّ فی السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت.[۳۱۱] ثم قال عليه السلام:

«يحرزون ۳۱۲] الأرباح فی متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته»

ويالها من تجارة عظيمة مربحة تلك التی يتطهر فيها الإنسان من جميع ذنوبه إذا أتی بالعمل علی وجه الصحة؛ بل ورد أنّه يعود كيوم ولدته أمه ولا ذنب عليه كما صرّحت بذلك بعض الأحاديث الإسلامية.

ثم قال عليه السلام:

«جعله سبحانه وتعالی للإسلام علماً وللعائذين حرماً».

فالواقع هو أنّ الكعبة تمثل الراية الإسلامية الخفاقة علی الدوام؛ الراية التی يتمحور حولها المسلمون من أجل تحقيق استقلالهم ومجدهم وعزتهم. وكل عام تنفخ روح جديدة بمشاهدتها فی جسد المسلمين ويجری دم جديد فی عروقهم. وما إن يفرغ الإمام عليه السلام من ذكر هذه الفضائل حتی يشير إلی وجوب حج البيت فيقول:

«فرض حقّه وأوجب حجه وكتب عليكم وفادته ۳۱۳]

فقال سبحانه: «وَلِلَّهِ عَلی النّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنِ العالَمِينَ».

تأمّلان

اشارة

هنالك عدّة مسائل ومباحث متعلقة بالحج لا يمكن استيعابها فی هذا البحث، وعليه سنكتفی بالإشارة إلی بعض الامور التی تتمتع بأهمية كبيرة:

۱- نبذة تأريخية عن الكعبة

للكعبة- التی يطلق عليها اسم بيت اللّه الحرام أيضاً- تأريخ عريق يعود إلی زمان آدم عليه السلام

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۱

حسب ما أشارت الروايات ۳۱۴] فآدم عليه السلام هو أول من بناها وطاف حولها، ثم اندرست فی الطوفان الذی عم الأرض زمان نبی اللّه نوح عليه السلام، ثم أعاد بنائها إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل- علی ضوء صريح الآيات القرآنية كقوله سبحانه: «وَ إِذ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ ..»[۳۱۵]- فأديا مراسم الحج حيث أصبحت الكعبة أول مركز للتوحيد للإنسانية: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذِی بِبَكَّةَ مُبارَكاً»[۳۱۶]. وكما أشرنا سابقاً وعلی ضوء بعض الروايات الصحيحة أنّ فی السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت، وانّ البيت أول من عتق من الماء[۳۱۷] كما ورد هذا المعنی فی قصة دحو الأرض. وقد تظافرت الروايات- فی نهج البلاغة وغيره من المصادر الإسلامية- التی كشفت عن عظمة الكعبة ومدی أهميتها، ومنها ماروی عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«ما خلق اللّه عز وجل بقعة فی الأرض أحب إليه منها

- ثم أومأ بيده نحو الكعبة-

ولا أكرم على اللّه عز وجل منها»

بل ورد فى مقدمة هذا الحديث أنّ النظر إليها عبادة[۳۱۸] فالكعبة هى رمز الوحدة الإسلامية التى تتطلع إليها الجماعة الإسلامية فى العالم أجمع. جدير ذكره بشأن أهمية البيت أن زرارة- من كبار صحابة الإمام الباقر والصادق عليهما السلام- دخل على الإمام الصادق عليه السلام فقال: (جعلنى اللّه فداك أسألك فى الحج منذ أربعين عاماً فتفتينى». فرد الإمام قائلًا:

«يا زرارة بيت يحج إليه قبل آدم بألفى عام تريد أن تفتى مسائله فى أربعين عاماً»[۳۱۹]

. فالذى يستفاد من هذا الحديث أنّ الملائكة والمخلوقات التى عاشت على الأرض قبل آدم عليه السلام كانت تحج البيت. ففى الحديث أنّ آدم لما قضى مناسكه وطاف بالبيت لقيته الملائكة، فقالت: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۷۲

۲- فلسفة الحج

لقد تضمنت عبارات الإمام عليه السلام إشارات عميقة لفلسفة الحج وما ينطوى عليه من أسرار. إلى جانب ذلك فقد وردت الروايات التى صرّحت بمثل هذا المعنى، والذى يخلص إليه من مجموعها أنّ هذه المناسك العظيمة تشتمل على أربعة جوانب هى: الجانب الأخلاقى والعبادى، الجانب السياسى والاجتماعى، الجانب الثقافى والجانب الاقتصادى.

أمّا الجانب الأخلاقى والعبادى الذى يمثل أهم جوانب فلسفة الحج بفضل تنبيه لتربية النفس وتهذب الأخلاق والتحلى بالورع والتقوى والاخلاص. حيث صرّحت الروايات الإسلامية بشأن من يحج البيت

«يخرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه»[۳۲۰]

. والرواية بدورها دليل واضح على مدى التأثير الذى يلعبه الحج فى النفس الإنسانية وتنقيتها من الذنوب والمعاصى التى دنست عفتها طيلة العمر وهذه أعظم فائدة يصيبها الوافد على بيت اللّه. ولو التفت الحاج إلى أسرار المناسك التى يؤديها والشعائر التى يؤتى بها فان كل خطوة ستجعله أكثر قرباً من اللّه ليرى مولاه حاضراً فى كل مكان فهو معبوده الحق الذى لا يفارقه طرفة عين. أجل سيعود إلى الحياة من جديد كيوم ولدته أمه.

ولا غرو فمن أدرك الحج بمعناه الحقيقى سيشعر بآثاره الروحية والمعنوية إلى آخر عمره، ولعل هذا هو السبب فى وجوب الحج مرة واحدة طيلة العمر.

وأمّا على صعيد الجانب السياسى والاجتماعى فانّ الإتيان بمراسم الحج على ضوء التعاليم الإسلامية والحج الإبراهيمى الذى دعى الناس لامتثاله إنّما يؤدى إلى عزة المسلمين وتحكيم دعائم الدين وارساء أسس الأخاء والوحدة وتنامى شوكة الدين وصلابته والوقوف بوجه الأعداء والمستكبرين واعلان البراءة من المشركين والملحدين. كما يمنح هذا المؤتمر الإلهى العظيم الذى يعقد كل عام فى البيت العتيق المسلمين الفرصة الذهبية فى إعادة بناء أنفسهم وتقوية أواصر الاخوة فيما بينهم ورص صفوفهم بما يحبط مؤامرات أعداء الدين وافشال

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۷۳

خطط الشياطين، وما يؤسف له أنّ المسلمين لم يقفوا لحد الآن على عظمة الحج ويدركوا كنهه وإلّا لتمكنوا- فى ظل هذه الشعيرة- من إسداء أعظم الخدمات للإسلام وتسديد أوجع الضربات إلى ركائز الشرك والكفر؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى الروايات الإسلامية ولاسيما تلك التى وصفته:

«لايزال الدين قائماً ماقامت الكعبة»[۳۲۱]

. وكأن أعداء الإسلام أدركوا الدور العظيم الذى يلعبه الحج على صعيد المسائل السياسية فمارسوا أقصى ردود الفعل تجاهه بغية الحؤول دون تحقيق أهدافه. فهذا «غلادستون»- رئيس وزراء بريطانيا- يخاطب مجلس العموم بأنّ المسيحية مهددة بالخطر وسنعجز عن إصلاح العالم (طبعاً ليس الإصلاح من وجهة نظرهم سوى الاستعمار) مادام اسم محمد يذكر صباح مساء من على المآذن والقرآن هو دستور حياة المسلمين، الذين يقيمون مراسم الحج كل عام بهذا الشكل [۳۲۲]. بل قيل أن غلادستون اختتم خطابه لمجلس العموم بقوله: يجب عليكم يا ساسة المسيحية أن تزيلوا اسم محمد من آذان المسلمين فتنسونهم ذكره وتحرقون القرآن وتخربون الكعبة.

وهناك جملة اخرى معروفة أطلقها أحد زعماء النصرانية فى الغرب قائلًا:

«الويل للمسلمين إن غفلوا عن معنى الحج، الويل لمن سواهم إن فهموا معناه»

. وبالبداهة أنّهم لا ينوون من هذا الاحراق ظاهر القرآن، كما أنّهم لن ينجحوا فى تخريب الكعبة، غير أنّهم يستطيعون وفى ظل غفلة المسلمين من تحقيق مآربهم بالقضاء على أحكام الدين وافراغ الحج من محتواه الأصيل.

وأمّا بالنسبة للجانب الثقافى وعلى ضوء الأخبار الإسلامية فان هذه المراسم سوف تؤدى إلى التعريف بالثراء الجم لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله والأئمة المعصومين عليهم السلام وستكون الفرصة مؤاتية بفضل حضور علماء المسلمين ومفكريهم ومن كافة الاصقاع- بما فيهم كبار علماء الدين وكبار الأدباء والفنانين والمثقفين والكتاب الذين يتوافدون على البيت كل عام- لتبادل الأفكار والثقافات والانفتاح على تجارب الآخرين بما يسهم فى إحياء مفاهيم الدين ونشر تعاليم الرسول الكريم صلى الله عليه و آله والهداء الميامين من آله الطيبين الطاهرين.

وأخيراً الجانب الرابع الذى يشير إلى الفلسفة الاقتصادية للحج. فقد وردت الروايات

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۷۴

والأخبار التى تفيد أن من معطيات الحج تفعيل القدرة الاقتصادية للمسلمين وانقاذهم من الأزمات المالية التى تعصف بحياتهم وحياة مجتمعاتهم. ولعل البعض لا يرى من رابطة من قريب أو بعيد بالجانب الاقتصادى، إلّاأنّ أدنى تأمل لهذه القضية سيكشف بوضوح بأنّ الخطر العظيم الذى يهدد كيان المسلمين إنّما يتمثل اليوم بالتبعية الاقتصادية للأجانب، فما الضير فى اقامة المؤتمرات والندوات الاقتصادية من قبل المعنيين والمتخصصين فى تلك الديار المقدسة بصفتها مراسم عبادية تهذف إلى انتشال المسلمين من مخالب الفقر والتبعية وطرح المشاريع والبرامج الاقتصادية التى من شأنها معالجة الأوضاع المزرية؟ ولا نرى لهذه القضية من طابع فردى لتعالى الأصوات بالانشغال بزخارف الدنيا وحطامها الزائل، بل الهدف أنبل وأسمى حيث يكمن فى خدمة الإسلام والمسلمين فى هذا الجانب الحيوى.[۳۲۳] ويتضح من قوله عليه السلام:

«ووقفوا مواقف أنبيائه وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح فى متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته»

مدى الأهمية التى أولاها الإمام عليه السلام لحج بيت اللَّه الحرام؛ ولا عجب فهى عبادة اجتماعية عامة تقسم فى طياتها الدنيا والآخرة والأخلاق والمعنويات وعزة المسلمين وتنامى شوكتهم.

طبعاً واسع وشامل البحث المتعلق بالحج وأبعد ممّا ذكرنا إلّاأننا سنستغرق أكثر فى هذا الموضوع حين شرحنا لسائر خطب الإمام عليه السلام الواردة بهذا الشأن، ونكتفى هنا بهذا المقدار المتواضع.

نفحات الولاية ؛ ج ۱ ؛ ص ۱۷۵

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۷۵

الخطبةالثانية

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

بعد انصرافه من صفين وفيها حال الناس قبل البعثة وصفة آل النبى صلى الله عليه و آله ثم صفة قوم آخرين.

القسم الأول

اشارة

«أَحْمَدُهُ اسْتِتْماماً لِنِعْمَتِهِ وَاسْتِسْلاماً لِعِزَّتِهِ وَاسْتِعْصاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ.

وَأَسْتَعِينُهُ فاقَةً إِلَى كِفايَتِهِ إِنَّهُ لا يَضِلُّ مَنْ هَداهُ وَلا يَئِلُ مَنْ عاداهُ وَلا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفاهُ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ وَأَفْضَلُ مَا خُزِنَ وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهادَةً مُمْتَحَناً إِخْلاصُها مُعْتَقَداً مُصاصُها نَتَمَسَّكُ بِها أَبَداً ما أَبْقانا، وَنَدَّخِرُها لِأَهاوِيلِ ما يَلْقانا فَإِنَّها عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ وَفاتِحَةُ الْإِحْسانِ، وَمَرْضاةُ الرَّحْمَنِ، وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطانِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ وَالضِّياءِ اللَّامِعِ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزاحَةً لِلشُّبُهاتِ وَاحْتِجاجاً بِالْبَيِّناتِ وتَحْذِيراً بِالْآياتِ وَتَخْوِيفاً بِالْمَثُلاتِ».

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۷۶

نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة على خمسة مضامين (تبحث فى أربعة أقسام):

المضمون الأول فى حمد اللَّه والثناء عليه والملاذ بفضله وكرمه ورحمته، والثانى فى الشهادة للَّه بالوحدانية ومعطيات الإيمان بالتوحيد، والثالث فى الشهادة بالنبوة والعبودية إلى جانب التذكير بفضائل النبى صلى الله عليه و آله واوضاع العصر الجاهلى والملمات والخطوب التى شهدها المجتمع الإسلامى آنذاك والجهود التى بذلها الرسول الكريم صلى الله عليه و آله من أجل مجابهة تلك الخطوب وتحمل المصاعب والويلات بهذا الشأن، والرابع فى منزلة أهل البيت وعلو مقامهم وسمو مكانتهم واللجوء إليهم فى امور الدين، والمضمون الأخير الذى يواصل فيه المعنى المذكور بصيغة اخرى محذراً الامّة من مقارنة أنفسها بهم، متطرقاً إلى عدم إمكانية تشبه أى من الأفراد بهم ومستعرضاً لفضائلهم والاعراب عن الارتياح لعودة الحق السليب لأهله.

ظروف وملابسات الخطبة

كما مر علينا سابقاً فقد صرّح المرحوم السيد الشريف الرضى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد انصرافه من صفين.

ومضامين الخطبة ومعانيها تبدو منسجمة والمعنى المذكور؛ الحقيقة التى تجسدت فى استعراض حياة الامّة فى العصر الجاهلى حيث يحذرها من مغبة تكرار الجاهلية الاولى والحؤول دون تمكن من تبقى من رواد تلك الجاهلية الذين كانوا يشكلون غالبية معسكر الشام فى صفين من تحقيق أطماعهم ومآربهم. كما يؤكد عليه السلام على ضرورة تمسك الامّة بأهل بيت النبى صلى الله عليه و آله بغية التحصن من الأخطار التى كانت تهدد الإسلام آنذاك، فهم الذين قال فيهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«إنّى مخلف فيكم الثقلين كتاب اللَّه وعترتى أهل بيتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً وإنّهما لن يفترقا حتى يردا على

الحوض»

فالنجاة بالتمسک بالکتاب والعترة معاً.

ومن هنا يتضح بطلان ماذهب إليه ابن أبى الحديد بشأن صدور الخطبة حيث قال: واعلم أنّ هذه الکلمات وهى قوله عليه السلام:

«الآن إذا رجع الحق إلى أهله»

إلى آخرها يبعد عندى أن

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۷

تکون مقولة عقيب انصرافه عليه السلام من صفين، لأنّه انصرف عنها وقتئذ مضطرب الأمر، منتشر الحبل، بواقعة التحکيم، ومکيدة ابن العاص، وما تم لمعاوية عليه من الاستظهار، وما شاهد فى عسکره من الخذلان، وهذه الکلمات لا تقال فى مثل هذه الحال، وأخلق بها أن تکون قيلت فى ابتداء بيعته، قبل أن يخرج من المدينة إلى البصرة، وأنّ الرضى رحمه اللَّه تعالى نقل ماوجد، وحکى ماسمع والغلط من غيره، والوهم سابق له، وما ذکرناه واضح.[۳۲۴]

وقد صرّح بعض العلماء بأنّ هذا الکلام ينبغى ألا يقال بشأن فرد يعتبر علماً فى العلم وبحراً من الوقار واسطورة فى الجهاد والمقاومة. فانّ فرداً مثل على عليه السلام لاتهزه هذه الحادثة وأنى للاضطراب والقلق من سبيل إلى هذه الروح الملحمية والأفکار الربانية التى کان يتحلى بها على عليه السلام. بل بالعکس وکما أوردنا سابقاً فان الإمام عليه السلام يحذر- فى هذه الخطبة- الامّة من الاستسلام إلى الدعايات السامة والمشاريع الشيطانية التى کان يمارسها ولاة الشام ومن مغبة العودة القهقرى إلى العصر الجاهلى والصمود فى الذود عن الحق بعد أن عاد إلى أهله. وعليه فلا يبدو رأى ابن أبى الحديد صائباً فى أن معاوية هو الذى انتصر فى الميدان ولا سيما قول الإمام عليه السلام:

«الآن إذا راجع الحق إلى اهله»

وذلک للأسباب التالية:

أولًا: أنّ معاوية لم يکسب تلک المعرکة قط، غاية مافى الأمر أنّه نجى من هزيمة منکرة بفعل خدعة عمرو بن العاص فما زال الإمام عليه السلام يرى الحق (هو وأهل بيته) ويحذر الامّة من التغابى عنه إلى جانب الذود عنه وعدم زحزحته عن أهله.

ثانياً: إنّ التحکيم الغادر لعمرو بن العاص- وخلافاً لما يراه الکثيرون- لم يحصل فى صفين بحضور الإمام عليه السلام بل وقع بعيد بضعة أشهر، والطريف أنّ ابن أبى الحديد قد صرّح بهذا المعنى فى موضع آخر من شرحه. ونخلص ممّا سبق إلى أنّ الدليل الذى حاول أن يتمسک به ابن أبى الحديد والذى تمثل بالجملة الأخيرة فى الخطبة لإثبات صحة مدعاه فى أنّ الخطبة صدرت بعد موقعة صفين، هو دليل باطل وشاهد عارى من الصحة.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۱۷۸

الشرح والتفسير

الرکنان الأساسيان فى الإسلام

استهل الإمام عليه السلام الخطبة- کسائر خطبه- بحمد اللَّه والثناء عليه، إلّاأنّه يکشف عن الدوافع الثلاث لهذا الحمد والثناء:

الأول الاستزادة من النعم الإلهية، واظهار الاستسلام والخضوع للعزة الإلهية والقدرة المطلقة، وأخيراً الاعتصام بالطافه من المعاصى. فقد قال عليه السلام:

«أحمده استتماماً[۳۲۵] لنعمته

واستسلاماً[۳۲۶] لعزته واستعصاماً[۳۲۷] من معصيته»

. لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ مفهوم الحمد أشمل من الشكر، وبعبارة اخرى فانّ الشكر ممزوج بالمدح وهذا يدعو من جانب لاستزادة النعم الإلهية كما قال سبحانه:

«لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ»[۳۲۸]

ويشكل القيام بوظيفة العبودية من جانب آخر وهذا هو التسليم مقابل عزة اللّه وأخيراً يوجب عنايات اللّه وألطافه الغيبية فى حفظ الإنسان وعصمته من الذنوب والمعاصى. ثم يستعين عليه السلام باللّه بعد حمده والثناء عليه موعزاً ذلك إلى حاجته إليه سبحانه وعدم غناه عنه

«واستعينه فاقة إلى كفايته»

. أجل إذا رأى العبد نفسه محتاجاً لتلك الذات الغنية وصاحب الكمال المطلق فانه يلجأ إلى الحق سبحانه ليشمله بفضله ورحمته ويعينه فى كافة شؤون حياته. آنذاك يشير إلى دليل آخر لهذه الاستعانة فيقول:

«انّه لا يضل من هداه ولا يئل ۳۲۹] من عاداه ولا يفتقر من كفاه»

. نعم فقدرته على درجة من القوة والعظمة بحيث لا ـ يسع أحد الوقوف أمامها، وإن علمه ثاقب ليس للخطأ من سبيل إليه. وهناك إحتمال أيضاً أنّ الدوافع الثلاث دليل آخر على الحمد والثناء ودليل على الاستعانة أيضاً.

ثم يشير فى آخر العبارة إلى دليل آخر يوجب الحمد للّهوالثناء عليه

«فانه أرجح ما وزن

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۷۹

وأفضل ما خزن»

. والواقع هو أنّ الفوائد والآثار التى وردت فى العبارات السابقة إنّما تتعلق بهذا العالم، بينما ترتبط الفوائد الواردة فى العبارتين الاخيرتين بالعالم الآخر وزاد المعاد يوم القيامة، وهكذا يكون حمد اللّه والثناء عليه سبب النجاة فى الدنيا والآخرة، وما أروع عبارات الإمام عليه السلام المقتضية التى تضمنت تلك المعانى العميقة. فلا يبدو من العبث أن يصرح ابن أبى الحديد حين يتناول بالشرح هذه الخطبة فيذهل للكنايات والبديع وعذوبة التعبير الذى تضمنته عبارات الإمام عليه السلام قائلًا:

«فسبحان من خصه بالفضائل التى لا تنتهى السنة الفقهاء إلى وصفها وجعله إمام كل ذى علم وقدوة كل صاحب خصية».

ثم يتطرق عليه السلام إلى الشهادة بالوحدانية بصفتها تشكل مصدر جميع الفضائل والكمالات:

«واشهد ان لا إله إلّااللّه وحده لا شريک له»

وتمسک الإمام عليه السلام بالتوحيد على أنه دعامة كافة العقائد والأفكار الطاهرة والأعمال الصالحة من جانب، ومن جانب آخر ليلتفت من يرى الوهيته عليه السلام إلى خطأ إعتقاده. ثم يضيف الإمام عليه السلام بأنّ شهادته هذه شهادة حقيقية تستند إلى الاخلاص والتقوى وليست لقلقة لسان

«شهادة ممتحنا[۳۳۰] اخلاصها معتقداً مصاصها[۳۳۱]».

فهى شهادة حقة دائمة مادامت الحياة مدخرة حيث الأهوال والخطوب

«نتمسک بها أبداً ما أبقانا وندخرها لاهاويل ۳۳۲] ما يلقانا».

فالإمام عليه السلام يعلن عن عمق إيمانه وإذعانه بحقيقة التوحيد فى كافة شؤون الحياة وعلى جميع المستويات؛ الحقيقة التى تجسدت فى سيرته عليه السلام والمشهودة فى كافة جوانب حياته حتى لم يتطرق الشرک إليه طرفة عين، فلم يسجد لصنم قط وكانت سكناته وحركاته فى ظل التوحيد البعيد عن أدنى شرک خفى. ثم يذكر عليه السلام أربعة دعائم لهذا الركن الركين فى الإسلام

«فانها عزيمة الإيمان وفاتحة الاحسان ومرضاة الرحمن ومدحرة[۳۳۳] الشيطان».

نفحات الولايهٔ، ج ۱، ص: ۱۸۰

سنرى فى الأبحاث القادمهٔ أنّ الإيمان بأى من أصول الدين إنّما هو إيمان أجوف مالم يستند إلى التوحيد، كما أنّ الصالحات بأجمعها إنّما تستقى من حقيقهٔ التوحيد، ومن هنا كان مرضاهٔ للّه ومدحرهٔ للشيطان، لأنّ الوسيلهٔ المهمّهٔ الهدامهٔ للشيطان إنّما تتمثل بالشرك سواء كان جلياً واضحاً أم مخفياً مستتراً.

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغهٔ إلى أنّ المراد بفاتحهٔ الاحسان هو الأجر والثواب الإلهى الذىالتوحيد مفتاحه، غير أن التفسير الذى ذكرناه يبدو أكثر صحهٔ من هذا. وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من هذه الشهادهٔ الخالصهٔ الحقهٔ حتى يردفها بمتممتها التى تتمثل بالشهادهٔ بالنبوهٔ:

«وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»

. نعم فهو عبد اللّه قبل أن يكون رسوله، فليس من مجال لبلوغ مقام النبوهٔ دون العبوديهٔ، وفى هذا رد على أولئك الذين قد يبالغون فى مقام الرسول ليبلغوا درجهٔ الإلوهيهٔ. آنذاك يصف رسالهٔ ووظيفهٔ النبى فيقول:

«أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور[۳۳۴] والكتاب المسطور والنور الساطع [۳۳۵]

والضياء اللامع والأمر الصادع [۳۳۶]»

. والواقع هنالك عدّهٔ تفاسير بشأن هذه العبارات الست العميقهٔ المعانى والامور التى تشير اليها. منها أنّ المراد بالدين المشهور هو الإسلام الحنيف والعلم المأثور المعجزات والكتاب المسطور القرآن الكريم والنور الساطع علوم النبى صلى الله عليه و آله والضياء اللامع سنته صلى الله عليه و آله والأمر الصادع- بقرينهٔ الآيهٔ الشريفهٔ ۹۴ من سورهٔ الحجر

«فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ»[۳۳۷]

- ترك التقيهٔ واظهار التوحيد فى مقابل المشركين والكافرين. كما يحتمل أن يكون المراد بالضياء اللامع والنور الساطع تبيين القرآن الكريم، فالقرآن مصدر اشعاع أفكار المجتمعات الإنسانيهٔ. ثم يخوض الإمام عليه السلام فى الهدف النهائى لرسالهٔ النبى صلى الله عليه و آله والقرآن والمعجزات والقوانين والأحكام الشرعيهٔ، فيوضح أهداف النبى صلى الله عليه و آله فى ثلاث محاور: ازالهٔ

نفحات الولايهٔ، ج ۱، ص: ۱۸۱

الشبهات بالأدلهٔ والبراهين واستقطاب الخصوم من خلال إرشادها بالآيات البيّنات وتحذيرهم من العقاب الأليم ان هم تمادوا فى غيّهم وعصيانهم

«إزاحهٔ[۳۳۸] للشبهات واحتجاجاً

بالبيّنات وتحذيراً بالآيات وتخويفاً بالمثلات [۳۳۹]».

يمكن أن يكون المراد من قوله

«ازاحهٔ الشبهات»

الحقائق التى تعززها البراهين والأدلهٔ الربانيّهٔ والتى لا تدع مجالًا لشك أو شبههٔ،

«واحتجاجاً بالبيّنات»

المعجزات الحسيهٔ بالنسبهٔ لُاولئك الذين لا يسلمون سوى للاستدلالات العقليهٔ والتى من شأنها سوقهم نحو الإيمان واليقين،

«تحذيراً بالآيات»

الوعيد بالعذاب الاخروى

«تخويف بالمثلات»

الوعيد بالعذاب الدنيوى كما ورد ذلك فى بعض الآيات القرآنيهٔ كقوله سبحانه وتعالى: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَهِٔ قَبْلَ الحَسَنَهِٔ وَقَدْ خَلَتْ

مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ».[۳۴۰]

تأمّلان

۱- التوحيد ركيزة الصالحات

تعتير الشهادة لله بالواحدانية من الاصول العقائدية المسلمة بالنسبة لسائر الاصول؛ إلّا أنّ هذا استنتاج ساذج لهذا الأصل الإسلامی المهم. فالتمعن فی المصادر الإسلامية والتحليلات العقلية يدل على أن التوحيد أصل جار على سائر الاصول والفروع، بعبارة اخرى فان كافة أصول الإسلام وفروعه تشكل بلورة لمفهوم التوحيد؛ ولا- يقتصر هذا الأمر على المباحث العقائدية والعبادية فی المسائل الاجتماعية والسياسية والأخلاقية بل تسرى روح التوحيد لتحكم جميع المجالات.

فالتوحيد على مستوى الذات والصفات والافعال والعبودية لمن الامور المسلمة الواضحة ولا نقتصر به على نبيّنا دون سائر الأنبياء بحكم الآية الشريفة «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»[۳۴۱]

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۸۲

وعليه فاننا نؤمن بأنّ جميع الأنبياء والمرسلين إنّما يتفقون فی أهدافهم ووحدة رسالتهم وبرامجهم رغم أن بعض الأحكام والمشاريع والبرامج التی تلبس حللا جديدة وتتخذ طابعا حديثا بفعل تطور المجتمعات البشرية وتقدم مسيرتها.

أمّا بالنسبة للمعاد وعلى ضوء الآية الشريفة «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيامَةِ فَرْداً»[۳۴۲] فانّ الجميع سيقف بمفرده يوماً فی محكمة العدل الإلهی لينالوا جزائهم من ثواب أو عقاب يتناسب مع طبيعة أعمالهم وفقا لمعايير إلهية واحدة.

فالمجتمعات البشرية تنتمی إلی جذور واحدة تحكمها أصول ثابتة ومعينة، بل تحكم جميع عالم الوجود. والواقع صحيح أنّ هنالك تفاوتا فی القوانين الإلهية فی الأديان السماوية من حيث آلياتها وتفرعاتها، إلّاأنّ مستقاها واحد، ومن هنا فاننا نؤمن بوحدة دعوة الأنبياء للمجتمع العالمی الموحد، وأنّ العالم برمته سيشهد فی خاتمة المطاف حكومة العدل الإلهی.

أمّا على صعيد المسائل الأخلاقية فليس هنالك من يتردد فی أنّ الفضائل الأخلاقية إنّما تنبع من التوحيد بينما تنبع الرذائل من الشرك. و عادة ما يتورط بالشرك الأفراد المرائين وأولئك الذين يصابون بأمراض الحسد والبخل و الحرص والتكبر، وإلّا فالفرد الذی يعيش توحيد الأفعال بكل كيانه وفی أعماقه ويؤمن بأنّ العزة والذلة والرزق والحياة والممات والنصر والغلبة لله بيده وحده لايرى من مسوغ لان يستشعر قلبه معانی الرياء والحرص والبخل والحسد.

و زبدة الكلام فانّ التوحيد ليس بمثابة حبة مسبحة بالنسبة لسائر الحبات، بل هو بمثابة الخيط الذی يشد الحبات إلی بعضها البعض الآخر.

و من هنا يتضح عمق كلمات الإمام عليه السلام بالنسبة لمفهوم التوحيد- فی الخطبة-، فالتوحيد هو الدعامة الرئيسية للإيمان وانطلاقة الأعمال الصالحة ويستبطن رضى الرحمن وطرد

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۸۳

الشيطان، وإذا ما أشرقت شمس التوحيد على جسم المجتمع البشری وروحه فانّه سيتخذ طابعا متبلورا فی ظل أشعته الزاهرة. وإذا رأينا أمير المؤمنين ومولى المتقين علی عليه السلام الذی يمثل بدوره روح التوحيد لاينفك عن تكرار التعرض للتوحيد- فی خطب نهج البلاغة- وتعليم أتباع مدرسة أهل البيت الاخلاص فی التوحيد فإنّما يعزى ذلك إلی ضرورة الابقاء على جذوة هذه الشعلة الخالدة متقدة فی القلوب وری أرض الحياة بهذه المياه العذبة لتورق ثمار أشجارها وتنضج فی ظل صبغة التوحيد الإلهية.

و ممّا لا شک فیه أنّ الشهادة بالنبوة والالتفات إلى وظائفها ومسؤولياتها وكتبها السماوية إنّما يعدّ أفضل أرضية خصبة لبلورة حقيقة التوحيد فى أعماق كيان الإنسانية.

۲- التوحيد الخالص الذى طبع حياة أميرالمؤمنين عليه السلام

كان على عليه السلام مجسمة التوحيد ومظهره التام قبل أن يدعو الآخرين لهذه الحقيقة الخالصة.

لم يسجد لصنم طرفة عين طيلة حياته قط ليلوث صفو روحه غبار الشرك. كان لا يفعل شيئا إلّاويرى الله فيه وقبله ومعه لايروم سوى رضاه.

كما وقف كالطود الشامخ يشد أزره ويذود عنه بغية استتباب التوحيد والعبودية. ولا يخفى على أحد موقفه فى الخندق ومبارزته لعمرو بن العاص، فقد صرعه الإمام عليه السلام وأو شك أن يقتله؛ وقد أصيب جيش الإسلام بالذهول حين رأى الإمام عليه السلام قد انصرف عن قتله (و لعله نهض من عنده وتركه لمدّة بعد أن تجول فى الميدان) ثم عاد إليه وقتله.

فلما سئل عن علة ذلک قال عليه السلام:

«قد كان شتم أمي وتفل فى وجهى فخشيت أن أضربه لحظ نفسى فتركته حتى سكن ما بى ثم قتله فى الله»[۳۴۳]

وقد وقف بكل قوة تجاه بعض أصحابه الذين اعترضوا عليه بالتسوية فى العطاء من بيت المال قال:

«أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه! والله لا ـ أطور به ما سمر سمير، وما أم نجم فى السماء نجماً! لو كان المال لى لسويت بينهم، فكيف وإنّما المال مال الله».[۳۴۴]

ولما كان يقف للصلاة كان يستغرق فى صفات الله وجلاله وجماله بحيث لم يكن يرى سوى الله ولا يفكر فى سواه، حتى ورد فى الأخبار أن سهما أصاب رجله فى موقعة أحد وكان يصعب سله من رجله فأمر

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۸۴

رسول الله صلى الله عليه و آله بسله حين يقف للصلاة. فلما فرغ عليه السلام من صلاته قال لم أشعر بالسهم حين الصلاة.[۳۴۵] وما أكثر هذه التماذج التوحيدية فى حياة الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۸۵

القسم الثانى: العصر الجاهلى

اشارة

«وَالنَّاسُ فِی فِتَنٍ انْجَذَمَ فِیها حَبْلُ الدِّینِ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوارِی الْیَقِینِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ وَضاقَ الْمَخْرَجُ وَعَمِیَ الْمَصْدَرُ فالْهُدَى خامِلٌ وَالْعَمَى شامِلٌ عُصِیَ الرَّحْمَنُ وَنُصِرَ الشَّیْطانُ وَخُذِلَ الْإِیمانُ فانْهارَتْ دَعائِمُهُ وَتَنَكَّرَتْ مَعالِمُهُ وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ وَعَفَتْ شُرُكُهُ أطاعُوا الشَّیْطانَ فَسَلَكُوا مَسالِكَهُ وَوَرَدُوا مَناهِلَهُ، بِهِمْ سارَتْ أَعْلامُهُ، وَقامَ لِواؤُهُ، فِی فِتَنٍ داسَتْهُمْ بِأَخْفافِها وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلافِها، وَقامَتْ عَلَى سَنابِكِها، فَهُمْ فِیها تائِهُونَ حائِرُونَ جاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِی خَیْرِ دارٍ وَشَرِّ جِیرانٍ نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ بِأَرْضٍ عالِمُها مُلْجَمٌ وَجاهِلُها مُكْرَمٌ».

الشرح والتفسير

يصور الإمـام عليه السـلام بهـذه العبارات القصـيرة والبليغـة أوضاع العصـر الجاهلى وكأن السامع يشـهد عن قرب تلك الأوضاع ويرى نفسه فى خضم ذلـك العصـر ليلمس الفوضـى والبؤس والشـقاء الـذى كان عليه الناس. ولا نرى أنفسـنا نبالغ إذا ما قلنا بأنّ الإمام عليه السـلام قـد إختصـر كتابا ضـخما بهـذه العبارات الموجزة؛ الأمر الـذى يعدّ دلالة اخرى على مدى رصانة بيانه وعمق الفصاحة والبلاغة والروعة فى التصوير والدقة فى التعبير التى تشتمل عليها كلماته وخطبه عليه السلام.[۳۴۶]

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۸۶

ومن البـديهى إلّاتتضـح عظمـة رسالة النبى صـلى الله عليه و آله وسـمو الخدمات التى أسداها إلى البشـرية وحلاوة الإيمان التى حملها الـدين الحنيف ما لم تكن هناك صورة واضـحة عن الأوضاع السائـدة لـدى الأقوام السابقـة التى سـبقت عصـر الرسالـة وانبثاق الدعوة الإسلامية.

فمن شأن هذه المقارنة أن تميز عظمة مشاريع الأنبياء وبرامج الأولياء والعباقرة على مدى التاريخ. فقد أشار عليه السـلام إلى الفتن التى كانت تعصف بالامّـة آنـذاك بحيث تصـدعت عرى الدين وتزعزعت أعمدة الإيمان وتلوثت الفطرة وتغيرت القيم وسادت الفرقة بين الناس، فغدوا حيارى قد ضلوا المخرج

«والناس فى فتن إنجذم ۳۴۷] فيها حبل الدين وتزعزعت ۳۴۸] سوارى ۳۴۹]

اليقين واختلف النجر[۳۵۰] وتشتت الأمر وضاق المخرج وعمى المصدر».

فقـد تقطعت حبائـل الـدين وغيبت المعارف الدينيـة الحقـة إثر فتن الشـياطين ووساوس عبـدة الأهواء من جانب، ومن جانب آخر فان الفوضـى عمت الامّـة وتصاعـدت بين أوساطها حـدة الفرقة والاختلاف؛ والانكى من ذلك وفى ظل هذه الظروف لم يكن هناك من سبيـل للخروج من المـأزق ولا من كهف يؤى إليه؛ الأمر الـذى اضطـر الناس للبقاء على الانحراف والـدنس الـذى ساد ذلك المحيط والعوم فى مسـتنقعه العفن. والعبارة «حبل الـدين»- التى وردت بصـيغة المفرد- إشارة إلى وحـدة الـدين الحق ووحـدة المصـدر الذى تسـتقى منه كافـة أصول وتعـاليم الأنبيـاء وإن شـهدت هـذه الاصول والتعاليم بعض الفوارق التى تفرزها طبيعـة تقادم الزمان، وهـذا ما يجوزه القرآن الكريم على لسان المؤمنين الصادقين بقوله: «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»[۳۵۱] وقوله عليه السلام

«إختلف النجر»

لا يشير إلى الاختلافات التى شهدها العصر

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۸۷

الجاهلى على أنّها إختلافات صورية فى تفرعاتها واطيافها فحسب، بل كانت إختلافات أصولية وأساسية جذرية.

بـل يمكن القول إنّ العبارة إشارة إلى معنى يتضـمن تزلزل حتى أركان الفطرة الإنسانيـة والاصول الفطريـة التى جبل عليها الإنسان من قبيـل التوحيـد وعشق الأعمـال الصالحـة والخيرة؛ أو تغير قيم المجتمع الإنسـانى وتنكرهـا حتى عـاد لكـل معـاييره الخاصـة للتعامل مع القضايا؛ الأمر الذى أدى إلى تلك الحالة من الفرقة والتشتت و

«تشتت الأمر»

يمكن أن تكون أشـارة إلى شـدة الخلافـات الدينيـة القصوى آنـذاك (على أساس أنّ المراد بهـذا الأمر هو أمر الـدين) أو إشارة إلى الفرقة والشقاق فى كافة الامور الاجتماعية، سواء الامور الدينية والدنيوية والمسائل المرتبطة بالمجتمع والاسرة أو القضايا الاقتصادية أو الأخلاقية.

ويبـدو أنّ المعنى الثـانى أكثر إنسـجاما والعصـر الجـاهلى؛ وهنا تكمن الطامـة الكبرى حيث يغط الإنسان فى هالـة من الشك والترديد وإنعـدام الإيمان وأنواع الاختلافات والشـقاقات والفساد والانحراف وليس هنالك من سبيل أمامه للخروج من هذا المأزق حتى يعيش اليأس والقنوط من رأسه إلى أخمص قدمه. وهذه هى الصورة الحقيقية التى رسمها الإمام عليه السلام لذلك العصر.

ثم يتطرق عليه السلام إلى المعطيات السلبية التى أفرزتها تلك الأوضاع المزرية آنذاك فوصفها عليه السلام قائلًا:

«فالهدى خامل [۳۵۲] والعمى شامل، عصى الرحمن ونصر الشيطان وخذل الإيمان».

من الطبيعى أن يتطلب سبيل طاعـة الله نور الهدايـة من جانب والبصـيرة التى تهتدى إلى ذلك النور من جانب آخر؛ فالامّة تتحول إلى رعيل شيطانى تتكالب على الفواحش والرذائل شاءت أم أبت إذا إنعدم فى وسطها ذلك النور وفقدت تلك البصيرة.

والجدير بالذكر فى العبارة

«عصى الرحمن»

أن الإمام عليه السـلام قد إختار هنا اسم الرحمن من بين أسـماء الله الحسـنى فى إشارة إلى أنّه ورغم الرحمة الإلهية التى عمت الجميع دون إستثناء وانّ طاعته أمر فطرى وبديهى جبلت عليه النفس البشرية إلّاأنّ هؤلاء العمى البصائر فى العصر

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۱۸۸

الجاهلى قـد صـموا أبصارهم حتى عن رؤيـة هـذه الحقيقـة القائمة. ثم يؤكد هذه النتائج المرة التى أصـيبوا بها آنذاك فيلخصـها عليه السلام قائلًا:

«فانهارت [۳۵۳] دعائمه وتنكرت معالمه ودرست [۳۵۴] سبله

و عفت شركه [۳۵۵]» و

لعل التعبير بالدعائم إشارة إلى أولياء الله ورواد سبيل الحق أو التعليمات الاصولية للأنبياء.

و قوله إنهـارت تعود إلى القضـاء على هـذه الـدعائم أو التعليمـات؛ والمعـالم ممكن أن تكون إشارة إلى الكتب السـماوية السابقـة أو التعاليم النبوية، كما أنّ المراد بالسبل والشرك طرق المعرفة سواء الطرق العقلائية والفطرية أو طريق الوحى والتعاليم السماوية.

النقطة الجديرة بالذكر هنا هى أنّ «الشرك» كما أشرنا سابقاً بمعنى الطريق الرئيسى.

فالطرق الصـغيرة قـد تكون عرضـة للاهمال والنسـيان فى حين ليس الطريق الرئيسـى كـذلك، مع ذلك ففى مثل هـذا المجتمع وحتى الطرق الرئيسية قد فقدت وزالت غايتها فى إرشاد المارة.

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى أنّ الامّة وفى ظل هذه الشرائط والأوضاع قد وقعت فى حبائل الشيطان واسلست له قيادها

«أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله [۳۵۶]».

ولم تكن نتيجة ذلك سوى ما قاله الإمام عليه السلام:

«بهم سارت [۳۵۷] اعلامه، وقام لواؤه»

. ثم قال عليه السلام:

«فى فتن داستهم [۳۵۸] باخفاقها[۳۵۹] ووطئتهم باظلافها[۳۶۰] وقامت على سنابكها[۳۶۱]».[۳۶۲]

و السؤال المطروح هنا: هل هـذه الفتن هى تلك التى أشـير لها سابقاً أم هى فتن اخرى؛ يبـدو أنّها الفتن المـذكورة آنفا، غير أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى تفاصيلها الاخرى، حيث يشبه الإمام عليه السلام

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۱۸۹

فتن الجاهلية بالحيوان الوحشى الذى يركل صاحبه بحافره. والذى يقف على رجليه ليدوس بها أدنى حركة تبدو أمامه.

أمّا تعبيره عليه السـلام بالسـنابك التى تعنى طرف الحافر فهى إشارة لطيفـة إلى حقيقـة مفادها أنّ هـذه الفتن لا تعرف الانكسار وهى باقيـة فى إلقاء ضـلالها الوخيمة على الناس (لأن مثل هذه الحيوانات حين تقف على أطراف حوافرها إنّما تعلن عن تأهبها لابداء ردود الفعل العنيفة تجاه كل من يقف أمامها».

و عليه فقـد كـانت الأوضاع فى ذلك الزمان على درجـة من التعقيـد والوخامـة بحيث لم يعـدّ هنالك من أمل فى التغلب عليها. وهـذا

بالذات ما جعل الإمام عليه السلام يخلص إلى هذه النتيجة بالنسبة لما عليه الناس فى ظل تلك الفتن

«فهم فيها تائهون ۳۶۳] حائرون جاهلون مفتونون».

تائهون إشارة إلى أنّهم قد ضلوا سبيل الحق بالمرة حتى نسوا أنفسهم وخسروا ذاتهم.

حائرون إشارة إلى الحيرة التى سيطرت عليهم فسلبتهم حتى القدرة على اتخاذ القرار الذى من شأنه إنقاذهم من تلك الفتنة. جاهلون أى أنّهم وعلى فرض عزمهم على إتخاذ القرار لنجاتهم فانّ الجهل والتخبط سوف لن يدعهم يبلغون السبيل السليم.

مفتونون إشارة إلى الأوهام والخيالات وإلّا لا عيب والحيل التى استهوتهم فجعلتهم يرون السراب ماءاً والمجاز حقيقة. وقد حصل كل هذا حين كان الناس فى خير أرض (فى جوار بيت الله الحرام وديار الأنبياء العظام) واسوأ جيران

«فى خير دار وشر جيران»[۳۶۴]

وأثر ذلك فقد أصبح

«نومهم سهود[۳۶۵] وكحلهم دموع»

. والأدهى من ذلك أنّهم يعيشون فى مجتمع لا يقيمزنا للعالم بما جعله يفقد قدرته على هدايتهم وإرشادهم بينما يخطى الجاهل فى ذلك المجتمع بمكانة لا يحلم بها

«بارض عالمها ملجم وجاهلها مكرم»

هنالك أربعة تفاسير أوردها شرّاح نهج البلاغه بشأنه قوله عليه السلام «فى خير دار» فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بها مكة (بيت اللّه

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۹۰

الحرام) (و على هذا الضوء فان العبارات المذكورة وصف لعصر الجاهلية) بينما قال البعض الآخر أريد بها الشام حيث كانت من الأراضى المقدسة ومهبط الأنبياء وأهلها شر جيران؛ أى أصحاب معاوية (إذا اعتبرنا عبارات الإمام عليه السلام واردة بشأن عصره).

الاحتمال الثالث أن يراد بقوله خيردار الكوفة التى كان يقيم فيها الإمام عليه السلام بينما كان أهلها ومن يحيط بها من شر الجيران من قبيل المنافقين والناكثين الذين لا يلتزمون بالعهود. وأخيراً الاحتمال الرابع أن يكون المراد بها دار الدنيا التى يسكنها أغلب الطالحين والاثمين ويبدو التفسير الأول هو الأنسب والأصوب حيث ينسجم والعبارات المذكورة سابقاً.

و على ضوء هذا التفسير فان قوله عليه السلام «نومهم سهود» إشارة إلى الفوضى والاضطراب وإنعدام الأمن والمصائب التى عمت عصر الجاهلية، والعلماء أولئك الصلحاء الذين تمحوروا حول رسول الله صلى الله عليه و آله والجهال أولئك المفسدون من قريش ومن لف لفهم؛ أمّا على ضوء سائر التفاسير فان المراد الفوضى وإنعدم الأمن فى زمان معاوية والمشاكل التى برزت بين العراق والشام آنذاك، وقد ألمحنا سابقاً إلى عدم انسجام هذه التفاسير وروح الخطبة.

والشاهد على ذلك إضافة لما ذكر، ما أورده إبن أَبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة حيث قال: أنّه عليه السلام لم يخرج من صفة أهل الجاهلية وقوله «فى خير دار» يعنى مكة و «شر جيران» يعنى قريشا، وهذا لفظ النبى صلى الله عليه و آله حين حكى بالمدينة حالة كانت فى مبدأ البعثة فقال

«كنت فى خير دار وشر جيران»[۳۶۶].

أمّا قوله عليه السلام

«نومهم سهود وكحلهم دموع»

فهو إشارة لطيفة إلى تفاقم الفوضى والاضطراب ومصائب ذلك الزمان بحيث إذا خلدوا ليلا إلى النوم كان نومهم مضطربا مشوبا بالخوف والرعب والسهاد، وقد إتسعت هوة الفتن بحيث إكتحلت عيونهم بالدموع التى تحرق أجفانها بدلًا من تزينها بالكحل.

و من الطبيعى وفى ظل هذه الاجواء وفى تلك الديار والمجتمعات أن يغيب دور العلماء وتهمل مكانتهم وبالمقابل يبرز الجهال الذين

كانوا يمثلون زعماء قريش وكبرائها ليحظوا

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۹۱

باحترام الآخرين وتقديرهم بعد أن قلبت الموازين وضاعت القيم.

و أخيراً فهناك إحتمال آخر أن يكون المراد بالعلماء هم ذلك النفر القليل من الموحدين قبل بعثة النبى محمد صلى الله عليه و آله من قبيل عبدالمطلب وأبوطالب وقس بن ساعدّة ولبيد بن ربيعة وأمثالهم.

صورة الحياة الميتة فى العصر الجاهلى

لقد قدم الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيرة والعميقة المضامين صورة دقيقة حية عن الأوضاع التى عاشها العرب فى العصر الجاهلى بحيث يجد كل من تأملها نفسه فى خضم ذلك العصر ليرى بأُم عينه كل تلك الفوضى والقبائح والرذائل.

فقد عكس الإمام عليه السلام عظمة مقام النبى صلى الله عليه و آله وسمو منزلته من جانب حيث تتضح شدة النور و عمق خطفه للابصار كلما كان الظلام دامسا والعتمة شديدة، الأمر الذى يكشف عن عظمة خدمات نبى الإسلام صلى الله عليه و آله ونجاعة دينه فى خلق المجتمع. ولا-غرو فان استبدال ذلك المجتمع- بالمواصفات المذكورة- إلى ذلك المجتمع الذى إلتف حول الرسول لم يكن يبدو أمراً ممكناً، وليس ذلك سوى للاعجاز والوحى وعظمة التعاليم الإسلامية التى تمكنت من انتشال ذلك المجتمع وطبعه بهذه الصفات العالية.

من جانب آخر فهى إشارة إلى تجديد الأفكار والأداب والسنن الجاهلية فى عصر النبى صلى الله عليه و آله والتى ظهرت فى عصر الخلافة الراشدة إثر انحراف الامّة عن تعاليم النبى صلى الله عليه و آله.

فالإمام عليه السلام يحذر الامّة فى زمانه من الأخطار التى تتهددها من جراء إحياء سنن الجاهلية والعادات والتقاليد البالية التى تفتك بالمجتمع. الجدير بالذكرهنا هو أنّ الإمام عليه السلام قد أورد هذه الخطبة بعد إنصرافه من صفين حيث أراد الفات نظر أصحابه إلى العناصر التى أدت إلى تلك النتيجة باسلوب بليغ يعرف ب «إياك أعنى واسمعى باجارة».

لاشك أنّ عبارات الإمام عليه السلام تستبطن الدروس والعبر التى ينبغى أن نحتذيها نحن المسلمون فى العصر الحاضر الذى يتصف بالمدينة والتطور والتقدم، فهى تحذير جدى لنا؛ فعباراته تنطبق تماما على الأوضاع التى يشهدها عصرنا الراهن حيث غاصت الامّة اليوم فى هالة من الفتن وتزعزعت عرى الإيمان واليقين واندرست سبل معرفة الحق بفعل تفاقم سعة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۹۲

حجم الدعايات المسمومة وانتشار الرذيلة والفساد وتفرق الناس أيادى سبأ وكثرت الأهواء وتعذرت طرق النجاة وقد استفحل الضلال وإنعدام الهدى واستشرت الذنوب والمعاصى وخلى الميدان للشياطين والمستكربين.

نعم لقد شهد عصر الإمام عليه السلام تلك الغفلة فعادت الامّة وأقبلت على سنن الجاهلية، والعجيب أنّ الامّة آنذاك قد خلدت إلى السبات والكسل بحيث لم يعد يؤثر فيها صراخ حتى هذا الولى الربانى وأخذوا يتهافتون على احياء سنن الجاهلية حتى آل الأمر إلى تحول الحكومة الإسلامية إلى حكومة وراثية تلاقفها بنو امية وبنوالعباس، فلم تتعثر المسيرة الإسلامية آنذاك فحسيت، بل وجهت إليها ضربات موجعة جعلتها تلعق جراحها لحد الآن! ونرى هنا ضرورة تسليط الضوء على أوضاع الناس فى العصر الجاهلى من مختلف الجوانب ودراسة ما أورده الإمام عليه السلام بهذا الشأن لنقف بوضوح على تفاصيل هذا الموضوع.

فجاهلية العرب- وهكذا الجاهلية التى كانت تعيشها سائر الأقوام- إنّما تشير إلى سلسلة من العقائد الباطلة والخرافات والأساطير والسنن الخاطئة والقبيحة المخجلة إلى أحيانا، جانب الأفعال العبثية والسلوكية العنيفة القائمة على الظلم والاضطهاد والانحرافات الفكرية من قبيل نحت الأوثان من الخشب والحجر والاعتكاف على عبادتها واللجوء إليها عند حدوث الخطوب والمصائب حيث جعلوها شفعائهم

إلى الله بعد أن اعتقدوا بقدرتها المطلقة وأنّ الخير والشر بيدها.

و لـم تقتصـر أفعـالهم الطائشـة على وأد البنـات كـدفاع عـن العرض والشـرف أو أنّهن يجلبن عليهم الخزى والعـار فحسب، بـل كـانوا يعمـدون لقتل أولادهم تحت ذرائع شتى منها تقديمهم إياهم كقرابين إلى آلهتهم أو بدافع الفقر «وَكَذ لِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المُشْـرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ»[۳۶۷] و «وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ»[۳۶۸] و «وَ إِذا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ»[۳۶۹].

نفحات الولايۀ، ج۱، ص: ۱۹۳

و لم يعيشوا أى هاجس من قلق لفظاعـۀ هـذه الجرائم، بل أبعـد من ذلك كانوا يتفاخرون بها على أنّها من العناصـر المشـرفۀ فى حياۀ الاسرۀ التى كانت تعمد لارتكاب مثل تلك الجنايات المهوولۀ.

أمّا المراسم العبادية فى البيت فلم تكن سوى المكاء والتصدية والعرى التى كانت عليه النساء حين العبادۀ وهن يطفن حول الكعبۀ «وَما كانَ صـلاتُهُمْ عِنْـدَ البَيْتِ إلّا مُكاءاً وَتَصْدِيَةً»[۳۷۰] كانوا يتفاخرون بالحروب وسـفك الـدماء والسـلب والنهب، كما لم يكونوا يقيموا أدنى وزن للمرأۀ فهى ليست سوى سلعۀ رخيصۀ فلا تتمتع بأدنى حقوق بل كانوا أحيانا يقامرون بها.

كـانوا يرون الملائكـۀ بنات الله- وكما أشـرنا سابقاً فانّهم كانوا يرون فى البنت العار والفضـيحۀ- «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البَناتِ سُـبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ»[۳۷۱] و «أَمْ خَلَقْنـا المَلائِكَـةَ إناثاً وَهُمْ شاهِـدُونَ»[۳۷۲] أمّـا على مسـتوى الخرافات والاساطير التى كانت سائـدۀ لـديهم فقد كانت عجيبۀ مذهلۀ ومنها ما وصفه القرآن الكريم «وَقالُوا ما فِى بُطُونِ هذِهِ الأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ»[۳۷۳].

إذا غضب أحـدهم على إمرأته وأراد أن يوبخها كفاه وأن يخاطبها «أنت على كظهر أمى» فهم يعتقدون أنّ هذا القول يكفى أن تحرم عليه لأنّهـا عادت كامه دون إجراء حكم الطلاق عليها، الأمر الـذى شـجبه القرآن ولم يقره: «وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللّائِى تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ»[۳۷۴]، «إِنْ أُمَّهـاتُهُمْ إِلّا اللّائِى وَلَـدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ وَزُوراً»[۳۷۵] أمّا الطابع السائد الذى كان يميز العصـر الجاهلى فانما يكمن فى شن الحروب والغارات التى

نفحات الولايۀ، ج۱، ص: ۱۹۴

تستبطن سـفك الدماء وتأجيج الأحقاد والأضـغان التى توارثتها الأقوام أبا عن جد، الأمر الذى شبهه القرآن بشفا حفرۀ من النار، فقال «وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ»[۳۷۶].

الخرافـۀ الاـخرى التى كـانت تسود فى الأذهـان هو الاعتقـاد بالرابطـۀ القائمـۀ بين نزول المطر وبزوغ واختفاء بعض الكواكب، والتفؤل بـالطيور والإيمان بالغول الصـحراوى والعفاريت وما شابه ذلك؛ الأمر الـذى عبر عنه القرآن الكريم فى أكثر من أيـۀ بالضـلال المبين. «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُـمْ يَتْلُوا عَلَيْهِـمْ آيـاتِهِ وَيُزَكِّيهِـمْ وَيُعَلِّمُهُـمُ الكِتـابَ وَالحِكْمَـةَ وَ إِنْ كـانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَـلالٍ مُبِينٍ»[۳۷۷].

نعم هـذه صورۀ مقتضـبۀ من الحالـۀ التى كـانت عليهـا العرب فى الجاهليـۀ- بـل هـذه مميزات سـائر الأقوام فى الجاهليـۀ التى تعـددت أشكالها واتفقت مضامينها.

و من هنـا يمكن الوقوف على عظمـۀ الإسـلام والقرآن وحامـل رسالتها النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله، الأمر الـذى توصل إليه أحد أعلاـم الغرب ويـدعى تومـاس كارل فى أنّ الله هـدى العرب من الظلمات إلى النور بالإسـلام ومن امّـۀ راكـدۀ متقاعسـۀ لاصوت فيها ولاحركـۀ إلى أمّـۀ ذات شـهرۀ ومن الضـعف والـوهن إلى اليقظـۀ والقوۀ، ومن الضـعۀ إلى العزۀ ومن العجز إلى القـدرۀ. فقـد شع نور الإسـلام على العالم من جهاته الأربع ولم يمضـى عليه أكثر من قرن فبلغ المسـلمون الهندالأندلس، بل اسـتطاع الإسـلام أن يبسط نوره على نصف المعمورۀ بهذه المدّۀ القصيرۀ.[۳۷۸]

نفحات الولايۀ، ج۱، ص: ۱۹۵

القسم الثالث: المنزلة السامية لآل محمد صلى الله عليه و آله

اشارة

و منها يعنى آل النبى عليه الصلاة والسلام

«هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ وَلَجَأُ أَمْرِهِ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقامَ انْحِناءَ ظَهْرِهِ، وَأَذْهَبَ ارْتِعادَ فَرائِصِهِ».

الشرح والتفسير

يصف الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة الأئمة من أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله بعبارات قصيرة عميقة المعانى، حيث يتطرق إلى مكانتهم بعد رسول الله صلى الله عليه و آله على ضوء ماورد فى الأحاديث النبوية الشريفة من قبيل حديث الثقلين وسفينة نوح والنجوم.[۳۷۹]

فقد وصفهم فى عباراته الست الاولى بقوله عليه السلام:

«هم موضع سره، ولجأ[۳۸۰] أمره، وعيبة[۳۸۱] علمه، وموئل ۳۸۲] حكمه، وكهوف ۳۸۳] كتبه وجبال دينه»[۳۸۴]

أنّ كل عبارة من هذه العبارات تشير

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۱۹۶

إلى أمر معين رغم ما ذهب إليه بعض العلماء والشرّاح من ترادف العبارات وأنّها شبيهة لبعضها البعض الآخر.

فقد أشارت العبارة الاولى إلى حقيقة مؤادها أنّ الاسرار الإلهية مودعة لديهم. وبالبداهة أن يلم بجميع الأسرار من ينهض بمسؤولية زعامة الدين؛ حيث لا- ينتظم أمرهم فى هداية الناس وتدبير شؤون حياتهم دون الانطواء على ذلك العلم، ولا سيما أنّ زعامتهم لا تختص بزمان دون آخر بل تتعلق بجميع البشرية على مدى العصور والدهور (وقد ذكرنا فى مبحث علم غيب الأنبياء والأوصياء المعصومين أنّ أحدى مقومات زعامتهم تستند إلى علمهم بالغيب وإلّا لانطوت زعامتهم على العيب والنقص).

ثم أشار فى العبارة الثانية إلى أنّهم ملجأ أمر الله. والسؤال الذى يبرز هنا هل يقتصر هذا الأمر على الأوامر التشريعية أم يشمل الأوامر التكوينية أيضا؟ يبدو من ظاهر العبارات السابقة واللاحقة أن الأوامر تقتصر على التشريعية منها حيث يجب على الامّة أن ترجع إلى أئمة العصمة فى تلقى أوامرهم وإمتثال تعاليمهم.

أمّا العبارة الثالثة فقد اعتبرتهم عليه السلام عيبة علوم الله سبحانه، ولا يقتصر ذلك على الأسرار و الأوامر، بل يشمل جميع العلوم اللازمة لهداية الناس أو ذات الصلة بهذه الهداية فهى مودعة لديهم مخزونة عندهم. وفى العبارة الرابعة يتضح أنّهم المرجع فى الأحكام الإلهية التى يجب على الامّة الرجوع إليهم فى الاختلافات على المستوى الفكرى أو القضائى ليزيلوا عنهم الفرقة والاختلاف ويهدوهم سواء الصراط.

وإذا اعتبرنا «موئل حكمه» على وزن إرم جمع حكمة فانّ فارق هذه العبارة مع العبارات السابقة سيتضح تماماً، لأنّ الكلام هنا سيكون فى فلسفة وحكمة الأحكام الإلهية التى تؤلف جزءاً من علوم الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

أمّا قوله عليه السلام «و كهوف كتبه» فيكشف اللثام عن هذه الحقيقة وهى أنّ مضامين جميع الكتب السماوية موجودة عندهم. وهذا يشبه إلى حدٍّ بعيد ما قاله على عليه السلام:

«أمّا والله لو ثنيت

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۱۹۷

لى الوسادة فجلست عليها لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم ... وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم ...».[۳۸۵]

و أخيراً فقد وصفهم عليه السلام بأنّهم جبال دينه، ولعل العبارة إشارة واضحة إلى ما أورده القرآن الكريم فى عدد من آياته الشريفة بشأن خصائص الجبال ودورها فى حفظ إستقرارونزول البركات والخيرات فقد صرّحت الآية ۱۵ من سورة النحل قائلة

«وَأَلْقى فِي الأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»

فالواقع أنّ الجبال- كما ورد فى تفسير هذه الآية وسائر الآيات المشابهة- تقوم من جانب باحتواء الضغوط المسلطة على الأرض من باطنها وظاهرها، ومن جانب آخر فهى مصادر عظيمة للأنهار والأبار وعيون الماء.

و بالتالى فهى معين لا ينضب من المعادن النفيسة القيمة. ووجه الشبه هو أنّ أئمة العصمة عليه السلام مصدر لسكينة الأفكار ورى القلوب واغناء الامّة بما يختزنونه من معادن نفيسة.[۳۸۶] ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه إثر ذكره لهذه الصفات فيقول

«بهم أقام انحناء ظهره وأذهب إرتعاد[۳۸۷] فرائصه ۳۸۸]».

أمّا انحناء الظهر فهى كناية رائعة لشدة المعضلات التى طالت الدين من من قبل الأعداء العلماء والأصدقاء الجهلاء فانبرى لها هؤلاء الكرام ليبقوا على الدين شامخاً لا يناله تحريف المحرفين ولا فتن المبطلين. والتعبير «ارتعاد الفرائص» ارتعاد اللحمة التى تغطى القلب بين الجنب والكتف وهى كناية لطيفة عن الاضطراب والاختلال الذى يطيل الدين من قبل المدارس الالحادية والانحرافات الدينية والتى يقف بوجهها أئمة الهدى فيقضوا عليها فيعيدوا للدين صبغته الحقيقة الناصعة.

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۱۹۸

تأمّلان

۱- آل النبى صلى الله عليه و آله كهف الامّة الإسلامية

ما ورد فى عباراته عليه السلام يمثل الحقائف البعيدة عن أية مبالغة والتى تشهد عليها سيرة أئمة العصمة عليه السلام ولا سيما عصر أمير المؤمنين والإمام الباقر والصادق والرضا عليه السلام وكيف وقف هؤلاء العظام بوجه المدارس المنحرفة التى ظهرت إثر إتساع رقعة الإسلام وورود الأفكار المنحرفة للمناطق الإسلامية إلى جانب الخرافات والأساطير والعقائد الفاسدة والتفاسير الخاطئة المشبوهة التى أوردها الغلاة والقلاة للنيل من الإسلام المحمدى الأصيل.

فقد أفاد التاريخ أنّهم لم يعجزوا عن جواب أي سوال، بل كانوا يجيبون بما يثلج صدر الصديق ويغيظ العدو. من جانب آخر فقد شهد رحيل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله العواصف الهوجاء التى تكاد تغرق السفينة الإسلامية لولا هذه الصفوة الطاهرة، وقد تنوعت أدوارهم واتحدت أهدافهم فتارة يذود عن الدين بما يظهر من علمه ومعرفته وتبيينه لحقائق الإسلام، واخرى بدمه الشريف إن تطلب حفظ الدين ذلك وهذا ما تمثل بحركة الإمام الحسين عليه السلام وصحبه الميامين الذين ذادوا بمهجهم دون حياض الدين وبيضة الإسلام.

و لو تأملنا الانحرافات العقائدية والأفكار العجيبة التى سطرتها كتب الملل والنحل وقارناها مع المعارف والعقائد التى حمل رايتها أئمة أهل البيت عليه السلام- ونموذج ذلك نهج البلاغة والصحيفة السجادية «زبور آل محمد»- والروايات الورادة عنهم عليه السلام فى الكتب من قبيل توحيد الصدوق والمصادر المشابهة لاتضحت لنا الحقيقة التى ذكرت سابقاً فى صفاتهم عليه السلام.

و أخيراً هؤلاء هم الذين وصفهم الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغه لكميل بن زياد فقال:

«اللّهم بلى لاـ تخلو الأـرض من قائم لله بحجة أمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته ... يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظرائهميزرعوها فى قلوب أشباههم».[۳۸۹]

وهم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه و آله:

«إنّى مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۱۹۹

بيتى وأنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفونى فيهما».[۳۹۰]

۲- من هم آل النبى صلى الله عليه و آله؟

ما يفهم ممّا مرمعنا سابقاً أنّ المراد بأهل البيت الأئمـة المعصومين عليهم السـلام؛ لا ما ذهب إليه بعض المفسـرين لنهج البلاغة من أنّ المراد بأهـل البيت أولئـك الـذين حفظوا الإسـلام على عهـد رسول الله صـلى الله عليه و آله مثل حمزة والعباس وجعفر. طبعا لا يخفى الـدور الـذى لعبه هؤلاء فى الذود عن بيضة الإسـلام، غير أن مضـمون العبارات السابقة يبدو أبعد من ذلك ولا يراد بهؤلاء سوى أئمة العصمة عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۰۱

القسم الرابع: لا يقاس بآل محمد أحد من الناس

اشارة

«زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَحَصَدُوا الثُّبورَ، لا يُقاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صـلى الله عليه و آله مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً. هُمْ أَساسُ الـدِّينِ، وَعِمادُ الْيَقِينِ إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصائِصُ حَقِّ الْوِلايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوِراثَةُ: الْآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ!».

الشرح والتفسير

يبدو أنّ الضـمائر فى العبارات الثلاث الاولى بالاسـتناد إلى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين إنصرافه من صفين- تعود إلى القاسـطين (أصـحاب معاوية) والخوارج المارقين؛ كما ذهب البعض إلى أنّها تعود إلى المنافقين، أو جميع أولئك الذين خالفوا الإمام عليه السلام وهبوا لقتاله.

على كل حال فقد شبههم عليه السلام تشبيه دقيق فقال عليه السلام:

«زرعوا الفجور[۳۹۱] وسقوه الغرور[۳۹۲] وحصدوا الثبور[۳۹۳]».

ثم يعود عليه السلام لبيان أوصاف آل محمد صلى الله عليه و آله بعبارات أكثر صراحة ووضوح ضمن إشارته- كعادته فى قلة الألفاظ وسعة المعانى- إلى منزلتهم الرفيعة وحقوقهم السلبية فيقول:

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۰۲

«لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله من هذه الامّة أحد»

ودليل ذلك لا نقاش فيه، لأنّهم وعلى ضوء صريح الحـديث النبوى الشـريف حـديث الثقلين الـذى نقلته جميع مصادر الفريقين عدل القرآن الكريم، ونعلم جميعاً أن ليس هنالك من الامّـة أحـد من قرن بالقرآن، أضف إلى ذلك فهناك الآيات القرآنية التى تؤيد هذا المعنى من قبيل آية التطهير التى تصرح بعصـمتهم وآية المباهلة التى عدت البعض منهم كنفس رسول الله صـلى الله عليه و آله وسائر

الآيات والروايات.

و بغض النظر عمّا تقدم فان علومهم ومعارفهم التى رويت عنهم هى الاخرى لايمكن مقارنتها بعلوم الناس ومعارفهم.

فهل روى الاخرون عشر معشار ما ورد فى نهج البلاغه؟ وهل هناك من يقوى على الإتيان بدعاء من أدعية الصحيفة السجادية. وما بالك فى الأحكام الشاملة الواسعة التى رويت عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام بشأن جزئيات المسائل الدينية، والمناظرات التى عقدها الإمام الرضا عليه السلام مع سائر زعماء الأديان حول مختلف المسائل العقائدية والأبواب الفقهية؟ آنذاك يتحدث عن دليل العبارة السابقة:

«و لا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا» و

أى نعمة أعظم من تلك النعمة!

فلو لا تضحيات على عليه السلام لما ذاق الاخرون طعم الإسلام. فسيرة على عليه السلام منذ ليلة المبيت ومرورا بموقعة بدر وأحد والخندق وخيبر وغزوات الإسلام كلها شواهد على المعنى المذكور و قد بلغت منزلته من السمو والرفعة بحيث قال رسول الله صلى الله عليه و آله

«ضربة على يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»

وفى عبارة اخرى

«لمبارزة على عليه السلام لعمرو بن عبدود أفضل من أعمال امّتى إلى يوم القيامة»[۳۹۴].

لقد فدى رسول الله صلى الله عليه و آله بنفسه حين بات على فراشه، وهو الذى قلع باب خيبر ودك حصونها حين عجز من سواه. وهو الذى وقف صامدا فى المواقف التى تنكص فيها الابطال وفى مقدمتها موقعة أحد حين إنفرج المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه و آله ولم يبق معه إلّاعلى بن أبى طالب عليه السلام حيث كان رسول الله صلى الله عليه و آله كلما حمل عليه العدو ناداه ردها يا بن أبى طالب.

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۲۰۳

أضف إلى ذلك سائر مواقفه المشهورة فى تاريخ الإسلام سواء فى عصر النبى صلى الله عليه و آله أو ما تلاه من العصور ودافع فيها بعلمه وعمله عن الإسلام. أمّا فى عصر الخلافة الراشدة والعصر المظلم لبنى أمية وبنى العباس لم يكن سوى هولاء الأطهار من أهل البيت عليهم السلام الذين أضاءوا تلك الظلمات بنور علمهم ومعرفتهم حتى أنقذوا المسلمين من تلك الحملات الثقافية المسعورة التى تبنت إحياء سنن الجاهلية وإطفاء السنن الإلهية ولا نرى هذا الدور خافيا على أحد رغم الجهود المضنية التى، بذلها أعدائهم لاطفاء نورهم وطمس فضائلهم.

و الطريف فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام يتحدث عن نعمة وجود أهل البيت بشكل دائمى مستمر و خالد دون اقتصارهم على عصر دون آخر، ولا غرو فثمار الشجرة الإسلامية المباركة التى نقطفها إنّما زرعها الرسول الكريم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام: «لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الامّة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا». ثم يتعرض عليه السلام إلى أمرين آخرين ينبعان من الأمر السابق فيقول:

«هم أساس الدين وعماد اليقين»

. نعم فقد نزل الوحى فى بيتهم وتربوا فى أحضانه وما عندهم من علوم ومعارف إنّما أخذوها عن رسول الله صلى الله عليه و آله ولما كانت العلوم والأسرار الإلهية مودعة لديهم فهم أئمة الإيمان ودعاة اليقين. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«إليهم يفيىء الغالى، وبهم يلحق التالى»

وكيف لا يكونوا كذلك و هم الصراط المستقيم ۳۹۵] والامّة الوسطى ۳۹۶] وعندهم المعارف الإلهية الحقة والعقائد الإسلامية

الأصيلة البعيدة عن كل إفراط وتفريط.

و لو تصفحنا تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية البعيدة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام لرأينا الانحراف العقائدى الخطير من قبيل السقوط فى حبال الجبر والتفويض والتشبيه والالحاد فى أسماء الله وصفاته، بل غالى البعض فى أسماء الله وصفاته حتى قالوا بتعطيل الصفات الإلهيةأن ليس هناك من سبيل لمعرفته سبحانه (سواء المعرفة الإجمالية أو المعرفة التفصيلة)، وبالمقابل هناك الفرق التى هبطت بالذات الإلهية المقدسة إلى الحضيض فوصفته سبحانه بأنّه رجل أمرد صبيح الوجه عليه كساء أسود ملتحف به.

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰۴

أمّا بشأن مسألة الجبر والتفويض، فقد ذهبت الجبرية- فرقة من الفرق الضالة- إلى أنّ الإنسان كائن مسلوب الإرادة والاختيار وأنّه مجبر على أفعاله المقدرة عليه على ضوء القضاء والقدر الإلهى فانّ قدر له الكفر كفر وإن قدر له الإيمان آمن.

بينما وقفت المفوضة التى رأت للإنسان استقلالا تاماً إزاء الذات الإلهية المقدسة، فاعتقدت بانّ جميع الأفعال مفوضة للإنسان، وهكذا هوت فى وادى الشرك.

بينما تبنت مدرسة أهل البيت عليهم السلام إطروحة «الأمر بين الامرين» لتنفى مسألة الجبر والتفويض وتحذر المسلمين من الإفراط والتفريط الذى يقود إلى الكفر والشرك، ومن هنا يتضح معنى كلام الإمام عليه السلام:

«إليهم يفيئى الغالى، وبهم يلحق التالى»

فالعبارة تشبيه لطيف كأن هنالك قافلة يقودها عدد من الرواد الماهرين، تقسم بعض الأفراد الذين يندفعون أكثر من غيرهم قدما فيضلون فى الصحراء، بينما يهن الآخرون ويتخلفون عن الركب فيصبحوا طعمة لذئاب الصحراء.

ثم يقول عليه السلام:

«و لهم خصائص الولاية»

. وتصدر الجمله بلهم تفيد إقتصار هذه المزية عليهم عليه السلام. وكيف لا يكونوا أصلح من الجميع وهم دعائم الدين واركان اليقين الذين يمثلون الإسلام الأصيل الذى لا يعرف الإفراط والتفريط، وهم النعمة الجارية على أفراد الامّة إلى يوم القيامة. ولذلك قال عليه السلام:

«و فيهم الوصية والوراثة».

نستنتج ممّا سبق أنّ وصية النبى صلى الله عليه و آله بهم واستخلافهم من بعده إنّما تستند لمامر معناً سابقاً، لا على أساس القرابة والنسب. ولا يخفى أنّ المراد بالوصية والوارثة هنا الخلافة والنبوة، بل حتى لو افترضنا أنّ الوراثة هنا هى وراثة علوم النبى صلى الله عليه و آله- كما ذهب إلى ذلك البعض- فانّ الأمر سيقود بالتالى إلى جدارتهم باحراز هذا المقام؛ لانّ خليفة النبى وإمام الخلق لابدّ أن يكون وارثاً لعلوم النبى صلى الله عليه و آله، وأنّ خليفته هو وصيه؛ فوراثة الأموال- كما نعلم- ليست بذات قيمة والوصية فى الامور الشخصية والاعتيادية لا تحظى بأية أهمية، ولاشك أنّ اولئك الذين سعوا جاهدين لتفسير الوصية والوراثة بمثل هذه المعانى إنّما يكشفون عن مدى تعصبهماستنادهم إلى العناد والأفكار المسبقة.

فليس هنالك من مسألة مهمّة تنسجم وقوله عليه السلام:

«أساس الدين وعماد اليقين

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰۵

وخصائص حق الولاية»

سوى مسألة خلافة رسول الله صلى الله عليه و آله. وأخيراً يخاطب عليه السلام الامّة فى زمانه وكأنّهم قد تنكروا لبعض النعم ولا يسما عودة الحق السليب

«الآن إذا رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منقله».[۳۹۷]

يتضح ممّا قيل بشأن الوصـية والوارثة أنّ المراد بالحق هنا هو الولاية والخلافة التى لا تليق سوى بأهل البيت عليهم السـلام وأنّ محلهم من الخلافة محل القطب من الرحى

تأمّلان

۱- مكانة أهل البيت فى القرآن والرويات

لقد صرّحت أغلب الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بفضل أهل البيت عليهم السلام بما لا يبقى معه مجال للشك فى سمو مكانتهم وعلو منزلتهم. فآيـة التطهير واضـحة فى طهارة أهل البيت عليهم السـلام من كل رين وعصـمتهم من كل رجس «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».[۳۹۸]

وآية المباهلة التى وصـفت نفس على عليه السـلام بأنّها نفس النبى صلى الله عليه و آله وأنّ أقرب المقربين لله ورسوله صلى الله عليه و آله والمجابين الدعوة لديه هم الزهراء والحسن والحسين عليه السلام:

«قُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ...»[۳۹۹].

وآيـة التبليغ التى اعتبرت وظيفة النبى صـلى الله عليه و آله فى إبلاغ ولاية على عليه السـلام من أخطر الوظائف وأنّ عدم الابلاغ بمثابة عـدم ابلاـغ الرسالـة: «يـا أَيُّهـا الرَّسُولُ بَلِّغْ مـا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ ...»[۴۰۰]. إلى جانب ما لا يحصـى منالآيات التى لا يسـعنا الخوض فيها فى هذه العجالة، ويضاف إلى ذلك مصادر الفريقين والتى صرّحت بتواتر وصحة الأخبار الواردة فى فضائل أهل البيت عليهم السلام.[۴۰۱]

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۰۶

أمّا الروايات الإسـلامية الورادة فى الصحاح الستة فقد نقلت من فضائل أهل البيت ومناقبهم بما لا يمكن تصوره، بل أوجز بعض علماء العامة تلك الفضائل فى عدّة مجلدات ۴۰۲]، بينما ألفت عشـرات المجلدات من علماء العامة فى جمع الروايات والأخبار الواردة بشأن فضائل أهل البيت.[۴۰۳]

غير أنّ الموسف مـا قـامت به الأيـدى الآثيمـة إبـان الحكومات الظالمـة بعـد رحيل رسول الله صـلى الله عليه و آله والتى جهـدت على طمس فضائلهم ومناقبهم لينأوا بالامّـة بعيـداً عن الخط الرسالى الأصـيل المتمثل بأهل البيت عليهم السـلام امناء الوحى وحماة العقيـدة. فاولئك الـذين صـدوا أهل البيت عليهم السـلام عن حقهم بعد رحيل رسول الله صـلى الله عليه و آله هم الذين سـعوا جاهدين لطمس فضائلهم، وأدهى من ذلك ما مارسه خلفاء بنى اميـة والعباس الـذين كموا الأفواه عن التحـدث بفضائلهم حتى عـد ذلك جرما يعاقب عليه بالسجن أو الأعدام.

و لولاـ لطف الله وعنايته لما بقيت من آثار هم شـيئاً ولا ختفت فضائلهم ومناقبهم ولا يسـعنا هنا إلّاأن نورد ما ذكره شارح نهـج البلاغه ابن أبى الحديد المعتزلى بهذا للشأن فقد قال:

فأمّا فضائله عليه السـلام؛ فانّها قد بلغت من العظم والجلالة والانتشار والاشـتهار مبلغاً يسـمح معه التعرض لذكرها، والتصدى لتفصيلها؛ فصـارت كمـا قـال أبو العينـاء لعبيـد الله بن يحيى بن خاقـان وزير المتوكل: رأيتنى فيما أتعاط من وصف فضـلك، كالمخبر عن ضوء النهـار البـاهر، والقمر الزاهر، الـذى لاـ يخفى على الناظر، فأيقنت أنى حيث إنتهى بى القول منسوب إلى الـدعاء لك، ووكلت الأخبار عنـك إلى علم النـاس بـك. ومـا أقول فى رجـل أقر له أعـداؤه وخصومه بالفضل، ولم يمكنهم جحـد مناقبه، ولا كتمان فضائله، فقد

علمت أنّه استولى بنو امية على سلطان الإسلام فى شرق الأرض وغربها، وإجتهدوا بكل حيلة فى اطفاء نوره، والتحريض عليه، ووضع المعايب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعدوا ماد حيه، بل حبسوهم‌قتلوهم، ومنعوا من رواية حديث يتضمن له فضيلة، أو يرفع له ذكراً، حتى حظروا

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۰۷

أن يسمى أحد باسمه؛ فما زاده ذلك إلّارفعة وسموا؛ وكان كالمسك كلما ستر إنتشر عرفه، وكلما كتم تضوع نشره؛ وكالشمس لا تستر بالراح، وكضوء النهار إن حجبت عنه عين واحدة، أدركته عيون كثيرة.[۴۰۴]

وقد نقل مثل هذا المعنى فى بعض المصادر، حيث صرّح الشافعى: عجبا لرجل أخفى أعداؤه فضائله حسدا وأولياؤه خوفا فظهر بين هذا وذلك ما ملئ الخافقين.[۴۰۵]

وقد روى مثل هذا المضمون أيضا عن عامر بن عبدالله بن الزبير[۴۰۶].

۲- تبريرات واهية

جدير ذكره أنّ إبن أبى الحديد حين يصل عبارة الإمام عليه السلام «الآن إذا رجع الحق إلى أهله ...» فى شرحه لنهج البلاغة يقول: لقد ذكر الإمام عليه السلام أن الحق رجع الآن إلى أهله؛ وهذا يقتضى أن يكون فيما قبل فى غير أهله، ونحن نتأول ذلك على غير ما تذكره الامامية، ونقول:

انه عليه السلام كان أولى بالأمر وأحق، لا على وجه النص، بل على وجه الأفضلية، فانّه أفضل البشر بعد رسول الله صلى الله عليه و آله، وأحق بالخلافة من جميع المسلمين، لكنه ترك حقّه لما علمه من المصلحة، وما تفرس فيه هو والمسلمون من إضطراب الإسلام، وانتشار الكلمة، لحسد العرب له وضغنهم عليه وجائز لمن كان أولى بشى فتركه ثم استرجعه أن يقول: قد رجع الأمر إلى أهله ۴۰۷].

حقاً أنّ الأحكام المسبقة هى التى تحول دون الاقرار بمفهوم هذه العبارة الواضحة، فلو أراد الإمام عليه السلام أن يقول: لم يودع الحق أهله قبل هذا والآن رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله فله أن يذهب إلى ما ذهب إليه، هذا من جانب ومن جانب آخر فاننا نعلم بأن القول: ان العرب تحسده وتكن له البغض والعداء إنّما هو قول أجوف لا أساس له. نعم كانت هذه الحالة تسود فئة قليلة ممن تبقى من أعقاب المشركين والكافرين، وبعبارة اخرى فانّ العداء كان يعيش فى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۰۸

قلوب زعماء قريش وأحبار اليهود وكبار المنافقين الذين تلقوا من الإمام عليه السلام الضربات المهلكة والموجعة فى المعارك من قبيل بدر وخيبر وحنين، بينما كانت الامّة بابنائها تحب علياً عليه السلام ولذلك ورد فى الحديث النبوى المعروف الذى نقلته المصادر الإسلامية المعتبرة أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام:

«لا يبغضك إلّامنافق»[۴۰۸].

وجاء فى صحيح الترمذى- أحد الصحاح الستة المعتمدة لدى أبناء العامة- عن أبى سعيد الخدرى قال:

«إنا كنّا لنعرف المنافقين ببغضهم على بن أبى طالب»[۴۰۹].

فهل يرضى إبن أبى الحديد أن تكون الأكثرية الساحقة من المسلمين آنذاك منافقة؟ ومن هنا نرى مدى الفرح والسرور الذى عم أوساط المسلمين حين توليه الخلافة بما لا يمكن مقارنته وسائر الخلفاء، والحال أنّ أغلب معاصريه وممن مد له يد البيعة هم من صحابة النبى صلى الله عليه و آله أو أبنائهم.

و عليه فتبريره واهى لا- يصمد إمام الحقائق والواقعيات. وأمّا قوله: إنّه كان أولى بالأمر وأحق لا-على وجه النص، فهو الآخر كلام

أجوف يجانب الحق وسنثبت بطلانه فى محله.[۴۱۰]

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۰۹

الخطبة الثالثة

اشارة

و من خطبة له عليه السلام وهى المعروفة بالشقشقية وتشتمل على الشكوى من أمر الخلافة ثم ترجيح صبره عنها ثم مبايعة الناس له.

القسم الأول

اشارة

«أَما وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَها فُلانٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّى مِنْها مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى. يَنْحَدِرُ عَنِّى السَّيْلُ وَلا يَرْقى إِلَىَّ الطَّيْرُ فَسَدَلْتُ دُونَها ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْها كَشْحاً. وَطَفِقْتُ أَرْتَئِى بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْياءَ، يَهْرَمُ فِيها الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيها الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيها مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ! فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرْتُ وَفِى الْعَيْنِ قَذًى، وَفِى الْحَلْقِ شَجًا، أَرَى تُراثِى نَهْباً».

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من أهم خطب نهج البلاغة حيث تتكفل بشرح مسألة الخلافة بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه و آله. وهنالك بعض الامور التى تضمنتها هذه الخطبة بما لم يرد شبيهها فى سائر خطب نهج البلاغة، ورغم قلة عباراتها، إلّاأنّها أوجزت عصر الخلافة الراشدة التى

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۰

نهضت بالأمر بعيد وفاة رسول الله صلى الله عليه و آله. إلى جانب ذلك هناك التحليلات الدقيقة والرائعة التى تلفت إليها إنتباه المحققين والباحثين. ونرى هنا أن نشير إلى بعض الامور قبل أن نخوض فى شرح وتفسير هذه الخطبة:

۱- اسم الخطبة: لقد اقتبس اسم الخطبة من عبارتها الأخيرة التى أطلقها الإمام عليه السلام حين قاطع أحدهم الإمام عليه السلام فتوقف، فناشده ابن عباس مواصلة الخطبة فقال له عليه السلام: «تلك شقشقة هدرت ثم قرت» وهكذا رفض عليه السلام طلب ابن عباس، حيث تغير الجو الذى كان سائداً لاطلاق الإمام عليه السلام تلك العبارات الحماسية الخطيرة، فقد قام أحد الأفراد من بين الناس وسلم الإمام عليه السلام كتابا (قيل ان فيه مسائل كان يريد الاجابة عنها) فانصرف ذهن الإمام عليه السلام إلى امور اخرى

۲- زمان صدور الخطبة: هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة بشأن زمان صدور هذه الخطبة. فيعتقد البعض- كالمحقق الخوئى- أنّ الإمام عليه السلام وبالاستناد إلى مضامين الخطبة وطرق أسنادها ورواياتها انّه أوردها أواخر عمره الشريف بعيد موقعة الجمل وصفين والنهروان حين قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ۴۱۱]. والحق أنّ مضمون الخطبة يؤيد هذا الرأى.

۳- مكان الخطبة: لقد سكت جمع من شرّاح نهج البلاغة عن مكان صدور الخطبة، بينما يعتقد البعض أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين ارتقى المنبر فى مسجد الكوفة، وقال ابن عباس:

لقد ألقى الإمام عليه السلام هذه الخطبة فى الرحبة[۴۱۲] حين وقع الكلام عن الخلافة.

۴- سند الخطبة: هناک بحث فی سند الخطبة أیضا. قال البعض: هذه الخطبة من الخطب المتواترة بینما صرّح البعض الآخر بعکس ذلک ولم ینسب هذه الخطبة لعلی علیه السلام وإنّه لم یشکو قط من الخلافة وإنّما ذلک من وضع الشریف الرضی. أمّا الشارح المعروف ابن میثم البحرانی فقد قال: الادعاء انّ المذکوران باطلان وفیهما إفراط وتفریط. فسند الخطبة لم یبلغ حد

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۲۱۱

التواتر، ولا أساس للزعم القائل أنّها من وضع الشریف الرضی، والحق آنهاصدرت من الإمام علیه السلام [۴۱۳].

و یبدو أنّ الإشکالات الواردة علی الخطبة لم تتأتی من ضعفها أو رکاکتها أو تفاوتها من حیث الاعتبار مع سائر خطب نهج البلاغة، بل بالعکس وکما سیأتی خلال البحث أنّ الخطبة تشتمل علی عدّة أسناد یتعذر وجود مثلها فی سائر بعض خطب نهج البلاغة.

أمّا السبب الوحید الذی یمکن إسناد الإشکال إلیه إنّما یکمن فی عدم إنسجام مضامین الخطبة والذهنیة السائدة لبعض الأفراد الذین ینتمون إلی عدد من الفرق والمذاهب. فهولاء وبدلًا من اتهام ذهنیتهم وبلورتها علی أساس مضمون الخطبة جهدوا فی القدح باسنادها بغیة الإبقاء علی ما یسود أذهانهم من أفکار منحرفة وعقائد باطلة. أمّا الاسناد التی ذکرت للخطبة من غیر نهج البلاغة فهی کالاتی:

أ- قال ابن الجوزی فی تذکرة الخواص: لقد أورد الإمام علی علیه السلام هذه الخطبة حین صعد المنبر جواباً لمن سأله: «ما الذی أبطأبک إلی الآن»[۴۱۴]. وهذا یدل علی أن ابن الجوزی کان یملک سندا آخر لهذه الخطبة؛ لان هذا السؤال لم یرد فی نهج البلاغة، وعلیه فقد کان له طریقا آخر.

ب- قال الشارح المعروف ابن میثم البحرانی: لقد عثرت علی هذه الخطبة فی کتابین الفا قبل ولادة الشریف الرضی:

الأول کتاب الانصاف لأبی جعفر ابن قبة تلمیذ الکعبی أحد کبار المعتزلة الذی توفی قبل ولادة الشریف الرضی. والثانی النسخة التی کتب علیها بخط أبو الحسن علی بن محمد بن فرات وزیر المقتدر بالله، وقد توفی لستین سنة ونیف قبل ولادة الشریف الرضی، ثم یضیف:

یقوی ظنی أنّ تلک النسخة کتبت منذمدة قبل ولادة ابن فرات [۴۱۵].

و قال ابن أبی الحدید: قال مصدق: وکان ابن الخشاب صاحب دعابة وهزل، قال: فقلت له: أتقول أنّها منحولة! فقال: لا والله، وإنّی لاعلم أنّها کلامه، کما أعلم أنّک مصدق.

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۲۱۲

قال: فقلت له: إنّ کثیراً من الناس یقولون أنّها من کلام الرضی رحمه الله تعالی. فقال: أنی للرضی ولغیر الرضی هذا النفس وهذا الاسلوب! قد وقفنا علی رسائل الرضی، وعرفنا طریقته وفنه فی الکلام المنثور، وما یقع مع هذا الکلام فی خل ولاخمر: ثم قال: والله لقد وقفت علی هذه الخطبة فی کتب صنفت قبل أن یخلق الرضی بمائتی سنة، ولقد وجدتها مسطورة.

بخطوط أعرفها، وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الادب قبل أن یخلق النقیب أبو أحمد والد الرضی. قلت: وقد وجدت أنا کثیراً من هذه الخطبة فی تصانیف شیخنا أبی القاسم البلخی إمام البغدادیین من المتعزلة، وکان فی دولة المقتدر قبل أن یخلق الرضی بمدة طویلة.

ووجدت کثیرا منها فی کتاب أبی جعفر بن قبة أحد متکلمی الإمامیة وهو الکتاب المشهور والمعروف بکتاب «الانصاف» وکان أبو جعفر هذا من تلامذة الشیخ أبی القاسم البخلی رحمه الله تعالی ومات فی ذلک العصر قبل أن یکون الرضی رحمه الله تعالی موجوداً[۴۱۶].

أمّا العلّامة الأمینی فقد نقل هذه الخطبة فی المجلد السابع من کتابه الغدیر علی أنّها نقلت فی ثمانیة وعشرین کتابا.

مضمون الخطبة

ذكرنـا سابقـاً أن الخطبـة تتعرض بجميع نصوصـها إلى مسألـة الخلافـة بعـد رحيل الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله والمشاكل التى أفرزهـا عصـر الخلفـاء ممن سـبقوه ثم يتطرق صـراحة إلى أحقيته بالخلافـة من الجميع معربـا عن أسـفه وابتئـاسه لخروج الخلافـة عن محورها الأصـلى الـذى خطط له الإسـلام والنبى. وأخيراً يتحـدث عن قضـية مبايعـة الامّـة والأهـداف الكامنة وراء قبول البيعة بعبارات قصيرة غاية الروعة والبيان.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢١٣

الشرح والتفسير

تحليل مهم لمسألة الخلافة

تشير الخطبة- كما ذكرنا سابقاً- إلى العواصف العنيفة والخطيرة التى هزت الامّة الإسـلامية وحرفت خلافة رسول الله صـلى الله عليه و آله بعيد وفاته عن مسارها السـليم، كما تتعرض لاصلح الأفراد وأجدرهم بالأخذ بزمام شؤون الامّة وزعامتها على ضوء المنطق والدليل والبرهـان، كمـا تعرج الخطبـة على وخامـة المعضـلات التى أفرزهـا تقاعس المسـلمين عن الالتزام بنصوص النبى صـلى الله عليه و آله الواردة بشأن زعامة المسلمين.

فقد إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بشكواه ممّا آلت إليه الخلافة فقال:

«أما والله لقد تقمصها[۴۱۷]

فلان وإنّه ليعلم أنّ محلى منها محل القطب من الرحا[۴۱۸]».

لا شك ولا إشكال فى أنّ الضمير فى «تقمصها» يعود إلى الخلافة، ولعل التعبير بالقميص إشارة إلى أمر وهو أنّ فلاناً قد استغل مسألة الخلافـة كقميص يزين به نفسه، والحال أنّ هذه الرحا تتطلب محوراً قوياً يحفظ نظامها فى الحركة ويحول دون إنحراف مسارها وتعثر بفعل المطبات التى تواجهها وتسيرها بما يضمن مصالح الإسلام والمسلمين. أجل فالخلافة ليست قميصا، بل هى رحى الجامعة، وليس للخلافة من غنى عن المحور.

هى ليست ثوباً يرتدى. ثم يستدل عليه السلام بدليل واضح على المعنى المذكور ليكشف عن مدى علمه وسمو مقامه

«ينحدر[۴۱۹] عنى السيل ولا يرقى الى الطير».

فقوله عليه السلام

«ينحدر عنّى

السيل»

يعنى رفعة منزلته عليه السلام كأنّه فى ذروة جبل أو يقاع مشرف، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان، وقوله عليه السلام

«و لا يرقى إلىّ الطير»

هـذه أعظم فى الرفعـة والعلو من التى قبلها، لان السـيل ينحـدر عن الرابيـة والهضـبة، وأمّا تعذر رقى الطير فر بما يكون للقلال الشاهقة جدا، بل ما هو أعلى من قلال الجبال، كأنه يقول: إنّى لعلو منزلتى كمن فى السماء التى يستحيل أن يرقى الطير إليها.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢١۴

والتشبيه المذكور ينسـجم وما ورد فى القرآن الكريم بشأن دور الجبال فى إسـتقرار الأرض «وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»[۴۲۰]. أجل لولا هـذه السلسـلة العظيمة من الجبال لسـلبت السـكينة والاسـتقرار من الناس بفعل الضـغوط الجوفية لباطن الأرض من جانب وتأثير جاذبية الشمس والقمر وجزر ومد القشرة الأرضية من جانب آخر وأخيراً هبوب العواصف، ولا نعـدمت الميـاه التى تنهمر من السـماء فتصب فى البحـار والمحيطـات وتشـكل مصـادر الأنهـار والأبار والعيون. فوجود الإمام المعصوم

والعالم العارف يشكل معين الخير البركة والسكينة لكل امّة.

إلى جانب كون تعبير الإمام عليه السلام يشير إلى تعذر سبر أغوار أفكار الإمام عليه السلام والوقوف على كنه شخصيته وذروة علمه ومعرفته، ولايتيسر ذلك إلّاالمعلم الإمام نبى الإسلام محمد المصطفى صلى الله عليه و آله. حتى صحابة الإمام عليه السلام كانوا ينتهلون حسب إستعدادهم من منهله العذب ويحيطوا بظاهره على قدر معرفتهم وعلمهم ۴۲۱].

النقطة الاخرى الجديرة بالذكر تكمن فى الاستفادة من الأنهار فى حركة الرحى وتنبع هذه الأنهار من الجبال كما أنّها تفصل هذه الرحى عن الجبال. ولعل العبارة المذكورة إشارة إلى هذا المعنى، أى أنا المحور والرحى والقوة المحركة المليئة بالعلم والمعرفة. وكما أشرنا آنفا فان قمم الجبال تختزن بركات السماء كحبات ثلج ثم تفيض بها على الأرض الهامدة المتعطشة للماء، ويمكن أن تكون العبارة إشارة إلى قرب الإمام عليه السلام من الوحى والاغتراف من كوثر النبى صلى الله عليه و آله.

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالسيل فى العبارة هو علم الإمام عليه السلام الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه و آله بقوله:

«أنا مدينة العلم وعلى بابها»[۴۲۲]

كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه فسر

«ماء معين»

الواردة فى الآية ۳۰ من سورة الملك «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكمْ بِماءٍ مَعِينٍ» بعلم الإمام عليه السلام ۴۲۳].

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۲۱۵

و هنا تطرح بعض الأسئلة نفسها من قبيل:

الأول: لم مدح الإمام عليه السلام نفسه والحال ورد الذم على ذلك كقوله

«تزكية المرء لنفسه قبيح»

. وللإجابة على هذا السؤال نقول: هنالك فارق بين مدح النفس والتعريف بها. فقد تكون الامّة أحيانا جاهلة بشخصية فرد؛ الأمر الذى لا يجعلها تستفيد منه ومن طاقاته كما ينبغى فالتعريف بالشخص هنا سواء من قبله أو من قبل الآخرين ليس فقط لا ضير فيه فحسب، بل هو عين الصواب والسبيل الصحيح للنجاة وهو بالضبط من قبيل تعريف الطبيب بمجال تخصصه الذى يضعه على الوصفة الطبية، الأمر الذى يهدف إلى إرشاد المرضى فى مراجعته ولا ينطوى على أى مديح للشخص.

السؤال الثانى: قوله عليه السلام:

«ينحدر عنّى السيل ولا يرقى إلىّ الطير»

هو زعم منه عليه السلام ليس أكثر فهل قام الدليل عليه؟

يبدو أنّ الإجابة على هذا هى أوضح منها على السؤال الأول؟ لان المقام العلمى الذى اختص به أمير المؤمنين على عليه السلام ليس بخاف على من له أدنى إطلاع بتأريخ الإسلام والمسلمين.

فنا هيك عن تواتر الأحاديث النبوية الجمة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه و آله فى فضل علمه وتصريحات العلماء الأعلام فى أنّه مصدر كافة العلوم والمعارف الإسلامية وزعيمها[۴۲۴]، إلى جانب تصديه لأعقد المسائل التى كان يعجز عنها من سبقه من الخلفاء فان أدنى مطالعة لرسائله‌خطبه وقصار كلماته التى جمعت فى نهج البلاغة لكافية فى الوقوف على هذه الحقيقة.

فلو تصفح كل إنسان منصفٍ- مسلما كان أم غير مسلم- نهج البلاغة لخضع متواضعا لعظمة الإمام ولعاش عملياً مفهوم قوله عليه السلام:

«ينحدر عنّى السيل ولا يرقى إلىّ الطير».

السؤال الثالث: كيف يشكو عليه السلام الحوادث المرتبطة بالخلافة بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه و آله، ألا يتنافى ذلك ومفهوم الصبر والرضا والتسليم؟

تبدو الإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة. فالصبر والرضا والتسليم موضوع، وتبيين

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢١۶

الحقائق ليدونها التاريخ ويلم بها أبناء الامّة فى الحاضر والمستقبل موضوع آخر، بحيث لايتضمن الأمر أية منافاة فحسب، بل هو من أوجب الواجبات، وما القضايا المتعلقة بالخلافة إلّانموذج حى من هذه النماذج. ففى الحقيقة والواقع أنّ مصالح المجتمع الإسلامى والاجيال الإسلامية القادمة هى التى تحتم تبيين هذه الحقائق كى لا تودع بوتقة النسيان.

ثم قال عليه السلام:

«فسدلت ۴۲۵] دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً[۴۲۶]».

تفيد هذه العبارة بوضوح أنّ رد فعل الإمام عليه السلام حيال تلك الحادثة لم يكن يتضمن الاستعداد والتاهب لخوض الصراع والاشتباك مع الآخرين، بل تجاهل بكل بسالة وزهد ذلك الأمر لاسباب سنتطرق إلى ذكرها.

ولكن من جانب آخر فان بعض الأفكار كانت تمارس ضغطها عليه لتجعله يتساءل: ما الذى ينبغى فعله تجاه هذا الانحراف الخطير وكيف ينهض بمسئوليته التاريخية بالنسبة لهذا الأمر؟ ومن هنا أردف قائلًا:

«وطفقت أرتئى بين أن أصول بيد جذاء[۴۲۷]، أو أصبر على

طخية[۴۲۸] عمياء».

فالأمام عليه السلام يكشف فى هذه العبارة عن حقيقة وهى: أننى لم أنس طرفة عين مسئوليتى تجاه الامّة والوظيفة التى وضعها الله ورسوله صلى الله عليه و آله على عاتقى، ولكن ليت شعرى ما أنا فاعل وهناك محذوران: المحذور الأول: هل أنهض بالأمر وأخوض الصراع مع الغاصبين، والحال لا أملك العدّة والعدد من جانب، ومن جانب آخر فان من شأن هذه النهضة أن تشق عصا المسلمين وتفرق صفوفهم وتثلج صدور الأعداء والمنافقين الذين يتربصون بالمسلمين مثل هذه الفرصة ليجهزوا على الإسلام.

المحذور الثانى: أنّ ألتزم الصبر والصمت حيال هذه الحادثة فى ظل هذه الأجواء الدامسة الظلام. والتعبير بالطخية العمياء ينطوى على روعة فى الدقة والبيان فالطخية تعنى الظلام،

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢١٧

وأحيانا يمكن إختراق الظلمة- إذا لم تكن شديدة- لمشاهدة شبح ما خلالها، غير أنّ هذه الظلمة من الشدة والعتمة بحيث أطلق عليها العمياء لتعذر رؤية أى شىء من خلالها. ثم يتحدث الإمام عليه السلام عن خصائص تلك الظلمة والفتنة ليوجزها فى عبارات ثلاث عميقة المعنى فيقول:

«يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح ۴۲۹] فيها مومن حتى يلقى ربه».

و يفهم من هذه العبارة أنّ المعاناة ستعم الجميع. فهى تشيب الصغير وتهرم الكبير بينما ستتضاعف معاناة المؤمنين بفعل تصاعد حدة المشاكل التى سيشهدها المجتمع الإسلامى والاخطار التى تهدد كيانه بما يجعلهم يعيشون هالة من الغم والحزن على مصير الإسلام. فلم تمض مدّة حتى تبلورت تلك الاخطار لتشهد ولادة العصر الاموى الذى تمكن خلال مدّة قياسية من القضاء على الصرح الإسلامى الذى شيده رسول الله صلى الله عليه و آله وصحبه بجهودهم المضنية ومساعيهم العظيمة.

ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته ليعلن عن موقفه تجاه القضية وعزمه على التحلى بالصبر:

«فرأيت أن الصبر على هاتا[۴۳۰] أحجى ۴۳۱]»

. ثم يصف عليه السلام طبيعة ذلك الصبر فيقول:

«فصبرت

وفى العين قذى ۴۳۲] وفى الحلق شجا».[۴۳۳]

فالعبارة صورة واضحة عن ذروة إستياء الإمام عليه السلام وتذمره فى تلك السنوات من المحنة والمصيبة، بحيث لم يكن يسعه أن يغمض عينه عن تلك الأحداث أو يفتحها، كما لم يكن يسعه أن يرفع صوته ويعلن عن مدى حرقته، وكيف لا يكون كذلك «أرى تراثى نهبا».

تأمّلات

۱- لم آثر الإمام عليه السلام الصبر؟

يشهد التاريخ أنّ المنافقين وخصوم الدعوة كانوا يتربصون بالنبى صلى الله عليه و آله ورحيله عن دار

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۸

الدنيا لتتفتت وحدة المسلمين ويتصدع كيانهم ليتمهد أمامهم السبيل من الانقضاض على الدين وأهله وبالتالى كسر شوكته والقضاء عليه؛ فلو نهض الإمام عليه السلام بالأمر فى ظل هذه الظروف من أجل نيل حقّه أو بعبارة اخرى بغية اعادة المسلمين إلى المسار الإسلامى الصحيح لعصر النبى صلى الله عليه و آله وبالالتفات إلى القرارات التى اتخذت سلفا باقصاء الإمام عليه السلام عن الخلافة فانّ قتالًا سينشب لتعم الفوضى والاضطراب فى صفوف المجتمع الإسلامى بما يمهدّ السبيل أمام المنافقين والمتربصين لنيل أطماعهم ومآربهم، والشاهد الحى على ذلك تمرد المرتدين عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه و آله الذين هبوا للوقوف بوجه الحكومة الإسلامية، ولم يكتب لهم النجاح بفعل المقاومة التى أبدتها الائمّة تجاههم.

فقد صرّحت بعض السير التاريخية بهذا المجال:

«لما توفى رسول الله صلى الله عليه و آله إرتدت العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية»[۴۳۴].

هذا كله من جانب، ومن جانب آخر فان نهوض الإمام عليه السلام بالأمر قد لا تبدو فيه بارقة أمل بالنصر بفعل غياب العدّة والعدد من أنصار الحق، ولعل قيام الإمام عليه السلام بالأمر لا يفسر من أغلب الجهال كانتصار للدين والعقيدة بل يعزوه إلى قضايا شخصية محضة.

غير أنّ الخسائر التى تكبدها المسلمون على مرور الزمان إثر انحراف مسار الخلافة عن محورها قد صورها الإمام عليه السلام بمثابة القذى فى العين والشجا فى الحلق. وهذا درس كبير لكافة المسلمين على مدى التاريخ وهو أنّ إحقاق الحق إذا استلزم توجيه ضربة إلى دعائم الدين وجب التحفظ عنه وعدم المبادرة إليه، لان حفظ الدين مقدم عى كل ماسواه، وليس هنالك من سبيل فى مثل هذه الحالة سوى التحلى بالصبر والتحمل. وقد ورد شبيه هذا المعنى فى الخطبة رقم ۶۰ حيث قال عليه السلام:

«فنظرت فاذا ليس لى معين إلّاأهل بيتى ... وأغضيت على القذى وشربت على الشجى».

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۱۹

۲- لماذا التعبير بالتراث عن الخلافة؟

لقد قال الإمام عليه السلام: «أرى تراثى نهبا» وهنا يبرز هذا السؤال: لم عبر الإمام عليه السلام عن الخلافة بالارث؟!

و تتضح الإجابة على هذا السؤال من خلال الالتفات إلى هذه النقطة وهى أنّ الخلافة إرث معنوى وإلهى ينتقل من النبى صلى الله عليه و آله إلى أوصيائه المعصومين عليه السلام فهو ليس من قبيل الارث الشخصى والمادى والحكومة الظاهرية. وقد ورد شبيه هذا المعنى فى‌الآيات القرآنية بشأن «زكريا» الذى سأل الله من يرثه ويرث آل يعقوب «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ»[۴۳۵].

و الحق أنّ هذا الارث يتعلق بجميع الامّة إلّاأنّ الإمام خليفة النبى صلى الله عليه و آله هو الذى ينهض به.

ونقرأ بشأن وراثة الكتاب السماوى: «ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا»[۴۳۶].

وعلى غرار ذلك ورد الحديث النبوى المشهور

«العلماء ورثة الأنبياء»[۴۳۷].

وشاهدنا على مامرّ معنا سيرة الإمام عليه السلام وحياته التى أفادت عدم تعلقه من قريب أو بعيد بمال الدنيا وحطامها والخلافة- إلّاأنّ ينهض بوظيفته فى إحقاق حق أو ازهاق باطل- التى لم تكن تعدل عنده عفطة عنز أو قيمة نعليه. لكن والحال هذه كيف يصف صبره على فقدان الخلافة بالقذى فى العين والشجى فى الحلق؟ لقد ذهب البعض إلى أنّ مراده بالتراث المنهوب هو فدك التى ورثها رسول الله صلى الله عليه و آله بنته الزهراء عليه السلام، وقد اعتبر ذلك أرثه لمال الزوجة بحكم مال الزوج ۴۳۸]، غير أنّ هذا الاحتمال يبدو مستبعدا لأنّ الخطبة بجميع مضامينها تعالج قضية الخلافة.

۳- الإمام عليه السلام جليس البيت

لا أحد يسعه إنكار الخسائر الفادحة التى تكبدها العالم الإسلامى إثر إقصاء على عليه السلام

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۲۲۰

وجلوسه فى داره، فلو قصرنا نظرنا على البعد العلمى حين تصفحنا لنهج البلاغة الذى يمثل جزءا من خطبه ورسائله وكلماته القصار التى أوردها خلال تلك المدّة القصيرة من حكومته رغم ما انطوت عليه من أحداث مريرة وحروب دامية، لا كتشفنا بيسر مدى العلوم والمعارف والخيرات والبركات التى كانت ستعم العالم الإسلامى بل الدنيا برمتها لولا تلك المدّة المديدة- ۲۵ سنة- التى اضطر فيها الإمام عليه السلام للجلوس فى بيته. لا شك أنّ حرمان المجتمع من فيوض الإمام عليه السلام قد جر عليها الويلات والدمار. ولكن ما العمل يا ترى وقد سلبت الأمة هذا الفيض العظيم لتبدو خسائره واضحة على مدى التأريخ.

۴- لماذا تعرض الإمام عليه السلام لقضية الخلافة؟

يتساءل البعض: ألم يكن من الأفضل أن يسدل الإمام عليه السلام الستار على الماضى ولا يتطرق إلى مسألة الخلافة؛ الأمر الذى قد يثير الفرقة والتشتت فى صفوف المسلمين ويشق وحدتهم؟

و لا عجب فاننا نرى اليوم البعض ممن يردد هذا الكلاح، فما أن تطرح قضية الخلافة وأنّ الإمام أحق بها واولى من غيره حتى تتعالى الأصوات مطالبة بالصمت ونسيان الماضى تحت ذريعة الحفاظ على الوحدة الإسلامية وأننا نواجه اليوم أعداء الإسلام والمخاطر الكبرى ومن شأن إثارة هذه الأحاديث أن تضعف المسلمين فى مجابهة أعدائهم؛ بل هل من جدوى لمثل هذه الأحاديث والحال أن أتباع كل مذهب يواصلون مسيرتهم دون الإكتراث لهذا الصوت أو ذاك، وعليه فمن المستبعد أن تلعب هذه الامور أى دور على

مستوى إخوة المسلمين ووحدتهم.

وللإجابة على هذا التساؤل لابدّ من التذكير بأمرين:

أ- إنّ الوقائع الموجودة لا يمكنها إخفاء الحقائق البتة. فهذه حقيقة قائمة وهى أنّ النبى صلى الله عليه و آله.

قد أكد فى أكثر من مناسبة على إستخلافه. فما الذى حدث لتشوه هذه الحقيقة وينصح بعدم إثارتها بعد تأكيدها من قبل النبى صلى الله عليه و آله وبناءاً على ما تقدم فانّ علياً عليه السلام الذى يتبنى الحق حيثما كان له الحق فى التصدى للوقائع القائمة التى لا تنسجم والحقيقة، فيتعرض للحقائق المرتبطة بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه و آله ليتسنى للمحققين أن يصدروا أحكامهم بهذا الشأن ولو بعد

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۲۱

قرون مديدة ليعرفوا الحق وأهله والباطل وأهله فيسلكوا سبيل الحق على ضوء دراساتهم وتحقيقاتهم. على كل حال لا يمكن منع إنسان عن بيان الحقيقة، ولو افترضنا قدرتنا على ذلك فاننا لا نمتلك الحق فى منعه، لما يتضمنه المنع من خسائر فادحة، وذلك لأن الواقع القائم غالبا ما يختلف والحقيقة وقد يبتعد عنها مسافة شاسعة. فالوضع القائم لا يعنى أبداً أن يكون هو السائد على الدوام حيث يلهمنا الإسلام أن نسعى لا قتفاء ما ينبغى أن يكون، وممّا لا شك فيه أنّ مسألة الخلافة والامامة بعد النبى صلى الله عليه و آله لمن المباحث الدينية الرئيسية؛ سواء كانت جزءاً من أصول الدين كما يعتقد بذلك أتباع مدرسة أهل البيت عليه السلام، أو جزءاً من فروع الدين. مهما كان فهى مسألة مصيرية من وجهة النظر الدينية ولا تنطوى على أية صيغة شخصية، خلافاً لما يزعمه البعض من الجهال والغافلين فهى ليست مبحثاً تأريخياً يتعلق بالماضى قد أكل عليه الدهر وشرب؛ بل هى قضية تنطوى على عدّة معطيات مؤثرة فى حاضر المسلمين ومستقبلهم، كما لا يخفى أثرها فى العديد من المسائل الإسلامية المرتبطة باصول الدين وفروعه؛ وهذا هو الأمر الذى يقف وراء إثارة الإمام عليه السلام لمسألة الخلافة كراراً ومراراً.

ب- إنّ الأبحاث العقيمة والجدل الفارغ القائم على أساس التعصب والجمود هى التى تشكل الخطر الأساس على وحدة الامّة الإسلامية وشق صفوفها؛ أمّا الأبحاث العلمية والمنطقية التى يراعى فيها أطراف الحوار والبحث الحدود والموازين العلمية والمنطقية فليست بذات خطر على الوحدة الإسلامية فحسب، بل من شأنها أن تساعد فى إرسائها وتوثيق دعائمها. طبعا هذا ليس ضربا من الخيال الفكرى بل عشناه على مستوى الواقع والتجربة.

فقد أقيمت أخيراً ندوة فى إحدى المدن بمناسبة أسبوع الوحدة حضرها كبار العلماء والمفكرين من الفريقين نوقشت خلالها أغلب القضايا الخلافية وقد تمخضت عن عدّة نتائج طيبة حيث قربت وجهات النظر وضغطت حدة الخلافات، بما جعل الجميع يوقنون بأنّ مثل هذه الأبحاث والحوارات يمكنها أن تقضى على الفجوة بين المذاهب الإسلامية وتوطيد أواصر الاخوة بما يخدم وحدة المسلمين [۴۳۹].

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۲۲

بل أبعد من ذلك أننا نرى الحوار بشأن الأديان السماوية هو الآخر من شأنه أن يتمخض عن نتائج مفيدة بما يقلل من هوة الخلاف، وليعلم أولئك الذين يقفون بوجه هذه الحوارات البناءة أنّهم يساهمون بشكل أو بآخر فى مضاعفة الخلافات وتعميق الفجوة بين الأديان والمذاهب.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۲۳

القسم الثانى: عصر الخليفة الثانى

اشارة

حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فُلانٍ بَعْدَهُ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَعْشَى:

«شَتَّانَ ما يَوْمِى عَلَى كُورِهاوَ يَوْمُ حَيَّانَ أَخِى جابِرِ

نفحات الولاية ؛ ج ۱ ؛ ص۲۲۳

فَيا عَجَباً!! بَيْنا هُوَ يَسْتَقِيلُها فِى حَياتِهِ إِذْ عَقَدَها لِآخَرَ بَعْدَ وَفاتِهِ- لَشَدَّ ما تَشَطَّرا ضَرْعَيْها- فَصَيَّرَها فِى حَوْزَةٍ خَشْناءَ يَغْلُظُ كَلْمُها، وَيَخْشُنُ مَسُّها وَيَكْثُرُ الْعِثارُ فِيها وَالاعْتِذارُ مِنْها، فَصاحِبُها كَراكِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَها خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَها تَقَحَّمَ، فَمُنِىَ النَّاسُ- لَعَمْرُ اللَّهِ- بِخَبْطٍ وَشِماسٍ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِراضٍ فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام على عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى عهد الخليفة الثانى فقال:

«حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فلان بعده».[۴۴۰]

أدلى من مادة دلو وهى تستعمل فى سحب الماء من البئر بالحبل والدلو كما تستعمل بمعنى الجائزة والاجرة والرشوة فى الحكم، فقد قال القرآن بهذا المجال: «وَتُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكّامِ»[۴۴۱].

قال ابن أبى الحديد المعتزلى: وعمر هو الذى شد بيعة أبى بكر، ورغم المخالفين فيها فكسر سيف الزبير لما جرده، ودفع فى صدر المقداد، ووطىء فى السقيفة سعد بن عبادة، وقال: اقتلوا

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۲۲۴

سعداً، قتل الله سعداً. وحطم أنف الخباب بن المنذر الذى قال يوم السقيفة: أنا جذيلها المحكك، و غذيقها المرجب.

و توعد من لجأ إلى دار فاطمة عليه السلام من الها شميين، وأخرجهم منها، ولولاه لما يثبت لأبى‌بكر أمر، ولا قامت له قائمة[۴۴۲].

و من هنا تتضح روعة تعبيره عليه السلام بأدلى ثم تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومى على كورهاويوم حيان أخى جابر[۴۴۳]

حيث أراد الإمام عليه السلام أن يقول كنت أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه و آله وأعظمهم منزلة وحرمة بل كنت نفس رسول الله صلى الله عليه و آله غير أنّهم أقصونى بعده وأخذوا يتلاقفون الخلافة التى لا تصلح إلّالى فيرمون بها لمن يشاؤون.

وذهب البعض إلى أنّه أراد أن يقارن بين خلافته- من تمثله بهذا الشعر- وخلافة من سبقوه ممن كانوا فى نعمة ورخاء بينما حفل عهده لا- بتعاده عن عصر رسول الله صلى الله عليه و آله بالويلات و المصائب «بالطبع هذا إذا كان الأعشى أراد مقارنة حاله بحال حيان».[۴۴۴]

ثم يعبّر الإمام عليه السلام عن اندهاشه وذهوله لما يحصل

«فيا عجبا!! بينا هو يستقيلها فى حياته إذ عقدها لاخر بعد وفاته».

الواقع هو أنّ هذه العبارة إشارة إلى حديث معروف نقل عن أبى بكر خاطب به الناس أوائل خلافته حيث قال:

«أقيلونى فلست بخير كم»

. ورواه البعض الآخر

«و ليتكم ولست بخيركم».[۴۴۵]

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۲۲۵

و كيفا كان مضمون الرواية فهى تشير إلى عدم رغبته بقبول الخلافة أو كما ذهب البعض لم يكن يكترث لها أو أنّه لم يكن يرى

نفسه جديراً بالخلافة مع وجود على عليه السلام، ورغم ذلك فانّ هذا الكلام لا ينسجم وما فعله أواخر عمره؛ الأمر الذى أثار دهشة الإمام عليه السلام فى كيفية تفويض الخلافة دون الرجوع إلى آراء الامّة: ثم قال عليه السلام

«لشدّ ما تشطر ضرعيها»

الضرع بمعنى الثدى وتشطرا من مادة شطر بمعنى جزء من الشىء.

فالعبارة تشبيه رائع بالنسبة للافراد الذى يستفيدون من شىء على وجه التناوب فالمراد بتشطر ضرعيها: إنّهما إقتسما فائدتها ونفعها، والضمير للخلافة، وسمى القادمين معاً ضرعاً وسمى الآخرين معاً ضرعا لما كان لتجاورهما، ولكونها لا يحلبان إلّامعاً، كشىء واحد فالعبارة بصورة عامة تشير إلى مشروع معد ومبرمج مسبقاً ولم يكن من قبيل الصدفة أبداً.

إجابة على إستفسار

لقد قال البعض بأنّ أبابكر قال: أقيلونى فلست بخيركم، وقد ورد مثل هذا الكلام عن على عليه السلام فى نهج البلاغة بعد مقتل عثمان حيث قال:

«دعونى والتمسوا غيرى ... وان تركتمونى فأنا كأحدكم ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خيراً لكم منى أميراً»

فما تقولون؟

للرد على ذلك نقول لابن أبى الحديد كلام بهذا الشأن ولنا كلام، فقد قال ابن أبى الحديد:

قالت الإمامية هذا غير لازم والفرق بين الموضعين ظاهر لأنّ علياً عليه السلام لم يقل: إنّى لا أصلح، ولكنه كره الفتنة، وأبوبكر قال كلاماً معناه: إنّى لا أصلح لها، لقوله

«لست بخيركم»

، ومن نفى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۲۶

عن نفسه صلاحيته للإمامة، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره- واعلم أنّ الكلام فى هذا الموضع مبنى على أن الأفضلية هل هى شرط فى الإمامة أم لا؟ (فى إشارة إلى أنّه يمكن القول بعدم اشتراط الأفضلية فى الإمامة؛ الكلام الذى لا يقره أى منطق وعقل ولا يدعو سوىالخجل»[۴۴۶].

إلّا أنّنا نرى القضية أعمق من ذلك. فلو تأملنا الخطبة رقم ۹۲ التى استدلوا بها والتفتنا إلى بعض عباراتها التى لم يستشهد بها عند الاستدلال لا تضح لنا تماماً مراد الإمام عليه السلام. فقد صرّح ضمن الخطبة المذكورة قائلًا:

«فأنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول»

(إشارة إلى مدى التغييرات التى طالت الأحكام الشرعية والتعاليم النبوية، عليه فلابدّ لى من القيام ببعض الإصلاحات الثورية والتى ستودى لاعتراض البعضى منكم وبالتالى نشوب المواجهة).

ثم أضاف عليه السلام:

«و ان الافاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت»

، ثم يشير عليه السلام إلى كبد الحقيقة فيقول:

«و اعلموا أنّى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب».

أمّا الشاهد على أنّ الإمام عليه السلام يرى وجوب الأفضلية كشرط فى الخلافة ما أورده عليه السلام فى الخطبة ۱۷۳ من نهج البلاغة

إذ قال عليه السلام:

«أيّها الناس إنّ أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه و أعلمهم بأمر الله فيه».[۴۴۷]

ونخلص ممّا سبق إلى أنّ المقارنة بين كلام الإمام على عليه السلام وأبى بكر هو «قياس مع الفارق» لانعدام أى تشابه بين الكلامين.

و نختتم هذا الكلام بما أورده إبن أبى الحديد حين حاول تبرير حديث الخليفة الأول حيث قال: واحتج بذلك من لم يشترط الأفضلية فى الإمامة.

و من رواها إعتذر لأبى بكر فقال: إنّما قال: أقيلونى، ليثور ما فى نفوس الناس من بيعته، ويخبر ما عندهم من ولايته، فيعلم مريدهم وكارههم، ومحبهم ومبغضهم. فلما رأى النفوس إليه ساكنة، والقلوب لبيعته مذعنة، استمر على امارته، وحكم حكم الخلفاء فى رعيته، ولم

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۲۷

يكن منكراً منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته ۴۴۸].

و لا يخفى على أحد خواء هده التبريرات، لأنّ إعتراف كل فرد ينبغى أن يحمل على معناه الواقعى، وصرف اللفظ عن معناه الحقيقى إنّما يحتاج إلى قرينة ليست متوفرة هنا. بعبارة اخرى إنّ هذا الاعتراف قانونى يؤخذ به فى كل محكمة وليس من عذر لهذا الاعتراف فهو إقرار جائز عقلائياً.

ثم يصف الإمام عليه السلام شخصية الخليفة الثانى وما انطوت عليه من خصائص ومميزات فقال عليه السلام:

«فصيرها فى حوزة[۴۴۹] خشناء يغلظ كلمها[۴۵۰] ويخشن مسها ويكثر العثار[۴۵۱]

فيها، الاعتذار منها»

المراد بالحوزة هنا أخلاق الخليفة الثانى وصفاته فالواقع قد ذكر له أربعة صفات، الاولى خشونته وعنفه التى عبر عنها بقوله

«يغلظ كلمها»

فى إشارة إلى الجروح الروحية والجسمية التى يفرزها الاصطدام به. الصفة الثانية الشدة فى التعامل

«و يخشن مسها»

وعليه فالحوزة الخشناء قد فسرت بالعبارتين اللاحقتين التين أشارتا إلى العنف فى الكلام والعنف فى المعاملة. الصفة الثالثة هى كثرة الأخطاء والرابعة الاعتذار من تلك الأخطاء

«و يكثر العثار فيها الاعتذار منها».

أمّا بشأن كثرة أخطاء الخليفة الثانى ولا سيما أخطائه فى بيان الأحكام واقراره بتلك الأخطاء والاعتذار منها والعنف فى المعاملة فقد حفلت بها السير التاريخية بل أفرد لها علماء العامة عدداً من الكتب وسنكتفى لاحقا بالإشارة إلى نماذج منها.

ثم قال عليه السلام:

«فصاحبها كراكب الصعبة[۴۵۲] إن أشنق ۴۵۳] لها خرم ۴۵۴] وإن أسلس ۴۵۵] لها تقحم ۴۵۶]».

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۲۸

فالإمام عليه السلام يشرح بهذه العبارة حاله وحال فريق من المؤمنين على عهد خلافة الخليفة الثانى، بحيث إذا أراد أحدهم أن يصطدم بالخليفة- واستناداً إلى صفاته المذكورة سابقاً- فقد يؤدى ذلك إلى بروز الاختلافات والمشاجرات بين أوساط المسلمين أو الاخطار التى سيتعرض إليها من جانب الخليفة، وان فضل الصمت برزت الاخطار التى تهدد الكيان الإسلامى والخلافة الإسلامية، فالواقع هناك خطران لا ينفصلان: خطر الاصطدام بالخليفةخطر فقدان المصالح الإسلامية ولهذا يشكو الإمام عليه السلام ما ألم به وبالمومنين آنذاكيعرض للمشاكل المتفاقمة التى أصابت المسلمين.

كما إحتمل بعضى شرّاح نهج البلاغة أنّ الضمير فى (صاحبها) يعود إلى مطلق الخلافة؛ أى أنّ طبيعة الخلافة تختزن دائما أحد هذين الخطرين، فلو أراد الحاكم- الخليفة- أن يتعامل بخرم مع كل شىء كانت هنالك ردود الفعل الحادة والعنيفة، ولو أراد التعامل على أساس الرفق واللين برز خطر السقوط فى وادى الانحراف والخطا وزوال القيم الإسلامية. لكن تشير القرائن إلّاأنّ المعنى الأول هو المراد بالعبارة وهذا ما يتضح بجلاء من خلال التأمل فى العبارات اللاحقة[۴۵۷]. ثم قال عليه السلام:

«فمنى ۴۵۸] الناس لعمر الله بخبط[۴۵۹] وشماس ۴۶۰] وتلون ۴۶۱] و

اعتراض ۴۶۲]».

فقد تضمنت العبارة إشارة إلى أربع ظواهر نفسية لُلامّة فى عهد الخليفة الثانى كأنّها تقتبس من رئيس الحكومة، لانّ لسلوك الحاكم إنعكاس واسع على نفوس أبناء الامّة وقد قيل سابقاً

«الناس على دين ملوكهم».

الاولى: أنّ أنشطتهم وقراراتهم الطائشة سبب ظهور الفوضى فى المجتمع.

الثانية: أنّهم خارجون على القوانين الشرعية والنظم الاجتماعية.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۲۹

الثالثة: التلون المستمر وركوب الموجة والتخبط والانسلاخ من فئة والالتحاق باخرى وعدم امتلاك الهدف المعين فى الحياة.

الرابعة: الانحراف عن مسار الحق والسير على سبيل غير الهدى

و ممّا لا شك فيه- وكما سنتعرض إلى ذلك بالتفصيل لاحقا- أنّ السياسة الخارجية فى عصر الخليفة الثانى والفتوحات الإسلامية والامتداد خارج الحجاز قد خلقت ذهنية للناس بشأن شكل الحكومة فى أنّها موفقة على جميع الأصعدة فيقل إهتمامهم بالمشاكل الداخلية التى يعانى منها المجتمع الإسلامى، والحال كما أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات أنّ طائفة من المسلمين قد شهدت حالة من التخبط على مستوى العقائد والعمل والقضايا الأخلاقية والابتعاد تدريجياً عن الإسلام الأصيل بفعل الأخطاء والاجتهادات فى مقابل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية؛ الأمر الذى أدى فى خاتمة المطاف إلى تلك الثورة العارمة على الخليفة الثالث وبما مهد السبيل أمام ظهور الحكومة الاستبدادية فى العصر الأُموى والعباسى التى تفتقر لادنى شبه بالحكومة الإسلامية على عهد النبى صلى الله عليه و آله.

والمفروغ منه أنّ هذه الحالة العشوائية لم تكن وليدة ساعتها، بل ظهرت إثر تصاعد حدة الأخطاء المتواصلة طيلة عصر الخلافة. ثم قال الإمام عليه السلام:

«فصبرت على طول المدة، وشدة المحنة».

فقد عانى عليه السلام من ذات الظروف والتحمل التى كانت أبان عهد الخليفة الأول، غير أنّ المحنة التى عاناها الإمام عليه السلام كانت أشد وأعظم بفعل تلك الظروف الاقهر والمدة الأطول.

قال بعض شرّاح نهج البلاغة إنّ الإمام عليه السلام أشار إلى قضيتين كان لهما الأثر البالغ فى إستياء الإمام عليه السلام: الاولى ازدياد مدّة الابتعاد عن محور الخلافة، والثانية الاستياء والتذمر الذى أفرزته ظاهرة انشقاق الخلافة عن مسارها الأصلى فى عدم سيادة النظم الصحيحة بالنسبة لشؤون الناس الدينية. لكن على كل حال فقد كانت هناك المصالح المهمّة التى تتطلب سكوت الإمام عليه السلام والتضحية بالامور الثانوية من أجل الأهداف الاسمى فقد استمر هذا الوضع حتى إنتهى عصر الخليفة الثانى.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۳۰

تأمّلات

١– نماذج الفضاضة الأخلاقية على عهد الخليفة الثانى

لقد الفت عدّة كتب– سواء كتب الحديث والتاريخ– من قبل علماء العامة بشأن الخليفة الثانى ولا سيما إبان خلافته التى تكشف عن مدى دقة عبارات الإمام عليه السلام فى وصف خصائصه. و ممّا لا شك فيه أنّ خروقاته فى هذا المجال كثيرة نكتفى ببعضى نماذجها:

١– روى المرحوم العلّامة الأمينى فى المجلد السادس من كتاب الغدير عن مصادر العامة المعروفة من قبيل سنن الدارمى وتأريخ ابن عساكر وتفسير ابن كثير واتقان السيوطى والدر المنثور وفتح البارىء عدّة قصص مروعة بشأن الخليفة الثانى والرجل الذى يدعى «صبيغ العراقى». فالذى تفيده السير التاريخية أنّه كان رجل بحاثة كثيرا ما يسأل عن الآيات القرآنية، غير أنّ عمر كان يجابهه بكل عنف بما يدعو للدهشة والعجب ومن ذلك.

فعن سلمان بن يسار إنّ رجلًا يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل فقال: من أنت؟ قال أنا عبدالله صبيغ: فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه وقال: أنا عبدالله عمر. فجعل له ضرباً حتى دمى رأسه فقال: يا أميرالمؤمنين حسبك قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى. وعن نافع مولى عبدالله: إنّ صبيغ العراقى جعل يسأل عن أشياء من القرآن فى أجناد المسلمين حتى قدم مصر فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه قال: أين الرجل فقال: فى الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب فتصيبك منى العقوبة الموجعة. فأتاه به فقال عمر: تسأل محدثة؟ فارسل عمر إلى رطائب من جريد فضربه بها حتى ترك ظهره دبرة، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ فدعا به ليعود له قال: صبيغ إن كنت تريد قتلى فقتلنى قتلًا جميلًا، وإن كنت تريد أن تداوينى فقد والله برئت، فأذن له إلى أرضه وكتب إلى أبى موسى الأشعرى، أن لا يجالسه أحد من المسلمين، فاشتد ذلك على الرجل فكتب أبوموسى إلى عمر: أن قد حسنت توبته، فكتب عمر: أن يأذن الناس بمجالسته. وعن السائب بن يزيد قال: أتى عمر بن الخطاب فقيل: يا أميرالمؤمنين! إنا لقينا رجلًا يسأل عن تأويل مشكل القرآن. فقال عمر: اللّهم مكنى منه، فبينما عمر ذات يوم جالساً يغدى الناس إذ جاء

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٣١

الرجل وعليه ثياب وعمامة صفدى حتى إذا فرغ قال: يا اميرالمؤمنين والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فقال عمر أنت هو؟ فقام إليه وحسر عن ذراعيه فلم يزل يجلده حتى سقطت عمامته فقال: والذى نفس عمر بيده لو وجدتك محلوقاً لضربت رأسك ألبسوه ثياباً واحملوه على قتب وأخرجوه حتى تقدموا به بلاده ثم ليقم خطيب ثم يقول: إن صبيغاً ابتغى العلم فأخطأ فلم يزل وضيعاً فى قومه حتى هلك وكان سيد قومه.[۴۶۳] وأول من ضرب عمر بالدّرة أم فروة بنت أبى قحافة، مات أبوبكر فناح النساء عليه، وفيهنّ أخته أم فروة، فنهاهنّ عمر مراراً، وهنّ يعاودن، فأخرج أمّ فروة من بينهن، وعلاها بالدّرة، فهربن وتفرّقن.

كان يقال: درّة عمر أهيب من سيف الحجاج. وفى الصحيح أنّ نسوةً كنّ عند رسول الله صلى الله عليه و آله قد كثر لغطهنَّ، فجاء عمر فهربْنَ هيبة له، فقال لهنّ: يا عُديّات أنفسهن! أتَهبْنَنى ولا تهبنَ رسول الله! قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ.[۴۶۴]

٢– العثار والاعتذار

قال ابن أبى الحديد: ومرّ يوماً بشابّ من فتيان الأنصار وهو ظمآن، فاستسقاه، فجدع له ماء بعسل فلم يشربه، وقال: إنّ الله تعالى يقول: «أَذهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِى حَياتِكُمُ الدُّنْيا»

فقال له الفتى: يا أمير المؤمنين، إنّها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة، اقرأ ما قبلها:

«وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلى النّارِ أَذهَبْتُمْ طَيِّباتِكَمْ فِی حَياتِكَمُ الدُّنْيا»

فقال عمر: كلّ الناس أفقه من عمر!

وقيل: إنّ عمر كان يعس بالليل، فسمع صوت رجل وامرأة فی بيت، فارتاب فتسوّر الحائط، فوجد امرأة ورجلًا، وعندهما زقّ خمر، فقال: يا عدوّ الله، أكنت‌ترى أنّ اللّه يسترک وأنت على معصيته! قال: يا أميرالمؤمنين، إن كنت أخطأت فی واحدة فقط أخطأت فی ثلاث، قال اللّه تعالى: «ولا تَجَسَّسوا»، وقد تجسَّت. وقال: «وأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها»، وقد تسوّرت، وقال: «فإذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا»، وما سلّمت![۴۶۵]

نفحات الولايهٔ، ج ۱، ص: ۲۳۲

وأخرج الحافظان الدراقطنی وابن عساكر: إن رجلين أتيا عمر بن الخطاب وسألاه عن طلاق الامّهٔ فقام معهما فمش حتى أتى حلقهٔ فی المسجد فيها رجل أصلع فقال: أيّها الأصلع! ما ترى فی طلاق الامّهٔ؟ فرفع إليه رأسه ثم أومیء إليه بالسبابهٔ والوسطى فقال لهما عمر: تطليقتان، فقال أحدهما: سبحان الله جئناک وأنت أميرالمؤمنين فمشيت معنا حتى وقفت على هذا الرجل فسألته فرضيت منه أن أومیء إليک، وأتى عمر بن الخطاب بامرأهٔ حامل قد اعترفت بالفجور فأمر برجمها فتلقاها على فقال: ما بال هذه؟ فقالوا: أمر عمر برجمها فردها على وقال: قد كان ذلک. قال أو ما سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله قال: لاحد على معترف بعد بلاء، أنّه من قيد أو حبس أو تهدد فلا- إقرار له، فخلا- سبيلها ثم قال: عجزت النساء أن تلدن مثل على بن أبی طالب، لولا على لهلک عمر. وأخرج ابن مبارک قال: حدثنا الأشعث عن الشعبی عن مسروق قال: بلغ عمر أنّ امرأهٔ من قريش تزوجها رجل من ثقيف فی عدّتها فأرسل إليهما ففرق بينهما وعاقبهما وقال: لا ينكحها أبداً وجعل الصداق فی بيت المال وفشا ذلک بين الناس فبلغ علياً كرم الله وجهه فقال: ما بال الصداق وبيت المال؟ إنّهما جهلا فينبغی للإمام أن يردهما إلى السنهٔ قيل: فما تقول أنت فيها؟ قال لها الصداق بما استحل من فرجها، ويفرق بينهما، ولا جلد عليهما، وتكمل عدّتها من الأول ثم تكمل العدّهٔ من الآخر، ثم يكون خاطباً. فبلغ ذلک عمر فقال: يا أيّها الناس ردوا الجهالات إلى السنهٔ.[۴۶۶]

۳– رد على سوال

لعل الصورهٔ التی رسمها الإمام عليه السلام فی الخطبهٔ عن مشاكل المسلمين والفوضى التی سادتهم على عهد الخليفهٔ الثانی تتنافى والذهنيهٔ السائدهٔ لدى البعض فی أن عهده كان مشرقاً حافلًا بالانتصارات والمكتسبات؛ الأمر الذی يثير السؤال الآتی: كيف يمكن التوفيق بين تلک الصورهٔ والوقائع التی عكسها التاريخ الإسلامی؟

و الالتفات إلى هذه القضيهٔ من شأنه أن يقدم الجواب الشافی لهذا السؤال، فما لا شک فيه–

نفحات الولايهٔ، ج ۱، ص: ۲۳۳

كما أشرنا سابقاً أنّ عهد الخليفهٔ الثانی كان عصر الانتصارات والفتوحات على صعيد السياسهٔ الخارجيهٔ للبلاد؛ لانّ المسلمين وعلى ضوء التعاليم الإسلاميهٔ والآيات القرآنيهٔ التی تدعو إلى الجهاد قد مارسوا هذه الفريضهٔ بشكل واسع بحيث لم تمض مدّهٔ حتى حققوا الفتوحات الإسلاميهٔ الباهرهٔ خارج البلاد الإسلاميهٔ فتم لهم نيل ما لا يحصى من الغنائم الماديهٔ، الأمر الذی جعل هذه الفتوحات تغطی على ضعف الجبههٔ الداخليهٔ والفوضى التی كانت سائدهٔ آنذاک، وهو المعنى الذی نلمسه اليوم بوضوح فی السياسهٔ المتبعهٔ فی العصر الراهن، فقد يؤدی الانتصار الذی تحرزه الدولهٔ على صعيد السياسهٔ الخارجيهٔ إلى التغطيهٔ على كل شیء ولا- سيما المشاكل والمعضلات التی تعيشها على مستوى الداخل، ومن هنا نرى ساسهٔ الاستكبار الذين يحاولون التغطيهٔ على مشاكلهم الداخليهٔ باخماد فورتها من خلال اللجوء إلى عدّهٔ أنشطهٔ– بما فيها شن الحروب– خارجيهٔ.

وزبـدة الكلام فانّ الإمام عليه السـلام إنّما تحـدث عن مدى العنف والاضـطهاد والأخطاء الفادحة وسـعة حجم المشاكل الداخلية إبان عهد الخليفة الثانى؛ الأمر الذى تم التعامل معه بمعزل عن مسألة الفتوحات.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۳۵

القسم الثالث: عصر الخليفة الثالث

اشارة

«حَتَّى إذا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهـا فِى جَماعَةٍ زَعَمَ أَنِّى أَحِـدُهُمْ فَيا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظائِرِ لَكِنِّى أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طارُوا: فَصَغا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هَنٍ وَهَنٍ، إِلَى أَنْ قامَ ثالِثُ الْقَوْمِ نافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وَقامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السـلام- فى هذا القسم من خطبته- إلى انتهاء عصر الخليفة الثانى والأحداث التى مهدت السبيل أمام عثمان للاستيلاء على الخلافة بعد أن أماط اللثام عن التفاصـيل التاريخية والأسـرار التى إنطوت عليها هذه القضية ويعلن موقفه من ذلك، ثم عرج على المشاكل والفتن التى عاشـتها الامّـة الإسـلامية على عهـد عثمان والانتفاضة الشـعبية العارمة التى أدت إلى قتله بعبارات مقتضـبة عميقة المعنى من خلال الكنايات والاستعارات والتشبيهات البلاغية الرائعة التى طبعت كلماته وخطبه عليه السلام.

فقد قال عليه السلام:

«حتى إذا مضى لسبيله جعلها فى جماعة زعم أنى أحدهم».

و لعل قوله عليه السلام

«زعم أنى أحدهم»

تشـير إلى معنيين: الأـول: أنّه جعلنى ظاهريـاً أحـد أعضـاء هـذه الشورى بينما كان يعلم باطنياً بالنتيجـة التى سـتتمخض عنها ومن يفوز بالأمر.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۳۶

الثانى: أنّه أراد أن يجعلنى ظاهرياً فى مصاف هؤلاء الخمسة، والحال كان يعلم باطنياً عدم إمكانية مقارنتى بأى منهم [۴۶۷].

و العبـارة تشـير إلى الزمان الـذى جرح فيه عمر جرحاً بليغاً من قبل ذلك الرجل الـذى يـدعى فيروز والمكنى بأبى لؤلؤة بعـد أن رأى نفسه على فراش الموت. فقـد حضـره جمع من الصـحابة وأشاروا عليه باسـتخلاف من يرضاه، فما كان منه إلّاأن خطب خطبة- سنشـير إلى مضامينها لاحقاً- واقترح الشورى وهم:

على عليه السـلام وعثمان وعبـدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسـعد بن أبى وقاص، على أن يجتمعوا لثلاثة أيام ويختاروا من بينهم الخليفة، فاجتمعوا لتتمخض نتيجة الاجتماع عن إختيار عثمان.

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذه الشورى قائلًا:

«فيالله وللشورى»[۴۶۸]

، ثم يتطرق عليه السـلام إلى اولى نقـاط ضـعف هـذه الشورى وهى أنّه متى كـان هنـاك من شك وترديـد فى أرجحيته على الخليفة

الأول فضلا عن إقترانه بهذه النظائر

«متى اعترض الريب فى مع الأول منهم حتى صرت اقرن إلى هذه النظائر»

. فالعبارة تكشف عن قمة أسى الإمام عليه السلام على هضم الحقوق الذى تعرض له، ويشير إلى حقيقة وهى أنّهم ينبغى أن يختارونى لو أخذوا بنظر الاعتبار استحقاق الخلافة والجدارة والأحقية بها.

غير أنّ المؤسف له أنّه كـانت هناك أهـداف اخرى أدت إلى جعل من كان بمنزلـة رسول الله صـلى الله عليه و آله وباب مدينـة علمه والعالم بالكتاب والسـنة والعارف بأسـرار المسائل الإسـلامية وبطل التوحيـد الذى تربى فى حجر النبى صـلى الله عليه و آله فى مصاف عبدالرحمن بن عوف وسعد بن وقاص وامثالهما.

ثم أضاف عليه السلام:

«لكنى اسففت إذ أسفوا وطرت إذ طاروا»[۴۶۹]

فالواقع هذه كناية بشأن

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۳۷

الطيور التى تطير عى هيئـة اسـراب فتحلق أحيانـا وتنخفـض اخرى إلى الأـرض وفى الحركتين تكون معـاً. ومن الواضـح أنّ الأوضـاع المزرية فى زمان الخلفاء- لا سـيما إذا ابعد الخليفة وأقصـى- تتطلب الابتعاد عن كافة أشـكال الفرقة والتشـتت حذراً من إستغلالها من قبـل خصوم الـدعوة والتـأهب للاجهاض عليها. هنالك إحتمال آخر أيضا بشأن تفسـير هـذه العبارة فى أنّ مراده منها: أنى أدور حيث مدار الحق والهث خلفه لكنى طلبت الأمر وهو موسوم بالاصاغر منهم، كما طلبته أولًا وهو موسوم بأكابرهم، أى هو حقى فلا أستنكف من طلبه، إن كان المنازغ فيه جليل القدر أو صـغير المنزلة ثم أشار عليه السلام إلى نتيجة تلك الشورى وأعمالها المريبة حيث تحرك أحدهم بدافع من حقده وضغينته بينما إندفع الآخر بوحى من قرابته ونسبه لينتهى الأمر إلى عثمان:

«فصغا[۴۷۰] رجل منهم لضغنه ۴۷۱] ومال الآخر لصهره، مع

هن ۴۷۲] وهن».

فقد قصد الإمام عليه السلام بالعبارة الاولى «سعد بن أبى وقاص» الذى كان ينتمى من طرف أمه إلى بنى أمية وقد قتل أخواله وأقربائه على يـد على عليه السـلام فى المعارك الإسـلامية ضـد الكفر والشـرك، ولـذلك لم يكن مسـتعداً لمبايعة على عليه السـلام حتى فى خلافته.

و عمر بن سـعد ذلك المجرم الجبار الـذى قتل الحسـين عليه السـلام وصـحبة فى كربلاء هو ابنه. وعليه فقـد كانت ضـغينته لعلى عليه السـلام أشـهر من نار على علم وهى التى جعلته لا يصوت لصالـح الإمام عليه السـلام، وهـذا ما أدى إلى فوز عثمان بعد أن منحه رأيه بواسطة عبدالرحمن بن عوف. وقال البعض المراد به «طلحة» المفروغ من كراهيته للإمام عليه السلام وهو الذى أشعل إلى جانب الزبير حرب الجمل التى أدت حسب قول المؤرخين إلى قتل سبعة عشر ألف.

و قـد قوى هـذا الاحتمال ابن أبى الحديد، بينما يرى بعض شـرّاح نهج البلاغة أنّ طلحة وإن رشح للشورى من قبل عمر إلّاأنّه لم يكن فى المدينة ولم يوفق لحضور جلسة الشورى ۴۷۳].

أمّا الفرد الذى مال إلى صهره فهو عبدالرحمن بن عوف زوج ام كلثوم بنت عثمان.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۳۸

وقوله عليه السلام:

«مع هن وهن»[۴۷۴]

، استنادا إلى أنّ المفردة «هن» كنايـة عن أعمـال قبيحـة يكره ذكرهـا، فالعبارة يمكن أن تكون إشارة إلى الاغراض الاخرى التى كان

يطمع بها عبدالرحمن بن عوف من خلال تصويته لصالح عثمان من قبيل مد إليه إلى بيت مال المسلمين أو التسلط على الناس أو الاستيلاء على الخلافة بعد عثمان أو جميع هذه الامور. فالذى نستفيده من هذا الكلام أنّ الشورى قد عقدت فى أجواء متوترة، والشئ المغيب فيها إنّما كان المصالح الإسلامية، وعليه فمن الطبيعى الأتؤدى لضمان مصالح المسلمين، وقد أثبتت الحوادث التى وقعت على عهد عثمان مدى الخسائر الفادحة التى تكبدها المسلمون.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى النتيجة النهائية للشورى فقال:

«إلى أن قام ثالث القوم نافجا[۴۷۵]

حضنيه ۴۷۶] بين نثيله ۴۷۷] ومعتلفه ۴۷۸]»

. ولم يقتصر هذا الأمر على عثمان بل سار معه فى هذا النهج قرابته وبطانته

«و قام معه بنو أبيه يخضمون ۴۷۹] مال الله خضمة الابل نبتة الربيع».

أمّا التعبير بنبتة الربيع للإشارة إلى أنّها نبتة سائغة وطعمة سهلة للحيوان فيتنا ولها بكل شره ووله. والعبارة

«يخضمون مال الله ...»

- وبالالتفات إلى المعنى اللغوى لخضم- تفيد أنّ بنى امية قد اقتحمت الميدان بكل ثقلها لتنهب بيت المال فتبتلع منه ما شاءت. وقال ابن أبى الحديد لقد سلط الخليفة الثالث- عثمان- بنى امية على رقاب الناس وأغدق عليهم الأموال فقد أعطى عبد الله بن خالد أربعمأة ألف درهم، وأعطى عبدالله بن أبى سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح افريقية بالمغرب، وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال، واعطى الحارث بن الحكم- زوج بنت، عائشة- مائة ألف من بيت المال، واعطى طلحه ثلاثمأة واثنين وعشرين ألف، والزبير خمسمأة وثمانية وتسعين دينارا، حتى بلغ ما أغدقه من

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۲۳۹

بيت المال مئة وستة وعشرين مليون وسبعمأة دينار.

و الأعجب من ذلك الدنانير التى أغدقها على بنى أمية فقد منح مروان بن الحكم خمسمأة الف دينار، ويعلى بن امية خمسمأة الف دينار، وعبد الرحمن بن عوف مليونين وخمسمأة وستين الف دينار والمجموع أربعة ملايين وثلاثمأئة وعشرة دنانير[۴۸۰]. وهنا يتضح عمق المعنى لقوله عليه السلام:

«يخضمون مال الله خضمة الابل نبتة الربيع»

. وبالطبع فان هذا الوضع لم يكن ليستمر لمدّة طويلة حيث لا يسع المسلمون تحمل مثل هذه الظروف ولذلك لم تمض مدّة حتى انطلقت تلك النهضة ضد عثمان لتطيح به فى خاتمة المطاف وتقتله بمرأى ومسمع من الامّة دون أن يهب أحد من المسلمين لنصرته وهذا بعينه ما أشار إليه الإمام عليه السلام حين قال:

«إلى أن انتكث ۴۸۱] عليه فتله ۴۸۲] وأجهز[۴۸۳] عليه عمله، وكبت ۴۸۴] به بطنته ۴۸۵]».

و الواقع أنّ الإمام عليه السلام رسم بثلاث عبارات صورة واضحة كاملة عن وضع الخليفة الثالث و انتهاء أمره وقتله. فقد صور فى العبارة الاولى إزالته لكافة مظاهر القدسية والزهد التى عرفها عنه الناس ليقفوا على مدى تكالبه على الدنيا.

كما يصور فى العبارة الثانية سوء أعماله التى وجهت له الضربة القاصمة، وأخيراً تخمته وامتلاء جوفه بالطعام بالشكل الذى لم يتمكن معه من الوقوف على قدميه حتى كب على وجهه على الأرض. فقد بين الإمام على عليه السلام بهذه العبارات الدروس والعبر التى ينبغى أن يقتدى بها ساسة البلدان ويضعوها نصب أعينهم بحيث إذا إستغلوا مكانتهم وأقبلوا يتهافتون على الدنيا فانّ ذلك سيؤدى إلى زوال سوابقهم الحسنة بما يعبىء الرأى العام ضدهم وبالتالى الاطاحة بهم وبحكومتهم.

جدير بالذكر أنّ العوامل التى بلورة ظهور وانبثاق خلافة عثمان هى ذاتها التى أدّت إلى القضاء عليه، فقد دفع حب المال والثروة بعض

الأفراد من قبيل سعد بن أبى وقاص

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۴۰

وعبدالرحمن بن عوف وطلحة (بناء اعلى كونه حاضرا فى الشورى) لأن يضموا أصواتهم لعثمان واختياره للخلافة، وهكذا إتسعت هذه المسألة واستفحلت حتى فقد عثمان مكانته لدى الرأى العام والذى أدى بالتالى إلى ثورة الامّة وإطاحتها به. أمّا بعض شرّاح نهج البلاغة فقد ذهبوا إلى أنّ المراد بقوله «إنتكث عليه فتله» انهيار الاجراءات والتدابير التى مارسها لتوطيد حكومته، ولعل تفويضه بعض الأعمال والمناصب لبطانته وقرابته قد كانت ضمن تلك الإجراءات المتخذة، لكن نفس هذا الأمر قد أعطى نتائج معكوسة أسهمت فى تقويض حكومة عثمان.

تأمّلات

۱- كيفية انتخاب خليفة الثانى والثالث

نعلم أنّ الخليفة الثانى قد نصب من قبل أبى بكر الذى عهد إليه بالخلافة فى وصيته حين نزل به الموت. فقد جاء فى بعض التواريخ أنّ أبابكر أحضر عثمان- وهو يجود بنفسه- فأمره أن يكتب عهدا، وقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبوبكر إلى المسلمين، ثم أمّا بعد، ثم اغمى عليه، فكتب عثمان:

«اما بعد فانى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطابلم آلكم خيراً».[۴۸۶]

و أفاق أبوبكر فقال: إقرأ فقرأه، فكبر أبوبكر وسرب وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت فى غشيتى! قال عثمان: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله ۴۸۷].

يتضح بجلاء من هذا الخبر أن عثمان قد خاط هذا القميص- الخلافة- لقامة عمر، ولو افترض عدم إفاقة أبى بكر لنشرت هذه الوصية على أنّها وصية أبى بكر. وعليه فلمهنالك من مجال للتعجب فى إقتراح عمر لتلك الشورى وبذلك التركيب الذى سوف لن يؤدى إلّاإلى استخلاف عثمان.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۴۱

و هو ذات الاسلوب الذى إتبعه الخليفة الثانى فى السقيفة حين مهد السبيل أمام خلافة أبى بكر، لكى يسارع هذا الأخير فيعوضه عمّا قدمه له. ويفهم ضمنيا أنّ الحيلولة دون إختلاف الامّة وفرقتها هى التى تقف وراء تعجيل أبى بكر وعثمان فى تعيين الخليفة. فاذا كان الأمر كذلك، فما بالك برسول الله صلى الله عليه و آله؟! ألم يكن من الواجب على النبى صلى الله عليه و آله أن يتكهن بهذا الأمر بالنسبة لُامّته مع وجود تلك النزاعات والصراعات التى كشفت عن نفسها فى السقيفة؟

كيف يمكن الاعتقاد بأنّ النبى صلى الله عليه و آله قد فوض للُامّة مسألة إنتخاب الخليفة، بينما لا يرعى هذا الأمر فى خلافة الثانى والثالث، حتى أنّ خوف الفتنة منع من تفويض الأمر للُامّة؟! هذه هى الاسئلة التى ينبغى لكل محقق الرد عليها.

۲- الشورى وحكومة عثمان

وصورة هذه الواقعة أنّ عمر لما طعنه أبولؤلؤه، وعلم أنّه ميت، استشار فيمن يولّيه الأمر بعده، فأشير عليه بابنه عبداللّه، فقال: لاها اللّه إذا! لايليها رجلان من وَلَد الخطاب! حسب عمر ما حُمِّل! حسب عمراً احتقب، لاها اللّه! لا أتحملها حياً وميتاً! ثم قال: إنّ رسول اللّه

مات وهو راض عن هذه الستة من قريش: على، وعثمان وطلحة، والزبير، وسعد، وعبدالرحمن بن عوف؛ وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم. ثم قال: إن أستَخلف فقد استخلف من هو خير منّى يعنى أبابكر وإن أترك فقد ترك من هو خير منّى يعنى رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ثم قال: ادعوهم لى، فدعوهم، فدخلوا عليه وهو مُلقى على فراشه يجود بنفسه.

فنظر إليهم، فقال: أكلّكم يطمع فى الخلافة بعدى! فوجموا، فقال لهم ثانية، فأجابهُ الزّبير وقال: وما الذى يُبعدنا منها! وليتها أنت فقمت بها، ولسْنا دونك فى قريش ولافى السابقة ولا فى القرابة.

قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ: واللّٰه لولا علمه أنّ عمر يموت فى مجلسه ذلك لم يقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة، ولا أن تنفّس منه بلفظه.

فقال عمر: أفلا أخبركم عن أنفسكم! قال: قل، فإنا لو استعفيناك لم تُعفنا. فقال: امّا أنت يا زبير فوعق لقس، مؤمن الرضا كافر الغضب، يوماً إنسان، ويوماً شيطان، ولعلها لو أفضت

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۴۲

إليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مدٍ من شعير! أفرأيت إن أفضت إليك، فليت شعرى، من يكون للناس يوم تكون شيطاناً، ومن يكون يوم تغضب! وما كان اللّٰه ليجمع لك أمر هذه الامّة، وأنت على هذه الصفة.

ثم أقبل على طلحة وكان له مبغضاً منذ قال لأبى بكر يوم وفاته ما قال فى عمر فقال له:

أقول أم أسكت: قال: قل، فإنّك لا تقول من الخير شيئاً، قال: أمّا إنّى أعرفك منذ أصيبتْ إصبعك يوم أحُد وائبا بالذى حدث لك، ولقد مات رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله ساخطاً عليك بالكلمة التى قلتها يوم أنزلت آية الحجاب.

ثم أقبل على على عليه السلام، فقال: للّٰه أنت لولا دُعابة فيك! امّا واللّٰه لئن وليتهم لتحملنّهم على الحق الواضح، والمحجّة البيضاء.

ثم أقبل على عثمان، فقال: هيهاً إليك! كأنّى بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبّها إياك، فحملت بنى أمية وبنى أبى مُعيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفىء، فسارت إليك عصابة من ذوبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحاً. واللّٰه لئن فعلوا لتفعلنّ فعلت ليفعلنّ، ثم أخذ بناصيته، فقال: فإذا كان ذلك فاذكر قولى؛ فإنّه كائن.

ثم قال: ادعوا إلى أبا طلحة الأنصارى، فدعوه له فقال: انظر يا أبا طلحة، إذ عدتم من حُفْرتى، فكن فى خمسين رجلًا من الأنصار حاملى سيوفكم، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله، واجمعهم فى بيت، وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتّفق ثلاثة وخالف ثلاثة، فانظر الثلاثة التى فيها عبدالرحمن، فارجع إلى ما قد اتفقت عليه، فإن أصرّت الثلاثة الاخرى على خلافها فاضرب أعناقها، وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمرٍ، فاضرب أعناق الستّة، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم.

فلما دُفن عمر، جَمَعَم أبو طلحة، ووقف على باب البيت بالسيف فى خمسين من الأنصار، حاملى سيوفهم، ثم تكلّم القوم وتنازعوا، فأوّل ما عمل طلحة أنّه أشدهم على نفسه أنّه قد وهب حقّه من الشورى لعثمان، وذلك لعامه أنّ الناس لا يعدلون به عليّاً وعثمان، وأنّ الخلافة لا تخلص له وهذان موجودان، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب على عليه السلام، بهبة أمر لا انتفاع له به، ولا تمكُّن له منه.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۴۳

فقال الزبير فى معارضته: وأنا أشهدكم على نفسى أنّى قد وهبتُ حقّى من الشورى لعلىّ، وإنما فعل ذلك لأنّه لما رأى عليًّا قد ضعف وانخزل بهبَةِ طلحة حقَّه لعثمان، دخلته حميَّة النَّسب، لأنّه ابن عمة أميرالمؤمنين عليه السلام، وهى صفيّة بنت عبدالمطلب، وأبوطالب خالُه. وإنّما مال طلحة إلى عثمان لانحرافه عن على عليه السلام، باعتبار أنّه تيمى وابن عم أبى بكر، وقد كان حصل فى نفوس بنى هاشم من بنى تيم حنق شديد لأجل الخلافة، وكذلك صار فى صدور تيم على بنى هاشم.

فممّا لا شك فيه هنالك عدّة اسئلة لابدّ من طرحها بشأن هذه الشورى ومنها:

أولًا: لو كـانت الضابطـة فى الخلافـة تكمن فى آراء الامّـة فلم لاـ يرجع إليها؟ وإن كانت الخلافـة قائمـة على أساس التعيين فما معنى الشورى المركبة من ستة أعضاء وما بال إهمال سائر الشخصيات المعروفة وعدم إشراكها فى الشورى

ثانياً: لقد قيل أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش، فكيف التوفيق بين هذا وما صرّح بأن رسول الله صلى الله عليه و آله مات وهو ساخط على طلحة بالثلمة التى قالها يوم انزلت آية الحجاب ۴۸۸]؟

ثالثاً: لو افترض عدم تمكنهم من القيام بوظيفتهم فكيف يؤمر بضرب أعناقهم؟

رابعاً: لو كانت الشورى حقا فما معنى الوصية بعثمان وذكره صراحة؟ ولو كان يخشى على الامّة الإسلامية من خلافته للزم عدم جعله أحد أعضاء تلك الشورى ليأتى آخر غيره؟

خامساً: إذا إنقسمت الشورى إلى قسمين فلم لاـ ترجح الكفـة التى فيها على عليه السلام والـذى قال له عمر: أمّا والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح، والحجة البيضاء. وليس له من إشكال عليه سوى قوله «لولا دعابة فيك».

سادساً: وهل للدعابة من أثر سلبى على الخلافة وهل يرقى هذا الإشكال إلى الإشكال على عثمان بانّه إذا ولى الخلافة وسيسلط بنى امية على رقاب المسلمين فيتخذون عباد الله

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۴۴

خولًا وماله دولًا؟

هذه هى الاسئلة والإستفسارات التى ليست لها من إجابة.

۳- أسباب الخروج على عثمان

و يجب أن نذكُر فى هذا الموضع ابتداء اضطراب الأمر على عثمان إلى أن قُتِل.

و أصح ما ذكر فى ذلك ما أورده أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى فى «التاريخ»[۴۸۹].

و خلاصة ذلك أنّ عثمان أحدث أحداثاً مشهورة نَقِمَها النّاس عليه، من تأمير بنى أميّة، ولا سيّما الفساق منهم وأربابُ السَّفه وقلّة الدّين، واخراج مال الفىء إليهم، وما جرى فى أمر عمّار وأبى‌ذر وعبداللّه بن مسعود، وغير ذلك من الامور التى جرت فى أواخر خلافته. ثم اتفق إنّ الوليد بن عُقبه لمّا كان عامله على الكوفة وشهد عليه بشرب الخمر، صرفه وولىّ سعيد بن العاص مكانه، فقدم سعيد الكوفة، استخلص من أهلها قوماً يسمرون عنده، فقال سعيد يوماً:

إنّ السواد بستان لقُريش وبنى أمية. فقال الأشتر النخعى: وتزعم أنّ السواد الذى أفاءه اللّه على المسلمين بأسيافنا بستان لك لقومك! فقال صاحب شرطته: أتردّ على الأمير مقالته! وأغلظ له، فقال الأشتر لمن كان حوله من النَّخع وغيرهم من أشراف الكوفة: ألا تسمعون! فوثبوا عليه بحضرة سعيد فوطئوه وطأ عنيفاً، وجرّول برجله، فغلظ ذلك على سعيد، أبعد سُمّاره فلم يأذن بعد لهم، فجعلوا يشتمون سعيداً فى مجالسهم، ثم تعدّوا ذلك إلى عثمان فى أمرهم، فكتب إليه أن يسيرهم إلى الشام؛ لئلّا يفسدوا أهل الكوفه، وكتب إلى معاوية وهو وإلى الشام: إنّ نفراً من أهل الكوفة قد همّوا بإثارة الفتنة، وقد سيرتهم إليك، فانهم؛ فإن آنست منهم رشداً فأحسن إليهم، واردهم إلى بلادهم.

ثم إن سعيد بن العاص قدم على عثمان سنة إحدى عشرة من خلافته. فلما دخل المدينة اجتمع قومٌ من الصحابة، فذكروا سعيداً وأعماله، وذكروا قرابات عثمان وما سوّغهم من مال المسلمين، وعابوا أفعال عثمان، فأرسلو إليه عامر بن عبد القيس وكان متألها[۴۹۰]، واسم أبيه

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۴۵

عبداللَّه، وهو من تميم، ثم من بنى العنبر فدخل على عثمان، فقال له: إنّ ناساً من الصحابة اجتمعوا ونظروا فى أعمالك، فوجدوك قد ركبت اموراً عظاماً، فاتق اللَّه وتب إليه.

فأخرجه عثمان، وأرسل إلى عبداللَّه بن سعد بن أبى سرح، وإلى معاوية وسعيد ابن العاص وعمرو بن العاص وعبيداللَّه بن عامر وكان قد استقدم الأمراء من أعمالهم فشاورهم، وقال: إن لكل أمير وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إلىّ أن أعزل عمّالى، وأن أرجع عن جميع مايكرهون إلى مايحبون، فاجتهدوا رأيكم.

فقال عبداللَّه بن عامر: أرى لك ياأميرالمؤمنين أن تشغلهم عنك بالجهاد حتى يذلّوا لك، ولا تكون همة أحدهم إلّافى نفسه، وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته.

فقال عثمان: إنّ هذا لهو الرأى لولا مافيه.

ثم كاتب عمّاله واستقدمهم، فلما قدموا عليه جمعهم، وقال: ما شكايةُ الناس منكم؟ إنّى لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب هذا الأمر إلّابى. فقالو له: واللَّه ما صدق من رفع إليك ولا بر، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا. فقال عثمان: فأشيروا علىّ، فقال سعيد بن العاص:

هذه امور مصنوعة تلقى فى السر فيتحدث بها الناس، ودواء ذلك السيف.

وروى محمد بن عمر الواقدى رحمة اللَّه تعالى، قال: لما أجلب الناس على عثمان، وكثرت الفالة فيه، خرج ناس من مصر؛ منهم عبدالرحمن عديس البوى، وكنانة بن بشر الليثى، وسودان بن حمران السكونى، وقتيرة بن وهب السكسكى؛ وعليهم جميعاً أبوحرب الغافقى، وكانوا فى ألفين. وخرج ناس من الكوفة، منهم زيد بن صوحان العبدى، ومالك الأشتر النخعى، وزياد بن النضر الحارثى، وعبداللَّه بن الأصم الغامدى، فى ألفين. وخرج ناس من أهل البصرة. منهم حكيم بن جبلة العبدى، وجماعة من أمرائهم، وعليهم حرقوص بن زهير السعدى؛ وذلك فى شوال من سنة خمس وثلاثين، وأظهروا أنّهم يريدون الحج. فلما كانوا من المدينة على ثلاث، تقدم أهل البصرة، فنزلوا ذاخشب وكان هواهم فى طلحة. وتقدم أهل الكوفة، فنزلوا الأعوص وكان هواهم فى الزبير. وجاء أهل مصر فنزلوا المروة وكان هواهم فى على عليه السلام. ودخل ناس منهم إلى المدينة يخبرون ما فى قلوب الناس لعثمان، فلقوا جماعة من المهاجرين والأنصار، ولقوا أزواج النبى صلى اللَّه عليه وآله، وقالوا: إنّما نريد الحج، ونستعفى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۴۶

من عمالنا.

وخرج عثمان يوم الجمعة، فصلى بالناس، وقام على المنبر، فقال: ياهؤلاء، اللَّه اللَّه؛ فواللَّه إن أهل المدينة يعلمون أنّكم ملعونون على لسان محمد صلى اللَّه عليه، فامحوا الخطأ بالصواب.

وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه؛ فأدخل داره؛ واستقتل نفر من أهل المدينة مع عثمان؛ منهم سعد بن أبى وقاص، والحسن بن على عليه السلام، وزيد بن ثابت، وأبو هريرة؛ فأرسل إليهم عثمان: عزمت عليكم أن تنصرفوا؛ فانصرفوا.

وأقبل على وطلحة والزبير، فدخلوا على عثمان يعودنه من صرعته، ويشكون إليه ما يجدون لأجله؛ وعند عثمان نفر من بين أمية، منهم مروان بن الحكم، فقالوا لعلى عليه السلام:

أهلكتنا وصنعت هذا الذى صنعت! واللَّه إن بلغت هذا الأمر الذى تريده لتمرن عليك الدنيا؛ فقام مغضباً، وخرج الجماعة الذين حضروا معه إلى منازلهم.

وروى المدائنى، قال: كان عثمان محصوراً محاطاًبه، وهو يصلى بالناس فى المسجد، وأهل مصر والكوفة والبصرة الحاضرون له يصلون خلفه، وهم أدق فى عينه من التراب.

وروى الكلبى والواقدى والمدائنى: أن محمد بن أبى بكر، ومحمد بن أبى حذيفة كانا بمصر يحرضان الناس على عثمان، فسار محمد

بن أبی بکر مع من سار إلی عثمان، وأرقام محمـد بن أبی حذیفـة بمصـر، ثم غلب علیها لما سار عبداللَّه بن سـعد بن أبی سـرح عامل عثمان عنها إلی المدینة فی أثر المصریین، بإذن عثمان له، فلما کان بأیلة، بلغه أن المصریین قد أحاطوا بعثمان وأنّه مقتول، وأن محمد بن أبی حذیفة قد غلب علی مصر، فعاد عبداللَّه إلی مصر، فمنع عنها، فأتی فلسطین، فأقام بها حتی قتل عثمان.[۴۹۱]

۴– هل سار جمیع الصحابة علی نهج النبی صلی الله علیه و آله

المعروف بین أوساط الاخوة من أبناء العامة أنّ لصـحابة رسول الله صـلی الله علیه و آله– دون إسـتثناء– قدسیة وعدالة وأنّ أحدا منهم لم یؤتی بما یخالف ما أمر به الله فی الکتاب والسـنة، بینما تعتقد الشـیعة من أتباع مدرسة أهل البیت علیهم السـلام أنّ الصـحابة لیست سواسیة ولها رأی بکل صحابی بما

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۲۴۷

ینسجم وسلوکه سواء علی عهد رسول الله صلی الله علیه و آله أو بعد وفاته.

و لاشـک أنّ الاعتقـاد السائـد لـدی الاخوة السـنة بشأن الصـحابة قـد قادهم إلی مشاکل کثیرة؛ وذلک لانّ هنالک من الصـحابة ممن إختلفوا فیما بینم إلی حـد الاقتتال. فیکف یمکن تبریر تلک العقیدة التی تتضـمن عدالتهم وقدسـیتهم. علی سبیل المثال موقعة صـفین التی قام فیها معاویـة ضـد إمام زمانه بما أدی إلی اراقة تلک الدماء، فهل هناک مورخ نزیه یمکنه توجیه ذلک العمل؟! أو الدماء التی سفکت فی معرکـة الجمل التی قادها طلحة والزبیر ضد الإمام علی علیه السـلام بعد أن نکثا بیعته حتی قیل أن عدد القتلی بلغ أکثر من سبعة عشر الف قتیل، فهل لهما من عدالة بعد تلک الفجائع التی ارتکبت بحق المسلمین وخروجها علی الإمام علیه السلام؟!

أمّـا بشـأن عثمـان وکمـا مرّ معنـا وعلی ضوء إجمـاع کافـة مؤرخی الإسـلام فانّنا نصـطدم بموضوعین مهمین: الأول اغـداقه المناصـب الحساسـة علی بنی امیـة وتسـلیطهم علی رقـاب المسـلمین ومن أولئـک الـذین عرفـوا بفسـقهم ومجونهم حتی تعـالت علیهم أصوات المسـلمین من کـل حـدب وصوب، والآخر نهب أموال بیت المال واغـداقها دون حساب علی هـذا وذاک بالشـکل الـذی آثار حفیظة الامّة وأجج مشاعرها للغضب والثورة علیه.

فهل من إنسجام بین هذه الأعمال والخطوط العامة للقداسة وتنزیه الصحابة؟! فلو کان هنالک من تبریر لمثل هذه الأعمال فهل ستبقی هنالک من أعمال یمکن إدانتها؟!

لقـد ذکرنی هـذا الکلام بقصـة عجیبـة وقعت لی ولا یسـعنی نسـیانها أبـدا. فقـد تشـرفت احدی السـنوات بزیارة مکة لاداء العمرة وقد سنحت لی الفرصة لان ألتقی بعض علماء العامة– ولا سـیما أثناء اللیالی فی المسـجد الحرام وبین صـلاتی المغرب والعشاء التی کانت فرصة مناسبة– فی احدی اللیالی (طبعا کان البعض منهم من مشاهیر علماء العامة).

و فی المسـجد الحرام وسـعینا لاـن نبقی علی الأبحـاث تعیش أجواء المنطق والعلم والاسـتدلال والبرهـان وابعادهـا عن عناصـر العـداء والکراهیـة وجرح المشاعر. وقـد جرنا الکلام إلی الحدیث عن «تنزیه الصـحابة وعدالتهم» فکانوا یعتقدون جمیعهم بعدم إمکانیة جرأة أحد علی توجیه أدنی تهمة إلیهم. فسألت أحدهم: «لو شـهدت صـفین حیث معسـکر علی علیه السـلام معسـکر معاویة، فمع من کنت تقاتل»؟ فاجاب من فوره: مع معسکر علی علیه السلام.

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۲۴۸

فقلت: لو أعطاک علیاً علیه السـلام سـیفاً وقال لک: «خـذ هـذا واقتل معاویة فهل کنت تمتثل أمره؟» هنا أجاب إجابة عجیبة لا أظنکم تتصورنها، فقد قال:

«کنت أقتله ولا أذکره بسوء»

نعم قضية تنزيه الصحابة قصة ذات شجون ولا يسعنى الخوض فى كافة تفاصيلها.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٤٩

القسم الرابع

اشارة

«فَما راعَنِى إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْثالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جانِبٍ حَتَّى لَقَدْ وُطِيَء الْحَسَنانِ، وَشُقَّ عِطْفاىَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِى كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَقَسَطَ آخَرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحانَهُ يَقُولُ: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلا فَساداً، وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»، بَلَى! وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوها وَوَعَوْها، وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيا فِى أَعْيُنِهِمْ وَراقَهُمْ زِبْرِجُها».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى عصر خلافته ولا سيما أبان البيعة التى شهدت حضوراً خارقاً للُامّة فى مبا يعته والوقوف إلى جانبه، البيعة الفريدة التى لم يعرف التأريخ الإسلامى لها من نظير، غير أنّ عدداً كثيراً لما جوبه بعدالة الإمام عليه السلام وتنمره فى الحق قد إنفرجوا عنه وهبوا لمخالفته وبالتالى أججوا نيران الحرب «الجمل وصفين والنهروان» وشقوا صفوف المسلمين وحالوا دون تتويج جهود الإمام عليه السلام ومساعيه فى النهوض بالمجتمع الإسلامى والأخذ بيده إلى السمو والتكامل.

فقد وصف عليه السلام بادىء ذى بدء كيفية إقبال الناس عليه وهجومهم من أجل البيعة قائلًا:

«فما راعنى ۴۹۲] إلّاوالناس كعرف ۴۹۳] الضبع ۴۹۴] إلىّ ينثالون ۴۹۵] علىّ من كل جانب»

فالتعبير بعرف

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٢٥٠

الضبع إشارة إلى الازدحام الشديد للناس واندفاعهم لمبايعة الإمام عليه السلام فهو مثل يضرب للكثرة والازدحام.

أمّا قلقه من الهجوم المفاجىء للناس من أجل البيعة فلعله يعزى إلى أنّ مثل هذه البيعة الحماسية من شأنها أن تقلد الإمام عليه السلام مسؤولية جديدة ولا سيما أنّه كان يتوقع نقض البيعة من قبل اولئك الذين يتهافتون على الدنيا وحطامها، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بوضوح فى الخطبة ٩٢ حيث قال:

«دعونى والتمسوا غيرى، فانا مستقبلون أمراله وجوه وألوان، لاتقوم له القلوب، ولا تثبت عيه العقول، وان الافاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت، واعلموا أنّى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً، خيرلكم منى أميرا».

أضف إلى ذلك كان يشعر بالقلق من جهة اخرى وهى أن تشير إليه أصابع الاتهام من قبل المنافقين وخصوم الدعوة بقتل عثمان. ثم يخوض الإمام عليه السلام فى عمق ذلك الازدحام والانهيال عليه بالبيعة فقال عليه السلام:

«حتى لقد وطىء الحسنان، وشق عطفاى، مجتمعين حولى كربيضة الغنم».

و يرى أغلب شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد بالحسنين هما الإمام الحسن والحسين عليهما السلام. فقد كان الإمامان عليهما السلام فى عنفوان شبابهما إلّاأنّ الهجوم الشعبى العام قد جعلهما فى موقع حرج فى الحفاظ على والدهما. بينما ذكر بعض الشرّاح احتمالين آخرين؛ الأول أن يكون المراد اصبعى الرجل البارزين- كما روى ذلك عن الشريف الرضى رحمه الله- نقلا عن بعض اللغويين (أبى

عمر) و قد استدلوا على ذلک باشعار العرب، إلّاأنّ هذا المعنى يبدو مستبعداً لانّ وطیء اصبعی الرجل قضية عادية تحصل عند أدنى زحام ولا يمكنها أن تعكس ذلک الهجوم العظيم.

والأبعد من ذلک التفسير الثالث الذی أورده البعض على أنّ المراد بها عظمى اليد وذلک

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۵۱

لتعذر وطیء إصبعی اليد عادة سواء عظمى العضد أو الساعد، ولا يوطئان إلّاحين يقع الإنسان على الأرض.

أمّا تشبيهم بربيضة الغنم فهو لا يرمز إلى جهل الناس كما فسره بعض الشارحين، بل يتضمن إشارة إلى ما أوردناه سابقاً حيث يرمز إلى لو إذ الغنم بالراعی كلواذها بالمرعى حين تتعرض لهجوم الذئاب.

فالمسلمون الذين تفرقوا هنا وهناک إثر الهجوم الذی تعرضوا له من قبل ذؤبان عصر الخليفة الثالث وتفككت عرى الوحدة بينهم قد رأوا فی الإمام عليه السلام حلقة الوصل فاندفعوا إليه بلهفة ليتجمهروا حوله ويشعروا بالسكينة والاستقرار. غير أنّ المؤسف هو أنّ الاندفاع لم يكتب له الدوام حين عرضوا للاختبار لتفشل فيه طوائف من المسلمين، وهذا ما صوره الإمام على عليه السلام إذ قال:

«فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت ۴۹۶] اخرى وقسط[۴۹۷] آخرون».

و قد أجمع أغلب شرّاح نهج البلاغة على أنّ المراد بهم أصحاب الجمل والنهروان وصفين فقد ذكروا أنّ أصحاب معركة الجمل (هم طلحة والزبير الذين استغلا وجود عائشة لتأليب الناس ضد أمير المؤمنين) الذين نقضوا البيعة هم «الناكثين» فقد بايعا علياً عليه السلام وهما يطمعان بالخلافة فلما لم يتمّ لهما ذلک قدما البصرة وبثا بذور الشقاق والفرقة.

و «المارقين» هم أصحاب النهروان ويراد بهم الخوارج الذی خرجوا على الإمام عليه السلام وهبوا لقتاله بعد قضية التحكيم فی صفين. وهم من وصفوا بالمروق عن الدين كمروق السهم من الرمية. فی إشارة إلى أنّهم قد كانوا على الحق إلّاأنّ تعصبهم الأعمى وجهلهم وحبهم لذاتهم قد أمرقهم من ذلک الحق. و «القاسطين» هم أهل الشام جيش معاوية، حيث وردت مفردة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۵۲

القسط بمعنى العدل إلى جانب ورودها بمعنى الظلم والطغيان والفسق.

و الجدير بالذكر هنا أنّ هذه التسميات لهذه الفئات الثلاث- وعلى ضوء المصادر الإسلامية- ممّا صرّحت بها الأحاديث النبوية الشريفة.

فقد روى الحاكم النيسابوری فی مستدرک الصحيحين عن أبی أيوب الأنصاری أنّه قال: «أمر رسول الله صلى الله عليه و آله على بن أبی طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»[۴۹۸].

كما ورد هذا المعنى فی تلخيص المستدرک للذهبی ۴۹۹]. ووردت هذه الرواية فی كتاب اسد الغابة فی شرح سيرة الإمام على عليه السلام ۵۰۰].

بينما وردت هذه الرواية مفصلة فی تاريخ بغداد، حيث جاء عن أبی أيوب الانصاری أنّه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه و آله بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين فی ركاب على عليه السلام. أمّا الناكثين فقد قاتلناهم وهم- أصحاب الجمل- طلحة والزبير، وأمّا القاسطين فهم من عدنا الآن من عندهم؛ أی معاوية وعمرو بن العاص (لقد قال ذلک حين عاد من صفين) وأمّا المارقين فهم أصحاب النهروان، والله لا أعلم أين هم إلّاأننی أعلم بأناسنقاتلهم»[۵۰۱]

و الحق انّ هذا جواب قاطع لُاولئک الجهال الذين لم تحسم لديهم الحروب التی وقعت إبان خلافة على عليه السلام.

نعم فاولئک الذين تهافتوا فی بادی الأمر على على عليه السلام من أجل البيعة لم يطيقوا تحمل عدالته وشدته فی الحق؛ ولا سيما ممارسته للعدالة التی أوشكت أن تموت بعد تلک المدّة الطويلة التی شهدت إنعدامها وقد تمثل ابسط مظاهرها فی التطاول على بيت المال وسلبه ونهبه الذی أقدم عليه الكثيرون فانی لهم بتحملها، ولذلک لم تصمد معه إلّاثلة معدودة التزمت بعهودها بينما إنفرج عنه

الأعم الأغلب ممن بایعوه؛ الأمر الذی أشار إلیه الإمام علیه السلام فی خطبته فقال:

«کأنّهم لم یسمعوا کلام الله سبحانه یقول: «تِلْکَ الدّارُ الآخِرَهُ نَجْعَلُها لِلَّذِینَ لا یُرِیدُونَ عُلُوّاً

نفحات الولایهٔ، ج ۱، ص: ۲۵۳

فِی الأَرْضِ وَلا فَساداً وَالعاقِبَهُ لِلْمُتَّقِینَ».[۵۰۲]

ثم أضاف علیه السلام:

«والله لقد سمعوها ووعوها[۵۰۳] ولکنهم حلیت الدنیا فی أعینهم، وراقهم [۵۰۴]

زبرجها[۵۰۵]»[۵۰۶].

فالإمام علیه السلام یشبههم فی البدایهٔ بالجهال الذین دفعهم جهلهم لمخالفته، ثم ینتقل فی المرحلهٔ اللاحقهٔ لیصفهم بأنّهم سمعوا هذه الأخبار والحقائق ووعوها وهی لیست خافیهٔ علیهم، إلّاأنّ حب الدنیا والتکالب علی حطامها والاغترار بزبرجها- ولا سیما بعد الفتوحات الإسلامیهٔ الکبری التی جرت علیهم ما لا یحصی من الغنائم النفیسهٔ والتعود علی الحیاهٔ الوادعهٔ المرفههٔخاصهٔ تلک التی ظهرت أبان خلافهٔ عثمان- جعلتهم یؤثرون الدنیا علی الدین ویبیعون الحقیقهٔ بالخرافهٔ ویضحون بالدار الآخرهٔ ویزهدون فیها.

فالعبارات التی أوردها الإمام علیه السلام هی فی الواقع عصارهٔ التحلیلات بشأن نشوب المعارک الثلاث فی عهد الإمام علیه السلام؛ الأمر الذی یعتبر درسا لجمیع المسلمین علی مدی التاریخ فی أنّهم یعیشون الفرقهٔ والتشتت وتمزق عری الوحدهٔ کلما أقبلوا علی الدنیا واغتروا بزخارفها وزبرجها، فلیس لهم من سبیل سوی الورع والتقوی والزهد بغیهٔ الثبات علی الطریق.

ونشاهد الیوم بکل وضوح أنّ الاختلافات السائدهٔ فی أوساط المسلمین إنّما تعزی لما بینه الإمام علیه السلام وأو جزته الآیهٔ القرآنیهٔ الشریفهٔ: «تلک الدار الآخرهٔ نجعلها للذین لا یریدون علوا

نفحات الولایهٔ، ج ۱، ص: ۲۵۴

فی الأرض ولا فسادا والعاقبهٔ للمتقین».

فالعلو فی الأرض والفساد والتکالب علی الدنیا وحطامها هما أساس الفرقهٔ والاختلاف و التشتت فی المجتمعات الإسلامیهٔ.

تأمّلات

۱- البیعهٔ الشعبیهٔ لأمیر المؤمنین علیه السلام

إنّها البیعهٔ التی لا یمکن مقارنتها بتلک التی حدثت مع الخلفاء الثلاث.

کانت بیعهٔ عفویهٔ شعبیهٔ عامهٔ بعیدهٔ عن البرمجهٔ والتخطیط، بل نابعهٔ من أعماق الامّهٔ المستضعفهٔ التی ذاقت الظلم والاضطهاد، فهی لیست کبیعهٔ السقیفهٔ التی مثل إتخاذ القرار فیها بعض الأفراد لتری الامّهٔ نفسها أمام نتیجهٔ حسمت سابقاً، وهی لیست کبیعهٔ عمر التی اسندت بطولتها لفرد واحد هو الخلیفهٔ الأول، وأخیراً لیست کبیعهٔ عثمان التی استندت للشوری السداسیهٔ وعلی ضوء الترکیبهٔ التی شکلها عمر.

بل هی بیعهٔ واقعیهٔ وحقیقیهٔ جردت ماسواها من إنتحال هذا الاسم بعد أن برمجت وخططت بهذه الکیفیهٔ.

فقد ذکر بعض شرّاح نهج البلاغهٔ أنّ الثوار الذین أودوا بحیاهٔ عثمان إتجهوا صوب الإمام علی علیه السلام لیبایعوه علی الخلافهٔ، فلم یجبهم فلما أصروا علیه، خاطبهم قائلًا:

«أنا لکم وزیراً خیر منی امیراً».

حیث کان یعلم علیه السلام بأنّ سبقت هؤلاء فی البیعة سیثیر تهمة مفادها أنّ عثمان قتل مع سبق الاصرار والترصد طبق خطة مدروسة. أضف إلى ذلک فلو بایعوه، لزعم البعض أنّ قتلة عثمان فقط هم الـذین بسطوا له أیـدیهم بالبیعـة، وناهیک عمّا تقدم فانّ الإمام علیه السـلام کـان یتوسم فیهم عـدم القـدرة علی إحتمال الحق؛ نعم فالحق ثقیل وبیىء، إلّاأنّ الإمام علیه السـلام فوجیء بتقاطر المهاجرین والانصار الذین اصروا علیه بقبول الخلافة.

فلم یکن له من سبیـل سوی قبولهـا، فـارتقی المنبر علیه السـلام لتنـدفع إلیه الامّـة زرافات ووحـدانا وهی تعلن بیعتها له، ولم یشـذ منها سوی النزر الیسیر من قبیل سعد بن أبی وقاص وعبدالله

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۲۵۵

بن عمر ولم یجبر هم الإمام علیه السلام علی مبایعته ۵۰۷].

إننا نعتقد وعلی ضوء المصادر الإسـلامیة المعتبرة أنّ النبی صلی الله علیه و آله قد إستخلف علیاً علیه السلام بأمر الله، ولم یقتصر ذلک علی «غـدیر خم» بل أکـده النبی صـلی الله علیه و آله فی عدّة مواضع ومناسـبات، ورغم مخالفة البعض- لاسباب لا یسـعنا المجال إلی الخوض فی تفاصیـلها- بعـد رحیل النبی صـلی الله علیه و آله مع ذلک فما أن قتل عثمان حتی تدفقت الامّة بشـکل عجیب علی الإمام علیه السلام وهی تعلن عن تظامنها ودعمها واسنادها للإمام علیه السلام؛ الدعم الذی لم تشهده النظم الدیمقراطیة طیلة تجاربها، بل قل نظیرها سوی بعض النماذج التی حصلت علی عهد رسول الله صلی الله علیه و آله کبیعة الشجرة.

و ممّا لا شک فیه أنّ تلک البیعـة إنّما کانت تنبع من معرفـة الامّـة بمنزلـة علی علیه السـلام وسـعة علومه ومعارفه ومـدی ورعه وتقواه وزهـده وادارته الناجعة التی لم یکن فیها من مکان للتیارات والتحزبات، فقد کانت من العفویة والإنسـیابیة بحیث سـلبت زمام المبادرة من الخصوم لتجعلهم یعیشون حالـة الدهشـة امـام عمـل تم ولاـ سبیـل إلی الرجعـة منه، ولو ترکوا الامّـة وحالهـا وتخلوا عن مؤامراتهم وغدرهم لنهض ذلک المجتمع نهضات ولعاش الاطروحة التی حملها له القرآن والمتمثلة بقیام مجتمع الحریة والعدالة.

و سـنری لاحقا أنّ هذه العناصـر المشبوهة العثمانیة التی تطاولت علی بیت أموال المسلمین وردت المیدان السیاسی لتعبث الناس وتتلا عب بمشاعرها الدینیة وتقودها فی خاتمة المطاف إلی إشـعال نیران الجمل وصفین والنهروان وتسدد تلک الضربات الموجعة للإسلام والمسیرة الإسلامیة.

۲- مصدر الانحرافات الاجتماعیة

یعتبر الإمام علیه السـلام- فی هذه الخطبة- أنّ العامل الأصـلی الذی یقف وراء الانحراف عن الحق فی عصره (و فی کل العصور) إنّما یکمن فی حب الـدنیا والاغترار بزخرفها وزبرجها الـذی أجـج نار حروب الجمل وصـفین والنهروان، ثم یؤکـد علیه السـلام علی الآیة الشریفة التی تصرح بأن الآخرة

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۲۵۶

من نصیب اولئک الذین لا یریدون علوا فی الأرض ولا فسادا. فهذه العبارات القصیرة إنّما تکشف عن حقائق مهمّة تلمس آثارها علی مدی التاریخ.

فالاطماع هی أساس الحروب والنزاعات الدمویـة، والاهواء والفساد فی الأرض هو العنصـر الرئیسـی الذی یقف وراء الفوضـی والهرج والمرج ومن هنا فاذا لم تجابه هـذه العادات الشـیطانیة بالإیمان والاعتقاد الراسـخ فلا مناص من نشوب هـذه الحروب الفتاکـة وانعـدام العدالة وسـیادة الفوضـی والقلق والاضطراب، بل ستبرز هناک العناصر التی تتلاعب بالقیم الإنسانیة والمفاهیم الأخلاقیة وسائر الاصول من قبیل الحریة وحقوق الإنسان لتسخرها من أجل تحقیق أهدافها وأطماعها.

والـذى يجـدر ذكره أنّ الإمـام عليه السـلام يتحـدث عن أولئـك الـذين تتضـارب عقائـدهم مع أعمالهم، ويبـدو أنّهم مسـلمون حيث سمعواالآيات القرآنية ومنها «تلك الدار الآخرة ...».

و آمنوا بهـا، غير أنّ دعـائم إيمـانهم قـد تزعزعت وتفككت بفعـل دوافعهم التى شـدتهم إلى الـدنيا والتكـالب على زخارفها والاغترار بزبرجها، وهذه هى النتيجة الطبيعية لكل اولئك الذين يؤثرون دنياهم على دينهم.

۳- المعارك الثلاث على عهد الإمام على عليه السلام

لقـد تضـمنت خطبته عليه السـلام إشـارة إلى المعـارك الثلاـث: الجمل، وصـفين والنهروان التى اشـعلت من قبل الناكثين والقاسـطين والمارقين. وسنشير هنا إلى هذه المعارك بصورة مختصرة:

أ- معركة الجمل

لم تمر على بيعـة امير المؤمنين عليه السـلام أكثر من ثلاثة أشـهر حتى ضاقت طوائف من المسـتكبرين ذرعا بعدالة الإمام عليه السـلام ولم تطق تحمله فهبت لمخالفته. معاويـة من جانبه أعلن فى الشام عن عـدم اسـتعداده لمبايعة على عليه السـلام ثم تأهب للقتال. فكتب الإمام عليه السـلام رسائل إلى ولاته على الكوفةالبصرة ومصر ليجهزوا الجيش من أجل مقاتله معاوية ... فى هذه الاثناء هم طلحةالزبير بالسفر إلى مكة بذريعة أداء العمرة.

فالتقيا فى مكة عائشة التى كانت متذمرة من مبايعة على عليه السلام فانضمت إليهما واتجهوا إلى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۵۷

البصـرة لنصـرة عثمان. وبالطبع فانّ كافة القرائن تشـير إلى أنّ هؤلاء لم يكونوا يطالبون بدم عثمان، ولم يكن لهم من تعصب للإسلام؛ قتلة عثمان لم يكونوا فى البصـرة، أضف إلى ذلك فان نصـرة عثمان لا تسـلتزم مخالفة أمير المؤمنين على عليه السلام، ناهيك عن أنّ طلحة من قادة الثورة على عثمان.

و واضـح أنّ هـدف هؤلاـء من نقض بيعتهم لعلى عليه السـلام هو عـدم حصولهم على المناصب التى كانوا يحلمون بها. وأخيراً تمكن طلحـة والزبير مع عائشة فى شـهر ربيع الثانى عام ۳۶ ه بالمكر و الخـداع من الاستيلاء على البصـرة ثم أخذوا لأنفسـهم البيعة من الناس حيث سددوا أولى ضرباتهم لوحدة الامّة الإسلامية.

الإمام عليه السـلام بـدوره لما كان عالماً بهذا الأمر أنفذ جيشه الذى جهزه لقتال معاوية نحو البصـرة ثم كتب رسالة لعامله على الكوفة «أبو موسـى الأشـعرى» يطلب منه تعزيز الجيش- ورغم أنّ أبا موسـى لم يرد بالا يجاب على رسالـة الإمام إلّاأنّه انفذ جيشاً قوامه تسـعة آلاف مقاتل إلى الكوفـة- وفى جمادى الآخرة التحم الجيشان، وطبق نقل «تاريـخ اليعقوبى» فانّ المعركـة اسـتغرقت أربع ساعات هزم فيها جيش طلحـة والزبير، فانبرت عائشـة لتعبئـة أهل البصـرة فركبت الجمل ومن هنا سـميت هـذه المعركـة بمعركة الجمل؛ وقد أبدى الجيش الذى تمحور حول الجمل مقاومة عنيفة.

فنادى الإمام عليه السـلام: «إعقروا الجمل» فلما عقر الجمل إنتهت المعركـة حيث قتل طلحة والزبير (فقد قتل طلحة فى الميدان على يد مروان، بينما فر الزبير ليقتل خارج ميدان المعركة) فسرح الإمام عليه السلام عائشة بكل إحترام على أنّها زوج النبى صلى الله عليه و آله إلى المدينة.

و قيل أنّ عدد القتلى فى الجمل قد بلغ عشـرة آلاف وقيل سبعة عشر ألفاً، وهكذا حسمت المعركة لصالح الإمام عليه السلام واخمدت تلك الفتنة.[۵۰۸]

ب- معركة صفين

عاد الإمام عليه السلام إلى الكوفة بعد الجمل، فكتب لمعاوية كتابا طالبه بالبيعة. فلم يجبه معاوية

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۵۸

وأخذ يدعو الناس للطلب بدم عثمان حتى أمر البعض بان يعلنوا على الناس أنّ قاتل عثمان هو على بن أبى طالب عليه السلام.

و بعد مضى مدّة كتب رسالة لعلى عليه السلام يعلن فيه الحرب بعد أن جيش جيوش الشام.

فجهز الإمام عليه السلام أهل الكوفة لينفذ جيشه إلى صفين وقد أجابه أغلب الناس إلّاالقليل منهم.

فجعل الإمام عليه السلام جيشه طوائف وجعل لكل طائفة أمير. وصل الإمام عليه السلام صفين لثمان بقين من محرم عام ۳۷ ه ليلتقى جيش معاوية هناك. حاول بعض أصحاب الإمام عليه السلام البدو بالقتال، فكتب معاوية رسالة للإمام عليه السلام يناشده عدم التعجيل بالقتال.

الإمام عليه السلام من جانبه كان يسعى جاهدا للحيلولة دون نشوب القتال فكان يرسل الرسائل و الأفراد يناشده جيش معاوية الالتحاق بصفوف المسلمين حتى مرت عدّة شهور ولم يأذن الإمام عليه السلام بالقتال رغم اصرار أصحابه عليه. إلّاأنّ كل هذه الامور لم تكن تجدى نفعاً، حتى نشبت المعركة فى شهر ذى الحجة عام ۳۷ ه ووقع بين الطرفين قتال شديد، ثم توقف القتال بحلول شهر محرم الحرام، ثم أخذ الإمام عليه السلام يرسل رسائله ويبعث بأصحابه، وما ان انتهى شهر محرم حتى نشب القتال ثانية حتى زحف جيش الإمام ومنى جيش الشام بالفشل.

و أخيراً شعر معاوية بهزيمة جيشه فعمد إلى الجيش بحمل المصاحف، فحدث انشقاق فى جيش الإمام عليه السلام بعد أن تعالت أصوات المنافقين بالكف عن القتال ثم انتهى الأمر إلى التحكيم الذى فرض على الإمام.

فاختاروا أبا موسى الأشعرى المعروف بسذاجته ممثلا عن الإمام عليه السلام وعمرو بن العاص عن معاوية بعد أن أتفقا على أن يخلع كل صاحبه.

فقام أبو موسى الأشعرى وخاطب الناس أنّى خلعت علياً عليه السلام كما أخلع خاتمى، بينما خدعه عمرو بن العاص ولم يخلع معاوية. وهكذا ضاعت أعظم فرصة كادت أن تقضى على بنى امية و تغير وجه التاريخ فندم جيش الإمام عليه السلام حيث لا ينفع الندم.

ج- معركة النهروان

يفهم من أحداث معركة صفين أنّ الخوارج فئة أفرزتها تلك المعركة بعد مسألة التحكيم.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۵۹

حيث أصروا على الإمام عليه السلام بقبول التحكيم فلما قاد إلى تلك النتيجة ندموا ندماً شديداً ليعتبروا التحكيم مخالفة صريحة للقرآن وأنّه الكفر بعينه، وقد بلغت بهم الوقاحة أن طالبوا الإمام عليه السلام بالتوبة وإلّا هبوا لقتاله. فلما رأى الإمام عليه السلام الاختلاف قد دب بين جيشه (ولاحظ عناصر النفاق التى كانت تحاول إثارة الفتنة) أصدر أمره بالعودة إلى الكوفة.

فلما عاد الجيش إلى الكوفة، انشق منه اثنا عشر ألف من الأفراد المتعصبين ليلجأوا إلى الحروراء- قرية تبعد ميلين عن الكوفة- ومن هنا اطلق عليهم إسم الخوارج الحرورية، وأخيراً استعدوا للقتال بعد أن تجمعوا فى النهروان قرب الحروراء.

و الغريب فى الأمر كان البعض منهم من أصحاب البرانس من الحفاظ. إلّاأنّهم كانوا يعرفون بالجهل والتعصب والالتزام بظواهر الدين دون باطنه ومن هنا استحقوا إسم «المارقين».

سعى الإمام عليه السلام بادىء ذى بدء إلى نصحهم والاعذار إليهم فبعث لهم الواحد تلو الآخر، فكان من ذلك أن استجاب عدد منهم وهم ينادون «التوبة التوبة يا أمير المؤمنين» حيث قيل إنّ ثمانية آلاف منهم قد رجعوا وتابوا (تفيد الروايات أنّ الإمام عليه السلام قد جعل راية فى الميدان وأمر التوابين بالانضواء تحتها)، مع ذلك لم ياذن الإمام عليه السلام بمقاتلتهم أملا بعودة من تبقى منهم.

حتى بعث لهم من يحاججهم فقتلوه ثم نشب القتال، فقاتل عليه السلام قتالًا شديداً بعد أن أخبر أصحابه بأن مصارعهم دون النطفة

ولن ينجو منهم عشرة ولن يهلك من جيشه عشرة. فكان الأمر كما أخبر عليه السلام.[۵۰۹]

وقعت هذه الحرب فی اليوم التاسع من شهر صفر عام ۳۸ أو ۳۹ هجری، ولم تدم اكثر من ساعة.[۵۱۰]

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۲۶۱

القسم الخامس: قبول البيعة والخلافة

اشارة

«أما وَالَّذِی فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْ لا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَما أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَماءِ أَلَّا يُقارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظالِمٍ، وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِها، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِی مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ».

الشرح والتفسير

يبيّن الإمام عليه السلام الأسباب التی دعته إلی قبول البيعة والأهداف التی يتوخاها من الخلافة، كما يشير إلی أنّ هذه الخلافة والامرة لا تعدل عنده شیء لولا تلك الأهداف الكبری

فقال عليه السلام

«أمّا والذی فلق الحبة وبرأ النسمة،[۵۱۱] لولا حضور الحاضر[۵۱۲]، وقيام الحجة

بوجود الناصر، وما أخذ الله علی العماء أن لا يقاروا[۵۱۳] علی كظة[۵۱۴] ظالم، ولا سغب ۵۱۵]

مظلموم، لا لقيت حبلها علی غاربها[۵۱۶]، ولسقيت آخرها بكأس أولها».

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۲۶۲

فقوله عليه السلام

«والذی فلق الحبة»

إشارة لما ورد فی القرآن الكريم بشأن الذات الإلهية المقدسة «فالق الحب والنوی»[۵۱۷] التی تتضمن أهم خلق الله سبحانه ألا وهو خلق الحياة. وقوله عليه السلام

«برء النسمة»

إشارة لخلق الإنسان والروح الذی أشار له القرآن الكريم بقوله «فتبارك الله احسن الخالقين»[۵۱۸] فهو يتضمن القسم باهم أعمال خالق الوجود للدلالة علی أهمية الأمر الذی يريد التحدث عنه.

و قوله عليه السلام

«لولا حضور الحاضر»

فی إشارة إلی حضور الحاضرين بالبيعة له، وإن ذهب البعض إلی أنّ المراد بالحاضر ذات البيعة والذی لا يختلف كثيرا والمعنی الأول.

أمّا القول بأنّ المراد حضور الله أو حضور الزمان الذی تنبئ به الرسول الكريم صلی الله عليه و آله لعلی عليه السلام فهو مستبعد جداً، وإن أورده بعض الفضلاء كتفسير لتلك العبارة. علی كل حال فان هذه العبارة تتحد فی المعنی مع قوله عليه السلام:

«و قيام الحجة بوجود الناصر»

لتشير كلاهما لاتمام الحجة عليه عليه السلام فی أن ينهض بالأمر بعد توفر العدّة من الأصحاب والبيعة امّا قوله عليه السلام

«لالقيت حلها على غاربها»

فهو كناية عن الانصراف عن الشيء، حيث جرت العادة أن يطرح زمام الناقة على ظهرها إذا لم يكن هناك من حاجة إليها في عمل.

و قوله عليه السلام:

«لسقيت آخرها بكأس أولها»

كناية عن الصبر على الأمر وتركه كما صبر عليه ازاء الخلفاء الثلاثة[۵۱۹]. إلّاأنّ الإمام عليه السلام يرى نفسه ملزما بالنهوض بالأمر والتصدى للخلافة لسببين: أحدهما وجود الناصر الذى يتمّ الحجة عليه بالقيام من جانب، والثانى العهد الذى أخذه الله على العلماء بالقيام بالأمر إذا ما غيبت العدالة واستفحل الظلم وضيعت الحقوق

«لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلموم».

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۶۳

فالواقع أنّ كلام الإمام عليه السلام تحذير لكافة علماء فى ممارسة مسؤوليتهم فى تشكيل الحكومة وبسط العدل والقسط فى ربوع المجتمع وعدم السكوت والتخاذل فى حالة توفر هذه الأسباب.

ويخطىء كل أولئك الذين يرون وظيفتهم إنّما تقتصر على إقامة الشعائر العبادية كالصوم والصلاة والحج والزكاة إلى جانب الإتيان بالمستحبات. فبسط العدل والقسط والدفاع عن المظلوم والقيام بوجه الظالم تعدّ من جوهر الوظائف الإسلامية لهؤلاء العلماء.

ثم يقول عليه السلام:

«و لا لفيتم ۵۲۰] ديناكم هذه أزهد عندى من عفطة[۵۲۱] عنز».

وبالالتفات إلى ما ورد فى صحاح اللغة من أن العفطة تعنى الماء الذى يترشح من أنف الشاة (أو العنز حين العطسة) تتضح مدى تفاهة الدنيا- التى تحظى بفائق الأهمية لدى أهلها- عند على عليه السلام، فما قيمة العنز فضلا عن ماء أنفها والحق ان مثل هذه التعبيرات قد تبدو غريبة بالنسبة لُاولئك الذين لا يعرفون شخصية على عليه السلام؛ إلّاأنّ هذه الغرابة ربّما تزول بأدنى نظرة إلى سيرته عليه السلام وحياته التى عاشها.

قال السيد الرضى (ره) فى ذيل الخطبة.

«قالوا وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه هذا الموضع من خطبته فناوله كتاباً- قيل أنّ فيه مسائل كان يريد الإجابة عنها- فاقبل ينظر فيه (فلما فرغ من قرائته) قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت.

فقال: «هيهات يا بن عباس تلك شقشقة هدرت ثم قرّت» قال ابن عباس فو الله ما اسفت على كلام قط كأسفى على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث يريد».

أمّا التعبير بأهل السواد فهو إشارة إلى المناطق الغنية بالزرع والأشجار التى تبدو من بعيد سوداء، لأنّ اللون الأخضر يتركز من بعيد ليميل إلى السواد، ولما كان هل الحجاز ألفوا الأرض اليابسة الخالية التى يصصطلح عليها بالبياض فانّهم إذا ما انطلقوا نحو العراق المخضر بفضل

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۶۴

نهريه دجلة والفرات وتلوح أشجاره وزرعه من بعيد يبدو أسوداً فيصطلحون عليه بأرض السواد كما يطلقوا على أهله اسم أهل السواد.

أمّا مضمون الكتاب والمسائل التى فيه فقد تطرق إليها بعض شرّاح. نهج البلاغة وسنعرض لها فى البحث القادم.

وقد روى ابن أبى الحديد بهذا الشأن عن استاذه مصدق بن شبيب أنّه قال: قرأت على الشيخ أبى محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة، فلما إنتهيت إلى هذا الموضع، قال لى: لو سمعت ابن عباس يقول هذا لقلت له: وهل بقى فى نفس ابن عمّك أمر لم يبلغه فوالله مارجع عن الأولين ولا عن الآخرين، ولا بقى فى نفسه أحد لم يذكره إلّارسول الله صلى الله عليه و آله.

قال مصدق: وكان ابن الخشات صاحب دعابة وهزل، قال: فقلت له: أتقول إنها منحولة.

فقال: لا والله وإنى لاعلم أنّها كلامه، كما أعلم أنّك مصدق.[۵۲۲]

قال الشريف الرضى رحمه الله: قوله عليه السلام

«كراكب الصعبة إن اشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم» يريد أنّه إذا شدد عليها فى جذب الزمام وهى تنازعه رأسها خرم أنفها وإن ارخى لها شيئاً مع صعوبتها تقحمت به فلم يملكها يقال «أشنق الناقة» إذا جذب رأسها بالزمام فرفعها و «شنقها» أيضا، ذكر ذلك «ابن السكيت» فى اصلاح المنطق» وإنّما قال «اشنق لها» ولم يقل «اشنقها» لانّه جعله فى مقابلة قوله «أسلس لها» فكانه عليه السلام قال: إن رفع رأسها بمعنى أمسكه عليها بالزمام).

تأمّلات

۱- الرد على سؤال

قد يقال: تعتقد الإمامية واتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أنّ الإمام ينصب من قبل اللّه تعالى بواسطة النبىالأكرم صلى الله عليه و آله، لاعلى أساس إنتخابه من قبل الامّة، بينما صرّح الإمام عليه السلام فى هذه

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۶۵

الخطبة قائلًا: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر و ... لالقيت حبلها على غاربها» فكيف التوفيق بينهما؟

و نقول فى الردّ على هذا السؤال أنّ للامامة والخلافة واقع ومقام ظهور وبروز فواقعها أنّها تعين من قيل الله بواسطة نبيّه صلى الله عليه و آله، أمّا ظهورها وبروزها والتصرف فى شؤون المسلمين والمجتمع الإسلامى إنّما يتوقف على الامّة ونهوض أبنائها فى توفير الدعم والاسناد؛ الأمر الذى لا يتأتى إلّامن خلال بيعة الامّة.

و من هنا أصبح الإمام عليه السلام جليس الدار إبان خلافة الخلفاء الثلاثة- طيلة خمس وعشرين سنة- ولم يتدخل فى شؤون الخلافة، والحال لم تكن هنالك من ثلمة فى إمامته المنصوص عليها من جانب الله بواسطة النبى صلى الله عليه و آله ويصدق هذا الكلام على بعض أئمة العصمة والطهارة، فقد إقترح أبومسلم الخلافة على الإمام الصادق عليه السلام، ولعلمه عليه السلام بالمؤامرة لم يجيبه.

بل كان البعض يطالب الأئمة بالقيام وتولى الخلافة. فيجيبون باننا لا نملك ما يكفى من الأنصار[۵۲۳].

۲- المسائل التى تضمنها الكتاب

روى المرحوم «الشارح البحرانى» فى كتابه عن أبى الحسن الكيدرى أنّ الكتاب الذى سلم إلى على عليه السلام آخر الخطبة كان يقسم عشرة أسئلة هى:

۱- الذى خرج من بطن وليس له بولد؟

قال عليه السلام: يونس عليه السلام الذى خرج من بطن الحوت.

۲- ما كان قليله مباح وكثيره حرام؟

قال عليه السلام: نهر طالوت.

۳- العبادة التى يعاقب على الإتيان بها أو تركها؟

قال عليه السلام: الصلاة فى السكر.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۶۶

۴- الطائر الذى ليس له أصل (أم)؟

قال عليه السلام: الطائر الذى خلقه عيسى عليه السلام باذن الله.

۵- رجل مدين الف درهم وله الف درهم وضمنه آخر وكان له الف درهم، وقد مضى عليه عام، فالزكاة على أى من المالين؟

قال عليه السلام: إذا فعل الضامن ذلك باذن المدين فلا زكاة عليه، وإن فعله بدون إذنه وجبت عليه الزكاة.

۶- حج جماعة فنزلوا بيتاً فى مكة وأغلق أحدهم باب البيت فكان فيه طيور فماتت عطشا، فعلى من تجب الكفارة؟

قال عليه السلام: على من أغلق الباب ولم يخرج الطيور ولم يسقيها.

۷- شهد أربعة على رجل بالزنا، فأمرهم الإمام برجمه (لأنّه كان محصناً) فرجمه أحدهم وساعده جماعة وامتنع الثلاث. ثم رجع عن شهادته (وأقر بكذبه) ولم يمت المتهم. ثم مات وبعد موته رجع الثلاث عن شهادتهم. على من تجب دينه؟

قال عليه السلام: على ذلك الرجل والجماعة الذين ساعدوه ۵۲۴].

۸- هل تقبل شهادة يهوديين لثالث باعتناق الإسلام؟

قال عليه السلام: لا تقبل شهادتهما؛ لأنّهم يحرفون كلام الله ويجوزون الشهادة بالباطل.

۹- هل تقبل شهادة نصرانيين لنصرانى أو يهودى أو مجوسى بالإسلام؟

قال عليه السلام: تقبل لقوله سبحانه: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنّا نَصارى [۵۲۵].

۱۰- قطع شخص يد آخر، فشهد أربعة عند الإمام قطعت يده وقد زنا بمحصنة، فاراد الإمام أن يرجمه فتوفى قبل الرجم، فما حكمه؟

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۶۷

قال عليه السلام: تجب الدية على من قطع يده، لكن ان شهدوا أنّه سرق بحد النصاب فلا تجب الدية على القاطع ۵۲۶]. طبعا ما ذكر هو مضمون رواية مرسلة رويت عن الكيدرى ولم تثبت صحة سند الحديث، ولذلك هناك أبحاث كثيرة من وجهة النظر الفقيهة بشأن بعض الفروع المذكورة فى هذا الحديث.

۳- مميزات الخطبة الشقشقية

إنّ نظرة عامة إلى خطب نهج البلاغة تفيد أنّ الخطبة الشقشقية هى من الخطب التى قل نظيرها إن لم نقل لا نظير لها فى نهج البلاغة؛ الأمر الذى يثبت أنّ الإمام عليه السلام قد أوردها فى ظروف خاصة للحيلولة دون نسيان الحقائق المتعلقة بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه و آله لتخلد فى التاريخ ومن هنا أطلق عباراته بصراحة تامة. فقد أوضح الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة عدّة امور منها:

۱- أحقيته وجدارته بالخلافة التى بينها بوضوح وهذه هى الحقيقة التى إتفق عليها تقريباً كافة المحققين المسلمين وغير المسلمين، حتى إعترف معاوية أعدى أعداء الإمام عليه السلام با فضليته ۵۲۷].

۲- مظلوميته عليه السلام رغم أحقيته وكفائته.

۳- يفيد كلام الإمام عليه السلام عدم وجود مرجع واضح لانتخاب أى من الخلفاء الثلاثة، اضافة إلى المعايير المتعددة التى حكمت ذلك الانتخاب، فقد كانت خلافة أحدهم تستند إلى رأى واحد، وآخر لنصف من شورى سداسية وثالث لعدد من الآراء.

۴- ابتعاد الامّة فى عصر الخلفاء عن تعاليم النبى الأكرام صلى الله عليه و آله وتفاقم الازمات على مرور الزمان، بحيث كانت من أبلغ الصعوبات التى واجهت الإمام عليه السلام حين تولى الخلافة تكمن فى

نفحات الولايۀ، ج۱، ص: ۲۶۸

إعادۀ الامّۀ إلى القيم الإسلاميۀ التى كانت سائدۀ على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله.

۵- أنّ التهافت على الـدنيا والاغترار بزخرفها هو العامل الذى يقف وراء الفوضـى والاضـطراب والحروب التى نشبت على عهد الإمام على عليه السلام.

۶- أنّ ما حصل للإمام على عليه السـلام هو البيعۀ الحقيقۀ بعينها، غير أنّ عدالۀ على عليه السـلام وشدته فى الحق أثارت حفيظۀ بعض زعماء المجتمع لينقضوا البيعۀ ويقسط ويمرق آخرون.

۷- لم يكن للإمام عليه السلام أيۀ رغبۀ بالخلافۀ ولم يراها هدفا قط، بل هى وسيلۀ لاحقاق الحقابطال الباطل وبسط العدل والقسط.

۸- كانت الانتفاضات التى حـدثت فى زمان عثمان والتى أدت بالتالى إلى قتله طبيعيـۀ جداً ونتيجۀ لسـلوكه وبطانته من بنى اميۀ الذين سلطهم على رقـاب المسـلمين فجعلهم عمالًا وولاۀ على بعض المناطق فعبثوا ببيت المال واسـرفوا فى تبـذيره حتى ثارت الامّـۀ بعـد أن انطلقت شرارۀ الرفض من المناطق البعيدۀ عن مركز الخلافۀ كمصر والبصرۀ والكوفۀ.

۹- كانت المعارك الثلاث- الجمل وصـفين والنهروان- قـد فرضت على الإمام عليه السـلام من قبل الأفراد الذين لم يطيقوا عدله عليه السلام إلى جانب أولئك الذين يبحثون عن الجاه والمنصب.

۱۰- عدم انسـجام عقيدۀ تنزيه الصـحابۀ وعدالتهم لمجرّد صحبتهم مع أى من المعايير والوقائع التاريخيۀ؛ وهو الاعتقاد الذى يقود إلى التناقض، فاصـحاب فتنۀ الجمل هما إثنان من الصحابۀ وصاحب صفين من الصحابۀ أيضا بينما كانت طائفۀ من الصحابۀ من مشعلى نار النهروان وقد خرج جميع هولاء على إمام زمانهم فاختاروا سبيل البغى وشق عصا الامّۀ الإسـلاميۀ وبث الفرقۀ والاختلاف فى صـفوفها. فكيف والحال هذه نقول على عليه السلام.

على الحـق وطلحـۀ والزبير ومعاويـۀ كـذلك؟! أمّـا الاسـتدلال بالاجتهـاد فى هـذه الامور فهـو توجيه يفتقر إلى المنطق ومـدعاۀ حـتى لارتكاب الكبائر.

نفحات الولايۀ، ج۱، ص: ۲۶۹

الخطبۀ الرابعۀ

اشارۀ

ومن خطبۀ له عليه السلام

و هى من أفصح كلامه عليه السلام وفيها يعظ الناس ويهديهم من ضلالتهم ويقال:

«إنّه خطبها بعد قتل طلحۀ والزبير»

نظرۀ إلى الخطبۀ

يمكن أن تكون هـذه الخطبـۀ كما يفهم من عنوانها قـد وردت بعـد أحـداث معركـۀ الجمل وقتل طلحۀ والزبير فهى تتحدث عن وقائع المعركۀ والدروس والعبر التى ينبغى أن يتعلمها المسلمون. حيث يمكن خلاصۀ الخطبۀ فى محاور رئيسيۀ ثلاث:

۱- التصـريح بهذه الحقيقۀ وهى هدايۀ الامّۀ من الظلمات بواسـطۀ أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله حتى بلغت ذروۀ تكاملها ورقيها، وعليه فعليها أن تعيرهم آذانا صاغيۀ وتتفاعل مع مواعظهم ونصائحهم.

۲- إنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بالخيانۀ ونقض العهود والتمرد، إلّاأنّ جلباب الدين لم يدعه يكشف تلك الحقائق.

۳- يشير الإمام عليه السلام فى المقطع الأخير من الخطبة إلى أنّ اليوم لم يعد يوم التستر على الحقائق؛ لابدّ من إعلان هذه الحقائق وإلّا يخشى على الامّة من الضلال وهذا بذاته ما يجعل الإمام عليه السلام يعيش هاجس القلق.

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۲۷۱

القسم الأول: التحلى بالوعى واليقظة

اشارة

«بِنـا اهْتَـدَيْتُمْ فِى الظَّلْمـاءِ، وَتَسَـنَّمْتُمْ ذُرْوَةَ الْعَلْيـاءِ، وَبِنـا أَفْجَرْتُمْ عَنِ السِّرارِ وُقِرَ سَـمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الْواعِيَةَ، وَكَيْفَ يُراعِى النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ؟ رُبِطَ جَنانٌ لَمْ يُفارِقْهُ الْخَفَقانُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى بداية الخطبة إلى النعم الجمة التى تمتع بها المسلمون- ولا سيما فى صدر الإسلام- فى ظل الإسلام، حيث وضح هذا الأمر بثلاث عبارات قصيرة ذات تشبيهات رائعة فقال عليه السلام:

«بنا إهتديتم ۵۲۸] فى الظلماء[۵۲۹] وتسنمتم ۵۳۰] ذروة[۵۳۱] العلياء، وبنا افجرتم ۵۳۲] عن السرار[۵۳۳]»

. فالإمام عليه السلام يشير فى العبارة الأول إلى ظروف الجاهلية التى خيم فيها الظلام والجهل والفساد والجريمة على كافة الأماكن حتى تبددت هذه الظلمات بظهور النبى صلى الله عليه و آله

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۲۷۲

وانبثاق الدعوة الإسلامية ليهتدى الناس إلى الصراط المستقيم ويتجهون نحو الهدف المنشود.

ويشبه فى العبارة الثانية حركة الرقى والتكامل والازدهار بالجمل ذى السنام (حيث اقتبست المفردة تسنتم من مادة سنام أعلى قمة فى الجمل) فقال عليه السلام لقد بلغتم هذه الذروة وقطعتم مسيرة الرقى والتكامل فى ظل الإسلام؛ الحقيقة التى إذعن لها جميع مؤرخى الشرق والغرب فى كتبهم التى تعرضوا فيها للمدنية الإسلامية وحضارتها. ثم شبه فى العبارة الثالثة أوضاع المجتمع الجاهلى بليالى الشهر الظلماء والمحاق (حيث تعنى السرار الليالى التى لايبزغ فيها القمر أبداً) فقال عليه السلام: «و بنا أفجرتم عن السرار». والواقع هو أنّ هذه التعبيرات إنّما تنبع من القرآن الذى شبه الإسلام والإيمان والوحى بالنور، فقال: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ»[۵۳۴] وقال فى موضع آخر: «قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِهِ»[۵۳۵] وقال: «وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ»[۵۳۶]- ثم يذم عليه السلام الأفراد الذين صخت آذانهم عن سماع الحق بينما يثنى على غيرهم من ذوى الاسماع فقال عليه السلام:

«وقر سمع لم يفقه الواعية»

. تستعمل مفردة «الوقر» بشأن الصمم كما تستعمل فى ثقل السمع، والمراد بالواعية الأصوات المرتفعة، وهى إشارة لآيات القرآن التى تقرع الاسماع بشأن المسائل المهمّة العقائدية والعملية والأخلاقية وكذلك السنة النبوية الشريفة. أمّا التعبير «لم يفقه» بدلًا من «لم يسمع» تفيد عدم جدوى السمع مالم يصحبه الإدراك والفهم. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال:

«وكيف يراعى النباة[۵۳۷] من أصمته

الصيحة»[۵۳۸]

. والمراد كيف يصغى لى ويستمع قولى من لايراعى أو امر اللَّه ونبيّه صلى الله عليه و آله فقد شبه

نفحات الولايهٔ، ج ۱، ص: ۲۷۳

ذلک بمن أصمته الصيحهٔ القويهٔ فانه محال أن يراعى بعد ذلک الصوت الضعيف. ولما كانت هنالک الفئهٔ الاخرى المتعصبهٔ للحق فقد قال عليه السلام:

«ربط جنان ۵۳۹] لم يفارق الخفقان ۵۴۰].

ملاحظهٔ

الهدايهٔ فى ظل أهل البيت عليهم السلام

ما مر معنا فى هذا القسم من الخطبهٔ هو إشارهٔ إلى واقعهٔ تأريخيهٔ مهمّهٔ تتضح من خلال مقارنهٔ عصر العرب الجاهلية بعصر التطور والازدهار الذى أعقب بزوغ شمس الإسلام، كيف كان عرب الجاهليهٔ من حيث العقائد الدينيهٔ والقضايا المتعلقهٔ بالمبدأ والمعاد والنظام الاجتماعى ونظام الاسرهٔ والأخلاق والتقوى والأوضاع الاقتصاديهٔ وكيف أصبحت هذه الامور أبان انبثاق الدعوهٔ الإسلاميهٔ ونزول القرآن الكريم. والحق أن التفاوت بينهما إلى درجهٔ من المدى والعمق بحيث لايمكن سوى نعته بالمعجزهٔ الكبرى وإلّا تعذر تصور ذلک التفاوت. فما صوره الإمام عليه السلام فى هذه الخطبهٔ لم يكن سوى الظلام المطلق الذى القى بظلاله على جميع المجتمع، ولم يكد ينبثق الإسلام حتى تبددت هذه الظلمهٔ بفجر الإسلام ليأخذ بيد المجتمع إلى العلم والمعرفهٔ والثقافهٔ والحضارهٔ والمدنيهٔ. ولم تكن سوى إشارهٔ قصيرهٔ ولا يمكن الالمام بتفاصيلها إلّابالرجوع إلى الكتب التى ألفت بشأن الحضارهٔ الإسلاميهٔ. كما وردت بعض التفاصيل فى سائر خطبه عليه السلام فى نهج البلاغهٔ.

نفحات الولايهٔ ؛ ج ۱ ؛ ص ۲۷۳

نفحات الولايهٔ، ج ۱، ص: ۲۷۵

القسم الثانى: كنت أتوقع غدركم، ولكن ...

اشارهٔ

«ما زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَواقِبَ الْغَدْرِ وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ، حَتَّى سَتَرَنِى عَنْكُمْ جِلْبابُ الدِّينِ، وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ فِى جَوادِّ الْمَضَلَّةِ، حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلا دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلا تُمِيهُونَ».

الشرح والتفسير

لقد خاطب الإمام على عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبهٔ- سليلى أصحاب الجمل من تبقى منهم قائلًا:

«مازلت انتظر بكم عواقب الغدر، واتوسمكم ۵۴۱] بحليهٔ المغترين ۵۴۲]»

. فقد روى أنّه لما بويع علىّ عليه السلام كتب إلى معاويهٔ: أمّا بعد فإنّ الناس قتلوا عثمان عن غير مشورهٔ منّى وبايعونى عن مشورهٔ منهم واجتماع، فإذا أتاک كتابى فبايع لى، وأوفد إلىّ أشراف أهل الشام قبلک.

فلما قدم رسوله على معاويهٔ، وقرأ كتابه، بعث رجلًا من بنى عميس، وكتب معه كتاباً إلى الزبير بن العوام، وفيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله الزبير أميرالمؤمنين من معاويهٔ بن أبى سفيان:

سلام عليك، أمّا بعد، فإنّى قد بايعت لك أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبى طالب، فإنّه لا شيء بعد هذين

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۷۶

المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبيدالله من بعدك، فأظهر الطلب بدم ثمان، وادْعُوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجدّ والتشمير، أظفركما الله، وخذل مناوئكما! فلما وصل هذا الكتاب إلى الزبير سُرّ به، وأعلم به طلحة وأقرأه إياه، فلم يشكاً فى النصح لهما من قبل معاوية، وأجمعا عند ذلك على خلاف على عليه السلام.

جاء الزبير وطلحة إلى على عليه السلام بعد البيعة بأيام، فقالا له: يا أميرالمؤمنين، قد رأيت ما كنّا فيه من الجفوة فى ولاية عثمان كلّها، وعلمت رأى عثمان كان فى بنى أمية، وقد ولّاك اللَّه الخلافة من بعده، فولّنا بعض أعمالك، فقال لهما: ارضيا بقسْم الله لكما، حتى أرى رأيى، واعلما أنّى لا أشرك فى أمانتى إلّامن أرضى بدينه وأمانته من أصحابى، ومن قد عرفت دخيلته، فانصرفا عنه وقد دخلهما اليأس، فاستأذناه فى العمرة.

طلب طلحة والزبير من على عليه السلام أن يولِّيهما المصرين: البصرة والكوفة، فقال حتى أنظر. ثم استشار المغيرة بن شعبة، فقال له: أرى أن تولِّيَهما إلى أن يستقيم لك أمر الناس. فخلا بابن عباس، وقال: ماترى؟ قال: يا أميرالمؤمنين، إنّ الكوفة والبصرة عَيْن الخلافة، وبهما كنوز الرجال، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمت، ولستُ آمنهما إن ولّيتَهُما أن يُحْدِثا أمراً. فأخذ على عليه السلام برأى ابن عباس.

لما خرج الزبير وطلحة من المدينة إلى مكّة لم يلقيا أحدا إلّاوقالا له: ليس لعلى فى أعناقنا بيعة، وإنّما بايعناه مكرَهين. فبلغ علياً عليه السلام قولهما، فقال: أبعدهما اللَّه وأغرب دارهما، امّا واللَّه لقد علمتُ أنّهما سيقتُلان أنفسهما أخبث مقتل، ويأتيان من وردا عليه بأشأم يوم، واللَّه ما العُمرةَ يريدان، ولقد أتيانى بوجهى فاجريْن، ورجعا بوجهى غادرين ناكثين، واللَّه لا ـ يلقياننى بعد اليوم إلّافى كتيبة خشناء، يقتلان فيها أنفسهما، فبُعْداً لهما وسحقاً.[۵۴۳]

ثم أضاف عليه السلام أنّ لباس الدين وجلبابه هو الذى يجعلنى أغض الطرف عنكم (ولا أهتك سريرتكم):

«حتى سترنى عنكم جلباب ۵۴۴] الدين، وبصرنيكم صدق النيّة»

. والواقع هو أنّ عبارة الإمام عليه السلام إجابة عن سؤالين هما: أولًا: لو كان الإمام عليه السلام يتوقع نقضهم للعهد ويتوسم

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۷۷

ذلك فيهم فلم لم يعلن ذلك على الملأ؟ وثانياً: من أين له هذا العلم بباطن هؤلاء؟ فقد رد الإمام عليه السلام على السؤال بقوله: «سترنى عنكم جلباب الدين» ورد على السؤال الثانى بقوله «وبصرنيكم صدق النية». بينما ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى تفسير العبارة الاولى بانّكم لم تعرفونى، وما ذلك إلّالسوء فهمكم للدين، أو أن تدينى منعكم من معرفتى؛ إلّاأنّ هذا المعنى يبدو مستبعداً لما ينطوى عليه من تكلف إلى جانب عدم إنسجامه والعبارات السابقة، فالمعنى الأول هو الأنسب. ثم إختتم كلامه عليه السلام بالقول:

«أقمت لكم على سنن الحق فى جواد[۵۴۵]

المضلة[۵۴۶] حيث تلتقون ولادليل، وتحتقرون ولاتميهون»[۵۴۷]

يشبه الإمام على عليه السلام الناس فى عصر عثمان ولا سيما أواخر عمره بالرحالة الذين ضلوا الطريق وساروا على غير هدى فهم يتضوون عطشاً وهم يحفرون الأرض موضعاً موضعاً من أجل الوصول إلى الماء فلا يحصلون عليه؛ فيهب الإمام عليه السلام لنجدتهم فيهديهم إلى الصراط المستقيم فينتهلون من منهله العذب. ثم يلفت إنتباههم إلى عظم الفتن الدينية والدنيوية التى كانت ستلتهمهم فى ذلك العصر المظلم لولا وجوده عليه السلام.

تأمّلان

۱– البصيرة

لقـد أشـار الإمـام عليه السـلام إلى قضـية مهمّـة وهى أنّ صـفاء النفس وصـدق النيـة من العناصـر التى تكمن وراء البصـيرة والفراسـة. فالمؤمنون الأصـفياء الباطن يرون ما لايرى غيرهم، وهى الحقيقـة التى صـرّح بها القرآن الكريم وأكدتها الروايات الإسـلامية. فقد جاء فى القرآن: «ان تتقوا اللّه يجعـل لكم فرقانـاً»[۵۴۸]. وورد فى الحـديث المعروف عن النبى صـلى الله عليه و آله أنّه قـال: «إتقوا فراسـة المؤمن فانّه ينظر بنور اللّه»[۵۴۹] وقال الإمام الرضا عليه السلام:

«ما من مؤمن إلّاوله فراسة ينظر

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۲۷۸

بنور اللّه على قـدر إيمـانه ومبلغ إسـتبصاره وعلمه وقـد جمع اللّه للائمـة منّا ما فرقه فى جميع المؤمنين وقال عز وجل فى كتابه: إن فى ذلـك لآيـات للمتوسـمين. وإن أول المتوسـمين رسولاللّه صـلى الله عليه و آله ثم أميرالمؤمنين عليه السـلام وبعـده الحسن والحسـين عليهما السلام والائمة عليهم السلام من ولد الحسين إلى يوم القيامة»[۵۵۰]

جـدير بالـذكر أنّ الإمـام عليه السـلام أورد هـذا الكلام جواباً لمن سأله: كيف تعلمون بباطن الناس وتخبرون عمّا فى أنفسـهم. والحق ليس هنالك من حجاب مضـروب على حقائق العالم، وليس ذلك سوى حجاب الهوى والهوس الشيطانى الذى يغشى بصيرتنا فيحول دون رؤيتنـا للحقـائق، ولو إستشـعرنا قلوبنا الورع والتقوى والإيمان واليقين فان هـذه الحجب سترفع ونرى كل شـىء على حقيقته، فقد ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«لولا أنّ الشياطين يحومون إلى قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت»[۵۵۱].

۲– ستر عيوب الناس

غالبا ما يتصف الأفراد بالعيوب الخفيـة التى قـد يطلع عليها الإنسان من خلال الطرق العادية أو إسـتناداً إلى الفراسة والإيمان؛ فاذا إطلع عليها فانّ الواجب يحتم عليه- ولاسيما إذا إطلع ذلك ولاة الامّة وقادة المجتمع- أن يسعى جاهداً لسترها وعدم هتك حجابها مادامت لاتشـكل خطرا يتهـدد المجتمع؛ وذلـك لأـن هتـك سـريرة الآخرين وكشف عيوبهم يجردهم من حرمتهم من جانب ويفسـح المجال أمامهم لارتكاب المعاصـى والجرأة على مقارفتها من جانب آخر؛ فالفرد يبقى محتاطاً مادام عيبه مسـتور، فانّ هتك وافتضـح أمره فلا يراع شـيئاً، وناهيك عن كل ذلك فان هتك العيوب مـدعاة لاشاعـة الفاحشـة فى المجتمع وتلوث الآخرين بارتكاب الذنب. ومن هنا ورد التأكيد فى الروايات والأحاديث على كتم السر على أنّه حق من حقوق المؤمنين على بعضهم البعض الآخر. فقد جاء فى الحديث:

«واكتم سره وعيبه واظهر منه الحسن»[۵۵۲]

. وعن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال:

«من ستر على مؤمن عورة يخافها ستر اللّه

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۲۷۹

عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة»[۵۵۳]

فقـد أشـار الإمام على عليه السـلام إلى هـذه الوصـية الإسـلامية وأعلن طاعته وامتثاله لها، وبالطبع فقـد قلنا إنّما يكون ذلك مالم تقود

تلك العيوب التى يراد سترها إلى بعض المشاكل الاجتماعية التى تهدد كيان المجتمع، وإلّا فالوظيفة تقتضى إعلان الحقائق. ولكن لاينبغى التذرع بهذا الاستثناء من أجل هتك عيوب الناس وأسرارهم.

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۲۸۱

القسم الثالث: اليوم أكشف الحجاب

اشارة

«الْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْماءَ ذاتَ الْبَيانِ! عَزَبَ رَأْىُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّى! مَا شَكَكْتُ فِى الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ! لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عليه السلام خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلالِ الْيَوْمَ تَواقَفْنا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْباطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِماءٍ لَمْ يَظْمَأْ».

الشرح والتفسير

لقد تضمن هذا القسم من الخطبة عدّة عبارات أشارت لعدة امور مهمّة، ويبدو أنّ هنالك عدّة جمل تخللت هذه العبارات قد أسقطها السيد الرضى رحمه الله حين التلخيص، فقد كانت عادة السيد فى إختيار مقتطفات من الخطب وحذف بعض العبارات، على كل حال فانّ الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام هنا هو قوله:

«اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان»

. والعجماء البهيمة التى لانطق لها، إلّاأنّها تطلق أحيانا على الحوادث والقضايا الصماء التى ليست لها قابلية على النطق. ومن هنا يرى أغلب شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد بالعجماء الحوادث التى تنطوى على العبر والدروس التى حدثت على عهد الإمام عليه السلام أو العهود الماضية وكل حادثة مع غموضها وخفائها فكأنّها تنطق لأولى الألباب. فالإمام عليه السلام يتعرض لبيان عبرها ودروسها التى ينبغى أن يتعظ بها المسلمون. كما ذهب البعض إلى أنّ المرادبها صفاته الكمالية عليه السلام أو الأوامر الإلهية فكأنّها هى الاخرى صامتة والإمام عليه السلام يكشف عن منطقها. ثم قال عليه السلام فى العبارة الثانية:

«عزب رأى إمرئ تخلف عنى، ما شككت فى الحق مذ اريته»

فى الواقع يبدو صدر وذيل هذه العبارة من قبيل العلة والمعلول أو الدليل والمدعى، وإذا أخذ بنظر الاعتبار تربية الإمام عليه السلام فى

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۲۸۲

حضن النبى صلى الله عليه و آله على الحق والاستقامة وبفضله كاتب الوحى وشاهد المعاجز والأعظم من ذلك كونه باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه و آله إلى جانب علمه بالشهود إضافة لعلمه بالظاهر فانّ كلامه عليه السلام لايعرف معنى للاغراق والمبالغة قط. واحتمل بعض الشرّاح أنّ جملة «عزب رأى إمرئ ...» من قبيل الدعاء؛ أى بعدا وترحا لمن تخلف عن أوامرى. ويبدو المعنى الأول أنسب، أمّا العبارة الثالثة فقد أورد فيها الإمام عليه السلام رداً على سؤال قد يقتدح فى ذهن البعض بعد موقعة الجمل وهو: لم كان الإمام عليه السلام قلقاً من أحداث تلك الموقعة؟ فالإمام عليه السلام يجيب بانّ هذا القلق ليس على نفسه قط، بل خشية من تسرب الشك والريب إلى قلوب عوام الناس بفعل إقتحام الميدان من قبل زوج النبى صلى الله عليه و آله وبعض الصحابة من قبيل طلحة والزبير وارتفاع الأصوات المطالبة بدم عثمان؛ كالقلق الذى عاشه موسى عليه السلام حين واجهه السحرة بسحرهم خشية غلبتهم واضلال الناس

«لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه بل أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال»

. وهى إشارة إلىالآيات التى وردت فى سورة طه بشأن موسى عليه السلام والسحرة «قالُوا يا مُوسى إِمّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ

مَنْ أَلْقى قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى [۵۵۴]. أمّا فى العبارة الرابعة فيحذر من تبقى من مثيرى فتنة الجمل فى أننا وإيّاكم قد وقفنا على مفترق طرق نتجه فيه إلى الحق بينما تتجهون نحو الباطل «اليوم توافقنا[۵۵۵] على سبيل الحق والباطل»

. كأنّ الإمام عليه السلام يقول لهم، افتحوا أعينكم وانظروا إلى ما أنتم عليه فانكم إنّما خرجتم على إمام زمانكم! لقد نكثتم البيعة ولم تقيموا حرمة للمواثيق! لقد شققتم عصا المسلمين وفرقتم صفوفهم! وسفكتم دماءاً غزيرة! وقلدتم أنفسكم مسؤولية كبرى ستطيل وقوفكم أمام اللَّه يوم القيامة! ارجعوا إلى رشدكم واعيدوا النظرا فى أوضاعكم!. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته بقوله:

«من وثق بماء لم يظلمأ»

مراده عليه السلام أنّ من كان له واعظ وقائد موثوق لايتسلل إليه الشك والترديد والوساوس الشيطانية والقلق والاضطراب وإنعدام الثقة؛ وذلك لأنه يرى نفسه على جرف ماء المعرفة الفرات العذب ويلوذ بامامه عند الفزع فيأتمر بأوامره

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۸۳

والاستضاءة بنور علمه. وأنتم كذلك لو عرفتم زعيمكم ووثقتم به فاعلموا أنّكم سائرون على الحق وآمنون من كافة أشكال الشكوك و الأهواء النفسية والوساوس الشيطانية.

الصراع بين الحق والباطل

لقد شبه الإمام عليه السلام الحق والباطل بطريقين سلك فريق أحدهما والآخر الثانى، وإذا أردنا تفسير هاتين المفردتين باختصار، فلابدّ أن نقول بانّ الحق هو الواقع والباطل هو الخيال والسراب الذى يحسبه الظمآن ماء. ومن هنا فان الذات الإلهية المقدسة التى تعدّ أعظم من كل واقع اكتسبت أول اسم وهو الحق، وغيره على الحق بقدر إرتباطه به وكلما ابتعد عنه فهو على الباطل. فعالم الإمكان لانتمائه للَّهفهو حق، وهو باطل لامتزاجه ببعض جوانب العدم. فالعالم ميدان لصراع الحق والباطل وقد صور القرآن الكريم أبعاد هذا الصراع وعاقبتهنتائجه بمثال رائع فى سورة الرعد حيث قال: «أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءاً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَ مِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالباطِلَ فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذهَبُ جُفاءاً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثالَ»[۵۵۶].

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۸۵

الخطبة الخامسة

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

لما قبض رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم وخاطبه العباس وابوسفيان بن حرب فى أن يبايعا له بالخلافة (و ذلك بعد أن تمت البيعة لأبى بكر فى السقيفة وفيها ينهى عن الفتنة ويبين عن خُلقه وعلمه)[۵۵۷].

نظرة إلى الخطبة

هذه واحدة من الخطب التى نقلت عن الإمام عليه السلام فى أنّها خطبها قبل خلافته. والذى يستفاد من هذه الخطبة والمقدمة التى أوردها الشريف الرضى (ره) عليها أن أباسفيان والعباس إنطلقا إلى على عليه السلام بعد وفاة رسولاللَّه صلى الله عليه و آله (و لعل

أباسـفيان دفع العبـاس إلى ذلك) واقترحا على الإمام عليه السـلام النهوض بالأمر والبيعـة له على أنه خليفـة رسول الله صـلى الله عليه و آله. إلّاأنّ الإمام عليه السـلام الـذى كان يحرص على بيضة الإسـلام واسـتناداً إلى علمه التام بالظروف التى كانت تهدد الدين آنذاك وضـرورة قبر المؤ امرات والفتن فى مهـدها ليس فقـط لم يجبهم لتلك البيعـة نحسب، بل حـذرهما بكل صـرامة من مغبـة هـذا العمل ونصحهما بالابتعاد عنه. ولما كان عليه السلام

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۲۸۶

عالما ببعض المغرضـين أو الجهال الذين قد يشـكلون على سـكوته فقد رد عليه السلام على هذا الإشكال، ثم إختتم كلامه ببيان مدى عشقه للموت وانطوائه على العلم الذى لايسع الآخرين سماعه فضلا عن احتماله. ولم يأذن له فى الكشف عن أسراره.

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۲۸۷

القسم الأول: احذروا مثيرى الفتن

اشارة

«أَيُّها النَّاسُ شُـقُّوا أَمْواجَ الْفِتَنِ بِسُـفُنِ النَّجـاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنافَرَةِ، وَضَـعُوا تِيجانَ الْمُفاخَرَةِ. أَفْلَـحَ مَنْ نَهَضَ بِجَناحٍ، أَوِ اسْتَسْـلَمَ فَأَرَاحَ. هَذَا مَاءٌ آجِنٌ، وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا. وَمُجْتَنِى الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِيناعِها كالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِه».

الشرح والتفسير

إنّ سـبب هذه الخطبة هو: لما قبض رسول‌اللَّه صـلى الله عليه و آله واشـتغل على عليه السـلام بغسله ودفنه وبويع أبوبكر فى سقيفة بنى ساعـدّة، خلا الزبير وأبوسـفيان بالعباس عم النبى صـلى الله عليه و آله وقال: امّا واللَّه إنى لأرى عجاجة لايطفئها إلّاالدم، يا لعبد مناف، فيم أبوبكر من أمركم، مابال هذا فى أقل حى من قريش. ثم قال لعلى عليه السلام أبسط يدك أبايعك، فو اللَّه إن شئت لأملأنها على أبى فضـيل- يعنى أبابكر- خيلًا ورجلًا، فامتنع على عليه السـلام حيث كان يعلم الإمام عليه السلام بأنّه لاينشد سوى الفساد والفتنة ومن هنا خطب هذه الخطبة.[۵۵۸] واورد المؤرخ المعروف ابن أثير فى كتـابه الكامـل أنّ علياً عليه السـلام ردّ على أبى سـفيان بانّك تريد الفتنة ولاتضـمر للإسلام سوى الشر فلا حاجة لنا بنصحك.[۵۵۹] ومن هنا تتضح أجواء الخطبة وسـهولة تفسير ماورد فيها من عبارات. فقد أشار عليه السلام فى القسم الأول من هذه الخطبة إلى أربعة مواضيع مهمّة. فقال عليه السلام:

«أيّها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة وعرجوا[۵۶۰] عن طريق المنافرة[۵۶۱]، وضعوا تيجان المفاخرة».

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۲۸۸

قوله عليه السـلام أيّها الناس يفيد حضور عدد كبير من الناس فضـلًا عن ذانك الفردين. ويؤيد هذا المعنى بعض الروايات الواردة بهذا الشأن. والنقطة الجديرة بالذكر أنّ الإمام عليه السـلام شـبه الفتن بالأمواج العاتية الكاسـحة والتى يوصـى بمجابهتها من خلال الاعتصام بسـفن النجـاة. والمراد بسـفن النجـاة تلك السـفن العملاقـة التى تشق عباب البحر ولاتصـمد أمامها الرياح العواتى فتبلغ بركابها شاطئ الأمان، ويراد بهم هنا الزعماء الربانيين ولاسـيما أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله ۵۶۲]، أى إسمعوا وأطيعوا لما نقول لا لما تريدون، وللتأكيد على هذا المعنى فقد شـبه عليه السـلام التفاخر القبلى والفئوى بالطريق الخطير المرعب الذى ينبغى إجتنابه (لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ المعنى الأصـلى للمنافرة هو أن يذكر كل واحد من الرجلين مفاخره وفضائله، ثم يتحاكما إلى ثالث)- فالواقع هو أنّ الإمام عليه السـلام أراد بهـذا الكلاـم القيم أن يركز على العامـل الأصـلى لآلام البشـرية ومعاناتها، التى تفرزها على الـدوام الحروب الـدموية والاختلافات والنزاعات والاقتتالات التى تسـتند إلى التفاخر؛ فاذا ما حطم هذا الصنم أمكن حل كافة مشاكل المجتمعات البشرية وعاد

إلى الـدنيا الأمن والصلح والسلام. طبعا صحيح أنّ طلاب القدرة والمنصب إنّما يتقنعون بالـدفاع عن حقوق المجتمع وحفظ القيم والمثل، ولكن ليس هنا لك من يشك فى أنّهم إنّما يتظاهرون بهذه الشعارات من أجل تحقيق أغراضهم ومآربهم بغية التفاخر على الآخرين. ثم قال عليه السلام:

«أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فاراح»[۵۶۳]

. فالإمام عليه السلام أشار إلى نقطة أساسية هى أنّ القيام بالحق تتطلب بعض الشرائط؛ فلو توفرت هذه الشرائط لما ترددت فى القيام بالأمر، أمّا إذا لم تتوفر فالعقل والمنطق والدين لايحكم بأنّ القيام ليس بمجدٍ فحسب، بل من شأنه أن يثير الفرقه والاختلاف والاذى والمعاناة للآخرين كما يؤدى إلى القضاء على القوى الناهضة بالحق، وهذا أصل من الاصول الثابتة التى ينبغى رعايتها فى كافة الانشطة الاجتماعية ولاسيما فى النهضات والثورات السياسية. أمّا النقطة الاخرى التى تطرق إليها الإمام عليه السلام فانّما تكمن فى

مسألة الخلافة والأخذ بزمام امور الامّة التى جعلها البعضى شماعة ليجيزوا حتى الوسائل غير المشروعة من أجل الوصول إليها فقال عليه السلام:

«هذا ماء آجن ۵۶۴]، ولقمة يغص ۵۶۵] بها آكلها»

. فحياة الإنسان متقومة بالماء والغذاء، ولكن أى ماء وغذاء؟ طبعا الماء النقى والغذاء الزكى، فالإمام عليه السلام شبه هنا طبيعة الحكومة بالماء المتعفن والغذاء الغصة. والحق كما صوره الإمام عليه السلام، فالإنسان كلما إقترب من حياة الحكام والساسة إكتشف مدى عظم مشاكلهم وشدة إستيائهم ووخامة أوضاعهم، فليس لهم من هدوء ولاسكينة كما ليس لهم من أمن أو إستقرار. وليس لهم سوى المظاهر الكاذبة الفارغة التى لاتنطلى سوى على بعض السذج. وبالطبع فان أولياء اللّه يسارعون لاحتواء هذه المشاكل ويتحملون كافة الصعاب والمعضلات كما يضحون بهدوءهم واستقرارهم خدمة لدين اللّه وعباده. كما ذهب البعض إلى أنّ اسم الإشارة (هذا) يشير إلى نوع الحكومة التى إقترحها أبوسفيان. على كل حال صحيح أن الحكومة كالماء الذى يعدّ قوام حياة الامم، إلّاأنّها كانت ومازالت مطمع أهل الدنيا الذين هبوا بكل قوة لمنازعة أولياء اللّه على تلك الحكومة فلوثوا هذا الماء كما جعلوا طعام الحياة غصصاً؛ الأمر الذى جعل الأولياء يترفعون عنها ويعلنوها صراحة

«لولا حضور الحاضر وقيام الحجة ... لألقيت حبلها على غاربها ولألفيتم دنياكم هذه أهون عندى من عفطة عنز»

. امّا فى النقطة الرابعة فيشير إلى أحد أبعاد هذه المسألة وهو أن من أراد القيام بالأمر لتشكيل الحكومة الإسلامية فلابدّ أن تكون المقدمات والظروف معدة لذلك أو أن يتولى هو تهيئة هذه الظروف وإلّا فليست هنالك من قيمة أو أثر لهذا القيام ولايتمخض سوى عن الهزيمة والفشل- فقد قال الإمام عليه السلام بهذا الشأن:

«و مجتنى الثمرة لغير وقت إيناعها[۵۶۶] كالزارع بغير ارضه»

. وقد ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ الضمير فى (بغير أرضه) يعود إلى الزارع ومفهوم العبارة: كمن زرع فى غير أرضه ولاينتفع بذلك الزرع بل يعود ثمره على الآخرين؛ إلّاأنّ

ضعف هذا التفسير يبدو واضحاً من خلال كلام الإمام عليه السلام الذى قرن ذلك بجنى الثمار غير الناضجة. وهنا لابدّ من القول بانّ هذه العبارات قد تناولت الاصول الأساسية والدروس القيمة المعتمدة فى تشكيل الحكومات الإلهية؛ الأمر الذى يدعو دعاة الحق وعشاق العدالة لعدم الانفعال بالعواطف والاحاسيس العابرة والاقتصار على الدراسات المحدودة من أجل ممارسة أنشطتهم وعليهم أن يتربصوا بكل اناة وتحسب للوقوف على توفر الشروط وتأهب القوى وإن إحتاج هذا الأمر لمدّة من الزمان، على غرار المزارعين الذين لايقصدون قطف الثمار غير الناضجة رغم حاجته القصوى لهذه الثمار من أجل توفير قوته أو تسويقها وبيعها بغية تغطية حاجاته

الأساسية، أضف إلى ذلك فانّ المزارع الماهر لايغرس بذوره فى أرض ليست خصبة أبدا، بل يتأنى قبل ذلك بحرث الأرض وسقيها بالماء ثم ينثر بذره.

سكوت الإمام عليه السلام بعد النبى صلى الله عليه و آله

يتساءل الكثيرون لماذا لم ينهض الإمام على عليه السلام بالأمر بدلًا من السكوت رغم كونه الأجدر والأحق بخلافة رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله إلى جانب تأكيدات النبى صلى الله عليه و آله على إستخلافه بما يثبت أنّ الخلافة من حقوقه المسلمة بل من حقوق الامّة الإسلامية؟

و يبدو أنّ الإجابة على هذا السؤال قد وردت فى العبارات القصيرة البعيدة المعنى فى هذه الخطبة، حيث ذكر بعض الأسباب التى دعته لعدم القيام والنهوض بالأمر. أولها عدم إنطواء الأفراد- كابى سفيان- على حسن النية فى اقتراح النهوض بالأمر والتصدى للخلافة، أو أنّهم- كالعباس- كانوا ممن دفعوا من أصحاب الاغراض السيئة؛ الأمر الذى جعل الإمام عليه السلام يتعامل مع هذه الاقتراحات كفتن وبلا بل تستهدف القضاء على المسيرة ولم يكن معه الا القليل، وهذا ما صرّح به الإمام عليه السلام:

«فنظرت فاذا ليس لى معين إلّاأهل بيتى، فضننت بهم عن الموت، وأغضيت على القذى وشربت على الشجا، وصبرت على أخذ الكظم، وعلى أمر أمرّ من طعم العلقم»[۵۶۷]

وناهيك عن كل ذلك فانّ الخلافة والحكومة لم تكن هدفا بالنسبة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۹۱

للإمام عليه السلام حيث كان يراها الإمام عليه السلام كالماء الآسن المتعفن والطعام المنغص؛ بل يراها وسيلة لاحقاق الحق وإبطال الباطل «قال عبداللّه بن عباس: دخلت على أميرالمؤمنين عليه السلام بذى قار وهو يخصف نعله. فقال لى: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها! فقال عليه السلام: واللّه لهى أحب إلى من إمرتكم، إلّاأن اقيم حقا، أو أدفع باطلًا»[۵۶۸]. إلّاأنّ الإمام عليه السلام حين يرى هذا القيام لايؤدى إلى تحقيق الهدف، بل بالعكس إنّما يثير الخلاف والشقاق والفرقة فى صفوف المسلمين ولعله يتيح الفرصة للمنافقين الذين يتربصون بالاسلام الدوائر فلا يرى هناك من سبيل سوى الصمت والسكوت. وقد أورد ابن أبى الحديد أن فاطمة عليها السلام حدثت الإمام عليه السلام بالنهوض بالأمر، فلما ارتفع صوت المؤذن «أشهد أنّ محمداً رسول‌اللّه» إلتفت إليها قائلًا: أيسرك زوال هذا النداء من الأرض؟ قالت: لا. قال: فلابدّ من الصبر والسكوت ۵۶۹]. وبغض النظر عمّا تقدم فان كل عمل- ولاسيما النهضات الاجتماعية الإسلامية- يتطلب بعض المقدمات ولابدّ من توفر كافة الشروط اللازمة، وإلّا فليست هنالك من نتيجة سوى الهزيمة والفشل والخذلان وهدر طاقات الامّة وتبديد قواها، وهذا الأمر أشبه بقطف الثمار غير الناضجة أو نثر البذور فى الأرض المالحة. ومن هنا كان الإمام عليه السلام قيامه يكمن فى السكوت والصمت.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۹۳

القسم الثانى: ترى ماالعمل مع المتربصين؟!

اشارة

«فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ! هَيْهاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِى! وَاللَّهِ لابْنُ أَبِى طالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرابَ الْأَرْشِيَةِ فِى الطَّوِىِّ الْبَعِيدَةِ».

الشرح والتفسير

يتعرض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى الحجج والذرائع الواهية المتضاربة التى يردها الجهال والحساد على الإمام عليه السلام. فيقول الإمام عليه السلام إنّ هذه القلوب العمى والبصائر الخافتة لا تنفك تعترض على فى كل موقف اتخذه، فان اتحدث عن أحقيتى بالخلافة وعدم صلاحية الآخرين لها، فالبى دعوة الامّة يتخرصون بأنّى حريص على الحكومة، وأنّ آثرت الصمت والسكوت صوروه خوفا من الموت: «فان أقل يقولوا: حرص على الملك وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت». نعم فهذا هو الاسلوب الرخيص الذى ينتهجه الجهال والمتخرصين ليعترضوا على أولياء اللّه فى كل حركة وسكنة وموقف يمارسونه، وهم لايتحفظون حتى عن التناقض والتضارب فى هذا المجال، فان قاموا أشكلوا عليهم وإن قعدوا أشكلوا كذلك. ومن هنا فان المؤمنين لايعيرون هذه التناقضات أية آذان صاغية. ويبدو أنّ هذا هو الأمر الذى أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام فى الحديث المروى عنه أنّه قال:

«إنّ رضى الناس لا يملك

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۹۴

وألسنتهم لا تضبط»[۵۷۰]

. كما ورد شبيه هذا المعنى فى الخطبة ۱۷۲ من نهج البلاغة: «و قد قال قائل: إنّك على هذا الأمر يابن أبى طالب حريص، فقلت: بل أنتم واللّه لأحرص وأبعد، أنا أخص وأقرب، وإنّما حليت حقاً لى وأنتم تحولون بينى وبينه، وتضربون وجهى دونه، فلما قرعته بالحجة فى أعلا الحاضرين هب كأنّه بهت لايدرى ما يجيبنى به» ثم يواصل كلامه عليه السلام فى إطار ردّه على من فسّر سكوته بالخوف من الموت متعجباً من ذلك وهو الذى ثبت حين نكصت الأبطال فى بدر وأحد وحنين والاحزاب وخيبر التى أثبتت مدى ولهه وشغفه بالشهادة وله الرضيع بثدى امه:

«هيهات بعد اللتيا والتى! واللّه لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى امه»

. غير أن سكوتى يستند إلى علم بخفايا الامور لاتطيقون سماعه

«بل إندمجت ۵۷۱] على مكنون علم لو بحت ۵۷۲] به لاضطربتم إضطراب الارشية[۵۷۳] فى الطوى ۵۷۴]

البعيدة».

تأمّلات

۱- سوابق الإمام عليه السلام

يشير الإمام عليه السلام باختصار إلى الشجاعة والبسالة التى أبداها فى الغزوات والمعارك الإسلامية وفى بعض المواضع الخطيرة كمبيته على فراش رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله وما إلى ذلك ليذكر أولئك المرضى الذين يشكلون عليه بأنّه لايخشى أية حادثة مروعة وقدخرج مرفوع الرأس من كل تلك الاختيارات والتمحيصات، وعليه فسكوتى لايقوى دليلًا على ضعفى قط؛ وليس

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۹۵

وراء هذا السكوت سوى مصالح الإسلام والمسلمين، ثم يستشهد على ذلك بالمثل العربى المعروف فيقول «بعد اللتيا والتى».

و قصة هذا المثل أنّ رجلًا تزوج من إمرأة كانت قصيرة القامة وصغيرة وسيئة الخلق فذاق منها الأمرين حتى طلقها. ثم تزوج من إمرأة طويلة القامة فآذته كسابقتها حتى اضطر لطلاقها، فلما عرضى عليه الزواج قال: «بعد اللتيا والتى لا أتزوج أبداً» فصار ذلك مثلًا يضرب من أجل الحوادث الكبيرة والصغيرة، فالإمام عليه السلام يشير إلى أنّه إجتاز كل تلك الحوادث والخطوب فهل من سبيل إلى الخوف

والخشية.

۲- لم أخاف الموت؟!

القضية الاخرى التى أشار إليها الإمام عليه السلام قوله:

«لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى امه»

. فالثدى ولبن الام أساس حياة الطفل، ومن هنا فان هذا الطفل يعيش حالة من الجزع والانين والصراخ إذا ما جرد من هذا الثدى وكأنّه سلب الدنيا برمتها، فاذا عاد إليه سكن وقر وشعر بالفرح والسرور وكأنّه نال الدنيا بما فيها؛ إلّاأنّ هذه العلاقة مهما كانت فهى تستند إلى الغريزة؛ أمّا علاقة الإمام عليه السلام والعرفاء بالموت ولقاء اللَّه (و لا سيما الشهادة فى سبيل اللَّه) فهى علاقة قائمة على أساس العقل والمنطق والعشق. فهم لايرون الموت سوى إنطلاقة الحياة الجديدة فى ذلك العالم الأوسع والأشمل. يرون الموت نافذة على عالم البقاء والخلود والخلاص من هذا السجن وتحطيم قيوده وأغلاله والتحليق نحو العالم العلوى ومجاورة الرحمن. فهل من عاقل يتردد فى التحرر من قضبان السجن والخلاص من هذه القيود والانحلال [۵۷۵]. نعم إنّما يخشى الموت من يراه فاتحة لكل شىء وبداية للعذاب الذى ينتظره بفعل ما قارفه من رذائل وفواحش. فأنى للإمام عليه السلام بالخوف من الموت وهو ما عليه من المعارف والعلوم والسمو والرفعة؟ ومن هنا يقسم عليه السلام بانّه آنس بالموت من الطفل بثدى امه. كما قال فى موضع آخر:

«فواللَّه ما ابالى دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلى [۵۷۶]

. بل هذا ماجسده عمليا حين ضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه فصرخ قائلًا:

«فزت وربّ الكعبة»[۵۷۷].

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۹۶

۳- لم السكوت؟

قال الإمام عليه السلام:

«بل انطويت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم إضطراب الارشية فى الطوى البعيدة»

. ومن الواضح أنّ الآبار كلما كانت أعمق كان اضطراب الحبال فيها أكثر. ولكن ماهو المراد بهذه الأسرار والعلم الذى إنطوى عليه الإمام عليه السلام؟ يبدو أنّ هنالك احتمالات كثيرة أوردها شرّاح نهج البلاغة بهذا الشأن. فمنهم من فسّره بوصية النبى صلى الله عليه و آله له بالسكوت وعدم النهوض بالأمر والاشتباك مع الجماعة. ومنهم من فسّره بعلمه عليه السلام بعواقب الامور ومصالح ومفاسد المجتمع الإسلامى والذى دعاه لاتخاذ موقف السكوت. ومنهم من فسّره بعلمه عليه السلام بعالم الآخرة؛ أى أنى لأعلم بمسائل الآخرة بما لو بحت لكم به لما وسعكم الاستقرار ولعشتم الاضطراب. وهناك من فسّره بالقضاء والقدر الذى قدر لهذه الامّة. ولكن لايبدو أى من هذه التفاسير منسجم ومضامين الخطبة وماورد قبلها وبعدها من عبارات، ونرى الصحيح بأن تفسر هذه العبارة بالأحداث والتغييرات التى وقعت إبان الصحابة وادعياء الإسلام بعد وفاة رسولاللَّه صلى الله عليه و آله واولئك الذين كانت تراهم الامّة على الحق وهم باطل وضلال، واولئك الذين اندفعوا بالأمس خلف رسولاللَّه صلى الله عليه و آله وشهروا سيوفهم بوجه الكفر والشرك بينما تخندقوا اليوم فى صفوف المنافقين وقد باعوا دينهم بدنياهم ولو عرفهم الناس لتعجبوا وذهلوا.

«بل اندمجت على مكنون علم لوبحت به لاضطريتم اضطراب الارشية فى الطوى البعيدة»

. فمن يصـدق أنّ طلحة والزبير الذين قاتلا فى ركاب رسولاللَّه صـلى الله عليه و آله سيشـعلان يوما نار حرب الجمل؟ ومن يصدق أن أحـد أزواج النبى صـلى الله عليه و آله وأم المؤمنين – عائشـة – سـتكون يوماً وسـيلة بيد المنافقين فتقود معركة يروح ضـحيتها أكثر من عشـرة آلاـف شـخص؟ وعـدد لا يحصـى من قبيل هـذه الأسـئله. فإذا كان الأمر كـذلك فكيف اسـتند إلى مثل هؤلاء الأفراد وأنهض بالأمر.

نفحات الولايهٔ، ج ۱، ص: ۲۹۷

الخطبهٔ السادسهٔ

اشارهٔ

ومن كلام له عليه السلام

لما أشير عليه بَالّا يتبع طلحهٔ والزبير ولا يرصد لهما القتال

وفيه يبيّن عن صفته بأنّه عليه السلام لا يخدع [۵۷۸].

نظرهٔ إلى الخطبهٔ

حيـن نكـث طلحـهٔ والزبير البيعـهٔ وقصـدا عائشـهٔ فى البصـرهٔ واسـتوليا عليهـا، إعتقـد البعض بـأنّ الإمـام عليـه السـلام لن يصـطدم بهما وسـيتركهما ريثماً يوطد دعائم خلافته فلا تمرّ مدّهٔ حتى يعلنا إستسلامها. فالإمام عليه السلام يستهل خطبته بأنّ هذا الكلام خطأ محض وأنى لن أقف مكتوف الايـدى لتشـتد قوهٔ العـدو فيباغتنى. ثم يبيّن عليه السـلام عزمه الراسـخ على مقاتلهٔ هؤلاء والزحف إليهم بجنده المطيع، ثم يعلن أنّ هـذا هـو الاسـلوب الـذى سـيتبعه إلى آخر حيـاته. وأخيراً يختتم الخطبـهٔ بالإشـارهٔ إلى هـذه الحقيقـهٔ فى أنّ هـذه المخالفهٔ والاعتراض ليست بالشـىء الجديد وأنّ جذورها تمتد إلى زمان رحيل رسولاللَّه صـلى الله عليه و آله ومازالت مستمرهٔ ليومنا هذا.

«وَاللَّه لا أَكُونُ كَالضبع تنام على طول اللـدم، حتى يصل إليها طالبها، ويختلها راصدها، ولكنى أضـرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصى

نفحات الولايهٔ، ج ۱، ص: ۲۹۸

المريب أبـدا، حتى يأتى على يومى. فواللَّه مازلت مدفوعا عن حقى، مسـتأثرا علىّ، منذ قبض اللَّه نبيه صـلى اللَّه عليه وآله وسـلم حتى يوم الناس هذا.»[۵۷۹]

الشرح والتفسير

الحيطهٔ والحذر تجاه الأعداء

لقد رد الإمام عليه السلام على اولئك الذين يقترحون عدم مطاردهٔ طلحهٔ والزبير الذين نقضا بيعتهما، فقال عليه السلام:

«واللَّه لاأكون كالضبع [۵۸۰] تنام على طول اللدم [۵۸۱] حتى يصل إليها طالبها،

ويختلها[۵۸۲] راصدها[۵۸۳]

ويبدو أنّ المثل يضـرب بالضـبع على أنّه حيوان أبله يمكن صـيده بكل سـهولهٔ؛ حيث يقوم الصياد بدق قطعهٔ من الحجر أو العصا أمام عش الضـبع فاذا نام تقدم إليه الصياد ليصيده بسهولهٔ. وقد سطرت الخرافات والأساطير بهذا الشأن ومن ذلك أن يخاطب الصياد الضبع

فيقول له: يا ضبع نم فى عشك، ثم يكرر ذلك عدّة مرات، فيتجه الضبع إلى أقصى غاره وينام. فينادى الصياد: الضبع ليس فى العش، الضبع نائم، ثم يدخل عليه العش فيربطه بحبل ويخرجه من عشه ومن هنا شبه الأفراد الذين يعيشون الغفلة تجاه العدو بالضبع. أمّا الوقائع التأريخية آنداك فهى تشير إلى سذاجة الاقتراح القاضى بعدم مطاردة طلحة والزبير؛ وذلك لأن خطتهما كانت تستهدف السيطرة على البصرة والكوفة ثم يبايعهما معاوية ويأخذ لهما البيعة من أهل الشام فتخضع أغلب المناطق الإسلامية لسيطرتهما فلايبقى لعلى عليه السلام سوى المدينة. أضف إلى ذلك فان هؤلاء إستطاعوا أن يؤلبوا أكثر عدد ممكن من الناس من خلال

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۲۹۹

الشعار الذى يطالب بدم عثمان حتى رسخ فى أذهان الناس أنّ قاتل عثمان هو على عليه السلام. ومن الواضح أنّ تلك الخطة كادت أن ترد الميدان عمليا لولا مبادرة الإمام عليه السلام وتسريعه بمواجهة الفتنة حتى استطاع أن يقبر تلك المؤامرة فى مهدها فتمكن من إنقاذ البصرة والكوفة بل والعراق بأجمعه، ولولا المعارضة التى أبداها الجهال تجاه الإمام عليه السلام فى إطار تعامله مع ظلمة الشام لاراح المسلمين وإلى الأبد من شرهم ولعاد العالم الإسلامى برمته وحدة واحدة؛ غير أنّ المؤسف له- وكما أشير إلى ذلك فى ذيل الخطبة الشقشقية- تعالت أصوات الجهال المغرضين الذين انطلت عليهم الدعايات ليوقفوا تلك المعركة التى كان النصر فيها للإمام عليه السلام قاب قوسين أو أدنى. ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه ليقول: «ولكنى أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصى المريب أبداً، حتى يأتى على يومى».

طبيعى أنّ المجتمع لايتبنى الحق بجميع أفراده؛ فهناك ضعاف الإيمان وعبدة الاهواء وأصحاب الجاه والمناصب الذين لايروق لهم إمام عادل حيث يهدد منافعهم اللامشروعة فيلجأون إلى أساليب الدعاية والخداع والكذب والزيف وإثارة الشائعات؛ الأمر الذى يدعو الساسة والحكام إلى الاجهاض على هذه العناصر الفاسدة وإجتثاثها من المجتمع بصفتها غدة سرطانية يمكنها أن تلوث المجتمع، أو السعى للحد من نشاطهم وفعاليتهم ألم تكن مخاطرهم شديدة، كما ينبغى على دعاة الحق أن يكونوا على أهبة الاستعداد على الدوام للانقضاض على هذه العناصر والقضاء عليها. وأخيراً يصف الإمام عليه السلام هذه المعوقات بأنّها ليست جديدة وإنّما لها جذورها التى تمتد إلى زمان رحيل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «فو اللَّه مازلت مدفوعاً عن حقى، مستأثراً علىّ، منذ قبض اللَّه نبيّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم حتى يوم الناس هذا» فى إشارة إلى قضية طلحة والزبير فى إنّها تأتى فى إطار حلقة مستمرة منذ وفاة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ومازالت قائمة حتى اليوم. امّا تعبيره بمدفوعاً ومستأثراً فهى إشارة إلى المقاومة التى أبداها الأعداء حيال الإمام عليه السلام لزحزحته عن حقّه وتقديم الآخرين عليه، لأنهم لايطيقون عدله وشدته. أمّا قوله عليه السلام:

«حتى يوم الناس هذا»

- بالالتفات إلى إضافة اليوم إلى الناس- يمكن أن يكون إشارة إلى ذلك اليوم الذى كنت فيه وحيدا وقد غصبوا حقى، واليوم قدهب البعض لمخافتى رغم وجود هذه الامّة التى بايعتنى. والجدير بالذكر أن المرحوم الشيخ المفيد أورد فى إرشاده

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۰۰

عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «هذا طلحة والزبير ليسا من أهل النبوة ولا من ذرية رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حين رأيا أنّ اللَّه قد رد علينا حقنا بعد أعصر فلم يصبرا حولًا واحداً ولا شهراً كاملًا حتى وثبا على دأب الماضين قبلهما ليذهبا بحقى ويفرقا جماعة المسلمين عنّى»[۵۸۴].

تأمّل: رسالة إلى جميع المسؤولين

لقد لقّن الإمام عليه السلام بهذه العبارات التأريخية كافة الزعماء من أهل اليقظة والإيمان وساسة البلدان الإسلامية درساً بليغاً فى

التأهب لمواجهة الأعداء، ولا ينبغى التخلى عن الفرصة بكل سهولة وعدم الاستسلام للحلول والاقتراحات التى يتقدم بها من يؤثر السكون ويخلد إلى الراحة والدعة. فقد شبه الإمام عليه السلام من ينخدع بهذه الاقتراحات ويفقد زمام المبادرة فى تلك اللحظات الحساسة بالضبع، ويكمن وجه الشبه فى عدّة امور منها:

۱- أنّ الضبع يشعر بوجود العدو إلّاأنّه ينام لسماع بعضى الأصوات التى يرددها؛ النوم الذى يؤدى به فى خاتمة المطاف إلى الأسر والموت.

۲- أنّ الضبع يصطاد فى غاره.

۳- لايبدى الضبع أدنى مقاومة للذب عن نفسه وإنّما يقع فى مخالبه بكل سهولة.

فالأفراد الذين لايتعاملون بحزم تجاه العدو ويبدون حالة من الضعف والوهن إزائه فهم كالضباع التى تنام فى مخادعها وتستسلم للقتل دون مقاومة.

و أخيراً فلايعنى هذا أن يقدم الإنسان على عمل دون التأنى والتامل والاستشارة والوقوف على كافة جوانبه؛ بل لابدّ من إستشارة ذوى الحجى والشجاعة واتخاذ القرار قبل فوات الأوان والأقدام فى الوقت المناسب.

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۳۰۱

الخطبة السابعة

اشارة

ومن خطبة له علیه السلام

يذم فيها اتباع الشيطان

أتباع الشيطان

«اتَّخَذُوا الشَّيْطانَ لِأَمْرِهِمْ مِلاكاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْراكاً، فَباضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطانُ فِي سُلْطانِهِ وَنَطَقَ بِالْباطِلِ عَلَى لِسانِهِ».[۵۸۵]

الشرح والتفسير

إنّ الخطبة رغم قصرها تصور بدقة أتباع الشيطان وكيفية نفوذهم إليهم، ومن ثم تبين الآثار الوخيمة والعواقب المشئوومة والطرق التى يسلكها الشيطان فى التغلغل إلى الإنسان والالقاء به فى شباكه وحبائله، فيتلاعب به كيفما يشاء. والحق أنّها تخدير جدى لاتباع الحق فى ضرورة توفى الحيطة والحذر من تسلل الشيطان والوقوف بوجهه حال الشعور بأدنى آثاره. والخطبة وإن تحدثت عن بعض الأفراد من قبيل طلحة والزبير أو معاوية وأهل الشام

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۳۰۲

أو أصحاب النهروان الذين سقطوا فى فخ الشيطان، إلّاأنّها لاتقتصر عليهم البتة، بل هى رسالة واضحة (لكافة الأفراد من أجل مراقبة الشيطان وعدم فسح المجال أمامه.

فقد تكفّلت الخطبة بتبيين المراحل التى يعقبها تسلل الشيطان فى أتباعه، حيث شرحها الإمام عليه السلام بما عرف عنه من فصاحة وبلاغة وتشبيه رائع بحيث لايمكن تقديم صورة فنية أروع من تلك التى رسمها الإمام عليه السلام. فقد أشار فى المرحلة الاولى إلى أنّ هذا التسلل والنفوذ إلى الإنسان إختيارى ولايمت بصلة إلى الاجبار. فالإنسان هو الذى يعطيه الضوء الأخضر ويدعه يلجه ويتصرف

بوجوده حتى يجعله ملاكاً ومعياراً لنشاطاته وفعالياته

«إتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً»

. فملاك من مادة ملك بمعنى أساس الشيء ودعامته، كأن يقال القلب ملاك البدن، أى أن أساس وقوام البدن هو القلب وهذا هو الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم بوضوح على لسان آياته «إِنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّما سُلْطانُهُ عَلى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ»[۵۸۶]. بناءاً على هذا فالعبارة المذكورة كالآيات القرآنية بمثابة رد على أولئك الذين يتساءلون عن سلطة الشيطان على بنى آدم فيقولون: كيف سلط اللّه سبحانه هذا المخلوق الخطير على الإنسان ثم طالبه بعدم إتباعه.

فالعبارة تقول أنّ الشيطان لايخترق الجدران غيلة، بل يأتى من الباب ويطرقها فان فتح له ولج وإلّا عاد من حيث أتى. صحيح أنّه يصر على طرق الباب دون الشعور بالكلل والملل، لكن بالمقابل هنالك الملائكة الذين يهبون لنجدة الإنسان ويحذروه من مغبة فتح الباب. ثم أشار فى المرحلة الثانية إلى الانتخاب الذى يتولاه الشيطان بعد ذلك الانتخاب حيث يصطفى هؤلاء كاعوان وشركاء «واتخذهم له اشراكاً»[۵۸۷] ثم وضح عليه السلام ذلك بقوله: «فباض وفرخ فى صدورهم»[۵۸۸]. فالإمام عليه السلام يشبه صدور تبعة الشيطان بعش إبليس الذى يبيض فيه ويفرخ. ثم قال عليه السلام: «و دب ودرج فى حجورهم». صرّح بعض شرّاح نهج البلاغة بان دب من مادة الدبيب بمعنى الحركة البطيئة الضعيفة، والدرج الحركة الأقوى منها كحركات الطفل فى حضن

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۰۳

امه. ولعل التعبير بدرج إشارة إلى حقيقة وهى أنّ الأفكار والعادات الشيطانية ليست طارئة ومفاجئة على الإنسان؛ بل تتجذر فيه بصورة تدريجية؛ كما عبر عنه فى حذر المؤمنين منها حيث يتسنى له اقتياد الإنسان خطوة خطوة نحو الفساد والضلال والكفر.[۵۸۹] فقال:

«فنظر باعينهم، ونطق بالسنتهم»

. أى أنّ هذه البيوض والفراخ الشيطانية ستنمو وتترعرع حتى تتبدل إلى شياطين تتحد معهم بحيث تنفذ فى جميع أعضائهم وجوارحهم حتى يعيشون الأزدواج فى شخصياتهم، فهم من جانب إنسان، ومن آخر شيطان، ظاهرهم إنسانى أمّا باطنهم شيطانى. عيونهم وآذانهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم أدوات تأتمر بأوامر الشيطان، فمن الطبيعى أن يروا جميع الاشياء بصيغة شيطانية كما أنّ آذانهم تطرب لسماع الانغام الشيطانية. أمّا فى المرحلة الرابعة فيتناول عليه السلام النتيجة النهائية لهذه المسيرة التدريجية المنحرفة فيقول:

«فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل»[۵۹۰]

ويشبه هذا الكلام ما أورده الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغة

«إلّا وأنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها»[۵۹۱]

. ثم قال عليه السلام فى المرحلة الأخيرة

«فعل من قد شركه الشيطان فى سلطانه، ونطق

بالباطل على لسانه»[۵۹۲]

. إشارة إلى أنّ أعمال هؤلاء تدل بوضوح على أنّ الشيطان استحوذ عليهم فتصرف فيهم كيف يشاء. فحديثهم حديث الشيطان ونظرهم نظر الشيطان وبالنتيجة فان بصمات الشيطان متجسمة فيهم، والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد فى هذه المرحلة أن يعرف هؤلاء الأفراد من خلال أعمالهم الشيطانية. ويبدو أنّ مراده عليه السلام بعض الأفراد كطلحة والزبير وانصارهما وأصحاب معاوية والخوارج ومن كان على شالكتهم، رغم أنّ الكتب المعروفة لشرح نهج البلاغة وأسانيدها لم تتعرض إلى الأفراد أو الطوائف المرادة بكلام الإمام عليه السلام. مع

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۰۴

ذلک فالکلام دقیق وعمیق ولایختص بطائفة معینة، بل یشمل کل من وضع رجله علی مسار الشیطان وخضع لسیطرته وامتثل أوامره.

تأمّل: خطط الشياطين

شائک وشامل هو البحث بشأن الشیطان وفلسفة خلقه وکیفیة نفوذه إلی الإنسان وطول عمره وقصته مع آدم وجنوده وأعوانه من الجن والانس وما إلی ذلک من الامور التی لایسع المجال شرحها والغوص فی أعماقها. وسنکتفی ببعض الإشارات التی یمکنها أن تغنی البحث بما ینسجم وما ورد فی الخطبة المذکورة.

فالذی تفیده الآیات القرآنیة أنّ الشیطان لم یخلق کموجود شریر منذ بدایة الخلیقة، بل خلق طاهرا حتی اصطف مع الملائکة (و إن لم یکن ملکاً). غیر أنّ حب الذات والکبر دفعه للتمرد علی أمر اللَّه والامتناع عن السجود لآدم علیه السلام، فلم یرتکب المعصیة فحسب، بل إتّهم علم الباریٔ سبحانه وحکمته لیهوی فی وادی الشرک والضلال. لقد سأل اللَّه النظرة إلی یوم القیامة فأجابه اللَّه بالنظرة إلی یوم الوقت المعلوم لیتم تمحیص العباد، أو بعبارة اخری فکما أنّ وجود الشهوات المرکبة فی الإنسان البشریة ومقاومة العقل والإیمان تجاه القوی المخالفة إنّما تضاعف قدرة الإنسان فی مسار الطاعة للّه؛ فانّ الوساوس الشیطانیة الخارجیة ومجابهتها من قبل الإنسان إنّما تقوده إلی السمو والتکامل؛ وذلک لأن وجود العدو إنّما یشکل العامل الذی یقف وراء حرکة الإنسان وقوته وتطوره وتکامله. إلّاأنّ هذا لایعنی أنّ للشیطان نفوذ إجباری فی الإنسان، بل الإنسان هو الذی یمهد لهذا النفوذ، فقد صرّح القرآن الکریم بهذا الشأن قائلًا: «إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ»[۵۹۳]، وقال فی موضع آخر «إِنَّهُ لَیْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلی الَّذِینَ آمَنُوا وَعَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ»[۵۹۴] کما صرّحت إحدی الآیات القرآنیة علی لسان الشیطان أنّه قال: «وَما کانَ لِی عَلَیْکُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلّا أَنْ دَعَوْتُکُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِی فَلا تَلُومُونِی وَلُومُوا أَنْفُسَکُمْ».[۵۹۵]

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۰۵

الجدیر بالذکر أنّ اللَّه سبحانه قد خلق جنودا للقضاء علی وساوس الشیطان ومخططاته، ومنها العقل والفطرة والأنبیاء والملائکة التی تتولی حفظ المؤمنین وطرد الوساوس الشیطانیة عنهم. فکل من سار علی درب هذه الجنود حظی بدعمها وإسنادها وأبعد عنه وساوس الشیطان، ومن سار علی درب الشیاطین وأقام علی العناد واللجاجة رفعوا أیدیهم عنه.

القضیة الاخری الجدیرة بالاهتمام هی أنّ الشیطان یسعی للنفوذ فی أعماق النفس البشریة لیؤثر من هناک علی أعماله، کما اشیر لهذا فی الخطبة المذکورة وکأنه باض وفرخ فی الصدور فتکاملت الفروخ شیاطین إتحدت معه حتی عاد نظره وسمعه وقوله ویده ورجله شیطانیاً.

وقد ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام فی غرر الحکم أنّه قال:

«احذروا عدوا نفذ فی الصدور خفیاً ونفث فی الاذان نجیاً»

کما ورد شبیه هذا المعنی- مع فارق طفیف- فی الخطبة ۸۳ من نهج البلاغة. کما قال علیه السلام فی الخطبة ۱۲۱ من نهج البلاغة:

«إنّ الشیطان یسنی لکم طرقه ویرید أن یحل لکم دینکم عقدة عقدة»

. علی کل حال فان الغرض من الخطبة هو تحذیر الإنسان من عدوره اللدود الشیطان الذی تعود جذور عدائه منذ خلق آدم علیه السلام. وضرورة التوکل علی اللَّه والاتکاء علی العقل والفطرة والوجدان والاستضاءة بارشادات الأنبیاء وتعالیمهم والاستمداد من الملائکة بغیة حفظ الإنسان لنفسه من وساوس الشیطان.

وأخیراً فالنقطة التی أری ضرورة التعرض لها وعلی ضوء صریح بعض الآیات القرآنیة أنّ الشیاطین لیست منحصرة بابلیس وجنوده

السریین، بل هناک مجموعة من الانس التی تشملها الشیاطین، فأعمالهم هی أعمال الشیاطین بعینها «وَکَذ لِکَ جَعَلْنا لِکَلِّ نَبِیٍّ عَدُوّاً شَیاطِینَ الإِنْسِ وَالجِنِّ یُوحِی بَعْضُهُمْ إِلی بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً»[۵۹۶].

نعم لابد من الحذار من وساوسهم.

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۰۷

الخطبةالثامنة

اشارة

ومن کلام له علیه السلام

یعنی به الزّبیر فی حال إقتضت ذلک ویدعوه فی الدخول فی البیعة، ثانیا.

نظرة إلی الخطبة

دخل الزبیر وطلحة علی علی علیه السلام، فاستأذناه فی العمرة، فقال: ما العمرة تریدان، فحلفا له باللَّه أنّهما ما یریدان غیر العمرة، فقال لهما: ما العمرة تریدان، وإنّما تریدان الغدرة ونکث البیعة، فحلفا باللَّه ما الخلاف علیه ولا نکث بیعة یریدان، وما رأیهما غیر العمرة. قال لهما: فأعیدا البیعة لی ثانیة، فأعاداها بأشد مایکون من الإیمان والمواثیق، فأذن لهما، فلما خرجا من عنده، قال لمن کان حاضراً: واللَّه لاترونهما إلّافی فتنة یقتتلان فیها. قالوا: یا أمیرالمؤمنین، فمر بردهما علیک، قال: لیقضی اللَّه أمراً کان مفعولًا.[۵۹۷] أمّا الزبیر فقد حاول أن یتذرع بما یبرر له نکث البیعة، ویقول لیس لعلی فی عنقی بیعة حیث بایعته مکرها. فالقی الإمام علیه السلام هذه الخطبة (جدیر بالذکر أنّ البعض قد نسب هذا الکلام للإمام الحسن علیه السلام وقد القاها بأمر من أبیه فی یوم الجمل بعد خطبة عبداللَّه بن الزبیر، لکن لایستبعد أن یکون الإمام علیه السلام قد أورده مسبقا رداً علی إدعاءات الزبیر ثم استشهد بها الإمامالحسن علیه السلام فی الجمل.[۵۹۸]

«یزعم أنّه قد بایع بیده، ولم یبایع بقلبه، فقد أقر بالبیعة، وادعی الولیجة، فلیأت علیها بأمر یعرف، وإلّا فلیدخل فیما خرج منه».

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۰۸

الشرح والتفسیر

عذر أقبح من ذنب

کما أوردنا آنفا فانّ الإمام علیه السلام ألقی هذه الخطبة کرد علی الزبیر الذی حاول تبریر نکثه للبیعة بأنّه بایع مکرها بیده دون قلبه؛ لأن معاویة بعث له بکتاب قال فیه: أمّا بعد، فانّی قد بایعت لک أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا، کما یستوسق الجلب فدونک الکوفة والبصرة، لایسبقک إلیها ابن أبی طالب فانه لاشیء بعد هذین المصرین.[۵۹۹]

فما کان من طلحة والزبیر الذین کانا یطمعان بالمناصب إلّاأنّ نکثا بیعتهما للإمام علی علیه السلام.

أمّا الإمام علیه السلام فقد رد علی زعم الزبیر ردّاً حقوقیاً یحظی بکافة التبعات المتعارفة الیوم فی القوانین القضائیة، فقد قال علیه السلام:

«یزعم أنّه قد بایع بیده ولم یبایع بقلبه، فقد أقر بالبیعة، وادعی الولیجة»[۶۰۰]

فالواقع أنّ کلامه مرکب من إقرار وإدعاء، فاقراره مسموع ومقبول، أمّا إدعائه فیحتاج إلی إقامة دلیل. ولذلک طالبه الإمام علیه السلام

باقامهٔ الدليل (ليثبت أن بيعته قد حصلت من خلال الاكراه) وإلّا وجب عليه الالتزام بلوازم البيعهٔ: «
فليأت عليها بأمر يعرف، وإلّا فليدخل فيما خرج منه
» لقد رأى أغلب الناس الزبير وطلحهٔ قد دخلا على الإمام عليه السلام وبايعاه طائعين؛ فقد كانا من أوائل من بايعه فى المسجد، فالبيعهٔ ملزمهٔ، ومن إدعى خلاف ذلك عليه أن يأتى بالدليل، أضف إلى ذلك فالكل يعلم بعدم وجود الاكراه والإجبار فى بيعهٔ على عليه السلام، فقد كان هنالك من لم يبايع، ولم يضطرهم الإمام عليه السلام إلى البيعهٔ، وعليه فليس هنالك من مبرر لنكث البيعهٔ. وكما ذكرنا سابقاً فانّ هذا من الاصول الأساسيهٔ فى كافهٔ المحافل الحقوقيهٔ والقضائيهٔ، فى أنّ من أبرم عقداً راغباً بالظاهر فقد وجب عليه الالتزام به ولايقبل منه إدعاء الاكراهالاجبار وعدم تأييد القلب لما فعله باليد، وإلّا لأمكن لكل واحد أن يقوض ما أبرمه بهذه الذريعهٔ. فالمشترى والبائع والزوج والواقف و ... إذا أبرم عقدا ولم يرى فيه من مصلحهٔ لاحقا أمكنه أن يدعى بأنّه أبرمه لساناً ولم يكن قلباً موافقاً عليه. وإذا كان الأمر
نفحات الولايهٔ، ج ۱، ص: ۳۰۹
كذلك فقد عرضت كافهٔ النظم والعقود والمواثيق الفرديهٔ والدوليهٔ للتصدع والانهيار وهذا مالا يقره عقل أو منطق؛ والحق أنّ الزبير كان يعلم جيدا بهذا الأمر إلّاأنّه استهدف تضليل الرأى العام الذى قد يسأله لم نكثت البيعهٔ؟
جدير بالذكر أنّ كل هذا نابع من كون العرب آنذاك كانت تولى البيعهٔ أهميهٔ فائقهٔ ولم تكن تتساهل فى نقضها وعدم الالتزام بها، وترى ذلك خطيئهٔ كبيرهٔ.
نفحات الولايهٔ، ج ۱، ص: ۳۱۱

الخطبهٔ التاسعهٔ

اشارهٔ

ومن كلام له عليه السلام
فى صِفَته وَصِفَهٔ خُصومه ويقال إنّها فى أصحاب الْجَمَلْ
«وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ وَلَسْنا نُرْعِدُ حَتَّى نُوقِعَ وَلا نُسِيلُ حَتَّى نُمْطِرَ».[۶۰۱]
الشرح والتفسير

ضجهٔ فارغهٔ

يستفاد من كلامه عليه السلام أنّه أورده بعد انتهاء معركهٔ الجمل كاشارهٔ للضجهٔ الفارغهٔ التى إفتعلها طلحهٔ والزبير ورهطهما فى بدايهٔ موقعهٔ الجمل، غير أنّه لم يجدهم نفعا حيث هزم «طلحهٔ والزبير» شر هزيمهٔ حتى قتلا. فقد قال عليه السلام:
«و قد ارعدوا وابرقوا، ومع هذين الأمرين الفشل».
فهو تشبيه رائع بالسحب التى تتخللها ظاهرهٔ الرعد والبرق كبشارهٔ للناس بالأمطار التى تجلب عليهم الخير والبركهٔ، إلّاأنّها سرعان ما تتبدد دون أن تحمل قطرهٔ من المطر. ثم قال عليه السلام:
«ولسنا نرعد حتى نوقع، ولانسيل حتى نمطر»
يريد عليه السلام أننا لن نرعد
نفحات الولايهٔ، ج ۱، ص: ۳۱۲

ونزبد مالم نسدد ضربات موجعة إلى العدو، ولسنا من أهل الضجيج حتى نقتحم الميدان ونقهر الخصم. فالواقع هو أنّ العبارتين رغم قصرهما تشيران إلى مدرستين لكل منهما أسسهما فى الأنشطة الاجتماعية والعسكرية والسياسية؛ مدرسة تتبنى الكلام والضجيج حين ترد الميدان؛ إلّا أنّها لاتستبطن سوى الضعف والعجز والفشل حين العمل. أمّا المدرسة الاخرى فهى المعروفة بالسلوك والعمل، قليل كلامها كثير عملها. هى مدرسة صامتة هادئة إلّاأنّها بطلة باسلة فى الميدان وبالطبع فانّ الأنبياء والأولياء وأتباع الحق ينتمون للمدرسة الثانية، بينما ينتمى أتباع الباطل وجنود الشيطان إلى المدرسة الاولى

و هنا نقطة مهمّة يجب الالتفات إليها وهى أنّ الرعد والبرق قبل المطر ثم يأتى السيل، غير أنّ هناك البعض الذى يرعد ويبرق دون المطر، والأسوأ من ذلك البعض الآخر الذى يتوعد بالسيول رغم إنعدام قطرة مطر، أى أنّهم يتشدقون بالنصر والغلبة والنجاح حتى بعد الهزائم المنكرة التى يمنون بها، فالطائفة الاولى كاذبة فى مزاعمها وإدعاءاتها، أمّا الثانية باطلة عديمة الحياء. فالذى تفيده بعض الروايات أنّ الإمام على عليه السلام بعث برسله يدعون إلى الالتزام بالبيعة و عدم شق الصف الإسلامى والعودة إلى إحضان الحكومة الإسلامية، فعادوا يحملون رسائل الحرب حيث تضمنت رسائلهم التهديد بشن الحرب، فردّ الإمام عليه السلام ذلك الرد الحاسم

«فانّ أبوا أعطيتهم حد السيف وكفى به شافياً من الباطل، وناصرا للحق! ومن العجب بعثهم إلى أن ابرز للطعان وأن أصبر للجلاد، هبلتهم الهبول، لقد كنت وما اهدد بالحرب، ولا ارهب بالضرب، وإنى لعلى يقين من ربّى، وغير شبهة من دينى»[۶۰۲].

تأمّلان

۱– رجل العمل

ما تضمنه كلامه عليه السلام– كما أشرنا سابقاً– بعض الصفات البارزة لأساليب الإدارة لأولياء اللّه، فهم ليسوا من أهل الكلام والضجيج، بل بالعكس كلامهم العمل والتنفيذ. وقد تجسد

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۱۳

نموذج ذلك فى معركة بدر حين ذهل أبوسفيان للنفر القليل الذى كان مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله فبعث عمير ليرى هل هناك من جند خلف الميدان، فعاد إلى أبى‌سفيان وقال له:

«مالهم من كمين ولامدد ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت النافع امّا ترونهم خرساً لايتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعى، مالهم ملجأ إلّاسيوفهم، ما أراهم يولون حتى يقتلوا ولايقتلون حتى يقتلوا بعددهم فار تأوا رأيكم. فقال له أبوجهل: كذبت وجبنت.»[۶۰۳]

بالتالى أثبتت موقعة بدر أنّ الحق ماذهب إليه عمير لا ما قاله أبوجهل. وبالطبع فليس هناك من منافاة بين هذا الكلام والاستفادة من الأساليب النفسية فى ميدان الحرب والرجز وممارسة الحماس وامطار العدو بوابل التبليغات وزرع الرعب فى صفوفه. فالمشكلة إنّما تكمن فى خلاصة كل شىء فى الكلام والتهديد والوعيد. فالعمل هو الأساس والمحور والكلام ترجمة لذلك العمل. فنموذج الفريق الأول طلحة والزبير ورهطهما، ونموذج الفريق الثانى على عليه السلام واتباعه. فقد وردت عبارات واضحة للإمام عليه السلام– فى الخطبة ۱۲۴ من نهج‌البلاغة– بهذا الشأن، ففى الوقت الذى يحث اتباعه وجنده على الثبات فى الميدان والشدة فى الضرب يوصيهم قائلًا:

«اميتوا الاصوات فانه أطرد للفشل».

۲– الفارق بين الدعاية والاعلام الفعال

لعل الفارق بين هذين الأمرين صعب التمييز على البعض، حيث ورد النهى عن القول بلاعمل واتخاذ الصمت والهدوء كمفهوم صحيح

من جانب: ومن جانب آخر فانّ الأحاديث التى تستبطن الأساليب التبليغية التى تشد قوى الحق من الناحية النفسية وتضعف معنويات العدو قد عدت من الوسائل الحربية اللازمة، إلى جانب الحث على الرجز والحماس فى ميدان المعركة والذى تجسد فى غزوات رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ومعارك أميرالمؤمنين على عليه السلام وسائر الأئمّة المعصومين عليه السلام كالرجز الذى شهدته كربلاء، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟

الواقع هنالك فارق واضح بين هذين الأمرين. فالنهى إنّما جاء بشأن الكلام الفارغ الذى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۱۴

ينطوى على الرعد والبرق الكاذب والذى تصطلح عليه بالبلف حيث تفيد القرائن والشواهد بعدم وجود أى عمل خلف ذلك الكلام. ولا شك أنّ مثل هذا البلف والكلام الفارغ أنّما هو ديدن الشيطان واتباعه من الأفراد عديمى المنطق. أمّا الترغيب والترهيب الذى يتبع ذلك والعمل والنشاط الذى يخرج الكلام من دائرته ليزج به فى ميدان العمل الذى ينتهجه الفريق الثانى فانّه ليس فقط غير مذموم فحسب، بل إنّما يأتى فى نطاق الحرب النفسية التى تفعل فعلها فى الواقع. وبالطبع فان التذكير بهذه النقطة ضرورى وهى أنّ الانهماك بالرجز والخطابة أثناء المعركة إنّما يشغل قسما من طاقات الإنسان ويحد من الأثر المطلوب لصولاته وحملاته، ومن هنا ورد النهى عن ذلك.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۱۵

الخطبة العاشرة

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

يريد الشيطان أو يكنى به عن قوم

نظرة إلى الخطبة

تشير هذه الخطبة إلى موقعة الجمل والحوادث الاليمة التى تخللتها؛ حيث يصف الإمام عليه السلام اعوان طلحة والزبير بانهم جنود الشيطان، ثم يشير إلى خصائصه فى الميدان، كما يتطرق إلى تبيين خطته المستقبلية بهذا الشأن فى عبارات قصيرة وقارعة مشوبة بتوعد العدو مع تكهن بما ستؤول إليه هذه المعركة.

«أَلا وَإِنَّ الشَّيْطانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجِلَهُ وَإِنَّ مَعِى لَبَصِيرَتِى: ما لَبَّسْتُ عَلَى نَفْسِى، وَلا لُبِّسَ عَلَىَّ. وَايْمُ اللَّهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنا ماتِحُهُ! لا يَصْدُرُونَ عَنْهُ وَلا يَعُودُونَ إِلَيْهِ».[۶۰۴]

الشرح والتفسير

تحذير المسلمين ثانية

كما ذكرنا سابقاً فانّ خطبة الإمام عليه السلام تعالج القضايا المرتبطة بموقعة الجمل، واستنادا إلى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۱۶

العلاقة الوثيقة بين هذه الخطبة والخطبة الثانية والعشرين وأبعد من ذلك إرتباطها بالخطبة ۱۷۳، والواقع هو أنّ هذه الخطبة قد استوعبت فى تلك الخطبة وأصبحت جزءاً منها، فلا يبقى هنالك من مجال للشك والترديد فى أنّ الهدف من هذه الخطبة هو الإشارة

لموقعة الجمل، وكأنّى باولئك الذين فسّروها بالإشارة إلى موقعة صفين وأهل الشام قد أهملوا تلك العلاقة.

فالمحور الأول لهذه الخطبة هو تشبيه أعوان طلحة والزبير بجنود الشيطان فقال عليه السلام:

«ألا وان الشيطان قد جمع حزبه، واستجلب خيله ورجله».

و كيف لايكونوا جنود الشيطان وقد نقضوا عهدهم مع الإمام عليه السلام وقد دفعهم الحرص على المناصب لبث بذور الفرقة والنفاق بين صفوف الامّة الإسلامية واشعال فتيل الحرب الذى أودى بحياة الكثيرين حتى احترقوا بتلك النيران. امّا التعبير بالحزب فهو إشارة إلى الانسجام بين أهداف هؤلاء وأهداف الشيطان، وأمّا التعبير بالخيل والرجل فهو إشارة لتنوع الجنود.

القرآن الكريم من جانبه أشار إلى حزب الشيطان بقوله: «

إِنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِير»[۶۰۵]

، ويشير فى موضع آخر إلى حزبه من الراجلة والخيالة الذين يختبر بهم بنى آدم

«وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ»[۶۰۶]

. ولاشك أن تتابع هذه التنبيهات إنّما تستهدف تحلى المؤمنين باليقظة والوعى والحذار من الوقوع فى حبائل الشيطان والانضمام إلى حزبه والالتحاق بجنوده، غير أنّ هذا المصير المشؤوم قد طال طلحة والزبير وأعوانها ومن سار على نهجهما قد دفعهم حب الجاه والمنصب لأن يكون لقمة سائغة للشيطان.

ثم تناول عليه السلام المحور الثانى الذى بين فيه سماته وعمق بصيرته بما لايجعل للشبهة والشك من سبيل إليه

«و إنّ معى لبصيرتى ما لبست على نفسى، ولا لبس على»

. الحق أنّ مصدر ضلال أى فرد إنّما يمكن فى أحد ثلاث: الأول ألا يمتلك البصيرة والمعرفة اللازمة بالعمل الذى يقدم عليه، فيرد الميدان جهلا فيتصرف بما لايرضى اللّه. والثانى قد يتمتع بالمعرفة إلّاأنّ حجب هوى النفس وحب الذات إنّما تحول دون رؤيته للحق وتسوقه للخطأ والزلل، وما أكثر الأفراد الذين يعلمون ببشاعة الذنب إلّاأنّهم يصطنعون لأنفسهم الاعذار الناشئة من

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۳۱۷

وساوس النفس والدوافع الشيطانية التى تسول لأنفسهم عد تلك الذنوب من الفرائض، وكما صورهم القرآن الكريم

«وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَ نَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»[۶۰۷]

. والثالث أن يمنع شياطين الجن والانس الاذن بالنفوذ إلى قلبه ويشوهوا عليه الحقيقة. ولم يكن لأىمن هذه المحاور الثلاث من سبيل إلى الإمام عليه السلام؛ وذلك لأنّه أوصد كافة الأبواب الباطنية والظاهرية للخطأ والانحراف بوجه الوساوس والأهواء وتحلى بتقوى وورع وبصيرة جعلته يرى الحقيقة كما هى.

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد يقول عليه السلام:

«إنّ معى لبصيرتى»

، أنّ البصيرة التى كانت معى فى زمن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى كافة الأحداث المهمّة التى وقعت على عهده مازالت معى ولم تتغير. والعبارة إشارة إلى الآية الشريفة

«قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى»[۶۰۸]

. بينما يرى البعض الآخر أن قوله عليه السلام:

«ما لبست على نفسى، ولا

لبس على»

هو تفسير لقوله

«و إنّ معی لبصیرتی»

إلّاأنّ ما ذکر سابقاً أنسب.

الجدیر بالذکر أنّ الإمام علیه السلام قال: ما لبست علی نفسی، ثم قال: ولا لبس علی؛ الأمر الذی یکشف عن ترتیب طبیعی ینبغی فیه ألا ـ یخدع الإنسان من قبل نفسه أولًا ثم یأمن مکر الآخرین وخداعهم. ثم خاض فی المحور الثالث لیکشف عمّا ستؤول إلیه نتیجة موقعة الجمل محذرا خصومه بشدة

«و آیم ۶۰۹] اللّه لُافرطن ۶۱۰] لهم حوضا أنا ماتحه ۶۱۱]! لایصدرون عنه ولا

یعودون إلیه»

. والواقع هو أنّ الإمام علیه السلام شبه میدان القتال بالحوض الذی یرید ملأه بالماء بحیث لایبقی معه من مجال؛ أراد علیه السلام لأملأن لهم حیاض الحرب التی هی دربتی وأنا مجرب لها، ثم یشیر علیه السلام إلی النتیجة التی سیؤول إلیها أهل الجمل وهی لن تکون سوی القتل وإزهاق

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۱۸

الأنفس، وإن کان هنالک من سبیل إلی الفرار فانّ الفار لن یعود إلی المیدان ثانیة.

و هنا لابدّ من الالتفات إلی أنّ قوله علیه السلام: «لأفرطن» لا تعنی أنّی سأفرط فی هذا السبیل، بل المراد أنّی سأبذل قصاری جهدی لسد جمیع الطرق علی العدو (لابدّ من الدقة هنا). وهذا بعینه ما جعل عائشة تعتبر من تلک المعرکة ولم تشترک فی المعارک اللاحقة.

تأمّل: جند الشیطان

ما نستفیده من الخطبة المذکورة أنّ الشیطان لایمارس وظیفته فی الاغواء والاضلال لوحده؛ بل له جنوده وأعوانه والذین عبر عنهم فی الخطبة بالخیالة والرجالة (خیل ورجل) کماله اتباعه وانصاره الذین عبر عنهم بالحزب، وکما ذکرنا فان القرآن هو الذی أورد هذین التعبیرین (لابدّ من الالتفات إلی الخیل تعنی أحیانا الفارس وهذا هو المراد فی العبارة لأنفس الفرس). وبالطبع لایراد بحزب الشیطان ورجالته ما یتعارف الیوم فی المجتمعات المعاصرة وتشکیلات الجیوش؛ إلّاأننا نعلم بأنّ له مساعدوه من بنی جنسه ومن جنس بنی آدم الذین ینشطون فی إغواء الناس وإضلالهم، بل حتی الأحزاب القائمة الیوم والجنود الذین أصحوا آلة بید السلطان الظالمة والمستبدة إنّما هی جنود الشیطان وأحزابه. فما کان من الجنود أشد وأقوی فهو من خیله وما کان أضعف وأصغر فهو من رجله. بل هناک من یری نفسه فی صفوف حزب اللّه وهو فی زمرة حزب الشیطان. امّا أتباع الحق فان علیهم أن یتکلوا علی اللّه وینضووا تحت ولایته لیکونوا مصداقا لقوله:

«اللَّهُ وَلِیُّ الَّذِینَ آمَنُوا یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ»

لیحظوا بعنایة اللّه ولطفه ویفوزوا بمضمون

«إلهی لاتکلنی إلی نفسی طرفة عین أبداً»

. أمّیا شرط الوصول إلی هذا المقام فهو ما ذکره الإمام علیه السلام فی الخطبة المذکورة، أی لابدّ من التحلی بالبصیرة والمعرفة والحذر من خداع النفس، إلی جانب الحذر من الوقوع فریسة لحبائل خداع الآخرین ومکرهم.

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۱۹

الخطبة الحادية عشر

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل

«تَزُولُ الْجِبالُ وَلا تَزُلْ! عَضَّ عَلَى ناجِذِک. أَعِرِ اللَّهَ جُمْجُمَتَک. تِدْ فِی الْأَرْضِ قَدَمَک. ارْمِ بِبَصَرِک أَقْصَی الْقَوْمِ، وَغُضَّ بَصَرَک، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحانَهُ».

نظرة إلى الخطبة

ما تفيده الروايات هو أنّ أميرالمؤمنين على عليه السلام كان شديد الحرص على عدم نشوب معركة الجمل بغية الحيلولة دون سفك دماء المسلمين، كما ورد أنّه سلم الراية يوم الجمل ابنه محمد بن الحنفية، فاستغل الفرصة من الصباح حتى الظهر ليدعوهم إلى الصلح والصلاح والالتزام بالبيعة، ثم خاطب عائشة قائلًا: اتق اللّه وعود إلى بيتك فقد أمركن اللّه سبحانه

«وَقَرْنَ فِی بُیُوتِکُنَّ»

. ثم التفت إلى طلحة والزبير وقال لهم: صنتم نسائكم وابرزتم زوج رسول اللّه صلى الله عليه و آله، ثم خرجتم تطالبون بدم عثمان بعد أن آلت الخلافة إلى الشورى (و قد انتخب الناس أميرالمؤمنين وقد مددتما إليه يد البيعة). ثم قال للزبير أتذكر كنّا نتحدث يوما فى المدينة فسألك رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله: أتحب على؟ فقلت: كيف لاأحبه وهو قرابتى وإنّى لأحبه فى اللّه. فقال لك رسول اللّه صلى الله عليه و آله فاعلم إنّك ستقاتله وأنت له ظالم! فقلت أعوذ باللّه من ذلك اليوم. ثم واصل

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۲۰

الإمام على عليه السلام نصحهم ووعظهم حتى قال اللّهم إشهد أنّى نصحت لهم وأمهلتهم، ثم تناول القرآن وقال من يحاججهم بالقرآن فيقرأ عليهم الآية

«وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما»[۶۱۲]

وهو مقطوع يمينه وشماله ومقتول؟ فتناوله مسلم المجاشعى فاقترب من العدو وحمل القرآن بيمينه وتلى عليهم الآية، فحملوا عليه وقطعوا يمينه، فتناول القرآن بشماله فقطعوها أيضاً، فاخذ القرآن بأسنانه فقتلوه. فقال على عليه السلام: احل لى الآن قتالهم عن آخرهم.

ثم إلتفت إلى محمد بن الحنفية وخاطبه بتلك الكلمات.[۶۱۳] على كل حال فان الإمام عليه السلام يسلط الضوء على الفنون القتالية المهمّة والمسائل ذات الاثر من الناحية النفسية والجسدية فى الجندى المسلم والتى تعده للتأهب والاستبسال فى ساحة المعركة. والكلام يشتمل على سبع جمل: تضمنت الجملة الاولى الأوامر الكلية بشأن المقاومة والصمود فى ميدان الحرب، بينما أشارت الجمل الخمس الاخرى إلى الجزئيات والامور التى تلعب دوراً فى الصمود وتحقيق النصر. أمّا الجملة السابعة والأخيرة فهى تؤكد على الإتكال على اللّه وأنّ النصر من عنده سبحانه ليمكن من خلال ذلك وبقوة الإيمان تحمل المشاق والصعاب والتحلى بالروحية العالية من أجل الصمود أمام العدو ومقاتلته.

الشرح والتفسير

كن كالجبل

كما اشرنا سابقاً فانّ الخطبة تعالج مجريات موقعة الجمل حيث أعطى الإمام عليه السلام الراية ولده الشجاع محمد بن الحنفية، وقد أوصاه عدّة وصايا مهمّة بشأن القتال وتحقيق النصر منها:

أنّه قال:

«تزول الجبال ولا تزل»[۶۱۴]

. فالواقع إنّ أهم مسألة في ميدان القتال هي الاستقامة والصمود التي لايمكن تحقيق النصر بدونها، وهذا ما أكده الإمام عليه السلام في بداية الأمر. ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة لمضمون الرواية المعروفة «المؤمن كالجبل الراسخ لاتحركه

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۳۲۱

العواصف» كما ورد عن النبي الاكرم صلى الله عليه و آله انّه قال:

«المؤمن أشد في دينه من الجبال الراسية وذلك انّ الجبل قد ينحت منه والمؤمن لايقدر أحد على أن ينحت من دينه شيئا»[۶۱۵]

، ثم تناول عليه السلام ما من شأنه أن يؤثر في مسيرة المعركة فقال:

«عض على ناجذك»

. فالناجذ قد يعني أقصى الضرس، كما فسّر بسن العقل، وقيل بل جميع الإنسان. وقيل أنّ العض على النواجذ يتضمن فائدتين: الاولى أنّه يزيل الخوف والقلق والاضطراب ومن هنا يعض الإنسان على أسنانه في مواطن الخوف ليهدأ وتسكن فورته، والثانية أنّهم ذكروا أنّ العاض على نواجذه ينبو السيف عن دماغه، لأنّ عظام الرأس تشتد وتصلب؛ وقد جاء في كلامه عليه السلام هذا مشروحاً في موضع آخر وهو قوله عليه السلام:

«وعضوا على النواجذ، فإنّه أنبى للصوارم عن الهام»[۶۱۶]

. أمّا في الجملة الثالثة فقد قال عليه السلام:

«أعر اللّه جمجمتك»

تعني إستعد للتضحية والفداء والشهادة في سبيل اللّه فان هذا الاستعداد أساس الشجاعة والاستبسال. هذا وقد ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ في العبارة إشعار له أنّه لايقتل في تلك الحرب، لأنّ العارية مردودة، ولو قال له: بع اللّه جمجمتك، لكان ذلك إشعار له بالشهادة. ثم قال عليه السلام في الجملة الرابعة:

«تد في الأرض قدمك»

. في إشارة واضحة إلى الثبات في المعركة ورباطة الجأش في مقابل العدو وعدم التفكير قط بالانسحاب أو الفرار من الميدان؛ الأمر الذي أوصى به القرآن الكريم المؤمنين من قبل:

«يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا»[۶۱۷]. ولعل الفارق بين هذه العبارة والعبارة الاولى هو أنّ الجملة الاولى تحدثت عن عدم التزلزل في الفكر والمعنويات بينما أشارت العبارة الأخيرة إلى عدم التزلزل الظاهري والبدني وعدم الانسحاب والتراجع وفي الجملة الخامسة قال عليه السلام:

«ارم ببصرك أقصى القوم»

فمثل هذه النظرة تجعله يحيط بالميدان والعدو والسيطرة على حركة الجنود بحيث يتعرف على نقاط الضعف والقوة فيصيب في الدفاع والهجوم والكر والفر. ثم قال عليه السلام:

«و غض بصرك».

ليس هنالك من تناقض بين قوله «ارم ببصرك» قوله «غض بصرك» وذلك لأنه في الاولى أمره أن يفتح عينه ويرفع طرفه، ويحدق إلى أقاصي القوم

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۳۲۲

بصره، فعل الشجاع المقدام غير المكترث ولاالمبالی، لأن الجبان تضعف نفسه ويخفق قلبه فيقصر بصره ولا يرتفع طرفه ولا يمتد عنقه، ويكون ناكس الرأس، غضيض الطرف. وفی الثانيۀ أمره أن يغض بصره عن بريق سيوفهم ولمعان دروعهم، لئلا يبرق بصره ويدهش ويستشعر خوفا. والشاهد علی ذلک ما أورده عليه السلام فی موضع آخر من نهج البلاغۀ بهذا الشأن إذ قال:

«و غضوا الأبصار فانه أربط للجأش واسكن للقلوب»[۶۱۸]

. أمّا فی الجملۀ السابعۀ والأخيرۀ فقد أشار عليه السلام إلی نقطۀ مهمّۀ وأساسيۀ تنطوی علی أبعاد روحيۀ معنويۀ تطمئن النفوس وتحدوها بالتطلع إلی اللّه

«و اعلم أن النصر من عند اللّه سبحانه»

فالنصر لايستند إلی الأسباب والمقدمات الظاهريۀ، بل المهم إرادۀ اللّه سبحانه ونصره، فتوكل علی اللّه وثق به واسأله الغلبۀ فهو القادر علی كل شیء وهو الرحمن الرحيم بعباده المؤمنين المجاهدين «وَما النَّصْرُ إِلّا مِنْ عِنْدِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»[۶۱۹]. والطريف فی الأمر أن القرآن الكريم تحدث عن نصرۀ الملائكۀ إلّاأنّه حث المؤمنين بالتضرع إلی اللّه بنزول النصر لا الملائكۀ

«بلی ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسۀ آلاف من الملائكۀ مسومين وماجعله اللّه إلا بشری لكم وتطمئن قلوبكم به وما النصر إلّامن عند اللّه العزيز الحكيم».

تأمّلان

۱- محمد بن الحنفيۀ ونسبه وبعض أخباره

هو أحد أبناء أميرالمؤمنين علی عليه السلام و «حنفيۀ» لقب أمه واسمها خولۀ بنت أحد أشراف قبيلۀ «بنی حنيفۀ» وقد اسرت فی أحد المعارك الإسلاميۀ وأرادوا بيعها، فأعتقها عليه السلام وتزوجها. ورث محمد الشجاعۀ من علی عليه السلام وقيل كان يشق الدرع بيده لقوته. ومن هنا سلمه عليه السلام الرايۀ يوم الجمل، كما أسند إليه مع محمد بن أبی بكر وهاشم المرقال ميسرۀ جيشه فی صفين. وكان شديد التواضع للحسن والحسين عليهما السلام.

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۳۲۳

دفع أميرالمؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايته إلی محمد ابنه عليه السلام، وقد استوت الصفوف، وقال له:

احمل، فتوقّف قليلًا، فقال له: احمل، فقال يا أميرالمؤمنين، أماتری السّهام كأنّها شابيبُ المطر! فدفع فی صدره، فقال: أدركك عِرْق من أمّك، ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصره. قيل لمحمد لِمَ يُغرِّرُ بك أبوك فی الحرب ولا يغرّر بالحسن والحسين عليهما السلام؟

فقال: إنّهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيْه بيمينه.

إتهم البعض محمد بن الحنفيۀ بأنه إدعی الإمامۀ بعد الإمام الحسين عليه السلام، بل قيل إدعی المهدويۀ، إلا أن الشيخ المفيد أبطل ذلك وقال لم يدع الإمامۀ (بل نسب الآخرون ذلك إليه وهم من إدعی الإمامۀ والمهدويۀ من الكيسانيۀ. توفی بن الحنفيۀ عام ۸۱ ه- و اختلف فی محل دفنه، فقيل توفی فی الطائف ودفن فيها. وقيل فی البقيع، كما قيل فی الجبل الرضوی قرب المدينۀ.

أمّا إحد الشواهد الحيۀ علی رفعۀ مكانته وعلو منزلته فهو أنّ الإمام الحسين عليه السلام حين أراد الخروج من المدينۀ إلی مكۀ جعله خليفته ووصيه فی المدينۀ ليطلعه علی الأخبار، كما أودعه وصيته طبق لنقل أرباب المقاتل.

۲- الشرط المهم فی النصر علی الأعداء

تفيد الآيات القرآنية والروايات الإسلامية أنّ العنصر الرئيسى الذى يقف وراء النصر والغلبة إنّما يكمن فى الصبر والمقاومة والثبات. فالقرآن يصف الفئة القليلة الصابرة بانها هى المنتصرة فى مقابل الفئة المعادية الكثيرة العدد والعدة: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَ نَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ»[۶۲۰]. كما ورد تأكيده عليه السلام على الصبر فى سائر خطبه فى نهج البلاغة ومن ذلك قوله عليه السلام: «و عليكم بالصبر فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ولا خير فى جسد لا رأس معه ولا فى إيمان لا صبر معه»[۶۲۱].

نفحات الولايهٔ، ج۱، ص: ۳۲۴

و هو المعنى الذى ورد التأكيد عليه كرارا فى الخطبة التى نحن بصددها، فقد قال عليه السلام كإشارة لمواطن الصبر «تزول الجبال ولا تزل» وقال: «تد فى الأرض قدمك»، وهكذا سائر عباراته من قبيل العض على النواجذ واعارة اللَّه الجمجمة والإيمان بانّ النصرة والغلبة من اللَّه سبحانه، حيث من شأن كل هذه الامور أن تلهم الإنسان الصمود والثبات والمقاومة التى تستبطن النصر، وهذا بعينه ما جعل المسلمين ينتصرون على خصومهم حتى فى المعارك التى لم تكن متكافئة، وهذا ما ينبغى أن يؤمن به ويستشعره جيلنا الإسلامى الجديد ليحقق الانتصارات الباهرة على الأعداء.

نفحات الولايهٔ، ج۱، ص: ۳۲۵

الخطبة الثانية عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما أظفره الله بأصحاب الجمل وَقَدْ قالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحابِهِ: وَدِدْتُ أَنَّ أَخِى فُلاناً كانَ شاهِدَنا لِيَرَى ما نَصَرَك اللَّهُ بِهِ عَلَى أَعْدائِك

«فَقالَ عليه السلام: لَهُ أَهَوَى أَخِيك مَعَنا؟ فَقالَ:

نَعَمْ. قالَ فَقَدْ شَهِدَنا، وَلَقَدْ شَهِدَنا فِى عَسْكَرِنا هَذا أَقْوامٌ فِى أَصْلابِ الرِّجالِ وَأَرْحامِ النِّساءِ، سَيَرْعَفُ بِهِمُ الزَّمانُ وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمانُ».[۶۲۲]

نظرة إلى الخطبة

يتضح ممّا قاله السيد الرضى بشأن الخطبة أنّها متعلقة باحداث الجمل والنصر المبين الذى حققه الإمام عليه السلام حيث إلتفت إليه أحد أصحابه وكان شديد الحب لأخيه فقال له: ليت أخى كان معنا ليشهد ما نحن فيه من النصر والغلبة على هؤلاء البغاة. فاورد الإمام عليه السلام هذه الكلمات الرائعة ليطمئنه بالحضور المعنوى لأخيه وكل من سار على نهجه عليه السلام من حماة العقيدة، فالإسلام يرى الرابطة الدينية تفوق كافة الروابط العرقية والسياسية والاقتصادية وما إلى ذلك. فقد تظافرت الروايات الإسلامية التى صرّحت بأنّ من أحبّ عمل قوم حشر فيه معهم

نفحات الولايهٔ، ج۱، ص: ۳۲۶

و الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم. وبعبارة اخرى فان الإمام عليه السلام أشار فى هذه الخطبة إلى أنّه قد شهده فى عسكره وشركه فى نصره كافة الأفراد الذين يقيمون اليوم فى كافة أصقاع العالم والذين لم يشهدوا- لأسباب- ميادين القتال إلّاأنّهم وبسبب تعاطفهم العقائدى وكذلك الأفراد الذين مازالوا نطف فى أصلاب الرجال وقرارات الفساد.

الشرح والتفسير

اللحمة العقائدیة

یتضح ممّا مر معنا أنّ الإمام علیه السلام اورد هذا الکلام فی إطار ردّه علی أحد أصحابه الذی أعرب عن تمنیه فی أن یکون أخیه قد حضر معه فی تلک المعرکة ویشهد النصر المؤزر الذی من اللَّه به علی جیش الإمام علیه السلام فالتفت إلیه الإمام علیه السلام:

«فقال له: أهوی أخیک معنا؟»،

«فقال:

نعم»، فرد علیه الإمام علیه السلام:

«فقد شهدنا، ولقد شهدنا فی عسکرنا هذا أقوام فی اصلاب الرجال وارحام النساء، سیرعف بهم الزمان، ویقوی بهم الإیمان».[۶۲۳]

أجل من کان علی عقیدتنا أینما کان فهو معنا وإن لم یکتب لهم اللَّه الحضور الفعلی فی المیدان.

أمّا قوله علیه السلام سیرعف بهم الزمان فهی إشارة إلی أنّ الدم وان جری مستتراً فی عروق الإنسان إلّا أنّه یظهر فی أیة لحظة وینتشر بکل سهولة، فهؤلاء مستترون فی باطن هذا العالم إلّاأنّهم سیظهرون تدریجیا طبق التصنیف الزمانی الإلهی ومن خصائصهم «و یقوی بهم الإیمان» فهم یتحرکون باتجاه الحق؛ الأمر الذی یسهم فی تقویة أواصر الدین والإیمان. هذا وقد کثر الکلام بین شرّاح نهج البلاغة بشأن طریقة هذا الشهود والحضور للغائبین فهل هو حضور روحی؟

أی هل أرواحهم حاضرة فی ذلک المکان قبل أن تخلق الأبدان، أم هو حضور بالقوة؟ أیهم حاضرون وان غابوا عن المیدان ظاهریا؟ یبدو أنّ مراد الإمام علیه السلام بهذا الحضور هو شرکتهم فی الثواب والحسنات والنتائج؛ أی أنّ هؤلاء الذین قلوبهم معنا وهم علی خطتنا وحرکتنا (حزب اللَّه) فهم شرکاءنا فی الأجر والثواب، وعلیه فلهم حضورهم الروحی الفعلی فی کافة میادین صراع الحق ضد الباطل. فالواقع هو أنّ المسار واحد والحرکة واحدة والجمیع کتلة

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۲۷

واحدة إن تعا نقت عقائدهم وأهدافهم ولیس للزمان أن یفصل بعضهم عن البعض الآخر.

وهذا یصدق أیضاً علی خط الباطل، فالکل سائر علی طریق الشیطان ویحمل نفس العقائد الفاسدة ویعیش حالة الظلم والعدوان ومقارفة الذنوب والمعاصی فالمتأخر شریک للمتقدم فی الجزاء والعقاب.

تأمّل: الرابطة الحق

ما ورد فی الخطبة یکشف عن حقیقة معنویة لیس للمعادلات الدنیویة المادیة من سبیل إلی الوقوف علی کنهها والاحاطة بها. فالإمام علیه السلام یری أنّ أهم رابطة تحکم المؤمنین هی رابطة الدین والعقیدة التی لاتضاهیها رابطة (من قبیل رابطة الدم والجنس واللون والعرق واللغة والحزب والطائفة والقبیلة وما إلی ذلک) فهی أروع وأقوی وأعظم، ومن شأن هذه الرابطة أن تشمل کافة الأزمنة والأمکنة وجمیع أفراد البشر فی الماضی والحاضر والمستقبل لیصهرها فی بوتقة الهیة واحدة. فقد قال علیه السلام «لقد شهدنا، ولقد شهدنا فی عسکرنا هذا أقوام فی أصلاب الرجال وارحام النساء، سیرعف بهم الزمان، ویقوی بهم الإیمان» فالمعرکة لیست صراع شخصی من أجل السیطرة، بل هی معرکة بین الحق والباطل، وهما صفان متقابلان خالدان حتی ینفخ فی الصور، وأنّ المؤمنین سیهبون لمجابهة الباطل والذود عن الحق مازالت هنالک آثار للباطل، وکل من کان علی الحق فهو شریک فی کل ما یترتب علی هذه المجابهة من أجر وثواب. والدلیل واضح علی ذلک حیث الحقیقة واحدة لاینشد أتباع الحق سواها فهم یتحرکون بهذا الاتجاه ویشهرون سیوفهم من أجل تحقیق هذا الهدف. وعلی أساس هذا الاصل الأساسی تکون قد حلت أکثر المسائل الواردة فی القرآن

والأحاديث والتى قد تبدو مستغربة للبعض. فقد صرّح القرآن الكريم بشأن قوم ثمود قائلًا: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوّئها»[۶۲۴]. بينما صرّحت التواريخ أنّ الذى عقر الناقة كان واحداً منهم، فى حين نسب اللّه العقر للجميع بفعل تضامنهم العقائدى معه فشملوا جميعاً بالعذاب. وهذا هو

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۲۸

المفهوم الذى أوضحه الإمام عليه السلام بقوله:

«أيّها الناس انّما يجمع الناس الرضى والسخط وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد منهم فعمهم اللّه بالعذاب لما عموه بالرضا»[۶۲۵]

وقوله عليه السلام:

«الراضى بفعل قوم كالداخل فيه معهم وعلى كل راض بالاثم ذنبان؛ ذنب الرضى به وذنب العمل به».

وورد فى زيارة الأربعين لجابر بن عبداللّه الانصارى أنّه انكب على قبر الحسين عليه السلام وجعل يزوره بهذه العبارت: «أشهد أنّك أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف‌نهيت عن المنكر وجاهدت فى اللّه حق جهاده حتى أتاك اليقين، والذى بعث محمداً بالحق لقد شاركناكم فيما دختلم فيه» فلما سمعه صاحبه عطية تعجب من قوله قائلا: كيف ذاك ولم نهبط وادياً وقد قاتل القوم دون الحسين عليه السلام فطاحت رؤوسهم وترملت نسائهم ويتمت أولادهم فقال جابر: سمعت حبيبى رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: من أحبّ قوماً حشر معهم ومن أحبَّ عمل قوم اشرك فى عملهم، أمّا والذى بعث محمدا صلى الله عليه و آله بالنبوة لنيتنا نية الحسين عليه السلام وأصحابه»[۶۲۶] القرآن من جانبه خاطب كراراً يهود المدينة على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله ووبخهم على الأعمال التى أتى به أصحابهم على عهد نبى اللّه موسى عليه السلام؛ بينما كانت هنالك عدّة قرون بين القومين، فجعلهم القرآن كاولئك لانتهاجهم مسيرتهم ورضاهم باعمالهم، ومن ذلك قوله «قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِى بِالبَيِّناتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»[۶۲۷]. وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام فى ذيل هذه الآية أن اللّه إعتبر هؤلاء- ممن عاصر النبى صلى الله عليه و آله من اليهود- قتلة الأنبياء السابقين رغم عدم ارتكابهم لجريمة القتل ولكن حيث كانوا على عقيدة أولئك القتلة وراضين بفعلهم فقد عدهم قتلة»[۶۲۸]. وقد روى المحدث الكبير عدّة روايات فى المجلد الحادى عشر من وسائل الشيعة بهذا المضمون فى كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.[۶۲۹]

ومن شأن هذا اللون من التفكير أن يفتح أمامنا آفاقا واسعه ويجعلنا نقف على مضمون الآيات والروايات ويساعدنا فى سلوك طريق الحق.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۲۹

الخطبة الثالثة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى ذم أهل البصرة بعد وقعة الجمل.

«كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ، وَأَتْباعَ الْبَهِيمَةِ؛ رَغا فَأَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ. أَخْلاقُكُمْ دِقاقٌ، وَعَهْدُكُمْ شِقاقٌ، وَدِينُكُمْ نِفاقٌ، وَماؤُكُمْ زُعاقٌ، وَالْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشَّاخِصُ عَنْكُمْ مُتَدارَك بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ. كَأَنِّى بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ قَدْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْها الْعَذابَ مِنْ فَوْقِها وَمِنْ تَحْتِها، وَغَرِقَ مَنْ فِى ضِمْنِها».[۶۳۰]

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كبعض الخطب السابقة واللاحقة واردة بشأن موقعة الجمل، وقد ذم الإمام على عليه السلام أهل البصرة الذين أسلسلوا قيادهم لطلحة والزبير وفرقوا صفوف المسلمين، ثم توعدهم بعذاب اللّه سبحانه، ليعتبر من إعتبر فلا يقارف أعمالهم.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۳۰

الشرح والتفسير

خصائص أهل الجمل

لقد أشار عليه السلام فى هذه الخطبة إلى الصفات الذميمة التى إتصف بها مؤججى البصرة ليجمعها فى سبع صفات. فقد قال عليه السلام فى البداية

«كنتم جند المرأة»

. صحيح أن مؤججى نار الجمل هما طلحة والزبير، كما تشير الشواهد التأريخية إلى الدور المشبوه الذى لعبه معاوية فى هذا الشأن، ولكن الذى لاشك فيه أنّ حضور عائشة وكونها زوج النبى صلى الله عليه و آله كان الدافع الأعظم الذى ساق الناس لقتال الإمام عليه السلام والانخراط فى صفوف أصحاب الجمل، ولا سيما أن كنيتها بأم المؤمنين كان له أبلغ الأثر فى نخوة الناس للدفاع عن امهم، ومن هنا خاطب الإمام عليه السلام أهل البصرة.

بجند المرأة. الصفة الثانية لهم:

«و اتباع البهيمة»

، ثم يوضح عليه السلام سبب استحقاقهم لهذه الصفة إثر تحزبهم واجابتهم حين كانت ترغى وهروبهم وتشتتهم حين عقرت

«رغا[۶۳۱] فاجبتم،

وعقر[۶۳۲] فهربتم»

. فقد صرّح بعض المؤرخين أنّ جمل عائشة- فى معركة الجمل- كان بمثابة راية عسكر البصرة، حيث كان الجنود يلتفون حوله ويضربون دونه حتى قتلوا كما تقتل الرجال تحت راياتها. وجاء فى بعض الروايات أن سبعين ألفاقد أخذوا بزمام الجمل وكانوا يقتلون الواحد تلو الآخر، وكان أكثر من إلتف حول الجمل والدفاع عنه من قبيلتى بنى ضبة والأزد، لقد كانت الرؤوس تندر عن الكواهل، والايدى تطيح من المعاصم وأفتاب البطن تند لق من الاجواف وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لاتتحلحل ولا تتزلزل، حتى لقد صرخ على عليه السلام بأعلى صوته: «ويلكم أعقروا الجمل، فانه شيطان» ثم قال: إعقروه والا فنيت العرب.

لايزال السيف قائما وراكعا حتى يهوى هذا البصير إلى الأرض، فعمدوا له حتى عقروه فسقط و له رغاء شديد، فلما برك كانت الهزيمة. كما ورد فى بعض الروايات أنّ أميرالمؤمنين أمر بحرق الجمل وذر رماده فى الرياح وقال: لعنه اللّه من دابة ما أشبهه بعجل السامرى، ثم تلى «وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى اليَمِّ نَسْفاً»[۶۳۳] والطريف فى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۳۱

موقعة الجمل أن عائشة أخذت كفا من حصى فحصبت به أصحاب الإمام عليه السلام وصاحت بأعلى صوتها: شاهت الوجوه كما صنع رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوم بدر. فقال لها قائل: ومارميت إذ رميت ولكن الشيطان رمى [۶۳۴] فقد كان حصب رسول اللّه صلى الله عليه و آله للمشركين أحد العوامل الاعجازية التى أدت إلى إنهيار عسكر الكفر، بينما انتهت معركة الجمل بهزيمة منكرة منى بها أعداء الإمام عليه السلام. أمّا الصفة الثالثة والرابعة والخامسة فهى تعالج أوضاعهم الأخلاقية حيث قال عليه السلام: «أخلاقكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق» دقاق من مادة دقت بمعنى الدنيئة هنا، يصف بها أهل البصرة من عبدة الأهواء الذين نكثوا البيعة والتحقوا بصفوف الأعداء، أمّا نفاقهم فهو ناشئ من كون ظاهرهم هو الإسلام والدفاع عن زوج النبى صلى الله عليه و آله وباطنهم

القيام ضد الحكومة الإسلامية ووصى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و التخندق فى صفوف أهل الشام. ثم أشار عليه السلام إلى صفتهم السادسة «و مأوكم زعاق». ومن المعلوم إن مثل هذا الماء وإضافة إلى ملوحته ومرارته فانه ينطوى على كل عناصر التلوث بسبب مجاورته لشاطئ البحر؛ فهو مضر بالنسبة لسلامة البدن، وهو يا لتالى مضر بروح الإنسان وفكره بفعل الرابطة القائمة بين الروح والبدن. وعليه فان ذم ماؤهم هو فى الواقع نوع ذم لأخلاقهم. ثم تطرق إلى صفتهم السابعة فقال:

«و المقيم بين أظهركم ۶۳۵] مرتهن بذنبه والشاخص ۶۳۶] عنكم متدارك برحمة من ربّه»

. والعبارة إشارة إلى ما ورد فى عدّة روايات، ومنها الحديث المعروف الذى نقله المرحوم الكلينى فى الكافى عن أبى الحسن الإمام الهادى عليه السلام حين قال لأحد أصحابه ويدعى جعفر:

مالى أراك تغشى عبدالرحمن بن يعقوب (و كان منحرفاً فى عقائده)، ألا تعلم أنّه ينسب اللّه إلى صفات المخلوقين ثم نصحه عليه السلام بتركهم ومجالسة أعدائهم أو العكس، فرد جعفر على الإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۳۲

فليقل ما يقل فى إشارة إلى أنّه لا يتفق معه فى العقيدة فلا يضره. فقال عليه السلام: «أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعا»[۶۳۷] ومن هنا وجبت الهجرة على المسلمين فى صدر الإسلام حين عم الفساد كل شيء- ولا سيما الفساد العقائدى- ولم يسعهم القضاء عليه، بل كان يخشى تأثرهم به. وقوله عليه السلام: «مرتهن بذنبه» إشارة إلى أنّ الذنب يأسر الإنسان وكأنه يجعله رهينة فلا يطلقه، وهو مستوحى من قول القرآن الكريم «كل نفس بما كسبت رهينة»[۶۳۸] والذى نخلص إليه من هذه العبارة هو التأثير الذى يلعبه المحيط والوسط على أخلاق الناس، فاما يغير هذا الإنسان المحيط الفاسد والملوث أو يهجره. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى العذاب الدنيوى الذى ينتظر أهل البصرة فقال: «كانى بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث اللّه عليها العذاب من فوقها ومن تحتها، وغرق من فى ضمنها». وأمّا إخباره عليه السلام أنّ البصرة تغرق عدا المسجد الجامع بها، «فقد رأيت من يذكر أن كتب الملاحم تدل على أنّ البصرة تهلك بالماء الأسود ينفجر من أرضها، فتغرق ويبقى مسجدها. والصحيح أنّ المخبر به قد وقع، فان البصرة غرقت مرتين، مرة فى أيّام القادر باللّه ۶۳۹] ومرة فى أيام القائم بأمر اللّه ۶۴۰] غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلّامسجدها الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر، حسب ما أخير به أميرالمؤمنين عليه السلام، جاءها الماء من بحر فارس ۶۴۱] من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام، وخربت دورها وغرق كل ما فى ضمنها، وهلك كثير من أهلها»[۶۴۲] أخبارهاتين الحادثين معروفة عند أهل البصرة يتناقله خلفهم عن سلفهم.

ثم نقل السيد الرضى آخر هذه الخطبة ثلاث روايات بشأن العبارات الواردة فى آخرها:

الرواية الاولى

«و آيم اللّه لتغرقن بلدتكم حتى كأنى انظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة».

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۳۳

الرواية الثانية:

«كجؤجؤ طير فى لجة بحر».

الرواية الثالثة:

«بلادكم أنتن بلاد اللّه تربة: أقربها من الماء، وأبعدها من السماء، وبها تسعةأعشار الشر، المحتبس فيها بذنبه، والخارج بعفو اللّه. كأنّى أنظر إلى قريتكم هذه قد طبقها الماء، حتى ما يرى منها الاشرف المسجد، كانه جؤجؤ طير فى لجة بحر».

لابدّ من الالتفات إلى عدم وجود تفاوت يذكر بين ماورد فى الخطبة المذكورة والرواية الاولى فكلاهما قد استهلت بالقسم وتحدثتا علانية عن غرق هذه المدينة، ثم اضافت تشبيه آخر لماورد سابقاً بشأن المسجد بالقول

«و ايم اللَّه لتغرقن بلد تكم حتى كانّى انظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة»[۶۴۳].

أمّا فى الرواية الثانية فهناك تفاوت طفيف جداً حيث استبدل تشبيه جؤجؤ السفينه بقولها «كجؤجؤ طير فى لجة[۶۴۴] بحر».

بينما هنالك تفاوت كبير بين الخطبة الثالثة والخطبة الأصلية. فقد أشير فى هذه الرواية إلى ثلاث امور فى ذم أهل البصرة

«بلادكم أنتن بلاد اللَّه تربة اقربها من الماء، وأبعدها من السماء»

والصفة الثانية «و بها تسعة أعشار الشر» ولعل هذا الأمر ينبع من الخصائص الأخلاقية لناس تلك المنطقة أو بسبب كونها ميناءاً يكون مركزاً لتردد مختلف الأفراد وهجوم الثقافات الأجنبية والتلوث الخلقى الذى يفرض عليها من الخارج. ولذلك كانت هذه المنطقة مسرحاً للأحداث الأليمة للقرون الإسلامية الاولى أمّا الصفة الثالثة فهى

«المحتبس فيها بذنبه، الخارج بعفو اللَّه».[۶۴۵]

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى شبيه ماورد فى الروايات المذكورة بقوله:

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۳۴

«كانّى انظر إلى قريتكم هذه قد طبقها الماء، حتى ما يرى منها الاشرف ۶۴۶] المسجد، كانه

جؤجؤ طير فى لجة بحر».

ويبدو أن اختلاف العبارات يستند إلى رواة الحديث الذين قد نقلوا بعضها من حيث المعنى، أو أنّهم أخطأوا فى تدوين الحديث، ويبعد الاحتمال على أنّ الإمام عليه السلام قد كرر هذا الكلام فى أكثر من موضع وقال فيه ما يناسبه.

تأمّلات

۱- نبوءة النبى صلى الله عليه و آله بشأن موقعة الجمل

الجدير بالذكر أن عدة روايات صرحت بإخبار النبى صلى الله عليه و آله عن يوم الجمل وخروج عائشة وتحذيره لها. ومن ذلك لما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيراً أيّداً يحمل هَوْدَجها، فجاءهم يعلَى بن أمية ببعيره المسمى عَسْكراً، وكان عظيم الخلق شديداً، فلما رأتْه أعجبها، وأنشأ الجمَّال يحدّثها بقوته وشدته، ويقول فى أثناء كلامه: «عسكر»، فلما سمعت هذه اللفظة، واسترجعتْ، وقالت: ردّوه لا- حاجة لى فيه، وذكرت حيث سئلت أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله ذكر لها هذا الاسم، ونهاها عن ركوبه، وأمرَت أن يطلب لها غيرهُ فلم يوجد لها ما يشبهه، فغيِّر لها بجلال غير جلاله، وقيل لها: قد أصبْنا لك أعظم منه خلقا، وأشدّ قوة، وأتيتْ به فرضيت.

وأرسلت إلى حفصة تسألها الخروج والمسير معها، فبلغ ذلك عبداللَّه بن عمر، فأتى أخته فعزم عليها فأقامت وحطَّتِ الرّحال بعد ما همّت.

كتب الأشتر من المدينة إلى عائشة وهى بمكة، أمّا بعد: فإنّك ظعينة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله، وقد أمرك أن تقرّى فى بيتك، فإنْ فعلتِ فهو خير لك، فإن أبيتِ إلّاأن تأخذى مِنْسأتك، وتُلقى جلبابك، وتبدى للناس شعيراتك، قاتلتك حتى أردك إلى بيتك، والموضع الذى يرضاه لك ربّك.

فكتبت إليه فى الجواب: أمّا بعد، فإنّك أول العرب شَبّ الفتنة، ودعا إلى الفرقة وخالف

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۳۵

الأئمة، وسعى فى قتل الخليفة، وقد علمت أنّك لن تعجز اللَّه حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم، وقد جاءنى كتابُك، وفهمت ما فيه؛ وسيكفينيك اللَّه؛ وكلّ من أصبح مماثلًا لك فى ضلالك وغيّك، إن شاء اللَّه.

وقال أبومحنف: لما انتهت عائشهٔ فی مسیرها إلی الحوأب، وهو ماء لبنی عامر بن صعصعهٔ، نبحتها الکلاب؛ حتی نفرت صِعاب إبلها، فقال قائل من أصحابها: ألاـ ترون، ما أکثر کلاب الحوأب، وما أشد نُباحها! فأمسکت زمام بعیرها، وقالت: وإنّها لکلاب الحوأب! ردّونی ردّونی؛ فإنی سمعت رسول اللَّه صلی اللَّه علیه یقول ... وذکرت الخبر، فقال لها قائل: مهلًا یرحمک اللَّه! فقد جُزْنا ماء الحوأب؛ فقالت: فهل من شاهد؟ فلفّقوا لها خمسین أعرابیاً، جعلوا لهم جُعْلاـ فحلفوا لها: إن هذا لیس بماء الحوأب، فسارت لوجهها.[۶۴۷]

والعجیب أن مثل هذه الروایات کانت سببا لتردد عائشهٔ، بینما لم تکن کل تلک الروایات الصحاح عن رسول الله صلی الله علیه و آله وقد روت أکثرها سببا لترددها وإنصرافها. وهذا لعمری من العجائب. کما یفهم من هذه الحکایات أنها سرعان ما کانت تخدع وتغیر رأیها.

۲- ذم أهل البصرهٔ

ما ورد من ذم للبصرهٔ فی الخطبهٔ المذکورهٔ یتعلق بعضه بتأثیر المناخ وموقع المدینهٔ وأوضاعها الإجتماعیهٔ (حیث کانت میناءا وموضعا لإستقطاب أنواع الثقافات والأفکار والأخلاق الملوثهٔ والتی کانت هناک ومازالت فی مثیلاتها) إلا أنّ البعض الآخر یرتبط بروحیهٔ وصفات سکنتها، والذی لا یلزم أن یکون کذلک فی کل عصر ومصر، بل هو إشارهٔ لاولئک الناس فی ذلک العصر والزمان والذین کانوا یستسلمون لمحططات طلحهٔ والزبیر القبیحهٔ فینقضوا البیعهٔ ویریقوا تلک الدماء. وعلیه فلا منع من أن یسود تلک المنطقهٔ الأخیار فی سائر العصور. ولذلک وردت بعض الأخیار التی تقید مدح هذه المنطقهٔ، ومن ذلک ما روی عن أمیر المؤمنین علیه السلام حین إخباره منه ... فقرّاؤهم أفضل القرّاء وزهّادهم أفضل الزّهاد وعبّادهم

نفحات الولایهٔ ؛ ج۱ ؛ ص۳۳۵

نفحات الولایهٔ، ج۱، ص: ۳۳۶

أفضل العبّاد وتجارهم أصدق التجار ... ونساؤهم خیر النساء.[۶۴۸]

فلا منافاهٔ أبدا أن یجد قوم ویجتهدوا فی طریق تهذیب النفس وتزکیتها فیتطهروا من الرذائل الأخلاقیهٔ وینطلقوا صوب السمو والکمال، سیما إن کانت رذائلهم الأخلاقیهٔ من قبیل معرکهٔ الجمل وما ترتب علیها منتائج هزّتهم وأعادتهم إلی رشدهم.

۳- المحیط والاخلاق

تتضح مسألتان من عبارات الإمام علیه السلام فی هذه الخطبهٔ:

الاولی الأثر الذی یلعبه المحیط الطبیعی والجغرافی فی خلق ومزاج الإنسان، حیث قال علیه السلام:

«ماؤکم زعاق ... بلادکم انتن بلاداللَّه تربهٔ أقربها من الماء وابعدها من السماء». والاخری تأثیر المحیط الاجتماعی فی أخلاق الناس: «و المقیم بین أظهرکم مرتهن بذنبه».

ولکن من المسلم به أنّ هذا التأثیر یقتصر علی تمهید السبیل وتوفیر الأرضیهٔ ولا یرقی لأن یکون علهٔ تامهٔ قط؛ ولذلک هناک الأفراد الأخیار الذین یعیشون فی هذه الأوساط. بل علی العکس فهنا لک الأفراد المعروفون بالفساد والانحراف والسیرهٔ الخبیثهٔ والشریرهٔ وهم یعیشون فی المناطق التی تتمتع بالمناخ المناسب من أجل تعالی الأخلاق وبلورهٔ المزاج.

نفحات الولایهٔ، ج۱، ص: ۳۳۷

الخطبة الرابعة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام فى مثل ذلك

«أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْماءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّماءِ، خَفَّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ، وَأُكْلَةٌ لِآكِلٍ، وَفَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ».[۶۴۹]

نظرة إلى الخطبة

هذه خطبة اخرى أوردها الإمام عليه السلام بعد الجمل ولعلها تشكل مع سابقتها خطبة واحدة ثم فصلها الشريف الرضى رحمه الله. على كل حال فانّ الإمام عليه السلام يعرض بالذم ثانية لأهل البصرة ويتحدث عن خوائهم الفكرى الذى جعلهم يتحولون إلى إلعوبة بيد المنافقين من اصحاب المطامع، وأخيراً يحذرهم عليه السلام من مغبة مواصلة هذا الطريق الضال.

الشرح والتفسير

ذم أهل البصرة ثانية

كما أشرنا سابقاً فان هذا الكلام هو قسم آخر من تلك الخطبة التى أوردها الإمام عليه السلام فى ذم

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۳۸

أهل البصرة بعد موقعة الجمل حيث ضمته عليه السلام سبع صفات قبيحة إتصفوا بها. فقد وصفهم فى العبارة الاولى والثانية

«أرضكم قريبة من الماء، بعيدة من السماء»

. يمكن أن تكون العبارتان إشارة إلى الجوانب المادية فى أنّ هذه المنطقة قريبة من ماء البحر والشط وهى بعيدة عن السماء، أو إشارة إلى الجوانب المعنوية كأن يكون المراد أن أرض قلوبكم ورغم قربها من ماء الحياة بفعل وجود الإمام، إلّاأنّها بعيدة عن سماء رحمة اللَّه ومغفرته. أو أن تكون هذه العبارة واردة فى المسائل المادية والعبارة الاخرى فى المسائل المعنوية هناك نقاش وبحث بين الشرّاح فى هذا الشأن، غير أنّ ظاهر العبارة- بالالتفات إلى المعنى الحقيقى للأرض والسماء- فانّ المراد المعنى الأول، فليس هنالك من خلاف فى أنّ أرضهم قريبة من الماء ولها المشاكل التى تنطوى عليها الحياة عند ساحل البحر، ولا سيما البصرة التى يمر بها ذلك الشط الكبير ويصب فى البحر ممّا يجعلها عرضة لظاهرة المد والجزر؛ أمّا كيفية إبتعادها عن السماء، فقد ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ أرباب علم الهيئة وصناعة التنجيم يذكرون أن أبعد موضع فى الأرض عن السماء «الابلة» وذلك موافق لقوله عليه السلام- ومعنى البعد عن السماء ها هنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدل النهار والبقاع، والبلاد تختلف فى ذلك. وقد دلت الارصاد والآلات النجومية على أنّ أبعد موضع فى المعمورة عن دائرة معدل النهار هو الابلة والابلة هى قصبة البصرة. وهذا الموضع من خصائص أميرالمؤمنين عليه السلام لأنّه أخبر عن أمر لاتعرفه العرب، لاتهتدى إليه، وهو مخصوص بالمدققين من الحكماء، وهذا من أسراره وغرائبه البديعة.

ولكن لايبدو هذا الكلام مقبولا لدى العلماء المعاصرين، لأن البصرة كسائر الموانئ العالمية المساوية لسطح ماء البحر، ونعلم أنّ مياه بحيرات العالم متصلة مع بعضها وتقع فى مستوى واحد؛ والحال هنالك عدّة مناطق على سطح الكرة الأرضية وهى أوطئ من سطح البحار. لكن يحتمل ألا تكون المقارنة بالنسبة لجميع المناطق على سطح الكرة الأرضية، بل مع بعض البلدان والمناطق الإسلامية المتعارفة آنذاك.

ثم قال عليه السلام فى العبارة الثالثة والرابعة

«خفت عقولكم، وسفهت حلومكم»

والدليل الواضح على هذا ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطب السابقة من انقيادهم السهل واستسلامهم لأهواء

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۳۳۹

طلحة والزبير وتقديمهم التضحيات الجسام ذودا عن جمل عائشة وبالتالى هزيمتهم وفضيحتهم المنكرة التى جرت عليهم الندم والحسرة. عقول جمع عقل وحلوم جمع حلم، ويبدو أن (الحُلُم والحِلم) من آثار العقل بعبارة اخرى فانّ العقل هو القوة المدركة لدى الإنسان والفكر واعلم واجالة الرأى فى الأعمال من نتائجه، ولما كانت عقول أهل البصرة خفيفة فانّ أفكارهم كانت ضعيفة تثار بسرعة إثر الدعايات السيئة التى يمارسها ذوى الأهواء والمطامع. ومن هنا قال الإمام عليه السلام فى العبارة الخامسة والسادسة والسابعة:

«فأنتم غرض ۶۵۰] لنا بل ۶۵۱]، واكلة لأكل، وفريسة[۶۵۲] لصائل ۶۵۳]».

و من البد يهى أن يقع الأفراد السذج من ذوى الأفكار السطحية الهشة لقمة سائغة فى شباك صيادى الدين والإيمان والمتعطشين إلى الشراء والمال والجاه والمنصب؛ ومن هنا فانّ العنصر الذى يمكنه ضمان المجتمعات الإنسانية إزاء هؤلاء المكرة المخادعين، إنّما يكمن فى رفع المستوى الثقافى لدى الرأى العام وايقاف الامّة على مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية؛ الأمر الذى أكده الإسلام، وهذا هو أحد الأهداف التى تستبطنها خطب صلاة الجمعة. فلو إستدرك أهل البصرة وعادوا إلى أنفسهم وأفكارهم وألموا بشرائط الزمان والمكان لما أصبحوا العوبة بيد طلحة والزبير الذين نقضنا بيعة الإمام عليه السلام وتظاهرا عليه وألبوا الناس على قتاله فسالت تلك الدماء وحتى إنتهى الأمر إلى قتلهما. والسؤال المطروح هنا: هل هناك معنى واحد للعبارات الثلاث «فأنتم غرض لنابل» «و اكلة لآكل» «و فريسة لصائل» أم لها معانى متعددة؟ لايبعد أن تكون كل عبارة إشارة إلى جانب من جوانب المسألة. فالعبارة الاولى تبيّن الاستهداف من بعيد فى أنّ الساسة يسعون لرميكم بسهامكم وايقاعكم فى شباكهم ولو من بعيد. والعبارة الثالثة تبيّن هذا الاستهداف من قريب بينما تبين العبارة الثانية النتيجة

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۳۴۰

النهائية لهذا الاستهداف والصيد. وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذا الذم إنّما يرد بشأن اولئك الذين أصبحوا آلة رخيصة بيد المنافقين، وإلّا فالبصرة آنداك وما تبعه من أزمان قد حفلت بالأفراد الأخيار الذين أثنى عليهم الإمام عليه السلام كما ورد فى شرح الخطبة السابقة.

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۳۴۱

الخطبة الخامسة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فيما رده على المسلمين من قطائع ۶۵۴] عثمان

«وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّساءُ وَمُلِك بِهِ الْإِماءُ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً. وَمَنْ ضاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ».[۶۵۵]

نظرة إلى الخطبة

هذه من الخطب التى أوردها الإمام عليه السلام بعد أن بايعه الناس فى المدينة حيث توعد فيها كافة الأفراد الذين تطاولوا على بيت المال إبان عهد عثمان إلى جانب بطانته وقرابته ممن حذا حذوهم، ويطالبهم باعادتها إلى بيت المال وإلّا سيقف بوجههم بكل قوة.

وهكذا يضع الإمام عليه السلام حداً لأطماع الطامعين، ثم يختتمها بعبارات قصيرة بعيدة المعنى بشأن العدالة وقيمتها فى المجتمع.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٢

الشرح والتفسير

القسم على إعادة الأموال المغصوبة

كما يفهم من مضمون الخطبة فانّها وردت فى بداية الخلافة الظاهرية لأميرالمؤمنين على عليه السلام. وقال ابن أبى الحديد إنّ هذه الخطبة ذكرها الكلبى مروية مرفوعة إلى أبى صالح عن ابن عباس رحمه الله أنّ علياً عليه السلام خطبها فى اليوم الثانى من بيعته بالمدينة. والحق أنّ هذه الكلمات كانت كالماء البارد الذى سكب على ألسنة اللهب والنار المتقدة فى صدور الامّة؛ فقد سادت السكينة والهدوء قلوب أولئك الذين كانوا يأنون من إنعدام العدالة على زمن عثمان إلى جانب اولئك الذين شعروا بها جس القلق على النظام الإسلامى وقوانينه الحقة، فاستبشروا بعودة الإسلام الأصيل والحكومة الإسلامية التى كانت تتطلع لها الفطرة الإسلامية، ولولا ـ هذه السياسة التى أعلنها الإمام عليه السلام بهذه العبارات لما هدأت المدينة ولتكررت هجمات أبناء الامّة على دار عثمان ولسفكت الدماء واهدرت الأموال. فقد إستهل الإمام عليه السلام كلامه بالقسم بارجاع كافة الأموال التى نهبت من بيت المال مهما فعل بها

«و اللَّه لو وجدته قد تزوج به النساء، ملك به الاماء، لرددته»

. ثم أضاف عليه السلام مذكرا بأنّ إجراء العدالة قد يثير غضب البعض إلّا أنّ ذلك خطأ فادح، لأن العدل أساس راحة المجتمع ومن ضاق صدره من العدل فانّه سيكون أضيق إذا ماساد الجور والظلم

«فان فى العدل سعة ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق»

. فقد بيّن الإمام عليه السلام فى البداية عزمه الراسخ على إعادة الأموال التى اخذت ظلماً وعدواناً من بيت المال وإن تزوج بتلك الأموال أو تملك بها الإماء، فلابدّ أن تعاد إلى بيت مال المسلمين، لتعلم الامّة بأنّ القانون الذى سادها سابقاً لم يكن قانون الإسلام فهو ليس النموذج الإسلامى الذى يحتذى به فى المسيرة السياسية. ثم عزز هذا العزم بالمنطق والدليل «فانّ فى العدل سعة». و أخيراً يعرض بالنصح لُاولئك الذين مد أيديهم إلى بيت المال وظنوا بأنّ عزم الإمام عليه السلام هذا سيتضمن ضررهم، فى أنّ الأمر بالعكس سيكون بنفعهم؛ لأن من ضاق عليه العدل فالظلم عليه أضيق، فالعدالة تمنحه الأموال الحلال ولا تسلبه سوى الأموال المحرمة اللامشروعة، ولكن إذا لم يستجب للعدل وعاش الظلم والجور، فانّه سيخاطر بجميع أمواله المحللة منهاالمحرمة. صحيح أنّ الظلم ممكن أن يجر نفعاً على الظالم خلال مدّة قصيرة، إلّاأنّه

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٤٣

ليس كذلك على المدى البعيد، وقد أثبت التأريخ كيفية تحطم الظلمة بنفس هذه القوانين الظالمة التى شرعوها وفرضوها على الناس بقوة الحديد والنار؛ حتى خانهم أقرب مقربيهم وطعنوهم من خلفهم. قال الكلبى: ثم أمر عليه السلام بكل سلاح وجد لعثمان فى داره؛ تقوى به على المسلمين فقبض، و أمر بقبض نجائب كانت فى داره من إبل الصدقة، فقبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه، وأمر ألا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمين، وبالكف عن جميع أمواله التى وجدت فى داره وفى غير داره، وأمر أن ترتجع الأموال التى أجاز بها عثمان حيث اصيبت أو أصيب أصحابها. فبلغ ذلك عمرو بن العاص، وكان بأيلة من أرض الشام، أتاها حيث وثب الناس على عثمان، فنزلها فكتب إلى معاوية: ما كنت صانع فاصنع، إذ قشرك ابن أبى طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لحاها. هذا وقد إختلفت أقوال المفسرين وشرّاح نهج البلاغة بشأن مراده بقوله «من ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق» وأحد التفاسير هو ما ذكرناه سابقاً. التفسير الآخر هو أن بسط العدالة فيه رضى اللَّه وخلقه والانسجام مع نظام الوجود، بينما يوجب الظلم

غضب اللّه وخلقه ويؤدى إلى ضيق الدنيا والآخرة. وتفسير آخر هو أنّ سلب الإنسان شىء بالعدل قد يشق عليه، إلّاأنّ سلبه ظلماً سيكون عليه أشق وأصعب. وأخيراً أنّ الوالى إذا ضاقت عليه تدبيرات اموره فى مظنة أن يمنع ويصد عن جوره.
وإذا لم يطق الإنسان العدل والانصاف فأنّى له بتحمل الظلم والجور. ولانرى من ضير فى جمع كل هذه التفاسير كمراد لمفهوم تلك العبارة.

تأمّلات

۱- معطيات العدالة فى المجتمعات البشرية

لقد ورد التأكيد كراراً فى نهج البلاغة على مسألة العدل والانصاف، بل المعروف أنّ الإمام على عليه السلام من كبار باسطى العدل فى المجتمع الإنسانى، حتى أسماه المفكر المسيحى المشهور جورج جرداق الإمام على صوت العدالة الإنسانية. وقد تظافرت الروايات الإسلامية- وعلى غرار كلمات الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة- الواردة بهذا الشأن وبعبارات غاية فى الروعة واللطافة، منها ما ورد عن الإمام السجاد على بن الحسين عليه السلام أنّه قال:
«العدل أحلى من
نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۴۴
الماء يصيبه الظمآن»[۶۵۶]
. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:
«العدل أحلى من الشهد وألين من
الزبد وأطيب ريحاً من المسك»[۶۵۷]
. وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:
«العدل أساس به قوام
العالم»[۶۵۸]
، كما قال عليه السلام:
«ما عمرت البلدان بمثل العدل»[۶۵۹]
. فالحق أنّ أساس العالم قد شيد على العدل، والعدل بمفهومه الجامع يعنى وضع الأشياء فى مواضعها، فالسماء والأرض والمجرات والمنظومات الشمسية إنّما تتحرك حسب القانون والنظام والمواضع المخصصة لها، كما أن الالكترونات والبروتونات وسائر أجزاء الذرة ومداراتها إنّما تتحرك هى الاخرى ضمن مواقعها المحددة لها. وإنّ أدنى خروج عن حالة الاعتدال والاتزان فى بنية الإنسان أو أى من أجهزته فان ذلك سيؤدى إلى مرضه أو موته، وهذا ما يصدق تماماً على عالم الحيوان والنبات، وقد أثبت العلماء أن استقرار الحياة على وجه الكرة الأرضية إنّما هو نتيجة لمجموعة معقدة من الأنظمة التى تحكمها بحيث تضعف هذه الحياة وربما تضمحل وتنهار إذا ما تغيرت هذه الأنظمة، وهذا ما أشار إليه الحديث النبوى المعروف
«بالعدل قامت السموات والأرض»[۶۶۰]
. وهنا نتساءل هل يسع الإنسان الذى يعدّ جزءاً صغيراً من هذا العالم العملاق أن يمارس حياته بعيداً عن النظام والعدالة؟ وهل يسعه أن ينشق عن هذه المسيرة ويواصل حياته بمعزل عن الآخرين؟ نعم قد يستطيع الظلم تلبية مصالح فرد أو بلد خلال مدّة قصيرة، إلّاأنّ آثاره المميتة على المدى البعيد ليست بخافية على أحد.

۲– اسراف عثمان

ورد فى التواريخ أنّه أعاد الحكم بن أبى العاص، بعد أن كان رسول اللَّه صلى الله عليه وآله، قد سَيَّره ثم لم يرده أبوبكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم.

وأقطع مروان فدك، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتْها بعد وفاة أبيها صلوات اللَّه

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۴۵

عليه، تارةً بالميراث، وتارة بالنِّحْلة فدُفِعت عنها.

وأعطى عبدالله بن أبى سرْح جميع ما جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيّة بالمغرب؛ وهى من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أنْ يَشْرَكه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أباسفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال، فى المال، فى اليوم الذى أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوّجه ابنته أم أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدى عثمان وبكى فقال عثمان: أتبكى أن وصلت رحمى! وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة، فقسَّمها كلَّها فى بنى أميّة. وأنكح الحارث ابن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضا بعد صَرْه زيد بن أرقم عن خزنه.

وانضم إلى هذه الامور اخرى نقمها عليه المسلمون، كتسيير أبى ذر رحمه اللَّه تعالى إلى الرّبذة؛ وضَرَب عبدالله بن مسعود حتى كسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر فى إقامة الحدود، وردّ المظالم، وكفّ الأيدى العادية والانتصاب لسياسة الرعيّة، وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين.[۶۶۱]

ومن هنا يتضح أمران: الأول: علة قيام الناس ضد عثمان، والثانى السبب الذى دفع ببعض الأفراد من قبيل طلحة والزبير ومعاوية وسائر كبار مكة والمدينة. أو لايمكن خلاصة ذلك فيما ورد فى خطبته عليه السلام من قوله:

«واللَّه لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الاماء، لرددته، فان فى العدل سعة– ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق».

۳– الإجابة عن سؤال مهم

يتساءل البعض ألم يكن من الأفضل أن يتجاوز الإمام عليه السلام الماضى– عفا اللَّه عمّا سلف– ويستأنف فى زمان خلافته مسيرة العدالة ليجتث جذور الحقد والبغضاء من صدور العناصر الانتهازية والنفعية؟ ويمكن العثور على جواب هذا السؤال فى كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، فقد

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۴۶

ورد فى بعض الروايات والقسم الآخر من هذه الخطبة أنّه قال عليه السلام:

«الاـ أن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال اعطاه من مال اللَّه فهو مردود فى بيت المال فان الحق القديم لا يبطله شىء ولو وجدته ...».[۶۶۲]

ومن البديهى أنّ الناس لو رأوا ناهبى بيت المال يتقلبون فى البلاد بكل حرية ويسخرون عملياً من جرحهم لمشاعر الآخرين وأنّ العدالة ليست بصدد الماضى فانّهم لن يطيقوا مثل هذه العدالة ولا يرونها تنسجم وأى منطق وعقل حيث ينعم لصوص الأمس بالحرية والراحة بينما لاـ تطال العدالة سوى لصوص اليوم؛ فهذا الازدواج من شأنه أن يدخل اليأس فى قلوب الناس من بسط العدالة. الفقه الإسلامى هو الآخر نص على وجوب عودة الأموال المغصوبة إلى أصحابها وليس هنالك من فارق بين الأمس واليوم، أمّا مسألة تقادم الزمان المطروحة هذا اليوم فبغض النظر عن اهمالها فى الفقه الإسلامى، فانّها إنّما ترتبط بالدعاوى لا بالأموال المغصوبة.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۴۷

الخطبة السادسة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما بويع فى المدينة وفيها يخبر الناس بعلمه بما تؤول إليه أحوالهم وفيها يقسمهم إلى اقسام

القسم الأول

اشارة

«ذِمَّتِى بِما أَقُولُ رَهِينَةٌ. وَأَنا بِهِ زَعِيمٌ إنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلاتِ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّم الشُّبُهاتِ أَلا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عادَتْ كَهَيْئَتِها يَوْمَ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه و آله. وَالَّذِى بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُساطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ، حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاكُمْ وَأَعْلاكُمْ، أَسْفَلَكُمْ وَلَيَسْبِقَنَّ سابِقُونَ كانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كانُوا سَبَقُوا. وَاللَّهِ ما كَتَمْتُ وَشْمَةً، وَلا كَذَبْتُ كِذْبَةً وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذا الْمَقامِ وَهَذا الْيَوْمِ».[۶۶۳]

نظرة إلى الخطبة

الخطبة من اولى خطبه عليه السلام بعد مقتل عثمان وتوليه عليه السلام الخلافة فى المدينة، ويبدو تفسيرها

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۴۸

سهلًا بالالتفات إلى موقعها وزمان صدورها، وهى تدور حول أربعة محاور:

المحور الأول: الفات انتباه الامّة إلى الامتحان الذى ستمر به وتشبيه ذلك الزمان بزمان رسول اللّه صلى الله عليه و آله وانهضته كنهضة النبى صلى الله عليه و آله التى طفرت بالامّة من عصر الجاهلية والظلمة إلى عصر الهداية والنور، وإن كان إحتمال هذه النهضة صعب ثقيل على البعض وكون الامتحان شاق. فالانحرافات التى أعقبت رحيل النبى صلى الله عليه و آله والتى أدت إلى التمييز فى عطاء بيت المال وسلب ونهب ثروات الامّة واغداق المناصب الحساسة على من تبقى من رجالات الجاهلية إنّما تتطلب ثورة إصلاحية قام بها الإمام على عليه السلام. ثم يذكر الإمام عليه السلام الناس بضرورة العودة إلى الإسلام الأصيل والاعتبار بعاقبة ومصير الأقوام الماضية.

المحور الثانى: يقارن عليه السلام بين المعصية والذنب والورع والتقوى ثم يبيّن كل منهما وكيف تصعب السيطرة على المعاصى بينما يتيسر نهج التقوى ويحذر الامّة من المخاطر التى تتربص بمصيرها.

المحور الثالث: إشارة مقتضبة عميقة المعنى لمسألة الحق والباطل محذراً الامّة من عدم الاستيحاش من الحق رغم قلة سالكيه والاستئناس بالباطل لكثرة سالكيه، والعمل بالحق الذى لا يقود سوى للغلبة والنصرة الإلهية.

المحور الرابع: الذى يشمل سلسلة من النصائح والمواعظ التى تعدّ كل واحدة منها ركن مهم من الأركان التى ينبغى الالتفات إليها فى الحياة من قبيل الوعظ بالابتعاد عن الإفراط والتفريط والتمسك بالقرآن والسنّة وضرورة معرفة الذات والدعوة إلى الآخاء والاتحاد

وإصلاح ذات البين والتوبة من المعاصى والوثوق بأنّ البركة والخير منه سبحانه.

الشرح والتفسير

اليقظة والوعى فى الامتحان

تعتبر هذه الخطبة- كما أشرنا سابقاً وعلى ضوء ما صرّح به بعض شرّاح نهج البلاغة مثل ابن أبى الحديد- من الخطب المهمّة التى أوردها عليه السلام لما تمت له البيعة بالخلافة، فحذر الامّة ممّا ينتظرها وأبان لها المخاطر والانحرافات التى تتربص بها.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۴۹

فقد قال بادئ ذى بدء:

«ذمتى بما أقول رهينة وأنابه زعيم»[۶۶۴]

فى إشارة إلى صدق القول وحقانيته ووجود الضمانات القائمة عليه، ولذلك ينبغى عليكم تلقيه دون نقاش إلى جانب الالتزام به والعمل بمقتضاه. امّا المغزى الذى ينطوى عليه هذا التعبير فإنّما يكمن فى إلفات نظر السامع إلى أهمية وخطورة المضمون الذى يختزنه الكلام والتعامل مع أهدافه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى تفاصيل هذا المضمون فى أن من استشعر الورع والتقوى وخشى العواقب نأى بنفسه بعيداً عن الشبهات ومامن شأنه تعريضه لتلك العواقب

«ان من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثلات ۶۶۵] حجزته ۶۶۶] التقوى عن تقحم الشبهات»

. ارجعوا إلى التأريخ وتأملوا ما أصاب الأقوام الماضية من عقوبات بفعل الانحراف عن الحق والتلوث بالمعاصى والذنوب واستفحال الهوى والشهوات وحب الذات! ارجعوا إلى زمان انبثاق الدعوة وقيام النبى صلى الله عليه و آله وتدارسوا المؤامرات التى حاكتها الأقوام الجاهلية ضده ثم انظروا كيف كانت عواقبهم ومصائرهم لتتضح لكم معالم الطريق فتجوبوا الظلمة بنور التقوى والهداية؛ الكهف الحصين الذى يأمنكم من الضربات الموجعة التى يمكن أن تسددها لكم النفس الامارة وتزينها الشياطين. ثم يكشف الإمام عليه السلام النقاب عن الواقع الخطير الذى يعيشونه ويطلعهم على صعوبة الامتحان

«ألا وإن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث اللّه نبيه صلى الله عليه و آله»

. اعلموا أنّ أمامكم امتحان لا- ينحج فيه سوى من استشعر نفسه كمال التقوى والاخلاص. فالإمام عليه السلام يميط اللثام عن هذه الحقيقة فى أنّ الامّة فى عصر الخليفة الثالث ولا سيما أواخر عمره قد عاشت البذخ فى بيت المال والمناصب التى فوضت لغير أهلها من الأفراد الصالحين والمفاسد التى اجتاحت المجتمع الإسلامى والاختلافات التى عصفت بوحدتها وكأنّها عادت القهقرى إلى عهد الجاهلية وكأن بيعته كبيعة رسول اللّه صلى الله عليه و آله التى تطالبه بنهضة تجديدة كتلك التى أسسها النبى صلى الله عليه و آله؛ تلك النهضة المعطاء التى صهرت الامّة فى الإسلام الأصيل.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۵۰

ومن الطبيعى أن تهب بعض الفئات التى تعرض مصالحهم اللامشروعة للخطر لابداء ردود الفعل واظهار المقاومة؛ الأمر الذى يعقد الامتحان بما يجعل الحاكم الخبير كالإمام على عليه السلام يوقظ الامّة وينبهها إلى الأخطار المتربصة بها وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ البعض فسّر البلية بالبلاء والمشاكل، فى حين نراها تعنى الامتحان والاختبار ويؤيد ذلك سائر عباراته الواردة فى الخطبة. ثم خاض عليه السلام فى تفاصيل هذا الامتحان الإلهى الكبير ليوضحه بمثالين، فقد ذكر أولًا

«والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة[۶۶۷] ولتغربلن غربلة»[۶۶۸]

وهذه هى الطبيعة التى تسود كل نهضة ربانية فى غربلة المجتمع حين تتويج مسيرتها بالنصر. فهناك إقصاء لأصحاب السطوة الخونة

واستبدالهم بالمجموعة الصالحة المستضعفة، وهذا بعينه ما مارسه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعيد انتصار ثورته المباركة. فقد نحى أبو سفيان ومن لف لفه من طغمة الفساد ليفسح المجال لصهيب والخباب وبلال. أضف إلى ذلك فقد نحيت الشخصيات المستبدة التى استندت إلى منطق القوة على عهد عثمان بعد بيعة أمير المؤمنين على عليه السلام لتخلفها القوى الشعبية المخلصة.

وثانياً

«ولتساطن سوط[۶۶۹] القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم»

. نعم فطبيعة كل ثورة أن تضع فى النهضات الربانية التى تنبثق فى المجتمعات الفاسدة فانّها تطيح بالمفسدين وترفع المستضعفين ليمارسوا دورهم فى السلطة.

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«وليسبقن سابقون كانوا قصروا، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا»

والعبارة الثانية إشارة إلى بعض الأفراد كطلحة والزبير الذين كانا يوماً فى الصفوف الاولى بينما دفعتهم بعض العوامل للتراجع عن تلك الصفوف، بينما تشير العبارة الاولى إلى بعض الأفراد كصحب الإمام عليه السلام وأتباعه الذين أصبحوا يوماً جلساء الدار، بينما سنحت لهم الفرصة على عهد الإمام ليتقدموا ويسبقوا كما احتمل البعض أن يكون المراد المستقبل الذى سيشهد تردى الأوضاع فيتقدم بنو أمية ويتصدرون الامور ويتأخر السابقون

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۵۱

فى الإسلام فتعود الجاهلية بأقطابها ليتسلموا زمام الامور، ولكن لما كانت هذه الخطبة قد أوردت إثر مبايعة الإمام عليه السلام مباشرة فان المعنى الأول يبدو هو الأنسب. ثم يؤكد الإمام عليه السلام هذا الأمر بقسم آخر

«واللَّه ما كتمت وشمة[۶۷۰] ولا كذبت كذبة، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم».

وما كل هذه الامور إلّاليفيق الناس ولا يستسلمون للمؤامرات كمؤامرة الجمل وصفين والنهروان ويعلموا أنّهم أمام امتحان صعب فيلتفتوا إلى أنفسهم، إلّاأنّ المؤسف له هو أنّهم لم يعيروا نصح الإمام عليه السلام أية آذان صاغية ولم يتدبروا الأمر فكان من ذلك أن فشلوا فى الامتحان أيما فشل.

يبدو أنّ مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة هو المغيبات التى أطلعه عليها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وكما ذكرنا فى حينه- فى مبحث علم غيب النبى صلى الله عليه و آله والإمام- أنّ الأئمة المعصومين هم قادة الامّة على مدى العصور والدهور ولا يمكن لهذه القيادة إلّاتنطوى على علم الغيب والاحاطة بأسرار الماضى والمستقبل؛ وذلك لأنّ هناك رابطة وثيقة بين حوادث اليوم والأمس والغد، ومن هنا كانوا يطلعون أصحابهم على جانب ممّا ينتظرهم فى المستقبل أو يعلنوا ذلك للناس ليكونوا أكثر حزماً ووعياً فى التعامل مع الأحداث وينأوا بأنفسهم بعيداً عن حبال الشيطان وشراكه. وهذا ما نلمسه بوضوح كراراً ومراراً فى سيرة الإمام على عليه السلام وكيف أنّه حذر الامّة ولفت انتباهها إلى الأخطار التى تتربص بها. ومن الطبيعى أن يتعظ البعض ويتمرد البعض الآخر.

تأمّلان

۱- التأريخ يعيد نفسه

من المعروف أن الأحداث التأريخية سلسلة من الوقائع المتكررة التى تتخذ أشكال مختلفة، ومن هنا فان الأفراد الذين يتأملون بعمق الماضى التأريخى يتمكنون من التعامل بمعرفة أفضل مع الحوادث الراهنة والآتية، ومن هنا رأينا القرآن الكريم مشحوناً بقصص

نفحات الولایۀ، ج ۱، ص: ۳۵۲

الأنبیاء والأقوام السالفۀ التی تعکس بجلاء أحداث الیوم والمستقبل. الإمام علیه السلام- فی هذا المقطع من الخطبۀ- أشار إلی هذه النقطۀ المهمّۀ:

«ان من صرّحت له العبر عمّا بین یدیه من المثلات، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات»

ثم قال علیه السلام:

«الا وان بلیتکم قد عادت کهیئتها یوم بعث اللَّه نبیه صلی الله علیه و آله»

. ذات الفئات المناهضۀ للحق، والانحرافات والضلال والمؤامرات والفتن. فافیقوا وانطلقوا خلف إمامکم مخافۀ ان تضلوا- ولو أمعنا النظر وقارنا حوادث عصر الإمام علیه السلام بعصر النبی صلی الله علیه و آله لوجدنا شبهاً کبیراً، ولیس هذا إلّاأنّ المنافقین ومن تبقى من عصر الجاهلیۀ سعوا وبشتى الطرق للقضاء تدریجیاً على تعالیم النبی صلی الله علیه و آله؛ ولا سیما أنّهم سعوا لاختراق مراکز القوۀ لممارسۀ دور أکبر فی تشویه الثقافۀ الإسلامیۀ واستبدالها بثقافۀ جاهلیۀ؛ الأمر الذی لمسنا آثاره بوضوح فی العصر الأموی.

فالحق أنّ بعض الظواهر الإسلامیۀ کانت قائمۀ فی عصر الخلیفۀ الثالث، إلّاأنّ هذه الظواهر لم یبقى منها إلّاقشورها فی العصر الاموی. على غرار الشعائر الإسلامیۀ کالصوم والصلاۀ والحج التی کانت سائدۀ على عهد بنی امیۀ ولکن أیۀ صلاۀ وصوم وحج؟!

۲- بیان الحقیقۀ أم رعایۀ المصلحۀ

کثیر هم الذین یعتقدون بأنّ المصلحۀ تکمن فی کتمان الحقائق عن الناس، حذراً من ابداء ردود الفعل الطائشۀ، والحال لیست مصلحۀ الزعماء ومصالح عموم الامّۀ- باستثناء بعض الحالات الخاصۀ- سوى اطلاع الناس على الحقائق وفسح المجال أمامهم لاقتحام المیدان عن علم ومعرفۀ. فالتعتیم الخبری وتغییب الامّۀ عن الأحداث یمثل الاسلوب الذی یعتمده الطغاۀ والجبابرۀ الذین لا یفکرون سوى فی تحقیق أطماعهم ومآربهم، على العکس من الزعماء الربانیین وأئمۀ المسلمین الذین یکرسون جهودهم لنجاۀ الامّۀ من مشاکلها المادیۀ والمعنویۀ، فهم یسعون باخلاص لکشف الحقائق والواقعیات لأنّهم یستنصرون الامّۀ ویرومون دعمها واسنادها. والطریف فی الأمر أنّ الإمام علیه السلام لا- یکتم الوقائع عن الامّـۀ- کما ورد فی هذه الخطبۀ وسائر خطب نهج البلاغۀ- فحسب، بل یطلعها حتى على الحوادث المستقبلیۀ التی سمعها من النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فیقول لهم لا أبخل علیکم حتى بالأخبار عن الکلمۀ الواحدۀ التی من شأنها أن تنبهکم إلى الأخطار المحدقۀ بکم حرصاً على عدم الاغترار بوساوس الشیطان والوقوع فی شباکه.

نفحات الولایۀ، ج ۱، ص: ۳۵۳

القسم الثانی: الذنوب شماس کالخیل

«أَلا- وَإِنَّ الْخَطایـا خَیْـلٌ شُـمُسٌ حُمِلَ عَلَیْها أَهْلُها، وَخُلِعَتْ لُجُمُها، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِی النَّارِ، أَلا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطایا ذُلُلٌ، حُمِلَ عَلَیْها أَهْلُها وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهـا فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّۀَ. حَقٌّ وَباطِـلٌ، وَلِکُـلٍّ أَهْلٌ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْباطِلُ لَقَـدِیماً فَعَلَ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّما وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّما أَدْبَرَ شَـیْءٌ فَأَقْبَلَ».

قال السید الشریف: وأقول: إنّ فی هذا الکلام الأدنی من مواقع الاحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان، وإنّ حظ العجب منه أکثر من حظ العجب به. وفیه- مع الحال التی وصفنا- زوائد من الفصاحۀ لا- یقوم بها لسان، ولا یطلع فجها إنسان، ولا یعرف ما أقول إلّامن ضرب فی هذه الصناعۀ بحق، وجرى فیها على عرق «وما یعقلها إلّاالعالمون».

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام البحث السابق بشأن الأوضاع المتأزمة بعد بيعة الإمام عليه السلام والتى تمثل ثورة تصحيحية فى العالم الإسلامى، حيث يتطرق إلى نقطة غاية فى الأهمية من خلال تشبيه رائع، وهى ضرورة السيطرة على الذنب منذ بدايته حيث إذا ترك له العنان وتمادى فى مقارفة شبيهه، جذبه إليه وسيطر على كيانه وسلبه زمام المبادرة وأوقعه فى واد سحيق فقد وصف عليه السلام الذنوب والمعاصى بالخيول الجامحة التى يصعب السيطرة عليها

«ألا وإن الخطايا خيل شمس [٦٧١]

نفحات الولايه، ج ١، ص: ٣٥۴

حمل عليها أهلها، وخلعت نجمها، فتقحمت بهم فى النار»

ياله من تشبيه رائع، فركوب الفرس الجامح خطير، وتشتد الخطورة إذا فقد لجامها الذى يلجم عنانها، ثم تتضاعف هذه الخطورة أكثر من ذى قبل إذا كان هذا الجموح فى أرض تشتمل على بعض المطيات. وهذا هو التصوير الواقعى للذنب، فارتكاب الذنب يقود الإنسان إلى ذنب آخر وهكذا، على سبيل المثال قد يرتكب الإنسان خيانة فيكتمها، وإذا استجوب حال مالا يحصى من الأكاذيب للتغطية على خيانته كما يقسم كاذباً أو يلجأ إلى اتهام الآخرين، فاذا لم يجد ذلك نفعاً ربما لا يتورع عن سفك دم من يعلم بخيانته، بغية عدم افتضاح أمره وهكذا يصبح أرضية خصبة لمقارفة ما شاء من الذنوب؛ ولا غرو فقد أصبح كالخيل الشموس التى خلع لجامها فهى تقذف بصاحبها إلى الهاوية.

ثم ذهب عليه السلام إلى الصورة المعاكسة التى شبه فيها التقوى بالخيل الذلول فأوصلت راكبهاالموضع الذى يريد

«ألا وإن التقوى مطايا ذلل [٦٧٢] حمل عليها أهلها، وأعطوا أزمتها، فأوردتهم الجنّة»

نعم فالأعمال الصالحة سلسلة متعاقبة الحلقات، فالعمل الصالح يكون سبباً لآخر وهكذا الإتيان بسائر الأعمال الصالحة. على سبيل المثال إذا ربّى أحدهم ولده تربية صالحة فسيعده للإتيان بالخيرات والبركات، وسيكون له تأثيره البالغ فى وسطه بما يحث رفاقه وأصحابه على القيام بمثل هذه الأعمال، وهكذا يسير المجتمع نحو السعادة والصلاح والفلاح. جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام عبر عن الذنوب بالخيل الشمس وعن التقوى بالمطايا الذل، فالخيل من مادة خيال، فيطلق «المختال» على الفرد المغرور والمتكبر الذى يعيش الخيالات، ومن هنا اصطلح على الفرس بالخيل لأنّه عادة ما يدعو راكبه إلى الغرور والفخر.

على العكس من المطايا جمع مطية من مادة المطو على وزن العطف بمعنى الجد والنجاة فى السير؛ وبناءً عى هذا فان المطية دابة هنيئة سريعة تسير قدماً نحو الإمام عليه السلام بكل هدوء دون أن تجمح بصاحبها وتقحمه فى المتاهات- ومن هنا تتضح ذروة فصاحته وبلاغته فى كلماته عليه السلام

نفحات الولايه، ج ١، ص: ٣٥۵

حتى تلك الكلمات القصيرة والعبارات الصغيرة. ثم يحذر الإمام عليه السلام من صعوبة الامتحان الإلهى فى ظل حكومته وطيلة حياتهم مواصلًا البحث السابق بشأن الذنب والتقوى فقال عليه السلام:

«حق وباطل، ولكل أهل».

أجل فالحياة البشرية ومنذ بدء الخليقة كانت وما زالت مسرحاً للصراع بين هذين الاتجاهين ويختصر الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى مسألة حساسة وهى أنّ الباطل إذا قدر له أن يحكم فلا عجب فى ذلك فهذا ما حصل منذ قديم الزمان:

«فلئن أمر الباطل لقديماً فعل»

. وإن قل الحق وأتباعه فلا داعى للقلق ولعله يزداد فيهزم الكفر فى عقر داره

«ولئن قل الحق فلربما ولعل»

أنّ قصـة الصـراع بين الحق والباطل وما تخلله من وسائل وأدوات وما تمخض عنه من نتائج طيلـة التأريـخ الإنسانى قصـة ذات شـجون وسنتطرق إلى هذه التفاصيل فى الأبحاث القادمة بما يتناسب وسائر الخطب الواردة بهذا المجال.

أمّا القضـية الجـديرة بالـذكر والتى حظت باهتمام الإمام عليه السـلام هى ضـرورة عـدم الاستيحاش من الحق لقلـة سالكيه والاستئناس بالباطل لكثرة سالكيه؛ لأنّ التأريخ يشـهد على الدوام بكثرة أتباع الباطل وقلة أتباع الحق، وكثيراً ما كانت تحسم المعارك والصراعات لصالح الحق؛ وهذا ما صـرّح به القرآن الكريم على لسان طالوت: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذنِ اللَّهِ»[۶۷۳]. وهو المعنى الذى أشارت إليه الآيـة القرآنية الكريمة بالقول: «قُلْ لا يَسْتَوِى الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ»[۶۷۴]. كما ورد هذا المعنى فى الخطبة ۱- ۲ من نهج البلاغة

«أيّها الناس لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقلة أهله»

. امّـا المسألـة التى ينبغى الالتفـات إليهـا هى أنّ هـذه الكثرة ليست دليلًا على الأحقيـة ولا النصـر، بل يرى المنطق القرآنى والروائى بل ومنطق الربانيين أنّ الملاک إنّما يكمن فى الكيفيـة لا الكميـة، ومن هنا فان زوال حكومات الباطل يسـتتبع زوال كافة آثارها فلا يبقى لها سوى الخزى والعار، بينما تبقى آثار حكومات الحق باقية خالدة.

على كل حال فان الصراع بين الحق والباطل وكثرة جند الباطل إنّما هى فى الواقع امتحان إلهى يهدف إلى تمحيص طلاب الحق.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۵۶

والنقطة الثانية التى يؤكد عليها الإمام عليه السلام قوله:

«ولقلما أدبر شىء فاقبل»

. طبعاً يؤمن جميع المسـلمين- من سـنّة وشـيعة وسائرالفرق- أنّ الحق سينتصر يوماً حين ظهور المهدى الموعود (عج) وسيدحر الباطل وإلى الأبد وستسود العالم برمته حكومة العدل الإلهى.

وعلى ضوء بعض الروايات فقد نقلت ذيل هذه الخطبة عبارة عن الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام على عليه السلام انّه قال:

«وبنا فتح لا بكم ومنا نختم لا بكم»

. وقـد صـرّح ابن أبى الحديد بعد ذكره لهذه العبارة قائلًا: إشارة إلى المهدى الذى يظهر فى آخر الزمان، وأكثر المحدثين على أنّه من ولد فاطمة عليها السلام وأصحابنا المعتزلة لا ينكرونه»[۶۷۵].

نعم العبارة ترشد إلى عدم فقدان الفرصة والآن وقد تمهدت جميع السبل من أجل بسط العدالة وإقامة حكومة الحق فى ربوع المجتمع الإسلامى فالحذار من وساوس شياطين الانس والجن ومؤامرات اولئک الذين تبددت مصالحهم اللامشروعة وخابت ظنونهم وآمالهم، فاذا ضاعت هـذه الفرصـة فان عودتها لا تبـدو سـهلة، وهـذا مادلت عليه حياة الإمام عليه السـلام حيث لم تتعظ الامّة بوصاياه ومواعظه ففقدت زمام المبادرة وأضاعت الفرصة؛ فقد أوشک جيش الشام على الانهيار المطلق وأصـبح القضاء على طاغية بنى أمية يكون قاب قوسـين أو أدنى فعمـد ابن العـاص لتلك الخدعـة التى انطلقت على الامّـة، فأبقت على تلك الحكومـة الجائرة لتخلف من بعـدها بنى مروان وبنى العباس والحجاج و ...

الطريـف فى الأـمر مـا أورده السـيد الرضـى بشأن الخطبـة إذ قـال: إنّ فى هـذا الكلاـم الأـدنى من مواقـع الاحسـان مـا لاـ تبلغه مواقع الاستحسان، وإنّ حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به.

وفيه- مع الحـال التى وصـفنا- زوائـد من الفصاحـة لاـ يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلّامن ضـرب فى هـذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق

«وما يعقلها إلّا العالمون».

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۵۷

القسم الثالث: سبيل النجاة

اشارة

«شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمامَهُ! ساعٍ سَرِيعٌ نَجا، وَطالِبٌ بَطِيءٌ رَجا، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى. الْيَمِينُ وَالشِّمالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجادَّةُ، عَلَيْها باقِي الْكِتابِ وَآثارُ النُّبُوَّةِ، وَمِنْها مَنْفَذُ السُّنَّةِ، وَإِلَيْها مَصِيرُ الْعاقِبَةِ هَلَكَ. مَنِ ادَّعَى، وَخابَ مَنِ افْتَرى مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ. كَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ. لا يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ، وَلا يَظْمَأُ عَلَيْها زَرْعُ قَوْمٍ. فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرائِكُمْ، وَلا يَحْمَدْ حامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلا يَلُمْ لائِمٌ إِلَّا نَفْسَهُ».

الشرح والتفسير

لما فرغ الإمام عليه السلام من التحدث عن صعوبة الامتحان بعد بيعته وحذر الامّة من وبال الذنوب والمعاصي مشيراً إلى الحق والباطل، عرج هنا بالإشارة إلى سبيل النجاة من مخالب الهوى والهوس وبلوغ السعادة ونيل الفلاح، ليكشف عن الحقائق الواردة بهذا المجال. فقد صنف الناس فى مسيرتهم إلى السعادة والنجاة إلى ثلاث طوائف، فمن شغل بالجنّة والنار

«وآمن بهما اعتزل كل ما يصده عن ذلك»

وانهمك بالتفكير بالعاقبة (على ثلاث)، منهم من حث السير وبلغ الهدف سريعاً فهو ناجى. ومنهم من تباطأ فى السير فهو مؤمل للنجاة أيضاً.

أمّا الأخير من قصر فى السير فهوى فى النار

«شغل من الجنّة والنار أمامه! ساع سريع نجا، وطالب بطىء رجا، ومقصر فى النار هوى».

يرى البعض أنّ هذه الطوائف هى تلك التى أشار إليها القرآن الكريم فى سورة فاطر بقوله:

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۵۸

«ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَينا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالخَيْراتِ بِإِذنِ اللَّهِ»[۶۷۶]. وقيل بل هم من أشارت لهم الآية القرآنية الشريفة فى سورة الواقعة: «وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً* فَأَصْحابُ المَيْمَنَةِ* ما أَصْحابُ المَيْمَنَةِ وَأَصْحابُ المَشْأَمَةِ ما أَصْحابُ المَشْأَمَةِ* وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ* أُولئِكَ المُقَرَّبُونَ»[۶۷۷]. على كل حال فان هذه الطوائف الثلاث مطروحة على الدوام فى المجتمع الإنسانى وإذا ما اشتد الامتحان (كالذى عليه الحال إبان خلافة الإمام على عليه السلام) تمايزت هذه الطوائف عن بعضها البعض؛ فهناك طائفة (وإن كانت غالباً قليلة) تتبع الحق دون أدنى ترديد أو تراجع وهى تحث الخطى سريعة نحو الهدف. وطائفة اخرى أضعف ايماناً من سابقتها فهى تقدم رجلًا وتؤخر اخرى فأحياناً تحث الخطى وتسير بوثوق نحو الهدف فتعمل الصالحات بينما تتأخر أحياناً فتقارف الطالحات فتخلط العمل الصالح بالسىء إلّاأنّها تؤمل بأن يشملها لطف اللَّه وفضله فيبلغ بها الهدف المطلوب.

وأخيراً الطائفة الثالثة التى فارقت الإيمان والتقوى وغلبت عليها الشقوة وهوى النفس فضاعوا وضيّعوا أنفسهم حتى وقعوا فى الهاوية. فالعبارة المذكورة تبيّن بوضوح أنّ الإيمان بالمعاد فقط من شأنه أن يصون الإنسان من الفساد والانحراف والذنب. وتتناسب هذه الصيانة والحصانة من الذنب طردياً ودرجة الإيمان. وقد ذهب البعض إلى أنّ العبارة:

«شغل من الجنّة والنار أمامه»

جملة خبرية تفيد معنى الإنشاء؛ أى أنّ من يرى الجنّة والنار أمامه عليه أن يغض الطرف عن زخارف الدنيا وزبرجها! ولكن ليس هنالك من ضير فى تفسير هذه الجملة بصورة الأخبار- على نحو الجملة الخبرية- أى أن مثل هؤلاء المؤمنون سيغضون طرفهم عن زخارف الدنيا. ولما فرغ الإمام عليه السلام من بيان خصائص الطوائف الثلاث، أخذ يدعو الامّة إلى انتهاج السبيل القويم والابتعاد عن

سبل الانحراف مبيناً علامات كل منهما فقال:

«اليمين والشمال مضلة[۶۷۸] والطرق الوسطى هى الجادة».

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۵۹

فالعبارة إشارة للمسألة المعروفة لدينا بأنّ السبل المنحرفة التى تقود الإنسان إلى الضلال.

ولعل المراد باليمين والشمال هو الإفراط والتفريط الذين لا يوصلان إلى الهدف الذى لا سبيل إليه سوى الصراط المستقيم الذى يمثل الاعتدال بين الإفراط والتفريط، ومن هنا صرّح القرآن الكريم بقوله: «وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً»[۶۷۹]. وقد صرّح كبار علماء الأخلاق بأن كافة الصفات الفضلى إنّما هى الاعتدال بين الصفات الرذيلة التى تقع على طرفى الإفراط والتفريط.

وذهب بعض مفسّرى نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالطريق الوسطى مسألة الإمامة وولاية الأئمة المعصومين التى يقود الإفراط والتفريط فيها إلى الضلال. ولا نرى من ضير فى ان تختزن هذه العبارة كافة المعانى فتشمل قضية الولاية كما تشمل سائر المسائل العقائدية والعملية والأخلاقية.

أمّا بشأن معرفة اللّه فقد وقعت طائفة فى مصيدة التشبيه فتشبهت الخالق بمخلوقاته، بينما ذهبت اخرى إلى تعطيل معرفته على أن ذات الخالق وصفاته متعذرة على البشر حتى المعرفة الإجمالية، وهناك الحد الوسط بين التشبيه والتعطيل والذى يعنى معرفة اللّه عن طريق أفعاله دون كنه الذات. وبالنسبة لأفعال العباد فليس الجبر صحيحاً ولا التفويض، والطريق الوسط هو الأمر بين الأمرين، وهكذا القول بشأن الولاية لا الغلو صحيح ولا التقصير، وهذا ما يصدق على الأخلاقيات والأعمال، فمثلًا فى الانفاق الصحيح هو الحد الوسط بين البخل والاسراف.

والطريف أنّ الفرق التى وقفت بوجه الإمام عليه السلام لم تخرج من تلك الحالتين، ففرقة الخوارج سلكت الافراط، بينما انتهج أهل الشام التفريط، وقد ضلت الفئتان فى معرفة الإمام عليه السلام. ثم خاض عليه السلام فى خصائص الجادة الوسطى المعتدلة

«عليها باقى الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنّة، وإليها مصير العاقبة»

. هناك تفسيران لقوله عليه السلام:

«عليها باقى الكتاب»

: أحدهما المراد القرآن الكريم؛ الكتاب الخالد والذى انفرد بالمعارف والقوانين والأحكام التى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۶۰

يتعذر العثور عليها فى ما سواه. والآخر المراد بالكتاب الخالد الإمام المعصوم الحافظ لكتاب اللّه، وهو عدل القرآن كما صرّح بذلك حديث الثقلين المعروف، ولكن يبدو المعنى الأول أنسب، ولا سيما أن آثار النبوة التى أعقبت العبارة يمكن تفسيرها بالآثار الباقية لدى الأئمة.

كما أوردت عدّة تفاسير بهذا الشأن لا تبدو صائبة.

وقوله عليه السلام:

«منها منفذ السنّة»

فبالالتفات إلى كلمة منفذ يبدو أنّ المراد هو أنّ الطريق الوسطى فقط التى يمكن من خلالها الوقوف على السنة النبوية والتعرف على جوهر الدعوة، ومن هنا يتضح الفارق فى هذه الملل الاربعة.

فقد أشار عليه السلام إلى أنّ الكتاب على هذه الجادة، ثم قال عليه السلام وعليها آثار النبوة، ثم أضاف ومنها منفذ السنة، وأخيراً قال وإليها مصير العاقبة من خلال هذه الجادة لا غير؛ كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم «وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»[۶۸۰].

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى مصير من يزعم الإمامة وولاية الناس بالباطل، حيث يصفهم فى أربع عبارات: الاولى هلاك من يدعى

الإمامة بغير حق فهو ضال مضل

«هلك من ادعى»

والثانية أنّ من يطلب هذا المقام كذباً وافتراءً على رسول اللّه صلى الله عليه و آله لم يظفر بما طلب

«وخاب ۶۸۱] من افترى».

والثالثة هلاك من يقف بوجه الحق:

«من أبدى صفحته ۶۸۲] للحق هلك».

والأخيرة يكفى الإنسان جهل أنّه لا يعرف قدره فيتمدد أكثر من حجمه

«وكفى بالمرء جهلًا الا يعرف قدره»

. طبعاً هناك إحتمال قائم فى ألا تكون هـذه العبارات الأربع تعالـج مسألة الإمامة التى تعرضت لها هذه الخطبة؛ بل تشـمل معنا أوسع وهو كل ادعاء باطل سواء فى مجال الإمامة أو سائر المجالات.

فالواقع هى تحذير لأهل الباطل من مغبة التمادى فى غيهم بما لا يجلب عليهم سوى البؤس والشقاء والهلاك.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۶۱

أمّا قوله عليه السلام:

«من أبدى صفحته للحق هلك»

فقد فسره بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ من أبدى صفحته لنصرة الحق غلبه أهل الجهل، لأنّهم العامة، وفيهم الكثرة، فهلك.

فهـذا الكلام وان كان واقعياً إلّاأنّه لا يمكن أن يكون تفسيراً للعبارة المـذكورة وذلك لأنّه لا ينسجم والعبارات السابقـة بشأن أدعياء الباطل، كما لا يتفق والعبارة اللاحقة بشأن الأفراد الجهال الذين لا يعرفون قدر أنفسـهم. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام هذه العبارات يعرض بالنصـح والموعظـة التى من شأنها تخليصـهم من مخـالب المنافقين وأدعياء الباطل، فقـد دعاهم فى البدايـة إلى التحلى بالورع والتقوى التى تعدّ الركن الركين لكل حركة وعمل صالح، فقال عليه السلام:

«لا يهلك على التقوى سنخ ۶۸۳] اصل، ولا يظمأ عليها زرع قوم»

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد شبه- بهذه العبارة العميقة المعنى- التقوى بالأرض الخصبة ذات المناخ المناسب التى لا تجف فيها جـذور الأشـجار ولا يموت فيها الزرع من قلـة الماء؛ أرض خصـبة صالحة للزراعة ذات أنهار وآبار تمد الزرع بما يحتاج، ففى الحقيقة أنّ كافة الأعمال كالبذور والحبوب التى ينبغى أن تنثر فى أرض خصـبة وتسـقى بالمياه؛ وليست هذه الأرض والمياه سوى التقوى، ثم قال فى الموعظة الثانية:

«فاستتروا فى بيوتكم»

فالإمام عليه السـلام وبنظرته الثاقبـة يعلم بأنّ حكومته ستضـيق الخناق على اولئك الذين عملوا إبان عهد عثمان على سـلب ونهب بيت مال المسـلمين ونشروا الظلم فى ربوع المجتمع الإسلامى، وعليه فهم سوف لن يسكتوا وسيسعون إلى تأليب الناس واستقطاب الجهال، وهذا هو الوقت الذى يتطلب من الإنسان أن يلزم بيته لا حين العمل والجهاد.

وعلى حد قول بعض شرّاح نهج البلاغة فان أفضل حركة فى المجتمع الذى يضره العدل والحق هى السكون والصمت والسكوت.

والموعظـة الثالثـة بشأن الأخاء والوحدة بين صـفوف أتباع الحق ونبذ كافة مظاهر الفرقة والشـقاق بهدف ملاحقة الباطل والقضاء عليه، فقد قال عليه السلام:

«وأصلحوا ذات بينكم»

. وأخيراً

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۳۶۲
يعرض بالنصح لمن اتسخ قلبه بالذنوب على عهد الحكومۀ السابقۀ أن يغسلها بماء التوبۀ
«والتوبۀ من وراءكم ۶۸۴]».
ثم يقول عليه السلام:
«ولا يحمد حامد إلّاربّه ولا يلم لائم إلّانفسه»
إشارۀ إلى أنّ كافۀ النعم من عند اللّه وما يصيب الإنسان من توفيق وسعادۀ فبلطفه وفضله، وعليه فلا ينبغى الاغترار بالطاعۀ، كما أنّ مرجع الذنوب والمعاصى تقصير الإنسان فلا ينبغى أن يلوم الإنسان إلّانفسه ولا ينسب أخطائه إلى الآخرين أو يبررها بالقضاء والقدر، بل عليه أن يسارع إلى التوبۀ.

تأمّلان

۱- الجاهل من جهل قدر نفسه

إنّ أغلب المشاكل الاجتماعيۀ إنّما تنبع من الطموحات الطائشۀ، أو تجاوز الإنسان لحدوده الطبيعيۀ والطمع بالمنصب الذى لا يستحقه أو لا يمتلك الجدارۀ اللازمۀ للنهوض به؛ ولا شك أنّ كل هذا إنّما تفرزه قضيۀ مهمّۀ تكمن فى جهل الإنسان بقدره وعدم تقييمه له بصورۀ صحيحۀ، وما ذلك إلّالحب الذات والمبالغۀ فى نقاط القوۀ وعدم الالتفات إلى نقاط الضعف.
ولا شك أنّ اضرار هذا الأمر لا تقتصر على الإنسان لوحده فحسب، بل تنسحب على المجتمع بأسره، ولربما استطاع الفرد أن يشغل منصباً فيقوم بوظيفته على أحسن وجه بما يضمن له السعادۀ وإلى المجتمع الرفاه والأمن، غير أنّه وإثر جهله بنفسه وطمعه بما لا يستحقه يبدد طاقاته عبثاً ويكبد نفسه والمجتمع مالا- يحصى من الخسائر والأضرار. وياليت الجميع كبيرهم وصغيرهم وعالمهم وجاهلهم أعادوا النظر فى هذا الأمر الحيوى واقصوا عن أنفسهم الحجب التى تحول دون معرفتهم لذواتهم ليجدوا من أجل تحقيق أهدافهم وسعادۀ مجتمعاتهم. ومن هنا ورد التأكيد كراراً فى نهج البلاغۀ على هذه المسألۀ، ومن ذلك ما ورد فى الخطبۀ ۱۰۳
«العالم من عرف قدره وكفى بالمرء جهلًا الا يعرف قدره»
. كما ورد فى الرسالۀ ۳۱ من نهج
نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۳۶۳
البلاغۀ التى يعظ فيها ولده الحسن عليه السلام أنّه قال:
«ومن اقتصر على قدره كان ابقى له»
وجاء فى الكلمۀ ۱۴۹ من قصار الحكم
«هلك امرء لم يعرف قدره».
كما ورد فى الروايۀ أنّ شخصاً قال للإمام الكاظم عليه السلام مررت بالسوق فاذا هو يقول أنا من شيعۀ محمد وآل محمد صلى الله عليه و آله وهو يبيع الثياب بأكثر من ثمنها. فقال الإمام عليه السلام:
«ما جهل ولا ضاع امرء عرف قدر نفسه».[۶۸۵]
هناك إحتمال آخر بالمراد من معرفد قدر النفس فى العبارۀ المذكورۀ وهو ألا ينسى الإنسان طبيعۀ خلقته فيقتصر بها على الجانب المادى المتعلق بالجسم دون الاهتمام بالمسائل المعنويۀ فيبيع نفسه ببعض الامور الماديۀ التى تفتقر إلى القيمۀ الحقيقيۀ. فالإنسان يتمتع

بالروح التى تنتمى إلى عالم السمو والرفعة، أنّه خليفة اللّه فى الأرض. أنّه كائن ملكوتى لا موجود ترأبى وإن تقولب مدّة معينة فى هذا القفص المادى من أجل نيل الكمال. وعليه فالعالم من عرف نفسه ووقف على قدرها ومنزلتها، ويلتفت إلى تكريم اللّه سبحانه له على من سواه، والجاهل من جهل قدر نفسه فقذف بها فى مستنقع الأهواء والشهوات. بالكن بالالتفات إلى قوله

«من اقتصر على قدره كان ابقى له»

وكذلك العبارة المعروفة لدى العلماء استنباطاً من الأحاديث المشهورة

«العالم من عرف قدره ولم يتجاوز حده»

يبدو أنّ الأنسب هو المعنى الأول، ويؤيده مضمون الخطبة الذى يتناول قصة طلحة والزبير وآمالهم الزائفة.

۲- الاعتدال هو الصراط المستقيم

إنّ أدنى نظرة إلى عالم الخلقة تفيد أنّ بقاء العالم إنّما يستند إلى مسألة الاعتدال والتوازن فى القوى. فالمنظومات السماوية العظيمة إنّما حفظت بتوازن القوة الجاذبة مع القوة الدافعة، فلو تقدمت أحداهما على الاخرى أو ابتعدت لما بقى أثر لتلك المنظومات، ولو اقتربتا وتصادمتا لأدّيا إلى انفجار هائل يقود إلى إنعدامها. والقانون المذكور الذى يحكم ذلك العالم الكبير كما يصدق على العالم الصغير أى عالم الإنسان، حيث تكون سلامة حياته ورمز بقائها مرهونة بحالة الاتزان التى تسود مختلف قواه الروحية والجسدية، من قبيل العناصر الداخلة فى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۶۴

تركيب الدم وتوازن حركات الأعصاب السمبثاوية والباراسمبثاوية وضربات القلب ووزن الجسم وضغط الدم وتوازن أجهزة الجسم كالجهاز التنفسى والجهاز الهضمى وبالتالى فانّ كافة أجهزته تمارس وظائفها بكل اعتدال واتزان بما يحفظ سلامة الإنسان ويكفل بقائه، ولو انحرفت هذه الأجهزة ذرة عن خط الاتزان وجنحت نحو الإفراط او التفريط لانعكس ذلك سلباً على سلامة جسم الإنسان وروحه.

القرآن من جانبه أثنى على الامّة الإسلامية بصفتها الامّة الوسط، ومن هنا جعلها حجة على سائر الامم. وهذه هى المسألة التى أكدها الإمام عليه السلام فى أنّ الجادة الوسطى هى الطريق وعليها باقى الكتاب وآثار النبوة ومنها منفذ السنّة. وإليها مصير العاقبة. أمّا فى المجال الاقتصادى فانّ الإفراط والتفريط قد أدى إلى ظهور النزعة الرأسمالية المقيتة التى بالغت فى الملكية الشخصية بينما بالغت النزعة الاشتراكية فى الملكية العامة ليعيش المجتمع ذلك التمايز الطبقى الفاحش بوجود الطبقات المرفهة الثرية والاخرى المعدمة الفقيرة.

وأمّا على المستويات الاخرى العقائدية والسياسية والاجتماعية- فانّ الإفراط والتفريط هو الذى يقف وراء كل هذا البؤس والشقاء الذى تعيشه البشرية.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۶۵

الخطبة السابعة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فی صفهٔ من یتصدی للحکم بین الامّهٔ ولیس لذلک بأهل وفیها:

أبغض الخلائق إلی اللّه صنفان:

القسم الأول

اشارهٔ

«الصـنف الأول: إنَّ أَبْغَضَ الْخَلائِقِ إِلَی اللَّهِ رَجُلانِ: رَجُلٌ وَکَلَهُ اللَّهُ إِلَی نَفْسِهِ فَهُوَ جائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِیلِ، مَشْـغُوفٌ بِکَلامِ بِدْعَهٍٔ، وَدُعاءِ ضَلالَهٍٔ، فَهُوَ فِتْنَهٌٔ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ، ضـالٌّ عَنْ هَـدْیِ مَنْ کـانَ قَبْلَهُ مُضِـلٌّ لِمَنِ اقْتَـدَی بِهِ فِی حَیـاتِهِ وَبَعْـدَ وَفـاتِهِ، حَمَّالٌ خَطایـا غَیْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِیئَتِهِ».[۶۸۶]

نظرهٔ إلی الخطبهٔ

وردت الخطبهٔ- کما یتضح من عنوانها- فی صفات من یتصدی للقضاء وهو لیس له بأهل

نفحات الولایهٔ، ج ۱، ص: ۳۶۶

فیسوق الامّهٔ إلی الضلال والهاویهٔ.

فقد صنف الإمام علیه السلام هؤلاء الأفراد إلی صنفین:

الصنف الأول: من یشق طریق الضلال عن علم ویحکم هوی النفس ویبتدع فی الدین فهو ضال لنفسه مضل لغیره.

الصـنف الثانی: الجاهل المتشبه بالعالم ویجهل بجهله فهو یعیش الجهل المرکب؛ ولیس له ذرهٔ مما یؤهله للتصدی للقضاء، فهو فریسهٔ للخطأ والزلـل والشـبهات، یخرج الحق بالباطـل ویریق دماء الأبریاء بغیر حلها ویهـدر الأموال لغیر أصـحابها. ویحتمل أن یکون المراد بالصـنف الأول حکام الظلم والجور والبدعـهٔ والضـلالهٔ، والصـنف الثانی القضاهٔ الجهال. وعلیه فکلمـهٔ الحکم الواردهٔ فی الخطبـهٔ ذات معنی عام واسع تشمل القضاء والحکومهٔ.

ویختتم الإمـام علیه السـلام خطبته بالشـکوی إلی اللّه من هؤلاـء الأفراد الـذین ولوا ظهورهم للقرآن وحسـبوا المعروف منکراً والمنکر معروفاً. وبناءً علی ما تقدم فالخطبهٔ علی ثلاثهٔ أقسام، یختص الأول والثانی منها بوصف هذین الصنفین والثالث بالشکوی إلی اللّه منهم ومن کان علی شاکلتهم.

الشرح والتفسیر

أبغض الخلائق

استهل الإمام علیه السلام کلامه بتصنیف أبغض الخلائق إلی صنفین

«إنّ أبغض الخلائق إلی اللّه رجلان»

ومن البدیهی أنّ للحب والبغض بالنسبهٔ للّهمفهوم یختلف عمّا هو علیه بالنسبهٔ للانسان؛ لأنّ الحب والبغض من قبیل الحالات والتغیرات التی تطرأ علی روح الإنسـان إثر رغبته واشـمئزازه تجاه بعض الأشـیاء؛ بینما یکتسب الحب بالنسـبهٔ للّهمعنی الشـمول بالرحمـهٔ والبغض معنی الطرد منها. ثم یخوض الإمام علیه السـلام فی صـفات الصـنف الأول؛ أی أصـحاب الأهواء من الحکام، فیشـیر قبل أی شیء إلی

أصل بؤسهم وشقائهم، فقال علیه السلام:

«رجل وکله اللَّه إلی نفسه»

. فروح الإنسان حیة بالتوکل علی اللَّه والوثوق بما عنده؛ أی أنّه یسعی سعیه ویبذل

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۶۷

قصاری جهده من أجل النهوض بعمله وتطویر حیاته، مع ذلک لابدّ أن یعلم بأنّ الذات الإلهیة هی مصدر کل خیر وبرکة ونعمة وعطاء. إلّاأنّ الغرور والکبر وحب الذات قد یجعل الإنسان غافلًا عن هذه الحقیقة فیری نفسه مستقلًا فی مقابل اللَّه فتتشوه بنظره جمیع الأشیاء.

هذا الانقطاع عن اللَّه هو ایکال الإنسان إلی نفسه؛ وهو أساس بؤس الإنسان وشقائه. ومن هنا تری رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لا ینفک عن التضرع إلی ربّه منادیاً:

«اللّهم ... لاتکلنی إلی نفسی طرفة عین أبداً»[۶۸۷]

وهو ذات المعنی الذی صرّح به أمیرالمؤمنین علی علیه السلام:

«إلهی کفی بی عزا أن أکون لک عبداً، وکفی بی فخراً أن تکون لی ربّاً»[۶۸۸]

کما ورد ذلک عن المعصوم علیه السلام قوله:

«إنّک ان وکّلتنی إلی نفسی تقربنی من الشر

وتباعدنی من الخیر»[۶۸۹].

وما أن یفرغ الإمام علیه السلام من بیان السبب الرئیسی لشقوة هؤلاء حتی یتطرق إلی افرازات ذلک الشقاء لیوجزها فی ثمانیة ارتبطت مع بعضها برباط العلة والمعلول فقال علیه السلام:

«فهو حائر عن قصد السبیل»

والمراد بقصد السبیل هو الحد الوسط الفاصل بین الإفراط والتفریط والذی یوصل الإنسان إلی اللَّه؛ الأمر الذی أشار له القرآن الکریم بالقول

«وَعلی اللَّهِ قَصْدُ السَّبِیلِ»[۶۹۰]

ومن البدیهی أنّ الإنسان إنّما یستطیع تمییز السبیل- الذی صورته الروایات بأنّه أرفع من الشعرة وأحد من السیف- من بین آلاف السبل الانحرافیة إذا شملته الألطاف والعنایات الإلهیة؛ امّا إذا انفصل عن اللَّه ووکل إلی نفسه فانه سیعیش الحیرة والقلق التی تنتهی به إلی الضلال والسقوط فی الهاویة.

الافراز الثانی

«مشغوف بکلام بدعة»

ومن هنا ینطلق نحو الافراز الثالث

«ودعاء ضلالة»

. شغف من مادة شغاف علی وزن کلاف بمعنی المولع بالشیء حتی بلغ حبه شغاف قلبه، وهو غلافه؛ وهو التعبیر الذی أورده القرآن الکریم بشأن حب زلیخا لنبی اللَّه یوسف علیه السلام علی لسان طائفة من نساء مصر

«قد شغفها حباً»

، فالعبارة إشارة إلی أنّ مثل هؤلاء الأفراد

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۶۸

من ذوى حبّ الذات يتعلقون بشدة بأحاديثهم المبتدعة؛ التعلق الذى يؤدى إلى دعوة الآخرين إلى الضلال والانحراف.

القرآن أيضاً يقول: «وَما دُعاءُ الكافِرِينَ إِلّا فِى ضَلالٍ»[۶۹۱]، وسنتطرق فى الأبحاث القادمة- تأملات- إلى حقيقة البدعة ودوافعها ونتائجها. أمّا الوصف الرابع

«فهو فتنة لمن افتتن به».

وفى الصفة الخامسة والسادسة

«ضال عن هدى من كان قبله، مضل لمن اقتدى به فى حياته وبعد وفاته»

. المراد بمن كان قبله الأنبياء وأوصيائهم بالحق؛ فى إشارة إلى اتضاح سبيل الهداية مسبقاً بما لا يدع من مجال لسلوك طريق الضلال؛ مع ذلك فقد ولى ظهره لسبيل الهداية والقى بنفسه فى ظلمات الضلال. والأنكى من ذلك أنّ اضلال هؤلاء الأفراد للآخرين لا يقتصر على حياتهم فهم مدعاة للضلالة حتى بعد وفاتهم، فهم شركاء فى هذه الضلالة، حيث ورد فى الحديث النبوى المشهور:

«من سنّ سنّة حسنة عمل بها من بعده كان له أجره ومثل اجورهم من غير أن ينقص من اجورهم شيئاً، ومن سنّ سنّة سيئة فعمل بها بعده كان عليه وزره ومثل أوزارهم من غير ان ينقص من اوزراهم شيئاً»[۶۹۲].

فالعبارة تحذير حاد لُاولئك الذين يحثون الخطى نحو البدع ويشيدون صروح الضلالة، فى أنّ شقائهم وبؤسهم سوف لن يقتصر على حياتهم بل قد يتجاوز حتى مماتهم بآلاف السنين وعليهم أن يدفعوا كفارة تلك البدع ويستعدوا لتحمل تبعاتها. كما ورد عن الإمام على عليه السلام تحذير شديد آخر فى الخطبة ۱۶۴ حيث قال:

«وإنّ شر الناس عند اللّه إمام جائر ضل وضل به فأمات سنة مأخوذة واحيى بدعة متروكة»

وأمّا الوصفان الأخيران المترتبان على الصفات السابقة فهما

«حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته»

فالعبارة ليست كلاماً تعبدياً؛ بل هى منطقية تماماً. وذلك لأنّ أية معونة ومساعدّة فى ارتكاب الذنب تعدّ شركة فيه؛ ولما كان أتباع هؤلاء المضلين يقارفون الذنوب بمحض إرادتهم فلا ينقص من ذنبهم شيئاً، وهذا ما أشار له القرآن الكريم صراحة فى الآية ۲۵ من سورة النحل إذ قال «لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۳۶۹

يَوْمَ القِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ».[۶۹۳] والتعبير الآخر الذى اعتمده القرآن بشأن ارتهان الإنسان بذنبه هو تعبير غاية فى الروعة والدقة «كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ»[۶۹۴].

فكما أنّ المحجوز لا يطلق من العذاب مالم يكفر عن ذنوبه؛ كما أنّ التعبير باكمال بالنسبة لذنوب الآخرين هو الآخر تعبير عميق، كأن الذنوب (كما يفهم من كلمة وزر) حمل عظيم بثقل صاحبها ومن أسس لها وتصده عن القرب الإلهى وتلقى به فى قعر جهنم. ومن هنا تتضح مدى خطورة الوادى الذى يسقط فيه من وكله اللّه إلى نفسه، وأى مصير مشؤوم ينتظره.

تأمّلان

۱- ما البدعة ومن المبتدع؟

لقد ورد الذم فى هذه الخطبة للبدعة والمبتدع الذى يسوق الناس إلى الضلال؛ كما تضافرت الروايات الإسلامية- إلى جانب سائر خطب نهج البلاغة- التى تذم البدعة وأصحابها، ومن ذلك ما روى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله انّه قال:

«کل بدعة ضلالة وکل ضلالة فی النار»[۶۹۵]

. کما ورد عنه صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«أبی اللَّه لصاحب البدعة بالتوبة قیل یا رسول اللَّه وکیف ذاک؟ قال: إنّه قد اشرب قلبه حبنها»[۶۹۶].

والبدعة فی اللغة بمعنی الإتیان بشیء لا سابقة له، امّا فقهاء الإسلام فقد عرفوها باضافة شیء إلی الدین أو نقصانه دون قیام دلیل معتبر علی ذلک؛ ولما کانت المعارف والأحکام الإلهیة واجبة الثبوت عن طریق الوحی والأدلة المعتبرة، فان البدعة من الکبائر، وهی أساس

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۷۰

الفساد والانحراف، ولو لم تمنع البدع لأضاف الأفراد بعقولهم القاصرة إلی الدین ما شاءوا وانقصوا منه ما أرادوا، فلا یبقی من الدین شیئاً وتمحی آثاره؛ ولا شک أنّ قانون تحریم البدع هو الذی صان القرآن والإسلام وحفظه من تلاعب الجهال وأصحاب الأهواء. والذی ینبغی أن نخلص إلیه ممّا سبق وعلی ضوء التعاریف الفهقیة هو أنّ البدعة لا تشمل الاختراعات والابداعات العلمیة والفنون الطبیعیة والطبیة والصناعیة، کما لا تشمل التجدید فی الثقافة والأدب والسنن والعادات والتقالید. فالبدعة ما أحلت حراماً أو حرمت حلالًا وأضافت دین اللَّه أو انقصت منه ممّا لیس فیه دون قیام دلیل معتبر علی تلک الاضافة أو النقصان، أو الإتیان بدین جدید ودعوة الناس إلیه دون الاستناد إلی الوحی أو الدلیل، هذه هی البدعة، وهی من الکبائر التی توعد اللَّه علیها بالعذاب. ومن هنا نقف علی خواء الوهابیة التی اعترضت حتی علی رکوب الدراجة علی أنّها مرکب الشیطان أو ما قام به بعض الاتباع ممن عمد إلی خطوط الهواتف فقطعها علی أنّها بدعة فمما لاشک فیه أنّ مثل هذه الأعمال تعدّ ممارسات حمقاء لیس لها أدنی صلة بمفهوم البدعة کما صورها الفقهاء، ومما یؤسف له أنّ تأریخ هذه الحرکة ملیء بمثل هذه الممارسات الشائنة. ویماثلهم اولئک الذین سلکوا سبیل الإفراط تجاه هذه الحرکة لیقولوا بعدم وجود أیة ثوابت فی الدین؛ الأمر الذی یهدد کافة قیم الدین ومثله ویعرضها للزوال، حیث یمهدون السبیل أمام هذا وذلک للدس فی الدین ما شاءوا. ونختتم بحثنا هذا بما قاله أمیر المؤمنین علیه السلام- فی کلماته القصار، الکلمة ۱۲۳:

«طوبی لمن ذل فی نفسه ... وعزل عن الناس شره ووسعته السنة ولم ینسب إلی البدعة»

. فقد ورد السنة فی الإمام مقابل البدعة، فمن أطاع اللَّه واستن بسنة رسوله صلی الله علیه و آله فارق البدعة، أمّا من عصی اللَّه وفارق سنة نبیّه صلی الله علیه و آله فهو علی البدعة، وهو ضال لنفسه مضل لغیره.

۲- أخطر الذنوب، حمل ذنوب الآخرین

تقتصر أغلب الذنوب علی المسؤولیة الفردیة وإن کانت من قبیل الکبائر کالأفعال المنافیة للعفة وشرب الخمر وسائر المحرمات، غیر أنّ أخطر الذنوب هی تلک التی تدعو الآخرین لمقارفتها بحیث یبوء صاحبها بوزر تلک الذنوب من دون أن ینقص من أوزار اولئک شیئاً، وهذا ما یصدق علی أئمة الظلم والفساد من أهل البدع الآمرون بالمنکر والناهون عن المعروف. وأحیاناً تطالهم تبعة الذنب بل وتطال نسلهم لقرون بعد مماتهم، وعلی الآثم أن یدفع

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۷۱

ثمن ذنوب هؤلاء بأجمعها (کما أنّ العمل الصالح کذلک قد تشمله برکاته لقرون).

وقد صور القرآن الکریم وضع هؤلاء الاثمة بقوله «وَلَیَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَیُسْأَلُنَّ یَوْمَ القِیامَـةِ عَمّا کانُوا یَفْتَرُونَ»[۶۹۷]. وأعظم خطر تختزنه هذه الذنوب فی الغالب عدم صدق التوبة علیها؛ وذلک لأنّ من شروط التوبة إزالة آثار الذنب؛ فأنی للإنسان بإزالة آثار مثل هذه الذنوب التی قد تتخذ أبعاداً واسعة لتشمل منطقة بأکملها، أو موت الکثیر من الأفراد علی هذه الذنوب التی ساقهم

لارتكابها، أو ظهور الجيل الجديد الذى يعمل بهذه الذنوب بعد وفاته؟

بالتالى لابدّ لهذا الإنسان من التأنى فى حركته، حذراًمن مقارفة مثل هذه الذنوب التى لا سبيل للتخلص من تبعاتها

«حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته».

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۷۳

القسم الثانى: الجاهل المتشبه بالعالم

اشارة

«الصنف الثانى: وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا، مُوضِعٌ فِى جُهَّالِ الْأُمَّةِ، عادٍ فِى أَغْباشِ الْفِتْنَةِ عَم بِما فِى عَقْدِ الْهُدْنَةِ؛ قَدْ سَمَّاهُ أَشْباهُ النَّاسِ عالِماً وَلَيْسَ بِهِ، بَكَّرَ فاسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْع؛ ما قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ، حَتَّى إِذا ارْتَوَى مِنْ ماءٍ آجِن، وَاكْتَنَزَ مِنْ غَيْرِ طائِل، جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قاضِياً ضامِناً لِتَخْلِيصِ ما الْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَماتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثًّا مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهاتِ فِى مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ: لا يَدْرِى أَصابَ أَمْ أَخْطَأَ: فَإِنْ أَصابَ خافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَخْطَأَ رَجا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ- جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهالاتٍ، عاشٍ رَكَّابُ عَشَواتٍ، لَمْ يَعَضَّ عَلَى الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قاطِع، يَذْرُو الرِّواياتِ ذَرْوَ الرِّيحِ الْهَشِيمَ. لا مَلِيٌّ وَاللَّهِ بِإِصْدارِ ما وَرَدَ عَلَيْهِ وَلا أَهْلٌ لِما قُرِّظَ بِهِ، لا يَحْسَبُ الْعِلْمَ فِى شَىْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلا يَرَى أَنَّ مِنْ وَراءِ ما بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ لِما يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضائِهِ الدِّماءُ، وَتَعَجُّ مِنْهُ الْمَوارِيثُ».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان الصنف الأول بشكل جامع، تطرق إلى صفات الصنف الثانى ليتحدث عن ذلك الشخص الذى يغط فى هالة من الجهل والتخبط فى حين يرى نفسه عالماً دون الاستناد إلى ركن وثيق من علم أو عالم. فيبين بادئ ذى بدء خمس صفات لمثل هؤلاء الأفراد. الاولى

«ورجل قمش جهلًا»

فاستناداً إلى ما أورده أرباب اللغة بشأن مفردة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۷۴

القمش التى تعنى جمع الأشياء المتناثرة دون تناسب وكذلك بمعنى الأشياء التى لا قيمة لها، فان الذى يفهم من كلام الإمام عليه السلام أنّ هؤلاء الجهال المتشبهون بالعلماء إنّما يتجهون صوب خواء من العلم الذى يفتقر إلى القيمة كما يفتقر إلى النسبة المنطقية. وقد علق المرحوم العلّامة الخوئى فى شرحه لهذا الكلام على أنّهم يحصلون على المعلومات من فم هذا وذاك ومن الروايات الضعيفة غير المعتبرة وعن طريق القياس والاستحسان والمصادر من هذا القبيل (ذات الحجم الكبير والقيمة القليلة أو المعدومة).

الصفة الثانية أنّه يهرع بسرعة فى أوساط الجهال من عوام الامّة ليجمع له بعض الأنصار:

«موضع [۶۹۸] فى جهال الأمة»

ومن الطبيعى ألاـ يهب لنصرة هؤلاء ويتمحور حولهم سوى تلك الطائفة من الجهال، وليس لهؤلاء من مكان بين العقال. فهدفهم هو لفت انتباه الجهال إليهم والنفوذ فى أوساطهم لأنّهم يعيشون اليأس من اقتحام دنيا العقلاء.

الصفة الثالثة

«عاد[۶۹۹] فى أغباش الفتنة»

بالالتفات إلى أنّ بعض أرباب اللغة[۷۰۰] قد عنى غبش من مادة أغباش بشدّة الظلمة أو ظلمة آخر الليل التى تعتبر أفضل فترة للسارقين واللصوص، يتضح أنّ مثل هؤلاء الأفراد يفكرون دائماً فى الاصطياد من ماء الفتن. فهم يهربون دائماً من النور والضياء ويلوذون بالظلمة وعتمة الليل كفرصة مناسبة من أجل خداع الجهال؛ ولا غرو فلو تبددت ظلمة الفتنة وبزغت شمس العلم والمعرفة لانكشف النقاب عن صورتهم الحقيقية ولافتضحوا أمام القاصى والدانى.

وأشار عليه السلام إلى الصفة الرابعة من صفات تعاسة هؤلاء الأفراد

«عم بما فى عقد الهدنة»[۷۰۱]

. ومن الواضح أنّه ليس المراد بالهدنة هنا الصلح بين المسلمين وغير المسلمين، لأنّ الكلام وبشهادة العبارات اللاحقة وارد بشأن القاضى بين الناس. وبناءً على هذا فالمراد بالهدنة الصلح بين الناس وحل المنازعات بالطرق السلمية؛ وبعبارة اخرى فانّ الهدنة هنا تقابل

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۷۵

الفتنة التى ذكرت فى العبارة السابقة. وبصورة عامة فانّ مثل هؤلاء الأفراد إنّما ينشدون تعميق هوة الاختلافات وتشديها ليتسنى لهم تحقيق أطماعهم ومآربهم الخبيثة، والحال لو علموا أنّ الصلح والسلام بين الناس إنّما يعود بالنفع على جميع الأفراد، وليس هنالك من ينتفع بالنزاع والشقاق، لما اتجهوا إلى مثل هذه الامور. نعم ان هؤلاء الأفراد عمى عن مشاهدة الحقيقة فضلًا عن ادراكها.

وقال عليه السلام فى صفتهم الخامسة

«قد سماه اشباه الناس عالماً وليس به»

يبدو أنّ قوة الجاذبية التى تربط ذرات هذا العالم فى الأرض والسماء بحيث يميل كل موجود وينجذب إلى شبهه، فانّ هذه القوة تحكم هذه الفئات والأفراد أيضاً. وما أروع تعبيره عليه السلام عن أتباع من تشبه بالعلماء بأشباه الناس، فى إشارة واضحة إلى أنّ أشباه الناس هم خدمة أشباه العلماء.

ومن البديهى أنّ شباهة هؤلاء بالناس كشباهة أئمتهم الجهال بالعلماء إنّما هى شباهة صورية ليس أكثر، وغالباً ما يستعمل هذا التعبير بشأن الموارد ذات الشبه الصورى كقوله عليه السلام فى الخطبة ۲۷ من نهج البلاغة

«يا أشباه الرجال ولا رجال».

وما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان صفاتهم حتى تطرق إلى جانب من أفعالهم القبيحة النابعة بصورة مباشرة من تلك الصفات ونقاط الضعف التى تحكم كيانهم، فقال عليه السلام:

«بكر[۷۰۲] فاستكثر من جمع؛ ما قل منه خير ممّا كثر»[۷۰۳]

. يمكن ان تكون هذه العبارة إشارة إلى الإمكانات المادية والدنيوية التى تؤدى كثرتها إلى الغفلة والتكبر والانهماك الدائم بالماديات والابتعاد عن المعنويات؛ وغلباً مايكون قليلها أفضل من كثيرها وأنّ الكفاف والعفاف أقرب إلى السعادة والفلاح من التكاثر والتفاخر. أو إشارة إلى فضول الكلام والمسائل العلمية التى لا طائل من وراءها على حساب الاصول والمبادئ وذهب البعض إلى أنّ المراد بها الآراء الباطلة والعقائد الفاسدة، ولكن يبدو هذا الاحتمال مستبعداً؛ لأنّ القليل من هذه الآراء والعقائد فيه الضرر

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۷۶

أيضاً، وإن كان هذا التفسير لا ينسجم وبعض العبارات القادمة. ثم قال عليه السلام:

«حتى إذا ارتوى من ماء آجن ۷۰۴] واكتنز من غير طائل ۷۰۵]، جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره».

أجل أنّ هذا الفرد الجاهل والضال المتشبه بالعالم الذى يتمتع برصيد علمى مشوه مفعم بالأخطاء وله روح ونفس ولعة بعالم المادة شغفة بزخارف الدنيا وزبرجها، إنّما وضع نفسه فى موضع لا يتصدره سوى نبى أو وصى، كما ورد ذلك فى الحديث المعروف عن

الإمام على عليه السلام حين خاطب شريح القاضى قائلًا:

«يا شريح قد جلست مجلساً لا يجلسه إلّانبى أو وصى نبى أو شقى»[۷۰۶]

، والأدهى من ذلك يزعم أنّ هنالك حقائق، ولا غرو فهـذه هى المزاعم والادعاءات الفارغـة التى يتشدق بها كافة الجهال المتشـبهين بالعلماء.

والآن بعد أن تصدى هذا الجاهل للقضاء فما عساه أن يفعل، قال الإمام عليه السلام بهذا الشأن:

«فان نزلت به احدى المبهمات هيا لها حشوا رثامن رأيه، ثم قطع به».

الحشو بمعنى الكلام الزائـد الـذى لا فائـدة فيه، والرث بمعنى الخلق القديم ضد الجديد، فقوله عليه السـلام: «حشوا رثامن رأيه» كأنّها إشارة إلى أنّه ليس من أهل الخلاقيـة والمبادرة، كما ليس له ذهنيـة متفتحـة، وأخيراً لايمكنه أن يجمع الأدلـة المقيـدة التى تعينه على اصدار الحكم. فليس له رصـيد سوى حفنة من الأفكار الزائدة التى لا طائل من وراءها وهى رثة قديمة أكل الدهر عليها وشـرب، وهذا هو اسلوبه وديدنه ويقينه فى الحكم.

ومن الطبيعى أن لاـ تؤدى هـذه المقـدمات الباطلـة والفاسـدة إلى أى يقين، فهو يخـدع النـاس متظـاهراً لهم باليقين، وعلى فرض كونه وصـل إلى اليقين فـانه ليس معـذوراً عنـد اللّه لأنّه سـلك الخطأ والتقصـير فى المقـدمات. فالمشاكل القضائيـة كسائر المشاكل العلمية والاجتماعيـة والسياسـية إنّما تعالـج دائماً عن طريق دراسـة المقدمات الصـحيحة والمنطقية؛ فذلك الذى ليست لديه أدنى معرفة بهذه المقدمات الصحيحة وقد تعلقت أفكاره بالمسائل الباطلة فانّه ليس

نفحات الولاية، ج١، ص: ٣٧٧

فقـط لاـ يتوصـل إلى النتيجـة الصائبـة فحسب، بـل سـيغط فى هالـة من الحيرة والتخبط والضـلال كما سـيسوق الآخرين إلى الضـلال؛ والانكى من ذلك أنّه كلما تقدم أكثر فى هذا المجال ابتعد اكثر عن الوقائع والحقائق.

ثم يواصـل الإمام عليه السـلام كلامه «فهو من لبس الشـبهات فى مثل نسـج العنكبوت ۷۰۷]». وقد اختلفت أقوال الشـرّاح بشأن التشبيه الـذى اسـتعمله الإمـام عليه السـلام فى هـذه العبـارة، فاوردوا بعض التفاسـير التى لا تخلو من التكلف والتقـدير والتغيير فى العبارة– أمّا التفسـير الذى يبدو مناسباً هو أنّ الإمام عليه السـلام شبه هؤلاء الأفراد الجهال المغرورين ضعيفى الفكر بالعنكبوت حيث ينسج لنفسه خيوطـاً تكون حرزاً لـبيته كمـا تكون فخاً لصـيده، امّ‌ا بيته فهو أوهن البيوت ولاـ يمكن الوثوق به أبـداً، كمـا أنّ فخه لاـ يطيـل سوى الحشرات الضعيفة العاجزة.

نعم هـذا الجاهـل أيضاً ليس لفخه من دور سـوى صـيد أمثـاله من الجهـال الحمقى. وعليه فهو كـالعنكبوت وأفكـاره كخيوطه وهمية ضعيفة وحيدة يقتصر على المغفلين عديمى العلم والمعرفة.

«لا يدرى أصاب أم أخطأ، فان أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وان أخطأ رجا أن يكون قد أصاب»

. هـذا هو حال الأفراد الجهال الـذين يتصدون إلى المناصب الهامّة التى لا يمتلكون الجدارة لممارسـتها. فهم على شك وترديد دائماً، حتى أنّ اتجهـة صوب الصواب فحيث لاـ يؤمن بـذلك فهو متزلزل يطلق سـهمه فى الظلاـم دائمـاً عله يصـيب الهـدف. ويتصور بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الجملة الأخيرة تتناقض والعبارة

«ثم قطع به»

لأنّ تلك العبارة تحدثت عن القطع واليقين بينما تتحدث هذه العبارة عن الشك والترديد. والحال أنّ العبارة

«ثم قطع به»

تعنى الحكم القـاطع لاـ قطع القاضـى ويقينه، فالواقع أنّه يحكم فقط ويتخـذ لنفسه صـيغة القطع، بينما يفيض باطنه بعاصـفة من الشـك والترديـد. نعم مصـيبته الكبرى فى دينه، فان أصاب الواقع مصادفـة شـعر بالتزلزل لأنّه لا يملك الإيمان واليقين، وان هذا التزلزل يؤرقه

ولا يجعله قادراً على اتخاذ القرار؛ وان أخطأ فان سبيل الرجوع مغلق بوجهه لأنّه ليس واقفاً على خطأه. ثم انتقل الإمام عليه السلام إلى صفة اخرى ليصور حال هؤلاء الأفراد بتعبيرات قارعة

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۳۷۸

وتشبيهات غاية في البلاغة والجمال فقال عليه السلام:

«جاهل خباط[۷۰۸] جهالات»

، فهو كالأعمى في الظلمات المليئة بالمخاطر

«عاش ركاب عشوات»[۷۰۹]

فالإمام عليه السلام لا يكتفي بوصفه بالجاهل، بل يؤكد ذلك ليصفه بأنّه يغط دائماً في هالة من الجهل، كما لا يكتفي الإمام عليه السلام بعشوته وعماه بل يصوره بانه يمتطي الظلمة والعتمة ويحث السير دون أن يعلم أين يسير وإلى أين سينتهي به هذا المسير. المفردة عاش من مادة عشا، فسرت بالعمى المطلق، كما فسرت يضعف الرؤية وقيل أيضا يراد به عشوة الليل، ومهما كانت فانّ المراد هو أن صاحبها لا يستطيع رؤية ما حوله من الأشياء، فاذا ما تحرك سقط في الهاوية، بل قادته حركته إلى الجحيم، وهذا هو حال من يتصدى للقضاء بين الناس دون الاستناد إلى العلم والمعرفة ويزج بنفسه في هذا الطريق الشائك المليء بالمخاطر، فكلما مر عليه يوم من حياته كثر بؤسه وشقائه لنفسه وللناس حتى ينتهي به المطاف إلى السقوط في وادي الكفر والضلال، والأنكى من كل ذلك أنّ مثل هذا الفرد يرى نفسه عالماً ضالعاً بموازين القضاء والحق والعدل فلا يسع أحد احصاء خطاياه وذنوبه!

ثم ينتقل الإمام عليه السلام لبيان صفة اخرى من صفات هذا الجاهل المتخبط

«لم يعض على العلم بضرس قاطع»

، فقد شبهه الإمام عليه السلام بمن يتناول الطعام دون المضغ بحيث لا يسع الجسم هضمه. ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أن المراد بالضرس هنا سن العقل الذي يظهر في مرحلة تكامل العقل، وكأن هؤلاء الجهال ليس لهم سن عقل، فهم لا يقيمون القضايا بشكل سليم، وبالمقابل هنالك الأفراد العلماء الحلماء الذين يتحدثون بالضرس القاطع؛ أي أنّ حديثهم يستند إلى أسس العقل والمنطق السليم.

وقال عليه السلام في صفتهم الثالثة أنّهم كالريح العاصف التي تهلك الحرث والزرع فهي تهب هوجاء دون هدف وهذا حال تعامل الجاهل مع الروايات الإسلامية

«يذرو[۷۱۰] الروايات ذرو الريح الهشيم ۷۱۱]»

. إشارة إلى أنّه يطالع ظاهرياً الموضوعات التي تصدت لبيانها الروايات

نفحات الولايۀ، ج ۱، ص: ۳۷۹

والسنّة النبوية، ولكن ما جدوى ذلك وهو يفتقر إلى تقييمها الصحيح، فهو لا يمتلك العلم بمضمونها ولا بقوة سندها من ضعفه، كما لا يعرف الجمع بين الروايات المتعارضة ولا يميز المحكمة من المتشابهة. فهو بالضبط كالريح الهشيم التي تذرو النباتات هنا وهناك. فالنباتات الجافة (الهشيم) قد لا تكون لها أية فائدة، بينما قد تفيد إذا جمعت، أمّا الريح الهوجاء تزيل حتى هذه الفائدة الضئيلة من خلال ذروها وتفريقها، وهذا ما عليه الحال بالنسبة للأفراد الجهال الذين يتعاملون مع الروايات دوتن أن تكون لهم معرفة صحيحة بغشها من سمينها وصحيحها من سقيمها.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى صفتهم الرابعة، ليقسم بأنّ هؤلاء الجهال ليسوا حريين بحل ما ترد عليهم من قضايا ولا جديرين بأدنى مدح واطراء يمارسه المتلمقون تجاههم

«لاملي- واللَّه- باصدار[۷۱۲] ما ورد عليه، ولا أهل لما قرظ[۷۱۳] به».

ممّا لا شك فيه أنّ الفصل فی الخصومات القضائية والذی يصطلح عليه الفقهاء برد الفروع إلی الأصول إنّما يتطلب رصيداً علمياً ثراً لا يتحلی به هؤلاء الجهال المغرورون، وهذه الضحالة العلمية تفحمهم وتجعلهم يضلون سبل التعامل مع القضايا فلا يميزوا كيفية الدخول فيها أو الخروج منها (المراد بالـدخول والخروج هنا ما تعارف بشأن الموضوعات المطروحـة علی العلماء فيقال أن فلاناً يعلم كيف يرد هذه المسائل وكيف يخرج منها، والفرد الجاهل يفتقر بالمرة لهذه المسألة).

أمّا إحـدی مشاكل هؤلاء الأفراد هی إطاحتهم بثلة من المتملقين الذين يهدفون إلی تحقيق مطامعهم الدنيوية فيطرونهم بمختلف ألوان المـدح والثناء ويضـفون عليهم ما لا يسـتحقونه من الصـفات، فيطرب هؤلاء الجهال لمثل هـذه الأكاذيب والنعوت الفارغة رغم علمهم بكـذبها وزيفهـا إلّاأنّهم وبمرور الزمـان يظنون أنّهم كـذلك وهـذه قمـة البؤس والشـقاء التی يبلغونها بحيث تغلق أمامهم كافة سـبل النجاة.[٧١۴]

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٨٠

وقال عليه السلام فی صفتهم الخامسة

«لا يحسب العلم فی شیء ممّا أنكره، ولا يری أنّ من وراء ما بلغ مذهباً لغيره»

. والواقع أنّ هذا من لوازم الضحالة الفكرية وضيق العلم والمعرفة حيث يری الإنسان نفسه هو العلم الكامل فينكر كل ما ورائه فلا يری من حرمـة لأفكـار الآـخرين وعلومهم، بينما لا يری العالم الحق فی العلم والمعرفـة سوی الاعتراف بالجهل، فيسوقه ذلك إلی التواضـع للآخرين والاسـتماع إلی أقوالهم «فَبَشِّرْ عِبادِالَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ»[٧١۵] فهم يستمعون إلی الآخرين ويصطفون أحسن مايرد فی كلامهم، فی حين يطالعك الجاهل المغرور الذی يتحدث علی سبيل القطع وهو ليس علی شیء.

وصفته السادسة التی ذكرها الإمام عليه السلام:

«وان أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه»

هـذا هو الفارق والحـد الفاصل بين العالم والجاهل، فالعالم إذا عرض له أمر مبهم كرس له اهتمامه فان صـعب عليه حله وإزالـة ابهامه اسـتشار من حوله واسـتفاد من أفكـارهم وانفتـح علی تجـاربهم، بينمـا يهمله الجاهـل ويمر عليه مروراً عـابراً، لأنّ يعلم بأن التعامل معه والتفكير فيه لاـ تزيـده سوی فضـيحة. وزبـدة الكلاـم فهو يعمـل علی الخلاف ممّا ورد فی الروايات الإسـلامية بعـدم الحياء من قول لا أدری إذا عرض عليه ما لا يعلمه ولا ينبغی أن يسـتنكف عن تعلمه «ولايسـتحين أحد منكم إذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشیء أن يتعلمه»[٧١۶]. والواقع هو أنّ عدم الالتزام بمضـمون هذه الرواية إنّما يقود إلی اضرار فادحة تطيل الشخص والمجتمع الذی يعيش كواحد من أفراده.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلی حصيلة عمل هؤلاء القضاة الجهال عديمی الورع والتقوی بقوله:

«تصرخ من جور قضائه الدما، وتعج ٧١٧] منه المواريث»

. أجـل فمـا أكثر الـدماء التی تسـفك والأـموال التی تهـدر وهی تضـج بصـراخها من الأحكـام المجحفـة التی يصـدرها هؤلاء القضاة الجهال، فيطرق هذا الصراخ ضمير السامع فيهز أعماقه، بينما يعيش هذا الجاهل نشوة الغرور

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٨١

فلا يسمع ولا يری ما حوله. امّا تعبيره عليه السلام ب

«تصرخ»

و

«تعج»

فهو تعبير فی منتهی الروعـة والجمال، حيث عبر عن الـدماء التی تراق من غير حلها بالصـراخ وكأن لهذه الدماء علم وشـعور وإدراك،

فى حين ليس لهذا الجاهل المغرور مثل هذه المعانى فهو يعيش فى جهل مطلق.

ومن هنا نعتقد بأنّ ما ذكره بعض الشرّاح من أنّ فى الجملة تقدير ينسبون من خلاله هذه الصراخ إلى أولياء الدم وأصحاب الأموال إنّما يقضى على هذه اللطافة والروعة فى التعبير.

على كل حال فان رسالة القضاء والقضاة التى تهدف إلى حفظ دماء الناس وأموالهم إنّما تضيع فى ظل تصدى هؤلاء الجهال لمسند القضاء؛ الأمر الذى يقود بالتالى إلى تغييب أمن المجتمع وسيادة الفوضى.

والكلام شبيه ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى رواية «أبو ولاد» حين سمع عليه السلام اصدار بعض الأحكام القضائية الظالمة فقال:

«فى مثل هذا القضاء وشبهه تحبس السماء ماءها وتمنع الأرض بركاتها»[۷۱۸].

تأمّلات

۱- آفات علماء السوء

لقد أشار الإمام عليه السلام فى الخطبة إلى الآفات الخطيرة للجهال المتشبهين بالعلماء وعلماء السوء الذين يشقون أنفسهم وقومهم. وقد تتسبب بعض هذه الأخطار والآفات فى سفك دماء الأبرياء وهضم حقوق المظلومين المستضعفين، فتصرخ تلك الدماء من الأحكام الظالمة كما فأن الأموال المهدروة من القضاء الجائر. فقد جاء عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر ممّا يصلح»[۷۱۹]

كما قال صلى الله عليه و آله:

«من أفتى الناس بغير علم وهو لا يعلم

الناسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابه فقد هلك وأهلك»[۷۲۰].

والعجيب أن هؤلاء الأفراد كلما عملوا أكثر كان ضررهم أعظم، وهذا ما أشار إليه الإمام

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۳۸۲

الصادق عليه السلام:

«العالم على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلّا بعداً»[۷۲۱].

۲- علم كخيط العنكبوت

لقد شبه عليه السلام علم هؤلاء الجهال المتلبسين بزى العلماء بخيوط العنكبوت؛ وهو التشبيه الذى اقتبس فى الواقع من القرآن الكريم- سورة العنكبوت- الذى شبه أولياء المشركين ببيت العنكبوت «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ». والعنكبوت ينطوى على بعض خصائص العجائب فى الخلقة. فالعنكبوت تنسج خيوطها من قطرة لزجة غاية فى الصغر فى بطنها تلصقها فى الخارج بمساعدّة مخلبها؛ حيث لهذا المائع تركيب خاص يتصلب وينجمد بمجرد ملامسته للهواء، ويعتقد بعض العلماء أن للعنكبوت القدرة على نسج ما يعادل خمسمئة متر من هذه الخيوط بالاستفادة من تلك المادة اللزجة الصغيرة. وهذه الخيوط هى التى تشكل بيت العنكبوت وفخه، إلّاأنّ القرآن أشار إلى أنّ أوهن البيوت هو بيت

العنكبوت، فأيـة ريـح مهمـا كـانت خفيفـة تحطم هـذا البيت، كمـا أنّ قطرة المـاء تخترقه، وأدنى شـعلة نـار تخربه، بـل ليس له قـابيلة استقطاب التراب والغبار فهى الاخرى تقضـى عليه، وهذه هى الصورة الحقيقية لأولياء الشـرك وعلم الجهال. فالعلماء الذين يسـتندون فى علمهم إلى القياس والاسـتحسان وما إلى ذلك إنّما علمهم كبيت العنكبوت أجوف هزيل لا يصمد أمام شىء وليس من شأنه فعل شىء.

كمـا يفهم من هـذا التشبيه بشأن هؤلاء الجهال المتشـبهين بالعلماء أنّ فرائسـهم كفرائس العنكبوت حيث ينحصـر فى الأفراد الضـحلين الذين لا قيمة لهم كفرائس العنكبوت من الحشرات التافهة.

۳- اطراء المتملقين

لقد تطرق الإمام عليه السلام فى الخطبة إلى عدم استحقاق هؤلاء إلى المدح والثناء الذى يكيله لهم

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۳۸۳

المتملقون من أشـباه الرجـال؛ وهو الأـمر الـذى يسـتبطن البلاـء الـذى يعود على هؤلاء الجهال إلى الاعتقاد بالتدريـج أنّ لـديهم العلم والمعرفـة والجدارة والأهلية، فيرون فى أنفسـهم الكفاءة فى التصدى لهذا المنصب الخطير الذى يؤدى بالتالى إلى هلاكهم واهلاكهم. فضـرر هؤلاء المتملقين الـذين يحيطون بهؤلاء الجهال ويسوقونهم للتصـدى للقضاء لا يقل عن خطر هؤلاء الجهال فى التصـدى إن لم يكن أعظم وأفدح؟ الأمر الذى ذمه القرآن الكريم إلى جانب الروايات الإسلامية. ومن ذلك أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«إذا مدح الفاجر اهتز العرش وغضب الرب»[۷۲۲]

وقال صلى الله عليه و آله:

«من مدح سلطاناً جائراً وتخفف وتضعضع له طمعاً فيه كان قرينه إلى النار»[۷۲۳]

. ومن هنـا ورد التحـذير من مطلق المـدح والاـطراء لتنبه إلى ذلك حتى الأفراد من أهل الورع والتقوى إلى الأخطار التى ينطوى عليها هذا المديح، فقد ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«احثوا فى وجوه المداحين التراب»[۷۲۴]

وهـذا ما حـذر منه أمير المؤمنين عليه السـلام مالك الأشتر فى عهـده الـذى عهـده إليه حين ولاه مصـر بعد أن دعاه إلى مجالسة أهل الورع والتقوى والصدق:

«ثم رضهم على ألا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدنى من العزة»[۷۲۵].

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۳۸۵

القسم الثالث

اشارة

«إِلَى اللَّه أشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعيشونَ جُهّالًا، وَيَمُوتُونَ ضُلَّالًا، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتابِ إذا تُلِىَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، وَلا سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً وَلا أَغْلَى ثَمَناً مِنَ الْكِتابِ إِذا حُرِّفَ عَنْ مَواضِعِهِ وَلا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلا أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ!».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى إلى اللَّه بقلب كسير وأنين متواصل من مثل هؤلاء الجهال المتشبهين بالعلماء والقضاة من عبدة الأهواء والشهوات الذين مردوا على الغرور وحب الذات، فقال عليه السلام:

«إلى اللَّه أشكو من معشر يعيشون جهالًا، ويموتون ضلالًا»

. والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام ينعتهم بصفات اخرى استمراراً لما وصفهم به فى السابق، فحياتهم بأكملها جهل فى جهل فلم يكن موتهم سوى ضلال فى ضلال (ففى الحقيقة ان العبارة الثانية نتيجة حتمية للعبارة الاولى) فكيف لا يموت على الضلال من يفنى عمره فى الجهل.

أمّا الصفة الاخرى لهم والتى تعدّ علامة فارقة للتعرف عليهم هى:

«ليس فيهم سلعة[۷۲۶]

أبور[۷۲۷] من الكتاب إذا تلى حق تلاوته، ولا سلعة أنفق ۷۲۸] بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۸۶

صرف عن مواضعه»

. إنّهم يريدون قرآناً ينسجم مع أهوائهم وأغراضهم الفاسدة ونياتهم السيئة، ولما كان القرآن بتفسيره الحق لا ينسجم مع تطلعاتهم، فهم ينبذوه ويعمدون إلى تحريفه وتفسيره برأيهم وما تمليه عليهم خيالاتهم.

والنقطة الجديرة بالذكر هنا هى أنّهم يعيشون فى وسط يكن للقرآن منتهى القدسية والاجلال والاكبار على أنّه وحى اللَّه الذى أوحاه إلى نبيّه صلى الله عليه و آله؛ الأمر الذى يدفع بهم ولتحقيق أغراضهم ومآربهم إلى التظاهر بالانضواء تحت رايته فيسعون جاهدين لاضفاء الصيغة القرآنية على تحريفاتهم وتفسيراتهم الخاطئة، فيعود هذا الكتاب السماوى الذى يفيض نوراً وهداية إلى وسيلة لاضلال الناس.

أمّا الصفة الأخيرة التى ينعتها بهم الإمام عليه السلام فهى

«ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر».

نفحات الولاية ؛ ج ۱ ؛ ص ۳۸۶

ملاحظة

التفسير بالرأى وقلب الحقائق

إنّ أعظم فارق بين المؤمنين المتقين وعديمى التقوى إنّما يكمن فى كون الفريق الأول يتعامل مع القرآن الكريم والأحكام الشرعية كأصل ثابت ويسعى لتكييف إرادته وشؤونه على ضوئه، فان شعروا بأنّهم أخطأوا أو خرجوا من دائرة تلك الأحكام ندموا وتضرعوا إلى اللَّه وطلبوا منه العفو والمغفرة «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ».

أمّا الفريق الثانى الأنانى المغرور فهو يمنح هذه الأصالة لإرادته وأهوائه الطائشة التى لا تعرف القيود والحدود، فهو يسعى لتكييف الآيات القرآنية مع أهوائه ورغباته؛ ولا عجب

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۸۷

فهو يرى نفسه الأصل والقرآن الفرع، فالأحكام الإلهية محترمة لديه ما كانت منسجمة مع هواه وهوسه، فان لم تكن كذلك ضربها عرض الجدار. ومن هنا وصفه القرآن بالازدواج فى التعامل مع الآيات القرآنية «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ» فهو مصداق بارز لقوله سبحانه «أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ». امّا الاسلوب الآخر الذى درج عليه هذا الفريق فانّما يكمن فى التحريف المعنوى للقرآن وتفسيره

برأيه، ولا ينشد من ذلك سوى خداع الناس أحياناً أو خداع نفسه أحياناً اخرى وهذا ما ذمته بشدة الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. فقد أشار القرآن الكريم إلى اليهود التى مارست هذا الاسلوب بالقول: «أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»[٧٢٩] ومن المسلم به أنّ مثل هؤلاء الأفراد لا يسلمون لأية حقيقة تطرح عليهم، أنّهم كخفافيش الليل التى تعادى الشمس الحقة، وفوق ذلك أنّهم لم يؤمنوا باللّه طرفة عين؛ ولذلك ورد فى الحديث النبوى الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله انّه قال:

«قال اللّه جل جلاله: ما آمن بى من فسر برأيه كلامى»[٧٣٠].

كما قال صلى الله عليه و آله:

«أشد ما يتخوف على امتى ثلاث: زلة عالم، أو جدال منافق بالقرآن، أو دنيا تقطع رقابكم»[٧٣١].

أمّا الحديث عن التفسير بالرأى ومفهومه والأخطار المترتبة عليه فهذا ما سنعرض له فى محله فى الأبحاث القادمة إن شاء اللّه.

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٨٩

الخطبة الثامنة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى ذم اختلاف العلماء فى الفتيا وفيه يذم أهل الرأى ويكل أمر الحكم فى امور الدين للقرآن.[٧٣٢]

القسم الأول

اشارة

«تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِى حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكامِ فَيَحْكُمُ فِيها بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِها عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيها بِخِلافِ قَوْلِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقُضاةُ بِذَلِك عِنْدَ الْإِمامِ الَّذِى اسْتَقْضاهُمْ فَيُصَوِّبُ آراءَهُمْ جَمِيعاً، وَإِلَهُهُمْ واحِدٌ! وَنَبِيُّهُمْ واحِدٌ! وَكِتابُهُمْ واحِدٌ!».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ٣٩٠

نظرة إلى الخطبة

يعتقد بعض المحققين- كما ذكرنا سابقاً- أنّ هذه الخطبة هى جزء من الخطبة السابقة وقد فككها الشريف الرضى (ره)؛ الأمر الذى يؤيده مضمون الخطبة ومحتواها؛ فالخطبة السابقة تحدثت عن القضاة والجهال المنحرفين الذين يصدرون الأحكام الجائرة فى قضائهم بما يهدد بالصميم أمن الامّة وصيانة عرضها وأموالها وأنفسها وبالتالى استشراء الفوضى والفساد فى صفوف المجتمع.

كما تحدثت هذه الخطبة هى الاخرى عن القضاة الذين يستندون فى أحكامهم إلى الأدلة الواهية الضعيفة من قبيل القياس والرأى والاستحسان فتوصلهم إلى نتائج خاطئة، والأنكى من ذلك يصوب رئيسهم كل هذه الأحكام المتناقضة ويرى فيها أحكام اللّه المطابقة للواقع. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى ابطال نظرية التصويب (النظرية التى ترى أن آراء القضاة وفتيا الفقهاء تمثل الأحكام الإلهية الواقعية رغم تضادها وتضاربها مع بعضها)، على أساس الأدلة المنطقية التى تفند مثل هذه العقيدة، ثم يكشف النقاب عن السبيل الذى

يقود إلى الحق فى هذه القضايا الإسلامية التى ضل فيها الكثيرون.

والخطبة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: فى الحديث عن الاسلوب الذى اعتمده القضاة فى تعاملهم مع القضايا والتى تستبطن الأحكام المتناقضة التى تخالف أحكام اللَّه.

والقسم الثانى: فى ابطال النظرية التى تصرح بصواب الجميع.

وأخيراً القسم الثالث الذى يتحدث فى الإمام عليه السلام عن عظمة القرآن وكونه المرجع الفصل فى حل جميع الاختلافات.

الشرح والتفسير

ما علّة كل هذا الاختلاف؟

يستهل الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام فيحكم

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۳۹۱

فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله»

ثم أردفه عليه السلام بالقول

«ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذى استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً، وإلههم واحد أو نبيهم واحد! وكتابهم واحد».

ولعل هذه المسألة تبدو عيجبة للأعم الأغلب من الناس صعبة التصديق لديهم فى أنّ تصادق جميع الآراء المتضاربة والمتناقضة على أنّها أحكام اللَّه؛ إلّاأنّها واقع قائم تبلور بشكل عقيدة لدى طائفة إسلامية من أبناء العامة. ولو تأملنا العلل والدوافع التى ساقت هذه الطائفة إلى هذا الاعتقاد- والذى سنتطرق إلى تفاصيله فى الأبحاث القادمة- سنكتشف أنّهم جعلوا أنفسهم فى زاوية ضيقة حرجة لم يبق أمامهم من سبيل للخروج من هذا المأزق سوى اللجوء إلى عقيدة التصويب.

إلّا أنّ الإمام عليه السلام يوجه ضربة قاصمة إلى دعائم هذه العقيدة المنحرفة بقوله

«والههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد».

فمما لاشك فيه لا يصدر من اللَّه الواحد فى مسألة واحدة سوى حكم واحد، فهو العالم بكافة الحقائق المحيط بجميع الأشياء فيحكم فيها بحكم واحد على ضوء المصالح والمفاسد.

فلا- يخطئ فى هذا الحكم ولا- من سبيل للنسيان إلى ذاته المقدسة ليختلف الحكم ولا- يندم ولا- ينكشف له بمرور الزمان ما كان مجهولًا- إذن فلا يمكن تصور الاختلاف من جانب اللَّه أبداً.

أضف إلى ذلك فانّ نبيّهم واحد، وهو معصوم فى اصدار الأحكام، فيبيّن الحكم الإلهى دون زيادة أو نقيصة، وعليه فليس هنالك اختلافاً من جانبه أيضاً. وأخيراً كتابهم واحد؛ الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس للتحريف من سبيل إليه، فهو يستند إلى الوحى الإلهى الذى يأبى الاختلاف والتضاد؛ فهو كتاب اللَّه «وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً»[۷۳۳].

إذن فليس هنالك اختلافاً من جانب الكتاب. فهذه العبارات فى الواقع مقدمة لما سيأتى

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۳۹۲

من كلام فى أنّ هذا الاختلاف انّما ينبع من أفكارهم القاصرة وعجزهم العلمى، وبعبارة اخرى فانّ هذه العبارات اجابة ورد على مسألة التصويب التى تعرض لها الإمام عليه السلام بصورة مفصلة لاحقاً.

والواقع هو أنّ الاعتقاد بالتصويب وصحة الآراء المتناقضة إنّما هو انحراف عن أصل التوحيد ونزوع نحو نوع من الشرك. فالتوحيد

الإلـهى يعنى أنّ اللّه واحـد، وتوحيـد النبوة يرى أنّ نبوة اولى العزم واحـدة فى كـل عصـر، وتوحيـد الشـريعة فى أن الكتاب السـماوى واحد.

وعليه فالميل نحو تعدد الأحكام الواقعية ليس سوى الشرك الذى يتقاطع صراحة وأصل التوحيد.

تأمّلات

۱– مسألة التصويب ونشأتها

تعتبر هـذه المسألـة من أهم المسائـل الإسـلامية ذات الصـلة الحميمـة بمسألـة «الاجتهاد» و «الرأى» و «القياس» و «الاسـتحسان» وما إلى ذلك، كما ترتبط بالأحداث السياسـية والتأريخية التى أعقبت وفاة النبى صلى الله عليه و آله. وإليك شرحها باختصار بعيداً عن الاطالة والخروج عن اسلوب البحث:

۱– أنّ عصـر الرسالة كان مفعماً بالأحداث المعقدة الاجتماعية والسياسـية والعسـكرية بحيث لم تدع للمسلمين من مجال للوقوف على كافة الأحكام، وإن بينت اصولها الاساسية فى القرآن.

۲– لقـد اتسـعت رقعـة الدولـة الإسـلامية بعد النبى صـلى الله عليه و آله بحيث كانت تظهر مسائل جديدة كل يوم فى الأحكام الفقهية الإسلامية حتى رأى المسلمون أنفسهم أمام كم هائل من المسائل المستحدثة ولم يروا أجوبتها فى الأحاديث النبوية الشريفة.

أضف إلى ذلك منع بعض الخلفاء (عمر) الصحابة من تدوين السنّة[۷۳۴] مخافة أن تختلط

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۹۳

بـالقرآن، حتى انـدثرت أغلب أحـاديث رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، فأصـبح هنـاك نقصاً حاداً فى المصادر الإسـلامية، حتى رأى الفقهاء ولا سـيما الخلفاء الـذين كانوا يشـهدون كل يوم هجوم المسائل الفقهيـة الجديدة أنّهم يعيشون حرجاً شديداً، بحيث إذا زعموا أنّ الإسـلام لا يمتلك الردود تجاه مختلف القضايا الحقوقيـة والجزائيـة والفردية والاجتماعية، فند زعمهم بالآية القرآنية «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً»[۷۳۵].

فالـدين الخـاتم الـذى لاـ يعرف معنى للمكـان والزمان بل يتصف بالعالميـة والخلود لابـدّ أن يلبى كافـة الحاجات على مـدى الـدهور والعصور إلى نهايـة الـدنيا، ولكن كيف بـذلك مع هذه الأحاديث القليلة التى نقلت عن رسول اللّه صـلى الله عليه و آله. وهنا لا ينبغى أن ننسـى بأنّ هذا المأزق الحرج إنّما نشأ من تجاهل وصية رسول اللّه صلى الله عليه و آله وحديثه المعروف بحديث الثقلين الذى قرن فيه العترة الطاهرة من أهل بيته بالقرآن الكريم وأنّ الامّة ان تمسـكت بهما معاً فانّها لن تضل بعده أبداً[۷۳۶]. فلو عمل المسلمون بهذه الوصيـة وتلقوا أحـاديث الأئمـة المعصومين التى تمثل الامتـداد الطبيعى لأحاديث رسول اللّه صـلى الله عليه و آله فانّ مشـكلة لم تكن لتحـدث قط ولم يشـهد المسـلمون هـذه المعضلـة التى عصـفت بالفرق الإسـلامية، وهـذا بعينه ما جعل أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السـلام لا يشـعرون بنقص تجاه أية مسألة من المسائل الفقهية، وقد نقلت الآلاف المؤلفة من أحاديث هذه العترة لتمكن فقهاء الإمامية من التعامل مع كافة القضايا الفقهية على ضوء النظرة الإسلامية.

۳– أخيراً وبهـدف خروج فقهاء العامـة من هـذا المأزق والطريق المسدود لم يكن لهم من سبيل سواء اللجوء إلى القياس والاسـتحسان والاجتهـاد بالمعنى الأخص وتشـريع القوانين والأحكام من الفقهاء– فانبروا ليقسـموا المسائل إلى قمسـين: مسائل منصوصـة ومسائل لا نص فيها (أى المسائل التى ورد بشأنها حكم فى الكتاب والسنّة والمسائل التى لم يرد فيها نص فى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۹۴

الكتاب ولا السنّة). فافتوا فى المسائل المنصوصة طبق ماورد فى النص. وأمّا المسائل التى لم يرد فيها نص فقالوا: حل المشكلة يكمن فى أنّه إن كان له شبيه ونظير فى الأحكام الإسلامية قاسوا عليه، مثلًا إذا ورد فى باب الصلاة حكم قاسوا الصوم بذلك الحكم، ان ورد حكم فى الحج قاسوا عليه أحكام العمرة، وإذا لم يكن هناك من شبيه فى الأحكام الإسلامية يجتمع الفقهاء ويتدارسوا مصالح ومفاسد ذلك الأمر ثم يتخذوا بشأنه حكماً وهذا ما أسموه بالاجتهاد (بالمعنى الأخص).

وبعبارة اخرى فان هناك من قال صراحة: مالم يرد فيه النص ليس له فى الإسلام قانون خاص، وهذه وظيفة الفقهاء فى أن يضعوا له حكماً من خلال الظن وتخفيف ثقل المصالح والمفاسد وما يرونه أقرب إلى المصلحة. وهكذا أصبح الاجتهاد بمعنى حق الفقيه فى التشريع متداولًا بينهم.[۷۳۷]

وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ للاجتهاد معنيان مختلفان إذا لم يميز بينهما فان ذلك يؤدى إلى عدّة نتائج سيئة:

المعنى الأول للاجتهاد هو الاجتهاد العام والذى يعنى استنباط الأحكام من الكتاب والسنة وسائر الأدلة الشرعية. وهذا هو الاجتهاد الذى يعتقد به كافة علماء الشيعة، وهو الاجتهاد الذى أنكره الأخباريون قولًا واعتقدوا به عملًا، لأنّ كبار الأخباريين يستدلون بالكتاب والسنة لاثبات الأحكام الشرعية كما يراعون أحكام العام والخاص والمطلق والمقيد وأمثال ذلك.

المعنى الثانى للاجتهاد هو الاجتهاد الخاص وهو الاجتهاد فى المسائل التى لم يرد فيها نص فى الكتاب أو السنة، فيلجأ على ضوئه إلى التشريع وسن الأحكام مع الأخذ بنظر الاعتبار المصالح والمفاسد والتشابه والتناظر. وهذا النوع من الاجتهاد يختص بجمع كثير من علماء العامة وهو ما يصطلحون عليه بالاجتهاد بالمعنى الأخص. وأمّا ما ذكرنا آنفاً بعدم وجود مثل هذا الاجتهاد لدى علماء الشيعة إنّما يعزى إلى الثر الهائل الذى لديهم من أحاديث الأئمة

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۳۹۵

المعصومين عليهم السلام كما يرون أنّ الموارد التى لا نص فيها قليلة جداً ولا تتطلب الاجتهاد بالمعنى الثانى، وذلك لأنّهم يلجأون فى مثل هذه الحالات إلى القواعد الكلية أو ما اصطلحوا عليه ب «الاصول اللفظية» و «العملية» التى تبيّن حكم المسألة والعجيب أن طائفة من علماء العامة تعتقد بأنّ الموارد التى لانص فيها انّه لا حكم لها «مالا نص فيه لا حكم فيه» وهذه وظيفة العلماء فى وضع الأحكام لمثل هذه الحوادث (والالتفات إلى هذه المسألة يعدّ ضرورة لفهم الكلمات القادمة فى الخطبة)؛ الأمر الذى يتنافى تماماً وإكمال الشريعة.

۴- إذا ما اعطى حق التشريع ووضع الأحكام فى «ما لا نص فيه» للفقيه وبالالتفات إلى كثرة عدد الفقهاء ولكل منهم الحق فى التشريع، وليس هنالك من الزام فى جمعهم فى شورى لتصوب حكماً واحداً فانّ ذلك سيؤدى إلى اختلاف الآراء وربما تناقضها فى المسألة الواحدة وهنا يبرز مأزقاً آخر وهو: هل يمكن قبول جميع هذه الآراء المختلفة على أنّها حكم اللّه، أم هناك حكم واحد حق والبقية باطل؟ ولما لم يكن هناك من تفاوت بين هذه الآراء لأنّها صادرة من الفقهاء؛ وليس هنالك من حكم واقعى للّهليكون معياراً فى تمييز الصحيح من السقيم فسوف لن يبقى هنالك من سبيل سوى التمسك بعقيدة التصويب، أو بعبارة أفضل فقد سقطوا فى وادى التصويب وقالوا كل هذه الآراء تمثل الحكم الواقعى! ويعزز ذلك أنّهم يقولون بعدالة الصحابة وأحياناً عدم خطأهم فى الرأى، ومن هنا كانت هناك آراء متعددة بعدد المجتهدين فى الموضوع الواحد، وكلها تعتبر الحكم الواقعى للمسألة.

فهم حين اعتقدوا بأنّ المرجع فى تعيين الخلافة رغم خطورتها إنّما وكل إلى أهل الحل والعقد (العلماء) فما المانع فى أن يوكل للعلماء الحق فى سن القوانين والأحكام فى المسائل الفرعية التى لم يرد نص بحقها- ومن هنا ظهرت عقيدة التصويب بكل نتائجها وأخطارها بين طائفة من المسلمين إثر عدم العمل بوصية الرسول صلى الله عليه و آله والالتزام بحديث الثقلين.

۵- غلق باب الاجتهاد: فقد أدت هذه المسألة إلى تنامى الآراء والعقائد المختلفة والمتضاربة فى المجتمع الإسلامى وبين فقهاء المسلمين، لتتخذ صبغة خطيرة، كما كانت السبب فى ترديد الامّة فى مسائلها الدينية واتاحة الفرصة لأعداء الإسلام بالتفوه ضد

الإسلام والمسلمین والأحکام الإسلامیة وهنا انبرت طائفة من المسلمین لتوضع حداً لهذا الوضع

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۹۶

المؤسف فارتکبت عملًا قبیحاً تجسد فی غلق باب الاجتهاد. فقد صرحوا بأن هذا الحد یکفی ولا یحق لأحد بعد هذا ممارسة الاجتهاد! وحیث اختلفت الامّة طوائف فی الأحکام الشرعیة وذهبت کل طائفة لاتباع عالم. فاختاروا أربعة من هؤلاء الفقهاء ممن لهم أتباع کثیرون (وهم أبو حنیفة ومالک ومحمد بن ادریس الشافعی وأحمد بن حنبل) ثم الزموا الناس بتقلید أحد هؤلاء الأربعة وأبطلوا سائر الآراء والعقائد للحیلولة دون الاختلاف والتمزق؛ بینما لا نری هنالک من دلیل فی الکتاب أو السنّة علی إمامة هؤلاء الفقهاء الأربعة، ولیس لهم أدنی امتیاز علی من سواهم سوی کثرة أتباعهم، کما لم یقم الدلیل علی غلق باب الاجتهاد وحصره بهؤلاء الأربعة لکل عصر ومصر! وکما أشار الإمام علیه السلام فی الخطبة رقم ۱۶

«ألا وأنّ الخطایا خیل شمس حمل علیها أهلها، وخلعت لجمها، فتقحمت بهم فی النار»

. فانّ هذه الهفوات العظیمة إنّما افرزتها الزلات الاولی حتی تبلورت کسلسلة ارتبطت حلقاتها لتؤدی بالتالی بأصحابها إلی النار. لقد خلق غلق باب الاجتهاد الیوم مشاکل عویصة لفقهاء العامة وعلمائهم؛ وذلک لأنّهم یرون أنفسهم الیوم أمام سیل جارف من المسائل المستحدثة التی لیس لها من حکم فی المذاهب الأربعة؛ ومن هنا انبرت جماعة منهم علانیة واخری خفیة تطالب بفتح باب الاجتهاد بوجه الفقهاء والخروج من حالة التقوقع والانطواء علی المذاهب الأربعة، کما خاضوا فی ضرورة الافتاء فی المسائل المستحدثة وإعادة النظر فی المسائل السابقة وهم یتساءلون عن علیة حصر الاجتهاد فی المذاهب المذکورة، مع العلم قد ظهر العلماء الذین فاقوهم، وحتی علی فرض عدم تفوقهم علی أسلافهم، فمثل هذا السؤال یبقی مطروحاً، إذا اغلق باب الاجتهاد فمن یتصدی للإجابة علی المسائل المطروحة الیوم؟

أمّا أتباع أهل البیت علیهم السلام فقد بقوا فی أمان من هذه العاصفة الهوجاء، فهم لم یعتقدوا بغلق باب الاجتهاد (طبعاً الاجتهاد بالمعنی الأول لا الثانی) طرفة عین أبداً، وقد منحوا فقهائهم وعلمائهم حق استنباط الأحکام الشرعیة من أدلتها المعروفة، فی ذات الوقت الذی حظروا فیه الاجتهاد بالمعنی الثانی علی کائن من کان.

سؤال:

هنا سؤال یطرح نفسه: الاجتهاد بالمعنی الأول هو الآخر یقود إلی الاختلاف وعلیه

نفحات الولایة، ج ۱، ص: ۳۹۷

فلیس هنالک من فارق بین الاجتهاد بالمعنی الأول أو الثانی؟

جواب:

إنّ الالتفات إلی نقطة قد یوضح الجواب علی السؤال المذکور، وهی أنّ الاجتهاد بالمعنی الأول یعنی استنباط الأحکام من الکتاب والسنّة، وعلیه فالمحور الأصلی للاجتهاد هو نصوص الکتاب والسنّة التی یجمع علیها الفقهاء، فهناک الوحدة التی تجمع هؤلاء الفقهاء، وإن کان هنالک بعض الاختلاف فی الاستنتاجات؛ إلّاانّ هذه الاختلافات طفیفة عادة، ومن هنا نری وحدة آراء الفقهاء فی غالبیة المسائل المشهورة، ولا یوجد سوی اختلاف بسیط فی بعض تفاصیل المسائل.

أمّا الاجتهاد بالمعنی الثانی فهو لا ینطوی علی محور معین یجتمع حوله الفقهاء، بل المعیار لدی کل فقیه فکره ورأیه، ومن هنا کانت الخلافات لاتعد ولا تحصی، فقد تطالعنا عدّة آراء فی المسألة الواحدة؛ الأمر الذی یشوه سمعة الشریعة الإسلامیة ویسیء إلی کیانها. أضف إلی ذلک فانّ أنصار الاجتهاد بالمعنی الأول الذی یعنی استنباط الحکم من القرآن والسنّة یقولون:

إنّ دین اللَّه لم ولن یکون ناقصاً، ولیس هنالک من واقعة- بالأمس والیوم والغد- ألا وللَّه فیها حکم قد ورد فی العمومات والاطلاقات أو الأدلة الخاصة للکتاب والسنّة وهی واضحة لدی أئمة العصمة علیهم السلام. فمن بلغ باجتهاده ذلک الحکم فقد أصاب، ومن لم

یبلغه فقد أخطأ، فان لم یقصر فی مقدمات الاجتهاد واستفرغ مافی وسعه کان معذوراً عند اللّه ومأجوراً. وهذا هو الاعتقاد بالتخطئهٔ فی مقابل الاعتقاد بالتصویب ولذلک یقول أصحاب هذا الاعتقاد «للمصیب أجران وللمخطئ أجر واحد» بینما زعم أنصار الاجتهاد بالمعنی الثانی أن «کل مجتهد مصیب» أی أنّ کافهٔ الأحکام المتناقضهٔ للمجتهدین والتی تمثل آرائهم هی أحکام إلهیهٔ واقعیهٔ حقهٔ (لابدّ من الالتفات والتأمل فی هذا الأمر).

۲- نتائج القول بالتصویب وغلق باب الاجتهاد

نشیر بصورهٔ مختصرهٔ إلی المفاسد التی ترتبت علی القول بالتصویب وغلق باب الاجتهاد:

نفحات الولایهٔ، ج ۱، ص: ۳۹۸

۱- الاعتراف بنقصان الدین (والعیاذ باللّه) من حیث الأحکام والاعتماد علی آراء الفقهاء وأفکار الأفراد غیر المعصومین من الخطأ فی إکمال أحکام الشریعهٔ وسد النقص.

۲- غلق باب الاجتهاد یعنی الاعتقاد بعدم أحقیهٔ أی فرد فی الاجتهاد بعد الفقهاء الأربعهٔ من العامهٔ! لأنّ فتح هذا الباب قد یؤدی أحیاناً إلی ظهور عشرات الآراء والفتاوی المختلفهٔ فی المسألهٔ الواحدهٔ؛ کما نعلم أنّ غلق باب الاجتهاد، یغلق الطریق علی فقهاء الإسلام فی التصدی للرد علی المسائل المستحدثهٔ فیزج بمسلمی العالم بمأزق خانق لا یمکنه النجاهٔ منه بالنسبهٔ للأحکام الشرعیهٔ.

فالاقتصار علی المذاهب بأربعهٔ تأریخ خطیر ذا شجون، کما دل علی أنّ هذه البدعهٔ فی الإسلام وبسلبها لاستقلالیهٔ الفقهاء قد جرت الویلات. وعلی ضوء ما أورده المقریزی فی کتاب الخطط المقریزیهٔ وکذلک ابن الفوطی وآخرین أنّه لم تکن هناک من ضابطهٔ معینهٔ فی انتخاب هذه المذاهب الأربعهٔ سوی أنّ کثرهٔ المذاهب قد ارعبت ولاهٔ البلدان الإسلامیهٔ المختلفهٔ وأدت إلی ظهور موجهٔ من الفوضی والهرج والمرج من جانب، ومن جانب آخر أنّ العلل السیاسیهٔ والاجتماعیهٔ هی التی أدت إلی انتشار هذه المذاهب فی کافهٔ بلدان العالم الإسلامی؛ وعلیه فلم یکن بالإمکان اسقاطها. ولذلک تواطئ الفقهاء والحکام آنذاک بالوقوف بحزم بوجه کل من یتفوه بما لم یرد فی المذاهب الأربعهٔ المذکورهٔ، والعجیب أنّ هذه المسألهٔ قد حدثت فی القرن السابع عشر. فقد انطلقت فی مصر عام ۶۶۵ وفی بغداد ۶۳۱ بحیث قرر أساتذهٔ المدرسهٔ المستنصریهٔ المعروفهٔ فی عام ۶۴۵ عدم قبول أی طالب ینتمی إلی غیر هذه المذاهب.

وهکذا فقد اغلق باب الاجتهاد بعد مرور سبعهٔ قرون علی ظهور الإسلام وبلوغ الاجتهاد ذروته، لیصبح کافهٔ الفقهاء مقلدین لهؤلاء الأئمهٔ الأربع ففقدوا استقلالیتهم الفقهیهٔ.

وما هذا إلّانتیجهٔ طبیعیهٔ لذلک الانحراف الذی وقع فی القرن الأول. فقد اقصیت العترهٔ الطاهرهٔ عدل القرآن الکریم وأحد الثقلین وفتح باب القیاس والاستحسان والاجتهاد بالرأی وظهرت هذه الآراء المتناقضهٔ التی جرت الفوضی، فکان کل رأی حکم اللّه، والمؤسف له هو

نفحات الولایهٔ، ج ۱، ص: ۳۹۹

أنّ مدرسهٔ أهل البیت علیهم السلام لم تتخذ مکانها حتی فی مصاف المذاهب الأربعهٔ.[۷۳۸]

فالحق أنّ ذلک الانحراف الأول هو سبب ظهور هذه البدعهٔ، البدعهٔ التی لم یکن هنالک من سبیل سواها.

۳- الهرج والمرج الفقهی والقضائی

الذی أفرزته الآراء المتعددهٔ والمتناقضهٔ التی قد یصل عددها أحیاناً إلی عدد المجتهدین؛ ومما لاشک فیه أنّ المشاکل آنذاک تفوق

مشاكل المجالس التشريعية فی عصرنا الحاضر بكثير، وذلك لأنّ مجالس العصر تشهد على الأقل حضور الوكلاء لبلد أو منطقة من العالم فی مكان واحد فيتخذ القرارات على أساس أكثرية الآراء التی تتمتع بالوحدة كحد أدنى بالنسبة لمنطقة معينة؛ أمّا الاجتهاد بالرأی والتصويب فهو يسمح لكل مجتهد من المجتهدين أن يشرع بمفرده، والأعجب من ذلك كل ما يتوصل إليه من حكم فهو حكم اللّه الواقعی، وخلافاً لمجالسنا المعاصرة التی تكون أحكامها أحكاماً وضعية بشرية، فانّ أحكام المجتهدين آنذاك تمثل الأحكام الإلهية التی يلزم الناس بأتباعها.

وأخيراً لا نروم الخروج من بحثنا فی الشرح والتفسير ولذلك نوكل من أراد المزيد بهذا الشأن إلى المصادر المعروفة.[۷۳۹]

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۴۰۱

القسم الثانی: الاختلافات غير المبررة

اشارة

«أَفَامَرَهُمُ اللَّهُ سُبْحانَهُ بِالاخْتِلافِ فَأَطَاعُوهُ! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ! أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحانَهُ دِيناً ناقِصاً فاسْتَعانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمامِهِ! أَمْ كانُوا شُرَكاءَ لَهُ، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحانَهُ دِيناً تامّاً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدائِهِ، وَاللَّهُ سُبْحانَهُ يَقُولُ: «ما فَرَّطْنا فِی الْكِتابِ مِنْ شَیْءٍ» وَفِيهِ تِبْيانٌ لِكُلِّ شَیْءٍ، وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَنَّهُ لا اخْتِلافَ فِيهِ فَقالَ سُبْحانَهُ: «وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً».

الشرح والتفسير

يفند الإمام عليه السلام فی هذا الكلام بالأدلة المحكمة مسألة الاجتهاد بالرأی وتصويب آراء المجتهدين وبالتالی حق الفقهاء فی اصدار الأحكام، ثم يصنف الإمام عليه السلام ذلك إلى خمسة اسس ويغلق كافة الطرق على هولاء، ثم يبين بجلاء تام خطأ هذا اللون من التفكير.

فقد قال عليه السلام بعد أن تساءل على نحو الاستنكار عن السب الذی يقف وراء هذا الاختلاف فی المسائل الفقهية «أفامرهم الله سبحانه بالاختلاف فاطاعوه».

حقا لا يمكن قبول هذا الامر، فالله واحد أحد يدعو إلى الوحدة ويحذر من الاختلاف والفرق فهو القائل:

«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا»[۷۴۰]

وبناءا على هذا فان

نفحات الولايه، ج ۱، ص: ۴۰۲

الاختلاف تابع من موضع آخر، رام الإمام عليه السلام الإشارة إليه «أم نهاهم عنه فعصوه» فالحق أنّ هذا الأمر يشكل أحد مصادر الاختلاف؛ غير أن القضاة الذين يوردون عدّة آراء بشأن مسألة واحدة لايسعهم الاقرار بمثل هذا الاحتمال!

و عليه فان ردّهم على هذا السؤال سيكون بالسلب. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الاحتمال الثالث فقال عليه السلام:

«ام انزل الله سبحانه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه»

. من المسلم به أنّه ليس هنالك مسلم يقول بنقصان دين الله وإن الله استعان بالعباد لا كماله، بل بالعكس قد صرحتالآيات القرآنية باكمال هذا الدين من جميع الجهات

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِی وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً»[۷۴۱].

ثم يورد الإمام عليه السلام الاحتمال الآخر الذى يبدو بطلانه واضحا وضوح الشمس فى رابعة النهار لا أم كانوا شركاء له، فلهم أن يقولوا، وعليه أن يرضى» فمن البداهة أنّ من قال بتعدد الآلهة فانّه عليه أن يؤمن بانّ لكل منهم سهم فى التشريع واصدار الأحكام؛ فهل للمسلم الذى ينطلق فى عقيدته من التوحيد أن يعتقد بوجود الشركاء ويرى فى الفقهاء والقضاة شركاء لله؟ وبعبارة اخرى فان أحد فروع التوحيد (بعد توحيد الذات والصفات) هو توحيد الأفعال، أحد تفرعات توحيد الأفعال هو توحيد الحاكمية والتشريع؛ وعلى ضوء ذلك فانّ الحكومة لله وحده وتنتهى إليه، فلا حكم إلّاحكمه ولا أمر إلّاأمره!

و لو لم يكن الأمر كذلك لاختفى الحق سبحانه بقسم من التشريع ثم يفوض القسم الآخر منه للعقول البشرية العاخرة.

و هل لغيره من إحاطة قامة بمصالح الأحكام ومفاسدها! أو يجوز على الله أن يفوض زمام امور عباه لمشرعين يصدر كل منهم حكماً وقانوناً على ضوء ظنه ورأيه القاصر بحيث يعيش العباد فى هالة من الفوضى والقلق والحيرة فى ظل الآراء المتناقضة المتضاربة!

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى آخر احتمال فيقول: «أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن تبليغه وأدائه». لا شك ولا شبهة أنّه ليس هنالك من ينسب

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۰۳

مثل هذا القول إلى النبى صلى الله عليه و آله؛ وذلك لأنّ حتى اولئك الذين لايقرون بمسألة العصمة بصورة مطلقة ويظنون بعدم وجود الدليل على عصمة النبى صلى الله عليه و آله فى كافة الميادين، فانّ الحد الأدنى أنّهم يسلمون بعصمته فى التبليغ وأداء الوحى، حيث لا يبقى من مفهوم للنبوة والرسالة دون الاعتقاد بالمعنى المذكور.

آنذاك يعود الإمام عليه السلام إلى أصل المسألة فيكشف النقاب عن هذه الحقيقة وهى أنّ الإسلام قد شرع كل ما من شأنه تلبية حاجات البشرية ومتطلباتها، وعليه فالإمام عليه السلام يصادر ما أوردوه من قولهم «ما لا نص فيه لاحكم فيه» بالاستناد إلى قوله «و الله سبحانه يقول: «ما فرطنا فى الكتاب من شىء وفيه تبيان لكل شىء»[۷۴۲] فالآيتان دليلان واضحان على أن الله لم ينزل ديناً ناقصاً عولهم يستعن باحد لا- كماله؛ بل جاء فى القرآن كل ما يحتاج إليه، بعضها فى العمومات وبعضها الآخر فى الأحكام الخاصة التى سيأتى الحديث عنها إن شاء الله فى مبحث التأملات ولم ينس الإمام عليه السلام أن يسلب حربة التناقض من القضاة الذين يستشهد كل منهم بآية يتباين مفهوماً وسائر الآيات فقال عليه السلام: «و ذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا وأنّه لا إختلاف فيه» ثم يعزز الإمام عليه السلام دعوى عدم الاختيارات فىالآيات القرآنية متشهدا بالقرآن «فقال سبحانه! ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً»[۷۴۳].

فالواقع أنّ علم الإنسان محدود، وأنّ تقادم الزمان أو تغيير المكان وكشف الظواهر الجديدة إنّما يدعوه إلى تغيير أفكاره باستمرار، ومن هنا فقد يورد كاتب بعض الموضوعات المتناقضة خلال حياته، وليس ذلك بعجيب، هذا من جانب، ومن جانب آخر فان رصيد الإنسان النسيان، فلعه يتحدث اليوم عن شىء فينساه بعد شهر أو سنة ليتحدث عن خلافه.

إلّا أنّ هذه الامور لا تصدق على البارىء سبحانه العالم بكل شىء «و ما كان وما يكون» والعالم بالمحال لو كان كيف يكون، فليس لمرور الزمان من أثر على ذاته المقدسه؛ فهو فوق الزمان والمكان، وناهيك عن هذا فليس هنالك من مفهوم للنسيان بالنسبة لله سبحانه،

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۰۴

فكيفالحال هذه ان يصدر عنه أدنى إختلاف أو تناقض.

وزبدة الكلام أنّ الإمام عليه السلام قد فند ببيان واضح بليغ عقيدة التصويب والتمسك بالقياس والاستمسان والاجتهاد بالرأى، فالله سبحانه أنل ديناً كاملًا وقرآنا جامعا يلبى كافة حاجات البشرية، وإنّ رسول الله صلى الله عليه و آله لم يتوانى فى تبليغ الرسالة، كما أنّ الله لم يقبل للأمّة الإسلامية أى اختلاف ودعا االمة مرارا إلى الاخاء والوحدة. وبناءاً على ما تقدم فما تفسير الاعتقاد بصحة الآراء

المتناقضة وتصويب الفتاوى المختلفة على أنّها جميع حكم الله المطابق للواقع، سوى الانحراف والضلال.

شمولية القرآن

لقد تضمن القرآن الكريم الآيات الصريحة التى تبيّن كافة امور المسلمين ومتطلباتهم وحاجاتهم إلى يوم القيامة. كما صرّحت الروايات الإسلامية بهذا الأمر، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«ان الله تبارك وتعالى انزل فى القرآن تبيان كل شىء حتى والله ما ترك شيئاً تحتاج إليه العباد، حتى لايستطيع عبد يقول لو كان هذا أنزل فى القرآن، إلّاوقد أنزل الله فيه»[۷۴۴]

ولكن هنا يبرز هذا السؤال: إننا نرى أحكاماً مختلفة لم ترد فى القرآن الكريم وهذا الأمر لاينسجم وشمولية القرآن الكريم؛ مثلا لم يرد فى القرآن شىء بشأن عدد ركعات الصلاة والسلع التى تجب عليها الزكاة وتصاب الزكاة وبعض مناسك الحج وعدد اشواط السعى بين الصفا والمروة والطواف ومسائل اخرى فى القصاص والحدود والديات وآداب القضاء وشرائط المعاملات وأنواع المعاملات المستحدثة وما شاكل ذلك من الموضوعات الشرعية. وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى ثلاثة امور:

الأول: أنّ القرآن يشتمل على الأحكام الكلية والقواعد العامة والعمومات والاطلاقات التى يتمّ حل أغلب المشكلات على ضوئها. فمثلًا الآية

«أَوْفُوا بِالعُقُودِ»[۷۴۵]

فى المعاملات والاية

نفحات الولاية، ج۱، ص: ۴۰۵

«وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»[۷۴۶]

فى أبواب العبادات و

«لا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا

مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ»[۷۴۷]

فى حقوق الو الذين وسائرالآيات من هذا القبيل التى من شأنها الاجابة على أغلب الأسئلة والمسائل المستحدثة أضف إلى ذلك فان القرآن الكريم صرّح بأنّ السنة النبوية تمثل إحدى المصادر الرئيسية للأحكام الشرعية والمعارف الإسلامية

«وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[۷۴۸]

كما وصفة فى آية اخرى بانّه مبين القرآن ومفسره

«وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»[۷۴۹].

النبى صلى الله عليه و آله من جانبه وعلى ضوء حديث الثقلين فقد جعل أهل بيته وعترته عليه السلام من مصادر الأحكام الشرعية والمعارف الإسلامية، ولو التزم المسلمون بوصية القرآن والنبى الأكرام صلى الله عليه و آله بما بقى هناك سوال فى مجال الأحكام دون إجابة.

و أخيراً يستفاد من الروايات الإسلامية المختلفة أنّ للقرآن ظاهر وباطن، وظاهره المعانى والمفاهيم المعلومة لدى الجميع ويعملون على ضوئها، أمّا باطنه فهو معانى ومفاهيم اخرى ليس لاحد من سبيل إليها سوى النبى صلى الله عليه و آله والأئمة المعصومين عليهم السلام، الذين يتعاملون مع الآيات وفق روية وإدراك آخر.

و بناءاً على هذا لو إصطف الثقلان (القرآن وأهل البيت) ولم يفصلهما المسلمون عن بعضهما، لا ستفادوا من هذا العدل القرآنى الذى يحل أغلب معضلاتهم.

فقد قال الإمام الصادق علیه السلام:

«أنا اعلم کتاب الله وفیه بـدء الخلق وما هو کائن إلی یوم القیامهٔ وفیه خیر السـماء وخیر الأرض وخیر الجنّهٔ وخیر النار وخبر ما کان وما هو کائن، اعلم ذلک کما أنظر إلی کفی ان الله یقول فیه تبیان کل شیء»[۷۵۰]

وجاء فی نهج البلاغهٔ

نفحات الولایهٔ، ج ۱، ص: ۴۰۶

«و فی القرآن نبأ ما قبلکم وخیر ما بعدکم وحکم ما بینکم»[۷۵۱]

وقال علیه السلام فی موضع آخر بشأن القرآن

«إلّا أنّ فیه علم ما یأتی والحدیث عن الماضی ودواء دائکم ونظم ما بینکم»[۷۵۲]

ولم یقتصر نقل هذه الأحادیث علی أهل البیت علیهم السلام، بل نقلت من طرق العامهٔ أیضا، فقد روی السیوطی فی الدر المنثور عن الصحابی المعروف ابن مسعود «أنّ فیه علم الأولین والاخرین». وروی عن الاوزاعی فی تفسیر الآیهٔ «و نزلنا علیک الکتاب تبیانا لکل شیء.

قال: بالسنهٔ»[۷۵۳]. وقد روی السیوطی فی کتاب الاتقان هذا المعنی عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«فی

کتاب الله نبأ ما قبلکم وخبر ما یعدکم وحکم ما بینکم»[۷۵۴]

ثم قال: وقد أورده الترمذی وغیره.

نفحات الولایهٔ، ج ۱، ص: ۴۰۷

القسم الثالث: أناقهٔ القرآن وعمقه

اشارهٔ

«وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظاهِرُهُ أَنِیقٌ وَباطِنُهُ عَمِیقٌ، لا تَفْنَی عَجائِبُهُ، وَلا تَنْقَضِی غَرائِبُهُ، وَلا تُکْشَفُ الظُّلُماتُ إِلَّا بِهِ».

الشرح والتفسیر

یختتم الإمـام علیه السـلام خطیته- فی القسم الثـالث- یوصف القرآن الکریم بخمس صـفات تنطوی علی حقـائق عظیمـهٔ بشـأن أهمیهٔ القرآن، مشـیرا إلی ضـرورهٔ عدم غفلهٔ القضاهٔ والفقهاء عن هذا القرآن والاستضاءهٔ بنور حقائقه ومعارفه، إلی جانب الشعور بانّ القرآن یغنیسـهم عمّا سواه من المصادر الاخری سوی السـنهٔ التی تستند القرآن یغنیسهم عمّا سواه من المصادر الاخری سوی السنهٔ التی تستند إلی القرآن وتفسیر مضامینه. فقد قال فی صفته الاولی «و إنّ القرآن ظاهره أنیق»[۷۵۵].

فالعبارهٔ إشارهٔ إلی فصاحـهٔ القرآن وبلاغته، الفاظه موزونهٔ وعباراته رصـینه ولآیاته وقع و نغمهٔ خاصهٔ لا تجعل الإنسان یشـعر بالکلل أو الملل مهما تلاها، والشواهد علی ذلک أکثر من ان تحصی نترکها لعدم الخروج من اصل البحث ۷۵۶].

وأمّا صـفته الثانیهٔ «و باطنه عمیق». غالباً ما یبتعد الإنسان عن رصانهٔ المعنی إذا ما خاض فی جمال الظاهر، والعکس صحیح أیضاً فعادهٔ ما یتعذر علی الإنسان حسن إختیار الألفاظ إذا

نفحات الولایهٔ، ج ۱، ص: ۴۰۸

رام الدقـهٔ فی أداء المعنی، والخلاصـهٔ تبـدو عملیـهٔ الجمع بین المعنی واللفظ لیست بالهینـهٔ؛ الحقیقهٔ التی یمکن مشاهدتها بوضوح فی

القرآن الكريم الذى جمع العمق فى المعنى إلى جانب الرصانة والسبك فى اللفظ.

أمّا عمق القرآن فقد تلاشت على سطحه كافة الأفكار وتصاغرت أمامه جهايذة العقول، و كيف لا يكون كذلك وهو كلام الله الثابع من ذاته المقدسة المطلقة، ولعل المتتبع يشعر بحقيقة هذه الكلمات ارا ما طالع أى من السور القرآنية لتتجسد أمامه بوضوح الصفتين التين أوردها الإمام عليه السلام بشأن القرآن.

وأمّا الصفة والرابعة للقرآن فهى «لا تفنى عجائبه، ولا تنقضى غرائبه». ولعل الفارق بين هاتين العبارتين هو أنّ العبارة الاولى تتحدث عن خلود العجائب والحقائق القرآنية السامية، و ذلك لأننا الكثير من الكتب والمؤلفات والمصنفات التى كانت اعجوبة فى زمانها، إلّاأنّ تقادم الزمان قد سلبها تلك الميزة وجردها من اعجوبتها، والقرآن ليس كذلك، فلا يزداد قارىء القرآن ومعبده إلّاللذة وحلاوة وطلاوة، بل إنّ قراءته قد تشكف له كل يوم ما كان غائباً عنه بالأمس؛ فتظل لألفاظه ومعانيه مواقع السحر فى النفس.

وأمّا العبارة الثانية فهى تتحدث عن أسرار القرآن التى تتكشف يوما بعد آخر.

أمّا الصفة الأخيرة للقرآن فهى «و لا تكشف الظلمات إلّابه» ليس فقط ظلمة الجهل وظلمة الكفر وإنعدام الإيمان والتقوى، بل ليس لظلمات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية دون التعاليم القرآنية. فاليوم وإن ازدهر العالم من حيث الصناعة وقطع أشواطاً فى الرقىالتطور، مع ذلك فهناك الظلمات الهائلة التى ألقت بظلالها المشؤومة على المجتمعات البشرية التى فأنّ من المعارك والاقتال وسفك الدماء واستضحال أنواع الظلم والجور والاضطهاد والفقر والحرمان، والأنكى من كل ذلك إنعدام الا من والاستقرار وسيادة الفوض والقلق والاضطراب، وما ذلك إلّانتيجة مباشرة لغياب معانى الإيمان والتقوى والفقر الاخلاقى والمعنوى، وليس هنالك من سبيل للخروج من هذه المآزق سوى بالتمسك بالقرآن بل الأدهى من ذلك هجر القرآن واللجوء إلى الآراء الظنية والأفكار البشرية القاصرة على مستوى الأحكام من قبل قطاعات واسعة من المسلمين.

نفحات الولاية، ج١، ص: ۴۰۹

تأمّلان

١- القرآن والمسائل المستحدثة

هنالك سوال يقتدح فى الأذهان وهو: أنّ المجتمع البشرى فى حالة حركة وتطور مستمر بحيث تستجد يوميا عدّة مسائل على الساحة، فكيف للقرآن أن يواكب هذه الحركة فى حين تتصف أحكامه بالثبات وعدم التغيير؟ وكيف يسعه الردّ على المسائل المستحدثة؟

و للإجابة على هذا السؤال نقول: هنالك نوعان من الأحكام فى القرآن الكريم هما:

الأحكام الجزئية والأحكام الكلّية. فالاحكام الجزئية من قبيل الأحكام التى ذكرت للصلاة ككيفية الوضوء والغسل والتيمم وسائر المسائل كالقبلة وعدد الصلوات وما شابه ذلك.

وأمّا الأحكام الكلّية فيراد بها القواعد العامة الواردة فى القرآن والتى تتصف بالسعة والشمولية، كقاعدّة وجوب الوفاء بالعقود والمعاهدات «أَوْفُوا بِالْعُقُودِ»[۷۵۷] وقاعدّة «لا- حرج» «و ما جعل عليكم فى الدين من حرج»[۷۵۸] وقاعدّة «لا ضرر ولا ضرار» التى استفيدت من بعض الآيات القرآنية، وهى القواعد التى تلبى المتطلبات الإنسانية فى اضفنا إلى القرآن الاصول والقواعد الكلية التى صرّح بها الائمة عليهم السلام فى كلماتهم. بعبارة اخرى الموضوعات فى حالة تغيير مستمر، أمّا الاصول الكلية فهى ثابتة لا يعتربها التغيير، وتغيير الموضوعات لا- يعنى سوى تبدل أحكامها حيث تخرج من حكم وتنضوى تحت حكم آخر، وعليه فاننا نستطيع اليوم وبالاستناد إلى القواعد الكلية أن نستنبط كافة الإجابات على المسائل المستحدثة التى لم يرد ذكرها على وجه الخصوص فى الكتاب

والسنة، فجعلها فى كتاب نطلق عليه اسم المسائل المستحدثة، ويقال أن أفضل دليل على إمكان الشىء وقوعه (فى إشارة إلى وجود مثل هذه الكتب وبكثرة لاغلب فقهاء الشيعة والتى تصدت للإجابة على كافة المسائل المسجدة اليوم على الساحة).

و من أراد المزيد فليراجع كتب العلماء بشأن المسائل المستحدثة.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۱۰

۲- لم لا تنقضى عجائب القرآن

لقد صرّح الإمام عليه السلام فى عبارته الأخيرة بشأن القرآن قائلًا:

«لا تفنى عجائبه ولا تنقضى غرائبه».

فكلما تقادم الزمان واجال العلماء والمفكرون أفكارهم فى أسرار القرآن، كشفوا حقائق جديدة كانت خافية عليهم، أضف إلى ذلك فانّ حلاوة القرآن وطلاوته حقيقة خالدة لا تعرف معنى للزمان، وهى الحقيقة التى ثبتت لدينا بالتجربة فما أكثر ما قرآنا القرآن وتلوناه و لا نزداد تجاهه سوى حيوية دون أن نشعر بأدنى ملل أو تعب؛ ولا غرو فالقرآن كلام الله، وكلام الله كذاته مطلق لا يقيد بالحدود، فهو ليس كلام المخلوق ليكتسب صفات عقلهفكره المعروف بالحدود والزمان والمكان، أضف إلى ذلك فانّ الخطاب القرآنى متواصل إلى يوم القيامة، فاودعه الله من الأسرار التى تتجدد على مدى الزمان.

و نختتم البحث بحديث الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام الرضا عليه السلام أنّ رجلًا سأل الإمام الصادق عليه السلام «ما بال القرآن لايزداد على الدرس والنشر إلّاغضاضة» فقال الإمام عليه السلام لأنّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو فى كل زمان جديدعند كل يوم غض إلى يوم القيامة».[۷۵۹]

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۱۱

الخطبة التاسعة عشرة

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

قال للأشعث بن قيس وهو على منبر الكوفة يخطب فمضى فى بعض كلامه شىء اعترضه الأشعث فيه فقال يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك، فخفض عليه السلام إليه بصره ثم قال:

«ما يُدْرِيك ما عَلَيَّ مِمَّا لِی، عَلَيْك لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ! حائِك ابْنُ حائِكٍ! مُنافِقٌ ابْنُ كافِرٍ! وَاللَّهِ لَقَدْ أَسَرَك الْكُفْرُ مَرَّةً وَالْإِسْلامُ أُخْرَى! فَما فَداك مِنْ واحِدَةٍ مِنْهُما مالُك وَلا حَسَبُكَ! وَإِنَّ امْرَأً دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ، وَسَاقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ! لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ الْأَقْرَبُ، وَلا يَأْمَنَهُ الْأَبْعَدُ».[۷۶۰]

قال السيد الشريف: يريد عليه السلام انّه اسرى الكفر مرة وفى الإسلام مرة واما قوله: دل على قومه السيف فأراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة، غر فيه قومه ومكر بهم حتى أوقع بهم خالد وكان قومه بعد ذلك يسمونه «عرف النار» وهو اسم للغادر عندهم.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۱۲

الشرح والتفسير

الاصطدام بمنافق طائش

لابدّ من الإشارة إلی نقطتین قبل الخوض فی شرح هذه الخطبة:

۱- جاء فی التأریخ بشأن الأشعث أنّ أسمه الأشعث معدی کرب، وأبوه قیس الأشجّ سمی الأشجّ؛ لأنّه شُجّ فی بعض حروبهم بن معدی کرب بن معاویة. وأم الأشعث کبشة بنت یزید بن شُرحبیل بن یزید بن امریء القیس بن عمرو المقصور الملک.

کان الأشعث أبداً أشعث الرأس، فسمِّی الأشعث، وغلب علیه حتی نُسی اسمه.

۲- امّا بشأن المناسبة التی دعت الإمام علیه السلام لمخاطبة الأشعث بهذه الکلمات فهناک إختلاف بین العلماء فقد ورد فی روایة أنّ أمیر المؤمنین علیه السلام استوی جالساً علی منبر الکوفة فاخرج کتاباً فیه کلام رسول الله صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«المسلمون تتکافؤ دماؤهم وهم ید علی من سواهم من أحدث حدثا أو آوی محدثا فعلیه لعنة الله والناس أجمعین»[۷۶۱].

فانبری‌الأشعث بن قیس المنافق قائلًا: «هذا والله علیک لا لک» فخفض الإمام علیه السلام إلیه بصره فخاطبه بهذه الکلمات أمام الملأ. ولعل مراد الأشعث بن قیس إذا کانت دماء المسلمین متکافئة وهم ید علی من سواهم، فما معنی قتالک لطائفة من المسلمین؟ (و الحال أن المنافقین الذین أوقدوا نار الجمل وصفین والنهروان کانوا یرون الإمام علیه السلام خلیفة رسول الله صلی الله علیه و آله فبالاضافة إلی نص النبی صلی الله علیه و آله علی خلافته فقد بایعه الناس).

نعود الآن إلی شرح الخطبة، فقد رد الإمام علیه السلام علی‌الأشعث بن قیس حین اعترضه بقوله «یا أمیرالمؤمنین هذا علیک لا لک» فقال:

«ما یدریک ما علی ممّا لی».

حیث أراد الإمام علیه السلام أنّک لم تفهم کلامی وما أرید أن أقول. فمرادی هو دعوة المسلمین إلی الوحدة وانبههم إلی خطاهم فی مسألة التحکیم لیرعووا عن تکرار مثل هذه الاخطاء، إلّاأنّک فهمت الکلام بالعکس. ثم اغلظ علیه علیه السلام فقال:

«علیک لعنة الله ولعنة اللاعنیین».

و یشهد تاریخ الأشعث وسیرته الخبیثة أنّه کان مستحقاً لمثل هذه اللعنة وعلی حد قول ابن أبی الحدید فانّ کل فساد فی خلافة علی علیه السلام وکل اضطراب حدث فاصله الأشعث ۷۶۲] ثم

نفحات الولایة، ج۱، ص: ۴۱۳

قال علیه السلام

«حائک بن حائک، منافق بن کافر».

إختلفت أقول الشرّاح بشأن المراد من «حائک» فقد حملها البعض علی المعنی الظاهری علی أنّ الحیاکة کانت شغلًا للأشعث وأبیه وقد کانت مهنة تمارس من الطبقة الوضیعة فی المجتمع آنذاک البعیدة عن معانی المعارف الدینیة والاداب الاجتماعیة والمدنیة، غیر أنّ هذا المعنی لاینسجم وما ورد فی ترجمة الأشعث وأبیه؛ لأنّهما لم یکونا یعملان بهذه المهنة.

و ذهب البعض الآخر إلی أنّ المراد بها الإنسان المتکبر والأنانی لأنّ احد معانی «حائک» بمعنی الشخص الذی یتبختر فی مشیه ویتکبر[۷۶۳] وأخیراً قیل بأنّ المراد بها المعنی الکنائی وهو حیاکة الأباطیل والأکاذیب وهذا ما کانت علیه سیرة الأشعث وأبیه؛ ولا تقتصر هذه الکنایة علی اللغة العربیة فحسب بل وردت فی سائر اللغات أیضاً.

والجدیر بالذکر فانّ هناک روایة أشارت بوضوح إلی هذا المعنی، فقد ورد الکلام عن الحائک عند الإمام الصادق علیه السلام فقال علیه السلام: «انّه ملعون، الحائک ملعون» ثم قال علیه السلام فی تفسیر ذلک «إنّما ذلک الذی یحوک الکذب علی الله وعلی رسوله»[۷۶۴].

إمّا أنّ الإمام علیه السلام عده منافقاً فذلک ممّا لا نقاش فیه لأنّ أفعاله فی زمان حکومة الإمام علیه السلام إنّما تشیر إلی أنّه کان من

رؤوس النفاق، فقد كان يشكل أحد العوامل التى أدت إلى شهادة أميرالمؤمنين على عليه السلام وفشل المسلمين فى معركة صفين ونشوب معركة النهروان وبروز مسألة التحكيم، وقد كان فى أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام كما كان عبد الله بن أبى بن سلول فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله كل واحد منهما رأس النفاق فى زمانه.[۷۶۵] وزبدة الكلام فانّ نفاقه أشهر من نار على علم، وامّا التعبير بالكفار عن أبيه فذلك من مسلمات التاريخ حيث كان من المشركين وقد قتل فى الجاهلية إثر خلافات قبلية.

ثم قال عليه السلام:

«والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام اخرى فما فداك من واحدة منهما مالك ولاحسبك».

فقد أورد ابن أبى الحديد: فأمّا الأسر الذى أشار إليه أميرالمؤمنين عليه السلام إليه فى

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۱۴

الجاهلية فقد ذكره ابن الكلبى فى «جهرة النسب» فقال: إنّ مُرادا لما قتلت قيساً الأشجّ، خرج الأشعث طالباً بثأره، فخرجت كِندة مُتساندين على ثلاثة ألوية: على أحد الألوية كَبْس ابن هانى بن شُرَحْبيل بن الحارث بن عدىّ بن ربيعة بن معاوية الأكرمين ويعرف هانى بالمطلع، لأنّه كان يغزو فيقول: اطّلعتُ بنى فلان، فسمِّى المُطلِع، وعلى أحدها القشعم أبو جبر بن يزيد الأرقم. وعلى أحدها الأشعث أبو جبر، وأسر الأشعث، ففُدى بثلاثة آلاف بعير، لم يفدَ بها عربى بعده ولا قبله، وأمّا الأسر الثانى فى الإسلام، فإنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله لما قدمت كنده حجّاجاً قبل الهجرة، عرض رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله نفسه عليهم، كما كان يعرض نفسه على أحياء العرب، فدفعه بنو وَليعَةً، من بنى عمرو بن معاوية ولم يقبلوه، فلما هاجر صلى الله عليه و آله وتمهدت دعوته، وجاءته وفود العرب، جاءه وفد كِندة، فيهمالأشعث وبنو وَليعةَ فأسلموا فأطعم رسول اللّه صلى الله عليه و آله بنى وَليعة طُعمة من صدقات حَضْرَمَوت، وكان قد استعمل على حَضْرَ موت زياد بن لبيد البياضىّ الأنصارى، فدفعها زياد إليهم، فأبوا أخذها، وقالوا: لا ظهر لنا، فابعث بها إلى بلادنا على ظهر من عندك، فأبى زياد، وَحَدَث بينهم وبين زياد شرّ، كاد يكون حرباً، فرجع منهم قوم إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وكتب زياد إليه عليه السلام يشكوهم.

وفى هذه الوَقعة كان الخبر المشهور عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لبنى وَليعةَ: «لَتَنتَهُنّ يا بنى وَليعة، أولًا بعثَنّ عليكم رجلًا عديل نفسى، يقتل مُقاتلتكم، وبشىء ذراريكم». قال عمر بن الخطاب: فما تمنيت الإمارة إلّايومئذ، وجعلت أنصب له صدرى رجاء أن يقول: هو هذا، فأخذ بيد على عليه السلام، وقال: «هو هذا».

ثم كتب لهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى زياد، فوصولا ـ إليه الكتاب، وقد توفّى رسول اللّه صلى الله عليه و آله وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب، فارتدّت بنو وَليعة، وغنّتْ بَغاياهم، وخَضَبْنَ له أيديهُنَّ.

وقال محمد بن حبيب: كان إسلام بنى وَليعه ضعيفا، وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يعلم ذلك منهم.

ولما حجّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله حجّة الوداع، وانتهى إلى فم الشِّعب دخل أسامة بن زيد ليبول، فانتظره رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وكان أسامة أسوة أفْطس، فقال بنو وَليعةَ: هذا الحبشى حَبَسنا! فكانت الرّدة فى أنفسهم.

قال أبو جعفر محمد بن جرير: فأمّر أبوبكر زياداً على حضر موت، وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقاتهم، فبايعوه إلّابنى وليعة، فلما خرج ليقبض الصّدقات من بنى عمرو بن معاوية، أخذ ناقةً لغلام منهم يعرف بشيطان بن حُجر، وكانت صفيّة نفيسة، اسمها شذرة، فمنعه

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۱۵

الغلام عنها، وقال: خذ غيرها، فأبى زياد ذلك ولجّ، فاستغاث شيطان بأخيه العدّاء بن حُجْر، فقال لزياد: دَعْها وخذ غيرها، فأبى زياد ذلك، وَلَجّ الغلامان فى أخذها ولجّ زياد وقال لهما: لا تكونَنّ شذرة عليكما كالبَسوس، فهتف الغلامان: يالعمرو! أُنضام ونُضطهد! إنّ الذليل مَنْ أكِلَ فى داره. وهتفا بمسروق بن معدى كرب، فقال مسروق لزياد أطلقها.

ثم قام فأطلقها، فاجتمع إلى زياد بن لَبِيد أصحابه، واجتمع بنو وَليعة، وأظهروا أمرهم، فبيّتهم زياد وهم غارون، فقتل منهم جمعا كثير، ونهب وسبى، ولحق فلُّهم بالأشعث بن قيس، فاستنصروه فقال: لا- أنصركم حتى تملّكونى عليكم. فملّكوه فخرج إلى زياد فى جمع كثيف، وكتب أبو بكر إلى المهاجر ابن أبى أمية وهو على صنعاء، أن يسير بمن معه إلى زياد، فاستخلف على صنعاء، وسار إلى زياد، فلقوا الأشعث فهزموه وقُتِل مسروق، ولجأ الأشعث والباقون إلى الحصن المعروف بالنُّجَيْر. فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى ضعفوا، ونزل ليلا إلى المهاجر وزياد، فسألهما الأمان على نفسه، حتى قدما به على أبى بكر فيرى فيه رأيه؛ على أن يفتح لهم الحصن ويُسْلِم إليهم من فيه. فحملوا الأشعث إلى أبى بكر مؤثقاً فى الحديد، فعفى عنه وزوّجه، أخته أمّ فروة بنت أبى قُحافة وكانت عمياء فولدت للأشعث محمداً وإسمعيل وإسحاق.

تأمّلان

١- علة هذا الاصطدام العنيف

لعل هنالك من يصاب بالذهول ممن لا يعرف مدى نفاق الأشعث بن قيس لهذا الاصطدام العنيف الذى اتبعه الإمام إزائه حتى خاطبه بلعنة الله والناس أجمعين، ثم وصفه بتلك الصفات الشائنة كقوله:

«حائك بن حائك، منافق بن كافر، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام اخرى! فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك! وإن إمراً دلّ على قومه السيف وساق إليهم الحتف! لحرى أن يمقته الأقرب، ولا يأمنه الأبعد»

ألا- أنّ أدنى نظرة إلى التاريخ الاسود الذى حفلت به حياة هذا المنافق لتكشف عن مدى فساده وافساده للوسط الإسلامى، بل كان منقوتا حتى فى الجاهلية، إلى جانب كونه اليد الخبيثه فى تأجيج نار الحروب حتى اشتهر بلقب «عرف النار».

نفحات الولاية، ج ١، ص: ۴۱۶

نعم، ليس هنالك ما يثير الدهشة والعجب فى مخاطبته بهذه الكلمات من قبل الإمام عليه السلام.

والواقع لم يرد فى كلام الإمام عليه السلام سوى بعض صفاته الشنيعة التى تحتم على القائد الحكيم فى ظل بعض الظروف أن يعرى بعض الأفراد المتآمرين أمام أعين الامّة وانظارها لكى لا تنطلى عليها حيله والأعيبه، ولا سيما طائفة الشباب من المجتمع التى قد لا تمتلك الاطلاع الكافى عن حياة وماضى اولئك الأفراد، اذن فقد كانت كلماته من قبل التعريف به للُامّة، لأنّها إنطلقت بدافع الإساءة والسب والشتم.

٢- كيف صبر الإمام عليه السلام على هذا المنافق

لعل ما ورد فى الخطبة المذكورة يثير لدى البعض هذا السؤال:

إذا كانت للأشعث بن قيس مثل هذه السابقة فى الغدر والنفاق واثارة القلاقل والمفاسد، لم صبر عليه الإمام عليه السلام ولم يأمر بقتله؟ والجواب على هذا السؤال هو أن تعامل أئمة المسلمين مع عناصر النفاق ينطوى على شىء من التعقيد؛ فقد كانت عناصر النفاق تعيش الازدواج فى تظاهرها بالاسلام وأدائها لشعائره من قبيل الصوم والصلاة وقراءة القرآن، واضمارها للكفر والتآمر والخيانة والفساد وعليه فالاصطدام بهم قد يؤدى إلى إثارة بعض التوترات وتعالى أصوات الرأى العام فى قتل المسلمين من أهل القبلة دون التورع فى سفك دمائهم، ولا سيما بالنسبة للأشعث الذى كان ينتمى إلى قوم وقبيلة؛ الأمر الذى يصعد من حدة التوتر لا محالة.

و قد شهد الرسول صلى الله عليه و آله مثل هذه المشكلة، بل كانت أعظم حدة ممّا هى عليه فى عهد أميرالمؤمنين عليه السلام حتى ورد عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لولا أنّى أكره أنّ يقال ان محمداً صلى الله عليه و آله استعان بقوم حتى إذا ظفر بعدوه فتلهم

لضربت أعناق قوم كثير».[۷۶۶]

أجل فقد كانت هنالك طوائف من المنافقين التى إندست بين صفوف المسلمين، بل كانت تشهد حتى الغزوات إلى جانبهم، ولعل الاصطدام بهم كان يعنى أن الإسلام لا يقيم وزنا لدماء المسلمين، ومن هنا لم نسمع بان رسول الله صلى الله عليه و آله أمر بقتل أحدهم طيلة حياته المباركة، إلّاأنّ ذلك لم يكن ليمنع الرسول صلى الله عليه و آله بل القرآن فى التصدى لهم وتعريتهم أمام الامّة.

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۱۷

الخطبة العشرون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

وفيه ينفر من الغفلة وينبه إلى الفرار للّه

«فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُم لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ، وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ ما قَدْ عايَنُوا، وَقَرِيبٌ ما يُطْرَحُ الْحِجابُ! وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إنْ أَبْصَرْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إنْ سَمِعْتُمْ، وَهُدِيتُمْ إنِ اهْتَدَيْتُمْ، وَبِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: لَقَدْ جاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ، وَزُجِرْتُمْ بِما فِيهِ مُزْدَجَرٌ، وَما يُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّماءِ إلَّا الْبَشَرُ».[۷۶۷]

الشرح والتفسير

طرح الحجب قريباً

لقد حذر الإمام عليه السلام الامّة من الغفلة ودعاها للتحلى باليقظة وتدارك ما فاتها من خلال العبودية والطاعة خشية من الأحداث التى تنتظرها فى المستقبل القريب. فقد استهل

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۱۸

كلامه عليه السلام بالقول

«فانّكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم ۷۶۸] وسمعتم واطعتم».

و الذى يستفاد من الروايات أنّ الإمام عليه السلام قد القى هذه الخطبة فى الجمعة الاولى بعد البيعة، و قد حذر الامّة- طبق رواية الكافى- من خيانة ائمتها ودعاها إلى الوحدة ورص الصفوف واجتناب الاختلاف والفرقة، ثم أورد هذه الكلمات لتأكيد المعنى المذكور. امّا ما هى المواضيع التى سيشهدها الإنسان فى عالم ما بعد الموت بعد أن تطرح عنه الحجب فيسوده القلق والاضطراب والجزع، فهذا ممّا اختلفت فيه أقوال العلماء، لكن المسلم به أن هناك موضوعين مهمين: أحدهما انّه سيرى نتائج أعماله وما ينتظره من جزاء وعقاب عليها، والثانى مدى الحسرة والأسف الذى سيشعر به تجاه تقصيراته التى صدرت منه فى حياته الدنيا، الإمكانات التى كان من شأن إستثمارها أن تبلغ به السعادة والفلاح والفوز بالقرب الإلهى ومجاورة الرحمن، غير أنه ضيع كل تلك الفرص، والادهى من ذلك لاسبيل إلى الرجوع إلى الحياة ثانية.

ثم قال عليه السلام: «ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريب ما يطرح الحجاب» نعم أنّ هذه الحجب هى التى جعلتكم تغطون فى هذه الغفلة وتتعلقون بالدنيا وتغترون بها، ولكن اعلموا إنّ هذه الحجب آيلة إلى الزوال وسترون الاشياء والحقائق كما هى حيث لاينفع حينها القلق والجزع والفزع، كما ليس هنا لك من مجال للتوبة.

وهنا يبرز هذا السؤال: لم لا يطرح البارىء سبحانه هذه الحجب عن الإنسان فى الحياة الدنيا لينتبه إلى نفسه ولا يعيش السكر والغفلة؟

يبدو أنّ الآيات القرآنية قد تكفّلت بالإجابة على هذا السؤال: فلو طرحت هذه الحجب ورأى الناس الحقائق على صورتها فانّ أدنى تمرد سيؤدى إلى مواجتهم للعذاب الشديد حيث لم يعدّ هنالك من عذر للتقصير.

فقد صرّحت الآية الثامنة من سورة الانعام و «ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون».

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۱۹

و بغض النظر عن هذا الأمر فانّ الإيمان من جراء مشاهدة الحقائق المترتبة على ما بعد الموت سوف لن يكون مدعاة للعبودية والطاعة وسيكون نوعاً من الاجبار والاضطرار، كما نشاهد ذلك فى الأفراد- حتى الصبية منهم- حين يبدون ردود فعلهم المباشرة إذا ما إقتربت أيديهم من النار، فاجتناب المعصية على هذا الضوء سوف لن يكون بدافع من الورع والتقوى و العبودية أبداً.

أمّا قوله عليه السلام

«قريب ما يطرح الحجاب»

فعمر الإنسان مهما كان ليس سوى لحظات عابرة مقارنة بعمر الدنيا وزمان الآخرة. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مسألة مهمّة بهذا الشأن وهى أنّكم وإن لم تروا عالم ما بعد الموت، إلّاأنّ الأدلة عليه قائمة لديكم ومعالمه واضحة أمامكم

«ولقد بصرتم ان ابصرتم، واسمعتم ان سمعتم، وهديتم إن اهتديتم».

وعليه فليس هنالك من عذر لمن ضل السبيل وأخطأ المسيرة، فالحقائق المرتبطة بعالم الآخرة وان حجبت عنكم، إلّاأنّكم على علم بها من خلال ثلاثة طرق: الأول من الاعتبار بما تشاهدونه فى هذا العالم، فاثار الفراعنة وقبور الأسلاف لأدلة واضحة على العاقبة المريرة التى تنتهى إليها مسيرة الأقوام الظالمة والتى تشير إلى أنّ الله بالمرصاد، كما لديكم الكتب السماوية و الرسالات النبوية، أضف إلى ذلك فانّ الأدلة العقلية ليست بالقليلة وهى تقودكم بكل بساطة إلى المعاد واليوم الآخر.

و عليه فعبارته عليه السلام إنّما تشير إلى الأدلة الحسية والنقلية والعقلية.

كما يحتمل أن تكون الجملة الاولى إشارة إلى الأدلة الحسية والعقلية (لأنّ البصيرة تطلق على الإدراك العقلى أيضا) والجملة الثانية تلمح إلى الأدلة النقلية، بينما تشير الجملة الثالثةالهداية الناجعة من هذه الادلة. ثم قال عليه السلام:

«وبحق أقول لكم: لقد جاهرتكم العبر»

فالعالم مليىء بحوادث العبرة والاعتبار التى لا تخفى على أحد، فتلك آثار الفراعنة والأقاصرة والأكاسرة التى تخبر عن أحوال من كان من الامم السالفة. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ* وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ»[۷۶۹]

و قال ايضا: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ* وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ* كَذ لِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ». وقال فى موضع آخر «فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ»[۷۷۰].

نفحات الولاية، ج ۱، ص: ۴۲۰

فقد شحن القرآن بهذهالآيات إلى جانب الروايات الإسلامية التى أكدت هذا المعنى.

الادباء والشعراء تعرضوا لهذه الحوادث فى نتاجانهم ممّا يثبت حقيقة قوله عليه السلام:

«لقد جاهرتكم العبر»

. ثم قال عليه السلام:

«و زجرتم بما فيه مزدجر»[۷۷۱]

. ولعل هذا الزجر يستند إلى لسان التكوين الذى ينطلق من أعماق التاريخ واخبار الماضين كما صور ذلك القرآن الكريم «وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ»[۷۷۲].

أو عن طريق لسان التشريع والوحى الذى ورد فى الكتب السماوية. وعليه فقد تمت الحجة تكويناً وتشريعاً ولم يعدّ هنالك من عذر.

ثم قال عليه السلام:

«و ما يبلغ عن الله بعد رسل السماء إلّا البشر».

فما هذا الانتظار؟ أتتوقعون أن تهيط عليكم الملائكة ويتلون عليكم الآيات؟ فقد تشدق بذلك الكفار على عهد النبى صلى الله عليه و آله قائلين: «لَوْ ما تَأْتِينا بِالمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ»[۷۷۳]. فرد عليهم القرآن بالقول: «ما نُنَزِّلُ المَلائِكَةَ إِلّا بِالحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ»[۷۷۴] وخلاصة القول فان الله قد أتم حجته عن طريق المشاهدات الحسية لآثار الامم السابقة ومن خلال العقل وأخيراً الوحى، وليس لاحد أن يخرج عن سبيل الطاعة بحجة

«لولا أنزل علينا الملائكة».

ملاحظة: عالم ما بعد الموت

صحيح أنّ هنالك الاغشية الغليظة التى تحول بيننا وبين ذلك العالم وأنّ الحجب الظلمانية لا تدعنا نرى حوادث عالم البرزخ (و ينبغى أن يكون الأمر كذلك؛ فلو طرحت الحجب لفقد الامتحان حرارته ولا نطلق الجميع فى حالة شبه إضطرارية نحو الحق فلم يعدّ هنالك من معيار لتمييز المطيع من العاصى)، غير أنّ الآيات القرآنية والروايات الإسلامية الواردة عن أئمة

نفحات الولايه، ج۱، ص: ۴۲۱

العصمة عليه السلام قد أشارت إلى طبيعة هذا العالم المرعب، كما بينت مدى الهلع الذى يعترى الإنسان حين مشاهدته لملك الموت وحين يرى ما عمل حاضرا أمامه، فينطلق صوته

«ربّ ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت»[۷۷۵]

فيأتيه الجواب بالسلب، فليس هنالك من سبيل إلى الرجعة كاستحالة عودة الجنين إلى رحم امّه.

و قد أشار الإمام على عليه السلام فى بعض خطبه فى نهج البلاغة إلى هذا الأمر، من ذلك أنّه قال:

«يفكر فيم أفنى عمره وفيم أذهب دهره ويتذكر أموالًا جمعها اغمض فى مطالبها ...

واشرف على فراقها تبقى لمن ورائه»[۷۷۶]

أجل أنّ كل هذا الجزع والفزع من جراء مشاهدة ذلك العالم الخطير ورؤية ملك الموت. وقد أسمعنا أولياء الله من ائمة الدين ما ينبغى سماعه عن تلك المنازل المرعبة، إن كانت لنا آذانا صاغية.

«اللّهم رزقنا عيناً بصيرة واذناً سميعة وقلباً حافظاً، لنتزود لتلك الدار قبل وفاتنا وفوات الأوان، فنحلق إلى ذلك العالم بقلب مطمئن ونفس واثقة ونفوز بقرب اوليائك من الشهداء والصديقين «و حسن اولئك رفيقا».

اللّهم تقبل منّا هذا الجهد المتواضع ومن علينا باكماله بفضلك ورحمتك.

الختام

النصف من شهر رمضان المبارك

الولادة الميمونة للإمام المجتبى عليه السلام

سنة ۱۴۱۶ الموافق ۷/ ۳/ ۱۹۹۵ م

[۱] (۱) الغدير ۴/ ۱۸۱.

[۲] (۱) مذكرات العلّامة الشريف الرضى/ ۲۹.

[۳] (۱) النقابة: موضوعة على صيانة ذوى الأنساب الشريفة عن ولاية ولا يكافئهم فى النسب ولا يساويهم فى الشرف، ليكون عليهم أحبى وأمره فيهم أمضى وهى على ضربين: خاصة وعامة، وأمّا الخاصة فهو أن يقتصر بنظره على مجرد النقابة من غير تجاوز لها إلى حكم وإقامة حد فلا يكون العلم معتبراً فى شروطها ويلزمه فى النقابة على أهله من حقوق النظر اثنا عشر حقاً:

۱- حفظ أنسابهم من داخل فيها وليس هو منها، أ وخارج عنها.

۲- تمييز بطونهم ومعرفة أنسابهم حتى لا يخفى عليه منه يتوأب.

۳- معرفة من ولد منهم من ذكر أوانثى فيثبته.

۴- أن يأخذهم من الاداب بما يضافىشرف أنسابهم وكرم محتدهم لتكون حشمتهم فى النفوس موقورة وحرمة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فيهم محضورة.

۵- أن ينزههم عن المكاسب الدنيئة ويمنعهم من المطالب الخبيثة.

۶- أن يكفّهم عن ارتكاب المآثم.

۷- أن يمنعهم من التسلط على العامة لشرفهم.

۸- أن يكون عوناً لهم فى استيفاء الحقوق.

۹- أن ينوب عنهم فى المطالبة بحقوقهم العامة.

۱۰- أن يمنع أمائهم أن يتزوجن إلّامن الأكفاء.

۱۱- أن يقوم ذوى الهفوات منهم فيما سوى الحدود.

۱۲- مراعاة وقوفهم بحفظ اصولها وتنمية فروعها.

[۴] (۱) أغلب ما أوردناه بالنسبة لحياة السيد الرضى قد اقتبسناه من كتاب الغدير ۴/ ۱۸۱- ۲۱۱، إضافة إلى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، عبقرية الشريف الرضى، سفينة البحار ومذكرات العلامة الشريف الرضى.

[۵] (۱) يقع شرحه فى عشرين مجلداً وقد استغرق فى تأليفه أقل بقليل من خمس سنوات وهى مدّة خلافة على عليه السلام على حد تعبيره.

[۶] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱۱/ ۱۵۳.

[۷] (۲) هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباتة المتوفى عام ۳۷۴.

[۸] (۳) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۲۱۴.

[۹] (۴) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۸۴.

[۱۰] (۵) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۲۴.

[۱۱] (۱) على صوت العدالة الإنسانى ۱/ ۴۷.

[۱۲] (۲) نهج البلاغة، قصار الكلمات ۸۱.

[۱۳] (۳) الطراز ۱/ ۱۶۵- ۱۶۸.

[۱۴] (۱) نظرات فى القرآن/ ۱۵۴، طبق نهج البلاغة ۱/ ۹۱.

[۱۵] (۲) نقلًا عن كتاب(الجريدة الغيبية) عن مصادر نهج البلاغة/ ۱.

[۱۶] (۳) مصادر نهج البلاغة ۱/ ۹۶.

[۱۷] (۴) تذكرة الخواص، الباب السادس/ ۱۲۸.

[۱۸] (۱) كشكول الشيخ البهائی ۳/ ۳۹۷.

[۱۹] (۲) عبقرية الشريف الرضی ۱/ ۳۹۶.

[۲۰] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحديد ۱۶/ ۱۴۶.

[۲۱] (۲) العبقريات ۲/ ۱۳۸(طبعة دارالكتاب اللبنانی.

[۲۲] (۱) العبقريات ۲/ ۱۴۴.

[۲۳] (۲) العبقريات ۲/ ۱۴۵.

[۲۴] (۳) مصادر نهج البلاغة ۱/ ۹۰.

[۲۵] (۴) جولة فی نهج البلاغة/ ۱۸ و ۱۹.

[۲۶] (۵) أصول الكافی ۱/ ۱۳۶.

[۲۷] (۶) البيان/ ۹۰.

[۲۸] (۱) الإمام علی صوت العدالة الإنسانية ۳/ ۱۷۷.

[۲۹] (۲) الخطبة الشقشقية(الخطبة ۳).

[۳۰] (۳) الرسالة رقم ۴۵.

[۳۱] (۴) الخطبة الاولی وخطبة الأشباح/ ۹۱ وسائر الخطب بهذا الشأن.

[۳۲] (۵) الخطب ۱۰۹- ۱۱۱- ۱۱۳ وما شابهها.

[۳۳] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحديد ۷/ ۲۰۲.(بتلخيص)

[۳۴] (۱) مروج الذهب ۲/ ۴۱۹، طبعة دار الهجرة قم.

[۳۵] (۲) تذكرة الخواص/ ۱۲۸.

[۳۶] (۳) البيان والتبيين ۱/ ۸۳.

[۳۷] (۴) مشاكلة الناس لزمانهم/ ۱۵.

[۳۸] (۱)

۱- البيان والتبيين للجاحظ.

۲- تأريخ الطبری.

۳- الجمل للواقدی.

۴- المغازی لسعيد بن يحيی الاموی.

۵- المقامات لأبی جعفر الاسكافی.

۶- المقتضب للمبرد.

۷- حكاية أبی جعفر محمد بن علی الباقر عليه السلام.

۸- حكاية ثعلب عن ابن الاعرأبی.

۹- خبر ضرار الضبابی.

۱۰- رواية أبى جحيفة.

۱۱- رواية كميل بن زياد النخعى.

۱۲- رواية مسعدة بن صدقة لخطبة الاشباح عن الصادق جعفر بن محمد.

۱۳- رواية نوف البكالى.

۱۴- ماذكره أبو عبيد القاسم بن سلام من غريب الحديث.

۱۵- ماوجد بخط هشام بن الكلبى.

[۳۹] (۱) الغدير ۴/ ۱۸۶- ۱۹۳.

[۴۰] (۲) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة/ ۱۰(جدير ذكره أن عدد الشروح التى وردت فى مصادر نهج البلاغة مئة وواحد لا مئة وعشرة).

[۴۱] (۱) الذريعة ۱۴/ ۱۱۱- ۱۶۰.

[۴۲] (۱) وردت هذه الخطبة(ليست بصورة كاملة بل بعضها) فى عدة كتب قبل السيد الرضى(ره) و بعده. وكان ممن رواها قبله: ۱- المرحوم الصدوق فى كتاب التوحيد ۲- المرحوم ابن شعبة الحرانى فى كتاب تحف العقول. أما من نقلها بعده: ۱- الواسطى فى كتاب عيون الحكمة والمواعظ ۲- المرحوم الطبرسى فى الاحتجاج ۳- ابن طلحة فى كتاب مطالب السؤال ۴- القاضى القضاعى فى دستور معالم الحكم ۵- الفخر الرازى فى التفسير الكبير ۶- الزمخشرى فى ربيع الأبرار ۷- القطب الراوندى فى منهاج البراعة ۸- المرحوم العلامة المجلسى فى ج ۴، ۱۱، ۱۸، ۵۷، ۷۷، ۹۲ و ۹۹ من بحارالانوار. طبعاً هناك تفاوت بين العبارات التى وردت فى الكتب المذكورة مع ما ورد فى نهج البلاغة.

[۴۳] (۱) كثر الكلام بين اللغوين ومفسرى القرآن ونهج البلاغة بشأن معنى الحمد والمدح والشكر، غير أنّ المشهور بينهم أنّ الحمد هو كل مدح إزاء الإعمال الحسنة الاختيارية؛ بينما ينطوى المدح على مفهوم أوسع يشمل الإعمال الاختيارية وغير الاختيارية، أمّا الشكر فأخص من المدح ويقتصر على إيصال أحدهم نعمة إلى آخر فيشكره على تلك النعمة.(من أراد المزيد فليراجع مجمع البحرين، لسان العرب، المفردات، شرح ابن الهيثم وشرح العلّامة الخوئى). بينما صرّح بعض مفسرى القرآن ونهج البلاغة كالزمخشرى فى الكشاف وابن أبى الحديد فى شرحه أن« الحمد والمدح أخوان، لا فرق بينهما)، ويبدو أن التفسير الأول أصح.

[۴۴] (۲) أورد العلّامة المجلسى ضمن توضيحه لبعض الأخبار فى البحار، تعليقاً على كلام المحقق الطوسى هذا الحديث« ما عبدناك حق عبادتك وما عرفناك حق معرفتك» دون ذكر سنده. بحار الانوار ۶۸/ ۲۳.

[۴۵] (۱) اصول الكافى ۲/ ۹۸، ح ۲۷.

[۴۶] (۲) المصدر السابق/ ۹۷، ح ۱۸.

[۴۷] (۱)« همم» جمع همة تعنى فى الأصل الذويان والجريان والحركة ولهذا يطلق الهم حيث بسبب ذويان الجسم الإنسان وروحه، ثم أطلق على كل أمر مهم أو ما يشغل فكر الإنسان(ورد شبه ذلك فى المفردات).

« غوص» تعنى فى الأصل الغمس فى الماء، ثم أطلقت على الدخول فى كل عمل مهم.

« فطن» جمع فطنة على وزن فتنة الفهم و الذكاء حسب لسان العرب.

[۴۸] (۲)« الأجل» بمعنى انتهاء الشيء كعمر الإنسان وما إلى ذلك كالعقود والعهود.

[۴۹] (۱)« فطر» من مادة« فطر» على وزن بمعنى شق الشيء من الطول ومنه الافطار فى الصوم

[۵۰] (۲)« وتد» من مادة« وند»(على وزن وقت) بمعنى إثبات الشيء ولذلك يطلق الوتد على المسمار الذى يثبت فى الأشياء ويمنحها الثبات أيضاً، وأحياناً يطلق« الوتد» على وزن« الوقت».

[۵۱] (۳)« الصخور» جمع« صخرة»، وقال صاحب لسان العرب تعنى الحجر الكبير الصلب.

[۵۲] (۴)« ميدان» من مادة« ميد» على وزن(صيد) بمعنى الحركة والاضطراب وميدان على وزن(ضربان) بهذا المعنى أيضاً و« ميدان» على وزن(حيران) وجمعه ميادين بمعنى الفضاء الواسع.

[۵۳] (۵) سورة الأعراف/ ۵۷.

[۵۴] (۶) سورة النحل/ ۱۵.

[۵۵] (۱) لقد ذهب المرحوم العلّامة المعروف« محمد جواد مغنية» فى كتابه« فى ظلال نهج البلاغة» إلى أنّ هذه المعرفة تعنى الطاعة والانقياد لأوامر اللَّه ونواهيه، وهذا هو المعنى الذى اختاره من قبله الشارح الخوئى- رضوان اللَّه عليه، فان كان مرادهما الطاعة بالمعنى الشامل للكلمة بما فيها الامور العقائدية صح ذلك، وإن اقتصر على الجوانب العملية فقط يرد عليهما ما أوردناه سابقاً.

[۵۶] (۱) منهاج البراعة ۱/ ۳۲۱. وقد نقل الشارح الخوئى بأنّ لصدر الدين الشيرازى مثل هذا الاعتقاد فى شرح الكافى.

[۵۷] (۲) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ۱/ ۱۲۲.

[۵۸] (۱) الأشاعرة هم أتباع« أبو الحسن الأشعرى» الذين يؤمنون بالمعانى، والمراد بالمعانى هو أن مفهوم الصفات من قبيل العالمية والغالبية و ... كالذات الإلهية قديمة أزلية، كما أنّها فى نفس الوقت غير الذات الإلهية، وعليه فهم يعتقدون بأزلية بعض الأشياء، بعبارة اخرى يقولون بتعدد القدماء، وهى العقيدة التى تتنافى تماماً والوحدانية الخالصة، ولذلك ينفى أتباع أهل البيت عليهم السلام- على ضوء ما تلقوه عنهم من تعاليم كالذى جاء فى هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة وكلمات أئمة العصمة عليهم السلام- هذه المعانى التى تمثل الصفات الزائدة على الذات، وقد أشارت العبارة« لا شريك له ولا معانى» لهذا الأمر.

[۵۹] (۱) بحار الأنوار ۶۶/ ۲۹۳.

[۶۰] (۱) سورة طه/ ۵.

[۶۱] (۲) لقد ذهب بعض شرّاح النهج إلى أنّ العبارتين المذكورتين إنّما تبينان موضوعاً واحداً، بينما اعتبر البعض الآخر- مثل ابن أبى الحديد- أن قوله عليه السلام:« كائن لا عن حدث» إشارة إلى الحدوث الزمانى فى العبارة الاولى، ولم ينف حدوثه الذاتى الا فى كلمته الثانية بغض النظر عن الزمان لأنّه واجب الوجود.(شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۷۹). فى حين ذهب آخرون إلى عكس ذلك ففسروا العبارة الاولى بنفى الحدوث الذاتى أو الذاتى والزمانى، والعبارة الثانية بنفى الحدوث الزمانى.(شرح نهج البلاغة لابن ميثم، ۱/ ۱۲۷). ولكن لم يقم دليل واضح على أى من هذا التفاوت، لأن مفردة الحدوث عادة ما تطلق على الحدوث الزمانى، كما يمكن حملها على الحدوث الذاتى أيضاً، وهكذا يمكن إطلاق نقطة العدم على العدم الذاتى والتى غالباً ما تطلق على العدم الزمانى. وعليه تبدو هاتان العبارتان متأكدتان فى معناهما وهو نفى الحدوث الزمانى والذاتى؛ على أنّهما تنفيان أى حدوث وعدم عن الذات الإلهية سواءً بالنسبة للذات والزمان.

[۶۲] (۱) هناك احتمالان بشأن« إذ» الواردة فى العبارة؛ الاحتمال الأول: هل هى ظرفية تشير إلى عدم وجود شيء خلق فى الأزل ولم تكن سوى ذاته المقدسة ليأنس بها ويستوحش لفقدها؟ أم إن« إذ» هنا بمقام التعليل، يعنى كان وما زال واحداً لأنّه لم يكن هناك من وجود، حيث لا يحتاج إلى أحد؟

يبدو أنّ الاحتمال الثانى هو الأقوى. كما إن« لا» فى قوله« لا- يستوحش» زائدة وردت للتأكيد، بينما ذهب البعض إلى أنّها جملة استئنافية.

[۶۳] (۱) هذه هى عقيدة أغلب المتصوفة، وشاهد ذلك العبارة المشهورة التى يطلقها زعماء هذه الفرقة« إنى أنا اللَّه» وأعظم من ذلك ما يرددوه من قولهم« سبحانى ما أعظم شأنى»، امّا البعض الآخر فقد نظم أبياتاً من الشعر وصرح فيها بقوله« أن الصنمية والوثنية هى ذات العبودية»! كما ورد فى الأشعار الطائشة للمولوى التى تصور اللَّه بشكل صنم عيّار(وهو عبارة عن موجود مشكوك) يتلبس

يوماً بهيئة آدم! ويوماً بهيئة نوح وآخر موسى وعيسى! وأخيراً بشكل محمد صلى الله عليه و آله كما يتلبس بهيئة على وسيفه ذو الفقار! وبالتالى بشكل منصور الذى اعتلى أعواد المشنقة!(نقلًا بتلخيص عن العارف الصوفى وماذا يقولان/ ۱۱۷).

[۶۴] (۱)« الغلاة» هم المغالون فى الأئمة عليهم السلام ولا سيما على عليه السلام فعدوه هو اللَّه أو أنّه اتحد به. و« الخوارج» هم أصحاب النهروان الذين أسماهم النبى صلى الله عليه و آله بالمارقين وقد قتلهم الإمام شر قتلة فى النهروان. وأمّا« النواصب» فهم أعداء أهل البيت عليهم السلام.

[۶۵] (۲) العروة الوثقى، بحث نجاسة الكافر، المسألة ۲.

[۶۶] (۱) للوقف على المزيد راجع الكتاب مصباح الهدى ۱/ ۴۱۰ للمرحوم آية الله الشيخ محمد تقى الآملى(الفقيه والفيلسوف المعروف) و كذلك تقريرات المرحوم تقريرات المرحوم آية الله الخوئى ۳/ ۸۱- ۸۲.

[۶۷] (۲) ترجمة و تفسير نهج البلاغة، الاستاذ الجعفرى ۲/ ۶۴.

[۶۸] (۱) سورة ق/ ۱۶.

[۶۹] (۲) سورة الحديد/ ۴.

[۷۰] (۳) سورة المجادلة/ ۷.

[۷۱] (۴) سورة النور/ ۳۶.

[۷۲] (۵) سورة الانفال/ ۲۴.

[۷۳] (۶) بحارالأنوار ۳/ ۲۸۹.

[۷۴] (۱) توحيد ابن خزيمة/ ۲۱۷(طبق نقل بحوث فى الملل والنحل) ۱/ ۱۴۵.

[۷۵] (۲) صحيح البخارى ۶/ ۵۶. تفسير سورة النساء؛ سنن ابن ماجة ج ۱ مقدمة الباب ۱۳ ح ۱۷۷.

[۷۶] (۳) للوقوف على هذه الروايات الموضوعة يقيناً وكذلك تفنيد هذه الروايات واستعراض الأدلة التى تضمنتها الآيات والروايات المعتبرة التى صرّحت باستحالة رؤية اللَّه فى الدنيا والآخرة، راجع من التفسير الموضوعى للقرآن نفحات القرآن ۴/ ۲۴۱- ۲۵۱.

[۷۷] (۴) سورة الانعام/ ۱۰۳.

[۷۸] (۵) سورة الاعراف/ ۱۴۳.

[۷۹] (۶) نهج البلاغة، الخطبة ۹۱.

[۸۰] (۷) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۵.

[۸۱] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۴۹.

[۸۲] (۱) مفتاح السعادة فى شرح نهج البلاغة ۱/ ۱۳۹.

[۸۳] (۲) أصول الكافى/ ۱ باب أدنى المعرفة، ح ۱؛ أيضا ۱، باب النهى عن الصفة، ح ۱؛ أيضاً ۱، باب جوامع التوحيد، ح ۴.

[۸۴] (۱)« أنشأ» من مادة« إنشاء» بمعنى الايجاد وان ذكروا لها عدّة معان.

[۸۵] (۲)« روية» بمعنى الرى من الماء كما ورد فى مقاييس اللغة، الا انّها تستعمل بمعنى التفكير المصحوب بالدقة. وكأنه يروى فكره بشأن تلك المسألة، أو رى تلك المسألة بفكره واداء حق التفكير.

[۸۶] (۳)« أجال» من مادة جولان بمعنى الحركة والتجوال.

[۸۷] (۴)« همامة»: لقد ذكر شرّاح ومفسروا نهج البلاغة لهذه المفردة عدّة معان. فقد عناها البعض بالرغبة القطعية الباطنية بالشىء بحيث ينزعج لفقدانها(شرح ابن ميثم البحرانى ۱/ ۱۳۲). بينما ذهب البعض الآخر إلى أنها تعنى الترديد فى القيام بعمل(منهاج البراعة ۱/ ۵۱). وقال آخرون انّها تعنى الاهتمام بالشىء(شرح مغنية ۱/ ۲۷).

وقال ابن أبى الحديد فى شرحه المعروف لنهج البلاغة: وقوله عليه السلام:« ولا- همامة نفس اضطرب فيها» فيه رد على المجوس والثنوية القائلين بالهمامة الذين يعتقدون بأنّ النورالأعظم حين هم بمجابهة الظلمة بدا عليه الشك والترديد فخرج من ذاته بشىء يسمى بالهمامة.

أمّا فى اللغة- كما ورد فى لسان العرب- فالهمامة تعنى الضعف والوهن والفتور ولذلك يطلق على كل رجل أو امرأة عجوز اسم« هِم» و« هِمة».

ويبدو ممّا ذكر أن« الهمامة» الواردة فى العبارة إنّما تعنى الضعف والعجز فى العزم والإرادة بحيث يتعذر على الشخص اتخاذ القرار، أو أنّه يتخذ القرار بصعوبة.

[۸۸] (۱) سورة يس/ ۸۲.

[۸۹] (۱)« لام» و« لائم» من مادة« لأم» بمعنى الجمع والإصلاح وضم شىء إلى شىء آخر والملائمة بينهما، ومن هنا اطلق على الدرع اسم« لأمة» على وزن« رحمة» لالتحام حلقاتها وتداخلها مع بعضها.

[۹۰] (۲)« غرّز» من مادة« غرز» على وزن« قرص» تعنى فى الأصل غرس الابرة أو الجعل والادخال، ثم اطلقت فيما بعد على الطبائع التى أودعت الإنسان أو سائر الكائنات الحية، وكأنّ هذه الطبائع بمثابة البذور التى غرست فى أرض الوجود الإنسانى.

[۹۱] (۱)« أشباح» جمع« شبح» طبق ما أورده أغلب أرباب اللغة بمعنى الشخص فى الأصل، كما وردت بمعنى ظهور الشىء واتضاحه، ومن هنا يطلق الشبح اليوم على الموجود الذى يتراءى ظله ثم يظهر فجأة.

[۹۲] (۱) سورة طه/ ۵۰.

[۹۳] (۲) سورة الروم/ ۳۰.

[۹۴] (۳) سورة الحجر/ ۲۱.

[۹۵] (۱)« قرائن» جمع« قرينة» بمعنى المصاحب والرفيق، ولذلك يقال لزوجة الرجل قرينته(الصحاح والقاموس وسائر الكتب اللغوية)، بينما ذهب بعض شراح نهج البلاغة كابن أبى الحديد إلى أنّ القرائن جمع قرونة(على وزن معونة) وهى النفس ولكن يبدو المعنى الأول أنسب بالاستناد إلى التعبيرات التى وردت فى الجملة.

[۹۶] (۲)« أحناء» جمع« حِنْو» على وزن فعل« وحنو» على وزن حرف وتطلق على كل شىء فيه اعوجاج وانحناء- على ضوء ماورد فى المقاييس ولسان العرب- كعظم الفك والاضلاع. ثم وردت بمعنى الجوانب أيضاً(وذلك لأن جوانب وأطراف الأشياء غالباً ما تشتمل على انحناءات).

[۹۷] (۳) لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الضمائر التى وردت فى هذه العبارات إنّما تعود إلى الأشياء لا الغرائز كما صرح بذلك بعض شرّاح نهج البلاغة؛ وذلك لعدم وجود الانسجام بين الاحتمال الثانى ومضمون الجملة.

[۹۸] (۱) لقد أورد ابن ميثم هذا الموضوع بصيغة اشكال ثم أجاب عنه بان أسماء اللَّه أكثر من هذا العدد وقد ذكر عدّة شواهد على مدعاه(شرح نهج البلاغة، لابن ميثم ۱/ ۱۳۷). جدير بالذكر ان هذا الحديث قد ورد فى الدر المنثور عن صحيح البخارى وصحيح مسلم ومسند أحمد وسنن الترمذى وسائر المصادر الروائية ۳/ ۱۴۷(نفحات القرآن ۴/ ۴۶).

[۹۹] (۲) أصول الكافى ۱/ ۹۱، باب النسبة، ح ۲ وص ۱۱۳، باب حدوث الأسماء، ح ۲.

[۱۰۰] (۱) إنّ من أورد هذا الجواب لحل الإشكال المذكور قد واجه هذا السؤال: وهو أنّ لازمة هذا الكلام أنّ ليس للَّهمن علم بكثرة الموجودات بوصف الكثرة قبل وجودها، لأنّه ليس هنالك من كثرة فى ذاته، أو بتعبير آخر، أنّ علمه متفاوت بالموجودات قبل وجودها وبعده: فقد كان سابقاً على نحو العلم الإجمالى، ولاحقاً على نحو العلم التفصيلى، والعجيب أنّ بعضهم قد اعترف بهذا التفاوت.

[۱۰۱] (۱)« فتق» على وزن مشق بمعنى الشق والضجوة بين شيئين وهى ضد الرتق(كما أورد ذلك الراغب فى مفرداته). ويقال للصبح« فتيق»، لأنّه يشق الافق ويظهر، وقال صاحب لسان العرب انّه يطلق« فتيق اللسان» على الفرد الخطيب والفصيح اللسان، لأنّه يتحلى بلسان طلق ذرب.

[۱۰۲] (۲)« أجواء» جمع« جو» بمعنى- حسب قول المفردات ولسان العرب- الفضاء الحاصل بين السماء والأرض.

[۱۰۳] (۳)« شق» بمعنى الفتحة فى الشيء، ومن هنا اطلق الشقاق على الاختلاف الذى يحدث بين الناس ويفصلهم عن بعضهم البعض الآخر.

[۱۰۴] (۴)« أرجاء» جمع« رجا»(دون همزة) تعنى حسب« مقاييس اللغة» أطراف البئر أو أطراف أى شيء آخر، الرجاء بالهمزة فيعنى الأمل. بينما يعتقد البعض من قبيل كاتب« التحقيق» أنّ معناها الأصلى الشيء الذى يرجى وقوعه فى الجوانب الأطراف، ولذلك يطلق على هذه الجوانب والأطراف المرجوة« رجا» دون همزة.

[۱۰۵] (۵)« سكائك» جمع« سكاكة» على وزن خلاصة، قال صاحب لسان العرب أنّها تعنى الفضاء الواقع بين السماء الأرض، وقال ابن أبى الحديد هى أعلى الفضاء.

[۱۰۶] (۶)« الهواء» بمعنى الخالى والساقط، ولذلك يطلق لفظ الهواء على كل شيء خالٍ، ومن ذلك الفضاء بين السماء والأرض. وأمّا سبب إطلاق لفظة« الهوى» على الشهوات والنزوات النفسية فهى أنّها تشكل مصدر سقوط الإنسان فى الدنيا والآخرة(مقاييس اللغة، مفردات الراغب، لسان العرب). ويبدو ان اطلاق هذه المفردة على الغاز اللامرئى المركب من الاوكسجين والاوزون إنّما هو من الاستعمالات الجديدة والذى يناسب أيضاً المعنى الأصلى، لأنّه يبدو موضعاً خالياً(و إن ورد بهذا المعنى فى بعض الروايات أيضاً).

[۱۰۷] (۱) توحيد الصدوق/ ۶۶، كما ورد شبيه هذا المضمون فى/ ۱۴۵- ۲۲۶.

[۱۰۸] (۱) كل شيء يدور حول نفسه انّما يتعرض إلى قوة تحاول طرده من المركز، كالشعلة التى ندورها بايدينا فاذا تركناها فجأة قذفت إلى نقطة بعيدة، وما هذا إلّالوجود قوة الطرد المركزية، وكلما تضاعفت هذه القوة فان شدة القذف خارجاً تتناسب طردياً وازدياد تلك القوة.

[۱۰۹] (۲)« متلاطم» من مادة« لطم» على وزن ختم بمعنى صفع الوجه باليد، ثم استخدمت هذه المفردة لاحقاً بمعنى اصطدام الأمواج مع بعضها.

[۱۱۰] (۳)« التيار» بمعنى أمواج البحر التى يقذف بها الماء، وقد أطلقها البعض(مقاييس اللغة ولسان العرب) على كل نوع من الأمواج.

[۱۱۱] (۱)« متراكم» من مادة« ركم» على وزن رزم بمعنى تراكم شيء والقاء بعضه على بعض، وتطلق على الغيوم والرمال والمياه وحتى الجموع الغفيرة من الناس التى تتجمع فى موضع(المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغة).

[۱۱۲] (۲)« زخار» من مادة« زخر» و« زخور» بمعنى الامتداد والارتفاع، كما يطلق على امتلاء البحر وتلاطمه.

[۱۱۳] (۳)« عاصفة» من مادة« عصف» على وزن عصر بمعنى الخفة والسرعة، ومن هنا يطلق العصف على قشور الحبوب التى تكسر بسرعة، كما يقال« عاصف» و« معصف» للشيء الذى يحطم سائر الأشياء وينعمها(المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغة).

[۱۱۴] (۴)« زعزع» على وزن زمزم بمعنى الحركة والاضطراب والاهتزاز، كما تستعمل بمعنى الشديد(مقاييس اللغة ولسان العرب).

[۱۱۵] (۵)« قاصفة» من مادة« قصف» على وزن حذف بمعنى كسر الشيء، ومن هنا يطلق القاصف على العواصف الشديدة التى تكسر السفن فى البحار وكذلك الرعد والبرق الشديد الكاسر(المفردات، لسان العرب ومقاييس اللغة).

[۱۱۶] (۶)« شدّ» على وزن مدّ بمعنى قوة الشيء وقدرته، ولذلك يصطلح بالشديد على الفرد القوى(ولا سيما القوى فى الحرب). كما تستعمل هذه المفردة بمعنى ربط العقدة وأحكام وثاقها(سواء كانت فى البدن أو فى القوى الباطنية والروحية أو فى المصيبة

والعذاب).(لسان العرب، المفردات ومقاييس اللغة).

[۱۱۷] (۷)« فتيق» من مادة« فتق» ذكرناها سابقاً.

[۱۱۸] (۸)« دفيق» من مادة« دفق» على وزن دفن بمعنى دفع الشيء إلى الإمام، كما تستعمل بمعنى السرعة. ولذلك يطلق« الادفق» على الناقة السريعة.

[۱۱۹] (۱)« اعتقم» من مادة« عُقم» على وزن قفل بمعنى الجفاف المانع من قبول الأثر، ويطلق العقيم على المرأة التى لا تتقبل نطفة الرجل، كما تأتى بمعنى الضيق أيضاً كما ورد فى المفردات ولسان العرب ومقاييس اللغة.

[۱۲۰] (۲) مهبها من الهبوب على وزن السجود الحركة بالنسبة للسيف والاضطراب ومن هنا تطلق على هبوب الرياح.

[۱۲۱] (۱)« مرب» من مادة« ربّ» التى تعنى فى الأصل التربية، وتطلق الرب على المربى والمالك والخالق(وهو مصدر له معنى الفاعلية) ويفيد معنى الاستمرار والملازمة إذا جاء من باب الأفعال(إرباب) لأنّ التربية متعذرة دون الاستمرار).

وبناءً على هذا فانّ« مربّ» مصدر ميمى بمعنى الدوام والبقاء.

[۱۲۲] (۲)« أعصف» من مادة« عصف» على وزن عصر، بمعنى السرعة والحركة والشدة كما ذكرنا.

[۱۲۳] (۳)« تصفيق» من مادة« صفق» على وزن سقف بمعنى تقليب الشيء بعضه على بعض بحيث يصاحبه الصوت، ومن هنا اطلق التصفيق على ضرب الكفين- وهى هنا بمعنى تحريك المياه وتقليبها على بعضها(لسان العرب، مقاييس اللغة، شرح محمد عبدة).

[۱۲۴] (۴)« مَخَضَ» من مادة« مخض» على وزن قرض بمعنى تحريك الموائع فى ظروفها، ولذلك يستعمل هذا التعبير أثناء تحريك اللبن فى القربة لفصل الزبدة عنه.

[۱۲۵] (۵)« ساجى» من مادة« سجو» على وزن سهو بمعنى السكون والهدوء.

[۱۲۶] (۶)« مائر» من مادة« مور» على وزن فور بمعنى الحركة السريعة، وتطلق هذه المفردة على الجادة أيضاً لأن الناس يتحركون عليها ذهاباً وإياباً.

[۱۲۷] (۷)« عباب» من مادة« عب» بمعنى شرب الماء سريعاً دون تريث، ومن هنا اطلق العباب على الماء الكثير والمطر الغزير والسيل العظيم، وهى هنا بمعنى تراكم المياه على بعضها.

[۱۲۸] (۸)« ركام» أشرنا إلى معناها سابقاً(ما تراكم منه بعضه على بعض).

[۱۲۹] (۹)« منفهق» من مادة« فهق» على وزن فرق بمعنى المفتوح الواسع، ولذلك يصطلح بالمنفهق على الجزء الواسع من الوادى والوعاء المملوء بالماء.

[۱۳۰] (۱)« مكفوف» من مادة« كف» على وزن سد بمعنى قبض الشيء وجمعه، ولذلك اطلق على راحة اليد الكف لأنّها سبب قبض اليد، كما يطلق المكفوف على الأعمى لقبض بصره.

[۱۳۱] (۲)« سمک» بمعنى الارتفاع ولهذا يسمى السقف بالسمک لارتفاعه.

[۱۳۲] (۳)« عمد» على وزن سبد وعُمُد كلاهما جمع« عمود» بمعنى الدعامة.

[۱۳۳] (۴)« يدعم» من مادة« دعم» على وزن فهم بمعنى دعامة الشيء ودعام ودعامة بمعنى الخشب الذى يحمل الأشياء ويشدها، وتطلق على الشيء والشخص الداعم.

[۱۳۴] (۵)« دسار» بمعنى المسمار والحبل الذى يربط به الشيء.

[۱۳۵] (۶)« ثواقب» من مادة« ثقب» على وزن سقف بمعنى الشيء؛ ثقب الشيء واختراقه ومن هنا اطلق الثواقب على الكواكب المضيئة المنيرة، فكأنّ نورها يثقب البصر وينفذ فيه، أو أنّ نورها يخترق السماء ليصلنا.

[۱۳۶] (۷)« مستطير» من مادة« طير» بمعنى انتشار الشيء فى الهواء، ثم استعمل كل شيء سريع وكذلك الطيور. ومستطير بمعنى واسع

ومنتشر. ومن هنا يقال استطار الفجر، أى انتشر ضوءه.

[۱۳۷] (۸)« رقيم» من مادة« رقم» بمعنى الخط والكتابة، كما وردت هذه المفردة بمعنى الكتاب. وهو اسم من أسماء الفلك وسمى به لأنه مرقوم بالكواكب.

[۱۳۸] (۱) للوقوف على هذه الروايات، انظر ۳/ ۱۰ و ۵۷ من بحار الأنوار، طبعة بيروت. وردت أغلب الأحاديث فى ج ۵۷.

[۱۳۹] (۱) لقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى حركة الأرض من قبيل الآية ۸۸ من سورة النمل« وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع اللّه الذى اتقن كل شيء» والآية ۲۵ من سورة المرسلات« الم نجعل الأرض كفاتا».(وطبق بعض التفاسير فان الآية ۴۰ من سورة يس« لا- الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون» تدل على أنّ الشمس والقمر يسبحان فى الفضاء العلوى. للوقوف أكثر على التفاصيل. انظر تفسير الأمثل.

[۱۴۰] (۱) لقد أشار المرحوم« الخواجة نصير الدين الطوسى» فى كتابه« تجريد الاعتقاد» إلى الأدلة الخمسة لفرضية العقول العشرة فيفندها جميعاً ويقول فى عبارة قصيرة« وأدلة وجوده مدخولة». وللوقوف أكثر على هذا الموضوع راجع كلام الخواجة والعلّامة الحلى بهذا الشأن.

[۱۴۱] (۲) الطريف أنّ القرآن أشار إلى السموات السبع فى سبع من آياته، وهى الآية ۲۹ من سورة البقرة، ۴۴ من سورة الاسراء، الآية ۸۶ من سورة المؤمنون، الآية ۱۲ من سورة فصلت، الآية ۱۲ من سورة الطلاق، الآية ۳ من سورة الملك والآية ۱۵ من سورة نوح. كما وردت بعض الآيات التى أشارت بعبارات اخرى إلى هذا الأمر.

[۱۴۲] (۱) بحار الأنوار ۵۵/ ۷۸.

[۱۴۳] (۱) مجلة الفضاء ۵۶/ آذار عام ۱۹۷۲ م.

[۱۴۴] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۸۰.

[۱۴۵] (۳) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۹.

[۱۴۶] (۱)« العلا» جمع« عليا» بمعنى الأعلى والأشرف.

[۱۴۷] (۲)« أطوار» جمع« طور» على وزن قول بمعنى الصنف، كما تعنى الحد والحالة أيضاً.

[۱۴۸] (۳) ان الضمير« هن» فى العبارة كما يشير ظاهرها يعود إلى السموات، إلّاأنّ المراد الفواصل بين السموات بدليل قوله« ثم فتق ...» وفاء التفريع فى« فملأهن».

[۱۴۹] (۴)« سجود» جمع« ساجد»، كالركوع جمع راكع.

[۱۵۰] (۵)« صافون» جمع« صاف» على وزن حاد من مادة« صف» بمعنى المساواة وقد اقتبست فى الأصل من« صفصف» بمعنى الأرض المستوية.

[۱۵۱] (۶) سورة الملك/ ۱۹.

[۱۵۲] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۳.

[۱۵۳] (۲) بحار الانوار ۵۹/ ۱۹۸.

[۱۵۴] (۳) سورة الزمر/ ۷.

[۱۵۵] (۱) سورة النحل/ ۱۰۲.

[۱۵۶] (۲) سورة البقرة/ ۹۷.

[۱۵۷] (۳) سورة النحل/ ۲.

[۱۵۸] (۱)« سدنة» جمع« سادن» بمعنى الخادم والبواب.

[۱۵۹] (۲) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ۱/ ۱۵۸ وشرح نهج البلاغة للمرحوم الميرزا حبيب اللّه الخوئى ۲/ ۲۶.

[۱۶۰] (۱)« ناكسة» من مادة« نكس» على وزن عكس بمعنى الانقلاب رأساً على عقب ولذلك يطلق المنكوس على الوليد الذى يسقط على رجليه.

[۱۶۱] (۲)« متلفعون» من مادة« لفع» على وزن نفع بمعنى الاشتمال على الشيء والالتفاف به، ومن هنا يقال للمرأة حين تلف عليها عباءها« تلفعت المرأة».

[۱۶۲] (۳)« نظائر» جمع« نظير» بمعنى المثل.

[۱۶۳] (۱) بحار الأنوار ۵۶/ ۲۰۲(باب حقيقة الملائكة).

[۱۶۴] (۱) سورة بقرة/ ۲۸۵.

[۱۶۵] (۱) منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة ۲/ ۳۲- ۳۵، وقد أورد المرحوم العلّامة المجلسى الروايات المرتبطة بالعرش والكرسى فى المجلد ۵۵ من بحار الأنوار، ومنها الروايات السابقة فى ص ۵، ۱۷ و ۵۵.

[۱۶۶] (۱) سورة الأنبياء/ ۲۶- ۲۷.

[۱۶۷] (۲) سورة التحريم/ ۶.

[۱۶۸] (۱) سورة الأنبياء/ ۲۸.

[۱۶۹] (۱)« حزْن» على وزن« وزن» بمعنى المواضع الوعرة على الأرض، كما يطلق الحُزن أو الحَزَن على الهم والغم، لأنه نوع وعورة فى روح الإنسان.

[۱۷۰] (۲)« عذب» على وزن« جذب» بمعنى الماء الطاهر والحلو الصالح للشرب.

[۱۷۱] (۳)« سبخ» وجمعها سباخ بمعنى ما ملح من الأرض.

[۱۷۲] (۴)« سنّ» من مادة« سن» على وزن ظن بمعنى صب الماء على شيء، كما تأتى بمعنى نعومة الشيء.

[۱۷۳] (۵)« لاط» من مادة« لوط» على وزن صوت بمعنى خلط الشيء وعجنه.

[۱۷۴] (۶)« لزبت» من مادة« لزوب» على وزن سكوت بمعنى التصق وثبت واشتد.

[۱۷۵] (۷)« أحنا» جمع« حنو» على وزن حرص بمعنى الانحناء والجوانب والأطراف.

[۱۷۶] (۱)« أصلد» من مادة« صلد» على وزن صبر بمعنى أحكم وجعل الشيء صلباً أصلتاً.

[۱۷۷] (۲)« صلصل» من مادة« صلصلة» بمعنى اليبوسة والجفاف بحيث تخرج منها الأصوات بمجرّد ملامستها لشيء، كما وردت بمعنى الجاف والمحكم.

[۱۷۸] (۳) اللام فى« لوقت معدود» بمعنى إلى. ذهب البعض إلى أنّها لام التعليل، بينما احتمل البعض أنّ المراد بهذه العبارة هو أنّ هذا الوضع سيستمر إلى قيام الساعة ثم تتفكك بعد ذلك أعضاء البدن تماماً، إلّاانّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً للغاية، لأنّه من المراحل المختلفة لخلق الإنسان ولم تطرح لحد الآن قضية نفخ الروح.

[۱۷۹] (۴)« فبقى أربعين سنة ملقى تمر به الملائكة فتقول لأمر ما خلقت؟». منهاج البراعة ۲/ ۴۴.

[۱۸۰] (۵)« مثلت» من مادة« مثول» على وزن حصول بمعنى استوت وقامت.

[۱۸۱] (۶)« يجيل» من مادة« اجالة»(مصدر باب أفعال من جول وجولان بمعنى يدور).

[۱۸۲] (۱)« يختدم» من مادة« اختدام» بمعنى الاستخدام.

[۱۸۳] (۱) أنّ العبارة« والأذواق والمشام والألوان والأجناس» هى عطف على عبارة الحق والباطل، بينما عدها البعض عطفاً على المعرفة. فى حين يفيد التأمل فى كلامه عليه السلام أن المعنى الأول هو الأنسب. وعلى ضوء المعنى الأول فان قوّة التمييز المعرفة

ستشمل كل هذه الامور، امّا على أساس المعنى الثانى فانّ المعرفة تعدّ من النعم الإلهية، كما أن قوّة الشامة والباصرة والذائقة هى نعمة اخرى(لابدّ من التأمل هنا).

[۱۸۴] (۲)« الجنس» فى اللغة بمعنى الأقسام والأنواع المختلفة، وهناك القرائن الواردة فى خطب نهج البلاغة التى تدل على هذا المعنى ومنها الخطبة رقم ۹۱.

[۱۸۵] (۳)« معجوناً» حال للإنسان الذى ورد فى العبارة السابقة.

[۱۸۶] (۱) يمكن أن تكون جملة« من الحر والبرد» بياناً للاخلاط المتباينة، أو للأضداد والأخلاط معاً.

[۱۸۷] (۱) راجع من أجل الوقوف بصورة أعمق كتاب« الداروينية وآخر فرضيات التكامل». كما استعرضنا ذلك بصورة مقتضبة فى تفسيرنا الأمثل ۱۱/ الآية ذيل الآيات ۲۶ حتى ۴۴ من سورة الحجر.

[۱۸۸] (۱) سورة الحجر/ ۲۹.

[۱۸۹] (۲) سورة المؤمنون/ ۱۴.

[۱۹۰] (۳) سورة الأعراف/ ۱۷۹.

[۱۹۱] (۱)« خنوع» بمعنى الخضوع والتواضع حسب« المقاييس» وأورد الآخرون ما يشبه هذا المعنى أيضاً.

[۱۹۲] (۲) سورة ص/ ۷۰- ۷۱.

[۱۹۳] (۱) سورة البقرة/ ۳۴.

[۱۹۴] (۲)« الحمية» من مادة« حمى» على وزن نهى معناها الأصلى الحرارة التى تنتج من الشمس والنار والمواد الاخرى أو من داخل جسم الإنسان، كما يعبر أحياناً بالحمية عن القوة الغضبية حيث إنّ حالة الإنسان تشتعل آنذاك، ويطلق الحمى على حرارة البدن حين الارتفاع.

[۱۹۵] (۱) سورة الحجر/ ۳۶.

[۱۹۶] (۲) إشارة إلى آية ۳۷ و ۳۸ من سورة الحجر« قالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ».

[۱۹۷] (۳) تفسير نور الثقلين ۳/ ۱۴ ح ۴۶.

[۱۹۸] (۱) لقد تكفلت المناجاة الثانية من المناجاة الخمسة عشر للإمام على بن الحسين عليهما السلام ببيان كيفية تأثير هوى النفس وكذلك تأثير الشيطان فى انحراف الإنسان بصورة مفصلة.

[۱۹۹] (۲) سورة البقرة/ ۳۴ وسورة الاعراف/ ۱۱ وسورة الاسراء/ ۶۱ وسورة الكهف/ ۵۰ وسورة طه/ ۱۱۶.

[۲۰۰] (۳) نور الثقلين ۱/ ۵۸.

[۲۰۱] (۱) سورة الكهف/ ۵۰.

[۲۰۲] (۲) سورة ص/ ۷۶.

[۲۰۳] (۳) مجمع البيان ۱/ ۸۲، ذيل الآية ۳۴ من سورة البقرة.

[۲۰۴] (۱) سورة الكهف/ ۵۰.

[۲۰۵] (۲) سورة الحجر/ ۴۲.

[۲۰۶] (۳) سورة الحجر/ ۱۰۰.

[۲۰۷] (۱) سورة آل عمران/ ۱۷۸؛ سورة الروم/ ۴۱.

[۲۰۸] (۲) سورة الحج/ ۵۳- ۵۴.

[۲۰۹] (۱) تفسير نور الثقلين ۴/ ۴۷۲ ح ۹۳.

[۲۱۰] (۲) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ۱/ ۱۹۰ فصاعداً.

[۲۱۱] (۱) راجع كتاب التفسير بالرأى لآية اللَّه مكارم الشيرازى بشأن هذا الموضوع.

[۲۱۲] (۱) فى ظلال نهج البلاغة ۱/ ۵۱.

[۲۱۳] (۱)« أرغـد» من مـادة« الرغـد» بمعنى الحيـاة الرغيـدة الوادعـة، كما ترد بمعنى النعمـة الوافرة بالنسـبة للإنسان والحيوان أيضاً(المفردات ومقاييس اللغة).

[۲۱۴] (۲)« نفاسـة» من مادة« النفس» على وزن« حبس» بمعنى الروح، ولما كان التنفس مصـدر الحياة فقـد اسـتخدمت هـذه المفردة لذلك المعنى، ثم وردت« المنافسة» بمعنى السعى من أجل الوصول إلى مكانة مهمّة، لأنّ الإنسان يجهد نفسه فى ذلك السعى، ومن هنا استعملت« النفاسة» بمعنى الحسد والبخل(المفردات ومقاييس اللغة ولسان العرب).

[۲۱۵] (۱) هناك احتمالان حول رجوع الضـمير فى« شـكه» و« وهنه»، فقد صرّح أغلب شرّاح نهج البلاغة بأنّ الضمير يعود إلى آدم؛ أى أن آدم عليه السـلام باع يقينه بشـكه وعزمه بوهنه وضـعفه. بينما الاحتمال الآخر أن يكون الضـمير عائـداً إلى إبليس فى المفردتين وذلـك لأنّه هو الـذى أوجـد هـذا الشك والوهن، ففى الواقع هو اضافـة إلى السـبب لا مفعول. لكن يبـدو الاحتمال الأول أصوب من الثانى.

[۲۱۶] (۲) سورة طه/ ۱۱۵.

[۲۱۷] (۳) سورة الاعراف/ ۲۱.

[۲۱۸] (۴)« الجذل» على وزن الجدل بمعنى الفرح والسرور كما وردت فى صحاح اللغة، وقال صاحب المقاييس أنّ الجذل على وزن الجسم بمعنى جذر الشجرة الذى يقومها ويمنحها الاستقامة، ومن هنا كانت قامة الفرحان مستوية بينما كانت قامة المغموم منحنية، كما تطلق أحياناً على الأرض اللزجة، إلّاأنّها استعملت بمعنى الفرح.

[۲۱۹] (۵)« وجل» على وزن أجل بمعنى الخوف والخشية.

[۲۲۰] (۱) هناك كلام فى الضـمير« جنته» هل يعود إلى اللَّه أم إلى آدم. فلو كان عائـداً إلى آدم، فان ظاهر العبارة يفيد إرجاعه إلى الجنّة التى كـان فيها عليه السـلام، وإن عاد الضـمير إلى اللَّه فلا لزوم أن تكون تلك الجنّة التى كان فيها آدم، ويمكن أن تكون جنّة آدم جنّة دنيويـة أو الجنّة التى سـيعود إليها وهى الجنّة الأخرويـة كجنّة الخلد، لكن الظاهر أن الضـمير يرجع إلى لفظ الجلالة بقرينة الضـمير فى توبته ورحمته، رغم أنّ ظاهر كلمة(مردّ) يفيد العودةتلك الجنّة، ويمكن أن تكون مطلق الجنّة، بعبارة اخرى ليس هنالك من منافاة بين نوع الجنّة مع المفردة« مردّ».

[۲۲۱] (۱) بحار الانوار ۱۱/ ۱۴۳، ح ۱۲.

[۲۲۲] (۲) الكافى ۳/ ۲۴۷، باب جنّة الدنيا، ح ۲.

[۲۲۳] (۱) قال ابن أبى الحديد: تعتقد الإمامية لايجوز على اللَّه أن يبعث نبياً وقد ارتكب المعاصى قبل نبوته سواء الكبيرة أو الصغيرة، عمداً أو سـهواً؛ وتختص هذه العقيدة بالإمايمة، أمّا أصحابنا فلا يرون امتناع الكبائر على النبى قبل نبوّته. وأضاف ابن أبى‌الحديد وهذا ما يعتقده الإمامية بالنسـبة لأئمتهم الاثنى عشـر حيث يرون لهم عصـمة مطلقة كعصـمة الأنبياء(شـرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۱۰).

[۲۲۴] (۲) سورة طه/ ۱۱۷.

[۲۲۵] (۱) تفسير نور الثقلين ۲/ ۱۱ ح ۳۴؛ سورة الاعراف/ ۲۰.

[۲۲۶] (۲) سورة الأعراف/ ۲۱.

[۲۲۷] (۳) انظر تفسير نور الثقلين ۱/ ۶۰؛ الدر المنثور ۱/ ۵۲ و ۵۳ وذيل الآية ۳۵ من سورة البقرة.

[۲۲۸] (۱) نور الثقلين ۱/ ۶۰(بتلخيص).

[۲۲۹] (۲) التوراة، سفر التكوين، الفصل الثانى، رقم ۱۷.

[۲۳۰] (۳) بحار الأنوار ۱۱/ ۱۸۱.

[۲۳۱] (۴) تفسير نور الثقلين ۱/ ۶۷.

[۲۳۲] (۱) كتاب الخصال نقلًا عن تفسير الثقلين ۱/ ۶۸.

[۲۳۳] (۲) تفسير الدر المنثور ۱/ ۶۰(ذيل الآية ۳۷ من سورة البقرة).

[۲۳۴] (۳) شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئى ۲/ ۱۱۸.

[۲۳۵] (۴) تفسير الدر المنثور ۱/ ۵۹.

[۲۳۶] (۱)« الميثاق» كما ورد فى صحاح اللغة من مادة« الوثوق» بمعنى الاعتماد على أمانة الشخص. ومن هنا أطلق على الميثاق اسم العهد، لأنّه يدعو إلى الاطمئنان والوثوق(طبعاً كان الأصل موثاق ثم بدلت الواو بالياء).

[۲۳۷] (۲) انظر التفسير الموضوعى« نفحات القرآن» ۷/ ۳۱۷.

[۲۳۸] (۳) سورة الأحزاب/ ۷.

[۲۳۹] (۴)« أنداد» جمع« ند» على(وزن) ضد بمعنى المثل، وأراد هنا المعبودين من دونه سبحانه وتعالى، بينما قال صاحب المقاييس أنّها تعنى الانفصال والهروب والمخالفة. ولهذا قال اللغويون بأن الند لا يطلق على كل مثل، بل تطلق على المثل الذى يتخذ مساراً يخالف آخر فى أعماله وأفعاله كالفرد الذى يماثل آخر إلّاأنّه يحاربه.

[۲۴۰] (۵)« اجتال» من مادة« جولان» بمعنى العصر، إلّاأنّها اقترنت بالحرف(عن) فى عبارة الإمام عليه السلام فعنت الانصراف عن الشيء، ومعناها هنا صرفتهم عن قصدهم.

[۲۴۱] (۶) لقد ذكر هذا الاحتمال فى الأبحاث المتعلقة بعالم الذر، حيث يمكن أن يكون تفسيرها بالمسائل الفطرية والاستعدادات الإلهية التى أودعها اللَّه الذات الإنسانية. وللوقوف أكثر على هذا الموضوع، راجع تفسير الأمثل ۷/ ۴.

[۲۴۲] (۱)« واتر» من مادة« وتر» بمعنى الفرد فى مقابل الشفع بمعنى الزوج، وجاءت هنا بمعنى الواحد؛ أى أنّ الأنبياء قد أتوا الواحد تلو الآخر من أجل هداية الناس. وقال البعض معناها الموالاة مع الفاصلة، كأن يقال« واتر ما عليه من الصوم»؛ أى صام يوماً وأفطر آخر، فى قبال« متدارك» الذى يعنى الموالاة دون تخلل الفاصلة.

[۲۴۳] (۱)« أوصاب» من مادة« وصب» بمعنى مرض مزمن، والواصب يطلق على الشيء الموجود دائماً حسب المفردات، وجاءت هنا بمعنى المتاعب والمشاكل والمعاناة.

[۲۴۴] (۲)« تهرمهم» من مادة« هرم» على وزن حرم بمعنى الكهولة والعجز.

[۲۴۵] (۱) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، مادة الحج.

[۲۴۶] (۲)« غابر» من مادة« غبار» و« غبور» بمعنى الشيء المتبقى، ومن هنا يطلق على الحليب المتبقى فى الثدى اسم الغبرة، كما يطلق الغبار على التراب المتبقى فى الهواء، ويقال الغابر للأشخاص والأزمنة الماضية(راجع المقاييس والمفردات ولسان العرب).

[۲۴۷] (۱) لقد ورد الفعل« سمى» بصيغة المجهول فى بعض نسخ نهج البلاغة وما ذكرناه سابقاً يتفق وهذه النسخة، أمّا إذا ذكر بصيغة المعلوم تصبح العبارة بهذا الشكل« من سابق سمى له من بعده» إلّاانّ الاحتمال الأول أنسب.

[۲۴۸] (۲)« نسلت» القرون من مادة« نسل» بمعنى تكاثر الأولاد، والعبارة كناية رائعة عن توالى القرون وكأن كل قرن قد ولد من القرن السابق.

[۲۴۹] (۱) للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع، انظر كتاب نفحات القرآن ۴/ ۴۴۰ فصاعداً.

[۲۵۰] (۱) أصول الکافی ۱/ ۱۶.

[۲۵۱] (۱) الکافی ۱/ ۱۷۹.

[۲۵۲] (۲) نهج البلاغة، الکلمات القصار، ۱۴۷.

[۲۵۳] (۳) سورة الأحزاب/ ۳۹.

[۲۵۴] (۴) منهاج البراعة ۲/ ۱۶۰.

[۲۵۵] (۱) راجع کتاب القواعد الفقهیة ۱/ ۳۸۳، قاعدّة التقیة للوقوف بصورة أشمل علی مفهوم التقیة وتقسیمها إلی الأحکام الخمسة(الواجب والحرام والمستحب والمکروه والمباح) والآیات والروایات الواردة بهذا الشأن.

[۲۵۶] (۱)« انجاز» من مادة« نجز» علی وزن رجز بمعنی الانهاء وتحقیق الشیء.

[۲۵۷] (۲) الضمیر فی(نبوته) یعود إلی النبی، أمّا الضمیر فی(عدته) ففیه احتمالان: أن یکون عائداً علی اللَّه أو عائداً علی النبی، إلّاأنّ الأول أنسب، وذلک لأن بعثة النبی کانت وعداً إلهیاً وعد بها نبی اللَّه إبراهیم الخلیل علیه السلام وسائر الأنبیاء، کما یحتمل أن یکون الضمیران عائدین للَّهسبحانه.

[۲۵۸] (۳)« سماته» جمع« سمة» بمعنی العلامة.

[۲۵۹] (۴) إذا تعدت رغب بحرف فی عنت الرغبة فی الشیء والاقبال علیه، بینما تعنی العزوف عن الشیء والانصراف عنه، حیث یکون معنی العبارة أن اللَّه لم یرد لنبیه أن یعیش صعاب الدنیا أکثر من هذا الحد، فقبضه من هذا العالم الدنی لیضمه إلی جواره فی العالم العلوی.

[۲۶۰] (۱)« هملًا» من مادة« همل» علی وزن حمل بمعنی ترک الشیء إلی جانب اهماله وعدم الاهتمام به.

[۲۶۱] (۲) راجع کتاب« نفحات القرآن» المجلد التاسع للوقوف علی أسناد حدیث الثقلین وتواتره عند علماء الفریقین.

[۲۶۲] (۱) سورة الجاثیة/ ۲۴.

[۲۶۳] (۲) سورة یس/ ۷۸.

[۲۶۴] (۳) سورة الزمر/ ۳.

[۲۶۵] (۴) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۳/ ۲۲۷.

[۲۶۶] (۵) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۱/ ۱۱۷.

[۲۶۷] (۶) شرح نهج‌البلاغة لابن میثم ۱/ ۲۰۵.

[۲۶۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن میثم، ۱/ ۲۰۶.

[۲۶۹] (۲) سورة الجمعة/ ۲.

[۲۷۰] (۱) فی ضلال نهج البلاغة ۱/ ۶۳.

[۲۷۱] (۱) کتاب منصوب بصفته عطف بیان للحرف مافی الجملة(خلف فیکم ما خلفت الأنبیاء) أو أنّه مفعول لفعل تقدیره(خلف) أو(أعنی).

[۲۷۲] (۱) وردت کلمة« مبیناً» بصیغة اسم الفاعل وهی حال لفاعل خلق(أی الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله) والضمیر فی حلاله وحرامه و .. یعود علی القرآن بینما ذهب بعض شرّاح النهج إلی أن مبیناً وسائر الأوصاف التی وردت لاحقاً من قبیل مفسراً هی حال لکتاب اللَّه، والضمائر فی حلاله وحرامه و ... تعود إلی کتاب اللَّه أو ربّکم، إلّاانّ القول الأول أنسب.

[۲۷۳] (۲) سورة المجادلة/ ۱۲.

[۲۷۴] (۳) سورة المجادلة/ ۱۳.

[۲۷۵] (۴) سورة المائدة/ ۲.

[۲۷۶] (۵) سورة النساء/ ۱۰۱.

[۲۷۷] (۱) سورة البقرة/ ۱۷۳.

[۲۷۸] (۲) سورة النساء/ ۳۶.

[۲۷۹] (۳) سورة آل عمران/ ۹۷.

[۲۸۰] (۴) سورة المائدة/ ۵۵.

[۲۸۱] (۵) سورة المائدة/ ۳۸.

[۲۸۲] (۶) سورة إبراهیم/ ۲۴.

[۲۸۳] (۱) سورة التحریم/ ۱۱.

[۲۸۴] (۲) سورة البقرة/ ۲۷۵.

[۲۸۵] (۳) سورة النساء/ ۲۹.

[۲۸۶] (۴) سورة المائدة/ ۸۹.

[۲۸۷] (۵) سورة النساء/ ۹۲.

[۲۸۸] (۶) سورة القیامة/ ۲۳.

[۲۸۹] (۷) سورة الانعام/ ۱۰۳.

[۲۹۰] (۱) سورة النساء/ ۱۵.

[۲۹۱] (۲) سورة البقرة/ ۱۷۸.

[۲۹۲] (۱) هناک محذوف فی هذه العبارة، ففی الحالة الثانیة یکون تقدیر العبارة کالآتی:« وبین ما یکون واجباً دائما».

[۲۹۳] (۲) مباین خبر لمبتدأ محذوف تقیر الجملة هو مباین، والضمیر هو یعود إلی الکتاب، وهنالک إحتمال آخر إلّاأنّ الذی أوردناه هو الأنسب.

[۲۹۴] (۳) سورة المزمل/ ۲۰.

[۲۹۵] (۱) سورة الحشر/ ۷.

[۲۹۶] (۲) لقد ورد هذا الحدیث بعدة تعابیر فی مصادر الشیعة والسنّة، فراجع احقاق الحق، ۹/ ۳۰۹- ۳۷۵؛ بحار الانوار ۲۳/ ۱۱۸، ۱۳۲، ۳۳، ۱۳۴، ۱۵۵؛ رسالة الثقلین ۹.

[۲۹۷] (۱) تفسیر نور الثقلین ۱/ ۴۷۳.

[۲۹۸] (۱) راجع تفسیر الأمثل ۱/ ۳۹۰ ذیل الآیة ۱۰۶ من سورة البقرة.

[۲۹۹] (۲) سورة یوسف/ ۱۱۱.

[۳۰۰] (۳) سورة الروم/ ۴۲.

[۳۰۱] (۱) سورة الزمر/ ۲۷.

[۳۰۲] (۱)« أنام» فسرها البعض بالناس، والبعض الآخر بالموجودات العاقلة التی تعیش علی الأرض من الإنس والجن. وعلی ضوء التفسیر الأول یصبح مفهوم العبارة اختصاص القبلة بالناس، بینما تکون قبلة الانس والجن حسب التفسیر الثانی. وقیل هی مشتقة من مادة ونام بمعنی الصوت ثم اطلقت فیما بعد علی جمیع الکائنات الحیة ولا سیما الانس والجن(تاج العروس، مادة أنم).

[۳۰۳] (۲)« یردون» من مادة« ورود» بمعنی دخول الحیوانات علی حیاضها عند عطشها ثم اطلق علی کل دخول لمکان.

[۳۰۴] (۳)« يـألهون» من مـادة« ألَه، ألوهـاً» بمعنى العبـادة. بنـاءً على هـذا يألهون بمعنى يعبـدون، كما قيل إنّ مادته تعنى الحيرة؛ لأنّ الإنسان يتحير حين يفكر فى ذات اللَّه وصـفاته. وقيل أصـله(وله) وقد اسـتدلت واوه بالهمزة(ويؤيد هذا المعنى ورود كلمة الولوه فى العبارة بصيغة المفعول المطلق) والوله بمعنى التضرع بلهفة.

[۳۰۵] (۴)« الحمام» بالفتح بمعنى الطيور والحمام بالكسر بمعنى الموت، وقد أريد المعنى الأول فى العبارة(أى الحمام بالفتح).

[۳۰۶] (۱)« سماع» على وزن طلاب جمع« سامع» كطلاب جمع طالب.

[۳۰۷] (۲) ليس هنالك من فارق يذكر بشأن الضمير فى(إليه) ان كان عائداً لبيت اللَّه أو إلى لفظ الجلالة.

[۳۰۸] (۳) نور الثقلين ۳/ ۴۸۸، ح ۷۴.

[۳۰۹] (۴) شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئى ۲/ ۲۴۹ نقلًا عن الكافى؛ بحار الانوار ۹۶/ ۱۸۷.

[۳۱۰] (۵) ورد فى الأحـاديث أنّ من الأنبيـاء الـذين حجـوا الـبيت هم آدم ونوح وابراهيم وموسـى ويونس وعيسـى وسـليمان ونـبى الإسلام صلى الله عليه و آله(شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئى ۲/ ۲۵۲).

[۳۱۱] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۲۴.

[۳۱۲] (۲)« يحرزون» من مـادة« الاـحراز» بمعنى الحفـظ والادخـار والخزن. ومن هنا يطلق الحرز على الموضع المحفوظ كالصـندوق والمخزن وما شابه ذلك.

[۳۱۳] (۳)« وفادة» بمعنى البزوغ والطلوع، ثم أصبحت بمعنى النزول والدخول، كما يصطلح بالوفد على الهيئة والجماعة التى ترد على دولة أو زعيم أو فئة ذات مكانة.

[۳۱۴] (۱) بحار الأنوار ۱۲/ ۸۶.

[۳۱۵] (۲) سورة البقرة/ ۱۲۷.

[۳۱۶] (۳) سورة آل عمران/ ۹۶.

[۳۱۷] (۴) شرح نهج البلاغة للخوئى ۲/ ۲۳۵.

[۳۱۸] (۵) فروع الكافى ۴/ ۲۴۰(باب فضل النظر إلى الكعبة).

[۳۱۹] (۶) وسائل الشيعة ۸/ ۷(باب وجوبه على كل مكلف مستطيع).

[۳۲۰] (۱) بحار الأنوار ۹۹/ ۲۶.

[۳۲۱] (۱) فروع الكافى ۴/ ۲۷۱(باب أنّه لو ترك الناس الحج لجاءهم العذاب).

[۳۲۲] (۲) دليل الحرمين الشريفين ۱/ ۵۴(نقلًا عن قول القمر).

[۳۲۳] (۱) لقـد أشارت الروايـة التى نقلها هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السـلام بصورة إجماليـة إلى فلسـفة هـذه الجوانب الأربعة للحج(وسائل الشيعة ۸/ ۹) كما يمكن لمن أراد المزيد أن يراجع التفسير الأمثل/ ۱۴ بشأن فلسفة الحج.

[۳۲۴] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۴۳.

[۳۲۵] (۱)« استتمام» قد تعنى الاتمام أو المطالبة بالاتمام، وقد أريد بها هنا المعنى الثانى ويؤيد ذلك الجملة اللاحقة.

[۳۲۶] (۲)« استسلام» بمعنى الانقياد والتسليم، وعناها بعض اللغويين بموافقة الظاهر للباطن بالنسبة للشىء والانقياد من لوازمها.

[۳۲۷] (۳)« استعصام» بمعنى المطالبة والحفظ ودفع الامور المكروهة.

[۳۲۸] (۴) سورة إبراهيم/ ۷.

[۳۲۹] (۵)« يئل» من مادة« وأل» على وزن وعد بمعنى النجاة واللجوء والعودة.

[۳۳۰] (۱)« ممتحن» من مادة« محن» على وزن وهن بمعنى الاختبار والامتحان، إلّاانّ بعض أرباب اللغـة قالوا أصـلها اسـتخراج التراب

حين حفر البئر.

[٣٣١] (٢)« مصاص» من مادة« مص» على وزن نص بمعنى التذوق والامتصاص ومن هنا اصطلح بالمصاص على عصارة الشيء الممتص حين وروده بدن الإنسان.

[٣٣٢] (٣)« الأهاويل» جمع أهوال« وهول» بمعنى الخشية والخوف.

[٣٣٣] (۴)« مدحرة» من مادة« دحر» بمعنى الطرد والابعاد.

[٣٣۴] (١)« المأثور» من مادة« أثر» بمعنى العلامة الباقية من الشيء ولذلك يطلق على العلوم المتبقية من الماضين« علم المأثور».

[٣٣۵] (٢)« الساطع» من مادة« سطوع» بمعنى الانتشار، فالنور الساطع هو النور الواسع المنتشر كما ورد بمعنى المرتفع.

[٣٣۶] (٣)« صادع» من مادة« صدع» بمعنى الشق فى الجسم الصلب والمحكم ثم أطلق على كل شيء قاطع.

[٣٣٧] (۴) سورة حجر/ ٩۴.

[٣٣٨] (١)« ازاحة» من مادة« زيح» على وزن زيد بمعنى الأبعاد والاقصاء.

[٣٣٩] (٢)« مثلات» جمع« مثله» على وزن عضلة بمعنى البلاء والمصاب الذى يحل بالإنسان فيصبح مثالًا وعبرة للآخرين(مفردات الراغب، تحقيق، الصحاح ومجمع البحرين).

[٣۴٠] (٣) سورة الرعد/ ۶.

[٣۴١] (۴) سورة البقرة/ ٢٨۵.

[٣۴٢] (١) سورة مريم/ ٩۵.

[٣۴٣] (١) مناقب ابن شهر آشوب، ٢/ ١١۵(مستدرك الوسائل؛ ١٨/ ٢٨ وبحار الانوار، ۴١/ ۵١).

[٣۴۴] (٢) نهج البلاغه، الخطبة ١٢۶.

[٣۴۵] (١) كتاب« المناقب المرتضوية» تأليف المولى محمد صالح الكشفى الحنفى/ ٣۶۴، طبعة بومباى(مطابق نقل احقاق الحق ٨/ ۶٠٢).

[٣۴۶] (١) طبقا لما ورد آنفا فان الواو فى قوله« و الناس فى فتن ....» حالية أى أنّ الله سبحانه بعث النبى صلى الله عليه و آله حين كان الناس على هذه الحالة، إلّاأنّ بعض شرّاح نهج البلاغة إحتملوا أن الواو إبتدائية والعبارات رسمت صورة عن أوضاع الناس فى عصر الإمام عليه السلام، غير أنّ هذا الاحتمال لا يبدو صحيحا والحق هو الاحتمال الأول، رغم انّ هذه العبارات يمكن أن تكون تحذيرا للُامّة فى عصره من العودة إلى عصر الجاهلية بفعل أمراض حب الذات واطاعة الاهواء.

[٣۴٧] (١)« إنجذم» من مادة« الانجذام» بمعنى إنقطع وإنفصل ومن هنا يطلق إسم الجذام على ذلك المرض الذى يصيب الجسم فيؤدى إلى انفصال الأعضاء.

[٣۴٨] (٢)« تزعزعت» من مادة« زعزع» بمعنى تحركت واضطربت، فيقال على سبيل المثال: زعزع الريح الشجرة.

[٣۴٩] (٣)« سوارى» جمع سارية العمود و الدعامة.

[٣۵٠] (۴)« نجر» على وزن فجر يعنى الاصل، كما يعنى الاصلاح والشكل والهيئة ومنه اطلق اسم النجار. وقد وردت هذه المفردة فى العبارة بالمعنى الأول.

[٣۵١] (۵) سورة البقرة/ ٢٨۵

[٣۵٢] (١)« خامل» بمعنى الشيء المنسى الذى لاقيمة له.

[٣۵٣] (١)« إنهارت» من مادة« الانهيار» بمعنى الاندراس والزوال.

[٣۵۴] (٢)« درست» من مادة« دروس» بمعنى إندثار آثار الشيء وزوالها.

[۳۵۵] (۳)« شرک» جمع« شرکة» علی وزن حسنه، وقال البعض جمع أشراک بمعنی الطرق العامة.

[۳۵۶] (۴)« مناهل» جمع« منهل» بمعنی مورد النهی.

[۳۵۷] (۵)« سارت» من مادة« سور» بمعنی الرفع والاعلاء.

[۳۵۸] (۶)« داست» من مادة« دوس» و« دیاس» بمعنی الهضم.

[۳۵۹] (۷)« أخفاف» جمع« خف» وهو للبعیر کالقدم للإنسان.

[۳۶۰] (۸).« اظلاف» جمع« ظلف» بالکسر للبقر والشاء وشبههما کالخف للبعیر والقدم للإنسان.

[۳۶۱] (۹)« سنابک» جمع« سنبک» علی وزن قنفذ بمعنی طرف الحافر.

[۳۶۲] (۱۰) یمکن أن تکون جملة« فی فتن داستهم» متعلقة بمحذوف تقدیره لا والناس فی فتن داستهم»، کما إحتمل البعض أنّ الجار والمجرور متعلق بسارت فی الجملة السابقة ویبدو الاحتمال الأول أقوی.

[۳۶۳] (۱) تائهون جمع تائه بمعنی الضائع.

[۳۶۴] (۲) ذهب البعض إلی أن الجار والمجرور فی قوله« فی خیر دار» یتعلق بمفتونین، والحال أن الانسب أن یکون خبر لمبتدأ محذوف تقدیره« و الناس فی خیر دار» والجملة حال لعصر الجاهلیة والواو فی قوله وشر جیران هی واو المعیة.

[۳۶۵] (۳) سهود مصدر بمعنی الارق وقلة النوم(الصحاح، المفردات، لسان العرب والمقاییس).

[۳۶۶] (۱) شرح نهج البلاغه لابن أبی الحدید ۱/ ۱۳۷.

[۳۶۷] (۱) سورة الانعام/ ۱۳۷.

[۳۶۸] (۲) سورة الاسراء/ ۳۱.

[۳۶۹] (۳) سورة التکویر/ ۸.

[۳۷۰] (۱) سورة الانفال/ ۳۵. امّا المشهور بالنسبة لسبب نزول سورة التوبة ومن الامور التی أمر أمیر المؤمنین علیه السلام بابلاغها المشرکین« و لا یطوفن یا لبیت عریانا». نور الیقلین، ۲/ ۱۷۹- ۱۸۱ ح ۱۴ و ۱۷ و ۱۸ و ۲۰ ومجمع البیان، ۵/ ۳.

[۳۷۱] (۲) سورة النحل/ ۵۷.

[۳۷۲] (۳) سورة الصافات/ ۱۵۰.

[۳۷۳] (۴) سورة الانعام/ ۱۳۹.

[۳۷۴] (۵) سورة الاحزاب/ ۴.

[۳۷۵] (۶) سورة المجادلة/ ۲.

[۳۷۶] (۱) سورة آل عمران/ ۱۰۳

[۳۷۷] (۲) سورة الجمعة/ ۲.

[۳۷۸] (۳) عذر التقصیر لدی محمد والقرآن، ص ۷۷(نقلا عن تفسیر الامثل، ۳/ ۳۱).

[۳۷۹] (۱) فقد تصدت هذه الأحادیث التی روتها مصادر الفریقیین لبیان مکانة أهل البیت علیه السلام.

فقد صرّح حدیث الثقلین بأنّ أهل البیت علیه السلام هم عدل القرآن الذین لا یفترقون عنه حتی یردا علی النبی صلی الله علیه و آله حوضه. أمّا الحدیث الثانی فقد شبههم بسفینة نوح من رکبها نجی ومن تخلف عنها غرق. وأخیراً حدیث صلی الله علیه و آله الذی قال فیه:« مثل أهل بیتی فیکم کمثل النجوم بای إقتدیتم إهتدیتم وإنّ النجوم أمان لأهل السماء وأهل بیتی أمان لأهل الأرض».

[۳۸۰] (۲)« لجأ» و« ملجأ» بمعنی الملاذ.

[۳۸۱] (۳)« عیبة» بمعنی الوعاء و الصندوق أو الشیئی الذی تحفظ فیه الأشیاء و قد اشتق فی الواقع من العیب و قد استعمل بالمعنی

المذكور لأنّ العيوب عادة ما تستر.

[۳۸۲] (۴)« موئل» من مادة« وأل» على وزن سهل بمعنى المرجع والملاذ وموضع النجاة.

[۳۸۳] (۵)« كهوف» جمع« كهف» بمعنى الغار، إلّاأنّ البعض قال الكهف هو الغار الواسع، ولما كان الناس يلجأون إلى الغيران فى أغلب الأوقات فقد احتمل أن يكون بمعنى الملاذ والموضع الذى يحفظ الأشياء.

[۳۸۴] (۶) اعلم ان هنالك اختلافا بين الشرّاح بشأن الضمير فى هذه العبارات الست. فقد ذهب البعض إلى أنّها ترجع جميعا إلى النبى صلى الله عليه و آله بينما تفيد القرائن أنّ الضمير فيها يعود إلى الله سبحانه(و لا يسما بالالتفات إلى قوله وكهوف كتبه) بينما يعود الضمير فى العبارة الأخيرة إلى الدين كما سيأتى توضيح ذلك لاحقا.

[۳۸۵] (۱) بحار الانوار ۱۰/ ۱۱۸، ح ۱.

[۳۸۶] (۲) راجع التفسير الامثل، ذيل آية ۱۵ من سورة النحل.

[۳۸۷] (۳)« إرتعاد» من مادة« رعدّة» بمعنى الاهتزاز، ومن هنا يطلق الرعد على الصوت العظيم الذى تحدثه السحب والغيوم.

[۳۸۸] (۴)« فرائص» جمع« فريصة» هى اللحمة بين الجنب والكتف التى ترعد حين الخوف ولذلك كانت(ارتعاد الفرائض) كناية عن الخشية والاضطراب، ومن هنا كانت الفرصة تطلق على المدّة الزمانية للقيام بعمل(المقاييس، المفردات ولسان العرب).

[۳۸۹] (۱) نهج البلاغه، الكلمات قصار، ۱۴۷.

[۳۹۰] (۱) راجع الى تفسير نفحات القرآن، ج ۹.

[۳۹۱] (۱)« فجور» من مادة« فجر» بمعنى الشق فى الشى ومن هنا يطلق الفجر على طلوع الصبح وكأن ضياء الصبح يشق حجاب الليل المظلم، كما يصطلح على الأعمال غير المشروعة بالفجور لأنّها تخترق حجب الدين.

[۳۹۲] (۲)« الغرور» بمعنى الغفلة فى اليقظة، ووردت بمعنى المكر والحيلة، والغرور بفتح الغين بمعنى الشىء الذى يخدع الإنسان ويستغفله، كما فسر بمعنى الشيطان، لانه يخدع الناس بوعوده الكاذبة.

[۳۹۳] (۳)« الثبور» من مادة« ثبر» على وزن صبر بمعنى الحبس والهلاك والفساد الذى يصد الإنسان عن بلوغ الهدف.

[۳۹۴] (۱) انظر إحقاق الحق ۶/ ۴؛ ۱۶/ ۴۰۲ واعيان الشيعه ۱/ ۲۶۴.

[۳۹۵] (۱) تفسير نور الثقلين ۱/ ۲۰- ۲۱.

[۳۹۶] (۲) تفسير نور الثقلين ۱/ ۱۳۴.

[۳۹۷] (۱) هنالك محذوف فى الجملة تقديره:« الآن إذا رجع الحق إلى أهله لم لا تؤدون حقه». وقد ورد تقدير ذلك فى مصادر نهج البلاغة:« الآن إذا رجع الحق إلى أهله من أهل بيت البنوة يجرى ما يجرى من الحوادث ويقع ما يقع من الاختلاف؟».(مصادر نهج البلاغة، ۱/ ۳۰۲) وكلا النتجيتين واحدة.

[۳۹۸] (۲) سورة الاحزاب/ ۳۳.

[۳۹۹] (۳) سورة آل عمران/ ۶۱.

[۴۰۰] (۴) سورة المائدة/ ۶۷.

[۴۰۱] (۵) لقد أشرنا فى ذيل كل آية واردة بهذا الشأن فى التفسير الأمثل إلى المصادر؛ ومن أراد الوقوف على ۲ التفاصيل فليراجع احقاق الحق، ج ۳ ورسالة القرآن، ج ۹.

[۴۰۲] (۱) كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة للمرحوم المحقق الفيروز آبادى.

[۴۰۳] (۲) عبقات الأنوار للسيد حامد حسين الهندى.

[۴۰۴] (۱) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱/ ۱۷.

[۴۰۵] (۲) على فى الكتاب والسنة ۱/ ۱۰.

[۴۰۶] (۳) الغدير ۱۰/ ۲۷۱.

[۴۰۷] (۴) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ۱/ ۱۴۰.

[۴۰۸] (۱) شواهد التنزيل ۱/ ۳۲۹.

[۴۰۹] (۲) صحيح الترمذى، ۱۳/ ۱۶۸، طبع الصاوى مصر(۵/ ۶۳۵ طبع دار احياء التراث العربى).

[۴۱۰] (۳) انظر« رسالة القرآن»/ ۹.

[۴۱۱] (۱) منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة، ۳/ ۳۲.

[۴۱۲] (۲)« الرحبة» بمعنى المكان الواسع، ويعتقد البعض أنّها اسم موضع فى الكوفة، بينما يرى البعض الآخر هى موضع يبعد ثمانية فراسخ عن الكوفة(مجمع البحرين ومراصد الاطلاع).

[۴۱۳] (۱) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ۱/ ۲۵۱.

[۴۱۴] (۲) تذكرة الخواص/ ۱۲۴.

[۴۱۵] (۳) شرح ابن ميثم بحرانى ۱/ ۲۵۲.

[۴۱۶] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۲۰۵

[۴۱۷] (۱)« تقمص» من مادة فميص بمعنى لبسها كالقميص.

[۴۱۸] (۲)« الرحا» بمعنى الطاحونة، وقد استعملت مادتها بصورة ناقص واوى وناقص يائى.

[۴۱۹] (۳)« ينحدر» من مادة إنحدار بمعنى الانهمار والسقوط على وجه الكثرة.

[۴۲۰] (۱) سورة النحل/ ۱۱.

[۴۲۱] (۲) للوقوف على حقيقة التعبيرات الواردة بشأن أميرالمؤمنين على عليه السلام وأفضليته المطلقة على من سواه من أفراد الامّة، نكتفى بالايضاحات التى وردت فى مقدمة الكتاب بشأن فضائله ومناقبه عليه السلام.

[۴۲۲] (۳) للوقوف على إسناد هذا الحديث المعروف فى مصادر العامة، انظر إحقاق الحق ۵/ ۴۶۸- ۵۰۱.

[۴۲۳] (۴) تفسير نور الثقلين ۵/ ۳۸۶ وليس هنالك من منافاة بين هذا التفسير وذلك الذى فسره بالماء الجارى، ۲ ولا التفسير الذى ورد فى بعض الروايات من أنّ المراد بالماء المعين أصل وجود الإمام عليه السلام، وذلك لإمكانية جمع هذه المعانى فى مفهوم الآية.

[۴۲۴] (۱) لقد ذكر ابن أبى الحديد بحثا مفصلًا بهذا الشأن فى شرحه لنهج البلاغة، ثم تطرق إلى العلوم الإسلامية وشرح كيفية إرتباطها بعلم الإمام عليه السلام من الناحية التاريخية(شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۷- ۲۰).

[۴۲۵] (۱)« سدلت» من مادة« سدل» على وزن عدل بمعنى نزول الشيء من الأعلى إلى الأسفل بحيث يغطى، وعليه فان مفهوم سدلت هنا تركتها وارخيت عليها شيئا.

[۴۲۶] (۲)« كشح» على وزن فتح بمعنى الضلع و« طوى عنه كشحه» كناية عن عدم الاهتمام بشيء والانصراف عنه.

[۴۲۷] (۳)« جذاء» بمعنى القطع والكسر.

[۴۲۸] (۴)« طخية» بمعنى الظلمة وتاتى بمعنى السحب الخفيفة و« الطخياء» بمعنى الليلة الظلماء.

[۴۲۹] (۱)« يكدح» من مادة« كدح» بمعنى السعى المصحوب بالتعب.

[۴۳۰] (۲) الهاء فى هاتا علامة تنبيه والتاء إسم إشارة مونث، إشارة إلى طخية« الظلمة» التى وردت فى العبارة السابقة. واعتبر البعض أن المشار إليه الحالة المستفادة من العبارة فيكون المعنى« فرأيت أنّ الصبر على هذه الحالة أحجى».

[۴۳۱] (۳)« احجى» من مادة« حجا» بمعنى العقل، وعليه أحجى تعنى الاعقل.

[۴۳۲] (۴)« قذى بمعنى التلوث.

[۴۳۳] (۵)« الشجى» بمعنى الهم والغم والشدة والألم، وتعنى أيضا ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه.

[۴۳۴] (۱) سيرة ابن هشام ۴/ ۳۱۶.

[۴۳۵] (۱) سورة مريم/ ۵- ۶.

[۴۳۶] (۲) سورة فاطر/ ۳۲.

[۴۳۷] (۳) اصول الكافى ۱/ ۳۲- ۳۴.

[۴۳۸] (۴) منهاج البراعة ۳/ ۴۵.

[۴۳۹] (۱) انظر مجلة رسالة الحوزة للوقوف على المباحث المهمّة التى طرحت فى تلك الندوةو التقارب الذى حصل بين الأفراد.

[۴۴۰] (۱) توفى فى العام الثالث عشر من الهجرة بعد أن تولى الخلافة لمدة سنتين وثلاثة أشهر.« مروج الذهب ۲/ ۳۰۴ الطبعة الرابعة».

[۴۴۱] (۲) سورة بقرة/ ۱۸۸.

[۴۴۲] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۷۴.

[۴۴۳] (۲) الأعشى من أبرز شعراء الجاهلية. سئل يونس النحوى: من أشعر الشعراء؟ قال: لا أعلم أشعر هم إلّاأنى أقول إمرء القيس فارسا والنابغة حين الخوف وزهير عند الحب وإلّا عشى عند الطرب، أدرك الإسلام ولم يسلم، لقب بالاعشى لضعف بصره وقد عمى آخر عمره واسمه ميمون بن قيس، وأراد بشعره السابق الزمان الذى كان يجالس فيه حيان أخو جابر أحد أشراف اليمامة حين كان يعيش الأعشى آنذاك فى نعمة موفورة فيقارنها مع عيشه الآن فى صحارى مكة والمدينة فيقول أين تلك الحياة من هذه!

[۴۴۴] (۳) شرح ابن ميثم البحرانى ۱/ ۲۵۷.

[۴۴۵] (۴) لقد استفاضت مصادر الفريقين التى روت هذا الحديث، وقد أورده إبن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة، ۱/ ۱۶۹.

و صرّح العالم المصرى الكبير الشيخ محمد عبده فى شرحه لنهج البلاغة قائلًا: روى البعض أنّ أبابكر لما تمت له البيعة قال:« أقيلونى فلست بخيركم» لكن أغلب العلماء رو وا الحديث أنّه قال:« و ليتكم ولست بخيركم»(شرح نهج البلاغة لمحمد عبده، ص ۸۶ ذيل هذه الخطبة). وجاء فى حاشية إحقاق الحق عن ابن حسنويه المحدث الحنفى الموصلى فى كتابه« در بحر المناقب» حديثا مفصلا أنّ أبابكر قال:« أقيلونى فلست بخيركم وعلى فيكم»(إحقاق الحق ۸/ ۲۴۰). وروى الطبرى فى تأريخه لما بويع أبى بكر فى السقيفة قال:« أيّها الناس فانّى قد وليت عليكم ولست بخيركم»(تأريخ الطبرى ۲/ ۴۵۰ طبع بيروت مؤسسة الأعلمى). وروى ابن قتيبة الدينورى فى الإمامة والسياسة أنّ أبابكر خطب الناس باكياً فقال:« لا حاجة لى فى بيعتكم أقيلونى بيعتى»(الإمامة والسياسة ۱/ ۲۰).

[۴۴۶] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۶۹.

[۴۴۷] (۲) نهج البلاغة، خطبة ۱۷۳.

[۴۴۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۶۹.

[۴۴۹] (۲)« حوزة» بمعنى الناحية و الطبيعة، من مادة« حيازة» بمعنى الجمع والاحاطة.

[۴۵۰] (۳)« الكلم» فى الأصل بمعنى الجرح، واطلق لفظ الكلام لاثره القاطع فى المقابل.

[۴۵۱] (۴)« العثار بمعنى السقوط و الكبوة.

[۴۵۲] (۵)« الصعبة» بمعنى الانسان أو الحيوان الطائش، ما ليست بذلول و أريد بالصعبة هنا الناقة الجامحة.

[۴۵۳] (۶)« أشنق» بمعنى سحب زمام الناقة و« شناق» على وزن كتاب يطلق على الحبل الذى تربط به القربة.

[۴۵۴] (۷)« خرم» من مادة« خرم» بمعنى القطع.

[۴۵۵] (۸)« أسلس من» مادة« سلس» على وزن قضص و سلاسه بمعنى السهولة و عليه فان أسلس بمعنى أرخى.

[۴۵۶] (۹)« تقحم» من مادة« قحوم» على وزن شعور بمعنى رمى النفس فى الهلكة دون إجالة الفكر.

[۴۵۷] (۱) هنالك إحتمال ثالث ذكرهنا فى أنّ المراد الخلافة على عهد الإمام على عليه السلام، حيث شهدت الأوضاع بروز خطرين، ويبدو هذا الاحتمال مستبعداً.

[۴۵۸] (۲)« منى» من مادة« منو» بمعنى ابتلى واصيب.

[۴۵۹] (۳)« خبط» بمعنى« ضرب» الناقة للأرض، واريد بها السير على غير هدى

[۴۶۰] (۴)« شماس» بمعنى الاباء والطيش(إباء ظهر الفرس عن الركوب).

[۴۶۱] (۵)« تلون» بمعنى تغيير الحال أو اللون.

[۴۶۲] (۶)« إعتراض» بمعنى السير على غير خط مستقيم، كأنّه يسير عرضاً فى حال سيره طولًا.

[۴۶۳] (۱) الغدير ۶/ ۲۹۰.

[۴۶۴] (۲) شرح نهج بلاغة لإبن أبى الحديد ۱/ ۱۸۱.

[۴۶۵] (۳) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۱۸۲.

[۴۶۶] (۱) الغدير ۶/ ۱۱۰.

[۴۶۷] (۱) ورد فى مقاييس اللغة أن« الزعم» عبارة عن الكلام الذى لا واقعية له وصاحبه ليس متأكداً منه.

[۴۶۸] (۲) اللام فى لفظ الجلالة مفتوحة للاستغاثة واللام فى الشورى مكسورة وللمستغاث منه.

[۴۶۹] (۳)« أسفت» من مادة« إسفاف» بمعنى إقتراب شىء من آخر ويستعمل هذا اللفظ فى الطائر إذا دنا من الأرض، كما يستعمل فى نسج الحصير لان خيوطه تقترب من بعضها البعض الآخر، كما وردت بمعنى شدة النظر(راجع مقاييس اللغة ولسان العرب).

[۴۷۰] (۱)« صغا» من مادة« صغو» بمعنى الميل.

[۴۷۱] (۲)« ضغن» على وزن ضمن بمعنى البغض والعداوة.

[۴۷۲] (۳)« هن» سيأتى التفسير لا حقا.

[۴۷۳] (۴) نقل الخوئى فى شرحه عن الطبرى عدم حضور طلحة فى الشورى بل فى المدينة(شرح الخوئى، ۳/ ۷۳).

[۴۷۴] (۱) صرّح علماء اللغة بان« هن» تعنى فلان وتقال حين يريد الإنسان الإشارة من بعيد إلى شىء لقباحته أو لأسباب اخرى، وعادة ما تستعمل هذه المفردة فى الصفات السيئة والقبيحة ولا تستعمل فى الامور الحسنة.

[۴۷۵] (۲)« نافجا» من مادة« نفج» على وزن رفع بمعنى رافعا.

[۴۷۶] (۳)« الحضن» ما بين الابط والكشح ونافجاً حضنيه تقال للمتكبر ولمن إمتلأ بطنه طعاماً.

[۴۷۷] (۴)« نثيل» من مادة« نثل» على وزن نسل بمعنى غائط الإنسان وروث الحيوان.

[۴۷۸] (۵)« معتلف» من مادة« علف» بمعنى موضع العلف، وقد أراد بالعبارة الشخص الذى همه جمع الأموال وملىء البطن وافراغها.

[۴۷۹] (۶)« الخضم» أكل الشىء الرطب بتمام الفم وهى تقابل القضم التى تعنى الأكل بأطراف الأسنان، وقال البعض الخضم بمعنى أكل العلف الطرى والقضم بمعنى أكل العلف الجاف.

[۴۸۰] (۱) شرح نهج البلاغة لإبن أبى الحديد ۱/ ۱۹۸.

[۴۸۱] (۲)« انتكث» من مادة« نكث» على وزن عكس بمعنى النقض والكسر ومن هنا يقال لعدم الالتزام بالعهد نقضه.

[۴۸۲] (۳)« فتل» بمعنى اللف، ومقتول وفتيلة من هذا الباب.

[۴۸۳] (۴)« أجهز» من مادة« إجهاز»، تطلق على المجروح وتفيد التسريع فى الموت واتمام العمل.

[۴۸۴] (۵)« كيت» من مادة« كبو» بمعنى السقوط والوقوع على الوجه، ومن هنا يقال كبابه الجواد إذ سقط لوجهه.

[۴۸۵] (۶)« بطنته» من مادة« بطن» بمعنى التخمة(مليء الجوف الطعام أو النهم فى الأكل).

[۴۸۶] (۱)« آلكم» من مادة« الا» يألو بمعنى التقصير، وعلى هذا الاساس فان« لم آلكم» يعنى لم أُقصر فى حقكم.« لسان العرب».

[۴۸۷] (۲) الكامل لابن أثير ۲/ ۴۲۵.

[۴۸۸] (۱) المراد بآية الحجاب قوله سبحانه:« فاسئلوهن من وراء حجاب» الذى نزل فى نساء النبى صلى الله عليه و آله والكلمة المذكورة أن طلحة لما أنزلت آية الحجاب قال بمحضر ممن نقل عنه إلى رسول الله صلى الله عليه و آله: ما الذى يعنيه حجابهن اليوم، وسيموت غدا فننكحهن.

[۴۸۹] (۱) فى حوادث ۳۳ ۳۵، مع تصرف واختصار فى جميع ما أورده فى هذا الفصل(۹ نهج ۲).

[۴۹۰] (۲) المتأله: المتعبد المتنسك.

[۴۹۱] (۱) شرح نهج البلاغة لإبن أبى الحديد ۲/ ۱۴۳.

[۴۹۲] (۱)« راعنى» من مادة« روح» على وزن نوع بمعنى الخوف و الخشية و الفلق كما وردت بمعنى الدهشة والذهول.

[۴۹۳] (۲)« عرف» بمعنى الكثرة والازدهام و من هنا يطلق على شعر عنق الضبع.

[۴۹۴] (۳)« ضبع» له ثلاثه معان، الحيوان المعروف و أحدا أعضاء الانسان(العضد) والثالث أنه أحد صفات الناقه. و قد تكون كناية عن سنين القحط التى تهجم على الانسان.

[۴۹۵] (۴)« ينثالون» من مادة« ثول» على وزن قول بمعنى ازدحام زنابير العسل حين تجتمع و تروح و تجيىء ثم اطلقت على كل ازدحام يتخلله ذهاب و اياب(مقاييس اللغة و الصحاح و لسان العرب).

[۴۹۶] (۱)« مرق» من مادة« مروق» على وزن غروب بمعنى الخروج من الشيء حيث تستعمل فى خروج السهم- ويقول صاحب صحاح اللغة ولسان العرب- المراد به المرور من الهدف واصابة طرفه ومن هنا سمى الخوارج ب« المارقين» لانهم كانوا جماعة مفرطة متعصبة رأت نفسها أكثر إسلامية من أمير المؤمنين على عليه السلام.

[۴۹۷] (۲)« قسط،» وردت أحيانا بمعنى الظلم والعدول عن الحق ولذلك يقال قسط على وزن فقط للأفراد الذين إعوجت أرجلهم، كما وردت بمعنى العدل. قال الراغب فى المفردات القسط بمعنى السهم والنصيب فاذا أخذ سهم شخصى قيل له قسط وهذا مصداق الظلم، واقساط تعنى دفع سهم الآخر وهذا عين العدالة. وعليه فالمعنيان يعودان الى مادة واحدة فقد صرّح صاحب لسان العرب أنّه جاء فى حديث على عليه السلام قال:« امرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين» واضاف صاحب لسان العرب« و القاسطون أهل صفين».

[۴۹۸] (۱) مستدرك الصحيحين ۳/ ۱۳۹(طبعة دار المعرفة).

[۴۹۹] (۲) لقد طبع هذا الكتاب فى ذيل المستدرك(المجلد السابق والصفحة السابقة).

[۵۰۰] (۳) اسد الغابة ۴/ ۳۳.

[۵۰۱] (۴) تاريخ بغداد ۱۳/ ۱۸۷(طبعة دار الكفر).

[۵۰۲] (۱) سورة القصص/ ۸۳.

[۵۰۳] (۲)« وعوها» من مادة« وعى» على وزن نفى، قال صاحب المقاييس تعنى ضم الشيء إلى آخر، وقال صاحب المفردات تعنى حفظ الحديث وما شابه ذلك(وكلاهما بمعنى واحد).

[۵۰۴] (۳)« راق» من مادة« روق»- حسب المقاييس- بمعنى تقدم شيء على آخر و تأتى أحيانا بمعنى الحسن والجمال ومن هنا يصطلح بالرواق على مقدمة البيت أو الاضرحة المقدسة و قد جاءت هنا بمعنى الحسن والجمال.

[۵۰۵] (۴)« زبرج» بمعنى الزينة والذهب كما تأتى بمعنى نقوش القماش.

[۵۰۶] (۵) يتضح بجلاء أنّ الضـمائر فى هذه العبارة والعبارات السابقة إنّما يعود إلى الفرق الثلاث الناكثين والمارقين والقاسطين التى اشـير إليها فى العبارة السابقة، بينما يرجح المرحوم العلّامة المجلسى فى البحار أنّ هذه الضـمائر إنّما تعود إلى الخلفاء الثلاث، غير أنّ هذا الاحتمال يبدو مستبعداً. ولعل هذا هو الذى دفع المرحوم المجلسى لان يختتم كلامه باحتمال رجوع الضمائر إلى كافة من أشارت إليهم الخطبة.

[۵۰۷] (۱) فى ظلال نهج البلاغة ۱/ ۹۶.

[۵۰۸] (۱) ما ورد أعلاه، اقتبس من« الكامل فى التأريخ» لابن الأثير ج ۳ مع تلخيص».

[۵۰۹] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۵۹.

[۵۱۰] (۲)« الكامل فى التاريـخ» لابن الاثير، شـرح نهـج البلاغـة للخوئى، تاريخ الطبرى، ج ۴، نور الولايـة، مروج الـذهب، ج ۲« مع التلخيص والاختصار».

[۵۱۱] (۱)« نَسَـِمَة» فى الأصل بمعنى هبوب الرياح بشـكل هادىء، وتسـتعمل أحيانا للاشارة إلى التنفس، ويُطلق أحياناً على الانسان، فيقال« نَسَمَة، أما المقصود بها فى بحثنا هذا فهو« الانسان» أو« الروح».

[۵۱۲] (۲)« حاضـر» بمعنى حضور الشـخص أو الشـئى، وقال أرباب اللغـة آنهاتأتى بمعنى القبيلـة والطائفـة الكبيرة، ولعلها وردت هنا بهذين المعنيين.

[۵۱۳] (۳)« لايقاروا» من مادة« قرار» بمعنى السكون، وعليه فالمراد بالعبارة أن لا يسكتوا ولا يسكنوا.

[۵۱۴] (۴) كظة ما يعترى الاكل من الثقل والكرب عند امتلاء البطن بالطعام، والمراد استئثار الظالم بالحقوق.

[۵۱۵] (۵)« سـغب» تعنى الجوع، و لذلك يقال« ذو مسـغبة على القحط» و ورد فى القرآن« أو اطعام فى يوم ذى مستغبة» و جاءت فى كلام الامام عليه السلام كناية عن هضم حقوق المظلومين.

[۵۱۶] (۶)« غارب»، الكاهل والكلام تمثيل للترك وارسال الأمر.

[۵۱۷] (۱) سورة الانعام/ ۹۵.

[۵۱۸] (۲) سورة المومنون/ ۱۴.

[۵۱۹] (۳) والشاهد على ذلك الشـعر الذى تمثل به عليه السـلام فى قضية مخالفة طلحة والزبير والتمهيد لنشوب معركة الجمل. حيث قال:

فتن تحل بهم وهن شوارع تسقى آواخرها بكأس الأول بحار الانوار، ۳۲/ ۱۱۸.

[۵۲۰] (۱)« ألفيتم» من مادة« الفاء»، بمعنى وجدتم ورأيتم.

[۵۲۱] (۲) عفطة العنز: ما تنثره من أنفها، واكثر ما يستعمل ذلك فى النعمة وإن كان الأشهر فى الاستعمال بالنون« النقطة».

[۵۲۲] (۱) شرح نهج الباغة ابن أبى الحديد ۱/ ۲۰۵

[۵۲۳] (۱) اصول الكافى ۲/ ۲۴۲ كتاب الإيمان والكفر، باب قلة عدد المؤمنين، ح ۴.

[۵۲۴] (۱) هذا إذا أخطا الشـهود فان كان عن عمد فحكمهم القصاص كما ورد فى كتاب القصاص. والنقطة الجديرة بالذكر للشهود الذين حصل الرجم لشهادتهم أن يرجعوا وما دفع يؤخذ من الأربعة بالتساوى وللوقوف أكثر راجع كتاب الجواهر، ۴۱/ ۲۲۵، ولابدّ من الالتفات هنا إلى وجود بعض التفاوت بين ما ورد فى هذا الحديث وما جاء فى الكتب الفقيهة.

[۵۲۵] (۲) سورة المائدة/ ۸۲.

[۵۲۶] (۱) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى ۱/ ۲۶۹، المتسدرك ۷/ ۵۵.

[۵۲۷] (۲) ورد هـذا المعنى فى الرسالـة التى كتبها معاويـة وبعث بها لمحمد بن أبى بكر والتى نقلتها أغلب المصادر الإسـلامية ومنها

مروج الـذهب، فقـد قـال فيها أنی وأبيک نقر بفضل علی وحقّه علينا ... إلّاأنّ أبيک وفاروقه(عمر) هما أول من خالفه بعـد وفاة النبی صلی الله عليه و آله. وقال اليعقوبی فی تاريخه: وكان المهاجرون والأنصار لا يشكون فی علی عليه السلام.(تاريخ اليعقوبی ۲/ ۱۲۴).

[۵۲۸] (۱)« اهتـديتم» من« الاهتداء» تسـتعمل- حسب قول بعض شـرّاح نهج البلاغة وارباب اللغة- حيث يميل الإنسان بإرادته للهداية وهكذا جاءت فی العبارة.

[۵۲۹] (۲)« ظلماء» علی وزن صحراء بمعنی ظلمة أول الليل أو بعبارة اخری النور بعد الظلمة؛ خلافا للظلمة بمفهومها العام ولعل الإمام عليه السلام أراد بها عصر الجاهلية الذی يعتبر فی الواقع ظلمة بعد النور؛ أی دعوة الأنبياء أولی العزم.

[۵۳۰] (۳)« تسنمتم» من مادة سنم علی وزن قلم بمعنی العلو ومن هنا يطلق علی ذروة الجمل إسم سنام.

[۵۳۱] (۴)« ذروة» من مادة« ذرو»، لها معنيان: أحـدهما إشـراف شـیء علی آخر ومن هنا تطلق الـذروة علی قمة الجبل، والآخر تفتت الشیء وتفرقه.

[۵۳۲] (۵)« أفجرتم» من مـادة« فجر» بمعنی الفجـوة الواسـعة قی الشـیء ومن هنـا اطلـق الفجر علی الصـباح الـذی يشـق عتمـة الليـل، وأفجرتم بمعنی دخول الفجر.

[۵۳۳] (۶)« سـرار» من مادة« سر» بمعنی الخفاء وما يقابل العلن، وتطلق مفردة السرار عادة علی الليالی الأخيرة للشهر حيث يكون الجو ظلاما دامساً.

[۵۳۴] (۱) سورة البقرة/ ۲۵۷.

[۵۳۵] (۲) سورة المائدة/ ۱۵- ۱۶.

[۵۳۶] (۳) سورة الزخرف/ ۴۴.

[۵۳۷] (۴)« النبأة» من مادة« نبأ» بمعنی القـدوم من مكان إلی آخر ومن هنا اطلق النبأ علی الخبر الذی ينتقل من مكان إلی آخر والنبأة بمعنی الصوت الخفی لأن الصوت ينتقل من مكان إلی آخر(مقاييس اللغة).

[۵۳۸] (۵) قال بعضـی شرّاح نهـج البلاغة أن قوله« أصـمته الصـيحة» ليس معناه أن الصـيحة كانت علة لصـممه، بل معناه أنّهم كانوا صمما عن سماع صوت الوحی، كقوله سبحانه« أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون»(سورة يونس/ ۴۲).

[۵۳۹] (۱)« جنان» بمعنی القلب لأنه فی صدر الإنسان وقد اشـتقت هذه المفردة من جن(علی وزن فن) بمعنی الاستتار ومن هنا يطلق جنّة علی الحديقـة الغنـاء والأرض المغطـاة بالأشـجار، ويطلق الجنين علی الطفـل المسـتتر فی بطن امّه كمـا تطلق مفردة الجن لأنّهم استجنوا فلا يروا والمجنون تطلق علی من ستر عقله.

[۵۴۰] (۲)« خفقان» بمعنی الاضطراب، ويستعمل للخوف والخشية لانها تدعو للاضطراب والمراد بها فی العبارة خوف اللَّه.

[۵۴۱] (۱)« أتوسمكم» من مادة« وسم» علی وزن ولم أتفرس فيكم، الأثر والعلّامة؛ أی كنت أری فيكم علائم الغدر منذ البداية.

[۵۴۲] (۲)« مغترين» من مادة« غرور» بمعنی مخدوعين.

[۵۴۳] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحديد ۱/ ۲۳۰ و ۲۳۱.

[۵۴۴] (۲)« جلباب» بمعنی الثوب والستر.

[۵۴۵] (۱)« جواد» جمع« جادة» بمعنی الطرق الكبيرة و الواسعة.

[۵۴۶] (۲)« مضلة» من مادة« ضلال» الموضع الذی يضل سالكه وعليه فمعنی جواد المضلة طرق الضلال.

[۵۴۷] (۳)« تميهون» من مـادة« موه» علی وزن نوع بمعنی تجـدون مـاءاً، ومنه أخـذت مفردة المـاء وأماه بمعنی بلغ الماء. عليه فمعنی لاتميهون لا تبلغون الماء(و إن أجهدتم أنفسكم فی حفر الأبار).

[۵۴۸] (۴) سورة الانفال/ ۲۹.

[۵۴۹] (۵) اصول الكافى ۱/ ۲۱۸.

[۵۵۰] (۱) بحارالانوار ۲۴/ ۱۲۸ ح ۱۳.

[۵۵۱] (۲) بحارالانوار ۶۷/ ۵۹(باب القلب وصلاحه).

[۵۵۲] (۳) أصول الكافى ۲/ ۲۴۹ ح ۳(باب ان المؤمن صنفان).

[۵۵۳] (۱) اصول الكافى ۲/ ۲۰۰، ح ۵.

[۵۵۴] (۱) سورة طه/ ۶۵- ۶۷.

[۵۵۵] (۲)« توافقنا» من مادة« الوقوف» والقاف مقدمة على الفاء.

[۵۵۶] (۱) سورة الرعد/ ۱۷. للوقوف على تفاصيل هذا المثل القرآنى راجع تفسير الأمثل/ ۱۰ ذيل هذه الآية.

[۵۵۷] (۱) لقد نقلت هذه الخطبة من سائر المصادر الاخرى غير نهج البلاغة. ومن بين مصادر نهج البلاغة ماروى عن كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقى، ۲/ ۱۳۹، تذكرة الخواص للسبط الجوزى والاحتجاج للطبرسى ۱/ ۱۲۷ كما يستفاد من كلمات ابن أبى الحديد أنّه نقل هذه الخطبة من طرق اخرى

[۵۵۸] (۱) شرح نهج البلاغة لإبن ميثم ۱/ ۲۷۶.

[۵۵۹] (۲) الكامل لابن أثير ۲/ ۳۲۶.

[۵۶۰] (۳)« عرجوا» من مادة« تعريج» بمعنى الرغبة أو الترغيب وهى هنا بمعنى الاعتزال.

[۵۶۱] (۴)« المنافرة» حسب قول صاحب مقاييس اللغة تعنى التحاكم لدى القاضى ومن لوازمها النزاع والمخاصمة.

[۵۶۲] (۱) جاء فى الرواية المشهورة عن النبى صلى الله عليه و آله:« مثل أهل بيتى كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق». امّا قول ابن أبى الحديد أن هذا الحديث صحيح الا ان أهل البيت عليه السلام لم يرادوا بهذه اللفظة فهو خاطئ. فقد أراد الإمام عليه السلام بهذه العبارة أن اسمعوا لما آمركم به واطيعوا ولاتتبعوا ما تمليه عليه إرادتكم.

[۵۶۳] (۲) لابدّ من الالتفات هنا ألى الفعل(أراح) قد يأتى لازما أحيانا ومتعديا أحيانا اخرى، ومفهومه على ضوء المعنى الأول أراح نفسه بينما معناه أراح الآخرين متعديا.

[۵۶۴] (۱)« آجن» من مادة« أجن» على وزن ضرب واجون المتعفن المتغير اللون والطعم وقد وردت هنا كإشارة للخلافة.

[۵۶۵] (۲)« يغص» من مادة« غصص» على وزن هوس بمعنى صعبة الابتلاع.

[۵۶۶] (۳)« ايناع» من مادة« ينع» على وزن منع بمعنى النضج والبلوغ، وعادة ما تستعمل هذه المفردة بشان نضج الثمار، كما تأتى بهذا المعنى أيضاً إذا جاءت من باب الافعال.

[۵۶۷] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۲۶.

[۵۶۸] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۳۳.

[۵۶۹] (۲) شرح نهج البلاغة لإبن أبى الحديد ۱۱/ ۱۱۳.

[۵۷۰] (۱) بحارالانوار ۶۷/ ۲؛ تفسير نور الثقلين ۱/ ۴۰۵.

[۵۷۱] (۲)« اندمجت» من مادة« اندماج» الانطواء وهى هنا إشارة للاسرار المودعة قلب الإمام عليه السلام.

[۵۷۲] (۳)« بحت» من مادة« بوح» على وزن لوح بمعنى الاعلان وترك الكتمان ومن هنا يطلق« الباحة» على المحيط الواسع و« المباح» على الأعمال الجائزة.

[۵۷۳] (۴)« أرشية» جمع« رشاء» على وزن رضاء بمعنى الحبل الطويل، ومن هنا سميت الرشوة لأنّها كالحبال التى تتصل بالدلو ليسحب الماء من البئر.

[۵۷۴] (۵)« طوى» من مادة« طى» و هى البئر العميقة البعيدة.

[۵۷۵] (۱) لقد تناول أحد الشعراء المعروفين هذه الحالة ليشبهها بنوعين من الأفراد، طائفة قليلة المعرفة فهى كالثمار الخام التى تلتصق بشدة فى الشجرة، واخرى عارفة وهى كالثمار الناضجة التى تتساقط بيسر وسهولة من الشجرة.

[۵۷۶] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۵۵.

[۵۷۷] (۳) بحارالانوار ۴۲/ ۲۳۹.

[۵۷۸] (۱) كثر الكلام بين الشرّاح والمفسرين بشأن من أشار بهذا على الإمام عليه السلام. فقد نسبه المرحوم الشيخ المفيد فى كتاب الجمل إلى إسامة بن زيد، بينما نسبه بعض المؤرخين والشرّاح من غير الإمامية للإمام الحسن عليه السلام، ولكن لايبدو هذا التفسير صحيحاً بالاستناد إلى الرابطة التى كانت قائمة بين الإمام الحسن عليه السلام وأبيه عليه السلام. الاحتمال الأخير فهو أنّ هذه الإشارة لم تكن من قبل فرد بل من قبل طائفة ضالة خلدت إلى الراحة والدعة.

[۵۷۹] (۱) أشار مؤلف كتاب« مصادر نهج البلاغة» إلى المصادر الاخرى التى نقلت هذه الخطبة ومنها« تأريخ الطبرى، أمالى الشيخ الطوسى، صحاح اللغة وغريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام».

[۵۸۰] (۲)« ضبع» على وزن سبع، يطلق أحيانا على القحط والجفاف لأنّه يأكل كل شيىء ويقضى عليه.

[۵۸۱] (۳)« اللدم» حسب ما صرّح به بعضى أرباب اللغة هو صوت الحجر أو العصا أو غيرهما، تضرب به الأرض ضرباً غير شديد، ومن الطبيعى أنّ مثل هذا الصوت إذا تكرر يمكنه أن يؤدى إلى النوم.

[۵۸۲] (۴)« يختلها» من مادة« ختل» على وزن ختم بمعنى الخداع والمخاتلة بمعنى المشى بهدوء نحو الصيد بحيث لايهرب.

[۵۸۳] (۵)« الراصد» من مادة« الرصد» بمعنى المترقب ومن هنا يطلق على مراقبة المنجمين اسم الرصد كما يطلق على موضع الرصد اسم المرصد.

[۵۸۴] (۱) إرشاد المفيد ۱/ ۲۴۳، طبع دار النشر العلمية الإسلامية.

[۵۸۵] (۱) جاء فى« مصادر نهج البلاغة» أن هذه الخطبة وردت فى ربيع الأبرار للزمخشرى، ۱/ ۱۰۹ والنهاية لابن أثير فى غريب الحديث ۲/ ۵۰.

[۵۸۶] (۱) سورة النحل/ ۹۹- ۱۰۰.

[۵۸۷] (۲)« اشراك» جمع« شريك» و« شَرَك» بمعنى افتح ويحتمل المعنيان فى العبارة المذكورة، وقد اختار كل شارح من شرّاح نهج البلاغة أحد هذين المعنيين.

[۵۸۸] (۳) لقد استهلت العبارة بفاء التفريع لبيان شرحها للعبارة السابقة.

[۵۸۹] (۱) سورة البقرة/ ۱۶۸ و ۲۰۸؛ سورة الانعام/ ۱۴۲؛ سورة النور/ ۲۱.

[۵۹۰] (۲) هذا التفسير على أساس أنّ حرف الباء فى بهم للتعدية، امّا إذا فسرت بالاستعانة فانّ مفهوم الجملة سيصبح أنّ الشيطان بالاستعانة بهؤلاء سيركب الخطأ والزلل؟ ولكن بالالتفات إلى العبارة« وزين لهم الخطل» وفاء التفريع فى فركب يبدو التفسير الأول أنسب.

[۵۹۱] (۳) نهج البلاغة، الخطبة ۱۶.

[۵۹۲] (۴) كلمة« فعل» يمكن أن تكون مفعولًا مطلقاً لفعل محذوف تقديره« فعلوا ذلك فعل ...» كما يمكن أن تكون مفعولًا مطلقاً لما سبق(نظر، نطق، ركب وزين) وسيصبح مفهوم الجملة أن أفعال هؤلاء أفعال من شرك الشيطان فى عمله.

[۵۹۳] (۱) سورة الاسراء/ ۶۵.

[۵۹۴] (۲) سورة النحل/ ۹۹.

[۵۹۵] (۳) سورة إبراهيم/ ۲۲.

[۵۹۶] (۱) سورة الانعام/ ۱۱۲.

[۵۹۷] (۱) شرح نهج البلاغة لإبن أبی الحدید ۱/ ۲۳۲.

[۵۹۸] (۲) کتاب مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۳۴- ۳۳۵.

[۵۹۹] (۱) شرح ابن أبی الحدید ۱/ ۲۳۱.

[۶۰۰] (۲)« ولیجة» من مادة« ولوج» بمعنی الدخول، کما تعنی الدخول الخفی ویقال ولیجة لما یضمر فی القلب ویکتم، وقد جاءت هنا بمعنی الأمر الخفی.

[۶۰۱] (۱) قال صاحب« مصادر نهج البلاغة» علاوة علی نقل الشریف الرضی لهذا الکلام فی نهج البلاغة، فقد رواه الواقدی ضمن إحدی خطبه علیه السلام یوم الجمل. کما نقله المرحوم الشیخ المفید فی کتاب الجمل(ص ۱۷۷) عن کتاب الجمل للواقدی. وأخیراً ذکره ابن عثم الکوفی فی کتاب الفتوحات.

[۶۰۲] (۱) بحارالانوار ۳۲/ ۶۰- ۱۸۸.

[۶۰۳] (۱) بحارالأنوار ۱۹/ ۲۲۴.

[۶۰۴] (۱) جاء فی مصادر نهج البلاغة أنّ المرحوم المفید نقل هذه الخطبة فی الإرشاد/ ۱۸۸.

[۶۰۵] (۱) سورة فاطر/ ۶.

[۶۰۶] (۲) سورة الاسراء/ ۶۴.

[۶۰۷] (۱) سورة الکهف/ ۱۰۴.

[۶۰۸] (۲) سورة یوسف/ ۱۰۸.

[۶۰۹] (۳) یری بعض أرباب اللغة أن« آیم» جمع« یمین» بمعنی القسم وقد سقطت النون وهی مبتدأ لخبر محذوف تقدیره(و ایمن اللَّه قسمی).

[۶۱۰] (۴)« افرطن» من مادة« إفراط» بمعنی تجاوز الحد(ما یقابل التقریط)، کما تأتی بمعنی ملأ الشیء حتی یفیض، وقد جاءت بهذا المعنی فی العبارة.

[۶۱۱] (۵)« ماتح» بمعنی امتداد الشیء ثم اطلقت علی المستسقی الذی یدلی بدلوه لاستخراج الماء من البئر. وقیل إنّ الماتح لمن یستسقی الماء من أعلی البئر، بینما المایح من تحته.

[۶۱۲] (۱) سورة الحجرات/ ۹.

[۶۱۳] (۲) منهاج البراعة للخوئی ۳/ ۱۶۷- ۱۶۹.

[۶۱۴] (۳) قال بعض شرّاح نهج البلاغة أن هذه العبارة جملة شرطیة من حیث المعنی، تقد یرها لوزالت الجبال لاتزل(شرح ابن میثم ۱/ ۲۸۷).

[۶۱۵] (۱) سفینة البحار، مادة أمن.

[۶۱۶] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۴.

[۶۱۷] (۳) سورة الانفال/ ۴۵.

[۶۱۸] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۴.

[۶۱۹] (۲) سورة آل عمران/ ۱۲۶.

[۶۲۰] (۱) سورة الانفال/ ۶۵.

[۶۲۱] (۲) نهج البلاغة، الكلمات قصار/ ۸۲.

[۶۲۲] (۱) سند هذه الخطبة هو ماورد فى كلام الشريف الرضى، وقد ورد شبيه هذا الكلام فى كتاب مصابيح الظلم من كتب المحاسن البرقى. أنّ أحد أصحاب الإمام عليه السلام قال بعد أنّ أظفر اللّه الإمام عليه السلام بالخوارج فى النهروان، طوبى لنا قاتلنا بين يديك فقتلنا الخوارج، فرد الإمام عليه السلام بعبارات شبيهة بما ورد فى هذه الخطبة(مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۳۹).

[۶۲۳] (۱)« الرعاف» خروج الدم من الأنف.

[۶۲۴] (۱) سورة الشمس/ ۱۴.

[۶۲۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۱.

[۶۲۶] (۲) بحارالانوار ۶۵/ ۱۳۱.

[۶۲۷] (۳) سورة آل عمران/ ۱۸۳.

[۶۲۸] (۴) بحارالانوار ۹۷/ ۹۴.

[۶۲۹] (۵) وسائل الشيعة/ ۱۱، كتاب الأمر بالمعروف، الباب ۵.

[۶۳۰] (۱) قال المرحوم المحقق الخوئى أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد انتهاء معركة الجمل، ورواها- مع بعض الاختلاف- المرحوم الطبرسى فى الاحتجاج وعلى بن إبراهيم القمى والمحدث البحرانى، كما نقلها- حسب كتاب مصادر نهج البلاغة- عدد من العلماء من عاشوا قبل الشريف الرضى كالدينورى فى الأخبار الطوال والمسعودى فى مروج الذهب وابن قتيبة فى عيون الأخبار وابن عبد ربه فى العقد الفريد(مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۴۴).

[۶۳۱] (۱)« رغا» من مادة« رغاء» على وزن دعاء صوت الجمل كما يطلق على صوت الضبع أيضاً.

[۶۳۲] (۲)« عقر» من مادة« عقر» على وزن فقر بمعنى الأصل والجذر، وتعنى الجرح والقطع اذا استعملت للناقة كما تأتى بمعنى الهلاك.

[۶۳۳] (۳) سورة طه/ ۹۷.

[۶۳۴] (۱) شرح نهج البلاغة لإبن أبى الحديد ۱/ ۲۵۲- ۲۶۶ إلّاأنّه كتب حنين خطأ بدلًا من بدر.

[۶۳۵] (۲)« بين أظهركم» بمعنى بينكم، وأظهر جمع ظهر بمعنى الخلف وهو خلاف الباطن، ويستعمل هذا اللفظ للشخص الذى يعيش بين مجموعة تسانده و تحميه، و أحيانا يستعمل هذا اللفظ للعيش فى مجموعة يؤيدونه ويحمونه أو لا يحمونه.« لسان العرب، منقول عن الكامل فى التاريخ أولا يحمونه.« لسان العرب، منقول عن الكامل فى التاريخ لابن الاثير».

[۶۳۶] (۳)« شاخص» من مادة« شخص» بمعنى المرتفع واطلقت على قامة الإنسان حين تلوح من بعيد، ومن هنا اطلق على الشخص المسافر اسم الشاخص، وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة المذكورة.

[۶۳۷] (۱) اصول الكافى ۲/ ۳۷۵، باب مجالسة أهل المعاصى، وقد وردت فى هذا الباب عدّة روايات بهذا المضمون.

[۶۳۸] (۲) سورة المدثر/ ۳۸.

[۶۳۹] (۳) الذى تولى الخلافة عام ۳۸۱ ه(الكامل فى التأريخ ۱/ ۸۰).

[۶۴۰] (۴)« القائم بأمر الله»، من خلفاء الدولة العباسية، اصبح خليفة عام ۴۲۲ هجرى« الكامل فى التاريخ ۹/ ۴۱۷».

[۶۴۱] (۵) من النقاط التى تسترعى الانتباه إن إبن أبى الحديد كان من الذين عاشوا فى القرن السابع الهجرى وكان يُطلق على الخليج الفارسى اسم« بحر الفرس».

[۶۴۲] (۶) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۲۵۳.

[۶۴۳] (۱)« جاثمة» من مادة« جثوم» بمعنى الجمع والجثم بالصدر على الأرض، وتطلق هذه المفردة على الأفراد الذين يخلدون إلى

الأرض وليس لهم من حركة سوى الكسل والنعاس.

[۶۴۴] (۲)« لجة» بمعنى الموجة والماء الواسع العميق، وتعنى فى الأصل ذهاب واياب الشيء ومن هنا يطلق لجة على البحر المائج، كما يطلق اللجوج على الأفراد الذين يصرون على شيء، كما تطلق على موج البحر.

[۶۴۵] (۳) هذا التفسير يصدق فى حال كون الباء فى« بذنبه» والباء فى« بعفوالله» باء السببية، ولكن اذا كانت الباء للالصاق فيكون مفهوم الجملة: الشخص الذى تلوث وابتلى بالذنوب، وبقى بعيداً عن الناجين، ولكن العفو الالهى يشمل هذا الشخص فيصبح من الناجين. لكن المعنى الأول هو الارجح طبق المقاييس الأدبية.

[۶۴۶] (۱)« شرف» على وزن هدف بمعنى الموضع المرتفع.

[۶۴۷] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۶/ ۲۲۵.

[۶۴۸] (۱) بحارالأنوار ۳۲/ ۲۵۶(مضمون الرواية).

[۶۴۹] (۱) جاء فى مصادر نهج البلاغة أن المرحوم الشيخ المفيد تقل فى كتاب الجمل/ ۲۱۷ عن الواقدى أنّ علياً عليه السلام حين انتصر فى المعركة ووزع الغنائم على الجنود ألقى هذه الخطبة: كما وردت مع إختلاف طفيف فى كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة(مصادر نهج البلاغة، ۱/ ۳۴۸).

[۶۵۰] (۱)« غرض» بمعنى الهدف وهو ما ينصب ليرمى بالسهام، ثم اطلق على كل هدف، كما ذكر له معان اخرى من قبيل الملل والشوق.

[۶۵۱] (۲)« نابل» من مادة« نبل» بمعنى الضارب بالنبل.

[۶۵۲] (۳)« فريسة» من مادة« فرس» على وزن فرض بمعنى الضرب، ولما كان الحيوان الوحشى يضرب فريسة بالأرض اطلق عليه المفترس، كما اطلق اسم الفرس على الحصان لضربه الأرض برجله.

[۶۵۳] (۴)« صائل» من مادة« صول» و« صولة» بمعنى الحملة والقهر والغلبة.

[۶۵۴] (۱)« القطائع» ما يقطعه الإمام بعض الرعية من أرض بيت المال ذات الخراج، ويسقط عنه خراجه، ويجعل عليه ضريبة يسيرة عوضا عن الخراج، وقد كان عثمان أقطع كثيراً من بنى امية وغير هم من أوليائه وأصحابه قطائع من أرض الخراج على هذه الصورة، وقد كان عمر أقطع قطائع، ولكن لأرباب الغناء فى الحرب والآثار المشهورة فى الجهاد؛ عثمان أقطع القطائع صلة لرحمه وميلا إلى أصحابه من غير عناء فى الحرب ولا أثر.

[۶۵۵] (۲) جاء فى مصادر نهج البلاغة أن هذه الخطبة قد ذكرت فى كتاب الاوائل لأبى هلال العسكرى وكذلك كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان المصرى وإثبات الوصية للمسعودى مع بعض الاختلاف(مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۵۰).

[۶۵۶] (۱) بحار الأنوار ۷۲/ ۳۶.

[۶۵۷] (۲) بحار الأنوار ۷۲/ ۳۹.

[۶۵۸] (۳) بحار الأنوار ۷۵/ ۸۳.

[۶۵۹] (۴) مستدرک الوسائل ۱۱/ ۳۲۰.

[۶۶۰] (۵) تفسير الصافى، سورة الرحمن/ ۷.

[۶۶۱] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبىالحديد ۱/ ۱۹۹.

[۶۶۲] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۲۶۹.

[۶۶۳] (۱) لقد نقلت هذه الخطبة فى عدّة كتب منها:

۱- الشيخ الطوسى، تلخيص الشافى ۳/ ۵۳، ۲- الجاحظ، البيان والتبيين ۳/ ۴۴، ۳- العقد الفريد ۴/ ۱۳۲، ۴- إرشاد المفيد، ۵- كتاب

الجمل، ۶- عيون الأخبار، ۷- المسعودى، اثبات الوصية، ۸- كنز العمال، ۹- الكلينى، روضة الكافى/ ۶۷، ۱۰- تاريخ اليعقوبى، ج ۱۱- المجلسى، بحار الأنوار.

[۶۶۴] (۱)« زعيم» من مادة« زعم» بمعنى بيان الكلام الذى يحتمل فيه الخلاف، ثم أطلق الزعيم على من يكفل شخصاً ويضمنه لأنّه يكون عرضة للتهمة، وقد جاءت هذه المفردة فى العبارة بمعنى الضامن والكفيل، كما يطلق الزعيم على القائد الذى يتولى زمام الامور لأنّه يتكفل بالأعمال المهمّة.

[۶۶۵] (۲)« مثلات» جمع« مثلة» على وزن عضلة بمعنى مقارنة شيء بآخر، ثم اطلقت على العذاب الإلهى والعقوبة التى تحذر الإنسان من ارتكاب ما يوجبها.

[۶۶۶] (۳)« حجز» من« حجز» على وزن عجز بمعنى الحائل بين شيئين وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة، فالتقوى تحول دون الوقوع فى الشبهات.

[۶۶۷] (۱)« بلبلة،» ذكر أرباب اللغة عدّة معان لهذه المفردة منها الاختلاط وهذا هو المعنى المناسب لها فى هذه العبارة.

[۶۶۸] (۲)« غربلة،» لها معنيان أحدهما فصل الخبيث من الطيب بالغربال(بكسر الغين وضمها) والآخر القطع والفصل.

[۶۶۹] (۳)« سوط» أى كما تختلط الابزار ونحوها فى القدر عند غليانه فينقلب أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها، وكل ذلك حكاية عمّا يؤولون إليه من الاختلاف وتقطع الأرحام وفساد النظام.

[۶۷۰] (۱)« الوشمة» فى الأصل بمعنى الخال الذى يوخز بالابرة ثم يطلى بمادة ملونة تحت الجلد، كما أطلقت على الأشياء الصغيرة كقطرة ماء المطر أو الحديث القصير، وقد وردت هنا بالمعنى الأخير.

[۶۷۱] (۱)« شمس» من مادة« شموس» و« شماس» على وزن فتوح وكتاب بمعنى التغيير وعدم الاستقرار ومن هنا اطلق اسم الشمس، حيث تتحرك على الدوام، وشمس التى وردت فى العبارة جمع شموس بمعنى الفرس الجموح الذى يمنع ظهره من الركوب.

[۶۷۲] (۱)« ذلل» جمع« ذلول» وهى المروضة الطائعة.

[۶۷۳] (۱) سورة البقرة/ ۲۴۹.

[۶۷۴] (۲) سورة المائدة/ ۱۰۰.

[۶۷۵] (۱) شرح نهج البلاغة لإبن أبى الحديد ۱/ ۲۸۱.

[۶۷۶] (۱) سورة فاطر/ ۳۲.

[۶۷۷] (۲) سورة الواقعة/ ۷- ۱۱.

[۶۷۸] (۳)« مضلة» على وزن« مفعلة،» قال أرباب اللغة انّها تعنى كثرة وجود الشيء فى المكان وعليه فمفهوم العبارة أنّ الانحراف إلى اليمين واليسار يدعو إلى ضلال عظيم.

[۶۷۹] (۱) سورة البقرة/ ۱۴۳.

[۶۸۰] (۱) سورة الأعراف/ ۱۲۸.

[۶۸۱] (۲)« خاب» من مادة« خيبة» بمعنى الفشل والحرمان وعدم الظفر بالشيء.

[۶۸۲] (۳)« صفحة» بمعنى عرض الشيء وقد يراد بها الوجه ومنها المصافحة.

[۶۸۳] (۱)« سنخ» بمعنى الأصل والجذر، وكذلك محل غرس الشجر، وهو المكان الذى تَثبت فيه جذور وأصل الشجرة. ويستعمل هذا اللفظ أحيانا بمعنى الرسوخ فى شيء، وكل هذه المعانى مقاربة لبعضها، وفى العبارة أعلاه تشير إلى جذور العلوم والمعارف والاعمال الصالحة والتى رسخت فى أرضية التقوى والتى لايمكن أن تُجتّثَ جذورها.

[۶۸۴] (۱)« وراء» من مادة« ورى» على وزن« وزن» وفى الأصل بمعنى الاستتار، وأحيانا يطلق على الشيء الذى حُجب عن الانظار

بواسطة حاجز فاصبح غير منظور باعتباره خلف الشيء أو وراءه.

وفي العبارة أعلاه جاءت هذه الكلمة بمعنى الخلف أو الوراء.

[۶۸۵] (۱) بحارالأنوار ۶۵/ ۱۵۷« مع قليل من التخليص والإيجاز».

[۶۸۶] (۱) نقل صاحب كتاب« مصادر نهج البلاغة» هذه الخطبة عن طائفة من العلماء ممن عاشوا قبل السيد الرضى ومنهم:

۱- الكلينى فى الكافى بطريقين ۲- ابن قتيبة فى كتاب غريب الحديث ۳- أبو طالب المكى فى قوت القلوب ۴- الهروى فى الجمع بين الغريبين ۵- القاضى النعمان فى كتاب اصول المذهب.

كما نقلها عن طائفة اخرى من العلماء بعد السيد الرضى كالطوسى فى الأمالى والطبرسى فى الاحتجاج والمفيد فى الإرشاد.

[۶۸۷] (۱) بحار الأنوار ۸۳/ ۱۵۳.

[۶۸۸] (۲) بحار الأنوار ۹۱/ ۹۴.

[۶۸۹] (۳) بحار الأنوار ۸۳/ ۱۵۲.

[۶۹۰] (۴) سورة النحل/ ۹.

[۶۹۱] (۱) سورة رعد/ ۱۴.

[۶۹۲] (۲) ميزان الحكمة ۴/ ۵۶۶، كما ورد مضمون هذا الحديث فى عدّة روايات نقلتها أغلب الكتب.

[۶۹۳] (۱) سورة نحل/ ۲۵.

[۶۹۴] (۲) سورة المدثر/ ۳۸.

[۶۹۵] (۳) شرح نهج البلاغة للمحقق الخوئى ۳/ ۲۵۱.

[۶۹۶] (۴) اصول الكافى ۱/ ۵۴، باب البدع.

[۶۹۷] (۱) سورة العنكبوت/ ۱۳.

[۶۹۸] (۱)« موضع» من مادة« ايضاع» بمعنى السرعة فى الحركة(وهو يعطى معنى اللازم لا المتعدى رغم أنّه من باب الافعال) وهو هنا إشارة لحركة الجهال المتشبهين بالعلماء السريعة بين الجهال.

[۶۹۹] (۲)« عاد» من مادة« العدو» بمعنى الركض.

[۷۰۰] (۳) مقاييس اللغة، الجوهرى، لسان العرب.

[۷۰۱] (۴)« هدنة» بمعنى الصلح والمسالمة بين الناس.

[۷۰۲] (۱)« بكر» من مادة« بكرة على وزن لقمة بمعنى أول النهار ثم أطلقت على كل بداية وانطلاقة، وهى هنا إشارة إلى أنّ الجهال المتشبهين بالعلماء إنّما يلهثون خلف الأعمال العابثة من أول النهار حتى الليل.

[۷۰۳] (۲) يمكن أن تكون الجملة(ما قل منه خير ممّا كثر) صفة لجمع مفهومه: يجمع شيئاً قليله خير من كثيره، كما قيل يمكن أن تكون مضافة، وفى هذه الحالة تتطلب تقديراً؛ أى من جمع شيء ما قل منه خير ممّا كثر، ولكن ليس هنالك من فارق فى المعنى.

[۷۰۴] (۱)« آجن» بمعنى الماء العفن.

[۷۰۵] (۲)« طائل» من مادة« طول» على وزن قول بمعنى الفائدة والامتداد، ومن غير طائل تعنى دون فائدة.

[۷۰۶] (۳) الوسائل الشيعه ۱۷/ ۳۷(واضح أن وصى النبى هنا تنطوى على مفهوم واسع يشمل العلماء العدول من أتباع النبى).

[۷۰۷] (۱)« العنكبوت» هى الحشرة المعروفة، وهناك اختلاف فى أصلها من مادة عكب أن عنكب، وقيل اقتبست من مادة« عكوب» بمعنى الغبار لأنّ خيوطه تشبه الغبار.

[۷۰۸] (۱)« خباط» من مادة« خبط»، صيغة مبالغة من خبط الليل إذ سار فيه على غير هدى، ومن هنا يطلق خابط أو ضابط على الفرد

المجنون او الذى لا يستطيع توازنه.

[۷۰۹] (۲)« عشوات» جمع« عشوة» بمعنى الظلمة.

[۷۱۰] (۳)« يذرو» من مادة« ذرو» على وزن ضرب بمعنى ينثر(وقد وردت هذه المفرة بهيئة ناقص واوى وناقص يائى).

[۷۱۱] (۴)« هشيم» من مادة« هشم» بمعنى ما يبس من النبات وتهشم وتفتت.

[۷۱۲] (۱)« اصدار» من مادة« صدور» ضد الدخول.

[۷۱۳] (۲)« قرظ» بمنى مدح.

[۷۱۴] (۳) ذكر بعض شراح نهج البلاغة هنا المفردة« فرط» من مادة التفريط و« فوض» من مادة التفويض بدلاد من« قرظ» من مادة« التقريظ» بمعنى المدح و الثناء. و حيث آلينا على أنفسنا ألانجرى خلف اختلاف نسخ نهج‌البلاغة و نكتفى بالنسخة المعروفة المتداولة اليوم، لذلك نغض الطرف عن الخوض فى ما ذكروه.

[۷۱۵] (۱) سورة الزمر/ ۱۷- ۱۸.

[۷۱۶] (۲) نهج البلاغة، الكلمات قصار، الكلمة ۸۲.

[۷۱۷] (۳)« تعج» من مادة« عج» و« عجيج» بمعنى ارتفاع الصوت وهنا بمعنى الصراخ.

[۷۱۸] (۱) وسائل الشيعة ۱۳/ ۲۵۶.

[۷۱۹] (۲) اصول الكافى ۱/ ۴۴.

[۷۲۰] (۳) اصول الكافى ۱/ ۴۳.

[۷۲۱] (۱) اصول الكافى ۱/ ۴۳.

[۷۲۲] (۱) بحار الأنوار ۷۴/ ۱۵۰.

[۷۲۳] (۲) بحار الأنوار ۷۲/ ۳۶۹.

[۷۲۴] (۳) بحار الأنوار ۷۰/ ۲۹۴.

[۷۲۵] (۴) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

[۷۲۶] (۱)« سلعة» على وزن فرقة، المتاع والبضائع التجارية، وفى الأصل جاءت من مادة« سَلْع» بمعنى الفتحة أو الفُرجة أو الشق، وتطلق على ثغرة الجبل أو شق الجبل، وبما أن البضائع التجارية توضع بشكل علنى فى منظر ومرآى العيون، لذلك سميت« سلعة».

[۷۲۷] (۲)« أبور» من مادة« بَوْر» على وزن غَوْر بمعنى الهلاك والفساد، ومن هنا يطلق هذا اللفظ على الركود فى السوق لانه يتسبب فى أضرارٍ لرؤوس المال.

[۷۲۸] (۳)« أنفق» من مادة« نفاق ونفوق»، وفى الأصل بمعنى الزوال والانعدام، ومن هنا يقال للعطاء والصرف« انفاق»، والظاهر بان ذلك يطلق على الاموال التى تصرف أو تنفق، أى التى تخرج من اليد، واذا استفيد من اللفظ فى موضوع الانفاق والعطاء فيكون معناها، البذل والمساعدة، حيث يقصد بها الأموال التى يتم انفاقها.

ويطلق أيضا على رواج الأمتعة فى السوق« نَفاق» على وزن« طلاق» وذلك لانها تُشترى بسرعة من قبل الناس، وبذلك تخرج من السوق.

[۷۲۹] (۱) سورة البقرة/ ۷۵.

[۷۳۰] (۲) بحار الأنوار ۸۹/ ۱۰۷.

[۷۳۱] (۳) بحار الأنوار ۸۹/ ۱۰۸.

[۷۳۲] (۱) طبق ماورد فى مصادر نهج البلاغة بشأن سند الخطبة، رواها محمد بن طلحة الشافعى فى كتاب مطالب السؤال ۱/ ۱۴۱

وصرح بأن محمد بن طلحة وان عاش بعد الشريف الرضى إلّاأنّ رواية هذه الخطبة مع بعض الاختلاف الطفيف دليل على وجود مصدر آخر لديه غير نهج البلاغة، ثم أضاف: يستفاد من رواية القاضى نعمان المصرى فى« دعائم الإسلام» الذى عاش قبل الشريف الرضى أنّ هذه الخطبة كانت معروفة عند الشيعة. والذى يستفاد من كلام محمد بن طلحة أنّ هذا الكلام هو جزء من الخطبة السابقة، والواقع أنّهما خطبة واحدة مع سابقتها فهى مرتبطة بها تماماً، ولذلك يبرز هنا هذا السؤال: لم فصلهما الشريف الرضى عن بعضهما؟ ذهب صاحب مصادر نهج البلاغة إلى احتمالين:

الأول أن يكون الشريف الرضى نقلهما من مصدرين، والآخر أنّه كتب حقاً: ومن هذا الكلام؛ أى أنّ هذا الكلام جزء من الخطبة السابقة، إلّاأنّ نساخ نهج البلاغة التبس عليهم الأمر فكتبوا« ومن كلام له عليه السلام الذى يفيد كونه كلاماً مستقلًا».(مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۶۲ مع شيء من التوضيح).

[۷۳۳] (۱) سورة النساء/ ۸۲.

[۷۳۴] (۱) المرحوم العلّامة الأمينى ذكر فى المجلد السادس من الغدير الأدلة على هذه المسألة من أهم مصادر العامة من قبيل سنن ابن ماجة وسنن الدارمى ومستدرك الحاكم فى تذكرة الحفاظ وكنز العمال وغيرها تحت عنوان« نهى الخليفة عن الحديث» وبيّن كيف ان عمر نهى عن تدوين أحاديث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهدد بالحبس والنفى كل من رواها.

[۷۳۵] (۱) سورة المائدة/ ۳.

[۷۳۶] (۲) لقد تحدثنا بالتفصيل فى كتاب نفحات القرآن ج ۹ بحث« الولاية والإمامة العامة فى السنّة» عن حديث الثقلين وتواتره فى المصادر الروائية للفريقين ومصادره المعروفة فى صحيح مسلم والترمذى والدارمى ومسند أحمد وخصائص النسائى ومستدرك الصحيحين وسنن البيهقى وغيرها من المصادر.

[۷۳۷] (۱) الاصول العامة للفقه المقارن/ ۶۱۷.

[۷۳۸] (۱) للوقوف على التفاصيل انظر كتاب« توضيح الرشاد فى تأريخ عصر الاجتهاد» للمحدث المحقق المرحوم الحاج الشيخ آقا بزرك الطهرانى.

[۷۳۹] (۲) أنوار الاصول ۲/ ۵۱۹- ۵۴۳ و ۳/ ۶۳۲- ۶۵۸، المستصفى للغزالى ۲/ ۲۳۴، الاصول العامة للفقه المقارن/ ۳۰۵ و ۶۱۷.

[۷۴۰] (۱) سورة آل عمران/ ۱۰۳.

[۷۴۱] (۱) سورة المائدة/ ۳.

[۷۴۲] (۱) لابدّ من الالتفات إلى أن قوله« ما فرطنا فى الكتاب من شئى» هو نص الآية ۳۸ من سورة الانعام، أمّا قوله« فيه تبيان لكل شيء» فهو مضمون الآية ۸۹ من سورة النحل لا عينها« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء».

[۷۴۳] (۲) سورة النساء/ ۸۲.

[۷۴۴] (۱) تفسير نور الثقلين، ۳/ ۷۴، اصول الكافى، ۱/ ۵۹(هناك احتمالان بشأن هذه الرواية: الأول انّ« لو» شرطية، والآخر أنّها حرف تمنى و« إلّا» احياناً للإستثناء واخرى للتنبيه، راجع مرآة العقول، ۱/ ۲۰۲.

[۷۴۵] (۲) سورة المائدة/ ۱.

[۷۴۶] (۱) سورة الحج/ ۷۸.

[۷۴۷] (۲) سورة البقرة/ ۲۳۳.

[۷۴۸] (۳) سورة الحشر/ ۷.

[۷۴۹] (۴) سورة النحل/ ۴۴.

[۷۵۰] (۵) اصول الكافى، ۱/ ۶۱(كما نقل المرحوم الكلينى فى هذا الباب عدّة روايات).

[۷۵۱] (۱) نهج البلاغة، الكلمات قصار، الحكمة ۳۱۳.

[۷۵۲] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۸.

[۷۵۳] (۳) الدر المنشور ۴/ ۱۲۷- ۱۲۸.

[۷۵۴] (۴) الاتقان، نوع ۶۵ من العلوم المستفادة من القرآن.

[۷۵۵] (۱)« أنيق» من مادة« انق» على وزن رمق بمعنى الشيء الجميل.

[۷۵۶] (۲) للوقوف على المزيد راجع كتاب نفحات القرآن، ۸/ ۱۱۴ بحث« اعجاز القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة».

[۷۵۷] (۱) سورة المائدة/ ۱.

[۷۵۸] (۲) سورة الحج/ ۷۸.

[۷۵۹] (۱) ميزان الحكمة ۸/ ۷۰؛ بحار الانوار ۹۲/ ۱۵.

[۷۶۰] (۱) جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغة عدم وجود الاختلاف بين العلماء فى نقل هذه الخطبة، قد نقلها من عاش قبل السيد الرضى، كأبى الفرج الاصفهانى فى كتاب الاغانى، وقد توفى الاصفهانى قبل نشر نهج البلاغة ۴۴ سنة(مصادر نهج البلاغة، ۱/ ۳۶۹).

[۷۶۱] (۱) ورد فى عدّة روايات ان المراد بقوله« من أحدث حدثا» القتل وسفك الدماء وهو المعنى الانسب لهذه العبارة، راجع وسائل الشعية، ۱۹/ ۱۱- ۱۹ ابواب القصاص، الباب ۴ و ۸.

[۷۶۲] (۲) شرح نهج البلاغة لإبن أبى الحديد ۲/ ۲۷۹.

[۷۶۳] (۱)« حائك»: وتأتى أحيانا من مادة« حوك» بمعنى الحياكة والنسيج، وتأتى أحيانا من« حيك» بمعنى التكبر والخيلاء أثناء المشى.

[۷۶۴] (۲) وسائل الشيعة، ۱۲/ ۱۰۱، الباب ۲۳، من أبواب ما يكتسب به، الحديث ۲.

[۷۶۵] (۳) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۲۹۶.

[۷۶۶] (۱) وسائل الشيعة، أبواب حد المرتد/ الباب ۵ ح ۳.

[۷۶۷] (۱) أورد المرحوم الكلينى فى كتاب الكافى فى باب« ما يجب من حق الإمام على الرعية» بعض هذه الخطبة فى ذيل رواية(راجع كتاب الكافى، ۱/ ۴۰۵ ح ۳، باب ما يجب من حق الإمام على الرعية).

[۷۶۸] (۱)« وهلتم» من مادة« وهل» على وزن« وهب» بمعنى فقد صبره فى مقابل الحوادث الصعبة، وتأتى بمعنى الخوف واحيانا بمعنى التأوه والأنين.

[۷۶۹] (۱) سورة الصافات/ ۱۳۷- ۱۳۸.

[۷۷۰] (۲) سورة الدخان/ ۲۵- ۲۹.

[۷۷۱] (۱)« زجرتم» و« مزدجر» من مادة« زجر» بمعنى الصدعن عمل بصوت عال، ثم اطلق على كل منعصدر كما يستعمل فى التهى عن الذنوب.

[۷۷۲] (۲) سورة القمر/ ۴.

[۷۷۳] (۳) سورة الحجر/ ۷.

[۷۷۴] (۴) سورة الحجر/ ۸.

[۷۷۵] (۱) سورة مؤمنون/ ۹۹- ۱۰۰.

[۷۷۶] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۹.

[الجزء الثانى]

الخطبة[۱] الحادى والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

«وهى كلمة جامعة للعظمة والحكمة»

«فإنّ الغايَةَ أمامَكُم، وإنَّ وَراءَكُم السّاعَةَ تَحْدُوكُم. تَخَفَّفوا تَلحَقُوا، فَإنَّما يُنتَظر بِأَوّلِكُم آخِرُكُم».

قال السيد الشريف الرضى: أقول: إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام اللَّه سبحانه وبعد كلام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بكل كلام لمال به راجحاً، وبرَّز عليه سابقاً فأمّا قوله عليه السلام: «تخففوا تلحقوا» فما سمع كلام أقلّ منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولًا وما أبعد غورها من كلمة! وأنقع نطفتها من حكمة! وقد نبهنا فى كتاب «الخصائص» على عظم قدرها وشرف جوهرها.

شرح الخطبة

تخففوا تلحقوا!

ورد هذا الكلام ضمن سياق الخطبة ۱۶۷، حيث تضمنت تلك الخطبة مثل هذه العبارات مع بعض الفوارق الطفيفة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶

والذى يفهم من كلام المرحوم السيد الشريف الرضى أنّ الإمام عليه السلام قد ألقى هذه الخطبة أوائل ما آلت إليه الخلافة، بينما يفهم من كتاب «مطالب السؤل»[۲] أنّ هذه الخطبة هى إمتداد للخطبة السابقة وتعرّض لذات المطالب.

وهناك احتمال آخر فى أنَّ الخطب الثلاث قد صدرت معاً عن أمير المؤمنين عليه السلام فى موضع واحد، ثم صنّفتْ ثلاثة أقسام.

على كل حال فإنَّ هذا القسم من الخطبة- والذى لا يتجاوز بضعة عبارات- وعلى حد تعبير السيد الرضى لو وزن بعد كلام اللَّه وبعد كلام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لمال به راجحاً! والحق ان الأمر كذلك حقاً ماهذه الفصاحة والبلاغة فى كلمات قصار تتعرَّض لمثل هذه الحقائق السامية!

فالإمام ينبّه أبناء الأُمّة بادئ الأمر إلى مفهوم المعاد ومحكمة العدل الإلهى ليلفت إنتباههم من خلال ذلك إلى عظم المسؤوليات والوظائف التى ينبغى لهم أن ينهضوا بها فى خلافته، ويحذرهم من كافة ألوان النفاق والتشتت والفرقة والنكوص عن إداء الواجبات. وأخيراً يذكرهم بالعاقبة التى تنتظرهم بعد العرض على اللَّه يوم القيامة، فأمّا الجنّة وأمّا النار «فإن الغاية أمامكم، وإن وراءكم الساعة تحدوكم».

والتعبير ب «الغاية» (عاقبة الأمر) بشأن القيامة والجنّة والنار لأنّ الحياة فى الدنيا إنّما هى مقدمة للحياة الأبدية فى العالم الآخر.

فقوله عليه السلام: «فان الغاية أمامكم» يعنى عدم وجود الشك والريب فى أن مآل الامور هناك وليس لأحد الفرار عن ذلك المآب.

وأمّا التعبير ب «الساعة» فقد صرَّح بعض شارحى نهج البلاغة بأنّه إشارة إلى القيامة الصغرى؛ أى الموت. فقوله عليه السلام: «وراءكم» يفيد أنَّ عوامل الموت إنَّما تكمن وراء الإنسان، فهى تسوق الإنسان من الطفولة إلى الشباب ومن الشباب إلى الكهولة والشيخوخة وأخيراً من الشيخوخة إلى انقطاع الحياة. فى حين صرَّح البعض الآخر بأنّ المراد ب «الساعة» هو ساعات

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷

الليل والنهار وكأنّها الأمر الصارم الذى كمن خلف الإنسان ويسوقه إلى حتفه. وليس هناك من فوارق تذكر بين هذين التفسيرين حيث مؤداهما واحد. وبالاستناد إلى أن كلمة «تحدوكم» المشتقة من مادة «حدو» بمعنى «السوق والدفع نحو الشىء».

فإنَّ الذى يتبادر إلى الذهن هو أن تقلب الليل والنهار والشهر والسنة رغم تقريبها الإنسان من وصول أجله وانقطاع حياته، غير أنّها تشكل عوامل غفلته بفعل اختلاطها بزخارف الدنيا وزبرجها. فالواقع هو أنّ هذه العبارة التى تصدرت الكلام رغم قصرها قد أشارت إلى القيامة الكبرى إلى جانب إشارتها إلى القيامة الصغرى؛ الأمر الذى يعدّ المستمع للاصغاء إلى المرحلة اللاحقة.

فأورد عليه السلام هذه الجملة المقتضبة العميقة المعنى: «تخففوا تلحقوا» عادة إذا ما انطلقت قافلة من الناس إلى مكان وواجهت هذه القافلة بعض المنعطفات التى لايمكن اجتيازها بسهولة فإنَّ أولئك الأفراد المثقلين بالأحمال غالباً ما يتخلفون عن القافلة التى لا يسعها الوقوف من أجل فرد أو بضعة أفراد فلا يكون أمامها سوى تجاوز ذلك الفرد ومواصلة السير والحركة. أمّا ذلك الفرد الذى تخلف عن القافلة فإنَّه سيكون لقمة سائغة لقطاع الطرق واللصوص وذئاب الصحراء، بينما يشقّ المخفون طريقهم بسرعة تجعلهم يصلون إلى هدفهم أسرع من الجميع.

وهذا هو حال بنى آدم فى هذه الدنيا، فهم مسافرون وقد شدّوا الرحال إلى الحياة الأبدية التى تعقّب الموت. فمن ثقل حمله من متاع الدنيا وحطامها كان لقمة سائغة للشيطان، أمّا أهل الورع والزهد والتقوى فإنَّهم سيحثون الخطى سريعاً لينالوا سعادة الآخرة والفوز بالخلود.

وقد أكّد الإمام عليه السلام هذا المعنى- فى الخطبة ۲۰۴- حين نادى أصحابه: «تجهَّزوا- رحمكم اللَّه- فقد نودى فيكم بالرحيل وأقلّوا العُرجة على الدنيا ... فإنَّ أمامكم عقبة كؤودا ومنازل مخوفة مهولة».

وقد شبه بعض شرّاح النهج الإنسان بالمسافر الذى يجوب البحر وهو يواجه أمواجه العاتية حيث سيكون الغرق مصيره الحتمى إذا لم يخف مؤونة سفينته.

وقد شبهوا قلب الإنسان بهذه السفينة، التى ستواجه الغرق لا محالة إذا ما أثقل ذلك القلب بحبِّ الدنيا والانغماس فى الشهوات.[۳]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸

وأخيراً يختتم الإمام على عليه السلام خطبته بقوله: «فانما ينتظر بأولكم آخركم». وتدل هذه العبارة بوضوح على أنّ عالم البشرية بحكم القافلة الواحدة التى تشتمل على المقدمة- التى سبقت بالحركة- والوسط والمؤخرة؛ وهى تواصل مسيرتها لتلتحق مؤخّرتها بمقدمتها، وبعبارة اخرى فإنّ قانون الموت لا يعرف الحصر والاستثناء وهو المحطة التى سيتوقف عندها الجميع. وبناءً على ما تقدّم فإنَّ عاقبة الأولين نذير مبين للآخرين.

عاقبة المثقلين!

إنَّ أهم عامل يقف وراء خسران طائفة من الناس والذى تضمنته كلمات الإمام عليه السلام فى خطبته إنَّما يكمن فى إثقال كاهلها بالتكالب على متاع الدنيا الزائد عن حاجتها فى حياتها الدنيوية المتواضعة.

ولك أن تفرض أنَّ فرداً ينطلق للسفر ليوم واحد وقد حمل مقداراً من الخبز والماء والفاكهة لما يكفيه لذلك اليوم، بينما حمل الآخر عدة حقائب وقد ملأها بمختلف الأطعمة والأشربة والفاكهة وانطلق إلى سفره. فمن البداهة أن ينطلق الأول بكل هدوء وخفة وخطى واثقة وحثيثة دون أن يشعر بالكلل والتعب، فى حين سينقطع نفس الثانى ولا يسعه مواصلة السير والحركة. وهذا هو المصير الذى ينتظر أولئك الأفراد الذين جعلوا همهم فى الدنيا ومتاعها الزائل وجعلوا يفكّرون ليل نهار فى كيفية حفظ هذه الأموال، حتى أنستهم ذكر اللَّه، ولم يكتفوا بذلك ففقدوا حتى السكينة والطمأنينة فى حياتهم الدنيا.

هذا وقد تطرق بعض شرّاح نهج البلاغة إلى قصة الصحابى الجليل سلمان الفارسى رضى الله عنه كشاهد حى ونموذج لقول الإمام على عليه السلام «تخففوا تلحقوا» وذلك حين نصب والياً على منطقة المدائن فركب دابته وانطلق بمفرده إليها.

فاتصل بالمدائن خبر قدومه، فاستقبله أصناف الناس على طبقاتهم، فلما رأوه قالوا: أيها الشيخ أين خلّفت أميرنا؟ قال: ومن أميركم؟

قالوا: الأمير سلمان الفارسی صاحب رسول الله صلی الله علیه و آله.

قال: لا أعرف الأمير، وأنا سلمان.

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۹

فترجلوا له وقادوا اليه المراكب والجنائب. فقال: إنّ حمارى هذا خير لى وأوفق. فلما دخل البلد أرادوا أن ينزلوه دارالامارة قال: ولست بـأمير. فنزل على حـانوت فى السوق وقـال إدعوا إلىّ صـاحب الحـانوت فاسـتأجر منه. وكـان معه وطـاء يجلس عليه ومطهرة يتطهّر بها للصلاة وعكازة يعتمد عليها فى المشى. فأتفق أنّ سيلا وقع فى البلد فارتفع صياح النّاس بالويل والعويل يقولون: وا أهلاه وا ولداه و وا مالاه، فقام سلمان ووضع وطائه فى عاتقه وأخذ مطهرته وعكازته بيده وإرتفع على صعيد وقال: هكذا ينجو المخفّفون يوم القيامة.[۴]

والطريف فى الأمر ما ذكره السيد الرضـى رضـى الله عنه من أنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام اللَّه سـبحانه وبعد كلام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بكل كلام لمال به راجحاً. ولاسيما قوله عليه السلام: تخففوا تلحقوا.

فما أبعد غورها وأعظمها من حكمة وموعظة رغم قصـرها؛ الأمر الذى دفع بالسـيد الرضـى رضى الله عنه إلى الإسهاب فى الخوض فى تفاصيلها فى كتابة «الخصائص».

ج ج

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۱۱

الخطبة الثانية و العشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام ۵]

حينَ بَلَغهُ خَبَرُ الناكثين بيعَتِه.

وفيها يذمُّ عملَهم ويلزمهم دمَ عثمانَ ويتهدّدهم بالحرب.

القسم الأول: أضواء على الخطبة

اشارة

«ألاـ وإنّ الشّيطانَ قَدْ ذَمّر حِزبَهُ وَاستجلَبَ جَلبَهُ لِيَعُودَ الجَورُ إلى أوطـانِهِ ويَرجعَ الباطِـلُ إلى نِصـابِهِ، وَاللَّهِ! مـا أنكرُوا عَلىَّ مُنكَراً، ولا جعَلُوا بَينِى وَبَينَهم نَصِفاً».

ج ج

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۱۲

وردت هـذه الخطبة- كما يفهم من عنوانها- بشأن طلحة والزبير بعد نقضـهما البيعة وما تلاها من أحداث مريرة تمثلت إحداها بمعركة الجمل، كما تشير إلى قضية المطالبة بدم عثمان التى تمسك بها أصحاب الجمل والتى استغلت فيما بعد من قبل أهل الشام.

وأخيراً تتضـمن مذمتهم وتقريعهم من جانب الإمام عليه السلام والرد الحاسم على تهديداتهم وتخرصاتهم. وتبدو مضامين هذه الخطبة أكثر شبهاً بخطبه ۱۰، ۲۶ و ۱۷۲؛ الأمر الـذى جعل من المحتمل أن تكون كل خطبـة من هـذه الخطب جزءاً من خطبة واحدة وقد قام السيد الرضى رضى الله عنه بتجزأتها على ضوء ما يناسب المقام.

الطريف فى الأمر أنَّ بعض الروايات صرّحت بأنّ عمرو بن العاص قال يوماً لعائشة:

«لوددت أنّك قتلت يوم الجمل!». فردت عائشـة متعجبـة: «ولم؟ لا أباً لك!». فأجابها بن العاص: «كنت تموتين بأجلك وتدخلين الجنّة ونجعلك أكبر التشنيع على عليّ»[۶].

يرى بعض شـرّاح نهج البلاغة أنّ هذه من الخطب المتعلقة بمعركة صفّين، وقد عنت عباراتها معاوية[۷]، إلّاأنّ الذى يستفاد من عنوان الخطبة الذى اعتمده السـيد الرضى رضى الله عنه وكلام ابن أبى الحديد[۸] وسائر الشـرّاح أنّ هذه الخطبة إنّما تتناول ناكثى البيعة من أصحاب الجمل، وإن كانت مضامينها تتناسب وحال الطائفتين؛ الجمل وصفين.

الشرح والتفسير

وقعة الجمل

أشـرنا سابقاً إلى أنّ الخطبـة وردت بخصوص أولئك الـذين أججوا نيران فتنـة الجمل؛ أى طلحـة والزبير ورهطهما. فقـد كان كل من طلحـة والزبير يطمع فى الحكومـة ولما صـرفها الإمام عليه السـلام عنهما ولم يكن مسـتعدّاً لتقليـدهما أيَّة مسؤوليـة فى حكومته، ثارت ثائرتهما وقادهما

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۱۳

هوى أنفسـهما لنقض البيعـة، وأخـذا يجيشـان الجيوش بما فيها عائشـة- زوج النبى صـلى الله عليه و آله- ويهيا لقتال على عليه السـلام بذريعـة الطلب بدم عثمان ۹]، وقـد إختارا البصـرة- التى كانت ممهـدة آنـذاك لمثل هذه الفتنة- مركزاً لمؤامراتهم الدنيئة على الإمام عليه السلام.

فالإمام عليه السـلام يتطرق فى بدايـة الخطبـة إلى هـذه المؤامرة فقال: «ألا وإنّ الشـيطان قـد ذمر[۱۰] حزبه واسـتجلب جلبه ۱۱] ليعود الجور إلى أوطانه ويرجع الباطل إلى نصابه».

فهو يشـير عليه السـلام إلى الانحرافات والاضـطرابات التى أعقبت قتل عثمان ومبايعـة الامّة لعلى عليه السـلام بالخلافة. والمراد بحزب الشـيطان- فى الخطبـة- أولئك الذين تسـلّطوا على بيت مال المسـلمين أبان حكومة عثمان وتولوا بعض المناصب الخطيرة، كما كانوا يتطلعـون للسـيطرة على الخلافـة، فالإمـام عليه السـلام يحـذر الامّـة من هؤلاـء الشـياطين الـذين يـتربصون بهـا الـدوائر وإنَّهم يحيكون المؤامرات من أجـل الاسـتحواذ ثانيـة على بيت المـال وممارسـة الظلم والجور بحق المسـلمين والحيلولـة دون قيـام الإمام عليه السـلام بوظيفته فى إصلاح المجتمع الإسلامى وإجتثاث جذور الفساد والانحراف التى برزت واستفحلت فى خلافة عثمان.

وأخيراً يصرح الإمام عليه السلام بعدم وجود أى دليل أو منطق يسوغ لهؤلاء الوقوف بوجه الإمام وقتاله «واللَّه ما أنكروا علىَّ منكراً ولا جعلوا بينى وبينهم نصفاً».

فهو يشير عليه السلام إلى طلحة والزبير والطائفة التى نكثت البيعة، كما يتطرق عليه السلام إلى حجتهم الواهية المتمثلة بقتل عثمان. ثم يورد عليه السلام أقسى العبارات بحقّهما.

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۱۴

نعم لقد تنكرت كافة المصادر الإسـلامية والكتب التأريخية لنسب قتل عثمان إلى الإمام على عليه السـلام، بينما تصرّح بأنَّ الإمام سعى أكثر من غيره لإخماد نار الفتنـة، فهو القائل عليه السـلام «واللَّه لقـد دفعت عنه حتى خشـيت أن أكون آثماً» فلم يتّبع الناكثون فى هـذه الأحكام المتسرّعة، العدل والانصاف بقدر ما تشبّثوا بالكذب والتهمة والظنة. ولا يبدو من الغرابة اللجوء إلى مثل هذه الأساليب بالنسبة لأولئك الـذين يسـعون إلى ضـمان مصالحهم وتحقيق أهـدافهم. وما أكثر ما نشاهـده فى عصـرنا الراهن من الساسـة الظلمـة الـذين لا يتحفظون عن أبشع الأساليب الدنيئة من أجل ضمان مصالحهم اللامشروعة.

حزب اللّه وحزب الشيطان

لقد تضمّنت خطبة الإمام عليه السلام إشارة لطيفة إلى ما أورده القرآن الكريم فى آخر سورة المجادلة، حيث صنفت الآية القرآنية المباركة الناس إلى حزبين هما: «حزب اللّه» و «حزب الشيطان»، كما أشارت إلى الميزة الرئيسية التى يتّصف بها حزب اللّه وهى صفة الحب فى اللّه والبغض فى اللّه «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِك كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِىَ اللّه عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِك حِزْبُ اللّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ المُفْلِحُونَ»[۱۲].

وفى مقابل ذلک هناک حزب يهم بحفظ مصالحه ويعتمد أسلوب النفاق والخداع ولا يتورع عن موالاة أعداء اللّه وإظهار المودة لهم إلى جانب بث بذور الظلم والفساد بين صفوف العباد، فيصفهم القرآن قائلا: «إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللّهِ أُولئِك حِزْبُ الشَّيْطانِ ألا إِنَّ حِزْبَالشَّيْطانِ هُمُ الخاسِرُونَ»[۱۳].

والحزبان المذكوران لا يختصان بزمان نزول القرآن وعصر صدر الإسلام، بل تتعدد صورهما وأشكالهما فى كافة العصور والدهور.

ولو ألقينا نظرة عابرة على عالمنا المعاصر

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵

لشاهدنا بوضوح هذين التيارين وقد كمن أحدهما مقابل الآخر، فعادة ما يستند حزب الشيطان إلى منطق القوة الغاشم والغطرسة والأموال والثروة والتآمر وممارسة الظلم والجور وبث بذور النفاق والفرقة وإشاعة الفساد والانحراف، بينما يستند حزب اللّه إلى القيم والمثل والمبادئ الحقة ولا يتوانى فى التصدّى لزعماء الحزب المذكور. يتربص حزب الشيطان عادة لاستغلال الفرص المناسبة ومنها الثورات والانقلابات التى تطيح بحكومة وتأتى باخرى.

وأفضل شاهد على ذلک ما شهدته حكومة الإمام على عليه السلام أوائل تشكيلها. فقد اتّفقت كلمة ما تبقى من فلول الجاهلية الذين برزوا للوجود فى خلافة عثمان على مواجهة ربيب الإسلام وتلميذ النبى صلى الله عليه و آله الإمام على عليه السلام، فأشعلوا نيران الفتن التى كان من المقدر للإمام إخمادها والتغلب عليها، فعاثوا فى الأرض فساداً بما لم يدع للإمام من سبيل سوى الوقوف بوجههم ومقاتلتهم.

فالإمام عليه السلام يحذر الأمّة ومنذ اليوم الأول لحكومته من مكايد حزب الشيطان وعدم الانخداع بأساليبه والأعيبه القذرة.

وأخيراً يفهم من عباراته عليه السلام أنّ للظلم والجور وطن وأنّه يستند إلى اسس ودعائم! نعم وطن الجور والظلم هو الموضع الذى يتجحفل فيه عسكر الشيطان، كما أنّ المبادئ التى ينتهجها حزب الشيطان لهى الأسس والدعائم التى يرتكز عليها الظلم والجور.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۷

القسم الثانى

اشارة

«وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ! فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ وَلَئِنْ كانُوا وَلُوهُ دُونِى فَمَا التَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ.

يا خَيْبَةَ الدَّاعِى! مَنْ دَعا! وَإِلامَ أُجِيبَ! وَإِنِّى لَراضٍ بِحُجَّةِ اللّهِ عَلَيْهِمْ وَعِلْمِهِ فِيهِمْ».

الشرح والتفسير

المعذّرون المفتضحون!

يشرح الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة ما أورده فى بدايتها، ثم يعرض الأدلة القاطعة التى تدين ناكثى البيعة ومؤججى نار الحرب ويفضحهم أمام المسلمين. فقد أشار عليه السلام إلى الذريعة الأصلية التى تمسك بها طلحة والزبير وأعوانهما؛ أى المطالبة بدم عثمان، فقال عليه السلام:

«وإنّهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودماً هم سفكوه»- روى المؤرخ المعروف الطبرى فى تاريخه عن أحد أصحاب عثمان أنّ علياً عليه السلام كان فى ماله بخيبر لما حصر عثمان، فقدم المدينة والناس مجتمعون على طلحة، وكان لطلحة فى حصار عثمان أثر، فلما قدم على عليه السلام أتاه عثمان، وقال له: أمّا بعد؛ فانّ لى حق الإسلام وحق الأخا والقرابة والصهر، ولو لم يكن من ذلك شىء وكنّا فى جاهلية، لكان عاراً على بنى عبد مناف أن يبتز بنو تيم أمرهم- يعنى طلحة- فقال له على عليه السلام: أنا اكفيك، فاذهب أنت. ثم خرج إلى المسجد فرأى اسامة بن زيد، فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهى مملوءة من الناس، فقال له: يا طلحة، ما هذا الأمر الذى صنعت

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۱۸

بعثمان؟ فقال: يا أبا الحسن، أبعد أنّ مس الخرام الطبين! فانصرف على عليه السلام حتى أتى بيت المال، فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب، وفرق مافيه على الناس؛ فانصرف الناس من عند طلحة حتى بقى وحده، وسرّ عثمان بذلك؛ وجاء طلحة فدخل على عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنّى أردت أمراً فحال اللّه بينى وبينه، وقد جئتك تائباً- فقال: واللّه ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً؛ اللّه حسيبك يا طلحة.[۱۴] ثم ذكر الطبرى فى موضع آخر من تأريخه أنّ عثمان حين قتل، خرج من عنده «سودان بن حمران» وهو يقول «أين طلحة؟ فقد قتلنا عثمان»[۱۵].

فالذى يستفاد من هذه الشواهد وسائر القرائن التأريخية أن طلحة كان من المخططين الرئيسيين لقتل عثمان. أمّا جملة عائشة بشأن عثمان فهى معروفة مشهورة للجميع فقد كانت تنادى صراحة «اقتلوا نعثلًا! قتل اللّه نعثلًا» وكانت تقصد بنعثل عثمان.

ابن أبى الحديد يصرح فى شرحه لاحدى خطب نهج البلاغة بشأن موقعة الجمل فيقول:

يعترف جميع المؤرخين المسلمين بأنّ عائشة كانت من أعدى أعداء عثمان وهى التى أخرجت قميص رسول اللّه صلى الله عليه و آله وكانت تقول «هذا قميصه لم يبل وقد أبلى عثمان سنته»، وقيل أنّ أول من دعا عثمان نعثلًا عائشة، وكانت تقول: «اقتلوا نعثلًا قتل اللّه نعثلًا»[۱۶]. فالعجيب ورغم ذلك قد خرج هؤلاء للمطالبة بدم عثمان! ويبدو أنّ هذه المسائل ليست عجيبة فى عالم السياسة (السياسة التى تفتقر إلى الإيمان والتقوى والورع) فى أن يتآمر بعض الأفراد ثم يهبون للوقوف بوجه هذه المؤامرات من باب الدفاع! ثم قال الإمام عليه السلام: «فلئن كنت شريكهم فيه فان لهم لنصيبهم منه ولئن كانوا ولوه دونى فما التبعة إلا عندهم».

فالمراد أنّ الجميع يعلم بأنّ هؤلاء شركاء فى قتل عثمان، ولو افترض بانّى شريك أيضاً فى هذا الدم (والحال انّى لست غير شريك فحسب، بل بذلت قصارى جهدى لاطفاء نيران هذه الفتنة) فانّ التهمة ثابتة بحقهم، فان كانوا هم النواة الأصلية فى هذا العمل فان عليهم أن يتحملوا مسؤولية عملهم! وإذا كان الأمر كذلك فما أوقحهم فى قيامهم ومطالبتهم إيّاى بدم عثمان.

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۱۹

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا: «وإن أعظم حجتهم لعلى أنفسهم». حيث يميط اللثام عن الدافع الرئيسى وهو أنّ هؤلاء كانوا يرغبون باستمرار الأوضاع التى كانت سائدة على عهد عثمان، فتجعل لهم بعض الامتيازات فى بيت المال، غير أنّ ذلك العهد ولى واندرس وليس هنالك من سبيل إلى عودته إلى مسرح الأحداث ثانية: «يرتضعون امّا قد فطمت ويحيون بدعة قد اميتت».

كما وردت عدة تفاسير لقوله عليه السلام: «اما قد فطمت» منها أن يكون المراد تلك السنن الجاهلية والبدع والعصبية التى كانت

سائدۀ قبل الإسلام، حیث یتشبثون بکل الوسائل الأخلاقیۀ من أجل الحکومۀ، فأمیر المؤمنین یصف ذلک العهد بالام التی فطمت فلم تعد هنالک من وسیلۀ لتحقیق المطامع»[۱۷].

ویبدو أنّ هذا التفسیر یناسب العبارۀ الثانیۀ «ویحیون بدعۀ قد امیتت» لا العبارۀ الاولی، کما أنّ جمع العبارتین بمعنی واحد یخالف ظاهر اللفظ. فی حین ذهب البعض إلی أنّ المراد أنّهم بمطالبتهم بدم عثمان إنّما یریدون احیاء أیام حکومته، رغم أن هؤلاء المطالبون بدمه هم من بین الأفراد الذین ثاروا علیه وسببوا قتله ومن هنا أرادوا أن یرتضعوا أما قد فطمت.

وبالطبع فانه یمکن الجمع بین کل هذه المعانی، وإن بدأ المعنی الأول أنسب. فالنتیجۀ التی ستتمخض عنها حرکۀ هؤلاء الافراء سوف لن تکون سوی الفشل الذریع؛ الأمر الذی عبر عنه الإمام علیه السلام بالقول «یا خیبۀ الداعی! وإلام أُجیب»[۱۸]. والواقع انهذه العبارۀ تکهن بالنتیجۀ التی ستؤول الیها معرکۀ الجمل. فالإمام علیه السلام یعلن أنّ عاقبتهم ستکون الفشل والهزیمۀ؛ عاقبۀ الغدرۀ الذین خططوا لقتل عثمان ثم انبروا للمطالبۀ بدمه ففرقوا صفوف المسلمین فضلوا طائفۀ من الناس وخسروا الدنیا والآخرۀ. ثم قال الإمام علیه السلام: «وإنّی لراض بحجۀ اللَّه علیهم وعلمه فیهم» ولعل مراده بحجۀ اللَّه، ما ورد فی الآیۀ القرآنیۀ بشأن البغاۀ «وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما فَإِنْ بَغَت إِحْداهُما عَلی الْأُخْری فَقاتِلُوا الَّتِی تَبْغِی

نفحات الولایۀ، ج۲، ص: ۲۰

حَتّی تَفِیءَ إِلی أَمْرِ اللَّهِ»[۱۹]. أمّا قوله علیه السلام: «علمه فیهم» فقد تکون إشارۀ للحدیث المشهور عن النبی صلی الله علیه و آله بشأن علی علیه السلام «قاتل الناکثین والقاسطین والمارقین». فلما سألت أم سلمۀ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عن هذه الفرق الثلاث قال: الناکثین أهل الجمل، والقاسطین أهل الشام والمارقین أصحاب النهروان»[۲۰].

ولما کان الإمام علیه السلام راضی برضا اللَّه وعالم بما ستؤول إلیه الأحداث من یأس العدو وهزیمته فان روحه مفعمۀ بالرضی والهدوء والسکینۀ.

ج ج

نفحات الولایۀ، ج۲، ص: ۲۱

القسم الثالث: تهدید علی علیه السلام

اشارۀ

«فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَیْتُهُمْ حَدَّ السَّیْفِ وَکَفَی بِهِ شَافِیاً مِنَ الْباطِلِ وَنَاصِراً لِلْحَقِّ! وَمِنَ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَیَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعانِ! وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلادِ هَبِلَتْهُمُ الْهَبُولُ! لَقَدْ کُنْتُ وَما أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ وَلا أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ! وَإِنِّی لَعَلَی یَقِینٍ مِنْ رَبِّی وَغَیْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِینِی».

الشرح والتفسیر

لقد تقدم الإمام علیه السلام بتحذیر تلک العناصر من مغبۀ مواصلۀ الغوایۀ وضرورۀ الوقوف علی جسامۀ الأخطاء وهجر سبیل الشیطان والوفاء ببیعتهم للإمام علیه السلام والکف عن إثارۀ الفتن وتأجیج نار الحرب. وهنا- فی القسم الأخیر من الخطبۀ- یحذرهم من أنّ عدم الارعواء ومنح الآذان الصاغیۀ للنصح سوف یضطره للتکلم معهم بلغۀ السیف، السیف الذی کفی به شافیاً فی الرد علی عبدۀ الأهواء والشهوات من أصحاب المنطق الغاشم.

فقد قال علیه السلام: «فان أبوا أعطیتهم حد السیف» العلاج الأفضل للباطل «وکفی به شافیاً من الباطل وناصراً للحق». فما یقال أن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حمل القرآن الکریم بید والسیف بأخری إنّما یکشف عن حقیقۀ واقعیۀ مسلمۀ فی الحکومات الإلهیۀ. فالجهود التی بذلها الأنبیاء من أجل إصلاح المجتمعات واجتثاث جذور الفساد والانحراف إنّما تکرست بالأسالیب المنطقیۀ والعقلیۀ

واسداء النصائح والمواعظ بغية إلفات إنتباه الخاطئين إلى أخطائهم، ولكن من المسلم به أنّ هناك طائفة قد جعلت عقلها وضميرها آلة طيعة بيد أهوائها وشهواتها، فهى لا تعرف سوى لغة السيف والقوة؛ الأمر الذى يضطر زعماء الامّة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲

الربانيين إلى شهر السيف بوجه هذه الطائفة الطائشة والاطاحة برؤوسها العفنة، وهذا هو آخر الدواء حيال تلك الأمراض المستعصية إذا ما عجزت غيره من الأدوية عن شفاء تلك الأمراض «إن آخر الدواء الكلى»[۲۱] والواقع هو أنّ قوله عليه السلام: «شافياً من الباطل» وقوله:

«ناصراً للحق» من قبيل اللازم والملزوم؛ وذلك لأنّ علاج الباطل يؤدى إلى نصرة الحق ونصرة الحق تؤدى إلى اضمحلال الباطل. ثم يعرب الإمام عليه السلام عن فائق دهشته إلى أنّ هؤلاء قد أعلنوا عليه الحرب ودعوه إلى الطعان والصمود أمام سيوفهم وهو الذى تشهد له ساحات الوغى وميادين القتال فى المواقع التى تنكص فيها الأبطال «ومن العجب بعثهم إلىّ أن أبرز للطعان ۲۲] وأن أصبر للجلاد»[۲۳].

فالعبارة تكشف بجلاء أنّ ناكثى البيعة هم الذين بادروا إلى نشوب المعركة، حيث هدوا الإمام عليه السلام بكل وقاحة بإعداد نفسه لمواجهة سيوفهم وحرابهم، وهذا ما نوّه إليه ابن أبى الحديد عن المؤرخ المعروف أبو مخنف قوله: رجع رسل على عليه السلام من عند طلحة والزبير وعائشة يؤذنونه بالحرب.[۲۴]

على كل حال فانّ هذا التهديد يكشف عن مدى تعامى مؤججى فتنة الجمل عن رؤية الحقائق والوقائع، وقد أعمى حبّ المناصب والمقامات بصيرتهم وبصائرهم حتى لم يعودوا يروا الحقيقة المطلقة التى تهتف بانديتهم ليل نهار، ألا وهى شجاعة وبسالة على عليه السلام التى رأوها مراراً وكراراً فى الغزوات الإسلامية على عهد النبى صلى الله عليه و آله. ثم عاود الإمام عليه السلام مواصلة حديثه فى الاستغراب من ذلك التهديد الفارغ ليقدم الدليل القاطع على رفضه لما أوردوه فقال عليه السلام:

«هبلتهم الهبول! لقد كنت وما أُهدد بالحرب ولا أُرهب بالضرب! وإنى لعلى يقين من ربّى وغبر شبهة من دينى»، قوله عليه السلام «هبلتهم الهبول»[۲۵]- بالاستناد إلى مفهوم الهبل بمعنى الثكل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳

بالولد- يريد به أنّكم لا- تستحقون الحياة والبقاء وليس لكم سوى الموت، ثكلتكم أمهاتكم على هذه الأخطاء الشنيعة والانحراف الفكرى الذى أوصلكم إلى هذه الحالة. وقد ورد شبيه هذه العبارة الذى يعطى ذات المعنى وهو قولهم «ثكلتهم الثواكل» والتى استعملها الإمام عليه السلام لهذا الغرض فى سائر خطبه من نهج البلاغة.

على العموم فانّ الإمام عليه السلام قد أشار فى هذه العبارات إلى سابقته العريقة وتأريخه المشرق ليشير كناية، إنّما يعرفنى حتى مشركى العرب ولم يجرأ أحد على تهديدى بالحرب والمبارزة طيلة حياتى، وقد عشتم معى وزعمتم أنّكم من المسلمين. المسألة الاخرى التى أشار اليها الإمام عليه السلام هى أنّ من يخشى الحرب يخشى القتل والشهادة، ومن يخشى القتل والشهادة فليس له من إيمان ويقين باللَّه سبحانه وأن طريقه مليء بالشكوك والشبهات؛ لأنّ من آمن وأيقن بسلامة طريقه ووثق بما عند اللَّه فانّه يعلم أنّ قتال أعداء الحق وخصوم الدعوة لا يكتنفه أى فشل أو هزيمة ولن ينطوى سوى على احدى نتيجتين إمّا النصر وإمّا الشهادة؛ الأمر الذى صرحت به الآية الشريفة ۵۲ من سورة التوبة: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بنا إلّا إِحْدى الحُسْنَيَيْنِ» وأمّا قوله عليه السلام: «فانى لعلى يقين من ربى، وغير شبهة من دينى» فقد اعتبره بعض شرّاح نهج البلاغة أنه يعطى مفهوماً واحداً ويؤكد بعضه البعض، إلّاأنّ الصحيح هو أنّ العبارتين من قبيل بيان العام بعد الخاص، وهى تشتمل على مفهومين. فالعبارة الاولى تشير إلى مقام اليقين لدى الإمام عليه السلام والذى ورد التعبير به عن الإمام عليه السلام قائلًا: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»[۲۶].

والعبارة الثانية تشير إلى الوظائف الدينية التى كشفت له عن كافة معالم الطريق دون الشعور بأدنى شك أو ريب، ولا سيما أنّه سمع

رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقد قال له: «يا على ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين» (أصحاب الجمل وصفين والنهروان).

الرجال الأشداء

هنالك عدد من الأفراد أو الفئات التى تطالعنا فى سوح الوغى طيلة الصراع المرير بين

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴

الحق والباطل وهم يتمتعون بالتفوق الكبير على خصومهم. على سبيل المثال فقد انتصر جند الإسلام على الجيوش الساسانية الجرارة- التى كانت تفوقهم بعشرة أضعاف من حيث العدد والعدة ومن حيث التجهيزات والوسائل الحربية التى لا يمكن مقارنتها بنظيرها لدى المسلمين- بل تميزت العسكرية الإسلامية من حيث التعبئة والقتال على قيام مجموعات المستضعفين الحافة العزل من السلاح إلّامن نور الإسلام والإيمان والمفاهيم القرآنية والتعاليم الإسلامية باقتحام الميدان وتحطيم اسطورة توازن القوى، لتحقق الانتصارات تلو الانتصارات على أكبر الجيوش وأقواها. ولا غرو فانما ينبع ذلک من «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إلّا إِحْدى الحُسْنَيَيْنِ» فقد كانوا يرون أنفسهم منتصرين مهما كانت نتيجة الحرب، سواء انتهت المعركة بهزيمة الأعداء أو نيل الشهادة، فكلا النتيجتان سعادة كبرى.

وقد لمسنا هذا المعنى بوضوح فى الحرب المفروضة التى شنها النظام الصدامى ضد الجمهورية الإسلامية الفتية، حيث وقفت كافة قوى العالم من الشرق والغرب خلفه لتقدم له كافة ألوان الدعم والاسناد، غير أنّ شبابنا المؤمن من قوات التعبئة والحرس الثورى والجيش الذين تربوا فى أحضان القرآن ومدرسة أهل البيت عليهم السلام قد أركعوا هذا العدو الشرس وجرعوه مرارة الهزيمة. نعم هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة ليعلن للأعداء من عبدة الأهواء، لست أنا الذى يهدد بالحرب! لست أخشى الضرب فى سبيل اللَّه، فقلبى قد غمر بنور الإيمان واليقين، بل أنا ربيب الإسلام والمدرسة النبوية التى ترى النصر حليفها بغض النظر عن النتيجة، وما عساها تكون سوى هزيمة العدو أو الفوز بالشهادة. وهذه هى الروحية التى ينبغى أن يستشعرها المسلمون تجاه أعدائهم ولا يولون أدنى أهمية لهذا التفوق المادى الكاذب الذى قد يكون مؤثراً إلّاأنّه لن يحسم المعركة لصالح الباطل أبداً.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵

الخطبة[۲۷] الثالثة والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وتشتمل على تهذيب الفقراء بالزهد وتأديب الأغنياء بالشفقة

القسم الأول

اشارة

«أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطَرَاتِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بما قُسِمَ لَها، مِنْ زِيادَةٍ أَوْ نُقْصانٍ، فَإِذَا رَأى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفيرَةً فِى أَهْلٍ أَوْ مالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً! فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَناءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَها إذا ذُكِرَتْ وَيُغْرَى بِها لِئامُ النَّاسِ كانَ كالْفالِجِ الْياسِرِ الَّذِى يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِداحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَيُرْفَعُ بِها عَنْهُ الْمَغْرَمُ.

وَكَذَلِکَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِىءُ مِنَ الْخِيانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ:

إِمَّا داعِيَ اللَّهِ فَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزْقَ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمالٍ، وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ، وَإِنَّ الْمالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيا، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُما اللَّهُ تَعالَى لِأَقْوامٍ».

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۲۶

نظرهٔ إلى الخطبهٔ

استهل الإمام عليه السلام خطبته بتقسيم رزق الإنسان وما قسم له على ضوء التقدير والتدبير الإلهى، ثم أوصى عليه السلام بأن من رأى لأخيه نعمهٔ فلا ينبغى أن يكن له البغض أو الحسد (كما لا ينبغى أن يغتر إن جنى ثروهٔ فيفضحى بدينه وإيمانه من أجلها) آنذاك دعا عليه السلام الناس إلى الإخلاص والورع والتقوى وصفاء النيهٔ وصلاح العمل بعيداً عن الرياء والعجب والفخر. أمّا فى القسم الأخير من الخطبهٔ فقد أشار عليه السلام إلى بعض المسائل الاجتماعيهٔ الحساسهٔ من قبيل تقويهٔ أواصر القرابهٔ وضرورهٔ التعاضد والتعاون بين أفراد القبيلهٔ والامّهٔ الإسلاميهٔ الواحدهٔ بغيهٔ التغلب على المصاعب والمشاكل، مؤكداً على عدم فقدان الانتماء إلى العشيرهٔ من خلال اعتماد البخل والإمساك؛ فإنَّ ضرر هذا الفقدان عليه سيكون أعظم وأشد ممّا هو عليه بالنسبهٔ للعشيرهٔ، فانه إنَّما يمسك يده بينما بالمقابل تمسك عنه أيدى كثيرهٔ.

الشرح والتفسير

الرضا والتسليم أمام إرادهٔ اللَّه

أشار الإمام عليه السلام- فى هذه الخطبهٔ- إلى مسألهٔ مهمّهٔ ذات أثر عظيم فى تهذيب النفوس والحد من جموح الفرد والمجتمع. وهى ممّا لاشك فيه أنّ الحياهٔ الاجتماعيهٔ البشريهٔ تعد الأساس لبركات وثمرات عظيمهٔ، بحيث يمكن أن نقول إنّ القسم الأعظم من النجاحات والمكتسبات الباهرهٔ فى كافهٔ المجالات والميادين العلميهٔ والصناعيهٔ والاجتماعيهٔ إنّما حققتها البشريهٔ فى ظل هذه الحياهٔ الاجتماعيهٔ. وإلى جانب تلك الثمار والمعطيات والبركات كانت هنالك المشاكل الخطيرهٔ التى تهدد بالفناء جميع الآثار الايجابيهٔ لهذه الحركهٔ مالم تجد الحلول الشافيهٔ.

ومن ذلك، وجود الفوارق بين بنى البشر من حيث الاستعداد والقابليات الجسميهٔ والروحيهٔ على المستوى الفردى والاجتماعى؛ الأمر الذى أدّى إلى التفاوت الفاحش فى الإمكانات الماديهٔ والماليهٔ. ومن هنا بدت ردود الفعل السلبيهٔ للأفراد الذين تخلفوا عن هذه المسيرهٔ، أو سعوا بتخبط للخلط بين الحلال والحرام ليزجوا بأنفسهم فى هذا السباق غير المتكافئ والمجهول النهايهٔ فى مصاف من تقدّم عليهم من حيث الجوانب المادّيهٔ ولم يكن أمامهم

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۲۷

سوى سبيلين، إمّا الشعور بالإحباط واليأس والانسحاب من ميدان العمل والنشاط والتقوقع على الذات، أو اشتعال نيران الحسد والبغض فى قلوبهم تجاه اولئك والهم بالانتقام منهم. من جانب آخر فإنَّ البعض الذى يتمتع بالإمكانات قد يصاب بالغرور والكبر والعجب والفخر فيندفع نحو الطغيان والفساد والانحراف.

الآيات القرآنيهٔ والروايات الإسلاميهٔ بدورها ودرءاً لهذه المفاسد والحيلولهٔ دون ظهورها قد لفتت أنظار الجميع إلى حقيقهٔ مفادها أنّ هذه الفوارق والزيادهٔ والنقصان ليست مسألهٔ عبثيهٔ بقدر ماهى واقع يستند إلى الحكمهٔ الإلهيهٔ التى تنظم شؤون العباد على أساس ما يصلحهم ويقوم حياتهم. ولعل الأسرار التى يختزنها هذا التصنيف خافيهٔ علينا نحن العباد فى أغلب الامور، إلّاأنّ مجرد علمنا بأنّ اللَّه حكيم ورحمن ورحيم هو الذى ينظم الامور وتتشعر قلوبنا الرضى والتسليم لهذا التنظيم والتخطيط؛ فإنَّ القضيهٔ ستتغير وتخرج من

شكلها الظاهرى، آنذاك ستسود السكينة والطمأنينة قلوبنا وأرواحنا وستزول كافة تلك العواقب السلبية التى بدت لنا لأول وهلة. ومن هنا تواتر التأكيد على الرضى والتسليم ولاسيّما بالنسبة للرزق فى الآيات والروايات.

نعود الآن بعد هذه المقدمة المختصرة إلى تفسير الخطبة، فقد تطرق الإمام عليه السلام فى بداية خطبته عن تهذيب النفوس ووضع حدّ للمفاسد الاجتماعية، فقد قال عليه السلام: «أمّا بعد: فان الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كلّ نفس بما قسم لها، من زيادة أو نقصان» فالتشبيه بقطرات المطر تشبيه غاية فى الروعة؛ لأنّ قطرات المطر تنزّل بصورة مختلفة على الأرض وفقاً للإرادة الإلهية والحكمة الربانية، والأرزاق الإلهية تسقط على هذه الشاكلة من السماء إلى البشرية على الأرض بفضل اللَّه ورحمته. فقد ينزّل المطر بغزارة على بعض المناطق حتى تسيل أنهاراً عظيمة بينما قد تشهد مناطق اخرى زخات خفيفة من المطر طيلة السنة. ثم يخلّص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة التى‌ينبغى أن يستحضرها الناس: «فاذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة[۲۸] فى أهل أو مال أو نفس، فلا تكونن له فتنة».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸

لعل غفيرة تشير إلى أنّ الأموال والثروات لمن دوافع الغفلة وستر عيوب الإنسان حتّى عن نفسه، وإنْ وردت غفيرة هنا بمعنى المال الكثير.

مايجدر ذكره أنّ الفتنة هنا لا- تعنى الامتحان، وإن وردت عادة بهذا المعنى فى الأعم الأغلب، بل المراد بها ما يدعو إلى الفساد والخداع وردود الأفعال السلبية من قبيل الحسد والعداوة والبغضاء التى يمارسها الفقراء المعدومون حيال أصحاب الأموال والثراء. ثم قال عليه السلام:

«فان المرء المسلم مالم يغش دناءة تظهر فيخشع لها إذا ذكرت ويغرى بها لئام الناس، كان كالفالج ۲۹] الياسر[۳۰] الذى ينتظر أول فورة من قداحه ۳۱] توجب له المغنم، ويرفع بها عنه المغرم». كما أنّ المسلمين البعيدين عن الخيانة إنّما ينتظرون من الحق سبحانه أمرين: أمّا حلول الأجل الإلهى (وقد أفنى عمره بطيب السمعة وحسن العاقبة) فما عند اللَّه خير له وأبقى.

وأمّا أنْ يوسّع اللَّه عليه رزقه فى هذه الدنيا ويمّن عليه بالصاحبة والأهل والولد فى سلامة من دينه وصون لعزته وكرامته «وكذلك المرء المسلم البرىء من الخيانة ينتظر من اللَّه إحدى الحسنيين: إمّا داعى اللَّه فما عند اللَّه خير له، وإمّا رزق اللَّه فاذا هو ذو أهل ومال، ومعه دينه وحسبه». ولكن لابدّ من الإذعان إلى الفارق الكبير بينهما فأحدهما من قبيل زرع الدنيا كالمال والولد، والآخر من زرع الآخرة وهو العمل الصالح «وإنَّ المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة». وقد يجمع اللَّه سبحانه نعم الدنيا والآخرة لبعض الأفراد «وقد يجمعهما اللَّه تعالى لأقوام».

والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد كشف بهذه العبارات عن حقيقة مهمّة ومصيرية فى حياة الإنسان تكمن فى ضرورة عدم تلوثه بالذنوب والمعاصى والإرجاس التى لا تجر عليهم سوى الخزى والعار والسقوط من أعين الناس والحد من شخصيته لديهم.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹

وبناءً على ما تقدّم فإنّ هناك أحد مصيرين رفيعين بانتظار الفرد الذى يعيش النقاء والعفّة فى حياته، أنْ يقضى حياته معززاً مكرماً ليحث السير نحو رحمة اللَّه ومغفرته وأجره وثوابه. أو أن يفيض اللَّه عليه من نعم الدنيا فى هذه الحياة الدنيا ويجمع له خير الدارين.

القضية المهمّة التى حظيت باهتمام شرّاح نهج البلاغة هى أنّ الإمام على عليه السلام شبّه المؤمن الذى يتمتع بالغلبة والسعادة والفوز بلطف اللَّه ورحمته المقامر الماهر الذى يفوز بالتضارب بالقداح، وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: كيف يشبه الإمام عليه السلام المؤمنين الذين يعيشون الرضى والتسليم تجاه رزق اللَّه وقسمه بهذا الفرد المقامر الأثيم المقارف لهذه الكبيرة من الكبائر؟

يتّضح من التأمّل فى عبارات الإمام عليه السلام من قبيل «فوزة» و «قداح» و «مغنم» و «مغرم» أنّ الياسر ليس المراد به القمار، بل أراد به نوعاً خاصاً من الاقتراع كانت تمارسه العرب، حيث كانوا يأتون بعشرة سهام لكل واحد منها اسم، ويشترون جملًا فيذبحوه ويقسّموه

عشرة أقسام، ثم يجعلون السهام مع بعضها ليقوم من يثقون به باستخراجها واحداً واحداً، ثم يكون الفائز على أساس ترتيب السهام حسب أسمائها الأول والثانى إلى السابع والسهم الأول فيها يسمى «مُعَلّى – والسهام الأخرى إذا خرجت باسم أحدهم فهو الذى يدفع قيمة الجمل، أمّا الفائزون فيعطون سهامهم للفقراء دون أن يأكلوا منها شيئاً، وكانوا يفتخرون بذلك العمل.[۳۲]

طبعاً لا يجوز هذا العمل شرعياً، إلّاأنّه لا يشتمل على معايب وفواجع القمار. فالإمام عليه السلام أراد أن المؤمنين من أهل الرضى والتسليم يشبهون الأفراد الذين يفوزون بسهم المُعلّى فى ذلك الاقتراع، ووجه الشبه أنّه يفوز بأكبر نصيب دون أدنى عناء. والتعبير بالقداح وأول فوزة والغنيمة والنجاة من الخسارة كلّها تناسب هذا المعنى؛ وهذا ليس متعارفاً فى القمار حيث لا يترك المقامر المقامرة لمجرد غلبه فى الوهلة الاولى، بل يواصل قماره حتّى لا تعرف النتيجة التى سيؤول إليها. وبالطبع فإنّنا لا ننكر أنّ المفردة مفهوم واسع يشمل الاقتراع وألعاب الحظ، ولكن لابدّ من الالتفات إلى أنّ القمار بمعناه الحقيقى يختلف تماماً عن ذلك النوع من الاقتراع، ولا سيما أنّ القرآن قد عبر ب «الألزلام» لا الميسر وإنْ ورد الذم عليهما معاً «إِنَّما الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ...».[۳۳]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰

الرضى والتسليم إلى جانب السعى والعمل

لعل هنالك من يقول بأنّ روح الرضى والتسليم لأمر اللّه فى الرزق وفى المنافع المادية بصورة عامّة إنّما تهدأ النفس البشرية وتحدّ من جماحها وتحوّل دون الإنسان والارتماء فى ميادين الحرص والطمع وجباية الأموال واللهث وراء الثروة والانغماس فى المحرمات كما تصدّه عن استشعار معنى الحسد والبغض، إلّاأنّ مثل هذا الشعور قد يقتل عند الإنسان روح السعى والمثابرة بحيث يتشبّث كلّ فرد بذريعة من الذرائع من قبيل أنَّ الأرزاق مقسّمة وكلّ قد سمّى اللّه له رزقه ونصيبه فيخلد إلى السكون والدعة والكف عن العمل، فما جدوى ذلك والأرزاق قد قسمت؛ الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى تخلّف الأمّة فى المجال الاقتصادى والتطور المادى واجتثاث جذور الفقر والحرمان.

إلّا أنّ هذا الإشكال قد يزول إذا ما ألتفت إلى أمرين: الأول هو أنّ هذه التعاليم الإسلامية والوصايا الأخلاقية إنّما توخّت الحد من تهافت الإنسان على الماديات وتناسيه لكل ما سواها، بعبارة اخرى فإنّ الإنسان يمتلك الدوافع التى تسوقه نحو الماديات والنهوض بحياته الاقتصادية، ولو لم تكن هنالك من كوابح لهذه الدوافع فإنّه سينطلق بسرعة هوجاء نحو الحرص والتسابق فى جنى الأموال والثروة بحيث يحطم كافة الحدود والقيود الأخلاقية والقيم المعنوية. وبعد هذا هو المعنى الذى أشار له الإمام على بن الحسين عليهما السلام حين قال: «معاشر أصحابى! أوصيكم بالآخرة ولست أوصيكم بالدنيا! فإنّكم بها مستوصون وعليها حريصون وبها متمسِّكون»[۳۴]. والأمر الثانى يكمن ضرورة جمع كافة الآيات والروايات الواردة بهذا الشأن من أجل التوصّل إلى النتيجة النهائية بخصوص التعاليم الإسلامية؛ لأنَّ القضايا الإسلامية المحورية لاتبدو واضحة المعالم من خلال آية واحدة أو حديث واحد. ففى مجال تحصيل الرزق والقناعة به وضرورة السعى والحركة هنالك الآيات والروايات التى أشارت من جهة إلى مسألة الرضى والتسليم تجاه التقديرات الإلهية، وهنالك من جهة اخرى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۱

الآيات والروايات التى وردت فى الحث على السعى والعمل، بحيث يفهم من مجموع الطائفتين من الآيات والروايات أنّ الضعف والوهن فى هذا المجال ليس صحيحاً كما أن الحركة الحريصة والممزوجة بالذنب والمعصية التى تفرزها طبيعة تجاهل التقدير الإلهى والتوكّل على اللّه هى الأخرى ليست صحيحة أيضاً. وبعبارة اخرى، صحيح أنّ الرزق قد قسم من جانب اللّه، غير أنَّ ذلك مشروط بشرط السعى والجهد المقرون بالخلق والتقوى والورع.

ونختتم البحث بما ورد فى الحديث النبوى الشريف بشأن مقام الرضى والتسليم فى أنّ طائفة من المسلمين تطير من قبورها يوم القيامة إلى الجنّة لتتنعّم بنعيمها دون أن تشهد الحساب فتسألهم الملائكة عن الحساب والجواز على الصراط، فتجيب أنّها لم تر الحساب والصراط. وتسألهم عن جهنّم، فجيبوا بعدم رؤيتها. فيسألون من أيّة امتم أنتم؟ فتقول من أُمّة محمد صلى الله عليه و آله فتقسم عليهم الملائكة عن أعمالهم التى أدّت بهم إلى هذه الكرامة، فيقولون: «كنا إذا خلونا نستحى أن نعصيه ونرضى باليسير ممّا قسّم لنا» فتقول لهم الملائكة: «حقّ لكم هذا»[۳۵].

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳

القسم الثانى: سبيل بلوغ مقامات الصالحين

اشارة

«فاحْذَرُوا مِنَ اللَّهِ ما حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ! وَاعْمَلُوا فِى غَيْرِ رِياءٍ وَلا سُمْعَةٍ فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللَّهِ يَكِلْهُ اللَّهُ لِمَنْ عَمِلَ لَهُ. نَسْأَلُ اللَّهَ مَنازِلَ الشُّهَداءِ وَمُعايَشَةَ السُّعَداءِ وَمُرافَقَةَ الْأَنْبِياءِ».

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام خطبته بعدد من الوصايا الأخلاقية فيقول عليه السلام: «فاحذروا من اللَّه ما حذَّركم من نفسه» ولعلّ العبارة إشارة إلى الآية الشريفة: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ»[۳۶] أو إلى الآية: «وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ»[۳۷]. ثم حثّ عليه السلام على خشيته وتقواه بحيث لا تكون هناك من حاجة لالتماس الأعذار الواهية «واخشوه خشية ليست بتعذير»[۳۸]، لأنّه العالم بباطن كل فرد وأسراره وأعذاره الصحيحة من السقيمة. جدير بالذكر أنّ العبارة السابقة تحدثت عن الحذر من اللَّه، ثم أُردفت بالحديث عن الخشية، وقد صرّح اللغوين أنّ الخشية تتضمن الخوف المقرون بدرك العظمة، ومن هنا صرّح القرآن الكريم «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ»[۳۹]، أمّا الحذر فيقال حين يحتاط الإنسان من خطر قطعى أو محتمل. ثم أشار عليه السلام فى وصيته الثالثة إلى الإخلاص فى النيّة وتنقية الأعمال من الرياء والسمعة لأنَّ من عمل للَّه

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴

وشرك معه آخر وكله اللَّه إلى ذلك الآخر وقال له خذ أجرك منه فانّك لم تعمل لى «واعملوا فى غير رياء ولا سمعة، فإنَّه من يعمل لغير اللَّه يكله اللَّه لمن عمل له».

نعم خشية اللَّه وخشية مقارفة الذنوب والمعاصى لا تكفى لوحدها، بل لابدّ من الإتيان بالأعمال الصالحة البعيدة عن كافة أشكال الرياء والسمعة، والرياء يعنى مراءاة الآخرين ولفت أنظارهم لما يقوم به الإنسان من أعمال، والسمعة أن يقوم بالعمل للَّه، إلّاأنّه يسعى لإسماعه الآخرين، بحيث يجلب انتباههم إليه، و إلّا يفعل ذلك يسر لسماع الآخرين فيثنون عليه ويطرونه.

والمعروف بين العلماء أنّ السمعة لا تبطل العمل، إلّاأنّها مذمومة خلقاً ومدعاة لانحطاط الإنسان الروحى والمعنوى، ولعلّها تؤدّى إلى زوال الأجر والثواب. وقد استدل الإمام عليه السلام فى تحذيره من السمعة والرياء بأنّ اللَّه سبحانه لا يقبل إلّاالعمل الخالص لوجهه فإنّ شرك العبد معه أحد آخر وكله اللَّه إليه ليأخذ منه أجره، وبالطبع فإنّه لا يملك القدرة على إعطاءه الأجر والثواب. والعبارة هى مضمون حديث قدسى معروف نقل عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّ الحق سبحانه قال: «أنا خير شريك ومن أشرك معى شريكاً فى عمله، فهو لشريكى دونى، لأنى لا أقبل إلّاما خلص لى»[۴۰].

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلًا: «نسأل اللَّه منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقة الأنبياء». حيث يهدف الإمام عليه السلام

إلى تعريف الأمّـة بالقيم الإلهية الحقّة من قبيل الشـهادة ومرافقة الأنبياء وهى الامور التى لا تنال بسـهولة كما لا تمنح للإنسان بالمجان «ومن يطع اللّه وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَاولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً* ذ لِكَ الفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفى بِاللّهِ عَلِيماً»[۴۱].

فالمراحل الثلاث- الشـهادة والسـعادة ورفقة الأنبياء- التى وردت فى كلام الإمام عليه السلام يمكن أن تكون من قبيل العلّة والمعلول، فالشهادة سبب السعادة، والسعادة سبب مرافقة الأنبياء.

كما يمكن أن يكون الكلام إشارة لطيفة إلى حوادث المستقبل وشهادة الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵

فصل فى أنّ الاخلاص أساس العمل

للشـرك والوثنيـة شـعب، من أهمها الرياء والسـمعة. والرياء من مادة الرؤيـة بمعنى التظاهر وإلفات نظر الآخرين إليه من خلال التظاهر بالعبادة والأعمال الحسـنة. وهـذا الفرد فى الواقع مشـرك، لأنّه يرى عزّته وكرامته بيـد الآخرين لا بيد اللّه، ولذلك يقوم بأعماله بدافع من لفت انتباه الآخرين إليه.

أمّا بشـأن السـمعة فهنـاك تفسيران: أحـدهما أنّ السـمعة هو أن يقوم الفرد بالعمـل قربـة إلى اللّه، فتخـالطه الأفكـار باطّلاع الآخرين وإسـماعهم بعمله ليحظى بمـديحهم وثنائهم. وهو الأمر الذى لا يوجب بطلان العمل حسـبما صـرّح بذلك الفقهاء، لأنّه قد حصل بعد الإتيان بالعمل، إلّا أنّها تقلل من ثواب العمل أو تقضى عليه، والآخر أن تكون خالطته فكرة إسماع الآخرين منذ بداية العمل ليثنوا عليه ويكيلوا له المـدح والثنـاء. وليس هنالك من فارق بين السـمعة بهـذا المعنى والرياء، سوى أنّ المرائى يقوم بالعمل ليراه الآخرون بينما يقوم الآخر بالعمل ليسمعه الآخرون، وعليه فالعملان ليسا بخالصين.

على كلّ حال فإنّ الرياء والسـمعة من أكبر آفات الأعمال العبادية. ولما كان نفوذ الرياء والسمعة إلى الأعمال الإنسانية غاية فى التعقيد والدقّة فقـد تواتر التحـذير منه كراراً فى الآيـات القرآنيـة والروايـات الإسـلامية. وأعظم مفسـدة لهـذا العمل هو أنّه يقضـى على روح التوحيـد ويقذف بصاحبه فى وادى الشـرك والازدواجية فى العبادة، لأنّ توحيد الأفعال يعلّمنا الإيمان والإذعان بأنّ كلّ شـىء بيد اللّه وأنّ الأجر والثواب والعزّة والكرامـة والرزق و ... تابعـة لإرادة اللّه مأتمرة بأوامره، إلّاأنّ المرائين إنّما يلتمسون هذه الامور من الآخرين، وهذا شرك علنى.

وقـد ورد فى الروايـات يقـال يوم القيامـة للمرائى: «يـا كـافر! يـا فاجر! يا غادر! يا خاسـر! حبط عملك وبطل أجرك، فلا خلاص لك اليوم»[۴۲]. هـذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ الرياء والسـمعة مصـدر كافة الاختلالات الاجتماعية، فالمرائى إنّما يهتم بظاهر العمل دون الإكتراث إلى باطنه، فالظاهر جميل والباطن فاسد.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶

المؤسّـسات والـدوائر تتمتع بظاهر أنيق بينما تسـتبطن الخواء والفساد من الـداخل، الأفكار سـطحية ساذجـة خاليـة من أىّ عمق وجذور فالهـدف فى المجتمعات المرائيـة إنّما يولى للكميّة لا للكيفيّة. ومن البديهى أنّ مثل هذه المجتمعات إنّما تحث الخطى نحو الانحطاط والاضـمحلال والانهيـار. وبالطبع على العكس من ذلك فهنالك اليوم البلـدان التى أولت أهميـة قصوى للقطاعات الصـناعية والزراعية والاقتصادية وحثت الخطى من أجل خدمة المجتمع ورفاهه فقد سارت نحو الرقى والتطور والازدهار.

نكتفى بهذا المقدار بشأن الرياء والسمعة ونترك الخوض فى التفاصيل أكثر إلى الأبحاث القادمة بما يتناسب والموضوع.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷

القسم الثالث: السند الشعبی

اشارة

«أَيُّها النَّاسُ إِنَّهُ لا يَسْتَغْنِی الرَّجُلُ - وَإِنْ كانَ ذا مالٍ - عَنْ عِتْرَتِهِ، وَدِفاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرائِهِ وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نازِلَةٍ إِذا نَزَلَتْ بِهِ وَلِسانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ لِلْمَرْءِ فِی النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمالِ يَرِثُهُ غَيْرُهُ».

الشرح والتفسير

لمّا فرغ الإمام عليه السلام من وصاياه للفقراء والمعدمين بطاعة اللّه وخشيته وإلّا يصدهم عن ذلک الانحراف الأخلاقی بسبب سوء الأوضاع وصعوبة العيش التی يعانون منها، وأصل خطبته ليخاطب هنا الأغنياء والمرفهی بما يحفظ التوازن فی المجتمع. فقد حثم بادئ ذی بدء إلی مدّ يد العون والمساعدة إلی بطانتهم وأقربائهم وعشيرتهم، ويلفت نظرهم إلی غض الطرف عن الأموال والثروة التی ليس من شأنها أن تجعل الإنسان غنياً عن قرابته «أيها الناس إنه لا يستغنی الرجل - وإن كان ذا مال - عن عترته ۴۳]، ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم». فالواقع أنّهم أعظم سند يوفر له الحماية والدعم ويزيل عنه المشاكل والمخاطر، وإذا ما تعرض لبعض الظروف الصعبة والحوادث الخطيرة، كانت عترته أشفق من الآخرين به وأحرصهم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸

عليه «وهم أعظم الناس حيطة[۴۴] من ورائه وألمّهم ۴۵] لشعثه ۴۶] وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به». نعم فالحياة مليئة بالمخاطر والمطبات والعواصف الهوجاء والأحداث المريرة التی لا يسع الإنسان التغلب عليها بمفرده، ومن هنا فإنّ العقل والحكمة تتطلب من الإنسان التفكير فی مثل هذه الأحداث. وما أروع أن تكون لهذا الإنسان قرابة تهب لدعمه وحمايته فی مثل هذه الظروف. ولكن، هل يمكن الحصول علی دعم القرابة ومساندتها دون الإحسان إليها وتفقد أمورها وإحاطتها بالحب والرعاية وإغاثتها مالياً ومعنوياً؟ قطعاً، لا. فما أحری كل إنسان أن يوطد أواصر مودّته لقرابته من خلال بعض البذل المادی حتّی لا يبقی وحده حين تعصف به الأحداث والمصائب. طبعاً الإحسان إلی الآخرين ممّا ورد الندب إليه ولا تخفی آثاره «الإنسان عبيد الإحسان» إلّاأنّ الأولوية فی هذا الأمر للقرابة «الأقربون أولی بالمعروف» حيث تمهد الأجواء أمام تعميق أواصر الاخاء والمحبّة. وبغضّ النظر عما سبق فإنّ هذا الأمر لو طبق فی المجتمع كما ينبغی فقد لا تبقی هنالک من آثار للفقر والحرمان فی المجتمع، كيف لا وفی كلّ قبيلة عدد من الأفراد المتمكنين الذين لو مدّوا يد العون إلی سائر أفراد قبيلتهم لما ظل هنالک من يعانی من الحرمان. وقد أوصی الإمام عليه السلام ولده الإمام الحسن عليه السلام بهذا الأمر مبيّناً فوائد إكرام العشيرة ومعالجة مشاكلهم إذ قال عليه السلام: «وأكرم عشيرتک! فإنّهم جناحک الذی به تطير وأصلک الذی إليه تصير ويدک التی بها تصول»[۴۷]. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلی دليل الآخر فی إطار حثه الأفراد المتمكنين علی مساعدة قرابتهم فيقول: «ولسان الصدق يجعله اللّه للمرء فی الناس خير له من المال يرثه غيره» .. وقد ورد فی هذا المعنی من النثر والنظم الكثير الواسع، فمن ذلک قول عمر لابنة هرم: ما الذی أعطی أبوک زهيراً؟ قالت: أعطاه مالًا يفنی، وثياباً تبلی. قال: لكن ما أعطاكم زهير لا يبليه الدهر، ولا يفنيه الزمان.

إذا أنت اعطيت الغنی ثم لم تجدبفضل الغنی ألفيت مالک حامد

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹

وقل غناء عنک مال جمعتهإذا كان ميراثاً وواراک لاحد

نعم لايحمل الإنسان شيئاً من الأموال معه فی قبره، إلّاأنّه يحمل العمل الصالح والذكر الحسن لدی الناس، فلا يكد يذكر إسمه حتّی

يترحم عليه الناس ويسألون اللّه له المغفرة والعفو والرحمة.

هـذا هو رأس المال المعنوى والمادى الخالد الذى يمكن نيله من خلال الإنفاق فى سبيل اللّه وبذل الإحسان إلى عباد الرحمن. وزبدة الكلام فانّ الأغنياء قد دعوا إلى مدّ يد العون إلى فقراء المجتمع ومساعدتهم من خلال دافعين؛ الأول بغية الحصول على الأعوان والأنصار وتوظيفهم لصالحهم حين بروز النوائب والشدائد التى تواجههم فى حياتهم، والثانى بهدف الحصول على السمعة الحسنة والذكر الطيب بعد الموت بما يجعل الآخرين يترحّمون عليهم ويسألون اللّه لهم العفو والمغفرة. وما أعظم هذه التجارة بهذا المتاع الدنيوى الزائل من أجل الحصول على السندين المذكورين.

فصل فى حسن الثناء (لسان الصدق)

لقد ذكر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة أنّ لسان الصدق يجعله اللّه للمرء فى الناس خير له من المال يورثه غيره. ولسان الصدق هو أن يذكر الإنسان بالخير، ويثنى عليه به، قال سبحانه:

«وَاجْعَلْ لِى لِسانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِينَ»[۴۸] وهو دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام. كما أشار البارئ سبحانه فى إطار ثنائه على طائفة من الأنبياء «وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيّاً»[۴۹]. واللسان فى الآية بمعنى ذكر الإنسان بالخير. وممّا لا شك فيه أنّ هذه القضية ليست من قبيل القضايا الروتينية الجوفاء، بل تنطوى على عدّة معطيات على مستوى الفرد والمجتمع، فهى:

أولًا: أنّها لمن دواعى الفخر والاعتزاز الخالد، بينما نرى أنّ الأموال والثروات المادية إنّما توزّع فى لحظة وقد لا يبقى لها من أثر.

ثانياً: إنّ حسن الثناء والذكر الحسن إنّما يسوق الآخرين للدعاء لهؤلاء الأفراد وطلب

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰

الرحمة والمغفرة لهم من اللّه؛ الأمر الذى لا تخفى آثاره المعنوية.

ثالثاً: إنّ هذا الأمر له تأثيره البالغ فى نفوس أبناء المجتمع فى الاقتداء باولئك الأفراد وإحياء القيم العليا فى المجتمع والقضاء على ما يخالفها، فقد جاء فى الرواية المعروفة «من سنّ سنّة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها»[۵۰].

وأخيراً أنّ ذلك من مدعاة العزة والرفعة والكرامة لدى نسل اولئك الأفراد المحسنين، فما أكثر من نعرف من الأفراد الذين نكن لهم الحب والاحترام لانحدارهم من اولئك الأفراد. هذه طائفة من الآثار المعنوية الفردية والاجتماعية للسان الصدق وطيب الاحدوثة.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۱

القسم الرابع: الإعتضاد بالعشيرة

اشارة

ومنها:

«أَلا لا يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرابَةِ يَرَى بِها الْخَصاصَةَ أَنْ يَسُدَّها بِالَّذِى لا يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ وَلا يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ؛ وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ، فَإِنَّما تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ واحِدَةٌ وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ وَمَنْ تَلِنْ حاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ».

الشرح والتفسير

بعد أن قرظ الإمام عليه السلام الثناء والذكر الجميل وفضله على المال، أمر بمواساة الأهل وصلة الرحم وإن قلّ ما يواسى به، حيث أكد هذا الأمر بثلاث عبارات فقال عليه السلام: «ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة[۵۱] أن يسدها بالذى لا يزيده إن

أمسکه ولا- ینقصه إن أهلکه». یمکن أن تکون هـذه العبارهٔ إشارهٔ لأحـد معنیین؛ الأول إلی البعـد المعنوی لهـذا العمل فی أنّ حرمان القرابهٔ ممّا یتمتع به الإنسان من إمکانات وثروات من شأنه أن یسلب برکـهٔ مال الإنسان وحیاته ویحول دون نمائه وزیادته، وعلی العکس من ذلک فانّ معونهٔ القرابهٔ ومساعدتها تنطوی علی عدهٔ برکات من شأنها أن تدرک هـذا النقص الظاهری بتفضّلات اللّه وألطافه؛ أو أن یکون إشارهٔ إلی بعده الظاهری والمادی، لأنّ مشاکل القرابهٔ إنّما تنتقل بشکل أو بآخر إلی الإنسان وتؤرق فکره وتشغل روحه وتعرض سمعته وشخصیته للخطر وبالتالی تضاعف من مشاکله ومعاناته، وعلیه فما أحراه أن یهب لمساعدتهم ومعونتهم لیظفر بثواب

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۴۲

الآخرهٔ وبرکات الدنیا وینال الذکر الطیب والاحدوثهٔ الحسنهٔ. فقد جاء فی الحدیث أن الإمام علی علیه السلام قال: «البرکهٔ فی مال من آتی الزکاهٔ وآسی المؤمنین ووصل الأقربین»[۵۲] ثم یتطرق الإمام علیه السلام إلی الأضرار الفادحهٔ التی یتکبدها الإنسان إذا أمسک یده عن قرابته ولم یقدم العون والمساعدهٔ، ومن ذلک إنّه إنّما یقطع عنهم یده بینما یقطعون عنه أیدیهم التی لا غنی له عنها «ومن یقبض یده عن عشیرته، فإنّما تقبض منه عنهم ید واحدهٔ وتقبض منهم عنه أید کثیرهٔ».

فالحق لیس هنالک من عاقل مستعد للتضحیهٔ بکل هـذه المنافع من أجل التنازل عن بعض منافعه الشخصیهٔ الضئیلهٔ، ثم یختتم الإمام علیه السلام کلامه بالقول «ومن تلن حاشیته یستدم من قومه المودّهٔ». یمکن أن تنطوی مفردهٔ «حاشیته» علی معنیین؛ الأول صفات الإنسان وروحیاته، والآخر أن تکون إشارهٔ إلی البطانهٔ وبناءً علی هـذا، فإنّ مفهوم الجملهٔ هو تمحور قوم الإنسان حوله إذا حسن سلوک بطانته تجاه الناس. فقد رأینا الکثیر من الأفراد الصالحین الذین انفرجوا عنهم الناس رغم صلاحهم بسبب سوء تصرف بطانتهم ومن حولهم.

فصل فی برکات التعاضد بالقرابهٔ

إنّ مسألهٔ صلهٔ الرحم وتوطید أواصر المحبّهٔ بالقرابهٔ وإن کانت وظیفهٔ إلهیهٔ ورد التأکید علیها فی الآیات القرآنیهٔ والروایات الإسلامیهٔ، إلّاأنّ ممّا لاشک فیه أنّ القیام بهـذه الوظیفهٔ الدینیهٔ والإنسانیهٔ إنّما ینطوی علی برکات جمهٔ تعرض لها الإمام علیه السلام أواخر هذه الخطبهٔ والمهم أن یعزز الإنسان هـذه الأصرهٔ ولا- یمارس کلّ مأمن شأنه الإساءهٔ إلیها أو قطعها. ولابـدّ من الإحسان إلی القربی حین شعور الإنسان بوفور النعمهٔ، لتهب للوقوف إلی جانبه إذا ما واجهته بعض المحن والخطوب. وقد دلّ الواقع بما لا- یقبل الشک أنّ التفوّق علی المشاکل لا- یتأتی من خلال الجهود الفردیهٔ، بل یتطلب مؤازرهٔ الآخرین وتکافؤ جهودهم، وما أحری أن تکون الأولویهٔ فی هـذه الرابطهٔ للقرابهٔ والعشیرهٔ حیث یعرف کلّ منهما الآخر إلی جانب الإرتباط العاطفی الذی یشدّ کلّ منهما الآخر إلی جانب الإرتباط العاطفی الذی یشدّ کلّ منهما للآخر،

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۴۳

غیر أنّ المؤسف له أنّ أغلب الأفراد إنّما یضربون هـذه الامور عرض الجدار بمجرّد نیلهم بعض الثراء والنعمهٔ فیبتعد عن قرابته ویحرم نفسه من کلّ هـذه الطاقات التی یمکنها معالجهٔ مصاعبه ومشاکله، وهـذا هو المعنی الـذی تناولته أغلب الروایات الواردهٔ بهـذا الشأن. فقـد جاء فی الحـدیث عن الإمام الصادق علیه السـلام أنّه قال: «صِلَهُ الرّحِم وَحُسْنُ الجِوار، یُعَمّران الـدیار وَیَزیـدان فِی الأعمار»[۵۳]. وقـال الإمـام الباقر علیه السـلام: «صِلَهُ الأرحام وَحُسنُ الجِوارِ زیادَهً فی الأموالِ»[۵۴]. کـما ورد عن الإمـام الباقر علیه السـلام أنّه قال: «صِلَهُ الأرحـام تُزَکّی الأعمال وَتُنْجی الأموال وَتَرْفَعُ البَلوی وتُیَسِّرُ الحِسابُ وتُنسـی فی الأجل»[۵۵]. وبالمقابـل فإنّ قطع الرحم ینطوی علی آثار خطیرهٔ علی حیاهٔ الإنسان فی الـدنیا وسوء العـذاب فی الآخرهٔ. فقـد جاء فی الحـدیث أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال: «أخبَرنی جبرئیلُ إنَّ ریحَ الجنّهِ تُوجَدُ مِن مَسیرهِ ألفِ عامٍ ما یَجِدُها عاقٌّ ولا قاطِعُ رَحِمٍ ولا شَیخُ زانٍ».[۵۶]

ولعل هنالك من يسأل: ما المراد بصلة الرحم؟ المراد هو تعميق أواصر المحبّة والنجدة فى حل المشاكل وعدم الغفلة وتفقد الأحوال فى كافة الظروف، وقد تحفظ هذه الصلة حتّى بالسلام والإرتباط عن طريق الهاتف. فقد قال أميرالمؤمنين على عليه السلام: «صِلُوا أرحامَكُم ولو بِالتسليم»[۵۷] وسنتكلم فى الأبحاث القادمة عن صلة الرحم ومعطياتها المادية والمعنوية بما يتناسب والمواضيع الواردة فى الخطب. هذا وقد قال السيد الرضى (ره) فى آخر هذه الخطبة:

«الغفيرة هاهنا الزيادة والكثرة؛ من قولهم للجمع الكثير: الجم الغفير، والجماء الغفير. ويروى عفوة من أهل أو مال». والعفوة: الخيار من الشىء. يقال: «أكلت عفوة الطعام» أى خياره. وما أحسن المعنى الذى أراده عليه السلام بقوله: «ومن يقبض يده عن عشيرته ...» إلى تمام الكلام؛ فانّ الممسك خيره عن عشيرته إنّما يمسك نفع يد واحدة، فاذا احتاج إلى نصرتهم، واضطر إلى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۴

مرافدتهم، قعدوا عن نصره، وتثاقلوا عن صوته، فمنع ترافد الأيدى الكثيرة، وتناهض الأقدام الجمة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۵

الخطبة الرابعة والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وهى كلمة جامعة له، فيها تسويغ قتال المخالف والدعوة إلى طاعة اللّه، والترقى فيها لضمان الفوز

«وَلَعَمْرِى! ما عَلَىَّ مِنْ قِتالِ مَنْ خالَفَ الْحَقَّ وَخابَطَ الْغَىَّ، مِنْ إِدْهانٍ وَلا إِيهانٍ. فاتَّقُوا اللَّهَ عِبادَ اللَّهِ، وَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ مِنَ اللَّهِ، وَامْضُوا فِى الَّذِى نَهَجَهُ لَكُمْ، وَقُومُوا بِماعَصَبَهُ بِكُمْ، فَعَلِيٌّ ضامِنٌ لِفَلْجِكُمْ آجِلًا، إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عاجِلًا».

نظرة إلى الخطبة

يهدد الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة مخالفيه بشدة ويعرب عن عزمه الراسخ فى التصدى لهم وقتالهم بعد أن يقنطهم من أدنى موادعة أو مصالحة على حساب العدل والحق، ثم يوصى صحبه بمواكبته فى هذا الطريق والتأهب لمواجهة أعداء الدين. ويرى البعض أنّ الخطبة فى الواقع ردّ على اولئك الذين يشكلون على الإمام عليه السلام فى مساومة الأعداء واضطرارهم للاستسلام من خلال استمالتهم بالرشوة و ... فالإمام عليه السلام يكشف أنّه ليس من أهل المساومة والخداع.[۵۸]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۶

الشرح والتفسير

المساومة والمصانعة

استهلّ الإمام عليه السلام خطبته بالقول: «ولعمرى ۵۹] ما علىّ من قتال من خالف الحق وخابط[۶۰] الغى، من إدهان ۶۱] ولا إيهان ۶۲]».

يبدو أنّ هنالك فارق بين العبارتين «خالف الحق» و «خابط الغى»- هو أنّ العبارة الاولى إلى الفرد الذى يشق عن علم سبيل مخالفة الحق، بينما تشير الثانية إلى من يختار ذلك الطريق ويسبح فى بحر من الضلال جهلًا وخطأ ودون أدنى تأمّل ومطالعة. أمّا تعبيره عليه السلام بالادهان (المجاملة والمداهنة) والايهان (الضعف) فهو تحديد إلى أنّ الكف عن القتال والمواجهة إنّما يستند إلى أحد سببين؛

إمّا المجاملة والمداهنة لأعداء الحق، أو الضعف والعجز، وحيث لم يكن لأى من هذا السببين من سبيل إلى كيان على عليه السلام فإنّ مواجهته لمخالفى الحق عنيفة لا هوادة فيها.

وقد ورد تقريباً شبه هذا المعنى فى سائر كلمات الإمام عليه السلام فى إطار حديثه عن الإطار العام الذى يتحرّك ضمن دائرته زعماء المسلمين وأئمتهم فقد قال عليه السلام: «لا يُقيمُ أمرَ اللَّهِ سُبحانَه إلّا مَنْ لا يُصانِعُ ولا يُضارِعُ ولا يَتَّبعُ المَطامِعَ»[۶۳]. كما وصف نفسه عليه السلام فى موضع آخر فقال:

«وأَيمُ اللَّه لقد كنتُ مِن ساقَتِها حتَّى تَوَلَّتْ بِحَذافيرِها واستَوسَقَتْ فى قِيادها، ما ضَعُفْتُ ولا جَبُنْتُ ولا خُنْتُ ولا وَهَنْتُ»[۶۴].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۷

ثم أبدى عليه السلام نصائحه ووصاياه وفى مقدمتها مراعاة الورع والتقوى فقال عليه السلام:

«فاتقوا اللَّه عباد اللَّه»

. فالتقوى- التى تعنى خشية اللَّه فى الباطن وعدم مقارفة الذنوب والمعاصى والعمل على طاعة اللَّه- هى أساس الأعمال الصالحة والباقيات الصالحات، ومن هنا ورد التأكيد عليها بصفتها مقدمة لسائر الوصايا الأخلاقية والدينية. ثم أوصى عليه السلام بالفرار من معصية اللَّه إلى طاعته وغضبه وسخطه إلى رضاه وعذابه إلى رحمته ونقمته إلى نعمته «وفرّوا إلى اللَّه من اللَّه» فالعبارة إشارة لطيفة إلى مسألة توحيد الأفعال، لأنّ أية مشكلة تواجه الإنسان فى هذا العالم إنّما تفرزها طبيعة أعماله والآثار التى أودعها اللَّه هذه الأعمال. وعليه فمشاكله من ذاته وعقابه ممّا تفرزه أعماله، وعليه فليس أمامه من سبيل لحل مشاكله سوى الفرار إلى اللَّه واللجوء إليه إذ «لا مؤثر فى الوجود إلّااللَّه» وكل خير وبركة ونجاة تفاض على الإنسان من اللَّه سبحانه- القرآن من جانبه تحدث عن طائفة من العصاة الذين استحقوا سخط اللَّه وغضبه ولم يعد أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى اللَّه سبحانه «وَظَنُّوا أنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إلّااليه»[۶۵] الطريف فى الأمر أنّ الإنسان إذا شعر بخوف من أحد لاذ بآخر، إلّاأنّ ذلك ليس كذلك بالنسبة للَّه سبحانه، فاذا ما خافه الإنسان وخشى عذابه، لجأ إليه، وهل هناك من هو أرحم بالإنسان منه؟! هذا هو الدرس الذى ينبغى أن تتعلمه من التوحيد الأفعالى فى أنّ اللَّه هو مصدر كلّ خير وحركة وبركة. فللَّه الأسماء والصفات التى تدعونا للجوء إلى اللَّه على كلّ حال وفى كلّ الظروف.

فان خشينا سخطه وغضبه لذنا بعفوه ورحمته، وإن خفنا عدله لجأنا إلى فضله وكرمه.

وأخيراً يبدو أنّ هذه العبارة مقتبسة من قوله سبحانه على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه و آله: «فَفِرُّوا إلى اللَّهِ إنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ»[۶۶]. ثم قال عليه السلام فى الوصية الثالثة «وامضوا فى الذى نهجه لكم» ثم أوصى عليه السلام قائلا: «وقوموا عصبة[۶۷] بكم».

والواقع أنّ الإمام عليه السلام قد سنّ بهذه العبارات

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۸

قانوناً جامعاً يشتمل على أربعة بنود من شأنها ضمان السعادة النجاة:

الأول: مراعاة التقوى وخشية اللَّه.

الثانى: الحركة نحو اللَّه من خلال الفرار منه إليه سبحانه.

الثالث: الثبات على النهج الإيمانى وسلوك السبيل الصحيح نحو اللَّه.

الرابع: العمل بالتكاليف والوظائف الدينية التى أمر بها الشارع المقدس.

قد يقال أنّ الوصايا الأربعة استهلت بفاء التفريع فما علاقتها بصدر الخطبة الذى تحدث عن العزم الراسخ فى مجابهة مخالفى الحق وقتالهم؟ والجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ قتال هذه الطائفة المنحرفة الجائرة إنّما يتطلب جنوداً أشداء مؤمنين من ذوى العزم والإرادة، وكأنّ الإمام عليه السلام أراد أن يعدّ أصحابه للوقوف بوجه أصحاب الباطل. جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام عبّر عن التكاليف بقوله «ما عصيه بكم» (التكاليف التى كلّفتم بها وأمركم بأدائها)، ومفهوم العبارة هو أنّ الوظائف الإلهية ليست من الامور

التی یستطیع الإنسان إهمالها وعدم الإکتراث لها، بل هی طوق فی رقبته ودین فی ذمته لابدّ له من أدائه.

یذکر أنّ هذه التعبیرات قد وردت فی أغلب الآیات والروایات التی تشیر إلی أنّ الإنسان إنّما یتحرر من القیود إذا ما أدّی هذه التکالیف والوظائف. وأخیراً یختتم الإمام علیه السلام خطبته بضمانة النصر والغلبة والعاقبة الحسنة لأصحابه فی خوضهم القتال ضد تلک الطائفة الضالة عن الحق، النصر الذی سیفوزون به فی الدار الآخرة لا محالة إذا تعذر فی دار الدنیا «فعلیَّ ضامن لفلجکم آجلًا إن لم تمنحوه عاجلًا». وهذا هو المنطق القوی والرصین الذی اعتمده القرآن فی مخاطبته لأتباعه فی تصدیهم لأعداء الحق بأنّهم منتصرون غالبون مهما کانت نتیجة القتال: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلّا إِحْدی الحُسْنَیَیْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِکُمْ أَنْ یُصِیبَکُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَیْدِینا فَتَرَبَّصُوا إِنّا مَعَکُمْ مُتَرَبِّصُونَ»[۶۸] ومعلوم أنّ الجنود الذین یرون أنفسهم منتصرین فی جمیع الأحوال وأنّ عدوهم مهزوم، إنّما یقاتلون بمعنویات عالیة دون أن یشعروا بأدنی خوف أو خطر ممّا ستفرزه أحداث القتال. فیری أغلب العلماء والمفکّرین أنَّ الإیمان بهذا المبدأ– النصر أو الشهادة– هو العامل الرئیسی الذی یقف وراء

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۴۹

الانتصار الذی یشعر به المسلمون فی جبهات القتال رغم عدم الموازنة فی القوی والتکافؤ فی العدة والعدد مع جیوش الأعداء. وهذا هو المبدأ الذی ینبغی أن یجعله العالم الإسلامی الیوم نصب عینیه فی مجابهته لعالم الکفر فلا ینبهر بإمکاناته وتجهیزاته الزائفة.

والحق أنّ هذا المبدأ لا یحصل إلّافی ظل الإیمان والورع والتقوی وخوف اللَّه.

فصل فی الضعف والمساومة

إنّ من الفوارق الأساسیة بین الساسة الربانیین والساسة العادیین إنّما یکمن فی أنّ ساسة الدنیا لا یتورّعون عن أیّة وسیلة من أجل تحقیق أطماعهم وأغراضهم الشخصیة، وغالباً ما یساومون العدو علی المبادئ الإنسانیة ومصالح مجتمعاتهم ویتجاهلون الحق والعدالة، بغیة حفظ مواقعهم السیاسیة والاجتماعیة، فی حین لیست هنالک من مساومة فی قاموس الساسة الربانیین، بل غالباً ما یضحی هؤلاء بمواقعهم الحساسة حرصاً علی حفظ المبادئ ورعایة للحق والعدل والقسط؛ الأمر الذی نلمسه بوضوح فی سیرة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله وتلمیذه أمیرالمؤمنین علی علیه السلام. فما أکثر الأفراد الذین اعترضوا علی سیاسة علی علیه السلام من قبیل استمالة الآخرین عن طریق التمییز فی العطاء من بیت مال المسلمین: أو الإبقاء علی معاویة فی حکومة الشام، دون أن یحدثوا أنفسهم بالأسالیب التی یتبعها معاویة فی حکومته للناس أو المبادئ التی سیعبر علیها فی هذه الحکومة! أو الاقتراح الذی طرحه علیه عبد الرحمن بن عوف فی الشوری بتسلیمه مقالید الامور شریطة العمل بسیاسة الشیخین، أو تفویض طلحة والزبیر ولایة البصرة والکوفة. وقد اقترح من قبل، علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بعض الاقتراحات من قبیل اقتضاء المصلحة لطرده الضعفاء والمستضعفین. فاولئک وإن کانوا یفیضون إیماناً باللَّه ورسوله، إلّا أنّ المصلحة تقتضی استقطاب الأغنیاء وتعبئتهم ضدّ العدو رغم خلو قلوبهم من الإیمان! ویبدو أنّ اختلاف الرؤیة (علی ضوء السیاسة الإلهیة والسیاسة الشیطانیة) واختلاف المصلحة من الواقع هی التی دفعت باولئک الأفراد والفئات الدنیویة للاعتراض علی السیاسة النبویة والعلویة.

والإمام علیه السلام یوضح فی هذه الخطبة السیاسة التی سیتبعها وأنّه لیس من أولئک الساسة

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۵۰

الذین یرون للمجاملة والمداهنة من مکان فی سیاسته وتعامله مع المارقین عن الحق والعدالة، ولیس لدیه من وسائل سوی التقوی وامتثال التکالیف الشرعیة دون الإکتراث لهذا أو ذاک من المساومین والمعترضین، ونوکل المزید من الکلام فی هذا الموضوع إلی محلّه.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۱

الخطبة[۶۹] الخامسه و العشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وقـد تواترت عليه الأخبـار باستيلاء أصـحاب معاويـة على البلاـد، وقـدم عليه عاملاه على اليمن- وهما عبيـد اللَّه بن عباس وسـعيد بن نمران- لمّـا غلب عليهمـا بسـر بن أبى أرطـاة فقام عليه السـلام على المنبر ضـجرا بتثاقل أصـحابه عن الجهاد، ومخالفتهم له فى الرأى، فقال:

القسم الأول

اشارة

«ما هِيَ إِلَّا الْكُوفَةُ أَقْبِضُها وَأَبْسُطُها، إِنْ لَمْ تَكُونِى إِلَّا أَنْتِ تَهُبُّ أَعاصِيرُكِ، فَقَبَّحَكِ اللَّهُ

وتمثل بقول الشاعر:

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يا عَمْرُو إِنَّنِىعَلَى وَضَرٍ مِنْ ذا الْإِناءِ قَلِيلٍ»

نظرة إلى الخطبة

يعتقـد بعض شـرّاح نهـج البلاغـة كابن أبى الحديـد أنّ الخطبة بعد صـفين والتحكيم والخوارج، حيث ألقاها عليه السـلام أواخر عمره الشريف ۷۰]. ويفهم من مقدمـة الشـريف الرضـى أنّ الإمـام عليه السـلام أورد هـذه الخطبـة حين تواترت عليه الأخبـار بشـأن استيلاء أصحاب معاوية على

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۲

البلاد الإسـلامية، حيث بلغه عاملاه على اليمين فأطلعاه علىغلبة بسـر بن ارطاة لهما على تلك المنطقة. فقد كان بعض أتباع عثمان فى صنعـاء وكـانوا قـد بايعوا علياً عليه السـلام مكراً وخديعـة. وكان عبيـد اللَّه بن عباس آنـذاك عامل على عليه السـلام على اليمن وقائد الجيش كان سـعيد بن نمران. وقـد شـنت الغارات تلو الغارات من قبل أهل الشام على المناطق الإسـلامية بعـد قتل محمـد بن أبى بكر الذى نصـبه الإمام عليه السلام والياً على مصر. قام أتباع عثمان- فى اليمن- بدعوة الناس للمطالبة بدم عثمان، فتصدى لهم عبيد اللَّه بن عباس وأمر بسـجنهم. فكتبوا من السـجن إلى بعض أصحابهم فى الجيش لعزل سعيد بن نمران والخروج عليه. ففعلوا والتحق بهم طائفة من اليمن ثم امتنعوا عن دفع الزكـاة. فكتب عبيـد اللَّه وسـعيد كتابـاً للإمـام عليه السـلام. فكتب الإمـام عليه السـلام كتابـاً لأهـل اليمن ودعاهم للعمل بوظائفهم وحذرهم من العصيان والتمرد. فردّوا عليه بالتزامهم بطاعة الإمام عليه السلام بشرط عزل هذين الشخصين. ثم كتبوا لمعاوية. فبعث معاوية بسـراً إلى اليمن فى جيش كثيف وأمره أن يقتل كلّ من كان فى طاعة على عليه السـلام، فقتل خلقاً كثيراً، وقتل فى من قتل فى مكّة داود وسـليمان، إبنى عبيد اللَّه بن عباس كما قتل فى الطائف صـهر عبيد اللَّه. ثم بلغ اليمن بعد أن خرج منها عبيد اللَّه وسعيد، واستخلف علياً عبداللَّه بن عمرو الثقفى، فحمل بسر عليه فقتله ثم استولى على صنعاء مركز اليمن. فلمّا دخل عبيد اللَّه وسعيد على الإمام عليه السلام فى الكوفة ذمهما عليه السلام لتركهما مكانهما، ثم صعد المنبر وألقى هذه الخطبة.

على كل حال فإنّ الخطبة قد أوردت حين اشتدت حملات أهل الشام على مختلف مناطق البلاد الإسلامية وضعف المقاومة التى أبداها أصحاب الإمام عليه السلام حيث كان الإمام عليه السلام فى غاية التذمر والاستياء، فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى من قلّة الأفراد المطيعين، ثم تعرّض عليه السلام إلى الواقعة الأليمة لحملات بسر بن أرطاة وغلبته على اليمن، ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى للّهمن هؤلاء القوم الذين مردّوا على النفاق والمعصية فيدعوا عليهم ويسأل اللّه أبدالهم بشر منه وإبداله من هو خير منهم.

الشرح والتفسير

النفاق والعصيان ودور الإمام

تبدو عبارات الإمام عليه السلام واضحة بالالتفات إلى سبب ورود الخطبة والأجواء التى كانت

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۳

حاكمة آنذاك، فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أنّه لم تبق لديه سوى الكوفة بعد ذلك التمرّد والعصيان «ما هى ۷۱] إلّاالكوفة، أقبضها وأبسطها». والسؤال المطروح هنا: ماهى العلل والعوامل التى جعلت جيش الإمام عليه السلام يعيش هذه الحالة الخطيرة فى العراق وسائر المناطق الإسلامية؟ نترك الإجابة على هذا السؤال إلى البحث الذى سنخوض فيه فى موضوع تأملات.

أمّا المسألة المهمّة فهى أنّ رجلًا ربانياً مثلَ على عليه السلام وبتلك الشجاعة والبطولة والحنكة فى التدبير إنّما عاش تلك الحالة تجاه أعداء الإسلام أثر عدم وجود القُوى المخلصة والشجاعة الموالية للحق والمواكبة لحركة الإمام عليه السلام. فقد أشار الإمام عليه السلام بقوله «أقبضها وأبسطها» بشأن الكوفة إلى خروج سائر المناطق عن حكومته وإن كانت خاضعة لها ظاهرياً. ثم قال عليه السلام: «ان لم تكونى إلّاأنت تهبّ أعاصيرك ۷۲] فقبحك اللّه» فى إشارة إلى أنّ الكوفة وإن كانت مركز حكومة الإمام عليه السلام إلّاأنّها لم تكن خالية من التمرد والنفاق، بحيث لم يكن الإمام عليه السلام يحسب لأهلها ذلك الحساب. وما أعظم معاناته عليه السلام وهو بذلك العلم والحلم والحكمة والشجاعة إلّا أنّه يفتقر إلى المخلصين من الأتباع.

ثم تمثل عليه السلام بقول الشاعر:

لعمر أبيك الخير يا عمرو إننىعلى وضر من ذا الإناء قليل

«وضر» سواء كان بمعنى بقية الدسم فى الإناء، أو بقية قطرات الماء فى الإناء، أو الرائحة الباقية فى إناء الطعام، فهى إشارة إلى أنّ الكوفة لم تكن سوى ذرة زهيدة آنذاك بالنسبة للعالم الإسلامى الواسع، ولا يسع أىّ زعيم بالاعتماد على أهل هذه المنطقة مهما كان من حفظ بيضة الإسلام والدفاع عن البلاد الإسلامية والوقوف بوجه هذه الذئاب الكاسرة المتعطشة للدماء.

الشرح والتفسير

تأملات

۱- الكوفة على وجهين

تعتبر الكوفة من المناطق الإسلامية المشهورة فى التأريخ والتى كانت مسرّحاً لعدّة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۴

حوادث حتى إقترن تأريخ الإسلام بتلك المنطقة ويعتقد البعض أنّ إسمها مشتق من شكلها الذى يشبه الدائرة، حيث كانت تصطلح

العرب على المنطقة الرملية المدورة بإسم «كوفان»، وقال البعض سمّيت بذلك الإسم لاجتماع الناس هناك؛ لأنّ أحد معانى هذه المفردة هو الاجتماع والتجمّع كما ذكروا عدّة وجوه اخرى للتسمية لايسع المقام الخوض فى تفاصيلها. وقيل بنيت عام ۱۷ ه على عهد الخليفة الثانى على يد سعد بن أبى وقّاص، وكانت أكبر مدن العراق التى تشد إليها الرحال. وسمّيت «قبة الإسلام». وقيل أن سعد بن أبى وقاص قد نزل المدائن بعد فتح العراق وغلبة الساسانيين فبعث رسله ليبشّر الخليفة الثانى بالفتوحات، فلما رأى الخليفة رسل سعد وقد شحبت وجوههم سألهم السبب، فذكروا له سوء مناخ مدن العراق، فأمر ببناء مدينة تتناسب ومزاج العسكر فاختار سعد الكوفة. ولم تمض مدة حتّى إشتعلت فيها النار فاحترقت- ثم بنيت من اللبنات. وقد خيّر سعد المسلمين بنزول المدائن أو الكوفة. فاختار فريق منهم الكوفة واستعادوا صحتهم.[۷۳]

وهناك عدّة روايات صرّحت بعضها بذم الكوفة فى حين صرّح البعض الآخر بمدحها، ويبدو أنّ الروايات قد وردت بشأن مختلف عصور الكوفة والأقوام التى سكنت فيها. فقد فسرّت بعض الروايات قوله سبحانه «وَطُورِ سِينِينَ»[۷۴] الواردة فى الآية بالكوفة.

وجاء فى روايـة عن الإمام الصادق عليه السـلام أنّه قال: «الكُوفَةُ رَوْضَةٌ مِن رِياضِ الجَنَّةِ»، كما ورد فى ذيل هذه الرواية أنّ فيه قبر نوح وإبراهيم وقبر سيد الأوصياء الإمام على عليه السلام وقبور ثلاثمأة وسبعين نبيّاً وستمأة وصيّاً. وروى عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: «إنّه ليس بَلَدٌ مِنَ البُلدانِ وَمِصرٌ مِنَ الأمصارِ، أكثَرَ مُحِبّاً لَنا مِن أهلِ الكُوفةِ»[۷۵]. مع ذلك فقد شهدت الكوفة عدّة عصور تسلّط عليها الأعداء ولاسيّما أعداء أهل البيت عليهم السلام بحيث أصبحت من الأوكار المناهضة للإسلام وأهل بيت النبى صلى الله عليه و آله.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۵

۲- أهل الكوفة والإمام عليه السلام

كلّنا نعلم بأنّ إحدى مشاكل حكومة الإمام على عليه السلام تكمن فى أهل العراق ولاسيما أهل الكوفة الذين يتّصفون بالتمرد وعدم الطاعة؛ الأمر الذى جعل الإمام عليه السلام يتعرّض له فى عدّة خطب ليعرب عن إستيائه منهم وشكواه، فى حين كانت روحية أهل الشام وطاعتهم تمثّل أحد عوامل تفوّق معاوية فى أعماله.

وقد نظر بعض المؤرّخين إلى هذا الموضوع نظرة إيجابية فذهبوا إلى أنّ العلّة فى عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام، أنّ أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال، والتمييز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء، وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأى واحد، لا يرون النظر، ولا يسألون عن مغيب الأحوال ومازال العراق موصوفاً أهله بقلّة الطاعة، وبالشقاق على اولى الرئاسة.[۷۶]

إلّا أنّ المرحوم مغنية يرى أنّ هذا الكلام أجوف لا أساس له. فأى عيب كان يسع أهل العراق أن يردّوه على حكومة العدل العلوية حتّى مارسوا ذلك الشقاق والنفاق (أيّة فطنة ثاقبة تدفع بالأفراد إلى العصيان والتمرّد والذى أدّى إلى تلك الذلّة والخنوع أمام العدو؟!) والحق كما ذكره المؤرّخون ومنهم طه حسين فى كتابه (على وبنوه) أنّ سياسة معاوية كانت قائمة على المكر والخداع وشراء دين الناس بينما اعتمد الإمام على عليه السلام على الحق والعدل، ولعل الشاهد على ذلك مارد به الإمام عليه السلام حين قال: «أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه؟! واللَّه لا- أطور به ما سمر سمير وما أمّ نجم فى السماء نجماً»[۷۷]. ثم ردّ عليه السلام على اولئك الذين قارنوا بين سياسته وسياسة معاوية قائلًا: «واللَّه ما معاوية بأدهى منّى لكنّه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس»[۷۸]. وهو الأمر الذى نلمسه اليوم بوضوح فى عصرنا الراهن حيث يرى بعض الأفراد وضمن تحليلا-تهم الاجتماعية أن الساسة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۶

الأفذاذ هم اولئك الذين يعتمدون أساليب التضليل والخداع والذين لا يتورعون عن التشبث بأخسّ الوسائل من أجل تحقيق أهدافهم وأطماعهم، فى حين لا- يرون من كفاءة وجدارة لُاولئك الأفراد من أهل الإيمان والورع والتقوى الذين لا- يساومون على القيم والمبادئ، نعم للأسف مازال هذا الخطأ الفاحش هو الذى يسود بعض العقول والأفكار، وقد أدى إلى سلسلة من المفاسد السياسية والاجتماعية، بل ما أعظم الدماء البريئة التى سفكت على مدى التأريخ بسبب هذه النظرة الخاطئة على كلّ حال فإنّ الواقع هو غير ماذكر، فالعراق ولاسيما منطقة الكوفة إنّما سكنت من عدّة فئات وبمختلف الثقافات وقد تأثروا إلى حد بعيد بسياسة عثمان بما دفعهم للتكالب على الدنيا والاغترار بها وقد أصبحت السنن الخاطئة آنذاك من مفردات حياتهم اليومية (بما فى ذلك التمييز فى العطاء من بيت المال) حتّى كان أغلب زعماء القبائل يتوقعون المناصب والأموال الطائلة؛ الأمر الذى جعل معاوية ينجح فى إستمالتهم فكانوا يتقاطرون على معاوية، الواحد تلو الآخر.

أضف إلى ذلك فقد كانت هنالك بعض الفوارق بين روحية أهل العراق والشام، منها أنّ أهل الشام كانوا يعرفون بالعمل، بينما كان العراقيون أهل كلام كما كان الشاميون يتحلّون بالانضباط الاجتماعى ولم يكن مثل هذا الانضباط سائداً لدى أهل العراق. وأخيراً كان أهل الشام أوفياء، بينما يمتاز أهل العراق بالغدر ونكث العهود.

وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا ينسحب على أهل العراق فى أىّ عصر وزمان غير زمان الإمام على عليه السلام كعصر الإمام الحسن أو الحسين عليهما السلام. ومن هنا وردت روايات الأئمة المعصومين عليهم السلام التى تشيد بأهل العراق والكوفة. ولا غرابة أن تتّصف امّة ببعض الصفات السلبية فى عصر من العصور، ثم تنسلخ عنها فتتحلى بصفات إيجابية.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۷

القسم الثانى: سرّ الانهيار

اشارة

ثم قال عليه السلام:

«أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ وَإِنِّى- وَاللَّهِ- لأَظُنُّ أَنَّ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ سَيُدالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِماعِهِمْ عَلَى باطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمامَكُمْ فِى الْحَقِّ، وَطاعَتِهِمْ إِمامَهُمْ فِى الْباطِلِ وَبِأَدائِهِمُ الْأَمانَةَ إِلَى صاحِبِهِمْ وَخِيانَتِكُمْ وَبِصَلاحِهِمْ فِى بِلادِهِمْ وَفَسادِكُمْ، فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ، لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاقَتِهِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة- إلى قصة بسر بن ارطاة ذلك الجبار الشامى الفض وغلبته على اليمن، ثم تطرق عليه السلام إلى مصير أهل العراق والمستقبل المظلم الذى ينتظرهم مع ذكر الأسباب والعلل التى ستفضى إلى ذلك المستقبل. فقد ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ معاوية وجّه بسراً إلى المدينة وأمره بقتل شيعة على عليه السلام وإرعاب أهل المدينة التى هبت لنصرة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقاتلت أبى سفيان، فدخل المدينة وشتم أهلها وهدّدهم وتوعدهم، ثم دعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه، وأحرق دوراً كثيرة. ثم قصد اليمن فاستباح أهلها وقد قتل ولدى حاكم اليمن آنذاك عبد اللَّه بن عباس.[۷۹] وقد ذكر ابن أثير أنّ هذين الطفلين لاذا بأعرابى من بنى كنانة، فلما أراد بسر أن يقتلهما، قال له الكنانى: دعهما فلا ذنب لهما، فإن كنت قاتلهما

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۵۸

فاقتلنی معهما، حیث کان یعتبر ذلک الأعرابی أن قتلهما یعنی تقصیره فی أداء الأمانۀ. فما کان من بسر إلّاأن قتلهما وقتل هذا الأعرابی.[۸۰]

علی کل حال إطلع أمیر المؤمنین علی علیه السلام علی هذه الأخبار الألیمۀ فساءه ذلک فقال:

«اُنبئت بسراً قد اطَّلع ۸۱] الیمن وإنی واللَّه لأظن أنّ هؤلاء القوم سیدالون ۸۲] منکم»

، ثم تطرق علیه السلام إلی علل هذه الدولۀ لیسلط الضوء علی أربعۀ عناصر مهمّۀ تقف وراء النصر، فقال علیه السلام:

«باجتماعهم علی باطلهم، وتفرّقکم عن حقّکم»

. فالاتحاد دعامۀ النصر ولاسیّما إذا سادت الوحدۀ أتباع الحق. ولکن یالها من مصیبۀ أن یتفرق دعاۀ الحق عن حقهم ویجتمع دعاۀ الباطل ویتحدون علی باطلهم! رغم أنّ الباطل مصدر الخلاف والتشتت وأنّ الحق مرکز الاخاء والوحدۀ. نعم فإنّ الوفاق والاتحاد لمن دوعی النصر والنجاح فی کل عمل وإنّ الشقاق والفرقۀ لمن دواعی الهزیمۀ والفشل.

أمّا العنصر الثانی فیخلّص فی الطاعۀ وإمتثال الأوامر التی کانت سائدۀ لأصحاب الباطل وعدم طاعۀ أهل الحق لإمامهم:

«وبمعصیتکم إمامکم فی الحقّ، وطاعتهم إمامهم فی الباطل»

. أجل فالانضباط والطاعۀ حیثما کانت إنّما تقود إلی النصر والغلبۀ. ولیس لجیش ولا لُامّۀ أن تبلغ ما ترید دون رعایتها للانضباط وطاعتها لآمرها وزعیمها، ومن هنا ورد التأکید فی کافّۀ الدوائر والمؤسسات الیوم علی مسألۀ الانضباط والالتزام بالمقررات.

العنصر الثالث یتمثّل بالأمانۀ والوفاء بالعهد والتی تقابلها الخیانۀ ونقض العهود ولاسیّما حیال الرؤساء والزعماء

«وبادائهم الأمانۀ إلی صاحبهم وخیانتکم»

فأمانتهم إنّما دفعت بهم لتعبئۀ کافّۀ الإمکانات والطاقات ضد أعدائهم، فی حین بددت خیانتکم هذه الطاقات وذهبت بها أدراج الریاح، وهل من مصیر ینتظر من ضیع طاقاته وبدد إمکاناته سوی الهزیمۀ

نفحات الولایۀ، ج۲، ص: ۵۹

والفشل. لقد فسرّ بعض شرّاح نهج البلاغۀ الأمانۀ هنا بالبیعۀ، غیر أنّ التفسیر الذی أوردناه سابقاً واستناداً إلی سائر عبارات الخطبۀ یبدو أنسب من هذا التفسیر، أضف إلی ذلک فإن کانت البیعۀ بمعنی الطاعۀ فقد ذکرت سابقاً ولا داعی للتکرار.

وأخیراً «وبصلاحهم فی بلادهم وفسادکم» وعلیه فقد أوجز الإمام علیه السلام عوامل نصرهم وفشل إتباعه فی اتّحادهم وانضباطهم وأمانتهم وصلاحهم فی بلادهم، فی حین عاش أتباعه الفرقۀ والاختلاف والغدر والخیانۀ والفساد. فأسالیب الإدارۀ والحنکۀ فی الحکومۀ وإدارۀ شؤون البلاد مهما کانت قویّۀ فإنّها لن تؤدّی إلی نتائج مرضیۀ فی ظلّ هؤلاء الأفراد الذین یمثّلون أذرع الحاکم وعناصره فی الدولۀ.

أجل فالحق ضعیف مهضوم إذا مافسد أتباعه، والباطل قوی فی ظلّ اتّحاد أتباعه.

ثم یختتم الإمام علیه السلام کلامه قائلًا:

«فلو ائتمنت أحدکم علی قعب ۸۳] لخشیت أن یذهب بعلاقته ۸۴]».

فهل من مجال للوثوق بمثل هؤلاء الأفراد الذین لا یؤتمنون علی أتفه الأشیاء، فضلًا عن القیام بإدارۀ شؤون الحکومۀ الإسلامیۀ ومسائل الصلح والقتال وبیت المال وامثال ذلک.

تأمّلات

۱- بسر بن أرطاۀ القائد السفاح لمعاویۀ

فأمّا خبرُ بُسْرِبن أرطاة العامرىّ؛ من بنىعامربن لؤىبن غالب، وبَعث معاوية له ليُغيرَ على أعمال أميرالمؤمنين عليه‌السلام، وما عَمِله من سَفْك الدماء وأخذ الأموال، فقد ذكر أرباب السّير أنّ الذى هاج معاوية على تسريح بُسْر ابن أرطاة- ويقال ابن أبى أرْطاة- إلى الحجاز واليمن، أنّ قوما بصنعاء كانوا من شيعة عثمان، يُعْظِمون قتلَه، لم يكن لهم نظام ولا رأس، فبايعوا لعلىّ عليه‌السلام على ما فى أنفسهم؛ وعاملُ علىّ عليه‌السلام على صنعاء يومئذ

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۰

عُبيداللَّه بن عباس؛ وعامله على الجَنَد سعيدبن نِمْران.

ووجّه الكتاب مع رجل من هَمْدان، فقدِم عليهم بالكتاب فلم يجيبوه إلى خَيْر، فقال لهم:

إنّى تركت أميرَالمؤمنين يريد أن يوجِّه إليكم يزيدَبن قيس الأرْحبىَّ، فى جيش كثيف، فلم يمنعْه إلا انتظارُ جوابكم. فقالوا: نحن سامعون مطيعون، إن عَزَل عنّا هذين الرجلين: عُبيدَاللَّه وسعيدا.

فرجع الهمْدانىّ من عندهم إلى علىّ عليه‌السلام فأخبره خبر القوم.

فلما قدِم كتابهم، دعا بُسْرَبن أبى أرطاة، وكان قاسىَ القلب فَظّاً سفَّاكاً للدماء، لا رأفةَ عنده ولا رحمة، فأمرَه أن يأخذَ طريقَ الحجاز والمدينة ومكة حتى ينتهىَ إلى اليمن، وقال له: لا تنزِلْ على بلد أهله على طاعةِ علىّ إلّابسطتَ عليهم لسانَك؛ حتى يَرَوْا أنّهم لا نجاءَ لَهم، وأنّك محيط بهم. ثم اكفُفْ عنهم، وادعُهم إلى البيْعة لى، فمنْ أبى فاقتلْه، واقتلْ شِيعةَ علىّ حيث كانوا.

ج ج

وروى إبراهيمبن هلال الثقفىّ فى كتاب "الغارات "عن يزيدبن جابر الأزدىّ، قال:

سمعت عبدالرحمنبن مَسعدة الفزارىّ يحدّث فى خلافة عبدالملك، قال: لما دخلتْ سنةُ أربعين، تحدّث الناس بالشام أنّ عليّاً عليه‌السلام يستنفِرُ النّاس بالعراق فلا ينفرون معه، وتذاكروا أن قد اختلفتْ أهواؤهم، ووقعت الفُرقة بيهم، قال: فقمت فى نَفَرٍ من أهل الشام إلى الوليدبن عُقْبة، فقلنا له: إنّ الناس لا يشكّون فى اختلاف الناس على علىّ عليه‌السلام بالعراق، فادخلْ إلى صاحبك فمرْه فليسِرْ بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم، أو يصلُحَ لصاحِبهم ما قد فسد عليه من أمره. فقال: بلَى، لقد قاولته فى ذلك وراجعته وعاتبته، حتى لقد برِم بى، واستثقل طَلْعتى، وايمُ اللَّه على ذلك ما أدع أنْ أبلّغه ما مشيْتم إلىّ فيه.

فدخل عليه فخبّره بمجيئنا إليه، ومقالتنا له، فأذن لنا، فدخلْنا عليه، فقال: ما هذا الخبرُ الذى جاءنى به عنكم الوليد؟ فقلنا: هذا خبرٌ فى الناس سائر، فشمِّرْ للحرب، وناهِض الأعداء، واهتبل الفرصة، واغتنم الغِّرة، فإنّك لا تدرى متى تقدرُ على عدوّك على مثل حالِهم التى هم عليها، وأن تسيرَ إلى عدوِّك أعزُّ لك من أن يسيرُوا إليك. واعلم واللَّه أنّه تفرّق الناس عن صاحبك لقد نهض إليك. فقال لنا: ما أستغِنى عن رأيكم ومشورتكم، ومتى أحْتَجْ إلى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۱

ذلك منكم أدْعُكم. إنّ هؤلاء الذين تذكُرون تفرّقَهم على صاحبه، واختلافَ أهوائهم، لم يبلغ ذلك عندى بهم أن أكونَ أطمعُ فى استئصالِهم واجتياحهم، وأنْ أسيرَ إليهم خاطرا بجنْدى، لا أدرى علىّ تكونُ الدائرة أم لى! فإيّاكم واستبطائى، فإنّى آخذُ بهم فى وجهٍ هو أرفقُ بكم.

وبعث معاوية عند خروجنا من عنده إلى بُسربن أبى أرطاة، فبعثه فى ثلاثة آلاف، وقال:

سرْ حتى تمرّ بالمدينة، فاطرد الناس، وأخِفْ مَنْ مررت به، انهبْ أموال كلِّ مَنْ أصبت له مالًا؛ ممّن لم يكن دخل فى طاعتنا، فإذا دخلتَ المدينة، فأرِهم أنّك تريد أنفَسهم، وأخبرْهم أنّه لا براءةَ لهم عندك ولا عذرَ؛ حتى إذا ظنّوا أنّك موقعٌ بهم فاكففْ عنهم، ثم سِرْ حتى تدخل مكة، ولا تعرِضْ فيها لأحد، وأرْهب الناسَ عنك فيما بين المدينة ومكة، واجعلها شرداتٍ؛ تأتى صنعاء والجَند، فإنّ لنا بهما شيعة، وقد جاءنى كتابهم.

ج ج

أن بُسراً لما أسْقَط مَنْ أسقط من جيشه، سار بمن تخلّف معه، وكانوا إذا ورَدوا ماء أخذوا إبلَ أهلِ ذلك الماء فركبوها، وقادوا خيولَهم حتى يردُوا الماء الآخر، فيردّون تلك الإبل، ويركبون إبل هؤلاء، فلم يزل يصنع ذلك حتى قرب إلى المدينة.

قال: وقد روى أنَّ قُضاعة استقبلتهم ينحَرُون لهم الجُزُر، حتى دخلوا المدينة. قال:

فدخلوها، وعامل عليّ عليه‌السلام عليها أبو أيّوب الأنصاريُّ، صاحب منزل رسول‌اللّه صلى اللّه عليه وآله، فخرج عنها هارباً، ودعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه. ونزل فأحرقَ دوار كثيرة.

ج ج

قال إبراهيم: وقد روى عَوانة عن الكلبيّ أن بُسْراً لمّا خرج من المدينة إلى مكّة قتل فى طريقه رجالًا، وأخذ أموالًا، وبلغ أهلَ مكة خبرُه، فتنحّى عنها عامّةُ أهلها، وتراضَى النّاس بشيبة بن عثمان أميراً لما خرج قُثَم بن العباس عنها، وخرج إلى بُسر قوم من قريش، فتلقّوْه، فشتمهم، ثم قال: أمَا واللّه لو تُركت ورأيى فيكم لتركتُكم وما فيكم روح تمشى على الأرض، فقالوا: نَنْشُدك اللّه فى أهلك وعِتْرتك!

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۲

قال إبراهيم: وروى عليّ بن مجاهد، عن ابن إسحاق، أن أهلَ مكة لما بلغهم ما صنع بُسْر، خافوا وهربوا، فخرج بنا عبيداللّه بن العباس، وهما سليمان وداود، وأمهما جُوَيْرِيَة ابنة خالد بن قَرَظ الكنانية، وتُكنَى أمّ حكيم، وهم حلفاء بنى زُهرة، وهما غلامان مع أهل مكة، فأضلوهما عند بئر ميمون بن الحضْرميّ.

وخرج بُسر من الطائف، فأتى نَجْران، ثم جمعهم وقام فيهم، وقال يا أهلَ نجران، يا معشرَ النصارى وإخوان القرود: أما واللّه إنْ بلغنى عنكم ما أكرَه لأعودَنّ عليكم بالتى تقطع النَّسْل، وتُهلِكُ الحرث، وتخرّب الديار!

وتهددّهم طويلًا، ثم سار حتى أرْحَب، فَقَتل أبا كرب- وكان يتشيّع- ويقال إنّه سيّد مَنْ كان بالبادية من هَمْدان، فقدمه فقتله.

وأتى صنعاء وقد خرج عنها عبيداللّه بن العباس، وسعيد بن نِمْران، وقد استخلف عبيداللّه عليها عَمْروا بن أَراكة الثقفيّ، فمنع بُسْراً من دخولها وقاتله، فقتله بُسْر، ودخل صنعاء، فقتل منها قوماً، أتاه وفد مأرِب فقتلهم، فلم ينجُ منهم إلّارجل واحد، ورجع إلى قومه، فقال لهم: «أنعى قتلَانا، شيُوخاً وشُبّاناً».

فندب عليّ عليه‌السلام أصحابَه لبعث سرّية فى إِثر بُر، فتثاقلوا، وأجابوا جارية بن قُدامة السعدى، فبعثه فى ألفين، فشخَص إلى البصرة، ثم أخذ طريق الحجاز حتى قِدم اليمن، وسأل عن بُسر فقيل: أخذ فى بلاد بنى تميم، فقال: أخذ فى ديار قوم يمنعون أنفسهم. وبلغ بُسراً مسيرُ جاريه، فانحدر إلى اليمامة، أخذ جارية بن قدامة السير، ما يلتِفت إلى مدينة مرّ بها ولا أهل حصن، ولا يعرِّج على شىء إلّاأن يُرْمِلَ بعضُ أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته أو يسقط بعير رجل، أو تَحْفَى دابته، فيأمر أصحابه بأن يُعْقِبوه، حتى انتهوْا إلى أرضْ اليمن، فهربت شيعة عثمان حتى لحقوا بالجبال، واتّبعهم شيعة عليّ عليه‌السلام، وتداعت عليهم من كلّ جانب، أصابوا منهم، وصَمَد نحو بُسر، وبسر بين يديه يفرّ من جهة إلى جهة اخرى، حتى أخرجه من أعمال عليّ عليه‌السلام كلّها.

وقال بُسْر: أحَمد اللّه يا أميرالمؤمنين أنى سرت فى هذا لاجيش أقتل عدوك ذاهباً جائياً لم يُنْكَب رجل منهم نكبة، فقال معاوية اللَّهُ قد فعل ذلك لا أنت.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۳

قال: ودعا عليّ عليه‌السلام على بُسْر، فقال: اللّهم إنّ بُسرا باع دينهَ بالدنيا، وانتهك محارمك، وكانت طاعةُ مخلوقٍ فاجرٍ آثرَ عنده مِمّا

عنـدك. اللّهمّ فلاـ تُمِتْه حتى تَسْلُبه عقلَه، ولاـ توجب له رحمتـك ولا ساعـة من نهار. اللهمّ ألعن بُسـراً وعمراً ومعاويـة، وليحلّ عليهم غضبُك، ولتنزل بهم نِقْمَتُك وليصبهم بأسُك ورِجْزُك الذى لا تردّه عن القوم المجرمين.

فلم يلبث بُسْرٌ بعـد ذلك إلّايسيراً حتى وسوس وذهب عقلُه، فكان يهذِى بالسيف، ويقول: اعطُونى سيفاً أقتلْ به، لا يزال يردد ذلك حتى اتَّخِذ له سيف من خشب، وكانوا يدنون منه المرفقة، فلا يزال يضربها حتى يُغشى عليه، فلبث كذلك إلى أن مات.

قال المسعودى فى مروج الـذهب بعـد نقل هـذه القصـة أن بسـراً كان يقول للناس: انظروا كيف يطعمنى هـذان الغلامان إبنا عبيدالله- الذان قتلا مظلومان بيدى- وكان ربما شدت يداه إلى الوراء منعا من لعبه بحزئه والناس تمنعه من ذلك.[۸۵]

۲- مقوّمات النصر وهزيمة الأمم

لقـد شـرح الإمـام عليه السـلام فى هـذه الخطبـة بعباراتها القصـيرة ذات المعانى العميقـة المقوّمات التى تمنى بها الامم والشـعوب، ولا يقتصر هذا الأمر على أهل العراق والحجاز واليمن وقضية والى من الولاة كمعاوية وقائد عسكره بسر بن ارطاة، بل يشمل كافة العصور والدهور. فقد تحدّث الإمام عليه السـلام فى بادئ الأمر عن وحدة الكلمة التى تعدّ السبب الرئيسى فى تضامن القوى وتعبئة طاقاتها فى مواجهـة الأعـداء. وممّا لاشك فيه أنّ أهم العوامل التى أدّت إلى انتصار جنود الإسـلام على عهد رسول اللّه صـلى الله عليه و آله على أعـدائهم الـذين كانوا يفوقونهم عـدّة وعـدداً إنّما يكمن فى وحـدة الكلمـة. فكم من فئـة قليلـة هزمت عـدوّها بفضل الاتحاد والإخاء. القرآن من جانبه اعتبر وحدة كلمة المسـلمين من معاجز النبى الأكرم صلى الله عليه و آله «هُوَ الَّذى ايَّدَكَ بِنَصْرِه وَ بِالْمُؤْمِنينَ* وَأَ لَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مـا فِى الأَـرضِ جَمِيعـاً ما أ لَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللَّهَ أ لَّفَ بَيْنَهُمْ»[۸۶]، كما اعتبر الوحدة الإسلامية التى سادت المسلمين أبان عصر الرسالة من النعم الإلهية الكبرى على الامّة الإسلامية

«وَاذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذ كُنْتُمْ

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۶۴

أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً»[۸۷]، فى حين قرن الفرقة والشقاق بالعذاب الدنيوى والأخروى «قُلْ هُوَ القادِرُ عَلى أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أوْ يَلْبِسَـكُمْ شِـيَعاً»[۸۸]. كما أشار الإمام عليه السـلام إلى مسألة الانضـباط وحنكة القيادة على أنّها العامل الآخر المكمِّل لعنصر الاتحاد والإخاء والتضامن. والحق رأينا عدّة ثورات فى عصرنا الراهن قد كتب لها النجاح بينما لم توفّق غيرها لهـذه النتيجة، ولعلّ العامل الرئيسـى فى ذلك النجاح إنّما يسـتند إلى وحدة القيادة، بينما تعانى غيرها من التشـتت وتعدد مراكز القرار.

ثم تطرق عليه السـلام إلى الأمانـة بفضـلها العامل الثالث من عوامل النصـر. فمما لاشكّ فيه أنّ أيّـة أمة من الأمم لن تذيق طعم النصـر والسـعادة مالم تسـتثمر طاقاتها وثرواتها بالشـكل الصـحيح. ولا يتيسّـر هذا الأمر إلّاإذا كانت الأمانة هى التى تحكم أفراد الامة وتدفعها لصون إمكاناتها الاجتماعية.

أمّـا العامـل الأـخير الـدخيل فى النصـر فإنّما يكمن فى صـلاح أفراد المجتمع، وبعبارة اخرى فإنّ أفراد الامـة لن يتخلّوا على مشاكلهم ويتخلّصوا من مخالب الأعـداء مالم يأخذوا بنظر الاعتبار مصالح المجتمع ويضـحوا بمنافعهم الشخصـيّة ويجدوا ويجتهدوا فى إصـلاح مجتمعهم، وليعلم اولئـك الـذين يهمّـون بمنـافعهم الشخصـيّة ولـو أدّت إلى فسـاد المجتمع إنّهم إنّمـا يقضون على المجتمع وبالتـالى يقضون على أنفسهم.

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۶۵

القسم الثالث: السِّمَ والملل

اشارة

«اللَّهُمَّ إِنِّی قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِی وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِی ۸۹] فَأَبْدِلْنِی بِهِمْ خَیْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِی شَرّاً مِنِّی! اللَّهُمَّ مِثْ ۹۰] قُلُوبَهُمْ کَما یُماثُ الْمِلْحُ فِی الْماءِ، أَما وَاللَّهِ- لَوَدِدْتُ أَنَّ لِی بِکُمْ أَلْفَ فارِسٍ مِنْ بَنِی فِراسِ بْنِ غَنْمٍ.

هُنالِکَ لَوْ دَعَوْتَ أَتاکَ مِنْهُمْفَوارِسُ مِثْلُ أَرْمِیَةِ الْحَمِیمِ».

ثم نزل علیه السلام من المنبر.

الشرح والتفسیر

یتضرع الإمام علیه السلام فی آخر الخطبة إلی اللّه بقلب مفعم بالهم والحزن فیدعو علی اولئک الأتباع، غیر أن دعائه علیهم یحمل تحذیراً جدیاً لمن کان له أدنی صحوة من ضمیر، حیث یسعی الإمام علیه السلام عن هذا الطریق إلی تنبیه أهل الضلالة وإعادتهم إلی الصراط المستقیم، فقال علیه السلام:

«اللّهم إنّی قد مللتهم وملونی وسئمتهم وسئمونی»

ومن الطبیعی ألا یکون هناک من وقع لنصائح الإمام العادل والقائد الشجاع فی قلوب عبدة الدنیا والأهواء من أهل الجهل والعجز والذل إذا ما تباینت أهداف القائد ومبادئه وخلقه مع أهداف الرعیة

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۶۶

وأخلاقها، الأمر الذی یؤدی بالتالی إلی تعب الطرفین وسئم کل منهما الآخر. وإذا کان النبی صلی الله علیه و آله قد استطاع النهوض بزعامة الأقوام الجاهلیة، فانّما ذلک لأنّهم أقروا بأهدافه ومبادئه فی التربیة وقد کیفوا أنفسهم مع سننه وخلقه. ومن هنا فانّ الأنبیاء الذین لم یوفقوا فی هذا الأمر ملوا أتباعهم، کما أنّ أقوامهم هی الاخری لم تکن تطیق تحملهم. ولا یفوتنا هنا ضیق ذرع قوم لوط بنبیهم لطهارته وعفته «أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْیَتِکُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ یَتَطَهَّرُونَ».[۹۱]

ثم دعا علیهم قائلًا:

«فابدلنی بهم خیراً منهم، وأبدلهم بی شراً منی».

فهم لیسوا أتباعاً جدیرین بهذا الإمام، ولم یعد إماماً مناسباً لهم، فالحکمة الإلهیة تقتضی أن یخرجوا مسودی الوجوه من هذا الامتحان بعد أن تسلب منهم هذه النعمة الإلهیة فیعشوا أنواع الهوان والذل. وما أسرع ما استجیب دعاء الإمام علیه السلام، فقد تسلط علیهم بنو امیة لیرتکبوا بحقهم ما قل نظیره أو انعدم فی التأریخ والعجیب ماورد فی بعض التواریخ الإسلامیة من أنّ الحجاج قد ولد[۹۲] آنذاک، وبالطبع فانّ أهل العراق والکوفة قد دفعوا ثمن جرائمهم وتخاذلهم قبل ذلک، إلّاأنّها بلغت ذروتها علی عهد الحجاج.

طبعاً لیس المراد بالعبارة «أبدلم بی شراً منی» أنّی سیء ولکن سلط علیهم من هو أسوأ منّی. بل هی مقارنة تطلق علی الخیر المطلق والشر المطلق، فقد جاء فی القرآن سورة الفرقان بعد أنّ أشار إلی شدة عذاب جهنم قائلًا: «قُلْ أَذ لِکَ خَیْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ».

وبعبارة اخری لم یکن أهل العراق والکوفة آنذاک أخیار لیسأل الإمام علیه السلام اللّه أخیر منهم، ولا الإمام علیه السلام- والعیاذ باللّه- کان سیئاً لیسلط اللّه علیهم من هو أسوأ منه، ففی مثل هذه الموارد تفقد صیغة أفعل التفضیل مفهومها العادی وترد للمقارنة بین شیئین متضادین. ویبدو أن هذا الدعاء شبیه الدعاء الذی ابتهل به نبی اللّه نوح علیه السلام علی قومه بعد أن یئس من صلاحهم «رَبِّ لا تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الکافِرِینَ دَیّاراً»[۹۳]. ثم قال علیه السلام: «اللّهم مث قلوبهم کما یماث الملح

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۶۷

فی الماء». لعل المراد بموث قلوبهم (بمعنی ذوبانها) هو هجوم الهموم والغموم علیها بحیث تجرح عواطفهم الإنسانیة إلی درجة یقال

ذاب القلب، فقد ورد شبيه هذا المعنى فى خطبة الجهاد رقم ۲۷ إذ قال عليه السلام:

«واللّه، يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم»

. ومن الواضح أنّ المراد بذوبان القلب ضياع العقل والفطنة والدراية والحكمة. فمفهوم العبارة: خذ عقولهم وحكمتهم لهذا النفاق والعصيان فيعيشوا الحيرة والاضطراب فى حياتهم. وقد ورد التعبير عن القلب بمعنى العقل والحكمة أو وعاء العقل والحكمة فى عدة آيات وروايات، ومن ذلك ماورد فى الآية ۲۵ من سورة الانعام: «وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ». والواقع أن من أعظم العقوبات الإلهية- التى أوردها القرآن الكريم والروايات بالنسبة للأفراد من أهل النفاق والمعصية- هى الا يرى الإنسان الحقائق ولا يدركها كما هى، فيعيش القلق والحيرة والضلال. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالقول:

«أما- واللّه- لوددت أن لى بكم ألف فارس من بنى فراس بن غنم.

ثم تمثل بقول الشاعر:

هنالك لو دعوت أتاك منهمفوارس مثل أرمية الحميم

ثم نزل الإمام عليه السلام من المنبر:

قال السيد الشريف: أقول: «الارمية» جمع «رمى» وهو السحاب والحميم، هاهنا وقت الصيف. وإنّما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد جفولًا ولا أسرع خفوفاً؛ لأنّه لا ماء فيه. وإنّما يكون السحاب ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لايكون فى الأكثر إلّازمان الشتاء، وإنّما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا، ولا إغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله: هنالك لو دعوت أتاك منهم.

بنو فراس بن غنم

هم بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة، حى مشهور بالشجاعة، منهم علقمة بن فراس وهو جذل الطعان. ومنهم ربيعة بن مكدم بن حرثان بن جذيمة بن علقمة بن فراس الشجاع المشهور، حامى الظعن حياً وميتاً، ولم يحم الحريم وهو ميت أحد غيره؛ عرض له فرسان من بنى سليم، ومعه ظعائن من أهله يحميهم وحده، فطاعتهم، فرماه نبيشة بن حبيب

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۸

بسهم أصاب قلبه، فنصب رمحه فى الأرض، واعتمد عليه وهو ثابت فى سرجه لم يزل ولم يمل.

وأشار إلى الظعائن بالرواح، فسرن حتى بلغن بيوت الحى، وابن سليم قيام إزاءه لا يقدمون عليه، ويظنونه حياً؛ حتى قال قائل منهم: إنّى لا أراه إلّاميتاً، ولو كان حياً لتحرك؛ إنّه واللّه لماثل راتب على هيئة واحدة، لا يرفع يده، ولا يحرك رأسه. فلم يقدم أحد منهم على الدنو منه، حتى رموا فرسه بسهم، فشب من تحته، فوقع وهو ميت، وفاتتهم الظعائن.[۹۴]

وجاء فى كتاب بلوغ الأدب أن شجاع كل فرد من أبناء هذه القبيلة بعشرة من شجعان سائر القبائل، وهم أشجع قبائل العرب.[۹۵]

والطريف فى الأمر أن جيش الإمام عليه السلام فى الكوفة قد بلغ عشرات الآلاف، بل بلغ طبق رواية مئة ألف جندى ۹۶]، إلّاأنّ الإمام عليه السلام يتمنى استبدال كل هذا الجيش بألف من فرسان بنى فراس؛ الأمر الذى يدل على مدى ضعف جيش الكوفة وعجزه، ومدى شجاعة أبناء قبيلة بنى فراس، فقد تضاعفت شجاعتهم الذاتية فى ظل الإسلام والإيمان. كما جاء فى القرآن الكريم: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذنِ اللَّهِ».[۹۷]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۶۹

الخطبة السادسة والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف العرب قبل البعثة ثم يصف حاله قبل البيعة له نظرة إلى الخطبة.

نظرة إلى الخطبة

يرى بعض المحققين أنّ الدافع من هذه الخطبة (أو بتعبير آخر كتابة هذه الرسالة) أنّه سأل البعض علياً عليه السلام عن رأيه بمن سبقه من الخلفاء بعد أن استولى أصحاب معاوية على مصر وقتلوا محمد بن أبى بكر. فاستنكر عليهم الإمام عليه السلام ذلك بعد أن استولى معاوية على مصر وقتل شيعته، فكتب الإمام عليه السلام هذا الكتاب.[۹۸] ويتصور أحياناً بأنّ الخطبة اختتمت بالدعوة إلى الجهاد وهذا ما يتنافى وما ذكر، حيث يدل ذلك على أنّ الكلام صدر عن الإمام عليه السلام قبل معركة صفين، لكن يمكن أن يكون هذا الكلام إشارة إلى معركة أراد الإمام عليه السلام أن يعب الناس لها قبل شهادته، غير أنّ شهادته عليه السلام حالت دون ذلك.

على كل حال فالخطبة على ثلاثة أقسام: القسم الأول فى وضع العرب فى الجاهلية وعلى أعتاب انبثاق الدعوة الإسلامية وبعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله التى أنقذتهم ممّا لا يمكن تصوره من البؤس والشقاء.

والقسم الثانى فى الحوادث التى اعقبت رحيل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وكيفية غصب حق الإمام عليه السلام فى الخلافة، وسكوته حفظاً للإسلام والقرآن بينما كان يعيش حالة من التذمر والاستياء.

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۷۰

والقسم الثالث إشارة إلى البيعة المشروطة لعمرو بن العاص على معاوية والتى أدت إلى تلك الويلات والمصائب والأضرار الفادحة فى الأرواح والأموال، ثم يختتم الخطبة بحث أتباعه بالتأهب للقتال.

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۷۱

القسم الأول: العرب فى الجاهلية

اشارة

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله نَذِيراً لِلْعالَمِينَ وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ- مَعْشَرَ الْعَرَبِ- عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دارٍ مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٍّ تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحامَكُمْ، الْأَصْنامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْآثامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ».

الشرح والتفسير

يتطرق الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة إلى أوضاع العرب فى الجاهلية فيرسم صورة واضحة الملامح عن حياتهم من خلال الأبعاد الفكرية والعاطفية والاقتصادية والاجتماعية، بحيث لا نتوصل لهذه الصورة التى رسمها الإمام عليه السلام ولو طالعنا كافة المؤلفات التى صنفت بشأن العرب فى العصر الجاهلى. ويبدو أنّ الإمام عليه السلام استهل الخطبة بهذا الكلام ليذكرهم بالعصر الجاهلى الذى سبق الإسلام فيقارنونه بما بعد البعثة النبوية الشريفة فيقفوا على قيمة الإسلام ولا يضحوا بهذه القيمة والنعمة من خلال هذه الفرقة والاختلاف وأتباع الأهواء والشهوات، ولا غرو فقيمة النعم تبقى مجهولة ولا يعرف قدرها إلّاإذا فقدت فقد قال عليه السلام:

«إن اللَّه بعث محمداً صلى الله عليه و آله نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل».

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أكد على جانب الانذار فى رسالة النبى صلى الله عليه و آله، بينما نعلم أنّ الانذار قد قرن

بالبشارة، كما ورد ذلك فى عدة آيات قرآنية، كالآية الشريفة «يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً»[۹۹] وسائر الآيات القرآنية.[۱۰۰] غير أنّ الانذار بالعقاب

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۲

والتهديد بالعذاب غالباً ما يكون الدافع لحركة الامّة نحو القيام بوظائفها والتحفظ عن تركها كان التأكيد أكثر على مسألة الانذار، ومن هنا ورد التأكيد فى أغلب الآيات القرآنية على الانذار بشأن رسالة النبى صلى الله عليه و آله وسائر الأنبياء، ولم تطالعنا أى من الآيات التى اقتصرت على البشارة. وهذا هو الاسلوب الذى اعتمدته القوانين المعاصرة، حيث ركزت على جانب العقوبة بصفتها الضمانة الإجرائية الناجحة، ونادراً ما يعتمد الحث والتشجيع من أجل تحقيق الغرض المذكور. بصورة عامة فانّ الهدف النهائى للانذار هو إثارة الشعور بالمسؤولية تجاه الوظائف والتكاليف الملقاة على عاتق الإنسان. وهنا لا ينبغى أن ننسى بأن انذار النبى صلى الله عليه و آله يشمل كافة الكائنات؛ الأمر الذى يدل على عالمية الدين الإسلامى وخلوده، لأنّ للعالمين مفهوم واسع يشمل كافة أفراد البشرية فى كل عصر ومصر. قوله عليه السلام:

«أميناً على التنزيل»

تلويح ضمنى بعصمة رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فهو صائن لكتاب اللّه ومبلغه للعالم دون أدنى تغيير. ثم تطرق عليه السلام لأوضاع العرب زمان الجاهلية فى عشرة عبارات مقتضبة عظيمة المعانى تشير إلى أربعة محاور، فقال:

«وأنتم معشر العرب على شر دين»

وأى دين أسوأ من الوثنية؟ أن ينحت عاقل قطعة من الحجر أو الخشب بيده ثم يسجد لها ويعبدها ويرى مقدراته بيدها ويلوذ بها فى حل المشاكل التى تواجهه فى حياته، أو أن يصنع صنماً من التمر يتخذه إلهاً فاذا جاع أكله. أضف إلى ذلك الانحراف الخطير فان طقوس هؤلاء القوم مملوءة بالخرافات والعقائد السخيفة البعيدة عن المنطق والتى سطرتها كتب تأريخ العرب فى العصر الجاهلى، وسنعرض لجانب منها لاحقاً.

هذا على مستوى العقائد والأفكار. ثم تطرق عليه السلام إلى أوضاعهم الاقتصادية المزرية فقال عليه السلام: «وفى شر دار منيخون»[۱۰۱] بين حجارة خشن وحيات صم، تشربون الكدروتأكلون الجشب».[۱۰۲]

تعبيره عليه السلام «شر دار» بالنسبة لمحل إقامة عرب الجاهلية، رغم أن أغلبهم (ولاسيما من

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۳

خاطبهم الإمام عليه السلام بهذه الكلمات) كانوا يقطنون فى مكة أو المدينة يفيد أن هاتين المنطقتين قد فقدتا قدسيتهما ومكانتهما المعنوية إثر تبدلهما إلى مركز للأصنام والأوثان والفساد والانحراف.

وقد أحاطت بهم عواصف الرمل والرياح المحرقة فى تلك الصحارى الجرداء، بحيث إذا تمكن أحدهم من العثور على بقية ماء فى بعض البرك والآبار فانه كان على درجة من التلوث والتعفن بسبب هبوب الرياح أو تلويثه من قبل بعض الأفراد حتى ليشعر شاربه بالغثيان، غير أن هؤلاء كانوا مضطرين لشربه، ولم يكن طعامهم بأفضل ممّا عليه الشراب.

نقل أحد شرّاح نهج البلاغة أنّ إعرابياً سئل: «أى الحيوانات تأكلون فى البادية؟» قال:

«نأكل كل ما دبّ ودرج الا أم جبين».[۱۰۳]

أمّا التعبير بالحيات الصم، هو أن الحية الصماء أخطر من غيرها لأنّها صماء لا تنزجر بالصوت، أو لعل سمها أخطر.

أما المحور الثالث فقد أشار فيه الإمام عليه السلام إلى أوضاعهم الاجتماعية المزرية وإنعدام الأمن والاستقرار فقال عليه السلام:

«وتسفكون دمائكم»

والتعبير بالمضارع

«تسفكون دمائكم»

كسائر الأفعال فى عبارات الخطبة يفيد استمرار هذه الأوضاع المتفاقمة. والواقع لا تحتاج قضية سفكك الدماء المتعارفة بينهم إلى دليل، فسيوفهم تشهر لاتفه الأسباب ليخوضوا أعنف المعارك وأشرسها لشهور بل لسنوات- ولعل نظرة عابرة إلى معاركهم المعروفة بحرب الفجار والتى ستشير إليها لاحقاً تفيد أنّ أولئك الجهال كانوا يخوضون أشرس القتال من أجل أهون الأشياء. وأخيراً أشار عليه السلام إلى المحور الرابع المتمثل بأوضاعهم العاطفية المتردية

«وتقطعون أرحامكم»

ولعل العبارة إشارة إلى قضية وأد البنات ودفنهن أحياءً، حيث كانوا يرون البنت تجر عليهم الخزى والعار، فكان أحدهم يتوارى عن الأنظار خجلًا إذا ولدت له بنت، وهذا ما أشارت إليه الآية ۵۸ و ۵۹ من سورة النحل «وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوارى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۴

التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ» وقد لا يكتفى البعض بالاقتصار على هذا القتل على البنات فيعمد إلى قتل ولده خشية الفقر؛ الأمر الذى نهى القرآن عنه بشدّة، فقد نهت عن ذلك الآية ۳۱ من سورة الاسراء «وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيّاكُمْ» بل كان الوالد يقتل ولده والولد والده والأخ أخيه عبثاً، فقد عاشت الرحم فاجعة لم يشهد لها التأريخ مثيل.

ويختتم الإمام عليه السلام كلامه بخلاصة مفاسدهم المعنوية والمادية بالقول

«الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة»

. وكأن تعبيره (منصوبة) إلى أنّهم كانوا يفتخرون بهذه الأصنام فينصبونها فى كل مكان فضلًا عن عبادتها والسجود لها. ومعصوبة من مادة عصب (مايربط العضلات بالعظام) إشارة إلى أنواع المعاصى من قبيل سفكك الدماء وقتل النفس وقطع الرحم والتعرض للنواميس ونهب الأموال وشرب الخمر والقمار و ... التى اجتاحت عرب الجاهلية وعليه فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى انحرافاتهم العقائدية والأخلاقية وأزماتهم الاقتصادية والعاطفية ومدى الانحطاط والسقوط الذى بلغوه على هذه المستويات.

تأمّلات

۱- آفاق العصر الجاهلى

ضرورى هو البحث حول العصر الجاهلى والمسائل المختلفة المرتبطة به من أجل التعرف على الإسلام وعظمة النبى صلى الله عليه و آله، فقد سعى المؤرخون لإحصاء المسائل المتعلقة بذلك العصر، وقد أشرنا إلى هذه المسألة فى شرح الخطبة الثانية، وحيث أشار الإمام عليه السلام فى القسم الأول من هذه الخطبة إلى ذلك الموضوع فإننا نرى ضرورة الإشارة إلى بعض الأمور:

أ الحديث طويل فى عقائدهم الخرافية فالوثنية كانت هى الحاكمة والمنصوبة فى جوف الكعبة فهناك أوثان القبيلة والاسرة، ولبعضها أشكال وأخرى دون شكل. من عقائدهم أن الملائكة بنات الله، فى حين ينفرون أنفسهم بشدة من البنات. وينكرون القيامة ويشاورون أصنامهم فى الأمور المهمة، وطريقة ذلك أنهم يكتبون على السهام «افعل» و «لاتفعل»

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۵

فيجعلونها مع بعضها ويخرجون واحد منها على أنه الأمر الذى أصدره الوشن. ومن خرافاتهم العقائدية الإيمان بالغيلان وطيور الشؤم والبركة وما إلى ذلك.

ب- على الصعيد الإقتصادى فقد كان يدفعهم الفقر وعلاوة على وأد البنات إلى قتل الأولاد. وأغلب دخلهم كان عن طريق السلب والنهبت، وكان الأغلب وبسوء الوضع الإقتصادى يعيش حافيا شبه عريان، وإن كان لأحدهم لباس متواضع دعا، ذلك للفخر فينشد:

من يك ذابت فهذا بتّىمقيّظ مصيّف مشتّ!

ج- على المستوى العاطفى فكفاهم أنهم لم يرحموا أى شيء وذلك بسبب طبيعتهم الوحشية كما يقول ابن خلدون حيث يميلون إلى السلب والتهب ولذتهم بذلك وفخرهم بالقتل- روى أن أحدهم سمع قول النبى صلى الله عليه و آله فى وصف الجنة ونعمها، فسأل هل فيها قتال- قيل: لا.

قال إذن لا خير فيها. قيل فى بعض التواريخ أن الحروب التى نشبت بين عرب الجاهلية بلغت ۱۷۰۰ حرب دام لبعضها مئة عام وتعاقبت عليها الأجيال، وما أكثر الحروب التى كانت تنشب لأتفه الأسباب.

ى- أما على الصعيد الإجتماعى فقد كانت أوضاعهم مزرية بفضل إنتشار الفساد والخمر حتى كان الشراب هو المتبادر إلى الأذهان من التجارة والشجاعة تعنى القتل والغيرة والعفة تعنى وأد البنات- كانوا يعشقون ثلاث: المرأة والخمر والقتال حتى قال شاعرهم:

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمةتروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفننى فى الفلات فانّنىأخاف اذا ما متّ ألّا أذوقها

كانوا يعتقدون بوجوب نصرة الصديق على الحق كان أم الباطل. كما كان القمار بارزا عندهم حتى أنهم كانوا يخسرون فيها نسائهم. كان الزنا منتشرا بينهم حتى إشتهر عندهم الزانيات من أصحاب الرايات، وهكذا سائر المفاسد التى لا مجال لإحصائها.[۱۰۴]

نعم هكذا كان العرب وقد أتقدهم الله بالإسلام، فلم ينجو من الخرافات والوثنية

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۶

والعقائد المنحطّة، بل تغيرت حتى أوضاعهم الإجتماعية والإقتصادية والعاطفية وقد صنع من إنسانهم المتوحش مثال الفرد المتحضر الأسوة كمن على شاكلة أبىذر والمقداد وعمار وبلال.

وتتضح عظمة الإسلام ورسالة النبى صلى الله عليه و آله من هذه المقارنة، أما ظهور آثار الجاهلية فى عصرنا باشكالها الأوسع والأقسى- بسبب الإبتعاد عن تعاليم الأنبياء سيما تعاليم نبى الإسلام صلى الله عليه و آله لهى شهادة أخرى على عظمة هذه الرسالة.

۲- شر دار أم خيرها

النقطة الجديدة بالذكر فى الخطبة المذكورة وصفه لموضع سكن عرب الجاهلية بشر دار، بينما وصف ذلك العصر فى الخطبة الثانية بالقول «خير دار وشر جيران» ولما كان المراد فى العبارتين أرض مكة فيبدو هناك تناقضا، إلا أنّ أدنى تأمل يفيد عدم وجود أى تناقض- فأرض مكة ذاتاً مركزاً لأفضل دار يعنى الشعبة، ولكن بالعرض فإن جميع هذه الأرض المقدسة حتى بيت الله فقد لوثت بالشرك والوثنية والمفاسد الأخلاقية. وعليه فهى شر دار باعتبار وخير دار باعتبار آخر.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۷

القسم الثانى: الصبر المرير

اشارة

«فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِی مُعِینٌ إِلَّا أَهْلُ بَیْتِی، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَیْتُ عَلَی الْقَذَی، وَشَرِبْتُ عَلَی الشَّجا، وَصَبَرْتُ عَلَی أَخْذِ الْکَظَمِ، وَعَلَی أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ».

الشرح والتفسیر

أشار الإمام علیه السلام- فی هذا المقطع من الخطبهٔ- إلی الحوادث التی أعقبت رحیل رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله ولاسیما حادثهٔ الخلافهٔ، ویتطرق إلی السبب الذی دعاه إلی السکوت وعدم المطالبهٔ بحقه المسلّم فی الخلافهٔ، أی خلافهٔ رسول الله صلی الله علیه و آله- والتی کانت فی الواقع حق المسلمین- فقال علیه السلام:

«فنظرت فاذا لیس معین إلا أهل بیتی»

نفحات الولایهٔ ؛ ج۲ ؛ ص۷۷

من الواضح أنّ القیام بالأمر تجاه تلک الطائفهٔ المتحزبهٔ- التی تشهد التواریخ بأنّها خططت للالتفاف علی الخلافهٔ قبل وفاهٔ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله- لا ینسجم وأی منطق؛ لأنّ مثل هذا القیام لیس فقط لا یتمخض عن نتیجهٔ، بل سیؤدی ذلک القیام إلی قتل طائفهٔ من صفوهٔ أهل بیت النبی صلی الله علیه و آله، أضف إلی ذلک فان هذه المواجههٔ قد تقود إلی شق صفوف المسلمین بما یعود بالنفع للمنافقین الذین کانوا یتربصون بالمسلمین مثل هذه الحوادث بعد وفاهٔ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله؛ الأمر الذی جعل الإمام علیه السلام یفضل الصمت والسکوت ومن هنا واصل الإمام علیه السلام خطبته بهذا الشأن فقال:

«وأغضیت ۱۰۵] علی

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۷۸

القذی ۱۰۶] وشربت علی الشجا[۱۰۷]، وصبرت علی أخذ الکظم ۱۰۸] وعلی أمر من طعم العلقم ۱۰۹]».

تأمّلات

۱- الأحداث المریرهٔ بعد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله

تشبه هذه العبارات تلک التی وردت فی الخطبهٔ الثالثهٔ المعروفهٔ بالخطبهٔ الشقشقیهٔ، بل هی أشد وقعاً منها، وتفید أنّ الإمام علیه السلام قد قضی ساعات ولحظات غایهٔ فی المرارهٔ إبان تلک السنین- ما یقارب خمس وعشرین سنهٔ- التی قضاها بعد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله جلیس الدار حین دفع عن حقّه فی الخلافهٔ.

ولم یکن تذمر الإمام علیه السلام کونه لم یتزعم الحکومهٔ، فقد أعلن صراحهٔ عن عدم إکتراثه لهذا الأمر وأشار کراراً إلی أن هذه الخلافهٔ لا تساوی عنده شیء إلّاأن یقیم حقّاً أو یدحض باطلًا، فهی مسؤولیهٔ إلهیهٔ ولیست وسیلهٔ للفخر والمباهاهٔ، وإنّما کان تذمره لأنّه کان یشهد تنصل الأمّهٔ شیئاً فشیئاً عن الإسلام وابتعادها عن القیم واحیائها لسنن الجاهلیهٔ حتی حدث ماکان یخشی منه، فقد تسلم معاویهٔ زمام امور الدولهٔ الإسلامیهٔ وأصبحت خلافهٔ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ملکیهٔ وراثیهٔ لیرثها من بعده ولده یزید الذی ارتکب أفظع الجرائم والجنایات بحق المسلمین وتکشف عبارات الإمام علیه السلام عن مدی الدعایات الشدیدهٔ التی مارسها القائمین علی شؤون الحکومهٔ من جههٔ وتهدید الامّهٔ وارعابها من جههٔ اخری فی إقصاءه عن حقه المسلم فی الخلافهٔ بحیث لم یکن معه من ینهض بالأمر سوی أهل بیته، فقد نقل المؤرخون عن الإمام علیه السلام أنّه قال:

«لو وجدت أربعین ذوی عزم لقاتلت»[۱۱۰]

والذى يستوحى من عباراته عليه السلام أنّ

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۷۹

المتحمسين لغصب الخلافة لم يكونوا يتورعون حتى عن سفك دماء أهل البيت عليهم السلام، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«فضننت بهم عن الموت»

؛ الأمر الذى يبدو عجيباً ورهيباً للغاية، وان كانت مثل هذه الامور الأخلاقية ليست عجيبة فى عالم السياسة والحكومة! كما يحتمل أن يكون أولئك المتعصبين للخلافة يتربصون الدوائر بذرية الإمام عليه السلام التى كانوا يرون أنّها ستتصدى للخلافة مستقبلًا، فهم يهمون بقتلهم لكى لا تبقى لأهل البيت من باقية تنهض بمسؤولية الخلافة.

أمّا السؤال عن مدى لوعة الإمام عليه السلام وشدة تلك الأيام التى كانت تمر عليه وهو جليس الدار، يتطلع بذهول لتلك الأفعال التى ارتكبت باسم الحكومة الإسلامية من قبيل تحريف العقائد والانحراف فى فهم النصوص والأحكام الإسلامية وتضييع العدالة وبالتالى استبدال الحكومة الإسلامية بالملكية الوراثية كحكومة فرعون وقيصر وكسرى، فالإجابة عليه قد وردت فى الخطبة الثانية والستين من نهج البلاغة التى قال فيها الإمام عليه السلام:

«أما بعد، فان اللَّه سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه و آله نذيراً للعالمين، ومهيمناً على المرسلين، فلما مضى تنازع المسلمون الأمر من بعده، فو اللَّه ما كن يلقى فى روعى ولا يخطر ببالى أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه و آله عن أهل بيته، ولا أنّهم منحوه عنى من بعده! فما راعنى إلّاانثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدى حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه و آله، فخشيت إن لم أنصر الإسلام، وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به علىّ أعظم من فوت ولا يتكم التى إنّما هى متاع أيام قلائل، يزول منها ماكان، كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب؛ فنهضت فى تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه»

فالإمام عليه السلام كان يشهد آنذاك مشكلتين خطيرتين؛ الاولى ذهاب حقه المسلم فى الخلافة؛ الحق الذى أدى زواله إلى انحرافات عظيمة برزت على الساحة الإسلامية، والثانية تكمن فى الخطر الذى كان محدقاً بالإسلام، والفرصة التى كان ينتظرها تيار النفاق من أجل الاجهاز عليه، فما كان منه عليه السلام إلّاأنّ يعمل بالقاعدة المنطقية العقلائية والشرعية فى تقديم الأهم على المهم عند التزاحم، فسكت على مضض عن حقه فى الخلافة حفاظاً على بيضة الإسلام.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۰

۲- هل بايع الإمام عليه السلام الخليفة الأول؟

كثر الكلام بين المؤرخين والمحدثين بشأن موقف الإمام على عليه السلام من خلافة الأول والبيعة التى تمت له فى سقيفة بنى ساعدة. وليس هنالك من اتفاق بين علماء الشيعة والسنة بهذا المجال، فقد صرح الشارح البحرانى أنّ أغلب علماء الشيعة يعتقدون أنّ الإمام على عليه السلام امتنع عن مبايعة الخليفة الأول، وقد انضم إليه عدد من بنى هاشم، إلّاأنّهم اضطروا آخر الأمر لبيعته بعد أن اجبروا عليها. وقيل أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام لازم البيت ولم يخرج، فلما رأوا أنّه وحيد تركوه ولم يحملوه على البيعة. أما محدثوا العامة فقد ذهبوا إلى أنّ الإمام عليه السلام قد امتنع عن البيعة ستة أشهر حتى توفت الزهراء عليها السلام فبايع طوعا. وللمرحوم العلّامة السيد شرف الدين صاحب المراجعات تحليل رائع بهذا الشأن، خلاصته أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يؤكد حقه المسلم فى الخلافة ونص النبى صلى الله عليه و آله بالوصية عليه من جانب، ومن جانب آخر أراد أن يفوت الفرصة على المنافقين- الذين كانوا يتربصون

الدوائر بالإسلام ويرون السبيل قد تمهد أمام أطماعهم بالقضاء على الدين من خلال الاختلافات بين الأنصار والمهاجرين- فامتنع عن البيعة مدة (ليعلن عن حقه فى الخلافة)، ثم بايع حفظاً للإسلام ودرءاً لخطر المنافقين والمتربصين بالدين.[۱۱۱] وقد وردت بعض العبارات التى تشير إلى هذا المعنى فى الخطبة ۶۲ من نهج البلاغة

«.. فأمسكت يدى حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه و آله فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به على أعظم من فوت ولايتكم ...».

وستحدث إن شاء الله بما يناسب المقام حين شرحنا للخطب والرسائل المرتبطة بهذا البحث.

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۸۱

القسم الثالث: المساومة السياسية المفضوحة

اشارة

ومنها:

«وَ لَمْ يُبايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَناً، فَلا ظَفِرَتْ يَدُ الْبائِعِ، وَخَزِيَتْ أَمانَةُ الْمُبْتاعِ، فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَها، وَأَعِدُّوا لَها عُدَّتَها فَقَدْ شَبَّ لَظاها، وَعَلا سَناها، وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ فَإِنَّهُ أَدْعى إِلَى النَّصْرِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى المساومة الفاضحة التى اشترطها عمرو بن العاص على معاوية كثمن للبيعة، فقال:

«ولم يبايع حتى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمناً»

. فقد ذكر المؤرخون: لما نزل على عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البصرة، كتب إلى معاوية كتاباً يدعوه إلى البيعة، أرسل فيه جرير بن عبداللّه البجلى. فقدم عليه به الشام، فقرأه واغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كل مذهب، وطاول جرير بالجواب عن الكتاب، حتى كلم قوماً من أهل الشام فى الطلب بدم عثمان، فأجابوه ووثقوا له، وأحب الزيادة فى الاستظهار، فاستشار بأخيه عتبة بن أبى سفيان، فقال له: استعن بعمرو بن العاص فانّه من قد علمت فى دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان فى حياته، وهو لأمرك أشد اعتزالًا؛ إلّاأنّ يثمن له دينه فسيبيعك، فانّه صاحب دنيا. فكتب إليه معاوية «أما بعد، فانه كان من أمر على وطلحة والزبير ماقد بلغك، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم فى نفر من أهل البصرة، وقدم علينا جرير بن عبداللّه فى بيعة على، وقد حبست نفسى عليك، فأقبل أذاكرك اموراً لا تعدم صلاح مغبتها، إن شاء اللّه»- فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه: عبد اللّه بن عمرو ومحمد بن عمرو، فقال لهما: ما تريان؟ فقال عبداللّه: قر فى منزلك فلست مجعولًا خليفة، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة. أما ولده

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۸۲

الآخر فقال: الحق بجماعة أهل الشام فلما دخل عمرو بن العاص الاشم، خاطبه معاية قائلًا:

«يا أبا عبداللّه أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذى عصى اللّه وشق عصى المسلمين وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرق الجماعة وقطع الرحم»[۱۱۲]. فقال له عمرو: من هو؟ قال: على. فقال عمرو بن العاص: «واللّه ما أنت وعلى بجملى بعير ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه». وواللّه إنّ له مع ذلك لحظاً فى الحرب ليس لأحد غيره، ولكنى قد تعودت من اللّه تعالى إحساناً وبلاءً جميلًا؛ فما تجعل لى إن شايعتك على حربه، وأنت تعلم مافيه من الغرر والخطر؟ قال معاوية: حكمك، فقال عمرو: مصر. فتلكأ عليه معاوية وقال: يا أبا عبداللّه إنى أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنّك إنّما دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا، قال عمرو: دعنى عنك. فأشار عليه عتبة بأن يجيب عمرو، فأجابه وأعطاه مصر.[۱۱۳] جدير بالذكر إنّ مصر كانت فى نفس عمرو بن

العاص لأنّه هو الذى فتحها فى سنة تسع عشرة من الهجرة فى خلافة عمر، فكان لعظمها فى نفسه وجلالتها فى صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنيا، لا يستعظم أن يجعلها ثمناً من دينه. أضف إلى ذلك فقد ولاها أربع سنوات على عهد الخليفة الثانى، وأربع اخرى على عهد عثمان حتى عزله. ثم قال الإمام عليه السلام:

«فلا ظفرت يد المبايع، وخزيت أمانة المبتاع»[۱۱۴]

. فالواقع كلامه عليه السلام يتضمن الدعوة ضد المشترى والبائع. نعم صحيح أنّ معاوية قد وفى له بوعده وأعطاه مصر، إلّاأنّه لم يحكمها مدة طويلة بعد أن وافاه الأجل، إلى جانب ما نقل عنه أواخر عمره عن مدى خشيته من عاقبته ومصيره، فلم يذق طعم النصر الذى كان يحلم به. كما أنّ معاوية وإن وطد دعائم حكومته بهذا العمل إلّاأنّها آلت إلى الانهيار المخزى بعد أن انفرج عنه كافة الصحابة من المهاجرين والأنصار والأفراد المشهورين بحسن السمعة من أهل الورع والتقوى ولم يتمحور حوله سوى تلك الثلة التى ورثت العداء للإسلام وسليلى زعماء الجاهلية، فكانوا أعوانه الذين يبطش بواسطتهم الناس ويجرعونهم أبشع غصص القتل والارعاب والتهديد والوعيد. كما يحتمل ألا تكون العبارة من

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۳

قبيل الدعاء، بل هى جملة خبرية؛ أى أنّ بيع الدين بالدنيا لا يقود إلى النصر أبداً، بل ستكون الخسارة من نصيب البائع والمشترى؛ الأمر الذى أشارت إليه بعض الآيات القرآنية «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ»[۱۱۵] والآية «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَياةَ الدُّنْيا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ»[۱۱۶]. وتعبير الإمام عليه السلام بالأمانة عن حكومة مصر وحقوق أهلها من المسلمين إشارة صريحة إلى أنّ حكومة الامّة وإدارة شؤونها إنّما هى أمانة إلهية لابدّ أن ينهض بعبئها الأخيار الصالحين بغية ضمان مصالح الامّة، وأمّا اولئك الذين يتخذون هذه الحكومة وسيلة لتحقيق مآربهم وأغراضهم الشخصية إنّما يخونون هذه الأمانة الإلهية وهذا ما سيؤدى فى آخر الأمر إلى فضيحتهم وزوال حكمهم.

ومن هنا صرح أغلب المفسرين بأنّ المصداق الوحيد أو المصداق البارز للأمانة الواردة فى الآية الشريفة «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إِلى أَهْلِها»[۱۱۷] إنّما هى الحكومة والولاية. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بحث الامّة على الاستعداد والتأهب لمنازلة العدو

«فخذوا للحرب اهبتها»[۱۱۸]، وأعدوا لها عدتها فقد شبّ ۱۱۹] لظاها[۱۲۰] وعلا سناها[۱۲۱]»

. فالعبارة تفيد أنّ الإمام عليه السلام قد اعتمد كافة الطرق السلمية من أجل وضع حد لذلك النفاق والعداء ولاسيما غدر أهل الشام وحكامهم إلّاأنّ كل ذلك لم يجد نفعاً، فكان حجم التآمر والدسائس يزداد كل يوم، فما كان منه عليه السلام إلّاأن أمر بالتأهب للقاء العدو؛ فقد شبت لظى نيران الأعداء وتصاعدت ألسنتها، ولابدّ من مواجهتها والعمل على اطفائها. كما يشير التأريخ الإسلامى إلى أنّ أعداء الإمام عليه السلام كانوا يسارعون للاستعداد للقتال وقد بعثوا بكتبهم ورسائلهم إلى طلحة والزبير. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام بالإشارة إلى الصبر بفضله أحد أهم مقومات النصر فقال «واستشعروا

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۴

الصبر فإنه أدعى إلى النصر». واستناداً إلى مفردة الاستشعار من مادة (ش ع ر) التى تعنى الثياب الداخلية (فى مقابل الدثار بمعنى الثياب الخارجية) يتضح أنّ الصبر والاستقامة لابدّ أن تسود باطن الإنسان وتمد الإنسان بمعانى الصمود إزاء الحوادث المريرة.

تأمّلات

۱- السياسات الدنيوية لا تعترف بالأصول الأخلاقية

هناك عبارة ما انفكت الألسن ترددها حتى صارت مثلًا، وهى قولهم «الملك عقيم» التى تفيد تنكر السياسة المادية- القائمة على أساس القيم الدنيوية والأنانية والأطماع الشخصية- حتى للقرابة بما فيها الزوجة والولد والوالدين والتضحية بها من أجل تحقيق أهدافها وأغراضها؛ ولا غرو فالساسة لا يرون من قيمة تفوق حفظ مواقعهم، وعليه فمن الطبيعى أن يضحون بالغالى والنفيس ويضربون كل قيمة عرض الحائط من أجل حفظ مصالحهم.

وقوله عليه السلام:

«فضننت بهم عن الموت»

تشير إلى أنّ المتعطشين للخلافة كانوا مستعدين حتى لقتل أهل البيت من بنى هاشم فيما لو استعان بهم الإمام عليه السلام ونهض بالأمر للمطالبة بحقه فى الخلافة. والحديث النبوى المعروف

«حبّك للشيء يعمى ويصم»[۱۲۲]

لأصدق على الرغبة بالجاه والمقام منه على سائر الامور، ونموذج ذلك ماورد فى الخطبة التى نحن بصددها. ويحفل التأريخ بسير أولئك الذين عبروا على كل شيء وسحقوه من أجل الظفر بأهدافهم فى السلطة والرئاسة.

۲- باعة الدين بالدنيا!

تعرضنا إلى حد ما فى البحث السابق إلى مسألة بيه الدين والقيم والمثل المعنوية بالمنافع المادية الرخيصة، ولمسنا نموذج ذلك فى شخصية عمرو بن العاص الذى أشارت إليه الخطبة المذكورة، حيث صرحت بأنّه ومن أجل حكومة مصر ولو لمّدة قصيرة قد باع دينه وقيمه،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۵

وقد أعرب آخر عمره كما أورد ذلك المؤرخون عن مدى ندمه، ولكن حيث لم ينفع الندم وقد اغلقت كافة سبل العودة.

القرآن الكريم من جانبه أشار إلى هذا الأمر بصفته أحد العوامل الرئيسية المؤدية إلى الانحراف ولاسيما بالنسبة للعلماء من عبدة الدنيا. ومن ذلك ما أورده القرآن بشأن فريقاً من علماء بنى اسرائيل- الذين كانوا يبشرون بظهور النبى قبيل انبثاق دعوته على ضوء العلم الذى كان لديهم والأخبار الواردة فى كتبهم (التوراة والانجيل) إلّاأنّهم حرفوا الكلم حين تعرضت بعض مصالحهم المادية للخطر- فقد صرحت الآية ۱۸۷ من سورة آل عمران قائلة:

«وَإِذ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ».

فمن الواضح أنّ القرآن الكريم يذمهم من أجل أنّهم حرصوا على متاع قليل، بل المراد أنّ المتاع المادى- وأن تضمن أرفع المقامات وأكثر الثروات- يبقى قليلًا مقارنة بالمتاع المعنوى «فَما مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا فِى الآخِرَةِ إلّا قَلِيلٌ»[۱۲۳].

على العموم فانّ كافة الأفراد الذين يقدمون طاعة المخلوق على طاعة الخالق ويؤثرون أطماعهم ومنافعهم على الآخرة ويضربون الأحكام الشرعية عرض الحائط ولا يكترثون للحلال والحرام من أجل تحقيق أهوائهم الشخصية إنّما هم فى زمرة باعة الدين بالدنيا.

ويقابلهم اولئك الأفراد الذين لا يرون فى أعمالهم سوى رضى اللّه والتسليم لإرادته، وهؤلاء هم الذين وصفهم القرآن بحزب اللّه الذين لا يرون حتى فى الأهل والقرابة من عائق أمام رضى اللّه «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...»[۱۲۴].

۳- علاقة النصر بالثبات

إن كان النصر يقوم على عدة عوامل، فانّ أحد أهم هذه العوامل هو الصبر، وتبدو الرابطة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۶

بين النصر والصبر على درجة من الوضوح بحيث إن الأدباء ومنذ قديم الزمان قد قرنوا الظفر بالصبر «من صبر ظفر». وقد أشار القرآن الكريم صراحة إلى هذه الحقيقة حتى اعتبر أنّ النصر حليف جند الإسلام مهما كان عدد وعدة العدو إذا ما تحلو بالصبر والاستقامة «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً»[۱۲۵]. وهذا هو السبب الذى يكمن وراء انتصار المسلمين فى كافة الغزوات رغم عدم الموازنة والتفاوت الفاحش بين ما عليه الأعداء من عدة وعدد ومعدات وما عليه المسلمين، حيث كانوا يتحلون بالصبر النابع من إيمانهم باللّه واليوم الآخر.

وهذا ما أكده الإمام عليه السلام فى خطبته اذ قال:

«واستشعروا الصبر فانه أدعى إلى النصر»

. ولا يسعنا هنا إلّاأن نكتفى بهذا المقدار ونوكل المزيد من الكلام إلى الأبحاث القادمة. أما المسألة الجديرة بالذكر فهى أن استشعار الصبر- بمعنى نفوذه إلى عمق النفس البشرية- أو دثاره- بمعنى التحلى به على مستوى الظاهر؛ الأمر الذى يدخل الرعب إلى قلوب الأعداء- إنّما يقود إلى النصر وهزيمة العدو.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۷

الخطبة السابعة والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وقد قالها يستنهض بها الناس حين ورد خبر غزو الانبار بجيش معاوية فلم ينهضوا.

وفيها يذكر فضل الجهاد ويستنهض الناس ويذكر علمه بالحرب ويلقى عليهم التبعة لعدم طاعته.

سند الخطبة وزمانها ومكانها

اشارة

قال ابن أبى الحديد هذه الخطبة من مشاهير خطبه عليه السلام؛ قد ذكرها كثير من المحققين والمحدثين (غير المرحوم الشريف الرضى) ورواها أبو العباس المبرد فى أول (الكامل) وأسقط من هذه الرواية ألفاظاً وزاد فيها ألفاظاً، وقال فى أولها: إنه انتهى إلى على عليه السلام أنّ خيلًا وردت الأنبار[۱۲۶] لمعاوية، فقتلوا عاملًا له يقال له: حسان بن حسان، فخرج مغضباً يجر رداءه، حتى أتى النخيلة، وأتبعه الناس، فرقى رباوة فى الأرض، فحمد اللّه وأثنى عليه وصلى على نبيّه صلى الله عليه و آله ثم قال:

أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنّة، فمن تركه رغبة عنه، ألبسه اللّه الذل وسيم الخسف»[۱۲۷].

كما أوردها المرحوم الكلينى فى كتابه الكافى فى بحث الجهاد.[۱۲۸]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۸

ونقلها صاحب مصادر نهج البلاغة عن عشرة مصادر معروفة قبل المرحوم السيد الرضى ومنها: «البيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والأخبار الطوال للدينورى والغارات للثقفى والعقد الفريد لابن عبد ربّه والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ...»[۱۲۹]

وعليه فانّ الإمام عليه السلام قد أورد هذه الخطبة فى النخيلة حين اخبر عليه السلام بهجوم سفيان بن عوف الغامدى- والذى عبّر عنه الإمام عليه السلام ب (أخو غامد)- على الأنبار وقتل عامله عليها حسان بن حسان وطائفة من المسلمين وقد نهبوا أموالهم وخربوا بيوتهم دون أن يواجهوا أدنى مقاومة ثم عادوا إلى الشام سالمين. فأمّا أخو غامد الذى وردت خيله الأنبار فهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى؛ وغامد قبيلة من اليمن، وهى من الازد، أزد شنوءة- واسم غامد عمر بن عبد اللَّه بن كعب بن الحارث بن كعب بن كعب بن عبد اللَّه بن مالك بن نصر بن الأزد- وسمى غامداً لأنّه كان بين قومه شر فأصلحه وتغمدهم بذلك. قال سفيان بن عوف الغامدى، قال: دعانى معاوية، فقال: إنّى باعثك فى جيش كثيف، ذى أداة وجلادة، فألزم جانب الفرات، حتى تمر بهيت فتقطعها، فان وجدت بها جنداً فأغر عليهم وإلّا فامض حتى تغير على الأنبار، فان لم تجد بها جنداً فامض حتى توغل فى المدائن؛ ثم أقبل إلىّ واتق أن تقرب الكوفة. واعلم انك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنّك أغرت على الكوفة؛ إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو الينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كل ما مررت به من القرى، واحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب. قال: فخرجت من عنده فعسكرت، وقام معاوية فى الناس فخطبهم، فقال: أيّها الناس، انتدبوا مع سفيان بن عوف، فانّه وجه عظيم فيه أجر، سريعة فيه أوبتكم إن شاء اللَّه- ثم نزل. قال: فو الذى لا إله غيره ما مرت ثالثة حتى خرجت فى ستة آلاف، ثم لزمت شاطئ الفرات، فأغذذت السير حتى أمر بهيت، فبلغهم أنى قد غشيتهم فقطعوا الفرات، فمررت بها وما بها عريب، كأنّها لم تحلل قط، فوطئتها حتى أمر بصندوداء، ففروا فلم ألق بها أحداً، فأمضى حتى أفتتح الأنبار،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۸۹

وقد نذروا بى، فخرج صاحب المسلحة إلى، فوقف لى فلم أقدم عليه حتى أخذت غلماناً من أهل القرية. فقلت لهم: أخبرونى كم بالأنبار من أصحاب على عليه السلام؟ قالوا: عدة رجال المسلحة خمسمائة، ولكنهم قد تبددوا ورجعوا إلى الكوفة؛ ولا ندرى الذى يكون فيها، قد يكون مائتى رجل، فنزلت فكتبت أصحابى كتائب، ثم أخذت أبعثهم إليه كتيبة بعد كتيبة، فيقاتلهم واللَّه ويصبر لهم، ويطاردهم ويطاردونه فى الأزقة، فلما رأيت ذلك أنزلت إليهم نحواً من مائتين، وأتبعتهم الخيل، فملا حملت عليهم الخيل وأمامها ثلاثين رجلًا، وحملنا ما كان فى الأنبار من الأموال؛ ثم انصرفت، فو اللَّه ما غزوت غزاة كانت أسلم ولا أقر للعيون، ولا أسر للنفوس منها. وبلغنى واللَّه أنّها أرعبت الناس، فلما عدت إلى معاوية، حدثته الحديث على وجهه، فقال: كنت عند ظنى بك، لا تنزل فى بلد من بلدانى إلّاقضيت فيه مثل ما يقضى فيه أميره، وإن أحببت توليته وليتك، وليس لأحد من خلق اللَّه عليك أمر دونى، قال فو اللَّه ما لبثنا إلّايسيراً، حتى رأيت رجال أهل العراق يأتوننا على الابل هرّاباً من عسكر على عليه السلام. وكان اسم عامل على عليه السلام على مسلحة الأنبار أشرس بن حسان البكرى. قال ابراهيم بن عبداللَّه بن قيس كنت مع أشرس بن حسان البكرى بالأنبار على مسلحتها، إذ صبحنا سفيان بن عوف فى كتائب تلمع الأبصار منها، فهالونا واللَّه، وعلمنا إذ رأيناهم أنه ليس لنا طاقة بهم ولا يد، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرقنا فلم يلقهم نصفنا، وايم اللَّه لقد قاتلناهم فأحسنا قتالهم؛ حتى كرهونا، ثم نزل صاحبنا، وهو يتلو قوله تعالى: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا». ثم قال لنا: من كان لا يريد لقاء اللَّه، ولا يطيب نفساً بالموت، فليخرج عن القرية مادمنا نقاتلهم، فان قتالنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب، ومن أراد ما عند اللَّه فما عند اللَّه خير للأبرار، ثم نزل فى ثلاثين رجلًا، فهممت بالنزول معه، ثم أبت نفسى، واستقدم هو وأصحابه، فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم اللَّه، وانصرفنا نحن منهزمين.[۱۳۰]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۰

نظرة إلى الخطبة

كما ذكرنا سابقاً فان هذه الخطبة- المعروفة بخطبة الجهاد- من أشهر خطب أميرالمؤمنين عليه السلام التى تدور حول محور الجهاد.

فقد استهل الخطبة بشرح أهمية الجهاد ومعطياته والعواقب الوخيمة التى تنتظر الأمّة فى حالة تركه. ثم عرض باللوم لأهل الكوفة بعد أن تعرض لحملة «سفيان الغامدى» على مدينة الأنبار وشهادة «حسان بن حسان»- العامل الوفى والأمين لأمير المؤمنين عليه السلام على الأنبار- والجرائم التى ارتكبها أهل الشام فى سلب الأموال وهدم البيوت- وفى القسم الثالث من الخطبة إلى ذم أهل العراق آنذاك ثانية والتعلل ببعض الامور بهدف التقاعس عن الجهاد- وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته ببيان استعداده التام لجهاد العدو وسوابقه المشرقة بهذا الخصوص وفى الختام فهى خطبة ذات تأثير بليغ فى نفوس السامعين، حتى قال الشارح المعروف ابن أبى الحديد بهذا المجال: واعلم أنّ التحريض على الجهاد والحض عليه قد قال فيه الناس فأكثروا، وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام؛ فمن جيد ذلك ما قاله ابن بناتة الخطيب بشأن الجهاد

«.. فانّ الجهاد أثبت قواعد الإيمان، وأوسع أبواب الرضوان، وأرفع درجات الجنان ..»

ثم أضاف: فانظر إليها وإلى خطبته عليه السلام بعين الانصاف، تجدها بالنسبة إليها كمخنث بالنسبة إلى فحل، أو كسيف من رصاص بالاضافة إلى سيف من حديد.[۱۳۱]

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۱

القسم الأول: الجهاد باب من أبواب الجنّة

اشارة

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِباسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمِلَهُ الْبَلاءُ، وَدُيِّثَ بِالصَّغارِ وَالْقَماءَةِ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهابِ، وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهادِ، وَسِيمَ الْخَسْفَ، وَمُنِعَ النَّصَفَ».

الشرح والتفسير

لقد تعرضت الخطبة إلى فلسفة الجهاد وبركاته فى عبارات قصيرة ذات عدة معان، إلى جانب الآثار السيئة لترك الجهاد، فقد قال بعد أن حمد اللّه وأثنى عليه

«أمّا بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنّة»

وبالطبع هناك عدة أسباب وردت فى الأحاديث بصفتها «أبواب الجنّة» التى تؤدى إلى نيل الرحمة والفوز بالرضوان والجنّة يكمن أهمها فى الجهاد، فقد ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«للجنّة باب يقال له «باب الجهاد» يمضون إليه فاذا هو مفتوح وهم متقلدون بسيوفهم، والجمع فى الموقف، والملائكة ترحب بهم»[۱۳۲]

. ونعلم أنّ الجهاد فى الإسلام على نوعين: جهاد العدو وجهاد النفس. وقد اصطلح على الأول بالجهاد الأصغر وعلى الثانى بالجهاد الأكبر، وكل منهما باب من أبواب الجنّة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۲

ولا يتيسر لقاء اللّه دون الجهاد الأكبر كما تتعذر العزة والرفعة فى الدنيا والآخرة دون الجهاد الأصغر. ثم قال عليه السلام

«فتحه اللّه لخاصة أوليائه»

. صحيح أنّ جهاد العدو والنفس يعد وظيفة جميع المسلمين، إلّاأنّ أولياء اللّه فقط الذين يسعهم خوض غمارهما حتى النهاية على

أساس الاخلاص والنية الحسنة، بينما قد تكون نيات الآخرين مشوبة بالطمع ونيل الغنام أو الحصول على الحياة والمنصب والشهرة وبالتالى فهم لا ـ يواصلون المسيرة إلى آخرها. فأولياء اللّه فقط الذين يقتحمون الميدان ويصبرون على الأذى فى حركتهم الجهادية فيركعون كافة قوى الشر والظلام.

ونخلص ممّا سبق إلى عدم ورود الإشكال على الإمام عليه السلام فى أنّه خص باب الجهاد بخاصة أولياء اللَّه بينما كتب على جميع المسلمين. كما نفهم من قوله عليه السلام أن من طوى مسيرة الجهاد الأصغر والأكبر فهو من خاصة أولياء اللَّه سبحانه. ثم يصف عليه السلام الجهاد فيقول

«وهو لباس التقوى ودرع اللَّه الحصينة، وجنته الوثيقة»

ونعلم أنّ اللباس زينة للإنسان وجمال له من جانب، ومن جانب آخر فانه حافظ لبدنه من شدة الحرارة والبرودة التى تؤذيه فيما لو كان عرياناً، كما يشكل أساس عزة الأقوام والشعوب ودرعها من أنواع المخاطر والآفات؛ الأمر الذى أكده الإمام عليه السلام فى عباراته اللاحقة.

وأخيراً فالجسد العارى عرضة لأنواع الأذى موصوفاً بالقبح والشناعة، وعليه فالأُمّة التى تولى ظهرها للجهاد هى أُمّة ذليلة مهددة بكافة عناصر الزوال والانهيار. أمّا علة إضافة اللباس للتقوى فى العبارة فلعل ذلك يفيد تعذر حفظ أصول التقوى دون توفر الأمن، كما يتعذر الأمن دون الجهاد. كما يحتمل تفسيرها على أنّها اشارة إلى الآية ۲۶ من سورة الأعراف التى عدت التقوى نعمة الهية بعد ذكر اللباس الظاهر «وَلِباسُ التَّقْوى ذ لِكَ خَيْرٌ».

وبناءً على هذا فالمراد هو أن لباس التقوى الذى ورد فى القرآن إنّما مصداقه الكامل هو الجهاد الذى يجعل المجتمع يعيش الأمن والأمان على كافة المستويات ۱۳۳] وهو مصدر الحسن والجمال.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۳

ثم شبه الإمام عليه السلام الجهاد بالدرع الحصينة والجنّة الوثيقة، والوسيلتان من المعدات الدفاعية فى القتال، حيث لم يكن من أمان لاولئك الذين يخوضون المعارك سابقاً ولم يتدرعوا، وهذا هو حال الامّة التى تترك الجهاد فهى ضعيفة خاوية تجاه ضربات العدو. ولعل هذه العبارة تشير إلى حقيقة وهى أنّ الجهاد لا يراد به الهجوم على الآخرين ومن أجل التوسع والسيطرة ونهب الأموال والثروات وفرض الأفكار والعقائد، لأننا نؤمن بأنّ الإسلام والقرآن إنّما يستند إلى منطق قوى يغنيه عن شهر السيف بوجه المقابل. وعليه فانّما شرع الجهاد من أجل حفظ المجتمع الإسلامى وإزالة الموانع التى تعترض أساليب التبليغ والقضاء على الموانع التى تحول دون حرية البيان.

أمّا الحروب المعاصرة فهى وإن نحت الدروع القديمة إلّاأنّها تعتمد اليوم الوسائل التى تفوقها فى الدفاع من قبيل المدرعات والمصفحات والمواضع المحصنة، كما تلجأ إلى بعض الملابس الخاصة بغية مواجهة الهجمات الكيميائية بحيث لا تتأثر من قريب أو بعيد بخطر هذه الأسلحة.

جدير بالذكر أن ما ذكر بشأن تفسير عبارة الجهاد الأصغر (العدو الخارجى) يصدق تماماً على الجهاد الأكبر (جهاد النفس)؛ حيث لا طاقة للإنسان بهجمات الشيطان دون جهاده لنفسه. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الآثار السلبية التى يتمخض عنها ترك الجهاد ليوجزها فى سبع نقاط، فقال:

«فمن تركه رغبة عنه ألبسه اللَّه ثوب الذل»

وقوله عليه السلام (رغبة عنه) إشارة إلى استثناء الأفراد من هذا الحكم ممن يمتلكون الأعذار الموجهة التى لا تجعلهم قادرين على خوض الجهاد من قبيل العجز والمرض ونحو ذلك؛ الأمر الذى أكدته بعض الآيات القرآنية.[۱۳۴] الأثر السلبى الثانى لترك الجهاد «وشمله البلاء» فمثل هذا الفرد أو الأمّة إنّما يعتكف فى موضع أعزل يجعله عرضة لحملات الحيوانات المفترسة بحيث تدخل عليه

دون أدنى مقاومة، والجهاد وحده هو الذى يشكل السد الحديدى إزاء مثل هذا البلاء فينأى بالإنسان بعيداً عن هذه الحيوانات. أمّا الأثر السلبى الثالث فقد أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله «وديث ۱۳۵] بالصغار[۱۳۶]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۴

والقماءة[۱۳۷]» وكيف لا يعيش الذل والهوان والضعة من ضيع هذا السند العظيم؛ أى الجهاد.

وصحيح أنّ العبارتين قريبتان من بعضهما بالمعنى، إلّاأنّ هناك فارقاً طفيفاً، حيث كان الكلام هناك عن الذلة وهنا عن الحقارة والضعة. فالمفهومان مختلفان إلّاأنّها من قبيل اللازم‌والملزوم. وأمّا المصيبة الأخرى التى تطيل تارك الجهاد فهى

«وضرب على قلبه بالأسهاب»[۱۳۸]

فالأفراد الضعفاء والعجزة والمهزومون إنّما يعانون من الأوهام على الدوام فلا يسعهم تقييم الحقائق كما هى. فخشية العدو تجعلهم يعيشون فى حالة من الخيالات المرعبة، أو أنّهم يلجأون إلى بعض الخرافات من أجل تحقيق النصر كأن يتخلوا عن السيف والمقاومة ويلوذوا بالسحرة والكهنة.

وقد حفل التأريخ بنماذج حيّة لمثل هؤلاء الأفراد، الذين لا يكشفون بذلك سوى عن ضعفهم وعجزهم، بينما يتنزه المجاهدون الشجعان عن مثل هذه السفاسف.

ثم ذكر الأثر السلبى الخامس بقوله عليه السلام

«وأُديل ۱۳۹] الحق منه بتضييع الجهاد»

، وذلك لأنّ الحق- كما ورد فى المثل المعروف- يؤخذ ولا يعطى. فالطواغيت وأصحاب المنطق الغاشم والمستبدون لا يفوضون الحق لأصحابه أبداً، ولابدّ من التحلى بالقوة من أجل انتزاع الحق من براثن اولئك الطغاة؛ الأمر الذى نوه له الإمام عليه السلام فى الخطبة التاسعة والعشرين بقوله

«لا يدرك الحق الا بالجد»

وأمّا الأثر السلبى السادس «وسيم الخسف» وبالالتفات إلى اطلاق الخسف والخسوف‌على زوال نور القمر والاختفاء فى الأرض، وان «سيم» من مادة «سوم» بمعنى الحركة إثر شيء فان مفهوم الجملة سيكون: أنّ تاركى الجهاد فى الواقع إنّما يسيرون باتجاه الزوال والانقراض؛ الأمر الذى لاحظناه بوضوح فى الأمم والبلدان التى آلت إلى السقوط والانهيار إثر تقاعسها عن الجهاد.[۱۴۰]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۵

ثم قال عليه السلام فى إطار ذكره للاثر السلبى السابع

«ومنع النصف»[۱۴۱]

ودليل ذلك واضح؛ لأنّ أتباع العدالة عادة ما يشكلون الأقلية، ولو لم يكونوا كذلك كمية فهم أقلية من حيث الكيفية والقدرة.

ومن هنا فان أصحاب السطوة ينـدفعون بكل ما اوتوا من قوة لهضم حقوق الشعوب المظلومة ويسعون لمضاعفة ثرائهم وأموالهم. وليس لهذه الشعوب من وسيلة لاستعادة حقوقها وخلاصها من براثن الظلم والاضطهاد وتحقيق العدالة الاجتماعية سوى فى خوض غمار الجهاد. وهنا تكمن أهمية العبارات التى أوردها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بشأن الجهاد وفلسفته ومعطياته الايجابية والسلبية فيما لو تخلت عنه الشعوب والامم.

كما يتضح ممّا أوردنا أنّ الجهاد لم ينـدب بفعل الثواب المعنوى المترتب عليه، بل بسبب الآثار والمعطيات الكبيرة التى يفضى إليها فى هذه الحياة الدنيوية. فهل هناك من يطلب الذل والهوان ويرضى بغصب الحقوق وتضييعها وبالتالى يحث الخطى نحو الزوال والفناء؟! فان كان الجواب بالسلب، كان علينا أن نشدد حيازيمنا ونهب لخوض الجهاد والتحلى بالصبر والاستقامة من أجل درك معطياته العظيمة فى الدنيا والآخرة وتحمل كافة الآلام والمصاعب كاحتمال المريض لمرارة الدواء من أجل التماثل للعافية والشفاء.

تأمّلان

۱- الجهاد سر رفعة الشعوب وعزتها

كثر الكلام بشأن الجهاد، ولدينا المزيد من الكلام بهذا الخصوص طالما توالت خطبه عليه السلام فى نهج البلاغة فى الحديث عن هذه المسألة.

أمّا الشيء المهم الذى نود التطرق إليه بصفته مبدأ حيوياً هو أنّ الجهاد قانون الحياة الذى يمنحها الدوام والبقاء وأنّ الإنسان وكل كائن ينبض بالحياة مازال مقبلًا على الجهاد وبخلافه

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۶

يبدأ عده العكسى فى الموت والفناء. فالنبات يواجه عدة آفات يسعى للتغلب عليها من أجل البقاء حياً، وجذور الأشجار هى الاخرى تغوص فى أعماق الأرض من أجل امتصاص الماء والأملاح فاذا ما اعترضت بعض الموانع كالصخور سعت لاختراقها ومواصلة تغلغلها فى أعماق التربة وإن عجزت عن ذلك فتشت عن طريق آخر واستمرت فى مسيرتها. وهكذا الحال بالنسبة للحشرات والحيوانات التى تواجه الأخطار التى تهدد كيانها باستمرار فتبدى مقاومتها من أجل مواصلة حياتها. فهناك بعض الطيور التى تهاجر إلى مسافات شاسعة قد تنطلق من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى مقاومة كافة الظروف المحيطة بغية مواصلة حياتها. أمّا الإنسان فيعيش حركة جهادية مريرة على مستوى أعضائه الداخلية ودورته الدموية، فالجنود التى تدافع عن البدن- والتى يصطلح عليها بكريات الدم البيض- طيلة عمر الإنسان إنّما تتصدى ببسالة لكافة الأعداء المتمثلين بالمكروبات والفايروسات التى تحاول اختراق بدن الإنسان عن طريق الماء والغذاء والهواء والشقوق التى تحدث فى الجلد.

وقد الهمت هذه الكريات سبل الصمود بوجه كافة الأسلحة الكيميائية والفيزيائية بحيث تبيدها وتبقى على البدن سالماً صحيحاً. فاذا ضعفت هذه الجنود لأى‌سبب من الأسباب وتقاعست فى وظيفتها هجمت جميع الأمراض على الإنسان، وما المرض الخطير الذى يطلق عليه «الايدز» إلّانتيجة طبيعية لاختلال عمل هذه الكريات وتوقفها عن العمل، ومن هنا فانّ المصابين بهذا المرض الخطير إنّما يكونون عرضة للاصابة بأخطر الأمراض. وزبدة الكلام فان الجهاد رمز الحياة وسر السعادة والسبب الرئيسى للنصر والغلبة وعامل الرفعة والعزة، لكن ليس ذلك سوى الجهاد من أجل تحقيق الحق والعدل وإلّا فليس ذلك سوى الجريمة والظلم والعدوان.

ومن هنا تظافرت الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بما فيها الخطبة المذكورة التى أكدت على قضية الجهاد بما لم تول مثل هذه الأهمية لغيره من المفاهيم، ولاسيما الجهاد بالمعنى الأشمل الذى يتضمن الوقوف بوجه العدو الخارجى والداخلى. فقد جاء فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«من ترك الجهاد ألبسه اللَّه ذلًا فى نفسه وفقراً فى معيشته

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۷

ومحقاً فى دينه»[۱۴۲]

ويستفاد من هذا الحديث أن ترك الجهاد إنّما يهدد بالخطر الحياة المعنوية للإنسان فضلًا عن حياته المادية. وفى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«إغزوا تورثوا أبنائكم مجداً»[۱۴۳]

كما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام فى قصار حكمه فى نهج البلاغة ضمن إطار بيانه لفلسفة الأحكام الشرعية فقال:

«والجهاد عزاً للإسلام»[۱۴۴]

. وأخيراً فهناك عدة خطب شحن بها نهج البلاغة بشأن الجهاد سنعرض لها فى الأبحاث القادمة.

۲- هل الجهاد الإسلامى دفاعى فقط؟!

منذ سنوات وقد شغل هذا السؤال أذهان الأوساط الإسلامية بما فيها العلماء، فقد ذهبت طائفة إلى أنّ كافة غزوات رسول اللّه صلى الله عليه و آله كانت دفاعية حذراً من اتهام الإسلام من أنّه قد انتشر بالسيف ورهبة السلاح! أو بعبارة اخرى خشية اتهام الإسلام بالروح السلطوية والفتوحات العسكرية. وبالمقابل هناك طائفة اخرى ترى أنّ الغزوات الإسلامية على قسمين؛ بعضها هجومية وبعضها دفاعية، وترى أنّ هذين القسمين حق ثابت للمسلمين اليوم، وتعتقد أنّ الإسلام موظف بتحرير المسلمين الذين يرزحون تحت نير السلطات الظالمة؛ الأمر الذى يدخل ضمن الجهاد الهجومى، كماترى أنّ الإسلام مكلّف بتمهيد السبيل أمام ممارسة الاعلام المنطقى وإزالة كافة العوائق التى تعترض هذا السبيل ولو اضطر للجوء للقوة وهذا نوع آخر من الجهاد الهجومى. كما هنالك رأى ثالث يقول أنّ طبيعة القتال فى الإسلام هى طبيعة دفاعية، إلّاأنّ المسائل الدفعاعية قد تجعل الهجوم ضرورة. مثلًا الدفاع عن المظلومين، أو بعبارة اخرى التدخل الإنسانى وإن كان يبدو ظاهرياً هجوماً إلّاأنّه فى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۸

الواقع دفاع عن قوم يرزحون تحت الظلم والاضطهاد، وعليه فالدفاع عنهم ضرورى بالنسبة لكافة الأفراد من أهل الإيمان. والهجوم بالمعنى الثانى- يعنى تمهيد السبيل أمام حرية الأعلام المنطقى وممارسة التبليغات- هو الآخر دفاع تجاه بعض الموانع، فانّ الإسلام يأذن بقتال العدو إذا ما خلق بعض الموانع والعراقيل.

أمّا العبارات التى وردت فى بداية هذه الخطبة إنّما هى دليل واضح على دفاعية طبيعة الجهاد؛ فقد شبه فى موضع باللباس وفى آخر بالدرع وفى ثالث بالجنة، ونعلم بأنّ جميع هذه الامور من قبيل الوسائل الدفاعية. وأمّا العبارات القادمة فقد تضمنت إشارات إلى الهجوم الذى يختزن بعداً دفاعياً، ومن ذلك قوله عليه السلام:

«قلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم»

. ويمكن أن يكون هناك استثناء واحد لهذا القانون الكلى وهو الجهاد والقتال من أجل إزالة الصنمية والوثنية؛ وذلك لأنّ الإسلام يرى فى الوثنية أكبر خطر يهدد المجتمع البشرى من الناحية المعنوية والمادية، فيصرح بالجهاد من أجل القضاء على الوثنية فى حالة عدم جدوى التبليغ.

لاشك أنّ بعض الطغاة والجبابرة سيستغلون مسألة الدفاع عن المظلومين أو مواجهة الانحطاط الفكرى والثقافى كوسيلة للتغطية على أهدافهم العدوانية والتوسعية، إلّاأنّ ذلك لايحد من قيمة هذه المفاهيم أبداً. فاستغلال هذه المفاهيم المقدسة ليس بالشيء الجديد. وللوقوف على أهداف الجهاد فى الإسلام يمكن مراجعة المجلد الثانى من تفسير الأمثل، الآية ۱۹۳ من سورة البقرة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۹۹

القسم الثانى: الموت كمداً

اشارة

«أَلا-وَإِنِّى قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهاراً، وَسِرّاً وَإِعْلاناً وَقُلْتُ لَكُمُ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَواللَّهِ ما غُزِىَ قَوْمٌ قَطُّ فِى عُقْرِ دارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا. فَتَواكَلْتُمْ وَتَخاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغاراتُ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطانُ.

وَ هذا أَخُو غامِدٍ وَقَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبارَ وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ وَأَزالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسالِحِها، وَلَقَدْ بَلَغَنِی أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالْأُخْرَى الْمُعاهِدَةِ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَها وَقُلُبَها وَقَلائِدَها وَرُعُثَها، ما تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجاعِ وَالِاسْتِرْحامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وافِرِينَ ما نالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً ماتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كانَ بِهِ عِنْدِی جَدِيراً».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من تلك المقدمة المقتضبة، تطرق إلى نموذج بارز من الافرازات المشؤومة لترك الجهاد فقال عليه السلام:

«ألا وإنی قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلًا ونهاراً، وسراً وإعلاناً وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم»

يذكر الإمام عليه السلام بأنّه أشار إلى طبيعة هؤلاء الظلمة المردة الذين ينطوون على الروح العدائية التی تبرز على السطح إذا ما سنحت الفرصة فلا يتورعون عن قتل الأبرياء وسبی النساء ونهب الأموال والثروات، وعليه فان العقل والشرع يجيز الوقوف بوجه هؤلاء الطغاة وقبر مؤامراتهم فی مهدها وكسر شوكتهم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۰

وإخماد فتنهم قبل أن يتأهبوا للقتال والعدوان.

ثم يعرض عليه السلام الدليل على ما أورده فقال:

«فواللّه ما غزی قوم فی عقر[۱۴۵] دارهم إلا ذلوا»

. ومن الواضح أن من يتعرض للهجوم فی عقر داره إنّما يفقد معنوياته ويشعر بالهزيمة والفشل فی نهاية الأمر من جانب آخر فانّ المهاجم الذی يتعرض إلى قوم فی عقر دارهم لا يفكر أبداً فی حفظ حرمة الدار، بل يدمر كل شیء فيها، أضف إلى ذلك فان مثل هذه الدار تصبح مسرحاً للقتال؛ الأمر الذی يؤدی إلى سفك دماء من فيها بما فيهم الصبية والنساء، وعليه فان مثل هذه الامور تشكل بمجموعها العناصر التی تؤدی إلى هزيمة القوم الذين يتعرضون للهجوم فی عقر دارهم. ومن هنا ورد التأكيد على المقاتلين فی كافة الغزوات الإسلامية (باستثناء بعض الغزوات والمعارك التی اكتنفتها بعض الظروف والملابسات كمعركة الأحزاب) بترك المدن والتصدی للأعداء خارجها. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة

«فتواكلتم ۱۴۶] وتخاذلتم حتی شنت ۱۴۷] عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان»

. التواكل يعنی إيكال كل فرد عمله إلى آخر، بعبارة اخرى هو تخلی الفرد عن مسؤوليته والقائها على عاتق الآخرين بحيث تخلو الساحة. والتخاذل يعنی عدم مد يد العون إلى الآخرين، بما يؤدی فی خاتمة المطاف إلى تصدع عری الاتحاد، بحيث لا يشعر العدو بأی رادع أو مانع يحول دون شنه لهجماته، وهذه أحد أبشع الصفات التی تسود المجتمعات البشرية بحيث يتقاعس كل فرد عن مسؤوليته ويقلدها ربقة الآخرين وينهمك كل فی شؤونه الشخصية دون أن يوفر الدعم والإسناد لأخيه إذا ما تعرض لحملات الأعداء المسعورة، فلا يؤدی ذلك سوی إلى تلك النتيجة التی خلص إليها الإمام عليه السلام فی أنّ العدو سيری الميدان مفتوحاً أمامه فيشن حملاته- لتسقط المدينة تلو الأخری دون أن يجابه بأدنی مقاومة. ثم يستشهد الإمام عليه السلام بمثال حی متطرقاً إلى واقعة الغامدی فيقول:

«وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكری وأزال خيلكم عن

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۱

مسالحها»

. ويبدو أنّ الأنبار كانت منطقة حدودية عراقية متاخمة للشام، لأنّ مسالح جمع مسلحة تعنی الحدود والثغور- وذلك لأنّ الأسلحة

تجمع هناك لتستخدم فى الدفاع عن الحدود– وقوله عليه السلام:

«أزال خيلكم عن مسالحها»

تفيد اجتياز العدود لهذه الحدود دون مقاومة وقد مرّ علينا شرح ذلك. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الجنايات التى ارتكبها الغامدى بحق أهل الأنبار من المسلمين والمجاهدين من أهل الكتاب الذين ينبغى الدفاع عنهم من قبل الدولة الإسلامية، فقال عليه السلام:

«ولقد بلغنى أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها[۱۴۸] وقلبها[۱۴۹] وقلائدها[۱۵۰] ورعثها[۱۵۱] ما تمتنع منه إلّا بالاسترجاع والاسترحام»

، فالإمام عليه السلام أشار بوضوح إلى أنّ أحداً من المسلمين لم يهب للدفاع عن هذه النسوة المسلمات أو تلك المعاهدات. أمّا الاسترجاع فقد فسرّه بعض شرّاح نهج البلاغة بالبكاء المصحوب بالعويل فى حين فسره البعض الآخر بكلمة «إنا للّهوإنا إليه راجعون» التى تقال عادة عند النوائب والشدائد التى يتعرض لها الإنسان. ثم قال عليه السلام

«ثّم انصرفوا وافرين مانال رجلًا منهم كلم ولا أريق لهم دم»

آنذاك يخلص عليه السلام إلى هذه النتيجة

«فلو أن أمرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندى جديراً»

فقد كشف الإمام عليه السلام عن عمق اللوعة التى كانت تعتلج فى صدره مستغرباً ما حدث، كيف يضعف المسلمون إلى هذه الدرجة ولا تهتز لهم قصبة تجاه هذه الحملات المروعة التى أهلكت الحرث والنسل وقد طالت الأموال والأنفس والأعراض، وقد رجع المهاجمون غانمين سالمين دون أن يتكبدوا أية خسارة! أجل لا يسع المسلم الغيور تحمل مثل هذه الحادثة المأساوية قط، بل لو مات كمداً من جرائها لما كانت عليه من لائمة. والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لم يفرق بين المرأة المسلمة والمعاهدة لما تعرضت له من انتهاك الحرمة والتطاول على حليها ووسائلها، كما يكشف عن مدى ضرورة التزام الدولة الإسلامية بالدفاع عن حقوق الأقليات الدينية التى تعيش ضمن المجتمع الإسلامى، مع ذلك فان غرض الإمام عليه السلام كان يكمن فى تصوير عمق

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۱۰۲

الفاجعة المأساوية. وبالطبع فان هذا الكلام لا يختص بزمان دون آخر، كما لا يقتصر على هجوم جيش معاوية على الأنبار، بل يتضمن قاعدة كلية يجب أن تسود الحياة الإسلامية على الدوام. وكأنّى بالإمام عليه السلام قد خاطب بهذه العبارات كافة المسلمين الذين يتعرضون اليوم لأبشع هجمات الشرق والغرب التى تنوى السيطرة على أموالهم وثرواتهم ومسخ قيمهم وضرورة التصدى لهم والدفاع عن حياض بلدانهم، بحيث لو مات أحدهم غصة وكمداً لما يرتكبه العدو الطامع من جرائم وجنايات لما كان ملوماً بل كان جديراً.

تأمّلات

۱– معادلات الهزيمة والانتصار

لقد أشار الإمام عليه السلام من خلال بصيرته الثاقبة وروحه السامية وخبرته الوافية فى ميادين الحرب والقتال إلى العناصر المهمّة التى تقف وراء الهزيمة والانتصار والتى ينبغى أن يجعلها المسلمون نصب أعينهم من أجل دحر الأعداء والحفاظ على بيضة الإسلام. فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى أخلاء الساحة أمام العدو ومنحه الفرصة بشن هجماته بفضلها تشكل أحد عوامل الفشل والانهزام؛ الأمر الذى لا يختلف عليه إثنان وقد خضنا فى تفاصيله سابقاً.

العامل الآخر التواكل (بمعنى وكل كل الأمر إلى صاحبه، أى لم يتوله أحد بل أحاله كل على الآخر). فلو قام كل فرد فى المجتمع

بوظيفته ولم يحمل الآخرين مسؤولية أعماله لما كان هناك من مجال للفشل والهزيمة، بينما ليس هنالك من سبيل للهروب من الفشل والهزيمة المنكرة أمام العدو اذا ما تخلى كل فرد عن مسؤولياته ووظائفه وأوكلها إلى الآخرين من أفراد المجتمع.

العامل الثالث التخاذل بمعنى ترك الآخرين ومشاكلهم دون معونتهم ومساعدتهم، فاذا تعرضت منطقة إلى غارة أو غزوة لم تنجدها سائر المناطق. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى الخطبة ۱۶۶

«أيا الناس! لو لم تتخاذلوا عن نصرة الحق ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقو من قوى عليكم».

۲– حماية الأقليات الدينية

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۳

لعل البعض يتصور أن قضية احترام الأقليات الدينية التى تعيش فى كنف الإسلام وتكفل بحفظ أموالها وأرواحها إنّما هى شعار لا يرقى إلى العمل والتطبيق، إلّاأنّ أدنى نظرة إلى الفقه الإسلامى فى كيفية تعامله مع أهل الذمة وكلمات المعصومين عليهم السلام بما فيها كلام الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة، تكشف بجلاء أنّ الإسلام يرى نفسه السند والدعم الحقيقى لهم ما دامهم لم ينقضوا العهود ويشهروا السلاح ضد الإسلام والمسلمين، وعليه فأموالهم وأرواحهم محترمة ومحفوظة. فقد أعرب الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة عن بالغ حزنه وأسفه لما تعرضت له المرأة اليهودية أو النصرانية التى تعيش كمواطنة فى المجتمع الإسلامى ولم يفرق بينها وبين المرأة المسلمة قط، ثم ذم أهل العراق ووبخهم على ما أبدوه من ضعف وعجز حيال العدو وعدم الدفاع عن هذه النساء.

۳– الغيرة الدينية

المراد بالغيرة الدينية الحساسية تجاه أى خروج عن مسار الحق والعدل وتجاهل الأحكام الشرعية والتعامل بشدة وصرامة مع هذه الحالة بما يتناسب وحجمها والابتعاد عن اللامبالاة، ويفتقر لهذه الغيرة كل من تعامل ببرود مع هذه الامور ولم يبد أية حساسية تجاهها.

وقد صرح القرآن الكريم بخصوص بعض المقاتلين المؤمنين الذين لا يمتلكون المعدات التى تؤهلهم للاشتراك فى المعارك قائلًا «وَلا عَلى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أ لّايَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ»[۱۵۲].

فالآية تشير إلى مسألة تجعل الأفراد الذين لا يمتلكون الوسائل المطلوبة فى القتال وتحول دون التحاقهم بصفوف المقاتلين يتحولون إلى دموع غزيرة؛ القضية لا يمكن تفسيرها سوى بالغيرة الدينية. وقد أشارت الخطبة إلى أحد مظاهر هذه الغيرة، حين قال عليه السلام:

«فلو أن امرأ مسلما مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندى جديراً»

. فالغيرة تشكل أحد العوامل المهمّة من أجل الدفاع عن حريم القوانين الإسلامية وإحياء الأمر بالمعروف

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۴

والنهى عن المنكر. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عن بعض أصحابه قال: إنّ اللَّه بعث ملكين إلى أهل المدينة ليقلباها على أهلها فلما انتهيا إلى المدينة وجدا رجلًا يدعو اللَّه ويتضرع إليه، فقال أحدهما للآخر: أماترى هذا الداعى فقال: قد رأيته ولكن أمضى لما أمرنى به ربى فقال:

ولكنى لا أحدث شيئاً حتى أرجع إلى ربّى، فعاد إلى اللَّه تبارك وتعالى فقال: يا ربّ إنى إنتهيت إلى المدينة فوجدت عبدك فلاناً يدعوك ويتضرع إليك فقال: إمض لما أمرتك فان ذلك رجل لم يتغيّر وجهه غضباً لى قط.[۱۵۳]

ج ج

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۱۰۵

القسم الثالث: الاجتماع على الباطل والفرقهٔ عن الحق

اشارهٔ

«فَيـا عَجَبـاً! عَجَباً- وَاللَّهِ- يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِماعِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ عَلَى باطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى: يُغارُ عَلَيْكُمْ وَلا تُغِيرُونَ وَتُغْزَوْنَ، وَلا تَغْزُونَ وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِى أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَـذِهِ حَمارَّةُ الْقَيْظِ؛ أَمْهِلْنا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ. وَإِذا أَمَرْتُكُم بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِى الشِّتاءِ، قُلْتُمْ: «هَـذِهِ صَبارَّةُ الْقُرِّ أَمْهِلْنا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ! كُلُّ هَذا فِراراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ؛ فَأَنْتُمْ- وَاللَّهِ- مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ!».

الشرح والتفسير

يتناول الإمام عليه السلام بالتحليل العوامل الاخرى لتقهقر أهل الكوفهٔ وتراجعهم إلى جانب ذمهم ولومهم، بما يوقظ ضمائرهم ويدفع بهم باتجاه الصمود بوجه العدو والحؤول دون تسلله إلى البلاد، فقد قال عليه السلام

«فيا عجباً[۱۵۴] عجباً- واللَّه- يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم»

. إنّما يكون التعجب والانـدهاش حيث الامور التى تخرج عن المسار الطبيعى أو تكتنفها العوامل المجهولهٔ أو غير المألوفهٔ؛ الأمر الذى يطالب أنصار الحق ويوازع من إيمانهم القوى بالدفاع والصمود والمقاومهٔ، بينما يقف أتباع الباطل

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۱۰۶

مكتوفى الأيـدى وعـدم الـدفاع عن الحق لافتقارهم للـدوافع التى تؤدى إلى ذلك الدفاع، ومن هنا فاذا شوهد أصحاب الحق يعيشون الفرقـهٔ والاختلاف وضـعف الإرادهٔ، بينما تحكم الوحدهٔ والأخاء أتباع الباطل، فان ذلك مدعاهٔ للذهول والعجب. فإمام أهل العراق هو على بن أبى طالب عليه السـلام الذى نص رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على ولايته إلى جانب مبايعته من قبل أهل المدينهٔ ومكهٔ من المهاجرين والأنصار وسائر المسـلمين من المناطق الإسـلاميهٔ، كما كانت دلائل أحقيته من زهد وعلم وفضـيلهٔ وعدالهٔ واضحهٔ للجميع، بينما كان إمام الشام معاويـهٔ المعروف بطغواه وحبه للجاه والمنصب وسوابقه المشـينهٔ فى الإسـلام والجاهليـهٔ والتى لم تكن خافيهٔ على أحـد، أفليس من العجب أن يهب أهـل الشـام لنصـرهٔ بـاطلهم ويقفون بوجه الحق، وينفرج أهل الحق عن الإمام عليه السـلام فينقضون ميثاقهم وينكثون بيعتهم؟! ومن هنا اشـتد استياء الإمام عليه السـلام عليهم فجعل يذمهم ويلومهم، بعد أن جعلوا أنفسهم فى هذه الحالهٔ المزريهٔ

«فقبحاً لكم وترحاً[۱۵۵] حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويعصى اللَّه وترضون»

. فالواقع يوجز الإمام عليه السـلام ما يـدعوه لذمهم فى أمر واحد يكمن فى الضـعف والتواكل والخذلان إلى الحد الذى يمنح الأعداء الجرأهٔ فى شن الحملات تلو الحملات والغارات تلو الغـارات فيسـفكون دمـاء الأبريـاء، وليس لهؤلاـء من ردود فعـل سوى الصـمت والسكوت تجاه هذه المجازر المروعهٔ!

ثم يتطرق الإمـام عليه السـلام إلى دليـل آخر دعاه لـذم هؤلاء والـذى أدى بهم إلى ذلك الضـعف والـذى يكمن فى التعلل بحر الجو وبرودته التى لا تلعب دوراً فى القتال، فقال عليه السلام:

«فاذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم هذه حمارهٔ[۱۵۶] القيظ[۱۵۷]؛ أمهلنا يسبخ ۱۵۸] عنا الحر. وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء، قلتم: هذه صبارهٔ[۱۵۹] القر، أمهلنا ينسلخ ۱۶۰] عنا البرد؛ كل

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۱۰۷

هذا فراراً من الحر والقر[۱۶۱]، فاذا كنتم من الحر تفرون، فأنتم- واللَّه- من السيف أفر!».
وكأنّ الميدان لا يصلح للقتال إلّافى أيّام الربيع وفى ظل الأرض المخضرة والحشائش النظرة والطيور المغردة والمياه المتدفقة، فيدحر الجند أعدائهم بعصا سحرية دون الحاجة إلى العدة والعدد.
وكأن هؤلاء الجهال قد تناسوا تأريخ الإسلام رغم عدم مرور فترة عليه بحيث زحف النبى صلى الله عليه و آله بصحبه من المدينة إلى تبوك بعد أن قطعوا تلك المسافة الشاسعة خلال الصحراء الجرداء وفى ظل حرارة الشمس المحرقة على تلك الرمضاء ولم يكن لديهم ما يكفى من الماء والغذاء، وهكذا تحملوا سائر الصعاب والمعضلات فى الحروب والغزوات ليقفوا كالليوث أمام الأعداء من خصوم الدعوة، ولو كانوا يأتون ما أتى جيش الكوفة ويتعللون بما تعللوا به لما نمت شجرة الإسلام ولا اخضر لها عوداً، بل لم يكتب النصر لأىجيش فى العالم حين يعيش الجنود حالة من الضعف والوهن والجبن، ولم يكن نصيبهم سوى الفشل والهزيمة والذلة والهوان. والواقع أنّ كلام هؤلاء ليشبه ما قاله الكفار والمنافقون من قبل فى صدر الإسلام «لا تنفروا فى الحر» فرد عليهم القرآن بالقول «قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ»[۱۶۲].
فأهل الكوفة كانوا يريدون بهذه الأعذار الواهية التهرب من مواجهة العدو وقتاله، حيث تسرب إليهم النفاق بفعل ضعف ايمانهم بمبادئ الإسلام وإمامهم على بن أبىطالب عليه السلام.
على كل حال فانّ المجاهدين الحقيقيين الذين يقتحمون الميدان ويخوضون غمار الجهاد ويسطرون الانتصارات إنّما هم اولئك الذين لا- يبالون بمصاعب الطقس والمناخ ولا يكترثون إلى مشاكل الطريق وتحمل العناء فى هذا المجال، وممّا لاشك فيه ان العدو اذا شعر بأنّ خصمه يتحفظ عن القتال بسبب بعض المشاكل الطبيعية من قبيل حرارة الجو وبرودته فانّه سيستغل هذا الأمر كنقطة ضعف ويوظفها لصالحه بشن الحرب أملًا بتحقيق الانتصار.
نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۸

تأمّل: علة هذا الذم

إنّ أدنى نظرة إلى كلام أمير المؤمنين على عليه السلام فى هذه الخطبة تثير السؤال التالى: لم كل هذا الذم من الإمام عليه السلام لأهل الكوفة حتى خاطبهم لاحقاً
«لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم معرفة واللَّه جرت ندماً وأعقبت سدماً، قاتلكم اللَّه لقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وجر عتمونى نغب التهام أنفاساً، وأفسدتم على رأيى ...»
. ولعل أدنى نظرة إلى تأريخ الكوفة وأهلها ونقض المواثيق ونكث البيعة والنفاق والضعف والوهن الذى سادها تفسر لنا فلسفة هذا الذم القاسى والشديد. وكأنّ الإمام عليه السلام سلك السبيل الأخير الذى من شأنه علاج مرضهم العضال حيث لم تعد لهم حساسية تجاه أى شىء، فقد لجأ الإمام عليه السلام إلى هذا الاسلوب لعله يثير ما تبقى لديهم من مشاعر وأحاسيس تجاه عدوهم، وقد أثبتت الدراسات أنّ هذا الاسلوب عملى جداً تجاه بعض الأفراد من الناحية النفسية. فهذه الكلمات فى الواقع تشير إلى مدى اليأس من تلك العناصر الضعيفة الهزيلة التى لم تجد معها النصائح والمواعظ أية فائدة.
بل الأعجب من ذلك أنّ كل هذه الكلمات اللاذعة لم تتمكن من إثارة يقظة وجدانهم، بحيث لم يلتحق به إلّاالنفر القليل حين تجهز للقاء الأعداء، ممّا اضطره إلى دعوة اولئك الأفراد الذين كانوا يقطنون القرى والمناطق المتاخمة لأطراف الفرات ويعبئها للقاء العدو.
ولعل حالة أهل الكوفة تشبه إلى حد بعيد تلك الحالة التى سادت بنى اسرائيل حين حرضهم نبيّهم موسى عليه السلام على قتال عدوهم وتحرير بيت المقدس، فقد ردوا عليه بالقول: «قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبّارِينَ وَ إِنّا لَنْ نَدْخُلَها حَتّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنّا داخِلُونَ ... فَاذهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا ههُنا قاعِدُونَ»[۱۶۳]

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۰۹

القسم الرابع: إدماء القلب

اشارة

«يـا أَشْباهَ الرِّجـالِ وَلا ـ رِجـالَ! حُلُومُ الْأَطْفـالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجـالِ! لَوَدِدْتُ أَنِّى لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً- وَاللَّهِ- جَرَّتْ نَـدَماً، وَأَعْقَبَتْ سَدَماً، قاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِى قَيْحاً وَشَـحَنْتُمْ صَدْرِى غَيْظاً وَجَرَّعْتُمُونِى نُغَبَ التَّهْمامِ أَنْفاساً، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَىَّ رَأْيِى بِالْعِصْـيانِ وَالْخِـذْلانِ حَتَّى لَقَـدْ قالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِىطالِبٍ رَجُلٌ شُـجاعٌ وَلَكِنْ لا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ. لِلَّهِ أَبُوهُمْ! وَهَلْ أَحَـدٌ مِنْهُمْ أَشَـدُّ لَها مِراساً، وَأَقْدَمُ فِيها مَقاماً مِنِّى؟ لَقَدْ نَهَضْتُ فِيها وَما بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَها أَنا ذا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ وَلَكِنْ لا رَأْىَ لِمَنْ لا يُطاعُ!».

الشرح والتفسير

يختتم الإمـام عليه السـلام خطبته بصب جـام غضـبه على أولـئـك الأفـراد الضـعاف الـذين تواكلوا وتقاعسوا عن إداء وظائفهم عله يثير حفيظتهم فيلتفتوا إلى عظم المخاطر التى كانت تتربص بهم، ولاسيما أهل الشام الذين كانوا يشنون عليهم الغارات تلو الغارات دون أن يتورعوا عن سفك دمائهم وانتهاك حرماتهم وسلب أموالهم، حيث بالغ عليه السلام هذه المرة فى ذمهم فخاطبهم قائلًا:

«يا أشباه الرجال ولا رجال»

يامن يعيشون آمال الأطفال فيسرع فيهم الخداع

«حلوم ۱۶۴] الأطفال»

ويامن يحملون عقول ربات الحجال من العرائس اللائى لا يفكرن سوى برغد العيش ووسائل الزينة

«وعقول ربات ۱۶۵] الحجال ۱۶۶]»

فقد وبخهم الإمام عليه السلام فى العبارة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۰

الأولى بعـدم امتلاكهم الشـجاعة والحمية والغيرة والمروءة والرجولة التى كانوا يتمتعون بها ظاهرياً ولم يكن لهم من معانيها شـيئاً على مستوى العمل. ثم اندفع فى ذمهم أكثر ليخاطبهم بقوله:

«لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم معرفة- واللَّه- جرت ندماً وأعقبت سدماً»

. فالتأريـخ يشـهد بأنّ ثمرة علاقة أهل الكوفة والعراق بالإمام عليه السـلام طيلة فترة خلافته لم تكن سوى الهم والغم الذى تمخض عن ضعفهم ونقضـهم العهود وتفرقهم عن الحق وتلبسـهم بالنفـاق والريـاء، فكـان من الطبيعى أن يتمنى الإمـام عليه السـلام عـدم رؤيتهم والتعرف عليهم، حتى دعا عليهم

«قاتلكم اللَّه ۱۶۷] فقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وقد جرعتمونى الهموم غصة بعد غصة، فجعلتمونى غرضاً لسهام الأعداء، حتى ذهبت بهم المذاهب أنى رجل شـجاع، بينما ليست لى من دراية بالحرب «قاتلكم اللَّه لقد ملأتم قلبى قيحاً وشـحنتم صدرى غيظاً وجرعتمونى نغب ۱۶۸] التهمام ۱۶۹] أنفاساً، وأفسـدتم على رأيى بالعصـيان والخذلان حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب»

. عادة ما تعزى الامم والشـعوب ضعفها وتخلفها وفشلها إلى قلّة تدبير زعمائها، بينما قد تكون القضية بالعكس؛ أى أنّ الزعيم شخصية كفوءة بينما تعيش الأمّـة حالة من التخلف الفكرى والثقافى والاجتماعى؛ الأمر الذى يعتبر مأساة حقيقية بالنسـبة للزعيم والقائد الناجح

الـذى يبتلى بمثل هـذه الجماعة المسـلوبة الإرادة، وممّا يؤسف له أنّ مسؤولية النتائج المريرة التى تفرزها طبيعة هذه المسيرة قد يلقيها الناس على عاتق ذلك الزعيم.

ثم يختتم الإمـام عليه السـلام خطبته بـالرد على قريش التىتخرصت بعـدم علم الإمـام عليه السـلام بفنون القتال والحرب رغم شـجاعته وبسالته:

«للَّه ۱۷۰] أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراساً[۱۷۱] وأقدم فيها مقاماً منى»

. فقد اقتحمت

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۱

ميادين الحرب وأنـا ابن العشـرين وهـا أنـا ذا أخوض غمارهـا وقـد نـاهزت الستين من عمرى (وعليه فقـد مارست تجربـة ضـخمة فى الحروب كقائد لمدّة أربعين سنة) ولكن ماذا عسانى أن أفعل وليس هنالك من يطيع

«لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت ۱۷۲] على الستين! ولكن لا رأى لمن لا يطاع».

تأمّلات

۱- الاتباع الطلحاء والقادة الأكفاء

لاشك أنّ معادلات الهزيمة والانتصار ليست عبثية، وأنّ اولئك الذين ينسبون النصر أو الهزيمة إلى بعض الأسباب المجهولة والعوامل الغامضـة من قبيل المصادفة والحظ إنّما يسعون للفرار من الحقائق المريرة والابتعاد عن تحليلها والوقوف على كنهها. وعادة ما تذهب التحليلات إلى أنّ العامل الأصـلى الـذى يكمن وراء النصـر والهزيمـة إنّما يتمثل بقـدرة القيادة وحكمتها فى إدارة شؤون الأمُـة، بينما تكون القضـية معكوسـة فى بعض الحالات، فقـد تتحلى القيادة بالقوة والاقتـدار وارتفاع المعنويـة والاحاطـة بفنون الإدارة والتعامل مع الاحداث؛ الأمر الذى يفيد بما لا يقبل الشك أنّ العنصـر الذى يقف وراء الهزيمة إنّما يتمثل بالاتباع الضعفاء الذين لا يتحلون بالارادة إلى جانب سذاجتهم وقلّة تجربتهم بما يجعل من المتعذر عليهم مواكبة قيادتهم فى ادراك الأهداف فضلًا عن تطبيقها فى الواقع، وهنا تتلاشـى قدرة الزعيم الكفوء فى ظل فساد وانحراف مثل هؤلاء الأتباع؛ الأمر الذى يؤرق فكر القائد ويقض مضجعه. وهذا هو السر فى تلك الكلمات الشديـدة التى أطلقها الإمام عليه السـلام بحق أهل الكوفة، فقد بلغت الفرقة والشـقاق والنفاق حداً جعل حتى أصـحاب الإمام عليه السـلام- فضـلًا عن أعـدائه- من اولئك الذين شـهدوا بطولات الإمام عليه السـلام وصولاته فى الغزوات الإسـلامية يتهمونه بعدم العلم بفنون القتال! فما كان منه عليه السلام إلّاأن ذكرهم بتأريخه المشرق ومواقفه المشهورة التى تنكفى فيها

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۲

الأبطال؛ لقـد نهضت بأمر القتال ولم أبلغ العشـرين وقـد ذرفت الآن على الستين، فكيف اتهم بعـدم العلم بالحرب؟ نعم قد بليت باتباع بعيدين عن الانضباط من أهل الهوى والطيش الذين يتصرفون على ضوء ما تمليه عليهم أهوائهم، وعليه فليست هنالك من نتيجة سوى الهزيمـة والفشل. وأفضل شاهـد على ذلك النتيجة المريرة لمعركة صـفين والخدعة التى عمد إليها معاوية وعمرو بن العاص فى حمل المصـاحف على أسنـة الرمـاح، والأنكى من كل ذلك قضـية التحكيم وترشـيح أبى موسـى الأشـعرى وفرضه على الإمام عليه السـلام. فيكـاد يجمـع الجميـع اليوم بمـا فيهم المحققون وغيرهم أنّ النصـر أصـبح قـاب قوسـين أو أدنى فى صـفين لولاـ حالـة النفـاق والفرقة والعصـيان التى دبت فى جيش الإمام عليه السـلام ولما وقعت تلكالأحـداث التى سود بها الأمويون وجه التأريـخ ومن هنا تعتبر موقعة صفين من أقسـى الأحداث التى شـهدها التأريخ الإسـلامى وبالذات سـيرة الإمام على عليه السـلام. وليت ذلك الأمر اقتصـر على زمان

على عليه السلام، بل مازال هنالك اليوم الكثير من الجهال الذين يشككون فى السياسة الحربية لأمير المؤمنين عليه السلام وكيفية إدارة شؤون البلاد، وما هذا إلّادليل صارخ على عمق مظلومية الإمام عليه السلام، الإمام عليه السلام الذى جعل التأريخ يدين بالفضل لذلك العهد العظيم الذى عهده لعامله على مصر مالك الأشتر فى كيفية إدارة شؤون البلاد، فما زالت مبادئه وأسسه قائمة فاعلة رغم مرور أربعة عشر قرناً عليه، ليكون ذلك العهد مصداقاً لقوله سبحانه «كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ* تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها»[۱۷۳]. فقد أذعن العدو والصديق لعمق الأصول والتعاليم التى أوردها الإمام عليه السلام فى نهج البلاغة والتى تمثل عمق سياسة الإمام عليه السلام، مع ذلك ينبرى هذا وذاك من الحين إلى الآخر لاتهام الإمام عليه السلام. وقد أشار الإمام عليه السلام فى عدة مواضع إلى هذه الحقيقة المريرة المتمثلة بالغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق. فقد خطبهم عليه السلام بعد حادثة الأنبار وغارت أهل الشام قائلًا:

«واللّه ما تكفوننى أنفسكم فكيف تكفوننى غيركم إن كانت الرعايا قبلى لتشكوا حيف رعاتها واننى اليوم لأشكو حيف رعيتى كأننى المقود وهم القادة أو الموزوع وهم الوزعة»[۱۷۴]

. كما قال عليه السلام فى موضع آخر:

«اريد أن أداوى بكم وأنتم دائى»

، ثم شكاهم عليه السلام بالقول:

«اللّهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى وكلت النزعة بأشطان

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۳

الركى! أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه وقرأوا القرآن فأحكموه وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها»[۱۷۵].

۲- الإجابة على سؤال

لقد أثار بعض شرّاح نهج البلاغة سؤالًا وهو: هل كانت تلك السياسة التى انتهجها الإمام عليه السلام ازاء الأمّة (بتلك الشدة والحدة من الذم واللوم) صائبة؟ ألم تكن تدعو تلك الكلمات الأفراد إلى النفرة والشعور بالغربة والعزلة؟ ويبدو هذا الإشكال أعمق وأرسخ إذا أخذنا بنظر الاعتبار مدى صبر الإمام عليه السلام وحلمه وعفوه وصفحه، فكيف ارتضى الإمام عليه السلام مخاطبتهم بتلك الكلمات؟ ويتضح الجواب على هذا السؤال من خلال ما ذكرناه سابقاً من أن ذلك الاسلوب كان يمثل الوسيلة الأخيرة التى من شأنها إثارة عواطف الأمّة وتفعيل حركتها ونشاطها واخراجها من حالة الضعف والوهن التى كانت تسيطر عليها، ولعل ذلك الاسلوب يشبه ما تعارف لدى عوام الناس حين تعجز عن اصلاح أحدهم فتقول لابدّ من العمل بما يثير غيرته ويوقظ ضميره. وعليه فان تلك الكلمات تكشف بدورها عن بلاغة الإمام عليه السلام فى ايراده الكلام الذى ينطبق ومقتضى الحال. وهنا لا ينبغى أن ننسى بأنّ الإمام عليه السلام عمد إلى ذلك الاسلوب بعد أن مارس كافة الطرق من قبيل حثهم على الجهاد وتذكيرهم بالقيم والمبادئ، واطرائهم والثناء عليهم- وعليه يبدو من المستبعد رأى بعض شرّاح نهج البلاغة[۱۷۶]، من أن الإمام عليه السلام أورد ذلك الكلام على ضوء

«لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزة ولا تفرقهم عنى وحشة»

؛ لأنّ الكثرة المقتدرة فى الحروب والمعارك مطلوبة ولا يسع أحد بمفرده أن يهب القتال جيش جرار طمعاً بتحقيق النصر.

۳- سؤال آخر

لقد قال الإمام علیه السلام فی الخطبة المذکورة

«لقد نهضت فیها وما بلغت العشرین، وها أنا ذا

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۱۱۴

قد ذرفت علی الستین» فیقتدح إلی الذهن هذا السؤال: کان لعلی علیه السلام علی الأقل ثلاث وعشرین عاماً حین الهجرة، واننا لنعلم بأنّ المعارک الإسلامیة وقعت بعد الهجرة، فکیف ینسجم هذا الأمر وما ذکره الإمام علیه السلام ونقول فی الجواب صحیح أنّ الحروب والمعارک وقعت فعلیاً بعد الهجرة، إلّاأنّ السنوات الأخیرة من الدعوة فی مکة قد شهدت تصعیداً فی مجابهة النبی صلی الله علیه و آله بما لا یقل شیئاً عن إعلان حالة الحرب. ونموذج ذلک محاصرة بیت النبی صلی الله علیه و آله من قبل کافة رجالات قریش حین بات الإمام علیه السلام علی فراشه لینجو رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بنفسه، کما صرحت بعض التواریخ بأنّ المشرکین کانوا قد أعدوا قبل ذلک بعض الخطط لقتل النبی صلی الله علیه و آله؛ الأمر الذی کان یثیر قلق أبی طالب. حتی أورد صاحب البحار أنّ صبیة المشرکین کانوا یرمون رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بالحجارة حین یخرج من بیته فی مکة، فکان علی علیه السلام یدافع عنه وینقض علیهم فیولون هاربین ۱۷۷].

فالواقع تشیر مثل هذه الأحداث وما شابهها أنّ العهد المکی کان یعیش حالة الحرب رغم عدم نشوبها بصورة فعلیة حیث کان المسلمون یشهدون أذی الکفار باستمرار، الأمر الذی کان یتطلب بعض التدبیر والتفکیر من أجل کسب المعرکة.

ولعل قوله علیه السلام:

«نهضت فیها وما بلغت العشرین»

- الذی ورد فی الخطبة- إشارة إلی التأهب للحرب لا لنشوب الحرب.

۴- الخاتمة المریرة للواقعة

ذکر بعض شراح نهج البلاغة أن علیاً علیه السلام حین اخبر عن غارة أهل الشام وقتلهم لعامله فخطب الناس.

ثم سکت عنهم رَجَاء أن یجیبوه أو یتکلم منهم متکلم، فلم ینبس أحدٌ منهم بکلمة، فلما رأی صْیَتَهم نزل، وخرج یمشی راجلًا حتی أتی النُّخَیْلة، والناس یمشون خَلْفَه حتی أحاط به قوم من أشرافهم، فقالوا: ارجع یا أمیرَالمؤمنین ونحن نکفیک، فقال: ما تَکْفوننی ولا تْفُون

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۱۱۵

أنفسکم. فلم یزالوا به حتی صرفوه إلی منزله، فرجع وهو اجم کئیب، ودعا سعیدبن قیس الهمْدانیّ، فبعثه من النُخَیلة فی ثمانیة آلاف، وذلک أنّه أخبر أنّ القوم جاءوا فی جمع کثیف.

فخرج سعیدبن قیس علی شاطئ الفُرات فی طلب سفیان‌بن عوف؛ حتی إذا بلغ. عانات، سرّح أمامه هانئ‌بن الخطاب الهْمدانیّ، فاتبع آثارهم حتی دخل أدانِیَ أرض قِنّسرین وقد فاتوه، فانصرف.

وأتاه قوم یعتذرون، فقام حُجْربن عدیّ الکندیّ وسعیدبن قیس الهَمْدَانیّ، فقالا: لا یسوءک اللَّه یا أمیرالمؤمنین، مُرْنَا بأمرک نتبعه، فواللَّه ما نَعظم جَزَعاً علی أموالنا إن نفدت، ولا علی عشائرنا إن قُتِلتْ فی طاعتک. فقال: تجهَّزوا للمسیر إلی عدوّنا.

فلما دخل منزله ودخل علیه وجوه أصحابه، قال لهم: أشیروا علیّ برجل صَلِیب ناصح، یحشر الناس من السواد. فقال له: سعیدبن قیس: یا أمیرالمؤمنین، أشیر علیک بالناصح الأریب الشجاع الصلیب، معقِل‌بن قیس التمیمی، قال: نعم.

ثم دعاه فوجهه، فسار فلم یقدم حتی أصیب أمیرالمؤمنین علیه‌السلام ۱۷۸].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۷

الخطبة[۱۷۹] الثامنة والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وهو فصل من الخطبة التى «الحمد لله غير مقنوط من رحمة»

وفيه احد عشر تنبيها

نظرة إلى الخطبة

هـذه من الخطب المعروفة لأمير المؤمنين على عليه السـلام، وهى كما ذهب الشـيخ المفيـد فى الإرشاد من خطبه الخالدة التى حفظها أرباب الفهم والعقل، أو كما قال السـيد الرضـى: إنّه لو كان كلام يأخـذ بالأعناق إلى الزهد فى الدنيا ويضـطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار. فقد أشار الإمام عليه السـلام فى هذه الخطبة القصـيرة- والتى يراها بعض المحققين جزءاً من الخطبة الخامسة والعشـرين- إلى عشـرة جوانب مهمّة بشأن الآخرة والزهد فى الدنيا وعدم الاغترار بنعم الـدنيا وزبرجهـا والاسـتعداد والتـأهب للـدار الآخرة، والتحـذير من الأخطار التى تهـدد سـعادة الإنسان- فالحق أنّ الخطبـة من الخطب العظيمـة التى تسوق الإنسـان إلى الزهـد فى الـدنيا وعـدم الإـكتراث لزخرفهـا والانتبـاه إلى الآخرة، وقـد انطوت على عبارات واضـحة صريحة توقظ الإنسان من غفلته ورقدته.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۱۹

القسم الأول: الدنيا والآخرة عند الإمام على عليه السلام

اشارة

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الـدُّنْيا أَدْبَرَتْ، وَآذَنَتْ بِوَدَاع وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَأَشْـرَفَتْ بِاطِّلاع، أَلا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْـمارَ وَغَداً السِّباقَ وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغايَةُ النَّارُ؛ أَ فَلاـ تائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ أَلا عامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْم بُؤْسِهِ! أَلا وَإِنَّكُمْ فِى أَيَّام أَمَل مِنْ وَرائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِى أَيَّام أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ. فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ وَلَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ. وَمَنْ قَصَّرَ فِى أَيَّام أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ وَضَرَّهُ أَجَلُهُ».

الشرح والتفسير

أشـرنا سابقـاً إلى أنّ الإمام عليه السـلام تطرق إلى عشـرة امور مهمّـة فى هـذه الخطبـة الغرّاء لـدفع الناس باتجاه الزهـد وعـدم الاغترار بزخـارف الـدنيا؛ فقـد ورد فى الأخبـار- كمـا أثبتت ذلـك التجربـة طيلـة التأريـخ- أنّ حبّ الـدنيا رأس كـل خطيئـة، وعليه فانّ عـدم الإكتراث لهذه الدنيا والزهد فيها يمثل الخطوة الاولى المهمة لإصلاح النفوس ومواجهة الفساد الفردى والاجتماعى.

فقد استهل الإمام عليه السلام كلامه بتصدر الدنيا ووداعها لأهلها

«أما بعد فان الدنيا قد أدبرت، وآذنت [۱۸۰] بوداع»

. وهنا يطرح هـذا السؤال: كيف آذنت الـدنيا بالأدبار والوداع؟ هناك الشواهـد والأدلة الحيّة على هذا الأمر ومن ذلك قبور الماضـين التى تضم بقايا رفات وعظام الملوك والسلاطين والحكام والأمراء والكهول والفتيان والصبيان، والأظهر المحدودبة للكهول

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۰

واشتعال الرأس شيباً والأمراض الفتاكة التى تودى بحياة الأفراد، حقاً لقد أصيبت الدنيا بالصمت والسكوت، إلّاأنّه مازالت تتحدث بلسان العبرة! وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى احدى خطبه

«فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين وانزلوا فيها غير نازلين، فكأنهم لم يكونوا للدنيا عماراً وكأن الآخرة لم تزل لهم داراً».[۱۸۱]

ثم أشار عليه السلام فى النقطة الثانية إلى موضوع إقبال الآخرة

«وإن الآخرة قد أقبلت، وأشرفت باطلاع»[۱۸۲]

. إنّ الموت يعد المنزل الأول من منازل الآخرة والذى يبتلع أبناء الدنيا، وهذا بدوره من علامات إقبال الآخرة. ومن هنا فقد أوصى الإمام عليه السلام الجميع بالاستعداد إلى الآخرة ومغادرة الدنيا والتزود لتلك الدار المحفوفة بالخطر قبل فوات الأوان. وذكر عليه السلام فى النقطة الثالثة بالرابطة القائمة بين دارى الدنيا والآخرة فقال

«ألا وإن اليوم المضمار[۱۸۳] وغداالسباق ۱۸۴] والسبقة الجنّة والغاية النار»

فقد شبه عليه السلام بهذه العبارة الرائعة الإنسان بالخيال الذى يخوض السباق، فمن الواضح أنّ مثل هذا الإنسان وعلى غرار الخيال يحتاج إلى التمارين والتدريبات المسبقة، حيث تصطلح العرب بالمضمار على الموضع أو الزمان الذى يضمر فيه الحيوان، بل يطلق على الحيوان الذى ينحف إثر التمارين لا على كل حيوان كما صرح الراغب فى المفردات. آنذاك يبدأ السباق الذى يتضمن الفوز والخسارة وتسلم الجوائز من قبل الفائزين. فالإمام عليه السلام يرى الدنيا ميدان التأهب والاستعداد والآخرة ميدان السباق والجوائز، وسوف تكون جائزة الفائزين الجنّة ونصيب الخاسرين النار. ومن البديهى أنّ أحداً لا يسعه التمرين فى ميدان السباق، بل عليه أن يتمرن ويعد نفسه قبل السباق؛ وهكذا الحال فى المحشر،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۱

فليس هنالك من مجال للحسنات والتوبة من السيئات وتهذيب النفوس وتطهيرها، ولابدّ من إعداد هذه الامور فى الحياة الدنيا. وعليه فلا ينبغى أن ينسى الأفراد هذه الحقيقة وهى إن عدم التزود فى الدار الدنيا والتأهب الروحى والمعنوى فانّ النتيجة النهائية للسباق فى الآخرة لن تكون سوى الفشل والخيبة والخسران التى تعنى هناك نار جهنم. والجدير بالذكر هنا أنّ الفائزين هناك يتفاوتون فى الدرجات، فهناك الفائز الأول والثانى والثالث وهكذا؛ الأمر الذى يتجسد بوضوح فى عالم الآخرة ودرجاتها. فيتضح ممّا تقدم أنّ السباق بمعنى المسابقة والسبقة بمعنى الهدف والغاية التى ينبغى للمتسابق أن يصل إليها، والسبقة على وزن لقمة بمعنى الجائزة وقد علق المرحوم السيد الرضى (ره)- فى ذيل هذه الخطبة كما سيأتى- على تعبير الإمام عليه السلام:

«والسبقة الجنّة والغاية النار»

فقال: لم يقل عليه السلام السبقة النار كما قال السبقة الجنّة؛ لأنّ الاستباق إنّما يكون إلى أمر محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنّة وليس هذا العنى موجوداً فى النار، فخالف الإمام عليه السلام بين اللفظين لاختلاف المعنيين. ولا يبدو هنالك من تعارض بين كلامه عليه السلام والآية الشريفة «سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ»[۱۸۵]؛ لأنّ «سابقوا» لا تعنى السباق فى هذا العالم، بل تعنى التأهب من أجل سباق الآخرة، والدليل على ذلك أنّها جعلت الجنّة هى الهدف النهائى لهذه المسابقة، بعبارة اخرى فان السباق هنا نحو الخيرات والصالحات، أمّا السباق هناك نحو الجنّة التى تمثل حصيلة الأعمال. ثم أشار عليه السلام فى النقطة الرابعة إلى واحدة من أهم أمتعة السفر الأخروى الخطير وهى التوبة فقال:

«أفلا تائب من خطيئته قبل منّيته ۱۸۶]، ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه»

فهذه التعبيرات- التى تهدف إلى إثارة العارفين والعمل على تشجيعهم إلى جانب تنبيه الغافلين وإيقاظهم- هى فى الواقع تمثل النتيجة المنطقية للعبارات السابقة، وذلك إذا كانت الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإنّ اليوم المضمار

وغداً السباق والسبقة الجنّة والغاية النار فلم لا يتوب أهل الحجى والعقل وينيبوا إلى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۲

اللَّه ويغتنموا الفرصة بالأعمال الصالحة ويستعدوا لسفر الآخرة؟ ولعل هذا هو الذى أشار له الإمام عليه السلام فى خطبة اخرى

«فاعملوا وأنتم فى نفس البقاء، والصحف منشورة والتوبة مبسوطة»[۱۸۷].

أما تعبيره عليه السلام عن يوم القيامة بيوم البؤس فلما يكتنفه من أحداث مهولة وعذاب شديد وهلع وخوف عظيم. وقد أشارت أغب الآيات القرآنية لذلك العذاب لتحذر الإنسان وتحثه على اغتنام الفرصة والتزود لذلك اليوم العصيب الملىء بالمخاطر التى لا ينجى منها سوى العمل الصالح. أمّا فى النقطة الخامسة فقد أشار عليه السلام إلى الفرص التى تمر مرّ السحاب والتى يقود عدم اغتنامها إلى الندم

«ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل، فمن عمل فى أيّام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضرره أجله»

ويخسر بالمقابل من يقصر فى العمل، كما أنّ أجله يصبح عليه وبال

«ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضرّه أجله»

. وتعبيره عن الحياة الدنيا بأيّام الأمل لهو تعبير لطيف يشير إلى قصر وإيجابية عالم الدنيا؛ لأنّ دقائق عمر الإنسان تمثل أعظم فرصة من أجل بلوغ السعادة والفوز بالفلاح الاخروى الخالد.

فلعل التوبة فى لحظة من اللحظات تطفىء بحاراً من نيران جهنم كانت تتربص بهذا الإنسان، ولعل العمل الصالح الخالص فى ساعة من عمره ينتهى به إلى جنان الخلود والرضوان.

تأمّلات

۱- الدنيا والآخرة فى الأحاديث

يرى الدين الإسلامى الحنيف وجميع الأديان السماوية أنّ الدنيا دار طارئة متبدلة جعلت ليتزود منها الإنسان ويكسب فيها السمو والكمال والمعرفة التى تحلق بها إلى عالم الخلود، ومن هنا فإنّ اللَّه يبتلى العباد فيها بأنواع البلاء والامتحان من خلال العبادات والطاعات وترك الشهوات وتحمل المصائب والمشكلات التى من شأنها تربية الإنسان وصقل شخصيته

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۳

وتهيئته لعالم الآخرة المفعم بالخير والبركة. وقد تظافرت الروايات التى تعرضت لبيان حقيقة الدنيا بعدة تعبيرات مختلفة رائعة، ومن ذلك الخطبة التى نحن بصددها والتى شبّه فيها الإمام عليه السلام الدنيا بالدورة التدريبية التى يستعد فيها الإنسان لسباق الآخرة، الذى يحصل فيه الغالب على الجنّة والخاسر النار. وقد جاء فى الحديث أن

«الدنيا مزرعة الآخرة»[۱۸۸]

ومن الواضح أنّ المزرعة ليست مكاناً للحياة والاستقرار بل هى مكان للتزود من أجل مكان آخر، وقد عبّر عنها بالمتجر ودار الموعظة والمصلى، كما أورد ذلك الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة فقال

«إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها ... ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء اللَّه ومصلى ملائكة اللَّه ومهبط وحى اللَّه ومتجر أولياء اللَّه»[۱۸۹]

. وروى عن الإمام السجاد عليه السلام أنّ المسيح عليه السلام قال للحواريين:

«إنّما الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها»[۱۹۰]

. كما عبر عنها الإمام على عليه السلام بأنّها

«دار ممر»[۱۹۱] و «دار مجاز»[۱۹۲]

. وأخيراً فقد وصفها الإمام الهادى عليه السلام بالسوق الذى يتضمن الربح والخسارة

«الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون»[۱۹۳]

. والخلاصة فانّ كل هذه العبارة ترشد إلى عدم النظر إلى الدنيا على أنّها هى الهدف النهائى، بل هى وسيلة لادخار العمل الصالح وكسب المعارف من أجل الظفر بالدار الآخرة. ولعل البعض يرى أنّ هذا الموضوع ساذج، إلّاأنّ الواقع هو أنّ أهم مسألة مصيرية فى حياة الإنسان فى أنّه كيف يتعامل مع الإمكانات المادية التى زود بها فى هذه الحياة وكيف ينظر إلى هذه الدار، هل يراها وسيلة وأداة من أجل الوصول إلى هدف معيّن، أم يراها هى الهدف النهائى وليس وراءها شىء. والواقع أنّ تأكيد الإمام عليه السلام فى بداية الخطبة على أن الدنيا ميدان الإستعداد لسباق الآخرة إنما يشكل الدعامة الأساسية الراسخة لسائر المواعظ المهمة التى وردت فى هذه الخطبة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۴

۲- الخسارة العظمى

النقطة التى تعرضت لها الخطبة والتى ينبغى الالتفات إليها، إنّما تكمن فى عدم إمكانية تدارك الخسران الذى يطيل الإنسان فى هذه الحياة وفقدانه للفرص التى كان من شأنها أن تجعله يفوز بالدار الآخرة، والواقع إنّ السباق الذى ينتظر الإنسان إنّما يقام لمرة واحدة فقط، فهناك ميدان للتمرين وآخر للسياق ليس للتكرار إليه من سبيل، ومن خسر فليس أمامه من فرصة لتدارك خسارته، ومن هنا قال الإمام عليه السلام:

«ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله»

. أمّا الندم فلا يداوى جرحاً ولا يصلح فاسداً هناك فليصرخ‌الصارخون: «رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّى أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ»[۱۹۴] فيأتى الجواب «كَلّا».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۵

القسم الثانى: الرحيل الوشيك

اشارة

«أَلا فاعْمَلُوا فِى الرَّغْبَةِ كَما تَعْمَلُونَ فِى الرَّهْبَةِ! أَلا وَإِنّى لَمْ أَرَ كالْجَنَّةِ نامَ طالِبُها، وَلا كالنّارِ نامَ هارِبُها، أَلا وَإِنَّهُ مَنْ لا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْباطِلُ، وَمَنْ لا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى، يَجُرُّ بِهِ الضَّلالُ إِلَى الرَّدَى. أَلا وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزّادِ وَإِنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتانِ: اتِّباعُ الْهَوَى، وَطُولُ الْأَمَلِ، فَتَزَوَّدُوا فِى الدُّنْيا مِنَ الدُّنْيا ما تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى مسألة مهمّة ربّما غفل عنها أغلب الناس:

«ألا فاعملوا فى الرغبة كما تعملون فى الرهبة»

فعبادة اللَّه وطاعته لا تعنى الفزع إليه فى الشدة والبلاء والتولى عنه فى اليسر والرخاء؛ ولو كان الأمر كذلك لكان مشركوا الجاهلية من خلص العباد، فقد وصفهم القرآن الكريم بالقول: «فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ»[۱۹۵] ثم خاطبهم فى آية اخرى «وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلّا إِيّاهُ فَلَمّا نَجّاكُمْ إِلى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الإِنْسانُ كَفُوراً»[۱۹۶]. والواقع أنّ العبرة ليست فى الاقبال على اللَّه عند الفزع، بل العبرة أن يقبل العبد عليه حين الرخاء والرفاه والشعور بالقوة والاقتدار، فما كان مع اللَّه فى هذه الظروف كان اللَّه معه فى الظروف العصيبة.

فعلامة الإيمان الخالص أن يتوجه العبد إلى اللَّه ويذكره على كل حال فى العافية والسقم والفتوة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۶

والكهولة والفقر والغنى والهزيمة والانتصار والحرية والسجن وما إلى ذلك. ومن هنا نرى الأنبياء والأوصياء والأولياء لا ينفكون فى حال من الأحوال عن التضرع إلى اللَّه والتوجه إليه. فالمتتبع لسيرة الإمام على عليه السلام لا يرى فى عبادته من تفاوت بين جلوسه فى البيت حين زحزحت عنه الخلافة ونهوضه بالأمر وإدارته لشؤون البلاد الإسلامية، فالزهد والتهجد وإعانة الضعفاء والفقراء وطلاق الدنيا إلى غير رجعة كان من المعانى الواضحة فى عبادة الإمام عليه السلام: ثم قال عليه السلام:

«ألا وإنّى لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها»

. لقد رأينا عدّة أفراد من الذين يعيشون الأرق ليالى حين يهمون ببعض الأسفار القريبة التى تدر عليهم بعض الأرباح والفوائد، فكيف ينام طالب الجنّة الباقية- النعمة التى لا تفوقها نعمة أو الخائف من نار جهنم التى لا يتصور عذابها وأن رؤيته غير سماعه- ولا يكترث لهذه الامور؟! ولعل ذلك يعزى إلى ضعف ايمان الفرد بالعالم الآخر، أو إلى سكر النعم والمنافع التى يتمتع بها فى حياته، ومهما كان السبب فانّ الغفلة عن الآخرة لمن الظواهر المأساوية الاليمة التى ينبغى للإنسان التوقف عندها ومعالجتها. ولاشك أنّ من وظائف أئمة الدين وزعماء المسلمين ايقاظ الناس من غفلتهم وترسيخ دعائم ايمانهم ولفت أنظارهم إلى الدار الآخرة وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا والذوبان فيها. وفى النقطة الثامنة يشير الإمام عليه السلام إلى مسألة ذات صلة بهذا الموضوع فيقول:

«ألا وإنّه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى»

. طبعاً لا- يتضح عمق هذا الكلام مالم نقف على التعريف الصحيح للحق والباطل. فالحق عبارة عن الواقعيات، سواء كان هذا الحق تكوينياً أم تشريعياً. ويراد بالحق التكوينى واقعيات عالم الوجود، ويقابل ذلك الباطل المتمثل بالخيال والسراب الذى لا واقع له ولا وجود سوى فى عالم التصور والوهم. أما الحق التشريعى فيتمثل بالقوانين والتعاليم الإلهية التى شرعت من أجل الفرد أو مجموعة الأفراد على ضوء المصالح والكفاءات الذاتية أو الاكتسابية، ويقابله الباطل الذى يتجسد بعرقلة القوانين والتمرد عليها باسم القانون وتضييع العدالة وسلب الحريات وذبحها بمرأى ومسمع من الناس. ومن البديهى أنّ من يولى ظهره للحق سواء على مستوى التشريع أو التكوين فانّه يقع فى حبائل الباطل من قبل الوهم والخيال والسراب الذى يحسبه الظمآن ماء؛ الأمر الذى لا يرتقى بالإنسان إلى الشىء،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۲۷

والواقعيات هى التى تبلغ بالإنسان الهدف لا الوهم والخيال الذى لا يجر على الإنسان سوى الخذلان والخسران. ولعل الإنسان يستطيع عن طريق الباطل اغفال الآخرين مدّة من الزمان، إلّاأنّ مصيره المحتوم إنّما يؤول إلى البؤس والشقاء لا محالة فى خاتمة المطاف وعليه فان قوله عليه السلام:

«ألا وإنّه من لا ينفعه الحق، يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى»

إنّما يمثل حقيقة واقعية واضحة. طبعاً صحيح أن الاقرار بالحق واقتفاء آثاره إنّما يقترن غالباً بتحمل الشدائد المريرة، إلّاأنّ هذه المرارة تبدو كمرارة الدواء التى تجعل السقيم يتماثل للشفاء، ولا يجنى من تلك المرارة سوى السلامة والصحة والعافية من المرض الذى ربّما يؤدى بصاحبه إلى الموت. ويتضح ممّا تقدم أنّ الحق والباطل ليسا من قبيل الوجودات الاصطناعية والامور الاعتبارية؛ فالحق فى

عـالم التكوين هو ذلـك الوجود العينى وفى عـالم التشـريع هو عبارة عن الواجبات والمحظورات التى تسـتند إلى المصالـح والمفاسـد والتى تمثل بدورها واقعيات عينيهٔ، وسنتناول هذا الموضوع بالشرح فى الأبحاث القادمهٔ.

على كل حال فانّ الإمام عليه السـلام هدف بهذه العبارة إلى إفهام الآخرين- علاوة على تنبيههم إلى أصل كلى له بالغ الأثر فى مصير الناس- بأنّهم اذا لم يلتزموا بوصاياه المنسـجمهٔ والحق والعدل فانّهم سـيقعون فى مخالب الظلم والجور والاضـطهاد وإن أضـرار الباطل ستجتاح حياتهم؛ الأمر الذى شـهدوه فى حياتهم ومسيرتهم. ثم تعرض الإمام عليه السلام- فى النقطهٔ التاسعهٔ- إلى موضوع مهم يحكم حياهٔ البشريهٔ شاءت أم أبت

«ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن [۱۹۷] ودللتم على الزاد»

. والأمر بالظعن هو قانون الموت الذى يحكم حياة الناس، فالأطفال يسيرون نحو الشباب، والشباب يتجهون نحو الكهولهٔ وهذه الأخيرهٔ إنّمـا تنتهى بـالموت. فهو قـانون شامـل جـارى لاـ يعرف الاسـتثناء والشواذ، كما أنّه قانون لا يقوى أحـد على تجاوزه مهما كانت قوته وقدرته وعلمه ومعرفته فهو القانون الذى شرعته يد القدرة الإلهيهٔ لسمو الإنسانيهٔ وتكاملها وقد تعرضت أغلب آيات كتاب التشريع.

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۱۲۸

لهـذا الأمر التكوينى كالآيـهٔ: «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ»[۱۹۸] والآيـهٔ: «أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ»[۱۹۹]. وقد خوطب بهذا الأمر رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله الذى يمثل أشـرف كائنات عالم الخلقهٔ «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ»[۲۰۰] والآيهٔ: «كُلُّ شَىءٍ هالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ»[۲۰۱].

كما يحتمل أن يكون المراد بقوله عليه السلام

«أمرتم بالظعن»

الأمر بالاستعداد للرحيل من الدنيا، كما ورد ذلك فى الخطبهٔ ۲۰۴

«تجهزوا رحمكم اللَّه فقد نودى فيكم بالرحيل»[۲۰۲]

. وأمّـا الأمـر بـالتجهز والتزود فـانّه يمثل رسالـهٔ جميع الأنبياء إلى البشـريهٔ وتنبيهها إلى الطريق الخطير الـذى ينتظرها؛ وهو طريق طويل يشـمل الفاصلهٔ بين الـدنيا والآـخرهٔ ولاـ يمكن السـير عليه دون حمـل الزاد، ولاـ معنى للزاد هنـا سوى الإيمان والتقوى والورع والعمل الصالـح «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوى [۲۰۳] ولاـ ينفع فى الآخرهٔ سوى القلب السـليم المفعم بالإيمان وحبّ اللَّه «يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ* إِلّا مَنْ أَتى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»[۲۰۴].

وعليه فلا ينبغى أن يلتفت سالكوا هـذا الطريق إلى الـدنيا وما فيها وينخدعوا بزخارفها، بل عليهم الهم بالعمل الصالح الذى لا يبلغ بهم الهدف المنشود سواه «المالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَياةِ الدُّنْيا وَالباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلًا»[۲۰۵].

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۱۲۹

وأخيراً بعـد أن لفت انتباه الأمـهٔ إلى الآخرهٔ وزهـدها فى الـدنيا وأوصاها بالتزود لتلك الـدار وحـذرها من ذلك الطريق الخطير الـذى ينتهى سـالكه إلى السـعادهٔ والقرب الإلـهى إذا سـار عليه بعمله الصالـح وورعه وتقـواه، عـاد عليه السـلام ليحـذر من عقبـتين خطيرتين تصدان الإنسان عن السعادهٔ والفلاح

«وإن أخوف ما أخاف عليكم إثنتان: إتباع الهوى، وطول الأمل»

وهو المعنى الذى ورد فى الخطبهٔ ۴۲ بعد أن تناوله الإمام عليه السلام بشىء من التوضيح فقال:

«أيّها النـاس وإن أخوف مـا أخاف عليكم إثنان: إتباع الهوى وطول الأمل، فأما إتباع الهوى فيصـد عن الحق، وأما طول الأمل فينسـى الآخرهٔ»

. وتفيـد الإحاديث النبويـهٔ والأخبار والروايات أنّ هذه التعاليم قد احتذاها أمير المؤمنين عليه السـلام من معلمه الأول الأكرم صـلى الله

عليه و آله؛ فقد وردت هذه المعانى فى بحار الأنوار نقلًا عن النبى صلى الله عليه و آله ۲۰۶].

والواقع هو أنّ هذين المرضين يعدان من أعظم عوامل الذنوب والمعاصى، لأنّ اتباع الهوى لا يعرف معنى للحدود والقيود، فاذا سيطر على الإنسان أعمى بصره وبصيرته وأصم سمعه بحيث لا يطيق سماع الحق من النبى صلى الله عليه و آله والإمام المعصوم عليه السلام ولا تعد لديه القدرة على رؤية الحقائق التى تحيط به، وعليه فهو يعيش حياته الدنيا كالصم البكم العمى الذين لا يفقهون؛ الأمر الذى يجعله عرضة للسقوط فى الهاوية. أمّا طول الأمل فانّه يزين الدنيا بما ينسى الآخرة ويقتصر بهمة الإنسان على الدنيا التى يرى فيها مقامه الأخير وهدفه النهائى. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بقوله

«تزودوا فى الدنيا من الدنيا ما تحرزون ۲۰۷] به أنفسكم غداً»

نعم فهناك سفر طويل على الأبواب، سفر يتطلب المتاع والزاد الكثير، وعليه فينبغى للعاقل أن يلتفت إلى نفسه ويجهزها بما يجعلها تجتاز ذلك السفر الطويل قبل فوات الأوان، ويبتعد عن الأخطار والمطبات التى يمكنها عرقلة هذه السفر، فيطويه بكل إيمان وثبات ليصل إلى هدفه المنشود.

تأمّلان

١- خير الزاد

لا نرانا نبالغ إذا شبهنا الناس بالمسافرين الذين يغادرون منطقة صغيرة ملوثة نحو عالم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۰

كبير مفعم بالطهر والخير والعطاء، بل هذا هو السفر الواقعى والحقيقى الذى ينقل الإنسان من هذا العالم السفلى والمتهافت للدنيا إلى عالم الآخرة العلوى والسامى الخالد، كما أنّ لوازم السفر التى يهيئها المسافر، هى الأخرى لابدّ أن توفر فى هذا السفر الشاق من قبيل الزاد والمتاع والمركب ومعرفة نقطة الانطلاق والغاية ومطبات الطريق والمخاطر التى تعترض السبيل والتى ينبغى دراسة كل واحة منها بصورة مستقلة- فقد صرح القرآن الكريم بأنّ زاد هذا السفر إنّما يكمن فى الورع والتقوى فى اجتناب المعاصى وطاعة أوامر اللَّه والإتيان بالأعمال الصالحة.

وهو المعنى الذى أكده أمير المؤمنين على عليه السلام كراراً فى نهج البلاغة، ومن ذلك ماورد فى الخطبة ۱۸۳ حيث قال عليه السلام:

«وأنتم بنو سبيل على سفر من دار ليست بداركم وقد أُوذنتم منها بالارتحال وامرتم فيها بالزاد»

وهن يبرز هذا السؤال: إنّما يستفاد من الزاد والمتاع طيلة السفر لا فى المقصد والغاية، والحال إنّ الورع والتقوى تستفاد فى الآخرة وتشكل مفتاح أبواب الجنان، فكيف اعتبرت التقوى هى الزاد والمتاع؟ وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من القول بأنّ مبدأ هذا السفر طويل يبتدأ من لحظة الموت وسكراته ويستمر حتى عالم البرزخ وما يتخلله من مواقف القيامة ومنازل السؤال والحساب والصراط- والتى تتسم بتعددها وهول مطلعها- حتى تنتهى بالجنان. وممّا لاشك فيه أنّ التقوى هى زاد فى عالم البرزخ كما أنّها الزاد والمتاع فى مواقف القيامة ومنازلها قبل الدخول إلى الجنّة- نعم فانّ زاد التقوى هو الذى يجعل الإنسان يجتاز هذه المنازل الخطيرة بسلام ويقوده إلى منزله الأخير المتمثل بالجنة.

جدير بالذكر أنّ الآية الشريفة «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» جعلت التقوى هى المعيار الرئيسى لكرامة الإنسان وقيمته؛ الأمر الذى يؤكد المعنى المذكور فى أنّ السبيل الوحيد للنجاة غداً إنّما يكمن فى التقوى والتى عبّر عنه أحياناً بالزاد وأحياناً اخرى بصفتها تمثل

ملاک الكرامة الإنسانية. وهذا ما وضحته بعض العبارات الواردة فی الخطبة ۲۰۴ من نهج البلاغة

«وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد فانّ أمامكم عقبة كؤودا ومنازل مخوفة مهولة لابدّ من الورود عليها والوقوف عندها»

. نسأل اللَّه سبحانه أن يوفقنا لتوفير هذا الزاد القيم قبل فوات الأوان، فلا نرد ذلک السفر بأيدی خالية، والحق أنّها خالية مقارنة بما عليه تلک الدار.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۱

۲- اتباع الهوى وطول الأمل من أعدى أعداء الإنسان

اشارة

لابدّ من التعامل بصورة جادة مع التحذير الذی اختتمت به الخطبة بشأن الأخطار الكبرى التی يفرزها إتباع الهوى وطول الأمل؛ فهما مكمن الخطر والمأساة التی تصيب الإنسان. فاتباع الهوى يعد أعظم عقبة تعترض سبيل سعادة الإنسان. فالاستسلام المطلق للشهوات والأهواء النفسية يعد العدو اللدود لسعادة البشرية. القرآن الكريم من جانبه حذر حتى الأنبياء من هذا العدو الفتاک، ومنهم نبی اللَّه داود عليه السلام الذی قال بشأنه «وَلا تَتَّبِعِ الهَوى فَيُضِلَّکَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»[۲۰۸] كما صور هوى النفس فی موضع آخر بالصنم الذی يعبد من دون اللَّه «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ»[۲۰۹]. والحق أن إتباع الهوى ليعمی البصيرة ويصم السمع ويختم على العقل والفكر ويحول دون الإنسان وتمييز بديهيات الحياة، فهل هنالک من خطر أعظم وأفدح منه؟! ومن هنا اقتصر القرآن بوعده الجنّة لُاولئک الذين يخشون اللَّه ويسيطرون على أهوائهم «وَأَمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الهَوى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوى [۲۱۰].

طول الأمل هو الآخر من أسوأ وأخطر العقبات التی تعترض سبيل السعادة الإنسانية؛ فقد دلت التجارب على مدى التأريخ أنّ آمال الإنسان الخيالية لا تقف عند حدود، فلا يزداد نحوها إلّاتعطشاً. ومن الطبيعی أنّ مثل هذه الآمال تشل حركة الإنسان وتسلبه جميع طاقاته الفكرية والبدنية ولا تبقی له شيئاً يشده نحو الآخرة. فاننا نعرف بعض الأفراد الذين عاشوا هذه الآمال الكاذبة حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم دون أن يلتفتوا حتى لتربية فلذات أكبادهم. ومن عجائب هذه الآمال، أنّ الإنسان كلما تقدم أكثر كانت هذه الآمال أكذب بحيث تضاعف غرور الإنسان وتصده عن الواقع. وهذا هو الوضع السائد لدى الكفّار والذی أشار إليه القرآن فی خطابه لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله

«ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۲

يَعْلَمُونَ»[۲۱۱]، المعنى الذی أشار إليه الإمام عليه السلام فی قصار كلماته فی نهج البلاغة

«من أطال الأمل أساء العمل»[۲۱۲].

ويبدو أن تلک الآمال متعذرة النيل من خلال الأسباب المشروعة، وهی لا تتيسر إلّامن خلال خلط الحلال بالحرام وهضم حقوق الآخرين ونسيان اللَّه والآخرة. ومن هنا حذر الإمام عليه السلام فی الخطبة ۸۶ من نهج البلاغة أولئک الذين ينشدون السعادة بالقول

«واعلموا أنّ الأمل يسهی العقل وينسی الذكر فأكذبوا الأمل فانه غرور وصاحبه مغرور»

ويبدو قصر الأمل على درجة من الأهمية بحيث اعتبره الإمام عليه السلام الركن الأصلی للزهد، وهذا ما أورده فی الخطبة ۸۱ من نهج البلاغة

«أيها الناس، الزهادة قصر الأمل والشكر عند المنعم والتورع عند المحارم»

. وآمال الإنسان كانت ومازالت أبعد وأطول من عمر الإنسان وإمكاناته وقدراته؛ الأمر الذى لا يجعل أهل الهوى وطلاب الدنيا يحققون تلك الآمال ويظفروا بها أبداً، وغالباً ما يودعون الدنيا بمنتهى الانزجار والاستياء فى لحظات نزع أرواحهم. وبالطبع لا ينبغى الغفلة عن الأمل بشكل الدافع الأساس لسعى الإنسان وجهده وانطلاقته فى هذه الحياة، وعليه فالأمل حسن وليس بقبيح ولا يمكن مواصلة الحياة من دونه، إلّاأنّ المذموم إساءته وطوله وبعده عن الواقع واستناده إلى الوهم والخيال. ومن هنا ورد فى الحديث «الأمل رحمة لامتى ولولا الأمل ما رضعت والدة ولدها ولا غرس غارس شجراً»[۲۱۳].

وبناءً على ما تقدم فان وظيفة أساتذة الأخلاق خطيرة ثقيلة؛ وذلك لأنّهم لابدّ أن يضيئوا نور الأمل فى قلوب الناس من جهة ومن جهة اخرى ينبغى أن يبقوا عليه متوازناً بعيداً عن الإفراط. والآمال المنطقية هى تلك التى تنسجم ومتطلبات الإنسان وقدراته الواقعية بحيث لا تبعده عن هدفه المنشود. وبالطبع فانّ الإسلام لا يعارض التخطيط والبرمجة من أجل المستقبل والتطلع إلى الغد ولا سيما بالنسبة للأنشطة الاجتماعية التى تعود بالنفع على المجتمع الإسلامى وتضع حداً للتبعية لأعداء الإسلام، فانّ مثل هذه الأنشطة ليست مذمومة فحسب،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۳

بل تعتبر عبادة والمذموم فى الإسلام أنّ الإنسان يغرق فى هالة من الآمال الفارغة التى تنسى الآخرة، وبالتالى لا يظفر الإنسان بها مهما جند طاقته وإمكاناته.

وفى الحياة الفردية مطلوب هو التفكير فى العاقبة والذى إصطلحت عليه الروايات بالحزم.

والمذموم فى الإسلام أن يغرق الإنسان فى الأمل حتى ينسى الآخرة، ويفنى كل طاقته وقواه فى ذلك الأمل الذى لن يبلغه قط.

تكملة

قال السيد الشرف (رض) وأقول: إنه لو كان كلام يأخذ بالاعناق إلى الزهد فى الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار ومن أعجبه قوله عليه السلام: «ألا وإنَّ الْيوم المضمار وغداً السِّباق، والسِّبقة الجنّة والغاية النّار»، فإن فيه- مع فخامةِ اللفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل، وواقع التشبيه- سرّاً عجيباً ومعنى لطيفاً، وهو قوله عليه السلام: «والسّبقة الجنّة، والغاية النّار» فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين ولم يقل: «السّبقة النّار». كما قال، «السّبقة الجنّة»؛ لأن الاستباق انما يكون إلى امر محبوبٍ وغرض مطلوبٍ وهذه صفة الجنّة وليس هذا المعنى موجوداً فى النار، نعوذ باللّه منها ...!

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۵

الخطبة[۲۱۴] التاسعة والعشرون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

بعد غارة الضحاك بين قيس- صاحب معاوية- على الحاج بعد قصة الحكمين، وفيها يستنهض أصحابه لما حدث فى الأطراف.

نظرة إلى الخطبة

كما ورد فى أسناد الخطبة فان بعض المحققين يرون أن هذه الخطبة جزء من الخطبة السابعة والعشرين؛ ويبدو أنّها كذلك، لأنّ مضامينها واحدة تفيد مدى ضعف أهل الكوفة والعراق تجاه حملات معاوية وأهل الشام، وكأنّهم لم يشعروا بما كان يدور حولهم

والجرائم البشعة التى كـان يرتكبهـا الشـاميون. فقـد جعل الإمام عليه السـلام يمطرهم بوابل الـذم والتشـنيع لعلهم يفيقون إلى أنفسـهم وينتبهوا إلى الأخطار التى كانت محدقة بهم. فقد قال ابن أبى الحديد:

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۶

كـانت غارة الضّحاك‌بن قيس بعـد الحكَمَيْن، قبل قتال النّهْرَوَان، وذلك أنّ معاويـةَ لَمّا بلغه أنّ عليّاً عليه‌السـلام بعـد واقعـة الحكمين تحمّل إليه مُقبلًا، هاله ذلك، فخرَج من دِمَشْق معسكراً، وبعث إلى كُور الشام، فصاح بها: إنّ عليّاً قد سار إليكم. وكتب إليهم نسخة وا حدة، فقرِئَتْ على الناس:

ج‌ج

فعنـد ذلك دعا معاويـة الضـحّاك بن قيس الفِهْرىّ، وقال له: سرْ حتى تمرَّ بناحيـة الكوفـة وترتفعَ عنها ما اسـتطعت، فمَنْ وجـدْتَه من الأعراب فى طاعـة علىّ عليه‌السـلام فَأغِرْ عليه، وإن وجدتَ له مَسْلَحَةً أو خيلًا فأغِرْ عليها، وإذا أصـبحتَ فى بلدة فأمْس فى اخرى، ولا تُقيمنّ لخيلٍ بلغك أنّها فقد سُرِّحت إليك لتلْقاها فتقاتلها. فسرّحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف.

فأقبلَ الضّحاك، فنهب الأموال وقتل مَنْ لِقِىَ من الأعراب، حتى مر بالثّعْلَبيّـة فأغار على الحاجّ، فأخـذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقىَ عمرو بن عُمَيس بـن مسـعود الـذُّهْلىّ، وهـو ابـن أخ عبـداللّه بـن مسـعود، صـاحب رسـول‌اللّه صـلى اللّه عليـه وآله، فقتله فى طريـق الحـاجّ عند القُطْقُطَانة.

وقتلَ معه ناساً من أصحابه.

استصرخ أميرالمؤمنين عليه‌السلام الناسَ عُقيبَ غارة الضحك بن قيس الفهرىّ على أطراف أعماله، فتقاعدُوا عنه، فخطبهم.[۲۱۵]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۷

القسم الأول: عوامل ضعف أهل الكوفة

«أَيُّها النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْواؤُهُمْ! كَلامُكُمْ يُوهِى الصُّمَّ الصِّلابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ‌فِيكُمُ الْأَعْداءَ! تَقُولُونَ فِى الْمَجالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِى حَيَادِ! مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعاكُمْ، وَلا اسْتَراحَ قَلْبُ مَنْ قاساكُمْ، أَعالِيلُ بِأَضالِيلَ وَسَأَلْتُمُونِى التَّطْوِيلَ، دِفَاعَ ذِى الدَّيْنِ الْمَطُولِ».

الشرح والتفسير

ذكرنـا سابقاً أنّ الخطبـة القيت فى ظروف عصـيبة جـدّاً، حيث شـنت الغارات تلو الغارات على أهل العراق، جعلت الإمام عليه السـلام يسـعى جاهداً لا عداد الناس، إلّاأنّ الضـعف والوهن كان قد بلغ مبلغه منهم بحيث لم تعد لهم من قوة تذكر، فلم يكن أمام الإمام عليه السـلام من سبيـل سوى اللجوء إلى آخر حربـة من أجـل تعبئتهم واسـتنفار طاقـاتهم وهى توبيخهم وذمهم علهم يلتفتون إلى أنفسـهم ويبصروا الأخطار التى كانت تتربص بهم.

فقـد اسـتهل الإمام عليه السـلام خطبته بالتعرض إلى العامل الرئيسـى الـذى يقف وراء ذلك الضـعف والذلة والهوان والذى يعزى إلى عدم الانسجام بين الأقوال والأفعال الذى يستند إلى ضعف الاعتقاد الباطنى بالأهداف المقدسة النبيلة فقال عليه السلام:

«أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم»

، أمّا كلامهم فقد كان شديد يخترق الصخور، أمّا أعمالهم فقد كانت هزيلة لا تنسجم وذلك الكلام

«كلامكم يوهى ۲۱۶] الصم ۲۱۷] الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء»

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۸

أجـل إنّ ذلكم وهوانكم إنّما أفرزه شـقاقكم وفرقتكم. إنّكم متحـدون ظاهراً، مختلفون باطناً، وهـذا ما أدى بكم إلى الاكتفاء بالأقوال

الطنانة الرنانة بدلًا من الأفعال والأعمال؛ الأمر الذى يؤدى إلى تآكل المجتمعات وانهيارها إذا ما عاشت هذه الحالة «تقولون فى المجالس: كيت وكيت ۲۱۸]، فاذا جاء القتال قلتم: حيدى حياد[۲۱۹]».

فالواقع هذه بعض الصفات البارزة للمنافقين والأفراد الضعاف النفس المسلوبى الإرادة الذين يكثرون الحديث فى المجالس الخاصة والعامة ويستعرضون معانى الشجاعة والبسالة والعزم والإرادة الراسخة، وكأن قدرة هؤلاء لا تتجاوز هذه الأحاديث، فاذا وردوا ميدان القتال استحوذ عليهم الخوف والهلع وكأنّهم يصرخون، إليك عنّا أيّها القتال فارقنا وابتعد، بل هم مرعبون من ميدان الحرب والقتال ويختلقون مختلف الأعذار للفرار من الميدان. والعبارة «حيدى حياد» من مادة حيد بمعنى الميل والانحراف عن الشيء وتقابلها العبارة «فيحى فياح» بمعنى الرغبة فى الشيء. ولعل المخاطب بالعبارة «حيدى حياد» الجنود والمقاتلون الذين تدعوهم عناصر النفاق والانهزام إلى اعتزال الميدان، وعلى العكس من ذلك دعوة عناصر القوة والاقتدار إلى القتال بقولها «فيحى فياح». كما يحتمل أن يكون المراد قولهم للمعركة ابتعدى عنا؛ الأمر الذى يكشف عمق خوفهم من قتال العدو، كما يمكن أن يكون المراد أنّهم كانوا يخاطبون أنفسهم بهذه العبارة بغية الاسراع فى الابتعاد والاعتزال. وما أشبه هذه الطائفة المنافقة بمنافقى عصر الرسالة الذين صورتهم سورة الأحزاب: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ المُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالقـائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ البَأْسَ إِلّا قَلِيلًا* أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۳۹

أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذ لِكَ عَلى اللَّهِ يَسِيراً»[۲۲۰]. لقد كانت هناك عدّة معدودة على هذه الشاكلة على عهد النبى صلى الله عليه و آله، غير أنّه من المؤسف أنّ الأكثرية الساحقة لأهل الكوفة- التى كانت تمثل جيش الإمام عليه السلام- كانت كذلك. ثم قال عليه السلام:

نفحات الولاية ؛ ج۲ ؛ ص۱۳۹

«ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم»

يبدون أنّ هذه العبارة تشكل رداً على أولئك الذين يشكلون على مثل هذه الخطب فى أنّ الإمام عليه السلام لم يكتف بالموعظة ولا يمارس الضغوط من أجل حشدهم للجهاد؛ الأمر المتعارف لدى الحكام فى كافة أرجاء المعمورة؟ فالإمام عليه السلام يقول: لو تركتكم وحالكم أحراراً ودعوتكم للجهاد لم تلبوا دعوتى، ولو شددت عليكم فى هذه الدعوة فأنتم كذلك، وما ذلك منكم بعجيب فأنتم أفراد ضعاف النفس والإرادة ولستم إلّاإلباً لأعدائكم على أوليائكم. وقد أثبت التأريخ أن هؤلاء الأفراد أصبحوا جنوداً مجندة لبنى أمية ومن كان على شاكلة ابن زياد والحجاج إثر خشيتهم من التهديدات التى تطيل أموالهم وأعراضهم، ولكن ليس لحكام العدل ولا سيما على عليه السلام من اتباع هذا الاسلوب فى تعبئة الأفراد. ثم قال عليه السلام

«أعاليل بأضاليل ۲۲۱]»

كل ذلك قعوداً عن الجهاد ودفعاً بى إلى تأخيره، كالمدين الذى يناشد الدائن تمديد الأجل

«وسألتمونى التطويل دفاع ذى الدين المطول»

نعم هذا هو حال الأفراد الضعاف من أهل المزاعم والإدعاءات دون الأفعال، ليس لهم من هم سوى خلق الأعذار والتشبث بالذرائع من أجل التهرب من المسؤولية، القرآن من جانبه صور حالة المنافقين على عهد النبى صلى الله عليه و آله الذين كانوا يحاولون بشتى الطرق التملص من خوض القتال فعزى ذلك إلى حبهم للدنيا وإيثارها على الآخرة «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثّاقَلْتُمْ إِلى الأَرضِ أَرَضِيتُمْ بِالحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرَةِ فَما مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا فِى الآخِرَةِ إِلّا قَلِيلٌ».[۲۲۲]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۰

هنالك سؤال يطرح نفسه وهو: لم كل هذا الضعف الذى ساد أهل الكوفة مع وجود ذلك الإمام العادل والحكيم المعروف والمجرب فى ساحات الوغى، فى حين كان أهل الشام أكثر قوة وفاعلية منهم والحال كان حاكمهم معاوية؟ ويبدو أنّ الجواب على هذا السؤال كما أشرنا سابقاً يكمن فى الآلية الاجتماعية التى كانت عليها الناس آنذاك. فالكوفة لم تكن تتمتع بسابقة تأريخية تذكر، بل كانت منطقة حديثة ضمت أقواماً مختلفة ذات ثقافات متنوعة، عاشت حالة من التنافس الظاهرى والباطنى، خلافاً لأهل الشام الذين كانوا يتمتعون بالوحدة واللحمة. أضف إلى ذلك فانّ أغلب خصوم الدعوة من منافقى المدينة وسائر المناطق كانوا قد اتجهوا صوب الكوفة وأخذوا يمارسون دعاياتهم المغرضة التى تهدف إلى شق الصفوف وزرع بذور الفرقة والاختلاف فى صفوف أهل الكوفة، إلى جانب العمل على إضعافهم فى مجابهة العدو. من جانب آخر فان الفتّوحات الإسلامية آنذاك قد جرت ثروات طائلة، ولا يخفى أن طبيعة الثروة إنّما تختزن الدعة والرفاه والعافية؛ الطبيعة التى لا تنسجم وروح القتال والجهاد.

ومن هنا كان أهل الكوفة يقتنصون الأعذار التى تمكنهم من أداء وظيفتهم الجهادية حتى فى أحلك الظروف التى شنت عليهم الغارات وجرعوا فيها غصص الذل والهوان من قبل بنى أمية وجيوش الشام. نعم إنّ الأمّة كانت تلهث وراء الحكام الذين عبثوا ببيت المال وأغدقوا مافيه على الرعية، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام مستعداً للتفريط بصاع من بيت مال المسلمين لأقرب المقربين كائناً من كان. وهذه هى العلة الاخرى التى ساقها أمير المؤمنين فى كشفه النقاب عن روحية الأمّة

«وإنّى لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ولكنى لا أرى صلاحكم بافساد نفسى»[۲۲۳].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۱

القسم الثانى

اشارة

«لا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ وَلا يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ! أَيَّ دارٍ بَعْدَ دارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَىِّ إِمامٍ بَعْدِى تُقاتِلُونَ؟ الْمَغْرُورُ- وَاللَّهِ- مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فازَ بِكُمْ، فَقَدْ فازَ- وَاللَّهِ- بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ ناصِلٍ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى ركن مهم فى الحياة الإنسانية فقال

«لا يمنع الضيم ۲۲۴] الذليل، ولا يدرك الحق إلّابالجد»

ما أجدر أن تكتب هذه العبارة بماء الذهب وتتلى صباح مساء فى أفنية مستضعفى العالم حتى تصبح جزءاً من ثقافتهم وترسخ فى أعماقهم. نعم إن الطغاة جرعوا الأذلاء والعجزة صنوف العذاب والظلم والاضطهاد ولم ينصفوهم ويمنحوهم حقوقهم، فالحق يؤخذ بالقوة إستناداً لمعانى العمل والسعى الدؤوب والاثرة وحمل السلاح وخوض غمار القتال، فالطغاة الجبابرة لا يفهمون سوى لغة الحديد والنار ولابدّ من مجابهتهم بالقوة. ويبدو أنّ طبيعة العالم كذلك فى أن سبيل بلوغ الأهداف العليا المادية والمعنوية إنّما عبد بالمطبات والعقبات الكؤود، ولا يظفر بهذه الأهداف من لم يقاوم هذه العقبات. ثم يقطع الإمام عليه السلام كافة الأعذار على هؤلاء فيخاطبهم ماذا تنتظرون، وعن أى دار تدافعون، ومع من تقاتلون وأنا بين أظهركم

«أى دار بعد داركم تمنعون ومع أى إمام بعدى تقاتلون؟»

. نعم لن يسعكم الدفاع عن أى دار طالما تخاذلتم فى الدفاع عن داركم بصفتها دار الإسلام، وإذا لم تلتحقوا بى فى القتال

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۲

فلن يسعكم القتال مع أى أحد بعدى. وعليه فليس أمامكم سوى الأسر والعبودية للعدو فيسلبوكم الإرادة والاختيار- فالواقع هو أنّ

الإمـام عليه السـلام أراد حثهم على القتال من خلال بعض المعانى التى تثير فى نفوسـهم الحميـة والغيرة، فالوطن لا يسـلم دون الـدفاع عنه، وإن كانت لهم أدنى رابطة بإمامهم فهم مطالبون بالقتال فما عسـى أن يكون الإمام من بعده والذى يسعهم القتال معه. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى عدم إمكانية خوض القتال بمثل هذه العناصر الضعيفة الهزيلة التى فقدت مقومات المقاومة والثبات

«المغرور- واللَّه- من غررتموه»[۲۲۵].

فالمحتـال الخـادع قـد يتلاعب ببعض ممتلكات الناس ويمـدّ يـده إلى بعض حاجاتهم، أما أنتم فقـد سـلبتمونى كل شـىء وقـد وليتم ظهوركم للعدل والطهر والتقوى والعزة والرفعة فضيعتم حقوق المسلمين ولاسيما المستضعفين والمحرومين. ثم قال عليه السلام:

«ومن فاز بكم، فقد فاز- واللَّه- بالسهم الأخيب»[۲۲۶]

. إشارة إلى أنّ مساعدتكم ونصرتكم ليست بشىء، ومن يعتمد عليكم كمن يشترك فى اقتراح لا تنطوى نتيجته سوى على الخسران. فالإمام عليه السلام يرى فى‌نصرة أهل الكوفة الهزيمة الفشل وقد شبهها تشبيه رائع فى أنّ الفوز بهم كالفوز بالسهم الأخيب الخاسر. ثم أورد شبهاً آخر فقال عليه السلام:

«ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل»

فى إشارة إلى أنّ أهل الكوفـة فاقدون لكافة مقومات الهجوم على العدو من قبيل قوة الإيمان التقوى والشـجاعة، وقد فقدوا كافة القيم إثر تعلقهم بالحياة الدنيا والاغترار بزخارفها وزبرجها.

تأمّلان

۱- الحق يؤخذ ولا يُعطى

ما نفهمه من قوله عليه السلام

«لا يدرك الحق إلّابالجد»

أنّ الحق يؤخـذ ولا يعطى؛ أى لا يمكن التطلع إلى الحصول على الحق فى ظل الحكومات الغاشـمة التى تعتمد اسـلوب القوة وتمارس الظلم والاضطهاد بحق الطبقات المحرومة والمستضعفة؛ ولا غرو فأساس قوتهم وقدرتهم إنّما

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۳

تكمن فى غصبهم لحقوق الآخرين، وعليه فلا تعنى إعادة هذه الحقوق المغتصبة سوى تجريدهم من هذه القوة؛ الأمر الذى لن يحدث قط. وهنا يحث الإمام عليه السـلام كافة المحرومين والمستضـعفين على الوحدة ورص الصـفوف لاسـتعادة حقوقهم السـليبة من الظلمة والطواغيت وأنّهم غـالبون لا ـ محالـة، فالطغـاة ليسوا مسـتعدين للتضـحية، بينما يضـحى المستضـعفون بالغالى والنفيس من أجل إحقاق حقوقهم. طبعاً ملئت الـدنيا اليوم بالشـعارات التى تتبنى حقوق الإنسان وتطالب بإعادة حقوق المحرومين، غير أنّ التجربة أثبتت بالأدلة القاطعـة أن هذه الشـعارات لاتعد كونها مصائد تهدف اغفال الطبقات المسـحوقة والمعدمة والاستسـلام إلى ارادة الأقوياء؛ الأمر الذى يثبت أنّ الحق يؤخـذ ولا يعطى. فالمؤمنون لا يسـعهم الوقوف مكتوفى الأيـدى حيال الظالمين الذين يتلاعبون بمقدراتهم. وعليهم أن يتعلموا الدروس والعبر التى لقّنها الإمام الحسـين عليه السـلام البشرية جمعاء فى الصبر والتضحية والفداء، فما زالت صرخاته تدوى فى الاسماع

«ألا ـ وإنّ الـدعى ابن الـدعى قـد تركنى بين السـلة والذلـة! وهيهات له ذلك! هيهات منى الذلـة! أبى اللَّه لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحدود طهرت وحجور طابت، أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[۲۲۷]

. كما أكـد القرآن الكريم على جانب الصبر والصـمود والمقاومة لدى المؤمنين، ومن ذلك الآية ۲۱۴ من سورة البقرة «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْساءُ وَالضَّرّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ». وهى الحقيقة التى نلمسها بوضوح فى كافة الغزوات الإسلامية من قبيل بدر وأحد والأحزاب وتبوك وحنين، التى كان ينتصر فيها المسلمون بسلاح الإيمان والصبر، صحيح أنّ النصر من عند اللَّه، إلّا أنّ الامداد الغيبى والعناية الإلهية كانت مكملة للأسباب الظاهرية والعدة والعدد التى كان عليها المسلمون. فهذا أحد القوانين التأريخية الثابتة، فلا يقتصر على صحب النبى صلى الله عليه و آله والإمام الحسين عليه السلام، كما لايرتبط بالأمس واليوم، بل يشمل المستقبل كالماضى على حد سواء.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۴

۲- الدفاع عن الوطن

لقد لجأ الإمام على عليه السلام إلى مختلف الأساليب من أجل إثارة مشاعر أهل الكوفة وتعبئتهم لقتال العدو، ومن ذلك تأكيده على مسألة الدفاع عن الوطن

«أى دار بعد داركم تمنعون»

؟ فى إشارة واضحة إلى علاقة كل فرد بوطنه وأنّه يهب للدفاع عن هذا الوطن إذا تعرض للخطر مهما كانت المدرسة والفكرة التى يؤمن بها وينتمى إليها، إلّاأنّ المؤسف له أنّ هذه الروح هى الاخرى قد ماتت فيهم. وهنا يبرز هذا السؤال: هل حرمة الوطن فى الإسلام بصفته يمثل دار الإسلام أم هناك شيء آخر؟ أى البلد الإسلامى يكتسب حرمته كونه بلداً إسلامياً، أم هناك حرمة ذاتية لكل بلد بحيث تتضاعف هذه الحرمة لو أصبح جزءاً من دار الإسلام؟ يمكن العثور على أجوبة هذه الاسئلة فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية؛ الأمر الذى يؤكده العقل أيضاً. فقد توالت الآيات التى ذهبت إلى أنّ الاخراج من الوطن إنّما يضاد القيم الإنسانية؛ الأمر الذى يعنى حرمة الوطن الذاتية، وهذا ما نلمسه بوضوح فى الآيات القرآنية الثامنة والتاسعة من سورة الممتحنة «لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ* إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ» فقد اعتبرت الآيتين الكريمتين الاخراج من الوطن بمثابة المقاتلة فى الدين، الأمر الذى يؤكد قيمة الوطن كما صرحت بذلك الآية ۲۴۶ من سورة البقرة على لسان بنى اسرائيل «قالُوا وَما لَنا أ لّانُقاتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا» فهى تدل على أنّ دافعهم الجهادى إلى جانب حفظ الدين ينطوى على انقاذ الوطن، وقد أقر نبيّهم هذا الدافع دون أن يعترض عليه، ونوكل الحديث فى الآيات الاخرى الواردة بهذا المجال إلى محلها.

رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان شديد التأثر اثر هجرته من مكة، طبعاً صحيح أنّ مكة كانت تمثل قيمة دينية كبيرة، إلّاأنّها كانت تعنى إلى جانب ذلك بالنسبة للنبى صلى الله عليه و آله وطنه ومسقط رأسه، ومن هنا خفف عنه القرآن بقوله «إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ»[۲۲۸].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۵

وورد فى الحديث عن على عليه السلام:

«عمرت البلدان بحب الاوطان»[۲۲۹]

وقال أيضاً

«من كرم المرء بكائه على ما مضى من زمانه وحنينه إلى أوطانه»[۲۳۰].

وجاء فى الحديث المعروف

«حبّ الوطن من الإيمان»[۲۳۱].

فالـذى نخلص إليه أنّ حبّ الوطن والتعلق به يستند إلى جـذور قرآنية ونبوية إلى جانب تأييد العقل والمنطق. الا ان هذا لا يعنى تعلق الفرد بوطنه بصورة مطلقة بحيث لا يتركه طلب العلم والتكامل ونيل المنافع المعنوية والقيم الإلهية ومن هنا ورد الحديث عن على عليه السلام:

«ليس بلد بأحق بك من بلد، خير البلاد ما حملك»[۲۳۲]

. وأخيراً فان الوطن يكتسب قيمة مضاعفة إذا ما انضمت إليه الجوانب المعنوية علاوة على الجوانب المادية، فيصبح دار الإسلام، فيهب الفرد بكل ما أوتى من قوة للدفاع عنه والذود عن كيانه.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۷

القسم الثالث: اليأس من القوم

اشارة

«أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ لا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلا أَطْمَعُ فِى نَصْرِكُمْ، وَلا أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ. ما بالُكُمْ؟ ما دَواؤُكُمْ؟ ما طِبُّكُمْ؟ الْقَوْمُ رِجالٌ أَمْثالُكُمْ أَقَوْلًا بِغَيْرِ عِلْمٍ؟

وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ؟! وَطَمَعاً فِى غَيْرِ حَقٍّ؟»

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السـلام هذه الخطبة- التى تعدّ من الخطب الأليمة للإمام عليه السـلام بمعاودة ذم اولئك القوم الذين ماتت أرواحهم علهم يفيقون قليلًا فيعبئوا أنفسـهم ويسـتغلوا إمكاناتهم ويهبوا للقاء عـدّوهم فيريحوا الامّـة الإسـلامية من شـر أهل الشام الـذين يمثلون حثالات زمان الجاهلية، فقد قال عليه السلام:

«اصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع فى نصركم، ولا أوعد العدو بكم».

نعم إنّ الإدارة الناجعـة تتطلب ثقـة متبادلـة بين الامّـة والقائـد، وإنّ ثقة القائد بالامّة والعمل على تشـجيعها وغض الطرف عن أخطائها وتذكيرها بنقاط قوتها من شأنه أن امال القائد وأحلامه قد تتبدد من جراد الامّة التى تعيش الخواء الروحى والضعف والتشتت والتمزق والجهل بحيث لا يعد للتشـجيع والثقة من دور فى إثاوتها وحشد طاقاتها، بحيث يسـتفعل مرضها بما يجعل من الصعقة الاسلوب الامثل للشقاء.

- فالعبارة وإن كانت تصور الأوضاع المزرية لأهل الكوفة، إلّاأنّها تشـير إلى مدى عمق المشاكل التى إستنزفت أميرالمؤمنين على عليه السلام فى ذلك الزمان، فقد كان محقاً فى اعلانه عدم الوثوق بهم، فقد خالفوا كراراً وعودهم ونقضوا محارم عهودهم ونكثوا بيعتهم. لم يكونوا يحسنون سوى الكلام فى المجالس وإطلاق الشعارات الرنانة والكلمات

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۴۸

الحساسة، فاذا دقت ساعة القتال ولوا زحفاً إلى مخادعهم وهربروا هرب الشاة من الذئب.

ثم قال عليه السلام:

«ما بالكم؟ مادواؤكم؟ ماطبكم؟ القوم رجال أمثالكم».

أو تعتقدون أنّ أهل الشام خلقوا من غير طينتكم، أم لهم بقية جسمية وروحية تختلف عنكم؟ كلا.

اللّهم الافارق واحد بينكما هو الاخلاق والمعنويات.

فهم يعملون ماذا يلزمهم من أجل القتال، إلّاأنكم لستم كـذلك رعتم النعمهٔ العظيمهٔ التى من اللّه بها عليكم بان جعل لكم إماماً عادلًا مقتدراً ... لقد أرعبتكم إمكاناتهم حتى انتهى بكم ذلك إلى الذل والهوان.

يا للاسف أن يبتلى زعيم مثلى برعيهٔ مثلكم.

نعم دواؤهم كان فيهم كما ورد ذلك فى الشعر الذى يتسب إلى الإمام عليه السلام:

دواؤك فيك وما تبصرو داؤك منك وما تشعر

ثم يختتم عليه السلام خطبته بالقول

«أقولًا بغير علم؟ وغفلهٔ من غير ورع؟ وطمعا فى غير حق؟».

أجل هذه هى العناصر التى تقف وراء بؤسكم وتعاستكم، فأنتم ترسلون الكلام على عواهته دون أن تستندوا إلى علم أو معرفته، ثم وليتم ظهوركم للورع والتقوى وانهمكتم فى الدنيا وغفلتم عن الآخرهٔ، وأخيرا فانّكم تحلمون بالنصر دون أن تعدوا له عدّته.

هـذه هى العوامـل الثلاث (القول دون العمل والجهل المشوب بعـدم التقوى والأمل بالنصـر دون إعـداد مقـدماته) التى تهـدد بالفشـل والهزيمهٔ كل أمّهٔ وقوم.

أسباب الهزيمهٔ والفشل

لاشك أن جيش الإمام عليه السـلام وبفضل زعيمه الربانى المعروف بالجهاد والشـجاعهٔ فى ميـدان الحرب كان يمتلك كافـهٔ أسـباب الانتصـار على العـدو من جميع النواحى، إلّاأنّه وللأسف قـد شـهد حالـهٔ من الضـعف سـلبته زمـام المبـادرهٔ وزعزعت عوامل النصـر، والمفروغ منه ان ذلك الضعف والوهن إذا دبّ فى أمّهٔ فانّها لن تنتظر مصيراً أحسن من ذلك المصير الذى ساد جيش الكوفهٔ.

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۱۴۹

وقـد أشـار الإمـام عليه السـلام فى هـذه الخطبـهٔ الـتى نحن بصـدرها إلى عناصـر هـذا الضـعف والتى كـان فى مقـدمتها تركهم للعمل وتمسكهم بالقول.

فقـد كانت مجالسـهم عامرهٔ بالكلام ولا سـيما عن القتال والحرب دون أن يعـدوا العـدهٔ اللازمـهٔ و يأخـذوا للحرب اهبتها، يكثرون من الكلام خلف الجبهات دون أن يجرأ أحدهم على الاقتراب من الخطوط الأماميهٔ.

وكأنّ قدرهٔ الأفراد الضعاف العجزهٔ تتركز عادهٔ فى الأقوال والمزاعم، ولعل الإمام عليه السلام أشار إلى هذا المعنى بقوله:

«أقوالًا بغير علم؟»

سواء كان هذا العلم يعنى المعرفهٔ أو الاعتقاد أو العمل، فالنتيجهٔ واحدهٔ لكل من هذه التفاسير الثلاثهٔ، لأنّ المعرفهٔ بالشيء والاعتقاد به تدعو إلى العمل، أما ضعف العمل فانما يستند إلى عدم المعرفهٔ والاعتقاد، الأمر الذى صرح به الإمام عليه السلام بقوله

«العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل»[۲۳۳]

العامل الآخر هو الغفلهٔ وفقدان الورع، وبعبارهٔ اخرى فانّ عدم الالتفات إلى الحقائق والواقعيات- الذى تفرزه حالهٔ عدم التقوى.

إنّمـا يؤدى إلى إختراق الصـفوف من قبـل العـدو، فى حين لا تصـيب سـهام هـذا العـدو اذا ما تحلت الامّـهٔ بالفطنـهٔ والـذكاء المشوب بالتقوى بدلًا من الغفلهٔ والتحلل من الورع والتقوى.

والعامل الاخير هو الطمع فى ما لا يستحقون، أو بعبارهٔ اخرى الطمع فى الشيء دون توفير أسبابه.

فاننا نعلم بأنّ هنالك الأسباب التى ينبغى توفرها لتحقيق بعض الأهداف.

فقـانون العلـهٔ والمعلـول إلى جـانب الإرادهٔ الإلهيـهٔ هى الـتى تحكم الوجـود برمته، وإن ظن بعض الجهـال ببعض الاوهـام والخيالات

والمعادلات الساذجهٔ کمقدمهٔ لتحقیق الاهداف.

وقوله علیه السلام

«طمعاً فی غیر حق»

یمکن أن یکون إشارهٔ إلی هذا المعنی، فانّهم کانوا یطمعون فی شیء لایستحقونه، إلّاأنّ بعض شرّاح نهج البلاغهٔ ذهبوا إلی أنّ المراد بهذه العبارهٔ أنّهم کانوا یطمعون بالمزید من عطائهم فی بیت المال، ویتمنون علی الإمام علیه السلام أن یعطیهم من بیت

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۱۵۰

المال أکثر من إستحقاقهم، فلما لم یلب الإمام علیه السلام طلبهم غیر المشروع صابهم الضعف والوهن فی القتال.

ومن الطبیعی أن یکون هذا التفکیر المادی أینما کان عاملًا من عوامل الفشل والهزیمهٔ، کما فشل الجیش الإسلامی فی معرکهٔ احد إثر انهماک الجنود فی جمع الغنائم واهتمامهم بالجوانب المادیهٔ فی ذلک المیدان الجهادی العظیم.

علی کل حال فانّ هذه العوامل التی تؤدی إلی الهزیمهٔ والفشل لاتقتصر علی جیش الکوفهٔ فحسب، بل تهدد بالفشل کافهٔ الجیوش علی مدی الدهور والعصور وأخیراً فالخطبهٔ تصور مدی لوعهٔ الإمام علیه السلام.

وذروهٔ إستیائه، وهی کافیهٔ فی توضیح عمق الظروف العصیبهٔ التی عاشها الإمام علیه السلام.

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۱۵۱

الخطبهٔ[۲۳۴] الثلاثون

اشارهٔ

ومن کلام له علیه السلام

فی معنی قتل عثمان وهو حکم له علی عثمان وعلیه وعلی الناس بما فعلوا وبراءهٔ له من دمه.

نظرهٔ إلی الخطبهٔ

نعلم بأنّ الآراء قد اختلفت فی قتل عثمان، فهناک من ذهب إلی تقصیر عثمان وأنّه کان مستحقاً للقتل؛ فقد سلط بطانته علی بیت المال وأغدق علیهم المناصب الحساسهٔ فی الحکومهٔ، حتی قام الناس ضده دون أن یهب أحد من المسلمین لنجدته فکان الجمیع راضیاً بقتله.

بینما هناک من یعتقد بعدم صوابیهٔ قتله وکان ینبغی أن یمنح فرصهٔ التوبهٔ لیتدارک بعدها ما فرط منه، وإن کان ولابدّ یخلعونه من الخلافهٔ، أمّا قتله بتلک الصورهٔ العلنیهٔ إنّما هو بدعهٔ، أضف إلی ذلک فانّ قتله أصبح ذریعهٔ للمنافقین من أجل بث الفرقهٔ والشقاق فی صفوف المسلمین.

و أخیراً هناک طائفهٔ ضیقهٔ النظر ممن لا تکلف نفسها عناء التحقیق والتفکیر فی سیرهٔ

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۱۵۲

الخلیفهٔ الثالث تراه الخلیفهٔ المظلوم الذی قتل شهیداً، کما تنزه ساحته من کل نقص وعیب.

الإمام علیه السلام من جانبه وفی خضم هذه الآراء المتضاربهٔ یکشف النقاب عن الحقیقهٔ ویعرض بالتحلیل للمسائل المرتبطهٔ بقتل عثمان.

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۱۵۳

«لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكَنْتُ قاتِلًا أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، لَكَنْتُ ناصِراً، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: «خَذَلَهُ مَنْ أَنا خَيْرٌ مِنْهُ» وَمَنْ خَذَلَهُ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ:

«نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّى» وَأَنا جامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الْجَزَعَ وَلِلَّهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِى الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَازِعِ».

الشرح والتفسير

عوامل قتل عثمان

كما ذكر فى بداية الخطبة فانّها تعالج قضية قتل عثمان والتعرض إلى العوامل التى دفعت إلى هذا القتل. فكلنا نعلم بان لقتل عثمان جذور معلومة نابعة من طبيعة أعماله وأفعاله، فقد أجمع المحققون على أنّ سوء تدبير عثمان فى ادارة دفة الحكم وتبديل الحكومة بموروث قبلى والتطاول على بيت المال والظلم والاضطهاد الذى مارسه أقربائه وبطانته بحق الناس قد أدى إلى غضب عام حتى انبرت طائفة مؤلفة من بضعة مئات لتحاصره فى داره وتهجم عليه وتقتله، وقد وقف ذلك الجيش الجرار الذى فتح مصر وبلاد الروم متفرجاً دون أن يحرك ساكنا؛ فقد كان ذلك الجيش ساخطاً عليه ويرى ضرورة قتله، غير أنّ الناس إنقسموا طائفتين بعد قتله:

طائفة- لعلها كانت تشكل الاكثرية- كانت راضية بهذا القتل أو على الأقل غير مكترثة له بينما ترى الطائفة الثانية أنّه قتل مظلوماً.

وفى ظل هذه الظروف إنتهز المنافقون الفرصة لبث بذور الفرقة فى صفوف المسلمين وحرف مسير الخلافة عن محورها الأصيل أمير المؤمنين على عليه السلام- والذى كان يخطى بتاييد كافة أفراد الامّة- واستغلوا قضية قتل عثمان كذريعة لتحقيق أطماعهم ومآربهم، وبعبارة اخرى فانّهم أحالوا قميص عثمان إلى مناورة سياسية هدفها إغفال الامّة وصدها عن الحق.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۴

وبالطبع فانّ أفراد من كلا الطائفتين كانوا من ضمن صحب الإمام عليه السلام واتباعه، وإن كانت الطائفة الثانية وعلى ضوء تصريحات بعضى المؤرخين تشكل الأقلية، وعليه فمن الطبيعى أن تكثر هذه الطائفة من سوالها لعلى عليه السلام عن قتل عثمان، فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من بد سوى الاجابة التى تتضمن عكس الحقائق التأريخية من جانبه وعدم منح هذا وذاك الفرصة بغية إستغلالها ضد الدين.

فالخطبة رد على مثل هذه الاسئلة الذى يتطرق فيه الإمام عليه السلام إلى بيان الحقائق التأريخية دون منح العناصر الفاسدة الحجج والذرائع فقد قال عليه السلام:

«لو أمرت به، لكنت قاتلًا، أو نهيت عنه، لكنت ناصراً».

فمفهوم هذه العبارة هى أنى كنت محايداً فلم ألطخ يدى بدمه ولم أدافع عن زلاته، فالأمران ينطويان على محاذير.

و هنا يبرز هذا السؤال: كيف يمكن التوفيق بين مضمون هذه العبارة والوقائع التأريخية؟

لاننّا نعلم جميعا (و قد ذكر ذلك أغلب المؤرخين) أنّ الإمام عليه السلام نهى الناس عن قتل عثمان و قد بعث بالحسن والحسين عليه السلام إلى دار عثمان ليحولا دون زحف المعترضين، بل دخل عليه الإمام عليه السلام بالماء حين منعوه منه. وقد أورد الشرّاح جوابين على السؤال المذكور:

فقال البعض المراد من عدم النهى هو النهى العملى؛ أى أننى لم أشهر السيف عملياً ولم أقتحم الميدان دفاعاً عنه، وهذا لايتنافى ونهيه اللفظى عليه السلام وبعثه بالحسنين عليه السلام هناك.

بينما يرى البعض لاخر أنّ هذا الكلام يفيد أن الإمام عليه السلام لم يأمر قط بقتل عثمان، وإن كان يراه مستحقاً للعقاب على أعماله، وعليه وبغية عدم تردى الاوضاع لأسوأ ممّا كانت عليه فقد دعا الناس إلى ضبط النفس والتخلى عن العنف، إلّاأنّه لم يفعل ما من شأنه توفير الدعم الصريح لعثمان وأعماله وما يدر منه؛ وذلك لأنّه كما أن سفكك دمه يخلق بعض المشاكل فى المجتمع الإسلامى، فانّ

توفير الـدعم له والـدفاع عن أعماله هو الآخر يسبب مشاكل لاتقل عن سابقتها، وعليه فانّ الإمام عليه السلام لم ير فى أى من الأمرين (الأمر بالقتل والنهى عنه) ممّا تمليه عليه وظيفته الإسلامية.

و قد أراد الإمام عليه السلام أن يعلن موقفه الصريح ويحول دون تفاقم الخلافات بشأن قتل عثمان من قبل الطائفتين التى تذهب إحداهما لضرورة قتله وتلك التى لاتراه مستحقاً للقتل.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۵

ثم قال عليه السلام:

«غير أن من نصره، لايستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ومن خذله لايستطيع أن يقول نصره من هو خير منّى»،

فالعبارتان تبينان موضوعاً واحداً وهو إتفاق الجميع على أن حماة عثمان آنذاك كانوا من طلحاء الامّة، بينما كان الأفراد الذين لم يمدوا له يد العون من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار.

فالشواهد التأريخية تفيد تواجد كبار صحابة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من المهاجرين والأنصار حين هجم الناس على بيت عثمان، ولو كانوا يرتضون عثمان وأعماله لحالوا دون وصول الناس إليه، الأمر الذى يدل على تخليهم عنه وعدم تقديم أى دعم أو إسناد له.

أمّا الأفراد الذين هبوا للدفاع عن عثمان آنذاک فقد كانوا يمثلون أراذل المجتمع الإسلامى، و ما ذلک الدفاع إلّالمنافعهم اللامشروعة التى كانوا يحظون بها آنذاک.

وعليه فقد كانت هذه المسألة واضحة فى أنّ حماة عثمان من أمثال مروان لم يجرأوا على الزعم أنّهم خير من المهاجرين والأنصار الذين لم يدعموا عثمان.

ومن المسلم به أن أولئک الذين تخلوا عن دعم عثمان لم يكونوا يرووا أن حاشية عثمان وبطانته أفضل منهم، ومن هنا فقد إتفقت الآراء على أن حماة عثمان لم يكونوا من أخيار الامّة.

فالعبارة غاية فى الروعة وقد أماطت اللثام عن أعمال عثمان بالشكل الذى أثار حفيظة كافة المسلمين.

ومن ذلک توزيعه أموال بيت المال على قرابته وبطانته وتسليطهم على رقاب الناس إلى جانب الظلم والجور والاضطهاد وتضييع العدل والقسط.

وقد صرح بعض شرّاح نهج البلاغة[۲۳۵] بان الكلام هو ردّ الإمام عليه السلام على من قال بحضرته أنّ الفتنة من اولئک الذين لم ينصروا عثمان، فلو نصره كبار الصحابة لما إجترأ جهال الامّة على سفک دمه، ولو رأى كبار الصحابة وجوب قتله لكان عليهم إعلان ذلک وإزالة الشبهات عن أذهان الامّة.

فعلم الإمام عليه السلام أنه المقصور بذلک الكلام، فاورد هذه الكلمات.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۵۶

على كل حال فانّ الخطبة تبين أنّ الإمام عليه السلام إذا لم ينصر عثمان فانه لم يكن وحيداً فى هذا الأمر، بل كان هذا موقف كبار الصحابة، فلم الإشكال على الإمام عليه السلام؟ ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بتحليل دقيق عن قتل عثمان، فقال عليه السلام:

«و أنا جامع لكم أمره، استأثر[۲۳۶] فأساء الاثرة، و جزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع».

لقد صرح أحد الادباء العرب المشهورين بأنّ عبارات الإمام عليه السلام إتصفت بقلة الألفاظ وسعة المعانى، فالعبارة على قلّة لفظها جامعة شاملة حيث أوضح الإمام عليه السلام فيها أنّ عثمان إرتكب خطأً جسيماً وأنتم كذلک.

فقد انتهج اسلوب الاستبداد والحكم الفردى وسلط بنى امية على رقاب الناس وأغدق عليهم بيت المال فلما تعالت أصوات المعارضة وقام المسلمون لم يعرهم آذانا صاغية، فحاصروه وهجموا عليه فتركه كبار الصحابة من الأنصار والمهاجرون، من جانب آخر فانّ الناس لم يكتفوا بهذا الحد، وبدلًا من خلعه من الخلافة وطرد أزلامه من مواقع الحكومة عمدوا إلى اراقة دمه فخلقوا فتنة إمتدت

لسنوات فى التأريخ الإسلامى، إلى جانب استغلالها من جانب المنافقين الذين تذرعوا بالمطالبة بدم عثمان ليسفكوا كثيرا من الدماء.

وبناءاً على ما تقدم فانّ الفريقين قد سلكوا الافراط، وعليه فانّ الله جازى كل منها بأعماله.

لقـد كثر الكلام بشأن خلافـة عثمان وآثارها: إلّاأنّ كلام الإمام عليه السـلام ورغم قصـر عباراته إلّا أنه أوجز كبـد الحقيقـة إلى جانب اصداره الحكم العادل بشأنه وشأن الجماهير التى قتلته.

كما يستفاد من العبارة أن الاستبداد- رغم إنّه سيئ مهما كان- على أنواع بعضـها أسوأ من البعضـى الآخر، واستبداد عثمان كان من النوع الاخير.

كما أنّ التعبير بالجزع عن الناس يشير إلى مدى الغضب والاستياء الذى سيطر على الناس إثر الأعمال الشائنة لعثمان وبطانته.

ج ج

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۱۵۷

الخطبهٔ[۲۳۷] الحاديهٔ والثلاثون

اشارهٔ

ومن كلام له عليه السلام

لما أنفذ عبد اللّه بن عباس إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته قبل حرب الجمل.

«لا تَلْقَيَنَّ طَلْحَ ةَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِ دْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ «هُوَ الذَّلُولُ» وَلَكِنِ الْقَ الزُّبَيْرَ فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً فَقُلْ لَهُ: «يَقُولُ لَكَ ابْنُ خالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِراقِ فَما عَدا مِمَّا بَدا»».

الشرح والتفسير

السعى لانقاذ الخاطئين

نعلم أنّ المعركهٔ الاولى التى فرضت على أمير المؤمنين عليه السـلام كانت معركهٔ الجمل، حيث إتحد أنصار عثمان ومعارضيه بعد أن إصطحبوا معهم زوج رسول اللّه صلى الله عليه و آله عائشهٔ فنقضوا البيعهٔ واشعلوا فتيل واقعهٔ الجمل طمعاً فى الخلافهٔ.

ثم انتهت المعركهٔ بهزيمتهم وقتل مؤججى تلك النار طلحهٔ والزبير.

وتفيد كافهٔ الشواهد التاريخيه أنّ الإمام عليه السلام كان حريصاً على عدم وقوع القتال ليس فى

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۱۵۸

الجمل فحسب، بل فى صفين والنهروان، وكان يسعى جاهدا لاطفاء نار الحرب.

والخطبهٔ التى نحن بصددها تعد أحد تلك الشواهد، فقد بعث الإمام عليه السـلام قبل نشوب القتال برسوله عبد الله بن عباس إلى الزبير بهذه الكلمات، فأثرت عليه وانسحب من المعركهٔ، حتى أدركه إبن جرموز فى صحراء البصرهٔ فقتله.

فقد خاطب الإمام عليه السلام ابن عباس قائلًا:

«لاتلقين طلحهٔ فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً[۲۳۸] قرنه، يركب الصعب ويقول: هو الذلول».

تشبيهه لطلحهٔ بالثور الذى يعقص قرنه إما أن يكون أراد به طغيانه وسوء خلقه، أو عدم سماعه للحق بفعل طاعته لهوى نفسه.

فالواقع أنّ العبارهٔ تفيد تحليله لنفسيهٔ طلحهٔ ويأسه من تأثير الكلام فيه بشأن الكف عن القتال وإلّا فانسعاب من المعركهٔ، إلّاأنّه لم يقطع أمله من الزبير (و قد دلت الحوادث اللاحقهٔ أنّ الإمام عليه السلام كان محقا فى أمله) فأضاف عليه السلام قائلًا:

«ولکن الق الزبیر فانّه ألین عریکهٔ».[۲۳۹]

فالعبارهٔ: «ألین عریکهٔ» واستنادا إلی «عریکهٔ» التی تعنی الطبیعهٔ، تفید تسلیم الزبیر للحق إذا سمعه، ولا سیما إذا کان قد صدر من رسول الله صـلی الله علیه و آله، علی العکس من طلحـهٔ الذی کان یتصف بالأنانیهٔ واللجاجهٔ والطغوی وحبّ الجاه والمقام الذی أعمی بصره وبصیرته وأصم سمعه عن سماع الحق.

ومن هنـا ذکر المؤرخون أنّ الزبیر أخـذته رعـدهٔ شدیـدهٔ حین دخـل البصـرهٔ وعلم أنّ عمار فی جیش الإمام علیه السـلام حیث تـذکر حدیث رسول الله صلی الله علیه و آله لعمار:

«و یحک یابن سمیهٔ تقتلک الفئهٔ الباغیهٔ».

فخشی أن یقتل عمار فی المعرکهٔ، فیکون هو جزءاً من الفئهٔ الباغیهٔ.

علی کل حال قال الإمام علیه السلام لابن عباس:

«فقل له یقول لک ابن خالک: عرفتنی بالحجاز وأنکرتنی بالعراق؟ فما عدا ممّا بدأ؟».

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۱۵۹

فالعبارهٔ إشارهٔ إلی التأریخ الجهادی العظیم للإمام علی علیه السـلام علی عهد النبی صلی الله علیه و آله والذی لم یکن خافیاً علی أحد بما فیهم الزبیر الذی کان یقاتل إلی جانب رسول الله صلی الله علیه و آله.

فقـد ورد فی الاخبار أنّ علیاً علیه السـلام برز بین الصـفین حاسـراً، وقال: لیبرز الیّ الزبیر، فبرز إلیه مـدججاً، فقیل لعائشهٔ: قد برز الزبیر إلی علی علیه السلام، فصاحت: وزبیراه!

فقیل لها: لا بأس علیه منه، إنّه حاسر والزبیر دارع.

فقال له علیه السـلام: ما حملک یا أبا عبدالله علی ما صـنعت؟ قال: أطلب بدم عثمان، قال: أنت وطلحهٔ ولیتماه، وإنّما نوبتک من ذلک أن تقید به نفسک وتسلمها إلی ورثته، ثم قال له: نشدتک الله أتذکر یوم مررت بی ورسول الله صلی الله علیه و آله متکی علی یدک، وهو جاء من بنی عمرو بن عوف، فسـلم علیَّ وضـحک فی وجهی، فضحکت إلیه، لم أزده علی ذلک، فقلت: لا یترک ابن أبی طالب یا رسول الله زهوه!

فقال لک

«مه إنه لیس بذی زهو، أما إنّک ستقاتله وأنت له ظالم»

فقال الزبیر: إنا لله وإنا إلیه راجعون، لقد کان کذلک، ولکن الدهر أنسانیه، ولانصرفن عنک. فانصرف من المعرکهٔ[۲۴۰].

فالعبارهٔ السابقـهٔ قـد تکون إشارهٔ إلی هـذا الأمر. جدیر بالذکر أن الزبیر کان من محبی علی علیه السـلام وقد هب للدفاع عنه حتی فی حادثهٔ السـقیفهٔ وشهر سیفه، فقام له القوم وکسروا سیفه، إلی جانب ذلک فقد منح رأیه لعلی علیه السلام فی الشوری التی شکلها عمر لانتخاب الخلیفهٔ من بعده.

علی کل حال فان هذه العبارهٔ أثرت فی الزبیر وکان شکه یتزاید یوماً بعد آخر.

بمشروعیهٔ الطریق الذی سلکه حتی إتخذ قراره باعتزال القتال فاتجهٔ الصحراء لیکمن له أحد الظلمهٔ- ابن جرموز- فارداه قتیلًا ولم یسعه تدارک ما فرط منه.

أمّا قوله علیه السـلام: «ابن خالک» فهو تعبیر لطیف جـدا، وهو من باب الاسـتمالهٔ والاذکار بالنسب والرحم، فقد کان الزبیر ابن صـفیهٔ أخت أبی طالب، وعلیه فالزبیر ابن عمهٔ علی علیه السلام وعلی علیه السلام ابن خاله.

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۱۶۰

والعبـارهٔ تهـدف إلی بیان کافـهٔ الامور التی سـمعها الزبیر من رسول الله صـلی الله علیه و آله بشأن علی علیه السـلام ومن هنا فقـد کان

شديد الحب لعلى، إلّاأنّ حب الجاه- الذى كان الدافع الرئيسى لحرب الجمل- كالحجاب الذى حال دون رويته لتلك الحقائق، فكان لهذه العبارة فعلها فى نفسه حيث أزالت عنه ذلك الحجاب وجعلته يعود إلى الحق.

قال المرحوم السيد الرضى فى ذيل هذه الخطبة:

«وهو عليه السلام أول من سمعت منه هذه الثلمة؛ أعنى فما عدا ممّا بدا».

وهى عبارة بعيدة المعنى، تشير إلى مسألة وهى: ما الذى صرفك عن الحق بعد أن اتضح لديك إلى الباطل ۲۴۱]. والعبارة من الروعة واللطافة بحيث أصبحت مثلًا فى الادب العربى.

تأمّلات

۱- رد فعل الزبير تجاه رسالة الإمام عليه السلام

ورد فى بعض الروايات أنّ ابن عباس قال: حين أبلغت الزبير رسالة الإمام عليه السلام أجابنى:

قل لعلى عليه السلام إنى اريد ما تريد.[۲۴۲]

أى إنّك تبتغى الحكومة، فلم لا أطلبها أنا. فقد بلغ به الطمع وحبّ الجاه درجة جعلته يعتقد بأنّ علياً عليه السلام إنّما نهض بالأمر طلباً للحكومة- ولكن وكما أوردنا سابقاً فانّ الزبير لم يستطع الوقوف بوجه الحق، فما كان منه إلّاأنّ إعتزل القتال وانصرف وإن كانت خطوته متأخرة.

۲- قطوف من سيرة طلحة والزبير

طلحة من قريش وأبوه عبدالله بن عثمان من السابقين فى الإسلام وقد شهد غزوات رسول الله صلى الله عليه و آله، ولم يشهد بدرا حيث وجهه رسول الله صلى الله عليه و آله حينها إلى الشام فلما عاد طالب بسهمه من الغنائم.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۱

فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله: لك سهمك وأجرك. وقيل آخى رسول الله صلى الله عليه و آله فى مكة بين طلحة و الزبير، وآخى بين طلحه وأبى أيوب فى المدينة. وروى عن طلحة أنّ النبى صلى الله عليه و آله أسماه يوم أحد طلحة الخير. أمّا قتاله مع رسول الله صلى الله عليه و آله فى حرو به فمما لا شك فيه مع ذلك فقد كان محباً للجاه و المقام حتى تغيير نهجه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه و آله، كما كانت تسمع منه بعض الكلمات ومن ذلك قوله أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله يأمر بنات أعمامنا بالاحتجاب منا، ويتزوج بنسائنا بعد إنفصالهن عنا: فما الذى يغنيه حجابهن اليوم وسيموت غدا فننكحهن، وهنا نزلت آية التحريم بالزواج من نساء النبى صلى الله عليه و آله ۲۴۳] فقد ذكر الفخر الرازى فى سبب نزول الآية أن طلحة قال:

«سأتزوج من عائشة إذا مات رسول الله صلى الله عليه و آله»

. فنزلت آية تحريم الزواج من نساء النبى صلى الله عليه و آله بعد وفاته.[۲۴۴]

وورد فى قصة الشورى التى شكلها عمر أنه أقبل على طلحة وقال: أقول أم أسكت؟ فقال طلحة: قل، فانّك لا تقول من الخير شيئاً. فقال عمر: لقد مات رسول الله صلى الله عليه و آله ساخطاً عليك بالكلمة التى قلتها يوم انزلت آية الحجاب.[۲۴۵]

على كل حال كان من أشد الناقمين على عثمان، ومن هنا كان يراه مروان من قتلة عثمان، وقد رماه بسهم فى الجمل فقتله، وقال: الآن أدركت دم عثمان من طلحة. وقد دفعه حبّ الجاه لاشعال فتيل الجمل وسفك دماء المسلمين ولم يظفر بالخلافة حتى قتل فى معركة الجمل. وذكر البعض أنّ الإمام عليه السلام حدثه ببعض الكلمات عى غرار الزبير فندم وانصرف من المعركة فرماه مروان بسهم فقتله.

إلّاأنّ الخطبة تفند هذا الكلام، فهى تفيد يأس الإمام عليه السلام من هدايته وعودته إلى الحق. وفى رواية أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مر يقتلى الجمل فقال بشأن طلحة هـذا من نكث بيعتى و أشعل نار الفتنة وألب الناس على قتلى وأهل بيتى» ثم خاطبه عليه السلام: يا طلحة إنّى وجدت ما وعدنى ربّى حقاً فهل وجدت ما وعد ربك حقاً، ثم انصرف. فقال له بعض أصحابه: أتكلمه بعد الموت يا أميرالمؤمنين. فقال عليه السلام والله لقد سمعنى كما سمع الكفّار كلام رسول الله صلى الله عليه و آله وهم قتلى فى قليب بدر[۲۴۶].

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۱۶۲

وهنا يبرز هـذا السؤال وهو أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يثنى أحيانا على طلحة، حتى ذهب البعض إلى أنّه من العشرة المبشرة بالجنّة، فكيف يصح هـذا الثناء؟ ونقول فى الجواب على فرض أنّ هذا الكلام صحيح، فانّ الإنسان يعيش بعض المراحل المتألقة فى سنى حياته بحيث يكون يوماً إلى جانب الحق ويستحق الجنّة، ويوماً يخرج من هذا الحق ويلتحق فى صفوف الباطل فيستحق غضب الله وسخطه. فالتأريخ الإسلامى حافل بالأفراد الذين كانوا على الحق وهجروه إلى الباطل أو بالعكس، وإلّا فمن يسعه القول بأحقية من أجج نار الحرب ضد إمام زمانه وسفك كل هذه الدماء؟ فهل من انسجام بين هذا الكلام والمنطق؟ والشاهد على ما قلنا ما صرح به القرآن الكريم بشأن السابقين فى الإسلام من المهاجرين والأنصار والتابعين، الـذين وعدهم بالجنّة «وَالسّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرِينَ وَالأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى تَحْتَها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذ لِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ».[۲۴۷]

فالآية تشمل جميع المهاجرين والأنصار، بينما نعلم هنالك من انحرف منهم عن الحق كعبد الله بن أبى سرح ۲۴۸] وثعلبة ابن حاطب الأنصارى ۲۴۹] فاستحقوا غضب الله وسخطه، وقد كانوا من المهاجرين والأنصار الـذين وقفوا إلى جانب رسول الله صلى الله عليه و آله؟ كما نعلم أن بعض المنافقين الـذين ذمّهم القرآن بشدّة كانوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه و آله. وعلى هذا الضوء فلابدّ من تقييم أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله على ضوء أعمالهم حتى آخر أعمارهم، وإلّا شهدنا حالة من التناقض لا ـ يمكن الخروج منها بتبرير وأما الزبير فهو الزبير بن العوام وامّه صفية عمة رسول الله صلى الله عليه و آله اسلم فى الخامسة عشرة من عمره وهو رابع أو خامس من أسلم، هاجر إلى الحبشة ثم قدم

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۱۶۳

المدينة، وقد أخى رسول الله صلى الله عليه و آله بينه وبين عبدالله بن مسعود. شهد غزوات رسول الله صلى الله عليه و آله فى بدر وأحد والخندق وحنين وقد ابلى فيها بلاءً حسناً حتى أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه و آله. وكان أحد أعضاء الشورى الذى بايع علياً عليه السلام ولم يبايعه طلحة. وللاسف فانّ حب الجاه وتأثير طلحة قد دفعه للانحراف عن الحق فاشترك مع طلحة فى تأجيج نار الجمل التى فرقت صفوف المسلمين وأراقت دمائهم بعد أن نقض البيعة. وقد ذكر المؤرخون انه إستمع لمواعظ على عليه السلام قبل بدء المعركة فعاد إلى الحق وانسحب من الميدان فاتجه صوب صحراء تعرف باسم «وادى السباع» فلما وقف للصلاة تقدم نحوه ابن جرموز فقتله حين الصلاة وانتزع خاتمه وسيفه فاتى بها إلى الإمام عليه السلام.

فاستاء الإمام عليه السلام وقال:

«هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول الله»

وقيل إنّ الإمام عليه السلام لم يأذن لابن جرموز بالدخول عليه وقال:

«بشر قاتل ابن صفية بالنار»

وقال البعض أنّ ابن جرموز غضب غضباً شديداً فقتل نفسه. وقد صرحت بعض المصادر التأريخية أن معاوية هو الذى شجع طلحة والزبير على نقض البيعة والقيام ضد على عليه السلام ۲۵۰].

لا شك إنّ قضية طلحة والزبير ينبغى أن تكون لنا درساً وعبرة فلا ننغر بأعمالنا، وكيف أنّ الإنسان يعيش مع الحق ويجاهد فى سبيله

ثم يستلل حب الدنيا والحياه إلى قلبه فيقوده إلى الباطل اللّهم إجعل عاقبة أمرنا خيراً.

۳- شروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

لقد تضمنت رسالة الإمام عليه السلام الإشارة إلى أحد الشروط المهمّة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ألا وهو إحتمال التأثير.

فقد قال عليه السلام:

«لا تلقين طلحة فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، ولكن إلق الزبير فانه ألين عريكة»

فمن الطبيعى أنّ طاقة الإنسان وقدرته محدودة ولابدّ له من استهلاكها فى محلها الذى يتوقع فيه التأثير.

فاذا أحتمل عدم التأثير فلا ينبغى له أن يصرف جهده عبثاً، وبالطبع فقد قلنا احتمال التأثير وليس اليقين فيتعلل بعدم الأمر لعدم وجود اليقين فى التأثير! كلا إلى جانب ذلك

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۴

ينبغى معرفة المعروف والمنكر وعدم وجود الخطر آنذاك تبرز وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ويفهم من رسالة الإمام عليه السلام أنّ لبعض الناس طباع كطباع الحيوانات فالبعض كالثعلب أو الذئب وبعضهم شجاع كالأسد وآخر من أهل الشهوات كالخنزير وبعضهم جاهل كالبقر و ...

و قد شبه الإمام عليه السلام طلحة بالبقر العاقص القرن حيث يستكبر فى التسليم إلى الحق ويخطى فى إدراك الواقع وتمييزه، وإذا اتجه صوب الأعمال العصية ظنها سهلة حتى تؤدى به إلى الفشل.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۵

الخطبة[۲۵۱] الثانية و الثلاثون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف زمانه بالجور، ويقسم الناس فيه خمسة أصناف، ثم يزهد فى الدنيا.

نظرة إلى الخطبة

تتألف الخطبة من أربعة أقسام:

القسم الأول يتحدث عن الوضع المأساوى للمجتمع على عهد الإمام عليه السلام والمشاكل التى كانت تعترض سبيل الصلحاء والأتقياء. ويصنف الإمام عليه السلام الناس فى القسم الثانى آنذاك (ولعله فى كل عصر ومصر) إلى أربعة أصناف:

أ- الصنف الأول من يقعد به عن طلب الإمرة قلّة ماله، وحقارته فى نفسه. فهو مغتم فى الواقع لعدم إمتلاكه الامكانات.

ب- الصنف الثانى من يشمر ويطلب الامارة ويفسد فى الأرض ويكاشف

ج- الصنف الثالث من يتظاهر بالدين ويطلب به الدنيا لا الآخرة

د- الصنف الرابع من لامال له أصلًا، ولا يكاشف، ويطلب الملك ولا يطلب الدنيا بالرياء والناموس، بل تنقطع أسبابه كلها فيخلد إلى القناعة، ويتحلى بحلية الزهادة فى اللذات الدنيوية، لاطلباً للدنيا، بل عجزاً عن الحركة فيها، وليس بزاهد على الحقيقة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۶۶

ثم یتطرق الإمام علیه السلام إلى بیان خصائص کل صنف من هذه الأصناف الأربعة- التی تعیش فی کل مجتمع، ویتحدث القسم الثالث عن صنف آخر ذکره الإمام علیه السلام بصورة مستقلة وهم الأبرار الأتقیاء الذین أراق دموعهم خوف الآخرة.

ثم یقسمهم الإمام علیه السلام إلى عدّة أقسام ویذکر صفات کل قسم منهم، أمّا القسم الرابع والأخیر من الخطبة فیدعو فیه الإمام علیه السلام الناس إلى الزهد وعدم الاغترار بالدنیا الذی یقود إلى الذنوب والمعاصی. وقد بین حق الکلام بعبارات قصیرة.

ج ج

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۱۶۷

القسم الأول: الدهر وضیاع القیم

اشارة

«أَیُّها النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنا فِی دَهْرٍ عَنُودٍ، وَزَمَنٍ کَنُودٍ، یُعَدُّ فِیهِ الْمُحْسِنُ مُسِیئاً وَیَزْدادُ الظَّالِمُ فِیهِ عُتُوّاً. لا نَنْتَفِعُ بِما عَلِمْنا، وَلا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنا وَلا نَتَخَوَّفُ قارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنا».

الشرح والتفسیر

إستهل الإمام علیه السلام الکلام بخطاب عامة الناس ثم أشار الإمام علیه السلام فی الخطبة إلى الزمن الذی کان علیه الناس فقال:

«أیّها الناس أنا قد أصبحنا فی دهر عنود، وزمن کنود».

طبعا لیس المراد بالزمن الأیام واللیالی والشهور والسنین بحیث توصف بالقبح والحسن والبغض والتنکر، بل أهل العصر والزمان الذین یتصفون بهذه الصفات، فاذا ما ذکر الزمان بالحسن والقبح فالمراد الناس، وإلّا فلیس هنالک من تغییر فی شروق الشمس أو القمر ولا فی حرکة القمر حول نفسه أو حول الشمس.

فالشمس تشرق والمطر ینزل والأرض تخرج برکاتها للبشر ولا من تغییر، إلّاأنّ الناس هم الذین یوصفون بسوء الأعمال وحسنها.

فقد عاش الإمام علیه السلام فی عصر لم یسع أغلب أفراده- سوى النزر الیسیر- إدراک عظمة روحه وسعة فکره والاحاطة بفضائله ومناقبه، وقد أدت بهم الثروات العظیمة التی أفرزتها الفتوحات الإسلامیة واتساع رقعة البلاد إلى التکالب على الدنیا والتهافت على زینتها والحرص على جمع الأموال وحب الجاه والمقام وتناسی القیم والمبادئ.

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۱۶۸

ثم تناول الإمام علیه السلام بعض خصائص الزمان آنذاک والذی یتصف بعناد الناس وجحودهم لیصفه فی خمس عبارات فقال:

«یعد فیه المحسن مسیئاً ویزداد الظالم فیه عتوا»

أو یمکن أن یتهم المحسن بالاثم ویثنی على الظالم؟ بلى إذا تغیّرت قیم المجتمع عد المحسن مسیئاً والمسییء محسناً.

فإذا کان المال والثراء والقوة هی القیم ومعاییر الشخصیة، فستکون الصدارة فی ذلک المجتمع للظلمة والطغاة والجبابرة، بینما تمیع فی هذا المجتمع شخصیة المحسنین الذین یمدون ید العون إلى الفقراء والضعفاء وینفقون علیهم الأموال وینعتونهم بالحماقة والبلاهة.

وقد أشار القرآن الکریم إلى بعض نماذج الفساد الذی طال المجتمعات البشریة بفعل فساد التعامل مع القیم والتنکر لها ومن ذلک ما أورده بشأن قوم لوط الذین عزموا على إخراج نبیّهم ومن معه من المؤمنین الصالحین ولا ذنب لهم سوى الطهر والعفاف «وَما کانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْیَتِکُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ یَتَطَهَّرُونَ»[۲۵۲].

کما اعتبر الظلمة من قوم نوح تلک الثلة الخیرة التی آمنت باللّه والنبی بأنّها من أراذل القوم والسذج الذین لیس لهم من مزیة على من سواهم « «ما نَراکَ إِلّا بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراکَ اتَّبَعَکَ إِلّا الَّذِینَ هُمْ أَراذِلُنا بادِیَ الرَّأْیِ وَما نَرى لَکُمْ عَلَیْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّکُمْ

كاذِبِينَ».[۲۵۳]

نعم إذا فسد الناس وازداد حجم الظلم والاضطهاد تغير وجه المجتمع وغيبت فيه القيم، وازداد الظالم طغياناً وتجبرا وعدّ المحسن مجرما فيقصى من ذلك المجتمع.

وليس هنالك من نتيجة سوى ما أشار إليها الإمام عليه السلام:

«لاننتفع بما علمنا، ولا نسأل عمّا جهلنا».

والواقع أنّ هذه أسوأ حالة يعيشها الفرد أو المجتمع، أى أنّه لايستثمر علومه ومعارفه فى حل مشاكله ولايهم بالقضاء على الجهل و الاقبال على العلم، وليس هنالك من نتيجة لهذين الأمرين سوى العوم فى بحر الجهل والجريمة، وهذا هو حال كافة الأفراد الذين يغضون الطرف عن مفاسد المجتمع ولايرون لأنفسهم من مسؤولية فى ردعها سواء من خلال اليأس من

نفحات الولايةُ، ج۲، ص: ۱۶۹

الإصلاح أو التعود على هذا الفساد والتكيف معه.

ثم قال:

«ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا.»

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أورد العبارات الأخيرة بصيغة التكلم مع الغير وينسبها إلى نفسه ومن حوله؛ مع القطع بأنّه مبرأ من ذلك بفضل عصمته وورعه وتقواه، ولعل العبارة تهدف عدم جرح مشاعرهم وإثارة حفيظتهم فيجعل نفسه كأحدهم فى مثل هذه الامور.

تأمّلان

۱- ما مفهوم فساد الزمان؟

ذكرنا آنفا أنّ الزمان لايراد به هنا المّدة الزمنية لحركة الشمس والقمر (أو دوران الأرض حول نفسها والشمس) فالأزمنة متشابهة ذاتاً، والأشخاص هم الذين يتغيرون والحوادث والواقائع التى تجعل العصر والحياة حلوة أو مرة.

و عليه فاذا قيل بفساد الزمان فالمراد فساد الناس.

ويصدق هذا الأمر على المكان أيضاً، فاذا قيل أنّ المنطقة الفلانية أو البلد الفلانى فاسد فالمقصود فساد أهل تلك المنطقة أو ذلك البلد.

وبالطبع فان هنالك من يحاول استغلال هذه العبارات ليجعل من فساد الزمان أو المكان ذريعة لفساده وانحطاطه.

فاذا سئل عن سبب فساده وانحرافه، إنبرى للجواب: وماذا أفعل فقد فسد العصر أو البيئة التى أعيش فيها، والحال هو ومن حوله مصدر الفساد. ولعلنا نلمس هذا المعنى فى الاشعار التى تنسب إلى عبدالمطلب جد النبى صلى الله عليه و آله حيث أنشد قائلًا:

و يعيب الناس كلهم زماناوما لزماننا عيب سوانا

نعيب زماننا والعيب فيناولو نطق الزمان بنا هجانا

وان الذئب يترك لحم ذئبويأكل بعضنا بعضا عيانا[۲۵۴]

و من البديهى أنّ زوال فساد الزمان مرهون بتغيير الناس فيشملوا بلطف الله وعنايته «إِنَّ اللَّهَ لاـ يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ»[۲۵۵]. وبذلك فالإنسان هو المقصر الأصلى على كل حال.

۲- التنكر للقيم

المسألـة التى تلعب دوراً مهمـا فى مصـير المجتمعـات البشـرية والتى قـد يغفـل عنهـا الأعـم الأغلب من النـاس إنّمـا تتمثل بنظام القيم والمبادى التى تسود المجتمع.

فـالمجتمع إنّما ينطلق فى مسيرته نحو المثل والقيم التى يلهمها لأفراده والمقرة من قبلهم، وعليه فالمجتمع يتجه نحو التأكل والزوال إذا ما شهد تغييب القيم والمبادئ.

ونقصـد بـالمجتمع حركـة جميع أفراده ولايقتصـر ذلـك على بعض الأفراد الـذين يتحلون بالايمان والتقوى فيقفون دائما ضـد حالات الفساد والانحراف.

وبناءاً على ما تقدم فانّ القيم المقرة فى المجتمع إذا كانت تتجسد فى المال والثروة فانّ كافة الأفراد سـيتجهون نحو الثراء كهدف دون الإكتراث لمسائل الحلال والحرام.

والإنسان يتجه بوحى من طبعه إلى صـنع الشخصية ولايأل جهدا فى السعى لتحقيق هذا الأمر، فاذا كانت القيم السائدة تتمثل بالشخصية الكاذبة فان الأفراد سيتحركون لامحالة لمثل هذه الشخصية.

والشـباب عادة يلهثون خلف السـمعة والشـهرة ويعشـقون الابطال، و عليه فلا يبـدو غريباً تقليـد الشـباب لهؤلاء الابطال حتى فى الثياب واسلوب المشى، ولو كان هؤلاء الابطال هم العلماء والمفكرين فمن الطبيعى أن ينطلق الشباب نحو العلم والمعرفة.

بالمناسبـة هنالـك قصـة طريفـة مشـهورة بشـأن العلّامـة الكبير الشـيخ البهـائى، حيث قرر الشـاه عباس الصـفوى مكافئـة جهوده العلمية وخـدماته العمرانيـة بتقـديم هديـة تليق بشـأنه، فطلب الشـيخ أن يسـتقل مركبه الخـاص ويمشـى الشاه خلفه لمسافـة معينـة فى الشوارع والازمة-

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۱۷۱

فالواقع أراد الشيخ بهذا العمل أن يثبت بأنّ القيم والمثل التى تسود المجتمع ينبغى أن تتمحور حول العلم والمعرفة.

و قد قيل أنّ إقبالًا منقطع النظير قد حدث للعلم بما لم يشهده أبداً فى السابق. جدير بالذكر أنّ القيم والمثل التى كانت تحكم المجتمع الجاهلى قبل الإسلام مصداقاً لقوله عليه السلام:

«بأرض عالمها ملجم وجاهلها مكرم».[۲۵۶]

حيث أبطالهـا هم أبوسـفيان وأبوجهـل وأمثالهمـا، حتى انبثق الإسـلام ليرفع شـعار التقوى «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» فيقضـى على اولئـك الابطال الكاذبين ويسـتبدلها بالابطال من قبل أبى ذر وأمثاله. وممّا يؤسف له أن هناك بعض الأعمال الخاطئة التى وقعت فى عصـر الخلافة الراشدة فادت إلى تغييب تلك القيم الإسـلامية المثلى لتعود النعرة الجاهلية من جديد فتصدر المجتمع عمرو بن العاص وأبو موسـى الاشـعرى بدلًا من مالك الاشتر وأبى ذر وعمار بن ياسـر؛ الأمر الذى كان يدمى قلب الإمام عليه السـلام، وأدنى ذلك ما أورده عليه السلام بقوله «يعد فيه المحسن، مسيئا ويزداد الظالم فيه عتواً».

ومن هنـا كـان هـدف الإمـام عليه السـلام فى أغلب خطبه فى نهـج البلاغـة يكمن فى إحياء القيم والمثل التى كانت سائـدة فى صـدر الإسلام.

ج ج

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۱۷۳

القسم الثانى: الناس أربعة أصناف

اشارة

«فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لا يَمْنَعُهُ الْفَسادَ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَهانَةُ نَفْسِهِ، وَكَلالَةُ حَدِّهِ، وَنَضِيضُ وَفْرِهِ. وَمِنْهُمُ الْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ لِحُطامٍ يَنْتَهِزُهُ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ. وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيا لِنَفْسِكَ ثَمَناً، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عِوَضاً!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَلا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيا قَدْ طامَنَ مِنْ شَخْصِهِ، وَقارَبَ مِنْ خَطْوِهِ وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمانَةِ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللَّهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ، وَانْقِطاعُ سَبَبِهِ فَقَصَرَتْهُ الْحالُ عَلَى حالِهِ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَناعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِباسِ أَهْلِ الزَّهادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِى مَراحٍ وَلا مَغْدًى».

الشرح والتفسير

یعرض الإمام علیه السلام– فی هذا القسم من الخطبة– بالتحلیل لطلاب الدنیا الذین یصنفهم فی أربعة أصناف وبالطبع فانّ هذه الأصناف لا تختص بمجتمع دون آخر ولا زمان دون آخر بل هی عامة شاملة فقال علیه السلام:

«فالناس علی أربعة أصناف، منهم من لا یمنعه الفساد فی الأرض إلّامهانة نفسه،

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۱۷۴

وکلالة[۲۵۷] حده ونضیض ۲۵۸] وفره».

فالمشکلة فی عدم وجود الماء والا فهم سباحون ماهرون، فباطنهم مفعم بالشر والفساد الا أنهم یفتقرون للالة التی یمارسون بها الظلم والفساد، ومن الطبیعی أن مثل هولاء الأفراد إنّما یتربصون بظاهرهم الودیع الذی لایشوبه أذی.

کما یتوجب علی قادة المجتمع إذا ما تعرفوا علی هولاء الأفراد الحذار من تزویدهم بالا مکانات فیعیثوا فی الأرض فسادا، وقد أشار القرآن إلی ذلک «وَمِنَ النّاسِ مَنْ یُعْجِبُکَ قَوْلُهُ فِی الحَیاةِ الدُّنْیا وَیُشْهِدُ اللَّهَ عَلی ما فِی قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصامِ* وَ إذا تَوَلّی سَعی فِی الأَرضِ لِیُفْسِدَ فِیها وَیُهْلِکَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا یُحِبُّ الفَسادَ».[۲۵۹]

ثم تطرق علیه السلام إلی الصنف الثانی

«و منهم المصلت ۲۶۰] لسیفه والمعلن بشره والمجلب بخیله ورجله»

فقد أعد هذا الصنف من الناس باطنه للظلم والفساد ومحق دینه

«قد أشرط[۲۶۱] نفسه وأوبق ۲۶۲] دینه».

ولکن ما هدف هولاء؟ لا شک أن هدفهم ما أشار إلیه الإمام علیه السلام ولیس ذاک سوی الحصول علی شی من متاع الدنیا أو الأمرة علی بعض الأفراد او إرتقاء المنبر لیظهر نفسه للناس بمظهر الخطیب الواعظ

«لحطام ۲۶۳] ینتهزه ۲۶۴]، أو مقتب ۲۶۵] یقوده، أو منبر یفرعه ۲۶۶]».

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۱۷۵

فالعبارة رغم قصرها فقد أشارت إلی أعمالهم الظاهریة إلی جانِب فسادهم الباطنی واهدافهم الرخیصة، فهؤلاء الأفراد یستفرغون ما فی وسعهم لیصبحوا علی غرار فرعون أو قارون أو السامری. وما اولئک الذین أججوا نیران الجمل وصفین إلّامصادیق بارزة لذلک الصنف من الأفراد، فالبفض اندفع من أجل المال وآخر من أجل المقام والمنصب والآخر من أجل الخلافة. ثم تطرق علیه السلام إلی نتیجة أعمال هؤلاء فقال

«و لبئس المتجر أن تری الدنیا لنفسک ثمنا، وممالک عند اللَّه عوضا»

، ومن الطبيعی أنّ هذا الصنف من الناس الفاسد والشریر- الذی یخبط خبطا عشواء من أجل الظفر بالمال والمقام- لا یقیم لأحکام اللّه وزنا ولا یصغی لصوت الضمیر والوجدان ولا ینقاد لدلیل العقل، فقد باع هذا الخزین الثمین بذلک الثمن البخس، باع الدین بالدنیا «أُولئِکَ الَّذِینَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدی فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما کانُوا مُهْتَدِینَ»[۲۶۷].

بینما تظافرت الروایات التی تؤکد علی قیمهٔ الإنسان وأنّه لا ینبغی له بیع نفسه إلّابثمنها وثمنها الجنّهٔ. کما صرحت الآیه القرآنیهٔ بأن بیع النفس بغیر الجنّهٔ ورضی اللّه لا- یستبطن سوی الخسران المبین «وَمِنَ النّاسِ مَنْ یَشْرِی نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالعِبادِ»[۲۶۸].

فالآیهٔ تفید أنّ بعض الناس (کعلی علیه السلام الذی نام علی فراش رسول اللّه صلی الله علیه و آله لیلهٔ الهجرهٔ) یبیعون أنفسهم من أجل رضی اللّه سبحانه. وقد ورد عن الإمام علی علیه السلام أنّه قال:

«إنّه لیس لأنفسکم ثمن إلّاالجنّهٔ فلا تبیعوها إلّابها»[۲۶۹].

ثم تعرض علیه السلام للصنف الثالث الذی یتصف بالتزویر- وأوضح صفاته

«و منهم من یطلب الدنیا بعمل الآخرهٔ، ولا یطلب الآخرهٔ بعمل الدنیا».

فهدف هذا الصنف هو ذات الهدف الذی ینشده الصنف الثانی المذکور مع فارق بسیط هو أنّ اولئک یجنون حطام الدنیا من خلال المنطق الغاشم والظالم والجور، بینما یعتمد هؤلاء علی التزویر والخداع والغرور.

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۱۷۶

فالصنفان وإن کانا ضالین ظالمین وخاطئین، إلّاأنّ حال هذا الصنف أسوأ من الصنف الذی سبقهٔ؛ وذلک لأنّه جعل دین الله جسراً لدنیاه، وعلیه فقد أهلکوا دنیا الآخرین إلی جانب إهلاک دینهم.

آنذاک خاض الإمام علیه السلام فی صفات هذا الصنف

«قد طامن ۲۷۰] من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر[۲۷۱] من ثوبه، وزخرف من نفسه للامانهٔ، واتخذ ستر الله ذریعهٔ إلی المعصیهٔ.»

فالعبارهٔ تشیر إلی ظاهر متواضع وسکین ووقار وعدم إلتفات إلی الدنیا وحطامها والتزین بشعار الصالحین واستغلال ستر الله سبحانه للعیوب فی حین هنالک حرکهٔ نحو الذنب والمعصیهٔ.

وقد یؤمن هذا الصنف بالله والیوم الآخر علی مستوی الظاهر، إلّاأنّ هذا الإیمان یقتصر علی الظاهر ولم یخترق قلوبهم أبداً، وإلّا فکیف إرتضوا لأنفسهم هذه المعاملهٔ المجحفهٔ بحیث باعوا آخرتهم بدنیاهم ومن هنا وردت الروایات التی تصرح بأنّ هؤلاء الخاسرین یوم القیامهٔ- حین تطرح الحجب وتتضح حقیقهٔ کل فرد کما هی- ینادون یا کافر!

یا فاجر! یا غادر! یا خاسر! وینادون

«حبط عملک وبطل أجرک فلا خلاص لک الیوم فالتمس أجرک ممن کنت تعمل له»[۲۷۲].

وممّا لاشک فیه أن هذا الصنف- کسائر الأصناف الأربعهٔ- لایقتصر فی وجوده علی عصر الإمام علیه السلام، بل هو موجود فی کل عصر و مصر وأنّه لأعظم خطراً من سائر الأصناف علی دین المجتمع ودنیاه.

وعلیه فلابدّ لاتباع الحق من مراقبهٔ هؤلاء والحذار من الوقوع فی فخهم ولحسن الحظ فانّ أغلب هولاء الأفراد یفتضحون عملیاً فاذا بلغوا مفترق طرق بین الدین والدنیا ولوا ظهورهم للدین وتهافتوا علی الدنیا وآثروا سخط الله علی رضی خلقه طمعاً فی الدنیا

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۱۷۷

وحطامها، فأفکارهم منحطهٔ وهمتهم وضیعهٔ وروحهم ملوثهٔ وباطنهم قبیح والازدواج هو الغالب علی شخصیتهم.

وأخیرا یتعرض الإمام علیه السلام للصنف الرابع- أهل التقی الکاذب والزهد الفارغ- فیقول

«ومنهم من أقعده عن طلب الملک ضؤولهٔ[۲۷۳] نفسه، وإنقطاع سببه فقصرته الحال علی حاله، فتحلی باسم القناعهٔ، وتزین بلباس أهل

الزهادة وليس من ذلك فى مراح ۲۷۴] ولا مغدى».[۲۷۵]

فهم أفراد ضعفاء عجزة لا كفاءة لهم يحاولون التستر بالزهد للتغطية على عجزهم وانعدام جدارتهم والتظاهر بالقوة لاخفاء ضعفهم، والحال ليس لديهم شمة من الزهد والقناعة باطنهم وهم على قسمين: فمنهم من يتستر لخداع النفس ومنهم يخدع نفسه محاولًا إقناع نفسه بأنّه من أهل الزهد والتقوى لا الضعف والعجز يدفعه للتظاهر بذلك. أمّا المراح والمغدى فقد ذهب أغلب أرباب اللغة وشرّاح نهج البلاغة إلى أنّها اسم مكان لاستقرار الماشية فى الصباح والمساء بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّها اسم زمان بمعنى الذهاب والاياب ليل نهار.

كيفما كان فان المفردتين تعبران عن حماقة هؤلاء الأفراد وبلاهتهم التى تجعلهم بهيئة الزهد والقناعة. هناك كلام كثير بين بين المفسرين بشأن فارق الصنف الرابع والأول من جهة والصنف الرابع والثالث من جهة اخرى.

ويبدو أنّ الصنف الأول الذى ينشد الدنيا قد قبع فى زاوية إثر ضعفه وعجزه ولم ينطلق نحو المال والحياه والمقام، وهو لا يصر على ابراز ضعفه وعجزه على أنّه قوة وإقتدار، فى حين يحاول الصنف الرابع أستغلال ضعفه وعجزه بغية الظفر بمكانته فى المجتمع على أنّ ذلك الضعف زهد وقناعة. أمّا فارق الصنف الرابع مع الصنف الثالث هو أنّ الصنف الثالث يعتمد النفاق والتزوير لتحقيق أطماعه ومآربه، بعبارة اخرى ما يجنيه الظلمة من حطام الدنيا بواسطة الظلم والجور يحصل عليه هؤلاء من خلال الرياء وخداع الناس.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۷۸

فهم يبيعون دينهم بدنياهم ويحصلون على الدنيا ومتاعها من خلال الدين، أمّا الصنف الرابع فهو لا يحصل على جاه ومقام، ويكتفى بأن المجتمع ينظر إليه كزاهد قانع.

وأخيراً يشترك الصنف الأول والرابع فى أنّه ليس أقل تكالباً من الصنفين الآخرين إذا ما توفرت الأرضية الخصبة أمامهما للظلم والفساد.

الأصناف الأربعة فى كل مجتمع.

لقد أماط اللثام عن حقيقة هذه الأصناف الأربعة ولفت إنتباه المجتمع إلى الأخطار التى تفرزها حركتها فى المجتمع بفعل فسادها وظلمها وريائها وزهدها الكاذب، ثم خاض عليه السلام فى صفات كل صنف ليتعرف عليه أفراد المجتمع فلا يقعوا فى شباكهم.

وتشترك هذه الأصناف جميعاً فى الفساد العقائدى والتعلق بالدنيا والجاه والمقام، إلّاأنّها تختلف فى إعداد الأسباب والمقدمات التى تمكنها من الوصول إلى أهدافها، وبعبارة اخرى فانّ الأصناف الأربعة يمكن تقسيمها إلى طائفتين:

طائفة تحقق أهدافها الرخيصة عن طريق الرياء والتزوير: وطائفة لا تحقق أهدافها إلّاأنّها تخفى هذا الفشل فى الزهد والقناعة، ولو تأملنا التأريخ لرأينا هذه الأصناف فى كل عصر ومصر.

وممّا يؤسف له اليوم أنّ المجتمعات الإسلامية هى الاخرى تشهد تغلغل هذه الأصناف؛ الأمر الذى جر عليها الويلات والمصائب. والحق ليس هنالك من وسيلة للحد من أخطار هذه النماذج سوى فى اتباع كلام الإمام عليه السلام وتشخيص هولاء الأفراد وفضح مخططاتهم ومؤامرتهم وتحذير الامّة من الوقوع فى شباكهم أو الاغترار بزهدهم الكاذب.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۷۹

القسم الثالث: الصنف الخامس: أولياء الله

«وَبَقِيَ رِجالٌ غَضَّ أَبْصارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ وَأَراقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نادٍّ، وَخائِفٍ مَقْمُوعٍ وَساكِتٍ مَكْعُومٍ وَداعٍ مُخْلِصٍ وَثَكْلانَ مُوجَعٍ قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ وَشَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجاجٍ أَفْواهُهُمْ ضامِزَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا

وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من ذكر الأصناف الأربعة، تطرق إلى الصنف الخامس، وهم أولياء الله وجنود الحق وأخيار الامّة الذين اقصوا عن المجتمع وعادوا غرباء فيه بفعل تسلم زمام الامور من قبل الأصناف الأربعة المذكورة.

وقد لفت الانتباه إلى عظمتهم بالتعبير عنهم بالرجال، بينما عبر عن الأصناف الأربعة بالناس.

والحق أنّ الإمام عليه السلام يرى الصنف الخامس هو محور المجتمع ويحث أتباعه لان يكونوا ضمن هذا الصنف. فقد قال عليه السلام:

«وبقى رجال غض أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف المحشر».

وقوله:

«غض أبصارهم»

لايراد به إغماض العين، بل النظرة الشمولية والشعور بمسؤوليتهم تجاه الله سبحانه ويوم القيامة، الشعور الذى إرعش قلوبهم وأراق دموعهم.

فليس هنالك أكثر خشية من ذلك اليوم لمن آمن باللّه واليوم الآخر ومحكمة العدل الإلهى،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۰

كيف لا ـ وهو اليوم الذى تطرح فيه الحجب وتبلى فيه السرائر وتتمثل الأعمال التى صدرت من الإنسان طيلة عمره فتنتظر الحساب والجزاء.

ويرى بعض شرّاح نهج البلاغة[۲۷۶] أنّ المرجع فى العبارة المذكورة بمعنى القبر والمحشر القيامة، ولكن بالاستناد إلى التعبيرات القرآنية فان المفردتين وردتا بمعنى واحد، وعليه فيبدو الفارق فى عدم تكرار اللفظ لا المعنى.

والواقع أنّ هذه التعبيرات قد اقتبست من الآية القرآنية الشريفة «رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصار».[۲۷۷]

ثم تطرق عليه السلام إلى مصير هذا الصنف فى المجتمعات التى تسودها الأصناف الأربعة، بحيث لاينجو كل فرد فيه من خمس: النزوح من البلد والتشريد والتغريب، الخوف واللواذ فى زاوية، السكوت والصمت، الاشتباك بفعل عدم إعارتهم الاذان الصاغية وسماع كلماتهم الحق أو الدعوة إلى اللّه باخلاص بعيون باكية وقلوب حرى أملا فى التأثير

«فهم بين شريد[۲۷۸] ناد[۲۷۹] وخائف مقموع ۲۸۰] وساكت مكعوم ۲۸۱] وداع مخلص وثكلان ۲۸۲] موجع».

وبالالتفات إلى «شريد» وناد من مادة ند بمعنى المنفرد الهارب من الجماعة إلى الوحدة[۲۸۳] فانّ العبارات المذكورة إشارة إلى أنّ هولاء الأفراد ليسوا مع بعضهم حتى فى المنفى، وكل واحد منهم قد قذف فى بقعة؛ فالطغاة يخشون حتى اجتماعهم فى المهجر والعبارة «خائف مقموع» إشارة إلى أنّ الطغاة لايكتفون بتهديد هؤلاء الأفراد وإرعابهم، بل لايتورعون عن التضييق

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۱

عليهم واستئصال شأفتهم واجتثات جذورهم.

والعبارة «ساكت مكعوم» أنّ الظلمة لايقتنعون بصمت هؤلاء الأفراد وسكوتهم، بل يسعون دائما لكم أفواههم دون أن ينبسوا ببنت شفة.

والعبارة «داع مخلص» لا تفيد دعوة الناس من أجل نيل المقام والثروة أو ليست هى دعوة دنيوية، بل الدافع من هذه الدعوة هو رضى اللّه وقيل بل المراد بالعبارة والداعى المخلص من يدعو الناس إلى اللّه والارتقاء بالمجتمع.

وأخيراً تشير العبارة «ثكلان موجع» إلى أنّ الحزن والآسى يخترق ظاهرهم ليعيشوه فى قلوبهم وأرواحهم. ثم عرض عليه السلام إلى سائر صفاتهم بعبارات قصيرة بعيدة المعانى يتخللها الاسى والأسف فقال عليه السلام:

«قد أخملتهم [۲۸۴] التقية».

فهؤلاء وإن كانوا مجاهدين أشداء، ولكن لما كان جهادهم لاينطوى سوى على أبادتهم فلم يعد أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى التقية؛ التقية التى تؤدى بهم فى خاتمة المطاف إلى العزلة والانطواء ليراهم الأعداء على أنهم أفراد جبناء، كما يراهم الأصدقاء خاملين ليسوا بذات قيمة، والحال أنّ الظروف تجعل من تقيتهم جهاداً ونهوضاً بالوظيفة

«وشملتهم الذلة» هم أعزة عند اللَّه وفى أنفسهم إلّاأنّ غياب القيم والمثل فى المجتمع جعله يراهم ضعفاء أذلة «فهم فى بحر أجاج».[۲۸۵]

كيف لايعومون فى بحر مالح لايسعهم شرب ماء والامّة لم تقف إلى جانبهم وتدعم نهضتهم

«أفواههم ضامزة[۲۸۶]، وقلوبهم قرحة».

ليس هنالك من قلق لدى الأفراد الذين يعيشون اللاابالية فى مثل هذه المجتمعات، ولايقلقهم سوى منافعهم الشخصية، أمّا المجاهدون الذين تكف أفواههم بالقوة، إنّما يتحرقون المأ وقلوبهم تشعر عمق الفاجعة ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة[۲۸۷] إلى أنّ المراد بقلوبهم قرحة أنّها تخاف اللَّه، بينما تشير قرينة الكلام إلى أنّ قروح قلوبهم إنّما تعزى الى الفساد الذى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۲

لايستطيعون القضاء عليه ولعل هناك من ينسب هذه المفردات من قبيل الضعف والعجز والسكوت والتقية إليهم كنتيجة لأعمالهم وعدم قيامهم فى الوقت المطلوب، ومن هنا نبه الإمام عليه السلام إلى إزالة هذا الظن فقال عليه السلام:

«قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلّوا».

فقد خاضوا الجهاد على كافة المستويات وبشتى الطرق والاساليب، من خلال الوعظ باللسان إلى جانب النهضة المسلحة وتقديم الضحايا حتى كثر القتل فى صفوفهم فقل عددهم، وذلك لأنّه لم يكن لهم نصير و لم يكن هنالك من توازن فى القوى مع أعدائهم الذين يفوقونهم عددا وعدة. فقد قاتلوا على أمل تحقيق النصر وإجتثاث جذور الفساد ولم تبق منهم إلّاقلّة لم يكن أمامها سوى التقية حفظا لنفسها ودينها.

والعبارة «قتلوا حتى قلوا» لا- تعنى أنّهم وتروا ولم يبق منهم إلّاالقليل، بل تعنى أستشهد فريق منهم وبقى فريق آخر، والعبارة من قبيل إسناد أوصاف الجزء إلى الكل.

وهنا يطرح هذا السؤال: الاستضعاف المذكور يتعلق بأى زمان، والإمام عليه السلام كان هو الذى يحكم المجتمع؟ وتأمل تأريخ عصر الإمام عليه السلام يوضح الاجابة على هذا السؤال، كما ورد ذلك فى بعض كلماته من أنّ الفساد الاجتماعى كلمة فى عصره بلغ درجة بحيث خفت شعاع شمس حكومة الإمام عليه السلام فى الكوفة وأطرافها، وقد اجتمعت لكمة سائر المناطق من قبيل الشام ومصر التى عاشت ذروة الشر والفساد والانحراف على إقصاء الصالحين عن مرح الأحداث.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۳

القسم الرابع: الاتعاظ بالماضين

«فَلْتَكُنِ الدُّنْيا فِى أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثالَةِ الْقَرَظِ وَقُراضَةِ الْجَلَمِ وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَارْفُضُوها ذَمِيمَةً، فَإِنَّها قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كانَ أَشْغَفَ بِها مِنْكُمْ».

الشرح والتفسير

يـدعو الإمام عليه السـلام الناس فى ختام هذه الخطبة بعبارات مقتضـبة بعيده المعانى إلى الزهد فى الدنيا بصـفته مفتاح سـعادة الإنسان بعد أن ذكر صـفات الأصناف الأربعة الأثيمة والصنف الخامس الذى يمثل الاتقياء من أولياء اللّه، مؤكدا على أن البؤس والشقاء الذى طال الأصناف الأربعة إنّما يستند إلى حب الدنيا والتعلق بزخارفها.

فقال عليه السلام:

«فلتكن الدنيا فى أعينكم أصغر من حثالة[۲۸۸] القرظ وقراضة[۲۸۹] الجلم ۲۹۰]».

والتشبيهات رائعة غايـة فى الدقـة، فالقرظ (على وزن مرض) بمعنى ورق الأشـجار الذى يسـتفاد منه لدبغ الجلود حتى يشدها ويجعلها أكثر فائـدة، وبالطبع فإن الحثالة التى تطرح بعد الاسـتفادة تكون قذرة ومتعفنة ومدعاة للنفرة، وكذلك حين تقص أصواف الحيوانات تطرح بعض القطعات الصغيرة منه على الأرض دون أن يكون لها أدنى فائدة. فالتشبيه الأول

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۱۸۴

استبطن النفرة والثانى التفاهة وعدم القيمة والاعتبار، والإمام عليه السـلام يوصـى بأن تكون الدنيا أهون من هذا فى الأعين، الدنيا التى أدى عشق أموالها إلى ظهور القوارين، وعشق مناصبها إلى ظهور الفراعنة والطواغيت الظلمة، وأنّ حبّها رأس كل خطيئة.

من جانب آخر فقد أشار عليه السلام إلى قصر مدة الدنيا وضرورة الاتعاظ بها

«واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم».

لقـد جمعوا لها وجهـدوا من أجلها وانصـرفوا، ولم تعـد قصورهم الخاويـة وتيجانهم الباليـة وقـدرتهم الجوفاء التى خلفوها هنا وهناك سوى عبرة لمن اعتبر، فان اعتبربها فهو المطلوب، وإلّا ستكونون أنتم عبرة يعتبر بكم من يأتى بعدكم.

القرآن الكريم من جـانبه لم ينفـك عن دعوةالنـاس للاعتبار بالماضـين، فقـد أورد عبارات توقظ الضـمير وتهز الاعماق بشأن الفراعنة وضرورة الاتعاظ بهم «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ* وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ* كَذ لِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ* فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ».[۲۹۱]

غير أنّه من المؤسف أن بنى إسرائيل لم يعتبروا بهذه الدروس حتى أصبح مصيرهم عبرة لغيرهم.

ثم قال عليه السلام: وارفضوها ذميمة، فانّها قد رفضت من كان أشغف ۲۹۲] بها منكم».

ومن الطبيعى أن يكون مراد الإمام عليه السـلام بهـذه الدنيا المذمومة هى الدنيا التى تقود صاحبها إلى الظلم والطغيان والهوى والفساد لا الدنيا التى تشكل الجسر لعبور أولياء الله إلى الآخرة.

كلام السيد الرضى

قال الشـريف الرضـى: وهذه الخطبة ربما نسـبها من لاعلم له إلى معاوية، وهى كلام أميرالمؤمنين عليه السلام الذى لايشك فيه، وأين الـذهب من الرغام، وأين العـذب من الاجاج! وقد دل على ذلك الدليل الخريت ونقده الناقد الباصـر عمرو بن بحر الجاحظ، فانّه ذكر هذه الخطبة

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۱۸۵

فى كتاب البيان والتبيين وذكر من نسبها إلى معاوية، ثم تكلم من بعدها بكلام فى معناها، جملته أنّه قال: وهذا الكلام بكلام على عليه السـلام أشـبه، وبمـذهبه فى تصـنيف الناس، وفى الأخبار عما هم عليه من القهر والاذلال، ومن التقية والخوف، أليق. قال: ومتى وجدنا معاوية فى حال من الأحوال يسلك فى كلامه مسلك الزهاد ومذهب العباد.

الدنيا فى عين أولياء الله.

ماورد فى الخطبة بشأن الأصـناف الخمسة فى عصر الإمام عليه السلام (من يقعد به عن طلب الإمرة قلّة ماله، ومن يطلب الامارة ويفسد فى الأرض، ومن يظهر ناموس الـدين ويطلب به الدنيا، ومن لامال له أصـلًا ويطلب الملك ولايطلب الدنيا، وأولياء اللّه الاتقياء الأبرار)

لا يقتصر على عصر الإمام عليه السلام وزمانه، وهم متواجدون فى كافة المجتمعات الماضية والمعاصرة والآتية، وإنّ كافة المشاكل التى تعانى منها المجتمعات إنّما تنشا من الأصناف الأربعة المذكورة، التى سفكت الدماء وأحرقت الاخضر واليابس وجرعت اتباع الحق صنفوف الأذى والعذاب.

مع ذلك فان الدنيا لم تف لهم وقد أتت عليهم حتى آخرهم ليكونوا عبرة لمن بعدهم.

أما العبارات التى أوردها الإمام عليه السلام بشأن كل صنف وعلاماته وصفاته جعلت من اليسير التعرف عليهم.

ولما كان حبّ الدنيا والتعلق بحطامها هو مصدر الشر والفساد الذى سلكته هذه الأصناف، فانّ الإمام عليه السلام إختتم خطبته بتصوير حقيقته الدنيا بما يجعل العاقل لا يعيرها أدنى أهمية، فقد وصفها بادى ذى بدء بانها اتفه من حثالة القرظ (و هو ما يسقط من ورق السلم أو ثمر السط يدبغ به ممّا لا خير فيه ولا قيمته له)، ثم أشار إلى تقلب حال الدنيا وعدم دوامها وكيف قضت على الماضين وجعلتهم عبرة للآخرين.

فقد ورد فى حديث أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مر بجثة حيوان متعفنة ملقاة على الطريق فأومأ إليها قائلًا: أترون هذه هنية على أهلها؟ فو اللَّه الدنيا أهون على اللَّه من هذه على أهلها» ثم واصل صلى الله عليه و آله حديثه عن الدنيا قائلًا: الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له وشهواتها يطلب من لافهم له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لايقين له»[۲۹۳].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۶

وجاء فى حديث أن الدنيا مثلت للمسيح عليه السلام كعجوز شمطاء فسألها: كم تزوجت.

قالت: كثير. كلهم طلقت. قالت: بل كلهم قتلت. قال عليه السلام: يا ويح أزواجك الباقين، ألا يتعظون بازواجك الماضين ۲۹۴]».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۷

الخطبة[۲۹۵] الثالثة و الثلاثون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

عند خروجه لقتال أهل البصرة، وفيها حكمة مبعث الرسل، ثم يذكر فضله ويذم الخارجين.

قال عبد اللَّه بن عباس: دخلت على أميرالمؤمنين عليه السلام بذى قار وهو يخصف ۲۹۶] نعله فقال لى:

«ما قيمة هذا النعل؟».

فقلت:

«لا قيمة لها!»

فقال عليه السلام:

«و اللَّه لهى أحب إلىّ من أمرتكم ۲۹۷] إلّاأنت أقيم حقا أو أدفع باطلًا»

. ثم خرج فخطب الناس.

نظرة إلى الخطبة.

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة فى ظل ظروف دعا فيها أصحابه للتعبئة وإطفاء نار الفتنة التى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۸

أشعلها طلحة والزبير فى البصرة.

وقد أطلق الإمام عليه السلام- قبل إيراد الخطبة- تلك العبارات التاريخية الخالده لابن عباس؛ العبارات التى تتحدث عن سمو روح الإمام عليه السلام ومقامه الشامخ ومدى معرفته بالله سبحانه، فقد قال عليه السلام

«واللّه لهى- النعل- أحب إلى من إمرتكم الا أن اقيم حقا أو أدفع باطلًا».

هذه هى أهداف الإمام عليه السلام من الامرة والخلافة. ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلى بيان خصائص العصر الجاهلى وانبثاق الدعوة الإسلامية، فى اشارة إلى بروز مبادى العصر الجاهلى ثانية وانه لابدّ أن يقتفى آثار رسول اللّه صلى الله عليه و آله ويقتدى بهديه فيقبر الفتن ويبقر الباطل ليخرج منه الحق.

ثم إختتم عليه السلام الخطبة بذم طائفة من قريش ممن أشعلوا نار الجمل ولم تكن دوافعهم من تلك المعركة سوى الحسد والبغض وحب الدنيا.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۸۹

القسم الأول: دحر الباطل

اشارة

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً وَلا يَدَّعِى نُبُوَّةً فَساقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ وَبَلَّغَهُمْ مَنْجاتَهُمْ فاسْتَقامَتْ قَناتُهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ- أَما وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَفِى ساقَتِها حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذافِيرِها ما عَجَزْتُ وَلا جَبُنْتُ وَإِنَّ مَسِيرى هَذا لِمِثْلِها: فَلأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- كما ذكرنا- إلى بعثة النبى الإكرم صلى الله عليه و آله وظهور الدعوة الإسلامية فى الجزيرة العربية وكيف كانت حياة الناس فى العصر الجاهلى وكيف أصبحت إبان انطلاقه الدعوة، ومدى السعادة التى ظفروا بها، فقال عليه السلام:

«إنّ الله بعثت محمداً صلى الله عليه و آله وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعى نبوة».

أثار بعض شرّاح نهج البلاغة هذا السؤال: كيف يقال لم يكن لاحد من العرب كتاباً سماوياً ولم يكونوا يتبعون نبياً من الأنبياء، والحال كانت طائفة من اليهود والنصارى تعيش هناك ولديها التوراة و الانجيل؟ ثم أجابوا على السؤال من خلال الاشارة إلى تحريف التوراة والانجيل، وعليه فلم يكن لديهم كتاباً بالحق، كما أن اليهود والنصارى كانوا أتباعاً كاذبين، ثم إستدلوا على ذلك بالاية الكريمة «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتابَ الَّذِى جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً».[۲۹۸]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۰

كما إحتمل البعض أن يكون المراد بذلك العرب الذين كانوا يشكلون الأكثرية وكانوا على الشرك والوثنية.

الإجابة الاخرى التى يمكن الرد بها على ذلك السؤال أنّ اليهود لم يكونوا من سكنة الجزيرة العربية بمعنى المواطنة، بل تفيد السير التأريخية أنّهم حين قرأوا فى كتابهم البشارة بظهور نبى الإسلام وأنّ ظهوره بات وشيكا قدموا هناك لدركه، وإن شعروا فى ما بعد بالخطر على مصالحهم فسلكوا سبيل النفاق وعادوا النبى صلى الله عليه و آله، النصارى أيضاً كانوا من المهاجرين ويشكلون الاقلية هناك.

على كل حال فانّ الإمام عليه السلام أشار إلى إبتعاد الأقوام الجاهلية عن أجواء الوحى والنبوة، الأمر الذى يصور مدى غرقهم فى

وحل الشرك والفساد.

ثم تطرق عليه السلام إلى الأوضاع التى بلغوها فى ظل إنبثاق الدعوة والاستضاءة بنور الوحى وبزوغ شمس الإسلام

«فساق الناس حتى بوأهم محلتهم وبلغهم منجاتهم»[۲۹۹]

فهو لم يخلصهم من الشرك والكفر و الانحراف العقائدى وينقذهم من الفساد الأخلاقى والظلم والجور وسوء العدل فحسب، بل أخذ بيدهم إلى حيث القوة والعزة والحكومة والحضارة والمدنية، ومن هنا قال عليه السلام

«فاستقامت قناتهم ۳۰۰] واطمأنت صفاتهم ۳۰۱]».

وعليه فقد ظفروا بالنصر المعنوى إلى جانب شمولهم بالنعم المادية و ما ذلك إلّاببركة النبى صلى الله عليه و آله ونزول القرآن الكريم والتعبير بمحلتهم إشارة إلى المنزلة الراقية التى ينبغى أن يبلغها الإنسان الفاضل، ومنجاتهم إشارة إلى نقطة النجاة التى ليس معها خوف وخشية ولا قستبطن سوى الفلاح والصلاح.

والعبارة «إستقات قناتهم» وعلى اضواء الاستقامة التى تعنى الاستواء والثبات والقناة بمعنى الرمح تعنى القوة والقدرة والانتصار على العدو.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۱

أمّا بعض شرّاح نهج البلاغة فقد ذهب إلى أنّ الاستقامة هنا تشير إلى الرمح كناية عن أنتظام الامور ونظم الحكومة والدولة والمجتمع والقوة والمنعة، ولكن لما كان الرمح عادة مستقيم وإذا إعوج كسر ولا يمكن تسويته (لأنّه يصنع عادة من الخشب لا الفزات)، فانّ العبارة يمكن أن تكون إشارة إلى اطمينان البال واستقرار الذهن؛ لانّ الجنود يغرسون حرابهم فى الأرض وتبقى مستوية مستقيمة حين الهدوء والاستقرار؛ الأمر الذى يفيد أنّهم كانوا آمنين من حملات العدو.

أمّا العبارة «إطمأنت صفاتهم» فهى تشير إلى إستحكام منزلتهم فى ظل ظهور الإسلام ونهضة رسول اللّه صلى الله عليه و آله بحيث إستقرت حياتهم الفردية والاجتماعية.

فالصحارى التى كانت تردد عليها العرب، كانت مليئة بالرمال والحصى المتحركة بحيث يصعب إجتيازها، بينما تسهل حركته وذهابه وايابه وجلوسه إذا إستقر على حجر كبير واسع ومحكم ومستقيم.

ثم قال عليه السلام:

«أمّا واللّه إن كنت لفى ساقتها[۳۰۲] حتى تولت بحذا فيرها[۳۰۳]».

ففى الاوضاع التى يكون فيها الجيش مستجد أو العدو قوى بحيث يحتمل التقهقر والانسحاب، فان آمر الجيش يجعل بعض مساعديه الشجعان فى المؤخرة ليسوقوا الجيش إلى الإمام ويحثونهم على التقدم كما يحولوا دون تراجعهم.

وكأنّ الإمام عليه السلام أشار إلى هذه المسألة فى أن النبى صلى الله عليه و آله قلدنى مسئؤلية فى سوق الجيش إلى الإمام وتجاوز المخاطر والمشاكل التى تواجهه، أو المراد أنّى والنبى صلى الله عليه و آله فى موخرة هذا الجيش ونسوقه إلى الإمام وقرينة ذلك قوله فساق الناس» على كل حال فانّ كل هذه إشارات إلى عصر نهضة النبى الإكرم صلى الله عليه و آله والدور الهام الذى لعبه الإمام على عليه السلام فى إنتصار الجيش الإسلامى على معسكر الكفر والشرك.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۲

وفى إشارة إلى قيامه بوظيفته على أحسن وجه وبلائه الحسن قال «ما عجزت ولاجبنت» فمن البديهى أنّ الانسحاب إنّما يستند إلى الضعف والعجز أو الخوف والرعب، فقوله عليه السلام

«ما عجزت ولا جبنت»

يتضمن نفيه لعوامل الضعف والتقهقر.

ثم يربط عليه السلام هذه المقدمة بذى المقدمة فالإمام عليه السلام أشار إلى نقطة مهمّة وهى أنّ الامّة الإسلامية آنذاك بدأت تعود إلى الافكار والسنن الجاهلية وهى تبتعد كل يوم أكثر من ذى قبل عن مسيرة النبى صلى الله عليه و آله والقرآن والإسلام، ونموذج ذلك الحركة الظالمة لمشعلى نار الجمل من أجل الحصول على المناصب من خلال نكث البيعة وسفك دماء المسلمين.

فقد أراد الإمام عليه السلام الوقوف بوجه هذه العودة إلى الجاهلية وتجديد رسالته ووظيفته التاريخية فى الحفاظ على المسيرة الإسلامية.

ومن هنا قال

«فلا نقبن ۳۰۴] الباطل حتى يخرج الحق من جنبه.»

وبالالتفات إلى أن «أنقبن» من مادة «نقب» بمعنى ثقب الشئ وشقه، فانّ العبارة تشير إلى حقيقة هى أنّ الحق لايظهر ما لم تتبدد حجب الباطل، بعبارة اخرى فانّ الباطل يسعى على الدوام ليغطى على الحق وبكتمه، فاذا شقت حجب الباطل، تنفس نور الحق واتضح عياناً للجميع. ويمكن أن تكون العبارة إشارة الى قيام أساس العالم على الحق، وإنّ الحق كامن فى باطن كل موجود، ولاسيما فى الفطرة البشرية، بينما الباطل أمر عارض طارىء على الإنسان.

فاذا زال هذا العارض ظهر الحق من باطن الأشياء. وقد ورد مثل هذا المعنى فى الخطبة ۱۰۴

«وآيم الله لابقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته».

تأمّلات

اشارة

نفحات الولاية ؛ ج۲ ؛ ص۱۹۲

۱- من أخبار يوم ذى قار

كما ورد فى شرح الخطبة فان «ذى قار» موضع بين البصرة والكوفة شهد معركة قبل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۳

الإسلام بين العرب والجيش الساسانى الذى هزم فى المعركة وانتصر فيها العرب.[۳۰۵] وقيل فى تسميته أنه كان فيها بئراً ماؤه أسود كالقير.

عن ابن عباس، قال: لما نزلنا مع علىّ عليه‌السلام ذا قار، قلتُ: يا أميرالمؤمنين، ما أقلّ مَنْ يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ! فقال: واللَّه لَيأتينّى منهم ستة آلاف وخمسمائةٍ وستون رجلًا؛ لا يزيدون ولا ينقصون.

قال ابن عباس: فدخلَنى واللَّه من ذلك شكٌّ شديد فى قوله، وقلت فى نفسى: واللَّه إن قدِمُوا لأعَدّنّهم.

ثم نفَر إلى علىّ عليه السلام إلى ذِى قار من الكوفة فى البحر والبرّ ستةُ آلاف وخمسمائة وستون رجلًا. أقام علىّ بذى قار خمسة عشر يوماً، حتى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله. قال: فلما سار بهم منقلة، قال ابنُ‌عباس: واللَّهِ لأعُدّنّهم، فإن كانوا كما قال، وإلّا أتممتُهم من غيرهم؛ فإنّ النّاس قد كانوا سمعوا قوله. قال: فعرضتُهم فو اللَّه ما وجدتُهم يزيدون رجلًا، ولا ينقصون رجلًا، فقلت: اللَّه

أكبر! صدق اللّه ورسوله! ثم سرنا.

لعل كلام إبن عباس إشارة إلى أن الإمام عليه السلام سمع هذه الأمور من رسول الله صلى الله عليه و آله ثم أخبر بها.

قال ابن أبى الحديد بعد ذلك: فلما قدم أهلُ الكوفة على علىّ عليه السلام، سلّما عليه، وقالوا: الحمدُللّه يا أميرالمؤمنين، الّذى اختصَّنَا بموازرتك، وأكرَمنا بُنصرتك؛ قد أجبناك طائعين غيرَ مكرهين، فمرْنا بأمرك.

قال: فقام فحمداللّه وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال:

مرحباً بأهل الكوفة، بيوتاتِ العرب ووجُوهها، وأهل الفضل وفرسانها، وأشدِّ العرب مودّة لرسول اللّه صلى اللّه عليه ولأهل بيته.[۳۰۶]

۲– جاهلية العرب

مهما قيل ويقال بشأن عظمة الإسلام وانبثاقه وسط امّة متخلفة ومتعصبة فهو قليل. فقد

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۴

إنطوت الامّة فى العصر الجاهلى على سلسلة من الانحرافات والصفات الرذيلة، ونكتفى هنا بالاشارة فقط إلى التعصب الذى كان سائدا آنذاك والذى لم يكن يسمح لأفكار الآخرين باختراقه.

ويعتقد أحد المحققين المسيحيين بالارتباط الوثيق بين التعصب الجاهلى ومناخ الحجاز، فيقول:

«تتصف تلك المنطقة بالجفاف، فكانت طبيعة الناس هى الاخرى الصلابة والشدة، وكان من الاعجاز تسلل الأفكار الإسلامية إليه».

وإذا أضفنا إلى ذلك الجهل والابتعاد عن العلم وهبوط المستوى الفكرى والضحالة الثقافية والتلوث بأنواع الخرافات التى تدعو إلى التعصب والعناد لأدركنا حجم الاعجاز فى هدايتهم وانتشالهم من تلك الدوامة.

وقد تعرض القرآن الكريم إلى جانب من تلك العصبية، ومن ذلك قوله «سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ»[۳۰۷] وقوله «وَ إِذ قالُوا اللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً ...».[۳۰۸]

وتشير أسباب نزول مثل هذه الآيات إلى عمق التعصب الذى كان يحكمهم بحيث كانوا مستعدين للتضحية بانفسهم تعصبا حقا إن هداية مثل هذه الاقوام تبدو من المعاجز الكبرى؛ الأمر الذى أشيرله فى الخطبة المذكورة، وإن عادت تلك الامّة للأسف بعد رحيل النبى الإكرم صلى الله عليه و آله بمدّة قصيرة إلى جاهليتها الاولى وتسلمت بعض المناصب الحساسة فى الحكومة الإسلامية لتذهب جهود النبى صلى الله عليه و آله أدارج الرياح، ومن هنا فقد سعى الإمام عليه السلام جاهداً لاعادة الامّة إلى عصر الرسالة.

۳– حديث خاصف النعل

لقد ورد فى بداية الخطبة عبارة «يخصف نعله» التى تذكرنا بحديث النبى صلى الله عليه و آله بشأن فضائل على عليه السلام خاصف النعل. حيث جاء فى سنن الترمذى أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله كان يكلم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۵

مشركى قريش فخاطبهم قائلًا:

«لتنتهن أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين قد إمتحن الله قلبه للايمان»

فسأله من حضر: ومن ذاك؟ وسأله أبوبكر: من هو؟

وسأله عمر: ومن هو؟ فقال صلى الله عليه و آله: هو خاصف النعل: حيث كان على عليه السلام يخصف نعلى رسول الله صلى الله عليه

و آله ... ثم نقل الترمذى عن أبى عيسى أنّه حديث صحيح.[۳۰۹]

ومن الطبيعى أنّ ذلک العمل الذى صدر من الإمام علیه السلام على عهده وعهد النبى صلى الله علیه و آله إنّما يفيد تواضع الإمام علیه السلام للناس وانصرافه عن الدنيا.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۷

القسم الثانى: مالى ولقريش؟

اشارة

«ما لِى وَلِقُرَيْشٍ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ قاتَلْتُهُمْ كافِرِينَ وَلَاقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ وَإِنِّى لَصاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَما أَنا صاحِبُهُمُ الْيَوْمَ! وَاللَّهِ ما تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ اخْتارَنا عَلَيْهِمْ، فَأَدْخَلْناهُمْ فِى حَيِّزِنَا فَكَانُوا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

أَدَمْتَ لَعَمْرِى شُرْبَکَ الْمَحْضَ صابِحاًوَأَكْلَکَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةَ الْبُجْرا

وَنَحْنُ وَهَبْناکَ الْعَلاءَ وَلَمْ تَكُنْعَلِيّاً وَحُطْنا حَوْلَکَ الْجُرْدَ وَالسُّمْرا».

الشرح والتفسير

يشير الإمام علیه السلام هنا إلى طبيعة علاقته فى السابق والحاضر بقريش، لأنّه أورد هذه الخطبة على هامش موقعة الجمل: حيث نعلم بأنّ مؤججى نار الجمل هم طلحة والزبير وسائر الأفراد من قريش الذين خططوا لهذه المعركة بدافع من أحقادهم تجاه الإمام علیه السلام. فقد كانوا يديرون هذه المعركة علانية أو خفية ومن هنا فانّ كلمات الإمام علیه السلام تضمنت تحذير الامّة من عدم الوقوع فى شباكهم إلى جانب تنبيهها إلى الدوافع الأصلية لهذه المعركة، فاستهل علیه السلام كلامه قائلًا:

«مالى ولقريش؟ والله لقد قاتلتهم كافرين ولا قاتلتنهم مفتونين ۳۱۰]»

نعم فهؤلاء كانوا على الشرک، وقد التحقوا بالمسلمين بسيف على علیه السلام ودعوة النبى صلى الله علیه و آله، إلّاأنّهم وبعد وفاة النبى صلى الله علیه و آله وبدافع من حب الجاه قد إبتعدوا عن الحق حتى هبوا لقتال وصى رسول الله صلى الله علیه و آله بعد أن بايعوه طواعية.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۸

مفتون من مادة فتن بمعنى الانحراف كما تأتى بمعنى الشرک والكفر، ولعلها تشير فى العبارة إلى انحرافهم عن الإسلام نحو الكفر وقد ورد فى الرواية عن رسول الله صلى الله علیه و آله أنّه قال لعلى علیه السلام:

«يا على حربک حربى وسلمک سلمى»[۳۱۱]

. وعلى ضوء هذا الحديث فقد خرج من ربقة الإسلام من قاتل علياً علیه السلام فى الجمل وصفين ونهروان؛ لأن ممّا لاشک فيه هو كفر من قاتل النبى صلى الله علیه و آله. وهنا يمكن أن يطرح هذا السؤال: لو كان الأمر كذلک لوجب على جيش على علیه السلام فى الجمل أن يأسر من هب لقتاله ويستولى على أموالهم كغنائم، بينما لم يعاملهم الإمام علیه السلام كذلک؟

قيل فى الجواب لقد كان للاماماً علیه السلام الحق فى أن يفعل هكذا، إلّاأنّ بعض الامور من قبيل شرائط الزمان والمكان جعلته ينصرف عن هذا الأمر. أضف إلى ذلک فانّه ليس هنالک من ضرورة فى تكافى أحكام جميع الكفار، فممكن أن يستثنى من حكم الأسر ومصادرة الأموال كغنائم حربية هذه الطائفة من المسلمين التى خرجت على إمام زمانها ودخلت الكفر. فقد جاء فى بعض الروايات أن مروان بن الحكم.

قال: إنّ علياً عليه السـلام أعاد الأموال إلى أهلها لما غلبنا فى البصرة، فكان يعيد أموال كل من أقام البينة أو يأتى بالشهود، ويحلف من ليس له بينة. ولما سئل عن توزيع الغنائم سكت ثم قال:

أيّكم يأخذ أُمّه فى سهمه ۳۱۲].

وتفيد بعض الروايات أنّه عفى عن أهل البصرة كما فعل رسول الله صلى الله عليه و آله حين فتح مكة. كما يستفاد أنّه لم يرد أن تكون هذه المسئلة سنة، لأنه كان يعلم بان شيعته ستخضع لضغوط الظلمة ولعلها تعاملهم بهذه المعاملة[۳۱۳].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۱۹۹

على كل حال فان مراد الإمام عليه السـلام من هـذه العبارة أنّه لا يكن أى بغض أوعداء لقريش، أما بذور حسدهم للإمام عليه السـلام فسببها وقوف الإمام عليه السلام بوجههم فى ميادين صراع الحق ضد الباطل إبان إنبثاق الدعوة الإسلامية، ولم يكن ذلك سوى إمتثالا لأوامر الله. ثم قال عليه السلام:

«وإنى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم»

فما زال السيف الذى جندلت به الابطال فى بدر وأحد والاحزاب بيدى، فالوا قع هذا تهديد صريح لمؤججى نار الجمل.

وتساءل البعض أن مثل هذا الكلام يصدق على معاوية و عمرو بن العاص ومروان وأمثالهم الذين هبوا لقتال رسول الله صلى الله عليه و آله، إلّاأنّه لا يصـدق على طلحة والزبير، فقـد وقفا إلى جانب رسول الله صـلى الله عليه و آله فى معاركه. وقد أجيب على هذا السؤال بأن الإمام عليه السـلام لم يرد شـخصاً معيناً، إلّا أنّ الهـدف بيان حقيقـة أنّه كان يقاتل فى سبيل الحق ضـد الباطل على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله ومازال بعد النبى صـلى الله عليه و آله يقاتل فى هذا السبيل (ونعلم أن قريشاً كانت تقاتل آنذاك ضد المسـلمين). أضف إلى ذلك صـحيح أنّ طلحة والزبير كانا مع رسول الله صـلى الله عليه و آله، إلّاأنّ أغلب أصـحابه الجمل ومنهم مروان كانوا من قريش. ثم أشار عليه السلام إلى أحد دوافع أصحاب الجمل فقال

«والله ما تنقم منا قريش إلّاأنّ الله إختارنا عليهم، فأدخلناهم فى حيزنا»

ثم وصفهم بأنّهم أصبحوا كما قال الشاعر[۳۱۴].

أدمت لعمرى شربک المحض ۳۱۵] صَابحا

وأكلک بالزبد[۳۱۶] المقشرة[۳۱۷] البجرا[۳۱۸]

ونحن وهبناک العلاء ولم تکن عليا وحطنا حولک الجرد[۳۱۹] والسمرا[۳۲۰]

نعم فهؤلاء يحسدوننا ويبغون علينا، إلّاأنّ إرادة الله هى التى إختارتنا للنبوة والإمامة،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۰

مع ذلک لم نعاملهم بالمثل فقد عفونا عن أخطائهم وحفظنا هم من الاعداء، إلّاأنّهم لم يتنكروا لهذه النعمة فحسب، بل شهروا سيوفهم علينـا وهبوا لقتالنـا، فقـد قطعوا الرحم وقابلوا الاحسان بالجحود وأشـعلوا نار حرب الجمل فسـفكوا الـدماء وزرعوا الفرقـة فى صـفوف المسلمين.

فقريش تشبه بعملها هذا ذلک الحسود الذى يعترض على حكمة الله، فقد قال سبحانه «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ»[۳۲۱].

وقال «أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً»[۳۲۲].

وقـال «قُلِ اللَّهُمَّ مالِـکَ المُلْکِ تُؤْتِی المُلْکَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ المُلْکَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُـذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَـدِکَ الخَيْرُ إِنَّکَ عَلى كُلِّ شَیءٍ قَدِيرٌ»[۳۲۳].

ومن الطبيعى أنّ الإنسان المؤمن بالمفاهيم القرآنيـة والاصول الإسـلامية لا يشـعر بالحسد تجاه من يشـمله الله على ضوء حكمته بالنبوة والإمامة، فلا يرى نفسه سوى مسلهم لهذه الحكمة.

الحسد مصدر الاضطراب الاجتماعی

قلما نجد صفة رذيلة كالحسد كانت السبب وراء هذه الأحداث الأليمة والفجائع المأساوية التی شهدتها المجتمعات البشرية طيلة التأريخ. فأغلب الناس إثر قلّة العلم وهبوط المستوى الثقا فی وضعف الإيمان وعدم الثقة بالنفس ما إن يرى بعض النجاحات التی يحققها أقرانه أو أمثاله حتى تشتعل فی قلبه فتائل الحسد فلا- يهم سوى فی كيفية تحطيم نفسية المقابل عن طريق الاتهام والتحقير والذم ومحاولة الانتقاص أو إيجاد بعض الموانع والمعوقات فی طريقه، بدلًا من الشعور بالفرح والسرور والاحتذاء به من أجل تحقيق النجاح والتغلب على الصعاب

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۱

والانفتاح على تجاربه وارشاداته. وقد يشتد هذا الحسد حتى يبلغ درجة تدعو إلى إراقة دم المحسود من قبل الحاسد. ولا ننسى هنا أنّ أول دم إريق كان سببه الحسد، الذی دفع بقابيل لقتل أخيه هابيل حيث قبل قربان الثانی ولم يقبل قربان الأول، الأمر الذی تكرر كثيرا فی التأريخ حتى قتل الأخ أخاه والابن أباه وبالعكس.

وهكذا تعود أغلب الحوادث الأليمة التی وقعت فی صدر الإسلام ولا سيما فی عصر خلافة أمير المؤمنين علی عليه السلام إلى الحسد؛ الأمر الذی أشار إليه الإمام عليه السلام فی هذه الخطبة. وقد تعرضت أغلب الروايات إلى ذم هذه الرذيلة التی لا تجر سوى الفساد على المجتمع، فقد قال علی عليه السلام:

«إذا أمطر التحاسد نبت التفاسد»[۳۲۴]

. أما النقطة المهمة التی أرشدت إليها الخطبة فتكمن فی ضرورة عدم مقابلة المحسود للحاسد بالمثل، بل يسعى جاهدا لاطفاء نار الحسد من قلبه من خلال شكر النعمة ومداراة الحاسد وإطفاء حسده بمعاملته بالحب والإحسان، وما أحسن ما قال الشاعر:

إصبر على حسد الحسود فان صبرک قاتلهالنار تاكل نفسها إن لم تجد ما تأكله ۳۲۵].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۳

الخطبة[۳۲۶] الرابعة والثلاثون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فی إستنفار الناس الى أهل الشام بعد فراغه من أمر الخوارج. وفيها يتأفف بالناس، وينصح لهم بطريق السداد.

مناسبة الخطبة

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة كما ورد آنفا بعد فراغه من معركة النهروان. ويستفاد من ظاهر كلام ابن أبی الحديد أن الإمام عليه السلام خطبها فی النهروان، بينما نقل عن نصر بن مزاحم أنّها أول خطبة خطبها بعد قدومه من النهروان لما كره القوم المسير إلى الشام عقيب واقعة النهروان، وأقبلوا يتسللون ويدخلون الكوفة، فلما رأى ذلک دخل الكوفة فخطبهم ۳۲۷].

وصرح البعض من شرّاح نهج البلاغة أن الإمام عليه السلام كان حريص فی النهروان على الحركة إلى الشام دون ضياع الفرصة، لأنّه كان يرى أنّ العودة إلى الكوفة تعنی إسترخاء الجيش وصعوبة تجهزه ثانية، إلّاأنّهم كانوا يتعللون ببرودة الجو ووجود الجرحى وعدم كفاية الأسلحة فلم يطيعوا أوامر الإمام عليه السلام. فاضطر الإمام عليه السلام إلى دخول الكوفة ليجهزهم للقاء

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۴

العدو، ولكن (وكما تكهن سابقاً) تشبثوا بالحجج، فتأثر الإمام عليه السلام وخطب الناس بهذه الخطبة[۳۲۸].

نظرة إلى الخطبة

تعالج هذه الخطبة ثلاثة مواضيع وهى:

۱- التأكيد على جهاد العدو والعواقب الوخيمة لترك الجهاد. والذى يمثل أطول جانب من الخطبة فالإمام عليه السلام يعرض باللوم لأهل الكوفة- فى هذا القسم من الخطبة الذى يشكل معظمها- ويذمهم بمختلف العبارات الشديدة القسوة. وبالطبع فانّ ذلك جاء بعد عدم جدوى كافة الأساليب عن طريق الاستدلال والبرهان والمنطق والمحبة لتعيئتهم للجهاد ومواجهة العدو، فلم يكن أمامه سوى هذا الاسلوب، فقد كان يشبههم أحياناً بالمجانين الذين فقدوا شعورهم وأحاسيسهم فلم يعودوا يدركوا ما يضرهم وينفعهم، وأحياناً اخرى يشبههم بالابل التى ضل رعاتها، ثم يسعى لتعبئتهم من خلال تنبيههم إلى قسوة عدوهم.

۲- عزمه الراسخ فى مجابهة العدو سواء كان هناك من يهب لنصرته أم لم يكن.

۳- الحقوق المتبادلة بين الإمام والامّة، فيعرض بادىء ذى بدء إلى حقوق الامّة على الإمام، فيلخصها فى أربع عبارات، ثم يبين باربع عبارات اخرى حقوق الإمام على الامّة.

وكأن الإمام عليه السلام أراد أن يختتم الخطبة بما يحيل مرارة ذمه حلاوة عل ذلك يجدى نفعاً فى علاج ضعفهم وتقاعسهم.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۵

القسم الأول: لم الخشية من الشهادة؟

اشارة

«أُفٍّ لَكُمْ لَقَدْ سَئِمْتُ عِتابَكُمْ! أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ عِوَضاً وَبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً؟ إذا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهادِ عَدُوِّكُمْ دارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِى غَمْرَةٍ وَمِنَ الذُّهُولِ فِى سَكْرَةٍ يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَوارِى فَتَعْمَهُونَ، وَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لا تَعْقِلُونَ! مَا أَنْتُمْ لِى بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيالِى، وَما أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمالُ بِكُمْ، وَلا زَوافِرُ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ».

الشرح والتفسير

يستهل الإمام عليه السلام خطبته بامطار أهل الكوفه بوابل عتابه ولومه وذمه لتجاهلهم المخاطر التى كانت تهدد البلد الإسلامى وعدم إكتراثهم لها، لعل قصبتهم تهتز فيحولوا دون تفاقم تلك المخاطر. فقد كان أهل الشام يشنون الغارة تلو الغارة على مختلف المناطق الإسلامية ويسفكون دماء المسلمين وينهبون أموالهم وثرواتهم. فقد قال الإمام عليه السلام

«أف لكم ۳۲۹] لقد سئمت ۳۳۰] عتابكم»

ودليل ذلك واضح، فالعتاب ولاسيما من شخص كعلى عليه السلام لابدّ أن يكون له تأثيراً واضحاً فى نفس المعاتبين ودفعهم لاعادة النظر فى أعمالهم الطالحة، إمّا إذا لم يحصل هذا

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۶

التأثير بسبب غفلة المقابل فان تكراره لا ينطوى سوى على الملل والتعب. ثم قال عليه السلام:

«أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا؟ وبالذل من العز خلفا؟»

إنّ هذا سكوتكم المميت وفراركم من الجهاد يدل على أنكم أوبقتم آخر تكم واستبدلتموها ببضعة أيام من الدنيا من جانب، ومن

جانب آخر فقد أفريتم دنياكم، وذلك لانكم استبدلتم العزة والرفعة بالذلة والضعة؟ والحال إن موتاً بعزة أشرف بكثيرمن حياة بذلة؛ الرسالة التى لقنها أولياء الله والزعماء الربانيين أتباعهم على مدى العصور والدهور. فقد قال على عليه السلام فى نهج البلاغة

«فالموت فى حياتكم مقهورين والحياة فى موتكم قاهرين»[۳۳۱]

وقال سيد الشهداء

«ألا وإنّ الدعى بن الدعى قد ركزنى بين إثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة»

ثم خاطب جيش الكوفة

«إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخشون المعاد فكونوا أحراراً فى دنياكم»

فالواقع أنّ عبارات الإمام عليه السلام كانت تمثل دليل سئمه عتابهم وكأنّهم عقدوا العزم على إيثار الذلة والحقارة وغضب الله على العزة والشرف ورضى الله، ومن هنا لم يعد للعتاب من أثر عليهم، حتى سئم الإمام عليه السلام عتابهم. أمّا فى العبارة اللاحقة فيشير الإمام عليه السلام إلى ضعفهم ليلتفتوا إلى أنفسهم فيزيلوا ذلك الضعف فقال عليه السلام:

«إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم، فأنّكم من الموت فى غمرة[۳۳۲] ومن الذهول فى سكرة. يرتج عليكم حوارى ۳۳۳] فتعمهون ۳۳۴]»

. قوله عليه السلام «يرتج عليكم حوارى»- بالنظر إلى الحوار الذى يعنى الكلام المكرر ويرتج من مادة (رت ج) بمعنى يغلق- له معنيان: الأول ما ذكر سابقاً، أى أنّ كلامى المكرر لا يؤثر فيكم فأنكم لا تدركوه، لأنّ باب الفهم أغلق بوجوهكم. والثانى أنّ لسانكم عقد عن جوابى، وذلك لأنّكم لا تمتلكون الرد المنطقى على كلامى- على كل حال فانّ نتيجة المعنيين واحدة تضمنتها العبارة اللاحقة وهى حيرتهم وضلالهم

«وكأن قلوبكم مألوسة[۳۳۵] فانتم لا تعقلون».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۷

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة

«ما أنتم لى بثقة سجيس ۳۳۶] الليالى»

. وبالنظر إلى أن سجيس الليالى»

تعنى ظلمة الليل فانّ معنى العبارة مادامت الليالى بظلامها فليس لى من ثقة بكم، وهى كناية عن الأبدية والخلود، لأن الظلمة لا تفارق الليل أبداً. أما اختيار ظلمة الليل فينطوى على منتهى البلاغة إستنادا إلى أفكار أهل الكوفة وأعمالهم السوداء المظلمة. ثم أكد ذلك بقوله

«وما أنتم بركن يمال بكم ولا زوافر[۳۳۷] عز يفتقر إليكم»

وهكذا أعلن الإمام عليه السلام بهذه العبارات عدم ثقته واعتماده على هذه العناصر الضعيفة بعد أن تطرق لنقاط ضعفهم، أملا فى إثارتهم وتعبئتهم لتوحيد الصف ومجابهة العدو. ودخولهم الميدان بكل قوة وشجاعة.

جدوى الذم واللوم

نرى أنفسنا مضطرين مرة اخرى لملاحقة هذا السؤال: لم كل هذا العتاب واللوم من قبل الإمام عليه السلام- وهو ما هو عليه من العلم والحكمة فى إدارة شؤون الناس- لأهل الكوفة وامطارهم بوابل من الكلمات القاسية العنيفة؟ أفلا يؤدى هذا الكلام الذى ينطوى على العتاب والذم وانعدام الثقة إلى نفرتهم وشدة تعصيّهم وابتعادهم عن الحق؟ ولابدّ من القول فى الجواب أنّ الإمام عليه السلام قد خبر نفسية وروحية أهل الكوفة، وقد أثبت التأريخ أن اهل الكوفة لم يكونوا يتحركون إلّاإذا داهمهم الخطر وعرضهم للزوال بالمرة، بعبارة

اخرى فانّ العتاب لايجدى معهم نفعا ما لم يجرح مشاعرهم ويثير أحاسيسهم.

ويبدو أنّ المجتمعات البشرية إنّما تشتمل دائما على طائفة- وإن كانت ضئيلة- لا تفيق إلى نفسها ما لم تتلق ضربات موجعة متتالية.

ولا يفهم من كلام الإمام عليه السلام إننا ينبغى أن نعتمد هذا الاسلوب تجاه من عاش الغفلة وتخلى عن وظيفته ومسؤوليته؛ لأنّ الأفراد على أنواع: بعضهم يعود إلى نفسه بأدنى إشارة فيستقيم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۸

على الطريق، وبعضهم لايتحرك ما لم توخزه بابرة.

وبناءاً على هذا فان ذلك الاسلوب إنّما يختص بتلك الجماعة بفضله العلاج الأخير لدائهم.

وقد أثبت التاريخ أن ذلك الاسلوب كان قد أثر فى أغلب أهل الكوفة فاندفعوا إلى النخيلة وتأهبوا لقتال أهل الشام، غير أنّ شهادة أميرالمؤمنين عليه السلام على يد عبدالرحمن بن ملجم أشقى الآخرين حالت دون ذلك.

والشاهد الآخر على ذلك أنّ الإمام عليه السلام كان كثيراً ما يثنى على أهل الكوفة أوائل حكومته ۳۳۸]، إلّاأنّهم حين ضعفوا واستقوى عليهم أهل الشام فكانوا يهجمون كل يوم على منطقة من مناطق البلاد الإسلامية، لم ير عليه السلام بدأ من مخاطبتهم بهذا الاسلوب.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۰۹

القسم الثانى: يقظة العدو وسبات النصير

اشارة

«ما أَنْتُمْ إِلَّا كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتُشَرَتْ مِنْ آخَرَ لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللَّهِ سُعْرُ نارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ! تُكادُونَ وَلا تَكِيدُونَ وَتُنْتَقَصُ أَطْرافُكُمْ فَلا تَمْتَعِضُونَ!

لا يُنامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِى غَفْلَةٍ ساهُونَ، غُلِبَ وَاللَّهِ الْمُتَخاذِلُونَ! وَايْمُ اللَّهِ إِنِّى لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى، وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِى طالِبِ انْفِراجَ الرَّأْسِ».

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام عتابه وذمه لعسكر الكوفة

«ما أنتم إلّاكابل ضل رعاتها فكلما جمعت من جانب إنتشرت من آخر»

فالمراد أنّ إرادتكم ضعيفة وأفكاركم مشتتة ولا تميزون مصالحكم، فقد شبههم عليه السلام بالابل لضيق أفقهم وضحالة أفكارهم، وقوله «ضل رعاتها» اشارة إلى عدم طاعتهم لائمتهم وأوليائهم.

ومن البديهى أن هؤلاء الأفراد لايسعهم أن يكونوا قوة أمام العدو ولذلك قال عليه السلام:

«لبئس لعمر[۳۳۹] الله سعر[۳۴۰] نار الحرب أنتم».

فالحرب ظاهرة ممجوجة غير محببة وآثارها خراب البلدان وقتل الإنسان والفقر والجهل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۰

والبؤس والشقاء والتخلف، إلّاأنّ نفس ظاهرة اللوم هذه قد تكون دواءاً حيوياً للمجتمع وذلك حين ينهض العدو ليهضم حقوق الامّة وينشر فى ربوعها الذعر والفساد والانحراف.

فلا يمكن إعادة الأمن والسلام والعدل إلى المجتمع إلّامن خلال الحرب. ومن هنا صرح القرآن الكريم قائلا: «اذن للذين يقاتلون

بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير»[۳۴۱] وقال فى موضع آخر «وَقاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ الَّذِینَ یُقاتِلُونَکَمْ وَلاتَعْتَدُوا إنَ‌اللَّهَ‌لایُحِبُّ المُعْتَدِینَ»[۳۴۲].

وعليه فانّ الإمام عليه السلام إذا أشار إلى الحرب، فانّما ذلك لتكرر إعتداءات وحملات أهل الشام وسفكهم للدماء ونهبهم للأموال بل هبوا فى الواقع لمحاربة وصى رسول الله صلى الله عليه و آله من بايعته الأمّة برمتها.

ومن هنا خاطبهم

«تكادون ولاتكيدون، وتنتقض أطرافكم فلا تمتعضون،[۳۴۳] لا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون».

ومن الواضح أنّ من لايستعد لمواجهة العدو ويتأهب لخططه التدميرية فانّ قراه ومدنه الحدودية إنّما تكون على الدوام مسرحاً لعمليات العدو ليمارس بحق أهلها القتل والدمار ونهب خيراتهم وثرواتهم، وليس هنالك من مصير بافضل من هذا المصير ينتظر اولئك الذين يعيشون الغفلة عن عدوهم.

وما أعظم قساوة إصدار الأحكام بشأن الإمام على عليه السلام واتهامه بالضعف وقلّة التدبير فى الحروب إذا لم يحط بحقيقة أهل الكوفة والضعف والوهن الذى كان سائدا لديهم إلى جانب عدم الطاعة والتمرد الذى طبعت عليه سجيتهم.

بعد ذلك يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة أعمالهم فيقول

«غلب والله المتخاذلون»

نعم فالفشل والهزيمة لا تقتصر على هولاء الذين تصدعت وحدتهم وتخلوا عن مجابهة العدو، بل الهزيمة من القوانين الثابتة التى يمنى بها كل من يعيش هذه المفردات من قبيل الفرقة والنفاق والضعف والوهن وعدم الطاعة.

نفحات الولايئ، ج۲، ص: ۲۱۱

ثم قال عليه السلام:

«وآيم الله ۳۴۴] انى لاظن بكم أن لو حمس ۳۴۵] الوغى ۳۴۶] واستحر[۳۴۷] الموت، قد انفرجتم عن إبن أبى طالب إنفراج الرأس».

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدّة امور بهذا التشبيه: الأول إنّ مكانته وإن كانت بمثابة الرأس من الجسد، ولكن هل للرأس- الذى يعتبر مركز الفكر ويضم العين والاذن واللسان- أن يفعل شيئا دون سائر الاعضاء؟ والثانى: هل من حياة ووجود لهذا الجسد إن فصل عنه الرأس، وإن كان فيه فهل له فعل شئ دون معونة العقل والفكر والسمع والبصر.

وأخيرا يتعذر التئام الرأس بالجسد إذا ما فصل عنه، بينما ليست هنالك مثل هذه الصعوبة فى إلتئام سائر أعضاء البدن.

وعليه فان مراد الإمام عليه السلام هو أنكم تنفرجون عنى وليس لكم العودة إلى اذا حمى الوطيس وأخذكم الخوف فهربتم منى كما احتمل بعض الشرّاح أنّ المراد بقوله:

«أنفراج الرأس»

هو فلق الرأس بضربة السيف التى تأبى الالتئام.[۳۴۸]

عوامل اخرى للضعف والهزيمة

يتطرق الإمام عليه السلام بفضله زعيماً إنسانياً وسياسياً وعسكرياً- فى هذا القسم من الخطبة- إلى العوامل التى تقف وراء الضعف والفشل والهزيمة، فيجملها بعبارات قصيرة بعيدة المعانى وفى مقدمتها التشتت والفرقة وعدم إمتلاك الزعيم الأوحد، الأمر الذى يشاهد بوضوح اليوم فى

نفحات الولايئ، ج۲، ص: ۲۱۲

البلدان الإسلامية، حيث تؤدى الفرقة والانفسام إلى هذه الفوضى والانفلات فى صفوف الامّة.

والطريف فى الأمر أن الجميع يتحدث عن الوحدة، بينما يسهم كل حسب قدرته بتأجيج نيران الفرقة والاختلاف.

والثانى عدم وجود الخطط والمشاريع الصحيحة التى يمكنها مواجهة مخططات العدو الخبيثة والتى أشير إليها بالعبارة «تكادون ولا تكيدون». الثالثالاستهانة ببعض الحوادث الصغيرة- وهى كبيرة فى الواقع- والتى تعرض لها الإمام عليه السلام بقوله

«وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون»

فاغلب الحوادث الصغيرة تكشف عن عمق بعض المسائل المهمة الخفية، فتغيير بسيط فى البدن قد يعكس حالة مستعصية فى باطنه، وهذا ما عليه الحال بالنسبة للقضايا الاجتماعية والسياسية والعسكرية.

فاذا رأينا العدو قد هجم على منطقة حدودية صغيرة، أو إغتال شخصية من البلد، لابدّ أن نعلم بأنّه إنّما يعدّ نفسه لمعركة أكبر وأعنف، وإلّا لما تجاسر وارتكب ذلك العمل.

وعليه لابدّ من الالتفات إلى الأعمال فى بدياتها وعدم الغفلة عن القضايا العضال التى تستبطنها وتختزنها. الرابع يقظة العدو وغفلتنا، فالعدو منهمك على الدوام فى إعداد العِدة والعُدة، بينما ننظر بكل سذاجة إلى الاوضاع القائمة على أنها تمثل السلام العادل والمشرف، فاذا قدر لنا أن نفيق من غفلتنا، رأينا زمام المبادرة قد سلبت من أيدينا. الخامس خوف الموت والفرار من الشهادة فى سبيل الله والتى أشار إليها الإمام عليه السلام بقوله

«وآيم الله! انى لأظن ...».

والواقع إن الإنسان ليغفل عن حقيقة مفادها أن خشية الموت سبب الموت: والاستعداد للتضحية والفداء يعد من أسباب حفظ النفس.

كانت هذه بعض النقاط المهمة المرتبطة بالضعف والهزيمة التى أوردها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة وسنتابع تفاصيل هذه المسألة فى الابحاث القادمة ذات الصلة. فقد تطرق الإمام عليه السلام فى الخطبة الخامسة والعشرين إلى سائر عوامل الضعف والفشل والهزيمة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۳

القسم الثالث: الانفراد فى مجابهة العدو

اشارة

«وَاللَّهِ إِنَّ امْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرُقُ لَحْمَهُ وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ وَيَفْرِى جِلْدَهُ لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ، ضَعِيفٌ ما ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوانِحُ صَدْرِهِ. أَنْتَ فَكُنْ ذاكَ إِنْ شِئْتَ فَأَمَّا أَنَا، فَوَاللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِىَ ذَلِکَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَراشُ الْهامِ، وَتَطِيحُ السَّواعِدُ وَالْأَقْدامُ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِکَ ما يَشاءُ».

الشرح والتفسير

يتحدث الإمام عليه السلام عن العناصر الضعيفة والهزيلة التى تمكن عدوها من نفسها فيقول

«والله إن إمرء يمكن عدوه من نفسه يعرق ۳۴۹] لحمه ويهشمّ ۳۵۰] عظمه و يفرى ۳۵۱] جلده لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح ۳۵۲] صدره»

فالعبارة تبين بصراحة أنّ الضعف والوهن بلغ ذروته فى جيش الكوفة بحيث اندفع العدو يكل ما اوتى من قوة ليسدد له الضربات التى تحز اللحم وتطحن العظام، وهى أروع عبارة تجسد تسلط العدو وتحكمه فى مصير الضعفاء العجزة، كما تضمنت قمة الفصاحة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۴

والبلاغة بحيث تكفى لا ثارة من بقى لديه ثمة إحساس وشعور.

نعم هكـذا كانت سيطرة أهل الشام ومعاملتهم لأهل العراق، لم يرعوا إلّاولا ذمة فى أحد، فكانوا يقتلون الأبرياء ولا يرحمون الضـعفاء وينهبون الأموال والثروات ويخربون البيوت.

فالواقع عمل هؤلاء أشبه بفعل القصابِ بالذبيحة يسـلخ جلدها ويحز لحمها عن عظمها ويعدها لقمة سائغة للأكل. أمّا بعض المفسرين فقـد ذهبوا إلى أنّ كـل عبـارة من هـذه الجمـل الثلاث مسـتقلة، فقوله «يعرق لحمه» تعنى نهب الأـموال و «يهشم عظمه» قتـل الناس و «يفرى جلـده» إشارة إلى الاخلال بنظام المجتمع [۳۵۳]، وبالطبع ليست هنالك من قرينة واضـحة على هذا التفسـير. أمّا الشيخ المرحوم مغنيـة قـد علق فى شـرحه على هذه العبارة فى أننا سـمعنا كثيراً عن المقاومة السـلبية تجاه الطواغيت والظلمة كأن ينتحر الفرد أو يحرق نفسه إلّاأننا لم نسـمع من يستسـلم للعدو إلى الحد الذى يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفرى جلده دون أن يدافع عن نفسه، فليس هنالك أرعب وأشـنع من هذا الخوف بحيث يلقى الجبان الضـعيف بنفسه إلى قصابى البشـرية ليذبحوه بهذه الطريقة ويجعلوه لقمة سائغة لهم [۳۵۴].

كما يحتمل إلّاتكون العبارات الثلاث المـذكورة بشأن فرد واحـد، بل يفعل العـدو هـذه الامور بشأن عدة أفراد كأن يعرق لحم البعض ويهشم عظم الآـخر ويفرى جلـد الثـالث وعلى ضوى هـذا التفسـير يمكن حـل السؤال الوارد بشـأن ترتيب العبـارات فى أنّ الإمام عليه السـلام لم جعل فرى اللحم فى آخر العبارة. فكأنّ جواب الإمام عليه السـلام أنّ جنايات العدو تجاهكم فى مرحلة هى فصل اللحم عن العظم، ثم يتقـدم فى مرحلـة اخرى ليهشم العظم وأخيراً لاـ يبقى أمـامه سـوى فرى جلـد البـدن. وذهب بعض المفسـرين إلى أنّ هـذه العبارات إشارات إلى بعض الحوادث التى وقعت بعد شـهادته عليه السـلام وسـيطرة معاوية وأهل الشام على العراق ولم يرحموا صغيراً ولا كبيراً ولا صـحيحاً ولا مريضاً ولا فقيراً ولا غنياً ولا رجالًا ولا نساءاً[۳۵۵]. ولكن يبدو أنّها ليست مختصة بذلك الزمان، وإن كانت أشد وأقسى آنذاك.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۵

أمّا العبارة

«ما ضمت عليه جوانح صدره»

- بالالتفات إلى أن الجوانح جمع جانحة بمعنى الاضلاع- فالمراد بها القلب، وهدف الإمام من قوله

«ما ضمت عليه جوانح صدره»

بيان روحيـة جيش الكوفة ومدى عجزه. ثم يتطرق الإمام عليه السـلام إلى نقطة مهمّة وأساسـية يكشف فيها عن إتخاذه القرار الحاسـم بشأن المستقبل وما يحمله من أحداث

«أنـت فكن ذاك إن شـئت فأمّـا أنـا فـوالله دون أن أعطى ذلـك ضـرب بالمشـرفية تطير منه فراش [۳۵۶] الهام، وتطيـح [۳۵۷] السواعد والأقدام، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء».

وأمّـا من المخـاطب بقوله عليه السـلام أنت فكن ذاك؟ هنالـك احتمالاـن: الأول أن إنّما خاطب من يمكن عـدود من نفسه كائنا من كان، غير معين ولا مخصـص، والاحتمال الاخر أنّه خاطب بذلك الأشـعث بن قيس، فانّه روى أنّه عليه السـلام قال وهو يخطب ويلوم الناس على تثبيطهم وتقاعدهم:

هلّا فعلت فعل ابن عفان! فقال له:

«إن امرأ مكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفرى جلده. أنت فكن ذاك ...»

فـالواقع هو أنّ الإمـام عليه السـلام فصل نفسه عنهم بعـد أن يأس منهم، فافهمهم أنكم إن آثرتم الاستسـلام للعـدو فسبيلى غير سبيلكم وليس للعـدو عنـدى إلّـا السـيف وسأقـاتله بمفردى، فلكـل وظيفـة وليس أنـا مـن يتقـاعس عن إداء وظيفته، فـان تخليتم عن وظيفتكم ورضـيتم لأنفسكم الذل والهوان والاستسلام للعدو وعرضتم البلد الإسلامى للدمار والابتزاز وخليتم وأهل الشام لينهبوا الأموال ويعتدوا

علی الاعراض، فلیس لی إلّا أن أقاتلهم وحدی وأنا مستعد للشهادة التی لا أوثر علیها شیئاً ولن أشعر بالضعف أبداً. وکأنّ الإمام علیه السلام أراد أن بهذه الکلمات أن یشد أزر ذلک النزر الیسیر من الأفراد الشجعان الذین لا یخلو منهم جیش الکوفة، کما یزیل الشک عن قلوب بعض المترددین لیلتحقوا به، ویرشد التأریخ إلی مدی الأثر الذی لعبه کلام الإمام علیه السلام فیهم. فقد شعروا بقوتهم من جدید وتأهبوا لمنازلة العدو.

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۲۱۶

العزم النهائی للزعیم الشجاع

قد تشهد الحیاة الاجتماعیة والسیاسیة بعض اللحظات الحساسة التی تجعل الزعماء فی موضع لا یحسدون علیه، وتتفعل هذه اللحظات حین یشتد الضعف والخلاف والتردید فی إتخاذ القرار؛ الأمر الذی یمنح العدو بعض عناصر القوة فی المباغتة.

وهنا لابدّ أن ینبری الزعیم الشجاع لیعلن قراره الحاسم بهذا الشأن لیفهم الجمیع بأنّه مستعد للقتال وخوض غمار الحرب بمفرده سواءاً کان هناک من یقف إلی جانبه أم لا، فلیس هنالک سوی الشهادة التی تأبی المقارنة بالخضوع والاستسلام. وهذا ما أشار إلیه الإمام علیه السلام فی الخطبة، وقد وقفنا علی مثیله من أبی الضیم والأحرار الإمام الحسین علیه السلام. فقد إتفقت کلمة الأصحاب لیلة عاشوراء فی مواکبة إمامهم علیه السلام ولا سیما حین رفع الإمام علیه السلام بیعته عن الجمیع وأذن لهم بالانصراف، حیث انصرف أغلب الضعفاء والعجزة وانفرجوا عن الإمام علیه السلام وهربوا من خوض الجهاد، ولم یبق معه إلّاقلّة قلیلة، لینهض کل واحد منها ویعبر عن موقفه ومساندته للإمام علیه السلام وان قتل سبعین قتله، وآخر قال لو اقتل واحرق ثم اقتل ویفعل بی ذلک سبعین مرة لما ترکتک، وما شابه ذلک من المواقف التی عبر عنها صحبه الاوفیاء[۳۵۸].

وقد أشار أمیر المؤمنین علی علیه السلام- فی الرسالة ۳۶ من رسائله فی نهج البلاغة- إلی هذا المعنی، حیث قال لأخیه عقیل

«وأما ما سألت عنه من رأیی فی القتال: فان رأیی قتال المحلین حتی ألقی الله لا یزیدنی کثرة الناس حولی عزة ولا تفرقهم عنی وحشة ولا تحسبن ابن أبیک- ولو أسلمه الناس- متضرعاً متخشعاً ولا مقراً للضیم واهناً»

. کما نصطدم فی قصة موسی علیه السلام بقومه الذین أعربوا عن خوفهم من مجابهة العمالقة لما بلغوا بوابة بیت المقدس فضعفت إرادتهم وترددوا فی إتخاذ القرار، حتی تمردوا علی نبیّهم موسی علیه السلام وأخیه هارون علیه السلام واعلنوا موقفهم.

المخزی بکل صراحة «قالُوا یا مُوسیْ إِنّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِیها فَاذهَبْ أَنْتَ وَرَبُّکَ فَقاتِلا إِنّا ههُنا قاعِدُونَ»[۳۵۹].

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۲۱۷

فما کان من موسی علیه السلام إلّاأن أعلن موقفه منهم وانفصاله عنهم «قالَ رَبِّ إِنِّی لا أَمْلِکُ إِلّا نَفْسِی وَأَخِی فَافْرُقْ بَیْنَنا وَبَیْنَ القَوْمِ الفاسِقِینَ»[۳۶۰].

وهذا هو موقف نبی الله نوح علیه السلام «وَا تْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذ قالَ لِقَوْمِهِ یا قَوْمِ إِن کانَ کَبُرَ عَلَیْکُمْ مَقامِی وَتَذکِیری بِآیاتِ اللَّهِ فَعَلی اللَّهِ تَوَکَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَکُمْ وَشُرَکاءَکُمْ ثُمَّ لا یَکُنْ أَمْرُکُمْ عَلَیْکُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَیَّ وَلا تُنْظِرُونَ»[۳۶۱].

ولا- شک إنّ لهذا الموقف الصادم الذی یتخذه الزعیم أثره الکبیر فی نفوس أتباعه، حیث یشعر الأفراد بارتفاع معنویاتهم وقوة شوکتهم إلی جانب عودة الضعفاء إلی الحق والشعور بالقوة والاقتدار ویضطرها لاتخاذ ذات الموقف.

وأدنی معطیات ذلک الموقف أنه یشکل وثیقة تأریخیة حیة فی سیرة هؤلاء الزعماء الابطال والذی یلهم الأجیال العزم والإرادة والقوة، وهذا ما نلمسه بوضوح فی الملحمة الحسینیة فی کربلاء والتی مازالت تلهم الامم والشعوب کل عناصر القوة والاقتدار فی مواجهة الظلم والاضطهاد والطغیان.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۱۹

القسم الرابع: حقى عليكم وحقكم على

اشارة

«أَيُّها النَّاسُ إِنَّ لِى عَلَيْكُمْ حَقّاً وَلَكُم عَلَىَّ حَقٌّ، فَأَمَّا حَقُّكُم عَلَىَّ: فالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيما تَعْلَمُوا وَأَمَّا حَقّى عَلَيْكُمْ: فالْوَفاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالنَّصِيحَةُ فِى الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالْإِجابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ».

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالتعرض لاهم القضايا المرتبطة بالحكومة والتى تكمن فى حق الإمام على الامّة وحق الامّة على الإمام، فيوجزها بعبارات مقتضية عظيمة المعانى، حيث يشير إلى أربعة متبادلة لكل منهما. فقد تحدث بادى ذى بدء عن حقوق الامّة، ومن شأن تقديم حقوق الامّة على الإمام على العكس، أنّه مدعاة للتأثير فى نفوس السامعين، إلى جانب كشفه عن البعد الشعبى والجماهيرى للحكومة الإسلامية، كما يفيد عمق فارق هذه الحكومة مع الحكومات المستبدة الغاشمة والحكام الطغاة الذين يرون أنفسهم ما لكى رقاب الامّة فيعاملونها معاملة المالك والمملوك أو الاقطاع والمزارع.

فقد قال عليه السلام:

«أيها الناس إنّ لى عليكم حقاً، ولكم على حق».

والحق وإن ذكر بصورة مفردة إلّاأنّه يفيد معنى جنس الحق الذى ينطوى على مفهوم عام، أما تنكيره فيشير إلى عظمة هذه الحقوق، لأنّ الاتيان بالنكرة قد يفيد التعظيم أحياناً.

فيتطرق الإمام عليه السلام إلى الحق الأول لُلامّة فيقول

«فأمّا حقكم على: فالنصحية لكم».

النصيحة تعنى الخلوص ومن هنا يصطلح على العسل الخالص بالناصح.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۰

كما وردت بمعنى الخياطة، ولذلك يطلق الناصح على الخياط، ثم اطلقت على كل عمل خير خالص خال من الغل والغش.

وتستعمل هذه المفردة بشأن اللّه والنبى والقرآن وأفراد الامّة والإمام والأمّة، حيث تتمتع بالإشارة إلى أحد مصاديقها الواسعة حسب مقتضى الحال ومورد الاستعمال.

وقد ورد فى بعض المصادر اللغوية أنّ النصيحة تشتمل على معان متفرقة، فمثلًا النصيحة لله تعنى الاعتقاد بوحدانيته واخلاص النيّة له فى العبادة ونصرة الحق، والنصحية للقرآن تعنى التصديق به والعمل بأحكامه والدفاع عن آياته، تجاه تأويل الجهلاء وتحريف الغلاة، والنصحية للنبى هى التصديق بنبوته ورسالته وطاعة أوامره.

ومن هنا يبدو أنّ المراد بالنصيحة فى العبارة العمل من أجل الارتقاء بالجوانب المادية والمعنوية لُلامّة من خلال البرامج والمشاريع الصحيحة، حيث تشكل هذه المشاريع الخطوة الاولى لتحقيق خير الامّة، وعليه فلابدّ أن يكون للإمام والولى والزعيم مشروعاً صحيحاً وجامعاً يتضمن تأمين المصالح المادية والمعنوية لأفراد الامّة ويأخذ بايديهم إلى الكمال المنشود.

والحق إن هذه المسألة لمن المسائد الحيوية المهمّة فى عالمنا المعاصر والتى تحظى بأهمية فائقة، حيث يعتقد أغلب العلماء والمنكرين أن العراقيل التى تنطوى عليها المسيرة الاجتماعية إنّما أفرزتها بالدرجة الأساس مشكلة عدم وجود المشاريع والخطط الصحيحة.

ثم يشير عليه السلام إلى الحق الثانى- ذات الصلة بالجانب الاقتصادى- فيقول

«وتوفير فيئكم عليكم.»

فالعدالة الاجتماعية فى المجال الاقتصادى تعد من أهم مشاكل المجتمعات البشرية، فأغلب الحروب والنزاعات الدموية ومعظم المفاسد الاجتماعية إنّما تعزى إلى تغييب العدالة الاجتماعية.

ومن هنا فانّ إعادة الأمن والسلام والنظام والاستقرار والوقوف بوجه المفاسد الاخلاقية ومختلف الانحرافات إنّما تتطلب بادىء ذى بدء إحياء العدالة الاجتماعية وتفعيلها فى المجتمع.

وإستناد إلى أنّ المفردة «فىء» حسب أرباب اللغة أنّها العودة والرجوع إلى حالة الخير

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۲۲۱

والاحسان، فانّها تطلق إيضاً على الظل حين يرجع من طرف الغرب إلى الشرق.

وتطلق هذه المفردة فى الآيات القرآنية والاحاديث النبوية على الأموال التى تصل المسلمين من الكفار، فقد تطلق على الأموال التى تصل دون القتال، وحتى على مثل هذه الأموال والانفال التى تعنى الثروات الطبيعية للحكومة الإسلامية التى ليست لها ملكية شخصية.

والفيئ فى العبارات المذكورة تعنى جميع أموال بيت المال، فقوله عليه السلام توفير فيئكم تعنى أنّ وظيفة الحاكم الإسلامى تعنى إداء الأموال العامة إلى المحتاجين والمعوزين وأصحاب الحق، أى تنظيم الامور الاقتصادية والمعاشية لُلامّة أما الحق الثالث الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فيرتبط بالتعليم والشؤون الثقافية

«وتعليمكم كيلا تجهلوا».

نعم فالإمام لابدّ أن يعتمد الاسلوب التعليمى الصحيح ويهب لمكافحة الجهل والامية ويرفع المستوى الثقافى لدى الناس ويستأصل جذور الجهل التى تقود الامّة إلى التخلف والانحطاط. وأمّا الحق الرابع والأخير فهو

«وتأديبكم كيما تعلموا».

فالواقع أنّ الإمام عليه السلام أوجز الحقوق المهمّة للُامة فى أربع هى:

۱- المشاريع والخطط الصحيحة

۲- العدالة الاجتماعية فى المجال الاقتصادى

۳- التعليم

۴- التربية والتهذيب والقضاء على الفساد الاخلاقى

جدير بالذكر أنّ الإمام عبر عن الحق الثالث بقوله

«وتعليمكم كيلا تجهلوا» والحق الرابع «وتأديبكم كيما تعلموا».

والحال أنّ نتيجة التعليم هى العلم والمعرفة، بينما يقود التأديب إلى تربية الخصال الأخلاقية لا العلم والمعرفة، إلّاأنّ مراد الإمام عليه السلام:

لابدّ أن تقفوا على آثار الفضائل وأضرار الرذائل، لتتحلوا بالاولى وتواجهوا الثانية- فالحق الثالث يشير فى الواقع إلى العقل النظرى بينما يشير الحق الرابع إلى العقل العملى ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حقوق الإمام على الامّة الإسلامية وأوجزها هى الاخرى فى أربع

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۲۲۲

فقال عليه السلام:

«وأما حقى عليكم: فالوفاء بالبيعة».

والبيعة هى العهد بين الامّة والإمام؛ العهد الموثق الذى يجب العمل به، وعلى ضوء هذا العهد فانّ الإمام والحاكم لابدّ أن يأخذ بنظر

الاعتبار مصالحة الامّة ویرسی دعائم الأمن والاستقرار ویقاتل العدو ویمهد السبیل أمام الامّة للسمو والتکامل، کما یجب علی الامّة أن تشد أزره وتقف إلی جانبه وتتجنب کل ما من شأنه تشد أزره وتقف إلی جانبه وتتجنب کل ما من شأته المساس بهذا العهد والمیثاق

الحق الثانی الذی ذکره الإمام علیه السلام:

«والنصیحة فی المشهد والمغیب»

فلا یکونوا منافقین یظهرون المحبّة والاخلاص فی حضوره، فان غاب عاثوا الفساد وسلکوا الخیانة.

فقد لایکون الإمام حاضراً بینهم علی الدوام، إلّاأنّ اللّه حاضرا لا یخفی علیه شیٔ ولا ینبغی أن یعیش المومن الغفلة عن هذا الأمر أمّا

الحق الثالث الذی ذکره الإمام علیه السلام:

«والإجابة حین أدعوکم»

فلا ینبغی أن تتعللوا ببعض الذرائع فراراً من مواکبتی، لابدّ أن تطیعوا أوامری وتقتفوا أثری، والحق الرابع والاخیر «والطاعة حین آمرکم» فلعل البعض یلبی دعوة الإمام، إلّا أنّه لایطیع مایصدره من أوامر، وعلیه فاجابة الدعوة لابدّ أن تکلل بطاعة الاوامر.

وبالطبع فانّ حقوق الإمام علی الامّة إنّما تعود بالنفع مباشرة علی الامّة، وعلیه فلا ینبغی لهم أن یمنوا علی الإمام، بل الإمام یمن علی الامّة بانه یعتمد هذه الحقوق لاعادة الأمن والاستقرار إلی الامّة واعمار بلادها. وقد صرح بعض شرّاح نهج البلاغة بأنّ هذه الحقوق المتبادلة إنّما تختص بالإمام العادل المنصوب من جانب اللّه سبحانه، لا لکل إمام صالح کان أم طالح، ومن هنا قال الإمام علیه السلام:

«إنّ لی علیکم حقاً»[۳۶۲].

لکن یبدو أنّ عبارة الإمام شاملة عامة وهذا ما یفهم من قوله علیه السلام

«لابدّ الناس من أمیر بر أو فاجر»[۳۶۳]

فکل من تزعم أمور المجتمع وأراد أن ینهض بالامّة لابدّ أن یحترم الحقوق الأربع التی ینبغی أن تتمتع بها الامّة والتی أشار إلیها الإمام علیه السلام ویبدو أن العقل والمنطق یرشد إلی ما أورده الإمام علیه السلام فی الخطبة.

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۲۲۳

تأمّلان

۱– الحقوق المتبادلة للإمام والامّة

إنّ الحکومة رابطة بین الإمام والامّة علی غرار رابطة الرأس بالجسد، حیث یتعذر القیام بالوظائف دون تظافر جمیع الجهود، بعبارة اخری فانّ أولیاء الله فی الوقت الذی یکوتون فیه خلفاء الله فی الخلق، فهم خلفاء الامّة من أجل ضمان مصالحها، ومن هنا کانت الحقوق المتبادلة بین الإمام والامّة من أثقل الحقوق وأعظمها.

وقد وردت الأبحاث المسهبة فی الروایات بشأن هذه الحقوق، والتی تفید مدی إهتمام الإسلام بهذا الموضوع الحیوی.

فقد افرد المرحوم الکلینی باباً فی المجلد الأول من کتابه أصول الکافی بهذا الخصوص وقد نقل أول حدیث فیه عن أبی حمزة انه سأل الإمام الباقر علیه السلام:

«ما حق الإمام علی الناس»؟

قال علیه السلام:

«حقه علیهم أن یسمعوا له ویطیعوه»

قال فقلت له:

«وما حقهم عليه».

قال:

«يقسم بينهم بالسوية ويعدل فى الرعية».

ولا يستبعد أن تكون الجملة الاولى إشارة إلى المسائل الاقتصادية والثانية إلى القضايا الاجتماعية والسياسية. ثم قال عليه السلام آخر الحديث:

«فاذا كان ذاك فى الناس فلا يبالى من أخذ هاهنا وهاهنا»[۳۶۴]

فى إشارة إلى أنّ الناس على كل حال إنّما يحصلون على حقهم. سواء كان مصداقه هنا أم هناك.

حقاً أن سيرة أمير المؤمنين عليه السلام انموذج مهم لابدّ من اعتماده كقدوة فى الحكومة الإسلامية.

فقد كان عليه السلام شديداً فى أمر العدالة حتى وقف نفسه وضحى بها من أجلها. قال ابن أبى الحديد:

روى على بن محمد بن أبى‌يوسف المدائنى عن فضيل بن الجْعد، قال: آكدُ الأسباب فى تقاعد العرب عن أميرالمؤمنين عليه‌السلام أمْر المال، فإنّه لم يكُنْ يُفَضِّلُ شريفاً على مشروف، ولا عربيّاً على عَجَمىّ، ولا يُصانع الرؤساء وأمراء القبائل، كما يصنع الملوك، ولا يستميلُ أحداً إلى نفسه. وكان معاوية بخلاف ذلك، فترك الناس علياً والتحقوا بمعاوية؛ فشكى على

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۴

عليه السلام إلى الأشتر تخاذُلَ أصحابه، وفرار بعضهم إلى معاوية، فقال الأشتر: يا أميرالمؤمنين؛ إنا قاتلنا أهل البَصْرة بأهلِ البصرة وأهل الكوفة، ورأى الناس واحد، وقد اختلفوا بعد، و وضعفت النيّة، وقلّ العدد، وأنت تأخُذُهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق، وتُنْصِف الوضيع من الشريف؛ فليس للشريف عندك فَضْلُ منزلةٍ على الوضيع، فضجّت طائفة ممّن معك من الحقّ إذ عُمُّوا به، واغتمُّوا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائعَ معاوية عند أهل الغَناء والشرف، فتاقَتْ أنفُس النّاس إلى الدنيا، وقَلّ مَنْ ليس للدنيا بصاحب، وأكثرهم يَجْتوى الحقّ ويشترى الباطل، ويؤثر الدنيا، فإن تَبْذُلِ المال يا أميرَالمؤمنين تَمِلْ إليك أعناقُ الرجال، وتَصْف نصيحتُهم لك، وتَسْتَخْلِصْ وُدّهم؛ صنع اللّه لك يا أميرالمؤمنين! وكَبتَ أعداءك، وفضّ جمعهم، أوهن كيدَهم، وشَتّت أمورَهم، إنّه بما يعملون خبير.

فقال علىّ عليه السلام: أمّا ما ذكرت من عَمَلنا وسِيرتنا بالعَدْل؛ فإنّ اللّه عزّوجلّ يقول:

«مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّکَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ»؛ وأنا من أن أكون مُقَصِّراً فيما ذكرتَ أخْوَفُ.

وأما ما ذكرت من أنّ الحق ثَقُل عليهم ففارقونا لذلك، فقد علم اللّه أنّهم لم يُفارقونا من جَوْر، ولا لجُاوا إذ فارقونا إلى عَدْل، ولم يلتمسوا إلّادنيا زائلة عنهم كان قد فارقوها؛ وَلَيُسْأَلُنَّ يوم القيامة: أللدنيا أرادوا أم للّه عملوا؟

وأمّا مَا ذكرْتَ من بَذْل الأموال واصطناع الرجال؛ فإنّه لا يَسَعُنا أن نؤتىَ أمرأً من الفىء أكثرَ من حقّه، وقد قال اللّه سبحانه وتعالى وقوله الحق: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصّابِرِينَ»، وقد بعث اللّه محمّدا صلى اللّه عليه وحْدَه؛ فكثّره بعد القلة، وأعَزَّ فئته بعد الذِّلَّة؛ وإنْ يُرِدِ اللّه أنْ يولِيَنا هذا الأمرَ يذلّل لنا صَعْبَه، ويُسهِّل لنا حَزْنه، وأنا قابل من رأيك ما كان للّه عزّوجلّ رضاً؛ وأنت من آمن الناس عندى، وأنصحِهم لى، أوْثَقِهم فى نفسى إنْ شاء اللّه.

۲- تعارض الحق والمصلحة!

عادة ما يحدث تعارض بين الحق والمصلحة ليكون أحدهما مقابل الآخر. وغالباً ما يميل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۵

ساسة الدنيا في هذه الحالة إلى المصلحة ويقدمونها على الحق. والتأريخ مليىء بنماذج هذا التعارض وما أكثره في عصرنا الراهن حيث نشاهده كل يوم- أما أولياء الله والقادة الربانيين فهم لا يترددون في إيثار الحق. وفي مقدمتهم أميرالمؤمنين علي عليه السلام الذي سلك الحق مع أعدائه فضلًا عن أصحابه فقد قيل بأن العدل في تقسيم بيت المال حقاً لكنه لا يتفق مع المصلحة ولابد من تقديم الأشراف والأثرياء على غيرهم في مقابل الحد من سهم الضعفاء، بينما كان الإمام عليه السلام لا يتهاون في إجراء العدل وإن شقّ على صحبه وإنفرجوا عنه وإلتحقوا بعدوه، ولعلنا نلمس ذلك في هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة. ولعل أغلب هذه المشاكل لم تكن لتظهر على السطح لو تسلم الإمام عليه السلام ذمام الأمور بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه و آله كما أمر الله ورسوله بذلك، إلا أن قضية التمييز في العطاء قد ظهرت على عهد الخلفاء وبلغت ذروتها على عهد عثمان الذي كان ينفق المال على بطانته وقرابته دون حساب، حتى طبعوا على هذه الإمتيازات فصعب إعادتهم إلى الحق وجادة الصواب. أضف إلى ذلك فإن إزدياد حجم الغنائم وكثرة أموال بيت المال هي الأخرى كانت سبباً لأن يضحي البعض كطلحة والزبير- وهما من السابقين إلى الإسلام وصحابة رسول الله صلى الله عليه و آله- بالحق من أجل مصالحهم الشخصية، ومن هنا تعقدت المشاكل التي إعترضت حكومة الإمام عليه السلام- إلا أن أميرالمؤمنين عليه السلام ورغم علمه بظهور ما لا يحصى من المشاكل إن هو آثر الحق على المصلحة، لكنه لم يتخل عن سياسته المعهودة لعلمه بأن الهزيمة والخذلان تكمنان في إيثار المصلحة على الحق، ناهيك عن كون نفس هذا الإيثار يعني تعطيل أحد القيم الإسلامية، في حين إحياؤها ونقلها للأجيال المستقبلية يفوق أهمية تحقيق بعض الإنتصارات الوقتية ولعل هذا الأمر يشكل ردا على أكثر الأسئلة التي تطرح بشأن حكومة علي عليه السلام- وهذا ما سنتحدث عنه في حينه في الأبحاث القادمة إن شاء الله.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۷

الخطبة[۳۶۵] الخامسة و الثلاثون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

بعد التحكيم وما بلغه من أمر الحكمين وفيها حمد الله على بلائه، ثم بيان سبب البلوى.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفادِحِ وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَيسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ، وَتُعْقِبُ النَّدامَةَ. وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ!

فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ أَنا وَإِيَّاكُمْ كَما قالَ أَخُو هَوازِنَ:

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَىفَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضُحَى الْغَدِ»

نظرة إلى الخطبة: نتيجة العصيان

كما ذكرنا سابقا فقد أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة بعد إنتهاء قضية التحكيم. فقد كانت نتيجة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۸

التحكيم شاقة على العالم الإسلامي. وقد دلت على أن الإمام عليه السلام نهى عن التحكيم وحث على مواصلة القتال خشية تلك

النتيجة- ومن هنا شدّد الإمام عليه السلام فى ذمه لأهل الكوفة وحملهم مسؤولية تلك النتيجة بسبب تمردهم وعدم طاعتهم.

الشرح والتفسير

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة فى ظل ظروف عصيبة ومأساة عظيمة، فقد أثمرت مؤامرة معاوية وعمرو بن العاص إثر استغلال جهل أبو موسى الأشعرى ومن وقف إلى جانبه، فقد تمكن ابن العاص من حسم التحكيم لصالحه، ظاناً أنّه عزل الإمام على عليه السلام عن الخلافة ونصب معاوية مكانه!

طبعاً الإمام عليه السلام كان قد شعر ببالغ الآسى والحزن لأنّه تكهن بهذه النتيجة وقد أطلع أهل الكوفة عليها، إلّاأنّ الجهل والعصبية والأنانية والتخاذل حال دون الاتعاظ بإرشادات الإمام عليه السلام ومواعظه الحكيمة.

على كل حال إستهل الإمام عليه السلام الخطبة- كما درج عليه فى سائر الخطب- بحمد الله والثناء عليه، الحمد والثناء الذى يستبطن نكهة خاصة، فقد أورده الإمام عليه السلام حتى فى ظل هذه الحادثة الأليمة والبلاء العظيم

«الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب ۳۶۶] الفادح ۳۶۷] والحدث الجليل».

فالطريف أنّ الإمام عليه السلام أولًا يحمد الله على هذه الحادثة ليعلم أنّ حمد اللّه والثناء عليه لا- يقتصر على الحوادث المسرة والتوفيقات والنجاحات والفيوضات المعنوية والمادية، بل يجب حمده على كل حال فى السراء والضراء والعافية والبلاء والغلبة والفشل، حتى الحوادث المريرة تشتمل على فلسفة لو سبر غورها لتبيّن أنّها جزء من النعم الإلهية.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۲۹

ثانياً: أنّه ينسب هذه الحادثة المريرة إلى الدهر، ونعلم أن الدهر لايعنى سوى أهله، وإلّا فبزوغ الشمس والقمر وهطول المطر وهبوب الرياح وسائر الظواهر الطبيعية ليست على شئ حتى تخلق مثل هذه الحوادث فالناس وبفعل أعمالهم الشائنة هم الذين يكونون السبب لمثل هذه الحوادث!

ولا شك إنّ هذه الحادثة لم تكن لتقع لوطاع أهل العراق الإمام عليه السلام والتفتوا إلى تحذيراته واتعظوا بنصائحه. والمراد بالخطب الفادح قضية التحكيم التى جرت الويلات على العالم الإسلامى.

صحيح أنّ قضية التحكيم- كما سيمر علينا فى البحث القادم- لم تغير من حقيقة الأمر شيئاً، الا أنّها كانت ذريعة كبرى لمعاوية ورهطه من أجل إغواء الجهال وتحريف الأفكار، كما أدت إلى ظهور البدع فى العالم الإسلامى.

وقوله عليه السلام

«حدث جليل»

هو تأكيد آخر لاثار السوء لتلك البدعة المشؤومة.

ثم يردف عليه السلام الحمد والثناء بالشهادة لله بالوحدانية ولمحمد صلى الله عليه و آله بالعبودية والنبوة

«وأشهد أن لا اله إلّاالله لا شريك له، ليس معه إله غيره، وأنّ محمّداً عبده ورسوله»

فالاتيان بالشهادتين فى مطلع الخطبة وأن تضمن التأكيد من جديد على لزوم تقوية دعائم التكامل الإنسانى وإحياء الاصول العقائدية الإسلامية، إلّاأن يشير إلى قضية الحكمين، وذلك أن الامّة قد جاوزت أصل التوحيد واتجهت صوب أفعال الشرك وتجاهلت التأسى برسول الله صلى الله عليه و آله فاستسلمت لاهوائها.

ثم تطرق عليه السلام إلى الهدف الأصلى من الخطبة

«أما بعد، فان معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ۳۶۸] تورث الحسرة وتعقب الندامة».

فالعبارة بمنزلة الكبرى وبيان قاعدة كلية فى أنّ المستشار إذا تحلى بأربع صفات فانّ مخالفته توجب الندامة والحسرة لا محالة. الاولى صفة النصح وارادة الخير ومقتضى ذلك السعى لاحقاق الحق.

الثانية القلب المفعم بالعطوفة والرأفة والحب وإرادة السعادة والخير النابعة من أعماق

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۰

القلب لمن يطلب الاستشارة. الثالثة العلم والوقوف على كافة جوانب الأمر وتحليل جميع الملابسات ودراسة الحوادث والنتائج المتمخضة عنها الرابعة التجربة الكافية فى القضايا الفردية والاجتماعية المهمة؛ أى التحلى بالعقل العملى إلى جانب العقل النظرى فاذا كان هنالك مثل هذا الفرد يتمتع بمثل هذه الصفات فانّه يبلغ بالإنسان واقع الأمر لا محالة، كما أنّ مخالفته لاتقود سوى إلى الحيرة والضلال والندم والخسران الذى يفرزه الجهل والغرور.

وما إنّ يفرغ الإمام عليه السلام من بيان الكبرى (القاعدة الكلية) حتى يتطرق إلى الصغرى والمصداق المطلوب فيقول

«وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى، ونخلت ۳۶۹] لكم مخزون رأيى، لو كان يطاع لقصير أمرا!»

فقد كشف الإمام عليه السلام عن مخالفته لاصل التحكيم فضلا عن كيفيته والطريقة التى تم فيها.

ولقد أخيرهم عن آثار هذه القضية المشؤومة، إلّاأنّ تعصبهم ولجاجتهم حالت دون سماعهم لرأى الإمام عليه السلام فاصروا على باطلهم والآن يجنون ثمار جهلهم والعبارة

«لو كان يطاع لقصير أمر»

مثل مشهور عند العرب، فهو قصير صاحب جذيمة، وحديثه مع جذيمة ومع الزباء مشهور فضرب المثل لكل ناصح يعصى بقصير، ويطلق على الأفراد الذين لايصغون إلى الناصح المجرب الشفيق والذى لا يعقب سوى الندم.

فالإمام عليه السلام يشبه نفسه بقصير وأهل الكوفة بجزيمة الجاهل ومستشاريه البلهاء، حتى وقعوا فى شباك عمرو بن العاص ومعاوية.

ثم قال عليه السلام:

«فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة والمنابذين ۳۷۰] العصاة، حتى إرتاب الناصح بنصحه، وضن ۳۷۱] الزند[۳۷۲] بقدحه ۳۷۳]».

لقد حذرتكم من أنّ رفع المصاحف على الحراب مكر وخديعة، فقد بلغ القتال مرحلة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۱

خطيرة وأو شك على نهايته وقد لاحت بوادر النصر، إلّاأنّكم لم تسمعوا كلامى وتركتم القتال وإذ عنتم للتحكيم. وقد قلت لكم إن كان ولابدّ فابعثوا ابن عباس حكما، فلم تقبلوا، ثم أشرت عليكم بما لك الأشتر فلم تستجيبوا وأبيتم إلّاأبى موسى الأشعرى الاحمق الجاهل الذى لايقوى على ابن العاص فلم تكن النتيجة سوى خيبتكم وخسرانكم وندمكم ۳۷۴].

والعبارة

«المخالفين الجهاة»

ان مخالفتكم لى لم تقتصر على سوء تشخيصكم، بل كان ذلك بدافع من جفائكم وعصيانكم وطغيانكم. وقد أكد هذا المعنى بقوله «المنابذين العصاة».

وأمّا قوله

«ضمن الزند بقدحه»

فهو مثل أيضاً يقال لمن يكف عن الافصاح بالحقايق لعدم وجود من يسمع، فقد إراد عليه السلام خالفتمونى حتى ظننت أنّ النصح الذى نصحتكم به غير نصح، لا طباقكم واجماعكم على خلافى، وتعنى العبارة الأخيرة أنّه لم يقدح لى بعد ذلك رأى صالح لشدة ما لقيت منكم من الاباء والخلاف والعصيان. ثم قال عليه السلام فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوىفلم تستبينوا النصح إلّاضحى الغد

وأخو هوازن صاحب الشعر هو دريد بن الصمة، وأبياته مذكورة فى الحماسة. وكان من خير هذا الشعر أنّ عبدالله وهو اسم أخر

لعارض وهو أخو دريـد- كان أسود إخوته، فغزا ببنى جشم وبنى نصـر إبنى معاويـة بن بكر بن هوازن؛ وغنم مالًا عظيماً بمنعرج اللوى فمنعه دريـد عن اللبث، وقـال: إنّ غطفان ليست بغافلـة عنا، فحلف أنّه لايريم حتى يقسم، وأوقعوا بعبـدالله وقتلوه فهرب دريـد بعـد أن نجى منهم، فانشد هذا البيت الذى إستشهد به الإمام عليه السلام فى الخطبة[۳۷۵].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۲

تأمّلان

۱- قصة التحكيم

إن الـذى‌دعا إليه طلب أهـل الشـام له وإعتصـامهم به من سـيوف أهل العراق، فقـد كانت أمارات القهر والغلبـة لاحت، ودلائل النصر والظفر وضـحت. وفى هذه الأثناء رفع أهل الشام المصاحف على الرماح. فسأل مالكك الإمام عليه السـلام مواصـلة القتال. فقام الأشعث بن قيس مغضبـاً فقال: يا أميرالمؤمنين أجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال- فقال عليه السلام: هذا أمر ينظر فيه.

فنـادى النـاس من كـل جـانب: الموادعـة. فقـال عليه السـلام: أيهـا الناس إنى أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاويـة وعمرو بن العاص وصـحبهم ليسوا بأصـحاب دين ولا قرآن، إنى أعرف بهم منكم، صحبتهم صغاراً ورجالًا، فكانوا شر صغار وشر رجال، ويحكم إنهـا كلمـة حق يراد بهـا باطـل، إنهم مـا رفعوهـا أنهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعـة والوهن والمكيـدة، أعيرونى سواعـدكم وجماجكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع داير الذين ظلموا. فجاءه من أصـحابه زهاء عشرين ألفا مقنعين فى الحديد، شاكى سـيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السـجود فنادوه باسمه لا بأمير المؤمنين: يا على أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم. فقال لهم: ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه. إنى إنما قاتلتهم ليـدينوا بحكم القرآن، فإنهم قـد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهـده، ونبذوا كتابه، ولكنى أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وإنهم ليس العمل بالقرآن يريدون. قالوا: فإبعث إلى الأشتر ليأتينك- فقال الأشتهر:

قـل لعلى عليه السـلام ليس هـذه بالساعـة التى ينبغى لـك أن تزيلنى عن موقفى. فـارتفع وهـج القوم وعلت الأصوات وقالوا لعلى عليه السـلام: والله مـا نراک أمرته إلاـ بالقتال، فابعث إليه يأتيك وإلا فوالله إعتزلناك. فبعث له الإمام عليه السـلام ثانيـة. فقال الأشتر: أبرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم. قال:

ألاترى إلى الفتـح. ثم أقبل الأشتر حتى إنتهى إليهم فصاح فيهم أمهلونى فواقا فإنى قـد أحسـست بالفتـح. فلم يجيبوه. فلما إنتهى الأمر إلى الحكمين قال عليه السـلام هـذا إبن عباس أولّيه ذلك فهو لابن العاص. فلم يوافق الأشـعث ورهطه. فقال عليه السـلام: فإنى أجعل الأشتر. فقال الأشعث:

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۳

وهل سـعرّ الأرض علينا إلا الأشتر. ثم إضـطر الإمام عليه السـلام لقبول أبوموسى. فاتفق معه عمرو بن العاص على أن يخلع كل صاحبه ويـدعون الناس للشورى. فتقـدم أبوموسـى ثم قال: أيها الناس أجمع رأيى ورأى صاحبى على خلع علىّ ومعاويـة ويكون الأمر شورى بين المسلمين.

فقام عمرو بن العاص وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه، وأثبت صاحبى معاوية فى الخلافة، فإنه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه.[۳۷۶]

۲- الاستفادة من آراء الآخرين

لاشک أنّ الشوری تشکل أحد اسس التعالیم الإسلامیة التی حظت بأهمیة فائقة فی الآیات القرآنیة والروایات والأخبار. فالقرآن یری أنّ المشورة من علامات الإیمان، ویجعلها فی مصاف الصلاة والزکاة- التی تعد من أرکان الإسلام- «والَّذِینَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأُمْرُهُمْ شُوری بَیْنَهُمْ وَمِمّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ».[۳۷۷]

کما أمر الله سبحانه صراحة باستشارة المؤمنین فی الامور المهمة، رغم إتّصال رسول الله صلی الله علیه و آله بالوحی وکونه العقل الکامل «وَشاوِرْهُمْ فِی الأَمْرِ»[۳۷۸] والمهم فی قضیة المشورة إنتخاب المستشار الذی یتحلی ببعض خصائص الصفات التی وردت فی الخطبة التی نحن بصددها:

«الناصح الشفیق العالم المجرب»

، والحق أنّ مخالفة الفرد الذی یتصف بهذه الصفات لا تفضی سوی إلی الحسرة والندامة.

صحیح أنّ المتعصبین فی صفین لم یستشیروا الإمام علیه السلام إلّاأنّ الإمام علیه السلام أبدی رأیه الذی یمثل رأی الناصح الشقیق والعالم المجرب، إلّاأنّهم وللِاسف الشدید لم یستجیبوا لرأی الإمام علیه السلام وهبوا لمجابهته وهددوه بالقتل، فلم تتمخض النتیجة سوی عن ندمهم التاریخی الذی جر الویلات علی العالم الإسلامی.

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۲۳۵

الخطبة[۳۷۹] السادسة و الثلاثون

اشارة

ومن خطبة له علیه السلام

فی تخویف أهل النهروان

«فَأَنَا نَذِیرٌ لَکُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَی بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهَرِ، وَبِأَهْضَام هَذَا الْغائِطِ، عَلَی غَیْرِ بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ، وَلا سُلْطانٍ مُبِینٍ مَعَکُمْ: قَدْ طَوَّحَتْ بِکُمُ الدَّارُ وَاحْتَبَلَکُمُ الْمِقْدارُ. وَقَدْ کُنْتُ نَهَیْتُکُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُکُومَةِ فَأَبَیْتُمْ عَلَیَّ إباءَ الْمُنابِذِینَ، حَتَّی صَرَفْتُ رَأْیِی إِلَی هَوَاکُمْ وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ، سُفَهاءُ الْأَحْلامِ؛ وَلَمْ آتِ- لا أَبا لَکُمْ- بُجْراً وَلا أَرَدْتُ لَکُمْ ضُرّاً».

نظرة إلی الخطبة

واضح أنّ الإمام علیه السلام خطب هذه الخطبة فی النهروان جنب النهر فی یوم القتال عام ۳۷ ه.

وقد أشار علیه السلام ألی ثلاثة امور:

۱- عدم خوض القتال دون قیام الدلیل الشرعی والبینة من الله، وإلّا فأنّهم یقضون علی أنفسهم.

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۲۳۶

۲- أنّ القوم تذرعوا بقضیة التحکیم، والحال أنّ الإمام علیه السلام کان یرفضها منذ البدایة.

۳- أنّهم یقاتلون الإمام علیه السلام دون أن یصدر عنه ما یدعو لذلک من معصیة، فانّ کان هنالک من خلاف فقد صدر منهم ومن بعض الأفراد، ومن الجهل تحمیل الإمام علیه السلام مسؤولیة ذلک الخلاف، وهکذا أتم علیهم الإمام علیه السلام الحجة.

الشرح والتفسیر

إتمام الحجة علی الخوارج

كما أشرنا سابقاً فان الإمام عليه السلام خطبها قبل بدأ معركة النهروان التى أفرزتها قضية التحكيم.

فقد خرجت تلك الطائفة الجاهلة على الإمام بعد التحكيم لتعتبره هو المسؤول عنه، فى حين كان الإمام عليه السلام يعارض أصل التحكيم من الأساس إلى جانب رفضه الحكم. فالواقع أنّ الخطبة إتمام الحجة عليهم. فقد إستهل خطبته بالقول

«نحن أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وعنصر الرحمة ومعدن العلم والحكمة- نحن أفق الحجاز، بنا يلحق البطىء وإلينا يرجع التائب»[۳۸۰]

ثم خاطبهم قائلًا:

«فانا نذير لكم أن تصبحوا صرعى ۳۸۱] باثناء هذا النهر، وبأهضام ۳۸۲] هذا الغائط[۳۸۳] على غير بينة من ربّكم، ولا سلطان مبين معكم»

. فعبارة الإمام عليه السلام نبوءة صريحة بشأن عاقبة معركة النهروان حيث أخبرهم بأنّهم سيصرعون دون النهر، والافضع من ذلك موقفهم العسير يوم القيامة واسوداد وجوههم، حيث ليس لهم من دافع للقتال سوى العصبية والجهل دون وجود أية بينة.

شرعية يمكنهم الاستناد إليها وعليه فهم يهلكون أنفسهم فى الحياة الدنيا وليس لهم فى الآخرة إلّاالنار. ثم قال عليه السلام

«قد طوحت ۳۸۴] بكم. الدار وأحتبلكم ۳۸۵] المقدار»

والمفردة (دار) إشارة

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۳۷

إلى دار الدنيا أو بعبارة اخرى الاغترار بالدنيا والعبودية لها و «احتيل» من مادة حيل بمعنى الفخ، والمراد بالمقدار حسب بعض شرّاح نهج البلاغة الفكر الخاطىء والتحليل العبثى لمختلف الحوادث، وقال البعض الآخر تعنى القدر الإلهى. وإذا تأملنا تأريخ الحادثة سيتضح لدينا الأثر البالغ الذى لعبه كلام الإمام عليه السلام فى هذه الطائفة، فقد كانت طائفة متعصبة لجوجة جاهلة هزيلة. ثم أشار عليه السلام إلى قضية التحكيم فقال

«وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فابيتم على إباء المخالفين المنابذين، حتى صرفت رأيى إلى هواكم»

إنكم لتحملونى مسؤولية عمل أنتم إرتكبتموه، بل أبعد من ذلك جعلتم تهددونى بالقتل على قبوله، والآن بعد أن تبيّن لكم فداحة خطأ العمل تحاولون إلقاء تبعته علىَ

«وأنتم معاشر أخفاء الهام ۳۸۶] سفهاء الأحلام»

. يمكن أن تكون هذه العبارة تأكيد لسفاهة وبلاهة أصحاب النهروان.

كما يمكن أن تكون العبارد السابقة- كما ذكر ذلك بعض شرّاح نهج البلاغة- إشارة إلى خفة أهل النهروان الذين تتغير أفكارهم وحركتهم لأدنى شى، فهم يتعصبون يوماً للتحكيم، وآخر يعادونه أشد العداء، أمّا العبارة الأخيرة فهى تشير إلى ضحالة فكرهم، وذلك لأن مؤامرات العدو كانت تتكشف يوماً بعد آخر ولم تكن خافية على أهل البصائر إلّاأنّهم لم يكونوا يرونها أو يدركونها؛ الأمر الذى جعلهم يخدعون أكثر من مرة بحيل معاوية وبطانته، فيرتكبون ما يؤدى إلى بؤسهم وشقائهم وجر الويلات والمصائب على المسلمين. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالتأكيد على هذه الحقيقة بأنّ كل ما يصيبكم من بلاء ممّا إرتكبته أيديكم ولست طرفا فيه أبداً، بل خالفتمونى وشهرتم سيوفكم لتهددونى بالقتل

«ولم آت- لا أبا لكم!- بجرا ولا أردت لكم ضراً».

العبارة لا أبا لكم يمكن أن تكون سباً ولعناً، تشير إلى أنّكم لم تحظوا بتربية أسرية إسلامية صحيحة، ومن هنا فانّكم تفعلون الأفعال الشائنة وتنسبوها إلى الآخرين، ويمكن أن تكون دعاءا عليهم؛ أى أمات الله آبائكم وهى فى الواقع كناية عن ذلتهم وهوانهم؛ لأنّ فقدان الأب فى ريعان الشباب تدعو إلى الذلة والهوان.

نفحات الولايۀ، ج۲، ص: ۲۳۸

قصۀ التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج

ذكرنا حين شرحنا للخطبۀ الشقشقيۀ فی المجلد الأول أنّ الخوارج فئۀ متعصبۀ وجاهلۀ قد ظهرت من بطن صفين وقضيۀ التحكيم. فقد أقرت مسألۀ التحكيم (عمرو بن العاص وأبو موسی الأشعری) وفرضوها علی الإمام عليه السلام. ولم يصفوا إلی قول الإمام عليه السلام أنها خدعۀ ولم يبق إلا القليل علی ختم فتنۀ أهل الشام وزعيمهم معاويۀ. لكنهم تـدموا بعـد نتيجۀ التحكيم وتابوا لكنهم أفرطوا هذه المرۀ حيث حكموا يكفر قبول التحكيم وشعارهم الحكم لله فلابد أن يتوب علی عليه السلام من هذه المعصيته. قال الإمام عليه السلام أن التحكيم ليس كفرا، فقد أشار القرآن إلی هذه المسألۀ فی حل الخلافات العائليۀ «فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها» وفی كفارۀ الإحرام «يحكم به ذوا عدل منكم» لكن التحكيم الذی أقررتموه كان خاطئا- علی كل حال إقتنع هؤلاء- وكان من بينهم بعض المتظاهرين بالعبادۀ والإتيان بالمستحبات- بقشور الإسلام وتركوا جوهره فاجتمعوا ضد أميرالمؤمنين عليه السلام فی منطقۀ قرب الكوفۀ تدعی الحروراء قرب النهروان. فبالغ الإمام عليه السلام فی وعظهم ونصحهم حتی عاد أكثرهم إلی رشده بينما بقی أربعۀ آلاف منهم فلما تثبت المعركۀ صرعوا جنب النهر ولم ينج منهم إلا القليل كما أخبر الإمام عليه السلام.

وقد شهدت حياۀ الخوارج وسيرتهم العديد من التناقضات العجيبۀ ومن ذلك:

۱- لقيهم عبدالله بن الخباب فی عنقه مصحف، علی حمار، ومعه إمرأته وهی حامل، فقالوا له: إن هذا الذی فی عنقك ليأمرنا بقتلك، فقال لهم: ما أحياه القرآن فأحيوه،

وما أماته فأميتوه، فوثب رحيل منهم علی رطبۀ سقطت من نخلۀ فوضعها فی فيه، فصاحوا به، فلفظها تورعا. وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله، فقالوا: هذا فساد فی الأرض، ثم قالوا لابن الخباب: حدثنا عن أبيك. فقال: إنی سمعت أبی يقول: سمعت رسول الله صلی الله عليه و آله يقول:

ستكون بعدی فتنۀ يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يمسی مؤمنا ويصبح كافرا، فكن عبدالله المقتول ولا تكن القاتل- قالوا: فما تقول فی علی بعد التحكيم والحكومۀ؟ قال: إن عليا أعلم بالله وأشد توقيا علی دينه وأنفذ بصيرۀ- فقالوا: إنك لست تتبع الهدی، ثم قربوه إلی شاطیء النهر فأضجعوه فذبحوه.[۳۸۷]

نفحات الولايۀ، ج۲، ص: ۲۳۹

۲- قال قيس بن سعد بن عبادۀ: إستنطقهم الإمام عليه السلام بقتل عبدالله بن الخباب فأقروا به، فقال: إنفردوا كتائب لأسمع قولكم كتيبۀ كتيبۀ. فأقرا جميعا بقتله. فقال علی عليه السلام: «والله لو أقر أهل الدنيا كلهم بقتله هكذا وأنا أقدر علی قتلهم به لقتلتهم».[۳۸۸]

۳- حين هجم الخوارج علی جيش الإمام عليه السلام إلتفت إلی أصحابه فقال: والله لا ينجو منهم عشرۀ ولا يهلك منكم عشرۀ.

والعجيب أنه لم يقتل من أصحاب الإمام عليه السلام سوی تسعۀ ولم ينج من الخوارج إلا ثمانيۀ.

۴- كانت قضيۀ الخوارج قد فعلت فعلها فی الإمام عليه السلام وقد إنعكست سلبا علی الوسط الإسلامی، فكان عليه السلام لا ينفك عن التحدث عنها ليبين للناس كيفيۀ إنحرافهم فيعتبروا بهم، ولا غرو فمثل هذا التفكير السطحی المشوب بالجهل والعناد لا يخلو منه عصر ومصر. والخطب التی تحدث فيها الإمام عليه السلام عن الخوارج هی الخطبۀ: ۴۰، ۵۹، ۶۰، ۶۱، ۱۲۱، ۱۲۲، ۱۲۷، ۱۸۴، والرسالۀ ۷۷، ۷۸ والتی سنعرض لشرحها جميعا إن شاء الله.

الجدير بالذكر أن خط الخوارج- كما ذكرنا- تيار يتواجد علی مدی التأريخ ولا يقتصر علی عهد علی عليه السلام- فهم فئۀ لا تعرف من الدين سوی ظاهره ولا تعتد إلا بأفعالها وأعمالها وتری إنحراف كل من سواها وقد ملئت سيرتها بالتناقضات، فهی بلاء وآفۀ تصيب المجتمع.

والغریب فی الأمر أن الإمام علیه السلام أشار إلی هذه الفئة کظاهرة فوصفهم فی الخطبة ۶۰ قائلا: «کلا والله، إنهم نطف فی أصلاب الرجال وقرارات النساء کلما نجم منهم قرن قطع حتی یکون آخرهم لصوصا سلابین.

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۲۴۱

الخطبة[۳۸۹] السابعة والثلاثون

اشارة

ومن کلام له علیه السلام

یجری مَجری الخطبة وفیه یذکر فضائله علیه السلام قاله بعد وقعة النَّهروان.

نظرة إلی الخطبة

بناءً علی ما ذکره ابن أبی الحدید فانّ هذه الخطبة تشتمل علی أربعة فصول لا یمتزج بعضها ببعض:

الفصل الأول: یشیر فیه الإمام علیه السلام إلی خدماته الجلیلة التی أسداها للإسلام إبان انبثاق الدعوة الإسلامیة فقد أوجز ذلک بقوله: «فقد قمت بالأمر حین فشلوا وتطلعت حین تقبعوا ونطقت حین تعتعوا ومضیت بنور الله حین وقفوا، کالجبل لا تحرکه القواصف ولا تزیله العواصف. لم یکن لأحد فی مهمز ولا لقائل فی مغمز».

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۲۴۲

الفصل الثانی یشیر إلی وقوفه الصلب علی الدوام بوجه الظلمة من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

الفصل الثالث یشیر إلی إستحالة الکذب علیم لأنه أول من صدق بالنبی صلی الله علیه و آله وعلیه فلا ینبعی أن یستسرب الشک إلی إخباره عن المغیبات التی أخبره بها رسول الله صلی الله علیه و آله.

الفصل الرابع یختتم الخطبة بعذره فی البیعة لمن سبقه من الخلفاء، وأنّه فعل ذلک طاعة لرسول الله صلی الله علیه و آله وخشیة الفرقة والتشتت فی صفوف المسلمین واستغلال ذلک من قبل خصوم الدعوة الإسلامیة.

ج ج

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۲۴۳

القسم الأول: الصمود أمام العواصف

«فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِینَ فَشِلُوا وَتَطَلَّعْتُ حِینَ تَقَبَّعُوا وَنَطَقْتُ حِینَ تَعْتَعُوا وَمَضَیتُ بِنُورِ اللَّهِ حِینَ وَقَفُوا- وَکُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً وَأَعْلاهُمْ فَوْتاً فَطِرْتُ بِعِنانِها وَاسْتَبَدَدْتُ بِرِهانِها، کالْجَبَلِ لا تُحَرِّکُهُ الْقَواصِفُ وَلا تُزِیلُهُ الْعَواصِفُ. لَمْ یَکُنْ لِأَحَدٍ فِیَّ مَهْمَزٌ وَلا لِقائِلٍ فِیَّ مَغْمَزٌ».

الشرح والتفسیر

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلی أنّ الفصل الأول من الخطبة یتضمن ذکر الإمام علیه السلام لمقاماته فی الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر أیام أحداث عثمان، وکون المهاجرین والأنصار کلهم لم ینکروا ولم یواجهوا عثمان بما کان یواجهه به وینهاه عنه إلّاأنّ سیاق الکلام یشیر إلی الحوادث التی وقعت علی عهد النبی صلی الله علیه و آله ولا سیما فی بدایة انطلاق الدعوة الإسلامیة. فقال علیه السلام

«فقمت بالأمر حین فشلوا وتطلعت [۳۹۰] حین تقبعوا[۳۹۱] ونطقت حین تعتعوا[۳۹۲] ومضیت بنور الله حین وقفوا. وکنت أخفضهم

صوتاً وأعلاهم فوتاً[۳۹۳]»

ثم أضاف عليه السلام أنّه تألق تلك المدة وحاز السبق على الآخرين

«فطرت بعنانها واستبددت برهانها[۳۹۴]، كالجبل لا تحركه

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۴

القواصف ولا تزيله العواصف، لم يكن لأحد فيّ مهمز[۳۹۵] ولا لقائل فى مغمز[۳۹۶]».

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة امور هى:-

الأول: أنّ الآخرين كانوا آنذاك يعانون من الضعف والعجز، وأنا الذى نهضت بالأمر وقمت بوظيفتى.

الثانى: أنّ الخوف دفع الآخرين آنذاك لأن يقبعوا فى جحورهم وأنا الذى إنبريت للأمر وكنت أتطلع إلى العدو.

الثالث: أنا الذى نطق لسانى بالحق وبيان الحقائق الدينية والتعاليم الإسلامية حين عجز الآخرون عن الكلام.

الرابع: لم يعترينى الشك آنذاك كما إعترى الآخرين فواصلت سبيلى على هدى من ربى ونور إيمانى ويقينى بالوحى.

ورغم كل ما تقدم لم أكن لأتفاخر على أحد

«كنت أخفضهم صوتاً»

ثم يخلص عليه السلام من كل ذلك إلى نتيجة مؤداها

«فطرت بعنانها واستبددت برهانها»

. ثم يعود عليه السلام للتأكيد على ما مضى من حوادث وكيف واجهها فقال

«كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف»

مع ذلك فقد خضت ما خضت و

«لم يكن لأحد فيّ مهمز ولا لقائل فيّ مغمز».

كما أوردنا آنفا فانّ المراد بهذه العبارات ما حدث فى بداية إنبثاق الدعوة الإسلامية؛ لأننا نعلم جميعاً بانّ علياً عليه السلام كان أول من أسلم حين كان الإسلام غريباً ولم يكن هناك من يهب للدفاع عن الإسلام والقرآن والنبى صلى الله عليه و آله؛ المعنى الذى يلمس بوضوح فى يوم الدار حين انطلقت الدعوة الإسلامية للعلن بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية.

ولم يجب النبى صلى الله عليه و آله ويعلن دعمه له ووقوفه إلى جانبه سوى على عليه السلام وفى ليلة المبيت نام على فراش رسول الله صلى الله عليه و آله لينجو من مؤامرة قريش التى استهدفت قتله، ناهيك عن فتح خيبر حين عجز الآخرون، وبروزه لعمرو بن عبدود العامرى فى الأحزاب حين لم يكن غيره من انبرى لقتاله.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۵

كما يحتمل أن يكون المراد بالقيام بالأمر والجمل اللاحقة الدفاع عن الإسلام على عهد الخلفاء، لانّ أغلب المورخين المسلمين يقرون بان علياً عليه السلام كان المفزع فى حل المشاكل والمعضلات التى تواجه المسلمين.

فقد وردت العبارة المعروفة عن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب

«اللّهم لا تبقنى لمعضلة ليس لها أبو الحسن»[۳۹۷].

أو ما تناقلته كتب الفريقين والتى تؤكد هذا المعنى، حتى صرح بعض أرباب اللغة أنّ العبارة

«مشكلة ليس لها أبو الحسن»

أصبحت مثلًا لدى العرب. وهنالك إحتمال ثالث فى أن يكون المراد قيامه عليه السلام بأمر الخلافة بعد انهيار حكومة عثمان وإثر تلك العواصف التى عصفت بالمسلمين بعد مقتل الخليفة الثالث، فقد تصدعت آنذاك عرى المجتمع الإسلامى، وقد تأهبت عناصر

النفاق ومن تبقى من أسلاف الجاهلية ومشركى العرب، فلم يكن للُامّة من أمل سوى على عليه السلام، أجل لقد نهض الإمام عليه السلام بالامر فى ظل تلك الظروف وحفظ وحدة المسلمين.

أما قوله

«كنت أخفضهم صوتاً»

نفحات الولاية ؛ ج۲ ؛ ص۲۴۵

عله إشارة إلى تواضع الإمام عليه السلام إلى جانب كل تلك الانتصارات والنجاحات، أو إشارة إلى أن الإمام عليه السلام لم يكن من أهل التظاهر وإثارة الصخب والضوضاء فهذه معانى الأفراد الضعفاء العجزة.

ومن هنا أردفها بقوله

«وأعلاهم فوتا»

التى تعنى السبق على الآخرين، السبق فى الإيمان والهجرة، والسبق بالجهاد والقتال، وأخيرا السبق فى كافة الفضائل الأخلاقية.

وقوله عليه السلام

«فطرت بعنانها واستبددت برهانها»

هو الآخر تأكيد لهذا الأمر، ولا سيما أن فاء التفريع وردت فى البداية كنتيجة للبرامج السابقة، أى أنّى ركبت مركب النصر وسبقت الآخرين، وذلك لأنّى لم أشعر بالضعف طرفة عين ولم أهب الحوادث المرعية وأفقد الفرص المواتية، ومع ذلك لم أثير أية ضجة أو صخب وضوضاء.

ثم يشبه نفسه عليه السلام بالجبل العظيم الذى لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف. والطريف فى الأمر أن الإمام عليه السلام ذكر القواصف ثم أردفها بالعواصف، وذلك لان القواصف تعنى الرياح

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۶

العاتية الكاسرة، والعواصف الرياح السريعة الجارفة، فى اشارة إلى أنّ الحادثة كانت من الشدة بحيث تقضى على الإنسان فى موضعه، وأحيانا تكون أكثر شدة فتجرفه كما تجرف أوراق الشجر وتقذف به فى مكان سحيق.

ثم قال عليه السلام:

«ولم يكن لأحد فى مهمز ولا لقائل فى مغمز»

. فالمعروف أنّ من يعمل يخطى ومن يرد الميدان الاجتماعى ويمارس الأنشطة والفعاليات فانّه يتعرض إلى بعض الانتقادات من هنا وهناك، فما ظنك بالإمام عليه السلام الذى كان سباقاً فى كل الميادين. وبالطبع فانّ العيوب والمطاعن فى غيره لم تحص رغم ندرة إقتحامه للميدان الاجتماعى.[۳۹۸]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۷

القسم الثانى: القوى عندى ضعيف

اشارة

«الذَّلِيلُ عِنْدِى عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ وَالْقَوِىُّ عِنْدِى ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ، رَضِينا عَنِ اللَّهِ قَضاءَهُ وَسَلَّمْنا لِلَّهِ أَمْرَهُ».

الشرح والتفسير

لما كانت عدالة الإمام عليه السلام هى السبب الذى يقف وراء أغلب الحوادث الأليمة والحروب الدامية، واعتياد الناس لسنوات على الظلم والجور والاضطهاد على عهد الخلفاء الثلاث ولاسيما عصر عثمان، فانّهم لم يكونوا مستعدين بهذه السهولة لقبول منطق المساواة أمام القانون وفى العطاء من بيت المال.

فالإمام عليه السلام يؤكد فى هذه الخطبة أنّى سأواصل سيرتى فى العدل وإحقاق الحق وانتزاعه من القوى، بل هذا هو هدفى من الحكومة، وبناءً عليه فالقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه والضعيف قوى حتى آخذ الحق له

«الذليل عندى عزيز حتى آخذ الحق له والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه»

ومن هنا كان لاينفك عليه السلام عن تأكيده على الحديث المعروف عن رسول الله صلى الله عليه و آله والذى ضمنه عهده إلى مالك بعد أن أوصاه قائلًا: واجعل لذوى الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه للّه الذى خلقك ... فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول لن تقدس أمّة لا يؤخذ للضعيف فيها حقّه من القوى غير متتعتع».[۳۹۹]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۸

كان الإمام عليه السلام شديد الحرص على العدالة لا يؤثر عليها أى شى وقد وردت عدة أحاديث بهذا الشأن فى أنّ الإمام عليه السلام كان يقسم عطاء بيت المال فقدم رجل من الأنصار فاعطاه ثلاثة دنا نير، ثم دخل عليه عبد أسود فاعطاه ثلاثة أيضاً، فقال له الأنصارى، يا أميرالمؤمنين سويت بينى وبين عبدى الذى عتقته بالأمس. فقال عليه السلام لم أرفى الكتاب فضلًا لولد اسماعيل على ولد اسحاق «إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة إن الناس كلهم أحرار»[۴۰۰].

ثم قال عليه السلام:

«رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمره»

تنطوى هذه العبارة على معنيين:

الأول أنّ الله أمرنا بنصرة المظلوم ومقاتلة الظالم، وإنّى مسلم لهذا الأمر ولابدّ من التسليم والرضى قبل الاخرون شاءوا أم أبوا.

نصرة المظلوم ومجابهة الظالم

لقد شحن نهج البلاغة بوصاياه عليه السلام التى تؤكد على الحكومة الإسلامية فى أن تكون للمظلوم عوناً وللظالم خصماً. ومن ذلك ماورد فى خطبته المعروفة بالشقشقية من أنّ الحكومة وسيلة للانتصاف للمظلوم

«وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم»

، أما أخر وصية لولده الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام

«كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً».[۴۰۱]

وقال فى موضع آخر من نهج البلاغة

«وآيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودن الظالم بخزامته حتى اورده منهل الحق وإن كان كارهاً»[۴۰۲].

ولا- غرابة فالقرآن الكريم قد أكد هذا الأمر ليحث المؤمنين على نصرة المظلومين ولو تطلب ذلك القتال «وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً»[۴۰۳].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۴۹

جدير بالذكر أنّ الفلسفة الأصلية لتشكيل الحكومة وتشريع القوانين (سواء القوانين الإلهية أو الوضعية التى تسنها الأنظمة البشرية) هو حفظ حقوق الضعفاء وتوفير الدعم والاسناد لهم، لأنّ الطغاة والجبابرة يعتمدون منطق القوة الغاشم من أجل هضم حقوق الآخرين،

وعليه فلو تخلت الحكومة والقانون عن دعم المظلومين والمستضعفين فانّها ستفقد فلسفة وجودها لتتحول إلى وسيلة بيد الظلمة لتبرير ظلمهم وجورهم. ومن هنا كان قبول الإمام عليه السلام للحكومة كما ذكر ذلك فى خطبته الشقشقية يكمن فى الوقوف إلى جانب المظلوم ومجابهة الظالم.

ومن هنا أيضا فإن القانون يعطى نتيجة معكوسة فى المجتمعات التى تغير مسار القانون بالرشوة، لأن الراشى هو الظالم لا المظلوم- وفى هذه المجتمعات يتحول القانون إلى مصدر دخل غير مشروع للظلمة وأداة لتوجيه ظلم الآخرين. لكن ينبغى العلم بأن تحمل العدل ومجابهة الظلم ودعم المظلوم إنما يشق على الأعم الأغلب. فمن الصعب قبول العدل من قبل من يرى مراعاته تشكل خطرا على مصالحه اللا مشروعة، أو الأسوأ من ذلك من يرى لنفسه إمتيازا فى المجتمع ولا يمكنهم أن يتساوى مع الآخرين ويرى أن من الإسادة إليه أن يتساوى معهم، فيعمد إلى عرقلة مسيرة الحكومة العادلة ولا يتورع عن ممارسة أبشع الأعمال. وهؤلاء هم الأفراد الذين وقفوا بوجه الإمام عليه السلام وأثاروا الفتن والإضطرابات وحرفوا الوسط الإسلامى.

وأخيرا فقد ورد أنّ سبب إنفراج العرب عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام إنّما يكمن فى الأموال وكيفية توزيعها، فلم يكن عليه السلام يرى من فضل لشريف على غير شريف أو عربى على أعجمى، كما لم يكن يستن بسنة السلاطين فى معاملة زعماء القبائل، ولم يستميل أحدا عن طريق المال أبداً، بينما كان معاوية يمارس العكس تماماً.[۴۰۴]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵۱

القسم الثالث: أول من أسلم

اشارة

«أ تَرانِى أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله؟ وَاللَّهِ لأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! فَلا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ. فَنَظَرْتُ فِى أَمْرِى. فَإِذَا طَاعَتِى قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِى وَإِذَا الْمِيثاقُ فِى عُنُقِى لِغَيْرِى».

الشرح والتفسير

كما أشرنا سابقاً يبدو أنّ ما ورد فى هذه الخطبة فصول مختلفة من خطبة طويلة فصلها السيد الرضى (ره) عن بعضها البعض، ولذلك قد لا يكون هناك من ترابط وثيق بين هذه الفصول. على كل حال فانّ هذا الفصل من الخطبة يتناول أمرين: الأول إخباره عليه السلام عن الحوادث الآتية مصرحاً بأنّ ذلك ممّا علمه إياه رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله، ومن ذلك إخباره عن وقائع الجمل وصفين والنهروان، أمّا بعض ضعاف الإيمان كانوا يشككون فى أخبار الإمام عليه السلام، فرد عليهم بالقول

«أترانى أكذب على رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله؟ واللَّه لأنا أول من صدقه! فلا أكون أول من كذب عليه».

لقد صدقته حين كذبه الناس، وكنت أول من صدق به فشمرت فى الدفاع عنه، كنت أقيه بنفسى فى الحروب والمواقف التى تنكص فيها الابطال، أفيمكن أن أنحرف عن طريقتى وأكذب عليه محال ذلك. الاحتمال الآخر فى تفسير هذه العبارة أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقول: بايعت من سبقنى من الخلفاء لا ـ لأنّهم أجدر بها منى، بل دفعاً للخلاف والفرقة فى صفوف المسلمين طاعة لأمر رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله، أفترون أنى أكذب على رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله بهذا الكلام، أم تعتقدون أنّى أنقض وصية النبى صلى الله عليه و آله؟ وعليه فقد بايعت من بايعت وتنازلت عن

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵۲

حقى طاعة لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله. ويبدو أنّ هذا التفسير هو الأنسب لأنّه ينسجم والعبارت اللاحقة. ثم قال عليه السلام:

«فنظرت فى أمرى، فاذا طاعتى قد سبقت بيعتى وإذا الميثاق فى عنقى لغيرى»

والتفاسير وإن إختلفت بشأن هـذه البعارة- التى تعـد من عبارت نهج‌البلاغة المعقدة- إلّاأنّ التفسير الذى أوردناه آنفا هو الانسب من جميع التفاسير وكأنّ العبارة تجيب على سؤال قـد يقتـدح إلى الأذهان فى أنّ الإمام عليه السـلام لم يبايع الخلفاء الثلاث وهو يرى أنه أجدر بالخلافة منهم وقد نص رسول‌اللّه صـلى الله عليه و آله على إمامته؟ وجواب الإمام عليه السلام أن رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله عهـد إلىّ السكوت حفظاً للإسلام إن خالفنى القوم، ولابـدّ لى من البيعة من أجل حفظ المصالح التى يجب علىَّ مراعاتها. وعليه فقد جعلت طاعتى لرسول اللّه صـلى الله عليه و آله أولى من بيعتى، كانت عهداً من النبى صـلى الله عليه و آله فى عنقى وليس أمامى سوى الوفاء بالعهد، كما ذهب بعض شـرّاح نهج‌البلاغة، كما أوردنا سابقاً إلى أنّ المراد أنّ طاعة النبى صـلى الله عليه و آله مقدمة لدى على بيعة الخلفاء، لقد عهد إلىّ النبى صلى الله عليه و آله بالسكوت فى ظل مثل هذه الظروف، وذكر بعض الشرّاح إنّ المراد بقوله

«فنظرت فى أمرى ..»

أنّ هذه الكلمات مقطوعة من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله وأنّه كان معهودا إليه ألا ينازع فى الأمر، ولا يثير فتنـة، بل يطلبه بالرفق، فان حصل له وإلّا أمسك، فالمراد: فنظرت فاذا طاعتى لرسول اللّه صـلى الله عليه و آله؛ أى وجوب طاعتى، قد سـبقت بيعتى للقوم، أى وجوب طاعة رسول‌اللّه صـلى الله عليه و آله وامتثال أمره سابق على بيعتى للقوم، فلا سبيل إلى الامتناع من البيعة لأنّه صلى الله عليه و آله أمرنى بها،

«وإذا الميثاق فى عنقى لغيرى»

أى رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله أخذ علىَّ الميثاق بترك الشقاق والمنازعة، فلم يحل لى أن أتعدى أمره، أو أخالف نهيه.[۴۰۵] وقال البعض أنّ العبارة تنسجم وما قال الإمام عليه السلام فى الخطبة الشقشقية

«أما والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر ... لألقيت حبلها على غاربها».

ويبدو أنّ هذا التفسير هو الآخر مستبعداً، لأنّ القوم تمردوا على طاعة الإمام عليه السلام قبل البيعة، واعلنوا بيعتهم فلم يكن هناك من ميثاق، إلّا أن نفسر الميثاق مجازياً.

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۲۵۳

عهد رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله لعلى عليه السلام

أشار الإمام عليه السـلام فى هذه الخطبة إلى العهد الذى عهده إليه رسول‌اللّه صـلى الله عليه و آله، ويفهم من العبارة أنّ النبى صلى الله عليه و آله عهـد لعلى عليه السـلام بمماشـاة الخلفـاء، وإن لم تسـتند حكـومتهم إلى الموازين الشـرعية. وقـد صـرحت بعض الروايـات بمضمون ذلك العهد، ومنها ما أورده المرحوم السيد ابن طاووس فى كشف المحجة فى رواية عن على عليه السلام:

«وقـد كان رسول‌اللّه صـلى الله عليه و آله عهـد إلى عهداً، فقال: «يابن أبى‌طالب! لك ولاء امّتى. فان ولوك فى عافية واجمعوا عليك بالرضا فقم بأمرهم وإن إختلفوا عليك فدعهم وما هم فيه فانّ اللّه سيجعل لك مخرجاً».

فـالواقع أنّ الإنسـان قـد يقف أحيانـاً على مفترق طرق كلاهمـا مرير، إلّاأن أحـدهما أمّر من الآخر، فالعقل فى مثل هـذه الحالـة يحكم باجتنـاب الأمّر وتقبل المرير؛ القاعـدة التى يصـطلح عليها فى الفقه بقاعـدة الأهم والمهم، كما يعبر عنها أحياناً بـدفع الأفسـد بالفاسـد، وهذا ما سـلكه أميرَالمؤمنين عليه السـلام بعيد وفاة رسول‌اللّه صـلى الله عليه و آله. فقد كان أمامه عليه السلام سبيلان لاثالث لهما، إمّا إن يترك حقه المسلم فى الخلافـة حفظـا للإسـلام والمصالـح الإسـلامية، أو أن ينهض بالامـر فيطـالب بحقه، دون الإـكترات لوحـدة المسـلمين وتربص الاحزاب الجاهلية بالإسلام والفرصة التى كان ينتظرها المنافقون بفارغ الصبر أملا فى إقتتال المسلمين وتسللهم إلى الحكومة، الأمر الذى تكهن به رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله فعهد لعلى عليه السلام ذلك العهد، ولم يكن من على الذى أوقف نفسه للإسلام سوى الالتزام بذلك العهد.

نفحات الولايۀ، ج۲، ص: ۲۵۵

الخطبۀ: الثامنۀ و الثلاثون

اشارۀ

ومن كلام له عليه السلام

وفيها علّةُ تسميۀ الشُّبهۀ شبهةٌ ثُمَّ بيانُ حال النّاسِ فيها.[۴۰۶]

نظرۀ إلى الخطبۀ

إنّ أدنى تأمل للخطبۀ سيفيد أنّ هذا الكلام فصل من كلام طويل إختاره السيد الرضى (ره)، ومن هنا نرى الكلام عبارۀ عن فصلين، أحدهما غير منسجم مع الآخر، بل مبتور عنه.

أمّا الفصل الأول فهو الكلام فى الشبهۀ ولماذا سميت شبهۀ، وسبيل الخلاص من الشبهات.

والفصل الثانى بيان حال الناس إزاء الموت، حيث لا ينجو منه من خافه، ولا يمنح البقاء من طلبه فكلاهما ميت. وتدل القرائن على أن الرضى (ره) كان يلتقط الكلام إلتقاطاً، ومراده أن يأتى بفصيح كلامه عليه السلام وما يجرى مجرى الخطابۀ والكتابۀ، ويؤيد هذا العبارۀ

«من كلام له» و «من خطبۀ له»

ونعرف أنّ من هنا تبعيضية، فلم يقل ومن خطبته أو ومن كلماته، فقد أراد أن ما ورد هنا جزء من خطبته عليه السلام. على كل حال فانّ الخطبۀ ورغم قصرها تتناول موضوعين أحدهما؛ الشبهۀ والآخر الموت.

ج ج

نفحات الولايۀ، ج۲، ص: ۲۵۷

«وَإِنَّما سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّها تُشْبِهُ الْحَقَّ: فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَضِياؤُهُمْ فِيها الْيَقِينُ وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى وَأَمَّا أَعْداءُ اللَّهِ فَدُعاؤُهُمْ فِيها الضَّلالُ وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى، فَما يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خافَهُ، وَلا يُعْطَى الْبَقاءَ مَنْ أَحَبَّهُ».

الشرح والتفسير

النجاۀ من الشبهۀ

يستفاد من بعض المصادر أنّ هذا الفصل من الخطبۀ يتعلق بقصۀ طلحۀ والزبير ومعركۀ الجمل؛ لأنّهما خلقا شبهۀ لدى الناس ودعوهم لنكث البيعۀ والقيام ضد الحق. ومن عناصر تلك الشبهۀ زج زوج النبى صلى الله عليه و آله فى تلك المعركۀ والمطالبۀ بدم عثمان وما شا كل ذلك. قد تحدث الإمام عليه السلام عن الشبهۀ قائلا:

«وإنّما سميت الشبهۀ شبهۀ لأنّها تشبه الحق»

ومن هنا كانت سببا لخداع السذج وذريعۀ بيد الشياطين للفرار من الحق. فالواقع أنّ الامور التى تواجه الإنسان فى حياته الفرديۀ والاجتماعيۀ لا تخرج عن ثلاث؛ فقد يكون الحق ظاهراً جلياً كأن نقول من يعمل الخير يحصد الخير ومن يعمل الشر يحصد الشر؛ أو يكون الباطل واضحاً، كأن نقول الفوضى وغياب القانون أفضل من النظام وسيادۀ القانون، فمن البداهۀ القول ببطلان هذا الأمر. غير أن هنالك بعض الحالات التى ليست من قبيل القسم الأول ولا الثانى، حيث يتلبس الباطل أحياناً بثوب الحق، أمر ظاهره حق وباطنه باطل،

كتلك الامور الجوفاء التى تمسك بها أصحاب الجمل وصفين من أجل إشعال نيران تلك المعارك. ويبدو أنّ هذه هى مشكلة المجتمعات البشرية، وقد إتسعت فى مجتمعاتنا المعاصرة، حيث نرى أغلب الأهداف الباطلة والسلطة الخبيثة التى تلبست ثياب حقوق الإنسان والدفاع عن الحرية والديمقراطية وحفظ القانون وإعادة السلام والاستقرار إلى المنطقة. ثم أشار عليه السلام إلى طرق النجاة من

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵۸

الشبهات التى يعتمدها أولياء اللَّه

«فأما أولياء اللَّه فضياؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت [۴۰۷] الهدى».

فالعبارة قد تكون إشارة لأحد أمرين: الأول أنّ أولياء اللَّه الذين يؤمنون باللَّه والغيب إنّما يلوذون بالقرآن وكلمات أئمة العصمة لمواجهة ظلم الشبهات والخلاص منها بدافع من يقينهم بالوحى، وعليه فاليقين فى العبارة هو الإيمان باللَّه ورسوله «وسمت الهدى» إشارة إلى هدى الوحى، كما قال القرآن «ذ لِكَ الْكِتابُ لَارَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِين»[۴۰۸]. وقيل المراد باليقين الاستفادة من المقدمات القطعية والامور اليقينية التى من شأنها إنارة الطريق والقضاء على الشبهة، وبعبارة اخرى فانّ أولياء اللَّه الذين لايكترثون للاهواء ويحكمون العقل إنّما يسعهم فى ظل هذا لاعقل أن يجتازوا الشبهات ويهتدوا إلى السبيل، ولو كان للأهواء من سبيل إلى العقل لما وسع هذا الفرد تمييز الحق من الباطل إذا إلتبس عليه الأمر. والتفسيران لايتعارضان، ويمكن الجمع بينهما فى مفهوم العبارة المذكورة. قد يقال أنّ بعض الآيات والروايات قد اشتملت على المشتبه الذى يتضمن مختلف التفاسير، فما العمل فى هذا الحالة؟

لقد أجاب القرآن الكريم صراحة عن هذا السؤال وذلك بالرجوع إلى الآيات المحكمة والروايات الصريحة التى تفسر تلك المتشابهة حتى يتمكن الفرد من إجتياز هذا الامتحان الإلهى بالآيات والروايات المتشابهة. والحياة الإنسانية على غرار الآيات القرآنية قد تنطوى على محكمات ومتشابهات، فقد ترى مثلًا حركة مريبة من أحد الأصدقاء تحتمل الوجهين فى التفسير، وقد أرشدت مختلف الحوادث إلى نزاهته وعفته خلال كل هذه المسيرة، فلا شك أنّ حسن السيرة هذا من المحكمات وتلك الحركة المريبة من المتشابهات التى يمكن تفسيرها من خلال المحكمات. ثم تطرق الإمام عليه السلام لأعداء اللَّه فى كيفية التعامل مع الشبهات فقال:

«وأما أعداءاللَّه فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى»

فكل سبيل يتطلب دافعاً ودليلًا من أجل الحركة، وهنا يفترق الأفراد إلى أولياء اللَّه وأعدائه، فليس لأولياء اللَّه من دافع سوى اليقين باللَّه واليوم الآخر ودليل سوى الوحى والنبوة، بينما دافع أعداء ودليلهم الضلال وهوى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۵۹

النفس ووساوس شياطين الانس والجن وعمى البصر والبصيرة. ومن هنا فانّ الفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة هى مصير الطائفة الاولى «أ لا- إنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ... لَهُمُ الْبُشْرى فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ»[۴۰۹] بينما ليس لأعداء اللَّه سوى الظلمات «أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ»[۴۱۰]. أمّا ما ورد فى خطبة الإمام عليه السلام فهو صادق على الحياة الفردية وكذلك الحياة الاجتماعية، بل إنّ أبعاده لأعظم وأخطر فى الجانب الاجتماعى وقد تجسد النموذج الكامل لذلك فى الطائفة الثانية (أعداء اللَّه) من قبيل الفرق الثلاث التى خاضت معركة الجمل وصفين والنهروان من خلال الشبهات الواهية والادلة الجوفاء الأضعف من بيت العنكبوت لتهب لقتال الإمام عليه السلام وتوجّه ضرباتها الماحقة لكيان الإسلام والمسلمين. جدير بالذكر ما أورده صحيح البخارى عن أبى بكرة- أحد صحابة رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله- أنّه قال سمعت حديثاً عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله نفعنى أيام الجمل، فقد كدت أن ألتحق بمعسكر أصحاب الجمل، حيث بلغ رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله أنّ طائفة من الإيرانيين قد ولوا عليهم بنت كسرى فقال صلى الله عليه و آله

«لن یفلح قوم ولو أمرهم إمرأة».[۴۱۱]

تأثیر الشبهة فی تحریف الحقائق

لو ظهر الباطل کما هو لما خفی علی أحـد، ولما قبله الوجدان والطبع السلیم، ولا یستجیب له سوی مرضـی القلوب ومنحرفی الأفکار إلّاأنّ المشکلة تتعقـد حین یتزین الباطـل بلبـاس الحق، فیقبـل علیه بعض طلاب الحق بعـد أن یغترون بحسن ظاهره، وهـذه فی الواقع إحـدی شـعب الشـبهة. الشـعبة الاخری أن یمزج مقدار من الحق بمقدار من الباطل فتختفی صورة الباطل القبیحة فی ظل الحق. وأخیراً فقد یزیف الباطل ویجمل حتی یبدو بصورة حق دون أن

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۲۶۰

یمتزج به. وقد حفل تأریخ البشـریة بما لا یحصـی من الفتن والویلات التی طالته من خلال الشبهات والوساوس الشیطانیة، حتی مارس الطغاة والمخادعون سـلطتهم علی الناس بواسطة تلک الشبهات. وأفضل نموذج علی ذلک المعارک الثلاث المعروفة- الجمل وصفین والنهروان- التی أودت بحیاة تلک الجماعـة العظیمة من المسـلمین وما ذلک إلّامن خلال الشـبهات التی إعتمدها أصـحاب الباطل من أجـل تحقیق أطمـاعهم ومآربهم؛ فالبکـاء لیل نهار علی قتل الخلیفـة المظلوم (عثمان) والطواف بقمیصه الملطـخ بالـدم من أجل تعبئة النـاس، حتی من قبـل أولئک الـذین ساهموا فی قتله وتلطخت أیـدیهم بـدمه، ومن ثم الإتیان بام المؤمنین ورکوبها الجمل و ... کلها نماذج حیة من الشبهة. رفع المصاحف علی أسنة الرماح وشعار التسلیم الحکم القرآن والحیلولة دون إراقة دماء المسلمین هی الاخری من شـبهات معرکـة صـفین. بل أبشع صورة للشـبهة فی محاولـة تحمیل الإمام علی علیه السـلام مسؤولیة قتل عمار بن یاسـر فی معرکة صفین حیث إحتج الإمام علیه السلام بقول رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله:

«یا عمار تقتلک الفئة الباغیة»،

فاحتـج علیه بأنّ الفئـة الباغیـة من أتت بعمار إلی المعرکة. أما أصـحاب النهروان ممن کانوا یتظاهرون بصـلاة اللیل وقراءة القرآن التی لاتتجاوز تراقیهم، فقـد رفعوا شـعارهم المعروف «لا حکم إلّااللّه» وقـد انطوت هـذه الشـبهة علی فئـة عظیمـة من الناس والتی أدت فی الختـام إلی قتلهم وخلودهم فی جهنم وبئس المصـیر. ویشـهد عالمنـا المعاصـر الیوم أسوأ أنواع الشـبهات، فمـا أکثر الشـعارات البراقة السـاحرة، من قبیـل شـعار الحریـة والدیمقراطیـة والمسـاواة وتفعیـل حقوق الإنسان والحضارة والمدنیـة وتطویر البشـریة والتی ترتکب باسمها أعتی الجنایات وأقبح الجرائهم.

وسنسـلط مزیـداً من الضوء علی هـذا الموضوع حین نصـل إلی الخطبـة الاربعین والخمسـین الواردة بهـذا الشأن، کما أشار الإمام علیه السلام إلی هذا الأمر فی الحکمة ۱۹۸ من قصار کلماته فی نهج‌البلاغة.

عبثیة الخوف من الموت

یری أغلب شرّاح نهج‌البلاغة عدم وجود آیة رابطة لقولة علیه السلام:

«فما ینجو من الموت من خافه، ولا یعطی البقاء من أحبه»

وما ورد فی أول الخطبة، وأنّ السید الرضی (ره) إنّما یلتقط

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۲۶۱

کلاـم الإمـام علیه السـلام من أکثر من خطبـة. ولعلنا نسـتطیع تصور رابطـة بین الفصـلین من الخطبـة وذلک أنّ الأفراد قـد یستسـلمون للشبهات خوفاً من الموت، فإشار علیه السلام إلی أنّ خوف الموت لا ینجی من الموت أبداً. علی کل حال فان هذا الفصل من الخطبة یشتمل علی عبارتین تعالج کل منها قضیة الموت. فقد قال علیه السلام

«فما ينجو من الموت من خافه»،

بـل إنّ هـذا الخوف قـد يكون من العناصـر المقربـة للموت. فـالموت هو القلادة التى خطت على جيـد ابن آدم وسائر الكائنات الحية والقانون الذى لايعرف الشواذ والاستثناء، فليس هنا لك من خلود سوى للّه سبحانه.

فجميع الكائنات محـدودة وأنّها سـتنتهى لامحالـة وتؤول إلى الفناء. وليس من بقاء سوى للذات الإلهية المقدسة، وعليه فخوف الموت لن يغير من حقيقته شـيئاً، كمـا أن السـعى من أجـل البقـاء والحياة الخالـدة لن يكلل بالنجاح أبـداً. ومن هنا قال الإمام عليه السـلام فى العبارة الثانية

«ولا يعطى البقاء من أحبه».

قـد تطول مـدة الحياة أو تقصـر إلّاأنّها سائرة للزوال فى خاتمـة المطاف ومن الوهم الساذج والباطل التفكير بالبقاء والخلود. فقد صـرح القرآن الكريم «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ» وقال «كُلُّ شَىءٍ هالِكٌ إلّا وَجْهَهُ». والعبرة هنا فى أن يستعد الإنسان للموت ويتزود له، فالموت لا يعنى الفناء المطلق بقدر ما يعنى الانتقال من دار صـغيرة محدودة إلى أخرى كبيرة واسـعة تشـتمل على مختلف النعم واللذائذ، وإذا أصلحنا عملنا فليس هنالك ما يدعو إلى الخوف من الموت.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶۳

الخطبة[۴۱۲]: التاسعة والثلاثون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

خطبها عند علمه بغزوة النعمان بن بشير، صاحب معاوية لعين التمر، وفيها يبدى عذره ويستنهض الناس لنصرته.

نظرة إلى الخطبة

أمر النعمان بن بشير مع علىّ ومالك بن كعب الأرحبىّ

وردت هذه الخطبة كما ذكرنا سابقا حين غزا النعمان بن بشير عين التمر الموضع المعروف فى العراق.

وقـد كان معاويـة قال قبل ذلك بشـهرين أو ثلاثـة: أمَا من رجل أبعثُ به بجريدة خيل؛ حتى يُغِيرَ على شاطىء الفرات! فإنّ اللّه يُرعِبُ بهـا أهـلَ العراق! فقـال له النعمـان: فـابْعثِنِى؛ فإنّ لى فى قتالهم نيّةً وهوًى- وكان النعمان عثمانياً: قال: فانتـدب على اسمِ اللّه، فانتـدَبَ ونَدَب معه ألفىْ رَجل، وأوصاه أن يتجنّب المدن والجماعات، وألّا يُغير إلّاعلى مَسْلَحة، وأن يعجّل الرجوع.

فأقبلَ النعمانُ بن بشـير؛ حتى دنا من عين الَّتمْر، وبها مالك بن كعب الأرحبىّ الذى جرى له معه ما جَرى، ومع مالك ألفُ رجل؛ وقد أذِن لهم، فرجعوا إلى الكوفة، فلم يبق معه إلّامائة أو

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶۴

نحوها، فكتب مالك إلى علىّ عليه‌السلام: أما بعـد؛ فإنّ النعمان بن بشـير، قـد نَزَل بى فى جمع كَثِيف، فَرَ رأيَك، سـدّدك اللّه تعالى وثبتك. والسلام. فوصل الكتابُ إلى علىّ عليه‌السلام؛ فصعد المنبر فحمداللّه وأثنى عليه، ثم قال:

اخرجُوا هـداكم اللّه إلى مالـك بن كعب أخيكم، فإنّ النعمان بن بشـير قـد نَزَل به فى جمع من أهل الشام؛ ليس بالكثير، فانهضوا إلى إخوانكم، لعلّ اللّهَ يقطعُ بكم من الكافرين طَرَفاً.

ثم نزل.

فلم يخرجوا، فأرسل إلى وُجُوهِم وكُبرائهم، فأمرَهم أن ينهضُوا ويحثّوا الناسَ على المسير، فلم يصنعوا شيئاً، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائة فارس أوْ دونها، فقام عليه السلام، فخطب الخطبة.[۴۱۳]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶۵

القسم الأول: سكوت الإمام عليه السلام

«مُنِيتُ بِمَنْ لا يُطِيعُ إذا أَمَرْتُ وَلا يُجِيبُ إذا دَعَوْتُ، لا أَبالَكُمْ! ما تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ؟ أَما دِينٌ يَجْمَعُكُمْ وَلا حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ؟ أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً وَأُنادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً، فَلا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلًا، وَلا تُطِيعُونَ لِي أَمْراً، حَتَّى تَكَشَّفَ الْأُمُورُ عَنْ عَواقِبِ الْمَساءَةِ، فَما يُدْرَكُ بِكُمْ ثارٌ، وَلا يُبْلَغُ بِكُمْ مَرامٌ».

الشرح والتفسير

أشرنا سابقاً إلى أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين بعث معاوية النعمان بن بشير ليرعب إحدى مناطق العراق ويضعف معنويات أهلها، فدعا الإمام عليه السلام الناس لقتالهم، غير أن عجز أهل العراق وضعفهم جعلهم يردون بالسلب على دعوة الإمام عليه السلام، فخطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة لغرضين: الأول: تحميل أهل العراق المسؤولية التامة للمصائب والويلات التى تتعرض لها البلاد بفعل هذا الضعف والذلة تجاه العدو، الثانى: لعل هذه الكلمات تؤثر فى تلك الأرواح الهامدة فتلتفت إلى عظم الأخطار التى كانت تتربص بها فتهم بموا جهتها. فقد قال عليه السلام:

«منيت بمن لا يطيع إذا أمرت ولا يجيب إذا دعوت»

فمن الطبيعى أنّ أعظم القادة والامراء وأشجعهم لايسعهم فعل شيء إذا ما ابتلوا بمثل هؤلاء الأفراد، وما من فشل أو هزيمة تصيبهم إلّا ويتحملون مسؤوليتها كاملة. ثم قال عليه السلام:

«لا أبا لكم: ما تنظرون بنصركم ربكم»؟

إنّ جميع الظروف متوفرة لديكم من أجل القتال، فعندكم العدّة والعدد، كما تعلمون مؤامرات عدوكم وقد أحدق الخطر بكم، فماذا تنتظرون؟ أتتطلعون لقتلكم بهذه الذلة والهوان؟ وقد

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۶۶

أشْرنا سابقاً إلى أن قوله عليه السلام:

«لا أبا لكم»

إما يفيد عدم تربيتهم التربية الاسرية الإسلامية الصحيحة بحيث يبدون كل هذا الضعف والعجز، أو أنّه دعاء عليهم بان يميت اللَّه آبائهم، وهو الآخر كناية عن الذلة والهوان الذى يستشعره الإنسان لفقد والده. ثم قال عليه السلام:

«أما دين يجمعكم ولا حمية تحمشكم»[۴۱۴]؟

فالواقع من شأن أى من هذين الأمرين دواء دائهم، فالدين حلقة إتصال يمكنها إستقطاب الفئات والطوائف المختلفة حول هدف مركزى واحد، فاذا غاب الدين الذى يجمعهم، فانّ الغيرة الاجتماعية وحبّ الاهل والوطن إنّما تسوقهم للاتحاد أمام العدو ومواجهته، غير أنّ المؤسف له هو أنّ أهل العراق آنذاك قد فقدوا هذين الدافعين، فلم يكن دينهم محكماً راسخاً، كما لم تكن لهم حمية تجعلهم يغضبون ويواجهون العدو. ولا شك أن مثل هؤلاء القوم يعتبرون عقبة كؤوداً فى طريق الحاكم. ومن هنا خاطبهم الإمام عليه السلام مصوراً حجم ضعفهم والذل الذى سيطر عليهم

«أريد أن اداوى بكم وانتم دائى كناقش الشوكة بالشوكة».[۴۱۵]

ومن هنا قال عليه السلام:

«أقوم فيكم مستصرخاً[۴۱۶] وأناديكم متغوثّاً،[۴۱۷] فلا تسمعون لى قولًا، ولا تطيعون لى أمراً، حتى تكشف الامور عن عواقب المساءة»[۴۱۸]

فهل هناك أعظم من هذه المأساة، فى أن يبتلى مثل هذا الإمام عليه السلام الشجاع العالم العادل المجرب بمثل هؤلاء القوم الذين لايكترثون لصراخه ولا يطيعون أوامره. ويفيد التأريخ أنّ هذا الأمر لم يقتصر على أميرالمؤمنين عليه السلام وقد مارست الامّة نفس هذا الموقف مع الإمام الحسن والحسين عليهما السلام فقد وقعت حادثة كربلاء ليقتل الإمام وصحبه بتلك الشاعة، آنذاك ندم أهل الكوفة وهبوا للمطالبة بدم الحسين عليه السلام ولكن بعد أن وقع ما لم يكن ينبغى أن يقع، فقد تخلوا آنذاك عن دعم

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۲۶۷

سفير الحسين عليه السلام مسلم‌بن عقيل ونكثوا بيعته ولزموا بيوتهم، فبقى مسلم وحده يقاتل الأعداء حتى استشهد. وأخيراً خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة

«فما يدرك بكم ثار، ولا يبلغ بكم مرام».

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۲۶۹

القسم الثانى: الضعف أمام العدو

اشارة

«دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ[۴۱۹] الْجَمَلِ الْأَسَرِّ[۴۲۰] وَتَثاقَلْتُمْ تَثاقُلَ النِّضْوِ[۴۲۱] الْأَدْبَرِ[۴۲۲] ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ[۴۲۳] مُتَذائِبٌ ۴۲۴] ضَعِيفٌ «كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام ذمه لأهل الكوفة على ما أبدوه من ضعف وعجز تجاه الهجمات المبرمجة للعدو فقال عليه السلام:

«دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الأسر، وتثاقلتم تثاقل النضو الادبر»

أى أنّكم أعربتم عن عجزكم فى الكلام كما فعلتم ما يفشلكم فى الدنيا والآخرة ويمكن العدو من تكبيدكم الخسائر فى أموالكم وأرواحكم، فقد دعوتكم لنصر أخوانكم (مالك بن كعب وصحبه ممن تعرضوا لغارات اهل الشام فى منطقة عين التمر) فكانت حركتكم كحركة الجمل وتثاقل النضو الادبر

«دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۲۷۰

جرجرة الجمل الأسر، وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر»

ولعل تشبيههم بالحيوانات المريضة إشارة إلى ضعفهم الفكرى وعجزهم فى إتخاذ القرار، لأنّ الإنسان العاقل لايدع العدو يهجم عليه بهذه الطريقة بحيث يضرب أينما شاء دون وازع أو رادع. ثم أشار عليه السلام إلى تلك الفئة القليلة التى لبت دعوته، بينما كان الخوف والهلع يسيطر عليهم

«ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب ضعيف كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون».

وقد أورد السيد الرضى (ره) فى آخر الخطبة قائلًا: قوله عليه السلام متذائب؛ أى مضطرب، من قولهم: تذائبت الريح، أى اضطراب هبوبها.

ومنه سمى الذئب ذئباً، لاضطراب مشيته. ومن هنا فانّ هذه الفئة القليلة لم تكن مصداقاً لقوله سبحانه

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة»

بل كانت فئة ضعيفة قلقلة مضطربة كأنّهم يساقون إلى المذبح وهم ينظرون إلى موتهم، فهى فئة عدمها خير من وجودها والوثوق بها مخجل، فما أعظم محنته الإمام عليه السلام وابتلائه بهؤلاء القوم طبعاً قوله عليه السلام كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. إنّما اقتبسه عليه السلام من الآية السادسة من سورة الانفال التى وردت بشأن بعض المؤمنين الضعفاء على عهد النبى صلى الله عليه و آله الذين كانوا يتشبثون بمختلف الذرائع والحجج للفرار من الجهاد إلى جانب جدالهم للنبى صلى الله عليه و آله حول موقعة بدر، غير أنّ حوادث بدر أثبتت لا حقاً مدى خطأهم وتزايد خوفهم عبثاً حتى إنتهت الموقعة بالنصر المؤزر للمسلمين، والعجيب أنّ هؤلاء كانوا من المعترضين على كيفية توزيع الغنائم بعد انتهاء المعركة. ولعل المراد بالعبارة أن هذه الفئة القليلة لو كانت تمتلك العزم الراسخ والقوة والصلابة من شأنها الانتصار على العدو، غير أن المؤسف ...

عاقبة الضعف أمام العدو

رغم أن التعاليم الإسلامية تستند إلى ارساء قواعد السلام مع كافة الامم والشعوب- باستثناء تلك الحالات التى يشهر فيها السلاح ضد الإسلام والمسلمين- إلّاأنها توصى بالشدة والصلابة فى بعض الحالات الطارئة، ونموذج ذلك ما ورد فى هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة بشأن العتاة المردة من أهل الشام من جيش معاوية. فقد كان معاوية يستغل الفرص من أجل إضعاف أهل العراق وزعزعة روحياتهم، فقد كان يجهز بعض الجماعات

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۱

ويعبئها لشن غاراتها على بعض المناطق الإسلامية فتنشر فيها الذعر والخراب والدمار وتذبح من فيها دون الإكتراث للشيوخ والنساء والصبيان إلى جانب نهب الأموال والثروات وقد تكررت مثل هذه الحادثة لأكثر من مرّة على عهد الإمام عليه السلام، فكان الإمام عليه السلام يستصرخ أهل الكوفة لمواجهة هذه الأخطار فكانوا يردون عليه بكل ضعف وفتور وكأنّهم لم يعلموا بما يجرى حولهم وقد غطوا فى نوم عميق: الأمر الذى جعل إعتداءات أهل شام تتصاعد يوماً بعد آخر، حتى أصبح العراق بعيد شهادة الإمام عليه السلام لقمة سائغة لمعاوية ورهطَه بحيث لم يتمكن الإمام الحسن عليه السلام من الوقوف بوجه ذلك الظالم، ولا عجب فى الأمر فلم تكن لديه القوة الكافية من الأفراد التى يستطيع بواسطتها قتال معاوية. ونلمس اليوم هذه الحقيقة بوضوح فى عالمنا المعاصر، وإذا لم نلتفت إلى تحرشات العدو وتقبرها فى المهد فانّها ستتسع شيئاً فشيئاً، آنذاک لم يمكن المواجهة والصمود. وعليه فلابد من الانتباه إلى أدنى حركة عسكرية أو إعلامية أو إقتصادية والتعامل معها فوراً بمنتهى الصلابة ليضطر العدو للدفاع بدلًا من الهجوم.

فعادة ما تحاول العناصر الضعيفة التى تميل إلى الدعة والراحه لحمل مثل هذه الحركات على البراءة بعيد عن حملها محمل الجد وإساءة الظن بها، والحال أنّها إنّما تبدر من العدو الذى لاينبغى الغفلة عن إتهامه ريثما تتكشف الحقائق. ونختتم البحث بالعبارات الواردة فى خطبة الجهاد حيث قال عليه السلام:

«ألا ـ وإنّى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلًا ونهاراً وسراً وأعلاناً وقلت لكم: إغزوهم قبل أن يغزوكم: فواللّه ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلّاذلوا».[۴۲۵]

سؤال

لعل هنالک من يتساءل لم كل هذه الشدّة من الإمام عليه السلام مع أصحابه ومخاطبتهم بهذه اللكمات وتحقيرهم إلى هذا الحد، أفليس من الأفضل أن يرفق بهم ويتلطف معهم؟

الجواب: بينا الإجابة على ذلك كراراً فى الخطب السابقة، وقلنا أنّ ذلك يمثل آخر الدواء، وكأنّه عملية لاستئصال مرض عضال.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۳

الخطبة الاربعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى الخوارج لما سمع قولهم: «لا حكم الا اللّه»

نظرة إلى الخطبة

خطبها عليه السلام بعد موقعة صفين حين إعترض عليه الخوارج بقبول التحكيم وانتخاب ممثلين أحدهما من أصحاب الإمام والآخر من أصحاب معاوية لهذا الأمر ليحكما بشأن عاقبة موقعة صفين وخلافة المسلمين، بينما يصرح القران «إِنِ الْحُكْمُ إِلّا لِلَّهِ»[۴۲۶] فاقتبسوا من الآية قولهم «لا-حكم إلّاللّه» ليحتجوا بها على الإمام عليه السلام، وبالطبع فان هنالك مغالطة كبرى وقعوا فيها ولم يدركوا حقيقة الامر. فلما سمع الإمام عليه السلام هذا الشعار، رد بهذه الخطبة وأشار فيها إلى أربعة أمور:

الأول: كشف النقاب عن مغالطتهم فى هذا الشعار، وأنّ القول «لا حكم إلّاللّه» كلمة حق يريدون بها باطلًا.

الثانى: حاجة الامّة إلى الحاكم، وبعبارة اخرى ضرورة الحكومة.

الثالث: شرح وظائف الحاكم العادل وايجازها فى سبع.

الرابع: نتيجة وجود الحكومة العادلة.

وقد نقل المرحوم السيد الرضى (ره) آخر هذه الخطبة نفس هذا المضمون طبق رواية أخرى بعبارات أقصر.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۵

«قالَ عليه السلام: كَلِمَةُ حَقٍّ يُرادُ بِها باطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَكِنَّ هَؤُلاءِ يَقُولُونَ: لا إِمْرَةَ إِلَّا لِلَّهِ، وَإِنَّهُ لا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيها الْكافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللَّهُ فِيها الْأَجَلَ وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَيُقاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ وَيُسْتَراحَ مِنْ فاجِرٍ.

فِي رِوايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ عليه السلام لَمَّا سَمِعَ تَحْكِيمَهُمْ قالَ: حُكْمَ اللَّهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ.

وَقالَ: أَمَّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيها التَّقِيُّ، وَأَمَّا الْإِمْرَةُ الْفاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيها الشَّقِيُّ، إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى الشعار الذى رفعه الخوارج

«لاحكم إلّاللّه»

بقوله

«كلمة حق يراد بها باطل»

ثم بين عليه السلام بطلان ما أراده الخوارج من تحريفهم لهذا الكلام الحق بقوله

«نعم إنّه لاحكم إلّا للّه ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلّاللّه»

خطأ الخوارج فى هذا الشعار الحق الذى إقتبسوه من القرآن أنّهم أرادوا به أن الحكومة بين الناس للّه، ومن هنا فقد إعترضوا على

مسألـة التحكيم ورأوها نوعاً من الشـرك، وذلك لأنّها منحت الحكومـة لغير اللَّه من الأفراد! فمن البديهى أن يكون الحاكم بين الناس هو اللَّه إذا كان الحكم مقتصراً على اللَّه، وعليه لابدّ من إزالة أصل الحكومة، لَما وعليه من إزالة القضاء والمحاكم بالتبع فهى من قبيل الحكومـة التى يمارسـها الأفراد. لقد خيل لتلك الفئة أنّها تريد أن تعيش توحيد اللَّه على مستوى الحاكمية والتخلص من الشـرك فى هذا المجال، إلّاأنّهم إثر جهلهم وتعصبهم سقطوا فى مستنقع الفوضى والهرج والمرج ورفض الحكومة فى أوساط المجتمعات البشرية، واصيبوا بالهلوسة التى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۶

جعلتهم يعتقـدون بـأنّ رعايـة التوحيـد تتطلب نفى كافـة ألوان الحكومـة والامـرة، غير أنّهم سـرعان مـا وقفوا على بطلان مـذهبهم فى الحكومة لما شـعروا بحاجتهم إلى من يتزعمهم ويحكم بينهم، رغم عنادهم الذى أفرزه جهلهم والذى لم يدعهم يفيقون إلى أنفسهم. مع ذلك فقد قضت كلمات الإمام عليه السـلام مضاجعهم واستطاعت أن تفعل فعلها فى ميدان القتال فجعلت الكثير منهم يعودون إلى رشـدهم فيعلنوا توبتهم بعـد أن وقفوا على عمق إنحرافهم، على كل حال فانّ الإمام عليه السـلام يؤكـد فى هـذه الخطبـة أنّ الحاكم وا لمشـرع الاصلى هو اللَّه سبحانه؛ حتى الحكم بين الناس لابدّ أن يستند إلى تخويل منه، إلّاأنّ هذا لايعنى أن اللَّه ينبغى أن يحضر بنفسه فى المحـاكم ليقضـى ويحكم بين النـاس، أو أن يأخـذ بزمـام الامـور فيمارس وظيفته كرئيس للبلاد أو والياً وعاملًا على منطقـة، أو أن يوكـل هـذه المهمـة إلى الملائكـة فيبعثهم إلى الأـرض. فهـذا كلاـم عبثى ولغو فارغ لا يرتضـيه من كان له أدنى فهم وإدراك، إلّاأنّ المؤسف هو أن هـذه الفكرة كـانت متأصـلة فى أفكـار الخوارج، ومن هنـا خـالفوا أميرالمؤمنين عليه السـلام واعـترضوا عليه: لم قبلت التحكيم؟! وصـرح بعض شـرّاح نهجالبلاغـة بأنّ الخوارج يزعمون أن الحكم يتطلب الاذن الإلهى ولابـدّ أن يصـرح القرآن بهذا الأمر، بينما لم يأذن القرآن لأحـد. ولعل هذا هو الذى دفع بعض الاعلام ۴۲۷] لأن يستدلون على نفى عقيدة الخوارج بالآية القرآنية الشريفة الواردة بشأن الحكم فى الاختلافات العائليـة «وَإِنْ خِفْتُمْ شِـقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيـدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمـا إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً»[۴۲۸]. فاذا كانت هـذه المسألـة الصـغيرة تحتاج إلى الحكم فما ظنك بالمسائل المهمة التى يدعو الاختلاف فيها إلى تفشـى الهرج والمرج فى صـفوف المجتمع، أفلا ينبغى فصل هـذه الاختلافات وحلها عن طريق الحكم؟! ومن هنا يرى البعض أنّ الإمـام عليه السـلام لم يكن مخالفـاً لمسألـة التحكيم فى بعض الحالات، إلّا أنّه لم يكن يوافق شـخص الحكمين وكان يعترض عليهما بشدة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى ضرورة تشكيل الحكومة، لأنّ لخوارج. كما أشرنا سابقا- لم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۷

يخالفوا مسألـة التحكيم فى صـفين فحسب، بل شـككوا فى أصل الحكومة وزعموا عدم الحاجة إلى الحاكم، إلّاأنّهم رجعوا عن ذلك لما أمروا عليهم عبداللَّه بن وهب الراسبى ۴۲۹]. ثم علل الإمام عليه السلام ضرورة تشكيل الحكومة والحاكم

«وإنّه لابدّ للناس من أمير بر أو فاجر»

ليذكر سبعة فوائد تترتب على قيام الحكومة بعضها يتصل بالجانب المعنوى والبعض الآخر بالجانب المادى وهى: أولًا:

«يعمل فى إمرته ۴۳۰] المؤمن».[۴۳۱]

ثانياً:

«ويستمتع فيها الكافر»،

ثالثاً:

«ويبلغ اللَّه فيها الاجل»،

رابعاً:

«ويجمع به الفيئ»،

خامساً:

«ويقاتل به العدو»

سادساً:

«وتأمن به السبل»

سابعاً:

«ويؤخذ به للضعيف من القوى».

ثم تفضى هذه الوظائف السبع إلى هذه النتيجة النهائية المترتبة على الحكومة

«حتى يستريح بر ويستراح من فاجر».

ويدل التأريخ السياسى أنّ فئة قليلة جداً فى الماضى وحتى فى الوقت الراهن هى التى لاترى ضرورة تشكيل الحكومة- مستدلة ببعض الأدلة الجوفاء التى سنشير لها فى البحث القادم- والخوارج مصداق لهذه الفئة. وقد رد التأريخ بصراحة على هذه الفكرة الساذجِة فقد رأينا بأم أعيننا وسمعنا بملئ آذاننا مدى الأخطار الجسام التى يواجهها المجتمع إبان إنهيار الحكومة ولو لساعات من قبيل قتل الأنفس وإراقة الدماء وعمليات السرقة والسلب والنهب التى تتعرض لها المؤسسات بل حتى بيوت الناس وانتهاك الاعراض والنواميس وانعدام الامن والاستقرار وسيادة الفوضى والهرج والمرج الاضطراب وشل حركة كافة النشاطات الاجتماعية؛ كما تصبح البلاد لقمة سائغة للاعداء الذين يعيثون فى الأرض فساداً فلا يسلم المؤمن من شرهم ولا الكافر فتهضم جميع الحقوق ويعيش الناس الخوف والذعر فمما لاشك فيه أن الف باء الحياة إنّما يكمن فى إستتباب الأمن والنظام، ثم وجود العناصر المقتدرة التى تقف كالطود الشامخ بوجه العدو الخارجى وعملائه فى الداخل، ولا يتيسر مثل هذا الأمر إلّافى ظل الحكومة. وهنا يبرز هذا السؤال: هل يسع الحاكم الفاجر أن يقوم بالوظائف السبع المارة الذكر التى يقوم بها الحاكم البر والعادل؟ فقد

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۸

ذكرها الإمام عليه السلام لكليهما، بحيث يقوم كل منهما بهذه الوظائف. وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى هذه النقطة وهى أنّ الحاكم البر إنّما يقوم قطعا بمثل هذه الوظائف، إلّاأنّها ليست كذلك بالنسبة للفاجر بصورة مطلقة نعم يمارسها بصورة نسبية، فهو مضطر لاستمرار حكومته أن يراعى النظام، ويقف بوجه العدو الخارجى ويحول نسبيا دون ظلم الظلمة، وان كان فى حد ذاته ظالماً؛ والّا فان الناس ستخرج عليه وتتزلزل دعائم حكومته فيطيح به الأعداء، ومن هنا فانّ أغلب الحكومات مهما كان تتسعى فهى جاهدة للقيام بتلك الوظائف المذكورة. ونخلص ممّا سبق أنّ أية حكومة تتساهل فى الوظائف المذكورة إنّما تكون قد مهدت السبيل إلى تصدع كيانها وإنهيارها. السؤال الآخر هو أنّ الإمام عليه السلام قد فرق بين المؤمن والكافر. فقال عليه السلام بشأن المؤمن «يعمل» والكافر (يستمتع) فما علة ذلك؟ والجواب هو أنّ المؤمن لايهدف فى حياته إلى الاستفادة من الامكانات المتاحة من أجل التمتع العابر، بل هدفه الأصلى الفوز برضى اللّه، وما إستفادته من متع الدنيا إلّابالتبع وكونها مطلوباً ثانوياً، وليس الحال كذلك بالنسبة للكافر، فهو ليس فقط لا ينشد رضى اللّه، بل يقصر همه على هذه الحياة الدنيا ليتمتع فيها وإن كان ذلك من خلال الحرام والطرق اللامشروعة، ومن هنا صرح الإمام عليه السلام بأنّ الحكومة ضرورة للطرفين المؤمن والكافر، يعمل فيها هذا ويتمتع فيها ذاك، ولولا الحكومة لما وسع المؤمن العمل ولا الكافر الاستقرار والتمتع.

ج ج

قال السيد الرضى (ره) فى ذيل هذه الخطبة، وفى رواية أخرى أنّ الإمام عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال:

«حكم اللّه أنتظر فيكم»

فالعبارة يمكن أن تكون إقتباساً من كلامهم للرد عليهم فأنتم تقولون الحكم للَّه، وأنا أنتظر هذا الحكم فيكم، فانّه سيحكم فيكم بالعقاب الشديد لهذه اللجاجة والجهل وتفريق صفوف المؤمنين. أو أنى انتظر اتمام الحجة عليكم فمن بقى على جهله وتعصبه أجريت عليه حكم اللَّه. ثم أضاف السيد الرضى (ره)- على ضوء هذه الرواية- وقال عليه السلام

«أما الامرة البرة فيعمل فيها التقى، وأما الامرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقى، إلى أن تنقطع مدته وتدركه منيته».

ولكن بالاستناد إلى مفهوم هذه العبارة فى أن الفجار يحرمون من التمتع المباح فى حكومة البر، ولا يستشعر المؤمنون الاستقرار والسكنية فى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۷۹

ظل حكومة الفاجر (وهذا يتناقض وهدف الخطبة فى أنّ الحكومة ضرورة برة كانت أم فاجرة) يبدو أنّ الرواية الاولى أصح وأنسب وأدق.

هذا وقد ورد فى شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ما يوضح العبارة المذكورة

«حكم اللَّه أنتظر فيكم»:

لما رجع على عليه السلام من صفين إلى الكوفة، أقام الخوارج حتى جموا (جموا بمعنى إستراحوا وكثروا) ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمى حروراء، فنادوا: لا حكم إلّااللَّه ولو كره المشركون: ألا أنّ علياً ومعاوية أشركا فى حكم اللَّه. فدخل واحد منهم على على عليه السلام بالمسجد، والناس حوله، فصاح: لا حكم إلّااللَّه ولو كره المشركون، فتلفت الناس فنادى لا حكم إلّااللَّه ولو كره المتلفتون، فرفع على عليه السلام رأسه إليه. فقال: لا حكم إلّااللَّه ولو كره أبوحسن. فقال على عليه السلام: إنّ أباالحسن لايكره أن يكون الحكم للَّه، ثم قال: حكم اللَّه أنتظر فيكم. فقال له الناس: هلا ملت يا أميرالمؤمنين على هؤلاء فأفنيتهم! فقال: إنّهم لايفنون، إنّهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة.[۴۳۲]

تأمّلان

۱- بلاء التحريف

لم يقتصر تأويل الحقائق وتحريف الآيات القرآنية على الخوارج بغية الوصول إلى مآربهم وأهدافهم المشبوهة، بل إذا تصفحنا تأريخ البشرية لوجدنا قضية تحريف الحقائق من الحراب والوسائل الفعاله التى إعتمدها الظلمة والطواغيت على مر العصور. فقد مارس هؤلاء أبشع تحريف لكلام اللَّه وكلام الأنبياء والأولياء وفسروها حسب أهوائهم وهم ينشدون هدفين:

الهدف الأول خداع الناس والآخر خداع أنفسهم. وما قضية النمرود مع نبى اللَّه إبراهيم عليه السلام وفرعون مع موسى عليه السلام والتى تطرقت لها أغلب الآيات القرآنية فى سورة البقرة وطه وسائر السور منك ببعيد فقد كانوا يقولون كلمات حق ولا يريدون بها سوى الباطل من أجل خداع من حولهم والتغرير بهم. ونشاهد اليوم أبشع صور هذا التحريف وكلمات الحق التى يراد بها

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸۰

الباطل من قبيل كلماتهم فى الحرية والديمقراطية والكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان والثقافة والحضارة والمدنية ومكافحة الارهاب وما إلى ذلك من الشعارات التى تلقلق بها ألسنة الطواغيت والجبابرة، ولا يريدون بها سوى الباطل، بل هنالك منافسة كبرى بين هؤلاء الطغاة فى إنتخاب الشعارات البراقة الأكثر تأثيراً وخداعاً من أجل نيل أهدافهم المشؤومة.

ومن هنا تشتد وظيفة العلماء الاعلام فى ضرورة تنبيه الامّة إلى عظم الأخطار المحدقة وضرورة التحلى باليقظة والوعى وعدم الانزلاق وراء هذه الشعارات الزائفة ليرفعوا من مستوى الامّة الثقافى فلا تنطلى عليها خدع الاستكبار وألاعيبه.

۲- ضرورة تشكيل الحكومة

اشارة

إنّ مسألة تشكيل الحكومة تعد من المسائل التى كثر الحديث فيها الأوساط العملية على المستوى النظرى دون أن يتسرب الشك إليها على المستوى العملى قط. فقد شهدت البشرية طيلة التأريخ قيام الحكومة سواء كانت قبيلة يتزعمها رئيس القبيلة أو هذه الحكومات الطبيعة التى يترأسها الملك والسلطان والحاكم، حتى تجلت اليوم بهذا الشكل الجماهيرى فأصبح يقودها رئيس الجمهورية، ولا يحتاج قيامها إلى دليل فالمجتمع مهما كان حجمه إنّما يحتاج إلى الأمن والاستقرار ورعاية الحقوق والحيلولة دون نشوب النزاعات والخلافات، ولا تتيسر مثل هذه الامور إلّافى ظل الحكومة ووجود الحاكم. وقد أتضحت هذه المسألة اليوم أكثر فى المجتمعات المعاصرة، فهنالك الفعاليات والأنشطة الثقافية والاقتصادية والسياسية التى لا يكتب لها النجاح لولا الاشراف المباشر من قبل الحكومة، بل الحكومة هى تبلور هذه الأنشطة أن تركت ممارستها وتنفيذها لأبناء المجتمع، إلّاأن هنالك بعض الأفراد والنزعات فى الماضى والحاضر التى تتبنى شعار غياب الحكومة وعدم الحاجة إليها وأنّ الشعب قادر على إدارة شؤونه دون قيام الدولة، بل ذهب الماركسيون أبعد من ذلك ليصرحوا بانّ فلسفة قيام الدولة إنّما تنبع من فكرة حفظ المصالح الطبقية! والرأسماليون هم الذين ينهضون بهذه المهمة، فاذا ما أزيلت الفوارق الطبقة فانّ فلسفة تشكيل الحكومة ستنتفى ولا تعد هناك ضرورة لقيامها، إلّاأنّ الماركسية وسائر النزعات عجزت حتى الآن عن طرح

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸۱

نموذجها العملى فى الميدان؛ الأمر الذى يؤكد خواء هذه النزعات وإقتصارها على الجوانب النظرية، لقد تناسى أصحاب هذه النظريات أنّ وظيفة الدولة والحكومة- ولو سلنا لما ذكروه- لاتقتصر على حفظ المصالح الطبقية، بل هنا لك سلسلة من البرامج الاجتماعية والمشاريع والمخططات المرتبطة بكافة الأفراد فى جميع المجالات والتى تنهض بعبئها الدولة. فالتربية والتعليم ضرورية لجميع الطبقات، فهل يمكن القيام بهذه الوظيفة دون برمجة وإختيار من ينهض بمسؤولية هذا العمل؟ الامور الاقتصادية فى المجتمع فى القطاع الزراعى والصناعى والتجارى والتى يتطلب كل حقل منها تخطيط شامل وكامل وتحتاج إلى إدارة صحيحة ووزير، قطاع الصحة المرتبط بكافة أبناء الشعب والذى يحتاج بدوره إلى مشاريع وبرامج تخصصية وإشراف تام، فهل يمكن قيام مثل هذه الامور فى حالة غياب الدولة ناهيك عن النزاعات والخصومات والحاجه إلى البت فى الدعاوى من قبيل الجهاز القضائى والمحاكم، وكل هذه الامور هى الاخرى لا تحقق إلّافى ظل تشكيل الحكومة، والتى تتقوم برئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية وما شابه ذلك. ومن هنا كانت الامم والشعوب رغم اختلاف أفكارها وعقائدها، إلّاأنّها تتبنى نوعاً من أنواع الحكومة. وهذا هو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى الخطبة كما تطرق إلى ذكر الوظائف الملقاة على عاتق الحاكم، كما قال فى موضع آخر بهذا الشأن

«سلطان ظلوم خير من فتنة تدوم»[۴۳۳]

حيث أشرنا سابقاً إلى أنّ الحكومات مهما كانت ظالمة متجبرة الا أنّها تسعى لأن تراعى جانب الأمن والعدل وما إلى ذلك، مع العلم أنّها قد تظلم إلّاأنّها على الأقل لا- تدع الآخرين يمارسون الظلم، فالحكومة عادلة كانت أم ظالمة لن تدوم فى ظل الفوضى والاضطراب، وأنّها تؤول لا- محالة إلى السقوط الانهيار، ومن هنا فانّ كافة الحكومات تسعى للحيولة دون الهرج والمرج وتقدم مشاريعها من أجل البناء والعمران، ولعل هذا المعنى يتجسد فى ما أشار إليه الحديث المعروف

«الملك يبقى مع الكفر و لا يبقى مع الظلم».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۸۲

خطأ إبن أبی الحدید

قال ابن أبی الحدید فی تعلیقه علی هذه الخطبة: هذا نص صریح منه علیه السلام بانّ الإمامة واجبة وقد إختلف الناس فی هذه المسألة فقال المتکلّمون: کلمة الإمامة واجبة؛ إلّاما یحکَی عن أبی بکر الأصَمّ من قدماء أصحابنا أنّها غیرُ واجبة؛ إذا تناصفت الأمّةِ؛ ولم تتظالم.

وقال المتأخّرون من أصحابنا: إنّ هذا القول منه غیرُ مخالف لما علیه الأمّةِ؛ لأنه إذا کان لا یجوز فی العادة أن تستقیم أمورُ الناس من دون رئیس یحکم بینهم؛ فقد قال بوجود الرئاسة علی کلّ حال؛ اللّهم إلّاأن یقول: إنّه یجوز أن تَستَقیم أمورُ الناس من دون رئیس؛ وهذا بعید أن یقوله: فأما طریق وجوب الإمامة ما هی؟ فإن مشایخَنا البصریّین رحمهم اللَّه یقولون طریق وجوبها الشرع، ولیس فی العقل ما یدلّ علی وجوبها.

وقال البغدادیون وأبو عثمان الجاحظ من البصریین، وشیخنا أبو الحسین رحمه اللَّه تعالی:

إنّ العقلَ یدلّ علی وجوب الریاسة؛ وهو قول الإمامیة، إلّاأنّ الوجه الذی منه یوجب أصحابنا الرئاسة غیر الوجه الذی توجب الإمامیة منه الرئاسة، وذاک أنّ أصحابنا یوجبون الرئاسة عَلَی المکلّفین، من حیث کان فی الریاسة مصالح دنیویة، ودفع مضارّ دنیویة. والإمامیة یُوجبون الرئاسة عَلَی اللَّه تعالی، من حیث کان فی الرئاسة لُطْف وبعدٌ للمکلّفین عن مواقعة القبائح العقلیة.

والظاهر من کلام أمیرالمؤمنین علیه‌السلام یطابِق ما یقوله أصحابنا، ألَا تراه کیف علّل قوله:

«لا بدَّ للناس من أمیر»،

فقال فی تعلیله: یُجَمع به الفیء، ویقاتَل به العدوّ وتؤمَن به السُّبل، ویؤخذ للضعیف من القویّ! وهذه کلّها من مصالح الدنیا.

فإنْ قیل: ذکرتم أنّ الناس کافّة قالوا بوجوب الإمام، فکیفَ بقول أمیرالمؤمنین علیه‌السلام عن الخوارج إنّهم یقولون:

«لا إمرة».

قیل: إنّهم کانوا فی بدء أمرهم یقولون ذلک، ویذهبون إلی أنّه لا- حاجةَ إلی الإمام، ثم رجعوا عن ذلک القول لما أمّروا علیهم عبدَاللَّه‌بن وهب الرّاسبیّ.

ویبدو أن خطأ إبن ابی‌لاحدید نابع من حصره الوظائف السبع التی ذکرها أمیرالمؤمنین علیه السلام کهدف للحکومة بالمصالح المادیة، والحال أنّ العبارة

«یعمل فی إمرته المؤمن»

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۲۸۳

إنّما تعالج المسائل المعنویة، لأنّ عمل المؤمن یهدف الآخرة- علی کل حال وعلی فرض أنّ لکافة هذه الامور صبغة مادیة، فانّ کلام الإمام علیه السلام یدور حول محور إمارة الناس وحکومتهم التی تشکل أحد الأبعاد الوجودیة للإمام المعصوم، لأنّ عقیدة علماء الإمامیة ومتکلمیهم فی الإمام إنّه الحاکم فی امور الدین والدنیا والهادی إلی اللَّه ومفسّر القرآن ومبین أحکامه وأعماله حجة علی الناس، ومن هنا لابدّ أن یکون معصوماً، ومعلوم أن المعصوم لا یعرف سوی اللَّه، ولذلک یعتقدون أن الإمام ینصب من جانب اللَّه وقد أجاب بعض شرّاح نهج‌البلاغة علی کلام إبن أبی الحدید بأنّ الخطبة تعالج قضیة نصب الأمیر ولیست لها صلة بنصب الإمام من اللَّه ولذلک قال علیه السلام

«لابدّ للناس من أمیر بر أو فاجر»

ونعلم أن الامیر الفاجر لایمکن أن یکون إماماً. الا ان ما أوردناه هو الجواب فی أن الامارة جزء من مسؤولیات الإمام (لابدّ من الدقة فی الأمر) والشاهد علی ذلک أن متکلمینا ذکروا فی کتبهم العقائدیة المصالح الدنیویة وما ورد فی هذه الخطبة حین ذکرهم لأدلة

وجوب نصب الإمام. بعبارة اخرى فان الشيعة لاترى الامرة منفصلة عن الإمامة، أما الاذعان لامرة الفاجر فليست على أساس أنّها هدف نهائى، بل يدفع إليها الاضطرار حين تتعذر حكومة الإمام المعصوم.

ج ج

نفحات الولاية، ج ۲، ص: ۲۸۵

الخطبة[۴۳۴] الحادية و الاربعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها ينهى عن الغدر ويحذر منه

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى ثلاثة أمور مهمّة: الأول: أهمية الوفاء وصدق الحديث، وذم ناقضى العهد، الثانى: أنّ الخداع والغدر والخيانة ليست من العقل والذكاء كما يظن ذلك الغدرة الفجرة. والعقل والفطنة فى الصدق والوفاء بالعهد.

الثالث: ضرورة إغتنام الفرص من أجل المبادرة إلى الآخرة والوفاء بالعهود والالتزام بالمواثيق.

ج ج

نفحات الولاية، ج ۲، ص: ۲۸۷

«أَيُّها النَّاسُ، إنَّ الْوَفاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ وَلا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ وَما يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ. وَلَقَدْ أَصْبَحْنا فِي زَمانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ. ما لَهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ! قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَها مانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدَعُها رَأْىَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ».

الشرح والتفسير

لم يذكر شرّاح نهج‌البلاغة- حسب علمنا- سبب إيراد هذه الخطبة، إلّاأنّ الرابطة المعنوية بين هذه الخطبة والخطبة رقم ۳۵ وسائر القرائن تشير إلى انّ هذه الخطبة ناظرة لمعركة صفين وقضية التحكيم، لأنّ مسألة التحكيم المأساوية إتخذت أبعاداً واسعة فى البحث والنقاش بين صفوف المسلمين- ولعل بعض الجهال نسب مكر عمرو بن العاص وخيانته وغدره إلى الكياسة والفطنة؛ الأمر الذى قد يشجع الآخرين لممارسة مثل هذه الأعمال الشائنة البعيدة عن الإسلام وتعاليمه الحقة، ومن هنا خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة ليقبر هذه الأفكار المنحرفة ويحد من شياعها بين الناس، ثم عرض بالذم إلى المكرو والخديعة ونقض الميثاق وأشار إلى العواقب الوخيمة التى تفضى إليها هذه الأعمال ثم أثنى على الوفاء والصدق فقد إستهل الخطبة بخطاب الجميع

«أيها الناس إن الوفاء توأم [۴۳۵] الصدق».

التوأم بمعنى الذى يولد مع الآخر فى حمل واحد، ويستعمل بشأن كل شيئين يرتبطان معا برابطة وثيقة، ومن هنا فقد شبه الإمام عليه السلام فضيلتى الوفاء والصدق بالتوأم ولعل التمعن فى مفهوم هاتين الصفتين ومصدرهما الفكرى

نفحات الولاية، ج ۲، ص: ۲۸۸

الروحى يفيد أنّ الأمر كذلك، فالوفاء يعنى الالتزام بالعهد، وهو فى الواقع نوع من الصدق، كما أنّ الصدق نوع من الوفاء. والصدق ذو معنى واسع وشامل لايقتصر على الحديث، بل يشمل العمل أيضا، ومن هنا صرح القرآن قائلا: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما

عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ»[۴۳۶] فمن الواضـح أنّ المراد بصدق العهد فى الآيهٔ هو الصدق فى العمل، ولذلك أردفت بالقول «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ». ومن هنا تتضـح عمق الرابطـهٔ بين الوفاء والصـدق، فلو أبرم شـخص عهـداً ونقض عهـده فقـد كـذب، ومن هنا يمكن اعتبـار نـاقض العهـد كاذبـاً، ولما كان حسن الصـدق وقبـح الكـذب ظاهر لكافـهٔ الناس، فانّ الإمام عليه السـلام قرن بهما الوفاء بالعهد ونقضه ليتضح حسنهما وقبحهما. ثم تطرق الإمام إلى الآثار الايجابيهٔ للوفاء بالعهد فقال:

«ولا أعلم جنهٔ[۴۳۷] أوقى منه»،

فهـذه فى الواقع من أهم آثار الوفاء بالعهـد وبركاته الدنيويـهٔ فى أنّه جنّهٔ وثيقـهٔ؛ لأنّ أساس الحياهٔ الاجتماعيـهٔ يتمثل بالتعاون والتكافل والثقـهٔ المتبادلـهٔ والالتزام بالعهود والمواثيق الفرديهٔ والاجتماعيهٔ، بعبارهٔ اخرى فانّ الثقهٔ المتبادلهٔ تذلل كثيراً من المصاعب، بينما يتعذر حل هـذه المصاعب إذا ما انعـدمت الثقـهٔ وسلب الاعتماد بين الناس، ولذلك كانت الدعامهٔ الأصـليهٔ للدين تتجسد فى الوفاء بالعهود والمواثيق، حتى ورد فى الحديث النبوى المعروف

«لادين لمن لاعهد له»[۴۳۸]

كما ورد أيضاً

«إذا نقضوا العهد سلط اللّه عليهم عدوهم»[۴۳۹]

جدير بالذكر أن الجنّهٔ بمعنى الدرع الذى يقى أخطار العدو فى ميدان القتال.

تشبيه الوفـاء بهـذا الـدرع يفيـد كونه يشـكل الوسـيلهٔ الدفاعيـهٔ تجاه الأخطار الاجتماعيـهٔ التى تفرزها حالـهٔ الفوضـى وعرقلـهٔ القوانين والمقررات. ثم أشار عليه السلام إلى أبعاده المعنويهٔ والاخرويهٔ فقال

«وما يغدر من علم كيف المرجع»؛

الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى نهج‌البلاغهٔ بقوله

«لولا كراهيهٔ الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرهٔ فجرهٔ، وكل فجرهٔ كفرهٔ ولكل

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۲۸۹

غادر لواء يعرف به يوم القيامهٔ»[۴۴۰]

. ولمـا كان انحراف المجتمع عن المبادئ الأخلاقيـهٔ يقود إلى تنكر القيم وتبـدلها، حتى يعـد العهـد والمكر والخـداع كياسـهٔ والالتزام بالعهود سذاجهٔ وبلاههٔ فقد قال الإمام عليه السلام

«ولقد أصبحنا فى زمان قد إتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحليهٔ»!

نعم فانّ قيم المجتمع إذا تنكرت بفضـلها المعيار والمحك للحسن من القبيـح فانّ ظهور مثل هذا الخلط لايبدو مسـتغرباً، فمن الطبيعى أن يصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والملك شيطاناً والشيطان ملكاً وقديساً. وممّا يؤسف له أنّ هذه الظاهرهٔ قد تفشت وبشكل واسع فى عالمنا المعاصـر فقـد ينظر إلى الثعالب المكرهٔ فى السـياسهٔ العالميـهٔ على أنهم الساسـهٔ المهرهٔ، بينها يرمون بالسذاجـهٔ وانعدام التجربـهٔ من يلتزم بالعهود والمواثيق ويراعون القيم الإنسانيـهٔ والإلهيهٔ فى سياسـتهم، وما أصـعب العيش فى مثل هذا العالم، وبالطبع فانّ نقض العهود واعتماد الكـذب والخـداع قـد يجر على صاحبه بعض المنافع على المـدى القريب ويحظى بمديح هذا وثناء ذاك، إلّاأنّ المفروغ منه أن عرى المجتمع إنّمـا تؤول إلى التصـدع والانهيـار على المـدى البعيـد. ومن هنا فان الأفراد من أهل الإيمان والوفاء إنّما يسعون لتحصين أموالهم وحفظ ثرواتهم من خلال الامانهٔ وإحترام العهد فى المعاملهٔ، والدولهٔ هى الاخرى مدعوهٔ لرعايهٔ هذا الأمر من أجل كسب ثقهٔ سائر البلدان واستقطابها لضمان مصالح البلاد الاقتصاديهٔ. ومن هنا صرحت الروايهٔ

«الأمانهٔ تجلب الغنى والخيانهٔ تجلب الفقر».[۴۴۱]

ولا شك أنّ هناك رابطهٔ حميمهٔ بين الأمانهٔ والوفاء، رغم كونهما مفهومين منفصلين، ولذلك قال أميرالمؤمنين على عليه السلام:

«الأمانة والوفاء صدق الأفعال»[۴۴۲]

. قال أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ويدعى عبدالرحمن بن سبابه: ساءت حالى بعد وفاة أبى فلما حججت البيت رأيت الإمام الصادق عليه السلام فقال لى: أعظك؟ قلت بلى جعلت فداك، قال:

«عليك بصدق الحديث وأداء الامانة تشرك الناس فى أموالهم هكذا- وجمع بين أصابعه- قال فحفظت ذلك عنه، فزكيت ثلاثمأة ألف درهم».[۴۴۳]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۰

ثم رد عليه السلام على من إتهمه بعدم العلم بالسياسة فقال:

«ما لهم قاتلهم اللّه قد يرى الحول ۴۴۴] القلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر اللّه ونهيه، فيدعها رأى العين بعد القدرة عليها»

أمّا ذلك الذى لايتورع عن الذنب والمعصية وعدم الإكتراث للدين فانّه ينتهز الفرصة ليفعل ما يشاء فيراه البلهاء سياسيا ناجحا

«وينتهز[۴۴۵] فرصتها من لاحريجة[۴۴۶] له فى الدين»

فالإمام عليه السلام يقول إنّ عدم استغلالى للفرص الغدرة من أجل التفوق على العدو لايعنى عدم علمى بالامور، بل ذلك يعنى أنى أخاف اللّه، وإنّى لا عتمد الورع والتقوى والعدل حتى مع أعدى أعدائى، ولا أرى الغاية تبرر الوسيلة، بل لا أومن بالنصر كيفما كانت قيمته وثمنه، إلّا أنّ أعدائى لا- يراعون أى من هذه المبادئ، فهم يقارفون كل جناية ولا يتورعون عن أية جريمة، فلا يقيمون وزناً لدماء الأبرياء، ولا- يتحرجون من الظلم والعدوان، ولا- يلتزمون بالعهود والمواثيق، نعم ليس لهم من هم سوى تحقيق أهدافهم اللامشروعة بأية وسيلة. فاذا رأى الناس تصرفاتهم وتحرجى عدوهم ساسة أكفاء، والحال ما هم ساسة وأنّهم لحفنة من الظلمة الذين يفتقرون إلى الورع والتقوى.

السياسة الإلهية والشيطانية

إن الاختلاف فى الاساليب السياسية إنّما تفرزه الرؤى بشأن الحكومة، فالسياسة التى ينتهجها اولئك الذين ينشدون الحكومة من أجل ضمان مصالحهم الشخصية أو الفئوية، تختلف عن السياسة التى يتبعها اولئك الذين لايرون فى الحكومة سوى وسيلة لحفظ القيم والمثل.

فالحكومات السابقة كانت تتصف بالدكتاتورية المقيتة التى تتكرس فى فرد واحد مستبد غاشم يسعى جاهداً لتحقيق مآربه وإشباع رغباته وضمان مصالح بطانته معتمداً منطق القوة والعنف من أجل ترسيخ دعائم حكومته فلا يرى من حرمة لقيم ومثل سوى تلك التى تخدم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۱

مصالحه أمّا اليوم فالحكومات وإن تغيّرت شكلًا، إلّاأنّ جوهرها وماهيتها لم تختلف كثيراً عن تلك التى كانت سائدة فى الماضى، وان كان المعروف عن هذه الحكومات إقتحامها الميدان كفئات وأحزاب. على سبيل المثال فانّ الأحزاب هى التى تمسك بزمام الامور فى البلدان الصناعية المعاصرة، بحيث يسعى كل حزب لضمان مصالحِ فئة معينة، ثم يعتمد كافة الوسائل من أجل الحصول على أكثر عدد من الآراء بغية الوصول إلى الحكومة، فاذا تسلموا الحكومة، أتوا بالأفراد الذين يعملون على ترسيخ دعائم حكومته وبالطبع فانّ مثل هذه الحكومات قد تتبنى بعض الشعارات من قبيل حقوق الإنسان وحرية المرأة وأحياناً يطرحون بعض المسائل الأخلاقية، إلّاأنّهم يعلمون كما يعلم الاخرون أنّهم ليسوا جادين فى ما يقولون، فاصواتهم عادة ما تتعالى بحجة أن البلد الفلانى- إذا كان من أعدائهم- قد إنتهك حقوق الإنسان، وان كان من أصدقائهم فقد يحظى بتأييدهم ودعمهم وإن انتهك تلك الحقوق الف مرة كل يوم- وفى مقابل هذه الحكومات، هنالك حكومة الأنبياء والأولياء التى لا تعرف المصالح الفردية ولا الفئوية، وهى قائمة على أساس القيم

والمثل. فالحکومات السابقهٔ تصرح علنا بتعذر الجمع بین السیاسهٔ والأخلاق، وعلیه فالحاکم الذی یراعی المبادئ الاخلاقیهٔ إنّما یفتقر فی الواقع حسب ظنهم إلی العقل السیاسی؛ وسوف لن یکتب لحکومته الدوام والاستمرار، فالغایهٔ تبرر الوسیلهٔ، وکل ما یقرب من الهدف فهو حسن ومطلوب. بینما تری الحکومهٔ الأخیرهٔ ان شعارها یتکرس فی

«إنّما بعثت لُاتمم مکارم الأخلاق»[۴۴۷]

أو

«لو لا ... ما أخذ اللّه علی العلماء أن لایقاروا علی کظهٔ ظالم ولا سغب مظلوم ...»[۴۴۸]

أو

«وإنّما خرجت لطلب الإصلاح فی امّهٔ جدی صلی الله علیه و آله»[۴۴۹]

ومن الطبیعی أن یکون هناک بوناً شاسعاً بین سیاسهٔ الحکومات بالمعنی الأول والحکومات الإلهیهٔ، بل هناک تعارض وتضارب بینهما فالطائفهٔ الاولی تضحی بکل القیم وتذبحها من أجل الوصول إلی دفهٔ الحکم، بینما تخلت الطائفهٔ الثانیهٔ بشهادهٔ التأریخ عن الحکومهٔ من أجل الحفاظ علی القیم والمثل. وهذا ما وضحه الإمام علیه السلام فی الخطبهٔ

«واللّه ما معاویهٔ بأدهی منی ولکنه یغدر ویفجر ولولا کراهیهٔ الغدر لکنت من

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۲۹۲

أدهی الناس»[۴۵۰]

وقال علیه السلام:

«أتأمرونی أن أطلب النصر بالجور فیمن ولیت علیه؛ واللّه لا أطور به، ما سمر سمیر، وما أم نجم فی السماء نجماً»[۴۵۱]

والاختلاف بین هاتین الرؤیتین فی السیاسهٔ الإلهیهٔ والسیاسهٔ الشیطانیهٔ هو الذی یجعل بعض الأفراد یشکلون أحیاناً علی الساسهٔ الربانیین ویحملون أعمالهم علی السذاجهٔ وعدم المعرفهٔ بفنون السیاسهٔ، بینما یغفلون عن حقیقهٔ کبری وهی أنّ هؤلاء الأفراد إنّما یحثون السیر إلی عالم آخر لا تجیز مبادئه وضوابطه التشبث بأی أسلوب وطریقهٔ. فمثلًا لما غلب معاویهٔ أهل العراق علی الماء منعهم منه، فلما حمل أهل العراق إنکشف أهل الشام عن الماء، وملک أهل العراق المشرعهٔ- فقال أصحاب علی علیه السلام: أمنعهم الماء یا أمیرالمؤمنین کما منعوک- فقال: «لا، خلوا بینهم وبینه، لا أفعل ما فعله الجاهلون.[۴۵۲] والّا عجب من ذلک عدم إلتفات رسولاللّه صلی الله علیه و آله إلی أصحابه الذین أشاروا علیه بمنع الیهود الماء حین محاصرهٔ قلاع خیبر فلم یجبهم صلی الله علیه و آله»[۴۵۳] ویتعجب أولئک الغافلون حین یسمعون مسلم بن عقیل وقد إمتنع عن قتل إبن زیاد غیلهٔ فی دار هانئ بن عروهٔ قائلًا:

«الإیمان قید الفتک»[۴۵۴]

. أضف إلی ذلک فانّ علیاً علیه السلام إمتنع عن قتل عمرو بن العاص فی صفین حین کشف عن عورته. فکل هذه الامور لایرونها تنسجم والسیاسهٔ، بل السیاسی الفذ فی نظرهم من یدافع عن العهدو والمواثیق ویلتزم بالمبادئ إذا کانت تجری لصالحه، وإلّا فلابدّ أن یضربها جمیعا عرض الحائط. فالسیاسی الورع والمتقی یری النصر علی الأعداء إنّما یحتل الدرجهٔ الثانیهٔ، والدرجهٔ الاولی تتمثل بحفظ المبادئ ورعایهٔ القیم والمثل. والجدیر بالذکر ما أورده ابن أبی الحدید فی شرحه لنهجالبلاغهٔ حین تحدث عن مروءهٔ ووفاء أحد أحفاد الإمام الحسن المجتبی علیه السلام هو إبراهیمبن عبداللّه فقال: «وکان لغیر إبراهیم علیهالسلام من آل أبی طالب من هذا النوع أخبار کثیرهٔ، وکان القوم أصحاب دین لیسوا من الدنیا بسبیل، وإنّما یطلبونها لیقیموا عمود الدین بالامرهٔ فیها، فلم یستقم لهم، والدنیا إلی أهلها أمیل».

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۲۹۳

الخطبهٔ[۴۵۵] الثانیهٔ و الاربعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

وفيه يحذر من اتباع الهوى وطول الأمل فى الدنيا.

نظرة إلى الخطبة

أورد الإمام عليه السـلام هـذه الخطبة على ضوء نقل نصـربن مزاحم فى كتاب صـفين بعد موقعة الجمل حين ورد عليه السـلام الكوفة، وهى تعالج غرور الأفراد وطمعهم بعد تحقيق النصر ولا سيما إن كانت هناك غنائم؛ الأمر الذى يثير حفيظة البعض للتكالب على الدنيا وبالتبع يتطلع إلى المزيـد من كان له دور أكبر فى المعركـة والحصول على الغنائم. فهدف الإمام عليه السـلام تحذير الناس وتذكيرهم بالأهـداف المعنويـة التى قاتلوا من أجلها، كما يحذرهم من رذيلتى إتباع الهوى وطول الأمل الذان يصدان عن الحق وينسـيان الآخرة. ثم يؤكد الإمام عليه السـلام على قصـر عمر الدينا وضرورة إغتنام الفرص فيها من أجل العمل الصالح والتزود للآخرة، حيث يوجز هذا الأمر الحيوى بعبارات قصيرة بليغة المعنى.

ج ج

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۲۹۵

القسم الأول

«أَيُّها النَّاسُ إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ عَلَيْكُمُ اثْنانِ: اتِّباعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِى الْآخِرَةَ».

الشرح والتفسير

أوردنا سابقاً أنّ الإمام عليه السـلام خطبها بعد الجمل حين ورد الكوفة، بهدف الحد من الغرور الذى تفرزه طبيعة النصر والتنافس على غنائم المعركة، فقال عليه السلام:

«أيّها النـاس إن أخوف مـا أخـاف عليكم إثنـان: إتباع الهوى وطول الأمل، فأمّا إتباع الهوى فيصـد عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسـى الآخرة».

والعبـارة الآـخيرة مهمّـة ذات أثر بالغ فى مصـير الامّـة، بحيث ورد التأكيـد عليها فى أحاديث النبى صـلى الله عليه و آله، كما أشار إليه الإمام عليه السلام سابقاً فى الخطبة الثامنة والعشرين».[۴۵۶] ويتضِح من معنى مفردة الهوى التى تشير إلى أهواء ورغبات النفس الأمارة باللـذات الدنيويـة دون الحـدود والقيـود مـدى صـدها الإنسـان عن الحق ومنعه من بلوغه، لأـنّ الهوى حجـاب على العقـل يحول دون إدراك الحقـائق ومشاهـدتها، بينهمـا يزين له هـذا الهـوى الباطـل ليبـديه له أنصع من الحق، فى حين يشوه له الحق ويظهره له كابشع صورة للباطل، وقـد لمست هـذه الحقيقة كثيراً خلال تجربتى ومطالعتى لسـيرة الماضـين فى كيفية تبرير أتباع الهوى لبعض صور الحق والباطـل وتغيير هويتهما. وأما طول الأمل فيسـتقطب جميع طاقات الإنسان وقواه حتى ينسيه الآخرة، ولما كانت قوى الإنسان محـدودة فانّه يستهلكها فى الآمال الكاذبة اللامتناهية بحيث لا يبقى لنفسه من قوة يدخرها للآخرة، ولا سيما أنّ الامال لا تعرف للنهاية

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۲۹۶

من معنى، وتقتضـى طبيعتها أن يتجه الإنسان إلى الاخرى فور ظفره بالاولى حتى يجنـد نفسه على الـدوام بغيـة الظفر بها جميعا، بل إن تحقيقه لأمـل ربمـا يـدفعه لآخر، لأنّ الآمال عادة مترابطـة مع بعضـها البعض، وعلى هـذا الضوء فسوف لن يبقى لـديه من وقت كما لا

تبقى له من قوة، وبالتـالى سوف لن يمتلـک الـدفاع نحو الآـخرة. وبالطبع فانّه لن يفيق من غفلته حتى يصـفعه الموت، وقـد ولى العمر وتصـرمت أيامه وفرصه فلم يظفر بأماله ولم يـدرک آخرته. وما أروع ما قال أبو العتاهية حين دعى لإنشاد الشـعر بحضـرة هارون حين أراد أن يفتتح له قصراً جديداً فى مصر:

عش ما بدا لک سالماً فى ظل شاهقة القصور يهدى إليک بما اشـتهيت لدى الرواح وفى الكبور حتى إذا تزعزعت النفوس ودحرجت فهناک تعلم موقناً ما كنت إلّافى غرور.[۴۵۷]

فشعر من حول هارون بالامتعاظ من هذه الأبيات على أنها لا تنسجم والمناسبة، إلّاأنّ هارون مدحه وأثنى عليه.

وقـد علق بعض شـرّاح نهج‌البلاغة على أنّ طول الأمل ينسـى الآخرة وذلک لأنّ هذا الفرد يغتر بمظاهر الدنيا ويرى فى الموت الوسـيلة التى تقطعه عن هـذه الـدنيا، فينسـى المعاد ويوم القيامـة جـدير بالـذكر أنّ للأمل دور إيجابى فى حياة الإنسان والـذى عبر عنه القرآن بالرجاء، ولاسيما إذا كان مقرونا بالتوكل على اللّه.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۷

القسم الثانى

اشارة

«أَلا وَإِنَّ الدُّنْيا قَدْ وَلَّتْ حَذّاءَ؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْها إِلَّا صُـبابَةٌ كَصُـبابَةِ الْإِناءِ اصْـطَبَّها صابُّها. أَلا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلٍّ مِنْهُما بَنُونَ. فَكُونُوا مِنْ أَبْناءِ الْآخِرَةِ وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْناءِ الدُّنْيا. فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلا حِسابَ، وَغَداً حِسابٌ وَلا عَمَلَ».

الشرح والتفسير

واصل عليه السـلام خطبته التى ابتـدأها بـذم إتباع الهوى وطول الأمل الـذان يصـدان عن الحق وينسـيان الآخرة، وبالتالى يحولان دون سعادة الإنسان وفلاحه، ليقدم تحليلًا رائعاً عن أوضاع الدنيا والآخرة فقال

«ألا وإنّ الدنيا قد ولت حذاء[۴۵۸]، فلم يبق منها إلّاصبابة كصبابة[۴۵۹] الاناء إصطبها صابها».

فقـد شـبهت الدنيا هنا بالكائن الذى يعود بسـرعة إلى مسـيرته، الأمر الذى يفيد حقيقة الحركة السـريعة لعمر الإنسان، الحركة الخارجة عن إرادة الإنسـان وتشـمل كافـة الكائنـات الحيـة سوى الـذات الإلهيـة المطلقـة، ولاـ يسـتثنى من تلـک الحركـة الكواكب والمجرات والسـموات والارضـين لتنتهى إلى الفناء والزوال الدنيوى ليكون نافذة على عالم الخلود والبقاء. فالطفولة تتحرک نحو الفتوة والشباب، والفتوة تنطلق نحو الكهولـة التى تنتهى بالموت، هـذا إذا جرت الامور وفق القانون الطبيعى والاقـد يتساقط بعض الاطفال والشـباب من هذه القافلة لتنتهى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۸

أعمارهم دون بلوغ الكهولة. فالإمام عليه السلام يقول أنّ عمر الإنسان قصير قليل كبقية الماء واللبن فى الإناء التى تعلق به عند قلبه، أو بعبـارة اخرى فـانّ الإنسـان حين يقلب إنـاءاً مملوءاً بسائل ثم يعيـد الإناء إلى وضـعه الأصـلى إنّما يتبقى فيه مقـدار من الماء يطلق عليه الصبابة وهذه فى الحقيقة هى عمر الإنسان ثم قال عليه السلام

«ألا وإنّ الآخرة قد أقبلت»

فكلمـا قصـر عمر الـدنيا اقتربت الآـخرة، فـالواقع إننا نركب قطـار الزمـان الـذى يسـير بسـرعة نحو الآخرة، والـدقائق والساعات والأيّام والأسابيع والأشهر والسنوات إنّما تكشف عن سرعة مسيرة قطار الإنسانية بأجمعها، ثم أوضح عليه السلام وظيفة الناس

«ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فانّ كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة»

نعم هناك خطان: خط عبدة الدنيا وخط عشاق الآخرة، وإن كانت هنالك بعض الجماعات المتذ بذ بة بين الخطين. ولا يعرف أبناء الدنيا سوى النوم والأكل والشرب والشهوة والطرب والعيش والملذات، فهم متعلقون بظاهر الدنيا دون أن يكفوا أنفسهم عناء التفكير فى الآخرة، بل هم عنها عمون «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلُون»[۴۶۰]. فكأنّهم مخلدون فى الدنيا وليس هنا لك من آخرة، فوثقوا بأموالهم وثرواتهم على أنّها تخلدهم فى دنياهم «يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ». أما أبناء الآخرة فقد نظروا بعين العقل والبصيرة إلى الدنيا وأدركوا أنهم مفارقوها ومرتحلون عنها فلم يطمأنوا إليها. لقد طلقوها كما طلقها الإمام عليه السلام ثلاثة لارجعة فيها. فقد إتعظوا بالقرآن الذى أوقفهم على طبيعة خسرانها «وَالعَصْرِ* إنَّ الإنْسانَ لَفِى خُسْرٍ* إلّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ». أمّا التعبير عن عبدة الدنيا بأبناء الدنيا وعن المؤمنين الصالحين بأبناء الآخرة، وذلك لأن الابناء إنّما يشبهون إلى حد كبير آبائهم وامهاتهم بفعل الصفات الوراثية التى تنتقل إليهم عن طريق الجينات، وهو الشبه الذى يدعو إلى المحبة والإرتباط. نعم عبدة الدنيا أبنائها، ومن هنا أحاط حبّ الدنيا بقلوبهم بحيث أصبحوا لايرون سوى الدنيا ولايجنون سواها، وشعارهم فيها «إنْ هِىَ إلّا حَياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا»[۴۶۱] وإن كانوا ظاهرا يحملون الإسلام. أما أبناء الآخرة فقد سيطر حب اللَّه على

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۲۹۹

قلوبهم، فهم يتزودون من الدنيا إلى الآخرة دون أن يغرقوا فيها.

وقال بعض شرّاح نهج‌البلاغة أنّ المراد بالعبارة هو أن المؤمنين سيكونون فى الآخرة بمثابة الأبناء الذين يرتمون بأحضان آبائهم، بينما سيكون أبناء الدنيا كاليتامى إلّاأنّ هذا التفسير لاينسجم والعبارة

«إن كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة»،

بل يفيد هذا التعبير أن الحياة الدنيا المادية ليست سوى الجحيم الذى يرتمى فيه أبناء الدنيا إذا افتقرت إلى الإيمان والتقوى، وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله «فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ».[۴۶۲]

أمّا إن كانت هذه الحياة مقرونة بالايمان والتقوى والصبغة الآخروية فتتجسم يوم القيامة على هيئة جنّة سيرتمى فى أحضانها المؤمنون.

ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلا:

«وإنّ اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»

فالعبارة تفيد من جهة وجود الفرصة من أجل إستزادة العمل الصالح، وإذا ما شوهد المحسنون والمسيئون، والصالحون والطالحون، واولياء اللَّه وأعداء اللَّه، وحزب اللَّه وحزب الشيطان إلى جانب بعضهم البعض الآخر فى هذه الحياة الدنيا فذلك لأنّ الدنيا دار عمل لاحساب فيها ولاجزاء وعقاب. ومن جهة اخرى تحذير بأنّ نهاية العمر فى الدنيا تعنى إغلاق صحيفة الأعمال وليس هنالك من سبيل للعودة والعمل وتدارك ما فرط، كما ليس للندم من أثر أو فائدة، فقد قال على عليه السلام

«لا عن قبيح يستطيعون إنتقالًا ولا فى حسن يستطيعون إزدياداً»[۴۶۳]

كما ليس هناك من جدوى لصراخهم «رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّى أَعْمَلُ صالِحاً»[۴۶۴] كما لا تفيدهم الآمال والأمانى «فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ».[۴۶۵]

الموت يعنى إغلاق صحيفة الأعمال

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۰

ما ورد فى الخطبة بهذا الخصوص ممّا أكدته الآيات القرآنية، حتى صرحت بعض الآيات أنّ أبواب التوبة تغلق حين نزول عذاب الاستئصال (من قبيل العذاب الذى إستهدف إجتثاث جذور الأقوام السابقة حين طغت فى الأرض) بحيث لم يعد هناك من مجال لتدراك الأعمال، لأنّ الإنسان فى ظل هذه الظروف إنّما يودع الدنيا وينتقل إلى الآخرة مروراً بالبرزخ، ومن ذلك قوله سبحانه: «فَلَمّا

رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ* فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الكافِرُونَ».[۴۶۶]. كما نعلم بأنّ فرعون لما أدركه الغرق وشعر بالموت أظهر الإيمان ولكن أغلقت بوجهه كافة أبواب التوبه فاتاه النداء «آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِينَ»[۴۶۷]. ونستتج من هذه الآيات وسائر الايات الواردة بهذا الشأن أنّ هناك سنة إلهية تفيد إغلاق صحيفة الإنسان وانقطاع أعماله حين يكون على أبواب الموت المحتم، فليس هنالك من سبيل للعودة والإصلاح. وهنا يبرز هذا السؤال وهو أنّ أغلب الروايات صرحت بأنّ آثار الأعمال الحسنة والسيئة تصل الإنسان بعد موته بحيث تثقل صحيفة أعماله خيرا أم شرا، فقد ورد فی الحديث عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«سبعة أسباباً يكتب للعبد ثوابها بعد وفاته، رجل غرس نخلًا أو حفر بئرا أو أجرى نهراً أو بنى مسجداً أو كتب مصحفاً أو ورث علماً أو خلف ولداً صالحاً يستغفر له بعد وفاته»[۴۶۸]

ومن الواضح أنّ ما جاء فی هذا الحديث نموذج باراز لأعمال الخير، أفلا يتنافى هذا الأمر وما ذكر سابقاً؟ والجواب على هذا السؤال واضح فليس هنالك من عمل جديد يقوم به الإنسان بعد الموت، لا ـ إنّ آثار الأعمال السابقة لا تصل إليه. نعم صحيفة الأعمال الجديدة مغلقة ولا يضاف إليها شيئا، أما صحيفة أعماله السابقة قبل الموت فهی مفتوحة دائما وإن الإنسان يقطف ثمار عمله الصالح فی البرزخ ويوم القيامة، وتصله حتى الأعمال الصالحة فيما إذا خلف ولداً صالحاً يدعو له ويستغفر له.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۱

الخطبة[۴۶۹] الثالثة الاربعون

اشارة

من كلام له عليه السلام

وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام بعد إرساله جريربن عبداللَّه البجلی إلى معاوية ولم ينزل معاوية على بيعته.

نظرة إلى الخطبة

تشتمل الخطبة على قسمين يختلف كل منهما عن الآخر، ويبدو أنّ كل منهما قد ورد مستقلًا فی موضعه، الا أنّ السيد الرضی (ره) جمعهما لمناسبة- فالقسم الأول يتعلق بقضية جريربن عبداللَّه البجلی الذی كان عاملًا لعثمان على ثغر همدان. فأمّا خبر جرير بن عبداللَّه البجلی وبعث أميرالمؤمنين عليه السلام إيّاه إلى معاوية، فقد ورد فی الأخبار: لما قدم عليه السلام الكوفة بعد إنقضاء أمر الجمل، كاتب العمال، فكتب إلى جرير بن عبداللَّه البجلی. فلما قرأ جرير الكتاب، قام فقال:

أيّها الناس، هذا كتاب أميرالمؤمنين علی بن أبی‌طالب عليه السلام، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان، ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقه بها. فقال الناس سمعاً وطاعة. فكتب جرير إلى علی عليه السلام جواب كتابه بالطاعة وكتب علی عليه السلام إلى الاشعث وكان عامل عثمان على أذربيجان يدعوه إلى البيعة والطاعة. وكتب جرير بن عبداللَّه البجلی إلى الاشعث يحضه على طاعة أميرالمؤمنين علی عليه السلام وقبول كتابه. فقبل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۲

الأشعث البيعة وسمع وأطاع، وأقبل جرير سائراً من ثغر همدان حتى ورد على عليه السلام الكوفة فبايعه. ولما أراد علی عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولًا، قال له جرير: إبعثنی يا أميرالمؤمنين إليه؛ وأدعوا أهل الشام إلى طاعتك وولايتك فجلهم قومی وأهل بلادی وقد رجوت ألا يعصونی.

فبعثه على عليه السلام. فانطلق جرير حتى أتى الشام ونزل بمعاوية ودفع إليه كتاب على عليه السلام. فقال معاوية أنظر وتنظر؛ واستطلع رأى أهل الشام. فكتب له الإمام عليه السلام: إنّما أراد معاوية ألا يكون لى فى عنقه بيعة، وأراد أن يريثك ويبطئك، فان بايعك الرجل، والّا فاقبل. قيل ولما أبطأ جرير عند معاوية إتهمه الناس، فلما سمع جرير ذلك فارق علياً عليه السلام فلحق بقرقيسياء (بلد بالخابور عند مصبه» ولحق به ناس من قسر من قومه، واقام فيها حتى توفى.[۴۷۰] على كل حال مكث جرير عدّة شهور فى الشام، حتى اقترح أصحاب الإمام عليه السلام عليه قتال أهل الشام، إلّاأنّ الإمام عليه السلام لم يجبهم إلى ذلك وجرير هناك، وأنّه قد وقت وقتاً لجرير، فلابدّ من إنتهاء، ذلك الوقت ومعرفة النتيجة.

القسم الثانى يتناول إصرار الإمام عليه السلام على قتال أهل الشام، حيث اورد نصربن مزاحم فى كتاب صفين أنّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما كلمه أحد جنود الشام اثناء معركة صفين بالهدنة وترك القتال على أن يرجع أهل العراق إلى العراق وأهل الشام إلى الشام، فردّ عليه الإمام عليه السلام رداً قاطعاً بمواصلة القتال ثم تطرق إلى أسباب ذلك.

وأخيرا فالقسمان يوضحان بجلاء أن الإمام عليه السلام رجل الصلح والسلام فى ظروف الأمن والاستقرار، فاذا نشبت الحرب كان بطلها المجرب وليثها الغاضب.

ونتجه بعد هذه المقدمة إلى شرح الخطبة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۳

القسم الأول: رجل الحرب والسلام

اشارة

«إِنَّ اسْتِعْدادِی لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِیرٌ عِنْدَهُمْ، إِغْلاقٌ لِلشَّامِ وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَیْرٍ إِنْ أَرادُوهُ. وَلَكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِیرٍ وَقْتاً لا یُقِیمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعاً أَوْ عاصِیاً. وَالرَّأْیُ عِنْدِی مَعَ الْأَناةِ فَأَرْوِدُوا وَلا أَكْرَهُ لَكُمُ الْإِعْدادَ».

الشرح والتفسير

كما أوردنا سالفاً فانّ الخطبة بشأن قضية جريربن عبداللّه حين كان عاملًا لعثمان على همدان، ثم قدم الكوفة فوجهه الإمام عليه السلام إلى الشام لأخذ البيعة من معاوية، إلّاأنّ فجاج مهمّة جرير كان يبدو ضعيفاً، ومن هنا رأى أصحاب الإمام عليه السلام قتالهم. فأجابهم الإمام عليه السلام قائلًا

«إن استعدادى لحرب أهل الشام وجرير عندهم، إغلاق [۴۷۱] للشام وصرف لأهله عن خير إن أرادوه»

فالعبارة تفيد أنّ الإمام عليه السلام بصفته زعيم الدولة الإسلامية لايرى فى الحرب والقتال من وسيلة صحيحة لحل الاختلافات، ولابدّ من إبقاء باب السلام مفتوحاً لاتمام الحجة، فان لم تجد نفعاً، آنذاك تكون الحرب هى العلاج. والطريف فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام لايأبه بمعاوية وإنّما يفكر بأهل الشام، فقال

«إغلاق للشام»،

ثم أضاف قائلا

«وصرف لأهله عن خير إن أرادوه»

فى إشارة إلى عبثية جر أهل الشام للقتال وصدهم عن الصلح والسلام وإن كانت لكبيرة على بعض الأفراد المتحمسين، إلّاأنّ الزعيم العالم لاينبغى أن تستميله العواطف والأحاسيس، فلا يتصرف إلّامن خلال ضبط النفس والعقل والمنطق بما يرتضيه الحق

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۴

سبحانه وتعالى. ثم أزال الإمام عليه السلام الإبهام الذى قد يتسرب إلى عقول هؤلاء الأفراد باستمرار هذه الحالة القلقة فقال

«ولكن قد وقت لجرير وقتاً لايقيم بعده إلّامخدوعاً أو عاصياً»

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام عين مدة بغية الحفاظ على مصالح المسلمين وعدم فوات الآوان ومرور الفرصة، فقد كان يعلم أنّ معاوية قد يماطل فى الوقت ويشغل جرير، وأقصى ذلك هو الاهبة والاستعداد للقتال، ثم يرد بالسلب على دعوة الإمام عليه السلام بالبيعة فى الوقت الذى تسلب الفرصة والمبادرة من الإمام عليه السلام وصحبه. إما لماذا حصر الإمام عليه السلام بقاء جرير عند معاوية باحتمالين؛ الخداع أو العصيان، بينما يمكن أن تكون عرضت له بعض الوقائع من قبيل المرض وما شاكل ذلك، وذلك لأنّ سائر الاحتمالات تبدو ضعيفة لا يكترث بها إزاء هذين الاحتمالين، أو على حد تعبير علماء الاصول أنّ الاصل فى مثل هذه الامور السلامة، فلا ينبغى ترتيب الأثر على سائر الاحتمالات. ثم حاول تهدأة خواطر صحبه والتسكين من روعهم فقال

«والرأى عندى مع الأناة[۴۷۲] فأرودوا[۴۷۳]».

من جانب آخر فانّ الإمام عليه السلام بغية عدم غفلة أصحابه فى ظل تلك الظروف الحساسة المصيرية، وضرورة الابقاء على عزمهم الشديد والراسخ فى مجابهة العدو وعدم إطفاء جذوة الحماس للقتال فقال عليه السلام:

«ولا أكره لكم الإعداد»؛

أى أنى لاـ أعلن حالة التأهب فهذا الأمر يتعارض والصلح والسلام. وفى نفس الوقت لا أحول دون وظيفتكم فى التعبئة الطواعية، والحق أنّ هذا لأعظم وأنجع اسلوب منطقى وعقلائى فى مثل تلك الظروف العصيبة؟ أى لا تغلق أبواب السلام، ولا يعيش الجميع حالة الانفعال والغضب، ولا ينبغى أن تقع بعض الأعمال التى تفرزها طبيعة النفاق، وأخيراً لا ينبغى فوات الفرص دون جدوى!

الهدف من الدعوة إلى الصلح والبيعة

إن الإمام عليه السلام وخلافاً لما يعتقده البعض لم يقاتل معاوية، إلّاحين أتم الحجة عليه من كافة الجهات، بحيث لم يكن يلجأ إلى القتال إلّاحين يكون السبيل الأخير الذى اغلقت جميع السبل

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۵

دونه. تفيد هذه الخطبة أنّ علياً عليه السلام لم يستجب للضغوط التى مارسها أصحابه من أجل شروع القتال، وأنّه بذل قصارى جهده بهدف إرساء الصلح والسلام. والرسالة التى بعثها الإمام عليه السلام إلى معاوية بواسطة جرير لتؤكد هذا المعنى. فقد جاء فيها:

«إنّه بايعنى القوم الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار، فان إجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك للّه رضى، فان خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فان أبى قاتلوه على إتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه اللّه ما تولى. ولعمرى يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبر الناس من دم عثمان، ولتعلمن أنى كنت فى عزلة عنه إلّاأن تتجنى، فتجن ما بدا لك».[۴۷۴]

والواقع كان معاوية يعتمد ذريعتين لترك البيعة، الاولى أنّه كان غائباً حين تمت البيعة لعلى عليه السلام، والثانية أن الإمام عليه السلام مطالب بدم عثمان، فلاـ يمكن مبايعته، إلّاأنّ الإمام عليه السلام فند هاتين الذريعتين بالدليل والبرهان فى الرسالة المذكورة، فلم يستجب معاوية بغية تحقيق أهدافه وأطماعه. على كل حال وكما ذكرنا أنفاً فانّ جرير عامل عثمان على همدان أعلن بيعته للإمام عليه السلام ومعه الناس إثر وصول كتاب الإمام عليه السلام. ثم ورد الكوفة وطلب من الإمام عليه السلام أن يوجهه إلى الشام لأخذ بيعة معاوية، لأنّ جل أهل الشام كانوا من قومه وأهل بلده ويطمع إلّايعصون أمره. فاعترض الأشتر وقال للإمام عليه السلام: لا تبعثه ولا تصدقه، فواللّه إنّى لأظن هواه هواهم، ونيّته نيّتهم. إلّاأنّ الإمام عليه السلام إختاره لقول رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله فيه:

«إنك من خير ذى يمن»

کما لم یبدر منه خلافاً حتی ذلک الحین، ولعله لم یکن هناک من هو أفضل منه.

فدفع إلیه الإمام علیه السلام کتابه، وقال له: «إئت معاویة بکتابی، فان دخل فی ما دخل فیه المسلمون، وإلّا فانبذ إلیه واعلمه أنّی لا أرضی به أمراً، وأنّ العامة لا ترضی به خلیفة». فانطلق جریر حتی أتی الشام، ونزل بمعاویة وأخبره باجتماع مسلمی أهل الحرمین وأهل المصرین والحجاز والیمن ومصر وأهل العروض علی بیعة الإمام علیه السلام ثم قال: فلم یبق إلّاهذه الحصون التی أنت فیها فبایع لعلی علیه السلام. ثم سلمه کتاب الإمام علیه السلام. فلم یستجب معاویة الذی کان شغفاً بالحکومة

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۳۰۶

فقام فخطب الناس مطالباً بدم عثمان وأخذ البیعة من أهل الشام للقیام والمطالبة بدم عثمان.

فاستحثه جریر بالبیعة. فقال: یا جریر، إنّها لیست بخلسة، وإنه أمر له ما بعده فابلعنی ریقی.

فأشار علیه أخوه بعمرو ابن العاص. وقد وعده النصیحة بعد أن اشترط علیه ولایة مصر. ثم دخل شرحبیل- رئیس الیمنیة وشیخها والمقدم علیها- فتحدث إلی جریر، فأقنعه جریر باتباع علیّ علیه السلام. إلّاأنّ معاویة کتب له کتاباً ودس إلیه الرجال یغرونه بعلی علیه السلام ویشهدون عنده أنّه قتل عثمان، حتی ملئوا صدره وقلبه حقداً وترة وإحنة علی علی علیه السلام وأصحابه، ثم دعاه فی الکتاب لمطالبة بدم عثمان. فتاهب شرحبیل للطلب بدم عثمان، ثم وجهه معاویة إلی الشام لدعوة الناس للمطالبة بدم عثمان وجعل لایأتی علی قوم إلّاقبلوا ما أتاهم به وهنا شعر جریر بالیأس من معاویة، ثم إلتفت معاویة إلی جریر فقال له: إنّی قد رأیت رأیاً، قال: هاته، قال: اکتب إلی صاحبک یجعل لی الشام ومصر جبایة، فاذا حضرته الوفاة لم یجعل لأحد بعده فی عنقی بیعة، وأسلم له هذا الأمر، واکتب إلیه بالخلافة. فقال جریر: اکتب ما أردت اکتب معک.

فکتب الإمام علیه السلام إلی جریر: إذا أتاک کتابی هذا فاحمل معاویة علی الفصل، ثم خیره وخذه بالجواب بین حرب مخزیة أو سلم محظیة

«ولم یکن اللّه لیرانی اتخذ المضلین عضداً»

فتأخر جریر مدّة ولعله کان یطمع فی عودة معاویة إلی رشده، فکثر فیه الکلام.[۴۷۵]

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۳۰۷

القسم الثانی

اشارة

«وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هذَا الْأَمْرِ وَعَیْنَهُ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرَ لِی فِیهِ إِلَّا الْقِتالَ أَوِ الْکُفْرَ بِما جاءَ مُحَمَّدٌ صلی الله علیه و آله. إِنَّهُ قَدْ کانَ عَلَی الْأُمَّةِ والٍ أَحْدَثَ أَحْداثاً، وَأَوْجَدَ النَّاسَ مَقالًا، فَقالُوا ثُمَّ نَقَمُوا فَغَیَّرُوا».

الشرح والتفسیر

یقابل هذا القسم من الخطبة القسم المذکور تماما، أو بعبارة اخری یمثل المرحلة الثانیة من مراحل المجابهة. فقد کان الإمام علیه السلام یؤکد فی القسم المذکور علی ضرورة ضبط النفس واجتناب القتال، واللجوء إلی منطق السلام والصبر والتحمل. بینما یتحدث هذا القسم بصورة قاطعة حادة عن القتال واللجوء إلی القوة؛ ولا غرو فقد أغلقت جمیع السبل والأسالیب، وثبت بالضرس القاطع أنّ معاویة لا یستسیغ أی منطق واستدلال، ولا یفهم سوی تحقیق مطامعه فی الحکومة التی یضحی من أجلها بالغالی والنفیس. ومن الطبیعی ألا یکون هنالک من سبیل لمواجهة هذا الشخص سوی الاستسلام وتفویض المقدّرات الإسلامیة إلیه، أو شهر السلاح بوجهه وقتاله. ومن هنا قال الإمام علیه السلام:

«ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، فلم أر لى إلّاالقتال أو الكفر بما جاء محمد صلى الله عليه و آله». العبارة

«ضربت أنف هذا الأمر وعينه»

مثل تقوله العرب فى الاستقصاء فى البحث والتأمل والفكر. والعبارة

«وقلبت ظهره وبطنه»

هى الاخرى كناية عن دراسة كافة جوانب الموضوع: لأنّ الإنسان إذا أراد أن يشترى بضاعة قلب ظهرها وبطنها ليتعرف على كافة مميزاتها. أما قوله عليه السلام

«فلم أر لى إلّا القتال أو الكفر بماء جاء محمد صلى الله عليه و آله»

فذلك لأنّ الإمام عليه السلام إذا سكت وترك الامّة لحالها لقاد ذلك إلى انحراف الناس عن الإسلام واستتباب الحكومة الجاهلية الأموية والسفيانية وإحياء

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۸

مبادئ الشرك والوثنية، وهذا يعنى تجاهل كافة القيم والمثل التى جهد رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله مدة ثلاث وعشرين سنة فى إرسائها وتحمل صنوف العذاب من أجل ترسيخها، وأصبح على عليه السلام خمسة وعشرين عاماً جليس البيت من أجل الحفاظ عليها، وعليه فلم يبق من سبيل أمام الإمام عليه السلام سوى القتال بصفته الأمين على الإسلام وقيمه، وهذا هو الرد الصريح على كافة من يشكك فى قتاله عليه السلام لمعاوية. ثم أشار عليه السلام إلى مسئلة قتل عثمان واستغلالها من قبل معاوية وزبانيته بغية الوصول إلى أغراضه ومآربه، فقال

«إنّه قد كان على الأمّة وال أحدث أحداثاً، وأوجد الناس مقالا، فقالوا ثم نقموا فغيروا»

فمراد الإمام عليه السلام أن العامل الرئيسى لقتل عثمان هو نفس عثمان، الذى أتى بالأعمال المخالفة للعدل والسنة النبوية، والتى أججت غضب الناس فحاصروه ثم قتلوه، ولذلك لم يتحرك أى من صحابة رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله للدفاع عنه، حتى قتل وبقى ثلاثاً على الأرض لم يدفنه أحد من المسلمين [۴۷۶] وهذا بدوره يكشف عن مدى غضب الامّة ونقمتها عليه. وعليه فقتل عثمان لم يكن ذريعة تدعو للخروج على أميرالمؤمنين عليه السلام.

وبالطبع فان أصحاب تلك الذريعة كانوا يعلمون هذا الأمر أكثر من غيرهم، إلّاأنّهم لم يروا أفضل من هذه الذريعة لتعبئة أهل الشام ضد أميرالمؤمنين عليه السلام.

أعمال عثمان وأسباب قتله.

ذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أن عثمان أحدث أحداثا مشهورة نقمها الناس عليه وأهم هذه الأحداث:

۱- تأمير بنى أمية ولا سيما الفساق منهم وأرباب السفه وقلة الدين ومنهم الوليد الفاسق وشارب الخمر الذى ولاه الكوفة.[۴۷۷] وقرب الحكم بن أبى العاص عمه الذى طرده رسول الله صلى الله عليه و آله فألبسه جبة من الخز وأعطاه زكاة قبيلة قضاعة التى بلغت ثلاثمئة درهم- وذكر إبن قتيبة وابن عبد ربه والذهبى- من مشاهير علماء العامة- أن من الأحداث التى نقمها الناس

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۰۹

على عثمان تقريبه للحكم بن أبى العاص الذى لم يقربه أبوبكر ولا عمر فى خلافتهما.[۴۷۸] كما عين ابن عمه مروان بن الحكم مستشارا له وأعطاه غنائم أفريقيا التى بلغت خمسمئة ألف درهم.

۲- أذاه لكبار صحابة النبى صلى الله عليه و آله كأبى ذر الذى نفاه للربذة حين كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعترض على أعماله.[۴۷۹] وضربه الشديد للصحابى الجليل عمار بن ياسر ولم يكن ذنبه سوى مواجهة عثمان باعتراضات الناس.[۴۸۰] وما فعله

بالصحابى عبدالله بن مسعود بسبب إعتراضه على التطاول على بيت المال فجعل يضربه حتى كسر رباعيته.[۴۸۱]
سئل الصحابى زيد بن أرقم كيف حكمت بكفر عثمان؟ قال: لثلاث: تقسيمه لأموال بيت المال بين الأغنياء ومحاربته لصحابة النبى صلى الله عليه و آله وعمله بغير كتاب الله.[۴۸۲]
۳- توزيعه لأموال بيت المال على بطانته وقرابته دون حساب وحرمان المؤمنين منها.
وللمؤرخين والمحدثين شروحا وافية بالنسبة لهذه الأمور لايسعها المقام. كل ذلك أرى إلى نقمة الأنصار والمهاجرين ولا سيما صحابة النبى صلى الله عليه و آله على عثمان فلم يروه خليفة لرسول الله صلى الله عليه و آله كما قدم الناقمون من مصر والكوفة والبصرة، وحيث لم يكترث لهم، بينما لم ينصره أهل المدينة وهذا يدل على نقمتهم عليه أيضا. أما معاوية الذى كان واقفا على كل هذه الأمور فقد إستغلها ليحرض أهل الشام ضد أمير المؤمنين على عليه السلام بحجة المطالبة بدم عثمان.
نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۱۱

الخطبة[۴۸۳] الرابعة والاربعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام
لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيبانى إلى معاوية، وكان قد إبتاع سبى بنى ناجية من عامل أميرالمؤمنين عليه السلام وأعتقهم، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام.
سبب الخطبة

قصة الخريت بن راشد الناجىّ وخروجه على علىّ عليه السلام

كما ورد سابقا فالكلام يرتبط بقصة قبيلة بنى ناجية: كان الخِرِّيت بن راشد النّاجِىّ، أحد بنى ناجِيَة، قد شهد مع على عليه‌السلام صِفّين، فجاء إلى علىّ عليه‌السلام بعد انقضاء صِفّين، وبعد تحكِيم الحَكَمين فى ثلاثين فى أصحابه، يمشى بينهم حتى قام بين يديه، فقال: لا واللّه لا أطِيعُ أمرَك، ولا أصلّى خَلْفَك، وإنى غداً لمفارق لك؛ فقال له: ثَكِلَتْك أمّك! إذاً تنقض عهدَك، وتَعْصِى رَبّك، ولا تضرّ إلّانفسَك، أخبِرْنِى لم تفعلُ ذلك! قال: لأنّك حكّمت فى الكتاب، وضعُفْت عن الحق إذ جَدّ الجدّ، وركنت إلى القوم الّذين ظلموا أنفسَهم، فأنا عليك رادّ، وعليهم ناقم، ولكم جميعا مباين.
فقال له علىّ عليه‌السلام: وَيْحَك! هلّم إلىّ أدارِسْك وأناظِرْك فى السُّنن، وأفاتحْك أموراً من
نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۱۲
الحق أنا أعلم بها منك؛ فلعلك تعرف ما أنت الآن له منكر، وتُبْصر ما أنت الآن عنه عَم وبه جاهل، فقال الخريت: فإنّى غادٍ عليك غداً. فقال علىّ عليه‌السلام: اغْدُ ولا يستهوينّك الشيطان، ولا يتقحمَنَّ بك رأىُ السوء، ولا يستخفّنّك الجهلاء الذين لا يعلمون؛ فواللّه إن استرشدتَنى واستنصحتنى وقبلت مِنّى لأهدِيّنك سبيل الرشاد.
فخرج الخرِّيت من عنده مُنْصرفاً إلى أهله.
قال عبداللّه بن قُعَين: فعجلت فى أثره مُسْرِعاً، وكان لى من بنى عَمّه صديق، فأردت أن أَلْقَى ابنَ عمه فى ذلك، فأعلمه بما كان من قوله لأميرالمؤمنين، وآمر ابنَ عمه أن يشتدّ بلسانه عليه، وأنْ يأمرَه بطاعة أميرالمؤمنين ومُناصحته، ويخبره أنّ ذلك خير له فى عاجل الدنيا وآجل الآخرة. ثم بعث عليه السلام بمعقل بن قيس فقاتل الخريت حتى قتل وأسر أصحابه، فأطلق من كان منهم مسلما وبقى غير

المسلمین، وحین ورد الأسری الکوفة إشتری مصقلة الأسری بخمسمئة درهم من معقل وأعتقهم. فدفع مئتی درهم وعجز عن دفع الباقی فخاف وهرب.

فخطب الإمام علیه السلام بهذه الخطبة.[۴۸۴]

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۳۱۳

«قَبَّحَ اللَّهُ مَصْقَلَةَ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ، وَفَرَّ فِرارَ الْعَبِیدِ! فَما أَنْطَقَ مادِحَهُ حَتَّی أَسْکَتَهُ، وَلا صَدَّقَ واصِفَهُ حَتَّی بَکَّتَهُ، وَلَوْ أَقامَ لَأَخَذْنَا مَیْسُورَهُ وَانْتَظَرْنا بِمالِهِ وُفُورَهُ».

الشرح والتفسیر

فرار العبید

قال الإمام علیه السلام بعد أن سمع خبر فرار مصقلة- عامل الإمام علی منطقة أردشیر حرّة من مناطق فارس-

«قبح اللَّه مصقلة فعل فعل السادة، وفر فرار العبید».

لقد قام مصقلة بعمل إنسانی کبیر وذلک حین إشتری أسری بنی ناجیة وأعتقهم فلما طولب بالمال وإعادته إلی بیت مال المسلمین وبدلًا من سؤال المهلة للتسدید هرب بالمال إلی الشام حیث معاویة الذی عرف بخداعه للناس واستعبادهم وظاهر القضیة أن مصقلة وخشیة دینه لبیت المال هرب إلی الشام، بینما یبدو أنّه کان مستعد مسبقاً لهذه الخیانة العظمی، فلعله کان یخشی الفضیحة من بعض الأعمال الاخری التی قارفها، ولعل شدة علی علیه السلام فی العدل والاصرار علی إسترداد حقوق بیت‌المال قد شقت علیه کما شقت علی الآخرین. ویؤید ذلک ما قاله صاحب مصقلة ذهل‌بن حارث أنّ مصقلة قال لم أکن لأغتم لو کنت مدیناً لعثمان أو معاویة، فهما یتسامحان فی بیت المال، وقد فعلا ذلک بحق الالاف المؤلفة، الا أن علیا علیه السلام شدید التعامل مع بیت المال. مع ذلک فلیس هنالک من مبرر لفعل مصقلة، ولا سیما إثر ذلک التناقض الواضح، فقد تکرم من جانب لیقوم بذلک العمل الإنسانی، ومن جانب آخر قام بتلک الخیانة وهرب! لذلک قال علیه السلام:

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۳۱۴

«فما أنطلق مادحه حتی أسکته، ولا صدق واصفه حتی بکته»[۴۸۵]

فقد فعل ما یدعو إلی مدحه من قبل کل من یسمعه، إلّاأنّ خبر عتقه لسبایا بنی ناجیة لم یکد ینتشر بین الناس حتی إنتشر قبله نبأ فراراه إلی الشام، فاصاب الجمیع بالدهشة والذهول، فکیف یلجأ إلی معاویة من یقوم بهذا العمل النجیب، فیؤثر مجاورة معاویة والوقوف إلی جانبه علی علی علیه السلام؟ نعم لایسع الجمیع تحمل العدل! ثم إختتم کلامه بالقول

«ولو أقام لأخذنا میسوره، وانتظرنا بماله وفوره»

أجل هذا منطق القرآن الکریم «وَإِنْ کانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلی مَیْسَرَةٍ»[۴۸۶].

لیس هنالک من یعتقد بأنّ علیاً علیه السلام سیعامله علی خلاف القرآن وأحکامه، وعلیه فلا یقبل عذره فی خشیته من الإمام علیه السلام فی تسدید ما بذمته لبیت‌المال. وهنا یبرز هذا السؤال لم لم یهبه الإمام علیه السلام ذلک المال تقدیراً لعمله الإنسانی، فمصقلة لم یکن لیتحمل بذلک الدین لمصالحه الشخصیة بل کان نتیجة طبیعة لذلک العمل الجبار الذی قام به؟ ونقول فی الجواب علی هذا السؤال أنّ الإمام علیه السلام لو فعل ذلک لأصبحت سنة فی المستقبل، بحیث یقوم کل عامل وآمر بالطلاق سراح الاسری الأمر الذی یفرز بعض المخاطر التی تهدد کیان المجتمع الإسلامی بینما یحظی الأمر بمدح الناس وثنائهم. أضف إلی ذلک فانّ مثل هذا البذل یزعزع أسس ودعائم بیت المال ویعید إلی الاذهان سیاسة البذخ والاسراف التی إتبعها عثمان تجاهه، بینما کان الإمام علیه السلام قد وعد الامّة بأنّه سیسترجع کل ما أخذ من بیت المال بغیر حق وإن تزوج به النساء.

تأمّلان

اشارة

نفحات الولاية ؛ ج ۲ ؛ ص ۳۱۴

۱- من بين الأسئلة التى تطرح بشأن هذه الخطبة

نفحات الولاية، ج ۲، ص: ۳۱۵

أو ليس بنى ناجية مسلمين، فكيف يسبون ويفادون؟ ويبدو أنّ الجواب قد ورد فى قصة سبيهم، حيث خرج الخريت بن راشد الناجى ضد أميرالمؤمنين عليه السلام واجتمع مع عدد من الأفراد، فلما بلغ الخبر الإمام عليه السلام. فوجه الإمام عليه السلام أحد أصحابه «معقل بن قيس» لقتال الخريت بن راشد فقتله وقتل جمعاً من أصحابه وأسر آخرين من مسلمين وغير مسلمين من النصارى ومانعى الصدقة، فجعل مسلميهم يمنة والنصارى ومانعى الصدقة يسرة، ثم خلى سبيل من كان مسلماً وأخذ بيعته، ومن كان إردتد عرض عليه الرجوع إلى الإسلام أو القتل.

فلما أتى بالاسرى إلى الإمام عليه السلام فى منطقة أردشير حرّة التى كان مصقلة عاملها، فبكى إليه النساء والصبيان وتصايح الرجال. فقال مصقلة: أقسم باللّه لأتصدقن عليهم، فاشتراهم بخمسمائة ألف درهم فاعتقهم. فبعث مصقلة بمقدار من المال وبقى آخر. وانتظر على عليه السلام مصقلة أن يبعث المال فابطأ به فبعث إليه الإمام، فقدم الكوفة، فسأله الإمام عليه السلام المال، فأدى إليه مائتى ألف درهم وعجز عن الباقى، على أن يهبه الإمام عليه السلام ذلك، فلم يقبل الإمام عليه السلام، ولو وافقه الإمام عليه السلام لكان ذلك الأمر بدعة بحيث يشترى الآخرون الأسرى ثم يعتقونهم ولا يؤدون المال إلى بيت مال المسلمين، إلى جانب كون تلك الموافقة تثير تداعيات سياسة عثمان إزاء بيت المال بحيث يساء الظن بحزم الإمام عليه السلام بالنسبة لبيت مال المسلمين. والعجيب أنّ أحد أصحابه قال له: لو شئت لم يمض عليك جمعة حتى تجمع هذا المال، فقال: ما كنت لأحملها قومى، ولا أطلب فيها إلى أحد. ثم قال: واللّه لو أنّ ابن هند مطالبى بها، أو ابن عفان، لتركها لى. فهذه الامور تشير إلى أنّه قد يكون منذ البداية قد عزم على عدم أدائها، كما تفيد الرسالة الثالثة والأربعون من نهج‌البلاغة أنّه كان عثمانياً، ولذلك كان قد بذل بعض أموال بيت المال لبطانته وقومه، وخلاصة القول فان بنيته الفكرية والعملية كانت قائمة على نهج معاوية لا أميرالمؤمنين عليه السلام. ولعله كان رجلًا صالحاً قبل وصوله إلى الحكومة إلّاأنّ حب الدنيا والاغترار بالجاه قد غلب عليه. ومن هنا شقت عليه عدالة الإمام عليه السلام حتى إلتحق فى خاتمة المطاف بمعاوية. فخطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة واختتمها بقوله

«ولو أقام لأخذنا ميسوره، وانتظرنا بماله وفوره».[۴۸۷]

ويتضح ممّا ذكرنا أنّ الاسرى المذكورين لم يكونوا من المسلمين.

نفحات الولاية، ج ۲، ص: ۳۱۶

۲- فلسفة الحزم

السؤال الآخر الذى يمكن طرحه هنا: ما علة كل هذا الحزم من الإمام عليه السلام فى هذه الحالات؟

ونقول فى الجواب أنّ الإمام عليه السلام لم يتشدد فى هذا الأمر، بل كان قد أمهله لتسديد الدين عند المقدرة أولًا، وثانياً لم يكن

ذلک حقاً للإمام علیه السلام بحیث یهبه أموال بیت‌المال، بل هو حق المسلمین الذی لایفرط فیه أمیرالمؤمنین علیه السلام قط. ورغم حزمه فی هذا الأمر إلّاأنّه أبقی باب الرفق مفتوحاً، ومن ذلک إقترح البعض علی الإمام علیه السلام بعد فرار مصقلة إعادة السبایا والأسری فلم یوافق الإمام علیه السلام علی أنّ مصقلة قد إبتاعهم واعتقهم، فالمدین مصقلة لا هؤلاء.[۴۸۸]

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۳۱۷

الخطبة[۴۸۹] الخامسة و الأربعون

اشارة

ومن خطبة له علیه السلام

وهو بعض خطبة طویلة خطبها یوم الفطر، وفیها یحمداللّه ویذم الدنیا

نظرة إلی الخطبة

تشتمل الخطبة علی فصلین من کلام أمیرالمؤمنین علی علیه السلام: أحدهما حمداللّه والثناء علیه، والآخر ذم الدنیا وحث الناس علی التزود للآخرة. ویبدو أنّ الرضی (ره) لم یذکر الخطبة کلها فهی طویلة جداً، ومن هنا لا یری هناک من إرتباط بین هذین الفصلین، إلّاأنّها رغم قصرهما یشیران إلی معان ضخمة مهمّة.

ج ج

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۳۱۹

القسم الأول: الرحمة اللامتناهیة

«الْحَمْدُ لِلَّهِ غَیْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلا مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ وَلا مَأْیُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ وَلا مُسْتَنْکَفٍ عَنْ عِبادَتِهِ، الَّذِی لا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ وَلا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ».

الشرح والتفسیر

تناول هذا الفصل حمداللّه والثناء علیه، ثم أشار إلی ست من النعم الإلهیة التی تستحق الحمد والشکر، فقال علیه السلام

«الحمد للّه غیر مقنوط[۴۹۰] من رحمته».

کیف الیأس من رحمة اللّه الواسعة وهو القائل سبحانه «وَرَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیءٍ»[۴۹۱] کما قال علی لسان نبیه یعقوب علیه السلام «لا یَیْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلّا القَوْمُ الکافِرُونَ»[۴۹۲] وعلی لسان خلیله إبراهیم علیه السلام «وَمَنْ یَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلّا الضّالُّونَ»[۴۹۳] وعلیه فلابد للإنسان من الانابة إلی اللّه مهما کانت ذنوبه ومعاصیه، ولا ینبغی له الیأس من رحمة اللّه، بل إنّ هذا الیأس کفر وضلالة وهو من أعظم الذنوب ثم قال علیه السلام

«ولا مخلو من نعمته».

کما ورد فی القرآن الکریم «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی السَّمواتِ وَما فِی الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَیْکُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً»[۴۹۴] وأضاف علیه السلام

«ولا مأیوس من مغفرته»

کیف لا وهو القائل «قُلْ یا عِبادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلی

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۳۲۰

أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»[۴۹۵].

بل ورد فى الحديث النبوى الشريف أنّ هذه الرحمة لمن السعة بحيث يتطاول عليها ويطمع بها حتى إبليس

«ليغفر اللَّه يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد حتى إبليس يتطاول اليها»[۴۹۶]

كما جاء فى الرواية: «أنّ للَّه مئة رحمة وقد أنزل واحدة منها إلى الأرض وقسمها بين مخلوقاته، وإستأثر بتسع وتسعين إدخرها لعباده يوم القيامة»[۴۹۷]. ولما كانت هذه الامور تسوق الناس إلى العبادة، قال عليه السلام:

«ولا مستنكف ۴۹۸] عن عبادته»

وذلك لأنّ الاستنكاف عن العبادة لا ـ يؤدى سوى إلى العذاب، فقد قال القرآن بهذا الخصوص «وَأَمّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً»[۴۹۹]. ثم عد نعمتين اخريين عليه السلام فقال

«الذين لا تبرح منه رحمة، ولا تفقد له نعمة»

فقد تكررت الرحمة والنعمة وكأن السابقة أشارت إلى أصل الرحمة والنعمة الإلهية، بينما تحدثت العبارة اللاحقة عن دوام هذه النعمة وعدم إنقطاعها، وهذا ما ورد تأكيده فى القران «وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها»[۵۰۰]. والطريف فى الأمر أنّ هذين الوصفين فى الواقع ذكرا كدليل على عدم استنكاف الناس عن عبادة اللَّه؛ الأمر الذى تناوله علم الكلام تحت عنوان

«شكر المنعم من دوافع معرفة اللَّه».

أمّا المفردات الرحمة والمغفرة والنعمة فهى وإن كانت مرتبطة مع بعضها إلّا أنّ مفاهيمها مستقلة، فللرحمة معنى واسع يشمل كل فضل ولطف من اللَّه للعباد سواء عن طريق إفاضة النعم أو مغفرة الذنوب، وبعبارة اخرى فانّ نسبة الرحمة إلى النعمة والمغفرة هى نسبة العموم والخصوص المطلق، بينما لكل من النعمة والمغفرفة مفهوم منفصل عن الآخر، فالنعمة تختص بالإمكانات الوجودية التى تأخذ بيد الإنسان إلى السمو والكمال، أمّا المغفرة فهى إزالة آثار الذنب وتعبيد الطريق بعد إزالة العراقيل.

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۳۲۱

القسم الثانى: الدنيا دار المنى

اشارة

«وَالدُّنْيا دارُ مُنِىً لَها الْفَناءُ وَلِأَهْلِها مِنْها الْجَلاءُ وَهِىَ حُلْوَةٌ خَضْراءُ، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ، فارْتَحِلُوا مِنْها بِأَحْسَنِ ما بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلا تَسْأَلُوا فِيها فَوْقَ الْكَفافِ، وَلا تَطْلُبُوا مِنْها أَكْثَرَ مِنَ الْبَلاغِ».

الشرح والتفسير

لقد عرض الإمام عليه السلام هنا بذم الدنيا على أنّ حبّها والتعلق بها يعد من آعظم آفات سبيل سعادة الإنسانية. كما أنّ الاغترار بزخارفها وزينتها أساس الذنوب والمعاصى، فقال عليه السلام

«والدنيا دار منى لها الفناء»[۵۰۱]

. نعم فدعائم الكون تحكى آثار الزوال والفناء، فالأشجار التى تتفتح فى الربيع وتحمل الثمار إنّما تذبل فى فصل الخريف لتجف ثم تتساقط أوراقها على الأرض فتعبث بها الرياح هنا وهناك، وكأنّ حياة هذه الاشجار لم تشهد الربيع ولم تحمل الثمار. وهكذا حال الإنسان فالفتى القوى بالأمس، هو العجوز الهرم اليوم، والكهل العجوز اليوم سيكون عظاما نخرة غداً! ثم قال عليه السلام

«ولأهلها منها الجلاء»[۵۰۲]

فكافـة الأفراد دون إسـتثناء سـيودعون عاجلا أم آجلا هـذه الـدنيا الفانيـة ليتجهوا نحو تلك الحياة الخالدة فى عالم الآخرة. فهذا قانون إلهى مطلق لا يسع أحد إنكاره والخروج عليه. ومن هنا عبرت بعض الآيات القرآنية عن

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۲۲

الموت باليقين، وذلك لأنّه يوقن به حتى من أنكر المعاد والحساب. ثم قال عليه السلام

«وهى حلوة خضرة»

وتختص الحلاوة بالذائقة بينما ترتبط الخضرة بالباصرة، فخضرة الـدنيا وجمالها تخطف بصر الفرد الغافل وتشـده إليها، بينما تسوق حلاوتها ذلك الإنسان إلى المعصية والخطيئة، ومن المعلوم أنّ خـداع الدنيا لا يقتصـر على هذين الأمرين، بل لكل حاسة من حواس الإنسان ما يجذبها ويربطها بالدنيا. وأضاف عليه السلام

«وقد عجلت للطالب والتبست ۵۰۳]

بقلب الناظر»

فطبيعة الـدنيا خيرها العاجل ومنافعها المبكرة، وإذا أتت الإنسان فإنّها تنفـذ إلى قلبه حتى تكون جزءاً منه لأنّها جميلة للناظر، كما أنّها حلوة للمـذاق، ولـذلك كان التحرر منها صـعباً. وما ان فرغ الإمام عليه السـلام من بيان صـفات الدنيا لتتطلع القلوب إلى أوامر السـماء حتى قال

«فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ»[۵۰۴]

. لا ينبغى أن ينسـى الإنسان أنه مسافر قـد أقام هنا بصورة مؤقتة، والمسافر الفطن إنّما ينهمك باعداد الزاد والمتاع فى مثل هذا المنزل، فهو يتزود بـأحسن الأمتعة والأشـياء ولاـ يثقـل كـاهله بـالردى منها أبـدا «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا أُولِى الْأَلْبابِ»[۵۰۵]. فالتقوى أفضل زاد الدنيا إلى جانب الحذر من نوم الغفلة.

الكفاف والعفاف

لقـد تضـمنت الخطبـة إشارات إلى مختلف أبعاد الحياة الـدنيا رغم قلـة عباراتها وألفاظها. فقـد أشارات إلى طبيعـة الحياة الـدنيا والتى تكمن فى الفناء والزوال ورحيل أهلها عنها شاءوا أم أبوا. كما تطرقت إلى ظاهرها الأنيق الـذى يشـد الأنظار إليه، ومن هنا يتجه نحوها من يخـدع بالمظاهر، بينما يحـذرها من يتمعن فى العواقب. وتناولت حب الـدنيا الذى يقود بالتدريج إلى تربعها فى قلب الإنسان حتى تصبح جزءاً من كيانه؛ الأمر الذى يجعل من المتعذر عليه نزع

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۲۳

حبّها من قلبه ثم أرشـدت إلى النجاة من أخطارهـا وآفاتها بالقناعـة بالكفاف والعفاف، والمراد بالكفاف ۵۰۶] والعفـاف (أو العفاف والكفاف» أن يقنع الإنسان فى الـدنيا بقـدر حاجته إليها ويـدع الرغبـة بالمزيـد جانباً ويغض طرفه عن جمع الأموال؛ الأمر الـذى يجعله يعيش الاسـتقرار والسـكينة فى حياته الـدنيا ويحـد من حمله فى حياته الاخرويـة، وذلك لأنّ طامـة الإنسان فى الحرص والطمع وعدم القناعـة. طبعاً إذا كان تطلعه للمزيد من أجل إغاثة الضـعفاء والمحرومين فانّ ذلك ليس فقط لا يتنافى والعفاف والكفاف فحسب، بل من شأنه أن يقود الآخرين إلى الكفاف. فقـد ورد فى القرآن الكريم: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»[۵۰۷]، كما ورد هذا المعنى فى الروايات الإسـلامية، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يدعو بهذا الدعاء:

«اللّهم ارزق محمداً وآل محمد ومن أحبّ محمداً وآل محمد العفاف والكفاف»[۵۰۸]

. وعن أميرالمؤمنين على عليه السلام أنّه قال:

«قليل يكفى خير من كثير يردى»[۵۰۹]

فالفرد إذا قنع باللازم من حياته كان ذلک زينة له من الذنب وتحلى بالكفاف والعفاف:

«من اقتنع بالكفاف أداه إلى العفاف»[۵۱۰]

أضف إلى ذلک وبغض النظر عن الجوانب المعنوية والأخلاقية للقناعة بالضرورى فى الحياة فانّما مدعاة للسكينة والاستقرار الروحى والنفسى فى الحياة الدنيا، فقد ورد عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«ومن إقتصر على بلغة الكفاف فقد إنتظم الراحة وتبوأ خفض الدعة»[۵۱۱].

وقد أثنى رسولاللّه صلى الله عليه و آله على شخص فدعا له قائلًا:

«اللّهم ارزقه الكفاف»

كما قال رسولاللّه:

«إنّ ما قلّ وكفى خير ممّا أكثر وألهى؛ اللّهم ارزق محمّداً وآل محمد الكفاف».

نفحات الولايۀ، ج۲، ص: ۳۲۵

الخطبة[۵۱۲]السادسة و الاربعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

عند عزمه على المسير إلى الشام وهو دعاء دعا به ربّه عند وضع رجله فى الركاب.

نظرة إلى الخطبة

تتضمن هذه الخطبة أو هذا الدعاء عدّة أمور عميقة ومهمّة، فقد بين الإمام عليه السلام جميع المشاكل المتوقعة فى السفر فى ثلاث، ثم إستعاذ منها باللّه. ثم وصف الحق سبحانه بأنّه الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل توكيداً لحضوره الذاتى المطلق لدى جميع الكائنات.

ج ج

نفحات الولايۀ، ج۲، ص: ۳۲۷

«اللَّهُمَّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ وَکَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِی الْأَهْلِ وَالْمالِ وَالْوَلَدِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِی السَّفَرِ، وَأَنْتَ الْخَلِیفَةُ فِی الْأَهْلِ وَلا یَجْمَعُهُما غَیْرُکَ، لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لا یَکُونُ مُسْتَصْحَباً، وَالْمُسْتَصْحَبُ لا یَکُونُ مُسْتَخْلَفاً».

الشرح والتفسير

الاستعاذة باللّه من وعثاء السفر

لا شک أنّ اولياء اللّه يعيشون التضرع إلى اللّه فى جميع الأحوال إلّاأنّهم يكونون أكثر تضرعاً حين إشتداد المحن والخطوب، فيستأنفون أعمالهم بدعاء اللّه والتوسل إليه ليفرج عنهم ويلهمهم القوة والصلابة والثقة بالنفس. الإمام عليه السلام من جانبه لما عزم على المسير لصفين تضرع بهذا الدعاء

«اللّهم إنّى أعوذ بک من وعثاء[۵۱۳] السفر وكآبة[۵۱۴] المنقلب ۵۱۵] وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد»

فالواقع أنّ ما يشغل ذهن المسافر من جراء السفر أوجزه الإمام عليه السلام فى ثلاث؛ الأول (وعثاء السفر) والثانى كيفية العودة (وكآبة المنقلب» والثالث القلق على الأهل (سوء المنظر فى الأهل والولد). ويستعيذ الإمام عليه السلام باللَّه من هذه الامور المقلقة ويسأله تذليلها، ثم قال عليه السلام:

«اللّهم أنت الصاحب فى السفر وأنت الخليفة فى الاهل، ولا يجمعها غيرك»

نعم الذات الإلهية فقط المنزهة عن الزمان والمكان، فهى محيطة بجميع الأمكنة والأزمنة، فليس هنالك من مكان أقرب إليها من آخر، ومن هنا فان اللَّه معنا فى السفر ومع

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۲۸

أهلنا وولدنا فى الحضر، وما أروع أن نودع زمام أمور حياتنا إلى من يحيط بكل شى ولا يحيط به شى. ثم يقدم الدليل على ما قال:

«لأنّ المستخلف لايكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً»

فالمكان يسود ويحكم جميع الكائنات المادية، ومن هنا فان وجودها فى مكان يعنى خلو الاخر منها، وما ذلك إلّالوجودها المحدود، وليس هنالك من وجود لا محدود سوى اللَّه سبحانه الذى لا يعرف المكان ولا الزمان ولا البعد ولا القرب، وهو كما قال: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ»[۵۱۶] وقال: «فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ»[۵۱۷].

قال السيد الرضى (ره) آخر الكلام: وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله، وقد قفاه أميرالمؤمنين على عليه السلام بأبلغ كلام وتممه بأحسن تمام من قوله

«لا يجمعهما غيرك»

إلى آخر الفصل.

فلسفة الدعاء

من يتصفح المصادر الإسلامية يدرك أنّ للدعاء مكانة خاصة فى التعاليم الإسلامية، حتى عد الدعاء مخ العبادة. فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف

«أفزعوا إلى اللَّه عزّوجلّ فى حوائجكم، والجاؤوا إليه فى ملماتكم، وتضرعاً إليه، فانّ الدعاء مخ العبادة»[۵۱۸].

بينما وصفه حديث آخر بسلاح المؤمن، فقال رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله:

«الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السموات والأرض»[۵۱۹]

، وقال أميرالمؤمنين على عليه السلام:

«الدعاء مفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح»[۵۲۰]

والدعاء على درجة من الأهمية بحيث قال القرآن الكريم: «قُلْ ما يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلا دُعاؤُكُمْ»[۵۲۱]. مع ذلك هنا لك من إستشكل على الدعاء ولا سيما اولئك الذين غفلوا عن فلسفته:

۱- فهم يقولون أحياناً: لا ينسجم الدعاء وروح الرضا والتسليم لإرادة اللَّه، فالذى يجب

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۲۹

علينا هو التسليم لإرادة اللَّه والرضى بما يرتضى!

۲- إن الدعاء يعدّ إحد العوامل المخدرة للإنسان فيصده عن السعى والعمل والنشاط، حيث ينصرف الإنسان عن هذه الامور ويلوذ بالدعاء لتأمين حاجياته.

۳- ناهيك عن كل ما تقدم، كيف يسعنا تغيير المقدرات الإلهية بواسطة الدعاء، فلو قدر اللَّه أمراً، فانّ ذلك الأمر سوف لن يغيره

دعاؤنا، وبعبارة اخرى فانّ الدعاء نوع من أنواع الفضول والتطفل على أفعال اللَّه، فاللَّه لا يفعل إلّاما فيه المصلحة ولا داعى للدعاء. ولكن لا ترى هـذا الكلام سليم إذا ما وقفنا على فلسفة الدعاء ومفهومه الواقعى. فالمفهوم الواقعى للدعاء هو أننا نعمل ما فى وسعنا ونجهد أنفسنا وما فاق ذلك نوكله إلى اللَّه ولطفه، ونتضرع إليه بالدعاء لحل المشاكل، وعلى ضوء «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمَضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ»[۵۲۲] نطرق بابه ونسأله بعد أن سعينا سعيناً ولم يبق إلّاتوفيقه. ومن هنا صرحت بعض الروايات الإسلامية بعدم إستجابة دعاء من قصر فى العلم وخلد إلى الكسل والراحة. فاللَّه لا يستجيب دعاء من سأله الرزق وهو جالس فى بيته دون أن يسعى ويعمل، كما لا يستجاب دعاء من أقرض مالًا ولم يكتبه ثم أنكر عليه المدين ولم يعطه ماله! والخلاصة فانّ الكسل والتقاعس لا ينسجم واستجابة الدعاء. وعلى ضوء ما تقدم فانّ الدعاء لا يعتبر عاملًا مخدراً، بقد رما بعد عاملًا محركاً. أمّا ما يقال من أن الدعاء لا يغير التقدير، فجواب ذلك واضح، وهو أنّ الدعاء سبب زيادة استحقاق الإنسان لأنّه يتجه إلى اللَّه وينور قلبه بمعرفة اللَّه يتوب إليه من ذنوبه؛ لأنّ التوبة من شروط قبول الدعاء، وبذلك يتأهب أكثر لتلقى الفيض الإلهى والعناية الربانية، لأنّ اللَّه قدر المزيد من لطفه وفضله لمن كان أكثر إستعداداً وجدارة، بعبارة أخرى فانّ للَّه نعم وخيرات وبركات للعباد مشروطة ببعض الشرائط، فى مقدمتها التوجه إليه ودعاؤه والتقرب إليه. وبناءاً على هذا فانّ رحمةاللَّه ولطفه متوقفة على الدعاء. ومن هنا يتضح الجواب على الإشكال الذى يفيد عدم انسجام الدعاء وروح الرضا والتسليم؛ لأنّ الدعاء تأكيد للتسليم والرضا، فالحق سبحانه أراد لعباده أن يعيشوا القرب منه بالدعاء، فاذا عاشوا القرب شملهم اللَّه برحمته وفضله، الأمر الذى أكد الدعاء فى أغلب الآيات والروايات.

وزبدة الكلام فانّ للدعاء أثاره التربوية الجمة على حياة الإنسان، أدناها أنّه يطهر قلبه

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳۰

وروحه من الأدران ويزيل عنه صدأ الماديات ويوصله بمصدر الخير والاحسان والعطاء، كما يشكل السبيل للاستزادة من فضل اللَّه ولطفه. ومن هنا فانّ أولياءاللَّه لا يستغنون فى قضاء حوائجهم عن الدعاء، وبالدعاء يشعر العبد بالقوة، كما يشعر بالسكينة إثر التوكل على اللَّه فيهب لمواجهة المشاكل وقلبه مفعم بالأمل فى التغلب عليها، ولا غرو فهو يعلم بأنّها مذللة لإرادة اللَّه تابعة لمشيئة وقدرته. كما تتأتى الحاجة إلى للدعاء فى الأسفار المخيفة المحفوفة بالمخاطر، أمّا دعاء الإمام عليه السلام حين عزمه على السير إلى صفين فقد إقتدى به بالنبى صلى الله عليه و آله ومن سبقه من الأنبياء العظام. فقد كلف نوح عليه السلام بالتضرع إلى اللَّه حين ركب السفينة فى ذلك الطوفان الهائل لينجيه اللَّه من تلك المخاطر «فَإِذا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجّانا مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ* وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ»[۵۲۳] كما دعا موسى عليه السلام لما فرّ من أزلام فرعون حين خرج من مصر متوجهاً إلى مدين «وَلَمّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِى سَواءَ السَّبِيلِ»[۵۲۴]. وقال حين لقى لبنات شعيب «رَبِّ إِنِّى لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ»[۵۲۵]. النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حين هاجر من مكة إلى المدينة فى ظل تلك الأخطار، كان يشعر بالتذمر لمفارقة مكة وبيت اللَّه، وكان يتمنى الرجوع اليها فاتته البشارة «إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ»[۵۲۶] وكأنّ النبى صلى الله عليه و آله دعا اللَّه أو كان يعيش حالة الدعاء فاستجيب له. ومن هنا حثت الروايات على الدعاء فى السفر.[۵۲۷] وتختتم البحث بما ورد عن على عليه السلام حين إنطلق من الكوفة إلى الشام، حيث وضع رجله على الركاب فقال: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، فلما استوى على دابته قال:

«سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنّا لَهُ مُقْرِنِينَ* وَ إِنّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ»[۵۲۸]

ثم دعا بهذا الدعاء الذى فرغنا من شرحه.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳۱

الخطبة[۵۲۹] السابعة و الاربعون

اشارة

من كلام له عليه السلام

فى ذكر الكوفة

نظرة إلى الخطبة

كلام الإمام عليه السلام يمثل نبوئتين بشأن الكوفة، أو الكوفة والبصرة: الاولى الحوادث المريرة التى تعصف بالكوفة وأهلها من قبل الطواغيت الظلمة، والثانية العاقبة السيئة لُاولئك الظلمة وعقابهم بما إقترفته أيديهم.

ج ج

نفحات الولاية، ج ۲، ص: ۳۳۳

«كَأَنِّى بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلازِلِ وَإِنِّى لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إِلَّا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِشاغِلٍ وَرَمَاهُ بِقاتِلٍ».

الشرح والتفسير

نبوءة عن مستقبل الكوفة

ذكرنا أنّ الإمام عليه السلام خاطب بهذا الكلام الكوفة (وقيل البصرة والكوفة) فقال

«كأنى بك يا كوفة تمدين مد الأديم [۵۳۰] العكاظى»

«عكاظ»[۵۳۱] اسم سوق قرب مكة (وقال البعض بين مكة والطائف) تجتمع فيه العرب كل عام من مختلف المناطق لمدّة عشرين يوماً كما صرح بذلك البعض، فكانوا يعرضون متاعهم، كما كانوا ينشدون الشعر وتتفاخر كل قبيلة على الاخرى، وبالطبع كان هناك كثيراً من المفاسد؛ الأمر الذى جعل الإسلام يردم ذلك السوق.

أما هل المراد بهذه العبارة الحوادث الأليمة التى ستقع فى الكوفة، أم كبر الكوفة وإتساعها.

فقد صرح أغلب شرّاح نهج‌البلاغة بالتفسير الأول، بينما قال القليل منهم بالتفسير الثانى، ويبدو أنّ التفسير الثانى هو الأنسب، لأنّ دبغ الجلد العكاظى لا يبدو منسجماً وكون العبارة كناية عن الحوادث الأليمة والمأساوية، بينما يمكنه أن يكون كناية عن إزدياد رقعة الكوفة وإتساع مساحتها. جدير بالذكر أنّ الجلد العكاظى واسع وجميل ومن أرغب الجلود لدى العرب، ولعل فى هذا إشارة إلى جمال الكوفة وعمرانها فى الأزمنة القادمة مقارنة بما عليها فى

نفحات الولاية، ج ۲، ص: ۳۳۴

زمان الإمام عليه السلام. وذكر البعض أنّ العبارة إشارة إلى مستقبل الكوفة وتقسيمها إلى أجزاء متعددة، على غرار تقسيم الجلد العكاظى ودبغه وتوسيعه. ثم قال عليه السلام

«تعركين [۵۳۲] بالنوازل [۵۳۳] وتركبين بالزلازل»

وقد ورد مثل هذا المعنى فى الخطبة ۱۰۸ بقوله:

«تعرككم عرك الأديم»

أي يسلط عليكم بنى أمية فيسومونكم سوء العذاب. ونبوءته الثانية التى تمثلت بقوله عليه السلام:

«إنّى لأعلم أنّه ما أراد بك جبار سوءاً إلّاإبتلاه اللَّه بشاغل ورماه بقاتل».

ويمكن أن تكون العبارة

«ابتلاه اللّه بشاغل»

إشـارة إلى الأمراض العضال والالام التى تشـغل الظلمـة وتصـرفهم عن الناس، كما أنّ «ورماه بقاتل» الحوادث التى تهجم على الإنسان من الخارج فتقتله وتقضى عليه.

والحق أنّ ما تكهن به الإمام عليه السـلام بشأن الكوفة قد حدث، حيث إتسعت إتساعاً كبيراً بعد الإمام عليه السلام وكانت على الدوام مركزا للفتن والحوادث المريرة، وقـد هب أغلب الجبـابرة للسـيطرة عليها، إلّاأنّ اللّه كان يبتليهم بأنواع البلاء ويـدفع شـرهم عنها، ولعل ذلـك يعزى لكون الكوفـة تشـكل مركز اسـتقطاب خلص المؤمنين من الشـيعة الأوفياء لعلى‌بن أبى طالب عليه السـلام وإن كان بينهم بعض المنافقين. ومن هنا صـرحت بعض الروايات بفضل الكوفـة. أمّا من بين الأفراد الذين هموا بالكوفة بعد أميرَالمؤمنين عليه السـلام زياد بن أبيه. فقـد ورد فى بعض الروايات أنّ زيادا لما حصـبه أهل الكوفة، وهو يخطب على المنبر، فقطع أيدى ثمانين منهم، وهـم أن يخرب دورهـم، ويجمر نخلهـم، فجمعهـم حـتى ملأـ بهـم المسـجد والرحبـة، يعرضـهم على الـبراءة مـن على عليه السـلام؛ وعلم أنّهم سيمتنعون فيحتج بذلك على استئصالهم وإخراب بلدهم. فخرج خارج من القصر فقال:

إنصـرفوا، فانّ الأمير يقول لكم: إنّى عنكم اليوم مشـغول؛ وإذا بالطاعون قـد ضـربه، فكان يقول: إنّى لأجد فى النصف من جسدى حر النار حتى مات.[۵۳۴]

رأيان فى الكوفة

وردت عدة عبارات فى نهج‌البلاغة بشأن الكوفة وأهلها، ومن ذلك الخطبة المذكورة التى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳۵

أشـارت إلى المكانـة المقدسـة للكوفـة وأنّهـا ستشـهد حوادثـاً مريرة وأليمـة، وأنّ اللّه حافظهـا من كـل جبار عنيـد. بينما وردت بعض الخطب التى تذم الكوفة، ومن ذلك الخطبة ۲۵ حيث خاطب الإمام عليه السلام الكوفة قائلًا

«إنّ لم تكونى إلّاأنت تهب أعاصيرك فقبحك اللّه».

الروايات هى الاخرى صرحت بمدح الكوفة، فقد جاء فى الحديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال بشان الكوفة

«هذه مدينتنا ومحلتنا ومقر شيعتنا»[۵۳۵]

، كما جاء فى رواية أنّ الإمام الصادق عليه السلام دعا للكوفة قائلًا:

«اللّهم ارم من رماها وعاد من عاداها»

وللجمع بين الروايات نقول إنّ الكوفة ذاتا مقدسة وأهلها من خلص شـيعة أهل البيت عليهم السلام ممن يتحلون بالورع والتقوى، إلّاأنّ أجواء الكوفـة تلوثت بفعل سـيطرة بنى أمية ودس العيون والجواسـيس فيها وأعان الظلمة وتسـليط الفساق عليها وايداع بيت المال إلى عبـدة الأهواء. فاذا مـدحت الكوفـة فالمراد اولئك النجباء من الشـيعة، وان ذمت فلـذلك الفساد الذى طالها من قبل بنى أمية. ونكتفى بهذا القدر على أن نخوض فى جوانب هذا الموضوع فى الابحاث القادمة ذات الصلة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۳۷

الخطبة[۵۳۶] الثامنة و الاربعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

عند المسير إلى الشام، قيل: إنّه خطب بها وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة إلى صفين.

نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة على قسمين: الأول وجريا على عادته فى خطبه عليه السلام فى الحمد والثناء والشكر للنعم الإلهية على العباد، والثانى يطلع الجيش على خطته فيمن بعثهم من المقدمة ويصف لهم المسير ليلتحقوا بهم، وتعئبة عدداً من القبائل التى كانت تسكن أطراف دجله وتسييرهم لمقاتلة العدو، ويبدو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يذكر اتباعه فى النخيلة الذين لم يكونوا كثيراً بانهم ليسوا وحدهم فى صفين وأنّه سيعبئ من كان فى مسيرهم للقتال ليزدادوا عدداً وعدّةً.

ج ج

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۳۳۹

القسم الأول: استحقاق اللّه للحمد والثناء

«الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّما وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّما لاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الْإنْعامِ، وَلا مُكافَإ الْإفْضَالِ».

الشرح والتفسير

يعرض الإمام عليه السلام للّه بالحمد والثناء فى القسم الأول هذه الخطبة بعبارات جديدة عظيمة المعانى وقد أشار إلى قضايا جديدة فقال

«الحمدللّه كلما وقب ۵۳۷] ليل وغسق ۵۳۸]، والحمدللّه كلما لاح ۵۳۹] نجم وخفق»[۵۴۰]

فالعبارة تشير إلى نقطتين: الاولى أنّ حمدنا وثنائنا دائمى باقى مادام الليل والنهار متعاقبين دائمين، وهكذا هو مستمر إستمرار طلوع الكواكب وغروبها، النقطة الاخرى هى أنّ ظلمة الليل وطلوع الكواكب وغروبها من النعم الإلهية الكبرى فظلمة الليل تهب الإنسان الهدوء والسكينة بعد تعب النهار وعناء العمل فيه، فطبيعة الليل والظلمة تختزن الراحة والخلود إلى النوم ومن هنا كانت الليالى الظلماء الخالية من المصابيح تعد أفضل الأوقات للنوم؛ الأمر الذى أشارت إليه الآية ۷۲ من سورة القصص «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۳۴۰

عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ» وقال «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»[۵۴۱] وقد ورد هذا المعنى فى عدة آيات قرآنية، كما دلت الأبحاث العلمية على أنّ اليقظة فى الليل والنوم فى النهار يشكل خطراً جدياً على صحة الإنسان، أمّا فائدة طلوع الكواكب وغروبها فليست بخافية على أحد وذلك لمعرفة الأوقات والاهتداء فى البحار والصحارى بواسطة هذه النجوم والكواكب «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُم النُّجومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِى ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالبَحْرِ»[۵۴۲] وجاء فى القرآن أيضاً «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ»[۵۴۳]. أمّا الروايات التى شبهت أهل البيت عليهم السلام بالنجوم فواضح من أنّهم وسيلة الهداية فى الظلمات والمتاهات وعدم الانحراف عن الصراط المستقيم، ولعل إشارة الإمام على عليه السلام إلى ظلمة الليل وطلوع النجوم وغروبها من دون سائر النعم تهدف إلى بيان حقيقة وهى أنّ خروج أهل الشام على الإمام عليه السلام يمثل حلول عصر الظلمة التى لا يمكن النجاة منها إلّابيزوغ كوكب الولاية ثم خاض الإمام عليه السلام فى نوع آخر من النعم التى تستلزم الحمد، فقال

«والحمدللّه غير مفقود الانعام، ولا مكافإ الإفضال»[۵۴۴]

فالعبارة الاولى تعنى أنّ النعم الإلهية غير قابلة للاحصاء، أمّا الثانية فهى تشير إلى عجز العباد عن مكافئة هذه النعم وذلك لأنّه أولًا عنى

عمن يكافئ نعمه، وثانياً: أنّ القدرة على شكره وحمده بحد ذاتها نعمة اخرى، لأنّ الشكر نعمة توجب المزيد، فقد ورد فى مناجاة الشاكرين للإمام على بن الحسين عليه السلام:

«فكيف لى بتحصيل الشكر؟ وشكرى إيّاك يفتقر إلى شكر! فكلما قلت لك الحمد، وجب على لذلك أن أقول لك الحمد»[۵۴۵] . ومن هنا فان أعظم شكرنا هو إذعاننا بالعجز عن الشكر. فقد ورد فى حديث عن الصادق عليه السلام أنّ اللَّه أوحى إلى موسى عليه السلام ان اشكرنى! فقال عليه السلام كيف أشكرك وشكرى نعمة تحتاج إلى شكر. فجاءه الخطاب الآن أديت شكرى.[۵۴۶]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۱

القسم الثانى: تعبئة القوى لمواجهة العدو

اشارة

«أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُوم هَذا الْمِلْطاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِى وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ مُوَطِّنِينَ أَكْنافَ دِجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى برنامج وخطة حربية فقال

«أما بعد فقد بعثت مقدمتى ۵۴۷] وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط[۵۴۸] حتى يأتيهم أمرى»

فنهر الفرات يقع غرب دجلة، فيكون دجلة شرقه، وعليه فان مقدمة جيش الكوفة تتحرك من جانب الفرات إلى الشمال باتجاه الجانب الغربى للفرات، وقد أمر الإمام عليه السلام بمواصلة هذا السير من قبل الجيش، بينما إتجه عليه السلام من الفرات إلى الشرق نحو المدائن لتعبئة أكبر عدد ممكن من الناس، ثم قال عليه السلام

«وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة[۵۴۹] إلى شرذمة[۵۵۰] منكم موطنين أكناف ۵۵۱] دجلة، فأنهضهم معكم إلى عدوكم وأجعلهم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۲

من أمداد القوة لكم».

وهكذا ورد الإمام عليه السلام شرق العراق والمدائن، وبينما كانت مقدمة جيش الإمام عليه السلام تواصل زحفها فى غرب الفرات، ولما بلغهم قدوم معاوية نحوهم بجيش عظيم، عبروا الفرات واتجهوا إلى الشرق صوب الإمام عليه السلام حذراً من محاصرتهم من قبل العدو ولم يستعدوا بعد لخوض القتال، فاستحسن ذلك منهم الإمام عليه السلام فلما اكتمل الجيش سار به الإمام عليه السلام لمواجهة العدو. جدير بالذكر أنّ مفردة «ملطاط» من مادة ملط أو لط هنا بمعنى شاطئ الفرات- نعم فقد دلهم الإمام عليه السلام المسير ليتقدموا من جانب شاطئ الفرات لأنّ الشام كانت فى جهة الشمال، والفرات ينحدر من الشمال إلى الجنوب، وهكذا لا يكون الجيش فى مشقة من حيث الماء والهواء وظلال الأشجار، ولا يضلون الطريق، إلى جانب سهولة الالتحاق بهم، وعليه فهذا المسير ينطوى على عدّة فوائد والتعبير بالنطفة عن ماء الفرات حسب ما قال السيد الرضى (ره) هو من غريب العبارات وعجيبها، فالمفردة على ضوء ما صرح به جمع من أرباب اللغة تعنى الماء الخالص، وقيل الماء الجارى، وكيفما كان فهى إشارة إلى عذوبة ماء الفرات وخلوه من الاملاح، وإن كان ظاهره قليل الكدورة.

قال السيد الرضى (ره): يعنى عليه السلام بالملطاط هاهنا السمت الذى أمرهم بلزومه، وهو شاطئ الفرات، ويقال ذلك أيضا لشاطئ البحر، وأصله ما استوى من الأرض، ويعنى بالنطفة ماء الفرات، وهو من غريب العبارات وعجيبها.

أخبار على عليه السلام فى جيشه وهو فى طريقه إلى صفين

ذكر بعض شراح نهج البلاغة فى ذيل هذه الخطبة بعض القضايا التأريخية التى نشير إليها هنا:

۱- في قصر كسرى

سار عليه‌السلام حتى انْتهى إلى المدائن وقصر كسرى وإذ رجل من أصحابه أنشد:

جرت الرياح على محل ديارهمفكأنما كانوا على ميعاد!

فقال له عليه‌السلام: ألا قلت:

«كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ* وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ* كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ* فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ»[۵۵۲]

۲- في الأنبار

مرّ عليه السلام بالأنبار (أحد المدن الغربية فى العراق) فتقدم دهاقنتها إليه فلما استقبلوه، نزلوا عن خيولهم، ثم جاءوا يشتدّون معه، وبين يديه ومعهم براذِين قد أوقفوها فى طريقه، فقال: ما هذه الدّوابّ التى معكم؟ وما أردتم بهذا الذى صنعتم؟ قالوا: أمّا هذا الذى صنعنا فهو خُلُق مِنّا نعظّم به الأمراء؛ وأمّا هذه البراذين فهدّية لك، وقد صنعنا للمسلمين طعاماً، وهيّأناً لدوابّكم عَلفاً كثيراً.

فقال عليه‌السلام: أمّا هذا الذى زعمتم أنّه فيكم خُلُق تعظّمون به الأمراء فو اللّه ما ينفع ذلك الأمراء؛ وإنّكم لتشقّون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأمّا دوابّكم هذه؛ فإنْ أحببتم أن آخذَها منكم، وأحسبها لكم من خَراجِكم أخذناها منكم. وأمّا طعامكم الذى صنعتم لنا؛ فإنا نكرهُ أن نأكلَ من أموالكم إلّابثمن.

۳- قرب الدير

علىّ عليه‌السلام فى مسيره إلى الشام؛ حتى إذا كُنا بظهر الكوفة من جانب هذا السّواد، عطش الناس احتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا علىّ عليه‌السلام حتى أتى بنا إلى صخرة ضِرْس فى الأرض؛ كأنّها رُبْضَةُ عنز؛ فأمرنا فاقتلعناها، فخرج لنا من تحتها ماء، فشرب الناس منه، وارتوَوْا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه. وسار الناس حتى إذا مضى قليلًا، قال عليه‌السلام: أمِنْكم أحدٌ يعلم مكان هذا الماء الذى شربتم منه؟ قالوا: نعم يا أميرالمؤمنين، قال: فانطِلقوا إليه، فانطلق مِنّا رجالٌ ركباناً ومشاة، فاقتصصنا الطريق إليه؛ حتى انتهينا إلى المكان الذى نرى أنّه فيه، فطلبناه، فلم نقدر على شىء، حتى إذا عِيلَ علينا انطلقنا إلى ديْرٍ قريب مِنّا، فسألناهم:

أين هذا الماء الذى عندكم؟ قالوا: ليس قُرْبَنا ماء، فقلنا: بلى إنّا شربنا منه، قالوا: أنتم شَرِبتم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۴

منه! قلنا: نعم، فقال صاحب الدَّيْر: واللّه ما بُنِى هذا الدير إلّابذلك الماء، وما استخرجه إلّانبىّ أو وصىّ نَبىّ.

قال العلامة المجلسى فما كان من الراهب إلا أن أتى الإمام عليه السلام وأعلن إسلامه ولازم الإمام عليه السلام حتى إستشهد ليلة الهرير فصلى الإمام عليه السلام عليه وأنزله القبر وقال: والله إنى لأرى موضعه فى الجنة.

۴- في الرقة

ثم سار حتى أتى الرَّقّة- وجلّ أهلها عثمانية، فَرّوا من الكوفة إلى معاوية- فأغلقوا أبوابَها دونه، وتحصنّوا، وكان أميرهم سماك بن مخرقة الأسدىّ فى طاعة معاوية، وقد كان فارق علياً عليه السلام فى نحو من مائة رجل من بنىأسد، ثم كاتب معاوية، وأقام بالرَّقّة حتى لَحِق به سبعمائة رجل.

قال نصر: فروى حَبّة أن عليّاً عليه‌السلام لما نزل على الرّقة، نزل بموضع يقال له البَلِيخ على جانب الفرات، فنزل راهب هناك من صَوْمعته، فقال لعلىّ عليه‌السلام: إنّ عندنا كِتاباً توارثناه عن آبائنا، كتبه أصحابُ عيسى بن مريم، أعِرضه عليك؟ قال: نعم، فقرأ الراهب الكتاب:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم. الـذين قضـى فيمـا قضـى، وسَـطّر فيمـا كتب: أنه بـاعثٌ فی الأـمیّین رسولًـا منهم؛ يعلّمهم الكتابَ والحكمـة، ويدلّهم على سبيل اللَّه، لا فظٌّ ولا غليظ؛ ولا صَـخّابٌ فی الأسواق، ولا يجزى بالسـيئة السـيئة، بل يعفُوا ويصـفح، أمّته الحمّادون الذين يَحمدون اللَّه على كل نَشـر، وفی كل صَـعود وهَبوط، تذِلّ ألسـنتهم بالتكبير والتهليل، والتسبيح؛ وينصـرهُ اللَّه على من ناوأه؛ فإذا توفّاه اللَّه، اختلف أُمتهُ من بعـده؛ ثم اجتمعت، فلبث ما شاءاللَّه، ثم اختلفت، فيمرّ رجل من أمته بشاطیء هـذا الفُرات، يأمر بالمعروف وينهی عن المنكر، ويقضِـی بـالحقّ ولا يركُس الحكم، الـدنيا أهون عليه من الرّماد فی يوم عصـفت به الريـح، والموت أهون عليه من شُـرب المـاء على الضـمآن. يخاف اللَّه فی السـرّ، وينصـح له فی العلانيـة، لا يخاف فی اللَّه لومـةَ لائم؛ فمن أدرك ذلك النبیّ مِنْ أهل هـذه البلاد فآمن به كان ثوابه رضوانی والجنّة، ومَنْ أدرك ذلك العبد الصالح فلينصرْه، فإنّ القتل معه شهادة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۵

ثم قال له: أنا مصاحِبُك، فلا أفارقُك حتى يصيبَنی ما أصابك. فبكى عليه السلام، ثم قال:

الحمدللَّه الذی لم أكُنْ عنده منسيًّا، الحمدللَّه الذی ذكرنی عنده فی كُتُب الأبرار.

فمضـی الراهب معه، فكان فيما ذكروا يتغدّى مع أميرالمؤمنين ويتعشّـى، حتى أصـيب يوم صفين؛ فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم قال عليه‌السلام: اطلبوه، فلما وجده صلّى عليه ودفنه. وقال: هذا مِنّا أهلَ البيت، واستغفر له مراراً.[۵۵۳]

نزول علیّ بكربلاء

فلمـا نزل بكَرْبَلاـء صـلّى بنـا، فلمـا سـلّم رفع إليه من تُربتها فشـمّها، ثم قال: واها لك يا تُرْبـة! لَيُحشَـرَنّ منك قومٌ يـدخلون الجّنـة بغير حساب. ثم قال

«هيهنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم ثم أومأ بيده إلى مكان آخر وقال: هيهنا مراق دمائهم».

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۷

الخطبة[۵۵۴] التاسعة والاربعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

وفيه جملة من صفات الربوبية والعلم الإلهی

نظرة إلى الخطبة

تـدور الخطبـة حول صـفات الربوبية والعلم الإلهی- كما ورد سابقاً- وتتضـمن إشارات عميقة المعانی إلى جوانب من صـفات الجلال والجمال وتنزيه الذات الإلهية المقدسة من مزاعم الملحدين والمشبهة التی تشبه اللَّه بالمخلوقات

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۴۹

«الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِی بَطَنَ خَفِیّاتِ الْـأَمُوُرِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلامُ الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِـيرِ فَلا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِی الْعُلُوِّ فَلا شَیْءَ أَعْلَى مِنْهُ وَقَرُبَ فِی الدُّنُوِّ فَلا شَیْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ فَلا.

اسْتِعْلاؤُهُ باعَدَهُ عَنْ شَیْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلا قُرْبُهُ ساواهُمْ فِی الْمَكانِ بِهِ. لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْها عَنْ واجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِی تَشْهَدُ لَهُ أَعْلامُ الْوُجُودِ عَلَى إِقْرارِ قَلْبِ ذِی الْجُحُودِ، تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبِيراً!»

الشرح والتفسير

المنزه عن الظن والخيال

ذكرنا سابقاً أن الخطبة واردة فى صفات الجلال والجمال، حيث أشارت إلى عدد من أسماء اللَّه الحسنى بعبارات قصيرة بعيدة المعنى، فقد استهل الخطبة بذكر خمس صفات من صفاته التى توضح كل واحدة منها الاخرى فقال

«الحمدللَّه الذى بطن [۵۵۵] خفيات الامور ودلت عليه أعلام الظهور»

وليس للعين من سبيل إلى رؤيته

«وامتنع على عين البصير»

ومن هنا

«فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من أثبته يبصره»

. وقد أورد شرّاح نهج‌البلاغة عدّة تفسيرات لقوله عليه السلام

«الذى بطن خفيات الامور»

فقال البعض: بطن هنا بمعنى علم، وقيل بطن هنا بمعنى الخفاء؛ أى اللَّه الذى خفيت به الأسرار، إلّاأنّ التفسير الذى ذكرناه أنسب وهو أن

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵۰

بطن بمعنى الخفاء ومفهوم العبارة أنّ اللَّه مخفى فى الأسرار، وبعبارة أخرى فانّ ذاته أعظم خفاءاً من الخفاء، وزبدة الكلام فان مفهوم العبارة ما أنشده الفيلسوف فى شعره:

وجوده من أظهر الاشياءوكنهه فى غاية الخفاء

أمّا العبارة

«دلت عليه أعلام الظهور»

فتعنى أنّ آياته ظاهرة جلية فى كل مكان، فى السموات والنجوم والمجرات والمنظومات وفى الأرض فى الصحارى والبحارى والجبال والأنهار وعلى جبين كافة الكائنات الحية فى أوراق الأشجار والبراعم والثمار وفى باطن الذرات والجزئيات. وبالطبع كلما تقدم العلم وكشفت الأسرار ازدادت الادلة والآيات على قدرة الذات الإلهية وعلمها المطلق. والعبارة الثالثة

«وامتنع على عين البصير»

تفيد تعذر رؤية جماله سبحانه على أحدّ العيون، وذلك لأنّ المشاهدة الحسية إنّما تختص بالجسم والجسمانيات ذات الجهة والمكان، بينما ذاته المطلقة ليست بجسم ولا جسمانية وليس لها من جهة أو مكان، بل هى مطلقة منزهة عن كل هذه العوارض والنقائص «لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»[۵۵۶]. ولما سأل موسى عليه السلام من جانب بنى‌إسرائيل ربّه «رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْك» الشهود الحسى، خوطب «لَنْ تَرانِى»[۵۵۷] ثم شاهد موسى عليه السلام قبسات من تجليات اللَّه التى دكت الجبل فصعق موسى ومن معه فلما أفاق قال «سُبْحانَك تُبْتُ إِلَيْك وَأَنَا أ وَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» والعبارة

«فلا عين من لم يره ...»

نتيجة طبيعة تشير إلى أنّ العاقل لا يسعه إنكار الذات الإلهية المقدسّة بفعل وجود هذه الأدلة والآيات، رغم تعذر المشاهدة الحسية، أما المؤمنون باللَّه فلا ينبغى لهم أن يعتقدوا بمشاهدته حتى قلبياً، وبالطبع يمكن رؤيته قلباً كما ورد عنه عليه السلام

«لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»[۵۵۸]

، غير أنّ هذه المشاهدة تتعلق بالأسماء والصفات لا مشاهدة كنه الذات، وهنا يصدح حتى أولياءاللّه فضلًا عن عامة المخلوقات

«ما عرفناک حق معرفتک»

ثم قال عليه السلام:

«سبق فى العلو فلا شىء أعلى منه وقرب فى الدنو فلا شىء أقرب منه»

ثم يخلص على عليه السلام

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵۱

إلى هذه النتيجة

«فلا استعلاؤه ۵۵۹] باعده عن شيىء من خلقه ولا قربه ساواهم فى المكان به»

لعله يتصور بأنّ هـذه الصـفات تناقض مع بعضـها فكيف يكون الشـى بعيـداً عالياً وفى نفس الوقت قريباً ملازماً؟ كيف يكون بعيداً فى القرب وقريباً فى البعد؟ نعم إذا كان المقياس هو المخلوقات التى من حولنا فهناک تناقض، غير أنّ الالتفات إلى هذه النقطة يزيل مثل هـذا التنـاقض ويرشـد إلى معرفـة صـفات اللّه، وهى أنّ وجوده سـبحانه لامتنـاهى وغنى ومطلق من جميع الجهات، وهو الوجود الـذى لايشوبه أيـة محدوديـة من حيث الزمان والمكان والعلم والقدرة، بل هو فوق الزمان والمكان فهو فى كل مكان وكل زمان وفى نفس الوقت ليس له مكان ولا زمان. ومثل هذا الوجود قريب من جميع الأشـياء وهو بعيد عنها جميعاً لأنّه لا يشـبهها، هو أظهر من كل شى، لأنّ كـل شـى متقوم بوجوده، وهو ابطن من كـل شـى لأنّه لا يشـبه المخلوقات والكائنات التى نعرفها ونألفها. وبناءا على هـذا فالمراد بـالعلو فى العبـارة المـذكورة فوقيته للوجود وعلوه عليه لا ـ علوه فى المكـان، والمراد بـالقرب قربه فى الاحاطـة الوجوديـة لا القرب فى المكـان. وهنا لابـدّ من الاذعان إلى أن فهم وإدراک هـذه الصـفات ليس سـهلًا علينا بفعل تعاملنا مع صـفات الممكنات؛ إلّاأنّه يمكن تقريبها إلى الأذهان من خلال التأمل والاسـتعانة ببعض الأمثلة وإن كانت ناقصة قاصـرة. على سبيل المثال للرد على السؤال الذى يقول كيف يكون له وجود فى كل مكان وزمان ولا يحويه مكان وزمان، يمكننا أن نسـتعين ببعض الأمثلة الناقصة من قبيل بعض المعادلات والقوانين الرياضيـة، فكلنا نعلم بأنّ (۲+ ۲/ ۴) فهى صادقـة فى كـل زمـان ومكان فى السـماء والأرض، وفى نفس الوقت ليس لها من زمان أو مكان. فقوله عليه السلام:

«فلا استعلاؤه باعده عن شى من خلقه ولا قربه ساواهم فى المكان به»

نتيجـة واضـحة لتلک الحقيقـة المـذكورة، فقـد قال بعض شـرّاح نهج‌البلاغة بعد أن إسـتعانوا بمثال ناقص إلّاأنّه مناسب، فى أنّ أمواج الضوء تنعكس على الزجاج وتنفذ إلى داخله فتضـيئها، وهى فى نفس الوقت أقرب إليها من كل شى، وهى ليست مثلها، بل هى وجود لطيف وأعلى وأرفع، ولعل هذا المعنى هو المراد بالآية «اللَّهُ نُورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ...»[۵۶۰] ثم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵۲

أشار عليه السلام إلى صفة اخرى

«لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته»

فكنـه ذاته ليس واضـح لأحـد ولا ـ حقيقـة صـفاته، لأـنّ ذاته وصـفاته لا ـ متناهيـة، فـأنى لعقـل الإنسـان المتنـاهى والمحـدود أن يحيط باللامتنـاهى واللامحـدود مع ذلـک فانّ أثاره الوجوديـة التى تجلت فى كافـة الوجودات جعلت الإنسان يلم على سبيل الإجمال بـذاته وصـفاته وإليک هـذا المثال الناقص: كلنا نعلم بوجود الروح، وانّ الزمان حقيقة واقعة، إلّاأنّ إدارک حقيقة الروح وا لزمان ليس بالامر إلهين. وكلنا نعرف الفارق بين الكائن الحى والميت، ولكن ما كنه حقيقة الحياة؟ يبدو فهم ذلک صـعباً، بعبارة أخرى لنا علم إجمالى بهذه الامور لاتفصيلى ۵۶۱] ثم قال عليه السلام

«فهو الذى تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذى الجحود[۵۶۲]»

الواقع أن جاحدى اللَّه إنّما يجحدوه لساناً بينما يقرون به قلباً «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنّى يُؤْفَكُونَ* ... وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ»[۵۶۳]. كيف يمكن إنكار وجود اللَّه وكل شى يهتف باسمه ويتقوم بوجوده. ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول

«تعالى اللَّه عما يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً»

والمشبهة على نوعين: من يشبه اللَّه بعباده فيرى له جسماً ويداً ورجلاً، والآخر من يشبه الآخرين به فيرى له شريكاً وشبيهاً فيعبده ويسجد له بدلًا من اللَّه. وقد ذهب بعض الشرّاح إلى المعنى الأول هو المراد من العبارة، فى حين ذهب البعض الآخر إلى المعنى الثانى، ويبدو المعنى الثانى أصح إستناداً لقوله

«المشبهون به»

وان كانت الطائفتان على خطأ، لأنّه لايشتمل على صفات المخلوقين بحيث تتخلل الحوادث ذاته المقدسة، ولا يمكن لمخلوق أن يشمل مكانه لأنّه لا يتحلى بأى من صفاته.

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۳۵۳

وجوده ظاهر وكنه ذاته خفى

لقد تضمنت الخطبة بعض الاشارات إلى عدّة جوانب فى مجال أسماء اللَّه وصفاته: الاولى خفاء وكنه ذات اللَّه فى نفس ظهور وجوده فى جميع عالم الوجود بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر وجوده، بينما لا يستطيع أيضاً الاحاطة بكنه ذاته المطهرة. وهذا فى الواقع أحد الآثار اللامتناهية لوجوده المطلق، حيث كلما خطونا خطوة نحو معرفة ذاته تقهقرنا خطوات عن درك كنه هذه الذات، وكلما حلقنا فى سماء معرفة صفاته إحترقت أجنحتنا وسقطنا فى عالم الجهل وعلى قول ابن أبى‌الحديد فى شعره:

فيك يا اعجوبة الكون‌غدا الفكر كليلا

أنت حيرت ذوى اللب‌وبلبلت العقولا

كلما قدم فكرى فيك‌شبراً فر ميلا

ناكصاً يخبط فى‌عمياء لا يهدى سبيلا[۵۶۴]

وبالمقابل فانّ آثاره قد تجلت فى كافة دقائق عالم الوجود، بحيث لا يسع من يلمس هذه الآثار أينما حلّ إلّاأنّ يزمزم مع نفسه بدعاء الإمام الحسين عليه السلام فى عرفة

«متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك، أو يكون لغيرك من الوجود ما ليس لك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل لها من حبك نصيباً».

والثانية الحديث عن قرب اللَّه وبعده إلى جانب قربه وبعده منا، وأنّه أبعد ما يكون عنا فى غاية قربه، وأقرب ما يكون فى غاية بعده، وهذا الأمر هو الآخر من آثار ذاته المطلقه اللامتناهية، وذلك لأن مثل هذه الذات فى كل مكان ولا يخلو منها مكان، وإلّا كانت محدودة.

والثالثة نفى صفات المخلوقات والشبه عن ذاته المقدسة، وهذا أيضاً من آثار الذات اللامتناهية، لأنّ جميع المخلوقات محدودة ناقصة، وجودها متناهى وصفاتها مشوبة بالنقص والعدم، فاذا شبهناه بأحد مخلوقاته وقلنا بالشريك والشبيه وتصورنا له صفات المخلوقين نكون قد أخرجناه من حالة اللاتناهى وكونه واجب الوجود وجعلناه فى عداد الممكنات المحدودة وسنتعرض إلى هذه الامور فى الخطب القادمة إن شاء اللَّه.

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۳۵۵

الخطبة[۵۶۵] الخمسون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

وفيه بيان لما يخرب العالم به من الفتن وبيان هذه الفتن

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى أهم عوامل فساد المجتمعات البشرية ولاسيما الانحراف الذى عصف بالمجتمع الإسلامى بعد رسولاللّه صلى الله عليه و آله، ثم بين عليه السلام كيف تخلط الشياطين الحق بالباطل وتزينه للإنسان. فلو طرح الحق كما هو لاغلقت طرق نفوذ الشياطين، كما لو عرض الباطل على هيئته لما قبله أحد، ومن هنا فان الشياطين تخلط الحق بالباطل لاغواء الناس وإضلالهم. نعم فهؤلاء يدسّون السم المهلك فى كل طعام لذيذ ليحثوا المغتّلين على تناوله. فهم يخفون الباطل فى الحق دائما ليضلوا الناس عن طريق ذلك.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵۷

«إِنَّما بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْواءٌ تُتَّبَعُ وَأَحْكامٌ تُبْتَدَعُ، يُخالَفُ فِيها كِتابُ اللَّهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْها رِجالٌ رِجالًا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ، فَلَوْ أَنَّ الْباطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْباطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعانِدِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذا ضِغْثٌ فَيُمْزَجانِ فَهُنالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطانُ عَلَى أَوْلِيائِهِ، وَيَنْجُو «الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنى .

الشرح والتفسير

هناك كلام بين المفسرين والشرّاح بشأن زمان الخطبة والظروف التى رافقتها، فيرى البعض أنّه خطبها بعد ستة أيّام من خلافته، بينما يرى البعض الآخر أنّه خطبها بعد التحكيم، وبالطبع فانّ الخطبة تنسجم والاحتمالين؛ أى أن تكون الخطبة فى بداية الخلافة أو بعد التحكيم. فقد إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى سبب ظهور الفتن فى المجتمعات الإسلامية التى تشمل ما بعد وفاة رسولاللّه صلى الله عليه و آله وبعض الحوادث كالجمل وصفين والنهروان فقال:

«إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع ۵۶۶] يخالف فيها كتاب اللّه».

نعم أساس الفتن أمرين: اتباع أهواء النفس والاحكام الموضوعة المخالفة لكتاب اللّه والسنة، فمما لا شك فيه أنّ الفتن ستقبر لو كانت التعاليم الإسلامية والاحكام القرآنية هى السائدة وحفظت هذه القوانين والأحكام ومنعت البدع وابتعد عن الأهواء فى إجراء الأحكام الشرعية؛ وذلك لأنّ هذه القوانين تهدف بسط العدل والقسط وتضمن حقوق الناس وتعين وظائفهم. فالفتنة تفرزها

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۵۸

الأهواء وتحريف القوانين لصالح الأطماح الشخصية وغياب العدل وتضييع الوظائف والاقبال على البدع. فاصحاب الفتن يلجأون تارة إلى التحريف والتفسير الخاطئ لاشباع أهوائهم ورغباتهم، وإذا تطلب الأمر وضع بعض الاحكام الجديدة، أقبلوا على البدع، صحيح أنّ تلك البدع تفرزها الأهواء، إلّاأنّ الأهواء والرغبات الشيطانية قد تتبلور أحياناً كتفسير وإجراء للأحكام الشريعة واخرى كبدع واحكام موضوعة، ومن هنا فصلًا عن بعضها فى كلام الإمام عليه السلام. على سبيل المثال يمكن الاشارة هنا إلى فتنة بنىأمية التى تعد من أكبر الفتن التى شهدها الإسلام فقد إستولى معاوية بواسطة المكر والخداع على الحكومة ثم ابتدع توريثها فى ولده، وادعى أنّ زياد ابن أبى سفيان وأخذ البيعة ليزيد فى حياته، وسن سب أميرَالمؤمنين على عليه السلام من على المنابر ثم اتهمه بقتل عثمان وطالب

بدمه.[۵۶۷] ثم قال عليه السلام

«ويتولى ۵۶۸] عليها رجال رجالًا على غير دين اللّٰه»

ثم أشار فى العبارة اللاحقة إلى وسائل هذا العمل، التى استغلت من قبل الجناة والطواغيت طيلة التأريخ حتى أصبحت سنة، وهى أنّهم يمزجون الحق بالباطل من أجل تحقيق أطماعهم وأغراضهم

«فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين ۵۶۹]، ولو أنّ الحق خلص من لبس الباطل إنقطعت عنه السن المعاندين»

فما أروع هذه العبارة، لو خلص الباطل من مزاج الحق لما كان هناك من يتبعه، ولو خلص الحق من لبس الباطل لخرست ألسن المتخرصين، ولذلك فمن البديهى ألا يحل الحق الخالص مشاكل عبدة الأهواء، لأنّ منافعهم كامنة فى الباطل، ولا الباطل الخالص يحقق لهم أغراضهم، لأنّ الناس لا يقفوف إلى جانبهم، وهنا يتجهون صوب خلط الحق بالباطل؛ الأمر الذى يجسد كافة السياسات المخربة فى العالم. ثم قال الإمام عليه السلام بهذا الشأن

«ولكن يؤخذ من هذا ضغث ۵۷۰] و من هذا ضغث فيمز جان فهنالك يستولى الشيطان على أوليائه، وينجو «الَّذِينَ سَبَقَتْ

لَهُمْ مِنّا الحُسْنى . فالعبارة تفيد أنّ خلط الحق والباطل لا يمنع من معرفة الباطل وان تطلب ذلك قدرا من البحث والتحرى والرجوع إلى الآخرين، ومن هنا قال الإمام عليه السلام بأنّ خلط الحق بالباطل لايؤثر فى أولياءاللّٰه، بينما يؤثر على أولياء الشيطان فيقودهم إلى الغواية والظلال.

فالواقع هو أنّ مزج الحق بالباطل بمثابة الضوء الأخضر لعبدة الأهواء وذريعة لاتباع الشيطان لخداع أنفسهم فيستدلوا على الآخرين بأنا سلكنا هذا لطريق لأنا إعتمدنا الدليل الفلانى (الذى يمثل الحق الممزوج بالباطل). نعم يمكن أن يقع بعض المستضعفين الفكريين والسذج جهلًا فى حبائل الشيطان، والحال لو كان لهم زعيم ومرشد لما شهدوا مثل هذا المصير وعليه فالامة إزاء مزج الحق بالبطل على ثلاثة طوائف:

الطائفة الاولى «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسْنى [۵۷۱] وبعبارة اخرى المخلصون من اتباع الحق ينجون بلطف اللّٰه من هذه الفتنة.

الطائفة الثانية عبدة الأهواء أتباع الحجج والذرائع الذين يقتحمون الباطل بذريعة الحق فيتجهون عن شبه علم إلى حبائل الشيطان.

الطائفة الثالثة السذج من الأفراد الذين يتعذر عليهم تمييز الحق من الباطل فى ظل هذا المزج الخطير فيسقطون جهلًا فى مصائد الشيطان، إلّاأن يركنوا إلى زعيم عالم. وقد ورد مثل هذا المعنى فى الخطبة ۳۸ حين عرض الإمام عليه السلام للشبهة وسبيل النجاة منها فقال عليه السلام

«وإنّما سميت الشبهة شبهة لأنّها تشبه الحق، فأما أولياء اللّٰه فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى وأما أعداء اللّٰه فدعاؤهم فيها الضلال ...».

تأمّلات

۱- أساس الفتن

إنّ التأريخ الإسلامى ولا سيما إبان القرن الأول والثانى ملى بالفتن الغريبة والأليمة التى كادت تقضى على جهود النبى صلى الله عليه و آله وصحبه الميامين، ولو لا تلك الفتن التى عصفت بالإسلام لما

کنـا نعیش مثـل هـذا العالم، والأنکی من ذلک الفتن التی وقعت بعـد خمس وعشـرین سـنهٔ من رحیل النبی صـلی الله علیه و آله حین وصـلت الخلافهٔ عام ۳۵ ه فاسـتهدفت تلک الفتن إعادهٔ الإسـلام إلی الجاهلیـهٔ؛ أمّا السـنوات الأخیرهٔ لخلافهٔ عثمان فقد شـهدت غیاب جمیع القیم والمثل الإسلامیهٔ، فی حین تجددت سنن الجاهلیهٔ وأعرافها المقیتهٔ وانبرت طلائع الشرک والنفاق للتسلم مواقعاً حساسهٔ فی الحکومـهٔ؛ الأمر الـذی کان یعقد وظیفهٔ الإمام علیه السـلام. صـحیح أنّ الإمام علیه السـلام تمکن بجهاده المریر أن یحیی القیم والمثل الإسـلامیهٔ، ولکن المؤسف أنّ الفتن لم تسـکن حتی أدت فی خاتمـهٔ المطـاف إلی قتـل الإمـام علیه السـلام فی محرابه من قبـل تلک الطغمهٔ الضالهٔ. ثم إتسع حجم هذه الفتن علی عهد معاویهٔ ویزید وسائر الشـجرهٔ الأمویهٔ الخبیثهٔ، فقد سـفکت الدماء، واستفلحت البدع، وسادت الأهواء، لتبلغ ذروتها علی عهد بنی العباس حتی مثل الإسلام وجفت عروقه.

فلو نظرنـا إلی هـذه الفتن لوقفنا علی عمق خطبـهٔ الإمام علیه السـلام التی حصـرت أساس الفتن فی أمرین إتباع الهوی والبـدع فی دین اللَّه؛ الأمران الـذان یشاهـدان فی کل مکان، فقد تمسـکت طائفهٔ من أصـحاب الفتن بالأمر الأول بینما لاذت طائفهٔ اخری بالأمر الثانی. ولا نری البحث یسع الخوض فی هذه التفاصیل ونوکلها إلی مکان آخر.

۲– السیاسات الشیطانیهٔ

من عجائب الـدهر أنّ مبادئ السـیاسهٔ الاسـتبدادیهٔ تقریباً متکافئـهٔ طیلـهٔ التأریـخ. فقـد إعتمد فرعون قبل ألف سـنهٔ– علی ضوء المنطق القرآنی– سـیاسهٔ فرق تسد «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِی الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِیَعاً»[۵۷۲] وما زال هـذا المبدأ باق علی قوته فی کافهٔ نقاط العالم الاسـتکباری، فالحکومات تلجأ إلی أقذر الوسائل من أجل تفرقهٔ الصـفوف. ولما کانت السـیاسهٔ الشیطانیهٔ آخذهٔ فی التعقید فی عصرنا الراهن أکثر من سائر العصور، فقد تعقد تبعاً لذلک مزج الحق بالباطل، حیث یمزج بعض الساسهٔ الحق بالباطل بالشـکل الذی یصـعب تمییزه علی الناس، وأدنی ذلک خداع الرأی العام ببعض العناوین کحقوق الإنسان والرفق

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۳۶۱

بالحیوان ویوم العامل وأطباء بلا حـدود ومنظمـهٔ العفو الدولیهٔ وتأسـیس المراکز الخیریهٔ وإعانهٔ المحرومین ومنح حق اللجوء السیاسـی لعـدد من النـازحین، فهم یتحـدثون عنهـا بالشـکل الـذی قـد یسیل له لعـاب حتی بعض الیقظین والواعین. وناهیـک عن کـل ما سـبق فالحکومـات الاسـتکباریهٔ تتشـدق بالدیمقراطیـهٔ وضـرورهٔ الرجـوع إلی آراء الشـعب فـاذا تمّ ذلـک وجرت الامـور خلافاً لمصـالحها اللامشـروعهٔ عمـدت إلی الانقلاب أو أثارهٔ الفتن؛ الأمر الـذی لمسـناه بوضوح فی التجربـهٔ الجزائریـهٔ، فابقوا علی تلک الحکومـهٔ التی فشـلت فی تلک التجربهٔ لأنّها تضـمن مصالحها. بینما تغض النظر عن الحکومات التی تعیش عقلیهٔ القرون الوسـطی وتمد لها ید العون والمساعدهٔ لأنها تحفظ مصالحها.

نعم هذه هی حقیقهٔ عالم السـیاسهٔ والتی یتضح منها عمق کلام الإمام علیه السـلام فی هذه الخطبهٔ فی أنّ أصـحاب الفتن إنّما یمزجون الحق بالباطل لخداع عوام الناس.

ج ج

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۳۶۳

الخطبهٔ[۵۷۳] الحادیهٔ و الخمسون

اشارهٔ

ومن خطبهٔ له علیه السلام

لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفين ومنعوهم الماء.

نظرة إلى الخطبة

روى إبن أبى الحديد فى إطار شرحه لهذه الخطبة أنّ نصر بن مزاحم قال: كان أبو الأعور السلمى على مقدمة جيش معاوية، وكان قد ناوش مقدمة جيش على عليه السلام وعليها الأشتر النخعى مناوشة ليست بالعظيمة، فانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً، فسبق إلى الماء فغلب عليه فى الموضع المعروف بقناصرين- موضع فى الشام- إلى جانب صفين، فحال جيشه بين ماء الفرات وأهل العراق. فلما بلغ أمير المؤمنين على عليه السلام الخبر دعا صعصعة بن صوحان فقال: إئت معاوية وقل له: إنا سرنا إليك مسيرنا هذا وأنا كره لقتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنّك قدمت خيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالحرب ونحن ممن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك؛ فحل بين الماء والناس حتى ننظر فيما بيننا وبينكم؛ وفيما قدمنا له وقدمتم له؛ وإن كان أحب إليك أن ندع ما جئنا له، وندع الناس يقتتلون حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا. فمضى صعصعة بالرسالة إلى معاوية، فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فأشار عليه بعض أصحابه بمنعهم الماء، غير أنّ عمروبن العاص أشار عليه قائلًا: خل بين القوم وبين

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶۴

الماء فإنّهم لن يعطشوا وأنت ريان. بينما كان معاوية يرجح الرأى القائل بمنع جيش الإمام على عليه السلام من الماء. فمكث أصحاب الإمام عليه السلام بغير ماء فاغتم عليه السلام فألقى هذه الخطبة التى تفيض عذوبة وفصاحة وبلاغة، شاحذاً همم أصحابه فكشفوا أصحاب معاوية عن الماء.

جدير بالذكر أنّ القسم الأول من هذه الخطبة يشير إلى هذه الحقيقة وهى أنّ الإنسان إذا لم يقدم بكل شجاعة لأخذ حقه لم يكن أمامه سوى الذل والاستسلام للظلم والجور. أمّا القسم الثانى من الخطبة فيصور خداع معاوية ومكره فى تأليب الجهال وزجهم فى المعركة بما يجعلهم يستميتون من أجل الباطل!!

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶۵

«قَدِ اسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتالَ فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّماءِ تَرْوَوْا مِنَ الْماءِ فالْمَوْتُ فِى حَياتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَياةُ فِى مَوْتِكُمْ قاهِرِينَ. أَلا وَإِنَّ مُعاوِيَةَ قادَ لُمَةً مِنَ الْغُواةِ وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْراضَ الْمَنِيَّةِ».

الشرح والتفسير

أقبروا هذه الفتنة الخبيثة

أشرنا سابقاً إلى أنّ الإمام على عليه السلام ألقى هذه الخطبة فى ظل تلك الظروف العصيبة التى ألمت بصحبه. وقد إختار الإمام- الذى يمثل مصدر البلاغة والفصاحة- هذه العبارات الحماسية من أجل تحقيق الهدف المنشود والذى جعل أصحابه يهبون مسرعين لطرد عتاة الشام ومردتها عن شريعة الفرات.

نعم ما زالت هذه العبارات- ورغم تقادم الزمان عليها- تقرع أسماع الجميع وتلهمهم الصمود والتصدى للأعداد إذا ما شكلوا خطراً على عزتهم وشرفهم. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالقول:

«قد استطعموكم القتال»

. وهى كلمة مجازية تعنى: طلبوا القتال منكم، وهى تستعمل حيث يطلب أحدهم الطعام من آخر، وكأنّ الحرب والقتال طعام يطلبونه من أصحاب الإمام عليه السلام. وما أشبه هذا الكلام بما تتناقله ألسنة عوام الناس فى حياتهم اليومية من قبيل تعبيرهم «هذا الفرد يحكه

جلـده» فی إشارهٔ واضـحهٔ إلی أنّه یأتی بالأفعال التی سـتؤدی إلی ضـربه. والحق أنّ هـذا أبلغ تعبیر أورده الإمام علیه السـلام بشأن منع أهل الشام للماء عن أصحابه علیه السلام. ثم یواصل الإمام علیه السلام خطبته بأن لیس أمامکم سوی سبیلین لا ثالث لهما تجاه

نفحات الولایهٔ، ج ۲، ص: ۳۶۶

خسهٔ هذا العمل الذی ارتکبه أهل الشام؛ فإمّا السلهٔ وإمّا الذلهٔ

«فأقروا علی مذلهٔ وتأخیر محلهٔ[۵۷۴] أو رووا[۵۷۵] السیوف من الدماء ترووا من الماء».

أجل لم یکن لهم من سبیل ثالث، فلو وهنوا أمام العدو وغلب علیهم العطش بحیث أمات رهطاً من جندهم لکان ذلک وصمهٔ عار فی جبینهم ولفقـدوا مکانتهم ومنزلتهم لـدی العـدو والصـدیق، إلّاأنّهم حین نهضوا بالأمر وحملوا علی العـدو قد حظوا بمکانتهم ومنزلتهم لـدی العـدو والصدیق، کما کشـفوا عن مروءتهم وعظمهٔ خلقهم حین لبوا طلب مولاهم بالابقاء علی شـریعهٔ الماء مفتوحهٔ بوجه جیش الشام؛ الأمر الـذی جعل جیش معاویـهٔ یشـعر بخسـهٔ عمله، وهـذا ما أدی بدوره إلی ارتفاع معنویات أصـحاب الإمام علی علیه السـلام وضعف روحیهٔ جیش الشام فی معرکهٔ صفین ولا سیما فی أوائل تلک المعرکهٔ حین شهدت هذه الواقعهٔ.

ثم یشیر الإمام علیه السلام إلی مفهوم کلی ودائمی علی أنّه السر فی انتصار وعزهٔ ورفعهٔ کل امّهٔ، فیخاطب جنده قائلًا:

«فالموت فی حیاتکم مقهورین والحیاهٔ فی موتکم قاهرین».

نعم لیس هناک من قیمـهٔ لهـذه الحیاهٔ المادیهٔ فی قاموس الأفراد الصالحین، کما لا یعتبر الموت مناهضاً لهذه القیمهٔ، بل القیمهٔ فی نظر الأحرار إنّما تکمن فی الحیاهٔ التی تسودها العزهٔ والکرامـهٔ، ولذلک تراهم یؤثرون الموت مع العزهٔ علی الحیاهٔ مع الذلهٔ، وهذا هو السر فی انتصار الفئهٔ الإسـلامیهٔ القلیلهٔ فی عصر النبی صلی الله علیه و آله- وما تلاه من عصور- علی الفئهٔ الضالهٔ الکثیرهٔ العدد والعدهٔ. أجل فالعزهٔ فی المجتمع الإسـلامی مقدمـهٔ علی کل ما سواها؛ ولا یتوانی مثل هـذا المجتمع فی التضـحیهٔ بالغالی والنفیس من أجل تحققها. وهذا المعنی قد تجلی بأروع صورهٔ فی کلمات شـبل علی علیه السـلام الإمام الحسـین علیه السلام فی حادثهٔ کربلاء الدمویهٔ، فقد کان علیه السلام لا ینفک ینادی:

«لا واللّه لا أُعطیکم بیدی إعطاء الذلیل ولا أُقر لکم إقرار العبید»[۵۷۶]

. ثم رد علی الحر بن یزید الریاحی- بعد أن جعجع بالحسـین علیه السـلام فی طریقه إلی کربلاء وسـقاهم الحسـین علیه السلام بعظمته المعروفهٔ الماء

نفحات الولایهٔ، ج ۲، ص: ۳۶۷

ورشف خیولهم- حین نصـحه بعـدم مقاتلـهٔ یزید حفظاً لنفسه قائلًا: أفبالموت تخوفنی. ثم تمثل علیه السـلام بالشـعر الذی أنشده شاعر الأوس حین حذره ابن عمه من نصرهٔ النبی صلی الله علیه و آله فقال:

سأمضی فما بالموت عار علی الفتیاذا مانوی حقاً وجاهد مسلماً

وواسی الرجال الصالحین بنفسهوفارق مثبوراً وباعد مجرماً

فان عشت لم أندم وان مت لم ألمکفی بک ذلًا أن تعیش وترغما[۵۷۷]

ولا غرو فهذا هو المعنی الذی أکده القرآن الکریم «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلّا إِحْدی الحُسْنَیَیْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِکُمْ أَنْ یُصِیبَکُمُ اللّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَیْدِینا فَتَرَبَّصُوا إِنّا مَعَکُمْ مُتَرَبِّصُونَ»[۵۷۸].

ثم یشـیر أمیر المؤمنین علیه السلام فی خطبته إلی مکر معاویهٔ وسذاجهٔ أهل الشام. الذین انطلقت علیه ألاعیب معاویهٔ وحیله فقال علیه السلام:

«ألا وإن معاویهٔ قاد لمهٔ من الغواهٔ وعمس علیهم الخبر، حتی جعلوا نحورهم أغراض المنیهٔ»[۵۷۹].

فالإمام علیه السـلام یصور فی هـذه العبارات حکومـهٔ معاویهٔ التی تسـتند إلی الحیلهٔ والمکر والخداع واسـتغفال السذج من الناس، إلی

جانب تصويره إلى أهل الشام الـذين بلغوا حـداً من الضـلال والغواية ما جعلهم يضـحون بأنفسـهم باطلًا من أجل تحقيق مآرب معاوية وأهدافه المشؤومة.

ولعل العبارة الوارة فى الخطبة تمثل إجابة على السؤال الذى قد يتبادر إلى أذهان أصـحاب الإمام عليه السـلام عن علة دفاع أهل الشام عن مطامع معاويـة إلى حـد الاسـتماتة. فالإمام عليه السـلام يكشف النقاب عن هـذه الحقيقـة وهى أن مكر معاوية فى تزوير الواقع من جـانب وجهل أهل الشام وغفلتهم من جانب آخر قـد جعلتهم يظنون بأنّهم يقاتلون فى سبيل اللَّه ونيل الشـهادة. نعم لقـد كان للـدعاية الواسعة والأساليب النفسـية التى إعتمـدها معاويـة وعمرو بن العاص بالغ الأثر فى صـفوف أهل الشام إلى درجة أنّ البعض منهم أيقن بأنّ عثمان قد قتل مظلوماً وإن قاتله هو الإمام على عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶۸

وقـد نهض معاويـة للطلب بـدمه إلى جانب الدفاع عن القرآن والإسـلام وخلافة رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، وعليه فليس القتل فى هذا السبيل سوى الجنّة والشهادة التى يتعطش إليها كل مسلم غيور!

طبعاً حبل الكذب والخداع مهما طال قصـير ولا يمكن للشـمس أن تحجبها الغربان وسـرعان ما تتضح الحقائق، غير أنّ ذلك لا يكون إلّابعد انجلاء الغبرة وإزهاق الأرواح ولات حين مناص.

تأمّلات

۱- ضرورة العيش فى ظل العزة والكرامة

تتميز المدرسـة الإسـلامية عـن سـائر المـدارس والمـذاهب بمبادئهـا وركائزهـا الحيويـة الأصـيلة، ومنهـا المبـدأ الـذى ورد فى الخطبة المذكورة والذى يكمن فى ترجيح الموت الشريف على الحياة الوضيعة، وبعبارة اخرى ففى الوقت الذى تحذر فيه المدرسة الإسلامية عن ممارسة الظلم والجور فانها تؤكد على عدم الركون إلى الظلمة والاستسلام للطواغيت، وقد تجسد هذا المعنى فى رجالات الإسلام الذين استحقوا بحق لقب «أُباة الضيم»[۵۸۰]. والواقع أن القرآن هو الذى أكد هذا المبدأ «وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ»[۵۸۱].

وكذلك تظافرت روايات أهل البيت عليهم السـلام بهذا الأمر، فقد قال الإمام الصادق عليه السـلام: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى فوض إلى المؤمن كل شيء إلا إذلال نفسه»[۵۸۲]. وقال الإمام الحسين عليه السلام:

«موت فى عزّ خير من حياة فى ذلّ»[۵۸۳]

، كما قال عليه السلام:

«ألا وإن الـدعى ابن الدعى قد تركنى بين السلة والذلة وهيهات له ذلك، هيهات منّى الذلة أبى اللَّه ذلك ورسوله والمؤمنون وجدود طهرت وحجور طابت أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[۵۸۴].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۶۹

وأورد ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة:

«سـيد أهل الآباء الذى علّم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنية أبو عبداللَّه الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام عرض عليه الأمان وأصحابه فأنف من الذُل».

ثم تطرق إلى كلماته الحماسية فى يوم عاشوراء

«ألا وان الدعى ابن الدعى ...»

وأنّها على غرار ما أورده أمير المؤمنين على عليه السلام فى خطبته المعروفة- ۳۴-

«إنّ امرء يمكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه، ويفرى جلده، ويهشتم عظمه، لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه صدره، فأما أنا فدون أن أعطى ذلک ضرب بالمشرفية ...»

قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحک! أقتلتم ذرية رسول اللَّه صلى الله عليه و آله؟! فقال: عضضت بالجندل؛ إنّک لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عصابة أيديها فى مقابض سيوفها کالأسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالًا، وتلقى أنفسها على الموت؛ لا ـ تقبل الأمان، ولا ـ ترغب فى المال، ولا ـ يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنية، أو الاستيلاء على الملک؛ فلو کففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسکر بحذافيرها؛ فما کنّا فاعلين لا أم لک ۵۸۵]!

۲– غسل أدمغة المغفلين

النقطة المهمّة الاخرى التى تضمنتها خطبة أمير المؤمنين عليه السلام، أنّ أئمة الباطل قد ينمقون کلامهم بالمکر والخداع بما يجعلهم ينفذون إلى أعماق أفکار السذج من الناس، وکأنّهم يسوقونهم إلى الشهادة، حيث يقبلون على القتال بکل شدة وصرامة، فى حين لا يزيدهم ذلک القتال سوى الطر من الرحمة والتغلغل فى الدرک الأسفل من النار، وهذه طامة کبرى. ولم يکن معاوية يدعا من اولئک الطواغيت الذين ساروا على هذا النهج فى غسل أدمغة أتباعهم وسوقهم للدفاع عن أهدافهم ومآربهم المشؤومة، فقد سبقه وتلاه الکثير من الظلمة الذين اعتمدوا هذا الاسلوب. فعمر بن سعد قائد عسکر يزيد فى کربلاء حين دفع بأهل الکوفة للهجوم على الإمام الحسين عليه السلام نادى بأعلى صوته:

«يا خيل اللَّه ارکبى، وبالجنّة ابشرى!»[۵۸۶].

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۰

کما کانت أجهزة الدعاية الفرعونية تصور موسى وهارون عليهما السلام ممن يسعى للسيطرة على مصر وإشاعة الفساد فيها، فى حين تصف فرعون بالمدافع عن هذه الأرض وعزة واستقلال أهلها، فيخاطب الامّة قائلًا:

«إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاکُمْ مِنْ أَرْضِکُمْ بِسِحْرِهِما»[۵۸۷]

. ومازال هذا هو المنطق الغاشم الذى يمارسه الظلمة على مر العصور والدهور.

۳– المروءة والشهامة

قال نصر– فى کتاب صفين– إنّ عمرو بن العاص قال لمعاوية لما ملک أهل العراق: ما ظنک يا معاوية بالقوم إن منعوک اليوم الماء کما منعتهم أمس؟ أتراک تضاربهم عليه کما ضاربوک عليه؟ ما أغنى عنک أن تکشف لهم السوءة. ويبدو أن عمرو کان بصدد تقريع معاوية ولومه على عدم قبول إقتراح ابن العاص بعدم منع أهل العراق من الماء. فقال معاوية: دع عنک ما مضى، فما ظنک بعلى؟ قال: ظنى أنه لا ـ يستحل منک ما استحللت منه، وأن الذى جاء له غير الماء. فهو يعلم بخلق على عليه السلام وليس لاغلاق شريعة الفرات من انسجام وذلک الخلق.[۵۸۸]

وهذا هو الخلق الذى ورثه ابنه الحسين عليه السلام الذى سقى الحر بن يزيد الرياحى وجنده الماء فى تلک الصحراء القافرة بينما کان خلق أعدائه أن ذبحوه عطشاناً إلى جانب شط الفرات، وليتهم اکتفوا بذلک فقد منعوا الماء حتى عن رضيعه.

ملکنا فکان العفو مناسجيةفلما ملکتم سال بالدم أبطح

وحسبکم هذا التفاوت بيناوکل إناء بالذى فيه ينضح

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۱

الخطبهٔ[۵۸۹] الثانیهٔ و الخمسون

اشارهٔ

ومن خطبهٔ له علیه السلام

وهی فی التزهید فی الدنیا وثواب اللّه للزاهد، ونعم اللّه علی الخلق

نظرهٔ إلی الخطبهٔ

تشتمل الخطبهٔ فی الواقع علی ثلاثهٔ أقسام: القسم الأول فی الزهد وعدم التعلق بالدینا وأنّ نعم الدنیا إلی زوال، وعلی المؤمنین أنّ یستعدوا لسفر الآخرهٔ من خلال العمل الصالح، القسم الثانی ثواب الزهاد والأعمال الصالحهٔ، والقسم الثالث الاقرار بعجز العباد عن إداء حق شکر المنعم، ولا سیما أعظم هذه النعم الإیمان.

ج ج

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۳۷۳

القسم الأول: الدنیا الغرور

«أَلا وَإِنَّ الدُّنْیا قَدْ تَصَرَّمَتْ، وَآذَنَتْ بِانْقِضاءٍ، وَتَنَکَّرَ مَعْرُوفُها وَأَدْبَرَتْ حَذّاءَ، فَهِیَ تَحْفِزُ بِالْفَناءِ سُکّانَها وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِیرانَها وَقَدْ أَمَرَّ فِیها ما کانَ حُلْواً، وَکَدِرَ مِنْها ما کانَ صَفْواً، فَلَمْ یَبْقَ مِنْها إِلّا سَمَلَهٌ کَسَمَلَهِ الْإِداوَهِ أَوْ جُرْعَهٌ کَجُرْعَهِ الْمَقْلَهِ، لَوْ تَمَزَّزَها الصَّدْیانُ لَمْ یَنْقَعْ، فَأَزْمِعُوا عِبادَ اللّهِ الرَّحِیلَ عَنْ هَذِهِ الدّارِ الْمَقْدُورِ عَلَی أَهْلِها الزَّوالُ، وَلایَغْلِبَنَّکُمْ فِیها الْأَمَلُ، وَلا یَطُولَنَّ عَلَیْکُمْ فِیها الْأَمَدُ».

الشرح والتفسیر

لقد تواترت خطبه علیه السلام فی نهج‌البلاغهٔ التی توصی بالزهد فی الدنیا وعدم الاغترار بها والتزود منها إلی الدار الآخرهٔ، إلی جانب التحذیر من مخاطرها وأنّها متقلبهٔ سریعهٔ الزوال،

رغم أن الإنسان یطمح بالحیاهٔ مادامه فی الدنیا ولابد أن یعیش بعزهٔ ورفعهٔ ویصرّف شؤون حیاته المادیهٔ دون التبعیهٔ للآخرین وأنّ الإنسان لابدّ أن یتأهب فیها إلی السفر الشاق الذی ینتظره، ومن هنا ورد التأکید فی هذا الخطبهٔ علی الزهد فی عشر عبارات رائعهٔ فی الدقهٔ والمعنی، فقال فی العبارهٔ الاولی

«ألا وإن الدنیا قد تصرمت،[۵۹۰] وآذنت ۵۹۱] بانقضاء»

فالعبارهٔ قد تکون إشارهٔ إلی عمر الدنیا الایل للانقطاع والانتهاء، ومن هنا یسمی زماننا آخرالزمان، أو إشارهٔ إلی الحیاهٔ الدنیا لکل فرد من الأفراد فی کل عصر وزمان فی أنّه قصیر سریع الزوال، والمعنی الاخیر أنسب. فمفهوم العبارهٔ هو أنّ عمر الإنسان من القصر فی هذه الحیاهٔ الدنیا وکأنّه یخاطب بالاستعداد للرحیل منذ ولادته. فقوله علیه السلام:

«ألا وإن الدنیا قد تصرمت»

یتناول باطن الدنیا، بینما تناول قوله علیه السلام:

«وآذنت بانقضاء»

ظاهرها، وبعبارهٔ أخری فانّ الدنیا فانیهٔ ذاتا،

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۳۷۴

کما أنّ مختلف ملامحها فی الحیاهٔ الإنسانیهٔ هی الاخری قد أخبرت عن هذا الفناء، وبالتالی فلا ینبغی للإنسان أن یغتر بها ویعیش

الخسران.

وهى كما صورها الشاعر:

هى الدنيا تقول بمل فيهاحذار حذار من بطشى وفتكى

فلا يغرنكم حسن إبتسامىفقولى مضحك والفعل مبك

ثم قال عليه السلام:

«وتنكر معروفها وأدبرت حذاء»[۵۹۲]

كيف لا وغضاضة الشباب وطراوة الفتوة ونظارة الوجه آيلة إلى الكهولة والعجز والشحوب، ثم وصف الدنيا عليه السلام بقوله:

«فهى تحفز[۵۹۳] بالفناء سكانها وتحدوا بالموت جيرانها»

فالعبارة تفيد حركة الإنسان نحو أجله ومصيره المحتوم شاء ذلك أم أبى. والحدى الصوت الذى يردد لتعجيل حركة الناقة، فما أروع هذا التعبير الذى يفيد توفر جميع العوامل التى تدعو الإنسان لحث الخطى والسرعة فى الحركة إلى الزوال والفناء. أمّا التعبير بالجيران بعد السكان فكأنّه يفيد أنّ محل سكن الإنسان ليس فى هذا العالم، فهو جاره وليس بصاحبه، أى أنّه مفارقه لامحالة! ثم قال عليه السلام:

«وقد أمر[۵۹۴] منها ما كان حلوا وكدر منها ما كان صفوا».

فّما أسرع نهاية مرحلة الطفولة والشباب الحلوة العذبة لتستبدل بمرارة الشيخوخة والكهولة فيعد الاستقرار إضطراباً والحصة سقماً والراحة تعباً، وقيل فى تفسير هذه العبارة إنّها إشارة إلى اختلاف ظاهر الدنيا وباطنها، فظاهرها حلو وباطنها مرّ، ظاهرها عذب وباطنها علقم، غير أن التمعن فى العبارات السابقة يفيد أنّ التفسير الأول أنسب. ثم يختتم عليه السلام حديثه عن الدنيا بالقول

«فلم يبق منها الاسملة كسملة[۵۹۵] الاداوة[۵۹۶] أو جرعة كجرعة المقلة لو تمززها[۵۹۷] الصديان لم ينقع»

فالعبارة إشارة إلى حياة كل فرد من

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۳۷۵

الأفراد وانها تقترب بمرور الزمان من نهايتها، وقد كان تعبيره بمنتهى الروعة لتصوير قصر عمر الدنيا وسرعة زوالها، فالسملة تعنى الشى الزهيد الذى لاقيمة له، وتطلق على ما يتبقى من الماء فى الاناء، و

«جرعة المقلة»

تطلق على المسافر الذى يشكو من قلّة الماء فيسعى للحصول على الماء لادخاره، أجل فعمر الدنيا قصير إلى درجة أنّه لا يروى ظمأ من تعلق به، فما أحرى العاقل أن يفيق إلى نفسه وينأى بها بعيداً عن الاغترار به، فينهمك بالآخرة ويسرع فى السير إليها. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى النتيجة الواضحة

«فازمعوا[۵۹۸] عباداللّه الرحيل عن هذه لدار المقدور على أهلها الزوال ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد»[۵۹۹]

. إنّ الإنسان راحل عن هذه الدنيا شاء أم أبى، ومراد الإمام عليه السلام إرحلوا بعلم وعبرة واغتنموا الفرصة وسيروا على النهج بالعمل الصالح والخلق الرفيع والمعرفة باللّه لتنالوا سعادة الآخرة والخلود فى نعيمها. فقد نبه عليه السلام إلى الخطرين الكامنين فى الطريق فقال:

«ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد»؛

الأمر الذى أرشد القرآن الكريم إليه بقوله: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ»[۶۰۰] ونؤكد مرة اخرى أنّ العبارات لاتفيد ترك الدنيا والرهبانية فيها وعدم الإكتراث إلى الحياة، بل تفيد عدم التعلق بزخا رف الدنيا والاغترار بها، وبعبارة اخرى فالمراد التعامل مع الدنيا

كما هى، لا على أساس الوهم والخيال وما تمليه علينا أهوائنا وشهواتنا.

لا أحد يعتقد بالخلود فى هذه الدنيا، فهى آيلة إلى الزوال والفناء وأنّ الإنسان سيودعها يوماً ليودع خده التراب فى تلك الحفرة، إلّاأنّ زينة الدنيا وزبرجها قد تلقى بحجابها على هذا الواقع بحيث قد ينسى الإنسان الموت بالمرة، أو يتناسى تلك الحقيقة المرة، فينطلق فى نشاطاته

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۶

وفعالياته وكأنّه مخلد فى الحياة الدنيا. وقد يطرح هذا الحجاب مؤقتا إذا ما مات أحدهم واشتركنا فى مراسم تشييعه ودفنه لتتضح أمامنا الدنيا على حقيقتها، فاذا عدنا إلى حياتنا نسينا كل شى وعاد ذلك الحجاب، وكأنّ الموت لم يكتب علينا، وبالطبع فانّ هذا الكلام لا يصدق على أولياء اللّه، فهم أرفع من أن تبعدهم هذه الحجب عن حقيقة الحياة والموت، فهم لا يرون الدنيا سوى قنطرة إلى الآخرة. والحق أنّ تحذير الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة من الدنيا لا يعنى أبداً أنّه يحث الناس على مقاطعة الدنيا وتركها، كيف وهو يراها مقدمة للآخرة

«الدنيا مزرعة الآخرة»

. والطريف أنّ بعض الشعراء من أولياء اللّه قد صوروا هذه الحقيقة فى أشعارهم، ولا بأس هنا بالتعرض لهذه القضية.

فقد ورد فى الحديث المعروف: سعى إلى المتوكل بعلى الهادى عليه السلام أنّ فى منزله كتباً وسلاحاً من شيعته من أهل قم، وأنّه عازم على الوثوب بالدولة، فبعث إليه جماعة من الأتراك، فهجموا على داره ليلًا فلم يجدوا فيها شيئاً ووجده فى بيت مغلق عليه، وعليه مدرعة من صوف، وهو جالس على الرمل والحصى هو متوجه إلى اللّه تعالى يتلو آيات من القرآن، فحمل على حاله تلك إلى المتوكل وقالوا له: لم نجد فى بيته شيئاً ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة، وكان المتوكل جالساً فى مجلس الشرب، فدخل عليه والكأس فى يد المتوكل، فلما رآه هابه وعظمه وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس التى كانت فى يده فقال: واللّه ما يخامر لحمى ودمى قط، فاعفنى فاعفاه، فقال: أنشدنى شعراً، فقال عليه السلام: إنى قليل الرواية للشعر، فقال: لابدّ، فأنشده عليه السلام:

باتوا على قلل الاجبال تحرسهمغلب الرجال فلم تنفعهم القلل

واستنزلوا بعد عزمن معاقلهمواسكنوا حفرا يابئس ما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد دفنهمأين الاساور والتيجان والحلل

أين الوجوه التى كانت منعمةمن دونها تضرب الاستار والكلل

فافصح القبر عنهم حين ساءلهمتلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طالما أكلوا دهراً وقد شربواوأصبحوا اليوم بعد الأكل قد اكلوا[۶۰۱]

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۷۷

القسم الثانى: السعى القليل وإن كثر

«فَواللَّهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجالِ وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمامِ وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِى الرُّهْبَانِ وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللّهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ الْتِماسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِى ارْتِفاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ أَوْ غُفْرانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْها كُتُبُهُ وَحَفِظَتْها رُسُلُهُ لَكانَ قَلِيلًا فِيما أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوابِهِ وَأَخافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقابِهِ».

الشرح والتفسير

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من تصوير حقيقة الدنيا وسرعة زوالها حتى تطرق إلى الثواب والعقاب فى الآخرة ومصير الإنسان هناك على أنّها تمثل الهدف لهذه الدنيا. وبعبارة اخرى كان القسم الأول من كلامه مقدمة لهذا القسم الذى يشير فيه إلى الهدف الغائى وهو

القرب من اللّه ونیل ثوابه واجتناب عقابه فقال علیه السلام:

«فو اللّه لو حننتم ۶۰۲] حنین الوله ۶۰۳] العجال ۶۰۴] ودعوتم

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۳۷۸

بهدیل ۶۰۵] الحمام وجأرتم جؤار[۶۰۶] متبتلی ۶۰۷] الرهبان ۶۰۸] وخرجتم إلی اللّه من الأموال والاولاد إلتماس القربة إلیه فی إرتفاع درجة عنده أو غفران سیئة أحصتها کتبه وحفظتها رسله لکان قلیلا فیما أرجو لکم من ثوابه وأخاف علیکم من عقابه»

فقد إستعار الإمام علیه السلام ثلاثة تشبیهات للتضرع إلی اللّه واستفراغ الجهد فی الانقطاع إلیه، التشبیه الأول: الصوت الذی تخرجه النوق الوالهة الفاقدة لأولادها، وهو الصوت الحزین الذی یرق له القلب حین سماعه، التشبیه الثانی: هدیل الحمام حین إجتماعها، والهدیل یطلق علی فرخ الحمام کما یطلق علی صوتها، وتعتقد العرب أنّ الهدیل حمامة علی عهد نوح علیه السلام بقیت وحدها وماتت عطشاً، ومنذ ذلک الیوم والحمام ینوح علیها، التشبیه الثالث: بکاء الرهبان المنقطعین عن الدینا القابعین فی صومعاتهم، والذین ینوحون عند الطقوس الدینیة وقد إشتد نیاحهم بفعل إنقطاعهم عن الدنیا. ولم یکتف الإمام علیه السلام بهذا التضرع والنوح والبکاء فقال:

«وخرجتم إلی اللّه من الأموال والاولاد»

أی ولو ترکتم أموالکم وأولادکم من أجل القرب إلی اللّه کان قلیلًا.

والدلیل واضح علی ذلک فالدنیا وما فیها لاتعدل جناح بعوضة من الآخرة، وهی لیست سوی قطرة إلی بحر، ومن الطبیعی أنّ الإنسان لایخرج من ماله وولده ما لم یقف علی هذا المعنی. وقد وردت هذه المقارنة بین الدنیا والآخرة فی خطبة المتقین بقوله علیه السلام:

نفحات الولایة ؛ ج۲ ؛ ص۳۷۸

«صبروا أیاما قصیرة أعقبتهم راحة طویلة»[۶۰۹]

. ج ج

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۳۷۹

القسم الثالث: عظمة وسعة النعم الإلهیة

«وَتاللَّهِ لَو انْماثَتْ قُلُوبُکُمُ انْمِیاثاً، وَسالَتْ عُیُونُکُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَیْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِی الدُّنْیا ما الدُّنْیا باقِیَةٌ، ما جَزَتْ أَعْمالُکُمْ عَنْکُمْ- وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَیْئاً مِنْ جُهْدِکُمْ- أَنْعُمَهُ عَلَیْکُمُ الْعِظامَ، وَهُداهُ إِیَّاکُمْ لِلْإِیمانِ».

الشرح والتفسیر

یختتم الإمام علیه السلام خطبته بالحدیث عن عظمة النعم الإلهیة التی أفاضها اللّه علی البشریة لإثارة حس الشکر لدیه والتوجه إلی ربّه بما یقوده إلی السمو والرفعة والکمال والقرب من اللّه. فقال علیه السلام:

«وتاللّه لو إنّماثت قلوبکم انمیاثاً[۶۱۰]، وسالت عیونکم من رغبة إلیه ورهبة منه دماً، ثم عمرتم فی الدنیا، ما الدنیا باقیة، ما جزت أعمالکم عنکم- ولو لم تبقوا شیئاً من جهدکم- أنعمه علیکم العظام، وهداه إیاکم للایمان»

فقد شرح الإمام علیه السلام بهذه العبارات البلیغة أقصی جهود الإنسان کما وکیفا فی طاعة اللّه، فمن ناحیة الکیفیة أنّه لو ذاب فی طاعة اللّه واصطرخت کافة ذرات جسمه وحلقت روحه فی سماء العبودیة، ومن الناحیة الکمیة لو دام هذا العمل طیلة حیاة ابن آدم، فمع ذلک لایسعه أن یؤدی حق شکر النعم الإلهیة، بل شکر نعمة واحدة، حیث صرحت بعض الروایات بان ذات الشکر نعمة ینبغی للإنسان الشکر علیها. وما أروع ما قال الشاعر:

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۰

شكر الاله نعمته موجبة لشكرهوكيف شكرى بره وشكره من بره ۶۱۱]

فالواقع أنّ الإمام عليه السلام أشار بتلك العبارة إلى عدم محدودية النعم الإلهية. وهو كالتعبير القرآنى فى الآية ۲۷ من سورة لقمان بشأن علم اللَّه: «وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ». نعم ليس للعبد سوى الاعراب عن ضعفه وعجزه أمام النعم الإلهية. الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام يؤكد على نعمة الإيمان

«وهداه إيّاكم للإيمان»

من قبيل ذكر الخاص بعد العام. فقد أشار فى العبارة السابقة إلى الأنعم الإلهية ثم خص هنا منها نعمة الإيمان على غرار ما جاء فى القرآن الكريم: «بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ»[۶۱۲]. ولا تتأتى أهمية الإيمان من كونها مفتاح سعادة البشر وجواز سفره إلى الجنّة فحسب، بل لأنّها الدافع لكافة الفضائل والأعمال الصحالة والرادع من الرذائل والأعمال السيئة، فالواقع هى أساس الدين والملفت للنظر فى العبارة أنّه عليه السلام نسب الهداية للَّه، وان حصل عليها الإنسان باختياره وإرادته؛ وذلك لتعذرها على الإنسان بمفرده ما لم تشمله العناية الإلهية ويرشده الأنبياء والأولياء والكتب الإلهية إليها، ومن هنا نسأل اللَّه فى صلواتنا اليومية ليل نهار الهداية.

ويبدو من الأهمية فى نهاية الخطبة الإلتفات إلى هذه النقطة وهى أن القسم الأول لها بعد المقدمة حيث يعد القلوب من خلال تنبيهها إلى تقلب أحوال الدنيا وزوالها، بينما يوجهها فى القسم الثانى والثالث إلى طاعة الله وكسب الفضائل ودفع الرذائل. مع هذا الفارق فى تأكيد القسم الثانى على أهمية القرب من الله ومطلوبية كل سعى وجهد للوصول إلى هذا الهدف، أما القسم الثالث فيرد ساحة القدس الربوبى صاحب الفضل عن طريق مسألة شكر المنعم، فالوجدان هو الذى يشهد بضرورة هذا الشكر.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۱

الخطبة[۶۱۳] الثالثة والخمسون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

«فى ذكرى يوم النحر وصفة الاضحية»

«وَمِنْ تَمامِ الْأُضْحِيَّةِ اسْتِشْرافُ أُذُنِها، وَسَلامَةُ عَيْنِها، فَإِذَا سَلِمَتِ الْأُذُنُ وَالْعَيْنُ سَلِمَتِ الْأُضْحِيَّةُ وَتَمَّتْ، وَلَوْ كانَتْ عَضْباءَ الْقَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَها إِلَى الْمَنْسَكِ».

الشرح والتفسير

تمام الاضحية

أشار الإمام عليه السلام فى هذا الفصل من الخطبة إلى تفاصيل وجزئيات الاضحية، وقال:

«ومن تمام الاضحية[۶۱۴] استشراف ۶۱۵] أذنها وسلامة عينها، فاذا سلمت الاذان والعين سلمت

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۲

الاضحية وتمت»

ثم أضاف عليه السلام:

«ولو كانت عضباء[۶۱۶] القرن تجر رجلها إلى المنسک»

ولاـ يتنافى هـذا الكلام مع ما تعارف بين الفقهاء وما ورد فى سائر روايات المعصومين عليهم السـلام من أنّ الاضـحية يجب أن تكون سالمة الرأس، لأنّ عضب قرنها الداخلى يضـر بسـلامتها لا قرنها الخارجى، كما لا يضر العرج البسيط الذى لا يعيقها عن الحركة. وجاء فى بعض النسخ قوله:

«فلا تجزى»

بعد العبارة

«تجر رجلها إلى المنسک»

وعليه يصـبح مفهوم العبارة عدم إجزاء الاضـحية إن كسر قرنها وكانت تجر رجلها على الأرض ۶۱۷]. قال السـيد الرضى (ره) فى ذيل الخطبة:

«والمنسک هاهنا المذبح».

عِليّة سلامة الاضحية من النقص والعيب

رغم أنّ الهـدف من الضـحية هو إسـتفادة بعض المحتـاجين منهـا كمـا صـرح بـذلک القرآن الكريم: «فَـإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا القانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذ لِکَ سَـخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»[۶۱۸] ومن المسـلم به عدم وجود أى تأثير على هذا المعنى سواء كان قرنها سالماً أم لا، ولكن الاضـحية شعيرة إسلامية وعبادة، ولا يليق بالساحة القدسية للربّ سبحانه إختيار الشاة المعيبة والمريضة، ولابدّ من تقـديم الخالصـة فانّ ذلک نوع من الادب والاحترام؛ الأمر الـذى نلمسه بوضوح فى صـلاة المرأة بكامل الحجاب، وارتـداء الثياب النظيفة حين الصلاة، والتعطر عند العبادة وغسل الميت وتكفينه وتحنيطه وما إلى ذلک من الامور.

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۳۸۳

الخطبة[۶۱۹] الرابعة و الخمسون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف أصحابه بصفين حين طال منعهم له من قتال أهل الشام.

نظرة إلى الخطبة

هناک خلاف بين الشـرّاح بشأن زمان الخطبـة، فقـد ذكر صاحب مصارد نهج‌البلاغة أنّ جماعة سألوا الإمام عليه السـلام عن رأيه بمن سبقوه بالخلافة لما غلب عمرو بن العاص على مصـر وقتل عامل الإمام عليه السـلام عليها محمد بن أبى‌بكر. فأجابهم عليه السلام وهل خمـدت فتنـة ابن العاص لتسألوا هـذا السؤال وقـد غلبكم على مصـر وقتلوا صـحبى، ثم قال: سأكتب كتاباً واجيب على أسـئلتكم. بينما ذهب البعض إلى أن بدايـة الخطبـة مرتبط بزمان البيعـة وذيلها بواقعـة صـفين. كما احتمل أن تكون فى البيعة وموقعة الجمل إلّاأنّ كل هـذه الاحتمالاـت بعيـدة، والظـاهر أنّ الخطبـة واردة بشـأن صـفين حين هم صـحبه بالقتـال، ويؤيـد ذلـک ما أورده المرحوم البحرانى والشـارح الخوئى من أنّها ناظرة إلى حال أصـحاب الإمام عليه السـلام فى صـفين حين منعهم من قتال أهل الشام.[۶۲۰] وزبدة الكلام

فانّ الإمام عليه السلام قال لما استبطأ اصحابه القتال:

«وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى

نفحات الولايۀ، ج۲، ص: ۳۸۴

منعنى النوم، فما وجدتنى يسعنى إلّاقتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله، فكانت معالجۀ القتال أهون علىَّ من معالجۀ العقاب، وموتات الدنيا أهون على من موتات الآخرۀ».

نفحات الولايۀ، ج۲، ص: ۳۸۵

«فَتَداكُّوا عَلَيَّ تَداكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِها وَقَدْ أَرْسَلَها راعِيها، وَخُلِعَتْ مَثانيها؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قاتِلِيَّ أَوْ بَعْضُهُمْ قاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ، وَقَدْ قَلَّبْتُ هذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِى النَّوْمَ، فَما وَجَدْتُنِى يَسَعُنِى إِلَّا قِتالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِما جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه و آله فَكانَتْ مُعالَجَةُ الْقِتالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعالَجَةِ الْعِقابِ وَمَوْتاتُ الدُّنْيا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتاتِ الْآخِرَةِ».

الشرح والتفسير

ليس هنالك سوى القتال

بغض النظر عن كون الخطبۀ بشأن بيعۀ الناس للإمام عليه السلام أو المسائل المرتبطۀ بصفين، فانّه استهلها عليه السلام بعدم انطلاقه نحو الناس بل الناس هم الذين إندفعوا إلىّ:

«فتداكوا[۶۲۱] علىّ تداك الابل إلهيم ۶۲۲] يوم وردها[۶۲۳] وقد أرسلها راعيها، وخلعت مثانيها»[۶۲۴]

. ثم أضاف عليه السلام:

«حتى ظننت أنهم قاتلىّ أو بعضهم قاتل بعض لدى»

تتضمن هذه العبارۀ عدّۀ امور:

نفحات الولايۀ، ج۲، ص: ۳۸۶

۱- كيفيۀ هجوم الناس عليه من أجل البيعۀ أو حين الاصرار على شروع موقعۀ صفين إنّما تفيد تغير الناس آنذاك، وهنا لابدّ من الالتفات إلى أن معنى المفردۀ تداكوا هو الضرب وقد أشارت فى العبارۀ إلى شدۀ عطش الابل التى تضرب بعضها بعضا لتبلغ أسرع من غيرها الماء، والهيم شدۀ العطش التى تجعل الإنسان أو الحيوان مضطرباً. فلو تركت هذه الابل العطاش لحالها دون الراعى فما عساها تفعل. أجل هكذا كانت حال الناس فى تلك اللحظات الحساسۀ حتى كان يخشى عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً. نعم هذا هو حال الناس حين يعشقون شيئاً ويعبرون عنه بعواطقهم، إلّاأنّه من المؤسف أنّ هؤلاء الناس سرعان ما يتخلون عن موقفهم إذا واجهتهم بعض المصاعب.

۲- يمكن أن تكون حالۀ إندفاعهم نابعۀ من عدم عمق مشاعرهم وقلّۀ علمهم ومعرفتهم.

۳- تشتمل هذه العبارات على بعض الكنايات التى تفيد صعوبۀ السيطرۀ عليهم حين تأخذهم الحرارۀ والحماس، كما يصعب إثارتهم حين تلفهم البرودۀ والانتكاس.

ثم قال عليه السلام:

«وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعنى النوم فما وجدتنى يسعنى إلّا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمّد صلى الله عليه و آله فكانت معالجۀ القتال أهون على من معالجۀ العقاب وموتات الدنيا أهون على من موتات الآخرۀ».

فتفيد هذه العبارات:

أولًا: أنّ الإمام عليه السلام لا يرضخ لضغوط الناس، فلا يتحذ القرار حتى يدرس جميع جوانب الموضوع، وهذا ما ينبغى أن تكون

عليه سياسة الزعماء الربانيين بعيدة عن العواطف والأحاسيس مستندة إلى مصالح لُامّة الواقعية.

ثانياً: عادة ما يصل الإنسان فى حياته الفرديـة أو القادة فى حياتهم الاجتماعيـة إلى مفترق طرق، فلابـدّ هنا من الشـجاعة والاقـدام على إنتخاب الاصـلح، فان كان القتال هو الأصـلح لا ينبغى للدعة والراحة أن تحول دون خوضه بحجة حفظ دماء المسلمين دون الإكتراث إلى المصالح العليا.

ثالثاً: المهم بالنسبة للإمام عليه السلام رضى اللّه وإداء التكليف ومن هنا آثر رضى اللّه سواءاً تضمن رضى الناس أم لا.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۷

رابعاً: واضح أنّ قتال الإمام عليه السـلام كان قتال الإيمان للكفر والإسـلام للجاهلية. بناءاً على ما تقدم فقد كان عليه السلام يرى رضى اللّه قبـل الاسـتجابة لرغبات الناس، وبالطبع قـد يمكن الجمع بين الاثنين إذا كانت رغبات الامّـة وتطلعاتها مشـروعة تهـدف نشـر القيم والمبادئ السماوية.

تأمّلان

۱- البيعة الفريدة للإمام عليه السلام

تفيد خطب نهج‌البلاغة الواردة بهذا الشأن، أنّ البيعة كانت من الحوادات العجيبة التى شـهدتها خلافة الإمام عليه السلام بحيث خرجت عن المتعارف فى البيعات العاديـة، وقـد بلغ الزحام درجـة كان يخشـى معها وقوع البعض وانحساره بين تلك الجماعات العظيمة. وهنا يطرح هذا السؤال: ما سبب ذلك الهجوم العظيم على الإمام عليه السلام من أجل البيعة؟ يبدو أنّ غضب الناس بلغ ذروته إبان من سبق الإمام عليه السـلام من الخلفاء ولا سيما على عهد الخليفة الثالث الذى شهد غياب العدل وضياع القيم والمثل والتطاول على بيت المال والاساءة إلى الشخصـيات الإسـلامية وتسـليط عصابـة من البطانـة على رقاب الناس، بحيث لم يكن أمام الناس سوى اللجوء إلى ذلك الفرد العادل الذى من شأنه اعادة الإسـلام إلى مسيرته الأصـلية. نعم كانوا متعطشين للعدالة، للإسلام الأصيل والمعارف القرآنية الحقة الخاليـة من الخرافـات والأساطير؛ الامور التى جمعت فى أميرَالمؤمنين على عليه السـلام، فما حيلـة العطشان إذا رأى الماء الزلال سوى الهجوم عليه والتزود منه، فالهجوم المذكور يفيد عظمة مقام الإمام عليه السـلام من جانب ومدى إستياء الناس من الاوضاع السابقة من جانب آخر، والأمران يحتاجان إلى ابحاث تأريخية مسهبة.[۶۲۵]

۲- الحرب والسلام، والكفر والإيمان

رأينا فى آخر الخطبة أنّ الإمام عليه السـلام وقف أمام سبيلين لا ثالث لهما؛ إما الحرب أو الكفر بما جاء به النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله. وما ذاك إلّاأنّ الحرب ورغم ما يكتنفها من خراب ودمار وويلات،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۸

غير أنّهـا قـد تكون السبيـل الوحيـد لمجابهـة الظلم والاضـطهاد وعـدم العـدل كمـا تشـكل الوسـيلة الناجعـة لاستئصـال جـذور الفساد والانحراف ومن هنا كانت إحدى غايات القتال، كما صرح بذلك القرآن القضاء على الفتنة واخماد نيرانها واعادة الامور إلى مجاريها الطبيعية «وَقاتِلُوهُمْ حَتّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ»[۶۲۶] وقـال «فَقاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتّى تَفِىءَ إِلى أَمْرِ اللّهِ»[۶۲۷] وهنا يغلق أولياء اللّه أبواب الراحة والدعة ويهبوا لخوض القتال وتحمل عنائه وشدائده، ولا عجب فالتضحية بحطام الدنيا لا يؤثر على سعادة الاخرى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۸۹

الخطبة[۶۲۸] الخامسة والخمسون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

وقد استبطأ اصحابه إذنه لهم فى القتال بصفين

نظرة إلى الخطبة

يبدو من تناسب مضمون هذه الخطبة مع الخطبة السابقة أنّها خطبة واحدة، أو خطبتان وردتا فى زمان متقارب قال ابن أبى‌الحديد فى ذيل هذه الخطبة: لما ملك أميرالمؤمنين علىّ عليه‌السلام الماء بصفين ثم سَمَح لأهلِ الشام بالمشاركة فيه والمساهمة، رجاء أن يطفوا إليه، واستمالةً لقلوبهم وإظهارا للعدالة وحسن السيرة فيهم، مكث أياماً لا يُرسِل إلى معاوية، ولا يأتيه مِنْ عند معاويةَ أحدٌ، واستبطأ أهل العراق إذنه لهم فى القتال، وقالوا: يا أميرَالمؤمنين، خَلَّفْنا ذراريّنا ونساءنا بالكوفة، وجئنا إلى أطراف الشام لنتّخذها وطناً، ائذن لنا فى القتال، فإنّ الناس قد قالوا. قال لهم عليه‌السلام: ما قالوا؟ فقال منهم قائل: إنّ الناس يظنون أنّك تكرهُ الحرب كراهيةً للموت، وإنّ من الناس من يظن أنّك فى شكٍّ مِنْ قتال أهلِ الشام. فقال عليه‌السلام: ومَتَى كنتُ كارها للحرب قطّ! إنّ من العجب حُبِّى لها غلاماً ويَفَعاً، وكراهيتى لها شيخاً بعد نفادِ العمر وقرب الوقت! وأمّا شكّى فى القوم فلو شككت فيهم لشككتُ فى أهل

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۳۹۰

البصرة، واللَّه لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وبطناً، فما وجدت يسعُنى إلّاالقتال أو أن أعصىَ اللَّه ورسوله، ولكنى أستأنى بالقوم، عسى أن يهتدوا أو تهتدى منهم طائفة، فإنّ رسول‌اللَّه صلى اللَّه عليه وآله قال لى يوم خيبر:

«لأنّ يهدىَ اللَّه بك رجلًا واحداً خير لك مِمّا طلعت عليه الشمس».

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۳۹۱

«أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكُلَّ ذَلِكَ كَراهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَواللَّهِ ما أُبالِى، دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَىَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكّاً فِى أَهْلِ الشَّام! فَواللَّهِ ما دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِى طائِفَةٌ فَتَهْتَدِىَ بِى، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِى، وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَها عَلَى ضَلالِها وَإِنْ كانَتْ تَبُوءُ بِآثامِها».

الشرح والتفسير

تماسك الإمام عليه السلام حيال القتال

كما ذكرنا فانّ الخطبة جواباً لأصحابه عليه السلام الذين استبطأوا إذنه لهم بالقتال فى صفين، فقد قال عليه السلام

«أمّا قولكم: أكل ۶۲۹] ذلك كراهية الموت؟ فو اللَّه ما أبالى، دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلىّ».

نعم إذا كان هنالك هدفا مقدساً كرضى اللَّه فانّ الفرد المؤمن لابدّ أن يسارع إلى الشهادة ولا ينتظرها، فما أسمى أن يهب الإنسان نفسه ويضحى بها من أجل معشوقه ومعبوده.

أضف إلى ذلك فسابقة الإمام عليه السلام فى الغزوات الإسلامية لأشهر من نار على علم وليست بخافية على أحد ولا سيما صولاته فى بدر وأحد والأحزاب وخيبر وحنين وذوده عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله واستماتته من أجل نيل الشهادة، فكيف وهذا الحال يمكن توجيه هذه التهمة الباطلة لهذا الإنسان بتأخير القتال خوف الشهادة. وقد تحدث الإمام عليه السلام عن مثل هذا المعنى فى الخطبة الخامسة والخطبة مئة وثلاث وعشرين حيث قال:

«واللّه لابن أبی طالب آنس

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۳۹۲

بالموت من الطفل بثدی أمه»

وقال:

«والذی نفس ابن أبی طالب بیده لألف ضربة بالسیف أهون علی من میتة علی الفراش فی غیر طاعة اللّه»

. وتشهد سیرة الإمام علیه السلام أنّه مارس هذا المعنی عملیاً فی حیاته وما أجهل تلک الجماعة من جیش أهل العراق التی وجهت مثل تلک التهمة للإمام علیه السلام وخشیته من الشهادة فی سبیل اللّه.

قد یقال أنّ اولئک لم یکونوا أدرکوا اولی الغزوات الإسلامیة. فنقول فهل یسعهم نسیان موقعة الجمل؟ الموقعة التی کان ینقض فیها الإمام علیه السلام کاللیث الضاری علی جنود الأعداء فیمزق جموعهم وینزل حمم غضبه علی رؤوسهم. بل کیف یمکن إتهامه وهو الذی یمثل الإیمان کله فی مقابل الشرک کله، أولیس هو القائل:

«لقد کنت وما اهدد بالحرب ولا أرهب بالضرب وإنی لعلی یقین من ربّی وغیر شبهة من دینی».

وقوله علیه السلام:

«فو اللّه ما ابالی»

إشارة إلی هذه الحقیقة وهی أنّ الأفراد العادیین ممن لا هدف لهم، هم الذین یخشون الاتجاه نحو الموت، بل ینتظرون قدوم الموت إلیهم آخر عمرهم؛ بینما لیس هنالک من فارق بین الخروج إلی الموت أو قدوم الموت حسب الأجل المقدر بالنسبة لأهل الإیمان والورع والتقوی ولعل الموت یمکن تشبیهه هنا بالاسد المفترس، فالفرد العادی لا یتجه إلیه أبداً، أما الشجاع فیقدم علی مواجهته دون أن یشعر بخوف أو هلع، فالمؤمن الشجاع حین یری فی الموت الشهادة فی سبیل اللّه ونیل رضوانه یستقبله بکل رحابة صدر، فلو قدر لهذا الموت أن یسلبهم ما تبقی من عمرهم، فانّهم سیستبدلون بذلک الخلود والبقاء. ثم تناول الإمام علیه السلام الاحتمال الثانی الذی أوردته تلک الجماعة بشأن تأخیر القتال فقال:

«وأمّا قولکم شکاً فی أهل الشام فو اللّه ما دفعت الحرب یوما إلّاوأنا أطمع أن تلحق بی طائفة فتهتدی بی، وتعشوا[۶۳۰] إلی ضوئی»

ثم برر ذلک بقوله علیه السلام

«وذلک أحب إلی من أن أقتلها علی ضلالها وإن کانت تبوء[۶۳۱] بآثامها».

فالإمام علیه السلام یؤکد هنا علی أن القتال لا یمثل هدفاً ولا السبیل الأول لحل الخصومات من وجهة نظر أولیاء اللّه، بل هو العلاج الأخیر إذا ما عجزت کل السبل والاسالیب، فهم یسعون جاهدین للتریث

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۳۹۳

والاناة أملًا فی رجوع ولو فرد واحد إلی الحق فیزداد أهل الحق ویقل أهل الباطل، بینما ینظر السذج من الناس إلی هذا الأمر بنوع من الشک والریبة، فانّ أولیاء اللّه یفتحون ذراعهم باستقبال النادمین والتائبین وقد أثبت التأریخ- ولا سیما موقعة صفین- صحة حسن ظن الإمام علیه السلام، وذلک لأنّ فئة کبیرة قد فاءت إلی الحق بینما انسحبت طائفة من المعرکة وذلک بفضل تریث الإمام علیه السلام واناته فی القتال.

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۳۹۵

الخطبة[۶۳۲] السادسة والخمسون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

يصف أصحاب رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله وذلک يوم صفين حين أمر الناس بالصلح

نظرة إلى الخطبة

هناک رأيان بشأن زمان الخطبـة: فالبعض يعتقد أنّه ورد بشأن فتنة ابن الحضـرمى بعد أن استشـهد محمد بن أبی‌بکر على يد عمرو بن العاص فقـد البصـرة من قبل معاوية ليخرجها من حکومة الإمام على عليه السـلام حيث اسـتولى عليها بمعونة جماعة من المنافقين. فلما بلغ الإمام عليه السـلام ذلک من قبل ابن عباس يعزيه بمحمـد بن أبی‌بکر خطب الخطبة، ثم بعث بجارية ابن قلامة السـعدى المعروف بشـجاعته فحاصـر ابن الحضرمى مع سبعين من صحبه وقضى عليهم جمعياً. والرأى الآخر أنّ الإمام عليه السلام خطبها فى صفين، حين اقترح على الإمام عليه السـلام الصـلح وقد ضـغطوا على الإمام عليه السـلام لقبوله. على کل حال فان الإمام عليه السلام خطب الناس لا متثال أوامره، ثم تطرق لا خلاص المسلمين فى صدر الإسلام وأنّ سبب النصر يکمن فى الانضباط والتسليم لأوامر النبى صلى الله عليه و آله، فى إشارة إلى النصـر سـيکون حليفهم لو إسـتنّوا بهـذه السـنة وطاعوا الأوامر، والّا ليس إمامهم سوى الفشل والهزيمـة إذا عاشوا الفرقة والتشتت وعدم طاعة الاوامر.

ج ج

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹۷

«وَلَقَدْ کُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صـلى الله عليه و آله نَقْتُلُ آباءَنا وَأَبْناءَنا وَإِخْوانَنا وَأَعْمامَنا، ما يَزِيدُنا ذَلِکَ إِلَّا إِيماناً وَتَسْـلِيماً وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَم وَصَبْراً عَلَى مَضَـضِ الْأَلَمِ وَجِـدّاً فِى جِهادِ الْعَدُوِّ؛ وَلَقَدْ کانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنا يَتَصاوَلانِ تَصاوُلَ الْفَحْلَيْنِ، يَتَخالَسانِ أَنْفُسَـهُما أَيُّهُما يَسْـقِى صاحِبَهُ کَأْسَ الْمَنُونِ، فَمَرَّةً لَنا مِنْ عَدُوِّنا وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْکَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى اسْـتَقَرَّ الْإِسْـلامُ مُلْقِياً جِرانَهُ وَمُتَبَوِّئاً أَوْطانَهُ. وَلَعَمْرِى لَوْ کُنَّا نَأْتِى مَا أَتَيْتُمْ، مَا قامَ لِلـدِّينِ عَمُودٌ وَلا اخْضَـرَّ لِلْإِيمانِ عُودٌ. وَايْمُ اللَّهِ لَتَحْتَلِبُنَّها دَماً، وَلَتُتْبِعُنَّها نَدَماً!»

الشرح والتفسير

الوقوف المشرف إلى جانب رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله

أشار إبن ميثم البحرانى فى شـرحه إلى بعض الخطبة الذى لم يرد فى کلام السـيد الرضـى (ره) والذى له تأثير على فهم مضـمون هذه الخطبـة، فقال: روى البعض أنّ الإمام عليه السـلام خطب هـذه الخطبـة حين أراد الناس الصـلح مع جيش معاوية (بينما کان الإمام عليه السلام مخالف ذلک ولو لا اصرار البعضى منهم لما وافق) فقد إستهل الإمام عليه السلام کلامه قائلًا:

«إن هؤلاـء القوم لم يکونوا ليفيئوا إلى الحق ولاـ ليجيبوا إلى کلمـة سواء حتى يرموا بالمناشـر تتبعهـا العسـاکر، وحتى يرجموا بالکتاب تقفوهـا الجلائب، وحتى يجر ببلاده الخميس يتلوه الخميس، وحتى تـدعق الخيول فى نواحى أراضـيهم، وبأعناء مشاربهم ومسارحهم، حتى تشن عليهم الغارات من کل فج عميق، وحتى يلقاهم قوم صدق صبر، ولا يزيدهم هلاک من هلک من

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹۸

قتلاهم وموتاهم فى سبيل اللَّه إلا جدا فى طاعة اللَّه وحرصاً على لقاء اللَّه. ولقد کنا مع رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله الفصل»[۶۳۳]

وعليه فانّ مصالحة هؤلاء القوم الجفاة لا تنطوى سوى على الاحباط والفشل، وذلک لأنّهم لايفهون منطق الصـلح ولا يمکنهم التعايش مع الآخرين بسـلام ولا يدرکون سوى منطق القوة، وهذا ما کشـفت عنه أحداث صفين. على کل حال واصل الإمام عليه السلام خطبته ليتحدث عن مقومات النصر وعوامل الفشل والهزيمة فقال عليه السلام:

«ولقد كنّا مع رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله نقتل آباءنا وابناءنا واخوننا واعمامنا»

فى إشارة إلى ضرورة عدم الالتفات إلى قرابة كائن من كان إذا وقف كعقبة أمام المسيرة، الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم: «قُلْ إنْ كانَ آباؤُ كُمْ وَأَبْناؤُ كُمْ وَإخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّى يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ»[۶۳۴] ثم قال عليه السلام:

«ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما ومضيا على اللقم»[۶۳۵] وصبرا على مضض ۶۳۶] الالم وجدا على جهاد العدو»

فما أشار إليه الإمام عليه السلام بهذه العبارة إنّما يمثل واقعة تأريخية، فقد مثل أمام المسلمين فى أغلب المعارك ولا سيما معركة بدر قرابتهم وعشيرتهم، فما كان من المسلمين إلّاأن قاتلوهم بكل بسالة دون أن يكترثوا لتلك القرابة رغم احترام العرب المنقطع النظير للروابط القبلية. ثم قال عليه السلام:

«ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان ۶۳۷] تصاول الفحلين يتخالسان ۶۳۸] أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون، فمرة لنا من عدونا ومرة لعدونا منا»

فى إشارة إلى أنّه ليس من الضرورى أن ينتصر الحق على الباطل فى كافة المعارك وطيلة المجابهة، فقد يتغلب الباطل على الحق أحياناً إلّاأنّ الحق وعلى ضوء الوعد الإلهى منتصر فى خاتمة المطاف- وعليه فلا تتوقعوا عدم بروز المشاكل خلال مجابهة أهل الشام، كما أنّ هذه المشاكل لا ينبغى أن تقود إلى

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۳۹۹

التمرد على أوامر الإمام عليه السلام، ما سيرة النبى صلى الله عليه و آله وصحبه إلّادليل واضح على هذا الأمر، ومن هنا قال عليه السلام:

«فلما رأى اللَّه صدقنا أنزل بعدونا الكبت ۶۳۹] وأنزل علينا النصر، حتى إستقر الإسلام ملقيا جرانه ۶۴۰] ومتوئاً أوطانه»

فالإمام عليه السلام أشار هنا إلى العامل الرئيسى لانتصار المسلمين الأوائل ويلوح إلى عناصر فشل أهل الكوفة، فقد نسب العامل الرئيسى للانتصار إلى صدق النية التى تمثل الدافع الأصلى للصمود والمقاومة أمام العدو والطاعة التامة للزعامة الربانية. ولو تلوثت هذ النية وسيطرت الأنانية على الإنسان، آنذاك ستكون إرادته وقراره مستنداً لاهوائه وطيشه وغروره؛ الأمر الذى يقود إلى الهزيمة والفشل. ومن الطبيعى ألا تشمل عنايات اللَّه وألطافه ونصره مثل هؤلاء الأفراد، ثم خلص الإمام عليه السلام لهذه النتيجة:

«ولعمرى لو كنا نأتى ما أتيتم، ما قام للدين عمود ولا إخضر للايمان عود»

فهل تعلمون من قوم فى أى عصر ومصر إنتصروا بفرقتهم واختلافاتهم، فاذا رجعتم قليلا إلى الوراء لرأيتم أنّ النصر الخاطف الذى حققه رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله خلال تلك المدة القصيرة حتى ترسخت دعائم الدين واتسع نطاق الإسلام ليشع بنوره على ظلمات الشرق والغرب فانّ ذلك كان بفضل الإيمان والطاعة والجهاد، بينما تمارسون الآن عكس ذلك وتحلمون بالنصر. وأخيراً يحذرهم عليه السلام بالقول:

«وأيم اللَّه لتحتلبنها دماً، ولتتبعنها ندماً».

فقد تضمنت العبارات الاخيرة للإمام عليه السلام ثلاثة تشبيهات: الأول: تشبيه الإسلام بالخيمة واعمدته الجهاد. حيث نعلم بأنّ الخيمة موضع الأمن والراحة من الحرارة المحرقة والبرودة القارسة، الإسلام هو الآخر موضع أمن البشرية ووسيلة نجاتها من العواصف القاتلة. الثانى:

تشبيه الإيمان بالشجرة التى إخضرت غصونها بدماء المؤمنين فى صدر الإسلام. والثالث:

تشبيه الحكومة بالناقة التى تحتلب الدم بدلًا من اللبن بسبب تعفن ضرعها أو العبث والإفراط فى إحتلابها، أى أنّها، أعطت نتيجة معكوسة، فاللبن من أفضل طعام الإنسان ومواده الغذائية، أمّا الدم فهو ليس بغذاء، بل مادة سامة مفسدة. وأخيراً فقد تحققت نبوءات الإمام عليه السلام بشأن تلك الطائفة الطاغية، حيث تسلط عليهم الظلمة الذين ساموهم سوء العذاب.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۰

تأمّلان

۱- ثانی فتن البصرة

کانت البصرة أحد المراکز الإسلامیة المهمة والبوابة إلی العالم الخارجی ومن هنا کانت السیطرة علیها قضیة مهمة. ولذلک کان یسعی معاویة للسیطرة علیها کما ورد فی ورود الخطبة.

ویری البعض أن الإمام علیه السلام خطبها لإخماد فتنة أخری فی البصرة. فقد طمع معاویة بالبصرة بعد قتل عامل علی علیه السلام فیها محمد بن أبی بکر، فکتب کتابا إلی أنصاره فی البصرة وذکرهم الوقعة التی أهلکتهم وقد إنتخب «ابن الحضرمی» والیا علی البصرة فحث الناس للقیام علی خلیفة عامل الإمام علیه السلام علیها «زیاد بن عبید» فاستجاب له البعض ومنهم الخوارج فسیطروا علی أجزاء من البصرة وقتلوا سفیر الإمام علیه السلام «أعین بن صبیعه» فلما بلغ ذلک الإمام علیه السلام بعث بجاریة بن قدامه إلی البصرة لیقرأ علیهم کتاب الإمام علیه السلام.

سلام علیکم: أمّا بعد فإنّ اللَّه حَلیم ذو أَنَاةٍ، لا یَعْجَلُ بالعقوبة قَبْل البیّنة، ولا یأخذ المذنب عند أول وَهْلة، ولکنه یقبل التوبة، ویستدیم الأناة، ویرضی بالإنابة؛ لیکون أعظمَ للحجّة، وأبلغ فی المعذرة، وقد کان من شقاق جُلّکم أیّها الناس ما استحققتم أن تعاقَبوا علیه، فعفوت عن مجرمکم، ورفعت السَّیْف عن مُدْبرکم، وقبلت من مُقْبلکم، وأخذت بیعتَکم، فإن تَفُوا ببیعتی، وتقبلُوا نصیحتی، وتستقیموا علی طاعتی، أعملْ فیکم بالکتاب والسنة وقَصْد الحق، وأُقِمْ فیکم سبیل الهدی، فواللَّه ما أعلم أنّ والیاً بعد محمد صلی اللَّه علیه وآله أعلمُ بذلک منّی، ولا ـ أعمل بقولی. أقول قولی هذا صادقاً، غیرَ ذامّ لمن مَضی، ولا ـ منتقصاً لأعمالهم، وإن خَبَطَتْ بکم الأهواء المُرْدِیة، وسَفَهُ الرأی الجائر إلی منابذتی، تریدون خِلافی! فها أنا ذا قَرَّبْتُ جیادی، وَرَحَلْت رکابی، وایمُ اللَّه لئن ألجأتمونی إلی المسیر إلیکم لأُوقِعنّ بکم وَقْعَةً، لا یکون الجمل عندها إلّاکلَعْقَة لاعق، وإنی لظانّ ألّا تجعلوا- إن شاء اللَّه- علی أنفسکم سبیلًا.

وقد قدمّت هذا الکتاب إلیکم حجة علیکم، ولنْ أکتبَ إلیکم من بعده کتاباً، إن أنتم استغششتم نصیحتی، ونابذْتُم رسولی، حتی أکونَ أنا الشّاخص نحوکم، إن شاء اللَّه تعالی.

والسلام.

فلما قرأها علیهم تأثروا تأثرا شدیدا، بینما واصل البعض منهم عناده، فواجهوا ابن

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۴۰۱

الحضرمی وهزموه، فلاذ مع سبعین من صحبه بدار ولم یکن أمام جاریة من سبیل سوی إحراق الدار فقتلوا فیها جمیعا.[۶۴۱]

ج‌ج

قال: وروی کعب‌بن قعین أنّ علیّاً علیه‌السلام کتب مع جاریة کتاباً، وقال: اقرأه عَلَی أصحابک، قال: فمضینا معه، فلما دخْلنا البصرة، بدأ بزیاد، فرحّب به وأجلَسه إلی جانبه، وناجاه ساعة وساءلَهُ، ثم خرج فکان أفضل ما أوصاه به أنْ قال: احذَرْ علی نفسک، واتَّقِ أن تَلْقَی ما لِقَی صاحبُک القادمُ قَبْلک.

وخرج جاریة من عنده، فقام فی الأزد، فقال: جزاکم اللَّه من حَیّ خیراً! ما أعظَم غَناءکم، وأحسنَ بلاءکم، أطوَعکم لأمیرکم! لقد عرفتم الحقَّ إذ ضیّعه مَنْ أنکره، ودَعَوْتم إلی الهدی إذ ترکه مَنْ لم یعرفه. ثم قرأ علیهم علی مَنْ کان معه من شیعة علیّ علیه‌السلام وغیرهم- کتابَ علیّ علیه‌السلام، فإذا فیه:

من عبداللَّه علیّ أمیرالمؤمنین إلی مَنْ قرئ علیه کتابی هذا من ساکِنی البصرة من المؤمنین والمسلمین:

قال: فلما قرئ الكتاب على الناس قام صَبْرة بن شَيْمان، فقال: سمعنا وأطعنا ونحن لمنْ حارب أميرالمؤمنين حَرْب، ولمن سالم سِلْم؛ إن كَفَيْتَ يا جارية قومَك بقومك فذاك، وإن أحببت أنْ ننصرك نصرناك.

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه، فلم يأذن لأحدٍ منهم أن يسير معه، ومضى نحو بنى تميم.

فقام زياد فى الأزد، فقال:

يـا معشـر الأـزْد، إنّ هؤلاءـ كـانوا أمس سِـلماً، فأصـبحوا اليوم حربـاً، إنكـم كنتم حَرْبـاً فأصـبحتم سـلماً، وإنى واللَّه ما اخترتكم إلّاعلى التجربـة، ولاـ أقمت فيكم إلّـاعلى الأمـل، فمـا رضـيتم أن أجرتمونى، حتى نصـبتم لى منبراً وسـريراً، وجعلتم لى شُرَطاً وأعواناً، منادياً وجمعة،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۲

فما فقدت بحضرتكم شيئاً إلّاهذا الدرهم، لا أجْبيه اليوم، فإن لم أجْبه اليوم أجْبِه غدا إن شاءاللَّه. واعلموا أنّ حربكم اليومَ معاوية أيسر عليكم فى الدنيا والدين من حربكم أمس عليّاً، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة، وإنّما أرسله علىّ ليصدَع أمرَ قومه، واللَّه ما هو بالأمير المطاع، ولو أدرك أمله فى قومه لرجع إلى أميرالمؤمنين أو لكان لى تبعاً، وأنتم الهامـةُ العظمى، والجزمرة الحاميـة، فقدِّموه إلى قومه، فإ اضطر إلى نصركم فسيروا إليه، إن رأيتم ذلك.

فقـام أبو صبرة شَـيْمان فقـال: يـا زياد، إنى واللَّه لو شـهدتُ قومى يومَ الجمل، رجوتُ ألّا يقاتلوا علياً، وقـد مضـى الأمرُ با فيه. وهو يوم بيوم، أمْر بأمر، واللَّهُ إلى الجزاء بالإحسان أسرعُ منه إلى الجزاء بالسيّىء، والتوبة مع الحقّ، والعفْو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء، واستئناف الامور، ولكنها جماعة دماؤها حرام، وجرُوحها قصاص، ونحن معك نحبّ ما أحببتَ.

فعجب زياد من كلامه، وقال: ما أظنُّ فى الناس مثل هذا.

ثم قـام صبرة ابنه، فقـال: إنـا واللَّه مـا أصِـبْنا بمصـيبة فى دين ولاـ دنيا كما أصِـبْنا أمس يوم الجمل، وانا لنرجوا اليوم أن نُمَحّص ذلك بطاعـة اللَّه وطاعـة أميرالمؤمنين، وأمّـا أنْتَ يـا زياد، فواللَّه ما أدركت أَمَلك فينا، ولا أدركْنَا أَملنا فيك دُون رَدّك إلى دارك، ونحن رادّوك إليهـا غـداً إن شـاءاللَّه تعالى، فإذا فعلنا فلايكن أحـدٌ أَوْلَى بك مِنّا، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يشـبهك، وإنا واللَّه نخاف من حرب علىّ فى الآخرة، مالا نخاف من حرب معاوية فى الدنيا، فقدّم هواك وأخِّر هوانا، فنحن معك وطوعك.

ثم قام خنقُر الحمانىّ، فقال: أيُّها الأمير، إنّك لو رضـيت مِنّا بما ترضـى به من غيرنا، لم نرض ذلك لأنفسنا، سِرْبنا إلى القوم إن شئت، وايمُ اللَّه مالقينا قوماً قطّ إلا اكتفينا بعفونا دون جَهْدنا؛ إلّا ما كان أمس.

قـال إبراهيم: فأمّا جاريـة، فإنّه كلم قومه فلم يجيبوه، وخرج إليه منهم أوباشٌ فناوشوه بعـد أنْ شـتمه أسـمعوه، فأرسل إلى زياد والأزْد، يستصـرِخهم ويـأمرهم أن يسـيروا إليه، فسـارت الأـزْد بزياد، وخرج إليهم ابنُ الحضـرمىّ، على خيله عبـداللَّه بن خازم السُّلمىّ، فاقتتلوا ساعة، أقبل شريك بن الأعور الحارثىّ- وكان من شيعة علىّ عليه‌السلام، وصديقا لجارية بن

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۳

قدامـة- فقال: ألا أقاتل معك عـدوّك؟ فقال: بلى؛ فما لبثت بنو تميم أنْ هزموهم واضـطروهم إلى دار سـنبيل السـعدى؛ فحصـروا ابنَ الحضـرمىّ وحـدُّوه، فـأتى رجل من بنى تميم، ومعه عبـداللَّه بن خازم السـلمىّ، فجاءت أمى وهى سوداء جشـية اسـمها عجلى، فنادته، فأشرف عليها، فقالت: يا بُنّى، انزل إلىّ، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قِناعها، وسألته النزول فأبى، فقالت:

واللَّه لتنزلنّ أو لأـتعرّينّ، وأهوت بيـدها إلى ثيابهـا، فلمـا رأى ذلك نَزَل، فـذهبت به، وأحاط جاريـة وزياد بالـدّار، وقال جاريـة: علىَّ بالنـار، فقـالت الأزد: لسـنا من الحريق بالنار فى شـىء؛ وهم قومُك وأنت أعلم، فحرّق جاريـة الـدَّار عليهم، فهلك ابنُ الحضـرمىّ فى سبعين رجلًا؛ أحـدهم عبـدالرحمن بن عميربن عثمان القرشـى التّيمىّ؛ وسُـمِّىَ جاريـة منـذ ذلك اليم محرِّقاً؛ وسارت الأزْد بزياد حتى أوطنوه قصـر الإمـارة؛ ومعه بيت‌المال، وقالت له: هل بقى علينا مِنْ جوارك شـىء؟ قال: لا، قالوا: فبرّئنا منه؟ فقال: نعم؛ فانصـرفوا عنه.

وكتب زياد إلى أميرالمؤمنين عليه‌السلام:
أما بعد، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قَدِم من عندك، فناهَضَ جَمْع ابن الحضرميّ بمن نصره وأعانه من الأزد، ففضّه واضطره إلى دارٍ مِنْ دور البصرة فى عدد كثير من أصحابه، فلم يخرج حتى حكم اللَّه تعالى بينهما، فقتِل ابنُ الحضرمى وأصحابه، منهم من أحرق بالنار؛ ومنهم من أُلْقى عليه جدار؛ ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه؛ ومنهم من قُتِل بالسيف، وسلم منهم نفر أنابوا وتابوا، فصفح عنهم، وبعداً لمن عصى وغوى! والسلام على أميرالمؤمنين ورحمة اللَّه وبركاته.

۲- خصائص المسلمين الاوائل

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى خصائص مسلمى صدر الإسلام فى أنّهم كانوا مطيعين لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولم يأبهوا بابائهم واخوانهم وابناءهم فى ميادين القتال، فكانوا يصاولونهم ليجرعوهم القتل من أجل تحقيق الاهداف الإسلامية المقدسة. كانوا يتحلون بالاخلاص وصدق النية؛ الأمر الذى جعل اللَّه يؤيدهم بنصره ويفيض عليهم من لطفه وفضله حتى إنتشر الدين واضاء نور الحق واليقين فى أنحاء العالم. والحق لو أنّ المسلمين الأوائل كانوا على
نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۴
غرار أهل الكوفة لما تنفس الإسلام وتنهنه حتى فى مكة والمدينة، ولو كانت إرادتهم الفردية هى الحاكمة وتمردوا على أوامر قيادتهم الربانية لما اخضر عود شجرة الإسلام ولانهارت أعمدة خيمة الإيمان. وبالطبع فانّ كثيراً من اولئك كانوا ممن أدرك عصر النبى صلى الله عليه و آله أو رأى أصحابه، إلّاأنّ إرادتهم ضعفت ووهنت إثر تلك الأحداث التى أعقبت رحيل رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله، ولا سيما على عهد الخليفة الثالث واقبال الناس على الدنيا والاغترار بزخارفها والخلود إلى الراحة والدعة بعد تنامى الأموال والثروات بفعل الفتوحات الإسلامية، إلى جانب الدعاية الواسعة التى كان يمارسها المنافقون وأعداء الدين.
نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۵

الخطبة[۶۴۲] السابعة والخمسون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام
فى صفة رجل مذموم، ثم فى فضله هو عليه السلام

نظرة إلى الخطبة

هناك أبحاث بين شرّاح نهج‌البلاغة بشأن المقصود بكلام الإمام عليه السلام إلّاأن المشهور أنّ المراد به معاوية. فقد ذكر ابن أبى‌الحديد فى شرحه: وكثير من الناس يذهب إلى أنّه عليه السلام عنى زياداً، وكثيراً منهم يقول إنّه عنى الحجاج أو المغيرة، والأشبه عندى أنه عنى معاوية، لأنّه كان موصوفا بالنهم وكثرة الأكل، وكان بطيناً، يقعد بطنه إذا جلس على فخذيه.[۶۴۳]
وروى أبو عثمان الجاحظ فى كتاب السفيانية أنّ أباذر قال لمعاوية: سمعت رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله قال:
«إذا ولى الامّة الاعين الواسع البلعوم الذى يأكل ولا يشبع فلتأخذ الامّة حذرها منه»،
كما أورد عدة روايات من المصادر المعروفة من قبيل تأريخ الطبرى وتأريخ الخطيب وكتاب صفين عن أبى سعيد الخدرى وعبداللَّه‌بن مسعود أنّ رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه، أو فاضربوا عنقه»[۶۴۴]

فالعبارات الواردة فى الرواية والتى تشبه

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۶

عبارات الخطبة تفيد أنّها بشأن معاوية. والشاهد الآخر موضوع السب الذى ورد أخر الخطبة، حيث نعلم جميعاً بان معاوية كان يحرض الناس على سب أميرالمؤمنين عليه السلام من على المنابر، فهل من داع للتحرى عن فرد آخر وردت بشأنه الخطبة سوى التعصب والعناد؟! على كل حال فانّ الإمام عليه السلام تحدث فى هذه الخطبة عن حاكم نهم أكول مندحق البطن يأمر الناس بسبه والبراءة منه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظيفة الامّة حيال ذلك. وقد أثبت التأريخ صحة نبوءة الإمام عليه السلام التى تحققت فى عهد معاوية. وأخيرا أشار الإمام عليه السلام إلى بعض فضائله فى آخر الخطبة.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۷

«أَمَّا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِى رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُوم، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ وَيَطْلُبُ مَا لا يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ أَلا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّى وَالْبَراءَةِ مِنِّى، فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِى، فَإِنَّهُ لِى زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ وَأَمَّا الْبَراءَةُ فَلا تَتَبَرَّءُوا مِنِّى، فَإِنِّى وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ».

الشرح والتفسير

إحذروا العدو

كما أوردنا سابقا على ضوء الأحاديث والروايات أن الإمام عليه السلام تنبىء بحكومة معاوية وما تفضى إليه هذه الحكومة من مفاسد فقال:

«أما إنّه سيظهر عليكم بعدى رجل رحب، البلعوم ۶۴۵]، مندحق ۶۴۶] البطن، ياكل ما يجد ويطلب ما لايجد».

يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى وضعه الظاهرى، حيث تفيد بعض الروايات أنّه كان بهذه الصفات، ومن هنا كان أكول، ويمكن أن تكون كناية عن حالته الروحية والنفسية فى ظل الحكومة، فى أنّه حريص وتوسعى ولا يشعبه شيئا من الحكومة، ولا يبعد أن يكون المراد كلا المعنيين الروحى والجسمى أو الحقيقى والكنائى، وذلك لانه جمع النوعين من هذه الصفات.

ثم قال عليه السلام:

«فاقتلوه ولن تقتلوه»

قطعاً أنّ مخاطب الإمام عليه السلام بهذه العبارة هم أهل العراق، وكان يعلم الإمام عليه السلام بعدم قدرتهم على ذلك بسبب ضعفهم ووهن ارادتهم فى إتخذا القرار، أو أنّهم قد يستطيعون قتله إلّاأنّهم لايمتلكون الشجاعة والإرادة التى ترفعهم إلى ذلك. أمّا لماذا

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۸

حكم الإمام عليه السلام بقتله، فأوضح بسبب هو ذلك الفساد الذى أشاعه بين المسلمين ليكون مصداقا بارزاً للمفسد فى الأرض إلى جانب سلبه لأمن البلاد الإسلامية وأخيراً إثارته المعارك التى سفكت فيها دماء المسلمين. وناهيك عما سبق فقد ابتدع تلك البدع العظيمة التى غيرت معالم الدين إضافة إلى أمره بسبب أميرالمؤمنين على عليه السلام الذى قال بحقه رسولاللّه صلى الله عليه و آله

«من سب عليا فقد سبنى»[۶۴۷]

. ثم تنبئ الإمام عليه السلام بهذه المسألة فقال:

«إلّا وإنّه سيأمركم بسبى والبراءة منى»

وهذا بدوره يكشف عن مدى الحقد والضغينة التى كان يكنها معاوية لعلى عليه السلام رغم علمه بفضائله التى صرح بها رسولاللّه

صلى الله عليه و آله وسمعها القاصى والدانى والتى تثبت بطلان حكومته، ومن هنا سعى جاهداً ليحول دون اطلاع أهل الشام على هذه الاحاديث تمهيدا إلى منعها بالمرة وتحريفها. ثم أصدر أوامره بسب على عليه السلام من على المنابر وفى خطب صلاة الجمعة، حتى كان ينبرى أحدهم ليقول خير ما نختتم به خطبتنا سب أبى تراب، وبالطبع فانّ إشاعة السب تعنى عدم إمكانية التحدث بالفضائل، وهذه أسوأ بدعة ابتدعها معاوية يتعذر تبريرها على أى متعصب حقود، وما أروع ما قال الشاعر بهذا الشأن:

أعلى المنابر تعلنون بسبهوبسيفه نصبت لكم أعوادها[۶۴۸]

الجدير بالذكر أنّ بعض بطانة معاوية أذعن إلى أنّ السب بدعة ظالمة لترسيخ دعائم حكومة معاوية، ومنهم مروانبن الحكم، إلّاأنّه لما سئل عن علة السب، أجاب: «إنّه لا يستقيم لنا الأمر ألا بذلك»[۶۴۹]. ثم أوصى الإمام عليه السلام بكيفية التعامل مع هذه البدعة فقال «فامّا السب فسبونى، فانه لى زكاة ولكم نجاة وأما البراءة فلا تتبرأ وامنى، فانى ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة».

ويبدو من هذه العبارة أنّ السب أمر واجب الزامى لا إباحى لأنّه يتضمن حفظ دماء الشيعة وايصال مبادئ مدرسة أهل البيت عليهم السلام. إلّاان هذا الأمر قد يكتسب صفة الاباحة كما عبر عن ذلك علماء الاصول حيث أمر الوجوب يقتصر على احتمال المنع لتوهم الخطر، ومن هنا فان بعض تلامذه الإمام عليه السلام كرشيد الهجرى وميثم

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۰۹

التمار وقنبر وسعيد بن الجبير الذين صمدوا وأبوا سبوا على حتى قتلوا فأنّهم لم يرتكبو أى خلاف، بل أتوا بعمل عظيم أهلهم للشهادة. ويتضح ممّا سبق بأنّ المؤمن إذا عرض للاساءة من قبل العدو أو دفع الناس لانتهاك حرمته فانّ ذلك ليس فقط لا يحط من قدره فحسب، بل يزيده عزة وكرامة. وهنا يبرز هذا السؤال: ما الفرق بين السب والبراءة بحيث أذن الإمام عليه السلام بالسبب ولم يأذن بالبراءة لثلاث: أولًا: أنّه ولد على فطرة الإسلام والإيمان، ثانيا: أنّه كان من السابقين للإسلام والتصديق بالنبى صلى الله عليه و آله، والثالث: سبقه إلى الهجرة من مكة إلى المدينة؟ فقد كثر الكلام بين المفسرين بشأن الفارق بين السب والبراءة، لا يخلو بعضه من التكلف وعدم الاقناع، ويبدو أنّ الاقرب فى الفارق بينهما أحد أمرين: الأول أنّ سب الإنسان قد يكون إشارة إلى سوءه ولا يعطى مفهوم الكفر والشرك، أمّا البراءة فتعنى التبرى من دينه ومعتقداته كما ورد ذلك فى الآية الاولى من سورة التوبة: «بَرآءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ» وعليه فمفهوم البراءة من الإمام عليه السلام هو البراءة من الدين والإسلام، ومن هنا منع الإمام عليه السلام حتى من البراءة منه باللسان، فالواقع أنّ الإمام عليه السلام أذن بالإساءة إلى شخصه لكنه لم يأذن بالاساءة إلى دينه ولو لفظياً- والآخر أنّ أغلب الناس يتصورون أنّهم إذا إجبروا على كلام لا يمكنهم الاقتناع بالألفاظ ولابدّ من أن ترافقه النيّة، ومن هنا فمن اجبر على إجراء صيغة الطلاق فانه لابدّ أن يقصد اللفظ والمعنى حين الصيغة، ان كان طلاق المكره باطلًا إلّاأنّه يتضمن قصد الانشاء ولذلك لايستدل الفقهاء على بطلان هذا الطلاق بعدم قصد المعنى، بل يستندون فى بطلانه على الاكراه، ويصدق هذا الأمر على السب، فقصد السب سيئ، الا أنّ قصد البراءة أسوأ، لأنّ الأول يهدف نفى حرمة الإنسان، أمّا الثانى فيهدف البراءة من دينه ومعتقده؛ أى إسلامه وليس هنالك من مسلم مستعد لهذا العمل. والدليل على ذلك الامور الثلاث التى ذكرها الإمام عليه السلام فى نهيه عن البراءة:

الأمر الأول:

«فانّى ولدت على الفطرة».

أما كيف عَلّل نهيَه لهم على البراءة منه عليه‌السلام، بقوله:

«فإنّى ولدْت على الفطرة»؛

فإن هذا التعليل لايختص به عليه‌السلام، لأن كلّ أحدٍ يولَد على الفطرة؛ فقد قال النبى صلى اللّه عليه وآله:

«كلّ مولدٍ يولد على الفطرة؛ وإنّما أبواه يهودّانه وينصرانه».

نفحات الولايۀ، ج۲، ص: ۴۱۰

والجواب، أنّه عليه‌السلام عَلّل نهيه لهم عن البراءة منه بمجموع امور وعلل؛ وهى كونه ولد على الفطرة، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة؛ ولم يعلل بآحاد هذا المجموع، ومراده ها هنا بالولادة على الفطرة أنّه لم يولَدْ فى الجاهلية؛ لأنّه ولد عليه‌السلام لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل؛ والنبى صلى اللّه عليه وآله أرسِل لأربعين سنة مضت من عام الفيل؛ وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أنّه صلى اللّه عليه وآله مكَث قبل الرسالة سنين عشراً يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد؛ وكان ذلك إرهاصاً لرسالته عليه‌السلام فحُكْم تلك السنين العَشْر حكم أيّام رسالته صلى اللّه عليه وآله؛ فالمولود فيها إذا كان فى حجره وهو المتولّى لتربيته مولود فى أيام كأيام النبوّة، وليس بمولود فى جاهلية محضة، ففارقت حالُه حال مَنْ يدعى له من الصحابة ممّاثلته فى الفضل. وقد روى أنّ السَّنَة التى ولد فيها علىٌّ عليه‌السلام هى السنة التى بدئ فيها برسالة رسول‌اللّه صلى اللّه عليه وآله، فأُسمِع الهُتاف من الأحجار والأشجار، وكشف عن بصره، فشاهد أنواراً وأشخاصاً؛ ولم يخاطَب فيها بشىء. وهذه السَّنَة هى السنة التى ابتدأ فيها بالتبتّل والانقطاع والعزلة فى جبل حراء، فلم يزل به حتى كُوشِف بالرسالة، وأنزل عليه الوحى، وكان رسول‌اللّه صلى اللّه عليه وآله يتيمن بتلك السنة وبولادة عَلىّ عليه‌السلام فيها، ويسِّميها سنَةَ الخَير وسنة البركة؛ وقال لأهله ليلة ولادته، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية، ولم يكن مِنْ قبِلها شاهد من ذلك شيئاً:

«لقد وُلد لنا الليلة مولود يَفْتَحُ اللّه علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة»،

وكان كما قال صلوات اللّه عليه، فإنّه عليه‌السلام كان ناصره والمحامىَ عنه وكاشف الغّماء عن وجهه؛ وبسيفه ثبتَ دينُ الإسلام، ورست دعائمه، وتمهّدت قواعده عليه‌السلام.

الأمر الثانى

«وسبقت إلى الإيمان»

فقد أجمعت الامّة الإسلامية على أنّ أول من أسلم بعد خديجة الكبرى على بن أبى طالب عليه السلام. وتسالم الفريقان على أنّ على عليه السلام أول من أسلم. وقال ابن أبى الحديد لم يتردد فى ذلك أحد من علماء الإسلام.[۶۵۰]

الأمر الثالث: «والهجرة» كيف قال:

«إنّه سبق إنّى الهجرة»

ومعلوم أنّ جماعة من

نفحات الولايۀ، ج۲، ص: ۴۱۱

المسلمين هاجرو اقبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره؛ وقد هاجر أبوبكر قبله، لأنّه هارج فى صحبة النبى صلى اللّه عليه وآله؛ وتخلف علىّ عليه‌السلام عنهما، فبات على فراش رسول‌اللّه صلى اللّه عليه وآله؛ ومكث أيّاماً يردّ الودئع التى كانت عنده، ثم هاجر بعد ذلك؟

والجواب، أنّه عليه‌السلام لم يقل:

«وسبقت كلّ الناس إلى الهجرة»؛

وإنّما قال:

«وسبقت»

فقط؛ ولا يدلّ ذلك على سَبْقه للناس كافة؛ ولا شبهة أنّه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة، ولم يهاجر قبلَه أحد إلّانفر يسير جداً.

وأيضا فقد قلنا إنّه علّل أفضليّته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور: منها ولادته على الفِطْرة، ومنها سبقه إلى الإيمان، ومنها سَبْقة إلى الهجرة؛ وهذه الامور الثّلاثة لم تجتمع لأحد غيره؛ فكان بمجموعها متميّزاً عن كلّ أحد من الناس.

تأمّلات

۱– علهٔ عدم ذكر الإمام عليه السلام للشخص المقصود بالخطبهٔ

أوردنـا سابقـاً أنّ كافـهٔ القرائن تـدل على أنّ المراد بالشـخص الـذى بين الإمـام عليه السـلام صـفاته هو معاويـهٔ، وذلك لانطباق كافهٔ الاوصاف عليه إلى جانب كونه هو الذى سن سبّ الإمام عليه السـلام ولم يبتدع هذاالأمر أحد غيره، ولعل عدم التصريح به يستند إلى رعايهٔ متانهٔ البيان، أو إثارهٔ حس الاطلاع لدى الامّهٔ لتقف بصورهٔ أعمق على هذا المطلب ولا سيما بالاستناد إلى هذه الصفات، أضف إلى ذلك فانّ الخطبهٔ حيث تضمنت بعض النبوءات الصريحهٔ فانّ الإمام عليه السلام لم يشئ الافصاح أكثر عن هذه الموضوع.

۲– لماذا حكم الإمام عليه السلام بهدر دم معاويهٔ؟

لقد صـرّح الإمام عليه السـلام فى هذه الخطبهٔ بقتل من إشـتمل على هذه الصفات، كما قال ولن تقتلوه. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: لم هدر الإمام عليه السـلام دمه؟ والجواب واضح لدى العلماء والفقهاء، لأنّ من يخرج على الإمام المعصوم فهو ناصبى خارج من ربقهٔ الإسلام، وقد خرج على إمام ثبتت إمامته بنص رسولاللّه صلى الله عليه و آله وعن طريق بيعهٔ الامّهٔ. أضف إلى ذلك فقد رسخ

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۴۱۲

معاويـهٔ أساس الفساد فى الأرض وبابشع وأوسع صوره، وقـد جيش الجيوش ضـد الإمام عليه السـلام حتى سالت أنهاراً من الـدماء فى تلك المعارك. إلى جانب بعثه ببعض أشـقيائه لشن الغارات تلو الغارات على مناطق العراق المعروفـهٔ وأخيراً قتله لمحمـد بن أبى بكر ومالك الأشتر وسائر كبار صـحابهٔ الإمام عليه السـلام لتجعله فى مصاف المفسـدين فى الأرض والـذى حكم القرآن بهـدر دمهم. فاذا كان هناك بعض الأفراد المتعصبين الذين لايكترثون لكل هذه الأعمال ويبررونها باسم الاجتهاد فلنا كلام آخر. فقد ورد فى الحديث الشريف أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال:

«يا على حربك حربى وسلمك سلمى»[۶۵۱]

وكلنـا نعلم بأنّ حرب رسولاللّه صـلى الله عليه و آله تجب الكفر حيث يصـطلح على من يحاربه بالكافر الحربى الـذى يباح دمه. وورد فى حديث آخر أنّ ابن عباس كان قد كف بصـره فمر بجماعهٔ يتحدثون فسأل دليله ماذا يقولون: أجاب: يسـبون علياً عليه السـلام. قال فاحملنى إليهم ثم سألهم: لم تسـبون اللّه؟ قالوا سـبحان اللّه من سبّ اللّه فقد كفر، قال: فمن منكم سبّ رسولاللّه صلى الله عليه و آله؟ قالوا سبحان اللّه من سب رسولاللّه صلى الله عليه و آله فهو كافر. قال فمن سبّ علياً عليه السلام؟

قالوا: نعم نحن سببناه. قال ابن عباس فانّى أشهد اللّه أنى سمعت رسولاللّه صلى الله عليه و آله قال

«من سب علياً فقد سـبنى ومن سـبنى فقد سب اللّه عزوجل ومن سب اللّه أكبه اللّه على منخريه فى النار. ثم التفت ابن عباس إلى دليله وقال له: كيف رأيتهم. فانشد يقول:

نظروا إليك باعين محمرهٔنظر التيوس إلى شفار الجارز

قال ابن عباس: فداك أبوك زدنى. فقال:

خزر العيون نواكس أبصارهمنظر الذليل إلى العزيز القاهر

أحيائهم عار على أمواتهموالميتون فضيحهٔ للغابر[۶۵۲]

ومن الطبيعى أنّ الحكم المذكور إذا كان السب يستند إلى الإرادهٔ والاختيار ويستثنى منه الاكراه والتهديد والاجبار.

جدير بالذكر أنّ ابن أبىالحديد قال، لو إفترضا أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم ينص على خلافهٔ على عليه السلام

نفحات الولايهٔ، ج۲، ص: ۴۱۳

أفلم يسمع معاوية قوله صلى الله عليه و آله لعلى عليه السلام:

«أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت»

وقوله:

«حربك حربى وسلمك سلمى»[۶۵۳]

ومن الطبيعى أنّ من يحارب رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله يهدر دمه، وعليه فالذى يحارب الإمام عليه السلام يهدر دمه.

۳- تأريخ سب الإمام على عليه السلام

قوله عليه‌السلام:

«يأمركم بسبّى والبراءة منى»

، فنقول: إنّ معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسبّ علىّ عليه‌السلام والبراءة منه.

وخطب بذلك على منابر الإسلام، وصار ذلك سنة فى أيّام بنى‌أمية إلى أنْ قام عمر بن عبدالعزيز رضى اللّه تعالى عنه فأزاله. وذكر شيخُنا أبوعثمان الجاحظ أنّ معاوية كان يقول فى آخر خطبة الجمعة: اللّهم إنّ أباتراب ألْحَد فى دينك، وصدّ عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلًا، وعذبه عذاباً أليماً. وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر؛ إلى خلافة عمربن عبدالعزيز.

وذكر أبو عثمان أيضاً أنّ هشام‌بن عبدالملك لما حجّ خطب بالموسم، فقام إليه إنسان، فقال:

يا أميرالمؤمنين، إن هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبى‌تراب، فقال: اكفف، فما لهذا جئنا.

وذكر المبرّد فى "الكامل "أنّ خالد بن عبداللّه القسرى لَمّا كان أمير العراق فى خلافة هشام، كان يلعن عليّاً عليه‌السلام على المِنْبر، فيقول: اللهمّ الْعن علىّ بن أبى‌طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، صهر رسول‌اللّه صلى اللّه عليه وآله على ابنته، وأباالحسن والحسين! ثم يقبل على الناس، فيقول هل كَنَّيت!

وروى أبو عثمان أيضاً أنّ قوماً من بنى‌أميّة قالوا لمعاوية: يا أميرالمؤمنين، إنّك قد بلغتَ ما أمّلت، فلو كففت عن لَعْن هذا الرجل! فقال: لا واللّه حتى يربوَ عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلًا!

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۱۴

قال محمد بن الحنفية فى على عليه السلام: كان يدَ اللّه على أعداءاللّه، وصاعقةً من أمره أرسله على الكافرين والجاحدين لحقّه، فقتلهم بكفرهم فشنئوه وأبغضوه، وأضمروا له الشّنف والحسد، وابن عمه صلى اللّه عليه وسلّم حىّ بعدُ لم يمت؛ فلما نقله اللّه إلى جواره، وأحبّ له ما عنده، أظهرتْ له رجال أحقادها، وشفَتْ أضغانها، فمنهم مَن ابتزّ حقه، ومنهم من ائتمر به ليقتله، ومنهم مَنْ شتمه وقذفه بالأباطيل؛ فإن يكن لذرّيته وناصرى دعوته دولة تنشر عظامهم، وتحفِر على أجسادهم؛ والأبدانُ منهم يومئذ بالية، بعد أن تقتل الأحياء منهم، وتذلّ رقَابهم، فيكون اللّه عزّ اسُمه قد عذَّبَهُم بأيدينا وأخزاهم؛ ونصرنا عليهم، وشَفَا صدورَنا منهم؛ إنّه واللّه ما يشتم علياً إلّاكافر يُسِرّ شتم رسول‌اللّه صلى اللّه عليه وآله ويخاف أن يبوحَ به، فيكنى بشتم علىّ عليه‌السلام عنه. ما إنّه قد تخطّت المنيةُ منكم مَن امتدّ عمره، وسمع قولَ رسول‌اللّه صلى اللّه عليه وآله فيه:

«لا يحبّك إلا مؤمن ولا يُبغضك إلّا منافق، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون».

۴- التقية وسيلة دفاعية

تطرق بعض شرّاح نهج‌البلاغة هنا إلى موضوع التقية وشرعيتها، ولا- بأس أن نتعرض إليها هنا بصورة مختصرة ونوكل الخوض فى

التفاصيل إلى محلها. فالتقية بالمعنى اللغوى إجتناب الشىء بينما ذكروا لها عدة تعاريف إصطلاحية، أهمها إخفاء العقيدة أو الدين خوف الضرر أو لمصلحة من المصالح ومنها حفظ الوحدة واجتناب الاختلاف أمام الأعداء. ويستند هذا المعنى إلى القرآن الذى تحدث عن أصحاب رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله حين كانوا قلة:

«لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذ لِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيءٍ»

ثم قال:

«إِلّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً»[۶۵۴]

، فقد تحدثت الآية صراحة عن التقية بما لايبقى من مجال للشك فيها. أما قصة تقية عمار ونطقه ببعض الكلمات ضد الإسلام والنبى صلى الله عليه و آله أمام المشركين

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۴۱۵

فهى مشهورة معروفة، فقد إضطر لتلك الكلمات، ثم أتى رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله باكياً خشية فساد دينه وإيمانه، فهدأه رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله فى أنّ الاكراه هو الذى دفعه إلى ذلك فلا ضرر على دينه وأنّ اللَّه أنزل بحقه قرآناً: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ»[۶۵۵] «وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ»[۶۵۶] النموزج الآخر للتقية ما ورد فى سورة غافر بشأن مؤمن آل فرعون: «وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ»[۶۵۷] فالقرآن يثنى على هذا المؤمن ويستحسن كلامه ويصرح برضى اللَّه بتقيته. كما تظافرت الروايات الإسلامية التى أكدت على أهمية التقية لتصفها بانّها تقى المؤمن مخاطر الأعداء وتحفظ دمه وأن التقى من الدين، ومن لا تقية له لا دين له، والإيمان بلا تقية كالجسد بلا رأس، وأنّها من أفضل الأعمال، ولا نرى البحث يتسع للخوض فى التفاصيل، ومن أراد المزيد فليرجع إلى القاعدة السابعة من المجلد الأول لكتاب القواعد الفقهية. أضف إلى ذلك فانّ فلسفة التقية واضحة، وهى أنّ اظهار العقيدة الباطنية أحياناً قد يسبب بعض الأخطار على النفس والعرض والمال دون أن تترتب عليه أية فائدة، فالعقل يحكم بضرورة عدم إهدار القوى والطاقات عبثاً، ولابدّ من حفظها بواسطة التقية واستثمارها فى المواقع المطلوبة. ولعل هذا هو المعنى المراد بوصفها بترس المؤمن أو جنة المؤمن. فالواقع هو أنّ التقية لاـ تعنى الفرار من المسؤولية، بل هى أشبه بالتكتيك الحربى عن طريق الاستتار وإعادة تنظيم القوة واللجوء إليها فى الوقت المناسب.

ج ج

نفحات الولايه، ج۲، ص: ۴۱۷

الخطبة[۶۵۸] الثامنة و الخمسون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

كلم به الخوارج حين اعتزلوا الحكومة وتنادوا:

لا حكم إلّااللَّه

نظرة إلى الخطبة

تفيد عبارات هذه الخطبة أنّ الخوارج ذهبوا إلى أنّ الحكم للَّه بعد أن فرضوا التحكيم على الإمام عليه السلام ورجعوا عنه، وأن من

ینکر ذلک الشعار قد خرج من الدین، ثم إندفعوا أبعد من ذلک لیتهموا علی علیه السلام بالخروج من الإسلام لقبوله التحکیم وعلیه أن یتوب. والحال أنّ التحکیم فرض علی الإمام علیه السلام، ولو فرضنا ان الإمام علیه السلام إقترح ذلک فاصل التحکیم لایخالف الإسلام، وانحرف فی صفین واستغل من قبل معاویة. علی کل حال فان الإمام علیه السلام یدعو علیهم ویذکرهم بسوء مقالتهم، ثم یخبر عن المستقبل المظلم للخوارج والذل الهوان الذی ینتظرهم.

ج ج

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۴۱۹

«أَصابَکُمْ حاصِبٌ، وَلا بَقِیَ مِنْکُمْ آثِرٌ، أَبَعْدَ إِیمانِی بِاللَّهِ وَجِهادِی مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلی الله علیه و آله أَشْهَدُ عَلَی نَفْسِی بِالْکُفْرِ! لَقَدْ «ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنا مِنَ الْمُهْتَدِینَ» فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ وَارْجِعُوا عَلَی أَثَرِ الْأَعْقابِ، أَمَا إِنَّکُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِی ذُلًّا شامِلًا وَسَیْفاً قاطِعاً وَأَثَرَةً یَتَّخِذُها الظَّالِمُونَ فِیکُمْ سُنَّةً».

الشرح والتفسیر

فضاعة مظلومیة الإمام علیه السلام

کما ذکرنا أنّ الإمام علیه السلام خطب هذه الخطبة حین رأی الخوارج التحکیم فی صفین ثم رجعوا عنه ورفعوا شعار «لا حکم إلّاللَّه» وطالبوا الإمام علیه السلام بالتوبة لقبوله التحکیم لیلتحقوا به فیقاتلوا أهل الشام، فقال علیه السلام:

«أصابکم حاصب، ولابقی منکم آثر، أبعد إیمانی باللَّه وجهادی مع رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله أشهد علی نفسی بالکفر، لقد «ظللت إذا وما أنا من المهتدین».

یالها من مصیبة أن یبتلی بهؤلاء الحمقی فرد مثل علی علیه السلام أول من آمن باللَّه ورسوله صلی الله علیه و آله ووقف إلی جانبه فی جمیع الغزوات- ألا فی البعض التی استخلفه فیها رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله- وثبت فی المواقع التی تنکص فیها الابطال لیسقی شجرة الإسلام والتوحید بلسانه وسیفه، فیطالبه اولئک الحمقی بالاعتراف بالکفر والتوبة. ولعل تأریخ الإسلام لم یشهد مثل هذه الحادثة المروعة، ومن هنا نقول بأنّ مظلومیة الإمام علیه السلام کانت وما زالت تفوق من سواه. وکما صرح علیه السلام فی الخطبة السابقة:

«فانّی ولدت علی الفطرة وسبقت إلی الإیمان والهجرة»

؛ الأمر الذی أکده علماء الفریقین وأنه لم یشرک باللَّه طرفة عین أبداً أنّه خاض غمار الجهاد مع رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله فی کافة الغزوات سوی تبوک حین کلفه النبی صلی الله علیه و آله بحفظ المدینة، العبارة «أصابکم حاصب» وبالالتفات إلی أنّ المراد بالحاصب الریح الشدیدة التی تثیر الحصباء بحیث قد تدفن أحیاناً قافلة، تفید الدعاء علیهم فی أن یرسل اللَّه علیهم العذاب السماوی، کما یمکن

نفحات الولایة، ج۲، ص: ۴۲۰

أن تکون کنایة عن المشاکل الاجتماعیة التی تعصف بحیاتهم والعبارة «ولا بقی منکم آثر» واستناد إلی أنّ المقصود بالأثر الشخص الذی یأثر الحدیث، أی یرویه، فکأنّه قال علیه السلام لابقی منکم مخبر وهلکتم بأجمعکم (طبعاً نقلت هذه المفردة بعدة صور ذات معان مختلفة سنعرض لها فی شرح کلام السید الرضی آخر الخطبة». ثم تساءل الإمام علیه السلام باستغراب عن ذلک الطلب المشین وهو من روّی شجرة الإسلام بجهاده العظیم ومواقفه المشهودة وشده أزر رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله، فهو أول من آمن وأسلم وهاجر، فهل لمثل هذا الفرد أن یضل وینحرف عن السبیل. ثم أشار علیه السلام إلی موضوعین، الأول دعاؤه علیهم

«فأبوا[۶۵۹] شرمآب وارجعوا علی أثر الاعقاب»[۶۶۰]

فقد دعا عليهم فى العبارة الاولى سائلًا اللَّه لهم الذلة والهوان فى الدنيا والآخرة، وفى العبارة الثانية سأل اللَّه أن يبتلهيم بما ابتلى به مشركى الجاهلية الذى كانوا على غرار الخوارج يرون آيات اللَّه ثم يجحدونها. وذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ قوله:

«ارجعوا ...»

أراد به توبوا، بينما تفيد قرينة هذا القول انه استمرار للدعاء السابق. والثانى نبوءته بمستقبلهم

«أما ارنكم ستلقون بعدى ذلا شاملا وسيفاً قاطعاً وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة»

جدير بالذكر أنّ نبوء الإمام عليه السلام بحق الخوارج قد تحققت حيث ابيدوا فى مختلف الحروب وتجرعوا الذل والهوان. وقد أفرد ابن أبى الحيدد فصلا أسماه أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم ليخوض فى تفاصيل أحداث زعمائهم وسنتطرق إلى ذلك فى الأبحاث القادمة.

قال السيد الرضى (ره) شارحاً بعض مفردات الخطبة: قوله عليه السلام

«ولا بقى منكم آبر»

يروى على ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون كما ذكرناه: آبر بالراء، من قولهم للذى يأبر النخل- أى يصلحه- ويروى «آثر» وهو الذى يأثر الحديث ويرويه أى يحكيه، وهو أصح الوجوه عندى، كأنّه قال: لا ـ بقى منكم مخبراً، ويروى آبز- بالزاى المعجمة- وهو الواثب. والهالك أيضاً يقال له «آبز».

ج ج

اثرة اسم مصدر من مادة استئثار بمعنى الاستبداد.

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۲۱

الخطبة[۶۶۱] التاسعة والخمسون

اشارة

وقال عليه السلام

لما عزم على حرب الخوارج، وقيل له: إنّ القوم عبروا جسر النهروان.

«مَصارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ وَاللَّهِ لا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ وَلا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ».

الشرح والتفسير

هل من سبيل لعلم الغيب

لاشك ولا ريب أنّ الرسول الكريم صلى الله عليه و آله وائمة العصمه عليه السلام قد أخبروا كراراً عن الامور الغيبية، وبعبارة اخرى لهم علم بالغيب، القرآن تحدث عن المسيح عليه السلام فى أنّ العلم بالغيب كان يمثل إحدى معجزاته فقال «وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ»[۶۶۲] كما يختتم هذه الآية بان ذلك من آيات اللَّه وصدق دعوى نبوته.

وقد حفل نهج‌البلاغة ومنه هذا الكلام بالأخبار عن المغيبات. أمّا أنى للإمام عليه السلام بعلم الغيب؟ ما حدود علم المعصوم بالغيب؟ وما تفسير الآيات التى حصرت على الغيب باللَّه؟

وكيف تفسر الروايات الواردة بشأن إثبات هذا العلم للمعصومين؟ وما إلى ذلك من أسئلة واستفسارات فقد أوكلنا الإجابة عليها فى شرح الخطبة ۱۲۸.

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۴۲۳

الخطبهٔ[۶۶۳] الستون

اشارهٔ

و قال علیه السلام

لما قتل الخوارج فقیل له: یا أمیرالمؤمنین هلک القوم بأجمعهم

«کَلَّا وَاللَّهِ، إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِی أَصْلابِ الرِّجالِ، وَقَراراتِ النِّساءِ، کُلَّما نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّی یَکُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَّابِینَ.»

الشرح والتفسیر

مصیر الخوارج

هذا الکلام إستمرار لما ورد فی الأبحاث السابقهٔ بشأن الخوراج. وهنا أشار الإمام علیه السلام إلی بعض النبوءات بشأن الخوارج؛ الأمر الـذی یمکن اعتبـاره من معـاجزه علیه السـلام فقـد إسـتهل کلامه بـالرد علی بعض أصـحابه ممن قال له: یا أمیرالمؤمنین هلک القوم بأجمعهم فقال:

«کلا واللَّه، إنهم نطف فی أصلاب الرجال وقرارت ۶۶۴] النساء»

فحتی لو قتل هؤلاء، فهناک النطف التی

نفحات الولایهٔ، ج۲، ص: ۴۲۴

ستلد فی المستقبل وتقتفی آثار الخوارج، وهـذا مـا حصل بالفعل حیث ظهر مثل هؤلاء الأفراد بعـد سـنوات، بل قرون لینتهجوا ذات السبیل الذی سـلکه أوائلهم. أضف إلی ذلک وکما أشیر سابقا فقد نجی تسـعهٔ أفراد من أصحاب النهروان وفروا إلی مختلف المناطق لیرمموا هذه المدرسهٔ الفاسدهٔ ویعیدوا بنائها ممن جانب آخر فاننا نعلم بأنّ من حضـر النهروان لم یکونوا جمیع الخوارج، بل الخوارج.

ثم اماط اللثام عن تبوءهٔ اخری فقال علیه السلام:

«کلما نجم ۶۶۵] منهم قرن قطع»

فالعبـارهٔ إشـارهٔ إلی وحشـیهٔ الخوارج من جهـهٔ وأنّهم کـالحیوان الـذی له قرن لاذی الآخرین، ومن جهـهٔ اخری یشیر إلی الانتکاسات المتتالیـهٔ والهزائم المتتابعـهٔ التی یمنی بها الخوارج طیلـهٔ حیاتهم المقیتـهٔ؛ الأمر الذی تحقق تأریخیاً وسـنتعرض له فی البحث القادم. ثم یختتم الإمام علیه السلام کلامه قائلًا:

«حتی یکون آخرهم لصوصا سلابین»

وهذا هو الأمر الآخر الذی ثبت تحققه تأریخیاً، حیث تعرض أرباب التأریخ إلی عدد من مشـهوری الخوارج ممن تحولوا إلی لصوص خطرین، وسنعرض لهذا الأمر بالتفصیل لاحقاً.

تأمّلات

۱- الخوارج ظاهرهٔ لافرقهٔ

یسـتفاد من کلام الإمام علیه السـلام أنّ الخوارج لم یکونوا فرقـهٔ معینهٔ، یقدر ما کان یراهم الإمام علیه السـلام ظاهرهٔ حیهٔ طیلهٔ التأریخ الإسـلامی، حتی أنّ القرائن تفیـد أن هـذه الظاهرهٔ کانت علی عهـد رسولاللَّه صـلی الله علیه و آله، فقد أورد المفسـر الجلیل المرحوم

الطبرسی عن أبی سعيد الخدری فی ذيل الآية «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِی الصَّدَقاتِ ...»[۶۶۶] أنّ رسول‌اللَّه صلی الله عليه و آله حين قسم غنائم قبيلة هوازن علی المسلمين يوم حنين قام إليه حرقوص‌بن زهير وقال: اعدل يا محمد! فقال رسول‌اللَّه صلی الله عليه و آله: فمن ذا يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: دعنی أضرب عنقه يا رسول‌اللَّه، فقال صلی الله عليه و آله:

«دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»

وأضاف المرحوم الطبرسی وجاء فی حديث آخر أنّ النبی صلی الله عليه و آله قال:

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۲۵

«فاذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم»

فترلت الآيـة المـذكورة: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِی الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ». فالواقع أنّ هذه الكلمات تفيـد إمتداد الجذور الفكرية للخوارج إلی عصـر النبی صـلی الله عليه و آله وأنّهم لم يكونوا يتورعون حتی عن مجابهة النبی صلی الله عليه و آله إذا تعرضت مصـالحهم للخطر. ونقـل ابن أبی الحديـد عن مسـند أحمـد بن حنبـل أنّ عائشـة سـألت مسـروق: هل عندك علم من المخدج (أحد زعماء الخوارج)؟ فقلت: نعم، قتله علی بن أبی طالب علی نهر قالت عائشة: إبغنی علی ذلک بينة. فأقمت رجالًا شـهدوا عنـدها بـذلک. قال فقلت لها: سألتک بصاحب القبر، ما الـذی سـمعت من رسول‌اللَّه صـلی الله عليه و آله فيهم؟ فقالت: نعم سمعته يقول:

«إنّهم شر الخلق والخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة وأقربهم عنداللَّه وسيلة»[۶۶۷]

. هـذا ويمكن ايجاز مميزات الخوارج فيمايلی: إنّهم طائفة تعنی كثيراً بظواهر العبادات وحتی المستحبات والمكروهات البسيطة وهذا ما جعلهم يعيشون الغرور ويشـعرون بالعجب، وبالمقابل كانوا أفراد جاهلين متعصبين خارجين عن حـدود الادب والخلق، ولا يتورعون عن أقذر الأساليب من أجل تحقيق مآربهم، وأفضل نموذج علی ذلک سوء خلق

«ذو الخويصرة»

(حرقوص) وفضاضـته تجاه النبی صـلی الله عليه و آله. صحيح أنّ الخوارج ظهروا فی صفين بعد التحكيم إلّاأنّ هذا لايعنی عدم وجود إمتـداداتهم الفكريـة لمـا قبل عصـر الإمام عليه السـلام ومازلنا إلی اليوم نلمس ثقافتهم وأفكارهم المنحطـة لـدی بعض طبقات وفئات مختلف المجتمعـات البشـرية، ولعـل أغلب الوهـابيين ينتمون إلی هـذه الزمرة، لأنّهم يتصـفون بصـفاتهم. كمـا نری فی أوساطنا بعض الأفراد الشديـدی الالتزام بقشور الـدين بينما يرون إنحراف كبار علماء الـدين عن الصـراط المسـتقيم ويسـعون جاهدين لاثارة البلابل والفتن. ولايبـدو القتـال علاجـاً لمرض هـذه الفئـة الضـلالة، بل علاجها يكمن فی رفع المسـتوی الثقامی للُامّـة وانفتاحها علی المسائل الدينية والعقائدية؛ الأمر الذی صرح به الإمام عليه السلام فی الخطبة القادمة. وقد أشار الإمام عليه السلام فی الخطبة السادسة والثلاثين إلی مدی جهل هؤلاء الأفراد فقال

«وأنتم معاشر أخفاء الهام، سفهاء الاحلام ولم آت- لا أبالكم- بجرا ولا أردت

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۲۶

لكم ضراً».

وكفی هـذه الفرقـة ضـلالة وانحرافاً وفضاضـة ما فعلته بصـحابی النبی صـلی الله عليه و آله عبـداللَّه بن الخباب المعروف بورعه وتقواه وزوجته الحاملـة حيث قتلتهـا بتلـک الطريقـة البشـعة وبقرت بطن زوجته لأنّهمـا لم يتنكراً لعلی عليه السـلام بينما كانت تستشـكل قتل اليهودی، بـل كـانت لاتری جواز قتل الخنزير. بل كانوا يشـكلون علی أحـدهم إذا تناول تمرة مهملـة تحت شـجرة دون إذن صاحبها، بينما لايتورعون عن سفک دماء كبار صحابة رسول‌اللَّه صلی الله عليه و آله وأميرالمؤمنين عليه السلام. كان هنالک تناقضاً واضحاً بين ظاهرهم وبـاطنهم وأقوالهم وأفعـالهم، حتی إمتـد ذلـک التناقض إلی عقائـدهم الفقيهـة والكلاميـة، فكانوا يرون وجوب قتل مرتكب

الكبيرة، بينما يعتقدون بعدم الحاجة إلى الحاكم رغم الفوضى والهرج والمرج الذى يسود المجتمع. وتفيد القرائن أنّهم كانوا مفرطين فى المسائل الجنسية وغارقين فى الشهوات، ولعل هذا ما جعلهم يجوزون العقد على تسع نساء، ولا يرون الرجم عقوبة لمن زنا وهو محصن. ومن الطبيعى أن تتفرع هذه الفرقة عدة فروع بفعل ذلك الجهل والتعصب والحمق، ومن هنا لم تمض عليها مدة حتى انقسمت فرقاً لكل منها زعيم من قبيل الازارقة والنجدات والصفرية والعجاردة والثعالبة وما تشابه ذلك.

لعلنا نلمس هذه الفرقة اليوم فى الوهابية التى تعيش التمسك بظاهر العبادات وتتحرج فى المكروهات والمباحات وتؤدى المستحبات، بينما تكفر أغلب المسلمين من السنة والشيعة وتبيح دمائهم، ورغم ضحالتهم الفكرية وجمودهم إلّاأنّهم يرون أنفسهم أفضل من غيرهم، فهم كالخوارج يرون أنفسهم الحق المطلق وما سواهم باطلًا.

۲- الخوارج لصوصا سلابين

يشهد التأريخ بتحقق ما أخبر به الإمام عليه السلام عن الخوارج من أنّ آخرهم لصوصاً سلابين.

فمن بين الأفراد الذين ذكرهم ابن أبى الحديد الذى آل أمرهم إلى السرقة والسلب: الوليد بن طريق الشيبانى على عهد هارون الرشيد. فبعث له هارون بيزيد بن مزيد هو من بنى شيبان فقتله وأتاه برأسه وابن عمرو الخثعمى على عهد المتوكل العباسى الذى عرف بقطعه للطرق، فبعث له بأبى سعيد محمد بن يوسف الطائى، إلّاأنّه هرب بينما قتل جمع كثير من صحبه وأسر آخرون. ثم ظهرت جماعة منهم فى منطقة كرمان وعمان فكانوا مفسدين فى الأرض ومحاربين،

نفحات الولاية، ج۲، ص: ۴۲۷

أما أسماؤهم فقد أحصاها أبو اسحاق الصابى فى كتاب التاجى.[۶۶۸]

تم المجلد الثانى لشرح نهج‌البلاغة

لقد إنتهى المجلد الثانى من الشرح باختتام الخطبة الستين، ولا يسعنى هنا إلّاأن ابتهل إلى اللّه بفائق الشكر لما وفقنى من القيام بهذا العمل المتواضع سائلًا إياه الاخذ بيدى إلى إتمام هذا العلم، كما أسأله أن يوفقنا لأن نعيش هذه الكلمات على مستوى القلب والعمل فتقودنا إلى سعادة الدنيا والآخرة. وما توفيقى إلّاباللّه عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمدللّه رب العالمين.

السابع من صفر عام ۱۴۱۹

الولادة الميمونة للإمام الكاظم عليه السلام

---

[۱] (۱) نقل كتاب مصادر نهج البلاغة هذه الخطبة التى أوردها السيد الرضى رضى الله عنه فى الخصائص/ ۸۷ وأضاف فى ذيل الخطبة ۱۶۷- التى تعد هذه الخطبة جزءاً منها- قائلًا:(رواها« الطبرى» فى تأريخه ضمن حوادث سنة ۳۵ ه(مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۷۱ و ۲/ ۴۰۳).

ويتبين من الرجوع إلى تأريخ الطبرى أنّ الأمّة بايعت علياً عليه السلام يوم الجمعة لخمس بقين من شهر ذى الحجة وأنّها أول خطبة أوردها على عليه السلام ضمن خطبته ۱۶۷. تأريخ الطبرى ۳/ ۴۵۷.

[۲] (۱) منهاج البراعة ۳/ ۳۰۱.

[۳] (۱) معارج نهج البلاغه، بيهقى/ ۱۰۹.

[۴] (۱) منهاج البراعة ۳/ ۴- ۳.

[۵] (۱) لقد أورد هذه الخطبة وشرحها كل من المرحوم« الشيخ المفيد» فى« الإرشاد» فى‌الفصل ۲۲ من كلمات الإمام على عليه السلام، والكلينى فى« الكافى» ۵/ ۵۳ كتاب الجهاد إلى جانب بعض الخطب الأخرى، والمرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار ۳۲/ ۱۹۳. كما ذكرها ابن أثير فى عدة مواضع من كتابه النهاية بتناسب مفردات الخطبة. ويضيف مؤلف مصادر نهج البلاغة قائلًا: لقد أقتبست هذه الخطبة من سائر خطبه عليه السلام، فهو يعتقد بأنّها مرتبطة بالخطبة ۲۶، كما يرى بأنّ هذه الخطبة ذات إرتباط بالخطبة ۱۷۲- مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۷۳.

[۶] (۱) بحار الأنوار ۳۲/ ۲۶۷ ح ۲۰۶ نقلًا عن الاحتجاج للطبرسى.

[۷] (۲) شرح القطب الراوندى ۱/ ۱۸۸.

[۸] (۳) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۳۰۵.

[۹] (۱) لم تكن قضية المطالبة بدم عثمان شعار أهل الشام وذريعتهم لإشعال فتيل صفين، بل استغلت كذلك من‌قبل طلحة والزبير وعائشة لتنتهى بنشوب معركة الجمل. وقد ذكر ابن أثير- المورّخ المعروف- فى« الكامل» أنَّ عائشة حين قدمت إلى المدينة من مكّة سمعت أثناء الطريق بقتل عثمان واجتماع الأمّة على على عليه السلام، فاغتمت وقالت: ليت السماء أطبقت على الأرض ولم يقع هذا، ثم أمرت باعادتها إلى مكّة. فقالت« إنَّ عثمان قُتل واللّه مظلوماً» فقام إليها من قال لها: إنّك أول من تحدثت ضد عثمان واسميته نعثلًا(قيل أن نعثلًا رجل يهودى كث اللحية، وقال صاحب« لسان العرب» أن نعثلًا تعنى العجوز الأحمق) وأنت قلت: إقتلوا نعثلًا فقد كفر(الكامل ۳/ ۲۰۶).

[۱۰] (۲) ذمّر من مادة« ذمر» بمعنى« التشجيع والحث» وقيل بمعنى التحريك المقرون بالذم والعتاب، ومن هنا كان‌الذمر على وزن« الذهن» يعنى الرجل الشجاع والمتحرك.

[۱۱] (۳) جلب تعنى فى الأصل السوق والإنتقال ويقال الجلب بالنسبة للأفراد الذين يجمعون بسهولة. استجلب هنا بمعنى الإجتماع.

[۱۲] (۱) سورة المجادلة

[۱۳] (۲) سورة المجادلة/ ۱۹.

[۱۴] (۱) تأريخ الطبرى ۳/ ۴۵۳.

[۱۵] (۲) تأريخ الطبرى ۳/ ۴۱۱.

[۱۶] (۳) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۶/ ۲۱۵.

[۱۷] (۱) منهاج البراعة ۳/ ۳۱۰.

[۱۸] (۲)« الخيبة» بمعنى اليأس، والمراد بالداعى هنا طلحة والزبير الذين دعوا الناس للخروج على عثمان. وقوله‌إلام اجيب، تحقيراً لاولئك الذين اتبعوهما دون دليل.

[۱۹] (۱) سورة الحجرات/ ۹.

[۲۰] (۲) إحقاق الحق ۴/ ۹۹ نقلًا عن ينابيع المودة.

[۲۱] (۱) العبارة مثل عربى معروف وقد أشير إليه فى بعض الروايات الإسلامية ومنها الخطبة ۱۶۸ من خطب نهج‌البلاغة.

[۲۲] (۲)« طعان» بمعنى الضرب بآلة وتستعمل عادة للرمح ويقال لذرب اللسان طعن أيضاً.

[۲۳] (۳)« جلاد» من مادة« جلد» بمعنى الضرب بالعصا أو السيف أو السوط وهو هنا كناية عن الحرب.

[۲۴] (۴) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۳۰۶.

[۲۵] (۵)« هبلتهم» بمعنى ثكلتهم، والهبول بفتح الهاء المرأة التى لا يبقى لها ولد، وهو دعاء عليهم بالموت.

[۲۶] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن ميثم لمئة كلمة مختارة من الجاحظ، الكلمة الاولى.

[۲۷] (۱) أورد المرحوم الكليني عن الإمام الحسن عليه السلام قسماً من هذه الخطبة في كتاب الكافي ۵/ ۵۶، كما أورد قسمها الآخر- حسب صاحب مصادر نهج البلاغة- نصر بن مزاحم في صفين وابن عبد ربه في العقد الفريد والزمخشري في ربيع الأبرار.

[۲۸] (۱)« غفيرة» من مادة« غفر» بمعنى الستر ومن هنا اطلقت المغفرة على ستر الذنوب كما تطلق على المال الكثير لتغطيته جزءاً واسعاً من الحياة، حتّى أنّه يستر العيوب أحياناً، ولذلك يقال للكثرة والزيادة غفيرة.

[۲۹] (۱)« الفالج» من مادة« فلج»، قال صاحب مقاييس اللغة لها معنيان؛ الأول النصر والغلبة، والآخر المسافة بين‌شيئين. وفسّره صحاح اللغة بالظفر والفوز، وقد ورد هنا بهذا المعنى.

[۳۰] (۲)« الياسر» من مادة« يسر» بمعنى السهولة، وميسر ويسار حسب قول الراغب في المفردات بمعنى الغنى والثروة. وأطلق على المقامر الذي يلعب بقداح الميسر وقد وردت في العبارة بمعنى اللاعب بالقداح المحفوظ منها.

[۳۱] (۳)« قداح» جمع« قدح» على وزن فِعل بمعنى السهم. وهي في الأصل بمعنى كسر الشيء وعيبه.

[۳۲] (۱) شرح نهج البلاغة، المحقق الخوئي، ۳/ ۳۱۹(بتلخيص). وقد وردت إشارة مختصرة إلى هذا المطلب في كتاب معارج نهج البلاغة وهو من أقدم شروح هذا الكتاب، معارج نهج البلاغة، ص ۱۱۰.

[۳۳] (۲) سورة المائدة/ ۹۰.

[۳۴] (۱) بحار الأنوار ۷۵/ ۱۴۷.

[۳۵] (۱) مسكن الفؤاد نقلًا عن بحار الأنوار ۱۰۰/ ۲۵.

[۳۶] (۱) سورة النور/ ۶۳.

[۳۷] (۲) سورة آل عمران/ ۲۸.

[۳۸] (۳)« تعذير» من مادة« عذر» وهنا بمعنى عدم العذر الصحيح.

[۳۹] (۴) سورة فاطر/ ۲۸.

[۴۰] (۱) منهاج البراعة ۳/ ۳۲۴ كما ورد هذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السلام في بحار الأنوار ۶۷/ ۲۴۳.

[۴۱] (۲) سورة النساء/ ۶۹- ۷۰.

[۴۲] (۱) وسائل الشيعة ۱/ ۵۰.

[۴۳] (۱)« عترة» قال أرباب اللغة تعني أصل الشيء وأساسه، كما قيل أنّ هذه المفردة أقتبست من عِتر(على وزن‌فِطر) نبات معطر كثير الغصون والأوراق وتشير إلى فروع القرابة. وقيل تطلق العترة على الأولاد فقط. وعليه فعترة النبي صلى الله عليه و آله هم ولد فاطمة عليها السلام وإلى ذلك أشار الحديث المعروف« إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي(لسان العرب، الصحاح، مقاييس اللغة).

[۴۴] (۱)« حيطة» اسم مصدر من مادة« حوط» بمعنى الاحاطة، وهي هنا بمعنى الرعاية والكلاءة. وقال البعض‌الحيطة بفتح الحاء بمعنى المراقبة وبكسرها بمعنى الحفظ.

[۴۵] (۲)« الم» من مادة« لمم» بمعنى الجمع والاصلاح.

[۴۶] (۳) شعث بالتحريك بمعنى التفرق والانتشار.

[۴۷] (۴) نهج البلاغة، آخر الرسالة رقم ۳.

[۴۸] (۱) سورة الشعراء/ ۸۴.

[۴۹] (۲) سورة مريم/ ۵۰.

[۵۰] (۱) لقد ورد هذا المضمون في عدة روايات ومنها كتاب وسائل الشيعة ۱۱/ الباب ۱۶ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[۵۱] (۱)« الخصاصة» هي الفقر والحاجة الشديدة وهي مصدر خص الرجل بمعنى احتاج وافتقر، وقال صاحب‌مقاييس اللغة تعنى الثلمة ومن هنا أطلقت على الفقر والحاجة لأنّها ثلمة في حياة الإنسان.

[۵۲] (۱) بحار الأنوار ۷۴/ ۴۱۳.

[۵۳] (۱) بحار الأنوار ۷۱/ ۱۲۰.

[۵۴] (۲) بحار الأنوار ۷۱/ ۹۷.

[۵۵] (۳) بحار الأنوار ۷۱/ ۲۱۱.

[۵۶] (۴) معاني الأخبار نقلًا عن بحار الأنوار ۷۱/ ۹۵ ح ۲۶.

[۵۷] (۵) اصول الكافي نقلًا عن بحار الأنوار ۷۱/ ۱۲۶.

[۵۸] (۱) مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة ۱/ ۱۱۲.

[۵۹] (۱)« لعمري» و« عَمْر» و« عُمَر» و« عُمُر» بمعنى مدة الحياة ويقال حين القسم لعمري بفتح العين. وهي هنامبتدأ لخبر محذوف تقديره« لعمري قسمي» وقد ورد سؤال في مجمع البحرين كيف بهذا القسم وهو لا يجوز بغير الذات الإلهية المقدسة؟ وأجيب بأنّ هذا القسم ليس حقيقة بل بصورة قسم، وتقديره« بواهب عمري وعمرك».

[۶۰] (۲)« خابط» من مادة« خبط» وخابط الغي بمعنى صارع الفساد، وأصل الخبط اليسر في الظلام، وتستعمل للناقة حين تخبط في مشيها.

[۶۱] (۳)« الادهان» من مادة« دهن» بمعنى المنافقة والمصناعة ولا تخلو من مخالفة الباطن للظاهر، كما تستعمل كناية عن المجاملة والمداهنة.

[۶۲] (۴)« الايهان» من مادة« وهن» بمعنى الضعف سواء في الخلقة أو الأخلاق، والايهان والتوهين بمعنى الاضعاف.

[۶۳] (۵) نهج البلاغة، الكلمات قصار، ۱۱۰.

[۶۴] (۶) نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۴.

[۶۵] (۱) سورة التوبة/ ۱۱۸.

[۶۶] (۲) سورة الذاريات/ ۱۵۱.

[۶۷] (۳)« عصب» من مادة« عصب» على وزن ضَرَبَ الذي يربط العظام والعضلات، أي كلفكم به وألزمكم أدائه.

[۶۸] (۱) سورة التوبة/ ۵۲.

[۶۹] (۱) جاء في مصادر نهج البلاغة أنّ المسعودي أورد هذه الخطبة مع اختلاف طفيف في مروج الذهب قبل المرحوم السيد الرضي، ثم قال: وقد أشار إليها العقد الفريد وابن عساكر في تاريخ دمشق.

[۷۰] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، آخر الخطبة.

[۷۱] (۱) الضمير« هي» يعود إلى الحكومة أو البلاد فمفهوم العبارة« ما الحكومة والمملكة التي تحت سيطرتي إلّاالكوفة».

[۷۲] (۲)« أعاصير» جمع« إعصار» وهي ريح تهب وتمتد من الأرض نحو السماء كالعمود كما تطلق كناية على‌الامور الاجتماعية وهي تعني الفوضى التي كانت سائدة في الكوفة طول التأريخ.

[۷۳] (۱) معجم البلدان، مادة« كوفة»، التأريخ الكامل ۲/ ۵۲۷، قاموس(مادة كوفة).

[۷۴] (۲) سورة التين/ ۲.

[۷۵] (۳) سفينة البحار، مادة« كوفة».

[۷۶] (۱) نقل هذا الكلام ابن أبى الحديد عن الجاحظ(شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۳۴۳).

[۷۷] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۶.

[۷۸] (۳) نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۰.

[۷۹] (۱) فى ظلال نهج البلاغة ۱/ ۱۷۷.

[۸۰] (۱) الكامل لابن أثير ۳/ ۳۸۳؛ تأريخ الطبرى ۴/ ۱۰۶، ۱۰۸.

[۸۱] (۲) اطلع، تعنى فى الأصل النظر من الأعلى، واستعملت كناية عن النصر والغلبة المفاجاة، مادة« طلوع» بمعنى الظهور.

[۸۲] (۳)« يدالون»(فعل مضارع مجهول من باب الأفعال) من مدة دولة بمعنى الانتقال من مكان إلى آخر. ومن هنا اطلقت الدولة على المال والثروة التى تتداول بين الناس، والمراد بها فى هذه العبارة سيغلبونكم وتكون لهم الدولة بدلكم.

[۸۳] (۱)« قعب»، قال بعض أرباب اللغة بمعنى قدح خشبى وقال البعض الآخر قدح كبير ضخم.

[۸۴] (۲)« علاقة» إذا استعملت مفتوحة العين عنت الرابطة المعنوية وإن كسرت كانت بهذا المعنى أو بمعنى الروابط المادية، وقد وردت هنا بمعنى ما يعلق بالظرف من ليف أو نحوه.

[۸۵] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۳- ۱۸؛ مروج الذهب ۳/ ۱۶۳(بحث ذكر أيام الوليد بن عبدالملك).

[۸۶] (۲) سورة الأنفال/ ۶۲- ۶۳.

[۸۷] (۱) سورة آل عمران/ ۱۰۳.

[۸۸] (۲) سورة الانعام/ ۶۵.

[۸۹] (۱)« سئمتهم» من مادة« سأم» بمعنى الملل والتعب من الشىء.

[۹۰] (۲)« مث» من مادة« ميث» بمعنى حل الشىء فى الماء، ويطلق على المطر الذى يذيب تراب الأرض، كمايطلق على الحوادث المريرة التى تذيب عقل الإنسان وتصدع قلبه.

[۹۱] (۱) سورة الأعراف/ ۸۲.

[۹۲] (۲) منهاج البراعة ۳/ ۳۵۸. صرح المسعودى- من المؤرخين المشهورين- أنّ الحجاج ولد عام ۴۱ ه وتوفىعام ۹۵ وله من العمر ۵۴ سنة.

[۹۳] (۳) سورة نوح/ ۲۶.

[۹۴] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۳۴۱.

[۹۵] (۲) بلوغ الأدب ۲/ ۱۲۵.

[۹۶] (۳) المصدر السابق.

[۹۷] (۴) سورة البقرة/ ۲۴۹.

[۹۸] (۱) مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۹۰.

[۹۹] (۱) سورة الأحزاب/ ۴۵.

[۱۰۰] (۲) سورة سبأ/ ۲۸؛ سورة فاطر/ ۲۴؛ سورة الفتح/ ۸ وسورة البقرة/ ۱۱۹.

[۱۰۱] (۱)« منيخون» من مادة« نوخ» بمعنى تنويم الجمل، ومن البديهى أن يكون موضع استراحة الأفراد هو ذلكالموضع الذى ينومون فيه الجمال بين حجارة خشن.

[۱۰۲] (۲)« الجشب» على وزن« خشن» بمعنى الطعام الغليظ أو ما يكون منه بغير أدم.

[۱۰۳] (۱) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم ۲/ ۲۴ أما كيف ضبطت مفردة(أم جبين) فقيل بيائين وقيل باء وياء وقيل بالجيم كما قيل بالماء(أم جبين) و(أم حبين)، كما كثر الكلام بشأن هذا الحيوان فقيل هو نوع من العضايا وتنفر منه عرب البادية لأنّه سام عند الأكل.

[۱۰۴] (۱) للوقوف على المزيد راجع بلوغ الأدب والإسلام والجاهلية والتأريخ الكامل(ج ۱) وسيد المرسلين وشرح العلامة الخوئى لنهج البلاغة.

[۱۰۵] (۱)« أغضيت» من مادة« غضى» تعنى السكوت على مضض، كما تعنى اغماض العين- ومن هنا تطلق الليالى‌الغاضية على الليالى الظلماء.

[۱۰۶] (۱)« قذى» على وزن قضا الصفاء والاخلاص، ومن هنا يطلق القذى على الشيء الذى يقع فى الماء فيلوثه، كما يطلق على ما يقع فى العين.

[۱۰۷] (۲)« شجا» من مادة« شجو» ما يعترض فى الحلق من عظم أو نحوه، كما يطلق على الشدة والهم والغم.

[۱۰۸] (۳)« كظم» على وزن غضب من مادة« كظم». قال الراغب فى المفردات الكظم بمعنى مخرج النفس، والكظوم بمعنى الاختناق وحبس النفس، كما تستعمل بمعنى ربط القربة بعد ملئها بالماء، ومعنى العبارة صبرت على الخناق رغم الضغط الذى مارسه العدو.

[۱۰۹] (۴)« العلقم»، قال صاحب مجمع البحرين هى شجرة شديدة المرارة، وتسمى الحنظل أيضاً، كما جاءت علقمة بمعنى المرة.

[۱۱۰] (۵) رواها نصر بن مزاحم عن الإمام عليه السلام؛ شرح نهج البلاغة، ابن ميثم ۲/ ۲۶، شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد ۲/ ۲۲.

[۱۱۱] (۱) المراجعات، الرسالة ۸۴.

[۱۱۲] (۱) يقصد قرابة عثمان من بنى هاشم.

[۱۱۳] (۲)« المبتاع» بمعنى المشترى والمراد به هنا معاوية والبائع عمرو بن العاص.

[۱۱۴] (۳) انظر أسد الغابة فى معرفة الصحابة(عمرو بن العاص).

[۱۱۵] (۱) سورة البقرة/ ۱۶.

[۱۱۶] (۲) سورة البقرة/ ۸۶.

[۱۱۷] (۳) سورة النساء/ ۵۸.

[۱۱۸] (۴)« اهبة» على وزن لقمة بمعنى العدة والتأهب والاستعداد للقيام بعمل وإهاب على وزن كتاب بمعنى الجلدالذى لم يدبغ وقد اعد للدباغة.

[۱۱۹] (۵)« شب» من مادة« شبب الشباب»، ويستعمل فى شب النار.

[۱۲۰] (۶)« لظا» بمعنى شعلة النار كما تطلق على نفس النار(الراغب فى المفردات).

[۱۲۱] (۷)« سنا»، قال صاحب المقاييس تتضمن العلو والارتفاع وقد وردت فى العبارة بمعنى تصاعد ألسنة النيران.

[۱۲۲] (۱) بحار الأنوار ۷۴/ ۱۶۵.

[۱۲۳] (۱) سورة التوبة/ ۳۸.

[۱۲۴] (۲) سورة المجادلة/ ۲۲.

[۱۲۵] (۱) سورة الانفال/ ۶۵.

[۱۲۶] (۱) الانبار محافظة من محافظات العراق التى تقع غرب بغداد.

[۱۲۷] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۷۵.

[۱۲۸] (۳) الكافى ۵/ ۴.

[۱۲۹] (۱) مصادر نهج البلاغة ۱/ ۳۹۷.

[۱۳۰] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۸۵- ۸۷.

[۱۳۱] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۸۱.

[۱۳۲] (۱) الكافى ۵/ ۲، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد، ح ۲.

[۱۳۳] (۱) لابدّ من الالتفات إلى أنّ الاضافة(لباس التقوى) فى التفسير الأول من قبيل الإضافة اللامية وفى التفسيرالثانى إضافة بيانية.

[۱۳۴] (۱) سورة التوبة/ ۹۱- ۹۲.

[۱۳۵] (۲)« ديّث» من مادة« ديث» بمعنى الذلة والهوان، ومن هنا يصطلح بالديوث على من لا يكترث لعفة أهله، كأنهقد ذلك حتى صار كذلك.

[۱۳۶] (۳)« صغار» بمعنى الذلة.

[۱۳۷] (۱)« القماءة» بمعنى الصغار و الذل.

[۱۳۸] (۲) الأسهاب ذهاب العقل أو كثرة الكلام، أى حيل بينه و بين الخير بكثرة الكلام بلافائدة، و قدورت بهذا المعنى فى الخطبة.

[۱۳۹] (۳)« أديل» من مادة« دولة»، قال صاحب المقاييس لها معنيين؛ الأول التحول و الانتقال، والآخر الضعف، واريد بها هنا المعنى الأول.

[۱۴۰] (۴) فسرها جمع من شرّاح نهج البلاغة بالذلة والهوان على أنّها من قبيل تكرار وتأكيد العبارات السابقة، أمّا ما أوردته فى المتن فانه ورغم انسجامه مع المتون اللغوية الا أنه ينطوى على معنى جديد يأبى التكرار، وعليه يبدو هو التفسير الأنسب.

[۱۴۱] (۱) النصف والانصاف من مادة واحدة بمعنى العدل.

[۱۴۲] (۱) بحار الأنوار ۹۸/ ۹.

[۱۴۳] (۲) اصول الكافى ۵/ ۸.

[۱۴۴] (۳) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ۲۵۲.

[۱۴۵] (۱)« عقر» على وزن ظُهر بمعنى أساس الشيء وأصله ومنه عقر الناقة، وذلك لزوال أساس الناقة بحيث تفقدتوازنها وتقع على الأرض.

[۱۴۶] (۲)« تواكلتم» من مادة« وكل»، وكل كل منكم الأمر إلى صاحبه، أى لم يتوله أحد منكم، بل أحاله كل على الآخر.

[۱۴۷] (۳)« شنت» من مادة« شن»، وشنت الغارات مزقت عليكم من كل جانب كما يشن الماء متفرقاً دفعة بعد دفعة. والعبارة إشارة إلى الغارات المتوالية التى كان يشنها عليهم الشام.

[۱۴۸] (۱)« حجل» على وزن فعل و« حجل» على وزن فَصل بمعنى الخلخال التى تزين به النساء العربيات أرجلهن.

[۱۴۹] (۲)« قلب» بضمتين جمع قلب بالضم فسكون بمعنى السوار المصمت وتعنى فى الأصل التغيير.

[۱۵۰] (۳)« قلائد» جمع« قلادة» على وزن اجارة، تطلق على كل شيء يحيط بآخر.

[۱۵۱] (۴)« رعث» بضم الراء والعين جمع« رعث» على وزن رأس ما تعلقه المرأة من الزينة فى أذنها.

[۱۵۲] (۱) سورة التوبة/ ۹۲.

[۱۵۳] (۱) بحار الأنوار ۹۷/ ۶۴ ح ۶۰.

[۱۵۴] (۱) يا عجباً عجباً، قال بعض شرّاح نهج البلاغة أن العبارة« فيا عجباً عجباً» أصلها« عجبت عجباً ...»؛ أى منصوبةعلى أنها مفعول مطلق. كما احتمل أن تكون عجباً الأولى من قبيل المفعول المطلق والثانية للتكرار والتأكيد(شرح نهج البلاغة لابن ميثم ۲/ ۳۶) وقال البعض تقديرها« يا عجبى احضر»(شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئى ۳/ ۳۹۲) ويبدو هنا التفسير أنسب لأن تكون« عجباً» منادى

[۱۵۵] (۱)« ترحاً» تعنى الحزن والغم فقد دعا عليهم الإمام عليه السلام بهذه العبارة بالحزن والهم.

[۱۵۶] (۲)« حمارة» من مادة« حمر» بمعنى اللون الأحمر، ويطلق على شدة حرارة الصيف المحرقة، وكأن شدةالحرارة كحمرة النار.

[۱۵۷] (۳)« قيظ» على وزن فيض بمعنى الحرارة الشديدة للصيف، وعليه فاضافة حمارة إلى قيظ تأكيد للحرارة.

[۱۵۸] (۴)« يسبخ» من مادة« سبخ» بمعنى التخفيف والتسكين.

[۱۵۹] (۵)« صبارة» من مادة« صبر» بمعنى حبس الشيء وحفظه، وتطلق الصبارة على شدة البرودة.

[۱۶۰] (۶)« ينسلخ» من مادة« سلخ» بمعنى إزالة القشر ومن هنا يطلق السلاخ على من يزيل جلد الحيوان، ثم اطلقت على كل فصل وإزالة.

[۱۶۱] (۱) قر له معنيان؛ الأول البرد والثانى الاستقرار فى مكان، ولا يبعد أن يعود المعنى الأول إلى الثانى، لأنّ البرد الشديد يصد الإنسان عن العمل.

[۱۶۲] (۲) سورة التوبة/ ۸۱.

[۱۶۳] (۱) سورة المائدة/ ۲۲- ۲۴.

[۱۶۴] (۱)« حلوم» من مادة« حلم» بمعنى ضبط النفس وقد وردت هنا بمعنى الآمال الفارغة الشبيهة بأحلام الأطفال.

[۱۶۵] (۲)« ربات» جمع« ربة» صاحب الشيء ومالكه، واستناداً إلى تاء التأنيث فانّها تستعمل فى المؤنث.

[۱۶۶] (۳)« حجال» جمع« حجلة» وصحيحه حجلة على وزن عجلة وهى القبة، موضع يزين بالستور، والمراد بربات الحجال النساء.

[۱۶۷] (۱) لابد من الالتفات هنا الى ان التعبير بقتالكم الى انهم كانوا فى مقام محاربة الله و احكامه، و انهم لا- محالة ملعونين مطرودين من رحمة الله و من هنا فان اغلب المفسرين ذهبوا الى ان الايه ۳۰ من سوره التوبه(قاتلهم الله) تعنى الطرد من رحمه الله(انظر المفردات للراغب و نشر طوبى للمرحوم العلامه الشعرانى).

[۱۶۸] (۲)« نغب» جمع« نغب» على وزن لقمه بمعنى شربه الماء كجرعه و جرع و قد شبه هنا الحزن بالماء المر الذى شربه الامام جرعه جرعه.

[۱۶۹] (۳)« التهام» من مادة« همم» بمعنى الهم، و يستعمل هداالوزن عاده بمعنى المصدر مثل تكرار و تذكار.

[۱۷۰] (۴)« لله ابوهم» تقال هذه العباره للمدح، كما تطلق فى بعض الاحيان للتعجب، و مفهومها رحم الله والديهم.

[۱۷۱] (۵)« مراساً» و« ممارسة» بمعنى واحد، أى عالجه وزاوله وعاناه.

[۱۷۲] (۱)« ذرفت» من مادة« ذرف» بمعنى سيل الدمع، وقد وردت هنا بمعنى زدت على الستين.

[۱۷۳] (۱) سورة ابراهيم/ ۲۴- ۲۵.

[۱۷۴] (۲) نهج البلاغة، الكلمات القصار/ ۲۶۱.

[۱۷۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۱.

[۱۷۶] (۲) فى ظلال نهج البلاغة ۱/ ۱۹۲.

[۱۷۷] (۱) بحار الأنوار ۴۱/ ۶۲.

[۱۷۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۸۸- ۹۰.

[۱۷۹] (۱) تعتبر هذه الخطبة من الخطب المهمة لأمير المؤمنين على عليه السلام التى رواها كبار علماء الفريقين فى كتبهم ومؤلفاتهم، ومنهم ۱- الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين ۱/ ۱۷۱؛ ۲- الباقلانى فى كتاب إعجاز القرآن/ ۲۲۲؛ ۳- الحسن بن على بن شعبة فى تحف العقول؛ ۴- ابن عبد ربة فى العقد الفريد ۲/ ۳۶۵؛ ۵- ابن قتيبة فى عيون الأخبار ۲- ۲۳۵؛ ۶- المسعودى فى مروج الذهب ۳/ ۳۶۵؛ كما رواها المرحوم العلّامة المجلسى فى البحار عن كتاب مطالب السئول لمحمد بن طلحة الشافعى وكتاب الإرشاد للمفيد مع بعض الاختلاف.

[۱۸۰] (۱)« آذنت» من مادة« اذن» بمعنی الاعلان، ومنه الاذان الذی یعلن وقت دخول الصلاة.

[۱۸۱] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۸.

[۱۸۲] (۲)« اطلاع» من مادة« طلع» بمعنی الظهور، وطلوع الشمس بمعنی ظهورها، ویری البعض أنّها تطلق علی‌العلم المفاجئ، وأشرفت باطلاع، أقبلت بغتة.

[۱۸۳] (۳)« المضمار»: الموضع والزمن الذی تضمر فیه الخیل، وتضمیر الخیل أن تربط ویکثر علقها وماؤها حتی‌تسمن، ثم یقلل علفها وماؤها وتجری فی المیدان حتی تهزل، ثم ترد إلی القوت، والمدة أربعون یوماً، وقد یطلق التضمیر علی العمل الأول أو الثانی، واطلاقه علی الأول لأنّه مقدمة للثانی وإلّا فحقیقة التضمیر احداث الضمور وهو الهزل وخفة اللحم، وإنّما یفعل ذلک بالخیل لتخف فی الجری یوم السباق.

[۱۸۴] (۴)« السباق» من مادة« سبق» ومسابقة من باب مفاعلة ولسباق نفس المعنی. وسبقة بمعنی الهدف المطلوب‌الذی یتسابق من أجله أو بمعنی الجائزة.

[۱۸۵] (۱) سورة الحدید/ ۲۱.

[۱۸۶] (۲)« منیة» من مادة« منی» علی وزن نقی، قال صاحب مقاییس اللغة بمعنی تقدیر الشیء، ثم اطلقت علی‌الموت والأجل، لأنّ الموت أمر مقدر، وتطلق المنی علی الأمانی التی تدور فی خلد الإنسان.

[۱۸۷] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۲۳۷.

[۱۸۸] (۱) ورد هذا الحدیث النبوی فی غوالی اللئالی ۱/ ۲۶۷.

[۱۸۹] (۲) نهج البلاغة، الکلمات القصار/ ۱۳۱.

[۱۹۰] (۳) بحار الأنوار ۱۴/ ۳۱۹ ح ۲۱.

[۱۹۱] (۴) نهج البلاغة، الکلمات القصار/ ۱۳۳.

[۱۹۲] (۵) نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۳.

[۱۹۳] (۶) بحار الأنوار ۷۵/ ۳۶۶، مواعظ الإمام الهادی علیه السلام

[۱۹۴] (۱) سورة المؤمنون/ ۱۰۰.

[۱۹۵] (۱) سورة العنکبوت/ ۶۵.

[۱۹۶] (۲) سورة الاسراء/ ۶۷.

[۱۹۷] (۱)« ظعن» علی وزن« طعن» بمعنی الرحیل من مکان إلی آخر ومن هنا اطلقت الظعینة علی الهودج لأنّه من‌وسائل السفر، وتستخدم أحیاناً کنایةً عن النساء، لأنّهم غالباً مایرکبن الهودج.

[۱۹۸] (۱) سورة آل عمران/ ۱۸۵.

[۱۹۹] (۲) سورة النساء/ ۷۸.

[۲۰۰] (۳) سورة الزمر/ ۳۰.

[۲۰۱] (۴) سورة القصص/ ۸۸.

[۲۰۲] (۵) علی ضوء المعنی الأول فانّ الأمر فی قوله« أمرتم بالظعن» هو أمر تکوینی وأجل الهی ولکن لیس فی‌الجملة من تقدیر، وهو أمر تشریعی علی ضوء المعنی الثانی وفی العبارة تقدیر هو التجهز والاستعداد، أو الظعن بالمعنی المجازی.

[۲۰۳] (۶) سورة البقرة/ ۱۹۷.

[۲۰۴] (۷) سورة الشعراء/ ۸۸- ۸۹.

[۲۰۵] (۸) سورة الکهف/ ۴۶.

[۲۰۶] (۱) بحار الأنوار ۷۰/ ۹۱. فقد روی هذه الحدیث جابر بن عبداللّه الأنصاری عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی باب حب الدنیا.

[۲۰۷] (۲)« تحرزون» من مادة« حرز» بمعنی الحفظ، و« الحرز» علی وزن الحرص بمعنی الموضع الآمن لحفظالأشیاء.

[۲۰۸] (۱) سورة ص/ ۲۶.

[۲۰۹] (۲) سورة الجاثیة/ ۲۳.

[۲۱۰] (۳) سورة النازعات/ ۴۰- ۴۱.

[۲۱۱] (۱) سورة الحجر/ ۳.

[۲۱۲] (۲) نهج البلاغة، الکلمات القصار/ ۳۶.

[۲۱۳] (۳) بحار الأنوار ۷۴/ ۱۷۳.

[۲۱۴] (۱) قال صاحب مصادر نهج البلاغة هذه من الخطب المعروفة التی رواها أغلب العلماء والمحدثین الذین عاشوا قبل السید الرضی(ره) ومنهم:

۱- الجاحظ فی البیان والتبیین ۱/ ۱۷۰.

۲- ابن قتیبة الدینوری فی الإمامة والسیاسة ۱/ ۱۵۰.

۳- ابن عبد ربة فی العقد الفرید ۴/ ۷۱.

۴- البلاذری فی کتاب أنساب الأشراف(فی شرح سیرة علی علیه السلام)/ ۳۸۰.

۵- القاضی نعمان المصری فی دعائم الإسلام ۱/ ۳۹۱(مع اختلاف وما ورد فی النهج وقال الشارح الخوئی یستفاد من بحار الأنوار والاحتجاج والإرشاد أنّ هذه الخطبة جزء من الخطبة ۲۷(شرح نهج البلاغة، الخوئی ۴/ ۲۱).

[۲۱۵] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۱۳/ ۱۱۷.

[۲۱۶] (۱)« یوهی» من مادة« وهی»، عناها صاحب المقاییس بالضعف ومن هنا یصطلح علی الکلام الضعیفبالواهی. فالعبارة تعنی أن کلامکم یضعف ویفتت.

[۲۱۷] (۲)« الصم» جمع« أصم» وهو من الحجارة الصلب المصمت، و« الصلاب» جمع صلیب، والصلیب الشدید.

[۲۱۸] (۱)« کیت وکیت» من مادة« تکییت» بمعنی اعداد جهاز الناقة أو ملأ ظرف الماء، إلّاأنّ العبارة کیت وکیت تستعمل حیث یرید الفرد عمل کل شیء عن طریق الکلام، وهما کلمتان لا تستعملان إلّامکررتین ککنایة عن الحدیث.

[۲۱۹] (۲)« حیدی حیاد»: صیغة فعل أمر من مادة« حیود» کنزال بمعنی أنزل، وهی کلمة یقولها الهارب عند الفرار والکتمان تأکید لاحداهما الأخری حیث تعنی المیل والانحراف عن الشیء.

[۲۲۰] (۱) سورة الاحزاب/ ۲۸.

[۲۲۱] (۲)« أعالیل» جمع اعلولة، ما یتعلل به و« أضالیل» جمع اضلولة بمعنی أسباب الضلالة، أی انکم تتشبثونبأسباب واهیة من أجل إضلال أنفسکم والآخرین.

[۲۲۲] (۳) سورة التوبة/ ۳۸.

[۲۲۳] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۶۹.

[۲۲۴] (۱)« الضیم» یعنی الظلم والاضطهاد.

[۲۲۵] (۱) ان تقدیم المغمور- الخبر للمبتدأ- یفید الحصر، أی المغرور الواقعی هو هذا الفرد.

[۲۲۶] (۲)« أخیب» من مادهٔ« خیب» بمعنی فقدان الشیء.

[۲۲۷] (۱) بحار الأنوار ۴۵/ ۸۳.

[۲۲۸] (۱) سورهٔ القصص/ ۸۵.

[۲۲۹] (۱) بحار الأنوار ۷۵/ ۴۵.

[۲۳۰] (۲) بحار الأنوار ۷/ ۲۶۴.

[۲۳۱] (۳) سفینهٔ البحار، مادهٔ وطن.

[۲۳۲] (۴) نهج البلاغهٔ، الکلمات القصار، ۴۴۲.

[۲۳۳] (۱) نهج البلاغهٔ، الکلمات القصار، ۳۶۶

[۲۳۴] (۱) جاء فی مصادر نهج البلاغه أن هذه الخطبهٔ جزء من رسالهٔ کتبها الإمام علیه السلام حین خلافته، ثم ضمنها الحوادث التی أعقبت وفاهٔ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ثم أمر علیه السلام بقراءتها علی الناس من أجل وحدهٔ الرأی العام بهذا الشأن، کما احتمل أن تکون الخطب ۲۶، ۵۴، ۷۸ هی الاخری جزء من هذه الرسالهٔ.

ثم صرح بانّ هذه الخطبهٔ وردت مع بعض التغییرات فی کتاب أنساب الاشراف(مصادر نهج البلاغه، ۱/ ۴۰۸).

[۲۳۵] (۱) شرح نهج البلاغهٔ لابن میثم ۲/ ۵۷.

[۲۳۶] (۱)« إستأثر» من مادهٔ« اثر»، بمعنی الاستبداد کما صرح بذلک القاموس ومنه الحکومهٔ الاستبدادیهٔ لأنّهاحکومهٔ فردیهٔ، یستعبد فیها الفرد سائر الناس.

[۲۳۷] (۱) قال صاحب مصادر نهج البلاغهٔ نقل هذا الکلام طائفهٔ من العلماء ممن سبقوا المرحوم السید الرضی، منهم الزبیر بن بکار(طبق نقل ابن أبی الحدید والجاحظ ...) وابن قتیبهٔ فی عیون الأخبار وابن عبد ربّه فی العقد الفرید.

والطریف، نقله حتی إبن خلکان فی وفیات الأعیان وشهد بصحته وهو من رفع رایهٔ مخالفهٔ نهج البلاغهٔ. مصادر نهج البلاغهٔ ۱/ ۴۱۸.

[۲۳۸] (۱)« عاقصا» من مادهٔ« عقص» بمعنی التوی قرناه علی أذنیه

[۲۳۹] (۲)« عریکهٔ» من مادهٔ« عرک» بمعنی الطبیعهٔ، ولین العریکهٔ بمعنی السلس، کما تأتی بمعنی إشتباک الشئ ومن هنا إطلقت المعرکهٔ علی إشتباک الأفراد.

[۲۴۰] (۱) شرح نهج البلاغهٔ لابن أبی الحدید ۲/ ۱۶۷.

[۲۴۱] (۱)« عدا» به معنی الصرف والاعادهٔ، وفاعله ضمیر مستتر یعود إلی ما، ویحتمل أن تکون من فی ممّا بمعنی عن، و بدا من مادهٔ بدو بمعنی الظهور.

[۲۴۲] (۲) مصادر نهج البلاغهٔ ۱/ ۴۱۱.

[۲۴۳] (۱) سورهٔ الاحزاب/ ۵۳؛ الدر المنثور ۵/ ۲۱۴.

[۲۴۴] (۲) تفسیر الفخر الرازی ۲۵/ ۲۲۵.

[۲۴۵] (۳) شرح نهج البلاغهٔ لابن أبی الحدید ۱/ ۱۸۴.

[۲۴۶] (۴) الاحتجاج للطبرسی، نقلا عن سفینهٔ البحار، مادهٔ(طلح).

[۲۴۷] (۱) سورهٔ التوبهٔ/ ۱۰۰.

[۲۴۸] (۲) ورد ذمه فی تفسیر الآیهٔ ۹۳ من سورهٔ الانعام فی الدر المنثور(الدر المنثور ۳/ ۳۰) وذکر صاحب أسدالغابهٔ أنه کان من کتاب الوحی ثم ارتد فأمر رسول الله صلی الله علیه و آله بقتله(اسد الغابهٔ، شرح أخبار عبدالله بن سعد بن أبی سرح).

[۲۴۹] (۳) جاء فی أسد الغابهٔ فی معرفهٔ الصحابهٔ فی أخبار هذا الرجل أن النبی صلی الله علیه و آله طرده، کما طردهالخلفاء الثلاثهٔ(

ابوبكر وعمر وعثمان) ولم يقبلوا زكاته، رغم قوله أنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله حتى توفى فى خلافة عثمان.

[۲۵۰] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۲۳۱.

[۲۵۱] (۱) نقل هذه الخطبة محمد بن طلحة الشافعى فى كتاب مطالب السئول وأضاف أنّ الإمام عليه السلام خطبها فى مسجد الكوفة، ويتضح من هذا أنّ له سند غير نهج البلاغة، لأنّ نهج البلاغة لم يشر إلى موضع الخطبة. كما رواها الجاحظ فى البيان والتبيين، وأنّ أخطأ فى البداية حيث نسبها إلى معاوية إلّاأنّه يعترف أخيراً بأنها لاتشبه كلام معاوية وهى من كلمات على بن أبى طالب. مصادر نهج البلاغة ۱/ ۴۱۷.

[۲۵۲] (۱) سورة النمل/ ۵۶.

[۲۵۳] (۲) سورة هود/ ۲۷.

[۲۵۴] (۱) سورة الرعد/ ۱۱.

[۲۵۵] (۱) سورة الرعد/ ۱۱.

[۲۵۶] (۱) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ۱۲۶.

[۲۵۷] (۱)« كلالة» على وزن ضلالة بمعنى ضعف السلاح عن القطع فيقال كل السيف إذا لم يقطع.

[۲۵۸] (۲)« نضيض» بمعنى قليل، والنضيض و فره، بمعنى القليل ماله.

[۲۵۹] (۳) سورة البقره/ ۲۰۴- ۲۰۵.

[۲۶۰] (۴)« مصلت» من مادة« صلت» بمعنى الاظهار و السيف الصلت بمعنى السيف المشهور المصقول، ويقال المصلت لمن شهر سيفه.

[۲۶۱] (۵) أشرط من مادة شرط بمعنى العلامة، و معنى العبارة أنه أعد نفسه للفساد و الاهلاك، و كانه ميز نفسه بهذالامر.

[۲۶۲] (۶)« اويق» من مادة« وبق» بمعنى الهلاك، أى اهلك نفسه.

[۲۶۳] (۷)« الحطام» على وزن الغلام بمعنى المتكسر الذى لا قيمة له، و من هنا يطلق على المال حطام الدنيا لزهادة قيمته.

[۲۶۴] (۸)« ينتهزه» من مادة« نهز» بمعنى الحركة من أجل القيام بعمل، كما وردت بمعنى الحركة من أجل نيل غنيمة، و عليه ينتهز بمعنى يغتنمه.

[۲۶۵] (۹)« مقتب» على وزن محور تعنى طائفة من الخيل، وقد وردت فى العبارة بمعنى طائفة من الناس، ولعل العبارة أشارة لجهلهم وعدم علمهم.

[۲۶۶] (۱۰)« يفرع» من مادة« فرع» أعلى الشئ وقد وردت هنا بمعنى علا المنبر وارتقاه.

[۲۶۷] (۱) سورة البقرة/ ۱۶.

[۲۶۸] (۲) سورة البقرة/ ۲۰۷.

[۲۶۹] (۳) نهج البلاغة، الكلمات القصار ۴۵۶.

[۲۷۰] (۱)« طامن» و« اطمينان» من مادة واحدة بمعنى السكينة والهدوء، وهى تشير فى العبارة إلى الوقار والتواضع الصورى والظاهرى.

[۲۷۱] (۲)« شمر» من مادة« شمر» بمعنى الترتيب والاعداد.

[۲۷۲] (۳) وسائل الشيعة ۱/ ۵۱.

[۲۷۳] (۱)« ضوولة» بمعنى الضعف و العجز.

[۲۷۴] (۲)« مراح» من مادة« روح» مصدر ميمى من راح إذا ذهب فى العشى

[۲۷۵] (۳)« مغدى» من مادة« غدو» مصدر ميمى من غدا إذا ذهب فى الصباح، وقيل مكان الحيوانات فى النهار فى مقابل المراح فى

الليل.

[۲۷۶] (۱) فی ظلال نهج البلاغة، الخطبة المذكورة.

[۲۷۷] (۲) سورة النور/ ۳۷.

[۲۷۸] (۳)« شريد» من مادة« شرد» بمعنى هروب الناقة، ثم اطلقت على كل من يهرب من قومه.

[۲۷۹] (۴)« ناد» من مادة« ند» بمعنى المنفرد الهارب من الجماعة إلى الوحدة.

[۲۸۰] (۵)« مقموع» من مادة« قمع» بمعنى المقهور والمغلوب، وتعنى الاقتلاع أيضاً.

[۲۸۱] (۶)« مكعوم» من مادة« كعم»، كعم البعير بمعنى شد فاه، ثم اتسعت لتطلق على كل فم يشد.

[۲۸۲] (۷)« ثكلان» من مادة« ثكل» بمعنى فقد الاحبة، كما وردت بالنسبة للإنسان الذى يعيش العزاء بمعنى الشخص الباكى الحزين.

[۲۸۳] (۸) شرح نهج البلاغة محمد عبده والعلامة الخوئى وابن أبى الحديد.

[۲۸۴] (۱)« أخمل» من مادة« خمل» بمعنى أسقط ذكره حتى لم يعد له بين الناس نباهة.

[۲۸۵] (۲)« اجاج» من مادة« أجج» بمعنى الملوحة والمرارة.

[۲۸۶] (۳)« ضامزة» من مادة« ضمز» بمعنى السكوت والتحفظ عن الكلام

[۲۸۷] (۴) شرح نهج البلاغة لابن ميثم، والعلّامة الخوئى وفى ظلال نهج البلاغة لمحمد عبده.

[۲۸۸] (۱)« حثالة» بالضم: القشاوة وما لا خير فيه، واصله ما يسقط من كل ذى قشر، ومن هنا تطلق الحثالة على حشاشة الدهن المتساقطة.

[۲۸۹] (۲)« قراضة» من مادة« قرض» بمعنى قطف الشي وتطلق على القطع الصغيرة المتناثرة من المقراض ومن هنا يطلق المقراض على المقص.

[۲۹۰] (۳)« جلم» على وزن قلم بمعنى المقراض.

[۲۹۱] (۱) سورة الدخان/ ۲۵- ۲۹.

[۲۹۲] (۲)« أشغف» من مادة« شغف» بمعنى اكثر تعلق بالدنيا و حبالها. وقد أخذت فى الأصل من شغاف وهو الغلاف الذى يضم القلب، كما تستعمل فى العشق الشديد الذى يجتاح القلب وينفذ إلى أعماقه.

[۲۹۳] (۱) بحار الانوار ۷۰/ ۱۲۲.

[۲۹۴] (۱) منهاج البراعة ۴/ ۵۸؛ بحار الانوار ۱۴/ ۳۲۸.

[۲۹۵] (۱) روى السيد الرضى(ره) هذه الخطبة فى موضعين من نهج البلاغة: مرة هنا و أخرى فى الخطبة ۱۰۴ حيث قال هناك: وقد مر جانب من هذه الخطبة(إشارة إلى هذه الخطبة ۳۳) وقد ذكرتها ثانية بسبب إختلاف بعض العبارات. قال صاحب مصادر نهج البلاغة: ومن هنا يتضح مدى إحتياط السيد الرضى فى نقل كلمات أمير المؤمنين عليه السلام. ثم قال: يفهم من رواية الشيخ المفيد فى الإرشاد أنّ الإمام عليه السلام خطبها فى الربذة حيث توقف هناك جمع من حجاج بيت الله وقد تجمعوا حين سمعوا بالإمام عليه السلام ليصغوا إلى كلامه ولم يكن الإمام عليه السلام قد خرج من خيمته. قال إبن عباس دخلت الخيمة فرأيت الإمام عليه السلام يخصف نعله. فقال: يابن عباس: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها. قال: قل. قلت: أقلّ من درهم. قال: والله، لهى أحب إلىّ من إمرتكم، إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا. فقلت: لقد إجتمع حجاج بيت الله ليسمعوا ما تقول. هلا أذنت لى أن أخطبهم؟ قال عليه السلام: لا أنا أحدّثهم. فخرج من الخيمة فخطب بهذه الخطبة(مصادر نهج البلاغة، ۱/ ۴۲۱- ۴۲۲).

قال صاحب المستدرك ومدارك نهج البلاغة رواها الشيخ المفيد فى كتاب الإرشاد، المستدرك، ص ۲۴۲.

[۲۹۶] (۲)« يخصف» من مادة« خصف» بمعنى وصل الأشياء ورقعها.

[۲۹۷] (۳)« امرة» على وزن فطرة بمعنى الحكومة.

[۲۹۸] (۱) سورة الانعام/ ۹۱.

[۲۹۹] (۱)« بوأ» من مادة« بوء» بمعنى تعبيـد المكان ضـد النبوة بمعنى المرتفع وغير المعبد، وقد وردت هنا بمعنى‌تنظيم وترتيب موقع الاستقرار.

[۳۰۰] (۲)« قنات» من مادة« قنو» بمعنى جـذع الشـجرة، كما تغنى العود والرمح، والمراد بها هنا القوة والغلبة والدولة، وقوله إسـتقامت قناتهم تمثيل لاستقامة أحوالهم.

[۳۰۱] (۳)« صفات»، حجر مستوى و كبير ومحكم وواسع.

[۳۰۲] (۱)« ساقه» من مادة« سوق» جمع سائق، واصلها سوقه واصحب ساق بيت الاعلال.

[۳۰۳] (۲)« حذا فير» جمع حذ فور بمعنى الشريف والجمع الكثير، وقد جاءت هنا بمعنى جميع جوانب الموضوع. وهنا ينبغى الالتفات إلى أن. ضـمير الهاء فى ساقتها يعود إلى الناس فى عصـر الجاهليـة الـذين إعتنقوا الإسـلام، ويمكن أن يكون الضـمير فى تولت وحذا فيرها عائدا إلى أعداء الإسلام الذين تقهقروا ابان نصر الإسلام، كما يمكن أن يعود إلى أهل الجاهلية الذين أقبلوا على الإسلام.

[۳۰۴] (۱)« أنقبن» من مادة« نقب» بمعنى الثقب والشق ويطلق النقب على الآبار تحت الأرض وذلك لأنها تنقب‌الأرض- ومنه البحث والتنقيب حين تأمل المطالب وإظهار الحقائق والنقيب العالم بحال القوم.

[۳۰۵] (۱) الكامل لابن أثير ۱/ ۴۸۲.

[۳۰۶] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۱۸۷- ۱۸۸(بتصرف).

[۳۰۷] (۱) سورة المعارج/ ۱.

[۳۰۸] (۲) سورة الانفال/ ۳.

[۳۰۹] (۱) صحيح الترمذى ۵/ ۶۳۴(طبعة دار إحياء‌التراث العربى) كما ورد هذا الحديث فى كتاب ينابيع المودة/ ۵۹. وورد فى كتب أعلام الشيعة ومنها بحارالانوار، ۳۲/ ۳۰۰ وإحقاق الحق، ۶/ ۴۲۵.

[۳۱۰] (۱)« مفتونين» من مـادة« فتنـة» بمعنى الامتحان والابتلاء كما جاءت بمعنى العـذاب والخـداع والضـلال، وقـدوردت هنا بمعنى الضلال.

[۳۱۱] (۱) رواها إبن المغازلى الشافعى فى كتاب مناقب أمير المؤمنين وابن أبى الحديـد فى شـرح نهـج البلاغة‌والمحقق الكركى فى نفحات اللاهوت لاحقاق الحق(۶/ ۴۴۰). وقد قال ابن أبى الحديد فى شـرحه للرسالة ۶۵ من نهج البلاغة لو فرضـنا أن النبى صلى الله عليه و آله لم يوص بعلى عليه السـلام- كما تقول الإمامية- ولكن ألا يعلم معاوية وغيره من الصحابة أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال ألف مرة فى على عليه السلام:« أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت» وقال« اللّهم عاد من عاداه ووال من والاه» وقال« أنت مع الحق والحق معك»(شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱۸/ ۲۴).

[۳۱۲] (۲) وسائل الشـيعة ۱۱/ البـاب ۲۵ من أبـواب جهـاد العـدو، ح ۷، وللوقـوف بصورة أعمق راجع كتـاب أنوار الفقاهـة، كتـاب الخمس والانفال/ ۷۰.

[۳۱۳] (۳) للوقوف أكثر على هذه الروايات راجع أنوار الفقاهة(كتاب الخمس والانفال)/ ۷۵.

[۳۱۴] (۱) لم يرد فى شـروح نهج البلاغة شـئ بشأن الأول هل يقابل الثانى، أم أنّها إشارة إلى أحد الشـعراء الأوائل، أم المراد به اسم شاعر غير معروف. ويبدو الإحتمال الأول أنسب.

[۳۱۵] (۲)« المحض» بمعنى اللبن الخالص بلا رغوة الذى لم يخالطه ماء، ثم إطلق على كل شئ خالص.

[۳۱۶] (۳)« زبد» من مادة« زبد» بمعنى استخراج شئ من آخر، ومن هنا يطلق الزيد على ما يستخرج من الحليب.

[۳۱۷] (۴)« مقشرة» من مادة« قشر» وتطلق على التمرة بعد نزع نواتها.

[۳۱۸] (۵)« بجر» على وزن برج من مـادة« بجر» بمعنى ظهور السرة، كمـا وردت بمعنى التهم فى الأكـل، ويطلق الأبجر على صاحب البطن والحريص.

[۳۱۹] (۶)« جرد» من مادة« جرد» بمعنى الخيول الصغيرة قليلة الشعر

[۳۲۰] (۷)« سمراء» من مادة« سمر» بمعنى السهرة والسامر تقال لمن يقضى الليل صاحيا لسهرة أو حراسة أو هدف آخر.

[۳۲۱] (۱) سورة الانعام/ ۱۲۴.

[۳۲۲] (۲) سورة النساء/ ۵۴.

[۳۲۳] (۳) سورة آل عمران/ ۲۶.

[۳۲۴] (۱) غر الحكم، الرقم ۵۲۴۲

[۳۲۵] (۲) بحار الانوار ۷۰/ ۲۵۸.

[۳۲۶] (۱) رواهـا الطبرى فى تأريخه ۶/ ۵۱ وابن قتيبة فى الإمامة والسـياسة ۱/ ۱۵۰ والبلاذرى فى أنسـاب الاشراف/ ۳۸۰، وكذلك المرحوم الشـيخ المفيـد فى الامالى(المجلس ۱۸) بصورة أكثر إختصـارا ممّا وردت فى نهـج البلاغـة(مصادر نهـج البلاغـة ۱/ ۴۲۵) ورواها المرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الانوار عن مطالب السئول محمد بن طلحة الشافعى(بحار الانوار ۷۴/ ۳۳۳).

[۳۲۷] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۱۹۲.

[۳۲۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى ۲/ ۷۷ والعلّامة الخوئى ۴/ ۷۲.

[۳۲۹] (۱) قال الراغب فى المفردت« أف» فى الأصل تعنى كل شـئ قـذر وهى كلمـة تضـجر تطلق للمهانـة والاسـتحقار. فمثلًا يقال« أففت بكـذا» أى تضـجرت منه واسـتقذرته. وقال البعض« أف» تعنى مايجتمع من الأوساخ تحت الأظافر وقال البعض أن التراب والغبار إذا علق ببـدن الإنسـان فـان نفخه يشـيه القول« اوف» أو« اف» ثم اسـتخدمت هـذه المفردة بمعنى اظهار التضـجر والنفرة ولا سـيما من الاشياء الصغيرة. ونخلص ممّا ذكر ومن بعض القرائن إلى أن هذه المفردة كانت فى الاصل إسم صوت.

[۳۳۰] (۲)« سئمت» من مـادة« سئم» بمعنى الملل، التى تتعـدى أحيانا بحرف من وأحيانا اخرى بـدونها، وسئمتهوسـئمت منه. بمعنى واحد، وعليه سئمت عتابكم بمعنى سئمت من عتابكم.

[۳۳۱] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۵۱.

[۳۳۲] (۲)« غمرة» الواحـدة من غمر وهو الستر، وغمرة الموت الشـدة التى ينتهى إليها المحتضـر، وهى الحالة التى كان يعيشـها جيش الكوفة.

[۳۳۳] (۳)« حوار» من مادة« حور» بمعنى الرجوع وتطلق على المحادثـة بين الأفراد والتى يصـطلح عليها بالمحاورة، وقـد وردت بهـذا المعنى فى العبارة.

[۳۳۴] (۴)« تعمهون» من مادة« عمه» بمعنى تتحيرون وترددون.

[۳۳۵] (۵)« المألوسـة» من مـادة« ألس» تعنى فقـدان العقـل، ومن هنـا تسـتعمل حيث الخدعـة التى تسـلبِ عقـل المقابـل، وهى تعنى المخلوطة بمس الجنون.

[۳۳۶] (۱)« سـجيس» من مادة« سـجس» بمعنى تغيير لون الماء وتكدره، ومن هنا اطلقت« سـجيس الليالى» على ظلمةالليل وكأنّ اصل الاستعمال ما دامت الليالى بظلامها، وهكذا وردت فى العبارة.

[۳۳۷] (۲)« زوافر» جمـع زافرة من مـادة« زفر» بمعنى التنهـد وهـو التنفس بصـوت. كمـا يطلق الزفير على صوت النـار، والزافزة بمعنى الأنصار والأقوام والعشيرة.

[۳۳۸] (۱) علی سبیل المثال راجع نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۷ و ۱۱۸

[۳۳۹] (۱) لعمر اللّه، مفهوم هذه العلمة القسم بالعمر ومدة الحیاة، ولما لم یکن للعمر من معنی بالنسبة لله فانّ المعنی هنا« قسماً بالله» وقد تقدم شرح هذه العبارة فی الخطبة الرابعة والعشرین.

[۳۴۰] (۲)« سعر» جمع ساعر من مادة« سعر» بمعنی أوقد النار وسعر بمعنی شعلة النار، والمراد لبئس موقدو الحرب أنتم.

[۳۴۱] (۱) سورة الحج/ ۳۹.

[۳۴۲] (۲) سورة البقرة/ ۱۹۰.

[۳۴۳] (۳)« تمتعضون» من مادة معنی« معض» الابتئاس والغضب.

[۳۴۴] (۱) أوردنا شرحاً وافیاً فی المجلد الأول ذیل الخطبة رقم ۱۰ لعبارة« وآیم الله» التی تفید مفهوم القسم.

[۳۴۵] (۲)« حمس» من مادة(ح م س) بمعنی إشتد وصلب، والحماسة والتحمس بمعنی التشدید والتشدد ولاسیما فی الحرب ویقال الاحمس للرجل الشجاع الذی یقف بصلابة بوجه العدو.

[۳۴۶] (۳)« الوغی» بمعنی الضجیج والصوت والجلبة فی میدان القتال، کما یقال لنفس الحرب الوغی، وهکذا وردت فی العبارة.

[۳۴۷] (۴)« إستحر» من مادة« حرر» بمعنی اشتداد الحر، وهو إشارة لایثار الفرار علی الثبات فی المعرکة إذا إشتد القتال وبلغ حدته.

[۳۴۸] (۵) یبدو هذا الاحتمال مستبعدا لوجود التقدیر فی الجملة، لان العبارة« قد إنفرجتم عن ابن أبی طالب» تتطلب أن یکون تقدیر العبارة« إنفراج الرأس» هو« إنفراج الرأس عن الجسد» أو« إنفراج الجسد عن الرأس» کما ورد مثل هذا التعبیر فی الخطبة ۹۷« انفرجتم عن علی بن أبی طالب انفراج المرأة عن قبلها».

والعجیب ما اورده شرّاح نهج البلاغة من تفاسیر غریبة لهذه العبارة، حتی ذکروا ثمانیة وجوه أو أکثر لانری ضرورة للخوض فیها.

[۳۴۹] (۱)« یعرق» من مادة« عرق» بمعنی فصل اللحم عن العظم، کما ورد بمعنی فصل اللحم عن العظم بالأسنانوأکله.

[۳۵۰] (۲)« یهشم» من مادة« هشم» بمعنی کسر الشی الیابس کما ورد بمعنی کسر مطلق العظام، أو عظام الرأی و الوجه.

[۳۵۱] (۳)« یفری» من مادة« فری» بمعنیشق الشئ و تمزیقه.

[۳۵۲] (۴)« جوانح» جمع« جانحة»، و هی الضلوع تحت الترائب، اصلها من مادة« جنح» بمعنی المیل و الانحراف، و قد اطلقت علی الاضلاع لأنّها لیست بشکل مستقیم.

[۳۵۳] (۱) شرح نهج البلاغة ابن میثم البحرانی ۲/ ۸۱.

[۳۵۴] (۲) فی ظلال نهج البلاغة/ ۲۲۸.

[۳۵۵] (۳) مفتاح السعادة ۶/ ۸۲.

[۳۵۶] (۱)« قراش» جمع« قراشه» بعنی العظام الرقیقة التی تلی القحف أو عظام الجبهة والرأس، وهام جمع هامةبمعنی الرأس کما تطلق علی زعیم القبیلة.

[۳۵۷] (۲)« تطیح» من مادة« طوح» بمعنی الهلاک أو الاشراف علی الهلاک. ولما کان فصل الید والرجل یشکل القضاء علیهم فقد اطلقت بهذا المعنی فی العبارة المذکورة.

[۳۵۸] (۱) للوقوف علی خطبة الإمام علیه السلام لیلة عاشوراء وما قاله صحبه الاوفیاء راجع بحار الانوار ۴۴/ ۳۹۲.

[۳۵۹] (۲) سورة المائدة/ ۲۴.

[۳۶۰] (۱) سورة المائدة/ ۲۵.

[۳۶۱] (۲) سورة یونس/ ۷۱.

[۳۶۲] (۱) مفتاح السعادة ۶/ ۸۴- ۸۵.

[۳۶۳] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۴۰.

[۳۶۴] (۱) اصول الكافى ۱/ ۴۰۵.

[۳۶۵] (۱) وردت هذه الخطبة مع اختلاف طفيف فى مروج الذهب للمسعودى والكامل لابن أثير وأنساب الأشراف للبلاذرى وتاريخ الطبرى والإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينورى وصفين لنصر بن مزاحم، كما رواها البسط بن الجوزى فى تذكرة الخواص وأبوالفرج الإصفهانى فى الأغانى(مصادر نهج البلاغة، ۱/ ۴۵۹).

[۳۶۶] (۱)« خطب» على وزن ختم العمل المهم بين الإنسان والآخرين ومن هنا يصطلح بالمخاطبة على الحوار الذىيدور بين فرد وآخر.

[۳۶۷] (۲)« فادح» بمعنى ثقيل ومن هنا يقال أفدحه الدين لمن أثقل كاهله.

[۳۶۸] (۱)« مجرب» على وزن محقق ممن يتمتع بمعرفة عظيمة بفعل كثرة التجارب إلّاأنّ العرب تلفظه مجرببالفتح على وزن مقرب.

[۳۶۹] (۱)« نخلت» من مادة« نخل» بمعنى تنقية الشئى، واستعمال هذه المفردة فى الخطبة تشير إلى الرأى الصائبالذى طرحه الإمام عليه السلام على أصحابه بشأن التحكيم.

[۳۷۰] (۲)« منابذين» من مادة« نبذ» بمعنى الابعاد، وتستعمل هذه المفردة فى نقض العهد، وذلك لان ناقض العهد إنّما يطرح العهد بعيدا عنه.

[۳۷۱] (۳)« ضن» من مادة« ضنن» بمعنى البخل والامساك.

[۳۷۲] (۴)« زند» بمعنى الخشب الذى يشعلون به النار(حيث كانوا يولدون النار سابقا بضرب خشبتين ببعضهما، ثم اطلق على كل وسيلة لاشعال النار ومنه الزناد.).

[۳۷۳] (۵)« قدح» ومنه القداحة ما يخرج منه النار.

[۳۷۴] (۱) راجع مروج الذهب ۲/ ۲۹۰ وسترد بعض الايضاحات لهذه الخطبة لاحقاً.

[۳۷۵] (۲) الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ۱۰/ ۳، شرح نهج البلاغة للعلّامة الخوئى ۴/ ۸۸، شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۲۰۵.

[۳۷۶] (۱) إقتباس وتلخيص لما ورد فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۲۰۶- ۲۵۶.

[۳۷۷] (۲) سورة الشورى/ ۳۸

[۳۷۸] (۳) سورة آل عمران/ ۱۵۹.

[۳۷۹] (۱) وردت هذه الخطبة أو بعضها مسندة أو مرسلة من قبل المؤرخين والمحدثين.

م- قال ابن أبى الحديد(۲/ ۲۸۳) نقلها ابن حبيب البغدادى(المتوفى عام ۲۵۴).

ب- ابن قتيبة الدينورى فى الامامة والسياسة، ۱/ ۱۲۷.

ج- البلاذرى فى أنساب الأشراف، ۲/ ۳۷۱.

ء- الطبرى فى تأريخ الرسل والملوك، ۶/ ۳۳۷۷.

[۳۸۰] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۲۸۳.

[۳۸۱] (۲)« صرعى جمع« صريع» من مادة« صرع» بمعنى طريح، و تعنى الجنازة أو المقتول الملقى على الأرض؛ كما يطلق على من يسقط على الأرض فى المصارعة، و من هنا يطلق مرض الصرع على من يغمى عليه و يقع على الأرض.

[۳۸۲] (۳)« أهضام» جمع هضم وهو المطمئن من الوادى وتعنى الكسر والضغط.

[۳۸۳] (۴) الغائط ما سفل من الأرض والمراد هنا المنخفضات.

[۳۸۴] (۵)« طوحت» من مادة« طوح» بمعنى السقوط والهلكة، وإذا ورد من باب التفعيل كما ورد فى الخطبة فانّهبمعنى القذف فى المتاهة والمضلة.

[۳۸۵] (۶)« احتبل» من مادة« حبل»، أوقعكم فى حباله، والمقدار القدر الإلهى.

[۳۸۶] (۱)« الهام» جمع هامة رأس الإنسان أو سائر الكائنات الحية، واخفاء الهام تغنى ضعاف الفعل.

[۳۸۷] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۲۸۱ و تأريخ الطبرى ۲/ ۶۰- ۶۱، حوادث عام ۳۷.

[۳۸۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۲۷۱- ۲۸۲.

[۳۸۹] (۱) قال صاحب مصادر نهج البلاغة هذه من الخطب المعروفة التى رواها أغلب العلماء والمحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى(ره) ومنهم:

۱- الجاحظ فى البيان والتبيين ۱/ ۱۷۰.

۲- ابن قتيبة الدينورى فى الإمامة والسياسة ۱/ ۱۵۰.

۳- ابن عبد ربة فى العقد الفريد ۴/ ۷۱.

۴- البلاذرى فى كتاب أنساب الأشراف(فى شرح سيرة على عليه السلام)/ ۳۸۰.

۵- القاضى نعمان المصرى فى دعائم الإسلام ۱/ ۳۹۱(مع اختلاف وما ورد فى النهج وقال الشارح الخوئى يستفاد من بحار الأنوار والإحتجاج والإرشاد أنّ هذه الخطبة جزء من الخطبة ۲۷(شرح نهج البلاغة، الخوئى ۴/ ۲۱).

[۳۹۰] (۱)« تطلعت» من مادة« طلع» بمعنى مد العنق بحثا عن شى، وأصلها طلوع بمعنى الظهور والبروز.

[۳۹۱] (۲)« تقبعوا» من مادة« قبع» بمعنى الاختباء، وأصله تقبع القنفذ إذا أدخل رأسه فى جلده.

[۳۹۲] (۳)« تعتعوا» من مادة« عتع» بمعنى تلعثم اللسان، والمراد ترددوا فى كلامهم.

[۳۹۳] (۴) فوت تعنى فقدان الشى، وتطلق على التفاوت بين شيئين وابتعاد هما عن بعضهما بحيث لا يدرك أحد هماالآخر، ومن هنا تطلق هذه المفردة على من يسبق الآخرين، وهذا هو الذى اريد بها فى العبارة.

[۳۹۴] (۵)« الرهان» من مادة« رهن» بمعنى جعل الشى عند الاخر، ومن هنا يطلق الرهن على وثيقة الدين، كما يطلقالرهان على جوائز المسابقات، والمراد بقوله« استبددت برهانها» إنفردت بجائزة هذه المسابقة الإلهية.

[۳۹۵] (۱) لم يكن فى مهمز من الهمز يعنى لم يكن فى عيب أعاب به.

[۳۹۶] (۲)« الغمز» بمعنى الطعن والغماز من يبحث عن العيوب ويطعن بالناس، وهذا هو المراد بالعبارة.

[۳۹۷] (۱) ورد هذا الحديث بعدة تعبيرات فى أغلب مصادر العامة، ومن أراد الوقوف على المزيد فليراجع الغدير ۳/ ۹۷.

[۳۹۸] (۱) لقد أوردنا توضيحات مسهبة بهذا الشأن فى شرح الخطبة الشقشقية.

[۳۹۹] (۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

[۴۰۰] (۱) روضة الكافى/ ۶۹ ح ۲۶.

[۴۰۱] (۲) نهج البلاغة، الرسالة ۴۷.

[۴۰۲] (۳) نهج البلاغة، الخطبة ۱۳۶.

[۴۰۳] (۴) سورة النساء/ ۷۵.

[۴۰۴] (۱) بحار الانوار ۴۲/ ۱۳۳.

[۴۰۵] (۱) شرح نهجالبلاغة لابن أبىالحديد ۲/ ۲۹۶؛ محمد عبده الشارح المعروف والعلّامة الخوئى إختاروا هذاالمعنى أيضاً.

[۴۰۶] (۱) نقل هذه الخطبة الامدى فى غررالحكم مع إختلاف طفيف وما ورد فى نهجالبلاغة، ويفهم من هذا أنّ الآمدى قد روى

هذه الخطبة من مصدر آخر غير نهج‌البلاغة(مصادر نهج‌البلاغة ۱/ ۴۳۵).

[۴۰۷] (۱) سمت بمعنى الطريق أو الجادة، كما تطلق مشكل المحسنين، والتسميت هو الدعاء لمن يعطس حيث يسأل الله له السلامة، فالعطسة من علامات السلامة.

[۴۰۸] (۲) سورة البقرة/ ۲.

[۴۰۹] (۱) سورة يونس/ ۶۲- ۶۴.

[۴۱۰] (۲) سورة النور/ ۴۰.

[۴۱۱] (۳) صحيح البخارى ۶/ ۱۰ باب كتاب النبى صلى الله عليه و آله إلى كسرى وقيصر.

[۴۱۲] (۱) وردت هذه الخطبة فى ثلاثة مصادر على الأقل قبل السيد الرضى وهى: الغارات لابراهيم بن هلال الثقفى(۲۸۳) وأنساب الاشراف للبلاذرى الذى أورد بعضها وتأريخ الطبرى الذى روى بعض أقسامها، وكذلك مصادر نهج‌البلاغة ۱/ ۴۳۸.

[۴۱۳] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۱/ ۴۳۷.

[۴۱۴] (۱)« تحمش» من مادة« حمش»، قال صاحب المقاييس لها معنيين الغضب والنحافة، وقد وردت هنا بمعنى‌الغضب؛ أى أليس لكم حمية تغضبكم على عدوكم.

[۴۱۵] (۲) نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۲۱.

[۴۱۶] (۳)« مستصرخ» من مادة« صرخ»، الصراخ حين الخوف أو المصاب وطلب النصرة.

[۴۱۷] (۴)« متغوث» من مادة« غوث» بمعنى النصرة حين الشدة، وعليه يطلق المتغوث على من يطلب نصرة الآخرين عند الشدائد.

[۴۱۸] (۵)« المساءة» مصدر مادة« سوء»، بمعنى فقد ان النعم الماديه أو المعنوية الدنيوية أو الاخروية، البدنية أو غيرالبدنية.

[۴۱۹] (۱)« جرجرة» صوت يردده البعير فى حنجرته عند عسفه، وقيل من مادة« الجرر» بمعنى الجر، واطلق الجررلتكراره.

[۴۲۰] (۲)« أسر» من مادة« سرر» المصاب بداء السرر، وهو مرض فى كركرة البعير أى زوره ينشأ من الدبرة والقرحة.

[۴۲۱] (۳)« النضو» المهزول من الابل، والأدبر المدبور، أى المجروح المصاب بالدبرة، وهى العقر والجرح من‌القتب ونحوه.

[۴۲۲] (۴)« أدبر» من مادة« دبر» بمعنى الجرح الذى يتعرض له الحيوان إثر ضغط السراج.

[۴۲۳] (۵) جنيد مصغر جند.

[۴۲۴] (۶)« متذائب» بمعنى مضطرب، من قولهم تذاءبت الريح أى إضطرب هبوها ومنه سمى الذئب ذئباً لاضطراب مشيته.

[۴۲۵] (۱) نهج‌البلاغة، الخطبة ۲۷.

[۴۲۶] (۱) سورة الانعام/ ۵۷؛ سورة يوسف/ ۴۰ و ۶۷.

[۴۲۷] (۱) العلّامة الخوئى ۴/ ۱۸۳ من شرح نهج‌البلاغة قد أشار إلى هذا المعنى، ويستفاد من التأريخ الكامل لابن‌أثير أن ابن عباس احتج على الخوارج بهذه الآية(الكامل ۳/ ۳۲۷).

[۴۲۸] (۲) سورة النساء/ ۳۵.

[۴۲۹] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۳۰۸.

[۴۳۰] (۲)« إمرة» على وزن عبرة مصدر أو إسم مصدر من مادة« أمر»، و« الامرة» هنا بمعنى الحكومة.

[۴۳۱] (۳) واضح ان الضمير فى إمرته يعود إلى مطلق الامير سواء البر أو الفاجر وكذلك ضمير فيها، وليس صحيح ما اورده بعض شرّاح نهج‌البلاغة من أنّ الأول يعود إلى البر والثانى إلى الفاجر، أو كلاهما للفاجر.

[۴۳۲] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۲/ ۳۱۰.

[۴۳۳] (۱) ميزان الحكمة ۱/ ۹۸.

[۴۳۴] (۱) رواها ابن طلحة الشافعی فی مطالب السؤال، صحیح أنّ ابن طلحة الشافعی عاش بعد السید الرضی إلّاأنّ روایة أبن طلحة تفید أنّه عثر علیها فی مصدر غیر نهج‌البلاغة. ورواها الجاحظ فی رسالة المعاش والمعاد وقال فی مطلع الخطبة« الصدق والوفاء تؤامان» وهذا یدل علی أنّه رأها فی المصادر التی صنفت قبل الرضی(لأن الجاحظ عاش أوائل القرن الثالث بینما یعتبر السید الرضی من کبار علماء أواخر القرن الرابع) مصادر نهج‌البلاغة ۱/ ۴۴۰.

[۴۳۵] (۱)« توأم» من مادة« وئام» بمعنی الموافقة حسبما صرح بعض أرباب اللغة، بینما ذهب البعض کصاحب‌المقاییس إلی أنّ التاء أصلیة، واتئام(مصدر باب إفعال) بمعنی ولادة أحد مع الآخر من حمل واحد.

[۴۳۶] (۱) سورة الأحزاب/ ۲۳.

[۴۳۷] (۲)« جنة» علی وزن« غصة» بمعنی الدرع واشتقت فی الأصل من مادة جن علی وزن فن بمعنی الستر ومنه‌المجنون، کما تطلق الجنة علی البستان کأنه تغطی بالأشجار، ومنه الجنین المغطی برحم الأم وإطلاق الجن علی تلک الجماعة لخفائها.

[۴۳۸] (۳) نوادر الراوندی/ ۵.

[۴۳۹] (۴) بحارالأنوار ۹۷/ ۴۶.

[۴۴۰] (۱) نهج‌البلاغة، الخطبة ۲۰۰.

[۴۴۱] (۲) بحارالانوار ۷۲/ ۱۱۴.

[۴۴۲] (۳) غرر الحکم ح ۸۳- ۲.

[۴۴۳] (۴) فروع الکافی ۵/ ۱۲۴.

[۴۴۴] (۱)- الحول القلب بضم الاول وتشدید الثانی هو البصیر بتحویل الامور وتقلیبها.

[۴۴۵] (۲)« ینتهز» من مادة« إنتهاز» بمعنی الإقدام علی عمل، کما یعنی الاستفادة التامة من الفرصة.

[۴۴۶] (۳)« حریجة» من مادة« حرج» بمعنی التحرج والتحرز من الآثام، ویأتی الحرج أحیاناً بمعنی الذنب.

[۴۴۷] (۱) کنز العمال ۳/ ۱۶ ح ۵۲۱۷.

[۴۴۸] (۲) نهج‌البلاغة، الخطبة ۳.

[۴۴۹] (۳) بحارالانوار ۴۴/ ۳۲۹.

[۴۵۰] (۱) نهج‌البلاغة، الخطبة ۲۰۰، وروی عنه علیه السلام أنّه قال:« لولا التقی- أو لولا الدین والتقی لکنت أدهی العرب». شرح‌نهج‌البلاغة لابن أبی الحدید ۱/ ۲۸.

[۴۵۱] (۲) نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۲۶.

[۴۵۲] (۳) تأریخ الطبری ۳/ ۵۶۹.

[۴۵۳] (۴) سید المرسلین ۲/ ۴۰۸ نقلًا عن السیرة الحلبیة ۳/ ۴۰.

[۴۵۴] (۵) بحارالانوار ۴۴/ ۳۴۴.

[۴۵۵] (۱) سند الخطبة: وردت هذه الخطبة بعدة أسناد. رواها قبل السید الرضی(ره) نصر بن مزاحم فی کتاب صفین والشیخ المفید فی المجالس والمسعودی فی مروج الذهب. وقال نصر بن مزاحم دخل الإمام علیه السلام الکوفة بعد معرکة الجمل فأسرع قرّاء الکوفة وأشرافها لإستقباله. فدخل المسجد وصلی رکعتین ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنی علیه وصلی علی رسوله ثم خطب الخطبة.

[۴۵۶] (۱) بحارالانوار ۷۴/ ۱۸۸(مع اختلاف طفیف) وبحارالانوار ۷۰/ ۹۰- ۹۱ مع فارق ضئیل جداً.

[۴۵۷] (۱) الأنوار النعمانیة ۳/ ۱۱۴.

[۴۵۸] (۱)« حذاء» کما ورد فی تفسیر السید الرضی(ره) وشرّاح نهج‌البلاغة بمعنی السریع، من مادة حذ علی وزن‌حظ بمعنی القطع،

أو القطع السريع، ثم اطلقت على كل حركة سريعة، وحذا مؤنث إحذاً.

[۴۵۹] (۲)« صبابة» بالضم البقية من الماء واللبن فى الإناء، والضمير فى اصطبها وصابها يعود الى الصبابة، لأنّ الإناء مذكر والضمير المؤنث لا يعود اليه.

[۴۶۰] (۱) سورة الروم/ ۷.

[۴۶۱] (۲) سورة الجاثية/ ۲۴.

[۴۶۲] (۱) سورة القارعة/ ۹.

[۴۶۳] (۲) نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۸۸.

[۴۶۴] (۳) سورة المؤمنون/ ۹۹- ۱۰۰.

[۴۶۵] (۴) سورة الشعراء/ ۱۰۲.

[۴۶۶] (۱) سورة المؤمنون/ ۸۴- ۸۵.

[۴۶۷] (۲) سورة يونس/ ۹۱.

[۴۶۸] (۳)« تنبيه الخواطر»،(طبق نقل ميزان الحكمة، ۳/ ۲۳- ۲۴ مادة عمل).

[۴۶۹] (۱) وردت هذه الخطبة فى كتابين قبل نهج‌البلاغة، الأول كتاب صفين لنصربن مزاحم والآخر كتاب الإمامة والسياسة مع فارق طفيف. أما القسم الثانى فقد رواه ابن عبد ربه فى العقد الفريد. مصادر نهج‌البلاغة، ۱/ ۴۴۶.

[۴۷۰] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۷۰- ۱۱۸ بتلخيص.

[۴۷۱] (۱) إغلاق مصدر من باب إفعال يستعمل عادة فى الأبواب.

[۴۷۲] (۱)« اناة» بمعين التثبت والتأني والصبر.

[۴۷۳] (۲)« أرودوا» من مادة« رود» على وزن فوت بمعنى طلب الشيئ بالرفق والمداراة، ومنه الإرادة.

[۴۷۴] (۱) نهج‌البلاغة، الرسالة ۶.

[۴۷۵] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد ۳/ ۷۰- ۹۱ بتصرف وتلخيص.

[۴۷۶] (۱) الكامل لابن أثير ۳/ ۱۸۰.

[۴۷۷] (۲) يتفق الفريقان على نزول الآية« وإن جائكم فاسق بنبأ فتبينوا»« الاية ۶ من سورة الحجرات» كان فى الوليد. بل نقل العلامة المجلسى فى الغدير ۸/ ۲۷۶ الإجماع على ذلك.

[۴۷۸] (۱) الغدير ۸/ ۲۴۱.

[۴۷۹] (۲) الغدير ۸/ ۲۴۱.

[۴۸۰] (۳) نقل هذه القصة أغلب المؤرخين ومنهم البلاذرى فى أنساب الأشراف ۵/ ۲۹.

[۴۸۱] (۴) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۴۳ وتأريخ اليعقوبى ۲/ ۱۷۰.

[۴۸۲] (۵) شرح نهج البلاغة طبق نهج الحق/ ۲۹۷.

[۴۸۳] (۱) سند الخطبة: أوردها عدد من المؤرخين ممن عاشوا قبل السيد الرضى فى كتبهم ورووا قصة بنى ناجية، ومنهم الطبرى فى تأريخه المعروف فى وقائع عام ۳۸ ه وابراهيم بن هلال الثقفى فى كتاب الغارات والبلاذرى فى أنساب الاشراف والمسعودى فى كتاب مروج الذهب. مصادر نهج‌البلاغة، ۱/ ۴۵۱.

[۴۸۴] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۱۲۸ بتصرف.

[۴۸۵] (۱)« بكته» من مادة« بكت» على وزن بخت بمعنى الضرب بالعصا، كما تعنى التوبيخ والغلبة على الآخرين عن‌طريق الاستدلال.

[۴۸۶] (۲) سورة البقرة/ ۲۸۰.

[۴۸۷] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبی الحديد ۳/ ۱۲۸- ۱۵۰ بتصرف.

[۴۸۸] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحديد ۳/ ۱۲۸- ۱۵۰ بتصرف.

[۴۸۹] (۱) سند الخطبة: قال أغلب شرّاح نهج‌البلاغة أنّ هذه الخطبة والخطبة رقم ۲۸ كلاهما فصل من خطبة طويلة روى السيد الرضی قسما منها هنا وآخر فی الخطبة المذكورة(كما ترک القسم الثالث) ويفيد هذا الأمر مرة اخرى أنّ السيد الرضی(ره) لم يرد نقل كافة خطب الإمام عليه السلام فی نهج‌البلاغة، بل كان يلتقط كلامه عليه السلام إلتقاط لأنّ غرضه ذكر فصاحته عليه السلام لا غير. على كل حال نقل هذه الخطبة قبل السيد الرضی(ره) المرحوم الصدوق فی كتاب من لايحضره الفقيه، والمرحوم الشيخ الطوسی(بعد الرضی) فی مصباح المتهجد.(مصادر نهج البلاغة، ۲/ ۱۰- ۱۱).

[۴۹۰] (۱)« مقنوط» من مادة« قنوط» على وزن قنوت بمعنى اليأس من الخير والرحمة، والقنوط على وزن بلوطصيغة مبالغة.

[۴۹۱] (۲) سورة الاعراف/ ۱۵۶.

[۴۹۲] (۳) سورة يوسف/ ۸۷.

[۴۹۳] (۴) سورة الحجر/ ۵۶.

[۴۹۴] (۵) سورة لقمان/ ۲۰.

[۴۹۵] (۱) سورة الزمر/ ۵۳.

[۴۹۶] (۲) فی ظلال نهج‌البلاغة ۱/ ۲۲۶.

[۴۹۷] (۳) مجمع البيان ذيل تفسر بسم اللّه الرحمن الرحيم من سورة الفاتحة.

[۴۹۸] (۴)« إستنكاف» من مادة« نكف» على وزن نظم بمعنى الابعاد، والانتكاف بمعنى الخروج من أرض إلى‌اخرى، والاستنكاف بمعنى الآباء والاعراض عن الشيء.

[۴۹۹] (۵) سورة النساء/ ۱۷۳.

[۵۰۰] (۶) سورة النحل/ ۱۸.

[۵۰۱] (۱) منى لها الفناء، أی قدر لها لها الفناء. وتطلق على الآمال التی يخطط لها الإنسان فالمراد أن الفناء مقدر فی‌طبيعة الدنيا.

[۵۰۲] (۲)« الجلاء» بمعنى الظهور، ومنه الجلاء عن الوطن بمعنى الخروج منه، وكأنّ الإنسان كان مستخفياً وقدظهر بعد أن خرج من وطنه.

[۵۰۳] (۱)- مادة« الالتباس» إن تعدت بحرف الباء عنت الاختلاط والامتزاج، وإن تعدت بحرف على عنت الاشتباه، ومن هنا يتضح أنّ المراد بالعبارة هنا الاشتباه.

[۵۰۴] (۲)« البلاغ» بمعنى الوصول إلى الشی، ومنه البلوغ الذی يصل فيه الإنسان مرحلة خاصة. والمراد بها هنا مايتبلغ به، أی يقتات به مدة الحياة.

[۵۰۵] (۳) سورة البقرة/ ۱۹۷.

[۵۰۶] (۱) الكفاف من مادة كف بمعنى كف اليد، ولما كان الإنسان يبعد الشیء عنه بكفه فقد وردت هذه المفردةبمعنى المنع والسلب، ومنه المكفوف لمن سلب بصره، ويقال للجماعة كافة لأنها تمنع العدو.

[۵۰۷] (۲) سورة المائدة/ ۸۷.

[۵۰۸] (۳) اصول الكافی ۲/ ۱۴۰.

[۵۰۹] (۴) غرر الحكم، ح ۲۳۴.

[۵۱۰] (۵) غرر الحكم، ح ۲۸۶.

[۵۱۱] (۶) نهج‌البلاغة/ ۳۷۱.

[۵۱۲] (۱) سند الخطبة رواه بعض المحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى(ره) ومنهم نصربن مزاحم فى كتاب صفين، وذكر بعض المؤرخين أنّ الإمام عليه السلام دعا بهذا الدعاء عند ما وضع رجله فى الركاب وعزم على المسير إلى الشام لقتال معاوية. وقال السيد الرضى وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله وقد قفاه أميرالمؤمنين على عليه السلام. ورواه أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح، ما اورده مع بعض الاضافات القاضى نعمان المصرى فى كتاب دعائم الإسلام، وقال: إنّ الإمام عليه السلام كان يدعوا بهذا الدعاء عند كل سفر، مصادر نهج‌البلاغة، ۲/ ۱۲.

[۵۱۳] (۱)« وعثاء» من مادة« وعث» على وزن درس تعنى المشقة، وأصله المكان المتعب لكثرة رمله وغوص الأرجل فيه ومن هنا يطلق الوعثة على المرأة المترهلة لأنّها لا تستطيع الحركة بسهولة.

[۵۱۴] (۲)« كآبة» بمعنى الإنزعاج وسوء الحال وتصدع البال ومن هنا يقال الكئيب للفرد غير مرتاح البال.

[۵۱۵] (۳)« منقلب» من مادة« قلب» مصدر بمعنى الرجوع، كما يمكن أن تكون إسم مصدر، واسم مكان وزمان، وهى هنا إسم مصدر أنسب منها مصدر.

[۵۱۶] (۱) سورة الحديد/ ۴.

[۵۱۷] (۲) سورة البقرة/ ۱۱۵.

[۵۱۸] (۳) بحارالانوار ۹۰/ ۳۰۲.

[۵۱۹] (۴) اصول الكافى ۲/ ۴۶۸ ح ۱.

[۵۲۰] (۵) بحارالانوار ۹۰/ ۳۴۱؛ أصول الكافى ۲/ ۴۸۶.

[۵۲۱] (۶) سورة الفرقان/ ۷۷.

[۵۲۲] (۱) سورة النمل/ ۶۲.

[۵۲۳] (۱) سورة المؤمنون/ ۲۸- ۲۹.

[۵۲۴] (۲) سورة القصص/ ۲۲.

[۵۲۵] (۳) سورة القصص/ ۲۴.

[۵۲۶] (۴) سورة القصص/ ۸۵.

[۵۲۷] (۵) الوسائل‌الشيعة ۸/ ۲۷۵- ۲۸۱.

[۵۲۸] (۶) سورة الزخرف/ ۱۳- ۱۴.

[۵۲۹] (۱) سند الخطبة: من جملة من رواها قبل السيد الرضى(ره) إبن الفقيه فى كتاب البلدان، إلّاأنّه صرح أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام خاطب بهذا الكلام أهل البصرة والكوفة ولا يغير ذلك شيئاً. ونقلها بعد السيد الرضى(ره) الزمخشرى فى ربيع الأبرار فى باب البلاد والديار. مصادر نهج‌البلاغة، ۲/ ۱۵.

[۵۳۰] (۱)« أديم» بمعنى ظاهر الشيئ وغالباً ما يطلق على الجلد، كما يسمى وجه الأرض ب(أدمة الأرض)، وقيل هذاهو السبب فى تسمية آدم لأنه خلق من أديم الأرض.

[۵۳۱] (۲)« عكاظ» كما ذكرنا سابقا سوق كانت تقيمها العرب فى العصر الجاهلى قرب مكة فى صحراء بيت نخلة والطائف يجتمعون إليه ليتعاكظوا؛ أى يتفاخروا، وكان تفاخرهم قبلى عادة ما يقود إلى الحروب الدامية.

[۵۳۲] (۱)« تعركين» من مادة« عرك» على وزن درك، من عركت القوم الحرب إذا مارستهم حتى أتعبتهم.

[۵۳۳] (۲)« نوازل» جمع نازلة بمعنی الحوادث الشدیدة.

[۵۳۴] (۳) شرح نهج‌البلاغة لابن أبی الحدید ۳/ ۱۹۸.

[۵۳۵] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبی الحدید ۳/ ۱۹۸.

[۵۳۶] (۱) سند الخطبة: کما ذکر سابقاً فانّ الإمام خطبها بالنخیلة حین تجهز لصفین خارجاً من الکوفة. وقد جاء فی کتاب مصادر نهج‌البلاغة أنّه خطبها فی الخامس والعشرین من شوال سنة ۳۷ ه وهو بالنخیلة خارجاً من الکوفة، وأضاف طبقاً لنقل ابن أبی الحدید أنّه ذکرها جماعة من أصحاب السیر وزاد وفیها، ومنهم نصر بن مزاحم فی کتاب صفین(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۱۶).

[۵۳۷] (۱)« وقب» من مادة« وقب» الحفرة فی الأرض أو الجبل، ویقال للشی وقب إذا دخل الحفرة أو الظلام، ومن‌هنا کان المعنی دخل اللیل.

[۵۳۸] (۲)« غسق» یعنی شدة الظلمة، ولما کانت اللیل یشتد ظلمة کلما اقترب من منتصفه فانّ الغسق کنایة عن منتصف اللیل أیضاً ومن هنا قال المفسرون:« أقم الصلوة لدلوک الشمس إلی غسق اللیل» إشارة إلی الصلوات الأربع الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقرآن الفجر صلاة الصبح(سورة الاسراء/ ۷۸).

[۵۳۹] (۳)« لاح» من مادة« لوح» بمعنی الظهور والبزوغ. وتستخدم فی کل وجود مضییء ویطلق اللوح علی‌الصفیحة البیضاء التی تصنع من الخشب أو الفلز.

[۵۴۰] (۴)« خفق» من مادة« خفق» و« خفوق» بمعنی الغیاب والتزلزل والحرکة، ومن هنا تستعمل حین یغرب القمر أو الشمس أو کوکب.

[۵۴۱] (۱) سورة القصص/ ۷۳.

[۵۴۲] (۲) سورة الانعام/ ۹۷.

[۵۴۳] (۳) سورة النحل/ ۱۶.

[۵۴۴] (۴)« افضال» من مادة« فضل» بمعنی الإحسان.

[۵۴۵] (۵) المناجاة الخمسة عشر، مناجاة الشاکرین، بحارالانوار ۹۱/ ۱۴۶.

[۵۴۶] (۶) بحارالانوار ۱۳/ ۳۵۱ ح ۴۱.

[۵۴۷] (۱)« مقدمة» بکسر الدل بمعنی المتقدم و بفتح الدال المبعوث مسبقا و تطلق المفردتان علی طلیعة الجیش یعنی الطائفة التی تتحرک أمام العسکر لتطلعه علی ما یواجهه من أحداث.

[۵۴۸] (۲) کما ذکرنا سابقا فإن ملطاط اقتبست من مادة« لط»« لطط» و میمها زائدة، و تعنی هذه المادة الإقتراب و المرافقة، و من هنا یقال« لط» للقادة لأنها ترافق العنق دائما، کما یقال الملطاط لشاطیء النهر و البحر، بینما أعتبرها البعض الآخر من أرباب اللغة من مادة« ملط» علی وزن« شرط» و لیس هناک من فارق مع سابقتها من حیث المعنی و إن تفاوت اللفظ.

[۵۴۹] (۳)« نطفة» الماء الصافی القلیل أم الکثیر، ویطلق أحیانا بمعنی کل ماء جار و مائع سیال.

[۵۵۰] (۴)« شرذمة» تعنی فی الأصل الجماعة القلیلة و ما یتبقی من الشیء، و یقال الشرذمة لما یفصل عن الثمرة.

[۵۵۱] (۵)« أکناف» جمع« کنف» علی وزن« هدف» بمعنی أطراف الشیء، و حیث تکون أطراف الأشیاء سببا لستر الاقسام الباطنیة فانه یقال« الکنیف» للجدران الأربعة التی یستتر فیها الإنسان، و کذلک یطلق علی الواقی و الدرع الذی یحفظ الإنسان من ضربات الأعداء.

[۵۵۲] (۱) سورة الدخان/ ۲۵- ۲۹.

[۵۵۳] (۱) وردت هذه القضایا التأریخیة فی شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۳/ ۲۸۸.

[۵۵۴] (۱) سند الخطبة: رواها جمع ممن عاش بعد السيد الرضی(ره) ومنهم العلامة المجلسی فی روضة البحار وعلی بن محمد بن شاكر الواسطی فی كتاب عيون الحكم والمواعظ(مصادر نهج البلاغة، ۲/ ۱۸).

[۵۵۵] (۱)« بطن» من مادة« بطن» علی وزن متن تستعمل للأشياء الخفية، ويقال بطنت الأمر بمعنی علمت ببواطنهٔوأسراره. ولما كان داخل البطن خفی فقد استعملت هذه المفردة بشأن كل شیء خفی، وباطن الأشياء بمعنی داخلها، وله معنی الفعل اللازم والمتعدی.

[۵۵۶] (۱) سورة الانعام/ ۱۰۳.

[۵۵۷] (۲) سورة الاعراف/ ۱۴۳.

[۵۵۸] (۳) نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۷۹.

[۵۵۹] (۱) الاستعلاء قد يكون بمعنی الافضلية واريد بها هنا هذا المعنی.

[۵۶۰] (۲) سورة النور/ ۳۵.

[۵۶۱] (۱) للوقوف علی المزيد بهذا لاشأن راجع المجلد الأول من الشرح، الخطبة الاولی.

[۵۶۲] (۲)« جحود» و« جحد» بمعنی الإنكار الممزوج بالعلم- وقال الراغب فی المفردات تعنی نفی ما ثبت فی القلب، أو إثبات ما نفاه القلب- وعليه ففی مفهوم الجحود نوع من التعصب والعداء الخفی ضد الحق.

[۵۶۳] (۳) سورة العنكبوت/ ۶۱- ۶۳.

[۵۶۴] (۱) وردت هذه الأشعار فی حواشی« شرح الباب الحادی عشر» فی الصفحة الأولی من قول إبن أبی الحديد.

[۵۶۵] (۱) سند الخطبة: نقل هذه الخطبة عدد ممن عاش قبل السيد الرضی(ره)، كالمرحوم الكلينی فی الكافی فی باب البدع والرأی والمقاييس(۱/ ۵۴) وأحمدبن محمدبن خالد البرقی فی كتاب المحاسن(۱/ ۲۰۸) واليعقوبی فی تأريخه(۲/ ۱۳۶) وابوجبان التوحيدی فی البصائر والذخائر/ ۳۲، وأخرون ممن عاشوا بعد الرضی ولا حاجة لذكرهم. مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۱۹.

[۵۶۶] (۱)« تبتدع» من مادة« بدعة» بمعنی حديثة الظهور، وتستعمل بشأن الاحكام المخالفة لكتاب اللّٰه والسنةالنبوية.

[۵۶۷] (۱) راجع كتاب الغدير/ ۱۰.

[۵۶۸] (۲)« يتولی» من مادة« تولی» بمعنی الاتباع. وتأتی أحيانا بمعنی الإقتراب والسيطرة علی المقام والمنصب إلا أن المراد هنا المعنی الأول.

[۵۶۹] (۳)« مرتادين» من مادة« ارتياد»، الطالبين للحقيقة.

[۵۷۰] (۴)« ضغث» علی وزن حرص قبضة من حشيش مختلط فيها الرطب باليابس، كما يطلق الضغث علی الاحلام‌المزعجة، وقد وردت فی العبارة بمعنی بعض من الشیء.

[۵۷۱] (۱) العبارة إقتباس من الآية ۱۰۱ من سورة الأنبياء« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الْحُسْنی أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ» التی‌وردت بعد الحديث عن جهنم، فی اشارة إلی أنّ هذه الطائفة ناجية من النار، ولما كانت فتن الدنيا هی جهنمها، فقد استثنی عليه السلام هذه الطائفة من هذه الفتن.

[۵۷۲] (۱) سورة القصص/ ۳.

[۵۷۳] (۱) لقد نقل هذه الخطبة« نصر بن مزاحم» فی كتاب صفين عن جابر عن أمير المؤمنين علی عليه السلام(مع بعض الفوارق الطفيفة)(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۰).

[۵۷۴] (۱)« محلة» تستعمل بمعنی المكانة والمنزلة الاجتماعية.

[۵۷۵] (۲)« رووا» من مادة« التروية» بمعنی الارتواء من الماء، ولهذا يصطلح علی اليوم الثامن من شهر ذی الحجة ب« يوم التروية» حيث كان الحجيج فی السابق يتزودون بالماء حين الذهاب إلی عرفة ومنی والمشعر الحرام، كما قد تستعمل هذه المفردة ويراد بها

المعنى الكنائى كإرواء السيوف الذى ورد فى هذه الخطبة.

[۵۷۶] (۳) بحار الأنوار ۴۵/ ۷.

[۵۷۷] (۱) ارشاد المفيد ۲/ ۸۱. طبعة آل البيت.

[۵۷۸] (۲) سورة التوبة/ ۵۲.

[۵۷۹] (۳)« لمه» من مادة« لمى يلمو لموا» بمعنى أخذ الشىء بأكمله و(لمه) بضم اللام وفتح الميم بدون التشديد» بمعنى الجماعة القليلة،(غواة) جمع غاوى بمعنى الضال، والعمس بمعنى محو الأثر وعدم العلم بالشىء، ومن هنا أطلق العميس على الظلام الدامس، فيقال ليل عماس؛ أى مظلم.

[۵۸۰] (۱)« أباة» جمع أبى بمعنى الرفض والامتناع والضيم بمعنى الظلم، وهو ما يطلق على أولئك الذين لايستسلمون للظلم والجور.

[۵۸۱] (۲) سورة المنافقون/ ۸.

[۵۸۲] (۳) الكافى ۵/ ۶۳.

[۵۸۳] (۴) بحار الأنوار ۴۴/ ۱۹۲.

[۵۸۴] (۵) بحار الأنوار ۴۵/ ۸۳.

[۵۸۵] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۲۶۳.

[۵۸۶] (۲) بحار الأنوار ۴۴/ ۳۹۱.

[۵۸۷] (۱) سورة طه/ ۶۳.

[۵۸۸] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۳/ ۳۳۰.

[۵۸۹] (۱) سند الخطبة: روى أنّ الإمام عليه السلام خطبها فى عيد الأضحى وبدايتها« اللَّه أكبر اللَّه أكبر لا اله إلّااللَّه واللَّه أكبر وللَّه الحمد الحمدللَّه على ما هدانا ...» ورواها المرحوم الصدوق(ره) فى كتابه من لا يحضره الفقيه ۱/ ۲۲۹ والشيخ الطوسى(ره) فى كتاب المصباح/ ۲۶۱ وقال: نقل أبومخنف عن عبدالرحمن‌بن جندب عن أبيه أنّ علياً عليه السلام خطب الناس فى الأضحى وقد أورد السيد الرضى(ره) بعضها فى نهج‌البلاغة، كما روى الشيخ المفيد قسما منها فى المجلس العشرين من الامالى. مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۲۲ وقد مضى شبيه هذا المضمون فى الخطبة ۲۸.

[۵۹۰] (۱)« تصرمت» من مادة« صرم» بمعنى انقطعت وفنيت، ومن هنا يطلق الصارم على السيف القاطع، وتصرم‌الدنيا يعنى انقطاع أجلها.

[۵۹۱] (۲)« آذنت» من مادة إيذان أعلمت وأخبرت.

[۵۹۲] (۱)« حذاء» من مادة« حذ» على وزن حظ بمعنى السريعة الذهاب، ومن هنا يطلق الحذاء على الدابة السريعة، والمراد هنا سرعة أجل الدنيا.

[۵۹۳] (۲)« تحفز» من مادة« حفز» على وزن حبس بمعنى تعجلهم وتسوقهم، وقد ورد فى الحديث الشريف أن‌حفز الموت من علامات القيامة. قيل وما حفز الموت. قال صلى الله عليه و آله: موت الفجأة(لسان العرب).

[۵۹۴] (۳)« مر» على وزن« شر» بمعنى المضى والعبور ومر على وزن حر ضد الحلو، وأمر» من مادة« مُر» بمعنى‌مضى الزمان يجعل حلاوة الدنيا مرارة.

[۵۹۵] (۴)« سملة» من مادة« سمل» على وزن حمل بمعنى البقية من الماء تبقى فى الإناء، ومن هنا كان الاسمال بمعنى‌الإصلاح لأنّه يزيل ما بقى من الأحقاد والأضغان.

[۵۹۶] (۵)« إدواة» على وزن إدارة القربة الصغيرة من الجلد.

[۵۹۷] (۶)« تمزز» من مادة« مز» على وزن حز بمعنى التـذوق والامتصاص والأكل وقال صاحب مقاييس اللغـةامتصاص الماء تدريجياً وببطئ.

[۵۹۸] (۱)« أزمعوا» من مـادة« زمع» بمعنى العزم على الشـيىء، ولـذلك قيـل ان هـذه المفردة قلبت من عزم أى نقلتفيها حرفى الزاء والميم من مكـان إلى آخر، وقيـل كانت فى الأصل جمع ثم بـدلت إلى زاء، والمفردات الثلاث(عزم وزمع وجمع) بمعنى واحـد وهو التصميم والعزم على الشى.

[۵۹۹] (۲)« أمد» على وزن صمد أجل الشيوتأتى بمعنى الغضب، لأنّ صبر الإنسان ينفد حين الغضب.

[۶۰۰] (۳) سورة الحديد/ ۱۶.

[۶۰۱] (۱) بحارالانوار، ۵۰/ ۲۱۱.

[۶۰۲] (۱)« حنين» بمعنى الشـفقة والرأفـة والرحمـة وتقال عادة مقترنة بالأنين والألم، و« اسـتن حنانة» تطلق علىالعمود الخشبى الذى ورد فى الروايـة أن رسول الله صـلى الله عليه و آله كـان يسـتند إليه ويخطب الناس، ثم اسـتبدل بالمنبر فكان ذلك العمود يتأوه لفراق النبى صلى الله عليه و آله.

[۶۰۳] (۲)« وله» جمع« واله» و« والهة» من مادة« وله» على وزن ولع بمعنى شدة الهم الذى يذهب بالعقل ويفقد التمييز.

[۶۰۴] (۳)« عجال» جمع« عجول» من مادة« عجلة» بمعنى السرعة فى العمل، كما تطلق على المرأة التى تثكل بولدها.

[۶۰۵] (۱)« هديل» يطلق على الحمام كما يطلق أحياناً على نوحه وهو من الهدل على وزن العدل بمعنى الصوتالعذب.

[۶۰۶] (۲) جؤار له معنى مصدرى وهو الصوت المرتفع المشوب بالتضرع والنجدة.

[۶۰۷] (۳) متبتل من مادة تبتل بمعنى الإنفصال والإعتزال وتطلق على الرهبان الذين يعتزلون المجتمع وينهمكون بالعبادة. ومن ألقاب الزهراء عليها السلام البتول لإنقطاعها إلى الله وأفضليتها على سائر النساء فى الفضل والعلم والمعرفة. وورد فى بعض الروايات أن التبتل هو رفع اليد بالدعا.

[۶۰۸] (۴)« رهبـان» جمـع« راهـب» من مـادة« رهـب» على وزن رحم بمعنى الخـوف، الخـوف مع ضـبط النفس والرهبانيـة تعنى شـدة العبوديـة وترك الـدنيا، وهى بدعـة ابتـدعها طائفـة من النصارى حيث يقاطع الفتى اوالفتاة الزواج ويقبع فى زاويـة من الدير وينهمك بالعبادة، وقد ورد النهى عنها فى الاسلام، فقد قال صلى الله عليه و آله:« لا رهبانية فى الاسلام».

[۶۰۹] (۵) نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۹۳.

[۶۱۰] (۱)« انمياث» من مادة« موث» على وزن موت بمعنى الـذوبان، وانمياث من باب الانفعال، ويعنى فى العبارةبـذل قصارى الجهد فى سبيل اللّه.

[۶۱۱] (۱) بيت الشعر إقتبـاس من حـديث عن الإمام السـجاد والصادق عليهما السـلام، بحارالانوار، ۱۳/ ۳۵۱ المناجاة الخمسة عشر مناجاة الشاكرين.

[۶۱۲] (۲) سورة الحجرات/ ۱۷.

[۶۱۳] (۱) سـند الخطبـة: ورد فى كتاب مصادر نهج‌البلاغـة أنّ هذه ليست خطبة مسـتقلة(بل هى جزء من الخطبة السابقة التى خطبها فى الأضـحى) ومن هنا عـدتها نسـخة إبن أبى الحديد التى تعتبر أصح النسخ جزءاً من الخطبة السابقة، اما أنّها وردت مسـتقلة فى سائر النسـخ فهـذا مـن خطأ الرواة، والشاهـد على ذلـك أنّهـا وردت جزءا من الخطبـة فى كتـاب من لا ـ يحضـره الفقيه(۱/ ۴۶۱) ومصباح المتهجد/ ۴۲۹. جدير ذكره أن العبارة التى وردت فى كتاب من لايحضره الفقيه بعد« تجر رجلها إلى المنسك»« فلا تجزى» الذى يغير العبارة تماماً. ولايبدو ذلك مستبعداً، وان درجنا على السير فى نهج‌البلاغة حسب تصنيف صبحى الصالح. مصادر نهج‌البلاغة، ۲/ ۲۳.

[۶۱۴] (۲)« الاضحية»: الشاة التى طلب الشارع ذبحها بعد شروق الشمس من عيد الأضحى.

[۶۱۵] (۳)« إستشراف» من مادة« شرف» بمعنى علو المقام، والمراد باستشراف الاذان تفقدها حتى لاتكون مجدوعة أو مشقوقة غير سالمة.

[۶۱۶] (۱)« عضباء» من مادة« عضب» على وزن عزم بمعنى القطع أو الكسر، وعضباء القرن بمعنى مكسورة القرن، كما يطلق على الناقة إذا شقوا اذنها ناقة عضباء.

[۶۱۷] (۲) وردت العبارة« فلا تجزى» فى كتاب من لا يحضره الفقيه ۱/ ۱۶۸ باب صلاة العيدين، ح ۱۴۸۷.

[۶۱۸] (۳) سورة الحج/ ۳۶.

[۶۱۹] (۱) سند الخطبة: يرى صاحب مصادر نهج‌البلاغة أنّ هذا الكلام جزء من الخطبة ۲۶ و ۳۰ و ۵۴ و ۷۸، خطبها عليه السلام فى بيته بحضور الناس ليدونوها وينقلوها إلى الآخرين. وقال فى ذيل الخطبة ۲۶ رواها قبل السيد الرضى(ره) الثقفى فى الغارات والطبرى فى المسترشد والمرحوم الكلينى فى الرسائل نقلًا عن كشف المحجة للسيد ابن طاووس وابن قتيبة فى الإمامة والسياسة(مصادر نهج‌البلاغة ۱/ ۳۹۰).

[۶۲۰] (۲) منهاج البراعة ۴/ ۳۲۶؛ شرح نهج‌البلاغة لابن ميثم البحرانى ۲/ ۱۴۴.

[۶۲۱] (۱)« تداكوا» من مادة« دك» على وزن فك، قال الراغب فى المفردات أنّها تعنى الأرض المستوية الرخوة، بينماصرحت سائر كتب اللغة بعكس ذلك وان الدك يعنى الضرب. ومعنى العبارة فى الخطبة أنّهم تزاحموا عليه ليبايعوه رغبة فيه.

[۶۲۲] (۲)« هيم» جمع« أهيم» و« هيماء» صفة مشبهة بمعنى شدة العطش التى تجعل الحيوان أو الإنسان يروح ويجيئ، ويقال الهيمان للعاشق. والهيم العطاش من الابل.

[۶۲۳] (۳)« ورد» اسم مصدر بمعنى الورود، وقيل مصد كتأكيد لمعنى الفاعلية، وتعنى الجمع أيضاً. يوم وردها يوم سشربها للماء.

[۶۲۴] (۴)« مثانى» جمع مثناة بالفتح ومثناة بالكسر وهو حبل من صوف أو شعر يعقل به البعير. وهى فى الأصل من مادة ثنى بمعنى التكرار واعادة جزء من الشى إلى الآخر.

[۶۲۵] (۱) من أراد المزيد يمكنه مراجعة الخطبة الشقشقية.

[۶۲۶] (۱) سورة الانفال/ ۳۹.

[۶۲۷] (۲) سورة الحجرات/ ۹.

[۶۲۸] (۱) سند الخطبة: لم يشر صاحب مصادر نهج‌البلاغة إلى سند خاص لهذه الخطبة، إلّاأنّ لابن أبى الحديد فصل ذيل هذه الخطبة تحت عنوان من أخبار يوم صفين يفيد أنّ ما أورده هنا السيد الرضى(ره) بمعنى آخر ينسجم وما جاء فى التواريخ. شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۴/ ۱۳.

[۶۲۹] (۱) هنالك احتمال بشأن إعراب هذه الجملة: أحدهما أن كل منصوبه على أنّها مفعول لفعل تقديره« أتفعل كل‌ذلك»، والآخر انها مرفوعة كمبتدأ وتقدير الجملة« أكل ذلك ناشئ من كراهية الموت». على كل حال فانّ الجملة« كراهية المت» مفعول لأجله.

[۶۳۰] (۱)« تعشو» فى الأصل من مادة« عشو» على وزن ضرب بمعنى الظلمة وعدم وضوح الشيء ومنه صلاةالعشاء لأنها أول الظلمة وعشى بمعنى آخر اليوم الذى يظلم فيه الجو تدريجيا ويقال الأعشى لضعيف البصر.

[۶۳۱] (۲)« تبوء» من مادة« بوء» على وزن نوع بمعنى الرجوع والعودة وقيل أصلها يعنى الصافى والمسطح واريد بهاهنا الرجوع.

[۶۳۲] (۱) سند الخطبة: نقل ابن أبى الحديد هذا الكلام عن الواقدى ابن هلال قبل المرحوم السيد الرضى(ره) ورواها الزمخشرى فى ربيع الأبرار فى الجزء الرابع من باب القتل والشهادة. وأضاف صاحب مصادر نهج‌البلاغة بعد ما اورد هذا الكلام انه من كلامه المعروف فى مصادر العلماء السابقين وبعد السيد الرضى(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۲۹).

[۶۳۳] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن ميثم ۲/ ۱۴۶.

[۶۳۴] (۲) سورة التوبة/ ۲۴.

[۶۳۵] (۳)« لقم»: قال بعض أرباب اللغة وشرّاح نهج‌البلاغة تعنى معظم الطريق أو جادته، واصلها من اللقم على وزن‌العفو بمعنى السرعة فى الأكل.

[۶۳۶] (۴)« مضض» على وزن« مرض» بمعنى تجذر الهم فى القلب مع الحرقة.

[۶۳۷] (۵) التصاول من صول على وزن قول أن يحمل كل واحد من الندين على الآخر.

[۶۳۸] (۶)« تخالس» من مادة« خلس» على وزن درس كل واحد منها يطلب اختلاس روح الآخر.

[۶۳۹] (۱)« كبت» على وزن ثبت بمعنى الاذلال.

[۶۴۰] (۲) جران البعير مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره، القاء الجران كناية عن التمكن، فالعبارة كناية عن إتساع رقعةالإسلام ونصر المسلمين واستقرار الإسلام فى مختلف بقاع العالم.

[۶۴۱] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۴/ ۳۴ باختصار شديد.

[۶۴۲] (۱) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج‌البلاغة لقد روى هذا الكلام عن أميرَالمؤمنين عليه السلام كراراً من المحدثين قبل السيد الرضى(ره). وروى إبراهيم الثقفى فى كتاب الغارات عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ الإمام عليه السلام صعد منبر الكوفة فقال:« سيعرض عليكم سبّى ...» كما روى هذا الكلام الكلينى فى الكافى والبلاذرى فى أنساب الاشراف والحاكم فى المستدرك وشيخ الطائفة الطوسى فى الامالى(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۳۳).

[۶۴۳] (۲) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۴/ ۵۴.

[۶۴۴] (۳) مصادر نهج‌البلاغة، ذيل الخطبة.

[۶۴۵] (۱)« بلعوم» على وزن« حلقوم» موضع مرور الطعام، ورحب البلعوم واسعه، أو كناية لكثرة أكله.

[۶۴۶] (۲)« مندحق» من مادة« دحق» على وزن قطع بمعنى الدفع والابعاد وطرح الشى بعيداً، ولما كان كبر البطن يؤدى الى بروزها وكأنّها تطرح بعضها خارجا اطلق على الشخص البطين مندحق البطن.

[۶۴۷] (۱) رواه الحاكم فى كتاب مستدرك الصحيحن ۱/ ۱۲۱ طبعة حيدر آباد.

[۶۴۸] (۲) بحارالانوار ۴۵/ ۱۳۷.

[۶۴۹] (۳) الغدير ۱۰/ ۲۶۴.

[۶۵۰] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۴/ ۱۱۵.

[۶۵۱] (۱) إحقاق الحق ۶/ ۴۴۰- ۴۴۱.

[۶۵۲] (۲) روى هذا لاحديث المرحوم العلّامة الأمينى فى كتاب الغدير عن علماء السنة مثل محب‌الدين الطبرى فى الرياض والشافعى فى الكفاية والحموى فى الفرائد وابن صباغ المالكى فى الفصول المهمة(الغدير ۲/ ۳۰۰) وللوقوف أكثر راجع مصادر هذا الحديث فى المجلد السابع من احقاق الحق ۷/ ۲؛ ۱۶/ ۴۲۳.

[۶۵۳] (۱) نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۱۸/ ۲۴.

[۶۵۴] (۱) سورة الاعمران/ ۲۸.

[۶۵۵] (۱)- أجمع مفسرون الفريقين أنّ هذه الآية نزلت فى عمار، وصحيح أن عمار اجبر على الكفر إلّاأنّه تظاهربأنّه تكلم من خلال الاعتقاد بذلك وأنّه رجع عن دين محمد ليتركوه ويحفظ دمه.

[۶۵۶] (۲) سورة النحل/ ۱۰۶.

[۶۵۷] (۳) سورة غافر/ ۲۸.

[۶۵۸] (۱) سند الخطبة: اورد بعض هذه الخطبة قبل السید الرضی(ره) إبن قتیبة فی کتاب الإمامة والسیاسة وابن‌الجوزی فی تذکرة الخواص والطبری فی المسترشد، کما نقل ابن أثیر فی کتاب النهایة عدة إحتمالات وردت بشأن بعض مفردات الخطبة وهذا یشیر أنّه حصل علیها من عدة نسخ(مصادر نهج‌البلاغة، ۲/ ۳۶).

[۶۵۹] (۱)« أوبوا» من مادة« أوب» علی وزن قوم بمعنی الرجوع، کما تطلق هذه المفردة علی السحاب والریاح بسبب‌الرجوع فیها.

[۶۶۰] (۲) أعقاب جمع عقب بمعنی کعب الرجل، کما تطلق علی الأثر الذی یترکه علی الأرض، وهی هنا کنایة عن‌الأجیال السابقة.

[۶۶۱] (۱) سیأتی سند هذا الکلام ذیل الخطبة رقم ۶۰ فهی تشیر إلی نفس الموضوع.

[۶۶۲] (۲) سورة آل‌عمران/ ۴۹.

[۶۶۳] (۱) سند الخطبة: قال صاحب کتاب مصادر نهج‌البلاغة بعد أن جمع الخطبة ۵۹ و ۶۰ بشأن هذا الکلام رواه المبرد فی الکامل(والمبرد من علماء القرن الثالث الهجری) ونقل بعضه البیهقی فی المحاسن والمساوئ والمسعودی فی مروج الذهب ثم مدح ابن أبی‌الحدید فی انه قال: هذا من الأخبار المشهورة القریبة من التواتر ومن معجزاته الغیبة علیه السلام. مصادر نهج‌البلاغة، ۲/ ۳۷.

[۶۶۴] (۲)« قرارات» من مادة« قرار»، وقرارت النساء أرحامهن حیث تنعقد النطفة لمدة فی الرحم فتقر هناک، وقال‌القرآن« ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِی قَرارٍ مَکِینٍ»، سورة المؤمنون/ ۱۳.

[۶۶۵] (۱)« نجم» من مادة« نجم» علی وزن حجم بمعنی الطلوع، کما یطلق علی کل ظهور وطلوع مفاجیء.

[۶۶۶] (۲) سورة التوبة/ ۵۸.

[۶۶۷] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبی الحدید ۲/ ۲۶۷.

[۶۶۸] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبی الحدید ۵/ ۷۳- ۷۶.

[الجزء الثالث]

الخطبة[۱] الحادیة والستون

اشارة

وقال علیه‌السلام

«لا تُقاتِلُوا الْخَوارِجَ بَعْدِی فَلَیسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقّ فَأَخْطَأَهُ کَمَنْ طَلَبَ الْباطِلَ فَأَدْرَکَهُ».

الشرح والتفسیر

الفارق بین الخوارج وأهل الشام

تعرضت بعض الخطب السابقة للخوارج، فقد أشارت بعضها إلی الأمور المهمة فی سیرتهم ومواقفهم وما آل إلیه مصیرهم. ویتضمن کلامه علیه السلام هنا الإشارة إلی الاسلوب الذی یتم من خلاله التعامل مع الخوارج بعده علیه السلام فیقول

«لاتقاتلوا الخوارج بعدی»

. استناداً إلی صراعه المریر علیه السلام الذی خاضه ضد الخوارج، ولا سیما فی النهروان التی وجه فیها ضرباته الماحقة إلی فلولهم، وکونهم یشکلون أعدی أعداء الإسلام حتی قتل علی یدهم، فانّ مثل هذا الکلام یبدو مستغرباً فی عدم التعرض لهم ومقاتلتهم، إلا أنّ الإمام علیه السلام یقدم دلیله بهذا لاشأن فیقول

«فلیس من طلب الحقّ فأخطأه کمن طلب الباطل فأدرکه»

وقد صرح السيد الرضى (ره) بأنّ مراد الإمام عليه السلام

«يعنى معاوية وأصحابه»

. فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يجنب أصحابه فتح جبهتين وأن يكرسوا قوتهم تجاه عدو واحد كان يتمثل أنذاك بمعاوية وحزب بنى أمية المقيت ورهطهم وأعوانهم من أهل الشام. فمما لاشك فيه أنّ أصحاب الإمام عليه السلام لن

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۶

يصبحوا بعده كما لو كان عليه السلام بينهم، أضف إلى ذلك، ليس لديهم القدرة على التحرك ضمن جبهتين، ومن هنا أوصاهم بلم الشمل وتعبئة قواهم وطاقاتهم ضد عدو واحد. ولا سيما أنّ الخوارج كانوا من الناقمين على حكومة معاوية، ولعلهم يقفون إلى جانب المؤمنين فى قتالهم لأهل الشام. وناهيك عما سبق فانّ الخوارج كانوا فى مركز حكومة أميرالمؤمنين عليه السلام ويشكلون جزءا من الجبهة الداخلية، وعليه فقد كا يسعهم زعزعة هذه الجبهة وتصديع الحالة الأمنية دون أدنى عناء؛ الأمر الذى دفع بالإمام عليه السلام لأنّ يوصى بالكف عن مقاتلتهم بعده. وهكذا يتّضح الرد على ذلك التساؤل المعروف الذى عجز البعض من شرّاح نهج البلاغة عن الرد عليه. فقد أثاروا هذا السؤال: لم قاتل الإمام عليه السلام الخوارج بنفسه بينما نهى أصحابه عن مقاتلتهم بعده؟ لم شهر سيفه بوجوههم بينما نصح أصحابه بغمد السيوف وعدم التعرض لهم؟

ونقول فى الجواب على هذا السؤال أنّ الظروف التى كانت سائدة على عهد الإمام عليه السلام تختلف كلياً عنها بعده عليه السلام، والقائد الحكيم ينبغى أن يأخذ بنظر الاعتبار هذه الظروف كل يوم، بل كل ساعة فلا- يعيش الجمود ويكتفى باسلوب واحد فى المجابهة والصراع.

وبغض النظر عما تقدم فانّ الإمام عليه السلام ينكر السبب الذى يقف وراء هذا الاسلوب فى المجابهة فيقول «فانّ من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأدركه». فهنالك فارق واضح بين الفريقين؛ فالخوارج حفنة من الجهال ظنت أنّها خرجت من أجل الحقّ، الا- أنّ تعصبها وجهلها إنتهى بها إلى الحيرة والضلال، أمّا معاوية ورهطه فانّهم يتجهون عن علم نحو الباطل. وبناءاً على هذا فماذا يسع الإنسان أن يقاتل من هذين الفريقين إذا كان لابدّ له من القتال ويتعذر عليه عملياً مواجهة الفريقين؟

قطعا سيرجح قتال الفريق الثانى، فاذا فرغ منه وتمكن من دحره، آنذاك سيقف بوجه الفريق الأول. ولعل الحديث الذى نقله المبرد فى الكامل يشير إلى هذا المعنى من أنّ قتال معاوية وأهل الشام كان أولى من قتال الخوارج، فقد جاء فى الحديث أنّ الخوارج قاموا على معاوية بعد شهادة أميرالمؤمنين على عليه السلام حين كان فى الكوفة، فبعث معاوية برسوله إلى الإمام الحسن عليه السلام فى الكوفة- وهم بالخروج إلى المدينة- لأن يتصدى للخوارج، فأجابه عليه السلام بانّه كف عن قتاله حقناً لدماء المسلمين، فهل يقاتل الخوارج نيابة عنه وهو يرى أنّه أحق منهم بالقتل.[۲]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۷

الجدير بالذكر أن الخوارج قد إرتكبوا أعظم جناية عرفها العالم الإسلامى والتى تمثلت بقتلهم لعلى عليه السلام؛ الأمر ألذى أخبر عنه الإمام عليه السلام فى عصره، مع ذلك لم يفكر الإمام عليه السلام فى الثأر منهم، بل نهى من بعده حتى عن قتالهم، وهذا نموذج آخر من نماذج ذروة عدالته التى لا يرى مثيلها فى تأريخ القادة والزعماء. وأخيراً نقول أنّ وصية الإمام عليه السلام نافذة مادام الخوارج لم يمارسوا علياتهم الإجرامية فى البلاد الإسلامية؛ وإلّا فاذا إرتكبوا مثل هذه الأعمال كان لابدّ من معاملتهم على أنّهم محاربون مفسدون فى الأرض.

تأمّلان

۱- أضّل من الخوارج

لاشك أنّ الخوارج- وبالاستناد إلى ممارستهم وصفاتهم آنفة الذكر وما ذكره المؤرخون عن عقائدهم وآرائهم- فرقة ضاله ومنحرفة تشكل خطراً جدياً على الإسلام، إلّا أنّ الإمام عليه السلام وعلى ضوء هذه الخطبة يرى فى معاوية ورهطه أنهم أضل من تلك الفرقة سبيلًا، ثم يوصى أصحابه بانّ الأولوية فى القتال إنّما تتجه صوب معاوية وأهل الشام لا الخوارج. وقد علق ابن أبى الحديد على هذا الأمر فقال: وقد طَعن كثير من أصحابنا فى دين معاوية، ولم يقتصروا على تفسيقه، وقالوا عنه إنّه كان ملحِداً لا يعتقد النبوة، ونقلوا عنه فى فلتات كلامه وسقطات ألفاظه ما يدلّ على ذلك.

و روى الزبير بن بكار فى "الموفقيات- "وهو غير متّهم على معاوية، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانَبة على عليه السلام، والانحراف عنه-:

قال المطرف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبى عَلَى معاوية، وكان أبى يأتيه، فيتحدّث معه، ثم ينصرف إلىّ فيذكر معاوية وعقلَه، ويعجَبُ بما يرى منه، إذ جاء ذاتَ ليلة، فأمسك عن العَشاء، ورأيته مغتًّما فانتظرته ساعة، وظننت أنّه لأمرٍ حدث فينا، فقلت: ما لى أراك مغتّماً منذ الليلة؟ فقال يا بُنىّ، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوتُ به: إنّك قد بلغتَ سنًّا يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلًا، وبسطت خيراً فإنَّك قد

كبرت؛ ولو نظرت إلى إخوتك من بنى هاشم، فوصلْت أرحامَهم فو الله ما عندهم اليومَ شىء تخافه، وإنّ ذلك ممّا يَبْقى لك ذكره وثوابه؛ فقال: هيهات هيهات! أىذِكْر أرجو بقاءه! مَلَك أخو تَيْم فعدَل، وفعل مافعل، فما عدا أن هَلَك حتى هلك ذكُره؛ إلا أن يقول قائل: أبوبكر؛ ثم ملك أخو عدىّ، فاجتهد وشمرَّ عشر سنين؛ فما عدا أن هلك حتى هلَك ذكُره؛ إلا أن يقول قائل: عمر؛ وإن ابنَ أبى كبشةَ[۳] ليُصاح به كلَّ يوم خمس مرات: «أشهد أنّ محمّداً رسول الله»، فأىّ عملى يبقى؟ وأىّ ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلّادَفْناً دفناً.[۴]

«فقد أثر هذا الكلام حتى فى المغيرة بن شعبة المعروف بفساده وانحرافه، فلم يذهب إلى تكفير معاوية فحسب، بل رآه من أكفر الناس وأخبثهم» ثم خاض ابن أبىالحديد فى أفعال معاوية وحياته الطاغوتية وتصرفاته المجانبة للعدل والمروءة؛ الأمر الذى يؤكد عمق ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبة المذكورة. فقال ابن أبىالحديد:

و أما أفعاله المجانبِة للعدالة الظاهرة من لُبسه الحرير، وشربه فى آنية الذهب والفضة؛ حتى أنكر عليه ذلك أبو الدَّرْداء، فقال له: إنّى سمعت رسول الله ص يقول؛ «إنّ الشّارب فيها ليُجرْجِر فى جوفه نار جهنم»، وقال معاوية: أما أنا فلا أرى بذلك بأساً، فقال أبو الدرداء: مَنْ عذيرى من معاوية! أنا أخبره عن الرسول صلى الله عليه و آله؛ وهو يخبرنى عن رأيه! لا أساكنك بأرضٍ أبداً.

نقل هذا الخبرَ المحدّثون والفقهاء فى كُتبهم فى باب الاحتجاج على أنّ خبر الواحد معمول به فى الشرع؛ وهذا الخبر يقدَح فى عدالته، كما يقدح أيضاً فى عقيدته، لأنّ مَنْ قال فى مقابلة خَبَرٍ قد روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله: أمّا أنا فلا أرى بأساً فيما حرّمه رسول الله صلى الله عليه و آله، ليس بصحيح العقيدة ومن المعلوم أيضاً من حالة استئثاره بمال الفىء، وضربه مَنْ لا حدّ عليه، وإسقاط الحدّ عمّن يستحقّ إقامةَ الحدّ عليه، وحكمه برأيه فى الرَّعيّة وفى دين الله، واستلحاقه زيادا؛ وهو يعلم قول رسول الله صلى الله عليه و آله: «الولَد للفراش وللعاهر ألحجَر»، وقتله حُجْر بنَ عدىّأصحابه ولم

يجب عليهم القتل، ومهانته لأبىذرّ الغِفارى وَجبْهُه وشتمه إشخاصه إلى المدينة على قَتَب بعير وطاء لإنكاره عليه، ولعنه عليّاً وحسنا وحسينا وعبد الله بن عباس على منابر الإسلام، وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد، مع ظهور فسقه وشُرْبِه المسكر جهاراً، ولعبه بالنَّرد، ونومه بين القيان المغنّيات، اصطباحه معهنّ، ولعبه بالطنبور بينهنّ، وتطريقه بنِى أمية للوثوب على مقام رسول الله صلى الله عليه و آله وخلافته، حتى أفْضَت إلى يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد، المفتضحْين الفاسقين: صاحب حَبَابة وسلّامة؛ والآخر رامى المصحف

بالسّهام وصاحب الأشعار فى الزندقة والإلحاد.

و لا ـ ريب أنّ الخوارج إنّما برىء أهلُ الدين والحقِّ منهم، لأنّهم فارقوا عليّاً برئوا منه، وما عدا ذلك من عقائدهم، نحو القول بتخليد الفاسق فى النار، القول بالخروج على أمراء الجوْر؛ وغير ذلك من أقاويلهم؛ فإنّ أصحابنا يقولون بها، ويذهبون إليها، فلم يبق ما يقتضى البراءة منهم إلا براءتهم من عليّ؛ قد كان معاوية يلعنُه على رؤوس الأشهاد وعلى المنابر فى الجمع والأعياد، فى المدينة ومكة وفى سائر مدن الإسلام؛ فقد شارك الخوارج فى الأمر المكروه منهم؛ وامتازوا عليه باظهار الدين والتلزّم بقوانين الشريعة، والاجتهاد فى العبادة، وإنكار المنكَرات، وكانوا أحقَّ بأن يُنْصَرُوا عليه مِنْ أن يُنصَر عليهم، فوضح بذلك قولُ أمير المؤمنين:

«لا تقاتلوا الخوارج بعدى»

، يعنى فى مُلْك معاوية.

۲- جهل اتباع الحق وعلم اتباع الباطل

إتّضح من كلام الإمام عليه السلام أنّه رجح الخوارج على أهل الشام من أتباع معاوية واستدل على ذلك بقوله:

«فليس من طلب الحق فاخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»

ولا ـ تقتصر هذه المقارنة على عصر الإمام عليه السلام؛ بل لا يخلو عصر ومصر من هاتين الفرقتين، فمازلنا نرى اليوم بعض الفئات المعادية للإسلام التى تحث الخطى نحو الباطل وقد شمرت عن سواعدها للقضاء على الإسلام والمسلمين؛ فى حين هنالك الفئات الاخرى التى تنشد الحق إلّاأنّها لن تبلغه، وهى الاخرى معادية للإسلام والمسلمين. ولا ينبغى للمسلمين أن ينظروا ذات النظرة لهاتين الفئتين، بل عليهم أن يمنحوا الأولوية فى الصراع للفئة الاولى وذلك لعدم وجود سبيل إزاء الفئة الاولى التى تنهج الفساد والباطل عن علم- سوى الصراع المسلح، بينما تحتاج الفئة

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۰

الثانية إلى قدر من الوعظ والإرشاد والانفتاح على التعاليم الإسلامية الحقة.

وقد أثبت هذا الاسلوب جدواه فى موقعة النهروان بتوبة أغلب الخوارج وانابتهم إلى الحق بعد سماعهم لمواعظ أميرالمؤمنين على بن أبي‌طالب عليه السلام، فقد جاء فى الأخبار أنّ ثمانية آلاف منهم قد رجعوا عن ضلالتهم ولم يبق سوى أربعة آلاف منهم.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۱

الخطبة[۵] الثانيه و الستون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما خوف من الغيلة[۶]

«وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ اللَّهِ جُنَّةً حَصِينَةً فَإِذَا جاءَ يَوْمِى انْفَرَجَتْ عَنِّى أَسْلَمَتْنِى فَحِينَئِذٍ لا يَطِيشُ السَّهْمُ ولا يَبْرَأُ الْكَلْمُ».

الشرح والتفسير

لماذا أخشى الموت؟

قيل فى سبب هذا الكلام أنّ أصحاب الإمام عليه السلام كانوا يخبرونه عن سوء نية ابن ملجم، وقد قامت عدة قرائن واضحة تكشف

عن سوء نيته، حتى ذكروا أنّ الإمام عليه السلام كان يخطب الناس يوما فجلس ابن‌ملجم أمام المنبر وهو يقول:

«و اللّه لَأريحَنّهم منكَ»

فلما إنتهى الإمام عليه السـلام من خطبته. أمسكه البعض ممن سـمعه وأتوا به إلى الإمام عليه السـلام. فقال عليه السلام: دعوه، ثم قال، وإنّ عليَّ من

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۲

اللَّه ...[۷] نعم قال الإمام عليه السلام:

«و إن على من اللّه جنة حصينة، فإذا جاء يومى انفرجت عنّى وأسلمتنى؛ فحينئذٍ لايطيش ۸] السّهم ۹] ولايبرأ[۱۰] الكلم ۱۱]»

. والعبارة إشارة إلى سنة كونية ثابتة، وهى أنّ الإنسان لايغادر هذه الدنيا ما لم يحن أجله، وعليه فأجل الإنسان بيد اللّه، ومفهوم ذلك أنّ إرادته هى التى إقتضت أن يبقى فلان إلى الوقت الفلانى، وممّا لا شك فيه أنّ أحـداً لا يسعه الوقوف بوجه هـذه الإرادة، ومن هنا يمكن إعتبار الأجل الإلهى جنة حصينة إزاء بعض الحوادث؛ المعنى الذى ورد كراراً فى نهج‌البلاغة، ومن ذلك قوله عليه السلام:

«إنّ الأجل جنّةٌ حصينةٌ».[۱۲]

كما قال فى موضع آخر

«كفى بالْأجل حارساً»[۱۳]

بل يمكن القول بأنّ هـذا المعنى قد ورد فى الآية الحادية عشرة من سورة الرعد: «لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» وجاء فى تفسير الأية أن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«يقول: بأمر اللّه من أن يقع فى ركيٍّ أو يقع عليه حائطٌ أو يصـيبه شـيءٌ حتّى إذا جاء الْقـدر خلّوا بيْنه وبيْنه يـدْفعونه إلى المقادير وهما ملكان يحفظانه باللّيل وملكان بالنّهار يتعاقبانه»[۱۴]

. وهنا يبرز هـذه السؤال وهو لو كان الأمر كـذلك، فليس هنالك من ضـرورة فى حفظنا لأنفسـنا من المخاطر ونسـعى لأن نقيها بعض الحوادث من قبيل الزلازل والأعاصير والأمراض وحوادث الدهس

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۳

والاصـطدام، بـل يجب علينا أن ننـدفع بكل قوة وعـدم مبالاة واكترات وخشـية من هـذه الحوادث؟! وللإجابـة على هـذا السؤال ينبغى الألتفات إلى أنّ أجل الإنسان على نوعين: أجل حتمى وأجل غير حتمى، والأجل الحتمى هو الأجل الـذى لارجعة فيه، من قبيل مقدار نبض قلب الإنسان الـذى قـدر له العمل إلى اللحظـة الفلانيـة، بالضـبط كالساعـة التى تعمل إلى أجل معين يتعلق بوجود البطاريـة فيها، فمتى ما نفدت قوة البطارية توقفت الساعة عن العمل.

أما الأجـل غير الحتمى فهو الأجل الـذى يمكن إجتنابه؛ وهو على قسـمين: قسم تحت تصـرف الإنسان بحيث يسـعه إجتنابه من خلال رعاية الموازين العقلائية من قبيل التترس والتدرع وإرتداء الخوذة فى ساحة القتال التى تحول عادة دون اغلب حالات القتل، فقد وكل للإنسان التعامل بحذر مع مثل هذه الامور، وهو المسؤول عن هذه الحوادث، أمّا القسم الآخر فهو الأجل غير القطعى الخارج عن إرادة الإنسـان من قبيـل بعض حوادث المرور أو عـدم التحسب من الوقوع فى البئر أو إنهيـار الجبـل ومـا إلى ذلك من الامور التى لا يمكن التكهن بوقوعهـا. وهنا يأتى دور الملائكـة الحفظـة الـذين يحفظون الإنسان من هـذه الحوادث ما لم يصل أجله الحتمى، فاذا بلغ أجله تركوه وتلك الحوادث. وبالطبع فانّ هذا القسم الأخير هو الأخر يمكن تقسـيمه إلى نوعين: مشروط وغير مشروط والمشروط ما تتولى فيه الملائكـة حفـظ الإنسان شـريطة قيامه ببعض الاعمال من قبيل التصـدق والـدعاء وصـلة الرحم وما إلى ذلك من المنـدوبات، بينما لايشترط مثل هذه الأعمال فى غير المشروط. والخلاصة ليس هنالك من تخلف فى الأجل المحتوم بينما يمكن تغيير الأجل المشروط أو المعلق من خلال التدبير والاحتياط أحياناً، والقيام ببعض الاعمال المندوبة من قبيل التصدق والدعاء وصلة الرحم أحيانا أخرى، كما

يمكن ذلك من خلال الملائكـة الموكلـة بحفظ الإنسان من الأخطار غير المحتومـة. ومن هنا يتبين عـدم التعارض بين الآيات القرآنية من قبيل: «فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لايَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ»[۱۵] والآيـة الشـريفة «وَلَنْ يُؤَخِرَّ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها»[۱۶] مع الآية المباركة: «لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ...»، ولا مع الروايات التى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۴

صرحت بتأخير أجل الإنسان إثر التصـدق والـدعاء، وهكذا يتضح الجمع بين كافة هذهالايات والروايات على ضوء التقسـيم الثلاثى أو الرباعى الذى ذكرنا للأجل.[۱۷]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۵

الخطبة[۱۸] الثالثة والستون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

يحذر من فتنة الدنيا

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كما يفهم من عنوانها تحذير للجميع من فتنة الدنيا، حيث يشير الإمام عليه السلام فيها إلى موضوعين مهمين: الأول أنّ الدنيا قد تكون مصـدر شـقاء الإنسان أو سـعادته؛ الأمر الـذى يتوقف على طبيعـة النظرة إلى الـدنيا والتعامل معهما. فالدنيا مذمومة وهى مصدر بؤس وشـقاء إن كـانت هـدفا وإنشـدت الأنظار إلى زخارفها وأموالها وثرواتها، فى حين ممدوحـة هى الـدنيا ومصـدر سـعادة الإنسان وفلاحه إذا كانت وسـيلة ومزرعـة الآخرة وأداة للوصول إلى القيم والمثل الإنسانيـة. الموضوع الاخر الذى أشار إليه الإمام عليه السـلام هو فناء الدنيا وتقلب أحوالها، وتشبيهها بفىء الظل الذى يلجأ إليه الإنسان للراحة وسرعان ما يزول.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۷

«أَلا إِنَّ الـدُّنْيا دارٌ لا يُسْلَمُ مِنْها، إِلَّا فِيها وَلا يُنْجى بِشَىْءٍ كانَ لَها: ابْتُلِىَ النَّاسُ بِها فِتْنَةً، فَما أَخَذُوهُ مِنْها لَها أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُوسِبُوا، عَلَيْهِ وَما أَخَذُوهُ مِنْها لِغَيْرِها قَدِمُوا عَلَيْهِ وَأَقامُوا فِيهِ؛ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِى الْعُقُولِ كَفَىْءِ الظِّلِّ، بَيْنا تَراهُ سابِغاً حَتَّى قَلَصَ، وَزائِداً حَتَّى نَقَصَ».

الشرح والتفسير

الدنيا ظل زائل

لما كانت زخارف الـدنيا وزينتها تـدعوا إلى المبالغة فى التعلق بها؛ الأمر الذى يفضـى إلى مقارفة الذنوب والمعاصـى والانحراف عن الصراط المستقيم والسقوط فى هاوية الضلال فانّ القادة الربانيين لا ينفكون عن تحذير أتباعهم منها، وهذا ما نلمسه بوضوح فى معظم نهجالبلاغة الذى أورد التحذير تلو التحذير على لسان خطبه ورسائله وقصار كلماته.

والخطبة التى نحن بصددها هى نموذج من هذا التحذير الذى ضمنه الإمام عليه السلام ستة امور مهمة، فقد إستهل ذلك قائلًا:

«ألا وإنّ الدّنيا دار لايسلم منها إلّافيها»

والـدليل واضـح لانقاش فيه؛ لأنّ من أهم أسباب السـلامة هو كسب الفضائل الأخلاقيـة والتحلى بالقيم والمثل المعنويـة وعبوديـة اللَّه وطاعته، والتى لا تتسـنى إلّافى هـذه الـدنيا، وليس للإنسان من فرصة سوى فى هذا العالم دون العوالم الاخرى ومن هنا قال الإمام عليه

السلام لاتنال السلامة من الدنيا إلّافيها. ثم قال عليه السلام:

«و لاينجى بشىءٍ كان لها»

أى إن كـانت الـدنيا هى دافع نشاطات الإنسان وغايـة أعماله وأفعاله وحتى إتيانه بالعبادات إذا كان ينطوى على هـدف دنيوى ويشوبه الرياء والسمعة فانّها لن تكن سببا لنجاته، بل ستفضى إلى هلاكه وشقائه. ثم أشار فى الأمر الثالث إلى كونها ميدان إمتحان:

«ابتلى النّاس بها فتنةً»؛

فالدنيا مليئة بالنعم إلى جانب المشاكل

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۱۸

والمصائب؛ فالنعمة وسيلة للإمتحان، كما المصـيبة إمتحان من نوع آخر. فهل تطغى النعمة الإنسان أم تشده إلى اللَّه، وهل يؤدى شكر النعم عملًا فضـلًا عن شكرها لساناً؟ وهل يستشـعر قلبه اليأس حين المصيبة ويشكو ربه، أم يصبر عند المصاب ويشكر؟ فالإنسان يعيش الإمتحان فى هذين الأمرين كل يوم طيلة حياته فى الدنيا، وهذا قانون خالد انبثق منذ خلق آدم عليه السـلام وسيسـتمر إلى يوم القيامة، فقـد قـال القرآن الكريم بهـذا الشـأن: «أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِينَ».[۱۹] ثم قال عليه السلام فى الأمر الرابع:

«فما أخذوه منها لها أخرجوا منه وحوسبوا عليه».

ثم واصل كلمه قائلًا:

«و ما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه، وأقاموا فيه»

والعبـارة إشـارة إلى النظرتين المعروفتين فى نهج‌البلاغـة، النظرة إلى الـدنيا كوسـيلة والاخرى كغايـة؛ فان كانت إمكانات هـذه الـدنيا والأموال والثروات والنعم والمقام والجاه وسـيلة لنيل السعادة والحياة الاخروية الهنيئة فليس هناک أفضل منها، وإن كانت صنماً يسجد له الإنسـان فليس هنـاک أسوأ منهـا. فـالنظرة الاـولى تسوق الإنسـان إلى الورع والتقى والطهر والعفاف بينما تـدعوه النظرة الثانيـة إلى الحرص والطمع والظلم والذلـة والهوان. والنظرة الاولى تحيل النعم الـدنيوة الفانيـة إلى نعم اخرويـة باقيـة، فى حين تكون النظرة الثانية سبباً لزوال النعم وبقاء التبعات. ومن هنا تتضـح عليـة مـدح الـدنيا فى أغلب الآيات والروايات، إلى جانب ذمها فى البعض الآخر. فلعل البعض يفسر ذلک بالتناقض للوهلة الاولى بينما كل واحدة منها صحيحة فى مكانها وكأنّ الواحدة منها مكملة لُلاخرى، فالمدح يرتبط بالدنيا الوسيلة، والذم بالدنيا الهدف والغاية. وسنعرض لهذا الموضوع بالتفصيل فى الأبحاث القادمة ذات الصلة.

وأخيراً يكشف الأمام عليه السلام اللثام عن حقيقة الدنيا ليشبهها بفى الظل الذى يمر سريعاً فقال:

«فإنّها عند ذوى العقول كفىء الظّلّ، بينا تراه سابغاً[۲۰] حتّى قلص،[۲۱] وزائداً حتّى نقص»

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۱۹

فقد ورد ا لظل بمعناه المطلق سواء ظل الأشياء قبل الزوال أو بعده، وبطلق أحياناً على ما قبل الظهر خاصة الذى تزيله الشمس تدريجياً، أما

«فى»

فهى تعنى الظل بعد الزوال (لأن مفهوم هذه المفردة يتضمن الرجوع والعودة) الذى يتسع كلما إقتربت الشمس من أفق المغرب ويزول إثر غروب الشـمس وحلول الظلمة. وكأنّ الإمام عليه السـلام أشار إلى حقيقة مهمة وهى أن أصحاب الدنيا يجمعون الأموال والثروات كـل يوم بحيث تزداد كلما إقترب عمرهم من نهايته، إلّاأنّها تزول وتنعـدم من الوجود بغروب شـمس العمر، وتنتهى كل هـذه الثروات بحلول ظلمة الموت.

ونختتم تفسـير هـذه الخطبة بالقول أنّ الإمام عليه السـلام دائم التحذير من مغبة التعلق بالدنيا والاغترار بها وفضـحها بمختلف الطرائف

والأمثال وذلك للاسباب التالية: أولًا: أنّ حبّ الدنيا والاغترار بها يمثل مادة الذنوب والمعاصى؛ الأمر الذى يجعل القائد الربانى محذراً أتباعه وملفتا إنتباههم إلى عظم هذا الخطر على الدوام، وثانياً: شهد عصر الإمام عليه السلام وما سبقه بعض الفتوحات الإسلامية التى درت على المجتمع الإسلامى ما لا يحصى من الغنائم والثروات والإمكانات؛ الأمر الذى جعل أفراد الامّة تعيش حالة من السباق للتكالب على هذا الحطام، وهذا ما أفرز حالة من الانحراف والاختلاف والتشتت والابتعاد عن التواضع فى الحياة والاقبال على الراحة والدعة والضعف أمام العدو من خلال التقاعس عن الجهاد، ومن هنا كان الإمام عليه السلام لايرى أدنى فرصة إلّاواغتنمها من أجل إعادة الامّة إلى مسارها الإسلامى الصحيح. وقد وعظهم بسيرته وحياته قبل وعظهم بلسانه.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۱

الخطبة[۲۲] الرابعة و الستون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فى المبادرة إلى صالح الاعمال

نظرة إلى الخطبة

جرى الحديث فى هذه الخطبة- كما فى الخطبة السابقة- عن تقلب أحوال الدنيا وضرورة الزهد فيها، داعياً الناس إلى الاستعداد والتأهب للآخرة. ثم صور الدنيا بهذه الصورة

«وما بين احدكم وبين الجّنة أو النار الا الموت أن ينزل به، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة، لجديرة بقصرا لمدة، وأنّ غائباً يحدوه ۲۳] الجديدان: الليل والنهار، لحرى بسرعة الأوبة».

ثم يختتم عليه السلام خطبته بدعوة الناس إلى التوبة والإنابة إلى اللَّه ويحذر من الغفلة عن الموت والاغترار بالأمل الذى يصد عن الآخرة، فاذا باغت الإنسان الموت وكان غارقا فى شهواته ومعاصيه صعب عليه مفارقة الدنيا.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۳

القسم الأول: الموت يلقى بظلاله على الجميع

«فـاتَّقُوا اللَّهَ عِبادَ اللَّهِ، وَبادِرُوا آجالَكُمْ بِأَعْمالِكُمْ، وَابْتاعُوا ما يَبْقَى لَكُمْ بِما يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدارٍ فاسْتَبْدَلُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى».

الشرح والتفسير

يستهل الإمام عليه السلام خطبته بتحذير الجميع من الدنيا والالتفات إلى سرعة زوالها والهدف من خلق الإنسان فيها، والاستغراق فى الغاية التى ينبغى أن ينشدها فى هذه الحياة. فقد قال عليه السلام:

«فاتّقوا اللّه عباد اللّه»

كل مالديكم من اللَّه وقد أمطركم بوابل نعمه وآلائه فانتم عباده ولا يصح لكم الخروج على أوامره وعصيانه. أما التأكيد على التقوى فى هذه الخطبة وسائر الخطب مما لايحتاج إلى أدنى إيضاح كون التقوى تشكل اللبنة الأساس للمؤمن والعمل الصالح، الأمر الذى

ورد التأكيد عليه كراراً فى القرآن حتى عد الوسيلة للتفاضل «إِنَّ أَكْرَمَكَمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ»[۲۴] وهى خير الزاد «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوى [۲۵]. ثم قال عليه السلام:

«و بادروا آجالكم بأع مالكم»

، وكأنّ السباق قد بلغ ذروته بين الإنسان والموت، فلو طبع حياته بالعمل الصالح فانّه سيصل غايته قبل أن يحل به الموت فيحول دون بلوغ تلك الغاية.

والواقع أن غاية الإنسان تتمثل بالعسادة والسمو والتكامل والقرب الإلهى؛ الامور التى يمكن

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۴

للإنسان بلوغها إذا تحلى بالورع والتقوى والعمل الصالح قبل حلول أجله وانتهاء عمره، وإلّا سيفاجئه الموت دون الظفر بغايته وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم: «وَأَنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ أَحِدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصّالِحِينَ»[۲۶] ثم اتبع ذلك بالقول: «و لن يؤخّر اللّه نفساً إذا جاء أجلها» أى ليست هناك من استجابة لمثل هذه الطلبات هناك.

ثم قال عليه السلام:

«و ابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم»

فالدنيا ومتاعها ونعمها إلى زوال وتبدل وعدم إستقرار، بينما تتصف نعم الآخرة بالدوام والخلود، فهل من عاقل يتردد فى مثل هذه الصفقة وذلك بان يشترى ذلك المتاع الخالد بهذا المتاع الفاني؟ ابتاعوا من مادة ابتياع بمعنى الشراء، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم فى عدة آيات، منها «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِى التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ»[۲۷]، فهذه الآية- التى شرحت المقايضة المعنوية والإلهية للناس مع اللّه باروع بيان وضمن عشرة تأكيدات- إنّما تشمل كافة ميادين الحياة البشرية وإن وردت بشأن الجهاد؛ لأنّ الجهاد جزء من مفردات هذه الحياة، وقد جاء شبيه هذا المعنى فى الآية العاشرة من سورة الصف «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيم ...» فهل هناك أعظم وأربح من هذه التجارة التى يمثل طرف الإنسان فيها اللّه سبحانه الكريم الغفور الرحيم من جانب، ومن جانب آخر يرضى اللّه بهذه المعاملة لأن يبادل الإنسان بهذا المتاع الفانى والزائل الذى يفقده الإنسان شاء أم أبى بذلك المتاع الخالد الذى يأبى الزوال والفناء؟! ثم قال عليه السلام:

«و ترحّلوا[۲۸] فقد جدّ[۲۹] بكم»

فى إشارة إلى أنّ الرحيل من الدنيا ليس بالهزل ولا- السهل اليسير، بل أمر جدى بالغ الصعوبة فلسان حال كافة أعضائنا الباطنية والظاهرية هو الرحيل، ويعاضد ذلك

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۵

إستزاف القوى الجسمانية، إلى جانب الآفات والأحداث والبلاءات وأنواع الأمراض التى تدفع بالإنسان إلى الرحيل.

ثم أمر الإمام عليه السلام واستناد لما مر بالتجهز والتأهب فقال:

«واستعدّوا للموت فقد أظلّكم»

وبالطبع ليس المراد بالتأهب والاستعداد للموت أن يكف الإنسان عن السعى والعمل ويقاطع الدنيا ويقبع فى زاوية من داره ينتظر الموت، بل المراد الاكثار من الأعمال الصالحة وتهذيب النفس وتزكيتها والتحلى بالفضائل ومكارم الأخلاق والمسارعة فى

«الباقيات الصالحات»

، وبعبارة اخرى التزود للدار الآخرة والقدوم عليها بما ينجى الإنسان من عقباتها. أمّا العبارة

«فقد أظلّكم»

فهی تفید قرب الموت؛ لأنّ الأشياء القريبة فقط هی التی تظل الإنسان. والواقع ليست هنالک من مسافة بين الإنسان والموت، فقد يستسلم للموت أقوى الأقوياء إثر حادثة بسيطة تحيل كيانه عظاماً ولحماً خاوياً، كما قد يموت رغم عنفوان شبابه بفعل سكتة قلبية، بل قد تخنقه اللقمة الصغيرة فتميته، وزبدة القول لولا الغفلة التی طغت على الناس بتناسی الموت لما استطاع البشر ممارسة الحياة بهدوء وسكينة ولو للحظات. ثم قال عليه السلام:

«و كونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا، وعلموا أنّ الدّنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا».[۳۰]

ولعل المراد بمن يصيح فی الناس ويوقظهم من نوم الغفلة، هو ذلک الملک الذی أشار إليه الإمام الباقر عليه السلام مروياً عن أميرالمؤمنين عليه السلام:

«له ملكٌ ينادی كلّ يوم!لدوا للموت وابنوا للخراب!»[۳۱]

أو المراد به العناصر الداخلية فی جسم الإنسان والتی تؤدی بالتدريج إلى ضعف الجسم وكأنّها تهتف به إلى الرحيل. وقد وردت عدة أشعار فی الديوان المنسوب للإمام عليه السلام بهذا

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۶

الشأن، نرى من الجفاء عدم التعرض لها، فقد قال:

إلی م تجّر أذيال التّصابیو شيبک قد نضا برد الشّباب

بَلَال الشّيب فی فَودَيکَ نَادَیبأَعلَی الصّوت حَیَّ عَلَی الذّهَاب

خلقت من التّراب وعن قريبٍتغيب تحت أطباق التّراب

طمعت إقامةً فی دار ظعنٍفَلَا تَطمَع فَرجلکَ فی الرّکَاب

و أرخيت الحجاب فسوف يأتیرسولٌ ليس يحجب بالحجاب

أعامر قصرک المرفوع؟ أقصر!فإنّک ساکن القبر الخراب![۳۲]

وأخيرا إختتم كلامه الذی أشار فيه إلى الدنيا وتقلب أحوالها وضرورة الاستعداد فيها إلى سفر الآخرة بعبارة أوردها بمنزلة الدليل والبرهان على ما قال:

«فإنّ اللّه سبحانه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدًى»[۳۳]

والعبارة فی الواقع إشارة إلى برهان المعاد المعروف (برهان الحكمة) الذی يصرح بأنّ هدف خلق الإنسان إذا إقتصر على هذه الحياة القصيرة وما يكتنفها من أيام المطعم والملبس والنوم فانما هو العبث بعينه، فلا يمكن أن يكون هذا هو الهدف من هذا الخلق العظيم وهذه السموات والأرضيين وما يكتنفهما من العجائب والغرائب وهذه البنية العجيبة لخلقة الإنسان بهذا التعقيد والدقة والنظام، فجميع القرائن الموجودة فی عالم خلقة الإنسان والأكوان تشير إلى عظم الهدف الذی قام من أجله الخلق، وهو الهدف العظيم الذی خلق الحكيم من أجله الإنسان والعالم، والذی يكمن فی تكامل الإنسان وقربه من اللّه ونيله سعادة الدارين.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۷

القسم الثانی: التزود قدر المستطاع

«وَمَا بَيْنَ أَحدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إلَّا الْمَوْتُ أنْ يَنْزِلَ بِهِ، وَإِنَّ غايَةً تَنْقُصُها اللَّحْظَةُ، وَتَهْدِمُها السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ، وَإِنَّ غائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهارُ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ، وَإِنَّ قادِماً يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ، فَتَزَوَّدُوا فِی الدُّنْيا مِنَ الدُّنْيا ما تَحْرُزُونَ تحرزون بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى ثلاثة امور مهمّة: الأول

«و ما بين أحدكم وبين الجنّة أو النّار إلّاالموت أن ينزل به»

أي إن كنت حذرتكم من الدنيا ودعوتكم إلى التزود للآخرة بالتقوى والعمل الصالح ومبادرة الأجل، فذلك لقصر المسافة بينكم وبين الجنّة أو النار، فما أسرع أن تروا أنفسكم في الجنّة أو النار إذا حلّ الموت بناديكم. فالمؤمن الفطن ليقف على مدى قصر هذه المسافة ويراها على ضوء الآية القرآنية: «إِقْتَرَبَتِ السّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ»،[۳۴] خاطفة من حيث الزمان، كما يراها كذلك على مستوى المكان على ضوء الآية الشريفة: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً* وَنَراهُ قَرِيباً»[۳۵] وبالطبع فالآية إشارة إلى القيامة الصغرى لا الكبرى وتفسير ذلك أنّ للإنسان قيامتان: ۱- القيامة الكبرى التي يحشر فيها جميع الأولين والآخرين ليحاسبوا على أعمالهم. فالمحسنون إلى الجنّة والآثمون إلى النار. ۲- القيامة الصغرى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۸

التي تحل بالفرد عند موته فتنقطع علاقته بالدنيا وتغلق صحيفة أعماله فتكون حفرة قبره روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النار. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال

«إنّ للقبر كلاماً في كلّ يوم يقول: أنا بيت الغربة ... أنا روضةٌ من رياض الجنّة أو حفرةٌ من حفر النّار»[۳۶]

. طبعاً يراد بهذه الجنّة والنار الجنة والنار البرزخية لا جنّة القيامة ونارها. على كل حال فانّ الإمام عليه السلام تحدث عن قرب القيامة وسرعة ثوابها وعقابها وإن رآها عبيد الدنيا بعيدة ثم قال عليه السلام:

«و إنّ غايةً تنقصها اللّحظة، وتهدمها السّاعة، لجديرةٌ بقصر المدّة»

والمراد بالغاية هنا عمر الإنسان أو إختتام هذا العمر حيث يأخذ بالتناقص كل يوم، ويتحطم ركن منه بمرور كل ساعة ولحظة، فالعمر ليس سوى هذه الساعات واللحظات وهي الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: «وَالعَصْرِ* إِنَّ الإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ»، كما أشار إليها الإمام عليه السلام بقوله: «إنّ الْإنْسان لفي خسْرٍ»[۳۷]. ومن العجب العجاب أن تسأل أحدهم عن قيمة عمره فلا تراه مستعداً لاستبداله بأي شي بينما يقضي أغلب أوقاته لاهياً عابثاً دون أن يحترم الوقت، والحال ليس العمر سوى هذه الأوقات. ولا بأس هنا بذكر هذه الطريفة التي أوردها المحقق النراقي أحد كبار الفقهاء في كتابه الفكاهي الواعظ طاقديس الذي ذكر فيه تلك المواعظ على هيئة الشعر. فقال أن طراراً ذهب إلى بقال وسأله ما ثمن الجوز؟ قال: كل ألف جوزة بعشرة دراهم. سأل: فما ثمن المئة؟ قال: درهم واحد. سأل: ما ثمن العشرة؟ قال: عشر الدرهم. حتى سأله عن ثمن الجوزة الواحدة. فقال: لا قيمة لها. قال الطرار: فان كان كذلك فاعطني واحدة. فأعطاه. ثم عاد وطلب واحدة. فاعطاه ثم عاد ثالثة وسأله واحدة. وهنا إلتفت إليه البقال وسأله: من أين أنت؟ أجاب: من بلدة فلان. فقال: أيها الماكر، إذهب واخدع غيري (أتريد أن تقتني متاعي بالمكر والخداع) وهكذا يقوم بعض الجهال من أهل الغفلة بهدم ساعات عمرهم ولحظاته بالمكر والخداع وبالطبع فهم لايخدعون سوى أنفسهم فيضيعون هذا العمر الذي لا تعدله قيمة. ثم قال عليه السلام:

«و إنّ غائباً يحدوهالجديدان: اللّيل والنّهار،

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۹

لحريٌّ بسرعة الْأوْبة»[۳۸]

والمراد بالغائب هنا الأجل، وكأنّه الناقة السريعة الجادة في الحركة حيث يجدبها الجديدان الليل والنهار وهما بمثابة الراعي الذي يحدوها إلى الحركة، ومن الطبيعي أن هذه الناقة- الأجل- ستصل بسرعة إلى هذا الإنسان، أمّا التعبير بالجديدين عن الليل والنهار وذلك لتجددهما على الدوام واستبدال أحدهما بألآخر، والتعبير بالاوبة التي تعني الرجوع، واستنادا إلى القرآن الكريم والأدلة الحسية واليقينية في أن الإنسان كان في البداية مادة خالية من الحياة، ثم دبت فيه هذه الحياة، وأخيراً سيعود إلى ما كان حين الموت، ثم يبعث

وتدب فيه الحياة من جديد باذن اللَّه: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنْتُمْ أمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكَمْ ثُمَّ يُحْيِيكَمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»[۳۹] وقد ورد هذا المعنى فى قصار حكم نهج‌البلاغة

«إذا كنت فى إدبارٍ والموت فى إقبالٍ فما أسرع الملتقى»[۴۰]

. هذا وقد فسر بعض شرّاح نهج‌البلاغة الغائب فى العبارة بالإنسان لأنّه غاب عن وطنه ومنزله الأصلى الآخرة والتى يجب عليه الرجوع إليها، والليل والنهار يسوقانه سريعاً إلى ذلك المنزل. ويبدو أنّ هذا التفسير ينسجم والقول: «إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ»[۴۱] وما ورد فى وصية أميرالمؤمنين عليه السلام لولده الحسن:

«و اعلم يا بنىّ أنّ من كانت مطيّته اللّيل والنّهار، فإنّه يساربه وإن كان واقفاً، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً»[۴۲]

. الّا أنّ الذى يبعد هذا التفسير هو عدم خلوه من التكلف فى تفسير الغائب بالإنسان، أمّا تفسيره بالأجل يبدوا أقرب وأنسب ثم قال عليه السلام:

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۰

«و إنّ قادماً يقدم بالفوز أو الشّقوة لمستحقٌّ لِأفضلِ العدّةِ»

ومن الواضح أنّ المراد بالقادم هنا الإنسان الذى ينطلق فى حركته من الدنيا إلى الآخرة ولا يحمل سوى السعادة أو الشقاء، فما أحراه أن يتزود بخير العدة وأفضل الزاد ليفوز بسعادة تلك الدار. وذهب بعض الشرّاح إلى أنّ المراد بالقادم هنا الموت وأجل الإنسان وانّه يرد بالسعادة أو الشقاء، فعليه أن يتأهب كأفضل ما ينبغى له ليفوز بالسعادة. ويرجح هذا التفسير على سابقه لأنّه ينسجم ومفهوم العبارة السابقة

«و إنّ غائباً ...»

والمراد بأفضل العدّة التقوى، التى أشار إليها القرآن بفضلها خير الزاد «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوى [۴۳]. ومن هنا خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة

«فتزوّدوا فى الدّنيا من الدّنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً»

فى إشارة إلى أنّ ما فى الدنيا يمكنه أن يكون تلك المعنوية فى الآخرة، وهل المعنويات هناك سوى الاعمال الصالحة هنا والتقوى والورع التى عدت خير الزاد، فكما أنّ الزاد الدنيوى يقى المسافر من خطرات الموت والجوع وآفات السفر، فكذلك زاد التقوى بالنسبة للاخرة وهذا ما ورد التأكيد عليه فى الروايات، فقد جاء فى الحديث أنّ علياً عليه السلام قال:

«التّقوى حرزٌ لمن عمل بها»[۴۴]

وقال فى موضع آخر:

«التّقوى حصنٌ حصينٌ لمن لجأ إليها»[۴۵]

وقال:

«إلجأوا إلى التّقوى فإنّه جنّةٌ منيعةٌ»[۴۶].

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۱

القسم الثالث: الإنسان والغفلة

اشارة

«فاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ، نَصَحَ نَفْسَهُ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ

لِيَرْكَبها، وَيُمَنّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَها، إذا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ ما يَكونُ عَنْها؛ فَيا لَها حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذى غَفْلَةٍ أَنْ يَكونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيّامُهُ إِلَى الشِّقْوَةِ! نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحانَهُ أَنْ يَجْعَلَنا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ وَلا تُقَصِّرُ تقتصروا بِهِ عَنْ طاعَةِ رَبِّهِ غايَةٌ وَلا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدامَةٌ وَلا كَآبَةٌ».

الشرح والتفسير

قال الإمام عليه السلام مستهلا قوله بفاء التفريع كنتيجة لما سبق:

«فاتّقى عبدٌ ربّه، نصح نفسه، وقدّم توبته، وغلب شهوته»[۴۷]

فقد أوصى عليه السلام بالتقوى كتوضيح لقوله عليه السلام:

«فتزوّدوا فى الدّنيا»؛

لأنّها خير الزاد إلى المعاد، ثم خاض فى التفاصيل بثلاث عبارات: الاولى نصح النفس ومن ثم التوبة وأخيرا غلبة الشهوة والتى تمثل بمجموعها وصفة كاملة لسعادة البشرية؛ البشرية التى قد تغفل عن نصح نفسها ولا تفكر فى التوبة وتدارك ما فرط منها؛ الأمر الذى يجعلها أسيرة أهوائها وشهواتها. ثم تطرق عليه السلام إلى موضوع يمثل الدليل على ما ورد سابقاً

«فإنّ أجله مستورٌ عنه، وأمله خادعٌ له، والشّيطان موكّلٌ به، يزيّن له المعصية ليركبها، يمنّيه

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۲

التّوبة ليسوّفها[۴۸] إذا هجمت منيّته عليه أغفل ما يكون عنها»

واستناد إلى أنّ جملة

«أغفل ما يكون عنها»

حالية فمفهوم العبارة هو أنّ مثل هذا الإنسان الأسير للشهوات والوساوس الشيطانية يكون فى أشد مراحل الغفلة إذا هجم عليه الموت، فان فتح عينه وأفاق إلى نفسه لايرى أمامه إلّاالأجل وقد سبق السيف العذل. كما يحتمل إلّاتكون إذا شرطية فى العبارة وتفيد المفاجئة والمباغتة، فيكون مفهوم العبارة

«يباغته الموت، وهو فى أشد حالات الغفلة»

وبالطبع فانّ نتيجة كلا التعبيرين واحدة وهى حلول الموت دون الاستعداد له. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

«فيالها حسرةً على كلّ ذى غفلةٍ أن يكون عمره عليه حجّةً، وأن تؤدّيه أيّامه إلى الشّقوة!»

. أجل ليس هناك رأس مال أعظم من ساعات عمر الإنسان وأيامه، فلعل ساعة من الساعات تقود الإنسان إلى ذروة الكمال والعظمة والمجد فيخرج الإنسان فيها على غرار الحربن يزيد الرياحى من زمرة الأشقياء ليلتحق بصفوف الصالحين والشهداء. أو يغتنم لحظة فيسدد ضربة موجعة لجسد الكفر بحيث يكون ثوابها أفضل من عبادة الثقلين، (كما صرح بذلك رسولاللّه صلى الله عليه و آله بشأن ضربة على عليه السلام يوم الخندق)، أو يبيت ليلة على فراش ليكسب تجارة عظيمة الربح والفائدة، كالليلة التى بات فيها أميرالمؤمنين على عليه السلام على فراش رسولاللّه صلى الله عليه و آله ليلة الهجرة. فلو غفل الإنسان عن قيمة هذه الساعات وا للحظات فى حياته ولم يستشمرها بما يعادلها، أفلا يدعو ذلك إلى الاسى والحزن، ومن هنا أعرب الإمام عليه السلام عن أسفه وعمق حسرته على مثل هذا الإنسان وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته بهذا الدعاء العظيم:

«نسأل اللّه سبحانه أن يجعلنا وإيّاكم ممّن لَاتبطره ۴۹] نعمَةٌ وَلَا تقصّر به عن طاعة ربّه غايةٌ، ولَاتَحلّ به بَعدَ المَوت نَدَامَةٌ وَلَا كَآبَةٌ[۵۰]».

فالإمام عليه السلام يعلم الجميع ثلاثة دروس بهذه العبارت التى أوردها بصيغة الدعاء: الأول

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۳

الحذر من الغرور والسكر عند النعمة، الثانى الحذر من الأهداف المادية التى تصد عن طاعة اللّه والثالث التحذير من عدم التزود

للآخرة والشعور بالندم والخيبة والخسران حين حلول الأجل.

تأمّلات

۱– فلسفة خفاء الموت

لقد أشارت الخطبة إلى أحد الأسرار المهمّة للخلق والذى يكمن فى خفاء الموت

«فإنّ أجله مستورٌ عنه»؛

فلا أحد يعلم هل سيبقى حياً إلى ساعة أخرى أم سيموت؟ فهو اليوم مخبر وغدا يخبر عنه، وهو اليوم فى مجلس عزاء صاحبه، وغدا صحبه فى مجلس العزاء الذى يقام على روحه. وممّا لاشك فيه أنّ عمر الإنسان إذا إتضح لصاحبه جرماً لايخفى من المفاسد؛ الأمر الذى أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام فى توحيد مفضل المعروف: تأمل الان يا مفضل ماسترى الإنسان علمه عن مدة حياته فانّه لو عرف مقدار عمره وكان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش مع ترقب الموت وتوقعه لوقت قد عرفه، بل كان يكون بمنزلة من قد فنى ماله أو قارب الفناء فقد استشعر الفقر والوجل من فناء ماله وخوف الفقر، على أنّ الذى يدخل على الإنسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال لأنّ من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه فيسكن إلى ذلك، ومن أيقن بفناء العمر إستحكم عليه اليأس وإن كان طويل العمر ثم عرف ذلك وثق بالبقاء وانهمك فى اللذات والمعاصى وعل على أنّه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب فى آخر عمره، وهذا مذهب لا يرضاه اللّه من عباده ولا يقبله (ومن هنا حجب الإنسان عن معرفة العمر ليعيش دائما بين الخوف والرجاء).[۵۱]

۲– الاغترار بالامانى

أشار الإمام عليه السلام فى الخطبة إلى الآمال والاغترار بها فقال عليه السلام:

«و أمله خادعٌ له».

والسؤال

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۴

الذى يطرح نفسه هنا: لماذا وكيف تخدع المال الإنسان فيعيش أفضل ساعات عمره فى الوهم والخيال الفارغ؟ ونقول فى الجواب أنّ دائرة الآمال ليست محدودة قط، فالكثير يعتقد أنّه سينام مطمئن البال من ناحية السكن على الدوام إذا ما حصل على دار متواضعة، فلا تمر عليه مدّة حتى يراها صغيرة ضيقة، فاذا إنتقل إلى دار أوسع رآها هى الاخرى لا تتناسب وشأنه، بل هنالك الكثير من الأفراد الذين يمتلكون القصور ولم تظمأ جذوة عطشهم المتقدة دائما فما زالوا يطمحون إلى قصر أفخم وأعظم. وزبدة الكلام فلو اعطى الإنسان جبلين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً. وبالطبع لا تقتصر هذه الامال على مجال دون آخر، بل هى عامة وشاملة لا تدع صاحبها يستريح ولو لبرهة فتهدر جميع طاقاته وتبدد قواه وتشدها إليه، والحال ليست هذه الآمال سوى خيالات موهومة كاذبة والتى وصفها الإمام عليه السلام بالخادعة.

۳– تزيين الشيطان

من النقـاط المهمّـة الـتى أشـارت إليهـا الخطبـة تزيين الشـيطان للـذنوب والمعاصـى، وهـذا مـا نوه إليه القرآن الكريم فى الآيـة الثـالثة والاـربعين من سورة الانعـام بشـأن الاـمم السابقـة: «وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطـانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»[۵۲]. كمـا ورد فى سورة الحجر على لسـان الشـيطان حين لعنه اللَّه وطرده من رحمته وتصـدى لمعـاداة بنى آدم وإغوائهم: «لَأُزَيِّنَنَّ لَهُم فِى الأَـرضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الُمخْلَصِـينَ»[۵۳]. ويحصل هـذا التزيين الشـيطانى الباطل والوسوسـة لمقارفة اللذات واضـفاء طابع الحلاوة على بعض الخطايا وهنا يبدأ إمتحان الإنسان فى كيفية التعامل مع هذه الملذات العابرة التى تنتهى لذتها وتبقى تبعتها.

وهنـا يبرز هـذا السؤال وهو أنّ بعض الآيات القرآنيـة نسبت إلى اللَّه تزيين هـذه الأعمال، فكيف التوفيق بين هـذه الآيات وتلك التى ذكرت سابقـا؟ يتضـح الجواب على هـذا السؤال من الآيـة الرابعـة من سورة النمـل التى قـالت: «إنّ الّـذين لاـيؤمنون بالآـخرة زيّنّا لهم أعمالهم فهميع مهون». فالآية تشير إلى أنّ هذا التزيين الإلهى يمثل نوعاً من العقاب لُاولئك الأفراد

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۳۵

المنحرفين المجـانبين للإيمـان، وبعبـارة أخرى فـان أعمالهم كانت مـدعاة لأن يتركهم اللَّه ليقعوا فى مخالب الشـيطان فلايوليهم دعمه وإسـناده. وبناءاً على ذلك فانّ الطائفتين من الآيات تشـيران إلى حقيقة واحدة، ولعل هذا هو المعنى الذى أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«و الشّيطان موكّلٌ به، يزيّن له المعصية ليركبها».

۴- عمر الإنسان حجّة عليه

حجّيـة العمر واحدة من الامور التى أشارت إليها خطبة الإمام عليه السـلام. فكيف يكون عمر الإنسان حجّة عليه؟ يبدو أنّ اللَّه سـبحانه وتعالى يلقن الإنسان طيلـة عمره مجموعـة كافيـة من العبر والدروس والحوادث التى تثير لديه حس الوعى واليقظة، إلى جانب الوصايا والتعاليم التى يحملها إليه أنبياء اللَّه وأوصـيائهم. ومن هنا صـرح القرآن الكريم بأنّ أصـحاب النار حين يصـطرخون إلى اللَّه بأخراجهم من النار ليعملوا صالحاً:

«وهم يصطرخون فيها ربّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنّا نعمل»

يخاطبون: «أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ».[۵۴]

۵- سكر النعم

المسألـة الأخيرة التى تعرضت لها الخطبة، هى تلك الظاهرة التى تعترى بعض الأفراد الضـحلين من جراء وفور النعمة والتى عبرت عنها الخطبـة بالبطر؛ الأمر الـذى أشار إليه القرآن فى الآيـة السابعة والأربعين من سورة الانفال: «وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النّاسِ» وكما ذكرنا آنفا فان المراد بالبطر هنا طغيان الإنسان إثر وفور النعم بما يجعله يهتك حجاب الورع والتقوى وطاعـة الحق سبحانه، وهى الحالة التى غالباً ما يعيشها الأفراد من أصحاب النعمة البعيدين عن معانى الإيمان والاتزان فى الشخصية؛ فيعيش حالة من الغرور والسكر بما يجعل من المتعذر عليه السيطرة على نفسه والحد من طغيانها وجماحها،

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۳۶

وهذا ما يؤدى به فى خاتمة المطاف إلى الذلة والهوان، ومن هنا جاء فى الحديث عن الإمام على عليه السلام انّه قال:

«ينبغى للعاقل أن يحترز من سكر المال وسكر القدرة وسكر العلم وسكر المدح وسكر الشّباب»

ثم يختتم هذا الحديث بقوله:

«فإنّ لكلّ ذلك رياحاً خبيثةً تسلب العقل وتستخّف الوقار»[۵۵]

. نعم سكر هذه الامور أثقل من سكر الخمرة وأصعب إفاقة منه، فسكر الخمرة قد لايستغرق أكثر من ليلة، بينما قد يمتد سكر الامور الآنفة الذكر طيلة عمر الإنسان.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۷

الخطبة[۵۶] الخامسة و الستون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها مباحث لطيفة من العلم الإلهى

نظرة إلى الخطبة

لما كان ذكر اللَّه والتوجه إلى اللَّه بأسمائه وصفاته يلهم الإنسان القوة والصمود ويدعوه إلى ممارسة مسؤوليته فى جهاد العدو، فأنّ الإمام عليه السلام لاينفك قبل القتال وخلاله من توجيه الامّة نحو اللَّه وصفاته الجلالية والجمالية، ومن ذلك هذه الخطبة التى خطبها الإمام عليه السلام على أعتاب قتاله لمعاوية ورهطه من أهل الشام، والتى يذكر فيها صفات اللَّه عامة ولا سيما بشأن العلم والقدرة بهدف تفعيل قوة الامّة وتعبئة طاقاتها فى ظل الالتفات إلى هذه الصفات.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۹

القسم الأول: الحمد والثناء

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حالٌ حالًا، فَيَكُونَ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً، يَكُونَ ظاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ باطِناً، كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرَهُ ذَلِيلٌ، وَكُلُّ قَوِىٍّ غَيْرَهُ ضَعِيفٌ، وَكُلُّ مالِكٍ غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ، وَكُلُّ عالِمٍ غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ، وَكُلُّ قادِرٍ غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَيَعْجَزُ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْواتِ، وَيُصِمُّهُ كَبِيرُها، وَيَذْهَبُ عَنْهُ ما بَعُدَ مِنْها، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسامِ، وَكُلُّ ظاهِرٍ غَيْرَهُ باطِنٌ، وَكُلُّ باطِنٍ غَيْرَهُ غَيْرُ ظاهِرٍ».

الشرح والتفسير

لابدّ من الالتفات إلى مسألة فى بحث الصفات حيث تقود الغفلة عنها إلى الغواية والضلال وهى أنّ صفات جمال اللَّه وجلاله ليست لها أى شبه بصفات المخلوقات. فمن صفاته العلم والقدرة إلّاأنها ليست من قبيل علمنا وقدرتنا، إنّه سميع وبصير ولكن ليس كسمعنا وبصرنا، وذلك لأنّ ذاته لامتناهية من جميع الجهات وهى تفوق الجسم والعوارض الجسمانية، ومن هنا تطالعنا الاعاجيب حين نرد بحث الصفات الربوبية، ومن ذلك على سبيل المثال أنّ الصفات المتضادة فى عالم المخلوقات، تكون إلى جانب بعضها البعض الاخر فى العالم الربوبى. فالأول فى عالم المخلوقات مثلًا ليس آخر، والآخر ليس أول، والظاهر ليس باطن، والباطن ليس ظاهر، بينما تتصف الذات الإلهية المقدسة بأنّها ظاهرة وباطنة وأولى وآخرة. أضف إلى ذلك فالصفات فى عالم المخلوقات تظهر الواحدة بعد الاخرى بالتدريج ثم تتبلور وتتكامل، أمّا الصفات

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۴۰

الإلهية فلا تعرف المسيرة التدريجية ولا التقدم والتأخر. فقد إستهل عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى هذا الأمر

«الحمدللّه الّذى لم تسبق له حالٌ حالًا، فيكون أوّلًا قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً»

ومن هنا فليس هنا لك من وجود قبله ولا بعده، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم: «هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظّاهِرُ وَالباطِنُ»،[۵۷] كما قال: «لا إِلَهَ إِلّا هُوَ كُلُّ شَىءٍ هالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ»[۵۸]. فالحق أنّ الوجود الأزلى والأبدى ليس له من أول ولا آخر، ولا يعنى نعته بالأول والآخر سوى أنّ جميع المخلوقات متوقفة فى وجودها عليه سواء فى بداية ظهورها أو فى إستمرار حياتها. أمّا وصفه بالظاهر والباطن فيعنى أنّ أصل وجوده وصفاته أظهر من كل شيئ، وذلك لأنّ الأدلة على وجوده وصفاته تصل إلى عدد النجوم والكواكب والكائنات الحية وأوراق الأشجار وحصى الصحارى، بل بعدد ذرات العالم التى يعجز عن علمها وتصورها أحد غيره؛ ولكن لما كانت الذات الإلهية لامتناهية ولا يسع أحد تصورها كما هى:

«لاستحالة احاطة المحدود باللامحدود»

فانّ هذه الذات خفية على جميع الناس بما فيهم الأنبياء والأوصياء والأولياء، وحيث إنّ الناس يتعرفون بادئ ذى بدء على آثاره فى دائرة الوجود ثم يلتفتون إلى ذاته المقدسة فانّه يمكن القول: إنّه ظاهر قبل أن يكون باطن، وحسب تعبير بعض الفلاسفة المسلمين: «خفاؤه لشدّة ظهوره»

. أوليست الشمس التى تمثل إحدى مخلوقاته خفية لشدّة ظهورها؟ وهل من السهل على الإنسان النظر إلى قرص الشمس. ثم إنتقل الإمام عليه السلام إلى المقارنة بين عشر من صفات الكمال والجمال مع شبيهاتها لدى المخلوقات ليثبت عمق الفارق بينها وأنّ حقيقة الكمال مقتصرة على ذاته، وكل ما سواه رصيده العيب والنقص فقال عليه السلام:

«كل مسمى بالوحدة غير قليل»

فالعبارة اشارة إلى نقطة مهمّة وظريفة فى باب توحيد الصفات والذات، لأنّ وحدته تفيد كون ذاته وصفاته لامتناهية، وتعنى عدم وجود الند والشبيه، أمّا الوحدة فى المخلوقات فهى وحدة عددية وتطلق فى مقابل الكثرة، وبالطبع فانّ هذه الوحدة تفيد القلة، بينما تشير وحدته إلى عظم وجوده الذى يتجاوز حدود الزمان والمكان وفى تفس الوقت هو فى كل زمان ومكان، وهذا ما

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۴۱

أشارت إليه الخطبة من أنّ أوصافه غير أوصاف مخلوقاته، فاذا كانت الوحدة بالنسبة للمخلوقات تفيد القلة، فهى تفيد الكثرة والعظمة بالنسبة للّه. فقد جاء فى توحيد الصدوق:

إنّ إعرابياً قام يوم الجمل إلى أميرالمؤمنين عليه السلام فقال: يا أميرالمؤمنين أتقول إنّ اللّه واحد؟ قال فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابى أما ترى ما فيه أميرالمؤمنين من تقسم القلب؟ فقال أميرالمؤمنين عليه السلام دعوه فانّ الذى يريده الأعرابى هو الذى نريده من القوم، ثم قال:

يا أعرابى إن القول فى أنّ اللّه واحد على أربعة أقسام، فوجهان منها لا يجوزان على اللّه عزوجل، ووجهان يثبتان فيه، فأمّا اللذان لايجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الاعداد فهذا ما لايجوز، لأنّ مالا ثانى له لايدخل فى باب الأعدد أمّا ترى أنّه كفر من قال ثالث ثلاثة، وقول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز لأنّه تشبيه وجلّ ربّنا وتعالى عن ذلك وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له فى الأشياء شبه كذلك ربّنا،[۵۹]

وقول القائل: إنّه عزّوجلّ أحدى المعنى يعنى به أنّه لاينقسم فى وجود ولا عقل ولاوهم كذلك ربّنا عزّوجلّ ثم قال عليه السلام فى بيان الصفة الثانية:

«وكل عزيز غيره ذليل»

فالعزّة سواء كانت بمعنى القدرة القاهرة أو الحرمة والعظمة فهى لا تليق سوى بذاته المقدسة، ولأنّ غيره من الملوك وإن كان عزيزاً

فهو ذليل فى قبضة قوانين عالم الخلقة والقضاء والقدر، أضف إلى ذلك فالجميع محتاج إلى الذات الإلهية، كما أنّ عزته ذاتية وعزة من سواه عرضية متوقفة على تلك الذات، ومن هنا فليس لأحد من الموجودات إمكانية الوقوف أمام هذه العزة، ولكل عزته بمقدار قربه من تلك العزة المطلقة؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم بالقول: «أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً»[۶۰]، والآية العاشرة من سورة فاطر: «مَنْ كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً». ثم قال فى الصفة الثالثة:

«وكل قوى غيره ضعيف»

لأنّ القوة فى عالم المخلوقات نسبية؛ فكل كائن قوى إذا ما قورن بمن دونه وضعيف بالنسبة لمن فوقه، وهكذا الأمر حتى ننتهى إلى الذات المقدسة، فهناك القوة اللامتناهية التى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۴۲

لا-يتصور قوة أعظم منها لتقارن بها. ومن هنا فان أقوى الأفراد قد يهزم أمام أضعف ا لمخلوقات من قبيل الذبابة أو النملة أو حتى المكروب الذى تصعب مشاهدته بالعين المجردة بحيث يمرض الإنسان بمرض يعيى الأطباء عن علاجه، وعليه فوصف ما سوى اللَّه بالقوة إنّما هو وصف مجازى والقوى بالمعنى الحقيقى هو اللَّه. وهذا ما أكدته الآية ۱۶۵ من سورة البقرة:

«أَنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» وقال فى الصفة الرابعة:

«وكل مالك غيره مملوك»

لأنّ الملكية الحقيقة تنبع من الخلقة؛ فالمالك الحقيقى من خلق كافة الكائنات التى لا تحتاج إليه فى بداية خلقها فحسب، بل تحتاج إليه فى بقائها واستمرار حياتها. ومن هنا فان ملكية غير اللَّه اعتبارية ومجازية، وبعبارة اخرى: إذا ملكنا شيئاً فأنّ اللَّه هو الذى ملكناه، وإلّا فلا يملك أحد حتى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله شيئاً، ومن هنا قال: «لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلّا ما شاءَ اللَّهُ»[۶۱]، كما صرحت الآية ۶، من سورة آل‌عمران: «قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ».

وقال فى الصفة الخامسة

«وكل عالم غيره متعلم»

لأنّ علمه سبحانه ذاتى وهو الذى يفيض العلوم على النفوس، وعليه فلم يسبق بجهل ليعلم وليس لعمله من حدود، بل علمه عين ذاته لامتناهى؛ بينما لكل ما سواه علم مبسوق بجهل. فلم يكن للإنسان علم حين لم يكن موجودا، فلم وجد أودع اللَّه فطرته بعض العلوم، كما حصل على بعض العلوم أيضاً عن طريق الحس والتجربة، كما تعلم على يد الآخرين، والأنواع الثلاثة تشكل نوعا من أنواع التعلم، وعليه فجميع العلماء- سوى اللَّه- متعلمون، والذات الإلهية فقط الموصوفة بالعلم الازلى اللامتناهى. القرآن الكريم من جنبه قال: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»[۶۲] وقال فى الصفة السادسة:

«وكل قادر غيره يقدر ويعجز»

ودليل ذلك عدم تناهى ذاته ومحدودية ماسواه، فلما كانت قدرته عين ذاته فهى مطلقة لامتناهية، أمّا غيره فقدرته محدودة مهما كان، وعليه فهو يقدر على بعض الأشياء ويعجز من غيرها، بل قد يقوى على القيام بأمر فى ظروف ويعجز عن

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۴۳

القيام به فى اخرى ومن هنا نقف على زيف المغالطة التى تتساءل إذا كانت قدرة اللَّه مطلقة إلى هذا الحد فهل يسعه أن يحصر هذا العالم فى بيضة دون أن يصغر شئ من العالم أو تكبر البيضة، فالسؤال خاطئ، لأنّ مفهومه هل يستطيع اللَّه أن يكبر الدنيا وتكون البيضة بهذا الحجم ويكبرها لتسع الدنيا، بعبارة اخرى كأن السؤال هل أنّ اللَّه قادر على أن يصغر الدنيا ولا يصغرها فى نفس الوقت ويجعل البيضة بقدر الدنيا وفى نفس الوقت لايجعلها كذلك؟ ومن الطبيعى ألا يكون هناك جواباً للسؤال الخاطئ. ويبدو أنّ مثل هذا

السؤال قد طرح على أميرالمؤمنين عليه السلام:

«هل يقدر ربّک أن يدخل الدّنيا فى بيضةٍ من غير أن تصغر الدّنيا أو تكبر البيضة؟ فقال عليه السلام: إنّ اللّه تبارک وتعالى لا ينسب إلى العجز والّذى ذكرت لايكون»[۶۳]

وزبدة الكلام فانّ قدرة اللَّه ذاتية وغير محدودة وأزلية وأبدية، وكل مالغيره منه، وليس له من قدرة سوى ما يفيضها عليه.

وقال فى الصفة السابعة:

«و كلّ سميعٍ غيره، يصّمّ عن لطيف الْأَصْوات ويصمّه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد منها»

فالسمع لدى الإنسان إنّما يحصل عن طريق إنتقال الأمواج والذبذبات بواسطة الاذن الخارجية والداخلية والصيوان وطبلة الاذان وسائر أعضائها، ولما كانت هذه الأعضاء محدودة، فانّ سمعه هو الآخر محدود لايسعه إلتقاط كافة الأصوات، وكما صرح بعض العلماء من ذوى الاختصاص بان الاذن لايسعها سماع سوى الاصوات التى تترواح أطوالها الموجية بى ستة عشر إلى عشرين ألف ذبذبة فى الثانية، أى لايسع الإنسان إدراك ما قلّ عن ست عشرة ذبذبة فى الثانية، كما لا يسعه إدراك ما تجاوز العشرين الف ذبذبة فى الثانية. طبعاً هذه الذبذبات ليست واحدة لدى جميع الكائنات، فهناک بعض الحيوانات التى لها سمع يفوق نيره لدى الإنسان، فهى تسمع حتى الأصوات ذات الأطوال الموجية الأقصر، مع ذلک لايسعها سماع جميع الأصوات. أضف إلى ما تقدم فانّ الأطوال الموجبة إذا بلغت حدا فانّها قد تشق غشاء الاذان وتقضى على حس السمع لديه،

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۴۴

ومن هنا نرى بعض العسكريين يضعون أصابعهم فى آذنهم ويبتعدون عن الأماكن التى يفجرون فيها الأسلحة حذراً على سمعهم. وأخيراً فانّ سمع الإنسان يضعف كلما إبتعد عن مصدر الصوت مهما كان عظيماً، ومن هنا يوصف السمع بالعجز، فالواقع هنالک ما لايحصى من الاصوات التى تحيط بنا إلّاأنا نعجز عن سماعها. أمّا سمع الحق سبحانه فلايحتاج إلى واسطة ووسيلة، وسمعه جزء من علمه، أى أنّه عليم بجميع الأصوات، فلا يحجزه سمع صوت عن آخر، ولا يؤذيه صوت ولايبتعد عنه آخر، وكلها لديه على السواء: «قالَ رَبِّى يَعْلَمُ القَوْلَ فِى السَّماءِ وَالأَرضِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ»[۶۴]. وقال فى الصفة الثامنة:

«و كلّ بصيرٍ غيره يعمى عن خفّى الالوان ولطيف الاجسام»

فالباصرة لدى الإنسان وسائر الكائنات تحصل بواسطة العين التى تتشكل من عدّة طبقات لكل منها وظيفة خاصة من قبيل الشبكية والقزحية والبؤبوء التى تتعاضد جميعاً لرؤية الصور فى الخارج، مع ذلک فهناک أنواع من الاشعة التى يتعذر على العين رؤيتها، ناهيک عن إنعدام الرؤية لديها فى الظلام، فى حين لايخفى على اللَّه شئ وهو محيط بجميع الأشياء «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»[۶۵] فالسمع والبصر الحقيقى إنّما يختص بالذات الإلهية المقدسة وقال فى الصفتين الأخيرتين:

«و كلّ ظاهرٍ غيره باطنٌ، وكلّ باطنٍ غيره غير ظاهرٍ»

وهذه الصفات تستند فى الواقع إلى ذاته اللامتناهية ومحدودية ذوات ما سواه، فلما كانت ذاته القدسية لامتناهية فان آثاره شملت جميع عالم الوجود وساد ظهوره المطلق كل زمان ومكان، أمّا سائر الكائنات فمهما كان لها من ظهور فهو محدود، ومن هنا يمكن القول بأنّها توصف بالظهور والخفاء، فهناک الكواكب والمجرات التى تفوق بحجمها الشمس وتفوقها نوراً وضوءاً، إلا أنا لانرى لها أى أثر، والعكس صحيح فاذا تجاوزنا قليلًا دائرة المنظومة الشمسية لبدت لنا الشمس باهتة حتى تنعدم بالمرة إضافة إلى ذلک، فانّ كل هناک من ظهور لشىء- مهما كان نسبياً ومحدوداً- فان ذلک ببركة وجود اللَّه، وإلّا فجميع الممكنات مظلمة وقاتمة فى ذاتها، ونور اللَّه هو الذى يمنحها هذا الظهور، هو بالضبط كذرات الغبار المعلقة فى الهواء المعدومة الرؤية إلّاأنّها تبدو للعيان وتظهر إذا ما

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۴۵

إخترقت أشعة الشمس ادنى ثقب فى الغرفة. أمّا ما قاله الإمام عليه السلام:

«وكل باطن غيره غير ظاهر»

إشارة إلى هـذه الحقيقـة وهى أنّ الذات الإلهية الخافية على جميع الكائنات بما فيها الأنبياء والأولياء والخارجة حتى عن حدود العقل، إلّاأنّ آثارها قـد سادت جميع الوجود بما جعلها ظاهرة، بينما تفتقر سائر الوجودات للظهور إذا كانت خافية باطنة، ولو كانت ظاهرة لما كانت باطنة، فالإنسان مثلًا ليس عارياً إذا كان مستوراً، كما أنّ العارى ليس مستوراً، والذات الإلهية فقط المستورة فى عريها والعارية فى سترها.[۶۶] وقد قال القرآن الكريم فى الآية الثالثة من سورة الحديد «هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظّاهِرُ وَالباطِنُ».

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۴۷

القسم الثانى: تجليات جلال اللّه وجماله

اشارة

«لَمْ يَخْلُقْ ما خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطانٍ، وَلا تَخَوُّفٍ مِنْ عَواقِبِ زَمانٍ، وَلا اسْتِعانَةٍ عَلَى نِدٍّ مُثاوِرٍ، وَلا شَرِيكٍ مُكاثِرٍ، وَلا ضِدٍّ مُنافِرٍ، وَلكِنْ خَلائِقُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبادٌ داخِرُونَ، لَمْ يَحْلُلْ فِي الْأَشْياءِ فَيُقالَ: هُوَ كائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْها فَيُقالَ: هُوَ مِنْها بائِنٌ، لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ ما ابْتَدَأَ، وَلا تَدْبِيرُ مَا ذَرَأَ وَلاـ وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ، وَلا وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيما قَضى وَقَدَّرَ، بَلْ قَضاءٌ مُتْقَنٌ، عِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ، الْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ الْمَرْهُوبُ مَعَ النِّعَمِ».

الشرح والتفسير

يواصل الإمام عليه السلام حديثه عن الصفات الإلهية ذات الأثر التربوى فى حياة الإنسان فقال عليه السلام

«لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطانٍ، ولا تخوّفٍ من عواقب زمانٍ، ولا استعانةٍ على ندٍّ[۶۷] مثاورٍ،[۶۸] ولا شريكٍ مكاثرٍ،[۶۹] ولا ضدٍّ منافرٍ[۷۰]»

، إننا غالباً ما نرتكب بعض الاخطاء بحق صفات الجلال والكمال من جراء مقارنتنا للأشياء بوجودنا وصفاتنا وأفعالنا، فنعتقد مثلًا بأنّ أفعال اللّه على غرار أفعالنا تهدف النفع وقضاء الحاجة، والحال أنّ وجوده مطلق

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۴۸

غنى من جميع الجهات ومن هنا كان جامعاً لجميع الكمالات وليس للنقص والحاجة من سبيل إلى ذاته المقدسة. وبناءاً على ما تقدم فانّ أفعاله ليست من قبيل أفعالنا، ولما كان اللّه فاعلًا حكيماً، فانّ أفعاله منزهة من العبث ولابدّ من تحرى أهداف أفعاله خارج وجوده وبالنظر إلى عباده. والوصف الذى تضمنته العبارة قد أشار إلى هذا الأمر، حيث ينفى عن أفعال الحق سبحانه كافة الأهداف التى تستبطن رفع الحاجة وا لنقص. فهدفنا من أغلب أفعالنا هو مضاعفة قدراتنا واستزادة قوتنا، وأحيانا هدفنا التحسب لبعض المساوئ والعقبات التى قد تلوح فى آفاق مستقبلنا، وقد يكون للهم بالغلبة على من ينشدون ضعفناً أو يهبون لمواجهتنا من نظرائنا، وقد يكن الوقوف بوجه من ينافسنا من الأفراد الذين يعيشون من حولنا، وأخيراً فقد نهدف إلى ازالة بعض العقبات التى تعترض طريقنا، ومن هنا فان كافة أفعالنا إنّما تفرزها طبيعة مثل هذه الأهداف. أما الوصف الذى أورده الإمام عليه السلام بشأن اللّه سبحانه إنّما يشير إلى أنّ أفعاله لا تستند لأىمن هذه الأهداف. فليس هنالك من ضعف فى قدرة اللّه ولا يخشى من أحداث المستقبل، وليس له من شبيه أو نظير يسعه منافسته، وليس له من يطمع فيه من شريك وأخيراً ليس هنالك من موانع أو عقبات تعترض طريقه، وليس لهذه الامور من سبيل إلى ذاته، بل وجودنا الناقص بالذات إنّما يصاب بهذه الامور. وهنا يبرز هذا السؤال وهو إذا كانت جميع هذه الامور منتفية على اللّه سبحانه، فماهدفه من الخلقة؟ ورد الرد على هذا السؤال فى العبارة اللاحقة من الخطبة

«و لكن خلائق مربوبون، وعبادٌ داخرون»[۷۱]

نعم فليس هدف اللَّه من الخلق تحقيق نفع، بل هدفه الجود على العباد؛ الأمر الذى أكده التعبير

«مربوبون»

فى العبارة الذى يعطى معنى التربية والتكامل، كما أشير إلى المعنى المذكور أيضاً بقوله

«عباد داخرون»

، وذلك لأنّ تكامل الإنسان إنّما يمر عبر عبوديته. وبناءا على هذا فان العباد والمخلوقات ليست شبيهة ومضادة للّه فقط، بل هى تستفيض من رحمة اللَّه ولطفه وفضله. ثم قال عليه السلام:

«لم يحلل فى الأشياء فيقال: هو كائنٌ،[۷۲] ولمْ ينأ[۷۳] عنها فيقال: هو منها

بائنٌ»،

وبالنظر إلى أنّ الذات اللهية منزهة عن المكان والزمان فان هذين الوصفين يعدان من النتائج الحتمية. فليس هنالك من موضع يحتاج إليه ويحل فيه من تنزهت ذاته وفاقت الزمان والمكان، ومن هنا يتعذر تصور البعد والقرب عليه سبحانه، فكل هذه الامور إنما تصدق على الأشياء المحدودة، فاذا حلت فى مكان قربت من شئ وبعدت عن آخر، أما الذات الإلهية المقدسة فهى مطلقة لامتناهية حاضرة فى كل مكان وهى قريبة من كل شئ ولا- يحويها مكان؛ الأمر الذى ورد فى القرآن: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»[۷۴] وجاء فيه أيضاً (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ»[۷۵] وكذلك «وَلِلَّهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ»[۷۶]. ومن الواضح أن لهذه الصفات الكمالية أثرها البالغ فى تربية الإنسان، حيث يرى اللَّه سبحانه معه أينما كان فيتحرج من مقارفة الذنب والمجاهرة بالمعصية. ثم قال عليه السلام:

«لم يؤده خلق ما ابتدأ، ولا تدبير ماذرأ، ولا وقف به عجزٌ عمّا خلق»

فقد أشارت العبارة إلى بعض الامور المهمة التى تعود جميعاً الى قدرته الازلية. الأول أنّ الخلق الأول الذى يتطلب قدرة أكثر لم يشق عليه سبحانه (لم يؤده من مادة أود على وزن عود بالفتح يعنى الثقل)، والاخر أن ربوبية الخلق وتدبير شؤونه لم يخلق له أية صعوبة أو مشكلة، وأخيرا أن قدرته لم تنفد من جراء خلقه لكل هذا الخلق، بل له أن يخلق مالا نهاية من العوالم بقوله:

«كن» «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[۷۷]. ويمكن أن يكون للعبارة الأخيرة معنى آخر وهو أن خلق هذه المخلوقات لم يعجزه عن إدارتها؛ وتكون العبارة فى هذه الحالة تأكيد لما ورد فى العبارة السابقة. وهذه الصفات هى الاخرى نابعة من ذاته اللامتناهية؛ لأنّ العجز والتعب والثقل إنّما يصدق على الذات المحدودة القدرة التى تسعى للقيام بما يفوق

قدرتها؛ وليس هنالك من مفهوم للصغير والكبير والثقيل والخفيف والسهل والصعب على الذات اللامتناهية القدرة- ثم قال عليه السلام:

«ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر، بل قضاء متقن، وعلم محكم، وأمر مبرم»

فالإنسان وبعلمه المحدود قد يتخذ قرارا مهما وحاسما إلّاأنّ تكشف بعض الحقائق قد تثنيه عن ذلك القرار، كما يقف أحياناً على عمق خطأه فلا يواصل الطريق الذى إبتدأه. أمّا من كان علمه أزلى ولا يخفى عليه شئ فى عالم الوجود ولا تتكشف له حقائق جديدة، وله إحاطة تامة وكل زمان ومكان حاضر عنده، فليس من سبيل للشبهة والشك إلى تدبيره وعزمه وتقديره. ونقول مرة أخرى أنّ هذه الصفة تستند إلى كون الذات والصفات الإلهية لامتناهية. ثم يختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالقول:

«المأمول مع النّقم، المرهوب مع النّعم»

وهذا ما أشار إليه القرآن مرارا وكرارا ومن ذلك قوله: «فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً* إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً»[۷۸] وقوله «أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرى أَنْ

يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ* أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ»[۷۹]. نعم فان المشاكل مهما بدت معقدة أمكن حلها بلطف اللَّه وفضله، والنعم مهما كانت واسعة شاملة فان قبضها ليس صعب على الإرادة الإلهية. وعليه فلا يمكن اليأس عند البلاء والشدة، ولا الغفلة عند الرفاه والنعمة ومن هنا فان المؤمن يعيش الخوف والرجاء على الدوام فى حياته. والصفتان الأخيرتان تستندان أيضاً إلى الذات والصفات اللامتناهية، فلما كانت قدرته لامتناهية فانّ حل الصعاب سهل يسير عليه سبحانه كما يسهل عليه سلب النعم ممن يكفرها. فأدنى زلزال يمكنه أن يقضى على منطقة برمتها، كما أن مرضاً خطيراً يمكنه أن يودى بحياة الالاف بل الملايين من الأفراد، أو أنّ برودة أو حرارة يمكنها أن تميت الاف الأشخاص.

نقطة مهمة: الآثار التربوية لمعرفة الله

مما لا ريب فيه ان معرفة الله سبحانه وتعالى، والاحاطة باسمائه وصفاته، لها أهمية كبيرة،

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۵۱

وكل أحد يجب أن يستفيد أتم الفائدة من هذه المعرفة، وبتعبير آخر «إن نفس المعرفة تمثل الطريق إلى التكامل والقرب من الله سبحانه وتعالى»، ولكن، وفى هذه الحالة يجب أن لا ـ ننسى بأن الاهتمام بصفات الجمال والكمال لها تأثير مهم فى تربية النفوس الانسانية والاتجاه إلى الكمال المطلق، وتسوق الانسان إلى مرحلة الوصول إلى المِثل، ولو كان بدرجات متدنية جداً.

وبعبارة أوضح: عندما نقول بان الله عالم وقادر ومهيمن ونحده لقدرته ونثنى عليه لهيمنة وملكوته، فكيف نرتضى لانفسنا ان نعيش فى جهل مطلق وضعف وعدم مقدرة كاملة؟

ان حمدنا وتقديرنا لله من شأنه أن يزيد فى عزتنا وكمالنا واقتدارنا، ويدعونا إلى الرفعة والمنزلة العالية، وهذا كله فى باب «صفات الذات».

أما عن «صفات الافعال»، فعندما نحمد الله لرحمانيته ورحيميته، ونقول «رَحْمَتُهُ وسِعت كل شىءٍ»، بل لقول: ان رحمته الخاصة بالرغم من كونها تختص بعباده من أهل التقوى والايمان، الا أن رحمته العامه، تشمل العدو والصديق وان مائدة رحمته ونعمته اللامتناهية وسعت كل شىء.

فكيف يمكننا ان نستفيد من هذه الصفة الرفيعة والسامية، لكننا لا نرحم صديقنا ولا عدونا، بل ان قلوبنا فى بعض الاحيان خالية من أى نوع من الرحمة؟

ومن هنا فان الاهتمام بكافة الصفات الكمالية، سواءً صفات الذات أو صفات الافعال، وهى «الجود والسخاء والمغفرة والعزة والعفو والاحسان، وامثالها» والتى بامكانها ان تكون شعاعاً ينعكس فى وجودنا فيجذبنا اليه.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۵۳

الخطبة[۸۰] السادسة و الستون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى تعليم الحرب والمقاتلة

والمشهور أنه قاله لأصحابه ليلة الهرير،[۸۱] أو أول اللقاء بصفين

نظرة إلى الخطبة

بين الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة أساليب الحرب وفنون القتال بعبارات جزلة واضحة إلى جانب التأكيد على القيم الروحية والمثل المعنوية التى تشكل الدافع للقتال وتسوق المقاتل إلى التضحية فى سبيل اللَّه، كما أشار ضمنياً إلى أحداث معركة صفين والوظائف التى ينبغى أن يمارسها المؤمنون فى تلك الواقعة وقد إختلفت أقوال الشراح بشأن زمان الخطبة، فذهب ابن أبى الحديد إلى أنّ الإمام عليه السلام خطبها- حسب أغلب الروايات- ليلة الهرير، بينما ذكر نصربن مزاحم أنّه خطبها أول صفين فى شهر صفر عام ۳۷ ه وروى مؤلف كتاب مصادر نهج‌البلاغة عن الطبرى صاحب كتاب بشارة المصطفى- من علماء القرن السادس للهجرة- أنّ ابن عباس قال: عقم النساء أن يأتين بمثل أميرالمؤمنين على بن أبى‌طالب عليه السلام، ما كشفت النساء ذيولهن

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۵۴

عن مثله، لا واللَّه ما رأيت فارساً يوزن به لرأيته يوما ونحن معه بصفين، وعلى رأسه عمامة سوداء، وكأن عينيه سراجا سليط. تتوقدان من تحتها، يقف على شرذمة شرذمة يخطبهم، حتى إنتهى إلى نفرأنا فيهم، وطلعت خيل لمعاوية تدعى بالكتيبة الشهباء، عشرة الاف دارع على عشرة آلاف أشهب، فاقشعر لها الناس لما رأوها، وانحاز بعضهم إلى بعض، فقال أميرالمؤمنين عليه السلام: فيما الخنع والنخع- يا أهل العراق- هل هى إلّاأشخاص ماثلة فيها قلوب طائرة لو مستها سيوف أهل الحق لرأيتموها كجراد بقيعة سفته الريح فى يوم عاصف، ألا فاستعشروا الخشية، وتجلببوا السكينة، ادرعوا الصبر، وغضوا الأصوات، وقلقلوا الأسياف فى الأغماد قبل السلة ....[۸۲]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۵۵

القسم الأول: طائفة من الفنون القتالية

اشارة

«مَعاشِرَ الْمُسْلِمِينَ اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ، وَعَضُّوا عَلَى النَّواجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ. وَأَكْمِلُوا اللَّأْمَةَ، وَقَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمادِها قَبْلَ سَلِّها، وَالْحَظُوا الْخَزْرَ، وَاطْعُنُوا الشَّزْرَ، وَنافِحُوا بِالظُّبَى، وَصِلُوا السُّيُوفَ بِالْخُطا».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى تسعة من أساليب وفنون القتال العملية فى ساحة المعركة فقال عليه السلام:

«معاشر المسلمين استشعروا الخشية، وتجلببوا السّكينة»

إستشعروا من مادة شعار من الثياب ما يكون دون الدثار وهو يلى الجلد، أى اجعلوا الخوف من اللَّه تعالى شعاركم، وتجلببا من مادة جلباب الثوب المشتمل على البدن وعادة ما يطلق على الثوب الذى تستر به المرأة رأسها وعنقها وبعض صدرها وظهرها، وهو أطول من الخمار وأقصر من الرداء. فالأمر الأول الذى يؤكد الإمام عليه السلام وجوب اختلاطه بروح المقاتل وقلبه هو خوف اللَّه وخشيته والشعور بالمسؤولية تجاه أوامر اللَّه فى طاعتها وإمتثالها، ولعل هذا أهم الدوافع التى ينبغى أن يتحلى به المقاتل المؤمن فيمنحه الثبات والصمود تجاه العدو. الأمر الثانى الذى أكده الإمام عليه السلام هو أن يتحلى المقاتل بالسكينة والحلم والوقار، وذلك لأنّ أدنى إضطراب فى ميدان القتال أمام العدو إنّما يكشف عن الضعف والعجز، وهذا ما يجعل العدو فى مطمع من إقتحام الميدان واللجوء إلى الهجوم. والواقع أنّ الأفراد الأقوياء والشجعان يتصفون دائما بالتماسك وضبط النفس، بينما يعيش الضعفاء والجبناء حالة من الاضطراب والقلق على الدوام. وقد قال

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۵۶

القرآن الكريم بشأن السكينة وأهميتها: «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيْماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً»[۸۳] وهذه السكينة كانت هى العامل الذى وقف وراء إنتصار المسلمين فى كافة الغزوات التى

خاضوها ضد معسكر الكفر والشرك، وهى التى شدت أزر النبى صلى الله عليه و آله أثناء تلك الشدائد كدخوله صلى الله عليه و آله إلى غار جبل ثور وكان العدو يقف على باب الغار بحثاً عنه. ثم قال عليه السلام:

«وعضّوا على النّواجذ، فإنّه أنبى ۸۴] للسّيوف عن الهام ۸۵]»

قوله عليه السلام

«عضوا على التواجذ»

جمع ناجذ وهو أقصى الاضراس، وللإنسان أربعة نواجذ فى كل شق، ويسمى الناجذ ضرس الحلم، لأنّه ينبت بعد لبلوغ وكمال العقل، ويقال إنّ العاض على نواجذه ينبو السيف عن هامته نبواماً، وهذا ممّا يساعد التعليل الطبيعى عليه، وذلك أنّه إذا عض على ناجذه تصلبت الأعصاب والعضلات المتصلة بدماغه، وزال عنها الاسترخاء، فكانت على مقاومة السيف أقدر، وكان تأثير السيف فيها أقل وصرح بعض شرّاح البلاغة قائلًا: هذا كلام ليس على حقيقته، بل هو كناية عن الأمر بتسكين القلب وترك اضطرابه واستيلاء الرعدة عليه. ثم قال عليه السلام:

«و أكملوا اللَّأمة»[۸۶]

، اللأمة بالهمزة الدرع، وإكمالها أن يزاد عليها البيضة والسواعد ونحوها، ويجوز أن يعبر باللأمة عن جميع أداة الحرب، كالدرع والرمح والسيف، وأراد الإمام عليه السلام بهذه العبارة:

أكمل السلاح الذى تحاربون العدو به. ثم قال عليه السلام:

«وقلقلوا[۸۷] السّيوف فى أغمادها[۸۸] قبل سلّها»

فالعبارة تنطوى على أهمية قصوى وان بدت صغيرة للوهلة الاولى وذلك لئلا يدوم

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۵۷

مكثها فى الا جفان فيصعب سلها وقت الحاجة إليها، الأمر الذى قد يؤدى إلى بعض الأخطار التى لا يمكن معالجتها فى ساحة الحرب.

ثم قال عليه السلام:

«و الحظوا الخزر، واطعنوا الشّزر»

الخزر أن ينظر الإنسان بعينه، وكأنّه ينظر بمؤخرها وهى أمارة الغضب، كما تستعمل أحياناً حين عدم الإكتراث، وقائدة مثل هذا الاسلوب فى ميدان القتال أولًا: إشعال وتأجيج نيران الغضب فى الباطن بحيث تشحذ كافة القوى الداخلية وتتضاعف طاقة الإنسان وقدرته، والآخر أن النظر بكامل العين يدل على الخوف والوهن والعجز، الأمر الذى يجعل العدو أكثر جرأة وجسارة. وشزر على وزن نذر بمعنى الشتت وأكثر ما تستعمل لفظة الشزر فى الطعن عن اليمين والشمال، ولعل الإمام عليه السلام أراد سلب إحساس العدو بالأمن فيما إذا تركزت ضربات المجاهدين على جانب واحد، كما يتأهبوا لتسديد الضربات الاجهاضية. فالواقع إنّ مثل هذه العبارات تكشف مدى خبرة الإمام عليه السلام بفنون القتال وخطط الحرب. ثم إختتم وصاياه بالقول:

«ونافحوا بالظّبا، وصلوا السّيوف بالخطا»

نافحوا من النفح على وزن الفتح بمعنى النفخ كناية عن شدة الاقتراب من العدو، والظبا طرف السيف وحده، والمراد كافحوا وضاربوا.

والمراد بقوله عليه السلام:

«صلوا السّيوف بالخطا»

أنّ اليد قد لاتكفى أحياناً لضرب العدو بالسيف ولابدّ من التقدم بضع خطوات والضرب بالسيف.

تأمّل: الفنون القتالية فى الماضى والحاضر

تمثل الفنون القتالية فى الوقت الراهن علماً من العلوم المهمّة التى ينبغى تدريسها فى الكليات العسكرية وتعلمها على مدى سنوات وممارستها فى ساحات التدريب، فالواقع أنّ تجاهل مثل هذه الفنون لا يجعل أعظم الجيوش أن تتقدم فى ميادين القتال وإن جهز بأحدث الاسلحة المتطورة. ومن هنا كان أتباع المدرسة الإسلامية مطالبين بتعلم كافة هذه الفنون من أجل الدفاع عن مبادئ الدين ومصالح البلاد، ولعل ذلك يمثل واجباً كفائياً، بل واجباً عينياً.

فمما لاشك فيه أن الأسلحة لم تكن بهذا التعقيد كما لم تكن الفنون والخطط الحربية بهذه الدقة

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۵۸

التى هى عليها اليوم، مع ذلك فقد كانت لتلك الحروب أساليبها وقوانينها التى عرض الإمام عليه السلام بالشرح إليها، والتى تكشف عن مدى خبرة الإمام عليه السلام ومراسه للحرب. ولعل هنالك من يقول أن تعلم فنون القتال إنّما يؤدى إلى سفك المزيد من الدماء، الأمر الذى أكد عكسه فى الوصايا والتعاليم الإسلامية ولا سيما الاوامر الحربية، حيث تحرص هذه التعاليم على الدماء وتدعو إلى الحد قدر المستطاع من سفك الدماء. والجواب إنّ ماورد فى هذه الخطبة أمّا يمثل الامتداد الطبيعى لتلك التعاليم، لأنّ المقاتل إذا ألم باساليب القتال وفنونه أمكنه تحقيق النصر الخاطف السريع على العدو بأقل التضحيات. أضف إلى ذلك فان العدو إذا وقف على قدرة الخصم ومهارته فى فنون القتال واستماتته من أجل الأهداف الإسلامية قد يركع ويستسلم فيرجح السلام على الحرب، الأمر الذى يحسم المعركة ويقلل من سفك الدماء.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۵۹

القسم الثانى: الثبات والمقاومة

وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللَّهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله فَعاوِدُوا الْكَرَّ، واسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ، فَإِنَّهُ عَارٌ فِى الْأَعْقَابِ، وَنارٌ يَوْمَ الْحِسابِ وَطِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً، وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً، وَعَلَيْكُمْ بِهَذا السَّوادِ الْأَعْظَم، وَالرِّواقِ الْمُطَنَّبِ، فاضْرِبُوا ثَبَجَهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِى كِسْرِهِ، قَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً، وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلًا. فَصَمْداً صَمْداً! حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ «وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة برفع معنويات جنده وأوصاهم بالثبات فى القتال بغية إستئصال شأفة العدو فقال لهم:

«و اعلموا أنّكم بعين اللّه»

فاذا علم الإنسان أنّه بعين سيده القادر على كل شئ والمحيط به فانه يستلهم منه العزم والقوة وعدم الشعور بالوحدة من جانب، ومن جانب آخر يلفت نظره إلى عظم المسؤولية والوظيفة التى ينبغى أن ينهض بعبئها. وقد ورد هذا المعنى فى قصة نوح عليه السلام حين أمر بصنع السفينة «وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْينا»[۸۹] فى إشارة إلى أنّ العدو قد يحاول أن يعيقك عن القيام بهذا العمل من خلال السخرية والاستهزاء، أو من خلال ممارسة الحرب الدعائية والضغوط النفسية، فلا تكترث لهذه الامور ولا تخف فانّك تعمل وفق المشيئة الإلهية الغالبة. وهو ذات المعنى الذى ألمحت إليه

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۶۰

الآية الشريفة: «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا»[۹۰] فى إطار رباطة جأش النبى الأكرام صلى الله عليه و آله حيال تكالب الأعداء. ثم قال عليه السلام:

«و مع ابن عمّ رسول اللّه»

ابن عمه الموصوف باخوته ووصيه ومن كان يتبعه اتباع الفصيل إثر امه. وعليه فلا ينبغى أن تشعروا بأدنى شك وترديد فى مسيرتكم فاندفعوا بكل ما أوتيتم من قوة لقتال عدوكم، هذا فى الوقت الذى يمثل فيه عدوكم سلالة أعداء رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله، فوالد معاوية هو أبو سفيان الذى كان أعدى أعداء رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله وعليه فهو غاصب للخلافة لابدّ من مقاتلته وإعادته إلى الحق. أمّا تأكيد الإمام عليه السلام على قرابته من النبى صلى الله عليه و آله ورغم كونه أمراً متعارفاً لدى العقلاء- الذين يرون قرابة الشخص أعلمهم بما جاء مالم يقم الدليل على خلافه- إلّا أنّه يمكن أن يكون إشارة إلى حديث الثقلين الذى جعل فيه رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله أهل بيته فى مصاف القرآن ودعا الامّة إلى وصيتين هما فى الواقع بمثابة اللازم والملزوم، فقال:

«فعاودوا الكرّ، واستحيوا من الفرّ، فإنّه عارٌ فى الْأعْقاب، ونارٌ يوم الحساب»

فالعدو قد لاينهار من كرة واحدة ولابدّ من الكرة تلو الكرة لاضعاف العدو والقضاء عليه من جانب، من جانب آخر لا تحدثوا أنفسكم أبداً بالفرار من جبهات القتال، فانّ ذلك عار يوصم به جبينكم كما تجروه على أعقابكم من بعدكم فان الابناء يعيرون بفرار آبائهم ۹۱]، وبغض النظر عن ذلك فان هذا الفرار سيكون وبالًا عليكم يوم الحساب فتردون النار، لأنّ الفرار من الزحف يعد من الكبائر، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر بقوله: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبارَ* وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ»[۹۲]. ثم يؤكد عليه السلام الجهاد بأمرين من قبيل اللازم والملزوم أيضاً فيقول:

«و طيبوا عن أنفسكم نفساً[۹۳] وامشوا إلى الموت مشياً سجحاً»

سجح على وزن صحف

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۶۱

تعنى المستقيم وهى تستعمل بشأن الطرق المستوية والمستقيمة، ولما كان المشى سهلًا فى مثل هذه الطرق فانّها تطلق على السهل أيضاً. ومن هنا ورد فى المثل العربى المعروف

«ملكت فاسجح».

فالإمام عليه السلام يرى أنّ الشهادة فى سبيل اللّه ضالة أهل الإيمان، فيؤكد عليهم عدم الاكتفاء برفض الخشية والخوف من الشهادة، بل لابدّ من إستقبالها بكل رحابة صدر، فطريقها سهل يسير ولابدّ من ركوبه لمعانقتها. وقد كان الإمام عليه السلام نموذجاً بارزاً لهذا الكلام حتى أقسم قائلًا:

«واللّه لابن ابى‌طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه»[۹۴]

وهو الذى صرح عند ما ضربه ابن ملجم:

«فزت وربّ الكعبة».

ثم قال عليه السلام فى إشارة إلى مركز تجمع جيش الشام والخيمة التى تربع داخلها معاوية:

«وعليكم بهذا السّواد الْأعْظم، والرّواق الْمطنّب، فاضْربوا ثبجه»

فقد يطمع العدو وتشتد شوكته لو حمل عليه من هنا هناك مع مراعاة الحذر والاحتياط، وعلى العكس من ذلك لو كانت الحملة مصوبة إلى قلب عسكر العدو لانهارت روحية العدو وتحطمت معنوياته، فانّ الهجوم على المركز يكشف عن مدى القوة والاقتدار، ومن هنا إستفاد الإمام عليه السلام هذه القضية النفية ليأمر جيشه بالهجوم على قلب العدو ومركز قيادته. والسواد الأعظم كناية عن التجمع الكبير الذى يبدو أسوداً من بعيد، والمراد به هنا عسكر الشام. الرواق على وزن كتاب غراب الفسطاط، وهو هنا إشارة إلى الخيمة الكبيرة المضروبة لمعاوية، المطنب المشدود بالأطناب جمع طنب بضمتين وهو حبل يشد به سرادق البيت والثبج بالتحريك الوسط وقوله عليه السلام:

«فاضربوا ثبجه»

تعنى الهجوم على قلب جيش الشام وخيمة معاوية. ثم أورد الإمام عليه السلام الدليل على ما قال:

«فإنّ الشّيطان كامنٌ فى كسره ۹۵] وقد قدّم للوثبة[۹۶] يداً، وأخّر للنّكوص ۹۷] رجلًا»

، والمراد بالشيطان هنا معاوية حيث جمع الأفكار والأعمال الشيطانية بينما ذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّه أراد بالشيطان عمروبن العاص، كما قيل قد يراد به الشيطان الحقيقى

«ابليس»

الذى كان يتلاعب بمعاوية وعسكره آنذاک. وقد صور الإمام عليه السلام بهذه العبارة روحية معاوية الذى كان يعد نفسه للهجوم من جهة وهو يهم بالنكوص والفرار من جهة

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۶۲

اخرى؛ ولا غرو فهذه هو الاسلوب المتبع لدى الساسة الماديين، فليس لهم من هدف مقدس يقاتلون من أجله، ومن هنا يهربون هروب الشاة من الذئب إذا ما جابهتهم ثلة من المؤمنين.

فقد صرح القرآن الكريم بشأن أعوان الشيطان فى مجابهتهم للمؤمنين وكيفية تخلى الشيطان عنهم قائلًا: «وَإِذ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النّاسِ وَإِنِّى جارٌ لَكُمْ فَلَمّا تَراءَتِ الفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ إِنِّى أرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّى أَخافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ العِقابِ»[۹۸] ولا يقتصر هذا الأمر على الشيطان- ابليس- فهذا هو ديدن شياطين الانس الذين يزجون باتباعهم فى الأحداث الساخنة ثم يخذلونهم فى الظروف الحرجة. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلًا:

«فصمداً صمداً![۹۹] حتّى ينجلى لكم عمود الحقّ «وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ»»

فالواقع إنّ هذه العبارة تمثل نتيجة لما أورده الإمام عليه السلام ودعا إليه صحبه؛ أى أنكم قد وقفتم الآن على التعليمات الكافية والفنون القتالية وكيفية الهجوم على مركز تجمع العدو، فما عليكم إلّاالثبات والصمود والمقاومة لانحدار الباطل وانتصار الحق. ثم يعدهم بالنصر استنادا إلى البشارة التى تضمنتها الآية ۳۵ من سورة محمد صلى الله عليه و آله: «وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ». وعليه فالخطبة تمثل دروساً عظيمة فى التعرف على أساليب القتال وعناصر النصر دون أن تقتصر على زمان الإمام عليه السلام. ويشير التأريخ إلى مدى التأثير الذى لعبته كلمات الإمام عليه السلام حتى ورد فى كتاب صفين لنصربن مزاحم أنّ الإمام عليه السلام حين أورد هذه الكلمات ودعا صحبه أثناء صفين للهجوم على أهل الشام انطلق أكثر من عشرة الاف خلف الإمام عليه السلام ووثبوا إلى رماحهم وسيوفهم ونبالهم فانقضوا على جند معاوية حتى إقتربوا من خيمته فكاد يقضى عليه لو لاتلك الخدعة التى عمد إليها ابن العاص فى رفع المصاحف على أسنة الرماح.[۱۰۰]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۶۳

الخطبة[۱۰۱] السابعه و الستون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

قالوا: لما إنتهت إلى أميرالمؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله قال عليه السلام: ما قالت الانصار؟ قالوا: قالت: منا أمير، ومنكم أمير؛ قال عليه السلام:

نظرة إلى الخطبة

الخطبة تمثل ردّاً حاسماً على زعمين بشأن خلافة رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله. الأول وهو اجتماع طائفة من الناس فى سقيفة بنى ساعدة لتعيين الخلافة دون الالتفات إلى وصية النبى صلى الله عليه و آله بهذا الشأن فطالبت الأنصار بالشورى وأن ينتخب منهم أمير وأخر من المهاجرين. ففند الإمام عليه السلام هذا الزعم بحديث عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله. والثانى إستدلال المهاجرين على الأنصار بأحقيتهم بالخلافة. فاستدل عليهم الإمام عليه السلام بنفس إستدلالهم فى أحقية أهل البيت عليه السلام بالخلافة إن كان إستدلالهم صحيحاً.

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۶۵

«فَهَلَّا احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وآله وسلم وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ وَيُتَجاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟ قالُوا: وَما فِي هَذا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؟ فَقالَ عليه السلام: لَوْ كانَ الْإِمامَةُ الامارهٔ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ، ثُمَّ قالَ عليه السلام: فَماذا قالَتْ قُرَيْشٌ قالُوا احْتَجَّتْ بِأَنَّها شَجَرَةُ الرَّسُولِ صلى الله عليه و آله:

فَقالَ عليه السلام: احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ وَأَضاعُوا الثَّمَرَةَ».

الشرح والتفسير

الاستدلال المنطقى على الخلافهٔ

أوردنا سابقا أنّ الإمام خطب بهذه الخطبهٔ لما إنتهت إليه أنباء السقيفهٔ وأنّ الأنصار قالت للمهاجرين منا أمير ومنكم أمير، فقال عليه السلام:

«فهلّا احتججتم عليهم بأنَّ رسول اللّه صلَّى اللّه عليه وآله وسلّم وصّى بأن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم؟»[۱۰۲]

فاستفسره الحاضرون

«قالوا: وما فى هذا من الحجّهٔ عليهم؟»

فردّ عليهم الإمام عليه السلام:

«فقال:

لوكانت الإمامهٔ فيهم لم تكن الوصيّهٔ بهم»

فمن الواضح أنّ وصية أحد بآخر تفيد أنّ تصريف الامور بيد الموصى إليه، لابيد ذلك الذى أوصى به. بالضبط كالأب الذى يسافر فيوصى ولده الأكبر قائلًا: اوصيك باخوانك خيراً. فمفهوم ذلك أنى فوضتك القيام بالأعمال وأودعتك إخواتك. وعليه فالذى يستفاد من حديث النبى صلى الله عليه و آله أنّ الحكومهٔ ليست للأنصار، إلّا أن أصحاب السقيفهٔ لم يلتفتوا لهذا الأمر وانحوا الأنصار بالقوهٔ عن الخلافهٔ. وقد استدل

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۶۶

المتأخرون بمثل هذا الكلام على إثبات صحهٔ دعواهم، ومن ذلك ما رواه ابن أبى الحديد قائلًا:

حين توفى سعيد بن العاص، دخل إبنه عمرو بن سعيد على معاويهٔ، فسأله معاويهٔ: إلى من أوصى بك أبوك؟ فقال عمرو. لقد أوصى إلىّ ولم يوص بى. فتعجب معاويهٔ من جوابه وقال:

«إنّ هذا الغلام لاشدق»

فعرف منذ ذلك الحين بين الناس بالاشدق أى الخطيب البليغ. ثم طرح الإمام عليه السلام سؤالًا آخر بهذا الشأن:

«ثمّ قال: فماذا قالت قريشٌ؟»

فردوا عليه:

«قالوا:

احتجّت بأنّها شجرة الرسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم»

فذهب الإمام عليه السلام إلى أنّ ذلك حجة عليهم

«فقال: احتجّوا بالشّجرة، وأضاعوا الثّمرة».

فاذا كانت الشجرة ذات أثر كان ثمرها أعظم أثراً. والعجيب ما أورده الشارح البحرانى الذى أورد احتمالين بشأن المراد بالثمرة فى هذه العبارة: أحدهما على وأولاده، والاخر السنة النبوية التى توجب استحقاق على عليه السلام للخلافة والولاية. فمن الواضح أنّ الاحتمال الثانى مستبعد رغم موافقته للاحتمال الأول، فاذا كانت الشجرة ترمز للقرب فان ثمرها يكون أكثر قربا، وعليه فليس المراد بهذه الثمرة سوى أهل البيت عليه السلام.

تأمّل: الخلافة وقصة سقيفة بنى‌ساعدة

روى أنّ النبى صلى الله عليه و آله لما قُبِض، اجتمعت الأنصار فى سَقِيفة بنى ساعدة، فقالوا: إنّ رسول‌الله صلى الله عليه و آله قد قبِض، فقال سعد بن عبادة لابنه قيس- أو لبعض بنيه: إنّى لا أستطيعُ أن أُسمِعَ الناسَ كلامى لمرضِى؛ ولكن تلقّ منى قولِى فأسْمِعهم. فكان سعد يتكلّم، ويستمع ابنه ويرفع به صوته ليُسمِع قومَه.

قال الطبرى ثم خاطب سعد الانصار وذكرهم بسبقهم إلى الاسلام حين عادته العرب وقد لبث رسول الله صلى الله عليه و آله ثلاث عشرة سنة فى مكة فلم يجبه إلا القليل، حتى انبريتم للدفاع عن الاسلام ونصرة النبى صلى الله عليه و آله ووقفتم إلى جانب الحق، إلى أن قبض النبى صلى الله عليه و آله وهو راض عنكم فانتم أولى بالخلافة من غيركم.

فحدثه الحديث، ففزِع أبو بكر أشدَّ الفزع، وخرجا مسرعيْن إلى سقيفة بنى ساعدة؛ وفيها

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۶۷

رجالٌ من أشراف الأنصار؛ ومعهم سعد بن عبادة فقام أبو بكر فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه و آله لما بُعث عظم على العرب أن يتركُوا دينَ آبائهم، فخالفوه وشاقّوه، وخصّ الله المهاجرين الأولين من قومِه بتصديقه‌الإيمان به والمواساة له، والصَّبْر معه على شِدّة أذى قومه، ولم يستوحشوا لكثرةَ عَدوّهم؛ فهمْ أول مَنْ عَبَد الله فى الأرض، وهم أوّلُ مَنْ آمن برسول الله، وهم أوليـاؤه‌عِتْرته، وأحقّ الناس بالأمر بعده، لا ينازعهم فيه إلّاظالم؛ وليس أحدٌ بعد المهاجرين فضلًا وقَدَماً فى الإسلام مثلكم؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نمتاز دونَكم بمشورة، ولا نقضى دونكم الامور.

فقامَ الحُباب، وقال:

يا معشر الأنصار، لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر، فإن أبوْا عليكم ما أعطيتموهم فأجلُوهم عن بلادكم، وتولَّوْا هذا الأمر عليهم، فأنتم أوْلَى الناس بهذا الأمر، إنّه دانَ لهذا الأمر بأسيافكم مَنْ لم يكن يدين له. أنا جُذَيْلُها المحكَّك، وعُذَيْقُها المرجَّب، إن شئتم لنعيدنَّها جَذعة، والله لا يرّد أحدٌ علىّ ما أقول إلّاحطّمتُ أنفه بالسَّيْف.

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع سَيْفان فى غِمْد؛ إنّ العرب لا ترضى أن تؤمِّركم ونبيُّها من غيركم.

قال: فلما رأى بشير بن سعد الخزرجىّ ما اجتمعت عليه الأنصار من تأمِير سعد بن عبادة- وكان حاسداً له وكان من سادة الخْزرج- قام فقال:

أيّها الأنصار، إنّا وإنْ كُنّا ذوِى سابقة، فإنّا لم نُرِدْ بجهادنا واسلامنا إلّارضاً رَبِّنا وطاعة نبينا، ولا ينبغى لنا أن نستطِيل بذلك على الناس، ولا نبتغِى به عِوَضاً من الدّنيا، إن محمداً صلى الله عليه و آله رجلٌ من قريش؛ وقومه أحقُّ بميراثِ أمره، وايمُ الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر؛ فاتّقوا اللهَ ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم.

فقام أبو بكر، وقال: هذا عمر وأبو عُبيدة، بايعوا أيَّهما شئتم؛ فقالا: واللّه لا نتولّى هذا الأمر عليك.

و لما رأت الأوس أنّ رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع، قام اسَيد بن حُضَير- وهو رئيس الأوس- فبايَع حسداً لسعد أيضاً، ومنافَسةً له أن يلىَ الأمرَ، فبايعت الأوس كلّها لمّا بايع

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۶۸

اسيَد، وأراد عمر ان يقتل سعدا إن لم يبايع، إلا أنه خشى من تهديد سعد بعد أن نصحه ابوبكر بالكف عنه.

و فسد الأمر فتركوه، فكانَ لا يصلِّى بصلاتِهم، ولا يجمع بجماعتهم، ولا يقضِى بقضائهم؛[۱۰۳] ولو وجد أعوانا لضارَبهم، فلم يزلْ كذلك حَتى مات أبوبكر، ثم لِقَى عمرَ فى خلافته؛ وهو على فرس، وعمر على بعير، فقال له عمر: هيهات يا سعد! فقال سعد: هيهات يا عمر! فقال: أنت صاحب مَنْ أنت صاحبه؟ قال: نعم أنا ذاك؛ ثم قال لعمر: واللّه ما جاوَرنى أحدٌ هو أبغضُ إلىّ جواراً منك، قال عمر: فإنه مَنْ كَرِه جوار رجل انتقل عنه؛ فقال سعد: إنّى لأرجو أن أخلِّيها لك عاجلًا إلى جوار مَنْ هو أحبُّ إلىّ جواراً منك ومن أصحابك؛ فلم يلبث سعدٌ بعد ذلك إلّا قليلًا حتى خرج إلى الشام، فمات بحُوران ولم يبايع لأحدٍ؛ لا- لأبى بكر ولا- لعمر ولا لغيرهما.[۱۰۴] والمعروف ان سعد قد قتل بيد خالد بن الوليد بأمر عمر حيث كمن له فى الليل ورماه بسهمين ثم القى جسده فى بئر وشاع بين الناس ان الجن قتلت سعد بن عبادة. والطريف ما نقل عن مؤمن الطاق (محمد بن النعمان الاحول) المعروف بدفاعه عن أهل البيت حيث سئل لم لم ينازع على ابابكر على الخلافة قال: خشى ان تقتله الجن.[۱۰۵]

وقال المرحوم العلامة الامينى بهذا الخصوص «وكان من حشدهم اللهام رجال من الجن رموا سعد بن عبادة أمير الخزرج».[۱۰۶]

وحين حج عمر سمع من يقول «إن مات عمر بايع فلانا»[۱۰۷] فغضب عمر وصعد المنبر ثم قال: لا يقول أحد ذلك انما كانت بيعة أبى بكر فتنة وتمت ... ولكن الله وقى شرها.

أضواء على السقيفة

۱- يتبيّن مما مر معنا سابقا أن الشورى التى عقدت فى السقيفة لم تكن شرعية منتخبة من

نفحات الولاية ؛ ج۳ ؛ ص۶۸

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۶۹

قبل الامّة كما أراد أن يصورها البعض، بل حضرها بعض الأنصار على أمل تحقيق أهدافهم، ثم التحق بهم بعض المهاجرين لينافسونهم على الخلافة، حتى آلت الامور إلى تنصيب أبى بكر.

۲- تفتقر السقيفة إلى الشرعية من الناحية الدينية، كما تفتقر إليها من الناحية السياسية على ضوء الاعراف والقوانين الحاكمة فى الأنظمة السياسية، وذلك لأنّها لو كانت ممثلة لجميع الامّة لوجب أن يحضر ممثلًا عن الأنصار وآخر عن المهاجرين، بينما نعلم أنّ قرابة رسولاللّه صلى الله عليه و آله المتمثلة بأهل بيته لم تحضر ذلك الاجتماع.

۳- تفيد أحداث السقيفة أنّ انتخاب الأصلح لم يكن هو المعيار المعمول به فى الخلافة، وكأنّهم اعتمدوا الميراث أسلوباً فى التعامل معها بحيث كان كل يدعى سهم معيناً فيها، ومن الواضح أنّ من لديه هكذا نظرة إلى الخلافة، لا يسعه أن ينتخب الأصلح لابناء الامّة.

۴- لم تتطرق السقيفة من قريب أو بعيد إلى وصايا النبى صلى الله عليه و آله بالخلافة، رغم علم الجميع بأنّ النبى صلى الله عليه و آله أوصى الامّة قائلًا:

«إنّى تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتى؛ ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً».

أفلم يكن يدعو هذا الحديث الشريف الذى روته أغلب مصادر الفريقين حتى عدّ متواتراً والذى صرح به الرسول صلى الله عليه و آله

فی عدة مناسبات، من حضر السقیفة إلی الرجوع إلی القرآن وأهل البیت علیه السلام قبل أن یفرضوا أهدافهم علی الامّة ویتحکموا فی مصیرها؟[۱۰۸] أولم یکن حدیث الغدیر المتواتر عن النبی صلی الله علیه و آله مانعاً لأهل السقیفة مما أقدموا علیه بشأن الخلافة؟ أو لم یسمعوا بحدیث یوم الدار حین نص رسولاللَّه صلی الله علیه و آله منذ أوائل دعوته علی خلافة علی علیه السلام ووصایته، أو ما أورده آخر ساعات عمره الشریف وقوله إتونی بقلم ودواة؟!

طبعا قد یبدو ذلک عجیبا منذ الوهلة الاولی إلّاأنّه سرعان ما یزول، حیث النبی صلی الله علیه و آله علی فراش الموت ودعی بقلم ودواة فمنعوا من ذلک وتفوهوا باشنع الکلمات ضد أطهر الکائنات من بنیآدم رسولاللَّه صلی الله علیه و آله؛ الأمر الذی یکشف عن وجود خطة مسبقة بشأن الخلافة، بحیث لم یکن لیحول دونها حتی أحادیث رسولاللَّه صلی الله علیه و آله ووصایاه. وما ذلک إلّاالطمع فی الخلافة

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۷۰

وحب الجاه والمنصب التی تجعل الإنسان یتجاهل کل القیم والحقائق التی لا یشوبها أدنی شک أو ریب.[۱۰۹] وهنا یتضح عمق کلام أمیرالمؤمنین علیه السلام

«احتجّوا بالشّجرة، وأضاعوا الثّمرة».

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۷۱

الخطبة الثامنة و الستون

اشارة

ومن کلام له علیه السلام

لما قلد محمد بن أبیبکر مصر، فملکت علیه وقتل

نظرة إلی الخطبة

کان علیه السلام قد ولی محمدبن أبی بکر مصر، فلما إضطرب الأمر علیه بعد صفین وقوی أمر معاویة طمع فی مصر. وقد کان عمروبن العاص بایعه علی أن یکون معه فی قتال علی، وتکون مصر له طعمة، فبعثه إلیها بعد صفین فی ستة آلاف فارس، وقد کان فیها جماعة عظیمة ممن یطلب بدم عثمان وکانوا یزعمون أن محمداً قتله فانضافوا إلی عمرو، وکان معاویة کتب إلی وجوه مصر، أما إلی شیعته فبالترغیب، وأمّا إلی أعدائه فبالترهیب، وکتب محمدبن أبیبکر إلی علی علیه السلام بالقصة یستمده بالمال والرجال، فکتب إلیه یثبته ویعده بذلک بأسرع ما یمکن، فجعل محمد یدعو أهل مصر إلی قتال عمرو، فانتدب معه أربعة آلاف رجل، فوجه ألفین مع کنانة ابن بشر لاستقبال عمرو، وبقی هو فی ألفین، فابلی کنانة فی ذلک الیوم بلاءاً حسناً وقتل من عسکر عمرو خلقاً کثیراً، ولم یزل یقاتل حتی قتل، فلما قتل تفرق الناس عن محمد. وأقبل عمرو یطلب محمداً فهرب منه مختفیاً، فدخل عمرو فسطاطه. وخرج معاویة بن خدیج الکندی، وکان من امراء جیش عمرو، فی طلب محمد فظفر به، وقد کاد یموت عطشاً، فقدمه فضرب عنقه، ثم أخذ جثته فحشاها فی جوف حمار میت وأحرقه. وقد کان علی علیه السلام وجه لنصرته مع مالک بن کعب إلی مصر نحو ألفی رجل، فسار بهم خمس لیال، وورود الخبر إلی

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۷۲

علی علیه السلام بقتله وأخذ مصر فجزع علیه السلام جزعاً ظهر أثره فی وجهه ثم قال: رحم اللَّه محمدا کان غلاما حدثاً وقد أردت

...[۱۱۰].

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۷۳

«وَ قَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ مِصْرَ هاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ، وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاها لَمَّا خَلَّى لَهُمُ الْعَرْصَةَ، وَلا أَنْهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ، بِلا ذَمٍّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِی بَكْرٍ، فَلَقَدْ كانَ إِلَیَّ حَبِيباً، وَكانَ لِی رَبِيباً».

الشرح والتفسير

محمد بن أبی بكر وحكومة مصر

كما ورد فی شأن الخطبة فانّها ناظرة إلی حملة جيش معاوية علی مصر وقتل عامل أميرالمؤمنين علی عليه السلام محمد بن أبی بكر. فقد استهل الإمام عليه السلام ببعض الكلمات التی تشم منها رائحة الذم لبعض أصحابه فقال:

«و قد أردت تولية مصر هاشم بن عتبة، ولو ولّيته إيّاها لمّا خلّی لهم العرصة،[۱۱۱] ولا أنهزهم ۱۱۲] الفرصة»

فالعبارة تفيد أنّ الإمام عليه السلام ورغم محبته لمحمد بن أبی بكر وثقته به وما يتصف به من إيمان وصدق، إلّاأنه كان يرجح توليه هاشم بن عتبة المعروف بالمرقال الذی كان أشجع من محمد وأقوی وأعظم تجربة، ويبدو أن طائفة من أصحاب الإمام عليه السلام كانت تری ضرورة ولاية مصر من قبل محمد كونه ابن أبی بكر وأكثر معرفة بمصر وأهلها، ومن هنا كان له نحو هيمنة علی الرأی العام المصری وقبولًا لديه. أمّا الإمام عليه السلام فلم يكن يری فيه مقومات الصمود المتوفرة فی هاشم بفعل صغر سنه وقلّة تجربته، رغم إتصافه بما لا يخفی من الصفات بيد أنّ تلك الطائفة مارست ضغوطها كتلك التی مارستها بشأن التحكيم فلم يكن من الإمام عليه السلام سوی الاستجابة. فالإمام عليه السلام وبخ بهذه الكلمات تلك

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۷۴

الطائفة، ولو فسحوا المجال ليتصرف كما أراد لما ضاعت مصر بهذه السهولة. ولكن وبغية الحيلولة لما قد يقتدح إلی الأذهان من أنّ كلامه عليه السلام يستبطن ذم محمد بن أبی‌بكر، فقد أردف كلامه بالقول:

«بلا ذمٍّ لمحمّد بن أبی بكرٍ، فلقد كان إلیّ حبيباً، وكان لی ربيباً»

فالواقع أنّ محمداً لم يقصر فی وظيفته وقد بذل كل ما بوسعه ولكن كان هذا أقصی طاقته. جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لما أخبر بقتل محمد بن أبی بكر قال

«رحم اللّه محمدا! كان غلاماً حدثاً، لقد كنت أردت أن اولی المرقال هاشم بن عتبة مصر، فانّه لو ولاها لما خلا لابن العاص وأعانه العرصة، ولا قتل الا وسيفه فی يده بلاذم لمحمد، فلقد أجهد نفسه فقضی ما عليه»[۱۱۳]

. أمّا قوله:

«فقد كان لی حبيباً، وكان لی ربيباً»

فلأنّ الإمام عليه السلام تزوج من أسماء ام محد بن أبی‌بكر بعد وفاة أبيه فتربی محمد فی أحضان الإمام عليه السلام فسار علی هديه حتی أنّه كان يری الإمام عليه السلام أبيه، وهكذا كان يری الإمام عليه السلام فيه إبنه الحبيب.

تأمّلان

۱- من هو هاشم المرقال؟

«هاشم» ابن «عتبة ابن أبی وقاص»، وكان أبوه عتبة من ألد أعداء الرسول الاكرم صلی الله عليه و آله ولكن ابنه هاشم كان من

المسلمين الغياری ومن أصحاب النبی صلی الله علیه و آله وأصحاب أميرالمؤمنين عليه السلام وله حديث مشهور يخاطب به أميرالمؤمنين عليه السلام فيقول: والله، لو أعطونی كل ما علی الارض وتحت السماء علی أن أحب أحداً من اعدائك، أو أبعض أحداً من مجيك لما فعلتُ.

كان فی حرب «صفين» مع علی عليه السلام وكان يرجو أن ينال وسام الشهادة فی طريق الله ومع علی بن أبی طالب عليه السلام فحارب بشجاعة منقطعة النظير، وكان يدعی «المرقال»، بمعنی سريع الحركة، واخيراً، نال ما يريد، فبعد حرب طاحنه خاضها فی ميدان صفين تقلد وسام الشهادة، وقد حَزّن لشهادته الإمام علی عليه السلام وجيشه باجمعهم.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۷۵

وبعد ذلك حمل الراية ابنه وهاجم جيش معاوية، وحارب بشجاعة منقطعة النظير، وبعدها وقع فی الأسر، وعندما أخذوه أسيراً إلی معاوية، فكان له حديث مع معاوية وعمرو بن العاص، دافع فيه بعنف عن علی بن أبی طالب عليه السلام مما حدی بمعاوية إلی أن يسجنه فی احدی سجونه.[۱۱۴]

ورد عن أحوال هاشم عندما كان يحارب فی صفين، حيث قاتل قتالًا شديداً فبينا هو فی أصحابه اذ خرج عليهم فتیً شاب وشد يضرب بسيفه ويلعن ويشتم، فقال له هاشم: ان هذا الكلام بعده الخصام، وان هذا القتال بعده الحساب، فاتق الله فانك راجع إلی ربك فسائلك عن هذا الموقف وما أردت به، قال: فانی اقاتلكم لان صاحبكم لا يصلی كما ذكر لی وأنكم لا تصلون، وأقاتلكم لان صاحبكم قتل خليفتنا وانتم وازرتموه علی قتله، فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان؟ إنما قتله أصحاب النبی صلی الله عليه و آله وقُراء الناس حين أحدث إحداثاً وخالف حكم الكتاب، وأصحاب محمد صلی الله عليه و آله هم أصحاب الدين و أولی بالنظر فی أمور المسلمين، وأما قولك صاحبنا لا يصلی فهو أول من صلی لله مع رسول الله وأفقه فی دين الله، وأما من تری معه فكلهم قاریء الكتاب لا ينام الليل تهجداً، فلا يغروك عن دينك الاشقياء المغرورون، قال الفتی يا عبدالله أنی لا ظنك أمرءاً صالحاً أخبرنی هل تجد لی من توبة؟

قال: نعم، تُب إلی الله يتب عليك.

قال الراوی: فذهب الفتی راجعاً.

فقال رجل من أهل الشام: خدعك العراقی.

قال: لا ولكن نصحنی.

أجل، كان أصحاب علی عليه السلام مثل الإمام علی عليه السلام فی ميدان الوغی يحاربون ويتصحون ويهدون اهل الضلالة من اعدائهم، ولم يكن همهم قتال الاعداء بل كان سعيهم هدايتهم وارشادهم. و علی أی حال فان «هاشم» و «عمار» قاتلا فی صفين بشجاعة وبسالة منقطعة النظير و نالا وسام الشهادة وقد حزن لشهادتهما الإمام علی عليه السلام واصحابه.[۱۱۵]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۷۶

۲– محمد بن أبی‌بكر

أم محمد بن أبی‌بكر أسماء بنت عميس، كانت تحت جعفر بن أبی‌طالب، وهاجرت معه إلی الحبشة، فولدت له هناك عبداللّه بن جعفر الجواد، ثم قتل عنها يوم مؤتة، فخلف عليها أبوبكر الصديق، فأولدها محمدا، ثم مات عنها، فخلف عليها علی بن أبی‌طالب، وكان محمد ربيبه وخريجه، وجاريا عنده مجری أولاده، رضع الولاء والتشيع منذ الصبا، فنشأ عليه، فلم يكن يعرف له أبا غير علی، ولا يعتقد لأحد فضيلة غيره، حتی قال عليه السلام: محمد إبنی من صلب أبی‌بكر. ومن الامور المهمة فی حياة محمد بن أبی‌بكر أنّه كتب إلی الإمام عليه السلام حين ولاه مصر أنّه لاعلم لی بالسنة، فكتب إليه كتاباً، كان ينظر فيه ويتأدب بأدبه، فلما ظهر عليه عمرو بن

العاص وقتله، أخذ كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاويـة، فكان معاويـة ينظر فى هـذا الكتاب ويتعجب منه، فقال الوليد بن عقبة وهو عند معاويـة وقـد رأى إعجابه به: مر بهـذه الأحاديث أن تحرق، فقال معاويـة: مه، لا رأى لك! فقال الوليـد: أفمن الرأى أن يعلم الناس أن أحـاديث أبى تراب عنـدك تتعلم منها! قال معاويـة: ويحك! أتأمرنى أن أحرق علماً مثل هـذا! واللّه ما سـمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم. فقال الوليد: إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله؟ فقال: لو لا أن أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه. ثم سـكت هنيهـة، ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنا لانقول إنّ هـذه من كتب على بن أبى‌طالب، ولكن نقول: هـذه من كتب أبى بكر كانت عنـد إبنه محمد، فنحن ننظر فيها، ونأخذ منها.[۱۱۶]

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۷۷

الخطبهٔ[۱۱۷] التاسعهٔ و الستون

اشارهٔ

ومن كلام له عليه السلام

فى توبيخ بعض أصحابه

نظرهٔ إلى الخطبهٔ

تعتبر هـذه الخطبـة من الخطب التى تعبر عن لوعـة الإمـام عليه السـلام بعـد الغـارات والحملات التى كان يشـنها أهل الشام على البلاد الإسـلامية وتجابه بكل برود من قبل أتباعه. فقد تضمنت أشد الذم لتلك الجماعة من الكوفة الموسومة بالضعف والهوان والتى جعلت الإمام عليه السـلام يشـعر بيأسـها من عـدوها، ويبـدو أن الإمام عليه السـلام لجأ إلى هـذه العبارات أملًا فى إثارتهم وتعبئتهم ضـد أهل الشام.

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۷۹

«كَمْ أُداريكُمْ كَما تُدارَى الْبِكارُ الْعَمِدَةُ، وَالثِّيابُ الْمُتَداعِيَةُ، كُلَّما حِيصَتْ مِنْ جانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ، كُلَّما أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَناسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بابَهُ، وَانْجَحَرَ انْجِحارَ الضَّبَّةِ فِى جُحْرِها وَالضَّبُعِ فِى وِجارِها، الذَّلِيلُ وَاللَّهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ وَمَنْ رُمِىَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِىَ بِأَفْوَقَ ناصِلٍ، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَكَثِيرٌ فِى الْباحاتِ، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّاياتِ. وَإِنِّى لَعالِمٌ بِما يُصْلِحُكُمْ، وَ يُقِيمُ أَوَدَكُمْ وَلَكِنِّى لا أَرَى إِصْلاحَكُمْ بِإِفْسادِ نَفْسِى أَضْرَعَ اللَّهُ خُدُودَكُمْ، أَتْعَسَ جُدُودَكُمْ! لا تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ الْباطِلَ وَلا تُبْطِلُونَ الْباطِلَ، كَإِبْطَالِكُمُ الْحَقَّ».

الشرح والتفسير

عظم الشكوى من الاصحاب الضعفاء

يفهم من مضـمون الخطبـة مـدى معاناة الإمام عليه السـلام بصـفته قائـداً لتلك العصابة التى طبعت على العصـيان والتمرد والتى مهدت السبيل أمام العـدو لتسديد ضـرباته الماحقة إليهم، فيعرض لها بالتوبيخ والذم، علها تعود إلى رشدها وتفيق إلى نفسـها فتوحد صـفوفها وتهب للوقوف بوجه عـدوها. وتكشف عبارات الخطبة- وخلافاً لما يظنه بعض الجهال- مدى مداراة الإمام عليه السـلام لهذه الجماعة الضعيفة المشتتة حتى سئم من مداراتهم وشعر بالتعب فقال عليه السلام:

«كم أداريكم كما

نفحات الولايئ، ج۳، ص: ۸۰

تدارى البكار[۱۱۸] العمدة،[۱۱۹] والثّياب المتداعية،[۱۲۰] كلّما حيصت ۱۲۱] من جانبٍ تهتّكت من آخر»

فالتشبيهات التى أوردها من قبيل التشبيهات الغايـة فى الروعـة والدقـة التى تكشف النقاب عن طبيعـة أهل الكوفـة، فالتأريـخ يشـير إلى مدى الضـعف والوهن الذى ساد عسكر الإمام عليه السلام بعيد موقعة صفين بفعل ما كانوا عليه من جهل وذل وهوان. فقد كان جلهم من الأفراد الـذين خلـدوا إلى الدعـة والرحة وعدم التمتع بالآفاق والأفكار التى تجعلهم يتعرفون على ما حولهم من الأحداث. فلم تكن تهتز لهم قصبة رغم الحملات والغارات المباغتة التى كان يشنها أهل الشام على هذه المنطقة أو تلك من مناطق البلاد الإسلامية، وهم يرتكبون أفضغ الجنايات وأبشع الجرائم إلى جانب سلبهم الأموال واخرابهم للدور. فقد شبههم الإمام عليه السلام بادئ ذى بدء بالنوق الفتيـة التى اعدت حديثاً للركوب وقد يجرح أحياناً سنامها. ومن الواضح أنّ هذا هو حال النوق فى بداية عهدها وأنّ عليها أن تتحمل حتى يشـد ظهرهـا ويسـتحكم سـنامها. أمّـا تلـك الجماعـة فلم تتعرض إلى ذلـك الحمـل الخفيف فى موقعـة صـفين حتى جثت على ركبتيهـا، مع ذلـك فـانّ الإمـام عليه السـلام عاملها بمنتهى المـدارة علها تنهض وتسـتعيد قوتها وشـجاعتها. وفى التشبيه الثانى شـبههم بالاسمال الخلقة البالية التى تشق بأدنى حركة، فاذا خيطت من جانب شقت وتمزقت من آخر. نعم فهؤلاء قد فقدوا كل عناصر الصمود والثبات إثر ضـعفهم وخلودهم إلى الراحة والنكوص عن القتال، فكانوا كلما جمعوا من جانب تفرقوا من آخر، فما أعظمها من مشكلة أن يبتلى قائد شجاع وحكيم بمثل هذا الجيش المهزوم. حقا كان الإمام عليه السلام يعيش حالة

نفحات الولايئ، ج۳، ص: ۸۱

مذهلـة من الألـم والمعاناة والاحباط، وهـذه قمـة المظلوميـة التى شـهدها الإمام عليه السـلام. ثم أشار عليه السـلام إلى مـدى ضـعفهم وذلتهم علهم يصلحون أنفسهم:

«كلّما أطلّ ۱۲۲] عليكم منسرٌ[۱۲۳] من مناسـر أهلالشّـام أغلق كـلّ رجلٍ منكم بابه، وانجحر[۱۲۴] انجحار الضّبّة[۱۲۵] فى جحرها، والضّبع ۱۲۶] فى وجارها[۱۲۷]»

والتشبيه بالضبـة ينطوى على عـدة أمور منها أنّ الضـبة تعرف بالحماقـة إلى درجـة أنها قد تضل حتى جحرها فتعمد إلى جعل جحرها قرب صـخرة بغية الاهتداء إليه، أضف إلى ذلـك فهى تتصف بانعدام العاطفة بحيث تأكل أحياناً صغارها، وأخيراً شبههم بانثى الضباب الضـبة مبالغة فى وصفهم بالجبن والفرار، لأن الانثى أجبن وأذل من الذكر. كما شبههم بالضبع لحماقتهم وسائر الصفات التى أوردناها فى الخطبـة السادسـة ومنها أنّها تنام رغم تهديـدها من العـدو الذى يمكن فى كهفها فيجعلها تخلد إلى النوم حتى يمسك بها دون أن تبدى أدنى مقاومة والواقع أنّ أحداث صفين تعد شاهداً حياً على ما اورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بشأن أهل الكوفة وكيف كـانت حمـاقته تجعله يفقـد الفرصـة وزمـام المبادرة بماجر الويلات عليهم وعلى إمامهم عليه السـلام وعلى كافـة المسـلمين. ثم أماط الإمام عليه السلام اللثام عن مدى ضعفهم فقال:

«الذّليل واللّه من نصرتموه! ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصلٍ ۱۲۸]»

والسـهم الافوق الناصل المكسور الفوق، المنزوع الفصل، والفوق موضع الوتر من السهم، وهذا مثل يضرب لمن استنجد بمن لاينجده. ثم قال عليه السلام:

«إنّكم واللّه لكثيرٌ فى الباحات ۱۲۹] قليلٌ تحت الرّايات»

فقد

نفحات الولايئ، ج۳، ص: ۸۲

إعتادوا على الراحة والرفاه ولذة العيش، وهذا هو سبب ذلهم وهوانهم وجرأة العدو عليهم. ثم قال عليه السلام

«وإنّى لعالمٌ بما يصلحكم، ويقيم أودكم،[۱۳۰] ولكنّى لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسى»

. فقد ذكر الشرّاح تفسيرين لهذه العبارة لايتنافيان مع بعضهما، ولعل كلاهما صادق:

الأول أنّه أستطيع أن أفعل مايفعله معاوية ويستيمل زعماء القبائل والناس بأموال بيت مال المسلمين، الا أنى لا أفعل ما يسخط اللّه، ولا اقيم دعائم حكومتى على حساب الفقراء والضعفاء وهضمهم حقوقهم، والثانى يمكننى أن أفعل ما يفعله الآخرون من حملكم بالقوة على قتال العدو. فقد جاء فى كتاب الغارات أن الإمام عليه السلام خاطب أهل الكوفة قائلًا:

«و اللّه لقد ضربتكم بالدّرة الّتى أعظ بها السّفهاء فما أراكم تنتهون، ولقد ضربتكم بالسّياط الّتى أقيم بها الحدود فما أراكم ترعوون، فما بقى إلّا سيفى! وإنّى لاعلم الّذى يقوّمكم بإذن اللّه و لكنّى لا أحبّ أن آتى تلك منكم»[۱۳۱]

. ونموذج ذلك قد تمثل بالحجاج حين هجم جيش المهلب (أحد زعماء الخوارج) وسدد ضرباته القاصمة لحكومة بنى أمية، فبعث الحجاج من نادى بالكوفة من تخلف عن قتال جيش المهلب اخربت داره على رأسه وضربت عنقه بالسيف، ولم يستثن من ذلك حتى الكهول والمرضى. وبالطبع فقد عمل بذلك عدد من المستبدين من قبل الحجاج وبعده. فالإمام عليه السلام يشير إلى سهولة اللجوء إلى هذا الاسلوب، إلّاأنّه لايليق بشأنه وعلو منزلته، وانّه لايفعل ذلك لأنّه يفسد دينه. وهنا يطرح هذا السؤال: أو ليس الدفاع عن الحكومة الإسلامية وقتال أعدائها واجباً؟ فلم لايحمل الناس قهراً على القتال؟ والجواب على هذا السؤال يتضح من خلال ذكر هذه المسألة، وهى أنّ أصل هذا العمل صحيح، وللحكومة الإسلامية أن تلجا إلى القوة فى مثل هذه الحالة، إلّاأنّ هذا الأمر يستلزم عدّة تبعات قد تكون فى نهاية الأمر مخالفة لأحكام الشرع، ونموذج ذلك واضح فى قضية الحجاج الذى كان يضرب بالسيف البرى والمذنب على حد سواء. أضف إلى ذلك فانّ هذا العمل قد يستبطن بعض ردود الفعل السلبية من البعض واساءتها لفهم القوانين الإسلامية، وذلك لعدم قبول هذا العمل من قبل الجميع، ولعل بعض الضغوط تدعو البعض إلى الردة والتمرد على أحكام الدين والقرآن.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۸۳

ومن هنا لم يلجأ النبى صلى الله عليه و آله قط إلى مثل هذا الاسلوب، بل لم يعمل به أى من الخلفاء بعد النبى صلى الله عليه و آله. وعليه فقد درج الإمام عليه السلام وعلى غرار ما كان يفعله رسولاللّه صلى الله عليه و آله من اعتماد الترغيب والترهيب فى تعبئة الامّة لخوض غمار الجهاد. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالدعاء عليهم جزاءاً لأعمالهم:

«أضرع ۱۳۲] اللّه خدودكم، وأتعس ۱۳۳] جدودكم![۱۳۴] لا تعرفون الحقّ كمعرفتكم الباطل، ولا تبطلون الباطل كإبطالكم الحقّ!»

فالواقع أنّ دعاء الإمام عليه السلام لم يكن سوى نتيجة أعمالهم، فمن ترك الجهاد لايذيق سوى الذل والهوان، وما ذلك إلّالجهلهم بالحق وعدم نهوضهم به واقبالهم على الباطل. وهذا هو البؤس والشقاء الذى يحتاج اليوم مجتمعاتنا الإسلامية. فهذه المجتمعات تعرف الباطل، مع ذلك تقلده وتقتفى آثاره، بينما تجهل الحق واتباعه، والأنكى من ذلك هناك من هم للوقوف بوجه الحق رافعا راية الباطل والضلال.

والحال إنّ هذه الطاقات والإمكانات لابدّ أن تجند فى سبيل اللّه وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۸۵

الخطبة[۱۳۵] السبعون

اشارة

وقال عليهالسلام

فى سحرة اليوم الذى ضرب فيه

«مَلَكَتْنِي عَيْنِي وأَنا جالِسٌ فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله فَقُلْتُ يا رَسُولَ اللَّهِ ما ذا لَقِيتُ مِنْ أَمَّتِكَ مِنَ الْأَوَدِ واللَّدَدِ فَقالَ ادْعُ عَلَيْهِمْ فَقُلْتُ أَبْدَلَنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ وأَبْدَلَهُمْ بِي شَرّاً لَهُمْ مِنّي».

الشرح والتفسير

رؤية رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله

روى محمد بن حبيب البغدادى فى كتاب المغتالين عن أبى عبدالرحمن السلمى أنّه قال:

عدت أميرالمؤمنين على عليه السلام فقال: ادن منى (كأنه لم يرد إسماع الآخرين)، بينما كانت النسوة تبكى. فقال عليه السلام:

«ملكتنى عينى وأنا جالسٌ فسنح ۱۳۶] لى رسول اللّه صلى الله عليه و آله ...».

على كل حال

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۸۶

فانّ هـذا الكلام يعبر عن مدى الاذى الذى تعرض له عليه السـلام من تلك الجماعهٔ. وبالطبع فهذه ليست المرهٔ الاولى التى يشـكو فيها الإمام عليه السـلام بل ورد ذلك فى أكثر من خطبـهٔ من خطب نهج‌البلاغـهٔ والتى تفيـد بأجمعها عدم معرفهٔ مقامه عليه السـلام ورعايهٔ حرمته إلى جانب الآذى والألم الذى جرعوه إيّاه. فقد إستهل كلامه عليه السلام بالقول:

«ملكتنى عينى وأنا جالسٌ»

فالعبارهٔ «ملكتنى عينى» من فصيح الكلام الذى أراد به عليه السلام غلبنى النوم، لأنّ العين هى العضو الأول الذى تظهر عليه آثار النوم، ومن هنا استعملت كنايهٔ عن مفهوم النوم. ثم قال عليه السلام:

«فسنح لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، فقلت: يا رسول اللّه! ماذا لقيت من أمّتك من الاود واللّدد؟».

لعلنـا لا نرى نظيراً للإمام عليه السـلام من أولياء اللّه طليـهٔ التأريـخ ممن جوبهوا بمثل هـذا العـداء والتمرد العصـيان والاذى ولم يقتصـر ذلك على تلك المدهٔ التى حكم فيها، بل إمتد ليشـمل حتى تلك الفترهٔ التى أصـبح فيها جليس الدار مدهٔ خمس وعشـرين سنهٔ، فقد تعرض لمثل ذلك الاذى طيلـهٔ الخلافهٔ الراشدهٔ ولا سـيما إبان خلافهٔ عثمان حين ضاق ذرعاً بالممارسات الخطيرهٔ التى طالت بيت مال المسـلمين فحاول الإصـلاح لإعادهٔ الامور إلى مجاريها، فجوبه بسـخط واسع ونقمهٔ عامهٔ، الأمر الذى بلغ ذروته حين آلت إليه الخلافهٔ. وعليه فلايبدو من العجيب أن يشـكو الإمام عليه السـلام الامّهٔ إلى النبى صـلى الله عليه و آله رغم ما وصف به من الصبر والتحمل، فهو الذى صبر وفى العين قذى وفى الحلق شجى. ولنرى جواب النبى صلى الله عليه و آله لعلى عليه السلام:

«فقال: «ادع عليهم»

، فقال الإمام عليه السلام:

«فقلت: أبدلنى اللّه بهم خيراً منهم، وأبدلهم بى شرّاً لهم منّى»

. والسؤال الذى يقتدح إلى الذهن: لم أمر الرسول صلى الله عليه و آله بالدعاء عليهم وهو الموصوف بأنّه

«رحمهٔ للعالمين»؟

ونقول فى الجواب أنّ طغيان طائفـهٔ من الناس وتمردها قـد يصل درجـهٔ تغلق معها كافـهٔ منافـذ الرحمـهٔ بوجهها فلا تبقى لنفسـها سوى العـذاب وسلب النعمـهٔ، وهكـذا نرى الأنبياء الـذين يمثلون ذروهٔ الصبر والتحمل والحكمهٔ واللطف والرحمهٔ يرون هذه المفردات إنّما تتجسـد فى الـدعاء على أقوامهم بعـد وصولهم إلى مرحلـهٔ لايرجى بعـدها هـدايتهم. فهذا نبى اللّه نوح عليه السـلام قد جهد تسـعمائهٔ وخمسين سنهٔ فى تبليغ رسالهٔ ربه وتحمل ذلك الاذى فى سبيل هدايهٔ قومه، ولما لم ير

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۸۷

من سبيل سوى الدعاء عليهم تضرع إلى اللّه سبحانه قائلًا: «وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيّاراً»[۱۳۷] فاغرقوا جميعاً بالطوفان. على كل حال فان سيرة الإمام عليه السلام تجسدت فى مداراة الأعداء فضلًا عن الأصدقاء، حتى أوصى مالكاً حين ولاه مصر باستشعار قلبه الرحمة لكافة الناس بغض النظر عن أديانهم ومعتقداتهم:

«فالناس صنفان اما أخ لك فى الدين أو نظير لك فى الخلق»

ومن هنا كان لابدّ من تصور مدى الاذى والتمرد الذى واجهه الإمام عليه السلام حتى إضطر إلى الدعاء عليهم. جدير بالذكر الادب الذى تحلى به الإمام عليه السلام حيال رسولاللّه صلى الله عليه و آله حيث لم يقدم على الدعاء عليهم إلا بعد أن أذن له النبى صلى الله عليه و آله. مضمون الدعاء هو الآخر جدير بالتأمل حيث سأله أولًا النجاة من هؤلاء المردة ثم سأل اللّه أن يسلبهم نعمة وجوده ويسلط عليهم حاكماً ظالماً ليجرعهم مرارة أعمالهم. امّا العبارة

«أبدلهم بى شرّاً لهم منّى»

لاتعنى أنّ الإمام عليه السلام كان والعياذ باللّه سيئاً وقد سأل اللّه أن يسلط عليهم أسوأ منه، لأنّ مفردتى الخير والشر فى الاداب العربية لا تقتضى جزماً معانى صيغة التفضيل، وهكذا العبارة

«ابدلنى اللّه بهم خيراً منهم»

فاولئك كانوا نفاقاً وشراً ولم يكونوا من الاخيار. والشاهد على ذلك عدة آيات قرآنية كالآية الخامسة عشرة من سورة الفرقان: «قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ» والآية السادسة والعشرون من سورة الصافات: «أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّوم».

على كل حال استجيب دعاء الإمام عليه السلام ليستشهد الإمام عليه السلام بعد أن ضرب فى محرابه ففاز بلقاء اللّه وجوار رسوله صلى الله عليه و آله، بينما تسلط من بعده معاوية ويزيد والحجاج على أهل العراق ليجرعوهم الموت غصة بعد غصة.

وقال السيد الرضى (ره) آخر الخطبة

«يعنى بالْأود: الْإعْوجاج، وباللّدد: الْخصام. وهذا من أفصح الكلام».

تأمّلان

۱– أصحاب على عليه السلام

لاشبهة ولاريب أنّ أتباع الإمام على عليه السلام على ثلاث طوائف: الطائفة الاولى الخلص

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۸۸

الأوفياء الذين كانوا يدورون حول الإمام عليه السلام كيفما دار ويضحون من أجله بالغالى والنفيس من قبيل مالك الأشتر وعمار بن ياسر ورشيد الهجرى وميثم التمار وكميل بن زياد وأمثالهم.

الطائفة الثانية الجهال الذين لم يعرفوا مقام الإمام عليه السلام ولم يدركوا شرائط الزمان والمكان، ولم يقفوا على أخطار معاوية وحكومته فى الشام، كما لم يكونوا يحضرون فى ميدان القتال، وهم أفراد سذج متلونون لا يعتمد عليهم فى أى عمل من الأعمال والطائفة الثالثة هى الزمرة الحاقدة التى إعتادت العبث بأموال المسلمين على عهد عثمان، الأمر الذى طالبوا به علياً عليه السلام ولم يكونوا يفكرون سوى فى الأموال والمناصب- بغض النظر عن الطرق المؤدية إليها- إلى جانب كون أكثر يشكلون جواسيس معاوية عيونه فى الكوفة. مع ذلك كان الإمام عليه السلام يعامل الجميع بالرفق والمداراة حفظاً على مصالح المجتمع الإسلامى، بينما يضطر أحياناً لذمهم وتوبيخهم علهم يفيقون إلى أنفسهم أما شكاواه وأنينه منهم فيمكن الوقوف عليه فى هذه الخطب:

۱– قال فى الخطبة الخامسة والعشرين:

«و إنّی واللّه لَأَظنّ أنّ هؤلَاء القَومَ سَیدَالونَ منکم باجتماعهم علی باطلهم وتفرّقکم عن حقّکم ... اللّهمّ إنّی قد مللتهم وملّونی وسئمتهم وسئمونی».

۲- قال فی الخطبهٔ السابعهٔ والعشرین:

«فیـا عجبـاً عجبـاً!- واللّه- یمیت القلب ویجلب الهمّ من اجتمـاع هؤلاـء القوم علی باطلهم وتفرّقکم عن حقّکم! فقبحاً لکم وترحاً ... یا أشباه الرّجال ولا رجال! حلوم الْأَطْفال وعقول ربّات الْحجال، لوددت أنّی لم أرکم ولم أعرفکم».

۳- قال فی الخطبهٔ التاسعهٔ والعشرین:

«أیّها النّاس! المجتمعهٔ أبدانهم، المختلفهٔ أهواؤهم، کلامکم یوهی الصّمّ الصّ‍ِلاب، وفعلکم یطمع فیکم الْأعداء! تقولون فی المجالس: کیت وکیت، فإذا جاء القتال قلتم: حیدی حیاد».

۴- قال فی الخطبهٔ التاسعهٔ والستون:

«کم أداریکم کما تداری البکار العمدهٔ، والثّیاب الم تداعیهٔ! کلّما حیصت من جانبٍ تهتّکت من آخر».

۵- قال فی الخطبهٔ السابعهٔ والتسعین:

«أیّهـا القـوم الشّاهـدهٔ أبـدانهم، الغائبـهٔ عنهم عقولهم، المختلفـهٔ أهواؤهم المبتلی بهم أمراؤهم ... یـا أهـل الکوفـهٔ! منیت منکم بثلاـثٍ واثنتین: صمٌّ ذوو أسماعٍ وبکمٌ ذوو کلامٍ وعمیٌ ذوو أبصارٍ، لا أحرار صدقٍ عند اللّقاء، ولا إخوان ثقهٍ عند البلاء».

نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۸۹

۶- قال فی الخطبهٔ المئهٔ وتسعهٔ عشر:

«ما بالکم أمخرسون أنتم؟! ... ما بالکم لا سدّدتم لرشدٍ ولا هدیتم لقصدٍ».

۷- قال فی الخطبهٔ المئهٔ والحادیهٔ والعشرین:

«أرید أن أداویَ بکم وَأَنتم دَائی کناقش الشّوکهٔ بالشّوکهٔ وهو یعلم أنّ ضلعها معها! اللّهمّ قد ملّت أطبّاء هذا الدّاء الدّویِّ».

۸- قال فی الخطبهٔ المئهٔ والثالثهٔ والعشرین:

«و کأنّی أنظر إلیکم تکشّون کشیش الضّب لا تأخذون حقّاً ولا تمنعون ضیماً».

۹- قال فی الخطبهٔ المئهٔ والخامسهٔ والعشرین

«أفٍّ لکم! لقد لقیت منکم برحاً، یوماً أنادیکم ویوماً أناجیکم، فلا أحرار صدقٍ عند النّداء ولا إخوان ثقهٍ عند النّجاء».

۱۰- قال فی الخطبهٔ المئهٔ والحادیهٔ والثلاثین:

«أیّتها النّفوس المختلفـهٔ والقلوب المتشـتّتهٔ، الشّاهدهٔ أبدانهم، والغائبهٔ عنهم عقولهم، أظأرکم علی الحقّ وأنتم تنفرون عنه نفور المعزی من وعوعهٔ الْأسد».

۲- الأفراد الملعونون

کما مر معنا فی شـرح الخطبهٔ فانّ الأنبیاء والأوصـیاء قد إجتهدوا فی إصـلاح أقوامهم ودعوتهم إلی الحق بالحکمهٔ والمواعظهٔ الحسـنهٔ وتحملوا کافـهٔ المشاق والصـعاب بکل صبر وجلـد، إلّاأنّهم کانوا یرون أحیاناً کافهٔ أبواب الأمل قد أغلقتها تلک الأقوام بوجهها بحیث لم یعـد هنالـک من أمـل فی هـدایتها، فلم یکن أمـامهم من سبیـل سوی الـدعاء علیهـا؛ أملًا فی إجتثـاث أولئک الفسـدهٔ واسـتبدالهم بآخرین. وإننا لنلمس نماذج من ذلک الدعاء فی السیرهٔ المفعمهٔ بالعفو والرحمهٔ لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله ومنها:

۱- جاء فی الأخبار أن الحکم بن العاص عم عثمان کان کثیراً ما یسخر من رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله ویؤذیه من خلال مشیه خلفه وإتیانه ببعض الحرکات حیث کان یحرک کتفیه ویکسـر یدیه خلف رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله إستهزاءاً منه بمشیته النبی صلی الله

علیه و آله حتی إلتفت إلیه النبی صلی الله علیه و آله وقال له: هکذا کن

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۹۰

فبقی الحکم علی تلک الحال من تحریک أکتافه وتکسر یدیه، ثم نفاه رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله من المدینة ولعنه.[۱۳۸]

۲- روی أنّ ابن مسعود قال: کنّا مع النبی صلی الله علیه و آله فصلی فی ظل الکعبة وناس من قریش وأبوجهل نحروا جزوراً فی ناحیة مکة فبعثوا وجاؤوا بسلاها فطرحه بین کتفیه، فجاءت فاطمه علیها السلام فطرحته عنه، فلما انصرف قال:

«أللّهمّ اشدد وطأتک علی مضرٍ واجعلها علیهم کسنی یوسف»

قال: عبداللَّه: ولقد رأیتهم قتلی فی قلیب بدر.[۱۳۹]

۳- ومن ذلک أنّه دعا علی مضر فقال: اللّهم اشدد وطأتک علی مضر، واجعلها علیهم کسنی یوسف، فاصابهم سنون، فاتاه رجل فقال: فو اللَّه ما أتیتک حتی لا یخطر لنا فحل ولا یتردد رائح ۱۴۰]، فقال رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله:

«اللّهمّ العنهما وارکسهما فی الفتنة رکساً ودعّهما فی النّار دعّاً»

فما قام حتی ملأ کل شئ، ودام علیهم جمعة، فأتوه فقالوا: یا رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله إنقطعت سبلنا وأسواقنا، فقال النبی صلی الله علیه و آله: حوالینا ولاعلینا، فانجابت السحابة عن المدینة وصار فیما حولها وأمطروا أشهراً.[۱۴۱]

۴- وورد فی الحدیث أنّ رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله لما مر بعمرو بن العاص والولید بن عقبة بن أبی معیط وهما فی حائط یشربان ویغنیان بهذا البیت فی حمزة بن عبدالمطلب حین قتل:

کم من حواری تلوح عظامه‌ورآء الحرب عندنا یجر فیقبرا

فقال النبی صلی الله علیه و آله: أللّهمّ العنهما وارکسهما فی الفتنة رکساً ودعهما فی النار دعاً.[۱۴۲]

۵- وجاء فی الخبر أنّ رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله أخذ یوم بدر کفاً من حصی فرمی به فی وجوه قریش وقال:

«شاهت الوجوه»

فبعث اللَّه ریاحاً تضرب وجوه قریش فکانت الهزیمة، فقال رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله: اللهم لایفلتن فرعون هذه الأمة أبوجهل بن هشام. فقتل منهم سبعون، وأسر

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۹۱

منهم سبعون ۱۴۳]. وبالطبع فان دعاء النبی صلی الله علیه و آله ولعنه لم یقتصر علی هؤلاء؛ الأمر الذی یشیر إلی أنّ أولیاء اللَّه ورغم تحملهم کل عناء المواجهة مع الاعداء، الا أنهم کانوا لایرون من أمل فی المقابل فیضطرون للدعاء علیه، وهذا ما ورد فی خطبة الإمام علیه السلام اقتداءاً برسول اللَّه صلی الله علیه و آله.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۹۳

الخطبة[۱۴۴] الحادیة و السبعون

اشارة

ومن خطبة له علیه السلام

فی ذم أهل العراق

وفیها یوبخهم علی ترک القتال والنصر یکاد یتم، ثم تکذیبهم له

نظرة إلی الخطبة

ورد فى بعض الروايات خطب على عليه السلام فقال:

«لو كُسِرتْ لى الوِسادة لحكمتُ بين أهل التوراة بتوراتِهم، وبين أهلِ الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهْلِ الفرقان بفرقانهم، وما مِنْ آية فى كتاب الله أنزلتْ فى سهلٍ أو جبل إلا وأنا عالم مَتَى أنزلت، وفيمن أنزلت».

فقال رجل من القُعود تحت مِنْبره: يالله وللدّعوى الكاذبة! وقال آخر إلى جانبه: أشهد أنّك أنت الله ربّ العالمين! (فقد كان احدهما مفرطا والاخر مفرّطا).

و روى المدائنى أيضاً قال: خطب على عليه السلام، فذكر الملاحم، فقال:

«سلونى قبل أن تفقِدونى، أما والله لَتَشْغَرَنَّ الفتنة الصّماء برجِلها، وتطأ فى خِطامها».

يا لها من فِتنة شُبّت نارها بالحطب الجزْل، مقبلة من شرق الأرض رافعة ذيلها، داعية

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۹۴

ويلَها، بدجلة أو حولها. ذاك إذا استدارَ الفَلَك، وقلتم: مات أو هلك، بأىّ واد سلك!

فقال قوم تحت منبره: لله أبوه! ما أفصحه كاذباً!

على كل حال فانّ الخطبة قد وردت بعد واقعة صفين حيث يعرض بالذم لجيشه الذى أوشك على تحقيق النصر النهائى والقضاء على فتنة بنى أمية. ومن هنا شبههم الإمام عليه السلام بالمرأة الحامل التى أوشكت على وضع ا لحمل أسقطت جنينها، فمات قيمها وطال تأيمها وورثها أبعدها، فأصبحت بائسة شقية. ثم إختتم الخطبة بالرد على من كذب حديثه وتجاهل ما أخبر به الإمام عليه السلام من حقائق بسبب الجهل والحمق. فالخطبة هى الاخرى تكشف عن مدى مظلومية الإمام عليه السلام.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۹۵

«أَمَّا بَعْدُ يا أَهْلَ الْعِراقِ، فَإِنَّما أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحامِلِ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ وَماتَ قَيِّمُها، وَطالَ تَأَيُّمُها، وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا. أَمَا وَاللَّهِ! مَا أَتَيْتُكُمْ اخْتِياراً، وَلَكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ (اتيتكم) سَوْقاً. وَلَقَدْ بَلَغَنِى أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عَلِيٌّ يَكْذِبُ، قاتَلَكُمُ اللَّهُ تَعالَى فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ؟ أ عَلَى اللَّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! كَلَّا وَاللَّهِ. لَكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِها. وَيْلُ أُمِّهِ كَيْلًا بِغَيْرِ ثَمَنٍ! لَوْ كانَ لَهُ وِعاءٌ «وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ»».

الشرح والتفسير

الشكوى من الاتباع الجهلاء

كما أشرنا سابقا فانّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد موقعة صفين، حيث بات النصر الحاسم وشيكاً، بينما إنشقت طائفة من جيش الإمام عليه السلام إثر حيلة معاوية وعمرو بن العاص ففقدت فرصة النصر، وأنكى من ذلك أحدثت شقاقاً وخلافاً فى جيش الإمام عليه السلام، الخلاف الذى بلغ ذروته حتى أدى إلى وقوع تلك الحرب الأهلية. فالإمام عليه السلام وبفعل هذه الحادثة المروعة الأليمة يذم أهل العراق ويقول:

«أمّا بعد يا أهل العراق، فإنّما أنتم كالمرأة الحامل، حملت فلمّا أتمّت أملصت ۱۴۵] ومات قيمها، وطال تأيّمها،[۱۴۶] وورثها أبعدها»

فالعبارة تتضمن عدّة تشبيهات: الاولى شبه أهل العراق بالمرأة حيث لم يدافعوا برجولة عن عزتهم وشرفهم، ثم لم يكتف بهذا التشبيه ليضيف إليه الحمل حيث كان باستطاعتهم وبطاعتهم للإمام عليه السلام أن

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۹۶

يلدوا ذلك النصر المبارك الذى يضع حدا لغارت أهل الشام وتطاولهم على حرمة الإسلام والمسلمين، إلّاأنّهم أسقطوا ذلك النصر فى آخر اللحظات بفعل جهلهم. فقد خدع القوم بحيلة عمرو بن العاص حين رفع المصاحف على أسنة الرماح، فتعالت الأصوات

بـالرجوع إلى القرآن، حتى هـدد الإمـام عليه السـلام بالقتل إذا لم يرجع مالك الأشتر ويكف عن القتال ولم يكن سوى بضع خطوات بينه وبين معاوية. فمثل هذه المرأة إذا فقدت زوجها ولم تحظ بزوج مناسب وماتت غصة فى هذه الدنيا، فمن الطبيعى أن يرثها الأبعد، فليس لها من ولـد يكون لها إمتـداداً، وليس لها زوج يبكيها (على فرض أنّ ليس لها أب وأم). وذهب البعض إلّاأن هـذا الكلام إشارة إلى نبوءات على ما سيصـيب أهل العراق من جراء سوء تـدبيرهم فى صـفين، حيث سـيفقدون إمامهم لجهلهم وتمردهم فيسلط عليهم البعـداء فيسومونهم سوء العـذاب، وهـذا ما وقع بالفعل، ثم يتطرق الإمام عليه السـلام إلى هجرته من المدينة إلى الكوفة التى إسـتندت إلى الاضـطرار وليس فيهم ما يجعل الإمام عليه السـلام يهاجر إليهم، على العكس من أهل المدينة الذين إندفع إليهم رسولاللّه صـلى الله عليه و آله، وقد كانوا أهلًا لحب رسولاللّه صلى الله عليه و آله وإقباله عليهم. فقال:

«أما واللّه ما أتيتكم اختياراً؛ ولكن جئت إليكم سوقاً».

والتأريخ يشير إلى هذه الحقيقة وهى لولا موقعة الجمل لما إنطلق الإمام عليه السلام إلى البصرة، ولو كان لأهل الحجاز أن يقضوا على فتنـة الناكثين لما إسـتنجد بأهل الكوفـة، ولولا خطر معاويـة الـذى كان يهدد البلاد الإسـلامية لما إسـتقر الإمام عليه السـلام فى الكوفة وهجر المدينـة وغـادر قبر رسولاللّه صـلى الله عليه و آله وسـيدة النسـاء. والواقع أنّ العبارة رداً على إشـكال فى علـة قـدوم الإمام عليه السـلام إلى الكوفة وهى بهذه الصـفات الذميمة، فقد أجيب عن هذا الإشـكال بأنّ الإمام عليه السلام أتى مجبراً لا مختاراً. ثم قال عليه السلام

«و لقـد بلغنى أنّكم تقولون: علىٌّ يكـذب، قـاتلكم اللّه تعالى! فعلى من أكـذب؟ أعلى اللّه؟ فأنا أوّل من آمن به! أم على نبيّه؟ فأنا أوّل من صدّقه»

فالحقيقة التى لاغبار عليها هى أنّ الإمام عليه السـلام أول من آمن من الرجال باللّه، كما تشـير حياته إلى أنّه لم يسـجد لصنم ولم يعبد سوى اللّه وأنّه أول من صـدق برسول اللّه صـلى الله عليه و آله ووقف إلى جـانبه طيلـة الـدعوة. ولعـل الكلاـم يشـير إلى بعض إخباره بالمغيبات والحوا دث التى كانت خافيـة على أولئك الناس، وقد انطلق ذلك التكذيب من قبل تلك الفرقة المنافقة التى كانت متغلغلة فى صفوف أهل الكوفة والتى كانت تنسب الإمام عليه السلام إلى الكذب كلما أخبر عن

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۹۷

وقوع بعض الحوادث بصفته

«تعلّم من ذى علم».

كمـا يمكن أن تكون العبـارة إشـارة إلى الأحكـام والمعارف الإسـلامية التى تعلمها الإمام عليه السـلام من القرآن الكريم أو من النبى صلى الله عليه و آله وعجزت أفكار المنافقين عن إدراكها وفهمها. وقد صرح ابن أبى الحديد قائلًا: وإذا تأملت أحواله فى خلافته كلها وجدتها هى مختصـرة من أحوال رسولاللّه صـلى الله عليه و آله فى حياته، كأنّها نسـخة منتسـخة منها فى حربه وسلمه وسيرته وأخلاقه وكثرة شكايته من المنافقين من أصحابه والمخالفين لأمره، وإذا أردت أن تعلم ذلك علماً واضحاً فاقرأ سورة

«براءة»

ففيهـا الجم الغفير من المعنى الـذى أشـرنا إليه ۱۴۷]. ومن الواضـح أنّ أول موحـد ومؤمن بـاللّه ومصـدق بـالنبى صـلى الله عليه و آله لايكـذب قـط ولاـيتكم بمـا لاـيعلم إنمـا يفترى الكـذب من لاـ يؤمن بـاللّه ولايعرف للورع والتقوى من معنى. بعبارة أخرى: فان كافة معارف الإمام عليه السـلام حتى الأخبار الغيبـة التى كان يحـدث عنها إنّما كانت دروساً تعلمها من النبى صـلى الله عليه و آله، فهل من سبيل إلى الكـذب لهـذه الأخبار من قبل تلميذ النبى صـلى الله عليه و آله وربيبه الوفى على عليه السـلام؟ إلّاأنّ المنافقين عمى الابصار والبصائر لايرون سوى منافعهم، من هنا كانوا حريصين على تشويه سمعة الإمام عليه السلام. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلًا:

«كلّا واللّه! لكنّها لهجةٌ[۱۴۸] غبتم عنها، ولم تكونوا من أهلها ويل امّه ۱۴۹] كيلًا بغير ثمنٍ! لو كان له وعاءٌ، ولتعلمنّ نبأه بعد حينٍ»

والمراد بالعبارة

«لكنّها لهجةٌ غبت م عنها»

- وبالالتفات إلى أنّ اللهجة هنا تعنى الحقائق الغائبة عنهم- أنّ تكذيبكم وإنكاركم إنّما يستند إلى جهلكم وضحالة أفكاركم وعدم علمكم بالأسرار التى تعلمتها من رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله والقرآن، ولاعجب ف

«النّاس أعداء ما جهلوا».

أمّا العبارة

«ويل امه»

- التى تفيد الترحم والتعجب كما ترد أحياناً للدعاء بالشر- فلها

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۹۸

معنيان لدى الشرّاح؛ المعنى الأول: تأسفه عليه السلام من الجهود التى بذلها بحق اولئك المردهٔ، والثانى: لعن المنافقين الذين دأبوا على الفساد والانحراف أبان حكومته عليه السلام، ويبدو المعنى الثانى أنسب.

تأمّلان

۱- على عليه السلام أول من أسلم

لقد صرحت هذه الخطبهٔ وعلى غرار سائر خطب نهج‌البلاغهٔ أنّ علياً عليه السلام هو أول من آمن بالنبى صلى الله عليه و آله من الرجال (لأنّ خديجهٔ هى الصديقهٔ الاولى بالنبى صلى الله عليه و آله من النساء). وبالطبع فقد سعى بعض المتعصبين من أبناء العامهٔ كصاحب البدايهٔ والنهايهٔ للمساس بهذه الحقيقهٔ المسلمهٔ تأريخيا وروائيا من خلال بعض الذرائع الواهيهٔ، ولكن كما أشرنا آنفا فانّ هذه الحقيقهٔ ثابتهٔ على متوى التأريخ والروايات. فقد نقل العلّامهٔ الامينى فى المجلد الثالث من غديره حدود مئهٔ حديث بهذا الشأن عن مصادر العامهٔ، والتى ورود بعضها عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله والبعض الاخر عن الصحابهٔ والتابعين، ومنها:

۱- عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال

«أوّلكم وارداً علىّ الحوض أوّلكم إسلاماً علىُّ بن أبى طالبٍ».[۱۵۰]

۲- وقال على عليه السلام:

«أنا عبد اللّه وأخو رسول اللّه وأنا الصِدّيق الْاكْبر، لا يقولها بعْدى إلّا كاذبٌ مفترٍ، ولقد صلّيت مع رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله قبل النّاس بسبع سنين، وأنا أوّل من صلّى معه».[۱۵۱]

۳- وروى ابن عباس عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله:

«إنّ أوّل من صلّى معى علىٌّ».[۱۵۲]

۴- كان من بين الاسئلهٔ التى طرحها الحسن المجتبى عليه السلام فى مجلس معاويهٔ:

«أنشدكم باللّه هل تعلمون أنّه أوّل النّاس إيماناً».[۱۵۳]

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۹۹

۵- روت أغلب المصادر المعتبرهٔ عن خادم النبى صلى الله عليه و آله أنس بن مالك قال

«نبىء النّبىّ يوم الإثنين وأسلم علىٌّ يوم الثّلاثاء»[۱۵۴]

. ۶- قال ابن عباس كنت عند عمر فجرى الكلام عن السبق فى الإسلام، فقال عمر: ثلاث لعلى بن أبى‌طالب عليه السلام لو كانت لى

واحدة منها لكانت خيراً لى ممّا طلعت عليه الشمس: فقد ربت رسولاللَّه صلى الله عليه و آله على كتف على عليه السلام وقال:

«يا عليّ! أنت أوّل المسلمين إسلاماً وَأنت أوّل المؤمنين إيماناً، وأنت منّى بمنزلة هارون من موسى».[۱۵۵]

۷- روى أحمد بن حبل- أحد الائمة الأربعة- في مسنده أنّ علياً عليه السلام قال:

«لقد صلّيت قبل أن يصلّى أحدٌ، سبعاً»[۱۵۶]

فالأحاديث الواردة بهذا الشأن كثيرة لايسع المقام ذكرها. وقد صنف المرحوم العلّامة الامينى هذه الأحاديث (أحاديث رسولاللَّه صلى الله عليه و آله، أحاديث على عليه السلام، أحاديث الإمام الحسين عليه السلام وأحاديث الصحابة والتابعين والاشعار التى انشدت بهذا الخصوص) إلى جنب شهادة المؤرخين كالطبرى فى التأريخ وابن الأثير فى الكامل ونصر بن مزاحم فى صفين (ومن أراد المزيد فليراجع المجلد من كتاب الغدير ص ۲۱۸ فصاعدا). كما نقل ابن أبى الحديد طائفة من هذه الأحاديث عن مصادر العامة فى شرحه لنهج البلاغة.[۱۵۷]

۲- إجابة عن سؤال

الجدير بالذكر أنّ بعض المتعصبين الذين لم يسعهم التنكر لهذه الفضيلة من وجهة النظر التأريخية والروائية، تشبثوا ببعض الذرائع للحد من قيمتها، وأهم تلك الذرائع:

يزعمون أنّ علياً عليه السلام لما أسلم كان له من العمر عشر سنوات والإسلام لايقر إسلام الصبيان؛ وقد إتسعت حدة هذه الذريعة الجوفاء فى الاوساط المعادية للإمام عليه السلام لتظن بتعذر الاجابة على هذا الأشكال، والحال:

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۰۰

أولًا: من المناسب أن نذكر الحوار الذى دار بين المأمون الخليفة العباسى مع فقيه العامة اسحق. قال المأمون: يا إسحاق أى الأعمال كان أفضل يوم بعث رسولاللَّه صلى الله عليه و آله؟ قلت:

الاخلاص بالشهادة. قال: أليس السبق إلى الإسلام؟ قلت: نعم. قال: فهل علمت أحداً أسبق علياً عليه السلام إلى الإسلام؟ قلت: يا أميرَالمؤمنين، إن علياً أسلم وهو حديث السن لايجوز عليه الحكم. قال: فأخبرنى عن إسلام على حين أسلم؟ لايخلو من أن يكون رسولاللَّه صلى الله عليه و آله دعاه إلى الإسلام، أو يكون إلهاما من اللَّه. فاطرق اسحاق ولم يجب.[۱۵۸]

وأضاف المرحوم العلّامة الأمينى بعد نقله لهذه المحاورة: وقال أبوجعفر الاسكافى المعتزلى المتوفى ۲۴۰ فى رسالته: قد روى الناس كافة إفتخار على عليه السلام بالسبق إلى الإسلام، وإن النبى صلى الله عليه و آله استنبئ يوم الاثنين وأسلم على عليه السلام يوم الثلاثاء. وإنّه كان يقول: صليت قبل الناس سبع سنين وإنه مازال يقول: أنا أول من أسلم. ويفتخر بذلك ويفتخر له به أولياؤه وما دحوه وشيعته فى عصره وبعد وفاته، والأمر فى ذلك أشهر من كل شهير، وقد قدمنا منه طرفاً وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا إستخف بإسلام على عليه السلام ولا تهاون به، ولا زعم أنّه أسلم إسلام حدث نحرير وطفل صغير، ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أباطالب وفعله ليصدوا عن رأيه، ثم يخالفه على إبنه لغير رغبة ولا رهبة يؤثر القلة على الكثرة، والذل على العزة من غير علم ولا معرفة بالعاقبة[۱۵۹]. وروى فى الخبر الصحيح أنّه لكفه فى مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكة أن يصنع له طعاما وأن يدعو له بنى عبدالمطلب، فصنع له الطعام ودعاهم ثلاثا، ثم كلمهم صلى الله عليه و آله فدعاهم إلى الدين ثم ضمن لم يوازره منهم وينصره على قوله أن يجعله أخاه فى الدين ووصيه بعد موته وخليفته من بعده فامسكوا كلهم وأجابه هو وحده وقال: أنا أنصرك على ما جئت به واوازرك وأبايعك، فنصبه وصيه وخليفته، فضحك القوم وقالوا لأبى طالب: أطع إبنك فقد أمره عليك.

وزبدة القول فانّ رسولاللَّه صلى الله عليه و آله قبل إسلام على عليه السلام، فمن قال بعدم إعتبار إسلامه بسبب عمره، فى الواقع يشكل على النبى صلى الله عليه و آله.

ثانياً: جاء فى الروايات المشهورة لقصة يوم الدار إن النبى صلى الله عليه و آله أعدّ طعاما ودعا إليه قرابته

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۰۱

من قريش فدعاهم إلى الإسلام وأنّ من يجب دعوته ويقف إلى جانبه فى الدفاع عن الإسلام سيكون وحيه وخليفته، فلم يجبه إلّاعلى بن أبى‌طالب عليه السلام الذى قال: أنا يا رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله، فقال النبى صلى الله عليه و آله: أنت أخى ووصيى وخليفتى.[۱۶۰] فهل هناك من يعقل أن النبى صلى الله عليه و آله جعل علياً عليه السلام أخيه ووصيه وخليفته ودعا الآخرين إلى طاعته بحيث يسخر منه زعماء الكفر والشكر ويقولون لأبى‌طالب عليك أن تسمع لولدك وتطيع، ولم يكن إسلامه مقبولًا؟! لا شك أنّ سن البلوغ ليس شرطاً لقبول الإسلام، فكل فتى له عقل وتمييز كاف ويعتنق الإسلام وعلى فرض أنّ أباه ليس مسلماً فانه يصبح فى زمرة المسلمين إذا إنفصل عنه.

ثالثاً: يستفاد من القرآن أنّ البلوغ ليس شرطاً حتى فى النبوة، حيث بلغ النبوة حتى من كان صبياً، فقد صرح القرآن بشأن نبى اللّه يحيى عليه السلام بقوله:

«وَآتَيْناهُ الحُكْمَ صَبِيّاً»[۱۶۱]

. كما ورد بشأن عيسى عليه السلام أنّه قال

«إنّى عبداللّه آتانى الكتاب وجعلنى نبيّاً»[۱۶۲]

. وإلّا بعد من كل هذا فان النبى صلى الله عليه و آله قد قبل الإمام على عليه السلام، كما ذكرنا ذلك وأنّ النبى صلى الله عليه و آله صرح يوم الدار بانه أخوه ووصيه وخليفته.

على كل حال فان الروايات التى صرحت بانّ علياً عليه السلام هو أول من لبى دعوة النبى صلى الله عليه و آله وأسلم، إنّما تنطوى على فضيلة لاتضاهيها فضيلة لعلى عليه السلام، فلا يرقى أحد لأن يكون فى مصافه عليه السلام، ومن هنا كان عليه السلام أنسب فرد من هذه الامة بخلافة رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۰۳

الخطبة[۱۶۳] الثانية و السبعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

علم فيها الناس الصلاة على النبى صلى الله عليه و آله وفيها بيان صفات اللّه سبحانه

وصفة النبى والدعاء له

نظرة إلى الخطبة

تتالف هذه الخطبة فى الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قصير جداً يتحدث عن صفات اللّه سبحانه كمقدمة لاستنزال الرحمة والصلوات على النبى صلى الله عليه و آله.

القسم الثانى: تعليم كيفية الصلاة على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، كما تطرق إلى ذكر العديد من صفاته وخدماته الجليلة إلى البشرية ومبادئ الحق، والتى تستلزم أشرف الصلوات.

القسم الثالث: يتضمن مجموعة من الأدعية العظيمة بشأن النبى صلى الله عليه و آله، كما ورد فيه سؤال البارئ سبحانه تعزيز رابطة

الأفراد بالنبى صلى الله عليه و آله ومرافقته فى الجنّة.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۰۵

القسم الأول: ربّ السموات

«اللَّهُمَّ داحِیَ الْمَدْحُوَّاتِ، وَداعِمَ الْمَسْمُوكاتِ، وَجابِلَ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِها: شَقِيِّها وَسَعِيدِها».

الشرح والتفسير

يثنى الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة على اللّه سبحانه بثلاث من صفاته:

«اللّهمّ داحى ۱۶۴] المدحوّات، وداعم ۱۶۵] المسموكات،[۱۶۶] وجابل ۱۶۷] القلوب على فطرتها: شقيّها وسعيدها»

فالعبارة الاولى إشارة إلى بداية خلق السموات والأرض، حيث تشير النظريات إلى أنّ الكون والكرات والأجرام السماوية كانت كتلة واحدة ثم انفصلت عن بعضها لعدّة عوامل حتى إتسعت إلى ما هى عليه اليوم. كما كانت الأرض مطمورة تحت الماء، ثم ظهرت اليابسة شيئا فشيئا بعد أن نفذت المياه إلى المناطق العميقة والشقوق الأرضية، ثم إتسعت بمرور الزمان، حتى تكونت المناطق اليابسة والبحار، وأخيراً أصبحت الأرض أكثر إتساعاً بفعل جاذبية الأحجار السماوية، فقد صرح القرآن بهذا لاشأن قائلًا: «وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنّا لَمُوسِعُونَ* وَالأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الماهِدُونَ»[۱۶۸]. والعبارة

«داعم المسموكات»

تعنى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۰۶

حافظ السموات بما فيها السيارات والثوابت والمجرات بواسطة القوى الجاذبية اللامرئية؛ وهى القوى التى تحفظها بحيث لا تتغير المسافة بين كرات المنظومة الشمسية رغم مرور ملايين السنين؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم: «وَإِنْ مِنْ شَىءٍ إِلّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً»[۱۶۹]. أما العبارة

«و جابل القلوب»

فهى إشارة إلى العلوم الفطرية والإلهية والغرائز والرغبات النافعة التى أودعها اللّه باطن الإنسان؛ العلوم والغرائز والرغبات التى تمثل الوسائل التى يوظفها الإنسان فى مسيرته نحو السمو والتكامل والسير إلى اللّه إلى جانب الرقى المادى والمعنوى. ولعل هنالك من يعتقد أن اللّه أودع الشقاء والسعادة ذات الإنسان، بحيث هناك السعداء ذاتاً والأشقياء ذاتاً، والحال لاتفيد العبارة الواردة فى الخطبة مثل هذا المعنى، بل تصرح العبارة بأنّ اللّه أودع هذه العلوم كافة أفراد البشر من آل أمره إلى السعادة أو الشقاء، وان إعتمدها البعض ووظفها من أجل السعادة وتجاهلها البعض الآخر ليزج بنفسه فى وادى البؤس والشقاء؛ ولعل الحديث المعروف

«كلّ مولودٍ يولد على الفطرة ...»[۱۷۰]

يشير إلى هذا المعنى. فمن الواضح أنّ السعادة والشقاء لو كانا ذاتيين وكل فرد مجبر على سلوك السبيل الذى عين له سبقاً، أن يكون من العبث بعث الأنبياء وانزال الكتب السماوية والتكاليف والمسؤوليات والأحكام الشرعية والثواب والعقاب، وبكلمة واحدة كافة المسائل المرتبطة بالتربية والتعليم وآثارها ومعطياتها؛ الأمر الذى لايقره العقل ولا الشرع. قال القرآن: «إِنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمّا شاكِراً وَإِمّا كَفُوراً»[۱۷۱]. كما قال فى موضع آخر: «وَنَفْسٍ وَما سَوّاها* فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها»[۱۷۲]. فالواقع هو أن الحق سبحانه أرشد الإنسان إلى طرق السعادة والشقاء دون أنّ يجبره على شئ، فهو مختار فى أى سبيل سلكك، ومن هنا كان مسؤولا أمام اللّه وضميره.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۰۷

القسم الثانى: آلاف التحية و السلام على النبى صل الله عليه و آله

«اجْعَلْ شَرائِفَ صَلَواتِکَ، وَنَوامِیَ بَرَکاتِکَ، عَلَی مُحَمَّدٍ عَبْدِکَ وَرَسُولِکَ الْخاتِمِ لِما سَبَقَ، وَالْفاتِحِ لِما انْغَلَقَ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَالدَّافِعِ جَیْشاتِ الْأَباطِیلِ، وَالدَّامِغِ صَوْلاتِ الْأَضالِیلِ، کَما حُمِّلَ فاضْطَلَعَ، قائِماً بِأَمْرِکَ، مُسْتَوْفِزاً فِی مَرْضاتِکَ، غَیْرَ ناکِلٍ عَنْ قُدُم، وَلا واه فِی عَزْم، واعِیاً لِوَحْیِکَ، حافِظاً لِعَهْدِکَ، ماضِیاً عَلَی نَفاذِ أَمْرِکَ؛ حَتَّی أَوْرَی قَبَسَ الْقابِسِ، أَضاءَ الطَّرِیقَ لِلْخابِطِ، وَهُدِیَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضاتِ الْفِتَنِ الْآثام، وَأَقامَ بِمُوضِحاتِ الْأَعْلامِ، وَنَیِّراتِ الْأَحْکامِ، فَهُوَ أَمِینُکَ الْمَأْمُونُ، وَخازِنُ عِلْمِکَ الْمَخْزُونِ، وَشَهِیدُکَ یَوْمَ الدِّینِ، وَبَعِیثُکَ بِالْحَقِّ، ورَسُولُکَ إِلَی الْخَلْقِ».

الشرح والتفسير

يصلى الإمام عليه السلام أفضل الصلوات وأزكاها على النبى صلى الله عليه و آله ذاكراً أكثر من عشرين صفة من صفاته البارزة صلى الله عليه و آله التى تستلزم أطهرا الصلوات عليه

«اجعل شرائف ۱۷۳] صلواتك ونوامى ۱۷۴] بركاتك على محمّدٍ عبدك ورسولك»

فالصلوات هى رحمة اللَّه، والبركات نعمه سبحانه كما تطرق الإمام عليه السلام إلى صفتين بارزتين مهمتين من صفاته صلى الله عليه و آله: الاولى العبودية، والثانية الرسالة.

فالعبودية تشكل إحدى إفتخارات الإنسان المسلم للَّه سبحانه، فيرى كل شئ للَّه حتى امواله

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۱۰۸

التى يملكها بالظاهر فهى، فقد ورد عن أميرالمؤمنين على عليه السلام أنّه قال

«إلهى كفى بى عزّاً أن أكون لك عبداً وكفى بى فخراً أن تكون لى ربّاً»[۱۷۵]

ثم أشار إلى ختمه للأنبياء فى الصفة الثالثة فقال:

«الخاتم لما سبق»

فان كانت ما تعود إلى العاقل فالعبارة تفيد الأنبياء السابقين وخاتمهم رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله. وان كانت لغير العاقل عنت اختتام الشرائع السابقة بشريعة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله. ثم قال عليه السلام

«والفاتح لما انغلق، والمعلن الحقّ بالحقّ»

والمراد بالعبارة

«الفاتح لما انغلق»

أبواب العلوم والمعارف والمسائل الإنسانية الإخلاقية والاجتماعية المعقدة التى فتحها رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله بوجه البشرية بدينه ونوره وهدايته، والعبارة

«المعلن الحق بالحق»

يمكن أن تكون إشارة إلى المعجزات التى تبيّن أحقية النبى صلى الله عليه و آله، كما يمكن أن يراد بها منطقه الذى يكشف النقاب عن الحقائق، أو المعارك والغزوات التى أقصت خصوم الدعوة لترى الامّة الحقائق، أو توضيح الحقائق بقرائن بعضها البعض الآخر من قبيل تفسير بعض الآيات القرآنية ببعضها الآخر، وأخيراً يمكن أن تكون جميع هذه المعانى مرادة بالعبارة.

ثم قال عليه السلام

«والدّافع جيشات ۱۷۶] الاباطيل، والدّامغ ۱۷۷] صوْلات ۱۷۸] الاضاليل»

والجدير بالذكر فى العبارة التعبير عن الباطل بالجيشات وعن عوامل الضلال بالصولات حيث تصور كل منهما عمق ما تختزنه هذه المفردات فالباطل ملىء بالصخب والضجيج، كما أنّ عناصر الضلال غالباً ماتهجم على العزل من الناس. ثم قال عليه السلام فى مقام

بيان علة الدعوة لهذه الصلوات الوافرة

«كما حمّل فاضطلع»[۱۷۹]

فكما هنا بمنزلة التعليل وتفيد معنى لأنّه، والواقع أنّ قبول هذه المسؤولية العظمى وتحمل كافة تبعاتها بعد من أهم خصائص النبى صلى الله عليه و آله التى تجعله يستحق

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۰۹

الشكر والثناء. وقال عليه السلام

«قائماً بأمرك، مستوفزاً[۱۸۰] فى مرضاتك»

فالقيام بالأمر إشارة إلى جدية الأوامر الإلهية لأنّ الإنسان ينهض من أجل القيام بالأعمال الجادة. فالتعبيران لايشيران إلى مدى إمتثال النبى صلى الله عليه و آله لأحكام السماء فحسب، بل كان يسارع إلى الاتيان بكل ما يرضى اللَّه سبحانه وان لم تصدر إليه الأوامر. ثم قال عليه السلام:

«غير ناكلٍ ۱۸۱] عن قدم،[۱۸۲] ولاواهٍ فى عزم»

فكثير هم الجديون فى قرارتهم والانطلاق فى أعمالهم، إلّاأنّهم يضعفون فى الاستمرار والمواصلة، والمهم أن يواصل الإنسان نشاطه وعمله. ويفيد التأريخ أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم ينكل أو يضعف أمام الوساس والضغوط، كما لم يكن يلين تجاه أى مبادرة منحرفة، ومن ذلك قوله

«واللّه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على ان اترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره اللّه او أهلك دونه»[۱۸۳]

. ثم قال عليه السلام:

«واعياً[۱۸۴] لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك».

ثم اشار الإمام عليه السلام إلى النتيجة التى تمخضت عنها جهود النبى صلى الله عليه و آله وتضحيته

«حتّى أورى ۱۸۵] قبس ۱۸۶] القابس، وأضاء الطّريق للخابط،[۱۸۷] وهديت به القلوب بعد خوضات ۱۸۸] الفتن والْآثام».

والعبارة تلمح إلى سرعة إنتشار الإسلام واشراقة شبه الجزيرة العربية التى كانت مهد الكفر والشرك ومركز الجهل والجريمة، ولا يشك فى هذه الحقيقة من كان له أدنى إلمام بالتأريخ الإسلامى؛ الأمر الذى إعترف به حتى خصوم الدعوة. ثم قال عليه السلام:

«و أقام بموضحات‌الأعلام، و نيّرات الأحكام».

فالواقع وبغية الحيلولة دون تلكؤ أصحاب الحق فى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۱۰

مسيرتهم، لابدّ من نصب العلامات الدالة على الطريق واضاءت كافة ظلماته، وهذا ما فعله رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله حين أضاء كل معالم الطريق ونصب الأدلاء عليه. ومن ذلك الأحكام المتعلقة بالصلوات اليومية وصلاة الجمعة- وبمراسها الخاصة- وحج بيت‌اللَّه الحرام التى من شأنها هداية أتباع الحق وصدهم عن الحيرة والضلال، إلى جانب بيانه للأحكام ذات الصلة بالقضايا الاجتماعية والتربوية والسياسية والاقتصادية. ثم يختتم عليه السلام هذا الفصل من الخطبة بخمس صفات أخرى للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقال:

«فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدّين، بعيثك بالحقّ، ورسولك إلى الخلق»

فبعض هذه الصفات مقدمة وبعضها الآخر نتيجة. فكونه أمين اللَّه وخازن علمه إنّما هى مقدمة من أجل الرسالة إلى الخلق والبعث بالحق، كما أنّ شهادته يوم القيامة إنّما تمثل نتيجة هذه الرسالة. أمّا قوله عليه السلام:

«أمين مأمون»

هو تأکید لمدی أمانته صلی الله علیه و آله واشارة إلی العصمة المشروطة فی النبوة. وأمّا قوله علیه السلام:

«خازن علمک المخزون»

، فالمراد به علمه صلی الله علیه و آله باسرار الغیب، وقد أشرنا إلی ذلک فی حینه إلی تعذر قیام الأنبیاء والأئمة بوظیفتهم بصورة تامة دون العلم بتلک الاسرار والخفایا، وقد أشار القرآن بهذا الشأن:

«عالِمُ الْغَیْبِ فَلا یُظْهِرُ عَلی غَیْبِهِ أَحَداً* إِلّا مَنِ ارْتَضی مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ یَسْلُکُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً* لِیَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ»[۱۸۹]

والعبارة

«شهیدک یوم الدین»

مستوحاة من الآیة ۱۴۳ من سورة البقرة: «وَکَذلِکَ جَعَلْناکُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَکُونُوا شُهَداءَ عَلَی النّاسِ وَیَکُونَ الرَّسُولُ عَلَیْکُمْ شَهِیداً» والآیة ۸۹ من سورة النحل: «وَیَوْمَ نَبْعَثُ فِی کُلِّ أُمَّةٍ شَهِیداً عَلَیْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِکَ شَهِیداً عَلی هؤُلاءِ ...» التی تشیر إلی شهادة النبی صلی الله علیه و آله علی أعمال الامّة وشهادته علی شهداء سائر الامم.

ولما کانت الشهادة من فروع العلم، فان هذه التعبیرات تشکل دلیلًا آخر علی علمه صلی الله علیه و آله بأسرار الغیب.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۱۱

القسم الثالث: الحشر مع النبی صلی الله علیه و آله

اشارة

«اللَّهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِی ظِلِّکَ؛ واجْزِهِ مُضاعَفاتِ الْخَیْرِ مِنْ فَضْلِکَ، اللَّهُمَّ وأَعْلِ عَلَی بِناءِ الْبانِینَ بِناءَهُ، وأَکْرِمْ لَدَیْکَ مَنْزِلَتَهُ، وأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ، واجْزِهِ مِنِ ابْتِعاثِکَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهادَةِ، مَرْضِیَّ الْمَقالَةِ، ذا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، خُطْبَةٍ فَصْلٍ. اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَیْنَنا وبَیْنَهُ فِی بَرْدِ الْعَیْشِ وقَرارِ النِّعْمَةِ، ومُنَی الشَّهَواتِ، وأَهْواءِ اللَّذَّاتِ، ورَخاءِ الدَّعَةِ، ومُنْتَهَی الطُّمَأْنِینَةِ، وتُحَفِ الْکَرَامَةِ».

الشرح والتفسیر

یتضرع الإمام علیه السلام بدعاء جامع بحق النبی صلی الله علیه و آله، لیعلمنا فی الواقع کیفیة الدعاء للنبی صلی الله علیه و آله، فقد سأل اللَّه للنبی صلی الله علیه و آله ستة أشیاء:

«اللّهمّ افسح ۱۹۰] له مفسحاً فی ظلّک»

فالظل هنا قد یراد به المعنی الکنائی، کما یمکن أن یراد به ظل لطف اللَّه وکرمه وجوده، أو أن یقصد به المعنی الحقیقی لیعنی ظلال الجنان فی المحشر، فقد ورد فی الحدیث:

«أنّ فی الجنّة شجرة یسیر الراکب فی ظلها مائة سنة لا یقطعها»[۱۹۱]

. ثم قال علیه السلام:

«واجزه مضاعفات الخیر من فضلک»

ومن الواضح أنّ الثواب الإلهی هو الضعف علی الدوام، ولاغرو فذلک نابع من فضله وجوده وکرمه التی لاتری مکافئة الأعمال بمثلها دون زیادة، مع ذلک فقد سأل اللَّه المزید لنبیه صلی الله علیه و آله. ثم قال علیه السلام:

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۱۲

«اللّهمّ وأعل علی بناء البانین بناءه، وأکرم لدیک منزلته»

والمراد بالبناء هنا إمّا دين النبى صلى الله عليه و آله الذى سأل اللّه إظهاره وعلوه على سائر الأديان، وإمّا مقامه صلى الله عليه و آله وعلوه على من سواه.

وتضرع عليه السلام قائلًا:

«و أتمم له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشّهادة، ومرضى المقالة، ذا منطقٍ عدلٍ، وخطبةٍ فصلٍ»

والجدير بالذكر فى هذا الدعاء أنّه عدّ شفاعة النبى صلى الله عليه و آله للُامّة جزاء تبليغه الرسالة؛ الأمر الذى تعود بركته على الامّة وهذا ما يمثل قمة لطفه وكرمه عليه السلام.

كما أشارت العبارة إلى أنّ شهادته وشفاعته صلى الله عليه و آله ليست إعتباطية فمنطقه العدل وحديثه الفرقان بين الحق والباطل، فاذا شفع لشخص أو جماعة فقد توسم فيهم الشفاعة، وهذا ما أوردناه فى بحث الشفاعة، فى أنّها خاضعة لقانون وليست عبثية، بل للشفاعة مقدماتها التى تكمن فى الأهلية والاستحقاق، وبعبارة اخرى لابدّ أن تكون هنالك رابطة معنوية قائمة بين الشفيع والمشفع فيه، وإلّا فمن قطع هذه الرابطة فهو لايستحق الشفاعة، ولعل هذه الشفاعة هى المقام الذى أشارت إليه الآية القرآنية: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَکَ عَسى أَنْ يَبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقاماً مَحْمُوداً».[۱۹۲]

ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالدعاء له وصحبه:

«اللّهمّ اجمع بيننا وبينه فى برد العيش‌قرار النّعمة، ومنى الشّهوات، وأهواء اللّذّات، ورخاء الدّعة،[۱۹۳] ومنتهى الطّمأنينة، وتحف الكرامة»

ويبدو أن هذه هى خصائص الجنّة من قبيل السكينة والكرامة الإلهية والنعم الطيبة والمعنوية والمادية إلى جانب البقاء والخلود.

تأمّل: معطيات الصلاة على النبى صلى الله عليه و آله

اشارة

لقد تضمنت الخطبة أزكى الصلوات والتحيات على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله؛ الأمر الذى ينبهنا إلى عظم هذه المسألة التى صرحت بها التعاليم الإسلامية. فالواقع هو أن الروايات الإسلامية

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۱۳

أكدت الصلوات على النبى صلى الله عليه و آله ومدى الأجر والثواب الذى أشارت إليه مصادر الفريقين إزاء هذا العمل بما يفوق التصور ويدعو إلى الدهشة والذهول، ومن هنا فقد إقتطفنا بعض الروايات الواردة بهذا الشأن والتى نلفت إليها إهتمام القراء الأعزاء ثم نسلط الضوء على ما ورد فيها:

۱- فقد جاء فى الحديث أنّ أميرالمؤمنين على عليه السلام قال:

«ألصّلاة على النّبىّ وآله أمحق للخطايا من الماء إلى النّار والسّلام على النّبىّ أفضل من عتق رقابٍ».[۱۹۴]

۲- وفى الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إذا ذكر النّبىّ فأكثروا الصّلاة عليه فإنّه من صلّى على النّبىّ صلاةً واحدةً صلّى اللّه عليه ألف صلَاةٍ فى أَلف صَفٍّ منَ المَلائکَة ولم يبق شىءٌ ممّا خلقه اللّه إلّاصلّى على ذلك العبد لصلاة اللّه عليه وصلَاة مَلائکَته فمن لم يرغب فى هذا فهو جاهلٌ مغرورٌ قد برئ اللّه منه ورسوله وأهل بيته».[۱۹۵]

۳- عن رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«کلّ دعاءٍ محجوبٌ حتّی یصلّی علی النّبیّ».[۱۹۶]

۴- وعن رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله أیضاً قال:

«الصَّلَاهُ عَلَیّ نورٌ عَلَی الصّرَاط».[۱۹۷]

۵- وروی عن الإمام الباقر أو الصادق علیهما السلام انه قال:

«ما فی المیزان شیءٌ أثقل من الصّلاة علی محمّدٍ وآل محمّدٍ وإنّ الرّجل لتوضع أعماله فی المیزان فتمیل به فیخرج الصّلاة علیه فیضعها فی میزانه فترجّح».[۱۹۸]

۶- کما روی عنه صلی الله علیه و آله قال:

«إذا کان یوم الخمیس بعث اللّه ملائکةً معهم صحفٌ من فضّةٍ و أقلامٌ من ذهبٍ یکتبون یوم الخمیس ولیلة الجمعة أکثر النّاس علیَّ صلاةً».[۱۹۹]

۷- وعنه صلی الله علیه و آله قال:

«صلّوا علیّ فإنّ الصّلاة علیَّ زکاةٌ لکم».[۲۰۰]

۸- عن الإمام الصادق علیه السلام أنّ رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله قال لعلی علیه السلام:

«ألَا أبشّرک؟ قال: بلی بأبی

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۱۴

أنت وأمّی فإنّک لم تزل مبشّراً بکلّ خیرٍ. فقال: أخبرنی جبرئیل آنفاً بالعجب. فقال أمیرالمؤمنین: وما الّذی أخبرک یا رسول اللّه؟ قال: أخبرنی أنّ الرّجل من أمّتی إذا صلّی علیَّ فأتبع بالصّلاة علی أهل بیتی فتحت لَه أبواب السماء وصلّت علیه الملائکة سبعین صلاةً وأنّه إن کان من المذنبین تحاتّ عنه الذّنوب کما تحاتّ الورق من الشّجر».[۲۰۱]

۹- وروی عنه صلی الله علیه و آله قال:

«أکثروا الصّلاة علیّ فإنّ اللّه وکّل بی ملکاً عند قبری فإذا صلّی علیّ رجلٌ من أمّتی قال ذلک الملک یا محمّد: إنّ فلان بن فلانٍ صلّی علیک السّاعة».[۲۰۲]

۱۰- وروی الإمام الباقر علیه السلام أنّ رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله قال:

«من صلّی علیَّ إیماناً واحتساباً إستأنف العمل».[۲۰۳]

۱۱- ولم یقتصر وجوب الصلاة علی النبی صلی الله علیه و آله عند ذکر إسمه فحسب، بل تأکد ذلک حتی حین الکتابة، فقد روی عن رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«من صلّی علیَّ فی کتابٍ لم تزل الملائکة تستغفر له مادام اسمی فی ذلک الکتاب».[۲۰۴]

۱۲- روت عائشة عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«من سرّه أن یلقی اللّه غداً راضیاً فلیکثر الصّلاة، علیَّ».[۲۰۵]

وزبدة الکلام قد تظافرت الروایات بهذا الشأن والتی تفید مدی أهمیة الصلوات والسلام علی النبی وآله، بحیث تضمنت مثل هذا الأجر والثواب لهذا العمل، وما أوردناه فی السابق هو غیض من فیض تلک الروایات.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۱۵

الاجابة علی بعض الأسئلة

۱- ما سرّ هذه الاهمية للصلوات على النبى

قبل كل شـى يبرز هنا هذا السؤال وهو ما سر كل هذه الأهمية للصلوات؟ وما الأمر الذى تختزنه الصلوات على النبى صلى الله عليه و آله؟ ويمكن القول فى الاجابة على هذا السؤال هو عدم نسيان مكانة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ومقامه الجليل، ويستلزم ذلك عدم هجر الإسلام وتعاليم الحقة، ومن هنا كانت الصلوات على النبى رمزاً لبقاء الإسلام وديمومة مسيرته. أضف إلى ذلك فانّ الصلوات تدعونا للتعرف بصورة أعمق على مقامه صلى الله عليه و آله والاقتداء باخلاقه وصفاته، ومن هنا وردت بعض التعبيرات التى تفيد أنّ الصلوات على النبى صلى الله عليه و آله تؤدى إلى طهارة الأخلاق ونقاء الاعمال وتساقط الذنوب، ومن ذلك ما جاء فى الزيارة الجامعة:

«و جعل صلاتنا عليكم وما خصّنا به من ولايتكم طيباً لخلقنا وطهارةً لأنفسنا وتزكيةً لنا وكفّارةً لذنوبنا».[۲۰۶]

كما أشير فى عدة روايات إلى تحات الذنوب حين الصلوات على النبى صلى الله عليه و آله. من جانب آخر فان الصلوات على النبى صلى الله عليه و آله وآله إنّما تمطر أرواحهم الطاهرة بوابل من رحمة اللَّه، ولما كانوا عليه السلام وسائط الفيض فانّ تلك الرحمة وبركاتها إنّما تنحدر منهم إلى الامّة. وعليه فالصلوات والرحمة عليهم فى الواقع هى صلوات علينا ورحمة لنا. أضف إلى ذلك فانّ الصلوات على النبى صلى الله عليه و آله إنّما يمثل نوعا من الشكر والتقدير للجهود التى بذلها من أجل هدآيه الامّة، وممّا لاشك فيه أن هنالك أجر وثواب لهذا الشكر ومعرفة الجميل.

۲- آثار الصلاة على النبى صلى الله عليه و آله

السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو أنّ الصلاة على النبى صلى الله عليه و آله هل لها من دور على منزلته ومقامه صلى الله عليه و آله وآله؟ لعل هنالك من يقول بعدم وجود أى دور لهذه الصلاة فالنبى وآله قد بلغوا المقام الذى يريدون؟ إلّاأنّ خواء هذا الكلام يتضح من خلال الالتفات إلى أنّ المسيرة التكاملية للإنسان إنّما تنطلق من المتناهى إلى اللامتناهى، وعليه فهى مسيرة مفتوحة ليست

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۱۱۶

محددة باطر وحدود، ومن هنا ورد فى بعض الأدعية وبضمنها التشهد القول بحق النبى صلى الله عليه و آله

«وارفع درجته»[۲۰۷]

وإلى ذلك أشار القرآن: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النَّبِيِّ ياأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً»[۲۰۸] والفعل المضارع (يصلون) يفيد استمرار هذه الرحمة، ومن الواضح أنّ كل مسلم ينطق بالتوحيد والإسلام إنّما يمثل رحمة متجددة لمشيد دعائم هذا الدين، وذلك لأنّه صلى الله عليه و آله صاحب الفضل فى سن هذه السنة الحسنة.

۳- الفاظ الصلوات على النبى صلى الله عليه و آله

السؤال الآخر الذى يطرح نفسه بهذا الشأن يكمن فى الصيغة التى ترد بها الصلاة على النبى صلى الله عليه و آله. فقد وردت روايات عن طريق الفريقين التى أكدت إقتران آل النبى صلى الله عليه و آله به حين الصلاة. ونكتفى هنا بالإشارة إلى بعض هذه الروايات:

روى فى الدر المنثور عن صحيح البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن مردويه عن كعب بن عجره انّ رجلًا قال للنبى صلى الله عليه و آله:

«أمّا السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك؟»

قال رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله:

«قل اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم إنّك حميد مجيد. اللّهم بارك على محمد وآل محمد كما

بارکت علی ابراهیم إنّک حمید مجید»

. وإضافهٔ إلی الحدیث المذکور فقد نقل صاحب تفسیر الدر المنثور ثمانیهٔ عشر حدیثاً صرحت جمیعها بوجوب ذکر آل محمد حین الصلاهٔ علیه، وقد نقلت هذه الأحادیث فی المصادر المشهورهٔ والمعروفهٔ لدی العامهٔ عن طریق الصحابهٔ ومنهم: ابن عباس وأبو سعید الخدری وأبو هریرهٔ وطلحهٔ وأبومسعود الأنصاری وبریدهٔ وابن مسعود وکعب بن عجرهٔ وأمیرالمؤمنین علی علیه السلام.[۲۰۹] وقد روی صحیح البخاری ۲۱۰]، عدهٔ روایات بهذا الخصوص، کما

نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۱۱۷

جاءت روایتان فی صحیح مسلم ۲۱۱]، والغریب هو أنّ العنوان الذی ورد فی صحیح مسلم باب الصلاهٔ علی النبی صلی اللَّه علیه وسلم (دون ذکر آله) رغم إقتران الآل بالنبی صلی الله علیه و آله فی الأحادیث المذکورهٔ. والجدیر بالذکر هنا أن بعض روایات العامهٔ وأغلب روایات الشیعهٔ لم تفصل بین محمد وآل محمد بحرف علی، والصیغهٔ الواردهٔ هی

«اللّهمّ صلّ علی محمّدٍ وآل محمّدٍ».

ونختتم البحث بهذا الحدیث الذی ورد فی صواعق ابن حجر[۲۱۲] ان النبی صلی الله علیه و آله قال:

«لا تصلوا علی الصلاهٔ البتراء! فقالوا: وما الصلاهٔ البتراء؟ قال: یقولون: أللّهمّ صلّ علی محمّد، وتمسکون؛ بل قولوا: اللّهمّ صلّ علی محمّد وآل محمّد»

أضف إلی ذلک فقد وردت عدهٔ أحادیث بهذا المجال فی المجلد الأول من کنز العمال.

۴- الصلاهٔ علی النبی واجبهٔ أم مستحبهٔ؟

هنا یبرز هذا السؤال: هل الصلاهٔ علی النبی واجبهٔ أم مستحبهٔ؟ ظاهر الآیهٔ السادسهٔ والخمسون من سورهٔ الأحزاب: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِکَتَهُ یُصَلُّونَ عَلَی النَّبِیِّ ...» هو الوجوب؛ لأ ننا نعلم أن صیغهٔ الأمر تفید الوجوب، إلّاأن تکون هناک قرینهٔ علی خلافه، وقد أمر اللَّه فی هذه الآیهٔ بالصلاهٔ علی النبی، فأقلّ ما یلزم الصلاهٔ علیه ولو لمرهٔ واحدهٔ. أضف إلی ذلک فانّ مشهور فقهاء الشیعهٔ وجمع من فقهاء العامهٔ یعتقد بوجوب الصلاهٔ علی النبی صلی الله علیه و آله فی التشهد.

فقد صرح فقیه العامهٔ ابن قدامهٔ فی کتاب المغنی بوجوب الصلاهٔ علی النبی فی التشهد الأول وقال:

«أللّهمّ صلّ علی محمّدٍ وعلی آل محمّدٍ کما صلّیت علی إبراهیم ... وهی واجبهٌ فی صحیح المذهب وهو قول الشّافعی واسحاق ...»

ثم نقل عن ابن راهویه (أحد فقهاء العامهٔ)

«لو أنّ رجلًا ترک الصّلاهٔ علی النّبی صلی الله علیه و آله فی التشهّد بطلت صلاته».

وأضاف: (وظاهر مذهب أحمد أحد الائمهٔ الأربعهٔ لدی العامهٔ) هو الوجوب أیضاً.[۲۱۳]

نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۱۱۸

وصرح الشیخ منصور علی ناصف صاحب کتاب الجامع للاصول ذیل الآیهٔ السادسهٔ والخمسین من سورهٔ الأحزاب: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِکَتَهُ یُصَلُّونَ عَلَی النَّبِیِّ ...» أنّ ظاهر الآیهٔ هو وجوب الصلاهٔ علی النبی وعلیه إتفاق العلماء.[۲۱۴]

۵- المفهوم الحقیقی للصلاهٔ علی النبی صلی الله علیه و آله

السؤال الأخیر الذی یطرح نفسه هنا: ما مفهوم هذه الصلوات؟ یتفق العلماء علی أنّ صلاهٔ اللَّه علی العبد تعنی الرحمهٔ، وصلاهٔ الملائکهٔ والناس تعنی طلب العفو والرحمهٔ، أو حسب الروایهٔ الواردهٔ عن الإمام الکاظم علیه السلام حین سئل عن معنی صلوات اللَّه والملائکهٔ والمؤمنین فی الآیهٔ الشریفهٔ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِکَتَهُ یُصَلُّونَ عَلَی النَّبِیِّ» قال: صلاهٔ اللَّه رحمته وصلاهٔ المؤمنین تقدیسهم للنبی صلی الله علیه

و آله وصلاة المؤمنين طلبهم الرحمة للنبى صلى الله عليه و آله.[۲۱۵] ويرى البعض أن جمعى هذه ارسال الرحمة أو التقديس وطلب المغفرة بحيث يردها كل أحد على ضوء مقتضى حاله.[۲۱۶] ولما كان الأصل اللغوى لهذه المفردة صلى على وزن سعى بمعنى القذف فى النار أو الاشتغال بهما، فانّ البعض يرى أن الصلوات تعنى إبعاد نار العذاب الاخروى، ونتيجته الرحمة أو طلبها؛ إلّا أنّ البعض فرق بين الصلو الناقص الواوى والصلى الناقص اليائى، على أنّ المعنى الأخير يتعلق بصلى بينما ترتبط المعانى السابقة بالصلو (لابدّ من التأمل).

على كل حال فان ما ورد يشير إلى أنّ كل صلاة وسلام على النبى صلى الله عليه و آله يمثل رحمة متجددة على روحه الطاهرة، ولا يستبعد أن تطول تلك الرحة التى تستند لتلك العين الإلهية الفياضة الامّة وترفرف عليها، ومن هنا كانت الصلوات والسلام على النبى صلى الله عليه و آله مصدر رحمة للإنسان وغفران ذنوبه. أما بشأن المراد بآل محمد صلى الله عليه و آله هل هم أهل البيت من ولده، فهذا ما سنعرض إليه فى الخطبة ۲۳۹. وقد أشرنا فى الخطبة الثانية من المجلد الأول لهذا الأمر.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۱۱۹

الخطبة[۲۱۷] الثالثة و السبعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

قاله لمروان بن الحكم بالبصرة

قالُوا: أُخِذَ مَرْوانُ بْنُ الْحَكَمِ أَسِيراً يَوْمَ الْجَمَلِ، فاسْتَشْفَعَ الْحَسَنَ والْحُسَيْنَ عليه السلام إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَكَلَّماهُ فِيهِ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ فَقالا لَهُ: يُبايِعُكَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فقالَ عليه السلام:

نظرة إلى الخطبة

يشير كلامه عليه السلام فى هذه الخطبة إلى عذر مروان وبنى مروان من جانب ويشبه خيانته بخيانة اليهود الذين وقفوا بوجه الدعوة منذ انبثاقها إلى يومنا هذا. كما يخبر عليه السلام عن حكومة بنى‌مروان وهذه الشجرة الخبيثة ومدى المصائب والويلات التى طالت المسلمين من تلك الحكومة.

وتكشف هذه النبوءة عن إحاطته عليه السلام بالحوادث المستقبلية.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۱۲۱

«أوَ لَمْ يُبايِعْنِى بَعْدَ قَتْلِ عُثْمانَ؟ لا حاجَةَ لِى فِى بَيْعَتِهِ إِنَّها كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ، لَوْ بايَعَنِى بِكَفِّهِ لَغَدَرَ بِسَبَّتِهِ. أَما إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ، هُوَ أَبُو الْأَكْبُشِ الْأَرْبَعَةِ، وسَتَلْقَى الْأُمَّةُ مِنْهُ ومِنْ وَلَدِهِ يَوْماً موتا أَحْمَرَ».

الشرح والتفسير

الغنى عن بيعة مروان

كما أوردنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما استشفع إليه الحسن والحسين عليه السلام فى العفو عن مروان بن الحكم لما أسر يوم الجمل، ثم إقترحا على الإمام عليه السلام بيعته، فقال

«أو لم يبايعنى بعد قتل عثمان؟ لَاحَاجَةَ لى فى بَيعَته! إنّهَا كَفٌّ يَهوديَّةٌ، لَو بَايَعَنى بكَفّه لَغَدَرَ بسبّته».[۲۱۸]

وتشبيه يـده باليـد اليهودية تعد إشارة واضـحة إلى خيانة مروان وغدره الذى ورثه فى الواقع من أبيه الحكم، عم عثمان بن عفان الذى كان يتجسـس على رسول‌اللّه صـلى الله عليه و آله لصالح الكفار والمشـركين والمنافقين إلى جانب سـخريته واستهزائه بالنبى صلى الله عليه و آله فنفاه صـلى الله عليه و آله إلى الطائف، ولم يشـفع رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله عثمان فى رده إلى المدينة فلما ولى عثمان الخلافة كان أحد أسوأ أعماله التى دعت الناس للقيام عليه إعادة الحكم بن أبى‌العاص إلى المدينة. ومن الطبيعى ألا يكون هناك من اعتبار لبيعة هذا الرجل الذى بايع علياً عليه السـلام ثم نقض بيعته ولم يقم لها وزناً، رغم أنّ البيعة كانت محترمة حتى فى الجاهلية. فقد نقض بيعته وأجج نار الجمل، فلو بايع ثانية لنقض هذه البيعة

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۲۲

متى تسـنح له الفرصـة، فقـد كان تبعا لهواه، ولم يك للعزة والشـرف والالتزام الأخلاقى والشـرعى من أهمية لديه. ثم أخبر الإمام عليه السلام عن ثلاثة أمور غيبية بشأن مروان، يكمن الأول فيها فى إستيلائه على الخلافة لمدة قصيرة:

نفحات الولاية ؛ ج‌۳ ؛ ص۱۲۲

«أما إنّ له إمرةً كلعقة[۲۱۹] الكلب أنفه»

فالكلب حين يزج برأسه فى جيفـة ليتناول ممّا فيها، يعلق مقـدارا من بقايا تلك الجيفـة على أنفه فيمـد لها لسانه بغية تناوله وتنظيف ما علق بأنفه. ويمثل هذا التعبير بشأن قصر حكومة مروان منتهى البلاغة والفصاحة، وهو من قبيل:

«المقال المطابق لمقتضى الحال».

نعم فهو كالكلب الذى إنقض على جيفة الحكومة اللامشـروعة لآل أمية، ولمدة قصـيرة رآها بعض المؤرخين أربعة أشـهر وعشرة أيام وقيل سـتة أشـهر، وأكثر مـدة صـرح بها المؤرخون هى تسـعة أشـهر، وهكـذا تحققت نبوءة الإمام عليه السـلام بشأنه حتى قتل على يد زوجته كما سنعرض لذلك فى البحث القادم. الأمر الثانى الذى تنبأ به الإمام عليه السلام:

«و هو أبوالأكبش ۲۲۰] الأربعة»

والأـكبش جمع كبش الحيوان الهائج المعروف حيث يشـترك معه ولـد مروان بهـذه. وذهب بعض شـرّاح نهج‌البلاغـة إلى أنّ المراد بالأكبش الأربعة من ولد مروان هم: عبدالملك الذى ولى الخلافة بعده وعبدالعزيز الذى ولى مصـر وبشـر فى العراق وأمّا محمد فولى الجزيرة، وقد ورث كل منهم الشر عن أبيه.

وبالطبع فانّ أولاد مروان كثيرون، إلّاأنّ هؤلاء الأربعة قد ولوا الحكومة واليهم أشار الإمام عليه السلام بكلامه. بينما ذهب البعض الآخر من الشـرّاح إلى أنّ المراد بالأكبش الأربعـة حفـدة مروان من ولد عبدالملك وهم: الوليد وسـليمان ويزيد وهشام، ولم يل الخلافة من بنى‌أميـة ولاـ من غيرهم أربعـة إخوة إلّاهؤلاء. ومن هنا فقـد رجـح البعض القول الثانى لانسـجامه والنبوءة الثالثـة التى وردت فى كلام الإمام عليه السلام:

«وستلقى الأمّة منه ومن ولده يوماً أحمر»

وهـذه النبوءة هى الاخرى تحققت، وقـد ولى هؤلاء الأكبش الخلافـة الواحـد بعـد الآخر فاراقوا الدماء وقتلوا طائفة عظيمة من الأبرياء، لتحقق نبوءة الإمام عليه السلام بقوله:

«يوماً احمر»

من خلال تلك الفضائع والجرائم التى ارتكبوها، وافضل شاهـد على ذلك الجنايات التى اقترفها والى الكوفة على عهد عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفى.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۲۳

تأمّل: قصة غريبة من حياة مروان بن الحكم

كـان مروان بن الحكم من أعـدى أعـداء أميرَالمؤمنين على عليه السـلام، وقصـته تمثـل محور الخطبـة والتى من شأنهـا توضـيح أغلب الحقائق ذات الصـلة بتأريخ صدر الإسـلام. أبوه الحكم الذى نفاه رسولاللَّه صـلى الله عليه و آله، إلى الطائف وخاطبه صلى الله عليه و آله قائلًا:

«لعنك اللّه ولعن ما فى صلبك»

وكان ذلك قبل ولادة مروان. وقيل نفى مع أبيه إلى الطائف وكان طفلًا لايعقل، وإنّه لم ير رسولاللَّه صلى الله عليه و آله، ولم يزل فى الطائف ولم يجرأ الخليفـة الأول ولا الثانى على الشـفاعة لـدى رسولاللَّه صـلى الله عليه و آله لردّه إلى المدينـة، حتى ولى عثمان فردّه إلى المدينـة، وكـان ذلـك من الأعمـال التى نقمها عليه الناس، والأعجب من ذلك قربه إليه وأغـدق عليه أموالًا طائلـة من بيتالمال؛ ومن هنا إمتنع بعض صـحابة رسولاللَّه صـلى الله عليه و آله من الصـلاة خلف عثمان. بايع مروان علياً عليه السـلام بعـد قتل عثمان، ثم نقض بيعته وقدم البصـرة وأجج نار الجمل، ثم أسـر بعد أن قتل طلحة والزبير وهزم عسـكر الجمل، وكما ورد فى الخطبة فقد إستشـفع الحسن والحسـين عليه السـلام إلى أميرالمؤمنين على عليه السـلام وقيل ابن عباس فخلى عليه السـلام سبيله. الا أنه بايع معاويـة والتحق بصـفين. وجاء فى الخبر أنّ معاويـة كان يخشـى على حكومـة يزيـد من أربع من بينهم مروان، فعهـد إلى ابنه بأن يصـلى عليه، فاذا أتم الصلاة قتله، فلما اطلع مروان الخبر لم يكد يتمّ الصلاة حتى هرب.

و أمّا وفاة مروان، والسبب فيها أنّه كان قد اسـتقرّ الأمر بعده لخالد بن يزيد بن معاوية على ما قَدّمنا ذكره، فلما اسـتوثق له الأمرُ، أحبَّ أن يبايع لعبـدالملك عبـدالعزيز ابنْيه، فاسـتشار فى ذلك، فأشـير عليه أن يتزوج أم خالد بن يزيد، وهى ابنة أبىهاشم بن عتبة بن ربيعة ليصغَر شأنه فلا يرشّح للخلافة، فتزوجها. ثم قال لخالد يوماً فى كلام دار بينهما والمجلس غاص بأهله:

اسكت يا ابن الرطبة، فقال خالد: أنت لعمرى مؤتمن وخبير.

ثم قـام باكيـاً من مجلسه- وكان غلاماً حينئـذ- فـدخل على أمه، فأخبرها، فقالت له: لا يعرفنّ ذلك فيك، واسـكت فأنا أكفيك أمرَه. فلما دخل عليها مروان، قال لها: ما قال لك خالد؟

قـالت ومـا عسـاه يقول؟ قال: ألم يشـكُنِى إليك؟ قالت: إنّ خالـداً أشـدّ إعظاماً لك من أن يشـتَكِيك، فصـدّقها. ثم مكثت أياماً، فنام عندها وقد واعدت جوارِيَها، وقُمْنَ إليه، فجعلن الوسائد

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۲۴

والبراذع عليه، وجلسنَ عليه حتى خَنَقْهُ، وذلك بدمشق فى شهر رمضان. وهو ابن ثلاث وستين سنة، فى قول الواقدىّ.

وممّا قيل فى مروان أنّ أمه كانت من أصـحاب الرايات فى الجاهليـة قبل أن تتزوج من الحكم، حيث نصـبت الراية علناً على باب بيتها وكانت تدعوا الرجال إليها. وكما أشـرنا سابقاً فانّ حكومة مروان لم تدم أكثر من بضـعة شهور، وقدم جاء فى الخبر أنّه رأى فى المنام قـد بـال أربع مرات فى محراب رسولاللَّه صـلى الله عليه و آله فلما سأل ابن سـيرين عن رؤياه، أخبره بأنّ أربعـة من بنيه يلون الحكومة فيعملون على هـدم الإسـلام وهـذا مـا وقع (طبعا أربعـة من أحفاده من ولـد عبـدالملك) فقـد حكم الوليـد بن عبـدالملك (۸۶- ۹۶) وسليمان بن عبدالملك (۹۶- ۹۹) ويزيد بن عبدالملك (۱۰۱- ۱۰۵) وهشام بن عبدالملك (۱۰۵- ۱۲۵)، وقد تخلل المدة القصيرة بين حكومـة الأولين والآخرين حكومة عمر بن عبدالعزيز (۹۹- ۱۰۱) وهو من أحفـاد مروان. ثم انتهت حكومـة آلمروان أسوأ خلفاء بنىأمية.[۲۲۱]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۲۵

الخطبة[۲۲۲] الرابعة و السبعون

اشارة

ومن خطبة له علیه السلام

لما عزموا علی بیعة عثمان

نظرة إلى الخطبة

و نحن نـذكر فی هـذا الموضع ما اسـتفاض فی الروایات من مناشدتِه أصـحاب الشوری، وتعدیده فضائله وخصائصه التی بأنّ بها منهم ومن غیرهم قـد رَوَی الناس ذلك فأكثروا؛ والـذی صحَّ عندنا أنّه لم یكن الأمرُ كما رُوی من تلك التعدیدات الطویلة؛ ولكنه قال لهم بعد أن بایع عبدُالرحمن والحاضـرون عثمانَ، وتلكّأ هو علیه‌السلام عن البیعة: إنّ لنا حقًّا إن نعطَه نأخذه، وإن نمَنعه نركـب أعجاز الإبل وإن طال السُّری؛ فی كلام قـد ذكره أهل السیـرة؛ وقـد أوردنا بعضه فیما تقـدم، ثم قال لهم: أنشـدكم الله! أفیكم أحَدٌ آخَی رسولَ الله صلی الله علیه و آله بینه وبین نفسه؛ حیث آخی بینَ بعض المسلمین وبعضٍ غیری؟ فقالوا: لا؛ فقال أفیكم أحدٌ؟ قال له رسول الله صلی الله علیه و آله:

«مَنْ كنت مولاه فهذا مولاه»

غیری؟ فقالوا: لا، فقال: أفیكم أحد؟ قال له رسول الله صلی الله علیه و آله:

«أنتَ منی بمنزلة هارون من موسی إلا أنه لا نبی بعدی»

غیری؟ قالوا: لا، قال: أفیكُم من اؤتمن علی سورة براءة، وقال له رسول الله صلی الله علیه و آله إنّه لا یؤدی عَنّی إلا أنا أو رجل

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۲۶

مِنی غیری؟ قـالوا: لا، قال: ألا تعلمون أنّ أصـحابَ رسول الله صـلی الله علیه و آله فَرُّوا عنه فی مأقِط الحرب فی غیر موطن، وما فررت قَطّ؟ قالوا: بلی، قال: ألا تعلمون أنی أوّل الناس إسلاماً؟ قالوا: بلی.

قـال: فأیُّنـا أقرب إلی رسول الله صـلی الله علیه و آله نسـباً؟ قالوا: أنت. فقطع علیه عبـدُالرحمن بن عوف كلامه، وقال: یا علی؛ قـد أبَی الناس إلّاعلی عُثمان، فلا تجعَلنّ علی نفسك سبیلًا، ثم قال: یا أبا طلحـة، ما الـذی أمرك به عمر؟ قال: أن أقْتُل مَنْ شقّ عصا الجماعة، فقـال عبـد الرحمن لعلیّ: بـایع إذن؛ وإلّـا كنت متَّبعاً غیر سبیـل المؤمنین، أنفـذْنا فیك ما أمِرْنا به. فقال: «لقـد علمتم أنی أحقُّ بها من غیری، والله لأسْلِمن ...» الفصل إلی آخره، ثم مدّ یده فبایع.[۲۲۳]

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۲۷

«لَقَـدْ عَلِمْتُمْ أَنِّی أَحَقُّ النَّاسِ بِهـا مِنْ غَیْرِی ووَ اللَّهِ لَأُسْلِمَنَّ مَـا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِینَ ولَمْ یَكُنْ فِیهـا جَوْرٌ إِلَّا عَلَیَّ خاصَّةً الْتِماساً لِأَجْرِ ذَلِكَفَضْلِهِ وَزُهْداً فِیما تَنافَسْتُمُوهُ ۲۲۴] مِنْ زُخْرُفِهِ وزِبْرِجِهِ».

الشرح والتفسیر

علم الجمیع باحقیتی من غیری

أورد الإمام علیه السـلام هـذا الكلام حین أمر عمر بتشـكیل الشوری من أجل إنتخاب عثمان، والشوری هم: علی علیه السـلام وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبیر وسعد بن أبی وقاص.

وقد أمر جماعة بامهالهم ثلاثة أیام لینتخبوا من بینهم خلیفة، فاختاروا عثمان خلیفة بعد أن رفض علی علیه السلام ما اشترط علیه لقبول الخلافة، فرأی الإمام علیه السلام نفسه أمام عمل قد وقع، فاورد هذه الكلمات

«لقد علمتم أنّى أحقّ النّاس بها من غيرى»

فى إشارة إلى أنّ سكوته عليه السلام لايعنى أدنى شك وريب فى جدارته بالخلافة، فتطرق عليه السلام إلى الدافع الذى يكمن وراء ذلك السكوت فقال:

«و واللَّه لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين؛ ولم يكن فيها جورٌ إلّاعلىّ خاصّةً».

نعم مصالح المسلمين هى الدافع لذلك السكوت، حذرا من شق صفوف المسلمين؛ الأمر الذى كان ينتظره أعداء الإسلام فى الداخل والخارج بفارغ الصبر بغية تنفيذ مؤامراتهم التى تهدف إطفاء نور الإسلام، أو حرصاً على دماء المسلمين والحيلولة دون إراقتها، ثم يصرح بأنّه مستعد للتنازل عن حقه إذا إقتصر الظلم عليه ولم تمارسه هذه الخلافة بحق الإسلام والمسلمين. ثم أتبعه عليه السلام بالدافع الثانى

«التماساً لأجر ذلك وفضله»

وإلى جانب ذلك

«وزهداً

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۲۸

فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه»[۲۲۵].

فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة القصيرة إلى ثلاث حقائق مهمة هى:

أولًا: أنّه أحق من كافة الأفراد بخلافة رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله وأنّ اولئك الذين صدوه عن حقه بدافع من مصالحهم الشخصية أو حسداً وبغضاً إنّما ظلموه كما ظلموا الأمّة لأنّهم حرموها من هذا الزعيم الكفوء.

ثانياً: أنّ سكوت الإمام عليه السلام لم يكن إعتباطياً خالياً من القيود والشروط، بل قيده عليه السلام بانتظام أعمال المسلمين دون أن يتعرضوا لأى‌ظلم وجور.

ثالثاً: إنّ الإمام عليه السلام طلب أجر اللَّه وثوابه بهذا السكوت المرير والملى بالمعاناة، كما أراد أنّ يثبت عدم قيمة ما يتنافس عليه الآخرون من زبرج الدنيا وزخرفها ويحرقون من أجلها الأخضر واليابس، ولايقيم له الإمام عليه السلام من وزن.

الإجابة عن بعض الأسئلة

هنالك عدة أسئلة تطرح نفسها، الأول: ألايفهم من كلام الإمام عليه السلام أنّ سكوته فى عهد الخليفة الأول والثانى دليل على عدم خروجهما عن مسار الحق والعدل؟ وإلّا لقام الإمام عليه السلام واعترض عليهما.

والجواب على هذا السؤال هو أنّ الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بذلك الوضع قطعاً؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح بما ورد فى الخطبة الشقشقيقة وغيرها من الخطب التى صرح فيها برفضه لذلك الوضع ليعلمه الجميع، فقد قال كل ما كان يجب قوله من خلال إمتناعه عن بيعة الخليفة الأول واعتراضه على ما ورد فى السقيفة (كما مر علينا فى شرح الخطبة ۶۷) ولما استتبت لهم الامور وترسخت دعائم حكومتهم ولم يعد الاعتراض مجد يا سكت الإمام عليه السلام حذراً من خلخلة الأوضاع ونشوب النزاع داخل الحكومة الإسلامية ممّا يؤدى إلى إضعافها وإنهيارها. ومن

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۲۹

هنا تتضح الإجابة على هذا السؤال: لماذا لم يعترض الإمام عليه السلام على عثمان، والحال أن أخطائه فى التطاول على بيت مال المسلمين واغداقه أمواله على قرابته وبطانته وتسليطه لُاولئك الأفراد على رقاب المسلمين ليست بخافية على أحد، فهل يعنى ذلك السكوت رضاه عليه السلام بأعمال عثمان عليه السلام؟ فمما لاشك فيه أنّ الإمام عليه السلام لم يسكت على عثمان ولم يرض

بأعماله، فاعتراضه على نفى أبى‌ذر إلى الربذة وسائر أفعال عثمان تدل على أنّ الإمام عليه السلام كان شاجباً لأعمال عثمان، ومن الشواهد على ذلك ما روى عن الإمام عليه السلام أواخر عمر عثمان حيث نزل القوم يريدون قتل عثمان إن لم ينزع عما يكرهون، وعلم عثمان ذلك، جاء إلى منزل على عليه السلام فدخل وقال: يابن عم:

إنّ لك عند الناس قدر وهم يسمعون منك، وأحب أن تركب إليهم فتردهم عنى، فان فى دخولهم على وهنا لأمرى وجرأة على. فقال عليه السلام: على أى شئ أردهم؟ قال: على أن أصير إلى ما أشرت به، ورأيته لى. فقال عليه السلام: إنّى قد كلمتك مرة بعد أخرى، فكل ذلك تخرج وتقول وتعد ثم ترجع، وهذا من فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعبداللّه بن سعد، فانّك أطعتهم وعصيتنى. قال عثمان: فانّى أعصيهم وأطيعك. فأمر على عليه السلام الناس أن يركبوا معه، فركب ثلاثون رجلًا من المهاجرين والأنصار، فأتوا المصريين فكلموهم، فسمعوا منهم ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر[۲۲۶].

ثم قام عثمان بعدة أعمال شائنة مرت علينا فى شرحنا للخطبة الشقشقية تحت عنوان

«دوافع القيام ضد عثمان»

بحيث أدت تلك الأعمال إلى إحباط سعى الإمام عليه السلام من أجل إطفاء الفتنة. فالكلام يفيد بما لايقبل الشك مدى إعتراض الإمام عليه السلام على أعمال عثمان مرات وكرات وقد أخذ عهده على إصلاح وضعه، إلّاأنّه عجز عن ذلك الإصلاح حتى على مستوى الظاهر بفعل ضغوط مروان ومعاوية.

كما ورد فى الخطبة ۱۶۴ من نهج‌البلاغة شرح مفصل بهذا الشأن.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۳۱

الخطبة[۲۲۷] الخامسة و السبعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما بلغه اتهام بنى‌أمية له بالمشاركة فى دم عثمان

نظرة إلى الخطبة

يعرض الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بالذم لخصومه البعيدين عن المنطق فى توجيه بعض التهم إليه التى لايمكنها أن تطال ساحته المقدسة بفعل سوابقه المشرقة وأهدافه العظيمة التى لاتخفى على أحد.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۳۳

«أ ولَمْ يَنْهَ بَنِى أُمَيَّةَ عِلْمُها بِى عَنْ قَرْفِى أ وما وَزَعَ الْجُهَّالَ سابِقَتِى عَنْ تُهَمَتِى ولَما وَعَظَهُمُ اللّهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسانِى أَنا حَجِيجُ الْمارِقِينَ خَصِيمُ النَّاكِثِينَ الْمُرْتابِينَ وعَلَى كِتابِ اللّهِ تُعْرَضُ الْأَمْثالُ وبِما فِى الصُّدُورِ تُجازَى الْعِبادُ».

الشرح والتفسير

العدو اللدود للمنحرفين

يعتبر قتل عثمان- إثر البذخ والتطاول على بيت مال المسلمين والظلم والجور الذى تعرضت له الامّة منه ومن بطانته والذى أثار نقمة أغلب أفراد الامّة للقيام عليه- بؤرة أفضت إلى حوادث مريرة فى التأريخ الإسلامى، إلّاأنّ هنالك جماعة من الناس كانت ترى عثمان

مقصراً ولكن ليس إلى الحد الذى يجعله مستحقاً للموت، ومن هنا لم يرق لبعضهم قتله ولم يكونوا راضين بذلك، الأمر الذى مهد السبيل أما بعض الفئات المنحرفة لتستغل قتله لتحقيق أهدافها السياسية والقضاء على خصومها، وهكذا أصبح قتل عثمان وسيلة لتصفية الحسابات السياسية. فبنى‌أمية وفى مقدمتهم معاوية كان ساكتاً لما هجم القوم على دار عثمان، بينما كان يتمثل موقف على عليه السلام بتوبيخ عثمان على أعماله إلى جانب الحيلولة دون قتله، فقد ذب عنه حتى بعث بالحسن وبالحسين عليه السلام ليصدوا الناس عن الهجوم على داره. مع ذلك ما أن قتل عثمان حتى هب بنى‌أمية للطلب بثأره ليكون هذا الأمر مقدمة للوصول إلى الخلافة، ولا سيما معاوية الذى إستغل هذا الأمر إستغلالًا بشعاً فى الشام البعيدة عن المدينة لتحقيق أطماعه، حتى تمكن من خداع أهل الشام واقناعهم بانّه المدافع عن عثمان والطالب بدمه من على عليه السلام.

وقصة قميص عثمان معروفة، فقد علق معاوية قميص عثمان (أو قميصاً يشبهه) على بوابة الشام

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۱۳۴

ليعبئ الامّة ضد على عليه السلام، كما وظف طائفة من كهول الشام التى كانت تقيم مراسم العزاء وتبكى عثمان فى المسجد بما يثير مشاعر الناس. فقد قال الإمام عليه السلام فى إطار ردّه لمزاعم بنى‌امية:

«أولم ينه بنى أميّة علمها بى عن قرفى؟[۲۲۸] أو ما وزع ۲۲۹] الجهّال سابقتى عن تهمتى![۲۳۰]»

فبنى أمية وإن جانبوا الحق والانصاف، إلّاأنّهم كانوا ينبغى أن يعلموا صفات الإمام عليه السلام وأنّه لايظلم أحداً ولايلطخ يده بدماء الآخرين عبثاً، كما يعلمون جيداً سوابقه وفضائله ومنها أنّ النبى صلى الله عليه و آله خاطبه بأخيه وناداه أنت منّى بمنزلة هارون من موسى وفيه وفى أهل بيته نزلت آية التطهير وقد فوض إليه النبى صلى الله عليه و آله أغلب أعماله سرية، فهذه التهم رخيصة، فالإمام عليه السلام لم يشترك فى قتله ولا قتل غيره، كما بالغ فى الدفاع عنه وإن كان يراه مقصراً، لكن دون حد القتل. فقد وعظه الإمام عليه السلام وحذره من مغبة أفعاله، كما دعى تلك الجماعة التى قامت ضده إلى التحلى بالصبر والحلم واعتماد الأساليب السلمية فى حل النزاع، بينما بقيت بنى‌أمية ساكتة دون ان تحرك ساكناً. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

«و لما وعظهم اللّه به أبلغ من لسانى»

أولم يقرأوا قوله سبحانه فى كتابه العزيز: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ»[۲۳۱] أو لم يسمعوا قوله سبحانه: «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْما مُبِيناً»[۲۳۲]. ثم أشار عليه السلام إلى فضيلة اخرى من فضائله فقال:

«أنا حجيج ۲۳۳]

المارقين، وخصيم‌النّاكثين المرتابين»،

وقد إختلفت أقوال المفسّرين فى محاجته عليه السلام للمارقين فى الدنيا أم الآخرة. أشار ابن أبى الحديد[۲۳۴] أنّه أراد يوم القيامة حيث روى عنه عليه السلام أنّه

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۱۳۵

قال:

«أنا أوّل من يجثو للحكومة بين يدى اللّه تعالى»

، والحال لاينسجم ظاهر الخطبة وهذا المعنى أو لايقتصر عليه، بل الظاهر أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقول بانّى كنت وما أزال أقف بوجه الناكثين الذى ينقضون العهد ولا يقيمون وزناً لتعاليم الدين، والشاهد على ذلك قتاله عليه السلام للناكثين (أصحاب الجمل) والمارقين (الخوارج) والقاسطين (أهل الشام)، وبعبارة اخرى فانّ الإمام عليه السلام يقول بمخالفته لمن يخالف حقه، فان رأوا ذلك عيبا، فليعيبوه به. ثم إختتم كلامه عليه السلام بقوله

«و على كتاب اللّه تعرض الأمثال،[۲۳۵] وبما فى الصّدور تجازى العباد»،

فقد ذهب أغلب شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ العبارة إشارة إلى الآية ۱۹ من سورة الحج «هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ» حيث روى النبى صلى الله عليه و آله إنها فى على عليه السلام وحمزة وعبيدة، وعتبة وشيبة والوليد، وكانت حادثتهم أول حادثة وقعت فيها مبارزة أهل الإيمان لأهل الشرك وكان المقتول الأول بالمبارزة الوليد قتله على عليه السلام، فتجذرت ضغينة بنى‌امية وكانت تستغل الفرص لدرك ثأرها، فنزلت الآية لتكشف عن مصير الفريقين، فليس لمشركى بنى‌أمية سوى الجحيم والعذاب الأليم. وأمّا المسلمون ففى جنات النعيم. والحق أنّ العبارة لايمكن أن تقتصر على الإشارة لهذه الآية، بل ترشد إلى عرض المسائل المبهمة على شبيهاتها فى القرآن ليميز الحق من الباطل ولا سيما هنا فى قضية قتل عثمان وسعى الآخرين لتوجيه أصابع الاتهام إلى هذا وذاك بهدف تحقيق الأغراض السياسية، ولا سيما من قبل اولئك الذين سكتوا لتقع تلك الحادثة، فاذا ما عرض هذا الأمر على القرآن، رأينا آياته تخالف ما قلتم، فهى تفند البهتان والتهمة وسوء الظن واشاعة الفاحشة.

والعبارة الأخيرة إشارة إلى هذه الحقيقة وهى أنّ اللَّه عالم بنياتكم وأنّ هدفكم ليس الدفاع عن عثمان ولا إصلاح ذات بين المسلمين، بل تريدون إستغلال الصغيرة والكبيرة من أجل تحقيق أهدافكم وبكل وسيلة رخيصة من أجل الاستيلاء على الحكومة وممارسة الظلم والجور بحق المسلمين، فاللَّه عالم وسيجاز يكم بذلك.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۳۷

الخطبة[۲۳۶] السادسة و السبعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فى الحث على العمل الصالح

نظرة إلى الخطبة

قال الكراجكى صاحب كنز الفوائد وهو من معاصرى السيد الرضى (ره) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«تلكم أميرالمؤمنين صلوات اللّه عليه باربع وعشرين كلمة قيمة كل كلمة منها وزن السموات والأرض».

ثم روى هذه الخطبة[۲۳۷].

تشتمل هذه الخطبة حسب ما ورد فى نهج‌البلاغة على عشرين صفة من صفات المؤمنين المخلصين، والجملات الأربع التى وردت فى نقل المرحوم‌الكراجكى فى هذه الخطبة هى

«حذر أملًا» «ورتب عملًا» «يظهر دون ما يكتم» «ويكتفى بأقل ممّا يعلم»[۲۳۸]

وبالطبع هناك بعض الاختلاف الطفيف فى عبارات الخطبة. على كل حال فانّ هذه الخطبة ورغم قصرها إلّاانها عميقة المعانى ورصينة المضمون، والإمام عليه السلام يسأل اللَّه الرحمة للمؤمن الذى يتحلى بهذه الصفات العشرين، ليحث الناس ويرغبهم فى هذه الصفات، وزبدة الكلام فانّ هذه الخطبة خلاصة للفضائل الأخلاقية ومجمعة كاملة للسير والسلوك إلى اللَّه.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۳۹

«رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً عبدا سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى، ودُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا، وأَخَذَ بِحُجْزَةِ هادٍ فَنَجا. راقَبَ رَبَّهُ، وخافَ ذَنْبَهُ، قَدَّمَ خالِصاً، وعَمِلَ صالِحاً.

اكْتَسَبَ مَذْخُوراً، واجْتَنَبَ مَحْذُوراً، ورَمَى غَرَضاً، وأَحْرَزَ عِوَضاً. كابَرَ هَواهُ، وكَذَّبَ مُناهُ. جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجاتِهِ، والتَّقْوَى عُدَّةَ وَفاتِهِ. رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرَّاءَ، ولَزِمَ الْمَحَجَّةَ الْبَيْضاءَ. اغْتَنَمَ الْمَهَلَ، وبادَرَ الْأَجَلَ، تَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ».

الشرح والتفسير

عشرون كلمة قيمة

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بقوله:

«رحم اللّه امرأ عبداً سمع حكماً[۲۳۹] فوعى ۲۴۰] ودعى إلى رشادٍ فدنا، وأخذ بحجزة[۲۴۱] هادٍ فنجا. راقب ربّه، وخاف ذنبه».

لقد بين الإمام عليه السلام فى هذه العبارة بهذه الصفات الخمس مقدمة طريقة رواد القرب إلى اللَّه وسالكى مسيرة التقوى وتهذيب‌النفس، فأول الطريق ضرورة توفر الاذن السامعة التى تصغى إلى الحقائق وتستوعبها ومن ثم الاتجاه نحو الداعى الإلهى لمزيد من الفهم والإدراك، آنذاك اللجوء إلى الهادى وانتخاب القائد والدليل، وأخيراً الشعور بالحضور الدائم للَّه سبحانه وشهوده للأعمال بغية الورع والتقوى من الذنب. فمن تحلى بهذه الفضائل الخمس يكون قد أعد زاده للسفر إلى اللَّه والحركة نحوه. طبعاً صحيح أنّ اللَّه قد خلق الإنسان على الفطرة وزوده بالعقل كمصباح يضيئ له الطريق، إلّاأنّ المفروغ منه هو أنّ إجتياز هذا الطريق

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۴۰

يتعذر بالاقتصار على العقل والفطرة، ولايتوج ذلك إلّابتوفر الداعى الإلهى والمرشد والدليل.

ومن الواضيح أنّ المراد بالدليل والمنقذ الذين اشير إليهما فى العبارة هم النبى وأئمة العصمة عليهم السلام ومن يتحدث عنهم ويهدى إليهم؛ لا الأفراد المبتدعين ممن تسموا بشيوخ التصوف الذين يغطون فى هالة من الظلمة الدامسة ويزعمون أنّهم يهدون إلى النور ولا يخفى على أحد مدى الدور الذى يلعبه الشعور بالمراقبة الإلهية والورع عن الذنب فى كبح جماع النفس وصمودها أمام الأهواء والشهوات. فاذا ما توفرت هذه المقدمة اللازمة لذلك السفر، آنذاك يأتى دور البرامج العلمية فقال عليه السلام:

«قدّم خالصاً، وعمل صالحاً. اكتسب مذخوراً، واجتنب محذوراً، ورمى غرضاً[۲۴۲] وأحرز عوضاً. كابر[۲۴۳] هواه، وكذّب مناه».

فقد أكد الإمام عليه السلام بادئ ذى بدء على العمل الخالص والصالح، كما ورد تعريفه عن الإمام الصادق عليه السلام:

«العمل الخالص الّذى لاتريد أن يمدحك عليه أحدٌ إلّااللّه»[۲۴۴]

وإليه أشارت الآية الكريمة: «وَما أُمِرُوا إِلّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»[۲۴۵].

وهنالك تفاسير اخرى للاخلاص تبدو من قبيل اللازم والملزوم، فقالوا: الاخلاص إخفاء العمل عن الخلائق وتطهيره من العلائق، وقيل: حقيقة الاخلاص ألا ينتظر الإنسان أجراً دنيوياً أو أخروياً على عمله، بل يقوم به حبّاً للَّه. وقيل: الاخلاص إخراج الخلق من معاملة الخالق. ولعلنا نلمس قمة الاخلاص فى الحديث الوارد عن أميرالمؤمنين على عليه السلام حين قال:

«إلهى ما عبدتك طمعاً فى جنّتك ولاخوفاً من نارك ولكن وجدتك أهلًا للعبادة فعبدتك»[۲۴۶]

. ثم اتبع الاخلاص والعمل الصالح بالحديث عن المذخور والذخيرة ليوم القيامة والواقع هو أنّ أعظم ذخيرة إنما تتمثل بالأعمال الخالصة والصالحة.

ولما كانت الأعمال الصالحة والخالصة للإنسان عرضة للاحباط بفعل الذنوب والمعاصى،

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۴۱

فقد ورد الحض على إجتناب هذه الذنوب والتورع عن ارتكابها ليقدم الفرد على ربّه يوم القيامة بتلك الأعمال. وطالماً كان الاقبال على الدنيا يصد الإنسان عن ذخيرة الأعمال الصالحة، واتباع هوى النفس الذى يعد من أهم موانع الطريق وعقبته الكؤود طول الأمل، فقد ورد الحديث عن ترك زخارف الدنيا وعدم الاغترار بها ومقاومة هوى النفس وتكذيب طول الأمل وإجتنابه؛ الآفات المهلكة

التى ورد الحديث عنها عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«يقول اللّه تعالى: وعزّتى وجلالى ... لايؤثر عبدٌ هواه على هواى إلّااستحفظته ملائكتى و كفّلت السّموات والأرضين رزقه»[۲۴۷]

. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بسبع صفات للمؤمن الصالح فقال:

«جعل الصّبر مطيّة[۲۴۸] نجاته، والتّقوى عدّة وفاته ۲۴۹] ركب الطّريقة الغرّاء، لزم المحجّة[۲۵۰] البيضاء. اغتنم المهل،[۲۵۱] وبادر الأجل، وتزوّد من العمل».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه الصفات السبع- والتى تبدأ بالصفة الرابعة عشرة وانتهت بالعشرين- إلى شرائط والوسائل المتعلقة بالسالكين إلى اللَّه الذين يحثون الخطى لنيل القرب من اللَّه. ويحتاج هؤلاء السالكون قبل كل شىء إلى مركب يوصلهم إلى شاطئ النجاة وشق عباب هذا الطريق المحفوف بالمخاطر والعقبات، وما أعظم الصبر بصفته المنقذ فى كل موضع ومهما كانت الظروف.

من جانب آخر فان كل مسافر لابدّ أن يحمل معه بعض الوسائل والأدوات التى تلبى حاجاته طيلة هذا الطريق، ويشير الإمام عليه السلام إلى أنّ هذه الوسائل تتمثل بالورع والتقوى بصفتها الزاد إلى الوفاة. ثم تأتى المرحلة الضرورية الاخرى المتمثلة بمعرفة الطريق ومواصلة السير عليه فقال عليه السلام

«ركب الطّريقة الغرّاء ولزم المحجّة البيضاء»

فالعبارة الاولى تشير إلى انتخاب

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۴۲

الطريق والثانية إلى السير عليه ومواصلته دون الانحراف عنه طيلة المسيرة. من جانب آخر ليس هنالك من منازل يمكن السالك التزود فيها لسفره الطويل، ومن هنا لفت الإمام عليه السلام إنتباه السالكين إلى إغتنام الفرص واحترام الوقت الذى قد يكون وبالاعلى صاحبه إذا لم يستفد منه:

«اغتنم المهل وبادر الأجل».

واخيرا اختتم كلامه بالحديث عن التزود للاخرة ومبادرة العمل الصالح خلال مدة العمر القصيرة.

تأمّل: الصبر واغتنام الفرصة

الصبر حالة نفسانية يعتمده الإنسان لمواجهة ما يعترض مسيرته من صعاب ومشاكل، وتارة يكون هذا الصبر صبر الطاعة إذا تضمن الوقوف بوجه الصعاب من أجل إمتثال الأوامر الشرعية، وتارة اخرى يكون الصبر على المعصية إذا تضمن كبح جماح النفس والحد من طغيانها وكسر شهوتها، وأخيراً هناك الصبر على النوائب إثر مجابهة المصائب والويلات والأمراض ومطبات الحياة وعقباتها الكؤود. والواقع أنّ هذه الصفة تأخذ بيد الإنسان إلى التقوى حتى ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد»[۲۵۲]

وجاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال

«سيأتى على النّاس زمانٌ لاينال الملك فيه إلّابالقتل و التجبّر ولا الغنى إلّابالغصب والبخل، ولا المحبّة إلّاباستخراج الدّين واتّباع الهوى؛ فمن أدرك ذلك الزّمان وصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبّة، وصبر على الذّلّ وهو يقدر على العزّ، آتاه اللّه ثواب خمسين صدّيقاً ممّن صدّق بى»[۲۵۳]

. وأخيرا فقد أكد الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة على إغتنام الفرصة والتأهب للأجل، وذلك لأنّ الفرص تمرّ مر السحاب، وهناك عدة أخطار تتهدد أعمال الخير، حيث

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۴۳

روی عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال:

«إذا هممت بخیرٍ فبادر فإنّه ما تدری ما یحدث»[۲۵۴]

وقال علیه السلام أیضاً:

«إذا همّ أحدکم بخیرٍ أو صلةٍ فإنّ عن یمینه وشماله شیطانین فلیبادر لایکفّاه عن ذلک».[۲۵۵]

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۴۵

الخطبة[۲۵۶] السابعة و السبعون

اشارة

ومن کلام له علیه السلام

وذلک حین منعه سعید بن العاص حقه

نظرة إلی الخطبة

ورد هذا الکلام عن الإمام علیه السلام حین ولی عثمان الخلافة واستولت بطانته علی بیت مال المسلمین فعاثت به فسادا لتمارس أبشع أنواع الأسرار إلی جانب تسلیطه لبنی أمیة علی رقاب الناس من خلال إغداق المناصب الحکومیة الحساسة. ومن ذلک أنّه ولی سعید بن العاص الکوفة فبعث مع ابن أبی عائشة مولاه إلی علی بن أبی طالب علیه السلام بصلة وأوصی مولاه (الحارث بن جیش) یبلغ علیا علیه السلام أنه لم یبعث لأحد أکثر من هذه الصلة سوی لعثمان، وکأنّه أراد أن یمتن علی الإمام علیه السلام، فقال علیه السلام: واللّه لا- یزال غلام من غلمان بنیأمیة یبعث إلینا مما أفاء اللّه علی رسوله بمثل قوت الأرملة؛ واللّه لئن بقیت لأنفضنها نفض اللحام الوذام التربة.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۴۷

«إِنَّ بَنِی أُمَیَّةَ لَیُفَوِّقُونَنِی تُراثَ مُحَمَّدٍ صلی اللّه علیه وآله تَفْوِیقاً، اللَّهِ لَئِنْ بَقِیتُ لَهُمْ لَأَنْفُضَنَّهُمْ نَفْضَ اللَّحّامِ الْوِذَامَ التَّرِبَةَ!»

الشرح والتفسیر

غیض من فیض جنایات بنیأمیة

اشارة

لقد تسالم ساسة العالم ومنذ القدیم علی ممارسة الضغوط الاقتصادیة علی معارضیهم لینشغلوا بأوضاعهم دون الانتباه إلی ما یجری من حولهم، بل لایتخلون عن هذا الاسلوب حتی فی حالة جنوحهم إلی التعایش السلمی معهم فلا یزودونهم إلّابادی العطاء. فقد أشار الإمام علیه السلام إلی هذا الأمر بقوله:

«إنّ بنی أمیّة لیفوّقوننی ۲۵۷] تراث محمّدٍ صلی الله علیه و آله تفویقاً»

. تتضمن المفردة لیفوقوننی- من مادة فواق الناقة یعنی حلبها لمرة واحدة- إشارة لطیفة رائعة إلی زهد العطاء، وکأن الخلافة بمثابة الناقة الحلوب التی تکالبت علیها بنیأمیة ولا تفیض منها علی الإمام علیه السلام سوی بهذا الفواق الزهید. أمّا قوله:

«تراث محمد»

فقد يكون المراد به فدك وما شابه ذلك، كما يمكن أن يكون المراد به الإسلام بكامله الذى يشمل التراث بمعناه الواسع؛ لأنّ إزدهار الاقتصاد الإسلامى إنّما حصل ببركة دين النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والجهود المضنية التى بذلها صلى الله عليه و آله من أجل نشره، وعليه فكل ما فى أيديهم من تراث محمد صلى الله عليه و آله، ولعلى عليه السلام السهم الأوفى فى هذا التراث، ليس لقرابته من النبى صلى الله عليه و آله فحسب، بل لتضيحاته من أجل الإسلام. صحيح أنّ الإمام عليه السلام كان أسوة الزهد فى حياته؛ إلّاأنّه كان يحصل على عطائه من الغنائم على عهد

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۴۸

رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله ويصل بها الفقراء والمحتاجين. ثم واصل عليه السلام كلامه قائلًا

«و اللّه لئن بقيت لهم‌لأن فضنّهم ۲۵۸] نفض الّلحّام الوذام التّربة!»

تشبيهه عليه السلام لبنى‌أمية بالوذام التربة التى تعنى الحزة من الكرش أو الكبد والمعدة وسائر ما فى بطن الحيوان التى تقع فى التراب إشارة إلى ذروة تلوث بنى‌أمية وضعتهم فهؤلاء- وبشهادة أعمالهم على عهد عثمان- بلغوا مرحلة من الدنس بما جعل عامة المسلمين تنقم عليهم وتفكر فى إجتثات جذور هذه الشجرة الخبيثة من أصولها وطرد هذه العناصر الفاسدة من المجتمع الإسلامى وانقاذ بيت المال من أيديهم الآثمة.

قال المرحوم السيد الرضى (ره) آخر هذه الخطبة: ويروى التراب الوذمة وهو على القلب.

قال الشريف: وقوله عليه السلام:

«ليفوّقوننى»

أى يعطوننى من المال قليلًا كفواق الناقة. وهو الحلبة الواحدة من لبنها. والواذم: جمع وذمة، وهى الحزة من الكرش، أو الكبد تقع فى التراب فتنفض. وجاء فى بعض الروايات

«التّراب الوذمة»

بدلًا من

«الوذام التّربة»،

والمفهوم واحد وكلاهما بمعنى الأشياء الزهيدة التى قد تتلوث أحياناً ويجب تطهيرها.

تأمّلان

۱- من هو سعيد بن العاص؟

كما أوردنا سابقاً فانّ الخطبة وردت بشأن سعيد بن العاص لما بعث بغلامه وهو يومئذ أمير الكوفة من قبل عثمان وقد بعث بهدايا إلى المدينة، ثم بعدث بعدية إلى على عليه السلام وكتب إليه إنّى لم أبعث إلى أحد أكثر مما بعثت به إليك إلّاعثمان، وكأنّه قد إمتن على الإمام عليه السلام بذلك المقدار فأجابه الإمام عليه السلام بهذا الكلام. سعيد من طائفة بنى أمية من قبيلة قريش، أدرك النبى صلى الله عليه و آله وكان من أمراء جيش المسلمين، وقد تربى فى حضن عمر بن الخطاب، وقد ولاه عثمان الكوفة، فلما قدم الكوفة خطب أهلها واتهمهم بالتمرد والعصيان. فشكاه أهل الكوفة إلى عثمان، فاعاده إلى المدينة فمكث فيها حتى خرج الناس على عثمان فجعل يدافع عنه ويواجه الثوار حتى قتل عثمان، فاضطر للذهاب إلى مكة وبقى فيها. فلما ولى معاوية الخلافة، جعله معاوية أميراً على

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۴۹

المدینـۀ حتی توفی فیها. لم یلتحق بالجمل ولا صـفین، ویتصف بالکبر والعنف والفضاضۀ، کما کان خطیباً متکلماً. بنی له قصـراً کبیراً فی المدینۀ، وتوفی سنۀ ۵۳ أو ۵۹ ه فی المدینۀ.[۲۵۹]

۲- بنیأمیۀ

اشارۀ

بنیأمیۀ من قبیلۀ قریش وینسـبون إلی أمیۀ بن عبد شـمس بن عبدمناف وقد بدأت حکومتهم منذ تولی معاویۀ بن أبی سـفیان الخلافۀ عام ۴۱ ه حتی عصر مروان الحمار أو مروان الثانی الخلیفۀ الرابع عشر الذی توفی سنۀ ۱۳۲ ه والحکومۀ الأمویۀ وإن إنقرضت عام ۱۳۲ ه إلّاأنّ أحد أفرادها حکم فیما بعد الأندلس، حیث فتحت الأندلس من قبل المسلمین عام ۹۱ حتی ۹۳ ه ومنذ ذلک الوقت وحتی عام ۱۳۸ ه کانت تحکم کسائر الممالک الإسـلامیۀ من قبل الخلفاء المسـلمین. وفی عام ۱۳۸ ه حکمها عبدالرحمن الأول من أحفاد هشام بن عبـدالملک الحاکم الأموی العاشـر الـذی نجی من العباسـیین، وقـد حکمها ونسـله لمـدۀ قرنین، حتی قام الناس فی القرن الخامس لتسقط هذه الحکومۀ.[۲۶۰]

الف) بنیأمیۀ فی القرآن الکریم

«وَإِذ قُلْنا لَکَ إِنَّ رَبَّکَ أَحاطَ بِالنّاسِ وَما جَعَلْنا الرُّؤْیا الَّتِی أَرَیْناکَ إِلّا فِتْنَۀً لِلنّاسِ وَالشَّجَرَۀَ المَلْعُونَۀَ فِی القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما یَزِیدُهُمْ إِلّا طُغْیاناً کَبِیراً».[۲۶۱]

. أجمع مفسـرو الفریقین أنّ هـذه الرؤیا حتی رأی النبی الاکرم صـلی الله علیه و آله بنیأمیـۀ ینزوون علی منبره إنزواء القردۀ فنزل علیه جبرئیل بالآیۀ لیطلعه علی حکومتهم، فلم یر رسولاللّه صلی الله علیه و آله بعد ذلک ضاحکاً.

وقد نقل المفسر ا لمعروف الفخر الرازی فی تفسیره روایۀ بهذا المضمون عن ابن عباس. کما روی عن عائشۀ أنّها قالت لمروان:

«لعن اللّه أباک وأنت فی صلبه فأنت بعض من لعنۀ اللّه»[۲۶۲]

. إضافۀ إلی الآیۀ المذکورۀ فقد فسرت الشجرۀ الخبیثۀ فی الآیۀ ۲۶ من سورۀ إبراهیم علی ضوء بعض الروایات ببنیأمیۀ.[۲۶۳]

نفحات الولایۀ، ج۳، ص: ۱۵۰

ب) بنیأمیۀ فی أحادیث العامۀ

جاء فی کتاب کنزالعمال من مصادر العامـۀ عن سـعید بن عامر قال: أغلظ أبوبکر یوماً لأبیسـفیان فقال له: یا أبابکر لأبیسـفیان تقول هذه المقاله. قال یا أبت إنّ اللّه رفع بالإسلام بیوتاً ووضع فکان بیتی فیما رفع وبیت أبیسفیان فیما وضع.[۲۶۴]

وعن رسولاللّه صـلی الله علیه و آله أنّه قال: إنّ أول من یبـدل سـنّتی رجل من بنیأمیۀ.[۲۶۵] وقال صـلی الله علیه و آله: إنّ أهلبیتی سیلقون من بعدی من أمتی قتلًا وتشریداً، وإنّ أشد قومنا لنا بغضاً بنوأمیۀ وبنو المغیرۀ وبنو مخزوم.[۲۶۶]

وعن علی علیه السلام قال: لکل أُمّۀ آفۀ وآفۀ هذه الامّۀ بنوأمیۀ.[۲۶۷]

ج) بنیأمیۀ فی نهجالبلاغۀ

تعرض أمیرالمؤمنین علی علیه السـلام فی عدّۀ خطب من نهجالبلاغۀ لبنیأمیۀ والمفاسد التی کبدوها الإسـلام والمسـلمین، ومن ذلک ما أورده فی الخطبۀ ۷۷ و ۹۳ و ۹۸. فقد وصف علیه السلام حکومۀ بنیأمیۀ باکبر وأبشع الفتن علی الامّۀ الإسلامیۀ فقال علیه السلام:

«ألا وإنّ أخوف الفتن عندی علیکم فتنهٔ بنی أمیّهٔ فإنّها فتنهٌ عمیاء مظلمهٌ ...».

د) مفاسد حکومهٔ بنیأمیهٔ

اشارهٔ

کثیرهٔ هی المفاسد والجنایات التی إرتکبتها حکومهٔ بنیأمیهٔ فی التأریخ الإسلامی، بحیث لایسع المقام الخوض فی تفاصیلها، وعلیه نکتفی بالإشارهٔ هنا إلی بعضها:

۱- انحراف الخلافهٔ عن مسارها الصحیح واستبدالها بالسلطهٔ

نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۱۵۱

فقد صرح معاویهٔ بأنّه استولی علی الخلافهٔ بالسیف لامن خلال محبّهٔ الناس أو رضاهم عن حکومته.[۲۶۸] وقال الجاحظ أنّ معاویهٔ أسمی العام الذی ولی فیه الخلافهٔ بعام الجماعهٔ والحال کان ذلک العام، عام الفرقهٔ والقهر والغلبهٔ، العام الذی أصبحت الخلافهٔ فیه وراثهٔ علی غرار حکومهٔ کسری وقیصر[۲۶۹]. وقد دفعت حیاهٔ الترف والبذخ لمعاویهٔ ونهجه فی الخلافهٔ لئن یخاطبه سعد بن أبیوقاص بالملک حین کان یرد علیه.[۲۷۰] وقد عد المؤرخون معاویهٔ أول ملک.[۲۷۱]

۲- مسخ وتحریف الحقائق والمعارف الإسلامیهٔ

مثل:

۱- سب أمیرالمؤمنین علی علیه السلام ووضع الأحادیث فی ذمه ومدح معاویهٔ. وروی أنّ قوماً من بنیأمیهٔ قالوا لمعاویهٔ: إنّک قد بلغت ما أملت، فلو کففت عن لعن هذا الرجل فقال: لا واللَّه حتی یربو علیه الصغیر، ویهرم علیه الکبیر، ولا یذکر له ذاکراً فضلًا.[۲۷۲] ولما سئل مروان عن ذلک أجاب: لایستقیم لنا الأمر إلّابذلک.[۲۷۳] وذکر ابن أبیالحدید أنّ معاویهٔ وضع قوماً من الصحابهٔ وقوماً من التابعین علی روایهٔ أخبار قبیحهٔ فی علی علیه السلام تقتضی الطعن فیه والبراءهٔ منه؛ وجعل لهم علی ذلک جعلًا یرغب فی مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبوهریرهٔ وعمرو و بن العاص والمغیرهٔ بن شعبهٔ ومن التابعین عروهٔ بن الزبیر[۲۷۴].

۲- إشاعهٔ مذهب الجبر بین المسلمین، فقد صرح معاویهٔ أن لافائدهٔ من السعی والعمل فکافهٔ الأمور بیداللَّه ۲۷۵]، ولایقصد معاویهٔ من هذا الکلام المسائل العقائدیهٔ، بل یهدف إلی فرض خلافته علی الناس، حیث قال:

«هذه الخلافهٔ أمرٌ من أمر اللّه وقضاءٌ من قضاء اللّه»[۲۷۶]

؛ الأمر الذی جعل زیاد بن أبیه والی معاویهٔ علی البصرهٔ والکوفهٔ یخاطب الناس بأنّه

نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۱۵۲

یدافع عنهم من خلال السلطنه التی منحهم اللَّه إیاها.[۲۷۷]

۳- قتل کبار الشخصیات الإسلامیهٔ وأئمهٔ الدین کالإمام الحسن علیه السلام والإمام الحسین علیه السلام وزید بن علی بن الحسین علیه السلام وحجر بن عدی.

۴- قصف الکعبهٔ والمسجدالحرام بالمنجنیق علی عهد یزید.

۵- سلب الامّهٔ أمنها واستقرارها. فقد شاع علی عهد زیاد بن أبیه الد عبداللَّه فی العراق المثل المعروف:

«أنج سعد فقد هلک سعیدٌ»

الذى يرمز إلى سفك دماء الأبرياء بدون حق.[۲۷۸]

۶- تعذيب أبناء الامّة الإسلامية وممارسة ألوان الاهانة من قبيل كوى وجه وعنق بعض الشيعة، وهذا ما فعله الحجاج بن يوسف بأنس بن مالك وسهل بن سعد وجابر بن عبداللَّه الانصارى لحبّهم لعلى عليه السلام.[۲۷۹] وخلاصة القول فانّ جنايات ومفاسد بنى‌أمية أكثر من أن تحصى، وما مر معنا غيض من فيض جرائم بنى‌أمية، ولانرانا نبالغ إذا قلنا أنّها تتطلب عدّة كتب ومجلدات. والعجيب أن بعض المغفلين والجهال يرون هذه الحكومة من قبيل الحكومات الإسلامية؛ الأمر الذى يكشف عن ضحالة أفكارهم وعدم إطلاعهم على السلوكية المنحرفة لبنى‌أمية.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۵۳

الخطبة[۲۸۰] الثامنة و السبعون

اشارة

ومن دعاء له عليه السلام

من كلمات كان عليه السلام يدعو بها

نظرة إلى الخطبة

يشتمل كلامه عليه السلام على أربعة أدعية عظيمة، تفيد بعض القرائن أنّ الإمام عليه السلام كان يتلوا كراراً هذه الأدعية ويتضرع بها إلى اللَّه سبحانه وتعالى. طبعاً صحيح أن الإمام عليه السلام معصوم ولايصدر عنه أى ذنب أو معصية علانية أو خفية، فى الباطن أو الظاهر باللسان أو بالعين، إلّا أنّ مقامه لدى الحق سبحانه يجعله يخشى الغفلة عن أدنى مصداق لترك الاولى فيسأل اللَّه الرحمة على الدوام. أضف إلى ذلك فانّ كلماته تعليمية لعموم الاُمّة لتتعرف على كيفية الاسلوب الذى تناجى به خالقها، كما تفيض عليها بعض المعارف والعلوم والمضامين الإسلامية.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۵۵

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى ما أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّى فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَیَّ بِالْمَغْفِرَةِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى ما وَأَیْتُ مِنْ نَفْسِی ولَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِی اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِی ما تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَیْکَ بِلِسانِی ثُمَّ خالَفَهُ قَلْبِی اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِی رَمَزاتِ الْأَلْحاظِ وَسَقَطاتِ الْأَلْفاظِ وشَهَواتِ الْجَنانِ وهَفَواتِ اللِّسانِ».

الشرح والتفسير

من الأدعية التربوية للإمام على عليه السلام

أوردنا سابقا أنّ الإمام عليه السلام يسأل اللَّه سبحانه العفو والمغفرة من أربعة أشياء والتى يشكل كل واحد منها فى الواقع مشكلة من المشالك الأخلاقية المهمة والعقبات المعنوية التى تعترض سبيل الإنسان ومما لاشك فيه أنّ الإنسان إذا تغلب على هذه العقبات فانه سيبلغ شاطئ الأمان وينال الفلاح والسعادة. فقد استهل دعائه عليه السلام بالقول:

«اللّهمّ اغفرلى ما أنت أعلم به منّى، فإن عدت فعد علىّ بالمغفرة»

فرصيد الإنسان هو النسيان فيقارف الكثير من الذنوب والمعاصى إلى درجة نسيانها وعدم الاعتذار إلى اللَّه منها وطلب العفو والمغفرة، أو الاصرار عليها وعدم الكف عنها دون الالتفات إليها حتى تثقل كاهله. وهنا ينبغى التضرع إلى اللَّه سبحانه:

«اللّهم اغفر لى ما انت أعلم به منى، فان عدت فعد على بالمغفرة»

كما ينبغى استحضار الذنوب والمعاصى وسؤال اللَّه العفو والصفح. وممّا لاشك فيه أنّ هذا النسيان آفة سعادة الإنسان، بحيث يؤدى إلى بعض المشاكل التى يتعذر على الإنسان حلها، ومن هنا يتوجب على الإنسان الاستعاذة باللَّه من هذا النسيان، وسؤال اللَّه العافية من الذنوب المنسية، وقد أبلغ القرآن فى التعبير عن مثل هذه الذنوب فقال:

«يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۱۵۶

فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ»[۲۸۱]. أمّا بعض شرّاح نهج‌البلاغة فقد ذهبوا إلى أنّ المراد بالعبارة الذنوب التى يجهل الإنسان كونها ذنوباً، أو إذا علم بها فان علمه باهت لايكترث له بهذا الشأن. ويرد على أصحاب هذا التفسير أنّ الذنوب التى يقارفها الإنسان جهلا مغفورة فلا حاجة لسؤال اللَّه المغفرة عليها، إلّاأنّهم أجابوا عن ذلك بقولهم إن كان هذا الجهل نابعاً من القصو وكان الجاهل قاصر فالأمر كذلك، أما إذا كان ذلك الجهل يستند إلى التقصير وكان الجاهل مقصراً ولم يجد نفسه فى الالمام بالعلم فانّ العقاب واللوم والتوبيخ يطال مثل هذا الجاهل، ومن هنا عليه أن يسأل اللَّه الفعو والصفح عن ذنوبه أو أن يكون المراد الذنوب التى ينسى الإنسان كونها ذنوباً أو يخطئ فى تشخيصها بحيث يجب عليه طلب المغفرة إن كان ذلك النسيان هذا الخطأ وليد التقصير؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «رَبَّنا لا تُؤاخِذنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا»[۲۸۲] والواقع هو أنّ التفسير الذى أوردناه فى البداية يعود إلى نسيان. موضوع الذنب، بينما يعود التفسير الثانى إلى حكمه. إلّاأنّ التفسير الأول أنسب من التفسير الثانى، وإن قال جمع من الشرّاح بالتفسير الثانى. وأخيراً يبقى احتمال الجمع قائماً وقد سأل الإمام عليه السلام اللَّه العفو عنها جميعا. أمّا الدعاء الثانى فقد تضمن الاشارة إلى موضوع مهم آخر والذى يكمن فى عدم وفاء الإنسان بالعهود والمواثيق التى يقطعها على نفسه أو مع ربّه فقال عليه السلام:

«اللّهمّ اغفرلى ما وأيت من نفسى، ولم تجد له وفاءً عندى»[۲۸۳]

قد تتكون العبارة

«ما وأيت من نفسى»

اشارة إلى العهود والمواثيق التى يتمثل طرفيها بنفس الإنسان، كأن يعاهد نفسه، ومما لاشك فيه أن الالتزام بهذه العهود والعمل بمضامينها يكشف عن شخصية الإنسان عزمه على ممارسة الانشطة والفعاليات، بينما يفيد

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۱۵۷

نقضها ضعف إرادته فيتوجب عليه الاستعاذة باللَّه منه. أو يمكن أن يكون طرفها الأول الإنسان والطرف الآخر اللَّه سبحانه تعالى بحيث يكون هذا المعنى مقدرا فى العبارة السابقة[۲۸۴]، وعلى وهذا الضوء فهى إشارة إلى جميع العهود والمواثيق الشرعية التى يعاهد الإنسان فيها اللَّه سبحانه ولايلتزم بها. وذلك لأنّ الكثير من الأفراد يعاهدون اللَّه فى الشدائد والنوائب فاذا ما كشفت عنهم نسوا تلك العهود؛ الأمر الذى صرح به القرآن الكريم قائلًا: «وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصّالِحِينَ* فَلَمّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ»[۲۸۵]. أمّا فى الدعاء الثالث فالإمام عليه السلام يستعيذ باللَّه من الرياء والنفاق ويسأل اللَّه العفو والمغفرة فيقول:

«اللّهمّ اغفر لى ما تقرّبت به إليك بلسانى، ثمّ خالفه قلبى»

فالتظاهر بالأعمال الحسنة- من خلال اللسان أو الرياء فى العبادات وسائر الطاعات- يعد من أخطر شعب الشرك، الأمر الذى أكد التحذير منه فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، غير أنّ الذى يؤسف له هو أنّ الرياء والنفاق من الأعمال الشائعة التى تكبد الإنسان أضرارا تفوق التصور، حيث يفيد هذا الأمر أنّ مثل هذا الإنسان لايؤمن فى الواقع بتوحيد اللَّه على مستوى الأفعال، ولا غرو فهو يرى العزة والذلة بيد الناس ويؤثر ولاية الناس ومحبتهم على ولاية اللَّه ومحبته. بينما إذا علم هذا الإنسان بأنّ العزة والذلة بيداللَّه،

يعز من يشاء ويذل من يشاء وأنّ القلوب بين إصبعين من أصابع اللَّه يقلبها كيف يشاء، فانّه لايسأل سوى اللَّه ولا يعمل إلّاله سبحانه. ولا يقتصر التناقض بين القول والنية بالنسبة للرياء، بل إنّ كل تناقض إنّما يشمل الظاهر والباطن، فكل ما ينطق به الإنسان ولايلتزم به حين العمل، أو أن يعزم على خلافه إنما يشير إلى تناقض الظاهر مع الباطن، وإن لم يكن قد قصد الرياء. فقد صرح القرآن الكريم بهذا الخصوص قائلًا: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ»[۲۸۶] أننا لنناجي الحق سبحانه وتعالى فى صلواتنا اليومية «إِيَّاکَ نَعبُدُ وَإِيَّاکَ نَستَعِين» والحال قد تعيش قلوبنا عباة اخرى وإستعاذة ثانية، كما نتشهد فى صلواتنا بالوحدانية للَّه «أشهد أن لا إله إلّااللّه وحده لا شريک له»

نفحات الولايۀ، ج۳، ص: ۱۵۸

بينما نعيش الشرک فى إيماننا ومن ذلک الشيطان المتمثل بهوى النفس الذى يلقى بظلاله على جميع زوايا الحياة البشرية، والدعاء الوارد فى الخطبة من الدروس القيمة التى تحذر من هذا الخطر العظيم. وأخيراً يستغفر اللَّه سبحانه من أربعة أشياء ويستعيذ باللَّه منها «اللّهمّ اغفر لى رمزات ۲۸۷] الألحاظ،[۲۸۸] وسقطات ۲۸۹] الألفاظ، وشهوات الجنان، وهفوات ۲۹۰] اللّسان»

فالعبارة إشارة إلى ذنوب العين والقلب واللسان التى قد تكون من أخطر الذنوب والمعاصى. فنظرات الازدراء للمؤمنين والإشارات المشوبة بالغرور والاستخفاف، وارسال الكلام على عواهنه دون إجالة الفكر والذى قد يقود إلى الاضغان والاحقاد وإثارة الخلافات والتوترات واراقة ماء وجه الآخرين إلى جانب النزوع نحو الشهوات والرغبات التى تقذف بالإنسان فى أودية الخطيئة والاثم ومقارفة بعض المعاصى التى تفرزها حالة العبثية فى الحديث والتى تؤدى إلى عدّة مفاسد، كل هذه الامور من أعدى أعداء سعادة الإنسان وفلاحه، والإمام عليه السلام حين يسأل اللَّه العفو عن هذه الامور إنّما يهدف التحذير العملى من مغبة هذه الامور الأربعة وعدم الاستخفاف بمدى خطورة ذنوبها. وأما الفارق بين رمزات الالحاظ وشهوات الجنان فهو واضح، غير أنّ هنالک خلاف بين شرّاح نهج‌البلاغة بشأن الفارق بين

«سقطات الالفاظ» و «هنوات اللسان»

. فقد ذهب المرحوم مغنية إلى أنّ المراد واحد، بينما ذهب المرحوم الشارح الخوئى إلى أنّ المراد بسقطات الالفاظ هو الالفاظ التى لاتترتب عليها فائدة فى الآخرة سواء كانت محرمة أم لم تكن كذلک، أمّا هفوات اللسان فهى الكلام الحرام من قبيل الغيبة والنميمة والبهتان والاستهزاء والسب والشتم والتهمة. ولكن إستناداً إلى أنّ سقطات جمع سقط بمعنى الشئ التافه الذى لا قيمة له، يبدو أن العبارة

«سقطات الالفاظ»

إشارة إلى الكلام العبثى واللغو والركيک أحياناً الذى يصدر من الأفراد اللا ابالیین الجهال؛ أمّا هفوات اللسان وبالاستناد إلى مفهوم الهفوة الذى يعنى الزله، فان العبارة تشير إلى ما يجرى

نفحات الولايۀ، ج۳، ص: ۱۵۹

على لسان الإنسان من كلمات دون التأمل والتفكير، ولعلها تختزن بعض الذنوب الخطيرة كالغيبة والتهمة والاستهزاء بالمؤمن ۲۹۱].

فصل فى الدعاء ودوره فى حياة الإنسان

يلعب الدعاء دورا هاما فى تربية النفس البشرية وسوقها نحو مدارج السمو والرفعة والكمال، وهى الحقائق التى قد يغفلها أغلب الداعين. والدعاء كمطر الربيع الذى يسقى بغيثه أرض القلوب فتتفتح أوراق الإيمان والاخلاص والعشق والعبودية والدعاء هو النسيم القدسى الذى يطبع الروح بمعانى الطهر والعفة إلى جانب القوة والقدرة التى تهب ا لعظام الرميم الحياة كدعاء السيد المسيح عليه السلام، ناهيک عما تشتمل عليه بعض الأدعية من فضائل أخلاقية ومعارف ربانية تسبغ بها النفس فتمنحها الهدوء والسكينة فالنفس

حيـة بالـدعاء نابضة بالورع والتقوى ومن هنا فانّ الدعاء هو الأكسير العظمى وكيمياء السـعادة وماء الحياة وروح العبادة، حتى ورد فى الحديث أن

«الدعاء مخ العبادة»[۲۹۲]

والجـدير بالـذكر أنّ القرآن يرى قيمـة الإنسـان تكمن فى دعائه وتضـرعه إلى اللَّه: «قُلْ ما يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلا دُعاؤُكُمْ»[۲۹۳]. وكيف لايكون الدعاء بهذه الأهمية وهو يدعو الإنسان إلى معرفة اللَّه وعشق والمعبود بغية نيل رحمته والظفر بعفوه ومغفرته من خلال التوسل باسـمائه الحسنى، من جانب آخر فانّه يحث الداعى على التحلى بشرائط الاستجابة وفى مقدمتها التوبة من الذنوب والمعاصى والتعفف عن مقارفتها. أضف إلى ذلك فانّ الدعاء يدفع بصاحبه إلى إزالة موانع الاستجابة ويتمثل أبسطها فى المواظبة على الحلال فى المأكل وا لملبس وإجتنـاب المـال الحرام والسـعى لأـداء حقوق الآـخرين وترك الـذنوب والمعاصـى من قبيل الغيبـة والنميمـة وشـرب الخمر وقطيعـة الرحم التى تعدّ من موانع إسـتجابة الدعاء. ولذلك يمكن القول إنّ ما يترتب على ذات الدعاء بالنسـبة للإنسان يفوق بكثير ما يعود عليه من إستجابته. وناهيك عن كل ماسبق فانّ

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۶۰

المضامين العميقـة التى تضـمنتها أدعية أئمة الدين تعدّ دروساً قيمة والمتاع العظيم الذى يتزود به السالكين إلى اللَّه سـبحانه على سبيل المثال إذا ألقينا نظرة إلى دعاء يوم الأحد من أدعية أيام الاسبوع تطالعنا العبارة

«و اجعل غدى وما بعده أفضل من ساعتى ويومى»

التى ترشدنا إلى أهمية العمر وضـرورة إغتنام كل لحظاته بحيث تكون اللحظة الحاضرة أفضل من الماضية والقادمة أعظم من الحاضرة وهكذا، وبخلافه فمن العبث أن يرى الإنسان لعمره معنى دون أنّ يستثمر أوقاته. أو تطالعنا هذه العبارة فى دعاء كميل

«اللّهمّ اغفرلى الذّنوب الّتى تحبس الدّعاء»

فنقف على حجاب النفس الـذى يحول دون إسـتجابة الـدعاء؛ الأمر الذى يجعلنا نفتش عن مواضع الضـعف فى ذاتنا. كما نرى أنفسـنا مطالبين باستئناف نهارنا على أساس نور الهداية ونختتمه بالغلبة على العدو؛ الأمر الذى ورد فى دعاء عرفة

«واجعل غناى فى نفسى»

أن غنى النفس ليس بالشـئ الـذى يتحقق فى الخارج بواسـطة جمع الثروات الطائلة وسـكن القصور الفخمة ونيل المناصب الرفيعة، بل لابدّ من البحث عن الغنى فى الذات التى ألا تشبع وتعيش الغنى من ذاتها فانّها تبقى عطشـى وان صبت عليها الدنيا بما فيها، فلا تكون سوى كالمصاب بمرض الاستسـقاء فيطلب الماء دائماً بينما تسـتقر روح الإنسان ويكفيها أدنى ما فى هـذه الـدنيا إذا تنورت بالمعارف الإلهية. كما نقرأ فى دعاء الندبة:

«واجعل صلاتنا به مقبولة وذنوبنا به مغفورة ودعائنا به مستجاباً واجعل ارزقنا به مبسوطة وهمومنا به مكفية وحوائجنا به مقضية»

فنفهم أن كافة الابواب مغلقة بوجوهنا دون إدراك حقيقة الولاية، فقبول صـلاتنا وغفران ذنوبنا واجابة دعائنا وسعة رزقنا وتفريج همنا مرهون بالولاية، يالها من حقيقة عظيمة؟!

وإذا عدنا قليلًا إلى الدعاء الذى نحن بصدره نرى أنّ علياً عليه السلام قد قدم شرحاً وافياً واضحاً للدروس الأخلاقية والفضائل الانسانية من خلال هـذه العبارات الأربع العميقـة المعنى إلى جانب التحـذير من الرذائل الأخلاقيـة التى تقود الإنسان إلى السـقوط. نعم فادعية المعصومين عليه السلام على الدوام دروس فى التربية والتهذيب وزاد ومتاع السالكين إلى اللَّه.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۶۱

الخطبة[۲۹۴] التاسعة و السبعون

اشارهٔ

ومن كلام له عليه السلام
قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج وقد قال له: إن سرت يا أميرالمؤمنين فى هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادک، من طريق علم النجوم. فقال عليه السلام:

نظرهٔ إلى الخطبهٔ

يتضح مما مر معنا أنّ ما ورد فى هـذه الخطبهٔ ينفى على نحو الاجمال صحهٔ تكهنات المنجمين ويراها تتناقض وتوحيد اللَّه، أو بعبارهٔ اخرى فانّ مزاعم المنجمين فى تنجيمهم هى من قبيل المسائل الخرافيـهٔ المضادهٔ القرآن وعلى الامـهٔ الحذر من التعامل مع هذه الأفكار وأنّ أساس النصر والغلبهٔ يكمن فى التوكل على اللَّه وتشتمل الخطبهٔ على قسمين، يخاطب الإمام فى القسم الأول المنجمين وفى الثانى الناس.
نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۱۶۳

القسم الأول: خطأ المنجمين

«أَ تَزْعُمُ أَنَّکَ تَهْدِى إِلَى السَّاعَهِٔ الَّتِى مَنْ سارَ فِيها صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ؟
وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَهِٔ الَّتِى مَنْ سارَ فِيها حاقَ بِهِ الضُّرُّ؟ فَمَنْ صَدَّقَکَ بِهَذا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ، واسْتَغْنَى عَنِ الاسْتِعانَهِٔ بِاللَّهِ فِى نَيْلِ الْمَحْبُوبِ ودَفْعِ الْمَكْرُوهِ؛ وتَبْتَغِى فِى قَوْلِکَ لِلْعامِلِ بِأَمْرِکَ أَنْ يُولِيَکَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لِأَنَّکَ- بِزَعْمِکَ- أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَهِٔ الَّتِى نالَ فِيها النَّفْعَ وأَمِنَ الضُّرَّ!!»
الشرح والتفسير
ذكرنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام ردّ بهذا الكلام على من قال له حين عزم على المسير إلى الخوارج: خشيت أن لاتظفر بمرادک من طريق على النجوم إذا خرجت فى هذه الساعهٔ.
فرفض الإمام عليه السلام ذلک رفضاً قاطعاً، ثم تطرق إلى العواقب الفكريهٔ الوخيمهٔ التى تترتب على مثل هذا التفكير والاعتقاد بالتأثير الـذى تلعبه النجوم على مصير الإنسـان، فيحـذر ذلـک المنجم إلى جانب الناس من مغبـهٔ هـذا الأمر. فقـد إستهل كلامه عليه السـلام بالقول:
«أتزعم أنّک تهدى إلى السّاعهٔ الّتى من سار فيها صرف عنه السّوء؟ وتخوّف من السّاعهٔ الّتى من سار فيها حاق [۲۹۵] به الضّرّ؟»
من الواضح أنّ هذا الاستفهام إستنكارى؛ أى لن يحصل قط مثل هذه المعارف عن طريق علم النجوم. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نتيجتين تترتبان على هذا الاعتقاد
نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۱۶۴
السيئ
«فمن صدّقک بهذا فقد كذّب القرآن، واستغنى عن الاستعانهٔ باللَّه فى نيل المحبوب و دفع المكروه»
ولا يقتصر الأمر على ذلک بل
«و تبتغى فى قولـک للعامـل بـأمرک أن يوليک الحمـد دون ربّه، لِأنّک- بزعمک- أنت هـديته إلى السّاعهٔ الّتى نال فيها النّفع، وأمن الضّرّ!!»

هاتـان النتيجتـان الخطيرتـان المترتبتـان على زعم المنجم امّـا فغرزهمـا طبيعـة الفـارق الكامن- حسب إعتقاد المنجمين الماضـين- بين أحوال النجوم وأحكامها. وتوضيح ذلك أنّ علم النجوم كان سائداً بين أفراد البشر منذ قديم الزمان، ولعل أولئك الأفراد الذين عاشوا قبل التأريخ قـد كان لهم علم ومعرفـة بالنجوم، إلّاأنّ علم النجوم قـد تطور تطوراً ملحوظاً كسائر العلوم الاخرى بعـد إكتشاف الكتابة، فحصـلت الاكتشافات وتمّ التعرف على الأنظمـة الخاصـة التى تحكم الكواكب السيارة والمنظومـة الشمسـية والمجرات والثوابت حتى ظهر التقـويم الـذى يسـتند إلى حركـة النجـوم والقمر والشـمس. أمّـا إقـتران بعض حركـات النجـوم ببعض الحوادث جعـل طائفـة من المنجمين تعتقـد بالتدريـج بـأنّ هنالـك تأثير لحركـة النجوم فى مصـير الإنسان، ثم إتسع نطاق هـذا الاعتقاد حتى قيل بأنّ لكل إنسان كوكب فى السـماء وأنّ مصيره يعتمد إلى حد بعيد على حركات هذا الكوكب، حتى ظهر علم جديد يصطلح عليه باحكام النجوم إلى جـانب أحوال النجوم. وأحوال النجوم قائمـة على أسـاس المشاهـدات والمحاسـبات المتعلقـة بحركـة الكواكب وشـروقها وافولهـا؛ أمّا أحكـام النجوم فيراد بهـا العقائـد الـتى تنسب حوادث الأرض ومصـير من يعيش عليهـا إلى النجوم. ولـم تمض مـدة وانطلاقـا من هـذا الاعتقاد إلى عبادة النجوم والاسـتعانة بها من أجل حل المشاكل، وقـد ظلت مثل هـذه الافكار والعقائـد سائـدة فى أذهان البعض حتى إبان ظهور الدعوة الإسـلامية وشروق شمس التوحيد التى أضاءت ظلمات الشرك، فكان بعض المنجمين يخبرون عن بعض الأحداث الآتية من خلال إسـتعانتهم بحركات النجوم، ونموذج ذلك ما قاله هذا المنجم لأميرالمؤمنين عليه السلام استناداً لحركة النجوم فى أنّه لايظفر بمراده إذا تحرك فى تلك الساعـة لقتال الخوارج فى النهروان، ففند الإمام عليه السـلام ما قاله المنجم ثم خالفه عملياً بأن سار فى تلك الساعـة إلى قتال الخوارج فهزمهم هزيمـة منكرة وانتصـر عليهم ذلك النصـر الحاسم. نكتفى بهـذا المقدار على أن نعرض له بتفصيل أكثر آخر الخطبة فى بحث التأملات.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۶۵

القسم الثانى: اجتناب نبوءات المنجمين

اشارة

«أَيُّهـا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وتَعَلُّمَ النُّجُوم، إلَّا مـا يُهْتَـدَى بِهِ فِى بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَـا تَـدْعُو إِلَى الْكَهانَـةِ، والْمُنَجِّمُ كالْكـاهِنِ والْكـاهِنُ كـالسَّاحِرِ، والسَّاحِرُ كالْكافِرِ، والْكافِرُ فِى النَّارِ، سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ».

الشرح والتفسير

يحـذر الإمام عليه السـلام أفراد الامّـة من تعلم النجوم، والواقع هو أنّ الإمام عليه السـلام يفرق أحوال النجوم عن أحكامها، إلى جانب بيان ما تقود إليه من مساوئ

«أيّها النّاس، إيّاكم وتعلّم النّجوم، إلَّا ما يهتدى به فى برٍّ أو بحرٍ»

فعلم النجوم والتعرف عليه والاسـتفادة من أوضاع النجوم فى السـماء بغية الاهتداء فى البحار والصـحارى وسائر الامور المشابهة القائمة على أساس وضع الكواكب ليست ممنوعـة فحسب، بل هى جزء من العلوم الضـرورية، وذلك لصـلتها الوثيقـة بنظام المجتمع البشـرى. القرآن من جانبه أشار إلى هـذا الأمر بصـفته نعمة إلهية وآية من آيات التوحيد فقال: «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ»[۲۹۶]. كما قال فى موضع آخر: «وَهُوَ الَّذِى جَعَـلَ لَكُم النُّجومَ لِتَهْتَـدُوا بِها فِى ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالبَحْرِ قَـدْ فَصَّلْنا الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»[۲۹۷] فمثل هذه التعبيرات تفيد حث القرآن للإنسان على الانفتاح على هذا النوع من علم النجوم، أمّا المحظور فما عرف بأحكام النجوم؛ أى كشف بعض الأشـياء من أوضاع الكواكب وكيفية إرتباطها مع بعضها (قربها وبعدها من بعضها البعض الآخر) والأخبار عن بعض الأحوادث بالنسبة

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۶۶

للأفراد والمجتمعات البشرية، وبالطبع فان بعضها كلى يتوصل إليه دون النظر إلى أوضاع الكواكب، أو جزئى يبين من خلال الحدس والظن، وغالباً ما يثبت خلافها كما وقفنا على ذلك فى هذه الخطبة. ومن هنا إختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«فانها تدعو إلى والكافر فى النار، سيروا على اسم اللّه».

والمراد بالكهانة الأخبار عن الامور الخفية وكشف الحوادث المستقبلية وزعم العلم بالأسرار ويقال لمن يزعم هذه الامور «الكاهن»

. وقد كان هناك الأفراد الذين يزعمون هذه الامور فى العصر الجاهلى كشق وسطيع، وكان متعارف بين الكهنة أن يؤدوا كلماتهم الباطلة بنوع من السجع والقافية والألفاظ الطنانة الرنانة لتفعل فعلها فى قلوب الناس، ومن هنا نعت المشركون رسولاللّه صلى الله عليه و آله بالكاهن وذلك لا ـ خباره عن الامور بواسطة الوحى، إضافة إلى أنّه كان يتلوا عليهم الآيات القرآنية التى تمثل ذروة الفصاحة والبلاغة فيتعللون بهذه الترهات إستكباراً عن قبول الحقيقة. وبناءاً على ما تقدم فانّ علم النجوم (يعنى علم أحكام النجوم) يختزن الكهانة، وعمل الكاهن يشبه إلى حد بعيد عمل الساحر، لأنّ الاثنين يعتمدان الحيلة والخدعة لاستغفال السذج من الناس، والساحر كالكافر، لأنّه لايعرف للتوكل على اللّه من معنى بينما يستند إلى امور اخرى ولا يرى للّه من تأثير عملى على مصيره، ويعلق هذا التأثير على امور اخرى يتطلبها السحر، ومن هنا فان مصير هؤلاء المنحرفين هو النار وبئس المصير.

تأمّلات

۱ـ ما هو علم النجوم؟ وما المحظور منه؟

السؤال الأول الذى يطرح نفسه هنا: ما المراد بعلم النجوم الذى عرض أميرالمؤمنين على عليه السلام بذمه بشدّة فى هذه الخطبة حتى عدّه بمصاف الكفر؟ قطعاً ليس المراد العلم بأحوال النجوم وحركاتها وابتعادها وإقترابها من بعضها؛ لأنّه وكما أشرنا سابقاً فان حركات النجوم وأوضاعها فى السموات من الآيات الإلهية، وقد دعى الناس للاهتداء بها فى ظلمات البحار والصحارى، كما أشير إلى ذلك فى ذيل هذه الخطبة أيضاً. فالوقوف على أسرار عالم الخلقة والتفكر فى خلق السموات والأرض لايستحق الذم فحسب، بل يعد من الامور التى دعى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۶۷

أولى الألباب إلى تأملها «إِنَّ فِى خَلْقِ السَّموات وَالأَرضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِى الأَلْبابِ»[۲۹۸]. وعليه فما شدد على ذمه شئ آخر هو العلم بأحكام النجوم، ويراد بها العقائد التى تنسب حياة الإنسان ومصيره فى الكرة الأرضية إلى أوضاع النجوم وأحوالها، والإخبار عن بعض الحوادث استنادا إلى حركة الأفلاك، ولا يقتصر هذا الإخبار على المسائل العامة والاجتماعية، بل يتجاوزها إلى الامور الشخصية والجزئية؛ ومن هنا نرى إستعانة الملوك والسلاطين بالمنجمين الذين يسعون لقراءة أوضاع الكواكب على ضوء رغبات أولئك الملوك، فاذا ما نظروا إلى الكواكب أخبروا بأنّها تشير إلى سلامة صاحب السعادة والسمو وتنامى قوته وشوكته، فاذا ما فرغوا من الأخبار الكلية عمدوا إلى بعض الجزئيات التى يمكن إطلاقها حتى من قبل عوام الناس دون تأمل أوضاع الكواكب من قبيل فقدان بعض الشخصيّات وبروز الاختلاف فى بعض أصقاع العالم وغلاء أسعار بعض الأشياء وإصابة بعض الزرع بالافات وبرودة الجو فى الشتاء وحرارته فى الصيف وما إلى ذلك. وهذه هى ا لتكهنات والأخبارات التى قد تصيب وقد تخطئ وقد ورد ا لذم عليها فى الروايات الإسلامية ولا سيما فى هذه الخطبة.

۲- الكهانة والكفر

السؤال الآخر الذى يرد بهذا الشأن وهو فساد الاعتقاد بوجود الإرتباط بين حياتنا والنجوم، بل ليس هنالك من منطق يقر بذلك؛ ولكن ما سبب كل هذا التشدد فى الذم وجعل هذه المسألة فى مصاف الكفر؟ ولا تصناح الاجابة على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى هذه النقطة وهى أنّ أصحاب نظرية الإرتباط (بين الحوادث وحركة الافلاك والنجوم) على عدة أقسام:

۱- من يعتقد بأزلية وألوهية الكواكب وأنّها ذات تأثير على عالم الوجود وحياة الإنسان والحوادث التى تقع فى الأرض.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۶۸

۲- من يعتقد بتدبير الكواكب وإدارتها لعالم الوجود، وان سلبها الاستقلال وأسند فعلها إلى إذن اللَّه.

۳- من يعتقد بأنّ لها تأثير طبيعى على الأرض، وكما أنّ حرارة الشمس تؤدى إلى نمو الأشجار وحملها للثمار والفاكهة، فانّ لاوضاع الكواكب تأثير فى شؤون حياة الإنسان وقد إنكشف لنا بعضه بينما ظل البعض الآخر خافياً علينا.

۴- من لايعتقد بتأثيرها فى شؤون حياة الإنسان، إلّاأنّها تستطيع أن تخبر عن الحوادث الحاضرة والماضية وبعبارة أخرى فهى إمارات وعلامات على الحوادث لا- أنّها علل وأسباب. فمما لاشك فيه أنّ الطائفة الاولى فى زمرة الكفار وإن اعتقدت باللَّه سبحانه، لأنّها مشركة قد جعلت لها إلها آخر تعبده.

أمّا الطائفة الثانية فهى خاطئة من جهتين وان لم تكن كافرة: الاولى: أن زعمها لتأثير الكواكب على حياة الإنسان هو زعم فارغ يفتقر إلى المنطق والدليل والبرهان، الثانية: أنّ هذا الكلام يخالف ظاهر الايات القرآنية والروايات الإسلامية القطعية التى تنفى عن هذه الكواكب أى شعور وحياة وتدبير للخلق، بل تنسب تدبير الخلق والحياة والموت والرزق إلى الحكيم المتعال، ولا تتطرق إلى النجوم والكواكب والأجرام السماوية والشمس والقمر الا بصفتها آيات من آيات الحق، ولو كان لها حقا بعض العلم والحياة والقدرة والتدبير والتصرف فى العالم لإشارت الروايات والآيات إلى هذا الأمر. نعم أنّها مسخرات بأمر اللَّه ولكل وظيفته، فالشمس تشع بضيائها، والقمر يضيئ فى الليالى الظلماء و ...

وأمّا الطائفة الثالثة التى تعتقد بالتأثير الطبيعى لهذه الكواكب على أوضاع الأرض، فهو كلام لايخالف الواقع، إلّاأنّ السؤال المطروح هو ما مدى هذا التأثير واين؟ والحق أنّ ذلك ليس واضحا لدينا. نعم نعلم أن لضوء الشمس تأثير على كل شئ، كما القمر أثره فى ظاهرة المد والجزر، وأنّ للنجوم تأثير، ولكن هل لهذه الكواكب تأثير فى حوادث حياتنا أم لا؟ هل للانفجارات الشمسية تأثير على الهيجان الفكرى للإنسان على وجه الكرة الأرضية، وهل لها من تأثير فى نشوب الحروب والنزاعات أم لا؟ وهكذا سائر المسائل من هذا القبيل التى لانعرف كنهها وليس لدينا رؤية واضحة عنها، وكل ما نقوله فيها إنّما هو قول بغير علم، وكلام

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۶۹

دون دليل، وعليه فانّ مثل هذا الكلام لايجوز شرعاً، إلّاأن تثبت هذه التأثيرات وما شابهها بالأدلة العلمية والقطعية. بعبارة أخرى لامانع من الأخبار عن التأثيرات الطبيعية للاوضاع الفلكية الثابتة فى الأرض وحياة الناس، وما لم يثبت يجوز التحدث عنه على مستوى الاحتمال، لا- على سبيل الحكم القطعى، عل كل حال فانّ الاعتقاد بمثل هذا التأثير ليس كفراً ولا مخالفاً لاحكام الشرع، والروايات التى صرحت بالنهى عن تعلم علم النجوم ليست ناظرة لهذا الأمر البتة، كما لم يكن المنجمون السابقون يعنون بهذا الأمر فى أحكامهم. والذى يستفاد من كلمات المنجمين السابقين أنّهم كانوا يقولون بالطبائع التى تشتمل عليها هذه الكواكب على أن لبعضها طبع حار وأخرى بارد وما شابه ذلك. ومما لا شك فيه ان القول بهذه الطبائع للنجوم إنّما نشئ من بعض الاستحسانات والعقائد، فكانوا يصدرون على ضوئها بعض الأحكام ويصرحون بأنّ الكواكب الفلانى سيقترب هذا الشهر من الكوكب الفلانى ولما كانت طبيعتيهما كذا وكذا فستشهد الأرض الحادثة الفلانية. وحيث يفتقر هذا الاعتقاد إلى الدليل والحكم القطعى لأنّه يقوم على أساساً

الحدس والاستحسان فانّ المنجمين المسلمين إنما يذكرون هذه الامور على سبيل الاحتمال ويصرحون قائلين: يحتمل ظهور مثل هذه الحوادث.

وأخيرا الطائفة الرابعة التى ذهبت إلى أنّ أحوال الكواكب والنجوم علامات على الحوادث التى تقع فى المستقبل، أو تقول جرت السنة الإلهية على وقوع الحادثة الفلانية فى الكرة الأرضية إذا حدثت بعض التغييرات فى الأفلاك والكواكب، دون أن تعتقد بالالوهية والربوبية لهذه الكواكب، وعليه فعقيدته لاتوجب الكفر، إلّاأنّ فعلهم حرام، لأنّ كلامهم يفتقر إلى الدليل وهو قول بغير علم ولا يستند سوى إلى الظن والوهم والخيال، وذلك لأننا نعلم أنّ الشرع يحرم كل قول يصدر من الإنسان دون أن يستند إلى علم ويقين وحجة شرعية «وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»[۲۹۹] كما صرح القرآن قائلًا: «أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مالاتَعْلَمُونَ»[۳۰۰] وقال بشأن الكفار «وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً»[۳۰۱]. ومن جانب آخر فاننا نعلم أنّ الغيب للّه ووحده العالم بحركة الإنسان وما يواجهه

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۷۰

من أحداث وكيف تكون عاقبته ومتى يفارق الدنيا وفى أى أرض يموت. وبالطبع فأنّ لأولياء اللّه نصيب من العلم ولاسيما بهذه الامور من خلال تعليم اللّه لهم، ولكن ليس لديهم مثل هذا العلم ببعض الحوادث من قبيل قيام القيامة أو ظهور المصلح العالمى، وليس لأىأحد من غير المعصومين عليه السلام إدعاء علم الغيب سواء استند هذا الادعاء إلى علم النجوم أو الارتباط بعالم الأرواح أو إخبار الجن وما شاكل ذلك.

ويتضح مما مر معنا لم إعتبر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة علم النجوم على أنّه مصدر الكهانة، وأنّ المنجم بمنزلة الكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر، كما اتضحت كيفية كون تصديق المنجمين نعنى تكذيب القرآن، وكيف أن الاعتماد على أقوال هؤلاء تجعل الإنسان غنياً عن التوكل على اللّه والاستعانة بذاته المقدسة. والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أورد الكلام بشأن عدّة طوائف من المنجمين التى تعتقد بالتأثير ا لمستقل للنجوم أو تربط الحوادث بأوضاع النجوم وأحوالها وما إلى ذلك من عقائد موهومة. والإسلام من جانبه لايرى من إعتبار لمثل هذا النوع من علم النجوم الذى لايستند سوى إلى الوهم والظن، فرفضه وصرح ببطلانه، بينما حث المسلمين ودعاهم إلى تعلم علوم النجوم الذى يهدف إلى الاطلاع والتعرف على أسرار النجوم وسبر أغوارها.

۳- كيفية ظهور التكهنات النجومية

ليس هناك من وضوح فى الدافع الذى يقف وراء ظهور علم النجوم بمعناه الانحرافى لا العلمى؛ إلّاأنّه يمكن اعتبار بعض الامور المؤثرة فى هذا الأمر على نحو الاحتمال، من قبيل:

۱- تصادف إقتران بعض الحوادث على الأرض مع بعض الاوضاع الفلكية.

۲- الاستحسانات والخيالات التى استندت إليها التحليلات فى أغلب القضايا الاجتماعية.

۳- إصرار البشر- ولا سيما السلاطين وأصحاب السطوة- على الالمام بالحوادث المستقبلية وما يرتبط بها.

۴- استغلال هذا الأمر لتبرير الاعتقاد بالجبر فيصرحون مثلًا بانّ ما نواجهه من حوادث

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۷۱

إنما هى معلولة لأوضاع الأفلاك، فهذه الحوادث واقعة شئنا أم أبينا.

۵- تبرير القضايا السياسة وتوظيفها فى محاربة أفكار الخصوم على أنّ ذلك من مقتضيات أوضاع الأفلاك ولا يسع أحد الوقوف بوجهها. وهنا يبرز هذا السؤال: لقد وردت عدّة روايات صرحت بتجنب عقد الزواج والقمر فى العقرب، أو ليس هذا دليلًا على الأثر

الذى تلعبه أوضاع الأفلاک على حياة الإنسان؟ ولا تبدو الإجابة على هذا السؤال صعبة. فنحن لاننكر التأثير الطبيعى لأوضاع الأفلاک على حياة الناس، لأنّ كافة أجزاء العالم وحدة واحدة يؤثر كل منها على الآخر. وكل ما قلناه هو أنّ إثبات التأثير الطبيعى لاوضاع الافلاک على حياة الناس فى كل حال ودون إستثناء إنّما يتطلب الدليل والبرهان، ولا يمكن للوهم والخيال أن يثبت شيئاً، وعليه فاذا ثبت شئ عن طريق المعصوم عليه السلام فلا مناص من قبوله بتلک الحدود. ونخلص من هذا إلى أنّ روايات

«القمر فى العقرب»

لاتتناقض وما ورد فى هذا البحث.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۱۷۳

الخطبة[۳۰۲]: الثمانون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

بعد فراغه من حرب الجمل، فى ذم النساء ببيان نقصهن

نظرة إلى الخطبة

وردت هذه الخطبة بعد الجمل وهزيمة جيش عائشة فى الجمل، حيث عرض فيها بالذم للنساء؛ قطعاً النساء اللاتى أججن نار موقعة الجمل ومن تبعهن واحتذى بأقوالهن، فالإمام عليه السلام يذم هؤلاء بفعل بعض النقائص التى تدعو إلى إرتكاب بعض الأعمال الطائشة ويحذر المؤمنين من التأثر بما يصدر عنهم من سوء.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۱۷۵

«مَعاشِرَ النَّاسِ، إنَّ النِّساءَ نَواقِصُ الْإِيمانِ، نَواقِصُ الْحُظُوظِ، نَواقِصُ الْعُقُولِ: فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلاةِ والصِّيام فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ، وأَمَّا نُقْصانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهادَةُ امْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ، وأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الْأَنْصافِ مِنْ مَوارِيثِ الرِّجالِ.

فاتَّقُوا شِرارَ النِّساءِ، وكُونُوا مِنْ خِيارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ، ولا تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّى لا يَطْمَعْنَ فِي الْمُنْكَرِ».

الشرح والتفسير

مكانة المرأة فى المجتمعات البشرية

اشارة

هنالک خلاف بين شرّاح نهج‌البلاغة ولا سيما المعاصرين منهم بشأن تفسير هذه الخطبة، ومن هنا نرى ضرورة التمهيد قبل الخوض فى تفاصيل هذه الخطبة. فقد حفل التأريخ بكثرة الكلام والإفراط والتفريط بشأن موقعها وشخصيتها، فقد نزلوا مقامها أحياناً دون مقام الإنسان، بل ترددوا فى إنسانيتها بينما ذهب إلى البعض الآخر إلى أنّها الجنس الراقى الذى يفوق الواقع حتى إقترح سيادتها للجماعة البشرية، ويمكن اعتبار هذين الرأيين من قبيل الإفراط ورد فعله التفريط. أمّا اليوم فقد كثر الكلام أيضاً فى المجتمعات الغربية ومن يناغمها فى إرساء التجربة الديمقراطية بشأن المرأة. فالساسة يرون أنفسهم بحاجة إلى رأى النساء اللاتى يشاركن فى الانتخابات ويدلين بأصواتهن، كما يحتاجها الرأسماليون لاستخدامها فى المعامل والمصانع ولا سيما أنّهم يتوقعون مطالبتهن باجور أقل من

الرجال إلی جانب تحليهن ببعض الصفات التی لاتتوفر فی الرجال، وأخيراً هناک الجهاز الأعلامی الذی يعد الشريان الرئيسی للميدان السياسی والاقتصادی هو الأخر يری نفسه بحاجة ماسة إلی المرأة. کل هذه الامور

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۷۶

أدت إلی الدفاع المستميت عن حقوق المرأة والسعی الحثيث لرفع شخصيتها إلی أقصی ما يمکن علی مستوی الکلام، أمّا علی مستوی العمل فالقضية معکوسة تماما. فما زالت المرأة تعيش اليوم شتی أنواع الحرمان؛ الأمر الذی کان له أثره علی تفسير بعض النصوص الدينية الواردة بشأن المرأة وتأويلها بالشکل الذی يتناسب وطباع أغلب النساء ويشبع رغباتهن وتطلعاتهن وإن کانت فارغة تفوق الخيال. ولم تسلم هذه الخطبة وسائر شبيهاتها من الخطب فی نهج‌البلاغة من ذلک التقصير، بل هنالک من يتردد فی سند هذه الخطبة، وآخر يتحرج فی تفسيرها حذراً من المساس بمقام المرأة والاساءة لها، وإلی جانب هؤلاء فهناک من سلک سبيل التفريط بحق المرأة ليصورها علی أنّها مجموعة من العيوب والنقص. وهنا نقول لاينبغی التنکر لأمرين: الأول: أنّ هذه الخطبة وردت بعد الجمل، ونعلم أنّ القطب الرئيسی فيها کان زوج النبی صلی الله عليه و آله عائشة التی وردت الميدان إثر التحريض العجيب الذی قام به طلحة والزبير وقد سالت فيها دماء غزيرة ذهب البعض إلی أنها خلفت ما يربو علی سبعة عشر ألف قتيل، طبعاً صحيح أنّ تلک المرأة أعربت عن ندمها بعد هزيمة عسکر الجمل، وانّ أميرالمؤمنين علی عليه السلام واحتراماً لرسول اللَّه صلی الله عليه و آله أمر بردها معززة مکرمة إلی المدينة، إلّاأنّ الآثار السيئة لتلک المعرکة ظلت باقية فی صفحات التأريخ الإسلامی والثانی إننا نری أغلب الآيات القرآنية التی عرضت بالذم للجنس البشری فقد صرح القرآن قائلًا: «إِنَّ الإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً»[۳۰۳] وقال: «إِنَّهُ کانَ ظَلُوماً جَهُولًا»[۳۰۴] وقال:

«إِنَّ الإِنْسانَ لَکَفُورٌ مُبِينٌ»[۳۰۵] «کَلّا إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغی أَنْ رَآهُ اسْتَغْنی [۳۰۶] وما شابه ذلک من الآيات. فمما لاشک فيه أنّ الإنسان فی طبيعته ليس

«کفور مبين»

ولا

«ظلوم جهول»

ولا

«طاغی»

، ويبدو أن هذه الامور تتعلق باولئک الأفراد الذين لم يترعرعوا فی ظل التربية الدينية، فهم غارقون فی أهوائهم وذواتهم وليس لهم من مرشد أو دليل. ومن هنا نری القرآن يکيل المدح والثناء للإنسان الذی يتحلی بالطاعة والورع والتقوی بل أشار القرآن إلی

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۷۷

بنی‌آدم علی أنّهم أکرم من فی عالم الوجود «وَلَقَدْ کَرَّمْنا بَنِی آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِی البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلی کَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا»[۳۰۷]. وبصدق ما أوردناه سابقا علی جنس المرأة، فهناک المتميزات من بين النساء بما يقل العثور علی نظيرهن فی الرجال، وبالعکس هناک النساء المنحرفات اللائی يشکلن بؤرة فساد المجتمعات البشرية.

والان نخوض بعد هذه المقدمة فی شرح الخطبة، وسنثير آخر الخطبة إلی بعض الامور ذات الصلة بهذا الخصوص. کما ذکر سابقاً فانّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة فی الجمل کتحذير لجميع المسلمين من مغبة التعرض لمثل هذه الحوادث فی المستقبل، فقال عليه السلام:

«معاشر الناس إن النساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول»

ثم قدم عليه السلام الدليل علی ما ذهب إليه فقال:

«وأما نقصان إيمانهن فقعودهن عن الصلاة والصيام فى أيام حيضهن، وأمّا نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، وأمّا نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، وأمّا نقصان حظوظهن فمواريثهن على الأنصاف من مواريث الرجال»

ومما لاشك فيه أنّ لكل نقص دليله فقعود النساء عن الصلاة والصوم حين العادة الشهرية لسببين أحدهما أنّ المرأة قد تعيش حالة شبه مرضية زمان العادة فهى بحاجة إلى الراحة، والآخر أنّ وضعها لايتناسب وحالة العبادة والدعاء. وأمّا كون شهادة إمرأتين بشهادة رجل واحد فذلك لغلبة الجانب العاطفى عند النساء، وهى تتأثر وتنفعل بهذه العواطف، الأمر الذى قد يدفعها للشهادة لصالح أحد والاضرار بآخر. وأمّا كون ميراثهن نصف ميراث الرجال فأولًا: إنّما يختص هذا الأمر بالبنات والزيجات، بينما الميراث واحد بالنسبة للآباء والامهات وأولادهما، وهكذا الحال بالنسبة للاخوة والاخوات وأولادهما. بعبارة أخرى فانّ المرأة كأم أو أخت تتقاضى سهماً مساوياً لسهم الرجل فى الميراث. وثانيا: تختص النفقة بالرجال، والمرأة ليست فقط لا تتحمل نفقات الأولاد فحسب، بل يتوجب على الرجل تغطية نفقاتها وإن حصلت على أموال طائلة عن طريق الارث أو غيره. ونخلص من هذا إلى أنّ هذه الفوارق قد حسبت بمتهى الدقة فى الإسلام، مع ذلك هنالك

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۷۸

مسألة لاينبغى إنكارها وهى أنّ المرأة ليست مساوية للرجل فى كل الامور، وأمّا أولئك الذين يرفعون شعار المساواة وأحياناً أفضلية المرأة على الرجل فانّما يتبنون ذلك قولًا وينا قضونه عملًا. فهل هناك من رئيس جمهورية- رفع شعار المساواة بين الجنسين- ووزع الحقائب الوزارية بالتساوى على الرجال والنساء، أم هناك مدير وزع الوظائف الإدارية بهذا التساوى، بل يتعذر ذلك حتى فى البلدان الغربية وتلك العلمانية والوطنية. أمّا الرؤية الحق التى تستند إلى الواقع وتجانب الشعار والرياء فهى تلك التى تدعو إلى العدل فى التعامل مع الجنسين على أساس الاستعدادات والكفاءات التى أودعت كل منهما، ليتمكن كل طرف من توظيفها بالشكل الصحيح بما يخدم شخصه ومجتمعه؛ الأمر الذى سنخوض فى تفاصيله فى مباحث التأملات لاحقاً.

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة فيقول:

«فاتقوا شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر، ولا تطيعوهن فى المعروف حتى لايطمعن فى المنكر»

ومن الطبيعى أنّ عدم طاعتهن فى المعروف لايعنى مخالفتهن إذا دعين إلى الامور المعروفة كالصوم والصلاة والعدل والاحسان، بل المراد عدم الاستسلام لمقترحاتهن دون الإكتراث لأىقيد أو شرط، وبعبارة اخرى لابدّ من القيام بالمعروف لذاته لامن خلال الاستجابة المطلقة للازواج، حذراً من تمددهن والمطالبة بالخضوع لكل رغباتهن وطلباتهن. فالعبارة الواردة فى نهجالبلاغة وان لم تختص بالزيجات وأنّها تقصد عامة النساء، إلّا أنّ المفروغ منه هو أنّ هذه الامور إنّما تحدث عادة بين الازواج والزيجات. وبناءا على هذا فان ما جاء فى هذه الخطبة لايتنافى والآيات التى توجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى يشمل الرجل والمرأة؛ لأنّ لاخطبة لاتقصد ترك المعروف، بل المراد أن العمل لاينبغى أن يحمل صفة الطاعة العمياء بصيدا عن كل قيد وشرط. كأن يرد الزواج على الزوجة حين إقتراحها المعروف، أجل كنت قد فكرت بالقيام بهذا العمل (فى حالة إذا كانت لديه حقانية القيام به)، أو أن يؤخر العمل لمدة قصيرة إن أمكن تأخيره كى لاتشعر الزوجة بانّه منقاد لها دون حدود وشروط. نعم أنّ النساء المؤمنات الملتزمات الفاضلات مستثناة من هذا الحكم؛ فهناك النساء اللاتى سخطهن سخط اللّه ورضاهن رضا اللّه كالزهراء عليها السلام. وهذه النقطة واضحة أيضاً حين قال:

«كونوا من خيارهن

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۷۹

على حذر»

أنّ المراد الخير النسبى لا الخير المطلق، فالأخيار المطلقين ليس فقط لاينبغى الحذر منهم، بل لابدّ من إغتنام الفرصة للتحدث إليهم

وسماع وصاياهم. ومن هنا صرحت بعض الآيات القرآنية بضرورة إستشارة النساء، ومن ذلك فطم الطفل عن الرضاعة: «فَإِنْ أَرادا فِصالًا عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما».[۳۰۸]

تأملان

۱- الفوارق والمساواة بين الجنسين

هناك عدة أبحاث فى أوساط العلماء بشأن هذا الموضوع: هل يتساوى الرجل والمرأة حقاً من وجهة النظر الحقوقية والخلقية أم يتفاوتان. أمّا الاعتقاد السائد فهو القول بالفارق بين الرجل والمرأة على صعيد البنية البدنية والجوانب العاطفية والعقلائية، دون أن يكون هذا الفارق مدعاة للحد من شخصية المرأة أو الارتقاء بشخصية الرجل؛ إلّاأنّ هذا الفارق يمكن أن يكون سبباً لاختلاف المسؤوليات والوظائف التى ينهض بها كل منهما فى المجتمع.

أمّا على المستوى الاجتماعى فقد ذهبت جماعة إلى ضرورة سيادة الرجل، فكان لهذا الاسلوب الافراطى فى التفكير رد فعله التفريطى الذى رأى ضرورة سيادة المرأة. بينما انتهجت جماعة ثالثة أسلوباً منطقياً يفند الاسلوبين المذكورين ويتمثل بسيادة الإنسان.

والذى يفهم من المصادر الإسلامية والمنطق والعقل بهذا الخصوص هو أنّ شخصية الإنسان تنطوى على ثلاثة أبعاد:

۱- البعد الإنسانى والمعنوى

۲- البعد العلمى والثقافى

۳- البعد الاقتصادى

أمّا البعد الأول الذى يتضمن أسمى المثل والقيم الإنسانية فليس هنالك من فارق بين المرأة والرجل، وهما متساويان فيهما عنداللَّه ولكل منهما أن يواصل مسيرة التقرب من اللَّه، وبعبارة

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۸۰

أخرى فان طريق التكامل واحد أمامهما. ولذلك خاطبهما القرآن معا: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ».[۳۰۹]

وصرحت الآية القرآنية قائلة: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقاتِ ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً»[۳۱۰].

من جانب نوع الجنس «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ»[۳۱۱] وهكذا سائر الآيات التى لايسع المقام ذكرها. ولم يتقصر بيان هذه الحقيقة على الآيات القرآنية، بل تطرقت لها الروايات الإسلامية أيضاً، فقد جاء فى الخبر:

إنّه اجتمعت عصابة الشيعة بنيسابور و اختاروا محمد بن على النيسابورى فدفعوا إليه ثلاثين ألف دينار وخمسين ألف درهم وشقة من الثياب، وأتت شطيطة بدرهم صحيح وشقة خام من غزل يدها تساوى أربعة دراهم فقالت: إنّ اللَّه لايستحى من الحق. فلم يقبل الإمام عليه السلام سوى الأموال المتعلقة بشطيطة ورد ما سوى ذلك.[۳۱۲]

ويتضح من هذه الرواية أن ليس هنالك من تفاوت فى القيمة الإنسانية بين الرجل والمرأة.

ومن هنا فان المرأة قد تسبق الرجل أحيانا فى هذا المضمار.

الطريف فى الأمر أنّ صحابة النبى صلى الله عليه و آله كانوا يرون الامتياز للرجل، أمّا النبى صلى الله عليه و آله ليس فقط لم ير له من إمتياز فحسب، بل قدم على شخص أخته فى الفضل انطلاقاً من المبادئ والقيم الإنسانية الحقة. ولما سئل عن ذلك، أجاب صلى الله

عليه و آله: لأنّها كانت أبر بوالديها منه.[۳۱۳]

أمّا قصة نسيبة بنت كعب الأنصارية وشجاعتها فى ميدان القتال- أحد- وجلبها الماء وتضميد جراح المقاتلين وصمودها بوجه الأعداء حتى أصيبت بثلاثة عشر جرحاً، ثم التحاقها بصفوف المقاتلين المسلمين فى اليمامة فى قتال مسيلمة حتى نالت الشهادة لهى قصة

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۸۱

معروفة. وقد جاء فى الخبر أنّ رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله قال يوم أحد:

«لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان».[۳۱۴]

وأمّا بالنسبة للبعد العلمى والثقافى فهنا أيضاً لايوجد فارق بين المرأة والرجل، أى أنّ أبواب العلم مفتحة لهما على السواء والدليل على ذلك ما ورد فى الحديث المعروف:

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[۳۱۵]

حتى وإن لم ترد مفردة المسلمة فى الحديث، لأنّ المراد بالمسلم هنا النوع الإنسانى، كما ورد شبيه ذلك فى أغلب الروايات والأحاديث. وعليه فليس هنالك من محدودية من وجهة النظر الإسلامية بالنسبة لانفتاح المرأة على العلوم، ولها أن تطوى مسيرتها نحو الكمال أسوة مع أخيها الرجل. وبغض النظر عن كل ما سبق فانّ التاريخ الإسلامى حافل بكبار الشخصيّات النسوية بصفتهن محدثات وراويات للأحاديث والأخبار.

وأخيراً ليس هنالك من فارق بين الجنسين فى البعد الاقتصادى فلكل منهما ملكيته المحترمة ولا سيما بالنسبة للأعمال، بل للمرأة استقلال اقتصادى خاص، على الخلاف مما تعارف بين المجتمعات الغربية التى حظرت عليها التصرف فى أموالها دون إذن الزوج فجردتها من هذا الاستقلال، بينما ليس هنالك من ضرورة لاذن الزوج من أجل تصرف الزوجة بأموالها فى الإسلام، ولها أن تتصرف فى أموالها حسبما يحلو لها فى المصارف المشروعة.

ولاننسى هنا إذا أردنا أن ننحى الشعارات جانباً أنّ القدرة الانتاجية للرجل إنّما تفوق نظيرتها لدى المرأة، ويستند ذلك إلى سببين: الأول: أنّ للرجال طاقة أعظم للأتيان بالأعمال الثقيلة؛ الأمر الذى يمنحهم بعض التفوق الاقتصادى على النساء. الثانى: ما تفقده المرأة من طاقاتها البدنية بفعل مشاكل الحمل والوضع والرضاع وتربية الأطفال التى تستغرق مدة مديدة من عمرها، ولو إفترضنا أنّ للمرأة على الأقل ثلاثة أولاد وأنّها ترصد مدة أربعة

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۸۲

سنوات لكل منهم منذ زمان الحمل ومرورا بتلك المراحل حتى يستوى كصبى فانّها ستصرف إثنتى عشرة سنة من شبابها فى هذا الأمر. ولعل هذا هو السبب الذى دفع بكافة المجتمعات حتى تلك التى تتبنى مساواة المرأة بالرجل والتى لاتستند حكوماتها إلى المبادئ الدينية لأنّ تسند الأعمال الشاقة ذات المسؤولية الجسيمة إلى الرجال، وأن تختار الرجل أيضاً لمزاولة المهام السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وبناءاً على ما تقدم فان وجود بعض الفوارق فى المسؤوليات بين الرجل والمرأة من قبيل التصدى لمنصب القضاء أو الاختلاف فى عدد الشهود بينهما أو الاختلاف فى الميراث الذى أوردنا دليله آنفا، لايمكنه قط أن ينقض الاصول الكلية للمساواة بين الجنسين فى البعد المعنوى والإنسانى والبعد العلمى والثقانى وبالتالى البعد الاقتصادى. وعلى كل حال فلابدّ من الإذعان لوجود التفاوت الطبيعى بين الجنسين وعدم خداع النفس والآخرين بالشعارات البراقة الكاذبة.

۲- أخبار عائشة

عائشة بنت أبى بكر من قبيلة تيم طائفة قريش. أمها «أم الرومان» بنت عامر بن عويمر.

ولـدت فی العام الرابع من البعثهٔ النبویهٔ، تزوج منها رسول الله صـلی الله علیه و آله بعد خدیجهٔ. وقفت الی جانب خلافهٔ أبی بکر وعمر وشـطرا من خلافـهٔ عثمـان حتی أصـبحت من النـاقمین علیه- فلما قتل عثمان ظنت أن ابن عمها «طلحـهٔ» سیلی الخلافـهٔ ولما انتهی أمر الخلافـهٔ إلی علی علیه السـلام سـارعت للمطالبـهٔ بـدم عثمان، فکان من ذلک معرکـهٔ الجمل فی البصـرهٔ. فلما قتل طلحـهٔ والزبیر وهزم أصـحاب الجمل أعادها علیه السـلام إلی المدینهٔ. ذکر ابن سـعد فی طبقاته ان عمرا جعل عشـرهٔ الاف دینار لازواج النبی لکن عائشـهٔ کانت تأخذ اثنی عشر الف دینارا ثم قطعها عنها عثمان.

وقد اشـتد الخلاف بین عائشهٔ وعثمان بشأن الولید بن عقبهٔ المعروف بفسقه وشربه للخمر وتعرضه لبعض صحابهٔ النبی صلی الله علیه و آله مثل عبدالله بن مسـعود وقد شـهد علیه الناس بذلک فما کان من عثمان الا أن أقام الحد علیهم حسـبما صـرح البلاذری فی أنساب الاشراف. فلما سمعت

نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۱۸۳

عائشهٔ بذلک أخذت بنعلی رسول الله صـلی الله علیه و آله وهی تنادی هذا ثوب رسول الله صلی الله علیه و آله لم یبل وقد أبلی عثمان سنته. فلما قتل عثمان سرت عائشهٔ ولم یدم سرورها بعد أن آلت الخلافهٔ لعلی علیه السلام.

قال الطبری فی تاریخ الالم والملوک وابن سعد فی الطبقات وابن اثیر فی الکامل لما سمعت عائشهٔ بقتل علی سجدت وانشدت.

فالقت عصاها واستقر بها النوی کما قر عینا بالأیاب المسافر

وابعـد من ذلـک ثناءهـا علی ابن ملجم، فلما سـمعت زینب بنت ام سـلمهٔ منها ذلک انکرته علیها فقالت بلغنی الکبر فنسیت ولا أعود لذلک.

ومن عجائب سیرهٔ عائشـهٔ موقفها تجاه عثمان حیث قال کل من صـنف فی السیر والاخبار بما فیهم «ابن أبی الحدید» ان عائشهٔ کانت من أشـد النـاس علی عثمـان وهی أول من سـمی عثمـان نعثلاـ وقـالت «اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا» والنعثل الکثیر شـعر اللحیـهٔ کما تعنی العجوز الاحمق وکـذلک قیل نعثل فرد یهودی کثیف اللحیـهٔ ولا یعلم أی المعانی أرادت عائشـهٔ. فلما قتل عثمان وآل الأمر لعلی علیه السـلام قـالت: «قتلوا ابن عفان مظلوما». واضاف ابن أبی الحدیـد قائلا: جاءت عائشـهٔ إلی أم سـلمهٔ تخادعها علی الخروج للطلب بـدم عثمان. فقالت لها أم سـلمهٔ: إنک کنت بالأمی تحرضـین علی عثمان، وما کان اسـمه عنـدک إلا نعثلا، وانک لتعرفین منزلـهٔ علی علیه السـلام عنـد رسـول اللّه صـلی الله علیه و آله أفـأذکرک؟ قـالت: نعم. فروت لهـا عن رسول اللّه صـلی الله علیه و آله مـا یؤکـد أحقیته بالخلافهٔ فوافقتها عائشهٔ. فسألتها: فأی خروج تخرجین بعد هذا؟ فقالت: انما أخرج للاسلاح بین الناس.[۳۱۶]

وروی الطبری قیـل لعائشـهٔ لمـا نادت قتل عثمان مظلوماً إنّک أول من نقمت علیه وقلت اقتلوا نعثلا فقـد کفر. فقالت عائشـهٔ: نعم لکن قتلوه بعد أن تاب فقتل مظلوماً.[۳۱۷] وأورد ابن اثیر هذا الکلام فی الکامل.[۳۱۸]

نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۱۸۴

وقد ذکر البخاری فی صحیحه حسد عائشهٔ لخدیجهٔ.[۳۱۹]

ومعروفهٔ هی قصهٔ کلاب الحوئب التی بلغتها عائشهٔ فنبحتها فقررت الرجوع بعد أن ذکرت الخبر، فلفقوا لها خمیین اعرابیا ان هذا لیس بماء الحوأب.[۳۲۰]

توفیت عائشهٔ فی المدینهٔ فی ۱۰ شوال عام ۵۷ أو ۵۹ فصلی علیها أبوهریرهٔ ودفنت فی البقیع.

نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۱۸۵

الخطبهٔ[۳۲۱] الحادیهٔ والثمانون

اشارهٔ

ومن کلام له علیه السلام

فی الزهد

نظرة إلی الخطبة

یخوض الإمام علیه السلام بادئ ذی بدء فی هذه الخطبة فی الزهد لیقدم بشأنه تعریفاً جامعاً رائعاً بثلاث عبارات قصیرة، ثم یوصی من یری نفسه عاجزا عن بلوغ هذه الحقیقة بالورع عن المحرمات وشکر النعم، فقد أتم اللّه حجته بالدلائل والبراهین الساطعة.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۸۷

«أَیُّها النَّاسُ الزَّهادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ والشُّکْرُ عِنْدَ النِّعَمِ والتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحارِمِ فَإِنْ عَزَبَ ذَلِکَ عَنْکُمْ فَلا یَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَکُمْ ولا تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُکْرَکُمْ فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَیْکُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظاهِرَةٍ وکُتُبٍ بارِزَةِ الْعُذْرِ واضِحَةٍ».

الشرح والتفسیر

حقیقة الزهد

أشار الإمام علیه السلام إلی حقیقة الزهد فقال:

«أیّها الناس، الزهادة[۳۲۲] قصر الأمل والشکر عند النعم، والتورع عند المحارم».

فعباراته علیه السلام ا لثلاث بشأن الزهد تشکل الرد علی التفاسیر الخاطئة الواردة بهذا الخصوص، وما أکثر الأفراد الذین عجزوا عن الوقوف علی معنی الزهد ویرون أنفسهم من الزاهدین. فهم یعتقدون بانّ الزهد یقتصر علیاً رتداء الثیاب البسیطة أو عدم ممارسة الوظائف الاجتماعیة واعتزال الناس التقوقع فی زاویة ومجانبة الفعالیات والأنشطة الاقتصادیة، والحال لیست هذه الامور من الزهد فی شئ. فحقیقة الزهد التی تقف بوجه الرغبة إنّما تکمن فی عدم الاکتراث إلی مادیات الدنیا وزخارفها، أو بعبارة اخری عدم التعلق بالدنیا والاغترار بمظاهرها وإن زود بکافة الإمکانات. فمن لم یغتر بالامور المادیة فقد جنب طول الأمل (فطول الأمل من ممیزات أهل الدنیا) وشکر النعمة وهجر الذنب والمعصیة، لأنّ النعم لاتشغله بنفسه وتنسیه ربه. وهناک تفسیر آخر للزهد أورده الإمام علیه السلام فی قصار کلماته، قد یبدو مختلفاً مع هذا التفسیر إلّاأنّه یتفق معه فی المعنی، حیث قال علیه السلام:

«الزهد کله بین

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۸۸

کلمتین من القرآن: قال اللّه سبحانه «لِکَیْلا تَأْسَوْا عَلی ما فاتَکُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاکُمْ» ومن لم یأس علی الماضی ولم یفرح بالآتی فقد أخذ الزهد بطرفیه»[۳۲۳]. فالعبارة تفید أنّ حقیقة الزهد تعنی ترک التبعیة وقطع أغلال الأسر المرتبطة بالماضی والآتی. الرکن الثانی من الأرکان الثلاث الزهد قوله علیه السلام:

«والشکر عند النعم»

علی أنّ النعم من اللّه لامن العبد لیتعلق بالخالق ویهجر ذاته. أمّا قوله علیه السلام:

«التورع عند المحارم»

فیشیر إلی أنّ حب الدنیا والتعلق بها هو أساس مقارفة الذنب؛ الأمر الذی عبر عنه الحدیث الشریف:

«حب الدنیا رأس کل خطیئة»[۳۲۴]

. وبناءاً علی ما سبق فمن قصر أمله وشکر نعم ربّه وأمسک نفسه عن الذنب فهو الزاهد الحقیقی؛ سواء کان غنیاً أم فقیراً، لأنّ الفقر لیس مقیاس الزهد قط. ثم قال علیه السلام:

«فان عزب [۳۲۵] ذلک عنکم، فلایغلب الحرام صبرکم، ولا تنسوا عند النعم شکرکم، فقد أعذر اللّه الیکم بحجج مسفرة[۳۲۶] ظاهرة، وکتب بارزة العذر واضحة»

. فالإمام علیه السلام وإن أکد علی رکنین من أرکان الزهد فی إختتام الخطبة (ترک الذنب وشکر النعمة) إلّاأنّ عباراته تفید أن مراده هو أنکم إن لم تؤدوا حق النعمة فی شکرها، فلا تنسوا علی الأقل قضیة الشکر، وإن تبلغوا مرتبة من الورع فی هجر الذنوب بحیث تشمل الوقوف عند الشبهات، فلا تجعلوا الحرام یجاوز صبرکم فعلیکم کحد أدنی التحلی بالتقوی عند هذا الحد. أمّا ما ذکره الإمام علیه السلام من أسس ودعائم للزهد والتقوی فهی من الامور التی یجب توفرها فی کل فرد، لأنّ اللّه أتم حجته ولیس لأحد العذر فی مخالفته. وزبدة الکلام فان ترک الذنب وشکر النعم علی مرحلتین:

الاولی هی وظیفة کافة المسلمین، وهی فی الواقع شرط الإیمان. والثانیة: أرفع من سابقتها تنطوی علی الورع والتقوی من الشبهات وقصر الامل وهذا ما یلیق بالزهاد من أهل الإیمان.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۸۹

تأمّل: الزاهد أمیر لاأسیر

لقد شحن نهج‌البلاغة بخطب الإمام علیه السلام التی تتناول مفهوم الزهد. إلی جانب ذلک فان القرآن الکریم قد تناول حقیته ومفهومه بصورة واسعة وان لم یورد هذه المفردة بکثرة. والزهد من المفاهیم التی تعرضت لها الإدیان الإلهیة، علی أنّه یعنی عدم التعلق بمادیات الدنیا وحطامها، وبالطبع لایراد بالزهد حرمان الإنسان من المال والثروة والمقام والإمکانات، وإنّما یراد به عدم الانقیاد والاستسلام لهذه العناصر والوقوع فی أسرها، بل ینبغی له أن یکون أمیراً علیها. ومن هنا نری أنّ نبی اللّه سلیمان علیه السلام الذی یضرب المثل بملکه وحکومته کان أمیراً لا أسیرا حین رد تلک الهدایا النفیسة التی بعثت بها إلیه ملکة سبأ. وقد ورد فی الحدیث عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«الزهادة فی الدنیا لیست بتحریم الحلال، ولا ـ إضاعة المال، ولکن الزهادة فی الدنیا أن لاتکون بما فی یدیک أوثق منک بما فی یداللّه»[۳۲۷]

. ومن هنا یتضح مدی الفارق الشاسع بین الزهد فی الإسلام والرهبانیة فی المسیحیة. فالزهد الإسلامی یعنی البساطة فی الحیاة والابتعاد عن التجملات وعدم الوقوع فی مخالب الشهوات وأغلال الأموال والمقام، بینما تعنی الرهبانیة إلّانزواء والانعزال عن الحیاة الاجتماعیة. فقد ورد فی الحدیث أنّ عثمان بن مظعون حزن حزناً شدیداً لما مات ولده واقبل علی الزهد فجعل داره مسجداً وانهمک بالعبادة، فلما بلغ الخبر رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله قال: یا عثمان إنّ اللّه تبارک وتعالی لم یکتب علینا الرهبانیة، إنّما رهبانیة أمتی الجهاد فی سبیل‌اللّه.[۳۲۸]

فی إشارة إلی أنّک إذا أردت أن تقاطع المادیات فلا تسلک السبیل السلبی فی ذلک وعلیک تعقیب هذا الهدف من خلال مساره الایجابی الصحیح الذی یکمن فی الجهاد- ثم تطرق رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله إلی فضیلة صلاة الجماعة لیقف علی مدی أهمیة الجماعة فی الإسلام ورفضه لکافة أشکال الرهبنة والعزلة. ویقابل الزهد الرغبة والتنافس علی الدنیا؛ أی اللهث وراء الدنیا والتکالب علی متاعها الذی ورد الذم علیه فی الإسلام. وللزهد عدة آثار علی الحیاة الفردیة والاجتماعیة للإنسان، والتی یمکن بواسطتها التعرف علیه وهی: قصر الأمل وشکر

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۹۰

النعمة والورع عن المحرام وهی الأرکان الثلاث التی أشارات إلیها الخطبة. وهنا لابدّ من القول بأنّ الزهد لایساوی الفقر والحاجة أبدا؛ بل الزهد یعنی الغنی الباطنی واشباع النفس بالمعنویات وترک التعلق بالمادیات وعلامة ذلک مقاطعة اللذات وإجتناب التجملات.

کتب أحد المفکرین المسلمین (رحمة اللّه علیه) بشأن دوافع الزهد: إنّ الزاهد یعیش حیاته بمنتهی القناعة دون أی تکلّف لیقود الآخرین إلی الهدوء والسکینة، أنّه لیشعر باللذة والمتعة فی أن یأکل المحتاجون ویشربون قبل أن یأکل هو ویشرب. ولعلنا نلمس هذا المعنی فی ما تعارف لدی أهل‌بیت النبی صلی الله علیه و آله:

«الجار ثم الدار».

المواساة وتقاسم هموم المحرومین والمعوزین یعد الدافع الآخر من دوافع الزهد، فلماکان المجتمع علی قسمین مرفه ومحروم فانّ أولیاء اللّه یسعون فی الدرجة الأساس إلی معالجة أوضاع المحرومین، فان لم تکن خهناک الإمکانات اللازمة، جهدواً فی العیش کأدنی الطبقات المرحومة فی المجتمع لیخففوا من معاناة الضعفاء ولایدعوهم یشعرون بالذلة والمسکنة بفضل ما یعانون من جشوبة العیش وخشونة الملبس، ولعل هذا هو المعنی الذی أراد أن یجسده أمیرَالمؤمنین علی علیه السلام حین سئل عن ثوبه البالی فقال:

نفحات الولایة ؛ ج۳ ؛ ص ۱۹۰

«یخشع له القلب، وتذل به النفس، ویقتدی به المؤمنون»[۳۲۹]

الدافع الآخر للزهد هو الحریة والخلاص من قید الحاجة. فالزهد والقناعة تحد من الحاجة وتؤدی بالتالی إلی النجاة من أسر الطمع والحرص علی إقتناء الأشیاء، من هنا یمکن القول بأنّ نفس الزهد هو الحریة. فالزاهد شجاع وعالم، ومن هنا نری الحرکا التحرریة العالمیة إنّما توجّه غالباً من قبل الزعماء الذین تسودهم روح الزهد.[۳۳۰] ونختتم حدیثنا بروایتین عن الزهد. فقد جاء فی الروایة أنّ رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله قال لعلی علیه السلام:

«یا علی إن اللّه تعالی زینک بزینة لم یزین العباد بزینة هی أحب إلیه منها: زهدک فیها وبغضها إلیک وحبب إلیک الفقراء، فرضیت بهم اتباعاً ورضوا بک إماماً.[۳۳۱]

وجاء فی الحدیث وسأله إعرابی شیئاً فأمرله بألف، فقال الوکیل: من ذهب أو فضة؟ فقال:

کلاهما عندی حجران، فاعط الأعرابی أنفعهما له.[۳۳۲]

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۹۱

الخطبة[۳۳۳]: الثانیة والثمانون

اشارة

ومن کلام له علیه السلام

فی ذم صفة الدنیا

نظرة إلی الخطبة

قال المبرد فی الکامل أنّ الإمام علیه السلام خطب هذه الخطبة حین کان یخطب فقام له رجل وقال:

یا أمیرَالمؤمنین صف لنا الدنیا. فقال علیه السلام: ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء. فواصل خطبته لیصف الحیاة الدنیا ومشاکلها. ومن تأمل عبارات الخطبة یمکنه أن یقف علی حقائق الدنیا والمعیشة فیها، بحیث یمکن القول لم یبق الإمام علیه السلام من شئ فی وصفه للدنیا بهذه العبارات العشر القصیرة.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۹۳

«ما أَصِفُ مِنْ دارٍ أَوَّلُها عَناءٌ[۳۳۴]، وآخِرُها فَناءٌ فِی حَلالِها حِسابٌ وفِی حَرامِها عِقابٌ. مَنِ اسْتَغْنَی فِیها فُتِنَ، ومَنِ افْتَقَرَ فِیها حَزِنَ ومَنْ ساعاها فاتَتْهُ، ومَنْ قَعَدَ عَنْها واتَتْهُ، ومَنْ أَبْصَرَ بِها بَصَّرَتْهُ، مَنْ أَبْصَرَ إِلَیْها أَعْمَتْهُ».

الشرح والتفسير

الدنيا وسيلة لأهدف

اشارة

وصف الإمام عليه السلام الدنيا بعشر عبارات فصيحة بليغة، فقال فی العبارة الاولی

«ما أصف من دار أولها عفاء»

وقال فی العبارة الثانية:

«وآخرها فناء»

فأدنی تأمل لحياة الإنسان فی هـذا العالم ليكشف أنّها مشوبـة بالصـعاب والمشاق، فهی تبدأ بولادته التی تحمل الألم والمعاناة للطرفين وأقصاها لأمّه، حيث يرد الوليـد من وعاء مغلق إلی بيئـة مفتوحـة تتفاوت جذرياً عما كان عليه، إلی جانب ذلك فانّ رصـيده الضـعف والعجز ليس عن دفع أتفه الحشـرات بل يتعذر عليه حفظ لعابه فی فمه، ولا يؤمن عليه الخطر فيما ذا أغفل عن مراقبته. ثم يجتاز مرحلة الرضاع ليواجه مشـكلة الفطم فيعانی الأمرين، ثم يأخذ بالمشی شيئاً فشيئاً دون أن يكون له أدنی تجربة فی الحياة والأخطار تتهدده من كـل حـدب وصوب، فـاذا دب فيه العقـل ووضع قـدمه علی الطريق واجه سـيلًا جديـداً من المشاكـل فعليه أن يخوض معـترك الحيـاة وينـافس سـائر الأفراد من أبناء الـدنيا، وعليه أن يجـد اعلم ويحظی بالزوجـة ويتحمل كل ما يترتب علی ذلك من الالام والمعاناة. فاذا تقدمت به السن وبلغ مرحلة الكهولة شاب الرأس وضـعفت العين والاذن والقلب والعروف والعظام، نعم هذه صورة مختصـرة عن حياة الإنسان تشير إلی ما

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۹۴

يكتنفها من مشاكل وصـعاب. القرآن من جانبه أشار إلی هـذه الحقيقـة فقال: «لَقَـدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ فِی كَبَدٍ»[۳۳۵] وكأن العناء والمشقة هی الكهف الذی يلجأ إليه الإنسان. وبالطبع لايسـتثنی من هذا التعب والمشـقة حتی أولئك الذين يعيشون الحياة المرفهة ولكل مشاقة ومعاناته. أجل طبيعة الدنيا تتمثل بالألم والعناء ويخطئ من ظن فيها غير ذلك، ولعلنا نلمس هذه الحقيقة فی الشعر الذی أنشده الشاعر المعروف أبوالحسن التهامی إثر موت ولده فی شبابه حيث قال:

طبعت علی كدر وأنت تريدهاصفوا من الاقذار والأكدار

ومكلف الأيّام ضد طباعهامتطلب فی الماء جذوة نار

هـذا بشأن عناء الدنيا، أمّا فناؤها فليس بخاف علی أحد، فالفناء قد كتب فيها علی جميع الأفراد المؤمن والكافر والصـغير والكبير، فهذا يموت مبكراً وذاك يموت متأخراً، ولا يستثنی من قانون الموت أحد. ثم قال عليه السلام:

«فی حلالها حساب، وفی حرامها عقاب»

إشارة إلی أنّ الإنسان إنّما يتحمل حتی فی الآخرة تبعات هذه الدنيا، فهو إمّا عمل فيها بالحلال أو الحرام.

فانّ عمل بالحلال حوسب عليه يوم القيامة، وإن عمل بالحرام عوقب عليه يوم الجزاء. ومن هنا ورد فی الحديث النبوی الشريف:

«يدخل الفقراء الجنّة قبل الأغنياء بخمس مائة عام»[۳۳۶]

أمّـا كيفيـة الحساب وما يحاسب عليه الإنسان ومن يرد الجنّـة دون حساب، فهی امور نستعرضـها إن شاءاللّه فی بحث التأملات. ثم قال

عليه السلام:

«من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن»

نعم هذه هى طبيعة الدنيا وانطوائها على سبيلين كلاهما يؤدى إلى المشقة. فان كان فقيراً عاش فى الدنيا مهموماً مغموماً، وإن كان غنياً مرفهاً عاش فيها مشاكل اخرى؛ وأقل ذلك همه فى حفظ هذه الثروة وسعيه لصيانتها، ناهيك عن سهام الحسد والطمع والبغض التى تصوب إليه، وفوق كل ذلك ما يتعرض له من إمتحانات إلهية. فالبخل والحرص والطمع من جانب والآفات والبلاء والأخطار من جانب آخر، بل لعل هذا الثراء والغنى يصده عن ذكراللّه ولايدع له من مجال للخروج من التفكير فيه، وعليه ستغيب لديه المثل والقيم ولايرى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۹۵

لها من معنى سوى فى الأموال. ونختتم الكلام فى قوله عليه السلام:

«من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن»

بالحديث الذى يؤكد هذا المعنى، فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام. قال: كان على عهد رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله مؤمن فقير شديد الحاجة من أهل الصفة، وكان لازماً لرسول اللّه صلى الله عليه و آله عند مواقيت الصلاة كلها لايفقده فى شئ منها، وكان رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله يرق له وينظر إلى حاجته وغربته، فيقول: يا سعد لو قد جاءنى شئ لأغنيتك، قال: فابطأ ذلك على رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله فاشتد غم رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله بسعد، فعلم اللّه سبحانه ما دخل على رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله من غمه بسعد، فأهبط عليه جبرئيل عليه السلام ومعه درهمان فقال له: يا محمد إنّ اللّه قد علم ما قد دخلك من الغم بسعد، أفتحب أن تغنيه؟ فقال له: نعم، فقال له: فهاك هذين الدرهمين فاعطهما إياه، ومره أن يتجر بهما، قال: فأخذهما رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله ثم خرج إلى صلاة الظهر وسعد قائم على باب حجرات رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله ينتظره، فلما رآه رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله قال: يا سعد أتحسن التجارة؟ فقال له سعد: واللّه ما أصبحت أملك ما أتجربه، فاعطاه النبى صلى الله عليه و آله الدرهمين؛ فقال له: اتجر بهما وترف لررق اللّه، فأخذهما سعد ومضى مع رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله حتى صلى معه الظهر والعصر، فقال له رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله:

قم فاطلب الرزق فقد كنت بحالك مغتماً يا سعد، قال فأقبل سعد لايشترى بالدرهم إلّاباعه بدرهمين، ولايشترى شيئاً بدرهمين إلّاباعه بأربعة دراهم، وأقبلت الدنيا على سعد فكثر متاعه وماله وعظمته تجارته فاتخذ على باب المسجد موضعاً جلس فيه وجمع تجارته إليه، وكان رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله إذا أقام بلال الصلاة يخرج وسعد مشغول بالدنيا لم يتطهر ولم يتهيأ كما كان يفعل قبل أن ينشغل بالدنيا، فكان النبى صلى الله عليه و آله يقول: يا سعد شغلتك الدنيا عن الصلاة، فيقول: ما أصنع، أضيع مالى هذا رجل قد بعته فاريد أن أستوفى منه، هذا رجل قد اشتريت منه فاريد أن أوفيه قال؛ فدخل رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله من أمر سعد غم أشد من غمه بفقره فهبط عليه جبرئيل عليه السلام فقال: أيما أحب إليك، حاله آخرته، فقال له جبرئيل: قل لسعد يرد عليك الدرهمين اللذين دفعتهما إليه، فان يا سعد أما تريد أن ترد علىَّ الدرهمين الذين أعطيتكهما؟

فقال: بلى ومأتين. فقال لها لست أريد منك يا سعد إلّادرهمين، فاعطاه سعد درهمين، قال:

وادبرت الدنيا على سعد حتى ذهب ما كان جمع، وعاد إلى حاله التى كان عليها.[۳۳۷]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۱۹۶

ثم أورد عليه السلام صفتين للدنيا من شأن الالتفات إليهما إبعاد الإنسان عن الحرص والطمع والسكون إلى الدنيا

«ومن ساعاها فاتته،[۳۳۸] ومن قعد عنها واتته ۳۳۹]».

إشارة إلى الأعم الأغلب من الأفراد الذى يجرون نحو الدنيا ولا يبلغونها، بينما كثيرهم الذين يهجرون الدنيا فتأتيهم صاغرة. ولعل

المطالعات التأريخية والوقائع تؤيد هذا الأمر فى أن الجرى خلف الدنيا لايفضى إلى الغنى، والانصراف عنها لا يؤدى إلى الفقر. ومن الطبيعى ألا يكون المراد بالدنيا هنا المعيشة المشرفة والخالية من الحاجة إلى الآخرين، بل يراد بها الدنيا المذمومة المشوبة بالجنون. على كل حال فالعبارة تهدف إطفاء نيران الحرص على الدنيا والذوبان فيها. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام كلامه فى وصف الدنيا بصفتين أصابت أغلب مفسرّى نهج‌البلاغة ولا سيما المرحوم السيد الرضى (ره) جامع النهج بالدهشة والذهول ليعيشوا نشوة السكر بهذا الشراب الطهور، فقد قال عليه السلام:

«من أبصر بها بصرته، ومن أبصر اليها أعمته».

فاذا تأمل المتأمل هذا القول وجد تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا يبلغ غايته ولايدرك غوره؛ أى أنّ الإنسان إذا جعل الدنيا وسيلة لنيل الكمال وأداة للوصول إلى الآخرة وجسرا للسمو والرفعة والتكامل فستطرح عنه كافة الحجب ويرى حقائق الكون كما هى، أمّا ذاك الذى يتعامل مع الدنيا كهدف لاوسيلة فانّ ذلك سيكون حجاباً ضخماً مضروباً على عينيه يحول دون رؤيته لاقرب الأشياء فضلًا عن الحقائق، وأبعد من ذلك سيغرق فى مادياتها ولا يرى لغيرها من وجود. والواقع هذا هو الفارق بين أهل الآخرة وأهل الدنيا، فهؤلاء يرون الدنيا مقدمة للآخرة واولئك يرون الدنيا غايتهم وهدفهم. فالدنيا كالشمس إن نظرت بها أبصرت وإن نظرت إليها عميت. كما أورد تفسير آخر لهذه العبارة وهو أنّ المراد بقوله:

«من أبصر بها بصرته»

أنّ النظر إلى الدنيا بكل ما تشتمل عليه من الآيات الربانية إنّما يزيدنا

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۱۹۷

بصيرة، فى حين قصر النظر على ماديات الدنيا يحرمنا من البصيرة بالآخرة بما فيها معرفة اللّٰه ونيل القرب منه. وذهب البعض إلى أنّ المقصود بالعبارة

«أبصر بها»

هو النظر إلى عيوب الدنيا وتقلباتها والدروس العبر التى تنطوى عليها، ويقيناً أنّ مثل هذه النظرة مدعاة للبصيرة والفطنة، أمّا المراد بالعبارة

«أبصر إليها»

التطلع إلى زخارف الدنيا ومظاهرها الخادعة التى تعمى عين الإنسان. وبالطبع لامانع من الجمع بين المعانى الثلاث فى المفهوم الجامع لهاتين العبارتين. ويالها من عبارتين رائعتين عظيمتى المعنى، وكفى بهما عبرة فى النجاة من الدنيا والسير نحو الآخرة، فالسلام والصلاة على أميرَالمؤمنين عليه السلام الذى رام تهذيب النفوس وسموها بهاتين العبارتين القصيرتين. وهناك كلمات المعصومين عليهم السلام التى تصور هذا المعنى أيضاً، ومن ذلك أنّ اللّٰه أوحى إلى داود عليه السلام:

«يا داود احذر القلوب المعلقة بشهوات الدنيا فانّ عقولها محجوبة عنى»[۳۴۰]

. كما ورد عن أميرَالمؤمنين على عليه السلام أنّه قال:

«لحب الدنيا صمت الاسماع عن سماعة الحكمة وعميت القلوب عن نور البصيرة».[۳۴۱]

قال المرحوم السيد الرضى (ره) آخر الخطبة:

«وإذا تأمل التأمل قوله عليه السلام

«ومن أبصر بها بصرته»

وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد، ما لا تبلغ غايته ولا يدرك غوره، لا سيما إذا قرن اليه قوله

«ومن أبصر اليها أعمته»

فانّه یجد الفرق بین

«ابصر بها» و «أبصر إلیها»

واضحاً نیراً، وعجیباً باهراً، صلوات اللّه وسلامه علیه».

تأمّلان

۱- کیفیة الحساب فی الآخرة

تعدّ مسألة الحساب فی یوم القیامة الذی تعرضت له الخطبة من المسائل القطعیة فی

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۹۸

الإسلام والتی وردت فی أغلب الآیات القرآنیة والأخبار المتواترة، ویشمل هذا الحساب جمیع أعمال الإنسان من صغیرة وکبیرة وفعل وکلام بل وحتی الصمت والسکوت، کما تفید الایات القرآنیة الواردة بهذا الشأن دقة حساب الأعمال. فقد صرحت الآیة ۱۶ من سورة لقمان علی لسانه وهو یعظ إبنه: «یا بُنَیَّ إِنَّها إِنْ تَکُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَکُنْ فِی صَخْرَةٍ أَوْ فِی السَّمواتِ أَوْ فِی الأَرْضِ یَأْتِ بِها اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِیفٌ خَبِیرٌ». والذی نخلص إلیه من الامور المتعلقة بالحساب کما وردت فی الآیات والروایات ما یلی:-

الف- عمومیة الحساب: وشمولیته لکافة الناس من الأولین والآخرین بما فیهم الرسل والأنبیاء، وقد إصطلحت الآیات القرآنیة علی یوم القیامة بیوم الحساب.[۳۴۲] ولا تقتصر هذه العمومیة علی الناس فحسب، بل نشمل جمیع أعمالهم، کما نلمس ذلک فی الآیة ۴۷ من سورة الأنبیاء: «وَنَضَعُ المَوازِینَ القِسْطَ لِیَوْمِ القِیامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَیْئاً وَإِنْ کانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَیْنا بِها وَکَفی بِنا حاسِبِینَ». وبالطبع هنالک بعض الأفراد ا لذین یردون الجنّة دون حساب لعظم أعمالهم الصالحة، کما هناک الأفراد الذین یکبون فی النار دون حساب بشاعة أعمالهم السیئة، وبعبارة اخری فانّ حسابهم واضح، فقد جاء فی الحدیث عن الإمام زین العابدین علیه السلام:

«اعلموا عباداللّه إن أهل الشرک لا تنصب لهم الموازین ولا تنشر لهم الدواوین وإنّما یحشرون إلی جهنم زمراً».[۳۴۳]

ب- سرعة الحساب: یتضح من الآیات والروایات أنّ الحساب الإلهی یوم القیامة یحصل بصورة سریعة جداً؛ فقد وردت ثمان آیات فی القرآن تصف اللّه سبحانه بأنّه سریع الحساب، کما جاء فی الحدیث الشریف:

«إن اللّه یحاسب الخلائق کلهم فی مقدار لمح البصر»[۳۴۴]

، ودلیل السرعة فی الحساب واضح، لأنّها تتوقف لاینطوی علی أیة صعویة، اللّهم إلّا أن تقتضی حکمته تأخیر البعض فی الحساب مبالغة لهم فی العقاب أو حکمة اخری فالحق أنّ أعمالنا لها تأثیر علی أرواحنا وأجسامنا، التی یتضح حسابها من خلال نظرة لها، من جانب

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۱۹۹

آخر فانّه یمکن تشبیه أعمال الإنسان بعمل السیارة، بحیث تکفی نظرة واحدة لعدادها لمعرفة کم کیلومتر قطعت، ولا سیما فی عصر الحاسب الآلی- حیث یزودک بما شئت من المعلومات أحیاناً المجرد ضغطک علی زر من أزراه- فمسألة سرعة الحساب لم تعد بالمعقدة الفهم والإدراک علی العقل البشری.

ج- الدقة فی الحساب: المیزة الاخری فی الحساب یوم القیامة استناداً إلی الآیات القرآنیة تکمن فی الدقة من قبیل الإشارة إلی المحاسبة علی العمل وإن کان مثقال ذرة، أو حبّة من خردل.

د- التشدید فی الحساب: الخاصیة الاخری تکمن فی سوء الحساب حسب تعبیر الآیات القرآنیة بالنسبة لُاولئک الذین کانوا یتصفون

بالتشدد والتصعب فى حياتهم الدنيا تجاه الآخرين وبالطبع فانّ سوء الحساب لايعنى كونه الحساب السئ وغير الصحيح، فذلك لا يجوز مطلقاً على اللّه سبحانه، إنّما يراد به التشدد على من كان متشدداً.

ه- اليسر فى الحساب: يستفاد من بعض الآيات القرآنية وخلافاً للتعامل مع الطائفة المذكورة، فهنالك البعض الذى يخضع للحساب اليسير يوم القيامة، والمراد بهذا البعض اولئك الأفراد الذين تعاملوا بالسهولة واليسر فى حياتهم الدنيا مع الآخرين، فكان جزاء أعمالهم أن يسر اللّه عليهم الحساب يوم القيامة. فقد قال القرآن الكريم: «فَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً* وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً»[۳۴۵]. وجاء فى الحديث أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال:

«ثلاث من كن فيه حاسبه اللّه حسابا يسيرا وأدخله الجنّة برحمته، قالوا:

وما هى يا رسول‌اللّه؟ قال: تعطى من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك»[۳۴۶]

فالحديث يشير بوضوح إلى أنّ الحساب اليسير فى يوم القيامة إنّما هو إنعكاس لحساب الإنسان اليسير لبنى جنسه فى الدنيا.

و رود الجنّة بغير حساب: إضافة إلى الطائفة المتشددة فى الحساب والاخرى السهلة، هنالك طائفة ثالثة ترد الجنّة دون أن تتعرض للحساب، وهى الطائفة التى عاشت ذروة الورع

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۰۰

إذا جمع اللّه عزّوجلّ الأولين والآخرين قام مناد- فنادى يسمع الناس- فيقول:

«أين المتحابون فى اللّه؟»

فيقوم عنق من الناس فيقال لهم:

«اذهبوا إلى الجنّة بغير حساب».[۳۴۷]

وقد ورد مثل هذا المعنى بالنسبة للصابرين ۳۴۸]، كما ورد مثله فى السابقين إلى الإيمان ۳۴۹]. وبالمقابل هنالك طائفة ترد جهنم بغير حساب، فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ثلاثة يدخلهم اللّه النار بغير حساب: إمام جائر وتاجر كذوب وشيخ زان»[۳۵۰]

. وبالطبع هناك الطوائف الاخرى التى أشارت إليها الروايات أنّها تدخل النار دون حساب. ومن الطبيعى أن تكون الطائفة التى ترد الجنّة دون حساب او تلك التى ترد النار بغير حساب أن تكون قد عملت بحيث أصبح كل وجودها نور أو ظلمة وكانت تمشى بصفتها فضيلة أو رذيلة، ومن هنا لم تعد هناك من حاجة للحساب.

۲- المذموم عبادة الدنيا لانيلها

المسألة الاخرى التى تجدر الإشارة إليها هناك هو أنّ المذموم من الدنيا يكمن فى الخلود إليها والاغترار بها وتقديسها، أى التضحية بالغالى والنفيس من القيم والمثل من أجل المنافع المادية الدنيوية الرخيصة، وإلّا ليس هنالك من ذم للدنيا المشرفة التى يعيش فيها الإنسان بعز وكرامة ويتمتع بما فيها على ضوء العقل والدين. وسنعرض بالتفصيل لهذا الأمر فى المباحث القادمة ذات الصلة بهذا الموضوع إن شاءاللّه.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۰۱

الخطبة[۳۵۱] الثالثة و الثمانون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وهى الخطبة العجيبة وتسمى «الغراء»

و فيها نعوت اللّه جل شأنه، ثم الوصية بتقواه ثم التنفير من الدنيا، ثم ما يلحق من دخول القيامة، ثم تنبيه الخلق إلى ما هم فيه من الأعراض، ثم فضله عليه السلام فى التذكير.

نظرة إلى الخطبة

نقل ابونعيم الاصفهانى جانبا من هذه الخطبة فى حلية الاولياء وقال فى سبب ورودها ان الإمام عليه السلام شيع جنازة لما ارتفع صراخ أهله حين وضع فى القبر فأقسم الإمام عليه السلام أن الموت لا يذر أحدا ولو شاهدوا ما يشاهد هذا الميت لبكوا على أنفسهم دونه، ثم نهض عليه السلام إثر ذلك فاورد هذه الخطبة.

الخطبة تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان بصدد إعداد قلوب الناس وايقاظهم من غفلتهم، وهى خطبة عظيمة المضمون بعيدة المعنى لها فعل السحر فى النفس بفضلها تتضمن عدداً من الدروس والعبر التى تصنع الإنسان وتهذبه ويمكن تقسيمها إلى إثنى عشر قسماً[۳۵۲] كل منها يكمل الآخر:

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۰۲

القسم الأول: يخوض فيه الإمام عليه السلام بحمداللّه والثناء عليه وبيان صفات جلاله وجماله ليهيئى القلوب لسماع المواعظ والنصائح.

القسم الثانى: الوصية بالتقوى بفضلها رأس المال الأصلى للإنسان فى حياته المادية والمعنوية.

القسم الثالث: ذم الدنيا بفضلها العقبة الكؤود التى تحول دون التقوى والورع.

القسم الرابع: الحديث عن المعاد والحشر وأهوال يوم القيامة لتكون القلوب منفتحة على الاتعاظ بالزواجر.

القسم الخامس: التعرض لاحوال الإنسان من خلال بيان عاقبته.

القسم السادس: التذكير ثانية بالورع والتقوى.

القسم السابع: لما كان الالتفات إلى النعم الإلهية يقود الإنسان إلى معرفة اللّه وشكره على نعمه وطاعته، تطرق عليه السلام فى هذا القسم إلى النعم التى أفاضها اللّه سبحانه على الإنسان.

القسم الثامن: المواعظ والإرشادات التى تفتح العقول والقلوب.

القسم التاسع: الحديث عن التقوى ثالثة الإشارة إلى كونها أفضل الزاد والمتاع فى سفر الآخرة.

القسم العاشر: الكلام عن خلق الإنسان مذ كونه جنيناً إلى موته وما بعد الموت بعبارات توقظ الضمير البشرى.

القسم الحادىعشر: التحذير من عدم السبيل إلى الرجعة بعد الموت ولا تدارك ما فرط فى الدنيا.

القسم الثانى عشر والأخير: إشارة إلى الدروس والعبر التى يختزنها تأريخ الماضين وبيان أحوال الاقوام بعبارات مثيرة وحساسة رائعه؛ الأمر الذى جعل السيد الرضى (ره) يقول:

بعد أنّ خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة إقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۰۳

القسم الأول: البعيد القريب والعالى الدانى

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى عَلا بِحَوْلِهِ ودَنا بِطَوْلِهِ مانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وفَضْلٍ، وَكاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وأَزْلٍ أَحْمَدُهُ عَلَى عَواطِفِ كَرَمِهِ وسَوابِغِ نِعَمِهِ وَأُومِنُ بِهِ أَوَّلًا بادِياً وأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هادِياً وأَسْتَعِينُهُ قاهِراً قادِراً أَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كافِياً ناصِراً وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله عَبْدُهُ

ورَسُولُهُ أَرْسَلَهُ لِإنْفاذِ أَمْرِهِ وَإِنْهاءِ عُذْرِهِ وتَقْدِيم نُذُرِهِ».

الشرح والتفسير

يستهل الإمام عليه السلام خطبته المشهورة بالغراء بالحمد والثناء والصلوات على النبى صلى الله عليه و آله ثم يعرج على صفاته سبحانه وتعالى فيحمده بادئ ذى بدء لأربع صفات من صفاته:

«الحمدللّه الذى علا بحوله ۳۵۳]، ودنا بطوله،[۳۵۴] مانح ۳۵۵] كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عظيمة وأزل»[۳۵۶]

إننا نعلم أنّ صفات اللَّه على خلاف صفات عباده المحدودة؛ فهو قريب وبعيد، وظاهر وباطن، وله صفات اخرى متناقضة لا تجمع فى عباده، إلّاأنّها تجمع فى ذاته اللامتناهية. فقد أشار الإمام عليه السلام فى العبارة الاولى إلى هذا المعنى فقال:

«الحمدللّه الذى علا بحوله»

فهو قريب

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۰۴

فى علوه، وعلوه معلول لقدرته، بينما قربه معلول لنعمته ومنته. ثم أشار فى العبارة الثانية إلى أنّه مصدر البركات الذى يفيض الغنيمة والفضل على العباد، وفى نفس الوقت يكشف عنهم الكرب والبلاء، وكيف لا يرتجى منه ذلك وهو ما عليه من القدرة واللطف والمحبة. ولعلنا نلمس هذا المعنى فى الآية القرآنية الكريمة: «وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ».[۳۵۷]

ومن البداهة أنّ غير اللَّه- لأنّ قدرته محدودة- لايسعه أى نعمة أو فضل، كما لايستطيع أن يدفع أى بلاء أو ضرر، وليس هنالك مثل هذه الاستطاعة والقدرة سوى للذات المقدسة. ثم يخوض عليه السلام فى علية الحمد والثناء، بعبارة اخرى كان الحديث فى العبارات السابقة عن صفات المنعم، أمّا هنا فقد جرى الحديث عن النعم:

«أحمده على عواطف كرمه، وسوابغ ۳۵۸] نعمه»

فالواقع هو أنّ للنعم الإلهية صفتان وسيعة شاملة ودائمة مستمرة. وليس هذا سوى لقدرته وكمال لطفه الذى أغرق الإنسان بوابل نعمه ولم يقطعها عنه طرفة عين، ثم قال عليه السلام:

«وأومن به أولًا بادياً[۳۵۹]، وأستهديه قريباً هادياً، وأستعينه قاهراً قادراً، وأتوكل عليه كافياً ناصراً»

فالإمام عليه السلام يقرن كل شئ بدليله، فالإيمان به لكونه سابق كل شئ فى الوجود وهو واجب الوجود وقد عمت آثاره كافة ارجاء العالم، كما يستدل على سؤاله الهداية لأنّه الهادى للعباد وهو قريب منهم قادر على هدايتهم. ولما كان الركن الثانى للإيمان- بعد الاقرار للّه بتوحيد- الشهادة بالنبوة قال عليه السلام:

«وأشهد أن محمداً- صلى اللّه عليه وآله- عبده ورسوله».

ثم أشار عليه السلام إلى الوظائف الثقيلة للنبوة ليوجزها بثلاث عبارات:

«أرسله لانفاذ أمره، وإنهاء عذره، وتقديم نذره»[۳۶۰]

. فالعبارة الاولى إشارة إلى قيام النبى صلى الله عليه و آله ودعوته الامّة إلى الإيمان باللَّه، والعبارة الثانية إلى اتمام الحجة بواسطة إبلاغ أحكام اللَّه واستعراض الأدلة العقلية والمعجزات، والعبارات الثالثة إشارة إلى بيان العذاب الإلهى فى الدنيا والآخرة لُاولئك الذين يعصون أوامر اللَّه سبحانه.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۰۵

القسم الثانى: دور التقوى فى تقرير مصير الإنسان

اشارة

«أُوصِيكُمْ عِبادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِى ضَرَبَ الْأَمْثالَ ووَقَّتَ لَكُمُ الْآجالَ وَأَلْبَسَكُمُ الرِّياشَ وأَرْفَغَ لَكُمُ الْمَعاشَ وأَحاطَ بِكُمُ الْإِحْصاءَ وأَرْصَدَ لَكُمُ الْجَزاءَ وآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوابِغِ والرِّفَدِ الرَّوافِغِ وأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوالِغِ فَأَحْصَاكُمْ عَدَداً ووَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً فِى قَرارِ خِبْرَةٍ ودارِ عِبْرَةٍ أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيها ومُحاسَبُونَ عَلَيْها».

الشرح والتفسير

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من حمداللَّه والثناء عليه والشهادة لرسول اللَّه بالنبوة فى المقطع الاول من الخطبة حتى تطرق عليه السلام إلى أهم مسألة تلعب دورها فى تقرير مصير الإنسانية ألاوهى التقوى، فيوصى بها الجميع ثم يذكر عشر صفات للَّه كلها تدعو إلى التقوى فتارة يتحدث عن النعم الموفورة، وتارة أخرى عن الحساب والجزاء، وأحياناً يشير إلى النذر الإلهية وإتمام الحجة، كما يتكلم عن محدودية عمر الإنسان وما يتعرض له من تمحيص واختبار، وكل واحد منها من شأنه أن يسوقه إلى التقوى فقال عليه السلام:

«أوصيكم عباداللّه بتقوى اللّه الذى ضرب الأمثال»

فالأمثلة والتشبيهات التى وردت فى القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه و آله وكلمات المعصومين عليهم السلام لتقريب الحقائق العقلية إلى الأذهان وتجعلها فى متناول الحس، لا تخرج عن أربع صور هى: تشبيه المحسوس بالمحسوس (بالطبع المحسوس الثانى لابدّ أن يكون أوضح من المحسوس الأول)، تشبيه المعقول بالمحسوس، وتشبيه المحسوس بالمعقول، وأخيراً تشبيه المعقول بالمعقول، والغرض من كل هذه التشبيهات هو الاستئناس بالمسائل التربوية والأوامر

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۰۶

والنواهى الإلهية بحيث يكون مفهومها قريباً لدى النفس ولا تبقى ألغاز المفاهيم المعقدة. ثم قال عليه السلام:

«ووقت لكم الآجال»

فلكل عمر وأجل معين وقد خط الموت والفناء على جبين الجميع، سواء كان هذا الأجل هو النهاية القطعية للحياة؛ أى الأجل المسمى أو النهاية المشروطة؛ أى الأجل المحتوم. فقد قال سبحانه وتعالى «فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لايَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ»[۳۶۱] وقال: «كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ»[۳۶۲].

ومن البديهى أن يتجه الإنسان نحو التقوى حين يلتفت إلى تقلب الحياة الدنيا وقصر العمر. ثم قال عليه السلام:

«وألبسكم الرياش ۳۶۳] وأرفغ ۳۶۴] لكم المعاش»

حيث طرح الإمام عليه السلام مسألة اللباس من بين جميع النعم ثم أشار إلى كافة نعم الحياة والعيش، ولعل كون اللباس من أهم النعم، الذى لايقتصر على حفظ الإنسان من البرودة والحرارة ويصونه من الأخطار والصدمات التى تتهدده ويستر عيوبه فحسب، بل لأنّ القرآن شبه التقوى باللباس فى آياته، ومن هنا كان هنالك تناسب مع أصل الحديث عن التقوى، وهذا ماحدا بالإمام عليه السلام إلى تقديم الخاص قبل العام فى إطار حديثه عن النعم. والجدير بالذكر أنّ وجود هذه النعم الفضيلة الواسعة التى عمت حياة الإنسان لهى الدافع لمعرفة اللَّه وبالتالى تقواه. فكيف يعرف الإنسان هذه النعم ولا يجد فى رعاية حرمة وليها. فقد ورد فى القرآن الكريم قوله سبحانه: «يا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِى سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ»[۳۶۵]. يذكر أن لريش الطيور ألوان مختلفة وجمالية خاصة، ومن هنا فانّه يعنى الزينة أيضاً، ولما كانت التقوى تستر عيوب الإنسان وتحفظه من وساوس الشيطان وهى زينة له، فانّ مفردة اللباس فى الآية

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۰۷

الشريفة تشير إلى التقوى ۳۶۶] ثم قال عليه السلام:

«وأحاط بكم الاحصاء، وأرصد لكم الجزاء»

طبعاً إذا التفت الإنسان إلى هذه المسألة وهى أنّ الحساب الإلهى دقيق- وكأنّه قلعة محكمة يصعب إختراقها حيث لايسع أى عمل أو

قول صدر من الإنسان أن يفلت من الحساب، كما أنّ كل قول وعمل إنّما يحمل جزائه معه، فان هذا الأمر سيدعوه إلى الورع والتقوى وإجتناب معصيهٔ أوامر اللّه سبحانه، والعبارهٔ:

«أحاط بكم الاحصاء»

المستقاهٔ من الآيهٔ الكريمهٔ: «وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً»[۳۶۷] إنّما هى عبارهٔ رائعهٔ تشير إلى أنّ الإنسان قد خضع لدائرهٔ الاحصاء الإلهى بحيث لايصدر منه شيئاً دون حساب، والعبارهٔ:

«أرصد لكم الجزاء»

تصور الثواب والعقاب كمراقب كمن للإنسان بحيث لايغادر أى عمل صدر منه، ثم قال عليه السلام:

«وآثركم بالنعم السوابغ، والرفد[۳۶۸] الروافغ،[۳۶۹] وأنذركم بالحجج البوالغ»

الايثار تفضيل الشخص على النفس أم الآخرين، ومنه ماورد فى الآيهٔ ۹۱ من سورهٔ يوسف:

«تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا»

. أمّا ما تصوره بعض شرّاح نهج‌البلاغهٔ من أنّ الايثار تقديم الآخر على الذات، أو فيما يحتاجه المؤثر ليس بمستقيم، ولما لايمكن تصور أى من هذين المعنيين على اللّه فليس من الصواب الاتجاه نحو المعنى المجازى.[۳۷۰] على كل حال فان المراد بالعبارهٔ هو أنّ اللّه سبحانه قد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته وأفاض عليه نعمه وكراماته؛ الأمر الذى صرح به القرآن الكريم: «وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا»[۳۷۱]. فاذا إلتفت الإنسان إلى هذا النعم الإلهيهٔ بما فيها تفضيله على سائر المخلوقات، سيثار لديه حس الشكر، وكما أوردنا سابقاً فانّه سيتجه

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۲۰۸

لمعرفهٔ المنعم وبالتالى الامتناع عن مخالفته والتمرد على أوامره والتحلى بالورع والتقوى. أمّا الحجج البوالغ المتمثلهٔ بالأنبياء والكتب السماويهٔ والمعجزات والأدلهٔ العقليهٔ والنقليهٔ فهى الاخرى من دواعى الورع والتقوى وأمّا ذكر النعم إلى جانب الحجج فيمكن أن يكون إشارهٔ إلى أنّ اللّه فى الوقت الذى يغدق كل هذه النعم على الإنسان، إلّاأنّه يحذره من استغلالها وأنّ عليه أن يوظفها بما يقوده إلى الفلاح والسعادهٔ. ثم إختتم عليه السلام كلامه بهذا الشأن قائلًا:

«فأحصاكم عدداً، ووظف لكم مدداً،[۳۷۲] فى قرار خبرهٔ[۳۷۳]، ودار عبرهٔ، أنتم مختبرون فيها، ومحاسبون عليها»

لقد سبق الحديث فى الصفهٔ الثانيهٔ عن أجل الإنسان وفى الصفهٔ الخامسهٔ عن إحصاء الناس وعددهم، ثم كرر عليه السلام هذين الوصفين لأهميتهما وتأثيرهما المباشر فى تجلى حقيقهٔ التقوى فى وجود الإنسان، كما يمكن أن يفيد هذا التكرار معنى آخر، فقد كان الحديث فى العبارات السابقهٔ عن الاحاطهٔ بأعمال الإنسان، ومن هنا أردف بالكلام عن جزاء الأعمال، أمّا هنا فقد ورد الكلام عن أحصاء الناس بحيث لايشرد أحدهم عن مراقبهٔ اللّه سبحانه، كما صرح بذلك القرآن: «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمواتِ وَالأَرضِ إِلّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً* لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً»[۳۷۴]. ولئن أشار إلى انتهاء الأجل فانّ ذلك مقدمهٔ للعبارات التاليهٔ (الحياهٔ فى دار الإمتحان والابتلاء) وفى الواقع هى من قبيل البيان الإجمالى والتفصيلى للعبارهٔ السابقهٔ. وأمّا قوله عليه السلام:

«قرار خبرهٔ ودار عبرهٔ»

فواضح فى أنّ حياهٔ الناس تمثل امتحانهم واختبارهم؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن بالقول: «أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِينَ».[۳۷۵]. والتعبير بالعبرهٔ يشير إلى الاعتبار بمصير الظلمهٔ والأقوام الطاغيهٔ والأفراد الذين تلطخت أيديهم بالذنوب والمعاصى، وأنّ العقاب الإلهى لايقتصر على الآخرهٔ بل يطيل

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۲۰۹

الأفراد حتى فى الحياهٔ الدنيا. والضمير فى العبارهٔ

«ومحاسبون عليها»

يعود إلى دار الـدنيا؛ أى كما أنّ الدنيا دار بلائكم وتمحيصـكم فان حسابكم يتعلق بها بما أسـلفتم من أعمال وتمتعتم من نعم أفاضـها اللَّه عليكم.

التقوى فى كل زمان ومكان

كمـا أوردنا آنفاً فانّ الإمام عليه السـلام أعقب الحمـد والثناء بالـدعوة إلى الورع والتقوى التى تختزن كافـة مقومات السـعادة الإنسانية وتحـدد مكانة الإنسان لدى اللَّه وتشـكل أفضل الزاد إلى الآخرة. والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السـلام لايكتفى بالوصـية بالتقوى بل يشـير إلى جميع الامور التى من شأنها بلوغ التقوى ومنها النعم الإلهيـة المختلفـة وقصـر عمر الإنسان والاحاطة التامة للَّه سـبحانه بالناس وأعمالهم وأقوالهم والدروس والعبر التى تتضـمنها حياة الأقوام السابقة، بل وحتى الامم الحاضـرة، إلى جانب الالتفات إلى هذا المعنى وهو أن هذه الدار الدنيا هى قاعة اختبار وامتحان وأنّ اللَّه واتر أنبيائه ورسـله وأنزل معهم الكتب السماوية لانذار العباد، والحق أنّ هذا ذروة الفصاحة والبلاغة فى أن تجمع كل هذه الامور التى تصور التقوى بمعناها الكبير بهذا العبارات القصيرة.

حقاً إنّ تأمل هـذه الامور الواردة فى الخطبة ليقود الإنسان إلى إستشـعار الورع والتقوى والاحساس بحضوره سـبحانه على الدوام. فأنى للإنسان أن يتمرد على خالقـة وقد شـعر بفيض نعمه عليه وأيقن بالقيامة والبعث والحساب وآمن بالحجج الإلهية التى تضـمنتها الكتب السماوية وصدحت بها أنبياء اللَّه ورسله والأئمة عليهم السلام، وهو يرى قصر عمره وتقلب أحوال الدنيا والدروس والعبر التى إشتملت عليها حياة سالف الامم.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۱۱

القسم الثالث: حقيقة الدنيا

اشارة

«فَإِنَّ الـدُّنْيا رَنِقٌ مَشْـرَبُهَا رَدِغٌ مَشْـرَعُهَا، يُونِقُ مَنْظَرُهَـا ويُوبِقُ مَخْبَرُها، غُرُورٌ حائِلٌ، وضَوْءٌ آفِلٌ، وظِلٌّ زائِلٌ، وسِـنادٌ مائِلٌ، حَتَّى إذا أَنِسَ نافِرُهـا واطْمَـأَنَّ نَاكِرُهَـا، قَمَصَـتْ بِأَرْجُلِهَـا، وقَنَصَـتْ بِأَحْبُلِهَـا، وأَقْصَـدَتْ بِأَسْـهُمِها، وأَعْلَقَـتِ الْمَرْءَ أَوْهـاقَ الْمَنِيَّةِ قائِـدَةً لَهُ إِلَى ضَـنْكِ الْمَضْـجَعِ، وَوَحْشَـةِ الْمَرْجِعِ، ومُعايَنَـةِ الْمَحَـلِّ وثَوابِ الْعَمَلِ، وكَـذَلِكَ الْخَلَفُ بِعَقْبِ السَّلَفِ، لا تُقْلِعُ الْمَنِيَّةُ اخْتِراماً، ولا يَرْعَوِى الْباقُونَ اجْتِراماً، يَحْتَذُونَ مِثالًا، ويَمْضُونَ أَرْسالًا، إِلَى غايَةِ الإِنْتِهاءِ، وصَيُّورِ الْفَناءِ».

الشرح والتفسير

يعرض الإمـام عليه السـلام فى هـذا المقطع من الخطبـة بالـذم الشديـد الـدنيا، حيث كان حـديثه عن دار الامتحان والعبرة، فيشـرح هنا خصائص هذه الدار بعبارات روعة فى الفصاحة والبلاغة. من جانب آخر خاض الإمام عليه السـلام فى التقوى، ونعلم أنّ العقبة الكؤود التى تعترض سبيل التقوى إنّما تكمن فى حبّ الـدنيا والتعلق بمادياتها، ومن هنا ذمها الإمام عليه السـلام ليحط من قـدرها لـدى الناس ويقوى عندهم حس التقوى. فقد أشار عليه السلام إلى ثمان من مميزات الدنيا فقال عليه السلام:

«فانّ الدنيا رنق ۳۷۶] مشربها، ردغ ۳۷۷] مشرعها»

عادة ما يكون مستوى الأنهار التى يستفيد الإنسان

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۱۲

من مياههـا أكثر إرتفاعاً من سـطح الأرض المجاورة لها بحيث يصـعب التزود منه، ومن هنا يحفر جزء من ساحل النهر ليمكن الوصول

إلى ماءه بسـهولة، وتصطلح العرب على هذا الجزء الذى يسهل الوصول إلى الماء بالشريعة أو المشرع حيث ينتهى إلى الماء يطلق عليه المشـرب؛ فاذا تلوث المشرب بالطين والوحل أو تلوث الماء بحيث يتعذر التزود منه يعمد إلى إحداث شريعة بصورة مناسبة، أو يجعل عليه قنطرة لحل تلك المشاكل. الغرض هو أن الإمام عليه السلام شبه نعم الدنيا بالماء، إلّاأن المؤسف له هو أنّ الوصول إلى الماء يمر عبر الوحل ونقطـة بلوغ الماء كانت موضـعاً يلوث الماء، ومن هنا فانّ هـذا الماء يدعو إليه العطاش من بعيد، إلّاأنّهم حين يصـلوه يرون أنفسـهم أمام سيل من المشاكل، فلا يتمكنوا من الحصول على الماء العذب، والحق أنّ هذا هو حال متع الدنيا كالمال والمقام وما إلى ذلك؛ وذلك لأنّ نيل الـدنيا يحتم على الإنسان الاغماض عن الكثير من الفضائل الأخلاقيـة واعتياد الكـذب والغـدر والخيانـة والذل، وكل من هذه الرذائل مسـتنقع يكمن فى طريق الوصول، فاذا وصل اصـطدم بأنواع الحسد والطمع؛ الأمر الذى يعكر صفو الماء. ثم قال عليه السلام

«يونق ۳۷۸] منظرها، ويوبق ۳۷۹] مخبرها»

لقد ورد هذا التناقض لظاهر الدنيا وباطنها بعدّة صور فى عبارات أئمة العصمة، ومن ذلك ما ورد عن أميرالمؤمنين على عليه السلام:

«فإنّما مثل الدنيا مثل الحيةَ: لين مسها، وقاتل سمها»[۳۸۰]

ويشـبهونها أحياناً بالمرأة الجميلـة التى تقتل أزواجها الواحـد تلو الآخر. وبالطبع فأنّ أوصاف الدنيا ليست بالخافية على الإنسان اللبيب، فظاهرها أنيق ساحر وباطنها خطر قاتل. ثم قال عليه السلام:

«غرور حائل ۳۸۱]، وضوء آفل،[۳۸۲] وظل زائل، وسناد[۳۸۳] مائل»

ممّا لاشك فيه أنّ الدنيا تنطوى على عناصر الجمال والخداع، إلّاأنّها تنتهى لمجرد أن يريد الإنسان التمتع بها، ومن هنا

نفحات الولايةَ، ج۳، ص: ۲۱۳

عبر عنها الإمام عليه السـلام بالغرور الحائل، لأنّ الغرور بالضم من لوازم الجمال الظاهرى، أمّا الغرور بالفتح تعنى الشخص الخادع ومن هنـا اطلق الغرور على الشـيطان. ولما كانت أمتعـة الـدنيا براقـة فقـد عبرعنها الإمام عليه السـلام بالضوء، إلّاأنّ هـذا البريق ليس له دوام وسـرعان ما يخفت، الأمر الذى جعل الإمام عليه السـلام ينعت ذلك الضوء بالآفل. وتتصف بظلها الوداع المؤقت كظل شـعاع الشمس على الأشـجار الـذى سـرعان ما ينقشع ويزول، ومن هنا فان الظل الزائل الـذى تمثله أمتعة الدنيا يمكن أن يكون ركنا يوثق به، غير أنّه ركن خـاو، ولـذلك عبر عنه عليه السـلام بالسـناد المائـل. ثم أشـار عليه السـلام إلى سـائر خصائص الـدنيا، وبعبارة أخرى فانّه تعرض للصفات المذكورة بتشبيهات وتعبيرات جديدة فقال عليه السلام:

«حتى اذا أنس نفارها، واطمان ناكرها، قمصت ۳۸۴] بأرجلها، وقنصت ۳۸۵] بأحبلها[۳۸۶]، وأقصدت بأسهمها[۳۸۷]»

فقد صور الإمام عليه السلام الدنيا ووضعها بثلاثة تشبيهات: الأول شبه الدنيا بمركب طيب الظاهر، إلّاأنّه سرعان ما يجمع ويطرح راكبه أرضاً. ثم شـبهها بالصـياد الـذى يرمى بشـباكه وينثر فيها حبوب فخه فاذا إقترب صـيده لم يجـدله من سبيل إلى الهرب، وأخيراً شـبهها بالصياد الذى يكمن فى الطريق فاذا شاهد صيده صوب إليه سهامه.

والجدير بالذكر فى العبارة

«حتى إذا أنس نافرها ...»

انها تشير إلى حقيقةَ وهى أنّ خداع الدنيا ليس بالشئ إلهين الذى يمكن تجاوزه بسهولةَ، بل تجر إليها أحياناً حتى الزهاد والعباد لتلقى بهم فى حبائلها وشباكها، ومن هنا ينبغى أن يلتفت الجميع إلى مدى خطورة هذه الدنيا الغرارة والمداومة على هذا الذكر:

«اللّهم لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين أبدا».

ثم أشار عليه السلام إلى عاقبة أمر الإنسان فقال:

«وأعلقت المرء أوهاق ۳۸۸] المنية قائدة له إلى ضنك المضجع ۳۸۹]،

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۱۴

ووحشة المرجع، ومعاينة المحل، وثواب العمل»

لاشـك أنّ طلاب الـدنيا أهلهـا ليسوا مسـتعدين للتخلى عنهـا، إلّاأنّها تلقى بحبل الموت بكل قسوة على أعناقهم، فتخرجهم بالقوة من قصورهم الفارقـة ودورهم العامرة لتوردهم تلك الحفر المظلمة الموحشة التى تملأه خوفاً واضـطراباً، والأنكى من ذلك زوال الحجب عن عينيه ورؤيته لموضـعه الذى سـيحله، فان كان مستحقاً للعذاب، رأى بأم عينيه نار جهنم فيزداد خشية لمفارقته لدنيا بما فيها من مال ومقـام وزوجـة وولـد. ثم يختتم كلامه عليه السـلام بالإشارة إلى هـذه الحقيقـة وهى أنّ ما أورده الإمام بشأن الـدنيا وأبناءها لايختص بالماضـيين أو بطائفـة معينة من الناس، بل يشـمل الجميع الذين لابدّ لهم أن يشـهدوا هذا الامتحان ويذوقوا الموت فما من خلود وبقاء سوى للّه سبحانه، حيث قال عليه السلام

«وكذلك الخلف بعقب السلف، لاتقلع المنية اختراماً[۳۹۰] ولا يرعوى ۳۹۱] الباقون اجتراماً[۳۹۲]»

. نعم فهم يعملون على غرار من سبقهم ويحذون حذوهم

«يحتذون ۳۹۳] مثالًا، ويمضون أرسالًا،[۳۹۴] إلى غاية الانتهاء، وصيور[۳۹۵] الفناء»

. فقـد تضـمنت العبارة الاشارة إلى أمرين: الأول الحـذار من أن يتصور البعض أنه مسـتثنى من هذا القانون العام فيظنون أنّهم مخلدون فى الدنيا باقون فيها. والثانى الاعتبار بالماضيين من خلال النظر إلى آثارهم ليروا أين حلوا، وكيف كانوا:

من كان لايطأ التراب برجلهيطأه اليوم بصفحة الخد

ومن كان بينك وبينه شبرانفهو اليوم فى غاية البعد

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۱۵

أمّا التعبير بالاخترام وبالالتفات إلى معنى هذه المفردة الذى يفيد القطع والقص (ولذلك فسرّ بعض شرّاح نهج‌البلاغة الموت المحزوم بالموت الـذى يطيل الإنسان قبل مـدته الطبيعيه)[۳۹۶] كأنّه يشـير إلى حقيقـة وهى أنّ إحـدى مشاكل الحياة الـدنيا فى أنّه قلّما يفارق أحـد الـدنيا بموت طبيعى؛ أى أنّه يوظف كافة طاقاته من أجل البقاء بينما يأتيه الموت، بل غالباً ما يخرق عمره بفعل مختلف العوامل سواءاً الداخليـة أو الخارجيـة، الجسـمية أو النفسـية وأخيرا الحوادث الفردية أو الاجتماعية، ومن هنا لايسع أى فرد أن يؤمل العيش ولو ليوم أو ساعة. والسؤال المطروح لم رغم كل هذه الامور والحال

«لايرعوى الباقون اجتراما»؟

ليس هنالـك من جواب سوى الغفلـة والجهـل ووساوس النفس الامارة والشـياطين الـذين يحكمون سـيطرتهم على الإنسان ويحجبون أبصارهم وبصائرهم عن رؤية الحقائق. فهو بالضبط كالطير الذى يرى الحبوب دون أن يرى المصيدة التى نصبها له الصياد.

تقلب الدنيا

لقد إسـتفاضت الآيات القرآنية والروايات الإسـلامية التى كشفت النقاب عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها. وما أورع الصورة التى رسمها القرآن لهذه الدنيا حين شبهها بماء المطر:

«وَاضْـرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرضِ فَأَصْبَحَ هَشِـيماً تَذرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَىءٍ مُقْتَدِراً»[۳۹۷]. الخطبـة التى نحن بصددها هى الاخرى رسـمت صورة ناصـعة لتفاهة الدنيا بحيث تهز عباراتها ضـمير أهل الغفلة لتلفت إنتباههم إلى الآخرة، وكثيرة هى خطب نهج‌البلاغة التى وردت بشأن الدنيا، ولعل السـبب الذى يكمن وراء كل هذه التأكيدات هو أنّ العصـر الذى عاشه الإمام عليه السـلام قد أعقب تلك الفتوحات الإسـلامية والتى جرت ثروات طائلة على البلاد الإسلامية، حتى كانت آثـار السـلاطين والملوك النفسـية من بين الغنائم التى كان تحصل عليها الجيوش الإسـلامية؛ الأمر الـذى شـد أنظار أغلب الأفراد إلى

الدنيا، وهذا ما أدى بالتالى إلى فساد المجتمع الإسلامى. فما

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۲۱۶

كان من الإمام عليه السلام وبغيهٔ إعادهٔ الامّهٔ إلى مسارها الإسلامى الصحيح الذى رسمه رسولاللّه صلى الله عليه و آله إلّاأنّ يعتمد تلك الحياهٔ الزاهدهٔ المتواضعهٔ من جههٔ، ويلقى بكلماته الروحيهٔ ليوقظ تلك القلوب الغافلهٔ من جههٔ أخرى الادباء والشعراء على مر العصور أنشدوا الشعر فى تصوير غدر الدنيا وعدم وفائها.

والعجيب فى الأمر أنّ كل هذه الآيات والروايات إلى جانب النظم الأدبى البديع لم تتمكن من إيقاظ أهل الدنيا وسلخهم عنها، فواصلوا بكل قوهٔ مسارهم المنحرف دون الإكتراث لهذا الواعظ أو ذاك. نعم فالمؤمنون إنّما يتعظون بهذه العبر وينتفعون بها ليجدوا ويجتهدوا فى إصلاح أنفسهم ومعادهم.

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۲۱۷

القسم الرابع: أهوال المحشر

اشارهٔ

«حَتَّى إذا تَصَرَّمَتِ الْأُمُورُ، وتَقَضَّتِ الدُّهُورُ، وأَزِفَ النُّشُورُ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرائِحِ الْقُبُورِ، وأَوْكارِ الطُّيُورِ، وأَوْجِرَهِٔ السِّباعِ، ومَطارِحِ الْمَهالِكِ، سِراعاً إِلَى أَمْرِه، مُهْطِعِينَ إِلَى مَعادِهِ، رَعِيلًا صُمُوتاً، قِياماً صُفُوفاً، يَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، ويُسْمِعُهُمُ الدَّاعِى، عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الِاسْتِكانَهِٔ، وضَرَعُ الاسْتِسْلامِ والذِّلَّهِٔ، قَدْ ضَلَّتِ الْحِيَلُ، وانْقَطَعَ الْأَمَلُ، وهَوَتِ الْأَفْئِدَهُٔ كاظِمَهًٔ، وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ مُهَيْمِنَهًٔ، وأَلْجَمَ الْعَرَقُ، وعَظُمَ الشَّفَقُ، وأُرْعِدَتِ الْأَسْماعُ لِزَبْرَهِٔ الدَّاعِى إِلَى فَصْلِ الْخِطابِ، ومُقايَضَهِٔ الْجَزاءِ ونَكالِ الْعِقابِ، ونَوالِ الثَّوابِ».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام فى هذه الخطبهٔ الغراء حقاً من حمداللّه والثناء عليه والوصيهٔ بالتقوى وشرح أوضاع الدنيا وغدرها، تطرق عليه السلام إلى المعاد ليصور المحشر وأحوال الخلائق فيه بحيث لايبقى مجالا للغفلهٔ فقال عليه السلام:

«حتى إذا تصرمت الأمور، وتقضت الدهور، وأزف ۳۹۸] النشور»

فالعبارات الثلاث إشارهٔ واضحهٔ لنهايهٔ العالم. حيث تعرضت العبارهٔ الاولى إلى فناء وزوال كل شئ: العمر، القدرهٔ والقوهٔ، الأموال والثروهٔ و ...، والعبارهٔ الثانيهٔ لانتهاء الشهور والسنوات والقرون، والعبارهٔ الثالثهٔ وهى النتيجهٔ لما تقدم إقتراب الساعهٔ والبعث والقيامهٔ. أما بشأن نهايهٔ العالم والأحداث المهيبهٔ التى ستودى إلى ذلك- كما صرح القرآن الكريم- وكيفيهٔ عالم

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۲۱۸

البرزخ فانّ الإمام عليه السلام لم يتطرق إلى ذلك، بل خاض مباشرهٔ فى بعث الأموات وخروجهم من القبور والتى تمثل لب المطلوب فقال عليه السلام:

«أخرجهم من ضرائح ۳۹۹] القبور، وأوكار[۴۰۰] الطيور، وأوجرهٔ[۴۰۱] السباع، ومطارح ۴۰۲] المهالك».

قد يفارق الإنسان الدنيا إثر الموت بصورهٔ طبيعيهٔ، وقد يموت فى الصحراء لوحده ليكون جسده طعمهٔ للحيوانات المفترسهٔ، وقد يفترسه أحياناً وحشاً ضارياً، ويمكن أن يموت غرقاً فى البحر، كما قد تقتله الزلزلهٔ فيبقى جسده تحت الانقاض، فالإمام عليه السلام يخبر أنّ اللّه سبحانه عليم بمواضع جميع هؤلاء وسينشرهم جميعا للحشر فيحاسبهم على أعمالهم. كما يشير عليه السلام ضمنياً إلى هذه المسألهٔ وهى أنّ أحدا لايعرف كيف سيفارق الدنيا، وأى موضع سيحوى جسده، الأمر الذى يدعو إلى الاعتبار فقد قال سبحانه بهذا الخصوص: «وَما تَدْرِى نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ»[۴۰۳]. والآيهٔ كسائر الآيات الشريفهٔ تعرض بصراحهٔ

للمعاد الجسمانی؛ لأن ما فی القبور أو أعشاش الطيور وكهوف الوحوش هو تراب البدن وعظامه، وإلّا فالقبر لايضم الروح بعد مفارقتها للبدن، وهذا ما سنتعرض له فی المبحث القادم. ثم قال عليه السلام:

«سراعاً إلی أمره، مهطعين ۴۰۴] إلی معاده، رعيلًا[۴۰۵] صموتاً، قياماً صفوفاً، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعی»

فالعبارة صورة حية عن وضع العباد فی عرصة المحشر؛ ويالها من صورة مرعبة مخيفة. وهی العبارة التی ورد شبيهها فی القرآن بخصوص حركة الإنسان فی المحشر من قبيل المفردة

«سِراعاً»[۴۰۶]

و

«يَنْسِلُونَ»[۴۰۷]

ويعبر أحياناً اخری عن مدی سرعته بالقول ويعبر أحياناً اخری عن مدی سرعته بالقول: «كَأَنَّهُمْ إِلی نُصُبٍ يُوفِضُونَ».[۴۰۸]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۱۹

فحركة الناس جماعية ووقوفهم فی المحشر علی شكل صفوف مختلفة، أو أنّ الناس تفصل عن بعضها البعض الآخر تبعاً لأعمالها بحيث يلتحق كل بنظيره فيكون مصيرهم واحدا، أو أنّهم كانوا جماعة فی قبورهم فينطلقون معاً للحساب. القرآن من جانبه قال بهذا الشأن: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِی الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً»[۴۰۹] ولاشك أنّ سرعة حركتهم تكشف عن مدی خوفهم واضطرابهم من مصيرهم وتوقعهم لما يفجعهم من حوادث. والعبارة:

«ينفذهم البصر»

أی هم مع كثرتهم لا-يخفی منهم أحد عن إدراك اللَّه سبحانه وتعالی، وهم مع هذه الكثرة أيضاً لايبقی منهم أحد إلّاإذا دعا داعی الموت سمع دعاءه. ثم إنتقل عليه السلام إلی صورة اخری من صور الخلائق فی يوم الحشر فقال عليه السلام:

«عليهم لبوس الاستكانة، وضرع ۴۱۰] الاستسلام والذلة، قد ظلت الحيل، وانقطع الأمل، وهوت الافئدة كاظمة، وخشعت الاصوات مهينمة،[۴۱۱] وألجم العرق، وعظم الشفق».[۴۱۲]

لاتبدو ظهور مثل هذه الحالات حين يغلق باب الرجعة ويحكم اللَّه بين الخلائق وتخضع كافة الأعمال بصغيرها وكبيرها إلی الحساب العسير ويعرف الجزاء ويتجسم العقاب الذی ينتظر أهل الذنوب والمعاصی. وقد تضمن القرآن الكريم هذه الأوصاف، بل ما ورد فی الخطبة إنّما إقتبسه الإمام عليه السلام من القرآن. فقد قال القرآن فی موضع: «مُهْطِعِينَ مُقْنِعِی رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ»[۴۱۳] وقال فی موضع آخر: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدّاعِیَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلّا هَمْساً»[۴۱۴]. العبارة

«ألجم العرق»

تعبيررائع عن ذروة بلاء أهل المحشر، فالخوف والاضطراب من جانب، وحرارة المحشر من جانب آخر، وتدافع الناس وشدة الزحام والارهاق بحيث يغطی العرق أبدانهم حتی إنّ فمهم ليمتلأ عرقاً إذا ما فتحو شفاهم.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۲۰

ثم قال عليه السلام:

«وارعدت السماع لزبرة[۴۱۵] الداعی إلی فصل الخطاب، ومقايضة[۴۱۶] الجزاء، ونكال ۴۱۷] العقاب، ونوال ۴۱۸] الثواب».

والواقع أنّ الخوف إنّما ينبع من عدم معرفة الإنسان لمصيره وما سيؤول إليه أمره وهو يری نفسه بين الثواب والعقاب والجنّة والنار. كما أنّ سبب الخوف والذعر هو أن الإنسان لايعلم بمدی إخلاصه فی طاعاته وعباداته، إلی جانب تذكره لبعض زلاته وأخطائه. فالحساب دقيق ولامحاسب هو الشاهد العليم بكل شئ، ولا من سبيل إلی العودة، كما ليس هنالك من سبيل لأنّ يدافع شخص عن آخر.

تأمّلات

۱- أضواء على المعاد الجسمانى

رغم اختلاف الفلاسفة بشأن المعاد وكونه جسمانياً أو روحياً، غير أن الآيات القرآنية والروايات الإسلامية صريحة بهذا الخصوص ولاتحمل أى إبهام فى عودة الروح والبدن فى عالم الآخرة، وإن المعاد سيكون بالروح والجسم معاً والشاهد على ذلك طائفة من الآيات والروايات، ومنها الآيات التى صرحت بقيام الناس من قبورهم إلى الحساب.[۴۱۹] وبالطبع فانّ القبر إنّما يضم عظام الإنسان وما يتبقى من تراب من جسده. والإمام عليه السلام أشار صراحة إلى هذا الأمر فى الخطبة إذ قال:

«أخرجهم من ضرائح القبور، وأوكار الطيور، وأوجرة السباع، ومطارح الهالك و ...»

والواقع أنّ المعاد ينبغى أن يكون كذلك إذا أريد له أن يكون كاملًا عادلًا، وذلك لوجود التأثير المتبادل بين الروح والجسد، وانّهما يتكاملان معاً؛ فمفارقة أى منهما للآخر يجعل صاحبه ناقصا، ومن الخطئ ما يردد أنّ الإنسان بروحه، على أنّ ذلك يستند إلى الظن السائد باستقلال الروح الكامل. ويبدو أنّ هذا البحث واسع شامل نكتفى هنا بهذا المقدار ونترك التفاصيل لموضعها.[۴۲۰]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۲۱

۲- شبهة الآكل والمأكول المعروفة

من بين الشبهات التى أثيرت بشأن المعاد الجسماني والتى جعلت البعض ممن لم يتلق الاجابة الصائبة عليها إلى نفى مثل هذا المعاد هى الشبهة المعروفة بالآكل والمأكول المعقدة.

والشبهة هى: إذا إفترض أن قحطا أصاب جماعة وتغذى بعض الناس من لحم البعض الاخر، فما تكليف بدن هؤلاء الأفراد الذين أصبح لحمهم جزءاً من بدن أفراد آخرين يوم القيامة والمعاد؟ فانّ عاد هذا اللحم إلى الأول أصبح الثانى ناقصاً، وإن حشر مع الثانى كان الأول ناقصاً.

كما يمكن طرح هذه الشبهة بصورة أوسع. فبدن الإنسان عادة ما يستحيل إلى تراب، والنباتات والحيوانات إنّما تتغذى على هذا التراب، وبالتالى فانّ الإنسان إنّما يتغذى على النباتات والحيوانات فتصبح جزءا من بدنه، وهنا يتكرر السؤال السابق فى أنّ هذه ستلحق أى بدن؟ ولعل ما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة:

«... من ضرائح القبور وأوكار الطيور وأوجرة السباع ومطراح الهالك»

يثير مثل هذه الاسئلة أيضاً.

والإجابة على هذا السؤال تبدو طويلة نكتفى بخلاصتها. فالآيات والروايات تفيد عودة آخر بدن للإنسان الذى تحول إلى تراب يوم القيامة، وبناءاً على هذا فانّ هذا البدن الذى أصبح جزءاً من آخر سينفصل عنه ويعود إلى البدن الأول، ومشكلة نقصان البدن الثانى يمكن حلها بكل سهولة، وذلك لأنّ سائر أجزاء البدن تعيش حالة النمو وتملأ المواضع الخالية؛ الأمر الذى نلمسه باستمرار فى هذا العالم حين يتعرض الجسد لبعض الضربات والصدمات، حيث تأخذ الخلايا بالنمو وتعوض الأجزاء التالفة من البدن، وبالطبع فانّ هذه الحالة إنّما تحصل بصورة أسرع فى ذلك العالم. وأخيراً يشهد عالمنا المعاصر قضية الاستنساخ البشرى، حيث تؤخذ خلية من بدن كائن حى لتنتج شبيهاً لذلك الكائن، ويبدو حل هذه المسألة سهلًا جداً، وعليه فليس لشبهة الآكل والمأكول أن تعيق المعاد الجسمانى.[۴۲۱]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۲۲

۳- بعث من فى القبور

هنالك سؤال يطرح نفسه وهو: إذا تغيرت الأرض والسماء عما هى عليه على أعتاب القيامة بحيث يتغير كل شئ، فكيف ستبقى القبور على حالها ويبعث من فيها للحساب؟

ويقال فى الإجابة على هذا السؤال: أنّ الأرض وعلى ضوء الآيات القرآنية أنّها ستشهد زلزلة عظيمة: «إِنَّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَىءٌ عَظِيمٌ»[۴۲۲]، وعليه فليس هنالك ما يمنع أن تبقى هذه القبور تحت انقاض تلك الزلزلة العظيمة.

كما أنّ السباع والوحوش التى ابتلعت أبدان بعض الناس وقد استحالت تراباً بعد موتها، هى الاخرى تبقى تحت الانقاض بعد الزلزلة العظيمة فيخرج الناس منها إلى الحشر يوم القيامة. وخلاصة القول هى أنّ العالم يتهدم لاينعدم ويزول، وبالطبع فانّ تراب الناس وعظامهم يبقى محفوظاً.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۲۳

القسم الخامس: الإنسان، من أين وإلى أين؟

اشارة

«عِبادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِداراً، ومَرْبُوبُونَ اقْتِساراً، ومَقْبُوضُونَ احْتِضاراً، وَمُضَمَّنُونَ أَجْداثاً، وكائِنُونَ رُفاتاً، ومَبْعُوثُونَ أَفْراداً، ومَدِينُونَ جَزاءً، ومُمَيَّزُونَ حِساباً، قَدْ أُمْهِلُوا فِى طَلَبِ الْمَخْرَجِ، وهُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ، وَعُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتِبِ، وكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ الرِّيَبِ، وخُلُّوا لِمِضْمارِ الْجِيادِ ورَوِيَّةِ الإِرْتِيادِ، وأَناةِ الْمُقْتَبِسِ الْمُرْتادِ فِى مُدَّةِ الْأَجَلِ، ومُضْطَرَبِ الْمَهَلِ».

الشرح والتفسير

يعود الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة من الآخرة إلى الدنيا ليشرح أوضاع وأحوال الناس فيها، ليعلموا لم خلقوا واين يتجهوا، وما هى الوسائل والإمكانات التى زودوا بها لينجوا يوم المعاد وكيف ينبغى لهم أن يستفيدوا من هذه الإمكانات. ويشتمل كلامه عليه السلام على ثلاث عشرة عبارة، خمس منها فى خلق الإنسان وموته وتبدل جسده إلى تراب، وثلاث فى كيفية بعث الخلائق، وخمس أخر فى إتمام الحجة الإلهية والقرص التى زود بها الإنسان فى هذا العالم. فقال عليه السلام:

«عباد مخلوقون اقتدارا، ومربوبون اقتساراً،[۴۲۳] ومقبوضون احتضاراً، ومضمنون أجداثاً،[۴۲۴] وكائنون رفاتاً»[۴۲۵]

. لاشك أن الإنسان مختار حر فى أفعاله، ولكن ليس له

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۲۴

مثل هذا الاختيار فى الخلق والموت. فلا أحد يعين تأريخ ولادته، ولا أحد يختار زمان موته الطبيعى برغبته، فالحياة والموت خارجة عن دائرة إرادتنا إلى جانب تعفن البدن وصيرورته تراباً، وهذا ما حدا بالبعض لتفسير عبارة الأمر بين الأمرين بهذا المعنى. على كل حال فانّ مسيرة الحياة والموت جارية علينا على حنوء الإرادة الإلهية والقوانين المرسومة شئنا أم أبينا؛ الواقع الذى تقود الغفلة عنه إلى جهل الإنسان بنفسه وبخالقه، بينما يمده الالتفات إليه بعناصر العلم والمعرفة والتأهب. ثم تطرق الإمام عليه السلام فى العبارات الثلاث اللاحقة إلى عملية بعث الناس الخلارجة هى الاخرى عن الإرادة البشرية فقال

«ومبعوثون أفراداً، ومدينون جزاءً، ومميزون حساباً»

لاشك أنّ كل فرد سيخرج من قبره وحيداً، ولايتنافى هذا والتقسيم اللاحق للناس إلى طوائف تبعاً لعقائدهم وأعمالهم، كما عبرت عن ذلك الخطبة فى البحث الماضى بالرعيل، ونعتها القرآن بالافواج.[۴۲۶] ولعل العبارة

«مميزون حساباً»

إشارة لما ورد فى الآية الكريمة: «وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى [۴۲۷]. نعم ليس هنالك من يحمل وزر غيره ويعاقب عليه، ولكل حسابه على ضوء أفعاله، وان كان الرضى بأعمال الآخرين والتقصير فى وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤدى إلى نوع من الحساب المشترك. أمّا العبارات الخمس الأخيرة فقد أشار فيها الإمام عليه السلام- كما ذكرنا ذلك آنفا- إلى الفرص واتمام الحجة التى تتضمن أبعادا مختلفة، فقال عليه السلام:

«قد أمهلوا فى طلب المخرج، وهُدوا سبيل المنهج، وعمروا مهل المستعتب،[۴۲۸] وكشفت عنهم سدف ۴۲۹] الريب، وخلوا لمضمار الجياد،[۴۳۰] ورويهٔ الارتياد،[۴۳۱] وأناهٔ[۴۳۲] المقتبس المرتاد، فى مدّهٔ الأجل، ومضطرب المهل»

تضمنت هذه العبارات الأبعاد المختلفة لاتمام الحجة الإلهية وانّ الناس يمتلكون المهلة الكافية للفوز بالرضوان الإلهى أولًا،

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۲۵

وثانياً: تمهدت أمامهم السبل المؤدية للنجاة بواسطة الكتب السماوية وإرشادات الأنبياء والأولياء وهداية العقل، ثالثاً: وجود القدرة والمهلة للتوبة من الذنوب وتدارك ما مضى ونيل رضى اللّه، رابعاً: ان حجب الظلام التى تغطى قلب الإنسان بفعل الوساوس الشيطانية والشكوك والشبهات، إنّما تنجلى بنور اللّه وهدايته سبحانه، خامساً: أن أبواب التوفيق الإلهى لرياضة النفس والاستعانة بالفكر والاستضاءة بنور المعرفة الربانية إنّما فتحت بوجه الناس لما يكفيهم من المدة. ونخلص من كل هذا إلى أنّ الإنسان الذى يضل الهدف ويوغل فى الذنب ويقع فى مخالب الشيطان ووساوسه لاينبغى أن يلوم إلّانفسه التى حالت دونه ودون هذه السعادة والفلاح. وعليه فلم يعد هنالك ما يدعو إلى التعجب والدهشة حين ينادون يوم القيامة: «أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ».[۴۳۳]

تأمّل: الدنيا دار إمتحان

كثيرا ما كانت تنظم قديماً- وهكذا فى الوقت الحاضر- مسابقات للخيل، وكانت تخضع الخيل لتدريبات شاقة بغية التأهب لخوض المباراة، وعادة ما تصطلح العرب بالمضامر على ميدان التدريب الذى ينحف فيه الفرس ويجهز للسباق، أمّا الجياد فيراد بها العزيز من الخيل.

وقد وردت بعض المتون الإسلامية التى شبهت الدنيا بذلك الميدان الذى يعد من يرده لخوض السباق، حيث السباق الأكبر يوم القيامة، ذلك هو الميدان الحق. وقد أشارت الخطبة بصورة مقتضبة إلى هذه المسألة، وقد مر علىّ علينا شرحها فى الخطبة الثامنة والعشرين، فهو تشبيه رائع يمكنه أن يكشف عن قيمة الدنيا بالنسبة للاخرة.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۲۷

القسم السادس: مواعظ شافية

اشارة

«فَيا لَها أَمْثالًا صائِبَةً، ومَواعِظَ شافِيَةً، لَوْ صادَفَتْ قُلُوباً زاكِيَةً، وأَسْماعاً واعِيَةً، وآراءً عازِمَةً، وأَلْباباً حازِمَةً، فاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ، واقْتَرَفَ فاعْتَرَفَ، ووَجِلَ فَعَمِلَ، وحاذَرَ فَبادَرَ، وأَيْقَنَ فَأَحْسَنَ، وعُبِّرَ فاعْتَبَرَ، وحُذِّرَ فَحَذِرَ، وزُجِرَ فازْدَجَرَ، وأَجابَ فَأَنابَ، رَاجَعَ

فَتابَ، واقْتَدَى فاحْتَذَى، وأَرِىَ فَرَأَى، فَأَسْرَعَ طَالِباً، ونَجَا هارِباً، فَأَفادَ ذَخِيرَةً، وأَطَابَ سَرِيرَةً، وعَمَّرَ مَعَاداً، واسْتَظْهَرَ زَاداً، لِيَوْمِ رَحِيلِهِ، ووَجْهِ سَبِيلِهِ، وحالِ حاجَتِهِ، ومَوْطِنِ فاقَتِهِ، وقَدَّمَ أَمامَهُ لِدارِ مُقامِهِ. فاتَّقُوا اللَّهَ عِبادَ اللَّهِ جِهَةَ ما خَلَقَكُمْ لَهُ، واحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ ما حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، اسْتَحِقُّوا مِنْهُ ما أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعادِهِ، والْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعادِهِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة الذى يمثل امتدادا للبحث السابق- إلى المواعظ القيمة المؤثرة والأمثال الواضحة والنصائح والإرشادات التى تنتهى بالناس إلى شاطئ الأمان، فقال عليه السلام:

«فيالها أمثالًا صائبة، ومواعظ شافية، لو صادفت قلوباً زاكية، واسماعاً واعية، وآراء عازمة، وألبابا حازمة»[۴۳۴]

قد تكون هذه العبارة إشارة إلى المواعظ والإرشادات التى وردت فى المقاطع السابقة من الخطبة، أو المواعظ التى بلغتنا عن طريق

الوحى وأولياء اللّه، وقرينة ذلك عبارات القسم السابق بشأن الهداية الإلهية بطرق النجاة وإزالة حجب الشبهات والشكوك والمهلة الكافية للاستعداد والتزود واتمام الحجة على المقصرين. على كل حال فانّ الهدف هو بيان هذه المسألة وهى كفاية المواعظ والنصائح والمعالم على الطريق لو كانت هنالك آذانا صاغية وعقولًا متفتحة وقلوباً واعية، وبعبارة اخرى ليس هنالك من نقص فى فاعلية الفاعل، وإن كان هنالك من نقص ففى قابلية القابل.

والتعبير عن الأمثال بالصائبة يفيد مطابقتها للواقع. وأمّا التعبير بالأسماع الواعية فيشير إلى أنه بعد سماع كلام لابدّ من حفظه والتأمل فيه؛ لاسماعه من أذن وإخراجه من اخرى، كأنّه لم يسمع شيئاً. وأمّا الفارق بين

«الآراء العازمة» و «الألباب الحازمة»

فهو أنّ العبارة الاولى إلى القرارات القاطعة، وذلك لأن الإنسان لايتعظ بنصائح أولياءاللّه وينتفع بالإرشادات مالم يمتلك العزم القاطع؛ رغم أنه قد يقبلها ولصدق بها إلا أنه لايمتلك القدرة على إتخاذ القرار لضعف إرادته، والألباب الحازمة إشارة إلى الأفكار العميقة التى تشخص عواقب الأعمال، وتتامل جوانب كل مسألة ببعد نظر وسعة أفق. نعم إنّما ينتفع غاية الانتفاع من هذه المواعظ والامثال من كان له فكر عميق وإرادة قوية واذن سامعة وقلب واع. ثم أوصى عليه السلام بالتقوى وبين مظاهرها بعبارات قصيرة بعيدة المعنى بما يقارب عشرين جملة. والحق أنّ ضالة أرباب السير والسلوك إلى اللّه إنّما اختصرت فى هذه العبارات، حيث قال عليه السلام:

«فاتقوا اللّه تقية من سمع فخشع»

فاذا أذنب إعترف بذنبه وتاب إلى ربّه (

واقترف ۴۳۵] فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبر فاعتبر، وحذر فحذر، وزجر فازدجر، وأجاب فأناب، وراجع فتاب، واقتدى فاحتذى،[۴۳۶] وأرى فرأى

» فقد بينت مظاهر التقوى فى هذه العبارات بأكمل وجه. وبالطبع فان التقوى ليس إدعاءاً، ولاتقتصر على إجتناب الخطايا والارجاس، فالتقوى تبدا من سماع كلمات دعاة لاحق وخضوع القلب لها، إلى جانب التوبة والإنابة إلى اللّه والاعتراف بالذنوب وخشية اللّه والقيام بالأعمال التى تقرب إليه، وحث الخطى نحو

درجة اليقين والاعتبار بحوادث الماضى والحذر من المعاصى، واستماع أحسن القول والانتهاء، عن المنكر وإجابة دعوة الحق، والاقتداء بأولياء اللّه والانفتاح على الحقائق ثم قال عليه السلام:

«فاسرع طالباً ونجا هارباً»

وبالنتيجة

«فافاد ذخيرة، وأطاب سريرة، وعمر معاداً، واستظهر[۴۳۷] زاداً، ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقته، وقدح أمامه لدار مقامه»

والواقع أنّ هـذه مظاهر اخرى للتقوى والتى من شأنها جعل الإنسان يسارع إلى الحق وتقتل فى نفسه الجنوح إلى الـذنب والاثم وتمده بمقدمات الاستعداد للمعاد. ثم واصل الإمام عليه السلام خطبته بالدعوة ثانية إلى التقوى وخلص إلى نتيجة هى:

«فاتقوا اللّه عباداللّه جهة ما خلقكم له».[۴۳۸]

حقاً أنّ لخلق الإنسان هـدف «أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سَدىً»[۴۳۹] ولا يمكن بلوغ هـذا الهدف دون التقوى، والهدف هو العبودية للّه سبحانه ونيل القرب الإلهى وبلوغ السمو والكمال، ولا يتيسر هذا إلّامن خلال المعرفة والتقوى. ثم قال عليه السلام:

«واحذروا منه كنه ۴۴۰] ما حذركم من نفسه»

هنالك روعـة فى قوله عليه السـلام كنه التى تفيـد عـدم الاقتناع بالظواهر فقط حيال الانـذارات الإلهيـة ولابـدّ من تأمل هذه الانذارات والعمل على الفوز بالرضوان الإلهى. ثم أشار عليه السلام إلى معطيات التقوى فقال:

«واستحقوا منه ما أعد لكم بالتنجز[۴۴۱] لصدق ميعاده، والحذر من حول معاده»

فعبارات الإمام عليه السـلام اشارات إلى بعض الآيات، كالآيـة التاسعـة من سورة المائدة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» وما ورد فى الآية الخامسة عشـرة من سورة آل‌عمران: «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ» والآية ۶۸ من سورة التوبة: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها».

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۳۰

شعب التقوى

التقوى شـرف العبد ووسـيلته العظمى للقرب من اللّه وهى معيار كرامته، كما أنّها زاد السالكين إلى اللّه ومتاعهم إلى الحبيب، وتشتمل التقوى على أغصان وثمار أشارت لها الخطبة التى تعرضـنا لشرحها. وبالطبع فانّ مادة التقوى تكمن فى الاذان الصاغية والقلوب الواعية والإرادات القوية والأفكار النيرة التى تعد الإنسان لسلـوك سبيل الورع والتقوى؛ الأمر الذى أشير له فى بداية الخطبة. أمّا غصون وثمار شجرة التقوى المبار كـة فتتمثل بالخشوع للّه سـبحانه والاعتراف بالـذنب والتوبة منه والاعتبار والاحسان والاقتداء بأولياء اللّه. فاذا نثرت بذور التقوى فى القلب الواع وسـقيت بماء المراقبة والمحاسـبة، حملت هذه البذور ثمار الخوف والخشية والخشوع والتوبة والانابة إلى الحق سبحانه.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۳۱

القسم السابع: الجميع يدين له بالفضل

«جَعَلَ لَكُمْ أَسْـماعاً لِتَعِىَ مـا عَناهـا، وأَبْصـاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشاهـا، أَشْـلاءً جامِعَـةً لِأَعْضائِها، مُلائِمَـةً لِأَحْنائِها، فِى تَرْكِيبِ صُوَرِها، ومُـدَدِ عُمُرِها، بِأَبْـدانٍ قائِمَةٍ بِأَرْفاقِها، وقُلُوبٍ رائِدَةٍ لِأَرْزاقِها، فِى مُجَلِّلاتِ نِعَمِهِ، مُوجِباتِ مِنَنِهِ، وحَواجِزِ عافِيَتِهِ. وقَدَّرَ لَكُمْ أَعْماراً سَتَرَها عَنْكُمْ، وخَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثارِ الْماضِـينَ قَبْلَكُمْ، مِنْ مُسْـتَمْتَعِ خَلاقِهِمْ، ومُسْـتَفْسَحِ خَناقِهِمْ، أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنايا دُونَ الْآمالِ، وشَـذَّبَهُمْ عَنْها تَخَرُّمُ الْآجالِ. لَمْ يَمْهَدُوا فِى سَلامَةِ الْأَبْدانِ، ولَمْ يَعْتَبِرُوا فِى أُنُفِ الْأَوانِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السـلام فى هـذا الموضع من الخطبة إلى جانب من النعم الإلهية التى تثير لدى الإنسان الشـعور بالامتنان والشـكر، كما

تشكل دافعا لمعرفة اللّه والانفتاح على الورع والتقوى، فقد قال عليه السلام:

«جعل لكم أسماعها لتعى ماعناها،[۴۴۲] وأبصارا لتجلوا[۴۴۳] عن عشاها،[۴۴۴] وأشلاء[۴۴۵] جامعة لاعضائها، ملائمة لاحنائها،[۴۴۶] فى تريكب صورها، ومدد

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۳۲

عمرها»

. فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار فى هذا المقطع من الخطبة إلى النعم لأعضاء البدن الواحد تلوا الآخر، مركزاً على السمع والبصر بفضلها أهموسيلة لإرتباط الإنسان بالعالم الخارجى إلى جانب حصول الانسان على الجانب الأعظم من العلوم والمعارف عن طريقهما، هذا من جهة، ومن جهة اخرى أشار عليه السلام إلى الانسجام القائم بين أعضاء البدن بعضها بالبعض الآخر، ومن ذلك تطرق إلى عضلات البدن التى تعمل متناغمة مع كافة الأعضاء وقد تكيفت مع هيئات العظام. فمسألة تناسق وانسجام أعضاء البدن تعد من أروع ظواهر الخلقة ومن أهم النعم الإلهية، وفى نفس الوقت فان الاستقلال يسود هذه الاعضاء والجوارح، إلّاأنّها تتحد وتتعاضد بما يدعو للدهشة والذهول إذا ما طرأ على الإنسان طارئ. على سبيل المثال لو حدث ما يضطر الإنسان للابتعاد والفرار عن مركز الحادثة بسرعة، فانّ كافة أعضاء البدن تعبئ نفسها فى لحظة واحدة، فدقات القلب تأخذ بالارتفاع، والنفس يصعد وينزل بسرعة ليضخ الدم والاوكسجين الكافى لعضلات الجسم، كما تتصاعد حدة اليقظة والوعى، ويحتد السمع والبصر، حتى تذوب موانع الجوع والعطش وتنسى بالمرة ليتمكن الإنسان من الهروب سريعاً من مركز الحادث، وبالطبع فانّ هذا التنسيق لم يحصل استجابة لرغبة الإنسان واختياره، بل بواسطة الأوامر والايعازات التى يصدرها الدماغ تلقائياً إلى جميع أعضاء البدن. فهذا التنسيق العظيم كاشف عن قدرة اللّه سبحانه وعظمته، كما يفيد سعة نعمه على العباد؛ الأمر الذى أشار له الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة. ولا يقتصر هذا التنسيق على ظاهر الاعضاء فحسب، بل يخترق باطنها وكنهها، حتى يؤثر فى أعمارها، وهذا ما أشار إليه الإمام بالخصوص.

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلًا:

«بأبدان قائمة بأرفاقها[۴۴۷] وقلوب رائدة[۴۴۸] لأرزاقها، فى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۳۳

مجللات ۴۴۹] نعمه، وموجبات مننه، وحواجز[۴۵۰] عافيته»

. العبارات استمرار لما ورد قبلها من تنسيق بين أعضاء البدن. فمراد الإمام عليه السلام أنّ هذا التنسيق والانسجام لايقتصر على الأعضاء، بل الروح والفكر أيضاً ينسقان مع هذه الأعضاء بهدف نيل بعض المنافع ودفع بعض الاضرار. ويعتبر هذا التعاضد الروحى والجسمى الذى يحكم جميع كيان الإنسان من بدائع العجائب الذى تتكشف بعض تفاصيل دقته وروعته على مرور الزمان وفقا لتطور العلم وإزدهاره، حيث تشكل هذه البدائع أعظم نعم اللّه وأهم آيات عظمته سبحانه.

العبارة

«مجللات نعمه»

تجلل الناس وتعمهم وهى من باب إضافة الصفة إلى الموصوف بمعنى

«نعمه المجللة»

التى تشمل الناس بأجمعهم مؤمنهم وكافرهم.

«وحواجز عافيته»

بمعنى موانع السلامة والجملة تشتمل على تقدير حيث يكون المراد أنّ اللّه علم الإنسان طرق دفع الاضرار ومنافع العافية

«ما يمنع حواجز عافيته».

ثم أشار عليه السلام إلى نوعين من النعم الإلهية الكبرى على الإنسان إلى جانب النعم المذكورة فقال:

«و قدّر لكم أعماراً سترها عنكم وخلّف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم من مستمتع خلاقهم [۴۵۱]

ومستفسح خناقهم [۴۵۲] أرهقتهم [۴۵۳] المنايا دون الْآمال شذبهم [۴۵۴] عنها تخرّم [۴۵۵] الْآجال لم يمهدوا فى سلامة الْأبدان ولم يعتبروا فى أنف [۴۵۶] الْأوان»

أمّا النعمة الاولى فهى نعمة العمر التى تعتبر

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۳۴

مصدر سعادة الإنسان وتوفيقه وفلاحه، حيث أنّ ليلة من ليال العمر التى بات فيها أميرالمؤمنين عليه السلام- والتى تعرف بليلة المبيت- على فراش رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله ليفديه بنفسه وينجو من مؤامرة الكفار فأصابه عليه السلام ما أصابه من الفضل ببركة تلك الليلة. وأما ضربته لعمر بن عبدود العامرى فى الخندق والتى كانت أفضل من عبادة الثقلين، فلم تكن سوى سويعة من عمر الإمام عليه السلام. وأما شهداء الغاضرية الذين صنعوا أكبر ملحمة عرفها التأريخ البشرى ليصبحوا كعبة للثوار وطلاب الحق فلم تكن سوى نهاراً من عمرهم المبارك. نعم فنعمة العمر من أعظم نعم اللّه على الإنسان. وقد إقتضى لطف اللّه وحكمته أن يخفى مدة هذا العمر عن الإنسان، لما ينطوى العلم به من مفاسد فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«فالإنسان لو عرف مقدار عمره وكان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش مع ترقب الموت وتوقعه لوقت قد عرفه، بل كان يكون بمنزلة من قد فنى ماله أو قارب الفناء، فقد استشعر الفقر والوجل من فناء ماله وخوف الفقر، على أنّ الذى يدخل على الإنسان من فناء العمر أعظم مما يدخل عليه من فناء المال لأن من يقل ماله يأمل أن يستخلف منه فيسكن إلى ذلك، ومن أيقن بفناء العمر استحكم عليه اليأس، وإن كان طويل العمر ثم عرف ذلك وثق بالبقاء وانهمك فى اللذات والمعاصى وعمل على أنّه يبلغ من ذلك شهوته ثم يتوب فى آخر عمره، وهذا مذهب لايرضاه اللّه من عباده ولا يقبله ومن هنا حجب الإنسان عن معرفة العمر ليعيش دائما بين الخوف والرجاء.[۴۵۷]

ونخلص من هذا إلى أنّ ساعات العمر وأيامه نعمة، وهكذا حجب مقداره عن الإنسان نعمة اخرى.

وأمّا النعمة الثانية: وتتمثل بالاعتبار بالامم الماضية وما عليه الكبار، وما بقى من القصور والقبور والآثار، فهى نعمة إلهية كبرى وذلك لأنّ النظر بعين العبرة لهذه الآثار يزود الإنسان بالتجربة وكأنه عمرعمرا مديداً ليكون مع تلك الأمم والأقوام وقد تجرع حلاوة الحياة ومرارتها. فتأريخ الامم الماضية مادة للدروس والعبر، وللإنسان أن يحدد مصيره على ضوء

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۳۵

هذا التأريخ من خلال الانفتاح على مقومات النجاح وأسباب الفشل وكيفية التعامل معهما، والحق أنّ هذه نعمة عظيمة منّ اللّه بها على الإنسان. القرآن الكريم صرح بهذا الخصوص قائلًا «لَقَدْ كانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الأَلْبابِ»[۴۵۸] وللاسف فما أكثر الذين خططوا لحياتهم وسبحوا فى بحر لجى من الامال والامانى حتى أتاهم الموت بغتة فقضى على تلك الامال والحال أنّهم وقفوا على أخبار الماضين وأثارهم، إلّاأنّ أهوائهم وطغيانهم كان حجاباً على أبصارهم وبصائرهم فحال دون رؤيتهم للحقائق، فقدموا على ربهم وقد اعتبربهم ممن يعدهم دون أن يعتبروا بمن كان قبلهم.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۳۷

القسم الثامن: الحذر، فالنعم إلى زوال

«فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضاضَةِ الشَّبابِ إِلَّا حَوانِىَ الْهَرَمِ؟ وأَهْلُ غَضارَةِ الصِّحَّةِ إِلَّا نَوازِلَ السَّقَمِ؟ وأَهْلُ مُدَّةِ الْبَقاءِ إِلَّا آوِنَةَ الْفَناءِ؟ مَعَ قُرْبِ الزِّيالِ، وأُزُوفِ الِانْتِقالِ وعَلَزِ الْقَلَقِ، وأَلَمِ الْمَضَضِ، وغُصَصِ الْجَرَضِ، تَلَفُّتِ الِاسْتِغاثَةِ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ والْأَقْرِباءِ، والْأَعِزَّةِ والْقُرَناءِ».

الشرح والتفسیر

أشار الإمام علیه السـلام- فی هـذا المقطع من الخطبـة- إلی نقطة مهمّة اخری ذات صـلة بالحیاة الدنیا وما فیها من نعم، وأنّ هذه النعم آیلة إلی الزوال، ومن هنا فلاینبغی الوثوق بها، کما لایجوز الخلود إلیها والتعلق بها، فقال علیه السلام:

«فهل ینتظر أهل بضاضـة[۴۵۹] الشـباب إلأحوانی ۴۶۰] الهرم؟[۴۶۱] وأهـل غضارة[۴۶۲] الصـحة إلأنوازل السـقم؟ واهل مـدة البقاء إلّاآونة[۴۶۳] الفناء»

ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه قائلًا:

«مع قرب الزیال ۴۶۴] وأزوف ۴۶۵] الانتقال، وعلز[۴۶۶] القلق، وألم المضض،[۴۶۷]

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۲۳۸

وغصص الجرض،[۴۶۸] وتلفت ۴۶۹] الاستغاثة بنصرة الحفدة[۴۷۰] والاقرباء، والأعزة والقرناء»

فمن خصائص هذا العالم تقلب نعمه ولذاته؛ الأمر الذی یدعو الإنسان إلی عدم الاغترار والخلود إلی الدنیا ویضحی بآخرته من أجلها. فالشباب یسرعون نحو الهرم وغضاضة الشباب آیلة إلی ذبول الکهولة وربیع العمر سینتهی إلی خریف التساقط، وسلامة البدن عرضة للزوال وهجوم الأمراض حتی تلوح علامات الوصول والاقتراب من الآخرة وتبدو واضحة للعیان. ورغم کل هـذه الخصائص والعلامات، الا أنّ الـذین تعلقوا بالـدنیا وإغتروا بها لیسوا بالقلیل فلم ینشغلوا فیها سوی ببعض النعم والمتع؛ الأمر الـذی یجـدر بالتأمل والتوقف عنـده! حیث یری الإنسان کل ملامـح فناء الـدنیا بأم عینیه ویصر علی البقاء. ورد فی تأریخ بغداد أنّ السـفاح نظر إلی المرآة فقـال: اللّهم لا- أقول ما قال سـلیمان بن عبـدالملک أنی خلیفـة شاب، لکنی أقول: ارزقنی عمراً طویلًا بعافیـة فی طاعتک ولم یکـدیتم حـدیثه حتی سـمع أحـد غلمانه یقول لآخر فی عقد بینهما أنّ مدته إلی شـهرین وخمسة أیام فتطیر السـفاح من کلامه وکأنه أخبر عما تبقی من عمره، وکـان الأمر کـذلک ۴۷۱]. القرآن من جـانبه أکـد هـذا الأمـر وکشف النقـاب عنه (وان لم یکن هناک من نقاب فی الواقع) فقـد أشار کراراً بأمثاله الحیـة إلی تقلب أحوال الدنیا، ومن ذلک قوله: «إِنَّما مَثَلُ الحَیاةِ الدُّنْیا کَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبـاتُ الأَـرضِ مِمّا یَأْکُلُ النّاسُ وَالأَنعامُ حَتّی إذا أَخَـذَتِ الأَرضُ زُخْرُفَها وَازَّیَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَیْها أَتاها أَمْرُنا لَیْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِیداً کَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمسِ کَذلِکَ نُفَصِّلُ الآیاتِ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ».[۴۷۲]

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۲۳۹

القسم التاسع: عاقبة الغضاضة الذبول

«فَهَلْ دَفَعَتِ الْأَقارِبُ، أَوْ نَفَعَتِ النَّواحِبُ، وقَدْ غُودِرَ فِی مَحَلَّةِ الْأَمْواتِ رَهِیناً، وفِی ضِیقِ الْمَضْجَعِ وَحِیداً، قَدْ هَتَکَتِ الْهَوامُّ جِلْدَتَهُ، وأَبْلَتِ النَّواهِکُ جِدَّتَهُ، وعَفَتِ الْعَواصِفُ آثارَهُ، ومَحا الْحَدَثانُ مَعالِمَهُ، وصارَتِ الْأَجْسادُ شَحِبَةً بَعْدَ بَضَّتِها والْعِظامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِها، والْأَرْواحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبائِها، مُوقِنَةً بِغَیْبِ أَنْبائِها، لا تُسْتَزادُ مِنْ صالِحِ عَمَلِها، ولا تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَیِّئِ زَلَلِها، أ ولَسْتُمْ أَبْناءَ الْقَوْمِ والْآباءَ، وإِخْوانَهُمْ الْأَقْرِباءَ؟ تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ، وتَرْکَبُونَ قِدَّتَهُمْ، وتَطَئُونَ جادَّتَهُمْ؟ فالْقُلُوبُ قاسِیَةٌ عَنْ حَظِّها، لاهِیَةٌ عَنْ رُشْدِها، سالِکَةٌ فِی غَیْرِ مِضْمارِها! کَأَنَّ الْمَعْنِیَّ سِوَاهَا، کَأَنَّ الرُّشْدَ فِی إِحْرازِ دُنْیاها».

الشرح والتفسیر

أشار الإمام علیه السـلام هذا الربانی الرائد للأخلاق فی عالم البشریة وملهمها فی هذا المقطع من الخطبة إلی ذلک الیوم الذی یغمض فیه الإنسان عینیه ویودع هـذه الـدنیا، فلیس هنالک من یدفع عنه هذا الموت، ولا تحل مشـکلته ببکاء أقربائه وعویلهم، فیسـتفهم الإمام علیه السلام علی سبیل الانکار قائلًا:

«فهل دفعت الأرقاب، أو نفعت النواحب،[۴۷۳] وقد غودر[۴۷۴] فی محلة الأموات

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۲۴۰

رهيناً، وفى ضيق المضجع وحيداً»

وكأنّ جداراً سمكه آلاف الامتار قد ضرب بينه وبين قرابته ولا يمكن تخطى ذلك الجدار، ولايسع البكاء والعويل أن يقدم من شئ سوى التخفيف من ألم الفراق ولوعهٔ الاشتياق، بينما لايعود بأى نفع على الميت. ثم يبين مصير جسم الإنسان وروحه بعد الموت بعشر عبارات قصيرهٔ فقال عليه السلام:

«وقد هتكت الهوام ۴۷۵] جلدته، وابلت النواهك ۴۷۶] جدته،[۴۷۷] وعفت العواصف ۴۷۸] آثاره، ومحا الحدثان ۴۷۹] معالمه، وصارت الاجساد شحبهٔ[۴۸۰] بعد بضتها، والعظام نخرهٔ[۴۸۱] بعد قوتها، والارواح مرتهنهٔ بثقل اعبائها،[۴۸۲] موقنهٔ بغيب أنبائها، لاتستزاد من صالح عملها، ولا تستعتب من سيئ زللها»

حقاً ليس هنالك تعبير أجمع وأكمل وأبلغ من هذا التعبير الذى صور وضع جسم الإنسان وروحه بعد الموت، فسرعان ما يتفسخ هذا الجسم ويكون لقمهٔ سائغهٔ للحشرات، وتذهب زلاقهٔ لسانه وحدهٔ ذكائه أدراج الرياح ولن يتبقى منه سوى حفنهٔ من العظام النخرهٔ، والقبور المهدمهٔ. والأنكى من كل ذلك غلق صحيفهٔ الأعمال، فلا من زيادهٔ للحسنات ولا نقصان للسيئات، آنذاك لم يعد هنالك من مجال لتلك القطرهٔ من الدمع التى يمكنها إطفاء بحار من نيران الذنوب، إن أفرزتها حالهٔ الندم والتوبهٔ والانابهٔ إلى اللّه. كما ذهبت فرصهٔ القول «لا اله الا اللّه» التى ثوابها شجرهٔ فى الجنّهٔ، فلا سبيل إلى العودهٔ، ولا طريق إلى العمل وقد ختمت صحيفهٔ الأعمال. ثم قال عليه السلام:

«أو لستم أبناء القوم والآباء وا خوانهم والأقرباء؟»

فالآباء عادهٔ ما يموتون قبل أولادهم، كما يمكن أن يتوفى الأبناء قبل آبائهم، وربّما يموت بعض الاخوهٔ قبل غيرهم، وعليه فليس

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۲۴۱

هنالك من زمان معين لدى الإنسان لحلول أجله وإختتام عمره، والكل سواسيهٔ أمام الموت وليس هنالك من يرجح عيشه لساعهٔ على آخر أو يضمن أنّه سيعيش لساعهٔ. ثم قال عليه السلام موضحاً المعنى المذكور:

«تحتذون أمثلتهم، وتركبون قدتهم،[۴۸۳] وتطؤون جادتهم»

لعل الإمام عليه السلام أراد توبيخهم بهذه العبارهٔ فى أنّكم رأيتم مصير من سبقكم فلم تعتبروا بهم، فاقتفيتم آثارهم وأتيتم بأعمالهم وقارفتم ما قارفوه من الذنوب والمعاصى، والحال كان ينبغى أن تتعظوا بهم وتعتبروا بمصيرهم وعاقبتهم. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجهٔ يبيّن من خلالها علهٔ مشاهدهٔ الناس لكل هذه الدروس والعبر دون الاعتبار فقال:

«فالقلوب قاسيهٌ عن حظّها، لاهيهٌ عن رشدها، سالكهٌ فى غيرم ضمارها! كأنّ المعنىّ سواها، وكأنّ الرّشد فى إحراز دنياها».

جاء فى نهج‌البلاغهٔ أنّ الإمام عليه السلام تبع جنازهٔ فسمع رجلًا يضحك فقال:

«كأنّ الموت فيها على غيرها كتب، وكأنّ الحق فيها على غيرنا وجب، وكأنّ الذى نرى من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون»[۴۸۴]

نعم إذا قسى قلب الإنسان وسيطرت الظلمهٔ والغفلهٔ على روحه أعمته عن كل هذه الحقائق التى من شأنها إيقاظ كافهٔ البشريهٔ؛ فما ظنك بهذه الحقائق التى تطالعنا كل يوم! القرآن أشار إلى هؤلاء الأفراد بقوله:

«ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذ لِكَ فَهِىَ كَالحِجارَهِٔ أوْ أشَدُّ قَسْوَهًٔ وَإنَّ مِنَ الحِجارَهِٔ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَإنَّ مِنها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وَإنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَهِٔ اللّهِ وَما اللّهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ».[۴۸۵]

نعم فالركون إلى الدنيا يقسى القلب، فاذا قسى قلب الإنسان ضل طريق السعادهٔ وسار على غير هدى بينما يمر على الآيات مر الكرام ليرى المعنى بالوعيد غيره، وهو المعنى بالصالحين الفائزين برضوان اللّه.

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۲۴۲

القسم العاشر: مواجهة الأهاويل

اشارة

«وَاعْلَمُوا أَنَّ مَجازَكُمْ عَلَى الصِّراطِ ومَزالِقِ دَحْضِهِ، وأَهاوِيلِ زَلَلِهِ، تاراتِ أَهْوالِهِ، فاتَّقُوا اللَّهَ عِبادَ اللَّهِ تَقِيَّةَ ذى لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ، أَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ، وأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرارَ نَوْمِهِ، وأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ، وظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَواتِهِ، وأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسانِهِ، وقَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمانِهِ، وتَنَكَّبَ الْمَخالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ، وسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ؛ ولَمْ تَفْتِلْهُ فاتِلاتُ الْغُرُورِ، ولَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهاتُ الْأُمُورِ، ظافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى، وراحَةِ النُّعْمَى، فِى أَنْعَمِ نَوْمِهِ، وآمَنِ يَوْمِهِ، وَقَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعاجِلَةِ حَمِيداً، وقَدَّمَ زادَ الْآجِلَةِ سَعِيداً، وبادَرَ مِنْ وَجَلٍ، أَكْمَشَ فِى مَهَلٍ، ورَغِبَ فِى طَلَبٍ، وذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ، وراقَبَ فِى يَوْمِهِ غَدَهُ، ونَظَرَ قُدُماً أَمامَهُ.

فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَواباً ونَوالًا، وكَفَى بِالنَّارِ عِقاباً وَبالًا، وكَفَى بِاللَّهِ مُنْتَقِماً ونَصِيراً! وكَفَى بِالْكِتابِ حَجِيجاً وخَصِيماً!».

الشرح والتفسير

يتطرق الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من خطبته الغراء إلى بعض مواقف الآخرة وأهوالها، وقد شحذ الامّة لتتأهب لذلك اليوم وتعد نفسها للعبور من مزالقها الخطيرة. فقال عليه السلام:

«و اعلموا أنّ مجازكم ۴۸۶] على الصّراط، ومزالق ۴۸۷] دحضه،[۴۸۸] أهاويل ۴۸۹] زلله، وتارات ۴۹۰] أهواله».

نفحات الولاية ؛ ج۳ ؛ ص۲۴۲

تبر

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۴۳

الصراط أحد مزالق القيامة الذى ورد التأكيد عليه والاشارة إليه فى القرآن وآياته، كما صرحت به الروايات الإسلامية على وجه التفصيل والذى يستفاد من الروايات هو أنّ الصراط قنطرة على النار وهى آخر ما يقطعه الإنسان وصولًا إلى الجنّة وأنّ الناس جميعاً كافرهم ومؤمنهم إنّما يردون ذلك الصراط، أمّا المؤمنون الصالحون فيمرون عليه كالبرق ويدخلون الجنّة، بينما يتعذر على الكافر عبوره فيسقطون فى نار جهنم. فاجتياز هذا الصراط إنّما يتوقف على إيمان الإنسان وعمله، حتى أنّ سرعة جوازه تتناسب وتقوى الإنسان وعمله.

وبالطبع فان الصراط يتجسم بأشكال اخرى فى الدنيا، بعبارة اخرى الصراط فى القيامة هو تجسم صراط الدنيا؛ وذلك لأنّه وصف بأنّه:

«أدق من الشعر، وأحد من السيف»[۴۹۱]

مما لاشك فيه أنّ الحد الفاصل بين الحق والباطل والإيمان والكفر والاخلاص والرياء هو قصد القربة واتباع الهوى وهو على درجة من الدقة والخطورة بحيث يتعذر جوازه الأعلى المخلصين الصالحين، وهذا ما سنعرض له فى البحث القادم. على كل حال فان هذا الصراط الحاد ينطوى على عدة عقبات لايمكن إجتيازها دون التأهب والتزود، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

«فاتّقوا اللّه عباد اللّه تقيّة ذى لبٍّ شغل التّفكّر قلبه، وأنصب ۴۹۲] الخوف بدنه، وأسهر[۴۹۳] التّهجّد غرار[۴۹۴] نومه، وأظمأ الرّجاء هواجر[۴۹۵] يومه، وظلف ۴۹۶] الزّهد شهواته».

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۴۴

نعم فالتفكر من أول لوازم التقوى التى تسهل جواز الإنسان على الصراط، حيث يحيى هذا التفكر قلب الإنسان ويجعله يستعشر خشية اللَّه وبالتالى يقوده إلى التهجد وإحياء اليل وصوم أيام الصيف الحارة والتحلى بالزهد والتواضع. التقوى التى تأخذ بيد الإنسان إلى شاطئ الأمان وتجعله يمر كالبرق على ذلك الصراط.

ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه بشأن التقوی ومعطیاتها فقال:

«وأوجف ۴۹۷] الـذّکر بلسانه، وقدّمالخوف لِأمانِهِ، وتنکّب ۴۹۸] المخالِج ۴۹۹] عن وضحِ ۵۰۰] السّبِیلِ، وسلک أقصد المسالِکِ إِلی النّهج المطلوب؛ ولم تفتله ۵۰۱] فاتلات الغرور، ولم تعم علیه مشتبهات الْأمور»

فقد أشار علیه السلام إلی عشرة من أوصاف المتقین- إلی جانب التفکر الدائم- التی تستبطن کل واحدة منها عالم من المعانی والتی تجعل الإنسان إذا تحلی بها قدوة یحتذی بها وتمنحه العزة والرفعة فی الدنیا والآخرة وتحقیق النجاحات الباهرة فی سیره إلی اللَّه سبحانه وتعالی وقد إتصفت هذه العبارات بتشبیهات لطیفة وکنایات بلیغة بعیدة المعنی بحیث تنفذ إلی أعماق النفس. نعم فالمتقون لایخدعون بالوساس الشیطانیة ولایسیرون حیاری علی الطریق، بل ویسلکون أقرب السبل إلی اللَّه سبحانه، کما أنّ خوف اللَّه ولهج ألسنتهم بذکر اللَّه یحول دون إنحرافهم عن السبیل القویم. ثم خاض الإمام علیه السلام فی جانب من نتائج هذه الصفات فی الدنیا والآخرة فقال:

«ظافراً بفرحة البشری، وراحة النّعمی،[۵۰۲] فی أنعم نومه، وآمن یومه، قد عبر معبرالعاجلة حمیداً، وقدّم زاد الْآجلة سعیداً»

فالواقع هو أن السبب الذی یقف وراء راحتهم وسکینتهم واستقرار أفکارهم إنّما یکمن فی إجتیازهم لعقبة الدنیا وتزودهم للدار الآخرة. والشئ المهم هو أن یتمالک الإنسان نفسه حیال هذه المظاهر الکاذبة والخادعة والفساد

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۲۴۵

والانحراف ویبقی علی نهجه فی سلوک الصراط المستقیم. ثم أشار علیه السلام إلی ست صفات أخری من صفات المتقین فقال:

«و بادر من وجلٍ، وأکمش ۵۰۳] فی مهلٍ، ورغب فی طلبٍ، وذهب عن هربٍ، وراقب فی یومه غده، ونظر قدماً أمامه»

فهو یستثمر کافة فرص العمر من أجل الفوز بسعادة الدار الآخرة، فهو یقبل علی ما ینبغی الاقبال علیه، ویبتعد عن کل ما من شأنه إبعاده عن سبیل السعادة والفلاح. أجل هذه هی الصفات التی تنطوی علیها التقوی والتی ینبغی للعباد أن یجعلوها نصب أعینهم ویسعون جاهدین لاکتسابها. ثم یختتم الإمام علیه السلام هذه المقطع من الخطبة بالإشارة إلی النتیجة التی تترتب علی التقوی أو عدمها:

«فکفی بالجنّة ثواباً ونوالًا، وکفی بالنّار عقاباً ووبالًا، وکفی باللّه منتقماً ونصیراً! کفی بالکتاب حجیجاً وخصیماً»

حقاً أنّ الإمام علیه السلام لمعجز فی عباراته القصیرة التی تناولت التقوی بالشکل الذی لم یسمع نظیره من أحد، وهی العبارات التی تسوق أضعف الأفراد إلی العمل والسعی والحرکة، فما أحراها أن سمیت بالخطبة الغراء.

تأمّلان

۱- کیف نجتاز الصراط بسهولة؟!

أشارت الخطبة إلی الصراط؛ الجسر الذی یرده کافة الأفراد یوم القیامة، وقد أسهبت الروایات الإسلامیة فی الحدیث عنه، وان لم ترد کلمة الصراط بهذا المعنی فی القرآن، إلّافی موردین ولعل المراد بهما طریق الحق والباطل فی الدنیا، بینما وردت تعبیرات أخری فی القرآن الکریم من قبیل المرصاد الذی ذهب جماعة من المفسرین إلی أنّ المراد به الصراط. علی کل حال کما أسلفنا فانّ الذی یستفاد من الروایات هو أن الصراط جسر علی جهنم حاد مخیف فمن عبره دخل الجنّة، ومن تعثر هوی فی نار جهنم، بل صرحت بعض الروایات أنّ الصراط وسط النار، إلّاأن المؤمنین یجتازونه کالبرق علی غرار مرورهم من وسط نار الدنیا. وقد ورد فی أوصاف الصراط وانه جسر علی جهنم ویؤدی إلی الجنّة ولایمکن دخول الجنّة إلّابعد

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۴۶

عبوره، فهناك طائفة من المؤمنين تمر عليه مسرعة كالبرق واخرى كالفارس واخرى كالراجل واخرى تحبو عليه حبوا وأخيراً هناك من يعجز عن العبور فيهوى فى جهنم.[۵۰۴]

ويمكن فهم مضمون هذا الحديث من خلال الحديث المعروف الذى روى عن رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله والإمام الصادق عليه السلام هو:

«إن على جهنم جسرا أدق من الشعر، أحد من السيف»[۵۰۵]

وقال الإمام الصادق عليه السلام فى تفسيره للاية الشريفة:

«إِنَّ رَبَّک لَبِالْمِرْصادِ»[۵۰۶]

، «قنطرة على الصراط لايجوزها عبد بمظلمة»[۵۰۷]

. إلى جانب ذلك هنا لك بعض الأعمال التى صرحت الروايات الإسلامية بأنّها تسرع عملية عبور الصراط، من ذلك ما ورد فى الحديث عن النبى الاكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«أسبغ الوضوء تمرُّ على الصراط مرّ السحاب»[۵۰۸]

. كما ورد فى حديث آخر أنّ موسى عليه السلام سأل البارئ سبحانه فى مناجاته إياه:

«إلهى ما جزاء من تلا حكمتك سراً وجهراً؟ قال: يا موسى يمر على الصراط كالبرق»[۵۰۹]

. والجدير بالذكر هنا ما ورد فى عدة روايات من أنّ أهم شرائط عبور الصراط ولاية على بن أبى طالب. وقد نقل كبار محدثى العامة هذه الرواية عن رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله فى مصادرهم، ومنهم الحافظ بن سمان الذى نقل فى كتابه الموافقة أنّ رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«لايجوز أحد على الصراط إلا من كتب له على عليه السلام الجواز»[۵۱۰]

، وجاء فى رواية

«إذا جمع اللّه الأولين والآخرين يوم القيامة ونصب الصراط على جسر جهنم ما جازها أحد حتى كانت معه براءة بولاية على بن أبى‌طالب»[۵۱۱]

وقد ورد هذا المضمون مع إختلاف طفيف فى مناقب الخوارزمى ومناقب ابن المغازلى وفرائد السمطين

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۴۷

وكتاب الرياض النظرة.[۵۱۲] وكما ذكرنا سابقاً فى شرحنا للخطبة فانّ الصراط فى القيامة هو فى الواقع تجسم صراط الدنيا وعقبة عبورها وما تنطوى عليه من حدة وخطر.

۲- صلاة الليل شرف المؤمن

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى مسألة إحياء الليل بالتهجد والعبادة على أنّها من مميزات المتقين السائرين إلى الحق. والتهجد من مادة هجود، قال الراغب فى المفردات تعنى فى الأصل النوم، إلّاأنّه تنتقل من معنى النوم إلى اليقظة حين تستعمل فى باب التفعيل، ولما كان إحياء الليل فى عرف المتقين يتمثل بالدعاء والمناجاة والعبادة، فقد استعملت كلمة التهجد بمعنى الصلاة فى جوف الليل، وبالذات نافلة الليل. على كل حال فانّ لصلاة الليل آدابها الخاصة، وهى الاكسير الأعظم والكيمياء الكبرى التى تحيل تراب

الإنسان ذهباً. وقد خاطب الحق سبحانه رسول الكريم صلى الله عليه و آله فى قرآنه الكريم قائلًا: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً».[۵۱۳] الذى يفيد أنّ المقام المحمود الذى بلغه رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله إنّما بلغه بعبادة الليل والتهجد فيه. ويكفى فى فضلها وتظافر الروايات فيها، ما ورد عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال لعلى عليه السلام:

«عليك بصلاة الليل يكررها أربعة»[۵۱۴]

، كما ورد فى الحديث أنه أوصى عليا عليه السلام قائلًا:

«يا على ثلاث فرحات للمؤمن: لقى الاخوان، والافطار من الصيام، والتهجد من آخر الليل»[۵۱۵]

. فالحديث يفيد أنّ صلاة الليل لمن دواعى سرور المؤمن وسعادته. وجاء فى الحديث أيضاً أنّ رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«ما اتخذ اللّه إبراهيم خليلًا إلّا لاطعامه الطعام وصلاته بالليل والناس نيام»[۵۱۶]

. وأوصى الصادق عليه السلام أحد أصحابه قائلًا:

«لاتدع قيام الليل فان المغبون من غبن قيام الليل»[۵۱۷]

. الجدير بالذكر أنّ الآية السادسة من سورة المزمل عبرت عن صلاة الليل بناشئة الليل وهى عظيمة الاهمية والمؤدية إلى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۴۸

الاستقامة

«إن ناشئة الليل هى أشد وطئا أقوم قيلا»

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنّ المراد بناشئة الليل نشئة الجذبة الروحية والملكوتية التى تحصل للإنسان ببركة هذه العبادة. وسبب هذه الأهمية واضح لأنّ روح العبادة التى تبلغ بالإنسان المقامات العالية إنّما تكمن فى أمرين:

الاخلاص وحضور القلب. وكلاهما حاصل فى الليل ولاسيما فى آخره بعد تلك الاسترحة والخلود حين يكون الناس نيام وقد إنقطعت الحركة والسعى والعمل المادى فليس هنالك من تفكير فى نيل بعض المتع المادية ولا الشواغل الفكرية المادية اليومية التى تشتمل عليها الحياة الإنسانية، ومن هنا كانت صلاة الليل عبادة خالصة متوجة بحضور القلب والمعنوية التامة.

ويمكن لكافة الاخوة المؤمنين لمس معطيات هذه العبادة من خلال التجربة وتذوق حلاوتها بشغاف القلب فيحرصون على أدائها، فهى الموصوفة لمن أراد الدنيا، وهى كذلك لمن أراد الآخرة، وهى باعثة الرزق ومطيبة الريح ومبيضة الوجه. نسأل اللَّه أن يوفقنا وإياكم للمواظبة عليها.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۴۹

القسم الحادى عشر: المانع الآخر وساوس الشيطان

اشارة

«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِى أَعْذَرَ بِما أَنْذَرَ، واحْتَجَّ بِما نَهَجَ، وحَذَّرَكُمْ عَدُوّاً نَفَذَ فِى الصُّدُورِ خَفِيّاً، ونَفَثَ فِى الْآذانِ نَجِيّاً، فَأَضَلَّ وأَرْدَى، ووَعَدَ فَمَنَّى، وزَيَّنَ سَيِّئاتِ الْجَرائِمِ، وهَوَّنَ مُوبِقاتِ الْعَظائِمِ، حَتَّى إِذا اسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ، واسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ، أَنْكَرَ ما زَيَّنَ، واسْتَعْظَمَ ما هَوَّنَ، وحَذَّرَ ما أَمَّنَ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى أحد الأخطار المهمة للغاية التى تهدد سعادة الإنسان، ويتمثل ذلك الخطر بوساوس الشيطان ومكائده التى تعد من أعظم وسائله فى خداع الناس. فقد أوصى الإمام عليه السلام ثالثة بالتقوى مشيرا إلى إتمام

الحجة الإلهية:

«أوصيكم بتقوى اللّه الّذى أعذر بما أنذر، واحتجّ بما نهج»

فمن الواضح أنّ العدل الإلهى لايمكن بسطه دون إتمام الحجة الكافية، ومن هنا بين البارئ سبحانه وتعالى الحق والباطل من خلال الرسول الظاهر المتمثل بالأنبياء والأوصياء والأولياء، والرسول الباطن وهو عقل الإنسان وفطرته حتى لايعذر أحد بجهله فى محاولة لتبرير تمرده وخلافه. فالواقع هو أنّ العبارة:

«احتج بما نهج»

إشارة إلى بيان طريق السعادة، والعبارة:

«أعذر بما أنذر».

تحذير من الاخطار الكامنة فى مسير الإنسان. الجدير بالذكر أنّ اللّه سبحانه لايكتفى باتمام الحجة على عباده فحسب، بل يتمها بمنتهى اللطف والرحمة، ولذلك تأكدت آلية العقل الكافية فى أغلب المراحل لاتمام الحجة بالوحى بواسطة الأنبياء العظام، إلى جانب التحذير من مغبة مقارفة الاثم والذنب: «وَما كانَ رَبُّکَ مُهْلِکَ القُرى حَتّى يَبْعَثَ فِى أُمِّها رَسُولًا يَتْلُو

عَلَيْهِمْ آياتِنا وَما كُنّا مُهْلِكِى القُرى إِلّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ»[۵۱۸] ثم أشار عليه السلام إلى أخطار الشيطان قائلًا:

«وح ذّركم عدوّاً نفذ فى الصّدور خفيّاً، ونفث فى الْآذان نجيّاً، فأضلّ وأردى»

لاشك أنّ الصفات الواردة فى العبارة تشير بوضوح إلى أنّ المراد هو الشيطان، وان لم يرد إسمه صريحاً فى هذه العبارة والعبارات اللاحقة. فقد خاطب الحق سبحانه آدم عليه السلام فى كتابه العزيز قائلًا:

«إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَکَ وَلِزَوْجِکَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقى [۵۱۹]. وصرح فى موضع آخر على نحو العموم قائلًا: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِى آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»[۵۲۰] طبعا يمكن أن يكون الشيطان وسيلة للسمو والتكامل بالنسبة للمؤمنين والسالكين، وذلك لأنّهم يزدادون معنوية وقرباً من الحق كلما حاربوه وصمدوا بوجه مكائده وحيله. ثم واصل عليه السلام كلامه بكشف اللثام عن مختلف طرق وساوس الشيطان، فاشار إلى ثلاث منها:

«و وعد فمنّى، وزيّن سيّئات الجرائم، وهوّن موبقات العظائم».

فالحق أنّ هذه هى المصائد الثالث والطرق الخطيرة التى ينفذ من خلالها إلى نفس الإنسان، الاولى: أنّه يمنّى الإنسان، ويجعله يعيش طول الأمل والخيالات والأوهام بشأن المستقبل، المستقبل الذى قد لايدركه الإنسان قط فيلهيه به ويستهلك جميع طاقاته من أجله وهكذا يغلق بوجهه سبيل التزكية ويصرفه عن الطاعة. والثانية: يزين له الذنوب والمعاصى التى يأباها الطبع الإنسانى بوحى من ضميره ووجدانه ويجعله يرى التحلل حرية والتفسخ مدنية ومجالسة أهل الفسوق والخطيئة نوعا من أنواع التعايش السلمى، والخلاصة فقد أعد عدته لتزيين كل قبيح.

والثالثة: يسعى لأن يصغر للإنسان كبائر الذنوب فيبديها له سهلة ليست بذات أهمية ويمنيه ببعض التبريرات والمسوغات من قبيل عظمة عفو اللّه ورحمته وأن ليس هناك من إنسان معصوم وهو عرضة للخطأ والزلل وان باب التوبة مفتوح وقد إدخرت شفاعة الشافعين ولاسيما النبى وأهل بيته الكرام لمثل هذه الامور. والحال لابدّ أن نرى النتيجة التى تنتهى إليها هذه الوساس والحيل والمكائد الشيطانية، هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام قائلًا:

«حتّى إذا

استدرج قرينته، واستغلق رهينته، أنكر ما زيّن، واستعظم ما هوّن، وحذّر ما أمّن»

فالعبارة

«إستدرج»

تفيد أنّ وساوس الشيطان عادة ما تتم خطوة فخطوة لتكون اكثر تأثيراً فى الأفراد، فلو كانت هذه الوساوس دفعية فانّ الأفراد وأن تمتعوا بقليل من التقوى لحاربوها ووقفوا بوجهها، ولعل هذا هو المعنى الذى أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة: «وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ»[۵۲۱] وسائر الآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن. أمّا العبارة

«قرينته»

فكأنّها أقتبست من الآية الشريفة: «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»[۵۲۲] فالواقع هو أنّ الشيطان على درجة من القرب من أتباعه بحيث لاتنفك مفردات حياتهم عنه وهو مقرون بهم أينما حلوا. وأخيرا تشير العبارة

«إستغلق رهينته»

إلى أنّ الشيطان يرتهن أتباعه ويغلق عليهم باب الرجعة- بالضبط كشياطين الانس الذين يزينون الفساد والانحراف للأفراد فانّ سقطوا فى هذا الفخ وتلوثوا أغلقوا عليهم كافة طرق الخروج ولم يجدوا أمامهم سوى الاذعان والانقياد. أمّا يوم القيامة حيث تطرح حجب الخداع والمكر والغرور ويظهر ما كان يبطنه كل شخص، فلا يسع الشيطان هناك إلّاالانكار، وأن يكبر ما كان إستضغره، غير أنّ هذا الانكار لايفيده، كما لايفيد أتباعه وذلك لأنّ عهد الرجعة والتوبة من الذنوب وتدارك الماضى قد ولى إلى غير رجعة.

مكائد الشيطان

إنّ الإنسان يخوض على الدوام مواجهة تجاه عدوين كبيرين: عدو داخلى يدعى بالنفس الامارة، وعدو خارجى هو الشيطان، ولكل منهما ذات الأعمال المكملة لبعضها البعض الآخر.

وعلى الرغم مما ذكرناه من أنّ هذا العدو الداخلى والخارجى بالنسبة لأهل الإيمان مصدراً للسمو والتكامل ومحاربة عناصر الذنب والمعصية، وبالتالى يوجب تكامل أرواحهم ويزيد من قربهم إلى اللّه سبحانه، مع ذلك فانّ وجود مثل هذا العدو الخطير يتطلب مزيدا من الحيطة

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۵۲

والحذر، ويضاعف من خطورته أنّه لايدعو الإنسان صراحة إلى الذنب، بل يزين الذنوب وينمق المعاصى ويصغر كبائر الذنوب، ويكبر ما صغر من الطاعات، ويريه المصائد جميلة، مستغلا كافة نقاط ضعف الإنسان لينفذ إلى أعماقه فيلقيه فى مخالب الشهوات والأموال والمقام والآمال الطويلة، ومن هنا فانّ الغفلة لحظة قد تقود إلى عمر من الشقاء والبؤس والندم.

ولذلك وردت التحذيرات التى أكدتها الروايات والأخبار الإسلامية، ومن ذلك أنّه أوحى إلى موسى عليه السلام:

«ما لم تسمع بموت ابليس فلا تأمن مكره»[۵۲۳]

وقد خضنا فى شرح وساوس الشياطين فى المجلد الأول من هذا الكتاب فى الخطبة السابعة.[۵۲۴]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۵۳

القسم الثانى عشر: بداية حياة الإنسان ونهايتها

اشارة

«أَمْ هَذا الَّذِى أَنْشَأَهُ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وشُغُفِ الْأَسْتَارِ، نُطْفَةً دِهَاقاً، وَعَلَقَةً مِحاقاً، وجَنِيناً وراضِعاً، ووَلِيداً ويافِعاً، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حافِظاً،

لِساناً لافِظاً، وبَصَِراً لاحِظاً، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً، ويُقَصِّرَ مُزْدَجِراً، حَتَّى إذا قامَ اعْتِدالُهُ، واسْتَوَى مِثالُهُ، نَفَرَ مُسْتَكْبِراً، وخَبَطَ سادِراً، ماتِحاً فِى غَرْبِ هَواهُ، كادِحاً سَعْياً لِدُنْياهُ، فِى لَذَّاتِ طَرَبِهِ، وبَدَواتِ أَرَبِهِ، ثُمَّ لا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً، ولا يَخْشَعُ تَقِيَّةً؛ فَماتَ فِى فِتْنَتِهِ غَرِيراً، وعاشَ فِى هَفْوَتِهِ يَسِيراً أسيرا لَمْ يُفِدْ عِوَضاً غرضاوَ لَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة وقد أشرفنا على نهايتها- فى أمر مهم آخر وهو خلق الإنسان ومتابعته منذ كونه جنيناً حتى إختتام عمره ومفارقته للدنيا وبعثه فى يوم القيامة، اتماماً للأبحاث السابقة حول مكائد الشيطان وضرورة إعداد العدّة والتحلى بالورع والتقوى، وبعبارة اخرى ليكون الإنسان على حيطة وحذر فيمارس وظائفه الرئيسية ويجتنب وساوس الشيطان. فقد قال عليه السلام:

«أم ۵۲۵] هذا الّذى أنشأه فى ظلمات الْأرحام، وشغف ۵۲۶]

نفحات الولايۀ، ج۳، ص: ۲۵۴

الْأستار، نطفةً دهاقاً،[۵۲۷] وعلقةً محاقاً،[۵۲۸] جنيناً وراضعاً، ووليداً ويافعاً[۵۲۹]»

. فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى ستة مراحل من حياة الإنسان، ترتبط ثلاث منها بالفترة التى يكون فيها جنين وقبل الولادة، وثلاث أخرى تتعلق بما بعد الولادة. وهى المراحل التى تطوى سريعاً وتحتفظ كل واحدة منها بميزاتها، فبعضها عجيب للغاية والبعض الآخر ينطوى على الدروس والعبر، فاللّه سبحانه وبقدرته يعد من ماء الرجل الذى يفتقر إلى الصورة والشكل بعد أنّ يتكامل فى ظلمات المشيمة والرحم وبطن الام إلى علقة فمضغة وعظاماً ولحماً جنيناً ذا حياة، ليخرج إلى الدنيا، ثم يطوى مراحل الهداية والتكامل ليبدأ مسيرته إلى الحق. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى ما زود به هذا المخلوق من وسائل وأدوات:

«ثمّ منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً، يقصّر مزدجراً»

فقد منحه اللّه العقل ليميز به الحسن من القبيح، واللسان ليستغله فى فتح صناديق كنوز العلم بالسؤال والبحث، والعين ليدرك بها الحقائق الحسية، ويصل إلى أهدافه النهائية من خلال هذه النعم الثلاثة، ثم يستفيدها فى إدراك الأحكام الإلهية ويعتبر بما حوله ويبتعد عما لايليق بشأنه. فالواقع هو أن مصادر المعرفة الثلاث: العقل واللسان والعين والتى تمثل إدراك وإستيعاب المواضيع الفكرية والنقلية والعينية والحسية قد جمعت فى هذه العبارة القصيرة، وبالتالى فقد أمر الإنسان باعتماده للفوز بالسعادة والرضوان.

ثم قال عليه السلام:

«حتّى إذا قام اعتداله، واستوى مثاله، نفر مستكبراً، وخبط سادراً»[۵۳۰]

طبعاً ليس جميع الناس كذلك، إلّاأنّ كلام الإمام عليه السلام إنّما يتناول الأغلبية العظمى التى تشاهد فى المجتمعات البشرية والتى تولى ظهرها لكل شئ إذا ما شعرت بالقوة والاقتدار ونالت بعض المناصب، كما تشكل تحذيرا لأهل الإيمان من ضرورة مراقبة النفس والسعى لأداء الشكر

نفحات الولايۀ، ج۳، ص: ۲۵۵

والتحلى بالتقوى. ثم قال عليه السلام

«ماتحاً[۵۳۱] فى غرب ۵۳۲] هواه»

فهم يشقون على أنفهسم من أجل الحصول على الدنيا ويسعون جاهدين للتمتع بلذاتها، ولا يقتدح فى ذهنهم شيئاً من أهوائهم النفسية الا أتوه:

«كادحاً[۵۳۳] سعياً لدنياه، فى لذّات طربه، وبدوات ۵۳۴] أربه ۵۳۵]»

فهذه العبارات إشارة إلى أولئك الجهال الذين يوظفون كافة إمكاناتهم ويستفرغون ما بوسعهم من أجل الحصول على مال الدنيا

وحطامها والتنعم بلذاتها الفانية وأشباع أهوائهم ورغباتهم الجامحة، وكأن هذا هو الهدف الذى خلقوا من أجله، والحال أنّهم يرون بأم أعينهم مصائب الدنيا ومحنها وأمراضـها بالتالى الموت الذى يزيليها، فكيف تكون هدفا وهذا حالها. إلّاأنّهم وكما يصـفهم الإمام عليه السلام:

«ثمّ لا يحتسب رزيّةً،[۵۳۶] ولا يخشع تقيّةً،[۵۳۷] فمات فى فتنته غريراً،[۵۳۸] وعاش فى هفوته ۵۳۹] يسـيراً لم يفد عوضاً ولم يقض مفترضاً»

ويالها من حالة خطيرة لمن أصيب بمثل هذا الغرور والغفلة؛ فقد ضحى بعمره من أجل التلذذ بضعة أيام، أى لذة، تلك المشوبة بالألم والهم والغم، حتى ودع الدنيا خالى اليدين وقدم على ربّه بذلك السجل الذى يفضحه فى محكمة العدل الإلهى.

النعم والجحود

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى النعم الإلهية التى أفاضها الرحمن على الإنسان

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۵۶

منـذ خلقه فى رحم أمه حتى ولادته وانتهاءا باجتيازه لمراحل السـمو التكامل، كما تطرق إلى قدرته سـبحانه فى كيفية متابعة خلقه فى الظلمـات الثلاـث فى بطن أمه وصور تكامله، وكيف جهزه بعـد خروجه إلى الـدنيا بالآت المعرفـة من قبيل منحه القلب الحافظ والعين الباصرة واللسان الناطق، غير أن هذا الإنسان الجاحد المنكر للجميل ما أن يشعر بالقوة والقدرة حتى ينسى الهدف الذى خلق من أجله، وكأنه يخلص فى النوم والأكل والشـرب والشـهوة واللذة، على غرار الحيوان، وقد تجاهل كل ما يرى من مصائب ومحن والام وبالتالى الموت هادم اللـذة، بل لايرى هـذا الموت مكتوباً عليه وكأنه مخلد فى الدنيا وليس هنالك من خطر من شأنه القضاء على لذاته ومتعه، فأوامر اللّه وأحكامه لا تعنيه، وأنبيائه ورسـله لم يبعثوا إليه مع ذلك سرعان مايحل أجله ويفنى عمره إذ يفاجئه الموت، فيقدم على ربّه ولاعمل له فكيف به وقد أغلقت كل الأبواب بوجهه وليس هنالك من سبيل إلى العودة والتوبة.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۵۷

القسم الثالث عشر: الموت المفاجئ

«دَهِمَتْهُ فَجَعـاتُ الْمَنِيَّةِ فِى غُبَّرِ جِمـاحِهِ، وسَنَنِ مِراحِهِ، فَظَلَّ سادِراً، وباتَ ساهِراً، فِى غَمَراتِ الْآلامِ، وطَوارِقِ الْأَوْجاعِ والْأَسْـقامِ، بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ، ووالِدٍ شَفِيقٍ، وداعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً، ولادِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً؛ الْمَرْءُ فِى سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ، وغَمْرَةٍ كارِثَةٍ، وأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ، وجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ، وسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ».

الشرح والتفسير

يتطرق الإمام عليه السـلام فى هـذا المقطع من الخطبـة إلى نهايـة عمر هذا الإنسان الغافل المغرور وكيف يقضـى لحظاته الاخيرة ساعة الاحتضار بين قرابته وبطانته، وقد رسم عليه السلام صورة تهز النفس البشرية وترعبها من جراء ذلك المشهد، فقال:

«دهمته ۵۴۰] فجعات المنيّة فى غبّر[۵۴۱] جماحه ۵۴۲] وسنن ۵۴۳] مراحه ۵۴۴]، فظلّ سادراً،[۵۴۵] وبات ساهراً، فى غمرات الْآلام، وطوارق الْأوجاع والْأسقام»

وقد تم هذا الأمر الذى يشهده هذا المحتضر وهو:

«بين أخٍ شقيقٍ، ووالدٍ شفيقٍ، وداعيةٍ بالويل جزعاً، ولادمةٍ[۵۴۶] للصّدر قلقاً».

نعم فقد يأس أهله وأقرباؤه من حياته

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۵۸

وأخذوا بالبكاء وا لعويل عليه؛ وأنّ هذا الصراخ والعويل يقض مضجعه كلما خفت عليه غصص الموت وأفاق إلى نفسه، فيتطلع إلى الموت الذى يراه بعينه وهى تدور يميناً وشمالًا من الخوف والرعب:

«و المرء فى سكرةٍ ملهثةٍ،[۵۴۷] وغمرةٍ كارثةٍ،[۵۴۸] وأنّةٍ موجعةٍ، وجذبةٍ مكربةٍ،[۵۴۹] وسوقةٍ[۵۵۰] متعبةٍ»

. حقاً أنّ الاحتضار وسكرات الموت حالة عجيبة! فهذا الإنسان الذى كان متربعاً بالأمس على عرش السلطة وقد زود بكافة الإمكانات وثمل من كأس الغرور وتفاخر على سائر الكائنات، هو اليوم أسير الأمراض وقد صعبت حالته حتى يئس منه من حوله فتعالت أصواتهم بالبكاء والصراخ، ولكن ما عسى ذلك أن يجيده نفعاً. وقد شحن التأريخ بالدروس والعبر بما تضمنه من قصص أصحاب القدرة حين طرحوا على فراش الموت واستسلموا له.

فقد روى أنّ المأمون لما أثقل قال: أخرجونى أشرف على عسكرى، وانظر إلى رجالى، وأتبين ملكى، وذلك فى الليل، فاخرج فاشرف على الخيم والجيش وانتشاره وكثرته وما قد أوقد من النيران، فقال: يا من لايزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه، ثم رد إلى مرقده وأجلس المعتصم رجلًا يشهده لما ثقل، فرفع الرجل صوته ليقولها، فقال له ابن ماسويه: لاتصح فواللّه مايفرق بين ربّه وبين مانى فى هذا الوقت، ففتح المأمون عينيه من ساعته، وبهما من العظم والكبر الأحمرار ما لم ير مثله قط، وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه، ورام مخاطبته، فعجز عن ذلك، فرمى بطرفه نحو السماء، وقد إمتلأت عيناه دموعاً، فانطلق لسانه من ساعته، وقال: يا من لايموت ارحم من يموت، وقضى من ساعته، وحمل إلى طوس فدفن فيها.[۵۵۱] وفيه قال الشاعر:

هل رأيت النجوم أغنت عن المأمون شيئاً وملكه المأنوس

خلفوه بعرصتى طرسوس‌مثل ما خلفوا أباه بطوس

القسم الرابع عشر: حوادث مابعد الموت

اشارة

«ثُمَّ أُدْرِجَ فِى أَكْفانِهِ مُبْلِساً، وجُذِبَ مُنْقاداً سَلِساً، ثُمَّ أُلْقِىَ عَلَى الْأَعْوادِ رَجِيعَ وَصَبٍ، ونِضْوَ سَقَمٍ، تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدانِ، وحَشَدَةُ الْإِخْوانِ، إِلَى دارِ غُرْبَتِهِ، ومُنْقَطِعِ زَوْرَتِهِ، ومُفْرَدِ وَحْشَتِهِ، حَتَّى إِذا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ، ورَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ مضجع أُقْعِدَ فِى حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤالِ، وعَثْرَةِ الامْتِحانِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى مصير الإنسان بعد الموت الذى ينطوى على الدروس والعبر، حيث يواصل فيه كلامه بشأن الاحتضار وسكرات الموت. فقد رسم الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصيرة صورة جلية مؤثرة عن حال الإنسان بعد أن بلغ المرض منه مبلغه وقد توقفت عن العمل كافة أعضائه وجوارحه ولم يبق منه إلّاذلك الجسد الخاوى فأخذ يستعد أهله لغسله وتكفينه ودفنه، الصورة التى يمكن مقارنتها وما كان عليه بالأمس وهو يتمتع بتلك القوة والقدرة:

«ثمّ أدرج فى أكفانه مبلساً،[۵۵۲] وجذب منقاداً سلساً،[۵۵۳] ثمّ ألقى على الاعواد رجيع ۵۵۴] وصبٍ ۵۵۵] ونضو[۵۵۶] سقمٍ، تحمله حفدة الولدان، وحشدة[۵۵۷] الْإخوان، إلى دار غربته، ومنقطع

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۶۰

زورته،[۵۵۸] مفرد وحشته».

نعم فاول مايواجهه هو ذلك اللباس المتواضع الخالى من أناقة ملابس الدنيا التى يجهد الخياطون أنفسهم أياماً وأحياناً أسابيع لخيطاتها، فليس هنالك من فصال ولاقياس ولاحاجة لخياط، اللباس الذى لايعرف من معنى للغنى أو الفقر أو الشريف والوضيع.

وأخيراً هو اللباس الذى فضح الدنيا وكشف النقاب لمن كان له بصيرة عن تقلب أحوالها وعدم دوامها. أمّا الصورة العنيفة الاخرى التى لها وقعها فى النفس فهى حمله على التابوت والانطلاق به إلى مثواه الأخير، دون أن يكون له أية إرادة واختيار، فهو مستسلم لأنّ يطرح فى حفرته ويوارى فيها التراب. وبالطبع فانّ هذا الإنسان المناقد اليوم، هو الذى كان بالأمس يأمر وينهى، وربما كانت إشارته كافية لأنّ يندفع له الاف الأفراد، وكان إذا رضى عفى عمن حوله، وإذا غضب أمر بضرب الاعناق وإن كانت بريئة، نعم هذه هى عاقبته ومصيره. وكالمعتاد فقد أسرع الأبناء والأحفاد والأقرباء والأصدقاء والاخوة لحمل التابوت على أكتافهم، إلى أين؟ إلى ذلك المكان الذى طالما كان يخشاه، بل لايجرأ على الإتيان باسمه على لسانه، وإذا مر به أشاح بوجهه عنه، المكان الذى لم يبق له من رابطة باهل هذا العالم، أنّه بيته الموحش المنسى. ثم قال عليه السلام:

«حتّى إذا انصرف المشيّع، ورجع المتفجّع أقعد فى حفرته نجيّاً لبهتة[۵۵۹] السّؤال، وعثرة الامتحان»

أجل قصيرة هى تلك المدة التى يرافقه فيها الأهل والمعزون، فاخر عهدهم به حين ينزلونه القبر، فاذا واروه التراب ودعوه وتركوه لوحده فى حفرته، وسرعان ما يكفكفون دموعهم ويخمد صراخهم حتى ينسوه بالتدريج؛ فى حين يعيش هو أصعب اللحظات وعليه أن يعد إجابات لما ستطرحه عليه الملائكة من أسئلة، وهى الاسئلة التى تبدو إجاباتها واضحة، لكنها تتطلب إستعداداً روحياً وعقائدياً؛ الأمر الذى قد لايكون الإنسان قد تزود له، ومن هنا كان الامتحان عسيرا.

العبارة:

«أقعد فى حفرته»

إشارة واضحة إلى سؤال القبر الذى سيمر علينا فى البحث

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۶۱

القادم. أمّا قوله عليه السلام:

«نجيا»

فتعنى الصوت الخفى، ولعلها إشارة لمناجاته لربّه آنذاك واستغاثته بلطف اللّه ورحمته، أو الكلام الخفى لعسرة الامتحان والخوف من عدم الإجابة على السؤال.

تأمّلان

۱- وداع الأحياء للأموات

إذا مات الإنسان تغيرت كافة أوضاعه بالمرة، فقد كان جزءاً من هذه العالم والجماعة حتى آخر لحظة من حياته، أمّا الآن فلم يعد الأمر كذلك وعليه فالجميع يسعى لتنحيته من هذا العالم ويسرع فى التخلص منه فيودعونه ذلك المكان الذى يحول بينه وبين الدنيا ويقطع علاقته مع أهلها. يالها من لحظات معبرة! ليس له من إرادة، لايستطيع أن يأخذ معه شيئاً، لايسع أحد مساعدته وإن كان من أقرب المقربين. فسرعان ما تحمل جنازته إلى تلك الحفرة الموحشة المظلمة فيوسد فيها تحت التراب، وليس معه سوى ذلك الكفن المتواضع، فلم يعد هنالك من مجال لحمل الاسرة والتيجان ولاالتزين والتفاخر. هنا يوصى أميرَالمؤمنين على عليه السلام باستحضار هذه اللحظات الحساسة بغية الوقوف بوجه طغيان هذه النفس، كيف تغفلون عما ليس بغافل عنكم. كفى بالموت واعظا، الذى ينقلكم من دار الأهل والانس إلى دار الوحشة والخوف، كفى واعظا بموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين، وانزلوا فيها غير نازلين، فكأنّهم لم يكونوا للدنيا عماراً، وكأنّ الآخرة لم تزل لهم داراً. أوحشوا ما كانوا يوطنون، وأو طنوا ما كانوا يوحشون، لا عن

قبيح يستطيعون إنتقالًا، ولا فى حسن يستطيعون ازدياداً[۵۶۰]. حقـاً أنّ لحظـة ولادة الإنسـان ودخوله الـدنيا كخروجه منها عبرة لمن إعتبر، فكلاهما يقع بمعزل عن إرادة الإنسان، وليس للإنسان من قـدرة على شئ فى هاتين الحالتين، ولو تأمل الإنسان هذا الأمر قليلا، لما أصابه مثل ذلك الغرور الطغوى والنسيان. ورد فى الديوان المنسوب إلى أميرالمؤمنين عليه السلام:

وفى قبض كف الطفل ولادةدليل على الحرص المركب فى الحى

وفى بسطها عند الممات مواعظألا فانظرونى قد خرجت بلا شئ

۲- سؤال القبر

تطرقت الخطبة إلى سؤال القبر الذى ورد صريحاً فى الروايات الإسلامية، كما ورد فى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۶۲

كلمات علماء العقائـد. فقـد ذكر المحقق الخوئى شارح نهج‌البلاغـة فى شـرحه المعروف بمنهاج البراعـة أنّ المسـلمين إتفقوا على أنّ سؤال القبر حق، بل هو من ضـروريات الدين، ولـم يخالفه إلّا جماعة قليلة من الملحدين، حيث روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«ليس من شيعتنا من أنكر ثلاثة: المعراج وسؤال القبر والشفاعة»[۵۶۱]

كمـا وردت الروايـات فى المصـادر الإسـلامية بهـذا الشـأن، وإنّ الإنسـان إذا وضع فى قبره، أتـاه الملكان فسألاه عن عقائـده؛ التوحيد والنبوة وولاية الأئمة عليهم السـلام، بل جاء فى أغلب الروايات أنّه يسـئل عن أربع: عن عمره فيم قضاه، وعن شـبابه فيم أفناه، عن ماله مم إكتسـبه وفيم أنفقه، فان كان مؤمنا أجاب ليشمل برحمة اللّه وعنايته، وان كان كافراً عجز عن الجواب فيصب عليه العذاب. الجدير بالـذكر أنّ بعض القرائن فى الروايـات المـذكورة تفيـد أنّ مسائلـة القبر ليست باليسـيرة بحيث يجيب عنهـا الإنسـان كيفما شاء، بل إنّ جوابه مما تفرزه عقائـد الإنسان وأعماله فى الحياة الدنيا، وكأنّ سؤال القبر أول محكمة عدل إلهية يشـهدها الإنسان تؤهله لورود عالم البرزخ. بعبارة اخرى فانّ الموت من الحوادث العظيمـة التى تهز أعماق الإنسان وتـذهله عما فى نفسه، فلا يبقى لديه إلّاما كان حصـله على سبيل الملكة وتأصل فى روحه وفكره. فقد ذكر العلّامة المجلسـى أنّ المشـهور بين متكلمى الإمامية هو أنّ سؤال القبر ليس عاما، بل يرتبط بمن محض الإيمان أو الكفر، ولايشمل الضعفاء والمجانين والصبيان. كما ذكر المرحوم العلّامة الخوئى بعد نقله لهذا الكلام أنّ الأخبـار الواردة فى كتـاب الكافى وسائر المصادر إنّما تؤيـد هـذا المعنى.[۵۶۲] والسؤال الـذى يطرح نفسه هنا: هل سـيطرح سؤال القبر على هـذا البـدن الجسـمانى وهو الـذى سـيجيب عنه، أم أنّ السؤال والجواب مرتبط بروح الإنسان إلى جانب هـذا البدن فى عالم البرزخ؟ بعبارة أخرى

هل السؤال للروح فى قالب المثال، أم لهـذا الجسم المادى؟ هناك إختلاف بهـذا الخصوص، فالبعض يعتقد بأنّ الروح سـتعود بصورة مؤقتة إلى هذا الجسم (بالطبع ليست بصورة كاملة بل بالمقدار الذى يسع السؤال والجواب) فتسئل من قبل الملكين وتجيب. أمّا العلّامة الجلسى وبعد تحقيقه فى الأحاديث الواردة بهذا المجال فقد قال:

«المراد بالقبر فى أكثر الأخبار ما

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۶۳

يكون الروح فيه فى عالم البرزخ»[۵۶۳]

. ومن هنا تتضح الإجابة على الشـبهة التى يثيرها بعض المغفلين من أننا لو وضـعنا علامة على فم الميت وجئنا بعد يوم أو يومين ونبشنا قبره لتبين عـدم تكلمه خلال تلك الفترة؛ وذلك لأنّ السؤال والجواب ليسا متعلقين بهـذا الفم والبـدن المادى، لكى نفتش فيهما. أمّا

القرائن التى تؤيـد ما ذهب إليه العلّامـة المجلسـى، الآية القرآنية الشـريفة القائلة: «ربَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَين وَأَحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ»[۵۶۴] هذا ما سيورده الأثمون يوم القيامـة، والـذى يشـير إلى أنّ الأحياء لم يحصل أكثر من مرتين؛ أحـداهما فى الـدنيا، والآخرى فى القيامة. فلو كان البدن المـادى يتولى الاجابـة فى القـبر لوجب أن يعيش الحيـاة فى القـبر بصورة مؤقتـة أيضـاً، ليقود ذلـك إلى وجود ثلاث ميتـات وثلاث حياتـات (الحيـاة فى الـدنيا والحيـاة فى القبر والحيـاة فى القيامـة، والموت قبـل الحياة فى الـدنيا، والموت فى آخر العمر، وا لموت بعد الحيـاة فى القبر). ومن هنا لاينبغى الترديـد بأنّ السؤال والجواب مختصان بالروح فى قالبها البرزخى، وهو المعنى الـذى وردت الإشارة إليه فى الخطبة بالعبارة

«أقعد فى قبره»

، وإلّا فانّ أغلب القبور ولاسيما تلك التى لالحد فيها لاتسع قعود الإنسان.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۶۵

القسم الخامس عشر: القبر روضة من رياض الجنّة أو حفرة من النار

«وَ أَعْظَمُ مـا هُنالِـكَ بَلِيَّةً نُزُولُ الْحَمِيم، وتَصْـلِيَةُ الْجَحِيم، وفَوْراتُ السَّعِير، وسَوْراتُ الزَّفِير، لا ـ فَتْرَةٌ مُرِيحَـةٌ، ولا ـ دَعَةٌ مُزِيحَـةٌ، ولا ـ قُوَّةٌ حاجِزَةٌ، ولا مَوْتَةٌ ناجِزَةٌ، ولا سِنَةٌ مُسَلِّيَةٌ، بَيْنَ أَطْوارِ الْمَوْتاتِ، وعَذابِ السَّاعاتِ! إِنَّا بِاللَّهِ عائِذُونَ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات إلى الحوادث التى يشهدها العاصون فى عالم البرزخ، وذلك لأنّ الثواب والعقاب لايقتصران على عالم القيامـة، بل يشـملان طائفـة عظيمـة من الناس فى عالم البرزخ الـذى يمثل الواسـطة بين عالم الدنيا وعالم القيامة؛ والحديث الشريـف:

«القبر روضة من رياض الجنّة، أو حفرة من حفر النيران»[۵۶۵]

إنّما أشار إلى هذا المعنى، وبعبارة أخرى فان هنالك صورة محدودة فى البرزخ لتلك الشاملة فى عالم القيامة. فقد قال عليه السلام:

«وأعظم ما هنالك بليّةً نزول الحميم ۵۶۶] تصلية[۵۶۷] الجحيم، وفورات ۵۶۸] السّعير، وسورات ۵۶۹]

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۶۶

الزّفير[۵۷۰]»

فالمراد بالجحيم هنا جحيم البرزخ التى تمثل جانبا من جهنم القيامة، والتى سيردها أصحاب الكبائر. فقد قال سبحانه تعالى فى محكم كتابه العزيز بشأن آل فرعون: «النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُـدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَـةُ أَدْخِلُوا ءَالَفِرْعَوْنَ أَشَـدَّ العَذابِ»[۵۷۱] كما يستفاد من العبـارة شـدة عـذاب البرزخ ورهبته. فنـاره تضـج، والسـنتها تتصاعـد، وماؤهـا يشوى البطون حقاً أنّ آلام الإنسان ومعاناته ومصائبه لتزول بالمرء حين يفارق هذه الدنيا ويودع روضة من رياض الجنّة، غير أنّ البلاء يشتـد إذا أودع بعد كل هذا البؤس والشقاء حفرة من حفر النـار إثر سوء أعماله. طبعاً كلام الإمام عليه السـلام مطلق، ولكن من الواضـح أنّ المراد به عبّاد الـدنيا والظلمـة والطواغيت وعامة أهل الذنوب والمعاصى؛ وهو الأمر الذى أشير إليه بصراحة فى العبارات السابقة، كالعبارة:

«نفر مستكبراً، وخبط سادراً، ما تحاً فى غرب هواه، كادحاً سعياً لدنياه».

ثم قال عليه السلام

«لا فترةٌ مريحـةٌ، ولا دعةٌ[۵۷۲] مزيحةٌ،[۵۷۳] ولا ـ قوّةٌ حاجزةٌ، ولا موتـةٌ ناجزةٌ،[۵۷۴] ولا سنةٌ[۵۷۵] مسلّيةٌ،[۵۷۶] بين أطوار الموتات، وعذاب السّاعات! إنّا باللّه عائذون»

. تبين هـذه العبارات القصـيرة العظيمـة المنال المقتبسـة من آيات القرآن الكريم أنّ العـذاب الإلهى شديد الالم على هؤلاء الأفراد من

جهـة، ومن جهة أخرى ليس هنالک من سبيل قط للفرار منه، وذلک لأنّ صـحيفة الأعمال تغلق بموته ولاتشـهد أى تغيير تبديل، اللّهم إلّا أنّ يتطلف اللّه عليهم برحمته وفضـله، مع ذلک فـذلک اللطف يسـتند إلى حکمته سـبحانه. فما ورد فى هـذه الخطبة يتناغم وآيات القرآن الكريم التى تحدثت عن عقاب البرزخ. فقد

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۶۷

صرحت الآيـة السـادسه والسابعـة من سورة الملک بشأن نار البرزخ: «وَلِلَّذِينَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَـذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِـيرُ* إذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِیَ تَفُورُ» كما ورد فى الآية السادسة عشرة من سورة الفرقان: «إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَکانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً». أما حـال أهل البرزخ فقـد صورته الآيـة ۷۵ من سـورة الزخرف: «لا یُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»، بينمـا تحـدثت الآيـة العاشـرة من سورة الطـارق عن عـدم وجود من يعينهم ويخفف عنهم: «فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِـرٍ»، وأخيراً تطرقت الآيـة ۷۷ من سـورة الزخرف عن تمنيهم الموت الـذى يريحهم مما هم فيه من العذاب: «وَنادَوْا يا مالِکُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّکَ قالَ إِنَّکُمْ ماکِثُونَ». وهکذا سائر الآيات القرآنية التى تكشف عن حركة الإمام عليه السلام فى حديثه وفعله من خلال الوحى السماوى والجو القرآنى.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۶۹

القسم السادس عشر: مصير الجاحدين من أصحاب السطوة

«عِبادَ اللَّهِ، أَيْنَ الَّذِينَ عُمِّرُوا فَنَعِمُوا، وعُلِّمُوا فَفَهِمُوا، وأُنْظِرُوا فَلَهَوْا، وَسُـلِّمُوا فَنَسُوا! أُمْهِلُوا طَوِيلًا، ومُنِحُوا جَمِيلًا، وحُـذِّرُوا أَلِيماً، ووُعِدُوا جَسِيماً، جميلا! احْذَرُوا الذُّنُوبَ الْمُوَرِّطَةَ، والْعُيُوبَ الْمُسْخِطَةَ».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السـلام- فى هـذا المقطع من الخطبـة والذى يقترب من نهايتها- كافة العباد داعيهم إلى تأمل حياة الامم السالفة وما حل بها وقد غيّر مجرى كلامه، فقال عليه السلام:

«عباد اللّه، أين الّذين عمّروا فنعموا، وعلّموا ففهموا، وأنظروا فلهوا، وسلّموا فنسوا».

لو تصـفحنا التأريخ، أو فكرنا فى حياتنا الماضية فى ظل هذا العمر القصير وتأملنا الأفراد من ذوى القدرة والسطوة الذين حفوا بمختلف النعم، إلّاأنّهم لم يسـتثمروا هـذه النعم الإلهية ولم يسـتندوا إلى علم أو معرفة كما لم يفكروا أيّام سـلامتهم وصـحتهم بالمرض، ولافى إقتـدارهم بالضـعف والعجز، حتى غادروا هـذه الدنيا صـفر اليدين اتجهوا صوب مصـيرهم الاسود. حقاً لو فكرنا فى هذه الامور لعشـنا حالة اليقظة ولرأينا مسـتقبلنا من خلال الاعتبار بحياة هؤلاء. ثم تطرق الإمام عليه السـلام إلى طول المهلة التى منحها هؤلاء والنعم التى حفوا بها وحذروا من عاقبة المعية ووعدوا بشدة العذاب

«أمهلوا طويلًا، ومنحوا جميلًا، وحذّروا أليماً، ووعدوا جسيماً».

نعم لم يسـتفيدوا من تلـك المهلـة الطويلـة، كمـا لم توقظ تلك النعم المختلفـة ضـمائرهم الميتـة فتشـعرها بشـكر المنعم، وبالتالى لم يردعهم الوعـد بالعذاب الإلهى عن مقارفة الذنوب والمعاصـى، ولم يثيرهم الوعد بالثواب الاخروى للحركة من أجل الطاعة. ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۷۰

«احذروا الذّنوب المورّطة، والعيوب المسخطة»

. القرآن من جانبه صـرح بهذا الشأن قائلًا: «کَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِکُمْ کانُوا أَشَدَّ مِنْکُمْ قُوَّةً وَأَکْثَرَ أَمْوالًا وَأَوْلاداً فَاسْـتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْـتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِکُمْ کَمـا اسْـتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِکُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْـتُمْ کَالَّذِی خـاضُوا أُولئِـکَ حَبِطَتْ أَعْمـالُهُمْ فِی الـدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَأُولئِکَ هُمُ الخاسِرُونَ»[۵۷۷].

فقد دأب أئمة الدين وعلماء الأخلاق على لفت إنتباه العتاة إلى التفكر فى سيرة من سبقهم من الأقوام ويتأملوا المصير الذى طال الملوك السلاطين والطواغيت والجبابرة والظلمة، وكيف كانت عاقبتهم، وماذا حملوا معهم من هذه الدنيا، وما بقى منهم. فهل هناك سوى القبور الموحشة والعظام النخرة والقصور المعطلة والأموال والثروات التى آلت لغيرهم، ثم اعتراهم النسيان وكأنّهم لم يكونوا من أبناء هذه الدنيا.

ناداهم صارخ من بعد ما قبرواأين الاسرة والتيجان والحلل

أين الوجوه التى كانت منعمةمن دونها تضرب الأستار والكلل

أضحت منازلهم قفراً معطلةوساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۷۱

القسم السابع عشر: الحذر الحذر

«أُولِى الْأَبْصارِ والْأَسْماعِ، والْعافِيَةِ والْمَتاعِ، هَلْ مِنْ مَناصٍ أَوْ خَلاصٍ. أَوْ مَعاذٍ أَوْ مَلاذٍ، أَوْ فِرارٍ أَوْ مَحارٍ! أَمْ لا؟ «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ! أَمْ بِمَاذَا تَغْتَرُّونَ! وإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، ذات الطُّوْلِ الْعَرْضِ، قِيدُ قَدِّهِ، مُتَعَفِّراً عَلَى خَدِّهِ!».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام الناس مرة اخرى بطريقة تختلف عن سابقتها قائلًا:

«أولى الْأبصار والْأسماع، والعافية والمتاع، هل من مناصٍ ۵۷۸] أو خلاصٍ. أو معاذٍ أو ملاذٍ،[۵۷۹] أو فرارٍ أو محارٍ![۵۸۰] أم لا؟»

فالمخاطب هنا من كان له عين باصرة وآذان سامعة يعيش نعم الدنيا بعافية وسلامة. فقد بين الإمام عليه السلام أن ليس هنالك من عاقبة سوى الموت ووداع هذه الدنيا الفانية، فلا- من سبيل للفرار ولا-من طريق لخلاص، لامن ملجأ فيلاذ به، ولا من قلعة تنجى من الموت، وآخيراً ليس هنالك من سبيل للرجعة إلى هذه الدنيا، فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد بين ستة طرق للفرار من مخالب الموت، مؤكداً على أنّها جميعا مؤصدة مغلقة. فهناك مسيرة ينبغى أن يسلكها الجميع، ومصير لايستثنى منه أحد. أما كون المخاطب من أولئك الذين يتمتعون بالسمع والبصر، فذلك لأنّ من سلبهما لايستوعب مثل هذه الامور. والحق أنّ أدنى تأمل

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۷۲

للموت الذى يعم الجميع لكاف فى إيقاظنا من سباتنا وهدايتنا للصراط المستقيم، ومن هنا قال الإمام عليه السلام:

«فأنّى تؤفكون![۵۸۱] أم أين تصرفون! أم بما ذا تغترّون! وإنّما حظّ أحدكم منالْأرض، ذات الطّول والعرض، قيد قدّه،[۵۸۲] متعفّراً على خدّه»

. قد يكون هناك بعض الأفراد الذين يملكون مئات البساتين والمزارع والأراضى الزراعية وعشرات القصور، إلّاأنّه لايأخذ منها حين يفارق الدنيا سوى ما يأخذه ذلك المسكين الذى قضى عمره فى الأكواخ؛ أى بقعة من الأرض بقدر قامته، مع كفن يعدّ الحد الادنى ممّا يستر بدنه العارى. أمّا العبارة:

«متعفّراً على خدّه»

يمكن أن يراد بها أنّ ألطف أجزاء البدن توارى هناك التراب، أو ليس للإنسان نصيب من هذا التراب حتى بمقدار بدنه؛ لأنّه يطرح على جانبه الأيمن فى القبر، وعادة ما لايسعه اللحد لأن يضطجع على قفاه.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۷۳

القسم الثامن عشر: حسن الختام

«الْآنَ عِبادَ اللّهِ والْخِناقُ مُهْمَلٌ، والرُّوحُ مُرْسَلٌ، فِى فَيْنَةِ الْإِرْشادِ، راحَةِ الْأَجْسادِ، وباحَةِ الِاحْتِشادِ، ومَهَلِ الْبَقِيَّةِ، وأُنُفِ الْمَشِيَّةِ، إِنْظارِ التَّوْبَةِ، وانْفِساحِ الْحَوْبَةِ، قَبْلَ الضَّنْكِ والْمَضِيقِ، والرَّوْعِ وَالزُّهُوقِ، وقَبْلَ قُدُومِ الْغائِبِ الْمُنْتَظَرِ، وإِخْذَةِ الْعَزِيزِ الْمُقْتَدِرِ».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام ثانية كافة عباداللّه، محذرا إياهم من عدم فقدان الفرص قبل حلول الأجل وانتهاء العمر، فقال:

«الْآن عباد اللّه والخناق ۵۸۳] مهملٌ، والرّوح مرسلٌ، فى فينة[۵۸۴] الإرشاد، وراحة الأجساد، وباحة[۵۸۵] الاحتشاد،[۵۸۶] ومهل البقيّة، وأنف المشيّة، وإن ظارالتّوبة، وانفساح الحوبة،[۵۸۷] قبل الضّنك ۵۸۸] والمضيق، والرّوع الزّهوق،[۵۸۹] وقبل قدومالغائب المنتظر، وإخذة العزيز المقتدر»

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى مختلف جوانب

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۷۴

الفرص السانحة للإنسان من قبيل: باقى العمر وسكينة الروح وراحة الجسم وإمكانية نيل الكمال وسهولة الاستشارة وبقاء الفرصة اللازمة للعزم والإرادة والقدرة على التوبة والاقلاع عن الذنب. فكل أمر من هذه الامور يشكل جزءا من الفرص العظيمة الثمينة التى منحها الإنسان والتى يمكن من خلالها فعل كل شئ ونيل الخير والسعادة؛ والحال يمكن أن يفقد الإنسان جميع هذه الفرص فيقضى على سعادته بنفسه، ويالهم من بؤساء اولئك الذين لم يلتفقوا إلى هذه الحقيقة، فيمارسون حياتهم كقطيع الغنم الذى ينهمك بأكله وشربه فى مرعاه دون أن تلتفت إلى الذنب الذى ينهشها الواحد تلو الآخرة.

قال المرحوم السيد الرضى (ره) فى آخر هذه الخطبة:

«وفى الخبر: أنّه لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت لها الجلود، وبكت العيون، ورجفت القلوب. ومن الناس من يسمى هذه الخطبة الغراء»

وقد قال ابن أبى الحديد: واعلم أننا لايخالجنا الشكّ فى أنّه عليه‌السلام أفصحُ من كلّ ناطق بلغة العرب من الأولين والآخرين، إلّا من كلام اللّه سبحانه، وكلام رسول‌اللّه صلى اللّه عليه وآله؛ وذلك لأنّ فضيلَة الخطيب والكاتب فى خطابته وتكاتبه تعتمد على أمرين؛ هما:

مفردات الألفاظ ومركّباتها.

أمّا المفردات فأنْ تكون سهلةً سِلسة غيرَ وحشيّة ولا معقّدة، وألفاظه عليه‌السلام كلها كذلك؛ فأمّا المركّبات فَحُسْنُ المعنى وسرعة وصوله إلى الأفهام، واشتماله على الصفات التى باعتبارها فُضِّل بعضُ الكلام على بعض، وتلك الصفات هى الصناعة التى سَمّاها المتأخرون البديع، من المقابلة، والمطابقة، وحسن التقسيم، وردّ آخر الكلام على صَدْره، والتّرصيع، والتسهيم، والتوشيح، والمماثلة، والاستعارة، ولطافة استعمال المجاز، والموازنة، والتكافؤ، والتّسميط والمشاكلة.

ولا شبهةَ أنّ هذه الصفات كلّها موجودة فى خُطَبِه وكتبه، مبثوثة متفرقة فى فُرش كلامه عليه‌السلام، وليس يوجد هذان الأمران فى كلامِ أحد غيرِه فإن كان قد تعمَّلها وأفْكَر فيها، وأعمَل رويتَه فى رَصْفِها ونثرها، فلقد أتى بالعجب العُجاب، ووجبَ أن يكون إمام الناسِ كلِّهم فى ذلك؛ لأنّه ابتكره ولم يعرف من قبله وإن كان اقتضبها ابتداء، وفاضت على لسانه

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۷۵

مرتجلة، وجاش بها طبْعه بديهةً، ومن غير رويَّةٍ ولا اعتمال، فأعجب وأعجب!

وعلى كلا الأمرين فلقد جاء مجلّياً والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره. وبحقّ ماقال معاوية لمحقن الضّبّى، لمّا قال له: جئتك من عند أعيا الناس: يابن اللخناء، ألعليّ تقول هذا؟

وهل سنَّ الفصاحة لقريش غيره!

واعلم أن تكلّف الاستدلال على أنّ الشمس مضيئة يتعب، وصاحبه منسوب إلى السَّفه، وليس جاحد الأمور المعلومة علماً ضروريّا

بأشدّ سفهاً ممّن رام الاستدلال بالأدلة النظرية عليها.[۵۹۰]

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۷۷

الخطبة[۵۹۱]: الرابعة و الثمانون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فى ذكر عمرو بن العاص

نظرة إلى الخطبة

كما يفهم من عنوان الخطبة أنّها وردت بشأن عمرو بن العاص الذى كان من مقربى معاوية، بل يمكن القول أنّ استمرار خلافة معاوية وتحقيقه لبضع الانتصارات الظاهرية إنّما تمّ فى ظل مكائد بن العاص ومكره، فالشخص الثانى بل الأول فى تلك الخلافة المنحرفة كان عمرو بن العاص ورغم قصر عبارات الإمام عليه السلام إلّاأنّها رسمت صورة واضحة عن مدى ضلال هذا الفرد المنحرف وإضلاله للأمّة، بحيث يمكن الوقوف على تمام تفاصيل سيرته من خلال هذه الكلمات، إلى جانب ذلك فهى توضيح سر العلاقة بينه وبين معاوية. والجدير بالذكر هو أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين وصفه عمرو بن العاص بأنّه ذو دعابة.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۷۹

«عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّام أَنَّ فِيَّ دُعابَةً، وأَنِّى امْرُؤٌ تِلْعابَةٌ:

أُعافِسُ وأُمارِسُ! لَقَدْ قالَ باطِلًا، ونَطَقَ آثِماً. أَما- وشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ- إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، ويَعِدُ فَيُخْلِفُ، ويُسْأَلُ فَيَبْخَلُ، ويَسْأَلُ فَيُلْحِفُ، وَيَخُونُ الْعَهْدَ، ويَقْطَعُ الْإِلَّ؛ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَىُّ زَاجِرٍ وآمِرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَها، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَرْمَ القوم سَبَّتَهُ. أَما واللَّهِ إِنِّى لَيَمْنَعُنِى مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيانُ الْآخِرَةِ، إِنَّهُ لَمْ يُبايِعْ مُعاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً، ويَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً».

الشرح والتفسير

ابن النابغة الكاذب

اشارة

استهل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن كذب عمرو بن العاص وتهمته التى وجهها إليه إلى جانب تعريفه بهذا الفرد المنحرف. أمّا الفرية التى نسبها إلى الإمام عليه السلام فتكمن باتهامه إيّاه بأنّ فيه دعابة وإنّه من أهل المزاح والفكاهة- والعياذ باللَّه- ليذرع بها من أجل إثبات عدم صلاحية الإمام عليه السلام لأمر الخلافة. فقد قال عليه السلام:

«عجباً لابن النّابغة![۵۹۲] يزعم لأهل الشّام أنّ فىّ دعابةً،[۵۹۳] وأنّى امرؤٌ تلعابةٌ:[۵۹۴] أعافس ۵۹۵] وأمارس![۵۹۶]»

التعبير عن عمرو بن بالعاص بابن النابغة

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۸۰

إشارة إلى فساد أسرته، لأنّ العرب كانت تنسب الولد لأُمّه إن كانت مشهورة بالشرف والمجد أو بالوضاعة والفساد، كما تعنى مفردة النابغة الظهور والبروز، إلّاأنّها تشير إلى الاشتهار بالفساد إذا أطلقت على المرأة، فقد كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمّة لرجل من

عترة اسمها الأصلی سلمی أو لیلی، وقد واقعها أبوسفیان فولدت عمرو، فاختلف فیه حیث واقعها أمیة بن خلف وهشام بن المغیرة والعاص بن وائل السهمی، حیث ادعاه کلهم، فحکمت امّه فیه فقالت: هو من العاص بن وائل، وذلک لأنّ العاص بن ائل کان ینفق علیها کثیراً. وکان أشبه بأبی‌سفیان الذی قال عنه: أما إنی لا أشک أنّی وضعته فی رحم امّه، فأبت إلّاالعاص.[۵۹۷]

الواقع أنّ الإمام علیه السلام قدم بهذه العبارة لما بعدها، بمعنی لاینبغی التعجب من مثل هذا الإنسان الذی یکیل التهم للصالحین ویفتری علیهم الکذب. والمفردة دعابة تفید کثرة المزاح، وتلعابة من یمازح الناس ویهزل معهم، وأعافس وأمارس بمعنی واحد تقریباً وهو معالجة النساء بالمغازلة، ثم اتخذت معنی أوسع لتطلق علی کل هزل ومزاح. فالواقع هو أنّ الإمام علیه السلام قد اختصر بهذه العبارات کافة التهم التی نسبها عمرو بن العاص للإمام علیه السلام زوراً وبهتاناً، لتکون مقدمة للرد علیه. والجدیر بالذکر أنّ أعداء الإمام علیه السلام لم یتورعوا عن التشبث بمثل ما ورد فی الکلام المذکور لما عجزوا عن الطعن فی شخصیة الإمام علیه السلام ولم یروا فیه أدنی ضعف، فهو المعروف بعلمه وتقواه وزهده وورعه وشجاعته وصبره وحلمه، فرموه بتهمة المزاح بهدف إثبات عدم جدارته بالخلافة؛ الأمر الذی یثبت صلاحیته وجدارته بها، فهم فی ذلک کالمثل المعروف:

«الغریق یتشبث بکل حشیش»،

فعمدوا إلی هذه الذریعة الجوفاء. وبالطبع فاننا سنتحدث فی البحث القادم إن شاءاللّه عن المزاح متی یکون مباحاً أو مذموماً. ثم ردّ الإمام علیه السلام علی کذب بن العاص فی ذلک الاتهام قائلًا:

«لقد قال باطلًا، ونطق آثماً. أما- وشرّ القول الکذب»

، من یسعه التفکر إلی المزاح اللطیف الذی لایشوبه الباطل والبعید عن کل إفراط وتفریط؟ ومن یستطیع تجاهل جدیة الإمام علیه السلام فی خطبه ورسائله وقصار کلماته؟! فقد کان أعظم جدیة ممن سواه، کما کان ذا إرادة جبارة فی زعامته، وان کان یعمد إلی المزاح مع

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۲۸۱

بعض أصحابه بغیة مواساتهم وتخفیف الهم والغم عن قلوبهم؛ الأمر الذی یشاهد بوضوح فی حیاة إمامه الرسول الاکرم صلی الله علیه و آله. أما العدو فهذا دیدنه، فهو لایکف عن الکذب والدجل والتشبث بأتفه الذرائع من أجل النیل من الطرف المقابل. ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه لیذکر ست صفات رذیلة إتصفت بها سیرة عمرو بن العاص:

«إنّه لیقول فیکذب، ویعد فیخلف، ویسأل فیبخل، ویسأل فیلحف،[۵۹۸] ویخون العهد، ویقطع الإلّ ۵۹۹]»

لاشک أنّ کل من یطالع سیرة عمرو بن العاص وسجله الأسود یقف بوضوح علی هذه الرذائل فی شخصیته.

والخلاصة فقد کان وضیعاً، لایتورع عن إرتکاب أفظع الرذائل من أجل الدنیا والظفر بحطامها، فهو یعد إذا کانت الامور لصالحه، بینما یخلف إذا کانت بضرره. فقد کان یضحی بالغالی والنفیس من أجل الحصول علی الدنیا، ولاسیما أمام معاویة الذی کان شدید الحاجة إلیه، وهذا ما کان یدفعه إلی إعطائه ما یصبو إلیه. أمّا نقضه للعهود والمواثیق فحدث ولا حرج، بل کان لایرحم حتی قرابته ومن له صلته به. وأخیراً دوره فی التحکیم لیس بخاف علی أحد. قال بعض المؤرخین أنّه عاش تسعین سنة، وذکر الیعقوبی ۶۰۰] أنّه عاش تسعین سنة ولما حضرته الوفاة قال لابنه: لود أبوک أنّه مات فی غزات ذات السلاسل، إنی قد دخلت فی امور لاأدری ما حجّتی عنداللّه فیها. ثم نظر إلی ماله فرأی کثرته فقال: یالیته کان بعراً، یالیتنی مت قبل هذا الیوم بثلاثین سنة، أصلحت لمعاویة دنیاه وأفسدت دینی، آثرت دنیای وترکت آخرتی، عمی علیّ رشدی حتی حضرنی أجلی، کأنی بمعاویة قد حوی مالی وأساء فیکم خلافتی.

علی کل حال لیس هنالک من لایعلم بهذه الرذائل التی إنطوت علیها شخصیة عمرو بن العاص. ثم أشار الإمام علیه السلام إلی أرذل الأعمال التی ارتکبها عمرو بن العاص فی حیاته، العمل الذی إنعدم مثله فی التأریخ، وذلک یوم صفین حین رأی نفسه مقتولا بید علی علیه السلام فعمد إلی کشف عورته، لأنه کان یعلم بأنّ حیاء الإمام علیه السلام لایدعه ینظر إلیه فی تلک الحالة، فاغتنم تلک

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۸۲

الفرصـة ليهرب من بين يـديه. فشـاع هـذا الأمر بين العرب آنـذاك حتى أخـذت الناس تضـرب به المثل فى أن عورة عمرو أنجته من الموت. فقد قال الإمام عليه السلام:

«فإذا كان عنـد الحرب فأىّ زاجرٍ وآمرٍ هو! ما لم تأخـذ السّيوف مآخذها، فإذا كان ذلک كان أكبر مكيدته أن يمنح القرم ۶۰۱] سبّته ۶۰۲]»

فقـد قال ابن أبى‌الحديـد: وأما خبر عمرو فى صـفين واتقائه حملـة على عليه‌السـلام، بطرح نفسه على الأرض وإبداء سوأته،[۶۰۳] فقد ذكره كل من صنف فى السير كتاباً، وخصوصاً الكتب الموضوعة لصفين والقصة كالاتى: قال نصر بن مزاحم فى كتاب صفين قال: حـدثنا محمـد بن إسـحاق، عن عبد الله بن أبى عمرو، وعن عبد الرحمن بن حاطب، قال كان عمرو بن العاص عدواً للحارث بن نضـر الخثعمى، وكان من أصـحاب علىّ عليه‌السـلام، وكان علىّ عليه السـلام قد تهيبته فرسان الشام، وملأ قلوبهم بشجاعته، وامتنع كل منهم من الإقدام عليه. وكان عمرو قلّما جلس مجلساً إلّاذكر فيه الحارث بن نضر الخثعمى وعابه.

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمراً، فأقسم بالله ليلقين عليّاً ولو مات ألف موتة. فلما اختلطت الصفوف لقيَه فحمل عليه برمحه، فتقدم علىٌّ عليه السـلام وهـو مختـرط سـيفاً معتقـلٌ رمحـاً، فلمـا رهقه همز فرسَه ليعلُوَ عليه، فـألقى عمرو نفسه عن فرسه إلى الأرض شـاغراً برجليه؛ كاشفاً عورته، فانصرف عنه لافتا وجهه مستدبِراً له، فعدَّ الناس ذلک من مكارمه وسؤدُده وضرب بها المثل.[۶۰۴]

واوردت التواريخ قال معاوية يوماً بعد اسـتقرار الخلافة له لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، لا أراک إلّا ويغلِبنُى الضـحک؛ قال: بما ذا؟ قال: أذكر يوم حَمل عليک أبو تراب فى صِـفّين، فأزريت نفسک فَرَقاً من شَـبَاً سـنانه، وكشفت سوأتک له؛ فقال عمرو: أنا منک أشدّ ضحكاً؛ إنّى لأذكرُ يومَ دعاک إلى البِراز فانتفخ سَـحْرُک، وربا لسانُک فى فمک وغَصِصْتَ بريقک، وارتعَدَتْ فرائصُک، وبدا منک ما أكره ذِكْرَه لک؛ فقال معاوية: لم يكن هذا كلّه وكيف يكون ودونى عَکّ

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۸۳

الأشـعرِيون! قال: إنک لتعلم أن الذى وصـفتُ دون ما أصابک، وقد نزل ذلک بک ودونک عکّ‌الأشعريون، فكيف كانت حالک لو جمعكما مأقِطُ الحرب! فقال: يا أبا عبد الله، خُضْ بنا الهزل إلى الجِدّ، إن الجُبن والفرار من علىّ لا عَار على أحدٍ فيهما.[۶۰۵]

ثم قال عليه السلام ردا على إفتراء عمروبن العاص:

«أما واللّه إنّى ليم نعنى من اللّعب ذكر الموت»

فالإمام عليه السـلام لايغفل عن الموت طرفة عين، وذلک لأنّ الموت قانون يشـمل جميع الخلائق لايعرف الاستثناء ولم يعنى له وقت، ويعلم الإمـام عليه السـلام على وجه اليقين أن الموت هـادم اللـذات وأنّ الإنسـان يتحول إلى وحش ضارى إذا نسـى الموت ومحكمة العـدل الإلهى. فهل للإمام عليه السـلام من فرصـة للمزاح واطلاق العنان للهوى وهو ما عليه من الـذكر؟ قطعا لايجوز ذلک على الإمام عليه السلام، بينما لم يدفع ابن البانغة للتفوه بذلک الكلام سوى نسيان الآخرة والغفلة عن الموت:

«و إنّه ليمنعه من قول الحقّ نسيان الْآخرة»

نعم إذا كـذب أو إفترى ولم يتورع عن القيـام بـأى عمـل من أجل تحقيق مطامعه الدنيويـة فـذلک معلول لنسـيانه الموت والآخرة. وما أسـلفنا فـان من نسـى الآـخرة وتجاهـل العـدل الإلهى أصبح كائنا خطيراً يخشـى منه، لأنّه لايتوانى عن ارتكاب أبشع الأعمال دون أن يكترث حتى لشرفه وحيثيته. ثم يستدل عليه السلام على ذلک بقوله:

«إنّه لم يبايع معاوية حتّى شرط أن يؤتيه أتيّةً،[۶۰۶] ويرضخ له على ترک الدّين رضيخةً[۶۰۷]»

. فقـد أشـار الإمام عليه السـلام بهـذه العبارة إلى تلک الواقعـة المعروفـة بين الناس والتى أشـرنا إليها فى الخطبـة السادسـة والعشـرين، والقصـة هى: لما نزل على عليه السـلام الكوفـة بعـد فراغه من أمر البصـرة، كتب إلى معاوية كتاباً يدعوه إلى البيعة أرسل فيه جرير بن

عبداللّه البجلی، فقرأه واغتم بما فیه، وذهبت به أفكاره كل مذهب، وأحب الزیادة فی الاستظهار، فاستشار عمرو بن العاص، فكتب له معاویة كتاباً، فسار حتی قدم علی معاویة. فقال له معاویة: إنّی أدعوك إلی جهاد علی بن أبی‌طالب. قال عمرو: واللّه یا معاویة ما أنت وعلی حملی بعیر، لیس له هجرته

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۲۸۴

ولا سابقته ولاصحبته ولاجهاده ولافقهه ولاعلمه. ثم قال فما تجعل لی إن شایعتك علی حربه وأنت تعلم ما فیه من الغرر والخطر؟ قال: حكمك، فقال: مصر طعمة. فتلكا علیه معاویة، وقال: إنی أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنّك إنما دخلت فی هذا الأمر لغرض الدنیا، فقال عمرو: دعنی عنك. حتی استجاب له معاویة آخر الأمر.[۶۰۸] والعجیب أنّ الدنیا لم تف له حیث لم یحكم مصر سوی بضع سنوات ثم ندم ندماً شدیداً أواخر عمره من فعاله، فكان یلعن نفسه، ولم یكن أمامه من مخرج.[۶۰۹]

تأمّلان

۱- نسب عمرو بن العاص وطرف من أخباره

كلنا نعرف هذا الشخص وقد سمعنا عن مكره ودوره الهدّام فی التأریخ الاسلامی، ولعل الجمیع یعلم بخدعته فی رفع المصاحف علی أسنة الرماح فی معركة صفین حین أو شك جیش الشام علی الهزیمة؛ الامر الذی أثر بشدة علی بعض السذج من جیش علی علیه السلام فاجیروا الإمام علیه السلام علی الكف عن القتال والرضوخ للتحكیم. ولد لاربع وثلاثین سنة قبل البعثة. أبوه العاص بن وائل المعروف بعدائه للاسلام والذی لقبه القرآن الكریم بالابتر «إن شانئك هو الابتر»[۶۱۰] لأنه قال لقریش: سیموت هذا الابتر- رسول الله صلی الله علیه و آله- غدا فینقطع ذكره. وأما أمه فقد ذكر المؤرخون فقد وقع علیها خمس فولدت عمروا فادعاه كلهم، فحكمت أمه فیه فقالت:

هو من العاص بن وائل لأنه كان ینفق علیها كثیرا، ولحسان بن ثابت أشعار فیه.

وقد توجه إلی الحبشة حین هاجر الیها المسلمون لیكید جعفر أو یقتله، وقد اعلن اسلامه هناك لیسدد ضربته للاسلام والمسلمین. ویری البعض أنه قصد الحبشة یوم الخندق وقال لصحبه: اری أن نذهب إلی الحبشة فان ظهر قومنا عدنا الیهم وان ظهر محمد بقینا فی الحبشة.

فدخل الحبشة قبل جعفر وقد حمل الهدایا إلی النجاشی وطلبوا منه أن یأذن لهم بقتل جعفر.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۲۸۵

فلم یجبهم النجاشی الذی أسلم باطنا. فقال عمرو: لم أكن أعلم بمنزلة محمد وأنا علی دینه الان. فلما عاد إلی المدینة استقبله النبی صلی الله علیه و آله وأمره وبعثه إلی ذات السلاسل. ثم ولاه البنی عمان (فی الشام) فبقی هناك حتی وفاة النبی صلی الله علیه و آله، ثم ولاه عمرو فلسطین والاردن، وحین ولی عمر معاویة علی الشام وجه عمرو بن العاص لمصر ففتحها، فولاها اربع سنوات علی عهد عثمان ثم عزله، فنقم علیه وهاجر إلی فلسطین. ولما نهض معاویة فی الشام استنجد بعمرو فاشترط علیه ولایة مصر فأجابه. فبقی فیها حتی توفی عام ۴۳ وله تسعون سنة.

قیل عرف بالشجاعة فی الجاهلیة وان لم ینقذه من القتل فی صفین الاعورته لأنه یعلم بأن علیا علیه السلام لا یقتله.[۶۱۱]

یری العلامة الامینی أنه لم یسلم وقد تظاهر بالاسلام وهو مصداق لمن قال فیهم الإمام علی علیه السلام: «والذی فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أسلموا ولكن استسلموا واسروا الكفر، فلما وجدوا أعوانا، رجعوا إلی عداوتهم منا»[۶۱۲].

لم يكن يتورع عن معاداة على عليه السلام حتى قال لعائشة: ليتك قتلت يوم الجمل. فقالت: ولم لا أبا لك؟ قال: لدخلت الجنة وشنعنا بك على على بن أبى طالب.[۶۱۳]

واخيرا قال ابن ابى الحديد: وكان عمرو أحد من يؤذى رسول الله صلى الله عليه و آله بمكة ويشتمه ويضع فى طريقه الحجارة؛ لأنه كان صلى الله عليه و آله يخرج من منزله ليلا ـ فيطوف بالشعبة، وكان عمرو يجعل له الحجارة فى مسلكه ليعثر بها. وهو أحد القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه و آله لما خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة، فروعها حتى أجهضت جنينا ميتا فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله نال منه وشق عليه مشقة شديدة ولعنه.[۶۱۴]

۲- المزاح فى الإسلام

ممّا لاشك فيه أن روح الإنسان ترهق من جراء المشاكل؛ فلابدّ من ترويحها بالاستجمام

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۸۶

وطرائف الحكم، وإلّا كسلت وشلت عن النشاط، ومن هنا فان العقل والمنطق والفطرة تقتضى أن يلجأ هذا الإنسان إلى المزاح بغية التخفيف من حدة المعاناة والتعب والارهاق، فان تم هذا الأمر فى ظل الموازنة والاعتدال فهو ليس مذموما فحسب، بل من الامور المطلوبة، وأبعد من ذلك تكتسب درجة الضرروة والوجوب، لتعد جزءا من مكارم الأخلاق والبشاشة وطلاقة الوجه. والذى تفيده سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأئمة الدين عليهم السلام وأولياء اللَّه- بل وكافة العقلاء- أنّهم كانوا يلجأون إلى المزاح فى أعمالهم طيلة مدّة حياتهم. إلّاأنّ ما يجدر ذكره هو أنّ هذا المزاح إنّما يتحول إلى سخرية واستهزاء لو خرج من حد الاعتدال أو شابه الاثم والغيبة والنميمية، كما يكون وسيلة للثأر وإراقة ماء وجه الآخرين، حيث يتعذر على الإنسان أحياناً إظهار مكنون قلبه من الحقد والضغينة فيلجأ إلى هذا الاسلوب، وهنا يتحول المزاح إلى رذيلة بشعة من الرذائل الكاشفة عن سوء الخلق. وهذان هما المعنيان الذان كشفت عنهما بعض الروايات الإسلامية التى مدحت المزاح من جانب وعدته فضيلة، وتلك التى ذمته وعدته رذيلة. ولابأس هنا بذكر بعض الروايات الإسلامية الواردة بهذا الشأن:

۱- ورد فى الحديث أنّ أحد أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام سأله عن المزاح فقال عليه السلام:

«لا بأس ما لم يكن»

(أى مالم يخالطه الاثم) ثم قال:

«إن رسولاللّه كان يأتيه الاعرابى، فيهدى له الهدية ثم يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا! فيضحك رسولاللّه؛ وكان إذا اغتم، يقول: ما فعل الاعرابى؟ ليته أتانا».[۶۱۵]

۲- وورد عن الإمام الكاظم عليه السلام

«المؤمن دعب لعب، والمنافق قطب غضب».[۶۱۶]

۳- عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ما من مؤمن إلّاوفيه دعابة؛ قلت: وما الدعابة؟ قال:

المزاح».[۶۱۷]

۴- بل ورد فى الروايات أنّ رسولاللَّه صلى الله عليه و آله كان يمزح، حيث جاء فى الخبر أنّ رسولاللَّه صلى الله عليه و آله قال لأمرأة من الأنصار:

«الحقى زوجك فإن فى عينه بياضاً»

فسعت نحوه مرعوبة، فقال لها:

ما دهاك؟ فأخبرته، فقال: نعم إن فى عينى بياضاً لاسوء، فخفضى عليك. فهذا من مزاح رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله. وأتت عجوز من الأنصار إليه صلى الله عليه و آله، فسألته أن يدعوا اللَّه تعالى لها بالجنّة، فقال:

«إن الجنّة لاتدخلها العجز»[۶۱۸]

فصاحت، فتبسم صلى الله عليه و آله وقال: «إِنّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً* فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً»[۶۱۹] وهكذا سائر الروايات ...

وفى نفس الوقت وردت الروايات التى ذمت المزاح، ومن ذلك ما روى عن على عليه السلام أنّه قال:

«المزاح يورث الضغائن»[۶۲۰]

وقال:

«لكل شئ بذر وبذر العداوة المزاح»[۶۲۱]

وجاء فى الخبر أنّ المزاح يحد من العقل ويذهب بالهيبة وهو العدو الاصغر[۶۲۲]. وقال رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله:

«لايبلغ العبد صريح الإيمان حتى يدع المزاح والكذب»[۶۲۳]

. ومن الواضح أن ليس هنالك من تضاد بين هاتين الطائفتين من الروايات، لأنّ الطائفة الاولى تحدثت عن أصل المزاح، بينما تحدثت الطائفة الثانية عن الإفراط وتجاوز الحد فى المزاح. أو بعبارة اخرى: الطائفة الاولى ناظرة إلى المزاح الموزون الذى لايستند إلى أى غرض ومرض وحقد وضغينة، أمّا الطائفة الثانية فهى ناظرة إلى المزاح الباطل، والشاهد على ذلك ما جاء فى الخبر عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إنى أمزح ولا أقول إلا حقا»[۶۲۴]

. والشاهد الآخر أغلب الروايات التى صرحت بذم كثرة المزاح. فقد روى عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«كثرة المزاح تذهب البهاء وتوجب الشحناء»[۶۲۵]

. كما عبرت بعض الروايات عن ذلك بالإفراط فى المزاح. ويتضح مما أوردنا من الروايات- ولاسيما تلك التى وردت عن على عليه السلام- أنّ الإمام عليه السلام كان يمزح أحياناً بالحق؛ الأمر الذى يجعله فضيلة من فضائله وأنّه كان كريم الخلق بشر الوجه، إلّا أنّ العدو كان يندفع بكل همجية وضغينة ليشوه حتى هذه الصفات الحميدة فيه، بهدف

إقصائه من مكانته، ونموذج ذلك ما ورد فى هذه الخطبة. فقد نفى عليه السلام فى هذه الخطبة عن نفسه كثرة المزاح، المزاح الممدوح الذى يهدف إلى جلاء الروح ونشاطها وإدخال السرور على قلوب المؤمنين.

ونختتم الكلام بهذا الحديث:

فقد جاء فى الخبر أنّ يحيى عليه السلام لقى عيسى عليه السلام، وعيسى مبتسم، فقال يحيى عليه السلام: مالى أراك لاهيا كأنّك آمن! فقال عليه السلام: مالى أراك عابساً كأنك آيس؟

فقالا: لانبرح حتى ينزل علينا الوحى. فأوحى اللَّه إليهما: أحبّكما إلىّ الطلق البسام، أحسنكما ظنا بى.[۶۲۶]

الخطبة[۶۲۷]: الخامسة والثمانون

اشارة

ومن خطبة له علیه السلام

وفیها صفات ثمان من صفات الجلال

نظرة إلی الخطبة

أشار الإمام علیه السلام فی هذه الخطبة إلی ثلاثة امور مهمة: الأول ذکره لبعض صفات الجلال والکمال بعبارات قصیرة عظیمة المعانی. الثانی دعوة الناس للاعتبار بما تفرزه حوادث الحیاة ولاسیما الموت الذی یقف لهذه الحیاة بالمرصاد. الثالث التعرض لدرجات أولیاء اللَّه والنعم المطلقة الخالدة التی یتنعمون بها فی الجنّة. أمّا تعبیر السید الرضی (ره) فی بدایة الخطبة بالقول

«ومنها»

یفید أنه وکدیدنه قد إقتطف هذه العبارات من خطبة طویلة.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۲۹۱

القسم الأول: معرفة اللَّه

اشارة

«وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِیکَ لَهُ: الْأَوَّلُ لا شَیْءَ قَبْلَهُ، الْآخِرُ لا غایَةَ لَهُ، لا تَقَعُ الْأَوْهامُ لَهُ عَلَی صِفَةٍ، ولا تُعْقَدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَی کَیْفِیَّةٍ، وَلا تَنالُهُ التَّجْزِئَةُ والتَّبْعِیضُ، ولا تُحِیطُ بِهِ الْأَبْصارُ والْقُلُوبُ».

الشرح والتفسیر

یقسم علماء العقائد صفات اللَّه إلی قسمین: صفات الجمال وصفات الجلال. وتطلق صفات الجمال علی الصفات الثبوتیة من قبیل؛ العلم والقدرة. وتطلق صفات الجلال علی الصفات السلبیة من قبیل؛ عدم وجود الشریک والشبیه. ولما کانت الصفات الثمان الواردة فی القسم الأول من الخطبة ثبوتیه وسلبیة فانّ الذی ذکر عنوان لها لیس علی ضوء علماء العقائد، بل یراد بالجلال هناک المعنی اللغوی والاشارة إلی عظمة هذه الصفات. علی کل حال فانّ معرفة اللَّه والتعرف علی صفات جماله وجلاله، تعد معین کل خیر وحسن وأساس جمیع الفضائل الأخلاقیة والأعمال الصالحة، ومن هنا فقد إستهل الإمام علیه السلام أغلب خطبه بالإشارة إلی جانب من هذه الصفات، لیحمل القلوب نحو عظمته سبحانه وصفات جلاله وجماله. فقد قال علیه السلام: «و أشهد أن لا إله إلّااللّه وحده لا شریک له» فالأوصاف وإن کانت ثلاث وهی نفی الشریک والمعبود وصفة التوحید، غیر أنّها تعد جمیعاً إلی حقیقة واحدة وهی توحیده فی الذات والصفات والعبودیة. ولما کان التوحید أساس صفات اللَّه سبحانه، فقد تطرق الإمام علیه السلام إلی هذه الصفة قبل کل شئ، وسنری لاحقاً أنّ سائر الصفات السبع إنّما تنبع من صفة التوحید. ثم قال علیه السلام فی الصفة الثانیة

«الأوّل لا شیء قبله»

هذه واحدة من الصفات التی

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۲۹۲

تنزهه عن الشبه؛ لأنّه وجود لامتناهی، ومثل هذا الوجود أزلی، والوجود الأزلی قبل کل شئ وبعد کل شئ، فلو کان قبله شئ لانتفت أزلیته. ثم قال علیه السلام فی الصفة الثالثة:

«و الْآخر لا غایة له»

کما أشرنا آنفا فانّ هذه نتیجة لعدم تناهیه، وبعبارة أخری إنتفاء نظیره. ومن الواضح أنّ الصفة الثانیة والثالثة ثبوتیة: فأولیته فی الأزل،

وآخريته فى الأبدّ. وقال عليه السلام فى الصفة الرابعة:

«لا تقع الْأَوْهام ۶۲۸] له على صفةٍ»

فنحن نعلم أنّ عقلنا محدود لايسعه إدراك سوى المحدودات، وعليه فليس للوهم أن يحيط بذاته المقدسة وصفاته المطلقة التى هى عين ذاته، وبعبارة اخرى فانّ علمنا بصفاته إنما هو من قبيل العلم الإجمالى، وإلّا فالعلم التفصيلى بذاته وصفاته متعذر على مخلوقاته. ويتضح مما ذكر أنّ الأوهام هنا بمعنى الأفكار، غير أنّ الفكر حين يعجز يعبر عنه بالوهم. ثم أشار الإمام عليه السلام فى الصفة الخامسة والسادسة إلى نفى الكيفية والكمية عن الذات الإلهية المقدسة قائلًا:

«و لا تعقد القلوب منه على كيفيّةٍ، ولا تناله التّجزئة التّبعيض»

والكيفية عبارة عن الشكل والهيئة التى تتخذها الأشياء، سواء كانت هذه الهيئة قابلة للرؤية أو السماع أو اللمس. وبالطبع فانّ الكيفية إنّما ترتبط بالامور التى تكون أوصافها زائدة على ذاتها، أمّا من كانت صفاته عين ذاته، وكانت ذاته خالية من التعدد فليس للكيفية من سبيل إلى ذاته، بعبارة اخرى فان الكيفيات ناشئة من المحدوديات والذات الإلهية اللامحدودة لاكيفية لها. كما أنّ الاشتمال على الجزء والبعض من خواص الأجسام، ومن هنا فالكمية من عوارض الجسم، ولما كان اللَّه سبحانه منزه عن الجسمية، لم تجز عليه التجزئة والتبعيض، وليس للكمية من سبيل إلى ذاته المقدسة. بعبارة أخرى: إنّما تطلق الكمية حيث الزيادة والنقصان، وعليه فليس للَّه من كمية حيث ليس هنالك من زيادة أ ونقصان فى وجوده المطلق اللامتناهى. على ضوء ما مر معنا فان التجزئة والتبعيض لفظان متراد فان يفيدان معنى واحد، ألا أنّ بعض شرّاح نهج‌البلاغة احتملوا أنّ التجزئة إشارة إلى الأجزاء العقلية (كالجنس والفصل المنطقيين) والتبعيض إشارة إلى الأجزاء الخارجية. عى كل حال فمفهوم

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۹۳

العبارة هو أن الذات الإلهية ليست مركبة من أجزاء لافى الخارج ولا فى الذهن، لأنّه لو كان متركبا من أجزاء لاحتاج إليها، والحال أنّه غنى بالذات، والمحتاج ممكن الوجود، لاواجب الوجود. ثم قال عليه السلام فى الصفة السابعة والثامنة:

«و لا تحيط به الْأَبصار والقلوب»

أمّا قوله عليه السلام لاتحيطه الابصار، فواضح، لأنّ الإنسان يرى بعينه الالوان والضوء ومن ثم الأجسام، ولما كان اللون من خواص الجسم، وللجسم زمان ومكان وأجزاء، فالنتيجة أنّه محتاج وممكن الوجود، واللَّه أعظم وأجل شأناً من ذلك وان ذهب بعض علماء العامة استناداً إلى بعض الروايات- المخدوشة السند أو الدلالة- إلى رؤية اللَّه سبحانه يوم القيامة، الأمر الذى يعتبر من الشرك؛ لأنّ ذلك يستلزم كون اللَّه جسما له زمان ومكان وجهة ولون، أمّا نحن وعلى ضوء تعاليم أئمتنا عليه السلام نعتقد بأنّ الرؤية محالة على اللَّه سبحانه، لافى هذا العالم ولا فى عالم الآخرة! والأدلة العقلية التى أشارت إلى جانب من ذلك فى الخطبة إنّما تثبت هذه الحقيقة، وليس للاستثناء من سبيل إلى الأدلة العقلية.[۶۲۹] أمّا عدم إحاطة العقول بذاته المطهرة فلكونها غير محدودة، وليس للعقل المحدود قدرة إدراك غير المحدود، ولذلك قلنا سابقاً إن علمنا بذاته وصفاته سبحانه إجمالى لاتفصيلى. والذى يجدر ذكره هو أنّ الإمام عليه السلام عبر بعدم الاحاطة بشأن نفى الرؤية بواسطة العين وكذلك الرؤية العقلية، والذى يمثل فى الواقع الدليل على المطلوب، لأنّ الاحاطة بالشئ من لوازم الرؤية أو المشاهدة العقلية، وكيف يحاط وجود مطلق لامتناهى.

وهنا يقتدح هذا السؤال وهو أنّ الإمام عليه السلام قال:

«لاتدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»[۶۳۰]

أفلا يناقض هذا الكلام ما ورد فى الخطبة؟ والجواب على هذا السؤال أنّ المراد من عدم إحاطة العقل بذاته هو نفى إدراك كنه الذات، وبعبارة اخرى العلم التفصيلى؛ أمّا ما ورد فى الخطبة ۱۷۹ من رؤية اللَّه من قبل القلوب يشير إلى العلم الإجمالى. فقد ورد عن الإمام الجواد عليه السلام أنّه قال:

«أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التی لم تدخلها ولاتدركها ببصرك، فأوهام القلوب لا تدركه، فكيف أبصار العيون»[۶۳۱]

. على كل حال فان ما أورده الإمام عليه السلام من

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۹۴

صفات فی هذه العبارات بشأن الذات المقدسة، إنّما يشير إلى ذروة قدرة الإنسان على معرفة اللّه. فليس هنالك من يورد مثل هذه الصفات سوى المعصوم ولاسيما أميرالمؤمنين على عليه السلام.

ونختتم البحث بما ذكره ابن أبی‌الحديد بهذا الشأن فقد قال: وإعلم أن التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الإلهية، ما عرفت إلّامن كلام هذا الرجل، وأن كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمن شيئاً من ذلك أصلًا؛ ولا كانوا يتصورونه، ولو تصوروه لذكروه. وهذه الفضيلة عندی أعظم فضائله عليه السلام.[۶۳۲]

تأمّل: كيفية معرفة الإنسان بالذات المقدسة

تعد هذه المسئلة من أدق وأعقد المسائل العقائدية والتی تزل فيها الأقدام والأقلام حتى سلكت طائفة الافراط، بينما سلكت اخرى التفريط بهذا الشأن. فقد إبتعدت طائفة عن معرفة اللّه حتى اصطلح عليها بالمعطلة، حيث زعمت أننا لانعلم أی شئ إيجابی عن ذاته وصفاته سبحانه، وليس لنا سوى إستناد إلى سلسلة من الامور السلبية، فكل ما نقوله أنّ اللّه ليس بمعدوم، ليس عاجز، وليس جاهل، ولو أردنا أن نسلك سبيل الصفات الثبوتية فانّ كل الأبواب مقفلة بوجهنا. هذه هی الطائفة التی تدعى بالمعطلة. أمّا الطائفة الثانية فقد ذهبت إلى العكس مما ذهبت إليه الطائفة الاولى حتى جعلت من اللّه جسماً وصنعت له أعضاء وبدن، وهی الطائفة التی يصطلح عليها بالمشبهة، حيث شبهت اللّه بعباده. أمّا الطائفة الثالثة الوسط التی تخالف إفراط ا لاولى وتفريط الثانية- حيث تتصف كلا الطائفتين بالضلال والتغرب عن القرآن والتعاليم الإسلامية- وهی التی تقول بالمعرفة الإجمالية لذاته وصفاته سبحانه، دون أن يقف أحد على كنه تلك الذات المقدسة وصفاتها. وبعبارة أوضح: إذا نظرنا إلى عالم الوجود وتأملنا آثار العلم والحكمة وعظم القدرة الحاكمة فی كل مكان فاننا سنقف على أن هذه الأنظمة والقوانين المعقدة التی تحكم كافة دقائق هذا الوجود إنّما تنطلق من مصدر يتصف

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۹۵

بالعلم والقدرة المطلقة، الأمر الذی يجعلنا نمتلك معرفة إجمالية بهذه الذات المقدسة. من جانب آخر فاننا إذا فكرنا فی ذاته سبحانه وتساءلنا ما حقيقتها؟ هل هی نور؟ أعظم من النور؟

وجود بسيط وخالص؟ لانفهم على وجه الدقة حقيقة ذاته. وكل ما نعرفه أنّ ذاته تفوق الجسم والجسمانيات، وتترفع عن الخيال القياس والظن والوهم، وأنّه أعظم من كل ما رأينا وسمعنا وتصورنا. له علم وقدرة مطلقة، ولكن ما كيفية هذا العلم وهذه القدرة، يتعذر علينا الجواب على ذلك. وكلما أردنا أن نحصره فی فكرنا لنقف على حقيقة ذاته، رأينا فكرنا قاصراً عاجزاً، بل إذا إقتربنا شبراً من حقيقة ذاته- كما يقول الشاعر- ابتعدنا عنها ميلًا. وكيف لايكون الأمر كذلك ووجودنا محدود متناهی ووجوده مطلق لامتناهی. فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«فهذه الشمس خلق من خلق اللّه فان قدرت أن تملأ عينيك منها فهو كما تقول»[۶۳۳]

. فقد أراد الإمام عليه السلام أن يعرفنا بمحدودية قدرة باصرتنا وفكرنا إزاء ذاته المنزهة عن الحدود. ومن هنا يتوجب علينا أن نخشع للّه سبحانه ونمد أيدينا له بالدعاء لتردد ما قاله الإمام الهادی عليه السلام فی مناجاته للحق سبحانه:

«إلهی تاهت أوهام الموهمين، وقصر طرف الطارفين وتلاشت أوصاف الواصفين، واضمحلت أقاويل المبطلين عن الدرك العجيب شأنك، أو الوقوع بالبلوغ إلى علوك، فأنت فی المكان الذی لايتناهى ولم تقع عليك عيون باشارة ولاعبارة، هيهات ثم

هيهات».[۶۳۴]

إلّاأنّ هذا لايعنى أنّ المعرفة الإجمالية متعذرة علينا؛ فقد ملأت آثار ذاته وصفاته الوجود بأسره، فضلاعن وجودنا.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۹۷

القسم الثانى: الاتعاظ والاعتبار

ومنها: «فـاتَّعِظُوا عِبادَ اللَّهِ بِالْعِبَرِ النَّوافِعِ، واعْتَبِرُوا بِالْآيِ السَّواطِعِ، وازْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ الْبَوالِغِ، وانْتَفِعُوا بِالـذِّكْرِ والْمَواعِظِ، فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ الْمَنِيَّةِ وانْقَطَعَتْ مِنْكُم عَلائِقُ الْأُمْنِيَّةِ، ودَهِمَتْكُمْ مُفْظِعاتُ الْأُمُورِ، والسِّياقَةُ إِلَى الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ، ف «كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وشَهِيدٌ»: سائِقٌ يَسُوقُها إِلَى مَحْشَرِها؛ وشاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْها بِعَمَلِها».

الشرح والتفسير

لقـد واصـل الإمـام عليه السـلام كلامـه بحمـل مخـاطبيه إلى التأمل فى سالف التأريـخ وحوادثه التى تنطوى على الـدروس والعبر بغية توظيفها لما يخدم مصيرهم وعاقبتهم، فقال:

«فاتّعظوا عباداللّه بالعبر النّوافع».

نعم تذكروا عظماء التأريخ وكبكبة الملوك السلاطين والثراء العظيم الذى كان عليه الماضون والحياة المرفهة الوادعة، ثم انظروا كيف أتى الدهر عليها فأحالها ركاما بعد أن أبادهم عن آخرهم، فلم تبق من قصورهم الشاهقة سوى الاطلال، بل لم يبق من أجسادهم سوى العظام النخرة، فقد ذهبوا وأكلهم النسيان. ثم قال عليه السلام:

«واعتبروا بالآى السّواطع،[۶۳۵] ازدجروا بالنّذر البوالغ»

فهى من قبيـل التحـذيرات التى أثارهـا القرآن الكريم، فهو يشـرح أحيانـا العـذاب الأليم الـذى نزل بالأقوام الطاغيـة الظالمـة الماضـية، واخرى يتحدث عن شدة العذاب الاخروى، وأخيراً يضطر الإنسان للتفكير بجد فى عاقبته، ويحذره من

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۲۹۸

مقارفة الذنوب والمعاصى. ثم قال عليه السلام:

«و انتفعوا بالذّكر والمواعظ»

والفـارق بين هـذه التحـذيرات الأربع: ففى التحـذير الأول يلفت الإمـام عليه السـلام انتبـاه الجميع إلى الحـوادث التأريخيـة الماضـية والحاضـرة التى تنطوى على الدروس والعبر ليتعظ بها، وفى التحذير الثانى أشار إلى دلالته سبحانه فى عالم الوجود أو الآيات القرآنية التى توقظ الضـمير. وفى التحـذير الثالث تطرق إلى نـذر أولياء اللّه. وأخيراً تعرض فى التحذير الرابع إلى نصائح أولياء اللّه ومواعظهم، وهى التحذيرات الكافية لآثارة حيطة وحذر من كان له أدنى إستعداد للتقبل. ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن مرارة لحظات الموت ومعالجة سكراته فقال:

«فكأن قد علقتكم ۶۳۶] مخالب ۶۳۷] المنيّة، وانقطعت منكم علائق الأمنيّة، ودهمتكم ۶۳۸] مفظعات ۶۳۹] الأمور، والسّياقة إلى الورد المورود، ف «كلّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيدٌ»: سائقٌ يسوقها إلى محشرها؛ وشاهدٌ يشهد عليها بعملها»

. لمـا كـان الموت قـد كتب على الجميع ولم يعنى زمـانه، بحيث يفـاجئ الإنسـان، فانّ الإمام عليه السـلام يتحـدث عنه كأمر قـد وقع، فيصـرح كأنّى قد رأيتكم فى مخالب الموت وقد أحاطت بكم سـكراته وقد قطعت كل أمانيكم وذهبت أدراج الرياح كأنّها ضرب من ضروب الخيـال والاحلام، وكـأنّكم انتقلتم من هـذه الـدنيا إلى الآخرة، يقود كما المكان إلى المحشـر. وقـد ورد عن الإمام شبيه هـذا المعنى فى الخطبة ۲۰۴

«تجهزوا رحمكم اللّه! فقـد نودى فيكم بالرحيـل، وأقلوا العرجـة على الـدنيا، وانقلبوا بصالـح ما بحضـرتكم من الزاد، فان أمامكم عقبة

كؤودا، ومنازل مخوفة مهولة، لابد من الورود عليها، والوقوف عندها».

والعبارة

«والسياقة إلى الورود المورود»

إشارة إلى الآية ۹۸ من سورة هود: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۲۹۹

القِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النّارَ وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ».

«ورد»

تعنى ما يشقه من طريق بمحاذاة النهر الكبير الذى يبتعد ساحله عن الماء، ليتمكن الشخص من الوصول إلى الماء بسهولة، والمورد هو الموضع الذى يرده العطاش، وهى إشارة إلى أنّ المذنبين محرومون من ماء أنهار الجنّة العذبة الزلال فيردون ماء جهنم، الذى يشوى الوجوه والبطون. وقوله عليه السلام:

«كلّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيدٌ»

. أما المراد بالسائق والشهيد فقد اختلفت فيه أقوال مفسرى القرآن وشرّاح نهجالبلاغة. فذهب البعض إلى أنّ المراد بالسائق الملك الذى يكتب الحسنات، والشهيد من يكتب السيئات، وقيل السائق ملك والشهيد أعضاء بدن الإنسان، أو صحيفة أعماله التى تعلق فى عنقه. وهناك قول آخر أن يكون المراد بالسائق الملك الذى يجمع بين الأمرين، كأنّه قال: وجاءت كل نفس معها ملك يسوقها إلى المحشر ويشهد عليها. وأخيراً قيل السائق هو الأمر الإلهى الذى يسوق الإنسان إلى المحشر من أجل الوقوف للحساب والجزاء، والشاهد الأنبياء والعلماء، أو عقل الإنسان وأعضاؤه. إلّاأن الأظهر فى الأخبار والآثار أنّهما ملكان، أحدهما يسوق الإنسان إلى المحشر، والاخر يشهد على أعماله.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۰۱

القسم الثالث

اشارة

ومنها فى صفة الجنّة

«دَرَجاتٌ مُتَفاضِلاتٌ، ومَنازِلُ مُتَفاوِتاتٌ، لا يَنْقَطِعُ نَعِيمُها، ولا يَظْعَنُ مُقِيمُها، ولا يَهْرَمُ خالِدُها، ولا يَبْأَسُ ساكِنُها».

الشرح والتفسير

درجات الجنّة

نفحات الولاية ؛ ج۳ ؛ ص۳۰۱

تتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن نعم الجنّة وألطاف البارئ سبحانه باهلها ليخلط الانذار بالبشارة جريا على طريقة القرآن فى خلق الشعور بالخوف والرجاء لدى العباد لتدفعهم بالتالى نحو السمو والتكامل والسير إلى اللّه، فقال:

«درجاتٌ متفاضلاتٌ، ومنازل متفاوتاتٌ»

فالعبارة تفيد أن الإنسان لاينبغى أن يقتنع بما عليه من الكمال مهما كانت المرحلة التى بلغها، وعليه أنّ يواصل مسيرته ويجد فى العلم

والعمل ویسعی لتهـذیب نفسه. ومن الواضـح أنّ نصـیب الإنسان من النعم المادیـة والمعنویـة الاخرویـة إنّما یتوقف علی مـدی إیمانه وعمله ومعرفته وما تحلی به من أخلاق. وقد أشار القرآن کرارا إلی درجات الجنّة کقوله:

«وَلِکَلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلُوا»[۶۴۰] وقال: «نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ»[۶۴۱]، ثم تعرض لشرح هذه الدرجات: «وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ* أُولئِکَ الْمُقَرَّبُونَ* فِی جَنّاتِ النَّعِیمِ»[۶۴۲] وقال:

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۳۰۲

«وَأَصْحابُ الْیَمِینِ ما أَصْحابُ الْیَمِینِ»[۶۴۳] ثم اختتمت سورة الواقعة بالحدیث عن هاتین الطائفتین التی تفوق إحداهما الاخری فقال: «فَأَمّـا إِنْ کانَ مِنَ الْمُقَرَّبِینَ* فَرَوْحٌ وَرَیْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِیمٍ* وَأَمّا إِنْ کانَ مِنْ أَصْـحابِ الْیَمِینِ* فَسَـلامٌ لَکَ مِنْ أَصْـحابِ الْیَمِینِ»[۶۴۴]. کما صرح القرآن بأنّ مثوی المؤمنین الصالحین

«جنّات عدن»

وطائفة

«جنّات المأوی»

واخری

«جنّات الفردوس»

وأخری

«جنّات النعیم»

فی إشارة إلی مقامات الجنّة ودرجاتها.[۶۴۵] وجاء فی الخبر أنّ رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله قال:

«الجنّة مئة درجة ما بین کل درجتین کما بین السماء والأرض؛ الفردوس أعلاها درجة، منها تفجر أنهار الجنّة الأربعة، فاذا سألتموا اللّه، فاسألوه الفردوس»[۶۴۶]

وورد أیضاً

«إنّ أهل الجنّة لیرون أهل علیین کما یری النجم فی أفق السماء»[۶۴۷]

ومن الطبیعی أن تتفاوت مقامات المؤمنین فی الجنّة علی ضوء إیمانهم عملهم، ولعل العـدد مئـة الوارد فی الحـدیث إشارة إلی الکثرة وأنّ تفاوت المقامات أکثر بکثیر من هـذا العدد، کما یمکن أن تکون الدرجات الأصـلیة للجنّة مئة درجة، وتقسم کل واحدة منها إلی عـدّة درجـات، ومن هنـا ورد فی القرآن: «وَمَنْ یَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصّالِحاتِ فَأُولئِکَ لَهُمُ الـدَّرَجاتُ العُلی [۶۴۸]. وورد فی حـدیث الإمام زین‌العابدین علیه السلام أنّ درجات الجنّة بعدد آیات القرآن، فیقال لقارئ القرآن یوم القیامة إقرأ وارقأ.

[۶۴۹] ثم ذکر علیه السلام أربع صفات للجنّة تفوق کل واحدة منها الاخری، فقال علیه السلام:

«لا ینقطع نعیمها»

أی نعمها لیست من قبیل نعم الدنیا التی تزداد وتنقص وتنعدم، ما ورد ذلک فی الآیة ۳۵ من سورة الرعد:

«أُکُلُها دائِمٌ وَظِلُّها»، ثم قال فی الصفة الثانیة

«و لا یظعن ۶۵۰] مقیمها»

والصفة الثالثة

«و لا یهرم خالدها»

وأخیرا الصفة الرابعة

«و لا ییأس ۶۵۱] ساکنها».

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۳۰۴

الخطبهٔ[۶۵۲] السادسهٔ و الثمانون

اشارهٔ

ومن خطبهٔ له عليه السلام

وفيها بيان صفات الحق جل جلاله، ثم عظهٔ الناس بالتقوى والمشورهٔ[۶۵۳]

نظرهٔ إلى الخطبهٔ

تتالف هذه الخطبهٔ فى الواقع من خمسهٔ أقسام: القسم الأول كما ورد فى أغلب خطب نهج‌البلاغهٔ فى بيان أوصاف اللَّه سبحانه؛ الصفات ذات الأثر البالغ فى تربيهٔ الإنسان وتصده عن الذنوب والمعاصى وتسوقه إلى الخير والاحسان. القسم الثانى فى وعظ الناس والتزود من هذه الدنيا والتأهب للآخرهٔ وعدم نسيان الهدف من خلقتهم. القسم الثالث فى أهميهٔ القرآن واتمام الحجهٔ. القسم الرابع تحذير الناس من نوم الغفلهٔ وتدارك ما مضى من العمر فى أواخره والحيطهٔ من مكائد الشيطان. وأخيرا القسم الخامس فى الاشارهٔ إلى بعض الصفات الذميمهٔ والتعريف بأفضل الأفراد.

فالخطبهٔ بهذه الأقسام علاج لمرضى القلوب من أهل الغفلهٔ.

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۳۰۵

القسم الأول: العالم بالخفايا والاسرار

«قَدْ عَلِمَ السَّرائِرَ، وخَبَرَ الضَّمائِرَ، لَهُ الْإِحاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، والْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، والْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى خمس من صفات اللَّه سبحانه، يفيد التفاعل معها وتصديقها إلى الانقياد إلى الحق وتهذيب النفس وتزكيتها.

الصفهٔ الاولى

«قد علم السّرائر».

الصفهٔ الثانيهٔ:

«و خبر الضّمائر».

الصفهٔ الثالثهٔ:

«له الْإحاطهٔ بكلّ شىْءٍ».

الصفهٔ الرابعهٔ:

«و الغلبهٔ لكلّ شىءٍ».

الصفهٔ الخامسهٔ:

«و القوّهٔ على كلّ شىءٍ».

وقد ذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغهٔ إلى وحدهٔ معنى العبارهٔ الاولى والثانيهٔ وعدوها من قبيل المرادفات فى أنّ اللَّه عليم بأسرار وخفايا

کل فرد. بینما قال البعض: خبر بفتح الباء بمعنی الاختبار وخبر بکسرها بمعنی العلم، فقد وردت الاولی بمعنی الاختبار فی موضع آخر من نهج‌البلاغة

«إنّما مثل من خبر الدنیا»[۶۵۴]

ولما کان الأصل فی الجملة هو بیانها لمعنی جدید، یبدو أنّ تفسیر الخبر بالامتحان أنسب، وإن کان الامتحان سبب العلم، بل قد یکون امتحان الشئ

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۳۰۶

کنایة عن العلم به. علی کل حال الهدف هو أن نلتفت إلی أنّ الباریٔ سبحانه علیم بکافة أسرارنا وما یدور فی خلدنا، حتی أنه أعلم بنا من أنفسنا، فهو یعلم بسوء نیاتنا وریائنا وشرکنا، وعلمه بظاهرنا وباطننا علی حد سواء. والعبارة

«له الإحاطة بکلّ شیءٍ»

من قبیل ذکر العام بعد الخاص، لأنّ العبارات السابقة تحدثت عن احاطته العلمیة سبحانه بباطن الناس، بینما أشارت هذه العبارة إلی علمه بکافة الأشیاء، ومن ذلک أیضاً العبارة الرابعة والخامسة التی تحدثت عن قدرته المطلقة سبحانه، مع هذا الفارق وهو أنّ العبارة الرابعة ناظرة لغلبته وسیطرته علی کل شئ، فی حین تبین الخامسة قدرته علی الإتیان بکل شئ. وقیل أن الفارق بینهما هو أنّ القوة علی کل شئ تعنی القدرة علی إیجاده، والغلبة تعنی السیطرة بعد الإیجاد؛ أی أنّ الأشیاء لاتستطیع ا لخروج من قدرته سبحانه بعد إیجادها. علی کل حال فانّ هذه الصفات الخمس شرح لعلم اللّه وقدرته المطلقة، ومن شأن استحضارهما مجانبة الخطایا والاندفاع نحو الطاعة والانقیاد للحق.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۳۰۷

القسم الثانی: الزاد إلی المعاد

«فَلْیَعْمَلِ الْعامِلُ مِنْکُمْ فِی أَیّام مَهَلِهِ، قَبْلَ إِرْهاقِ أَجَلِهِ، وفِی فَراغِهِ قَبْلَ أوان شُغُلِهِ، وفِی مُتَنَفَّسِهِ قَبْلَ أَنْ یُؤْخَذَ بِکَظَمِهِ، ولْیُمَهِّدْ لِنَفْسِهِ وقَدَمِهِ، لْیَتَزَوَّدْ مِنْ دارِ ظَعْنِهِ لِدارِ إقامَتِهِ. فاللّهَ اللّهَ أَیُّها النَّاسُ، فِیما اسْتَحْفَظَکُمْ مِنْ کِتابِهِ، واسْتَوْدَعَکُمْ مِنْ حُقُوقِهِ، فَإِنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ لَمْ یَخْلُقْکُمْ عَبَثاً ولَم یَتْرُکْکُمْ سُدًی ولَمْ یَدَعْکُمْ فِی جَهالَةٍ ولا عَمًی، قَدْ سَمَّی آثارَکُمْ، وعَلِمَ أَعْمالَکُمْ، وکَتَبَ آجالَکُمْ».

الشرح والتفسیر

لفت الإمام علیه السلام الانتباه سابقاً إلی قدرة اللّه وعلمه بخفایا الکائنات وأسرار الضمائر، وما ذلک إلّامقدمة لما أورده هنا:

«فلیعمل العامل منکم فی أیّام مهله [۶۵۵] قبل إرهاق [۶۵۶] أجله، وفی فراغه قبل أوان شغله، وفی متنفّسه [۶۵۷] قبل أن یؤخذ بکظمه [۶۵۸]»

ثم بین علیه السلام الهدف من هذا الجهد والعمل فقال:

«و لیمهّد لنفسه وقدمه، ولیتزوّد من دار ظعنه لدار إقامته»

فالواقع هو أنّ العبارات السابقة تحدثت عن أصل السعی والعمل، بینما عینت الأخیرة مساره وجهته.

جدیر بالذکر أنّ العبارة

«أیام مهله»

فسّرت بالعبارات الثلاث اللاحقة، فالعبارة الاولی

«قبل إرهاق أجله»

إشارة إلی أصل نعمة الحیاة والعمر، والعبارة الثانیة

«وفى فراغه»

إشارة إلى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۰۸

نعمة الفراغ فى مقابل الانشغال والعمل والهم بالزوجة والولد، والعبارة الثالثة

«وفى متنفسه»

نعمة العافية والسلامة وعدم وجود الشدائد والمصائب. أمّا العبارة

«وليمهد ...»

فهى تشير إلى التأهب للآخرة، فى حين تشير

«وليتزود»

إلى التجهز وكسب الزاد؛ على غرار ما يفعل الإنسان فى هذه الدنيا، حيث يعد المنزل وأدواته ثم يتجه صوب الزاد والمتاع. ثم يواصل الإمام عليه السلام تحذيراته فيقول:

«فاللّه اللّه أيّها النّاس، فيما استحفظكم من كتابه، واستودعكم من حقوقه».

طبعاً المراد من الكتاب القرآن الكريم حيث كلف الناس بصيانته والالتزام بأحكامه، أمّا المقصود بالحقوق التى استودعها العباد فهى أحكام الحلال والحرام التى ينبغى الالتزام بها وعدم مخالفتها.[۶۵۹] ثم بين الدليل من هذا الانذار بقوله:

«فإنّ اللّه سبحانه لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدًى ۶۶۰] ولم يدعكم فى جهالةٍ ولا عمًى، قد سمّى آثاركم، وعلم أعمالكم، وكتب آجالكم»

فهى عبارات قصيرة ذات معان بعيدة تختزن المفاهيم العظيمة المؤيدة بالآيات القرآنية. فقد أشار فى المرحلة الاولى إلى الهدف من وراء خلق الإنسان، ومن ثم الحديث عن الامور التى تنطوى عليها الحياة الإنسانية، والمرحلة الثالثة الحديث عن وجود الزعماء والعلم بالأعمال، وتطرق بعد ذلك إلى بيان الوظائف والمسؤوليات وعلم الحق سبحانه بأعمال البشر، وأخيرا الحديث عن قصر عمر الإنسان وحلول أجله. ومن الواضح أنّ الإنسان إذا إلتفت إلى هذه الامور وصدقها بكل كيانه ووجوده سيجد من أجل حفظ كتاب اللَّه والالتزام بحقوقه. فالمهم أن يستحضر الإنسان هدف الخلق ويستفيد مما زوده به اللَّه سبحانه من إمكانات، فيؤمن بأنّ اللَّه عالما بأفعاله وإلّا ينسى بأنّ عمره قصير آيل إلى زوال؛ الامور التى تلعب دوراً بناءاً فى خلق شخصية الإنسان وتهذيب نفسه. فقد قال القرآن بهذا الشأن: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لاتُرْجَعُونَ»[۶۶۱] وقال: «قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْها»[۶۶۲] وقال فى الآية ۳۰ من سورة محمد:

«وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ» وقال «فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لايَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ».[۶۶۳]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۰۹

القسم الثالث: الكتاب الجامع

اشارة

«وَ أَنْزَلَ عَلَيْكُمُ «الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَىْءٍ» وعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْماناً، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ ولَكُمْ- فِيما أَنْزَلَ مِنْ كِتابِهِ- دِينَهُ الَّذِى رَضِىَ لِنَفْسِهِ؛ وأَنْهَى إِلَيْكُمْ- عَلَى لِسانِهِ- مَحابَّهُ مِنَ الْأَعْمالِ ومَكارِهَهُ، ونَواهِيَهُ وأَوامِرَهُ، أَلْقَى إِلَيْكُمُ الْمَعْذِرَةَ، واتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، وأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذابٍ شَدِيدٍ».

الشرح والتفسير

جامعية القرآن والسنة

جرى الحديث سابقا عن إتمام الحجة على العباد، وهنا يتوسع الإمام عليه السلام فى هذا الموضوع فيقول:

«و أنزل عليكم «الكتاب تبياناً لكلّ شىءٍ» وعمّر فيكم نبيّه أزماناً، حتّى أكمل له ولك م- فيما أنزل من كتابه- دينه الّذى رضى لنفسه».

نعم فقد أنزل سبحانه ذلك الكتاب الجامع الذى ينطوى على كافة المعارف الإلهية والتعاليم المادية والمعنوية على جميع مستويات الحياة البشرية كما ورد ذلك فى الآية ۸۹ من سورة النحل: «وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَىءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ». كما منح نبيّه صلى الله عليه و آله الفرصة الكافية لابلاغ الدين واتمامه؛ الأمر الذى صرحت به الآية الثالثة من سورة المائدة: «اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً». ثم خاض فى التفاصيل بغية توضيح

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۱۰

المطلب فقال عليه السلام:

«و أنهى [۶۶۴] إليكم- على لسانه- محابّه [۶۶۵] من الْأعْمال ومكارهه، ونواهيه‌أوامره، وألقى إليكم المعذرة، واتّخذ عليكم الحجّة، وقدّم إليكم بالوعيد، أنذركم بين يدى عذابٍ شديدٍ»

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى إنعدام العذر بفضل القرآن وسنة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وماتضمناه من تعاليم ومفاهيم، فليس لأى‌فرد أن يتفوه ببعض الكلمات من قبيل

«لم أكن أعلم»

أو

«لم أقف على هذه الامور»

أو ما بلغتنى الحجة، والحق أنّ هذه العبارة مصداق واضح لقوله سبحانه فى كتابه العزيز: «قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ البالِغَةُ»[۶۶۶].

تنطوى العبارة «و أنزل عليكم «الكتاب تبياناً لكلّ شىءٍ»» المقتبسة من الآية ۸۹ من سورة النحل على حقيقة مهمة ينبغى أن يتوقف عندها الجميع. طبعاً ليس المقصود بهذه العبارة أنّ القرآن كتاب موسوعى يضم كافة الفروع والتخصصات العلمية كالرياضيات والجغرافيا والكيمياء والفيزياء إلى جانب العلوم الانسانية وما انطوت عليه المدارس الفكرية والنزعات الفلسفية، بل المراد أنّ القرآن يشتمل على كل ما نزل من أجله وهدف إليه هذا الكتاب السماوى والذى يخلص فى بلورة شخصية الإنسان وسعادته فى جميع الأصعدة والميادين. فقد بين المعارف الدينية والحقائق المرتبطة بالمبدأ والمعاد ووظائف الإنسان ومسؤولياته تجاه خالقه وتجاه بنى جنسه، إضافة إلى تبيين المسائل الأخلاقية والقضايا الجتماعية والمتطلبات الاقتصادية، وقد عمد أحياناً إلى بيان كافة الجزئيات والتفاصيل (كبيانه للأحكام المتعلقة بالعقود المالية ومعاملات الديون التى إستعرضتها الآية ۲۸۲ من سورة البقرة، بينما أشار أحيانا اخرى إلى الاصول الكلية والقواعد العامة من قبيل

«باب ينفتح منه

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۱۱

ألف باب».

فالآية القرآنية التى وردت ضمن الخطبة إلى جانب روايات أئمة العصمة عليهم السلام تذكر المسلمين بأن الهداية والسعادة إنّما تكمن فى القرآن.

إجابة عن سؤال

يبرز هنا هذا السؤال: ما الحاجة إلى سنة النبى وأقوال المعصومين فى ظل وجود القرآن الكريم؟
والجواب على هذا السؤال واضح وهو أن أغلب الآيات تحتاج إلى شرح وتفسير وبيان الشرائط وذكر موارد الاستثناء، أو الآيات المتشابهة التى لا ـ تفسر الا ـ من المعصومين عليهم السلام بردها إلى المحكمات. على سبيل المثال ترد آية فى الزكاة وتتطرق إلى مستحقيها من الاصناف الثمانية دون الإشارة إلى ما يجب فيه الزكاة وحد النصاب والشرائط المرتبطة بمرور الحول والشروط التى ينبغى توفرها فى المستحقين، وكيفية جمع الزكاة وإنفاقها التى تتطلب تفسيراً من المعصومين عليهم السلام. وناهيك عما سبق فان هنالك بعض المستحدثات التى تستجد بفعل تقادم الزمان وا لتى ينبغى البحث عن جذورها واصولها فى كتاب اللّه من أجل إستنباط الأحكام، هنا لابدّ من إرشادات المعصومين عليهم السلام لتفادى الزلل. والجدير بالذكر أنّ القرآن قد دعى الناس إلى الانفتاح على جميع العلوم وا لمعارف، وأمر بالرجوع إلى أهل الخبرة فى كل مسألة من المسائل.
نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۱۳

القسم الرابع: إغتنام الفرصة

اشارة

«فاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، واصْبِرُوا لَها أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّها قَلِيلٌ فِى كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِى تَكُونُ مِنْكُمْ فِيها الْغَفْلَةُ، والتَّشاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ؛ ولا تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذاهِبَ الظَّلَمَةِ، ولا تُداهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ الْإِدْهانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ».
الشرح والتفسير
ما إن فرغ الإمام عليه السلام من الانذار والتحذير واتمام الحجة على الناس حتى خلص إلى هذه النتيجة المهمة
«فاستدركوا بقيّة أيّامكم، واصبروا لها أنفسكم»
ثم استدل عليه السلام على ذلك بالقول
«فإنّها قليلٌ فى كثير الْأيّام الّتى تكون منكم فيها الغفلة، التّشاغل عن الموعظة»
وحقاً أنّ الأمر كذلك فلو انتبه الإنسان إلى ساعات عمره وأيامه ولياليه لرأها قصيرة، وعليه فلابد من اليقظة فى ما بقى من عمره والاستناد إلى سلاح الصبر والاستقامة، وذلك لأنّ الحيطة والحذر من الغفلة تستلزم الصبر، إلى جانب كون الطاعة واجتناب المعصية هى الاخرى بحاجة إلى الصبر، فقد صرحت بعض الروايات الإسلامية بأنّ نسبة الصبر إلى الإيمان كنسبة الرأس إلى الجسد.[۶۶۷] والعبارة
«تكون منكم فيها الغفلة»
بالفعل المضارع إشارة إلى أنّ هذه الغفلة لم تصدر منكم فى الماضى، فهى كذلك فى الحاضر، فجدوا واجتهدوا فى المستقبل لتدراك ما فرط منكم فى السابق. ثم تطرق عليه السلام إلى نقطتين مهمتين تمثلان فى الواقع سبيلين خطرين من سبل نفوذ الشيطان؛ الأول:
«و لا ترخّصوا لأنفسكم، فتذهب بكم الرّخص مذاهب الظّلمة»
فالتجارب
نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۱۴

تفيـد أنّ أولئك الـذين جاوزوا الحـد فى المباحات والرخص قـد هوى آخر الأمر فى مسـتنقع المحرمات. فقـد شـبهت بعض الروايات والأخبار المحارم بالغرق والمنطقة المحظورة ذات الحدود المعينة ثم شـبهت النفس البشرية بالشاة التى ترعى عند تلك الحدود، حتى يلوح لهـا العلف فتنـدفع نحوه. فالإنسـان قـد ينـدفع بأقصـى مـا لـديه لممارسـة المباحـات حتى تخـدعه نفسه فـاذا هو يقـارف الخطيئة والمعصية. فقد قال الإمام على عليه السلام:

«والمعاصى حمى اللّه، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها»[۶۶۸]

. وقـد وردت التعبيرات القرآنيـة الرائعـة التى تحـذر من الاـقتراب من تلـك الحمى كقوله: «وَلاـ تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ»[۶۶۹] و «وَلاـ تَقْرَبُوا الزِّنا»[۶۷۰] و وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ماظَهَرَ مِنْها وَمابَطَنَ»[۶۷۱].

فأفضل سبيل لمجانبة الذنب تكمن فى عدم الاقتراب منه، فلايوغل فى المباح خشية من السقوط بما بعده. والسبيل الثانى:

«و لا تداهنوا[۶۷۲] فيهجم بكم الإدهان على المعصية»

. المراد بالمداهنـة هنـا مماشـاة الإنسـان ومرونته لأحـل الـذنوب والمعاصـى واظهار حالـة من النفاق، فانّ من شأن هـذا النفاق أنّ يقود الإنسان إلى مقارفـة الـذنب. وأحد المصاديق التى يمكن الإشارة إليها هنا ما تعارف بالحيل الشـرعية واللجوء إلى بعض الأساليب التى تعدّ من الحلول الكاذبة لبعض المشاكل، حيث تنتهى بالإنسان فى خاتمة المطاف إلى الوقوع فى المعصية علانية، وهذا بدوره يعد من سبل الشيطان لجر الإنسان إلى الذنب والخطيئة. وأحياناً يخدع الإنسان نفسه ليقارب الذنب، كما يخدع أحياناً من قبل الآخرين للإتيان بالمعصية، وكلا الأمرين من مصاديق المداهنـة. ومن هنا حـذر الإمام عليه السـلام من هذين السبيلين بغية غلق الابواب بوجه الشـيطان وعدم الوقوع فى حبائله.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۱۵

طرق نفوذ الشيطان

أشـار الإمـام عليه السـلام فى هـذه الخطبـة إلى طرق نفوذ الشـيطان فى قلوب الناس، ليؤكـد على موضوعين مهمين بهـذا الشأن. الأول المبالغـة فى الاسـتفادة من الحريـة وممارسـة المباحات؛ وذلك لأن بعض المباحات تمثل الحد الأخير لحيز الذنب، بحيث يرد الإنسان هذا الحيز إذا ما اندفع أكثر من اللازم. فالإمام عليه السلام يحذر هنا من الاندفاع وراء هذه المباحات، حيث يخشى على مثل هذا الفرد أن يسـلك سبيل الظلمة. ومن هنا نرى الدول والبلدان تعمد اليوم إلى تعيين حدودها لتشكل حزامها الامنى، ولايحق للأفراد أن يقتربوا لبضع كيلومترات من هـذه الحـدود، لأنّ الوصول إلى النقطـة الحدوديـة قـد يسول للإنسـان إذا وصل حـد الـذنب، قـد يبـدو له سـهلًا فتوسوس له نفسه لمقارفته. والطريق الثانى الـذى ينفـذ من خلاله الشـيطان إلى الإنسان إنّما يكمن فى مداهنة أهل الذنوب والمعاصـى ومجاملتهم على أعمـالهم، إلى جـانب حـل بعض المعضـلات من خلاـل الحيـل الشرعية ومـا شـابه ذلـك. فعادة أهل المعاصـى هى الاسـتخفاف بالذنب والمعصـية وتصـغيرها فى نظر الآخرين، كما أنّ الحيل الشرعية تقضى على فضاعة الذنب وشدته وتهتك الحجب المضروبة بينه وبين الإنسان، فقد جاء فى الخبر أنّ أميرَالمؤمنين على عليه السلام قال:

«من داهن نفسه هجمت به على المعاصى المحرمة».[۶۷۳]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۱۷

القسم الخامس: من هو السعيد؟

اشارة

«عِبادَ اللَّهِ، إنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ؛ وإنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصاهُمْ لِرَبِّهِ؛ والْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ، والْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ، «وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ». والشَّقِيُّ مَنِ انْخَدَعَ لِهَواهُ وغُرُورِهِ».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام حديثه بالنذر والتطرق لسبل نفوذ الشيطان، ليورد هنا بست عبارات قصيرة عظيمة كيفية العمل والخلاص، فقال بادئ ذى بدء:

«عباد اللّه، إنّ أنصح النّاس لنفسه أطوعهم لربّه»

ومعنى هذه العبارة أن لا يخدع الإنسان نفسه ولايكذب عليها ولايجعل من نقاط ضعفه عناصر قوة فى شخصيته ولايسدل استار عيبه ونقصه أمام نفسه، بل يتهم نفسه بكل إخلاص، فمثل هذا الإنسان يتجه لا محالة نحو الطاعة.[۶۷۴] ثم أشار فى العبارة الثانية إلى عكس ذلك فقال:

«و إنّ أغشّهم ۶۷۵] لنفسه أعصاهم لربّه»

. ومن الطبيعى أنّ الإنسان إذا خدع نفسه وأخفى عنها عيبه، تراءى له الذنب مباحا، بل قد يبدو له أحياناً أمرا واجباً، وهكذا تتوفر لديه الأرضية الخصبة لمقارفة الاثم والمعصية. وقال فى العبارة الثالثة:

«والمغبون من غبن نفسه»

فى إشارة إلى أن بعض الأفراد قد يخدعون هذا الإنسان ويغبنه فيسلبوه ما لديه، كما قد يرتكب الإنسان مثل العمل بحق نفسه فيخدعها فيفقد عناصر القوة

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۱۸

التى كان من المفترض أن تقوده نحو الفوز بالآخرة ونيل سعادتها وفلاحها. وقال فى العبارة الرابعة:

«والمغبوط من سلم له دينه»

. فالغبطة أن يتمنى الإنسان مالغيره من النعم، وعليه فالمغبوط هو المستحق لتطلع النفوس إليه والرغبة فى نيل مثل نعمته، فان جد واجتهد الإنسان وتمكن من الحفاظ على دينه وإيمانه فى ظل هذه الدنيا وتقلباتها فقد أحرز أعظم النعم الإلهية التى يجدر بالآخرين أن يغبطوه عليها. وعلى ضوء القاعدة الأدبية فان تقديم الخبر على المبتدأ يفيد الحصر، فالعبارة تفيد أن الغبطة لا تكون سوى تجاه من حفظ دينه وإيمانه ازاء حوادث الدهر ومكاره الدنيا، لاتجاه من ينال بعض المقامات ويجبى الأموال والثروات وسائر الإمكانات المادية الآيلة إلى الفناء والزوال. وقال فى العبارة الخامسة:

«والسّعيد من وعظ بغيره».

فمما لاشك فيه أنّ الحوادث المريرة والتجارب القاسية تعد وسيلة لليقظة ومصدرا لنصيحة الإنسان ووعظه، ولكن ما أروع أن يستفيد من تجارب الآخرين ويتعظ بمصيرهم دون أن يرتكب بعض الاخطاء التى قد تلهمه بعض التجربة، فكأنى بهذا الفرد كذلك المنزل الذى جاور حديقة غناء وكان يعمل فيها الآخرين بينما يصله نسيمها ورائحتها الزاكية. ولما كان مصير الأفراد فى حياتهم متشابه فى الغالب، وبعبارة اخرى

«التأريخ يعيد نفسه»

فلكل فرد أن يرى جانبا من مصيره فى حياة الآخرين. وبناءاً على هذا فليس هنالك من يستثنى من هذه العبارة ولايعتبر بحياة الآخرين. هذا وقد ذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى أن العبارة

«والسّعيد من وعظ بغيره»

تعد مثلًا من الأمثال المعروفة فى الأدب العربى ۶۷۶]. بينما عدها ابن أبى‌الحديد من الأمثال النبوية.[۶۷۷] ثم اختتم الخطبة بما يقابل

العبارة السابقة قائلًا:

«والشّقىّ من انخدع لهواه وغروره»

. واضح أنّ الإنسان يلام إذا خدع من قبل الآخرين، إلّاأنّه يكون أكثر ملامة إذا انخدع بهوى نفسه، وذلك لأنّه أحرق سعادته بنفسه.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۱۹

مواطن السعادة لدى الإنسان

من ضـمن الأهداف التى تضمنتها الخطبة أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى أنّ مقومات سعادة الإنسان وفلاحه كامنة فى باطنه، لا أن ترد عليه من الخارج. فهو الـذى يخدع نفسه، وهو الذى يغبنها وهو الذى يسعه خلق سعادته، وأخيراً هو الذى يفوز بالآخرة بعد أن ينتصر على نفسه ويتغلب على أهوائها وشـهواتها. والكلام يصـدق على الفرد، كما يصـدق على المجتمع؛ فأغلب الأفراد لاسيما فى عصـرنا الراهن ينسبون عوامـل البؤس والشـقاء إلى الخارج، فيخـدعون أنفسـهم ويغلقون عليها سـبل النجاة، والحال لابـدّ من إقتفاء آثار هـذه الأزمات فى الذات والروابط الاجتماعية والأهواء النفسـية والفرقة والشقاق والنفاق والحسد وسائر الأمراض المقيتة. وكفى بهذه الخطبة سبيلًا لسعادة الإنسان حتى لو لم تتضن سوى هذا الهدف العظيم.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۲۱

القسم السادس: الصفات والذميمة

اشارة

«وَ اعْلَمُوا أَنَّ «يَسِيـرَ الرِّياءِ شِرْكٌ» ومُجالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَى مَنْساةٌ لِلْإِيمانِ، ومَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطانِ. جانِبُوا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ. الصَّادِقُ عَلَى شَـفَا مَنْجـاةٍ وكَرامَـةٍ، والْكـاذِبُ عَلَى شَـرَفِ مَهْواةٍ ومَهانَـةٍ. لاتَحاسَـدُوا، فَإِنَّ الْحَسَـدَ يَأْكُلُ الْإِيمَانَ «كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»؛ «وَ لا تَباغَضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ»؛ واعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ، ويُنْسِي الذِّكْرَ، فَأَكْذِبُوا الْأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ، وصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ».

الشرح والتفسير

يختتم الإمـام عليه السـلام خطبته بالتحـذير من ست رذائل (الرياء، مجالسـة أهل الهوى الكـذب، الحسـد، التباغض وطول الأمل)، إلى جانب الإشارة لما تختزنه كل رذيلة من أضرار، فقال عليه السلام:

«و اعلموا أنّ يسير الرّياء شركٌ»

لأنّ المرائى يقوم بالعمـل رضا للعباد وتظاهراً بالاحسان من أجل لفت إنتباه الآخرين، ليطلب العزة من أقرانه الضـعفاء العجزة بـدلًا من طلبها من منبعها:

«وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُـذِلُّ مَنْ تَشاءُ»[۶۷۸] وهذا شـرك يتناقض وتوحيد الأفعال. وقد تظافرت الروايات والأخبار التى صـرحت بأنّ المرائى ينادى يوم القيامة:

«يا كافر! يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! حبط عملك وبطل أجرك، فلا خالص لك اليوم، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له»[۶۷۹]

أضف إلى ذلك فانّ المرائى ولتناقض ظاهره وباطنه فهو فى زمرة المنافقين، ولهذا فانّ النفاق

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۲۲

يحيل أعماله إلى قشور لالب فيها. فقد ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إنّه قال:

«سيأتى على النـاس زمان تخبث فيه سـرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم، طمعاً فى الـدنيا، لايريـدون بها ما عنـد ربّهم، يكون دينهم رياءاً؛

«يخالطهم خوف، يعمهم اللّه بعقاب، فيدعونه دعا الغريق، فلايستجيب لهم»[۶۸۰]

وبالطبع فان أفضح الناس إذا وضعت موازين القيامة هم أهل الرياء. ثم أورد الرذيلة الثانية:

«ومجالسة أهل الهوى منساةٌ[۶۸۱] للإيمان، ومحضرةٌ[۶۸۲] للشّيطان»

لأنّ الهوى لايعرف الحدود والقيود فيملأ كيان الإنسان ويستهلك فكره فلا يدع من مجال للإيمان، ومن الطبيعى أن يكون مثل هذا المجلس محضرا الشياطين. ومخالطة الآخرين على درجة من الأهمية بحيث ورد عن رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«المرء على دين خليله وقرينه»[۶۸۳]

. وجاء فى المثل المعروف:

«قل لى من تعاشر، أقل لك من أنت»[۶۸۴]

. ثم حذر عليه السلام من رذيلة الكذب:

«جانبوا الكذب فإنّه مجانبٌ للْإيمان»

فالمفردة جانبوا تفيد أنّ الكذب على درجة من الخطورة بحيث يجب على الإنسان أن يبتعد عنه ولا يقترب، حذراً من أن تتفاذفه الوساوس فتلقيه فى الهاوية. والعبارة:

«مجانبٌ للإيمان»

لاتفيد أنّ الكذب لاينسجم والإيمان فحسب، بل هو شديد البعد عنه، لأن الكاذب إنما يكذب عادة لجلب منفعة أو دفع ضرر أو بدافع من هوى النفس، والحال يعلم المؤمن أنّ كل هذه الامور بيداللَّه، كا يؤمن بانّ الهوى نوع من الوثنية. وشاهد ذلك الجملة اللاحقة التى بينها الإمام عليه السلام تأكيدا للعبارة السابقة فقال:

«الصّادق على شفا[۶۸۵] منجاةٍ وكرامةٍ، والكاذب على شرف مهواةٍ[۶۸۶] ومهانةٍ».

ثم قال محذراً من الرذيلة الرابعة:

«ولاتحاسدوا، فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب»؛

لأنّ

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۲۳

الحسود فى الواقع يعترض على نظام الخليقة واغداق اللَّه لنعمه على العباد؛ الأمر الذى لا ينجسم والإيمان، أضف إلى ذلك فليس للحسود أن يرى سعادته فى سلب نعم الآخرين، ولو كان مؤمناً باللَّه لسأل اللَّه مثل هذه النعم. ثم حذر عليه السلام من البعض والعداء

«و لا تباغض وا فإنّها الحالقة»

. الحالقة من مادة حلق (وبالنظر إلى حذف متعلقها) تفيد أن الخصومة والتباغض إنّما تجتث أصول الخير والسعادة من جذورها؛ ولا غرو لأنّ جذور الخير تتمثل بالتعاون والتعاضد بين أفراد المجتمع مع بعضهم البعض الآخر. وأخيراً من الرذيلة السادسة المتمثلة بطول الأمل فقال عليه السلام:

«و اعلموا أنّ الأمل يسهى العقل، ينسى الذّكر، فأكذبوا الأمل فإنّه غرورٌ، وصاحبه مغرورٌ»

فالواقع هو أنّ طول الأمل يغرق الإنسان فى عالم من الوهم والخيال ويجعله يدور حول محور الامور المادية، وهذا من أعظم العقبات التى تعترض سبيل السعادة، وقد دلت التجارب على أنّ أغلب الأفراد الذين يرتكبون أبشع الجرائم إنما هم ممن ابتلوا بهذه الرذيلة- طول الأمل- التى عدها رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله وأميرَالمؤمنين عليه السلام فى مصاف عبادة الهوى ومن أخطر عقبات السعادة.

المواعظ البالغة

لقـد تضـمنت هـذه الخطبـة وعلى الرغم من قلـة عبارتهـا العديـد من الامـور المعنويـة من قبيل مفهوم التوحيـد وعبوديـة اللّه والاهتمام بالكتاب- القرآن الكريم- وما ورد فيه من تعاليم قيمـة، إلى جانب التحـذيرات التى تهدف إلى تنبيه الإنسان إلى مصيره وعاقبته. كما تطرقت إلى المسائل الأخلاقية المهمّة التى تعد الركن الركين لسـعادة الإنسان المادية والمعنوية، كاجتناب الشـرك والكذب والحسد والعداوة والبغضاء وطول الأمل، ثم أوورد الدليل والبرهان المنطقى الذى يكشف اللثام عن أضرار كل رذيلة من هذه الرذائل. الحق لو تأمل الإنسان هذه الخطبة كل يوم وفكر قليلًا فى عبارتها وعقد العزم على الالتزام بها لبلغ بنفسه شاطئ السلامة والأمان.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۲۵

الخطبة[۶۸۷] السابعة و الثمانون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وهى فى بيان صفات المتقين وصفات الفساق والتنبيه إلى مكان العترة الطيبة والظن الخاطىء لبعض الناس

نظرة إلى الخطبة

تتالف الخطبـة فى الواقع من خمسـة أقسام، أربعة منها متصـلة، بينما ينفصل عنها الجزء الخامس بما له من مفهوم خاص، وهذا ما يفيد أنّ السيد الرضى (ره) قد حذف بعض الأقسام من الخطبة. والأقسام الخمسة هى:

القسم الأول: بيان صـفات العلماء العاملين ممن شملتهم العناية الإلهية فاستشعروا التقوى والورع وابعدوا عن أنفسهم الأهواء والشهوات واهتدوا إلى ربّهم.

القسم الثانى: بيان صفات علماء السوء الذين اقتبسوا جهلًا من جهالّ وضلالا من ضلّال فضلوا وأضلوا.

القسم الثالث: تحذير الناس من الضلال والاتجاه نحو الجهال، والحال فيهم عترة النبى صلى الله عليه و آله منابع العلم ومعادن الحكمة.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۲۶

القسم الرابع: الاشارة إلى بعض كلمات النبى صـلى الله عليه و آله بشأن أهل‌البيت عليه السلام، كما يستدل على كلامه بحديث الثقلين المتواتر المعروف لدى جميع المسلمين.

القسم الخامس: إشارة إلى الظن الباطل بأنّ الـدنيا دائمـة لبنى‌أميـة، والأخبار عن سـقوط دولتهم وزوال ملكهم، وكما أشـرنا سابقاً فانّ هذا القسم لاعلاقة له بما سبقه من أقسام، ومن الواضح أنّه هناك بعض الأقسام التى حذفها السيد الرضى (ره) من الخطبة.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۲۷

القسم الأول: أحب العباد إلى اللّه

اشارة

«عِبادَ اللّهِ! إنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبادِ اللّهِ إلَيْهِ عَبْداً أَعانَهُ اللّهُ عَلَى نَفْسِهِ، فاسْتَشْـعَرَ الْحُزْنَ، وتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ؛ فَزَهَرَ مِصْـباحُ الْهُدَى فِى قَلْبِهِ، وأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وهَوَّنَ الشَّدِيدَ. نَظَرَ فَأَبْصَـرَ، وذَكَرَ فَاسْـتَكْثَرَ، وارْتَوَى مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ سُهِّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهَلًا، وسَـلَكَ سَبِيلًا جَـدَداً، قَدْ خَلَعَ سَـرابِيلَ الشَّهَواتِ، وتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ، إلّا هَمّـاً واحِـداً انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِـفَةِ الْعَمَى، ومُشارَكَـةِ أَهْـلِ الْهَوَى، وصارَ مِنْ مَفاتِيـحِ أَبْوابِ الْهُـدَى، ومَغالِيقِ أَبْوابِ الرَّدَى، قَـدْ أَبْصَـرَ طَرِيقَهُ، وسَـلَكَ سَبِيلَهُ، وعَرَفَ مَنارَهُ، وقَطَعَ

غِمارَهُ، واسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثَقِها، ومِنَ الْحِبالِ بِأَمْتَنِها، فَهُوَ مِنَ الْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ».

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام خطبته- كما أشرنا إلى ذلك سابقا- بذكر صفات أولياء اللّه والسالكين إليه، بالشكل الذى جعل ابن أبي‌الحديد يصرح فى شرحه قائلًا:

«واعلم أن هذا الكلام منه أخذ أصحاب علم الطريقة والحقيقة علمهم، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من اللّه تعالى»[۶۸۸]

. ويرى البعض أنّ الإمام عليه السلام قد عرف نفسه بهذه العبارات؛ لأنّ العرفان درجة حال رفيعة شريفة جداً، لاتناسب إلّاأمثاله عليه السلام، والأنسب أن يقال بأنّ بيان الإمام عليه السلام استهدف

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۲۸

شرح الصفات الكلية للكاملين من العرفاء وأصحاب السلوك إلى اللّه، حيث يتمثل مصداقهم به وزوجه والمعصومين من ولده عليه السلام. والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لم يترك جانباً من الجوانب المهمّة لحال الإنسان الكامل حتى ذكر له أربعين صفة. فقد إستهل كلامه قائلًا:

«عباد اللّه! إنّ من أحبّ عباد اللّه إليه عبداً أعانه اللّه على نفسه»،

فالعبارة تشير إلى نقطة مهمة وهى أنّ إجتياز هذا الطريق ليس ميسراً لأحد- دون عناية اللّه- وذلك لعظم المخاطر والمطبات التى يتعذر على الإنسان عبورها بقوته المتواضعة، فليس أمامه سوى التوكل على اللّه وتسليم اموره إليه ليستلهم العون من مصدر فيضه ولطفه الذى لاينضب، وهذا ما أشار إليه القرآن بالقول: «وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً»[۶۸۹]. ومن الواضح أنّ ألطاف اللّه سبحانه وتفضلاته ليست قائمة على العبث، بل لابدّ من نيلها بواسطة التسليم المطلق وحمل القلوب إليه وعدم إسكانها غيره. ثم خاض الإمام عليه السلام فى بيان نتيجة هذا اللطف قائلًا:

«فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف»

استثعر من مادة شعار مايلى البدن من اللباس، وجعل الحزن بمنزلة الشعار يعنى أنّ مثل هؤلاء الأفراد المؤمنين إنّما يعيشون الحزن فى باطنهم على ما مضى من أيام عمرهم ولم يجدوا فيها كما ينبغى لطاعة معبودهم، وبالطبع فانّه حزن بناء يسوقهم نحو العمل والحركة لتدارك مافاتهم. تجلبب من مادة جلباب ما يكون فوق جميع الثياب وتجلبب الخوف إشارة إلى أنّ هؤلاء الأفراد المخلصين يراقبون أنفسهم على الدوام، حذرين من صدور الزلل وما من شأنه أن يخرجهم من زمرة المخلصين والسعداء. كما يحتمل أن يكون حزنهم بسبب فراق المحبوب وخوفهم من عدم الوصال. ثم خاض الإمام عليه السلام فى نتيجة هذا الحزن والخوف البناء:

«فزهر مصباح الهدى فى قلبه، وأعدّ القرى ۶۹۰] ليومه النّازل به»

وزهور مصباح الهداية إشارة إلى تلألأ أنوار المعارف الإلهية فى قلوبهم يتذوقون بها حلاوة الإيمان: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ»[۶۹۱] والتعبير بالقرى الذى يعنى الوسيلة المعدة للضيوف يشير إلى أن يوم الأجل أو القيامة الذى يمثل ذروة الخشية والخوف لايعنى لهم سوى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۲۹

ورود الضيف على المضيف الكريم، وكأنّهم كالشهداء ضيوف الرحمن الذين يرتزقون من فضل إحسانه: «بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»[۶۹۲]. ثم قال عليه السلام:

«فقرّب على نفسه البعيد، وهوّن الشّديد»

أى يرى قرب الأجل والقيامة التى يحسبها الأعم الأغلب بعيدة، ولذلك سهل عليه تحمل الشدائد وصعوبات الطاعة وترك الذنوب والمعاصى. ثم تطرق عليه السلام إلى خمسة امور يختزن كل واحد منها صفة من صفات هؤلاء العباد من أهل الاخلاص والعرفان

فقال عليه السلام:

«نظر فأبصر، وذكر فاستذكر، وارتوى ۶۹۳] من عذبٍ فراتٍ ۶۹۴] سهّلت له موارده، فشرب نهلًا،[۶۹۵] وسلك سبيلًا جدداً»[۶۹۶]

فقد تضمنت هذه العبارات القصيرة البعيدة المعانى الإشارة من جانب إلى أهمية التفكر والنظر إلى عالم الوجود ومسائل الحياة التى تشكل أساس البصيرة الكاملة ومعرفة اللَّه، كما أشارت من جانب آخر إلى المداومة على ذكر اللَّه التى تؤدى إلى إحياء القلوب وإطمئنانها: «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»[۶۹۷] ثم أشار إلى الارتواء من منبع الوحى وكلمات المعصومين عليهم السلام ليتزودوا منهم فيسيروا على الطريق ويحثوا الخطى نحو قرب الحبيب والفوز بوصاله. ثم تطرق عليه السلام إلى ستة أوصاف لتهذيب نفس اولئك العباد المخلصين موضحاً معطياتها وآثارها فقال عليه السلام:

«قد خلع سرابيل الشّهوات، وتخلّى من الهموم، إلّا همّاً واحداً انفرد به، فخرج من صفة العمى، ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبوابالهدى، ومغاليق أبواب الرّدى»

نعم فان هجر الشهوات وتصويب العين صوب مبدأ عالم الوجود وتنقية القلب إنّما يفتح بصيرة الإنسان، فلايصبح ذلك الإنسان سالكاً لسبيل الحق فحسب، بل يكون دليلًا ورائداً للطريق، ثم يودعه اللَّه مفاتيح الهداية أقفال الضلالة

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۳۰

وأبواب النيران، فيفتح طريق الحق لسالكيه ويغلق باب جهنم بوجه العباد. ثم أشار عليه السلام إلى ست صفات اخرى فقال:

«قد أبصر طريقه، وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره،[۶۹۸] استمسك من العرى ۶۹۹] بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوءالشّمس»

فالواقع أنّ الصفات الست السابقة أكدت على الجوانب العملية، بينما أضيفت لها هنا الجوانب العقائدية، فالخروج من صفة العمى وطرح حجب الهوى والظفر بسبيل الحق وطرق المعرفة وتجاوز بحار الشهوات والتمسك بعرى الهداية المتمثلة بالقرآن الكريم وكلمات المعصومين والراسخين فى العلم، إنّما تجعل هذا العبد المخلص يبلغ مقام حق اليقين، فيرى الحقائق بأم عينه، بل تمثل له كالشمس فى رابعة النهار، وهذه أعظم نعمة يصيبها العبد وأكرم ثواب يمنحه السالكين إلى اللَّه. وقد جرى الكلام سابقا عن سلوك السبل القويمة المحكمة:

«سلك سبيلًا جددا»

كما كان هناك الانفتاح على الحقائق:

«نظر فأبصر»

ثم تكرر هذا الأمران بعبارة أخرى فقال عليه السلام:

«قد أبصر طريقه وسلك سبيله»

، ولكن وكما ذكرنا آنفا فقد ورد الحديث فى السابق عن الجوانب العملية، بينما جاء الكلام هنا عن الأبعاد العلمية؛ أى أنّ معرفة الطريق وسلوك السبيل المطمئن ضرورى فى المرحلتين.

أفضل النعم

أشار الإمام عليه السلام فى هذا القسم من خطبته إلى أساس مطلق السعادات ودافع الإنسان إلى كافة الصالحات، وما يسهل عليه تحمل الشدائد والصعاب، ويحيله بالتالى إلى كائن يأبى القهر والانهزام، وقد عبر عنه فى موضع:

«فظهر مصباح الهدى فى قلبه»،

وفى موضع آخر:

«فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس»

ألا ـ وهو مقام اليقين؛ وهو على مراتب، صنفها القرآن الكريم إلى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وبالطبع فانّ حق اليقين تمثل المرحلة الأخيرة،

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۳۱

وهى مرحلة شهود الإنسان الكاملى لعالم الغيب على غرار مشاهدته لضوء الشمس، وهى المرحلة التى بلغها أميرالمؤمنين على عليه السلام حين قال:

«لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقينا»[۷۰۰]

وقد جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه و آله قال:

«ألا إنّ الناس لم يعطوا فى الدنيا شيئا خيراً من اليقين والعافية، فاسئلوهما اللّه»[۷۰۱].

وقال أميرالمؤمنين على عليه السلام:

«ما أعظم سعادة من بوشر قلبه ببرد اليقين»[۷۰۲]

. ومن الطبيعى أنّ الوصول إلى هذا المقام يتطلب من الإنسان إجتياز طريق صعب شائك بحيث لايغفل طرفة عين فيه عن اصلاح نفسه وتهذيبها، ويشفع أولياءاللّه فى نفسه ويلهج قلبه قبل لسانه ببعض ما ورد فى الأدعية الشعبانية:

«إلهى هب لى كمال الانقطاع إليك، ونر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا ملعقة بعز قدسك».

كثير وطويل هو الكلام فى اليقين. ونكتفى بحديث عن أميرالمؤمنين على عليه السلام فى كيفية الوصول إلى اليقين، فقد قال عليه السلام:

«أين الموقنون؟

الذين خلعوا سرابيل الهوى، وقطعوا عنهم علائق الدنيا».[۷۰۳]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۳۳

القسم الثانى: خصائص المخلصين

اشارة

«قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلَّهِ- سُبْحانَهُ- فِى أَرْفَعِ الْأُمُورِ، مِنْ إِصْدارِ كُلِّ وارِدٍ عَلَيْهِ، وتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ، مِصْباحُ ظُلُماتٍ، كَشَّافُ عَشَواتٍ خشوات مِفْتاحُ مُبْهَماتٍ، دَفَّاعُ مُعْضِلاتٍ، دَلِيلُ فَلَواتٍ، يَقُولُ فَيُفْهِمُ، يَسْكُتُ فَيَسْلَمُ، قَدْ أَخْلَصَ لِلَّهِ فاسْتَخْلَصَهُ، فَهُوَ مِنْ مَعادِنِ، دِينِهِأَوْتادِ أَرْضِهِ، قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ، فَكانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْىُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ، يَصِفُ الْحَقَّ ويَعْمَلُ بِهِ، لا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غايَةً إِلَّا أَمَّها، ولا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَها، قَدْ أَمْكَنَ الْكِتابَ مِنْ زِمامِهِ، فَهُوَ قائِدُهُ وإِمامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كانَ مَنْزِلُهُ».

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى نقطة مهمة مكملة للقسم السابق، وهى أنّ العبد المخلص للّه- الذى دار الحديث عنه سابقاً- بعد أن يتم مرحلة تهذيبالنفس والوصول إلى المقامات العالية فى العلم والعمل والتقوى يهب لهداية الخلق ويصبح رائدا على الطريق لينجى الناس من ظلمات الجهل والوهم والضلال. فالواقع أنّ مثل هذا العبد ما إن يجتاز مرحلة السير إلى الحق وفى الحق حتى يستأنف مرحلة السير إلى الخلق فينهض بعبئ تبليغ الرسالة التى حمل مشعلها الأنبياء. فقد قال عليه السلام:

«قد نصب نفسه للّه- سبحانه- فی أرفع‌الْأمور»،

آنذاک خاض الإمام علیه السلام فی شرح هذه الوظائف بعبارات قصیرهٔ بعیدهٔ المعانی فقال:

«من إصدار کلّ واردٍ علیه، وتصییر کلّ فرعٍ إلی أصله»،

فالعبارهٔ تشیر إلی نقطهٔ مهمّهٔ وهی أنّ هذا العبد العالم المخلص قد إنطوی علی إحاطهٔ بعلوم الدین وأحکامه إلی درجهٔ

نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۳۳۴

جعلته قادراً علی الرد علی کل ما یطرح من سؤال وإستفسار. کما تتضمن العبارهٔ تلمیحاً إلی عدم وجود سؤال فی الدین لایحمل جواباً، کما لیس هنالک من مشکلهٔ فی المعارف الإلهیهٔ والأحکام الفرعیهٔ دون حلول؛ الأمر الذی أکده رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله فی خطبته المعروفهٔ فی حجهٔ‌الوداع، إذا قال:

«یا أیها الناس! واللّه ما من شئ یقربکم من الجنّهٔ، ویباعدکم من النار، إلا وقد أمرتکم به، وما من شئ یقربکم من النار، ویباعدکم من الجنّهٔ، إلا وقد نهیتکم عنه»[۷۰۴]

، وهو ما تعارف فی فقه الإمامیهٔ بعنوان:

«لیس هنالک من واقعهٔ إلّاوللّه فیها حکم».

والعبارهٔ

«تصییر کل فرع إلی أصله»

تشیر فی الواقع إلی التعریف الذی ذکره علماء الدین للاجتهاد والاستنباط، حیث صرحوا بأن حقیقهٔ الاجتهاد هی:

«رد الفروع إلی‌الاصول»؛

أی الاجابهٔ علی کل فرع بالاستفادهٔ من القواعد والاصول الکلیهٔ المستقاهٔ من الکتاب والسنهٔ ودلیل العقل، والمجتهد من یعلم بأنّ الفرع لأی‌أصل یعود. کما تشیر العبارهٔ ضمنیاً إلی فتح باب الاجتهاد فی کل مکان وزمان، وقد بینت شرائط المجتهد من حیث العلم والعمل فی الابحاث السابقهٔ. ثم قال علیه السلام:

«مصباح ظلماتٍ، کشّاف عشواتٍ ۷۰۵] مفتاح مبهماتٍ، دفّاع معضلاتٍ، دلیل فلواتٍ»[۷۰۶].

فقد کشف الإمام علیه السلام بهذه الصفات الخمس کیف یخترق هذا العبد المخلص الورع والمتقی حجب الجهل الظلمانیهٔ، فیکشف ما خفی من المعارف، ویفتح أقفال الغوامض والمبهمات ویحل مشاکل الناس، کما یهدی الناس إلی الحق والنجاهٔ فی صحراء الحیاهٔ الملیئهٔ بالحیرهٔ والضلالهٔ وخشیهٔ الوقوع فی مخالب اللصوص وقطاع الطرق. ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه بالحدیث عن خمس صفات اخری لهذا العالم الربانی فقال:

«یقول فیفهم، ویسکت فیسلم»

. نعم کلامه هادف، وسکوته هو الآخر هادف أیضاً، فهو یتکلم حیث لابدّ من الکلام، بینما یسکت حین یخشی الذنب والمعصیهٔ من جراء الکلام، فکلامه وسکوته للّه ولایهدف فیها سوی رضاه. فالحق إننا نعرف بعض الأفراد الذین یسعون جاهدین لاحاطهٔ

نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۳۳۵

ما یقولون ویکتبون بهالهٔ من التعقید والابهام لیفهموا الآخرین بمستواهم العلمی، والحال لایجنی القارئ أو المستمع سوی المفاهیم المغلقهٔ التی لاجدوی من ورائها؛ أمّا العلماء المخلصون فلا یصابون بهذه الأمراض، فهم لایرومون من کلامهم سوی هدایهٔ الطرف المقابل، أمّا سکوتهم فلا یستند إلی الهروب من المسؤولیهٔ والخلود إلی الراحهٔ والدعهٔ، بل لایرومون من سکوتهم سوی السلامهٔ من الخطیئهٔ والاثم ومجانبهٔ الهوی ومعصیهٔ اللَّه. ثم أشار علیه السلام إلی مقام هذا العارف الإلهی فقال:

«قد أخلص للّه فاستخلصه»،

يمكن أن تكون هـذه العبارة إشارة إلى نقطـة لطيفة وهى أنّ الشوائب الأخلاقية للإنسان على قسـمين: قسم قابل للرؤية ويمكن التغلب عليه من خلال الجهاد الأكبر وإصـلاح النفس، بينما يتعذر رؤية القسم الآخر. واللّه سـبحانه فى عون من ينتصر فى المرحلة الاولى وقد صورت الروايات الإسلامية الشرك بأعظم صورة حيث قالت:

«إنّ الشرك أخفى من دبيب النمل، على صفاة سوداء، فى ليلة ظلماء»[۷۰۷]

. ومن الطبيعى أن تطهير القلب من هـذا الشـرك لايبـدو سـهلًا إلّـافى ظل العنايـة الإلهيـة. ثم أردف الإمام عليه السـلام تلك الصـفات الثلاث بصفتين فقال:

«فهو من معادن، دينه وأوتاد عرضه»،

نعم من خلص كيانه من كل الجوانب وكان عمله هو التربيـة والتعليم فهو بمنزلة المعدن الذى لايفنى والذى تسـتخرج منه المجوهرات والفلزات الثمينة، وهو كالجبل الراسخ الذى لاتزعزعه عواصف الشـرك ورياح الذنوب والمعاصى والوساوس والمكائد الشيطانية التى تتقـاذف الإنسان وتلقى به فى مهالك الردى وقـد عبر عنه القرآن الكريم بوتـد الأرض الـذى يحفظها من الزلازل: «ألم نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً* وَالجِبالَ أَوْتاداً»[۷۰۸] وتشبيه هـذا العالم الربانى والعبـد المخلص بالجبل الى يمثل وتـد الأرض تفيد عظم بركته على المجتمع الإسلامى.

فمثل هـذا الفرد هو الذى يحفظ المجتمع الإسـلامى من عواصف الانحراف والفساد. ثم واصل الإمام عليه السـلام كلامه بالإشارة إلى أربع صفات اخرى من صفات هذا العالم الربانى فقال:

«قد ألزم نفسه العدل، فكان أوّل عدله نفى الهوى عن نفسه»

فنحن نعلم بأنّ حقيقة العدل الخلقى أن تكون كافة صفات ومميزات الفرد منسجمة وحد الاعتدال والاتزان، بحيث لاتنطوى

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۳۶

شخصـيته على الرغبات المفرطـة التى تسوقه إلى الهوى إلى جانب عدم الانزواء والتقوقع عن الدنيا، فلابد له أن يستسـيغ الحلال ويمج الحرام ويسلك خط الاعتدال. فالعبارة

«أول عدله ...»

تفيـد انطلاقه فى العـدل من ذاته، والحق أنّه مالم يكن كـذلك فليس لكلامه من أثر فى الآخرين فى الـدعوة إلى العدالـة. ثم قال فى الصفة الثانية

«يصف الحقّ ويعمل به»

فـان كان نصـيرا للحق لم يقتصـر ذلك على لقلقـة اللسان، بل كانت دعوته ونصـرته للحق على مسـتوى السـلوك والأفعال قبل اللسان والأقوال، وذلك لأنّ كلامه النابع من إيمانه واعتقاده إنّما ينعكس مباشرة على سلوكه وتصرفه، ولولا ذلك الانعكاس لأفاد الأمر عدم إيمان ذلك الفرد بما يقول. ثم قال عليه السلام فى الصفة الثالثة:

«لا يدع للخير غايةً إلّا أمّها، ولا مظنّةً إلّا قصدها»

انه طـالب كـل خير وإحسـان وسـعادة، بـل يقتفى آثار حتى تلك الحالات التى يرتجى من وراءها خيراً، فهو عاشق للخير وكأنّه ذلك الفرد الذى يبحث عن ضالته النفيسه، فهو لاينفك عن مطاردتها هنا وهناك. وقال فى الصفة الرابعة

«قد أمكن الكتاب من زمامه، فهو قائده وإمامه، يحلّ حيث حلّ ثقله،[۷۰۹] وينزل حيث كان منزله»

وهكـذا يرى هـذا العبـد المخلص نفسه مكلّفـاً بهدايـة النـاس منطلقـاً قبل ذلك من إصـلاح نفسه واجتثاث جـذور الهوى من أعماقها؛ فلسانه يصـدع بالحق دائماً، كما يعمل بهـذا الحق إلى جانب سـعيه الـدؤوب خلف الصالحات وأعمال الخير، والأهم من كل ذلك أنّه جعل القرآن إمامه الذى يقوده حيث شاء فقد فوض إليه كافة اموره، فكانت سكناته وحركاته مستندة إلى القرآن.

تأمّلان

۱- فتح باب الاجتهاد

یری أتباع مدرسهٔ أهل‌البیت علیهم السلام أنّ باب الاجتهاد واستنباط الأحکام الشرعیهٔ من
نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۳۳۷
أدلتها المعروفهٔ (الکتاب والسنهٔ والإجماع والعقل) مفتوح علی الدوام؛ الأمر الذی رقی بالفقه الإسلامی وأخذ بیده نحو الکمال. بینما نعلم أنّ فریقاً من المسلمین قد ذهب إلی غلق باب الاجتهاد، لیحصره ویجعله حکراً علی الأئمهٔ الأربع! رغم عدم قلّهٔ الأفراد الذین کانوا یفوقونهم علماً فی الأمهٔ الإسلامیهٔ، فالواقع لیس هنالک من دلیل یدعو إلی حصر الاجتهاد فی ذلک العدد المذکور. فی حین تحدث الإمام علیه السلام فی هذه الخطبهٔ عن خصائص المسلم المخلص العالم وفی مقدمتها إجتهاده فی أحکام الدین فقال:
«قد نصب نفسه للّه- سبحانه- فی أرفع الأمور، من إصدار کلّ واردٍ علیه، وتصییر کلّ فرعٍ إلی أصله، مصباح ظلماتٍ، کشّاف عشواتٍ مفتاح مبهماتٍ، دفّاع معضلاتٍ»
کما أشار ضمنیاً فی عدهٔ مواضع من هذه الخطبهٔ إلی الشرائط التی ینبغی توفرها فی الفقیه المجتهد، والتی تدل علی أن الفقیه لایتصدی لهذه المسؤولیهٔ الخطیرهٔ مالم تکن له رابطهٔ خالصهٔ بالحق سبحانه وتعالی وهذا وقد تناولنا فی شرحنا للخطبهٔ الثامنهٔ عشرهٔ فی المجلد الأول أهمیهٔ الاجتهاد وفتح بابه أمام العلماء، إلی جانب الحدیث عن الاضرار الفادحهٔ التی أفرزتها فکرهٔ الاعتقاد بغلق باب الاجتهاد من قبل فقهاء العامهٔ.

۲- شمولیهٔ القرآن

لقد أشار الإمام علیه السلام کراراً ومراراً فی أغلب خطب نهج‌البلاغهٔ إلی أهمیهٔ القرآن الکریم، فکان یتناول أحد الأبعاد فی کل خطبهٔ. وقد تحدث فی هذه الخطبهٔ عن خصائص العبد المخلص، فکان من بینها تسلیمه المطلق لکلام اللَّه، بحیث جعل القرآن قائده وإمامه لیتبعه فی حرکاته وسکناته، وبعبارهٔ اخری فهو ینظر إلی القرآن کمحور لکافهٔ جوانب حیاته، لاوسیلهٔ لتوجیه عقائده وأفکاره، فهو علی العکس من أولئک الذین یتشدقون بتبعیتهم للقرآن، بینما یسعون لتکییف القرآن ومتطلباته وآرائهم، لیکونوا مصداقا لقوله: «وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ»[۷۱۰]. فما لاینجسم ورغباتهم نسوه وهجروه، ولو کان ظاهره لایخدمهم عمدوا
نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۳۳۸
إلی باطنه علی ضوء نزعاتهم، والعکس صحیح فقد یتخلون عن باطن القرآن ویتمسکون بظاهره عله ینسجم وأهوائهم. فهم منحرفون لم یؤمنوا بالقرآن قط علی أنّه دلیلهم وإمامهم، بل هم فی الواقع لیسوا عبید اللَّه، بل عبدهٔ الأهواء، والتفسیر بالرأی الذی نهت عنه أغلب الروایات إنّما هو شعبهٔ من شعب عبادهٔ الهوی والشرک الخفی؛ فاین هؤلاء من العلماء المخلصین؟
نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۳۳۹

القسم الثالث: العلماء المخلصون والعلماء المتشبهون

اشارهٔ

«وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عالِماً ولَيْسَ بِهِ، فاقْتَبَسَ جَهائِلَ مِنْ جُهَّالٍ، أَضالِيلَ مِنْ ضُلَّالٍ، ونَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْراكاً مِنْ حَبائِلِ حبال غُرُورٍ، وقَوْلِ زُورٍ؛ قَدْ حَمَلَ الْكِتابَ عَلَى آرائِهِ رأيه؛ وعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوائِهِ، يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظائِمِ، ويُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرائِمِ، يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهاتِ، وفِيها وَقَعَ، وَيَقُولُ: أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ، وبَيْنَها اضْطَجَعَ، فالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسانٍ، والْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوانٍ. لا يَعْرِفُ بابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ، ولا بابَ الْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ، ذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْياءِ».

الشرح والتفسير

كان الكلام فى الأبحاث السابقة عن العلماء المخلصين الذين كانوا هداة على الطريق، منهم مصباح ظلمات، وكشاف عشوات ومفتاح مبهمات ودفاع معضلات، وهو ملاذ الضعفاء ومفزع العباد، وقد بين الإمام عليه السلام صفاتهم على أكمل وجه، أمّا هنا فقد تحدث الإمام عليه السلام عن المتشبهين بالعلماء من أهل الضلال الذين كمنوا للخلق وصدوهم عن الحق بباطلهم ومكرهم واستغلال سذاجتهم من أجل تحقيق أطماعهم المادية. فقد عدّ الإمام عليه السلام عشر من صفاتهم فقال:

«و آخر قد تسمّى عالماً وليس به»

. فالتعبير بالفعل

«تسمى»

بصيغة المتعدى تفيد أن اليقظين من أبناء الامّة لايرونهم علماء، وهم ليسوا كذلك أيضاً عنداللّه، بل يزعم أحدهم أنّه عالم، إلى جانب شلة من الجهال المتأثرة بكذبهم ودجلهم. ثم قال فى الصفة الثانية:

«فاقتبس جهائل من جهّالٍ، وأضاليل من ضلّالٍ»

. فالمفردة

«إقتبس»

التى تعنى هنا التعلم، تفيد أن هذا

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۴۰

العالم المزيف إنّما أجاء هذا الفن فى الخداع والتضليل إثر تعلمه ممن سبقه، فوظف ما تعلم فى هذا الانحراف دون أن يجعل جهاده وسعيه للعلم والعمل فى خدمة الحق، وهذا لعمرى قمة البؤس والشقاء. ولعل الفارق بين

«جهائل» و «أضاليل»

أن جهائل (جمع جهالة) تعنى الجهل المركب؛ أى أنّه جاهل ولايدرى أنّه كذلك (ولايدرى أنّه لايدرى) أمّا أضاليل (جمع أضلولة) فهى تعنى الامور المضلة التى يتجه إليها عن علم. ثم قال فى الصفة الثالثة

«و نصبللنّاس أشراكاً[۷۱۱] من حبائل غرورٍ، وقول زورٍ»؛

ياله من تعبير رائع! نعم فهو كالصياد الذى ينشر الحبوب فيجعلها فخاً للطيور والحيوانات البلهاء، فيبيعها ويتغذى على لحومها، وهذا ما يفعله هذا العالم المزيف تجاه السذج من الناس فيجنى أطماعه المادية ومنافعه الشخصية. وما أبرز مصاديق هؤلاء على مر التأريخ فى كل عصر ومصر، الذين يسخرون الدين لخدمة دنياهم، فقد جاء فى الخبر أنّ الإمام عليه السلام وصف عبداللّه بن الزبير قائلًا:

«ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا»[۷۱۲]

(وقد قال الإمام عليه السلام ذلك حين لم تتضح شخصيته ويكشف عن مواقفه). ثم قال فى الصفة الرابعة:

«قد حمل الكتاب على آرائه وعطف الحقّ على أهوائه»،

بالضبط على عكس العالم الذى طالعتنا صفاته فى أنّه أمكن الكتاب من زمامه وجعله قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله، فهو تابع للقرآن بكل كيانه. والحق ليس هنالك من وسيلة أفضل من هؤلاء المزيفين للتعرف على العلماء العاملين. فذاك

الذى جعل القرآن قائده وإمامه هو العالم المخلص، أمّا هذا الذى يفسر القرآن برأيه ويسعى لتطبيق القرآن على متطلباته ورغباته. لهو عالم سوء مزيف. وقد جاء فى الحديث عن رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار»[٧١٣]

. كما عنه صلى الله عليه و آله أنّ اللّه سبحانه وتعالى قال:

«ما آمن بى من فسر برأيه كلامى»[٧١٤]

والدليل واضح فمن آمن باللّه علم أنّ الحق ما كان من اللّه، فان رأى غييره الحق فهو على خطأ. كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«من فسرّ برأيه

نفحات الولايهٔ، ج٣، ص: ٣٤١

آيهٔ من كتاب اللّه فقد كفر»[٧١٥]

. ثم قال فى الصفهٔ الخامسهٔ من صفات هذا الذى تشبه بالعلماء:

«يؤمن النّاس من العظائم، ويهوّن كبير الجرائم»

وهكذا فانّ الآثمين من الأفراد- الذين يشكلون الأكثريهٔ فى المجتمعات- يسعون لحشد الآراء لصالحهم، وبعبارهٔ اخرى فانّ هنالك الأغلبيهٔ الساحقهٔ فى المجتمع التى تسعى للتظاهر بالدين، أمّا فى داخلهم فهم يسعون من خلال ذلك لجمع الأفراد حولهم واستقطابهم بواسطهٔ مماشاتهم وتصغير الكبائر لديهم. ثم قال فى الصفهٔ السادسهٔ واصفا حال هذا العالم المزيف:

«يقول: أقف عند الشّبهات، وفيها وقع»،

فهذا المرائى الماكر يتظاهر أمام الناس بالدين إلى درجهٔ أنّه يزعم لهم: (لا- أجتنب المحرمات فحسب، بل أنا محتاط حتى فى الشبهات) والحال تعج حياته بالشبهات، وأبعد من ذلك المحرمات. وقيل فى تفسير هذه العبارهٔ أنّ اقتحامه للشبهات نابع من جهله، فمثل هؤلاء الأفراد إنّما يعانون عادهٔ من الجهل المركب، فيرون ضلالهم هدى ومعاصيهم تقوى. ومن الواضح أنّ هؤلاء الجهال يتحلون بهاتين الصفتين، فلا مانع من الجمع بين التفسيرين (لامكانيهٔ استعمال اللفظ فى أكثر من معنى). أمّا الشبهات فتطلق عادهٔ على الامور التى لاتعرف بصورهٔ تامهٔ، فهل هى حرام أم حلال؟ بعبارهٔ اخرى فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف:

«حلال بين، وحرام بين، وشبهات بين ذلك»[٧١٦]

؛ أى أن الشبهات هى حد الحرام. ومن هنا فمن أراد أن يصون نفسه عن الذنب وجب عليه عدم الاقتراب من هذا الحد، وإلّا هوى فى مستنقع الذنوب ووصل المعاصى. ولذلك جاء فى آخر الحديث:

«فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات، ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات، وهلك من حيث لايعلم».

ثم قال فى الصفهٔ السابعهٔ:

«و يقول: أعتزل البدع، وبينها اضطجع ٧١٧]»،

يمكن أن يكون هذا

نفحات الولايهٔ، ج٣، ص: ٣٤٢

الادعاء ممّا يفرزه المكر والخداع أو الجهل المركب، فاساس نشاط مثل هؤلاء الأفراد قائم على التشبث بالبدع وهجر السنن إرضاءاً لاهواء العامهٔ؛ الأمر الذى لايمكن تحقيقه إلّامن خلال البدع والأحداث فى الدين، وحقيقهٔ البدعهٔ إدخال ما ليس من الدين فيه، أو إخراج ما كان من الدين، وعليه فالبدعهٔ حرام، ولا- يعنى هذا رفض أساليب التجدد فى الحياهٔ فى كافهٔ جوانبها العلميهٔ والادبيهٔ والاجتماعيهٔ. فالبدعهٔ أن تحدث شيئا وتنسبه إلى الدين وهو ليس منه، والعكس صحيح. وما حالات الافراط والتفريط التى يمارسها

الجهال الا إفرازات طبيعية لعدم إدراك حقيقة البدعة. أمّا في الصفة الثامنة والتاسعة العاشرة التي تعد بمثابة نتيجة الصفات السابقة حيث أوردها الإمام عليه السلام بفاء التفريع فقد قال:

«فالصّورة صورة إنسانٍ، والقلب قلب حيوانٍ. لا يعرف باب الهدى فيتّبعه، ولا باب العمى فيصدّ عنه، وذلك ميّت الأحياء»

. حقا ليس هنالك من تعبير يصور وضع هؤلاء العلماء المزيفون أبلغ وأدق من هذا التعبير. فصورتهم ومظهرهم صورة إنسان، بل إنسان كامل ورع وعالم، في حين يسبح هذا الإنسان- بهذه الصفات- في بحر من الجهل المركب، فاذا فكر يوما في الهداية، ضل الطريق بسبب ذنوبه ومعاصيه، فهو لايعرف سبيل الحق والهدى ليهتدى إليه، ولا يعرف سبيل الباطل والضلال ليصد عنه، بالتالي فهو ميت يتحرك بين الأحياء، وقد ماتت فيه كل مقومات الحياة الانسانية. والواقع إنهم مصداق بارز للآية الشريفة: «إِنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرينَ»[٧١٨]، أو الآية الكريمة «وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِك كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِك هُمُ الغافِلُونَ».[٧١٩]

تأمّلات

١- علماء الضلالة

لايخفى على أحد خطر علماء السوء والضلالة، فأغلب الجرائم البشعة ا لتى يرتكبها الجهال، إنّما تعود جذورها إلى ما يسمى بهؤلاء العلما، المتطفلين على الدين المفارقين لأحكامه وتعاليمه، أو الذين جعلوا الدين مطية لدنياهم. فقد وصفهم أميرَالمؤمنين على عليه السلام بأدق وصف، فهم جهال خلطوا الجهل بالضلال، فجعلوا أنفسهم أئمة للقرآن يفسرونه برأيهم ويحملون آياته

نفحات الولاية، ج٣، ص: ٣٤٣

على رغباتهم وأهوائهم، فاصبحت حياتهم قائمة على أساس البدع والشبهات والذنوب والمعاصى، إلى جانب تصغيرها في أعين الناس وتزيينها لهم. فلم تبق لهم من الإنسانية سوى صورتها، أمّا السيرة فهى حيوانية تماماً. وقد تواترت الأخبار والروايات إلى جانب الآيات القرآنية التي لفتت إنتباه الأمّة إلى أخطارهم، لتحذر الناس من مغبة الاستجابه لهم والسقوط في حبائلهم وشباكهم. فقد روى أميرالمؤمنين على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه»،

بل إنّ الندم يصيبه وتعود مثل هذه الامور بالوبال عليه، ومن هنا ورد في ذيل الحديث السابق:

«وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة، رجل دعا عبدا إلى اللّه، فاستجاب له، وقبل منه، فأطاع اللّه، فأدخله اللّه الجنّة، وأدخل الداعى بترك علمه، واتباعه الهوى وطول الأمل»[٧٢٠]

. وقال الإمام الصادق عليه السلام أنّ اللَّه أوحى إلى نبيّه داود عليه السلام:

«لاتجعل بينى وبينك عالما مفتونا بالدنيا، فيصدك عن طريق محبتى؛ فان أولئك قطاع طريق عبادى المريدين إلى، إنّ أدنى ما أنا صانع بهم، أن أنزع حلاوة مناجاتى من قلوبهم»[٧٢١]

. فمن بين العلامات التى صرحت بها الروايات والأخبار بشأن علماء السوء والضلالة، ترك العمل بعلمهم، حيث قال رسولاللَّه صلى الله عليه و آله:

«لايكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملا»[٧٢٢]

. أمّا العلّامة البارزة الاخرى فهى اندفاعهم نحو البدع وتوجيه الضلال والانحراف والانغماس فى الدنيا، وكثرة الزعم والادعاء.

۲- التفسير بالرأى، فخ الشيطان الأكبر

إنّ من أعظم آفات الدين وعقبات العبودية طلب الحق والحركة إليه إنّما تتمثل بمعضلة

«التفسير بالرأى»

؛ المعضلة التى تهدد الدين بخطرها العظيم وتقضى على روح أغلب الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، فتحيلها إلى إلعوبة بيد هذا

وذاک لتوجيه أهوائهم وسوء

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۴۴

مقاصدهم، بعبارة أخرى تحيل الآيات والروايات إلى عجينة يصنع منها هذا المفسر ما يشاء ولايهدف سوى إلى تبرير فساده وإنحرافه وضلاله. وأبسط تعريف للتفسير بالرأى هو إخلاء الآيات والروايات من معناها الحقيقى وصبغها بالطابع المطلوب ومن الواضح أن الآيات والروايات لا- تفقد حقيقتها فى الهداية على ضوء هذه المعضلة- التفسير بالرأى فحسب، بل تصبح وسيلة لتبرير الضلال والانحراف. ومن هنا أكدت الروايات والأخبار بشدة النهى عن التفسير بالرأى، وقد مرّت علينا طائفة من هذه الأخبار والروايات فى الأبحاث السابقة، ثم رأينا كيف أنّ أميرَالمؤمنين على عليه السلام يذكر هذه الصفة فى إطار وصفه لعلماء السوء والضلالة على أنّ أهم صفة من صفاتهم تكمن فى التفسير بالرأى. فالعبارة التى تضمنها الحديث المعروف

«من فسر برأيه آية من كتاب اللّه فقد كفر»[۷۲۳]

تفيد أنّ التفسير بالرأى أرضية خصبة للنزوع نحو الكفر، وكذلك ما ورد فى الحديث الآخر بهذا الشأن:

«من فسر القرآن برأيه، إن أصاب لم يؤجر، إنّ أخطأخر أبعد من السماء».[۷۲۴]

وزبدة الكلام فانّ أخطار التفسير بالرأى كثيرة نشير إلى جانب منها:

۱- ايجاد حالة من الفوضى والا رباک فى فهم الآيات والروايات.

۲- إحالة وسائل الهداية والصلاح إلى ادوات للضلال والفساد ومضاعفة الاخطاء.

۳- إيجاد الاختلاف والتشتت والنفاق واثارة التخريب فى القضايا العقائدية والدينية.

۴- الهبوط بالكتاب والسنة من مقام الزعامة والإمامة إلى مستوى التابع والمقلد.

۵- تكييف التعاليم السماوية على ضوء انحرافات الأوساط الموبوءة.

۶- إحالة المفاهيم السامية المطلقة المستندة إلى الوحى إلى أفكار الإنسان المحدودة الضيقة.

۷- تمهيد السبل والذرائع للأفراد الضالين المضلين.

طبعاً ليس هنالک من علاقة بين التفسير بالعقل للآيات والروايات وتفسيرها بالرأى.

والمراد بالتفسير بالعقل هو الاستفادة من الأدلة والقرائن العقلية من أجل فهم معنى الآيات

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۴۵

والروايات. على سبيل المثال فان القرائن العقلية القطعية تصرح بأن المراد باليد فى الآية الشريفة: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»[۷۲۵] القدرة والقوة، لاهذه اليد العضو من أعضاء بدن الإنسان المركبة من اللحم والعظم والجلد. أمّا المراد بالتفسير بالرأى فهو الاستعانة بالقرائن الظنية أو الوهمية الخالية دون القرائن لتفسير الآيات والروايات وفقا للأهواء والرغبات. على كل حال فانّ هذا العمل نابع من الجهل أو الأهواء الشيطانية. ويتضح مما مر معنا أنّ اولئک الذين حاولوا توجيه ضلالهم وانحرافهم بواسطة التفسير بالرأى، قد ضلوا حتى فى مسألة التفسير الرأى وفسروها بوحى من رأيهم، ومن هنا نقف على أهمية ما ورد فى الخبر الذى صرح بعدم إثابة من فسر برأيه وإن أصاب. فليس هنالک من ركن يستند إليه فى التفسير بالرأى سوى الفرضيات الجوفاء والآراء الظنية والوهمية، الأمر الذى يقضى على

روح إصالة الوحی واشاعة جو الفوضی والاضطراب فی بیان المسائل الشرعیة، کما یقدح فی نوریة القرآن ویهدد بالغرق سفینة النجاة المتمثلة بأئمة العصمة علیهم السلام. وإلّا لو کانت هنا لک الفرضیات العلمیة المسلمة إلی جانب القرائن العقلیة لتعذر تسمیة هذا التفسیر بالتفسیر بالرأی، فهذا تفسیر بالعقل. ومما یؤسف له أنّ المنحرفین قد فسروا حتی مسئلة التفسیر بالرأی برأیهم لیتخذوا من الوحی وسیلة لتوجیه انحرافهم وتحقیق أطماعهم وأغراضهم.

۳- البدع مادة الانحراف

ذکر الإمام علیه السلام فی هذه الخطبة البدع التی تعد من الصفات التی یتصف بها هذا الصنف ممن تسمی بالعلماء، والحال أنّهم یدعون أنّهم بعیدون کل البعد عن البدع، وهم یسبحون فی هالة منها. وکما أشرنا سابقاً فانّ البدعة أن تحدث فی الدین ما لیس منه، أو أن تخرج منه ما هو فیه، وعلیه فهی لاتصدق علی الابداع والتجدید والخلاقیة فی المیادین السیاسة والاجتماعیة والاقتصادیة وشؤون الحیاة الیومیة، أو بعبارة أخری قد تکون البدعة فی الدین وقد تکون فی

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۳۴۶

غیره، فما کانت فی الدین فهی حرام ومضلة، وما کانت فی غیره فهی ممدوحة مطلوبة مالم تسیء إلی الدین. علی سبیل المثال فانّ رسولاللّه صلی الله علیه و آله أتی بحج التمتع؛ أی خرج من الاحرام بعد أداء العمرة ثم أحرم للحج بعد فاصلة، کما أجاز الزواج المنقطع، فان انبری من یقول لا أستسیغ حج التمتع، ولابدّ أن یکون الحج والعمرة معا، ولا أومن بالزواج المنقطع، فمثل هذا الشخص مبتدع فی دین اللّه، وهو والأمر الذی ذمته الروایات بشدّة، حتی قال رسولاللّه صلی الله علیه و آله:

«أهل البدع شر الخلق والخلیقة»[۷۲۶]

کما قال صلی الله علیه و آله:

«من تبسم فی وجه مبتدع، فقد أعان علی هدم دینه»[۷۲۷]

وما ذلک إلّاللأخطار العظیمة الناجمة عن البدع وفی مقدمتها القضاء علی إصالة الدین، ولو فتح باب الدین بوجه البدع وتصرف الأفراد فی العقائد والمفاهیم کما یحلولهم فسوف لن یمر وقت طویل حتی تنعدم آثار الدین ولایبقی إلّاإسمه، وبالتالی سوف لن یکون إلّا أداة طیعة بید المهووسین والمنحرفین المتطفلین علی الدین. ومن هنا جاء فی الروایة عن الإمام الصادق علیه السلام فی جوابه لمن سأله عن أقل ما یتعامل به ذلک الکافر قال

«أن یبتدع شیئا، فیتولی علیه، ویبرء ممن خالفه».[۷۲۸]

ولو تمعنا فی تاریخ الأدیان الباطلة لرأینا أنّها إنّما استندت فی الغالب إلی البدع.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۳۴۷

القسم الرابع: لم الضلال، والعترة بین الاظهر؟

اشارة

«فَأَیْنَ تَذْهَبُونَ»؟ «وَأَنَّی تُؤْفَکُونَ»! والْأَعْلامُ قَائِمَةٌ، والْآیَاتُ وَاضِحَةٌ، والْمَنارُ مَنْصُوبَةٌ. فَأَیْنَ یُتَاهُ بِکُمْ! وکَیْفَ تَعْمَهُونَ، وبَیْنَکُمْ عِتْرَةُ نَبِیِّکُمْ! وهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ، وأَعْلامُ الدِّینِ، وأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، ورِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِیمِ الْعِطَاشِ.

الشرح والتفسیر

لقد وصف الإمام عليه السلام فى المقطع السابق من هذه الخطبة العالم المخلص والآخر المزيف، ثم واصل الكلام فى هذا الموضع من الخطبة بالحديث عن أهل‌بيت النبى صلى الله عليه و آله ومكانتهم فى المجتمع الإسلامى، بغية معرفة الفريق الأول وتمييزه عن الثانى، إلى جانب الاقتداء به، إلّاأنّه أشار بصورة كلية إلى هذه المسألة فقال:

«فأين تذهبون، وأنّى تؤفكون ۷۲۹]، والأعلام قائمةٌ، والآيات واضحةٌ، والمنار منصوبةٌ».

فلا- يحق لكم القول إننا نعيش فى عصر تتقاذفنا فيه التيارات ولسنا لنا معرفة الحق من الباطل بعد أن إمتزجامعاً، كلا- ليس الأمر كذلك، فكل شئ واضح والموازين جلية بينه، وقد اعذر من انذر. فقد جرت العادة على نصب العلائم فى الطرقات بغية الاهتداء وعدم الضياع، فأحياناً توضع العلامات فى مفترقات الطرق المنعطفات، وأحياناً اخرى توضع المصابيح المضاءة على المرتفعات (ولا سيما فى الليالى الظلماء) ويكفى أى من هذه الطرق لمعرفة السبيل، فاذا إجتمعت هذه الطرق معا، بلغ الإنسان المطلوب وسارع فى خطاه نحو الهداية والصواب، فالذى أراد الإمام عليه السلام أنّ هذه الطرق قد سخرها اللَّه سبحانه لكم. ثم طبق الإمام عليه السلام هذا الكلى على مصداقه فانتقل من العام إلى الخاص، كيلا يقال أنّ هذه

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۴۸

الكليات لاتحل مشكلتنا، فأعاد قوله عليه السلام مستنكراً عليهم الحيرة والضلال، وعترة النبى صلى الله عليه و آله بين أظهرهم:

«فأين يتاه ۷۳۰] بكم! وكيف تعمهون ۷۳۱]»

نعم لايرتجى منكم الضلال والحيرة وبين أظهركم عترة رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله مصابيح الهدى وأعلام الورى والعروة الوثقى التى من تمسك بها نجى

«و هم أزمّة الحقّ، وأعلام الدّين، وألسنة الصّدق»

فمن أقبل عليهم أخذوا بيده إلى الحق، من إقتدى بهم عن بعد هدى إلى الرشد، بالتالى كل يهتدى بهديهم حسب تبعيته لهم.

أما العبارة:

«و هم أزمّة الحقّ»

فتفيد أنّ الحق يتحرك حول محورهم؛ المضمون الذى ورد فى الحديث المعروف

«على مع الحق، والحق مع على يدور حيثما دار»[۷۳۲]

. والعبارة:

«وألسنة الصّدق»

تعنى أنّهم تراجمة الوحى. كما يمكن أن يكون المراد أنّ لسانهم عليهم السلام لاينطق سوى بالصدق؛ سواء تحدثوا عن اللَّه ورسوله صلى الله عليه و آله، أم حدثوا عن أنفسهم، فكل ذلك صدق محض.

وبالطبع ليس هنالك من تضاد بين هذين التفسيرين ويمكن الجمع بينهما. ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول:

«فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردوهم ورود الهيم ۷۳۳] العطاش»

فالقرآن قد يجرى على لسان الإنسان، كما قد يظهر على عمله، وأخيراً قد يشغل حيزاً فى عمق روح الإنسان، وأفضل موضع للقرآن هو الموضع الأخير من المواضع الثلاثة المذكورة. فالعبارة تصرح بحب أهل البيت النابع من أعماق القلب والروح، كما ينبغى أن يعيش القرآن فى هذه الأعماق. والواقع هو أنّ هذه العبارة تؤكد حديث الثقلين الذى قرن العترة بالقرآن ودعا الناس كافة إلى اتباعهما والتمسك بها بغية الأمان من الضلال والفرقة. كما قيل فى تفسير هذه العبارة أنزلوهم أفضل المواضع التى أنزلهم بها القرآن الكريم، ألا- وهو مقام الإمامة والولاية الذى أشار إليه القرآن بالقول: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ...»[۷۳۴] والآية: «يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ ...»[۷۳۵] والآية: «قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى [۷۳۶] وسائر الآيات القرآنية

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۴۹

الواردة بهذا الشأن.[۷۳۷] ويبدو التفسير الأول أنسب. وأخيراً فالعبارة

«الهيم العطاش»

تفيد أنّهم عليه السلام منبع ماء الحياة، وأنّكم بأشدّ الحاجة إليهم، وعليه يجب عليكم المسارعة إليهم دون أدنى تريث أو ترديد.

منزلة أهل البيت عليهم السلام

يتضح بجلاء مما مر معنا فى هذا القسم من الخطبة أنّ وجود أهل البيت من عترة النبى صلى الله عليه و آله بين المسلمين، وتبعية الامّة لأقوالهم وأفعالهم إنّما تعصمهم من خطر الضلال، فهم أزمة الحق ومصابيح الهدى وأعلام الدين وألسنة الصدق وتراجمة الوحى. أمّا الروايات والأخبار الواردة من الفريقين فى التأكيد على حبهم فذلك لأن حبهم يبعث على إتباعهم، وبالتالى فانّ اتباعهم هو أساسا الهداية والحركة نحو الحق. ومن تلك الروايات ما اورده الفخر الرازى فى تفسيره المعروف عن الزمخشرى فى الكشاف أنّ رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«من مات على حب آل محمد مات شهيداً».

«ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له».

«ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً».

«ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمان».

«ألا ومن مات على حب آل محمد، بشره ملك الموت بالجنّة».

«ألا ومن مات على بغض آل محمد، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آئس من رحمة اللّه».[۷۳۸]

وورد فى حديث أنّه صلى الله عليه و آله قال:

«أنا أول وافد على العزيز الجبار يوم القيامة، وكتابه وأهل‌بيتى، ثم أمتى، ثم أسألهم: ما فعلتم بكتاب اللّه وبأهل بيتى؟»[۷۳۹]

هذا غيض من فيض الأحاديث والروايات التى صرحت بمنزلة أهل البيت وأكدت على حبهم والتمسك بهم.

نفحات الولاية ؛ ج۳ ؛ ص۳۴۹

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۵۱

القسم الخامس: أعلام الهدى

«أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوها عَنْ خاتَمِ النَّبِيِّينَ صلّى اللَّهُ عَلَيهِ وآلِهِ وَسلَّم: «إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ ماتَ مِنَّا ولَيسَ بِمَيِّتٍ، ويَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا ولَيْسَ بِبالٍ» فَلا تَقُولُوا بِما لا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيما تُنْكِرُونَ، واعْذِرُوا مَنْ لا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ- وهُوَ أَنا-، أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ! وأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رايَةَ الْإِيمانِ ووَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلالِ‌الْحَرام، وَأَلْبَسْتُكُمُ الْعافِيَةَ مِنْ عَدْلِي، وفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وفِعْلِي، أَرَيْتُكُمْ كَرائِمَ الْأَخْلاقِ مِنْ نَفْسِي، فَلا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيما لا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، ولا تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ».

الشرح والتفسير

أكد الإمام عليه السلام ما ورد فى القسم السابق بشأن عترة النبى صلى الله عليه و آله فاضاف قائلًا:

«أيها النّاس! خذوها عن خاتم النّبيّين صلى اللّه عليه وآله وسلم: إنّه يموت من مات منّا وليس بميّتٍ، ويبلى من بلى منّا وليس ببالٍ»

هناك كلام وخلاف بين شرّاح نهج‌البلاغة بشأن عودة الضمير فى

«خذوها»

ولكن يبـدو أنّه يعد إلى الحقيقة أو الكلام الحق ويعلم ذلك من قرائن الكلام، وان لم ترد في العبارات السابقة، فمفهوم العبارة: خذوا هذا الكلام الحق بشأن أهل‌البيت عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله. أمّا قوله: إنّه يموت من مات منّا وليس بميت، ويبلى من بلى منّا وليس ببـال، فقـد حمـل على المعنى الحقيقى في أنّ أجساد أولياءاللّه تبقى غضـة طريـة في القبور وهـم يتمتعون بنوع من الحياة بحيث يسمعون كلام الآخرين ويردون سلامهم، ولهم حياة

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۵۲

الشـهداء الـذين قـال اللّه سـبحانه وتعـالى فيهم: «وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».[۷۴۰] وعليه فالعبارة

«يموت»

تعنى الموت الظاهرى، والعبارة

«ليس بميت»

تعنى عدم الموت الواقعى، وهكذا عبارتى

«يبلى» و «ليس ببال»

. وقـال البعض أنّ المراد بعـدم الموت والبلى هنا المعنى المجازى، أى أن آثارهم وتعاليمهم باقيـة بين الناس إلى يوم القيامـة، وكأنّهم أحياء، ولعلنا نلمس هذا المعنى في رواية كميل في آخر نهج‌البلاغة بشأن العلماء العاملين

«أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»[۷۴۱]

. كما احتمل أن يكون المراد بالحياة هنا تلك الحياة البرزخيـة التى تكون فيها الروح في قوالب مثاليـة لطيفة، إلّاأنّ هذا الاحتمال يبدو مسـتبعداً لأنّ مثل هـذه الحياة لاتختص بالأئمـة والمقربين من أولياء اللّه. ويبدو الاحتمال الأول هو الأصح، وبالطبع فأنّها حياة أرفع من حياة الشهداء، فاننا نناديهم في الزيارة

«تسمع كلامى وترد سلامى»[۷۴۲]

. ثم أكد الإمام عليه السلام ذلك قائلًا:

«فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإنّ أكثر الحقّ فيما تنكرون»

في إشارة إلى أنّ معلومات الإنسان محدودة جدّاً وأنّ حقائق العالم عظيمة واسعة. والواقع أنّ العقل يقول في مثل هذه الحالة

«لاينبغى للإنسان ان يتنكر لكل شئ لايعرفه»

. على سبيـل المثـال لو لم يكن لـديه من علم بشأن حياة أولياءاللّه، فلاينبغى له أنّ ينكر ذلك. فليس هـذا الأمر الوحيـد الـذى لايعلمه أغلب الناس، بل هناك آلاف الالوف وملايين المليونات من الوقائع المتحققـة في الخارج والتى لا ندركها، وحسب تعبير أحد العلماء أنّ وقائع العالم بمنزلة كتاب ضـخم بحيث لو جمعت كافة علوم البشـرية من أولها إلى آخرها لما أصـبحت ورقة في ذلك الكتاب. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ليكشف عن حقيقة مريرة صعبة وكذلك مفيده نافعة بعيدة المعنى فقال:

«و اعذروا من لا حجّة لكم عليه- هو أنا»

أى أنى نهضت بكافة وظائفى الملقاة على عاتقى، فلم أقصـر في وظيفتى طرفة عين وقد أديت تكليفى أمام اللّه والعباد. وبناءاً على هذا فليس هنالك مايسى إلىَّ، ومن تفوه على فهو إمّا خاطئ أو مغرض. طبعاً هذا لايعنى أنّه لاتبدو آرائكم تجاهى وتبخلون

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۵۳

بالمشورة، إلّاأنّه يعنى ليس لكم حق الاعتراض على؛ الأمر الذى نلمسه في قوله لابن عباس:

«لك ان تشير علىَّ وأرى، فان عصيتك فأطعنى»[۷۴۳]

. ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح خدماته التى اسداها للُامّة بسبع عبارات، فقال بادئ ذى بدء

«ألم أعمل فيكم بالثّقل الأكبر»

فسيرة حياة الإمام عليه السلام ولا ـ سيما زمان حكومته تفيد أنّ القرآن كان محوره فى كافة أقواله وأفعاله؛ الأمر الذى أشار إليه رسولاللّه صلى الله عليه و آله حين قال:

«على مع القرآن، والقرآن مع على»[۷۴۴]

. ثم قال عليه السلام:

«و أترك فيكم الثّقل الأصغر»

وشاهد ذلك الحوادث التى وقعت ابان حياته عليه السلام بحيث كثيراً ما كان يتعرض أبناء رسولاللّه صلى الله عليه و آله وبقية الثقل الأصغر الإمام الحسن والحسين عليهما السلام إلى الاخطار، بينما كان يسعى الإمام عليه السلام جاهدا للحفاظ عليهما ومن ذلك أنّه شاهد الإمام الحسن عليه السلام وهو يسارع إلى الميدان فى معركة صفين فقال:

«أملكوا عنى هذا الغلام لايهدنى، فاننى أنفس بهذين يعنى الحسن والحسين عليهماالسلام- على الموت لئلا ـ ينقطع بهما نسل رسولاللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم»[۷۴۵]

. ثم قال فى العبارة الثالثة:

«قد ركزت فيكم راية الإيمان».

فكلام على عليه السلام- ومن ذلك خطبه فى نهجالبلاغة- بشأن المبدأ والمعاد وأدلة نبوة رسولاللّه صلى الله عليه و آله تفيد أنّه كان ينتهز الفرص من أجل تقوية عرى الإيمان فى قلوب الامّة.

وقال فى العبارة الرابعة:

«ووقفتكم على حدود الحلال والحرام»

وقد بلغ من تأكيد الإمام عليه السلام على بيان مسائل الحلال والحرام بحيث أنّه لم يكن يقتصر على بيانها فى خطبه فى المساجد وسائر الحلقات، بل كان يقوم بذلك كل يوم حين يتفقد السوق ويخاطب التجار والكسبة ويوصيهم بالتفقه بالدين، بل لم يحفل التأريخ بمثل أميرَالمؤمنين عليه السلام فى بيانه لأحكام الشرع ومسائل الحلال والحرام. فقد جاء فى الخبر أنّه كان يطوف بالأسواق وينادى أهلها بالورع التقوى وعدم القسم فى المعاملة، فانها تذهب البركة والتاجر فاجر إلّاأنّ يأخذ حقاً ويعطى حقا، ثم يأتى ثانية ويخاطبهم بهذه الكلمات ۷۴۶]. كما كان يطوف فى أسواق القصابين ويناديهم من غشنا ليس منا.[۷۴۷]

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۵۴

ثم قال عليه السلام فى العبارة الخامسة:

«و ألبستكم العافية من عدلى»

فعدالة أميرَالمؤمنين عليه السلام وتاثيرها فى إعادة روح الاستقرار والهدوء إلى المجتمع ليست بخافية على أحد، لم يكف لحظة إبان حكومته عن التأكيد على ضرورة بسط العدل والقسط، حتى صرح عليه السلام قائلًا:

«واللّه لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الاماء، لرددته فان فى العدل سعة. ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق».[۷۴۸]

ثم قال فى العبارة السادسة

«و فرشتكم المعروف من قولى وفعلى»

فأعمال الخير والاحسان قد تشيع وتتسع رقعتها فى المجتمع عن طريق الوصايا والمواعظ الخطب، كما يمكن أن تنتشر عن طريق

عرض النماذج والقدوات العملية، والحق أن الإمام عليه السلام كان قدوة فى الأمرين، وقد شحنت كتب التواريخ ونهج‌البلاغة بسيرته العملية وأقواله بشأن أمر الناس بالمعروف والنهى عن المنكر. ثم قال عليه السلام:

«وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسى».

ففضائله الأخلاقية عليه السلام وعدالته وايثاره وتضحيته وزهده وورعه وتقواه ونصرته للمظلومين واليتامى والضعفاء وشجاعته وبسالته ومبارزته للابطال الظلمة ليست بخافية على أحد، حتى إعترف بها الأعداء كمعاوية وعمرو بن العاص، فضلًا عن الأصدقاء. وقال البعض أن:

«كرائم الاخلاق»

أسمى من

«حسن الاخلاق»؛

فمثلاـ حسن الخلق يوجب مقابلة الاحسان بالاحسان، أو الرد عليه بما يربو عليه، أما كرم الخلق فانه يوجب مقابلة الإساءة بالاحسان؛ العمل الذى قام به أميرَالمؤمنين على عليه السلام تجاه عبدالرحمن بن ملجم بعد أن ضربه. ثم اختتم كلامه عليه السلام قائلًا:

«فلا تستعملوا الرّأى فيما لا يدرك قعره البصر، ولا تتغلغل إليه الفكر»

فى إشارة إلى أن ما بينه من منزلة للثقل الاصغر (عترة النبى) إنّما هى من الامور التى اقرتها الارادة الإلهية، فاياكم والتشكيك فيها من خلال الوهم والظن والأفكار العاجزة. فهى منزلة حباهم بها العزيز الحكيم إلى جانب كونها نعمة عظيمة أنعمها اللّه على الامّة الإسلامية. والواقع هو أنّ هذه العبارة تاكيد للعبارة السابقة التى قال فيها عليه السلام:

«فلا تقولوا بما لاتعرفون، فان أكثر الحق فيما تنكرون».

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۵۵

القسم السادس: زوال حكومة بنى‌أمية

اشارة

ومنها:

«حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِى أُمَيَّةَ؛ تَمْنَحُهُمْ دَرَّها، وتُورِدُهُمْ صَفْوَها، ولا يُرْفَعُ عَنْ هذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُها ولا سَيْفُها، كَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ، بَلْ هِىَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَها بُرْهَةً، ثُمَّ يَلْفِظُونَها جُمْلَةً!».

الشرح والتفسير

هذا هو ختام الخطبة. ويرى البعض أنّه موضوع مستقل ليس له من إرتباط بالأبحاث السابقة. والواقع أنّ هناك عدة مطالب بين هذا القسم من الخطبة والأقسام السابقة لم يتعرض لها السيد الرضى (ره)، ومن هنا يبدو عدم وجود ارتباط بين هذا القسم وما سبقه من أقسام، مع ذلك لايستبعد أن تكون هناك رابطة معقولة بين هذين القسمين، أى أن ما حذف منها ليس بالشيئ الكثير. وكأنّ الإمام عليه السلام أشار إلى العبارة الأخيرة من البحث السابق حين قال فلا تقولوا بما لاتعرفون، فانّ أكثر الحق فيما تنكرون. ومن ذلك قوله لاتعتقدوا أنّ حكومة بنى‌أمية دائمة خالدة، لا ليس الأمر كذلك، فسرعان ما تؤول حكومتهم إلى زوال وإنهيار. وقد ابتدأ المرحوم السيد الرضى (ره) هذا القسم قائلًا أنّ القسم الآخر من هذه الخطبة:

«حتّى يظنّ الظّانّ أنّ الدّنيا معقولةٌ[۷۴۹] على بنى‌أميّة؛ تمنحهم درّها،[۷۵۰] توردهم صفوها، ولاـ يرفع عن هذه الأمّة سوطها ولا سيفها»،

فالعبارهٔ

«معقولهٔ على بنی أمیهٔ»

كنایهٔ عن تسلیم الشئ إلى

نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۳۵۶

شخص، والعبارهٔ

«تمنحهم درها»

جریاً على عادهٔ العرب بتشبیه أغلب امور حیاتهم بالناقـهٔ، حیث كان لها بالغ الأثر فی حیاتهم وعلیه فهـذه التشبیهات محببـهٔ إلیهم. على كل حال فانّ الأفراد السطحیین لایكادون یرون أحدهم متربعاً على عرش السلطهٔ وقد صفت له الدنیا وقمع معارضیه حتى یظنون بخلود هـذه السـلطهٔ، والحـال لاـیعلم مـا یخبئ الغـدو لیس هنالك من سبیل للتكهنات فی المسائل السیاسـیهٔ، نعم لأولیاءاللَّه أن یزودوا الناس ببعض هذه الأخبار المسـتقبلیهٔ إسـتناداً لعلمهم المسـتقى من علم اللَّه سـبحانه، ومن ذلك هذا الأخبار من الإمام علیه السلام حیث قال مواصلهٔ لكلامه:

«و كذب الظّانّ لذلك، بل هی مجّهٌٔ[۷۵۱] من لذیذ العیش یتطعّمونها برههً، ثمّ یلفظونها جملهً»؛

أی سیستحوذن على الحكومهٔ تدریجیاً، ثم یفقدونها دفعهٔ احدهٔ.

فنحن نعلم أنّ حكومهٔ بنی أمیهٔ لم تدم أكثر من ثمانین سـنهٔ، فكانت أعظم مدتهم على عهد حكومهٔ معاویهٔ بعد شهادهٔ الإمام علی علیه السـلام وصـلحه مع الإمام الحسن علیه السـلام بعد أن أقبلت علیه الدنیا. ثم خلفه یزید الذی اسود عهده بفعل قیام الإمام الحسـین علیه السلام واستشهاده بتلك الطریقهٔ البشعهٔ فلم تدم حكومته أكثر من أربع سنوات، ثم تعاقبت الحكومات التی دام بعضها بضعهٔ أشهر، بل كانت حكومهٔ معاویهٔ بن یزید أربعین یوماً، ولم تشذ من ذلك سوى حكومهٔ عبدالملك التی استغرقت عشرین سنهٔ، ولعل السبب یعود إلى عـدم اسـتجابته لوصایا الحجاج وعدم إراقهٔ دماء بنی‌هاشم على كل حال وكما أخبر الإمام علی علیه السـلام فقد كانت حكومتهم قصیرهٔ ملیئهٔ بالأحداث المریرهٔ- أمّا العبارهٔ

«هی مجهٔ»

فهی إشارهٔ إلى أن بنی أمیـهٔ سـیذوقون لمـدهٔ عابرهٔ نعم الـدنیا، إلّاأنّ مثلهم كمثل الـذی یضع طعاماً لذیـذاً فی فمه ویتذوق طعمه إلّاأنّه لایقوى على إبتلاعه، فسـرعان ما سـیفقدون لذهٔ الحكومهٔ، والتاریخ أفضل شاهد على ذلك فی أنّ حكومتهم التی دامت ثمانین سـنهٔ- سوى بعضها- كانت ملیئهٔ بالمخاطر والنزاعات والحروب والبلابل والاضطرابات.

نفحات الولایهٔ، ج۳، ص: ۳۵۷

تأمّلان

حكومهٔ بنی‌امیهٔ الفاشلهٔ

اشارهٔ

صحیـح أنّ بنی أمیـهٔ حكموا البلاد الإسـلامیهٔ ما یقارب الثمانین سـنهٔ وقـد تسـلم زمام الامور أربعهٔ عشـر من آل أبی‌سـفیان ۷۵۲] وآل مروان، حیث حكم بعضـهم لشـهر أو بضعهٔ أشهر، وكانت أطولها حكومهٔ هشام بن عبدالملك حیث دامت عشرین سنهٔ، فكان متوسط حكومـهٔ أحـدهم سـتهٔ أشـهر، إلّاأنّ حكومتهم كانت ملئی بالنزاعات والخلافات؛ أمّا الحوادث التی وقعت خلال تلك المـدهٔ وأحالت

عسل حكومتهم علقما فهى:

أ) قيام الخوارج ضد بنى أمية

شهدت حكومة بنى‌أمية عدة نهضات للخوارج وهى:

۱- قامت طائفة من الخوارج يبلغ عددها خمسمئة بزعامة فروة بن نوفل بعد حركة الإمام الحسن عليه السلام من الكوفة إلى الحجاز وورود معاوية الكوفة.[۷۵۳]

۲- قيام عروة بن حدير المعروف بعروة بن أدية ضد معاوية وقتله من قبل زياد.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۵۸

۳- نجدة بن عويم الحنفى أحد زعماء الخوارج الذى ثار ضد معاوية واستولى على اليمامة والطائف وعمان والبحرين ووادى تميم وعامر.

۴- قيام مستورد بن سعد الصميمى على المغيرة بن شعبة والى معاوية على الكوفة، فبعث له المغيرة بمعقل بن قيس وقد قتلا معاً.[۷۵۴]

۵- قيام حوثرة الأسدى ضد معاوية فجهز له معاوية جيشاً من الكوفة فخاطبهم حوثرة:

يا أعداءاللَّه لقد قاتلتم بالام من أجل القضاء على حكومة معاوية واليوم من أجل تثبيت دعائهما، وقد قتل حوثرة فى هذه المعركة وتفرق أصحابه.

۶- قيام قريب بن مرة الأزدى وزحاف الطائى وهما من مجتهدى البصرة ضد زياد.[۷۵۵]

۷- قيام نافع بن الازرق الحنفى ونجدة بن عامر وهما من الخوارج وهجومهما على البصرة، وقد قتل فى هذه المعركة أمير البصرة ابن عبيس ونافع، وتعرف هذه المعركة بمعركة دولاب وهى من المعارك المشهورة للخوارج.

۸- عبيد اللَّه بن بشير بن ماحوز اليربوعى الذى تزعم الخوارج بعد قتل نافع وواصل القتال.

۹- قيام الزبير بن على السليطى بعد أن نزل البصرة والتحق به أهالى البصرة والاهواز.

۱۰- قيام قطرى بن الفجائة المازنى ضد معاوية بعد قتل الزبير بن على. حيث أراد الخوارج أن يتزعمهم عبيدة بن هلال إلّاأنّه قال أن قطرى بن الفجائة خير منّى فبايعوه.[۷۵۶]

۱۱- عبد ربه الصغير الذى بويع على عهد قطرى والذى قتل فى معركته ضد المهلب.[۷۵۷]

۱۲- قيام شبيب بن يزيد الشيبانى فى الموصل والجزيرة فقاتله الحجاج ۷۵۸]، وقد تمكن من قتل عدد كثير من جيش الحجاج.

ب) قيام سائر الناس ضد بنى‌أمية

۱- قيام حجر بن عدى على المغيرة بن شعبة والى معاوية على الكوفة، حيث خطب

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۵۹

الناس فذم على عليه السلام ومدح معاوية، فقام إليه حجر، ثم قتلوه فى مرج عذراء بعد أن منحوه الأمان.[۷۵۹]

۲- قيام الإمام الحسين عليه السلام ضد يزيد واستشهاده فى محرم الحرام عام ۶۱ ه ق.[۷۶۰]

۳- قيام عبداللَّه بن الزبير فى مكة فخلع يزيد ودعى الناس لبيعته، ثم أخرج والى يزيد من مكة.[۷۶۱]

۴- قيام أهل المدينة بزعامة عبداللَّه بن حنظلة والذى يعرف بواقعة الحرة، فورد جيش يزيد بزعامة مسلم بن عقبة المدينة فقتل

أهلها.[۷۶۲]

۵- قيام التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعى عام ۶۵ فى عين الوردة تحت شعار يالثارات الحسين.[۷۶۳]

۶- قيام المختار بن أبى‌عبيدة الثقفى بعد سليمان بن صرد الخزاعى، حيث وجه ابراهيم بن مالك بن الحارث لقتال عبيداللَّه بن زياد، فتمكن ابراهيم من قتله، ثم اقتص المختار من قتلة الإمام الحسين عليه السلام.[۷۶۴]

۷- قيام مصعب بن الزبير ضد عبيداللَّه بن زياد، إلّاأنّه هزم بعد أن غدر به جمع من أهل العراق.[۷۶۵]

۸- قيام عبدالرحمن بن محمدالاشعث فى سيستان، حيث كان والى الحجاج عليها، إلّاأنّ الحجاج غضب عليه وهدده، فخلع الحجاج وقاتله فى الاهواز عام ۸۳ ه‍ ق.[۷۶۶]

۹- قيام آل‌المهلب على يزيد بن عبدالملك عام ۱۰۲ حيث بايع يزيد بن المهلب مائة وعشرين الف، فبعث يزيد بن عبدالملك بأخيه مسلمة بن عبدالملك فنشبت بينهما معركة

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۶۰

ضارية هزم فى بدايتها أهل الشام.[۷۶۷]

۱۰- قيام سليمان بن كثير الخزاعى وصحبه عام ۱۱۱ فى خراسان وقد دعوا الناس لبيعة بنى‌هاشم فاستجاب لهم الكثير.[۷۶۸]

۱۱- قيام زيد بن على بن الحسين عليه السلام على هشام بن عبدالملك، هيث استشهد أوائل شهر صفر عام ۱۲۱، وقد بايعه بادئ الأمر جمع من قراء أهل العراق والاشراف، إلّاأنّهم انفرجوا عنه حين قاتل عامل العراق يوسف بن عمر الثقفى ثم استشهد زيد، فاستخرجوا جسده بعد الدفن وحزوا رأسه ثم حرقوا جسده.[۷۶۹]

۱۲- قيام يحيى بن زيد ضد نصر بن سيار فهزم جيشه وقتل قائده، ثم استشهد مع سائر أصحابه.[۷۷۰]

۱۳- قيام الضحاك بن قيس الحرورى ضد عبداللَّه بن عمر بن عبدالعزيز حيث استولى على واسط والموصل ونصيبين وحران، وفى عام ۱۲۷ قتل الضحاك وتفرق أصحابه.[۷۷۱]

۱۴- قيام أبوحمزة المختار بن عوف الحروى الأزدى واستيلائه على المدينة، ثم انطلق للشام، فاشتبك مع مروان الحمار ثم عاد إلى المدينة.[۷۷۲]

۱۵- قيام ابراهيم بن محمد الإمام وابومسلم الخراسانى عام ۱۲۹.[۷۷۳]

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۶۱

الخطبة[۷۷۴]: الثامنة والثمانون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها بيان للأسباب التى تهلك الناس

نظرة إلى الخطبة

تتالف هذه الخطبة من قسمين؛ القسم الأول فى أنّ العذاب الإلهى لايأتى بغتة، بل إنّ اللَّه ليمهل الجبابرة والظلمة والأقوام الطاغية والمفسدة، وإنّه لايعجل فى المؤاخذة، علهم يعودون إلى أنفسهم وينيبون إلى اللَّه. بعبارة اخرى فان العذاب الإلهى لايحمل طابع الانتقام، بل يهدف إلى الاعتبار والتربية، إلّاأنّ المؤسف هو كثرة العبر وقلّة الاعتبار فلا من أذن تسمع ولا من عين تبصر الحق ولا

قلوب تنزع إلى الهدى أمّا القسم الثانى فيشير إلى الأقوام المنحرفة التى تلجأ إلى أفكارها الناقصة وآرائها الباطلة لحل خلافاتها الدينية بدلًا من الرجوع إلى الوحى والسنة النبوية المطهرة، فتكتفى بظنها؛ الأمر الذى يقودها إلى الهلاك.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۶۳

القسم الأول: هل من عين باصرة واذن سامعة؟

اشارة

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْصِمْ يفصم جَبَّارِى دَهْرٍ قَطُّ إِلَّا بَعْدَ تَمْهِيلٍ‌رَخَاءٍ، ولَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ أَزْلٍ وبَلاءٍ؛ وفِى دُونِ ما اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ وما اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَرٌ وما كُلُّ ذِى قَلْبٍ بِلَبِيبٍ، ولا كُلُّ ذِى سَمْعٍ بِسَمِيعٍ، ولاَ كُلُّ ناظِرٍ بِبَصِيرٍ».

الشرح والتفسير

أشـار الإمـام عليه السـلام فى هـذا القسم من الخطبـة إلى أمرين مهمين: الأول أنّ اللَّه يمهل الطواغيت والجبابرة بغيـة اليقظة والعـدوة. الثانى لانصر دون صعوبات ومعضلات، فقد قال عليه السلام:

«أمّا بعدفإنّ اللّه لم يقصم ۷۷۵] جبّارى دهرٍ قطّ إلّا بعد تمهيلٍ‌رخاءٍ»

نعم فاللَّه حكيم وحليم وغفور ورحيم، واسـتناداً لهذه الصفات الحسنى فانّه لايعجل بالعقوبة، بل يمهل الاثمين والمذنبين علهم يرغبون ويفيـدون على اهـداء وصواب ويكفون أنّ الـذنوب يرعون والمعاصـى، بـل أحيانـاً يشـجعهم فيغرقهم بوابل نعمه وآلائه، كما مر علينا ذلك فى تأريخ نبى‌اللَّه نوح وموسى عليه السلام وكذلك فرعون وقوم بنى‌اسرائيل وقوم سبأ. ثم قال عليه السلام:

«و لم يجبر[۷۷۶] عظم أحدٍ من الأمم إلّا بعد أزلٍ ۷۷۷] وبلاءٍ»

ليقدروا النعم فيجدوا فى عدم نفارها وا لحفاظ عليها. ثم قال عليه السلام:

«و فى

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۶۴

دون ما استقبلتم من عتبٍ ۷۷۸] وما استدبرتم من خطبٍ معتبرٌ».

وكأنّ الإمام عليه السـلام أراد أنّ يطيب خواطر صحبه ويرد على تساؤل قد تقتدح فى أذهانهم بشأن إنتصارات بنى‌أمية وانزعاجهم من ذلـك، فى عـدم الاسـتعجال، فلن يـدوم ظلم هؤلاـء الظلمـة، وهنالـك وقت معلوم للمهلـة الإلهيـة فاذا جاءت حلّ عليهم العـذاب. ولا تمتعظوا ممّا يحل بكم من خطوب، فتلك سـنة إلهيـة فى البلاء والاختبار وتحمل الشدائـد ومن ثم الفرج واليسـر، حتى فى عهد انبثاق الـدعوة اللاسـلامية وفى الحروب والمعارك فلم يكتب اللَّه للمسـلمين النصـر فى موقعة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالًا شديداً؛ الأمر الذى صوره القرآن بالقول: «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحَناجِرَ ... هُنالِكَ ابْتُلِىَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيـداً»[۷۷۹]. أمّا قوم بنى‌إسرائيل فقد خاطبوا نبيّهم موسى عليه السلام حين إشتد عليهم الاذى

«أو ذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا»

فردّ عليهم موسى عليه السلام بالقول: «عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِك عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»[۷۸۰].

ونخلص ممّا سبق ان هذه السنة الإلهية جارية على الامّة الإسلامية كما جرت على الامم من قبلها، ولم يستثن من ذلك أصحاب الإمام عليه السلام. نعم كل هذه الامور دروس وعبر، إلّاأنّها تنفع من كانت له عين باصرة وأذن سامعة وقلب واع!

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

«و ما كلّ ذى قلبٍ بلبيبٍ، ولا كلّ ذى سمعٍ بسميعٍ، ولاكلّ ناظرٍ ببصيرٍ»

فتأريخ البشرية مفعم بالدروس العبر، قصر عمرنا هو الآخر- لو تأملنا ذلك بدقة- ملئ بالحوادث المعبرة، بل قد ملأت العبر أركان كل شئ في عالم الوجود، إلّا أنّ المؤسف له أنه ينبغي أن يكون هنالك من يسمع ويبصر ويعي ويعتبر، وما أقل هؤلاء، ومن هنا يواصلون طريق الضلالة ويصابون بما أصاب من قبلهم من مصير أسود وعاقبة مريرة.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۶۵

مصير الجبابرة

يعتقد كل من يؤمن باللّه وعدله أنّ أساس هذا العالم قائم على العدل والقسط، وأنّ الظلم والجور طارئ على طبيعة عالم الخليقة، ومن هنا يراود البعض هذا السؤال: إذا كان العدل هو الأساس، فما تفسير تسلم الجبابرة لمقاليد الامور ومنحهم فرصة ممارسة نشاطهم وفعاليتهم؟

وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من القول بأنّ هنالك عدة دوافع تقف وراء ذلك منها: أولًا:

فساد الناس ومثل هذه الحكومات هي عذابهم الدنيوي؛ الأمر الذي نلمسه في وصية الإمام علي عليه السلام لمن ترك النهي عن المنكر:

«فيولي عليكم شراركم ثم تدعون فلايستجاب لكم».[۷۸۱]

ثانياً: قد يتحلى بعض الجبابرة ببعض الخصال الحسنة التي تستلزم منحهم تلك المهلة التي يتقلبوا فيها في البلاد، فقد جاء في الخبر أنّ موسى عليه السلام قال: إلهي أمهلت فرعون أربعمائة سنة وقد إدعى الربوبية وكذب نبيك وآياتك! فجاءه الخطاب: إنّه حسن الخلق وسهل الحجاب، (أي لم تكن هناك من صعوبة لدى الناس في الدخول عليه) واني أحب أن أثيبه على هذه الصفات.[۷۸۲]

ثالثاً: ما ورد في الخطبة حيث قال الإمام عليه السلام:

«أمّا بعد فان اللّه لم يقصم جباري دهر قط إلا بعد تمهيل ورخاء»

لعلهم يفيقون من غفلتهم ويكفون عن ظلمهم وعدوانهم.

رابعاً هو أن بعض الجبابرة قد أغلقوا جميع أبواب الهداية بوجوههم، فاللّه يمهلهم إستدراجاً ليزدادوا ذنوباً وآثاماً فيضاعف عليهم العذاب، بالضبط كالذي يصعد شجرة وعاقبته السقوط، فكلما تسلق أكثر كان أذاه ومصابه أشد وأعظم. أما القرآن فقد صرح بهذا الشأن قائلًا: «وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ».[۷۸۳]

وبناءاً على ما تقدم فلاينبغي أن يتفر إلينا الشك في مسئلة العدل إذا ما رأينا ظالماً وقد تحكم بمصير أمة، وذلك لاختلاف الأسباب المؤدية إلى ذلك والتي أشرنا إلى جانب منها سابقاً.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۶۷

القسم الثاني: الاستبداد مادة الاختلاف

اشارة

«فَيا عَجَباً! وما لِيَ لا أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هَذِهِ الْفِرَقِ عَلَى إخْتِلافِ حُجَجِها فِي دِينِها! لا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ، ولا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ، ولا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ، ولا يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهاتِ، ويَسِيرُونَ فِي الشَّهَواتِ. الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ ما عَرَفُوا، والْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ ما أَنْكَرُوا، مَفْزَعُهُمْ فِي الْمُعْضِلاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهِمَّاتِ المبهمات عَلَى آرائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرًى ثِقاتٍ وثيقات- وموثقات، وأَسْبابٍ مُحْكَماتٍ».

الشرح والتفسير

لما كـانت العبـارات الأخيرة من القسم السابق من الخطبـة بشأن الـدروس والعبر فى حياة الناس، فانّ الإمام عليه السـلام أشار هنا إلى أحدى الموارد المهمـة لهـذه العبر، ألا وهو اختلاف الأفراد والأقوام إثر هجرهم للأنبياء والأوصـياء والعوم فى وادى الحيرة والضـلال، فقال عليه السلام:

«فيـا عجبـاً! وما لى لا أعجب من خطإ هـذه الفرق على اختلاف حججها فى دينها! لا يقتصّون أثرن بىٍّ، ولا يقتـدون بعمل وصـىٍّ، ولا يؤمنون بغيبٍ، ولا يعفّون ۷۸۴] عن عيبٍ»،

فقد بان الشقاق والنفاق فى أوساط الامّة الإسلامية على عهد أميرَالمؤمنين على عليه السلام وقد ظهرت مختلف

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۶۸

المذاهب فى الاصول والفروع، إلى جانب إتساع رقعة البلاد الإسلامية التى أسهمت فى انبثاق مختلف الفرق. فالإمام عليه السلام يضم هـذا الاختلاف ويعزا ذلك إلى ثائر الاخباء زلات التى اشـير إلى عشـر منها فى هـذا الخطبـة، أربع منها وردت فى الخطبة: الاولى انهم لايتبعون تعاليم الوحى التى يبلغهم بها الأنبياء. الثانيـة انّهم لم يلتزموا ويقتـدو بالأوصـياء من بعد الأنبياء. الثالثة عدم الإيمان بالغيب. أمّا مـا المراد بالإيمان بالغيب فهنا لك خلاف بين مفسرى القرآن وشـرّاح نهـج البلاغـة. فقـد ذهب البعض إلى أنّ المراد بالغيب الـذات الالهية المقدسة، وقيل القيامة وقيل متشابهات القرآن بينما توسع البعض آخر فذهب إلى أنّ المقصود بالغيب كافة الامور الخارجة عن دائرة حس الإنسـان. وعليه فقـد يراد بـالغيب جميع مـاذكر، ويبـدوا المعنى الأخير هو الأنسب. الرابعـة عـدم التورع عن العيوب وبعبارة اخرى فانّ هؤلاء يرتكبون كل ذنب بسـهولة بسـبب افتقادهم لملكـة الافاف التى تحجز الإنسان عن ذنب، وهكذا كانت مبانى إيمانهم ضعيفـة وأعمـالهم خاويـة، ومن الطبيعى أن يؤدى التزلزل فى الإيمـان إلى الفسـاد فى العمـل، كما يؤدى الفساد فى العمل إلى زعزعة دعائم الإيمان. ثم قال عليه السلام فى الصفة الخامسة العشرة:

«يعملون فى الشّبهات، ويسيرون فى الشّهوات»

العبارة

«فى الشهوات»

إشارة إلى نقطة لطيفة وهى أنّ هؤلاء يخفون أعمالهم السـيئة تحت غطاء الشبهات حتى لايطلع الناس على قبائحهم. أنّهم قلما يتجهون صوب محكمـات القرآن والأحاديث، بل بالعكس إنّما يسارعون إلى المتشابهات، وكـذلك فى الموضوعات الخارجيـة التى تعتبر من الموضوعات الواضـحة، حيث يبتعـدون عنها ويقتفون آثار الموضوعات المشـتبهة؛ ولا غرو فليس لهـم من سبيل القيام بأعمالهم الشائنة إلّامن هذا السبيل. والعبارة

«يسيرون فى الشهوات»

تثير إلى أنّ محور حيـاتهم إنّما يمر عبر الشـهوات، لا أنّ الشـهوات طارئـة عليهم، أضف إلى ذلك فانّ مقارفتهم لهـذه الشـهوات دائم متواصل، ويفهم ذلك من خلال العبارة التى تصدرتها الأفعال بصيغة المضارع

«يعملون ويسيرون»

. والجـدير بالـذكر أنّ أعمالهم إنعكاس لعقائـدهم الفاسـدة، كما يمكن أنّ تكون مقارفة الشـهوات تدفعهم لأن يتجهوا صوب العقائد التى تبرر أفعالهم.[۷۸۵] ثم خاض

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۶۹

الإمام عليه السلام فى إطار مواصلته لحديثه عن سائر صفات هؤلاء المضلين- الذين قد يكونون أحياناً من العلماء المزيفين- فقال عليه السلام:

«المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا»

. نعم لما قطع هؤلاء رابطتهم باللّه والنبى لم يعد الوحى السماوى والسنة النبوية وكلمات المعصومين هى المعيار فى تمييز الصالح من الطالح والحسن من القبيح، بل المعيار هوى النفس والرغبات الباطنية، أو الافكار الفئوية والتعصبات القبلية والامور التى تؤمن مصالحهم المادية، ولو كانوا حقاً من أهل الفكر فانّهم سيقعون فى وادى الضلال أيضاً لعدم إنفتاحهم على تعاليم السماء وإرشادات الأنبياء والمعصومين، ففكر الإنسان عرضه للخطأ والانحراف. ثم قال عليه السلام فى صفتهم التاسعة والعاشرة:

«مفزعهم فى المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم فى المهمّات على آرائهم»

فاساس بؤسهم وشقائهم إنّما ينبع من هذه القضية، وهى أنّهم هجروا أولا تبعية الوحى وسنة النبى وتعاليم المعصومين، وعليه فكلما تقدموا أكثر إزداد انحرافهم وابتعادهم عن الحق. ومن هنا صرح الإمام عليه السلام كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات وأسباب محكمات، والحال لاينطوون سوى على أفكار هزيلة وتصورات واهية «وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ»[۷۸۶]. نعم هذا هو المصير المحتوم الذى ينتظر الأفراد الذين يولون ظهورهم للمعايير الدينية الصحيحة فى حل خلافاتهم الفكرية والعقائدية وتمييز الحق من الباطل والصراط المستقيم من الطريق السقيم ويعولون على أفكارهم القاصرة وآرائهم الباطلة، ولذلك وقعوا فى أودية الشرك والوثنية المقيتة حتى جعلوا للّه جسماً ويداً ورجلًا وشعراً مجعداً، بينما خالفهم البعض الآخر تماماً حتى عطل صفاته سبحانه وهبطوا بالفكر إلى الحضيض فى أنّه لايستطيع إدراك صفاته والتطرق إلى ذاته، فذلك التجسيم الأبله وهذا التعطيل الأحمق هو الوليد الطبيعى للاستناد إلى الآراء الناقصة وهجر تعاليم أئمة الدين، فكان منهم الخوارج الذين يحسبون أنّهم عابدون وقد سلكوا سبيل النجاة، بينما أنكروا أبسط بديهات الإسلام وشرعة المقدس فى ضرورة الحكومة وحاجة الامة الماسة إليها.

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۷۰

المستبدون الظالون

استفاضت الأحاديث التى تؤكد على أنّ الهوى يصد الإنسان عن الحق؛ الأمر الذى أشارت إليه بصورة جامعة هذه الخطبة، فهؤلاء الذين عجنت حياتهم بالشهوات لايرون معروف اللّه معروفاً ولامنكره منكرا، فهم لايستندون إلى أدلة العقل، والمعروف ما انسجم وميولهم النفسانية، وما خالفها فهو المنكر. وإذا ما صادفتهم بعض المسائل المعظلة إنّما يلوذون بأفكارهم المنحطة بدلًا من الاستعانة بالعقل والفكر، وأبعد من ذلك الآيات القرآنية وتعاليم الأئمة ليحلوا مشاكلهم. والعجيب أن هؤلاء الأفراد لايقبل أحدهم الآخر، بل كل يرى أنّه إمام نفسه وأنّه مرجعها وملاذها. ومن الطبيعى أنّ لايقود هذا السلوك سوى إلى الحيرة والضلال والسقوط، والاسوأ من كل ذلك يرون أنفسهم مهتدين؛ الأمر الذى صوره القرآن الكريم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»[۷۸۷].

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۷۱

الخطبة[۷۸۸] التاسعة والثمانون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فى الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله وبلاغ الإمام عنه

نظرة إلى الخطبة

تتحـدث الخطبـة عن ثلاثة أمور مرتبطة مع بعضـها؛ الأول تصویر جامع ورائع عن أوضاع العرب فی الجاهلیة تزامنا مع بعثة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله یفیـد أنهم کانوا فی أسوأ حالـة من الناحیـة المادیة والمعنویة؛ الحالة التی لایمکن معها وصـفهم بالحیاة، بل تشیر الخطبـة إلی الاوضاع الوخیمـة والظلام الـدامس الـذی کان سائـداً حتی خارج الجزیرة العربیـة. ثم حذر صـحبه ومن عاصـره من الظن بانقطاع عصـر الجاهلیـة، بل علیهم الاعتبار بحیاتهم والحیطـة والحـذر من العودة إلی الجاهلیة. أخیراً صـرح بهذه الحقیقة وهی مقارعة الجاهلیـة وأفکارها المنحرفة، وبینت لکم ما بینه رسول‌اللّه صـلی الله علیه و آله فی زمانه، حتی أتممت الحجة علیکم. ثم حذرهم علیه السلام من الغرور والغفلة والتحلی بالیقظة تجاه الأحداث والمخاطر التی تنتظرهم.

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۳۷۳

القسم الأول: العالم علی أعتاب الدعوة

اشارة

«أَرْسَلَهُ عَلَی حِینِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، واعْتِزامٍ مِنَ الْفِتَنِ، وانْتِشارٍ مِنَ الْأُمُورِ، وتَلَظٍّ تلظی مِنَ الْحُرُوبِ، والدُّنْیا کاسِفَةُ النُّورِ، ظاهِرَةُ الْغُرُورِ، عَلَی حِینِ اصْفِرارٍ مِنْ وَرَقِها، وإِیاسٍ مِنْ ثَمَرِها، اغْوِرارٍ مِنْ مائِها، قَدْ دَرَسَتْ مَنارُ الْهُدَی، وظَهَرَتْ أَعْلامُ الرَّدَی، فَهِیَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِها، عابِسَةٌ فِی وَجْهِ طالِبِها، ثَمَرُها الْفِتْنَةُ، وطَعامُها الْجِیفَةُ، شِعارُها الْخَوْفُ، ودِثارُها السَّیْفُ».

الشرح والتفسیر

إن الهـدف الغائی للإمام علیه السـلام من هـذه الخطبـة هو إیقاظ الناس من سـبات الغفلة والغررو، فقد إصـطحبهم إلی عصـر الجاهلیة واسـتعرض لهم التأریـخ، کیف کان الناس، والنقلـة النوعیـة الکبری التی أحـدثتها نهضة النبی صـلی الله علیه و آله، ثم حذر من عودة أوضـاع الجاهلیـة، مؤکـدا أنّه وعلی غرار النبی صـلی الله علیه و آله ثـار من أجـل إجتثـاث جـذور الجاهلیـة بما تنطوی علیه من أفکار وأوهام، لیعودوا إلی أنفسهم قبل فوات الآوان. فقد رسم صورة واضحة للجاهلیة بعبارات قصیرة عظیمة المعنی فی خمس عشرة. جملة بما یعجز الآخرون عن رسم مثل هذه الصورة. فقال علیه السلام

«أرسله علی حین فترةٍ[۷۸۹] من الرّسل»،

وقیل إنّ هذه الفترة قد استغرقت خمسمائة سنة وقیل ستمئة سنة لم یبعث فیها نبی ۷۹۰] (وان کان أوصیاؤهم بین الناس). ولذلک ساد الناس سبات

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۳۷۴

قاتل، وهذا ما أکده الإمام علیه السلام فی العبارة الثانیة

«و طول هجعةٍ[۷۹۱] من الأمم»،

ولعل هـذه الفترة تسـتبطن امتحان اللّه للعباد وللوقوف علی قـدر الأنبیاء ونعمته علیهم. مع ذلک فقد کان هناک أثر مباشـر لهذه الفترة فی تفعیـل حرکـة شـیاطین الجن والانس؛ وذلک أن المیـدان قـد خلالهم فشـددوا من حملاتهم علی الامم والشـعوب فجرعوها أنواع الانحرافات والأضالیل ثم قال علیه السلام فی العبارة الثالثة:

«و اعتزام ۷۹۲] من الفتن»

فقـد شـبه الإمام علیه السـلام الفتن بالإنسان الشـریر أو الحیوان الضاری الـذی یهجم علی الإنسان الأمن دون مبرر؛ وهذا ما کانت علیه الإمام فی فترة الرسل.

ثم قال علیه السلام فی العبارة الرابعة:

«و انتشارٍ من الأمور»

یمکن أن یکون المراد بهذه العبارة تشتت فعالیات الجماعة البشریة وانشطتها، وبعبارة اخری ظهور الفوضی والهرج والمرج والاضطراب والتشتت فی المجتمعات والذی یعد من الفتن والقلاقل. ثم قال علیه السلام:

«و تلظٍّ[۷۹۳] من الحروب»

یاله من تشبیه رائع، حیث شبه الحرب بلهیب الانار المحرقة التی تأتی علی الأخضر والیابس فتحیله رماداً. کما شبه امتداد الحروب بالسنة النیران. ولو رجعنا قلیلا إلی الوراء لرأینا العالم برمته ولا سیما جزیرة العرب أنّه کان مسرحاً للحروب الدامیة فقد کانت الحرب قائمة علی قدم وساق بین القبائل العربیة ولأتفه الأسباب، إلی جانب معارک الروم وایران، فکانت تسیل أودیة من الدماء. وقال علیه السلام:

«والدّنیا کاسفة[۷۹۴] النّور، ظاهرة الغرور»

فالواقع أنّ نور البشریة لیس إلّانور الوحی ووجود الانبیاء، فاذا کانت هناک ظلمة مطلقة تلقی بعتمتها علی کل شئ فتستفحل أمراض الخدع والمکر، وتتسع رقعة المذاهب الزائفة ویتلبس الدجالون لباس المسوح والاصلاح فیجدوا فی إستغلال الخلق من أجل تحقیق منافعهم المادیة. ثم شبه الإمام علیه السلام الناس فی الجاهلیة بمزرعة قد ذبلت جمیع أشجارها

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۳۷۵

واصفرت أوراقها (فهی فی حال التساقط) وقد یأس المزارع من ثمرها بعد أنّ غار ماؤها وجفت عروقها:

«علی حین اصفرارٍ من ورقها، وإیاسٍ ۷۹۵] من ثمرها، واغورارٍ[۷۹۶] من مائها»

وذلک لأنّ مزرعة المجتمع البشری إنّما تتزین بورود الأخلاق والفضائل، وثمارها العدالة والمروءة والمحبة، أمّا ماؤها فیکمن فی الإیمان والورع والتقوی المعانی التی کانت مغیبة تماماً فی العصر الجاهلی. حتی من الناحیة المادیة فقد شلت الزراعة والتجارة بسبب الحروب وعدم شیاع الأمن والاستقرار فکان الفقر قد ساء العالم الجاهلی بالشکل الذی کان یدفعهم إلی قتل أولادهم، وهذا ما أشار إلیه القرآن بالقول: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَکُمْ خَشْیَةَ إِمْلَاقٍ»[۷۹۷] بغض النظر عن وأدهم البنات خشیة الفضیحة والعار. ثم قال علیه السلام فی الصفة التاسعة والعاشرة:

«قددرست ۷۹۸] منار الهدی، وظهرت أعلام الرّدی»

فالمنار موضع النور، حیث کانوا یشعلون فی السابق سراجاً علی مرتفع حین اللیل فیکون علامة للقری المدن یشاهدها القاصی والدانی فلایضل الطریق. فاذا تآلکت هذه المرتفعات وتهدمت لم یعد هناک من سراج فوقها، فالعبارة کنایة رائعة إلی سراج الکتب السماویة وتعالیم الأنبیاء التی تمثل نور الهدایة للجماعة الإنسانیة، وقد انطفئ هذا النور فی العصر الجاهلی اثر غلبة الاهواء، فکان من الطبیعی إذا اطفئ النور أن یعم الظلام الدامس بکل معانی الحیرة والظلال والکفر والنفاق وقال علیه السلام فی الصفة الحادیة عشرة:

«فهی متجهّمةٌ[۷۹۹] لِأهلِها، عابِسةٌ[۸۰۰] فِی وجهِ طالِبِها»

فالعبارة کنایة عن شدة العنف والنزاعات وصعوبة المعیش وتعقید الحیاة؛ کیف لا والحیاة الوادعة الامنة لاتتحق الا فی ظل العدالة الاجتماعیة والاخاء والمحبّة والمودة التی لم یکن لها من أثر فی العصر الجاهلی. ثم قال علیه السلام:

«ثمرها الفتنة، وطعامها الجیفة[۸۰۱]»

. حقاً لیست هنا لک من ثمرة لذلک الوسط بتلک

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۳۷۶

الصفات سوی الفتن ولیس له من طعام سوی المیتة؛ والمفردة جیفة قد تکون إشارة إلی الوضع الذی کان علیه الناس فی عصر الجاهلیة حیث کانت ا لعرب تأکل المیتة من شدة الاضطرار فالمیتة متعفنة وتدعو إلی الاشمئزاز والنفرة، وقطعا فانّ الحیاة فی مثل هذه

البيئة إنّما تتسم بالتعفن والاشمئزاز، كما كان دخلهم عن طريق شن الغارات ولسراقات وما شابه ذلك من الامور التى يمجها العقل السليم؛ أمّا الدليل على أكل أهل الجاهلية للميتة هو الآية القرآنية التى نهت عن ذلك: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الخِنْزِيرِ ...»[۸۰۲] وبالطبع فانّ المراد بالثمرة والطعام فى العبارة الجانب الكنائى. فطعام الإنسان عادة أمّا أن يكون من الثمار أو اللحوم، ولم يكن نصيب الناس فى الجاهلية سوى الفتنة والأفكار المتعفنة التى تدعو إلى الاشمئزاز والتقزز؛ ثمراتهم ونعمهم المادية والمعنوية كانت معجونة بالتعفن والفساد والعار. ثم قال عليه السلام:

«وشعارها الخوف، ودثارها السّيف»

فبالالتفات إلى أنّ الشعار يعنى الثوب الذى يلى البدن والدثار الثوب الداخلى يتبين أنّ العبارة كناية رائعة ولطيفة مصعمة بالفصاحة والبلاغة لتصوير ظروف ذلك الزمان وسيادة الخوف والسيف من الداخل والخارج، فكل يخشى الآخر، وكل قبيلة تتوقع أن تحمل عليها اخرى فتقتل رجالها وتسبى نسائها وتنهب أموالها.

فكانت السيوف مشهورة على الدوام بسبب ذلك الخوف والخشية، ولعمرى أنّ هذه العبارة قد أشارت إلى كافة أنواع البؤس والشقاء السائدة آنذاك. ومن الطبيعى أن يسود الخوف والرعب أوساط المجتمع الذى تغيب فيه أنوار الهدى وتشع فيه اعلام الضلال والردى ويبتعد فيه الافرد عن تعاليم السماء وإرشادات الأنبياء. أمّا الصورة التى رسمها أميرَالمؤمنين عليه السلام بهذه العبارة التى تعرض إلى خصائص العصر الجاهلى فانّها لاتقتصر على شبه الجزير العربية فحسب، بل تشمل كافة مناطق العالم آنذاك وإن بلغت ذروتها بين قبائل العرب. والحق لايسع خطيب ولاكاتب مهما كانت قدرته على البيان أن يصور فجائع ذلك الزمان وانحرافاته كا صورها الإمام عليه السلام بهذه العبارات المعجزة وهذا ما سنتعرض إليه فى الحبث القادم والمؤسف أن هذه الخصائص إنّما تشاهد اليوم بوضوح فى عصرنا الراهن الذى تحكمه الجاهليات المعاصرة.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۷۷

ومن هنا نقف على عظم جهود النبى صلى الله عليه و آله فى إخراج تلك الجماعة الممزقة الميتة من الظلمات إلى النور وتبديل خوفها أمنا وفقرها غنى ونزاعها وقتالها إلى إخوة وصلح وسلام، كما جعلهم أمّة متحضرة متمدنة حتى إنتشر الإسلام ورفعت رايته خفاقة فى أغلب ربوع المعمورة، وقد استسلمت الملوك والسلاطين والجبابرة والطغاة لجيوش المسلمين الفاتحة التى حملت مشاعل الهداية والخير والصلاح. كما نهض المجتمع الإسلامى نهضات عظيمة ليشهد ذلك التطور والأزدهار فى كافة المجالات العلمية والاجتماعية والاقتصادية. وحقاً إن هذا لمن معجزات الدين الإسلامى الخالد وا لجهود المضنية التى بذلها الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله؛ ولا غرو فانّ كافة الحسابات المادية تشير إلى إنّ إنقاذ تلك الامّة مما كانت عليه والأخذ بيدها إلى حيث العزة والرفعة والسمو والكمال لايمكن تحقيقه فى ظل المعادلات الطبيعية والحسابات المادية! وكما أوردنا سالفا فانّ هدف الإمام عليه السلام يكمن فى تحذير الامّة من مغبة العودة إلى الجاهلية المقيتة بثيابها الجديدة وإنّ الإمام عليه السلام سيقف بوجهها كما وقف بوجهها رسولاللّه صلى الله عليه و آله واخمدها بجهاده.

الجاهلية المعاصرة

لقد وقفنا على الصورة الرائعة التى رسمها الإمام عليه السلام للعصر الجاهلى بتلك العبارات المشحوتة بالفصاحة والبلاغة. وبالطبع فقد أشرنا إلى جانب من مميزات ذلك العصر فى الخطبة الثانية من المجلد الأول والخطبة السادسة والعشرين من المجلد الثانى. غير أنّه لايمكن الوقوف على عظمة جهود النبى صلى الله عليه و آله فى هداية تلك الأقوام ما لم يتامل الإنسان بعض تفاصيل حياة العرب فى العصر الجاهلى من حيث الحروب والسلام والتقاليد والأعراف والخرافات والأباطيل التى كانت تنظم شؤون حياتهم. والمهم هنا هو أنّ هذه الجاهلية إنّما ترتدى اليوم حلة جديدة فى مجتمعاتنا المعاصرة بينما تشترك فى مميزاتها وخصائصها والجاهلية الاولى فقد كانت

القيم الحقة مغيبة فى العصر الجاهلى، ودماء الأبرياء العزل تسفك بسهولة، وديدنه غارات الأموال والثروات ونهبها، ولايفرق هذا مع الجاهلية المعاصرة التى لاتفكر سوى فى الحصول على الأموال وبارخص الأساليب، أدناها بيع أسلحة الدمار الشامل والتجارة

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۷۸

بالمحدرات وشن الحروب من أجل الاستيلاء على مصادر الطاقة. وان شهد العصر الجاهلى وأد بعض البنات، فالقانون اليوم يبرر للناس حالة الإسقاط والإجهاض، كما شنت الحرب العالمية التى أودت بحياة الالاف المؤلفة من البنين والبنات، فقد ذكر أنّ عدد قتلى الحرب العالمية الاولى والثانية ليفوق بكثير كافة ضحاياً الحروب التى شهدتها البشرية طيلة التأريخ، بل كان قتلى مدينتين فى اليابان من جراء قنبلتين نوويتين أكثر من كافة قتلى العصر الجاهلى! وإن كانت بعض النساء من ذوات الأعلام فى الجاهلية، فبعض النسوة اليوم تجاوزت تلك الأعلام لتعلن عن فجورها وفسادها فى أغلب صحف العالم وتنظم لنفسها بعض الاعلانات داعية الآخرين إليها؛ الأمر الذى دفع بالدول والحكومات إلى فرض بعض الضرائب عليهن، وهذا ما أدى بالتالى إلى توفير الدعم القانونى لهن. بيع البنين والبنات ما زال متواصلًا حيث يقدم الأوربيون والأمريكان على شراء الصبية من المناطق المعدمة ويبيعونهم إلى الغرب؛ وهذا ما ينشر فى الصحف والمجلات. أمّا الأخلاق فحدث ولاحرج فقد محتها أمواج الفساد والبغى والدعارة، ولو إستعرضنا بعض الجرائم والانحرافات لأدركنا أنّ الجاهلية المعاصرة أرهب وأرعب بكثير من تلك الجاهلية. ولعل الآية ۳۳ من سورة الأحزاب ناظرة إلى الجاهلية المعاصرة حين خاطبت نساء النبى صلى الله عليه و آله بالقول: «وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى .

فالتعبير بالجاهلية الاولى يفيد أنّ هناك جاهلية أخرى

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۷۹

القسم الثانى: كلكم مسؤول

«فاعْتَبِرُوا عِبادَ اللَّهِ واذْكُرُوا تِيكَ الَّتِى آباؤُكُمْ وإِخْوانُكُمْ بِها مُرْتَهَنُونَ، وعَلَيْها مُحاسَبُونَ ولَعَمْرِى ما تَقادَمَتْ بِكُمْ ولا بِهِمُ الْعُهُودُ، ولا خَلَتْ فِيما بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمُ الْأَحْقابُ والْقُرُونُ الدهور، وما أَنْتُمُ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمَ كُنْتُمْ فِى أَصْلابِهِمْ بِبَعِيدٍ. واللَّهِ ما أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً إِلَّا وها أَنا ذا مُسْمِعُكُمُوهُ، وما أَسْماعُكُمُ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْماعِكُمْ بِالْأَمْسِ، ولا شُقَّتْ لَهُمُ الْأَبْصارُ، ولا جُعِلَتْ لَهُمُ الْأَفْئِدَةُ فِى ذَلِكَ الزَّمانِ، إِلَّا وقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَها فِى هَذا الزَّمانِ الأوان. و وَاللَّهِ ما بُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ ولا أُصْفِيتُمْ بِهِ وحُرِمُوهُ، ولَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ الْبَلِيَّةُ جائِلًا خِطامُها، رِخْواً بِطانُها فَلا يَغُرَّنَّكُمْ ما أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام الناس فى زمانه محذرهم من إمكانية تكرار أوضاع الجاهلية فتعمكم ما كانت عليه من الفساد والانحراف فعليكم باليقظة والحذر:

«فاعتبروا عباد اللّه واذكروا تيك الّتى آباؤكم وإخوانكم بها مرت هنون، وعليها محاسبون».

تيك التى تعنى تلك إشارة شاملة إلى كافة ذنوب وآثام أقوام الجاهلية، وانّ اللَّه سيحاسبهم عليها، ولم يذكر هنا المشار إليه حيث بين فى القسم السابق، وعليه لم تعد هناك من حاجة إلى التكرار. هذا وقد ذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ المراد باسم الإشارة الدنيا والحياة الدنيوية أو الامّانة الإلهية

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۸۰

التى أشارت إليها الآية القرآنية: «إِنّا عَرَضْنا الأَمانَةَ ...»[۸۰۳] إلّاأنّ هذا التفسير لايبدو مستقيماً بالالتفات إلى صدر الخطبة وذيلها. ثم قال عليه السلام:

«و لعمرى ما تقادمت بكم ولا بهم العهود، ولاخلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب ۸۰۴] والقرون، وما أنتم الْيوم من يوم كنتم فى

أصلابهم ببعيدٍ».

بناءاً على التفسير المـذكور فانّ العهود هى المواثيق، والعبارة إشارة لما ورد فى القرآن الكريم «قُلْ أَتَّخَذتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ»[۸۰۵] أمّا البعض من الشراح فقد ذهب إلى أنّ المراد بالعهود هنا العصور وعلى هذا الضوء سيكون المفهوم واحدا مع العبارة القادمة:

«و لا خلت فيما بينكم بينهم الأحقاب والقرون»

، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مكانته آنذاك والتى تصاف مكانة النبى صلى الله عليه و آله ازاء فجائع زمان الجاهلية فقال:

«واللّه ما أسمعكم ۸۰۶] الرّسول شيئاً إلّاوها أنا ذا مسمعكموه، وما أسماعكم اليوم بدون أسماع كم بالأمس، ولا شقّت لهم الأبصار، ولا جعلت لهم الأفئدة فى ذلك الزّمان، إلّاوقد أعطيتم مثلها فى هذا الزّمان»

وعليه فانكم تشبهونهم فى كل شئ، والحال إنّكم تلوون رؤوسكم عن الحق الذى كانوا عليه. فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار ضمنياً إلى حقيقة مريرة فى عصره- بسبب سوء تدبير سابق الخلفاء والانغماس فى الثروات التى ملأت الجزيرة العربية من خلال الفتوحات الإسلامية التى جرت عليهم هذه الغنائم- وهى بداية جاهلية اخرى قد أصيب بها الناس. فقد ظهرت الأصنام بصور اخرى، بحيث أصبح الدينار والدرهم صنماً، كما أصبح المنصب والمقام صنماً. فقد أوضح الإمام عليه السلام أنّ رسالته فى هذا العصر والزمان هى ذات رسالة رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله، فهو يبين كل ما بينه النبى صلى الله عليه و آله، ثم قال عليه السلام أنّ أسماعكم

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۸۱

وابصاركم وأفئدتكم ليست باقل من أسماع وأبصار وأفئدة الناس فى عصر الجاهلية الذى نهض فيه رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله وصدع بالأمر، فلديكم ذات الحس والشعور والإدراك (بل إنّكم لتفوقونهم فى ذلك فقد انبثقت الدعوة وانتشرت، فكيف لاتكفون عن سوء الأعمال، ولم ترعوون عن الضلال وتعودن إلى الهدى ولم لاتفيقون من نوم الغفلة». ثم حذرهم الإمام قائلًا:

«و لقد نزلت بكم البليّة جائلًا[۸۰۷] خطامها،[۸۰۸] رخواً بطانها[۸۰۹]»

ذهب أغلب الشرّاح إلى أنّ المراد بهذه البلية فتنة بنى‌أمية التى أحرقت الاخضر واليابس وطالت أموال الناس وأعراضهم. والجدير بالذكر هو أن الإمام عليه السلام قد شبه هذا البلاء الكاسر بالناقة الجامحة التى إسترخى لجامها فهى تنذر بسقوط راكبها. وعليه فالراكب لايتمكن من حفظ نفسه فضلًا عن السيطرة على الناقة وصدها عن الجموح. نعم هكذا كان بلاء بنى‌أمية حيث لم يسلم أحد منهم.

وأخيراً إختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلًا:

«فلا يغرّنّكم ما أصبح فيه أهل الغرور، فإنّما هو ظلّ ممدودٌ إلى أجلٍ معدودٍ».

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۸۳

الخطبة[۸۱۰] التسعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وتشتمل على قدم الخالق وعظم مخلوقاته، ويختمها بالوعظ

نظرة إلى الخطبة

تتالف الخطبة من أربعة أقسام:

القسم الأول: الحديث عن إحاطة اللّه بالعباد وعلمه بخفايا الإنسان.

القسم الثانى: ازلية الحق سبحانه وشرحها بعبارات رائعة واضحة.

القسم الثالث: تهديد أعداءاللّه بالعذاب الاليم وبشارة أولياءاللّه بجزيل الأجر والثواب.

القسم الرابع: وعظ عباداللّه والنصح لهم، وكأن الاقسام الثلاث كانت مقدمة لهذا الوعظ المؤثر فى الإنسان.

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۸۵

القسم الأول: كان ولم يكن أحد سواه

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، والْخالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، الَّذِى لَمْ يَزَلْ قائِماً قادِماً: إِذْ لا سَماءٌ ذاتُ أَبْراجٍ، ولا حُجُبٌ ذاتُ إِرْتاجٍ، ولا لَيْلٌ داجٍ، وَلا بَحْرٌ ساجٍ، ولا جَبَلٌ ذُو فِجاجٍ، ولا فَجٌّ ذُو اعْوِجاجٍ، ولا أَرْضٌ ذاتُ مِهادٍ، وَلا خَلْقٌ ذُو اعْتِمادٍ: ذَلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ ووارِثُهُ، وإِلَهُ الْخَلْقِ ورازِقُهُ، الشَّمْسُ والْقَمَرُ دائِبانِ فِى مَرْضاتِهِ: يُبْلِيانِ كُلَّ جَدِيدٍ، ويُقَرِّبانِ كُلَّ بَعِيدٍ».

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى ثلاث من صفات اللّه فقال:

«الحمد للّه المعروف من غير رؤيةٍ»

نعم فهو ليس بجسم ولايحده زمان أو مكان يرى بالعين؛ فالجسمية دليل النقص والحاجة إلى الزمان والمكان، بينما اللّه منزه عن هذا النقض والحاجة فهو كمال مطلق، مع ذلك فقد ملأت آثاره الآفاق بما يدل على وجود ذاته المقدسة، بما فيها الآيات الآفاقية والنفسية. فالرؤية محالة عليه، إلّاأنّه أوضح الواضحات، فكافة ذرات العالم تسبحه وتقدسه وتشهد له بالوجود. وقال عليه السلام فى الصفة الثانية:

«و الخالق من غير رويّةٍ»[۸۱۱]

فانّما يحتاج إلى الفكر من كان هناك أشياء مجهولة لديه، أما من لم يكن له من شئ مجهول فالفكر محال عليه. كما يحتمل أن يكون المراد يقوله

«غير رويّةٍ»

بأنّ سابقة لم تكن لهذا الخلق الذى خلقه اللّه، خلافاً لخلاقية الإنسان التى تحتذى بالتجارب. ثم قال فى الصفة الثالثة:

«الّذى لم يزل قائماً دائماً»

فالازلية والأبدية من مختصات الذات المقدسة التى تعد من لوازم تلك الذات المطلقة

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۸۶

اللامحدودة. فلو كانت هناك من بداية لشئ كانت له نهاية فهو محدود قطعاً. أمّا الذات اللامحدودة واللامتناهية فهى لاتعرف البداية ولا النهاية. فهو الوجود الذى كان وكائن إلى الأبد. ثم وضح عليه السلام أزليته سبحانه بالقول:

«إذ لا سماءٌ ذات أبراجٍ، ولا حجبٌ ذات إرتاجٍ،[۸۱۲] ولا ليلٌ داجٍ،[۸۱۳] ولا بحرٌ ساجٍ،[۸۱۴] ولا جبلٌ ذو فجاجٍ،[۸۱۵] ولا فجٌّ ذو اعوجاجٍ، ولا أرضٌ ذات مهادٍ، ولا خلقٌ ذو اعتمادٍ»

يمكن أن تكون العبارة

«حجب ذات ارتاج»

اشارة إلى ما صرحت به الروايات والأخبار من حجب النور تحت العرش التى لايسع مخلوق الاقتراب منها، فشدة نورها التى تخبف الأبصار وتحول دون إجتيازها هى بعض مخلوقات اللّه التى يحتمل أنّها وجدت بعد خلق العرش وقد فصلت العرش عن السموات. فقد

جاء فی الخبر عن الإمام الکاظم علیه السلام فی فلسفة التکبیرات السبع فی بدایة الصلاة أنّه قال:

«یا هشام إن اللّه خلق السماوت سبعا والأرضین سبعا والحجب سبعا ...»[۸۱۶]

ثم ورد فی ذیل الحدیث أن هذه الحجب کانت تطرح الواحد بعد الآخر أمام رسولاللَّه صلی الله علیه و آله حین المعراج، فکان یکبر اللَّه عند رفع کل حجاب وهذه هی فلسفة التکبیرات السبع (فالمصلی حین یقف بین یدی ربّه للصلاة التی تعتبر معراج المؤمن یکبر سبعاً من أجل رفع تلک الحجب عنه. کما تفید المناجاة الشعبانیة أنّ هذه الحجب النورانیة قد رفعت عن بعض أولیاءاللَّه

«إلهی هب لی کمال الانقطاع الیک وأنر أبصار قلوبنا بضیاء نظرها إلیک حتی تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلی معدن العظمة ...»

وبالطبع لیس لدینا من إطلاع عن ماهیة هذه الحجب، أمّا الذی یستفاد من عبارات المناجاة الشعبانیة أنّ تلک الحجب تشیر إلی سلسلة من المفاهیم الوراء الطبیعة.

وقد تعرض المرحوم العلّامة المجلسی فی بحارالأنوار بعد الإشارة إلی موضوع الحجب النوریة الواردة فی الروایات إلی بیان وتفسیر الحجب فی أبعادها الجسمانیة والروحانیة أو المادیة والمعنویة.[۸۱۷] العبارة:

«و لا لیلٌ داجٍ، ولا بحرٌ ساجٍ»

فی الوقت الذی تشیر فیه إلی أزلیة اللَّه

نفحات الولایة، ج۳، ص: ۳۸۷

ووجوده المقدس قبل الخلق العالم، فهی تلمح إلی نعمه سبحانه علی الخلق، وذلک لأنّ ظلمة اللیل وسکون البحر من نعمه سبحانه، فالاولی تدعو إلی النوم والراحة التی تلعب دورا بالغاً فی بناء البدن والروح، والثانیة فی الملاحة والصید واستخراج ما فی أعماق البحر من لؤلؤ ومرجان. والعبارة:

«جبل ذوفجاج»

أی أنّ الجبال لو کانت کالجدران متصلة لانفصلت بقاع الأرض عن بعضها واختلت الحرکة علیها، بینما إقتضت حکمة اللَّه فصلها لتیسیر الحرکة والمشیی.

«فج ذو اعوجاج»

یمکن أن یکون المراد بها لو لا انعطاف واعوجاج الأودیة لأتت السیول بحرکتها السریعة فجرفت کل شئ، حیث حال ذلک الاعوجاج دون طغیان السیول وسیطر علیها.

«أرض ذات مهاد»

إشارة إلی الأراضی الواسعة الساکنة.

«خلق ذواعتماد»

إشارة إلی القدرة الروحیة والجسمیة التی منحها اللَّه للإنسان. ثم قال علیه السلام:

«ذلک مبتدع الخلق ووارثه»،

فکل شئ زائل ولایبقی سواه

«و إله الخلق ورازقه»،

وکیف لایکون إله الخلق ومعبودهم وهو بهذه الصفات والکمالات. أضف إلی ذلک فالرزق بیده وهو یفیضه علی العباد.

فهو جدیر بالعبادة لعظمته وهو أولی بها شکراً لنعمه. ثم اختتم کلامه بالإشارة إلی نعمتین تفیدان قدرته وعظمته فقال:

«و الشّمس والقمر دائبان ۸۱۸] فی مرضاته: یبلیان کلّ جدیدٍ، ویقرّبان کلّ بعیدٍ»

فقد سمى الشمس والقمر دائبين لتعاقبهما على حال واحدة دائما لايفترقان ولايسكنان. فالقمر فى حالة حركة دائما، إلّاأنّ نسب الحركة للشمس يمكن أن يكون إشارة إلى حركتها الظاهرية (وان كانت فى الواقع ثابته والأرض تدور حولها) أو إشارة إلى سائر حركات الشمس، بل جميع المنظومة الشمسية فى المجرات.

والجدير بالذكر أنّ أغلب عبارات الإمام عليه السلام قد اقتبست من آيات القرآن الكريم، ومنها الآية:

«وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِساطاً* لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً»[۸۱۹] والآية «أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً»[۸۲۰] والآية «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دائِبَيْنِ»[۸۲۱].

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۸۹

القسم الثانى: العالم بالخفايا والأسرار

«قَسَمَ أَرْزاقَهُمْ، وأَحْصَى آثارَهُمْ وأَعْمالَهُمْ، وعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ، وخائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ، وما تُخْفِى صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، ومُسْتَقَرَّهُمْ ومُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحامِ والظُّهُورِ، إِلَى أَنْ تَتَناهَى بِهِمُ الْغاياتُ».

الشرح والتفسير

يتحدث الإمام عليه السلام هنا أيضاً عن صفات اللَّه ذات الصلة بأوضاع الناس ومصائرهم كمقدمة للوعظ والنصح فقال عليه السلام:

«قسم أرزاقهم»،

طبعا المراد بتقسيم الارزاق تقيسمها على ضوء السعى والعمل والاجتهاد، لا ـ أنّ اللَّه ضمن ايصال رزق كل فرد إلى باب بيته دون حساب، وان حصل الإنسان أحياناً على رزق

«مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ»

إلّاأنّ هذا ليس أصلًا وقانوناً، والأصل والقانون هو السعى والجد والاجتهاد والعمل والابداع. بعبارة اخرى فانّ الرزق رزقان؛ يتوقف أحدهما على السعى والعمل وبدونهما يحرم منه، والآخر حتمى يصل إلى الإنسان سعى إليه أم لم يسع. والأساس هو القسم الأول. وقد أشارت بعض الروايات إلى القسمين كقول أميرَالمؤمنين عليه السلام:

«إن الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك»[۸۲۲]

والجدير بالذكر أنّ الأرزاق لاتفسر بالماء والغذاء فقط، بل تشمل كافة النعم المادية والمعنوية. فقد قسم اللَّه سبحانه العلم والإيمان والمقام والجاه والموقع الاجتماعى وما إلى ذلك على ضوء الجهود والحركة، مع ذلك هنالك بعض الحالات التى تتجاوز عالم الأسباب لتشير إلى قدرة

نفحات الولايه، ج۳، ص: ۳۹۰

مسبب الأسباب فتخيب نتيجة هذا السعى وتنجح تلك دون سعى وجهد، إلّاأنّ هذه امور استثنائية مختصة به سبحانه ثم قال عليه السلام:

«و أحصى آثارهم وأعمالهم، وعدد أنفسهم، وخائنة أعينهم، وما تخفى صدورهم من الضّمير»

وليس هذا فقط فحسب بل

«ومست قرّهم ومس تودعهم من الأرحام والظّهور، إلى أن تتناهى بهم الغايات»

ذهب بعض شرّاح نهجالبلاغة إلى أنّ المراد بالاثار يعنى آثار وطئهم فى الأرض، كما فسرها البعض الآخر بما يبقى من الإنسان فى العالم. وفسروا عدد الأنفس بعدد الناس فى كل زمان ومكان، كما فسرت بعدد الأنفاس (و يصح هذا التفسير إذا كانت العبارة فى النسخة أنفاس، كما نقل ذلك بعض شرّاح نهجالبلاغة وهو الانسب لما قبل هذه العبارة وما بعدها). أمّا المراد بخيانة العين النظر

الحرام، أو غمز الآخرين من أهل العفة والحياء. وأمّا العبارة

«وما تخفى صدورهم»

فهى إشارة إلى النيات الحسنة والقبيحة والطاهرة والفاجرة والعقائد المختلفة. والمستقر رحم المرأة الذى تستقر فيه نطفة الرجل والمستودع صلب الرجل الذى يضم النطفة قبل إنتقالها إلى الرحم.

والعبارة:

«إلى ان تتناهى بهم الغايات»

أى إلى أن يحشروا فى القيامة، ولايصح ما ذهب إليه بعض الشرّاح من تفسيرها بالجنّة والنار لعدم انسجامها والعبارات السابقة. عل كل حال فالعبارات تشير إلى علمه سبحانه بسبعة امور عن الإنسان، من قبيل الأعمال والحركات والعين والأنفاس والعقائد والنيات ومنذ ظهور النطفة فى صلب الرجل إلى إنتقالها إلى رحم الامُ مروراً بالولادة ومراحل الحياة وأخيرا الموت، ليعلم الإنسان بأنّه فى عين اللّه على كل حال فيلتفت إلى أعماله وحركاته وسكناته. والحق أنّ كلماته عليه السلام إنّما تستد إلى الآيات القرآنية الكريمة، كالاية:

«وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَىءٍ أَحْصَيْناهُ فِى إِمامٍ مُبِينٍ»[۸۲۳] والآية:

«يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وَما تُخْفِى الصُّدُورُ»[۸۲۴] والآية: «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِى كِتابٍ مُبِينٍ»[۸۲۵].

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۹۱

القسم الثالث: ليس كمثله شئ

«هُوَ الَّذِى اشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَى أَعْدائِهِ فِى سَعَةِ رَحْمَتِهِ، واتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيائِهِ فِى شِدَّةِ نِقْمَتِهِ، قاهِرُ مَنْ عازَّهُ، ومُدَمِّرُ مَنْ شاقَّهُ، ومُذِلُّ مَنْ ناواهُ، وغالِبُ مَنْ عاداهُ، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفاهُ، ومَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ، ومَنْ أَقْرَضَهُ قَضاهُ، ومَنْ شَكَرَهُ جَزاهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى قدرة اللّه وشدة نقمته فى ذات رحمته فقال عليه السلام:

«هو الّذى اشتدّت نقمته على أعدائه فى سعة رحمته»،

ثم قال فى الصفة الثانية:

«و اتّسعت رحمته لأوليائه فى شدّة نقمته»

فالعبارتان تشيران إلى حقيقة واحدة من زاويتين، وهى أنّ الرحمة الإلهية الواسعة لاتمنع من شدة العذاب، كما أن العذاب الشديد لايحول دون سعة الرحمة. فالواقع هو أنّ الخوف والرجاء العاملان الرئيسان فى الحركة نحو الكمال قد تجسداً باروع صورة فى هاتين العبارتين، لنظر العباد بعين إلى رحمته وبالاخرى إلى نقمته، فلا يغفلون ولا ييأسون، بل يعملوا بين الخوف والرجاء. ثم قال عليه السلام:

«قاهر من عازّه،[۸۲۶] ومدمّر[۸۲۷] من شاقّه،[۸۲۸] ومذلّ من ناواه،[۸۲۹] وغالب من عاداه»

فالعبارات اشارة إلى حاكميته المطلقة سبحانه لعالم الوجود. وقد

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۹۲

تكررت رحمته الواسعة فى العبارة، مع ذلك فهى لاتعنى سعة الجبابرة والظلمة على مقاومة إرادته سبحانه، وأما إمهاله لهم فانّ ذلك يستند إلى بعض الأسباب، من قبيل امتحان العباد، أو تسليط بعضهم على البعض الآخر. وبالطبع فانّ عبارات الإمام عليه السلام إنّما تستند إلى آيات القرآن، كالآية الواردة بشأن فرعون: «فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الآخِرَةِ وَالْأُولى [۸۳۰] ثم استنتج الإمام عليه السلام بعد ذكر هذه الصفات:

«من توكّل عليه كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن أقرضه قضاه، ومن شكره جزاه»

فهذه النتائج الأربع المترتبة على الأوصاف السابقة فى أنّ الشخص الذى حصل على قدرة وأصبح صاحب نعمة وفيرة لابدّ أنّ يكون ملاذا للمتوكلين ومانحاً للسائلين ومثيباً للمنفقين والشاكرين. وعليه فمن حرم من الرحمة والعطاء والثواب فهو المقصر حيث لم يطرق بابه سبحانه ولم يقرضه ولم يشكر نعمه. ومرة اخرى نقول أنّ أغلب عبارات الإمام عليه السلام مملوءة بالمضامين الدينية المستوحاة من الآيات القرآنية، كالاية: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»[۸۳۱] والآية الشريفة: «مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً»[۸۳۲] والآية: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ»[۸۳۳].

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۹۳

القسم الرابع: محاسبة النفس

اشارة

«عِبادَ اللَّهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وحاسِبُوها مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحاسَبُوا، وتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ الْخِناقِ، وانْقادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّياقِ، اعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْها واعِظٌ زاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِها لا زاجِرٌ ولا واعِظٌ».

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بهذه العبارات التى تمثل الكلام الفصيح النادر اللطيف حسبما ذكر ذلك ابن أبى‌الحديد[۸۳۴]. فقال عليه السلام:

«عباد اللّه زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا، وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا»

فقد درج الإنسان فى حياته حين المعاملات على زنة المتاع ثم حساب قيمته، وأنّه ليفقد رأس ماله إذا التبس عليه الوزن أو الحساب ويصاب بالضرر والخسران، وهذا ما ينبغى أن يكون عليه فى الامور المعنوية، فعليه أن يزن نفسه ويرى ماهى عليه من الأخلاق والإيمان ثم يحاسبها، فان رأى نقصاً هب لاصلاحه قبل أن يرد حساب الآخرة حيث لاسبيل للاصلاح وتدراك الافراط سوى الحسرة والندم. فمما لاشك فيه أن وزن الأعمال فى القيامة حق، الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم: «وَالوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ»[۸۳۵] كما أنّ الحساب من المسلمات، ومن هنان كان أحد أسماء يوم القيامة هو يوم الحساب: «وَقالَ مُوسى إِنِّى عُذتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لايُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسابِ»[۸۳۶]. ثم قال عليه السلام:

«و تنفسوا قبل

نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۹۴

ضيق الخناق».[۸۳۷]

فالتنفس هنا كناية عن مبادرة العمل الصالح والعلم وتهذيب النفس والورع والتقوى. أمّا ضيق الخناق فيراد به الموت. فقد جاء فى القرآن: «وَأَنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصّالِحِينَ»[۸۳۸] ثم قال عليه السلام:

«و انقادوا قبل عنف السّياق ۸۳۹]»

فاذا جاء الموت استسلم أعتى الأفراد كفرعون وهامان ونمرود ومن على شاكلتهم ليصرخ

«آمنت لا إله الا اللّه»

ولم ينفعهم ذلك الإيمان. كما صرح القرآن بشأن الآثمين الذى يرون ملائكة الموت أنّهم ينادون: «رَبِّ ارْجِعُون* لَعَلِّى أَعْمَلُ صالِحاً

فِيما تَرَكْتُ كَلّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها»[۸۴۰]. ثم إختتم عليه السلام خطبته قائلًا:
«و اعلموا أنّه من لم يعن على نفسه حتّى يكون له منها واعظٌ وزاجرٌ لم يكن له من غيرها لا زاجرٌ ولا واعظٌ»
فالهدايـة لابـدّ أن تنبع من بـاطن الإنسـان، ومـادام باطن الإنسان ليس مسـتعداً فليس هنالك من تأثير للواعظ الخارجى. وعليه فالإنسان يجب أن يعزم بادى ذى بـدء على إحياء ضـميره ووجـدانه لتحفه العناية الإلهية، وهنا يسـتعد الإنسان لاقتفاء آثار الأنبياء والأولياء ويعر آذانه لسماع الحق.

تأمّلان

۱- الوزن والحساب فى المحشر

تفيد أغلب الآيات والروايات أنّ يوم القيامة هو يوم وزن جميع الأشـياء والحساب عليها، ولايقتصـر هذا الوزن على الأعمال فحسب بل يخضع الإنسان للاختبار لمعرفة عقائده ونياته
نفحات الولاية، ج۳، ص: ۳۹۵
وأخلاقه. أمّا البعض فقـد تصوروا أنّ موازين يوم القيامة كموازين الدنيا، إلّاأنّها أدق، فاضـطروا للاعتقاد بوزن الأعمال المعنوية، إلّاأنّ الأمر ليس كذلك، فميزان كل شئ بمايناسبه.
فاليوم تسـتعمل كلمـة الميزان ليقال ميزان الهواء وميزان الحرارة، والحال ليس هنالك مثل هـذا الميزان. بل تسـتعمل الميزان بكثرة فى الأعمال المعنويـة ولايراد بها هـذا الميزان. والحق أنّ عالم الاخرة آخر واسع يتجاوز حـدود هـذا العالم بحيث يتعذر علينا تصور ابعاده وحدوده وجزئياته وان كان لنا علم إجمالى به. وقد أوصـى الإمام عليه السـلام بزنة الأعمال قبل وزنها هناك ومحاسبتها قبل الحساب؛ الأمر الذى أكده سائر المعصومين عليهم السلام. فقد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال:
«ليس منا من لم يحاسب نفسه فى كل يوم، فان عمل خيرا استزاد اللّه منه، وحمداللّه عليه، وإن عمل شرا استغفراللّه وتاب عليه»[۸۴۱]
. وجاء فى الحديث أنّ رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله قال لأبى‌ذر:
«يا أباذر! حاسب نفسك قبل ان تحاسب، فانه أهون لحسابك غدا، وزن نفسك قبل أن توزن»[۸۴۲]
. كما قال صلى الله عليه و آله لأبى ذر:
«يا أباذر لايكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه، ومن أين مشربه، ومن أين ملسبه، أمن حل ذلك، أم من حرام».[۸۴۳]

۲- الواعظ الباطنى

إن النتيجة المطلوبة تتطلب أمرين؛ الموضع المناسب والتربية الصحيحة، وبعبارة اخرى
قابليـة القابـل وفاعليـة الفاعـل. فالفلاـح مهمـا كـان مـاهراً والمـاء مهما كان وافراً، والبـذر مهما كان صالحاً، لايجنى أى ثمر إذا كانت الأـرض الزراعيـة مالحـة غير صالحـة للزراعـة، وذلـك لأـنّ إفتقـار الموضع لقابليته يبـدد جميع الجهود. ويصـدق هـذا الأمر على تربية النفوس البشرية، فما لم يكن للإنسان واعظ من نفسه ونزوعا نحو الحق والانصاف لم تؤثر فيه أقوى المواعظ من الخارج.
ومن هنـا شـرب أبوجهـل وابولهب الصـدى وهمـا يجلسان على ساحل منبع الوحى الفياض، بينما ارتوى أمثال أويس القرنى من ذلك

المنبع رغم البعد الشاسع عنه. وبالطبع لايفهم الجبر من هذا الكلام، لأنّ الواعظ الباطنی يتبلور أيضاً عن طريق تهذيب النفس وتزكيتها، فشعلته

نفحات الولايهٔ، ج۳، ص: ۳۹۶

تنطفئ فی ظل الأهواء والشهوات، بينما تتقد إثر العفاف والطهارات.

إلی هنا انتهينا بحمداللّه من المجلد الثالث ويليه المجلد الرابع إن شاءاللّه. ولا يسعنی هنا إلّا أن أتضرع إلی البارئ سبحانه بفائق الشكر والامتنان علی ما وفقنی إليه، كما أسأله أن يمن علی بمواصلهٔ هذا الجهد الزهيد. وما توفيقی إلّاباللّه عليه توكلت وإليه أنيب وآخر دعوانا أن الحمدللّه ربّ العالمين.

۱۵ جمادیالثانيهٔ ۱۴۲۱

---

[۱] (۱) سند الخطبهٔ: جاء هذا الكلام فی المحاسن للبيهقی ومروج الذهب للمسعودی وعلل الشرائع للصدوق والتهذيب للشيخ الطوسی(مصادر نهجالبلاغهٔ ۲/ ۴۰).

[۲] (۱) شرح نهجالبلاغهٔ للعلّامهٔ الخوئی ۴/ ۳۸۳؛ الكامل للمبرد ۲/ ۱۱۶۴.

[۳] (۱) العلامهٔ المجلسی فی« بحارالانور» فی معرض شرحه لهذا الموضوع، وهو لماذا كان معاويهٔ بن أبی سفيانيدعو الرسول الاكرم صلی الله عليه و آله بابن أبی كبشهٔ، عند ذكره إياه، فيقول: إن مشركی العرب كانو أيضا يدعون الرسول بهذا الاسم، وذلك لان« ابن أبی كبشهٔ» هو من قبيلهٔ« خزاعهٔ» والتی كانت علی اختلاف مع قبيلهٔ قريش، حول مسألهٔ عبادهٔ الاصنام، فابن أبی كبشهٔ كان من مخالفی عبادهٔ الاوثان.« بحارالانوار ۱۸/ ۲۱۳».

[۴] (۲) شرح نهج البلاغهٔ لابن أبی الحديد ۵/ ۱۲۹.

[۵] (۱) سند الخطبهٔ: روی مقدمهٔ هذا الكلام ابنكثير فی البدايهٔ والنهايهٔ نقلا عن كتاب أبی داود، وتوفی أبی داود لمئهٔ وثلاثين سنهٔ قبل السيد الرضی(ره)، ورواها الزمخشری فی ربيع الابرار مع إختلاف يفيد أنّه نقلها من مصدر آخر غير نهجالبلاغهٔ. ورواها الآمدی فی غرر الحكم فی حرف الالف(مصادر نهجالبلاغهٔ ۲/ ۴۲). كما وردت فی كتاب صفين لنصربن مزاحم الذی عاش فی القرن الهجری الثانی(نهجالبلاغهٔ طبعهٔ. جماعهٔ مدرسی الحوزهٔ العلميهٔ).

[۶] (۲)« غيلهٔ» علی غرهٔ بغير شعور من المقتول كيف يأتيه القاتل، كما ورد« الاغتيال» بمعنی القتل الحيلهٔ، ومن مصاديقه أيضاً بعض الأذی الذی يتعرض له البدن دون القتل.

[۷] (۱) مصادر نهجالبلاغهٔ ۲/ ۴۲- ۴۳، كما رواه المرحوم ابن ميثم فی شرحه لنهجالبلاغهٔ ۲/ ۱۵۷.

[۸] (۲)« يطيش» من مادهٔ« طيش» علی وزن عيش بمعنی خفهٔ العقل وتستعمل للسهم حين يخطئ الهدف وكأنالسهم لم يعمل علی ضوء العقل، وفسره البعض بكل خفهٔ(كتاب العين ومقاييس اللغهٔ ولسان العرب).

[۹] (۳)« سهم»، وهو فی الأصل واحد النبل، والمركب من النصل والنبل، والجمع، أسهم وسهم وسهام، ومن هنا يستعمل أحياناً لتعيين النصيب والقائدهٔ، ويستعمل للقرعهٔ.

ويطلق اصطلاح السهم علی النصيب والحظ والفائدهٔ،« والمساهمهٔ» تأتی بمعنی القرعهٔ، ومن هنا وفی حال إجراء القرعهٔ فان أسماء المقترعين تكتب علی نصل السهم، ثم تخلط فيما بينها، ثم تتم عمليهٔ انتخاب احد السهام، فيكون الاسم المكتوب عليه هو الفائز

بالقرعة.

[۱۰] (۴)« يبرأ» من مادة« برء» على وزن قرب بمعنى التحسن من المرض« وبرء» بمعنى الخلق، ومنه« البارئ» بمعنى الخالق.

[۱۱] (۵)« الكلم» بالفتح على وزن نظم بمعنى الجرح. ومن هنا يقال للحديث الذى يترك أثراً على القلوب بالكلام.

[۱۲] (۶) نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، ۲۰۲.

[۱۳] (۷) نهج‌البلاغة، الكلمات قصار، ۶- ۳.

[۱۴] (۸) تفسير البرهان ۲/ ۲۸۳.

[۱۵] (۱) سورة الاعراف/ ۳۴.

[۱۶] (۲) سورة المنافقون/ ۱۱.

[۱۷] (۱) لقد ورودت هذه الأقسام بالتفصيل فى التفسير نمونه ۱۸/ ۲۰۷ فى ذيل الآية ۱۱ من سورة فاطر.

[۱۸] (۱) سند الخطبة: كتب صاحب مصادر نهج‌البلاغة فى سند هذه الخطبة: لا ترديد فى أنّ ما ورد فى هذه الخطبة قسم من خطبة طويلة إختار السيد الرضى(ره) بعضها، وأضاف لقد أوردت هنا ما أورده الآمدى فى غرر الحكم فى حرف الالف، أما التفاوت فى بعض العبارات والاضافات فى نقل الآمدى تفيد أنّه استقى هذه الخطبة من مصدر آخر غير نهج‌البلاغة(لابد من الالتفات هنا إلى أنّ الآمدى صاحب غررالحكم من علماء القرن الهجرى السادس، بينما عاش السيد الرضى فى القرن الهجرى الرابع ۲/ ۴۴.

[۱۹] (۱) سورة العنكبوت/ ۲- ۳.

[۲۰] (۲)« سابغ» من مادة« سبوغ» بمعنى الامتداد، ونعمة سابغة تطلق على النعم الدائمة الممتدة، واسباغ الوضوءمواصلته بالماء دون الاسراف.

[۲۱] (۳)« قلص» من مادة« قلوص» على وزن خلوص بمعنى إنقبض وارتفع، وفى الخطبة بمعنى زوال الظل بحلول عتمة الليل.

[۲۲] (۱) سند الخطبة: ورد بعض هذه الخطبة فى كتاب الغرر والدرر للآمدى مع بعض الاختلاف عما ورد فى نهج‌البلاغة، مما يشير إلى أنّه إقتبسها من غير مصدر نهج‌البلاغة، كما نقل بعضها السبطبن الجوزى فى تذكرة الخواص بالاضافة إلى ما ورد فى نهج‌البلاغة، وهذا يعنى أنّه استقاه من مصدر آخر غير نهج‌البلاغة، وصرح فى كتابه بأنّه يذكر عبارات أميرالمؤمنين عليه السلام المتصلة السند(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۴۷- ۴۸).

[۲۳] (۲)« يحدو» من مادة« حدو» على وزن ضرب، و« حدا» على وزن دعا، وفى الاصل بمعنى الغناء للابل أثناءسوقها بصوت خاص، وذلك عندما يريد سائق الابل الاسراع فى السير، والصحيح« حُدا» وفى لسان عامة الناس يُقال« حُدى .

[۲۴] (۱) سورة الحجرات/ ۱۳.

[۲۵] (۲) سورة البقرة/ ۱۹۷.

[۲۶] (۱) سوره المنافقون/ ۱۰.

[۲۷] (۲) سورة التوبة/ ۱۱۱.

[۲۸] (۳)« ترحلوا» من مادة« رحلة» بمعنى السفر والرحيل من مكان إلى آخر.

[۲۹] (۴)« جد بكم» من مادة« جد» بمعنى حثثتم وازعجتم إلى الرحيل، كما تأتى بمعنى الأهمية، ويراد بها أيضاًالأسفار السريعة.

[۳۰] (۱) تفيد القرائن الواردة فى الخطبة ان« فاستبدلوا» وردت بصيغة الماضى كالمفردة« فاتبهوا» لأنّ كليهما نتيجة للعبارة السابقة، فالانتباه نتيجة صراخ اليقظة وتبدل الدنيا بالآخرة نتيجه العلم بموضعيهما، والعجيب أن أغلب شرّاح نهج‌البلاغة صرحوا بأن« فاستبدلوا» فعل أمر؛ الأمر الذى يغير مفهوم هذه العبارة والعبارات اللاحقة.

[۳۱] (۲) منهاج البراعة للعلّامة الخوئى ۴/ ۳۳۹؛ وقد ورد هذا المعنى فى الكلمة ۱۳۲ من قصار كلمات نهج‌البلاغة حيث قال عليه

السلام:« إن للَّه ملكاً ينادى فى كل يوم: لدوا للموت، واجمعوا للفناء وابنوا للخراب».

[۳۲] (۱) منهاج البراعة ۴/ ۳۹۹.

[۳۳] (۲)« سدى» من مادة« سدو» على وزن سرو بمعنى الاهمال والعبث، ومن هنا تطلق العرب« سدى على الابل‌التى لاراعى لها وترعى كيفما تشاء، والعبارة بمعنى تعنى أن اللَّه لم يخلقكم عبثاً دون هدف.

[۳۴] (۱) سورة القمر/ ۱.

[۳۵] (۲) سورة المعارج/ ۶.

[۳۶] (۱) الكافى ۳/ ۲۴۲.

[۳۷] (۲) نهج‌البلاغة، الكلمات القصار/ ۷۴.

[۳۸] (۱) أوبة له معنى مصدرى واياب بمعنى الرجوع والإنابة.

[۳۹] (۲) سورة البقرة/ ۲۸.

[۴۰] (۳) نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۸.

[۴۱] (۴) سورة البقرة/ ۱۵۶.

[۴۲] (۵) نهج‌البلاغة، الرسالة ۳۱.

[۴۳] (۱) سورة البقرة/ ۱۹۷.

[۴۴] (۲) غرر الحكم، ح ۱۱۲۸.

[۴۵] (۳) غررالحكم، ح ۱۵۵۸.

[۴۶] (۴) غررالحكم، ح ۲۵۵۳.

[۴۷] (۱) إنّ الأفعال وإن وردت بصيغ الماضى إلّاأنّها تفيد معنى الأمر. وكأن السامع على درجة من الطاعة بحيث‌يمتثل الاوامر قبل سماعها.

[۴۸] (۱)« يسوفها» من« التسويف» بمعنى التأخير فى العمل واصل العبارة« سوف أفعل كذا».

[۴۹] (۲)« تبطر» من مادة« بطر» على وزن نظر بمعنى بقر الشئ ومنه« البيطار» الذى يبقر بطن الحيوان، ثم أطلق على كل طغيان وتجاوز للحد فى السرور عند إقبال النعم، ويمكن القول بان البطر السكر والغرور الذى تفرزه النعمة، فالعبارة تعنى لاتطغيه ولا تسدل على بصيرته حجاب الغفلة عما هو صائر إليه.

[۵۰] (۳)« كآبة» على وزن خرابة لها معنى المصدر وإسم المصدر وتعنى الامتعاظ والانكسار من الهم والحزن، وقيل تطلق على الامتعاظ من الحزن الظاهر على الوجه.

[۵۱] (۱) بحارالأنوار ۳/ ۸۳- ۸۴(ح توحيد مفضل).

[۵۲] (۱) سورة الحجر/ ۳۹- ۴۰.

[۵۳] (۲) سورة الحجر/ ۳۹- ۴۰.

[۵۴] (۱) سورة فاطر/ ۳۷.

[۵۵] (۱) غرر الحكم، ح ۱۰۹۴۸.

[۵۶] (۱) سند الخطبة: نقل الصدوق(ره) هذه الخطبة مع بعض الاختلاف فى كتابه التوحيد وأضاف: أنّ الإمام عليه السلام خطبها حين جهز الجيش ثانية لقتال معاوية. ومن بين المحدثين الذين نقلوا هذه الخطبة المرحوم الآمدى فى غرر الحكم، وإن عاش بعد السيد الرضى. إلّاأنّ اختلاف عباراته مع عبارات السيد الرضى(ره) يفيد أنه رواها من مصدر آخر غير نهج‌البلاغة(مصادر نهج‌البلاغة

۲/ ۵۰).

[۵۷] (۱) سورة الحديد/ ۳.

[۵۸] (۲) سورة القصص/ ۸۸.

[۵۹] (۱) توحيد الصدوق، بحسب ما نقله عن بحارالانوار ۳/ ۲۰۶، ح ۱.

ومن أجل التوضيح أكثر حول حقيقة التوحيد، ووحدانية الله سبحانه وتعالى، يرجى مراجعة كتاب« نفحات القرآن ۳/ ۲۶۰ و ما بعد».

[۶۰] (۲) سورة النساء/ ۱۳۹.

[۶۱] (۱) سورة الاعراف/ ۱۸۸.

[۶۲] (۲) سورة النحل/ ۷۸.

[۶۳] (۱) بحارالانوار، ۴/ ۱۴۳ ح ۱۰، وورد مثل هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام فى الكافى، ۱/ ۷۹ ح ۴، كما جاءفى بحارالانوار أنّ الشيطان سأل المسيح عيسى عليه السلام هذا الجواب فأجابه بهذا السؤال(بحارالانوار، ۱۴/ ۲۷۱ ح ۳).

[۶۴] (۱) سورة الأنبياء/ ۴.

[۶۵] (۲) سورة الشورى/ ۱۱.

[۶۶] (۱) لقد وردت العبارة المذكورة فى أغلب نسخ نهج‌البلاغة بهذه الصورة« وكل ظاهر غيره غير باطن وكل باطن‌غيره غير ظاهر» وذهب أغلب شرّاح نهج‌البلاغة إلى وجوب إشتمال العبارة على غير» فى العبارة« ... غير باطن ... غير ظاهر» أو حذفها، حتى زعم البعض خطأ نسخة صبحى الصالح التى لم تتضمن غير فى العبارة الاولى بينما وردت فى العبارة الثانية، وبالطبع فان هذا ما يقتضيه سياق العبارة، ولكن وما ورد سابقاً لايمكن الزعم بان هذه النسخة خاطئة، ويمكن توجيه العبارة بما أوردناه من تفسير.

[۶۷] (۱)« ند» على وزن ضد بكسر النون النظير والمثيل ولا يكون إلّامخالفاً، ومن هنا فسر« بالضد» أحياناً.

[۶۸] (۲)« مشاور» من مادة« ثور» جاءت بمعنى الحركة والانبعات والاثارة، ومن هنا فان« إثارة» تعنى تفرق الشيء، و« مثاورة» تأتى بمعنى وثوب شخصين ليقف أحدهما فى وجه الآخر، ويقال أيضا لكل ضدين، ومن هنا يأتى معناها بمعنى المحاربة.

[۶۹] (۳)« مكاثر» من مادة« كثرة» بمعنى الزيادة، ويطلق على الشخص الذى لديه رغبة فى الزيادة، والذى يتفاخر بالمال والسلطة والجاه بالمكاثر.

[۷۰] (۴)« منافر» من مادة« النفرة» بمعنى الابتعاد والامتعاظ من الشئ.

[۷۱] (۱)« داخرون» من مادة« دخور» على وزن حضور بمعنى الذلة والصغر، تستعمل فى الامور السلبية كما تستعمل فى الامور الايجابية حينما يوصف عبادالله بصفة« داخر» فيعنى ذلك التسليم والتواضع أمام الحق.

[۷۲] (۲) فى الكثير من نسخ نهج البلاغة التى تعرض لشرحها الشارحون جاءت هذه الجملة والتى وردت أعلاه بهذه الصورة« فيقال: هو فيها كائن» ولا ريب فى أن مفهوم هذه الجملة التى جائت فى هذه النسخة هى أوضح، وفى النسخة التى دون النص منها، فان كلمة« فيها» جائت مقدره.

[۷۳] (۳)« ينْأَ» من مادة« نَأْى» على وزن رأى بمعنى ابتعد، والبعض فسرها بمعنى الابتعاد عن الشيء والاتجاه إلى نقطة بعيدة.

[۷۴] (۱) سورة الحديد/ ۴.

[۷۵] (۲) سورة ق/ ۱۶.

[۷۶] (۳) سورة البقرة/ ۱۱۵.

[۷۷] (۴) سورة يس/ ۸۲.

[۷۸] (۱) سورة الانشراح/ ۵- ۶.

[۷۹] (۲) سورة الاعراف/ ۹۷- ۹۸.

[۸۰] (۱) سند الخطبة: رواها جمع كثير من المؤرخين والمحدثين قبل السيد الرضى وبعده ومنهم نصربن مزاحم فى كتاب صفين والحافظ فى البيان والتبيين وفرات بن ابراهيم الذى عاش على عهد الإمام الرضا عليه السلام فى تفسيره المعروف والمسعودى فى مروج الذهب(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۵۲).

[۸۱] (۲)« ليلة الهرير»: والمقصود به نباح وعواء الكلاب ليلًا من شدة البرد.

و« هرير»: وتعنى فى الأصل صوت الكلب المنخفض، وهو دون النباح، والذى يطلقه من قلة صبره على البرد.

وليلة الهرير هنا، هى الليلة المعروفة، من ليالى حرب صفين المملوءة بالحوادث، حيث استمرت فيها الحرب من النهار إلى طوال الليل، وكانت ليلة قارصة البرد مملوءة بالخوف والمخاطر، حيث هلك فى هذه الليلة عدد كبير من جيش معاوية على يد ابطال جيش الإمام اميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام.

[۸۲] (۱) مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۵۳.(مع تلخيص)

[۸۳] (۱) سورة الفتح/ ۴.

[۸۴] (۲)« أنبى» من مادة« نبو» على وزن نبض بمعنى ارتقاع شىء عن شىء آخر والابتعاد عنه، وبهذا الدليل‌يستعمل هذا الاصطلاح عندما تعجز السيوف عن أداء دورها، حيث تبتعد السيوف عن تحقيق الهدف.

[۸۵] (۳)« الهام» جمع« الهامة» بمعنى مطلق الرأس وهو كائن ذاروح، واحيانا يستفاد من هذا الاصطلاح بشكل مطلق.

[۸۶] (۴)« لأمة» على وزن رحمة، وهى فى الأصل بمعنى الاجتماع والاتفاق، ومن هنا، فعندما يلتحم الجرح‌ويشفى فيقال له« التيام» و« لأمة» تأتى بمعنى الدرع، ولعل تسميتها بهذا الاسم جاء من قرب حلقاتها واجتماعها وارتباطها، وأحيانا يطلق هذا الاصطلاح على أى سلاح.

[۸۷] (۵)« قلقوا» السيوف من مادة« قلقلة» على وزن مرحمة بمعنى حركوا السيوف.

[۸۸] (۶)« أغماد» جمع« غمد» على وزن رند بمعنى بيت السيف، ومن هنا تطلق على بعض النباتات التى تختفى أشواكها فى حواف أوراقها.

[۸۹] (۱) سورة هود/ ۳۷.

[۹۰] (۱) سورة طه/ ۴۸.

[۹۱] (۲) لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ هذا التفسير على أساس أنّ« أعقاب» جمع« عقب» على وزن نسب بمعنى‌الأولاد، وان كان عقب على وزن قفل بمعنى العاقبة وما يؤول إليه الأمر فانّ مفهوم العبارة سيكون« إنّ الفرار من الجهاد عار فى عاقبة أمركم» إلّا أنّ التفسير الأول أنسب.

[۹۲] (۳) سورة الانفال/ ۱۵- ۱۶.

[۹۳] (۴) جملة« طيبوا نفساً»، تستعمل كتعبير عندما يستقبل الانسان شيئاً بالرضا وطيب الخاطر، وفى هذه الموارد‌تأتى بعنوان تمييز منصوب.

[۹۴] (۱) للوقوف بصورة أعمق على هذا الموضوع راجع الخطبة الخامسة من المجلد الأول.

[۹۵] (۲)« كسر» على وزن مصر شقه الأسفل، كناية عن الجوانب التى يفر إليها المنهزمون.

[۹۶] (۳)« وثبة» من مادة« وثب» على وزن نصر بمعنى الظفر والنصر، كما تعنى القفز للاستيلاء على الشئ.

[۹۷] (۴)« نكوص» بمعنى الانسحاب والتراجع عن القيام بعمل، وعادة ما تستعمل بشأن التراجع عن اعمال الخير.

[۹۸] (۱) سورة الانفال/ ۴۸.

[۹۹] (۲)« صمد» علی وزن حمد، وجاء علی معنیین، أحدهما« القصد» والثانی« الاستحکام والصلابة» ولیس مستبعد ان یکون یرجع أصل المعنیین إلی أصل واحد، لان القصد یحصل اذا کان هناک استحکام وصلابة خاصة.

و« صمد» علی وزن سبب، بمعنی الشخص الذی یقصده المحتاجون، وتعنی: المکان الرفیع والسامی، وکذلک یأتی بمعنی الشیء المحلوء، وکل هذه المعانی لها تناسب مع المعنی الاصلی لهذا الاصطلاح.

وقد ورد فی الجملة اعلاه کتعبیر عن المقاومة والصمودُ البصر والتحمل فی مواجهة العدو.

[۱۰۰] (۳) شرح نهج البلاغة للمرحوم تستری ۱۳/ ۵۴۳.

[۱۰۱] (۱) سند الخطبة: تعتبر هذه الخطبة من الخطب المعروفة لأمیرالمؤمنین علی علیه السلام والتی روتها عدة مصادر من قبیل نهایة الارب للتویری وتأریخ الطبری وتأریخ ابن الأثیر فی حوادث سنة ۱۱ ه وکتاب السقیفة لأبی‌بکر الجوهری، کما ورد بعضها فی صحیح البخاری وصحیح مسلم، مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۵۸- ۶۰.

[۱۰۲] (۱) روی هذا الحدیث فی صحیح مسلم فی کتاب فضائل الصحابة باب فضائل الأنصار، أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال:« إن الأنصار کرشی وعیبتی... فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسیئهم». صحیح مسلم، ۴/ ۱۹۴۹ طبع دار إحیاء التراث العربی.

[۱۰۳] (۱) تاریخ الطبری ۲/ ۴۵۵(بتلخیص).

[۱۰۴] (۲) شرح نهج البلاغة لابن ابی الحدید ۶/ ۱۰.

[۱۰۵] (۳) شرح نهج البلاغة لابن ابی الحدید ۱۷/ ۲۲۳(ذکر ذلک علی أنه أحد اعتراضات الشیعة علی ابی بکر حیث یعتقد البعض أنه أمر بقتل سعدا».

[۱۰۶] (۴) الغدیر ۹/ ۳۷۹(لهام بمعنی الجیش العظیم).

[۱۰۷] (۵) یبدو المقصود هو علی علیه السلام(شرح البخاری للقسطلانی ۱۱/ ۳۵۲، نقلا عن البلاذری فی أنساب الاشراف).

[۱۰۸] (۱) روی هذا الحدیث ثلاثة وعشرین صحابیا علی الأقل عن رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله. وللوقوف علی أسمائهم و العبارات المختلفة التی وردت فی روایاتهم یمکن الرجوع إلی المجلد التاسع من رسالة القرآن/ ۶۲- ۷۹ أو خلاصة عبقات الانوار ۲/ ۱۰۵- ۲۴۲ وإحقاق الحق ۴/ ۴۳۸ والسیرة الحلبیة ومستدرک الحاکم والصواعق واسد الغابة وسنن البیهقی.

[۱۰۹] (۱) حدیث« القلم والدواة» أو« القلم والقرطاس» من الأحادیث العجیبة فی أمر الخلافة، وقد روته أشهر مصادر العامة صحیح البخاری. فقد ورد فی هذا الکتاب فی باب مرض النبی صلی الله علیه و آله عن سعید بن الجبیر عن ابن عباس قال: لما حضرت رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله الوفاة قال: هلموا أکتب لکم کتابا لا تضلوا بعده. فقال بعضهم: إنّ رسول‌اللّه قد غلبه الوجع وعندکم القرآن حسبنا کتاب اللّه. فاختلف من فی البیت واختصموا فمن قائل یقول: القول ما قال رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله ومن قائل یقول: القول ما قال عمر، فلما أکثروا اللغط واللغو والاختلاف، غضب رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله فقال: قوموا، إنّه لاینبغی لنبی أن یختلف عنده هکذا فقاموا، فمات رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله فی ذلک الیوم. فکان ابن عباس یقول: إن الرزیة کل الرزیة ما حال بیننا وبین کتاب رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله، یعنی الاختلاف واللغط.(صحیح مسلم ۳/ ۱۲۵۱ کتاب الوصیة، باب ۵ طبع دار إحیاء التراث العربی). کما نقل هذا الحدیث صحیح البخاری بطرق مختلفة(صحیح البخاری، المجلد السادس، باب مرض النبی صلی الله علیه و آله ووفاته، ص ۱۲ دارالجیل بیروت).

[۱۱۰] (۱) مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۶۱.

[۱۱۱] (۱)« عرصة» من مادة« عرص» علی وزن غرس کل بقعة واسعة بین الدور، والمراد ما جعل لهم مجالًا للمغالبة، وأراد بالعرصة عرصة مصر، وکان محمد قد فر من عدوه ظنا منه أنّه ینجو بنفسه، فأدرکوه وقتلوه.

[۱۱۲] (۲)« انهز» من مادة« نهز» علی وزن نبض بمعنی القیام والحرکة وانتهاز الفرصة إغتنامها.

[۱۱۳] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبی‌الحدید ۲/ ۹۳.

[۱۱۴] (۱) مصادر نهج البلاغة ۲/ ۶۱ بتصرف.

[۱۱۵] (۲) سفینة البحار ومصادر نهج البلاغة ۲/ ۶۱ فما بعد ومصادر اخری

[۱۱۶] (۱) الغارات ۱/ ۲۵۲.

[۱۱۷] (۱) سند الخطبة: نقلها بعض المحدثین قبل السید الرضی(ره) کالبلاذری(المتوفی عام ۲۷۹ ه) فی أنساب الاشراف والیعقوبی(المتوفی عام ۲۸۴) فی تأریخه. ویفهم من روایة الیعقوبی أنّ الإمام علیه السلام خطبها بعد غارة النعمان بن بشیر علی عین التمر(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۶۰).

[۱۱۸] (۱)« البکار» جمع« بکر» علی وزن مکر من مادة« بکور»، الفتی من الابل، ولابدّ من لالتفات إلی أنّها تستعمل‌بشأن الإنسان أیضاً وجمعها أبکار. و« بکر» علی وزن مکر، ویطلق علی الصغیر من أُنثی الابل وجمعها« أبکار».

[۱۱۹] (۲)« عمدة» من مادة« عمد» علی وزن حمد بمعنی إقامة الشیئ بالعمود، وتطلق علی الدابة التی انفتح داخل سنامها من الرکوب وظاهره سلیم.

[۱۲۰] (۳)« متداعیة» من مادة« دعوت»، وهذا الاصطلاح یستعمل للاشخاص یدعون بعضهم الآخر إلی شیء معین، ومن هنا یطلق علی قطعة القماش البالیة والتی عندما تتمزق أحدی زوایاها کأنما تدعوا لزاویة الاخری لتکون مثلها، یطلق علی هذه القطعة البالیة« المتداعیة».

[۱۲۱] (۴)« حیصت» من مادة« حیص» علی وزن حوض بمعنی خیطت.

[۱۲۲] (۱)« أطل» من مادة« طل» علی وزن حل بمعنی الاشراف علی شئ وهی هنا إشارة إلی إقتراب جیش الشام.

[۱۲۳] (۲)« منسر» علی وزن منزل من مادة« نسر» القطعة من الجیش البالغ عددها مئة إلی مئتین والتی تمر أمام جیش کثیر.

[۱۲۴] (۳)« انجحر» من مادة« جحر» علی وزن جهل بمعنی دخل الجحر.

[۱۲۵] (۴).« ضبه» علی وزن دبه بمعنی أُنثی الضب، وفی الاصل جاءت من مادة« ضبّت» بمعنی إنسیاب الماء بشکل بطیء وأمثال ذلک.

[۱۲۶] (۵)« ضَبُع»، یطلق علی نوع من السباع.

[۱۲۷] (۶)« وجار» من مادة« وجر» علی وزن فجر بمعنی صب الدواء فی الحلق، ومن هنا فان زحف الضبع فی‌حجره له شبه بذلک، ویقال لجحر الضب والحیوانات الاخری وجار».

[۱۲۸] (۷) وهنا فان الفعل« رُمی» جاء بصورة فعل مجهول، فی حین إن هذا الفعل تکرر فی الخطبة ۲۹ بهذا التعبیرولکن جاء بصیغة فعل معلوم، وبما انهما یعطیان معنیً واحداً فی کلا الحالتین، لذا فلا مانع من الاستفادة من التعبیرین فی الترجمة.

[۱۲۹] (۸)« باحات» من مادة« بوح» بمعنی الاتساع والظهور، ویراد بها ساحة الدار. ومن هنا فانه یطلق علی الساحةالواسعة والظاهرة للعیان، ب« الباحة».

[۱۳۰] (۱)« أوَد» من ماة« أود» علی وزن قول بمعنی العوج. و« اوَد» علی وزن سند، ویطلق علی الاعوجاج ب« الاوَد».

[۱۳۱] (۲) الغارات ۱/ ۴۲.

[۱۳۲] (۱)« أضرع» من مادة« ضرع» بمعنی الرضاع« وضع الثدی فی الفم»، ویأتی معناها أیضا بمعنی المناسب فی‌الاشیاء، ومن هنا فان هذا المصطلح یستعمل للتعبیر عن الدولة.

[۱۳۳] (۲)« أتعس» من مادة« تعس» علی وزن« ترس» بمعنی الهفوة والسهو والزلة وکذلک یأتی بمعنی السقوط، و« اتعاس» من باب افعال بمعنی الهلکة.

[۱۳۴] (۳)« جدود» جمع« جد» وفى الأصل بمعنى أب الأب أو أب الام، وتأتى بمعنى الرزق والموفقية الاجتماعية، وأحيانا بمعنى الفائدة، حيث أتت هنا بهذا المعنى

[۱۳۵] (۱) سند الخطبة: نقله كثير من المحدثين قبل السيد الرضى(ره) ومنهم ابن سعد فى الطبقات وأبو الفرج الاصفهانى فى مقاتل الطالبين وابن عبد ربه فى العقد الفريد وابن قتيبة فى الإمامة والسياسة والمرحوم السيد المرتضى فى الغرر والدرر والشيخ المفيد فى الإرشاد. مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۶۴.

[۱۳۶] (۲)« سنح» من مادة« سنوح» على وزن حضور، بمعنى العبور السريع لشىء فى مقابل الانسان، وكذلك تأتى‌بمعنى عرض الشىء أمام الانسان.

وقد فسر عدد من أرباب اللغة لفظ« سانح»، بحركة الشىء من اليسار إلى اليمين وفى مقابل الانسان، وعلى القاعدة فان ذلك يعتبر طالعٌ أو فأل خيرٍ، ويقابل ذلك اصطلاح« بارح» وهى الحركة من اليمين إلى اليسار، وهو طالع غير مبارك وغير حسن.

[۱۳۷] (۱) سورة نوح/ ۲۶.

[۱۳۸] (۱) بحارالأنوار ۱۸/ ۵۹.

[۱۳۹] (۲) بحارالأنوار ۱۸/ ۵۷.

[۱۴۰] (۳) بحارالأنوار ۱۷/ ۲۳۰.

[۱۴۱] (۴) بحارالأنوار ۱۷/ ۲۳۰.

[۱۴۲] (۵) بحارالأنوار ۲۰/ ۷۶.

[۱۴۳] (۱) بحارالأنوار ۱۹/ ۲۵۷.

[۱۴۴] (۱) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج‌البلاغة هذا مختار من خطبة خطب بها عليه السلام بعد صفين وقد روى طرفا منها ابن دأب المعاصر لموسى الهادى الخليفة العباسى فى كتابه الاختصاص. ورواها المفيد فى الارشاد. وقال ابن أبى‌الحديد: وقد روى هذا الكلام« ما أتيتكم إختياراً ..» على وجه آخر« ما أتيتكم إختياراً ولا جئتكم سوقاً»، والظاهر من كلامه أنها رواية غير النهج وأنّها خطبة واحدة مع الخطبة ۹۷ التى فصلها السيد الرضى(ره). مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۶۶.

[۱۴۵] (۱)« أملصت» من مادة« ملص»، أسقطت وألقت ولدها ميتاً، كما تعنى فقد ان الشئ سريعاً.

[۱۴۶] (۲)« تأيم» من مادة« ايم» على وزن زيد فقدان الزوج وتستعمل بشأن الزوج والزوجة.

[۱۴۷] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۶/ ۱۲۹.

[۱۴۸] (۲)« لهجة» من مادة« لهج» على وزن فلج، ويأتى معنى هذا اللفظ أحيانا بمعنى الملازمة وأحيانا بمعنى‌الاختلاط والمعاشرة وأحيانا بمعنى العلاقة الشديدة بالشىء، وكذلك فان اللهجة ملازمة للغة الانسان، وتطلق على مجموعة مختلطة من الامور، أما فى الجملة أعلاه فالاصطلاح جاء بمعنى الاسرار والمفاهيم الخاصة.

[۱۴۹] (۳)« ويل امه»: عبارة مركبة من(ويل) التى تأتى للدعاء أو التعجب وأمه مضافة إلى ويل إن كان مبتدأ، كما يمكن أن تكون مبتدأ وخبرها محذوف وتقدير العبارة« ويل أمه ثابت أو كائن» فان قرأت منصوبة فهى منادى وأصلها(يا ويل أمه) وقد وردت بكلمة واحدة فى بعض النسخ ولا يفرق ذلك فى المعنى.

[۱۵۰] (۱) رواه الحاكم فى المستدرک ۳/ ۱۳۶ والخطيب البغدادى فى تأريخه ۲/ ۸۱، كما رواه آخرون.

[۱۵۱] (۲) رواه عدد كثير من كبار علماء العامة باسناد معتبرة ومنهم: النسائى فى الخصائص ص ۳ والحاكم فى المستدرک ۳/ ۱۱۲ وابن ماجة فى السنن ۱/ ۵۷ والطبرى فى تأريخه ۲/ ۲۱۳، وجمع آخرن المحدثين.

[۱۵۲] (۳) ورد هذا لاحديث فى الباب ۴۷ من فرائد السمطين بأربعة طرق.

[۱۵۳] (۴) أورده ابن أبى الحديد فى المجلد الثانى ص ۱۰۱.

[۱۵۴] (۱) رواه الترمذى فى الجامع ۲/ ۲۱۴ والحاكم فى المستدرك ۳/ ۱۱۲ كما نقله آخرون.

[۱۵۵] (۲) بحارالأنوار ۳۷/ ۲۶۸.

[۱۵۶] (۳) مسند أحمد ۱/ ۹۹ طبع دار الصادق.

[۱۵۷] (۴) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۴/ ۱۱۶.

[۱۵۸] (۱) العقد الفريد ۳/ ۴۳ بتصرف.

[۱۵۹] (۲) الغدير ۳/ ۲۳۷.

[۱۶۰] (۱) ذكرنا اسناد هذه الرواية بالتفصيل ذيل حديث يوم الدار فى رسالة القرآن ۹/ ۳۲۶.

[۱۶۱] (۲) سورة مريم/ ۱۲.

[۱۶۲] (۳) سورة مريم/ ۳۰.

[۱۶۳] (۱) سند الخطبة: رواها الكثير ممن عاش قبل السيد الرضى(ره)، فقد وردت فى الصحيفة العلوية والتذكرة لابن الجوزى والامالى للبغدادى وغريب الحديث لابن قتيبة والغارات للثقفى، كما فسر عبارتها ابن أثير فى النهاية والزمخشرى فى الفائق وابن منظور فى لسان العرب(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۷۰).

[۱۶۴] (۱)« داحى» من مادة« دحو» بمعنى البسط، و« دحو الأرض» إشارة إلى الزمان الذى خرجت فيه اليابسةتدريجياً من الماء وانتشرت.

[۱۶۵] (۲)« داعم» من مادة« دعم» على وزن فهم بمعنى تسوية الاعوجاج، ومنه« الدعامة» بمعنى العمود.

[۱۶۶] (۳)« المسموكات» من مادة« سمك» على وزن سقف بعنى رفع، والمسموكات المرفوعات وهى السماوات.

[۱۶۷] (۴)« جابل» من مادة« جبل» على وزن جبر بمعنى خالق.

[۱۶۸] (۵) سورة الذاريات/ ۴۷- ۴۸.

[۱۶۹] (۱) سورة فاطر/ ۴۱.

[۱۷۰] (۲) ورد مضمون هذا الحديث فى عدة روايات تناهز العشرين، رواها المرحوم العلّامة المجلسى فى‌بحارالأنوار ۳/ ۲۷۶- ۲۸۱، كتاب التوحيد.

[۱۷۱] (۳) سورة الدهر/ ۳.

[۱۷۲] (۴) سورة الشمس/ ۷- ۸.

[۱۷۳] (۱)« شرائف» جمع« شريفة» بمعنى ذاقيمة.

[۱۷۴] (۲)« نوامى» جمع« نامية» من مادة« نمو» بمعنى التوسعة والزيادة والتطور.

[۱۷۵] (۱) بحارالأنوار ۷۴/ ۴۰۰.

[۱۷۶] (۲)« جيشات» جمع« جيشة» من مادة« جيش» على وزن عيش من جاشت القدر إذ إرتفع غليانها، ومنه الجيش‌لحركته.

[۱۷۷] (۳)« دامغ» من مادة« دمغ» على وزن ضرب إذا شجه حتى بلغت الشجة دماغه.

[۱۷۸] (۴)« صولات» جمع« صوله» بمعنى الحملة من أجل الغلبة. ويستعمل هذا الاصطلاح أيضا فى التعبير عن عضة البعير.

[۱۷۹] (۵)« اضطلع» من مادة« اضطلاع» بمعنى القوة والقدرة على القيام بالعمل. وفى الأصل من مادة« ضلع» على‌وزن جسم، بمعنى الضلع، وهو العظم المقاوم فى مقابل الحوادث، وكذلك يطلق على اصطلاح« ضلع» وهو على وزن« منع» بمعنى القوة والقدرة.

[۱۸۰] (۱)« مستوفز» من مادة« استيفاز» بمعنى المسادع المستعجل.

[۱۸۱] (۲)« ناکل» من مادة« نکول» بمعنی الناکص والمتأخر.

[۱۸۲] (۳)« القدم» بضمتین المشیی إلی الحرب ومضی قدما سار ولم یخرج.

[۱۸۳] (۴) الکامل لابن اثیر ۱/ ۴۸۹(کما ورد هذا الکلام فی سیرة ابن‌هشام وتأریخ الطبری).

[۱۸۴] (۵)« واعیا» أی حافظا وفاهما، وعیت الحدیث فهمته وحفظته.

[۱۸۵] (۶)« أوری» من مادة« وری» علی وزن نفی بمعنی اشعال النیران وعلیه فان(اوری) فعل متعدی.

[۱۸۶] (۷)« القبس» علی وزن قفص بمعنی شعلة من النار.

[۱۸۷] (۸)« خابط» من مادة« خبط» علی وزن ضبط بمعنی الحرکة فی طریق غیر صحیح، وکذلک تأتی بمعنی عدم التعادل أثناء المسیر أو القیام.

[۱۸۸] (۹)« خوضات» جمع« خوضة» من مادة« خوض» علی وزن حوض، وفی الاصل یأتی بمعنی الدخول التدریجی فی الماء، والسیر والسباحة فی الماء، وکذلک یأتی کنایة عن معنی الدخول أو البدء بعمل أو خطاب سیء وغیر مطلوب.

[۱۸۹] (۱) سورة الجن/ ۲۶- ۲۸.

[۱۹۰] (۱)« افسح» من مادة« فسح» علی وزن فسخ بمعنی المکان الواسع. ومن هنا فان هذه المادة تأتی بمعنی‌التوسعة.

[۱۹۱] (۲) مجمع البیان، ۱۰- ۹/ ۲۱۸ ذیل الآیة ۳۰ من سورة الواقعة.

[۱۹۲] (۱) سورة الاسراء/ ۷۹.

[۱۹۳] (۲)« دعة» من مادة« وداع» بمعنی الانفصال والترک وتخلیة السبیل، ومن هنا یطلق هذا الاصطلاح علی کل‌شیء یترکه الانسان، ویبقی بدون حرکة وبحالة من الهدوء. وهذا الاصطلاح یأتی أحیانا بمعنی الهدوء، وقد جاء فی الخطبة اعلاه بهذا المعنی

[۱۹۴] (۱) ثواب الأعمال للشیخ الصدوق/ ۱۸۵.

[۱۹۵] (۲) بحارالأنوار ۱۷/ ۳۰.

[۱۹۶] (۳) کنزالعمال ۱/ ۴۹۰، ح ۲۱۵۳.

[۱۹۷] (۴) کنزالعمال ۱/ ۴۹۰، ح ۲۱۴۹.

[۱۹۸] (۵) وسائل الشیعة ۴/ ۱۲۱۰ الباب ۳۴ من ابواب الذکر.

[۱۹۹] (۶) کنزالعمال ۱/ ح ۲۱۷۷.

[۲۰۰] (۷) کنزالعمال ۱/ ۴۹۴، ح ۲۱۸۲.

[۲۰۱] (۱) شرح نهج‌البلاغة للعلّامة الخوئی ۵/ ۲۱۴- ۲۱۵.

[۲۰۲] (۲) کنزالعمال ۱/ ۴۹۴، ح ۲۱۸۱.

[۲۰۳] (۳) وسائل الشیعة ۴/ ۱۲۱۳(الباب ۳۴ من أبواب الذکر).

[۲۰۴] (۴) کنزالعمال ۱/ ۵۰۷، ح ۲۲۴۳.

[۲۰۵] (۵) کنزالعمال ۱/ ۵۰۴، ح ۲۲۲۹.

[۲۰۶] (۱) زیارة الجامعة الکبیرة.

[۲۰۷] (۱) وسائل الشیعة ۴/ ۹۸۹ باب کیفیة التشهد.

[۲۰۸] (۲) سورة الأحزاب/ ۵۶.

[۲۰۹] (۳) تفسیر الدرالمنثور ۵/ ۲۱۶ ذیل الآیة ۵۶ من سورة الأحزاب.

[۲۱۰] (۴) صحیح البخاری ۶/ ۱۵۱ فی تفسیر سورة الأحزاب.

[۲۱۱] (۱) صحیح مسلم ۱/ ۳۰۵ باب الصلاهٔ علی النبی صلی الله علیه و آله.

[۲۱۲] (۲) الصواعق لابن حجر/ ۱۴۴.

[۲۱۳] (۳) المغنی ۱/ ۵۷۹.

[۲۱۴] (۱) التاج الجامع للاصول ۵/ ۱۴۳.

[۲۱۵] (۲) تفسیر نورالثقلین ۴/ ۳۰۲، رقم ۲۱۱(ذیل الآیهٔ ۵۶ من سورهٔ الأحزاب).

[۲۱۶] (۳) التحقیق فی کلمات القرآن الکریم، مادهٔ صلو(باقتباس ونقل بالمعنی).

[۲۱۷] (۱) سند الخطبهٔ روی طرفا من هذا الکلام قبل الرضی ابن سعد فی الطبقات ج ۱ فی ترجمهٔ مروان، والبلاذری فی أنساب الاشراف بترجمهٔ أمیرالمؤمنین، ورواه بعد الزمخشری فی ربیع الأبرار والسبط ابن‌الجوزی فی تذکرهٔ الخواص باختلاف یسیر، وجاء فی النهایهٔ فی غریب الحدیث لابن الأثیر. وقال ابن أبی الحدید فی ۶/ ۱۴۶ من شرحه لنهج‌البلاغهٔ: وقد روی هذا الخبر من طرق کثیرهٔ ورویت فیه زیادهٔ لم یذکرها صاحب نهج‌البلاغهٔ، فتری ابن أبی الحدید هنا ینص علی تواتر هذا الخبر وکثرهٔ طرقه.
مصادر نهج‌البلاغهٔ ۲/ ۷۲.

[۲۱۸] (۱)« سبهٔ» علی وزن غدهٔ تعنی الطعنهٔ فی موضع واصلها من سب کما ترد کنایهٔ عن مخرج الإنسان، وقد وردت بهذا المعنی فی العبارهٔ المذکورهٔ، ومعنی الکلام محمول علی وجهین: أحدهما أن یکون ذکر السبهٔ إهانهٔ له وغلظهٔ علیه، والعرب تسلک مثل ذلک فی خطبها وکلامها، والثانی أن یرید بالکلام حقیقهٔ لامجازاً، وذلک لأنّ الغادر من العرب کان إذا عزم علی الغدر بعد عهد قد عاهده أو عقد قد عقده، قبل إستهزاء بما کان قد أظهره من الیمین والعهد، وسخریهٔ وتهکماً.(شرح نهج‌البلاغهٔ لابن أبی الحدید ۶/ ۱۴۷).

[۲۱۹] (۱)« لعقهٔ» من مادهٔ« لعق» علی وزن لعب بمعنی لَحسه و« العقهٔ» اسم مرهٔ« یعنی لعق أو لحس مرهٔ واحدهٔ».

[۲۲۰] (۲)« أکبش» جمع« کبش» بمعنی مذکر الغنم أو الخروف بأی عمر کان تطلق العرب هذه المفردهٔ علی رئیس‌القوم وزعیمهم فیقال: کبش القوم وکبش الکتیبهٔ.

[۲۲۱] (۱) اقتطفنا سیرهٔ حیاهٔ مروان من تاریخ الطبری وسفینهٔ البحار وشرح النهج لابن أبی‌الحدید.

[۲۲۲] (۱) سند الخطبهٔ: لقد استفاد بعض شرّاح نهج‌البلاغهٔ من کلام ابن أبی الحدید أنّ لدیه خطبهٔ طویلهٔ لأمیرالمؤمنین علی علیه السلام بعد بیعهٔ عبدالرحمن بن عوف لعثمان وما ورد فی هذه الخطبهٔ طرفا منها، حیث أشار الإمام علیه السلام إلی فضائله وسوابقه ثم قال:« إنّی أحق بها من غیری وواللَّه لأسلمن ما سلمت أمور المسلمین ولم یکن فیها جور إلا علیّ خاصهٔ»(شرح نهج‌البلاغهٔ للعلّامهٔ الخوئی ۵/ ۲۲۳).

[۲۲۳] (۱) اقتباس من شرح نهج البلاغهٔ لابن أبی الحدید ۶/ ۱۶۷، وللاطلاع أکثر حول المؤامرهٔ التی حدثت فی قضیهٔ الشوری من أجل اقصاء الإمام علی علیه السلام من الخلافهٔ وماذا عمل هؤلاء من اجل تأمین مصالحهم المادیهٔ، فما علیک الا الرجوع إلی« شرح نهج البلاغهٔ» تألیف« محمد عبده» أحد علماء مصر، وقد أورد ذلک فی ذیل الخطبهٔ التی یدور بحثنا حولها.

[۲۲۴] (۱)« تنافستموه» من مادهٔ« منافسهٔ» للحصول علی شیء یعد نفیساً(وإن لم یکن فی الواقع کذلک) ومن هنا یصطلح« بالنفیس» علی الأشیاء المرغوبهٔ التی یخاطر الإنسان بنفسه من أجلها.

[۲۲۵] (۱)« زخرفه» و« زبرجه» أصل الزخرف الذهب وکذلک الزبرج، ثم أطلق علی کل ممّوه مزور، وأغلب ما یقال‌الزبرج علی الزینهٔ من وشی أو جوهر.

[۲۲۶] (۱) شرح نهج‌البلاغهٔ لابن أبی‌الحدید ۲/ ۱۲۹.

[۲۲۷] (۱) سند الخطبهٔ: لم یذکر الرواهٔ سندا خاصا لهذا الکلام سوی ماورد فی نهج‌البلاغهٔ، إلّاانّ صاحب مصادر نهج‌البلاغهٔ نقل

بعض هذا الكلام فى مادة قرف عن ابن أثير فى النهاية والطريحى فى مجمع‌البحرين. مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۷۶.

[۲۲۸] (۱)« قرف» على وزن حرف تعنى فى الأصل فصل قشرة الشئ كقشرة الشجرة، ولما كان تحرى العيوب يؤدى إلى ضياع شخصية الأفراد، فانّ هذه الكلمة تستعمل بمعنى الاتهام.

[۲۲۹] (۲)« وزع» من مادة« وزع» على وزن وضع بمعنى المنع، كما وردت بمعنى الجمع. لأنّ جمع الشئ يتطلب منع تشتت افراده، ولعل« التوزيع» بمعنى التقسيم، لأنّ تقسيم الشئ يتطلب جمعه ثم تقسيمه.

[۲۳۰] (۳)« تهمة» من مادة« وهم» تعنى فى الأصل الظن السيئ(وقد وردت هذه المفردة بفتح الهاء وضمها)، كما تعنى التهمة البهتان، وهذا هو معناها فى العبارة الواردة فى الخطبة.

[۲۳۱] (۴) سورة الحجرات/ ۱۲.

[۲۳۲] (۵) سورة النساء/ ۱۱۲.

[۲۳۳] (۶)« حجيج» من مادة« حج» بمعنى قصد الشىء، ومنه« المحاجة» لمن يحاور العدو بقصد التغلب عليه، وحجيج المارقين خصيمهم، والمارقون هم الخارجون من الدين.

[۲۳۴] (۷) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد ۶/ ۱۷۰.

[۲۳۵] (۱)« الامثال» جمع« مثل» يراد بها هنا متشابهات الأعمال والحوادث تعرض على القرآن فما وافقه فهو الحق وما خالفه فهو الباطل، وقد جرى عليه السلام على حكم اللَّه فى أعماله فليس للغامز أن يشير بمطعن.

[۲۳۶] (۱) سند الخطبة: هذه الخطبة رواها قبل الرضى الحرانى فى التحف والكراجكى فى كنز الفوائد مع تفاوت يسير يفيد أنّه لم ينقل عن نهج‌البلاغة. ورواها من بعد السيد الرضى الزمخشرى فى ربيع الأبرار والسبط بن الجوزى فى تذكرة الخواص ومحمد بن طلحة الشافعى فى مطالب السؤل(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۷۷).

[۲۳۷] (۲) مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۷۸.

[۲۳۸] (۳) بحارالأنوار ۶۶/ ۴۰۸.

[۲۳۹] (۱)« حكم» هنا بمعنى الحكمة.

[۲۴۰] (۲)« وعى» من مادة« وعى» على وزن سعى بمعنى الحفظ وفهم المراد و« أذن واعية» كناية عن سماع الشخص للمطالب وفهمها بصورة جيدة.

[۲۴۱] (۳)« الحجزة» بالضم معقد الازار والمراد بها هنا الاقتداء والتمسك.

[۲۴۲] (۱)« غرض» على وزن مرض بمعنى الهدف الذى يسدد نحوه السهم، كما يعنى المقصود والحاجة، إلّاأنّه وردفى رواية« عرض» بمعنى المتاع الدنيوى الزائل.

[۲۴۳] (۲)« كابر» من مادة« مكابرة» بمعنى المنازعة والمبارزة، كما يطلق على المنازعات العلمية التى تهدف الغلبة على الطرف المقابل لاتحقيق الحق، وقد ارد بها هنا المعنى الأول.

[۲۴۴] (۳) الكافى ۲/ ۱۶.

[۲۴۵] (۴) سورة البينة/ ۵.

[۲۴۶] (۵) بحارالأنوار ۶۹/ ۲۷۸.

[۲۴۷] (۱) الكافى ۲/ ۳۳۵.

[۲۴۸] (۲)« مطية» المركب السريع الذى لايجمع بصاحبه.

[۲۴۹] (۳)« غراء» مؤنث« أغر» كل شيىء أبيض والطريقة الغراء النيرة الواضحة.

[۲۵۰] (۴)« المحجة» من مادة« حج» تعنى فى الأصل القصد، ثم اطلقت على جادة الطريق التى توصل الإنسان إلى مقصوده.

[۲۵۱] (۵)« مهل» جاء بصيغة اسم المصدر وبمعنى الرفق والمداراة، ومن هنا فان الفرص تمثل الارضية للرفق والمداراة، وهذا الاصطلاح أستعمل بمعنى الفرصة وفى الخطبة أعلاه، جاء بعنوان الاشارة إلى الفرص التى اعطاها الله سبحانه وتعالى لعباده من اجل اصلاح اعمالهم والاتيان بالاعمال الصالحة، والتى يجب أن يغتنمها الناس.

[۲۵۲] (۱) كلمات القصار/ ۸۲.

[۲۵۳] (۲) اصول الكافى ۲/ ۹۱.

[۲۵۴] (۱) اصول الكافى ۲/ ۱۴۲.

[۲۵۵] (۲) اصول الكافى ۲/ ۱۴۳.

[۲۵۶] (۱) سند الخطبة: روى هذا الكلام أبوالفرج الاصبهانى فى كتاب الاغانى باسناد رفعه إلى الحارث بن جيش قال: بعثنى سعيد بن العاص بهدايا إلى المدينة، وبعثنى إلى على عليه السلام وكتب إليه: إنّى لم أبعث إلى أحد بأكثر مما بعثت به إليك. قال فأتيت علياً عليه السلام فأخبرته فقال: الخطبه(طبعا هناك تفاوت بين ما أورده أبوالفرج وما جاء فى نهج‌البلاغة إلّاأنّ المضمون واحد). وقد روى هذا الكلام الأزهرى فى تهذيب اللغة وأبوعبيد القاسم بن سلام فى غريب الحديث وابن دريد فى المؤتلف والمختلف وأبوموسى محمد بن أبى المدينى الاصبهانى فى مستدركاتى على الجمع بين الغريبين(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۷۹- ۸۰).

[۲۵۷] (۱)« ليفوقوننى» من مادة« فواق» على وزن رواق المدة المتخلله بين رضعتين حسب قول أغلب أرباب اللغة، بينما ذهب البعض إلى أنّها تعنى المدة المتخللة بين فتح الضرع وغلقه حين الحلب، ولما كان الثدى يخلد إلى الراحة بعد الحلب فقد استعملت بمعنى الهدوء والراحة ومنها إفاقة المريض وإفاقة المجنون. وجاءت فى العبارة بمعنى المال الزهيد الذى كان يعطيه بنى‌أمية الإمام عليه السلام من بيت مال المسلمين.

[۲۵۸] (۱)« لأنفضنهم» من« مادة» نفض على وزن نبض تحريك الشى لتخليصه ممّا علق به ومن هنا يصطلح‌بالنفوض على المرأة الولود، كما تستعمل هذه المفردة فى طرح الثمرة من الشجرة.

[۲۵۹] (۱) الاعلام للزركلى ۳/ ۹۶.

[۲۶۰] (۲) سيد مصطفى الحسينى الدشتى، المعارف والمعاريف، ج ۳ ذيل المفردة بنى‌أمية.

[۲۶۱] (۳) سورة الاسراء/ ۶۰.

[۲۶۲] (۴) تفسير الفخر الرازى ۲۰/ ۲۳۷.

[۲۶۳] (۵) راجع تفسير الأمثل للمؤلف ۱۰/ ۳۴۱ و ۱۲/ ۱۷۲.

[۲۶۴] (۱) كنزالعمال ۱/ ۲۹۹.

[۲۶۵] (۲) كنزالعمال، ح ۳۱۰۶۲.

[۲۶۶] (۳) كنزالعمال، ح ۳۱۰۷۴.

[۲۶۷] (۴) كنزالعمال، ح ۳۱۷۵۵.

[۲۶۸] (۱) العقدالفريد ۴/ ۸۱- ۸۲.

[۲۶۹] (۲) رسالة الجاحظ فى بنى‌أمية/ ۱۲۴ تم نقله من التاريخ السياسى للاسلام ۲/ ۳۹۶.

[۲۷۰] (۳) مختصر تاريخ دمشق ۸/ ۲۱۰ وتاريخ اليعقوبى ۲/ ۲۱۷.

[۲۷۱] (۴) تاريخ الخلفاء/ ۲۲۲.

[۲۷۲] (۵) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد ۴/ ۵۷.

[۲۷۳] (۶) أنساب الاشراف ۱/ ۱۸۴ نقلا عن التأريخ السياسی للإسلام ۲/ ۴۰۹.

[۲۷۴] (۷) شرح نهج‌البلاغة لابن أبی‌الحديد ۴/ ۶۳.

[۲۷۵] (۸) حياة الصحابة ۳/ ۵۲۹ نقلًا عن التأريخ السياسی للإسلام ۲/ ۴۱۰.

[۲۷۶] (۹) مختصر تأريخ دمشق ۹/ ۸۵.

[۲۷۷] (۱) تأريخ الطبری ۵/ ۲۲۰ نقلا عن التأريخ السياسی للإسلام ۲/ ۴۱۰.

[۲۷۸] (۲) نقلا عن: الحسين النفس المطمئنة، ص ۱۰.

[۲۷۹] (۳) المصدر السابق.

[۲۸۰] (۱) سند الخطبة: السند الوحيد لهذا الدعاء ما أورده قبل السيد الرضی(ره) الجاحظ فی كتاب المائة المختارة، والذی يرتبط بالعبارات التی اختتم بها الدعاء:« اللهم إغفرلی رمزات الألحاظ ...».

[۲۸۱] (۱) سورة المجادلة/ ۶.

[۲۸۲] (۲) سورة البقرة/ ۲۸۷.

[۲۸۳] (۳)« وأيت» من مادة و« أی» علی وزن رأی بمعنی العزم علی الشی مع قصد الوفاء به، وبعبارة اخری الموعودالتی يقطعها الإنسان علی نفسه، وقد يعنی الوأی والوعد بشأن الذات والآخرين.

[۲۸۴] (۱) وتقدير العبارة:« وأيت من نفسی مع ربی».

[۲۸۵] (۲) سورة التوبة/ ۷۵- ۷۶.

[۲۸۶] (۳) سورة الصف/ ۲- ۳.

[۲۸۷] (۱)« رمزات» جمع« رمزة» علی وزن غمزة الإشارة بالعين والحجاب وأحياناً بالشفة، وقال البعض الرمز فی‌الأصل بمعنی حركة الشفاه لبيان مطلب دون أن يتخلله الصوت، كما تأتی بمعنی الإشارة بالعين والحاجب.

[۲۸۸] (۲)« الالحاظ» جمع« لحظ» علی وزن محض بمعنی النظر بطرف العين الذی يكون أحياناً بقصد الازدراء والتحقير، كما يراد به الاستهزاء والسخرية أيضاً.

[۲۸۹] (۳)« سقطات» جمع« سقط» علی وزن فقط كل وضيع لاقيمة له من متاع او كلام او فعل وقيل سقطات جمع سقطة بمعنی الزلة وسقطات الالفاظ لغوها.

[۲۹۰] (۴)« هفوات» جمع« هفوة» علی وزن دفعة بمعنی الزلة فی الكلام أو العمل، كما وردت هذه المفردة بمعنی السرعة، ولما كانت السرعة تقود إلی الزلة فالمعنيان يعدان إلی مادة واحدة.

[۲۹۱] (۱) العبارة سقطات الألفاظ من قبيل إضافة الصفة إلی الموصوف، تعنی الألفاظ الساقطة، أمّا العبارة« هفوات اللسان» ليست كذلك.

[۲۹۲] (۲) بحارالأنوار ۹۰/ ۳۰۰.

[۲۹۳] (۳) سورة الفرقان/ ۷۷.

[۲۹۴] (۱) سند الخطبة: نقل ذلك قبل الرضی جماعة منهم: إبراهيم بن الحسن بن ديزيل المحدث فی كتاب صفين والشيخ الصدوق فی عيون أخبار الرضا نقله بثلاثة أسانيد، ونقله أيضاً فی الامالی فی المجلس الرابع والستين، ونقله أيضاً فی عيون الجواهر. وأضاف صاحب مصادر نهج‌البلاغة بعد أن نقل هذا الكلام قائلًا: ولسنا بحاجة إلی ذكر من رواه بعد السيد الرضی فانّه كلام مشتهر دونته الخاصة والعامة بطرق مختلفة وصور شتی لاتختلف عما رواه الرضی إلّافی بعض الالفاظ(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۸۲).

[۲۹۵] (۱)« حاق» من مادة« حيق» علی وزن حيف بمعنی احاط ونزل وعَمَّ، ويستفاد من هذا الاصطلاح فی الاشارةإلی تأثير ضربات

السيف ونزول العذاب وذلك بسبب وجود نوع من الاحاطة والعمومية فی نزول العذاب.

و« حاق» فی الاصل من مادة« حق» بمعنی التحقق وقد أشتقت من كلمة« حق» حيث بُدلت القاف الاولی بواو وبعد ذلك بُدلت بألف.

[۲۹۶] (۱) سورة النحل/ ۱۶.

[۲۹۷] (۲) سورة الانعام/ ۹۷.

[۲۹۸] (۱) سورة آل‌عمران/ ۱۹۰.

[۲۹۹] (۱) سورة الاسراء/ ۳۶.

[۳۰۰] (۲) سورة يونس/ ۶۸.

[۳۰۱] (۳) سورة النجم/ ۲۸.

[۳۰۲] (۱) سند الخطبة: أنّ هذا الكلام من جملة كتاب له عليه السلام كتبه بعد احتلال عمرو بن العاص لمصر وقتل محمد بن أبی‌بكر، استعرض فيه الأحداث من أيام رسول‌اللَّه صلی الله عليه و آله إلی اليوم الذی حرر فيه ذلك الكتاب وأمر أن يقرأ علی الناس، وأنّه ليس من البعيد أنه عليه السلام قال هذا الكلام بالخصوص أكثر من مرة، منها فی ذلك الكتاب ومنها بعد حرب الجمل كما ذكر السيد الشريف فی هذا الموضع. وإنّما قلت ذلك إعتماداً علی نص الشريف هنا وما ذكره السبط بن الجوزی فی التذكرة حيث قال: ذكر علماء السير: أنّ علياً عليه السلام لما فرغ من حرب الجمل صعد المنبر البصرة فخطب الناس وقال: إنّ النساء ... بأدنی تفاوت عما ذكر الرضی. ومن نقلها قبل السيد الرضی أبوطالب المكی فی قوت القلوب والشيخ الكلينی فی الكافی المجلد الخامس وابراهيم بن هلال الثقفی فی الغارات وابن قتيبة فی الإمامة والسياسة والطبری فی المسترشد.(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۸۶).

[۳۰۳] (۱) سورة المعارج/ ۱۹- ۲۱.

[۳۰۴] (۲) سورة الاحزاب/ ۷۲.

[۳۰۵] (۳) سورة الزخرف/ ۱۵.

[۳۰۶] (۴) سورة العلق/ ۶- ۷.

[۳۰۷] (۱) سورة الاسراء/ ۷۰.

[۳۰۸] (۱) سورة البقرة/ ۲۳۳.

[۳۰۹] (۱) سورة النحل/ ۹۷.

[۳۱۰] (۲) سورة الاحزاب/ ۳۵.

[۳۱۱] (۳) سورة الحجرات/ ۱۳.

[۳۱۲] (۴) بحارالأنوار ۴۸/ ۷۳.

[۳۱۳] (۵) الكافی ۲/ ۱۶۲.

[۳۱۴] (۱) سفينة البحار، مادة نسب.

[۳۱۵] (۲) ان رواية« طلب العلم فريضة علی كل مسلم ومسلمة» وردت فی كتاب بحارالانوار للعلامة المجلسی، نقلها من كتاب« عوالی اللئالی» منقولة عن الرسول الكريم صلی الله عليه و آله وكذلك وردت فی كتاب ميزان الحكمة منقولة من مجموعة ورام.

[۳۱۶] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحديد ۴/ ۲۱۵(بتلخيص).

[۳۱۷] (۲) تاريخ الطبری ۳/ ۴۷۷(دار الاعلمی للنشر).

[۳۱۸] (۳) الكامل لابن اثير ۳/ ۲۰۶(دار صادر للنشر).

[۳۱۹] (۱) صحيح البخاری ۵/ ۴۷، ورد هذا الحديث فی باب تزويج خديجة وفضائلها.

[۳۲۰] (۲) ذکره ابن أبی الحدید ۶/ ۲۲۵ والعلامة الامینی فی الغدیر ۳/ ۱۸۸ عن کتب العامة.

[۳۲۱] (۱) سند الخطبة: روی صدر هذا الکلام- قبل الرضی- الصدوق فی معانی الأخبار وفی الخصال، وروی آخر الکلام البرقی فی المحاسن بتفاوت، ورواه بعد الرضی صاحب غررالحکم بتفاوت یسیر جداً، والقتال فی روضة الواعظین ونقله عنه الطبرسی فی مشکاة الانوار.(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۸۸- ۸۹).

[۳۲۲] (۱)« زهادة» علی وزن شهادة تعنی عدم الاعتناء بزخارف الدنیا؛ کما تستعمل هذه المفردة بشأن الأفراد ضیقی‌النظر أو سیئی الخلق، إلّاأنّ المعنی الأول هو الأشهر ومن لوازمه قصر الأمل وترک الذنوب وما شابه ذلک.

[۳۲۳] (۱) نهج‌البلاغة، الکلمات القصار/ ۴۳۹.

[۳۲۴] (۲) الکافی ۲/ ۱۳۱، ح ۱۱.

[۳۲۵] (۳)« عزب» من مادة« عزوب» علی وزن غروب بمعنی بعد، ومن هنا وردت بمعنی ترک الزواج، حیث یطلق‌عله صاحبه إسم الأعزاب.

[۳۲۶] (۴)« مسفرة» من مادة« سفور» علی وزن قبور بمعنی الکشف وخلع الحجاب، وعلیه فالعبارة تعنی الأدلة التی‌تکشف النقاب عن الحقیقة.

[۳۲۷] (۱) کنزالعمال ۳/ ۱۸۱، ح ۶۰۵۹.

[۳۲۸] (۲) بحارالأنوار ۷۰/ ۱۱۴.

[۳۲۹] (۱) نهج‌البلاغة، الکلمات القصار/ ۱۰۳.

[۳۳۰] (۲) إقتباس من کتاب سیر فی نهج‌البلاغة للشهید المطهری/ ۲۱۱.

[۳۳۱] (۳) بحارالأنوار ۴۰/ ۳۳۰، ح ۱۳.

[۳۳۲] (۴) بحارالأنوار ۴۱/ ۳۲.

[۳۳۳] (۱) سند الخطبة: صرح صاحب مصادر نهج‌البلاغة قائلًا: قد تواترت عنه علیه السلام صفة الدنیا هذه، ومن الکتب التی رویت فیها قبل النهج، الکامل للمبرد والامالی للصدوق والمجتنی لابن درید وتحف‌العقول لابن شعبة الحرانی والعقد الفرید لابن عبد ربه وبعد النهج الامالی للمرتضی وتذکرة الخواص للسبط بن الجوزی ومشکاة الانوار الطبرسی وغررالحکم للآمدی وکنز الفوائد للکراجکی بتفاوت.(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۹۰).

[۳۳۴] (۱)« عناء» بمعنی المشقة ومنها« العانی» یطلق علی الأسیر لمای واجه من مشقة.

[۳۳۵] (۱) سورة البلد/ ۴.

[۳۳۶] (۲) بحارالأنوار ۶۹/ ۴۸.

[۳۳۷] (۱) وسائل الشیعة ۱۲/ ۲۹۷- ۲۹۸.

[۳۳۸] (۱)« ساعی» من مادة« سعی» تعنی فی الأصل الجری ومنه السعی بمعنی الجهد وکأنّ الإنسان یجری نحو الشئ وقد وردت فی العبارة بشأن من یجری خلف الدنیا وکأنه یتسابق مع الآخرین، کما یمکن أن تکون إشارة إلی أولئک الذین یلهثون وراء الدنیا، والدنیا تهرب منهم. أما بعض أرباب اللغة فقد فسروا هذه المفردة بمعنی دعوة الاماء إلی الأعمال المنافیة للعفة. وعلیه فالعبارة الواردة فی الخطبة تشبه الدنیا بالامة التی یلهث وراءها أهل الدنیا.

[۳۳۹] (۲)« واتته» من مادة« مؤاتاة» بمعنی طاوعته واستجابت له.

[۳۴۰] (۱) بحارالأنوار ۱۴/ ۳۹.

[۳۴۱] (۲) غررالحکم، ح ۷۳۶۳.

[۳۴۲] (۱) سورة ص/ ۱۶، ۲۶، ۵۳؛ سورة غافر/ ۲۷.

[۳۴۳] (۲) تفسير نورالثقلين ۴/ ۵۰۷.

[۳۴۴] (۳) مجمع‌البيان ۱/ ۲۹۷.

[۳۴۵] (۱) سورة الانشقاق/ ۷- ۹.

[۳۴۶] (۲) تفسير نورالثقلين ۵/ ۵۷۳.

[۳۴۷] (۱) الكافى ۲/ ۱۲۶.

[۳۴۸] (۲) بحارالأنوار ۷۹/ ۱۳۸.

[۳۴۹] (۳) كنزالعمال، ح ۳۱- ۳.

[۳۵۰] (۴) خصال الصدوق/ ۸۰ الباب ۳، ح ۱.

[۳۵۱] (۱) سند الخطبة: هذه الخطبة من خطبه عليه السلام المعروفة وفيها من اللطائف والدقائق ما عده ابن أبى‌الحديد من معجزاته التى فات بها البلغاء وأخرس الفصحاء، وفى قول الرضى(ره):« ومن الناس من يسمى هذه الخطبة بالغراء» دليل على أنّها كانت معروفة بين الناس. رواها الجاحظ، كما رواها حسن بن شعبة فى كتاب تحف العقول والآمدى وابونعيم الإصفهانى وابن أثير على كل حال فانّ هذه الخطبة أشهر من حاجتها إلى مناقشة الاسناد.(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۱۰۷).

[۳۵۲] (۲) لابدّ من الالتفات هنا إلى ان الخطبة تنقسم على أساس تقسيم كلى إلى إثنى‌عشر قسماً، كما أنّ بعض‌أقسامها تنقسم فرعياً إلى عدّة أقسام، ومن هنا فانا قسمنا هذه الخطبة فى شرحها، وتفسيرها إلى ثمانية عشر قسماً.

[۳۵۳] (۱)« حول» بمعنى تغيير الشئ وفصله عن آخر، ومن هنا يطلق« الحائل» على ما يفصل بين شيئين، وإذاإستعملت هذه المفردة على اللَّه فانه تعنى قدرته على دفع ا لخطر عن عباده ومن القول: لاحول ولا قوة إلّاباللَّه.

[۳۵۴] (۲)« طول» على وزن« قول» بمعنى النعمة ومن مادة« طول» على وزن نور ما يبين امتداد الشئ، ولما كانت النعم امتداد وجود المنعم فقد اطلقت عليها هذه المفردة.

[۳۵۵] (۳)« مانح» من مادة« منح» على وزن منع تعنى فى الأصل إعطاء ا للبن والصوف وولد الحيوان لشخص، ثم اطلقت على كل عطاء، حتى صرح أرباب اللغة بأن منح تعنى أعطى.

[۳۵۶] (۴)« الأزل» تعنى الضيق والشدة، ثم اطلقت على كل بلاء ومصيبة، كما يصطلح بالأزل على الكذب، وقدوردت فى الخطبة بمعنى المصيبة.

[۳۵۷] (۱) سورة النحل/ ۵۳.

[۳۵۸] (۲)« سوابغ» جمع« سابغة» بمعنى الواسع والكامل وقد ورد تفسير هذا الاصطلاح فى شرح الخطبة ۶۳.

[۳۵۹] (۳) بادياً أى سابقاً كل شئ من الوجود، ظاهراً بذاته مظهرا لغيره، والبادى من بدو بمعنى الظهور والبداية، فاللَّه‌بادئ‌الوجود، كما أنّ آثاره ظاهرة عمت السموات والأرض.

[۳۶۰] (۴)« نذر» جمع« نذير»، وردت هنا بمعنى الايات والأخبار التى تحذر من معصية اللَّه.

[۳۶۱] (۱) سورة الاعراف/ ۳۴.

[۳۶۲] (۲) سورة الرحمن/ ۲۶.

[۳۶۳] (۳)« الرياش» من مادة« ريش» ظاهر اللباس، كما اطلق على كل نعمة موفورة. وقال بعض شرّاح نهج‌البلاغة أنّ‌الريش لايعنى ظاهر اللباس فقط، فقد ورد فى الآية ۲۶ من سورة الأعراف:« يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً» ولكن يبدو أنّ الآية تدل على عكس مراده لأنّ اللباس على نوعين: لباس يغطى بدن الإنسان مصداق(يوارى سواتكم) ولباس الزينة. وقد أشار

القرآن إلى الأمرين، ثم اتبعه بالحديث عن لباس التقوى« ولباس التقوى ذلك خير».

[۳۶۴] (۴)« أرفغ» من مادة« رفغ» على وزن هدف بمعنى أوسع، أوسع عليكم النعم.

[۳۶۵] (۵) سورة الأعراف/ ۲۶.

[۳۶۶] (۱) هنالك خلاف بين مفسرى القرآن وشرّاح نهج‌البلاغة بشأن محل إعراب(ريشا) فعدها البعض عطفاً على‌لباساً ومن هنا فسروها بشئ أوسع أو مغاير للباس، بينما اعتبرها البعض الآخر(مفعول له) تبين هدف نزول اللباس على الإنسان وهو ستر العيوب ثم الزينة، ويبدو المعنى الأخير أكثر إنسجاماً مع الآية الشريفة.

[۳۶۷] (۲) سورة الجن/ ۲۸.

[۳۶۸] (۳)« رفد» جمع« رفد» على وزن دفع بمعنى نصيب، وعطاء وجائزة.

[۳۶۹] (۴)« روافغ» جمع« رافغة» من مادة« رفغ» وكما أشرنا سابقاً فانها تعنى السعة والرفعة.

وعلى هذا الاساس فان« الرفد» و« الروافغ» تأتى بمعنى عطايا الله سبحانه وتعالى.

[۳۷۰] (۵) جاء فى مقاييس اللغة أنّ أصل هذه المفردة يعنى تقديم الشئ هذا ما صرح به الراغب فى مفرداته. وقال‌فى كتاب التحقيق فى كلمات القرآن الكريم:« حقيقة الايثار إثبات الفضيلة وتقديم صاحب الفضل».

[۳۷۱] (۶) سورة الاسراء/ ۷۰.

[۳۷۲] (۱)« مدد» جمع« مدة»، أى عين لكم أزمنة تحيون فيها، فالمدّة جزء من الزمان، كما تأتى بمعنى انتهاء زمان‌معين.

[۳۷۳] (۲)« خبرة» تفيد معنى المصدر واسم المصدر تعنى العلم والاطلاع، ومن هنا يقال« أهل الخبرة» لمن كان لهم العلم الكافى بالشيئ، كما تعنى الإمتحان وقد وردت هنا بهذا المعنى؛ أى فى دار ابتلاء واختبار وهى دار الدنيا.

[۳۷۴] (۳) سورة مريم/ ۹۳- ۹۴.

[۳۷۵] (۴) سورة العنكبوت/ ۲- ۳.

[۳۷۶] (۱)« رنق» صفة مشبهة بمعنى الكدر. وعليه فانّ العبارة(رنق مشربها) إشارة إلى كدر شرب الدنيا، أمّا رونق‌فتعنى الجمال، وذلك لأنّ اللغة العربية تتضمن أحياناً مادة واحدة لمعنيين متضادين.

[۳۷۷] (۲)« ردغ» من مادة« ردغ» على وزن فتق كثير الطين والوحل. وفى التشبيه الذى ورد أعلاه فى الخطبة حيث وصفت الدنيا بمثابة نهر كبير ينتهى جريانه بماء مملوء بالطين والوحل.

[۳۷۸] (۱)« يونق» من مادة« آنق» على وزن شفق يعجب، وقوله عليه السلام« يونق منظرها» إشارة إلى المنظر العجيب للدنيا.

[۳۷۹] (۲)« يوبق» من مادة« وبوق» يهلك« وموبق» بمعنى مهلك.

[۳۸۰] (۳) نهج‌البلاغة، الرسالة ۶۸.

[۳۸۱] (۴)« حائل» من مادة« حال» بمعنى التحول والانتقال واطلاق« الحول» على السنة لتحولها. وعليه فالحائل‌المتغير.

[۳۸۲] (۵)« آفل» من مادة« افول» بمعنى الغياب ومنه افول الشمس والقمر غروبهما.

[۳۸۳] (۶)« سناد» بالكسر ما يستند إليه وهو الدعامة، ولما كانت الدنيا دعامة معوجة ولا يمكن الاستناد إليها عبرت عنها خطبة« سناد مائل».

[۳۸۴] (۱)« قمصت» من مادة« قمص» على وزن شمس بمعنى رفع اليدين وطرحهما معاً ومنه قمص الفرس، كماتستعمل هذه المفردة كناية عن الذل بعد العز.

[۳۸۵] (۲)« قنصت» من مادة« قنص» بمعنى الصيد والقانص الصياد.

[۳۸۶] (۳)« أحبل» جمع حبل.

[۳۸۷] (۴)« أسمهم» جمع سهم وجمعه الآخر سهام.

[۳۸۸] (۵)« أوهاق» جمع« وهق» علی وزن شفق بمعنی الحبل الذی یربط به عنق الإنسان أو الحیوان.

[۳۸۹] (۶)« ضنک المضجع»، ضنک یعنی ضیق ومضجع الموضع الذی یضع الإنسان علیه ضلعه، والمراد به فی العبارة القبر.

[۳۹۰] (۱)« أاخترام» من مادة« خرم» بمعنی اشق و هی تشیر هنا الی الحوادث التی تستأصل عمر الانسان.

[۳۹۱] (۲)« یرعوی» من مادة« رعوة» علی وزن سهو بمعنی الرجوع و العودة من الجهل إلی العلم و اصلاح النفس و الجملة أعلاه« لا یرعوی الباقون احتراماً» اشارة إلی أن البعض لا- یعتبرون من دروس العبرة التی تمربهم و لا- یتراجعون و لا-یتوبون من الذنوب التی اقترفوها و بالاخیر فانهم لا یقدمون علی اصلاح انفسهم.

[۳۹۲] (۳)« إجترام» من مادة« جرم» الذنب و اقتراف السیئات.

[۳۹۳] (۴)« یحتذون» من مادة« حذو» علی وزن حذف بمعنی القیام بالأعمال المشابهة، و من هنا وردت بمعنی الاقتداء فی الأعمال، ورید بها فی العبارة یشاکلون بأعمالهم صور أعمال من سبقهم و یقتدون بهم.

[۳۹۴] (۵)« ارسال» جمع« رسل» علی وزن عسل القطیع من الابل و الغنم والخیل، ارید بها فی العبارة من یتبع الآخرین دون أدنی فکر و مطالعه.

[۳۹۵] (۶)« صیور» علی وزن قیوم من مادة« صیر» علی وزن سیل بمعنی الانتقال من حالة إلی اخری، و هی هنا صیغة مبالغه ارید بها مصیره و ما یؤول إلیه أمره.

[۳۹۶] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن میثم البحرانی ۲/ ۲۳۶.

[۳۹۷] (۲) سورة الکهف/ ۴۵.

[۳۹۸] (۱)« أزف» من مادة« ازف» علی وزن شرف بمعنی الاقتراب.

[۳۹۹] (۱)« ضرائح» جمع« ضریح» بمعنی القبر، أو الشق وسط القبر.

[۴۰۰] (۲)« أوکار» جمع« وکر» علی وزن مکر بمعنی عش الطیور.

[۴۰۱] (۳)« أوجرة» جمع« وجار» الحفر التی تظهر إثر السیول فی الأودیة، کما تطلق علی کهف الوحوش.

[۴۰۲] (۴)« مطارح» جمع« طرح» الموضع الذی تطرح فیه الأشیاء.

[۴۰۳] (۵) سورة لقمان/ ۳۴.

[۴۰۴] (۶)« مهطعین» مادة« هطع» علی وزن منع بمعنی الرعة المصحوبة بالخوف.

[۴۰۵] (۷)« رعیل» القطیع من الخیل أو الطیور.

[۴۰۶] (۸) سورة المعارج/ ۴۳.

[۴۰۷] (۹) سورة یس/ ۵۱.

[۴۰۸] (۱۰) سورة المعارج/ ۴۳.

[۴۰۹] (۱) سورة النبأ/ ۱۸.

[۴۱۰] (۲)« ضرع» علی وزن طمع الضعف والخضوع والذل.

[۴۱۱] (۳)« مهیمنة» من مادة« هیمنة» متخافیة، الصوت الخفی.

[۴۱۲] (۴)« شفق» تعنی فی الأصل إختلاط ضیاء النهار بظلمة اللیل، کما تطلق علی خصوص الخوف وبهذا المعنی وردت فی العبارة.

[۴۱۳] (۵) سورة ابراهیم/ ۴۳.

[۴۱۴] (۶) سورة طه/ ۱۰۸.

[۴۱۵] (۱)« زبره» الكلام الشديد و لايقال زبرة إلا إذا كان فيها زجر.

[۴۱۶] (۲)« مقايضة» من مادة« قيض» على وزن فيض بمعين المعاوضة.

[۴۱۷] (۳)« نكال» بمعنى العذاب.

[۴۱۸] (۴) و نوال بمعنى النعمة.

[۴۱۹] (۵) أشرنا في البحث السابق إلى الآيات ذات الصلةبهذا الموضوع.

[۴۲۰] (۶) راجع نفحات القرآن ۵/ ۳۰۷- ۳۵۳.

[۴۲۱] (۱) للوقوف على التفاصيل راجع، نفحات القرآن ۵/ ۳۴۰- ۳۴۷.

[۴۲۲] (۱) سورة الحج/ ۱.

[۴۲۳] (۱)« اقتسار» من مادة« قسر» على وزن نصر الغلبة والقهر.

[۴۲۴] (۲)« أجداث» جمع« جدث» على وزن عبث القبر.

[۴۲۵] (۳)« رفات» جمع رفت الحطام.

[۴۲۶] (۱) سورة النبأ/ ۱۸.

[۴۲۷] (۲) سورة فاطر/ ۱۸.

[۴۲۸] (۳)« مستعتب» من مادة« عتب» على وزن تبت بمعنى الرضى. وذهب بعض أرباب اللغة إلى أنّ أصل هذهالمفردة(عتاب) وإعتاب نفى ذلك والاستعتاب طلب نفى العتاب التى وردت بمعنى طلب الرضى.

[۴۲۹] (۴)« سدف» جمع« سدفة» على وزن غرفة بمعنى الظلمة.

[۴۳۰] (۵)« جياد» جمع« جواد»، والجياد من الخيل كرامها.

[۴۳۱] (۶)« ارتياد» من مادة« رود» على وزن صوت، طلب ما يراد.

[۴۳۲] (۷)« أناة» الهدوء والطمأنينة والوقار والحلم، كما وردت بمعنى الانتظار.

[۴۳۳] (۱) سورة فاطر/ ۳۷.

[۴۳۴] (۱)« حازم» من مادة« حزم» على وزن جزم بمعنى التفكر العميق والصائب، ويطلق الحازم على الشخصالواسع الافق، ومنه الحزام الذى يفيد الاستحكام.

[۴۳۵] (۱)« إقترف» من مادة« قرف» على وزن حرف بمعنى إكتسب وتستعمل إقتراف فى إكتساب الاثم.

[۴۳۶] (۲)« إحتذى من مادة« حذو» على وزن حذف بمعنى فصال الحذاء حسب النموذج والقياس المعين، ثم اطلقالحذو والاحتذاء على مطابقة الشئ لآخر، وقد وردت فى الخطبة بمعنى المتابعة والتبعية للاسُوة فى كل شئ.

[۴۳۷] (۱)« استظهر» من مادة« ظهر» على وزن دهر، بمعنى حمل الزاد والمتاع على الظهر أو على ظهر مركب.

[۴۳۸] (۲) قيل جملة(جهة ما خلقكم له) ظرف وقيل مفعول به لفعل مقدر وقيل مفعول لأجله ولعل الاحتمال الأول أنسب الجميع.

[۴۳۹] (۳) سورة القيامة/ ۳۶.

[۴۴۰] (۴)« كنه»، الحقيقة وباطن الشئ، كما تأتى بمعنى العاقبة وأجل الشئ واريد بها المعنى الأول فى العبارة.

[۴۴۱] (۵)« تنجز» من مادة« نجز» على وزن عجز، تستعمل فى الوفاء بالعهد، وتنجز الوعد طلب وفائه على عجل.

[۴۴۲] (۱)« عنا» من مادة« عناية» بمعنى الاهتمام بالشئ، والضمير فى عناها يمكن أن يرجع إلى اللّه فيشير إلىالأهداف الإلهية التى تبلغ الإنسان عن طريق أذنه، أو يرجع إلى الإنسان ليعنى الأهداف التى ينالها الإنسان عن طريق الاذان، أو يعود إلى الحرف ما ليعنى المطالب المهمة السماع للاذن.

[۴۴۳] (۲)« تجلو» من مادة« جلاء» بمعنى تكشف.

[۴۴۴] (۳)« عشا» من مادة« عشو» أو« عشى» ضعف البصر وعجزه عن الرؤية وقيل عدم الابصار ليلًا.

[۴۴۵] (۴)« أشلاء» جمع« شل» على وزن شكل العضو والجسد، وهنا تعنى الجسد، حيث أردفها بالعبارة(جامعة لأعضائها) وقيل قطعة اللحم وهى العضلات ويصدق هذا المعنى على الخطبة المذكورة.

[۴۴۶] (۵)« أحناء» جمع« حنو» على وزن حلم ما اعوج من البدن، كأغلب العظام.

[۴۴۷] (۱)« أرفاق» جمع« رفق» على وزن فكر المنفعة أو ما يستعان به عليها، وهذا هو المعنى المراد فى عبارةالخطبة.

[۴۴۸] (۲)« رائدة» من مادة« رود» على وزن شوق طلب الماء والمرتع، ثم اطلقت على كل بحث وطلب، كما وردت بمعنى الهادى وذلك لأنّ القوافل كانت تبعث بشخص ليبحث عن مكان مناسب لتوقف القافلة حيث يسمى هذا الشخص الرائد.

[۴۴۹] (۱)« مجللات» من مادة« جلال». ومجللات نعمه غامرات نعمه، النعم التى تغطى جميع كيان الانسان، فهى‌تفيد السعة والشمولية.

[۴۵۰] (۲)« حواجز» جمع« حاجز» المانع والرادع وحواجز العافية موانع السلامة.

[۴۵۱] (۳)« خلاق» من مادة« خلق» بمعنى تعيين المقدار ومن هنا أطلق الخلاق على السهم والنصيب، والمرادبمستمتع خلاقهم التى وردت فى الخطبة النصيب الوافر من الخير واللذات التى تمتعوا بها فى الدنيا.

[۴۵۲] (۴)« خناق» من مادة« خنق» حبل يخنق به، وخناق بالكسر على وزن كتاب بمعنى الحبل ومستفسح خناقهم‌النعم التى يتمتع بها الإنسان قبل الموت.

[۴۵۳] (۵)« أرهق» من مادة« إرهاق» أخذ الشئ باستعجال، واصلها رهق على وزن شفق بمعنى الظلم.

[۴۵۴] (۶) هناك خلاف بين شرّاح نهج‌البلاغة فى أن« شذبهم» كلمة واحدة أم كلمتان. فمن عدها كلمة واحدة« شذب» من مادة تشذيب بمعنى التقشير ومنه تشذيب الشجرة، ويناسب هذا المعنى ما ورد فى الخطبة، ومن ذهب إلى أنّها كلمتان« شذ+ بهم»، شذ من مادة شذوذ بمعنى الانفصال والانفراد وهو المعنى الذى يتناسب وما ورد فى الخطبة أيضاً.

[۴۵۵] (۷)« تخرم» من مادة« خرم» بمعنى الاستصال والاقتطاع.

[۴۵۶] (۸)« أنف» بضمتين مفرد بمعنى بداية كل شئ، ومن هنا يطلق على المرعى الذى لم يرع فيه الحيوان حتى ذلك‌الوقت وكذلك الظرف الذى لم يشرب به الماء.

[۴۵۷] (۱) بحارالأنوار ۳/ ۸۳(بتصرف).

[۴۵۸] (۱) سورة يوسف/ ۱۱۱.

[۴۵۹] (۱)« البضاعة» مصدر الرقة والحيوية والنشاط.

[۴۶۰] (۲)« حوانى» تعنى فى الأصل أحوال أضلاع الإنسان وهى اثنان فى كل جانب ومفردها حانية، وهى هنا كناية عن الهرم الذى يحدودب فيه الإنسان.

[۴۶۱] (۳)« هرم» بمعنى ذروة الضعف والعجز.

[۴۶۲] (۴)« غضارة» النعمة والسعة والخصب.

[۴۶۳] (۵)« آونة» جمع« آوان» بمعنى الزمان.

[۴۶۴] (۶)« الزيال» مصدر زايله مزايلة وزيال بمعنى المفارقة.

[۴۶۵] (۷)« أزوف» على وزن خضوع بمعنى الدنو والقرب وتطلق الازفة على القيامة لأنّها ليست بعيدة عن العباد.

[۴۶۶] (۸)« العلز» على وزن المرض قلق وخفة وهلع يصيب المريض المحتضر.

[۴۶۷] (۹)« مضض» من مادة« مض» على وزن سد بلوغ الحزن من القلب.

[۴۶۸] (۱)« جرض» على وزن« خرج» ابتلاع الريق بمشقة إثر الهم والحزن.

[۴۶۹] (۲)« تلفت» من مادة« لفت» الانصراف عن الشئ.

[۴۷۰] (۳)« حفدة» من مادة« حفد» على وزن صفد السرعة فى العمل، كما تطلق على بنات الولد لسرعتهم فى أعمال بيت والدهم ووالدتهم.

[۴۷۱] (۴) تأريخ بغداد ۱۰/ ۴۹.

[۴۷۲] (۵) سورة يونس/ ۲۴.

[۴۷۳] (۱)« نواحب» جمع« ناحبة» من مادة« نحب» على وزن نذر والنحيب فى الأصل الجد فى العمل ثم اطلق علىرفع الصوت بالبكاء، وعليه فالنواحب الأفراد الذين يرتفع صوتهم بالبكاء والعويل.

[۴۷۴] (۲)« غودر» من مادة« غدر» على وزن مكر نقض العهد، كما وردت بمعنى الترك، وهذا هو المراد بها فى العبارة.

[۴۷۵] (۱)« هوام» جمع« هامة» الحشرات المؤذية وتطلق أحياناً على خاصة الحشرات السامة.

[۴۷۶] (۲)« نواهك» جمع« ناهكة» ماينهك البدن، وتطلق على من يلبس الثوب حتى يبلى فيقال نهك الثوب.

[۴۷۷] (۳)« جده» من مادة« جديد»، الحديث.

[۴۷۸] (۴)« عفت» من مادة« عفو» درست وأزالت ومحت، ومنه العفو الذى يزيل الذنب، وقد وردت فى الخطبة بمعنى محو آثار الإنسان بعد الموت بواسطة الرياح والحدثان تثنيه بكسر النون وتجمع بضمها بمعنى الحوادث الاليمة.

[۴۷۹] (۵)« الحدثان» من مادة« حدوث»، تعاقب الليل والنهار.

[۴۸۰] (۶)« شحبة» من مادة« شحوب» تغير الجسم وضعفه، تقابل بضة بمعنى النشاط والغضاضة.

[۴۸۱] (۷)« نخرة» صفة مشبهة من مادة« نخر» على وزن ضرر بمعنى البالية، وقد وردت فى الخطبة كاشارة إلى العظام بصفتها ممزقة خاوية.

[۴۸۲] (۸)« أعباء» جمع« عب» بمعنى الثقل، والأعباء فى الخطبة تعنى المسؤوليات الثقيلة.

[۴۸۳] (۱)« قدة» من مادة« قد» على وزن سد بمعنى الشق الطولى، وتطلق على الجادة التى تشق المرتفعات و المنخفضات وتسير قدما، وتطلق على الطائفة التى تنفصل عن جماعة، لأنّ طريقتها تختلف عن تلك الجماعة.

[۴۸۴] (۲) نهج‌البلاغة، الكلمات قصار ۱۲۲.

[۴۸۵] (۳) سورة البقرة/ ۷۴.

[۴۸۶] (۱)« مجاز» من مادة« جواز» مصدر ميمى من جاز يجوز، أى قطع المكان و اجتازه.

[۴۸۷] (۲)« مزالق» جمع« مزاق» موضع الزلل والانزلاق، من مادة« زلق» على وزن دلو.

[۴۸۸] (۳)« دحض» ورد هنا كمصدر أو إسم مصدر هو الانزلاق والسقوط، كما تستعمل أحياناً بشأن زوال الشمس من دائرة نصف النهار نحو المغرب.

[۴۸۹] (۴)« أهاويل» جمع« أهوال»، وأهوال جمع هول، وعليه فالأهاويل جمع الجمع و« هول» بمعنى الخوف والخشية.

[۴۹۰] (۵)« تارات» جمع« تاره» بمعنى الدفعة من مادة« تأر» على وزن طرد بمعنى النظر لشخص بحدة، كما تعنى الضرب بالعصا.

[۴۹۱] (۱) بحارالأنوار ۸/ ۶۵.

[۴۹۲] (۲)« أنصب» من مادة« نصب» على وزن سبب التعب، وعليه فانصب من باب الأفعال بمعنى أتعب.

[۴۹۳] (۳)« أسهر» من مادة« سهر» على وزن سفر اليقظة فى الليل، ولما كانت الحوادث الأليمة تسلب العين نومها وهول المحشر فقد

اطلق على الاثنين الساهرة.

[۴۹۴] (۴)« غرار» مصدر واسم مصدر القليل من النوم وغيره، والمراد بالعبارة الواردة فى الخطبة أزال قيام الليل نومه القليل.

[۴۹۵] (۵)« هواجر» جمع« هاجرة» نصف النهار عند اشتداد الحرارة، وأصلها من مادة هجر وهجران بمعنى الترك والمفارقة.

[۴۹۶] (۶)« ظلف» من مادة« ظلف» بفتح وسكون المنع،« وظلف» على وزن« علف» المكان المرتفع، وكأنّه يمنع الإنسان من الوصول إليه.

[۴۹۷] (۱)« أوجف» من مادة« ايجاف» السرعة فى العمل، وأوجف الذكر بلسانه أسرع، كأن الذكر لشدة تحريكهاللسان موجف به كما توجف الناقة براكبها.

[۴۹۸] (۲)« تنكب» من مادة« نكب» و« نكوب» بمعنى الميل عن الشئ والعدول عنه، ومن هنا يقال للدنيا نكبت أنأدبرت عن الشخص.

[۴۹۹] (۳)« مخالج» جمع« مخلج» من مادة« خلج» على وزن حرج الامور المختلجة الجاذبة.

[۵۰۰] (۴)« وضح» من مادة« وضوح» بمعنى الظهور ووضح السبيل وسط الجادة.

[۵۰۱] (۵)« تفتله» من مادة« فتل» على وزن قتل الانصراف عن الشئ، كما وردت بمعنى الشروق ومنه الفتيلة.

[۵۰۲] (۶)« نعمى» بالضم سعة العيش ونعيمه، وللنعمى مفهوم كالنعمة، حيث هو من المفاهيم الواسعة.

[۵۰۳] (۱)« أكمش» من مادة« كمش» على وزن عطش أسرع، والمراد بها فى العبارة جد السير فى مهلة الحياة.

[۵۰۴] (۱) هذا الكلام مضمون حديث عن الإمام الصادق عليه السلام فى كتاب آمالى الصدوق المجلس ۳۳.

[۵۰۵] (۲) ورد الصراط بدل الجسر فى حديث الإمام الصادق عليه السلام، بحارالأنوار ۸/ ۶۴ كما روى هذا الحديث عنرسول اللّه صلى الله عليه و آله فى كنز العمال ۱۴/ ۳۸۶ ح ۳۹۳۶.

[۵۰۶] (۳) سورة الفجر/ ۱۴.

[۵۰۷] (۴) بحارالأنوار ۸/ ۶۶ ح ۶.

[۵۰۸] (۵) كنزالعمال، السابق.

[۵۰۹] (۶) بحارالأنوار ۸۹/ ۱۹۷ ح ۳.

[۵۱۰] (۷) الغدير ۲/ ۳۲۳.

[۵۱۱] (۸) الغدير ۲/ ۳۲۳(نقل هذه الروايات العلّامة الأمينى من مصادر العامه مع ذكر صفحاتها، وورد فى شرحالشعر المعروف للعبدى:

وإليك الجواز تدخل من شئتجناناً ومن تشاء جحيماً [۵۱۲] (۱)

[۵۱۳] (۲) سورة الاسراء/ ۷۹.

[۵۱۴] (۳) بحارالأنوار ۶۶/ ۳۹۲ ح ۶۸.

[۵۱۵] (۴) بحارالأنوار ۷۱/ ۳۵۲ ح ۲۲.

[۵۱۶] (۵) بحارالأنوار ۸۴/ ۱۴۴ ح ۱۸.

[۵۱۷] (۶) بحارالأنوار ۸۰/ ۱۲۷.

[۵۱۸] (۱) سورة القصص/ ۵۹.

[۵۱۹] (۲) سورة طه/ ۱۱۷.

[۵۲۰] (۳) سورة يس/ ۶۰.

[۵۲۱] (۱) سورة البقرة/ ۱۶۸ و ۲۰۸؛ سورة الانعام/ ۱۴۲؛ سورة النور/ ۲۱.

[۵۲۲] (۲) سورة الزخرف/ ۳۶، كما ورد مثل هذا التعبير فى سورة فصلت/ ۲۴.

[۵۲۳] (۱) بهج‌الصباغة ۱۴/ ۳۵۰، كما ورد شبه هذا المضمون فى بحارالأنوار باختلاف طفيف كأحد الوصايا الأربعةلموسى عليه السلام(بحارالأنوار ۱۳/ ۲۴۴)(مادمت لاترى الشيطان ميتا فلاتأ من مكره).

[۵۲۴] (۲) نفحات الولاية ۱/ ۴۶۰- ۴۶۷.

[۵۲۵] (۱) هنالك خلاف بين شرّاح نهج‌البلاغة بشأن(أم) هل هى إستفهامية ومتصلة أو منقطعة؟ ويبدو من الصعب‌الحكم فى ذلك، لأنّ ظاهر عبارة المرحوم السيد الرضى(ره) قد اختار كلاما من هذه الخطبة الطويلة ويمكن أن تكون العلاقة بين العبارات خافية هذه القطوف، وقد فسرناها منقطعه وتقديره العبارة« بل أذكركم بحال الإنسان ...».

[۵۲۶] (۲)« شغف» من مادة« شغاف» على وزن جواب يعنى فى الأصل غلاف‌القلب، والمفردة هنا بمعنى الاغلفة المتعددة.

[۵۲۷] (۱)« دهاق» من مادة« دهق» على وزن دهر بمعنى متتابعا وشدة الضغط، ثم استعملت بمعنى الصب بالقوةوالضغط، واشارت هنا إلى صب النطفة فى الرحم.

[۵۲۸] (۲)« محاق» من مادة« محق» على وزن محو النقص التدريجي والمحو، ومن هنا يطلق المحاق على القمر فى أخره، ووصف العلقة بالمحاق بمعنى خفيت فيها ومحقت حتى زالت صورتها وتبدلت إلى جنين، أو لأنّ لها شكل ممحو وغير معين ولم تتخذ لها صورة.

[۵۲۹] (۳)« يافع» من مادة« يفع» على وزن نفع الغلام راهق العشرين.

[۵۳۰] (۴)« سادر» من مادة« سدر» المتحير والمتخبط.

[۵۳۱] (۱)- ماتح تعنى من ينزل البئر إذا قل ماؤها فيملأ الدلو، و« الغرب» بمعنى الدلو العظيمة، فتفسير العبارةالتى وردت فى الخطبة هو أنّ بعض الأفراد الذين يسعون لاشباع أهوائهم ورغباتهم وما يحلمون به من أمانى.

[۵۳۲] (۲)- ماتح تعنى من ينزل البئر إذا قل ماؤها فيملأ الدلو، و« الغرب» بمعنى الدلو العظيمة، فتفسير العبارةالتى وردت فى الخطبة هو أنّ بعض الأفراد الذين يسعون لاشباع أهوائهم ورغباتهم وما يحلمون به من أمانى.

[۵۳۳] (۳)« كادح» من مادة« كدح» على وزن مدح شدة السعى، كما تعنى الحرص أيضاً.

[۵۳۴] (۴)-« بدوات» جمع بدأة على وزن« غفلة» من مادة« بدو» على وزن دلو بمعنى الظهور، وأدب بمعنى الحاجة والسرور، فالعبارة« بدوات أربه» تعنى الحاجات واللذات التى تخطر على ذهن الإنسان.

[۵۳۵] (۵)-« بدوات» جمع بدأة على وزن« غفلة» من مادة« بدو» على وزن دلو بمعنى الظهور، وأدب بمعنى الحاجة والسرور، فالعبارة« بدوات أربه» تعنى الحاجات واللذات التى تخطر على ذهن الإنسان.

[۵۳۶] (۶)« رزية» من مادة« رزأ» على وزن عضو بمعنى النقص فى الأصل، كما وردت بمعنى المصيبة.

[۵۳۷] (۷)« تقية» وردت هنا بمعنى التقوى ومفهوم الجملة أنّ خشوعه إلى اللّه لايستند إلى التقوى، وذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ تقية هنا مفعول مطلق للنوع، وقيل مفعول له، وليس هنالك من فارق فى المفهوم.

[۵۳۸] (۸)« غرير» بمعنى المغرور.

[۵۳۹] (۹)« هفوة» من مادة« هفو» رفع القدم بسرعة، ولما كانت السرعة فى المشى تدعو إلى الزلل فى أغلب الأحيان‌ولعلها تؤدى إلى الوقوع فان الهفوة تعنى الخطأ والزلل والوقوع على الأرض.

[۵۴۰] (۱)« دهمته» من مادة« دهم» على وزن فهم بمعنى الغشاوة وتغطية الشئ.

[۵۴۱] (۲)« غبر» جمع« غابر» يعنى الباقى.

[۵۴۲] (۳)« جماح» من مادهٔ« جمح» على وزن جمع التعنت عن الحق، ومن هنا يطلق الجموح على الحيوان الطائش.

[۵۴۳] (۴)« سنن» مفرد بمعنى الطريقهٔ وسنن بالضم جمع سنهٔ.

[۵۴۴] (۵)« مراح» من مادهٔ« مرح» على وزن فرح شدهٔ السرور المقرونهٔ بالطغوى واستثمار نعم اللّه فى الباطل.

[۵۴۵] (۶)« سادرا» تعنى الحيرهٔ كما تعنى الصلافهٔ، والمعنى الأول أنسب للعبارهٔ، بينما المعنى الثانى أنسب للعبارهٔ الاولى التى مرت فى المقطع السابق.

[۵۴۶] (۷)« لادمهٔ» من مادهٔ« لدم» على وزن هدم تعنى فى الأصل الضاربهٔ، ومن هنا تطلق اللادمهٔ على المرأهٔ التى‌تلطمه وجهها ورأسها حين المصاب.

[۵۴۷] (۱)« مبلس» من مادهٔ« ابلاس» تعنى فى الأصل الغم إثر شدهٔ اليأس، ومن هنا فسرت بمعنى اليأس، وهى هنابمعنى يأس الأحياء من عودهٔ الاموات.

[۵۴۸] (۲)« سلس» من مادهٔ« سلس» على وزن قصص بمعنى السهل.

[۵۴۹] (۳)« رجيع»، الرجيع من الدواب ما رجع به من سفر الى سفر فكل ثم استعملت للإنسان التعب.

[۵۵۰] (۴)« وصب» الالم الدائمى والمرض والتعب.

[۵۵۱] (۵)« نضو» الناقهٔ أو الحيوان المهزول، ثم اطلقت على الضعيف من الناس.

[۵۵۲] (۱)« مبلس» من مادهٔ« ابلاس» تعنى فى الأصل الغم إثر شدهٔ اليأس، ومن هنا فسرت بمعنى اليأس، وهى هنابمعنى يأس الأحياء من عودهٔ الاموات.

[۵۵۳] (۲)« سلس» من مادهٔ« سلس» على وزن قصص بمعنى السهل.

[۵۵۴] (۳)« رجيع»، الرجيع من الدواب ما رجع به من سفر الى سفر فكل ثم استعملت للإنسان التعب.

[۵۵۵] (۴)« وصب» الالم الدائمى والمرض والتعب.

[۵۵۶] (۵)« نضو» الناقهٔ أو الحيوان المهزول، ثم اطلقت على الضعيف من الناس.

[۵۵۷] (۶)« حشده» جمع حاشد المسارعون فى التعاون.

[۵۵۸] (۱)« زوره» مصدر بمعين الزيارهٔ واللقاء.

[۵۵۹] (۲)« بهتهٔ» من مادهٔ بهت الحيرهٔ والاضطراب.

[۵۶۰] (۱) اقتباس من الخطبهٔ ۱۸۸ من نهج‌البلاغهٔ.

[۵۶۱] (۱) منهاج البراعهٔ ۶/ ۴۰- ۴۱.

[۵۶۲] (۲) منهاج البراعهٔ ۶/ ۴۲.

[۵۶۳] (۱) بحارالأنوار ۶/ ۲۷۱.

[۵۶۴] (۲) سوره غافر/ ۱۱.

[۵۶۵] (۱) رواه الترمذى فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه و آله(ج ۴، كتاب صفهٔ القيامهٔ، ح ۲۴۶۰) والعلّامهٔ المجلسى فى‌بحارالأنوار(۶/ ۲۱۴- ۲۱۸).

[۵۶۶] (۲)« حميم» من مادهٔ« حم» على وزن غم فى الأصل الماء الحار وهو المعنى المراد فى العبارهٔ. فقد جاء فى‌القرآن« فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ» سورهٔ الواقعهٔ/ ۵۴.

[۵۶۷] (۳)« تصليهٔ» من مادهٔ« صلى» على وزن سعى ويعنى الاحراق، كما تعنى دخول جهنم، أمّا التصليهٔ فيهٔ متعديهٔ وهى تعنى الاحراق فقط.

[۵۶۸] (۴)« فورات» من مادهٔ« فورهٔ» الغليان.

[۵۶۹] (۵)« سورات» جمع سوره الغضب.

[۵۷۰] (۱)« زفير» صوت النار عند توقدها.

[۵۷۱] (۲) سورهٔ غافر/ ۴۶.

[۵۷۲] (۳)« دعهٔ» من مادهٔ« ودع» على وزن منع الراحهٔ.

[۵۷۳] (۴)« مزيحهٔ» من مادهٔ« ازاحهٔ» تزيح ما أصابه من التعب.

[۵۷۴] (۵)« ناجزهٔ» من مادهٔ« نجز» منتهيهٔ.

[۵۷۵] (۶)« سنهٔ» بالكسر والتخفيف أوائل النوم.

[۵۷۶] (۷)« مسليهٔ» من مادهٔ« تسليهٔ» النسيان، تشغله عما هو فيه.

[۵۷۷] (۱) سورهٔ التوبهٔ/ ۶۹.

[۵۷۸] (۱)« مناص» من مادهٔ« نوص» على وزن قوس الابتعاد والانصال عن الشئ، وقال البعض تعنى الملجأ والمفر.

[۵۷۹] (۲)« ملاذ» من مادهٔ« لوذ» على وزن موز بمعنى الاختفاء واللجوء إلى القلعهٔ، ومن هنا يطلق على الملجأ اسم الملاذ، وتختلف قليلًا عن المعاذ من مادهٔ العوذ على وزن الحوض التى تعنى الالتجاء دون مفهوم الاستتار.

[۵۸۰] (۳)« محار» اسم مكان من مادهٔ« حور» على وزن جور النقص ثم وردت بمعنى المرجع إلى الدنيا بعد فراقها.

[۵۸۱] (۱)« تؤفكون» من مادهٔ« إفك» على وزن فكر بمعنى الانحراف والانقلاب، ثم اريد بها الرجوع.

[۵۸۲] (۲)« قيد» بكسر وفتح القاف تأتى بمعنى المقدار، ومن هنا يقال للحبل الذى يربط برجل الانسان أو الحيوانوالذى يحد من حركته فى حد معين، يقال له« قيد» و« قدّ» بمعنى الطول.

[۵۸۳] (۱)« خناق» من مادهٔ« خنق» الحبل الذى به وضيق الخناق كنايهٔ عن شدهٔ المصاب وعظم الضيق.

[۵۸۴] (۲)« فينهٔ» بالفتح الزمان والوقت.

[۵۸۵] (۳)« باحهٔ» من مادهٔ« بوح» على وزن قول الظهور والشهرهٔ وباحهٔ بمعنى صحن الدار وساحتها وهذا هوالمعنى المراد فى العبارهٔ.

[۵۸۶] (۴)« إحتشاد» الاجتماع من أجل القيام بعمل مشترك.

[۵۸۷] (۵)« حوبهٔ» على وزن توبهٔ تعنى فى الأصل الحاجهٔ التى تقود الإنسان إلى الذنب ومن هنا وردت فى القرآنوسائر الاستعمالات بمعنى الذنب والمعصيهٔ.

[۵۸۸] (۶)« ضنک»، الشدهٔ ومعيشهٔ ضنک العيش الصعب.

[۵۸۹] (۷)« زهوق» على وزن حقوق، بمعنى الابادهٔ والمحو.

[۵۹۰] (۱) شرح نهج البلاغهٔ لابن أبى الحديد ۶/ ۲۷۸.

[۵۹۱] (۱) سند الخطبهٔ: رواها جمع من مشاهير علماء الإسلام قبل السيد الرضى(ره) ومنهم ابنقتيبهٔ فى عيون الأخبار وأبوحيان التوحيدى فى الامتاع والمؤانسهٔ والبيهقى فى المحاسن والمساوئ والبلاذرى فى أنساب الاشراف. ورواها بعد السيد الرضى(ره) ا لشيخ الطوسى فى الامالى عن محمد بن عمران المرزبانى الذى عاش قبل صدور النهج بستهٔ عشر عاماً وابن عقدهٔ والزبير بن بكار وابن أثير فى النهايهٔ(مصادر نهجالبلاغهٔ ۲/ ۱۱۹).

[۵۹۲] (۱)« نابغهٔ» من مادهٔ« نبوغ» الظهور والشهورهٔ وتصطلح العرب بالنابغهٔ على المرأهٔ المشهورهٔ بالفساد، كماتطلق على الافذاذ من الأفراد.

[۵۹۳] (۲)« دعابهٔ» بالضم المزاح واللعب.

[۵۹۴] (۳)« تلعابة» بكسر التاء كثير اللعب الذى يشغل الناس بكلامه وأفعاله.

[۵۹۵] (۴)« أعافس» من مادة« معافسة» شدة المزاح.

[۵۹۶] (۵)« أمارس» من مادة« ممارسة» الانهماك بالمزاح.

[۵۹۷] (۱) ربيع الأبرار للزمخشرى، نقلا عن ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج‌البلاغة ۶/ ۲۸۳.

[۵۹۸] (۱)« يلحف» من مادة« الحاف» بمعنى الاصرار والالحاح واصلها من اللحاف وهو الغطاء المعروف، ولما كان‌الشخص المصر يلف من حوله فقد اطلقت عليه هذ المفردة.

[۵۹۹] (۲)« الإل»، العهد، والميثاق، كما تعنى القرابة، والمراد من قطع الال أن يقطع الرحم.

[۶۰۰] (۳) تأريخ اليعقوبى(طبق نقل الغدير ۲/ ۱۷۵).

[۶۰۱] (۱)« قرم» الذكر من الجنس، كما وردت بمعنى الشخص العظيم والسيد، وهذا هو المعنى المراد فى العبارة، لأن عمرو بن العاص كان يعلم ان أميرَالمؤمنين على عليه السلام يصرف وجهه عنه اذا ما كشف عورته.

[۶۰۲] (۲)« سبة» من مادة« سب» على وزن شق الشتم وكل شئ يكره ذكره، وهى هنا إشارة إلى العورة.

[۶۰۳] (۳) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۶/ ۳۱۲.

[۶۰۴] (۴) كتاب« صفين» لنصر بن مزاحم/ ۲۲۴« بحسب ما نقله الغدير، فى ۲/ ۱۵۸.

[۶۰۵] (۱) روى ابن ابى الحديد ذلك عن المؤرخ المشهور الواقدى(شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ۶/ ۳۱۷.

[۶۰۶] (۲)« الاتية» بمعنى العطية من الايتاء بمعنى الاعطاء.

[۶۰۷] (۳)« رضيخة» من مادة رضخ،« رضخ» له رضيخة أعطاه قليلا، والمراد بالعبارة أنّ عمرو بن العاص باع آخرته‌ودينه بذلك المتاع الزهيد من الدنيا، ولاسيما أنّه لم يتمتع بذلك المقام سوى بضع سنوات.

[۶۰۸] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد ۲/ ۶۱(بتخليص).

[۶۰۹] (۲) هناك كلام بين المؤرخين بشأن موت عمرو، غير أنّ العلّامة الأمينى ذكر فى غديره وابن أبى الحديد فى شرحه ۶/ ۳۲۱: والصحيح أنّه مات فى سنة ثلاث واربعين، فلم تدم حكومته لمصر أكثر من خمس سنوات.

[۶۱۰] (۳) سورة الكوثر/ ۳.

[۶۱۱] (۱) الغدير ۲/ ۱۲۶؛ شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ۶/ ۲۸۲.

[۶۱۲] (۲) الغدير ۲/ ۱۲۶.

[۶۱۳] (۳) شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ۶/ ۳۲۲.

[۶۱۴] (۴) شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ۶/ ۲۸۲.

[۶۱۵] (۱) اصول الكافى ۲/ ۶۶۳.

[۶۱۶] (۲) تحف‌العقول/ ۴۱ باب مواعظ النبى.

[۶۱۷] (۳) اصول الكافى ۲/ ۶۶۳.

[۶۱۸] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد ۶/ ۳۳۰.

[۶۱۹] (۲) سورة الواقعة/ ۳۵- ۳۶.

[۶۲۰] (۳) تحف العقول/ ۸۶.

[۶۲۱] (۴) ميزان الحكمة/ ۴، ح ۱۸۸۶۹.

[۶۲۲] (۵) ميزان الحكمة ۴/ باب ذم المزاح.

[۶۲۳] (۶) ميزان الحكمة ۴/ ح ۱۸۸۷۷.

[۶۲۴] (۷) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد ۶/ ۳۲۰.

[۶۲۵] (۸) غرر الحكم.

[۶۲۶] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد ۶/ ۳۳۳.

[۶۲۷] (۱) سند الخطبة: رواها أبو نعيم الإصفهانى فى كتاب حلية الأولياء والسبط بن الجوزى الذى عاش بعد السيد الرضى(ره) فى كتاب تذكرة الخواص ومحمد بن طلحة الشافعى فى مطالب السؤل(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۱۲۲).

[۶۲۸] (۱)« أوهام» جمع« وهم» على وزن فهم تعنى لغويا ما يخطر على القلب، وقد وردت فى الخطبة بمعنى إجالةالفكر التى لاتبلغ كنه الذات الإلهية المقدسة وصفاته سبحانه، وبعبارة أخرى لاتبلغ كنه ذاته حتى ذروة حركة العقل التى عبر عنها هنا بالوهم.

[۶۲۹] (۱) راجع بهذا الشأن(نفى رؤية اللّه) المجلد الأول من هذا الكتاب، وكتاب رسالة القرآن ۴/ ۲۳۲- ۲۵۱.

[۶۳۰] (۲) نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۷۹.

[۶۳۱] (۳) ميزان الحكمة ۳/ ۱۸۹۳، ح ۱۲۳۱۶.

[۶۳۲] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد ۶/ ۳۴۶.

[۶۳۳] (۱) اصول الكافى ۱/ ۹۳.

[۶۳۴] (۲) توحيد الصدوق/ ۶۶.

[۶۳۵] (۱)« سواطع» جمع« ساطعة» النور الواسع الظاهر الدلالة، كما تستعمل هذه المفردة فى الامور المعنوية كآيات‌القرآن المجيد الظاهرة أو الشخصيات الإسلامية البارزة.

[۶۳۶] (۱)« علقتكم» من مادة« علق» على وزن فلق تعنى فى الأصل الرابطة الشديدة والتعلق بالشئ، كما تستعمل هذه‌المفردة فى الحيوان المفترس الذى يمسك فريسته بأسنانه ويمتص دمائها، أو أن يفترسها بمخالبه. وقد شبهت العبارة الموت بهذا الحيوان.

[۶۳۷] (۲)« مخالب» جمع« مخلب» على وزن محور ومادته« خلب».

[۶۳۸] (۳)« دهمتكم» من مادة« دهم» على وزن فهم بمعنى الغشاوة، وتستعمل هذه المفردة حين غلبة شئ على آخروإحاطته به، هذا هو المراد بها فى العبارة، كما تستعمل فى الظلمة التى تحيط بالأشياء، كما تطلق على الأخضر الفاتح، من قبيل مدهامتان التى وردت فى سورة الرحمن.

[۶۳۹] (۴)« مفظعات» من مادة« فظع» على وزن جزع بمعنى الاخافة ومفظعات الأمر شدته، وتطلق على الحوادث العظيمة التى تخيف الإنسان.

[۶۴۰] (۱) سورة الانعام/ ۱۳۲.

[۶۴۱] (۲) سورة الانعام/ ۸۳.

[۶۴۲] (۳) سورة الواقعة/ ۱۰- ۱۲.

[۶۴۳] (۱) سورة الواقعة/ ۲۷.

[۶۴۴] (۲) سورة الواقعة/ ۸۸- ۹۱.

[۶۴۵] (۳) انظر نفحات القرآن ۶/ ۳۴۵« مقامات الجنّة».

[۶۴۶] (۴) بحارالأنوار ۸/ ۸۹.

[۶۴۷] (۵) منهاج البراعة ۶/ ۱۱۹.

[۶۴۸] (۶) سورة طه/ ۷۵.

[۶۴۹] (۷) بحارالأنوار ۸/ ۱۳۳.

[۶۵۰] (۸)« يظعن» من مادهٔ« ظعن» على وزن طعن بمعنى السفر.

[۶۵۱] (۹)« يبأس» من مادهٔ« بأس» بمعنى الفقر وشدهٔ الحاجهٔ.

[۶۵۲] (۱) سند الخطبهٔ: رويت هذه الخطبهٔ متفرقهٔ فى الكتب الآتيهٔ وكلها سابق نهج البلاغهٔ لأن كل واحد من مؤلفيها أخذ غرضه منها: الأخبار الطوال لأبى‌حنيفهٔ الدينورى وتحف‌العقول لابن شعبهٔ الحرانى والمحاسن للبرقى، ما رويت فقرات منها فى المجالس للمفيد والمشكاهٔ للطبرسى والغرر للآمدى(مصادر نهج‌البلاغهٔ ۲/ ۱۲۷).

[۶۵۳] (۲) ورد فى نسخ نهج‌البلاغهٔ لصبحى الصالح التى اقتبست منها متون هذا الكتاب وهى النسخهٔ الصحيحهٔ نسبيا، ان عنوان الخطبهٔ هو عظهٔ الناس بالتقوى والمشورهٔ، ويبدو أنّه هو الذى ذكر لها هذا العنوان، فى حين لم يرد فى الخطبهٔ شيئاً بشأن المشورهٔ، فلايستبعد أن يكون الأمر قد اشتبه عليه حيث خلطها باحدى سائر خطب نهج‌البلاغهٔ.

[۶۵۴] (۱) نهج‌البلاغهٔ، الرسالهٔ ۳۱.

[۶۵۵] (۱)« مهل» على وزن اجل بمعنى المداراهٔ والمهلهٔ.

[۶۵۶] (۲)« إرهاق» من مادهٔ« رَهَقْ» على وزن شفق بمعنى الغشيهٔ والتغطيهٔ والسيطرهٔ، ومن هنا فان الأجل اذا جاء للانسان فانه يسيطر على كافهٔ وجوده، وقد استفيد من هذا التعبير فى الخطبهٔ أعلاه بمعنى الأجل.

[۶۵۷] (۳)« متنفس» من مادهٔ« تنفس» زمان الاتساع والراحهٔ.

[۶۵۸] (۴)« كَظَم» على وزن قلم بمعنى المضيق ومجرى التنفس.

و« كَظْم» على وزن هضم، وله معنى مصدرى بمعنى حبس النفس، ويستعمل كنايهٔ عن ضبط النفس عند الغضب، وما شابه ذلك.

[۶۵۹] (۱) يعود الضمير فى كتابه وحقوقه إلى اللَّه، ولايتناسب ارجاع الضمير فى حقوقه إلى كتابه وسياق الكلام.

[۶۶۰] (۲)« سُدى على وزن شما بمعنى المهمل والذى لا هدف ولا معنى له، وقد استفيد من هذا الاصطلاح هناللتعبير عن البعير الذى لا راعى له، وقد هام فى الصحراء على وجهه، فيرعى من كل مكان يصل اليه.

[۶۶۱] (۳) سورهٔ المؤمنون/ ۱۱۵.

[۶۶۲] (۴) سورهٔ الانعام/ ۱۰۴.

[۶۶۳] (۵) سورهٔ الاعراف/ ۳۴.

[۶۶۴] (۱)« أنهى» من مادهٔ« إنهاء» الاعلام والابلاغ وهذا هو المراد بها فى العبارهٔ؛ أى أنّ اللَّه ابلغكم ما يلزم على لسان‌نبيه.

[۶۶۵] (۲)« محاب» جمع« محب» اسم مكان مصدر ميمى مواضع حبه وتقابل المكاره.

[۶۶۶] (۳) سورهٔ الانعام/ ۱۴۹.

[۶۶۷] (۱) قال على عليه السلام:« وعليكم بالصبر فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد». نهج‌البلاغهٔ، الكلمات القصار ۸۲.

[۶۶۸] (۱) وسائل الشيعهٔ ۱۸/ ۱۱۸ ح ۲۲ الباب ۱۲ من أبواب صفات القاضى.

[۶۶۹] (۲) سورهٔ الانعام/ ۱۵۲.

[۶۷۰] (۳) سورهٔ الاسراء/ ۳۲.

[۶۷۱] (۴) سورهٔ الانعام/ ۱۵۱.

[۶۷۲] (۵)« تداهنوا» من مادهٔ« مداهنهٔ» وقد اشتقت من مادهٔ« دهن» التى تعنى المرونهٔ المذمومهٔ والنفاق والمماشاهٔ، كما تعنى إظهار خلاف ما فى الطويهٔ.

[۶۷۳] (۱) غرر الحكم، ح ۹۰۲۲.

[۶۷۴] (۱) لابد من الالتفات هنا إلى أنصح» من مادة« نصح» تعنى فى الأصل الاخلاص، وهذا هو مفهوم النصيحة.

[۶۷۵] (۲)« أغش» من مادة« غش» تعنى فى الأصل الضعف والعجز، ومن هنا يصطلح بالمغوش على الشى غيرالخالص.

[۶۷۶] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن ميثم ۲/ ۲۸۵.

[۶۷۷] (۲) شرح نهج‌البلاغة لابن أبی‌الحديد ۶/ ۳۶۵، المرحوم العلّامة المجلسى فى بحارالأنوار ۲۱/ ۲۱۱ حيث‌أوردها فى تأريخ النبى صلى الله عليه و آله فى باب حوادث غزوة تبوك ضمن خطبة صلى الله عليه و آله.

[۶۷۸] (۱) سورة آل‌عمران/ ۲۶.

[۶۷۹] (۲) وسائل الشيعة، ج ۱، الباب ۱۱ من ابواب مقدمات العبادة، ح ۱۶.

[۶۸۰] (۱) وسائل الشيعة، ۱/ ۱۱، ح ۴.

[۶۸۱] (۲)« منساة» من مادة« نسأ» على وزن نصب بمعنى الترك والتأخير.

[۶۸۲] (۳)« محضرة» اسم مكان من مادة« حضور» الموضع الذى يحضره الإنسان أو الشئ.

[۶۸۳] (۴) شرح نهج‌البلاغة للخوئى ۶/ ۱۳۶.

[۶۸۴] (۵) فى ظلال نهج‌البلاغة ۱/ ۴۲۷.

[۶۸۵] (۶)« شفا» بمعنى حافة الشئ، وتطلق فى الأصل على حافة البئر أو الخندق، ولعل ذلك هو السبب فى تسميةالشفة.

[۶۸۶] (۷)« مهواة» من مادة« هوى» لميل الى الشيئ، ومهواة اسم مكان المسافة بين جبلين التى شوق الانسان احياناً الى السقوط.

[۶۸۷] (۱) سند الخطبة: من الأدلة التى تفيد أنّ الخطبة نقلت من مصادر اخرى غير نهج‌البلاغة ما قاله ابن ابی‌الحديد بعد أنّ أكمل شرح هذه الخطبة: وهذه خطبة طويلة وقد حذف الرضى(ره) منها كثيرا(ثم نقل أبى الحديد بعض أقسامها)، ورواها الزمخشرى فى باب العز والشرف من ربيع الابرار بتفاوت يسير نعرف منه أنه لم ينقلها عن النهج(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۱۳۳).

[۶۸۸] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبی‌الحديد ۶/ ۳۶۵.

[۶۸۹] (۱) سورة النور/ ۲۱.

[۶۹۰] (۲)« قرى» مصدر واسم مصدر ما يهيأ للضيف، والمراد به هنا العمل الصالح يهيئه للقاء الموت وحلول الأجل، ومنه« المقراة» التى تطلق على الظرف الكبير الذى يوضع فيه الطعام.

[۶۹۱] (۳) سورة البقرة/ ۲۸۲.

[۶۹۲] (۱) سورة آل‌عمران/ ۱۶۹.

[۶۹۳] (۲)« ارتوى» من مادة« رى» على وزن طى شرب الماء.

[۶۹۴] (۳)« فرات»، الماء العذب.

[۶۹۵] (۴)« نَهَل» بمعنى السقى أو الشراب الأول، ومن عادة العرب، أخذ الابل إلى مكان شُرب الماء، وعندما تشرب‌وترتوى ترجع إلى مكانها، فيقال لها نهلت الابل أو إبلٌ نواهل. وفى المرة الثانية تُعرض على الماء فعندما تشرب، فتسمى الطِّل»، وبعد ذلك تذهب الابل للرعى فى المرعى فاصطلاح« النهل» يستعمل عندما تشرب الابل الشربة الاولى، وهذا الاصطلاح يستعمل دائماً فى الشرب الاول.

[۶۹۶] (۵)« الجدد» من جد، الأرض الغليظة الصلبة المستوية.

[۶۹۷] (۶) سورة الرعد/ ۲۸.

[۶۹۸] (۱)« غمار» من مادة« غمر» على وزن أمر بمعنى التغطية، ولما كانت المياه الكثيرة تغطى الأرض، اطلق عليه‌الغمار.

[۶۹۹] (۲)« عرى» جمع عروه المقبض.

[۷۰۰] (۱) بحارالأنوار ۴۰/ ۱۵۲.

[۷۰۱] (۲) كنزالعمال ۳/ ۴۸۳، ح ۷۳۳۴.

[۷۰۲] (۳) بحارالأنوار ۴۰/ ۱۵۳.

[۷۰۳] (۴) غرر الحكم، ح ۳۹۱.

[۷۰۴] (۱) اصول للكافى ۲/ ۷۴ ح ۲.

[۷۰۵] (۲)« عشوات» جمع« عشوة» مايقدم عليه الإنسان من عمل جهلا، ومن الواضح أنّ نتيجة مثل هذا العمل هى‌الندامة، وكشاف عشوات من يطرح حجب الجهل وينجى أهل الضلالة.

[۷۰۶] (۳)« فلوات» جمع« فلاة» وهى الصحراء الواسعة، مجاز عن مجالات العقول فى الوصول إلى الحقائق، ودليل‌الفلوات العالم بها.

[۷۰۷] (۱) بحارالأنوار ۶۹/ ۹۳.

[۷۰۸] (۲) سورة النبأ/ ۶- ۷.

[۷۰۹] (۱)« ثَقَل» على وزن أجل، وله معان مختلفة، ففى بعض الأحيان يأتى بمعنى أمتعة المسافر واحيانا بمعنى‌الاشياء الثمينة. و« حل» بمعنى نزل فى منزل جديد وحل الرحال فيه، والجملة الواردة اعلاه، كناية عن أن المؤمن المخلص والسائر على هدى القرآن الكريم، فان حاله كحال المسافر الذى سار وراء قافلة كلما نزلت القافلة فى مكان وحلت رحالها، فانه يتبع هذه القافلة فينزل معها ويحل رحاله معها.

[۷۱۰] (۱) سورة النساء/ ۱۵۰.

[۷۱۱] (۱)« اشراك» جمع« شرك» بمعنى اشباك الصياد.

[۷۱۲] (۲) الكنى والألقاب ۱/ ۲۹۴.

[۷۱۳] (۳) عوالى اللئالى ۴/ ۱۰۴.

[۷۱۴] (۴) بحارالأنوار ۸۹/ ۱۰۷، ح ۱.

[۷۱۵] (۱) تفسير البرهان ۱/ ۱۹.

[۷۱۶] (۲) الكافى ۱/ ۶۸.

[۷۱۷] (۳)« اضطجع» من مادة« ضجع» على وزن زجر بمعنى نام ووضع جنبه على الارض.

[۷۱۸] (۱) سورة النمل/ ۸۰.

[۷۱۹] (۲) سورة الاعراف/ ۱۷۹.

[۷۲۰] (۱) الكافى ۱/ ۴۴، باب استعمال العلم، ح ۱.

[۷۲۱] (۲) علل الشرايع/ ۳۹۴.

[۷۲۲] (۳) منهاج البراعة ۶/ ۱۸۵.

[۷۲۳] (۱) تفسير البرهان ۱/ ۱۹.

[۷۲۴] (۲) وسائل الشيعة ۱۸/ ۱۴۹، ح ۶۶ الباب ۱۳، أبواب صفات القاضى.

[۷۲۵] (۱) سورة الفتح/ ۱۰.

[۷۲۶] (۱) كنزالعمال ۱/ ۲۱۸، ح ۱۰۹۵.

[۷۲۷] (۲) بحارالأنوار ۴۷/ ۲۱۷، ح ۴.

[۷۲۸] (۳) سفينة البحار، مادة« بدع»؛ بحارالأنوار ۶۹/ ۲۲۰.

[۷۲۹] (۱)« تؤفكون» من مادة« إفك» على وزن فكر، الانحراف والميل، ومن هنا يطلق الافك على الكذب والتهمة.

[۷۳۰] (۱)« یتاه» من مادة« تیه» علی وزن شئ الضلال والحیرة.

[۷۳۱] (۲)« تعمهون» من مادة« عمه» علی وزن فرح الحیرة والتخبط، وقیل: أنّ العمی فی العربیة عمی العین الظاهرة والعمه العین الباطنة.

[۷۳۲] (۳) نقل هذا الحدیث العلّامة الأمینی باسانید مختلفة من مصادر العامة(الغدیر ۳/ ۱۷۶).

[۷۳۳] (۴)« هیم» جمع« أهیم» الابل العطشی وکذلک یقال للرمال تبتلع الماء، وأحیانا یستعمل هذا الاصطلاح للتعبیر عن العطش.

[۷۳۴] (۵) سورة المائدة/ ۵۵.

[۷۳۵] (۶) سورة المائدة/ ۷۶.

[۷۳۶] (۷) سورة الشوری/ ۲۳.

[۷۳۷] (۱) للوقوف بصورة أعمق علی هذه الآیات واقوال مفسری الشیعة والسنة راجع کتاب رسالة القرآن، ج ۹.

[۷۳۸] (۲) تفسیر الفخر الرازی ۲۷/ ۱۶۵، الآیة ۳۳ من سورة الشوری.

[۷۳۹] (۳) اصول الکافی ۲/ ۶۰۰، ح ۴.

[۷۴۰] (۱) سورة آل‌عمران/ ۱۶۹.

[۷۴۱] (۲) نهج‌البلاغة، الکلمات القصار ۱۴۷،« من حسن المصادفات انه کتب هذا القسم من الخطبة فی الذکری‌الحادیة عشرة لرحیل الإمام الخمینی(ره)».

[۷۴۲] (۳) بحارالأنوار ۶۷/ ۲۹۵.

[۷۴۳] (۱) نهج‌البلاغة، الکلمات القصار ۳۲۱.

[۷۴۴] (۲) ینابیع المودة طبقا لنقل إحقاق الحق ۹/ ۳۵۴، وقد نقل هذا الحدیث فی عدّة مصادر أخری من المصادرالمعروفة للعامة، وللوقوف أکثر راجع ۵/ ۶۳۹، من إحقاق الحق.

[۷۴۵] (۳) نهج‌البلاغة، خطبة ۲۰۷.

[۷۴۶] (۴) الغارات، سیرة علی علیه السلام فی نفسه.

[۷۴۷] (۵) المصدر السابق.

[۷۴۸] (۱) نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۵.

[۷۴۹] (۱)« معقولة» من مادة« عقال» الحبل الذی تربط به رجل الناقة بعد الانحناء لکی لایستطیع القیام فتبقی فی‌مکانها، ثم اطلقت کنایة علی الامور المستقرة.

[۷۵۰] (۲)« در» تعنی فی الأصل ترشح اللبن من الثدی، ثم اطلقت علی سائر السوائل کالمطر وأمثاله، کما اطلقت کنایة علی مختلف النعم المادیة.

[۷۵۱] (۱)« مَجَّة» من مادة« مج» علی وزن حج، وفی الاصل تعنی قذف الماء أو اللعاب من الضم بعیداً أو قریباً. ویقال‌لعصیر العنب وما یشابهه« مجاج»، علی وزن عُقاب، وأیضاً یقال للعسل« مجاج النحل».

وهنا جاء هذا الاصطلاح تعبیراً عن النصر والنجاح والموفقیة التی یحصل علیها الانسان ثم یفقدها بسرعة.

[۷۵۲] (۱) الاربعة عشر هم:

۱- معاویة ۴۰- ۶۱ ه ق

۲- یزید بن معاویة ۶۱- ۶۴

۳- معاویة بن یزید ۶۴- اربعین یوما أو شهرین

۴- مروان بن الحكم تسعة أشهر من عام ۶۵

۵- عبدالملك بن مروان ۶۵- ۸۶

۶- الوليد بن عبدالملك ۸۶- ۹۶

۷- سليمان بن عبدالملك ۹۶- ۹۹

۸- عمر بن عبدالملك ۹۹- ۱۰۱

۹- يزيد بن عبدالملك ۱۰۱- ۱۰۵

۱۰- هشام بن عبدالملك ۱۰۵- ۱۲۵

۱۱- الوليد بن يزيد ۱۲۵- ۱۲۶

۱۲- يزيد بن الوليد شهرين وعشرة أيام من عام ۱۲۶

۱۳- ابراهيم بن الوليد سبعين يوما من عام ۱۲۶

۱۴- مروان بن محمد المعروف بمروان الحمار ۱۲۶- ۱۳۲

[۷۵۳] (۲) البداية والنهاية ۸/ ۲۴.

[۷۵۴] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد ۴/ ۱۳۲- ۱۳۴.

[۷۵۵] (۲) المصدر السابق/ ۱۳۵.

[۷۵۶] (۳) المصدر السابق/ ۱۴۴.

[۷۵۷] (۴) المصدر السابق/ ۱۶۷.

[۷۵۸] (۵) البداية والنهاية ۹/ ۱۷.

[۷۵۹] (۱) البداية والنهاية ۸/ ۵۴.

[۷۶۰] (۲) تاريخ اليعقوبى ۲/ ۲۴۵.

[۷۶۱] (۳) تاريخ اليعقوبى ۲/ ۲۴۷.

[۷۶۲] (۴) تتمة المنتهى/ ۵۸.

[۷۶۳] (۵) البداية والنهاية ۸/ ۲۷۶.

[۷۶۴] (۶) تاريخ اليعقوبى ۲/ ۲۵۹.

[۷۶۵] (۷) البداية والنهاية ۲/ ۲۵۹.

[۷۶۶] (۸) تاريخ اليعقوبى ۲/ ۲۷۷.

[۷۶۷] (۱) البداية والنهاية ۹/ ۲۴۶.

[۷۶۸] (۲) تاريخ اليعقوبى ۲/ ۳۱۹.

[۷۶۹] (۳) تتمة المنتهى/ ۱۲۴- ۱۲۷.

[۷۷۰] (۴) البداية والنهاية ۱۰/ ۷.

[۷۷۱] (۵) تاريخ اليعقوبى ۲/ ۳۳۸.

[۷۷۲] (۶) تاريخ اليعقوبى ۲/ ۳۳۹.

[۷۷۳] (۷) البداية والنهاية ۱۰/ ۳۲.

[۷۷۴] (۱) سند الخطبة: نقل هذه الخطبة بفارق قليل المرحوم الكلينى فى كتاب روضة الكافى والشيخ المفيد فى الإرشاد، كما نقلها

ابن كثير فى كتاب النهاية فى ۱/ ۴۶ عن كتاب اللغة مادة« أزل».

[۷۷۵] (۱)« يقصم» من مادة« قصم» على وزن غضب تعنى فى الأصل الكسر بشدة وتستعمل كناية بمعنى الهلاك.

[۷۷۶] (۲)« يجبر» من مادة« جبر» تعنى فى الأصل إصلاح الشئ، وجبر العظم طيبه بعد الكسر حتى يعود صحيحاً، كما تطلق على كل قهر وغلبة ولما كان القهر والغلبة ممزوج بالظلم عادة فقد يستعمل الجبار بمعنى الظالم، وأحد أسماء اللَّه الحسنى جابر العظم الكسير.

[۷۷۷] (۳)« الأزل» بفتح الهمزة وسكون الزاى الضيق والشدة ومادتها الأصلية أزل على وزن فضل بمعنى الحبس.

[۷۷۸] (۱)« عتب» على وزن حتم تعنى الامتعاظ الباطنى اريد به هنا عتب الزمان، وعتب عليه إذا وجد عليه.

[۷۷۹] (۲) سورة الأحزاب/ ۱۰- ۱۱.

[۷۸۰] (۳) سورة الأعراف/ ۱۲۹.

[۷۸۱] (۱) نهج‌البلاغة، الرسالة ۴۷.

[۷۸۲] (۲) بحارالأنوار ۱۳/ ۱۲۹.

[۷۸۳] (۳) سورة آل‌عمران/ ۱۷۸.

[۷۸۴] (۱)« يعفون» من مادة« عفاف» على وزن ثواب، وفى الاصل تأتى بمعنى الامتناع عن الاعمال الشائنة والقبيحة، ويقال للشخص الذى يجتنب الاعمال القبيحة« العفيف»، وقد جرى العرف على اطلاق هذا الاصطلاح على الذين يجتنبون القيام بالاعمال الجنسية الغير شرعية.

[۷۸۵] (۱) راجع ذيل الخطبة ۳۸ فى المجلد الثانى من هذا الشرح بخصوص الشبهة ومعناها وتأثيرها فى تحريف‌الحقائق.(۲/ ۴۰۵)

[۷۸۶] (۱) سورة العنكبوت/ ۴۱.

[۷۸۷] (۱) سورة الكهف/ ۱۰۳- ۱۰۴.

[۷۸۸] (۱) سند الخطبة: ورود هذه الخطبة أو بعضها فى كلمات جمع من العلماء ممن عاشوا قبل السيد الرضى(ره)، فقد جاءت فى تفسير على بن إبراهيم الذى عاش لقرن قبل السيد الرضى، ورواها الكلينى فى أصول الكافى(۱/ ۶۰)، وقد ذكر ابن أبى‌الحديد فى شرحه اختلاف الروايات فى بعض ألفاظ الخطبة مما يدل على أنّها نقلت فى مصادر اخرى غير نهج‌البلاغة(مصادر نهج‌البلاغة ۲/ ۱۳۸).

[۷۸۹] (۱)« فترة» تعنى فى الأصل الهدوء والسكنية، كما تعنى الضعف، كما تطلق على الزمان بين حركتين أوحدثين، ومن هنا يصطلح بالفترة على الزمان الفاصل بين ظهور الأنبياء.

[۷۹۰] (۲) ذكر البعض أن الفترة بين ولادة السيد المسيح عليه السلام هجرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله استغرقت ۶۲۱ سنة و ۱۹۵ يوماً(تفسير ابوالفتوح الرازى ۴/ ۱۵۴، هوامش المرحوم العلّامة العشرانى) كما قيل أنّ النبى صلى الله عليه و آله ولد عام ۵۷۰ م وبعث عام ۶۱۰ م(بينات خالدة ۱/ ۱۲۱).

[۷۹۱] (۱)« هجعة» من مادة« هجوع» نوم الليل شبه به وضع الأقوام الجاهلية بالنسبة للهداية لعمقه.

[۷۹۲] (۲)« اعتزام» من مادة« عزم» العزم والقرار وهو هنا فاعل فتنة.

[۷۹۳] (۳)« تلظ» من مادة« لظى بمعنى لهب النار، و« تلظى» بمعنى النار المشتعلة.

[۷۹۴] (۴)« كاسفة» من مادة« كسوف(» ومنه الكسوف والخسوف الذى تتعرض له الشمس والقمر) وهى هنا كناية‌عن إنطفاء أنوار الهداية فى العصر الجاهلى.

[۷۹۵] (۱)« إياس» على وزن قياس عدم الأصل.

[۷۹۶] (۲)« اغورار» من مادة« غور» الغوص فى الأرض، وعادة ما يطلق على الماء داخل الأرض وهو هنا كناية عن انقطاع الهداية.

[۷۹۷] (۳) سورة الاسراء/ ۳۱.

[۷۹۸] (۴)« درست» من مادة« دروس» زوال الاثار وانعدامها.

[۷۹۹] (۵)« متجهمة» من مادة« جهم» على وزن فهم العنف والغلظة، ويقال متجهم لمن يستقبل الآخرين وينظر إليهمبوجه كريه.

[۸۰۰] (۶)« عابسة» من مادة« عبوس» على وزن مجوس كناية عن الاسى الشديد للناس فى العصر الجاهلى.

[۸۰۱] (۷)« جيفة» من مادة« جوف»، وتطلق عادة على الميت الذى يفسد جوفه فتهب منه ريح نتنة.

[۸۰۲] (۱) سورة المائدة/ ۳.

[۸۰۳] (۱) سورة الاحزاب/ ۷۲.

[۸۰۴] (۲)« أحقاب» جمع« حقب» على وزن عنق قيل ثمانون سنة وقيل أكثر وقيل هو الدهر.

[۸۰۵] (۳) سورة البقرة/ ۸۰.

[۸۰۶] (۴) من الواضح أن الضمائر هنا لاينبغى أن تكون بصيغة المخاطب(كم) بل لابدّ أن تكون بصيغة الغائب(هم) لأنّها إشارة إلى من عاش فى عصر النبى صلى الله عليه و آله. ويبدو أنّ الاشتباه من النساخ، ولذلك قبله الشراح بهذا الشكل.

[۸۰۷] (۱)« جائل» من مادة« جولان»، وفى الاصل بمعنى زوال الشيء من مكانه، لذا فيقال للحيوان الذى يتحرر منمكانه الموجود فيه بحيث يستطيع أن يذهب إلى أى مكان، يقال له« جائل».

[۸۰۸] (۲)« خطام» ما جعل فى أنف البعير لينقادبه وجولان الخطام، حركته وعدم إستقراره، لأنّه غير مشدود.

[۸۰۹] (۳)« بطان» البعير حزام يجعل تحت بطنه، ومتى استرخى كان الراكب على خطر السقوط.

[۸۱۰] (۱) سند الخطبة: جاء فى مصادر نهجالبلاغة أنّه رواها على بن محمد الواسطى فى عيون الحكم والمواعظ، وورد ذيلها فى غررالحكم مما يدل عد انها نقلت من مصدر آخر غير نهجالبلاغة، ونقلها ابن أثير فى النهاية(مصادر نهجالبلاغة ۲/ ۱۴۱).

[۸۱۱] (۱)« روية» من مادة« رى» على وزن حى الفكر وإمعان النظر إذا وردت من باب التفعيل، ولما كان الإنسانيأخذ بنظر الاعتبار سوابق كل الأشياء والأعمال حين التفكير فانّ هذه المفردة تطلق كناية على الامور التى لاسابقة لها.

[۸۱۲] (۱)« ارتاج» مصدر باب إفعال من مادة« رتج» على وزن خرج بمعنى الاغلاق وإذا جاء من باب الأفعال عنىالغلق المحكم.

[۸۱۳] (۲)« داج» اسم فاعل من مادة« دجو» على وزن هجو بمعنى المظلم.

[۸۱۴] (۳)« ساج» اسم فاعل من مادة« سجو» الساكن.

[۸۱۵] (۴)« فجاج» جمع« فجع» الطريق الواسع بين جبلين.

[۸۱۶] (۵) وسائل الشيعة ۴/ ۷۲۳ ح ۷ من الباب السابع، أبواب تكبيرة الإحرام.

[۸۱۷] (۶) راجع بحارالأنوار ۵۵/ ۴۶.

[۸۱۸] (۱)« دائبان» مثنى دائب» من مادة« دأب» و« دؤوب» على وزن قلب وقلوب بمعنى الاستمرار على عمل معينوفق عادة وسنة ثابتة.

وعلى هذا الاساس، يطلق على الشخص أو الشيء الذى يقوم بعمل أو برنامج معين بصورة مستمرة ودائمة وعلى حالة وسنة معينة بالدائب.

[۸۱۹] (۲) سورة نوح/ ۱۹- ۲۰.

[۸۲۰] (۳) سورة النبأ/ ۶.

[۸۲۱] (۴) سورة ابراهيم/ ۳۳.

[۸۲۲] (۱) نهجالبلاغة، الرسالة ۳۱.

[۸۲۳] (۱) سورة یس/ ۱۲.

[۸۲۴] (۲) سورة غافر/ ۱۹.

[۸۲۵] (۳) سورة هود/ ۶.

[۸۲۶] (۱)« عاز» من مادهٔ« معازه» اصلها عزهٔ بمعنی الغلبهٔ والعزیز من یغلب أعدائه، وقد ارید بها هنا من رام مشارکهٔاللّه فی شئ من عزته.

[۸۲۷] (۲)« دمر» من مادهٔ« تدمیر» واصلها الدمار بمعنی الهلاک.

[۸۲۸] (۳)« شاق» من مادهٔ« مشاقهٔ» العداء والمراد بها هنا المنازعهٔ.

[۸۲۹] (۴)« ناوأه» خالفه من« نوء» علی وزن نوع وتعنی القیام مع المشقهٔ وارید بها هنا من یقف بوجه الارادهٔ الإلهیهٔ فتذله.

[۸۳۰] (۱) سورة النازعات/ ۲۴- ۲۵.

[۸۳۱] (۲) سورة الطلاق/ ۳.

[۸۳۲] (۳) سورة البقرة/ ۲۴۵.

[۸۳۳] (۴) سورة إبراهیم/ ۷.

[۸۳۴] (۱) شرح نهج‌البلاغة لابن أبی‌الحدید ۶/ ۳۹۶.

[۸۳۵] (۲) سورة الاعراف/ ۸.

[۸۳۶] (۳) سورة غافر/ ۲۷.

[۸۳۷] (۱)« خناق» علی وزن نفاق بمعنی العنق، ویقال للحبل أو ما یشابههٔ والذی یُشد علی العنق من أجل خنق‌الشیء« الخَنَّاق».

[۸۳۸] (۲) سورة المنافقون/ ۱۰.

[۸۳۹] (۳)« سیاق» من مادهٔ« سوق» إشارهٔ إلی الموت الذی یسوق الإنسان من هذه الدنیا إلی الآخرة.

[۸۴۰] (۴) سورة المؤمنون/ ۹۹- ۱۰۰.

[۸۴۱] (۱) میزان الحکمة ۱/ ح ۳۸۴۵(مادة حساب).

[۸۴۲] (۲) المصدر السابق، ح ۳۸۴۱.

[۸۴۳] (۳) بحارالأنوار ۷۴/ ۸۶.

[الجزء الرابع

الخطبهٔ[1] الحادیهٔ و التسعون

اشارهٔ

ومن خطبهٔ له علیه السلام

تعرف بخطبهٔ الأشباح وهی من جلائل خطبه علیه السلام

روی عن مسعدهٔ بن صدقهٔ عن الصادق، جعفر بن محمد علیه السلام أنّه قال: خطب أمیرالمؤمنین علیه السلام بهذه الخطبهٔ علی منبر الکوفهٔ، وذلک أنّ رجلًا أتاه فقال له: یا أمیرالمؤمنین صف لنا ربّنا مثلما نراه عیاناً لنزداد له حبّاً وبه معرفهٔ، فغضب ونادی الصلاهٔ جامعهٔ، فاجتمع الناس حتی غص المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغیر اللون، فحمداللّه وأثنی علیه وصلی علی النبی صلی الله علیه و آله ثم قال ...

نظرة إلى الخطبة

هذه من الخطب القيمة التى تفيض رقة وفصاحة وبلاغة وعذوبة، وهى شهادة اخرى على

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۶

عظمة أمير المؤمنين على عليه السلام وإرتباطه بالعالم القدسى وانفتاحه على خزائن العلم الإلهى.

قال ابن أبى الحديد فى تعليقه على هذه الخطبة

: «إذا جاء هذا الكلام الربانىّ، واللفظ القدسى، بطلت فصاحة العرب، وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه، نسبة التراب إلى النضار الخالص؛ ولو فرضنا أنّ العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة، أو المقاربة لهذه الألفاظ، من أين لهم المادة التى عبرت هذه الألفاظ عنها؟ ومن أين تعرف الجاهلية بل الصحابة المعاصرون لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله هذه المعانى الغامضة السمائية؛ ليتهيأ لها التعبير عنها أمّا الجاهلية فانّهم إنّما كانت تظهر فصاحتهم فى صفة بعير أو فرس أو حمار وحش، أو ثورة فلاة، أو صفة جبال أو فلوات؛ ونحو ذلك. وأمّا الصحابة فالمذكورون منهم بفصاحة إنّما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة، إمّا فى موعظة تتضمن ذكر الموت أو ذم الدنيا، أو ما يتعلق بحرب وقتال؛ من ترغيب أو ترهيب ...».

ثم أضاف ابن أبى الحديد بعد أن أشاد بالخطبة قائلًا

: «وأقسم أنّ هذا الكلام إذا تأمله اللبيب اقشعر جلده، ورجف قلبه، واستشعر عظمة اللَّه العظيم فى روعه وخلده، وهام نحوه وغلب الوجد عليه وكاد أن يخرج من مسكه شوقاً؛ وأن يفارق هيكله صبابة ووجداً»[۲].

على كل حال فانّ هذه الخطبة تشتمل على عدّة أقسام، يكمل كل واحد منها الآخر. وهى على عشرة أقسام:

القسم الأول: فى جانب من صفات اللَّه سبحانه وتعالى من أجل إعداد الأفكار لتقبل ما يرد عليها من حقائق.

القسم الثانى: يتضمن إجابة عن سؤال السائل عن صفات اللَّه و يجعل القرآن ميزانا فى دائرة أسماء اللَّه و صفاته، و يوصيه بالتمسك بآياته سيّما فى هذا البحث.

القسم الثالث: الإشارة إلى عجز الإنسان عن الاحاطة العلمية بكنه الذات و الصفات

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۷

الإلهية المقدسة وما تنطوى عليه من صفات.

القسم الرابع: بحث القدرة الإلهية فى تدبير عالم الخلقة- الذى يمثل المرآة التى تعكس صفاته سبحانه-.

القسم الخامس: الحديث عن خلق السموات العلى والتى تمثل جانباً من عظمة البارئ سبحانه.

القسم السادس: الحديث عن خلق الملائكة وصفاتهم وخصائصهم.

القسم السابع: لفت انتباه الناس إلى العالم العلوى؛ إلى جانب الحديث عن خلق الأرض.

القسم الثامن: خلق آدم عليه السلام وبعث الأنبياء وارسال الرسل.

القسم التاسع: يتحدث عن علم اللَّه سبحانه بالغيب واحاطته بكافة أسرار وجود الإنسان وخفاياه و ما يضمره من أعمال و أفكار ونيات.

والقسم العاشر: والأخير حيث يختتم الإمام عليه السلام خطبتة العميقة المضامين بأدعيه روحية عظيمة، لتشكل الخطبة بكافة أقسامها لوحة روحية سامية تلطف روح الإنسان وتأخذ بيده إلى السير نحو اللَّه واصلاح فكره وأعماله ۳].

وأمّا سبب تسمية هذه الخطبة بالاشباح فهناك اختلاف بين الشرّاح بهذا الخصوص. فقد ذهب البعض إلى أنّ

«الاشباح»

كناية عن الملائكة، حيث تضمنت الخطبة جانباً مهما فى الحديث عنها ومن هنا سميت هذه الخطبة بالأشباح.

كما رأى البعض الآخر أنّ مفردة الأشباح ذكرت فى‌الخطبة، وحيث اعتاد السيد الرضى (ره) على اختيار قطوف من الخطبة، فقد اسقط تلك العبارة والتى احتمل البعض أنّها وردت بهذا الشكل فى‌الخطبة

«وكيف يوصف بالأشباح وينعت بالألسن الفصاح».

وهى العبارة التى أوردها المرحوم الشيخ الصدوق فى‌كتاب التوحيد ضمن خطبة قسما من خطبة الاشباح ۴].

الاحتمال الآخر فى سبب هذه التسمية هو أنّ الخطبة طويلة، وأحد معانى الشبح هو الطول

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۸

والامتداد. حيث أورد ابن فارس فى مقاييس اللغة فى تفسير

«الشبح»

قائلًا:

«أصل صحيح يدل على إمتداد الشى فى عرض، من ذلك الشبح»

وهو الشخص سمى بذلك، لأنّه فيه إمتداد أو عرضاً[۵].

وهنا يبرز هذا السؤال: ورد فى مقدمة الخطبة أنّ رجلًا سأل أميرالمؤمنين عليه السلام صف لنا ربّنا مثلما نراه عياناً لنزداد له حبّاً وبه معرفة. فغضب ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر وخطب بهذه الخطبة. والسؤال مم كان غضب الإمام عليه السلام؟

يبدو أنّ هناك بعض النقاط التى ينبغى الالتفات إليها لتتضح الإجابة على هذا السؤال ومنها: صيغة السؤال تفيد أنّ السائل كان يتوقع للَّه صفات على غرار صفات مخلوقاته، حيث عبر عن ذلك بالرؤية

«مثلما نراه عيانا»

؛ الأمر الذى يكشف عن عقيدة المجسمة الذين كانوا يرون اللَّه جسماً.

أمّا النقطة الثانية فلعل غضبة عليه السلام كان لهذا السبب وهو: لم لايزال بعض المسلمين لا يملكون الرؤية الواضحة عن صفات اللَّه سبحانه رغم تقادم الزمان على انبثاق الدعوة الإسلامية وسعة المعارف والعلوم والخزين الدينى.

أو تأسفاً على تلك الحادثة التى أقصت الإمام عليه السلام عن الساحة وجعلته رهين الدار مدة خمس وعشرين سنة ليحول دونه ودون تعليم أبناء الامّة الإسلامية وتعريفهم بالمفاهيم الإسلامية الحقة والمعارف الدينية.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۹

القسم الأول: جوده لا ينضب

اشارة

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لا يَفِرُهُ الْمَنْعُ وَالْجُمُودُ وَلا يُكْدِيهِ الْإِعْطاءُ وَالْجُودُ إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِواهُ وَكُلُّ مانِعٍ مَذْمُومٌ ما خَلاهُ وَهُوَ الْمَنَّانُ بِفَوائِدِ النِّعَمِ وَعَوائِدِ الْمَزِيدِ وَالْقِسَمِ عِيالُهُ الْخَلائِقُ ضَمِنَ أَرْزاقَهُمْ وَقَدَّرَ أَقْواتَهُمْ وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ وَالطَّالِبِينَ ما لَدَيْهِ وَلَيْسَ بِما سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِما لَمْ يُسْأَلْ الْأَوَّلُ الَّذِى لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْ‌ءٌ قَبْلَهُ وَالْآخِرُ الَّذِى لَيْسَ لهُ بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْ‌ءٌ بَعْدَهُ وَالرَّادِعُ أَناسِيَّ الْأَبْصارِ عَنْ أَنْ تَنالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ ما اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الْحالُ وَلا كانَ فِى مَكانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الِانْتِقالُ وَلَوْ وَهَبَ ما تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعادِنُ الْجِبالِ وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدافُ الْبِحارِ مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ وَالْعِقْيانِ وَنُثارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجانِ ما أَثَّرَ ذَلِكَ فِى جُودِهِ وَلا أَنْفَدَ سَعَةَ ما عِنْدَهُ وَلَكانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخائِرِ الْأَنْعامِ ما لا تُنْفِدُهُ مَطالِبُ الْأَنام لِأَنَّهُ الْجَوادُ الَّذِى لا يَغِيضُهُ سُؤالُ السَّائِلِينَ وَلا يُبْخِلُهُ إِلْحاحُ الْمُلِحِّينَ».

الشرح والتفسير

أنّ الدافع إيراد من هذه الخطبة كما وردفى مقدمتها هو أنّ شخصاً سأل الإمام عليه السلام قائلًا:

صف لنا ربّنا مثلما نراه عياناً؛ الكلام الذى تشم منه رائحة القول بالتجسم على اللّه، أو على الأقل الاشتمال على صفات الممكنات. فغضب الإمام عليه السلام غضباً شديدا و تغير وجهه وأورد هذه الكلمات من أجل تهذيب هذه العقائد الفاسدة والأفكار المنحرفة وهدايتها إلى الصراط المستقيم من خلال استعراض صفاته الحقه سبحانه ولذالك فقد استهل عليه السلام الخطبة بأدق

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۰

صفاته سبحانه التى تشير إلى مباينتها لصفات كافة مخلوقاته. فقد قال عليه السلام بادئ ذى بدء:

«الحمداللّه الذى لا يفره ۶] المنع والجمود، ولا يكديه ۷] الاعطاء والجود».

ثم خاض عليه السلام فى الدليل على ذلك قائلًا:

«إذ كل معط منتقص سواه، وكل مانع مذموم ما خلاه».

نعلم جميعاً أنّ أحد الأركان الأصلية لمعرفة صفات اللّه سبحانه وتعالى يكمن فى الاعتقاد بأنّه وجود مطلق من جميع الجهات وليست هناك من حدود لذاته المقدسة وصفاته. فمن الطبيعى أنّ اللامحدود يبقى كذلك مهما أخذ منه؛ أى ليس للنقصان والقلة من سبيل إليه. وعلى هذا الضوء فلو وهب كل إنسان عالماً من المادة، لما نفدت خزائن نعمه. ولهذا أيضاً إذا منع أحد شيئاً فلا يذم عليه. لتعذر تصور البخل على الذات المطلقة. فليس هنالك من سبيل سوى إسناد المنع إلى الحكمة والمصلحة. بعبارة اخرى فانّ عطائه ومنعه يتوقف على الاستعداد والاستحقاق والأهلية، وعليه ينقطع كل كلام ويخرس كل لسان عن الخوض فى هذا الموضوع. جاء فى الحديث القدسى:

«يا عبادى لو أنّ أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد، فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك ممّا عندى شيئاً إلّاكما ينقص المخيط إذا دخل البحر»[۸]

، فمن الطبيعى أن لا يعلق شى من الماء بالابرة إذا ما القيت فيه سوى بمقدار الرطوبة العالقة بها. وهذا أروع مثال لأدنى نقص يطيل أعظم مصدر ومنبع للماء. فالمثال صورة واضحة لعدم تناهى الخزائن الإلهية التى لا تزيدها كثرة العطاء إلّازيادة. كما ورد فى حديث قدسى آخر:

«إن من عبادى من لا يصلحه إلّاالفاقة، ولو أغنيته لأفسده ذلك»[۹]

، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه عن سائر صفاته سبحانه ذات الصلة بجوده وكرمه وعطائه فقال:

«وهو المنان بفوائد النعم، وعوائد المزيد والقسم»

فالالتفات إلى النعم الإلهية على أساس أنّ وجدان الإنسان يوجب عليه شكر هذه النعم ويشده إلى الحق سبحانه، نرى الإمام عليه السلام يطرق بادىء الأمر هذا المعنى ليعد القلوب لما سيرد عليها من حقائق. والتعبير

«منان»

من مادة من بمعنى كثير العطاء. أمّا فوائد النعم فتنطوى على مفهوم واسع يشمل كافة النعم المادية

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۱

والمعنوية. وأمّا الفارق بين هذه العبارة وقوله:

«عوائد المزيد والقسم»

فقد وردت بشأنه عدّة احتمالات: الأول: أنّ العبارة الاولى إشارة إلى ضروريات الحياة، والثانية إلى الرفاه والدعة وما يدعو إلى الاستقرار واللذة والراحة؛ أى كماليات الحياة. والاحتمال الثانى: أن يكون المراد بالعبارة الاولى النعم الفردية، والعبارة الثانية:

«بالنظر إلى مفردة القسم من مادة قسمة»

المنافع والنعم الاجتماعية. والاحتمال الثالث: أن يكون المقصود بفوائد النعم الأرزاق التى تشمل الإنسان من قبيل الماء والهواء ونور الشمس وضياء القمر وبالتالى مايصله من رزق دون سعى وجهد، والعبارة:

«عوائد المزيد والقسم»

ناظرة إلى الارزاق التى يحصل عليها الإنسان بفعل جده واجتهاده وسعيه ونشاطه وإدارته الصحيحة لشؤون حياته. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بهذا الخصوص فقال:

«عياله الخلائق، ضمن أرزاقهم، وقدر أقواتهم»

فالتعبير بعيال تشير من جانب إلى محبّة اللّه ولطفه بعباده، كما أنّها مقدمة لبيان ضمان أرزاقهم من جانب آخر، وذلك لأنّ كل فرد يشعر بعظم مسؤوليته إزاء عياله وأهل بيته. فلا يمكن على اللّه أنّ يخلق عبداً دون أن يتكفل برزقه. وأمّا ما نراه من جوع فى عالمنا المعاصر و فيما مضى قدأدى بحياة الناس، فذلك ممّا تفرزه طبيعة الحرص والظلم التى انطوت عليها سيرة الطغاة والظلمة والاستغلال الذى يمارسونه بحق الضعفاء والفقراء ونهب أموالهم وخيراتهم.

كما لا ينبغى أن ننسى خنوع البعض وعدم السعى الجاد فى هذه الحياة والافتقار إلى الإدارة الصحيحة. وإلّا فانّ السفرة الإلهية على درجة من السعة والشمول بحيث تلبى احتياجات كافة العباد إلى يوم القيمة. ثم خاض عليه السلام فى النعم المعنوية ليكشف اللثام عن فتح باب الميسرة إلى اللّه والفوز بقربه وجواره فقال عليه السلام:

«ونهج سبيل الراغبين إليه، والطالبين ما لديه».

وهكذا أبان عليه السلام توفر كافة أسباب سعادة الناس على الصعيد المادى والمعنوى ليهديهم إلى الطريق دون أن يكون هناك من اجبار لنهج هذا السبيل أو ترك ذاك، فللإنسان بمحض إرادته أن يستثمر هذه النعم ويوظفها فى الاتجاه الصحيح. ثم اختتم كلامه بشأن هذه النعم حيث تعرض إلى صفة أخرى من صفاته قائلًا:

«وليس بما سئل باجود منه بما لم يسأل».

فالعبارة تختزن إشارة لطيفة إلى حقيقة وهى أنّ جوده وكرمه على أساس الاستحقاق والاستعداد لا على ضوء الطلب والسؤال، وإن كان الدعاء أحد أسباب نزول النعم الإلهية

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۱۲

فذلك لأنّ الداعى إذا أعد فى نفسه شرائط الدعاء إنّما يكون قد وسع دائرة استحقاقه واستعداده؛ فالدعاء الصحيح يسوق الإنسان إلى التوبة والإنابة وإصلاح الذات وذكر اللّه، وكل من هذه المعانى يسهم بقدر فى اتساع حجم الاستحقاق.

قال ابن أبى الحديد فى تفسيره للعبارة:

«وليس بما سئل بأجود ...»

فيه معنى لطيف، وذلك لأنّ هذاالمعنى ممّا يختص بالبشر:

«لأنهم يتحركون بالسؤال وتهزهم الطلبات، فيكونون بما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألهم إياه. وأمّا البارئ سبحانه فانّ جوده ليس على هذا المنهاج، لأنّ جوده عام فى جميع الأحوال»[۱۰].

أضف إلى ذلك فانّ الناس وإثر نقصهم وحاجتهم إنّما يشحون فى العطاء بما هم إليه أحوج من سائر الأشياء التى لا حاجة لهم فيها؛ الأمر الذى ليس به من سبيل إلى الذات الإلهية المطلقة المنزهة عن كل نقص وحاجة. ثم انتقل الإمام عليه السلام إلى بيان أربع صفات من صفات الذات فقال:

«الأول الذى لم يكن له قبل فيكون شى قبله، والآخر الذى ليس له بعد فيكون شى بعده».

فالمفروغ منه هو أنّ الأساس فى معرفة ذات وصفات اللّه يكمن فى كونه مطلقاً سبحانه لايعرف القيود والحدود واللامتناهى، و هو

الكمال المطلق والوجود الدائم من جميع الجهات، فهو كائن ويكون إلى أبد الأبدين.

فالأول فى عالم الممكنات يقال للشيء بالنسبة لمايليه، وفى نفس الوقت لما سبقه بعض الأشياء لأنّ البداية والنهاية فى الممكنات أمر نسبى؛ وتنفرد الذات الإلهية المطلقة بعدم وجود شى قبلها ولا بعدها. ومن البديهى على هذا الاساس أنّ أوليته وآخريته لا تعنى الأول الزمانى ولا الآخر الزمانى و ذلك لأن الزمان يأتى من حركة الموجودات حيث أن الزمان يمثل مقدار الحركة؛ فلا يطلق عليه البعدية والقبلية كما يطلق على الزمانيات؛ وإنّما لم يكن وجوده زمانياً لأنّه لا يقبل الحركة، والزمان من لواحق الحركة، وإنّما لم تطلق عليه البعدية والقبلية إذا لم يكن زمانياً؛ والحركة إمّا نحو الكمال أو النقصان. ونعلم أنّه كمال مطلق لا يشوبه أى نقص. ثم قال عليه السلام فى الصفة الثالثة:

«والرادع أناسى ١١] الأبصار عن أن تناله أو تدركه»

فلا العين

نفحات الولاية، ج۴، ص: ١٣

الظاهرة تراه لأنه ليس بجسم فلا مكان له ولا جهة، ولا العين الباطنه يسعها مشاهدة كنه ذاته.

فالمحدود يعجز عن رؤية اللامحدود. فالتعبير بالرادع لا يعنى إنّ اللَّه تعالى خلق فى الأبصار مانعاً عن إدراكه، بل كناية عن ذاته أعظم واسمى من أن ترى بالعين الظاهرة أو الباطنة. فقد قال القرآن الكريم بهذا الشأن: «لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ»[١٢] ولما سأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام رؤية اللَّه، جاء الخطاب: «انْظُرْ إِلى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمّا تَجَلّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَك تُبْتُ إِلَيْك وَأَنَا أَ وَّلُ الْمُؤْمِنِينَ»[١٣]، ثم قال عليه السلام فى الصفة الرابعة والخامسة المكملة للصفات السابقة:

«ما اختلف عليه الدهر فيختلف منه الحال، ولا كان فى مكان فيجوز عليه الانتقال»

فالواقع هو أنّ هاتين الصفتين إنّما تشيران إلى نفى الزمان والمكان وعوارضهما عن الذات الإلهية المقدسة؛ الذات المطلقة التى تأبى الحركة، ومن هنا لم تخضع لسيطرة الزمان، ولذلك أيضاً لم يكن للحالات المختلفة والحركة نحو الكمال أو النقصان من سبيل إلى هذه الذات. فاللَّه ليس بجسم ليحتاج إلى مكان. ليس بمحدود ليضمه موضع معين، ومن هنا انعدم تصور المكان عليه سبحانه. ثم عاد الإمام عليه السلام ثانية إلى وصف جوده وعطائه سبحانه ليحدث عن سعة نعمه استثاره لحس الشكر والحمد لدى العباد والأمل بهذه الذات إلى جانب الإرشاد للمعرفة بصفات الجلال والجمال فقال عليه السلام:

«ولو وهب ماتنفست عنه معادن الجبال، وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين ١۴] والعقيان ١۵] ونثارة[١۶] الدر، وحصيد المرجان، ما أثر ذلك

فى جوده، ولا انفد سعة ما عنده، ولكان عنده من ذخائر الانعام، مالا تنفده مطالب الأنام، لأنّه الجواد الذى لا يغيضه ١٧] سؤال السائلين، ولا يبخله الحاح الملحين».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ١۴

حقاً ليس هناك من تعبير أروع وأبلغ من هذا التعبير لوصف جوده وكرمه سبحانه وسعة رحمته وشمول آلائه. فلو صبت الدنيا بما فيها من كنوز ومعادن مستترة فى بطون الأرض وأوديتها وجبالها على شخص، لما كان لها تأثير قطرة فى بحر بالنسبة لعظم خزائنه وسعة بحر جوده وكرمه. كيف لا وقوله

«كن»

الذى يتبدل إلى «فيكون» يخلق ما لا نهاية من هذه الخزائن فى عالم الوجود ومن هنا أيضاً فانّ الحاح الملحين وكثرة طلبات السائلين لاتدعوه ال القبض والبخل أو الغضب والغيظ، فانما يغضب من كانت مصادر جوده محدودة ينقصها السؤال والعطاء فتشرف على

الانتهاء وعليه فاذا كانت لدينا من حاجة لابدّ من طرحها على الكريم فهو الكريم والجواد الرحيم فى عطائه وكرمه، والتعبير بالتنفس عن معادن الجبال إشارة لطيفة إلى طرحهاالمعادن من جوفها بفعل تصدعها والزلازل و التعرية التى تصيبها مع مرور الزمان و أما تعبير «ضحك» فهى إشارة إلى الشقوق التى تحدث فى فوهات الصدف ليستخرج منها اللؤلؤ. وهى على غرار الأسنان الناصعة التى تبدو كحيات اللؤلؤ حين يضحك الإنسان ذا الجمال. فاذا ما ضحكت هذه الاصداف بانشقاقها ظهرت حبات لؤلؤها وقذفتها خارجاً.

تأمّل: شمول النعم الإلهية

اشتمل هذا القسم من الخطبة على عدّة امور مهمّة بشأن سعة نعمه سبحانه وافاضتها على العبيد من معادن الفيض الازلى الجياش؛ ليثير الإمام عليه السلام بذلك أحاسيس السامعين ويوقظ ضمائرهم، فيستشعروا ضرورة الشكر بحكم بداهة العقل، وهذا ما يقودهم بالتالى إلى الانفتاح على معرفة اللَّه سبحانه والالمام بصفاته. فقد أشار فى موضع آخر إلى سؤاله عن كل ماتريد ودون سؤال غيره وذلك أنّ كثرة الجود والعطاء ليس لها أن تنقص خزائن كرمه ولو مثقال ذرة، بل أنّها لتربو على الجود والعطاء. وصرح فى موضع آخر بأنّه على درجة من الجود والكرم بحيث لايحتاج إلى السؤال كما هى طبيعة الممكنات، فحيثما كان الاستحقاق والاستعداد كان الفيض والعطاء. ولعلنا نلمس هذا المعنى فى بعض الأدعية الرجبية:

«يا من

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۵

يعطى من سأله، يا من يعطى من لم يسأله ومن لم يعرفه تحننا منه ورحمة»[۱۸]

، وقد عبر الإمام عليه السلام عن ذلك بقوله:

«وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل»

، وأخيراً ما أروع عبارته عليه السلام التى تعرضت لسعة جوده وكرمه وعدم تأثرها من قريب أو بعيد بكثرة السؤال:

«ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين والعقيان ونثارة الدر وحصيد المرجان، ما أثر ذلك فى جوده، و لا أنفذ سعة ما عنده ما لا تنفذه مطالب الأنام».

والحال ليس الإنسان كذلك مهما كان جوده وكرمه وعطائه، فمثل هذه الامور تؤثر مباشرة عليه، وليس ذلك إلّالأنّ كافة إمكاناته ومصادره محدودة، ينقصها العطاء. بينما تتصف نعمه سبحانه بالدوام وعدم التناهى والانقطاع فهى كذاته سبحانه مطلقة لاتعرف من معنى للحدود والقيود.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۷

القسم الثانى: معرفة اللَّه عن اللَّه

اشارة

«فانْظُرْ أَيُّها السَّائِلُ فَما دَلَّکَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فائْتَمَّ بِهِ وَاسْتَضِئْ بِنُورِ هِدايَتِهِ وَما كَلَّفَكَ الشَّيْطانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِى الْكِتابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ وَلا فِى سُنَّةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه و آله وَأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحانَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِى الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْناهُمْ عَنِ اقْتِحامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الْإِقْرارُ بِجُمْلَةِ ما جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ فَمَدَحَ اللَّهُ تَعالَى اعْتِرافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَناوُلِ ما لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيما لَمْ يُكَلِّفْهُمُ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً فاقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ وَلا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللَّهِ سُبْحانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا الكلام إلى قاعدة كلية مهمّة وخالدة فى فهم صفات الحق سبحانه وتعالى بحيث لو انطلق الجميع فى حركتهم الفكرية من خلالها لما بقى هناك من اختلاف بما يرتبط بصفاته سبحانه، فقال عليه السلام:

«فانظر أيّها السائل فما ذلك القرآن عليه من صفته فأنتم به، واستضىء بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه ممّا ليس فى الكتاب عليك فرضه، ولا فى سنة النبى صلى الله عليه و آله وائمة الهدى أثره؛ فكل عمله إلى اللَّه سبحانه، فان ذلك منتهى حق اللَّه عليك».

فالواقع أنّ الإمام عليه السلام قد حدد وظيفة الجميع فى ضرورة معرفة صفات اللَّه بالاستناد إلى القرآن وسنة النبى صلى الله عليه و آله وهدى أئمة العصمة عليهم السلام، والابتعاد تماماً عن الاستبداد

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۸

والتمسك بالرأى والتعويل على الأفكار الإنسانية المحدودة بهذا الخصوص، فكل هذه الامور من وساوس الشيطان ومكائده. لأنّ صفات اللَّه مطلقة كذاته ليست محدودة من جانب، ومن جانب آخر فانّ معارف الإنسان وعلومه إنّما تقتصر على المخلوقات، فاذا اتجهوا صوب صفات اللَّه خشى عليهم السقوط فى مستنقع التشبيه على غرار صفات مخلوقاته، ومن هنا فانّ أغلب من ولى ظهره لهذا الأصل الأساسى المتمثل بالرجوع إلى القرآن والوحى وكلمات المعصومين عليهم السلام بُلى بالانحراف وإجراء صفات المخلوق على الخالق، من جهة اخرى فهذا القرآن يهتف بأنديتنا صباح مساء:

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ»[۱۹]

و

«وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً»[۲۰]

فأنى للإنسان بهذا الفكر القاصر أن يطمع فى معرفة ذات اللَّه وصفاته ولا- يكتفى بمعرفته الإجمالية على ضوء نور الوحى وهدى العصمة الذى ينأى به بعيدا عن الزلل. فلا يمكن معرفة اللَّه إلّا به، وهو كما عرف نفسه وصفاته. وهنا يبرز هذا السؤال: هل صفات اللَّه توقيفية؟

يعنى لا يجوز وصفه إلّامن خلال ما ورد فى الكتاب والسنة؟

ونقول فى الإجابة على هذا السؤال نعم هذا ما عليه أغلب المحققين والعلماء الأعلام، إلى جانب ضرورة مراعاة الحيطة والحذر فى مبحث صفات اللَّه والانفتاح عليها انطلاقاً من الوحى وكلمات المعصومين عليه السلام. بعبارة اخرى فانّ السبيل إلى معرفة اللَّه وصفاته إنّما يمر عبر خط مستقيم يقع على جانبيه مطبين عظيمين؛ مطب التشبيه ومطب التعطيل.

وتوضيح ذلك: إنّ مبحث معرفة ذات اللَّه وصفاته كسائر المباحث التى اكتنفها الإفراط والتفريط. فقد شبه البعض صفات اللَّه بصفات مخلوقاته، حتى اعتبروا صفاته سبحانه زائدة على ذاته على غرار صفاتنا الزائدة على ذاتنا من قبيل العلم والقدرة وسائر الصفات، فقد كنا لانعلم يوماً ثم أصبح لنا علم، ولم نكن أقوياء ثم أصبحنا كذلك، وهكذا اعتقدوا اشتماله سبحانه على هذه الصفات المشوبة بأنواع النقص، ثم اندفعوا أكثر من ذلك ليصوروا له سائر ما لخلقه من جسم وزمان ومكان وجهة، بل ويد ورجل وشعر مجعد وأمثال ذلك.

بينما خالف البعض الآخر هذا الاتجاه تماماً حتى قال بتعطيل معرفة صفات اللَّه، فزعم أننا

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۹

لانعرف شيئاً عن صفات اللَّه ولا يسعنا ادراكها، وكل ذلك حذراً من التورط فى مستنقع التشبيه الذى هوى فيه الفريق الأول.

والحق أنّ الفريقين الأول والثانى على خطأ، فهما لم يستضيئا بنورالوحى وهدى أئمة العصمة عليهم السلام، ومن هنا غرقا فى هالة من الظلام الدامس والجهل المطلق. ولو التزما وصية أميرالمؤمنين على عليه السلام لما قالا- بالتعطيل ولا- التشبيه، ولا- قتنعا بالمعرفة

الإجماليـة- التى وردت فى العبارات القادمـة من هذه الخطبة- ولركنا إلى القرآن وكلمات المعصومين عليهم السـلام ليصونا أنفسـهما من الزلل والانحراف ولاكتفيا بما وردت عنهم عليهم السـلام من كلمات فى صـفاته سـبحانه، دون أن يحكموا عقولهم القاصـرة بهـذا المجال فليس للعقل من فعاليـة تـذكرفى هـذا الخصوص دون الاسـتناد إلى الوحى ومعادنه الواضـحة، فالحق أنّ هـذا الوادى خطير فلا ينبغى أن يقتصوه، وأنّه بحر لجى لا ينبغى لسهم أن يلجوه. فهى ظلمات بعضها فوق بعض ولا يمكن اختراقها الا بمعونة من كشفت له. جـدير بالذكر أنّ الإمام عليه السـلام عبر عما ورد فى القرآن بالفرض وسـنة المعصومين عليهم السـلام بالأثر، ولعل هذا الاختلاف فى التعبير بينها يشير إلى حقيقة وهى لزوم ووجوب التعرف على ما جاء فى القرآن فى باب صفات اللَّه سبحانه. وما وصل عن المعصومين عليهم السلام إنّما هو مبين ذلک الذى جاء فى القرآن.

ثم أشار الإمام عليه السـلام إلى نقطـة بالغـة الأهميـة وهى هدايـة الراسـخين فى العلم عن الانحراف فى معرفـة الحقائق القرآنية وذلک لتسليمهم واقرارهم بما خفى عنهم، فاذعنوا لعجزهم عن الخوض فيما غاب عن علمهم. فمدح اللَّه سبحانه هذا الاذعان والاعتراف

«واعلم ان الراسـخين فى العلم هم الـذين اغنـاهم عن اقتحام السـدد المضـروبة دون الغيوب، الاقرار بجملـة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمـدح اللَّه تعـالى اعترافهم بـالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسـمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً»،

ثم أوصى عليه السلام بالاكتفاء والقناعة بهذا المقدار دون تحكيم العقل فى الاحاطة بعظمة اللَّه؛ الأمر الذى يؤدى إلى الهلاک

«فاقتصر على ذلک، ولا تقدر عظمة اللَّه سبحانه على قدر عقلک فتكون من الهالكين».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد حذر ذلک السائل الذى سأل عن

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۰

صفات اللَّه فى أنّ صـفات اللَّه- وعلى غرار كنه ذاته- ليست ميسـرة لأىمن الناس؛ وذلک لأنّها غير محدودة، بينما محدود هو الإنسان فى وجوده وذاته وعلمه، ليس للمحـدود أن يحيط بكنه وحقيقـة الـذات والصـفات اللامحدودة. وبناءاً على ماسبق فالسبيل الوحيد فى مثل هذه الامور هو الاكتفاء بالمعرفة الإجمالية، ونعنى بذلک الوقوف على هذا الأمر من خلال آثاره سبحانه التى ملأت عالم الوجود، دون إدعاء معرفـة كنه الـذات، فنقف على علمه سـبحانه وقـدرته وسائر صـفاته على نحو الإجمال دون الاحاطة بهذا العلم والقدرة وما إلى ذلک من الصـفات، من خلال تأمل النظام العجيب والمذهل الذى يسود عالم الوجود. ولا بأس هنا بالاستعانة بهذا المثال من عالم المخلوقـات؛ فاننـا نعلم بوجود ذات وصـفات أغلب موجودات وكائنـات عـالم الخلقـة، بينمـا لانعلم كنهها وحقيقتها. كما نعلم بوجود الزمـان والمكان الـذان يجريان على حياتنا، ولكن ماحقيقـة الزمان والمكان؟ هـذا هو الموضوع الـذى عجز عن إدراكه كبارالفلاسـفة فقـدموا لهمـا عـدّة نظريـات. كلنّا نعلم بوجود الجاذبيـة و نلمس آثارهـا إلّاأنّ أحـد لا يعرف ماهى حقيقـة الجاذبيـة؟ فهل هى أمواج خاصـة؟ أم ظاهرة مجهولـة تؤثر من مسافات بعيـدة؟ وأوضـح من ذلک أننا نـدرک جميع الأشـياء بعقولنا، لكن ماحقيقة العقل؟ ليس هنـاک من إجابـة واضـحة فـالواقع هو أننا نكتفى بالمعرفـة الإجماليـة فى أغلب ظواهر عالم الممكنات دون العلم التفصـيلى بها، وعليه فليس من الغرابة أن نتعرف سـطحيا على نحو الإجمال على ذات وصـفات الحق سـبحانه واجب الوجود دون أن يكون لنا علم تفصـيل بها.

وعليه فمن الواضح أنّ الاصـرار على إدراک كنه هذه الذات والتعمق فى الصـفات امّا أن تزيد من حيرتنا وذهولنا، أو أن تقذف بنا فى متاهات الضلال ومستنقع التشبيه و تشبيه الخالق بالمخلوق؛ و هو الهلاک المعنوى الذى حذر منه الإمام عليه السلام بقوله:

«فتكون من الهالكين»

تأمّل: الراسخون فى العلم وتفسير المتشابهات

هنا يقتدح إلى الأذهان هذا السؤال: صرح الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة قائلًا:

«ان الراسخين فى العلم هم الذين اغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الاقرار بجملة ما

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۱

جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح اللَّه تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما»

ونعلم أنّ عبارته عليه السلام إشارة إلى الآية السابعة من سورة آل عمران «وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلّا اللَّهُ وَالرّاسِخُونَ فِى العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا» فتأويل الآية هو أنّ اللَّه وحده العالم بتأويل آيات القرآن المتشابهة والراسخون فى العلم يعربون عن عجزهم إزاء ذلك؛ أى أنّ جملة والراسخون إستئنافية. إلّاأنّ ما ورد فى أغلب روايات الأئمة المعصومين عليهم السلام ولعلها تربو على الثلاثين رواية أنّهم عليهم السلام قالوا:

«نحن الراسخون فى العلم»

معطوفة على اللَّه. والسؤال المطروح: كيف يمكن حل هذا التضارب بين ما ورد فى خطب نهج البلاغة وما جاء فى الروايات؟ وبعبارة اخرى: هل للراسخين فى العلم من معرفة بمتشابهات القرآن واسرار صفات الحق سبحانه وتعالى أم أنّهم استحقوا صفة الرسوخ فى العلم بسبب قناعتهم بذلك العلم الإجمالى وعدم التعمق فى ماوراء ذلك؟

هناك عدّة روايات ذهبت إلى التصريح بالمعنى الأول، ويصعب تجاهل كل هذه الروايات.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فانّ الخطبة التى نحن بصددها تؤيد المعنى الثانى، وهذا ما أصاب أغلب محققى المسائل الإسلامية والمفكرين بالحيرة والذهول. إلّاأنّ قدراً من الدقة من شأنه أن يجمع بين المعنيين وإزالة ذلك التضارب، ولا يتيسر ذلك من طريق واحد بل من طريقين:

الأول: أنّ الراسخين فى العلم مهما كانت منزلتهم وعلو مقامهم حتى الأئمة المعصومين عليهم السلام فليس لهم ذاتاً العلم بمتشابه القرآن وأسرار صفات الحق سبحانه؛ وما علمهم إلّامن ذلك التعليم الإلهى و الوحى والالهام الغيبى. وهذا ما ذكرناه مسبقاً فى بحث علم الغيب والشفاعة بشأن الآيات القرآنية النافية لعلم الغيب عن أولئك الكرام عليهم السلام والآيات المثبتة لهم علم الغيب فى أنّهم لا- يتمتعون ذاتياً بهذا العلم، وان كان لديهم من علم فبتعليم اللَّه، كما أنّهم لا يمتلكون الشفاعة ذاتاً، ولا يشفعون إلّاباذنه وإلّا لمن ارتضى له اللَّه.

الثانى: أنّ المتشابهات و أسرار المعارف الدينية المعقدة على نوعين: نوع يعلمه الراسخون فى العلم (كتفسير أغلب متشابه القرآن). أمّا النوع الثانى المرتبط بتفسير الآيات القرآنية ذات الصلة بذات اللَّه وصفاته. فالعلم التفصيلى به ليس ميسرا لأىإنسان، وكل ما يسع الإنسان

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۲

إدراكه فعلى أساس المعرفة السطحية والعلم الإجمالى الذى ورد بيانه سابقاً. بعبارة اخرى

فانّ المتشابهات على قسمين؛ قسم يعلمه المعصومين عليهم السلام والراسخون فى العلم، وآخر يتعلق بذات الباريءوصفاته لا يعلمه أحد من الناس، والروايات المذكورة ناظرة إلى القسم الأول، بينما التى نشرحها واردة فى القسم الثانى.

والنتيجة فانّ الواو فى الآية الشريفة عاطفة، ومفاد الآية هى علم اللَّه والراسخين فى العلم بتفسير المتشابهات، أمّا العبارة الواردة فى الآية: «يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا» فهى عبارة منفصلة تعالج بعض المسائل من قبيل كنه الذات والصفات أو زمان القيامة وأمثال ذلك [۲۱].

ومن هنا يتضح ما تعارف بين العلماء الأعلام من أنّ صفات اللَّه توقيفية؛ أى لا ينعت سبحانه إلّابتلك النعوت والأسماء التى وردت فى الكتاب والسنة. وإلّا لو فسح المجال أمام الأفكار البشرية لتأخذ سبيلها إلى أسماء اللَّه وصفاته، لنعتته بما لايليق بشأنه بفعل قصر هذه

الأفكار واقتصار تعاملها مع الممكنات المعروفة بالحدود. ومن هنا وردت التحذيرات التى تميط اللثام عن مدى المخاطر التى تعترض هذا السبيل لو سلك دون الاستضاءة بنور الكتاب وهدى السنة المطهرة. لذلك ردّ الإمام عليه السلام على السائل عن صفات الحق سبحانه وتعالى بالقول

«فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضئبنور هدايته، ... إلى أن يقول عليه السلام فاقتصر على ذلك، ولا تقدر عظمة اللّه سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۳

القسم الثالث: العالى على الخيال والقياس والظن والوهم

«هُوَ الْقادِرُ الَّذِى إذا ارْتَمَتِ الْأَوْهامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ وَحاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَراتِ الْوَساوِسِ أنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِى عَمِيقاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ وَتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إلَيْهِ لِتَجْرِىَ فِى كَيْفِيَّةِ صِفاتِهِ وَغَمَضَتْ مَداخِلُ الْعُقُولِ فِى حَيْثُ لا تَبْلُغُهُ الصِّفاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذاتِهِ رَدَعَها وَهِىَ تَجُوبُ مَهاوِىَ سُدَفِ الْغُيُوبِ مُتَخَلِّصَةً إلَيْهِ سُبْحانَهُ فَرَجَعَتْ إذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لا يُنالُ بِجَوْرِ الِاعْتِسافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ وَلا تَخْطُرُ بِبالِ أُولِى الرَّوِيَّاتِ خاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلالِ عِزَّتِه».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام كلامه بالتطرق إلى ما أورده سابقاً بشأن عجز العقول البشرية عن إدراك صفات اللّه سبحانه بعبارات عميقة ورصينة. كاشفاً النقاب عن حقيقة من خلال قضية شرطية- بأربع جمل شرطية معطوفة على بعضها وجزائين للشرط- وهى أنّ الإنسان مهما كان عميقاً فى تفكيره جاداً عن طريق العقل والشهود لبلوغ كنه صفات اللّه سبحانه، فانّ ذلك لن يتكلل بالنجاح ولا ينبغى أن يكتب له النجاح؛ وذلك لأنّه ذات فوق:

«ما لا يتناهى بما لا يتناهى»

، فعقول الناس قاصرة من جميع الجهات فقد قال عليه السلام

: «هو القادر الذى إذا ارتمت [۲۲]

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۴

الأوهام، لتدرك منقطع [۲۳] قدرته. وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه

فى عميقات غيوب ملكوته، وتولهت [۲۴] القلوب إليه، لتجرى فى كيفية صفاته، وغمضت

مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها وهى تجوب [۲۵] مهاوى [۲۶]

سدف [۲۷] الغيوب، متخلصة إليه سبحانه»

. فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى أربعة عوامل للبحث فى إطار السعى لمعرفة كنه الصفات؛ الأول: الأفكار العادية الملوثة، والثانى الأفكار المنزهة عن الوساوس، والثالث:

القلوب المفعمة بحب اللّه والتى تحث الخطى باتجاه الشهود، والرابع: والأخير العقول الحادة والدقيقة التى تعتمد الطرق الاستدلالية والنظرية فى تعاملها مع المسائل، ليصفها الإمام عليه السلام فى خاتمة المطاف بالعجز عن إدراك كنه ذاته وصفاته، وأنّ لتلك الذات والصفات أنوار خاطفة تسلب العقول لبها وتردع أصحاب هذا السبيل من الخوص والتقدم. فهو كما قال الشاعر:

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر كليلًاأنت حيرت ذوى اللب وبلبلت العقولا

كلما قدّم فكرى فيك شبراً، فرّ ميلًاناكصاً يخبط فى عمياء لايهدى سبيلا

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأنّ عاقبة حركة هذه العقول والقلوب والأوهام هو العجز، فلا ترى أمامها سوى الاعتراف بسذاجة

السعی وتفاهة الحركة التی ليس من شأنها الانفتاح علی ذاته وصفاته، فعقول البشر قاصرة عاجزة ليس لها إدراك ذلك بل لاتخطر عظمته وعزته علی أفكار العلماء:

«فرجعت إذ جبهت ۲۸] معترفة بأنّه لاينال بجور الاعتساف ۲۹] كنه معرفته، ولا

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۵

تخطی ببال أولی الرويات ۳۰] خاطرة من تقدير جلال عزته».

فالعبارة

«إرتمت الأوهام»

إشارة إلی سرعة حركة الأفكار العادية للناس من أجل كشف عمق وسعة صفات اللَّه.

والعبارة:

«حاول الفكر المبرأ ...»

إشارة إلی أفكار العلماء والمفكرين الذين طهروا أرواحهم من وساوس الشيطان فاصبحت أفئدتهم علی درجة من الصفاء بحيث عادت كالمرآة تعكس الحقائق. والعبارة:

«تولهت القلوب إليه ...»

اشتد عشقها حتی أصابها الوله وهو الحيرة، فهی دائبة السعی وحث الخطی لمعرفة اللَّه والانفتاح علی ذاته وصفاته والعبارة:

«وغمضت مدخل العقول ...»

إشارة إلی العقول المقتدرة التی انطوت علی أدق السبل النظريه الاستدلالية.

فالإمام عليه السلام أشار إلی أنّ الإنسان وإن حكم هذه الطرق الأربع فانّها قد تمكنه من إدراك بعض الحقائق. إلّاأنّ أی من هذه الطرق لا يمكنها إدراك كنه الذات وحقيقة الصفات. والحق أنّ هذا أروع بيان وأبلغه يصور عجز البشر عن إدراك كنه ذاته وصفاته سبحانه. طبعاً هذا ليس معلولًا لخفاء ذاته وصفاته سبحانه، بل اشتد ظهوره حتی حارت الأبصار عن الوقوف علی كنهه؛ الأمر الذی نلمسه فی تعذر رؤيتنا لقرص الشمس وهل ذاك لظلامها أم لشدة نورها وضوئها. فاذا كان هذا وضع الشمس التی تعد كوكباً ضائعاً ضمن ملايين الكواكب والمجرات، فما ظنك بذات الحق؟ وبعبارة اخری: فالإنسان كلما إقترب اكثر غرق فی بحر وهالة من النور والعظمة، لكی لا يجد من سبيل أمامه سوی الاعتراف بالعجز.

وبالطبع فهذا لا يعنی أننا نعتقد بتعطيل صفاته وذاته ونزعم أننا لا نستطيع مطلقاً التعرف علی اللَّه، بل ملأت آثار علمه وقدرته وذاته وصفاته عالم الوجود، بحيث نراه فی كل مكان ونستمع لتسبيحه وتنزيهه فی كل موضع؛ وإن كان علمنا علی نحو الإجمال لا التفصيل.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۷

القسم الرابع: الحديث عن تدبيره

«الَّذِی ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَی غَيْرِ مِثالٍ امْتَثَلَهُ وَلا مِقْدارٍ احْتَذَی عَلَيْهِ مِنْ خالِقٍ مَعْبُودٍ كانَ قَبْلَهُ وَأَرانا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ وَعَجائِبِ ما نَطَقَتْ بِهِ آثارُ حِكْمَتِهِ وَاعْتِرافِ الْحاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَی أَنْ يُقِيمَها بِمِساكِ قُوَّتِهِ ما دَلَّنا بِاضْطِرارِ قِيامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَی مَعْرِفَتِهِ فَظَهَرَتِ الْبَدائِعُ الَّتی أَحْدَثَتْها آثارُ صَنْعَتِهِ وَأَعْلامُ حِكْمَتِهِ فَصارَ كُلُّ ما خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ وَإِنْ كانَ خَلْقاً صامِتاً فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ ناطِقَةٌ وَدَلالَتُهُ عَلَی الْمُبْدِعِ قائِمَةٌ».

الشرح والتفسير

جری حديث الإمام عليه السلام سابقاً عن التحذير فی التعمق فی كنه الذات والصفات، وذلك لتعذر إدراكها علی العقل البشری مهما

كانت إمكاناته. فواصل هنا الكلام وبغية عدم تصور غلق باب معرفة اللّه فتطرق عليه السلام على نحو الإجمال إلى طرق معرفة ذاته وصفاته ليكشف عن حقيقة فحواها سمو هذه الذات وغناها المطلق عن الحدود. فهو الذى أفاض الوجود على المعدومات دون الاحتذاء بمثال سابق، أو الاستمداد من خالق آخر

«الذى ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه، من خالق معبود كان قبله».

فالعبارات إشارة إلى أزليه ذاته المقدسة سبحانه من جانب، ومن جانب آخر أنّ مخلوقاته قد وجدت دون تجربة وسابقة؛ فهو خلق جديد وتام بكل معنى الكلمة.

وتعتبر مسألة

«الابداع»

(الخلق دون تجربة) من المسائل المهمّة. حيث تتضح هذه الأهمية من خلال العلم بانّ كافة الابداعات والاختراعات البشرية إنّما تستند لما قبلها من الأمثلة فى

نفحات الولايئ، ج۴، ص: ۲۸

عالم الخليقة. فهى تقتدى أحياناً فى عملها بظاهرة من ظواهر مختلفة فى ما تقوم به من إبداع، و أحيانا أخرى بظواهر تركيبية و تلفيقية مختلفة بالضبط كالرسام الماهر الذى يعكس بريشته بعض الصور الرائعة والجميلة بالاستناد إلى من سبقه فى الرسم والتصوير. فبالطبع لولا وجود هذه الصور والأشياء لما وسع ذلك الرسام هذا الابداع والجمال. أمّا الحق سبحانه فليس كذلك فعمله الابداع دون الاقتداء بالمثال وليس ذلك لأحد سواه. وقد مرّ علينا شبيه هذا المعنى البديع فى الخطبة الاولى من نهج البلاغة بعبارته عليه السلام

«أنشأ الخلق إنشاءاً، وابتدأه إبتداءاً ...».

ثم قال عليه السلام موضحاً ما أورده أن أرانا من عجائب قدرته والآثار الحالية عن تناهى حكمته وحاجة كافة الأشياء إليه بما يدعونا تلقائيا إلى معرفته:

«وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب مانطقت به آثار حكمته، واعتراف الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمساك قوته، ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته»

بعبارة اخرى فانّ اللّه سبحانه قد أبان آثار قدرته فى عالم الوجود وهى تجرى وفقاً لنظام دقيق وقوانين معقدة تفيد أنّ الابقاء عليها يتطلب علمه وتدبيره الحكيم. فذرات الكون برمتها محتاجه إليه فى خلقها وكذلك فى ادامة حياتها واستمرارها، وهى تحكى بكافة تفاصيلها عن تناهى قدرته وحكمته. بما يجعل الإنسان يقر بضعفه وعجزه والاستضاءة بنور معرفته. ثم واصل الإمام عليه السلام قائلًا:

«فظهرت البدائع التى أحدثتها آثار صنعته وأعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجة له، ودليلًا عليه؛ إن كان خلقاً صامتاً، فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة»[۳۱]

نعم فقد غصت أرجاء العالم بعلمه وقدرته وشع نور التوحيد من جبين كافة مخلوقاته وكائناته سبحانه. كما عطر فضاء العالم بحمده وتسبيحه «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِى الآفاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَ نَّهُ الحَقُّ»[۳۲].

وهو المعنى الذى عبر عنه أبوالعتا هية حين أنشد قائلًا:[۳۳]

فيا عجبا كيف يعصى الالهأم كيف يجحده الجاحد

وفى كل شى له آيةتدل على أنه واحد

نفحات الولايئ، ج۴، ص: ۲۹

نعم فاينما وليت وجهك طالعتك آيات اللّه، وإذا أعرت أذنك أى كائن طرقت سمعك ألسنة حال التسبيح والتقديس. فما أكثر الأدلة والبراهين التى تجعلك تدرك تلك الذات المقدسة، أنّهاتمتد لتشمل عدد أوراق الأشجار وقطرات المطر والذرات وخلايا

البدن ونجوم السموات والمجرات، وبالتالى جميع ذرات وجود هذا العالم.

والعبارة

«ما دلنا باضطرار قيام الحجة»

لا- تعنى أننا نذعن على نحو الإجبار بوجوده المقدس، بل تعنى أنّ الدلائل على وجوده على درجة من الظهور بحيث لم يبق معها مجال لانكار. كمثل من أحضر إلى المحكمة وقد نصبت للشهادة عليه الأفلام والأشرطة والشهود والقرائن المختلفة، بحيث لا يسعه التنكر لاعماله وأفعاله. فيعبر هنا بانه مضطر للاقرار، فهذا لا يعنى أنّه ارغم على الاقرار من خلال ممارسة الضغوط والتعذيب، حيث أنّ المسألة على قدر من الوضوح، بحيث لا يسعه الانكار.

والعبارة:

«فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة»

إشارة إلى أنّ تدبير عالم الوجود دليل على علمه المطلق وقدرته، كما أن تنوع موجودات العالم المفعمة بالابداعات المذهلة هو الآخر دليل على قدرته المطلقة وعلمه.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۱

القسم الخامس: انت المنزه عن الشبيه والثميل

اشارة

«فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَکَ بِتَبايُنِ أَعْضاءِ خَلْقِکَ وَتَلاحُمِ حِقاقِ مَفاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِکَ لَمْ يَعْقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِکَ وَلَمْ يُباشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لا- نِدَّ لَکَ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ تاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ كَذَبَ الْعادِلُونَ بِکَ إِذْ شَبَّهُوکَ بِأَصْنامِهِمْ وَنَحَلُوکَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهامِهِمْ وَجَزَّءُوکَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّماتِ بِخَواطِرِهِمْ وَقَدَّرُوکَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى بِقَرائِحِ عُقُولِهِمْ».

الشرح والتفسير

عاد الإمام عليه السلام هنا ثانية إلى بيان صفات اللَّه سبحانه وتعالى محذراً من الاقتراب من وادى التشبيه، فلعل دلائل وجود اللَّه فى عالم الخلقة والبحث عن آثار عظمته فى كل موضع من مواضع هذا العالم توسوس للإنسان أن يعتقد ببعض الصفات للَّه على غرار صفات مخلوقاته، حتى أنّه ليسقط فى مطب التجسيم على اللَّه، ليراه جسماً كسائر مخلوقاته.

ومن هنا ابتهل الإمام عليه السلام إلى اللَّه قائلًا:

«فاشهد أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك وتلاحم ۳۴] حقاق ۳۵] مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ند لك، وكأنه لم يسمع تبرؤ التابعين من

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۲

المتبوعين إذ يقولون تاللَّه إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين».

فهذه العبارات إشارة واضحة إلى ضلال المجسمة أو المشبهة وشركهم وكفرهم، حيث جعلوا اللَّه جسماً ذا أعضاء ويد ورجل وعين واذن فهووا وافى وادى التشبيه ليروه سبحانه مخلوقاً ضعيفاً وعاجزاً فانياً، حتى عبر عنهم القرآن فى الآية الشريفة بأنّهم على ضلال مبين.

والعبارة:

«من شبهك بتباين أعضاء خلقك»

إشارة إلى من له جسم، وجسمه مركب من أعضاء مختلفة. والعبارة:

«تلاحم حقاق مفاصلهم»

إشارة إلى الإرتباط السائد بين الأعضاء وبناء على هذا فانّ أعضاء البدن منفصلة عن بعضها البعض ومنظمة مع بعضها أيضاً، وهذا من حكمة اللَّه فى خلقه المخلوقاته، بحيث لولا- اشتماله على الأعضاء المختلفة لتحددت أعمالها، كما لو كانت منفصلة تماماً لتعذر تعاضدها وتعاونها فى القيام بانشطتها وفعالياتها. كما أنّ البارئ بحكمته ولطفه قد أخفى هذا الإرتباط بين الأعضاء تحت طبقات اللحم ليصونها من مختلف الحوادث الخارجية. ولا يمكن تصور هذا الأمر إلّافى عالم الخليقة، تعالى اللَّه عن ذلك علواً كبيراً، فهو منزه عن الأجزاء والأعضاء ولايحتاج إلى الجسم.

فالإمام عليه السلام يشير إلى أنّ هؤلاء الأفراد الجهال قد إصيبوا بثلاثة انحرافات: الأول: عدم معرفتهم الحقيقية للَّه، الثانى: عدم اعتقادهم بوحدانيته، الثالث: أنّهم لم يسمعوا آيات القرآن ولم ينفتحوا على تعليمات هذا الكتاب السماوى، ومن هنا شهدوا على أنفسهم بأنّهم «فِى ضَلالٍ مُبِينٍ». أمّا يوم القيامة حين ترفع الحجب وتتضح الحقائق سرعان ما يقفون على خطأهم، فيتبرأ التابع من المتبوع ويلعن بعضهم بعضا ولا يملكون سوى الندم والخجل يوم لا ينفع الندم؛ الأمر الذى ورد بشكل صريح فى هذه الخطبة.

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام قد نسب كلامه السابق إلى الناس، ثم انتقل هنا إلى اللَّه؛ الأمر الذى ينبه إلى خطورة القضية التى حذر منها لأنّ التأمل فى الكلام يتوقف على درجة ومكانة المخاطب فكيف به إذا صدر من المشفق. ثم واصل عليه السلام الحديث عن طائفة اخرى من المنحرفين- أى المشركين والوثنيين الذين يعدون جزء من المشبهة- فقال

«كذب العادلون [٣٦] بك، إذ

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۳

شبهوك بأصنامهم، ونحلوك [٣٧] حلية المخلوقين باوهامهم، وجزأوك تجزئة المجسمات،

بخواطرهم، وقدروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح [٣٨] عقولهم»

فقد نفى الإمام عليه السلام بهذه العبارات الرصينة القاطعة- والتى بينت بأربع صور- كافة أنواع الشرك والتشبيه للَّه سبحانه بمخلوقاته، وتحذر الجميع من السقوط فى مستنقع الشرك و التشبيه، إلى جانب تعيين الحد الفاصل بين توحيد الموحدين وشرك المشركين.

فقى العبارة الاولى نفى التشبيه بالأصنام.

والعبارة الثانية صرحت ببطلان اضفاء صفات الزينة للمخلوقات على اللَّه (من قبيل وصفه من بعض الجهال بأنّه فتى جميل أمرد له شعر مجعد).

والعبارة الثالثة التى تنفى عنه التركب من الأجزاء والأعضاء من قبيل اليد والرجل. والعبارة الرابعة سذاجة الاعتقاد باتصافه بمختلف الحواس (التى لمخلوقاته) من قبيل الباصرة والسامعة والشامة وهكذا تتحطم معاقل الشرك من مختلف الجوانب.

تأمّل: من هم المجسمة؟

تطلق المجسمة (بكسر السين) على من نسب الجسمية للّهو هم الذين يقولون بأنّ له يد ورجل واذن وعين، كما يقال لهؤلاء المشبهة بكسر الباء، وذلك أنّهم يشبهون اللَّه سبحانه بمخلوقاته المادية. ويبدو أنّ مثل هذا الاعتقاد كان سائدا بين أفراد البشر منذ قديم الزمان حيث جعلهم قصر فكرهم يعجزون عن تصور ماوراء هذه الطبيعة المادية، حتى ألفوا الماديات والجسام فظنوا أنّ اللَّه سبحانه مثلهم أو كسائر الأجسام المادية. ومن هنا نشأ الاعتقاد بسائر المعبودات كالشمس والقمر والكواكب وسائر أجسام المشابهة. ويفيد تأريخ اليهود رسوخ عقيدتهم بجسمية الحق سبحانه وتعالى ومن ذلك مدى اصرارهم على نبيهم موسى عليه السلام فى أن يريهم اللَّه سبحانه جهرة

ولا تخفى علينا قصة جبل الطور والصاعقة التى

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۴

أخذت طائفة من بنى إسرائيل فبعد أن نجى بنى اسرائيل من البحر أتوا موسى عليه السلام وقد مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم فقالو لنبيهم موسى عليه السلام اجعل لنا إلها كما لأولئك، بل لم يثوبوا إلى رشدهم حتى بعد أن أخذتهم الصاعقة، ثم سارعوا لعبادة العجل الذى أخرجه لهم السامرى، حتى ضلت فيه جماعة من بنىاسرائيل. فرجع اليهم موسى عليه السلام غضبان أسفاً وآخذهم بما فعلوا.

تاريخ النصارى أيضاً يشهد بأنّ عقيدة التثليث (اللّه والابن والروح القدس) كانت شائعة بين النصارى والتى تفيد القول بالجسمية على اللّه. فهم يصرحون جهرة بأنّ المسيح عليه السلام ابن اللّه وأنّه أحد الآلهة الثلاث. والحال لم يكن المسيح عليه السلام سوى بشراً من سائر الناس.

ولما نزل القرآن الكريم على صدر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أبطل هذه العقائد الفاسدة بما فيها القول بالتجسيم والتشبيه. والشاهد على ذلك الآيات القرآنية: «لَيسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ»[۳۹] و: «لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ»[۴۰] و «لَنْ تَرانِى»[۴۱] و «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ»[۴۲] و «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ»[۴۳] و «فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ»[۴۴] التى تنفى جسمية اللّه سبحانه وتعالى إلّاأنّ المؤسف له هو أنّ بعض الأفكار الانحرافية الموروثة من الامم الوثنية واليهودية والنصرانية والمجوسية قد وردت الإسلام لتخترق عقائد بعض السذج من المسلمين الذين اصطلح عليهم بالمجسمة أو المشبهة.

ولعل بعض التعبيرات الكنائية التى وردت فى بعض الآيات القرآنية من قبيل الآية الكريمة: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»[۴۵] والآية: «الرَّحْمنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى [۴۶] قد أصبحت ذريعة لدى بعض المنحرفين من أصحاب النظرة القاصرة والأفكار الضيقة و المنحرفة ليحثوا الخطى نحو هذه المذاهب المشركة الفاسدة؛ والحال من المسلم به أنّ اليد فى الآية تعنى القوة

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۵

والقدرة واستوى بمعنى السلطة والسيطرة، لا بمعنى الجلوس والاستقرار على الشى، وبالطبع فانّ هذه الكنايات كانت سائدة لدى مختلف الأقوام قبل نزول القرآن وبعده، من قبيل قولهم، ليس له يد على هذا الأمر، وهكذا فإن مفردة الاستواء التى تستعمل بشأن استيلاء سلطان وسيطرته على بلاد.

وناهيك عما سبق فانّ الأدلة العقلية والمنطقية هى الاخرى تنفى بوضوح أية جسمية عن اللّه؛ لأنّ كل جسم محدود وله زمان ومكان واجزاء، وعليه فهو محتاج من مختلف الجهات، ونعلم أن ليس للحاجة والمحدودية من سبيل إلى ذاته المطلقة سبحانه. والأهم من كل ذلك أنّ كافة الأجسام يعتريها التغيير بل وحتى الزوال، فى حين ليس لهذا التغيير والزوال أن يدنس ساحة كبريائه وعظمته.

ورغم كل ما مرّ من أدلة واضحة، فمما يؤسف له- كما أشرنا إلى ذلك سابقاً- فانّ عقيدة الجسمية المنحطة قد طالت جمعاً من جهال المسلمين حتى أوغلوا فى الانحراف والضلال، و حسب ما نقله «المحقق الدوانى» فان البعض يعتقد بأنّه جسم مركب من لحم ودم تنبعث منه أشعة قضية شفافة وله قامة من سبعة أشبار، كما اعتقد البعض الآخر بانه على هيئة شاب أمرد له شعر مجعد حسب ما ذكره المحقق الدوانى بشأن هذه الفئات الضالة.

فقد أورد العلّامة الحلى فى كتابه منهاج الكرامة قصة عن بعض المجسمة، لا بأس أن أنقلها.

فقد حكى عن بعض المنقطعين التاركين من شيوخ الحشوية أنّه إجتاز عليه فى بعض الأيام نفاط ومعه أمرد حسن الصورة قطط الشعر على الصفات التى يصفون ربّهم بها. فألح بالنظر إليه ليلا وكرره، فتوهم منه النفاط أمراً، فجاء إليه ليلًا وقال له: رأيتك تلح بالنظر إلى هذاالغلاموقد أتيتك به، فان كان لك فيه نية فأنت الحاكم. فرد عليه وقال: إنّماكررت النظر لأنّ مذهبى: أن اللّه ينزل على صورة هذا الغلام، فتوهمت أنّه اللّه. فقال له النفاط: واللّه ما أنا عليه من النفاطة أجود ممّا أنت عليه من الزهد مع هذه المقالة.[۴۷]

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۷

القسم السادس: الممتنع على احاطة العقول

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ ساواکَ بِشَیْءٍ مِنْ خَلْقِکَ فَقَدْ عَدَلَ بِکَ وَالْعادِلُ بِکَ کافِرٌ بِما تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْکَماتُ آیاتِکَ وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَواهِدُ حُجَجِ بَیِّناتِکَ وَإِنَّکَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِی لَمْ تَتَناهَ فِی الْعُقُولِ فَتَکُونَ فِی مَهَبِّ فِکْرِها مُکَیَّفاً وَلا فِی رَوِیَّاتِ خَواطِرِها فَتَکُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً».

الشرح والتفسير

عاد الإمام عليه السلام هنا مرة اخرى إلى قضية انحراف المشركين والقائلين بالتشبيه، ليشهد عند اللَّه ثانية بانحرافهم، وما ذلک الا لسماع المخاطبين وتحذيرهم من الوقوع فی هذا المستنقع النتن.

فقد قال عليه السلام:

«وأشهد أن من ساواک بشی من خلقک فقد عدل بک، والعادل بک کافر بما تنزلت به محکمات آياتک، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتک».

يبدو أنّ هناک فارقا بين شهادة الإمام عليه السلام هنا فی انحراف المشرکين، وتلک الشهادة السابقة.

حيث وردت فی طائفتين. فالشهادة السابقة إنّما وردت بشأن الوثنيين الذين شبهوا اللَّه بالأوثان والأصنام واتخذوها أرباباً من دون اللَّه. أی کانوا يسألونها حاجاتهم ومن هنا عبدوها واتخذوها آلهة. أمّا الشهادة التی وردت هنا فهی ناظرة لُاولئک الذين سووا به بعض خلقه فی جميع الجهات، کالثنوية من الوثنيين الذين يعتقدون بوجود إلهين هما إله الخير وإله الشر، والنصاری القائلين بالتثليث (الأب والابن والروح القدس). فقد اعتبر الإمام عليه السلام هؤلاء کافرين بمحکمات القرآن والحجج البينة:

«کافر بما تنزلت به محکمات آياتک، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتک»

يمکن ان تکون العبارة

«محکمات الآيات» و «الحجج البينات»

کلاهما

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۸

إشارة إلی آيات تنفی صراحة أی نظير وشبيه للَّه، من الآية الشريفة «قُلْ أَ إِنَّکُمْ لَتَکْفُرُونَ بِالَّذِی خَلَقَ الْأَرْضَ فِی يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً»[۴۸] والآية: «فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»[۴۹].

کما يحتمل ان يکون المراد بالآيات المحکمات آيات توحيد صريح القرآن الکريم والحجج البينات الأدلة العقلية التی تنفی عن اللَّه سبحانه أی شبيه ونظير.

ويؤيد هذا الاحتمال العبارات اللاحقة:

«وأنک أنت اللَّه الذی لم تتناه فی العقول، فتکون فی مهب [۵۰] فکرها مکيفاً، ولا فی رويات خواطرها فتکون محدوداً مصرفاً».

فقد أشار الإمام عليه السلام فی العبارة الاولی إلی عدم إدراک العقول لکنه ذاته وصفاته سبحانه التی أشير إليها فی بداية الخطبة. کما أشار فی العبارة الثانية إلی عدم إحاطة الأفکار بهذه الذات المطهرة، وذلک لأنّ هذه الأفکار لو أحاطت به، لکان محدوداً بالضرورة، وما کان محدوداً طرأ عليه التغيير والزمان والمکان والجهات الاخری

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۹

القسم السابع: کلی شیء يستند إلی ارادة اللَّه

ومنها: «قَدَّرَ ما خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ وَوَجَّهَهُ لِوِجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الِانْتِهاءِ إِلَى غايَتِهِ وَلَمْ يَسْتَصْعِبْ إِذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرادَتِهِ فَكَيْفَ وَإِنَّما صَدَرَتِ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ».

الشرح والتفسير

ذكرَّ الإمام عليه السلام هنا مرّة اخرى بعالم الخليقة والتدبير الإلهى فى تنظيم شؤون الخلق وأنّ هذا التدبير والنظام إنّما يستند إلى جلال الحق وجماله، الذى خلق كل شى بمقدار واخضعه لتدبيره وهداه إلى سبيله:

«قدر ما خلق فأحكم تقديره، ودبره فألطف تدبيره، ووجه لِوجهته»

وهكذا يكون الإمام عليه السلام قد بين المراحل الثلاث

«التقدير» و «التدبير» و «التوجيه».

فالتقدير خلق الكائنات بمقدار، والتدبير إدارة شؤونها وفق الخطة والمسيرة المرسومة لها، والتوحيد تمهيد السبيل وإعداد الظروف اللازمة لهذه الحركة من أجل بلوغ الهدف وتحقيق الغاية، حيث تسير كل هذه المراحل على ضوء برنامج معين منظم غايه فى الدقة بالشكل الذى لم يدع مجالا لكائن من كان أن يسير بطريق عشوائى، لا فى انبثاق خلقه ولا فى ديمومته بحيث يشذ عن ذلك النظام والقانون. ومن هنا أشار الإمام عليه السلام إلى هذا الأمر فى أنّ أحداً من الموجودات لم يتجاوز حدوده، ولم يقصر فى بلوغ الهدف، ولم ينطلق فى حركته الاعلى أساس ارادة اللّه سبحانه وأنى له التمرد على هذه الإرادة التى تستند إليها جميع الإرادات:

«فلم يتعد حدود منزلته، ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته، ولم يستعصب إذ أمر بالمضى على إرادته، فكيف وإنّما صدرت الامور عن مشيئته؟».

فالواقع هذه العبارات تحول دون التصور بأنّه حركات كافة

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۴۰

الكائنات الأرضية والسماوية بما فيها النباتات والحيوانات والناس والكواكب واجتيازها لمراحل النحو والتكامل يجرى بصورة عشوائية. فهى تسير بوحى من أمره وإرادته على ضوء الخطة المعدة لها سلفاً ولايسعها تخطى تلك الخطة بأى حال من الاحوال. وعليه فعالم الوجود يدار بمنتهى النظام والدقة. و لعلنا نلمس الإشارة إلى المراحل الثلاث المذكورة فى الآيات القرآنية، ومن ذلك الآيات ۳۸- ۴۰ من سورة يس: «وَالشَّمْسُ تَجْرى لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذ لِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيم* وَالقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتّى عادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيم* لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَها أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

ناهيك عن سائر الآيات القرآنية التى أشارت إلى هذه الحقيقة وهنا لابدّ من الالتفات إلى أمرين: الأول هو أنّ ما ورد فى العبارات المذكورة بشأن الأوامر و تبعية المخلوقات للمشيئة الإلهية إنما هو إشارة إلى الاوامر التكوينية، أو بعبارة اخرى: إشارة إلى القوانين التى أجراها اللّه سبحانه فى عالم الوجود وسيره على أساسها، بالشكل الذى يحول دون تجاوزها لهذه القوانين. والأمر الثانى أنّ هذا الكلام لا يعنى إجبار الإنسان على أفعاله وذلك لأنّ اللّه سبحانه جعل صفة الاختيار وحرية الإرادة أحد تلك القوانين التى تسير عالم الوجود، وليس للإنسان قط أنّ يسلب نفسه هذه الصفة، وبعبارة اخرى فانّ حرية الإنسان أيضاً بأمره سبحانه وتعالى

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۴۱

القسم الثامن: سر الخلق

اشارة

«الْمُنْشِئُ أَصْنافَ الْأَشْياءِ بِلا رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْها، وَلا قَرِيحَةِ غَرِيزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْها، وَلا تَجْرِبَةٍ أَفادَها مِنْ حَوادِثِ الدُّهُورِ وَلا شَرِيكٍ أَعانَهُ

عَلَى ابْتِداعِ عَجائِبِ الْأُمُورِ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطاعَتِهِ، وَأَجابَ إِلَى دَعْوَتِهِ، لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ الْمُبْطِىِ، وَلا أَناةُ الْمُتَلَكِّي، فَأَقامَ مِنَ الْأَشْياءِ أَوَدَها، وَنَهَجَ حُدُودَها، وَلاءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضادِّها، وَوَصَلَ أَسْبابَ قَرائِنِها، وَفَرَّقَها أَجْناساً مُخْتَلِفاتٍ فِي الْحُدُودِ وَالْأَقْدارِ، وَالْغَرائِزِ وَالْهَيْئاتِ، بَدايا خَلائِقَ أَحْكَمَ صُنْعَها وَفَطَرَها عَلَى ما أَرادَ وَابْتَدَعَها!».

الشرح والتفسیر

خاض الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة فی کیفیة خلق الموجودات علی أنّ اللَّه سبحانه وتعالی خلقها من دون حاجة إلی التفکیر، أو غریزة مستترة فی الباطن، إلی جانب الغنی عن تجارب الماضی وسالف الدهور، وبالتالی دون الحاجة إلی عضید وشریک «المنشی أصناف الأشیاء بلا رویة فکر آل إلیها، ولا قریحة[۵۱] غریزة أضمر علیها، ولا تجربة أفادها من

حوادث الدهور، ولا شریک أعانه علی ابتداع عجائب الأمور».

فالواقع هو أنّ أُسس علمنا ومعرفتنا بالحقائق إنّما تستند إلی أحد أربع: الفکر والتروی، أو الالهام الباطنی الذی یصطلح علیه بالغریزة، أوالتجربة التی یحصل علیها الإنسان من

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۴۲

خلال تکرار الحوادث، و أخیرا العون الذی یحصل علیه من الاستعانة الخارجیة لأصحاب الفکر الذین یعینونه فی القیام ببعض الأعمال والابداعات. وبالطبع فانّ الحق سبحانه وتعالی لیس بحاجة لأیمن هذه الاسس والمصادر فهو العالم بکل الأشیاء، وهی حاضرة عنده، ولیس هنالک من حقیقة خارجة عن دائرة علمه المطلق. فالفکر إنّما یستفیده من کان له معلومات ومجهولات، یروم توظیف معلوماته لکشف أسرار هذه المجهولات. والالهام الغریزی إنّما یعتمده من غابت عنه الحقائق ولاتتضح له إلّامن خلال هذا الالهام. وأمّا التجربة وتکرار العمل للوقوف علی النتائج فانما ترتبط بمن یجهل نتائج الامور وأخیراً فان الاستعانة بافکار الآخرین إنّما یختص بضعف الأفراد وعجزهم إلی جانب قصور فکرهم؛ فما حاجة الذات المطلقة لمثل هذه الامور وهی بتلک الخصائص والصفات؟

وبغض النظر عما سبق فانّ العبارات بدورها ترشد الإنسان الجاهل إلی الظفر بمصادر المعرفة، وأنّ هذه المصادر الأربعة تمکننا من حل المشاکل التی تواجهنا فی حیاتنا الیومیة. ثم أشار الإمام علیه السلام إلی نقطة اخری بهذا الشأن وهی قطعیة حاکمیة قوانین الخلق علی کافة الکائنات:

«فتم خلقه بأمره وأذعن لطاعته، وأجاب إلی دعوته، لم یعترض دونه ریث [۵۲]

المبطئ، ولا أناة[۵۳] المتلکی»[۵۴].

فهذا الموضوع إشارة أیضاً إلی قدرة اللَّه ونظامه الرصین فی عالم الخلق، حیث تسیر کافة هذه الموجودات علی ضوء قوانین معینة وهی مؤتمرة بأمره، فهی لا تتخلف عن هذه القوانین ولا تتقدم علیها. فقد صرح القرآن الکریم بهذا الخصوص قائلًا: «ثُمَّ اسْتَوی إِلَی السَّماءِ وَ هِیَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِیا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً قالَتا أَتَیْنا طائِعِینَ»[۵۵].

أضف إلی ذلک فهی تشتمل علی رسالة واضحة لکافة الناس فی الانسجام وعالم الخلق وتبعیة هذه القوانین الإلهیة، دون التقدم علیها أو التخلف عنها، بهدف بلوغ الغایة والظفر بالفلاح والسعادة.

ثم اختتم علیه السلام کلامه بالاشارة إلی خمسة امور جدیرة بالتأمل بشأن نظام الخلق وأسرار عالم

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۴۳

الخلقة، الأول: استواء هذه الموجودات دون أی اعوجاج او انحراف:

«فأقام من الأشیاء أودها»[۵۶]

الثانی: أنّه عین لها المسار الذی ینبغی لها أن تسلکه

«ونهج حدودها».

الثالث: تأليفه بين الأشياء المتضادة بقدرته

«ولاءم يقدرته بين متضادها»

. الرابع: ربطها مع نظائرهأ

«ووصل أسباب قرائنها».

والخامس: تقسيمها إلى أنواع مختلفة على أساس الحدود والأجناس والمقادير والغرائز والاشكال والهيئات

«وفرقها أجناسا مختلفات فى الحدود والأقدار والغرائز والهيئات»

وهكذا تمّ نظام الخلق وتكامل من جميع الجهات ليقوم بوظائفه على اختلاف أنواعه وأجناسه كوحدة واحدة ضمن قانون واحد. وأبعد من ذلك تعاضدت وتعاونت حتى الأشياء المتضادة لتفرز نتائج باهرة، كما إتصلت الأشباه والنظائر، لتشكل بالتالى مجموعة بديعة عجيبة تشير إلى مدى قدرته المطلقة سبحانه وعلمه التام.

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالقرائن فى العبارة هى نفوس البشر التى أقرها اللَّه فى الأبدان، حيث يبدو فى الظاهر أنّ هناك تضاد بين البدن الذى ينتمى إلى عالم المادة والنفس التى تنتمى إلى عالم المجردات.

طبعاً وان كان أحد معانى القرينه (وجمعها قرائن) فى اللغة هو النفس الإنسانية إلّاأننا لا نمتلك الدليل الذى يجعلنا نصرف المعنى المذكور ليقتصر على هذه النفس: بل الهدف هو بيان جمع الأضداد ووصل القرائن والأشباه فى جميع أنحاء عالم الوجود والذى يعد الوجود الإنسانى أحد مصاديقه، وأنّ أصل إطلاق القرينة على نفس الإنسان إنّما يعزى لاقترانها ببدنه.

ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول على أساس الخلوص إلى نتيجة واضحة:

«بدايا خلائق أحكم صنعها، وفطرها على ما أراد وابتدعها»[۵۷].

تأمّل: أوضح طريق إلى معرفة اللَّه

يعتبر تأكيد الإمام عليه السلام على التفكير فى عالم الخلق والتأمل فى خلق المخلوقات دون

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۴۴

الاستغراق فى ذات اللَّه، من الاصول الأساسية فى الأبحاث ذات الصلة بمعرفة اللَّه. وذلك لأنّ الأول يقود الإنسان إلى الإيمان والتوحيد؛ التوحيد المفعم بالعشق والحب والاخلاص، بينما يسوقه الثانى إلى الشرك والتشبيه. أمّا سائر الأدلة والبراهين فى معرفة اللَّه من قبيل برهان الوجوب والإمكان والغنى والفقر التى تدور حول محور الدور والتسلسل، فهى دلائل جافة توصل إلى المعرفة إلّاأنّها لا تختزن أى حب أو عشق وإخلاص. والحال لم يقم نظام الخلق سوى على هذه المفردات. فقد جاء فى الحديث القدسى:

«كنت كنزاً مخفياً فأجببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكى أعرف»

. فاذا فكرنا بعظمة السموات والكواكب التى تربو على الملايين فى مجرتنا فقط والحال يقول العلماء بوجود ملياردات المجرات فى هذا العالم. وإذا أمعنا النظر فى العالم المذهل لخلايا جسم الإنسان والذى تمتاز كل خلية فيه بان بنيتها قد تنطوى عليه مدينة صناعية من الخفايا والأسرار. وعندما نتامل التنوع العجيب للنباتات والحيوانات، وأنّ هناك الملايين من أنواع النباتات والحيوانات التى تعيش فى أعماق الغابات والبحار والتى لم يراها أو يتوصل اليها الإنسان لحد الآن، ونقر بأنّ هذه الموجودات العجيبة إنّما تستمد حياتها من موجودين بسيطين هما الماء والتراب. وأخيراً حين نتدبر روعة الورود والأزهار ولطافة الأوراق ودقة نظام الدورة الدموية. وعمل الاوردة والشرايين المخ والدماغ وايعازات الأعصاب، ثم نلتفت إلى أنّ كل هذا ليس إلّاجانباً من عجائب عالم الخلقة، لانملك سوى الالتحاق بقافلة هذا العالم ومشاركتها التسبيح والتقديس والحركة نحو اللَّه، ونحن نردد ما يردده الملأ الأعلى «سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا»[۵۸] و «رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا»[۵۹] وقلوبنا مقعمة بحب اللَّه والإيمان به والخشوع له والتواضع أمام عظمته وجبروته.

وعبارات الإمام عليه السلام المارة الذكر إشارة عميقة إلى هذه الحقائق.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۴۵

القسم التاسع: خلق السموات

اشارة

«وَنَظَمَ بِلا تَعْلِيقٍ رَهَواتِ فُرَجِها، وَلاحَمَ صُدُوعَ انْفِراجِها، وَوَشَّجَ بَيْنَها وَبَيْنَ أَزْواجِها، وَذَلَّلَ لِلْهابِطِينَ بِأَمْرِهِ، وَالصَّاعِدِينَ بِأَعْمالِ خَلْقِهِ، حُزُونَةَ مِعْراجِها، وَناداها بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخانٌ، فالْتَحَمَتْ عُرَى أَشْراجِها وَفَتَقَ بَعْدَ الِارْتِتاقِ صَوامِتَ أَبْوابِها، وَأَقامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّواقِبِ عَلَى نِقابِها، وَأَمْسَكَها مِنْ أَنْ تُمُورَ، فِي خَرْقِ الْهَواءِ بِأَيْدِهِ وَأَمَرَها أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في المقطع السابق من هذه الخطبة إلى الكليات في تدبير عالم الخلق والقوانين التي تسوده، إلى جانب تنوع الموجودات وكثرتها. ويخوض عليه السلام في هذا الجزء من الخطبة والجزء القادم في جزئيات ذلك. فيتعرض بصورة عميقة بعيدة المعنى لخلق السموات والملائكة والأرض والعالم السفلي وخلق آدم وما إلى ذلك. فقد استهل كلامه بادئ‌ذي بدء بخلق السموات فقال عليه السلام:

«ونظم بلا تعليق رهوات ۶۰] فرجها، ولاحم ۶۱] صدوع ۶۲] انفراجها»

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۴۶

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد أشار بالعبارة الاولى إلى ما ورد في القرآن الكريم: «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها»[۶۳] ويصرح علماء الفلك بان الكرات السماوية منفصلة عن بعضها وأنّ التوازن القائم بين القوةالجاذبة والطاردة هي التي تبقى على كل واحدة في موضعها.

بينما أشارت العبارة الثانية إلى إرتباط أجزاء كل كرة وتماسكها مع بعضها. وعليه فليس هنالك من تضاد بين العبارتين

«ونظم بلا تعليق رهوات فرجها، ولاحم صدوع انفراجها».

فالاولى ناظرة للكل والاخرى للأجزاء (ووحدة الضمائر هنا لا تسبب أي اشكال، لأنهما تعودان إلى السموات، أحدهما إلى المجموع والآخر إلى الجزاء) (لابدّ من الدقة والتمعن هنا).

ثم أشار في العبارة الثالثة إلى الرابطة بين الكرات السماوية القرينة لبعضها، فقال عليه السلام:

«ووشج ۶۴] بينها وبين أزواجها»

يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى منظومات العالم العلوي المتألف من كرات شبيهة لبعضها إلى جانب النظام الذي كل كرة[۶۵]

ثم أشار عليه السلام في العبارة الرابعة إلى طرق هبوط وصعود الملائكة إلى السموات:

«وذلل للهابطين بأمره، والصاعدين بأعمال خلقه، حزونة معراجها»[۶۶].

وهنا يتبادر هذا السؤال: هل الملائكة وجودات مادية ولها صعود وهبوط مادي من وإلى السموات، أم أنّ المراد بهذا الصعود والهبوط هو الصعود والهبوط المعنوي؟ هنالك عدّة أقوال لشرّاح نهج البلاغة بهذا الخصوص.

ظاهر هذه العبارات الواردة في الخطبة وأغلب الروايات والأخبار والآيات القرآنية، أنّ الملائكة وجودات نورية لها بعد جسمي رغم لطافتها التي تحول دون قدرتنا على مشاهدتها،

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۴۷

وعلى هـذا الأسـاس يجوز عليها الصـعود والنزول والـذهاب والاياب. وسـنخوض أكثر فى هـذا الموضوع فى المقطع القادم من الخطبة بـأذن اللّه السؤال الآـخر الـذى يطرح نفسه هنـا: هـل هنـاك من مكـان يضم اللّه فى السـموات لتهبـط منه الملائكـة فتوصـل الرسالات والأـوامر ثم تصـعد إليه باعمال العباد؟ قطعاً لا يمكن تصور مثل هـذا الأمر على الحق سـبحانه الـذى يفوق عالم المادة ولا يجرى عليه زمان ولا يحويه مكان ولا يتركب من أجزاء. اذن فما معنى هذا الصعود والهبوط؟

يبدو أنّ الإجابة على هذا السؤال تتضح من خلال الالتفات إلى هذه المسألة الدقيقة وهى:

صحيـح أنّ السـموات والأرضـين مخلوقات اللّه، إلّاأنّ هناك بعض المراكز فى هذا العالم المادى التى تعد من مواضع إنعكاس الأنوار الإلهيـة. أو بعبارة اخرى هناك بعض المواضع التى لها قداسة خاصة. على غرار الأرض التى لا تتساوى جميع بقاعها. على سبيل المثال فقـد اتجه موسـى بن عمران عليه السـلام إلى الطور حين أراد أن يأخـذ الألواح، كما كان نبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله يتجه قبيل انبثـاق الـدعوة إلى غـار حراء؛ والحـال هـذان الموضـعان ليسـا بـاقرب من غير هما إلى اللّه، إلّاأنّ قديسـة بعض المواضع تجعلها أعظم اشعاعاً للأنوار الإلهية كالطور وحراء والمسجد الحرام.

وهكذا الأمر بالنسـبة للملائكة، فهناك بعض المراكز القدسـية فى العالم العلوى تتسـلم فيها الملائكة الأوامر الإلهية، وهى المراكز التى بلغهـا رسول‌اللّه صـلى الله عليه و آله فى معراجه، بل جاوزها لما هو أقرب ليفيض اللّه عليه من لطفه وعنايته، وهناك تسـتودع الأعمال الخيرة للعباد وتحفظ إلى يوم القيامة.

ثـم خـاض الإمـام عليه السـلام فى تفاصـيل مـا أورده سابقـا على نحـو الاجمـال، حيث عرض بالشـرح بخمس عبـارات لمراحـل خلق السـموات. فأشـار فى العبـارة الاولى إلى أمره (ويراد به الأمر التكوينى لا جتياز مراحل الخلقـة والتكامل) السـماء حين كانت على هيئة دخان

«وناداها بعد إذ هى دخان»

فهـذه العبـارة فى الحقيقـة أشـارت إلى أولى مراحل خلق العالم التى تعرضت لها الآيـة من سورة فصـلت «ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ»[۶۷] وهو الأمر الـذى يقره العلم المعاصـر فى أنّ العالم برمته كان فى البدايـة كتلة عظيمـة جداً من الغاز. وقال فى العبارة الثانية (حيث وردت الخلقة مرحلة جديدة)

«فالتحمت عرى أشراجها».

فبالنظر إلى أنّ معنى الالتحام هو الوصل، والعرى جمع عروة بمعنى المقبض، والاشراج جمع

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۴۸

شرج بمعنى الشق. فانّ مفهوم الجملة المذكورة هو أنّ اللّه ضغط تلك الكتلة العظيمة للدخان.

ثم أدال الشـقوق وربط أطرافها مع بعضها، وكأنّ هذه الشقوق كالصناديق التى تغلق مقابضها وتوصل مع بعضها لحفظ ما فيها. والعبارة تتفق و ما توصل إليه العلم الحـديث الـذى صرح بضـغط كتلة الغاز بفعل الجاذبية الداخلية. ثم واصل كلامه عليه السـلام حول فصـل السموات عن بعضها وفتح أبوابها المؤصدة (وقد جعل مسافة بينها)

«وفتق بعد الارتقاء صوامت أبوابها».

ولعـل هـذه العبارة إشارة إلى ما توصل إليه العلماء الـذين يعتقـدون أنّ تلك الكتلـة الغازيـة الهائلـة قـد شـهدت انفجارا داخليا عظيما لتتلاشـى وتظهر منهـا الكواكب والمجرات. وعلى ضوء الفرضـية الاـخرى فـان بعض أجزائهـا أخـذت بالانفصال عن البعض الآخر إثر حركتها الدورانية الشديدة والقوة الطاردة عن المركز، فابتعدت عن بعضـها البعض فى هذا الفضاء لتتشـكل منها الأجرام السماوية. فقد قال القرآن الكريم بهذا شأن «أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمواتِ وَالأَرضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما»[۶۸].

ثم أشار فى العبارة الرابعة إلى خلق الشـهب السـماوية (التى تشاهد فى السـماء على هيئة خطوط من النور تتحرك بسـرعة) ثم تنطفئ،

فقال علیه السلام:

«وأقام رصدا من الشهب الثواقب على نقابها»[۶۹]

. لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الرصد على وزن الصدف ذات معنى مصدرى فى الأصل وتعنى الاستعداد والتأهب لمراقبة الشى وحراسته. كما تطلق على الفاعل وتستخدم فى المفرد والجمع. ونقاب جمع نقب بمعنى الطريق أو الفاصلة بين شيئين. وعليه فالعبارة تعنى أنّ اللّه زود طرق السموات بهذه الشهب لتحول دون نفوذ الشياطين إلى السموات؛ الأمر الذى أشير إليه كرارا فى عدة آيات من القرآن الكريم، ومن ذلك الآية الثامنة من سورة الصافات

«لايسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلّامن خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب»،

فالذى يستفاد إجمالًا من هذه الآيات وسائرها الواردة

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۴۹

بهذا الشأن أنّ هناك أحاديث تدور فى العالم العلوى بين الملائكة المأمورة من قبل اللّه سبحانه فى إدارة شؤون العالم بشأن بعض الأخبار المهمة لهذا العالم، وأنّ الشياطين تحاول أحياناً الاقتراب من السماوات لاستراق السمع، إلّاأنّ الشهب تدفعها عن السماوات.

طبعا صحيح أنّ الشهب على ضوء العلم الحديث، ليست إلّاصخوراً تائهة تشتعل حين تقترب من الكرة الأرضية وتصطدم بها، إلّاأنّ هذا لا يمنع أن تكون هذه الشهب مامورة بحراسة فضاء السماء من الشياطين؛ وأنّ تعذرت علينا رؤية الشيطان، وخفيت علينا على وجه الدقة حركات الشهب (للوقوف بصورة أعمق على هذا الموضوع المهم، عليك بمراجعة الجلد ۱۹ من التفسير الأمثل ذيل الآيات المذكورة) ثم أشار فى العبارة الخامسة إلى موضوع مهم آخر ذا صلة بنظام كواكب السماء فى أن اللّه سبحانه أمسكها بيد القدرة من الحركات الطائشة فى الفضاء، وأمرها بالتسليم لأمره:

«وامسكهامن أن تمور[۷۰] فى خرق الهواء بأيده ۷۱]

وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره».

فالعبارة تنجسم تماما والعلم الحديث الذى صرح بأنّ الكواكب والمنظومات والمجرات فى حالة حركة حول مداراتها بفعل تاثرها بالقوة الجاذبية المتناسبة مع كتلتها والقوة الدافعية التى تظهر فيها من جراء الحركة وقوة الطرد المركزى، دون أن تستند إلى شى أو ادنى انحراف عن مدارتها. بعبارة اخرى فان التوازن الدقيق للقوة الجاذبية و الطاردية لاتدعها تبتعد عن بعضها لتصبح كتلة واحدة. وقد يتضح هذا المطلب من خلال مفردة تمور (الحركة الطائشة) وخرق الهواء. إلّاأنّ بعض قدماء شرّاح نهج البلاغة الذين عاشوا أجواء نظرية الهيئة البطليموسية القائلة بالأفلاك التسع كقشور البصل، شهدوا بعض المشاكل فى تفسير هذه العبارات، فاضطروا لحمل بعض الألفاظ المذكورة على معناها المجازى، والحال أنّ تفسيرها على ضوء الهيئة المعاصرة لم يعد خافياً على أحد.

والعبارة

«أمرها»

و

«لأمره»

أشارة إلى معنيين؛ فالأمر فى بداية العبارة الأخيرة يعنى الأمر

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۵۰

الإلهى التكوينى، والأمر فى آخر الجملة يعنى قوانين الخلق. أى أنّ اللّه خلقها بهذا الشكل لتكون منقادة مستسلمة لهذه القوانين.

تأمّل: خصائص السماوات

لقد رسم الإمام عليه السلام بهذه العبارات صورة رائعة بليغة عن الخلقة العجيبة للسموات، فأشار أولًا: إلى بداية خلقها على أنّها كانت فى البداية بمثابة كتلة غازية عظيمة.

ثانياً: الانفجار الهائل الذى وقع فى تلك الكتلة العظيمة، والانفصال الذى شهدته الكواكب والمجرات عن بعضها البعض.

ثالثاً: تعلق الكواكب فى هذا الفضاء الواسع على أنه آية من آيات عظيمة وقدرته سبحانه تعالى.

رابعاً: الحركات المنظمة للكرات السماوية حول مداراتها والخالية من أية حركات عشوائية (بفعل توازن قوتى الجذب الطرد).

خامساً: حركة الملائكة وصعودها وهبوطها بين الأرض والسماء و المراكز المقدسة، حيث تهبط بالاوامر وتصعد بأعمال العباد.

سادساً: ارسال الشهب التى ترجم الشياطين حين تحاول الصعود إلى السماء بغية استراق السمع، حيث بينها الإمام عليه السلام على سبيل الاختصار بعبارات قصيرة وبليغة حيث يتطلب كل منها بحثا مستقلًا.

ولا-ينبغى أن ننسى هنا أنّ كل ذلك قد حصل فى زمان لم تكن تحكم العقول والأفكار فيه سوى نظرية بطليموس فى الأفلاك والسماوات. ولابدّ من الاذعان بأنّ بيان هذه الحقائق فى ذلك الوقت قد يبلغ حدّ الاعجاز، ليدل دلالة واضحة على مدى علم الإمام عليه السلام الذى استقاه من مصادر غير عادية متعارفة[۷۲].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۵۱

القسم العاشر: خلق الشمس والقمر والشهب والكواكب

اشارة

«وَجَعَلَ شَمْسَها آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهارِها، وَقَمَرَها آيَةً مَمْحُوَّةً مِنْ لَيْلِها، وَأَجْراهُما فِى مَناقِلِ مَجْراهُما، وَقَدَّرَ سَيْرَهُما فِى مَدارِجِ دَرَجِهِما، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بِهِما، وَلِيُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَالْحِسابُ بِمَقادِيرِهِما، ثُمَّ عَلَّقَ فِى جَوِّها فَلَكَها، وَناطَ بِها زِينَتَها، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرارِيِّها وَمَصابِيحِ كَواكِبِها، وَرَمَى مُسْتَرِقِى السَّمْعِ بِثَواقِبِ شُهُبِها، وَأَجْراها عَلَى أَذْلالِ تَسْخِيرِها مِنْ ثَباتِ ثابِتِها، وَمَسِيرِ سائِرِها، وَهُبُوطِها وَصُعُودِها، وَنُحُوسِها وَسُعُودِها».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى خلق الشمس والقمر والكواكب وفلسفتها الوجوديه، ثم شرح بعبارات بليغة الفوائد والبركات لهذه الكواكب، حيث أشار إلى خلق الشمس وما يختزنه ضياؤها من بركات:

«وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها».

ثم أضاف عليه السلام قائلًا:

«وقمرها آية ممحوة من ليلها».

حيث إختلفت أقوال شرّاح نهج البلاغة فى تفسير هذه العبارة فقال البعض المراد ممحوة بليالى المحاق الليالى الظلماء فى آخر الشهر. وقال البعض الآخر القطع السوداء على سطح القمر. وقيل أيضاً المراد بهوت لون القمر تدريجياً بعد منتصف الليل. ولكن لا يبدو أى من هده التفاسير تاماً، والمراد بقوله ممحوة هو قلّة ضياء القمر بالنسبة لضياء الشمس. على كل حال فانّ هذه العبارة تتفق تماماً والآيات القرآنية التى عدت الليل والنهار من آيات اللّه:

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۵۲

«وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ»[۷۳] ولاتخفى بركات ضياء النهار وأشعة الشمس على حياة البشرية التى يعزى إليها كافة الأنشطة والفعاليات والسعى والحركة من أجل العيش والحياة، كما أنّ الضياء المتواضع واللطيف للقمر فى الليالى الظلماء والذى يقود

إلی حل أغلب مشاکل الحیاۀ البشریۀ، کما کان یستعین الإنسان حین الضرورۀ فی الطرق بضیاء القمر ولاسیما فی الصحراء. وفی ذات الوقت فانّه لیس علی درجۀ من القوۀ بحیث یعیق حرکته ونشاطه فی النهار، وهذه نعمۀ اخری من نعمه سبحانه.

ثم تطرق الإمام علیه السلام إلی حالات الشمس والقمر وفلسفتهما الوجودیۀ فقال:

«واجراهما فی مناقل ۷۴] مجراهما، وقد سیرهما فی مدارج درجهما، لیمیز بین اللیل والنهار بهما، ولیعلم

عدد السنین والحساب بمقادیرهما»

، وهو الأمر الذی أشار إلیه القرآن الکریم بقوله: «هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیاءاً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَالحِسابَ»،[۷۵] فمعلوم إنفصال اللیل عن النهار بواسطه الشمس. ثم تطرق الإمام علیه السلام إلی الکواکب فقال:

«ثم علق فی جوها فلکها، وناط[۷۶] بها زینتها، من خفیات درایها[۷۷]،

ومصابیح کواکبها».

فقد أشار علیه السلام إلی نوعین من الکواکب السماویۀ: الأول الکواکب الصغیرۀ التی عبر عنها الإمام علیه السلام بقوله خفیات درایها، والثانی الکواکب الکبیرۀ والتی عبر عنها بالقول مصابیح. ونعلم بالطبع أنّ هذا التقسیم للکواکب إلی صغیرۀ وکبیر إنّما یستند إلی رؤیتنا، وإلّا فأنّ أغلب هذه الکوکب الصغیرۀ قد تکون عظیمۀ الکبر حتی أنّها لتکبر شمسنا

نفحات الولایۀ، ج۴، ص: ۵۳

التی تعتبر إحدی الکواکب السماویۀ المتوسطۀ إلّاأنّها تبدو صغیرۀ بسبب بعدها عن أبصارنا، وعلی العکس من ذلک بالنسبۀ للکواکب التی تبدو لنا کبیرۀ (من قبیل کوکب الزهرۀ) والذی یعدّ جزءاً من سیارات المنظومۀ الشمسیۀ، وبسبب قربه یبدو شدید الاشعاع، والحال لیست الزهرۀ إلّاکوکب صغیر. علی کل حال فانّ هذه الکواکب السماویۀ لتزین اللیل بما یجعله یخطف البصر، فضلًا عن دلالتها علی عظمۀ الحق سبحانه وعدم تناهی قدرته وحکمته.

طبعا تشکل الکواکب بدورها عالما مستقلًا، ویری أغلب العلماء أنّ معظمها قد یکون مأهولا بالسکان وتسودها الحیاۀ؛ غیر أنّه یتعذر علینا تصور کیفیۀ الحیاۀ علیها، علی کل حال فانّ دور هذه الکواکب فی حیاتنا لا یقتصر علی تزیین السماء لیلًا فحسب، بل یمکن الاهتداء بها فی البحار والصحاری؛ الأمر الذی أشار إلیه القرآن الکریم: «وَهُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُم النُّجومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِی ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالبَحْرِ»[۷۸] و بغض النظر عن ذلک فلعل الجاذبیۀ بین الکواکب و الأجرام السماویۀ هی التی ضمنت حفظ و بقاء الکرۀ الأرضیۀ ثم أشار الإمام علیه السلام إلی ظاهرۀ اخری من الظواهر السماویۀ العجیبۀ وهی الشهب

«ورمی مسترقی ۷۹] السمع

بثواقب شهبها».

تحدثنا سابقاً بالقدر الکافی عن الشهب وارجعنا القارئ إلی المصدر الذی اسهب فی شرح هذا الموضوع، ولکن یبدو تکرارها فی هذا الموضع من کلام الإمام علیه السلام هو أنّها قد تبدو للناظر فی الأرض أحیاناً ککوکب متحرک، ومن هنا أشار إلیها الإمام علیه السلام إلی جانب تقسیمه للکواکب. ثم تناول الإمام علیه السلام بعض خصائص هده الکواکب فقال:

«وأجراها علی أذلال ۸۰]، تسخیرها من ثبات ثابتها، ومسیر سائرها، وهبوطها وصعودها، ونحوسها

وسعدها»

وسنخوض فیالمباحث القادمۀ فی موضوع الکواکب الثابتۀ والسیارۀ والهبوط والصعود وکیفیه نحسها وسعدها.

تأمّلات

۱- الکواکب الثابتۀ والسیارۀ

نعلم أنّ الكواكب التى نراها فى السماء تقسم من جهة إلى قسمين: ثابتة و سيارة وسيار.

والكواكب الثابتـة هى التى لاـ تغير أوضاعها فى السـماء؛ فهى تطلع من جانب وتغيب فى آخر دون أن يرى تغيير فى مسافتها (طبعا لها حركة، إلّاأنّ هذه الحركة لاتؤثر فى المسافات بسبب

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۵۴

بعـدها الشاسع عنا). أمّا الكواكب السيارة فهى عدة كواكب ضـمن مجموعة المنظومة الشمسـية التى تدور حول الشـمس، ولما كانت مسافتهـا قليلـة جـداً عن الكرة الأرضـية بالنسـبة لسـائر الأجرام السـماوية، فانّ حركتها فى السـماء واضـحة تماماً، وهى فى تغيير مسـتمر لموضعها بالنسبة إلينا.

۲- خصائص الكواكب

هنالك مميزات اخرى للكواكب والنجوم ومنها الهبوط والصـعود. فهى تتجه فى حركتها نحو الأعلى صاعدة أحيانا وإلى الاسفل نازلة أحياناً اخرى وأوضح نموذج على ذلك الشـمس التى تبدأ اوائل الشـتاء متألقة فى مدارها لتشاهد كل يوم فى موضع أعلى فى السماء، حتى تكون أحيانا فوق الرأس بالضـبط وذلك حتى أوائل فصل الصيف حتى تبلغ ذروتها. ثم تبدأ مسيرتها التنازلية منذ شروع الصيف لتصل فى أول الشـتاء إلى أدنى نقطـة فى الأرض (طبعا هذه التغييرات ليست مرتبطة فى الواقع بالشـمس، بل ترتبط بتغيير وضع الأرض فى حركتها المداريه حول الشـمس وانحراف محور الأرض بالنسـبة لسـطح المدار بنسـبة ۲۳ درجـة). فهـذه العبارات تدل على إحاطة الإمام عليه السلام بالمسائل الفلكية، حيث أشار إلى هذه المسائل باروع بيان.

۳- سعد ونحس الكواكب

أمّا بشـأن سـعد هـذه الكواكب ونحسـها، فلو أردنا النظر إلى بدايـة هـذا الأمر فانّها تعود إلى جمع من المنجمين القـدماء. حيث كانوا يعتبرون بعضـها نحساً، ويعتقـدون بان طلوعها وتغيير أوضاعها يؤدى إلى وقوع بعض الحوادث فى الحياة الخاصة لبعض الأفراد (لأنهم يرون لكـل فرد كوكبـاً)، وبـالعكس فـانّ ظهور أو تغيير أوضـاع البعض الآخر من الكواكب علامـة على السـعادة والتوفيق التى تصـيب المجتمع أو الفرد؛ والحال نعلم أنّ الإسـلام لا يرى من تأثير للكواكب على مصـير الإنسان. ويعتبر ذلك نوعاً من الشرك. وقد مر علينا فى الخطبة ۷۹ من المجلد الثالث ما قاله أميرالمؤمنين على عليه السلام لذلك المنجم الذى قال له حين عزم على المسير

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۵۵

إلى الخوارج: إن سرت يا أميرالمؤمنين فى هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم. فغضب عليه السلام ورد كلامه وأنّ من صدقه فقد كذب القرآن الكريم واستغنى عن الاستعانة باللّه فى نيل المحبوب ودفع المكروه. ثم نهى الإمام عليه السلام الناس عن تعلم النجوم إلا ما يهتـدى به فى بر أو بحر. كما تظافرت الروايات والأخبار التى وردتنا عن أئمة العصـمة عليهم السـلام بذم ذلك العلم من النجوم، لتجعل المنجم فى مصاف الكاهن والساحر الـذى عد كافرا. ومن ذلك ماورد عن رسول‌اللّه صـلى الله عليه و آله أنّه قال:

«من صدق كاهنا أو منجما فهو كافر بما أنزل على محمد»[۸۱]

، وعـدة أحـاديث بهـذا الشـأن، لاشك أنّ قـدماء المنجمين كانوا على مـذاهب بالنسـبة لإرتباط الكواكب بمصـير الإنسان والتى بينت

بصورة تامة فى شرح الخطبة ۷۹. ولعله يمكن القول أنّ هذه الروايات ناظرة إلى الأفراد الذين يرون تدبير هذا العالم بيد هذه الكوكب وأنّ لها نوع من الالوهية. نعم ليس من الكفر أن يقال للكواكب دلالة فقط على وقوع مثل هذه الحوادث (بأمراللّه)؛ ولكن ليس هناك من دليل لاثبات هذا الأمر. فلهذه الكواكب عوالمها، كما للكرة الأرضية وسكانها عالم. ولم يقم أى دليل علمى على الرابطة المذكورة، مثلًا طلوع الكوكب الفلانى وغروب الكوكب الفلانى أو إقتران هذا الكوكب مع ذاك مؤثر فى نشوب الحرب أو السلم؛ كما لايمكن فى نفس الوقت نفى هذا التأثير بصورة قاطعة وإن سمع ذلك من غير المعصوم. طبعاً لايسعنا التنكر لما ورد فى بعض الروايات التى صرحت بكراهية الزواج والقمر فى العقرب، إلّاأننا أشرنا فى حينه إلى عدم وجود أى تضارب بهذا الخصوص. ومن هنا فان السعد والنحس الذى ورد فى الخطبة قد يكون إشارة إلى هذه الامور. كما يحتمل أن تكون لاوضاع الكواكب- ولا سيما سيارات المنظومة الشمسية- فى مداراتها مقارنة مع بعضها البعض الآخر بعض التأثيرات الطبيعية على الكرة الأرضية. فمثلًا نعلم أن ظاهرة المد والجزر التى تشهدها البحار إنّما تنشأ بفعل تأثير جاذبية القمر (إثر اقتراب الشمس من القمر أوائل الشهر وآخره) ولعل تأثيرها يتجاوز البحار لتوثر حتى على سطح الأرض ممّا يؤدى إلى تشققها وحدوث بعض الزلازل. كما قد يسبب ذلك التأثير هطول بعض الأمطار الغزيرة على الأرض وعليه فقد يكون السعد والنحس للكواكب إشارة إلى هذا التاثير الطبيعى الخاص.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۵۷

القسم الحادى عشر: خلق الملائكة

«ثُمَّ خَلَقَ سُبْحانَهُ لِإِسْكانِ سَماواتِهِ، وَعِمارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلائِكَتِهِ، وَمَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجاجِها، وَحَشا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوائِها، وَبَيْنَ فَجَواتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلُ الْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِى حَظائِرِ الْقُدُسِ، وَسُتُراتِ الْحُجُبِ، وَسُرادِقاتِ الْمَجْدِ، وَوَراءَ ذلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِى تَسْتَكُّ مِنْهُ الْأَسْماعُ سُبُحاتُ نُورٍ تَرْدَعُ الْأَبْصارَ عَنْ بُلُوغِها، فَتَقِفُ خاسِئَةً عَلَى حُدُودِها».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة فى خلق الملائكة ومختلف المسؤوليات والوظائف التى يقومون بها، بعبارات تبطل فصاحة العرب وتجعل نسبة التراب إلى النضار الخالص كما صرح بذلك ابن أبى الحديد. فقال عليه السلام:

«ثم خلق سبحانه السكان سمواته، وعمارة الصفيح ۸۲] الاعلى من ملكوته، خلقا بديعا من ملائكة، وملأ بهم فروج فجاجها، وحشابهم فتوق ۸۳] أجوائها[۸۴]».

يمكن ان تكون (ثم) إشارة إلى خلق الملائكة بعد خلق الأرض وما عليها من كائنات، كما يمكن أن تكون وردت للتأخير فى البيان لا الزمان. ويبدو الاحتمال

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۵۸

الأخير أنسب بالالتفات إلى الروايات التى صرحت بخلق السموات قبل خلق الكائنات الأرضية إلى جانب ما جاء فى الخطبة الاولى من نهج البلاغة التى مرّ شرحها. ثم صرح عليه السلام أنّ أصوت المسبحين قد ملأت أقطار السماء ودوت فى حظائر القدس وسترات حجب العظمة:

«وبين فجوات ۸۵] تلك الفروج زجل ۸۶] المسجين منهم فى حظائر[۸۷] القدس، وسترات الحجب، وسرادقات ۸۸] المجد».

إلّاان هذا لا يعنى ان الملائكة المقربين استطاعوا أن يبلغوا أوج معرفة سبحانه، ومن هنا أتبع الإمام عليه السلام ذلك بقوله أنّ وراء تلك الصيحات والتسبيحات، سبحات النور التى تردع الأبصار وتوقفها عند حدها

«ووراء ذلك الرجيح ۸۹] الذى تستك ۹۰] منه

الأسماع سبحات ۹۱] نور تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئة[۹۲] على حدودها».

طبعا لا تعنى هـذه العبارة أنّ للّه سبحانه وتعالى موضع فى السموات وقد أحيط من كل جانب بطبقات من الأنوار الشديدة، بل المراد أنّ هناك مراكز مقدسة فى عالم الوجود تعجز عن مشاهدتها حتى الملائكة. كما يمكن ان يكون المراد من هـذه العبارة أنّ ملائكة ورغم قربها من اللّه وغرقها فى العبادة والتسبيح، إلّاأنّها عاجزة عن إدراك كنه ذاته وصفاته سبحانه، وليس لها من نصيب سوى على قدر إدراكها.

بعبارة اخرى لوحملنا هذه العبارات وفسرناها على أساس ظاهرها فانّها تفيد أنّ فى السماء مواضع تتمتع بقدسية خاصة وهالة من النور (وهو المعنى الذى أشارت إليه بعض الروايات والأخبار)[۹۳].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۵۹

وعلى غرار ذلك فهناك على الأرض بعض المراكز التى تحظى بحرمة وقدسية تفوق غيرها كالكعبة وبيت‌المقدس، دون ان تكون موضعا لذاته المقدسة سبحانه. وان حملناها على المعنى الكنائى، فانّها ستكون دليلًا على أن للملائكة حداً لاتتجاوزه رغم قربها و عبادتها و عبادتهم.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۶۱

القسم الثانى عشر: وظائف الملائكة

اشارة

«وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدارٍ مُتَفاوِتاتٍ «أُولِى أَجْنِحَةٍ» تُسَبِّحُ جَلالَ عِزَّتِهِ، لا يَنْتَحِلُونَ ما ظَهَرَ فِى الْخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ، وَلا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا انْفَرَدَ بِهِ «بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ* لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» جَعَلَهُمُ اللَّهُ فِيما هُنالِكَ أَهْلَ الْأَمانَةِ عَلَى وَحْيِهِ، وَحَمَّلَهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَدائِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهاتِ، فَما مِنْهُمْ زائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضاتِهِ، وَأَمَدَّهُمْ بِفَوائِدِ الْمَعُونَةِ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَواضُعَ إِخْباتِ السَّكِينَةِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْواباً ذُلُلًا إِلَى تَماجِيدِهِ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَناراً واضِحَةً عَلَى أَعْلامِ تَوْحِيدِهِ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام هنا فى بيان مختلف صور الملائكة وتقاسمها المسؤوليات و جانبا من منيراتها فقال عليه السلام:

«وأنشأهم على صور مختلفات، وأقدار متفاوتات «أولى أجنحة» تسبيح جلال عزته»[۹۴].

نفحات الولاية ؛ ج۴ ؛ ص۶۱

ل بعض شرّاح نهج البلاغة هذه العبارات على ظاهرها وقالوا: الملائكة أشكال مختلفة واقدار متفاوتة ولها أجنحة وهى دائمة التسبيح للّه سبحانه. بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ هذه العبارات كناية عن تفاوت مقامات الملائكة ودرجات قوتها و قدرتها. ولما كانت

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۶۲

الأجنحة وسيلة لدى الطيور للتحليق فى السماء وكيفية تفاوتها فى التحليق تبعا لكيفية هذه الأجنحة، فانّ هذه العبارة بشأن الملائكة إشارة إلى تفاوتهامن حيث القوه والقدرة على القيام بالوظائف والمسؤوليات. صحيح أننا مكلفون بحمل جميع الفاظ القرآن الكريم وكلمات الأئمة المعصومين عليهم السلام على معانيها الحقيقة، دون حملها على الكناية والمجاز ما لم تكن هناك قرينة واضحة فى الكلام، ولكن بالنظر إلى العبارات التى تواصل فيها كلام الخطبة بشأن أوصاف الملائكة، يبدو من المستبعد حمل هذه العبارات على معناها الظاهرى، ومن ذلك:

«ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى ...»

، وكذلك العبارات التى وردت سابقاً بشأن الملائكة، كالذى ورد فيها فى الخطبة الاولى بشأن الملائكة:

«ومنهم الثابتة فى الارضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم ...»[۹۵]

، فهذه العبارات يمكن أن تكون قرينة واضحة على أنّ لمثل هذه الأوصاف بعد كنائى ومعنوى لا ظاهرى ومادى. ثم أشار عليه السلام فى مواصلة كلامه إلى بعض خصائص الملائكة وقال:

«لا ينتحلون ۹۶] ما ظهر فى الخلق من

صنعه، ولايدعون أنّهم يختلقون شيئاً معه ممّا انفرد به»

، ثم اردف عليه السلام كلامه مباشرة بما ورد فى القرآن الكريم بشأن التسليم المطلق للملائكة أمام إرادة اللّه سبحانه وتعالى فقال: «عِبادٌ مُكْرَمُونَ* لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»[۹۷]، نعم فهم آذان صاغية لأوامره سبحانه وانقياد مطلق لإرادته، وهذه أولى خصائص الملائكة التى أشارت اليها الخطبة، كما تشير ضمنياً إلى عصمة الملائكة وبعدهاعن الذنب والمعصية والخطأ والزلل، فهى تبطل كافة مزاعم مشركى العرب وغير هم ممن قال بربوبيتها والوهيتها، وتصفهم بأنّهم عباد مطيعون منقادون وليس لهم أن يكونوا شركاء اللّه فى الخلق.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظيفة اخرى من وظائف الملائكة بصفتهم حملة الوحى فقال:

«جعلهم اللّه فيما هنالك أهل الامانة على وحيه، وحملهم إلى المرسلين ودائع أمره وفهيه، وعصمهم من ريب الشبهات. فما منهم زائغ ۹۸] عن سبيل مرضاته»

فالعبارة وإن

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۶۳

نسبت ابلاغ الوحى الإلهى إلى جميع الملائكة، إلّاأنّ المفروغ منه هو أنّ المراد طائفة منهم؛ الأمر الذى صرح به القرآن الكريم بقوله: «اللّهُ يَصْطَفِى مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلًا».[۹۹] كما صرح عليه السلام فى الخطبة الاولى من نهج البلاغة بهذا المعنى قائلًا:

«ومنهم أمنا على وحيه، وألسنة إلى رسله».

و هذا تعبير متداول بشأن الأعمال المهمة التى تصدر من فئة معينة ضمن جماعة لتحسب على أساس تلك الجماعة.

على كل حال فانّ العبارة تشير إلى مدى أمانة الملائكة فى ابلاغ الوحى وايصاله على نحو الدقة دون نقيصة أو زيادة والوقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار بالعبارتين الأخيرتين إلى عصمة الملائكة من الذنب والزلل، حيث أشارت العبارة الاولى إلى عصمتها عن الشبهة والشك والخطىءوالثانية إلى عصمتها عن الذنب والمعصية وعدم مخالفة الأوامر الإلهية. كما أشار عليه السلام باربع عبارات إلى عناية سبحانه بملائكة الوحى من أجل قيامها بهذه الوظيفة بصورة صحيحة. قال فى العبارة الاولى أنّه أمدهم سبحانه بلطفه وعنايته ليقوموا بهذه الوظيفة الخطيرة على أكمل وجه

«وأمدهم بفوائد المعونة».

ثم قال فى العبارة الثانية

«وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينة»[۱۰۰]

كما فتح لهم باب مدحه وتمجيده وسهل لهم ذلك زيادة فى عصمتهم وعلو مقامهم. وهذا ماأورده فى العبارة الثالثة

«وفتح لهم أبواباً ذللًا[۱۰۱] إلى

تماجيده ۱۰۲]».

ثم قال فى العبارة الرابعة «و نصب لهم منارا واضحة على أعلام توحيده» فقد أوجز الإمام عليه السلام بهذه العبارات أشكال الملائكة

وصورها والفوارق بينها فى القوة و القدرة، إلى جانب بيان أحدى أهم وظائفها فى ابلاغ الوحى و صفات هذه الطائفة المبلّغة للوحى.
نفحات الولاية، ج۴، ص: ۶۴

تأمّل: لم الملائكة واسطة الوحى؟

نعلم أنّ الوحى يحصل بعدة صور: فقد يكون أحياناً بواسطة الملك الذى يحمل رسالة اللّه من قبيل نزول الوحى على نبى الإسلام بواسطة جبرئيل عليه السلام. كما يكون أحياناً اخرى عن طريق سماع الأمواج الصوتية التى تحدثها القدرة الإلهية فى الفضاء كنزول الوحى على نبى اللّه موسى عليه السلام عن هذا الطريق. كما نزل على النبى صلى الله عليه و آله- طبق بعض الروايات- مثل هذا الوحى فى المعراج. كما يحصل عن طريق الالهام و الإلقاء فى الروع؛ الأمر الذى حصل للنبى صلى الله عليه و آله فى بعض المواقع الضرورية. وهنا يبرز هذا السؤال: مادام هناك طريق للوحى من خلال ايجاد الصوت أو الالهام، فما الضرورة لأن تكون الملائكة واسطة للوحى؟
للإجابة على هذا السؤال المهم، يمكن القول أنّ لنزول الملائكة بعض المزايا منها:
۱- لما كانت الملائكة موجودات مجردة، وللإنسان- كائنا من كان- بعد مادى وجسمانى وروحانى فانّ تلقى الوحى عن طريق الملائكة أهون وأسهل على الأنبياء من تلقى الوحى بصورة مباشرة. بينما يكون أصعب و أثقل إن كان بصورة مباشرة.
۲- أنّ نزول الملك يفيد الاطمئنان أكثر إلى الوحى، إلى جانب الأهمية الفائقة لهذا لأمر، لأنّ اللّه أمر أعظم ملائكتة للقيام بوظيفة ابلاغ الوحى. والجدير بالذكر أنّ بعض الروايات والأخبار صرحت بتشييع فريق من الملائكة (يصل عددهم أحياناً إلى سبعين ألف ملك) لبعض السور القرآنية حين نزول جبرئيل بها على النبى صلى الله عليه و آله لتتضح للجميع أهمية ذلك الموضوع، وبالطبع فانّ هذا الأمر لايتحقق فى ظل الالهام أو سماع الصوت. وإن كانت لهذه الأخيرة خصائصها ومميزاتها.
نفحات الولاية، ج۴، ص: ۶۵

القسم الثالث عشر: الانقطاع إلى اللّه

«لَمْ تُثْقِلْهُمْ مَوصِرَاتُ الآثَام، وَلَمْ تَرْتَحِلْهُمْ عُقَبُ اللَّيَالى وَالأَيَّام، وَلَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا، عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ، وَلَم تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ، وَلَا قَدَحَتْ قَادِحَةُ الإِحَنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَاسَلَبَتْهُمُ الْحَيْرَةُ مَا لَاقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمائِرِهِمْ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهَيْبَةِ جَلَالَتِهِ فِى أَثْنَاءِ صُدُورِهِم، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمْ الْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بِرَيْنِهَا عَلَى فِكْرِهِمْ».
الشرح والتفسير
ذكر الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة ما يكمل كلامه فى صفات الملائكة- ولا سيما صفة العصمة عن الذنب والمعصية- ليوضح ذلك بسبع عبارات قصيرة عظيمة المعنى، قال فى الاولى أن ثقل الذنوب لم يعجزهم ويقعدهم فهم لايقارفون الذنب أبداً:
«لم تثقلهم موصرات [۱۰۳]
الاثام»
، فى إشارة إلى أنّ الذنب عادة ما يثقل كاهل الإنسان فى مسيرة الطاعة، ولما كانت الملائكة لا ترتكب الذنب قط فهى خفيفة على الدوام ومتأهبة للطاعة، ولذلك لايبدو صحيحاً ما احتمله بعض شرّاح نهج البلاغة فى تفسيرهم لهذه العبارة من أنّ الذنوب التى يرتكبها الناس لاتجعلهم متقاعسين فى عملهم، وذلك لعدم انسجامه وسائر عبارات هذه الخطبة. ثم أشار عليه السلام فى العبارة الثانية إلى أنّ الذهاب والاياب وتعاقب الليل والنهار لم يسق هذه الملائكة إلى الموت (ليستولى عليها الضعف، فهى متأهبة دائما للطاعة)
«ولم ترتحلهم عقب [۱۰۴] الليالى والأيام»

، يحتمل أن يكون المراد عدم الانتقال من الحياة إلى الموت، بل الانتقال

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۶۶

من الطاعة إلى المعصية أى أنّ طول الزمان لم يرهقها قط ولم يبعدها عن طاعة الحق سبحانه وتعالى وقال عليه السلام فى العبارة الثالثة أن سهام الشک لم تستطع أن ترم عزم إيمانهم:

«ولم ترم الشكوک بنوازعها[۱۰۵] عزيمة ايمانهم»

ثم قال عليه السلام فى العبارة الرابعة

«ولم تعترک ۱۰۶] الظنون

على معاقد يقينهم»

كما أشار عليه السلام إلى عدم وجود العوامل التى تدعوا إلى إثارة نيران الحقد والعداء والضغينة لديهم (لكى يجد الضعف من سبيل إلى وظائفهم- وعليه فالملائكة تعمل مع بعضها البعض الآخر بكل تنسيق وانسجام دون اختلاف فى القيام بالوظائف الإلهية)

«ولا قدحت قادحة الإحن ۱۰۷] فيما بينهم»،

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى أنّ الحيرة لم تسلبهم مالديهم من معرفة وانطوت عليه صدورهم من هيبة للّهوعظمة:

«ولاسلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم، وما سكن عن عظمته وهيبة جلالته فى أثناء صدورهم»

يمكن أن يكون المراد بالعبارة أن إيمان الملائكة ومعرفتها باللّه وصفات جماله وجلاله على قدر من القوة بحيث لاتختزن أيه أوهام وحيرة يمكنها إختراق تلك المعرفة أو الحد منها؛ والحال ليس الأمر كذلک لدى الإنسان، فقد يصطدم بعض المؤمنين ببعض الاوضاع التى تؤدى إلى ذهولهم وحيرتهم وزعزعة دعائم إيمانهم. كما يحتمل أن يكون المراد بالحيرة هو عدم بلوغ كنه ذاته وصفاته، إلّاأنّها لا تصدهم عن ذلک الإدراک الإجمالى للذات والصفات فيضطر وعلى غرار بعض الناس وبفعل عدم إدراک كنه الذات إلى تعطيل صفاته. ثم قال فى الصفة الأخيرة:

«ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع ۱۰۸] برينها[۱۰۹] على فكرهم»

، فالذى يستفاد من مجموع هذه الصفات هو عدم تسلل أدنى خطا وشک وترديد وفتور وتقصير إلى أعمال أمناء الوحى من الملائكة، وهم جاهدون فى ابلاغها إلى الأنبياء والرسل. وضمنا فانّ هذا الكلام الشريف رسالة إلى جميع الأفراد- ولاسيما دعاة الإسلام والكتاب- إلى مراعاة الدقة والامانة والإيمان والتسامى والابتعاد عن كافة ألوان الوساوس وأمراض الحقد والبغضاء والعداء و الحسد والشک والترديد فى ابلاغ دعوة الأنبياء ورسالتهم بالشكل الصحيح.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۶۷

القسم الرابع عشر: مدبرات الامور

«وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فى خَلْقِ الْغَمَامِ الدُّلَّحِ، وَفِى عِظَمِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ، وَفِى قَتْرَةِ الظَّلَامِ الأَيْهَمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ الأَرْضِ السُّفْلَى فَهِىَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِى مَخَارِقِ الْهَوَاءِ، وَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الْحُدُودِ الْمُتَنَاهِيَةِ، قَدْ اسْتَفْرَغَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ، وَوَصَلَتْ حَقَائِقُ الإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَقَطَعَهُمُ الإِيقَانُ بِهِ إِلى الْوَلَهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ».

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام إلى سائر أصناف الملائكة بعد أن فرغ من صفة ملائكة الوحى، فقال عليه السلام:

«ومنهم من هو فى خلق الغمام الدلح ۱۱۰] فى عظم الجبال الشمخ ۱۱۱]، وفى قترة[۱۱۲] الظلام

الأيهم ۱۱۳]»

، الدلح جمع دالح تعنى السحاب المثقل بالماء، وشمخ جمع شامخ بمعنى المرتفع، وقترة تعنى هنا الخفاء والبطون، وأيهم بمعنى الليالى الدامسة التى لايهتدى فيها. فالذى يبدو أن مراد الإمام عليه السلام الملائكة الموكلة بالسحب الممطرة والجبال المرتفعة والظلمات، حيث لكل منها سهم

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۶۸

فى تدبير هذا العالم، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم فى الآية الخامسة من سورة النازعات، حيث عبر عن هذه الملائكة بالقول «فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً»، كما احتمل أن يكون لهذا الصنف من الملائكة دور فى ايجاد تلك السحب والجبال والظلمات- على كل حال فانّ مأمورية هذا الصنف من الملائكة هى مأمورية تكوينية- على الخلاف من ملائكة الوحى حيث لهم مأمورية تشريعية. ثم تطرق عليه السلام إلى صنف آخر من الملائكة فقال عليه السلام:

«ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم ۱۱۴] الأرض السفلى، فهى كرايات بيض قد نفذت فى مخارق ۱۱۵] الهواء، وتحتها ريح هفافة[۱۱۶]، تحبسها على حيث من انتهت من الحدود المتناهية»

وتشبه هذه العبارة ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبة الاولى من نهج البلاغة التى قال فيها:

«ومنهم الثابتة فى الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم»،

طبعاً هذه العبارات إنّما تشير على سبيل الكناية إلى رفعة هذا الصنف من الملائكة وسمو مكانته، واننا لاندرك سوى شبح عنها، وذلك لأننا لانمتلك المعلومات الكافية عن خلقها. ولا يتسنى إدراك حقيقة هذه التعبيرات بصورة تامة سوى لعلى عليه السلام وسائر المعصومين عليهم السلام الذين رفعت عنهم الحجب، وما علينا إلّا القناعة والاكتفاء بهذا العلم الإجمالى. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى وصف هؤلاء الملائكة فقال عليه السلام:

«قد استفرغتهم أشغال عبادته، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الايقان به إلى الوله ۱۱۷] إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره»

، فالعبارات الأربع مرتبطة مع بعضها البعض الآخر قطعا، فالاشتغال بالعبادة سبب لتقوية الإيمان ورسوخه، كما أنّ قوة الإيمان تنتهى إلى الحب والعشق، فاذا ملأحبّه كيان الإنسان أو الملك، لم يدعه يفكر فى غيره ولايطمع إلى ما عند سواه. فقد ورد فى الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قال:

«أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها، وأحبّها

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۶۹

بقليه، وباشرها؟، وتفرغ لها؛ فهو لايبالى على ما أصبح من الدنيا على عسر، أم على يسر»[۱۱۸]

، وواضح أن عبادة الملائكة لاتصدهم عن مأموريتهم فى تدبير شؤون العالم- بأمر اللَّه- ولاعبادة أولياء اللَّه تصدهم عن تدبير دينهم و دنياهم و وظائفهم الفردية و الإجتماعية فكل أمورهم إنّما تنعبث من حبهم وعشقهم الحق سبحانه وتعالى و السير على طاعته.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۷۱

القسم الخامس عشر: خصائص الملائكة

اشارة

«قَدْ ذَاقُوا حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَشَرِبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَكَّنَتْ مَنْ سُوَيْدَاءِ قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ خِيفَتِهِ، فَحَنَوْا بِطُولِ الطَّاعَةِ اعْتِدَالَ

ظُهُورِهِمْ، وَلَمْ يُنْفِذْ طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ، وَلَاأَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رِبَقَ خُشُوعِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَلَّهُمُ الإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ وَلَا تَرَكَتْ لَهُمُ اسْتِكَانَةُ ا لإِجْلَالِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ، وَلَمْ تَجْرِ الْفَتَرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طُولِ دُؤُبِهِمْ، وَلَمْ تَغِضْ رَغَبَاتُهُمْ فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ، وَلَمْ تَجِفَّ لِطُولِ الْمُنَاجَاةِ أَسَلَاتُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَا مَلَكَتْهُمُ الأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ الْجُؤَارِ، إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاكِبُهُمْ، وَلَمْ يَثْنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابَهُمْ، وَلَاتَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِم بَلَادَةُ الْغَفَلَاتِ، وَلَا تَنْتَضِلُ فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ».

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة بصورة أعمق عن صفات الملائكة ومقام معرفتهم وعشقهم للّهسبحانه و درجات عبادتهم وخضوعهم وخشوعهم. فقد أشار فى الواقع إلى ثلاث من الصفات بعبارات رائعة مختلفة، تعرض فى العبارة الاولى إلى مقام الملائكة الرفيع فى المعرفة وكأنها أسكرت عقولهم وجوارحهم فملأتها حبا وعشقا للّه. كما تعرض فى العبارة الثانية إلى الطاعة المتواصلة بفضلها الوليدة الطبيعية لهذه المعرفة وأخيراً العبارة الثالثة التى تفيد خلو هذه الطاعة المستمرة من الكلل والملل والتعب والفتور والعجب. كأنّ الإمام عليه السلام دعا الناس للاقتداء بها واحتذاء طريقتها فى المعرفة والعبودية والاخلاص. فقال عليه السلام:

«قد ذاقوا

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۷۲

حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية[۱۱۹] من محبته، وتمكنت من سويداء[۱۲۰] قلوبهم

وشيجة[۱۲۱] خيفته»

تفيد العبارة:

«قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الروية من

محبته»

أنّ الملائكة قد إنفتحت على معرفة اللّه وحبّه بكل كيانها حتى نفذ إلى سويداء قلوبها، كما تفيد مفردة تمكنت أنّ خوف اللّه قد تجذر فى أعماق قلوبها بحيث وظّف هذا الخوف والرجاء كل قواها فى سبيل طاعة اللّه؛ وذلك لأنّ الحب والأمل دون الخوف يسوق الإنسان إلى الغفلة والغرور، كما أن الخوف دون الحب والأمل يقوده إلى اليأس والقنوط. من هنا قال الإمام عليه السلام عقب تلك الصفات:

«فحنوا[۱۲۲] بطول الطاعة اعتدال ظهورهم»

فهم دائما على أتم الخضوع وكمال التسليم للّه. مع ذلك فان رغبتهم المتفاقمة فى عبادته وكثرتها لم تسلبهم حالة التضرع والخشوع (فلم يتطرق اليها التعب والارهاق)

«ولم ينفذ طول الرغبة إليه مادة تضرعهم»

لا كالأفراد من عديمى المعرفة الخالين من معانى الحب والعشق والخوف والرجاء الذين تتعبهم أدنى عبادة وتسلبهم الرغبة والاقبال عليها. ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة اخرى

: «ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة[۱۲۳] ربق ۱۲۴] خشوعهم، ولم يتولهم الاعجاب فيستكثروا ما سلف منهم ولا

تركت لهم استكانة[۱۲۵] الاجلال نصيبا فى تعظيم حسناتهم»

، فهناك نقطة لطيفة كامنة فى هذه العبارة أشار إليها بعض شرّاح نهج البلاغة وهى أنّ من يقترب من الملوك والسلاطين والشخصيات التى تبدو رفيعة وعظيمة سرعان ما يكتشف أن قدرتهم و شوكتهم قاصرة زائلة مهما بدت كبيرة، وبامكان مقربيهم أن يبلغوا هذه القدرة يوماً ما، بل حتى أعظم منها.

وهـذا ما يؤدى بدوره إلى الحد من تواضع الآخرين وخضوعهم وطاعتهم لهم، فانّ اضـطروا إلى تعظيمهم ظاهراً، لم يروا لهم مثل هذه العظمة باطناً. أمّا الملائكة فعلى العكس كلما اقتربت

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۷۳

فى مسيرتها من اللّه تكشفت لها حقائق جديدة عن عظمته المطلقة، فيروا فيه ملامح جديدة من صفات الجمال والجلال. من هنا يزدادون له خضوعاً وخشوعاً وتواضعاً كل يوم، فلا يبقى أمامهم من مجال للاعجاب بالحسنات وإكبارها، بل يرون أنفسهم مقصرين على الداوم تجاهه. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه باماطة اللثام عن هذه الحقيقة وهى عدم كلل الملائكة عن عبادته، وليس للفتور من سبيل إليها، كما ليس هناك ما يصدها عن مواصلة مسيرتها العبادية، بل هى دؤوبة على العبادة بدافع من عشقها وإرادتها وعزمها، على غرار الإنسان الذى لايكل عن استنشاق الهواء الطلق طيلة عمره وإن امتد لالاف السنين. ثم تناول الإمام عليه السلام هذه المسألة من مختلف الجوانب بثمان عبارات. فقال فى العبارة الاولى

«ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤبهم»[۱۲۶]

كما قال سبحانه وتعالى فى محكم كتابه العزيز واصفاً الملائكة:

«يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ»[۱۲۷] ثم قال عليه السلام فى العبارة الثانية:

«ولم تغض ۱۲۸]

رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربّهم»

، وذلك لأنّ عشقهم للكمال دائمى لايتوقف، وعلمهم متزايد بربهم- وبناءاً على هذا فليس هنالك ما يدعو إلى غفلتهم عن العبادة، أو يقلل من أملهم. وقال فى العبارة الثالثة أن طول مناجاتهم لم تجف ألسنتهم وتعجزها عن العبادة:

«ولم تجف لطول المناجاة أسلات ۱۲۹] ألسنتهم»

، طبعاً ليس هنالك لساناً وفما للملائكة كما لدينا، بحيث تقل رطوبته بفعل كثرة الذكر والمناجاة فيصيبه الجفاف واليبس، بل العبارة كناية لطيفة عن عدم ضعفهم وفتورهم فى تسبيحهم وتضرعهم للّهسبحانه وتعالى ثم قال عليه السلام فى العبارة الرابعة:

«ولاملكتهم الاشغال فتنقطع بهمس ۱۳۰] الجؤار[۱۳۱]، إليه أصواتهم»

، فالواقع ليس لهؤلاء من عمل سوى العبادة والطاعة والعبودية، وهذه الامور جزء لايجتزأ من ذواتهم ووجودهم وإيمانهم. وليس لهذه الامور أن تخلق أى تعب أو ملل، كالقلب المعافى الذى لايشعر بالتعب ولو عمل لسنين، وقال عليه السلام فى العبارة الخامسة:

«ولم تختلف فى مقاوم ۱۳۲] الطاعة

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۷۴

مناكبهم»

، ثم أردفها عليه السلام بالقول بعدم خلودهم إلى الراحة ليؤدى بهم ذلك إلى التقصير فى القيام بمهامهم:

«ولم يثنوا[۱۳۳] إلى راحة التقصير فى أمره رقابهم»

فهم على أهبة الاستعداد للعبادة على الدوام. ثم اختتم ذلك بقوله عليه السلام:

«ولاتعدوا على عزيمة جدهم بلادة الغفلات، ولاتنتضل ۱۳۴] فى هممهم خدائع الشهوات»

، حقاً أنّ وجودهم خال من أية شهوة وغفلة، ولهم ايمان وحب لخالقهم على درجة من القوة والرسوخ بحيث لايتسلل إليهم التعب والملل أبداً فى مسيرتهم العبادية وطاعتهم لربّهم.

تأمّل: الناس والملائكة

هـدف الإمام علیه السـلام باختصار بیان حال الملائکهٔ فی طاعتها وعبودیتها للّهسـبحانه بعبارات مفعمهٔ بالکنایات والتشبیهات المقرونهٔ بروعـهٔ الدقـهٔ، و الجمال لیکون ذلک فی الواقع درساً لکافهٔ الأفراد فی أنّ الإنسان إذا شق طریقهٔ إلی اللّه وسار نحو مقام القرب الإلهی وذاق بروحه وأحاسـیسه حلاوهٔ معرفـهٔ اللّه وارتوی من حبه وعشـقه، إلّایستشـعر التعب والفتور أبـداً فی مسـیرته العبودیـهٔ وطاعته لربه، وعلیه أن یکون أکثر جدیهٔ وعزماً کلما تقدم فی هذه المسیرهٔ.

فقد ورد فی سیرهٔ الائمهٔ ورواد الطریق من العلماء الأعلام ما یشیر إلی أنّ الإنسان یمکنه أنّ یکون علی غرار الملائکهٔ فی هذه الامور، بل له أن یسبقهم ویتفوق علیهم، وذلک لأنّ الملائکهٔ مجردهٔ من الأهواء والشهوات و الغفلهٔ، فاذا نال الإنسان تلک الصفات، کان حقاً أفضل من الملائکهٔ. جاء فی الخبر أنّ الإمام زین العابدین علی بن الحسین علیه السلام لم ینقطع أربعین سنهٔ عن صلاهٔ اللیل، حتی أنّه کان یصلی الصبح بوضوء المغرب:

«إنّه علیه السلام صلی أربعین سنهٔ صلاهٔ الصبح بوضوء المغرب»[۱۳۵]

، وقال الإمام الباقر علیه السلام فی وصفه لعبادهٔ الإمام علی علیه السلام:

«ما أطاق أحد عمله وإن کان علی بن الحسین لینظر فی کتاب من کتب علی

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۷۵

فیضرب به الأرض ویقول من یطیق هذا»[۱۳۶].

القسم السادس عشر: عودا علی بدء فی صفات الملائکهٔ

اشارهٔ

«قَدْ اتَّخَذُوا ذَا الْعَرْشِ ذَخِیرَةً لِیَوْمِ فَاقَتِهِمْ، وَیَمَّمُوهُ، عِنْدَ انْقِطَاعِ الْخَلْقِ إلی الْمَخْلُوقِینَ بِرَغْبَتِهِمْ، لَایَقْطَعُون أَمَدَ غَایَةِ عِبَادَتِهِ وَلَایَرْجِعُ بِهِم الاسْتِهْتَارُ بِلُزُوم طاعَتِهِ، إلَّا إلَی مَوَادَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَیْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَمَخَافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ، فَیَنُوا فی جِدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمُ الاطْمَاعُ فَیُؤْثِروُا وَشِیکَ السَّعْی عَلی اجْتِهَادِهِمْ. لَمْ یَسْتَعْظِمُوا مَآ مَضَی مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَو اسْتَعْظَمُوا ذلِکَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَجَلِهِمْ، وَلَمْ یَخْتَلِفُوا فِی رَبِّهِمْ بِاسْتِحْواذِ الشَّیْطَانِ عَلَیْهِمْ. وَلَمْ یُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ، وَلَا تَوَلَّاهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ، وَلَا تَشَعَّبَتْهُمْ مَصَارِفُ الرِّیَبِ، وَلَا اقْتَسَمَتْهُمْ أَخْیَافُ الْهِمَمِ، فَهُمْ أُسَرَاءُ إِیمَانٍ لَمْ یَفُکَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَیْغٌ وَلَا عُدُولٌ وَلَاوَنیً وَلَا فُتُورٌ، وَلَیْسَ فی أَطْبَاقِ السَّماءِ مَوْضِعُ إِهَابٍ إلَّا وَعَلَیْهِ مَلَکٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ، یَزْدَادُونَ عَلَی طُول إلطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً، وَتَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِی قُلُوبِهِمْ عِظَماً».

الشرح والتفسیر

تطرق الإمـام علیه السـلام فی هـذا المقطع من الخطبـهٔ إلی صـفات اخری للملائکـهٔ (وکأنّ الإمام علیه السـلام یوصـی الناس بأنّکم إذا أردتم أن تصبحوا کالملائکهٔ وتسـلکوا سبیل القرب إلی اللّه، علیکم أن تتحلوا بهذه الصـفات) فاشار علیه السـلام بادیء ذی بدء إلی مقـامهم فی توحیـد الأفعـال وتوجههم الخـاص إلی ربّهم وانصـرافهم عمن سواه فقال علیه السـلام: إنّهم جعلوا ذا العرش وحبّه وطاعته ذخیرهٔ

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۷۶

لیوم الفاقهٔ وقد خلوا بکل کیانهم للخالق حین کرّس الخلق أفکارهم فی المخلوقات

«قد اتخذوا ذا العرش ذخیرهٔ لیوم فاقتهم، ویمموه ۱۳۷] عند انقطاع الخلق إلی المخلوقین

برغبتهم» «ذا العرش»

إحدی صـفات اللّه التی تدل علی ذروهٔ عظمهٔ ذاته سـبحانه، وذلک لأنّ العرش أسمی موجودات عالم الخلقهٔ. وقد اقتبست هذه الصفهٔ

من الآية الشريفة: «ذُوالعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ»[۱۳۸]. نعم فلم يتعلق قلب هؤلاء سوى باللَّه ولايرون من مصدر غيره للخير والفضيلة والبركة والنجاة فى هذا العالم، ولاينال المؤمن هدفه ما لم يسلك هذا السبيل لمعرفة اللَّه، أمّا العبارة:

«ذخيرة ليوم فاقتهم»

فتفيد وقوف الملائكة يوم القيامة للحساب وانتظار هم للآجر والثواب. ثم قال عليه السلام:

«لايقطعون أمد غاية عبادته ولايرجع بهم الاستهتار[۱۳۹] بلزوم طاعته إلّاإلى مواد[۱۴۰] من

قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته»

، نعم فدوافع هؤلاء فى الطاعة والعبودية إنّما يستقونها من مصدر خوف اللَّه ورجائه الذى يضاعف معرفتهم باللَّه وسلوك السبيل المؤدى إلى قربه. ولذلك أكد الإمام عليه السلام فى العبارة اللاحقة فى أنّ أسباب خوف اللَّه لم تنقطع عنهم ليهنوا فى سعيهم وجدهم

«لم تنقطع أسباب الشفقة منهم، فينوا[۱۴۱] فى جدهم»

ثم أردفها عليه السلام بالقول بأنّ الاطماع لم تأسرهم وتستحوذ عليهم ليقدموا سرعة سعيهم فى امور الدنيا على جدهم فى امور الآخرة:

«ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك ۱۴۲] السعى على اجتهادهم»

أجل فالذى يضعف الإنسان فى طريق عبوديته الحق هو السقوط فى مخالب الأهواء والأطماع التى تعطل قواه وتصده عن طاعة ربّه.

ثم قال عليه السلام: فى صفة آخرى من صفات الملائكة

«لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم،

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۷۷

ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم»

فالعبارة درس عظيم لكافة الأفراد فى استصغار أعمالهم عند اللَّه، وذلك أنّهم إذا أكبروا هذه الأعمال تعلقوا بها وازداد أملهم بها فيفتروا فى سعيهم؛ الأمر الذى يسلبهم خوف اللَّه الذى يعتبر من أحد العوامل المهمة للحركة نحو الكمال. وبغض النظر عما سبق فما عساناً أن نكون وما أعمالنا التى تليق بساحة الربوبية المطلقة. كان الحديث فى بعض الصفات السابقة عن عدم اعجاب الملائكة بأعمالها ونفسها، وجرى الحديث هنا عن تأثير الاعجاب فى تغلب الرجاء على الخوف؛ الأمر الذى يصد أصحاب الحق عن مواصلة مسيرتهم و يمنعهم من التكامل، وذلك لأنّ الإنسان إذا شعر بكبر أعماله عند اللَّه، راوده الشعور بانه دائن، ومن رأى نفسه دائنا اكتفى بما أتى من أعمال وتخلف عن سلوك سبيل التكامل.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن سائر خصائص الملائكة التى يحتاجها الإنسان بشدة، ومنها عدم اختلافهم فى ربّهم، ثم يعزى الإمام عليه السلام هذا الاختلاف إلى الوساوس الشيطانية أحيانا، أو الرذائل الأخلاقية أحياناً اخرى فقال عليه السلام:

«لم يختلفوا فى ربّهم باستحواذ الشيطان عليهم»

فالعبارة تحمل رسالة واضحة للجميع، وهى أنّ مصدر اختلاف المذاهب والأديان إنّما يعود بالدرجة الأساس إلى الوساوس الشيطانية، وذلك لأنّ الاختلاف- لاسيما إن كان عقائدياً- إنّما يفضى لأنواع النزاعات والحروب والاضطرابات؛ الأمر الذى يهدد مصيرالإنسان ويقضى على سعادته. ثم أشار عليه السلام بعد ذلك إلى العوامل الداخلية والرذائل الأخلاقية التى تؤدى إلى الاختلاف، وإن التعامل السيىء لم يفرق هذه الملائكة، ولم يبعدها الحسد عن بعضها، كما أن الشك والترديد لم يفرقها ويشتت أمرها:

«ولم يفرقهم سوء التقاطع، ولاتولاهم عن التحاسد، ولاتشعبتهم مصادر الريب، ولا اقسمتهم أخياف ۱۴۳]

الهمم»

فالواقع هو أنّ عمدهٔ عوامل الاختلاف قد بینت فی هذه العبارات القصیرهٔ. فلو تعامل الأفراد مع بعضهم البعض الآخر بشکل صحیح وفق معاییر الادب، لحیل دون أغلب

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۷۸

الخلافات التی یفرزها سوء التعامل. وذا لم یحسد بعضهما البعض الآخر لاجتث العامل المهم الآخر من عوامل الخلاف والشقاق. وإن طرحوا عنهم الشکوک فی مختلف المسائل وتعاملوا مع ما یواجههم استناداً إلی العلم والمعرفهٔ لحد من نسبهٔ الخلاف. وأخیراً لو أذعن الجمیع لاختلاف الأفکار والتوجهات وتشعب الاذواق والآراء لقل حجم التقاطع والانفصال، فقد شاء اللَّه أن یخلق الناس علی أنواع واختلاف فی الأفکار والتطلعات، ولو هم کل أحد بفرض آرائه علی الآخرین، فمن الیقین لتعذر عیش شخصین إلی جانب بعضها دون بروز حالهٔ من التوتر والاضطراب. صحیح أن لیس للملائکهٔ من شهوات کما للإنسان، وأنّ أغلب دوافع الذنب والمعصیهٔ لیست متوفرهٔ فیهم. إلّاأنّهم علی کل حال قد زودوا بالعقل والشعور والاختیار وحب الذات والقدرهٔ علی المعصیهٔ والتمرد علی الطاعهٔ. إلّاأنّ عرفان الملائکهٔ باللَّه حال دون ارتکابها للذنب؛ وذلک أنّ مقارفتها للذنب والمعصیهٔ کلما کانت متعذرهٔ، کانت جدیرهٔ بکل هذا المدح والتمجید وجعلها أسوهٔ للاقتداء بها من قبل الناس. وبناء علی هذا فانّ الإنسان إذا بلغ هذه الدرجهٔ من الکمال والمعرفهٔ کان له أن یصون نفسه من التلوث بالذنب. ثم قال علیه السلام: فی ختام الکلام علی سبیل نتیجهٔ قصیرهٔ بلیغهٔ

«فهم اسراء ایمان لم یفکهم من ربقته زیغ ۱۴۴] ولا عدول ولا ونی ۱۴۵] ولافتور»

، فالتعبیر بالاسراء والربقهٔ (الحبل ذو الحلقات المتعددهٔ) یفید مدی التزام الملائکهٔ بالإیمان، فقد سبحوا فی بحار معرفهٔ اللَّه وسلموا لذاته المطلقهٔ وکأنّهم لفوا أعناقهم بطوق محکم من الإیمان، ولایستطیع أی عامل أن یرفع هذا الطوق من أعناقهم، ولو عاش الناس مثل هذا التسلیم للحق والالتزام بالإیمان، لما وسع دوافع الذنب والمعصیهٔ أن تتسلل إلی وجودهم قط. ثم اختتم الإمام علیه السلام کلامه بهذا الشأن بالحدیث عن مسألهٔ اخری وهی کثرهٔ الملائکهٔ وسعهٔ معرفتها، حیث یختتم هنا شرحه لصفات الملائکهٔ، بحیث لایوجد، أدنی موضع فی السماء إلّاوقد شغل بملک ساجد، وآخر ساع حافد منهمک فی أداء مسؤولیته، ومن شأن هذه الطاعهٔ أن تضاعف معرفتهم لربّهم، کما تزداد عزهٔ ربّهم فی قلوبهم عظمهٔ:

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۷۹

«ولیس فی أطباق السماء موضع إهاب ۱۴۶] إلّاوعلیه ملک ساجد أو ساع حافد[۱۴۷] یزدادون

علی طول الطاعهٔ بربّهم علماً، وتزداد عزهٔ ربّهم فی قلوبهم عظماً».

فالعبارات تفید کثرهٔ عدد الملائکهٔ من جانب بحیث ملأت جمیع أقطار السموات بما فیها مدبرات الأمر وامناء الوحی والمنهمکین بالطاعهٔ والعبودیهٔ. من جانب آخر فان کلا الطائفتین من الملائکهٔ لکثرهٔ طاعتها لربّها إنّما تزداد یوما بعد آخر علما ومعرفهٔ فیصبحوا أکثر قربا للَّهومعرفهٔ به. وهذا درس آخر للناس لیعلموا أنّ الطاعهٔ والتقوی سبب ازدیاد العلم والمعرفهٔ والتعرف علی صفات اللَّه الجمالیهٔ والجلالیهٔ. والواقع هو أنّ هنالک تأثیر متبادل بین الطاعهٔ والتقوی والمعرفهٔ حیث تحکمهما علاقهٔ طردیهٔ، فالمعرفهٔ تقود إلی الطاعهٔ، کما أنّ الطاعهٔ تکون سببا للعلم والمعرفهٔ الأعمق والأشمل. فقد ورد فی الحدیث أنّ رجلًا سأل الإمام الصادق علیه السلام: هل الملائکهٔ أکثر أم الناس؟ فاجاب علیه السلام:

«والذی نفسی بیده لعدد ملائکهٔ اللَّه فی السموات أکثر من عدد التراب فی الأرض؛ وما فی السماء من موضع قدم إلّاوفیها ملک یسبحه ویقدسه»[۱۴۸].

تأمّل: الناس والملائکهٔ ثانیهٔ

بين الإمام عليه السلام فى هذا الخطبة صفات الملائكة بصورة واسعة جداً، وبالطبع فانّ هنالك هدفا مهما كان ينشده الإمام عليه السلام من ذلك. ويبدو أنّ للإمام عليه السلام هدفان هما: ذلك المطلب الذى وردت من أجله الخطبة ويكمن فى معرفة الصفات بعيدا عن الشرك سواء عن طريق التشبيه أو التعطيل.

والآخر هو سوق الإنسان نحو الملائكة والتحلى بصفاتها؛ ومنها أنّهما كها بالعبادة والطاعة والتواضع والخضوع واتباع الأوامر؛ فلا يكلون ولايتعبون ولايفترون، وليس بينهم من

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۸۰

أحقاد وضغائن وحسد، كما ليس بينهم اختلاف وتفرق وتشتت، وأخيراً لايكبرون أعمالهم ولايتسلل إليهم اليأس والقنوط، ولايفكرون سوى فى اللّه وطاعته. صحيح أن خلق الإنسان يختلف تماماً وخلق الملائكة، فالعقل هو الذى يحكم الملائكة، بينما ركبت إلى جانبه الشهوة فى الإنسان. إلّاأنّ هذا الإنسان الخليط من الصفات الحيوانية والعقلائية قد ينحدر حتى يكون كالحيوان الوحشى الكاسر

«بَلْ هُمْ أَضَلُّ»

، كما يمكنه أن يتسامى بفضل ما زود به من استعدادات ليفوق الملائكة فيبلغ مرتبة لاتتسنى لغيره «فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى ، ومن هنا يمكن للملائكة أن تكون قدوة للإنسان.

من جانب آخر فانّ العلم. بحضور الملائكة فى أرجاء العالم- بحيث ليس هنالك شبراً فى هذا العالم المترامى الأطراف يخلو منها- دلالة مهمّة على فعالية التدبير الإلهى فى هذا العالم؛ الأمر الذى لايخفى دوره فى المسائل التربوية. وناهيك عما سبق فانّ هذه الصفات تحمل رسالة مهمّة للإنسان وهى عدم الاغترار بالأعمال واستكثارها إذا ما وقف بين يدى ربّه للصلاة أو ناجى ربّه وتضرع إليه، بل إن نهض فى جوف الليل وصلى والناس نيام. فيطرد عن نفسه هذه الأفكار الشيطانية، فالذات الإلهية مطلقة غنية ليست بحاجة إلى العبادة، بغض النظر عن كثرة عدد الملائكة التى تتقلب فى طاعة اللّه ساجدة وراكعة وقائمة. والحق أنّ قدراً من الدقة والتمعن فى الصفات التى أوردها أميرالمؤمنين على عليه السلام بشأن الملائكة لتأخذ بيد الإنسان إلى عالم النور والعرفان وتوقفه على صغر أعماله وطاعاته وتعرفه بسر القرب من اللّه والفوز برضوانه.

وتكشف النقاب عن عدم عبثية شدة قرب الملائكة من اللّه، إلى جانب عدم بلوغ الإنسان أهدافه المعنوية الرفيعة المرسومة له دون السعى والجد والاجتهاد والطاعة.

فقد ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حين سأله أحد أصحابه وهو عبداللّه بن سنان:

أيّهما أفضل الملائكة أم بنى آدم؟ قال عليه السلام أميرالمؤمنين على عليه السلام:

«إنّ اللّه ركب فى الملائكة عقلًا بلا شهوة، وركب فى البهائم شهوة بلا عقل، وركب فى بنى آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم»[۱۴۹].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۸۱

طبعاً لايعنى هذا الحديث أنّ الملائكة لاتملك لنفسها اختياراً، أو أنّها تخلو من عوامل الذنب والمعصية، فعدم وجود الشهوة فى الملائكة إنّما يحول دونها ودون بعض دوافع الذنوب لا جميعها.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۸۳

القسم السابع عشر: ظهور اليابسة و استقرار البحار

«كَبَسَ الأَرْضَ عَلى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَلُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِهَا، وَتَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتُ أَثْبَاجِهَا، وَتَرْغُوا زَبَداً

كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِيَاجِهَا، فَخَضَعَ جِمَاحُ الْمَاءِ الْمُتَلَاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا، وَسَكَنَ هَيْجُ ارْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِهَا، وذَلَّ مُسْتَخْذِياً، إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بَكَوَاهِلِهَا، فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ، سَاجِياً مَقْهُوراً، وَفِى حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً، وَسَكَنَتِ الأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِى لُجَّةِ تَيَّارِهِ، وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَإِعْتِلَائِهِ، وَشُمُوخِ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوَائِهِ، وَكَعَمَتْهُ عَلَى كِظَّةِ جَرْيَتِهِ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيَفَانِ وَثَبَاتِهِ».

الشرح والتفسير

مرّ علينا فى الخطبة الاولى من نهج البلاغة ما أورده الإمام عليه السلام بشأن خلق الأرض فقال: ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره، متراكماً زخاره، حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة، فأمرها برده، وسلطها على شده ... فسوى منه سبع سموات.

وقد أشار الإمام عليه السلام هنا فى هذا الموضع من الخطبة إلى ذلك الأمر الذى ذكره سابقاً فى أطار عرضه لخلق الأرض بعبارات جديدة رائعة فقال عليه السلام:

«كبس ۱۵۰] الأرض على مور[۱۵۱] أمواج

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۸۴

مستفلحة[۱۵۲]، ولجج بحار زاخرة[۱۵۳] تلتطم أو اذى ۱۵۴] أمواجه، وتصطفق ۱۵۵] متقاذفات ۱۵۶]

أثباجها[۱۵۷] وترغوا[۱۵۸] زبداً كالفحول عند هياجها»،

ولعل هذه العبارات من قبيل الأمواج والبحار وأمثال ذلك ممّا كان موجوداً قبل بداية الخلق، أى فى ذلك الزمان الذى لم يكن فيه الماء، بل حتى الليل والنهار، إشارة إلى المواد المذابة التى كانت موجودة قبيل انبثاق الخليقة وقد تلاطمت وتلاشت إثر وقوع الانفجارات العظيمة، فظهرت الرغوات الواسعة على هذه المواد المذابة ثم قذفت فى الفضاء لتكون الأرض والكواكب والسيارات، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى مرحلة اخرى من مراحل ظهور العالم فقال:

«فخضع جماح ۱۵۹] الماء المتلاطم لثقل حملها،

وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلها[۱۶۰]، وذل مستخذيا إذ تمعكت ۱۶۱] عليه بكواهلها[۱۶۲]»

، ثم أردف الإمام عليه السلام ذلك بقوله:

«فاصبح بعد اصطخاب ۱۶۳] أمواجه، ساجياً[۱۶۴] مقهوراً، وفى

حكمة[۱۶۵] الذل منقادا أسيراً»

، فالذى يستفاد من هذه العبارات أنّ ظهور الأرض (وسائر

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۸۵

الكرات السماوية) على المادة المذابة الاولى كان سببا لاستقرارها بالتدريج وكبح جماحها واضطرابها. كما يحتمل أن تكون هذه العبارات إشارة إلى الأمطار والسيول فى بداية ظهور الكرة الأرضية، بحيث شكلت محيطات متلاطمة، إلّاأنّ هذه الأمواج أخذت بالاستقرار نسبياً على سطح المحيطات بفعل الجاذبية الأرضية. حتى أخذت تظهر اليابسة، من هنا قال لاحقابان الأرض قرت وظهرت يبوستها شيئاً فشيئاً وحد من حركات الماء حتى سكن وقر فى مكانه

«وسكنت الأرض مدحوة[۱۶۶] فى لجة تياره، وردت من نخوة بأوه ۱۶۷] واعتلائه،

وشموخ ۱۶۸] أنقه، وسمو غلوائه ۱۶۹] وكعمته ۱۷۰] على كظة[۱۷۱] جريته ۱۷۲] فهمد[۱۷۳] بعد نزقاته ۱۷۴]، ولبد[۱۷۵]

بعد زيفان ۱۷۶] وثباته ۱۷۷]»،

وهكذا خمدت العواصف الاولى وقطعت الأمطار والسيول ثم هدأت تلك الامواج، فتأهبت الأرض لتقبل الحياة عليها، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى المقطع القادم. وهنا لابدّ من القول بانّ بعض شرّاح نهج البلاغة ذهبوا إلى أنّ الماء قد وجد قبل خلق الكرة

الأرضية، إلّاأنّه كما أشير سابقاً أنّ التعبير بالماء يمكن أن يكون إشارة إلى المواد المذابة السيالة التى وجدت قبل ظهور السماء والأرض.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ٨٧

القسم الثامن عشر: ظهور الجبال والعيون

اشارة

«فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا، وَحمْلِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ الْبُذَّخِ عَلَى أَكْتَافِهَا، فَجَّرَ يَنَابِيعِ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أنوفها، وَفَرَّقَهَا فِى سُهُوب بِيَدِهَا وَأَخَادِيدِهَا، وَعَدَّلَ حَرَكاتِهَا بالرَّسِيَاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدَانِ لِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِى قِطَعِ أَدِيمَها، وَتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِى جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا، وَفَسَخَ بَيْنَ الْجَوِّ وَبَيْنَها، وَأَعَدَّ الْهَوَاءَ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِهَا، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِها».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة- بعد أن شرح كيفية ظهور الأرض- إلى مسألة ظهور العيون والآثار المهمة للجبال فى استقرار الأرض ومن عليها، فتطرق إلى أهم أسباب الحياة على الأرض وفى مقدمتها الماء والسكون والاستقرار فقال عليه السلام:

«فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها، وحمل شواهق ١٧٨] الجبال الشمخ ١٧٩] البذخ ١٨٠] على أكتافها، فجر ينابيع

العيون من عرانين ١٨١] أنوفها وفرقها فى سهوب ١٨٢] بيدها[١٨٣] و أخاديدها[١٨٤]»

فالعبارة تفيد أن اؤل

نفحات الولاية، ج۴، ص: ٨٨

ما ظهر على الأرض الجبال ثم تبعتها العيون؛ الأمر الذى أيدته أبحاث علم طبقات الأرض حيث تشققت القشرة الأرضية فى البداية إثر البرودة، فكان فى تلك الشقوق حفر عظيمة استوعبت الماء النازل من السماء ثم جرى بشكل عيون و ينابيع. والعبارة

«عرانين أنوفها»

التى تعنى ما صلب من عظم الانف، هى كناية رائعة عن قمم الجبال، بل أن تشبيه نتوءات الجبال بالانف تشبيه رائع يدل على أنّ جوف الجبل ليس مملوءاً، بل فيها المزيد من الأجزاء الخالية بحيث تبدوا أحياناً للعيان على هيئة غيران وكهوف ومصادر لادخار المياه.

ثم اشار عليه السلام إلى سكون الأرض والسيطرة على حركتها بالجبال، فقال:

«وعدل حركاتها بالراسيات ١٨٥] من جلاميدها[١٨٦] وذوات الشناخيب ١٨٧] الشمّ ١٨٨] من صياخيدها[١٨٩]».

وهكذا سكنت حركات الأرض بفعل نفوذ الجبال فى سطحها ورسوخها فى الأعماق واستقرارها على الفلاة فحالت دون اضطرابها:

«فسكنت من الميدان ١٩٠] لرسوب الجبال فى

قطع أديمها[١٩١] وتغلغها[١٩٢] متسربة[١٩٣] فى جوبات ١٩۴] خياشيمها[١٩۵]، وركوبها أعناق سهول

الأرضين وجراثيمها[١٩۶]».

والحق أنّ ما أورده الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة هو ذات ما أثبته العلم الطبيعى؛ الأمر الّذى أشار إليه القرآن الكريم فى أنّ الجبال بمثابة مسامير الأرض:

«وَالجِبالَ

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۸۹

أَوْتاداً»[۱۹۷]

، كما صرح القرآن قائلًا: «وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ»[۱۹۸]. طبعا هناك عدة فوائد اخرى للجبال؛ ومنها خزن المياه التى تخرج منها أحياناً كعيون، وأحياناً اخرى على هيئة صقيع كثير ذاب ماءاً فشكل الأنهار، ناهيك عن سائر فوائد التى ذكرناها فى شرح الخطبة الاولى فى المجلد الأول من هذا الكتاب. ثم أشار عليه السلام إلى امور مهمّة اخرى لاعداد الأرض بغية عيش الإنسان وممارسة حياته عليها، فى أنّ الله جعل فاصلة بين الأرض والجو، وأعد الهواء والنسيم إلى جانب توفير كافة ما يحتاج إليه سكنة الأرض:

«وفسح بين الجو وبينهما، وأعد الهواء متنسما[۱۹۹] لساكنها، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها[۲۰۰]»

، فقد ضمنت هذه العبارة أشاره إلى الأركان الأصلية للحياة ومعيشة الإنسان والحيوان، وفى مقدمتها الهواء، أو بعبارة اخرى الاوكسجين الذى لايستغنى عنه الإنسان لبضع (دقائق حيث يموت إذا قطع عنه. إلّاأنّ الحق سبحانه وتعالى خلقه بكمية كافية وفى جميع الاماكن بحيث يحصل عليه الإنسان دون أدنى جهد أو تعب. كما يحصل عليه الجميع على السواسية غنيهم وفقيرهم وكبيرهم وصغيرهم وعجوزهم وفتاهم وعاجزهم وناشطهم. ثم أشار على نحو الاجمال إلى كل ما يلزم الإنسان والحيوان للمعيشه على الأرض بعبارة قصيرة أوجزها فى المفردة «المرافق». أمّا ما المراد بالجو فى العبارة الذى فصله الله عن الأرض، فقد قال البعض المراد به الفضاء، ولمالم يكن الفضاء جسما أو مادة فلا يبدو التعبير با يجاد الفاصلة بينه وبين الأرض مناسبا. و يمكن أن يكون المراد بالجو الطبقات التى وراء الهواء، كطبقة الأوزون التى لايمكنها تلبية الحاجة التنفسية للإنسان لو كانت فاصلتها مع الأرض قليلة، وكانت الطبقة الجوية رقيقة. أضف إلى ذلك فانها تدعو إلى اضطراب سائر شرائط حياة الإنسان وكافة الأحياء على الأرض.

تأمّل: أسرار خلق الجبال

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۹۰

لقد أعد الحكيم سبحانه بمقتضى قدرته وعلمه كافة أسباب الحياة ومتطلبات العيش والوسائل التى يحتاجها الإنسان قبل خلقه؛ الأمر الذى أشارت الخطبة إلى جانب منه، ومن ذلك استقرار الأرض، فلو كانت القشرة الأرضية فى حالة حركة لتعذرت الحياة عليها، و الآخر توفير الهواء بهذه الصورة الواسعة حيث يعتبر مادة الحياة فى السفر والحضر وفى البيت وخارجه وفى اليقظة والمنام وهو معه أينما كان، وتوفير المياه والعيون وجعلها تحت تصرف الإنسان، إلى جانب نزول الأمطار التى تروى كافة المواضع المرتفعة والعالية وترويها بالمياه، وهذا ما سيأتى ذكره فى الأقسام القادمة من الخطبة.

وظهور الجبال التى تلعب دوراً مهما فى حياة الإنسان، بل يمكن القول أنّ الحياة البشرية مهددة بالاخطار لولا هذه الجبال للأسباب التالية.

أولًا: دورها فى الحيلولة دون اضطراب الأرض بفعل الضغط الداخلى.

ثانياً: الحيولة دون عدم استقرار الأرض إثر الضغط الخارجى الناجم عن جاذبية الشمس والقمر وظاهرة المد والجزر الناشئة عنهما.

ثالثاً: كونها الملجأ الأمن ازاء العواصف التى تهدد كل مقومات وعناصر حياة الإنسان.

رابعاً: وسيلة لايقاف السحب ونزول الأمطار.

خامساً: عامل مهم لادخار المياه بصورة صقيع متراكم فى سطحها الخارجى بحيث تتحول بالتدريج إلى ماء طيلة السنة.

سادساً: موضع للآبار الجوفية التى تختزن فى حفر عظيمة داخلها وتجرى كعيون.

سابعاً: تمنع الاصطدام الشديد للهواء بطبقة الأرض.

ثامنـاً: تجعل الأرض قابلـة للاسـتفادة العمليـة، وبالنظر لاختلاف درجات حرارة وسط الجبال ونقاطها العلويـة والسـفلية فانها توفر مناخاً مناسباً لنمو مختلف النباتات والمحاصيل.

تاسعاً: انها مراكز للمعادن العظيمة التى تلعب دوراً مهما فى حياة الإنسان.

عاشرا: يستخرج منها بعض المواد المهمّة فى البناء ولاسيما الحجر.

ومن هنا عـدها القرآن الكريم من النعم العظيمة ذات الفوائد الكثيرة، فقال «وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِىَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ»[۲۰۱].

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۹۱

القسم التاسع عشر: إحياء الأرض الميتة بالسحب الممطرة

اشارة

«ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ الأَرْضِ الَّتِى تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا، وَلَا تَجِدُ جِدَاوِلُ الأَنْهَارِ ذَرِيعةً إِلى بُلُوغِهَا، حَتَّى أَنْشَأَلَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِى مَوَاتَهَا، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْد افْتِرَاقِ لُمَعِهِ، وَتَبَايُنِ قَزَعِهِ، حَتَّى إِذَا تمخضت لُجَّةُ الْمُزْنِ فِيهِ، وَالْتَمَعَ بَرْقُهُ فِى كُفَفِهِ، وَلَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ فِى كَنَهْوَرِ رَبَابِهِ، وَمُتَرَاكِم سَحَابِهِ، أَرْسَلَهُ سَحّاً مُتَدَارِكاً، قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ، تَمْرِيهِ الْجَنُوبُ درر أَهَاضِيبِهِ، وَدُفَعَ شَآبِيبِهِ. فَلَمَّآ أَلْقَتِ السَّحابُ بَرْكَ بِوَانَيْهَا، وَبَعَاعَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعِبْءِ المَحْمُولِ عَلَيْهَا، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الأَرْضِ النَّبَاتَ، وَمِنْ زُعْرِ الْجِبَالِ الأَعْشَابَ، فَهِى تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا وَتَزْدَهِى بِمَا أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ، أَزَاهِيرِهَا، وَحِلْيَةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا، وَجَعَلَ ذلِكَ بَلَاغاً لْلأَنَامِ، وَرِزْقاً لْلأَنْعَامِ، وَخَرَقَ الْفِجَاجَ فِى آفَاقِهَا، وَأَقَامَ المَنَارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِهَا».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى نعمة مهمّة اخرى لا تتمّ الحياة بدونها على سطح الأرض، حيث شرحها بعبارات لطيفة رائعة، فقال عليه السلام:

«ثم لم يدع جرز[۲۰۲] الأرض التى

تقصر مياه العيون عن روابيها[۲۰۳]، ولاتجد جداول الأنهار ذريعة إلى بلوغها، حتى أنشأ لها

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۹۲

ناشئة السحاب تحيى، مواتها وتستخرج نباتها».

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السـلام أشار بصورة عابرة إلى الاقسام الثلاثة للرى والسقى: السقى الطبيعى بواسطة العيون المليئة بالمياه، والسـقى عن طريق الجـدوال والآبار وتوجيه مياه الأنهار الطبيعية، والسـقى عن طريق الأمطار الأهم من كل ذلك، وذلك لوجود بعض المناطق فى الأرض التى يتعذر سقيها بغير الأمطار، وهى المناطق الكثيرة، فلولا مياه الأمطار لماتت أجزاء واسعة من الأرض. اضف إلى ذلك فما لاشك فيه أنّ الأنهار والعيون إنّما تكتسب مياهها من الأمطار. على كل حال فانّ السـحب وبالتالى الأمطار تقوم بهذه المهمة فى السقى و التى كلفها بها اللّه فقال عليه السلام:

«الف غمامها بعد افتراق لمعه ۲۰۴]، وتباين قزعه ۲۰۵]، حتى إذا تمخضت ۲۰۶]

لجة المزن ۲۰۷] فيه والتمع برقه فى كففه ۲۰۸]، ولم ينم وميضه ۲۰۹] فى كنهور[۲۱۰] ربابه ۲۱۱]، متراكم

سحابه، أرسله سحاً[۲۱۲] متاركاً، قد أسف ۲۱۳] هيدبه ۲۱۴]، تمريه ۲۱۵] الجنوب درر[۲۱۶] أهاضيبه ۲۱۷]، ودفع

شابيبه ۲۱۸]»

، فقد استبطنت هذه العبارات عدّة مواضيع علمية مهمة: ومنها الإشارة إلى مهمّة

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۹۳

الريح التى تؤلف بين السحب المتفرقة المنبعثة من البحار لتتكون منها الأمطار الغزيرة. ثم تطرق عليه السلام إلى تجمع السحب والغيوم والضغط الذى تسلطه كل واحدة على الأرض تأهباً لهطول الأمطار إلى جانب دور البرق فى ذلك الهطول، لاننا نعلم أنّ البرق إنّما يحصل من خلال الكهربائية الموجبة والسالبة، فيجذب إليه مقداراً كبيراً من الهواء ويقلل من ضغطه فاذا قلّ ضغط الهواء تمهدت الظروف لسقوط الأمطار. ثم واصل الإمام عليه السلام الكلام فى دور الرياح وأنّها بمثابة الأصابع التى تستخرج الحليب من ضرع الثدى، فتفصل السحب والغيوم عن الهواء وتبعث بمياه الأمطار هنا وهناك. فكل هذه الامور تشير إلى أن الخالق الحكيم قد أعدّ جميع المقدمات ودبر كافة الاسباب من أجل رى الاراضى المرتفعة والجافة. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى آثار المطر على الأرض وما ينطوى عليه من بركات وفوائد فقال:

«فلما ألقت السحاب برك ۲۱۹]

بوانيها[۲۲۰] وبعاع ۲۲۱] ما أستقلت ۲۲۲] به من العبث ۲۲۳] المحمول عليه، أخرج به من هوامد[۲۲۴] الأرض

النبات، ومن زعر[۲۲۵] الجبال الأعشاب»

، فقد أشارت هذه العبارات الرائعة إلى مسألة وهى أنّ السحب كأنّها حبلى فاذا هطلت الأمطار الثقلية وضعت حملها؛ الحمل الذى يفيض الحياة والبركة والجمال لكى تشمل الصحارى الجرداء أطراف قمم و سفوح الجبال- التى يصعب على الإنسان سقيها- فتخرج منها النباتات التى تعود بالفائدة على الناس. ثم واصل عليه السلام حديثه برسم صورة رائعة عن الطبيعة التى تتمخض عن ذلك المطر، فقال

«فهى تبهج ۲۲۶] بزينة

رياضها، وتزدهى ۲۲۷] بما البسته من ريط[۲۲۸] أزاهيرها[۲۲۹] وحيلة ما سمطت ۲۳۰] به من ناضر[۲۳۱]

أنوارها[۲۳۲]».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۹۴

ومن الواضع جداً دور الطبيعية وجمالها فى صفاء روح الإنسان وإزالته لتعبه وارهاقه إلى جانب تفعيل قوته وطاقته؛ وعليه فالحديث لايقتصر على مسألة الجمال، وإن كان هذا الجمال يمثل جانباً من جمال الحق سبحانه وجلاله؛ بل إنّ هذا الجمال يعد أحد عوامل بقاء الحياة وديمومتها، بل ذهب بعض العلماء إلى أهمية دروه حتى فى نشاط الحيوانات. ثم قال عليه السلام بأنّ كل ذلك زاد ومتاع للإنسان ورزق للانعام:

«وجعل ذلك بلاغاً[۲۳۳] للأنام، ورزقاً للأنعام»

، فالإنسان لا يستفيد من نعم الطبيعية على مستوى الغذاء فحسب، بل يؤمن عن طريقها لباسه ومسكنه ومركبه، وبصورة عامة كافة حاجاته ومتطلباته. قال القرآن الكريم بهذا الشأن: «أَنّا صَبَبْنا الْماءَ صَبّاً* ثُمَّ شَقَقْنا الْأَرْضَ شَقّاً* فَأَنْبَتْنا فِيها حَبّاً* وَعِنَباً وَقَضْباً* وَزَيْتُوناً وَنَخْلًا* وَحَدائِقَ غُلْباً* وَفاكِهَةً وَأَبّاً* مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ»[۲۳۴].

نعم فالإنسان لايتغذى على النباتات وثمارها، وينسج مفروشاته من مختلف أليافها فحسب، بل يبنى بيوته من خشبها وينصب الخيام من أليافها، كما يغطى أغلب حاجاته ومتطلباته عن طريق منتجات الحيوانات التى تتغذى على النباتات. ثم اختتم خطبته عليه السلام بالاشارة إلى مسألة مهمّة اخرى خلقها الله فى الأرض من أجل الإنسان:

«وخرق الفجاج ۲۳۵]

فى آفاقها وأقام المنار للسالكين على جواد[۲۳۶] طرقها».

فادنى نظرة إلى الأرض وكل بقعة من هذه الكرة الأرضية يتضح من خلالها بأنّ الجبال لم تحول دون الحركة على الأرض أو بفصل بعض بقاعها عن البعض الآخر فحسب، بل جعل فى كافة مواضعها الاودية والشقوق لا يصالها مع بعضها عن طريق السبل والجادات وما إلى ذلك: و قلما يلتفت الإنسان أنه لولا وجود هذه الجادات و الجبال العملاقة المتصلة مع بعضها و التى تشكل جدارا لمنع عبور الناس و الحيوانات و تقسم الأرض إلى إقسام متناثرة لتعرض لعظيم البلاء و عاش أشد الفاقة: «وَجَعَلْنا فِی الْأَرْضِ رَواسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِیها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۹۵

یَهْتَدُونَ»[۲۳۷]

، وقال: «وَمِنَ الجِبالِ جُدَدٌ بِیضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِیبُ سُودٌ»[۲۳۸].

تأمّل: سعة قاعدة اللطف فى التكوين والتشريع

جرت عادة أهل التدبير والحكمة على توفير كافة المقدمات والأسباب التى توصل إلى الهدف، ويتجلى هذا الأمر بأعظم أبعاده فى الخالق الحكيم سواء فى عالم التشريع والتكليف، أم فى عالم العينيات والواقعيات، فقد أعد كافة الشرائط ومهد جميع السبل فى عالم التكليف من أجل الطاعة، حيث زود الإنسان بالعقل والذكاء والفطرة السليمة وانزل الكتب السماوية وبعث الرسل والأنبياء ليتسنى للعباد اتخاذ سبيل الطاعة؛ الأمر الذى اصطلح عليه باللطف فى علم الكلام. وفى عالم الخلق فانّ الله سبحانه أعد كافة وسائل الحياة قبل أن يضع الإنسان قدمه على هذا العالم، فقد أقر سطح الأرض وحال دون حركاتها الطائشة بواسطة الجبال، وشق فيها الآبار والأنهار التى تعتبر مادة الحياة، وسخر السحب لرى المرتفعات، كما خلق مختلف النباتات التى يتغذى عليها الناس والحيوانات كما أوجد الجواد وسط الجبال لعبور الناس ومشيهم، وسهل للناس روابطهم الاجتماعية، بل منح أرواحهم السكينة والهدوء بما زين به الطبيعة من ورود وأزهار. نعم هذا هو معنى الحكمة والتدبير والربوبية الذى أشار إليه أميرالمؤمنين على عليه السلام فى هذا الموضع من الخطبة، والذى يعرف الإنسان بعلم الله وقدرته وحكمته من جانب، كما تثير لديه حس الشكر- مادة الطاعة والعبودية-، وهوالأمر الذى ورد كراراً فى القرآن ومن ذلك فى سورة النحل بعد ذكره لخلق السموات والأرض والانعام ونزول الأمطار من السماء و خروج الاشجار و نمو الزرع و أنواع الثمار و الفاكهة و حركة الشمس و القمر و خلق البحار على أنها من نعمه التى لاتعد و لا تحصى. حيث قال: «وَأَلْقى فِی الْأَرْضِ رَواسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِكُمْ وَ أَنْهاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ یَهْتَدُونَ»[۲۳۹].

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۹۷

القسم العشرون: خلق آدم وبعثة الأنبياء

«فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ، اخْتَارَ آدَمَ، عَلَیْهِ السَّلامُ، خِیرَةً مِنْ خَلْقِهِ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَأَرْغَدَ فِیهَا أُكُلَهُ، وَأَوْعَزَ إِلَیْهِ فِیمَا نَهَاهُ عَنْهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِی الإِقْدَامِ عَلَیْهِ التَّعَرَّضَ لِمَعْصِیَتِهِ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزَلَتِهِ؛ فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ- مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ- فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِیَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ، وَلِیُقِیمَ الْحُجَّةَ رُبُوبِیَّتِهِ، وَیَصِلُ بَیْنَهُمْ وَبَیْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسُنِ الْخِیَرَةِ مِنْ أَنْبِیائِهِ، وَمُتَحَمِّلِی وَدَائِعِ رِسَالاتِهِ، قَرْناً فَقَرْناً؛ حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِیِّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله علیه و آله حُجَّتُهُ، وَبَلَغَ الْمَقْطَعَ عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة فى قضية خلق آدم بعد خلق الأرض و إعدادها من جميع النواحى، وأنّ الله سبحانه قد أعد الأرض وانفذ فيها أمره ثم اصطفى آدم عليه السلام من بين جميع خلقه:

«فلما مهد أرضه، وأنفذ أمره، اختار آدم عليه السلام، خيرة من خلقه، وجعله أول جبلته»[۲۴۰]

، والعبارة

«أول جبلته»

(أول مخلوقاته) يمكن أن يكون المراد بها الإنسان الأول من حيث الترتيب الزمانى، أو أول مخلوق من حيث الموقع.

والمقام، أو كلاهما.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۹۸

ثم قال عليه السلام بأنّ الله سبحانه أسكن آدم جنته وزوده بمختلف الأطعمة والأشربة، ثم حذره ما حظر عليه والعاقبة الخطيرة لتجاوز أمره ونهيه على مقامه وكرامته:

«وأسكنه جنته، وأرغد فيها أكله، وأوعز[۲۴۱] إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أن فى الأقدام عليه التعرض

لمعصيته، والمخاطرة بمنزلته».

نعم فقد أسكن الله آدم عليه السلام فى جنّة أرضية (جنّة غناء بالفاكهة من جنان الأرض، والشاهد على ذلك قوله:

«فلما مهد أرضه»

، ثم بين لآدم عليه السلام تكليفه وأصدر له وأوامره ونواهيه وحذره من معصيته وعدم طاعة أوامره، والعبارات وان لم تصرح بالشجرة المنهية، غير أنّها بينت بصورة عامة؛ الأمر الذى ورد كراراً فى عدّه آيات قرآنية ومنها الآية: «وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً»[۲۴۲] والآية «وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ»[۲۴۳].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأنّ آدم وقع فى ما حذر منه:

«فأقدم على ما نهاه عنه، موافاة لسابق علمه».

قد يبدو فى البداية أنّ العبارة:

«موافاة لسابق علمه»

، أنّ آدم عليه السلام- قد أجبر على المعصية وذلك لأنّ علم الله سبق فى هذا الأمر (وهذه هى الشبهة المعروفة لدى المجبرة فى مسألة العلم الأزلى لله سبحانه)، ولكن كما ذكر نا ذلك سابقاً فى بحث الجبر والتفويض، أنّ العلم الازلى ليس سبباً الاجبار على فعل قط! لأنّ اللّه كان يعلم أنّ آدم عليه السلام سيقارف هذا العمل باختياره، بالضبط كالاستاذ الذى يعرف تلميذه سيسقط فى الامتحان النهائى بسبب إهماله وكسله فى الدروس. فمثل هذا العلم من قبل الاستاذ ليس له أية صلة برسوب ذلك التلميذ أو اجباره عليه. فهو يعلم أنّ تلميذه اختار طريقاً خاطئاً بمحض إرادته، وقد اعتاد الكسل والتقاعس دون الجد والمطالعة والمثابرة[۲۴۴] ومن هنا آخذه اللّه وخاطبه: «أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ»[۲۴۵].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۹۹

فلو كان آدم عليه السلام مجبوراً كيف يؤاخذه الحكيم سبحانه على فعل لم يكن مختاراً فى ارتكابه، كذلك لماذا يندم آدم عليه السلام على ذلك الفعل ويتوب منه، أم كيف يخرج اللّه سبحانه من الجنّة بذلك الفعل؟ كل هذه الامور تدل على عدم وجود أى تضارب بين العلم الأزلى للّهسبحانه مع اختيار آدم وسائر أفراد البشر، ثم قال عليه السلام:

«فاهبطه ۲۴۶] بعد التوبة ليعمر الأرض بنسله،

وليقيم الحجة به على عباده».

فبالنظر للعبارة السابقة

«أسكنه جنّته»

يفهم أنّ هبوط آدم ونزوله لم يكن هبوطاً مكانياً، بل مقامياً، أى أنّ اللَّه أهبط آدم من ذلك المقام الرفيع الـذى كان عليه لتركه ذلك الاولى.

والعبارة:

«ليعمر أرضه بنسله»

تفيـد أنّ هـدف كافـة الأفـراد لابـدّ أن يكون إعمـار الأرض لا اخرابها با الحروب والقتال والنزاعات والخلافات أو الخمول والكسـل والتقاعس عن العمل أو حتى تلويث البيئـة السالمـة! والطريف أنّ هـذا الاعمار جاء بعـد التوبة، فما لم يتب الإنسان من أخطائه وزلله لا يوفق لهذا البناء والاعمار، فقد جاء فى القرآن الكريم «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ»[۲۴۷].

كما يستفاد من العبارة:

«فأهبطه بعد التوبة»

بأنّ ذلك الهبوط قد حصل بعد التوبة.

النقطـة المهمـة الاـخرى فى العبـارة والتى أشـير إليهـا مراراً فى القرآن مسألـة اتمـام الحجـة على العباد. فاللَّه سـبحانه وإن زود الإنسان بالعقل، إلّاأنّه لم يكتف بذلك فواتر إليه كتبه ورسـله وأنبيائه والدعاة إلى طاعته- فى كل عصـر ومصـر- ليتم الحجة على العباد، وهذا ما أورده الإمام عليه السلام فى حديثه بين بنى آدم وواتر إليهم الأنبياء ليؤدوا رسالات ربّهم ويقيموا عليهم الحجج:

«ولم يخلهم بعد أن قبضه، ممّا يؤكد عليهم حجة ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه، ومحتملى ودائع رسالاته، قرناً[۲۴۸] فقرناً؛ حتى تمت بنبينا محمد صلى الله عليه و آله حجته، وبلغ المقطع ۲۴۹] عذره ونذره ۲۵۰]»

، تفيد بعض

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۰۰

الآيات القرآنيـة وجود التوبـة سابقاً، كما تفيـد آيات اخرى وجودها لا حقاً، ويمكن الجمع بينهما، فى أنّ آدم عليه السـلام تاب مرات من خطيئته من قبل الهبوط وبعده، وما أكثر ما يخطئى الإنسان ويكثر من الاستغفار كلما عرض له ذلك الخطاء. العبارة

«لم يخلهم بعد أن قبضه»[۲۵۱]

، تفيـد أنّ آدم عليه السـلام هو أحد أنبياء اللَّه وحججه، وأنّ اللَّه واتر أنبيائه بعد آدم عليه السـلام حتى ختمهم بالنبى الأكرم صـلى الله عليه و آله، وهنا يبرز هذا السؤال: إذا كان اتمام الحجة ضـرورة فى كل زمان ومكان/ لم ختمت النبوة بالرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فكان صـلى الله عليه و آله خاتم الأنبياء؟ وتتضـح الاجابة على هذا السؤال من خلال التفات إلى هذه النقطة وهى أنّ اللَّه أنزل آخر أوامره وأحكـامه وأكمـل قوانينه وتعاليمه على نبى الإسـلام، فكانت شـريعته أكمل الشـرائع وأشـملها، بحيث يمكن للبشـرية برمتها أن تحتذيها فى مسيرتها إلى السعادة والفلاح، ولا سيما أنّ نسل الأوصياء عليه السلام الامتداد الحقيقى للنبى صلى الله عليه و آله ماثل إلى يوم القيامة، ومن أراد المزيد فليراجع المجلد الثامن من كتاب نفحات القرآن بحث الخاتمية.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۰۱

القسم الحادى والعشرون: الرزق وسيلة الامتحان

اشارة

«وَقَدَّرَ الأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَها، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضَّيقِ والسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَلِيَخْتَبِرَ بِذلِك الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَـا و فَقِيرِهَـا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَـعَتِهَا عَقَابِيـلَ فَاقَتِهَـا، وَبِسَـلَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَـا، وَبِفَرَجِ أَفْرَحِهَـا غُصَـصَ أتراحهـا، وَخَلَقَ الآجَـالَ فَأَطَالَهَا

وَقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا، وَوَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا، وَجَعَلَهُ خَالِجاً لأَشْطَانِهَا، وَقَاطِعاً لَمَرائِرِ أَقْرَانِهَا».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام كلامه بالأدلة الدامغة و الواضحة بشأن اتمام اللَّه سبحانه للحجة على العباد من خلال إنزال الكتب السماوية وبعث الأنبياء والرسل بالحديث هنا عن وسيلتين للامتحان الإلهى للعباد فى مختلف مراحل تكليفهم، فأشار فى الاولى إلى مسألة الرزق التى قدرها وتعرضها للزيادة والنقيصة:

«وقدر الارزاق فكثرها وقللها، وقسمها على الضيق والسعة»

وبغية الحيولة دون التصور بأنّ هذا التفاوت فى الرزق بين العباد يتناقض والعدالة، بادر الإمام عليه السلام إلى القول بتقسيمها على ضوء العدل

«فعدل فيها»

فى إشارة إلى أنّ العدالة لاتعنى المساواة والتكافى، بل العدالة تعنى الايصال على ضوء مصلحة الشخص، فقد ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّ اللَّه سبحانه وتعالى قال:

«إنّ من عبادى من لا يصلحه إلّا الفاقة ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادى من لايصلحه إلّاالصحة ولو أمرضته

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۰۲

لأفسده ذلك»[۲۵۲]

، ثم تعرض عليه السلام بصورة أعمق لهذا الأمر قائلًا:

«ليبتلى من أراد بميسورها

ومعسورها، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها»

، يمكن أن يكون هذا التفاوت فى الأشخاص مختلفاً؛ فتتمتع فئة بنعمة جمة لترى فى ميدان الاختبار هل أدت شكر هذه النعمة وأفاضت بعضها على المحرومين، ووضعت الأموال مواضعها الصحيحة، أم بالعكس فانّ زيادة الثروة أبعدها تماماً عن الخالق والمخلوق وجعلها تسبح فى بحر من الغرور والغفلة. أم أن ضيق الرزق حطم صبر هذه الجماعة وقضى على استقامتها واضطراها إلى مقارفة الحرام وجحود النعمة والأعراض عن اللَّه سبحانه وتعالى

بل إنّ هاتين الحالتين قد تتحققان فى نفس الشخص، فقد يكون غنياً أحياناً، كما قد يكون فقيراً أحياناً اخرى، وهو ممتحن فى الحالتين فى شكره وصبره وجحوده وجزعه ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى هذه النقطة فى أنّ الغنى والفقر والصحة والمرض ليست من الامور المنفصلة عن بعضها ليستند الإنسان على واحدة منها، بل هى قريبة متداخلة مع بعضها، فى أنّ البارىء سبحانه خلط سعة الرزق بما يتبقى من الفقر والفاقة، والصحة والعافية والسلامة بالحوادث الإلهيّة، والسرور والافراح بالأحزان والاتراح:

«ثم قرن بسعتها عقابيل فاقتها، وبسلامتها طوارق آفاتها، وبفرج أفراحها غصص أتراحها[۲۵۳]»،

حتى لا يغتر أحد بغناه وعافيته وفرحه وسروره، ويعلم الجميع بان هذه الامور معرضة للزوال والتبدل والعدم على الدوام وفى كل مكان ولدى كائن من كان و أنها تنقلب يوماً إلى ما يضادها.

وسالمتك الليالى فاغتررت بهاوعند صفو الليل يحدث الكدر

و بالنظر إلى أنّ

«عقابيل»

جمع عقبولة على وزن جرثومة تعنى الشدائد وبقايا الأمراض والمشاكل التى تتمثل بقروح صغيرة تخرج بالشفة: فانّ العبارة المذكورة تفيد أنّ المشاكل

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۰۳

والمصائب وآثارها وبقاياها تلازم دائما الراحة والهدوء ولا تفارقهما أبداً، والعبارة:

«يفرج أفراحها غصص أتراحها»

تأكيد آخر لهذا المعنى؛ لأنّ أتراح جمع ترح على وزن فرح بمعنى الحزن والغم والهم. فبالنتيجة ذكر الإمام عليه السلام أنّ هذه الافراح والسرور مقرونة با لهم والحزن، النقطة الآخرى التى أشار إليها الإمام عليه السلام هى الوقت المحدد. للحياة، فلها نهاية حتمية عاجلا أم آجلًا، والشىء الذى ليس للإنسان منه وسيلة للهرب هو الموت:

«وخلق الاجال فأطالها وقصرها، وقدمها وأخرها».

فالموت موصول بالحياة (وجعل الأمراض وسيلة لانهاء الحياة) من شأنه القضاء عليها

«و وصل بالموت أسبابها، وجعله خالجا[۲۵۴] لأشطانها[۲۵۵]، وقاطعا

لمرائر[۲۵۶] أقرانها»

، فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة القصيرة إلى عدّة نقاط، منها أنّ البعض يعمر كثيراً بصورة طبيعية، والبعض الآخر يعمر قليلًا، كما قد يقصر ذلك العمر الطويل بفعل بعض الأعمال الشائنة أو الذنوب والمعاصى، بينما قد يطال فى ذلك العمر القصير إثر رعاية القضايا المرتبطة بالصحة والسلامة، أو بفعل الأعمال الطيبة والخير والاحسان. كما أشار عليه السلام إلى أنّ للموت عدّة أسباب، إذا هرب الإنسان من بعضها وقع فى مخالب الاخر، بل لاينجو من الموت أقوى الأقوياء. وعليه لاينبغى لأحد أن يغتر بصحته وسلامته وشبابه وقوته، ولابدّ لكل أحد أن يتأهب للموت ويعد له الزاد المطلوب متوقعاً الموت فى أى وقت.[۲۵۷] كما احتمل بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد بالتقديم والتأخير، هو أنّ اللَّه سبحانه وتعالى خلق البعض فى الأزمنة الماضية والبعض الآخر فى الأزمنة اللاحقة على ضوء المصالح، إلّاأنّ المعنى الأول أنسب.

تأمّل: هل رزق كل إنسان مقدر؟

لا يستفاد من عبارات هذه الخطبة تقدير رزق الإنسان فحسب، بل يستفاد ذلك من

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۰۴

أغلب الآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن، فقد طالعتنا مختلف المصادر الإسلامية بأنّ سعة الرزق أوضيقه إنّما هى خاضعة لإرادة اللَّه ومشيته بغية اختبار العباد وتمحيصهم. بعبارة اخرى لقد منح الإنسان ما يوافق مصلحته. وهذا الأمر يثير عدّة أسئلة منها: أولًا: إذا كان الأمر كذلك، فما معنى السعى والجهد من أجل الرزق.

ثانياً: إنّ مثل هذا الاستنتاج يؤدى إلى سكون الأنشطة الاجتماعية وتخلف المجتمعات البشرية؛ المجتمعات التى ينبغى أن تعيش حالة النشاط والمثابرة بغية عدم تخلفها عن سائر المجتمعات ولاسيما غير الإسلامية، فقد صرح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلًا:

«نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ»[۲۵۸]، إلّاأنّ الإجابة على السؤال المذكور وردت فى الروايات الإسلامية، بحيث لايبقى من مجال للغموض إذا تأملناها بأجمعها، فقد جاء فى كلمات أميرالمؤمنين على عليه السلام فى نهج البلاغة:

«إنّ الرزق رزقان؛ رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فان أنت لم تاته أتاك»[۲۵۹].

والواقع كذلك فالقسم الأعظم من الرزق يتطلب سعى الإنسان وجهده وتوظيفه لكافة إمكاناته واستعداداته وطاقاته وليس له الظفر به دون ذلك، إلّاأنّ القسم الآخر من الرزق يأتى إلى الإنسان دون السعى إليه، ليدل الإنسان على أن السعى والجهد و إن كان أصلًا مسلما إلّا أنّ رازقية الله لا تقتصر على ذلك، فلابد من التوجه إلى اللَّه وطلب الرزق منه.

من جانب آخر جاء فى الخبر أن من بين الأدعية التى لاتستجاب دعاء الإنسان الصحيح الذى لزم بيته و قعد عن السعى و هو يدعو اللَّه: اللهم إرزقنى فتناديه الملائكة بان دعائك ليس بمستجاب، قم و إعمل. فقد ورد فى الرواية أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«أربع لايستجاب لهم دعاء: الرجل جالس فى بيته، يقول: يارب ارزقنى! فيقول له: ألم آمرك بالطلب».[۲۶۰]

أضف إلى ذلك فانّ التقديرات الإلهية فى أغلب الموارد إنّما تنسجم وتدبيرنا وتخطيطنا، أى أنّ الله قدر سهما وخيرا لمن سعى وبذل جهده، بينما قدر أقل من ذلك لمن تقاعس وكسل. فهذا

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۰۵

الانسجام بين التقدير والتدبير يعد اجابة واضحة لاولئك الذين يستسلمون للكسل والخنوع والخمول، ويفرون من الواقع تحت ذريعة التقدير.

وناهيك عما تقدم فمما لا شك فيه أن الناس ليست سواسية فى الاستعداد البدنى والفكرى والإدارة الاقتصادية والقدرة على العمل وتوظيف الإمكانات المتاحة؛ وهدا بدوره ما أدى إلى تفاوت الأرزاق. وعليه فليس من الصواب بعد كل هذا التصور أن يتساوى الرزق عل كافة الأفراد بغض النظر عما سبق، فهذا من قبيل توقع تساوى جميع أعضاء البدن و العظام و العضلات، فى حين لكل عضو وظيفته فى هذا البدن و قدرته بقدر نشاطه، فعالم البشرية كالبدن يختلف فى رزقه على أساس إختلافه فى سعيه و جهده. والنتيجة التى نخلص إليها: هو أن تقدير الرزق الذى ورد فى هذا الخطبة، إنّما هو إشارة لما استعرضناه آنفا؛ الأمر الذى لايتنافى قط ومفهوم العدالة، بل هو عين العدالة والحكمة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۰۷

القسم الثانى والعشرون: العالم بكل شيء

اشارة

«عَالِمَ السِّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُضْمِرِينَ، وَنَجْوَى الْمُتَخَافِتِينَ، وَخَواطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَعُقَدَ عَزِيمَاتِ الْيَقِينِ، وَمَسَارِقِ إِيمَاضِ الْجُفُونِ، وَمَا ضَمِنَتْهُ أَكْنَانُ الْقُلُوبِ، وَغَيَابَاتُ الْغُيُوبِ، وَمَاأَصْغَتْ لِاسْتِرَاقِهِ مَصَائِخُ الأَسْمَاعِ، وَمَصَائِفُ الذَّرِّ، وَمَشَاتِى الْهَوامِّ، وَرَجْعِ الْحَنِينِ مِنَ الْمُولَهَاتِ، وَهَمْسِ الأَقْدَامِ، وَمُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلَائِجِ غُلُفِ الأَكْمَامِ، وَمُنْقَمَعِ الوحوش مِنْ غِيرَانِ الْجِبَالِ وَأَوْدِيَتِهَا وَمُخْتَبَاءِ الْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ الأَشْجَارِ وَأَلْحِيَتِهَا، و مغرز الأَوْرَاقِ مِنَ الأَفْنَانِ، وَمَحَطِّ الأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ الأَصْلَابِ، وَنَاشِئَةِ الْغُيُوم وَمُتَلَاحِمِهَا، وَدُرُور قَطْرِ السَّحَابِ فِى مُتَرَاكِمِهَا، وَمَا تَسْفِى، الأَعَاصِيرُ بِذُيُولِهَا، وَتَعْفُو الأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا، وَعَوْمِ بَنَاتِ الأَرض فِى كُثْبَانِ الأَعَاصِيرُ بِذُيُولِهَا، وَتَعْفُوا الأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا، وَعَوْمِ بَنَاتِ الأَرضِ فِى كُثْبَانِ الرِّمَالِ».

الشرح والتفسير

يتضح من خلال تامل الأقسام المختلفة لهذه الخطبة العجيبة أنّ الإمام عليه السلام قد اختط مساراً دقيقاً فى معرفة اللَّه، ومن ثم التعرف على هذا العالم مرورا بمعرفة الإنسان وتربيته، بعبارات رائعة تأخذ بيد الإنسان نحو هذاالمسار الطويل و تقوده نحو الهدف، يعنى يسلك به سبيل السمو والتكامل.

نفحات الولاية ؛ ج۴ ؛ ص۱۰۷

د تحدث الإمام عليه السلام فى السابق عن خلق الأرض ومصادر الحياة ومن ثم خلق آدم

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۰۸

وقصته مع الجنّة و ما تضمنته من عبر ومن ثم هبوطه إلى الأرض، وتقسيم الأرزاق وتعيين الاجال. ولما فرغ من ذلك واصل حديثه في هذا المقطع من الخطبة عن علم اللّه سبحانه بكل شيء وكل شخص وفي كل زمان ومكان، والعالم بكافة الخفايا والاسرار. فقد أورد الإمام عليه السلام ذلك بعبارات دقيقة رائعة، مؤكداً على تفاصيل هذه الامور، بحيث يشعر الإنسان بكل كيانه أنّ العالم برمته حاضر لدى الله بكل حركاته وسكناته؛ و هو الشعور الذى يلعب دورا، حيوياً في تربية الإنسان وسوقه نحو الخير والاحسان.

فقال عليه السلام:

«عالم السر من ضمائر المضمرين، ونجوى المتخافتين وخواطر رجم الظنون، وعقد عزيمات اليقين».

فالعبارة تفيد علمه سبحانه بكل شيء: ما يقتدح في الأذهان، وما يمثل في الواقع، وما يجرى في الأوهام والظنون، والشك والترديد، وما يجول في باطنه ونجواه وهمسه مع الاخرين، ثم قال عليه السلام:

«ومسارق ۲۶۱] إيماض ۲۶۲] الجفون،[۲۶۳] وما ضمنته أكنان القلوب، وغيابات الغيوب،

وما أصغت لاستراقه مصائخ ۲۶۴] الأسماع»

، ولما كانت أهم مصادر علم الإنسان تكمن في قلبه (عقله) وعينه واذنه، كما صرح بذلك القرآن الكريم: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»[۲۶۵] واللّه محيط بجميع هذه المصادر؛ فهو عليم بكافة خفايا الإنسان وأسراره. ثم تجاوز عليه السلام خفايا الإنسان وما تنطوى عليه جوانحه ليتجه صوب أصغر الكائنات، ليكشف عن علمه سبحانه وتعالى بخفايا وأوكار الهوام والحشرات وآهات الالم واصوات الحزن ووقع الاقدام:

«ومصائف ۲۶۶] الذر،

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۰۹

ومشاتى ۲۶۷] الهوام ۲۶۸] ورجع الحنين ۲۶۹] من المولهات ۲۷۰] وهَمْسِ ۲۷۱] الاقدام».

ثم واصل عليه السلام كلامه بالاشارة إلى امور اخرى لطيفة وظريفة وخفية ومكتومة، ليكشف النقاب عن إحاطة العلم الإلهى المطلق بها من خلال عبارات غاية في الروعة والدقة فقال عليه السلام:

«ومنفسح ۲۷۲] الثمرة من ولائج ۲۷۳] غلف ۲۷۴] الاكمام ۲۷۵]، ومنقمع ۲۷۶] الوحوش من غيران ۲۷۷] الجبال

وأوديتها، مختباء البعوض بين سوق ۲۷۸] الاشجار والحيتها[۲۷۹]، ومغرز[۲۸۰] الاوراق من

الافنان ۲۸۱]، ومحط الامشاج ۲۸۲] من مسارب ۲۸۳] الأصلاب»،

العبارة

«لامنفسح»

بمعنى المكان الفسيح الواسع إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه خلق مكاناً واسعاً في جوف البراعم لنمو الثمار.

والعبارة:

«منقمع الوحوش»

تفيد لجوء الحيوانات الصحراوية إلى الغيران والكهوف بغية حفظ أنفسها من سائر الحيوانات الوحشية المفترسة و تخرج حين الحاجة أو صيد سائر الحيوانات. و التعبير «مغرز الأوراق ...» لا إشارة إلى الأوراق و لا الأغصان، بل إشارة إلى

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۱۰

موضع خاص تلتصق فيه الورقة بالغصن و تنطلق جذورها في أعماقه فتحفظه من الريح و العواصف.

و التعبير «محط الأمشاج ...» إشارة إلى حركة نطفة الرجل من غدده الداخلية و تختلط مع نطفة المرأة حين نزولها في الرحم حتى تنمو و تتحول إلى إنسان كامل. فاللّه سبحانه يعلم بهذا المسار و كيفية التركب و موضع النزول، و يمكن أن تكون «أمشاج» إشارة إلى

تركيب نطفة الرجل من مياه مختلفة و الذى أثبته العلم الحديث، حيث لكل منها هدف معين عند إختلاطه مع الآخر و التى تشكل نطفة الرجل، ثم تتحرك نحو الرحم. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى تفاصيل دقيقة لعالم الخلقة والحوادث المبرمجة، ليكشف عن علمه سبحانه برقيق السحب التى تظهر فى السماء وتتصل مع بعضها البعض الآخر، إلى جانب هطول قطرات المطر من تلك السحب والرياح التى تحيط بها وتبعث بها هنا وهناك:

«وناشئة الغيوم ومتلاحهمها، ودرور قطر السحاب فى متراكمها، وما تسفى ۲۸۴] الاعاصير[۲۸۵] بذيولها، وتعفو[۲۸۶] الأمطار بسيولها، وعوم ۲۸۷] بنات الأرض فى كثبان ۲۸۸] الرمال».

نعم فهو عالم بتمام دقائق عالم الوجود وجزئيات الكائنات الحية والجمادات فى السموات والأرض؛ وهو محيط بظهورها وحركاتها وسكناتها. فكيف بنا وهو الخبير بما فى أعماقنا ويجول فى أذهاننا وخواطرنا.

تأمّل: تنوع الكائنات

رغم تركز الكلام فى هذا المقطع من الخطبة على علم اللّه الواسع بكافة الأشياء وجميع الكائنات، إلّاأنّ هناك إشارة ضمنية لنقطة مهمّة اخرى إلّاوهى التنوع العجيب للكائنات، من المسائل الفكرية والذهنية للإنسان إلى الاجزاء المختلفة للعين والاذن، والكائنات الصغيرة

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۱۱۱

والكبيرة للعالم من قبيل الهوام ومصائفها والحشرات ومشاتيها، مروراً بتشكيل نطفة الإنسان المركبة من ماء الرجل والمرأة، وظهور السحب والغيوم وتراكمها وسقوط حبات المطر وهبوب الرياح والأعاصير وجريان السيول واختفاء الحشرات فى المرتفعات والتلال وما إلى ذلك من الامور التى سنتطرق إليها فى البحث القادم. والخلاصة فانّ كل أمر دلالة على علمه سبحانه وقدرته وابداعه، وكلما تعمق الإنسان فى تأمل هذه الامور تعرف أكثر على عظمة الحق سبحانه وعلمه، ويسمع باذن البصيرة تسبيح هذه الكائنات وحمدها، ويشعر بتوحيدها وتوجهها لخالقها. الأشياء التى لايدركها سوى من تحسسها و إنطلق منها لما وراءها.

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۱۱۳

القسم الثالث والعشرون: شمولية العلم الإلهى

اشارة

«وَمُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ الْأَجْنِحةِ بِذُرَاً شَنَاخِيبِ الْجِبَالِ، وَتغريد ذَوَاتِ الْمَنْطِقِ فِى دَيَاجِيرِ الْأَوْكَارِ، وَمَا أَوْعَبَتْهُ الْأَصْدَافُ، وحَضَنَتْ عَلَيْهِ أَمْوَاجُ الْبِحَارِ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ، أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارٍ، وَمَا اعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الدَّيَاجِيرِ، وَسُبُحَاتُ النُّورِ؛ وَأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَرَجْعِ كُلِّ كَلَمَةٍ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ، وَمِثْقَالِ كُلِّ ذَرَّةٍ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ، ومَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ، أَوْ ساقِطِ وَرَقَةٍ؛ أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ، أَوْ نُقَاعَةِ دَمٍ وَمُضْغَةٍ، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ وَسُلَالَةٍ؛ لَمْ يَلْحَقْهُ فِى ذلِكَ كُلْفَةٌ، وَلَا اعْتَرَضَتْهُ فِى حِفْظِ مَا ابْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ، وَلَا اعْتَوَرَتْهُ فِى تَنْفِيذِ الْأُمُورِ وَتَدَابِيرِ الْمَخْلُوقِينَ مَلَالَةٌ وَلَا فَتْرَةٌ، بَلْ نَفَذَهُمْ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُمْ عَدَدُهُ، و وسعهم عَدْلُهُ، وَغَمَرَهُمْ فَضْلُهُ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام كلامه السابق بالحديث عن علم اللّه سبحانه وتعالى بكافة جزئيات عالم الوجود، حيث يتعرض إلى ذلك بعبارات رائعة غاية فى الدقة والجمال، والحق أنّ كلام الإمام عليه السلام يفيد بما لايقبل الشك أنّه يستند إلى ارتباطه بما وراء هذه

الطبيعة بحيث لايضاهيه كلام، وان علمه عليه السلام إنّما يتصل بمصادر العلم الإلهى فقد تطرق بادىء بدء إلى الطيور العائمة فى

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۱۴

السماء:

«ومستقر ذوات الأجنحة بذراً[۲۸۹] شناخيب ۲۹۰] الجبال، وتغريد[۲۹۱] ذوات المنطق فى

دياجير[۲۹۲] الأوكار[۲۹۳]».

فنحن نعلم أنّ كل طائر يصنع لنفسه ما يناسبه من عش، بحيث تتنوع حسب أصناف الطيور، كما نعلم أنّ أنغام الطيور على أقسام، كل واحد منها يبيّن موضوعاً، الأهم من كل ذلك هو علم اللَّه بتمام جزئياتها.

ثم يغوص الإمام عليه السلام فى أعماق البحار ليتحدث عن الاصداف واللؤلؤ والأمواج:

«وما أوعبته ۲۹۴] الاصداف، وحضنت عليه أمواج البحار»

، ثم خاض عليه السلام فى نظام النور والظلمة فى عالم الخلق وحياة الإنسان فقال:

«وما غشيته سدفه ۲۹۵] ليل أو ذر[۲۹۶] عليه شارق نهار، وما

اعتقبت عليه أطباق الدياجير، سبحات ۲۹۷] النور»

ثم إتجه صوب مختلف حركات الإنسان قال عليه السلام:

«وأثر كل خطوة، وحس كل حركة، ورجع كل كلمة، وتحريك كل شفة، ومستقر كل نسمة».

ثم تناول عليه السلام أصغر الذرات وأخفى الأصوات فى أنّ اللَّه عالم بها:

«ومثقال كل ذرة، وهماهم ۲۹۸] كل نفس هامة[۲۹۹]» ثم ينتقل إلى الأشجار و الثمار و الناس و النطف التى

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۱۵

تشبه إلى حد كبير بعضها البعض فقال «وما عليها من ثمر شجرة، أو ساقط ورقة، أو قرارة نطفة، أو نقاعة[۳۰۰] دم ومضغة، أو ناشئة خلق وسلالة».

ويشير الإمام عليه السلام فى آخر الخطبة إلى نقطة مهمّة اخرى وهى أنّ تلك الامور بتلك السعة والشمولية التى أشار اليها الإمام عليه السلام ما يجعل التبادر إلى الذهن صعوبة حسابها والاحاطة بها، بعبارة اخرى قد يقتدح فى الأذهان هذا السؤال: هل علم اللَّه سبحانه تعالى بهذه الامور لايوجد من مشكلة لذاته المطهرة؟ فالإنسان يصاب بالتعب والأعياء من جراء احاطته بقسم غاية فى الصغر بالنسبة لحوادث هذا العالم وأسراره إلّاأنّ الإمام عليه السلام يعلن بكل صراحة أن ليس هناك أدنى مشقة على اللَّه بهذا الشأن (ليس فقط من ناحية العلم والاحاطة بها بل) فى حفظ ما أبدع من مخلوقات، كما ليس هنالك من ملل أو فتور عرض له سبحانه فى انفاذ أمره وتدبير شؤون خلقه:

«لم يلحقه فى ذلك كلفة، ولا اعترضته فى حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة، ولا اعتورته ۳۰۱] فى تنفيذ الامور وتدابير المخلوقين ملالة ولافترة»

، بل نفذ فيها علمه واحصاها عددا بقدرته وضمها جميعا تحت لواء عدالته، كما عم المقصرين منهم بفضله وعفوه ولطفه:

«بل نفذهم علمه، وأحصاهم عدده، ووسعهم عدله، وغمرهم فضله، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله»

، فقد أكد الإمام عليه السلام بهذه العبارات على عدّة امور:

الأول: أنّ احاطة للَّهسبحانه العلمية بجزئيات جميع عالم الوجود لاتنطوى على أية مشكلة بالنسبة له (وذلك لأنّ علم اللَّه علم حضورى وليس علم حصولى، كما سيأتى شرح ذلك فى البحث القادم).

الثانى: اضافة إلى الاحاطة العلمية فهو حافظها جميعاً؛ الأمر الارفع من العلم؛ وهذا أيضاً لايسبب أية مشكلة لذاته المطلقة سبحانه (لأنّ

الكل متوقف على وجوده سبحانه).

الثالث: اضافهٔ إلى العلم والحفظ فهو مدبرها وهاديها إلى السمو و الكمال؛ الأمر الذى لاينطوى على أى ملل أو فتور لذاته المطلقهٔ، وبعيداً عن معرفهٔ الخلائق وأدائها للشكر، فانّ فضله ولطفه شامل للجميع عدله فيهم نافذ شامل، نعم فعلمه ليس بمحدود وقدرته مطلقهٔ لامتناهيهٔ وفضله مطلق شامل، ولا يرتجى منه سوى ذلك.

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۱۱۶

تأمّلات

۱- العلم الكامل

كلماته عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبهٔ بشأن سعهٔ علمه سبحانه واحاطته الشاملهٔ بكافهٔ دقائق الامور، لتذكر الإنسان بالآيهٔ الشريفهٔ التى وردت فى سورهٔ لقمان:

«وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»[۳۰۲].

وهنا لابدّ أن نلتفت إلى نقطهٔ مهمّهٔ وهى أنّ ما أورده أميرالمؤمنين على عليه السلام إنّما يرتبط بالكرهٔ الأرضيهٔ ومخلوقاتها، والحال يغص هذا الفضاء العظيم بملايين، بل مليارادت الكرات السماويهٔ العجيبهٔ والتى تخضع برمتها لعلم اللَّه واحاطته، كما لابدّ من الالتفات إلى أن هذا العالم قد وجد قبل ملايين السنوات قبل خلقنا، ولا يعلم إلى متى سيستمر، فاحصاء الحوادث التى تقع طيلهٔ هذا الزمان انّما تتعذر على كائن من كان سوى الحق سبحانه مع ذلك لاينبغى أن ننسى بأنّ هدف الإمام عليه السلام من بيان هذه الحقائق مضاعفهٔ معرفهٔ الله من جانب، ومن جانب آخر تهذيب النفوس البشريهٔ وأنّها حاضرهٔ عند اللَّه وأنّه محيط بنياتها وكوامنها. وشاهد ذلك ما قاله الإمام عليه السلام فى الخطبهٔ ۱۹۸ من نهج البلاغهٔ:

«يعلم عجيج الوحوش فى الفلوات، ومعاصى العباد فى الخلوات، واختلاف النيان فى البحار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات».

۲- علم اللّه بكافهٔ الخفايا

يرى جمع من قدماء الفلاسفهٔ أنّ اللَّه لايسعه أن يكون عالماً فهم يعتقدون أنّ الجزئيات متعددهٔ ومتكثرهٔ وليس للمتعدد من سبيل إلى ذاته الواحدهٔ من جميع الجهات. فهذا الكلام واضح البطلان وأساسه أنّهم يرون أن علمه سبحانه وتعالى حصولياً، ويعتقدون بأنّ الصور الخارجيهٔ تنتقل إلى ذاته المقدسهٔ، والحال كلنا نعلم أنّ علمه سبحانه بالموجودات ليس عن

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۱۱۷

طريق انتقال صورتها الذهنيهٔ لديه، كما هو الحال عند الإنسان، بل علمه علم حضورى، أى أنّه حاضر فى كل مكان، والموجودات برمتها حاضرهٔ عنده، وهو محيط بها جميعاً، دون الحاجهٔ لصورها؛ بالضبط كحضور الصور الذهنيهٔ للإنسان أمام روحه، لأنّ الصور الذهنيهٔ حاضرهٔ بذاتها فى روح الإنسان لاصورتها، واحاطهٔ الإنسان بها نوع من الاحاطهٔ الحضوريهٔ. فتأكيد الإمام عليه السلام فى هذه الخطبهٔ على علم اللَّه سبحانه بجميع جزئيات الوجود إنّما يبطل هذا الاعتقاد الفاسد لبعض الفلاسفهٔ بشأن نفى علم اللَّه بالجزئيات.

۳– ابن أبی الحدید فی شرح هذه الخطبة.

حین بلغ هـذا العالم المشـهور– شارح نهـج البلاغـة– هذا الموضوع من الخطبة بشأن علم اللَّه قال: لوسـمع النضـر بن کنانة هذا الکلام لقال لقائله ما قاله علی بن العباس بن جریح لاسماعیل بن بلبل:

جریح لاسماعیل بن بلبلقالوا أبو الصقر من شیبان قلت لهم

وکم أب قد علا یابن ذرا شرف کما علا برسول اللَّه عدنان

إذ کان یفخر به علی عدنان وقحطان، بل کان یقر به عین أبیه إبراهیم خلیل الرحمن، ویقول له:

أنّه لم یعف ما شـیدت من معالم التوحیـد، بل أخرج اللَّه تعالی لک من ظهری ولـدا ابتـدع من علوم التوحیـد فی جاهلیـة العرب ما لم تبتـدعه أنت فی جاهلیـة النبـط. بل لو سـمع هـذا الکلام أرسـطو طالیس، القائل بانه تعالی لایعلم الجزئیات، لخشع قلبه و وقف شـعره، واضـطرب فکره، ألا ـتری مـا علیه من الرواء والمهابـة، والعظمـة والفخامـة، والمتانـة والجزالـة! مع مـا قـد أشـرب من الحلاوة والطلاوة واللطف والسلاسة، لا أری کلاماً یشبه هذا إلّاأن یکون کلام الخالق سبحانه، فانّ هذا الکلام نبعه من تلک الشجرة، وجدول من ذلک البحر، وجذوة من تلک النار؛ وشرح لآیات الخالق سبحانه [۳۰۳].

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۱۱۹

القسم الرابع والعشرون: إلیک الملاذ و أنت الرجاء

اشارة

«اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْـلُ الْوَصْفِ الْجَمِیلِ، والتَّعْـدَادِ الْکَثِیرِ، إنْ تُؤَمَّلْ فَخَیْرُ مَأْمُولٍ، وَإِنْ تُرْجِ فَخَیْرُ مَرْجُوٍّ. اللَّهُمَّ وَقَـدْ بَسَـطْتَ لی فِیمَا لَاأَمْـدَحُ بِهِ غَیْرَکَ، وَلَـاأُثْنِی بِهِ عَلَی أَحَـدٍ سِوَاکَ، وَلَا أُوَجِّهُهُ إِلَی مَعَادِنِ الْخَیْبَـةِ وَمَوَاضِعِ الرِّیبَـةِ، وَعَـدَلْتَ بِلِسَانی عَنْ مَدَائِـحِ الآدمِیِّینَ؛ وَالثَّنَاءِ عَلَی الْمَرْبُوبِینَ الْمَخْلُوقِینَ. اللَّهُمَّ وَلِکُـلِ مُثْنٍ عَلَی مَنْ أَثْنَی عَلَیْهِ مَثُوبَـةٌ مِنْ جَزَاءٍ أَوْ عَارِفَـةٌ مِنْ عَطَـاءٍ، وَقَـدْ رَجَوْتُکَ دَلِیلًا عَلَی ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَکُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ. اللَّهُمَّ وَهـذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَکَ بِالتَّوْحِیدِ الَّذِی هُوَ لَکَ، وَلَمْ یَرَ مُسـتَحِقّاً لِهذِهِ المَحَامِدِ وَالْمَمادِحِ غَیْرَکَ؛ وَبِی فَاقَةٌ إِلَیکَ لَـایَجْبُرُ مَسْـکَنَتَهَا إلّافَضْـلُکَ، وَلَا یَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلَّا مَنُّکَ وَجُودُکَ، فَهَبْ لَنَا فِی الْمَقَامِ رِضَاکَ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَـدِّ الأَیْـدِی إِلَی سِوَاکَ؛ «إِنَّکَ عَلَی کُلِّ شَیءٍ قَدِیرٌ!»».

الشرح والتفسیر

لاننسـی أنّ الإمـام علیه السـلام أورد هـذه الخطبـة الجامعـة والمفصـلة رداً علی من سأله الحـدیث عن صـفات اللَّه، فخاض الإمام علیه السـلام فی البدایة بأدق العبارات وأظرفها فی بحث صـفات اللَّه الجمالیة والکمالیة، ثم تطرق إلی فعله من قبیل خلق الملائکة والسـماء والأرض، ثم خلق الإنسان وما أفاض علیه من النعم، وأخیراً علمه سبحانه وتعالی بجمع جزئیات عالم الوجود وکلیاته.

ثم یختتم الخطبـة بهـذا القسم الذی یطرق فیه باب اللَّه متضـرعاً إلیه بالدعاء، فیصف اللَّه سـبحانه بأفضل صـفاته التی لاتجوز علی أحد سواه، کما تدل علی التوحید فی مقام الدعاء

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۱۲۰

«اللّهم أنت أهل الوصف الجمیل، والتعداد[۳۰۴] الکثیر»

، نعم فقد جمعت کافة الصفات العظیمة فی ذاته القدسیة، فهو الکریم والرحیم وأهل الفضل والثناء، ومن هنا فانّ أمله الإنسان فهو خیر مأمول، وان رجاه فهو خیر مرجو لایقطع رجاء من رجاه:

«إن تؤمل فخیر مأمول، وإن ترج فخیر مرجو»،

ثم قال علیه السلام:

«اللّهم وقد بسطت لی فیما لا أمدح به غیرک، و أثنی به علی أحد سواک ولا أوجهه إلی معادن الخیبة ومواضع الریبة، وعدلت بلسانی عن مدائح الادمیین؛ والثناء علی المربوبین المخلوقین».

الجدیر بالذکر أنّ الإمام مزج مدح اللّه وثنائه بالشکر، وقد أعرب علیه السلام عن سروره أن وفقه اللّه سبحانه ففتح لسانه بمدحه سبحانه، وهل یلیق هذا المدح والثناء بأحد سواه، و أی عمل أفضل من أن یغض الإنسان طرفه عن عالم الأسباب و لا یتطلع سوی إلی «مسبب الأسباب» فیمطره بحمده و ثناءه. ثم أردف ذلک بقوله:

«اللّهم ولکل مثن علی من أثنی علیه مثوبة من جزاء أو عارفة من عطاء؛ وقد رجوتک دلیلًا علی ذخائر الرحمة وکنوز المغفرة»،

یمکن أن تکون العبارة بمعنی طلب المزید من رحمته سبحانه ومغفرته، أو بمعنی طلب التوفیق والاستعداد لکسب هذه الرحمة. والفرق بین

«جزاء» و «عارفة»

قد یکون فی أنّ الجزاء هو ثواب العمل، والعارفة بمعنی الفضل والرحمة إلی جانب الثواب. و لما کان اللّه معروفا بالفضل و العطاء فقد عبر بعارفة (فالعارفة فی الواقع وردت هنا بمعنی المعروف).

ثم إختتم هذه الخطبة الفریدة و العظیمة بدعائین جامعین عمیقی المعنی قال علیه السلام:

«اللّهم وهذا مقام من أفردک بالتوحید الذی هو لک، ولم یر مستحقاً لهذه المحامد والممادح غیرک؛ وبی فاقة إلیک لا یجبر مسکنتها إلّافضلک، ولاینعش ۳۰۵] من خلتها[۳۰۶] إلّامنک وجودک»

، فالواقع هو أنّ الإمام علیه السلام أراد أن یطرح هذه الحقیقة وهی أنی لاأثنی الاعلیک ولاأومل سواک،

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۱۲۱

ولیس هناک قادر علی طلبتی غیرک، وهذه هی حقیقة توحید الصفات وتوحید الأفعال، ثم یختتم الخطبة:

«فهب لنا فی هذا المقام رضاک، وأغننا عن مد الایدی إلی سواک، إنّک علی کل شیء قدیر»

، ما أروع هذا الرجل العظیم الذی فاض کل هذه الفصاحة والبلاغة والعلم والمعرفة، ثم یختتم عباراته بهذا الدعاء العظیم الذی یکشف عن مدی تواضعه وتذلله للّه فیسأله رضاه ولایلتفت إلی أحد سواه.

تأمّل: فی اعجاز البیان.

کما أنّ القرآن الکریم من المعاجز الخالدة لنبی الإسلام صلی الله علیه و آله فانّ بعض خطب نهج البلاغة حقاً لفی حد الاعجاز! أی لایمکن أن تصدر سوی عن المعصوم، ولیس ذلک لاحد سواه. ومن ذلک هذه الخطبة المسماة بالاشباح. التی نعرض لشرحها.

فقد انطوت هذه الخطبة علی عبارات غایة فی الفصاحة والبلاغة، إلی جانب رقتها وحلاوتها وعذوبة الفاظها بحیث تتسلل إلی أعماق روح الإنسان فتملأها معنویة ونوراً وانفتاحاً علی الله سبحانه، أمّا المفردات التی استعملها الإمام علیه السلام فهی غایة فی العمق والرصانة بحیث لایمکن (الوقوف علیها دون الرجوع إلی مصادر العربیة وآدابها. أمّا مضمونها فهو الآخر (رصین) عمیق لایمکن تصور مثله بشأن صفات الله وعلمه واحاطته بکل شئی؛ الأمر الذی یکشف عن حقیقة ما أورده الإمام علیه السلام فی الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقیة:

«ینحدر عنی السیل ولایرقی الاالطیر».

وأمّا من ناحیة الآثار التربویة، فقد تطرق علیه السلام إلی نعم الله سبحانه بأدق تفاصیلها بما یثیر حس الشکر لأیإنسان یتأملها ویری

نفسه مقصرا أمام كل هذه النعم التى أفاضها عليه سبحانه، وإذا تأمل سعة علمه سبحانه وحضوره يدرك بكل كيانه معنى هذه العبارة «أنّ العالم حاضر عند الله، وعليه فلاينبغى معصيته والتمرد عليه»

أمّا الأدعية العرفانية آخر الخطبة والتواضع التام للإمام عليه السلام بعد كل هذا البيان فهو الآخر درس لكافة الأفراد فى عدم الغفلة والغرور والتوجه إلى الله وطلب الحاجات منه، كيف لا وهو الكريم، الرحيم، المنعم والغفور الودود.

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۱۲۳

الخطبة[۳۰۷] الثانية و التسعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان

نظرة إلى الخطبة

قال المرحوم العلّامة الخوئى- أحد شرّاح نهج البلاغة-: اعلم أنّ المستفاد من الروايات الآتية وغيرها فى سبب هذا الكلام هو أنّ خلفاء الجور بعد ما غيروا سنة رسول الله صلى الله عليه و آله وسيرته التى كان يسيرها من العدل بالقسمة والمساواة بين الرعية، ففضلوا العرب على العجم، والموالى على العبيد، والرؤ ساء على السفلة، وآثر عثمان أقاربه من بنى امية على سائر الناس وجرى على ذلك ديدنهم سنين عديدة، واعتاد الناس ذلك أزمنة متطاولة حتى نسوا سيرة الرسول صلى الله عليه و آله وكان غرض الطالبين لبيعته عليه السلام أن يسير فيهم مثل سيرة من سبق عليه من المتخلفين من تفضيل الشريف على الوضيع، وكان عليه السلام تفرس ذلك منهم وعرفه من وجنّات حالهم فخاطبهم بهذا الكلام اتماماً للحجة واعلاماً لهم بأنّه عليه السلام ان قام فيهم بالأمر لا يجيبهم إلى

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۱۲۴

ما طمعوا فيه من الترجيح والتفضيل فقال عليه السلام:

«دعونى والتمسوا غيرى»

للبيعة،

«فانا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان»

وهو إنذار لهم بالحرب وإخبار عن ظهور الفتن واختلاف الكلمات وتشتت الاراء وتفرق الأهواء[۳۰۸]، كما أشار ضمنيا إلى زهده عليه السلام بالخلافة والمقامات الظاهرية. وقد رفض بيعة القوم، حتى لايتصور أحد أنّ قبول الإمام عليه السلام بيعة الناس كانت لرغبته بالخلافة.

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۱۲۵

«دَعُونى وَالْتَمِسُوا غَيْرى؛ فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وأَلْوَانٌ؛ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ. وَإِنَّ الْآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنّى إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِى فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلّى أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنّى أَمِيراً!».

الشرح والتفسير

دعونى والتمسوا غيرى

أورد شرّاح نهج البلاغة أبحاثاً مسهبة بشأن هذه الخطبة، وقد خاضوا بصورة مفصلة فى الإشكالات ذات الصلة بمسألة الإمامة. غير أنّ البعض منهم لم يتعرض لشرح هذه الخطبة واتجه مباشرة للردّ على الإشكالات. ونرى من الضرورى أن نخوض فى البداية فى شرح الخطبة، ثم نسلط الضوء على بعض الاسئلة والاستفسارات فى آخر البحث.

فقد ردّ الإمام عليه السلام على اولئك الذين بسطوا إليه يدهم بالبيعة وانهالوا عليه من كل جانب، ظانين أنّ الإمام عليه السلام سيواصل سياسة التميز فى العطاء من بيت مال المسلمين، إلى جانب إغداق المناصب والمقامات بالقول:

«دعونى والتمسوا غيرى»،

ثم أشار عليه السلام إلى الدليل على ذلك بقوله:

«فانا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان؛ لاتقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول»

، فقد فقدت الأُمّة وحدتها إثر الأفعال الباهتة التى مارسها الخلفاء ولا- سيما عثمان، فكان لكل رأيه، فأصبح الأعم الأغلب منهم كالصياد الذى يبحث عن صيده، ليجدوا فى البحث عن الأموال والمناصب الدنيوية، وعليه فانّ القضاء على هذه الفرقة والتشتت وإعادة الامّة إلى سابق عزّها ووحدتها على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله كان يبدوا أمراً فى غاية الصعوبة والتعقيد

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۲۶

ولايمكن توقعه فضلًا عن تحققه على الواقع العملى.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن الآفاق المظلمة التى تلوح فى الآفاق وعدم التعرف على الحق وصراطه المستقيم فى ظل هذه الأوضاع المضطربة:

«وإن الافاق قد أغامت [۳۰۹]،

والمحجة[۳۱۰] قد تنكرت»

، وذلك لأنّ الأهواء الشيطانية والاطماع الدنيوية قد قلبت الموازين الفكرية للمجتمع بحيث يصعب عليه تمييز الصحيح من السقيم، وكيف يتخلص من المطبات التى تواجهه فى حياته.

ثم أكد الإمام عليه السلام هذا الموضوع بأنّى إذا تقلدت هذه المسؤولية فسوف لن أنتهج السياسة الخاطئة التى كانت سائدة سابقاً، بل سأقتدى بهدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى بسط الحق والعدل:

«اعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب [۳۱۱] العاتب»

- حيث لم يكن الطمع الذى عاشه الناس على عهد عثمان يدعهم يتساوون مع الآخرين فكانوا يهربون من عدالة على عليه السلام و يثيرون الفتن- فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من سبيل سوى مخالفة الشرع و مواصلة الظلم أو السيرفيهم بالعدل الذى نشده من قام ضد عثمان، فلما سار بهم بعدله حدثت تلك الفتن التى توقعها الإمام عليه السلام.[۳۱۲]

فى إشارة إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بأنّ طلاب الدنيا من أهل المطامع والمصالح سيقفون حجرة عثرة فى طريقه من أجل اشاعة الحق وإجراء العدل وبسط القسط، وسيؤلبون الآخرين عليه ويهبوا لمعارضته والوقوف بوجهه، وكأنّ المبادى السياسة لتلك المرحلة كانت تتطلب مواصلة الفوضى التى كانت سائدة والتطاول على بيت المال واغداق المناصب والمهام على أصحاب النفوذ والسطوة دون أى إستحقاق، وإن إنعكس ذلك سلباً على الامّة وهضمها حقوقها؛ الأمر الذى كان فى مقدمة أهداف الأنبياء والرسل القضاء عليه: «لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۲۷

بِالبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ وَالمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ»[۳۱۳].

ثم ناشدهم عليه السلام اتماماً لحجة وإثبات مدى زهده بمقامات الدنيا ومظاهرها، تركه ليكون كاحدهم فى الامّة:

«وإن تركتمونى فانا كأحدكم؛ ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم».

فالعبارة تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يعيش عالما أخر غير ذلك الذى تكالب عليه أهل المصالح من الذين ركنوا إلى الدنيا، هو لم يفكر لحظة قط فى أن تكون الخلافة لقمة سائغة، بقدر ما كان يراها مسؤولية ثقلية تهدف أول ما تهدف إليه إحياء القيم والمفاهيم الإسلامية. وإلّا فهى لاتعدل عنده أكثر من عفطة عنز. ثم عاد القول عليه السلام على أولئك الجماعة المتكالبة على الدنيا والتى تطمع إلى المزيد

«وأنا لكم وزيراً، خير لكم منى أميراً».

وذلك إنّى ان كنت أميراً لحيل بينكم وبين العلو والاستبداد والتطاول على حقوق المحرومين، أمّا أن أكون وزيراً فلكم أن تشيروا علىَّ وتنتفعون بما أريكم من الحق، دون أن أتحمل مسؤولية أعمالكم. والحق أثبت التاريخ كل ما تكهن به الإمام عليه السلام فى هذه الكلمات الشريفة، وخلافاً لما يزعمه البعض من أصحاب النظرة الضيقة فانّ الإمام عليه السلام كان عالماً بكافة الظروف والملابسات التى أحاطت بخلافته، كما كان على علم تام بردود الفعل التى سيمارسها الخصوم ضده، وعليه فلم يقع ما لم يكن يتحسبه الإمام عليه السلام، إلّاأنّ الإمام عليه السلام كان ينتمى إلى مدرسة تملى عليه القيام بالمسؤولية وإحياء الدين ومفاهيمه السامية وتعاليمه الحقة وإن كلفه ذلك حياته، على العكس من المدارس المادية التى ترى فى الحكومة هدفاً وكل ما سواها وسيلة يمكن التضحية بها وقد مارس الإمام عليه السلام ما كان يقوله عملياً، كيف لا وهو الذى اشتاط غضباً حين سأله عقيل ما لايستحقه من بيت المال فعامله بتلك الشدة والصرامة، ليثبت أنّه يسير فى الناس بما يعلم ولايأبه بعتب العاتب كائناً من كان. لم يكن اسلوبه اسلوب من سبقه من الخلفاء قط، وهو الذى لم يجمع لنفسه شيئاً من حطام الدنيا، حتى خاطب الامّة قائلًا:

«دخلت بلادكم با شمالى هذه ورحلتى، وراحلتى، ها هى فان أنا خرجت من بلادكم بغير ما دخلت فإننى من الخائنين»،[۳۱۴]

والعجيب أنّ الإمام عليه السلام قد سلك سبيلًا يتناقض تماماً وما

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۲۸

ينتهجه اليوم الحكام والرؤوساء حين شروع الحملات الانتخابية، حيث يبذلون قصارى جهدهم لتقديم الوعود المعسولة للُامّة والشعارات المزيفة الفارغة، بل لا يتورعون عن ارتكاب أى خلاف من أجل كسب ود الناس والحصول على آرائهم. فالإمام عليه السلام يعلن بكل وضوح أهدافه، وان تعارضت هذه الأهداف مع الكثير منهم ولم تنسجم مع طموحاتهم ورغباتهم. وبغية التنبيه إلى عدم الغفلة والخداع، فانّه يكشف النقاب عن جسامة الأوضاع فى المستقبل؛ الأمر الذى لايرى له مثيلًا على مدى التأريخ بالنسبة للخلفاء والحكام.

تأمّلات

۱- لم قال دعونى؟

استغرق شرّاح نهج البلاغة وسائر علماء الإسلام كثيراً فى كلام أميرالمؤمنين على عليه السلام:

دعونى والتمسوا غيرى. فذهب البعض إلى أنّه قال ذلك لعدم وجود النص على الإمامة والولاية، فهبت طائفة من مثقفى العصر لترى فى ذلك الكلام انه يشكل الدليل على إصالة رأى الامة فى الحكومة واختيار القائد، ونرى من الضرورة بمكان أن نسلط الضوء على الشرائط الزمانية والمكانية التى كانت سائدة آنذاك والتى دفعت بالإمام عليه السلام إلى هذا الكلام قبل أن نعلن عن رأينا بهذا الشأن بغية تفادى الزلل والانحراف عن حقيقة الأمر:

۱- إنّما صدر هذا الكلام من الإمام عليه السلام إثر مقتل عثمان بفعل ذلك البذخ والتطاول على بيت المال المسلمين وتسليط بنى

أمية على رقاب المسلمين، وظهور حالة الاستياء العامة فى أغلب مناطق البلاد الإسلامية آنذاك، ممّا دفع بالامّة إلى الهجوم على الإمام عليه السلام وبسط يدها إليه بالبيعة. فقد اعتاد كبار الامّة سياسة عثمان ليتوقعوا من الإمام تحقيق رغباتهم وتقسيم بيت المال بينهم حسبما يحلو لهم، إلى جانب أولئك الذين كانوا يحلمون بأن يمنحهم الإمام عليه السلام مقابل بيعتهم بعض المناصب الحساسة فى البلاد ليكونوا عماله وولاته على بعض الأمصار فيحكموا سيطرتهم على البلاد.

أضف إلى ذلك فانّ الامّة قد ابتعدت عن قيمها الإسلامية، وقد دفعتها الفتوحات وما جرتها عليها من غنائم وثروات إلى الاقبال على الدنيا وزخارفها وتفشى الأفكار الجاهلية

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۲۹

ونسيان حياتها التى شهدتها على عهد النبى صلى الله عليه و آله بفعل عدم التفات الخلفاء لهذا الأمر. ومن هنا رأى الإمام عليه السلام نفسه أمام مفترق طرق؛ إمّا الاستسلام للبيعة فى تلك الظروف العصيبة والتأهب لتلك الحوادث والأزمات، وأمّا رفض البيعة وترك الامّة وشأنها.

۲- لم يكن الإمام عليه السلام كساسة الدنيا ليخفى أهدافه الحقيقية التى سيسعى إلى تطبيقها فيما لو تولى الخلافة والحكومة الإسلامية، فيجر الامّة بوعوده المعسولة إلى البيعة، ثم يكشف عن برامجه وخططه بعد أن يتربع على عرش السلطة وتستتب له الامور ويحكم قبضته على الناس! نعم هيهات أن يفكر الإمام عليه السلام بمثل هذه المراوغات والأساليب المظللة. ومن هنا حذر الامّة من عظم المسؤولية التى ينبغى أن تنهض بها فيما لو لبى بيعتها وتولى زعامتها. فمن الطبيعى الا يكون هناك من مبرر لخداع الامّة بغية حصول الأهداف الإسلامية واشاعة المفاهيم السماوية.

۳- لاشك أنّ الإمام عليه السلام أجدر أفراد الامّة على الخلافة ليس فى ذلك الزمان فحسب، بل فى الزمان الذى سبقه حيث ولايقتصر الإعتراف بذلك على الإمام صرح قائلًا:

«إنّه ليعلم أن محلى منها محك القطب من الرحا»[۳۱۵]

، وحين جعله عمر أحد أعضاء الشورى فقال:

«متى

إعترض الريب فى مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر»[۳۱۶]

، ولما أرادت الامّة أن تبايعه بعد عثمان إذ قال:

«ولقد علمتم أنى أحق الناس بها من غيرى»[۳۱۷]

، بل كان يراه كذلك حتى خصومه (وإن لم تشهد السياسة مثل هذا الأمر) ومن ذلك ما قاله عمر حين انتخاب الشورى:

«أمّا واللّه لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء»[۳۱۸]

، كما ذكر الطبرى أنّ أبابكر حين ولى الخلافة، تطرق لعدم أحقيته فيها طبق أغلب الروايات فقال:

«أيهاالناس! فانّى وليت عليكم ولست بخيركم»[۳۱۹].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۳۰

بل ورد فى بعض الروايات أنّ أبابكر قال:

«أقيلونى! فلست بخيركم وعلى فيكم»[۳۲۰]

، فبالنظر إلى ما أوردنا من محكمات التأريخ والأخبار، يمكن القول بأنّ الإمام عليه السلام أراد أن ينفى عن نفسه فى هذه الخطبة رغبته بمسألة الخلافة، ويكشف عن ذروة تواضعه فى هذا الأمر، كما أراد أن يفهم الامّة التى أصرت على البيعة انه ان ولى أمرها فسوف لن يسير بتلك الأساليب الخاطئة، وليس أمامه سوى سلوك سبيل الحق واحياء عصر النبى صلى الله عليه و آله، وأنّ أثار ذلك

حفيظة البعض وأدى إلى إنزعاجه، ليؤدّى به ذلك إلى رفع راية المعارضة والوقوف بوجه الإمام عليه السلام.

وعلى هـذا الضوء لانرى هناك من حاجـة لأن نبحث فى هـذه المسألـة، هل الخطبـة دليل على عـدم النص على الإمامـة، أو القول بأنّ معيار الإمامة والخلافة إنّما يكمن فى آراء الامّة لاغير.

وذلك لأنّ هـذا القول إنّما يصدر ممن اكتفى بالنظر إلى ظاهر الخطبة، واغمض عينيه عن جميع القرائن التأريخية وسائر كلمات الإمام عليه السلام فى نهج البلاغة.

۲- لم لا يتحملوا عدالة على عليه السلام؟

لاشك أن بيعـة على عليه السـلام- وطبق أقوال جميع المؤرخين- كانت الأعظم والأكمل بيعـة، ولاسـيما مقارنة ببيعة السـقيفة التى لم تتجاوز بضـعة أشـخاص، وقد استندت بيعة عمر إلى وصية الخليفة الأول، كما تمت البيعة لعثمان بثلاثة آراء من تلك الشورى المؤلفة من سـتة أعضاء، أمّا البيعـة لعلى عليه السـلام فقـد تمت من قبل جميع أبناء الامّـة، مع ذلك كان الإمام عليه السـلام مكرها على قبولها بسـبب تلك الظروف الصعبة والملابسات التى عاشها المجتمع الإسلامى من جراء سياسة الخلفاء، فقد أورد المؤرخ المعروف ابن أثير فى الكامل بهـذا الشأن قائلًا: أتى المصـريون علياً عليه السـلام بعد مقتل عثمان وقال بعضـهم لبعض لئن رجع الناس إلى أمصارهم بغير إمام لم نأمن الاختلاف وفساد الامّـة. فغشـى الناس علياً عليه السـلام بعـد أن باعـدهم وقالوا له: نبايعك فقـد ترى ما نزل بالإسـلام وما ابتلينا به من بين القرى فقال على عليه السلام:

«دعونى والتمسوا غيرى فانا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان لاتقوم به القلوب ولاتثبت عليه العقول».

فقالوا:

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۳۱

ننشدك الله! ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الإسلام؟ ألاترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟ فقال:

«قد أجبتكم، واعلموا أنى إن اجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وان تركتمونى فانما أنا كاحدكم، الا أنى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه» ، ثم افترقوا على ذلك واتعـدوا الغد. وتشاور الناس فيما بينهم وقالوا: إن دخل طلحة والزبير فقد اسـتقامت، فبعث البصـريون إلى الزبير حكيم بن جبلـة وقالوا: احـذر تحابه ومعه نفر، فجاؤوا به يحـدونه بالسـيف، فبايع، وبعثوا إلى طلحة الأشتر ومعه نفر، فاتى طلحة، فقال: دعونى أنظر ما يصنع الناس، فلم يدعه، فجاء به يتله تلًا عنيفاً، وصعد المنبر فبايع- ثم خاض ابن أثير فى تفاصيل بيعة عامة الامّة.[۳۲۱]

فالحق أنّ علياً عليه السـلام كان يعلم مدى صـعوبة السير على الحق وبسط العدل فى ربوع هذه الجماعة التى تربت على مفردات الظلم والجور، مع ذلك لم يكن يتوانى عليه السـلام من التضـحية حتى بنفسه من أجل حفظ المبادىء الإسـلامية فلم يكن هدف الإمام عليه السلام الاستيلاء على الخلافة مهما كان الثمن، بل كان يرى الحكومة وسلية لحفظ القيم الإسلامية؛ الأمر الذى يصعب إدراكه على من ليس له علم بفحوى رسالـة الأنبياء والاولياء، فقـد نقل ابن أبى الحديـد عبارة رائعـة عن بعض العلماء بهـذا الشأن إذ قال: وبهذا ونحوه اسـتدل أصـحابنا المتكلمون على حسن سياسـته وصـحة تـدبيره، لأنّ من منى بهـذه الرعية المختلفة الأهواء، وهذا الجيش العاصـى له، المتمرد عليه، ثم كسر بهم الأعداء، فليس يبلغ أحد فى حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه.

إنّ سياسـته عليه السـلام إذا تاملها المنصف متدبراً لها بالاضافة إلى احواله التى دفع اليها مع أصـحابه، جرت مجرى المعجزات لصعوبة الأمر وتعذره.[۳۲۲]

۳- لم وزارته عليه السلام خير من إمارته؟

إضافة إلى إمكانية حمل عبارة الإمام عليه السلام

«أنا لكم وزيراً، خير لكم منى أميراً»،

على نوع من التواضع واتمام الحجة، فانه يمكن توجيهها بشكل آخر، وهو أنّ علياً عليه السلام لو أصبح أميراً لكانت معارضته والوقوف بوجهه مدعاة إلى الكفر، وذلك لأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال له كما روى

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۳۲

فى الخبر المعروف

«حربك حربى»[۳۲۳]

، ولما كانت حرب رسول الله صلى الله عليه و آله كفراً، فان حرب على عليه السلام كفراً. أمّا لو كان عليه السلام وزيراً فانّ الخروج على تلك الحكومة لايؤدى إلى الكفر.

وزبدة الكلام فان بعض المغرضين حاول استغلال هذه الخطبة وتفسيرها خلافاً لُاصول وعقائد التشيع، والحال ليس فيها ما يدعوا إلى هذا الأمر، لأنّ الإمام عليه السلام أراد أن يبين زهده بهذا المقام الظاهرى من جانب وأنّ الآخرين يفقدون صوابهم لأدنى من هذا الأمر. ومن جانب آخر فقد كشف الإمام عليه السلام قمة تواضعه بهذه العبارات للمؤمنين من أبناء الامّة. كما حذر فيها واتم الحجة بانّى إذا نهضت بالأمر فلن أعمل سوى بالكتاب والسنة والحق والعدل ورضى اللّه، ولا تتوقعوا أن أواصل ما شهدتم من سياسة، وترسيخ دعائم الحكم على الظلم والجور.

وأخيراً لا تعتقدوا بأنّى غافل عن عواصف المستقبل وأنّى متطلع إلى الخلافة لأراها سهلة ذلول، فأنّى لعلى يقين من أنّ الخلافة فى هذه الظروف خطيرة كركوب الدابة الجموح كالمركب الجموح ولا اقبلها إلّابفضلها وظيفة وتكليف إلهى، وبخلافه فلا قيمة لها عندى.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۳۳

الخطبة[۳۲۴] الثالثة و التسعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها ينبّه أميرالمؤمنين عليه السلام على فضله وعلمه ويبيّن فتنة بنى أمية

أشار عليه السلام نظرة إلى الخطبة فى هذا الخطبة إلى فتنة بنى أمية وقدنبّه إلى عظم خطورتها، لأنّ الناس كلهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم، هل يتبعون موليهم أم لا؟ وهل يجهزون على جريحهم أم لا؟ واستعظموا أيضاً حرب عاشئة وحرب طلحة والزبير، لمكانهم فى الإسلام، فلولا أنّ الإمام عليه السلام اجترأ على سل سيفه فيها. ما أقدم أحد عليها حتى الحسن عليه السلام. ثم قال عليه السلام سلونى قبل أن تفقدونى. فقد روى صاحب كتاب الاستيعاب بن عبد البر عن جماعة من الرواة والمحدثين، قالوا لم يقل أحد من الصحابه

«سلونى»

إلّاعلى بن أبى طالب.[۳۲۵]

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۳۵

القسم الاوّل: أنا فقأت عين الفتنة

«أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللّهِ وَالثَّناءِ عَلَیْهِ، أَیُّهَا النَّاسُ فَإِنِّی فَقَأْتُ عَیْنَ الْفِتْنَةِ، وَلَمْ یَکُنْ لِیَجْتَرِیءَ عَلَیْهَا أَحَدٌ غَیْرِی بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَیْهَبُهَا وَاشْتَدَّ کَلَبُهَا. فَاسْأَلُونِی قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِی، فَوَ الَّذِی نَفْسِی بِیَدِهِ لَاتَسْأَلُونِی عَنْ شَیْءٍ فِیمَا بَیْنَکُمْ وَبَیْنَ السَّاعَةِ، ولَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِی مِئَةً وَتُضِلُّ مِئَةً إِلَّا أَنْبَأْتُکُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا، وَمُنَاخِ رِکَابِهَا، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا، وَمَنْ یُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلًا، وَمَنْ یَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً. ولَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِی وَنَزَلَتْ بِکُمْ کَرَائِهُ الأُمُورِ، وَحَوَازِبُ الْخُطُوبِ، ولأَطْرَقَ کَثِیرٌ مِنَ السَّائِلِینَ، وَفَشِلَ کَثِیرٌ مِنَ المَسْؤُولِینَ، وَذلِکَ إِذَا قَلَّصَتْ حَرْبُکُمْ، وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ، وَضَاقَتِ الدُّنْیَا عَلَیْکُمْ ضِیقاً، تَسْتَطِیلُونَ مَعَهُ أَیَّامَ الْبَلاءِ عَلَیْکُمْ، حَتَّی یَفْتَحَ اللّهُ لِبَقِیَّةِ الأَبْرَارِ مِنْکُمْ».

الشرح والتفسیر

بعد أن حمد الإمام علیه السلام الله وأثنی علیه خاطب الناس قائلًا:

«أمّا بعد حمدالله، والثناء علیه، أیها الناس! فانی فقأت [۳۲۶] عین الفتنة، ولم یکن لیجتریء علیها أحد غیری بعد أن ماج غیهبها [۳۲۷] واشتد کلبها [۳۲۸]».

نفحات الولایة، ج ۴، ص: ۱۳۶

وقد اختلفت أقوال الشرّاح فی المراد بهذه الفتنة، فقد ذهب البعض إلی أنّ المراد بها وقعة الجمل، حیث أصابت فیه الحیرة السذج من الأفراد وحتی من لم یکن یمتلک الإیمان والعلم العادی، فی أنّه هل یجوز قتال فئة تنتحل الإسلام ظاهرا و هی من أهل القبلة؟ کیف وفیها بعض کبار الصحابة کطلحة والزبیر، وکذلک زوج رسول اللّه صلی الله علیه و آله عائشة، وناهیک عما سبق فاذا تمت الحجة ونشبت الحرب، فهل یمکن السیطرة علی أموالهم کغنائم؟ وکیف سیعامل أسراهم؟ إلّاأنّ الإمام علیه السلام کان یعلم بأنّ هذا النقض للعهود والمواثیق، وشق عصا الامّة وتمزیق وحدتها، إذا استمر فانّ الفتنة ستعم کافة البلاد الإسلامیة حتی لایبقی من الإسلام إلّا اسمه، ومن القرآن إلّارسمه وستطمس معالم الدین. فبذل الإمام علیه السلام بادیء الأمر قصاری جهده من أجل اتمام الحجة محذرا الطرف المقابل من العواقب الوخیمة وذلک من خلال الکتب والرسل التی کان یبعث بها إلیهم، فلما لم یستجیبوا، لم یکن أمام الإمام علیه السلام من سبیل إلا القتال، ومن هنا واجههم الإمام علیه السلام بتلک الشدة والصرامة حتی أخمد فتنة الجمل، بینما ذهب البعض الآخر إلی أنّ المراد بها فتنة الخوارج من النهروان لأن ظاهر الخوارج کان یتصف بنوع من الصلاح والقدسیة، رغم انحرافهم الباطنی وحماقتهم وجهلهم بالتعالیم الإسلامیة، بینما کانوا یولون عنایة فائقة لأدنی المستحبات والمندوبات، ولذلک تردد الکثیر من السذج فی قتالهم، بینما نهض الإمام علیه السلام بالأمر لیواجه هذه الفتنة ویفقأ عینها، کما ذهب بعض الشرّاح إلی أنّ المراد بها الفتنة بمفهومها العام، حیث یعتقدون أنّ هذه الفتن قد بدأت علی عهد رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی موقعة بدر واستمرت فی سائر الغزوات، ثم استفحلت وتفاقم خطرها بعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله، ثم امتدت لتشتد فی زمان عثمان، فلما قتل وبایع الناس الإمام علیه السلام تجذرت هذه الفتنة لتتخذ أشکالًا اخری لیواجهها الإمام علیه السلام بالسیف أحیاناً، وبالصبر والتحمل والتحذیر والنذیر أحیاناً اخری ولکن یبدو تفسیرها بالجمل أنسب من غیره أمّا التعبیر:

«عین الفتنة»

فیفید أنّ الإمام علیه السلام قد شبه الفتنة بشبح وحشی کاسر، وإذا فقأت عینه سلبت قدرته وحیویته، کما تشیر إلی أنّ الإمام علیه السلام کان یتجه فی مجابهته للفتنة إلی مراکزها الأصلیة ورموزها الأساس،

نفحات الولایة، ج ۴، ص: ۱۳۷

ولایقصد العناصر الثانویة هناوهناک، فالفتنة تزول إذا مازال مرکزها؛ وهذا هو الطریق الافضل الذی ینبغی اتخاذه فی مواجهة الفتن والدسائس. ثم تطرق الإمام علیه السلام إلی مسألة ذات أهمیة بالغة جدا فقال علیه السلام:

«فاسألونی قبل أن تفقدونی»

. کما ذکر سابقا فقد قال المحققون لم یکن لیقول هذا الکلام غیر علی بن أبی طالب، و ذلک لأنه کان واسع العلم بأحداث الماضی

و الحاضر و المستقبل بحيث يجيب يرد على كل سؤال بشأن المعارف و الأحكام، و هو العلم الذى تعلمه من رسول اللّه صلى الله عليه و آله الذى أخذه عن الوحى.

قال الشارح المعتزلى روى صاحب كتاب الاستيعاب عن جماعة من الرواة والمحدثين قالوا لم يقل أحد من الصحابة عنهم سلونى إلّاعلى بن أبى طالب، وقال أبو جعفر الاسكافى فى كتاب نقض العثمانية: ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر سلونى إلّاعلى بن أبى طالب عليه السلام.

وقيل إنّ ابن الجوزى قال يوماً على منبره: سلونى قبل أن تفقدونى، فسألته أمرأة عما روى أنّ علياً سارفى ليلة إلى سلمان فجهزه ورجع، فقال: روى ذلك، قالت: فعثمان ثم ثلاثة أيام منبوذاً فى المزابل وعلى عليه السلام حاضر، قال: نعم، فقالت: قد لزم الخطاء لأحدهما، فقال: ان كنت خرجت من بيتك بغير اذن زوجك فعليك لعنة اللّه وإلّا فعليه، فقالت: خرجت عائشة لحرب على باذن النبى صلى الله عليه و آله أم لا؟ فانقطع ولم يحر جواباً[۳۲۹] ثم قال عليه السلام:

«فو الذى نفسى بيده!

لاتسألونى عن شىء فيما بينكم وبين الساعة، ولاعن فئة تهدى مئة وتضل مئة إلّا أنبأتكم بناعقها[۳۳۰] وقائدها وسائقها، ومناخ [۳۳۱] ركابها، ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها

قتلًا، ومن يموت منهم موتاً»

ربّما يتكهن الكثير من الناس بصورة كلية ومبهمة عن بعض حوادث المستقبل، وهذا ما نلمسه بوضوح لدى الساسة الذين يتكهنون ببعض الامور التى قد تصيب وقد تخطىء. إلّاأنّ أحداً لم يتمكن بالتكهن بدقائق الامور وأدنى التفصيلات وبالنسبة

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۳۸

لتلك الأزمان البعيدة، إلّالمن ارتبط بمصادر الوحى واستند إلى المدد الإلهى والعلم المطلق.

والعجيب فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام أكد فى هذه العبارة أنى أستطيع أن أخبركم بكافة الحوادث القادمة إلى يوم القيامة من جانب، ومن جانب آخر أشار إلى جزئيات هذه الحوادث وتفاصيلها. الأمر الذى لا يتيسر إلّاللنبى ومن يستقى علومه ومعارفه منه، وهنا يبرز هذا السؤال: هل للنبى أو الإمام العلم بالغيب، وبهذه السعة والشمولية، والحال هذا القرآن يصرح: «قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلّا اللَّهُ»[۳۳۲]، وتبدو الاجابة واضحة ومعروفة على هذا السؤال، على ضوء ما ورد فى الآيات القرآنية، وكلمات الائمة عليه السلام ولاسيما الإمام عليه السلام فى أن علم الغيب بالذات مختص بالله سبحانه، والله سبحانه يطلع من يشاء من أوليائه على ذلك العلم، كما ورد ذلك فى الآية ۲۶- ۲۷ من سورة الجن: «عالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً* إِلّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ»، وسيأتى عما قريب أنّ الإمام عليه السلام حين أخبرعن بعض الحوادث، فتبادر هذا السؤال إلى ذهن أحد الأفراد بشأن علم الإمام عليه السلام للغيب، ردّ عليه عليه السلام بالقول:

«ليس هو بعلم غيب، وإنّما هو تعلم من ذى علم»،

فى إشارة واضحة إلى أنّ الغيب الذاتى للّه، وعلم الإمام عليه السلام إكتسابى، فقد تعلم جميع هذه الامور من رسول اللّه صلى الله عليه و آله الذى تعلمها من اللّه سبحانه وتعالى (وسيمر علينا فى البحث القادم شرح هذا الكلام). على كل حال، لم يقل مثل هذا الكلام بعد رسول اللّه أحد سوى أميرالمؤمنين، إلّاأنّ الإمام أورد ذلك كراراً ومراراً ليقع عين ما كان يخبر به عليه السلام. وقد أفرد ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة فصلًا أسماه الامور الغيبة التى أخبر عنها الإمام عليه السلام أورده فى ذيل هذه الخطبة، وسنشير إليه فى البحث القادم.

والعبارة:

«ولاعن فئة تهدى مئة ...»

إشارة إلى أنّ الإمام عليه السلام لايخبر عن الجماعات الكثيرة والوقائع الخطيرة فحسب، بل يستطيع الأخبار عن صغائر الحوادث ببركة ذلك التعليم الإلهى. ثم أشار عليه السلام إلى نقطتين بهذا الشأن:

الاولى: لتشجيع أولئك على السؤال عن المسائل المصيرية، حذراً من ندمهم يوماً حين

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۳۹

تضطرب عليهم الامور فيحل مشاكلهم:

«ولو فقدتمونى ونزلت بكم كرائه ۳۳۳] الامور،

وحوازب ۳۳۴] الخطوب، لأطرق كثير من السائلين، وفشل كثير من المسؤولين»

أى أسألونى مادمت بينكم، فليس لأحد بعدى أن يرد على ما يدور فى أذهانكم، آنذاك ليس لكم سوى الندم.

الثانية: إشارة إلى الأزمات والخطوب المرتقبة، ليستعدوا لها، كما تبشر من جانب آخر الأخيار والصالحين بالفتح

«وذلك إذا قلصت ۳۳۵] حربكم، وشمرت ۳۳۶] عن ساق، وضاقت الدنيا

عليكم ضيقاً، تستطيلون معه أيام البلاء عليكم، حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم»

، فالإمام عليه السلام أشار- إلى سيطرة الجناة من حكام بنى أمية وسيطرتهم على مقدرات الامّة الإسلامية وغصب أموالها، وليس لمن يقف بوجههم سوى الضربات الماحقة الشديدة، والحق أنّ جرائمهم وجناياتهم لتفوق الخيال والتصور، وما أروع عبارة الإمام عليه السلام بهذا الشأن حين قال:

«ضاقت الدنيا عليكم ضيقاً»

لتصور بعض الفضائع التى ارتكبها بنى أمية بحق الناس.

أمّا قوله عليه السلام:

«حتى يفتح الله لبقية الابرار منكم»

، فيمكن أن يكون إشارة إلى زوال حكومة بنى أمية، ليتنفس المسلمون بعدها الصعداء، حيث سيتربص بهم العباسيون الذين لم تشتد قوتهم آنذاك. كما يمكن أن تكون إشارة إلى الحكومة العالمية للإمام المهدى عليه السلام التى تقتلع جذور الظلم والجور وتنهى كافة أشكال التسلط والهيمنة وترسى قواعد العدل والقسط، وإليك طائفة من الامور الغيبية التى أخبر عنها الإمام عليه السلام ثم تحققت، تأمل نبوءات الإمام عليه السلام أفرد ابن أبى الحديد فصلًا بهذا الشأن فقال: واعلم أنّه عليهالسّلام قد أقسم فى هذا الفصل باللّه الذى نفسه بيده أنّهم لايسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلّاأخبرهم به، وأنّه ما صحّ من طائفة من الناس يهتدى بها مائة وتضلّ بها مائة، إلّاوهو مخبرٌ لهم- إن سألوه- برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزول ركابها وخيولها؛ ومَنْ يقتل منها قتلًا، ومَنْ يموت منها

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۴۰

موتاً؛ وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعا الرّبوبية، ولا إدّعاء النبوة؛ ولكنه كان يقول:

إنّ رسول صلى اللّه عليه وآله أخبرَه بذلك؛ ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقاً، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة، كإخباره عن الضربة التى يضرب بها فى رأسه فتخضب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام؛ وما قاله فى كربلاءِ حيث مرّبها، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده، وإخباره عن الحجاج؛ وعن يوسف بن عمر؛ وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدمه إلى صحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم وصلب من يصلب وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدّة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شخص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها، هذه شهادة ضد من لايعتقد بإمامته عليه السلام على أنه الإمام المعصوم؛ بينما المسألة واضحة لنا تماما. فالائمة ورثة علوم النبى صلى الله عليه و آله إلى جانب إدراكهم للحقائق القرآنية التى يعجز

عن دركها الاخرون، مع مالهم من إلهامات غيبية و سنبحث في حينه في ذيل بعض الخطب بشأن سعة علم الإمام.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۴۱

القسم الثاني: فتنة بني أمية

اشارة

«إِنَّ الْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ؛ يُنْكَرْنَ مُقْبِلاتٍ، وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّياحِ، يُصِبْنَ بَلَداً وَيُخْطِئْنَ بَلَداً. أَلَا وإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي امَيَّةَ، فإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ: عَمَّتْ خُطَّتُهَا، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطَأَ الْبَلاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا، وَايْمُ اللَّهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوْءٍ بَعْدِي، كَالنَّابِ الضَّرُوسِ، تَعْذِمُ بِفِيهَا، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا، وَتمنَعُ دَرَّهَا، لَايَزَالُون بَلاؤُهُمْ عَنْكُمْ حتَّى لايَكُون انْتِصارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إلَّا كَانْتِصارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً، وَقِطَعاً جاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدىً، وَلَا عَلَمٌ يُرَى .

الشرح والتفسير

أخبرالإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة عن جانب من الحوادث المستقبلية والفتن التي ستصيب المسلمين، ثم واصل هنا الكلام عن أولًا: الإشارة إلى القانون العام ذات الصلة بالفتن؛ القانون الذي يؤدي العلم به إلى الحد من خطر هذه الفتن، ثانياً: الحديث عن فتنة خاصة- وهي في الواقع من أهم الفتن- وتحذير الناس منها، وهي فتنة بني أمية التي تطرق الإمام عليه السلام إلى أغلب مميزاتها. فقد قال عليه السلام بادىء ذي بدء، أنّ الفتن عادة ما تتلبس بلباس الحق إذا أقبلت، فاذا أدبرت نبهت الناس إلى ما هيتها

«إن الفتن إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت نبهت».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۴۲

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة في الحقيقة هي علة هذا الأمر، وهي أنّ هذه الفتن مجهولة عند الاقبال، معروفة عند الإدبار

«ينكرن مقبلات ويعرفن مدبرات»

، فهذه نقطة اجتماعية سياسية غاية في الأهمية، وهي أنّ أصحاب الفتنة والانحراف إنّما يحاولون تنميق ظاهرهم ليخفون صورتهم الكريهة في إطار الحق ليستقطبوا الناس إليهم، فاذا استتب لهم الأمر كشفوا عن أنيابهم الكريهة حتى يطاح بهم.

ومن هنا فانّ دعاة الحق مطالبون على الدوام بالنظر بمنتهى الحيطة والحذر إلى الأحداث والوقائع خشية الانخداع والاغترار، فحسن الظن والنظرة السطحية في مثل هذه الامور لن تؤدي سوى إلى الضرر والخسران.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة وهي أنّ الفتن ليست شاملة، بل هي كالرياح التي تصيب موضعا وتترك آخر:

«يحمن [۳۳۷] حوم الرياح، يصبن بلداً ويخطئن بلدا».

لأنّ أرضية كافة المدن والامصار ليست واحدة لتحتضن الفتن، بل هناك عدة عوامل متوفرة هنا وليست متوفرة هناك، وبناء على هذا فلا ينبغي الاغترار إذا لم تشاهد بعض آثار الفتن في موضع دون آخر.

ثم يتطرق عليه السلام إلى فتنة بني أمية ليحذر من خطورتها فيقول:

«ألا وإنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فانّها فتنة عمياء مظلمة».

فتنة عمياء مظلمة لاتبقي أمامها من قيم ومفاهيم ومثل، وتتجاوز كافة الأشخاص دون الالتفات إلى سوابقهم ومواقفهم، والحق أنّ فتنة

بنی أمیـة کانت کـذلک! فقـد اسـتعادت أعراف الجاهلیـة حیاتها علی عهدهم وفی ظل حکومتهم، حیث تمکنت حثالات رجالهم من التسـلط علی رقاب المسلـین وإشـغال المواقع الحساسـة فی الحکومـة، فتنحت تلک الشخصـیات الصالحـة وأقصـیت عن المیدان، بینما مـورست أبشـع أنـواع البطش والتعـذیب بحـق أولئـک الـذین رفعـوا أصـواتهم بوجه هـذه الحکومـة. ثم أشـار علیه السـلام إلی بعض خصائص هذه الفتنة فی أنّ حکومتها عامة شاملة بحیث یخضع الجمیع لهذه السلطة الغاشمة، غیر أنّ بلائها یختص بطائفة وجماعة؛

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۱۴۳

فمن کان بصیراً فی تلک الفتنة (ووقف بوجهها) شمله ذلک البلاء، بینما یسلم منها من کان أعمی

«عمت خطتها،[۳۳۸] وخست بلیتها، وأصاب البلاء من أبصر فیها، وأخطأ البلاء من عمی

عنها».

طبعاً أنّ آثار الفتنة ستعم بالتالی کافة القوم، ولعل هذا هو المعنی الذی أشارت إلیه العبارة

«عمت خطتها»؛

إلّاأنّ شـدتها وحـدتها إنّما تطیل المجاهـدین الاشـداء، بینما یکون الجهال من عدیمی الشـعور بالمسؤولیة فی أمان من ذلک البلاء ثم تطرق علیه السلام إلی خاصیة اخری من خصائص حکومة بنی أمیة، لیقسم قائلًا:

«وآیم اللَّه ۳۳۹] لتجدن بنی أمیة لکم أرباب سوء

بعدی کالناب ۳۴۰] الضروس ۳۴۱] تعذم ۳۴۲] بفیها، وتخبط[۳۴۳] بیدها وتزبن ۳۴۴] برجلها، وتمنع

درها[۳۴۵]».

یاله من تشبیه رائع فی الإنسان یتوقع أن یستفید من لبن ناقته ویرکبها لیصل إلی المکان الذی یرید، کما أنّ الإنسان ینتظر من الحکومة أن تساعـده وتحـل مشـاکله وأن تکون سـنده فی مسـیرة الرقی والتقـدم الفردی والاجتمـاعی. أمّا الحکام الظلمـة الـذین یفتقرون إلی المنطق والرحمة- والذین لایفکرون إلّافی تحقیق منافعهم- لیس فقط لایحلون مشاکل المجتمع فحسب، بل یجعلونه یعیش فی خضـم هالـة من المصاعب والمشاکل ویوجهون له الضـربات الماحقـة الموجعـة وهذه المعاملة الجافة العنیفة، و یالها من نبوءة صـحیحة حیث کان علیه السـلام یری ببصیرته کل تلک الأحداث و عظم البلاء الذی صبته هذه الفئة القاسیة علی المسلمین. حتی لایبقی منکم إلّامن ینفعهم أو لایضرهم:

«لایزالون بکم حتی لایترکوا منکم إلّانافعالهم، أو غیر ضائر بهم».

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۱۴۴

فهم یخنقون أصوات دعاة الحق فی حناجرهم ویلتقطون من یعارضـهم أینما کان ولایرون لأی أحـد من حق فی الحیاة سوی من یقوم علی خـدمتهم، أو لایشـکل أی خطر علی مصالحهم، ولایفرق لـدیهم أن یکون داع الحق هـذا وطالب العـدل ابن رسول الله صـلی الله علیه و آله أو من صـحابته أم کان من کبار علماء الامّـة وأعلامها وهکـذا تتضـح عمومیـة الفتنـة وشـمولیتها التی أشار إلیها الإمام علیه السـلام. کما أشار فی الخاصـیة الرابعـة إلی نقطة وهی أنّ المشـکلة العظیمة فی هذه الحکومة تکمن فی عدم وجود أی ملاذ من شأنه توفیر الأمن للآخرین والنجاة من ظلم هؤلاء الظلمة، ولیس هنالک من یسـمع شـکواهم، الأمر الذی یضـطرهم إلی شـکوی ظلم الظلمة إلی أنفسهم ومعلوم بالطبع نتیجة مثل هذه الشکوی:

«ولایزال بلاؤهم عنکم حتی لایکون انتصار أحدکم منهم إلا کانتصار العبد من ربّه، والصاحب من مستصحبه».

والحق هذا هو مصیر الأُمّة التی تقوم حکومتها الجائرة والظالمة بقطع ألسن کافة دعاة الحق وتحاصـر العلماء وتفرض علیهم الاقامة فی بیوتهم، وتعز الـذلیل وتـذل العزیز وتحطم عناصـر القوة فی الامّة وتسـخرها من أجل منافعها. ثم أشار فی الخاصـیة الخامسة والأخیرة- والتی تؤکد فی الواقع الخصائص السابقة- إلی تتابع هذه الفتن وهی عماء وصماء خالیة من الأدلة وسبل النجاة:

«ترد عليكم فتنتهم شوهاء[۳۴۶] مخشية[۳۴۷] وقطعاً جاهلية، ليس فيها منار

هدى ولاعلم يرى»

، وهكذا يكون الإمام عليه السلام قد رسم بهذه الخصائص الصورة القاتمة لظروف وأوضاع حكومة بنى أمية، كما أشار إلى نهايتها؛ وكأنّه كان قد عاش تلك الفترة المظلمة التى دامت ثمانين سنة، وكان يرى تفاصيلها رأى العين. فقد كانت حكومة لاتقيم وزناً للقيم والمثل الإسلامية ولاتعترف بالقوانين الإسلامية، بل هى حكومة مستبدة طاغية تفتقر إلى المنطق والموازين مليئة بالفتن الحاكية عن عصر الجاهلية، الحكومة التى قد لاتفكر حتى فى مصالحها، لتمارس أقصى درجات الظلم والجور فترتكب ما قل نظيره فى التأريخ البشرى. والعبارة:

«أرباب سوء بعدى»

، إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهى أنّكم لم تستجيبوا لحكومتى الإسلامية والإنسانية العادلة، فليس أمامكم سوى الحكام الظلمة وأرباب السوء. وقد أورد

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۴۵

بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ بنى أمية كانت تعامل طائفة من الناس كعبيد. حتى جاء فى شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى أنّهم كانوا يأخذون الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ويقولون فروا من الجزية، ويأخذون الصدقة من الخيل، وكانوا يختمون فى أعناق المسلمين كما توسم الخيل، وينقشون فى أكفهم علامة لاسترقاقهم كما يصنع بالعلوج من الروم والحبشة.[۳۴۸]

تأمّلات

۱- مميزات الفتنة

الفتنة مفردة يخشاها الجميع، ويرون نتيجتها هى الشؤم والألم، ولكن هنا يطرح هذا السؤال: ما هى الفتنة؟ وما هى علامتها وملامحها؟ فالإمام عليه السلام بين فى هذه الخطبة علامات الفتنة، كما عرفها على أساس هذه العلامات والملامح. فالفتنة إنّما تطلق على الحوادث المعقدة التى لاتتضح ماهيتها؛ لها ظاهر براق وباطن مملوء بالفساد؛ تؤدى بالمجتمعات البشرية إلى الفوضى والعداوة والتناحر والاقتتال وسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الاعراض- والأنكى من كل ذلك تعذر السيطرة عليها.

غالباً ما تتلبس بلباس الحق لتجذب اليها السذج من الناس ولايلتفتون إليها، إلّابعد أن تسدد إليهم سهام حقدها. والفتن لاتعرف القانون، فقدتأتى على منطقة لتحرقها عن بكرة أبيها، بينما لاتشهد منطقة اخرى أثراً لهذه الفتنة وهى تعيش فى أمن وأمان منها، وقد شبهها الإمام عليه السلام فى الخطبة بالريح التى تصيب منطقة وتخطىء منطقة اخرى، وقد تلف هذه الريح كل شىء معها من قبيل الناس والسيارات لتقذف بهم هنا وهناك حسب سرعتها وشدتها! وهذا ما تفعله الفتن بكبار الشخصيات الدينية والاجتماعية السياسية، إلى جانب فعلها بأموال الامّة وثروات المجتمع والحرب التى وقعت على عهد أميرالمؤمنين على عليه السلام تعد كل واحدة منها نموذجاً بارزاً للفتنة؛ فقد شهدت واقعة الجمل حضور زوج النبى صلى الله عليه و آله عائشة التى ركبت الجمل، وإلى جانبها طلحة والزبير وهما من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله- ومن أهل السابقة

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۴۶

الحسنة فى الإسلام، بحسب الظاهر- حتى بثوا أولى بذور النفاق والفرقة والشقاق فى صفوف الامّة الإسلامية، ولم تضع الحرب أوزارها إلّابعد مقتل أكثر من عشرين ألف من المسلمين، حتى تم الأمر لعلى عليه السلام فأخمد نيران تلك الفتنة. قضية أهل الشام

وموقعهٔ صفین والمطالبهٔ بدم عثمان ورفع المصاحف علی أسنهٔ الرماح نموذج بارز آخر لهذه الفتنهٔ، ولم تنطفی نیرانها طائفهٔ من الجهال المتنسکین وهم یرفعون شعار

«لاحکم إلّاالله»

لیشعلو فتیل موقعهٔ النهروان فالواقع أنّ تأمل هذه النماذج العینیهٔ یمکنه أن یعلم الإنسان بصورهٔ علمیهٔ کافهٔ ممیزات الفتنهٔ ومداخلاتها کما بینها الإمام علیه السلام فی هذه الخطبهٔ.

۲- حکومهٔ بنی أمیهٔ

بناءاً علی ما أورده الإمام علیه السلام فی هذه الخطبهٔ فانّ حکومهٔ بنی امیّهٔ کانت من أعظم وأعقد الفتن التی عصفت بالمسلمین منذ انبثاق الدعوهٔ الإسلامیهٔ حیث قلبت الحضارهٔ الإسلامیهٔ رأساً علی عقب وصبغت الحکومهٔ الإسلامیهٔ بصبغهٔ الاستبداد والتسلط والغطرسهٔ، تنتمی طائفهٔ بنی أمیهٔ إلی أمیهٔ بن عبد شمس بن عبد مناف. ومنها أبو سفیان أعدی أعداء الإسلام الذی أثار أغلب الحروب ضد رسول اللّه صلی الله علیه و آله وقد بذل قصاری جهده من أجل القضاء علی الإسلام، إلّاأنّ إرادهٔ اللّه وقدرته حالت دون ذلک، حتی استسلم أخیراً بجحافل الإسلام بینهما أسر الکفر وظل یخطط من أجل کسر شوکهٔ الدین، بینما صفح النبی صلی الله علیه و آله عن جرائمه. روی ابن أبی الحدید عن الشعبی أنّ عثمان لما ولی الخلافهٔ، اجتمع بنوأمیهٔ فی داره فاغلقوا الباب، وکان حینها أبوسفیان قد کف بصره فالتفت إلیهم وسألهم: هل فیکم غیرکم؟ قالوا: لا، فقال عبارته المشهورهٔ:

«یا بنی أمیهٔ تلقفوها تلقف الکرهٔ! فو الذی یحلف به أبو سفیان! ما من عذاب ولاحساب ولاجنّهٔ ولانار ولابعث ولاقیامهٔ»[۳۴۹].

وهی ذات العبارهٔ التی أطلقها معاویهٔ بعد ان سمع مقالهٔ المغیرهٔ، کما وردت مثلها فی الأشعار المعروفهٔ لیزید حین جاءوا إلیه برأس الإمام الحسین علیه السلام. هذا وقد ألف علماء الفریقین عدهٔ

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۱۴۷

کتب ومقالات بشأن الجنایات والجرائم التی ارتکبتها حکومهٔ بنی أمیهٔ، والتی تدل علی عمق الحقیقهٔ التی صرحت بها الروایات الإسلامیهٔ قبل استیلاء بنی أمیهٔ علی دفهٔ الحکم، وأنّهم آفهٔ هذه الامّهٔ.

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۱۴۹

القسم الثالث: انتقام الله من بنی أمیهٔ

اشارهٔ

«نَحْنُ أهْلَ الْبَیْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاهٍ، وَلَسْنَا فِیهَا بِدُعَاهٍ، ثُمَّ یُفَرِّجُهَا اللّهُ عَنْکُمْ کَتَفْرِیجِ الْأَدِیمِ: بِمَنْ یَسُومُهُمْ خَسْفاً، وَیَسُوقُهُمْ عُنْفاً، وَیَسْقِیهِمْ بِکَأْسٍ مُصَبَّرَهٍ لَایَعْطِیهِمْ إِلَّا السَّیْفَ، وَلَا یُحْلِسُهُمْ إِلَّا الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذلِکَ تَوَدُّ قُرَیْشُ- بِالدُّنْیا وَمَا فِیهَا- لَوْ یَرَوْنَنِی مَقَاماً وَاحِداً، وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ، لِاقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْیَومَ بَعْضَهُ فَلا یُعْطُونِیهِ!».

الشرح والتفسیر

إختتم الإمام علیه السلام الخطبهٔ بالأخبار عن بعض الحوادث المستقبلیهٔ الحلوهٔ والمریرهٔ، حیث یلفت النظر إلی أنّ أهل البیت علیهم السلام بمنجاهٔ من هذه الفتنهٔ وأنّهم لیسوا دعاهٔ حکومهٔ آنذاک:

«نحن أهل البیت منها بمنجاهٔ[۳۵۰]، ولسنا فیها بدعاهٔ».

یبـدو أنّ هناک إختلاف بین شـرّاح نهـج البلاغـهٔ فی تفسیر هـذه العبارهٔ، لأن الفتنـهٔ من حیث العینیهٔ الخارجیهٔ قد شـملت أهل البیت، ونموذج ذلک شهادهٔ الإمام الحسین علیه السلام وصحبه الکرام.

وعلیه فنجاهٔ أهل البیت من تلک الفتنـهٔ بمعنی عـدم مسؤولیتهم فی هـذه الفتنـهٔ، وتقع مسؤولیتها علی الامّهٔ التی ولت ظهورها عن أهل البیت والتحقت بسلیلی الکفر والشرک والجاهلیهٔ.

والعبارهٔ

«ولسنا فیها بدعاهٔ»

قرینهٔ علی هذا المعنی، لأنّ أهل البیت حین اجبروا علی

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۱۵۰

السـکوت ولم تندفع الامّهٔ خلفهم، بات من الطبیعی عدم تحملهم لأیهٔ مسؤولیهٔ. ثم بشـرهم الإمام علیه السـلام بعدم استمرار هذه الفتنهٔ وأنّ الله سیکشفها عن الامّهٔ کما یکشف الجلد عن اللحم:

«ثم یفرجها[۳۵۱] الله عنکم کتفریج الأدیم.»[۳۵۲]

فهذا التشبیه یشیر إلی اخماد فتنهٔ أمیهٔ بصورهٔ تامهٔ فی ذلک الزمان، لأن الجلد حین یفصل عن اللحم لاتبقی ذرهٔ منه علی اللحم بحیث یتغیر شکل الحیوان المذبوح تماماً.

والسؤال المطروح من الذی ینهی هذه الفتنهٔ ویقضی علی حکومهٔ بنی أمیهٔ وکیف؟

قال علیه السلام: فی مواصلهٔ کلامه بشکل عام

«بمن یسومهم خسفاً[۳۵۳]، ویسوقهم عنفاً، ویسقیهم

بکأس مصبرهٔ لایعطیهم إلّاالسیف، ولایحلسم ۳۵۴] إلا الخوف».

العبارهٔ

«مصبرهٔ»

من مادهٔ صبر علی وزن خشن نبات شدید المرارهٔ، إشارهٔ إلی مرارهٔ الحیاهٔ التی سیعیشها بنی أمیهٔ فی ظل حکومهٔ بنی العباس، والعبارهٔ

«لایعطیهم ...»

تأکید لهذا المعنی فی ابتلاء بنی أمیهٔ ببنی العباس، الذین یضـعون السیف فی أعناقهم، ومن حالفه الحظ فی الهرب فلیس له إلّاالخوف والرعب.

ثم قال علیه السلام آنذاک تود قریش (إشارهٔ إلی طائفهٔ من بنی أمیهٔ) أن تعطی الدنیا وما فیها، لترانی مرهٔ اخری (وتذعن لامرتی) ولو لمدهٔ وجیزهٔ بقدر ذبح الناقهٔ، لأقبل منها ما تمنعنی الیوم بعضه:

«فعنـد ذلـک تـود قریش بالـدنیا ومـا فیهـا، لـو یروننی مقاماً واحـداً، ولو قـدر جزر جزوّر[۳۵۵]، لا ـقبـل منهم مـا أطلب الیـوم بعضه فلایعطونیه»

فالعبـارات وان أشارت إلی تکهن الإمام علیه السـلام بشأن زوال سـلطهٔ بنی أمیـهٔ علی یـد بنی العباس، إلّاأنّ بعض شـرّاح نهـج البلاغهٔ احتملوا أنّ هذه العبارات وردت بخصوص حکومهٔ الإمام المهدی علیه السلام حیث سیؤدی.

إلی إجتثاث جذور الظلم والطغیان، إلّاأنّ هذا الاحتمال یبدو بعیداً، وذلک لأنّه أولًا: سوف

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۱۵۱

لن یکون بنی أمیـهٔ آنـذالک طائفـهٔ خاصـهٔ. ثانیاً: لیس هنالک من مجال لأن یتمنوا حکومـهٔ الإمام علی علیه السـلام حین ظهور الإمام المهدی علیه السلام وتطبیق کافهٔ تعالیم السماء.

وبعبارة اخرى: فانّ هـذه الامنيـة سـتكون من قبيل تحصـيل الحاصل. وهـذا الكلام إخبار عن ظهور المسودة، وانقراض ملك بنى أمية، ووقع الأمر بموجب إخباره عليه السلام؛ حتى لقد صدق قوله:

«لقد تود قريش ...»

، فـانّ أربـاب السير كلهم نقلوا أنّ مروان بن محمـد قـال يوم الزاب لما شاهـد عبـدالله ابن على بن عبـدالله بن العباس بازائه فى صـف خراسان: لوددت أنّ على بن أبى طالب تحت هذه الراية بدلًا من هذا الفتى؛ والقصة طويلة وهى مشهورة.[۳۵۶]

والأـعجب من ذلك حين ولى أبو العباس السـفاح الخلافـة- وهو أول خليفـة عباسـى أمر بقتل كافـة بنى أميـة، كما أمر بنبش قبورهم وأخراج الأـموات منهـا واحراقها، ولم ينـج منهم إلّا من هرب إلى الأنـدلس- وقيل أنّ السـفاح أمر بطرح موتى بنى أميـة أمام الكلاب لتنهش لحومهم.[۳۵۷]

بل لقب أبوالعباس بالسفاح لكثرة قتله من بنى أمية.[۳۵۸]

ويتضـح ممّا مر معنا أنّ الفرج الـذى بشـر به الإمام عليه السـلام إنّما يقتصـر على الفترة الممتـدة بين حكومـة بنى أمية وبنى العباس، أو بعبارة اخرى يرتبط بالمـدة التى لم تقو فيها قدرة بنى العباس إلى الحد المطلوب، وذلك لأنهم حين توطدت دعائم حكومتهم وقويت شوكتهم، غاصوا فى هالة من الظلم والاضطهاد ليجعلوا المسلمين يعيشون فترة مظلمة اخرى

تأمّلان

۱- ضريبة الفرار من الحق

شحن التأريـخ بهـذه التجربـة فى أنّ من يهرب من الحق والعزة والكرامـة، إنّما يعيش حياته فى ظل الذل والباطل. وأفضل نموذج على ذلك أهل العراق على عهد على عليه السلام الذين لم يستجيبوا

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۵۲

لعلى عليه السـلام المعروف بعـدالته ورحمته حتى فى ساحات الوغى ومع الخصوم والاعـداء، فكانوا يختلقون مختلف الذرائع ليتمردوا عليه، فملأوا قلبه دما وشـحنوا صـدره غيضاً وجرعوه الهم والغمّ. إلّاأنّه لم تمض عليهم مدة حتى دفعوا ثمن ذلك باهضاً ليذوقوا ألوان الذلـة والهوان. فقـد سـلط عليهم زمرة من الجفاة الطغاة القساة الذين لم يرعوا إلّاولاذمة فى كبير أو صـغير. وقد نهبوا أموالهم وانتهكوا حرماتهم وجرعوهم الموت غصـة غصـة، وأحالوا حياتهم ظلاماً دامساً، حتى تمنوا لحظـة من لحظات حكومـة على عليه السـلام ولكن هيهات.

نعم هذا ما صرح به الإمام عليه السلام فى الخطبة ۲۸:

«ألا وإنّه من لاينفعه الحق يضره الباطل، ومن لايستقيم به الهدى يجربه الضلال إلى الردى .

حقاً أن هذا الفصل من تأريخ الإسـلام مليء بالدروس والعبر، فمصير اولئك الذين غدروا بأمير المؤمنين على عليه السلام ينطوى على الدروس والعبر من جانب، ومن جانب آخر فانّ قصة بنى أمية بعد على عليه السلام هى الاخرى عبرة لمن اعتبر.

روى المؤرخ المشـهور المسـعودى أنّ الحجاج حكم الكوفة والبصـرة على عهد عبد الملكبن مروان عشـرين سـنة، واحصـى من قتله صبراً سوى من قتل فى عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفا، ومات فى حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف أمرأة، منهن ستة عشر ألفا مجردة، وكان يحبس النساء والرجال فى موضع واحد، ولم يكن للحبس ستريستر الناس من الشمس فى الصيف ولا من البرد والمطر فى الشتاء، وكان له غير ذلك من العذاب.[۳۵۹]

وذكر إبن قتيبة فى الامامة والسياسة أن الحجاج دخل مسجد البصرة مع مئتى نفر يحملون سيوفهم ثم أمرهم بالهجوم على الناس إن خلع عمامته إذا رموه، فجعلون يضربون أعناق من فى المسجد حتى إمتلأ بدمائهم. و لم يكن ذلك سوى جانبا من مصير من تمرد على الإمام عليه السلام.

۲- عاقبة بنى أمية

عاقبة بنى أمية كانت هى الاخرى أسوأ من عاقبة أهل العراق فى حكومة بنى العباس

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۵۳

حتى قيل أنّ أحد خلفاء بنى العباس أحضر فى مجلسه تسعين من زعماء بنى أمية فأمر بضرب رؤوسهم بأعمدة الحديد والقوا وسط المجلس، ثم وضعت مائدة الطعام عليهم فجعل يتناول مع صحبه الطعام.[۳۶۰]

بل لم يرحموا حتى صغار بنى أمية فضلًا عن موتاهم. فقد عمد عبدالله بن على أيام أول خليفة عباسى السفاح إلى نبش قبورهم، فاخرج جسد هشام بن عبدالملك وأضرم فيه النار، كما أخرج جسد الوليد بن عبدالملك ويزيد بن معاوية- ولم يبق منهما إلّاالعظام- وسائر أجساد بنى أمية وأمر باحراقها.[۳۶۱]

ثم اتجه صوب قبر معاوية، فلم يكن فيه سوى حفنة من التراب.[۳۶۲]

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۵۵

الخطبة[۳۶۳] الرابعة والتسعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف الله تعالى ثم يبين فضل الرسول الكريم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام ثم يعظ الناس

نظرة إلى الخطبة

تشتمل الخطبة على أربعة محاور: الأول: بيان بعض صفات الله سبحانه، الثانى: خلق الأنبياء من صلب آدم عليه السلام.

الثالث: خلق النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من النسل الطاهر، وشرح بعض فضائله ومناقبه ومدح عترته عليهم السلام.

الرابع: النصح والوعظ بعبارات قصيرة عظيمة التأثير.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۵۷

القسم الأول: عجز الفكر عن معرفته

«فَتَبَارَكَ اللّهُ الَّذِی لَایَبْلُغُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَلَا یَنَالُهُ حِدْسُ الْفِطَنِ، الأَوَّلُ الَّذِی لَا غَایَةَ لِهُ فَیَنْتَهِیَ، وَلا آخِرَ لَهُ فَیَنْقَضِیَ».

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام خطبته- كسائر خطبه- بحمد الله والثناء عليه، أفضل انطلاقة فى الحديث واعداد القلوب لسماع الوعظ. فقد بيّن عليه السلام بهذه العبارات أربع صفات من صفات الله التى تعود فى الحقيقة إلى صفة واحدة (وقد ورد شبيه ذلك فى الخطبة

الاولى من نهج البلاغة فى المجلد الأول من هذا الكتاب). فقال عليه السلام:

«فتبارك الله الذى لايبلغه بعد الهمم، ولايناله حدس الفطن».

فهو سبحانه الأول الذى لانهاية له ليمكن الوصول إليه، ولا آخر له لتكون له نهاية

«الأول الذى لاغاية له فينتهى، ولا آخر له فينقضى»

فجميع هذه الصفات إنّما تشير إلى عدم تناهى ذاته فى كل جهة. الذات التى لا تعرف الحدود من حيث العظمة والعلم والقدرة والاولية والآخرية. فهو ليس محدود فى الفكر الإنسانى، ولا يدرك بالظنون، ليس له أول، كما ليس له آخر، ليس هنالك من هدف لذاته ولا غاية، وذلك لأنّه كمال مطلق ووجود لا حدود له ولانهاية.

وفى ذات الوقت فانّ هذه الصفات الأربع تعالج هذه الحقيقة من جوانب مختلفة:

فى العبارة الاولى أنّ الأفكار البشرية والإرادات القوية ومهما بلغت جهودها ومساعيها لايسعها أن تبلغ معرفة كنهه سبحانه.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۵۸

والعبارة الثانية: إشارة إلى الحدس والظن والانتقالات الدفعية والسريعة الفكرية التى يمكنها أن تذلل أغلب قضايا الحياة، حيث يقول الإمام عليه السلام ليست لها من فاعلية هنا.

العبارة الثالثة: تشير إلى أنّ الله سبحانه، على خلاف الموجودات الإمكانية التى لها هدف ومقصد لهذا الوجود، فهى تنتهى حين تبلغ هذفها وتقوم برسالتها؛ فليس هناک وجود ليبلغه.

العبارة الأخيرة: تشير إلى أنّه آخر لانهاية له- بعبارة اخرى: هو أول الوجود وآخره، ولكن ليس بمعنى الأول الذى ينتهى ولا الآخر الذين ينقضى؛ فهذه الصفات تعنى أزليته وابديته ومطلقيته.

قد لا يكون المعنى الأخير كذلك للوهلة الاولى ولكن يبدو ذلك صحيحاً من خلال الالتفات إلى العبارة السابقة، ونظير اتها فى نهج البلاغة، كما ورد فى الخطبة ۸۵.

على كل حال فانّ الأفكار البشرية المحدودة لاتصل أبداً إلى كنه ذلک الكمال المطلق، وليس لنا سوى معرفة إجمالية، يمكنها أن تتكامل كلما طهرت روح الإنسان أكثر وأصبح فكره أقوى وأكمل، وأن تعذر بلوغ المعرفة التفصيلية البتة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۵۹

القسم الثانى: (ومنها فى وصف الأنبياء): المكانة الرفيعة للأنبياء

«فَاسْتَوْدَعَهُمْ فى أفْضَلِ مُسْتَوْدِعٍ، وَأَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الأَصْلابِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ الأَرْحَامِ؛ كُلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللّهِ خَلَفٌ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى الأنبياء الذين بعثهم الله طيلة تاريخ البشرية، ليكمل بحث التوحيد ببحث النبوة. وتفيد القرائن أن هناک مقاطع محذوفة بين هذا القسم وذلک الذى سبقه، فالأقسام مقتطفات من خطبة طويلة للإمام عليه السلام.

على كل حال فان الخطبة أشارت فى الواقع إلى الامور المهمة التالية.

الأول: أنّ الأنبياء قد غطوا جميع التاريخ البشرى وقد نهضوا الواحد تلوا الآخر بمهمتهم فى الوعظ والإرشاد.

الثانى: أنّهم ينشدون جميعاً هدفاً واحداً.

الثالث: أنّهم تربوا فى أصلاب شامخة وأرحام مطهرة.

فقال عليه السلام:

«فاستودعهم فی أفضل مستودع، وأقرهم فی خیر مستقر»

، ثم خاض علیه السلام فی شرح هذا المجمل بأنّ الله قد قلبهم فی الأصلاب الکریمة والأرحام المطهرة. فقال علیه السلام بهذا الشأن:

«تناسختهم [۳۶۴] کرائم الأصلاب إلی مطهرات الأرحام».

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۱۶۰

فالواقع هو أنّ

«أفضل مستودع»

یراد به أصلاب کرام الآباء من أهل الفضل و

«خیر مستقر»

یراد به الأرحام الطاهرة للُامهات.

ثم أشار علیه السلام إلی استمرار رسالة الأنبیاء وامتدادها، وکلما رحل منهم أحد، خلفه آخر لیواصل سبیله:

«کلما مضی منهم سلف، قام منهم بدین الله خلف».

فالواقع هو أنّ حدیقة الحیاة الإنسانیة لم تخل قط من شجرة الأنبیاء الطیبة، لتتغذی البشریة علی الدوام علی ثمارها المعطاء: «تُؤْتِی أُکُلَها کُلَّ حِینٍ بِإِذنِ رَبِّها»[۳۶۵] فترتوی من فیضها وتزدان قوة فی روحها وبدنها.

أمّا قضیة طهارة أصلاب الأنبیاء وأرحامها فمن الامور المهمة التی أسهبت فی ذکرها الروایات الإسلامیة والزیارات، وذلک لاهمیتها من جانبین: الأول من ناحیة قانون الوراثة الذی ینطوی علی آثار عمیقة والثانی: من الناحیة الاجتماعیة وثقة الامّة بالأنبیاء، إلی جانب الرابطة بین الامم والأنبیاء بما لا یمکن انکار دوره.

ومن هنا صرحت الروایات التی وردت بشأن انتخاب الزوجة بأن تکون من اسرة دینیة مشهورة بعفتها وطهارتها وورعها وتقواها، والعکس صحیح فی اجتناب الاسرة الوضیعة وان کانت هناک بعض الصفات فی المرأة. فقد جاء فی الحدیث عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«أیها الناس إیاکم وخضراء الدمن! قیل: یا رسول الله وماخضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء فی منبت السوء».[۳۶۶]

والنقطة الجدیرة بالذکر أنّ العبارة:

«کلما مضی منهم سلف، قام منهم بدین الله خلف»

، إشارة إلی هذه الحقیقة هی أنّ الأنبیاء وبمصداق «لا نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»[۳۶۷]، لهم برامج واحدة، وأصول مشترکة، وإن کان هناک بعض الاختلاف فی الفروع بسبب تفاوت الزمان والمکان؛ فکانوا یدعون جمیعاً إلی التوحید والعدل والمعاد، حتی أنّهم کانوا سواسیة فی اصول المسائل الفرعیة؛ فهم یدعون إلی التضرع والعبودیة ویحثون علی الفضائل ومکارم الأخلاق ویحذرون من الصفات الرذیلة، وبالتالی احترام القانون ورعایة النظام.

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۱۶۱

القسم الثالث: فضائل النبی صلی الله علیه و آله

اشارة

«حَتَّی أَفْضَتْ کَرَامَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالی إِلَی مُحَمَّدٍ صلی الله علیه و آله فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ الْأَرُومَاتِ مَغْرِساً؛ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِی صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِیَاءَهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ. عِتْرَتُهُ خَیْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَیْرُ الْأُسَرِ، وَشَجَرَتُهُ خَیْرُ الشَّجَرِ؛ نَبَتَتْ فِی حَرَمٍ، وَبَسَقَتْ

فِی کَرَم؛ لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ؛ وَثَمَرٌ لَایُنَالُ؛ فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَی وَبَصِیرَهُ مَنِ اهْتَدَی سِراجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سِیرَتُهُ الْقَصْدُ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وَکَلامُهُ الْفَصْلُ، وَحُکْمُهُ الْعَدْلُ؛ أَرْسَلَهُ عَلَی حِینِ فَتْرَهٍمِنَ الرُّ سُلِ، وَهَفْوَهٍ عَنِ الْعَمَلِ، وَغَبَاوَهٍ مِنَ الْأُمَم».

الشرح والتفسیر

رکز الإمام علیه السلام فی إطار حدیثه عن أنبیاء الله ورسله علی خاتم الأنبیاء والمرسلین محمد صلی الله علیه و آله وفضائله وکمالاته وأعظم صفاته من جمیع الجهات. فقد تطرق فی بادیء الأمر إلی أجداده الطاهرین وعظم فضیلهٔ ونسبه صلی الله علیه و آله ثم خاض فی فروع هذه الشجرهٔ المبارکهٔ من عترته وأهل بیته. ثم تناول فی المرحلهٔ الاخری صلاحیته فی زعامهٔ الامّهٔ، کما تحدث عن انبثاق دعوته وقیامه بالامر، ومن شأن کل بعد من هذه الابعاد أن یکشف عن عظمته صلی الله علیه و آله. فقد قال علیه السلام بأنّ الله وأصل عنایته ولطفه ببعث الأنبیاء إلی أن ختمهم بالنبی الأکرم صلی الله علیه و آله:

«حتی أفضت کرامهٔ الله سبحانه وتعالی إلی محمد صلی الله علیه و آله».

حیث استخرجه من أطیب المعادن وأفضلها ومن أطیب الترب وأعزها، وجعل فرع

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۱۶۲

وجوده من شجرهٔ الأنبیاء، تلک الشجرهٔ الطیبهٔ التی اصطفی منها أمناء رسالاته:

«فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الارومات ۳۶۸] مغرساً: من الشجرهٔ التی صدع منها أنبیاءه،

وانتجب منها أمناءه».

قطعاً أنّ أحد الابعاد المهمهٔ فی شخصیهٔ الإنسان انما یبلوره البعد الوراثی، حیث یکتسب الأبناء القدسیهٔ من جراء الآباء من أهل الورع والتقوی والصلاح، والامهات من ذوی الطهر والنجابهٔ والعفاف. وبالطبع کل ذلک دون حصول الاجبار. والنبی صلی الله علیه و آله کان نموذجاً بارزاً فی هذا الأمر؛ فهو ینتهی لآل ابراهیم علیه السلام والأنبیاء الذین إنحدروا من نسله، من صلب بنی هاشم المعروفون بالشجاعهٔ والکرم والاثرهٔ، من ولد عبدالمطلب المشهور بإیمانه وعدله وشجاعته.

فقد انفرد صلی الله علیه و آله بکل هذه الصفات.

الحقیقهٔ الاخری التی لاغبار علیها هی أنّ الأبناء من ذوی الشخصیات والأحفاد من أهل الفضائل دلیل آخر علی شخصیهٔ کل إنسان وقد یما قیل (الظرف ینضح بما فیه).

ومن هنا ذکر الإمام علیه السلام بأنّ عترته من أهل بیته من أفضل العتر وأطیبها، واسرته صلی الله علیه و آله من خیر الاسر، وشجرته المبارکهٔ من أحسن الشجر:

«عترته ۳۶۹] خیر العتر، وأسرته خیر الاسر،

وشجرته خیر الشجر»

الشجرهٔ التی نبتت فی حرم الله الأمن، وبسقت فی سماء الکرامهٔ والفضیلهٔ:

«نبتت فی حرم، وبسقت فی کرم».

وتمتاز هذه الشجرهٔ بفروعها الطویلهٔ وثمارها الطیبهٔ القیمهٔ التی لاتبلغها أیادی السفلهٔ:

«لها فروع طوال، وثمر لاینال».

فالحق أنّ الإمام علیه السلام أدی حق الکلام بهذه العبارات اللطیفهٔ الرائعهٔ بشأن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وعترته الطاهرهٔ علیهم السلام، واماط اللثام عن عظمهٔ وبرکهٔ هذه الشجرهٔ الطیبهٔ، لیبیّن بتشبیهات وعبارات جمیلهٔ فضائله ومناقبه صلی الله علیه و آله وأهل بیته.

وقد ذهب بعض شرّاح نهج البلاغهٔ إلی أنّ المراد بالحرم فی قوله:

«نبتت فی حرم»

الحرم

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۱۶۳

المکی، الذی نمت فیه شجرة النبی صلی الله علیه و آله، وترعرعت ونمت فی ظله، بینما ذهب البعض الآخر إلی أنّ المراد بالحرم هنا العترة والحرمة؛ أی أن شجرته صلی الله علیه و آله نبتت فی غایة الحرمة والعزة، ولکن یبدو المعنی الأول أنسب.

نفحات الولایة ؛ ج۴ ؛ ص۱۶۳

لعبارة

«بسقت فی کرم»

إشارة إلی أنّ النبی صلی الله علیه و آله لم یلد فی أرض وأسرة عزیزة کریمة فحسب، بل ترعرع وتربی فی بیئة مفعمة بالکرامة والشموخ (لأن البسوق فی الأصل تعنی ارتفاع وطول فروع وأغصان النخل).

والعبارة

«ثمر لاینال»

لا تعنی أن ید أحد لاتصل إلی ثمار هذه الشجرة المبارکة؛ لأن هذه لیست فضیلة، بل کما ذکرنا سابقاً إمّا ان یکون المراد أنّه لاتبلغ ید الطالحین ثمار هذه الشجرة الفاضلة، وإمّا أن یکون المراد أنّ ثمار هذه الشجرة المبارکة إلی درجة من الفضل والکرامة بحیث لایمکن أن یصافها أحد.

ویتبین ممّا ذکرنا آنفاً أنّ الشجرة فی العبارة الاولی إشارة إلی إبراهیم علیه السلام والأنبیاء السابقین، وفی العبارة الاخری إشارة إلی شجرة وجود النبی صلی الله علیه و آله وعترته فروعها.

ثم أشار بعد ذلک بتسع عبارات فصار إلی سائر الخصال المهمة الحمیدة للنبی الأکرم صلی الله علیه و آله، فقال علیه السلام:

«فهو إمام من اتقی وبصیرة من اهتدی سراج لمع ضوؤه، وشهاب سطع نوره، وزند[۳۷۰] برق لمعه، سیرته القصد، وسنته الرشد، وکلامه الفصل، وحکمه العدل»

فالعبارة:

«إمام من اتقی ...»

شبیهة

«هدی للمتقین»

بشأن القرآن التی وردت فی الآیة الثانیة من سورة البقرة. والمراد إنّما یستضیئ بنور هذا السراج الهادی والزعیم الاوحد من کانت له عین باصرة وقلب واع ینشد الحقیقة والفضیلة، بعبارة اخری یتحلون بالتقوی التی تجعلهم مستعدین لقبول الحق؛ ولذلک فلیس من العجیب ألایهتدی بهدیه أهل التعصب والعناد والأحقاد والضغان من عمی البصائر، علی غرار مکفو فی البصر الذین لایرون الشمس فی رابعة النهار فلا یستفیدون من ضیائها، والعبارة:

«سیرته القصد»

شبیهة ما ورد فی القرآن الکریم:

«وَکَذ لِکَ جَعَلْناکُمْ أُمَّةً وَسَطاً»[۳۷۱]، فهی إشارة إلی اعتدال سیرة النبی صلی الله علیه و آله وابتعاده عن کل

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۱۶۴

افراط وتفريط فى كافة الشؤون العبادية والاخلاقية والسياسية والاقتصادية.

ولعل هناك من يتصور أن هناك تضاد بين العبارة

«وحكمه العدل»

وما ورد فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إنّما أقضى بينكم بالبينات والإيمان، وبعضكم ألحن بحجته من بعض؛ فأيما رجل قطعته من مال أخيه شيئا، فانما قطعت له به قطعة من النار».[۳۷۲]

وذلك لأنّ النبى صلى الله عليه و آله قد يحكم بخلاف الواقع على ضوء مفهوم هذا الحديث. إلّاأنّ الجواب على هذا الإشكال يبدو واضحاً، وهو أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم يستعن فى إصداره للأحكام على الوحى والغيب، وإنّما يصدر أحكامه دائماً على ضوء الأدلة والمدارك المتعارفة الموجودة، وهذا بحد ذاته عين العدالة، فى أن يستند القاضى إلى المدارك الموجودة فى إصداره للأحكام والقضاء، فاذا كان هناك من يضعف عن بيان الحق، أو لا ـ يستطيع أن يقدم المدارك المطلوبة فيتعرض إلى نوع من الاجحاف فانّ ذلك لا يخدش البتة فى عدالة القاضى، ولو كان غير ذلك لما أمكن تسميته عادلًا.

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالاشارة إلى الظروف الصعبة والملابسات التى رافقت ظهور النبى صلى الله عليه و آله ليكشف النقاب عن عظمة دعوة النبى صلى الله عليه و آله والجهود الجبارة التى بذلها فى هذا الشأن، فقد بعثه الله بعد مدة طويلة من الرسل (ومن هنا) ابتعد الناس عن العمل الصالح وعاشوا الانحراف، وساروا نحو الجهل والظلام:

«أرسله على حين فترة من الرسل، وهفوة[۳۷۳] عن

العمل، وغباوة[۳۷۴] من الامم»

وتتضح حقيقة هذه العبارات من خلال التأريخ البشرى إبان ظهور الدعوةالإسلامية، ولاسيما أوضاع عرب الجاهلية.[۳۷۵]

ومن الطبيعى أن تكون وظيفة أولياء الله والمصلحين الربانيين ودعاة العدل والحق والاخلاق والفضيلة أصعب وأعقد كلما كانت الظروف السائدة قاسية تدعو إلى الجهل

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۶۵

والبلادة والفساد والانحراف، ومن هنا نكتشف عظمة النبى صلى الله عليه و آله وعظم جهوده فى تغيير ذلك المجتمع.

تأمّلان

۱– منزلة النبى صلى الله عليه و آله لدى الآخرين

لايقتصر ماورد فى هذه الخطبة من صفات عاليات وكرامات شامخات للنبى صلى الله عليه و آله على على عليه السلام واتباعه، بل اننا لنرى حتى كبار الشخصيات الغربية من غير المسلمين ليقفون وقفة إجلال وإكبار لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله.

فهذا الفيلسوف والكاتب الانجليزى برناردشو يقول: إنّ دين محمد هو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنّه حائز على أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جاذباً لكل جيل .... أنّ محمداً يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وأعتقد أنّه لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح فى حل مشاكله بطريقة تجلب إلى العالم السعادة والسلام، أنّ محمداً أكمل البشر من السابقين والحاضرين، ولا يتصور وجود مثله فى الآتين.[۳۷۶]

۲- اسرة النبى صلى الله عليه و آله

لم يقتصر الحديث عن شرف نسب النبى صلى الله عليه و آله وعظمة طائفته واسرته على ماورد فى كلام أميرالمومنين على عليه السلام فى هـذه الخطبـة، بل تظافرت أحاديث النبى صـلى الله عليه و آله فى مصادر الفريقين بهـذا الشأن. ومن ذلك أنّه صـلى الله عليه و آله قال:

«إن جبرائيل عليه السلام قال لى: يا محمد! قد طفت الأرض شرقاً وغرباً، فلم أجد فيها أكرم منك، ولا بيتاً أكرم من بنى هاشم»[۳۷۷]

. وجاء فى حديث آخر:

«سادة أهل المحشر سادة أهل الدنيا: أنا وعلى وحسن وحسين وحمزة وجعفر»[۳۷۸]

. وورد فى الحديث أيضاً:

«أنّه لايبغض أحد أهلى إلّاحرمه الله الجنّة»[۳۷۹]

. وروى عن عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال:

«قال لى جبرائيل: يا محمد! طفت شرق الأرض وغربها فلم أر أكرم من بنى هاشم»[۳۸۰]

، وجاء فى صحيح مسلم- وهو من المصادر المشهورة لدى العامة- فى بحث

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۶۶

فضائل الصحابة فى قضية الغدير أن النبى صلى الله عليه و آله قال فى خطبته ثلاثا:

«اذكركم الله فى أهل بيتى»[۳۸۱].

والطريف فى الأـمر أنّ الإمام الحافظ أبوالعباس أحمـد بن عمر بن ابراهيم القرطبى- من مشاهير علماء العامـة- صـرح فى كتابه المفهم الذى شـرح فيه صـحيح مسـلم حين بلغ هذا الحديث قائلًا: من العجب أن يخالف بنى أمية أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله ويضيعوا حقهم رغم وصايـا النبى صـلى الله عليه و آله بهم، حتى أراقـوا دمـائهم وسـبوا نسـائهم واخربـوا بيـوتهم وسـنوا لعنهم. فويـل لهم يوم القيامة.[۳۸۲]

والأعجب من ذلك دفاع البعض عن معاوية رغم فضائح بنى أمية ومدى سعة ظلمهم وجورهم.

على كل حال فانّ شـجرة النبى صـلى الله عليه و آله وفروعها المباركـة مصداق واضح للآية ۲۴ و ۲۵ من سورة ابراهيم: «كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ* تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذنِ رَبِّها».

ونختتم حديثنا هذا بهذه الأبيات الرائعة[۳۸۳]:

يا حبذا دوحة فى الخلد نابتةما مثلها نبتت فى الخلد من شجر

المصطفى أصلها والفرع فاطمةثم اللقاح على سيد البشر

والهاشميان سبطاه لها ثمروالشيعة الورق الملتف بالثمر

هذا مقال رسول الله جاء بهأهل الرواية فى العالى من الخبر

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۶۷

القسم الرابع: اعملوا ما استطعتم

«اعْمَلُوا رَحِمَكُمُ اللّهُ، عَلَى أَعْلام بَيِّنَةٍ، فَالطَّرِيقُ نَهْـجٌ يَدْعُو إلى دَارِ السَّلَام، وَأَنْتُمْ فِى دَارِ مُسْـتَعْتَبٍ عَلى مَهَلٍ وَفَرَاغٍ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالأَقْلامُ جَارِيَةٌ، وَالأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ، وَالأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من الخطبة بالنتيجة الأخلاقية والعملية، ليبيّن بعض الامور المفيدة والمهمة بعبارات قصيرة، عظيمة المعنى. فقال عليه السلام:

«اعملوا رحمكم الله»،

ثم أشار عليه السلام إلى المسير الذي ينبغي سلوكه في العمل وهو الاستناد إلى الكتاب والسنة

«على أعلام بينة».

ثم أشار عليه السلام

إلى أنّ تشخيص هذا المسير ليس بالشيء الصعب فالسبيل واضح يدعو إلى الأمن والأمان والسعادة الخالدة في الجنّة:

«فالطريق نهج يدعو إلى دار السلام».

ثم تطرق عليه السلام إلى الفرص الثمينة التي زود بها الإنسان، وغالباً ما يهملها، ليوضحها عليه السلام بثمان عبارات ويكشف جميع جوانبها، أشار في العبارة الاولى إلى أنّكم في دار يمكنكم فيها تلافي ما يفرط منكم:

«وأنتم في دار مستعتب».[۳۸۴]

ولديكم الفرصة الكافية والمهلة الوافية للقيام بالصالحات من الأعمال:

«على مهل وفراغ».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۶۸

وصحيفة الأعمال مفتوحة والقلم مشرع للكتابة:

«والصحف منشورة والاقلام جارية»

. وأنتم في صحة وعافية والسن حاكية:

«والأبدان صحيحة والألسن مطلقة».

ومن ثم:

«والتوبة مسموعة، والأعمال مقبولة».

فوسائل السعادة وأسبابها متوفرة من جانب، وموانع الطريق يمكن ازالتها من جانب آخر؛ فاذا لم تستثمر هذه الفرص. فانّ الأمر يدعو للآسى والأسف حقاً. ولاسيما ليس هنالك من ضمانة باستمرار هذه الفرض. فلعل جميعها تنتهي بلحظة، فتغلق أبواب التوبة وتختم صحيفة الأعمال، وتتوقف الأقلام عن الكتابة، ويعتل البدن، ويعقد اللسان دون أن يكون هناك أي سبيل إلى الرجعة؛ الأمر الذي حذر منه القرآن أن ليس للندم من جدوى بعد الموت ولا سبيل لسؤال الرجعة: «وَأَنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصّالِحِينَ» فيأتي الجواب: «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ».[۳۸۵]

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۶۹

الخطبة[۳۸۶] الخامسة والتسعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

يقرر فضيلة الرسول الكريم صلى الله عليه و آله

نظرة إلى الخطبة

الهدف من هذه الخطبة ذكر عظمة الإسلام من جانب، وعظمة من حمل رسالته من جانب آخر. وذلك لأن الخطبة اشتملت على مقارنة لاوضاع الناس قبل الإسلام وبعده؛ ويفهم من هذه المقارنة عظمة جهود النبى صلى الله عليه و آله التى استطاعت أن تنهض بذلك المجتمع الجاهلى المنحط وتجعله مجتمعاً راقياً متطوراً.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۷۱

«بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلَّالٌ فِی حَیْرَةٍ، وَحَاطِبُونَ فِی فِتْنَةٍ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِیَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِیَّةُ الْجَهْلَاءُ؛ حَیَارَى فِی زَلْزَالٍ مِنَ الأمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَیهِ وآلِهِ فِی النَّصِیحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِیقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ».

الشرح والتفسير

النور الذى كشف الظلمة

خاض الإمام عليه السلام كراراً فى خطبه فى نهج البلاغة بشأن أوضاع الجاهلية التى كانت عليها العرب، حيث رسم صورة واضحة عن دقائق تلك الفترة، ليلتفت الناس فى عصر الإمام عليه السلام ممن لم يدرك ذلك العهد إلى عظمة الدعوة الإسلامية، وليعلموا حجم التغيير الذى حدث فى المجتمع، فيتعرفوا أكثر على منزلة النبى صلى الله عليه و آله وعظم قدره؛ وذلك لأن مثل هذا العمل الجبار إنّما يتطلب إرادة حديدية وعزماً راسخاً وتدبيراً عالياً وبرامج وخطط واضحة، جمعت كلها فى شخص النبى صلى الله عليه و آله. فقد بين الإمام عليه السلام وضع العصر الجاهلى بسبع عبارات، أشار فى العبارة الاولى والثانية إلى أنّ الله بعث النبى صلى الله عليه و آله حين كان الناس يعيشون الحيرة والضلال ويسبحون فى بحر من الفتن:

«بعثه والناس ضلال فى حيرة، وحاطبون فى فتنة».

لا شك أن الإنسان يمكنه أن ينقذ نفسه من الضلالة ما لم تكن مقرونة بالحيرة والتخبط كالذى ضل الطريق ثم اكتشفه من خلال بعض القرائن والعلامات؛ إلّاأنّ المشكلة تبدو معقدة إذا اقترنت الضلالة بالحيرة، وهذا هو الوضع الذى كان عليه الناس فى الجاهلية. والحاطب تطلق على من يجمع الحطب. فالناس فى عصر الجاهلية وفى ذات الوقت الذى يعيشون فيه الفتن، كان يزيدون من حطب نيران هذه الفتن.

ثم قال عليه السلام فى العبارة الثالثة والرابعة:

«قد استهوتهم الأهواء، واستتنزلتهم الكبرياء».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۷۲

فمن البديهى أن تقود الأهواء المجتمع إلى مستنقع الضلالة، فاذا رافقها العجب والخيلاء لسقط فى ذلك المستنقع.

ثم قال عليه السلام:

«واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى فى زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل».

وهكذا يتجسم بؤس هؤلاء القوم وشقائهم فى الجهل والضلال والأهواء والافتتان والتكبر؛ الرذائل التى تكفى كل واحدة منها فى سقوط المجتمع، فضلاعن جمعها مع بعضها فيه.

ومن هنا يتبيّن مدى حجم مشاكل عصر الجاهلية وتعقيدها وتهديدها للمجتمع، كما يتضح على سبيل اليقين أنّ من يتغلب عليها، إنّما استند إلى التأييد الإلهى والغيب والامداد.

ثم أشار عليه السلام فى آخر الخطبة إلى جهود النبى صلى الله عليه و آله ومدى نصحه للقوم بذلك الاسلوب الروحى الذى يستند إلى الوحى السماوى حتى نفذ إلى القلوب:

«فبالغ فى النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة».

فالواقع أن عناصر تقدم البعثة النبوية والتطور الذى أحرزه النبى صلى الله عليه و آله على صعيد الرسالة إنّما يكمن فى أربع: الأول: النصح وإرادة الخير، بحيث أيقن الناس أنّه يسعى جاهداً من أجل نجاتهم. الثانى: كان ممن قرن القول بالعمل، فيأتمربما يأمر وينتهى عما ينهى.

الثالث: قد دعا اولئك الناس الذين أصيبوا بالجهل والخرافة والحيرة والضلال إلى العلم والمعرفة. وأخيراً كان يدعوا إلى ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والكلمات الرقيقة التى تخترق القلوب.

وقد ذكر البعض من شرّاح نهج البلاغة تفسيراً آخر للعبارتين الآخيرتين، وهو أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يدعو الناس إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما ورد ذلك فى الآية الشريفة:

«أُدْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ»[۳۸۷][۳۸۸].

إلّا أنّ التفسير الأول يبدو أنسب من خلال الالتفات إلى العبارات السابقة التى اعتبر

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۷۳

الإمام عليه السلام عامل بؤسهم يكمن فى:

«الجاهلية الجهلاء» و «بلاء من الجهل».

على كل حال فانّ ماورد فى هذه الخطبة بشأن الأوضاع المأساوية والظروف الشائكة والفضائع التى سادت العصر الجاهلى، تدعو الإنسان إلى التفكير والتأمل، حيث يمكنه الوقوف على عمق هذه المسألة من خلال الرجوع إلى التواريخ والروايات والأخبار التى تناولت تلك الفترة، فهناك المصادر الكافية التى أشارت إلى هذا الأمر. ولما كانت مقارنة تلك الاوضاع والظروف بما حدث بعد انبثاق الدعوة الإسلامية ونهوض رسول الله صلى الله عليه و آله بالأمر والتى تعدّ من معاجز التأريخ الإسلامى، يبدو من الضرورى تسليط الضوء أكثر على هذا الموضوع ودراسته من قبل الجميع، ولا سيما من قبل شريحة الشباب.

هذا وقد قدمنا شرحاً مفصلًا بهذا الشأن فى الخطبة الاولى من المجلد الأول، والخطبة ۳۶ و ۳۳ من المجلد الثانى، ولا نرى هنا من ضرورة للتكرار، إلّاأنا نوصى القراء الأعزاء بالرجوع مرة اخرى إلى هذه الخطب.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۷۵

الخطبة[۳۸۹] السادسة و التسعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فى اللّه وفى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله

نظرة إلى الخطبة

بحث الإمام عليه السلام بصورة رئيسية فى هذه الخطبة أمرين:

الأول: إشارة إلى بعض أسماء الله الحسنى والثناء عليه بها.

الثانی: بیان بعض مناقب النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وفضائله، إلی جانب الحدیث عن نسبه الشریف ومن ثم نهضته الباسلة التی قبرت الفتنة وأطفأت نیران الأحقاد وحصدت الضغائن من القلوب.

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۱۷۷

القسم الأول: الأول والآخر

«الْحَمْدُللَّهِ الأَوَّلِ فَلَاشَیْءَ قَبْلَهُ، وَالآخِرِ فَلاشَیْءَ بَعْدَهُ، وَالظَّاهِرِ فَلَاشَیْءَ فَوْقَهُ، وَالْبَاطِنِ فَلَاشَیْءَ دُونَهُ».

الشرح والتفسیر

کما ذکر سابقاً فانّ الإمام علیه السلام أشار فی هذا المقطع من الخطبة إلی بعض صفات الله وأسمائه الحسنی، وقدر کز علی کونه أول وآخر وظاهر وباطن، فحمد الله وأثنی علیه فی أنّه أول الوجود الذی لم یسبقه شیء، والآخر الذین لاشیء بعده:

«الحمد الله الأول فلاشیء قبله، والآخر فلا شیء بعده».

وهو الظاهر الذی لایوجد أظهر منه، والباطن الذی لایوجد أخفی منه:

«والظاهر فلاشیء فوقه، والباطن فلا شیء دونه».

فأولیة وآخریة الحق سبحانه وتعالی تعنی أزلیة الذات المطهرة و أبدیتها؛ لأن أولیته لا- تعنی الابتداء الزمانی، حیث لو کان الأمر کذلک لحصر فی دائرة الزمان، کما لیس کذلک من حیث المکان، لأنّه لو کان کذلک لحد بدائرة المکان، بل أولیته تعنی أن ذاته الأزلیة القدسیة مصدر جمیع الوجودات، وقد نشأت منها کافة الموجودات. وهکذا تکون آخریته منزهة عن الاخرویة الزمانیة والمکانیة، والمراد منها أنّ ذاته سبحانه أبدیة، وبقاء الموجودات متوقف علی بقائه، ومن ثم بقائه حین فناء کل شیء: «کُلُّ مَنْ عَلَیْها فانٍ* وَیَبْقی وَجْهُ رَبِّکَ ذُو الجَلالِ وَالإِکْرامِ»[۳۹۰].

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۱۷۸

وزبدة الکلام فهو أول عالم الوجود وهو الباقی بعد فناء العالم.

أمّا وصفه بالظاهر والباطن فهو تعبیر عن إحاطته المطلقة بجمیع الأشیاء، فهو أظهر من کل شیء، لأنّ آثاره ملأت أرکان کل شیء وغص بها العالم، وهو أخفی من کل شیء، لأنّ کنه ذاته لیس بمعروف!

وقد أورد بعض الشرّاح تفاسیر اخری للظاهر والباطن، منها أنّ المراد بالظاهر الغالب علی کل شیء ولایغلبه شیء، کما قیل المراد بالظاهر أفضلیته علی جمیع الأشیاء؛ لکن علی ضوء هذین التفسیرین لایبدو تفسیر مفهوم الباطن بقرینة المقابلة واضحاً مستقیماً، ومن هنا فانّ التفسیر الأول أنسب. فی أنّه ظاهر جلی من حیث آثاره الوجودیة بحیث لایضاهیه شیء؛ فقد ملأت بآثاره الأرض والسماء والنبات والحیوانات والناس والبحار والقفار، مع ذلک فان کنه ذاته علی درجة من الخفاء بحیث لایبلغ أحداً معرفة تلک الذات، فالإنسان متناه وذاته سبحانه لیست متناهیة، فانّی للمتناهی أن یحیط باللامتناهی.

فقد ورد فی الدعا المعروف للإمام الحسین علیه السلام المعروف بدعاء عرفة:

«متی غبت حتی تحتاج إلی دلیل یدل علیک ومتی بعدت حتی تکون الآثار هی التی توصل إلیک، عمیت عین لاتراک علیها رقیباً».

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۱۷۹

القسم الثانی: کلامه بیان وصمته لسان

ومنها: فی ذکر الرسول صلی الله علیه و آله

«مُسْتَقَرُّهُ خَیْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبِتُهُ أشْرَفُ مَنْبِتٍ، فی مَعَادِنِ الْکَرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ السَّلَامَةِ؛ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الأبْرَارِ، وَثُنِیَتْ إِلَیْهِ أَزِمَّةُ الأَبْصَارِ،

دَفَنَ اللّهُ بِهِ الضَّغَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ، أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً، أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ، كَلَامُهُ بَيانٌ، وَصَمْتُهُ لِسَانٌ».

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام فى هذا الكلام بعض صفات رسول الله صلى الله عليه و آله كل واحدة منها أعمق من سابقتها. وقد انطلق فى البداية من جذوره العريقة وموقع ولادته، ليصف مستقره بأنّه خير مستقر ومكان ترعرعه أفضل مكان:

«مستقره خير مستقر، ومنبته أشرف منبت، فى معادن الكرامة، ومماهد[۳۹۱] السلامة».

والمراد بالمستقر والمنبت الأرحام المطهرة للامهات والاصلاب الموحدة والمؤمنة للآباء؛ الأمر الذى ورد فى زيارة المعصومين عليهم السلام، ومنها زيارة الإمام الحسين عليه السلام المعروفة بزيارة وارث:

«أشهد أنك كنت نورا فى الاصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة».

وقد ورد مثل هذا المعنى فى رسول الله صلى الله عليه و آله عنه، حيث روى الفخر الرازى فى تفسير الآية

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۸۰

«وَتَقَلُّبَکَ فِی السّاجِدِینَ»[۳۹۲] أنّه صلى الله عليه و آله قال:

«لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»[۳۹۳]. «معادن الكرامة»

و

«مماهد السلامة»

تأكيد لهذا المعنى، أو إشارة إلى أنّ آباء النبى صلى الله عليه و آله وأمهاته إضافة إلى الطهر والإيمان، يتحلون بالفضائل الإنسانية والنزاهة من المعايب الأخلاقية.

كما قيل المراد بالمستقر المدينة موضع إقامة النبى صلى الله عليه و آله والمنبت مكة مكان ولادته.

إلّا أنّ التفسير الأول أنسب، ولا سيما بالالتفات إلى العبارة:

«فى معادن الكرامة، ومماهد السلامة».

ثم خاض عليه السلام فى خلقه الجذاب صلى الله عليه و آله الذى استقطب القلوب وخطف الأبصار وشدها إليه:

«قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار، وثنيت ۳۹۴] إليه أزمة الأبصار».

حقاً كان رسول الله صلى الله عليه و آله كذلك فقد استطاع بخلقه وتواضعه وشفقته وعفوه وصفحه المقرون بشجاعته وشهامته أن يستقطب إليه القلوب كما استطاع أن يشد إليه الأبصار بجهوده المضنية فى سبيل هداية الامّة والأخذ بيدها إلى السعادة والصلاح.

ثم أشار عليه السلام فى هذه المرحلة إلى بعض الأنشطة الاجتماعية للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله ومنها ازالة الاضغان الاحقاد، وأطفا به نيران الفتن والعدوان:

«دفن الله به الضغائن ۳۹۵]، وأطفأ به الثوائر[۳۹۶]».

أضف إلى ذلك فقد ألف به القلوب وآخى به الناس، كما فرق البعض بسبب التعارض بين الإيمان والكفر:

«ألف بهإخوانا، وفرق به أقراناً»

، كما صرح بذلك القرآن الكريم فى الآية ۶۲ و ۶۳ من سورة الانفال: «هُوَ الَّذِی أَیَّدَکَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِینَ* وَأَ لَّفَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ»،

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۸۱

وقال فى الآية ۱۰۳ من سورة آل عمران «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِیعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذکُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ إذ کُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِکُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً».

ثم أشار عليه السلام إلى لطف آخرمن الألطاف الإلهية ببركة وجود النبى صلى الله عليه و آله:

«أعز به الذلة، وأذل به العزة».

فقد أعز الله ببركة نبيه صلى الله عليه و آله تلك الثلة المؤمنة التى وقعت فى مخالب الكفر، وفوض اليهم إرادة شؤون المجتمع الإسلامى، وأقصى تلك العناصر الفاسدة عن الساحة، ثم اختتم كلامه عليه السلام بالاشارة إلى أبرز صفاته صلى الله عليه و آله:

«كلامه بيان، وصمته لسان».

فاذا نطق صلى الله عليه و آله تفتق لسانه باسرار الحكمة وبيان حقائق الوحى، وكشف النقاب عن سبيل النجاة، ومهوى الردى ومستنقع السقوط، وأن سكت وصمت، فكان سكوته يختزن المعنى والمفهوم ولم يكن صمتاً طبيعياً.

نعم كان سكوته أحياناً تعبيراً عن انزعاجه وقلقه وعدم رضاه ببعض الأفعال، كما كان يرد بهذا السكوت على بعض الأسئلة غير الموجهة والخاطئة. وأخيراً كان يستعين بهذا الصمت تجاه سوء ألسنة الجهال. كما لاننسى أن سكوته أحياناً (ومن خلال بعض القرائن الحالية) كان يعنى تقرير بعض الأعمال والموافقة عليها).

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۸۳

الخطبة[۳۹۷] السابعة و التسعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فى اصحابه، واصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله

نظرة إلى الخطبة

قيل فى الخطبة أنّها وردت- كما ذكر شرّاح نهج البلاغة- حين تمرد جيش الكوفة على أوامر الإمام عليه السلام بمجابهة أهل الشام بعد واقعة النهروان، فقد عرض عليه السلام فى القسم الأول من هذه الخطبة بالذم لأهل الكوفة وعنّفهم أشد التعنيف أملا فى إثارة حميتهم وغيرتهم ليتأهبوا للقاء العدو، بعد إفافتهم من نوم الغفلة والالتفات إلى مقدراتهم خشية نهبها من قبل الظلمة.

ثم دعاهم فى القسم الثانى من الخطبة إلى إقتفاء آثار أهل البيت واتباعهم بفضلهم سبل النجاة، والواقع هو أنّه عليه السلام قد ذكرهم بمضمون ومحتوى حديث الثقلين.

ثم اختتم عليه السلام الخطبة بالمقارنة بين أهل الكوفة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله، حيث وضح عليه السلام من خلال هذه المقارنة عمق الهوة بين هؤلاء وأصحاب النبى صلى الله عليه و آله من حيث الإيمان والورع والتقوى والعبارة والجهاد والاستقامة والصمود والشجاعة، ومن الواضح أنّ الخطبة بجميع أقسامها إنّما تنشد هدفاً واحداً، وهو تعبئة جيش الكوفة لمواجهة العدو؛ العدو الذى لايأبه بالدين والدنيا ولايقيم وزناً لأىشىء.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۸۵

القسم الأول: عبيد كأرباب

«وَلَئِنْ أَمْهَلَ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ. أَمَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هؤُلاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلكِنْ لِاسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّى. وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِى. اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهْراً

فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكَمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا، أَشُهُودٌ كَغُيَّابٍ، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ! أتلوا عَلَيْكَمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكَمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُون عَنْهَا، وَأَحُثُّكُمْ عَلى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتى عَلَى آخِرِ قَولى حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِىَ سَبَا. تَرْجِعُونَ إِلى مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ، أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً، وَتَرْجِعُونَ إِلَىَّ عَشِيَّةً، كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ، عَجَزَ الْمُقِوِّمُ، وَأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ».

الشرح والتفسير

كما أشرنا فى السابق- نظرة إلى الخطبة- إلى أنّ الهدف من هذه الخطبة هو حث أهل العراق لمواجهة معاوية وأهل الشام. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بأنّ إمهال الظالم مدة من الزمان لايعنى خلاصه من المؤاخذة والعقاب:

«ولئن أمهل الظالم فلن يفوت أخذه».

فقد كمن له سبحانه بالمرصاد، وإذا شاء منعه ابتلاع ريقه:

«وهو له بالمرصاد على مجاز

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۸۶

طريقه، وبموضع الشجا[۳۹۸] من مساغ ۳۹۹] ريقه ۴۰۰]»

لعل هذه العبارات إشارة إلى معاوية وأهل الشام، حذراً من تسرب الشك والريب إلى قلوب أصحابه بسبب إمهال الله لهم، كما لايشكوا بأحقية الإمام عليه السلام وبطلان معاوية، فالواقع أنّ الإمام عليه السلام رام رافع معنويات جيشه بالفات نظره إلى هذه الحقائق. كما يحتمل أن يكون المراد بالظالم ذلك الجيش المتمرد، فالواقع عبارته تهديد لهم بأنّكم إن أمهلتم عدّة أيام فلايغرنكم ذلك أنّكم ستفلتون من العذاب والمؤاخذة بسبب هذا العصيان والتمرد، ويبدو التفسير الأول أنسب.

على كل حال، هذا هو الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم كراراً بقوله: «وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ نَّما نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ»[۴۰۱]. وقال فى موضع آخر «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ»[۴۰۲].

ولا يصدق هذا الموضوع أو يقتصر على ظلمة الشام أو مردة العراق فحسب، بل هو درس وعبرة لنا جميعاً، بأنّ المهلة الإلهية لاينبغى أن تقود إلى الغفلة والغرور.

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: أنّ الله تبارك وتعالى أهبط ملكا إلى الأرض، فلبث فيها دهراً طويلًا، ثم عرج إلى السماء، فقيل له: مارأيت؟ قال: رأيت عجايب كثيرة، وأعجب مارأيت أنى رأيت عبدا متقلباً فى نعمتك، يأكل رزقك، ويدعى الربوبية، فعجبت من جرئته عليك ومن حلمك عنه. فقال الله جل جلاله: فمن حلمى عجبت؟ قال: نعم.

قال: قد أمهلته أربعمائة سنة لايضرب عليه عرق، ولايريد من الدنيا شيئاً إلّاناله، ولايتغير عليه فيها مطعم ولا مشرب.[۴۰۳]

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۸۷

وبالطبع فانّ كل ذلك اختبار له وللعباد.

ثم تكهن الإمام عليه السلام بمستقبل هؤلاء القوم إزاء عدوهم الطامع قائلًا:

«أمّا والذى نفسى بيده، ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لاسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقى».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى نقطة مهمّة هنا وهى أنّ هؤلاء القوم سيتغلبون عليكم آخر الأمر، ولكن لاتظنوا أنّ هذه الغلبة نابعة من كونهم على الحق. فلا ينبغى أن يعتقد أحد بأنّهم على الحق فيؤدى به ذلك إلى الضلال. قطعاً أنّهم على باطل، إلّاأنّهم راسخون فى هذا الباطل عاقدون العزم عليه وهم آذان صاغية لمعاوية؛ أمّا أنتم وإن كنتم على حق، إلّاأنّكم ضعفاء، ليس لكم من عزم أو ارادة، ولا تعيرون زعيمكم اذناً صاغية، فدرجتم على التمرد والعصيان، فاذا جمعت هذه الصفات فى شخص أو أمة مهما كانت فسوف لن يكون مصيرها سوى الهزيمة والفشل.

فقد روى أبو مخنف فى قصة يوم الحرة: أنّ مسلم بن عقبة ركب فرساً فأخذ يسير فى أهل الشام ويحرضهم ويقول: يا أهل الشام أنّكم لستم بأفضل العرب فى أحسابها ولا أنسابها، ولا أكثرها عدداً ولا أوسعها بلداً، ولم يخصصكم الله بالذى خصكم به من النصر على أعدائكم، وحسن المنزلة عند أئمتكم إلّابطاعتكم واستقامتكم.[۴۰۴]

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة بهذا الشأن:

«ولقد أصبحت الامم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتى».

فالامم والشعوب طيلة التأريخ إنّما تشكو ظلم وجور حكوماتها المستبدة الطاغية، بحيث أصبح هذا أمرا طبيعياً، بينما انقلبت هذه المسألة بالنسبة للإمام عليه السلام فهى على العكس تماماً! لم يكن هناك من يخشى ظلمه عليه السلام، فلم يكن للظلم والجور من سبيل إلى وجوده عليه السلام، فى حين كان هو عليه السلام يعيش حالة القلق والاضطراب من غدر أصحابه ومكائدهم وما شاكل ذلك؛ والحق أنّ مثل هؤلاء الأفراد إنّما يبتلون عاقبة الأمر بالطغاة فيذيقوهم أنواع الظلم، وهذا ماحدث بالفعل، ثم تطرق عليه السلام إلى نقاط ضعف أهل الكوفة والعراق آنذاك فقال:

«استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، واسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۸۸

والسؤال المطروح: هل كان جيش العراق يشعر بالخطر، إلّاأنّ الضعف والتقاعس يثبطه بعدم مواجهة العدو؟ أم أنّه لم يكن يشعر بخطر من معاوية وأهل الشام؟ الاحتمالان قائمان، إلى جانب الخوف والجبن والجهل والاختلافات القبلية.

انذاك خاطبهم عليه السلام بعبارات عنيفة- تثير غيرة من كان له أدنى غيرة ورجولة- بغية آثارتهم ودفعهم للنهوض والحركة، فقال عليه السلام:

«أشهود كغياب، وعبيد كأرباب، أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغى فما آتى على آخر قولى حتى أراكم متفرقين أيادى سبا».

«أيادى سبا»

وبعبارة اخرى

«مثل أيادى سبا»

إشارة إلى مثل معروف بين العرب يضرب للمتفرقين، وقيل أنّ سبأ هو أبو عرب اليمن كان له عشرة أولاد، جعل منهم ستة يميناً له، وأربعة شمالًا تشبيها لهم باليدين، ثم تفرق اولئك الأولاد أشد التفرق.[۴۰۵]

على كل حال فانّ عبارات الإمام عليه السلام تفيد أنّه عليه السلام نصحهم بأدنى الأمر بكلمات حكيمة ومواعظ حسنة، وقد بالغ فى مداراتهم، وما ورد من كلمات عنيفة وحادة تضمنتها بعض عبارات الخطبة فإنّما كانت عقب تلك الكلمات التى تضمنت الوعظ والنصح، هذا فى الوقت الذى كان الطرف الآخر يمتاز بالفضاضة واللجاجة بحيث لا تجعلهم يفيقون من غفلتهم إلّا كلمات الذم والتوبيخ والعتاب.

ثم قال عليه السلام:

«ترجعون إلى مجالسكم، وتتخادعون عن مواعظكم، أقومكم غدوة، وترجعون إلى عشية، كظهر الحنية[۴۰۶]، عجز المقوم، وأعضل [۴۰۷] المقوم».

فالعبارة تنطوى على نقطة مهمّة وهى كثرة المنافقين آنذاك بين أهل العراق، وكانوا يسعون للالتفاف على كلام الإمام عليه السلام، فكانوا يتأثرون بأخلاق الإمام عليه السلام ومواعظه حين يأتوه، ويقتنعون بضرورة الاستعداد والتأهب لقتال العدو، فاذا رجعوا إلى مجالسهم الخاصة والعامة نفثوا سمومهم الشيطانية وشوشوا الأفكار وسعوا لاضعاف الارادات وتصديع عرى الاتحاد والاخوة وبث بذور

الشقاق والفرقة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۸۹

قال نافع بن كليب: دخلت الكوفة للتسليم على على عليه السلام فانى لجالس تحت منبره وعليه عمامة سوداء- إلى أن قال- ثم نزل تدمع عيناه فقال (إنالله وإنا إليه راجعون) أقومهم والله غدوة ويرجعون إلى عشية مثل ظهر الحنية، حتى متى وإلى متى ۴۰۸]؟

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۹۱

القسم الثانى: شهود الابدان وغياب العقول

«أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، المُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ. صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللّه وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّام يَعْصِى اللّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ. لَوَدِدْتُ وَاللّهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِى بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّى عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِى رَجُلًا مِنْهُمْ!».

الشرح والتفسير

شدد الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة من تقريعه وصب جام غضبه على أولئك القوم، على أمل انبثاق حركة فى خضم سكونهم المدهش وإرادتهم الخاوية، ليهبوا قبل بروز الخطر فقال عليه السلام

: «أيّها القوم الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم».

فقد ركز الإمام عليه السلام فى هذه العبارة على ثلاث نقاط ضعف: الاولى غياب العقول، وكأنّ عقولهم فارقت أبدانهم فأصبح وجودهم كبلد ليس له من مدير ومدبر. الثانية: عدم وجود عرى التواصل بينهم أبداً، حيث لكل منهم طلباته على ضوء اهوائهم وعقولهم القاصرة. وبالبداهة سوف لن تتمكن محل هذه الفئة من حل مشالكها، فضلًا عن مشاكل الآخرين.

الثالثة: نقطة ضعفهم تكمن فى اضطرار زعمائهم للتاقلم معهم. وقد أدت بهم هذه الصفات إلى الخواء فى ميدان قتال العدو، ثم قال عليه السلام:

«صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصى الله وهم يطيعونه».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۹۲

ياللعجب! فمن أطاع الله أحق بان يطاع، ومن عصاه لابدّ من معصيته والوقوف بوجهه، بينما انعكست القضية هنا؛ فقد عومل مطيع الله بالجفاء، وعاصيه بالحب والاحترام!!

ثم تطالعنا عبارة لامثيل لها فى نهج البلاغة، حيث قال عليه السلام:

«لوددت والله أن معاوية صار فنى بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ منى عشرة منكم، وأعطانى رجلًا منهم»

، فالتأكيدات المتعددة فى هذه العبارة تفيد جدية الإمام عليه السلام دون أدنى مبالغة، وكأنّ أهل الشام بمنزلة سكة ذهبية وأهل العراق فضية. كما تفيد العبارة مدى انضباط أهل الشام آنذاك حيث وقفوا بكل صلابة خلف معاوية رفم خداعه لهم؛ بينما لم يكن هناك أدنى انضباط لأهل العراق فلم يكن قيمة عشرة منهم تعدل قيمة واحد من أهل الشام!

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۹۳

القسم الثالث: العمل بالتكليف

اشارة

«يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَاثْنَتَيْنِ: صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلَامٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ، لَاأَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ! تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ! يَا أَشْبَاهَ الإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ، وَاللّهِ لَكَأَنّى بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ: أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى وَحَمِيَ الضِّرَابُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أبى طَالِبٍ انفراج الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا.

وَإِنِّى لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّى، وَإِنِّى لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً».

الشرح والتفسير

صعد الإمام عليه السلام هنا من حدة كلامه وامطار أرواح القوم بوابل تقريعه ولومه، مع بيان نقاط ضعفهم، علهم يفيقون من غفلتهم ويجدوا فى اصلاح أنفسهم، فقال عليه السلام:

«يا أهل الكوفة منيت منكم بثلاث واثنتين صم ذوو أسماع، و بكم ذوو كلام، وعمى ذوو أبصار».

فالإمام عليه السلام يشير إلى عجزهم عن مشاهدة الأحداث والافتقار إلى تحليلها الصحيح وعدم السعى للعثور على الحلول، فقد قبعوا فى مخادعهم ينتظرون العدو الذى لايأبه بشيىء، دون أن تتحرك لهم قصبة، أو يسمعوا رعيده ووعيده فيستعدوا لمجابهته.

إلى جانب ذلك فهناك خصلتان لم تكن فيهم

«لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء».

لا شك أنّ الحياة مليئة بالأحداث الساخنة والطبيعية: فأحياناً الحرب والقتال والاخرى

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۹۴

الصلح والسلام، وتارة الراحة والأمان واخرى التعب والبلاء. والأصدقاء الأوفياء والاخوة الثقاة لايعرفون عند الراحة والاستقرار، وميدان معرفتهم إنّما يكمن فى الصعوبات والمعضلات والنزاعات والبلايا والأحداث الأليمة، وممّا يؤسف له أهل الكوفة لم ينجحوا آنذاك فى الامتحان، وقد كشفوا مراراً عن غدرهم وضعفهم وعدم صمودهم وثباتهم.

ومن هنا دعا عليهم الإمام عليه السلام فى العبارات القادمة، ثم اختتم كلامه يتشبيهين رائعين لاوضاعهم النفسية فقال:

«تربت ۴۰۹] أيديكم»

، ثم اتبعها بالقول:

«يا أشباه الابل غاب عنها

رعاتها».

فالتشبيه تعبير واضح عن جهل القوم وعدم انضباطهم. فقد شبههم فى البداية بالحيوانات ومن ثم بعدم وجود الراعى النافذ الكلام.

ثم قال عليه السلام بعد أن أقسم أنّهم لو حمى الوطيس ونشبت الحرب لتركوا الإمام عليه السلام وحده فى الساحة وانفرجوا عنه انفراج المرأة عن وليدها حين وضعها لحملها:

«والله لكأنى بكم فيما إخالكم: أن لو حمس ۴۱۰] الوغى ۴۱۱]، وحمى ۴۱۲] الضراب، قد انفرجتم عن ابن أبى طالب انفراج المرأة عن قبلها».

هذا وقد ذكرت عدة تفاسيرللعبارة

«انفرجتم ...»

إلّاأن مـا أوردناه سابقا هو الأنسب لمقام أميرالمؤمنين على عليه السلام إلى جانب رعاية الفصاحة والتناسب فى مقام التشبيه. فالمرأة حين الوضع ترجو أن تضع حملها كـل لحظة لما تعانيه من الام وأوجاع، والإمام عليه السلام شبه أهل الكوفة بهذه المرأة التى تعد اللحظات أملا فى وضع الحمل، فكانوا يعيشون حالة من الجزع فى ميدان القتال بحيث ينتظرون بفارغ الصبر الفرصة المؤاتية للهروب من ساحة المعركة، وهو الهروب الذى لاعودة فيه، كالوليد الذى ينسلخ عن رحم أمه فلا يعود إليه. وللإمام عليه السلام تشبيه رائع

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۹۵

بهذا الشأن ورد فى الخطبة ۳۴ حيث قال عليه السلام:

«وأيم الله إنّى لأظن بكم أن لوحمس الوغى، واستحر الموت، قد انفرجتم عن إبن أبى طالب انفراج الرأس».

وفى الختام يكشف عن موقفه فى هذه الأحداث فقال عليه السلام

: «وإنّى لعلى بينة من ربّى، ومنهاج من نبيى، وإنى لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطا[۴۱۳]».

فمن الطبيعى أن لايكون هناك من شعور بالفشل أو الهزيمة لمن انطلق فى حركته على هدى من الله ونور من رسوله صلى الله عليه و آله، ولايرى فى كل ما يحدث سوى الغلبة والنصر وأداء التكليف والوظيفة. والعبارة

«ألقطه لقطا»

تعنى جمع الأشياء من نقاط مختلفة، الأمر الذى يحتاج إلى الدقة والفطنة، ومراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنّى أجد فى الاختيار من أجل التقدم فى مسار الحق وانتخب أفضل السبل من أجل بلوغ الهدف.

تأمّل: مقارنة بين أهل العراق والشام

لقد أورد الإمام عليه السلام عبارة عجيبة فى إطار مقارنته بين أهل العراق والشام لم يرمثيلها حيث قال: لوددت والله أنّ معاوية صرفنى بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ منى عشرة منكم وأعطانى رجلا منهم. والحال كان ينبغى أن تكون القضية معكوسة، فقد عقد القرآن الكريم مثل هذه المقارنة بين المؤمنين والكفار فقال: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ»[۴۱۴]، ترى لم انقلب هذا المعيار القرآنى بشأن أهل العراق والشام؟

يبدو أنّ التحليلات الدقيقة من شأنها ايقافنا على ماورد فى كلام أميرالمؤمنين عليه السلام بهذا الشأن.

فالكوفة منطقة حربية حديثة، وأنّ أهلها الذين كانوا يمثلون القسم الأعظم من جيش الإمام عليه السلام قد قدموا هناك من عدّة مناطق وهم ينحدرون من مختلف القبائل بحيث لم يكن يسودهم الانسجام والانضباط المطلوب. فكان لكل واحد منهم أهدافه وطموحاته

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۹۶

وطروحاته الفكرية، بينما كانوا أهل الشام كتلة واحدة عاشت هناك ليتحلوا بكافة عناصر الوحدة والانسجام ووحدة الفكر والثقافة. هذا أولا.

وثانياً: كان فى جيش الإمام عليه السلام من قدم بغية الحصول على الغنائم، فان كانت هناك غنيمة سارعوا لميادين القتال، بينما يقبعون فى بيوتهم حيث التضحية والفداء والشهادة.

ثالثاً: كان أهل الشام ينظرون إلى منطقتهم كوطن لابدّ من الدفاع عنه والذود عن حياضه، بينما كان لأغلب أهل الكوفة وطن آخر خارج الكوفة، وكلما ضاقت عليهم السبل فى الكوفة عادوا إلى أوطانهم.

أضف إلى ذلك فانّ ضعف إرادتهم وسرعة خداعهم وانفعالهم بالأعيب العدو، ومن ذلك خديعتهم فى صفين، وعدم معرفتهم بمقام الإمام عليه السلام ومنزلته، والاغماض عن الحوادث المستقبلية، كل هذه الامور كانت تفعل فعلها فيهم فى ميدان القتال.

ومن هنا كانوا يختلقون مختلف الذرائع للهروب من ساحة الحرب، ولايتوانون فى اغتنام أية فرصة تسنح لهم من أجل الفرار، منهم يتذرعون تارة بحرارة الجو، واخرى ببرودته والحال يصرخ فيهم الإمام عليه السلام:

«فاذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفر».[۴۱۵]

وكأنّ القتال لابدّ أن ينشب فى فصل الربيع؛ على ظلال الأشجار وسط الحقول الخضراء والمياه المتدفقة وتغريد العصافير والطيور.

العنصر الآخر الذى أدى إلى ضعف جيش الكوفة وعدم تحليه بالانضباط هو أنّ أشرافهم كانوا مرفهين على عهد عثمان، حيث كان

يقسم أموال بيت المال دون حساب بين الناس، وكانت الحصة العظيمة تمنح للزعماء والاشراف والبطانة والأقرباء. فلما تسلم الإمام عليه السلام زمام الامور تغيرت الأوضاع ليعيشوا مرارة العدالة بعد أن أنسوا بالظالم والجور، ومن هنا كانوا لا ينفكون عن الشكوى، هذا من جانب ومن جانب آخر فانّ معاوية كان يسعى جاهداً لتحقيق أهدافه دون الاكتراث لدين الله والقيم الإسلامية والموازين الشرعية،

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۹۷

فكان يبذل الآف الدنانير لشراء هذا الفرد أو ذاك من أجل ترسيخ دعائم حكومة، فان لم يسعفه ذلك عمد إلى التهديد والارعاب والقتل.

ومن هنا نقف على عمق حكمة الإمام عليه السلام وبعد أفقه وتدبيره فى كيفية تمكنه من زج هؤلاء القوم فى الجمل وصفين والنهروان، وإن شهدت هذه الوقائع بعض الانكسارات بسبب تمرد البعض وعدم طاعتهم لأوامر الإمام عليه السلام.

وهنا نكتشف عمق ماقاله ابن أبى الحديد: إنّ سياسة على عليه السلام إذا تأملها المنصف متدبراً لها بالاضافة إلى أحواله التى دفع اليها مع أصحابه، جرت مجرى المعجزات، لصعوبة الأمر وتعذره ثم كسربهم الأعداء، وقتل بهم الرؤوساء، فليس يبلغ أحد فى حسن السياسة وصحة التدبير مبلغه ۴۱۶].

والحق إننا إذا أردنا أن نصدر حكمنا على سياسة أميرالمؤمنين عليه السلام ونعلن رأينا بهذا الشأن، كان علينا أن نأخذ هذه الامور بنظر الاعتبار. وناهيك عن كل ما سبق فانّ الإمام عليه السلام لم يكن ليعتمد أية وسيلة من أجل بلوغ الهدف، حيث يمنعه دينه وعدله وورعه وتقواه عن ذلك.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۱۹۹

القسم الرابع: صحب النبى صلى الله عليه و آله

اشارة

«انْظُرُوا أهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدىً، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِى رَدىً، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا.

وَلا تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلَا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا. لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللّهُ عَليهِ و آلِهِ، فَمَا أرَى أحداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ! لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعثاً غُبْراً، وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ الْمِعْزَى مِنَ طُولِ سُجُودِهِمْ! إِذَا ذُكِرَ اللّهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ، خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- فى المقطع الأخير من هذه الخطبة- إلى نقطتين مهمتين؛ الاولى تعريفه بالقادة الذين لايضلون أبداً، بهدف تمسك الامّة بهم وعدم الانفراج عنهم والتماس الهداية عن طريقهم بغية الفوز بالفلاح والسعادة- والثانية: يتحدث عن صفات أصحاب النبى صلى الله عليه و آله لتكون نموذجاً للاخرين، فيكونوا مصداقاً لمضمون الآية الشريفة: «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ»[۴۱۷]، فيجدوا ويجتهدوا فى هذا السبيل ويسعوا لأن يتحلوا بصفاتهم. فقال عليه السلام:

«انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم فى ردى».

فهذا الكلام فى الواقع إشارة إلى حديث الثقلين الذى يعتبرمن الأحاديث المتواترة والذى

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۰۰

أوصى بالتمسك بالقرآن وأهل البيت اللذان لن يفترقا حتى يردا الحوض، ولن تضل الامة أبدا إن تمسكت بهما.

ومن الواضح طبعاً أنّ المراد بأهل البيت، هم أئمة العصمة عليهم السلام الذين قال فيهم الحق سبحانه وتعالى «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»[۴۱۸].

ثم أمرهم عليه السلام بالحركة خلفهم أن تحركوا ونهضوا، والقعود أن جلسوا وصمتوا:

«فان لبدوا فالبدوا[۴۱۹]، وإن نهضوا فانهضوا».

فالحق أن الشرائط والظروف الزمانية والمكانية فى تغير مستمر؛ فان كانت الظروف تقتضى القيام والنهضة وخوض غمار الجهاد، فان السكوت يقود قطعاً إلى البؤس والشقاء، وان كانت الظروف لاتسمح بالقيام، فانّ النهضة لاتنطوى سوى على الخيبة والخسران وهدر الطاقات. وأئمّة العصمة من أهل البيت عليهم السلام أعلم من غيرهم بهذه الظروف والشرائط وينطلقون فى حركتهم وسكونهم من خلالها، وعليه فعدم الاقتداء بهذا الاسلوب إنّما يؤدى إلى الخسران.

ومن هنا قال عليه السلام:

«ولاتسبقوهم فتضلوا، ولاتتأخروا عنهم فتهلكوا»،

فالمجتمعات لاتخلو على الدوام من الأفراد الذين يعيشون حالة الافراط والتفريط. فالمفرطون يحكمون ببطيء حركة الزعماء الحق فيتقدموا عليهم، ليقودوا المجتمع إلى الهاوية. والمفرطين على العكس يرون حركتهم مستعجلة فيتأخرون عنهم بذريعة الحزم والاحتياط وإجالة الفكر؛ الأمر الذى يؤدى إلى هلاكهم واختلال حركة المجتمع.

والواقع هو أنّ عبارة الإمام عليه السلام تنسجم والحديث النبوى المشهور:

«مثل أهل بيتى فكيم، مثل سفينة نوح من ركيها نجى ومن تخلف عنها هلك»،

وقد ورد هذا الحديث بعبارات مختلفة فى مصادر الفريقين، وهو يكشف عن علم أهل بيت النبى عليهم السلام المستقى من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، كونهم السفينة الوحيدة للنجاة فى هذه البحار العاصفة؛ على غرار الطوفان الذى لم يكن فيه من وسلية للنجاة سوى سفينة نبى الله نوح عليه السلام ۴۲۰].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۰۱

والجدير ذكره ماورد شبيه هذه العبارة فى الخطبة ۸۷ بشأن القرآن فى وصفه خلص عباد الله الذين جعلوه محوراً فى حياتهم

«فهو قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله».

وهذا تأكيد آخر لحديث الثقلين.

ثم تطرق عليه السلام إلى خصائص طائفة معينة من صحب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ليقتدى بها صحبه، فقال عليه السلام:

«لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، فما أرى أحدا يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثا[۴۲۱] غبراً».[۴۲۲]

ثم قال فى صفتهم الثانية:

«وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون ۴۲۳] بين جباههم

وخدودهم ۴۲۴]».

وقال أيضاً:

«ويقفون على مثل الجمر[۴۲۵] من ذكر معادهم».

نعم فقد شعروا بعظم العذاب الإلهى بكل كيانهم، فلم يهدأ بالهم ويسكن روعهم

: «كأنّ بين أعينهم ركب ۴۲۶] المعزى ۴۲۷] من طول سجودهم»

، فقد ذاقوا حلاوة العبودية، فتراهم يطيلون سجودهم، حتى بدت آثار السجود على جباههم.

«إذا ذكر الله هملت [۴۲۸] أعينهم حتى تبل جيوبهم».

فقد تنهمر دموعهم حياً لله تارة، وخوفاً من العقاب وخشية الفراق تارة اخرى

«ومادوا[۴۲۹] كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاءا للثواب».

والتشبيه بالشجر الذى يميد من جراء الريح العاصف، هو تشبيه رائع، وقد أشار عليه السلام إلى

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۲۰۲

دليل ذلك والذى يكمن فى خوف العقاب تارهٔ ورجاء الثواب تارهٔ اخرى

فهم يبكون بعين شوقا إلى لقاء ربّهم، بينما تهمل الاخرى خشيهٔ من عقاب ربّهم! وهذا هو ديدن الصالحين من عباد الله الذين يعيشون بين الخوف والرجاء.

تأمّلات

۱- ولايهٔ أهل البيت وعصمتهم

تتضح عصمهٔ أهل البيت عليه السلام بجلاء من خلال عبارات الإمام عليه السلام وذلك أنّه عليه السلام:

«انظروا أهل بيت نبيكم والزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم فى ردى فان لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولاتسبقوهم فتضلوا، ولاتتأخروا عنهم فتهلكوا».

فالعبارات من أوضح الادلهٔ على مقام عصمتهم عليهم السلام؛ لأنّ مثل هذه الوصايا لاتصح فى غير المعصومين من الذنب والخطأ.

كما تدل من جانب آخر على أنّ امامهٔ المسلمين دائما فى أهل البيت وذلك لأنّ الإمام عليه السلام لم يقيد وصاياه بزمان معين.

كما تدل من جههٔ اخرى على أنّ مفهوم الولايهٔ لاينسجم وانتقاء أوامر أهل البيت عليهم السلام، بل الولايهٔ الحقيقيهٔ فى امتثال أوامرهم فى كل شىء وعلى أى حال. أمامن يتبع أهل البيت على مستوى اللسان والقول أو بعض التصرفات الفرديهٔ والاجتماعيهٔ، فلايمكن اعتباره من الموالين الواقعيين، بل ذلك زعم وإدعاء فقط. ومن البديهى أنّ مراد الإمام عليه السلام لايقتصر على عصره أو زمانه؛ لأنّه يعرف بأهل البيت بصفتهم أئمهٔ وولاهٔ وليس فقط شخصه والشاهد الحى على هذا الكلام ما ورد فى الحديث النبوى الشريف أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال:

«انى وأهل بيتى مطهرون، فلا تسبقوهم فتضلوا، ولاتتخلفوا عنهم فتزلوا، ولا تخالفوهم فتجهلوا، ولا تعلموهم فانّهم أعلم منكم. هم أعلم الناس كباراً، وأحلم الناس صغاراً؛ فاتبعوا الحق وأهله حيث كان»[۴۳۰]

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۲۰۳

۲- مميزات أهل الكوفهٔ والشام

هناك رابطهٔ لطيفهٔ بين القسم الأخير من هذه الخطبهٔ، الذى يدعو الناس من جانب إلى اتباع اهل البيت، ومن جانب آخر إلى بيان خصائص أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله، والاقسام السابقهٔ من الخطبهٔ التى عرضت بالذم الشديد لأهل العراق والكوفهٔ. وذلك لأنّها تفهمهم من جانب أن ليس لكم من عذر عند الله، لأنّ قادتكم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه و آله، الذين ما انفك رسول الله صلى الله عليه و آله يوصى الامّهٔ بالتمسك بهم وعدم مفارقتهم، فهم عدل القرآن وسفن النجاهٔ، والحال زعيم اهل الشام معروف

بالظلم والانحراف والسلب والنهب، وعليه فقد تمت عليكم الحجة.

والآخر أنّ ضعفكم وهو أنّكم ليس لعدم قدرتكم البدنية، بل لضعف ارتباطكم بالله وخواؤكم الروحى وانعدام معنوياتكم، ومن هنا دعاهم لاقتفاء آثار تلك الثلة من صحب رسول الله صلى الله عليه و آله بصورة عملية حيث كانت لها أعظم رابطة بالله سبحانه وتعالى ثم تطرق عليه السلام إلى بيان صفاتهم التى تدعوا إلى الغلبة والنصر فقال: لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم. إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاء للثواب. و قد كان هذا التعبد و الإلتزام هو سر إنتصارهم على خصومهم.

۳- حقيقة الصحابة

لعل هناك من يفهم من اطلاق كلام أميرالمؤمنين على عليه السلام أنّ هذه الخصائص قد جمعت فى كافة أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله، وعليه فهو دليل على ماذهبوا إليه من نظريتهم المعروفة فى تنزيه الصحابة، والحال أنّ هذه الخصائص إنّما تتصف بها فئة خاصة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله كسلمان وأبى ذر وعمار والمقداد ومن كان على شاكلتهم، لا جميع الصحابة. وذلك لأنّه أولًا: أنّ هذا الموضوع يخالف السير والتواريخ، حيث لم تدون لهم كل هذه الصفات، ثانياً: تفيد أغلب آيات القرآن الكريم أنّ بينهم من عرف بالنفاق والذنوب والخطايا والمعاصى. ومن

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۰۴

ذلك أن بعضهم قد خان رسول الله صلى الله عليه و آله وجيش المسلمين، وقد تابوا بعد أن افتضح أمرهم؛ كحاطب بن أبى بلتعة وأبى لبابة، وقصتهم معروفة، وعمود التوبة فى مسجد النبى صلى الله عليه و آله شاهد حى على هذه الحقيقة.

وفيهم من اعترض على رسول الله صلى الله عليه و آله فى حكم الزكوة، والمال و منهم من عاهد الله بالانفاق أن آتاهم من فضله ومنهم ثعلبة بن حاطب الانصارى الذى وردت قصته فى الآيات ۷۵- ۷۷ من سورة التوبة.

وفيهم من تخلف عن غزوة تبوك وتمرد على أوامر رسول الله صلى الله عليه و آله، وقد وردت قصتهم فى ذيل الآية ۱۱۸ من سورة التوبة.

وفيهم الجواسيس الذين وصفتهم الآية ۴۷ من سورة التوبة: «وَفيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ».

وفيهم من بنى مسجد ضرار بهدف ايجاد الفرقة والاختلاف بين صفوف المؤمنين، وقد وردت قصتهم فى الآيات ۱۰۷- ۱۱۰ من سورة التوبة.

وفيهم من سار على الصراط على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله ثم انقلبوا بعده فاثاروا الفتن واشعلوا نيران الحروب وسفكوا دماء المسلمين، كطلحة والزبير الذين أججا نار الجمل وخرجا على إمام المسلمين، ومعاوية الذى آثار الفتن ومنها فتنة صفين.

وعليه يبدو من السذاجة أن نتغاضى عن هذه الحقائق والوقائع التأريخية وصريح الآيات القرآنية، لنعتبر الصحابة منزهين جميعاً يتصفون بالطهر والعفاف والورع والتقوى.

وبناءاً على ما تقدم فان أميرالمؤمنين على عليه السلام إذا مدح الصحابة وأثنى عليهم- فى هذه الخطبة أو سائر الخطب- فالمفروغ منه أن مراده خاصة صحب رسول الله صلى الله عليه و آله لاجميعهم.

وهم ثلة معدودة من صحابه كانت تقتفى آثار رسول الله صلى الله عليه و آله وتلتحق به فى كافة المعارك والغزوات، حتى استشهد أغلبهم على عهده صلى الله عليه و آله.

على كل حال فانّ هذه الثلة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله التى انطوت على أعظم دروس العبودية والاستقامة والصمود

والتضحية فى سبيل الله والإسلام، وتعلمتها من معلم البشرية الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله لجديرة بان تكون قدوة للمسلمين فى كل عصر وزمان.

وهم الذين قال فيهم المؤرخون أنّهم كانوا يتلون لبعضهم البعض الآخر سورة العصر حين

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۰۵

يفترقون، ليوصى كل منهم الاخربالايمان والعمل الصالح والتحلى بالحق والصبر.[۴۳۱]

وصفهم القرآن بقوله: «سِيماهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ».[۴۳۲]

وهم المعروفون بشدتهم وصلابتهم تجاه الاعداء، واللين والرحمة تجاه الأصدقاء: «وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَى الكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ»[۴۳۳].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۰۷

الخطبة[۴۳۴] الثامنة والتسعون

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

يشير فيه إلى ظلم بنى أمية

نظرة إلى الخطبة

تحدث الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بعبارات قصار عن فجائع حكومة بنى أمية وظلمهم وانحرافهم، بحيث صور جميع مظالمهم وفضائحهم فى هذه الكلمات المختصرة، وهى تفيد وخامة العواقب التى تنتظر المجتمع الإسلامى إذا ضعفت إرادته فى المجابهة والتصدى.

التأريخ من جانبه أشار إلى تحقق كافة تكهنات الإمام عليه السلام، وأنّ عدم الالتفات إلى تحذيراته عليه السلام فساد ذلك الظلم والجور الذى عم المسلمين بما لم يشهد له التأريخ مثيلًا.

والخطبة ضمنياً رد قاطع على أولئك الذين يترددون فى قتال الإمام عليه السلام لبنى أمية، على أنّه قتال المسلمين للمسلمين.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۰۹

«وَاللّهِ لايَزَالُونَ حَتَّى لايَدَعُوا لِلّهِ مُحَرَّماً إِلَّا اسْتَحَلُّوهُ، وَلَا عَقْداً إِلَّا حَلُّوهُ، وَحَتَّى لَا يَبْقى بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلّادَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ، وَحَتَّى يَقُومَ الْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِى لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِى لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مُنْ سَيِّدِهِ، إذا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ، وَحَتَّى يَكُونَ أَعَمَكُمْ فِيهَا عَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِاللّهِ ظَنّاً، فَإِنْ أَتَاكُمُ اللّهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإِنِ ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا، فَإِنَّ «الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ»».

الشرح والتفسير

مظالم بنى أمية

أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات القصار إلى مصير بنى أمية، كما يشير إلى الفجائع التى ارتكبتها هذه الطغمة الفاسدة. حيث أقسم على امتداد حكومتهم حتى تستحل كل حرام وتنتهك كافة المواثيق والعهود:

«والله لايزالون ۴۳۵] حتى لا يدعوا لله محرماً إلّااستحلوه، ولا

عقداً إلّاحلوه».

وقد قام بعض الأعلام باحصاء بدع بنى أمية والمحارم التى انتهكوها واستحلوها، والعهود التى نقضوها، سنستعرضها فى الأبحاث القادمة. ويتضح من خلالها عمق الفجائع التى جروها على العالم الإسلامى.

ثم أشار عليه السلام إلى الفضائع التى ارتكبوها بحق المسلمين وعموم ظلمهم وشموله بحيث لايفلت منه بيتاً من البيوت:

«وحتى لايبقى بيت مدر، ولا وبر إلّادخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم»،

والمراد ببيوت المدر المبنية من الطوب والحجر ونحوهما وهى بيوت المدينة عادة. أمّا

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۱۰

الوبر فيرادبه صوف الناقة، فالمراد ببيت الوبر الخيام التى كانت تقام فى القرى والبوادى، والحق أنّ هذا أروع تعبير لشمولية الظلم بحيث لايسع أحد النجاة من ذلك الظلم. وهو الظلم الذى قد يدفع بالبعض إلى الفرار من بيوتهم.

ثم تطرق عليه السلام إلى أنّ الناس آنذاك على طائفتين؛ طائفة تبكى دينها، واخرى تبكى دنياها:

فى تصويره للفاجعة الثالثة

«وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكى لدينه، وباك يبكى لدنياه».

نعم فالمتدينون يبكون خشية على دينهم من الأخطار التى تهدده من هذه الطغمة سليلة الجاهلية، بينما يبكى أصحاب الدنيا على دنياهم، فالظلمة قد ساموا الناس الظلم فى دينهم ودنياهم.

ثم قال عليه السلام: فى بيانه للفاجعة الرابعة

«وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه».

فى أشارة إلى أنّهم يستعبدون الناس، وليتها كانت من نوع العبودية التى تسودها علاقة الحب والرأفة بين العابد والمعبود، بل العبودية التى تختزن كل معانى الظلم والتحقير والاستخفاف؛ وكأنّهم قيدوا أعناق الناس وسحبوهم بالاتجاه الذى يريدون.

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالعبارة طلب الناس العون من هؤلاء، لاعون الناس لهم بمعنى نصرتهم (فالاضافة إلى المفعول لا إلى الفاعل): وعليه مفهوم العبارة أنّكم إذا طلبتم عونهم فانّ ذلك كطلب الغلام العون من سيده الظالم، لا طلب الرفيق من رفيقه. إلّاأنّ عبارتى:

«إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه»

تؤيدان المعنى الأول.

ثم وصف فاجعتهم الأخيرة بأنّها أشد وأعظم على ذلك الأقرب لله والأكثر عبودية له:

«وحتى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظنا».

وهل ينتظر غير هذا من حكومة ظالمة مستبدة مجرمة، لادين لها ولا أخلاق، قطعاً محنة العبد فى ظل هذه الحكومة تكون أعقد وأصعب كلما كان لربه أطوع وأقرب.

ثم اختتم عليه السلام كلامه بتسلية أصحابه وأنصاره لما ينتظرهم من أحداث أليمة:

«فان أتاكم الله بعافية فاقبلوا، وإن ابتليتم فاصبروا فان العاقبة للمتقين».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۱۱

فالذى يفهم من هذه العبارة أنّ حكومة بنى أمية وإن مارست ظلمها وضغوطها بحق الامّة، فجرعتها أنواع العذاب، إلّاأنّ هناك البعض الذى نجى من هذه الحوادث الخطيرة والمؤطة، وقد أوصى الإمام عليه السلام الطائفة الاولى بالصبر والتحمل وانتظار الفرج، بينما أوصى الثانية بالحمد والشكر.

تأمّل: بدع بنى أمية

لقد حصلت كافة تكهنات الإمام عليه السلام التى أوردها فى هذه الخطبة بشأن شمولية فجائع بنى أمية، حيث لم تأل هذه الحكومة المستبدة جهدوا عن مقارفة أنواع الظلم والجور، كما سفكت بحاراً من الدماء من أجل ترسيخ دعائم سلطتها الغاشمة، إلى جانب ملئ السجون بالأبرياء من المومنين وسومهم سوء العذاب، وممارسة أقصى درجات العنف والبطش، فعم الخوف والرعب كافة أبناء الامّة، بما فيهم مقربى هذه الحكومة وبطانتها. وقد قام المرحوم العلّامة الأمينى بجمع كافة الانتها كات والبدع التى ارتكبها بنى أميه، مع ذكر اسنادها فى كتابه الغدير، نورد طائفة منها، ونترك للقارىء العزيز الوقوف على تفاصيلها فى المجلد الحادى عشر من كتاب الغدير أنّ معاوية:

أوّل من أحدث الاذان فى صلاة العيدين؟!

أوّل من رأى الجميع بين الأختين إحياء لما ذهب إليه عثمان؟!

أوّل من غيّر السنّة فى الديات وأدخل فيها ما ليس منها؟!

أوّل من ترك التكبير فى الصلوات عند كلّ هوىّ وانتصاب وهى سنّة ثابتة؟!

اوّل من ترك التلبية وأمر به خلافاً لعلىّ أمير المؤمنين عليه السلام العامل بسنّة اللّه ورسوله؟!

أوّل من قدم الخطبة على الصلاة فى العيد لإسماع الناس سبّ علىّ عليه السلام؟! وقد صحّ عن نبىّ الإسلام: «من سبّ عليّاً فقد سبّه، ومن سبّه فقد سبّه اللّه».

أوّل من عصى ربّه بترك حدوده وإقامة سنّته؟! «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۱۲

أوّل من نقض حكم العاهر، وأحيى طقوس الجاهليّة، وخالف دين محمد صلى الله عليه و آله: «الولد للفراش وللعاهر الحَجر»؟!

أوّل من تختّم بالسيار؟ فأخذ المروانية بذلك إلى أن نقله السفّاح إلى اليمين فبقى إلى أيّام الرشيد فنقله إلى اليسار.

أوّل من سنّ سبّ علىّ وقنت به وجعله سنّة جارية فى خلفه الذين أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات، وشوّة خطب المنابر بذلك الحادث النخرى؟!

أوّل من بغى على إمام وقته وحاربه وقاتله وقتل أُمّة كبيرة من صلحاء الصحابة البدريّين وأهل بيعة الشجرة الذين رضىاللّه عنهم ورضوا عنه؟!

أوّل من أعطى المال لوضع الحديث وتحريف كتاب اللّه وكلمته الطيّبة عن مواضعها؟!

أوّل من اشتراط البراءة من علىّ عليه السلام من بايعه فى خلافته الغاشمة أو فى ملكه العضوض؟!

أوّل من حُمل إليه رأس الصحابّى العادل عمرو بن الحمق وأُدير به فى البلاد؟!

أوّل من قتل عدول الصحابة الأوّلين والتابعين لهم بإحسان من عيون الأُمّة وعبّادها ونسّاكها لمحض ولائهم سيّد العترة، وقد جعله اللّه أجر رسالة نبيّه الخاتم صلى الله عليه و آله؟!

أوّل من قتل نساء كلّ وإلى أهل بيت النبىّ وذبح صبيانهم ونهب أموالهم، ومثّل بقتلاهم وشتّت شملهم، وفرّق جمعهم، واستأصل شأفتهم، ونفاهم عن عقر دورهم، وأبادهم تحت كلّ حجر ومدَر؟!

أوّل من عبث به رعيّته، وسنّ العمل بالشهادات المزوّرة، وسلّط ورجال الشرِّ والغىّ والجور علىصلحاء أُمة محمد صلى الله عليه و آله.

أوّل من همَّ بنقل منبر رسولاللّه صلى الله عليه و آله عن المدينة المشرّفة إلى الشام؟! ولّما حرّك المنبر خسفت الشمس فترك.

أوّل من بدّل الخلافة الإسلاميّة إلى شرّ ملك وسلطة سوء؟!

أوّل من ملك وتجبّر فى الإسلام بلبس الحرير والديباج، وشرب فى آنية الذهب والفضّة، وركب السروج المحلّاة بهما؟!

أوّل من سمع الغناء وطرب عليه وأعطى ووصل إليه وهو يرى نفسه أميرالمؤمنين؟!

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۲۱۳

أوّل من هتك دين اللَّه باستخلاف جروه الفاجر المستهتر التارك الصلاة؟!

أوّل من شنَّ الغارة على مدينة الرسول صلى الله عليه و آله حرم أمن اللَّه، وأخاف أهليها، وما رعى حرمة ذلك الجوار المقدّس؟!

إلى جرائم وبوائق تجر الرجل فيها هو السابق الأوّل إليها.

أصحيحٌ أنَّ مثل هذا الطاغية تصدر فيه كلمة إطراء من مصدر النبوّة؟ أو يأتى عن نبيِّ العدل والحقِّ والصدق ما يوهم الثناء عليه؟ لا، لا يمكن ذلك؛

۲- غيض من فيض فضائع بنى أمية

ذكر أبوالفرج الاصفهانى وهو من مشاهير علماء القرن الرابع الهجرى فى كتابه المعروف «الاغانى» بعض الامور العجيبة بشأن بنى أمية، نورد طائفة منها:

۱- خالد بن عبداللَّه القسرى و الى هشام بن عبدالملك على الكوفة كان زنديقا و أمه نصرانيه و كان يوّلى النصارى و المجوس على المسلمين.[۴۳۶]

۲- بنى كنيسة لأمه خلف قبلة مسجد الكوفة فكان يضرب فيها الناقوس حين يرتفع صوت الأذان ۴۳۷].

۳- كان يقول- و العياذ باللَّه- بأفضلية الخليفة هشام على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله و كان يقول بكل و قاحة: و اللَّه لو أمرنى الخليفة لهدمت الكعبة و نقلت حجرها إلى الشام.[۴۳۸] و العجيب عزله هشام بعد مدة إثر تعرضه لبنى أمية.[۴۳۹]

روى ابن أبى الحديد المعتزلى ۴۴۰] فى شرح نهج‌البلاغة عن أبى عثمان الجاحظ أن بنى هاشم كانوا يفخرون على بنى أمية أنا لم نقم بهذه الأعمال:

أ هدم الكعبة (إشارة لما فعله الحجاج على عهد عبد الملك)

ب- تغيير القبلة (إشارة لصلاة الوليد لغير القبلة ثملا و هو يقول أينما تولوا فثم وجه اللَّه)

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۲۱۴

ج- لم يجعلوا الخليفة أفضل شأنا من النبى صلى الله عليه و آله (إشارة لما ورد فى كتاب الأغانى)

ع- لم يختموا رقاب المسلمين (إشارة إلى ختم بنى أمية لرقاب المسلمين كعبيد كما كانوا يختمون الخيل).

ه- لم ينهبوا حرم النبى صلى الله عليه و آله و ينتهكوا حرمة المسلمات (إشارة إلى قصة مسلم بن عقبة الذى إستباح المدينة بأمر يزيد فارتكب فيها من الجرائم ما يعجز القلم عن وصفها).

و قد وجّه معاوية قبل ذلك يسر بن أرطاة ليهجم على المدينة و يطوف فى مسجد النبى صلى الله عليه و آله دعيا الناس لبيعته و قتل من تخلف و هدم بيته و مصادرة أمواله.

و نختتم الكلام بما ذكره ابن عساكر- المؤرخ السنى المعروف- فى كتابه تأريخ دمشق أن عبداللَّه بن حنظلة- و أبوه غسيل الملائكة من كبار صحابة النبى صلى الله عليه و آله- خاطب الناس حين أمر يزيد مسلم بن عقبة بالهجوم على المدينة فقال: يا قوم اتقوا اللَّه وحده لاشريك له، فواللَّه ماخرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء- إن رجلا ينكح الأمهات و البنات و الأخوات و يشرب الخمر و يدع الصلاة- و اللَّه لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت للَّهفيه بلاء حسناً.[۴۴۱]

و هنا نقف على عمق كلام أميرالمؤمنين عليه السلام «لكل أمة آفة، و آفة هذه الأمة بنو أمية»[۴۴۲] و يالهم من جهال أولئك الذين يطرون معاوية و يتغنون بأمجاد بنى أمية رغم هذه الفجائع.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۱۵

الخطبة[۴۴۳] التاسعة والتسعون

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فى التزهيد من الدنيا

نظرة إلى الخطبة

تفيد بعض الروايات أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبة فى صلاة الجمعة، فأوصى فيها الناس بالزهد فى الدنيا، وقد صور غدرها وتقلب أحوالها بالشكل الذى جعل طلابها يمجونها ولايركنون اليها؛ ولا سيما أنّه تحدث عن اولئك الذين يذرفون الدمع حزنا على فقد أعزتهم، وآخرين يعزونهم، وطائفة من الناس قد رقدت على فراش المرض تنتظر الموت، بهدف ايقاظهم من غفلتهم وسيطرة أهوائهم وهوسهم. فالخطبة موعظة لمرضى القلب من عبدة الدنيا.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۱۷

القسم اول: السلامة فى الدين والبدن

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنا عَلَى مَا يَكُونُ، وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الأَدْيَانِ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الأَبْدَانِ».

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه لتتهيى القلوب لسماع الكلمات القادمة فى الوعظ والنصح، فقال عليه السلام:

«نحمده على ما كان»

فمفهوم هذه العبارة واسع شامل، حيث تشمل النعم التى يفيضها الله سبحانه وتعالى على العباد، كما تشمل الحوادث المريرة والأليمة. وذلك لأنّ خاصة عباد الله تعد كل ما صدر من الله نعمة ورحمة، فترى عليها شكره على كل حال.

ثم قال عليه السلام:

«ونستعينه من أمرنا على ما يكون»

، فمن الطبيعى أن يكون الحمد والثناء على الماضى، والاستعانة على المستقبل، وهذا هو ديدن العباد المخلصين الذى يكمن فى شكر البارىء على ماكان والاستعانة به على ما يكون.

ثم قال عليه السلام

: «ونسأله المعافاة فى الأديان، كما نسأله المعافاة فى الأبدان»

، فالعبارة إشارة إلى نقطة لطيفة وهى أنّ الناس لو أولوا سلامة دينهم ذات الأهمية التى يولونها لسلامة ابدانهم ودنياهم، لأخذوا العافية بطرفيها ونجوا. إلّاأنّ المؤسف له أنّ الإنسان قد يتعرض إلى مرض بسيط فتراه يراجع عدداً من الأحياء، بينما لا يتجه إلى طبيب واحد حتى لو أصابته عشرات الأمراض الروحية والأخلاقية الخطيرة.

هذا وقد أورد بعض شرّاح نهج البلاغة عن بعض المفكرين قوله لو سكبت عشر هذه الدموع التى تسكب على البطون الجائعة والأبدان العارية على الأرواح الجائعة للمعرفة

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۲۱۸

والعاريهٔ من الفضائل لزال كل هذا الجوع والعرى البدنى، كما زال كل هذا الجوع والعرى المعنوى.[۴۴۴]

جدير بالذكر أن الأديان بصيغهٔ الجمع إشارهٔ إلى تدين أفراد البشر، لامختلف الأديان، على غرار الأبدان جمع البدن.

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۲۱۹

القسم الثانى: سرعهٔ زوال الدنيا

«عِبَادَ اللّهِ، أوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، وَالْمُبْلِيَةِ لأَجْسَامِكُمْ وَإنْ كُنْتُمْ تحبون تجديدها، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ، سَلَكُوا سَبِيلًا فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَأَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ. وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِى إلَى الْغَايَةِ أنْ يَجْرِىَ إلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا! وَمَا عَسَى أنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يوْمٌ لَايَعْدُوهُ، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ الْمَوتِ يَحْدُوهُ وَمُزْعِجٌ فِى الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا رَغْماً! فَلَا تَنَافَسُوا فِى عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا، وَلَا تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَلَا تَجْزَعُوا مَنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إلَى انْقِطَاعٍ، وَإِنَّ زِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إلَى زَوَالٍ، وَضَرَّاءَهَا وَبُؤْسَهَا إلى نَفَادٍ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إلَى انْتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إلَى فَنَاءٍ».

الشرح والتفسير

بعد أن حمد الإمام عليه السلام الله وأثنى عليه شرع فى هذا المقطع من الخطبهٔ حث الناس على الزهد فى هذه الدنيا بعبارات نافذهٔ مؤثرهٔ، إلى جانب تصويره لتفاههٔ هذه الدنيا فقال عليه السلام:

«عباد الله أوصيكم بالرفض ۴۴۵] لهذه الدنيا التاركه لكم وان لم تحبوا تركها».

ويالها من فاجعهٔ ان يسعى الإنسان بكل كيانه وذاته نحو معشوق يسعى بكل ما أوتى من قوهٔ للهروب منه! فقد قال عليه السلام: إذا كانت الدنيا تاركهٔ لكم فاتركوها، وان شق ذلك على

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۲۲۰

أهوائكم ورغباتكم، وذلك امتثالًا لقوله سبحانه: «وَعَسى أنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ»[۴۴۶]، فلعل هناك بعض الامور التى تبدو حسنهٔ الظاهر يحبها الإنسان، بينما تستبطن السم الزعاف.

ثم قال عليه السلام:

«والمبليهٔ[۴۴۷] لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها».

فكل فرد يلاحظ على نفسه آثار العجز والتعب بمرور الزمان من قبيل ذهاب النشاط والحيويهٔ وذبول الجلد وضعف العظام وضعف البصر وثقل السمع وتمتمهٔ اللسان وانحناء الظهر وضعف العضلات والاعصاب وما إلى ذلك من الامور التى تؤرق الإنسان وتجعله يشعر بالاسى والحزن. ومن هنا يسعى احيانا وبشتى الوسائل لا ستعادهٔ حيويته ولكن هل يصلح العطار ما أفسد الدهر، طبعاً قد يحقق بعض النجاحات الطفيفهٔ فى هذا المجال، إلّاأنّ هناك مسيرهٔ لابدّ له من اجتيازها والوصول إلى مصيره المحتوم، فهل من الصحيح أن يولى الإنسان ظهره لكل هذه الامور ويتعلق بالدنيا؟! الجدير بالذكر أن الدنيا لاتبلى الكائنات الحيهٔ ولاسيما بدن الإنسان فحسب، بل يشمل هذا القانون عالم المادهٔ برمته من المجرات حتى الذرات. بل حتى هذه الشمس المشرقهٔ التى تبعث بأشعتها إلى كل مكان إنّما تبلى بالتدريج حتى تنتهى يوماً إلى الزوال؛ الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم «تكوير الشمس» وأيده العلم الحديث.

ثم قال عليه السلام:

«فانما مثلكم ومثلها كسفر[۴۴۸] سلكوا سبيلًا فكأنّهم قد قطعوه، وأموا[۴۴۹] علماً

فكأنّهم قد بلغوه، وكم عسى المجرى ۴۵۰] إلى الغايهٔ أن يجرى إليها حتى يبلغها».

نفحات الولاية ؛ ج۴ ؛ ص ۲۲۰

أكـد ذلـك عليه السـلام بقوله، كيف يمكن أن يؤمـل البقـاء من كـان له يوم لابـدّ من بلوغه ولا ـيمكنه تجاوزه، والموت يجرى خلفه ليسوقه إلى حتفه وان كان كارها:

«وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه، وطالب حثيث [۴۵۱] من الموت يحدوه [۴۵۲]، ومزعج [۴۵۳] فى الدنيا حتى يفارقها رغما[۴۵۴]».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۲۱

فالعبـارات بمجموعهـا تكشف النقاب عن ذات الحقيقـة وهى تقلب الـدنيا وانعـدام قيمتها؛ الحقيقـة التى يغفلها أغلب الناس، فتقودهم هذه الغفلة إلى البؤس والشقاء والحرمان من السعادة.

ثم يخلص الإمـام عليه السـلام من هـذا البحث بشأن تفاهـة الـدنيا إلى نتيجـة ينبغى أن يبلغها الجميع، وهى مادامت الـدنيا كـذلك فلا ينبغى اضاعـة الجهود من أجـل الحصول على مفاخرهـا الزائفـة وعزتهـا الموهومـة، كمـا لا ـينبغى الانخـداع بزينتهـا وزخارفهـا الزائلـة، ولاينبغى الشعور بالامتعاض والغصة على آلامها وأحزانها:

«فلا تنافسوا[۴۵۵] فى عز الدنيا وفخرها، ولا

تعجبوا بزينتها ونعيمها، ولاتجزعوا من ضرائها وبؤسها».

وذلك لأنّ فخرها آيل إلى الزوال ونعمتها إلى الفناء، وآلامها إلى انقضاء

«فان عزها وفخرها إلى انقطاع، وان زينتها ونعيمها إلى زوال، وضراءها ويؤسها إلى نفاد[۴۵۶]، كل مدة

فيها إلى انتهاء، وكل حى إلى فناء».

فقد ركز الإمام عليه السـلام فى هذه العبارات الرائعة على عزة الدنيا وفخرها ونعمها وزينتها وآلامها ومصائبها، ليرى فناء كل شىء فيها وزواله، ثم عرض لقانون كلى إلى أنّ كل عز فيها إلى انقطاع وزينة ونعيم إلى زوال وضـراء وبؤس إلى نفاد وكل مدة فيها إلى انتهاء، وكل حى فيها إلى فناء؛ فاذا كان الأمر كـذلك فما معنى كل هـذا النزاع والتنافس والجزع؟! فقـد صـرح أحـد شـرّاح نهـج البلاغة بأن الماضيـن قـد ذهبوا وأصـبحوا ترابا واننا لنطى ترابهم ثم نكون مثلهم، ثم يعبر علينا الآخرون من بعدنا. ومع كل هذا لا نفيق من غفلتنا!! وما أروع حديث الإمام الباقر عليه السلام الذى شبه نعم الدنيا بالمال الذى يراه النائم فان نهض من نومه لم ير شيئاً:

«أو كمال وجدته فى منامك، فاستيقظت وليس معك منه شيء»[۴۵۷].

أو كما صورها الشاعر:

ألا إنّما الدنيا كمنزل راكبأناخ عشياً وهو فى الصبح راحل

وكل شباب، أو جديد إلى البلاءوكل امرء يوماً إلى الله صائر

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۲۳

القسم الثالث: دروس الدنيا وعبرها

«أَوَلَيْسَ لَكُمْ فِى آثارِ الأَوَّلِينَ مُزْدَجِرٌ، وَفِى آبَائِكُمُ الْماضِـينَ تَبْصِـرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُون! أَوَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْماضِينَ مِنْكُمْ لَايَرْجِعُونَ، وَإِلَى الْخَلَفِ الْبِـاقِينَ لَايَبْقَوْنَ! أَوَلَسْـتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الـدُّنْيا يُصْـبِحُونَ وَيُمْسُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى فَمَيِّتٌ يُبْكى وَآخَرُ يُعَزَّى وَصَـرِيعٌ مُبْتَلىً، وَعَائِدٌ يَعُودُ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ؛ وَعَلَى أَثَرِ الماضِى مَا يَمْضِى الْبَاقِى!».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السـلام هذا المعلم الربانى العظيم كلامه السابق من أجل نفخ اليقظة فى هذه الأرواح التى تعيش السـبات والغفلة من

خلال للدنيا وتقلب أحوالها فقال عليه السلام:

«أو ليس لكم فى آثار الأولين مزدجر[۴۵۸]، وفى آبائكم الماضين تبصرة ومعتبر، ان كنتم تعقلون».

ثم وضح عليه السلام هذه العبارة بقوله:

«أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقين لا يبقون».

إشارة إلى قانون الموت والفناء؛ القانون العام الشامل الذى ليس فيه أى إستثناء، فمن ذهب لايعود، ومن بقى فهو سائر اثر تلك القافلة إلى الزوال وعدم العودة. مع هذا الفارق وهو أنّ البعض فى الصفوف المقدمة والبعض الآخر فى الصفوف المؤخرة؛ على غرار عباراته التى

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۲۴

خاطب بها الأموات ممن دفنوا ظهر الكوفة:

«أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق»[۴۵۹].

ثم خاض عليه السلام فى بيان هذا الكلام بعبارات أدق وأوضح و تحليل دقيق و بليغ بعد أن قسم أحوال أهل الدنيا فى مصابهم بالحوادث إلى سبعة أقسام ليقول:

«أولستم نزون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال مشتى: فميت يبكى، وآخر يعزى، وصريح مبتلى، وعائد[۴۶۰] يعود، وآخر بنفسه يجود[۴۶۱]، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس

بمغفول عنه؛ وعلى أثر الماضى مايمضى الباقى».

يا لها من عبارات رائعة وشاملة عظيمة التأثير إذا استطاع الإنسان أن يتمثل صورها للناس وهم يتحركون؛ فهذا يموت ويبكى عليه، وهنالك مجلس للعزاء تتوافد عليه الناس جماعات ليعزوا ذوى الفقيد. وهناك من رقد على فراش المرض وقد عاده جمع من الاخوة والأصدقاء. وهناك من يعالج سكرات الموت ويحتضر وليس لأحد أن يفعل له شيئاً. وهناك صورة اخرى يطالعك فيها الناس وهم يسارعون فى الركض والحركة دون الالتفات إلى الحلال والحرام والمشروع والممنوع بغية الحصول على شىء من حطام الدنيا؛ بينما كمن لهم الموت فى الطريق؛ وإذا به يباغتهم ليقضى على جميع آمالهم وأحلامهم. وبالتالى هناك فئة غافلة مشغولة بالذائذ العيش وسكر النعم والفرح والسرور دون أن تلتفت إلى الموت الذى ينتظرها؛ فاذا هجم الموت على أحدهم أحال فرحهم حزناً وغماً.

هذه هى صور الحياة السائدة طيلة تاريخ البشرية وستكون كذلك، ويا لها من صور تنطوى على الدروس والعبر، إلّاأنّ القلة القليلة من تعتبر.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۲۵

القسم الرابع: هادم اللذات

اشارة

«أَلَا فَاذْكُرُوا هَادِمَ اللَّذَّاتِ، وَمُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ، وَقَاطِعَ الْأُمْنِيَاتِ، عِنْدَ الْمُسَاوَرَةِ لِلْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ، وَاسْتَعِينُوا اللَّهَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ، وَمَا لَايُحْصَى مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى ختام هذه الخطبة الفصيحة والبليغة النافذة إلى نقطتين تكملان البحث السابق:

الاولى: الإشارة إلى الموت الذى يدعو ذكره إلى يقظة الإنسان من سباته وغفلته:

«ألا فاذکروا هادم اللذات، ومنغص ۴۶۲] الشهوات، وقاطع الامنیات، عند المساورة[۴۶۳] للأعمال القبیحة».

فقد وصف الإمام علیه السلام الموت هنا بثلاث: الأول: أنّه هادم اللذات؛ لأن أغلب الناس یفنون أعمارهم لیوفرا لأنفسهم العیش الهنیئ واللذیذ، بالضبط فی الوقت الذی تهجم فیه الأمراض علی الإنسان وتردیه میتاً. أضف إلی ذلک کثیراً ما تشاهد مجالس السرور واللذة وقد تعکرت وتبدلت عزاءا إثر بعض الحوادث، والعجیب لیس هنالک من ضمانة لأحد بعدم وقوع هذه الحوادث.

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۲۶

الثانی: منغص الشهوات؛ لأن الموت- الذی لیس له من زمان معین ولا یمکن التکهن به قط- یهجم علی الإنسان فی تلک اللحظة التی ینعم فیها بالشهوات.

الثالث: قاطع الامنیات؛ فامانی الإنسان کثیرة طویلة لاتعرف الحدود ولا یقطعها ویعطلها سوی الموت. فهذه العبارات علی درجة من القوة. بحیث تؤثر علی کل إنسان. و الرائع أنه قال «الا فاذکروا هادم اللذات ... عند المساورة للأعمال القبیحة» إشارة إلی أن القبائح کثیرا ما تتزین بحیث یهجم علیها الإنسان کالوحش الذی ینقض علی فریسته- ففی هذه اللحظة یمکن أن یصده عن ذلک ذکر الموت.

ثم أوصی علیه السلام بذکر نعم الله التی تحول دون ارتکاب الذنوب علی أنها العامل الثانی الذی یصد عن المعاصی

«واستعینوا الله علی أداء واجب حقه، وما لا یحصی من أعداد نعمه وإحسانه».

فشکر المنعم لایؤدی إلی معرفة الله فحسب، بل یلعب دوراً مباشراً فی دفع الإنسان لاداء الواجبات وترک المحرمات.

تأمّلان

۱- خداع الدنیا محدود

یزعم أغلب الناس أن الدنیا خادعة بزینتها وزخرفها؛ وقد اشیر إلی هذا المعنی فی الآیات القرآنیة والروایات الإسلامیة. إلّاأننا إذا فکرنا بصورة سلیمة لتوصلنا إلی أنّ هذا الخداع إنّما یطیل السذج والحمقی من الناس. وهذا ما أورده الإمام علیه السلام حیث صور الدنیا وقد ملئت بحوادث الغدر والخیانة والتنکر والتقلب. کما حفلت بالآف الصور التی تبعث علی الاعتبار من قبیل المرض والموت والعزاء والحوادث الالیمة وماشاکل ذلک، فهل خادعة هی الدنیا وهی بهذه الصفات.

ومن هنا قال علیه السلام وقد سمع رجلًا یذم الدنیا، أیها الذام للدنیا، المغتر بغرورها، المخدوع بأباطیلها! أتغتر بالدنیا ثم تذمها؟ أنت المتجرم علیها، أم هی المتجرمة علیک؟ متی استهوتک، أم متی غرتک؟ أبمصارع آبائک من البلی أم بمضاجع أمهاتک تحت الثری کم عللت بکفیک،

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۲۷

وکم مرضت بیدیک! تبتغی لهم الشفاء، وتستوصف لهم الأطباء، غداة لا یغنی عنهم دواؤک، ولایجدی علیهم بکاؤک.[۴۶۴]

کما قال علیه السلام: مثل الدنیا کمثل الحیة لین مسها، والسم الناقع فی جوفها، یهوی الیها الغر الجاهل، ویحذرها ذواللب العاقل.[۴۶۵]

۲- أکیس الناس

ورد فی بعض الروایات سئل رسول الله صلی الله علیه و آله من أکیس المؤمنین؟

فقال صلی الله علیه و آله:

«أکیس المؤمنین أکثرهم ذکرا للموت، وأشدهم له استعدادا»[۴۶۶].

وفی حدیث آخر عنه صلی الله علیه و آله تحت عنوان:

«أکیس الناس وأحزمهم»

جاء فی آخره:

«أولئک الأکیاس ذهبوا بشرف الدنیا وکرامة الآخرة»[۴۶۷].

والدلیل علی ذلک واضح لأن ذکر الموت وفناء الحیاة عامل مهم فی الصد عن الذنوب والمعاصی التی تنشأ عادة من حب الدنیا والتعلق بزخارفها والحرص والطمع الذی ینسی ذکر الموت والآخرة «فَإِذا رَکِبُوا فِی الفُلْکِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلی البَرِّ إِذا هُمْ یُشْرِکُونَ»[۴۶۸].

ومن الامور التی حث علیها الإسلام زیارة القبور التی تهدف إلی احترام أرواح الأموات من المؤمنین، إلی جانب کونها من العوامل المهمة فی إیقاظ الإنسان، حیث لایملک الإنسان هناک سوی الأذعان لهذه الحقیقة.

کل فتی وان طالت سلامتهلابدّ یوماً علی آلة الحدباء محمول

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۲۹

الخطبة[۴۶۹] مأة

اشارة

ومن خطبة له علیه السلام

فی رسول الله وأهل بیته علیه السلام

نظرة إلی الخطبة

کما أشرنا فی سند الخطبة فانّ الإمام علیه السلام خطبها أوائل خلافته. حیث استهلها بحمد الله والثناء علیه، ثم تطرق إلی رسالة النبی صلی الله علیه و آله وضرورة طاعته واتباعه. ثم أشار علیه السلام إلی بعض الأخبار عنه وعن أهل العراق فقال: فاذا أنتم ألنتم له رقابکم، وأشرتم إلیه باصابعکم، جاءه الموت فذهب به.

ثم یختتم الخطبة بالحدیث عن عظمة آل محمد صلی الله علیه و آله وبرکتهم واستمرار هدایتهم، و کلما ذهب منهم أحد خلّفه آخر.

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۳۱

القسم الأول: رایة الحق

اشارة

«الْحَمْدُ لِلّهِ النَّاشِرِ فی الْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَالْبَاسِطِ فِیهِمْ بِالْجُودِ یَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِی جَمِیعِ أُمُورِهِ، وَنَسْتَعِینُهُ عَلَی رِعَایَةِ حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَاإِلهَ غَیْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بَأَمْرِهِ صَادِعاً، وَبَذِکْرِهِ نَاطِقاً، فَأَدَّی أَمِیناً، وَمَضَی رَشِیداً؛ وَخَلَّفَ فِینَا رَایَةَ الْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَنْ

تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلام، بَطِيءُ الْقِيَام، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللّهُ حَتَّى يُطْلِعَ اللّهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ، فَلا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَى أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَى قَائِمَتَيْهِ، وَتَثْبُتَ الْأُخْرى فَتَرْجِعَا حَتَّى تَثْبُتَا جَمِيعاً».

الشرح والتفسير

لاشك أنّ الهدف الأصلى للخطبة بيان أوصاف رسول الله صلى الله عليه و آله ومقامات أهل بيته عليهم السلام، ولكن وعلى ضوء الحديث المعروف:

«أن كل خطبة ليس فيها تشهد فهى كاليد الجذماء»[۴۷۰]

، فانّ الإمام عليه السلام إستهل كلامه بحمد الله والثناء على والشهادة له بالوحدانية وللرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بالنبوة، لتستنير القلوب بهاتين الشهادتين وتتأهب لسماع المطالب القادمة.

فقال عليه السلام:

«الحمد الله الناشر فى الخلق فضله، والباسط فيهم بالجود يده».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۳۲

فوصف بالله بهذه الصفات هو فى الواقع دليل على تفرده سبحانه بكل حمد وثناء، نعم فهو الجدير بكل مدح وحمد وثناء، كيف لا وقد عم فضله وانتشر جوده وملأت أركان العالم نعمه وآلائه. و لا ينبغى ذلك لمن سواه، فهم عيال على نعمه.

ثم أشار إلى سعة حمده و الثناء عليه قال عليه السلام:

«نحمده فى جميع أموره، ونستعينه على رعاية حقوقه».

فالعبارة

«جميع أموره»

تفيد أننا لانحمده عند النعم والرفاه والدعة والعافية فحسب، بل نحمده ونشكره فى البلاء والشدة وحين الوقائع الخطيرة، وذلك لأنه أولًا: كل ما يفعله الله يتفق والحكمة والمصلحة، حتى المصائب التى تصب علينا إختباراً فهى كفارة لذنوبنا، أو أنّها سبب ليقظتنا من نوم الغفلة.

وثانياً: أنّ هذه الحوادث تجعلنا ننال أجر وثواب الصابرين وجزاء الشاكرين وهذه نعمة كبرى

والعبارة

«ونستعينه ...»

أى إننا يجب أن نستمد العون منه لطاعته وإمتثال أوامره ورعاية حقوقه، حيث لايسعنا فعل شىء دون عونه، وهذا ما نردده ليل نهار فى صلواتنا «إِيَّاکَ نَعبُدُ وَإِيَّاکَ نَستَعِين» ولما فرغ عليه السلام من حمد الله والثناء عليه، شهد لله بالوحدانية وأن لا معبود سواه

«ونشهد أن لا إله غيره».

لأننا إذ سلمنا أنّ النعم منه، فانّ العبودية والطاعة لاتليق الا به سبحانه وبذاته المقدسة.

ثم اتبعها بالشهادة للنبى صلى الله عليه و آله بالنبوة والعبودية:

«وأن محمدا عبده ورسوله»

أمّا تقديم العبودية على الرسالة، فتفيد نفيها لكافة أنواع الشرك عن المؤمنين، إلى جانب كون مقام العبودية أفضل وأسمى من مقام النبوة! لأنّ العبد الكامل المخلص لله يرى تمام وجوده لله، فلايفكر فى سواه ولايرجو غيره، وهذا بحد ذاته أوج تكامل الإنسان الذى ليس بعده من مقام. ثم أشار عليه السلام إلى بعض صفات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى أنّه صدح بالحق، وأدى رسالته بكل

أمانة حتى مضى إلى ربّه بعد أن ثبت دعائم الحق:

«أرسله بأمره صادعاً،[۴۷۱] وبذكره ناطقاً،

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۲۳۳

فأدى أمينا، ومضى رشيدا؛ وخلف فينا راية الحق».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى الخدمات الجليلة التى أسداها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، إلى جانب ابلاغه لأوامر الحق ونواهيه، كما شرح من جانب آخر كل مايلزم لمعرفة الله سبحانه، وأنّه صلى الله عليه و آله كان أميناً فى قيامه بهذه المهمة فى أداء الرسالة، كما عمل صلى الله عليه و آله بما قال ليكون للُاخرى أسوة صالحة، كما كان حريصاً على الأجيال القادمة فنصب لهم راية الحق، حيث خلف فى الامّة كتاب الله وسنته.

واختلف الشرّاح فى تفسير المراد بقوله:

«راية الحق»

فذهب البعض الر أن المراد به القرآن الكريم، وقيل الكتاب والسنة، كما فسر بالكتاب والعترة اللذان وردا فى حديث الثقلين.

إلّا أنّ تفسيرها بالكتاب والسنة (لأنّ الكتاب دعا إلى السنة) أنسب بالنظر لتصدر الكلام بالعبارة:

«دليلها مكيث الكلام».

ثم أضاف عليه السلام قائلًا:

«من تقدمها مرق ۴۷۲]، ومن تخلف عنها زهق ۴۷۳] ومن لزمها لحق».

فالعبارة تشير إلى كيفية التعامل الطوائف الثلاث من الناس مع الحق: طائفة مفرطة تتقدم على الحق فتصيبها الحيرة والضلال كالخوارج الذين ذهبت بهم الظنون بأنّهم إنّما يعملون بالقرآن فتقدموا على إمام زمانهم فعاشوا بحماقتهم ذلك التناقض، أو كأولئك الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله فرأوه أفطر حين سافر فزعموا أنّهم لايفطرون رعاية طرحة شهر رمضان حتى تسموا بالعصاة[۴۷۴] الطائفة الثانية من أهل التفريط الذين يتقدمون بضع خطوات فى الحق ثم تحول أهوائهم وضعفهم دون مواصلة الطريق.

والطائفة الثالثة الملازمة للحق التى لا تتقدم عليه ولا تتخلف عنه؛ فهى تتحرك دائماً فى ضل الحق حتى تبلغ أهدافها.[۴۷۵]

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۲۳۴

ثم قال عليه السلام:

«دليلها مكيث ۴۷۶] الكلام، بطيىء القيام، سريع إذا قام».

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: هل المراد بالدليل فى العبارة حامل الراية؟ أم الشخص الذى يتحرك فى مقدمة العسكر والعارف بالطريق الذى يهدى الآخرين إلى جادة الصواب؟

يبدو الاحتمال الأول هو الاقوى، لأنّ حامل الراية ينهض بمسؤولية الهداية أيضاً، والعسكر مكلف باتباعه أينما حل.

على كل حال فقد صرح أغلب شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد به شخص أمير المؤمنين عليه السلام أو جميع أهل البيت عليهم السلام؛ فقد قرنوا عليه السلام- حسب حديث الثقلين- بالقرآن وأنّهم لن يفترقوا عنه أبداً، حيث جاء فى الحديث:

«إنّى تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وعترتى أهل بيتى وقد نبأنى اللطيف الخبير أنّها لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما».

وأميرالمومنين على عليه السلام من قال له رسول الله صلى الله عليه و آله حسب مصادر الفريقين:

«انت مع الحق والحق معك حيثما دار»[۴۷۷].

فقد كان عليه السلام القرآن الناطق ومبين سنة رسول الله صلى الله عليه و آله.

والعبارة

«مكيث الكلام»

لا تعنى أنّه قليل الكلام؛ بل تعنى تريثه فى الكلام، وبعبارة اخرى أنّه رزين فى كلامه فلا يبادر من غير روية. والعبارة

«بطيئى القيام، سريع إذا قام»

تأكيد لهذا المعنى وهو أنّ أعماله هى الاخرى رزينة كأقواله، فلايعجل فى قيامه بالأعمال، ولكن إذا حان العمل لم يفوت الفرصة، فيقدم عليه بكل صرامة دون أدنى ترديد. والحق أنّ من عرف

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۳۵

سيرة أميرالمؤمنين على عليه السلام يذعن بهذه الصفات التى انطوت عليها شخصيته. فقد تواتر عليه بعض الأفراد بعد رحيل النبى صلى الله عليه و آله وناشدوه القيام؛ إلّاأنّه لم يجبهم بسبب عدم توفر الشرائط اللازمة إلى جانب خشيته من الأعداء المتربصين بالإسلام، بينما نهض بالأمر لما تغيرت الظروف.

وهناك شواهد اخرى كثيرة وردت فى كلماته عليه السلام بهذا الشأن ۴۷۸].

ثم قال عليه السلام:

«فاذا أنتم ألنتم له رقابكم، وأشرتم إليه باصابعكم، جاءه الموت فذهب به».

إشارة إلى أنّه يعانى الأمرين حتى يجمعكم تحت رايته، وتسلمون لإمامته بحيث تشيرون إليه من كل جانب، ولكن ما أن تتمهد مقومات الاتحاد وعناصر النصر والغلبة حتى تأخذه يد القدر منكم فتتفرقون ثانية ويتسلط عليكم الأعداء.

ولعل العبارة إشارة لما أوردناه سابقاً فى سند الخطبة فى أنّ الناس اجتمعوا على الإمام عليه السلام فى الشهر الذى قتل فيه بحيث اجتمع له مأة الف سيف، عقد كل عشرة الآف لرجل، فخرج عليه السلام يريد الشام، فحال ابن ملجم بينه وبين ذلك. إلّاأنّ بعض شرّاح نهج البلاغة فسروها بعصره عليه السلام، إلّاأنّ هذا التفسير يبدو بعيداً، وذلك لأن العبارات قبل هذه الجملة تفيد خلاف هذا المعنى، ولاسيما أنّ الخطبة بعد خلافة عليه السلام وفيها اشارات إلى المستقبل.

ثم حاول الإمام عليه السلام الحيلولة دون شعور أصحابه باليأس، فبشرهم بالنصر القادم قائلًا:

«فلبثتم بعده ماشاء الله حتى يطلع الله لكم من يجمعكم، ويضم نشركم».

أمّا من المقصود بهذا القيام؟ فقد أورد الشرّاح احتمالين: أحدهما: أن يكون المراد قيام الإمام المهدى عليه السلام، والآخر قيام بنى العباس الذى أنهى حكومة بنى أمية واجتث جذور ظلمهم وفسادهم، وان ما رسوا بدورهم نوعاً آخر من الجرائم والجنايات. ويبدو الاحتمال الأول أنسب، فلم تكن لبنى العباس مثل هذه الجدارة فى عباراته عليه السلام، كما لم تكن جناياتهم بحق شيعة على عليه السلام وأهل العراق بأقل من جنايات بنى أمية. أضف إلى ذلك فالكلام فى رافع راية

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۳۶

الحق، ومن المسلم به أنّ راية بنى العباس كانت باطلة.

كما قيل فى تفسير العبارة المذكورة أنّ المراد بذلك الاجتماع لأصحابه هو الاجتماع الفكرى والثقافى إلى جانب الاجتماع السياسى والعسكرى، وهو المعنى الذى تحقق على عهد الإمام الباقر والصادق والرضا عليه السلام، والعبارات الأخيرة من الخطبة إنّما تؤيد هذا المعنى.

إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو مستعبداً بالنظر إلى عدم انسجام هذا التفسير مع العبارات السابقة التى أشارت إلى الاجتماع السياسى والعسكرى. ولكن على كل حال، فالهدف من هذه العبارة نفى ما يسيطر على الأفكار عادة بعد الهزيمة و هو اليأس و التشاؤم. فوصفها بأنها أمواج عابرة و هنالك المستقبل المشرق الذى ينتظر المجتمع الإسلامى. و من هنا ذكر ما يؤيد ذلك.

ثم قال عليه السلام:

«فلا تطمعوا فى غير مقبل، ولاتيأسوا من مدبر، فانّ المدبر عسى أن تنزل به إحدى قائمتيه، وتثبت الاخرى فترجعا حتى تثبتا جميعاً».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام بين قاعدتين كليتين لابدّ من الاهتمام بهما فى الحوادث الصعبة:

الاولى لاينبغى التفاؤل المفرط فى مثل هذه الحالات والاعتماد على شىء لم تتوفر بعد مقدماته.

الثانية: ألاتدعو الهزيمة إلى اليأس والقنوط- فيشبه الإمام عليه السلام ذلك بمن يتحرك فى جادة فتزل احدى قدميه، فيظن الناس أنّه سقط ولاسبيل إلى قيامه ثانية، إلّاأنّه سرعان مايعتمد على قدمه الاخرى فينهض من سقطته ويجد فى الحركة ثانية.

يناءاً على هذا لاينبغى اليأس عند الحوادث الاجتماعية الصعبة والاستسلام لمعاناتها، كما لاينبغى التعلق بالحركات الطائشة.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ سائر الأئمة عليه السلام غير الإمام المهدى عليه السلام هم المرادون بقوله «غير مقبل»، وأنّ قوله عليه السلام لاتطمعوا فى غير مقبل، إشارة إلى الشرائط اللازمة لقيامهم عليه السلام ليست متوفرة، ومدبر إشارة إلى الإمام المهدى عليه السلام فلاينبغى اليأس من ظهوره فى أى زمان.

إلّا أنّ هذا التفسير لاينسجم قط والعبارات فى آخر هذا المقطع من الخطبة؛ لأنّ زلل القدم

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۳۷

والاعتماد على الاخرى لاينطبق عليه عليه السلام إلّابتكلف شديد.

اضافة إلى أنّ التعبير بمقبل ومدبر بصيغة التنكير يدل على أنّ المراد بيان قاعدة كلية، لا الإشارة إلى مصداق شخصيى، وإلّا كان من المناسب تحليتها بالالف واللام.

تأمّلان

۱- أولياء الله

إنّ الخصائص التى ذكرها الإمام عليه السلام بحقه بصورة غير مباشرة فى العبارة المذكورة، هى فى الواقع إشارة إلى الصفات التى ينبغى أن يشتمل عليها كل زعيم ربانى مدير ومدبر:

الأول: لابدّ أن يكون رزينا فى كلامه إلى جانب التريث والتروى قبل المبادرة. كما ورد ذلك فى ماروى عن أميرالمومنين عليه السلام قوله

«لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه».[۴۷۹]

فالعاقل يفكر أولًا ثم يتكلم، أمّا الأحمق فهو يتكلم ثم يفكر.

الثانى: أعماله هى الاخرى رزينة كأقواله، فهو يفكر فى عواقب العمل، فاذا احاط به وعرفه أقدم عليه دون تردد- فقد جاء فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فان يك خيراً ورشداً فاتبعه، وان يك غياً فاجتنبه»[۴۸۰].

۲- الفشل قنطرة النجاح

هناك من يشعر باليأس لأدنى حادثة صعبة، فيما رس بعض ردود الفعل الساذجة، ومثل هذا اليأس يحول دون القيام بالأنشطة

والمواقف المطلوبة مستقبلًا؛ الأنشطة التی قد تحيل النشل نجاحا والهزيمة نصراً. والالتفات إلی أمرين مهمين أوردهما الإمام عليه السلام فی الخطبة من شأنه أنّ يعالج هذه المواقف السلبية.

الأول: إجتناب الاستعجال فی الأعمال والتعويل علی مالم تتوفر مقدماته، الثانی: عدم

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۳۸

اليأس من جراء بعض الاخفاقات المرحلية؛ لأنّ الاخفاق يتحول إلی نجاح بالتجارب.

أضف إلی ذلک فانّ الألطاف الإلهية قد تشمل الإنسان وتهمد له کل أسباب النجاح ومقومات النصر. فقد ورد عن أميرالمؤمنين علی عليه السلام طبق رواية الشيخ الصدوق فی الامالی أنّه قال

«کن لما لاترجو أرجی منک لما ترجو»

، ثم يوضح ذلک عليه السلام بذکر ثلاثة نماذج رائعة بقوله أنّ موسی بن عمران خرج يلتمس لاهله ناراً فعاد نبياً، کما قدمت ملکة سبأ للقاء نبی الله سليمان عليه السلام فأسلمت وآمنت، کما خرج السحرة يبغون العزة لفرعون فانقلبوا مؤمنين بالله وبموسی عليه السلام.[۴۸۱]

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۳۹

القسم الثانی: هدی آل محمد صلی الله عليه و آله

اشارة

«ألَا إنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ، صَلَّی اللّه عَلَيْهِ وَآلِهِ کَمَثَلِ نُجُومِ السَّماءِ، إذَا خَوَی نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَکَأَنَّکُمْ قَدْ تَکَامَلَتْ مِنَ اللّه فِيکُمُ الصَّنَائِعُ، وَأَرَاکُمْ مَا کُنْتُمْ تَأْمُلُونَ».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام کافة الناس فی آخر الخطبة داعيا اياهم إلی الحرکة خلف آل النبی صلی الله عليه و آله بصفتهم الکواکب الزاهرة، وکلما غاب کوکب خلفه آخر

«ألا إنّ مثل آل محمد صلی الله عليه وآله کمثل نجوم السماء، إذا خوی ۴۸۲] نجم طلع نجم».

ثم قال عليه السلام:

«فکأنکم قد تکاملت من الله فيکم الصنائع ۴۸۳]، وأراکم ماکنتم تأملون»،

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيرة إلی عدّة أمور: منها أنّ آل محمد صلی الله عليه و آله کالنجوم التی قال بشأنها الحکيم فی کتابه الکريم:

«وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ»[۴۸۴]

، کما قال فی موضع آخر:

«وَهُوَ

الَّذِی جَعَلَ لَکُم النُّجومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِی ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالبَحْرِ»[۴۸۵]

فالقوافل کانت تهتدی فی الصحاری والبحار فی الليالی الظلماء بنجوم السموات، حيث لم يخترع آنذاک البوصلة، کما لم تکن الطرق معبدة بالشکل الذی هی عليه اليوم.

فالنجاة فی الدنيا والآخرة ونيل السعادة إنّما تتحقق فی ظل هدی آل محمد صلی الله عليه و آله والأمر الآخر أنّ السماء لاتخلو لياليها

من النجوم، فاذا غابت نجمة، أشرقت اخرى فى أفقها؛ وهكذا

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۴۰

أهل البيت عليه السلام إذا رحل امام خلفه آخر حتى يقوم آخرهم المهدى عليه السلام فيملأ الدنيا قسطا وعدلا، فالعبارة تفيد اتصال سلسلة الإمامة التى تأبى القطع. بعبارة اخرى فانّ الأرض لاتخلو من حجة الله. والعجيب ما أورده بعض شرّاح نهج البلاغة كابن أبى الحديد حين بلغ العبارة المذكورة اذ قال: وهذا إشارة إلى المهدى الذى يظهر فى آخر الوقت، وعند أصحابنا أنّه غير موجود الان وسيوجد ويملأ الأرض قسطاً وعدلًا.

ولو أمعن هذا القائل فى العبارات التى وردت فى ذيل الخطبة لوقف على خطأه فى ما ذهب إليه؛ ولكن للأسف! فانّ التعصب قد لايسمح أحياناً بان يلتفت الإنسان إلى القرائن الواضحة.

وأخيراً قال الإمام عليه السلام بأنّ اتباع أهل البيت عليه السلام يؤدى إلى نيل كافة الأمانى وبلوغ جميع النعم، وهذا ما يكشف بدوره عن دور أهل البيت فى التكامل الدينى والدنيوى فى كافة الازمنة، وماذهب إليه بعض الشرّاح من أنّه إشارة إلى زمان ظهور الإمام المهدى عليه السلام فهو كلام يفتقر إلى الدليل.

كما يكمن ان يكون المراد بالعبارة هو أنّ الإمام عليه السلام قال: إنّ الله سبحانه وفرّ لكم كل أسباب السعادة ومنها وجود آل محمد صلى الله عليه و آله.

تأمّلان

۱- حديث النجوم

ما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة شأن آل محمد صلى الله عليه و آله وتشبيههم بنجوم السماء، هو فى الواقع اقتباس من الحديث النبوى المعروف الذى قال فيه صلى الله عليه و آله:

«النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتى أمان لأمتى من الاختلاف».

رواه الحاكم النيشابورى من علماء العامة فى كتاب المستدرک عن ابن عباس وقال:

«هذا حديث صحيح الاسناد»[۴۸۶].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۴۱

كما رواه عدد من محدثى العامة ومنهم الحموينى فى فرائد السمطين وابن حجر فى الصواعق ومحمد بن صبان فى اسعاف الراغبين وغيرهم ۴۸۷] وقد أفرد المرحوم العلّامة المجلسى فى بحث الإمامة من كتابه بحار الانوار عنواناً أسماه:

«إنّهم أمان لأهل الأرض من العذاب»

، وقد نقل فيه عدة أحاديث عن طرق أهل البيت، كما صرح قائلًا: رواه أحمد بن حنبل فى مسنده عن النبى صلى الله عليه و آله.[۴۸۸]

ومن الواضح أنّ تشبيه أهل البيت عليه السلام بالنجوم يدل على ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبة أيضاً بدليل الدلالة الالتزامية، لأنّ طبيعة نجوم السماء بهذه الشاكلة إذا غرب أحدها فى أفق المغرب، طلع الآخر فى أفق المشرق- أضف إلى ذلک فان التعبير بأمتى تفيد أن جميع أمّة النبى صلى الله عليه و آله على طول الزمان يمكنها أن تهتدى بأهل البيت عليه السلام، وبالنتيجة فانه سيكون هناک إماماً على الدوام من اهل البيت عليه السلام فى الامّة.

۲- آخر مراحل تكامل النعم الإلهية

هذه النقطة جديرة بالالتفات أيضاً وهى أنّ تكامل النعم الإلهية فى ظل أهل البيت عليه السلام سيكون فى كل زمان، إلّاأنّ ذروة كما لها ستكون فى عصر ظهر الإمام المهدى عليه السلام أرواحنا فداه.

فقد نقل المرحوم ابن ميثم حديثا فى شرح هذه الخطبة وقال: رأيت حديثا للإمام عليه السلام يمكنه أن يوضح هذه الخطبة:

«يا قوم اعلموا علما يقيناً، إن الذى يستقبل قائماً من أمر جاهليتكم ليس بدون ما استقبل الرسول من أمر جاهليتكم ... ولعمرى لينزعن عنكم قضاة السوء، وليقبضن عنكم المراضين (المرائين) وليعزلن عنكم أمراء الجور، وليطهرن الأرض من كل غاش، وليعملن فيكم بالعدل، وليقومن فيكم بالقسطاس المستقيم».[۴۸۹]

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۴۳

الخطبة[۴۹۰] المأة وواحد

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وهى إحدى الخطب المشتملة على الملاحم

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة كما ينهم من عنوانها تتحدث بصورة رئيسية عن الحوادث القادمة، والأخطار التى تهدد المسلمين، خاصة أهل العراق.

الا ـ أنّها تتناول أمرين قبل ذلك: الأول: حمد الله والثناء عليه والشهادة له بالوحدانية مع ذكر بعض الامور. والثانى: الاعراب عن القلق من بعض من يسمع كلمات الإمام عليه السلام واخباراته على سبيل الشك والترديد.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۴۵

القسم الأول: الشهادة المطلقة

«الْحَمْدُ لِلّهِ الأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَالْآخِرِ، بِعْدَ كُلِّ آخِرٍ، وَبِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَاإِلهَ إلّااللّهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الإِعْلَانَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ».

الشرح والتفسير

استهل عليه السلام هذه الخطبة كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه والشهادة له بالوحدانية، ثم تطرق إلى ذكر صفات الحق سبحانه:

«الحمد لله الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر».

فالإمام عليه السلام انطلق هنا نحو أزلية الله وأبديته سبحانه التى تعد من أهم صفاته وتعود اليها سائر الصفات؛ وذلك لأننا قلنا فى بحث الصفات: أنّ أساس صفاته الجمالية والجلالية عدم تناهى ذاته المقدسة من جميع الجهات، والازلية والأبدية هى بيان آخر لعدم محدودية تلك الذات المقدسة.

ثم خاض عليه السلام فى بيان الدليل أو وضح ذلك بقوله

«وبأوليته وجب أن لا أول له، وبآخريته وجب أن لا آخر له».

فالعبارة تشتمل على نقطة لطيفة وهى أنّ أوليته سبحانه وتعالى ليست أولية زمانية، بل أولية ذاتية وبمعنى الأزلية، ومن الواضح أنّ الذاتى الذى هو أزلى ليس له من أولية زمانية.

وكذلك آخريته هى الآخرى ذاتية، لا زمانية وبمعنى الأبدية، وما كان أبدياً فلاآخر زمانى له.

وقد أورد بعض شرّاح نهج البلاغة احتمالات اخرى فى تفسير هذه العبارة لا تنسجم وسائر عبارات الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۴۶

ثم شهد لله بالوحدانية والعبودية له على مستوى اللسان والقلب:

«وأشهد أن لا إله إلّا الله شهادة يوافق فيها السر الاعلان، والقلب اللسان».

فالعبارة تفيد ان الشهادة المطلوبة التى تشمل تمام وجود الإنسان والكيان والتى ينسجم فيها الظاهر والباطن والقلب واللسان.

فالأعم الأغلب يشهد بالوحدانية لساناً، بينما يعيش الوثنية والصنمية فى قلبه. وكذلك الكثير ممن يشهد قلباً بهذه الوجدانية، بينما تخالط الشرك أعمالهم وأفعالهم. فهم يسجدون للمال والمقام ويركعون أمام الشهوات؛ بينما قد يرددون صباح مساء على ألسنتهم أو قلوبهم

«لا إله إلّاأنت»

، و نعلم أنّ كل هذا من شعب النفاق، ومثل هؤلاء الأفراد بحق فى زمرة المنافقين.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۴۷

القسم الثانى: الحق ما أقول

«أَيُّهَا النَّاسُ، لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِـقَاقِى، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِى، وَلَا تَتَرَامَوْا بِالأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّى. فَوَ الَّذِى فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذِى أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنَ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ، وَلَا جَهِلَ السَّامِعُ».

الشرح والتفسير

مهد الإمام عليه السلام فى الواقع بكلامه ما أراد أنّ يورده هنا فى إماطة اللثام عن بعض الحوادث الآتية هو عين اليقين والحق الذى سمعه من رسول الله صلى الله عليه و آله ولا ـ سبيل إلى مخالفته. وتفيد هذه العبارات أن الإمام عليه السلام قد أخبر سابقاً عن بعض الحوادث فانكرها عليه بعض المنافقين أوضعاف الإيمان. فو عظهم عليه السلام بأنّ عدائى ومخالفتكم لى لا تدفعكم إلى مقارفة الذنب، ولاينبغى أن تسوقكم معصيتكم لى إلى اتباع هوى أنفسكم، فاذا سمعتم ما أقول أنكرتم علىَ

«أيّها الناس لا يجرمنكم [۴۹۱] شقاقى [۴۹۲]، ولا يستهو ينكم [۴۹۳] عصيانى، ولا تتراموا بالأبصار،

عند ما تسمعونه منّى».

ومراده عليه السلام أنّ الحقد والحسد والضغينة تسوق الإنسان فى أغلب الأحيان إلى ارتكاب الذنب والمعصية، فتكون حجاباً على بصره لتمنعه عن رؤية الحقائق.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۴۸

ثم قال عليه السلام:

«فو الذى فلق [۴۹۴] الحبة وبرأ[۴۹۵] النسمة[۴۹۶] إن الذى أنبئكم به عن النبى الامّى [۴۹۷]

صلى الله عليه وآله، ما كذب المبلغ، ولا جهل السامع»

والعبارة التى صدرت بالقسم لمن ابداعات أميرالمؤمنين عليه السلام التى ذكرت لمرات فى خطب نهج البلاغة، حيث يشير إلى نقطة مهمّة وهى أنّ أهم وأعقد مسألة فى نظام عالم الوجود هى مسألة الحياة؛ سواء فى عالم النباتات أوفى عالم البشرية، ورغم الجهود

المضنیة التی بذلها الإنسان فی هذا المجال، مازالت هنالک الأسرار التی تختزنها هذه الحیاة لم تکتشف بعد. وبناءاً علی هذا فانّ الحیاة رائعة الخلق و هو الشیء الذی یربطنا تأمله باللّه و یدل علی أن هذه الظاهرة العجیبة لیست بالشیء الذی انبثق دون علم الله وقدرته، فالاستفادة من هذه الأوصاف حین القسم تجسد مفهوما بارزاً فی الأذهان.

علی کل حال فانّ هدف الإمام علیه السلام طمأنة مخاطبیه إلی أنّ مایقوله بشأن الحوادث المستقبلیة لایستند إلی الحدس والتخمین، ولا ـ من قبیل نبوءات الکهنة، بل هو واقع وحق سمعه من رسول الله صلی الله علیه و آله ولیس الإمام علیه السلام من یخطیء فی إدراک کلام النبی صلی الله علیه و آله. وعلیه فما یقوله هو عین الحقیقة والصواب، واطلاعهم علی هذه الأحداث من سبیله الحد من أخطارها.

فقد ورد فی الخبر حین نزلت الآیة الشریفة:

«وَتَعِیَها أُذُنٌ واعِیَةٌ»[۴۹۸].

قال رسول الله صلی الله علیه و آله لعلی علیه السلام

: «سألت الله تعالی أن یجعلها أذنک یا علی! قال علیه السلام فما نسیت شیئاً بعد ذلک»[۴۹۹].

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۴۹

القسم الثالث: فتنة ضلیل الشام

اشارة

«لَکَأَنّی أَنْظُرُ إِلَی ضِلِّیلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّام، وَفَحَصَ بِرَایَاتِهِ فِی ضَوَاحِی کُوفَانَ، فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ شَکِیمَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِی الأَرْضِ وَطْأَتُهُ، عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْیَابِهَا، وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا، وَبَدَا مِنَ الأَیَّام کُلُوحُهَا، وَمِنَ اللَّیَالِی کُدُوحُهَا. فَإِذَا أَیْنَعَ زَرْعُهُ، وَقَامَ عَلَی یَنْعِهِ، وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ، عُقِدَتْ رَایَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ، وَأَقْبَلْنَ کاللَّیْلِ الْمُظْلِمِ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ. هذا، وَکَمْ یَخْرِقُ الْکُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ وَیَمُرُّ عَلَیْهَا مِنْ عَاصِفٍ وَعَنْ قَلِیلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، وَیُحْصَدُ الْقَائِمُ، وَیُحْطَمُ الْمَحْصُودُ!».

الشرح والتفسیر

کشف الإمام علیه السلام فی هذا الکلام- الذی یمثل فی الواقع جوهر الخطبة- النقاب عن الحوادث المستقبلیة الخطیرة التی تنتظر أهل العراق، ثم یشرح علیه السلام بعض تفاصیل وجزئیات هذه الحوادث المروعة، بغیة أعداد الامّة للحد من أخطارها:

«لکأنّی أنظر إلی ضلیل ۵۰۰] قد نعق ۵۰۱]

بالشام، وفحص ۵۰۲] برایاته فی ضواحی کوفان»[۵۰۳].

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۵۰

ثم خاض فی توضیح هذه الفاجعة الکبری

«فاذا فغرت ۵۰۴] فاغرته، واشتدت شکیمته ۵۰۵]

وثقلت فی الأرض وطأته، عضت الفتنة أبناءها بانیابها، وماجت الحرب بامواجها، وبدا من الایام کلوحها[۵۰۶]، ومن اللیالی کدوحها[۵۰۷]».

هناک قولان رئیسیان لشرّاح نهج البلاغة فی المراد بالضلیل فی عبارة الإمام علیه السلام:

الأول: أن یکون المراد به معاویة الذی أحکم قبضته علی العراق بعد شهادة أمیرالمومنین علی علیه السلام وصلحه مع الإمام الحسن علیه السلام، وقد نفذ کل ماورد فی العبارة عملیاً، والثانی: أن یکون المراد به عبدالملک بن مروان الذی سلط ذلک المجرم المعروف

الحجاج على الكوفة فسام الناس سوء العذاب وجرعهم أنواع الظلم، ومهما كان فالعبارة إشارة إلى الطغاة من حكام بنى أمية.

والعبارة

: «عضت الفتنة أبناءها بأنيابها»

إشارة إلى أن هـذه الفتن سـتطيل حتى أولئك الذين يثيرونها! فعادة ماتعصف بهـم الاختلافات الداخلية، أو أن يتسـلط عليهم أعداؤهم فيذيقونهم أشد العذاب.

ثم قال عليه السلام

: «فاذا أينع زرعه وقام على ينعه ۵۰۸]، وهدرت شقاشقه ۵۰۹]، وبرقت بوارقه،

عقدت رايات الفتن المعضلة، وأقبلن كالليل المظلم، والبحر الملتطم».

فى إشارة إلى أنّ حكومة هؤلاء لن تدوم، كما لن يلتذ هؤلاء الضلال الظلمة بفتنهم، وسرعان ما تحيط بهم رايات المخالفين.

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى قيام بنى العباس ضد بنى أمية.

ثم اختتم عليه السلام الخطبة بالقول:

«هذا، وكم يخرق الكوفة من قاصف، ويمرعليها من

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۵۱

عاصف، وعن قليل تلتف القرون بالقرون، ويحصد القائم، ويحطم المحصود».

والعجيب أن ما تكهن به الإمام عليه السـلام فى هذه العبارات القصار قد وقع سريعاً، فقد طحنت الكوفة بفتن بنى أمية ومن بعدهم بنى العباس؛ لتصبح هذه المنطقة مركزاً المختلف الحوادث العنيفة، وكل من كان له أدنى المام بتاريخ الكوفة يدرك بسهولة عمق كلمات الإمام عليه السلام التى أوردها فى هذه الخطبة.

والعبارة:

«تلتف القرون بالقرون»

إشارة إلى الحروب الطاحنة التى خاضها مختلف الأقوام فى العراق والكوفة، ولاسيما حروب بنى أمية وبنى العباس.

والعبارة:

«يحصد القائم، ويحطم المحصود»

كناية لطيفة عن الاضرار والخسائر التى تلحق بالامّة طيلة هذه الحوادث. فمن كان قائما صرع، و من كان مصروعا تحطم.

أمّا ابن أبى الحديد فقد قال فى شرحه للعبارة:

«يحصد القائم»

كناية عن قتل أمراء بنى أمية فى الحرب و

«يحطم المحصود»

كناية عن قتل المأسورين منهم صبراً، وهكذا وقعت الحال.

والحق أن ماذكره ابن أبى الحديد هو بعض مصاديق المفهوم الواسع للعبارة المذكورة.

تأمّلان

۱- الملاحم

ملاحم جمع ملحمة تعنى فى الأصل الواقعة المهمة المقرونة بالفتنة، وقد طالعتنا أغلب خطب نهج البلاغة فى بعض الموارد التى يتحدث فيها أميرالمومنين على عليه السلام عن الفتن المهمة التى تنتظر الناس، ثم يشرح جزئياتها، ويعلن صراحة أنه سمع ذلك عن رسول الله صلى الله عليه و آله. ويبدو أن الإمام عليه السلام يهدف شيئين من هذه الأخبار: الأول: حب الإمام عليه السلام للناس الذى يدفعه لاخبارهم بغية تأهبهم واستعدادهم ليحذروا من أخطار هذه الفتن؛ بالضبط كمن يخبر الآخرين قبل وقوع الزلزال أو السيل؛ وان تعذر منعها، إلّاأنّ العلم المسبق يحد من هذه الاخطار، الثانى: افهامهم أنّ التوانى عن الجهاد والضعف والاختلاف إنّما يقود إلى مثل هذه الحوادث، علهم يفيقون إلى أنفسهم فيتوبون وينيبون إلى الله.

وسنبحث نظير هذه الامور فى شرحنا للخطب ۱۲۸ و ۱۳۸ من هذه الكتاب.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۵۲

۲- الكوفة مركز الازمات والعواصف

لاشك أنّ من له أدنى معلومات مختصرة بتأريخ الكوفة، ليعلم أنّ الكوفة من المناطق التى شهدت أقسى الأحداث وأخطرها طيلة التأريخ الإسلامى. بعبارة اخرى فان الكوفة كانت مسرحاً لاحداث داميه، وجرائم وجنايات بشعة مارستها بحقها طغاة بنى أمية وبنى العباس، بما يندى لها جبين البشرية حين يتصفح التاريخ.

هذا وقد أوردنا شرحاً مفصلًا فى الخطبة ۲۵ و ۴۷ من المجلد الثانى والخطبة ۸۷ من المجلد الثالث بشأن الحوادث البشعة التى تعرضت لها الكوفة، ولا نرى من ضرورة لإعادتها.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۵۳

الخطبة[۵۱۰] المأة واثنان

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

تجرى هذا المجرى وفيها ذكر يوم القيامة وأحوال الناس المقبلة

نظرة إلى الخطبة

تتالف هذه الخطبة من قسمين:

القسم الأول: وهو قصير، إشارة إلى الحوادث الصعبة ويوم القيامة، الذى يجمع الله فيه الاولين والاخرين للحساب والثواب والعقاب

القسم الثانى: إشارة إلى الفتن المرعبة التى تهجم على الناس كقطع الليل المظلم فتضيق الخناق على الناس، حتى يهب لها جماعة من المجاهدين. ثم يركز الإمام عليه السلام فى كلامه على البصرة التى ستكون مسرحا لهذه الفتن.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۵۵

القسم الأول: هول المحشر

«وَذلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِنِقَاشِ الْحِسَابِ، وَجَزَاءِ الأَعْمَالِ، خُضُوعاً، قِياماً، قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الأَرْضُ،

فَأَحْسَنُهُمْ حَالًا مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً، وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً».

الشرح والتفسير

كما أوردنا سابقاً أن الإمام عليه السلام أشار فى القسم الأول من الخطبة إلى وضع الناس فى يوم القيامة بعبارات قصار مؤثرة وقد ذكر المميزات المهولة لذلك اليوم.

فقد قال عليه السلام:

«وذلك يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين لنقاش الحساب، وجزاء الاعمال، خضوعاً قياماً».

فالعبارة

«الأَولين» و «الأَخرين»

تشير إلى حقيقة وهى أنّ القيامة والحساب سيشمل جميع الناس فى يوم واحد، كما ورد ذلك فى القرآن الكريم «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيامَةِ فَرْداً»[۵۱۱]. وورد فى موضع آخر: «قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ* لَمجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُوم»[۵۱۲].

والتعبير بالنقاش يفيد الدقة فى الحساب حيث تخضع أصغر الأعمال ذلك اليوم للحساب فيعاقب الإنسان أو يثاب عليه.

والتعبير بالخضوع والقيام إشارة إلى أنّ الناس يوم القيامة كمثل من يحضر فى المحكمة ويمثل بين يدى القاضى العادل، حيث تظهر عليه آثار الخوف والخشية.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۵۶

وقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى هذه المعانى، ومن ذلك الآية الشريفة: «خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ ...»[۵۱۳] والآية «يَوْمَ يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ العالَمِينَ»[۵۱۴].

ثم قال عليه السلام:

«قد الجمهم العرق، ور جفت ۵۱۵] بهم الأرض».

فهل هذا العرق بسبب حرارة محيط المحشر، أم من شدة الخجل، أم كلاهما؟ وهل رجف الأرض بسبب أعمالهم، أم هكذا هى طبيعة محكمة العدل الإلهى، بحيث ينشغل الجميع بأنفسهم ويعترفوا بكل ما اقترفوا؟

كيفما كان فالاجواء هناك مرعبة مهولة للغاية.

وقد صرحت الآيات والروايات الإسلامية بالعوامل التى تدعو إلى الخوف والخشية فى ذلك اليوم (نسأل الله أن يشملنا جميعاً برحمته وألطافه ويجنبنا هلع ذلك اليوم).

وقد ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة- كديدنهم فى سائر الموارد- إلى أن الألفاظ المذكورة كناية عن الامور الباطنية والروحية، والحال ليست هناك آية قرينة تدعو إلى مثل هذا التأويل- ولو فتح الباب لمثل هذه التأويلات بشأن الآيات والرويات وباب التفسير بالرأى وأن يسطر الإنسان كل ما يفهمه من الآية والرواية، أو الاسلوب الذى يعتمده بعض من يتسمى بالانفتاحى والذى يكمن فى القراءات الجديده للآيات والروايات، فمن المسلم به لسوف تزول إصالة المتون الدينية، ولا يبقى من شىء للاستدلال بالمسائل العقائدية والعلمية.

ثم أشار عليه السلام فى ختام هذا القسم من الخطبة إلى معضلة اخرى من معضلات القيامة:

«فأحسنهم حالًا من وجد لقدمية موضعاً، ولنفسه متسعاً».

فالعبارة تشير إلى زحام الناس وضيق المكان، حيث يفهم من الروايات أنّ هول المحشر ووحشة حساب الأعمال مسألة عامة تشمل كافة أهل المحشر؛ وذلك لأن خلص عباد الله أيضاً يخشون الحساب! فلهول المحشر عدة عوامل، يكمن أحدها فى ضيق المكان الذى ورد فى هذه العبارة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۵۷

القسم الثانی: فتنة البصرة

ومنها:

«فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، لَاتَقُومَ لَهَا قَائِمَةٌ، وَلَا تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً: يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا، أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ، قَلِيلٌ سَلَبُهُمْ، يُجَاهِدُهُمْ فِی سَبِيلِ اللهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ، فِی الأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَفی السَّماءِ مَعْرُوفُونَ. فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذلِكَ، مِنْ جَيْشٍ مَنْ نِقَمِ اللهِ! لا رَهَجَ لَهُ، وَلاَ حَسَّ، وَسَيُبْتَلَى أَهْلُكِ بِالْمَوتِ الأَحْمَرِ، وَالْجُوعِ الأَغْبَرِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فی هذا الكلام من الخطبة إلی فتنة اخری تنتظر أهل العراق ولا سيما البصرة، لعل الامّة تستعد للدفاع وتقلل من خسائرها فی هذه الفتنة، وكذلك تخشی العقاب الإلهی الذی يتمثل أحياناً بظهور الفتن فلا تحيد عن الطريق وتلتزم بدينها. فقد وصف عليه السلام هذه الفتن بأنّها كقطع ۵۱۶] الليل المظلم، والتی لايسع أحد الوقوف برجهها والتغلب عليها

«فتن كقطع

الليل المظلم، لا تقوم لها قائمة، ولا ترد لها راية».

فی إشارة إلی أنّ مثيری هذه الفتن يردون الميدان بكل قوة واقتدار فيأتون علی كل ما يقف فی طريقهم.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۵۸

ثم يواصل الإمام عليه السلام كلامه بتشبيه هذه الفتن بالناقة التی وضع عليها رجلها ويسوقها سائقها بسرعة:

«تأتيكم مزمومة[۵۱۷] مرحولة[۵۱۸] يحفزها[۵۱۹] قائدها، ويجهدها راكبها».

ثم أشار عليه السلام إلی شدة هذه الفتنة وجسامة خسائرها بعد أن شبهها بالناقة المعدة للركوب وقد استسلمت لراكبها بعبارة أخری فإن كل شیء جاهز للفتنة بحيث تكون ضربة أصحابها غاية فی الشدة و تلفاتها قليلة:

«أهلها قوم شديد كلبهم ۵۲۰] وقليل سلبهم ۵۲۱]».

فالإمام عليه السلام بين خصائص هؤلاء القوم الذين يقتحمون الميدان بكامل العدة والعدد، وسنری لاحقاً ومن خلال ما ورد فی التواريخ من تنطبق عليه هذه الأوصاف.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلی نقطة مهمّة وهی عدم تداوم هذه الفتنة لمدة طويلة، حيث يتصدی لها طائفة من أولياء الله فيهبون للوقوف بوجه أصحاب هذه الفتن (ويقضون عليهم)، ثم وصف هذه الطائفة بأنّها ذليلة لدی المتكبرين، فهی ليست معروفة فی الأرض، لكنها معروفة فی السماء:

«يجاهدهم فی سبيل الله قوم أذلة عند المتكبرين، فی الأرض مجهولون، وفی السماء معروفون».

فهذه الطائفة من أولياء الله ذات المقام الرفيع لديه والشديدة فی الجهاد فی سبيل الله ستخمد نار الفتنة، كما تفقد هذه الطائفة منزلتها لدی المتكبرين بسبب زهدها فی الدنيا وبعدها عن التظاهر والرياء، فهی مجهولة فی الأرض بين الناس، بينما معروفة لدی ملائكة السماء الخبيرة بباطن هذا العالم.

أمّا من هم هؤلاء القوم الذين أخبر الإمام عليه السلام عن فتنتهم وفجائهم، ومن هم المجاهدون الذين سيتصدون لهم ويخمدوا نيران الفتنة، فيبدوهنالك اختلاف بين شرّاح نهج البلاغة بهذا الشأن.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۵۹

فقد ذهب البعض إلی أنّ المراد بأصحاب الفتن هم أنصار رجل يدعی صاحب الزنج واسمه علی بن محمد وقد نسبوه إلی سلالة النبی

صلی الله علیه و آله (وإن کان هنالک شک فی نسبه) حیث یجمع عددا من الزنوج حوله ومن هنا لقب بصاحب الزنج. فقد نهض فی نصف القرن الثالث وأثار فتنهٔ عظیمهٔ أطراف البصرهٔ، ثم قتل علی ید المجاهدین بعد ۱۲ سنهٔ من حکومهٔ لتلک المنطقهٔ.

کما فسرها البعض الآخر بفتنهٔ المغول، الذین لم یسیطروا علی العراق فحسب، بل سیطروا علی أجزاء واسعهٔ من العالم الإسلامی، ثم تصدی لهم المجاهدون المسلمون بعد مدهٔ طویلهٔ وقضوا علیهم. وأخیرا فسرها البعض بحوادث آخر الزمان وتعم الفتنهٔ أغلب العالم الإسلامی فلا تقتصر علی العراق، ثم یهب لهم جیش الإمام المهدی علیه السلام فیقضی علیهم.

ولما کان أغلب شرّاح نهج البلاغهٔ یرون هذه الخطبهٔ جزءا من الخطبهٔ ۱۲۸، لذلک نرجح تناول هذا الموضوع بصورهٔ أعمق حین نخوض فی شرح تلک الخطبهٔ.

ثم اختتم الإمام علیه السلام خطبته مخاطبا البصرهٔ:

«فویل لک یا بصرهٔ عند ذلک، من جیش من نقم الله! لارهج [۵۲۲] له ولا حس [۵۲۳]، وسیبتلی أهلک بالموت الأحمر، والجوع الأغبر[۵۲۴]».

والعبارهٔ عند ذلک تشیر إلی أنّ حادثهٔ البصرهٔ لیست حادثهٔ منفصلهٔ، بل البصرهٔ إحدی مراکز الفتنهٔ التی یتعرض أهلها إلی أشد الضربات والعقوبات.

والعبارهٔ نقم الله تفید أنّ هذه الفتنهٔ المرعبهٔ جزاء لاعمالهم.

والعبارهٔ لارهج له ولا حس إشارهٔ إلی الاستعداد التام للقوات المهاجمهٔ بحیث تدخل المدینهٔ وفق خطهٔ دقیقهٔ دون أن تثیر بعض الاصوات والجلبهٔ فتسلب زمام المبادرهٔ من الطرف الآخر بحیث لایبقی أمامه من مجال للمقاومهٔ.

والعبارهٔ الموت الاحمر إشارهٔ إلی عظم المقتلهٔ التی تقع فی البصرهٔ، فقد ورد فی تاریخ صاحب الزنج أنّه قتل ثلاثمئهٔ ألف من الناس حین دخل البصرهٔ.[۵۲۵]

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۲۶۰

والعبارهٔ الجوع الأغبر إشارهٔ إلی القحط الشدید إثر الحروب والاضطرابات بحیث یشحب وجههم.

وقد صرح بعض المؤرخین بأنّ الظروف الصعبهٔ جعلتهم یقتلون بعض الحیوانات من قبیل الکلب والقط والفأر ویأکلونها، کما کانوا أحیاناً یأکلون میتهٔ الإنسان ۵۲۶].

وقد فسّر بعض شرّاح نهج البلاغهٔ الموت الأحمر والجوع الأغبر بالطاعون والوباء والغرق أثر السیول وهجوم أمواج البحر، ولا یبدو مثل هذا التفسیر مناسباً.

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۲۶۱

الخطبهٔ[۵۲۷] المأهٔ و ثلاث

اشارهٔ

ومن خطبهٔ له علیه السلام

فی التزهید فی الدنیا

نظرهٔ إلی الخطبهٔ

یستفاد من تعبیرات المرحوم السید الرضی (ره) (منها ومنها) أنّه لم یأت بتمام الخطبهٔ هنا، بل اقتطف بعضها کعادته. ویبدو بصورهٔ

عامـة أنّ لهذه الخطبة عدة أهداف: الأول: الحث على الزهد والتقوى والرغبة عن الدنيا. الثانى التفكر والاعتبار والتبصـر فى الامور، ثم التعريف بالعالم الحق وبيان اتباع الحق من اتباع الباطل من خلال ذكر الصـفات، ثم اختتام الخطبـة ببيان محن المؤمنين فى آخر الزمان ومصير الإسلام فى ظل تلك الشرائط، بغية تأهب المؤمنين والحد من الاضرار على مستوى الإيمان والأخلاق.

والخطبة على العموم ارشاد معنوى ومادى للإنسان يجعله يتغلب على ما يواجهه من مشاكل.

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۲۶۳

القسم الأول: الدنيا الفانية

اشارة

«أَيُّهَا النَّاسُ! انْظُرُوا إلى الـدُّنْيا نَظَرَ الزَّاهِـدِينَ فِيهَـا، الصَّادِفِين عَنْهَـا؛ فَإِنَّهَـا وَاللّهِ عَمَّا قَلِيـلٍ تُزِيـلُ الثَّاوِىَ السَّاكِنَ، وَتَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الآمِنَ؛ لَـايَرْجِعُ مَـا تَوَلَّى مِنْهَـا فَأَدْبَرَ، وَلَـا يُـدْرى مَا هُوَ آت مِنْهَا فَيُنْتَظَرَ. سُـرورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَجَلَـدُ الرِّجَالِ فِيهَا إلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، فَلا يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَآ يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا».

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فانّ الإمام عليه السـلام تطرق فى هـذا الكلام من الخطبـة إلى مسألـة الزهـد فى الدنيا الذى يقود إلى كافة الصالحات والفضائل.

فقال عليه السلام:

«أيّها الناس! انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها، الصادفين ۵۲۸] عنها»،

طبعاً لا تعنى هـذه العبارة أنّ الإنسان ينبغى أن يترك الـدنيا ويعيش الرهبنـة فيها، بل الهـدف عـدم فقـدان النفس، وعـدم الركون إلى الدنيا والاغترار بها. فقد ثبت بوضوح أنّ التعلق بالدنيا والاغترار بما لها وجاهها ولذاتها يشكل حجاباً على سمع الإنسان وبصره، فيؤدى به إلى مقارفة الذنب والمعصية.

فقد ورد فى الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال:

«حب الدنيا رأس كل خطيئة»[۵۲۹].

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۲۶۴

إنّ الذنب هو المادة التى تفضى إلى كافة الحروب والنزاعات والجنايات وسفك الدماء وما إلى ذلك من انحرافات.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعبارات قصيرة لأدلة اثبات تلك الحقيقة فأوجزها فى ستة أدلة:

«فانّها والله عما قليل تزيل الثاوى ۵۳۰] الساكن».

نعم لابـدّ لكل إنسان دون اسـتثناء ان يودع يوماً هـذا العالم، بعضـهم يودع أبكر، والبعض الآخر قليل يتأخر، ولكن لامناص من تـذوق هذه المرارة: «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ»[۵۳۱].

والفـارق بين ثـاوى وساكن هو أنّ الثاوى تطلق عن من أقام بصورة مسـتمرة فى مكان وقـد اسـتقر فيه، وقـد يكون الساكن كـذلك أو لايكون، وبناءاً على هـذا فالشبـاب الـذين يعتقـدون باسـتقرارهم لمـدة مديـدة فى هـذه الدنيا معرضون للزوال، وكذلك الكهول يبدو سكنهم مؤقتاً ومحدوداً، فالجميع يسير نحو الفناء والزوال، إلى عالم البقاء والخلود.

ثم قال فى الدليل الثانى أنّ الدنيا تفجع بمصائبها من غرق فى النعم واغتربها:

«وتفجع المترف ۵۳۲] الأمن».

نعم بينما ترى هـذا الإنسان غارقاً فى لـذاته ونعمه وإذا نقل إليه خبر موت فلان. ويالها من عبرة هـذه الوفيات المفاجئة، وما أكثرها فى هذا الزمان. ويالها من عبرة أنّ تراه غارقاً ليلًا فى نعمه وملذاته فيصحوا صباحاً وقد فقد كل شىء.

أمّا الدليل الثالث والرابع فهو أنّ ما يذهب من الدنيا لايعود أبداً، ولا يعلم كيف سيكون المستقبل:

«لايرجع ما تولى منها فأدبر، ولايدرى ما هو آت منها فينتظر».

ويالها من محنة إلّايعثر الإنسان على ضالته قط، كما يفقد الأمل بالمستقبل! فهو فى حسرة دائمة! فلا الشباب يعود إليه، ولا قواه وطاقاته التى ذهبت أدراج الرياح مع تقادم العمر، هذا كله من جانب، ومن جانب آخر فالخوف من المستقبل الغامض الذى يهز كيانه ويؤرق تفكيره ويقض مضجعه.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۶۵

ثم أورد عليه السـلام الـدليل الخامس والسادس الـذى يدعو إلى الزهد فى الدنيا وهو أنّ فرحها مقرون بالحزن وسـرورها بالهم وقدرة الرجال وقوتهم إلى الضعف والوهن:

«سرورها مثوب بالحزن وجلد[۵۳۳] الرجال فيها إلى الضعف والوهن».

فمشكلة النعم المادية الدنيوية قد أشار اليها الإمام عليه السلام فى موضع آخر فقال:

«لاتنالون منها نعمة إلّابفراق اخرى [۵۳۴]

، على سبيل المثال فالعقيم يتصدع قلبه بفعل عدم وجود الأولاد؛ إلّا أنّ مشـكلته قد تحل بأن يمنح الأولاد، فسرعان ما تهجم عليه سائر المشاكـل! ليس له ثروة كافيـة فيؤرقه ألم الفقر والحاجـة، فاذا ما أصاب ثروة، واجهته مشاكل الحسـد وخيانـة الخونـة وطمع اللصوص بثروته، حتى يفقد سـكينته واسـتقراره. نعم فسرور الدنيا مشوب بالهم والغم والحزن، وقوة الإنسان آيلة فيها إلى الوهن، وهكذا يخلص الإمام عليه السلام من هذه الأدلة إلى نتيجة مؤداها:

«فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلة ما يصحبكم منها».

صحيح أنّ الدنيا مليئة بمعانى الزينة والجمال والمظاهر الخلابة، إلّاأنّها وعلاوة على استبطانها للمشاكل والمحن، فهى متقلبة سائرة نحو الفناء والزوال. وعليه فلا يجدر بالعاقل الاهتمام بها والركون إليها.

على كل حال فانّ أدنى تأمل لهـذه الأدلـة يكفى لافاقـة الغافلين من سـباتهم، إلّاأنّ المؤسف هو أنّ أغلب الناس يبخل على نفسه حتى بتلك اللحظة من التأمل.

تأمّل: الزهد فى الدنيا

قـد يتصور أحياناً بأنّ مفهوم الزهـد هو التخلى التام عن الـدنيا، والتقوقع فى زاوية والابتعاد عن المجتمع، والحال لاينسـجم هذا المعنى والروح الاجتماعية للإسلام؛ الأمر الذى ورد النهى عنه فى الروايات الإسلامية.

والحق أنّ للزهد معنى آخر وهو ترك التعلق المفرط بالدنيا وعدم الوقوع أسيراً فى قبضة

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۶۶

زخارفها ومفاتنها؛ وبخلافه فانّ الإنسان يسـير نحو الـذنب والخطيئـة ويبيع دينه وآخرته بمتاع الدنيا الفانى وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«إنّ من أعون الاخلاق على الدين، الزهد فى الدنيا»[۵۳۵].

وقال الإمام الصادق عليه السلام بهذا الخصوص:

«إذا تخلى المؤمن من الدنيا لسما، ووجد حلاوة حب الله»[۵۳۶]

. وورد فی الحدیث أنّ علیاً علیه السلام رأی جابر بن عبدالله وهو یتنهد فقال:

«یا

جابر علام تنفسک؟ أعلی الدنیا؟»

قال جابر: بلی.

فتطرق الإمام علیه السلام إلی بیان لذات الدنیا وأنّها لا تعدو أن تکون فی المأکل أو المشرب أو اللباس الفاخر، أو اللذة الجنسیة أو المرکب الهنیئ، ثم شرح ذلک قائلًا: فألذ المأکولات العسل وهو بصق من ذبابة، وأحلی المشروبات الماء؟ وکفی بإباحته وسیاحته علی وجه الأرض، وأعلی الملبوسات الدیباج وهو من لعاب دودة، وأعلی المنکوحات النساء وهو مبال فی مبال، ومثال لمثال، وإنّما یراد أحسن ما فی المرأة لأقبح ما فیها، وأعلی المرکوبات الخیل وهو قواتل، وأجمل المشمومات المسک وهو دم من سرة دابة، وأجل المسموعات الغناء والترنم وهو إثم، فما هذه صفته لم یتنفس علیه عاقل.

قال جابر بن عبدالله: فو الله ما خطرت الدنیا بعدها علی قلبی [۵۳۷].

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۶۷

القسم الثانی: سرعة العمر

اشارة

«رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَکَّرَ فَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، فَکَأَنَّ مَا هُوَ کَائِنٌ مِنَ الدُّنْیَا عَنْ قَلِیلٍ لَمْ یَکُنْ، وَکَأَنَّ مَا هُوَ کَائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمَّا قَلِیلٍ لَمْ یَزَلْ، وَکُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَکُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ، وَکُلُّ آتٍ قَرِیبٌ دَانٍ».

الشرح والتفسیر

قال علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة- والذی یعتبر فی الواقع نتیجة لما تقدم-

«رحم الله امرأ تفکر فاعتبر، واعتبر فأبصر».

طبعاً مراد الإمام علیه السلام التفکر فی مصیر الدنیا الذی تطرق إلیه سابقاً، فانّ مثل هذا التفکیر یؤدی إلی الاعتبار والیقظة. ومن الواضح أنّ من یعتبر ویتعظ یتبصر الامور ویقف علی بواطن الأشیاء بدلًا من ظواهرها، ویفکر فی المقدمات والنتائج فیلتمس سبیل النجاة فی ظل هذا الاعتبار والأبصار. وبعبارة اخری فانّ الإنسان لیتعرف علی سلسلة من الحقائق من خلال تأمل حوادث الماضی والحاضر، فیحتذیها فی مسیره لیمیز الحق من الباطل.

فقد ورد فی الحدیث أنّ رجلًا سأل الإمام الصادق علیه السلام عن صحة هذا الخبر

«إن تفکر ساعة خیر من قیام لیلة»

، فأجاب علیه السلام: نعم، قال رسول الله صلی الله علیه و آله:

«تفکر ساعة خیر من قیام لیلة».

فسأل الراوی:

«کیف یتفکر؟»

. قال علیه السلام:

«یمر بالدور الخربة، فیقول: أین بانوک؟ أین ساکنوک؟ مالک لا تتکلمین؟»[۵۳۸].

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۶۸

ولو کانت له أذن سامعۀ لسمعها وهی تنادیه: لقد ارتحلوا جمیعاً بعد أن توسدوا التراب ولم یبق سوی آثارهم.

ثم قال علیه السلام:

«فکأن ما هو کائن من الدنیا عن قلیل لم یکن، وکأن ما هو کائن من الآخرۀ عما قلیل لم یزل».

أی أنّ الدنیا لتمضی بسرعۀ، والآخرۀ تأتی بسرعۀ بحیث یتصور الإنسان أنّه لم تکن هناك من دنیا، والآخرۀ هی التی کانت موجودۀ دائماً.

وقد جربنا هذه المسألۀ فی العدید من حوادث الدنیا؛ فقد نمر أحیاناً بدار بعض الاشراف وقد کانت داره تغص بالناس والذهاب والایاب، وإذا بها صامتۀ هادئۀ وکأن لم تشهد تلك الضجۀ.

ثم اختتم علیه السلام خطبته بثلاث عبارات غایۀ فی الروعۀ والدقۀ، فی أنّ ما کان معدوداً (کساعات عمر الإنسان) فهو إلی انقضاء، وما کان منتظرا فهو إلی قدوم ووقوع، وما کان قریباً فهو حاصل:

«وکل معدود منقض، وکل متوقع آت، وکل آت قریب دان».

فالعبارۀ الاولی إشارۀ إلی قاعدۀ کلیۀ فلسفیۀ فی محدودیۀ کل ما دخل تحت العدد، وما کان محدوداً فهو إلی انقضاء، ولما کان عمر الإنسان والدنیا برمتها داخل فی العدد والارقام، فلابدّ من انتظار انقضائه، والعبارات اللاحقۀ مکملۀ لذلك؛ لأنّ ما ننتظره سیأتینا یوماً لا محالۀ، وما یأتینا لیس ببعید عنا! وعلیه فلا ینبغی الاعتقاد ببعد الموت وخلود الحیاۀ، والعمر لیس بباق. و الواقع هو أن هذه العبارات الثلاث بمنزلۀ الدلیل علی العبارات السابقۀ.

تأمّل: فی الاعتبار

ملیئۀ حیاۀ الإنسان فی کل عصر ومصر بالدروس والعبر؛ الدروس التی توقظ القلب وترفع الحجب وتفضح ماهیۀ الحیاۀ الدنیا؛ إلّاأنّ الموسف قلۀ الاعتبار. فالناس عادۀ ما تمر مرّ الکرام علی الحوادث التی من شأنها اثارۀ الاعتبار لدیهم، کما أنّ تکرارها یدعوهم لاهمالها.

العامل الآخر الذی یقف وراء عدم الاعتبار إنّما یکمن فی حصر مکاره الدهر فی الآخرین،

نفحات الولایۀ، ج۴، ص: ۲۶۹

وکأنا بمعزل عن تلك المکاره وأنا مخلدون فی هذه الدنیا. ولو کانت هناك بصیرۀ حقا فإن کل شیء فی الأرض یشتمل علی عبرۀ تدعونا للإعتبار.

جاء فی الأخبار أن هارون الرشید کتب رسالۀ إلی الإمام موسی بن جعفر علیه السلام طلب فیها أن یعظه قائلًا

«عظنی وأوجز»

(طبعا من المستبعد أن یکون مثل هؤلاء الأفراد صادقین وأنّهم یطلبون النصح والوعظ والارشاد؛ لأنّ هذه الامور إنّما تکون عادۀ جزءاً من مخططاتهم السیاسیۀ، لیوحوا للآخرین أنا من اهل الوعظ الذی نسأله من ابن رسول‌اللَّه).

فأجابه علیه السلام:

«ما من شیء تراه عینك ألّاوفیه موعظۀ»[۵۳۹].

نعم فالأرض والسماء والکائنات والاشجار والحوادث وأنین المرضی ومشیب الشعر وانحناء الظهر والمقابر والقصور الخاویۀ للملوك، کلها تغص بالدروس والعبر فالواقع هو أنّ الإمام علیه السلام اراد أن یقول له لوکان لك عین باصرۀ لاعتبرت.

فقصور الملوك مملوءۀ بالعبر، ولکن لایعتبر بها سوی من له آذانا صاغیۀ.

و کفی بالقرآن واعظا بهذا الشأن: «کَمْ تَرَکُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُیُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ کَرِیمٍ* وَنَعْمَۀٍ کَانُوا فِیهَا فَاکِهِینَ* کَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا

قَوْماً آخَرِينَ* فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ».[۵۴۰]

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۷۱

القسم الثالث: العلماء والمتشبهون بهم

اشارة

ومنها:

نفحات الولاية ؛ ج۴ ؛ ص۲۷۱

«الْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَى بِالْمَرءِ جَهْلًا أَلّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ؛ وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَعَبْداً وَكَلَهُ اللهُ إِلَى نَفْسِهِ، جَائِراً عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، سَائِراً بَغَيْرِ دَلِيلٍ؛ إِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ الْآخِرَةِ كَسِلَ! كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ؛ وَكَأَنَّ مَا وَنَى فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ!».

الشرح والتفسير

اتجه الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة- والذى يبدو منفصلًا، وان كان له نحو ارتباط بالمقاطع الماضية- صوب التعريف بالعلماء الحق ومن تشبه بالعلماء (العلماء الحقيقيون والعلماء المزيفون) حيث يعرض لصفات كل منهما، فقال عليه السلام:

«العالم من عرف قدره».

ثم أكد هذه العبارة بقوله عليه السلام

«وكفى بالمرء جهلا ألا يعرف قدره».

وقد وردت عدة احتمالات فى تفسير هاتين العبارتين كلها مناسبة، ويمكن جمعها فى مفهوم كلامه عليه السلام.

الأول: أنّ العالم الحقيقى من يعرف قيمته وقدره ازاء عظمة الله سبحانه فى هذا العالم، فيرى أنّه ليس بشىء يذكر بالنسبة لذلك الوجود المطلق، وأنّه تابع له، فيحث الخطى للفوز بقربه، ولعل هذا هو المعنى الذى هدف إليه الحديث:

«من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[۵۴۱].

والثانى: أن المراد معرفة القيم والمكانة الواقعية فى المجتمع، وبعبارة اخرى العالم الحقيقى من

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۷۲

يبتعد عن الامال التى لا تستند لأىالمنطق، ولايتجاوز حدود نفسه، ولايضع نفسه فى موضع ليس له باهل، فلا يعبث بماء وجهه وقدره.

على غرار ما ورد فى بعض الروايات:

«رحم الله من عرف قدره، ولم يتجاوز حده»[۵۴۲].

والثالث: أنّ المراد هو أنّ الإنسان موجود قيم له استعدادته العاليه، فلا ينبغى أن يبيع هذه الجوهرة الثمينة برخص ولايزهد فى نفسه وإمكاناته؛ الأمر الذى ورد فى الشعر المنسوب لأمير المومنين على عليه السلام إذ قال:

أتزعم أنك جرم صغيروفيك انطوى العالم الأكبر

وبالنظر إلى إمكانية استعمال اللفظ لأكثر من معنى، حيث يعد ذلك من جمالية الكلام وبدائعه، فلا يبدو من المستبعد الجمع بين هذه الاحتمالات الثلاث فى تفسير الكلام المذكور؛ وإن كانت العبارات القادمة أنسب للمعنى الثانى والثالث.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالتعريف بمن تشبه من العلماء من الجهال البعيدين عن الحق والصواب فقال عليه السلام:

«وإن من أبغض الرجال إلى الله تعالى لعبدا وكله الله إلى نفسه، جائراً عن قصد السبيل، سائراً بغير دليل».

طبعا لايسع الإنسان ما لم تحفه عناية الله والطاقه ان يتجاوز هذه الموانع والآفات الخطيرة التى تعترض طريقه، فاذا وكلّ إلى نفسه فسوف لن تكون عاقبته سوى المهلكة؛ فهو ينحرف عن الصراط، ويفقد الدليل فيسير على عمى وضلال.

ثم وضح ذلك عليه السلام بالقول أنّه اغتر بالدنيا وخدع بها بحيث لايعمل إلّالها ولا يجهد نفسه إلّا من أجل الحصول على متاعها:

«إن دعى إلى حرث الدنيا عمل، وإن دعى إلى حرث الآخرة كسل».

فهو نشط من أجل الدنيا، كسل من أجل الآخرة، وذلك لضعف ايمانه بالآخرة وعدم اعتقاده بالوعد والوعيد الإلهى. فلم يبصر سوى الدنيا و ينسى الآخرة.

ومن هنا إختتم عليه السلام كلامه بهذا الشأن بالقول:

«كأن ما عمل له وأحب عليه، وكأن ما ونى فيه ساقط عنه»[۵۴۳].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۷۳

والتعبير بالزرع عن الدنيا والآخرة هو اقتباس من الآية الشريفة: «مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»[۵۴۴].

يمكن للدنيا أن تكون مزرعة الآخرة، كما يمكنها أن تكون مزرعة لنفسها. ويذرها الأعمال الحسنة والسيئة، وأعمالها الحسنة كالحبة التى تنبت سبع سنابل وفى كل سنبلة مأة حبة، أمّا الأعمال السيئة فهى البذور التى تزرع فى الأراضى المالحة: «لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً»[۵۴۵].

وتشير العبارة الأخيرة ضمنيا إلى أنّ الأعمال الصالحة والطالحة إنّما تفرزها طبيعة الاعتقادات القوية والضعيفة.

تأمّل: العلماء الحقيقيون

أوضح الإمام عليه السلام بجلاء فى هذه الخطبة صفات العلماء، و من تشبه بهم من علماء السوء، فكان فى مقدمتها عدم معرفة قدر النفس. عدم معرفة قدر النفس ازاء عظمة الله، ولا قدره تجاه المجتمع، ولا قدر نفسه حيال نفسه. ومن لم يعرف قدر نفسه فانّه سيتيه فى أمواج من الجهل والبؤس والحيرة والشقاء، حتى يكله الله إلى نفسه فيضل فى خضم هذه الحياة؛ فهو لا يرى سوى النعم المادية، وعليه فالدنيا عنده ماء، والآخرة سراب من الهواء. والحلال والحرام والحق والباطل لديه على حد سواء؛ وهو ينطلق نحو المال والمقام وكأنّها أوجب الواجبات، بينما يتقاعس عن واجباته وكأنّها من المحرمات.

وقد اوردنا شرحاً مفصلًا بهذا الخصوص فى الخطبة السابعة عشر من المجلد الأول، ولا حاجة للتكرار.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۷۵

القسم الرابع: علامات آخر الزمان

اشارة

ومنها:

«وَذلِك زَمَانٌ لَايَنْجُو فِيهِ إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ، «إنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ، وَإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدى » وَأَعْلَامُ السُّرَى لَيْسُوا بِالْمَسَاييحِ، وَلَاالْمَذَاييعِ الْبُذُرِ، أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَّاءَ نِقْمَتِهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، سَيَأْترى عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الإسْلَامُ، كَمَا يُكْفَأُ الإنَاءُ بِمَا فِيهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ اللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ

يُعِذْكُمْ مِنْ أنْ يَبْتَلِيكَمْ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: «إِنَّ فى ذِلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ»».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع الذى يمثل آخر الخطبة إلى الوضع فى آخر الزمان، وبعبارة اخرى الزمان الذى يسوده الشر قبل الإمام المهدى عليه السلام. فكان عليه السلام يتطرق إلى خصائص المؤمنين فى ذلك الزمان أحياناً، وأحياناً اخرى إلى وضع الإسلام والأحكام الإسلامية.[۵۴۶]

فقال عليه السلام:

«وذلك زمان لا ينجو فيه إلّاكل مؤمن نومة، إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد».

صحيح أنّ النومة من النوم بمعنى الشخص الكثير النوم؛ إلّاأنّه من الواضح هنا أنّ ذلك كناية عن الفرد المجهول وغير المعروف، ولا سيما أنّ الإمام عليه السلام وضح ذلك بالعبارات القادمة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۷۶

طبعاً من البديهى فى الظروف التى يعم فيها الفساد المجتمع، ويكون زعماء المجتمع وقادته من الفسدة والمنحرفين، ألا يكون الأفراد المؤمنين من الشخصيات المعروفة فى المجتمع، لأنّهم سيكونون فريسة للجبابرة الذين لن يتركوهم وشأنهم أبداً؛ فأما أن يتسلموا ويكونوا عوناً لهم، واما ان يقاوموا ويمتنعوا وفى هذه الحالة ليس لهم سوى الحديد والنار.

وبناءاً على هذا يتوجب على الأفراد المؤمنين فى ظل هذه الظروف أن يختفوا عن الأضواء ويعيشوا بعيداً عن الشهرة والمعرفة، كى لا يكون هناك من يتعقبهم ويبحث عنهم.

وبالطبع فان هذه المجهولية لن تحط من قدرهم وتقلل من مكانتهم، وأنّهم لن يتخلوا عن دورهم المعنوى فى المجتمع، ومن هنا وصفهم الإمام عليه السلام بقوله:

«أولئك مصابيح الهدى وأعلام السرى»[۵۴۷].

فهم صامتون خاملون، إلّاأنّهم قدوة للاخرين، فهم مصابيح هدى كتلك العلامات التى تنصب على الطريق لكى لا يضل السائر فيه ليلًا.

ثم قال عليه السلام فى وصف هذه الطائفة من المؤمنين:

«ليسوا بالمساييح، ولا المذاييع البذر».

قال المرحوم السيد الرضى المساييح جمع مسياح وهو الذى إذا سمع لغيره بفاحشة أذاعها، والبذر جمع بذور وهو الذى يكثر سفهه ويلغو منطقه.

وعليه فمعنى العبارة هو أنّ هذه الطائفة من المؤمنين ليست بمفسدة ولا مثيرة للفتنة وليست سفيهة تشيع الفاحشة.

ثم قال:

«أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته، ويكشف عنهم ضراء نقمته»

. فالعبارة تفيد أنّ الله سبحانه وتعالى لم يسلب الطائفة المؤمنة الحقة عنصر هدايتها فى تلك الظروف العصيبة، وهو حافظهم من شر الظلمة ومكاره ذلك الزمان وحوادثه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بنبوءة صريحة وتوضيح أكثر لذلك الزمان، فقال عليه السلام:

«أيها الناس! سيأتى عليكم زماناً يكفا[۵۴۸] فيه الإسلام، كما يكفأ الاناء بما فيه».

فالعبارة

«يكفأ فيه الإسلام»

كناية لطيفة عن انقلاب كافة المفاهيم الإسلامية رأساً على

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۷۷

عقب وذهـاب حقیقتهـا وجوهرها، لأنّها شـبهت الإسـلام بالاناء الـذی وضـعت فیه المعارف والقوانین والأحکام والأخلاق الإسـلامیة، وکما یضیع کل الماء إذا قلب الاناء، فکذلک الإسلام فی ذلک الزمان یضیع کل محتواه، ولایبقی منه سوی القشور.

ویبـدو أنّ عصـرنا یشـهد مثـل هـذه العلامـات حیث یکتفی أغلب المسـلمین بـذکر اسم الإسـلام فقـط، دون أن یکون هنـاک أی أثر للأخلاق أو انفتاح علی السنة النبویة؛ فلیس هناک سوی الشهوات والمال والمقام واللذة المادیة والشهوات الحیوانیة.

ولاـ شک أنّ احـد عوامل البؤس والشـقاء هو التفسیر بالرأی والقراءات الکاذبـة والمنحرفـة للإسـلام، حیث یقوم بعض الأفراد خـداعاً لأنفسـهم وللأخرین بتقـدیم بعض التفاسـیر المشـبوهة للحقائق الإسـلامیة المسـلمة انسـجاماً مع أهوائهم وأفکارهم؛ الأمر الـذی یجعل الإسلام العوبة بیدهم یفعلون به ما یشاؤون.

فقد ورد فی الحدیث أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله قال لعلی علیه السلام:

«یستحلون حرامه بالشبهات الکاذبة، والأهواء الساهیة»[۵۴۹].

ثم اختتم الإمـام علیه السـلام کلامه بالاجابـة علی سؤال مقـدر وهو: لم یبتلی الله المسـلمین بهـذه الحوادث والاضـطرابات؟ فقال علیه السلام:

«أیها النـاس إنّ الله قـد أعـاذکم من أن یجور علیکم، ولم یعـذکم من أن یبتلیکم، وقـد قال جل من قائل إن فی ذلک لآیات وإن کنّا لمبتلین»[۵۵۰].

فی إشـارة إلی أنّ مثل هـذه الحوادث اختبار للناس وامتحان لهم، ولابـدّ أن یخوض عامـة الناس- بما فیهم الأنبیاء وسائر الأفراد- هـذا الامتحان الإلهی! الامتحان الـذی قـد ینطوی أحیاناً علی بعـد فردی، وأحیاناً جماعی؛ کما ورد فی العبارة المذکورة من شـمول الجمیع بالامتحان، لتمییز الصادق من الکاذب والمؤمن من المنافق.

کلام السید الرضی (ره)

قال السیّد الشرّیف الرّضی: أَمَّا قَوْلُهُ علیه السلام:

«کُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ»

فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ الْخَامِلَ الذِّکْرِ، الْقَلِیلَ الشَّرِّ.

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۷۸

وَ «الْمَسَایِیحُ» جَمْعُ «مِسْیَاحٍ» وَهُوَ الَّذِی یَسِیحُ بَیْنَ النَّاسِ بِالْفِسادِ وَالَّنمَائِم. وَ «الْمَذَایِیعُ» جَمْعُ «مِذْیَاعٍ» وَهُوَ الَّذِی إِذَا سَمِعَ لِغَیْرِهِ بِفَاحِشَةٍ أَذَاعَهَا، وَنَوَّهَ بِهَا. وَ «الْبُذُرُ» جَمْعُ «بَذُورٍ» وهُوَ الَّذِی یَکْثُرُ سَفَهُهُ وَیَلْغُو مَنْطِقُهُ.

تأمّل: الفساد فی آخر الزمان

وردت عدة روایات التی تذم آخر الزمان، حیث فسر آخر الزمان عادة بالزمان القریب من ظهور الإمام المهدی علیه السلام: والواقع هو کثرة الفساد الذی یجتاح العالم بأسره:

«کما ملئت ظلما وجورا»

فیعد القلوب الوالهة إلی تقبل وجوده علیه السلام بصفته مظهر العدل والصلاح.

هذا ومن جملة العوامل التی تؤدی إلی سعة حجم الفساد فی آخر الزمان ما یلی:

۱- الابتعاد عن تعالیم الأنبیاء وارشادات الاوصیاء علیهم السلام.

۲- إزدیاد وسائل الفساد والشهوات.

۳- اتساع حجم الوسائل الدعائیة التی تقوم بنشر الفساد إلی مختلف الأماکن لمجرّد حصوله فی زاویة من الأرض.

۴- إزدیاد الشبهات فی المبانی الدینیة والأخلاقیة من خلال التفسیر بالرأی والقراءات المختلفة للمعارف والمفاهیم الدینیة.

۵- تسلط حکام الجور والفساد الذین لایهمون سوی بتحقیق منافعهم المادیة، إلی جانب بذلهم الجهود الحثیثة من أجل افساد الناس ولا سیما الشباب من اجل الوصول إلی اهدافهم الخبیثة.

حقاً أنّ التدین لصعب فی مثل هذه العصور والأزمنة، بل الواقع هو أنّ هذا العصر من أصعب العصور اختباراً وامتحاناً. ولا یمکن للصالحین إجتیاز هذا الامتحان العسیر إلّامن خلال الاستغاثة بالله لیشملهم بلطفه وعنایته.

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۷۹

الخطبة[۵۵۱] المأة واربع

اشارة

ومن خطبة له علیه السلام

نظرة إلی الخطبة

أشار الإمام علیه السلام فی القسم الأول من هذه الخطبة إلی قیام النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی وسط جاهلیة العرب وجهوده المضنیة فی سبیل هدایة الامّة.

وأشار فی القسم الآخر من الخطبة إلی سعی بعض المنحرفین لاحیاء تقالید الجاهلیة: ثم قال علیه السلام أنی سأواصل طریق رسول الله صلی الله علیه و آله ولأبقرن الباطل حتی أخرج الحق من خاصرته، لتعلم الامّة کیف تنهض بتکالیفها وتتعامل معه، وتتاهب لمحاربة أعراف الجاهلیة.

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۸۱

القسم الأول: النهضة التغییریة للنبی علیه السلام

اشارة

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّی اللهُ عَلَیهِ، وَآلِهِ وَلَیْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ یَقْرَأُ کِتَاباً، وَلَا یَدَّعی نُبُوَّةً وَلَا وَحْیاً، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ، یَسُوقُهُم إِلَی مَنْجَاتِهِمْ؛ وَیُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، یَحْسِرُ الْحَسِیرُ، وَیَقِفُ الْکَسِیرُ، فَیُقِیمُ عَلَیْهِ حَتَّی یُلْحِقَهُ غَایَتَهُ، إِلَّا هَالِکاً لَاخَیْرَ فِیهِ، حَتَّی أَرَاهُمْ مَنْجاتَهُمْ وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ، وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ».

الشرح والتفسیر

استهل الإمام علیه السلام الخطبة- بعد الحمد والثناء الذی لم یذکر فی العبارة- بالحدیث عن بعثة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی ذلک الوسط الجاهلی فقال علیه السلام:

«أمّا بعد، فان الله سبحانه بعث محمداً صلی الله علیه و آله ولیس أحد من العرب یقرأ کتاباً، ولا یدعی نبوة ولا وحیاً».

فالعبارة إشارة إلی الأغلبیة الساحقة من العرب آنذاک التی کانت تعبد الأوثان والأصنام وقد تناست دعوة الأنبیاء السابقین. وبناءاً علی هذا فلیس هناک من منافاة بین هذا الحکم العام الناظر للأغلبیة العظمی ووجود الأقلیات الدینیة آنذاک کالیهود والنصاری أضف إلی ذلک فانّ الأقلیة الیهودیة کانت مهاجرة أتت إلی الحجاز من الشام، کما قدمت الأقلیة النصرانیة من الیمن، فهما لا تنتمیان إلی العرب.

کما یحتمل أن یکون المراد بالکتاب، الکتاب السماوی غیر المحرف، الذی لم یکن موجودا آنذاک. أمّا ما قیل من أنّ المراد بالکتاب هنا هو القراءة والکتابة فیبدو بعیداً، لا سیما أنّ العبارة القادمة علی الخلاف من ذلک.

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۸۲

أضف إلی ذلک فقد کا هناک من یحسن القراءة والکتابة آنذاک.

ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه بتقسیم الناس ازاء الدعوة الإسلامیة إلی ثلاث طوائف: الطائفة التی تقبلت الإسلام بکل کیانها، واخری التی استجابت بعد جهود، والثالثة التی اعتمدت التعصب واللجاجة فوقفت بقوة بوجه الدعوة، فلم تتعاطف معها أبدا، وقد قضی علیها.

فقال علیه السلام بشأن الطائفة الاولی:

«فقاتل بمن أطاعه من عصاه، یسوقهم إلی منجاتهم، ویبادر بهم الساعة أن تنزل بهم».

والمراد بالساعة فی هذه العبارة القیامة الصغری یعنی الموت، لا القیامة الکبری التی تقوم بعد نهایة العالم.

وقال بشأن الطائفة الثانیة:

«یحسر الحسیر[۵۵۲]، ویقف الکسیر، فیقیم علمه حتی یلحقه

غایته».

ثم أشار إلی الطائفة الثالثة وهی الطائفة الضالة التی لایؤمل هدایتها:

«إلّا هالکاً لا خیر فیه».

فما ورد فی الحدیث الشریف هو عین ماورد فی عبارة أمیرالمؤمنین علیه السلام، ثم عاد علیه السلام إلی أصل المطلب:

«حتی أراهم منجاتهم وبوأهم محلتهم، فاستدارت رحاهم ۵۵۳]، واستقامت

قناتهم ۵۵۴]».

تأمّلان

۱- هل بعث نبی من العرب؟

تضمنت بدایة الخطبة إشارة إلی عدم قیام نبی من العرب؛ وهذا فی الواقع اقتباس من الآیة الشریفة:

«لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ».[۵۵۵]

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۲۸۳

وهنا یمکن أن یطرح هذا السؤال: إنّ القرآن صرّح فی موضع آخر قائلًا:

«وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلّا خَلا فِیها نَذِیرٌ»[۵۵۶].

أضف إلی ذلک فانّ قاعدة اللطف تقتضی أن یکون لکل أمّة رسول مبعوث من الله.

ونقول فی الجواب: أنّ المراد بالآیة وما ورد فی الخطبة کبار أنبیاء الله الذین ذاع صیتهم فی الارجاء، وإلّا فلیس هناک من زمان لیس لله فیه من حجة بین الناس. ومن هنا یصطلح بالفترة علی الفاصلة الواقعة بین بعث السید المسیح علیه السلام والنبی صلی الله علیه و آله؛ والحال کان هناک أوصیاء المسیح علیه السلام من بعده.

أضف إلی ذلک لم یدع أحد من العرب فی زمان بعثة النبی صلی الله علیه و آله- المراد بهذه الخطبة- النبوة والاتصال بالوحی

والإتيان بكتاب سماوى.

٢- القوة فى الدين

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام الواردة فى هذه الخطبة أنّ ظهور الإسلام لم يقتصر على اصلاح دين الناس فقط، بل حل إلى جانب ذلك الكثير من مشاكلهم الدنيوية.

وهكذا تبلورت أمة قوية وحكومة مقتدرة فى ظل الدين الجديد، تمكنت من إدارة شؤون الامّة وزعامتها لسنوات طويلة؛ ولعل هذه الحكومة كانت ستخلد لو لم تنحرف عن المسار الإسلامى الصحيح. اضافة إلى ذلك نهضت الحضارة وتطورت الثقافة لتشهد اتساعاً ورقياً فى ظل التعليمات الإسلامية، حتى كانت صفحة جديدة فى فصل التأريخ البشرى.

كل هذه أدلة على أن اتباع التعاليم الإسلامية إنّما يؤدى إلى ضمان سلامة دين الإنسان وعمارة دنياه.

والعبارات الاربع الواردة فى الخطبة شاهد على هذا الادعاء، فقد قال عليه السلام: حتى أراهم منجاتهم، وبوأهم محلتهم، فاستدارت رحاهم، واستقامت قناتهم. لتصف بمجموعها سعادتهم المعنوية والمادية.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ٢٨٥

القسم الثانى: بقر الباطل واخراج الحق

«وَايمُ اللّهِ، لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا، وَاسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا؛ مَا ضَعُفْتُ، وَلَا جَبُنْتُ، وَلَا خُنْتُ، وَلَا وَهَنْتُ وَايْمُ اللّهِ، لَأَبْقُرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى دوره فى انتشار الدعوة الإسلامية ودحر عسكر الكفر فقال عليه السلام:

«وايم الله، لقد كنت من ساقتها حتى تولت بحذافيرها[۵۵۷]، واستوسقت قيادها»[۵۵۸].

ساقه جمع سائق. وقد كان سائداً فى السابق أن يتقدم حركة الركب أو القافلة شخص يسمى القائد، ويقال عن خلفه السائق.

وهكذا كان الأمر بالنسبة للجيوش فقد كان القادة فى مقدمة الجيش و الأمراء خلفه.

فالإمام عليه السلام يشير إلى أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله كان القائد للجيش وهو بمنزلة السائق، كما ورد السائق أحياناً بمعنى القائد. أضف إلى ذلك فان ساقة الجيش وردت بمعنى القسم الخلفى منه و فى هذه الحالة لاتكون جمع سائق.

على كان حال فانّ العبارة تكشف عن دور الإمام عليه السلام فى زعامة جيش الإسلام وهزيمة جيش الكفر.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ٢٨۶

ثم قال عليه السلام:

«ما ضعفت، ولا جبنت، ولا خنت، ولا وهنت»

فالواقع هو أنّ الهزيمة إنّما يفرزها أحد هذه العناصر الأربعة: الضعف الخوف، الخيانة والوهن.

والفارق بين الضعف والوهن هو أنّ الضعف يعنى العجز وعدم وجود القدرة، بينما هناك قدرة فى الوهن، غير أنّ هناك مسامحة فى الاستعمال. وعليه فلا يمكن العثور على أى من هذه العناصر فى شخص الإمام عليه السلام، ومن هنا كان منتصراً على الدوام.

ثم اختتم الخطبة بالقول:

«وايم الله، لأبقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته».

فالعبارة تفيد وجود الحق فی الدنيا دائماً، وإن غطاه الباطل وعليه فبقر الباطل وطرح حجابه يظهر منه الحق. و هی نقطة رائعة أشار إليها الإمام عليه السلام بكلامه.

كلام السيد الرضی:

قال السيّد الشرّيف الرّضی: وَقَدْ تَقَدَّمَ مُخْتَارُ هذِهِ الْخُطْبَةِ، إلَا أنّنِی وَجَدْتَها فِی هذِهِ الرِّوايَةِ عَلَی خِلَافِ مَا سَبَقَ مِنْ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ، فَأَوْجَبَتِ الْحَالُ إثْبَاتَهَا ثَانِيَةً. (و هذا يكشف بدوره عن مدی دقة السيد الرضی (ره) فی ذكر الخطب حيث لم يهمل حتی إختلاف الروايات).

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۸۷

الخطبة[۵۵۹] المأة و خمس

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فی بعض صفات الرسول الكريم صلی الله عليه و آله وتهديد بنی أمية وعظة الناس

نظرة إلی الخطبة

يتضح من عنوان الخطبة أنّها تشتمل علی ثلاثة أقسام:

القسم الأول فی ذكر بعض صفات الرسول الأكرم صلی الله عليه و آله ويصرح الإمام عليه السلام فيه بأنّ الرسول صلی الله عليه و آله خير الخليقة طفلًا وأعظمها كهلًا. حيث هدف الإمام عليه السلام فی الواقع إلی لفت إنتباه الناس إلی أهمية موروث النبی صلی الله عليه و آله و حفظ القرآن و الإسلام.

القسم الثانی يذم فيه بنی أمية و يلفت إنتباههم إلی الدنيا التی أقبلت عليهم، ويحذرهم من غضب الله لما سفكوه من دماء بريئة، مؤكداً علی أنّ هذه الخلافة ستؤول قريبا إلی الاعداء.

القسم الثالث فی وعظ الناس ونصيحتهم بعدم الاستجابة للاهواء، والسعی لتحصيل العلم وعدم ترك الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۸۹

القسم الأول: صفات النبی صلی الله عليه و آله

«حَتَّی بَعَثَ اللّهُ مُحَمَداً صَلَّی اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ، شَهِيداً وبَشِيراً، وَنَذيراً، خَيرَ الْبَرِيَّةِ طَفْلًا، وَأنْجَبَها كَهْلًا، وأطْهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً، وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فی القسم الأول من هذه الخطبة إلی النعمة الوفيرة بظهور نبی الإسلام صلی الله عليه و آله وقد أثنی علی سبع من صفاته البارزة، فقال عليه السلام: (أن الناس كانوا فی هالة من الضلال) حتی بعث الله سبحانه محمداً صلی الله عليه و آله شهيدا علی أعمالهم وبشيراً (بالثواب الإلهی علی الأعمال الصالحة) ونذيراً (بين يدی عذاب شديد علی السيئات) وقد كان خير الخلق طفلًا وانجبهم كهلًا، أخلاقه تفوق أخلاق الجميع، وكرمه وسخاؤه ليس له من مثيل

«حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه و آله لشهيداً وبشيراً ونذيراً، خير البرية طفلًا، وانجبها كهلًا[۵۶۰]، وأطهر المطهرين شيمة[۵۶۱]، وأجود المستمطرين ديمة»[۵۶۲].

فصفة الشهيد إشارة لما ورد في الآية الشريفة:

«وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ»[۵۶۳]

. وصفة البشير والنذير إشارة لما وردت كراراً في الآيات القرآنية كالآية

«إِنّا أَرْسَلْناكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً»[۵۶۴].

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۲۹۰

ثم تحدث الإمام عليه السلام عن طفولته صلى الله عليه و آله حيث كان متميزاً فيها. حيث ورد في مناقب ابن شهر آشوب عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه و آله كان يخالط الأطفال دون أن يأتي ببعض أعمالهم التي تستند إلى الجهل. كما ورد عن أبي طالب قوله: لم أعهد فيه كذبة ولم يتخلق بأخلاق الجاهلية، و لم يضحكك عبثا. كما يروى أن عبدالمطلب كان يفرش في ظل الكعبة ولم يجلس على فرشه أحد حتى يخرج سوى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و حين يحاول أعمامه إبعاده كان يرد عليهم عبدالمطلب: دعوه، فواللّه إن له لشأنا عظيما.[۵۶۵]

و قد أنشد ابوطالب في خلقه هذين البيتين:

ولقد عهدتك صادقافي القول لا تتزيد

ما زلت تنطق بالصواب و أنت طغل أمرد[۵۶۶]

و العجيب ما روى أنه كان يكتفي بالثدي الأيمن من مرضعته حليمة السعدية و كأنه كان حريصا على العدل ليترك الثدي الايسر لولد حليمة.[۵۶۷]

ثم أشار عليه السلام إلى نجابة النبي صلى الله عليه و آله وكرامته في الكهولة؛ الأمر الذي يشهد به التأريخ، كما لايخفى على أحد. أماتواضعه ورأفته وفطنته وعفوه وصفحه فقد دوت في أرجاء كافة المعمورة وهي أشهر من نار على علم. كان يهب كل مالديه للآخرين ويجود بالعطاء.

كان أسخى الجميع بحيث لم يبق عنده دينار أو درهم، وان زاد لديه شيء لم تكن تغمض عينيه دون أن يوصله إلى المحتاجين.

كان يكرم الفضلاء، و يجهد في صلة الأرحام، وكان يقبل العذر ويصفح عن المسيىء.

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۲۹۱

القسم الثاني: زوال حكومة بني أمية

«فَمَا احْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيا فِي لَذَّتِهَا، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلَافِهَا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلًا خِطَامُهَا، قَلِقاً وَضِينُهَا، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ، وَحَلَالُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَفْتُمُوهَا، وَاللّهِ، ظِلّاً مَمْدُوداً إِلى أَجَلٍ مَعْدُودٍ. فَالأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ. وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ؛ وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مَسَلَّطَةٌ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ. أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِم في حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ اللّهُ الَّذِي لَايُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلَا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ. فَأُقْسِمُ بِاللّهِ، يَا بَنِي أُمَيَّةَ، عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ! أَلَا إِنَّ أَبْصَرَ الأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ! أَلَا إِنَّ أَسْمَعَ الأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ وَقَبِلَهُ!».

الشرح والتفسير

صرح أغلب شرّاح نهج البلاغة بأنّ هذا المقطع من الخطبة- والذي يبدو أنّ هناك حذف بينه وبين القسم الأول، جريا على عادة السيد

الرضـى فى اقتطاف بعض كلمات الإمام عليه السـلام- فى بنى أمية، والشاهد على ذلك أن اسـمهم ورد صراحة فى أواخر هذا القسم، بينما يرى جمع من شـرّاح نهج البلاغة أنّ المخاطب هو من تبقى من الصحابة والتابعين، وذيلها فى بنى أمية، والعبارات التى استهل بها هـذا القسم إنّما تؤيـد المعنى الثانى؛ لأنّ هـذه العبارات تبين أن الإمام عليه السـلام إنّما عاتب أفرادا لم يكن يتوقع منهم الانحراف عن جادة الحق، ونعلم أنّ بنى أمية

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۹۲

طائفة ظالمة طيلة التاريخ معروفة بانحرافها عن الإسلام. على كل حال قال الإمام عليه السلام:

«فما احلولت ۵۶۸] لكم الدنيا فى لذتها، ولا تمكنتم من رضاع اخلافها[۵۶۹] إلّامن بعد ما صادقتموها

جائلا[۵۷۰] خطامها،[۵۷۱] قلقا[۵۷۲] وضينها[۵۷۳]».

المراد أنّكم تكالبتم على لـذات الـدنيا وزخارفها فى عهـد عثمان وبعـد الفتوحات الإسـلامية والتطاول على بيت المال، وهذا ماجعلكم تبتعدون عن الله، فقد انهمك الحكام بجمع الثروات، بينما انشغلت الامّة بدنياها ولذاتها.

ومن هنا قال عليه السلام أنّ حرام الدنيا أصبح سهلًا يسيراً كالسدر الخالى من الشوك، بينما أصبح الحلال بعيداً غائباً:

«قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود، وحلالها بعيداً غير موجود»

، فقد انهال البعض على بيت المال فنهب ماشاء، ثم اتسعت هذه الأموال الحرام بين الناس.

العبارة

«السدر المخضود»

إشارة إلى أن نهى الله وتحريمه كالشوك تجاه لـذات الـدنيا المحظورة، أمّا الأفراد من عـديمى الورع والتقوى فهم لايكترثون للنواهى الإلهيـة، والحرام عنـدهم كالسدر المخضود، وقد صـرح ارباب اللغة أنّ شـجرة السدر أنواع، لبعضـها ثمار شديدة الحلاوة فواحة العطر تفيض رائحته على يد الإنسان وثيابه إذا ما تناول منه.[۵۷۴]

نعم فاصـحاب الـدنيا يبتلعون الأموال الحرام وكأنّها ثمار لذيـذة كالسـدر المنضـد الذى قطع شوكه، ولا يلتفتون إلى أوامر الله ونواهيه، وبالطبع فانّ الحرام إنّما ينتشرويعم مثل هذا الوسط فلا يبقى للحلال من مكان.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۹۳

ثم قال عليه السلام:

«وصاد فتموها والله، ظلًا ممدوداً إلى أجل معدود، فالأرض لكم شاغرة[۵۷۵]،

وأيديكم فيها مبسوطة؛ وأيدى القادة عنكم مكفوفة، وسيوفكم عليهم مسلطة، وسيوفهم عنكم مقبوضة».

فهـذه العبـارات تبيّن أنّ الكلام هنا بخصوص فريق من المؤمنين من بقيـة الصـحابة والتابعين الـذين لم يتمالكوا أنفسـهم حين الاختبار الإلهى، فيميلون حيثما مالت الريح.

فقـد شـغلتهم الـدنيا وغرتهم بزينتهـا وزخرفهـا وبـالطبع قـد حصل هـذا فى وقت لم يسع الإمام عليه السـلام حتى فى زمان حكومته أن يصدهم عنه؛ وذلك لأنّهم غرقوا فى هذه الدنيا على عهد عثمان بالشكل الذى لم يبق معه من أمل لانقاذهم بسهولة.

ثم هـددهم عليه السـلام ليعلموا أن المسألـة ليست بهـذه السـهولة وهناك الحساب الـذى ينتظرهم، محـذرهم قائلًا: اعلموا أنّ لكل دم شائراً، ولكل حق طالباً:

«ألا وإن لكل دم ثائراً،[۵۷۶] ولكل حق

طالباً، وإن الثائر فى دمائنا كالحاكم فى حق نفسه، وهو الله الذى لايعجزه من طلب، ولا يفوته من هرب».

فاذا تأخر العذاب والانتقام الإلهى عن بعض العصاة المردة الذين يجاهرون بجناياتهم، فهذا لايعنى نسيان هذه الأعمال الشائنة، أو قدرة

هؤلاء الجناة على الفرار من مخالب العدل الإلهى.

والعبارة

«إن الثائر فى دمائنا ...»

تعنى أنّ الثائر لـدمائنا أهل البيت والتى تسـفك بغير حق هو الله سـبحانه وتعالى فهى تسـفك فى سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمته، فلا تشتمل هذه الدماء على جانب شخصى أو قبلى، وقطعاً أن مثل هذا الثائر لايعجزه شىء، ولايفوته شىء وهو بالمرصاد.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۹۴

ثم حذر بنى أمية قائلًا:

«فاقسم بالله، يا بنى أمية، عما قليل لتعرفنها فى أيدى غيركم وفى دار عدوكم».

إيّاكم والظن بأنّكم أن سـفكتم دماء الأبرياء ولم ترحموا صـغيراً وتوقروا كبيراً، ورسـختم دعائم حكومتكم على الظلم والعدوان ونهب الأـموال وقتـل الناس، فانّ هـذه الحكومـة دائمـة لكم! فسـرعان ما ينهض لكم الأعـداء ويسـددوا لكم ضـرباتهم الماحقـة حتى يطيحوا بحكومتكم ويقضوا عليكم، بل سوف لن يرحموا حتى موتاكم، فسيخرجونهم من قبورهم ويحرقون أجسادهم.

ويشير التأريخ إلى تحقق كل ما أخبر به الإمام عليه السلام، وقد مر شرح ذلك فى الخطبة ۸۷.[۵۷۷]

ثم إختتم الكلام بقوله عليه السلام:

«ألا إنّ أبصر الأبصار ما نفذ فى الخبر طرفه! ألا إنّ أسمع الاسماع ما وعى التذكير وقبله».

أى إن كـان لكم بصـر وسـمع مفتوح، لم تعـد عليكم من صـعوبة فى الظفر بسبيـل الخير والسـعادة، غير أنّه لمن المؤسف أن أهوائكم النفسية وطغيانكم قد غطى أبصاركم وأسماعكم بالحجب، بحيث لايسعكم رؤية الحق ولاسماع المواعظ.

جدير ذكره سئل بعض شيوخ بنى أمية عقيب زوال الملك عنهم:

مـا كـان سبب زوال ملككم؟ فقـال: جـار عمالنـا على رعيتنا، فتمنوا الراحـة منا، وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا، وخربت ضـياعنا فخلت بيوت أموالنـا، ووثقنـا بوزرائنـا فـآثروا مرافقهم على منافعنـا، وأمضوا أموراً دوننـا، أخفوا علمهـا عنـا، وتـأخر عطاء جنـدنا فزالت طاعتهم عنا، واستدعاهم عدونا فظافروه على حربنا، وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنّا من أوكد أسباب زوال ملكنا.[۵۷۸]

ونرى هنا يوضوح عمق ما أخبر به الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۹۵

القسم الثالث: التمسك بالإمام

«أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ، وَامْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ.

عِبَادَ اللّهِ، لَاتَرْكَنُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ، وَلَا تَنْقَادُوا لِاهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ؛ يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لَايَلْتَصِقُ، وَيُقَرِّبَ مَا لَا يَتَقَارَبُ! فَا للّهَ اللّهَ أَنْ تَشْكُوا إِلَى مَنْ لَايُشْكِي شَجْوَكُمْ، وَلَا يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُمْ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام هنا فى نصح الناس ووعظهم فقال فى البداية لإعداد أنفسهم:

«أيّها الناس، استصبحوا من شعلة مصباح واعظ متعظ، وامتاحوا[۵۷۹] من صفو عين قد روقت [۵۸۰] من الكدر».

كما أنّ الاشارات الضوئية تنير للإنسان طريقه إذا مشى ليلًا فى الظلام وتقيه الوقوع فى المطبات أو أن يضل الطريق، فانّ نصائح الواعظ المتعظ تصون الإنسان فى مسيرته وسلو كه المعنوى والفكرى والأخلاقى من الانحرافات العقائديه، وكما أنّ الماء الزلال والخالى من الكدر هو مادة حياة جسم الإنسان وسائر الكائنات الحية؛ كذلك نصائح دعاة الحق تشكل مادة حياة روح الإنسان ونفسه.

ومن الواضح أنّ المراد بهذا الواعظ المتعظ الذى ينبغى الاستصباح من شعلته والتروى من

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۹۶

صفو عينه هو الإمام عليه السلام الذى وظفت الناس بالتمسك به والاستفادة منه: أمّا للأسف لم يفعلوا واننا لنهتدى اليوم بما وصلنا من كلماته عليه السلام ونستقى من عينه الصافية.

ثم واصل عليه السلام كلامه بخطاب كافة عباد الله وحذرهم من الجهل والهوى والأفكار الباطلة المنحرفة.

فقال عليه السلام:

«عبادالله، لاتركنوا إلى جهالتكم، ولا تنقادوا لأهوائكم»

ثم بين عليه السلام دليل ذلك قائلًا:

«فان النازل بهذا المنزل نازل بشفاً[۵۸۱] جرف هار، ينقل الردى على ظهره من موضع

إلى موضع»

، ثم قال عليه السلام:

«لرأى يحدثه بعد رأى؛ يريد أن يلصق ما لا يلتصق، ويقرب ما لا يتقارب».

فقد بين الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة حقيقة مهمّة وهى أنّ أحد مصادر الضلال إنّما يكمن فى الاستناد إلى الاوهام والظنون الباطلة والآراء الفاسدة البعيدة عن البرهان والدليل.

وقد شبههم الإمام عليه السلام بحافة النهر حيث يتمتعون بظاهر خلاب، فى حين يستبطن الخلاء والجوفية! فاذا وطى الجهال تلك الحافة هووا فى القعر.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فالله الله أن تشكوا إلى من لا يشكى شجوكم ۵۸۲]،

ولا ينقض برأيه ما قد أبرم لكم».

ولعل هذه العبارة إشارة إلى أن أحد منابع الجهل وعدم العلم والوقوع فى متاهات الظنون الباطلة إنّما يتمثل باستشارة غير الاكفاء من الأفراد الذين يفتقرون إلى الفكر السليم والرأى القاطع والاطلاع الكافى واللازم للتغلب على المشاكل والصعوبات، فاذا ما استشير حمل معه من استشاره إلى وادى الضلال والهلكة.

كما يحتمل أن تكون إشارة إلى ضرورة عدم الاغترار بالقدرات الكاذبة والجبارة التى لا تفكر سوى فى تحقيق أطماعها ومآربها (كبنى أمية). وعليه فلا ينبغى لهم الاستعانة بهؤلاء من أجل حل مشاكلهم. فهم ليسوا فقط غير قادرين على حل هذه المشاكل فحسب، بل غالباً ما يسهمون فى مضاعفة هذه المشاكل.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۹۷

القسم الرابع: وظائف الإمام والامّة

«إِنَّهُ لَيسَ عَلَى الإِمَامَ إِلَّا مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: أَلإِبْلَاغُ فِي الْمَوْعِظَةِ، وَالاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، وَالإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ، وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا. فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ

أَهْلِهِ، وَانْهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْ عَنْهُ، فَإِنَّمَا أَمِرْتُمْ بالنَّهْى بَعْدَ التَّنَاهِى!».

الشرح والتفسير

أشـار الإمام عليه السـلام فى هـذا الموضع من الخطبـة إلى الوظائف الخمس لإمام المسـلمين و وظائف المسـلمين فـذكر بعض الامور المهمـة بهذا الشأن، وكأن ما أورده الإمام عليه السـلام سابقاً يدعو إلى سؤال يقتدح فى الاذهان، وهو أننا إذا وقعنا فى وادى الجهل أو شكونا ما يحل بنا لغير أهله، فذلك لأنّ الإمام لم يأخذ بايدينا ويهدينا ويدلنا على الطريق.

فقد ردّ الإمام عليه السلام على مثل هذا السؤال المقدّر بالقول:

«إنّه ليس على الإمام إلّاما حمل من أمر ربّه».

والوظائف الملقاة على عاتقه هى:

۱- الوعظ لعامة الناس

«الا بلاغ فى الموعظة».

۲- الجد والاجتهاد فى الخير والنصح

«والاجتهاد فى النصيحة».

۳-

«والإحياء للسنة».

۴-

«وإقامة الحدود على مستحقيها».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۹۸

۵-

«واصدار السهمان ۵۸۳] على أهلها».

هذه هى وظائف حاكم المسلمين. فعليه أن يوصل الأحكام الإسلامية كاملة إلى الامّة بحيث يخرج من نشد الحق عن الجهل والضلال ولا يبقى له من عذر فى الجهل بهذه الأحكام.

هذا من جانب.

ومن جانب آخر: يسعى ويجتهد من أجل خير المسلمين وإصلاح أوضاعهم الدينية والدنيوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ومن جانب ثالث: أن يسعى لاحياء السنة النبوية والأحكام الشرعية من خلال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أو سائر الوسائل.

ومن جانب رابع: إجراء الحدود بحق المستحقين دون التمييز بين أحد وآخر والتساهل فى إقامتها بهدف منع الجرائم والجنايات.

ومن جانب خامس: دفع حقوق المستحقين والمحتاجين من بيت المال.

فاذا فعل امام المسلمين ذلك فقد أدى دينه تجاه عبادالله، فان كان هناك من اشكال واضطراب فانّما يعود إلى الناس.

ثم خـاض عليه السـلام فى وظائف الامّـة ليوجزها فى ثلاث، تعلم العلم من قبل أن تجف شـجرته، وقبل أن ينشـغلوا بأنفسـهم ويتلوثوا بالدنيا، كما عليهم أن يستقوا هذا العلم من منابعه:

«فبادروا العلم من قبل تصويح ۵۸۴] نبته، ومن قبل أن تشغلوا بأنفسكم عن مستثار[۵۸۵] العلم من عند أهله».

ولعل المراد بجفاف شـجرة العلم شهادته عليه السلام، والمراد شخصه عليه السلام أيضاً بمركز فيض العلم- ومن هنا فقد لفت انتباههم

إلى ضرورة السؤال والاستفسار مادامه عليه السلام بينهم.

والعبارة تشبه تلك التى أطلقها عليه السلام أواخر عمره الشريف:

«سلونى قبل أن تفقدونى»[۵۸۶].

كما يحتمل ان يكون المراد بهذه العبارة جفاف شجرة وجود الإنسان، لأنّ الإنسان لا يمتلك

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۲۹۹

القدرة الكافية على تناول العلم فى أى سن وعمر وينسجم هذا الاحتمال والعبارة القادمة، لأنّ الإنسان كلما تقدم به العمر ازدادت مشاكله وهمومه، كما يقل استعداده- كما يمكن الجمع بين الاحتمالين.

ثم أشار إلى الوظيفة الثانية والثالثة لُلامّة بالقول:

«وانهوا عن المنكر وتناهوا عنه، فانّما أمرتم بالنهى بعد التناهى».

وعليه فوظيفة الناس أولًا: ان يرفع من مستواه العلمى ويزيد من معارفه، لأنّ الجهل من عوامل التخلف.

وثانياً: الجد فى امتثال أوامر الله وعدم نسيان وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى تعد وظيفة عامة. والحق أنّ السعادة ستعم الامّة لو عملت بوظائفها ونهض أئمة المسلمين بوظائفهم.

وقد برز سؤال بين شرّاح نهج البلاغة- وهو السؤال الذى يتبادر إلى ذهن كل متتبع- وهو؛ كيف اشترط الإمام عليه السلام النهى عن المنكر بانتهاء، الشخص عنه فقال:

«فانما أمرتم بالنهى بعد التناهى»؟

رد ابن أبى الحديد على هذا السؤال بالقول: لم يرد عليه السلام أنّ وجود النهى عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك الناهى عن المنكر، وإنّما أراد: أنى لم آمركم بالنهى عن المنكر إلّا بعد أن أمرتكم بالانتهاء عن المنكر.[۵۸۷]

بينما اعتبر الشارح الخوئى هذا الرد تكلفاً وقال: الأفضل أن يقال للسائل: أنّه عليه السلام أوجب الأمرين (دون اشتراط أحدهما بالآخر) والعبارة الأخيرة إشارة إلى الانتهاء عن المنكرات التى أكدت اكثر عن وجوب النهى عن المنكر. لانّ اصلاح النفس مقدم على اصلاح الآخرين.[۵۸۸]

إلّا أنّ الأفضل أن يقال: إنّ الانتهاء عن المنكر لشرط كمال النهى عنه، لا شرط وجوبه، لأنّ الإنسان حين يرتكب الذنب ويريد نهى الآخرين عنه، سوف لن يكون لكلامه من تأثير، ولو علم الناس منه ذلك لسخروا منه وقالوا:

«طبيب يعالج الناس وهو عليل».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۰۰

ومن هنا أكد أئمة الدين عليه السلام أننا لا ننهاكم عن شىء حتى ننتهى عنه قبلكم.

فقد قال أميرالمؤمنين عليه السلام:

«أيها الناس، إنى والله ما أحثكم على طاعة إلّاوأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلّاوأتناهى قبلكم عنها»[۵۸۹].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۰۱

الخطبة[۵۹۰] المأة وست

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يبين فضل الإسلام ويذكر الرسول الكريم صلى الله عليه و آله ثم يلوم أصحابه

نظرة إلى الخطبة

كما يتضح من عنوان الخطبة أنّها تتألف من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن أهمية الإسلام وبركاته وآثاره والتركيز على بعض النقاط المهمة بهذا الشأن.

القسم الثاني: يتحدث عن شخصية الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بعبارات قصار عميقة المعنى، ثم يختتمه بالدعاء للنبي صلى الله عليه و آله وعامة المؤمنين.

القسم الثالث: يلوم أصحابه على سكوتهم على الظلم والفساد رغم ما آتاهم من النعم، والسماح لهؤلاء الظلمة بانتهاك الحرمات. و ممارسة كل ما يحلو لهم من أعمال.

وجاء في بعض الرّوايات أن رجلًا سأل أميرالمؤمنين عن الإسلام والإيمان والكفر والنفاق فخطب عليه السلام بهذه الخطبة. وفي خبر عن الاصبغ بن نباتة أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام خطبها في داره أوفى دار الامارة ثم أمر بكتابتها.[۵۹۱]

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۰۳

القسم الأول: خصائص الإسلام

اشارة

«الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذى شَرَعَ الإِسْلَامَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ، وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ، وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ، وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ، وَلُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ، وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ، وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ، فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَاهجِ، وَأَوْضَحُ الْوَلَائِجِ؛ مُشْرَفُ الْمَنَارِ، مُشْرِقُ الْجَوَادِّ، مُضِىءُ الْمَصَابِيحِ، كَرِيمُ الْمِضْارِ، رَفِيعُ الْغَايَةِ، جَامِعُ الْحَلْبَةِ، مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ، شَرِيفُ الْفُرْسَانِ. التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ، وَالدُّنْيَا مِضْمارُهُ، وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة ضمن الخطبة ۲۶ إلى الخصائص المهمة للإسلام والمميزات التي ينطوي عليها بعبارات قصيرة ذات معان عميقة. وكما أوردنا سابقاً- نظرة إلى الخطبة- أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبة في المسجد لعامة الناس، رداً على من سأله عن خصائص الإسلام والكفر والإيمان والنفاق. فقد استهل عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه قائلًا:

«الحمد لله الذي شرع الإسلام فسهل شرائعه لمن ورده»

. حيث نعلم أن الشريعة تعني الطريق الذي يشقه الناس إلى جانب الأنهار الكبيرة نحو الماء لستفيد منه الناس.

فقد بين الإمام عليه السلام أنّ الإسلام أشبه بالنهر العظيم و وصف طرق الوصول إليه بأنها سهلة

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۰۴

يسيرة. كما أنّ اعتناق الإسلام سهل يخلو من أي تكلف؛ فيكفي فيه أن ينطق الإنسان من صميم قلبه بالشهادتين ليخرج من صف الكفر والنفاق ويلتحق بصفوف المسلمين والمؤمنين، كما أنّ البرامج الإسلامية هي الاخرى سهلة يسيرة سمحاء، فهناك الأدلة من قبيل «لاضرر» و «نفي الحرج»

التي رفعت أي تكلف وثقل عن كاهل الإنسان! كما منحت الاصالة في الشرع للبراءة وحمل أفعال الآخرين على الصحة. كما رفضت

أى إكراه أو إجبار، كما حكم ببطلان كافة العقود التى تبرم على أساس الإكراه والاجبار والاضطرار. كما صرحت ببعض الواجبات التى لاتدعو إلى المشقة والعسر والحرج. وزبدة الكلام فقد قال النبى صلى الله عليه و آله:

«بعثت إليكم بالحنيفية السمحة السهلة البيضاء»[۵۹۲].

إلّا أن لسهولتها لا تعنى قدرة أرباب السوء على السيطرة عليها والتغلب عليها، ومن هنا قال:

«وأغر أركانه على من غالبه»

، ثم بحكم: «أَشِدّاءُ عَلَى الكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ»[۵۹۳] فانّ المسلمين مكلفون بالقوة والشدة تجاه الأعداء والرحمة والرأفة ازاء المؤمنين. ثم واصل ذكر الصفات الاخرى للإسلام كونه ملاذاً آمناً لمن لجأ إليه من الأفراد وسلاماً وأمناً لمن دخل حصنه وولج حريمه، ودليلًا وبرهاناً قاطعاً لمن اعتمده فى منطقه، وحجة دامغة لمن احتج به على خصمه:

«فجعله آمناه لمن علقه ۵۹۴]، وسلماً لمن دخله، وبرهاناً لمن تكلم

به، وشاهداً لمن خاصم به».

نعم فالمسلمون جميعاً يتمتعون بالأمن قاطبة دون استثناء فى الإسلام، وأسسه ودعائمة رصينة قوية تدعو دعاة الحق للاستدلال بها، كما تسوقهم للدفاع عنها تجاه خصوم الدعوة وأعدائها.

ثم قال عليه السلام فى ذكره لعدة صفات أخرى:

«ونوراً لمن استضاء به، وفهماً لمن عقل، ولباً لمن تدبر»

، فبلوغ الحقيقة يمر عبر ثلاث مراحل: الظفر بموقعها ومن ثم إدراكها وفهمها وأخيراً تحليلها بصورة دقيقة. وقد بين الإمام عليه السلام هذه المراحل الثلاث بالعبارات الثلاث

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۰۵

المذكورة، فقال أولًا أنّ الإسلام نور يستقطب نحوه الأفراد ليصلوا إليه. ثم قال: إنّ من تعقله سيد ركه ويفهمه. وأخيراً من تدبر بلغ حقيقته.

والحق أنّ الإسلام يتمتع بكل هذه الصفات، فالقرآن الذى تكفل بشرح الإسلام وتوضيحه إنّما يستند على الدوام إلى الدليل والبرهان والمنطق والعقل؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى الآية ۱۵ و ۱۶ من سورة المائدة: «قد جاءكم من اللّه نور و كتاب مبين* يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ بِإِذنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ثم قال عليه السلام:

«وآية لمن توسم، وتبصرة لمن عزم، وعبرة لمن اتعظ»

، توسم من مادة وسم وضع العلّامة، والمتوسم تطلق على من يفهم الواقعة من خلال أبسط أثر أو علامة، وهى الفراسة التى ذكرها القرآن فى الآية الشريفة:. «إِنَّ فِى ذ لِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ»[۵۹۵]. فعبارته فى الواقع إشارة إلى أمور مهمة و ظريفة فى القرآن يدركها ممن تحلى بالفراسة.

ثم واصل عليه السلام ذكره لسائر صفات الإسلام بصفته وسيلة النجاة لمن صدق به، والاطمئنان والثقة لمن استند إليه وتوكل عليه، كما يغرق الإنسان بالهدوء والراحة إذا ما وكلّ أعماله إليه وهو الجنّة الواقية لمن استقام وصبر:

«ونجاة لمن صدق، وثقة لمن توكل، وراحة لمن فوض، وجنّة لمن صبر».

فالعبارة تتحدث عن أربع فضائل أخلاقية هى: التصديق والتوكل والتفويض والصبر.

فتصديق الإسلام فى الاعتقاد والعمل إنّما يودى بلا شك إلى النجاة، كما أن الاعتماد على المعارف الإسلامية يقود إلى الاطمئنان بالمستقبل والحاضر للدنيا والآخرة، وتفويض الامور إلى اصول الإسلام وفروعه بمعنى الحركة فى ظله هى سبب الهدوء والسكينة

والاستقرار والراحهٔ، وأخيراً فان الصبر والاستقامهٔ فى هذه المسيرهٔ وتحمل الشدائد فى سبيل حفظ العقيدهٔ والعمل على ضوء أحكام الشريعهٔ إنّما تجعل الفرد فى جنّهٔ وثيقهٔ تجاه الامور التى تهدد سعادته أو سعادهٔ المجتمع.

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۳۰۶

والواقع هو أنّ الإنسان إنّما يطلب النجاهٔ والاطمئنان والهدوء والراحهٔ والأمن؛ وهى الامور التى لاتحصل الأمن خلال العمل بالبرامج الإسلاميهٔ وعلى ضوء التعاليم السماويهٔ.

ثم تطرق عليه السلام إلى خمس صفات اخرى تمثل فى الواقع النتيجهٔ لما سبق من أوصاف، وهى أنّ طرق الإسلام أوضح الطرق ومداخلها من أظهر المداخل، وعلاماتها جليهٔ ظاهرهٔ، ومسالكها بينه منيرهٔ

«فهو أبلج ۵۹۶] المناهج ۵۹۷] وأوضح الولائج ۵۹۸]؛ مشرف المنار[۵۹۹] مشرق الجواد[۶۰۰]، مضيىء المصابيح».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام رسم هنا صورهٔ للجادهٔ التى تضم كافهٔ الامتيازات.

فهى على درجهٔ من الوضوح بحيث يبلغها كل شخص بسهولهٔ. ولها أبواب متعددهٔ ماثلهٔ امام اصحاب الحق واضحهٔ لديهم. وتتطلب هذه الجادهٔ بعض العلامات التى تبدو من بعيد؛ وهذه فى الواقع جادهٔ الإسلام.

(فقد كانوا يعمدون فى السابق إلى بناء الأبراج فى الطرق ثم ينصبون المصابيح فوقها لتبدو للعيان من مسافات بعيدهٔ وتحول دون ضلال الطريق ويطلقون عليها اسم المنار؛ أى موضع النور، إلّاأنّ المعنى الواسع لهذه الكلمهٔ يشمل جميع العلامات التى تمنع السالكين من الانحراف).

ولعل هذه العبارات كنايهٔ عن محكمات الآيات القرآنيهٔ وصريح السنهٔ النبويهٔ والمعجزات والكرامات وأدلهٔ العقل والنقل التى تضيئى معالم الطريق للموحدين السائرين على هدى الإسلام.

ثم شبه عليه السلام الإسلام بالمسابقهٔ التى تمثل أركانها ذروهٔ الحسن والكمال.

فللمسابقهٔ عادهٔ بعض الأركان من قبيل:

۱- ميدان التمرين ۲- نقطهٔ انتهاء المسابقهٔ ۳- الخيل الجاهزهٔ ۴- الجائزهٔ الكبيرهٔ ۵- الفرسان النجباء.

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۳۰۷

فقال عليه السلام أنّ ميدان السباق الإسلامى طاهر مطهر وكريم، ونقطهٔ انتهاء السباق هى نقطهٔ رفيعهٔ ساميهٔ، وفرسان هذه المسابقهٔ معروفون بالاصالهٔ والاستعداد، أمّا الجائزهٔ المترتبهٔ على هذه المسابقهٔ فهى عظيمهٔ للغايهٔ، وأهلها من النجباء

«كريم المضمار[۶۰۱]، رفيع الغايهٔ، جامع

الحلبهٔ[۶۰۲]، متنافس ۶۰۳]، السبقهٔ[۶۰۴]، شريف الفرسان».

ثم أضاف عليه السلام بأنّ التصديق واليقين هو سبيل (الوصول إلى الأهداف) الإسلام، وعلامهٔ ذلك الأعمال الصالحهٔ (فالواقع هو أنّ الإيمان والعمل الصالح هما العنصران الذان يؤديان إلى الفوز فى هذا السباق).

«التصديق منهاجه، والصالحات مناره».

ثم اختتم عليه السلام كلامه بالقول:

«والموت غايته، والدنيا مضماره، والقيامهٔ حلبته، والجنّهٔ سبقته».

ليشخص بصورهٔ جزئيهٔ ما ورد سابقاً بنحو الكليهٔ.

أمّا عدم ذكر فرسان المسابقهٔ فلوضوح الأمر؛ فهم ليسوا سوى المؤمنين من ذوى الأعمال الصالحهٔ.

وقد مرعلينا مثل هذا التشبيه الرائع مع إختلاف طفيف فى الخطبهٔ ۲۸ إذ قال عليه السلام:

«ألا وإنّ الیوم المضمار، وغدا السباق، والسبقهٔ الجنّهٔ والغایهٔ النار».

تأمّلان

۱- منزلهٔ الدنیا والآخرهٔ فی النظرهٔ الإسلامیهٔ

تمثل الـدنیا بالنسـبهٔ لطلابها ولاولئک الـذین ینکرون الآخرهٔ علماً أو عملًا منتهی الطموح والهـدف، وعلیه فهم یضـحون بکافهٔ القیم و المثل من أجلها.

ولعل البؤس والشقاء الذی یعیشه المجتمع العالمی هو ولید هذا النوع من التفکیر. أمّا

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۳۰۸

الإسـلام فهو لایری الـدنیا سوی مرحلـهٔ عابرهٔ ومقدمـهٔ للآخرهٔ، حتی وردت الروایات والأخبار التی شـبهتها بالمزرعهٔ والقنطرهٔ والمتجر (وقد مر شرح ذلک فی الخطبهٔ ۲۸).

أمّا فی هـذه الخطبـهٔ والبعض الآخر من خطب نهـج البلاغـهٔ فقد شـبهت الدنیا بمیدان التمرین والآخرهٔ بمیدان السـباق؛ وهو تشبیه رائع غایـهٔ فی الدقـهٔ والروعـهٔ. فالإنسان إنّما یتزود بالقوهٔ والقدرهٔ فی هذا المیدان بواسـطهٔ التعالیم العقائدیّهٔ والتربویهٔ والأخلاقیهٔ، بما یمکنه من إجتیاز مسابقهٔ الاخری بسـرعهٔ لدخول الجنّهٔ والفوز برضوان الله وقربه. والتصدیق الذی ورد فی الخطبهٔ بصـفته المنهاج والصالحات بصفتها المنار إنّما یشیران إلی هذه التربیهٔ والتعلیم الربانی.

فالذی نستفیده من هذا التشبیه مایلی!

۱- أنّ السعادهٔ والنجاهٔ فی الآخرهٔ لیست عبثاً؛ بل تتأتی فی ظل البناء الفکری والأخلاقی والعقائدی.

۲- إنّما تغلق صحیفهٔ الأعمال بانتهاء الدنیا، والقیامهٔ یوم حساب ولا عمل، کما أنّ میدان المسابقهٔ للسباق لا للتمرین.

۳- جائزهٔ هذه المسابقهٔ من أعظم الجوائز، وذلک لان هذه المسابقهٔ من أعظم المسابقات

۴- یعتمد تفاوت واختلاف درجات الناس ومقاماتهم علی أعمالهم وعقائدهم وأخلاقهم.

فقد یدخل الإنسان الجنّهٔ إلّاأنّ درجته تختلف عن غیره، علی غرار الفائزین فی السباق، فهناک الفائز الأول والثانی والثالث وهکذا.

۵- لیس هنالک أی عمل من أعمالنا فی هذه الدنیا یمکنه أن یزول وأنّ آثاره باقیهٔ، علی غرار آثار التمارین التی یقوم بها المتسابقون.

وهذا ما أشار إلیه القرآن الکریم بالقول: «فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ»[۶۰۵].

وجاء فی الحدیث عن الإمام الحسن علیه السلام بعد أنّ وصف شهر رمضان بصفته مضمار الخلق ومیدان التمرین أنّه قال:

«وایم الله لو کشف الغطاء لعلموا أنّ المحسن مشغول باحسانه، والمسیئی مشغول باسائته»[۶۰۶].

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۳۰۹

۲- الشریعهٔ السمحاء

کما أوردنا فی الخطبـهٔ المذکورهٔ والروایهٔ التی نقلناها فی شـرحها أنّ الإسـلام لشـریعهٔ سـهلهٔ سـمحاء؛ أی لیس هنالک من تکلف ولا عسر ولا حرج فی ممارسته وطقوسه فهی لاتدعو إلی الضجر والتعب.

والتمعن فی أحکـام الإسـلام سواء فی العبـادات والمعاملات والروابط الإنسانیـهٔ أو فی العقوبات والجزاء یفیـد أنّها برمجت علی ذلک

الأساس أيضاً. فقد روعى هذا الأصل حتى فى أشد العقوبات الإسلامية من قبيل قتل الزانى بالمحصنة، وذلك لأنّ العقاب ان كان شديداً تعذر بسهولة إثبات الجرم. فعادة ما تثبت الدعاوى بشاهدين، بينما يلزم هنا اربعة شهود. وهكذا الحال فى اجراء بعض الحدود من قبيل الجلد، فقد أوصى باجرائه فى الجو البارد فى فصل الصيف، والحار فى فصل الشتاء، وعدم رفع اليد إلى مكان مرتفع وعدم ضرب المواضع الحساسة وما إلى ذلك من الأوامر.

من جانب آخر فانّ هؤلاء المجرمين ينالون العفو عما ارتكبوا فيما إذا تابوا قبل القبض عليهم، اضافة إلى العمل بقاعدة درء الحدود عند الشبهات فى كافة الجرائم وعند بروز أدنى شك أو شبهة.

وقد جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه كلفوا الناس من دينهم ما يطيقون، ثم نقل له عليه السلام قصة ذلك المسلم الذى كان له جار كافر رغب فى الإسلام، فكان يحمله صباحا وظهراً وليلًا إلى المسجد، بحيث كان يقضى أغلب وقته فيه فى أداء الواجبات والمستحبات. حتى فارق هذا الرجل الإسلام بعد أن شق عليه الأمر وقال: لا طاقة لى بهذا الدين. ثم قال الإمام عليه السلام:

«إن إمارة بنى أمية كانت بالسيف والعسف، وإن إمارتنا بالرفق، والوقار، والتقية، وحسن الخلطة، والورع، والاجتهاد. فرغبوا الناس فى دينكم، وفيما أنتم فيه»[۶۰۷].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۱۰

ولا يخفى أن الحب والرفق والمداراة والخلطة الحسنة إنّما تكون مع الأفراد الذين لا يعملون بالشر وإلّا فالإسلام صلب المعاملة لشديد فيها تجاه الظلمة والطغاة والاشرار والأوباش، بغية الحفاظ على سلامة المجتمع وأمنه.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۱۱

القسم الثانى: صفات النبى صلى الله عليه و آله ومقاماته

اشارة

ومنها فى ذكر النبى صلى الله عليه و آله

«حَتَّى أَوْرَى قَبَساً لِقَابِسٍ، وَأَنَارَ عَلَماً لِحَابِسٍ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ نِعْمةً وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً، اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ، وَاجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. اللَّهُمَّ أَعْلِ على بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَآءَهُ! وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ، وَاحْشُرْنَا فِى زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا، وَلَا نَادِمينَ، وَلَا نَاكِبِينَ، وَلَا نَاكِثِينَ، وَلَا ضَالِّينَ، وَلَا مُضِلِّينَ، وَلَا مَفْتُونِينَ».

الشرح والتفسير

أشار عليه السلام فى هذا الموضع من الخطبة إلى خصائص النبى صلى الله عليه و آله وعلو صفاته، ثم سأل الله تعالى له رفيع الدرجات، كما اختتم بالدعاء لنفسه ولجميع المؤمنين بالحشر فى زمرة الرسول الكريم صلى الله عليه و آله. فقال عليه السلام:

«حتى أورى ۶۰۸] قبساً[۶۰۹] لقابس، وأنار علماً لحابس ۶۱۰]».

وبالنظر إلى أنّ هذا القسم من الخطبة- كما صرح المرحوم السيد الرضى (ره)- رواية اخرى للخطب السابقة (۷۲)، فالذى يفهم أن «حتى»

غائية بالنسبة لسعى النبى صلى الله عليه و آله وجهده،

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۱۲

كما يمكن القول بأنّ الفاعل فى عبارة أورى وأنار هو لشخص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله. وعليه فقد قام صلى الله عليه و آله بعملين مهمين هما:

الأول: أنّه أمد طلاب الحق بقبسات النور، والثانى أنّه نصب مصابيح الهداية فى طريق الحيارى

وكأنّ العبارة الاولى إشارة إلى علماء الامّة الذين يأخذون بشعلة الهدى فيواصلون مسيرتهم ويحملون الآخرين معهم. والعبارة الثانية إشارة إلى الأفراد العاديين الذين ليست لديهم مثل هذه القبسات وعيونهم متطلعة إلى مصابيح الهدى الموضوعة على جانب الطريق.

وبعبارة اخرى فان النبى صلى الله عليه و آله قد أمد دعاة الحق بالهداية العامة والخاصة.

ثم قال عليه السلام على سبيل النتيجة الواضحة و الرائعة:

«فهو أمينك المأمون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة ورسولك بالحق رحمة».

وقوله عليه السلام أمينك المأمون تأكيد لمطلق أمانته وكمالها، وشهيد يوم الدين ويوم الحساب والجزاء إشارة للآية الشريفة ۸۹ من سورة النحل: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ».

ويمكن أن تكون هذه الشهادة على الاصول الكلية التى تضمنتها دعوة كافة الأنبياء، أو على جزئيات الأعمال، بفعل الشهود العلمى للنبى صلى الله عليه و آله بالنسبة لأعمال كافة الامُم.

وقوله عليه السلام:

«بعيثك نعمة»

إشارة إلى أنّ بعثة النبى صلى الله عليه و آله كانت نعمة كبيرة من جانب الله سبحانه، كما كانت نموذجاً بارزاً لرحمته الواسعة سبحانه، فقد اهتدت به الملايين من أفراد البشرية وانقادت إلى الحق فى ظل تعاليمه السامية، وهذا الكلام فى الواقع اقتباس من الآيات القرآنية ومنها: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»[۶۱۱] و «وَما أَرْسَلْناكَ إِلّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ»[۶۱۲].

ثم واصل عليه السلام كلامه فى إطار امتنانه وتقديره لجهود النبى صلى الله عليه و آله العظيمة، فرفع يده بالدعاء مبتهلًا إلى الله بافاضة نعمه على النبى صلى الله عليه و آله فقال:

«اللّهم اقسم له مقسماً من عدلك، واجزه

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۳۱۳

مضعفات الخير من فضلك، اللّهم أعل على اباء البانين بناءه وأكرم لديك نزله ۶۱۳]، وشرف

عندك منزله، وآته الوسيلة، واعطه السناء[۶۱۴] والفضيلة».

ويختزن الدعاء الأول والثانى هذه النقطة، وهى أنّ النبى صلى الله عليه و آله يستحق مزيد الثواب بمقتضى العدل الإلهى، كما يتضاعف هذا الثواب بمقتضى الفضل الإلهى. قال القرآن الكريم:

«مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها»[۶۱۵].

وسؤال الله علو بناء النبى صلى الله عليه و آله على بناء جميع البانين إمّا إشارة إلى علو دينه على جميع الاديان بمقتضى «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»[۶۱۶].

وإمّا علو مقاماته فى الجنّة، أو علو فضائله المعنوية صلى الله عليه و آله.

ويبدو التفسير الأول أنسبها جميعاً.

والعبارة

«آتِهِ الوسيلة»

إشارة إلى المقام العالى للقرب ونتيجة ذلك الدرجات الرفيعة فى الجنّة، فقد ورد فى الحديث النبوى أنّه صلى الله عليه و آله خاطب

أصحابه قائلًا:

«سلوا الله لی الوسیلهٔ»،

ثم أضاف:

«هی درجتی فی الجنّهٔ، وهی ألف مرقاهٔ ... فلا یبقی یومئذ نبی ولا صدیق ولا شهید إلّاقال طوبی لمن کان هذه الدرجهٔ درجته»[۶۱۷].

ثم اختتم کلامه علیه السلام بهذا الدعاء:

«واحشرنا فی زمرته غیر خزایا[۶۱۸]، ولا نادمین، ولا

ناکبین، ولا ناکثین، ولا ضالین، ولا مضلین، ولا مفتونین»

فی إشارهٔ إلی أن الأفراد یسعهم بالعمل والعلم أن یکونوا فی زمرهٔ النبی صلی الله علیه و آله ویجتازوا هذه الفضائح السبع، فلا یندمون ویفتضحون یوم القیامهٔ، وإذا رأوا أعمالهم لا یشعرون بالندم، فلا یکونوا فی صف الناکثین، ولایحملون أوزار الآخرین ولایخدعون بالشیاطین.

فالواقع هو أنّ الإمام علیه السلام اشار إلی طوائف أمهٔ النبی صلی الله علیه و آله حین ترد المحشر حیث ترد کل

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۳۱۴

واحدهٔ منها وادیاً من الأودیهٔ المذکورهٔ السبع، ولعل هذه الطوائف کانت موجودهٔ وقد خاطبها علیه السلام محذراً إیاها بهذا الدعاء.

کلام المرحوم السید الرضی

قال المرحوم السید الرضی (ره) ذیل هذا الکلام:

«وقد مضی هذا الکلام فیما تقدم؛ إلّا أننا کررناه هنا لما فی الروایتین من الاختلاف».[۶۱۹]

تأمّل: إعتراف مهم

قال ابن أبی الحدید فی ذیل هذا المقطع من الخطبهٔ: سألت استاذی النقیب أبا جعفر، وکان منصفاً بعیداً عن الهوی والعصبیهٔ عن هذا الموضع، فقلت له: وقد وقفت علی کلام الصحابهٔ وخطبهم فلم أر فیهم من یعظم رسول الله صلی الله علیه و آله تعظیم هذا الرجل، ولایدعو کدعائه: فانا قد وقفنا من نهج البلاغهٔ ومن غیره علی فصول کثیرهٔ مناسبهٔ لهذا الفصل، تدل علی إجلال عظیم، وتبجیل شدید منه لرسول الله صلی الله علیه و آله. فقال: ومن أین لغیره من الصحابهٔ کلام مدون یتعلم منه کیفیهٔ ذکرهم للنبی صلی الله علیه و آله؟ وهل وجد لهم إلّاکلمات مبتدرهٔ، لاطائل تحتها! ثم قال: إنّ علیاً علیه السلام کان قوی الإیمان برسول الله صلی الله علیه و آله والتصدیق له، ثابت الیقین، قاطعاً بالامر، متحققاً له، وکان مع ذلک یحب رسول الله صلی الله علیه و آله لنسبته منه، وتربیته له، واختصاصه به من دون أصحابه، وبعد، فشرفه له، لانّهما نفس واحدهٔ فی جسمین، الأب واحد، والدار واحدهٔ، والأخلاق متناسبهٔ، فاذا عظمه فقد عظم نفسه، وإذا دعا إلیه فقد دعا إلی نفسه، ولقد کان یود أن تطبق دعوهٔ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنّ جمال ذلک لا حق به، وعائد علیه، فکیف لا یعظمه ویبجله ویجتهد فی إعلاء کلمته.[۶۲۰]

نفحات الولایهٔ، ج۴، ص: ۳۱۵

القسم الثالث: تضییع النعم

ومنها فی خطاب أصحابه

«وَقَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ کَرَامَهِٔ اللَّهِ تَعَالی لَکُمْ مَنْزِلَهً تُکْرَمُ بِهَا إِمَاؤُکُمْ وَتوصَلُ بِهَا جِیرَانُکُمْ، وَیُعَظِّمُکُمْ مَنْ لَافَضْلَ لَکُمْ عَلَیهِ، وَلَا یَدَ لَکُمْ عِنْدَهُ، وَیَهَابُکُمْ مَنْ لَا یَخَافُ لَکُمْ سَطْوَهً، ولَا لَکُمْ عَلَیْهِ إِمْرَهٌ وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللَّهِ مَنْقُوضَهً فَلَا تَغْضَبُونَ! وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِکُمْ تَأْنَفُونَ!

وَكَانَتْ أَمُورُ اللَّهِ عَلَيْكَمْ تَرِدُ، وَعَنْكَمْ تَصْدُرُ، وَإِلَيْكَمْ تَرْجِعُ، فَمَكّنْتُمْ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكَمْ، وَأَلْقَيْتَمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكَمْ، وَأَسْلَمْتُمْ أَمُورَ اللَّهِ فِی أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِی الشَّهَوَاتِ، وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ اللَّهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فی هذا الموضع من الخطبة إلی أمرين مهمين مرتبطين مع بعضهما ارتباطاً واضحاً وهما:

الأول: أنّ المجد والعظمة التی بلغها المسلمون فی ظل الإسلام لهی عظمة فريدة لدی العدو والصديق.

الثانی: أنّ اولئك الناس لم يعرفوا قدر هذه النعمة، وقد آلت أمورهم إلی الحكام الظلمة من عديمی الإيمان وأصحاب الشهوات بفعل ضعفهم وذلهم وهو انهم، وهذا بحد ذاته جحود عظيم فقال عليه السلام:

«وقد بلغتم من كرامة اللَّه تعالی لكم منزلة تكرم بها إماؤكم وتوصل بها جيرانكم».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۱۶

واثر ذلك أخذ يعظكم من لستم خيرا منه، وليس لكم من حق عليه

«ويعظمكم من لا فضل لكم عليه، ولا يد لكم عنده».

كما يهابكم ويبجلكم من ليس لكم قدرة عليه، ولا حكومة أو سيطرة عليه

«ويها بكم [۶۲۱]

من لا يخاف لكم سطوة[۶۲۲]، ولا لكم عليه إمرة»

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد بيّن بهده العبارات الرائعة البليغة منزلة المسلمين فی ظل الإسلام، ولم تقتصر حرمة العدو والصديق لهم فحسب، بل شملت حتی جواريهم، كما عومل جيرانهم باللطف والرحمة كرامة لهم، كما كان يكبرهم ويجلهم من الأقوام من ليس لهم عليهم سطوة ولا قوة ولافضل ولا احسان، بل كان يهابهم حتی من لم يكن تابعاً لبلادهم.

فمن الواضح وعلی ضوء الحديث الشريف:

«من خاف اللَّه أخاف اللَّه منه كل شیء ومن لم يخف اللَّه أخافه اللَّه من كل شیء»[۶۲۳]

، أنّ المسلم إذا التزم بجوهر الإسلام وعمل باحكامه وما أمر به اللَّه سبحانه واعتمد الورع والتقوی فی مسيرته الدينية، يحظی باحترام الآخرين وإجلالهم. فهذه حقيقة لامبالغة فيها.

فقد أصبح المسلمون وفی ظل الإيمان يتمتعون بكافة معانی الشجاعة والاقدام والتضحية والقوة والمنعة.

نفحات الولاية ؛ ج۴ ؛ ص۳۱۶

نف إلی ذلك فقد حفتهم العناية الإلهية والامدادات الغيبية.

فقد نقل ابن أبی الحديد قصة رائعة بهذا الشأن. حيث قال: قيل إنّ العرب لما عبرت دجلة إلی القصر الأبيض الشرقی بالمدائن عبرتها فی أيام مدها، وهی كالبحر الزاخر علی خيولها وبأيديها رماحها، ولا درع عليها ولا بيض؛ فهربت الفرس بعد رمی شديد منها للعرب بالسهام؛ وهم يقدمون ويحملون، ولا تهولهم السهام، فقال فلاح نبطی، بيده مسحاته وهو يفتح الماء إلی زرعه لأسوار من الاساورة معروف بالبأس وجودة الرماية: ويلكم! أمثلكم فی سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الحاسرين! ولذعه باللوم والتعنيف: فقال له: أقم مسحاتك،

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۱۷

فأقامها فرماها، فخرق الحديد حتی عبر النصل إلی جانبها الآخر، ثم قال: انظر الآن، ثم رمی بعض العرب المارين عليه عشرين سهما لم

يصبه ولا فرسه منها بسهم واحد؛ وأنّه لقريب منه غير بعيد. ولقد كان بعض السهام يسقط بين يدى الاسوار، فقال له بالفارسية: أعلمت أنّ القوم مصنوع لهم! قال: نعم.[۶۲۴]

ثم أشار عليه السلام فى القسم الأخير من هذا الموضع من الخطبة إلى جحد الناس لتلك النعم والقدرة، فقال عليه السلام رغم كل ذلك لاتهتز لكم قصبة وأنتم ترون كل هذه الانتها كات ونقض العهود والقوانين والأحكام الإلهية! فى حين تشتاطون غضباً فيما إذا نقضت ذمم آبائكم:

«وقد ترون عهود اللّه منقوضة فلا تغضبون! وأنتم لنقض ذمم آبائكم تأنفون ۶۲۵]».

أي لو نقضت سنة قبلية أو طائفية كانت شائعة بينهم لارتفعت أصواتهم، فى حين ينتهك بنى أمية السنن الإلهية بمرأى ومسمع منهم دون أن ينبسوا ببنت شفة، وهذا قمة جحود النعم الإلهية.

ثم قال عليه السلام:

«وكانت امور اللّه عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، فمكنتم الظلمة من منزلتكم، وألقيتم إليهم أزمتكم، وأسلمتم امور اللّه فى أيديهم».

وهذا جحود آخر، فبعد كل تلك القوة والقدرة- بحيث كان كل شىء بأيديهم وتابع لارادتهم- أخلوا الساحة للظلمة ودعوهم يجلسون على منبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله ويتحكموا بأمور المسلمين.

ثم قال عليه السلام فى وصف هؤلاء:

«يعملون بالشبهات، ويسيرون فى الشهوات».

نعم فقد فوضت الامور على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى الصالحين فكانوا يعملون على ضوء التعاليم الإسلامية، إلّاأنّ الغفلة والضعف وجحود النعم أدى لأنّ يتزعم الامور تلك الثلة من سليلى الجاهلية وبقايا أهل الشرك والعصبية، حيث تربع ابن أبى سفيان- أعدى أعداء الإسلام- على عرش الحكومة الإسلامية فقلب امور الإسلام رأساً على عقب.

ذهب بعضى شرّاح نهج البلاغة إلى المراد بالعبارة ۱۱:

«وكانت امور اللّه عليكم ترد ...»

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۱۸

الأحكام الشرعية، لا الحكومة وقالوا: كانت الأحكام الشرعية اليكم ترد من رسول اللّه صلى الله عليه و آله ومن الإمام عليه السلام، ثم تصدر عنكم إلى من تعلمونه إيّاها من اتباعكم وتلامذتكم، ثم يرجع إليكم بأن يتعلمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الاتباع. أو المراد الحكم فى الأحكام الإلهية.

وتبدو هذه الاحتمالات ضعيفة، ولا تنسجم والعبارة

«فمكنتم الظلمة من منزلتكم»

التى تشير إلى أمر الحكومة.

والمراد بالعبارة

«يعملون بالشبهات»

هو أنّ بنى أمية كانوا يتمسكون بمتشابه القرآن أو كلمات النبى صلى الله عليه و آله- حيث كانوا يكيفونها بالاستعانة بالقراءات الجديدة على مقاصدهم الانحرافية- من أجل توجيه أعمالهم الشائنة، وهم لايفكرون سوى فى حفظ مصالحهم وشهواتهم الحيوانية واحياء سنن الجاهلية.

ثم إختتم خطبته قائلًا:

«وايم اللّه، لو فرقوكم تحت كل كوكب، لجمعكم اللّه لشر يوم لهم».

وقد ذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بهذه العبارة قيام أبى مسلم الخراسانى وقيام أهل العراق ضد بنى أمية بحيث ينتقمون منهم شر انتقام ويجتثون جذورهم، بل قيل أنّهم ارتكبوا مالم يحفل التاريخ بمثيله.

ولايبدو صحيح الاحتمال الذى أورده بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ المراد بالعبارة المذكورة قيام المهدى عليه السلام حيث لاينسجم وسائر عبارات الخطبة.

وتشير العبارة:

«لو فرقوكم تحت كل كوكب»

كناية إلى ذروة التشتت والفرقة، وإلّا لايمكن جعل كل إنسان تحت كوكب.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۱۹

الخطبة[۶۲۶] المأة و سبع

اشارة

ومن كلام له عليه السلام

فى بعض أيام صفين

نظرة إلى الخطبة

بالنظر إلى أنّ الإمام عليه السلام اورد هذه الخطبة فى أحد أيام صفين، وأنّها ناظرة إلى حادثه فى بداية صفين حيث انسحب أصحاب الإمام عليه السلام وتراجعوا ثم عادوا فانتصروا على العدو، فمقصود الإمام عليه السلام هو ذم تراجعهم بالفاظ لطيفة رقيقة، ومن ثم الإشارة بحملتهم ثانية إلى جانب حثهم وتشجيعهم على الصمود والمقاومة. ولايخفى التأثير الذى يلعبه الكلام حين يتصدر ببيان نقاط الضعف، ثم يتتابع بذكر عناصر القوة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۲۱

«وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ، وَانْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ، تَحُوزُكُمُ الْجُفَاةُ الطَّغَامُ، وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّام، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَيآفِيخُ الشَّرَفِ، وَالأَنْفُ الْمُقَدَّمُ، وَالسَّنَامُ الأعْظَمُ. وَلَقَدْ شَفَى وَحَاوِحَ صَدْرِى أنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ؛ حَسّاً بِالنِّصَالِ، وَشَجْراً بِالرِّمَاحِ، تَرْكَبُ أُولاهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالإِبِلِ الْهِيمِ المَطْرُودَةِ؛ تُرْمَى عَن حِيَاضِهَا؛ وَتُذَادُ عَن مَوَارِدِهَا!».

الشرح والتفسير

أثلجتم صدرى

ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين تراجعت ميمنة أهل العراق، ثم عادت لتهجم ثانية بعد أن قادها مالك الاشتر وحمل على أهل الشام ففرقهم.[۶۲۷]

فلما رأى ذلك الإمام عليه السلام خطب بهذا الكلام. فقد قال عليه السلام: إنّى شاهدت فراركم وهزيمتكم وتراجعكم عن صفوفكم بعد أن ذادكم عنها الجفاة من العرب من أهل البادية:

«وقد رأيت جولتكم ۶۲۸]، وانحيازكم ۶۲۹] عن صفوفكم تحوزكم الجفاة[۶۳۰] الطغام ۶۳۱] وأعراب أهل الشام».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۲۲

والحال لا يليق هذا بكم

«وأنتم لها ميم ۶۳۲] العرب، ويا فيخ ۶۳۳] الشرف، والانف ۶۳۴] المقدم،

والسنام الاعظم».

ولم أكن أتوقع هذا التراجع منكم، كما لا يليق بكم، إلّاأنّ الذى اثلج صدرى معاودتكم الكر وازاحتكم لهم عن مواضعهم:

«ولقد شفى وحاوح ۶۳۵] صدرى أن رأيتكم بأخرة

تحوزونهم كما حازوكم، وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم».

ثم وصف ذلك عليه السلام بقوله

«حسا[۶۳۶] بالنصال ۶۳۷]، وشجراً[۶۳۸] بالرماح، تركب أولاهم أخراهم

كالابل الهيم ۶۳۹] المطرودة، ترمى عن حياضها، وتذاد[۶۴۰] عن مواردها».

وممّا لا شك فيه أن صفين كانت مقابلة بين عسكرين، ضم أحدهما أغلب الشخصيات الإسلامية من قبيل بعض صحابة النبى صلى الله عليه و آله وابناء الصحابة ومن البيوتات الصالحة السابقة إلى الإسلام والإيمان، وقد كانت هذه الجماعة تحت إمرة الإمام على عليه السلام. وبالمقابل كان الطرف الآخر يتمثل فى الواقع ببقايا الجاهلية والشرك والاراذل والاوباش من طلاب الدنيا وعبدة الأهواء الذين قدموا الميدان بدينار معاوية ودرهمه واجزل لهم فى العطاء، وفى مقدمتهم عمرو بن العاص الذى لم يبايع لمعاوية حتى اشترط عليه ولاية مصر.

وعليه فعبارات الإمام عليه السلام بشأن أهل الشام والعراق كانت تمثل عين الواقع، بعيداً عن اسلوب الحث والتشجيع والمبالغة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۲۴

الخطبة[۶۴۱] المأة و ثمان

اشارة

ومن خطبة عليه السلام

وهى من خطب الملاحم

نظرة إلى الخطبة

تتالف هذه الخطبة من أقسام: استهل عليه السلام القسم الأول: كسائر الخطب بحمد اللّه والثناء عليه وبيان أوصاف الجلال والجمال وأدلة إثبات وجوده سبحانه. والقسم الثانى: جرى كسائر الخطب فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وفضائله وكمالاته.

القسم الثالث: الحديث عن طبيب دوار يتفقد مرضاه وقد اعد كافة وسائل العلاج، وفسره أغلب شرّاح نهج البلاغة بان المراد شخصه عليه السلام أو النبى صلى الله عليه و آله.

القسم الرابع: لوم الأصحاب الضعفاء وتذكيرهم بأنّ هذا الضعف والاختلاف يؤدى إلى عاقبة وخيمة يسلط فيها العدو عليكم، فيسدد ضرباته إليكم ولا يبقى لكم باقية.

القسم الخامس: وهو أهم قسم فى الخطبة فى الوعظ والنصح. والقسم السادس والأخير اخبار عن الحوادث المستقبلية فى قطع الأرض والسماء لبركتهما، وظهور التحريف وتحول المعروف إلى منكر والمنكر إلى معروف.

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۳۲۵

القسم الأول: تجلی اللَّه للعباد

اشارة

«الْحَمْـدُ لِلّهِ الْمُتَجَلِّی لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَالظّاهِرِ لِقُلُـوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ. خَلَـقَ الْخَلْـقَ مِنْ غَیْرِ رَوِیَّهٍ، إذْ کـانَتِ الرَّوِیّاتُ لَـا تَلِیقُ إِلَّا بِـذَوِی الضَّمـائِرِ، وَلَیْسَ بِذِی ضَمِیرٍ فِی نَفْسِهِ. خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَیْبِ السُّتُرَات، وَأَحاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ السَّرِیرَاتِ».

الشرح والتفسیر

کما أوردنا سابقاً فانّ الإمام علیه السـلام اسـتهل الخطبة بحمد اللَّه والثناء علیه وذکر جماله وجلاله وأدلة وجوده سبحانه بعبارات قصار رائعة وهو یشیر إلی أدلة التوحید، فقال علیه السلام:

«الحمد للَّه المتجلی»

. والواقع هو أنّ العبارة تشیر إلی برهان النظم الذی ورد فی عدة آیات قرآنیة التی تأخذ بید الإنسان أحیاناً إلی السـموات والسـیارات والثوابت والمجرات العظیمة کما تصحبه أحیانا اخری إلی عمق الذرة ودقة بنائها العجیب وتنتقل به تارة إلی عجیب خلقة الطیور، کما تریه تارة اخری اسرار البحار والمحیطات، فهی تریه عظمة الخالق من خلال المخلوقات، ویتضح ممّا تقدم ان الخلق فی (لخلقه) تشیر إلی الإنسان، وفی بخلقه إلی جمیع المخلوقات فاحدها خاص والآخر عام.

ثم أشار علیه السلام فیما بعد إلی برهان الفطرة فقال:

«والظاهر لقلوبهم بحجیته».

فأیـة حجـة أعظم من هـذه، وهی حین یعود الإنسـان إلی قلبه وروحه یستمع نـداء التوحیـد یـأتیه من کـل مکان. ومن هنا مهما سـعت الشـیاطین لانکار ذاته، وجهـدت من أجل انحراف العباد، فبمجرّد زوال هذه التزیینات، وتلاشـی السـحب القاتمة للوساوس الشـیطانیة، تتجلی

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۳۲۶

هذه الفطرة التوحیدیة فی الإنسان فیعود إلی ربّه وخالقه.

ثم أشار فی العبارة الثالثة إلی ما یمکن تسمیته ببرهان الابداع فقال علیه السلام:

«خلق الخلق من غیر رویة، إذ کانت الرویات لاتلیق إلّابذوی الضمائر[۶۴۲]، ولیس بذی ضمیر فی نفسه».

نعلـم أنّ جمیع المصـنوعات البشـریة إنّمـا تعـود إلی الفکر والبرمجـة والخطط والمشـاریع المسبقة، وهـذه بـدورها إلی المخلوقـات والمصـنوعات فی هذا العالم. أی کل ما یصـنعه الإنسان فقد شاهد شبیهه فی عالم الخلقة، کما قد یرکـب أحیانا بین عدة أشـیاء لیصـنع منها شـیئاً معیناً، فقد یحتذی بطیور البحر فی صـنعه للسـفینة وبخلقة الطیور فی صـنعه للطائرة وهکذا، وعلیه فهو یحتاج إلی التفکیر فی صناعته من جانب، ویحتاج إلی موجودات اخری لکی یقلـدها ویسـتعین بها فی صـناعته من جانب آخر. أمّا الابداع بمعنی الخلق دون الحاجـة إلی التفکیر أو النموذج للاقتـداء فانّما یختص به وحـده سـبحانه. ثبت الیوم أن علی الأرض فقط ملایین الأنواع من النباتات و الحیوانات و الحشـرات، حیث لم تکشـتف بعد للإنسان لأنها تعیش فی أعمال البحار أو فی متاهات الغابات أو فی الصـحاری النائیة و المناطق القطبیة، و کل ذلک یرمز إلی الإبداع الإلهی فی عجائب خلقتها، و یشیر هذا الإبداع إلی وجوده و علمه و قدرته.

و بغض النظر عن کـل ذلک فإن الصـناعات البشـریة إنما تتکامل مع تقادم الزمان و الإنفتاح علی تجارب الآخرین، و الحال مخلوقات اللَّه لیست کذلک، فتکاملها یستند إلی ذاتها، لا إلی التجارب الجدیدة.

ثم فسر قوله السابق عليه السلام قائلًا:

«خرق علمه باطن غيب السترات ۶۴۳]، وأحاط بغموض

عقائد السريرات ۶۴۴]».

فان كان غنياً سبحانه فى تنويعه لخلقه عن التفكير والمثال الذى يحتذيه فانّما ذلك لعلمه المطلق النافذ فى كل شىء والمحيط بكل شىء.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۲۷

نعم فمن يحتاج إلى الفكر والانفتاح على تجارب الآخرين، من كان علمه محدوداً، جاهلًا بما غاب عنه.

والعبارة السابقة من قبيل ذكر الخاص بعد العام؛ أى أنّها تحدثت أولًا عن علم اللَّه بباطن جميع الأشياء، ثم علمه بالعقائد الخفية للإنسان.

تأمّل: فى سعة علم اللَّه

تعتبر مسألة علم اللَّه من المسائل المهمة من خلال النظرة المعرفية، وكذلك من حيث الآثار الأخلاقية والتربوية.

وهى المسألة التى أورد القرآن بشأنها عدة أبحاث مهمة، وقد كشف عن سعتها بأمثلة رائعة، من ذلك: «وَلَوْ أَنَّ ما فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»[۶۴۵].

ولو تأملنا هذا المثال وتصورنا معناه، لا كتشفنا هذه الحقيقة وهى أنّ علمه سبحانه أوسع وأشمل ممّا نعتقد.

ومن البداهة أنّ هذا العلم ليس بعلم حصولى يتأتى عن طريق التصور والتصديق، بل هو علم حضورى. أى أن حضور الحق سبحانه فى كل زمان ومكان وحضور جميع الأشياء لدى ذاته المطهرة يقتضى ألايخفى عليه شىء، لأنّ حقيقة العلم تعنى حضور المعلوم لدى العالم. غير أنّه فى العلم الحصولى لايحضر شخصاً لدى العالم، بل تحضر صورته فى الذهن عن طريق التصور أو التصديق. أمّا فى العلم الحضورى فالذى يحضر لدى العالم ذات المعلوم، وجميع الأشياء والحوادث فى كل زمان ومكان، باطنها وظاهرها عن طريق هذا العلم الحضورى واضحة لدى اللَّه. ومن هنا قال عليه السلام: خرق علمه باطن غيب السترات، وأحاط بغموض عقائد السريرات.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۲۸

قد يتعذرفهم العلم الحضورى لدى البعض، ولكن توضيحه بمثال وهو: إنّ ممّا لا شك فيه أنّ علمنا بصورنا الذهنية والتصورات والتصديقات التى ترتسم فى أذهاننا عن العالم الخارجى، والعلم الحضورى يعنى أن هذه الصور الذهنية حاضرة لدى روحنا ولا تنفصل عنها.

نعم هذا هو علم اللَّه بجميع عالم الوجود، لا أنّ لديه صور ذهنية عنها، بل وجودها العينى حاضر لديه، لأننا نعلم أنّه معنا فى كل مكان: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ»[۶۴۶] و «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ»[۶۴۷].

ومن هنا نكتشف الآثار المهمة التربوية من خلال الالتفات إلى سعة علمه المطلق. لأنّ الإنسان إذا علم بأنّ العالم حاضر لدى اللَّه وعلمه محيط بأسرار الأشياء وخفاياها فباليقين سيعيش حالة من مراقبة أعماله، بل حتى أفكاره ونياته.[۶۴۸]

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۲۹

القسم الثانى: وصف النبى صلى الله عليه و آله

ومنها فى ذكر النبى صلى الله عليه و آله

«إِخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمِشْكَاةِ الضِّيَاءِ، وَذُؤَابَةِ الْعَلْيَاءِ، وَسُرَّةِ الْبَطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ».

الشرح والتفسير

بعد أنّ حمد الإمام عليه السلام اللَّه سبحانه وتعالى وأثنى عليه وأشار إلى أدلة وجوده، تطرق فى القسم الثانى من الخطبة إلى ذكر فضائل النبى صلى الله عليه و آله حيث عدد فضائله الفريدة ببضع عبارات قصيرة و ستة تشبيهات فقال عليه السلام:

«إختاره من شجرة الأنبياء، ومشكاة الضياء، وذؤابة العلياء، وسرة البطحاء، ومصابيح الظلمة، وينابيع الحكمة».

فكل تشبيه واستعارة فى هذه العبارة تشير إلى فضيلة من فضائل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

التشبيه الأول- حسب قول أغلب شرّاح نهج البلاغة- إشارة إلى آل ابراهيم عليه السلام الذى ظهر منه الأنبياء العظام، وينتمى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى نبى اللَّه ابراهيم عليه السلام عن طريق إسماعيل.

التشبيه الثانى: إشارة إلى أنّ أنوار المعارف الإلهية فى مشكاة وجود الأنبياء، وحامل هذه الأنوار هو رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. والمشكاة وعاء لحفظ السراج لاتطفأه الريح، وعليه فالأنبياء حفظة أنوار المعارف الإلهية.

التشبيه الثالث: بالالتفات إلى أنّ ذؤابة شعر مقدم الرأس، وعلياء المرتفع، فهى إشارة إلى أنّ نسب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ينتهى إلى أفضل السلالات البشرية وقد ورث عنها ذلك الشرف والمجد.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۳۰

التشبيه الرابع: بالنظر إلى أنّ البطحاء جزء من مكة سكنته قبيلة قريش، والسرة تعنى المركز، فهى إشارة إلى أنّ النبى صلى الله عليه و آله قد انحدر من مركز قبيلة تعتبر أشرف القبائل (وإن دفع حب الدنيا البعض منها إلى عدم اجابة دعوة النبى صلى الله عليه و آله حتى عرفوا بكفار قريش).

التشبيه الخامس: أنّ الأنبياء والرسل هم مصابيح الهدى ومشكاة الأنوار التى تكشف ظلمات الكفر والجهل، وأنّه صلى الله عليه و آله مركز هذه الأنوار وحاملها.

التشبيه الأخير الذى شبه الأنبياء بينابيع العلم والحكمة وأنّ النبى صلى الله عليه و آله أحد هذه الينابيع.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۳۱

القسم الثالث: طبيب سيار

ومنها: «طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ الَيْه، مِنْ قُلُوبِ عُمْى، وَأذَان صُمًّ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْم؛ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ؛ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ؛ وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ؛ فَهُمْ فِي ذلِكَ كَالأَنْعَامِ السَّائِمَةِ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ».

الشرح والتفسير

ذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بهذه الصفات التى ذكرها الإمام عليه السلام إنّما تعود إليه، حيث خاض فى بيان صفاته بعد أنّ بين صفات رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، واصفا نفسه بأنّه طبيب سيار وقد حمل معه كافة أسباب العلاج التى تشفى المرضى- ولم يشذ من الشرّاح فى نسب هذه الصفات إلى شخص الإمام عليه السلام سوى شخص واحد نسبها إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله- فقد صرح الآمدى فى كتاب غرى الحكم قائلًا:

«إنّه فى ذكر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله»[۶۴۹].

إلّا أنّ ارتباط هذه العبارة بالعبارات السابقة من جهة، وانطباقها على الأوضاع التى كانت سائدة على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من جهة اخرى تؤيد أنّ هذه الصفات فى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. وأننا لنتعجب كيف لم يطرح قاطبة الشرّاح هذا الأمر على الاقل- على نحو الاحتمال والحال أنّهم لم يقيموا أى دليل لاثبات صحة مدعاهم. صحيح أنّ النبى صلى الله عليه و آله وعلى عليه

السلام من شجرة واحدة، وهما

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۳۳۲

روح واحدة فی جسمین وعامة الصفات تصدق علیهما معا؛ غیر أنّه لابدّ من الدقة فی ارجاع الضمائر إلی أصولها.

علی کل حال فقد قال علیه السلام:

«طبیب دوار بطبه، قد أحکم مراهمة[۶۵۰] وأحمی مواسمه،[۶۵۱]

یضع ذلک حیث الحاجة إلیه: من قلوب عمی، واذان صم، والسنة بکم، متتبع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحیرة».

یا لها من تعبیرات رائعة تشبه النبی صلی الله علیه و آله (أو الإمام) بالطبیب!

لأنّ الأطباء یتولون علاج مرضی الأبدان، وینهمک هو فی علاج مرضی الروح والأخلاق الذی یفوق بمراتب مرضی البدن.

حیث أشار إلی ثلاثة منها فی العبارة: أولئک الذین تعمی أبصار قلوبهم ویفقدون السمع واستقبال الحق وعجز اللسان عن ذکر الحق بفعل الذنب والمعصیة والغفلة واتباع الهوی

ثم وصفه بأنّه (دوار) فی إشارة إلی أنّه لیس علی غرار أطباء الابدان الذین یجلسون فی عیاداتهم وینتظرون مراجعة المریض.

بل یحمل وسائله وعلاجه معه ویتجول بحثاً عن المریض، وهذا هو منهج الأنبیاء والأوصیاء وروثتهم من العلماء، الذین ینبغی لهم أن یقتدوا بالأنبیاء ولا یروا أنفسهم کالکعبة وأنّ أفراد الامّة مطالبون بالطواف حولهم، بل علیهم أن یکونوا کالصیاد الذی یبحث عن صیده، فیفیضوا علومهم علی الناس ویأخذوا بأیدیهم إلی الحق.

ثم قال علیه السلام واصفاً ما أورده سابقا من مواضع الغفلة ومواطن الحیرة؛ وأصحابها من أهل الغفلة والحیرة:

«لم یستضیئوا بأضواء الحکمة، ولم یقدحوا[۶۵۲] بزناد[۶۵۳] العلوم الثاقبة، فهم

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۳۳۳

فی ذلک کالانعام السائمة،[۶۵۴] والصخور القاسیة».

فالعبارة لم یستضیئوا ولم یقدحوا تفید أنّهم کانوا یستطیعون حتی قبل قیام الأنبیاء أنّ یتخلصوا من جانب من غفلتهم وحیرتهم بنور الحکمة والعلم ودلیل العقل، إلّاأنّهم لم یلتفتوا قط للعلم والعقل.

ولعل

«لم یستضیئوا ...»

و

«لم یقدحوا ...»

إشارة إلی طائفتین من الأفراد الضالین الذین کان یمکن أن یتبدل ضلالهم نوراً ولو لومضة من العلم والمعرفة التی تصل إلی قلوبهم، والطائفة الاخری التی کان لها أن تهدی نفسها وان عجزت عن هدایة الآخرین.

کما یمکن أن تکون العبارة

«أنعام سائمة»

و

«صخور قاسیة»

إشارة إلی فئتین: فئة ضالة وهی کالأنعام التی لها إلی حد امکانیة التعلیم والتربیة، والفئة الاخری کالصخرة الصماء التی یصعب اختراقها.

جدیر بالذکر هناک تفاوت بین مواضع الغفلة ومواطن الحیرة؛ فالغفلة تطلق حیث لایلتفت الإنسان إلی أمر ولایری أخطاره المحققة

به؛ أو كالأمراض الخالية من الألم وفجأة يصاب بها الإنسان فلا يشفى منها.

أمّا مواطن الحيرة؛ فالإنسان يلتقت فيها إلى الأخطار، إلّاأنّه لايعرف كيف يواجهها.

على كل حال فانّ هذا الطبيب الروحى السيار إنّما يتجول بحساب وبرنامج حيثما حل، فيشفى المرضى ويمنحهم العافية والسلامة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۳۵

القسم الرابع: اشباح بلا أرواح

اشارة

«قَدِ انْجابَتِ السَّرائِرُ لِاهْلِ الْبَصائِرِ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ لِخَابِطِهَا وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا، وَظَهَرَتِ الْعَلامَةُ لِمَتَوسِّمِهَا. مَا لِى أرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلَا أرْوَاح، وَأرْوَاحاً بِلَا أَشْبَاحٍ، وَنُسَّاكاً بِلَا صَلَاحٍ، وَتُجَّاراً بِلَا أَرْبَاحٍ، وَأيْقَاظاً نُوَّماً، وَشُهُوداً غُيَّباً، وَنَاظِرةً عَمْيَاءَ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا الموضع من الخطبة إلى وضع المنافقين والمعاندين من بنى أمية، فقال عليه السلام سرائرهم وبواطنهم ظاهرة لأهل البصائر، وقد إتضح سبيل الحق لسالكه (وعليه فقد تمت الحجة على الجميع)

«قد انجابت [۶۵۵] السرائر لأهل البصائر، ووضحت محجة الحق

لخابطها[۶۵۶]».

ثم قال عليه السلام:

«واسفرت [۶۵۷] الساعة عن وجهها، وظهرت العلّامة لمتوسمها».

يمكن أن يكون المراد من علامات ظهور القيامة، بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بصفته خاتم

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۳۶

الأنبياء عليه السلام وآخر بنى من أنبياء اللّه، وكذلك ظهور الفتن فى العالم الإسلامى وعلى الأرض، وليست هناك من منافاة بين هذا الأمر ومرور آلاف السنين، لأنّ هذا الزمان قصير جداً إذا ماقورن بعمر الدنيا.

فقد ورد فى الحديث النبوى أنّه صلى الله عليه و آله قال:

«بعثت أنا والساعة كها يتن وضم السبابة والوسطى»[۶۵۸].

ونخلص ممّا سبق إلى أن اتضاح السرائر ووضوح سبيل الحق واقتراب الساعة لمن دواعى يقظة الغافلين من نوم الغفلة والتوبة إلى اللّه من الذنوب والمعاصى وسلوك طريق الحق والاستقامة عليه.

ومن هنا يتعجب الإمام عليه السلام لعدم وجود ردود الفعل المناسبة من قبل الناس ازاء هذه الامور فقال عليه السلام:

«مالى أراكم اشباحا بلا أرواح، وأرواحاً بلا أشباح، ونساكاً[۶۵۹] بلا صلاح،

وتجاراً بلا أرباح وأيقاظا[۶۶۰] نوماً[۶۶۱]، وشهوداً غيباً، وناظرة عمياء، وسامعة صماء،

وناطقة بكماء».

العبارة:

«أشباح بلا أرواح، وأرواح بلا أشباح»

بعض الجماعات التى لها قدرة ظاهرية بينما ليس لها من تفكير أو تدبر، أو أنّها مفكرة ومدبرة لكنها تفتقر إلى قدرة الاستخدام. ومن

الطبيعى ألاـ تكون كلاـ الجماعتين على صواب وليس من شأنها فعل شىء، كخواء الجسم الـذى لاروح فيه والروح التى لاجسم لها.

والعبارة:

«نسا كابلا صلاح»

إشارة إلى العبادات الجوفاء لعباد ذلك الزمان. لأنّ الأثر الأول للعبادة إنّما يتمثل بالتربية والصلاح الإنسانى؛ فاذا لم يكن العبد صالحاً كان ذلك دليل على أنّ عبادته قشر لا لبّ فيه.

والعبارة

«تجاراً بلا أرباح»

يمكن أن تكون إشارة إلى ماورد فى سورة العصر: «وَالعَصْرِ* إنَّ الإنْسانَ لَفِي خُسْرٍ* إلّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۳۷

والعبارة

«أيقا ظانوماً»

والعبارات الأربع القادمة إشارة إلى الأفراد اليقظين ظاهراً ولهم حضور فى الساحة ويتمتعون بالسمع والبصر والنطق، إلّاأنّهم لايبدون أى رد فعل تجاه الحوادث الحسنة والسيئة، وكأنّهم نيام غير شهود، ولا سمع لهم ولابصر ولا كلام.

نعم فالإسلام يرى وجود كل شىء فى آثاره، والإنسان الحى الـذى لا اثر له كأنّه فى عداد الأموات، ومن لابصيرة له فهو أعمى، وقد ورد هـذا المعنى كراراً فى القرآن بشأن المنافقين من الأفراد عديمى الإيمان، كالاية: «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلونَ»[۶۶۲] وما شابه ذلك فالذى يستفاد من كلامه عليه السلام أنّه وبخ بشدة أصحابه على عدم ابداء أى رد فعل تجاه بنى أمية بعد أن اتضح لهم باطنهم وخبث مقاصدهم، وكأنّهم نيام فقدوا السمع والبصر والنطق، فلا يأبهون بجنايات بنى أمية. و لا يعلمون أى مصير مظلم ينتظر الإسلام و المسلمين.

تأمّل: الوجود الباهت كالعدم

عادة ما ينظر إلى وجود الأشياء وعدمها من خلال عينيتها فى الخارج، بينما ينظر إليها فى المنطق القرآنى والروائى على أساس الآثار والمعطيات. وعليه فقد يرى بعض الأحياء فى عداد الموتى إذا ما انعدمت آثارهم والعكس الصحيح فقد يرى الموتى أحياءاً بفعل عطائهم وآثارهم.

وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى كراراً. فقد خاطب النبى الاكرام صلى الله عليه و آله بالقول: «إِنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ»[۶۶۳].

ومن المسلم به أنّ المراد بالموتى والصم هنا الأفراد الـذين يتمتعون بظاهر والحياة لهم أذان سامعة؛ إلّاأنّ القران عدهم أمواتاً حين اتخذوا موقف المتفرج ازاء دعوة النبى صلى الله عليه و آله.

ثم قال فى موضع آخر: «وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ* لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّاً»[۶۶۴].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۳۸

قال أمير المؤمنين على عليه السلام لكميل بن زياد:

«هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر: أعيافهم مفقودة، وأمثالهم فى القلوب موجودة»[۶۶۵].

ولو اعتمدنا المقياس القرآنى والروائى فى تقييم الأفراد والحضارات والمدنيات وسائر الامور، لرأينا العالم بحلة جديدة اخرى، والحق

لابدّ أن يكون هذا هو المعيار والمقايس، وذلك لأنّ الكائن الحى من كان له آثار حيوية، ومن افتقر لهذه الآثار فهو ميت. والأموات الذين يخلفون بعض الآثار فهم أحياء مادامت آثارهم الوجودية قائمة فى المجتمع البشرى. ولما كانت آثار الشهداء فى سبيل اللّه باقية، فهم أحياء خالدون (بغض النظر عن الحياة البرزخية). ليس للظلمة والطغاة سوى الموت كيف لا ـ وهم يخلفون هذا الفساد والدمار.

ومن هنا نعت الإمام عليه السلام تلك الجماعة من أهل الكوفة والعراق بأنّها أشباح بلا أرواح وايقاظ نوماً وشهود غيباً من خلال ذلك المعيار القرآنى والروائى.

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۳۳۹

القسم الخامس: طغاة بنى أمية يأتون على الأخضر و اليابس

اشارة

«رَايَةُ ضَلَالٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا، تَكِيلُكُم بِصَاعِهَا، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا. قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنْ الْمِلَّةِ، قَائِمٌ عَلَى الضِّلَّةِ؛ فَلَا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ الَّا ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ الْقِدْرِ، أَوْ نُفَاضَةٌ كَنُفَاضَةِ الْعِكْمِ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الأدِيمِ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمُ اسْتِخْلاصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ».

الشرح والتفسير

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ هذا المقطع من الخطبة منفصلا عن الاقسام السابقة، ويرون أنّ بينهما مطالب اخرى حذفها السيد الرضى (ره) جريا على عادته فى اقتطاف بعض المقاطع من الخطب على أساس فصاحتها وبلاغتها. ومن هنا اعتبر اولئك الشرّاح هذا المقطع إشارة إلى حوادث وفتن آخر الزمان. فى حين لا يرى البعض الآخر من الشرّاح انفصالًا بين هذه المقاطع، ومنهم ابن ميثم البحرانى، فيرى هذا الكلام فى طغاة بنى أمية وحكامهم الظلمة، ويبدو هذا الاحتمال قريباً لأنّ عادة السيد الرضى (ره) حين يحذف بعض مقاطع الخطبة يذكرها بقوله (ومنها ومنها)، الأمر الذى شاهدناه بوضوح فى الخطب السابقة.

على كل حال قال الإمام عليه السلام:

«راية ضلال قد قامت على قطبها، وتفرقت بشعبها»

. ورغم أنّ ذلك اخبار عن الحوادث الآتية ليتأهب الناس ويقللوا من اضرارها وخسائرها إلى أقل حد ممكن، مع ذلك فقد أوردها بصيغة الفعل الماضى، أى أنّ مثل هذه الامور واقعه لا محالة!

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۳۴۰

كما صرّح بذلك الادباء بأنّ المضارع المتحقق الوقوع بمنزلة الماضى. والعبارة

«قد قامت على قطبها»

إشارة إلى أنّ راية الضلالة التى سترفعها الطغمة الفاسدة والمفسدة من بنى امية على درجة من الثبات والرسوخ بحيث لا يمكن الاطاحة بها بهذه السهولة.

والعبارة

«تفرقت بشعبها»

وإن بدت ظاهراً فى تفرق فروع هذه الراية، إلّاأنّ المراد فى الواقع فرقة الانصار فى البلاد الإسلامية، ثم قال عليه السلام:

«تكيلكم ۶۶۶] بصاعها، وتخبطكم بباعها[۶۶۷]»

فی إشارة إلی أنّهم یحملونکم علی أساس معاییرهم، فمن وافقها رغبوا فیه وإلّا فلا، کما یحتمل أن یکون المراد بالعبارة الاولی أنّهم یمسکون بجمیع مقدراتکم، ویعطون لکل شخص ما یریدون.

والعبارة

«تخبطکم بباعها»

بالنظر إلی «تخبط» التی تعنی تساقط ورق الأشجار بضرب الخشب وباع بمعنی الأیدی المفتوحة إشارة إلی أنّهم یستذلونکم بکل ما اوتوا من قوة، وهذا هو اسلوب الحکام الظلمة الذین یحرقون الاخضر والیابس فی البلاد. و هذا هو أسلوب الحکومات المستبدة التی تسوق الجمیع حسب معاییرها و یفنی کل من یخالف تلک المعاییر.

ثم یصف علیه السلام هذه الحکومة الجائرة بأنّها خارجة عن الإسلام، وقائمة علی أساس الضلال والفساد:

«قائدها خارج من الملة، قائم علی الضلة»

. هذه العبارة التی تشیر إلی معاویة أو سائر حکام بنی أمیة، ناظرة إلی هذه المعنی وهو أنّ زعماء هذه الجماعة لیس فقط لایعملون علی ضوء قوانین الإسلام ویتجاوزون ضروریات الدین فحسب، بل أساس عملهم ونشاطهم هو الضلال؛ الأمر الذی یشهد به التأریخ.

ثم أشار علیه السلام إلی النهایة المأ ساویة لهذه الأحداث فی أنّه لا یبقی منکم آنذاک إلّاالنزر الیسیر کالذی یتبقی فی قعر القدر فاذا حرک وقع:

«فلا یبقی یومئذ منکم إلا ثفالة[۶۶۸] کثقالة القدر، أو

نفاضة[۶۶۹] کنفاضة الحکم ۶۷۰]».

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۳۴۱

فالعبارة تفید عدم سلامتهم فیها سوی القلة القلیلة منهم، لأنّ هؤلاء الظلمة لا یدعون بقاء أحد من المؤمنین الصالحین.

ولا یکتفون بذلک بل:

«تعرککم ۶۷۱] عرک الأدیم ۶۷۲] وتدوسکم ۶۷۳] دوس الحصید»

. ویفصلون أهل الإیمان منکم فیقضون علیهم کما تلتقط الطیور الحبوب القویة من الضعیفة:

«وتستخلص المؤمن من بینکم استخلاص الطیر الحبّة البطینة[۶۷۴] من بین هزیل ۶۷۵] الحبّ».

فی إشارة إلی أنّ ظلمهم یعم الجمیع، إلّاأنّ ظلمهم وجورهم یتضاعف تجاه المؤمنین من الأفراد.

تأمّل: الحکومات المستبدة

إنّ ما اورده الإمام علیه السلام فی هذه الخطبة وإن کان أخباراً عن بنی أمیة وحکومتهم فی المستقبل، إلّاأنّه یبدو أنّ ذلک یمثل قانوناً عاماً کلیاً بشأن کافة الحکومات المستبدة الجائرة، فهی تجهد من أجل ترسیخ دعائمها واعتماد المعاییر اللازمة لضمان منافعها ودیمومتها، والتعامل بمنتهی العنف والقوة مع من یهب لمعارضتها، فتقمع العناصر المؤمنة ولا سیما الناشطة منها، فهی لا تعرف أیة قیمة لقانون أو رأفة ورحمة وإنسانیة، کما لا تأبه بحقوق الناس؛ الأمر الذی نلمسه بوضوح فی الحکومات المعاصرة.

نفحات الولایة، ج۴، ص: ۳۴۳

القسم السادس: احذروا المستقبل المشؤوم

«أَیْنَ تَذْهَبُ بِکُمُ الْمَذَاهِبُ، وَتَتِیهُ بِکُمُ الْغَیَاهِبُ وَتَخْدَعُکُمُ الْکَوَاذِبُ؟ وَمِنْ أَیْنَ تُؤْتَوْنَ، وَأَنَّی تُؤْفَکُونَ؟ فَلِکُلِّ أَجَلٍ کِتَابٌ، وَلِکُلِّ غَیْبَةٍ ایَابٌ، فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِیِّکُمْ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَکُمْ، وَاسْتَیْقِظُوا انْ هَتَفَ بِکُمْ. وَلْیَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْیَجْمَعْ شَمْلَهُ، وَلْیُحْضِرْ ذِهْنَهُ، فَلَقَدْ فَلَقَ

لَكَمُ الأمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ. فَعِنْدَ ذلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَآخِذَهُ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ، وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبُعِ الْعَقُورِ، وَهَدَرَ فَنِيقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ، وَتَحَابُّوا عَلَى الْكَذِبِ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ».

الشرح والتفسير

خاطب عليه السلام صحبه من أجل الفات نظرهم إلى ما ينتظرهم من حوادث صعبة مأساوية- ستصيب المسلمين فى المستقبل- بهدف كبس خسائرها واضرارها أو إرشادهم إلى طرق الإبتعاد عنها، فقال عليه السلام:

«أين تذهب بكم المذاهب، وتتيه ۶۷۶] بكم الغياهب ۶۷۷] وتخدعكم

الكواذب؟ ومن أين تؤتون، وأنّى تؤفكون»

. وهكذا قام عليه السلام هذا الزعيم الربانى بايقاظ مخاطبيه من نوم الغفلة واعدهم لسماع قول الحق، ثم لفت انتباهم إلى الموت وانتهاء أجل الإنسان، فقال عليه السلام:

«فلكل أجل كتاب، ولكل غيبة إياب».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۴۴

فلا تتصوروا أنّ أعماركم ممتدة لانهاية لها وأنّ الفرصة سانحة على الدوام لتدارك مافرط، ولا تظنوا أنّ أعمالكم خافية مستترة ولا تعود عليكم، فالموت حق والعمر محدود والأعمال محفوظة عند اللّه تنتظر الثواب أو العقاب.

وعليه فالمراد بقوله:

«لكل غيبة إياب»

إمّا الموات وأعمال الإنسان!

كما نرى مثل هذا التعبير فى سائر خطب نهج البلاغة. فقد خاطب عليه السلام الامّة فى الخطبة ۸۳ داعياً إياها إلى التوبة قبل حلول الموت الذى عبر عنه بالقول:

«قبل قدوم الغائب المنتظر».

كما ورد مثل هذا المعنى فى الخطبة ۶۴[۶۷۸].

ثم قال عليه السلام:

«فاستمعوا من ربانيكم، واحضروه قلوبكم، واستيقظوا إن هتف ۶۷۹] بكم»

. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالنصح والوعظ والتحذيرات، على أنّ الزعيم لابدّ أن يتحدث بصدق إلى اتباعه، ويحرص على لم شملهم وجمع كلمتهم، ويحضر لديهم ذهنه بغية نجاتهم وانقاذهم وهذا ما عليه الحال بالنسبة لزعيمكم

«وليصدق رائد[۶۸۰] أهله، وليجمع شمله ۶۸۱]،

وليحضر ذهنه»

. وخلاصة القول فانّ لزعيم الجماعة وظيفة، كما للُامّة وظيفة أيضاً، فهو يجب عليه أنّ يبيّن للُامّة الواقع والحقائق من جانب، ومن جانب آخر عليه أن يجمع أفراده وينظمهم ويمنحهم فكره وذهنه، فاذا قام الإمام بهذه الامور، كانت وظيفة الامة تتمثل بالجد والاجتهاد من أجل امتثال أوامره.

ثم قال عليه السلام:

«فلقد فلق ۶۸۲] لكم الأمر فلق الخرزة[۶۸۳]، وقرفه ۶۸۴] قرف الصمغة»

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۴۵

فالعبارة كناية عن بيان الحقائق والواقعيات واظهار باطن الامور، والعبارة:

«قرفه قرف الصمغة[۶۸۵]»

إشارة إلى أنى أخرجت لكم عصارة المطالب وجوهرتها، كما تجرى تلك المادة اللزجة من الأشجار. خاض الإمام عليه السلام هنا ثانية فى الحديث عن الحوادث القادمة التى ذكرها سابقاً حيث أتمها ببيان الوقائع الإجتماعية و الأخلاقية و الدينية للحكومات المستبدة، و قد أوضح الآثار المختلفة الإجتماعية و الدينية لهذه الحكومات. و إرتباط هذا القسم من الخطبة بالأقسام السابقة واضح تماما، و إن تخللها بعض العبارات لإيقاظ أصحابه. و العجيب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغة من مجانبة هذا القسم للأقسام السابقة بفعل عادة السيد الرضى (ره) فى الإقتطاف، و كأن هذا الإقتطاف الرائع للسيد أصبح ذريعة لمن لم يتأمل الإرتباط بين أقسام الخطبة ليحملها جامع نهج البلاغة.

ثم قال عليه السلام:

«فعند ذلك أخذ الباطل ماخذه، وركب الجهل مراكبه، وعظمت الطاغية، وقلت الداعية».

يمكن أن يكون للطاغية هنا معنى مصدرى: أى أنّ الطغيان يكبر ويتسع على مستوى المجتمع، كما يمكن أن يكون لها معنى اسم الفاعل؛ أى يستفحل أمر طائفة طاغية، ويقل عدد دعاة الحق أمامها، فأمّا أن تقضى عليهم أو تقصيهم عن الساحة الاجتماعية، وهذه أهم الأخطار التى تنبثق من هذه الحكومات الباطلة المستبدة التى تجهد فى كم أفواه دعاة الحق.

ثم قال عليه السلام:

«وصال الدهر صيال السبع العقور، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم».

نعم فقد اقتحمت الساحة ثانية من قبيل الجماعات المنافقة وسليلة الجاهلية- التى طردت من الميدان- أثر ضعف دعاة الحق. وعلى هذا الضوء تقلب كافة الموازين والقيم:

«وتوافى الناس على الفجور، وتهاجروا على الدين، وتحابوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق».

وهكذا وبمقتضى

«الناس على دين ملوكهم»

فانّ هؤلاء الحكام الفسقة والفجرة عديمى الدين يجدون فى طبع الامّة بهذه الصفات الخبيثة بحيث يحيلون الساحة الإسلامية إلى جحيم

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۴۶

لا يطاق.

ورغم أنّ الدين يشمل ترك الكذب والفجور، وهجر الدين يعنى هجر القيم والمثل، إلّاأنّ الإمام عليه السلام يركز بالخصوص على مسألة الفجور والكذب، لأنّ هذه الرذائل لمن من أخطر الرذائل التى تفرزها طبيعة الحكومات المستبدة الفاقدة للدين، حيث تركز على الفساد والتحلل الأخلاقى والكذب.

أمّا التعبير

«توافى وتهاجروا وتحابوا وتباغضوا»

تشير إلى نقطة لطيفة وهى أنّ الناس فى مثل هذه المجتمعات تتجه زرافات وجماعات نحو الكذب والفجور، وبعبارة اخرى ليس لها من بعد فردى، بل بعد اجتماعى عظيم الخطر.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۴۷

القسم السابع: الانقلاب رأس على عقب

اشارهٔ

«فَاذَا كَانَ ذلِكَ الوَلَدُ غَيْظاً، وَالْمَطَرُ قَيْظاً، وَتَفِيضُ اللِّئامُ فَيْضاً، وَتَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضاً، وَكَانَ أهْلُ ذلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً، وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعاً، وَأوْسَاطُهُ أُكَّالًا، وَفُقَرَاؤُهُ أمْوَاتاً؛ وَغَارَ الصِّدْقُ، وَفَاض الْكَذِبُ، وَاسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ الفُسُوقُ نَسَباً، وَالْعَفَافُ عَجَباً، وَلُبِسَ الإسْلَامُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلُوباً».

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام بحثه السابق فى الأخبار عن المستقبل وسيطرة الحكام الظلمة والأعمال الوحشية التى يمارسونها بحق الناس، فى التعرض إلى جانب آخر من الآثار المشؤومة لهذه الحكومات، والوضع الأخلاقى والاجتماعى والاقتصادى للناس فى ظل هذه الحكومات.

فتطرق عليه السلام بادى الأمر إلى الأولاد الذين يثيرون غضب آبائهم، وأصبح المطر قيظاً، وانتشر اللئام فى كل مكان وقل الاخيار:

«فاذا كان ذلك الولد غيظا[۶۸۶] والمطر قيظاً[۶۸۷]

وتفيض اللئام فيضاً[۶۸۸] وتغيض الكرام غيضاً[۶۸۹]».

فى إشارة إلى أنّ رذائل السوء للحكام الظلمة إنّما تخترق الأسر والعوائل، والأولاد الذين

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۳۴۸

ينبغى أن يكونوا قرة أعين والديهم ومصدر سعادتهم وخيرهم، يكونون سبب شقائهم وبؤسهم.

من جانب آخر تتضح الآثار الوضعية لهذه الأعمال السيئة فى عالم الطبيعة والنعم الإلهية، كما ينزل المطر فى الصيف فيدعو إلى الانزعاج وضياع المحاصيل الزراعية بدلًا من نزوله فى فصل الشتاء فيؤدى إلى برودة الجو وتلطيفه.

أضف إلى ذلك وإثر انقلاب القيم وضياعها يفتح الميدان لحثالة المجتمع فيصولون ويجولون فيه، الأمر الذى يعنى إقصاء الأخيار والصالحين من الساحة، فهذه العناصر الأربعة تشاهد بوضوح فى كل حكومة طاغية مستبدة.

ثم واصل كلامه عليه السلام بالإشارة إلى أربع صفات حيث قسم الفئات الاجتماعية آنذاك إلى أربع وقال:

«وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً، وسلاطينه سباعاً، وأوساطه أكالًا،[۶۹۰] وفقراؤه أمواتاً».

والمراد بأهل ذلك الزمان أعوان الحكام الظلمة وعمالهم وولاتهم.

فاذا كان السلطان ذئباً ضارياً، كان من الطبيعى أن تكون هذه هى صفة بطانته، كما أنّ من الطبيعى أيضاً أن تكون الطبقة المتوسطة من المجتمع فريسة لهذه الذئاب، أمّا الفقراء فيعتريهم النسيان وكأنّهم أموات محوا من صفحة التاريخ.

وكأنّ الإمام عليه السلام قد طالع عن كثب كافة تفاصيل التاريخ البشرى، فكشف النقاب بهذه العبارات القصيرة عن عمق مميزات الحكومات المستبدة الطاغية.

ثم إختتم عليه السلام خطبته بالاشارة إلى سبع ظواهر مقيتة فى هذه المجتمعات والتى تمثل قمة البؤس والشقاء. حيث قال سيزول الصدق فى ذلك الزمان ويكثر الكذب وظهرت المودة على اللسان فى حين انطوت القلوب على البغض والعدوان، ويتفاخر بالذنب ويندهش من العفة والطهر،

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۳۴۹

فيلبس الإسلام ثوباً مقلوباً:

«وغار[۶۹۱] الصدق، وصار الفسوق نسبا، والعفاف عجباً،

ولبس الإسلام لبس الفرو[۶۹۲] مقلوباً».

يمكن أن تكون العبارة

«غار الصدق، وفاض الكذب»

وبالالتفات إلى معنى الغور الذى يعنى الانتشار داخل الأرض وفاض من فيض بمعنى الماء الوفير أو المطر وأمثال وذلك، إشارة إلى ذلك الزمان وكأنّ عيون الصدق قد غارت فيه فى الأرض بينما جفت بساتين الحياة الإنسانية اثر ابتعادها عن هذه المياه، وبدلا من ذلك فقد عم وانتشر الكذب وكأنه الماء المالح الذى يخرب كل شيء.

والعبارة

«صار الفسوق نسباً»

تفيد مدى اقتراب الفسقة من بعضهم وتوطيد أواصرهم وكأنهم قرابة ونسب.

وقد فسر بعض شرّاح نهج البلاغة الفسوق هنا بالزنا؛ أى يكثر أولاد الحرام فى المجتمع، وينسجم هذا التفسير والعبارة:

«والعفاف عجباً».

الاحتمال الآخر فى تفسير هذه العبارة أنّ الفسقة يفتخرون بفسقهم، كما تفتخر العرب بنسبها، وعلى العكس من ذلك فانّ الأفراد من أهل الطهر والعفاف يشعرون بالخجل إثر ذم المجتمع وملامتهم لهم.

والعبارة:

«لبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً»

إشارة إلى نقطة لطيفة وهى أنّ حكام الجور والفسقة والفجرة لايسعون إلى القضاء على الإسلام وسلب الناس دينهم، بل يحرفون الإسلام ويقلبون محتواه من أجل تحقيق أطماعهم ومآربّهم. وشهد تاريخ الحكومات المستبدة ولاسيما حكومة بنى أمية على صدق هذا الكلام.

طبيعى أنّ اللباس إذا قلب لم يعد له من شبه بثياب الناس، بل يبدو من يرتديه حيواناً، أما ذكر هذه العبارة بعد الحديث عن مفاسد ذلك الزمان يمكن أن يكون من قبيل ذكر العام بعد الخاص؛ لأنّ الإسلام إذا قلب كان الكذب بدل الصدق والفسوق بدل العفاف وسائر الرذائل بدل الفضائل والقيم.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۵۰

تأمّل: آثار سلطة الأوباش

لقد رسم الإمام عليه السلام فى هذه الأقسام الثلاثة من الخطبة صورة واضحة ببيانه للاحداث القادمة التى ستواجه المجتمع الإسلامى عن كافة الحكومات الطاغية والمستبدة على مدى التاريخ.

حيث تسعى هذه الحكومات لتقوية دعائمها فان استتبت لها الامور واستقرت أقصت كافة الأخيار والشرفاء عن الميدان، واستقطبت بطانتها من حثالة المجتمع ليمارسوا أبشع الأساليب بحق الناس ولا سيما المؤمنين، كما يسعون إلى سوق الناس لأن يعيشوا فى هالة من الجهل والتخبط.

الكذب هو السائد والصدق غائب، والفسوق عامر والطهر ضامر. أضف إلى ذلك فانّ الناس سرعان ما تكتسب رذائل الحاكم، ولاغرو فالناس على دين ملوكهم. وزبدة الكلام فانّ قيم المجتمع ومثله تقلب تماماً على سبيل المثال يكون الفسق والفجور فخراً، بينما يصبح الطهر والعفاف نقصاً.

وبالطبع فانّ مثل هذه الحكومات لا تقف بوجه الدين فى الأوساط الدينية بل تسعى جاهدة لتحريفه واخلائه من محتواه بغية تمرير

مخططاتها، إلى جانب تعبئة الرأى العام لصالحها من خلال ترويجها للخرافات التى تستهوى العوام.

والحق اننا إذا اعتمدنا هذه المعايير التى أوردها الإمام عليه السلام تجاه عالمنا المعاصر ولاسيما غالبية البلدان الإسلامية لرأيناها مصداقا واضحاً لما ذكر، وكأن الإمام عليه السلام كان ينظر لكافة الأحداث التى تشهدها مجتمعاتنا اليوم.

أمّا ما أورده الإمام عليه السلام من نبوءة فى هذه الخطبة فانّما يشبه بعض مضامين الروايات التى نقلت عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقد جاء فى الحديث الشريف أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«يَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ وُجُوهُهُمْ وُجُوهُ الادَمِيِّينَ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينَ، كَأَمْثَالِ الذِّئَابِ الضَّوارِى، سَفَّاكُونَ لِلدِّمَاءِ، لَايَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، إنْ تَابَعْتَهُمْ ارْتَابُوكَ وَإنْ حَدَّثْتَهُمْ كَذَّبُوكَ، إنْ تَوَارَيْتَ عَنْهُمْ اغْتَابُوكَ. أَلسُّنَّةُ فِيهِمْ بِدْعَةُ والبدْعَةُ فِيهِمْ سُنَّةٌ،

نفحات الولايۀ، ج۴، ص: ۳۵۱

والْحَلِيمُ مِنْهُمْ غَادِرٌ، وَالْغَادِرُ بَيْنَهُمْ حَلِيمٌ، أَلْمُؤمِنُ فِيما بَيْنَهُمْ مُسْتَضْعَفٌ، وَالْفَاسِقُ فِيما بَيْنَهُمْ مُشَرَّفٌ ... فَعِنْدَ ذلِكَ يَحْرِمُهُمُ اللَّهُ قَطْرِ السَّمَاءِ فِى أوانه، و يُنْزِلُهُ فِى غَيْرِ أَوَانِهِ، وَيُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ شِرَارَهُمْ ...»[۶۹۳].

نفحات الولايۀ، ج۴، ص: ۳۵۳

الخطبۀ[۶۹۴] المأۀ و تسع

اشارۀ

ومن خطبۀ له عليه السلام

فى بيان قدرۀ اللّه وانفراده بالعظمۀ وأمر البعث

نظرۀ إلى الخطبۀ

تعد هذه الخطبۀ من أفصح وأبلغ خطب نهج البلاغۀ إلى جانب عظم محتواها ومن هنا أسموها بالزهراء. حتى صرح ابن أبى الحديد قائلًا: من أراد أن يتعلم الفصاحۀ والبلاغۀ، ويعرف فضل الكلام بعضه على بعض فليتأمل هذه الخطبۀ، فانّ نسبتها إلى كل فصيح من الكلام نسبۀ الكواكب المنيرۀ الفلكيۀ إلى الحجارۀ المظلمۀ الأرضيۀ، ثم لينظر الناظر إلى ماعليها من البهاء، والجلالۀ والرواء والديباجۀ وما تحدثه من الروعۀ والرهبۀ والمخافۀ والخشيۀ؛ حتى لو تليت على زنديق ملحد مصمم على اعتقاد نفى البعث والنشور لهدت قواه، وأرعبت قلبه، وأضعفت على نفسه، وزلزلت اعتقاده.[۶۹۵]

والخطبۀ تتألف بصورۀ عامۀ من ثمانيۀ أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن عظمۀ قدرۀ اللّه وعجز المخلوقات أمامه حيث يورد بعض الامور الدقيقۀ بهذا الشأن.

نفحات الولايۀ، ج۴، ص: ۳۵۴

القسم الثانى: فى خلقۀ الملائكۀ وبعض صفاتها وخصائصها، التى ستحقر عبادتها تجاه عظمۀ الحق، لو اطلعت على اسرار الغيب، رغم اجتهادها وذوبانها فى العبادۀ والطاعۀ.

القسم الثالث: عن غفلۀ العباد واقبالهم على الدنيا وابتعادهم عن دعوۀ الأنبياء مع وجود الآخرۀ ونعمها الدائمۀ.

القسم الرابع: يعالج عشاق الدنيا من أهل الذنوب والمعاصى حين الموت، بعبارات بليغۀ مؤثرۀ تسوق الغافل إلى التفكير وإعادۀ النظر فى سلوكه وتصرفاته.

القسم الخامس والسادس: حول القيامۀ ومقدمات يوم الحساب وسؤال الإنسان عن أعماله، وسعادۀ المؤمنين، وتعاسۀ المذنبين وعاقبۀ

كل من هاتين الطائفتين.

القسم السابع: عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وزهده بالدنيا ورغبته عنها. و كونه الأسوة التى ينبغى لأهل الايمان الاقتداء بها.

القسم الثامن: عن أهل البيت عليهم السلام واتباعهم وعظم منزلتهم.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۵۵

القسم الأول: الصفات الكمالية للّه

«كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ: غِنى كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيل، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْزَعُ كُلِّ ملْهُوفٍ. مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ. لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ. لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلَايَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَايَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ. كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلانِيَةٌ، وكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ. أَنْتَ الأَبَدُ فَلَا أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَى فَلَا مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلَا مَنْجى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ. بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ. سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَصْغَرَ كُلَّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذلِكَ فِيما غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ الآخِرَةِ!».

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فانّ هذه الخطبة من أعمق خطب نهج البلاغة و أروعها و أجملها، وقد تطرق عليه السلام فى بداية الخطبة إلى أوصافه سبحانه وتعالى الجمالية والجلالية وصفات الأفعال بصورة واسعة جامعة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۵۶

فاشار عليه السلام إلى عشر صفات من صفات الكمال:

«كل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به:

غنى كل فقير، وعزّ كل ذليل، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف».

فهذه الصفات الست تعود إلى قدرته المطلقة سبحانه ووجوده المطلق اللامحدود وحاجة جميع الممكنات إليه.

«خاشع»

من مادة

«خشوع»

تعنى فى الأصل الخضوع؛ مع ذلك لها مفهوم أوسع يشمل الخضوع الظاهرى والباطنى والتشريعى والتكوينى. وعليه فخشوع كل شيء له بمعنى التسليم للّه والانصياع لقوانينه.

وقيام كل شيء باللّه من حيث إنّه واجب الوجود وغيره ممكن الوجود، والممكن يتوقف على الواجب، كتوقف ضياء الشمس عليها. وإليه يعزى أيضاً غنى كل فقير وعز كل ذليل وقوة كل ضعيف؛ وذلك لأنّ الممكنات والمخلوقات لا تملك لنفسها شيئاً، وكل ما لديها من اللّه، وكل كمال تحصل عليه فانّما هو فيض من كماله المطلق.

ملهوف من مادة لهف تعنى فى الأصل الغم والهم الذى يعانى منه الإنسان اثر فقدانه لشيء:

كما تستعل أحياناً لمن يظلم من الأفراد ويصرخ مستغيثاً. ولما كانت قدرة الناس زهيدة لا تمكنهم من تحقيق كافة رغباتهم أو الحفاظ على مالديهم، فان حالة الهم والغم والحزن تسيطر عليهم حين يفقدون سندهم المادى والمعنوى، فليس أمامهم من سبيل سوى اللجوء

إلى تلك الذات القادرة المقتدرة من أجل حل مشاكلهم والتغلب على مصاعبهم.

والواقع هو أن ماورد سابقاً إنّما اقتبس من عدّة آيات قرآنية اشارت إلى هذه الصفات. فقد صرح القرآن في موضع: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّمواتِ وَما فِي الأَرضِ»[۶۹۶]. وقال في موضع آخر: «اللَّهُ لا إِلهَ إِلّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ»[۶۹۷]. وقال: «يا أَيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الفُقَراءُ إِلى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ»[۶۹۸]. وقال: «قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ»[۶۹۹].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۵۷

ثم اردفها عليه السلام بست صفات اخرى

«ومن تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فاإليه منقلبه»

. نعم فهو عليم بظاهرنا وباطننا، وهو العالم بحياتنا وموتنا، وإنا إليه راجعون لا محالة.

والحق لو عشنا الإيمان على مستوى القلب والعمل بهذه الصفات التي بينها الإمام عليه السلام لكفتنا في اصلاح أنفسنا، لابدّ أن نعلم بأنّ كل كالدينا منه سبحانه، وعلينا أن نسأله كل ما نريد، فهو العالم باسرارنا، وأنّ يوماً سنعود إليه ونمثل بين يديه في محكمته العادلة.

ثم قال عليه السلام و قد ذكر بعضا من صفات الخالق السلبية:

«لم ترك ۷۰۰] العيون فتخبر عنك، بل

كنت قبل الواصفين من خلقك»

. فالعبارة «لم ترك العيون» إشارة إلى أنّه ليس بمخلوق ولا بجسم ليرى، وتبيّن صفاته من خلال الرؤية والمشاهدة.

والعبارة اللاحقة بمنزلة العلة؛ لأنّ اللَّه كان منذ الأزل، ولا يمكن أن يكون جسماً. فالجسم حادث. وعليه فان أردنا أن نصف الذات المقدسة علينا ان نستعين بما أورده انبياء اللَّه وكتبه السماوية.

ثم اشار عليه السلام إلى ثمان صفات اخرى من صفات الجلال ذات البعد السلبي، وفي الواقع نتحدث عن غنى الحق المطلق.

«لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ ۷۰۱]

مَنْ أَخَذْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَايَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلَايَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ».

نعم فهو الغني عن الجميع، وكل كماله مصدره الحق سبحانه و ليس لشيء من قدرة على تحدى إرادته- و عليه فخلقه للمخلوقات يستند إلى فيضه لالدفع وحشة وحدة أو جلب

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۵۸

منفعة، فلا عبادة العباد تزيد من جلاله، ولاكفرهم ينال من كبريائه، فمن تولى عنه لم يستغن عنه، و من إعترض على قضائه لم يسعه دفعه. ثم ذكر الإمام عليه السلام خمس من صفاته الجمالية فقال:

«كل سر عندك علانية، وكل غيب عندك شهادة، أنت الابد فلا أمد لك، وأنت المنتهى فلا محيص ۷۰۲] عنك، وأنت الموعد فلا منجى منك إلا إليك»

. قد تبدو للوهلة الاولى مفردة

«سر» و «غيب»

بمعنى واحد، وكذلك مفردتي

«علانية» و «شهادة»

، ولكن لايبعد أن يكون المراد بالسر، الأسرار الباطنية للعباد التي يعلمها اللَّه، وبعبارة اخرى فانّ كل سر علانية لديه، أمّا الغيب فيعني

الحوادث الآتيـة، أو الماضيـة الغائبـة على حسنـاً وشـعورنـاً، أو الكائنـات الموجودة حاليـا فى هـذه السـموات والأرض والـتى لا يبلغها حسنا.[۷۰۳]

والعبارة أنت الأبد تأكيد لأبدية اللَّه سبحانه. فهو على درجة من الأبدية وكأنه عينها وذاتها، فهو واجب الوجود، ومن هنا لابداية له ولا نهاية، فالبداية والنهاية من صفات المخلوقات المحدودة من مختلف الجهات.

والتعبير بالمنتهى والموعد صفتان متفاوتان بشأن اللَّه سبحانه وتعالى فهو المنتهى بمعنى كل شيء ينتهى إليه:

«انا للَّهوانا إليه راجعون»

، وليس لأحد القدرة على الفرار من محكمة عدله.

وقد قال القرآن الكريم صراحة: «وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً»[۷۰۴].

والرسالة التى تحملها هذه الصـفات هو أن نعلم ونؤمن بان اللَّه خبير عليم بكل شـىء بما فى ذلك بواطن أسـرارنا وخفايانا، فما نكتمه على الخلق ليس بمكتوم على الخالق، واننا مرجعنا يوماً إلى محكمة العدل الإلهى، واخيراً لايخفى الدور التربوى والحيلولة دون الوقوع فى الذنب والمعصية إذا ما التفتنا ألى هذه الصفات.

ثم واصل عليه السلام كلامه مؤكداً على قدرة اللَّه وعودة جميع الكائنات الحية إليه فقال:

«بيدك ناصية كل دابة، وإليك مصير كل نسمة»

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۵۹

فالتعبير بالناحيـة كنايـة عن تسـليم المخلوقات لإرادة اللَّه المطلقـة. والتعبير بكل نسـمة يعنى فى الأصل هبوب الرياح المعتدلة، ثم اطلق على روح الكائنات الحية، فى إشارة إلى أنّ كل موجود راجع إليه ماثل فى محكمته.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالقول:

«سبحانك مـا أعظم شأنـك! سـبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك! وما أصـغر كل عظيمـة فى جنب قـدرتك! وما أهول ما نرى من ملكوتك! وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك».

والحق ان عظمـة هذا العالم وعمق غرائبه تتسع لدينا شـيئاً فشـيئاً كلما تقدمت مسـيرة العلم وتطورت الأجهزة. وقد عبرّ أحد العلماء بأنّ عالم الخلقـة- حسب ما لـدينا من معلومات- بمثابة المكتبة العظيمة التى تضم ملايين الكتب، وكرتنا الأرضـية بكل ما فيها بمنزلة نقطة فى صـفحة من صـفحات كتاب من تلك المكتبـة الضـخمة. كما صـرح آخر بأن ما ثبت اليوم أن كواكب السـماء على قـدر من الكبر بحيث تـذهل الإنسـان. فكوكـب الجوزاء يبلغ أكبر من كرتنـا الأرضـية ثلاثين مليارداً، هـذا بالنسـبة لكواكب واحـد- و ما أروع ما قاله الإمام عليه السـلام بأن ماخفى عنا لأعظم مما نرى و قـد قال ذلك حيث تنعـدم الإكتشافات آنـذاك و حين كانت الهيئـة البطليموسـية التى ترى صغر عالم الوجود هى السائدة فى كافة الأوساط العلمية.

فقـد انطلق الإمام عليه السـلام فى الواقع من خلال الرؤيـة القرآنيـة لهـذه المسألـة «لَخَلْقُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ»[۷۰۵].

ثم اختتم عليه السلام كلامه فى بيان نعم الدنيا والآخرة فقال:

«وما أسبغ ۷۰۶] نعمك فى الدنيا، وما

أصغرها فى نعم الآخرة».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۶۱

القسم الثانى: عبودية الملائكة

ومنها:

«مِنْ مَلَائِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ؛ هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ، وَأَقْرَبُهُمْ؛ لَمْ يَسْكُنُوا الْأَصْلَابَ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا الْأَرْحَامَ، وَلَمْ يُخْلَقُوا «مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ» وَلَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ «رَيْبَ الْمَنُونِ»؛ وَإِنَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَاسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ وَكَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ لَكَ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لَحَقَّرُوا أَعْمَالَهُمْ، وَلَزَرَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ».

الشرح والتفسير

لما فرغ الإمام عليه السلام من الحديث فى الأقسام السابقة عن عظمة خلق اللّه وملكوت السموات، وأنّ ما نراه لأصغر بكثير عما خفى علينا من أسرار، أشار هنا إلى الملائكة بفضلها دلالة على عظمة خلق اللّه فقال عليه السلام:

«من [۷۰۷] ملائكة أسكنتهم سماواتك، ورفعتهم عن أرضك»

. لاشك أنّ ملائكة لا تقتصر على سكنة سماواته، فهناك ملائكة الأرض التى تحفظ أعمال الانس وتدبر الامور باذن اللّه وتتولى قبض الأرواح. لكن بالنظر إلى أن الإمام عليه السلام لم يبين بالعبارة المذكورة حكما كليا بشأن الملائكة بل تحدث عن طائفة منها فليست هناك من مشكلة- و لا ضرورة لتلك التوجيهات التى ذكرها هنا بعض شراح نهج‌البلاغة.

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۳۶۲

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى الإشارة إلى بعض الصفات الثبوتية والسلبية لملائكة قائلًا:

«هم أعلم خلقك بك، وأخوفهم لك، وأقربهم منك».

فالصفات الثلاث مرتبطة مع بعضها؛ لأنّه المعرفة العظمى للملائكة بالنسبة لذات اللّه تؤدى إلى خوفها، الخوف من التقصير فى إداء الوظائف والمسؤوليات، والخوف الناشيء من عظمته وهيبة مقامه. والصفتان تؤديان إلى قرب الملائكة من اللّه.

وهنا يبرز هذا السؤال كيف أنّ الملائكة أعلم من جميع المخلوقات باللّه وأقربها إليه، والحال أنا نعلم أنّ أنبياء اللّه- ولاسيما نبى الإسلام- وحتى بعض الصالحين أفضل من الملائكة، وأفضل دليل على ذلك سجود كافة الملائكة لآدم، وأفضليته عليهم من حيث العلم والمعرفة، وقد ورد فى الحديث أنّ طائفة من الملائكة تقوم على خدمة الأنبياء والصلحاء والمؤمنين، كما هناك الحديث المشهور عن تركيب خلق الإنسان من العقل والشهوة والملائكة من العقل دون الشهوة، فانّ غلب عقله شهوته كان أفضل من الملائكة، هو الآخر دليل على أفضلية الإنسان على الملائكة[۷۰۸] ويمكن القول فى الاجابة على هذا السؤال: المراد الأعلمية والقرب النسبى، وبعبارة اخرى فانّ العبارة المذكورة شبيه الحصر الاضافى، كما يمكن القول أنّ العبارة حكم عام يستثنى منه الأنبياء والأولياء.

ثم أشار إلى صفاتهم السلبية بعدم وجود نواقص فى الملائكة على غرار الناس، فذكر أربع صفات منها:

«لم يسكنوا الأصلاب، ولم يضمنوا الأرحام، ولم يخلقوا من ماء مهين [۷۰۹] ولم يتشعبهم [۷۱۰] ريب [۷۱۱] المنون».

من الواضح أنّ الاستقرار فى مكان محدود كصلب الأب ومن ثم رحم الام، والخلق من قطرة ماء تبدو تافهة، لهو نقص فى الإنسان؛ والحال ليست الملائكة كذلك، فلا من زواج ولا ولادة كالإنسان.

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۳۶۳

أضف إلى ذلك فهى لا تموت ولا تتغير بسبب الزمان، ولا تمرض ولا تشيب وتعجز.

فوجود هذه المميزات وإن كانت من علامات شرف خلقة الملائكة، وأنّ الإنسان لاشك هو أسمى مقاماً منها من هذه الناحية. إلّاأنّ سبب عظمة الإنسان وأفضليته على الملائكة إنّما تعود إلى روحه التى أشارت إليها الآية الشريفة: «نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى»[۷۱۲].

ومن هنا سجد الملائكة كلهم أجمعون لآدم عليه السلام.

أمّا هدف بيان الإمام عليه السلام لكل هذه الصفات ما أراد ذكره فى العبارات اللاحقة

«وأنّهم على مكانهم منك، ومنزلتهم عندك، واستجماع أهوائهم فيك، وكثرة طاعتهم لك، وقلّة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا كنه ما خفى عليهم منك لحقروا أعمالهم، ولزروا[۷۱۳] على أنفسهم،

ولعرفوا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك، ولم يطيعوك حق طاعتك».

نعم فالملائكة ورغم تلك المعرفة والمقام الشامخ، فهى قاصرة عن معرفة عظمته ودائرة صفاته فى الجمال والجلال، وعليه فلو فرض تعرفها على اللَّه كما هو، لأكتشفوا أنّهم لم يعبدوه كما هو أهله ولم يطيعوه كما يستحقه. وكل ما أدوه ذرة لاقيمة لها ولاوزن.

فالعبارة تفيد من جانب أنّ معرفة الإنسان باللَّه كلما تسامت، تضاعفت عبادته وطاعته للَّه. كما تفيد من جانب آخر أنّ أحداً لم يعبد اللَّه حق عبادته، كما أنّ أحداً لم يعرف اللَّه حق معرفته، وذلك لأنّ الإنسان والملك- حتى أعظم الناس والملائكة- إنّما هو وجود محدود، والذات الإلهية ليست محدودة، فليس لهذا المحدود أن يؤدى حق عبادة اللَّه ولاطاعته ولامعرفته. أمّا التعبير بالأهواء جمع هوى فى العبارة

«واستجماع أهوائهم فيك»

فلا- تعنى هوى النفس وشططها، بل تعنى الحب والرغبة، لانّ لهذا اللفظ معنيان. وبعبارة اخرى يستعمل أحياناً فى الحب الإيجابى واخرى فى السلبى. والمراد بالعبارة أنّ الملائكة ركزت حبّها وعشقها فى اللَّه سبحانه والعبارة

«قلة غفلتهم عن أمرك»

تفيد امكانية غفلة الملائكة، إلّاأنّها طفيفة جداً. وشاهد ذلك الروايات الواردة فى بعضى الملائكة فى ترك الاولى وعليه فلا حاجة لذلك التكلف الذى صرح به بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ القلة هنا تعنى العدم.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۶۴

على كل حال هذا هو حال الملائكة بهذه العبادة والطاعة لالآف السنين فما ظنك بعباداتنا وطاعاتنا البخسة؟ والجدير بالذكر أنّ الرسول الأكرام صلى الله عليه و آله وبالنظر إلى الحديث المعروف

«ما عبدناك حق عبادتك، وما عرفناك حق معرفتك»[۷۱۴]

، قد التفت إلى هذه الحقيقة، أى عدم معرفة الله وعبادته كما يستحق، بينما تبيين العبارة المذكورة للإمام عليه السلام عدم التفات الملائكة لهذه المسألة، ولعل الآية الشريفة: «وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ»[۷۱۵] دليل آخر على هذا المعنى، وهذا ما يوضح أفضلية الإنسان على الملائكة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۶۵

القسم الثالث: عالم الآخرة

اشارة

«سُبْحَانَكَ خالِقاً "وَمَعْبُوداً! بِحُسْنِ بَلَائِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ. خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً: مَشْرَباً وَمَطْعَماً، وَأَزْوَاجاً وَخَدَماً، وَقُصُوراً، وَأَنْهَاراً، وَزُرُوعاً، وَثِمَاراً؛ ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو الَيْهَا، فَلا الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلَا فِيما رَغَّبْتَ رَغِبُوا، وَلَا إِلَى مَا شَوَّقْتَ الَيْهِ اشْتَاقُوا. أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدْ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَه، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، حَيْثُما زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَيْثُما أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا؛ لَا يَنْزَجِرُ مِنَ اللَّهِ بِزَاجِرٍ، وَلَا يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُوذِينَ عَلَى الْغِرَّةِ، حَيْثُ لَا اقالَةَ

وَلَارَجْعَةَ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الاخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ».

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام هنا عن الدار الآخرة وخلق الجنّة وما تضمه من نعم جمة فقال عليه السلام:

«سبحانك خالقاً ومعبوداً! بحسن بلائك عند خلقك»

فقد خلقت تلك الدار العظيمة (الآخرة) وجعلت فيها مختلف النعم من مشارب ومطاعم وأزواج وخدمة وقصور وأنهار

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۶۶

وزرع وثمار

«وجعلت فيها مأدبة[۷۱۶]: مشرباً ومطعماً وأزواجاً وخدماً وقصوراً وأنهاراً

وزروعاً وثماراً».

قطعاً أنّ الهدف من بيان هذه الامور هو تطهير الإنسان من الرذائل والادناس والذنوب والمعاصى وسوقه إلى القرب من اللّه سبحانك: وقد وفرها الحق جميعا لعباده بصفتها تشجع الإنسان على الثبات فى الطريق القويم ومواصلته.

ثم قال عليه السلام:

«ثم أرسلت داعياً يدعو إليها، فلا الداعى أجابوا، ولا فيما رغبت رغبوا، ولا إلى ما شوقت إليه اشتاقوا».

فهم لم يكتفوا بعدم الرغبة بتلك النعم المطهرة الخالدة، بل اقبلوا على جيفة نتنة افتضحوا بأكلها والعجيب فى الأمر أن كلمتهم اتفقت على حبها:

«أقبلوا على جيفة[۷۱۷] قد افتضحوا

بأكلها، واصطلحوا على حبّها».

طبعاً مراد الإمام عليه السلام من ارسال الداعى هو بعث الأنبياء ولاسيما نبى الإسلام صلى الله عليه و آله والمراد بعدم إجابة الدعوة لاتشمل جميع الناس؛ بل الأغلبية من أهل الدنيا المفارقين للآخرة من اتباع الهوى والشهوات.

ومن هنا فقد شبههم بالحيوانات المفترسة التى تنهال على جيفة فتفضح نفسها؛ وذلك لأنّ الرائحة النتنة لتلك الجيفة تفوح من فمها ويدها.

وقوله عليه السلام:

«واصطلحوا على حبها»

لا يعنى عدم وجود النزاع بين أهل الدنيا، بل هم دائماً كالحيوانات التى تجتمع حول جيفة نتنة وتهجم عليها ليتناول كل قطعة منها. والمراد أنّهم اتفقوا على حبها.

وتشبيه الدنيا بالجيفة، هو تشبيه ورد فى بعض الروايات، وذلك للتعفن الكامن فى باطن

نفحات الولاية ؛ ج۴ ؛ ص۳۶۶

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۶۷

الدنيا التى تختزن أنواع الظلم والذنب، أو لأنّ أصحاب الدنيا يهبون للتنازع والاقتتال بهدف سلبها من بعضهم البعض الآخر.

ثم بيّن الإمام عليه السلام نتيجة هذا الحب للدنيا بشكل قاعدة كلية وعامة وهى:

«ومن عشق [۷۱۸]

شيئاً أعشى ۷۱۹] بصره، وأمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع باذن غير سميعة».

فقد ركز الإمام عليه السلام على نقطة يكشف فيها عن حقيقة وهى أنّ حب الدنيا وعشق زخرفها وزبرجها وزينتها المادية إنّما يسلب الإنسان اصدار الأحكام بصورة صحيحة، بحيث يحسب أنّ سعادته وموفقيته إنّما تتمثل بالوصول إلى هذه الدنيا المادية، مهما كان وكيفما كان الطريق المؤدى اليها.

ومن الطبيعى أن يتعذر على مثل هذا الفرد تشخيص الحق من الباطل والمصالح من المفاسد. فهو ينطلق بشكل جنونى نحو لذات الدنيا، فاذا أفاق رأى نفسه وقد فقد كل شيء.

وستتحدث فى البحث القادم ان شاء اللّه عن حقيقة العشق وآثاره.

وتختتم هذا البحث بالحديث النبوى الشريف:

«من جعل الدنيا أكبر همه، فرق اللّه عليه همه، وجعل فقره بين عينيه»[۷۲۰].

ثم قال عليه السلام:

«قد خرقت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه، وولهت عليها نفسه».

فقد شبه الإمام عليه السلام العقل فى العبارة الاولى بالثوب، الذى يمكنه أن يحفظ الإنسان ويكون له زينة، أمّا الشهوة فهى تمزق ثوب العقل الجميل. وفى العبارة الثانية وصف غلبة الشهوات على العقل بأنّه موت للعقل. كما أشار عليه السلام فى العبارة الثالثة إلى أنّ حب الدنيا والرغبة فيها قد أحاط بجميع كيان أهل الدنيا وطلابها.

وعليه فمثل هذا الإنسان عبد للدنيا، ولمن فى يده شيء من حطامها:

«فهو عبد لها، ولمن يده شيء منها، حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۶۸

فهو لاينزجر بأى زاجر ولا يكترث لأىناهى، ولايتعظ بموعظة واعظ ولا يصغى إلى نصح ناصح، والحال يرى بأم عينيه من يؤخذ بغتة لاصفح ولاعقو ولارجعة

«لا ينزجر من اللّه بزاجر، ولا يتعظ منه بواعظ، وهو يرى المأخوذين على العزة[۷۲۱] حيث لا إقالة[۷۲۲] ولارجعة، كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون، وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون، وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون، فغير موصوف ما نزل بهم».

نعم فمن يرى بعينه كل يوم تقلب أحوال الدنيا وغدرها بأهلها لابدّ أنّ يكون يقظاً، يستمع إلى الوعظ والنصح وينتهى بنهى الآخرين، إلّاأنّ المؤسف له هو أنّ حب الدنيا والتكالب عليها والاغترار بزخارفها ليعمى عين الإنسان ويصم سمعه ويستحوذ على فكره بحيث لايسمح له بأن يفيق إلى نفسه.

تأمّل: العشق المقدس والهجين

لقد أشار الإمام عليه السلام بعبارة قصيرة بليغة إلى حقيقة مهمة، طالما استغرق فيها العلماء والعرفاء والشعراء والادباء.

فقد قال عليه السلام:

«من عشق شيئاً أعشى بصره، وأمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع باذن غير سميعة»

، وقد دفعتنا هذه العبارة لأن نتحدث عن العشق، المقدس منه الايجابى، والمستهجن السلبى. فقد قيل الكثير فى العشق وعظمته وجنونه وأمراضه، ولعلها من الكلمات القل التى وردت بشأنها كل هذه التعبيرات والتعاريف المختلفة والمتناقضة. فقد سمى به بعض الكتاب

إلى درجة جعلتهم يرونه بمثابة ضابط الحياة والسعادة الأبدية! أو أنّ العشق معمار عالم الوجود.

كما أنّ تحدثوا عن إعجازاته بالنسبة للإنسان حيث ينشط روح الإنسان ويملأ قلبه حيوية وحركة، بل قيل بانعدام طعم الحياة بدونه.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۶۹

وبالمقابل فهناك طائفة من الكتاب والفلاسفة الذين صعدوا من حملاتهم واتهاماتهم للعشق ليصوره كمرض مقيت يدعو إلى التقزز.

فقد قال أحد الكتاب المعروفين: علينا أن نرى العشق عبارة عن عصارة الأدمغة الخاوية إن لم نقل بأنّه نوع من الجنون.

وقال كاتب آخر: أنّ العشق كمرض السرطان والنقرس الذى ينبغى أنّ يفر منه الإنسان العاقل.

فالتفسيرات المتناقضة للعشق تشير إلى أنّ العلماء والمفكرين لم يتحدثوا جميعاً عن شيء واحد. فهناك من تكلم عن العشق المقدس الذى يضفى القدسية والطهارة على الإنسان، ويشده بقوته الفائقة نحو معشوقه الحقيقى خالق الوجود.

أمّا من ذمه منهم فانما قصد به ذلك العشق المادى والمفعم بالخطايا والرذائل والجنايات الذى يفضى غالباً إلى المرض والفضيحة والشقاء.

فالإنسان فى العشق المادى يقبل بجنون على الشيء الذى يتعلق به ويعشقه، ويضحى بكل مالديه من أجله. فالمراد بهذا العشق هو تلك القوة السحرية التى تقود الإنسان إلى المعصية والذنب والخطيئة، وكل ما قيل فى ذمه فهو قليل.

فهذه القوة الطاغية تخرب العقل وتشل حركته وفاعليته بحيث يقدم الإنسان على الأعمال الجنونية الطائشة.

وتتمثل اولى مخاطر ذلك بتعظيمه العيوب والقبائح. فمثل هؤلاء العشاق يبتكرون أنواع التفاسير المذهلة لأقبح العيوب.

فهم لايقبلون النصح ولا يصغون إلى الوعظ، بل يهبون أحياناً للوقوف بشدة بوجه الناصحين والوعاظ.

والغريب فى الأمر أنّ الأشخاص الذين يعيشون مثل هذا العشق المادى الجنونى يشعرون أنّهم بلغوا إدراكاً حرم منه معظم الآخرين.

فهم يعيشون فى هالة من الأوهام والخيالات ولايفهمون سوى لغة العشق الطائش، فلا يفهمون لسان العلم والمنطق الذى يحدثهم به الآخرون.

وبالطبع فان جذبة هذا العشق غالباً ما تطفيء بالمجامعة!

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۷۰

آنذاك تطرح الحجب فيلتفت إلى الواقع. وكان هذا العاشق قد نهض من سبات عميق ليتبدل لديه ذلك العشق إلى نفرة ومقت، وذلك لأنّه يرى نفسه قد فقد كل شيء مقابل ذلك المعشوق؛ الأمر الذى يقود بالتالى إلى الفضيحة والخزى.

الفضيحة التى لايمكن تلافيها بعد اليقظة.

وبالطبع فانّ أغلب حالات الانفصال والانتحار إنّما تفرزه هذه الحالة من العشق لعمق الهوة بين الخيال والواقع.

ولا تقتصر هذه النتائج المريرة على العشق الجنسى، بل تترتب نفسها على عشق المال والمقام والجاه والجلال المادى.

ولعل هذا هو المعنى الذى أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام حين سأله أحد أصحابه فقال عليه السلام

: «قلوب خلت عن ذكر اللّه، فأذاقها اللّه حب غيره»[۷۲۳].

وورد فى حديث عن على عليه السلام فى عجز العاشق عن رؤية الحقائق إذ قال:

«عين المحب عمية عن معايب المحبوب، وأذنه صماء عن قبح مساويه»[۷۲۴].

وإلى هذا العشق المجازى أشار الحديث النبوى الشريف:

«من عشق فعف ثم مات، مات شهيداً»[۷۲۵].

كما قال صلى الله عليه و آله:

«من عشق وكتم وعف وصبر، غفر اللّه له، وأدخله الجنّة»[۷۲۶].

وعلى العكس من ذلك فى العشق الحقيقى والمقدس فانّ روح الإنسان تعيش حالة من الصفاء والنور، فلا يرى سوى معشوقه الحقيقى مظهر الكمال المطلق، فيتحمل فى سبيله كافة الشدائد. فقد ورد فى الحديث القدسى:

«إذا كان الغالب على العبد الاشتغال بى جعلت بغيته ولذته فى ذكرى، فاذا جعلت بغيته ولذته فى ذكرى، عشقنى وعشقته، فاذا عشقنى رفعت الحجاب فيما بينى وبينه»[۷۲۷].

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۳۷۱

وما مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام بالاسحار ودعاء الصباح ودعاء كميل وتضرع الإمام الحسين عليه السلام فى يوم عرفة فى تلك الصحراء والمناجاة الخمس عشرة للإمام السجاد عليه السلام التى وردت فى الصحيفة السجادية ودعاء الندبة الذى يلهج به لسان المنتظر لظهور إمام العصر والزمان عليه السلام الامعطيات وآثار هذا العشق الطاهر. وعليه يتضح ممّا مر معنا أنّ الذم الذى أورده بعض العلماء لمفردة العشق وتلك الحساسية التى ابدوها تجاهه إنّما مرادهم العشق الملوث المشوب بالخطيئة، وإلّا فالعشق المقدس من أعظم القوى المحركة للإنسان والتى تدفع به نحو اللّه سبحانه والقيم والمثل الإنسانية النبيلة، ويخطىء كل من يتصور خلو كلمات المعصومين عليهم السلام من هذه المفردة التى كثرت فى روايات النبى صلى الله عليه و آله وأئمة العصمة عليهم السلام.

ومن ذلك مارواه المرحوم الكلينى عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها، وأحبها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرغ لها»[۷۲۸].

وورد فى حديث آخر بشأن الصحابى الجليل سلمان:

«إن الجنّة لأعشق لسلمان من سلمان للجنّة»[۷۲۹].

قال العلامة المجلسى فى ذيل الحديث الأول العشق يعنى الإفراط فى الحب و قد تصوروه يختص بالأمور الباطلة دون حب اللّه، بينما تفيد هذه الرواية ليس الأمر كذلك، و إن إقتضى الإحتياط أن لانستعمل مفردة العاشق و المعشوق على اللّه.

عالم الآخرة

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۳۷۳

القسم الرابع: سكرات الموت

اشارة

«اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمْرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ! وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالًا جَمَعَهَا، أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّ حَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبءُ عَلَى ظَهْرِهِ. وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهُدُ فِيما كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِى كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ! فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَايَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ:

يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وجُوهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلَايَسْمَعُ رَجْعَ كَلامِهِمْ. ثُمَّ ازْدَادَ زاد الْمَوْتُ الْتِياطاً بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ. لَا يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلَا يُجِيبُ دَاعِياً. ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فيهِ الَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ».

الشرح والتفسير

تطرق الإمام عليه السلام هنا إلى سكرات الموت بعبارات تهز أعماق الإنسان وتلفت انتباهه إلى

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۷۴

تلك الحقيقة:

«اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت».

فالواقع هناك هجوم ثقيل على الإنسان وهو على أعتاب الموت: الأول هجوم سكرات الموت، وهو حالة تشبه السكر تحدث للإنسان حين يحل أجله، وقد تستولى أحياناً على عقله فتجعله يعيش حالة من الاضطراب والقلق العظيم.

والآخر حسرة فقد ان كل شيء كان قد أجهد نفسه عمراً طويلًا من أجل الحصول عليه وعانى فى سبيله الأمرين.

وهى امور تعلق وشغف بها وكأنّها أصبحت جزءاً من وجوده وكيانه، وإذا به يرى الآن أنّه يودعها إلى غير رجعة، وهذا ما يضاعف من قلقه واضطرابه ثم خاض عليه السلام فى شرح تفاصيل تلك السكرات، حيث تضعف حينها الأعضاء والجسد بعد أن يتغير لونها، ثم يدب فيها الموت بالتدريج، فيفصلها عن اللسان، والحال هو جالس بين أهله يراهم بعينه ويسمع كلامهم باذنه، وهو على سلامة من عقله:

«ففترت لها أطرافهم، وتغيرت لها أطرافهم، ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً، فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنّه لبين أهله ينظر ببصره، ويسمع باذنه، على صحة من عقله، وبقاء من لبه».

فالذى يستفاد من هذه العبارات أنّ أول ما يتوقف عن العمل هو لسان الإنسان. اللسان الذى يعدّ أكبر سند للإنسان من أجل حل مشاكله، ويالها من حسرة وفاجعة أن يرى الإنسان بعينه ويسمع باذنه وهو على سلامة من عقله ولبه، لكنه لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة فيلهج بما يريد. ذكر أحد شراح نهج‌البلاغة هنا مثالا من التوراة عن الموت حيث شبهته بالشجرة ذات الأشواك التى تغوص فى جميع البدن، و يغرس كل شوكة فى عصب من عصبه فتمزقها جميعاً و تقضى عليه.

ثم واصل عليه السلام كلامه بشأن من هجم عليه سكرة الموت فى أنّه فاق من غفلته واستغرق فى التفكير فهو يفكر فيم أقضى عمره وذهب به أدراج الرياح وكيف أفنى دهره:

«يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره».

يتذكر هنا الأموال والثروات التى جمعها وقد أغمض عينيه عن الكيفية التى جمعت بها

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۷۵

دون الاكتراث إلى الحلال والحرام والمحظور والممنوع:

«ويتذكر أموالًا جمعها، أغمض ۷۳۰] فى

مطالبها، وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها، قد لزمته تبعات جمعها، وأشرف على فراقها».

نعم فهو يفيق إلى نفسه وأول كابوس يقض مضجعه ويهيمن على كيانه هو كابوس أمواله؛ الأموال التى لم يفكر بالحلال والحرام فى جمعها بعد أن أعماه حبّ الدنيا، أو أنّه اعتمد بعض التوجيهات المشبوهة ليستحوذ على بعض الأشياء، والآن بعد أن رفع عنه الحجاب فهو يرى العبىء الثقيل الذى طال عاتقه متمثلًا بحق اللَّه وحق الناس، والأنكى من ذلك عدم وجود سبيل إلى الفرار. ليس له من لسان لبيان هذه المشكلة، وإن كان له من بيان، فليس هنالك من يسمع! ولو سمعه من حوله من قرابته ووارثيه اكتفوا بالقول (أنّه ليهجر حيث فقد عقله وفكره) ليتمكنوا من مصادرة أمواله بسهولة.

وهذا هو البؤس الحقيقى فى أن يشقى الإنسان بجمع هذه الأموال وتبقى عليه تبعتها ومسؤوليتها، بينما يخلفها الآن إلى غيره ويفارقها إلى غير رجعة.

ومن هنا قال عليه السلام:

«تبقى لمن وراءه ينعمون فيها، ويتمتعون بها، فيكون المهنأ لغيره، والعب ۷۳۱] على ظهره، والمرء قد غلقت رهونه ۷۳۲] بها».

يالها من مصيبة! أن يرى الإنسان كل هذه القصور الفخمة والأجهزة المتطورة والثياب الفاخرة ووسائل الراحة الراقية والأموال الوفيرة التى عانى ما عانى فى الدنيا من أجل الحصول عليها وهو يهبها الان لقمة سائغة لمن وراءه! والأدهى من ذلك ذهبت لذتها لغيره وبقيت تبعتها عليه.

وليت شعرى ليس له الآن سوى الحسرة والندم فلم تعد هناك من فرصة لتلافى ما فرط

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۷۶

منه وتدارك ما قصر فيه ولذلك قال عليه السلام:

«فهو يعض يده ندامة على ما أصحر له ۷۳۳] عند

الموت من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره».

وهنا يتذكر الحساد الذين واجهوه فى حياته وحاولوا الاستيلاء على أمواله وثرواته ويسلبوه ملكيتها، إلّاأنّه حال دونهم بفكره وشطارته ولم يدعهم ينيلون منها، إذ ذاك تمنى حين هجم عليه الموت ألا يكون قد أخذها، وليتها صارت من نصيب من حسده وغبطه عليها:

«ويتمنى أن الذى كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه».

ثم خاض عليه السلام فى تفاصيل الموت بعبارات تهز النفس وتوقظ الضمير، وكأنّه يعيش تلك الحالة ويوشك أن يودع الدنيا الفانية:

«فلم يزل الموت يبالغ فى جسده حتى خالط لسانه سمعه، فصار بين أهله لاينطق بلسانه، ولايسمع بسمعه».

فأخذت الأعضاء تموت الواحد بعد الآخر ولم يبق له من لسان ناطق أو أذن سامعة:

«يردد طرفه بالنظر فى وجوههم، يرى حركات ألسنتهم، ولايسمع رجع كلامهم»

أنّهم يسعون لأنّ يرتبطوا به ولكن لم يعد هنالك من سبيل.

ثم قال عليه السلام:

«ثم ازداد الموت التياطاً[۷۳۴] به، فقبض بصره كما قبض سمعه، وخرجت

الروح من جسده، فصار جيفة بين أهله، قد أو حشوا من جانبه، وتباعدوا من قربه، لا يسعد باكياً، ولا يجيب داعياً».

ثم بلغ مرحلته الأخيرة:

«ثم حملوه إلى مخط[۷۳۵] فى الأرض، فأسلموه إلى عمله،

وانقطعوا عن زورته ۷۳۶]».

لقد ألفوه سنوات، كان يضحكون معه وربما لم يطيقوا بعده، أمّا الآن بعد أنّ حل الموت بساحته، فهم لم يعودوا يتحملوا الجلوس بقربه ولو لساعه، وكأنهم لم يألفوه وكانوا غرباء عنه.

تأمّل: سكرة الموت والاحتضار

ليست هناك من لحظة يتعرض فيها الإنسان لأعظم خطر طيلة حياته أبلغ وأوجع من لحظة الاحتضاره فهى.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۷۷

لحظة انتهاء الامال والأمانى.

لحظة الاغماض عن كافة وسائل الحياة.

لحظة مفارقة الأهل والأقرباء والأصدقاء.

لحظة وداع الدنيا وما فيها.

وبالتالى لحظة الانتقال إلى عالم جديد ربما انطوى على كثير من المشاكل والمعضلات الخطيرة.

وقد صور الإمام عليه السلام هذه اللحظات بصورة دقيقة متابعا الموت مرحلة مرحلة تملأ القلب رعبا وخشية إذا ما تمثلها على حقيقتها. فقـد هدف الإمام عليه السـلام إلى ايقاظ الإنسان من غفلته قبل أن يفيق فى اللحظة حين لا يجديه نفعاً، فيسـتعد لها ويهيى الزاد اللازم لها.

وهنا لاينبغى أن ننسـى بأنّ أولياء اللّه والصالحين من العباد إنّما يستقبلون الموت برحابة صدر وطلاقة وجه؛ وذلك لأنّهم يرون الموت طفرة نحو السعادة والخلود والحياة الابدية، وبعبارة اخرى فانّ سكرات الموت إنّما تتوقف على أعمال الإنسان، وعليه فيمكن أن تكون من أخطر اللحظات وأصعبها، كما يمكن أن تكون من أجملها وأروعها.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۷۹

القسم الخامس: قيامة الناس

«حَتَّى إذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالامْرُ مَقَادِيرَهُ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا يُرِيـدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّماءَ وَفَطَرَهَا، وَأَرَجَّ الأَـرْضَ وَأَرْجَفَهَـا، وَقَلَعَ جِبَالَهـا وَنَسَـفَهَا، وَدَكَّ بَعْضُـهَا بَعْضـاً مِنْ هَيْبَـةِ جَلَالَتِهِ وَمَخُوفِ سَـطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا، فَجَـدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلَـاقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْـدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمـا يُرِيـدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الأَعْمَالِ وَخَبَايَا الافْعَالِ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هؤُلَاءِ وانْتَقَمَ مِنْ هؤُلَاءِ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى مرحلة اخرى تواجه الإنسان، بعد أنّ أشار إلى دنيا الطالحين واللحظات المريرة التى يعيشونها آخر حياتهم حين الاحتضـار. فقـد تطرق عليه السـلام هنـا إلى القيامـة والحساب ليكمل بحث مصير الإنسان ويكون عبرة للاخرين، بهـدف اليقظة والابتعاد عن الانحراف وسلوك الصراط المستقيم.

فقال عليه السلام:

«حتى إذا بلغ الكتاب أجله، والأمر مقاديره، وألحق آخر الخلق بأوله، وجاء من أمر اللّه ما يريده من تجديد خلقه»،

نعم فحياة الإنسان فى هذه الدنيا ليست هدفاً غائياً، بل هى مقدمة لتلك الحياة الخالدة فى ذلك العالم الخالد.

«أماد[۷۳۷] السماء و فطرها، و أرج ۷۳۸] الأرض و أرجفها،[۷۳۹] و قلع جبالها و نسفها،[۷۴۰]

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۸۰

ودك ۷۴۱] بعضها بعضا من هيبة جلالته ومخوف سطوته».

حيث يقع انفجـار عظيم فى السـموات والأـرض فيضـنى عالم المادة تماماً فيظهر عليه عالم جديـد، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك العالم كونه العالم الذى تقام عليه القيامة والحساب:

«يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرضُ غَيْرَ الأَرضِ وَالسَّمواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الواحِدِ القَهّارِ».[۷۴۲]

والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد اقتبس هذه العبارة من الآية الشريفة:

«إذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ* وَ إذا الكَواكِبُ انْتَثَرَتْ»[۷۴۳].

كما قال بشأن الأرض: «إذا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً* وَبُسَّتِ الجِبالُ بَسّاً* فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثّاً»[۷۴۴].

وقال: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرّاجِفَةُ* تَتْبَعُها الرّادِفَةُ»[۷۴۵]

ثم قال عليه السلام:

«وأخرج من فيها، فجددهم بعد إخلاقهم جمعهم بعد تفرقهم».[۷۴۶]

وهذه بداية قيامة الإنسان، حيث يعود إلى حياة جديده يرد بها المحشر.

والعبارة

«جددهم»

إشارة واضحة إلى المعاد الجسمانى واعادة بناء الإنسان وتكامله الجسمى فى المحشر.

والعبارة

«وجمعهم بعد تفرقهم»

ممكن أن تكون إشارة إلى تجمع الناس فى المحشر، أو جمع الذرات المتفرقة لكل إنسان من أجل تجديد حياته، ولا مانع أن تكون العبارة إشارة إلى كلا المعنيين.

ثم قال عليه السلام:

«ثم مميزهم لما يريده من مسألتهم عن خفايا الأعمال، وخبايا الأفعال،

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۸۱

وجعلهم فريقين: أنعم على هؤلاء وانتقم ۷۴۷] من هؤلاء».

والعبارة:

«خبايا الأفعال، وخفايا الأعمال»

يمكن أن يرادبها مطلب واحد، يعنى الأعمال الخفية: كما يحتمل أن تكون

«خفايا الاعمال»

إشارة إلى الأعمال التى تتم فى الخفاء وان أتى بها وسط الناس، و

«خبايا الأفعال»

إشارة إلى الأعمال التى تتم فى الخلوات، لأنّ خبايا جمع خبيئة الشىء المخبوء.

على كل حال ليس هنالك من عمل من أعمالنا بخفى على اللّه، لأنّه حاضر فى كل مكان و العالم حاضر لديه.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۸۳

القسم السادس: الثواب والعقاب

اشارة

«فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ، وَخَلَّدَهُمْ فِى دَارِهِ، حَيْثُ لَايَظْعَنُ النُّزَّالُ، وَلَاتَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَلَا تَنُوبُهُمُ الافْزَاعُ، وَلَاتَنَالُهُمُ الْاسقَامُ، وَلَاتَعْرِضُ لَهُمُ الاخْطَارُ، وَلَا تُشْخِصُهُمُ الاسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الأَيْدِىَ إِلَى الأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِىَ بِالاقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ، فِى عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِى نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلَا يُفَادَى أَسِيرُهَا، وَلَا تُفْصَمُ كُبُولُهَا. لَا مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى وَلَا أَجَلَ لِلْقَومِ فَيُقْضَى .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا الموضع من الخطبة- الذى يمثل فى الواقع آخر مرحلة سير الإنسان- إلى جانب من ثواب المحسنين وعقاب المسيئين فقال:

«فأما أهل الطاعة فأثابهم بجواره، وخلدهم فى داره».

ثم تحدث عليه السلام عن خصائص تلك الدار بعبارات قصار بعيدة المعنى

«حيث لا يظعن ۷۴۸]

النزال، ولا تتغير بهم الحال».

وإلى جانب ذلك فلا من خوف ولا مرض ولاخطر ولاسفر يخرج من الديار

«ولا تنوبهم الأفزاع ۷۴۹]، ولا تنالهم الأسقام، ولا تعرض لهم الأخطار ولا

تشخصهم ۷۵۰] الأسفار».

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۳۸۴

وعليه فالحوادث المزعجة والعوارض المقلقة التى تصدع باستمرار هدوء الإنسان فى الحياة الدنيا، لا وجود لها فى الآخرة، والإنسان فى راحة تامة هناك ينعم بالسكينة والاستقرار والحياة المملوءة بالفرح والسرور، فليس هنالك من خطر يهدده، ولامرض ولا عوامل طبيعية مرعبة من قبيل السيول والزلازل والقحط وسائر الحوادث الاجتماعية التى تدعوا إلى النزاع والحرب فتهدد أمنه.

والفارق بين العبارة

«لايظعن النزال»

والعبارة

«ولا تشخصهم الأسفار»

فى أنّ الاولى إشارة إلى السفر الاضطرارى الذى قد يجبر عليه الإنسان فى الدنيا أحياناً فيترك وطنه بالمرة، والثانية إشارة إلى الأسفار التى يضطر لها الإنسان فى الدنيا بهدف تلبية حاجاته ومتطلباته فيتحمل المشاق والمصاعب، وليس هنالك أى من هذين السفرين فى الدار الآخرة.

نعم فالحياة الدنيا مهما كانت مريحة مفعمة بالنعم إلّاأنّها ليست حلوة مرجوة بسبب تلك الآفات والعوارض؛ بينما حلوة هى الدار الآخرة لخلوها من هذه الآفات والعوارض.

وهنا قد يقتدح إلى الأذهان هذا السؤال اننا لندرك قيمة النعمة حين نفقدها والصحة والعافية والسلامة حين السقم والمرض، وما لم نر ظلمة الليل فلا نقف على أهمية شعاع الشمس فى النهار، أفلا يغيب عن الإنسان إدراك لذة تلك النعم إذا لم تطرأ عليها الحوادث المذكورة؟

وللاجابة على هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى نقطتين: الاولى أنّ نعم الآخرة فى حالة تغيير، أى هناك نعمة تستبدل باخرى على الدوام، وكل يوم يفاض عليهم نعم جديدة، ومن شأن هذا التغيير أن يقضى على حالة الرتابة. والثانية ما يجعل نعم الدنيا مريرة هو أنّها محفوفة بالاخطار، والذى يؤرق الإنسان هو عدم انفكاكه عن التفكير فى سلبها وزوالها، وقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدم وجود هذه الامور فى نعم الآخرة.

فقد ورد على لسان أهل الجنّة حين حمدهم للّهوثنائهم عليه: «وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذهَبَ عَنّا الحَزَنَ إنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ* الَّذِى أَحَلَّنا دارَ المُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا

نفحات الولايهٔ، ج۴، ص: ۳۸۵

فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ»[۷۵۱].

ثم خاض عليه السلام فى تفاصيل أهل المعصية وما يتعرضون له من مشقة

«وأمّا أهل المعصية فأنزلهم شر دار، وغل الايدى إلى الاعناق، وقرن النواصى بالأقدام».

والعبارات إشارة إلى ما صرح به القرآن الكريم: «إِذِ الأَغْلالُ فِى أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ* فِى الحَمِيمِ ثُمَّ فِى النّارِ يُسْجَرُونَ»[۷۵۲].

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلًا:

«وألبسهم سرابيل القطران، ومقطعات النيران، فى عذاب قد اشتد حره، وباب قد أطبق على أهله، فى نار لها كلب ۷۵۳] ولجب ۷۵۴]، ولهب ساطع، وقصيف ۷۵۵] هائل».

فالعبارات تفيد شدة حرارة نار جهنم المحرقة، حيث تتصاعد السنتها إلى عنان السماء مصحوبة بالأصوات المرعبة.

ثم قال عليه السلام:

«لايظعن مقيمها، ولا يفادى أسيرها، ولا تفصم ۷۵۶] كبولها[۷۵۷] لا مدة للدار فتفنى، ولا أجل للقوم فيقضى».

ولو تصور الإنسان فى ذهنه لحظة هذا العذاب الشديد والمرعب، لما قارف الذنب، وهذا هو هدف الإمام عليه السلام من شرح هذا العذاب!

وقد أكدت الروايات الإسلامية التمعن فى الآيات القرآنية التى تتحدث عن الثواب، والتوقف عند تلك التى تتحدث عن العذاب.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۸۶

وهو ذات الأمر الذى أكده الإمام عليه السلام فى الخطبة ۹۳ وهو يصف المتقين:

«فاذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم».

تأمّل: اسلوب الهداية

حقاً أنّه لاسلوب عظيم فى هداية الإنسان ونجاته هذا الذى اعتمده الإمام عليه السلام بهذه العبارات التى تختزن الآثارة والتحذير.

فقد الستهل الخطبة بالاشارة إلى صفات الجمال والجلال وقدرته العظيمة سبحانه وعلمه المطلق بكل شىء ممّا يصدر من العباد إلى جانب عظمة عالم الوجود.

ثم تحدث عليه السلام عن خلق أصناف الملائكة وعبادتها وطاعتها، ليبين زهادة عبادة الإنسان بالنسبة لتلك العبادة.

آنذاك تطرق عليه السلام إلى خلق الإنسان ونعمه الجمة سبحانه، ثم ذم بشدة طلاب الدنيا، محذراً إيّاهم من التعلق بهذه النعم الزائلة.

كما تحدث عليه السلام عن الموت وانتهاء الحياة وسكرات الموت ومدعى الحسرة والندم التى يشعر بها الاثم على أعتاب الموت، حتى رسم صورة يهتز لها القلب ويتيقظ لها الوجدان، وتفيق لها الأرواح الميتة.

وأخيراً إختتم عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى الثواب الذى ينتظر الصالحين والعقاب الذى ينتظر المسيئين، ليلتفت كل إنسان إلى نفسه ويراقب عمله.

نعم فقد خط هذا الطبيب الروحى العظيم وصفة لمرضى القلوب لاتحمل لهم سوى العلاج إن إلتزموا بالعمل بها.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۸۷

القسم السابع: زهد النبى صلى الله عليه و آله

اشارة

ومنها فى ذكر النبى صلى الله عليه و آله

«قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ زَوَاهَا، عَنْهُ اخْتِيَاراً، وَبَسَطَهَا لِغَيْرِهِ احْتِقَاراً، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً. بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً، وَنَصَحَ لُأمَّتِهِ مُنْذِراً،

وَدَعَا الَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً، وَخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحَذِّراً».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام هنا فى صفات النبى صلى الله عليه و آله ورغبته عن هذه الدنيا لتكون سيرته قدوة تامة للّامّة، و ليبين كيف يستطيع الإنسان أن يعيش الأمان من أخطار الدنيا فى ظل الإيمان و العمل الصالح فقال عليه السلام:

«قد حقر الدنيا وصغرها، وأهون بها وهونها».

فالعبارة إشارة واضحة إلي زهده صلى الله عليه و آله: لأن من يحقر الدنيا ويوصى الاخرين باحتقارها، قطعا ليس له أدنى تعلق بها، وذلک لأنّ الشيء الحقير والتافه ليس له قيمة فى استقطاب القلب والسيطرة على العقل.

ثم أكد عليه السلام هذا المعنى بالقول:

«وعلم أنّ اللَّه زواها[۷۵۸] عنه اختياراً[۷۵۹]، وبسطها لغيره

احتقاراً».

والعبارة شبيه ماورد فى الآية الشريفة من سورة الزخرف: «وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النّاسُ

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۸۸

أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِئُونَ* وَزُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِکَ لَمّا مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِينَ».[۷۶۰]

ثم واصل عليه السلام كلامه عن النبى صلى الله عليه و آله:

«فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشاً، أو يرجو فيها مقاماً».

ورد الرياش بمعنى المفرد والجمع وهو اللباس الفاخر، وأصلها الريش، ويمكن أن يراد به جميع زينة الدنيا ومنها اللباس الفاخر.

فأول مزية لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله عدم اغتراره بزخرف الدنيا وزينتها فلم يقع فى مخالبها قط.

المزية الاخرى للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله تكمن فى وظيفته بتبليغ الرسالة وايصال أوامر اللَّه ونواهيه إلى جميع العباد، وقد استفرغ وسعه فى هذا السبيل، حيث قال عليه السلام:

«بلغ عن ربّه معذراً، ونصح لأمته منذراً، ودعا إلى الجنّة مبشراً، وخوف من النار محذراً».

قطعاً لو فشل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى المرحلة الاولى فى كيفية التعامل مع الدنيا واغتر بنعمها ولذاتها، لما تمكن قط من القيام بالمرحلة الثانية فى ابلاغ الرسالة السماوية، فأين إسارة النفس فى الدنيا من ابلاغ الرسالة.

ورد فى حديث الإمام الصادق عليه السلام أنّ اللَّه أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام:

«يا موسى إنّ الدنيا دار عقوبة عاقبت فيها آدم عند خطيئته، وجعلتها ملعونة، ملعون ما فيها إلّاما كان لى. يا موسى إنّ عبادى الصالحين زهدوا فى الدنيا بقدر علمهم، وسائر الخلق رغبوا فيها بقدر جهلهم».[۷۶۱]

تأمّل: الشرط الاصلى فى الزعامة

إنّ أعظم مشكلة تهدد القادة والزعماء إنّما تمكن فى تهافتهم على ماديات الدنيا؛ الأمر الذى يؤدى إلى تقديمهم الأفراد السيئين على الصالحين بدافع من حفظ منافعهم ومصالحهم المادية،

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۸۹

إلى جانب ايثارهم للظلم والجور على العدل والقسط لذات الهدف.

إنّهم يعتمدون المنافع المادية كمعايير فى تعاملهم مع كل شيء فيضحون بالمبادىء الإلهية والعقلائية والإنسانية من أجل تحقيق

منافعهم الدنيوية الرخيصة.

ومن هنا كان أول أمر أكده الإمام عليه السلام فى إطار وصفه للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله هو عدم اعتنائه بالدنيا وتصغيرها وتحقيرها، ممّا جعله لا يكترث لجميع ما فيها، ويمحوها من ذاكرته.

وقد صرح القرآن الكريم مراراً بشأن الأنبياء ولاسيما نبى الرحمة صلى الله عليه و آله أنّهم لايسألون الناس أجراً على ابلاغ الرسالة، وكانت معيشتهم فى الدنيا معيشة المستضعفين وهذا ما جعلهم يجرون الحق ويقيمون العدل بحق الجميع ولا يخشون سطوة ظالم ولا يحسبون حساباً لاصحاب المال والثراء.

فضريبة الحياة المرفهة با هضة لاتتأتى إلّامن خلال مماشاة أصحاب الثراء ومداهنتهم؛ الأمر الذى يهدد بالصميم الحق والعدل والإدارة الصالحة الطاهرة.

وقد بلغ من زهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وانصرافه عن الدنيا أنّه كان يجلس على الحصير ويتوسد الليف حتى أثر فى بدنه الطاهر، ولما قيل له هذا كسرى وقيصر يجلسان على الحرير والديباج وانت تجلس على الحصير. ردّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «إنّما مثل الدنيا كمثل راكب مر على شجرة ولها فيء فاستظل تحتها، فلما أن مال الظل عنها ارتحل فذهب وتركها»[۷۶۲].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۹۱

القسم الثامن: أهل البيت عليهم السلام

«نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوةِ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلائِكَةِ، وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ، وَيَنَابِيعُ الْحُكْمِ، نَاصِرُنا ومُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ وَعَدُوُّنا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ».

الشرح والتفسير

اختتم الإمام عليه السلام خطبته بعد ذكر أوصاف النبى صلى الله عليه و آله بالحديث عن صفات أهل البيت عليه السلام و قد بلغ بالفصاحة و البلاغة ذروتها بهذا الختام الحسن فقال:

«نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف [۷۶۳] الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم».

فالتعبير بالشجرة يفيد أنّ النبوة كالشجرة المثمرة التى لها فروع وأغصان مختلفة، جذرها وساقها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وأوراقها أولاده، وثمرتها هداية الناس إلى اللَّه.

وشبه عليه السلام أهل البيت فى العبارة الثانية بالموضع الذى تهبط فيه الرسالة من جانب اللَّه سبحانه، كما وصفهم فى العبارة الثالثة بالموضع الذى تختلف إليه الملائكة فى صعودها ونزولها.

على عليه السلام وولده ممن تربوا فى هذه الاسرة ليستضيئوا بنور الوحى.

ولعل المراد بالملائكة هنا ملائكة الوحى (جبرئيل ومن معه) الذين كانوا يهبطون على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، أو أنّها إشارة إلى المعنى الأعم فيشمل جميع الملائكة الذين يختلفون عليهم للخدمة والبشارة وأمثال ذلك، على كل حال فليس المراد أنّ الوحى كان ينزل على غير رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۹۲

والفارق بين شجرة النبوة ومحط الرسالة أنّ للنبى صلى الله عليه و آله مقامان: مقام النبوة وهو الأخبار عن اللَّه ومقام الرسالة وهو ابلاغها. وبعبارة اخرى فان النبى صلى الله عليه و آله مأمور بالابلاغ، والرسالة تقترن عادة بالإمامة والزعامة والإجراء.

والمراد بمعادن العلم أئمة أهل البيت عليهم السلام ورثة علوم النبى صلى الله عليه و آله وحفظة الكتاب والسنة.

فقد قيل فى سبب نزول الآية الشريفة: «وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ»[۷۶۴].

إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: سألت ربّى أن يجعلها أذن على. ثم قال على عليه السلام:

«ما سمعت من رسول اللّه شيئا فنسيته»[۷۶۵].

وكذلك الحديث:

«على مع القرآن، والقرآن مع على»[۷۶۶].

والحديث:

«أنا مدينة العلم وعلى بابها»[۷۶۷].

وهكذا سائر الأحاديث المعروفة التى روتها كتب الفريقين، تفيد بأجمعها كون أهل البيت معادن العلم والحكمة.

والفارق بين معادن وينابيع هو أنّ المعدن الشيء الذى يقصده الناس وينتفعون به، أمّا الينابيع ما يفيض على الناس.

ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول:

«ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة»[۷۶۸].

طبعاً لا تعنى هـذه العبارة أنّ لهم حقا مثل هـذا الانتظار، بل تعنى أنّهم لابـدّ أن ينتظروا مثل هـذه العاقبة المشؤومة، فالواقع أنّه نوع من التهديد بالعذاب الإلهى فى الدنيا والآخرة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۹۳

الخطبة[۷۶۹] المأة و عشر

اشارة

ومن خطبة له عليه السلام

فى أركان الدين

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة فى الواقع من قسمين: القسم الأول: الذى تطرق فيه الإمام عليه السلام إلى أفضل ما تقرب به العباد إلى اللّه من قبيل الإيمان والجهاد والاخلاص والصلاة والزكاة، ثم ذكر فلسفة كل شعيرة من هذه الشعائر بعبارة قصيرة عميقة المعنى.

القسم الثـانى: بيـان الأبعـاد العمليـة للايمـان وطرق بلوغها والوصـية بـذكر اللّه والاقتـداء بهـدى النبى صـلى الله عليه و آله واتباع سـنته والاهتمام بتعلم القرآن وفهم آياته.

ثم اختتم عليه السلام الخطبة بالذم الشديد للعالم بلا عمل وشدة عقابة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۹۵

القسم الأول: فرائض الإسلام

اشارة

«إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ الَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهادُ فِى سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الإِسْلام؛ وَكَلِمةُ الإِخْلَاصِ فَإِنَّها الْفِطْرَةُ؛ وَإِقامُ الْصلاةِ فَإِنَّها الْمِلَّةُ؛ وَإِيتَاءُ الزَّكاةِ فَإِنَّها فَرِيضَةٌ واجِبَةٌ؛ وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ؛ وَحَجُّ الْبَيْتِ وَاعْتَمارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ أَلْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ الذَّنْبَ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِى الْمالِ، وَمَنْسَأَةٌ فِى الأَجَلِ؛ وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ؛ وَصَدَقَةُ

الْعَلانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَهَ السُّوءِ؛ وَصَنَائِعُ الْمَعرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِى مَصَارِعَ الْهَوَانِ».

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام هنا عن أفضل الأعمال التى يؤديها سالكى طريق العبودية ودعاة الحق للتقرب إلى اللَّه فقال عليه السلام:

«إنّ أفضل ما توسل به المتوسلون ۷۷۰] إلى اللَّه سبحانه وتعالى

الإيمان به وبرسوله».

وكان هذه العبارة إشارة إلى الآية الشريفة: «يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ»[۷۷۱]. إلى جانب شرحها و تفسيرها، فقد أمر اللَّه سبحانه فى هذه الآية بالتقوى ومن ثم انتخاب الوسيلة إلى اللَّه.

وعلى هذا فالمراد بالوسيلة الإيمان والجهاد وسائر الامور الواردة فى هذه الخطبة وليس

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۳۹۶

هناك من منافاة بين هذا الكلام والتفسير الآخر الذى عنى الوسيلة هنا بشفاعة أولياء اللَّه؛ لأنّ كل هذه الوسائل يمكن جمعها فى الآية الشريفة.

على كل حال فانّ الوسيلة الاولى التى ذكرت هى الإيمان؛ الإيمان باللَّه والنبى، لأنّ الإيمان أساس الحركة البناءة والفاعلة.

الطريف فى كلام الإمام عليه السلام أنّه تطرق فى كل نقطة دليلها بصيغة تعليل وفلسفة لكافة الواجبات العشر الواردة فى العبارة، سوى مسألة الإيمان باللَّه والنبى. وذلك لأنّ هذه المسألة غنية عن ذكر الدليل، وبعبارة اخرى فانّ أساس الصالحات والخيرات واعمال البر إنّما يكمن فى الإيمان، وبدونه ليس هنالك من حركة نحو الفرائض الإلهية والواجبات الدينية. فالأمر على درجة من الوضوح بحيث لايحتاج إلى دليل.

ثم أشار عليه السلام إلى الواجب الثانى:

«والجهاد فى سبيله، فانه ذروة[۷۷۲] الإسلام»

وللجهاد هنا معنى واسع يشمل الجهاد العلمى والإعلامى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكافة الجهود والمساعى البناءة من أجل النهوض بالاهداف الإسلامية وحتى جهاد النفس، إلى جانب الجهاد العسكرى والمقاومة ضد العدو.

والعبارة

«ذروة الإسلام»

تفيد عدم جدوى الجهاد ما لم يكن عاماً شاملًا. وقد قال الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغة بشأن فلسفة الأحكام ومنها الجهاد:

«والجهاد عن للإسلام»[۷۷۳].

ورغم سعى إعداء الإسلام إلى استغلال مفردة الجهاد الإسلامى واساءة تفسيرها من خلال وصفها بالعنف إلّاأنّهم يغفلون عن المعنى الواقعى للجهاد والذى يتمثل بالصمود من أجل الحياة ومقاومة العناصر الهدامة؛ وهو الأمر الذى أودع طبيعة كل إنسان.

فالحق أنّ الحياة لتتعذر علينا ولو ضعفت الخلايا ليوم واحد كتلك التى ركبت فى بدن الإنسان وتقوم بوظيفتها فى الدفاع عنه ومهاجمة المكروبات والجراثيم التى تحاول اختراق البدن، وما المرض الخطير الذى يصطلح عليه بالايدز إلّااختلال القوى الدفاعية للبدن.

فالمجتمع الذى يتخلى عن الجهاد إنّما يكون كهذا المريض المصاب بالايدز، فيصبح مسرحاً

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۳۹۷

لهجوم أنواع المشاكل والمعضلات.

وبالطبع أن أولئك الذين صوبوا سهام حقدهم نحو الجهاد الإسلامى، ليعلمون جيداً أنّ التسلط على المسلمين متعذر مادام هذا الأصل المتمثل بالجهاد نابض بالحياة، فلو حذف الجهاد بحجة العنف، لم تعد هنالك من مشكلة أمام تسلط الاعداء.

على كل حال فان ذكر الإمام عليه السلام للجهاد كواجب بعد الإيمان باللَّه والنبى يفيد موت الدين فى حالة غياب هذا الواجب.

فقد ورد فى حديث عن على عليه السلام:

«واللَّه ما صلحت دنيا ولا دين إلّابه»[۷۷۴].

ثم ذكر عليه السلام الواجب الثالث

«وكلمة الاخلاص فانها الفطرة».

والمراد بكلمة الاخلاص

«لا إله إلّااللَّه»

التى تتضمن الشهادة للَّهبالوحدانية والعبودية ونفى الشرك والوثنية.

وتفيد بعض الروايات أنّ للاخلاص بعد عملى يتمثل بالاقبال على الحق سبحانه والأغماض عما سواه إلى جانب التحفظ عن ارتكاب الذنب والمعصية. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«من قال لا إلّااللَّه عما حرم اللَّه»[۷۷۵].

ومن الواضح أنّ من يقارف الذنوب أو ينقاد للشيطان أو الأهواء فانّه مشرك فى عمله، وهذا ما يتناقض وحقيقة الأخلاص.

ثم قال عليه السلام:

«واقام الصلاة فانّها الملة»،

والملة هنا تعنى الدين، أمّا أنّ الصلاة لم تعد جزءاً من الدين بل الدين كله، وذلك لأنّ الصلاة الدعامة الأساسية للدين. فقد جاء فى الحديث النبوى المعروف أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«الصلاة عماد الدين، فمن ترك صلاته متعمداً فقد هدم دينه»[۷۷۶].

كما ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«مثل الصلاة مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبتت الأطناب والأوتاد والغشاء، وإذا انكسر العمود لم ينفع طنب، ولا وتد ولا غشاء»[۷۷۷].

ثم قال عليه السلام:

«وايتاء الزكاة فانها فريضة واجبة».

نفحات الولايه، ج۴، ص: ۳۹۸

تطلق الفريضة عادة على الواجب، وبناءاً على فانّ ذكر الواجبة بعدها للتأكيد، إلّاأنّ للفريضة معنى آخر أنسب لموضع بحثنا، وهو قطع وفصل الشيء، وهنا قسم من المال الذى يفصل لهدف.

أو بعبارة اخرى الضريبة التى فرضت لمساعدة الضعفاء فى المجتمع وتأمين بعض تكاليف الحكومة الإسلامية.

وقد ورد فى القرآن بشأن أسهم الإرث:. «نَصِيباً مَفْرُوضاً»[۷۷۸].

ومن هنا عبر العلماء الاعلام فى مباحث الإرث بكتاب الفرائض بدلًا من كتاب الارث.

على كل حال فانّ مسألة الزكاة من أهم أركان الإسلام بعد الصلاة.

وقد جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان فى مسجده فنادى خمسة أشخاص وقال:

«لاتصلوا فيه وانتم لا تزكون»[۷۷۹].

ثم قال عليه السلام:

«وصوم شهر رمضان فانّه جنّة من العقاب».

ورد التعبير هنا

«جنّة من العقاب»

بينما وردت العبارة فى الحديث المعروف

«جنّة من النار»[۷۸۰].

ويكفى فى فضل الصوم أنّه يخرج الإنسان من البهيمية إلى عالم الملائكة ويجلسه على بساط القرب الإلهى.

ثم بين الركن السابع من أركان الإسلام فقال:

«وحج البيت واعتماره فانّهما ينفيان الفقر ويرحضان ۷۸۱] الذنب».

لاشك أنّ لزيارة بيت اللّه بركات مادية واخرى معنوية وروحانية، وقد أشير إليهما هنا، وقد وردت خلاصة ذلك فى الآية الشريفة ۲۸ من سورةالحج: «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ» وقد ورد فى الحديث

«يخرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه»[۷۸۲]

أما تأثيره فى ازالة الفقر- علاوة على بركاته المعنوية- فذلك أنّ المسلمين يستطيعون أن يقيموا الاسواق الاقتصادية إلى

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۳۹۹

جانب مراسم الحج من أجل ممارسة الانشطة والمبادلات التجارية بحيث بديرون نوعاً من التجارة العالمية فيما بينهم، فقد كان هناك مثل هذه الأسواق البدائية على عهد رسولاللّه صلى الله عليه و آله.

ولو جد المسلمون اليوم فى تقوية بناهم الاقتصادية لتمكنوا حقاً من سد حاجات الفقراء والمعوزين. ومن هنا ورد فى حديث الإمام الصادق عليه السلام:

«ما رأيت شيئا أسرع عنى ولا أنفى للفقر من إدمان حج البيت»[۷۸۳].

ثم قال عليه السلام فى بيان الركن الثامن:

«وصلة الرحم فانّها مثراة[۷۸۴] فى المال ومنسأة[۷۸۵] فى

الأجل».

فصلة الرحم واضافة إلى تأثيرها فى ازدياد المال تؤدى إلى نماء العمر وزيادته، ولعل ذلك لدعاء الأرحام بعضهم لبعض، إلى جانب معونة بعضهم البعض فى الأمراض؛ الأمر الذى يؤدى إلى طول العمر، ناهيك عن تقليلها من الهم والغم والحزن.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«صلة الأرحام تزكى الأعمال، وتنمى الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسىء فى الأجل»[۷۸۶].

ثم قال عليه السلام فى الركن التاسع من أركان الإسلام:

«وصدقة السر فانّها تكفر الخطيئة، وصدقة العلانية فانّها تدفع ميتة السوء»

، المراد بصدقة السر المساعدات التى يقدمها الإنسان إلى الأفراد المحتاجين والمحترمين بدافع من نية خالصة إلى جانب السعى لحفظ ماء وجههم، ومن هنا كانت بركاتها جمة، والعبارة تشمل الصدقات الواجبة كالكفارات والنذورات والصدقات المتجة والانفاقات. والمراد بصدقة العلانية، المعونة الظاهرة ومن بركاتها تشجيع الاخرين على أفعال الخير. والعبارة اقتباس من الآية الشريفة: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»[۷۸۷].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۴۰۰

وتفيد روايات الفريقين أنّها نزلت فى على عليه السلام حين كان له أربعة دراهم انفق واحد منها فى النهار وآخر فى الليل وآخر سراً وآخر علانية.[۷۸۸]

طبعا تطلق الصدقة فى الفقه الإسلامى على ما يعطى للفقراء بقصد القربى إلى اللَّه، إلّا أنّللصدقة مفهوم واسع يشمل كل عمل خير اجتماعى كبناء المساجد والمدارس والطريق والمستشفيات والأعمال الثقافية، ومن هنا جاء فى رواية الإمام الكاظم عليه السلام:

«عونك للضعيف من أفضل الصدقة»[۷۸۹]

ولاشك أنّ بناء المستشفيات والمدارس وأمثال ذلك مصداق لعون الضعيف. وورد فى الحديث النبوى:

«كل معروف صدقة»[۷۹۰].

وورد عنه صلى الله عليه و آله أيضاً:

«الكلمة الطيبة صدقة»[۷۹۱].

وقال الصادق عليه السلام:

«إسماع الاصم من غير تزجر صدقة هنئة»[۷۹۲].

ونختتم هذا الكلام بحديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى أنّه قال: على المسلم أن يتصدق كل يوم.

فقال رجل: لانقدر كلنا على ذلك.

فقال صلى الله عليه و آله:

«إماطتك الاذى عن الطريق صدقة، وإرشادك الرجل إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة»[۷۹۳].

والمراد بميتة السوء، الموت تحت التعذيب والالام، كالاحتراق فى النار، أو أثر الاصابة بمرض خطير شاق وحوادث الطريق.

ثم قال فى الركن العاشر من أركان الإسلام:

«وصنائع ۷۹۴] المعروف فانّها تقى مصارع ۷۹۵] الهوان».

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۴۰۱

والعبارة بصنائع المعروف تشمل كل عمل صالح، من قبيل ذكر العام بعد الخاص، كما يحتمل أن يكون المراد بصنائع المعروف مساعدة عباد اللَّه.

وقد وردت عن الائمة عليه السلام عدة روايات أكدت مسألة صنايع المعروف، منها ماورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«أول من يدخل الجنّة أهل المعروف»[۷۹۶]

، وقال أميرالمؤمنين على عليه السلام

: «عليك بصنائع المعروف فانها نعم الزاد إلى المعاد»[۷۹۷].

كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه كان يحث أصحابه على صنائع المعروف ويقول: إنّ للجنّة باب اسمه المعروف لا يدخله إلّامن كان يصنع المعروف فى الدنيا، ثم قال:

«إنّ العبد ليمشى فى حاجة أخيه المؤمن، فيوكل على اللَّه عزوجل به ملكين واحداً عن يمينه، وواحدا عن شماله، يستغفرون له ربّه ويدعوان بقضاء حاجته»[۷۹۸].

فلسفة الأحكام

غالبا ما يعمد الاطباء المهرة إلى تنبيه مرضاهم إلى الآثار المهمة للأدوية والأطعمة المقوية التى تسرع فى شفاء حالتهم المرضية؛ لكى

يتحملوا مرارة الـدواء برغبـة ولهفـة ويلتزموا بارشادات الطبيب. ولعل الأطباء الروحيين يسـيرون على هـذا النهـج فيبينون فلسـفة تشـريع الأحكام ومعطيات البرامج الدينية للناس، ليثيروا فيهم الشعور والدافع نحو هذه البرامج ويرسخوا عزمهم فى تنفيذها.

وقـد راينا فموذج ذلك- بيان فلسـفة الأحكام- فى هذه الخطبة، حيث ينطوى هذا البيان على عدة فوائد، إلى جانب كونه يحث الناس على التفاعل مع الوظائف الدينيـة وممارسـتها بكل شوق ورغبة ويهون عليهم تحمل بعضـى المشاق التى تشـتمل عليها بعض الوظائف الدينية.

ومن الفوائد التى يمكن ذكرها هنا:

۱- تحدد للناس الاسلوب الصحيح الذى ينبغى أن تؤدى فيه الفريضته، مثلًا حين تبيّن فلسفة الحج

«فرض اللَّه الحج تشييدا للدين»[۷۹۹]

، فمفهوم ذلك إقامة مراسم الحج بكل عظمة

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۴۰۲

لتحقيق هذا الهدف ولا يكتفون بآدابه الصورية الظاهرية.

۲- أنّ يعلموا أنّ آثار وبركات هـذه الأعمال تعود علينا، فليس هناك من منّة على اللَّه، بل اللَّه يمن علينا، الأمر الذى صـرح به القرآن الكريم بشأن الإسلام والإيمان:

«يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»[۸۰۰].

۳- يمكننا تقييم أعمالنا من خلال الالتفات إلى فلسفة الأحكام، لنرى مدى قبولها عند اللَّه، مثلًا حين يقال:

«وفرض عليكم الصوم للتقوى والصلاة نهياً عن الفحشاء والمنكر»

فانّ علينا أن نرى هل حصلت لدينا ملكة التقوى بعد القيام بالصوم والصلاة أم لا؟ وهكذا نقف على قيمة عباداتنا وأعمالنا.

نعم اننا نعلم بأنّ اللَّه حكيم، وحكمته تقتضـى ألايشـرع شـيئاً دون أن يبيّن هـدفه ونتيجته، ويا لهم من جهال أولئك الذين يزعمون أنّ أفعال اللَّه ليست معلله بغرض؛ أى ليس هناك من هـدف فى تشـريعاته وأعماله! أنّهم ليسـيئون بهذا الكلام إلى كونه حكيماً سـبحانه، وهم يزعمون أنّهم اقتربوا من حقيقة التوحيد، والحال أنّهم مصداق لهذه الآية الشريفة:

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَ نَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»[۸۰۱].

نعم أفعال اللَّه ليست معللة بأغراض، أى ليس هناك من هدف يعود إليه، لأنّه غنى عن كل شـىء وعن كل موجود؛ إلّاأنّ المؤسف له أنّ هؤلاء الجهال لايقولون ذلك، بل يزعمون أن لاضرورة لأنّ تعود نتيجة أفعال اللَّه وأوامره على العباد، وهذا منتهى الجهل!!

على كل حال فانّ الإمام عليه السلام بين فلسفة الأحكام فى هذه الخطبة، بحيث يتأجج الشوق فى أعماق من يتمعنها لأن يؤدى وظائفه على أكمل وجه دون أن يشعر بالتعب والملل.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۴۰۳

القسم الثانى: القرآن والسنة

اشارة

«أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ فَانَّهُ أَحْسَنُ الـذِّكْرِ. وَارغَبُوا فِيما وَعَـدَ الْمُتَقِينَ فَإِنَّ وَعْـدَهُ أَصْـدَقُ الْوَعْـدِ. وَاقْتَـدُوا بِهَدْى نَبِيِّكُمْ فَانَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْىِ. وَاسْتَنُّوا بِسُـنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْـدَى السُّنَنِ. وَتَعَلَّمُـوا الْقُرآن فَـإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَـدِيثِ، وَتَفَقَّهُـوا فِيهِ فَـإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُـوبِ، وَاسْتَشْـفُوا بِنُورِهِ فَـإِنَّهُ شِـفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسِـنُوا تِلَـاوَتَهُ فَـإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَـص، وَإِنَّ الْعَالِمَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِى لَا يَسْـتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ؛ بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ،

وَالحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وَهُوَ عِنْدَ اللّهِ أَلْوَمُ».

الشرح والتفسير

بعـد أن فرغ الإمـام عليه السـلام من بيـان أركان الإسـلام وذكر فلسـفة الأحكام، دعا الناس إلى امتثال الأحكام والعمل بالوظائف فقال عليه السلام:

«أفيضوا فى ذكر اللّه فانّه أحسن الذكر».

فالعبارة

«أفيضوا»

تفيد كثرة ذكر اللّه سبحانه والتوجه إليه.

والعبارة

«أحسن الذكرى»

لأنّ ذكر اللّه سبحانه مصدر وأساس كافة البركات المادية والمعنوية.

فقد جاء فى الحديث النبوى:

«ليس عمل أحب إلى اللّه تعالى ولا أنجى لعبـد من كل سـيئة فى الـدنيا والآخرة، من ذكر اللّه. قيل: ولا القتال فى سبيل اللّه؟ قال: لولا ذكر اللّه لم يؤمر بالقتال»[۸۰۲].

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۴۰۴

ثم قال عليه السلام:

«وارغبوا فيما وعد المتقين فانّ وعده أصدق الوعد، واقتدوا بهدى نبيّكم فانّه أفضل الهدى واستنوا بسنته فانّها أهدى السنن».

لاشك أنّ الوعود الإلهيـة للمطيعين والمؤمنين الصالحين لهى أصدق الوعود، لأنّ من يتخلف عن الوعد إمّا عاجز، أو بخيل أو جاهل، حيث يعد دون علم، ثم لايفى بوعده. أمّا من كان مطلق فى علمه وقدرته فخلف الوعد محال عليه.

المراد بالهدى (على وزن منع) السبيل والاسلوب والطريقة.

والسـنة تعنى مـا يصـدر من الأوامر فى مختلف المجالات، ولما كان رسول اللّه صـلى الله عليه و آله هو خاتم الأنبياء، فمن الطبيعى أن تكون سنة أهدى السنن.

ثم أكد الإمام عليه السلام على القرآن فقال:

«وتعلموا القرآن فـانّه أحسن الحـديث، وتفقهوا فيه، فـانّه ربيع القلوب، واستشـفوا بنوره فانه شـفاء الصـدور، وأحسـنوا تلاوته فانّه أنفع القصص».

فقد ذكر الإمام عليه السلام أربع مراحل مختلفة تتقدم كل واحدة منها بصورة طبيعية على الاخرى

فى المرحلة الاولى أوصى عليه السلام بتعلم القرآن على أنّه أحسن الحديث؛ وذلك لاشتماله على أكمل أسس سعادة الإنسان.

المرحلـة الثانيـة أوصـى عليه السـلام بالتفكير والتـدبر فيه وسبر غوره والوقوف على معناه ومضـمونه، بفضـله ربيع القلوب، فكما تتفتح البراعم فى فصل الربيع وتورق الأشـجار وتنبت الأوراد والزهور وتنتشـر رائحتها العطرة فى كل مكان، فببركة القرآن الكريم تظهر على القلب زهور فضائل الأخلاق وبراعم المعارف الإلهية، فمن لم يكتسب منه الحياة الإنسانية، كان كالشجرة اليابسة التى لاتهتز وتتحرك فى فصل الربيع.

المرحلة الثالثة الأمر بالعمل والقول: عليكم بالاستشـفاء بنور آيات اللّه، على غرار نور الشمس التى يستشفى فى ظلها المرضى، فقد قيل أشعة الشمس قد تغنى عن حضور الطبيب.

والمرحلة الرابعة:

«أحسنوا تلاوته»

لتغوص القلوب فيه وتطبع بطابعه فتبلغه إلى الآخرين.

وهكذا يكون الإمام عليه السلام قد حدد وظيفة الأفراد تجاه القرآن الكريم. وليت الأفراد لم يكتفوا بالاقتصار على حسن تلاوة القرآن وتجويده والتركيز على جمالية الصوت، والتفتوا إلى سائر

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۴۰۵

المراحل التى تشكل الدف الأصلى للقرآن. وقد عبرت العبارة الاولى عن القرآن على أنّه أحسن الحديث، والعبارة الأخيرة أنفع القصص. فالحديث ما يصدر من المتحدث من كلام (لأنّ الحديث من مادة حدوث ويطلق على الكلام الحديث لأنّه حادث باستمرار) فالمفهوم أنّ القرآن أفضل كلام بين الناس، من حيث الفصاحة والبلاغة، ومن حيث المحتوى والمضمون، والواقع هو أنّ العبارة إشارة إلى الآية الشريفة: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ»[۸۰۳].

أمّا أحسن القصص فقد ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بها المجموعة القرآنية بما فيها الآثار والنتائج العلمية للقرآن التى تتحصل فى ظل اجراء الأحكام والتعاليم القرآنية.

ومن هنا وردت الإشارة فى آخر الخطبة إلى نقطة مهمّة بالنسبة للعالم الذى لاعمل له، واولئك الذين يتلون القرآن ولايعملون به، إذ قال عليه السلام:

«إنّ العالم بغير علمه كالجاهل الحائر الذى لايستفيق ۸۰۴] من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة ألزم، وهو عند اللّه ألوم ۸۰۵]».

فالعبارة تشتمل على تشبيه رائع للعالم بلا عمل (أو بتعبير الإمام عليه السلام العالم الذى لايعمل بعلمه) يفيد أنّ مثل هذا العالم أقل درجة فى الواقع من الجاهل العادى. بل هو كالجاهل الحائر الذى لايفيق من جهله قط، فليس هنالك من أمل فى هدايته؛ وذلك لأنّه يسير عن علم على الطريق الاعوج، ومن هنا فان اللّه سبحانه يسلبه توفيق الهداية فيفقد صوابه فى هذه الحيرة ولايصل ساحل النجاة أبدا فيسقط فى الهاوية.

ثم أشار عليه السلام إلى مدى بؤس مثل هذه العالم السادر فى غيه فقال عليه السلام أولًا بأنّ الحجة عليه أعظم، فقد يتذرع الجاهل بجهله (إن يكن الجهل عذراً) ولكن ما عذر العالم بلا عمل.

والثانى حسرته لازمة، فقد تخلف عن السعادة وكانت كافة أسبابها لديه فتاه حائراً فى صحراء الحياة.

نفحات الولاية، ج۴، ص: ۴۰۶

والثالث أنّه أكثر لوماً عند اللّه من الجاهل الحائر، لأنّ الحجة عليه أتم من غيره. ومن هنا ورد فى الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد»[۸۰۶]

. بل يتعذر قبول توبة هذا العالم الذى لاعمل له. فقد صرح القرآن الكريم قائلًا:

«إِنَّما التَّوْبَةُ عَلى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ...»[۸۰۷].

تأمّل: عاقبة العالم غير العامل

الناس على أربع: عالم، جاهل مقصر، جاهل مقصر بسيط وجاهل مركب. فالعالم من يعلم المطلب على نحو الاجمال أو التفصيل؛ أى قد يكون له أحياناً علم اجمالى بالشيء، وقد يكون له أحياناً اخرى علم تفصيلى. فهو يعلم مثلا على نحو الإجمال أنّ المسكر حرام وله أضرار على جسم الإنسان وروحه. أو أنّه رأى على نحو التفصيل أدلة حرمة المسكر وقد درس الآثار الضارة له على كل عضو من

أعضاء البدن.

والجاهل القاصر من لايعلم، وليس له من سبيل إلى العلم، وربّما كان بعيداً عن مراكز العلم فانغمس فى الغفلة والسهو.

والجاهل المقصر من له سبيل إلى العلم، إلّاأنّ الكسل والإهمال لم يدعه يتجه إلى العلم، فيبقى فى جهله، مع ذلك فهو يعلم بجهله! أى يدرى أنّه لايدرى.

وأمّا الجهل المركب فهو من جهل ولايدرى أنّه فى جهل. بل بالعكس يظن أنّه عالم وما يفهمه من الامور هو عين الواقع، وبعبارة اخرى فهو: لايدرى أنّه لايدرى.

ويبدو أنّ الخطر والمسؤوليته التى تتوجه إلى الجاهل القاصر أقل من غيرها بالنسبة للطوائف الأربع، ويأتى بعده الجاهل المقصر ثم الجاهل المركب؛ الذى قد يدفعه جهله المركب لايجاد بعض المشاكل لنفسه والآخرين. إلّاأنّ الأخطر من الجميع هو العالم.

نفحات الولايۀ، ج۴، ص: ۴۰۷

الذى لا عمل له. وإلى هذه الطائفة تعزى جميع الكوارث التى تكبدتها البشرية طيلة التأريخ بما فيها النزاعات والحروب فى الماضى والحاضر.

فهم الذين يصنعون أخطر أسلحة الدمار الشامل التى تهدف إلى القضاء على الأبرياء من المجتمع البشرى. وهم الذين يشعلون فتيل الحرب من أجل تحقيق مآربهم واطماعهم.

وأخيراً هؤلاء هم الذين يستحوذون على المواقع المتقدمة والمراكز الحساسة فى الأجهزة الإعلامية ووسائل الدعاية ليمارسوا أوسع عملية تضليل ليشوهوا الحقائق فيسوقوا الجهال إلى نيران فتنهم ويقضوا على حياتهم. وقد شبههم القرآن الكريم بالكلاب إذ قال: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ»[۸۰۸].

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: ترى ما سر هذا التضاد بين العمل والعلم أولم يكن حرياً بهذا العالم أن يتجه إلى الصواب ويقود الناس إليه؟

ويبدو الجواب واضحاً على هذا السؤال وهو أن أسس ودعائم إيمان هذا العالم إنّما هى فى الواقع ضعيفة خاويۀ، وإن انتحل الإسلام والعلم ظاهراً، إلّاأنّ لسانه الباطنى

«يقولون إن اللّه خالق جنّة ونار وتعذيب وغل يدين»[۸۰۹].

كما قد يكون مؤمنا باللّه إلّاأنّه منقاد لهوى نفسه الذى يتغلب على إيمانه.

ونختتم هذا الكلام بحديث عن على عليه السلام فى أنّ التوارة قد اختتمت بخمس عبارات هى ۸۱۰].

الأول: العالم الذى لا يعمل بعلمه فهو وابليس سواء.

والثانى: سلطان لايعدل برعيته فهو وفرعون سواء.

والثالث: فقير يتذلل لغنى طمعاً فى ماله فهو والكلب سواء.

والرابع: غنى لاينتفع بماله فهو والاجير سواء.

والخامس: إمرأة تخرج من بيتها بغير ضرورة فهى والامّة سواء.

نفحات الولايۀ، ج۴، ص: ۴۰۸

اللّهم نسألك العمل بما نعلم من العلم الذى أفضته علينا فى ظل قبسات وعلوم نهج البلاغة لأميرالمؤمنين على عليه السلام، اللّهم ولاتقرنا مع الشيطان أبداً، اللّهم نسألك حسن العاقبة وأن تختم لنا بالخير.

وآخر دعوانا أن الحمد للّهربّ العالمين.

تم بعون اللّه المجلد الرابع من شرح نهج البلاغة

فی ۱۷ شوال. عام ۱۴۲۲ ه ویلیه المجلد الخامس ان شاء اللّه.

---

[۱] (۱) سند الخطبة: قد کفانا الرضی(ره) مؤنة البحث عن مصادر هذه الخطبة إذ ذکر أنّه نقلها عن مسعدة بن صدقة العبدی عن أبی عبداللّه علیه السلام ومسعدة هذا له کتب منها کتاب(خطب امیرالمؤمنین علیه السلام) کما ذکرنا ذلک فی أوائل هذا الکتاب تحت عنوان الکتب المؤلفة فی کلام أمیر المؤمنین علیه السلام وقلنا هناک إنّ کتاب مسعدة هذا کان باقیاً إلی زمن السید هاشم البحرانی(ره) إذ نقل عنه کثیراً فی تفسیره المعروف بالبرهان کما نوه به فی مقدمة الکتاب المذکور ثم صار فی ضمائر الغیوب. وعلی کل حال ان الخطبة الاشباح هذه من خطب أمیر المؤمنین المشهورة رواها العلماء قبل الرضی أیضاً أحمد بن عبد ربّه المالکی فی العقد الفرید والشیخ الصدوق فی التوحید باختلاف فی بعض الألفاظ والفقرات مع روایة الرضی. ورواها الزمخشری فی ربیع الأبرار وإبن الأثیر فی النهایة. و الخطبة شاهدة لنفسها لا- تحتاج مع لفظها الباهر، ومعناها الظاهر، إلی اسناد متواتر کما قال السید ابن طاووس(حیث من المستبعد إن تصدر مثل هذه المضامین من غیر المعصوم)(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۱۶۸).

[۲] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۶/ ۴۲۵.

[۳] (۱) لابدّ من الالتفات هنا إلی أنّ الخطبه تقسم بشکل عام إلی عشرة أقسام، حیث تقسم هذه الأقسام بدورها إلی عدّة أقسام اخری. ولذالک عمدنا فی النهایة إلی شرحها علی أساس جعلها أربعة وعشرین قسماً.

[۴] (۲) توحید الصدوق/ ۷۹ ح ۳۴.

[۵] (۱) ابن فارس، مقاییس اللغة.

[۶] (۱)« یفره» من مادة« وفور» بمعنی الکثرة والزیادة.

[۷] (۲)« یکدیه» من مادة« کدی» علی وزن کسب بمعنی البخل، وهی هنا بمعنی یفقره وینفد خزائنه.

[۸] (۳) منهاج البراعة ۶/ ۲۸۸.

[۹] (۴) بحار الانوار ۶۸/ ۱۴۰ ح ۳۱.

[۱۰] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۶/ ۴۰۰.

[۱۱] (۲)« اناسی» جمع« إنسان» و یطلق علی أفراد بنی الإنسان کما یطلق هذا اللفظ علی بؤبؤ العین، لانعکاس صورة الأفراد فیها.

[۱۲] (۱) سورة الانعام/ ۱۰۳.

[۱۳] (۲) اقتباس من سورة البقرة/ ۲۵۵؛ سورة الاعراف/ ۱۴۲.

[۱۴] (۳)« لجین» علی وزن حسین بمعنی الفضة.

[۱۵] (۴)« عقیان» الذهب الخالص.

[۱۶] (۵)« نثارة» من مادة« نثر» علی وزن نصر التناثر والتشتت، حیث تتشقق أغلفة الأصداف فتتناثر منها حبیبات الدر هنا وهناک.

[۱۷] (۶)« یغیض» من مادة« غیض» علی وزن فیض النقصان وذهاب الماء فی الأرض ووردت فی العبارة بمعنی عدم نقصان منابع الفیض الإلهی بالعطاء.

[۱۸] (۱) مفاتیح الجنان، أعمال شهر رجب.

[۱۹] (۱) سورة الشوری ۱۱.

[۲۰] (۲) سورة طه/ ۱۱۰.

[۲۱] (۱) قال ابن أبى الحديد فى شرح هذه الخطبة يمكن أن تكون جملة يقولون نصباً على أنّه حال من الراسخين، ويمكن أن يكون كلاماً مستأنفاً، أى هؤلاء العالمون بالتأويل، يقولون: آمنا به(۶/ ۴۰۴).

[۲۲] (۱)« ارتمت» من مادة« رمى» على وزن نهى تعنى اطلاق السهم، ولما كان السهم يتحرك بسرعة فان جملة« ارتمت» تعنى سرعة حركة الأفكار.

[۲۳] (۱)« منقطع» الشى ما إليع ينتهى حيث يحصل القطع عادة آخر الشى.

[۲۴] (۲)« تولهت» من مادة« وله» بمعنى العشق و شدة حب الشى حتى تجعل الإنسان حيراناً وتصيبه بالذهول.

[۲۵] (۳)« تجوب» من مادة« جوب» على وزن ذوب بمعنى القطع والثقب. فقد ورد فى الاية التاسعه من سورة الفجر بشأن قوم الثمود« و ثمود الذين جابوا الصخر بالواد» فى اشارة الى دورهم التى كانوا يبنوها فى الجبال من جراء قطع الحجر والصخر.

[۲۶] (۴)« مهاوى» جمع« مهواة» و« مهوى» تعنى فى الأصل الوادى بين جبلين، أو الحفرة بين جدارين، و لما كان مثل هدا المكان مطبا، فقد وردت هذه الكلمه بمعنى الهلاك.

[۲۷] (۵)« سدف» جمع« سدفة» بمعنى الظلمة.

[۲۸] (۶)« جبهت» من مادة« جبهة» بمعنى الجبين با البناء للمجهول ضربت جبهتها والمراد عادت خائبه.

[۲۹] (۷)« اعتساف» السلوك على غير جادة، كما وردت بمعنى مطلق الانحراف والعدول عن الشى.

[۳۰] (۱)« رويات» جمع« روية» وهى الفكر.

[۳۱] (۱) الضمير فى حجته ودلالته يعود إلى الخلق لا الخالق.

[۳۲] (۲) سورة فصلت/ ۵۳.

[۳۳] (۳) الكنى والالقاب ۱/ ۱۲۱.

[۳۴] (۱)« تلاحم» من مادة« لحم» بمعنى الاتصال، شبيه اتصال عضلات الجسم.

[۳۵] (۲)« حقاق» جمع« حقه» وهو رأس العظم عند الفصل.

[۳۶] (۱)« عادل» مادة« عدل» على وزن قشر بمعنى المعادل والشبيه والنظير والعادلون بك الذين عدلوا بك غيرك، أى سووه بك وشبهوك به.

[۳۷] (۱)« نحلوا» من مادة« نحل» بمعنى الهبة والعطية، وحلية المخلوقين صفاتهم الخاصة بهم من الجسمانية ومايتبعها.

[۳۸] (۲)« قرائح» جمع« قريحه» تعنى فى الأصل أول ماء يسحب من البئر، ثم اطلقت على النتاجات الفكريةوالذوقية للإنسان.

[۳۹] (۱) سورة الشورى ۱۱

[۴۰] (۲) سورة الانعام/ ۱۰۳.

[۴۱] (۳) سورة الأعراف/ ۱۴۳.

[۴۲] (۴) سورة الحديد/ ۴.

[۴۳] (۵) سورة ق/ ۱۶.

[۴۴] (۶) سورة البقرة/ ۱۱۵.

[۴۵] (۷) سورة الفتح/ ۱۰.

[۴۶] (۸) سورة طه/ ۵.

[۴۷] (۱) شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى ۱/ ۳۳۳

[۴۸] (۱) سورة فصلت/ ۹.

[۴۹] (۲) سورة البقرة/ ۲۲.

[۵۰] (۳)« مهب» اسم مكان من مادة« هبوب» بمعنى موضع هبوب الرياح، وقد شبهت العبارة المذكور الفكر بالنسيم الذى يهب من موضع؛ إلّاأنّ كنه ذات اللَّه وصفاته سبحانه خارجة عن ذلك الموضع.

[۵۱] (۱) قريحة: كما أسلفنا سابقاً فى الأصل، بمعنى أول ماء يخرج من البئر عند ما يحفر، و كذلك يطلق على مايتفتق من أعمال فكر و ذوق الانسان.

و يشمل ذلك الغريزة التى هى بمعنى الطبيعة، و هو الشيء الذى يحصل عليه الانسان بمساعدة ذوقه و طبعه.

و يصح هذا المعنى أيضاً على غير الانسان، فمثلًا أكثر الطيور تقوم ببناء أعشاشها و تربية فراخها و الهجرة الطويلة و بشكل جماعى و أمثال ذلك، كل هذا يتم بواسطة القريحة و الغريزة.

[۵۲] (۱)« الريث» التثاقل عن الامر والقيام بالعمل.

[۵۳] (۲)« أناة» بمعنى الوقار المقرون بالفكر حين القيام بالعمل.

[۵۴] (۳)« متلكئ» من مادة« لكأ» على وزن هدف الوقوف فى مكان، ثم اطلقت على من يتوقف فى مسألة ويفكر فيها.

[۵۵] (۴) سورة فصلت/ ۱۱.

[۵۶] (۱)« أود» بمعنى الاعوجاج.

[۵۷] (۲) الجملة من حيث النحوى أنّ« بدايا» خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه، واضافة بدايا إلى الخلائق من قبيل اضافة الصفة إلى الموصوف، التى تعنى فى الأصل خلائق بدايا، وبدايا جمع بديئه المصنوع البديع.

[۵۸] (۱) سورة البقرة/ ۳۲.

[۵۹] (۲) سورة آل عمران/ ۱۹۱.

[۶۰] (۱)« رهوات» جمع« رهوة»، قال بعض أرباب اللغة(كتاب العين) تعنى المرتفع فوق الجبال، بينما فسرهاأغلب أرباب اللغة على انها من مادة« رهو» على وزن سهو بمعنى المكان الخالى والمفتوح. والانسب أن يكون معناها فى الخطبة النقاط المفتوحة. وأخير اعتبرها البعض من الأضداد؛ أى تعنى المكان المرتفع والمنخفض أيضاً.

[۶۱] (۲)« لاحم» من مادة« لحم» بمعنى ملأ فراغ الشى، مايصطلح عليه باللحيم، ولعل أصلها اللحم الذى يملأ الفاصلة بين العظام.

[۶۲] (۳)« صدوع» جمع« صدع» على وزن حرف بمعنى الشق.

[۶۳] (۱) سورة الرعد/ ۲.

[۶۴] (۲)« وشج» من مادة« وشج» على وزن نسج أى شبك.

[۶۵] (۳) فسّر البعض« الأزواج» هنا بمعنى الأرواح(النفوس الفلكية) وترمز إلى عقيدة بعض الفلاسفة الذين‌يرون لكل فلك روحا مجردة، إلّاأنّ الانصاف هو عدم ثبوت هذه النظرية بدليل واضح، كما لا تدل العبارة المذكور على هذا الأمر.

[۶۶] (۴)« حزونة»(ولها معنى المصدر واسم المصدر) بمعنى الصعوبة، وقدوردت فى الخطبة بمعنى المشاكل والصعاب.

[۶۷] (۱) لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ ثم الواردة فى الآية تعنى التأخير فى البيان لا الزمان. وعليه فهى لا تدل على أنّخلق السموات جاء بعد خلق الأرض(راجع التفسير الأمثل/ ۱۱ من سورة فصلت).

[۶۸] (۱) سورة الأنبياء/ ۳۰.

[۶۹] (۲) المراد بالرؤية هنا تلك التى تحصل عن طريق الفكر والتأمل، لا عن طريق المشاهدة الحسية؛ وذلك لأنه لم يكن الإنسان فى ذلك الزمان كما احتمل فى تفسير هذه الآية ان المراد من رتق السموات عدم وجود المطر ونمو النباتات، والمراد بفتقها هو نزول المطر ونمو النباتات.

[۷۰] (۱)« تمور» من مـادهٔ« مور» على وزن قول بعـدّهٔ معـانى فى اللغـهٔ ومنها الحركـهٔ السـريعهٔ والغبار الـذى تبعثرهالرياح هنا وهناك، والذى يستفاد من تعبيرات أرباب اللغهٔ أنها تعنى الاضطراب فى الهواء.

[۷۱] (۲)« أيـد» على وزن صـيد بمعنى القـدرهٔ والنعمـهٔ، وجاء فى القرآن ذا الأيـد بمعنى صاحب القوهٔ وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبهٔ.

[۷۲] (۱) ورد شرح مفصل لهذا الموضوع فى المجلد الأول من هذا الكتاب/ ۱۰۲- ۱۲۰.

[۷۳] (۱) سورهٔ فصلت/ ۳۷.

[۷۴] (۲)« مناقل» جمع« منقل» من مادهٔ« نقل» بمعنى الطريق.

[۷۵] (۳) سورهٔ يونس/ ۵.

[۷۶] (۴)« ناط» من مادهٔ« نوط» على وزن موت توقف الشى على آخر.

[۷۷] (۵)« درارى» جمع« درى» من الدر الكواكب والقمار.

[۷۸] (۱) سورهٔ الانعام/ ۹۷.

[۷۹] (۲)« مسترقى» جمع« مسترق» بمعنى السارق ومنه استرق السمع، أى سماعهٔ خفيهٔ.

[۸۰] (۳)« أذلال» جمع« ذل» بكسر الذال المجرى والمسير.

[۸۱] (۱) وسائل الشيعهٔ ۱۲/ ۱۰۴. للوقوف على سائر الأحاديث الواردهٔ بهذا الشأن راجع الباب ۲۴ من أبواب مايكتسب به.

[۸۲] (۱)« صـفيح» من مادهٔ« صـفح» تعنى فى الأصل الانبساط والسـعهٔ، وعليه فهى تأتى بمعنى السـطح الواسع، وقـدوردت هنا بمعنى السماء الواسعهٔ.

[۸۳] (۲)« فتوق» جمع« فتق» بمعنى الشق فى الشـى أو الفاصـلهٔ بين شيئين، والفارق بين« الفروج» جمع فرج بمعنىالشق هو سعهٔ الفتق، كما قد يكون إشارهٔ إلى الشق الذى يفصل بين الشيئين، بينما ليس للفرج مثل هذا الفصل، ولايعنى سوى الشق فى الشى.

[۸۴] (۳)« أجواء» جمع« جو» بمعنى الهواء أو الفاصلهٔ بين السماء والأرض.

[۸۵] (۱)« فجوات» جمع« فجوهٔ» الموضع الواسع، كمـا تـأتى بمعنى الفراغ بين الشـيئين، وردت فى قصـهٔ أصـحابالكهف فى القرآن كاشارهٔ لسعهٔ غار أصحاب الكهف« وَهُمْ فِى فَجْوَهٍٔ مِنْهُ».

[۸۶] (۲)« زجـل» من مادهٔ« زجل» على وزن حمل بمعنى قـذف الشـى، وزجل على وزن عمل بمعنى الصوت المرتفع والمطرب، كما اطلقت على كل صوت مرتفع.

[۸۷] (۳)« حظائر» جمع« حظيرهٔ» المنطقهٔ الممنوعهٔ ومادتها« حظر» على وزن فرض بمعنى المنع.

[۸۸] (۴)« سرادقات» جمع« سرادق» الحجاب والخيمهٔ العظيمهٔ.

[۸۹] (۵)« رجيج» من مادهٔ« رج» على وزن حج الزلزلهٔ والاضطراب.

[۹۰] (۶)« تستك» منه تصم منه الاذان لشدته.

[۹۱] (۷)« سبحات» جمع« سبحهٔ» بمعنى النور والعظمهٔ، واضافتها إلى النور فى العبارهٔ هى إضافيهٔ بيانيهٔ.

[۹۲] (۸)« خاسئهٔ» من مادهٔ« خسأ» على وزن مدح الدفع والطرد مع التحقير.

[۹۳] (۹) راجع بهذا الشأن بحارالأنوار، ج ۵۵ كتاب« السماء العالم» الباب ۵(الحجب والاستار والسرادقات).

[۹۴] (۱) يمكن أن تكون العبـارهٔ« تسـبح جلالـ عزته» أشارهٔ إلى تسبيـح الملائكـهٔ أمام جلال الحق وعزته، والصـيغهٔ المؤنثـهٔ بسـبب مفهومها الجمعى.

[۹۵] (۱) راجع المجلد الأول من هذا الشرح/ ۱۵۹.

[۹۶] (۲)« ينتحلون» من مادة« انتحال» بمعنى إدعاء الشخص شيئا لصالحه، وهو يتعلق بآخر.

[۹۷] (۳) سورة الأنبياء/ ۲۶– ۲۷.

[۹۸] (۴)« زائغ» من مادة« زيغ» على وزن ميل بمعنى العدول عن الحق.

[۹۹] (۱) سورةالحج/ ۷۵.

[۱۰۰] (۲)« اخبات» الخضوع والخشوع والتواضع.

[۱۰۱] (۳)« ذلل» جمع ذلول السهل.

[۱۰۲] (۴)« تماجيد» جمع« تمجيد» بيان المجد والشرف والعظمة الشخصية.

[۱۰۳] (۱)« موصرات» من مادة« اصر» بمعنى الحفظ والسجن، ثم اطلق على كل فعل ثقيل يعيق الانسان عن العمل، ومؤصرات الأثام مثقلاتها.

[۱۰۴] (۲)« عقب» جمع« عقبة» على وزن غرفة وجمعها غرف تعنى النوبة. إشارة إلى تعاقب الليل والنهار حسبنوبتهما.

[۱۰۵] (۱)« نوازع» جمع« نازعة» من مادة« نزع» على وزن وضع بمعنى سحبه أو رفعه من مكانه.

و فى العبارة اعلاه، تطلق على السهم عند ما يراد اطلاقه من القوس فى حالة سحب وتر الاطلاق إلى الخلف.

[۱۰۶] (۲)« تعترك» من مادة« عرك» الازدحام.

[۱۰۷] (۳)« إحن» جمع« إحنة» بمعنى الحسد والكره.

[۱۰۸] (۴)« تقترع» من مادة« قرع» بمعنى الضرب.

[۱۰۹] (۵)« الرين» بفتح الراء الدنس وما يطبع على القلب من حجب الجهالة.

[۱۱۰] (۱)« الدلح» جمع« دالح» من مادة« دلوح» بمعنى السحب المليئة بالمطر، وكأنّها تتحرك ببطئ لثقلها(لأنأصلها الغوى يعنى بطئى الحركة).

[۱۱۱] (۲)« شمخ» جمع« شامخ» من مادة« شموخ» بمعنى العلو والرفعة ومن هنا يطلق الشامخ على الجبل المرتفع.

[۱۱۲] (۳)« قترة» بمعنى ضيق وانضمام شيء إلى آخر، ولما كانت شدة الظلمة كذلك وكان الظلمات قد انضم بعضها الى بعض وتراكمت، اطلق عليها هذه المفردة.

[۱۱۳] (۴)« أيهم» تعنى فى الأصل المجنون وناقص العقل ويقال للصحراء القاحلة فلاة كما تطلق على الظلام فيقال« الظلام الأيهم» أى لايرى فيه كوكباً.

[۱۱۴] (۱)« تخوم» جمع« تخم» تعنى فى الأصل الحد، وتخوم الأرض اعماقها.

[۱۱۵] (۲)« مخارق» جمع« مخرق» من مادة« خرق» على وزن خلق. بمعنى موضع الخرق، ومخارق الهواء الشقوق بين طبقات الهواء.

[۱۱۶] (۳)« هفافة»، الريح التى تتحرك بسرعة. وقيل هفافة بمعنى الطيبة الساكنة، إلّاأنّ هذا المعنى لايبدو مناسباًللعبارة المذكورة، ولايستبعد ادغام المعنيين فى مفهوم واحد وهو الريح السريعة المنتظمة.

[۱۱۷] (۴)« وله» تغنى الحيرة من شدة الحزن حتى يفقد صاحبها عقله، ثم اطلق على العشق المفرط الذى يسلبالإنسان استقراره.

[۱۱۸] (۱) الكافى ۲/ ۸۳، ح ۳، باب العبادة.

[۱۱۹] (۱)« رويـة» من مادة« رى» على وزن طى التى تروى منه العطش، وكأس رويـة كنايـة عن الظرف المملوة الـذىيروى العطشان بصورة تامة.

[۱۲۰] (۲)« سويداء» تصغير« سوداء» من السواد، و هى حبة صغيرة فى القلب تشكل مركزه حب اعتقاد القدماء.

[۱۲۱] (۳)« وشيجة» من مادة« وشج» أصلها عرق الشجرة وإراد بها هنا بواعث الخوف من اللّه.

[۱۲۲] (۴)« حنو» من مادهٔ« حنو» على وزن حذف بمعنى الالتواء والانحناء.

[۱۲۳] (۵)« زلفهٔ» من مادهٔ« زلف» على وزن ضعف بمعنى القربى، و« زلفه» و« زلفى» بمعنى المقام والمنزلهٔ والقرب.

[۱۲۴] (۶)« ربق» جمع« ربقه» حبل فيه عـدهٔ عرى تربط فيه البهم، ثم اطلقت على الرابطـهٔ المحكمـهٔ بين شـىء وأخر، وقـد وردت هنا بهذا المعنى.

[۱۲۵] (۷)« إسـتكانهٔ» من مادهٔ« سكون» تأتى بمعنى الخضوع والتواضع فى هذه الموارد. قيل من باب إفتعال من مادهٔسكون، وقيل من باب استفعال من مادهٔ كون وهى أيضاً بمعنى السكون فى مكان مع الخضوع والخشوع.

[۱۲۶] (۱)« دؤوب» مصدر بمعنى الدوام والاستمرار والسعى والجهد إلى حد التعب والارهاق.

[۱۲۷] (۲) سورهٔ الأنبياء/ ۲۰.

[۱۲۸] (۳)« تغض» من مادهٔ« غيض» بمعنى تنقص و تقل. و أشارت فى العبارهٔ إلى عدم قلهٔ رغبهٔ الملائكهٔ بطاعهٔ اللَّه و عبادته.

[۱۲۹] (۴)« أسلات» جمع« أسله» بمعنى طرف اللسان، وتطلق على من لايكل عن الذكر ولايجف لسانه.

[۱۳۰] (۵)« همس» على وزن لمس، الخفى من الصوت.

[۱۳۱] (۶)« جؤار»، الصوت المرتفع، وقد ورد فى العبارهٔ بمعنى رفع صوت الملائكهٔ بالتضرع وعدم الكف عن المناجاهٔ.

[۱۳۲] (۷)« مقاوم»، قال شرّاح نهج البلاغهٔ مقاوم جمع مقام بمعنى الصفوف وإن لم تعثر على مثل هذا الجمع ۲ فى المصادر اللغويهٔ.

[۱۳۳] (۱)« يثنوا» من مادهٔ« تثنى» بمعنى الطى وأن أطلقت على المدح فلأنها تعدد صفات الشخص البارزهٔ الواحدهٔبعد الأخرى.

[۱۳۴] (۲)« تنتضل» من مادهٔ« نضال» ترمى السهام.

[۱۳۵] (۳) روضهٔ المتقين ۱۳/ ۲۶۴.

[۱۳۶] (۱) موسوعهٔ الإمام على بن أبى طالب ۹/ ۲۰۲؛ بحارالأنوار ۴۶/ ۷۵.

[۱۳۷] (۱)« يمموا» من مادهٔ« يم» قصـدوه بالرغبـهٔ والرجاء عنـد ما انقطع الخلق سواهم إلى المخلوقين، ومنه« التيمم» الـذى يقصـد فيه الإنسان ضرب يديه بالتراب ومسح ظاهرها وجبهته به.

[۱۳۸] (۲) سورهٔ غافر/ ۱۵.

[۱۳۹] (۳)« الاستهتار» مصدر بمعنى اللامبالاهٔ والحرص على المخالفهٔ، واصله« الهتر» على وزن الستر بمعنىالحماقهٔ والجهل.

[۱۴۰] (۴)« مواد» جمع« مادهٔ» أصلها من« مد» البحر إذ زاد، فالمواد تعنى الزيادهٔ.

[۱۴۱] (۵)« ينوا» من مادهٔ« ونى» على وزن رمى بمعنى الضعف والفتور.

[۱۴۲] (۶)« وشيك» من مادهٔ« وشك» بمعنى السرعهٔ.

[۱۴۳] (۱)« أخياف» من مادهٔ« خيف» على وزن هـدف و هو فى الأصل ما انحدر من سـفح الجبل، و اريد به هنا سواقطالهمم. و تعنى إختلاف العينين مثلًا واحدهٔ زرقاء و أخرى سوداء، ثم أطلقت على كل إختلاف.

[۱۴۴] (۱)« زيغ» من مادهٔ« زيغ» على وزن فيض الاعوجاج.

[۱۴۵] (۲)« ونى» من مادهٔ« ونى» بمعنى الضعف كما مر علينا سابقاً.

[۱۴۶] (۱)« أهاب» جلد الحيوان، أو الجلد المدبوغ.

[۱۴۷] (۲)« حافد» من مادهٔ« حفد» السرعهٔ فى العمل.

[۱۴۸] (۳) تفسير القمى ۲/ ۲۵۵.

[۱۴۹] (۱) وسائل الشيعهٔ ۱۱/ ۱۶۴ ح ۲.

[۱۵۰] (۱)« كبس» بالفتح من مادهٔ« كبس» على وزن حبس بمعنى الأغلاق والضغط.

[۱۵۱] (۲)« مور» على وزن غور التحرك الشديد والهيجان والاضطراب.

[۱۵۲] (۱) مستفلحة من مادة استفحال الهائجة التى يصعب التغلب عليها.

[۱۵۳] (۲)« زاخرة» من مادة« زخر» على وزن فخر بمعنى المليىء.

[۱۵۴] (۳)« أو اذى» جمع أذى على وزن قاضى الموج أو أعلاه.

[۱۵۵] (۴)« تصطفق» من مادة« صفق» على وزن سقف بمعنى ضرب الشيء بآخر مصحوباً بالصوت، واصطفقت الأشجار اهتزت بالريح.

[۱۵۶] (۵)« متقاذفات» من مادة« قذف» على وزن حذف النزاع وقذف شيء على آخر.

[۱۵۷] (۶)« أثباج» جمع« ثبج» بالتحريك وهو فى الأصل ما بين الكاهل والظهر، استعارة لأعلى الموج، التى يقذفبعضها بعضها.

[۱۵۸] (۷)« ترغو» من مادة« رغو» على وزن نقد ومنه الرغوة ما يطفو على اللبن وأريد بها هنا العناصر المكونة للأرض والتى ظهرت عليها مادة مذابة فى البداية.

[۱۵۹] (۸)« جماح» طغيان الفرس ثم اطلق على كل شيء شبيه ذلك.

[۱۶۰] (۹)« كلكل» يعنى الصدر.

[۱۶۱] (۱۰)« تمعكت» من مادة« معك»، تمعكت الدابة تمرغت فى التراب.

[۱۶۲] (۱۱)« كواهل» جمع« كاهل» أعلى الظهر وقرب العنق.

[۱۶۳] (۱۲)« اصطخاب» من مادة« صخب» على وزن وهب بمعنى ارتفاع الصوت وتستعمل حين تختلط أصواتالطيور والضفادع مع بعضها، ووردت هنا بشأن اختلاط الأمواج مع بعضها.

[۱۶۴] (۱۳)« ساجى» بمعنى ساكن من مادة« سجو» على وزن هجو.

[۱۶۵] (۱۴)« حكمة» من مادة« حكم» على وزن حتم تعنى فى الأصل الاعادة والمنع وتطلق على ما أحاط بحنكىالفرس من لجامه. وتطلق الحكمة على العقل والعلم، لأنّها تمنع الإنسان من السيئات والانحرافات.

[۱۶۶] (۱)« مدحوة» من مادة« دحو» بمعنى مبسوطة.

[۱۶۷] (۲)« بأو» على وزن نحو الكبر والزهو والفخر.

[۱۶۸] (۳)« شموخ» بمعنى الكبر والغرور.

[۱۶۹] (۴)« غلواء» من مادة غلو النشاط و الطموح و تجاوز الحد.

[۱۷۰] (۵)« كعم» من مادة« كعم» على وزن طعم، كعم البعير شد فاه لئلا يعفى أو يأكل، وما يشد به كعام.

[۱۷۱] (۶)« كظة» بالكسر ما يعرض من امتلاء البطن بالطعام، ويراد بها هنا ما يشاهد فى جرى الماء من ثقل الاندفاع.

[۱۷۲] (۷)« جرية» بمعنى الجريان.

[۱۷۳] (۸)« همد» من مادة« همود» بمعنى اخماد حرارة النار.

[۱۷۴] (۹)« نَزَقات» من مادة« نزق» الخفة والطيش.

[۱۷۵] (۱۰)« لبد» من مادة« لبود» الوقوف فى مكان.

[۱۷۶] (۱۱)« زيفان» التبختر فى المشية.

[۱۷۷] (۱۲)« وثبات» جمع« وثبة» القفز وقد وردت فى العبارة بمعنى حركة الأرض الشديدة فى الأيام الاولى.

[۱۷۸] (۱)« شواهق» جمع« شاهق» العالى والمرتفع.

[۱۷۹] (۲)« شمخ» جمع« شامخ» و« بذخ» جمع« باذخ» العال والرفيع.

[۱۸۰] (۳) شمخ جمع شامخ وبذخ جمع باذخ العال والرفيع.

[۱۸۱] (۴)« عرانين» جمع« عرنين» على وزن عشرين وهو ما صلب من عظم الأنف.

[۱۸۲] (۵)« سهوب» جمع« سهب» على وزن فهم الفلاة.

[۱۸۳] (۶)« بيد» جمع« بيداء» بمعنى الأرض الفلاة.

[۱۸۴] (۷)« أخاديد» جمع« اخدود» الحفرة الكبيرة.

[۱۸۵] (۱)« الراسيات» جمع« راسية» بمعنى الثقيل والمحكم.

[۱۸۶] (۲)« جلاميد» جمع« جلمود» الحجر الصلد.

[۱۸۷] (۳)« شناخيب» جمع« شنخوب» رأس الجبل.

[۱۸۸] (۴)« الشم» جمع« أشم» بمعنى العالى والمرتفع.

[۱۸۹] (۵)« صياخيد» جمع« صيخود» على وزن محمود الصخرة الشديدة.

[۱۹۰] (۶)« ميدان» بالتحريك الاضطراب.

[۱۹۱] (۷)« أديم» يعنى فى الأصل الجلد المدبوغ ثم اطلق على سطح الأرض.

[۱۹۲] (۸)« تغلغل» المبالغة فى الدخول.

[۱۹۳] (۹)« متسربة» من مادة« تسرب» الدخول خفية.

[۱۹۴] (۱۰)« جوبات»« جوبة» على وزن توبة الحفرة.

[۱۹۵] (۱۱)« خياشيم» جمع« خيشوم» على وزن زيتون وهو منفذ الأنف إلى الرأس.

[۱۹۶] (۱۲)« جراثيم» جمع« جرثومة» المراد هنا ما سفل عن السطوح من الطبقات الترابية.

[۱۹۷] (۱) سورة النباء/ ۷.

[۱۹۸] (۲) سورة النحل/ ۱۵.

[۱۹۹] (۳)« متنسم» من مادة« نسيم» هبوب الرياح المعتدلة. وعليه متنسم(بصيغة اسم مفعول) بمعنى الهواء الصالحللتنفس.

[۲۰۰] (۴)« مرافق» جمع« مرفق» على وزن مكتب كـل مـا يحتاج الإنسان ويسـتفيد منه، وهـذا هو المعنى المراد فى الخطبـة. كما ورد بمعنى مرفق اليد.

[۲۰۱] (۱) سورة الرعد/ ۳.

[۲۰۲] (۱)« جرز»؛ تطلق على الأرض التى تمر عليها مياه العيون فتنبت.

[۲۰۳] (۲)« روابى» جمع« رابية» من مادة« ربو» على وزن غلو مرتفعات الأرض.

[۲۰۴] (۱)« لمع» جمع« لمعة» على وزن لقمة بمعنى قطعة من السحاب أو شيء آخر.

[۲۰۵] (۲)« قزع» جمع« قزعة» على وزن ثمرة القطعة من الغيم.

[۲۰۶] (۳)« تمخضت» من مادة« مخض» على وزن فرض، بمعنى الحركة الشديدة، مثل حركة الشُكية- و هو الوسيلة التى يخض فيها اللبن لفصل الزبد عنه- عند ما نريد فصل الزبد عن اللبن.

و المخاض: يطلق على حركة الطفل الشديدة فى بطن أمه فى حالة الطلق و الوضع.

[۲۰۷] (۴)« مزن» السحب الماطرة.

[۲۰۸] (۵)« كفف» جمع« كفه» على وزن قبة حاشية شيء واطرافه.

[۲۰۹] (۶) و« ميض» من مادة ومض على وزن رمز التشعشع.

[۲۱۰] (۷)« كنهور» القطع العظيمة من السحاب.

[۲۱۱] (۸)« رباب» جمع« ربابة» السحاب الابيض.

[۲۱۲] (۹)« سح» متلاحق متواصل.

[۲۱۳] (۱۰)« أسف» من مادة إسفاف الدنو من الأرض.

[۲۱۴] (۱۱)« هيدب» السحاب المتدلى الذى يقترب من الأرض.

[۲۱۵] (۱۲)« تمرى» من مادة« مرى» من مرى الناقة مسح على ضرعها ليحلب لبنها.

[۲۱۶] (۱۳)« درر» جمع« درة» اللبن.

[۲۱۷] (۱۴)« أهاضيب» جمع« أهضوبة» الحلب المتواصل.

[۲۱۸] (۱۵)« شابيب» جمع« شؤبوب» ما ينزل من المطر بشدة.

[۲۱۹] (۱)« برك» بالفتح مايلى الأرض من جلد صدر العبير.

[۲۲۰] (۲)« بوانى» مثنى« بوان» على وزن لسان عمود الخيمة.

[۲۲۱] (۳)« بعاع» بالفتح ثقل السحاب من الماء.

[۲۲۲] (۴)« استقل» من مادة« استقلال» الحمل.

[۲۲۳] (۵)« عِبء» الحمل.

[۲۲۴] (۶)« هوامد» جمع« هامدة» من مادة« همود» انطفاء النار والهوامد من الأرض ما لم يكن بها نبات.

[۲۲۵] (۷)« زعر» جمع« أزعر» الموضع القليل النبات.

[۲۲۶] (۸)« تبهج» من مادة« بهجت» سر وفرح.

[۲۲۷] (۹)« تزدهى» من الأزدهاء العجب.

[۲۲۸] (۱۰)« ريط» جمع« ريطة» الثوب الرقيق.

[۲۲۹] (۱۱)« أزاهير» جمع« زهرة» النبات.

[۲۳۰] (۱۲)« سمطت» من مادة« سمط» التعليق.

[۲۳۱] (۱۳)« ناضر» من مادة« نضارة» النشاط، ولا سيما الحاصل من وفور النعمة.

[۲۳۲] (۱۴)« أنوار» جمع« نور» البرعم والزهر.

[۲۳۳] (۱)« بلاغ» من مادة« بلوغ» الوصول إلى الشيء وهو هنا ما يتبلغ به من قوت.

[۲۳۴] (۲) سورة عبس/ ۲۵- ۳۲.

[۲۳۵] (۳)« فجاج» جمع« فج» بمعنى الوادى بين الجبلين.

[۲۳۶] (۴)« جواد» جمع« جادة» الطريق الواسع الواضح.

[۲۳۷] (۱) سورة الأنبياء/ ۳۱.

[۲۳۸] (۲) سورة فاطر/ ۲۷.

[۲۳۹] (۳) سورة النحل/ ۱۶- ۱۵.

[۲۴۰] (۱)« جبلة» بمعنى الطبيعة و الفطرة الإنسانية(وقد اشتقت هذه الكلمة من مادة« جبل» حيث تابى هذه الفطرةالتغيير).

[۲۴۱] (۱)« أوعز» من مادة« وعز» على وزن وعظ اقتراح عمل على آخر.

[۲۴۲] (۲) سورة طه/ ۱۱۵.

[۲۴۳] (۳) سورة البقرة/ ۳۵.

[۲۴۴] (۴) للوقوف علی تفاصیل هذا الموضوع راجع کتاب« معرفة اللّه».

[۲۴۵] (۵) سورة الاعراف/ ۲۲.

[۲۴۶] (۱)« أهبط» من مادة« هبوط» النزول.

[۲۴۷] (۲) سورة هود/ ۶۱.

[۲۴۸] (۳)« قرن» الزمان الطویل الذی قد یمتد الی مئة عام، کما یطلق الجماعة التی تعیش مع بعضها فی عصر.

[۲۴۹] (۴)« مقطع» النهایة.

[۲۵۰] (۵)« عذره» و« نذره»،« العذر» هنا اتمام الحجة علی العباد بحیث لایبقی لهم عذرا للمخالفة، و« النذر» جمع النذیر بمعنی الانذار، ذکر العواقب السیئة للشئی.

[۲۵۱] (۱) جملة« لیقیم الحجة به علی عباده»« فی حالة عود الضمیر« به» علی آدم علیه السلام أیضاً یمثل دلیلًا آخراً علی نبوةآدم علیه السلام.

و تعبیر« عباده» یشیر إلی حواء و أولاد آدم، بالاضافة إلی مصیر آدم و زوجته بعد الخروج من الجنة بعد ارتکاب الخطأ، و هی حجة علی بنی آدم کافة إلی یوم القیامة.

[۲۵۲] (۱) بحارالأنوار ۶۸/ ۱۴۰، وقد ورد شبه هذا المعنی فی الغنی والفقر والصحة والمرض والتوفیق للعبادة منعدمه فی بحارالانوار ۵/ ۲۸۴ عن النبی صلی الله علیه و آله عن اللّه سبحانه.

[۲۵۳] (۲)« أتراح» جمع« ترح» علی وزن فرح بمعنی الغم والهم، وفسر ضد الفرح کما فسر أیضاً بالهلاک وقطع‌الخیر والاحسان.

[۲۵۴] (۱)« خالج» من مادة« خلج» بمعنی الجذب، والخلجان شیء فی ذهن الإنسان یعنی انجذابه أمام الشیء، ومن‌هنا اطلق الخلیج لجذبه ماءاً کثیراً من البحر.

[۲۵۵] (۲)« أشطان» جمع« شطن» علی وزن وطن وهو الحبل الطویل، کما وردت هذه المفردة بمعنی العبد، ومنه« الشیطان» لبعده عن الهدایة والرحمة.

[۲۵۶] (۳)« مرائر» جمع« مریر» الحبل المحکم.

[۲۵۷] (۴) اوردنا بحثاً مفصلًا فی الخطبة ۶۲ من المجلد الثالث بشأن الأجل ونهایة عمر الإنسان.

[۲۵۸] (۱) سورة الزخرف/ ۳۲.

[۲۵۹] (۲) نهج البلاغة، الرسالة ۳۱.

[۲۶۰] (۳) میزان الحکمة ۲/ ح ۵۷۰۱.

[۲۶۱] (۱)« مسارق» جمع« مسرق» من مادة« سرقة» النظر خلسة.

[۲۶۲] (۲)« ایماض» من مادة« ومض» علی وزن رمز اللمعان القصیر والمخفی.

[۲۶۳] (۳)« جفون» جمع« جفن» علی وزن جفت، بمعنی جفن العین.

[۲۶۴] (۴)« مصائخ» جمع« مصیخة» من مادة« صوخ» علی وزن صوت الشق، والمراد هنا شق الاذان الذی یسمع به‌الإنسان الأصوات.

[۲۶۵] (۵) سورة النحل/ ۷۸.

[۲۶۶] (۶)« مصائف» جمع« مصیف» موضع اقامتها فی الصیف.

[۲۶۷] (۱)« مشاتی» جمع« مشتی» موضع اقامتها فی الشتاء.

[۲۶۸] (۲)« هوام» جمع« هامة» الحشرات(الخطیرة، کما تطلق علی مطلق الحشرات.)

[۲۶۹] (۳)« حنين» الألم من مادة« حنان» ورجع الحنين ترديده.

[۲۷۰] (۴)« مولهات» الحزينات من مادة« وله» على وزن فرح.

[۲۷۱] (۵)« همس» على وزن لمس، بمعنى الصوت الهادىء الخفى، يطلق أحيانا على صوت الاقدام الحافية.

[۲۷۲] (۶)« منفسح» المكان الواسع من مادة« فسح» على وزن مسح.

[۲۷۳] (۷)« ولائج» جمع« وليجة» البطانة الداخلية.

[۲۷۴] (۸) غلف جمع غلاف معروف المعنى.

[۲۷۵] (۹)« الأكمام»، جمع« كم» غطاء النوار ولايبعد اضافة الغلف إليها أنّها إضافة بيانية.

[۲۷۶] (۱۰)« منقمع» موضع الاختفاء من مادة« الانقماع» بمعنى الاختفاء.

[۲۷۷] (۱۱)« غيران» جمع« غار»، والواسع منها يطلق عليه الكهف.

[۲۷۸] (۱۲)« سوق» جمع« ساقه» أسفل الشجرة.

[۲۷۹] (۱۳)« ألحية» جمع« لحاء» قشر الشجرة.

[۲۸۰] (۱۴)« مغرز» موضع جذور الشىء.

[۲۸۱] (۱۵)« أفنان» جمع« فنن» على وزن قلم بمعنى الغصون.

[۲۸۲] (۱۶)« أمشاج» جمع« مشج» على وزن سبب الشىء المخلوط.

[۲۸۳] (۱۷)« مسارب» جمع« مسرب» على وزن مركب وهى ما يتسرب المعنى فيها عند نزوله أو عند تكونه.

[۲۸۴] (۱)« تسفى» من مادة« سفى» على وزن نفى الرياح التى تثير الغبار والتراب.

[۲۸۵] (۲)« أعاصير» جمع« إعصار» على وزن إجبار الريح التى تثير السحاب.

[۲۸۶] (۳)« تعفو» من مادة« عفو» بمعنى المحو وتستعمل هذه المفردة فى الذنوب بمعنى محوها، ومن هنا يقال العافية بمعنى محو المرض.

[۲۸۷] (۴)« عوم» على وزن قوم السباحة والطوفان.

[۲۸۸] (۵)« كثبان» جمع« كثيب» التل والمرتفع.

[۲۸۹] (۱)« ذرا» جمع« ذروة» المكان المرتفع و أعلى الشىء.

[۲۹۰] (۲)« شناخيب» جمع« شنخوب» على وزن بهلول رؤوس الجبال.

[۲۹۱] (۳)« تغريد» أصوات الطيور.

[۲۹۲] (۴)« دياجير» جمع« ديجور» الظلمة.

[۲۹۳] (۵)« أوكار» جمع« وكر» على وزن مكر العش.

[۲۹۴] (۶)« أوغبت» من مادة« وعب» على وزن صعب جمعت.

[۲۹۵] (۷)« سدفة» ظلمة.

[۲۹۶] (۸)« ذر» بمعنى نثر و تأتى ايضاً بمعنى انتشار ضوء الشمس.

[۲۹۷] (۹)« سبحات» جمع« سبحة» على وزن لقمة بمعنى شعاع النور، و« سبحات النور» فى الجملة أعلاه جاءت بمعنى اشعة النور.

[۲۹۸] (۱۰)« هماهم» جمع همهمة مجاز من المهمة تريد الصوت فى الصدر من الهم.

[۲۹۹] (۱۱)« هامة» قال بعض شرّاح نهج البلاغة من له همة عالية، كما يراد بها الهموم من الهم والغم وهذا ما اريد بها فى العبارة.

[۳۰۰] (۱)« نقاعة» من مادة« نقع» على وزن نفع جمع الماء و« نقاعة دم» الحفرة التى يجمع فيها الدم، وهى هنا ۲ إشارة إلى رحم(

الام) وقال البعض ارید بها هنا العلقة.

[۳۰۱] (۲) اعتورت من مادة اعتوار تداولته وتناولته.

[۳۰۲] (۱) سورة لقمان/ ۲۷.

[۳۰۳] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۷/ ۲۳ بتصرف طفیف.

[۳۰۴] (۱)« تعداد» بفتح التاء له کما صرح بذلک أرباب اللغة، ویعنی عد الشیء(واعتبره البعض مصدر ثلاثی مجرد، وقیل من باب تفعیل، کان تعدید ثم بدلت یاء، بالف وتلفظ تعداد بکسر التاء قلیل جداً).

[۳۰۵] (۲)« ینعش» من مادة« نعش» وهی فی الاصل بمعنی رفعه و أقامه، ویقال لجسد الانسان اذا خرجت منه الروح نعشاً، و کذلک للآلة التی یرفع فیها المیت بالنعش، و الذی یرفع لینقل إلی مکان مناسب.

[۳۰۶] (۳)« خلة» الحاجة والفقر، کما وردت بمعنی الضعف.

[۳۰۷] (۱) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة فی ذیل هذه الخطبة. رواه الطبری وابن الأثیر فی حوادث ۳۵ ه بتفاوت یسیر جدا وکلام هذا نسجه لا- سبیل إلی انکاره، ولذاتری الناس اختلفوا فی توجیهه بعد أن لم یسعهم رده. ویستفاد من المصدرین المذکورین أنّ الإمام علیه السلام لم یرد هذه العبارات لخطبة واحدة، بل حدث کلام بینه علیه السلام وبین الناس فی الخلافة، فحذف السید الرضی کلام الناس وذکر الإمام علیه السلام. فالمعروف ان مصدرین من مصادر العامة ذکرت هذه الخطبة قبل السید الرضی(تاریخ طبری ۳/ ۴۵۶، تاریخ الکامل لابن أثیر ۳/ ۱۹۰) والشیخ المفید فی الجمل/ ۴۸ وابن الجوزی فی تذکره الخواص/ ۵۷.

[۳۰۸] (۱) منهاج البراعة ۷/ ۶۲.

[۳۰۹] (۱)« أغامت» من مادة« غیم» غطیت بالغیم، کنایة عن اضطراب الأوضاع السیاسیة والاجتماعیة للمسلمین فیذلک الزمان.

[۳۱۰] (۲)« محجة» الطریق المستقیمة والواضحة سواء الظاهریة أم المعنویة، وقد اقتبست فی الأصل من مادة« حج» بمعنی القصد، لأنّ الإنسان یقصد دائما المشی علی الطریق المستقیم لیصل إلی الهدف.

[۳۱۱] (۳)« عتب» مصدر بمعنی اللوم و التأنیب و التوبیخ.

[۳۱۲] (۴) شرح نهجالبلاغة للشیخ محمد عبده، ذیل الخطبة ۹۲/ ۲۳۳.

[۳۱۳] (۱) سورة الحدید/ ۲۵.

[۳۱۴] (۲) بحارالانوار ۴۰/ ۳۲۵.

[۳۱۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۳.

[۳۱۶] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۳.

[۳۱۷] (۳) نهج البلاغة، الخطبة ۷۴.

[۳۱۸] (۴) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۱/ ۱۸۶؛ وقد نقل هذا المضمون الطبری فی ۳/ ۲۹۴ حوادث عام ۲۳ هباختلاف طفیف.

[۳۱۹] (۵) تاریخ الطبری ۲/ ۴۰۵.

[۳۲۰] (۱) احقاق الحق ۸/ ۲۴۰.

[۳۲۱] (۱) الکامل لابن أثیر ۳/ ۱۹۳.

[۳۲۲] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۷/ ۷۳.

[۳۲۳] (۱) روی ابن المغازلی أحد علماء العامة فی مناقبه عن ابن عباس أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال لعلی علیه السلام:« سلمک سلمیوحربک حربی»(مناقب ابن المغازلی/ ۵۰).

[۳۲۴] (۱) سند الخطبة: قال ابن أبي الحديد هذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السيرة، وهى متداولة منقولة مستفيضة، خطب بها على عليه السلام بعد انقضاء أمر النهروان، وفيها ألفاظ لم يروها الرضى(ره)(شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۵۷) كما ورد فى مصادر نهج البلاغة أنّ من رواها ابن واضع فى تاريخه(تاريخ اليعقوبى ۲/ ۱۹۳) وأبو نعيم فى حلية الأولياء وابن أثير فى النهاية. كما رواها العلّامة المجلسى عن كتاب الغارات الثقفى(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۱۷۸) فالذى يستفاد من هذه النقول أنّ هذه الخطبة من الخطب المعروفة التى ذكرت فى عدة مصادر.

[۳۲۵] (۲) شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۴۶ و ۱۳/ ۱۰۶.

[۳۲۶] (۱)« فقأت» من مادة« فقأ» على وزن فقر القلع بمعنى تغلبه عليها.

[۳۲۷] (۲)« غيهب» من مادة« غهب» على وزن وهب الظلمة وشدة السواد، وتستعمل فى الليالى الدامسة الظلام، كما تعنى فى الأصل الغفلة والنسيان المناسب للظلمة.

[۳۲۸] (۳)« كلب» على وزن طلب من مادة« كلب» على وزن قلب داء معروف يصيب الكلاب، فكل من عضته ۲ أصيب به فجن ومات إن لم يبادر بالدواء. ومن هنا يستعمل فى الحوادث الأليمة والحروب الطاحنة وهجوم الحيوانات الوحشية المفترسة.

[۳۲۹] (۱) منهاج البراعة ۷/ ۷۴.

[۳۳۰] (۲)« ناعق» من مادة« نعق» على وزن ضرب من نعق بغنمه صاح بها لتجتمع وتستعمل فى الافراد السذج الذين‌يتحركون بواعز من المفسدين.

[۳۳۱] (۳)« مناخ» من مادة« نوخ» بمعنى أقام، و« مناخ» يطلق على المكان الذى يبرك فيه البعير، وتستعمل بشكل واسع ككناية عن محل الإقامة.

[۳۳۲] (۱) سورة النمل/ ۶۵(كما ورد شبيه هذا المضمون فى آيات متعددة اخرى .

[۳۳۳] (۱) كرائه جمع كريهة.

[۳۳۴] (۲) حوازب جمع حازب من مادة حزب على وزن جذب الأمر الشديد.

[۳۳۵] (۳)« قلص» من مادة« قلوص» بتشديد اللام تمارت واستمرت.

[۳۳۶] (۴)« شمر» من مادة« تشمير» ويطلق على عملية رفع الثوب عن الساقين و التهيؤ والاستعداد للقيام بعمل ما.

و« شِمر» تطلق على الاشخاص ذوى الجد و التجربة، وكذلك تطلق على الاشرار.

[۳۳۷] (۱)« يُحمن» من مادة« حوّم» على وزن قوّم بمعنى الدوران.

[۳۳۸] (۱)« خطة» من مادة« خط» به معنى وضع العلامة، ولفظ« خطة» يأتى أحياناً بمعنى حالة أو موضوع.

[۳۳۹] (۲)« أيم» يرى بعض الادباء أن أصلها(أيمن) أسقطت نونها، فان قيل وأيم اللّه تفيد القسم(ومن أراد المزيدفليراجع شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۵۴).

[۳۴۰] (۳)« الناب» الناقة المسنة.

[۳۴۱] (۴)« ضروس» الحيوان السئ الخلق يعفى حباله.

[۳۴۲] (۵)« تعذم» من مادة« عذم» من عذم الفرس إذا أكل بحفاء أوعض.

[۳۴۳] (۶)« تخبط» من مادة« خبط» الضرب باليد.

[۳۴۴] (۷)« تزبن» من مادة« زبن» على وزن دفن تضرب.

[۳۴۵] (۸)« درّ» جريان اللبن توفير، كما يطلق على كل خير وبركة.

[۳۴۶] (۱)« شوهاء» من مادة« شوه» على وزن قوم قبيحة المنظر.

[۳۴۷] (۲)« مخشية» من الخشية مخوفة مرعبة.

[۳۴۸] (۱) شرح نهج البلاغة للتسترى ۶/ ۱۰۶.

[۳۴۹] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۹/ ۵۳.

[۳۵۰] (۱)« منجاة» من مادة« نجاة» الأرض المرتفعة التی لایصلها السیل، ثم اطلقت علی کل موضع یکون سبباً للنجاة، إلّاأنّها وردت أیضاً بمعنی الاقصاء عن التدخل فی أمر، وقد جاءت بهذا المعنی فی العبارة؛ أی لیس هنالک أی دور لأهل البیت فی حکومة بنی أمیة، وعلی بنی أمیة وزرها خاصة.

[۳۵۱] (۱)« یفرج» من مادة« فرج» بمعنی السلخ ورد هنا، کما یعنی حل المشاکل.

[۳۵۲] (۲)« أدیم» بمعنی الجلد.

[۳۵۳] (۳)« خسف» بمعنی الاخفاء، وورد فی الخطبة بمعنی الذل.

[۳۵۴] (۴)« یحلس» من مادة« حلس» علی وزن فلس بمعنی الکساء الذی یوضع علی ظهر البعیر.

[۳۵۵] (۵)« جزور» من مادة« جزر» علی وزن جذب الناقة المجزورة، کما وردت هذه المفردة بمعنی انخاض ماءالبحر وما شاکل ذلک.

[۳۵۶] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۷/ ۵۷.

[۳۵۷] (۲) تتمة المنتهی/ ۱۵۶.

[۳۵۸] (۳) دائرة المعارف الاعلمی ۱۰/ ۴۰۵.

[۳۵۹] (۱) مروج الذهب ۳/ ۱۶۶.

[۳۶۰] (۱) الکامل لابن أثیر ۵/ ۴۳۰.

[۳۶۱] (۲) مروج الذهب ۳/ ۲۰۷.

[۳۶۲] (۳) الکامل لابن أثیر ۵/ ۴۳۰.

[۳۶۳] (۱) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة مانقله الرضی(ره) فی هذا الموضع مأخوذ من خطبة له علیه السلام مشهورة أولها: الحمدلله الواحد الأحد الصمد، المتفرد ... وقال الکلینی فی الکافی عن هذه الخطبة بعد أن أخذ غرضه، منها فی الکتاب التوحید: وهذه الخطبة من مشهورات خطبة علیه السلام حتی لقد ابتذلتها العامة(الکافی ۱/ ۱۳۴) وقال المرحوم الصدوق، قال الإمام الصادق علیه السلام أنّ أمیرالمؤمنین علیه السلام خطب بهذه الخطبة لما استنهض الناس لحرب معاویة فی المرة الثانیة.(توحید الصدوق،/ ۴۱، باب التوحید ونفی التشبیه، الحدیث ۳). رواها ابن عبد ربه المالکی فی العقد الفرید ۴/ ۷۴ بتفاوت مع روایة الرضی تحت عنوان خطیته الفراء. وقال صاحب المصادر: ویلاحظ أنّ روایة العقد خلت من ذکر أهل البیت فی الخطبة فلعل یداً أمینة! حذفت ذلک، کما حذفت الخطبة الشقشقیة من العقد(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۱۸۵).

[۳۶۴] (۱)« تناسخ» من مادة« نسخ» بمعنی الازالة وانتقال الشیء، وتعنی هنا انتقال نطفة الآباء إلی أرحام الامهات.

[۳۶۵] (۱) سورة ابراهیم/ ۲۵.

[۳۶۶] (۲) وسائل الشیعة ۱۴/ ۲۹ ح ۴.

[۳۶۷] (۳) سورة البقرة/ ۲۸۵.

[۳۶۸] (۱)« أرومات» جمع« ارومة» بمعنی أصل الشیء وأساسه، کما تطلق علی جذر الشجرة.

[۳۶۹] (۲)« عترة» من مادة« عتر» علی وزن سطر آل بیت الرجل ونسله ورهطه الأقربون، والعشیرة. ومعناها الأصلیهو الأصل.

[۳۷۰] (۱)« زند» ما تشعل به النار مثل الکبریت، أو الوسائل القدیمة التی کانت توقد منها النار.

[۳۷۱] (۲) سورة البقرة/ ۱۴۲.

[۳۷۲] (۱) وسائل الشيعة ۱۸/ ۱۶۹ ح ۱.

[۳۷۳] (۲)« هفوة» من مادة« هفو» الزلل.

[۳۷۴] (۳)« غباوة» من الغباء وعدم الفهم.

[۳۷۵] (۴) راجع شرح الخطبة الاولى ۱/ ۲۲۸.

[۳۷۶] (۱) محمد جواد مغنية، فى ظلال نهج البلاغة ۱/ ۶۳.

[۳۷۷] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۶۳.

[۳۷۸] (۳) شرح نهج البلاغة، لابن أبى الحديد ۷/ ۶۳.

[۳۷۹] (۴) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۶۴.

[۳۸۰] (۵) ورد الحديث فى عمدة ابن بطريق/ ۲۷۳؛ فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ۲/ ۶۲۸.

[۳۸۱] (۱) صحيح مسلم ۴/ ۱۸۷۳(كتاب فضائل الصحابة، ح ۳۶).

[۳۸۲] (۲) المفهم ۶/ ۳۰۴.

[۳۸۳] (۳) منهاج البراعة ۷/ ۱۱۰.

[۳۸۴] (۱) مستعتب من مادة عتب على وزن حتم طلب العتبى، أى طلب الرضى من الله بالأعمال النافعة.

[۳۸۵] (۱) سورة المنافقون/ ۱۰- ۱۱.

[۳۸۶] (۱) سند الخطبة: لم يذكر صاحب مصادر نهج البلاغة مصدرا آخر نقل هذه الخطبة، وقال فى نقل ابن أبى الحديد اختلاف وهذا دليل على أنّه قرأها فى غير نهج البلاغة، لأن الرضى(ره) لم يشر إلى ذلك(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۱۸۶).

[۳۸۷] (۱) سورة النحل/ ۱۲۵.

[۳۸۸] (۲) بحسب هذا التفسير فان« إلى» جاءت بمعنى به»، أو أن الذى يأتى بعد« إلى» يجب ان يكون مقدراً،« إلى ربه بالحكمة».

[۳۸۹] (۱) سند الخطبة: لم نعثر على سند لهذه الخطبة سوى أنّها وردت فى نهج البلاغة.

[۳۹۰] (۱) سورة الرحمن/ ۲۶- ۲۷.

[۳۹۱] (۱)« مماهد» جمع« ممهد» على وزن مكتب اقتبست فى الأصل من« مهد»، ثم اطلقت على كل مكان يستريح فيه الإنسان أو تسكن إليه روحه.

[۳۹۲] (۱) سورة الشعراء/ ۲۱۹.

[۳۹۳] (۲) تفسير الفخر الرازى ۲۴/ ۱۷۴، كما نقل المرحوم العلّامة الأمينى عدة روايات بهذا الشأن فى بحارالانوار ۱۵/ ۳.

[۳۹۴] (۳)« ثنيت» من مادة« ثنى» بمعنى الاعادة ووردت هنا بمعنى الانتباه.

[۳۹۵] (۴)« ضغائن» جمع« ضغينة» البغض والعداء.

[۳۹۶] (۵)« ثوائر» جمع« ثائرة» الفتنة والعداء.

[۳۹۷] (۱) سند الخطبة: ما أورده المرحوم السيد الرضى(ره) فى هذه الخطبة جزء من خطبة طويلة نقلت بصورة متفرقة فى عدة مصادر، ومن ذلك فى كتاب سليم بن قيس الهلالى والكافى للمرحوم الكلينى والإرشاد للمفيد والتذكرة للسبط ابن الجوزى وتاريخ دمشق لابن عساكر والبيان والتبيين للجاحظ(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۱۹۲. ونهج البلاغة طبعة جماعة مدرسى الحوزة ذيل الخطبة).

[۳۹۸] (۱)« الشجا» ما يعترض فى الحلق من عظم وغيره.

[۳۹۹] (۲)« مساغ» من مادة« سوغ» على وزن فوق العذب

[۴۰۰] (۳)« ریق» ماء الفم.

[۴۰۱] (۴) سورة آل عمران/ ۱۷۸.

[۴۰۲] (۵) سورة الفجر/ ۱۴.

[۴۰۳] (۶) بحار الانوار ۷۰/ ۳۸۱.

[۴۰۴] (۱) ابومخنف، طبق نقل شرح نهج البلاغة للمرحوم التستری ۱۰/ ۵۹۶.

[۴۰۵] (۱)« أیادی» جمع« أیدی» وهذه الاخیرة جمع ید، کما تستعمل الأیادی فی معانی اخری

[۴۰۶] (۲)« الحنیة» بمعنی القوس وذلک بسبب انحنائه.

[۴۰۷] (۳)« أعضل» من مادة« الاعضال» بمعنی الشدة والتعقید.

[۴۰۸] (۱) العقد الفرید، ج ۴، ص ۱۶۲(مطابق نقل شرح نهج البلاغة للتستری).

[۴۰۹] (۱)« تربت» من مادة« تراب»، تستعمل فی الخسارة والفقر، وکأنّ الفقیر قد صرع وخالط التراب یده.

[۴۱۰] (۲)« حمس» بالفتح من مادة« حمس» علی وزن قفص بمعنی الشدة و« الحماسة» و« التحمس» یعنی التشدیدولا سیما فی المعرکة.

[۴۱۱] (۳)« وغی» یعنی فی الأصل اصوات المقاتلین فی المعرکة، کما تطلق علی نفس المعرکة، وقد وردت عنا بهذا المعنی.

[۴۱۲] (۴)« حمی» من مادة« حمی» علی وزن سعی شدة الحرارة، و« الضراب» بمعنی الاشتیاک والمناوشة والقتال.

[۴۱۳] (۱)« لقط» أخذ الشیء من الأرض، وتطلق« القطة» علی الأشیاء المفقودة، لانّها عادة ماتلتقط من الأرض.

[۴۱۴] (۲) سورة الانفال/ ۶۵.

[۴۱۵] (۱) نهجالبلاغة، خطبة ۲۷.

[۴۱۶] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۷/ ۷۳.

[۴۱۷] (۱) سورة التوبة/ ۱۰۰.

[۴۱۸] (۱) سورة الاحزاب/ ۳۳.

[۴۱۹] (۲)« لبدوا» من مادة« لبود» الإقامة فی المکان.

[۴۲۰] (۳) نقل هذا الحدیث المرحوم السید حامد حسین الهندی فی کتاب عبقات الأنوار عن ۹۲ کتاب من ۹۲ عالم من علماء العامة.

[۴۲۱] (۱)« لشعث» جمع« أشعث» وهو المغبر الرأس وهی کنایة عن الفقر أو الزهد.

[۴۲۲] (۲) غبر جمع أغبر بمعنی الغبار.

[۴۲۳] (۳)« یراوحون» من مادة« تراوح» القیام بالأعمال الواحد بعد الاخر.

[۴۲۴] (۴)« خدود» جمع« خد» طرفا الوجه.

[۴۲۵] (۵)« جمر» جمع« جمرة» قطعة من النار، وتطلق الجمرة وجمعها جمرات.

[۴۲۶] (۶)« رکب» جمع« رکبة» موصل الساق من الرجل بالفخذ.

[۴۲۷] (۷)« معزی و« معز» معروف.

[۴۲۸] (۸)« هملت» من مادة« همول» الجریان والنزول.

[۴۲۹] (۹) مادوا من مادة میدان الحرکة و الاضطراب.

[۴۳۰] (۱) تفسیر القمی نقلًا عن بحارالانوار ۲۳/ ۱۳۰ ح ۱۲.

[۴۳۱] (۱) اسد الغابة ۳/ ۱۴۴.

[۴۳۲] (۲) سورة الفتح/ ۲۹.

[۴۳۳] (۳) سورة الفتح/ ۲۹.

[۴۳۴] (۱) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة، روی هذه الخطبة ابن قتیبة فی کتاب الإمامة والسیاسة، والذی یفهم من عباراته أنّ الإمام علی علیه السلام خطبها بعد الخطبة ۱۲۳(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۱۹۳).

[۴۳۵] (۱) قال بعض شرّاح نهج البلاغة ان العبارة« لایزالون» فیها محذوف تقدیره« لایزالون ظالمین»، والظاهرالأنسب أن یکون تقدیره لایزالون حاکمین، ولا سیما بالنظر إلی العبارات اللاحقة.

[۴۳۶] (۱) الأغانی ۲۲/ ۲۳.

[۴۳۷] (۲) الأغانی ۲۲/ ۲۲.

[۴۳۸] (۳) الأغانی ۲۲/ ۲۵.

[۴۳۹] (۴) الأغانی ۲۲/ ۳۳.

[۴۴۰] (۵) شرح نهج‌البلاغة ۱۵/ ۲۴۰- ۲۴۲.

[۴۴۱] (۱) تاریخ دمشق لابن عساکر ۱۲/ ۱۲۷.

[۴۴۲] (۲) کنز العمال ۱۱/ ۳۶۴ ح ۳۱۷۵۵.

[۴۴۳] (۱) سند الخطبة: رواها قبل السید الرضی(ره) جامع نهج البلاغة زید بن وهب(وهو من أصحاب أمیرالمؤمنین علی علیه السلام الذی نقل جانباً من خطبه علیه السلام فی کتابه خطب أمیرالمؤمنین علی المنابر فی الجمع والأعیاد وغیرهما، وهو أول کتاب صنفه بهذا الشأن) ونقلها عنه المرحوم المحدث النوری فی مستدرک الوسائل باختلاف قلیل، ورواها المرحوم الصدوق فی کتابیه معانی الأخبار ومن لایحضره الفقیه. کما رواها عدد آخر ممن عاش بعد السید الرضی(ره).(مصادر نهج البلاغة ۳/ ۱۹۶).

[۴۴۴] (۱) شرح نهج البلاغة العلّامة الجعفری ۱۸/ ۹.

[۴۴۵] (۱)« رفض» تعنی فی الأصل ترک الشیء، ومن هنا سمیت الشیعة بالرافضة لترکها الخلفاء الثلاثة، وقیل استعملت هذه المفردة لأول مرة علی عهد زید بن علی، حیث نهاهم زید عن سب الشیخین، ولهذا ترکوه.

[۴۴۶] (۱) سورة البقرة/ ۲۱۶.

[۴۴۷] (۲)« مبلیة» من مادة« بلاء» منهکة.

[۴۴۸] (۳)« سفر» جمع« مسافر» بمعنی مسافر.

[۴۴۹] (۴)« أموا» من مادة« أم» علی وزن غم القصد.

[۴۵۰] (۵)« مجری» من مادة« اجراء» کنایة عن المسافر، وقد وردت فی تفسیره عدة أقوال، الأنسب ما أوردناه فی المتن.

[۴۵۱] (۶)« حثیث» من مادة« حث» بفتح الحاء السرعة فی العمل.

[۴۵۲] (۷)« یحدو» من مادة« حدی» یسوق.

[۴۵۳] (۸)« مزعج» من مادة« ازعاج» السوق والاضطراب والاجتثاث.

[۴۵۴] (۹)« رغم» بمعنی الاجبار، ومنه تمریغ الأنف بالتراب حین یضاف للأنف فیقال رغم أنفه.

[۴۵۵] (۱)« تنافسوا» من مادة« تنافس» بمعنی بذل الجهد والسعی، ومحاولة شخصین او مجموعتین للحصول علی‌شیء نفیس.

[۴۵۶] (۲) نفاد بمعنی الفناء والزوال.

[۴۵۷] (۳) بحارالانوار ۷۰/ ۳۶.

[۴۵۸] (۱) مزدجر من مادهٔ زجر المانع، مصدر میمی بمعنی اسم الفاعل.

[۴۵۹] (۱) نهج البلاغهٔ، کلمات القصار ۱۳۰.

[۴۶۰] (۲)« عائد» من یذهب لعبادهٔ أحد.

[۴۶۱] (۳)« یجود» من مادهٔ« جود» السخاء، وتستعمل فی الاحتضار وکأنّ الإنسان یسخو بانفس ما لدیه وهی روحه.

[۴۶۲] (۱)« منغص» من مادهٔ« نغص» علی وزن نقص بمعنی لیس عذب، وبمعنی اعتراض الماء فی الحلق، ثماطلقت علی الحیاهٔ الصعبهٔ ونحو ذلک.

[۴۶۳] (۲)« مساورهٔ» من مادهٔ« سور» علی وزن غور المواثبهٔ، کأنّه یری العمل القبیح لبعده عن ملاءمهٔ الطبع الإنسانی بالخطرهٔ ینفر عن مقترفه کما ینفر الوحش، فلایصل إلیه المغبون إلّابالوثبهٔ علیه.

[۴۶۴] (۱) نهج البلاغهٔ، کلمات القصار ۱۳۱.

[۴۶۵] (۲) نهج البلاغهٔ، کلمات القصار ۱۱۹.

[۴۶۶] (۳) میزان الحکمهٔ ۳/ ح ۱۸۰۱۳.

[۴۶۷] (۴) میزان الحکمهٔ ۳/ ح ۱۸۰۱۴.

[۴۶۸] (۵) سورهٔ العنکبوت/ ۶۵.

[۴۶۹] (۱) سند الخطبهٔ، لابن أبی الحدید کلام فی هذه الخطبهٔ یدل علی أنّه نقلها من مصدر آخر غیر نهج البلاغهٔ فقد قال: واعلم أنّ هذه الخطبهٔ خطب بها أمیرالمؤمنین علی علیه السلام فی الجمعهٔ الثالثهٔ من خلافته، وکنی فیها عن مال نفسه، وأعلمهم فیها أنّهم سیفارقونه ویفقدونه بعد اجتماعهم علیه وطاعتهم له؛ وهکذا وقع الأمر، فانّه نقل أن أهل العراق لم یکونوا أشد اجتماعاً علیه من الشهر الذی قتل فیه علیه السلام. وجاء فی الأخبار أنّه عقد للحسن ابنه علیه السلام علی عشرهٔ ألاف، ولأبی أیوب الأنصاری علی عشرهٔ ألاف ولفلان وفلان، حتی اجتمع له مائهٔ ألف سیف، وأخرج مقدمته، أمامه یرید الشام فضربه اللعین ابن ملجم، وکان من أمره ما کان، وانفضت تلک الجموع، وکانت کالغنم فقدت راعیها.(مصادر نهج البلاغهٔ ۲/ ۱۹۸).

[۴۷۰] (۱) شرح نهج البلاغهٔ للمرحوم العلامهٔ الخوئی ۷/ ۱۵۷.

[۴۷۱] (۱)« صادع» من مادهٔ« صدع» فالقا به، کما وردت هذه المفردهٔ بمعنی الاظهار والاعلان، حیث یظهر باطنالشیء عند فلقه وهذا ما ارید بها فی العبارهٔ، وأمّا« الصداع» الذی یطلق علی وجع الرأس فکأنه یرید أن یفلقه.

[۴۷۲] (۱)« مرق» من مادهٔ« مروق» علی وزن غروب الخروج عن الدین، ومن هنا اطلق الخوارج علی تلک الفرقهٔ التی خرجت عن الإیمان.

[۴۷۳] (۲)« زهق» من مادهٔ« زهوق» الاضمحلال والهلکهٔ.

[۴۷۴] (۳) وسائل الشیعهٔ ۷/ ۱۲۵، ح ۷(ابواب من یصح منه الصوم).

[۴۷۵] (۴) یمکن أن یکون مفعول لحق کتاب الله أو رسول الله أو الحق أو جمیعها.

[۴۷۶] (۱)« مکیث» من مادهٔ« مکث» الرزین فی قوله فلایبادر من غیر رویهٔ فی قوله وعمله.

[۴۷۷] (۲) نقل هذه الحدیث عن أم سلمهٔ بطرق مختلفهٔ عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله. ومن ذلک نقله ابن عساکر فی تاریخ دمشق وأبوبکر البغدادی فی تاریخ بغداد والحموی فی فرائد السمطین. وجاء فی صحیح الترمذی أنّ رسول الله صلی الله علیه و آله قال« اللّهم أدر الحق معه حیثما دار»(للوقوف علی تفاصیل هذا الحدیث راجع کتاب احقاق الحق ۵/ ۶۲۳ والغدیر ۳/ ۱۷۶). والطریف مانقله الفخر الرازی فی تفسیر سورهٔ الحمد فی مورد الجهر بالبسملهٔ عن البیهقی عن أبی هریرهٔ ان رسول الله صلی الله علیه و آله کان یجهر بالبسملهٔ، ثم قال: کما کان یجهر بها عمر وابن عباس وعبدالله بن عمر وعبد الله بن الزبیر أمّا علی علیه السلام فقد ثبت بالتواتر

أنّه كان يجهر بالبسملة دائماً، فمن اقتدى به فى دينه هدى إلى الحق والدليل على ذلك حديث النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال:« اللّهم أدر الحق مع على حيث دار»(تفسير الفخر الرازى ١/ ٢٠۴- ٢٠۵.

[۴٧٨] (١) راجع شرح الخطبة الخامسة والسادسة من المجلد الأول من هذا الكتاب.

[۴٧٩] (١) نهج البلاغة، الكلمة ۴٠.

[۴٨٠] (٢) شرح نهج البلاغة للعلّامة الخوئى ٧/ ١۵٩.

[۴٨١] (١) امالى الصدوق/ ١۵٠ ح ٧.

[۴٨٢] (١)« خوى من مادة« خوى بمعنى غرب.

[۴٨٣] (٢)« صنايع» جمع« صنيعة» النعمة والاحسان.

[۴٨۴] (٣) سورة النحل/ ١۶.

[۴٨۵] (۴) سورة الانعام/ ٩٧.

[۴٨۶] (١) مستدرک الحاکم ٣/ ١۴٩(طبق نقل احقاق الحق ٩/ ٢٩۴).

[۴٨٧] (١) احقاق الحق ٩/ ٢٩۴- ٢٩۶.

[۴٨٨] (٢) بحارالانوار ٢٧/ ٣٠٨.

[۴٨٩] (٣) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٣/ ٩.

[۴٩٠] (١) سند الخطبة: ورد فى كتاب مصادر نهج البلاغة لم تذكر هذه الخطبة فى غير مصدر السيد الرضى(ره)، وأن ذكرت اسناد هذه الخطبة فى نهج البلاغة، طبعة جماعة مدرسى الحوزة للمحقق المرحوم حجة الإسلام الدشتى، غير أنّه تبين خطأها بعد الرجوع إلى المصادر الأصلية التى ذكرت فى ذلك الكتاب.

[۴٩١] (١)« يجرَمَّن» من مادة« جرم» على وزن جهر(جرم على وزن ظلم، اسم مصدر) تعنى فى الأصل القطع، ولماكان الإثم يقطع صلته بالله، فهذه الكلمة تطلق على الذنب، وعليه لايجرمنكم بمعنى لا يحملنكم على الذنب.

[۴٩٢] (٢)« شقاق» فى الأصل تعنى المخالفة والنزاع.

[۴٩٣] (٣)« يستهوين» من مادة« هوى» من هوى النفس.

[۴٩۴] (١)« الخلق»: وتأتى أحيانا بمعنى الإبداع والإيجاد والتقدير، وأحيانا بمعنى الابتعاد والبرائة من الشىء. وفىهذه الخطبة جاءت هذه الكلمة بالمعنى الاول.

[۴٩۵] (٢)« برأ» من مادة« برء» على وزن ظلم وتعنى الصحة وحسن الحال، أى خروج الشخص من حالته الاولى والتى كان فيها مريضاً إلى حالة جيدة وحسنة.

[۴٩۶] (٣)« نسمة» تعنى فى الأصل هبوب الرياح المعتدلة، كما تأتى بمعنى التنفس، ومن هنا تطلق على الإنسان.

[۴٩٧] (۴) التعبير بالأمى يطلق على الشخص الذى لا يعرف القراءة والكتابة، أو على الشخص الذى ينسب الى الأم، وهو الذى تعلم فى أحضان أمه ولم يتعلم من غيرها.

وهنا نود ان نشير اشارة لطيفة فى هذا المورد، وهى أن الرسول الاكرم صلى الله عليه و آله كان امياً، ولكنه أخبر عن الماضى والمستقبل، وهذه من علامات ارتباطه بالله سبحانه وتعالى.

[۴٩٨] (۵) سورة الحاقة/ ١٢.

[۴٩٩] (۶) كفاية الطالب للكنجى/ ۴٠ وردى مثل هذا المعنى أغلب مفسرى العامة كالقرطبى فى تفسير جامع الأحكام والبرسوى فى روح البيان والآلوسى فى روح المعانى، ذيل الآية ١٢ من سورة الحاقة.

[۵۰۰] (۱)« ضلیل» من مادهٔ« ضلال» الشدید الضلال فهو ضال مضل.

[۵۰۱] (۲)« نعق» من مادهٔ« نعق» علی وزن نعل تعنی فی الاصل صوت الفرس، ثم اطلق علی الأصوات التی تطلق لحرکـهٔ الحیوانات و أمرها و نهیها، و وردت فی العبارهٔ بمعنی أنّ بنی أمیهٔ قد استضعفوا جماعهٔ، یسوقونها کالحیوانات حیثما أرادوا.

[۵۰۲] (۳)« فحص» البحث والتفتیش.

[۵۰۳] (۴)« کوفان» بمعنی الکوفهٔ.

[۵۰۴] (۱)« فغرت» من مادهٔ« فغر» علی وزن فقر فتح الضم.

[۵۰۵] (۲)« شـکیمهٔ» تعنی فی الاصل الحدیـدهٔ المعترضـهٔ فی اللجام فی فم الدابـهٔ، ویعبر بقوتها عن شـدهٔ البأس، ثم اطلقت علی کل قوهٔ.

[۵۰۶] (۳)« کلوح» عبوس.

[۵۰۷] (۴)« کدوح» شدهٔ السعی والجهد، وتعنی فی الأصل الخدش وأثر الجراحات.

[۵۰۸] (۵)« ینع» بمعنی نضج الفاکهۀ، ثم اطلق علی کل نضج واستعداد لتلقی نتیجهٔ.

[۵۰۹] (۶)« شفاشق» جمع« شقشقهٔ» شیء کالرئهٔ یخرجه البعیر من فیه إذا هاج.

[۵۱۰] (۱) سند الخطبهٔ: لم ترد هذه الخطبهٔ فی المصادر التی الفت قبل السید الرضی(ره)، ولکن یبدو أنّها جزء من الخطبهٔ ۱۲۸ التی سنتعرض باذن الله لشرحها، إلّاأنّها ذکرت فی الکتب التی دونت بعد السید الرضی(ره).

[۵۱۱] (۱) سورهٔ مریم/ ۹۵.

[۵۱۲] (۲) سورهٔ الواقعهٔ/ ۴۹- ۵۰.

[۵۱۳] (۱) سورهٔ القمر/ ۷.

[۵۱۴] (۲) سورهٔ المطففین/ ۶.

[۵۱۵] (۳)« رجف» من مادهٔ« رجف» علی وزن ربط تعنی الاضـطراب، ولما کانت أخبار الفتن تدعو لاضـطراب المجتمع فقد اصطلح علیها بالاراجیف.

[۵۱۶] (۱)« قطع» جمع« قطعهٔ» ولعله إشارهٔ إلی بعض أقسام اللیل کنصفه، أو الوقت الذی فیه القمر، کما فسّره البعض بالظلمهٔ.

[۵۱۷] (۱)« مزمومهٔ» من مادهٔ« زمام» الحیوان الذی الجم.

[۵۱۸] (۲)« مرحولـهٔ» من مادهٔ« رجل» جهاز الناقـهٔ أو أدوات السـفر، ومرحولهٔ هنا بمعنی الناقهٔ الجاهزهٔ للرکوب، وهی کنایهٔ عن تمام الفتن وقوتها.

[۵۱۹] (۳)« یحفز» من مادهٔ« حفز» علی وزن حبس یحث ویدفع.

[۵۲۰] (۴)« کلب» علی وزن طلب الاذی والشدهٔ.

[۵۲۱] (۵)« سلب» محرکهٔ ما یأخذه القاتل من ثیاب المقتول وسلاحه فی الحرب.

[۵۲۲] (۱)« رهج» بالتحریک والسکون الغبار کنایهٔ عن دخول الجیش بکل هدوء وبصورهٔ مباغتهٔ دون أن یثیر شیئاً.

[۵۲۳] (۲)« حس» الجلبهٔ والاصوات المختلفهٔ.

[۵۲۴] (۳)« أغبر» من الغبار والجوع الأغیر کنایـهٔ عن المحل والجـذب والقحط الشدیـد؛ فوجوه الناس تبدو مغبرهٔ فی القحط من شدهٔ الجوع.

[۵۲۵] (۴) مروج الذهب ۴/ ۱۱۹.

[۵۲۶] (۱) مروج الذهب ۴/ ۱۱۹.

[۵۲۷] (۱) سـند الخطبة: ما نقله المرحوم السـيد الرضى(ره) فى هذه الخطبة جزء من خطبة طويلة ولذلك قال منها ومنها. وقد وردت أجزاء مختلفـة من هـذه الخطبـة فى عـدة مصادر قبل نهـج البلاغـة، ومنها روضة الكافى وتحف العقول واصول الكافى وعيون الأخبار لابن قتيبة وكتاب الفتن لنعيم بن حماد الخزاعى المتوفى عام ۲۲۸(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۰۶).

[۵۲۸] (۱)« صادف» من مادة« صدف» على وزن حرف بمعنى الأعراض عن الشيء.

[۵۲۹] (۲) روى هـذا الحـديث بعبـارات مختلفـة عن النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله وأميرالمؤمنين والإمـام الصادق وحتى الأنبياء الماضيـن عليهم السـلام.(ميزان الحكمة ۲/ ح ۵۸۱۳- ۵۸۲۳)- وفى الحـديث الـذى نقله الكلينى فى الكـافى عن الإمام السـجاد عليه السـلام بعد شرح ودوافع الذنوب قال:« فاجتمعن كلهن فى حب الدنيا». فقال الأنبياء والعلماء- بعد معرفة ذلك-« حب الدنيا رأس كل خطيئة».(اصول الكافى ۲/ ۱۳۱).

[۵۳۰] (۱)« ثاوى» من مادة« ثواء» الاقامة مع الاستقرار.

[۵۳۱] (۲) سورة آل عمران/ ۱۸۵.

[۵۳۲] (۳)« مترف» من مادة« ترف» التنعم ويطلق« المترف» على من تغفله كثرة النعم وتؤدى به إلى الغرور والطغيان.

[۵۳۳] (۱) جلد بمعنى القوة والصلابة.

[۵۳۴] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۴۵.

[۵۳۵] (۱) منهاج البراعة، للعلّامة الخوئى ۷/ ۱۸۲.

[۵۳۶] (۲) المصدر السابق.

[۵۳۷] (۳) بحارالانوار ۷۵/ ۱۱.

[۵۳۸] (۱) بحارالانوار ۶۸/ ۳۲۴ ح ۱۶.

[۵۳۹] (۱) سفينة البحار- مادة وعظ.

[۵۴۰] (۲) سورة الدخان/ ۲۵- ۲۹.

[۵۴۱] (۱) بحار الانوار ۲/ ۳۴ ح ۲۲.

[۵۴۲] (۱) اشتهرت هذه العبارة التى يطلقها العلماء بالاستفادة من الاحاديث.

[۵۴۳] (۲)« ونى» بمعنى ضعف وتعب.

[۵۴۴] (۱) سورة الشورى/ ۲۰.

[۵۴۵] (۲) سورة الاعراف/ ۵۸.

[۵۴۶] (۱) يفيد عدم الارتباط المعنوى بين هذا المقطع من الخطبة والذى سـبقه، أنّ السـيد الرضـى(ره) حذف بعض الأقسام بينهما، والشاهد على ذلك تعبيره(منها).

[۵۴۷] (۱)« السرى تعنى السير فى الليل.

[۵۴۸] (۲)« يكفأ» من مادة« كفأ» على وزن نفع بمعنى الانقلاب.

[۵۴۹] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۶.

[۵۵۰] (۲) سورة المؤمنون/ ۳۰.

[۵۵۱] (۱) سـند الخطبـة: تشـبه هـذه الخطبة إلى حد كبير الخطبة الثالثة والثلاثين. ومن هنا قال المرحوم السـيد الرضـى(ره) فى آخر الخطبـة: وقـد تقـدم مختار هذه الخطبة، إلّاأننى وجدتها فى هذه الرواية على خلاف ما سـبق من زيادة ونقصان، فأوجبت الحال إثباتها ثانيـة. فالعبـارة تفيـد ان الخطبتين مرتبطـة بواقعـة واحـدة، وإن نقلهمـا الرواة مع بعض الاختلاف؛ إلّاأنّ التفاوت الواضـح بين الخطبتين

يجعل احتمال التعدد أقوى.

وللوقوف على التفاصيل راجع ما أوردناه ذيل الخطبة ٣٣.

[۵۵۲] (١)« حسير» من مادة« حسر» على وزن حبس بمعنى العرى وسلب اللباس من شيء. ثم استعمل بمعنىالكسل والتعب.

[۵۵۳] (٢)« رحى» كناية عن وفرة أرزاقهم، فالرحى تدور على ما تطحنه من حب.

[۵۵۴] (٣)« القناة» من مادة« قنو» على وزن صنف فى الأصل فرع الشجرة، كما اطلقت على الرمح لشباهته بفرع الشجرة، وهى كناية عن صحة الأحوال وصلاحها.

[۵۵۵] (۴) سورة يس/ ۶.

[۵۵۶] (١) سورة فاطر/ ٢۴.

[۵۵۷] (١)« حذافير» جمع« حذفور» الجماعة الكثيرة، كما وردت بمعنى الجانب، إشارة إلى أنّ كل طوائف الباطل تولت وانتهت.

[۵۵۸] (٢) حسب التفسير الذى اوردناه فان الضمير فى« ساقتها» و« قيادها» يعود إلى جيش الإسلام، بينما يعود إلى جيش الكفر فى حذافيرها بقرينة المقام.

[۵۵۹] (١) سند الخطبة، روى بعض هذه الخطبة المفسر المعروف على بن ابراهيم المتوفى عام ٣٠٧ فى المجلد الأول من تفسيره/ ٣٨۴ ذيل الآية« ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة»(سورة النحل/ ٢۵) عن الإمام الصادق عليه السلام. كما ورى بعضها الشيخ المفيد فى كتابه الارشاد/ ١۶٠٠ وقد عاش كلاهما قبل السيد الرضى(ره).

[۵۶٠] (١)« كهل» متوسط العمر، وقيل تطلق على من جاوز الثلاثين، ولا تعنى العجز.

[۵۶١] (٢)« شيمة» بمعنى الأخلاق وجمعها« شيم».

[۵۶٢] (٣)« ديمه» بكسر الدال المطر المستديم الذى يخلو من الرعد والبرق.

[۵۶٣] (۴) سورة النحل/ ٨٩.

[۵۶۴] (۵) سورة البقرة/ ١١٩.

[۵۶۵] (١) مناقب ابن شهر آشوب ١/ ٣۴- ٣٧(طبق نقل شرح نهج البلاغة للشوشترى ٢/ ٢٠۴) و سيرة ابن هشام ١/ ١٧٨.

[۵۶۶] (٢) المصدر السابق.

[۵۶٧] (٣) ابن شهر آشوب طبق نقل بحار الأنوار ١۵/ ٣٣٢.

[۵۶٨] (١)« احلولت» أصبحت حلوة من مادة« حلو».

[۵۶٩] (٢)« اخلاف» جمع« خلف» على وزن جلف حلمة ضرع الناقة.

[۵٧٠] (٣)« جائل» من مادة« جولان» تعنى فى الأصل إزالة الشى من مكانة، وتطلق على الحيوان الذى ينزل عنانه وينطلق اينما يشاء.

[۵٧١] (۴)« خطام» ما يوضع فى أنف البعير ليقاد به.

[۵٧٢] (۵)« قلق» من مادة« قلق» الاضطراب وتحريك الشيء.

[۵٧٣] (۶)« وضين» بطان عريض منسوج من سيور أو شعر يكون للرحل كالخرام للسرج.

[۵٧۴] (٧) لسان العرب، مادة سدر.

[۵٧۵] (١)« شاغرة» من مادة« شغور» خالية.

[۵٧۶] (٢)« ثائر» من مادة« ثأر» على وزن قعر« وقد بُدلت الهمزة بألف. و« ثأر» تقرأ على وزن غار.

وفى الاصل جاءت بمعنى الثأر والانتقام، وتأتى أحيانا بمعنى الدم، وهو كناية عن الثأر أيضاً.

وتعبير« ثاراللّه» اطلق على الإمام الحسين والإمام على عليهما السلام« يا ثاراللّه وابن ثاره»، ومعنى ذلك ان ثأر هذين الامامين لا يتعلق

بعائلة او قبيلة، بل يرتبط باللّه سبحانه وتعالى وبكل بنى الانسان فى هذا العالم.

[۵۷۷] (۱) المجلد الثالث من هذا الكتاب فى الخطبة ۸۷؛ ج ۴ الخطبة ۹۳.

[۵۷۸] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۱۳۶.

[۵۷۹] (۱)« امتاحوا» من مادة« متح» سحب الدلو من بئر الماء.

[۵۸۰] (۲)« روقت» من مادة« روق» على وزن فوق بمعنى صفيت، فتأتى بمعنى التصفية إذا حملت على باب التفعيل.

[۵۸۱] (۱)« شفا» حافة الشيء وتعنى فى الأصل حافة البئر والنهر، و« الهار» من« هور» على وزن غور بمعنى المتهدم أو المشرف على الانهدام.

[۵۸۲] (۲)« شجو» الهم والغم(ولهذه المفردة معنى المصدر واسم المصدر).

[۵۸۳] (۱)« سهمان» على وزن لقمان جمع« سهم» الحظ والنصيب.

[۵۸۴] (۲)« تصويح» جفاف النبات.

[۵۸۵] (۳)« استثار» من مادة« استيثار» بمعنى الاستثارة والنشر.

[۵۸۶] (۴) نهج البلاغة، الخطبة، ۹۳.

[۵۸۷] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۱۷۰.

[۵۸۸] (۲) شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئى ۷/ ۲۵۱.

[۵۸۹] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۵.

[۵۹۰] (۱) سند الخطبة: ورد فى مصادر نهج البلاغة سنذكر مدارك هذه الخطبة فى ذيل الكلمات القصار(الكلمات ۳۰، ۳۱، ۲۶، ۲۶۸) ويبدو انها فى خطبة واحدة للإمام عليه السلام(فصلها المرحوم السيد الرضى(ره))، ولكن ليس لدنيا مدارك واضحة لما نقله المصادر. والذى يستفاد من كتاب المستدرك والمدارك لنهج البلاغة ان جانب من هذه الخطبة ورد فى كتاب اصول الكافى وجانب آخر منها فى الامالى للطوسى(من اول الخطبة إلى العبارة والجنّة سبقته).

[۵۹۱] (۲) شرح نهج البلاغة للشوشترى ۱۲/ ۳۳۹.

[۵۹۲] (۱) بحار الانوار ۶۵/ ۳۴۶.

[۵۹۳] (۲) سورة الفتح/ ۲۹.

[۵۹۴] (۳)« علق» من مادة« علوق» التعلق بالشيء والالتصاق به.

[۵۹۵] (۱) سورة الحجر/ ۷۵.

[۵۹۶] (۱)« أبلج» من مادة« بلوج» على وزن بلوغ واضح ونير.

[۵۹۷] (۲)« المناهج» جمع« منهج» الطريق الواضح والمستقيم.

[۵۹۸] (۳)« ولائج» جمع« وليجة» من مادة« ولوج» بمعنى الدخول فولائج أبواب الدخول.

[۵۹۹] (۴)« مشرف» من مادة« اشراف» بمعنى المرتفع.

[۶۰۰] (۵)« جواد» جمع« جادة» الطريق الواسع الواضح، كما تطلق على مطلق الطريق.

[۶۰۱] (۱)« المضمار» موضع تضمير الخيل وزمان تضميرها.

[۶۰۲] (۲)« الحلبة» من مادة« حلب» على وزن قلب خيل تجمع من كل صوب للنصرة كما تطلق على حلب اللبن من الحيوان، ثم اطلقت على الخيل التى تتسابق فى الميدان.

[۶۰۳] (۳)« متنافس» من مادة« تنافس» سعى الإنسان للحصول على شيء نفيس.

[۶۰۴] (۴)« سبقة» جزاء السابقين.

[۶۰۵] (۱) سورة الزلزلة/ ۷- ۸.

[۶۰۶] (۲) بحار الانوار ۷۵/ ۱۱۰.

[۶۰۷] (۱) الخصال للشيخ الصدوق ۲/ الباب ۷، ح ۳۵.

[۶۰۸] (۱)« أورى» من مادة« ورى» على وزن نفى بمعنى التغطية والستر، وتستعمل بمعنى اشعال النار إذا جاءت من باب الأفعال؛ وكَأن النار التى كمنت فى جوف المواد المشتعلة قد خرجت، وتشير فى الخطبة إلى أنوار الهداية التى نصبها الرسول صلى الله عليه و آله لدعاة الحق.

[۶۰۹] (۲)« قبس» الشعلة من النار، والقابس آخذ النار من النار، وهى هنا إشارة إلى النور والهداية.

[۶۱۰] (۳)« الحابس» من حبس ناقته وعقلها حيرة منه لا يدرى كيف يهتدى فيقف عن السير.

[۶۱۱] (۱) سورة آل عمران/ ۱۶۴.

[۶۱۲] (۲) سورة الأنبياء/ ۱۰۷.

[۶۱۳] (۱)« نزل» بضمتين ما هيئى للضيف لينزل عليه.

[۶۱۴] (۲)« السناء» علو المقام والرفعة.

[۶۱۵] (۳) سورة الانعام/ ۱۶۰.

[۶۱۶] (۴) سورة الصف/ ۹.

[۶۱۷] (۵) تفسير نور الثقلين ۱/ ۶۲۶ ح ۱۷۸.

[۶۱۸] (۶)« خزايا» جمع« خزيان» الخجل والافتضاح.

[۶۱۹] (۱) الخطبة ۷۲ فى المجلد الثالث.

[۶۲۰] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۱۷۴.

[۶۲۱] (۱)« يهاب» من مادة« هيبة» الاحترام المقرون بالخوف.

[۶۲۲] (۲)« سطوة» و أصله كما ورد فى مفردات الراغب، من سطا الفرس اذا اقام على رجليه رافعاً يديه. القهروالغلبة والتسلط.

[۶۲۳] (۳) الكافى ۲/ ۶۸.

[۶۲۴] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۱۷۷.

[۶۲۵] (۲)« تأنفون» من مادة« أنف» على وزن شرف بمعنى الحمية و الغضب و العِزّة.

[۶۲۶] (۱) سند الخطبة: رواه الطيبرى فى تاريخه فى حوادث عام ۳۷، والمرحوم الكلينى فى كتاب الجهاد من فروع الكافى، ونصرين مزاحم فى كتاب صفين(باختلاف)، وفسر ابن أثير فى كتاب النهاية بعض مفرداتها، ممّا يدل على عثوره عليها(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۲۱).

[۶۲۷] (۱) جاء فى كتاب« وقعة صفين»« لنصر بن مزاحم»، حول سبب ايراد هذه الخطبة قوله: كان ذلك فى يوم السابع من صفر، و هو من الايام العصيبة فى حرب صفين، فى ذلك اليوم هاجم جيش معاوية قسماً من جيش الإمام اميرالمؤمنين عليه السلام و أجبروهم على التراجع إلى الخلف، فتألم الإمام على عليه السلام لذلك، و لام جيشه، وبعدها حرضهم و شجعهم على القتال، وقد قاد هجوماً شاملًا بنفسه يصحبه مالك الاشتر، فهزم جيش معاوية و فرقهم، و بعدها خطب الإمام على عليه السلام فى جيشه هذه الخطبة.(كتاب وقعة صفين،/ ۲۴۳ إلى/ ۲۵۴، طبعة بصيرتى- قم المقدسة).

[۶۲۸] (۲)« جولة» من مادة« جولان» تعنى فى الأصل الدوران فى الميدان، ثم وردت بمعنى التراجع والحملة ثانية، وهكذا وردت فى

العبارة.

[۶۲۹] (۳)« انحياز» ترك المواضع.

[۶۳۰] (۴)« الجفاة» جمع« الجافى» بمعنى السفلة من الناس و ذوى الخلق السيء و الخشن.

[۶۳۱] (۵)« الطغام» جمع« طغامة» الأوباش والأراذل.

[۶۳۲] (۱)« لهاميم» جمع« لهميم» و« لهموم» وهو السابق الجواد من الخيل والناس.

[۶۳۳] (۲)« يافيخ» جمع« يافوخ» وهو من الرأس حيث يلتقى عظم مقدمه مع مؤخره، ووردت هنا كناية عن القادة.

[۶۳۴] (۳)« الانف» المراد به الموضع البارز من الوجه، وتطلق العرب هذه الكلمة على المقدم.

[۶۳۵] (۴)« وحاوح» جمع« وحوح» صوت مع بحح يصدر عن المتألم.

[۶۳۶] (۵)« حس» بالفتح القتل.

[۶۳۷] (۶)« النصال» جمع« نصل» السهم.

[۶۳۸] (۷)« شجر» الطعن بالرمح.

[۶۳۹] (۸)« هيم» شدة العطش جمع« أهيم» أو« هائم».

[۶۴۰] (۹)« تذاد» من مادة« ذود» بمعنى الطرد و الدفع.

[۶۴۱] (۱) سند الخطبة: روى بعض هذه الخطبة الآمدى فى الغرر والزمخشرى فى ربيع الأبرار وجانباً آخر رواه الآمدى فى الغرر باختلاف مع ماورد فى نهج البلاغة، وهذا يدل على أنّه نقلها من مصادر اخرى غير نهج البلاغة.(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۲۷).

[۶۴۲] (۱)« ضمائر» جمع« ضمير» من مادة« ضمور» على وزن قبول تعنى فى الأصل الضعف كما يراد بها باطن الإنسان.

[۶۴۳] (۲)« سترات» جمع« ستره» على وزن قربة ما يستربه.

[۶۴۴] (۳)« سريرات» جمع« سريرة» ما يخفيه الإنسان ويكتمه، وقد تجمع سريرة جمع تكسير فيقال سرائر، كما تجمع جمع مؤنث سالم.

[۶۴۵] (۱) سورة لقمان/ ۲۷.

[۶۴۶] (۱) سورة الحديد/ ۴.

[۶۴۷] (۲) سورة ق/ ۱۶.

[۶۴۸] (۳) راجع نفحات القرآن ۴.

[۶۴۹] (۱) غرر الحكم ودرر العلم، الحكمة ۶۰۳۳.

[۶۵۰] (۱) مراهم جمع مرهم الدهون التى يداوى بها الجروح.

[۶۵۱] (۲)« مواسم» جمع« ميسم» بمعنى الآلات التى يوسم بها بدن الانسان أو الحيوان بعد أن يحمى عليها. و« وسم» على وزن رسم، و يطلق على العلامة التى تظهر على جسم الحيوان أو الانسان بعد وسمه بالآلات الحارة.

[۶۵۲] (۳)« يقدحوا» من مادة« قدح» على وزن« مدح» بمعنى إضرام النار بواسطة القداحة« وهى الآلة التى تحتوىعلى حجر خاص يستعمل فى قديم الزمان، حيث يقدح عليه فيولد ناراً، و كانوا يستفيدون منه كما نستفيد فى الوقت الحاضر من الشخاط الحاوى على الكبريت».

[۶۵۳] (۴)« زناد» جمع« زند» وهى آلات تستخدم لتوليد شرارة لغرض اضرام النار و اشعالها فى الوقود، كالخشب والفحم و الحطب، و قد اعتاد العرب فى القديم على الاستفادة من هذه الوسيلة لاشعال النار فى الوقود.

[۶۵۴] (۱)« سائمة» من مادة« سوم» على وزن« قوم» بمعنى حركة الحيوان فى الصحراء.

وكذلك على هبوب الرياح المستمرة. و يطلق« الحيوانات السائمة» على الحيوانات التى ترعى و تحصل على علفها من الصحراء و هى سائبة فى الصحراء.

[۶۵۵] (۱)« انْجابَت» من مادة« جوب» على وزن قَوّمَ. و« جوبه» على وزن توبه بمعنى قطع وفصل، وعلى هذاالاساس سمى الرد على الكلام ب« الجواب»، و ذلك لان السؤال يُقطع و ينتهى بواسطة الجواب.

و اذا جاءت هذه الكلمة على وزن انفعال، فيكون معناها الانكشاف و الاعلان، وفى الخطبة أعلاه جاءت بهذا المعنى

[۶۵۶] (۲)« خابط» من مادة خبط، و تأتى تارةً بمعنى القرب الشديد، وتارة بمعنى السير على غير هدىً، كالذى يسير ليلًا بدون ضياء، وقد جاءت الكلمة هذه فى الخطبة أعلاه بهذا المعنى

[۶۵۷] (۳)« أسفرت» من مادة« سفور» بمعنى جلد أى شيء و يستفاد من هذه الكلمة بشكل أكثر عند الحديث عن جلود الحيوانات.

[۶۵۸] (۱) أورد أغلب مفسرين الفريقين هذا الحديث ذيل الآية ۱۸ من سورة محمد صلى الله عليه و آله.

[۶۵۹] (۲)« نساك» جمع« ناسك» العابد.

[۶۶۰] (۳)« أيقاظ» جمع« يقظان» ضد النائم.

[۶۶۱] (۴)« نوم» جمع« نائم».

[۶۶۲] (۱) سورة البقرة/ ۱۷۱.

[۶۶۳] (۲) سورة النمل/ ۸۰.

[۶۶۴] (۳) سورة يس/ ۶۹- ۷۰.

[۶۶۵] (۱) نهج البلاغة، كلمات القصار ۱۴۷.

[۶۶۶] (۱)« تكيل» من مادة« كيل» على وزن ذيل بمعنى المكيال وتستعمل عادة فى المواد الغذائية كاحنطة والشعير، كما تستعمل فى غيرها مجازاً.

[۶۶۷] (۲)« باع» يعنى فى الأصل المسافة بين أصابع اليدين، حين يفتحها نحو اليمين أو اليسار بصورة تامة، كما يستعمل مجازاً بمعنى القدرة الكاملة للإنسان.

[۶۶۸] (۳)« ثفالة» من مادة« ثفل» هو ما استقر تحت الشيء من كدره.

[۶۶۹] (۴)« النفاضة» من مادة« نفض» على وزن نبض ما يسقط بالنفض.

[۶۷۰] (۵)« العكم» بمعنى الكيس الذى يحفظ فيه الأشياء.

[۶۷۱] (۱)« تعرك» من مادة« عرك» شديد الدلك ومن هنا تطلق المعركة على ميدان القتال حيث يدك كل منها الطرف الآخر.

[۶۷۲] (۲)« الاديم» فى الأصل بمعنى جلد أى شيء. ويستفاد من هذه الكلمة بشكل أكثر عند الحديث عن جلود الحيوانات.

[۶۷۳] (۳)« تدوس» من مادة« دوس» على وزن قوس.

[۶۷۴] (۴)« بطينة» من مادة« بطن» سمين.

[۶۷۵] (۵)« هزيل» ضد بطين بمعنى الضعيف وخفيف الوزن.

[۶۷۶] (۱)« تتيه» من مادة« تيه» على وزن« بيه» بمعنى الضلال والحيرة.

[۶۷۷] (۲)« غياهب» جمع« غيهب» على وزن« حيرت» بمعنى شدة ظلام الليل.

[۶۷۸] (۱) ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى ان هذه العبارة منقطعة حيث لم يروا من إرتباط واضح بينها وبين العبارات السابقة على أنّ السيد الرضى فصلها طبق عادته فى الانتخاب، والحال هذا ليس من عادة الرضى(ره) فى ان يحذف عبارة دون أن يشير إليها كما مرمعنا ذلك بقوله(ومنها) وعليه وكما ذكرنا فان هناك علاقة معنوية وطيدة.

[۶۷۹] (۲)« هتف» من مادة« هتاف» صراخ.

[۶۸۰] (۳)« الرائد» من يتقدم القوم ليكشف لهم مواضع الكلأ ويتعرف سهولة الوصول اليها من صعوبته.

[۶۸۱] (۴)« شمل» بمعنى الجمع.

[۶۸۲] (۵)« فلق» بفتحتين بمعنى الشق.

[۶۸۳] (۶)« الخرزة» الجواهر القيمة النفيسة او قليلة الثمن.

[۶۸۴] (۷)« قرف» من مادة« قرف» على وزن حرف بمعنى التقشير.

[۶۸۵] (۱)« صمغه» ما يجرى من الشجرة من مادة لزجة.

[۶۸۶] (۱)« غيض» بمعنى الغضب، وقيل حالة أشد من الغضب.

[۶۸۷] (۲)« قبض» بمعنى وسط الصيف« قلب الاسد» واذا وردت بالمعنى المصدرى فهى شدة الحرارة.

[۶۸۸] (۳) فيض سيل الماء أو المطر والدمع.

[۶۸۹] (۴) غيض الغور فى الأرض والنقصان.

[۶۹۰] (۱)« أُكال» جمع« آكل» مثل طلاب بمعنى الآكل، و على هذا المعنى يكون معنى الجملة« أوساطُه أكالًا»، المقصود به الطبقة المتوسطة فى ذلك الزمان والذين لاهم لهم غير الاكل والشرب وسلب ونهب الأموال، واذا جاءت بصيغة اسم فاعل، حيث نرى أنها جاءت على صيغة« اسم مفعول، وهو ما يناسب الجمل التى سبقتها، فيكون معناها، بالشكل الذى أوردناه فى الشرح أعلاه.

[۶۹۱] (۱)« غار» من مادة« غور» الدخول فى الشىء وإذا استعمل فى الماء عنى غوره فى الأرض، ومن هنا يستعمل بمعنى الانعدام أيضاً.

[۶۹۲] (۲)« فرو» ما يهيىء من جلد الحيوانات وله صوف عادة ما يلبس فى الشتاء.

[۶۹۳] (۱) سفينة البحار، مادة زمن.

[۶۹۴] (۱) سند الخطبة: جاء فى مصادر نهج البلاغة أنّ المرحوم الرضى(ره) اقتطفها من الخطبة المعروفة بالزهراء، ورواها ابن عبد ربّه المالكى فى العقد الفريد والزمحشرى والآمدى(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۳۵).

[۶۹۵] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۲۰۲.

[۶۹۶] (۱) سورة النمل/ ۴۹.

[۶۹۷] (۲) سورة البقرة/ ۲۵۵.

[۶۹۸] (۳) سورة فاطر/ ۱۵.

[۶۹۹] (۴) سورة آل عمران/ ۲۶.

[۷۰۰] (۱)« لم تر» فعل، والكاف مفعوله، و فاعله« العيون» يعنى« لا تبصرك الانظار».

[۷۰۱] (۲)« يفلت» من مادة« افلات» ينفك أويفر. ومنه الحديث المعروف لعمر فى كتب الفريقين« إن بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى اللَّه شرّها».

[۷۰۲] (۱)« محيص» من مادة« حيص» على وزن حيف بمعنى العودة والعدول واعتزال الشىء ومحيص اسم مكان، وعليه قد تعنى الملاذ.

[۷۰۳] (۲) يستفاد من المصادر اللغوية ان السر ما يخفيه الإنسان، أمّا الغيب فما خفى على عيننا وحسنا.

[۷۰۴] (۳) سورة الكهف/ ۴۸.

[۷۰۵] (۱) سورة غافر/ ۵۷.

[۷۰۶] (۲)« اسبغ» من مادة« اسباغ» الكثير الوافر.

[۷۰۷] (۱) بناء على ماورد فان« من» تبعيضية وإشارة إلى بعض مخلوقات اللّه العظيمة التى وردت فى المقطع السابق من الخطبة.

[۷۰۸] (۱) وسائل الشيعة ۱۱/ ۱۶۴، أبواب جهاد النفس، الباب ۹، ح ۲.

[۷۰۹] (۲)« مهين» من مادة« مهانة» بمعنى الضعة والحقارة وماء مهين إشارة إلى المنى الذى ليس له قيمة من حيث‌المقدار ولا الظاهر.

[۷۱۰] (۳)« يتشعبهم» من مادة« تشعب» التفرق، وشعبة بمعنى الفرع الذى فصل عن الأصل.

[۷۱۱] (۴)« ريب» كل شك وترديد، ومنون حوادث الدهر أو الموت.

[۷۱۲] (۱) سورة الحجر/ ۲۹.

[۷۱۳] (۲)« زروا» من مادة« زرى» على وزن سعى العيب والتوبيخ واللوم، والازراء بهذا المعنى أيضاً.

[۷۱۴] (۱) بين المرحوم العلّامة المجلسى فى المجلد ۶۸ من بحار الانوار ص ۲۳ الحديث المذكور عن النبى صلى الله عليه و آله ضمن شرحه لبعض الاحاديث.

[۷۱۵] (۲) سورة البقرة/ ۳۰.

[۷۱۶] (۱)« المأدبة» بضم الدال وفتحها ما يصنع من الطعام للمدعوين فى عرس ونحوه، والمراد هنا نعيم الجنّة، من‌مادة أدب التى تعنى فى الأصل الدعوة.

[۷۱۷] (۲)« جيفه» بمعنى الميتة، وأصلها من مادة« جَيَفَ» و« الأجيف» بمعنى الأنتن، ولذلك فان كل شىء فاسد ونتن‌يُشَبَهُ ب« الجيفة»، ومن هنا فقد شَبهت الخطبة أعلاه الدنيا المادية بانها« جيفة».

[۷۱۸] (۱)« عَشَقَ» من مادة« عشق» على وزن فكر بمعنى العلاقة الشديدة بالشىء.

و« عشقه» على وزن ثمرة بمعنى الشجرة الخضراء اليانعة، والتى لا يمر عليها الا وقت قصير فتصبح صفراء وذابلة.

وبعضهم قال: ان العشق أشتق فى الأصل من هذه المادة، وذلك لان العاشق يصبح نحيفاً ذابلًا.

[۷۱۹] (۲)« أعشى من مادة« عشو» على وزن« خشم» بمعنى ضعف النظر و عدم قدرة العين على الابصار بصورةجيدة، و تأتى أحيانا بمعنى العمى الليلى أو العشو ليلًا.

[۷۲۰] (۳) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ۳/ ۶۳.

[۷۲۱] (۱)« غرة» بمعنى الغفلة من مادة« غرور» بمعنى الخداع، حيث يستغفل هذا الخداع الإنسان ويأخذه بغتة.

[۷۲۲] (۲)« إقالة» من مادة« قيل» على وزن سيل بمعنى فسخ المعاملة، وقيل معناها الأصلى انقاذ الإنسان من السقوط، ووردت فى الخطبة بمعنى العفوعن الذنوب.

[۷۲۳] (۱) بحار الانوار ۷۰/ ۱۵۸.

[۷۲۴] (۲) غرر الحكم، ۶۳۱۴.

[۷۲۵] (۳) كنز العمال، ۶۹۹۹.

[۷۲۶] (۴) كنز العمال، ۷۰۰۲.

[۷۲۷] (۵) كنز العمال ۱/ ۴۳۳، ح ۱۷۷۲.

[۷۲۸] (۱) الكافى ۲/ ۸۳، ح ۳، باب العبادة.

[۷۲۹] (۲) بحار الانوار ۲۲/ ۳۴۱.

[۷۳۰] (۱)« أغمض» من مادة« غمض» على وزن نبض اطباق الجفن على العين، ثم اطلق على كل تساهل وغفلة.

[۷۳۱] (۲)« العب» بمعنى الحمل والثقل.

[۷۳۲] (۳)« رهون» جمع« رهن» حبس الشیء وهو عادة سند یسلم مقابل قرض لایعاد مالم یسدد« والمرء قد غلقت رهونه بها» استحقها مرتهنها وأعوزته القدرة علی تخلیصها، کنایة عن تعذر الخلاص.

[۷۳۳] (۱)« أصحر» برز فی الصحراء، أی علی ما ظهر له وانکشف من أمره.

[۷۳۴] (۲)« التیاط» من مادة« لیط» علی وزن لیل الالتصاق.

[۷۳۵] (۳)« مخط» الحفرة وتطلق علی القبر، لأنّهم بحظون ثم یحفرون.

[۷۳۶] (۴)« زوره» من مادة« الزیارة» وجاءت بهذا المعنی

[۷۳۷] (۱)« أماد» من مادة« مید» الحرکة والاضطراب.

[۷۳۸] (۲)« أرج» من مادة« رجّ» علی وزن« حجّ» ومعناها التحریک الشدید.

[۷۳۹] (۳)« أرجف» من مادة« رجف» علی وزن« کشف» بمعنی الاضطراب والاهتزاز الشدید، ومن هنا یطلق علی الأخبار التی تثیر الفتنة ب« الأراجیف» والتی تسبب الاضطرابات فی المجتمع.

[۷۴۰] (۴)« نسف» من مادة« نسف» علی وزن« حذف» بمعنی وضع الحبوب التی یستفاد منها کمادة غذائیة فی الغربال، وتحریکه أو یُذری فی الهواء من أجل فصل الحبوب عن القشور.

وهنا تأتی بمعنی تحطیم وتلاشی الجبال و بشکل شدید.

[۷۴۱] (۱)« دک» فی الاصل بمعنی تسویة الأرض، ومن هنا فان عملیة تسویة وتعدیل الارض الغیر المستویة یحتاج الی ان ندکها، ویستعمل هذا الاصطلاح فی موارد عدیدة بمعنی التحطیم الشدید.

[۷۴۲] (۲) سورة ابراهیم/ ۴۸.

[۷۴۳] (۳) سورة الانفطار/ ۱- ۲.

[۷۴۴] (۴) سورة الواقعة/ ۴- ۶.

[۷۴۵] (۵) سورة النازعات/ ۶- ۷.

[۷۴۶] (۶)« إخلاق» من مادة« خلق» علی وزن شفق البلی.

[۷۴۷] (۱)« انتقم» من مادة« نقمة» علی وزن نعمة تعنی فی الأصل الجزاء والعقاب، کما تأتی بمعنی الثأر المقرون بالعداء، الا انها وردت بالمعنی الأول فی الخطبة والاستعمالات القرآنیة.

[۷۴۸] (۱)« یظعن» من مادة« ظعن» السفر.

[۷۴۹] (۲)« أفزاع» جمع« فزع» الخوف.

[۷۵۰] (۳)« تشخص» من مادة« إشخاص» الاخراج من منزل إلی آخر.

[۷۵۱] (۱) سورة فاطر/ ۳۴- ۳۵.

[۷۵۲] (۲) سورة غافر/ ۷۱- ۷۲.

[۷۵۳] (۳)« کلب» من مادة« کَلْب» علی وزن« جلب» وفی الاصل بمعنی الضغط علی الحصان بواسطة المهماز و ذلک‌لکی یُسرع فی عدوه، وهذا الاصطلاح یستعمل لأی‌نوع من أنواع الشدة.

[۷۵۴] (۴)« لجب» له معنی المصدر واسم المصدر الصوت المرتفع.

[۷۵۵] (۵)« قصیف» أشد الصوت.

[۷۵۶] (۶)« تفصم» من مادة« فصم» علی وزن نظم کسر الشیء دون فصله، وتعنی القطع.

[۷۵۷] (۷)« کبول» جمع« کبل» القید.

[۷۵۸] (۱)« زوی» من مادة« زی» علی وزن طی الجمع والفیض والابعاد.

[۷۵۹] (۲)« اختیار» بمعنی الانتخاب والاصطفاء والاعتزاز ضد« الاحتقار».

[۷۶۰] (۱) سورة الزخرف/ ۳۳- ۳۵.

[۷۶۱] (۲) الکافی ۲/ ۳۱۷ ح ۹.

[۷۶۲] (۱) بحار الانوار ۱۶/ ۲۸۳.

[۷۶۳] (۱)« مختلف» من مادة« اختلاف» وتأتی هنا بمعنی الذهاب والإیاب، ومن هنا فان کلمة« مُخْتَلَف» تعنی هنا محل الذهاب والإیاب.

[۷۶۴] (۱) سورة الحاقة/ ۱۲.

[۷۶۵] (۲) راجع نفحات القرآن ۹/ ۳۵۹؛ بحار الانوار ۳۵/ ۳۲۶- ۳۳۱.

[۷۶۶] (۳) الغدیر ۳/ ۱۷۸ و ۱۸۰.

[۷۶۷] (۴) الغدیر ۶/ ۶۱- ۸۰.

[۷۶۸] (۵)« سطوة» الوثوب علی الشخص وقهره، ولما کان من لوازم ذلک العقاب، فقد وردت بهذا المعنی فی العبارة.

[۷۶۹] (۱) سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة بدایة الخطبة« الحمد للّهفاطر الخلق وخالق الأشباح» وهی خطبة معروفة مشهورة تعرف بخطبة الدیباج. رواها قبل السید الرضی(ره) المرحوم الصدوق فی کتاب من لایحضره الفقیه(۱/ ۱۳۱) بتفاوت وفی علل الشرایع، کما وردت فی تحف العقول وفی کتاب المحاسن(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۳۸) إلّاأنّ الخطبة فی تحف العقول بدأت« الحمد للّهفاطر الخلق، وخالق الاصباح» ثم اورد الخطبة وذکرانها تعرف بخطبة الدیباج.(تحف العقول،/ ۱۰۴- ۱۰۷).

[۷۷۰] (۱)« متوسلون» من مادة« وسیلة» بلوغ الشیء مع المیل والرغبة.

[۷۷۱] (۲) سورة المائدة/ ۳۵.

[۷۷۲] (۱)« ذروة» علی وزن قبلة أعلی الشیء.

[۷۷۳] (۲) نهج البلاغة، الحکمة ۲۵۲.

[۷۷۴] (۱) وسائل الشیعة ۱/ ۹.

[۷۷۵] (۲) بحار الانوار ۸/ ۳۵۹.

[۷۷۶] (۳) جامع الأخبار(طبق نقل بحار الانوار ۷۹/ ۲۰۲).

[۷۷۷] (۴) منهاج البراعة ۷/ ۳۹۸ وبحار الانوار ۷۹/ ۲۱۸.

[۷۷۸] (۱) سورة النساء/ ۷.

[۷۷۹] (۲) شرح نهج البلاغة للمرحوم الشوشتری ۱۳/ ۱۰۲.

[۷۸۰] (۳) الکافی ۴/ ۶۲ ح ۱.

[۷۸۱] (۴)« یرحضان» من مادة« رحض» علی وزن محض الغسل، إشارة إلی أنّ الحج والعمرة یغسلان الذنوب.

[۷۸۲] (۵) بحار الانوار ۶۹/ ۲۶.

[۷۸۳] (۱) بحار الانوار ۶۶/ ۴۰۶.

[۷۸۴] (۲)« مثراة» من مادة« ثری و« ثروة» وتعنی الزیادة، وعلی هذا الاساس، یقال للمال الکثیر« الثروة» و« مثراة» مصدر میمی بمعنی اسم فاعل و یعنی سبب الزیادة.

[۷۸۵] (۳)« منسأة» من مادة« نسأ» علی وزن نسخ بمعنی التأخیر، ومنسأة: مصدر میمی بمعنی اسم فاعل یعنی سبب التأخیر.

ويقال للعصا« المنسأة» لانها تستعمل لازالة الاشياء الضارة التى تعترضنا أثناء السير.

[۷۸۶] (۴) الكافى ۲/ ۱۵۰.

[۷۸۷] (۵) سورة البقرة/ ۲۷۴.

[۷۸۸] (۱) احقاق الحق ۳/ ۲۴۶- ۲۵۱.

[۷۸۹] (۲) تحف العقول، الكلمات القصار للإمام الكاظم عليه السلام.

[۷۹۰] (۳) الخصال ۱/ ۱۳۴.

[۷۹۱] (۴) بحار الانوار ۸۰/ ۳۶۹.

[۷۹۲] (۵) بحار الانوار ۷۱/ ۳۸۸.

[۷۹۳] (۶) بحار الانوار ۷۲/ ۵۰ ح ۴.

[۷۹۴] (۷)« صنائع» من مادة« صنع» على وزن« قفل» بمعنى صناعة الشيء وابداعه.

وفى لغة العرب يقال للاعمال الجيدة والحسنة« الصنائع» وهو جمع« صنيعة».« نقل من المعجم الوسيط».

[۷۹۵] (۸)« مصارع» جمع« مصرع» بمعنى السقوط على الارض، ويطلق لمحل القتل بالمصرع، ويقال للصراع بين طرفين« المصارعة» لان كل طرف من هذين الطرفين يحاول أن يطرح الآخر أرضاً.

[۷۹۶] (۱) ميزان الحكمة ۲/ ۱۹۳۱ ح ۱۲۶۱۱.

[۷۹۷] (۲) غرر الحكم، ۶۱۶۶.

[۷۹۸] (۳) الكافى ۲/ ۱۹۵ ح ۱۰.

[۷۹۹] (۴) خطبة الزهراء عليها السلام، احتجاج الطبرسى ۱/ ۲۵۸، طبع اسوة، وورد مثل هذا المعنى فى الكلمات القصار، ۲۵۲.

[۸۰۰] (۱) سورة الحجرات/ ۱۷.

[۸۰۱] (۲) سورة الكهف/ ۱۰۳- ۱۰۴.

[۸۰۲] (۱) كنز العمال، ۳۹۳۱.

[۸۰۳] (۱) سورة الزمر/ ۱۷.

[۸۰۴] (۲)« يستفيق» من مادة« استفاقة» بمعنى تحسن الحالة الصحية بعد المرض والوعى بعد السكر واليقظة من النوم وجاءت هذه الكلمة فى هذه الخطبة بالمعنى الثالث أى اليقظة من النوم.

[۸۰۵] (۳)« ألوم» من مادة« لوم» على وزن قوم بمعنى العتب، ومع الأخذ بنظر الاعتبار بان« ألوم» هى صيغه أفعل تفضيل، وهنا تعنى الملامة، وهو الأنسب.

[۸۰۶] (۱) الكافى ۱/ ۴۷ ح ۱.

[۸۰۷] (۲) سورة النساء/ ۱۷.

[۸۰۸] (۱) سورة الأعراف/ ۱۷۶.

[۸۰۹] (۲) ورد ذلك عن عمر بن سعد حين اقترح عليه قتال الحسين عليه السلام فى كربلاء، واعطائه ملك الرى، ففكر فى الأمر ثم انشد شعرا، زعم فيه أن يقتل الحسين عليه السلام ويفوز بملك الرى ثم يتوب اله اللَّه سبحانه. ألا لعنة اللَّه على الظالمين.

[۸۱۰] (۳) الاثنى عشرية/ ۲۰۶.

[الجزء الخامس

الخطبة[1] المأة وإحدى عشرة

اشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ علیه السلام

فِی ذَمِّ الدُّنَیا

نظرة إلی الخطبة

تحدثت هذه الخطبة بصورة عامّة- كما ورد فی عنوانها عن ذمّ الدنیا، الدنیا التی تغرق الإنسان فی لذاتها وزخارفها الزائلة اللامشروعة، ومتعها الرخیصة، بحیث یتناسی اللّه والخلق ومصیره وعاقبته، الدنیا التی تغیب فیها معانی القیم والمثل ولا یعد فیها من مفهوم للحلال والحرام والظلم والعدل.

والخطبة التی نحن بصددها علی أقسام:

القسم الأول: فیها یتعرض إلی خداع الدنیا وغرورها وزبرجها وظاهرها الأجوف الذی لا باطن له.

القسم الثانی: فیتناول تقلب أحوال الدنیا وعدم ثباتها، إلی جانب الحدیث عن النعم التی قد تتبدل نقماً والنجاحات التی تتحول فشلًا.

القسم الثالث: خاض علیه السلام فی بیان فناء الدنیا وزوالها، حیث تضمّن عبارات رائعة مؤثرة

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۶

تكشف النقاب عن حقیقة هذا الأمر.

القسم الرابع: فكأنّه یأخذ بید الناس ویغوص بهم فی أعماق تاریخ الماضیین، والعاقبة المریرة التی طالت الأقوام من ذات القوّة والسطوة لتهز عروشهم وتحیلهم أجساداً خاویة قبرت تحت التراب.

وأخیراً القسم الخامس: الذی تطرق إلی الموت والأموات الذین عاشوا دهراً بیننا بذلك النشاط والحیویة وقد ذاع صیتهم لیعمّ الأرجاء، والحال قد ذهبت تلك الحیویة أدراج الریاح وتبدل ذلك النشاط إلی خمول وضمور بعد أن أتاهم الموت وأحال أجسادهم تراباً.

هذا وقد أورد الإمام علیه السلام هذه الخطبة بعبارات لطیفة بالغة التأثر شأنها إیقاظ أسوأ الأفراد الذین یغطّون فی سبات الغفلة ونفث النور والأمل فی أوراحهم المظلمة البائسة.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۷

القسم الأول: الدنیا الغرارة!

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّی أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْیَا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِیلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَیَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ. لَا تَعْدُو- إِذَا تَنَاهَتْ إِلَی أُمْنِیَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِیهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا- أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَی سُبْحَانَهُ: «كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِیماً تَذْرُوهُ الرِّیَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَی كُلِّ شَیْءٍ مُقْتَدِراً».

الشرح والتفسیر

إستهل الإمام علیه السلام الخطبة بتحذیر الجمیع من هذه الدنیا الفانیة والغرارة، ثم أماط اللثام عن ماهیة واقعها وحقیقتها من خلال وصفها والتعرض لغرورها وخداعها بثمان عشرة عبارة، فقال علیه السلام أحذركم من هذه الدنیا ذات الظاهر اللطیف الذی إنطوی

على اللذّات والشهوات، الأمر الذى يجعلها تشد إليها الأنظار بفعل عينيتها ومثولها للإنسان رغم ضحالة نعمها وتفاهتها، إلّاأنّها تحلّت بالآمال وتزيّنت بالغرور لتسوق إليها هذا الإنسان:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنّى أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۸

بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ ۲] بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ».

فالإمام عليه السلام يرى خداع الدنيا فى حلوّ ظاهرها المحفوف بالشهوات، فهى محببة إلى النفوس كونها ماثلة للعيان ملموسة، وهذا هو المعنى المراد من العبارة

«تَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ».

أمّا العبارة

«رَاقَتْ بِالْقَلِيلِ»

، فهى إشارة إلى أنّ الدنيا قد زينت متاعها القليل بالشكل الذى جعلها تستقطب قلوب عبدة الدنيا المتكالبين على حطامها.

بينما أشارت العبارت

«تَحَلَّتْ بِالْآمَالِ»

إلى زيف هذه الزينة التى تحلّت بها الدنيا، حيث تفتقر إلى الواقع، بل زينت مظهرها بالآمال والخيالات الفارغة الزائفة، وهذا هو المعنى الذى أكدته العبارة

«تَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ»

، فرصيدها الرئيسى الذى يشكل عنصر التزيين إنّما هو الغرور الخداع، ولعل الوقوف على عمق هذا المعنى يتجسد من خلال النظر من بعيد إلى قصور الملوك وسلطتهم الظاهرية المرعبة، وسعة حجم أموالهم وثرواتهم، وأبهة وجلال مراكبهم وملابسهم النفيسة الفاخرة وسائر الوسائل والأدوات التى يعتمدونها فى حياتهم ومعيشتهم التى تخطف الأبصار وتسحر القلوب، بينما الاقتراب منهم والغوص فى واقع حياتهم لا يرى سوى البؤس والشقاء وسبل المصاعب والمشاكل التى تلف حياتهم ومدى القلق والاضطراب الذى يسودهم من جراء المؤامرات والدسائس التى يخطط لها أعداؤهم إلى جانب الحسد والطمع الذى تكنّه لهم بطانتهم وقرابتهم.

والواقع هو أنّ هذه العبارات إقتباس ممّا صرحت به بعض الآيات القرآنية، فقد جاء فى القرآن الكريم بشأن الحياة الدنيا:

«وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ...»[۳].

وجاء فى موضع آخر: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ...»[۴].

كما جاء أيضاً: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ...»[۵]

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹

. وقال تعالى أيضاً: «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»[۶].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأنّ نِعم الدنيا وسرورها إلى إنقطاع ولا دوام لها، وليس هناك من شخص بمنأى عن مشاكلها وفجائعها، ورصيدها الخداع والغرور والضرر والخسران، معروفة بالفناء والزوال وعاقبة أمر سكانها وعمارها الهلاك والعدم:

«لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا[۷]، وَلَا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ[۸] زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ[۹] بَائِدَةٌ[۱۰]، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ[۱۱]».

نقد تناول الإمام عليه السلام الدنيا ليتحدث بهذه العبارات الرائعة البيان عن تقلب أحوالها وعدم ثباتها، فليس هنالك من دوام واستمرار لأىمن مفرداتها من قبيل حلاوتها وطلاوتها ونعمها وثرواتها وإمكاناتها وآمالها ورغباتها ونشاطها وعنفوان الشباب فيها، فكل هذه الامور محكومة بالفناء والزوال، وبناءاً على هذا فلا يركن إليها إلّاالجاهل الغافل.

ثم اختتم عليه السلام كلامه– فى هذا القسم من الخطبة– بالقول:

«لَا تَعْدُو– إذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا– أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: «كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً[۱۲] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً»[۱۳]».

فقد عزز الإمام عليه السلام إثبات مراده من خلال التمسك والاستشهاد بالتشبيه الرائع الذى أورده القرآن فى سورة الكهف بشأن الدنيا، وكأنّى به قد اصطحب المخاطب إلى حيث الصحراء

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۰

ليريهم صورة الربيع والخريف واهتزاز الأرض وحيوتها من نزول المظر وخروج النباتات وتفتح البراعم والزهور وحمل الأشجار للفاكهة والثمار، غير أنّ هذه الامور لا يكتب لها الاستمرار والدوام، فلم تشهد هذه الحالة سوى بضعة شهور لتذبل تلك الأوراق وتنتهى تلك الثمار وتنقطع زقزقة العصافير والطيور وتتبدل الخضرة بيوسة وجفافاً، وهذه بالضبط حقيقة الحياة الدنيا التى تعيشها البشرية حيث يتّجه كل شيء فيها نحو الزوال فيا له من تشبيه رائع وعجيب!

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۱

القسم الثانى: الدنيا كل يوم بلباس

«لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِى حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةٌ، وَلَمْ يَلْقَ فِى سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً؛ وَلَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ، إِلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلَاءٍ، وَحَرِىٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِىَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى! لَايَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً. وَلَا يُمْسِى مِنْهَا فِى جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ. غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لَا خَيْرَ فِى شَىْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ. وَمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة مواصلة لذمّ الحياة المادية الدنيوية إلى صفة أخرى من صفاتها البارزة الأخرى والمتمثلة بسرعة تغيّرها وتبدّلها، إلى جانب تبدّل نعمها ونقمها، فلم يصب أحد منها سروراً إلّاأتبعته حزناً وحسرة، ولم يذق حلاوتها إلّااستشعر مرارتها:

«لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِى حَبْرَةٍ إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةٌ، وَلَمْ يَلْقَ فِى سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلَّا مَنَحَتْهُ ۱۴] مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲

ثم أكّد عليه السلام هذا المعنى بأنّه لم يستشعر هبوب الرياح اللطيفة والأمطار الملائمة حتى يغرق فى سبيل من البلاء:

«وَلَمْ تَطُلَّهُ ۱۵] فِيهَا دِيمَةُ[۱۶] رَخَاءٍ، إِلَّا هَتَنَتْ ۱۷] عَلَيْهِ مُزْنَةُ[۱۸] بَلَاءٍ».

ومن هنا فلا وجه للغرابة والتعجب إذا انتصرت لأحد صباحاً تنكرت له مساءاً، وإن حملت بيد ظرفاً حلواً حملت بأخرى ظرفاً مرّاً:

«وَحَرِىٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِىَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ ۱۹] وَاحْلَوْلَى ۲۰]، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى![۲۱]».

نعم، هذه هى طبيعة الدنيا وستكون كذلك، حيث تستحيل حلاوتها مرارة، ونصرها هزمة، وحياتها موتاً، وليست هناك أية قدرة يسعها الحيلولة دون هذه الاستحالة والتغيير.

ثم واصل عليه السلام تأكيد هذه الحقيقة فى أنّ الإنسان لا يصيب منها لذّة ونعمة إلّاأتبعته غصّة ورهقة، ودفعت به إلى ما يتعبه من الشدائد والنوائب، فلا يكاد يتمتع بلذّة الأمن حتى يزعجه ألم الخوف والخطر:

«لَايَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا[۲۲] رَغَباً، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ ۲۳] مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً، وَلَا يُمْسِى مِنْهَا فِى جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ ۲۴] خَوْفٍ».

أجل، ليست هناك من فاصلة يؤبه بها فى هذه الدنيا لا مكانية ولا زمانية بين السعادة والشقاء، فقد تراه أحياناً جن عليه الليل وقد غرق فى لذاته وشهواته وهنيىء عيشه ودعته فى هالة من فرحه وسروره، ولم يكد يطلع الصبح عليه حتى تتعالى الأصوت بالنحيب والبكاء تنعى فقده ومفارقته لهذه الدنيا، بل لعله يتجرع كأس المنون من يد أقرب مقربيه:

ثم استمر عليه السلام فى الحديث عن غرور الدنيا وزوالها فقال:

«غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ. وَمَنِ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳

اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ ۲۵]، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ».

وهكذا أورد الإمام عليه السلام هذه الصفات التى تصور تغير أحوال الدنيا وعدم ثباتها وأفول قدرتها وزوال موفقياتها ليخلص إلى نتيجة مفادها ضرورة قناعة العاقل بالقليل منها (على قدر الكفاف) ليمهد السبل أمام أمنه واستقراره وراحة باله، وذلك لأنّ من طلب المزيد فيها غامر بنفسه وقذف بها فى لهوات المخاطر، فيكون بذلك قد مهد السبيل أمام شقاء نفسه وبؤسها.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵

القسم الثالث: الدنيا سند هش خاوى!

«كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِى طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ. وَذِى أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً، وَذِى نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا سُلْطَانُهَا دُوَّلٌ وَعَيْشُهَا رَنِقٌ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ. حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ. وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ!»

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة- إلى أمرين مهمين آخرين بشأن الحياة الدنيا ووضاعة متاعها المادية:

الأمر الأول: أنّ لا شىء فيها يمكن الاعتماد عليه والوثوق به، فقد قال عليه السلام بهذا الشأن كم من وثق بهذه الدنيا وسكن إليها فجرعته الألم والمعاناة، وما أكثر الأفراد الذين اطمئنوا إليها فصرعتهم، وما أكثر الأفراد الذين كانوا من أهل السطوة والشوكة، فأذاقتهم لباس الذلّة والمسكنة:

«كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِى طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ. وَذِى أُبَّهَةٍ[۲۶] قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً، وَذِى نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا».

نعم، ليس هنالك من فرد مهما كان مقامه، وموقعه بمأمن من الحوادث الخطيرة والمكاره

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۶

التى تصيب الإنسان بغتة، فعظام الملوك والسلاطين والأبطال الأشداء أصحاب رؤوس المال من أهل الجاه والسطوة والشباب الذين يعيشون عنفوان النشاط والحيوية والجمال، كل هؤلاء ومن شاكلهم إنّما يخضعون لهذه الحوادث التى تجرى عليهم وهم صاغرون، الحوادث التى تأتى على جميع النعم واللذات فتخطفها فى لحظة وتذل الأعزّة والجبابرة وما التاريخ عنك ببعيد، فقد شحن بمثل هذه الحوادث، وقد ورد فى تاريخ الطبرى أنّ سليمان بن عبدالملك لبس ذات يوم لباساً فاخراً واعتم بعمة خضراء وأخذ ينظر فى المرآة (وهو يتلذذ بما يشاهد من نفسه فدفعه الفخر لأن) يقول: أنا ملك شاب سعيد الحظ، فلم يعمر بعد ذلك أكثر من سبعة أيّام ۲۷].

الأمر الثانى: هو أنّ حلاوتها قد عجنت بالمرارة وانتصاراتها بالهزائم:

«سُلْطَانُهَا دُوَّلٌ ۲۸] وَعَيْشُهَا رَنِقٌ ۲۹]، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ ۳۰]، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ[۳۱]، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ ۳۲]، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ ۳۳]».

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حال ساكن الدنيا من أنّ حياته معرّض للموت والسقم والمرض يتربص بعافيته وصحته، ملك هذه الدنيا يستبطن الزوال والفناء، وعزيزها آيل إلى الانكسار، ووفرة نعمها تحمل معها مفردات النفاد والانقضاء:

«حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَ صَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا[۳۴] مَنْكُوبٌ ۳۵]، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ![۳۶]».

نعم، فمتع الدنيا ولذاتها إن وجدت، فهى مشوبة بأنواع المعاناة والألم، والحكام فى ذوى القدرة والسطوة الذين نغبطهم على مدى قدرتهم وشدّة شوكتهم وتربعهم على العرش نراهم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷

حين الاقتراب منهم أخوف ما يخافون حتى من مقربيهم، وأكثر الناس طاعة لأوامرهم، بل هم فى غاية القلق والاضطراب ممّا يخبىء لهم الغد والمستقبل القريب.

ولعل هذا الأمر أشبه شيئاً بتلك القصّة التى تحدثت عن ذلك الفرد الذى كان يتمنى التربع على العرش السلطة ولو ليوم واحد، فحققوا له ما يريد، غير أنّهم عقلّوا على رأسه خنجراً حاداً ربطوه بشعرة، فكان يتوقع فى كل آن قطع تلك الشعرة ونزول ذلك الخنجر على هامته، فكان يرجو بفارغ الصبر انقضاء ذلك اليوم والخلاص من مسند العرش الذى انطوى على ذلك الخطر، فما أورع الصورة التى رسمها الإمام عليه السلام لهذه الدنيا الغرور حين قال:

«كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِى طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ».

فليس هنالك ما يوثق به منها ولا يعتمد عليه فيها.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹

القسم الرابع: تأملوا الماضى قليلًا

«أَلَسْتُمْ فِى مَسَاكِنِ منْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَأَبْقَى آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَالًا، وَأَعَدَّ عَدِيداً، وَأَكْثَفَ جُنُوداً! تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَىَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَىَّ إِيثَارٍ. ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ وَلَا ظَهْرٍ قَاطِعٍ. فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَأَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وَضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ. فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ لَهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ. وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ! أَفَهذِهِ تُؤْثِرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!»

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام الخطبة التى أوردها فى ذم الدنيا وسرعة زوالها وخداعها وغرورها مصطحباً مخاطبيه هذه المرة ليغوص فى أعماق تاريخ الامم السالفة، ليصور من خلالها حياة أصحاب السلطة والقدرة ممن ملأ صيتهم الأرجاء وكانت تقوم الدنيا وتقعد بين أيديهم، وكذلك أصحاب الثروة والمال ليتساءل عليه السلام ألستم تحلون محلّ من كان قبلكم وتسكنون مساكنهم، ممن عمروا كثيراً وتركوا آثاراً وكانت لهم أمنياتهم وآمالهم ورغباتهم، وكانت لهم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۰

جنودهم وحماتهم:

«أَلَسْتُمْ فِى مَسَاكِنِ منْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَأَبْقَى آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَالًا، وَأَعَدَّ عَدِيداً[۳۷]، وَأَكْثَفَ ۳۸] جُنُوداً!».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى خمس خصائص إمتازت بها الأقوام السابقة وهى: طول العمر، وبقاء الآثار والمخلفات، وطول الآمال، وكثرة السكان، وكثرة الجنود، فهى خصائص منحتهم التفوق على سائر من سواهم، وإلّا أنّ أى من هذه الامتيازات لم يحل دون زحف العدم والفناء لقصورهم وأديتهم، فكان مصيرهم أن تلاشوا وتساقطوا ركوعاً للموت تساقط أوراق الشجر فى فصل الخريف.

ثم أضاف عليه السلام مواصلًا كلامه بهذا الشأن: «تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ. ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ وَلَا ظَهْرٍ قَاطِعٍ».

نعم، فرغم كلّ سعيهم وجهدهم فى سبيل عبادة الدنيا والذوبان فيها وتجنيد كافة قواهم وطاقاتهم فى هذا الاتجاه، إلّاأنّهم لم يصيبوا أى شىء منها، ثم مشوا إلى حتوفهم وقد خلت جعبهم من الزاد والمتاع ودون حمل الورع والتقوى التى لا يجدى غيرها نفعاً هناك، فطريق الآخرة شاق طويل لا يجتازه إلّاأهل الورع والتقى.

ثم خاطب عليه السلام صحبه: هل بلغكم أنّ الدنيا قدمت لأحدهم فدية لتنجيه من الموت أو سكراته؟ أم هل أعانتهم بشىء فى هذا السبيل؟ أم هل كانت على الأقل صاحباً حسناً لهم:

«فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ ٣٩] لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً!».

نعم، لم تقدم لهم أى عون ولم تنجيهم عن المكاره والأهاويل، أفلا يكون ذلك عبرة لم اعتبر من أبناء الدنيا!

ثمّ واصل الإمام عليه السلام كلامه بهذا الخصوص قائلًا:

«بَلْ أَرْهَقَتْهُم ٤٠] بِالْقَوَادِحِ ٤١]، وَأَوْهَقَتْهُمْ ٤٢]

نفحات الولايه، ج۵، ص: ٢١

بِالْقَوَارِعِ ٤٣]، وَضَعْضَعَتْهُمْ ٤٤] بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ ٤٥] لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ ٤٦]، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ ٤٧]».

فهذه العبارة المؤثرة تشير إلى أنّ الدنيا ليس فقط لم تقدم العون والمساعدة لعبادها وأصحابها، بل سارعت بكل ما أوتيت من وقوّة لتوجيه ضرباتها الماحقة إليهم بغية إبادتهم، وإستئصال شوكتهم، حتى جندت جميع قواها وطاقاتها ضدهم.

والطريف فى بيان الإمام عليه السلام هو أنّه بدأ من المراحل الكبرى نزولًا إلى الصغرى فى إطار تصويره لإعانة الدنيا وما يمكنها أن تقدمه من نصرة ومساعدة، بينما تدرج فى أضرارها التى تصيب من تعلق بها من المراحل السفلى إلى المراحل العليا المتمثلة بالانقضاض عليهم وإزالتهم من صحفة الوجود، ولعمرى هذه قمة الفصاحة والبلاغة فى بيان الحقائق المريرة والأليمة ويكشف النقاب عن مدى وضاعة الدنيا وانحطاطها وتنكرها لمن أخلد إليها واطمأن بها.

ثم خلص عليه السلام إلى نتيجة ممّا سبق مفادها تنكر الدنيا لأصحابها ممن آثرها على كلّ شىء وهو الأمر الذى رأوه بأم أعينهم (أو لعلهم طالعوه بشأن الامم التى سبقتهم) فقد سلمتهم للأقدار وساقتهم نحو الموت دون أن يعدّوا الزاد والمتاع لتلك الدار الآخرة:

«رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ[٤٨] لَهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ».

فهل أمدتهم هذه الدنيا بشىء سوى الجوع والفقر؟ وهل عرضتهم سوى للتعب والارهاق

نفحات الولايه، ج۵، ص: ٢٢

والضنك؟ وهل وهبتهم إلّاالظلمة التى ليس معها نور؟ (أبداً، بل أودعتهم حفراً مظلمة موحشة تفيض رعباً وخشية)، وهل بقى لديهم من شىء سوى الحسرة والندم:

«وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْکَ ٤٩]، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ!».

فكيف الوثوق بهذه الدنيا التى لا تضمر لمن تعلق بها سوى البؤس والشقاء والهزيمة والفشل والظلمة، ولا تعقبه سوى الندم؟! أم كيف له التضحية بالغالى والنفيس فى سبيل الحصول على بعض حطام الدنيا وجعلها هدفاً فى حياته؟!

ومن هنا تساءل الإمام عليه السلام مستنكراً:

«أَفَهذِهِ تُؤْثِرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!».

حقاً، ليست هناك من عبارات أوضح وأفصح من هذه العبارات التى وردت بشأن تفاهة الدنيا والمصير والعاقبة المريرة التى تنتظر من تعلق بها وسكن إليها، وهدف الإمام عليه السلام من هذه التأكيدات المتواصلة والعبارات المنبهة الشديدة إلى الوقوف بوجه الريح الدنيوية العاتية، وما إنطوت عليه من نعم جمّة أفرزتها قضية الفتوحات الإسلامية والتى إستهوت قطاعات واسعة من المسلمين لتقذف

بهم فی أتون الرفاهیة والراحة والدعة بما ینسیهم القیم والمثل والمبادیء السماویة الخالدة، ویجعلهم یغطّون فی سبات الغفلة، علّهم یفیقون إلی أنفسهم ویعودون إلی رشدهم فیهبوا لإحیاء القیم الإسلامیة المغیبة، إلی جانب محاولة الإمام علیه السلام إعادة الامّة- لا سیما أولئک الأفراد الذین تکالبوا علی الدنیا وثرواتها إبان عهد عثمان- إلی المسار الإسلامی الصحیح.

وما أورع هذه المواعظ والنصائح البلیغة الواضحة للمتکالبین علی الدنیا من أبناء عصرنا الراهن حیث یشهدون ذات الظروف، بل أسوأ منها والتی عصفت بالمجتمع وجعلته یتعلق بالدنیا، والحق لو لم یلتفتوا إلی هذا الأمر ویفکروا فی علاج وضعهم فلا من دین ولا دنیا معقولة یمکنهم أن یظفروا بها ویحصلوا علیها.

والعبارات تنسجم تماماً وما صرحت به الأحادیث النبویة الشریفة وروایات وکلمات

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۳

المعصومین علیهم السلام وبالتالی الآیات القرآنیة، فقد صرّحت الآیة ۹، من سورة الروم:

«أَوَلَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنظُرُوا کَیْفَ کَانَ عَاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَکْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنَاتِ فَمَا کَانَ اللَّهُ لِیَظْلِمَهُمْ وَلَکِنْ کَانُوا أَنفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ».

کما صرّحت الآیة ۷- ۸ من سورة یونس:

«إِنَّ الَّذِینَ لَایَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِینَ هُمْ عَنْ آیَاتِنَا غَافِلُونَ* أُوْلَئِکَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا کَانُوا یَکْسِبُونَ»

وورد فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال:

«مَنْ زَهِدَ فِی الدُّنیا أثبَتَ اللَّهُ الحِکمَةَ فِی قَلْبِهِ وَأَنْطَقَ بِها لِسانَهُ وَبَصَّرَهُ عُیُوبَ الدُّنیا داءَها وَدَواءَها وَأَخرَجَهُ مِنَ الدُّنیا سالِماً إلی دارِ السَّلام»[۵۰].

کما ورد عنه علیه السلام أنّه قال:

«مَن أَصبَحَ وَأَمسَی وَالدُّنیا أَکْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللَّهُ تعالی الفَقرَ بَینَ عَینَیهِ وَشَتَّتَ أَمرَهُ، وَلَم یَنَلْ مِنَ الدُّنیا إلّاما قَسَّمَ اللَّهُ لَهُ، مَن أَصبَحَ وَأَمسَی وَالآخِرَةُ أَکْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللَّهُ الغِنی فِی قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ أَمرَهُ».[۵۱]

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۵

القسم الخامس: الاعتبار بالموتی

اشارة

«فَاعْلَمُوا- وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ- بِأَنَّکُمْ تَارِکُوهَا وَظَاعِنُونَ عَنْهَا. وَاتَّعِظُوا فِیهَا بِالَّذِیْنَ قَالُوا: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً». حُمِلُوا إِلَی قُبُورِهِمْ فَلا یُدْعَوْنَ رُکْباناً، وَأُنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا یُدْعَوْنَ ضِیفَاناً. وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِیحِ أَجْنَانٌ، وَمِنْ التُّرَابِ أَکْفَانٌ، وَمِنْ الرُّفَاتِ جِیرانٌ، فَهُمْ جِیرَةٌ لَا یُجِیبُونَ دَاعِیاً، وَلَا یَمْنَعُونَ ضَیْماً، وَلَا یُبَالُونَ مَنْدَبَةً. إِنْ جِیدُوا لَمْ یَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ یَقْنَطُوا.

جَمِیعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِیرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدَانُونَ لَا یَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِیبُونَ لَا یَتَقَارَبُونَ. حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ. وَجُهَلَاءُ قَدْ مَاتَت أَحْقَادُهُمْ، لَا یُخْشَی فَجْعُهُمْ، وَلَا یُرْجَی دَفْعُهُمْ، اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْناً، وَبِالسَّعَةِ ضِیقاً، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً. فَجَاءُوهَا کَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً، قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَی الْحَیَاةِ الدَّائِمَةِ وَالدَّارِ الْبَاقِیَةِ، کَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَی:

«کَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلقٍ نُعِیدُهُ وَعْداً عَلَیْنَا إِنَّا کُنَّا فَاعِلِینَ»».

الشرح والتفسیر

إختتم الإمام علیه السلام خطبته بالحدیث مرّة أخری عن تقلب أحوال الدنیا وغدرها وتنکرها لمن تعلّق بها، إلی جانب الکلام عن

المصير الحتمى الذى ينتظر كل إنسان والذى يتمثل بمفارقة الدنيا والرحيل إلى عالم الآخرة، فقال عليه السلام: «فَاعْلَمُوا- وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ- بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ ۵۲] عَنْهَا».

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۲۶

نعم، فلابدّ لكل إنسان أن يذوق طعم الموت: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ...»[۵۳].

وقال تعالى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَام»[۵۴].

ولعل الإنسان يشك فى كل شىء، غير أنّه لا يشك فى حقيقة الموت: «واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ»[۵۵].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بضرورة الاتعاظ بمن كان قبلهم من الامم ممن غرّتهم قواهم، فلم تنفعهم تلك القوّة شيئاً حتى حملوا راغمين إلى قبورهم، فلم يحلوا ضيوفاً على تلك القبور بعد أن ورد وهاقراً وإكراهاً دون أن يكون لهم أدنى إرادة واختيار: «وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِيْنَ قَالُوا: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً»[۵۶]. حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلا يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً[۵۷]، وَأُنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ ۵۸] فَلَا يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً».

ولعل العبارة إشارة لما ورد فى الآية ۱۵ من سورة فصلت القائلة: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ...».

فالمعروف أنّ قوم عاد كانوا ذوى جثث ضخمة وقصور وبيوت فارهة عملاقة ينحتونها وسط الجبال، الأمر الذى جعلهم يصابون بالكبر والغرور، فلمّا عتوا عن أمر اللَّه وعصوه أرسل اللَّه عليهم ريحاً عاتية فأحالت جثثهم الضخمة إلى ما يشبه أوراق الأشجار التى تتناثر على الأرض، حيث حدّث عنهم القرآن الكريم بهذا الشأن قائلًا: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ* تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ».[۵۹]

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۲۷

أمّا قوله عليه السلام

«فَلا يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً»

والركبان جمع راكب وذلك لأنّ الراكب من يكون مختاراً، ولا اختيار لهؤلاء، وقوله عليه السلام

«فَلَا يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً»

لأنّ الضيف يرد برغبته وإرادته إلى المكان الذى يستقبل فيه، وقد ورد مثل هذا المعنى فى الخطبة ۱۸۸ من نهج البلاغۀ إذ قال عليه السلام:

«حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ».

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلة لوصفهم:

«وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ ۶۰] أَجْنَانٌ ۶۱]، وَمِنْ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنْ الرُّفَاتِ ۶۲] جيرانٌ».

فالعبارة إشارة إلى أنّ قبورهم خالية من البناء والسقوف والأعمدة والأبواب والنوافذ، فهى ليست أكثر من قبضة من الحجر والتراب على وجه الأرض، والتعبير عن التراب بالكفن فذلك لأنّه يحيط ببدن الميت ويواريه كالكفن، وأمّا ذلك الكفن الذى يلف به الميت فهو مؤقت سرعان ما يبلى ويزول، ولا يبقى سوى الكفن الأصلى وهو التراب.

والجدير بالذكر هو أنّ الإمام عليه السلام واصل كلامه بالحديث عن هؤلاء الجيران وهم ليسوا أكثر من عظام نخرة، فيكشف النقاب عن حقيقة وضعهم بعبارات غاية فى الجمال والروعة، وبما يدعو للتأمل والاعتبار: «فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِياً، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْماً[۶۳]، وَلَا يُبَالُونَ مَنْدَبَةً[۶۴]».

أضف إلى ذلك فهم على درجة من عدم الإكتراث بأى شىء بحيث:

«إِنْ جِيدُوا[۶۵] لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا. جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ[۶۶] وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدَانُونَ لَا يَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ».

حقاً، أنّهم عبرة لمن اعتبر وأوضاعهم مدعاة إلى التأمل والنظر، فكل شأن من شؤونهم يختلف ماماً وما عليه الحال بالنسبة لأهل الدنيا،

فقد كانوا معاً حتى أمس القريب، ينجد

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸

بعضهم البعض الآخر، يهرعون لاستقبال السنين التى تدر عليهم النعم والمنافع، بينما كانوا ينزعجون من القحط والجدب، كما كانوا يطوون المسافات القريبة والبعيدة لرؤية بعضهم البعض الآخر، لكن دون خبر عن أوضاعهم وما عليه أحوالهم، قبورهم متصلة متلاصقة مع بعضها، إلّاأنّ المسافة بينهما كأنّها ما بين المشرق والمغرب، ومن كان منهم يأن ليل نهار من عذاب البرزخ فلا يسمع أنينه أقرب مقربيه من صحبه من أهل القبور، بل حتى لو سمع صراخه وألمه لما وسعه نجدته وتقديم العون له.

وما أروع ما كان يردده الإمام السجاد عليه السلام حين مناجاته باكياً وهو يجسد ما أورده الإمام على عليه السلام بهذا الشأن، إذ كان يقول:

وأضحَوا رِميماً فِى التُّرابِ وَاقفَرَتْمَجالِسُ مِنهُم عُطِّلَتْ وَمَقاصِرُ

وَحَلُّوا بِدارٍ لا تَزاورُ بَيَنَهُموَأنّى لِسُكانِ القُبُورِ تَزاوُرُ

فَما أن تَرى إلّاجُثىً قَدْ ثَوَوا بِهامُسَنَّمَةً تَسفِى عَلَيِهِ الأعاصِيرُ[۶۷]

ثم واصل الإمام عليه السلام حديثه عن أصحاب القبور بأنّهم عقلاء قد ذهبت عداوتهم وخصومتهم، وفى نفس الوقت هم جهّال قد طرحت أحقادهم وأضغانهم، فليس هناك ما يدعو للخشية من ضررهم وشرهم، كما لا يؤمل أن يدافعوا عن أنفسهم، فقد انسلخوا من ظاهر الأرض ليوطنوا باطنها، فاستبدلوا بتلك السعة ضيقاً وبالأهل والوطن والنور غربة وظلمة:

«حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ. وَجُهَلَاءُ قَدْ مَاتَت أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنَاً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً».

والعجيب فى الأمر أنّه يصفهم فى عبارة بالعقلاء، ثم يردفها بالعبارة التالية بوصفهم بالجهلاء، والواقع هو أنّهم جثث خاوية قد خلت من الأرواح، فهم ليسوا بعقلاء ولا-جهلاء، بل وضعهم فى موضع جعلهم أشبه بالعقلاء حيث زالت العداوة بينهم، وفى موضع آخر تشبهوا بالجهلاء حيث ماتت بينهم روح الحسد ودوافعه، فقد تغييرت جميع مفرداتهم فى لحظة حيث استبدلوا بظاهر الأرض باطنها وبالدور الواسعة المنيرة المليئة بالأهل والعيال، القبور الضيقة

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۹

والمظلمة الموحشة الخالية من الصخب والضجيج.

ثم إختتم حديثه عليه السلام بالقول:

«فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً»[۶۸].

والعبارة مستوحاة من الآية القرآنية الشريفة: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى»[۶۹].

نعم كما خلق آدم عليه السلام من التراب، كذلك أولاده سيعودن حفاة عراة إلى هذه الأرض على غرار ولادتهم وقدومهم إليها، وإن حملوا معهم كفناً، فهو ليس كذلك فى الواقع، إذا سرعان ما يبلى ويزول ولا يعدّ له من وجود، بالتالى سيودع هذا الإنسان شاء أم أبى يوماً كل ما جمعه من أموال وأعدّ لنفسه من قصور ودور فارهة وحدائق ومراكب وإمكانات ووسائل، لينزل تلك الحفرة حافياً عرياناً وعليه أن يستعد لتلك الظلمة والوحشة.

نعم، الشيء الوحيد الذى يحمله معه هو عمله والذى قد يكون أحياناً وبالًا عليه وأعظم بلاء يصيبه، وهو الأمر الذى أكّده الإمام عليه السلام فقال:

«قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالدَّارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»[۷۰]».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار فى ختام هذه الخطبة إلى نقطتين:

الأولى: عودة الإنسان إلى الأرض كما خلق منها.

والثانية: النشأة الجديدة فى الآخرة.

ثم استشهد عليه السلام بالآية القرآنية الكريمة: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»، لكى لا يبقى أدنى مجال للشك فى حقيقة عودة الإنسان إلى التراب الذى خلق منه فيرى هناك جزاء أعماله من ثواب أو عقاب.

نفحات الولاية، ج٥، ص: ٣٠

تأمّلان

١- سبل مواجهة التعلق بالدنيا

إنّ حبّ الدنيا كما ورد فى الرواية هو رأس كل خطيئة وأساس جميع الذنوب والمعاصى، كما أنّ التعلّق بها والاغترار بزخارفها وحطامها يصد الإنسان عن ربّه وينسيه الآخرة والحساب يوم القيامة، ومن شأن هذه الغفلة والصدود أن تشكل أحد العوامل المهمّة التى تقذف بالإنسان فى وحل الخطايا والذنوب، وقد شهد عصر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تنامى الأموال والثروات إثر التقدم السريع الذى أحرزه الإسلام والغنائم المتحصلة من الغزوات، وهو الأمر الذى لفت إنتباه طائفة عظيمة من المسلمين ليشدّه إلى الدنيا ويدفع بها إلى التكالب عليها، وأفضل شاهد على ذلك الفساد المالى العظيم الذى حصل على عهد عثمان، ومن هنا لم ينفك الإمام عليه السلام فى أغلب خطب نهج البلاغة من ذمّ الدنيا والتحذير من الانخداع بها والركون إليها والوثوق بها، وقد أورد عباراته بمنتهى الفصاحة والبلاغة وبالشكل الذى يجعلها تثير حساسية أهل الغفلة ممن نسوا أنفسهم وتعلّقوا بالدنيا، ولا سيّما فى هذه الخطبة التى مرّ علينا شرحها، فقد سارت مواكبة للقرآن الكريم فى ذمّه للدنيا، وقد سلك الإمام عليه السلام مختلف الطرق من أجل بيان هذه الحقيقة منها:

١- تحدّث عليه السلام بادىء ذى بدء عن

«غدر الدنيا وعدم ثباتها»

وكيف استقطبت كل من تطلّع إليها بينما ولّت ظهرها وتنكرت له وقذفت به فى وحل البؤس والشقاء.

٢- تحدّث أحياناً عن

«تقلب الدنيا السريع»

حيث سرعان ما تتبدل القوّة ضعفاً، والانتصار هزيمة، والغنى فقراً، والعافية مرضاً.

٣- كما تحدّث أحياناً أخرى عن إختلاط النعم بالآلام، والمعافاة والعذوبة بالمرارة، فهنالك الاشواك حيث الأزهار، والأفاعى حيث الكنوز، بهدف عدم اغترار الناس بالدنيا والتعلّق بها والانخداع بزخارفها.

۴- كما يصحب عليه السلام مخاطبيه تارة أخرى ليوقفهم على نماذج عينية ملموسة للغدر وعدم الثبات الذى تنطوى عليه طبيعة الدنيا، فيقول لهم: إنظروا إلى الدنيا ماذا فعلت بمن كان أشدّ منكم قوّة وأكثر جمعاً للأموال وأعظم جنداً.

نفحات الولاية، ج٥، ص: ٣١

٥- وأحياناً أخرى يكون على غرار الرسّام الماهر الذى أمسك بريشته وجعل يرسم على لوحته الحالات المرعبة للإنسان على أعتاب الموت، وإنفصاله عن الأهل والولد والمال والثروة والجاه والمنصب، فيضع تلك اللوحة أمام أعينهم ليروها عن قرب فيعتبروا ويفكروا

فی مصیرهم.

۶- کما یعمد أحیاناً أخری لرسم لوحة صادقة معبّرة عن ضیق القبر وظلمته والذی یمثل آخر منازل الدنیا، فهو یحکی عن وحدة الإنسان وغربته وسط ما یجاوره من قبور صامتة، فلیس هناک من تزاور بینهم قط، کما لیس لأحد منهم علم عن آخر، إلی جانب تصویره لانقطاع الإنسان عن زوجته وولده ومدی عجزه وحاجته.

والملفت للنظرها هو أنّ جمیع هذه المباحث والمضامین إنّما تتحرک فی ظلّ آیات القرآن الکریم، فأحیاناً تشیر صراحة إلی تلک الآیات، وأخری تکون العبارات مستقاة من الآیات القرآنیة، وهذا ما یسبغ نوراً ولمسات روحیة، وجذبات معنویة علی کلمات الإمام علی علیه السلام وبالتالی مضاعفة مدی تأثیرها.

یالیت أهل الدنیا ممن اغتروا بها وخدعوا بحطامها وزیفها وتزینها أن یلتفتوا لأنفسهم ولو لحظة واحدة طیلة عمرهم فیطالعوا هذه الخطبة الموقظة ویتدبّروا عباراتها ومفاهیمها، بل ما أحرانا نحن أیضاً أن نتأمل هذه الخطبة وما شابهها من الخطب التی وردت فی نهج البلاغة لتتعمق معرفتنا بخصوص الدنیا والوقوف علی مدی ضحالتها وتفاهتها فتتجدد فینا روح الطاعة والابتعاد عن الخطیئة والمعصیة.

جدیر بالذکر أنّ العدید من الأدباء والشعراء قد انطلقوا أیضاً فی ظلّ الآیات القرآنیة والروایات الشریفة والمفاهیم الدینیة فانشدوا أشعاراً تهزّ الضمیر وتوقفه علی واقع الدنیا، من اولئک الشعراء الایرانیین هو الشاعر الکبیر والفرید «الحافظ الشیرازی» الذی أنشد أشعاراً کثیرة بشأن سرعة زوال نعم الدنیا وغدرها وأنّ حلاوتها قد مزجت بالمرارة وراحتها بالألم وسلامتها بالمرض والسقم، کما نظم قصائداً فی تقلب أحوال الدنیا وتغیرها المفاجیء وعدم استقرارها علی حال.

قصر الجدید إلی بلیوالوصل فی الدنیا انقطاعه

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۲

أی اجتماع لم یعدیتفرق منها اجتماعه

أم أی شعب ذی إلتئاملم یبدده انصداعه

أم أی منتفع بشیءثم تمّ له انتفاعه

یا بؤس للدهر الذیما زال مختلفاً طباعه

قد قیل فی مثل خلایکفیک من شر سماعه

ومن کلام الحکیم فی الدنیا: «إنا قد أصبحنا فی دار رابحها خاسر، ونائلها قاصر، وعزیزها ذلیل، وصحیحها علیل، والداخل إلیها مخرج، والمطمئن فیها مزعج، والذائق من شرابها سکران، والواثق بسرابها ظمآن، ظاهرها غرور، وباطنها شرور، وطالبها مکدود، وتارکها محمود».

۲- الردّ علی سؤال

حین نطالع ما أورده الإمام علیه السلام فی هذه الخطبة حول «أهل القبور» فی أنّهم جیرة لا یتزاورون وقریبون لا یتقاربون وما إلی ذلک، یتبادر إلی الأذهان هذا السؤال وهو أنّه وردت عدّة روایات صرّحت بعضها بأنّ أهل القبور یجتمعون أحیاناً مع بعضهم ویطلع کل منهم علی أوضاع الآخر وأنّ لهم مجالسهم وحلقاتهم، ومن ذلک ما ورد عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال:

«کَأَنِّی بِهِم حِلَقٌ حِلَقٌ قُعُودٌ یَتَحَدَّثُونَ»[۷۱].

فکیف الجمع بین هذه الروایات وما ورد فی عبارات الخطبة المذکورة؟

ولعل الآجابة على هذا السؤال تتضح من خلال الالتفات إلى أنّ الروايات المذكورة إنّما وردت بشأن المؤمنين وأصحاب الأعمال الصالحة، وأمّا ما جاء فى هذه الخطبة، فإنّما ورد بشأن أصحاب الدنيا من أهل الأعمال السيئة، وعليه فليس هنالك من تعارض بين هذه الخطبة وما صرّحت به الروايات.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۳

الخطبة[۷۲] المأة و إثنتا عشرة

اشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام

ذكر فيها ملك الموت وتوفيه النفس وعجز الخلق عن وصف اللَّه

نظرة إلى الخطبة

تفيد بعض القرائن أنّ هذه الخطبة جزء من خطبة مفصلة طويلة، وهى تهدف فى الواقع إلى بيان هذه الحقيقة التى تكمن فى عجز البشرية عن إدراك كنه الذات وصفات اللَّه سبحانه وتعالى، وذلك لأنّ الإنسان إن عجز عن معرفة ملك الموت وصفاته وطبيعة أعماله، فكيف يتوقع أن يقف على كنه الذات والصفات للخالق سبحانه كما هى عليه.

والذى يفهم من كتاب «تمام نهج البلاغة» أنّ هذه الخطبة هى جزء من الخطبة المعروفة بالأشباح والتى أوردها الإمام على عليه السلام بشأن عجز الإنسان عن إدراك كنه الذات والصفات الإلهيّة، والحق إنّ عبارة هذه الخطبة تنسجم تماماً وعبارات خطبة الأشباح، فاذا ما وضعت الخطبتان مع بعضهما لتوصلنا إلى أنّ الخطبة التى بين أيدينا هى جزء من تلك الخطبة[۷۳].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۵

«هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا؟، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِى بَطْنِ أُمِّهِ. أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمِ الرُّوحُ أَجابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فى أَحْشَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!».

الشرح والتفسير

أينما تكونوا يدرككم الموت

كما ورد سابقاً فانّ هذه الخطبة فى الواقع جزء من خطبة التى تصدت لبيان صفات اللَّه تعالى وعجز البشرية عن إدراك كنهه وصفاته سبحانه، وقد استدل الإمام عليه السلام بمثال فى هذه الخطبة يشخص الحقيقة المذكورة ويبيّن عجز الإنسان عن الوقوف على كنه ذات أغلب المخلوقات، وبناءاً على ما سبق فكيف يمكن توقع وقوف هذا الإنسان على كنه ذات وصفات الخالق المطلق بينما لا يسعه إدراك كنه مخلوق مثله؟

فقد قال عليه السلام:

«هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا؟، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً؟».

قطعاً أنّ روح الإنسان تفصل عن جسده من قبل ملك الموت، كما صرحت بذلك العديد من الآيات القرآنية، والحال ليس لدينا أى علم بولوجه من أجل قبض الروح ولا خروجه، كما لا نراه حين يقبض الروح، رغم أنّه مخلوق من مخلوقات اللَّه سبحانه، وما أكثر من مثله من الملائكة الذين يتعذر علينا رؤيتهم.

ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه بالتطرق إلى مورد خاص بشأن قبض الروح والذى یتصف بالتعقید والغموض، وهو قبض روح الجنین فى بطن امّه، فقال علیه السلام:

«بَلْ کَیْفَ یَتَوَفَّى الْجَنِیْنَ فِی بَطْنِ أُمّهِ. أَیَلِجُ عَلَیْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمِ الرُّوحُ أَجابَتْهُ بِإِذْنِ رَبّهَا، أَمْ هُوَ سَاکِنٌ مَعَهُ فی أَحْشَائِهَا؟».

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۶

فمن البدیهى أنّه یشق على کل عالم بانتقاء أى من الأجوبة الثلاث على سؤال المذکور، فلیس هنالک دلیل یثبت أى منها، وعلیه فقضیة قبض الروح بواسطة ملک الموت بحدّ ذاتها قضیة شائکة غایة فى التعقید یعجز عن إدراکها الإنسان فضلًا عن قبض روح الجنین فى بطن امّه.

ثم یخلص الإمام علیه السلام من العبارات السابقة إلى هذه النتیجة:

«کَیْفَ یَصِفُ إِلهَهُ مَنْ یَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!».

نعم، فهناک الألوف المؤلفة من المخلوقات والکائنات التى عجز الإنسان عن إدراکها حتى بعد تطور العلوم وتقدمها، فما حقیقة الروح؟ وما کیفیة إرتباطها بالجسد؟ کیف تنسلخ عن الجسد؟ وأین تتجه هذه الروح بعد انفصالها من البدن؟ ما حقیقة الحیاة؟ لم استطاع العلماء جمع کافة العناصر الموجودة فى الخلیة الحیة فى مختبراتهم بصورة صناعیة إلّاأنّهم عجزوا عن نفخ الروح فیها؟!

ما حقیقة الزمان والمکان؟ ما کیفیة أمواج الجاذبیة التى تربط شرق العالم بغربه؟ ومئات الأسئلة من هذا القبیل.

فاذا عجزنا عن وصف هذه المخلوقات التى نشترک معها فى کثیر من الأمور، فکیف نتوقع إمکانیة وصفنا للّهالذى لا یشترک معنا فى أى أمر؟! بلى، لدینا علم إجمالى بوجوده وصفاته سبحانه، حیث نعلم أنّه موجود وله الصفة الفلانیة على سبیل الإجمال، إلّاأنّ الکل یعرب عن عجزه وفشله من اقتحام میدان العلم التفصیلى، بما فیهم أنبیاء اللّه سبحانه وتعالى.

تأمّلات

۱- ملک الموت أم ملائکة الموت

هل ملک واحد أم جماعة؟ سؤال یتبادر إلى أذهان الکثیرین، فقد وردت بعض الآیات القرآنیة التى نسبت إلى اللّه تعالى قبض الأرواح: «اللَّهُ یَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِهَا ...»[۷۴].

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۷

بینما نسبت البعض الآخر منها قبض الروح إلى الملائکة، کما نسبته إلى ملک الموت الذى عبّرت عنه أیضاً بالملائکة، فقد صرحت الآیة ۱۱ من سورة السجدة قائلة: «قُلْ یَتَوَفَّاکُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ ...». وقالت الآیة ۸ من سورة النحل: «الَّذِینَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِکَةُ».

ویعلم أرباب التفسیر وأهل التحقیق فى القرآن أن لیس هنالک أى تعارض بین الآیات الثلاثة المذکورة، وذلک لأنّ السنة الإلهیّة جرت فى تفویض الملائکة تدبیر شؤون الخلق وأمور العالم، وعلیه فالفعل المذکور هو فعل اللّه سبحانه من جانب حیث منه یصدر الأمر، وهو فعل الملائکة من جانب آخر کونها تباشر ذلک العمل، على سبیل المثال یقال الحاکم الفلانى جدد بناء المسجد الحرام فى التاریخ الفلانى، یعنى أنّه أصدر أوامره للمهندسین والمقاولین والبنائین بمباشرة ذلک البناء، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: لملک الموت معنى الجنس، ونعلم أن الجنس یستعمل فى مفهوم العموم ومعنى الجمع أیضاً.

واستناداً لما مرّ معنا فانّ قبضة الأرواح هو طائفة من الملائکة یباشرنا ذلک العمل بأمر اللّه سبحانه وکبیر هذه الملائکة هو «عزرائیل».

ویعتقد البعض بأنّ الملکین المأمورین بکتابة أعمال الإنسان هما اللذان یتولیان قبض روح الإنسان إذا انتهى أجله، ولعل العبارة الواردة

فى الآية الشريفة: «وكّل بكم» أشارت إلى هذا المعنى.

ولما كان الصلحاء والاتقياء يتميزون بجميع خصائصهم عن الطلحاء والمتهتكين، فمن الممكن أن تختلف الملائكة التى تتولى قبض أرواحهم، ولقبض الروح الطاهرة لعظماء الناس كالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله، فانّ شخص ملك عزرائيل عليه السلام هو الذى يتولى هذه المهمّة[۷۵].

۲- كيفية قبض الأرواح

تبدو قضية قبض الروح مبهمة وغامضة لدينا على غرار الابهام الذى يكتنف ولوج

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۸

الروح فى البدن، وكل الذى نعرفه بهذا الخصوص هو قطع الرابطة القائمة بين الروح والجسد حين قبض الروح، ولكن كيف يحصل ذلك وبأية صيغة؟ فهذا ما يكتنفه الغموض والابهام.

ويبدو أنّ كل ما ورد فى الروايات الإسلامية يكون من قبيل التلميحات والتشبيهات، وإلّا فليس لدينا سجناء عالم المادة من سبيل إلى مثل هذه الأمور المتعلّقة بعالم ما وراء الطبيعة.

فهل ملك الموت كائن فى موضع- كما ورد فى بعض الروايات- والدنيا لديه كالدرهم فى كف اليد يقلبه كيف يشاء بحيث يتوفى كل أحد إذا ما صدر أمر وفاته، فيقبض روحه، أم أنّ ملائكة الموت انتشروا فى كل مكان من العالم ويتجهون لقبض الأرواح إذا حان أجلها؟

لقد ذكرت ثلاثة احتمالات فى الخطبة بشأن الأطفال الذين تقبض أرواحهم وهم أجنة فى بطون أمهاتهم:

الأول: ورود ملك الموت فى أحشاء الام من بعض جوارحها.

والثانى: يدعو روح الجنين اليه وهو فى الخارج.

الثالث: كونه مع الجنين فى أحشاء الام منذ البداية، ولذا عدم ترجيح الامام عليه السلام أحد هذه الاحتمالات الثلاثة إشارة الى حقيقة أنَّ صعوبة إدراكنا لجزئيات هذه الأمور بفعل وجودنا فى عالم المادة.

وقد ركز بعض شرّاح نهج البلاغة على الاحتمال الثانى من بين الاحتمالات الثلاثة المذكورة، ولعل دليلهم فى ذلك ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قيل لملك الموت عليه السلام: كيف تقبض الأرواح وبعضها فى المغرب وبعضها فى المشرق فى ساعة واحدة؟

فقال: أدعوها فتجيبنى، قال: ثم قال ملكالموت: إنّ الدنيا بين يدى كالقصعة بين يدى أحدكم يتناول منها ما شاء»[۷۶].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۹

الخطبة[۷۷] المأة ثلاثة عشرة

اشارة

مِنْ خُطْبِةٍ لَهُ عليه السلام

فى ذمّ الدنيا

نظرة إلى الخطبة

تحدّث الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة عن عدّة مسائل مهمّة مرتبطة مع بعضها البعض الآخر.

فقد حذر عليه السلام فى القسم الأول من الخطبة من الدنيا، ثم ذكر عيوبها ومصائبها، حيث شبّهها بالدار الآيلة للسقوط فلا ينبغى الاغترار بها، ثم واصل فى القسم الثانى كلامه بهذا الخصوص موصياً بعدم نسيان الموت والزهد فى الدنيا من خلال عدم التعلّق بها.

وأخيراً إختتم الخطبة بالإشارة إلى تشتت المسلمين واختلافهم وإسناد ذلك إلى التهافت على الدنيا، وإنّ صلاح المجتمع فى الحذر منها.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱

القسم الأول: التحذير من الدنيا

«وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ. وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ. قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلَالَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا. لَمْ يُصْفِهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ. خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ. وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ. فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ! اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ. وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ».

الشرح والتفسير

إتّجه الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة نحو ذمّ الدنيا وأصحابها المتكالبين عليها، ثم حقّرها وعدّد عيوبها بما يوقظ كل عاقل وينبهه إلى أنّ الدنيا لا يمكنها أن تكون سبيل للنجاة وأداة للسعادة.

فقد استهل عليه السلام الخطبة بتحذير مخاطبيه بما فيهم الناس آنذاك واليوم وسائر الأفراد فى كل العصور من الدنيا قائلًا:

«وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ. وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ».

«القلعة»

بضم القاف وسكون اللام المشتقة من مادة «قلع» الموضع غير المستوطن الذى يجب أن يرحل عنه الإنسان فى أى زمان.

و

«النجعة»

بضم النون عكس سابقتها فهى تعنى الموضع الذى عثر فيه الإنسان على الخير

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۲

والبركة، وقد عزم قطعاً على الاستقرار فيه، وعليه فمفهوم كلامه عليه السلام أنّ الدنيا منزل مؤقت عابر ولا قيمة لها لكى يتخذها الإنسان موضعاً للإقامة والاستقرار، ثم واصل عليه السلام الكلام بالإشارة إلى أدلّة المطلب السابق ليقول:

«قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ[۷۸] هَانَتْ

عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلَالَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا».

إذا أردت الحصول على الرزق الحلال فانّ عليك أن تتحمل آلاف المصاعب والمعاناة وأن تتجاوز الطرق الوعرة والمطبات الشائكة، كما عليك أن تعد بدنك لوخز الأشواك كلما حاولت غرس الزهور، وإن إبتغيت العسل فما عليك إلّاأن تتوقع لدغ الزنابير، فالواقع هناك أفعى كامنة فى كل كنز ومرارة فى كل حلاوة، وعلى سبيل المثال فمن لم يرزقه اللَّه الولد عاش الهم والغم الذى يثقل كاهله ويكدّر روحه، ولكن ما إن يرزق الولد حتى يواجه سيل المشاكل التى تعقب ذلك، وهكذا سائر النعم التى يثير فقدانها الغم ووجودها التعب والإرهاق.

ثم أكّد عليه السلام ذلك الكلام على أنّه هو السبب الذى لم يجعل اللَّه سبحانه يرضها ثواباً لأوليائه ولم يمنعها عن أعدائه:

«لَمْ يُصْفِهَا[۷۹] اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَ ۸۰] بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ».

نعم، لو كـان متاع الـدنيا ثمين لخصّ بها الحق سبحانه أولياءه وزواها عن أعـدائه، لكنّها لما كانت زهيـدة لا قيمـة لها، فهو يهبها لكل شخص.

ثم أضاف عليه السلام:

«خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ[۸۱]. وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ».

والعجيب ليس هناك من تدريـج فى هذه التغييرات وزوال النعم وانهيار الحكومات وخراب المعمور، بل أحياناً يتغير كل شـيء خلال ساعة، بل فى برهة من الزمان والتاريخ مليىء بمثل هذه الحوادث المرعبة والتى تنطوى على العبر والدروس.

فكيف والحال هذه يتعلق بالدنيا عاقل؟ ويثق بنعمها؟ ويفرح باقبالها ويحزن لإدبارها؟

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۳

ثم واصـل الإمام عليه السـلام الكلام بهـذا الخصوص من خلال طرحه على شـكل سؤال، لينطلق الجواب عليه من باطن قلب المخاطب فيكون له أثره البالغ والعميق:

«فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ!».

لقـد اسـتعمل الإمام عليه السـلام قمّـة الفصاحـة والبلاغـة فى هـذه التشبيهات الثلاث، فقـد شـبّه بادىء الأمر الـدنيا بدار خاوية بالية قد انفطرت جـدرانها وأشـرفت سـقوطها على الانهيـار، ثم شـبّه عمر الإنسان بالأطعمـة التى توضع على المائـدة وتأخـذ بالتناقص مع مرور الزمـان إثر تناولهـا، وأخيراً شـبّه فترة بقـاء الإنسـان فى هـذا العالم بالأسـفار القصـيرة التى لا يكاد المسافر يحث خطاه فيها حتى ينقطع أمدها.

ثم إختتم عليه السلام هذا القسم من الخطبة بثلاث وصايا خاطب بها الجميع فقال:

«اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ».

فقـد أوصـى الناس فى العبارة الاولى أن يهتم الناس على الأقل بالفرائض الشـرعية بقـدر طلباتهم الشخصـية فيجـدوا ويجتهدوا فى هذا الأمر، لا أن يجعلوا الصدارة لحاجاتهم الدنيوية ويهمّشوا الفرائض الإلهيّة والواجبات الشرعية.

كما يحتمل أن يكون المراد اجعلوا التوفيق للإتيان بالفرائض والواجبات الشرعية من حاجاتكم وطلباتكم بين يدى اللَّه تبارك وتعالى، غير أنّ المعنى الأول يبدو هو الأنسب وذلك للإشارة إلى هذا المعنى والتى وردت فى العبارة الثانية إذ قال:

«وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ»

، وعليه سيكون تفسير الجملتين تكرار لمفهوم واحد.

وأخيراً أشـارت العبـارة الثالثـة إلى التأهب والاسـتعداد لمواجهـة الموت من خلال أداء حقوق الناس والتوبـة من الـذنوب وتـدارك ما فرط، وبخلافه فانّ الموت سيباغت الإنسان ويقذف به فى عالم لم يعد العدّة لدخوله.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵

القسم الثانى: صفات الزهّاد فى الدنيا

«إِنَّ الزَّاهِـدِينَ فِى الـدُّنْيَا تَبْكِى قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَـحِكُوا، وَيَشْـتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَـهُمْ وَإِنِ اغْتُبِطُوا بِمَا رُزِقُوا. قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الآخِرَةِ، وَالعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلَا تَوَازَرُونَ وَلَا تَنَاصَحُونَ، وَلَا تَبَاذَلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاث نقاط تكمل المقطع المذكور من الخطبة وتؤكّده، وهى مقدمة للقسم القادم من الخطبة.

فقد إتّجه أولًا إلى وصف الزهّاد فى الدنيا ليتضح وضع كل فرد من خلال مقارنة أحوال المخاطبين مع أحوال اولئك، فذكر ثلاث خصائص يتحلى بها الزهّاد قائلًا:

«إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا».

صفتهم الثانية تكمن فى شدّة حزنهم رغم فرحهم وسرورهم:

«وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا».

وأمّا صفتهم الثالثة فهم ناقمون على أنفسهم ساخطون عليها (وهم ليسوا راضين عن أعمالهم وطاعاتهم) رغم شكرهم اللَّه سبحانه وتعالى على موفور الرزق والنعمة:

«وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتُبِطُوا[۸۲] بِمَا رُزِقُوا».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۶

نعم، فعيون قلوبهم باكية لما يرون فى أنفسهم من نقائص وعيوب وما يبتدر منهم من زلّات أحياناً، وإن عاشوا حالة من السرور والضحك على مستوى الآداب الاجتماعية والأخلاقية، إنّهم يأسفون على ماضيهم ويغتمون لما كانت فى أيديهم من فرص لم يستثمروها، رغم ما هم عليه ظاهرياً من الفرح والسرور، إلى جانب ذلك فانّ لسانهم يلهج بحمد اللَّه وشكره على ما حباهم به من نعم مادية ومعنوية من جهة، ومن جهة أخرى فهم لا ينفكون عن مقتهم لأنفسهم وتوبيخها لشعورهم بالتقصير فى عدم استثمارها بالشكل الصحيح.

وخاصة القول فهم فى مقام النقد لأنفسهم وإصلاح نقائصهم ومعايبهم المعنوية وهذا هوالسبب فى حركتهم التكاملية نحو اللَّه سبحانه، فهم لا يقنعون بوضعهم السائد قط ليكون ذلك مدعاة لتخلفهم وإنحطاطهم.

ثم شرح فى النقطة الثانية وضع مخاطبيه ليقارنوا أنفسهم بالزهّاد فيقفوا على عيوبهم، وقد بيّن لهم ثلاث صفات:

«قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الآخِرَةِ، وَالعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الآجِلَةِ».

نعم، فالدنيا تستولى على عقل الإنسان وفكره وينسى الآخرة إذا ما غاب عن قلبه ذكر الموت وإنهمك فى هذه الدنيا العابرة واحاطة القلب بالأمانى الخيالية الكاذبة.

ثم إختتم عليه السلام هذا المقطع من الخطبة ببيان هذه النتيجة:

«وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلَا تَوَازَرُونَ ۸۳] وَلَا تَنَاصَحُونَ، وَلَا تَبَاذَلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ».

فالعبارة تشير إلى توفر سبل الوحدة بينكم من خلال الإخاء الإسلامى وقد تصدعت هذه السبل بفعل الاختلافات التى تستند إلى التعصب والحقد والحسد وحبّ الدنيا وضيق الافق، فأدّى ذلك بالتبع إلى ضعف الأمن الداخلى والعجز أمام العدو الخارجى وبالنتيجة قطعت عنكم البركات الاجتماعية كالتعاون والموازرة وإسداء الخدمات المتبادلة أواصر المحبّة والصداقة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۷

فهذه العبارة تشير بوضوح إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ حبّ الدنيا وخبث السريرة وسوء النيّة والأخلاق لا يفسد الآخرة فحسب، بل يحيل المجتمع البشرى إلى بؤرة للتوتر والنزاع والاصطدام بحيث تنعدم فيه مظاهر التعاون والمساعدة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۹

القسم الثالث: العود على ذمّ أصحاب الدنيا

«مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذلِكَ فِی وُجُوهِكُمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِیَ مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ. وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ. وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلَّا مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ. قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الآجِلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ. صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ».

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام- فی القسم من الخطبة والذی يمثل آخرها- أصحاب الدنيا وهو يسعى لإيقاظهم من سباتهم وغفلتهم من خلال الذم واللوم القائم على أساس الدليل والبرهان فقال:

«مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذلِكَ فِی وُجُوهِكُمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِیَ [۸۴] مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ. وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ».

نعم، هذا حال أغلب أهل الدنيا الذين لا يحزنهم فوات الأمور المعنوية بينما تنقلب أحوالهم لأدنى ضرر مادی يحيق بهم، على سبيل المثال ليس هناك ما يقلقهم إذا فاتتهم صلاة الفجر

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۵۰

لعدّة أيّام متتاليات، أو لا- يغتمون إن حرموا لسنوات من فيوضات التهجد وقيام الليل، بينما يضجرهم خسران بضعة دارهم، فلا يتمالكون أنفسهم عن الزعيق بمن حولهم، ولعل هذا التفاوت الواضح والمخجل يستند إلى أحد أمرين: إمّا ضعف إيمانهم بالآخرة والوعد والوعيد الإلهی، أو أنّهم مؤمنون بالآخرة والوعد والوعيد غير أنّ الهوى قد أحاط بقلوبهم واستولى على أنفسهم وسيطرت عليهم الغفلة بحيث لم يعودوا يروا سوى الدنيا وحطامها ومتاعها الزائل.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن نقطة ضعف أخرى يمتاز بها طلّاب الدنيا والتی تتمثل بعدم قدرة أی أحد منهم على التعرض لعيوب أخيه (بهدف الإصلاح والنهی عن المنكر) ما ذلك إلّاخشية أنّ يجابهه بنفس ذلك العيب:

«وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلَّا مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ».

فالعبارة تشير إلى حرمانهم من إصلاح بعضهم البعض الآخر رغم إتصافهم بكل تلك العيوب الناشئة من حبّ الدنيا، وذلك لأنّه لا يجرأ أحد منهم أن يتصدى للإصلاح فهو يخشى الردّ من الآخرين الذين ينبرون له ويقولون: إنّ هذا العمل أو ذاك شيئاً فلم نفعله؟ وإن كنت طبيباً فهلّاً عالجت نفسك قبل أن تهم بعلاج الآخرين (طبيب يداوی الناس وهو عليل)؟

وهل يصح اطلاق الحجر ممن كان بيته من الزجاج؟!

ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالقول كأنّكم قد اتفقتم على نبذ الآخرة والذوبان فی الدنيا وقد أصبح الدين لقلقة لسان، وأنّكم لأشبه بمن قام بعمله وأحرز رضى سيده ومولاه:

«قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الآجِلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً[۸۵] عَلَى لِسَانِهِ. صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ».

قد تحصل أحياناً بعض الأفعال الشائنة بين الناس دون أن يكون هناك إتفاق مسبق عليها، إلّاأنّها على درجة من التناغم والتنسيق والانسجام وكأنّهم حضروا عدّة جلسات مخططة ومبرمجة، وقد اتفقوا على كل شیء، وما هذا إلّالتشابه الدوافع فی مثل هذه الامور،

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۵۱

وأحد مصاديقها الواضحة يتمثل بعدم المبالاة بالقضايا المرتبطة بالآخرة والخلود إلى الدنيا المادية.

يمكن أن يكون مثل هؤلاء الأفراد الطلّاب للدنيا من المتدينيين ظاهرياً، غير أن تدينهم لا يتجاوز سلسلة من الشعارات والمزاعم والألفاظ وأحياناً القليل من العبادات، والمفردة «لعقة» تشير إلى هذا المعنى، وقد يعيشون أحياناً حالة من الرضى عن أنفسهم وكأنّهم عملوا بكل تكاليفهم الشرعية ووظائفهم الإنسانية وقد فازوا بمقام القرب الإلهي وبلوغ رضاه، والواقع هذا انحراف خطير أشار الإمام عليه السلام إليه في آخر هذه الخطبة.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۵۳

الخطبة[۸۶] المأة و أربة عشرة

اشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام

وفيها مواعظ للناس

نظرة إلى الخطبة

مزج الإمام عليه السلام القسم الأول من هذه الخطبة حمد اللَّه والثناء عليه بعبارات تكشف معالم طريق معرفة اللَّه تعالى وتعلّم الإنسان اسلوب الشهادة بالإخلاص، كما تبيّن أهميّة الشهادة بالوحدانية والنبوة وذلك بعبارات عميقة المعنى، وفي القسم الثاني من الخطبة دعى الجميع إلى التحلي بالورع والتقوى وتطرق إلى آثارها وبركاتها التي تنعكس على حياة الإنسان.

أمّا القسم الثالث فقد جرى فيه الحديث عن تقلب أحوال الدنيا وسرعة زوال النعم وعدم بلوغ الأماني وقصر الحياة الدنيا، وأخيراً القسم الرابع الذي تضمن مختلف النصائح والمواعظ البالغة حيث دعى الجميع إلى طاعة اللَّه سبحانه وحذّرهم من نسيان الآخرة والانغماس في مخالب الغفلة والغرور بالحياة الدنيا، ولا يخفى على أحد الترابط الوثيق بين الأقسام الأربعة

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۵۴

وتبلورها في عرض سلسلة من المواعظ المتسقة.

أمّا فصاحة وبلاغة هذه الخطبة ولطافة وعذوبة عباراتها ليتبيّن ممّا صرّح به صاحب كتاب «الطراز» الإمام يحيى الزيدي (من علماء القرن الثامن) في ختام هذه الخطبة إقال:

«لَو كَانَ كَلامٌ مِنْ كَلامِ البَشَرِ مُعْجِزَةً لَكَانَ هذا هُوَ الأولُ وَلَو أَعْجَزَ شَىءٌ مِنَ الكَلامِ بَعْدَ كَلامِ اللَّهِ لَكَانَ هذا هُوَ الثّانِى»[۸۷].

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۵۵

القسم الأول: الثقة القيّمة

اشارة

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى آلَائِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلائِهِ. وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هذِهِ النُّفوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، السِّرَاعِ إِلَى مَا نُهِيَتْ عَنْهُ. وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ:

عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ، وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمانَ مَنْ عَايَنَ الْغُيُوبَ وَوَقَفَ عَلَى الْمَوْعُودِ، إِيمَاناً نَفَى إِخْلاصُهُ الشِّرْكَ، وَيَقِينُهُ الشَّكَّ. وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله و سلم عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ الْقَوْلَ وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ. لَا يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ عَنْهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى القسم الأول من هـذه الخطبـة إلى مسائل مهمّـة فى جانب حمد اللَّه والثناء عليه والاستعانة بذاته المقدّسـة والاستغفار من الذنوب والمعاصى، فقال بادىء ذى بدء:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ».

قرن الحمـد بالنعمـة يسـتند إلى أنّ حمـد اللَّه تعالى بنعمه وشكره يجعل الإنسان جديراً بالنعم، فهذا الحمد يجعل العباد يتمتعون بنعمه وأفضاله، كما تعود علاقة النعمة بالشكر إلى أنّ النعمة سبب الشكر، وذلك لأنّ العباد مكلّفون بشكر كل نعمة، فالشكر واجب على كل نعمة (الواقع هو أنّ الحمد يشكل السبب التكوينى للنعم والنعم السبب التشريعى للشكر)، والشاهد على ذلك ما ورد فى الخطبة ۱۵۷ إذ قال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۵۶

طبعـاً يمكن أن تكون هنـاك عـدّة تفاسير أخرى للعبـارتين المـذكورتين من حيث تفاوت العلّة والمعلول، غير أنّ ما ورد هو أنسبها جميعاً.

ثم قال عليه السلام فى المسألة الثانية:

«نَحْمَدُهُ عَلَى آلَائِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلائِهِ».

فى إشـارة إلى أنّ البلاء الإلـهى هو فى الواقع نوع من النعم، كمـا بيّنا ذلك فى بحثنـا لفلسـفة الآفـات والبلاء ضـمن مباحث التوحيد والعـدل، فقـد يكون البلاء سـبباً لليقظة والعودة إلى اللَّه تعالى وترك المعاصـى أحياناً، وقد يكون أحياناً أخرى بلاءاً ظاهراً، لكنّه نعمة باطنياً، غير أننا لا نميز ذلك، فربّما يكون البلاء كفّارة للـذنوب كما قد يكون وسـيلة لمعرفة قدر النعم وذلك لأنّ الإنسان قد لا يعرف قيمـة النعم إلّاأن يفقـدها ويتعرض إلى بعض الشدائـد، وإلّا فالحكيم تبارك وتعالى لا يعرّض شـخصاً للبلاء عبثاً، وعليه فبلاؤه رحمة وداؤه دواء.

ثم قال فى المسألة الثالثة:

«وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هذِهِ النُّفوسِ الْبِطَاءِ[۸۸] عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، السِّرَاعِ إِلَى مَا نُهِيَتْ عَنْهُ».

إشـارة إلى النفوس البشـرية مـا لم تبلغ المرحلـة المتكاملـة للنفس المطمئنـة فهى ضـعيفة فى الإتيان بالوظائف الشـرعية وإمتثال الأوامر الإلهيّـة ومسارعـة فى مقارفـة الـذنوب التى تنسـجم والغرائز الحيوانيـة، ويتعذر تجاوز مرحلة النفس الأمارة وبلوغ مرحلة النفس اللوامة والوصول إلى النفس المطمئنة ما لم تكن هناك نصرة اللَّه ومدده.

ثم قال عليه السلام:

«وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ: عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ».

فالعبـارة تشـير إلى أننـا إن لم نسـتغفر من الـذنوب ولم نجل صـدأ القلوب فسوف لن يسـعنا التخلص من وساوس النفس والفوز بمقام القرب وبلوغ تلك المرحلة من الإيمان التى سيأتى الحديث عنها لاحقاً، والواقع هو أنّ الاستغفار تكميل للبحث السابق ومقدمة للبحث القادم.

أمّا القضية الأخيرة فقد تناولت النتائج النهائية لهذا البحث فقال:

«وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمانَ مَنْ عَايَنَ الْغُيُوبَ وَوَقَفَ عَلَى الْمَوْعُودِ، إِيمَاناً نَفَى إِخْلاصُهُ الشِّرْكَ، وَيَقِينُهُ الشَّكَّ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۵۷

إشارة إلى خلاص الإنسان من وساوس النفس إذا ما مزج حمد اللَّه تعالى والثناء عليه بشكر النعم، وخرج سالماً معافى من ميدان الامتحان وتغلّب على هواه ونزع عن ذنوبه وتاب من معاصيه آنذاك له أن يبلغ كمال الإيمان، الإيمان الذى يبلغ به درجة الشهود، وكأنّه يرى اللَّه ببصيرته ويشاهد بام عينيه الجنّه والنار وثواب المحسنين وعقاب المسيئين، الإيمان المنزّه عن كافة أشكال الشرك واليقين الذى لا يتطرق إليه الشك.

نعم، فاليقين على مراتب: المرتبة الاولى وهى مرحلة التى يتّجه إليها الإنسان بواسطة البرهان والاستدلال والتى يصطلح عليها باسم «علم اليقين»، والمرتبة الثانية وهى المرحلة التى يصلها الإنسان عن طريق الشهود وكأنّه يرى من بعيد الأنوار الإلهيّة وعرصة الحشر يوم الحساب، وهى المرحلة المسمّاة «عين اليقين» يلمس جميع الأشياء، فالأنوار الإلهيّة تحيطه من كل جانب ونسيم الجنّة المنعش يداعب ظلال روحه ويتكدر لنيران جهنّم المحرقة، وهى المرحلة التى تدعى «حق اليقين»، وعلى هذا فالمراد بالعبارة عاين ووقف هو تلك المرحلة النهائية للإيمان واليقين والتى تبلغ فيها الإنسان مقام الشهود عن قرب وبالمعاينة.

وأخيراً يتّجه الإمام عليه السلام صوب الشهادة بالتوحيد والنبوة ليختتم به هذا المقطع من الخطبة، فقال:

«وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ الْقَوْلَ وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ. لَا يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ عَنْهُ».

فى إشارة إلى أنّ الشهادة بالوحدانية والنبوة إن انطلقت من أعماق النفس البشرية وظهرت أثارها على القول والعمل، فانّها على درجة من الطهر الاخلاص بحيث تشكل أثقل الأوزان فى ميزان الأعمال يوم القيامة حتى لا يخف ذلك الميزان بوجودها، والعكس صحيح لا ثقل لذلك الميزان مهما وضع فيه دونها.

ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«أوحى اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالى إلى مُوسى بنِ عِمرانَ عليه السلام: يا موسى لَو أنّ السمواتِ وَعَامِريهِنَّ عِندِى، والأَرضِينَ السَّبعَ فِى كَفَّةٍ وَلا إلهَ إلّااللَّهُ فى كَفَّةٍ، مالَتْ بِهِنَّ لاإلهَ إلّااللَّهُ»[۸۹].

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۵۸

وبالطبع ليس المراد بالزنة هنا الأوزان وما يرتبط بها عن ميزان، بل المراد زنة القيم على ضوء المعايير العقلية والمعنوية.

تأمّل

اسس الموفقية والنجاة

بيّن الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة والذى يشكل فى الواقع مقدمة للقسم الثانى الذى يتحدث عن أهميّة التقوى وآثارها، حقيقة جذور الورع والتقوى والتى يكمن أهمّها فى الإيمان واليقين والمعرفة، والإيمان القوى والراسخ الذى يبلغ بصاحبه درجة تجعله كأنّه يرى اللَّه ويشاهد نعم الجنّة ونيران جهنّم، وممّا لا شك أنّ مثل هذا الإيمان هو مادة التقوى.

أضف إلى ذلك فقد أشار إلى الموانع الأصلية لهذا الأمر والتى تتمثل بالنفس الطائشة على أنّ الاستعانة باللطف الإلهى، هو سبيل النجاة منها وقد تطرق إلى ما ورد فى سورة يوسف وشأنه مع زليخا: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ»[۹۰].

حيث استعان بعدّة وسائل من أجل بلوغ هذا الهدف ومن ذلك حمد اللَّه والثناء عليه وشكره على النعم والبلاء والحديث عن التوبة والاستغفار بصفته أحد العوامل المؤثرة فى التوفيق فى هذا المسير، وما أن يتمّ الانتهاء من هذا البرنامج الإلهى حتى يشرع بحث التقوى على أنّه من الأبحاث المداعبة للقلب والتى تختزن تعتبر غاية فى التأثير ولو استفاد المرّبون وأساتذة درس الأخلاق من هذا الطريق

الذى علمناه الإمام عليه السلام لتحقيق هذا الهدف لما كان هناك من شك فى تأثير حديثهم ونفوذ كلامهم.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۵۹

القسم الثانى: أعظم الفضائل

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتى هِىَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَاذُ: زَادٌ مُبْلِغٌ، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ. دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ. فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا وَفَازَ وَاعِيهَا.

عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَحَارِمَهُ. وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ. فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ، وَالرِّىَّ بِالظَّمَإِ. وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلاحَظُوا الْأَجَلَ».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام عن تلك المقدمة الرصينة والوثيقة فى المقطع الأول من هذه الخطبة، إتجه إلى أهمّ فضيلة من الفضائل التى يكتسبها الإنسان وهى التقوى، فقد أشار فى البداية إلى آثارها الاخروية، فقال:

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتى هِىَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَاذُ: زَادٌ مُبْلِغٌ، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ».

من البديهى أنّ يحتاج الإنسان فى أسفاره الطويلة المليئة بالأخطار والمخاوف إلى شيئين:

الزاد والمتاع اللازم والمنازل والأماكن التى تحفظه من المخاطر، وهو ما صرّح به القرآن الكريم بقوله: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ...»[۹۱].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶۰

وما اقتصه من خبر يوسف عليه السلام حين لاذ بالتقوى كسبيل للنجاة حين وقف على حافة خطر هاوية الذنب:

«قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ...»[۹۲].

حقاً إنّ التقوى كهف حصين وأمين وراسخ إزاء السيول الجارفة لأهواء النفس ووساوس الشيطان وحصن حصين للنجاة من نار جهنّم يوم القيامة وأفضل زاد ومتاع فى هذا السفر المليء بالخوف والخطر.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن أهميّة التقوى فى أنّ من دعا إليها أسمع داع نافذ الكلمة (إشارة اللَّه تبارك وتعالى، أو النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، أو جميع الأنبياء والأولياء) وقد وعى تلك الدعوة خير واع (إشارة إلى كافة التقاة وأتباع مدارس الأنبياء):

«دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ. فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا وَفَازَ وَاعِيهَا».

ذهب البعض إلى أنّ المراد بالداع إلى التقوى قد يكون اللَّه سبحانه وتعالى أو شخص النبى صلى الله عليه و آله الذى ينطق عن اللَّه تعالى، والمقصود بواع التقوى هو على عليه السلام، ولا يبعد أن يكون لهما مفهوم عام يشمل جميع دعاة الحق ووعاته، على أنّ المنبع الأصلى هو الحق تبارك وتعالى والنبى صلى الله عليه و آله وإمام المتقين على بن أبى طالب عليه السلام.

ثم خاض عليه السلام فى الآثار القيّمة للتقوى فى خاصة عباد اللَّه فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ حَمَتْ ۹۳] أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَحَارِمَهُ. وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ ۹۴]».

طبعاً العبارتان المذكورتان بشأن الليل والنهار هما تعبيران كنائيان لطيفان، حيث المراد أصحاب الليل الذين يفيقون فى جوف الليل، فيقومون للعبادة والتهجد وقد أحجموا عن النوم وانهمكوا بالدعاء والمناجاة، إلى جانب صومهم نهارهم وذكرهم اللَّه على كل حال، فالعبارة تشير إلى أنّ تقوى اللَّه هى مادة الحركة نحو جميع الفضائل والخيرات، وذلك لأنّ الإنسان حين يشعر بالمسؤولية ينطلق فى الحركة نحو إمتثال الطاعات واجتناب المعاصى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶۱

والمحرمات، وما إحياء الليل والصوم إلّاجانب من آثار خشية اللَّه تعالى التى تسمى بالتقوى.

ثم إختتم هـذا المقطع من الخطبة بوصف طريقة عبوديتهم لربّهم بأنّهم آثروا المشـقة والتعب على الراحة والكسل والعطش على الريّ، وقد شـعروا بقصـر الدنيا ودنو الأجل وهذا ما دعاهم إلى المسارعة فى الخيرات ومبادرة الأعمال الصالحة، وعدم الخلود إلى الأمل بعد أن جعلوا الموت نصب أعينهم:

«فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ ۹۵]، وَالرّىَ ۹۶] بِالظَّمَإِ. وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلاحَظُوا الْأَجَلَ».

نعم، ففى الوقت الـذى ينغمس فيه أهل الدعـة والراحـة فى مختلف الـذنوب والأرجاس ترى هؤلاء يغضون الطرف عن الراحـة بهدف مجانبة الذنوب والإتيان بالصالحات، وهم ليسوا كأهل الدنيا الذين خدعوا بها فوقعوا فى حبائلها وآمالها الكاذبة.

والواقع هو أنّ العبارة «فبادروا» و «فلاحظوا» هى نتيجـة ومعلول للعبارة «واسـتقربوا» و «كـذبوا» يعنى من يرى قرب الأجل وسـرعة العمر يبـادر بالعمل، ومن يكـذب الآمال يفكر بالموت ويراه أمام عينيه، والطبع فانّ تحمل مصاعب وشدائـد هـذا العالم يؤدّى إلى سـكينتهم الخالدة واستقرارهم التام، وهو ما عبّر عنه الإمام عليه السلام فى موضع آخر بقوله:

«صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً»[۹۷].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶۳

القسم الثالث: العبر والاعتبار

«ثُمَّ إِنَّ الـدُّنْيا دَارُ فَنَـاءٍ وَعَنَـاءٍ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ؛ فَمِنَ الْفَنَـاءِ أَنَّ الـدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ، لَا تُخْطِىءُ سِـهَامُهُ، وَلَا تُؤْسَـى جِرَاحُهُ. يَرْمِى الْحَىَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقْمِ، وَالنَّاجِىَ بِالْعَطَبِ. آكِلٌ لَا يَشْـبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ. وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ وَيَبْنِى مَالا يَسْـكُنُ. ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللَّهِ تَعَـالَى لَـا مَالًـا حَمَلَ، وَلَا بِنَاءً نَقَلَ. وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً؛ لَيْسَ ذلِكَ إِلَّا نَعِيماً زَلَّ، وَبُؤْساً نَزَلَ. وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْـرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلَا أَمَلٌ يُدْرَكُ وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ، فَسُـبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعَزَّ سُـرُورَهَا وَأَظْمَأَ رِيَّهـا وَأَضْـحَى فَيْئَهَـا، لَـا جَـاءٍ يُرَدُّ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَـدُّ. فَسُـبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَـدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!».

الشرح والتفسير

لما كان الانغماس فى الـدنيا والتكالب عليها وفقـدان النفس لتوازنها إزاء زخارف عالم المادة من أهم العوامل لعـدم التقوى، فقد ورد الحـديث هنا عن تفاهـة الـدنيا وتقلب أحوالها وما تنطوى عليه من شدائـد ونوازل بهـدف اجتثاث جذور التحلل وعدم استشعار الورع والتقوى فقال عليه السلام:

«ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ».

حيث تشير العبـارة إلى أربع خصـائص تمتـاز بهـا الـدنيا والتى يقود التفكير بهـا الإنسان إلى التعرف على الصورة الحقيقيـة للـدنيا، ثم خاضت العبارات التالية فى شرحها الواحدة بعد

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶۴

الاـخرى مع التطرق إلى بعض التفاصيـل الدقيقـة لكـل واحـدة منهـا، فأشارت فى البدايـة إلى خاصيـة فناء الـدنيا، حيث صورت بعض علامات هـذا الفناء فى أنّ الدهر يشبـه الرامى الماهر الذى يطلق سـهامه دون أن تطيش وتخطىء الهدف، كما يتعذر علاج جروح من أصابته تلك السهام:

«فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ، لَا تُخْطِىءُ سِهَامُهُ، وَلَا تُؤْسَى ۹۸] جِرَاحُهُ».

فلا خلاص لأحد من الموت والعجز والمشيب والمرض والألم والعناء، ولذلك قال الإمام عليه السلام فی شرحه لهذه العبارة:

«يَرْمِی الْحَیَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقْم، وَالنَّاجِیَ بِالْعَطَبِ».

فأقوى أفراد البشر يستسلم يوماً للموت، كما يمرض أصح الأصحاء ويهزم حتى الأبطال.

نعم، هذه طبيعة الحياة الدنيا، وهذا هو القانون الذی لا يعرف لاستثناء، والغريب فی الأمر أنّ الجميع يعرف ذلك ويرونه بأعينهم ورغم كل ذلك فهم يتعلّقون بالدنيا ويخلدون إليها ويغترّون بها.

ثم يختتم عليه السلام كلامه بشأن توضيح فناء الدنيا قائلًا:

«آكِلٌ لَا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ ۹۹]».

فقد كشف الإمام عليه السلام حقيقة فناء الدنيا من خلال العبارات الثمان التی أوردها فی وصف الدنيا، بحيث لا يشك من كان له أدنی عقل بفناء الدنيا وعدم دوامها.

ثم خاض عليه السلام فی شرح وتفسير عناء الدنيا ومن ذلك جمعه الأموال التی لا يستفيدها جميعاً والمبانی التی يشيّدها دون أن يسكنها وأخيراً يودع كل ذلك وينتقل إلی عالم آخر دون أن يحمل معه شيئاً من الأموال أو الدور:

«وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ وَيَبْنِی مَالا يَسْكُنُ. ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَی اللَّهِ تَعَالَی لَا مَالًا حَمَلَ، وَلَا بِنَاءً نَقَلَ».

نعم، كثيرون هم الأفراد الذين يدّخرون أمولًا طائلة، إلّاأنّهم لا يستفيدون إلّامن جزء يسير منها وما أكثر اولئك الذين يبنون لأنفسهم أعظم القصور والدور فلا يقيمون فيها إلّا مدّة قليلة، بل قد لا يسكنونها حتی ليوم واحد، وقد رأينا بأم أعيننا إقامة مراسم العزاء علی أرواحهم فی تلك القصور الفخمة، فهم يتركونها فی خاتمة المطاف ولا يحملون من مال الدنيا

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶۵

سوی الكفن، بل ربّما لم يحملوا حتی ذلك الكفن، فتكون ثيابهم أكفانهم وبيوتهم قبورهم.

ورد فی البحار عن العلّامة المجلسی أنّ علی عليه السلام قال:

«كَمْ مِنْ غافِلٍ يَنْسَجُ ثَوباً لِيَلْبَسَهُ وَإِنَّما هُوَ كَفَنُهُ وَيَبْنِی بَيتاً لِيسكُنَهُ وَإِنَّما هُوَ مَوضِعُ قَبرهِ»[۱۰۰].

ثم خاض الإمام عليه السلام فی شرح الصفة الثالثة للدنيا فقال:

«وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَی الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً؛ لَيْسَ ذلِكَ إِلَّا نَعِيماً زَلَ ۱۰۱]، وَبُؤْساً نَزَلَ».

حيث رأينا كراراً ليس فی صفحات التاريخ فحسب، بل فی حياتنا اليومية عدّة أفراد كانوا من أهل السطوة وقمة القدرة حتی يتمنی الجميع الحصول علی شیء من قدرتهم، لكنّهم هووا فی مستنقع السقوط بما جعل الكل يترحم عليهم، وبالعكس فإننا نعرف بعض الأفراد ممن يشعر من يراهم بالأسی والحزن لصعوبة أوضاعهم ومعاناتهم، بينما تسلقوا فجأة سلّم القدرة ليحظوا باعجاب الجميع وغبطتهم.

نعم، لم يكن «قارون» لوحده الذی استعرض يوماً كل تلك القدرة و الثروة التی خطفت أبصار قصار النظر من بنی اسرائيل الذين اعتراهم الحسد والأمل، فتمنوا الحصول علی تلك الثروة بدله، ولم تمض مدّة حتی شقت الأرض لتبتلع كل كنوزه وثرواته، ممّا دفع من تمنی تلك الثروة إلی شكر اللّه أن لم يجعلهم بدلًا منه ولم يغدق عليهم الثروة والسطوة، أجل لقد تكررت هذه الصورة مراراً فی التاريخ ثم قال عليه السلام فی الصفة الرابعة للدنيا والتی تختص بكونها عبرة:

«وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَی أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلَا أَمَلٌ يُدْرَكُ وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ».

فأحياناً يعدّ الإنسان عدّة مقدمات بغية الحصول علی المال والثروة أو الجاه والمنزلة ولا يكاد يقترب من الوصول إلی أهدافه حتی يتخطفه الموت فيقضی علی جميع طموحاته ورغباته ويحول دون تحقيقها، بل لا يدوم له حتی المال الذی يجنيه والمنصب الذی يشغله.

ثم يعرب الإمام عليه السلام فى آخر كلامه عن وحشته لمن يغترّ بمثل هذه الدنيا المليئة بالفناء والعناء والموصوفة بالغير والعبر:

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا وَأَظْمَأَ رِيَّها[۱۰۲] وَأَضْحَى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶۶

فَيْئَهَا، لَا جَاءٍ يُرَدُّ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ».

نعم، عابرة جدّاً لحظات الفرح والسرور وهى أشبه بلحظات الإرتواء من النعم وزوال الفيىء والظل.

يمكن أن تكون العبارة

«لا جاء يرد ولا ماض يرتد»

نفحات الولاية ؛ ج۵ ؛ ص۶۶

ارة إلى الناس حيث تأتى طائفة لا يقدر أحد على صدها، كما تنتقل طائفة من هذا العالم وليس لأحد من قدرة على إعادتها، كما يمكن أن تكون إشارة إلى حوادث الدهر شرّها وخيرها والتى لا يسع أحد الحيلولة دون وقوعها إن أبرمت وأصبحت قطعية حتمية، كما لا يمكن عودة ما تولى من أمور ودهور، فلا عودة للطفولة فى الشباب ولا الشباب فى المشيب.

ثمّ إختتم عليه السلام هذا المقطع من الخطبة بهذه العبارة التى تكمل سابقتها من العبارات قائلًا:

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيّتَ مِنَ الْحَيّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!».

نعم، فالفاصلة بين الموت والحياة قصيرة جدّاً حتى صورتها الروايات بأنّها تكاد تكون كطرفة العين، ومن ما ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«وَالّذِى نَفسُ مُحِمَّدٍ بِيَدِهِ مَا طَرَفْتْ عَينَاى إلّاظَنَنتُ أَنَّ سَفَرِى لا يَلْتَقِيانِ حَتّى يَقْبِضَ اللَّهُ رُوحِى وَلا رَفَعْتُ طَرفِى وظَنَنْتُ أَنِّى حافِضُهُ حَتّى اقبَضَ وَلا تَلَقَّنُ لُقْمَةً إلّاظَنَنْتُ أَنّى لا اسِيغُها حَتّى اعَضَّ بها مِنَ المَوتِ»[۱۰۳].

إنّ من له أدنى إلمام ببنية جسم الإنسان ليعلم بمدى قرب هذه الفاصلة، فيكفى تخثر مقدار قليل من الدم ليغلق منافذ شرايين الفاصلة أوالدماغ فيؤدّى بحياة الإنسان، بل يكفى نفوذ جزء يسير من الطعام إلى لسان المزمار بدلًا من إتجاهه إلى المعدة ليختنق الإنسان ويموت من فوره، كما تكفى صدمة طبيعية لهذا الإنسان قد توقف قلبه عن الدق وإلى الأبد.

أمّا بالنسبة للحوادث الخارجية فبمجرّد اهتزاز الأرض للحظة قد تنقلب مدينة رأساً على عقب، كما قد تأتى عاصفة أو سيل على كل شيء فتحيله خراباً لا حركة فيه ولا حياة، بل لصاعقة من السماء أن تحيل كل شيء إلى رماد.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶۷

إلى جانب ذلك هنالك الحوادث اليومية فى حياتنا المعاصرة من قبيل الاصطدامات وسقوط الطائرات والحرائق والانفجارات التى تنهى حياة الأفراد خلال لحظات، نعم، تكاد تكون معدومة هى الفاصلة بين الحياة والموت، ولكن من جانب آخر فانّ هذه الفاصلة قد تكون فى غاية البعد، فلو اجتمع كافة الأطباء وأعدّوا مختلف الوسائل الطبية، فليس لهم أن يهبوا الحياة للأموات، على غرار الوليد الذى لا يسعه الرجوع إلى بطون امه و الثمار التى لا تعود ثانية إلى الأشجار بعد سقوطها.

نختتم الكلام بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«ثَلاثَةُ أَشياءٍ لايَنبَغِى لِلعاقِلِ أن يَنساهُنَّ عَلى كُلِّ حالٍ، فَناءُ الدُّنيا وَتصَرُّفُ الأَحوالِ والآفاتُ الَّتى لاأمانَ لَها»[۱۰۴].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۶۹

القسم الرابع: الحرص على الدنيا

اشارة

«إِنَّهُ لَيسَ شَيْءٌ بِشَرّ مِنَ الشَّرّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ. وَكُلُّ شَيءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ. فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيا وَزَادَ فِي الآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الآخِرَةِ وَزَادَ فى الدُّنْيَا. فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ! إِنَّ الَّذِى أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِى نُهِيتُمْ عَنْهُ وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ. قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ فَلا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ وَدَخِلَ الْيَقِينُ، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِى ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذِى قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ. فَبَادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الْأَجَلِ، فَإِنَّهُ لَا يُرْجى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا يُرْجى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ. مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرّزْقِ رُجِىَ غَداً زِيَادَتُهُ. وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ. الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائى، وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِى. فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

الشرح والتفسير

بيّن الإمام عليه السلام سلسلة من النصائح والمواعظ فى هذا المقطع من الخطبة والذى يمثل آخرها بهدف إعداد المخاطبين بحيث لو تأملها الإنسان وفكر فيها وسعه تحقيق السعادة والنجاة فقال:

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۰

«إِنَّهُ لَيسَ شَيْءٌ بِشَرّ مِنَ الشَّرّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ».

فالإنسان بصورة عامّة يهرب من السوء والشر ويجنح نحو الخير، وقد جبل على السعى نحو جنى منفعة ودفع الضرر، فقد اعتمد الإمام عليه السلام هذا الأمر الفطرى ليدعو الناس إلى طاعة اللَّه تعالى والابتعاد عن المعصية والذنب فقال إنّ الأسوأ من السوء هو عقاب اللَّه تعالى ومؤاخذته على الذنوب والأفضل من الخير هو جزاء اللَّه تعالى وثوابه على الطاعة والاحسان، من الواضح أنّ المراد من الشر والخير (بقرينة الثواب والعقاب) هو المعصية والطاعة، بينما يتسع معنى الشر والخير إن توسعنا فى معنى العقاب والثواب ليشمل العقاب والثواب التكوينى (أى جزاء وبركات الأعمال فى الدنيا).

وقد أورد الإمام عليه السلام مثل هذه العبارة فى موضع آخر حيث قال:

«فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ»[۱۰۵].

فقد إهتم الإمام فى النظرة الاولى إلى النتائج ومن ثم إلى الأسباب والعلل، حقّاً إنّ الذى يضمره فاعل الخير والشر أعظم ممّا يقوم به من عمل، لأنّه لا يرى توفر أرضيته وأسبابه، من جانب آخر فانّ نتائج الأعمال خالدة بينما تزول الأعمال وهذا بحدّ ذاته دليل على أفضلية النتائج على نفس الأعمال.

ثم أضاف الإمام عليه السلام نقطة مهمّة أخرى بهذا الخصوص فقال:

«وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ. وَكُلُّ شَيءٍ مِنَ الآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ»،

هذه حقيقة فى أنّ المتع المادية كالسراب له منظر خاص من بعيد، ولكن لا يبدو شيئاً يذكر حين يصله الإنسان، فللقصور والثروات والقدرات واللذات والمتع ظاهر أنيق من بعيد، ولكن ما أن يقترب منها الإنسان حتى يرى سيل المشاكل والمصائب، فيتمنى أحياناً أنّه لم يبلغها ويحصل عليها، فى حين ورد بشأن النعم الإلهيّة الجمّة فى الآخرة:

«أَعْدَدْتُ لِعِبادِى ما لاعَينٌ رأَتْ ولا اذنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَل قَلبِ بَشَرٍ»[۱۰۶].

بل ليشعر الإنسان بالعجز عن وصف اللذة التى يعيشها فى هذه الدنيا حين مناجاته للَّه

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۱

وإحساسه بالقرب منه والفوز برضاه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأنّ الأمر إذا كان كذلك لابدّ أن يغنيكم سماع الحقائق المرتبطة بالآخرة بواسطة الأنبياء وأولياء اللَّه سبحانه وتعالى عن رؤيتها:

«فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ»،

من البديهى أن يعجز الإنسان عن العالم الخارجى مادامه فى زنزانة الجسد وفى دار الدنيا الظلماء الضيقة، فلا سبيل لإدراك أوضاع الآخرة وتفاصيلها سوى ما يوصله له هؤلاء العظام من أخبار يكتفى بها.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أمرين منطقيين بهدف التشجيع على الإتيان بالصالحات وإجتناب السيئات فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الآخِرَةِ وَزَادَ فى الدُّنْيَا. فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ!»،

وهذا هو الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم بوضوح إذ قال: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ...»[۱۰۷].

وكما قال فى موضع آخر: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ ...»[۱۰۸].

وبناءاً على هذا فالأموال والأعمار والإمكانات التى توظف فى مسار الآخرة إن قللت فى الظاهر شيئاً من الدنيا، ولكن فى الواقع قد تضيف أحياناً مئة ضعف إلى ثواب الآخرة، وبالعكس فانّ الإنسان يدفع الثمن باهضاً إن أخلّ بشىء من آخرته وتنازل عن دينه وإيمانه وإنهمك بدنياه لينال شيئاً من حطامها، قال القرآن الكريم بهذا الخصوص: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لَاخَلَاقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ ...»[۱۰۹].

فهل هناك من عاقل مستعد لمعاوضة الصفقة الاولى المربحة بالثانية الخاسرة؟!

ثم قال الإمام عليه السلام فى الأمر الثانى:

«إِنَّ الَّذِى أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِى نُهِيْتُمْ عَنْهُ وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ».

المراد من «ما أمرتم به» هنا الأمر فى مقابل الحظر، يعنى ما أجيز لكم بالنسبة إلى الذنوب

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۷۲

هو أوسع وأشمل، وترك الذنب لا يؤدّى بكم إلى الضيق والعسر، بل أمامكم مسار واسع وشامل بهدف الحصول على الدين والدنيا، قطعاً إننا نصل إلى عدد محدود حين نحصى الذنوب ولا سيّما الكبائر، بينما نواجه دائرة واسعة جدّاً إن أردنا إحصاء ما أجازه الشرع المقدس، ويصدق هذا الأمر على الحلال والحرام، فما أكثر الأغذية الحلال بالنسبه للطعام الحرام، وما أكثر معاملات الحلال قياساً بمعاملات الحرام، كما أنّ النساء اللاتى يحلّ الزواج منهن أكثر بكثير من تلك اللاتى يحرم الزواج منهن ۱۱۰]، وعليه فطاعة أوامر اللَّه تعالى ورعاية الحلال والحرام لا- تجعل الإنسان فى حرج، وهذا فى والواقع ردّ قاطع على اولئك الذين يرون دين اللَّه سلسلة من المحظورات والممنوعات، وهكذا يحث الإمام عليه السلام الجميع على ترك الذنوب والمعاصى والمحرمات، وهكذا والمحدودة والحركة باتجاه السبيل الرحب للحلال والمباح، فليست هنالك من مشكلة فى حياتهم المادية ولا المعنوية.

والواقع هو أنّ هذه العبارة إشارة لما ورد فى القرآن الكريم: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ...»[۱۱۱].

وجاء فى الحديث النبوى الشريف:

«بَعَثَنِى بِالحَنَفِيةِ السَّمحَةِ»[۱۱۲].

كما صرّح القرآن الكريم قائلًا: «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ* إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ...»[۱۱۳].

ولما كان السعى من أجل المعاش والحرص لنيل الرزق يشكل أحد العوامل المهمّة للغفلة والكسل عن الإتيان بالفرائض الإلهيّة والخوض فى تهذيب النفس وتزكيتها، فانّ الإمام عليه السلام أشار إلى مسألة دقيقة، وهى ضرورة علمهم بأنّ اللَّه قد ضمن أرزاقهم

وأمرهم بالقيام

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۳

بالواجبات، وعليه فلا ينبغى لهم منح الأولوية لما ضمن والغفلة عمّا يجب عليهم الإتيان به فقال:

«قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ فَلا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ»[۱۱۴].

وبعبارة أخرى فانّ لدينا شيئين: الأول تحصيل الرزق والثانى القيام بالفرائض الإلهيّة، وقد تكفّل اللَّه تعالى بضمان الأول وقلدنا مسؤولية الأمر الثانى، ومن هنا لابدّ أن نبذل ما فى وسعنا بالأمر الثانى، والحال القضية على العكس فى أنّ أغلب الناس يركزون جهودهم ويبذلون قصارى سعيهم ويشغلون فكرهم من أجل تحصيل الرزق والمعاش ويولون ظهورهم ليتناسوا الواجبات والفرائض الملقاة على عاتقهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

«مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ وَدَخِلَ ۱۱۵] الْيَقِينُ، حَتَّى

كَأَنَّ الَّذِى ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذِى قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ».

ويبدو أنّ هذه العبارة تشبه ما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام فى مقارنته لطلب العلم بطلب المال حيث قال:

«أَيُّها النّاسُ اعلَمُوا أَنَّ كَمالَ الدِّينِ طَلَبُ العِلمِ وَالعَمَلُ بِهِ، ألا وَإنَّ طَلَبَ العِلمِ أَوجَبُ عَلَيكُم مِنْ طَلَبَ المالِ إنَّ المالَ مَقسُومٌ مَضمُونٌ لَكُم قَدْ قَسَمَهُ عادِلٌ بَينَكُم وَضَمِنَهُ وَسَيَفِى لَكُم وَالعِلمُ مخْزُونٌ عِندَ أَهلِهِ وَقَدْ أُمِرتُم بِطَلَبِهِ مِنْ أَهلِهِ فَاطْلُبُوهُ»[۱۱۶].

لا شك أنّ المقصود بالعبارات المذكورة ليس إيقاف الناس لأنشطتهم الاقتصادية الإيجابية ويتخلون عن مساعيهم من أجل ضمان الحياة المشرفة، بل الهدف هو الحدّ من الحرص

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۴

والتكالب على الدنيا والجنوح نحو الشره الذى يصد الإنسان عن العلم والمعرفة والأمور المعنوية.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَبادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ[۱۱۷] الْأَجَلِ، فَإِنَّهُ لَا

يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ. مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِىَ غَداً زِيَادَتُهُ. وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ»

، نعم،

«الرَّجاءُ مَعَ الجَائِى وَاليأسُ مَعَ المَاضِى».

حقاً إنّه منطق بليغ واضح فى عدم إمكانية عودة ساعات العمر بأى شكل من الأشكال، فى حين يمكن استعادة متع الدنيا وفى كل الظروف وتداركها، بناءاً على هذا فالذى يقوله العقل لابدّ من الحزم والحساسية تجاه الأمور التى يمكن عودتها، لا الأمور التى إن فقدت اليوم أمكن الحصول عليها بالغد، والحال أنّ أغلب الناس يتصرفون على العكس من هذا الأمر، فأصواتهم ترتفع بالصراخ إلى عنان السماء لمجرّد فقدانهم لشىء من حطام الدنيا، بينما لا يأبهون لتصرم الأيام والأسابيع والأشهر والسنوات، وهذا يدعو إلى الدهشة والعجب، وهذا ما دفع بالإمام عليه السلام للتأكيد على هذا المطلب وشبهه فى هذه الخطبة وسائر الخطب.

ورد فى الخبر أنّ شخصاً أتى إلى الإمام السجاد عليه السلام وقد شكى إليه وضعه وكأنّه كان يعانى من قلّة الرزق فرد عليه الإمام عليه السلام أنّ بنى آدم عليه السلام مساكين يشهدون ثلاث مصائب كل يوم ولا- يعتبرون بها ولو اعتبروا بها لهانت عليهم المصائب، المصيبة الأولى: كل يوم يمر عليهم يذهب من عمرهم (لكنهم لا- يأسفون على ذلك) لكنهم يحزنون إن قلّ مالهم، والحال هناك خلف للدنيار والدرهم بينما ليس للعمر من عودة قط، المصيبة الثانية: هو أنّ الإنسان يرتزق كل يوم فان كان رزقه حلالًا كان فيه

حساب وإن كان من الحرام فيه عقاب، المصيبة الثالثة وهى أعظمها جميعاً:

«مَا مِنْ يَومٍ يُمسِى إلّاوَقَدْ دَنا مِنَ الآخرَةِ مَرحَلَةً لايَدرِى عَلَى الجَنَّةَ أم على النَّارِ»[۱۱۸].

وفى ختام الخطبة نصح الناس من خلال الوعظ بالآيات القرآنية فقال: «فاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۵

والقول مستوحى من قوله تبارك وتعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»[۱۱۹].

تأمّلات

۱- غرور عن بعد ورعب من قرب

إنّ المتع الدنيوية المادية والبهرجة لهذا العالم تبدو خلّابة ساحرة من بعيد، لكن ما إن يبلغها الإنسان حتى يراها غاية فى الصغر والضحالة، بل تكون مقلقة ومرعبة أحياناً، مثلًا يرى الإنسان من بعيد حياة الملوك فيظن لو إعتلى يوماً عرش السلطة، فقد سيطر على العالم بأسره وقد نال السعادة والموفقية، ولكنّه ما إن يبلغ ذلك حتى يشعر أنّه فقد على الأقل ثلاثة أشياء من ركائز الحياة:

الأول: الأمن فهو يشعر فى ذلك المنصب بالخوف من أقرب مقربيه، فهو مطالب بالحذر من بطانته دائماً حتى فى قصره وغرفة نومه فلا أمن ولا أمان، فما أكثر السلاطين الذين قتلوا على يد مقربيهم.

الثانى: الحرية، على سبيل المثال لا يستطيع ممارسة حياته كالأفراد العاديين من قبيل الخروج فى نزهة مع زوجته وأولاده أو الحضور بحرية فى المجالس والحفلات التى يقيمها الأصدقاء والأقرباء.

الثالث: راحة البال، فهو مشغول على الدوام ولا يهدأ أبداً، فما زلنا نذكر بعض رؤوسا الجمهوريات الذين صرّحوا علنا بأنّهم لم يذوقوا طعم النوم الهادىء طيلة ليالى حكومتهم وأن حاشيتهم كانوا يوقظونهم من نومهم ليطلعوهم على الحوادث التى تقع هنا هناك من العالم، نعم لم يذوقوا طعم النوم إلّابعد أن تمت مدّة حكومتهم.

ومثال آخر لما ذكرنا آفاق حياة الأثرياء من بعيد فيظن الناظر أنّها مفعمة بالسعادة والرفاه، ولكن إن قدّر له أن يعيش ذلك الثراء فسيشعر أنّ بحاجة إلى جزء يسير من هذه

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۶

الثروة فى حياته بينما تثقل باقى الثروة كاهله، فالحرص على حفظ هذه الثروة وصيانتها من الأعمال الشاقة، والعداوة والبغض الحسد الذى يعانيه من الآخرين والذى يمثل كابوساً مرعباً يقض مضجعه، ومن هنا عبّر الإمام عليه السلام بتلك العبارة الرائعة التى أوردها فى هذه الخطبة فى أنّ كل شىء فى الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وبالعكس بالنسبة للآخرة فانّ كل شىء فيها عيانه أعظم من سماعه، فهل لعاقل بعد كل هذا أن يؤثر الدنيا على الآخرة.

نعم، إن نشد الإنسان المقامات المادية وثروات هذا العالم من أجل خدمة خلق اللّه تعالى، على حدّ تعبير القرآن الكريم فى إطار خطابه لقارون: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ...»[۱۲۰].

وتحمل كل ما يترتب على ذلك من مشاكل وصعاب فذلك له حساب آخر، فقد ورد فى الخبر إنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام شكى إليه طلب الدنيا والتعلق بها، فقال له عليه السلام لم تطلب الدنيا؟ قال: لأصل بها رحمى وأنفق على عيالى وأعطى وأحج وأعتمر، فقال:

«لَيسَ هذا طَلَبُ الدُّنيا، هذا طَلَبُ الآخرة».[۱۲۱]

۲- الدنيا وآراء الناس

الكل يعلم أنّ هذه الدنيا والحياة فى هذا العالم لا تدوم لأحد، فهم يرون بأم أعينهم مراحل انتقال الطفولة إلى الشباب ومنه إلى الكهولة ثم العالم الآخر تطالعنا صفحات النعى فى الصحف المسائية كل يوم بالإعلان عن موت بعض الأعزة الذين يشكل بهم الأقرباء والأهل، ولا ـ سيّما فى عصرنا الراهن الذى أصبح فيه الموت والحياة قريب جدّاً من الإنسان مقارنة الأزمنة الماضية ومتوسط عمر الإنسان، فقد نسمع بسقوط مفاجىء لطائرة فتتناثر أجساد ركابّها فى الهواء لتقع هنا هناك، والحوادث الاخرى التى تزيد من عدد الوفيات كل يوم وفى مختلف الأماكن، حتى أنّ ضحايا الوسائل النقلية فى المناطق والمدن لتفوق ضحايا الحروب، وبغض

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۷

النظر عما سبق فانّ هذه الحياة القصيرة مليئة بأنواع المعاناة والألم والمشاق، ويكفى فى ذلك أن نلقى نظرة عابرة على مستشفى لنرى مختلف الأمراض التى يعانى منها الأطفال والشباب والكهول، أو نتطلع أحد السجون ونشاهد عن كثب الأفراد الذين زجت بهم المظالم والشهوات والأخطاء والنزوات فى ذلك المكان، ولكن مع ذلك أغلب الناس يتناسون كل هذه المسائل ليحصلوا على استقرار كاذب مزّيف، والاستقرار الذى يشبه ذلك الذى يشعر به الحيوان الذى يخفى جسده فى الرمال مخافة الصيّاد، والحال يراه الصياد ويسارع إلى افتراسه.

ومن هنا فانّ الإمام عليه السلام يورد وصاياه فى أغلب مواضع نهج البلاغة بهدف التنبيه إلى تلك الغفلة والنسيان المميت وايقاظ الضمير البشرى الذى يغط فى سبات عميق، وقد اتبع الإمام مختلف الأساليب من أجل تحقيق هذا الغرض فتارة يذكر الدنيا على أنّها دار عناء وفناء وغير وعبر وأخرى يذكر إنزوائها على أنواع الشدائد والمشاكل، كما يتطرق إلى قصر المسافة بين الحياة والموت، إلى جانب ذلك يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقة فى عدم إمكانية عودة ما يتصرم من ساعات العمر، فى حين يمكن تدارك كافة سائر النعم المادية، والحق لو تأمل كل إنسان مرّة واحدة فى الاسبوع هذه الخطبة لما عانى من الغفلة قط.

۳- كيف نبحث عن سعادة الآخرة فى الدنيا؟

ربّما يطلب الإنسان الدنيا من أجل إشباع أهوائه ورغباته إلى جانب الامتياز على الآخرين واستغلالهم واستعمارهم، كما قد يطلبها بهدف الحصول على الرفاه المتوازن، وأحياناً ينشدها بغية وفرة الإمكانات لخدمة الآخرين، أخيراً قد يريدها لترسيخ دعائم اقتصاد المجتمع الإسلامى وتحقيق مجده وعظمته ورفعته وإبعاده عن كافة أشكال التبعية للآخرين، ومن البديهى أنّ هذه الأهداف تتفاوت فيما بينها تفاوتاً تاماً.

فعلى ضوء الهدف الأول يتصف بأبشع الصفات الرذيلة، والثانى يتّجه نحو الأهداف

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۷۸

المباحة والاستفادة من النعم الإلهيّة، والثالث يمارس أرفع عبادة وأخيراً الرابع يسدى أعظم الخدمات الإنسانية والإسلامية، وكل ما ورد من ذمّ فى هذه الخطبة وسائر الأخبار والروايات عن أئمة العصمة عليه السلام وكذلك القرآن الكريم إنّما يشير فى والواقع إلى الطائفة الأولى من الناس وهو الموصوف برأس كل خطيئة ومصدر جميع الذنوب، ولا عاقبة له سوى جهنّم وبئس المصير.

ومن هنا فلا ينبغى تفسير ذمّ الدنيا والمتكالبين عليها بأنّ الإسلام يرتضى للمجتمع حالة الفقر والحرمان ويوصى بذلك، قد ورد هذا المضمون فى الروايات الإسلامية، فقد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«مَلعُونٌ مَلعُونٌ مَن عَبدَ الدِّينار والدّرهم»[۱۲۲].

وقال المرحوم الشيخ الصدوق فى تفسير هذا الحديث: «يعنى به من يمنع زكاة ماله ويبخل بمواساة إخوانه، فيكون قد آثر عبادة الدينار والدرهم على عبادة خالقه»[۱۲۳].

وجاء فى الخبر أنّ علياً عليه السلام يفخر برفاه أهل الكوفة خلال مدّة حكومته رغم ما هو عليه من الزهد والعزوف عن الدنيا فقال: «ما أَصبَحَ بِالكُوفَةِ أَحَدٌ إلّاناعِماً، إنَّ أَدناهُم مَنزِلَةً لَيَأكُلُ البُرَ وَيَجلِسُ فِى الظِّلِّ وَيَشرَبُ مِن ماءِ الفُراتِ»[۱۲۴]

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۷۹

الخطبة[۱۲۵] المأة و خمسه عشرة

اشارة

وَمِنْ خُطْبِةٍ لَهُ عليه السلام

فى الاستسقاء

نظرة إلى الخطبة

كما ورد فى عنوان الخطبة فانّها دعاء فى الاستسقاء، وقد أوردها الإمام فى عصر حكومته حين أصاب الناس الجفاف، حيث أشار عليه السلام فى البداية إلى الأسباب التى تدعو إلى حبس المطر وشياع الجفاف فى أنّ أغلب الحوادث من هذا القبيل معلولة لمعاصى الناس وذنوبهم وسوء أعمالهم، ثم يبتهل إلى اللّه تعالى بالدعاء بعبارات رصينة عميقة المعنى سائلًا الحق تبارك وتعالى التلطف بنزول المطر، حتى أنّ عباراته لتخترق شغاف القلب وتملأه بالمعنويات والشد للّه سبحانه.

وما أحرانا بالتوسل بهذه العبارات والمضامين الواردة فى هذ الخطبة من أجل الاستسقاء.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۸۱

القسم الاوّل: الأمل باللّه فى القحط والجفاف

«اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ جِبَالُنَا، وَاغبَرَّتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا. وَتَحَيَّرَتْ فى مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَى عَلَى أَوْلادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِى مَرَاتِعِهَا، وَالْحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا! اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ الْآنَّةِ، وَحَنِينَ الْحَانَّةِ! اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِى مَذَاهِبِهَا، وَانِينَهَا فِى مَوَالِجِهَا! اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ الْجَوْدِ. فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ، وَالْبَلَاغَ لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا. وَانْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحابِ الْمُنْبَعِقِ، وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ. سَحًّا وَابِلًا، تُحْيِى بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ».

الشرح والتفسير

بيّن الإمام عليه السلام فى بداية هذه الخطبة الوضع المأساوى الذى أصاب الناس إثر الجفاف ومع السماء بعبارات رائعة بعيدة المعنى، حيث استهلها بستة جمل قائلًا:

«اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ ۱۲۶]

جِبَالُنَا، وَاغبَرَّتْ ۱۲۷] أَرْضُنَا، وَهَامَتْ ۱۲۸] دَوَابُّنَا. وَتَحَيَّرَتْ فى مَرَابِضِهَا[۱۲۹]، وَعَجَّتْ ۱۳۰] عَجِيجَ

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۸۲

الثَّكَالَى ۱۳۱] عَلَى أَوْلادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِى مَرَاتِعِهَا، وَالْحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا!».

فقد رسم الإمام علیه السلام صورة واضحة بعبارات فصیحة عن الجفاف الشدید الذی أصاب الناس فی ذلک الزمان، وکشف النقاب عن وضع الجبال والأراضی والمراتع والدواب، ثم رفع یدیه بالدعاء مبتهلًا إلی اللَّه:

«اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِینَ الْآنَّةِ[۱۳۲]، وَحَنِینَ الْحَانَّةِ![۱۳۳]».

کما شکی شدّة عطش الدواب وجوعها وصراخها فی أماکنها:

«اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَیْرَتَهَا فِی مَذَاهِبِهَا، وَانِینَهَا فِی مَوَالِجِهَا![۱۳۴]».

وأردف قائلًا:

«اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَیْکَ حِین اعْتَکَرَتْ ۱۳۵] عَلَیْنَا حَدَابِیرُ السِّنِینَ ۱۳۶]، وَأَخْلَفَتْنَا[۱۳۷] مَخَایِلُ ۱۳۸] الْجَوْدِ[۱۳۹]».

إنّ دقّة العبارات التی استخدمها الإمام علیه السلام فی هذا الدعاء تشیر إلی مدی حرقة الإمام علیه السلام والناس من جانب، ومن جانب آخر تستبطن تصویراً عمیقاً لتلک الحادثة، فحدابیر جمع حدبار تستخدم بشأن الجمل الذی تبین عظام سنامه وقد حز لحمه بصورة تامة إثر شدّة الضعف (بسبب الجوع أو کثرة المشی).

فقد شبّه الإمام علیه السلام الجفاف المتواصل بهذا الجمل، ومن الطبیعی أن یدعو منظره إلی الأسی والحزن، کما أنّ رکوبه یبدو متعذراً شاقاً.

أمّا العبارة التی تضمنت «آنّة» و «حانّة» التی تستخدم کله منهما بشأ تألم الحیوان حیث

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۸۳

تشیر الاولی إلی الشاة والثانیة إلی الجمل، فانّما تشیر إلی حالة الألم التی کانت تعیشها جمیع الحیوانات فی ذلک القی الشدید، وبالالتفات إلی أنّ القسم الأعظم من أراضی العراق تقع بین النهرین العظیمین دجلة والفرات المروفان بوفرة المیاههما مقارنة بأنهار المنطقة یتبیّن أنّ القحط تلک السنوات علی درجة من الشدّة بحیث ضیّق علی أهل العراق حتی فی تلبیة الحاجات الأولیة للحیوانات (تشیر القرائن إلی أنّ الإمام علیه السلام ألقی هذه الخطبة بعد صلاة الاستسقاء حین کان فی الکوفة).

ثم ابتهل إلی اللَّه سبحانه وتعالی فی أنّک الأمل والرجاء لکل بائس وحلّال مشاکل کل طالب حاجة وقد سیطر الیأس علی الناس وقد منعت السماء برکاتها والغیوم میاهها وأشرفت الحیوانات علی الهلکة فنسألک ألّا تؤاخذنا بسیئات أعمالنا ولا بوائق ذنوبنا:

«فَکُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ ۱۴۰]، وَالْبَلَاغَ ۱۴۱] لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوکَ حِینَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَکَ السَّوَامُ ۱۴۲]، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا».

تفید هذه العبارة أنّ أغلب الآفات والبلاء والشدّة معلولة لذنوب الناس، ولا تزال مشاکلهم قائمة مستعصیة ما لم یتوبوا إلی اللَّه ویسألوه العفو والمغفرة، والعبارة تشبه الشکوی التی بثها نبی اللَّه نوح علیه السلام إلی ربّه بشأن قومه: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ إِنَّهُ کَانَ غَفَّاراً* یُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَیْکُمْ مِدْرَاراً»[۱۴۳]

کما ورد فی سورة الأعراف قوله: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَی آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَیْهِمْ بَرَکَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَکِنْ کَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا کَانُوا یَکْسِبُونَ»[۱۴۴].

ثم طرح الإمام طلبته الأصلیة علی الحق تبارک وتعالی قائلًا: «وَانْشُرْ عَلَیْنَا رَحْمَتَکَ

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۸۴

بِالسَّحابِ الْمُنْبَعِقِ ۱۴۵]، وَالرَّبِیعِ الْمُغْدِقِ ۱۴۶]، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ ۱۴۷]. سَحًّا[۱۴۸] وَابِلًا[۱۴۹]، تُحْیِی بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ».

فما ورد فی عبارات الإمام علیه السلام إنعکاس تام لما عاناه الناس من قحط شدید ومصائب عضال من جهة، ومن جهة أخری

تضـمنت طلباً للغيوم الملبـدة بالأمطار، وكـذلك ربيعاً مباركاً ونباتات طريـة جميلـة وأخيراً تتجه صوب نتيجـة نهائيـة هى الأمطار التى تحيى الأرض وتستعيد كل ما فقد؟ ولا تكون تلك السنة سنة عامرة بالبركة فحسب، بل سنة تتلافى سنوات الجفاف السابقة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۸۵

القسم الثانى: اللّهم أمطرنا بوابل رحمتك

اشارة

«اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْکَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَکَةً، هَنِيئَةً مَرِيعَةً.

زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً فَرْعُهَا، نَاضِراً وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِى بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلادِكَ! اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْکَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنـا، وَتَجْرِى بِهَا وِهَادُنَا وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينا، وَتَنْدَى بِهَا أَقَاصِينَا، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا. مِنْ بَرَكاتِکَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاکَ الْجَزِيلَةِ عَلَى بَرِيَّتِکَ الْمُرْمِلَةِ، وَوَحْشِکَ الْمُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَاراً هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا، وَلَاجَهَامٍ عَارِضُهَا، وَلَا قَزَعٍ رَبَابُهَا، وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا، حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا الْمُجْدِبُونَ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا الْمُسْنِتُونَ، فَإِنَّکَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَکَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ».

الشرح والتفسير

طرح الإمام عليه السـلام فى هذا المقطع من الخطبة طلبه وصحبه الرئيسى والذى يتمثل بنزول المطر المبارك فسأل اللّه سبحانه وتعالى مطراً ذات عشـرين صـفة تشـير كل واحـدة منها إلى قضـية رائعـة، وما أورع أن يذكر الإمام كل هذه الأوصاف للمطر المطلوب، وهى الأوصاف التى تجعل الإنسان يتواضع ويشـعر بالخضوع أمام عظمـة الخلاق، كما تفهم السامع عمق الآثار والبركات التى تختزنها هـذه القطرات من المطر:

«اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْکَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۸۶

طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيعَةً[۱۵۰]. زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً[۱۵۱] فَرْعُهَا، نَاضِراً[۱۵۲] وَرَقُهَا، تُنْعِشُ ۱۵۳] بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِى بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلادِكَ!».

الواقع هو أنّ الإمـام عليه السـلام سـأل اللّه تعـالى مطرا تتوفر فيه الشـرائط وبعيـداً عن كـل الموانع، فقـد لوحظ فى أغلب الأحيان نزول الأمطار على شـكل سـيول، لكنّها تحطم كل شـىء تأتى عليه، أو إنّها تتركز فى نقطة معينة ليست لها منفعة عامة، أو أنّها مصحوبة ببرد شديد قارس لا تخفى آثاره السـلبية، أو يكون مصـحوباً ببعض الموانع من قبيل الرياح الحارة والعواصف الشديدة والآفات التى تصيب النباتـات كـالجراد والحشـرات المؤذيـة وأمثال ذلك التى تقضـى على أثار الأمطار، فالإمام عليه السـلام يأخـذ جميع هـذه الأمور بنظر الاعتبار فيسأل اللّه تعالى اجتماع كافة الشرائط ودفع جميع الموانع.

ثم واصل الإمام عليه السلام الدعاء بذكر سبعة أوصاف أخرى ليكتمل عدد الصفات عشرين صفة فقال:

«اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْکَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا[۱۵۴]، وَتَجْرِى بِهَا وِهَادُنَا[۱۵۵] وَيُخْصِبُ ۱۵۶] بِهَا جَنَابُنَا[۱۵۷]، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينا، وَتَنْدَى ۱۵۸] بِهَا أَقَاصِينَا[۱۵۹]، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا[۱۶۰]. مِنْ بَرَكاتِکَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاکَ الْجَزِيلَةِ عَلَى بَرِيَّتِکَ الْمُرْمِلَةِ[۱۶۱]، وَوَحْشِکَ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۸۷

الْمُهْمَلَةِ».

فقـد کشف الإمام علیه السـلام النقاب بهذا الدعاء عن سـعة صدره وعمق نظره وعمومیة شـفقته ورحمته، ذلک لأنّه أخذ بنطر الاعتبار المناطق القاصـیة والدانیة ولم یهمل الدواب حتى حیوانات الصحراء الوحشیة، فدعاءه یشمل الجمیع وسؤاله یهدف حاجة الجمیع وهذا هو معنى لطف إمام المسلمین ورحمته العامّة.

وأضاف الإمام علیه السلام فی معرض مواصلة لطلب الماء ونزول المطر الذی یفیض بالخیر والبرکة قائلًا:

«وَأَنْزِلْ عَلَیْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً[۱۶۲]، مِدْرَاراً هَاطِلَةً[۱۶۳]، یُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ ۱۶۴]،

وَیَحْفِزُ[۱۶۵] الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ».

کما واصل علیه السلام وصف الأمطار:

«غَیْرَ خُلَّبٍ ۱۶۶] بَرْقُهَا، وَلَا جَهَامٍ ۱۶۷] عَارِضُهَا، وَلَا قَزَعٍ ۱۶۸]

رَبَابُهَا[۱۶۹]، وَلَا شَفَّانٍ ۱۷۰] ذِهَابُهَا[۱۷۱]».

ثم واصل الإمام علیه السلام الدعاء قائلًا:

«حَتَّى یُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا[۱۷۲] الُمجْدِبُونَ ۱۷۳]، وَیَحْیَا

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۸۸

بِبَرَکَتِهَا الْمُسْنِتُونَ ۱۷۴]، فَإِنَّکَ تُنْزِلُ الْغَیْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَکَ وَأَنْتَ الْوَلِیُ

الْحَمِیدُ[۱۷۵]».

فقـد بیّن الإمام فی هذه العبارة تسع أوصاف أخرى للأمطار المفیدة النافعة ذات الخیر والبرکة، حیث یبلغ عدد الصـفات مع ذکر سابقاً ۲۹ صـفة، حقّاً إنّه لمن دواعی العجب والدهشة أن یستسـقی الإمام علیه السـلام ویوصف المطر بتسع وعشرین صفة بینما یصف ذلک الطـالبون عـادة بصـفة، أو صـفتین فیبتهلون إلى اللَّه سـبحانه وتعالى أن أسـقنا الغیث المبارک، ومن هنا لا یشـعر الإنسان سوى بالحیرة والـذهول حین یتأمل عبارات أمیر المؤمنین على علیه السـلام، لقد اسـتفرغ الإمام أقصـى فصاحته وبلاغته فی هذه الخطبة وشـرح طلبه إلى اللَّه تعـالى بمـا یعرّف النـاس بلطف اللَّه تعالى وفضـله ورحمته ویفهمهم أنّ مسار النعمـة ملیىء بکثیر من الموانع بحیث لا یسـعهم بلوغ الکمال المنشود ما لم تشـملهم رعایة اللَّه ورحمته، والحق یتعذر مثل هذا المنطق على من لم یکن مؤیداً من عند اللَّه ویؤید بروح القدس.

تفسیر ما فی هذه الخطبة من الغریب

نقرأ فی ختام هذه الخطبة:

«قَالَ السَّیـدُ الشَّریفُ رِضـیَ اللَّهُ عَنْهُ قَولِهِ: (انصَاحتْ جِبالنَا) أی تَشَـقَّقَتْ مَنَ المَحولِ یُقالُ: لنصاحَ الثّوبُ إذا انْشَقَّ وَیُقالُ أیضاً: انصَاحَ انَّبتُ وَصَـاحَ وَصَوّحَ إذا جَفَّ وَیَبِسَ کُلُّهُ وَقَولُهُ (وُزهـامَتْ دَوَابّنـا) أی عَطِشَتْ وَالهُیَـامُ: العَطَشُ، وَقَولُهُ (حَـدَابِیرُ السّـنِینَ) جمع جِـدبار، وهیَ النّاقَةُ الّتِی أنضاهَا السّیرُ، فَشَبَّهُ بِها السنّة الّتی فَشا فِیها الجَدبُ، قَالَ ذو الرّمّةِ:

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۸۹

حِدابَیرُ مَا تَنْفَّکُ إلّامُنَاخَةًعَلَى الخَسفِ أو نَرمِی بِها بَلَداً فَقْراً

وَقولُهُ: (ولَا قَزَعٍ رَبابَها) القَزَع: القِطعُ الصّغارُ المُتَفَرّقَةُ مِنَ السّحاب.

وَقَولُهُ: (وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُها) فانِّ تَقدیرَهِ: ولَا ذَاتَ شَفّان ذَهابُها، والشَفّان:

الرّیحُ البارِدَةُ، والذّهِابُ: الأَمطارُ اللّیّنِة، فَحَذَفَ (ذات) لِعلمِ السامعِ بِهِ».

تأمّلان

۱- صلاة الاستسقاء

صلاة الاستسقاء واحدة من التعاليم الإسلامية القيمة والتى ذكرها عامّة فقهاء المسلمين من الفريقين فى كتبهم الفقهية، ومن جملة الآداب التى أوردتها مصادر أتباع أهل البيت عليهم السلام بشأن هذه الصلاة أن يصوم الناس ثلاثة أيّام ويتجهون فى اليوم الثالث وهم صيام إلى خارج المدينة، ويأتون بركعتين على غرار ركعتى عيد الفطر والأضحى حيث تشتمل الركعة الأولى على خمس قنوتات والثانية على أربع قنوتات، ولكن يقنتون بالأدعية الواردة بشأن الاستسقاء ونزول الرحمة والمغفرة بدلًا من الدعاء المأثور المختص بالعيد، فيصلون على النبى وآله قبل كل دعاء، فان فرغ الإمام من الصلاة قلّب العباء رجاء نزول المطر واستقبل القبلة وكبر بأعلى صوته مئة مرّة (ويكبر الناس معه) ثم يلتفت إلى الناس ويتّجه يميناً ويسبّح اللَّه سبحانه بصوت عال مئة مرّة ثم يلتفت شمالًا ويهلل بصوت عال مئة مرّة، ثم يستقبل الناس ويحمد اللَّه مئة مرّة ويردد الناس من بعده، آنذاك يرفع يديه إلى السماء ويتضرع مع الناس إلى اللَّه سبحانه وتعالى يسأله الرحمة ويؤمن الناس على دعائه.

وقد ورد فى بعض الروايات التصريح بأن يحملوا معهم إلى الصحراء الشيوخ و النساء والأطفال وحتى الحيوانات الجائعة العطشى وأن يفرّق بين الآباء وأولادهم بهدف التأثير على الناس حين يتّجهون إلى اللَّه فى الدعاء[۱۷۶].

فانّ تعذر عليهم القيام بكل هذه الأمور تابوا إلى اللَّه واستغفروه من ذنوبهم ورفعوا أيديهم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹۰

بالدعاء جمعة سائلين اللَّه سبحانه العفو الرحمة.

حقّاً إنّها لمراسم ذات آثار عجيبة أدناها حالة التضرع والخشوع التى يعيشها الداعى إلى اللَّه تعالى، فهى تربط الفرد بالذات الإلهيّة المقدّسة للَّهسبحانه الرحمن الرحيم وتؤدّى إلى نزول الرحمة وشموله بها.

أضف إلى ذلك فانّ لهذه الصلاة أثارها الكبيرة فى تربية النفوس والتوبة من الذنوب والعودة إلى الطهر والعفاف، والذى يستتبع أحياناً نزول المطر الذى يعود على الجميع بالخير والبركة ويستفاد من الروايات أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان يدعو بدعاء الاستسقاء حين يشكو إليه الناس من القحط والجدب، فكانت تنزل الأمطار بما يجعل الناس يطلبون توقفها[۱۷۷].

وتفيد القرائن أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد صلاة الاستسقاء حيث جاء فى بعض الروايات التى نقلت هذه الخطبة بصورة تامة العبارة:

«اللّهُمّ إنّا خَرجنا إلَيك»

التى تكشف اتجاهه عليه السلام مع الناس إلى الصحراء ويختص هذا العمل عادة بصلاة الاستسقاء، وورد فى بعض الروايات أنّ علياً عليه السلام بكى آخر هذه الخطبة وقد سأل اللَّه سبحانه وتعالى بعبارات تفيض لوعة وحرقة.

وسيأتى تفاصيل ذلك حين شرحنا للخطبة ۱۴۳ من نهج البلاغة الواردة بشأن صلاة الاستسقاء.

۲- الذنب وزوال البركة

وردت عدّة أبحاث فى الكتب الفلسفية والكلامية والتفسيرية بشأن فلسفة الآفات والبلاء، فالذى يستفاد من القرآن الكريم هو تشديد

البلاء على الامم حين ظهور الأنبياء بغية إيقاظهم، حيث صرّح القرآن الكريم قائلًا: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ»[۱۷۸].

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۹۱

فالآيهٔ تشير إلى أنّ هذا القانون عام ودائمى يهدف إلى الاستعداد لتقبل دعوهٔ الأنبياء، فكانت تقع الحوادث الأليمهٔ من جانب اللّه طيلهٔ تاريخ الامم وحين بروز الغفلهٔ وذلك بهدف القضاء على تلك الغفلهٔ وايقاظ تلك الامم، وربّما تكون هذه الحوادث الأليمهٔ والمفجعهٔ نتيجهٔ لذنوب الناس، والهدف أيضاً الفساد والإنابهٔ والعودهٔ إلى اللّه، فقد جاء فى الآيهٔ القرآنيهٔ:

«ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»[۱۷۹].

وهكذا يتضح أنّ أحد طرق التربيهٔ الإلهيّهٔ هو هذه الحوادث الأليمهٔ الطبيعيهٔ أو الاجتماعيهٔ، والقحط يمكن أن يكون أحد هذه الحوادث، كما أشار الإمام عليه السلام إلى ذلك فى الخطبهٔ المذكورهٔ، حيث قال فى هذه الخطبهٔ:

«نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا».

وقد ورد هذا المطلب بصورهٔ أوضح فى الخطبهٔ ۱۴۳، حيث حذر فيه الناس حين القحط بالنزوع عن المعاصى والاحتراز من الذنوب والإنابهٔ إلى اللّه سبحانه وتعالى، واستشهد عليه السلام بآيات من سورهٔ نوح بهذا الخصوص وهذا ما سيرد ذكره إن شاء اللّه فى محلّه.

ونختتم هذا الكلام بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إذا فَشَتْ أَربَعَهٌ ظَهَرَتْ أَبَعَهٌ فَشَتْ لِزّنا ظَهَرَتْ الزَّلازِلُ وإِذا أَمسَكَتْ الزَّكاهُ هَلَكَتْ المَاشِيَهُ وإِذا جَارِ الحُكّامُ فِى القَضاءِ أَمسَكَ القَطَرُ مِنَ السَّماءِ وإِذا خَفَرتْ الذِّمَّهُ نَصرَ المُشرِكُونَ عَلَى المُسلِمِينَ»[۱۸۰].

وورد فى الحديث المعتبر والمعروف عن أبى ولّاد أنّ الإمام الصادق عليه السلام لما سمع الفتاوى غير الصحيحهٔ لأبى حنيفهٔ فى بعض المسائل الفقهيهٔ قال:

«فِى مِثلِ هذا القَضاءِ وَشِبهِهِ تَحبِسُ السَّماءُ ماءَها وَتَمنَعُ الأَرضُ بَركاتَها»[۱۸۱].

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۹۳

الخطبهٔ[۱۸۲] المأهٔ و سادسهٔ عشرهٔ

اشارهٔ

مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام

وفيها ينصح أصحابه

نظرهٔ إلى الخطبهٔ

تتألف هذ الخطبهٔ فى الواقع من عدّهٔ أقسام:

القسم الأول: وصف بليغ للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله وجهاده العظيم فى إبلاغ الرسالهٔ ودعوهٔ الناس إلى الإسلام.

القسم الثانى: التوجه إلى الناس بالوعظ والإرشاد والنصيحهٔ، المواعظ المؤثرهٔ والبالغهٔ.

القسم الثالث: الشكوى من الأصحاب ورجاء اللّه فى مفارقتهم وإلحاقه بصنوه من الأفراد.

القسم الرابع والأخير: الذى يختص بالإخبار عن فتنهٔ طاغ واستعراض جانب من جناياته وجرائمه أملًا فى ايقاظ الناس والوقوف بوجه هذه الجرائم من خلال التوبهٔ إلى اللّه سبحانه والعودهٔ إلى وحدهٔ ونبذ الخلافات والفرقهٔ.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹۵

القسم الاوّل: عدم التوانی فی الجهاد

«أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى الْحَقّ وَشَاهِداً عَلَى الْخَلْقِ. فَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ وَلَا مُقَصِّرٍ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ. إِمَامُ مَنِ اتَّقَى. وَبَصَرُ مَنِ اهْتَدَى».

الشرح والتفسیر

كما صرّح البعض من شرّاح نهج البلاغة يبدو أنّ هذه الخطبة جزء من خطبة طويلة حيث تطرق الإمام عليه السلام فيها إلى تشجيع صحبه على الجهاد والوقوف بوجه بغاة الشام وبين الأخطار التى تتهددهم فى حالة الضعف وترك الجهاد ومقاتلة العدو فأتم الحجّة عليهم.

ففى القسم الأول من هذه الخطبة أشار إلى الجهود الجبارة التى بذلها رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى إبلاغ الوحى ونشر الرسالة من أجل ترقيق قلوب المخاطبين فيتعرفوا على أهميّة هذا الميراث العظيم ولا يتوانوا فى الدفاع عنه والتصدى لهجمات خصوم الدعوة، فقال عليه السلام:

«أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى الْحَقّ وَشَاهِداً عَلَى الْخَلْقِ».

فالواقع أخلص الإمام عليه السلام الرسالة الإسلامية التى نهض بها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى هاتين العبارتين، قد دعى إلى الحق وإبلاغ الأحكام الشرعية من جانب، وأشرف على حسن تطبيقها من جانب آخر، أمّا شهادة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقد قيل المراد بها الشهادة على أعمال الناس أو الشهادة على الأنبياء فى يوم القيامة حيث ورد فى القرآن الكريم: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً»[۱۸۳].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹۶

لكن ظاهر كلام الإمام عليه السلام يشير إلى أنّ المراد بالشهادة إطلاع النبى صلى الله عليه و آله على أعمال الناس من أجل إمتثال الأوامر الإلهيّة فى هذه الدنيا، وبعبارة أخرى فانّ وظيفة النبى صلى الله عليه و آله لا تقتصر على إبلاغ الدعوة إلى الحق، بل تتبع إجراء وتطبيق تلك الدعوة وهذا هو معنى إمامته وولايته التشريعية، ولا مانع طبعاً من الجمع بين المعنيين فى أنّه شاهد على الأعمال فى هذا العالم وكذلك شاهد عليها فى العالم الآخر. ثم خاض فى بيان أوصاف نبى الإسلام صلى الله عليه و آله ليذكر ست صفات آخر فقال: صلى الله عليه و سلم

فَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ ۱۸۴] وَلَا مُقَصِّرٍ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ[۱۸۵]. إِمَامُ مَنِ اتَّقَى. وَبَصَرُ مَنِ اهْتَدَى».

فقد تضمنت هذه العبارة القصيرة جميع الخصائص التى ينبغى توفرها فى القائد الشجاع المقتدر، عدم الضعف والوهن والتقصير ومجاهدة العدو وعدم الاعتذار والتذرع، ومن جانب آخر فانّه عدّ النبى صلى الله عليه و آله إمام المتقين ووسيلة هداية المبصرين، حيث يذود عنه الأفراد من المفسدين ويقصى المضلين المعاندين.

نعم، الكثيرون هم الأفراد الذين يخلقون الذرائع والحجج الواهية بهدف التغطية على تقصيرهم وعدم جدّهم واجتهادهم، ويستبعد ذلك من زعيم شجاع ومدير مدبّر فلا يتّجه صوب الحجج والذرائع.

فالعبارات المذكورة تشير فى الواقع إلى مدى ضعف أهل الكوفة ووهنهم وتركهم للجهاد وتشبثهم بالذرائع من أجل الفرار من المسؤوليات، فالإمام صلى الله عليه و آله يذكرهم بأنّ نبيّكم لم يكن كذلك فما بالكم تقيمون على هذا الحال.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۹۷

القسم الثانی: الآفات المظلمة من ورائكم

اشارة

و منها: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِیَ عَنْکُمْ غَیْبُهُ، إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَی الصُّعُدَاتِ تَبْکُونَ عَلَی أَعْمَالِکُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَی أَنْفُسِکُمْ، وَلَتَرَکْتُمْ أَمْوَالَکُمْ لَا حَارِسَ لَهَا وَلَا خَالِفَ عَلَیْهَا، وَلَهَمَّتْ کُلَّ امْرِیءٍ مِنْکُمْ نَفْسُهُ، لَا یَلْتَفِتُ إِلَی غَیْرِهَا. وَلَکِنَّکُمْ نَسِیتُمْ مَا ذُکِّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ، فَتَاهَ عَنْکُمْ رَأْیُکُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَیْکُمْ أَمْرُکُمْ. وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَیْنِی وَبَیْنَکُمْ، وَأَلْحَقَنِی بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِی مِنْکُمْ. قَوْمٌ وَاللَّهِ مَیَامِینُ الرَّأیِ، مَرَاجِیحُ الْحِلْمِ، مَقَاوِیلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِیکُ لِلْبَغْیِ. مَضَوْا قُدُماً عَلَی الطَّرِیقَهِ وَأَوْجَفُوا عَلَی الَمحَجَّهِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَی الدَّائِمَهِ، وَالْکَرَامَهِ الْبَارِدَهِ».

الشرح والتفسیر

یحذر الإمام صلی الله علیه و آله فی هذا المقطع من الخطبهٔ کافهٔ الأفراد الذین یبدون الضعف فی مجاهدهٔ العدو الغادر والغاشم، ویتهربون من المسؤولیهٔ من خلال اللجوء إلی بعض الحجج والأعذار، فی أنّ الآفاق المعتمهٔ إنّما تکمن أمامکم، والمستقبل المظلم الذی یتسلط فیه العدو علیکم ویهیمن علی مقدراتکم وسیصبون علیکم جام غضبهم بما یجعلکم تفقدون صوابکم وعقلکم:

«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِیَ ۱۸۶] عَنْکُمْ غَیْبُهُ، إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَی الصُّعُدَاتِ ۱۸۷] تَبْکُونَ عَلَی أَعْمَالِکُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ ۱۸۸] عَلَی أَنْفُسِکُمْ».

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۹۸

بل قد لا تکتفون بذلک:

«وَلَتَرَکْتُمْ أَمْوَالَکُمْ لَا حَارِسَ لَهَا وَلَا خَالِفَ ۱۸۹] عَلَیْهَا، وَلَهَمَّتْ کُلَّ امْرِیءٍ مِنْکُمْ نَفْسُهُ، لَا یَلْتَفِتُ إِلَی غَیْرِهَا».

فهذه العبارات تجسد حال الشخص الذی یبتلی بمصائب عظمیهٔ بحیث ینسی کل شیء سوی إنقاذ نفسه، فقد إتّجه صوب الصحراء ویتابع لطم وجهه ورأسه یسکب دموعه ویتعالی صراخه، کما یسعی إلی التخلی عن أموال رغم مالها من أهمّیهٔ لدیه ومدی الجهود التی بذلها من أجل الحفاظ علیها، إلی جانب ذلک فهو لا یعیر أهمّیهٔ لمن خلفه حتی أنّه لینسی أعزّته وبطانته.

ویری بعض شرّاح نهج البلاغهٔ أنّ هذه العبارات ترتبط بأهوال یوم القیامهٔ والتی وردت فی مختلف الآیات القرآنیهٔ، لکن بالنظر إلی ذیل الخطبهٔ الذی یتحدث عن جرائم الحجاج وسبب الخطبهٔ الذی یفید ضعف أهل الکوفهٔ فی جهاد العدو، فانّ المعنی المذکور یبدو بعیداً، والظاهر أنّها ناظرهٔ إلی سلطهٔ بنی امیهٔ والجرائم المروعهٔ التی إرتکبها الحجاج وأمثاله.

ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه بالإشارهٔ إلی المصدر الرئیسی الذی انبثقت منه هذه الحوادث:

«وَلَکِنَّکُمْ نَسِیتُمْ مَا ذُکِّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ، فَتَاهَ ۱۹۰] عَنْکُمْ رَأْیُکُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَیْکُمْ أَمْرُکُمْ».

لا- ینبغی لکم أن تتصوروا أبداً بأنّ الحوادث الألیمهٔ التی تنتظرکم إنّما تأتیکم بغتهٔ، کلا لیس الأمر کذلک، فقد حذرتکم مراراً، وأدّیت لکم حق الوعظ والنصح، وکشفت لکم المستور، ثم أنذرتکم، لکن للأسف لم تعیروا وعظی ونصحی آدانا صاغیهٔ، فقد نسیتم کل ما ذکرته لکم وتجاهلتم کل الإرشاد، ومن هنا لم تمارسوا ما ینبغی علیکم فی موقعه وأوانه ولم تعدوا الخطط اللازمهٔ للوقوف بوجه الأعداء فلم تکن نتیجهٔ ذلک الذی لا مثیل له فی التاریخ.

ثم قال الإمام علیه السلام:

«وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَیْنِی وَبَیْنَکُمْ، وَأَلْحَقَنِی بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِی مِنْکُمْ».

إشارهٔ إلی أنّه طالما تعذر إصلاحکم فیا لیتنی فارقتکم، ولیت القدر الإلهی أذن بالتحاقی

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۹۹

بمن ینسجم معی فی الأفکار والتطلعات.

ثم خاض عليه السلام فى شرح خصائص القوم الذين يراهم ينسجمون وأفكاره وتوجهاته:

«قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيامِينُ ۱۹۱] الرَّأيِ، مَرَاجِيحُ ۱۹۲] الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ ۱۹۳] لِلْبَغْيِ. مَضَوْا قُدُماً[۱۹۴] عَلَى الطَّرِيقَةِ وَأَوْجَفُوا عَلَى الَمحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ».

فهذه العبارات إشارة واضحة إلى النبى صلى الله عليه و آله وطائفة من صحبه ممن يتصف بالخصائص المذكورة الست، صفتان فى برامج الحياة (نصرة الحق ومصارعة الظلم) وصفتان فى العمل (الانطلاق باتجاه الحق والسرعة من أجل بلوغ الهدف) وصفتان فى الفكر (التحلى بالفكر الناضج والعقل التام)، فبيّن أيضاً نتيجة هذه الصفات والتى تتمثل بالسعادة المطلقة والحياة الحرّة الكريمة.

مظلومية أمير المؤمنين على عليه السلام

لا تقتصر المظلومية على أن يقتل الإنسان من قبل فئة ظالمة جبارة ناقضة للعهود وغادرة فى معركة ليست متكافئة فحسب، بل من أسوأ نماذج المظلومية أن يرى الإنسان الكفوء والمدير الناجح والآمر المقتدر والخبير الماهر والسياسى اليقظ والواعى نفسه وسط طائفة لا تنسجم وأفكاره وكفاءته ولا يسعها الحركة باتجاهه، فهى تفعل على العكس من كل ما يقول ولا تتحرك خلفه مهما حذرها وأنذرها، فهى فرقة مشتتة وجاهلة وضعيفة وهنة مسلوبة الإرادة، فابتلاء مثل هذا الزعيم بمثل هؤلاء الأتباع يؤدّى إلى ضياع القيم وتناسى الأفكار، بل أبعد من ذلك يذهب بعض الجهّال إلى إتهام هذا الزعيم بعدم القدرة على إدارة الأمور.

هذا هو أحد نماذج المظلومية والذى عاشه أمير المؤمنين عليه السلام فى عصره، وقد أشار إلى ذلك

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۰۰

الإمام نفسه عليه السلام فى أكثر من خطبة من خطب نهج البلاغة، فتارة يقول عليه السلام:

«لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أنّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنى بِكُمْ صَرْفَ الدّينَارِ بِالدّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنّى عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِى رَجُلًا مِنْهُمْ»[۱۹۵].

وأخرى يقول:

«مَلَكَتْنى عَيْنِى وَأَنَا جَالِسٌ، فَسَنَحَ لىَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله و سلم، فَقُلْتُ: يَا رَسولَ اللَّهِ، مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوَدِ وَاللَّدَدِ؟ فَقَالَ: «ادْعُ عَلَيْهِمْ» فَقُلْتُ: أَبْدَلَنى اللَّهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأبْدَلَهُمْ بِى شَرًّا لَهُمْ مِنّى»[۱۹۶].

ويقول فى الثالثة:

«يا أَشْبَاهَ الرّجَالِ وَلَا رِجَالَ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنّى لَمْ أَرَكُمْ»[۱۹۷].

والحق لعلنا لا نعثر طيلة التاريخ على زعيم وولى من أولياء اللَّه قد واجه فى مدّة قصيرة من حكومته بكل هذه العداوة والبغضاء والقسوة والجلادة والعنف والطغوى، وهذا أبشع أنواع المظلومية، ومن هنا قيل: «على عليه السلام أول مظلوم فى العالم».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۰۱

القسم الثالث: الانتقام الإلهى

اشارة

«أمَا وَاللَّهِ لَيُسَلّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ الْمَيَّالُ. يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ إِيهٍ أَبا وَذَحَةَ!».

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام الخطبة باستعراض صريح لا لبس فيه للإخبار عن المصير الأسود الذى ينتظر أهل الكوفة فقال:

«أَمَا وَاللَّهِ لَيُسَلّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ ۱۹۸] الْمَيَّالُ ۱۹۹]. يَأْكُلُ خَضِرَتَكُم وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ».

ثم أردفها بالقول:

«إِيهٍ أَبا وَذَحَةَ![۲۰۰]».

أجمع شرّاح نهج البلاغة على أنّ المراد بغلام ثقيف هو الحجاج بن يوسف الثقفى الذى ينسب إلى قبيلة بنى ثقيف والذى ولّى الكوفة على عهد عبدالملك بن مروان، كان مشهوراً بقسوته وتعطشه للدماء وقد إختاره عبدالملك بن مروان للانتقام من أهل الكوفة وإخماد الثورة ضد حكومة بنى امية، وكما أخبر الإمام عليه السلام فى هذا الكلام، فهو لم يرحم أحد وقد نهب أموال الامة وسفك دماءها، وقد صور الإمام أوضاع الناس على عهده بقوله:

«يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۰۲

لابدّ من الالتفات إلى أنّ «خضرة» وإن كانت بمعنى محصول الحقول والأراضى الزارعية، لكنها هنا تشير إلى كافة الأموال التى نهبها الحجاج والعبارة يذيب شحمتكم كناية عن شدة الضغط الذى يتعرض له الناس فيصبحوا على درجة من الضعف، وكأنّه لم يبق لهم سوى الجلد والعظم، وهذا هو مصير الأفراد الذين يتمردون على القائد الفذ والشفيق الرؤوف بالامة العادل معها كعلى عليه السلام.

والمفردة «أيه» بالكسر والتنوين حسب تصريح أغلب أرباب اللغة تستخدم حين يراد تشجيع الشخص على مواصلة الكلام أو العمل وايها بتنوين الفتح تستعمل حين يراد دعوة شخص للسكوت أوالامتناع عن العمل، بالنظر إلى أنّ «ايه» وردت فى نسخ نهج البلاغة بتنوين مكسور فالمفهوم ضاعف يا حجاج من ضغوطك على الأفراد الطلحاء وضعفاء الإيمان جاحدى الحق الطغاة الذين يتمردون على إمامهم العادل! وبعبارة أخرى فانّ هذه المفردة كناية فى أنّ اولئك الأفراد يستحقون ما يحل بهم من عذاب إلهى، لا يعنى ذلك رضى الإمام عليه السلام بأى مقدار من ظلم الحجاج.

فالكلام أشبه بما نقوله لشخص إنّ هذا الدواء وإن كان مرّاً لكنه العلاج الذى يشفيك فلا يصغى لما يقال له، فان اشتدّ ألمه وتعالى صراخه وارتفع صوته نقول له: تألم أكثر! فهذه نتيجة عملك، فمن البديهى أنّ مفهوم ذلك ليس رضانا بألمه ووجعه، بل معناه أنّ تلك هى النتيجة الطبيعية لعدم إمتثاله لأوامر الأطباء والحكماء، وهذا الكلام شبيه ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبة ۲۸ حيث قال:

«أَلَا وَإِنَّهُ مَن لا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى، يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى».

وأمّيا وذحة فقد صرحت أغلب المصادر اللغوية من قبيل (لسان العرب، مجمع البحرين، أقرب الموارد)، أنّها تعنى الخنفساء، وقال البعض كصاحب القاموس والخليل بن أحمد فى كتاب «العين» أنّها تعنى بعرة الحيوان بوله الذى يلتصف بصوفه.

وأمّا بشأن انتخاب كنية «أبا وذحة» للحجاج فقد وردت فيها عدّة أراء ذكرتها التواريخ وشروح نهج البلاغة، أنسبها أنّ الحجاج رأى يوماً خنفساء قرب موضع صلاته فدفعها عنه، فأتته ثانية فدفعها، فلما أتته ثالثة أمسكها بيده وعصرها فعضته فورمت يده فأدى به الورم إلى الموت، وكأنّ اللّه تعالى أراد أن يرى هذا السفّاح مدى قدرته حيث قضى عليه وبواسطة

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۰۳

أحقر مخلوقاته، على غرار النمرود ذلك الطاغية المعروف والذى ولجت أنفه بعوضة قضت عليه.

وقال البعض أنّ الحجاج كان يتنفر من الخنفساء فلم تكد تقع عينيه عليها حتى يأمر غلمانه بدفعها، ومن هنا إصطلحت عليه الناس أبا وذحة، ولا يبدو مناسباً أن نذكر هنا سائر ما ورد فى هذا الشأن وخلاصته أنّ الحجاج كان يشكو من مرض جنسى، فكان يعالج مرضه بالخنفساء، وقد صرّح ابن أبى الحديد بعد ذكره لهذه الروايات أنّ الإمام عليه السلام إختار هذه الكنية للحجاج لأنّ عادة العرب جرت على ذكر الفرد بكنيته حين الاحترام وذلك للعظمة، وإن أرادواتحقيره ذكروه بالكنية أيضاً من قبيل كنية عبدالملك بن مروان بأبى الذبّان، حيث كان الذباب يتجمع على فمه لخبث رائحته (أو كان حتى الذباب ينفر منه كما صرّح بذلك البعض)، وكذلك كنية يزيد بن معاوية بأبى زنة[۲۰۱].

قال الشريف الرضى آخر هذه الخطبة: «الوذحة الخنفساء» وهذا القول يؤمى به إلى الحجاج وله مع الوذحة حديث ليس هذا موضع ذكره.

من هو الحجاج؟

الحجاج من أبشع الطغاة الذين عرفهم التاريخ البشرى، وقد ألفت مختلف القصص التى تعنى بجرائمه وجناياته والتى يصعق لها كل من طيلع عليها، كان والى عبدالملك بن مروان على الكوفة، وعبدالملك خامس الخلفاء بنى امية، وقيل فى صفة الحجاج أنّه كان دميم الخلقة كريه المنظر قصير القامة ضعيف أعوج الرجلين أبرص ولعل سفكه للدماء وولعه بها ناشىء من تلك العقدة والشعور بالحقارة، وقد ذكر المؤرخ المعروف المسعودى فى «مروج الذهب»: «بأنّه كان يعترف بأنّ أعظم لذته فى سفك الدماء والإتيان بالأفعال التى لا يقوم بها الآخرون»[۲۰۲].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۰۴

تولى إمارة الحجاز «مكة والمدينة» من قبل عبدالملك بن مروان لسنتين فارتكب أبشع الفضائع ومنها قصفه الكعبة بالمنجنيق، ثم وضع النار على طائفة من صحابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله المعروفين مثل جابر بن عبداللّه الإنصارى، وأنس بن مالك، وسهل بن الساعدى على أنّهم اشتركوا فى قتل عثمان، ثم وجهه عبدالملك إلى العراق وولاه البصرة والكوفة، حكم الحجاج مدّة عشرين سنة وبلغ من قتلهم الحجاج مئة الف وعشرين من غير الذين قتلوا على يديه وأعوانه فى الحروب، كان فى سجنه حين مات خمسون ألف رجل ثلاثين ألف وإمرأة ستة عشر ألف منهم عراة، وكان يضع النساء مع الرجال ولم يكن لسجنه سقف فكانوا يعانون من شدّة الحرارة فى الصيف والبرودة فى الشتاء.

وقال ابن الجورى: أنّ حرس السجن كانوا يرمون السجين بالحجر إن لاذ بالجدار من شدّة حرارة الشمس، وكان طعامهم قليلًا من الخبز المخلوط بالملح والرماد، فكان يسود وجه من يدخل السجن بحيث لا تعرفه امه حين تأتى لرؤيته.

ولعل أبلغ كلام قيل فى الحجاج ما ذكره الشعبى حين قال: «لو أخرجت كل امة خبيثها وفاسقها وأخرجنا الحجاج بمقابلتهم لغلبناهم».

وكان موته ذا عبرة أيضاً حيث أصيب بمرض شديد فكان يصرخ بشدّة من الألم حيث كانت تسيطر عليه برودة شديدة فيضعون قربه ظروفاً مملوءة بالنار حتى كان يحترق جلده وهو يرتعش من البرد.

نعم، لقد احترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة، توفى فى الرابعة والخمسين من عمره عام ۹۵ ه فإلى جهنّم وبئس المصير.[۲۰۳]

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۰۵

الخطبة[۲۰۴] المأة و سبعة عشرة

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام

يُوبّخ البخلاء بالمال والنفس

نظرة إلى الخطبة

يبدوا أنّ هذه الخطبة القصيرة هى جزء من خطبة طويلة فصلها المرحوم السيد الرضى، ومن هنا لم يتضح سبب ورودها ولا أقسامها الأولى: والآخرة، مع ذلك فهى تشتمل على عبارات مؤثرة ومعبّرة رغم قصرها.

ويستفاد من بعض المصادر[۲۰۵] أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه العبارات ضمن خطبة فى نهاية معركة صفين فهى تناسب تلك الأجواء تماماً.

على كل حال فانّ الإمام عليه السلام عرض بالذم المخاطبيه الذين يسحّون فى بذل الأموال والأنفس فى سبيل اللّه سبحانه وتعالى فقال لهم اعتبروا بتاريخ أسلافكم واتعظوا بحياتهم كيف تركوا كل شيء وارتحلوا عنه.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۰۷

«فَلَا أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِی رَزَقَهَا، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِی خَلَقَهَا.

تَكْرُمُونَ بِاللَّهِ عَلَی عِبَادِهِ، وَلا تُكْرِمُونَ اللَّهَ فِی عِبَادِهِ! فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ».

الشرح والتفسير

الفكر والاعتبار

إستهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بذمّ طائفة من أصحابه وهو يعتب عليهم ويوبخهم فقال:

«فَلَا أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِی رَزَقَهَا، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِی خَلَقَهَا».

فالواقع هو أنّ اللَّه تبارك وتعالى خالق الأنفس هو المالك الأصلى لهذه الأموال، وهذه الأموال والأنفس أمانة استودعها اللَّه سبحانه الناس مدّة من الزمان، وإلّا أنّكم أخلدتم إليها وإلتصقتم بها وكأنّكم أنتم المالك الأصلى والخالق لها، وهذا قمة الجهل بالواقع، فالعبارة تبدو متناسبة تماماً وإلقاء هذا الكلام بعد معركة صفين، حيث كانت هناك فئة فى جيش الإمام عليه السلام لم تكن مستعدة للمخاطرة بأرواحها دفاعاً عن الحق ولم تكن حاضرة لبذل ما فى أيديها من أموال لتجهيز جند الإسلام.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

«تَكْرُمُونَ ۲۰۶] بِاللَّهِ عَلَی عِبَادِهِ، وَلا تُكْرِمُونَ اللَّهَ فِی عِبَادِهِ!».

حقاً إنّ هذا الإزدواج لشيء عجيب فى أن يتوقع الإنسان أن يعزّه ويكرمه الناس على أنّه عبد من عباد اللَّه، بينما لا يكرم أى من عبيد اللَّه سبحانه، فهو لا ينفق شيئاً من ماله ولا يضحى

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۰۸

بنفسه من أجل الوقوف بوجه الظالم ونصرة المظلوم.

ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه بتحذيرهم وضرورة الاعتبار بمن سبقهم حيث سيجرى عليهم نفس الحكم، وإن كانوا رحلوا فسترحلون ويأتى قوم آخرين يسكنون مساكنكم كما سكنتم منازل من كان قبلكم كما عليهم الإتعاظ بانفصام عرى القرابة حتى مع أقرب إخوانكم، فقد رأيتم بأعينكم ذهاب بعض أعزتكم وقريباً ما تلحقون بهم:

«فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ».

فهذا دليل آخر على أنّ كافة الأموال والأنفس ودائع وهى مخلوقة جميعاً للّه، وأنّه سبحانه يداول هذه الأموال والمساكن والمناصب بين الناس إلى أجل مسمى، والتاريخ أعظم شاهد على هذا الأمر.

فلسنا أول من وطأنا هذا العالم، ولسنا بأخر من يغادره، إننا حلقة صغيرة ضمن هذه السلسلة الطويلة الممتدة منذ بداية الخليقة حتى نهاية العالم، فمن الغفلة ألا نرى الحلقات السابقة واللاحقة، فلا نعرف موقعنا فى هذا العالم ونرى هذه الدنيا خالدة دائمة لنا.

وزبدة الكلام فانّ الإمام عليه السلام كشف النقاب عن المكنون بهذه العبارات بما يوقظ النائم الغافل ويقض مضجع من يشهد سكر المال والمقام والجاه.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۰۹

الخطبهٔ[۲۰۷] المأهٔ و ثامنهٔ عشرهٔ

اشارهٔ

وَمِنْ کَلام لهُ علیه السلام

فی الصالحین من أصحابه

نظرهٔ إلی الخطبهٔ

کما ذکر فی سند هذه الخطبهٔ فقد صرّح بعض شرّاح نهج البلاغهٔ أنّ الإمام علیه السلام أورد هذا الکلام بعد معرکهٔ الجمل، حیث کان أصحاب الإمام علیه السلام وحدهٔ واحدهٔ وصفوف متراصهٔ مطیعهٔ لأوامره وتوجیهاته فحققوا نصراً سریعاً باهراً بعد أن قضوا بکل شجاعهٔ وبسالهٔ علی فلول العدو وأخمدوا نار الفتنهٔ.

فقد أثنی الإمام علیه السلام علیهم بهذه العبارات البلیغهٔ القصیرهٔ، ثم أوصاهم بمواصلهٔ السیر علی هذا النهج، وأخیراً إختتم خطبته بإشارهٔ عابرهٔ إلی مقام ولایته

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۱۱۱

«أَنْتُمُ الْأَنْصارُ عَلَی الْحَقّ، وَالْإِخْوَانُ فِی الدّینِ، وَالْجُنَنُ یَوْمَ الْبَأْسِ، وَالْبِطَانَهُ دُونَ النَّاسِ. بِکُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَهَ الْمُقْبِلِ. فَأَعِینُونِی بِمُنَاصَحَهٍ خَلِیَّهٍ مِنَ الْغِشّ، سَلِیمَهٍ مِنَ الرَّیْبِ. فَواللَّهِ إِنّی لَأَوْلَی النَّاسِ بِالنَّاسِ!».

الشرح والتفسیر

الأصحاب الأوفیاء

شحنت أغلب خطب نهج البلاغهٔ بالذم الشدید بالنسبهٔ لطائفهٔ من أصحاب الإمام علیه السلام خاصهٔ بعد معرکهٔ صفین علی ما أبدوه من ضعف وفرقهٔ وغدر فی میدان المعرکهٔ، لکن فی هذه الخطبهٔ التی وردت بعد معرکهٔ الجمل، فانّ الإمام علیه السلام یعرض بالمدح والثناء البلیغ علی أصحابه الأوفیاء، ویدل هذا بوضوح علی أنّ الإمام علیه السلام کان علی الدوام یحث المحسنین من أصحابه ویرغبهم فی الأعمال الصالحهٔ، کما کان یذم المسیئین منهم، لیخلص الفریق الأول فی عمله ویلتصق به، ویرعوی الفریق الثانی ویهم بإصلاح نفسه، فقد خاطب الإمام الصالحین من صحبه بأربع عبارات:

«أَنْتُمُ الْأَنْصَارُ عَلَی الْحَقّ، وَالْإِخْوَانُ فِی الدّینِ، وَالْجُنَنُ ۲۰۸] یَوْمَ الْبَأْسِ، وَالْبِطَانَهُ[۲۰۹] دُونَ النَّاسِ».

نعم، أنتم إخوانی فی الدین وقد أثبتم عدم تقصیرکم فی نصرهٔ الحق، تقفون بکل شموخ فی میادین القتل بوجه الأعداء، إلی جانب ذلک فأنتم ثقهٔ فی حفظ الأسرار المتعلقهٔ بالحرب والسلام.

ثم قال علیه السلام:

«بِکُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَهَ الْمُقْبِلِ».

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۱۱۲

إشارهٔ إلی أنّ الناس علی صنفین: صنف أدار ظهره للحق وهبّ لمقارعته ولا سبیل هناک سوی التصدی له والوقوف بوجهه، وأنتم الأنصار فی هذا القتال، وصنف آخر أقبل علی الحق ولکن لا یتمتع بالمعرفهٔ اللازمهٔ والطاعهٔ الکافیهٔ، وسأعمل علی تربیتهم بواسطتکم لکی ینقادوا للّهویطیعوه.

والخلاصهٔ: فأنتم أنصاری فی مقاتلهٔ العدو وکذلک فی المجال الفکری تجاه الصدیق، ثم نصح علیه السلام صحبه الأوفیاء بعبارتین

عميقتين المعنى فقال:

«فَأَعِينُونِى بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ».

ففى العبارة إشارة إلى نقطة مهمّة وهى أنّ بطانة الأمراء ومشاورى الحكّام غالباً ما يقدمون مصالحهم الشخصية أو منافع قرابتهم ومن لهم علاقة بهم، ثم يعرضونها للحكّام على أساس إرادة الخير والخدمة، بل أحياناً يطرحون بعض الاقتراحات التى لا ـ يقتنعون بها أنفسهم وهذا ما يؤدّى بدوره إلى الإحباط والفشل فى أغلب الخطط، فالإمام عليه السلام يؤكد على أصحابه الإخلاص فى‌ما يطرحونه من أراء واقتراحات وابعادها عن كل ما يشوبها وعدم الأخذ بنظر الاعتبار سوى الخير وصلاح دين الحق وعباد اللّه.

وأخيراً يختتم خطبته بهذه العبارة:

«فَواللَّهِ إِنّى لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!».

ولعل هذه العبارة دليل على العبارات السابقة، أى إنّى‌إن توقعت نصرتكم ووقوفكم إلى جانبى فذلك كونى ولى أمر الناس باذن اللّه، بل إنّى أولى بهم حتى من أنفسهم، وهذا ما ينبغى أن يجعلكم تشعرون بالرضى والسرور على إنّكم تسيرون خلف مثل هذا الإمام وتطيعون أوامره.

الثناء على الأصحاب

أثنى الإمام عليه السلام ثناءاً بليغاً على أصحابه بعد معركة الجمل، حيث استطاعوا بمدّة قياسية ومن خلال إتحادهم وصمودهم وقوّة إيمانهم من القضاء على قدرات العدو وإخماد نار الفتنة فى تلك المنطقة الإسلامية الحساسة (البصرة).

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۱۳

بينما توالت الخطب التى تعرض بالذمّ لطائفة أخرى من أصحابه، وذلك بعد معركة صفين التى انتهت بفشلهم بفعل اختلاف كلمتهم وضعفهم فى عقيدتهم وإرادتهم وعدم طاعتهم وإمتثالهم للأوامر، ولم يكن ذيك سوى فى اللحظات الأخيرة التى أوشك النصر فيها على‌التحقق والرسوخ، فذلك الثناء وهذا الذم يفيد أن كل ذلك يتمّ على أساس حساب تخطيط وليس هناك من تناقض فى الأمر، كما لم تطلق كلمة فى هذا المجال تتعارض والحكمة والمصلحة، الأمر الذى ربّما يلتبس على البعض الذين لا يعلمون بشأن وورد هذه الخطبة.

النقطة الأخرى هى أنّ الإمام عليه السلام عين فى هذا الكلام القصير وظيفة الامة تجاه الحكومة، فيجب عليها من جانب الوقوف من أجل استقطاب الأوفياء ودفع الحاقدين، ومن جانب آخر التمعن فى كافة الأنشطة السياسية والاجتماعية والعسكرية وإبداء المقترحات النافعة والانتقادات البناءة بهذا الخصوص.

ثم يشير فى آخر عبارة من هذه الخطبة إلى نقطة مهمّة وهى مسألة الولاية الإلهيّة، وهو الأمر الذى أكدّه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى خطبة الغدير حيث قال:

«أَلَستُ أَولى بِكُم مِنْ أَنفُسِكُم»

، فردّ المسلمون: بلى يا رسول اللّه، ثمّ قال صلى الله عليه و آله:

«مَنْ كُنتُ مَولاهُ فَهذا عَلِيٌّ مولُا»

.. هكذا قطع رسول اللّه صلى الله عليه و آله الأعذار على جميع من يتشبث بالحجج الواهية ويختلق الذرائع ليقول الولى هنا بمعنى الصديق.

والطريف فى الأمر أنّ العلّامة الأمينى صاحب كتاب الغدير قد نقل العبارة:

«أَلَستُ أَولى بِكُم مِنْ أَنفُسِكُم»

من أربعة وستين محدّثاً ومؤرخاً إسلامياً، وهذا ما يؤكد إتفاق الجميع على هذه العبارة[۲۱۰]، فالإمام عليه السلام ذكر هذه النقطة فى الخطبة وأقسم قائلًا:

«فَواللَّهِ إِنّى لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!».

من الواضح أنّ المراد من هذ العبارة هو أنّ أوامر الإمام المعصوم كأوامر اللَّه تبارك وتعالى مقدمة على رغبات الناس، وإن كانت هذه الأوامر تصبّ فى طريق مصالح المجتمع ومنافعه.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۱۵

الخطبة[۲۱۱] المأة و تاسعه عشرة

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام

وقد جمع الناس وحضهم على الجهاد فسكتوا مليّاً

نظرة إلى الخطبة

كما ورد فى سند الخطبة فانّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة إثر إحدى حملات معاوية وجيش الشام على أطراف العراق، فيعرض الإمام عليه السلام بالنقد اللاذع فى هذه الخطبة لذلك الصمت السلبى وعدم الإكتراث من قبل الناس تجاه تلك الأحداث المؤذية التى تضعف معنويات جند الإسلام وروحياتهم، وحين ردّ البعض على الإمام عليه السلام إن سرت سرنا معك، شدد الإمام عليه السلام من ذمّهم وتوبيخهم على أنّ وظيفة الإمام وزعيم الجماعة ليست فى أن يدفع بشخصه لإخماد أى تمرّد ومطاردة عدو وترك مركز الحكومة الإسلامية والتخلى عن مختلف وظائفه، فالإمام لابدّ أن يقوم بهذا العمل فى الأحداث الغاية فى الأهميّة ويترك لبعض الأمراء الصغار ممن دونه التعامل مع سائر الأحداث، فهذا أحد الاصول المسلمة للإدارة والإمرة وللأسف لم يكن أهل الكوفة على علم بذلك أو أنّهم لم يريدوا العلم بذلك.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۱۷

القسم الأول: المخلّفون الضعفاء والجهّال

«فَقَالَ عليه السلام: مَا بَالُكُمْ أَمُخْرَسُونَ أَنْتُمْ؟

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَالْمُؤْمِنِينَ، إنْ سِرْتَ سِرْنَا مَعَكَ.

فَقَالَ عليه السلام: مَا بَالُكُمْ! لَا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ! وَلَا هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ! أَفِى مِثْلِ هذَا يَنْبَغِى لِى أَنْ أَخْرُجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِى مِثْلِ هذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِى بَأْسِكُمْ، وَلَا يَنْبَغِى لِى أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمِصْرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَجِبَايَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ، وَالنَّظَرَ فِى حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِى كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ فِى الْجَفِيرِ الْفَارِغِ، وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِى، فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا. هذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْيُ السُّوءُ!».

الشرح والتفسير

حين بلغ الإمام عليه السلام هجوم أعوان معاوية على بعض المناطق الحدودية، جمع الناس وأمرهم بالحركة إلى الجهاد، لكن وكما ورد فى الخطبة المذكورة سكت الناس ولم يجيبوه، فامتعظ الإمام عليه السلام وتأثر شديداً فقال:

فَقَالَ علیه السلام: «مَا بَالُكَمْ أَمُخْرَسُونَ أَنْتُمْ؟

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَالْمُؤْمِنِينَ، إِنْ سِرْتَ سِرْنَا مَعَكَ».

فردّ علیهم الإمام بعنف بعدم التوفیق وبلوغ الهدف ۲۱۲]، فلا ینبغی للإمام الحرکة فی مثل تلک

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۱۸

الظروف:

«فَقَالَ علیه السلام: مَا بَالُكُمْ! لَا سُدّدْتُمْ ۲۱۳] لِرُشْدٍ! وَلَا هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ! أَفِي مِثْلِ هذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هذَا رَجُلُ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ».

فلم یکم متعارفاً فی أی مکان من الدنیا ولا عصر من العصور أن ینهض زعیم فرقة أو رئیس دولة بشخصه للتدخل فی حادثة صغیرة وبلبلة معینة، بل عادة ما یوجه لها أحد آمریه برفقة مجموعة من العناصر الشجاعة والوفیة من أجل إخماد الفتنة وحل النزاع، وذلک لأنّ التخلی عن مرکز الحکومة من شأنه أن یقود إلی عدّة مخاطر جانبیة، ومن هنا واصل الإمام کلامه قائلًا:

«وَلَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمِصْرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَجِبَايَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ[۲۱۴] أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ ۲۱۵] الْقِدْحِ ۲۱۶] فِي الْجَفِيرِ[۲۱۷] الْفَارِغِ ۲۱۸]».

فقد أشار الإمام علیه السلام بهذه العبارة إلی ستة جوانب تتضمن الوظائف المهمّة لرئیس الدولة یمکنها الإنهیار جمیعاً فیما إذا شغر مرکز الحکومة من ذلک الرئیس، وهی الاشراف علی الجند وأمور العسکر والجیش والحفاظ علی مرکز الدولة وحفظ بین مال المسلمین وجبایة الخراج والضرائب والقضاء بینهم والدفاع عن حقوق عنهم.

فمن البدیهی یمکن لرئیس الدولة أن یشخص بنفسه للتعامل مع الحوادث الضحمة ویهب لمواجهة العدو، أمّا فی غیرها من الحوادث ذات الطبیعة العادیة، فیمکن لغیره التعامل معها، وتشیر سیرة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه کان یشخص بنفسه الشریفة فی الغزوات المهمّة المصیریة، فیتزعم الجند، وکان ینصب بعض الأفراد فی الغزوات العادیة فیسلمه الرایة

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۱۹

ویوصیه ببعض التعالیم کما یوصی الجیش بطاعة أوامره، وهکذا کانت تحصل أغلب الغزوات فی تاریخ الإسلام والتی یصطلح علیها عادة بالسریة، غایة ما فی الأمر أنّ صحابة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله کانوا یأتمرون بأوامره بحیث یطیعونه فی کل ما یقول ولم یکن یرد علیه أحد بأن سرت سرنا معک.

نعم، صحیح لکل قسم مسؤول علی أساس تقسیم وتنظیم شؤون البلاد، لکن لا یخفی الدور الحیوی الذی یلعبه الرئیس المشرف علی اولئک المسؤولین فی تقدم الأعمال والنهوض بها قدماً، هذا الأمر واضح تماماً، بل هو من البدیهیات، لکن اولئک المتقاعسون المسلوبون الإرادة والضعاف الذین یتذرعون بمختلف الذرائع من أجل إجتناب مواجهة العدو فیشترطون شرطاً غایة فی البعد عن المنطق لخروجهم، وبعبارة أخری شرطهم هو تعلیق علی المحال، ویواصل الإمام علیه السلام کلامه من خلال تشبیه رائع لشخصه بقطب الرحا ومحورها والذی یفید ضرورة بقائه فی موضعه (بحیث تدور کل الأمور من خلاله) فان إبتعد هذا المحور عن مرکزه اختلت حرکة جمیع الأشیاء:

«وَإِنَّمَا أَنا قُطْبُ الرَّحَى، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ[۲۱۹] مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا».

فقد جرت العادة سابقاً علی الاستفادة من الرحی الیدویة أو المائیة والهوائیة من أجل طحن الحنطة والشعیر، وکانت بنیة هذه الآلیات بسیطة وواضحة، فقد کانت هناک حجرة ثابتة فی الأسفل وأخری تتحرک فی الأمام بواسطة حرکة الید أو ضغط الماء الذی یعبر من تحتها أو الریاح، وکان وسط الحجرین قطب یدور حول محوره الحجر لو کسر القطب لخرج الحجر عن مساره ووقع جانباً إلی جانب ذلک کان هناک جلد کبیر أو قطعة من القماش تبسط تحت الرحا لجمع الدقیق بسهولة، حیث إذا خرج الدقیق من وسط الحجرین

وقع عليه، ولو زال ذلك القطب والمحور الأصلى لوقفت الرحا عن الحركة ووقع الحجر على تلك القطعة من القماش أو الجلد وإضطراب.

هذا ما أشار إليه الإمام بقوله:

«اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا»

، إضافة إلى ذلك فانّ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۰

الشىء الذى يحرك الحجر فى الرحا هو ذلك الواقع فى وسط الحجر والذى يتصل من الأسفل بمحور أكبر يصب عليه الماء من جانب ويحركه، وهكذا يكون القطب عامل حركة وعامل تنظيم، وهذه هى منزلة الإمام والقائد.

وأخير يخلص الإمام إلى النتيجة صريحة بأنّ ذلك الاقتراح مرفوض تماماً فى أنّ يشخص بنفسه لإطفاء كل فتنة هنا وهناك تاركاً لمركز الحكومة:

«هذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْىُ السُّوءُ!».

حقاً أنّه لإقتراح فاشل بشهادة كل مدير ومسؤول له علم بهذه الأمور فى أنّ القائد لا ـ يفارق موقعه ومركز ثقله ومهامه سوى فى الحوادث المهمّة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۱

القسم الثانى: لولا رجآء الشهادة

اشارة

«وَاللَّهِ لَوْلَا رَجَائِى الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِى الْعَدُوَّ- وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِى لِقَاؤُهُ- لَقَرَّبْتُ رِكابِى ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ؛ طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ رَوَّاغِينَ. إِنَّهُ لَاغَنَاءَ فِى كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قِلَّةِ اجْتماعِ قُلُوبِكُمْ لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِى لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ».

الشرح والتفسير

شدد الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة من ذمّه وتوبيخه لأهل الكوفة وعين نقاط ضعفهم وأعرب عن يأسه وعدم أمله فى مستقبلهم وعاقبة أمرهم، فقال:

«وَاللَّهِ لَوْ لَا رَجَائِى الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِى الْعَدُوَّ- وَلَوْ قَدْ حُمَّ ۲۲۰] لِى لِقَاؤُهُ- لَقَرَّبْتُ رِكابِى ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ».

العبارة

«مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ»

، إشارة إلى مراده أننى لم آتى إليكم أبداً، فالعبارة أشبه بما ورد فى إحدى كلماته عليه السلام حين أقترح عليه عدم التسوية فى العطاء من بيت مال المسلمين، فقال عليه السلام:

«أَتَأْمُرُونِّى أنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللَّهِ لَاأَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِى السَّمَاءِ نَجْماً!»[۲۲۱].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۲

تطالعنا هنا ثلاثة أسئلة تطرح نفسها:

الأول: كيف قال الإمام عليه السلام لولا ـ رجائى الشهادة لما مكثت بينكم ولتركتكم، بينما ذكر سابقاً لا ـ ينبغى لى أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر فى حقوق المطالبين، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟

الثانى أنّ الإمام عليه السلام قد سمع بشارة رسول اللّه صلى الله عليه و آله له بالشهادة وكان يعلم أنّه سيقتل على يدى أشقى الآخرين عبدالرحمن بن ملجم، فكيف قال لولا رجائى الشهادة عند لقائى العدو؟

الثالث: كيف يستطيع الإمام عليه السلام التخلى عن إمامته وزعامته ويخرج من الناس؟

وللإجابة على السؤال الأول لابدّ من القول أن نيل فيض الشهادة كان يشكل أحد الأهداف المقدّسة للإمام عليه السلام فى بقائه وسط تلك الفئة ولا مانع من أن يكون له أهداف أخرى، حيث بين ائر تلك الأهداف فلم تعد هناك من حاجة لديه لذكرها هنا[۲۲۲].

ونقول فى الردّ على السؤال الثانى إنّ لقاء العدو يشتمل على مفهوم غاية فى السعة وإن بدى فى الوهلة الاولى يجسد مواجهة الخصم فى ساحة المعركة والذى يمثل جزءاً من ذلك اللقاء، ونعلم أنّ شهادة الإمام عليه السلام كانت أحد مصاديق ذلك.

وامّا السؤال الثالث: فيمكن الإجابة عليه بالقول بأنّ ترك فئة فاسدة لا يمكن إصلاحها لا يعنى التخلى عن وظائف الإمامة أبداً، بل يمكن للإمام عليه السلام أن يتّجه صوب جماعة أعظم إستعداداً، على غرار ما فعله رسول اللّه صلى الله عليه و آله حين هاجر من مكة إلى المدينة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بذكر الأدلّة التى تدعوه إلى عدم الإرتياح منهم ويبيّن لهم نقاط ضعفهم على أمل الإلتفات إلى أنفسهم فيهموا باصلاحها فقال:

«طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ ۲۲۳]

رَوَّاغِينَ ۲۲۴]».

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۱۲۳

فهذه الصفات الأربعة على درجة من القبح والبشاعة بحيث يكفى وجود واحدة منها فى فرد لتدعو للنفرة منه والابتعاد عنه، فضلًا عن اجتماعها جميعاً فيه، أى أنّ جلّ همّه الالتفات إلى المعايب والمثالب، بل يعطيها حجماً أكثر من واقعها فهو لا ينفك عن طرحها وتكرارها حتى شعر المقابل باليأس، فلا يرى الحق حتى يولى له ظهراً فتختلط حياته بالمكر والأسى، فكيف لرجل صالح أن يعيش وسط مثل هذه الفئة فضلًا عن الإمام المعصوم عليه السلام الزعيم للخلق والذى ليست أمامه من نتيجة لهذا الوضع المأساوى سوى الحزن والمعاناة، ومن هنا يرجو الإمام عليه السلام مفارقتهم والانفصال عنهم.

ثم أضاف الإمام عليه السلام بأنّه إلى جانب تلك العيوب الشخصية هناك عيب اجتماعى كبير فيهم والذى يتمثل بعدم جدوى كثرة عددهم مع قلّة اجتماع أفكارهم:

«إِنَّهُ لَاغَنَاءَ فِى كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قِلَّةِ اجْتَماعِ قُلُوبِكُمْ».

صحيح أنّ عددكم يبدو كثيراً فى الظاهر، ولكن حيث تغيب الوحدة التى ينبغى أن تجمع قلوبكم وتوحدها وحيث ينفرد كل بإرادته وقراره، فلم يعد هناك من خير يؤمل فيكم، أو بعبارة أخرى فانّ اجتماعكم الموتى وتجمعكم تجمع الوحشة.

ثم إختتم الإمام عليه السلام الخطبة بقوله أنّى قمت بوظيفتى تجاهكم:

«لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْواضِحِ الَّتى لَايَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ».

فالإمام عليه السلام أوضح بهذه العبارة حقيقة مفادها أنّى قلت لكم كل ما ينبغى قوله وأتممت عليكم الحجة وإن تمنيت الخروج عنكم ومفارقتكم فذلك لا ـ يعنى أنّى قصرت فى مقام بوظيفتى تجاهكم، ولكن لأسف إنّكم لستم بالأفراد للائقين الذين يسعكم الاستفادة من البرامج التربوية التى يطرحها مرشد ربّانى شفيق عليكم.

القلوب الواعية

أورد مؤرخ القرن الثالث المعروف أبو اسحاق الثقفى فى كتاب «الغارات» فى ذيل هذه الخطبة حين خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة قام

«جارية بن قدامة السعدى»

فقال:

«يا أَمِيرَالمُؤمِنِينَ لاأَعدَمَنا اللَّهُ نَفْسَکَ وَلا أَرانَا فِرَاقَکَ أَنَا لِهؤلاء القَومِ فَسَرِّحنِی إِلَیهِم».

نفحات الولاية ؛ ج۵ ؛ ص۱۲۴

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۴

فسّر الإمام عليه السلام لكلامه وأثنى عليه، من جانب آخر قام إليه

«وهب بن مسعود الخثعمى»

فقال:

«أَنَا لَهُم».

فأمر الإمام عليه السلام جارية أن يسير بألفين إلى البصرة والخثعمى بألفين إلى الكوفة، ثم أمرهما بتتبع بسر بن أبى ارطاة أينما وجدوه [۲۲۵].

والذى يستفاد من هذا البحث التاريخى:

أولًا: إنّ شدّة كلمات الإمام عليه السلام كان لها فى خاتمة المطاف الأثر البالغ فى بعض القلوب الواعية فاستعد أصحابها لمواجهة الأعداء.

ثانياً: يتضح أنّ هذه الخطبة قد وردت قبل المرحوم الرضى فى كتاب «الغارات».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۵

الخطبة[۲۲۶] المأة و عشرون

اشارة

وَمِنْ کَلامٍ لهُ عليه السلام

يذكر فضله ويعظ الناس

نظرة إلى الخطبة

بداية الكلمات إشارة إلى وجود أبواب الحكم وكنوز العلم لدى أهل البيت عليهم السلام الذين تعلموا من رسول اللّه صلى الله عليه و آله تبليغ الرسالة وتفسير كلمات اللّه سبحانه وتعالى، ثم خاض الإمام فى إسداء مواعظه ونصائحه النافعة وحذر الناس فى ضرورة الاعتبار بالآخرين والخوف من نار جهنّم وأن يعملوا ما يجعل الناس يذكرونهم بكل خير بعد إيمانهم، فالسمعة الحسنة أفضل من الأموال تلحق الإنسان بعد وفاته، الأموال التى قد لا يعرف الورثة عادة قيمتها ولا يشكرون جامعها.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۷

«تَاللَّهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ.

وَعِنْدَنَا- أَهْلَ الْبَيْتِ- أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ. أَلَا وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَبِها لَحِقَ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ.

إِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ. وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ. وَاتَّقُوا ناراً حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ. أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ».

الشرح والتفسير

المواعظ القيمة

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن العلوم التى تعلمها من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال:

«تَاللَّهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ».

المراد بتبليغ الرسالات أساليب نشر المعارف الإسلامية وأحكام الدين بمختلف الطرق وايصالها إلى الناس، إشارة إلى أنّى لم أتعلم الرسالات الإلهيّة فحسب، بل تعلمت من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله طرق التبليغ، فكنت لا أنثنى فى هذا السبيل.

والمراد باتمام العدات «الوفاء بالعهود» تلك وعود اللَّه تبارك وتعالى بصورة عامّة بالنسبة لجميع المؤمنين والوعود بصورة خاصة بالنسبة له عليه السلام، كما ورد فى القرآن الكريم: «مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»[۲۲۷].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۲۸

يمكن أن يكون هذا الوعد الإلهى هو الوعد بالشهادة فى سبيل اللَّه، أو سائر الوعود من قبيل مقاتلة الناكثين والقاسطين والمارقين، أو غير ذلك.

والمراد بتمام الكلمات يمكن أن يكون إشارة إلى تفسير آيات القرآن وتفسير كلمات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وتبيان وإكمال كافة الكلمات التى وصلت من الكتاب والسنّة.

كما يحتمل أن يكون المراد الإمام صلى الله عليه و آله أنّى أولى من جميع الأفراد بخلافة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وذلك لأنّى تعلمت طريق تبليغ الرسالة وتحقيق وعوده صلى الله عليه و آله وتفسير وتكميل كلماته، وعليه فإنّى أستطيع النهوض لمسؤولية الخلافة، وقد ورد فى الحديث النبوى الشريف أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام:

«أَنْتَ وَصِى وَأَخِى فِى الدُّنيا وَالآخِرةِ وَتَقضِى دَينِى وَتُنجِزُ عِداتِى»[۲۲۸].

الاحتمال الآخر الذى يمكن ذكره بالنسبة لهذه العبارة هو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقول أنا أولى بالخلافة، لأنّى أقدر على تبليغ جميع رسالات اللَّه سبحانه، كما أستطيع العمل بالوعود التى أقطعها وكذلك أتم ما أورده من كلمات وأحاديث.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالقول:

«وَعِنْدَنَا- أَهْلَ الْبَيْتِ- أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ».

والحكم بضم الحاء بمعنى الحكومةو القضاء، بناءاً على هذا فالمراد بالعبارة عندنا أهل البيت طرق تدبير الحكومة وإقامة العدل وبسط الأمن، والحكم بكسر الحاء وفتح الكاف جمع الحكمة بمعنى العلوم والمعارف، ولا شك ولا ريب أنّ لدى أهل البيت عليهم السلام أبواب الحكمة وكنوز العلم والمعرفة، كما قرنهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال فى حديث الثقلين المعروف:

«إِنِّى تارِكٌ فيكُم الثَّقَلَينِ كِتابَ اللَّهِ وَعِترَتِى»[۲۲۹].

ثم أورد الإمام عليه السلام خمس نصائح من شأنها نجاة العباد فى الدنيا والآخرة، وكأن العبارات الاولى لهذه الخطبة قد وردت لإعداد

القلوب من أجل تقبل هـذه النصائح ليقول أنّ كلامى يسـتند إلى علم عميق ودقيق بتعاليم الإسـلام وتعاليم النبى صـلى الله عليه و آله، فكانت النصحيهٔ الاولى مسألهٔ الإتحاد ووحدهٔ الكلمهٔ وذلك لأنّ الاختلاف آفات سعادهٔ الإنسان، فقال:

«أَلَا وإِنَ

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۲۹

شَرَائِعَ الدّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَبِها لَحِقَ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ».

المقصود بشـرائع الـدين كافهٔ التعليمات التى صـرّح بها الدين الحنيف بما فيها المعارف والعقائد والقوانين والوصايا والأمور الأخلاقيهٔ، فجـذروها واحدهٔ فى جميع الأديان السـماويهٔ وإن إقتضت الظروف الزمانيهٔ والتطور البشـرى أن يكون هناك بعض الاختلاف شـرحها وتفصيلها وتنوع فروعها.

كما يحتمل أن يكون المراد بشـرائع الـدين مختلف الطرق إلى اللّه سـبحانه فى الدين الإسـلامى والتى تنتهى جميعاً إلى طريق رئيسـى واحـد وهو القرب إلى اللّه والسـعادهٔ المطلقـهٔ للبشـر، فالصـلاهٔ الصوم والجهـاد والحـج والزكـاهٔ وكافـهٔ مثل هـذه التعليمات إلى جانب التعاليم العقائديـهٔ والأخلاقيـهٔ تتصل وتنتهى بنقطـهٔ واحـدهٔ ويؤكـد عليه السـلام على أنّ بلوغ السبيل سـهل وواضـح وقريب، وعليه فانّ الفرقهٔ والاختلاف إنّها تحصل من مزج الأفكار الباطلهٔ والأهواء ووساوس النفس والشـيطان بشـرائع الدين، فقال تعالى فى كتابه العزيز: «شَـرَعَ لَكُمْ مِنْ الـدِّينِ مَـا وَصَّى بِهِ نُوحـاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ وَمَـا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَـى وَعِيسَـى أَنْ أَقِيمُوا الـدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...»[۲۳۰].

وقال عليه السلام فى الموعظهٔ الثانيهٔ:

«إِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ».

العبارهٔ الاولى إشارهٔ إلى الآيهٔ الشريفهٔ: «مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ...»[۲۳۱].

والعبارهٔ الثانيهٔ إشارهٔ إلى الآيهٔ القرآنيهٔ:

«يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ»[۲۳۲].

من البـديهى أنّ للإنسان قـدرهٔ محدودهٔ ينبغى توظيفها فى أفضل سبيل، فالعقل يقول: لم تسـتهلك طاقتك فى طريق لا يدوم أكثر من أيّام، لم لاـ تسـتهلكها فى سبيـل يرافقك على الـدوام ويخلـد فيه معك، أضف إلى ذلك يوم تبلى فيه السـرائر وكافـهٔ أعمال الإنسان الخفيهٔ، فهو يوم عصيب وفضيحهٔ بالنسبهٔ للطالحين.

وقال عليه السلام: فى عظته الثالثهٔ:

«وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ ۲۳۳] عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُأَعْوَزُ[۲۳۴]».

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۱۳۰

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السـلام أراد بهـذه العبارهٔ مزج الأدلهٔ العقليهٔ بالنقليهٔ وتعبئهٔ الجميع من أجل متابعهٔ سبيل الحق، وقد قال الإمام عليه السـلام هنـا ثلاثـهٔ أنواع لعقـل هى: العقل الحاضـر والبعيـد والغائب، يمكن أن يكون الأول إشارهٔ إلى المسائل العقليـهٔ الواضـحهٔ، والثـانى إلى المطـالب النظريـهٔ التى يبلغهـا الإنسـان من خلال الطرق الاسـتدلاليهٔ الواضـحهٔ، و الأخير إشارهٔ إلى المواضع المعقـدهٔ التى يتعـذر التوصل إليها من خلال الـدليل والبرهان، فمن البديهى أن يتعذر إدراك المطالب النظريهٔ والمعقدهٔ والبعيدهٔ عن الفكر على من لا يستفيد من المسائل الفكريهٔ البسيطهٔ.

ففى المسائل النظريـهٔ تتضـح تماماً معرفهٔ اللّه يوم القيامهٔ (بالمبدأ والمعاد)، وذلـك لأنّ آياته قد ملأت جميع العالم، والقيامهٔ التى تمثل محكمته العادلـهٔ ثابتـهٔ بحكم العقل، وفى المسائل العلميـهٔ فانّ حسن العـدل وقبـح الظلم ومـدح الصدق والوفاء والعفهٔ والورع والتقوى مسـلم للجميع، ولكن قد يحول التعصب الأعمى وأهواء الإنسان دون الوقوف على هذه الأمور الواضحهٔ، فأنى لمثل هذا الفرد أن يبدى

رأيه فى المسائل النظرية والمعقدة ويبلغ الهدف المطلوب.

ثم خاطب الإمام عليه السلام الناس فى المواعظة الرابعة بصفته منذر عالم فقال:

«وَاتَّقُوا ناراً حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ[۲۳۵]».

والعبارات البليغة التى أوردها الإمام عليه السلام بشأن نار جهنم والتى تكفى كل واحدة منها لصد الإنسان عن الذنب إنّما اقتبست من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فقد جاء فى الآية:

«قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً ...»[۲۳۶].

وجاء فى أخرى: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ...»[۲۳۷].

يعنى أنّها على قدر من الكبر والسعة بحيث لا تمتلىء بسهولة، وجاء فى أية أخرى: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ»[۲۳۸].

وجاء فى آية أخرى: «مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ»[۲۳۹]، قطعاً من يؤمن

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳۱

بالآخرة ومحكمة العدل الإلهى وشىء من العذاب الأليم، فانّه يتحكم ويسيطر على أهوائه ويجتنب الظلم والجور ولا يقارف الذنب والمعصية، أمّا اولئك الذين ليس لهم من إيمان بهذه الأمور ولا يعتقدون بالحساب والكتاب والثواب والعقاب، فليس هناك ما يدعوه إلى السيطرة على أهواءه وكفّ الأذى عن الآخرين وعدم التعرض لحقوقهم.

نعم، يمكن للضمير أن يجد من هوس الأفراد إلى حدود معينة، لكن من اليقين أن ليس لذلك من بعد عمومى وشامل، وتأثيره يبقى متواضعاً، أضف إلى ذلك فانّ نبتة الضمير تذبل وتجف وتموت ما لم تسق بماء تعاليم الأنبياء عليهم السلام.

أمّا الموعظة الأخيرة والخامسة فقد أشار إلى نقطة مهمّة جدّاً فقال:

«أَلَا وَإِنَّ اللّسانِ الصّالِحِ يَجعَلُهُ اللَّهُ تَعلى لِلمرءِ فِى النّاسِ، خَيرٌ لَهُ مِنَ المَالِ يُرِثُهُ مَنْ لَايَحْمَدُهُ».

إنّ أغلب الناس وبدافع حبّهم لأولادهم وأزواجهم يبذلون قصارى جهدهم من أجل ضمان مستقبلهم ويفنون جانب عظمياً من أعمارهم فى هذا المجال حتى أنّهم يخلطون أحياناً الحلال بالحرام، لكنّهم يغفلون عن قضية مهمّة دلّت عليها التجربة أنّه قلّما نجد وارثاً يحمد من ورثه على ما خلفه لهم من ميراث، بل غالباً ما تكون الأموال الموروثة مصدراً للشقاق والاختلاف والنزاع، ولا غرو فكل فرد يسعى لأن يحصل لنفسه على السهم الأوفى، حتى قيل موت الغنى بداية قتال الفقير.

بل قد يتجاوز الأمر ذلک لنشهد سبّ الوارث والتشنيع عليه والتعرض له بالذم من جراء ما خلفه من مشاكل بسبب الارث.

والحال لو تجاوز الإنسان وهو على قيد الحياة ذاته وأنفق قسماً من أمواله كصدقة جارية وخدمة إنسانية وثقافية يسديها إلى المجتمع لبقى ذكره الطيب بين الناس فلن ينسوه أبداً، ويثنون عليه دائماً ويسألون اللّه له المغفرة والرحمة، فهذا هو ثوابه فى الدنيا ولثواب الآخرة أعظم.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳۳

الخطبة[۲۴۰] المأة والحادى العشرون

اشارة

مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام

بعد ليلة الهرير

وَقَدْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: الْأَمْرَيْنِ أَرْشَدُ؟ فَصَفَّقَ عليه السلام إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى ثُمَّ قَالَ:

نظرة إلى الخطبة

لابدّ من الالتفات إلى مناسبة وورد الخطبة من أجل الوقوف على عمق محتواها ومضمونها، فهذا الكلام يرتبط بمعركة صفين حين نهى الإمام عليه السلام الناس عن قبول التسليم للتحكيم، ثم دعاهم إلى قبوله، والمعروف بهذا الشأن أنّ عمرو بن العاص فكر بخدعة حين شارف جيش الشام على الهزيمة، فأمر برفع المصاحف ووضعها على أسنة الرماح، ثم دعى أصحاب على عليه السلام إلى تحكيم القرآن، فانخدع لذلک الكثير من السذج من أصحاب على عليه السلام فكفوا عن القتال واستجابوا لطلب أهل الشام، ثم أصروا على تحكيم القرآن بشأن مصير

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳۴

المعركة فى أن ينهض حكم من جيش الإمام عليه السلام وآخر من جيش معاوية، وبلغ بهم الأمر أن هددوا الإمام قائلين: «إن لم تفعل قتلناک كما قتلنا عثمان».

الإمام كان يعلم بأنّ تلک مصيدة خطيرة كمنت فى طريقهم ورغم مخالفته لهذا العمل، وإصراره على مواصلة القتال، غير أنّه اجبر على التسليم للتحكيم، وهذا ما دفع بالبعض للإعتراض على الإمام على عليه السلام، وفحوى اعتراضهم إنّک نهيتنا عن التحكيم، واليوم تأمرنا به؟

فالخطبة ردّ على هذا الاعتراض وقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدّة أمور فى إطار الجواب فقال أولًا: هذه نتيجة طبيعية لفعلكم وعدم تبعيتكم لإمامكم، فلو عملتم بما أمرتكم به وواصلتم القتال لما أصبحتم اليوم تعانون من هذه المشكلة، ثم بيّن الإمام نقاط ضعفهم التى أدّت إلى هذه المشكلة الكبيرة وفى المرحلة الثالثة ذكر طائفة من أوائل المسلمين فى صدر الإسلام كانت تهب مسرعة لتلبية نداء الجهاد ومواجهة العدو بفعل قوّة إيمانها، فكانت تنتصر دائماً (إشارة إلى أن طريق النصر ما سلكوه، لا ما أنتم عليه).

وأخيراً يعرض لهم بالنصح ثانية فى مراقبة أنفسهم والحذر من مصائد الشيطان.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳۵

القسم الأول: الداء وليس الدواء

«هذَا جَزَاءُ مَن تَرَکَ الْعُقْدَةَ! أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنِّى حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِى يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِن اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى وَلكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ؟ أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِىَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِى، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا! اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هذَا الدَّاءِ الدَّوِىِّ، وَكَلَّتِ النَّزَعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِىِّ!».

الشرح والتفسير

ردّ الإمام عليه السلام بجواب قاطع على من اعترض عليه فى أنّ هذه المصيبة التى عصفت بكم إنّما أفرزها التحكيم وهذا جزاء من ترک الرأى السليم:

«هذَا جَزَاءُ مَن تَرَکَ الْعُقْدَةَ[۲۴۱]!».

لقد صرخت بكم أن واصلوا القتال ولا تتركوه فى هذه المرحلة الحساسة فالنصر قريب، لكنكم وليتم ظهوركم واستسلمتم لخدعة عمرو بن العاص، فأبيتم إلّاالتحكيم، كان مكر ابن العاص فى رفع المصاحف خدعة ظاهرها الإيمان وباطنها الكفر والنفاق على ضوء ما أخبر به الإمام عليه السلام فى الخطبة القادمة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وقد أقسم باللَّه لو أجبرتكم على الجهاد- والذى لم يكن يروق لكم بينما فيه الخير الكثير- حين

أمرتكم بقبول التحكيم (بفعل الاضطرار واصرار الجهّال) لكان خيراً لكم، فان سلكتم سبيل الحق هديتكم وإن انحرفتم أعدتكم إلى الصواب، ولو

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳۶

تخلفت طائفة منكم لاستبدلتها بأخرى (على كل حال لو أطعتمونى فى مواصلة القتال) وهذا هو الحق الذى ليس بعده إلّاالضلال، لكن من المؤسف إنّكم لم تجيبونى، فبمن استظهر على العدو وبمن أثق؟

«أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُم بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِى يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى وَلكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ؟».

فالإمام عليه السلام قد بيّن بهذا الردّ القاطع حقيقة فى أنّ نيّتى مواصلة الجهاد حتى تحقيق النصر، سيّما أننا على أعتاب النصر، وكنت مستعداً لمواصلة هذا الطريق بكل قوّة وعزم، ولذلك نهيتكم عن التحكيم، لكنكم أفراد ضعاف لا ـ إرادة لكم وطغاة عصاة لستم مستعدين للقيام بهذا العمل، وعليه فلم يكن لى من سبيل سوى قبول التحكيم، والحال رجعتم الآن عن رأيكم وسوّلت لكم أنفسكم الاعتراض عليّ.

ثم أعرب الإمام عليه السلام عن دهشته فقال:

«أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا[۲۴۲] مَعَهَا!».

فالتشبيه المأخوذ من المثل المعروف تشبيه غاية فى الدقة والبلاغة، فعادة ما يخرجون الشوكة التى تغوص فى الرجل بإبرة أو منقاش، فان اريد سلّها بشوكة أخرى احتمل أن تغوص الثانية فى‌الرجل أيضاً، فيزيد الطين بلّة حتى أصبح الأمر بصيغة مثل تعارف عند العرب حيث يقول:

«كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا».

فالمثل يصرب لمن يحكم آخر لرفع الاختلاف بينه وبين شخص آخر والحال يرغب ذلك الفرد بزيادة العداوة والنزاع، فمراد الإمام عليه السلام إنّى اريد أن أدفع بكم عصاة الشام بينما أنتم العصاة الذين يجب تأديبهم، على كل حال، فانّ هذه العبارات التى تفيض معاناة تفيد مدى الوضع العصيب الذى شهده الإمام عليه السلام، فانّ أمرهم بالهجوم ومواصلة القتال خالفوه وقالوا: عليك بالنزول لحكم القرآن، وإن طرح عليهم قضية التحكيم اعترضوا عليه بالقول: لم تسلّم لمنطق العدو؟ فلكل هواه ورأيه، ولكل فكره ونهجه، بحيث انتهى بهم الأمر إلى إتهام أعظم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳۷

إمام خلف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على أنّه ضعيف فى‌التدبير، وليس ذلك إلّابسبب وجود فئة سيئة من الأتباع الضعاف، لم وكيف أصبح الأمر كذلك؟ كأنّ الحق سبحانه أراد امتحان الجميع بهذا الزعيم الفذ.

وأخيراً شكى الإمام وعرض حاجته إلى اللَّه سبحانه فقال: «اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هذَا الدَّاءِ[۲۴۳] الدَّوِيِّ، وَكَلَّتِ ۲۴۴] النَّزَعَةُ[۲۴۵] بِأَشْطَانِ ۲۴۶] الرَّكِيِ ۲۴۷]!».

ياله من تعبير بليغ وموجع فى نفس الوقت، فان أصيب شخص بمرض عضال ولم يجد معه نفعاً كل علاج يقدمه الطبيب المختص، فلا يشعر مثل هذا الطبيب سوى بالملل والإرهاق، على غرار الفلّاح الذى يجهد نفسه فى استخراج الماء من البئر ليسقى به الأرض المالحة فلا تخرج بالنبات، وهذا بالضبط حال الإمام على عليه السلام حين إبتلى بتلك العصابة من الجهّال المسلوبة الإيمان والإرادة لا خير يرتجى فيهم.

ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ عيسى بن مريم عليه السلام قال:

«دَاوَيتُ المَرضى فَشَفَيتُهُم بِاذن اللّهِ وأبرأتُ الأكمَهَ والأبرصَ بإذنِ اللّهِ وعالَجتُ المَوتى فأحييتُهم بإذن اللّهُ وَعَالَجتُ الأَحمَقَ فَلَم أَقدَرْ

عَلى إصلاحِهِ»[۲۴۸].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۳۹

القسم الثانى: إخوتى فى الجهاد

«أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَام فَقَبِلُوهُ، وَقَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً، وَصَفّاً صَفّاً. بَعْضٌ هَلَكَ، وَبَعْضٌ نَجَا. لَايُبَشَّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى القتلى. مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ، خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَام، ذُبُلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ. عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ. أُولئِكَ إِخْوَانِى الذَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ الْأَيْدِىَ عَلَى فِرَاقِهِمْ».

الشرح والتفسير

ذكر الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة أصحابه الشجعان من أهل الإيمان بهدف إثارة قدراتهم وقواهم وحثّهم على الجهاد، كما ذمّهم على ضعفهم وتقصيرهم، أصحابه الذين تألقوا فى ساحات الحرب حين قتالهم للأعداء وكذلك فى ميدان الطاعة والعبودية حيث كانوا سبّاقين فى هذه الميادين فقد قال:

«أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَام فَقَبِلُوهُ، وَقَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا[۲۴۹] إِلَى الْجِهَادِ فَوَلِهُوا[۲۵۰] وَلَهَ اللِّقَاحِ ۲۵۱] إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا[۲۵۲]، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً[۲۵۳]، وَصَفّاً صَفّاً. بَعْضٌ هَلَكَ، وَبَعْضٌ نَجَا».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۰

دقيقة هى الأوصاف التى أوردها الإمام عليه السلام فى هذه العبارة لهم، فقد إبتدأها بالإيمان بالإسلام والفهم والإدراك الصحيح للقرآن والعمل به والذى الدافع الرئيسى للحركة نحو الجهاد، ومن ثم عشقهم للجهاد الذى يشبه بعشق الام لولدها وولهها إليه، ويثنى على شجاعتهم حيث لم يفكروا قط فى إغماد سيوفهم والتراجع عن الجهاد، وأخيراً مدح مدى حركتهم الجماعية- والذين كانوا يحضرون فى الميدان فى أى موضع كانوا- والحق من يتحلى بهذه الصفات، فهو منتصر على الدوام.

ثم واصل الكلام بالحديث عن سائر صفاتهم حيث يكشف النقاب عن علوّ معنوياتهم ومدى زهدهم وخضوعهم وخشوعهم للّه‌تبارك وتعالى فقال: «لَا يُبَشَّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى .

وهذه علامة علو روحيتهم حيث لم يكونوا بفكر قيود الحياة المادية، بحيث ينزعجون لفقد الأحبة أو يهنى أحدهم الآخر على البقاء على قيد الحياة، إنّهم يفخرون بالشهادة فى سبيل اللّه سبحانه ويرونها حلمهم فى نيل السعادة الاخروية، ومن صفاتهم أيضاً:

«مُرْهُ ۲۵۴] الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ، خُمْصُ ۲۵۵] الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَام، ذُبُلُ ۲۵۶] الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ[۲۵۷] الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ[۲۵۸]. عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ».

نعم، فهم فى ساحات المعارك يزأرون كالأسد، وإن جن عليهم الليل ارتفعت أصواتهم بالنحيب والبكاء وجرت دموعهم على خدهم، هكذا هم فى الحالين.

ثم خلص الإمام عليه السلام بعد ذلك إلى الدرس والعبرة التى ينبغى الاحتذاء بها فقال:

«أُولئِكَ إِخْوَانِى الذَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ الْأَيْدِىَ عَلَى فِرَاقِهِمْ».

لقد جرت عادة أرباب التربية على الاستشهاد بالنماذج البارزة القيّمة من أجل تهذيب الأفراد المطلوب تربيتهم ليتمكنوا من مقارنة أنفسهم بتلك النماذج فيحذو حذوهم، يقفون

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۱

على أخطائهم فيهمون بتداركها وإصلاح أنفسهم، وهذا هو الاسلوب الذى إعتمده الإمام عليه السلام فى إطار تربيته للأفراد، ولكن

وللأسف لم يكن اولئك الأفراد آنذاك مستعدين لتقبل نصائحه ووصاياه وبرامجه التربوية، وبالطبع لا فائدة لأىمربّ ومعلم مهما كان بصيراً ومشفقاً ونموذجاً ما لم يكن هناك من إستعداد فى الطرف المقابل لتقبل أفكاره والاستجابة لها، فالأمطار المفعمة بالحياة والخير والبركة تنزل على كل مكان، ولكن لا تخرج الأرض المالحة إلّا الخبث ولا يسعها الاستفادة من تلك الأمطار، والشمس هى الأخرى تضيىء لكل ذى عينين، ولكن ماذا يسع الأعمى أن يرى منها، والرياح المنعشة تهب فى كل مكان ولكن لا تنتفع بها قبور الموتى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۳

القسم الثالث: الحذار من وساوس الشيطان

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّى لَكُمْ طُرُقَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ. فَاصْدِقُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ».

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن الشيطان كون وساوسه تمثل مصدر البؤس والشقاء، حيث حذر صحبه ومخاطبيه من هذا المكر وضرورة مراقبة الشيطان والإلتفات إلى طرق نفوذه، وقد بيّن ذلك على شكل خلاصة بأربع عبارات فقال:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّى ۲۵۹] لَكُمْ طُرُقَهُ».

ولما كان الشيطان يتبع الأساليب السياسية شيئاً فشيئاً فانّه يسعى لتقويض جموح الدين والقضاء على العقائد والأعمال الواحدة بعد الأخرى:

«وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً»

، من ضمن برامجه وخططه أيضاً إيجاد الفرقة بدلًا من الإتحاد:

«وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ»

، فيثير الفتن بواسطة هذه الفرقة:

«وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ».

أجل أول برنامج للشيطان أن يبدى الطرق الوعرة والخطيرة معبدة سهلة فى نظر الإنسان، فيستقطب إليه الجميع من خلال المرونة والتساهل وتصوير طريق الطاعة على أنّه معقد خطير وصعب، فانّ سلك سبيله واتّبعه قاده كل يوم إلى ترك قانون من قوانين الشرع وعهد

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۴

من عهوده المقدّسة، وهو الأمر الذى أكده القرآن الكريم أربع مرّات محذراً من اتّباع الشيطان:

«وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ...»[۲۶۰].

وقال تعالى: «وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ...»[۲۶۱].

فان جعل الإنسان غير مكترث للأحكام الإلهيّة وسادت المجتمع الأهواء، آنذاك يستفيد من تضارب المصالح المادية والتعصبات الجاهلية ليدعو الناس إلى الفرقة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ...»[۲۶۲].

ومن الطبيعى إن اشتعلت نيران الفرقة والاختلاف والنفاق فى المجتمع استتبع ذلك ظهور الفتن، وممّا لا شك فيه فانّ دين الأفراد ودنياهم تتحطم بفعل تلك الفتن، ولعل هذا هو الأمر الذى أجراه الشيطان فى أحدث معركة صفين، فقد لقنهم الشيطان بادىء الأمر

أن قبول التحكيم هو أسهل الطرق لبلوغ الصلح والاستقرار، ثم دعاهم للتمرد على أوامر المحكم أميرالمؤمنين على عليه السلام فى مجال الجهاد، آنذاك بث بذور الفرقة والنفاق بين صفوف الجيش حتى انتهى الأمر إلى فتنة عمرو بن العاص وأثرها فتنة الخوارج.

ثم قال الإمام عليه السلام بغية عدم سقوط أصحابه فى شباك الشيطان:

«فَاصْدِقُوا[۲۶۳] عَنْ نَزَغَاتِهِ ۲۶۴] وَنَفَثَاتِهِ ۲۶۵]، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوهَا[۲۶۶] عَلَى أَنْفُسِكُمْ».

ويصدق هذا الأمر فى عصرنا وزماننا، فالشيطان يرى طرقه المنحرفة سهلة وبسيطة بادىء الأمر، ويسحب الناس إليه، ثم يسلبهم القيم الإسلامية الواحدة بعد الأخرى، ثم يبث بينهم بذور الفرقة والخلاف، وأخيراً تقود الفرقة إلى اشتعال نيران الفتن السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۵

الخطبة[۲۶۷] والثانية والعشرون

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام

قاله للخوارِج، وقد خرج إلى معسكرهم و هم مقيمون

على إنكار الحكومة، فقال عليه السلام:

نظرة إلى الخطبة

كما ورد أعلاه فانّ هذه الخطبة جانب من حديث الإمام عليه السلام قبل معركة النهروان، ذكره الإمام حجّة عليهم، فكان لكلامه بالغ التأثير بحيث تاب أغلب الخوارج وتراجعوا عن القتال، فقد قسمهم الإمام عليه السلام بادىء الأمر إلى فئتين، وقد فرق بين صفوقهم، فئة شهدت صفين وأخرى لم تشهدها، وفى القسم الثانى ذكّر أصحاب الصفين بأنّكم أنتم من فرضتم علىَّ مسألة التحكيم، والحال كنت شديد المخالفة لذلك الأمر، وقد أمرتكم بمواصلة الجهاد حتى تحقيق النصر.

وفى القسم الثالث أشار إلى مسألة وهى إننا كنّا فى صدر الإسلام نقاتل قرابتنا حين كانوا فى معسكر الكفر من أجل نصر الدين، وأمّا الآن فالذى يقف فى المعسكر المقابل إخوتنا من

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۶

المسلمين الذين أخطأوا الطريق وقد اختلفت الظروف الشرائط، وعليه فانّ علينا أن ندفع الشبهة عنهم لتحل المشكلة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۴۷

القسم الأول: كيف وقعتم فى فخ العدو

اشارة

«أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ؟ فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ. قَالَ:

فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أُكَلِّمَ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ. وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ:

أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا.

ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عليه السلام بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عليه السلام:

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْىُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ: هذَاأَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ. فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِن تُرِكَ ذَلَّ. وَقَدْ كَانَتْ هذِهِ الفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا. وَاللَّهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلَا حَمَّلَنِيَ اللَّهُ ذَنْبَهَا. وَوَاللَّهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّى لَلْمُحِقُّ الَّذِى يُتَّبَعُ؛ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِى، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ:»

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فانّ المخاطب بهذه الخطبة هم خوارج النهروان الذين كلمهم الإمام عليه السلام بهذا الكلام لإتمام الحجّة عليهم وهداية وإرشاد الفئة الضالة المنخدعة، فقال بادىء الأمر من

أجل إعدادهم:

«أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ؟ فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ».

رغم أنّ المدّة بين معركة صفين ومقاتلة خوارج النهروان لم تكن طويلة، لكن لا يعلم كيف اتصلت الفئة الثانية التى لم تشهد صفين بالفئة الأولى الباغية، وربّما أثرت عليها وساوس الفئة الأولى سمومها التى بثّتها بين أهل الكوفة فجعلتها تلتحق بها وتقف معها فى مواقفها الفاسدة.

ثم قال عليه السلام:

«فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أُكَلِّمَ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ».

فالعبارة تفيد أنّ المخاطبين بحديث مهم إن لم يكونوا على مستوى واحد فانّ الفصاحة والبلاغة تقتضى تمييزهم عن بعضهم والتحدث لكل بما يتناسب ووضعه، ليكون للكلام أثره المرجو والمطلوب، ومن هنا سلك الإمام عليه السلام هذا النهج:

«وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِى، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ ۲۶۸] شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا».

فالذى يستفاد من هذه العبارة أنّ الخوارج أو جيش الإمام عليه السلام ممن حضر هناك، أو كلاهما، أنّهم كانوا مشغولين بالكلام مع بعضهم البعض الآخر، فقد دعاهم الإمام عليه السلام إلى الصمت والاستماع لما يقول والاقبال عليه بقلوبهم ليستعدوا للتفاعل مع الكلام، كما إختار من جمعهم بعض الشهود:

«ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عليه السلام بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أنْ قَالَ عليه السلام:»[۲۶۹].

فقد أخذ الإمام عليه السلام أيديهم إلى الماضى القريب وذكّرهم بكبر أخطائهم وعظم معصيتهم وتمردهم، ثم خاطب الفرقة التى شهدت صفين:

«أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً[۲۷۰]، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا[۲۷۱] وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْىُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ ۲۷۲] عَنْهُمْ؟».

بعد ذلك طرح الإمام عليه السلام ردّه على تلك الخدعة:

«فَقُلْتُ لَكُمْ: هذَاأَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ،

وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ».

وعليه:

«فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِن تُرِكَ ذَلَّ».

لكن مع الأسف فقد وقعت هذه الفتنة (التحكيم) ورأيتكم استجبتم لها، والآن قد ارتفع صوتكم بعد أن سقطتم فى الفتنة:

«وَقَدْ كَانَتْ هذِهِ الفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا».

حقّاً، إنّه لمن دواعى العجب! فقد عرضوا الإمام لأشد الضغوط فى اللحظات الأخيرة لتلك المعركة المصيرية والتى أشرفت على تحقيق النصر النهائى حتى فرضوا عليه الاستجابة لخدعه عمرو بن العاص وقبول التحكيم، بل أبعد من ذلك هددوه بالقتل إن لم يصدر أمره لمالك الأشتر بالانسحاب والفّ عن القتال، ولما زالت الحجب وتكشفت الأمور وبانت الخدعة توجهوا باللوم إلى الإمام عليه السلام لم قبلت التحكيم، بدلًا من العودة إلى نفوسهم والاعتذار والهم بإصلاح ما بدر منهم من أخطاء).

الجدير بالذكر فى هذا الأمر أنّ الإمام عليه السلام ميز الخوارج فى بداية الأمر إلى فرقتين، فرقة شهدت صفين وأخرى لم تشهدها، لتتضح قضية وهى إن تمرّت الفرقة الثانية بفعل جهلها وعدم إحاطتها بأحداث صفين، فما بالكم أنتم الذين شهدتم صفين وتابعتم الأحداث؟ فما المنطق والاسس التى دفعتكم للقدوم إلى النهروان؟ كيف تتهمونى بمسؤولية التحكيم؟

وهكذا أتمّ الحجّة عليهم وعلى اولئك الفريق الثانى الذى خدع بالفريق الأول ورافقه إلى الميدان، وليس هنالك أسوأ ممن لا يصغى لكلام الناصح الأمين المشفق، فان أصابته مصيبة بما قدمت يداه نسب التقصير فيها إلى ذلك الناصح وجابهه بالإعتراض، نعم، هذا هو دين الأفراد البعيدين عن الانصاف والذين ينسون ما يصدر منهم من أفعال.

ثم أوضح الإمام عليه السلام حقيقة الموقف بصورة أخرى ليقسم بأنّه لو لم يقبل التحكيم لما كان عليه من مسؤولية فى الالتزام بلوازمها ولا يحملها اللّه سبحانه ذنبها ووزرها:

«وَاللّهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلَا حَمَّلَنِيَ اللَّهُ ذَنْبَهَا».

إشارة إلى مراده: إن خالفت بشدّة مسألة التحكيم فى بداية الأمر فذلك لكى لا أكون مسؤولًا تجاه لوزامها ولا يلحقنى وزرها؛ لأنّ قضية التحكيم أدّت إلى تقوية حكومة

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵۰

طواغيت الشام وذهبت بدماء شهداء صفين أدراج الرياح، فذلت دعاة الحق وأشعرتهم باليأس.

ثم قال عليه السلام إثر ذلك:

«وَوَاللّهِ إنْ جِئْتُهَا إِنِّى لَلْمُحِقُّ الَّذِى يُتَّبَعُ؛ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِى، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ».

إشارة إلى أنّه حين رأيت ما وقع بينكم من شقاق فى مسألة التحكيم يتطلب أن أمنعه، وبخلافه لنازع أحدكم الآخر وشهر السيف فى وجه صاحبه ولقاد ذلك الأمر إلى فضيحة كبرى، وهنا شعرت بالاضطرار لقبول التحكيم.

أضف إلى ذلك فلو فوضتم التحكيم إلى من هو عالم به ولا- يفارقه ومحيط بمضمونه ولم تتجهوا صوب فرد بسيط وجاهل كأبى موسى الأشعرى، لفشلت تلك المؤامرة وخمدت الفتنة، وإن كان فيها من ضرر فهو جزئى محدود، لكنكم فرضتم علىَّ التحكيم وكذلك أجبرتمونى على تحكيم أبى موسى الأشعرى، فسقطتم فى هذه الفتنة وتكبدتم كل هذه الأضرار فما تقولون بهذا الخصوص؟ فهل علىَّ أن أتحمل مسؤولية تقصيركم؟ وأدفع ثمن جريمتكم؟ والذى نخلص إليه مّا مرّ معنا من كلام:

۱- أنّ الإمام عليه السلام أقسم مرّتين فى هذا المقطع من كلامه، سيّما فى القسم الثانى الذى أردفه بالتوكيد ليبيّن بعده كل البعد عن أدنى تقصير.

۲- ما بيّنه الإمام عليه السلام فى القسمين المذكورين ليس فيه ما يدلّ على ترديده فى مسألة للتحكيم، بل إشارة إلى حالتين مختلفتين، فقد كان مخالفاً بشدّة فى البداية، لأنّه كان يعتبرها مكر وحيلة خطيرة، ولما اختلف جيشه وصحبه، وأبى الأعم الأغلب منهم إلّاالتحكيم، استجاب للتحكيم دفعاً للفتنة وإبعاداً للفرقة والشقاق، وعليه فقد كانت مخالفته فى بداية الأمر وموافقته تستند إلى الحكمة، وبغض النظر عمّا سبق لو لم يصرّ ذلك الفريق الجاهل على تحكيم ذلك العنصر الفاسد كأبى موسى الأشعرى لما كانت المشاكل

بذلك الحجم، فذلك الإصرار الفض هو الذى أدّى إلى عقم نتائج معركة صفين والامتياز الذى حصل عليه أعداء الإسلام، وبناءاً على هذا فانّ هذه الفئة المتعصبة أخذت تفقد مواضعها الواحد بعد الآخر حتى انتهت إلى ذلك المصير الأسود، والعجيب أنّهم استجيب للتحكيم؟!

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵۱

لكن وعلى كل حال، فانّ منطق الإمام عليه السلام بهذا الخصوص قد أتى أكله فعادت طائفة عظيمة من الخوارج إلى نفسها فتابت وكفت عن القتال، حتى صرّحت كتب التاريخ بأنّ الأغلبية الساحقة من الخوارج قد تابت ووقفت على عظيم زلّتها.

نبذة عن شخصية معاوية

إنّ الأعمال التى مارسها معاوية طيلة تاريخ حياته ولا سيما فى مدّة حكومته لتكشف حقيقة واضحة لكل فرد منصف فى أنّه لم يفكر بارساء العدل بين المسلمين، ولم يكن يهمّ بنشر الإسلام، بل كان جلّ همّه ترسيخ دعائم حكومته المتزلزلة، ومن هنا فقد اعتمد كافة الأساليب التى يلجأ إليها جبابرة الدنيا من أجل ترسيخ حكوماتهم، وأبسط نموذج يمكن الإشارة إليه فى هذا المجال إنّما يتمثل برفعه لقميص عثمان فى الشام وذرف دموع التماسيح على الخليفة المقتول ظلماً بهدف إثارة الناس للتمرد على أميرالمؤمنين على عليه السلام وسفك دماء المسلمين، إلى جانب إغداق الرشاوى الضخمة على زعماء القبائل، بل حتى بعض قواد جيش الإمام على عليه السلام وإيجاد الفرقة والخلاف بينهم وبين سائر الناس.

وكذلك توجيه الأراذل إلى مختلف نواحى البلاد الإسلامية لنهب الثروات وإشاعة أجواء التوتر القلق. ولعل قضية رفع المصاحف وحملها على أسنة الرماح تعدّ واحدة من تلك الأساليب، فمعاوية لم يكن مستعداً لقبول حكم القرآن الكريم، كما لم يكن مهتماً بهذا الأمر، وكل ما يفكر فيه هو الحكومة، كما ذكر شرّاح نهج البلاغة أنّ معاوية قام بوجه أميرالمؤمنين على عليه السلام فى البداية تحت شعار الطلب بدم عثمان، إلّاأنّه لم يصطدم قط بقتلة عثمان بعد ظهوره عليهم، فقد كان يقول أحياناً، ألست من قتلة عثمان؟ وأحياناً أخرى كان يسكت، ويغدق عليهم العطاء (هذا ما نقله العقاد فى كتاب «معاوية» ونقل عبدالكريم الخطيب عن كتاب «على بن أبى طالب عليه السلام» أنّ عائشة بنت عثمان طالبت معاوية بالقصاص من قتلة أبيها.

فأجابها معاوية:

«لأنْ تَكُونِى إبنَةُ عَمِّ أَمِير المُؤمِنِينَ خَيرٌ مِنْ أنْ تَكونِى امرأةٌ مِنْ عَرضِ النّاسِ»

مراده أنّ قضية الطلب بَدِم عثمان قد انتهت، وكان الهدف منها الاستيلاء على

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵۲

حكومة وقد حصل هذا الأمر، ولعل المطالبة بدم عثمان تهدد كياننا، وما عليك إلّاالإكتفاء والقناعة بأنّك ابنة عمى، ابنة عم حاكم المسلمين طبعاً، يمكن التعرف على شخصية معاوية من خلال مقربيه، فقد ذكر العقاد، أنّ عمرو بن العاص قال يوماً لمعاوية:

«أتَرى أننا خالَفنا عَلِياً لِفَضلِنا؟ لاوَاللَّهِ إنْ هِى إلّا الدُّنيا نَتَكَالَبُ عَلَيها»

، أى ولم يكن الحديث عن الإسلام والقرآن سوى الذريعة.

وذكر ابن الأثير أن سعد بن أبى وقاص قال لمعاوية:

«السَّلامُ عَلَيكَ أيُّها المَلِك».

فقال معاوية:

«لِمَ لَم تُسَلِّم عَلَيَّ بأمير المؤمِنينَ».

فأجاب سعد قائلًا:

«وَاللَّهِ إِنِّی ما أَحِبُّ إن وَلَّیتُها بِما وَلَّیتَها».

ومراده أنک ولّیتها بالمکر والحیلة[۲۷۳].

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۵۳

القسم الثانی: بذلنا ما فی‌الوسع من أجل الوحدة

«فَلَقَدْ کُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَیَدُورُ عَلَی الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالقَرَابَاتِ الأقرباء، فَمَا نَزْدَادُ عَلَی کُلِّ مُصِیبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِیمَاناً، وَمُضِیّاً عَلَی الحَقِّ، وَتَسْلِیماً لِلْأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَی مَضَضِ الجِرَاحِ. وَلکِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِی الْإِسْلَامِ عَلَی مَا دَخَلَ فِیهِ مِنَ الزَّیْغِ وَالاعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِیلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِی خَصْلَةٍ یَلُمُّ اللَّهُ بِهَا شَعَثَنَا، وَنَتَدَانَی بِهَا إِلَی الْبَقِیَّةِ فِیما بَیْنَنَا، رَغِبْنَا فِیهَا، وَأَمْسَکْنَا عَمَّا سِوَاهَا».

الشرح والتفسیر

یختتم الإمام علیه السلام خطبته بالإجابة المنطقیة لأصحاب الخوارج، فقد قالوا: لِمَ استجاب الإمام علیه السلام إلی التحکیم؟ لَمَ لا نقاتل الأعداء إلی آخر نفس علی غرار ما فعله المسلمون من صحابة النبی صلی الله علیه و آله فی صدر الإسلام؟ هل أذعن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله لمسألة التحکیم؟ فقد أوضح الإمام علیه السلام حقیقة فی إجابته علی اولئک بأنّ زماننا یختلف تماماً عن زمان النبی صلی الله علیه و آله، ومن نقاتلهم الآن طائفة من المسلمین المخدوعین، والحال کان أعداؤنا فی صدر الإسلام هم الکفّار والمشرکون الذین وقفوا بوجه الإسلام.

فقد قال علیه السلام:

«فَلَقَدْ کُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَیَدُورُ عَلَی الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالقَرَابَاتِ الأقرباء، فَمَا نَزْدَادُ عَلَی کُلِّ مُصِیبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۵۴

إِیمَاناً، وَمُضِیّاً عَلَی الحَقِّ، وَتَسْلِیماً لِلْأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَی مَضَضِ ۲۷۴] الجِرَاحِ».

نعم، لقد کنّا نهجم بشدّة آنذاک علی العدو، وإن کان فیهم إخواننا وقرابتنا، فالمصاب وإن عظم علینا، لکن حیث کان ذلک بأمر فقد کنّا نزداد إیماناً، ولم نجابه کل مصائب المعارک وجراحاتها إلّابالصبر والشکر:

«وَلکِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِی الْإِسْلَامِ عَلَی مَا دَخَلَ فِیهِ مِنَ الزَّیْغِ وَالاعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِیلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِی خَصْلَةٍ یَلُمُّ ۲۷۵] اللَّهُ بِهَا شَعَثَنَا[۲۷۶]، وَنَتَدَانَی بِهَا إِلَی الْبَقِیَّةِ فِیما بَیْنَنَا، رَغِبْنَا فِیهَا، وَأَمْسَکْنَا عَمَّا سِوَاهَا».

فقد أشار الإمام علیه السلام فی هذه العبارة إلی أن قیاس زمانه بزمان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله هو قیاس مع الفارق، وذلک لأنّ القتال ذلک الزمان کان یدور مع العدو الخارجی، بینما أصبح زمان الإمام علیه السلام ضد الأصدقاء المخدوعین والمنحرفین من الداخل، فالواقع یستند موقف الإمام علیه السلام فی قبول التحکیم إلی الآیة الشریفة: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِینَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَی الْأُخْرَی فَقَاتِلُوا الَّتِی تَبْغِی حَتَّی تَفِیءَ إِلَی أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ»[۲۷۷].

صحیح أنّ أصل مسألة التحکیم خدعة ولم یکن أمراء جیش الشام یعتقدون بالقرآن، ولهذا السبب کان الإمام شدید المخالفة فی بادیء الأمر، لکنّه استجاب لذلک الأمر بعد ذلک الضغط الشدید الذی مارسه السواد الأعظم المخدوع من جیشه مع ذلک کان بالإمکان أن تتمخض مسألة التحکیم عن نتائج مرضیة لو خضعت لقیادة سلیمة، ولکن کما نعلم فانّ ضغوط الجهّال قد دفعوا التحکیم إلی مسار لا یجر علیهم سوی الضرر والخسارة.

نفحات الولايهْ، ج۵، ص: ۱۵۵

الخطبهْ[۲۷۸] المائهْ والثلاثهْ والعشرون

اشارهْ

وَمِنْ كَلام لهُ عليه السلام

قاله لأصحابه فى ساحهْ ساعهْ الحرب «بصفّين»

نظرهْ إلى الخطبهْ

هذه الخطبهْ جزء من خطبه طويلهْ إقتطف المرحوم السيد الرضى بعضها، وقد تضمنت إشارهْ إلى بعض النقاط المهمّهْ، وهى:

۱- يجب على الأفراد الذين يتمتعون بقدرات فائقهْ فى القتال أن يدافعوا ويشدوا من أزر الضعاف.

۲- إنّ الأفراد الذين يهربون من الجهاد خشيهْ الموت هم على خطأ، لأنّه لا يمكن الفرار من الموت الذى يدرك الجميع أينا كانوا.

نفحات الولايهْ، ج۵، ص: ۱۵۶

۳- لا موت أشرف وأكرم من الشهادهْ، فألف ضربهْ بالسيف خير من ميتهْ على الفراش.

۴- إخبار عن هوان أهل الكوفهْ وذلّهم فى المستقبل بسبب وهنهم وضعفهم فى مواجههْ الظلمهْ.

نفحات الولايهْ، ج۵، ص: ۱۵۷

القسم اول: شكر القدرهْ

اشارهْ

«وَأَيُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًا، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِى فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ. إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَايَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِى نَفْسُ ابْنِ أَبِى طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِى غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ!».

الشرح والتفسير

يشتمل هذا الكلام- سواء أورده الإمام عليه السلام على أعتاب معركهْ الصفين كما ورد آنفاً أو حسبما صرّح به بعض المحققين على هامش معركهْ الجمل بعد ضجهْ معسكر عائشهْ، أو فى المعركتين وذلك لأنّه يتناسب مع كل مهما- على نقاط مهمّهْ وردت ثلاث منها فى هذا القسم من الخطبهْ:

الاولى: لزوم التنسيق بين أفراد الجيش بحيث يتولى الأقوياء الدفاع عن الضعفاء للحدّ من جسامهْ الخسائر، فقد قال عليه السلام:

«وَأَيُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ[۲۷۹] جَأْشٍ عِنْدَ

اللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًا، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ ۲۸۰] الَّتِى فُضِّلَ بِهَا

عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ».

نفحات الولايهْ، ج۵، ص: ۱۵۸

ثم أضاف عليه السلام:

«فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ».

فان وهبه القوّة والصلابة فقد وجب عليه الشكر، والمراد أنّ أفعال اللّه وإن استندت إلى الحكمة جميعاً، مع ذلك فمن تمتع بنعم كثيرة وجب عليه الشكر بافاضتها على الآخرين ليؤدّى بذلك الشكر العملى للنعمة.

والثانية: لو لم يكن هناك من تنسيق بين العسكر فانّ ذلك يؤدّى إلى إحباط الجميع، وذلك لأنّ العدو إنّما يهجم على الجانب الذى يشعر بضعفه، فانّ اخترقه وقضى عليه، إلتفّ ليحاصر باقى العسكر، وعليه وإضافة لمسألة الشكر فانّ فنون القتال وسياسة المعركة تتطلب من الأجنحة القوية من العسكر شد ظهور الأجنحة الضعيفة وعدم التوانى فى الدفاع عنها، بحيث لا تسدد إليها ضربات العدو، ولا سيّما إذا استطاع العدو أن يشلّ حركة طائفة من الجيش، فانّه سيتمكن من تحطيم معنويات الجميع.

ثم إتجه الإمام عليه السلام صوب نقطة مهمّة أخرى وهى ضرورة ألا يتصور أحد أنّه يستطيع الفرار من مخالف الموت، فهو يدرك المقيم والمنتظر والهارب:

«إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَايَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ».

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: الموت على نوعين: موت حتمى، وموت معلّق أو مشروط، والذى لا يمكن تغييره هو الموت الحتمى، أمّا الموت المشروط، فهو قابل للتغيير على ضوء تغير الظروف والشرائط، ولعل الموت فى ساحة القتال ليس من الموت الحتمى فكيف إستدل الإمام عليه السلام بهذه المسألة وقال بشأن الموت لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب.

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بوجهين:

الأول: هو أنّ الإمام عليه السلام ناظر للموت الحتمى فقط سواء فى ساحة القتال أو غير ساحة القتال فلا يمكن إجتنابه.

والثانى: على فرض أنّ الإنسان يستطيع الهروب من مخالب الموت المشروط أو المعلّق، ولكن ما جدوى ذلك؟ فالموت الحتمى بالتالى سيدرك جميع الأفراد دون استثناء، فلا ينبغى للإنسان أن يستسلم للظلمة فى مقابل البقاء عدّة أيّام [۲۸۱].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۵۹

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمّة وقيّمة فقال:

«إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِى نَفْسُ ابْنِ أَبِى طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَىَّ مِنْ مِيتَةٍ[۲۸۲] عَلَى الْفِرَاشِ فِى غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ!».

فالعبارة تفيد عظمة مقام الشهداء إلى درجة أنّ الإمام عليه السلام يعرب عن إستعداده لتحمل ألف ضربة بالسيف يؤثرها على ميتة الفراش الطبيعية، وهذا هو لسان حال أو قال جميع المؤمنين المخلصين والشجعان الذين يعشقون طريق الحق، طبعاً لا تعنى العبارة أنّى لا أشعر بألم ضربات السيف- كما ذهب إلى لذلك بعض شرّاح نهج البلاغة- بل المراد أنّ الأولى بالإنسان من حيث الجانب المعنوى أن يفتح صدره لتحمل أقسى الضربات بدلًا من الموت الطبيعى على الفراش، لأنّ وسام الشهادة يجعل الإنسان يتحمل الألم والمعاناة، ولا ننسى هنا الروايات التى صرّحت بأنّ الإنسان بحكم الشهيد إن مات على الفراش على سلامة من دينه، وهو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى آخر العبارة.

الشهادة عرس الأبطال

الشهادة من القيم السامية التى تضمنتها الثقافة الإسلامية، والشهيد يمثل قمة المرتبة الإنسانية، وأولياء اللّه كما أورد الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة يفكرون دائماً بالشهادة ويأبون الموت طبيعياً على الفراش، ويرون الشهادة أفضل ألف مرّة من ميتة على فراش، وكانوا مستعدين لتلقى آلاف الضربات والفوز بالشهادة دون الموت على الفراش، وذلك لأنّ روح الإنسان أعظم هدية إلهيّة، وما أروع أن تبذل هذه الهدية فى سبيل اللّه سبحانه، لا أنّ تذهب هدراً فى الموت.

ويكفى فى فضل الشهادة ما ورد فى حيث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حين شاهد فرداً يدعو اللّه تعالى قائلًا:

«اللّهُمّ إِنّی أسألُکَ خَیرَ ما تُسأَلُ فَاعطِنِی أَفضلَ ما تُعطِی».

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۶۰

فقال صلی الله علیه و آله:

«إنْ استُجِیبَ لَکَ اهرِیقَ دَمُکَ فِی سَبِیلِ اللّهِ»[۲۸۳].

کما ورد فی حدیث آخر عنه صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«ما مِنْ أَحَدٍ یَدخُلُ الجَنَّةَ فَیَتَمنّی أنْ یَخْرُجَ مَنها إلّا الشَّهِیدُ فَإِنَّهُ یَتَمنّی أنْ یَرجَعَ فَیُقتَلَ عَشْرَ مَرّلتٍ مِمّا یَری مِنْ کَرامَةَ اللّهِ»[۲۸۴].

نعم، مقام الشهداء رفیع جدّاً فی التعالیم الإسلامیة، وهم الذین حفظوا الإسلام حین الخطر، ولولا تضحیات الشهداء کشهداء بدر واحد وشهداء کربلاء لما بقی من الإسلام الیوم شیئاً سوی اسمه، ویعیش أعداء الإسلام الیوم حالة من الرعب إزاء الشهادة وفلسفتها فی الإسلام، وذلک لأنّ الشهید قد یبدد فی لحظات مخططات الأعداء وبرامجهم التی تستوعب تکالیفاً باهضة.

أضف إلی ذلک فهم لا- یمتلکون أی سلاح یمکنهم من مواجهة هذا السلاح، سمع أخیراً أنّ الدوائر الصیهونیة وإثر عجزها عن مواجهة انتفاضة الشعب الفلسطینی، قد أکدت علی ضرورة إجتثاث جذور ثقافة التفکیر بالشهادة، لابدّ من اسقاط مفردة الشهادة من کتاب الدراسة المتوسطة والثانویة، کما لابدّ من إزالة الآیات القرآنیة المتعلقة بالشهادة من الکتب الدینیة، ومن المؤکد أنّ البلدان الإسلامیة العمیلة وما أکثرهم قد ساروا علی هذا النهج، وقد اصطلحوا علی الشهادة بالإنتحار والشهید بالإرهابی لتشویه هذه المفردة الطیبة، لکن ولحسن الحظ فانّ هذه الثقافة قد إتسعت وترسخت بحیث لا یسع هذه الدعایات الوقوف بوجهها، حتی سارع إلیها العدید من الشباب والشابات، وهذا ما یشکل أعظم خطر علی أعداء الإسلام، نأمل أن یتعرف المسلمون أکثر فأکثر علی هذه القیمة السامیة التی تدعو إلی الفخر والاعتزاز.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۶۱

القسم الثانی: عاقبة السوء

و منه: «وَکَأَنِّی أَنْظُرُ إِلَیْکُمْ تَکِشُّونَ کَشِیشَ الضِّبَابِ: لَاتَأْخُذُونَ حَقّاً، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَیْماً. قَدْ خُلِّیتُمْ وَالطَّرِیقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَکَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ».

الشرح والتفسیر

یری البعض من شرّاح نهج البلاغة أنّ هذا الکلام مستقل، ومن هنا ذکره بصورة مستقلة، بینما یراه البعض الآخر استمرار للکلام السباق، فمن ذکره بصورة مستقلة استدلّ بعدم وجود إرتباط بین هذا المقطع والمقطع السابق، حیث حث الإمام علیه السلام أصحابه فی المقطع السابق علی الجهاد والقتال ببسالة، بینما جری الکلام فی هذا المقطع عن الهزیمة والفرار، ولیس هنالک من إنسجام بین هذین المقطعین، ولکن بالنظر إلی أنّ هذا المقطع یخبر عن المستقبل، وهو المستقبل الذی لا- یکون فیه الإمام علیه السلام بین ظهرانیهم ویشهدون حالة من الفرقة والتشتت والضعف والهوان والذلّة، وعلیه یمکن تصور إرتباط بین هذا المقطع وسابقه.

ولکن علی حال سواء کان هذا المقطع مستقل أم مرتبطاً، فهو کلام الإمام علیه السلام ویخبر عن المصیر المریر لأفراد یوثرون العافیة والدعة علی الجهاد، فقال:

«وَکَأَنّی أَنْظُرُ إِلَیْکُمْ تَکِشُّونَ کَشِیشَ الضِّبَابِ ۲۸۵]».

فالعبارة یمکن أن تکون إشارة إلی الحیوانات المعروفة الضباب جمع ضب بالکسر والتی إن تحرکت بصورة جماعیة اضطربت وإحتک بعضها بالبعض الآخر فیظهر من هذا الاحتکاک

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۶۲

صوتاً، والمراد أنّكم اضطربتم حين الفرار، بحيث إندك بعضكم بالبعض الآخر وقد انبعث صوت اضطرابكم.

ثم قال عليه السلام:

«لَا تَأْخُذُونَ حَقّاً، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْماً[۲۸۶]».

أى حال أسوأ من أن يصبح الإنسان على درجة من الضعف والعجز بحيث لا يستطيع الدفاع عن حقّه أو عن صحبه وقرابته وإخوته فى الدين، كما لا يستطيع الوقوف بوجه الظلم الذى يوجه إليه وإلى الآخرين، حقّاً إنّها لحالة مؤلمة مهينة.

ثم إختتم خطبته بالقول:

«قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ ۲۸۷]».

فالعبارة قد خليتم والطريق تشير إلى إتمام الحجة الكاملة، فقد بيّن الطريق إلى الهدف بكل وضوح من قبل زعيم عالم، وقد زالت الموانع التى تحول دون سلوكه، وعليه فلن تعد هناك من حجة لمن يقصّر فى هذا الطريق، ولذلك بشر سالكين هذا الطريق بالسعادة، بينما هدد المتباطىء بالهلكة.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۱۶۳

الخطبة[۲۸۸] المأة و الرابعه والعشرون

اشارة

ومِنْ كَلام لهُ عليه السلام

فى حث أصحابه على القتال

نظرة إلى الخطبة

وردت هذه الخطبة كما يفهم من عنوانها بشأن حث الإمام عليه السلام لأصحابه على الجهاد، وذلك لأنّه حسب تصريح شرّاح نهج البلاغة أنّها وردت قبل معركة صفين، ومن هنا تضمنت إشارة إلى بعض الأمور المهمّة:

۱- ذكر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة مطالب دقيقة بخصوص فنون القتال وانتخاب أفضل السبل فى مجابهة العدو، بحيث يمكن التوصل إلى النتائج بأقلّ الخسائر.

۲- حذر أصحابه فى المقطع الآخر من الخطبة وضمن مدحه لمقاتليه من الفرار الذى يستتبع الفضيحة والعار، كما يتطرق إلى ذكر مقامات الشهداء.

۳- يلعن فى المقطع الثالث أعدائه ويقوى عن هذا الطريق عزائم أصحابه المجاهدين.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۱۶۵

القسم الأول: سبع وصايا فى فنون القتال

«فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ؛ وَالْتَوُوا فِى أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ لِلْأَسِنَّةِ؛ وَغُضُّوا الْأَبْصَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ؛ وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. وَرَايَتَكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُخِلُّوهَا، وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِى شُجْعَانِكُمْ، وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتَنِفُونَهَا: حِفَافَيْهَا، وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا؛ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا. أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ،

فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ».

الشرح والتفسير

يرى بعض كبار المحدثين أنّ هذه الخطبة تبتدأ كالآتى:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ دَلَّكُم عَلَى تِجارَةٍ تُنجِيكُم مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ وَتُشفِى بِكُم عَلَى الخَيرِ الإِيمانُ بِاللَّهِ وَالجِهادُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَجَعَلَ ثَوابَهُ مَغفِرَةً لِلذَنْبِ وَمَساكِنَ طَيِّبَةٍ فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَقالَ عَزَّ وَجلَّ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ»[۲۸۹] فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ ...»[۲۹۰].

ثم أشار فى مواصلته لهذا الكلام إلى سبع وصايا هامّة فى فنون تحقيق النصر، فقال فى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۶۶

وصيّته الاولى بهذا الشأن: «فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ ۲۹۱]، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ[۲۹۲]».

فمن الطبيعى أن يكون قليلًا هو الضرر الذى يتعرض له من يلبس الدرع بفعل السهام والسيوف، ومن هنا لا يسع العدو السيطرة عليهم، ومن لم يتدرع يمكنه أن يواصل قتاله وهجماته من خلفهم، والذى يستفاد من هذه العبارة وجود فئة فى ميدان القتال لم ترتدى الدرع، وذلك إمّا يعود إلى الأزمات والمشاكل التى يعيشها المجتمع الإسلامى، أو أنّ إرتداء الدرع كان يثقل على البعض ويعيق حركته فى ميدان القتال، ولذلك كان الأشداء من المقاتلين هم الذين يتدرعون.

وقال عليه السلام فى وصيّة الثانية:

«وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ ۲۹۳]، فَإِنَّهُ أَنْبَى ۲۹۴] لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ ۲۹۵]».

وكما ذكرنا فى شرح الخطبة الحادية عشرة أنّ لهذه الخطبة فائدتان، الاولى إزالة الخوف والرعب، أو الحدّ من هذا الخوف إلى أقلّ درجة، ومن هنا فانّ الإنسان يعمد إلى إطباق أسنانه على بعضها حين الخوف بهدف إزالته، والأخرى تبقى على صلابة عظام الرأس فلا تتأثر كثيراً بضربات السيف.

وقال فى الوصيّة الثالثة:

«وَالْتَوُوا[۲۹۶] فِى أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ[۲۹۷] لِلْأَسِنَّةِ».

والوصيّة أشبه بما يقال اليوم، إن أراد أحد أن يرميك تحرك يميناً وشمالًا، أى عليك بتغيير موضعك باستمرار حتى لا يتمكن العدو من التصويب باتجاهك.

جدير بالذكر أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة أشار أنّ المراد بالانعطاف والانحناء حين الهجوم بالحربة على العدو، فانّ ذلك يضاعف من دقّة الحربة لمواجهة ضد جسد العدو، لكن

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۶۷

بالإلتفات إلى الوصايا السابقة واللاحقة لهذه الوصية والتى تبيّن فنون الدفاع، فانّ المعنى الأول يبدو هو الأنسب، لا سيّما التعبير بالحرف فى لا يتناسب والمعنى الثانى، بينما يتناسب ما إخترناه حتى التعبير الأمور المأخوذ من مادة مور والذى يعنى الاضطراب.

وقال فى الوصيّة الرابعة بعض النظر (وعدم النظر إلى كثرة العدو وآخره) فذلك أسكن للقلب:

«وَغُضُّوا الْأَبْصَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ ۲۹۸]، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ».

تختلف هذه الوصيّة عن سابقاتها لاشتمالها على بعد نفسى ونعلم جميعاً أنّ روحية الجنود كلما كانت مرتفعة كان الأمل بالنصر أكثر، ومن هنا أكّد الإمام عليه السلام هذا المعنى مراراً وقد مرّ علينا نموذج ذلك فى الخطبة ۱۱ و ۶۶.

وقال فى الوصية الخامسة:

«وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ».

من الطبیعی أنّ الإنسان حین ینشغل بالحدیث فانّه یستهلک جانباً من قواه الفکریة وکذلک جانباً من طاقته البدنیة ویحد من ترکیزه الفکری والالتفات إلی حملات العدو المبرمجة، ومن هنا فانّ العدو الصامت البعید عن الضوضاء والضجیج یبدو أخطر من غیره.

ولذلک ورد بشأن معرکة بدر أنّ قریش تعجبت من قلّة عدد جیش الإسلام وتصورت أنّ عدد المسلمین أکثر ممّاتری ولعلهم إختفوا خلف التلة حیث یردون میدان القتال فی الوقت المناسب، فبعثوا بعمیر بن وهب لینظر أطراف المیدان، فرکب فرسه وجعل ینظر حول الصحرا ولم یر شیئاً، فعاد وقال: عدد المسلمین یقارب الثلاثمائة، إلّاأنّی رأیتهم مستعدین للقتال ولا یقوی أحد علی مواجهتهم، أمّا ترونهم خرسا لا یتکلمون، یتلمذون تلمذ الأفاعی ما لهم ملجأ إلّاسیوفهم وما أراهم یولون حتی یقتلوا ولا یقتلون حتی یقتلوا بعددهم [۲۹۹].

وقال فی الوصیّة السادسة:

«وَرَایَتَکُمْ فَلَا تُمِیلُوهَا وَلَا تُخِلُّوهَا[۳۰۰] وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَیْدِی شُجْعَانِکُمْ، وَالْمَانِعِینَ الذِّمَارَ[۳۰۱] مِنْکُمْ».

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۶۸

ثم أتمّ کلامه باستدلال منطقی قائلًا:

«فَإِنَّ الصَّابِرِینَ عَلَی نُزُولِ الْحَقَائِقِ ۳۰۲] هُمُ الَّذِینَ یَحُفُّونَ بِرَایَاتِهِمْ، وَیَکْتَنِفُونَهَا: حِفَافَیْهَا[۳۰۳]، وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا؛ لَایَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَیُسْلِمُوهَا، وَلَا یَتَقَدَّمُونَ عَلَیْهَا فَیُفْرِدُوهَا».

کان للرایة أهمیّة خاصة فی میدان القتال فی الأزمنة الماضیة، وذلک لدورها فی إرتباط الصفوف والتحامها، وحین کان ینهمک المقاتلون وسط المیدان وجوانبه بالقتال، کانوا یلتفون حین الضرورة حول الرایة لإعادة تنظیم صفوفهم وشن الحملات من جدید، وإن سقطت الرایة اضطرب العسکر وأحیاناً کان ینهار، ولذلک‌تری العدو یسعی جاهداً للإحاطة بالرایة، بینما یحاول الطرف الآخر الابقاء علی الرایة مرفوعة وهو یدافع عنها بکلّ ما اوتی من قوّة، فقد کان سقوطها یعنی الهزیمة، وزبدة الکلام فانّ انتصاب الرایة دلیل علی القدرة وسبب قوّة وعزیمة المقاتلین وحلقة اتصالهم مع بعضهم، ولهذا ما انفک الإمام علیه السلام عن التأکید وصایاه بحفظ الرایة، حیث أکد من جهة ضرورة ثبوت موضع الرایة وأنّ حماتها من أشجع الأفراد، ومن جهة اخری یوصی حملة الرایة بعدم التخلی عنها ومراقبتها من جمیع الجهات، لا أنّ یتخلفوا عنها ولا یتقدمواعلیها، ویضحوا بالغالی والنفیس من أجل حفظها بفضلها علامة الاقتدار والشموخ وورد فی شأن غزوة خیبر التی. لف الفریقان بخصوصها عشرات الروایات أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أعطی الرایة فی الیوم الأول إلی أبی بکر فلم یتمکن من فتح قلاعها، وفی الیوم الثانی أعطاها عمر بن الخطاب، فلم یفلح، فقال صلی الله علیه و آله:

«لَأُعطِیَنَ الرایةَ غَداً رَجُلًا یُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ویُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ کَرّارٌ غَیرُ فَرّارٍ یَفتَح اللَّهُ عَلَیهِ»[۳۰۴].

فامتدت الأعناق فی الیوم التالی لیروا من هو ذلک الرجل، وقد تمنی کل فرد (شجاع) أن

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۱۶۹

یکون هو المعنی فیعطیه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله الرایة، نادی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علیاً علیه السلام وسلّمه الرایة فلم یرجع إلّابعد أن فتح خیبر واستسلم له أهلها، هذه دلالة علی الأهمیّة الفائقة للرایة وحاملها فی ذلک الزمان، وقد تکرر نفس هذا المعنی فی عصر علی صلی الله علیه و آله مالک الأشتر النخعی وقال له علمت بوقوفک فی القتال وشجاعتک ولولا ذلک لدفعت الرایة إلی غیرک، فردّ علیه بالقول:

«لأسرنّک الیوم یا مالک أو اقتل شهیداً»[۳۰۵].

ثم أشار الإمام علیه السلام فی وصیّته السابعة والأخیرة إلی قضیة أخری من تکتیکات الحرب أنذاک فقال:

«أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ ۳۰۶]، وَآسَی ۳۰۷] أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ یَکِلْ قِرْنَهُ إِلَی أَخِیهِ، فَیَجْتَمِعَ عَلَیْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِیهِ».

يتضح المفهوم الدقيق لهذا الكلام فيما لو دققنا بصورة صحيحة على وضع الحروب فى ذلك الزمان، فقد كانت للمعركة فى ذلك الوقت ثالث صور (وأحياناً كانت تتحقق الصور الثلاث فى نفس المعركة):

الأولى: أن يتقدم أحد الشجعان وسط الميدان ويدعو شجاعاً آخر من العدو لمبارزته، فيتبارزان حتى يهلك أحدهما.

الثانية: أن يتقدم الميدان عدّة أفراد ليقف كل واحد منهم أمام خصمه فيبدأ بينهم القتال.

الثالثة: أن تدور المعركة بين المعسكرين بأكملهما طبعاً هناك صورة رابعة تكون المعركة فيها غادرة كأن تنهال طائفة على فرد فتنزل عليه ضرباتها من كل جانب، ويبدو أنّ العبارة تشير إلى هذه الصورة الثانية التى يبرز فيها عدّة أفراد إلى أمثالهم، وفى هذه الحالة لا ينبغى لأحد أن يترك خصمه لآخر، بل يبارز كل واحد خصمه فيراعى المساواة والمواساة وتقف من خلال هذه الوصايا على مدى خبرة الإمام عليه السلام بفنون القتال حيث يعرّف أصحابه على أدق تفاصيل القتال قبل البدء فيه.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷۱

القسم الثانى: الجنّة تحت ظلال السيوف

«وَايْمُ اللَّهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لَاتَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ. إنَّ فِى الْفِرارِ مَوْجِدَةَ اللَّهِ، وَالذُّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِى عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٍ [محجوب بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ. [مَنِ الرَّائِحُ إِلَى اللَّهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ؟

الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي! الْيَوْمَ تُبلى الْأَخْبَارُ! وَاللَّهِ لَأَنَا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاثة أمور بهدف إعداد الأصحاب فى ميدان القتال، فأحياناً يهددهم إن هم فروا من القتال، وأخرى يمدحهم ويتعرض لما يتحلون به من نقاط إيجابية يراها فيهم، وأخيراً يشجعهم ويحثهم على الثواب والأجر الاخروى، وعليه يمكن إيجاز هذا المقطع من الخطبة فى ثلاثه محاور هى: التهديد، والتشجيع، والتمجيد، فقد قال على مستوى المحور الأول:

«وَايْمُ اللَّهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لَاتَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ».

فالعبارة سيف الآخرة إشارة إلى عذاب اللَّه الذى يشمل الفارّين من ميدان الجهاد، ولا شك أنّ الفرار من الزحف من الكبائر، وذلك لأنّ فرار عدّة أفراد يؤدّى إلى هزيمة عسكر جرّار ويقود حضارة عريقة إلى السقوط والإنيهار، أو يجعل العدو يسدد ضرباته الموجعة إلى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷۲

الإسلام، ثم قال على مستوى المحور الثانى، أى المدح والثناء:

«وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ ۳۰۸] الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ ۳۰۹] الْأَعْظَمُ. إنَّ فِى الْفِرارِ مَوْجِدَةَ[۳۱۰] اللَّهِ، وَالذُّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِى عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٍ[۳۱۱] بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ».

فهو يعدهم من جانب بصفتهم مبرزى شخصيات العرب التى تشد نحوها الأنظار، من جانب آخر يذكرهم بمساوىء عار الفرار وهى الغضب الإلهى والذل الدائم والهوان والفضيحة الأبدية، على صعيد آخر ذكرّهم بهذه النقطة وهى إن كان الهدف من الفرار هو التمتع بعمر أطول فانّ هذا الهدف لا يحصل بالفرار، ذلك لأنّه لا محيص من الممات واليوم الذى قدرّ فيه فلا يدفعه دافع.

نعم، قد يتصور الإنسان أنّه يحصل على عمر أطول عن طريق الفرار، ولو فرض أنّ الأمر كذلك فما قيمة هذا العمر وهو يتضمن العواقب الثلاث متمثلة بغضب اللَّه والذل والهوان الأبدى، وقد خاطب القرآن الكريم اولئك الذين يشعرون بالقلق من تواجدهم فى

جبهات القتال قائلًا:

«قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ...».[۳۱۲]

ثم إختتم الإمام علیه السلام كلامه بعبارة قصيرة عميقة المعنى تهدف حثهم على جهاد العدو فقال:

«مَنِ الرَّائِحُ [۳۱۳] إِلَى اللَّهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ؟ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي [۳۱۴]!».

وأخيراً قال علیه السلام بأنّ اليوم تبلى أخبار وأعمال كلّ فرد ويتميز فيها الغث من السمين:

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷۳

«الْيَوْمَ تُبلى الْأَخْبَارُ!».

العبارة من الرائح إلى اللّه سبحانه إشارة إلى الأفراد الذين يقبلون بكلّ شوق ورغبة وعشق الشهادة، كعشق العطشان إلى الماء الزلال.

وقد أورد الإمام علیه السلام شبيه هذا المعنى في وصيّته قبل الشهادة وبعد ضربته حيث قال:

«وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ ...»[۳۱۵]

. والعبارة اليوم تبلى الأخبار هي في الواقع إقتباس من الآية ۳۱ من سورة محمد صلى الله علیه و آله:

«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ».

والفردة أخبار إمّا تعني الأعمال أوالكلام والزعم والتي تبلى جميعاً في ميدان الجهاد، والعبارة:

«الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي!»

. تشبه العبارة التي أوردها رسول اللّه صلى الله علیه و آله في ميدان معركة أحد، حيث قال:

«الجَنَّةُ تَحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ».

الجدير بالذكر أنّ أحد الأنصار سمع هذا القول من رسول اللّه صلى الله علیه و آله وفي يده تميرات يلوكها، فقال: بخ بخ! ليس بيني وبين الجنّة إلّاهذه التميرات، ثم قذفها من يده وكسر جفن سيفه وحمل على قريش فقاتل حتى قُتل [۳۱۶].

ثم قال في العبارة الأخيرة من أجل حث صحبه على الجهاد:

«وَاللَّهِ لَأَنَا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ».

بمعنى لا دافع عندهم للجهاد وهم يحرصون على العودة إلى بيوتهم، بينما أحرص على جهاد عدو الحق والعدالة، فالمراد هلموا لكل رغبة لميدان الجهاد واعلموا أنّ النصر حليفكم حين تقاتلون عدواً لا دافع له.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷۵

القسم الثالث: القضاء على آخر معاقل العدو

«اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ. إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ، يَخْرُجُ مِنْهُمُ

[[مِنْهُ]

النَّسِيمُ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ؛ وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ؛ وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ، تَقْفُوهَا الْحَلَائِبُ؛ وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلَادِهِمُ الْخَمِيسُ يَتْلُوهُ الْخَمِيسُ؛ وَحَتَّى تَدْعَقَ الْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام علي علیه السلام في هذا المقطع- الذي يمثل المقطع الأخير من الخطبة- في أمرين:

الأول: يدعو فيه على العدو، وهوالدعاء الذي يجر عليهم الهزيمة والعذاب الإلهي ويشدّ من عزيمة صحبه ويضاعف إرادتهم فقال:

«اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ ۳۱۷] جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ ۳۱۸] بِخَطَايَاهُمْ».

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام اشترط اللعن بعدم قبول الحق، وذلك لأنّ الهدف النهائى من هذا القتال لا يكمن فى الاستيلاء على العدو والسلطة، بل ليس للإمام عليه السلام من هدف سوى قبول الحق، فانّ قبله انتفت الحرب، وهذه هى فلسفة قتال دعاة الحق وأهل الإيمان طيلة التاريخ.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷۶

والأمر الآخر: هو أنّ الإمام عليه السلام ذكر اختلاف الكلمة ضمن دعائه كوسيلة لتفريق العدو وهزيمته والذنوب من أسباب البؤس والشقاء، ومن هنا كان دعاؤه درساً، ليس درس واحد بل دورس. وفى القسم الآخر من هذا المقطع من الخطبة أشار إلى وصيّة قتالية مهمّة أخرى فقال لهم، إن أردتم الانتصار عليكم بتوجيه الضربات الموجعة إلى العدو وأن تقوم كل فرقة من العسكر بمهمتها الخاصة ومتابعة العدو حين الهزيمة دون إمهاله ليتحقق النصر الشامل، فشرح ذلك قائلًا:

«إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ ۳۱۹]، يَخْرُجُ مِنْهُمُ النَّسِيمُ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ، وَيُطِيحُ ۳۲۰] الْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ[۳۲۱] السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ».

ثم واصل عليه السلام حديثه مؤكداً على ضرورة شن الهجمات عليهم تلو الهجمات وأن تتبنى فرقة مطاردتهم ورميهم بالسهام، وأن تعاضد كل فئة الاخرى وتحمل على العدو، كما يقوم الفرسان بمطاردتهم حتى المدن حتى تندوس حوافر خيلكم آخر نقطة فى أرضهم والاستيلاء على مسار الذهاب والأياب والطرق المراى من كل جانب:

«وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ[۳۲۲] تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ؛ وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ ۳۲۳]، تَقْفُوهَا الْحَلَائِبُ ۳۲۴]؛ وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلَادِهِمُ الْخَمِيسُ ۳۲۵] يَتْلُوهُ الْخَمِيسُ؛ وَحَتَّى تَدْعَقَ ۳۲۶] الْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ[۳۲۷] أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ ۳۲۸] مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ ۳۲۹]».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷۷

فقد علم الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة جنوده الآداب الفردية للقتال، وفى القسم الأخير الآداب الجماعية فى كيفية عمل الكتائب والفرق والخيّالة والمشاة وتنسيقها فيما بينهما تجاه العدو والاعتماد على الأساليب العلمية فى القضاء على العدو، ومن النقاط المهمّة التى تطرق إليها الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة هى عدم التوانى فى إتمام النصر على العدو، وربّما كانت للإنسحابات أبعاد المباغتة، والهدف تشديد الحملات، فلا يدمى تعقيب العدو إلى أقصى نقاط مناطقة والاستيلاء على كل مكان ليزول بالمرة أى احتمال لأنّ يشن العدو هجماته.

والحق لو عمل جيش الإمام عليه السلام بهذه الوصيّة فى صفين والتى أوردها الإمام عليه السلام قبل المعركة لخمدت فتنة بنى أمية إلى الأبد ولزال شبح ظلمهم وجور حكمهم عن المسلمين، ولكن واللأسف فقد سمعوا كل هذه الوصايا وضربوها عرض الحائط فتجرعوا مرارة تمردهم.

خاض المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه فى نهاية هذه الخطبة بشرح بعض مفرداتها الصعبة فقال:

الدعق: الدق، أى تدق الخيول بحوافرها أرضهم، ونواحر أرضهم: متقابلاتها ويقال:

منازل بنى فلان تتناحر أى تتقابل، انتهى كلام السيد الرضى.

ولكن فسّر أغلب أرباب اللغة النواحر بمعنى المناطق البعيدة وهذا ما يناسب الخطبة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۷۹

الخطبة[۳۳۰] المأة والخامسة والعشرون

اشارة

ومِنْ كَلام لهُ عليه السلام

فی التحکیم وذلک بعد سماعه لأمر الحكمين

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في السابق انّ هـذه الخطبـة وردت بصورة عامّة بشأن التحكيم بعد معركة صـفين، وهي تتألف من عدّة أقسام، فقد بيّن الإمام عليه السلام قبول التحكيم من خلال الاستدلال بالآيات القرآنية.

وفي القسم الثاني يتكفّل بالردّ على الاعتراضات

والقسم الثالث والأخير ينصـح الإمام عليه السـلام بالكفّ عن الخلاف وإعـداد أنفسـهم من أجل الوقوف بوجه ظلمـة الشام كما ذمّهم على ما أبدوه من تقصير واعتراض وعدم انضباط.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۸۱

القسم الأول: الردّ على الخوارج

اشارة

«إِنَّا لَمْ نُحَكِّم الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هـذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لَايَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ). فَرَدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا».

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فانّ الخطبة ردّ على اعتراض قبول الإمام عليه السـلام للتحكيم، ومضـمون كلام المعترضـين: لم قبلت تحكيم فردين في هـذا الأمر الـديني المهم؟ والحال لا حكم إلّاللّهوليس لعامة الأفراد من حق في الحكم في الوظائف الدينية، أمّا الإمام عليه السـلام فقد أشار في ردّه إلى نقطة مهمّة فقال:

«إِنَّا لَمْ نُحَكِّم الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ[۳۳۱]

بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ ۳۳۲]، لَايَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۸۲

إشارة إلى أنّ القرآن الكريم بيّن طائفة من الأحكام الكلية وعلى العالمين بالقرآن استنباط الأحكام الجزئية وإبلاغها إلى عموم الناس، أو بعبـارة أخرى تطبيق تلك الكليات على المصاديق، على سبيل المثال قال القرآن الكريم: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»[۳۳۳].

لا شك أنّ معركة صفين أحد مصاديق هذه الآية، ووظيفة الحكمين- إن كانا على الصواب وعالمين بالامور- أن يقولا: لمّا بايع الناس علياً عليه السـلام إضافة إلى نص النبي الأكرم صـلى الله عليه و آله عليه فانّ عامة الامة والصـحابة قد قبلت خلافته، فمن سلك غير هذا السبيل كان مصداقاً للباغي والظالم وعليه العودة إلى الامة و التوبة، فان أبي وجب على المسلمين مقاتلته حتى يرعوى عن غيه.

ومسألـة التحكيم لاـ تشـذ عن هـذا الأـمر، فهي ليست سوى مـا يقوم به قضـاة الإسـلام، أي أنهم يطبقون أحكـام الكتـاب والسـنّة على

مصاديقها ويصدرون الأحكام بهذا الخصوص، فهل هناك من اعتراض على هذا الكلام؟ للأسف لم يدرك الخوارج الجهال هذا المطلب الواضح ولم يدعهم تعصبهم وجهلهم ليفهموا ذلك فيعوا الهدف الأصلى من الحكومة.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى توضيح هذا المعنى قائلًا:

«وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّى عَنْ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ:

«فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ»[۳۳۴]».

فوضح الإمام عليه السلام الآية بالقول: «فَرَدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِى كِتَابِ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا».

ومن هنا فقد أثبت الإمام عليه السلام بوضوح أنّ تحكيم الكتاب والسنّة لا تعنى سوى الرجوع إليهما، ولما كنّا مأمورين بهذا الأمر، فليس لأحد أن يعترض علينا لم قبلنا التحكيم، فخطأ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۸۳

المعترض فى تصوره أننا قبلنا تحكيم الأشخاص، والحال إننا لم نقبل سوى تحكيم كتاب للّه.

وهنا سؤال يطرح نفسه: يفهم من كلام الإمام عليه السلام هذا أنّه قبل التحكيم على ضوء رغبته ورضاه ووظيفته الشرعية، والحال يفهم من عدّة خطب وردت فى نهج البلاغة أنّ التحكيم فرض على الإمام عليه السلام وكان ممتعظاً من هذا الأمر، فكيف يمكن حلّ هذا التناقض؟

نفحات الولاية ؛ ج۵ ؛ ص۱۸۳

دّ من القول فى الإجابة عن هذا السؤال أنّ الإمام عليه السلام لم يكن مخالفاً للتحكيم قط، بل كان الإمام عليه السلام يؤكد على أمرين: الأول: هو أنّ رفع المصاحف على أسنة الرماح كان خديعة ومؤامرة تهدف الحيلولة دون انتصار جيش الإمام عليه السلام فى اللحظات الأخيرة من المعركة، وإيجاد الفرقة والاختلاف بين صفوف عسكر الإمام عليه السلام، وإلّا فأهل الشام لم يكونوا مستعدين لقبول تحكيم القرآن الكريم، فلم يكونوا من أهل الدين ولا القرآن حسب تعبير الإمام عليه السلام ۳۳۵].

الأمر الآخر: هو أنّ الإمام عليه السلام كان معترضاً على أبى موسى الأشعرى كممثل له فى تحكيم القرآن، وعليه فليس هنالك من تناقض بين هذه الخطبة وسائر الخطب نهج البلاغة، والشاهد على ذلك ما فعله الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء طبق نقل أرباب المقاتل أنّه وضع المصحف على رأسه وخاطب أهل الكوفة:

«يا قَومِ إنّ بَينِى وَبَينَكُم كِتابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ جَدِّى رَسُولُ اللَّهِ»[۳۳۶].

قضية التحكيم

نعلم أنّ جيش معاوية حين أشرف على الهزيمة المنكرة فى صفين، فبادر عمرو بن العاص المعروف بمكره إلى توصية أهل الشام برفع المصاحف على أسنة الرماح والقول بالتسليم لحكمالقرآن، من جانبه قال الإمام عليه السلام بأنّ هؤلاء لا يسلمون لحكم القرآن وليس ذلك سوى خدعة بهدف منع تلك الهزيمة الحتميه، إلّاأنّ فئة من جهّال عسكر الإمام عليه السلام إلى جانب

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۸۴

المنافقين لم يسمعوا كلام الإمام عليه السلام وأصروا على إيقاف المعركة، حتى هددوا الإمام عليه السلام بالقتل، فلم يكن من الإمام عليه السلام وبهدف الحيلولة دون ذلك الاختلاف والشقاق وبحكم الإجبار إلّاأنّ أصدر أوامره بايقاف القتال.

ثم قالوا بوجوب انتخاب فردين من العسكرين لتحكيم القرآن، والعجيب أن طائفة منهم بعد ذلك وقفوا بوجه الإمام وهبّوا لمخالفته

والاعتراض عليه فى قبوله للتحكيم، الخطأ الآخر الذى بدر من الجهّال والمنافقين هو اختيارهم لأبى موسى الأشعرىالجاهل كحَكم وفرضوه على الإمام عليه السلام وهو الأمر الذى أدّى إلى تلك الانتكاسة المريرة والعجيب فى الأمر فئة بعد هذه الحادثة رفعت راية التمرد على الإمام عليه السلام معترضة على قبوله للتحكيم، فى حين هذا القرآن يصرّح قائلًا:

«إنِ الحُكْمُ إلّا للَّهِ»[۳۳۷]

، فكان من نتائج ذلك وقوع معركة أخرى عرفت بمعركة النهروان، وقد رجعت طائفة منهم إلى نفسها بعد أن سمعت كلام الإمام عليه السلام فتابت إلى اللَّه سبحانه، ولم تبق إلّافئة قليلة لم يكتب لها الدوام، وقد كان عمل الإمام عليه السلام واضحاً فى هذا الأمر للأسباب التالية:

۱- تحكيم القرآن فى حلّ الخلافات العالقة بين المسلمين ليس بخفى على أحد، وقد أمر القرآن المسلمين صراحة بالرجوع إلى كتاب اللَّه وسنّة نبيّه صلى الله عليه و آله فى حالة حدوث اختلاف بينهم (الآية ۵۹ من سورة النساء التى استشهد بها الإمام عليه السلام فى كلامه). وبناءاً على ما سبق فتحكيم القرآن واستناداً لعقيدة كافة المسلمين الذين للقرآن الكلمة الفصل فى حل المنازعات ليست بالأمر الذى يدعو إلى الاعتراض على الإمام عليه السلام، لكن لم يكن من اولئك الجهّال إلا أن يصوروا الأمر على أنّه نقطة ضعف فى الإمام عليه السلام.

۲- لا شك أنّ الذين أثاروا فتنة رفع المصاحف على أسنة الرماح لم يكن لهم من اعتقاد بحكم القرآن ولا الحق والعدل، بل لم يكن لساسة الكفر عديمى الإيمان من همّ سوى التسلط على الامة والهيمنة على إمكاناتها المادية، وقد كشف الإمام عليه السلام اللثام منذ البداية عن كنه هذه المؤامرة، ولكن ما جدوى ذلك حيال الجهّال الذين رفضوا منطق الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۸۵

۳- قطعاً ليس للقرآن من دور فى التحكيم من خلال نفسه، وإنّما يتسنى ذلك بواسطة أهل الذكر العالِمين بالقرآن فيجتهدون فى استنباط أحكامه فى كل مسألة وإبلاغها إلى الناس، ولو حصل هذا الأمر فى حادثة صفين لتبيّن أنّ عسكر معاوية مشمولون بالآية التاسعة من سورة الحجرات القائلة:

«فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ...»

فينبغى إدانتهم بصفتهم بغاة طغاة هبّوا للوقوف بوجه إمام المسلمين والحكومة الإسلامية.

والمؤسف أنّ الحكمين هما أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص اللذان ليس لهما من علم بالقرآن، ونهض بالأمر من هو عارف بالقرآن، فانّ ذلك ليس خلافاً فحسب، بل يمثل عملًا بالقرآن وأحكامه، لكن حيث لم تحصل الشرائط اللازمة فى أية مرحلة، وكانت النتيجة مريرة على تلك الفئة الجاهلة، فعمدت إلى لوم الإمام عليه السلام بدلًا من ذمّها لنفسها، فلم تعمد لإصلاح منظرها، بل اتجهت إلى كسر المرآة، طبعاً لا ينبغى تصور قضية التحكيم على أنّها ترتبط بحادثة تاريخى عابرة، بل هى قضية تكرر فى مختلف العصور والأزمنة وحتى فى عصرنا الحاضر، فهناك من يتستر خلف بعض المقدسات من ثم يحملوها بعض القراءات الخاطئة عن علم وبدونه ويختارون ما يتماشى ومصالحهم اللامشروعة.

فلعمروا بن العاص وأبو موسى الأشعرى- هذان الجاهلان- أشباههما فى كل زمان، وأما أكثر ما تتكرر واقعة صفين وحمل المصاحف على السنان والتحكيم التى تتخذ لنفسها صوراً مختلفة، فلا تتمخض سوى عن النتائج التى تؤدّى إلى مظلومية من يسير على النهج العلوى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۸۷

القسم الثانى: لستم من أهل الجهاد

اشارة

«وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِی التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ؛ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ فِی هذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هذِهِ الْأُمَّةِ؛ وَلَاتُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا، فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَیِّ. إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ- وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ- مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ. فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ! اسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَايُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لَايَعْدِلُونَ بِهِ، جُفَاةٍ عَنِ الْكِتَابِ، نُكُبٍ عَنِ الطَّرِيقِ. مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا، وَلَا زَوَافِرِ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ! أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً، يَوْماً أُنَادِيكُمْ وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ، فَلَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ

[[القَاء]]

، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجاءِ!».

الشرح والتفسير

يتألف كلام الإمام عليه السلام فی الواقع من قسمين: الأول يعالج شبهات الخوارج وأمثالهم، ثم يحثهم على جهاد ظلمة الشام، فكلام الإمام عليه السلام فی القسم الأول إشارة إلی ميثاق التحكيم الذی وقع بين الإمام عليه السلام ومعاوية (وسيأتی شرح ذلك فی موضوع تأملات) وعلى ضوء العهد فقد منح الحكمان مدّة سنة لحلّ اختلاف الامة دون التسرع فی ذلك، والمعترضون الجهّال يشكلون أحياناً على أصل التحكيم والذی أجاب عليه الإمام عليه السلام فی القسم السابق من الخطبة، وأحياناً أخرى كانوا يشكلون على تفاصيله، أی مسألة المدّة، ومن هنا ردّ الإمام عليه السلام على الإشكال

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۸۸

الأخير بالقول:

«وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِی التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذِلكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ [۳۳۸] الْعَالِمُ».

ثم أضاف:

«وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ فِی هذِهِ الْهُدْنَةِ[۳۳۹] أَمْرَ هذِهِ الْأُمَّةِ؛ وَلَاتُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا[۳۴۰]،

فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَیِّ».

فقد بيّن الإمام عليه السلام عدّة فوائد للأجل الوارد فی مسألة التحكيم،

الأولى:

أن يتريث الجهّال ويكفّوا عن شططهم وتعصبهم ويحققوا فی المسألة المصيرية، والأخرى: أنّ يقوم القوم علماء الامّة من أصحاب علی عليه السلام بدراسة جوانب المسألة ويختاروا ما ينطوی على الحدّ الأدنى من الخسائر ويهدوا الحكمين لانتخاب الصحيح، والثالثة: التفكير خلال هذه المدّة فی الطرق التی تتكفّل بإصلاح أمر الامة بصورة كلية واجتناب الأفعال المتسرعة التی تقود إلی الضلال، والغريب فی الأمر التسرع والطيش الذی مارسه الخوارج الجهّال بهذا الشأن ليعرضوا مصير الامة للخطر دون أدنى دراسة وتحقيق، وهذا هو ديدن الجهّال من الأفراد فی كل عصر ومصر.

أمّا العبارة:

«لَاتُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا»

فهی كناية عن الحرية من أجل المطالعة واتخاذ القرار والانتخاب، وهی كناية فصيحة وبليغة. والعبارة:

«تَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْغَیِّ»

إشارة إلی أنّ التسرع فی القرار ضلالة عادة.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بأول الغى رفع المصاحف على أسنة الرماح التى تعدّ أول خطوة فى الضلال ۳۴۱]، ويبدو التفسير الأول بقرينة الجملة التى سبقتها أنسب.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى نصحهم ووعظهم بالانقياد للحق وعدم مجابهته بالتعصب واللجاجة وملاحظة المنافع الشخصية، فقال:

«إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ- وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ ۳۴۲]- مِنَ الْبَاطِلِ وإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۸۹

الواقع إنّ علامة المؤمن الحقيقى هى هذه، يعنى ان وقف على مفترق طرق بحيث كان الحق فى جانب والمنافع الشخصية فى جانب آخر، ولى ظهره لمنافعه الشخصية واندفع نحو الحق، وإلّا فلا فخر فى تعصب الإنسان للحق الذى ينسجم مع حفظ مصالحه الشخصية، ومن هنا ذمّ القرآن الكريم طائفة من اليهود التى عملت على هذا الضوء فقالوا: «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ...»[۳۴۳]، كانت تلك الطائفة تذعن للقوانين الموافقة لميلها ورغبتها وتحقق منافعها، بينما تتمرد على تلك التى تتعارض ورغباتها، والحق إنّ مثل هذا التفكيك لا- يعنى عبادة اللَّه سبحانه، بل عبادة الهوى، ويصدق هذا الكلام على الأفراد الذين يهبّون لنصرة الباطل بدافع التعصب واللجاجة ودعم الأصدقاء والقرابة، وقد ورد مثل هذا الكلام عن على عليه السلام فى خطابه لعمرو بن العاص حيث أقسم أنّه يعرف الحق، إلّاأنّه يتجاهله، ولم يدفعه للإلتحاق بصفوف أعداء اللَّه سبحانه سوى منافعه ۳۴۴].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

«فَأَيْنَ يُتَاهُ ۳۴۵] بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ ۳۴۶]!».

آنذاك دعاهم لجهاد القوم الظالمين، وقد نعتهم بخمس صفات سلبية تتمثل بحيرتهم عن الحق وعدم رؤيته وقد شجعوا على الظلم و الجور، ومن هنا فلا يسعهم الاقلاع عنه، وقد ابتعدوا عن كتاب اللَّه وانحرفوا عن الصراط، رغم حملهم المصاحف ووضعها على الرماح وكلامهم عن تحكيم القرآن الكريم: «اسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ ۳۴۷] بِالْجَوْرِ لَايَعْدِلُونَ بِهِ، جُفَاةٍ عَنِ الْكِتَابِ، نُكُبٍ ۳۴۸] عَنِ الطَّرِيقِ».

وهكذا أشار الإمام عليه السلام إلى إننا نمتلك خمسة أدلّة قاطعة إن أردنا قتال هؤلاء وكل واحد من هذه الأدلة يكفى سبباً لقتالهم!

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۰

فقد حادوا عن الصواب وانحرفوا عن الصراط، ولا يكترثون للقرآن الكريم، اعتادوا على الظلم والجور، وقد عجزت أعينهم عن رؤية الحق فأصبحوا يدورون حول ذواتهم.

ثم لهج لسان الإمام عليه السلام بالشكوى فى عباراته الأخيرة وعرضّهم لأشدّ الذمّ واللوم، لعلهم يفيقون إلى أنفسهم ويعيدون النظر فى أعمالهم فقال:

«مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا، وَلَا زَوَافِرَ[۳۴۹]

عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشُ ۳۵۰] نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ!».

ثم شدد عليه السلام فى تقريعهم فقال:

«أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً[۳۵۱]، يَوْماً أُنَادِيكُمْ وَيَوْماً

أُنَاجِيكُمْ، فَلَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ

[[الْقَاء]]

، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ[۳۵۲]!».

فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى حقيقة فى هذه العبارات وهى إن كانت هنالك من مشكلة قد ظهرت فى أمر الجهاد وحكومته عليه السلام فانّما مرد ذلك إلى عدم كفاءة جمع من صحبه، وذلك لأنّهم كانوا يبدون الضعف والوهن فى كل ميدان يطرقه الإمام عليه

السلام، ومن الطبيعى أنّ هناک ضرورة للصولة المقتدرة فى بداية المعركة والتى ينبغى أن تحصل من قبل الرجال الأشداء والشجعان والمخلصين، ولم يكن من ينهض بهذا الدور فى معسكر الإمام عليه السلام، من جانب آخر فان القائد حين ينادى أن أحملوا! فلابدّ من حركة الجميع بشكل منسجم، إلّاأنّهم كانوا أضعف وأوهن من ذلك، وإن كانت هناک من خطط حربية يطلعون عليها بصورة سرية، لابدّ أن يجدوا ويجتهدوا فى حفظها، إلّاأنّهم لم يكونوا من حفظة الأسرار ويوثق بهم، وعليه لا يبدو من الصواب توقع حصول نصر خاطف فى ظلّ وجود مثل هؤلاء الأفراد، والعجيب فى الأمر فانّ مثل هؤلاء الأفراد وبهذا المدى من الضعف والوهن حين يصابون بفشل، فهم يوعطونه إى الخارج ويحملوا الإمام عليه السلام مسؤولية زلاتهم دون أن يهموا ويفتشوا عن أسباب ذلک فى أنفسهم، وهذه مشكلة كبرى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۱

تأمّلان

۱- عهد صفين

حين استغل ظلمة الشام قضية رفع المصاحف على أسنة الرماح وخدعوا بها أهل العراق، ففرض الصلح على أميرالمؤمنين على عليه السلام كتب هذا العهد بين الفريقين:

«هذا مَا تَقاضى عَلَيهِ عَلَيٍّ بن أَبِى طَالب ۳۵۳] وَمُعاوِيةُ بنْ وأَبِى سُفيانِ، قاضِى عَلَى

بن أَبِى طَالبٍ عَلَى أَهْلِ العِراقِ وَمنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ شِيعَتِهِ مَنَ المُؤمِنِينَ وَالمِسلِمِينَ وَقاضِى مُعاوِيةُ بنْ وأَبِى سُفيانِ عَلَى أَهْلِ الشّام وَمنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ شِيعَتِهِ مَنَ المُؤمِنِينَ وَالمِسلِمِينَ أَنّا نَنْزِلَ عِنْدَ حُكم اللّهِ وَكِتابِهِ وَلا يَجمَعُ بَينَنا إلّاإيّاهُ وإنَّ كِتابَ اللّهِ سُبحانَهُ بَينَنا مِنْ فَاتِحَتِهِ إلى خاتِمَتِهِ نُحيى مَا أَحيا القُرآنُ ونُمِيتُ مَا أَماتَ القُرآنُ فإنْ وَجِدَ الحَكَمانِ أَنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابَ اللّهِ إِتَّبعَنَاهُ وإن لَمْ يَجِداه أَخَذا بِسُنَّةِ العادِلَةِ غَيرِ المُفَرِّقَةِ وَالحَكَمَانِ عبْدَاللّهِ بن قَيْسِ وَعَمرو بنْ العاصِ»[۳۵۴].

وقد نقل هذا الصلح أو العهد (أو مهما سميته) فى مختلف الكتب مع اختلاف طفيف، وكلها تشير إلى أنّ المسألة كانت مسألة تحكيم القرآن الكريم لا ـ تحكيم الأشخاص، وبعبارة أخرى فانّ الأشخاص كانوا مكلّفين باستنباط ما فى القرآن بهذا الشأن وتطبيقه على مصاديقه، بينما اعتبرها الخوارج تحكيم للأفراد فى دين اللّه فأثاروا مختلف الويلات والمأسى التى أفرزتها الجهل والحماقة.

۲- حوار الإمام عليه السلام مع الخوارج

روى أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام أرسل عبداللّه بن عباس إلى الخوارج وكان بمرآى منهم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۲

ومسمع ليسألهم ما الذى نقموا عليه؟ فقالوا فى الجواب: نقمنا يابن عباس على صاحبک خصالًا كلها موبقة مكفرة تدعو إلى النار:

أمّا أولها: فانّه محى اسمه من إمرة المؤمنين، ثم كتب بينه وبين معاوية فإذا لم يكن أمير المؤمنين فنحن المؤمنون فلسنا نرضى أن يكون أميرنا.

وأمّا الثانية: فانّه شک فى نفسه حين قال للحكمين: انظر فانّ كان معاويه أحق بها فأثبتاه، وإن كنت أولى بها فأثبتانى، فاذا هو شک فى نفسه، فنحن فيه أشدّ شكاً.

والثالثة: أنّه جعل الحكم إلى غيره وقد كان عندنا أحكم الناس.

الرابعة: أنّه حكّم الرجال فى دين اللَّه ولم يكن ذلك إليه.

الخامسة: أنّه قسم بيننا الكراع والسلاح يوم البصرة ومنعنا النساء والذرية.

السادسة: أنّه كان وصيّاً فضيّع الوصيّة.

قال ابن عباس: قد سمعت يا أمير المؤمنين مقالة القوم فأنت أحق بجوابهم. فقال عليه السلام: نعم، ثم قال له: قل لهم بابن عباس أترضون حكم اللَّه ورسوله؟ فقالوا: بلى، ثم قال: أمّا الاولى فقد كتبت عهد الصلح يوم الحديبية «بسم اللَّه الرحمن الرحيم هذا ما اصطلح عليه رسول اللَّه وأبوسفيان وسهيل بن عمرو» فقال سهيل: إنا لا- نعرف الرحمن الرحيم أولًا، وثانياً ولا نقرّ أنّك رسول اللَّه، وثالثاً ولكنّا نحسب ذلك شرفاً لك أن تقدّم اسمك قبل أسمائنا. إن كنّا أسن منك، فأمرنى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن أكتب بدلًا من «بسم اللَّه الرحمن الرحيم» «بسمك اللهم» وبدلًا من «رسول اللَّه» «محمد بن عبداللَّه»، ثم قال لى: إنّك تدعى إلى مثلها فتجيب وأنت مكره، وهكذا كتبت بينى وبين معاوية وعمرو بن العاص، فقال الخوارج: هذه لك خرجت منها.

وأمّا الثانية إنّى شككت فى نفسى حيث قلت للحكمين: انظروا فان كان معاوية أحق بها منى فأثبتاه، فان ذلك لم يكن شكا منّى فقد قال القرآن: «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»[۳۵۵].

ولم يكن ذلك شكاً وقد علم اللَّه أنّ نبيّه على الحق، فقالوا: وهذا لك، وأمّا قولكم أنّى جعلت الحكم إلى غيرى وقد كنت عندكم أحكم الناس، فهذا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قد جعل الحكم إلى سعد

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۳

يوم بنى قريظة وقد كان أحكم الناس، وقد قال اللَّه تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً»[۳۵۶]، قالوا: وهذه لك بحجتنا، قال وأمّا قولكم إنّى حكمت فى دين اللَّه الرجال، فما حكّمت الرجال ولكن حكّمت كلام ربّى فقال فى الصيد عند الاحرام:

«وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ»[۳۵۷]

، فدماء المسلمين أعظم من دم طائر، قالوا: وهذه لك، قال وأمّا قولكم: إنّى قسمت يوم البصرة الكراع والسلاح ومنعتكم النساء والذرية، فانى مننت على أهل البصرة كما منّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على أهل مكة، وبعد فأيّكم كان يأخذ عائشة فى سهمه، قالوا: وهذه لك بحجتنا قال وأمّا قولكم إنّى كنت وصيّاً فضيّعت الوصيّة، فأنتم كفرتم وقدّمتم علىَّ وأزلتم الأمر عنّى ...

قالوا: وهذا لك وإثر ذلك رجع بعضهم وبقى منه أربعة آلاف فقاتلهم فقتلهم.[۳۵۸]

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۵

الخطبة[۳۵۹] المأة والسادسة والعشرون

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام
لمَّا عُوتِبَ على التَّسوِيَةِ فِى الْعَطاء

نظرة إلى الخطبة

يبدو الهدف من هذه الخطبة كما يفهم من عنوانها هو جواب الإمام عليه السلام لمن أشار عليه باغداق أموال بيت المال على الأشراف

وزعماء القبائل الذين يمكنهم التأثير على الحكومة، فيعطيهم سهماً أكثر من غيرهم ويميزهم بالعطاء، وذلك من أجل ترسيخ حكومته، وقد تضمنت إجابة الإمام عليه السلام الإشارة إلى أمرين:

الأول: ليس لى قط ترسيخ دعائم حكومتى من خلال الظلم والجور والتمييز بين الناس وإعطاء حق أحد لآخر، فلا يسعنى بلوغ الحق والعدل بواسطة المعصية.

الثانى: أنّ من يمارس هذا الفعل فانّ عاقبته جحود اولئك الأفراد الذين أغدق عليهم.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۷

«أَتَأْمُرُونِّى أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللَّهِ لَاأَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِى السَّمَاءِ نَجْماً! لَوْ كَانَ الْمَالُ لِى لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ! أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِى غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِى الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِى الْآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِى النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ. وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِى غَيْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَأَلْأَمُ خَدِينٍ!».

الشرح والتفسير

المنصب والعدالة

أورد المرحوم الكلينى فى بداية نقله لهذه الخطبة عن أبى مخنف أنّ جماعة من شيعة أميرالمؤمنين عليه السلام اقترحوا على تقسيم أموال بيت مال المسلمين على الزعماء والأشراف (فى أن يعطيهم من سهمهم) لتستقر الحكومة ومن ثمّ يعود إلى التسوية فى العطاء، فانزعج الإمام عليه السلام وأورد هذه الخطبة ليوضح لهم عدم إمكانية الوصول إلى هدف مقدّس من خلال وسيلة ليست مقدّسة، فهذ الأمر لا ينسجم مع تعاليم الإسلام فقال:

«أَتَأْمُرُونِّى أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ!».

أو ليس الهدف من الحكومة هو بسط العدل والقسط؟ كيف تقترحون علىّ تثبيت هذه الحكومة بالظلم والجور؟ هذا تناقض واضح للعيان، وهو أمر لا يرتضيه الحق تبارك وتعالى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۱۹۸

ثم أضاف عليه السلام قائلًا:

«وَاللَّهِ لَاأَطُورُ[۳۶۰] بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ[۳۶۱]، وَمَا أَمَ ۳۶۲] نَجْمٌ فِى السَّمَاءِ نَجْماً!».

فقد بيّن الإمام عليه السلام رسوخ عزمه بهذا الشأن بعبارات صريحة وقوية، فهو يقسم من جانب، ويستعمل العبارة لا أطور من جانب آخر، والمراد ليس فقط لا أفعل هذا، بل لا أقاربه ولا أحوم حوله، إلى جانب ذلك أشار إلى الحركة المتواصلة والأبدية للنجوم فى السماء والليل والنهار فى الأرض، كناية عن مراده لو كان عمرى خالداً فلست مستعداً للمارسة مثل هذا الظلم والتميز، ثم أكّد ذلك بقوله:

«لَوْ كَانَ الْمَالُ لِى لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ!».

فالعبارة وإن بدت صعبة على الأفراد الذين ليس لهم بُعد نظر واولئك الذين يضحون بالحق والحقيقة من أجل المصلحة، إلّاأنّ الحق هو أنّ هذه العبارة إنّما تتفق وسنّة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وتعاليم القرآن الكريم والقيم الإسلامية العليا، وهذا ما سنعرض له فى البحث القادم.

ثم أشار الإمام على عليه السلام إلى مفاسد الظلم والجور والتقسيم غير العادل لأموال بيت المال فقال:

«أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِی غَیْرِ حَقِّهِ تَبْذِیرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ یَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِی الدُّنْیَا وَیَضَعُهُ فِی الْآخِرَهِ، وَیُکْرِمُهُ فِی النَّاسِ وَیُهِینُهُ عِنْدَ اللَّهِ».
قد یکون التبذیر والاسراف بمعنی واحد ویرادف کلّ منهما الآخر تارهٔ، وتارهٔ أخری بمعنیین، لأنّ التبذیر بالمعنی الواقعی یختلف عن الاسراف، فالتبذیر من مادهٔ بذر بمعنی نثر البذور وتستعمل حین یضیع الإنسان نعمهٔ اللَّه ویطرحها جانباً، وبعبارهٔ أخری ینفق الأموال فی غیر موضعها، أمّا الاسراف فهو المبالغهٔ فی إستهلاک النعم بحیث یخرج من حالهٔ الإعتدال

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۱۹۹

دون أن یضیع شیئاً ظاهریاً، کأن یعد طعاماً کثیراً للغایهٔ وفاخراً لبضعهٔ أفراد، بینما یمکن إطعام عشرات الأفراد بتلک القیمهٔ، فقد أشار الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من خطبته إلی الآثار المعنویهٔ السیئهٔ لصرف الأموال فی غیر مواضعها، حیث یمکن أن یحظی الإنسان فی ظلها بمکانهٔ معینهٔ إلی أجل بین الناس، بینما یسقط بالمرء أمام اللَّه ویعرض نفسه لأشد العقاب فی یوم الجزاء، وأمّا نعته مثل هذا العطاء بالتبذیر والاسراف، فذلک لأنّه یؤدّی إلی اشاعهٔ التبذیر والإسراف فی وسط المجتمع، فاولئک الذین یأخذون أکثر من الحدّ اللازم، لا یسعهم غالباً إفاضهٔ جزء منه علی الآخرین، کما لا یستطیعون احتماله بأنفسهم، فلا مناص من بروز حالهٔ التبذیر والإسراف.

ثم إختتم الإمام علیه السلام خطبته بالإشارهٔ إلی الآثار الدنیویهٔ السیئهٔ لذلک العمل فقال:

«وَلَمْ یَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِی غَیْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَیْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ شُکْرَهُمْ، وَکَانَ لِغَیْرِهِ وُدُّهُمْ.
فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ یَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَی مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِیلٍ وَأَلْأَمُ خَدِینٍ ۳۶۳]!».

والعبارهٔ ألأم خدین إشارهٔ إلی أنّ اولئک الأفراد الذین أحسن إلیهم لیس فقط لا یقدمون المساعدهٔ لمن أحسن إلیهم فی یوم عوزه فحسب، بل تبلغ بهم الوضاعهٔ واللؤم أن یتحولوا إلی ذامّین، أمّا ما فهمه بعض شرّاح نهج البلاغهٔ من أنّ العبارهٔ تعنی اللوم والتوبیخ، فلعل ذلک کون الصدیق هو المصداق الواضح للوضاعهٔ حین الحاجهٔ، وقد دلّ التاریخ والتجارب الشخصیهٔ کراراً ومراراً علی أن أغلب الظلمهٔ والأثریاء الذین یغدقون الأموال علی أصدقائهم، لم یمهد أحد لهم ید العون حین ذاقوا وبال أعمالهم، بل نفر عنهم أقرب أصدقاؤهم القدماء، ولعل بیت الشعر المعروف للشاعر المشهور حافظ الشیرازی والذی تتناقله الألسن ومضمونه «أنی لم أتأثر قط بما یفعله الأجانب، بقدر ما أتأثر مما یفعله الصدیق) إشارهٔ إلی هذا المعنی.

بحث فی اسلوب تقسیم العطاء

یستفاد من هذه الخطبهٔ الشریفهٔ أنّ الإمام علیه السلام کان شدید الحرص علی تقسیم أموال بیت

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۲۰۰

مال المسلمین بینهم بالسویهٔ دون أن یکون هناک أدنی امتیاز لشریف علی وضیع وشخصیهٔ سیاسیهٔ واجتماعیهٔ وحتی السابقین فی الإسلام، بل حتی أهل الحاجهٔ علی أحد من الناس، وهذا ما کانت علیه الحال علی عهد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ویبدو أنّه کان النهج الذی اعتمده الخلیفهٔ الأول أیضاً، حتی خلافهٔ عمر حیث إتّبع التمییز والاخذ بنظر الاعتبار الامور السیاسیهٔ والاجتماعیهٔ فی تقسیم بین المال.

قال ابن أبی الحدید: أمّا عمر فانّه لما ولّی الخلافهٔ فضل بعض الناس علی بعض، ففضّل السابقین علی غیرهم، وفضّل المهاجرین من قریش علی غیرهم من المهاجرین، وفضّل المهاجرین کافهٔ علی الأنصار کافهٔ، وفضلّ العرب علی العجم، وفضّل الصریح علی المولی، وقد کان أشار علی أبی بکر فی أیّام خلافته بذلک، فلم یقبل وقال هذا خلاف کتاب اللَّه، ولما ولّی عثمان الخلافهٔ بلغ التمییز قمته، فقد فضّل آنذاک کافهٔ قرابته وبطانته، فقسم بینهم أغلب أموال بیت المال ۳۶۴]، وقد ذکر العلّامهٔ الأمینی رحمه الله فی المجلد الثامن من کتابه الغدیر الصفحهٔ (۴۸۶) عنواناً أسماه (الفوضی فی مال اللَّه) جمع فیه الأرقام الدقیقهٔ التی روتها مختلف مصادر العامّهٔ بشأن

هباته إلى قبيلته وأعوانه، وهى الأرقام التى تـذهل كلّ إنسان حين يتأملها، فكان هذا أحد العوامل التى دعت الناس للقيام عليه، كما أنّ رفع هـذه الامتيـاز من قبـل الإمـام عليه السـلام كان أحـد العوامل التى جعلت زعماء القبائل يتمردون عليه (كما يفهم من هـذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة)[۳۶۵].

والطريف فى الأـمر أنّ أصـحاب الإمتيـازات فى ذلـك الزمان لم يخفوا هـذا الأمر، كما نقل ذلك الطبرى فى تاريخه، حيث قال رجل لأبى عبدالرحمن السلمى (الذى كان معروفاً آنذاك)[۳۶۶]:

ناشدتك اللَّه متى عاديت علياً عليه السلام أليس ذلك حين قسم العطاء ولم يعطك وأهلك شيئاً (وقد استغلوا بيت المال قبل ذلك)؟

قال أبو عبدالرحمن: بلى هو كذلك.[۳۶۷]

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۰۱

على كلّ حال لابدّ من بحث جذور مسألة المساواة التى تأكدت على عهد رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله وعلى عليه السـلام، قطعاً إن ذلك يعود إلى ماهية الأموال التى كانت ترد بيت المال، وتوضيح ذلك أنّ الأموال التى كانت ترد بيت المال تستند إلى نواحى:

الأـولى: غنـائم الحرب وتعلم أنّ ليس هناك أى تفاوت بين المقاتلين بخصوص الغنائم الحربيـة، سوى أنّ الفارس كان يأخـذ ضـعف الراجل (بسبب التكاليف المتعلقة بالمركب، فهم الذين كانون يعدونه، إضافة إلى دور الفارس مقارنة بدور الراجل فى المعركة).

الثانيـة: أموال الخراج وهى الأموال المتعلقة بالأراضـى الإسـلامية والتى كانت تشـكل أغلب بين المال على عهد الخلفاء، فهذه الأموال تتعلق بجميع المسـلمين ولابـدّ من تقسيمها بالسويـة عليهم، وذلك لأنّ أراضـى الخراج ملك لعامّـة المسـلمين وينبغى توزيعها عليهم بالسوية، حيث يتقسم دخل الملك المشاع بالتساوى على جميع المالكين، لأنّ سهم ملكية الجميع متساوى.

الثالثـة: الجزيـة والأـموال التى تجبى من غير المسـلمين إزاء ما يتمتعون به من دعم وحمايـة من جانب الحكومـة الإسـلامية إلى جانب حفظ أموالهم وأعراضهم، ويرى طائفه من كبار الفقهاء أنّ مصاريف الجزية هى مصارف الخراج المتعلقة بجميع المسلمين.

الرابعـة: الزكاة التى تفرض على بعض الأجناس بمقـدار معين وقـد تكفل القرآن الكريم ببيان مصاريفها الثمانيـة، وقـد قسـمت بصورة عامّـة إلى الفقراء، والمسـاكين، حسب حـاجتهم وفى موارد مصـاريف الجهاد حسب الحاجات، وعليه فالمعيار فى تقسـيمها الحاجـة لا المساواة.

الخامسـة: الخمس وهى الأـموال المفروضـة على كافـة الإـيرادات بعـد طرح التكـاليف ومخـارج السـنة، وعلى وضوء ما أورده القرآن الكريم والروايـات فـانّ الخمس نصـفان، نصف يتعلق بأهـل الحاجـة من بنى هـاشم، والنصف الآخر بإمام المسـلمين والـذى ينفقه فى حاجيات الحكومة الإسلامية.

السادسـة: الأنفال التى تشـمل جميع الأموال التى ليس لها ملكيـة خاصـة كالأراضـى الموات والبساتين وبعض المعادن وسواحل البحار والأرضـى البوار التى غادرها أصـحابها وانصـرفوا عنها، فهى الأخرى جزء من أموال الدولة وتتعلق بجميع المسـلمين، ولكل مصدر من المصادر

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۰۲

الست الماضية بحث مفصّل ورد فى الكتب الفقهية مثل كتاب الخمس وكتاب الزكاة وكتاب الجهاد.

وهنا يطرح هذا السؤال: أى من هذه الأموال الست التى ينبغى توزيعها بصورة مساوية بين المسـلمين وقد عمل بذلك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله واسـتمر العمل بها حتى فى زمان الخليفة الأول، وواصـلها الإمام على عليه السـلام إحياءً للسـنّة بعدما إندرست على عهد الخليفة الثانى والثالث؟

يبـدو أنّ تلـك الأـموال هى أموال الخراج (ويحتمـل إلحـاق الجزيـة بهـا) والتى كانت تشـكل فى ذلك الزمان القسم الأعظم من بيت المال، وقـد كانت إلى درجـة من الكثرة بحيث لم تكن هناك من أهميّـة لسائر موارد بيت المال فى مقابلها، ولذلك فانّ أحد البرامج

الرئيسـية للولاة الذين يتجهون إلى مختلف المناطق جباية الخراج، ويستفاد هذا المعنى من أغلب الرسائل الواردة فى نهج البلاغة، ومن ذلك عهد الإمام عليه السلام إلى مالك الأشتر رضى الله عنه ورسالته عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة (الرسالة ۵۳ و ۴۳).

وبناءاً على ما تقـدم فانّ وزع قسم آخر من أموال بيت المال بصورة غير متساويـة على أساس مصالـح المسـلمين والحكومـة الإسـلامية على ضوء المدارك الفقهية، فليس هناك من منافاة مع ما ورد فى هذه الخطبة وأمثالها.

أضف إلى ذلـك فـانّ هناك تقسـيماً لأموال بين المال على أساس مصالـح المسـلمين والخـدمات التى يقوم بها بعض الأفراد، لا على أساس المصالـح الشخصـية كما كان يفعل ذلك معاويـة، حيث كان يشترى زعماء القبائل بما يغدق عليهم من أموال، حتى كان يغرر ببعض الأفراد ضـعاف الإيمان من جيش الإمام عليه السلام فيغريهم بما ينفقه عليهم من أموال كثيرة[۳۶۸]، وهذا بحدّ ذاته يمثل جناية عظمى لا يمكن تداركها والإغماض عنها، وقد كان الإمام عليه السلام كما ورد فى هذه الخطبة يتنفر من هذا العمل، وقد غضب بشدّة على من اقترح عليه استمالة الأشراف وزعماء القبائل بالأموال.

وبـالطبع فانّ هـذه مدرسـة الأحرار والأتقياء الأوفياء التى كانت وما زالت تتضاد ومدرسـة سماسـرة السـياسة وعبـدة المناصب وأسـرى الأهواء.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۰۳

الخطبة[۳۶۹] المأة والسابعة والعشرون

اشارة

وَمِنْ كَلام لهُ عليه السلام

وفيه يبيّن بعض أحكام الدين

ويكشف للخوارج الشبهة وينقض حكم الحكمين

نظرة إلى الخطبة

خاطب الأمام عليه السـلام الخوارج بهـذه الخطبـة، رغم عموميـة نفع الخطبـة، تتألف الخطبة من عدّة أقسام، فنّد الإمام عليه السـلام فى القسم الأـول عقيـدة الخوارج فى تكفير مرتكب الكبيرة وحكمهم بقتـل عامّـة امّـة النبى صـلى الله عليه و آله، وذلك من خلال الأدلة المحكمـة، وأشار عليه السـلام فى القسم الثانى إلى غفلـة الخوارج وجهلهم وسـلوكهم المفرط فى عـدوانهم، بينما أفرط البعض الآخر منهم فى موالاتهم، فكلاهما على ظلالـة، والقسم الثالث تضـمن التأكيـد على متابعة جميع المسـلمين وعدم الإنفراد عنهم والتحذير من الفرقة، وأنّ شـعار الخوارج هو شعار مضل وخطير، وأخيراً القسم الرابع وهو إشارة إلى خطأ الحكمين، كما يوضح أن وظيفة الحكمين العمل بأحكام القرآن، ولكنّهم ضلوا الطريق، وعليه فليست هنالك أية قيمة لحكمهم.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۰۵

القسم الأول: العنف الهمجى للخوارج

اشارة

«فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِضَلَالِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ

اللَّهِ صلى الله عليه و آله رَجَمَ الزَّانِیَ الُمحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّی عَلَیْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ؛ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِیرَاثَهُ أَهْلَهُ.

وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِیَ غَیْرَ الُمحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَیْهِمَا مِنَ الْفَیْءِ، وَنَکَحَا الْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِیهِمْ، وَلَمْ یَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ یُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَیْنِ أَهْلِهِ».

الشرح والتفسیر

هـذا المقطع من الخطبهٔ ناظر إلی الردّ علی شبهات الخوارج التی لحقت بهم بفعل جهلهم وتعصبهم وتقلیدهم الأعمی، فهم یعتقدون بکفر من إرتکب الکبیرهٔ، والکافر یجب قتله، فقد صنعوا لأنفسهم صغری وکبری وعلی أساسهما أجازوا لنفسهم قتل أی فرد من أصحاب علی علیه السلام أینما وجدوهم، ومن هنا حمل هؤلاء الضالون المتعطشون لدماء الأبریاء سیوفهم علی عواتقهم لیسفکوا دماء من شاءوا من الأبریاء فی مختلف مناطق البلاد الإسلامیهٔ، فأتوا بالأفعال الشنیعهٔ التی یندی لها جبین التاریخ، نعم لقد ابتکروا لأنفسهم صغری وکبری وقالوا:

إن علیاً علیه السلام قبل تحکیم الأفراد فی مقابل القرآن، وعلیه فقد إرتکب الذنب، وکل من إرتکب الذنب فهو کافر، واتباع علی علیه السلام کذلک فهم کفرهٔ، والکافر یجب قتله وقد رد الإمام علی علیه السلام

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۲۰۶

بالعبارهٔ المذکورهٔ علی خطأهم لیتم الحجهٔ علیهم، فلو فرض (وفرض المحال لیس بمحال) أنّه ضل فما الذی یدعو إلی الحکم بضلالهٔ کافهٔ امّهٔ محمد صلى الله عليه و آله بضلاله:

«فَإِنْ أَبَیْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّی أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّهَٔ أُمَّهِٔ مُحَمَّدٍ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وَآلِهِ، بِضَلَالِی، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِی، وَتُکَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِی!».

ثم واصل کلامه بالقول:

«سُیُوفُکُمْ عَلَی عَوَاتِقِکُمْ ۳۷۰] تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ،

وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ یُذْنِبْ».

فهذا العبارات تتضمن إشارهٔ إلی عدّهٔ أجوبهٔ: الأول بطلان التصور القائم علی أنی أحطأت وضللت، فأولًا: أنّی قبلت التحکیم بفعل ضغوطکم، وثانیاً: لو تمّ التحکیم بصورهٔ صحیحهٔ لکان مطابقاً للقرآن، فالواقع أنّ الحکم هو القرآن، ومن ینهض بالتحکیم إنّما یرجع إلی القرآن ویستنبط منه حکم اللَّه سبحانه، فیطبق الکلیات علی مصادیقها، کما مرّ ذلک فی الخطب السابقهٔ، وعلیه فلیس هنالک من عمل مخالف حکم اللَّه حتی یؤدّی إلی الخطأ والضلالهٔ، ثالثاً:

علی فرض أنّی إرتکبت خلافاً فما معنی حمل ذلک علی سائر المسلمین؟ لم تکفرونهم وتریقون دماء الأبریاء؟ أی قانون هذا الذی تتمسکون به؟ وبأی شرع تؤمنون؟

ثم إتّجه الإمام علیه السلام صوب خطأهم الأصلی المتمثل بقولهم کل مذنب کافر، فردّ علیهم ردّاً قاطعاً فقال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه و آله رَجَمَ الزَّانِیَ الُمحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّی عَلَیْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ؛ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِیرَاثَهُ أَهْلَهُ.

وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِیَ غَیْرَ الُمحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَیْهِمَا مِنَ الْفَیْءِ، وَنَکَحَا الْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِیهِمْ، وَلَمْ یَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ یُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَیْنِ أَهْلِهِ».

فقد أراد الإمام علیه السلام عدّهٔ شواهد من سنّهٔ النبی الأکرم صلى الله عليه و آله تؤکد وضوح خطأ الخوارج، الأول أنّ النبی صلى الله عليه و آله کان یعدم الزانی والقاتل، ثم یصلّی علیهما ویورّث أهلهما، لو کفر هؤلاء بارتکابهم الزنا وقتل النفس لما وجب توریث أهلهم لهم حسب عقیدتکم، لأنّ المسلم لا یرث الکفّار، (هذه عقیدهٔ أغلب فقهاء العامّهٔ)، کما حدّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سائر المذنبین کالسارق

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۲۰۷

والزانی غیر المحصن، فقطع ید الأول وجلد الثانی، لکنّهم بقوا فی صفوف المسلمین فأجازهم جمیع الأحکام الإسلامیهٔ کالزواج من المسلمات وأخذهم سهمهم من بیت المال، والحال لا تجری علیه أی من هذه الأحکام إن کفر بارتکاب الکبیرهٔ.

تأمّلات

۱- الخوارج وتکفیر أهل الذنوب

یستفاد من هذه الخطبهٔ أنّ الخوارج یعتقدون بأنّ إرتکاب الکبیرهٔ یوجب الخروج من دین الإسلام، بناءاً علی هذا فمن إرتکب الکبیرهٔ وکان قبل ذلک مسلماً فهو مرتد یجب إعدامه، وقد استدلّ هؤلاء الجهّال بظاهر بعض آیات القرآن التی لم یدرکوا مفهومها، ومن ذلک الآیهٔ الشریفهٔ ۹۷ من سورهٔ آل عمران بشأن تارک الحج والتی تقول: «وَمَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنْ الْعَالَمِینَ»، والآیهٔ ۴۴ من المائدهٔ: «وَمَنْ لَمْ یَحْکُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِکَ هُمْ الْکَافِرُونَ»، والآیه ۲۳ من سورهٔ الجن التی تحدثت عن المذنبین جمعاء: «وَمَنْ یَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِینَ فِیهَا أَبَد».

فقد أطلقت هذه الآیات علی بعض المذنبین کلمهٔ الکفر أحیاناً، وأحیاناً أخری الخلود فی جهنم الذی یختص بالکفّار، وقد غفلوا عن أنّ مفردهٔ الکفر فی اللغهٔ واصطلاح الشرع لا- تعنی علی الدوام الخروج من الإسلام، بل الکفر درجات ومراحل: فقد یکون بمعنی إرتکاب الذنب، ویکون أحیاناً أخری بمعنی إنکار اللّه والعقائد الدینیهٔ، وبعبارهٔ أخری الکفر بمعنی مجانبهٔ الحق أو ستره وهو علی مراحل ودرجات، ولکل أحکامه الخاصهٔ، کما للإیمان درجات، لکل منها أحکامه الخاصهٔ، فقد ذکر الإمام الصادق علیه السلام فی الروایهٔ المعروفهٔ فی اصول الکافی خمسهٔ معانی للکفر الوارد فی القرآن، أحدهما: أنّ الکفر بمعنی ترک أوامر اللّه والعصیان، ثم یورد الإمام شواهد من القرآن الکریم علی هذه المعانی الخمسهٔ[۳۷۱].

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۲۰۸

وأوضح دلیل علی بطلان هذه العقیدهٔ ما أورده أمیر المؤمنین علی علیه السلام فی هذه الخطبهٔ من کثرهٔ عدد المذنبین فی عصر النبی الأکرم صلی الله علیه و آله والذین کان یقیم علیهم الحد، مع ذلک کان یجری علیهم کافهٔ أحکام الإسلام، حتی وإن لم یتوبوا من قبیل إقامهٔ صلاهٔ المیت والدفن فی مقابر المسلمین وأحکام الارث، ومن کان حیاً بعد إقامهٔ الحد؛ أجری علیه سائر الأحکام کأخذه لسهمه من بیت المال والزواج من المسلمات وأمثال ذلک، هذه هی سیرهٔ رسول اللّه صلی الله علیه و آله والتی تواصلت فی العهود اللاحقهٔ حتی عصرنا الحاضر بین جمیع مسلمی العالم والتی تدل علی أن مرتکب الکبیرهٔ لیس بکافر بمعنی خروجه من الإسلام قط، ولیس فقط لا یراق دمه فحسب، بل هناک دیّهٔ علی أدنی جرح یعرّض له.

۲- جانب من جنایات الخوارج

إنّ أدنی مطالعهٔ لجانب من التاریخ المظلم للخوارج تکفی لأن نقف علی مدی فضاعهٔ الفئهٔ التی وقفت بوجه أمیر المؤمنین علی علیه السلام، والأسباب التی عاقت برامجه علیه السلام فی النهوض بالامّهٔ، فلیست هنالک فئهٔ تشبه الخوارج شهدها التاریخ، فهی فئهٔ متعصبهٔ عاشت جمیع التناقضات ویسفکون الدماء بکل بساطهٔ ولا- یرحمون کبیراً ولا- صغیراً حتی الجنین فی بطن امّه، کما وصفهم أمیر المؤمنین علیه السلام فی هذه الخطبهٔ حیث وضعوا سیوفهم علی عواتقهم فیریقون دم من یریدون، ولم یأمن أحد فی منطق حکومتهم

التی لم تدم طولًا لحسن الحظ، وكأنّهم يرون أنفسهم المالكين والناس عبيد فلهم أن يفعلوا بهم ما يشاؤون من قتل وتعذيب وتشريد.
قال ابن أبی الحديد فی شرحه لنهج البلاغة: حين مضى الخوارج إلی النهروان أصابوا فی طريقهم مسلماً ونصرنياً، فقتلوا المسلم لأنّه عندهم كافر، إذ كان علی خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنصرانی، قالوا: احفظوا ذمّة نبيّكم، ونحو ذلك أنّ واصل بن عطاء (وهو من مشاهير علماء عصره) أقبل فی رفقة فأحسوا بالخوارج، فقال واصل لأهل الرفقة: إنّ هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعونی وإيّاهم، فقالوا: شأنك، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ فقال: قوم مشركون مستجيرون بكم، ليسمعوا كلام اللّه، ويفهموا حدوده، قالوا:

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۰۹

قد أجرناكم، قال واصل: فعلمونا، فجعلوا يعلمونهم أحكامهم، ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معی، قالوا: فمضوا مصاحبين فقد صرتم إخواننا.
فقال: بل تبلغوننا مأمننا لأنّ اللّه تعالی يقول: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَعْلَمُونَ»[۳۷۲].
فنظر بعضهم إلی بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فساورا معهم بجمعهم حتی أبلغهم المأمن [۳۷۳].
ومعروفة هی قصة قتلهم صحابی النبی صلی الله عليه و آله المعروف: عبداللّه بن خباب وقتلهم لإمرأته وهی حامل، وقد عرضنا لشرح ذلك سابقاً، وهذا غيض من فيض جرائم الخوارج، هذا فی الوقت الذی إذا قتل أحدهم خنزيراً، واعترضوا عليه علی وأن ذلك فساد فی الأرض وأنكروا قتل الخنزير[۳۷۴]، يبدو أنّ الجهل والتعصب والعجب هی العوامل الأصلية لظهور هذه الفئة السفّاكة التی لا تتورع عن إرتكاب أية جريمة وجناية، أو ليس جزاء هؤلاء تلك الحملات المتتالية التی شنها عليهم جيش الإمام علی عليه السلام بعد إتمام الحجّة وتوبة المخدوعين منهم، لكی لا تبقی لهم من باقية، كما حدث فی النهروان؟!

۳- الردّ علی سؤال

تصدی الإمام عليه السلام فی الخطبة المذكورة للردّ علی الخوارج الذين يقولون بكفر من إرتكب الكبيرة، فی أنّ ذلك خلاف سيرة رسول اللّه صلی الله عليه و آله فی إقامته للحدود علی مرتكبی الكبائر، وفی الموارد التی تتطلب إعدام صاحبها من قبيل قصاص القاتل، فقد كان يحكم بقتلهم ويورثهم أهلهم من المسلمين.
هذا فی الوقت الذی نعتقد فيه علی ضوء مذهبنا بأنّ المسلم لا يرث الكفّار وعليه فان إيصال إرثهم إلی وارثهم المسلمين ليس دليلًا علی نفی كفرهم، وللإجابة علی هذا السؤال لابدّ

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۱۰

من القول بأنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام طبق مذهب أغلب العامّة والخوارج الذين يعتقدون بعدم إرث الكافر للمسلم ولا المسلم من الكافر، وبناءاً علی هذا فقد استدلّ علی ضوء مسلمات مذهبهم، أمّا مذهب أهل البيت عليهم السلام الكافر لا يرث المسلم بينما يرث المسلم الكافر، للرواية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام
: «إِنَّ الإِسلامَ لَم يَزِد المسُلِمَ إلّاعِزَّاً فِی حَقِّهِ»[۳۷۵].

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۱۱

القسم الثانی: شر الناس

اشارة

«ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَی بِهِ الشَّیْطَانُ مَرَامِیَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِیهَهُ! وَسَیَهْلِکُ فِیَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ یَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَی غَیْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ یَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَی غَیْرِ الْحَقِّ، وَخَیْرُ النَّاسِ فِیَّ حَالًا النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَالْزَمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ یَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ. وَإِیَّاکُمْ وَالْفُرْقَةَ!

فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّیْطَانِ، کَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ. أَلَا مَنْ دَعَا إِلَی هذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ کَانَ تَحْتَ عِمَامَتِی هذِهِ».

الشرح والتفسیر

أوضح الإمام علیه السلام جهراً فی ما مضی من کلام الخطبة بطلان عقیدة الخوارج فی تکفیر المسلمین، وقد حدّثهم بمنتهی المرونة حسبما یقتضیه البحث المنطقی، أمّا فی هذا القسم (القسم الثانی) فقد عنّفهم فی الکلام لیحدّ من غرورهم ویعرضهم بمکانتهم بین المسلمین علی أنّهم شر الناس وأغراض الشیطان الذی أضلهم وأوردهم الحیرة، وأفضل شاهد علی ذلک أفکارهم الشیطانیة وأعمالهم العدوانیة ضد البشریة:

«ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَی بِهِ الشَّیْطَانُ مَرَامِیَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِیهَهُ!».

حقّاً لیس هناک من فئة فی أوساط المسلمین شر من الخوارج، فهم مصداق الآیة الشریفة:

«اسْتَحْوَذَ عَلَیْهِمْ الشَّیْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِکْرَ اللَّهِ أُوْلَئِکَ حِزْبُ الشَّیْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّیْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ»[۳۷۶].

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۱۲

وهم مصداق واضح للآیة: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمَالًا* الَّذِینَ ضَلَّ سَعْیُهُمْ فِی الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَهُمْ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ یُحْسِنُونَ صُنْعاً»[۳۷۷].

ثم أشار الإمام علیه السلام إلی نقطة أخری وهی أنّ الأفراط والتفریط شیمة الأفراد الجهال، فمنهم من ألّهنی ومنهم من کفّرنی، فقال علیه السلام:

«وَسَیَهْلِکُ فِیَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ یَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَی غَیْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ یَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَی غَیْرِ الْحَقِّ».

فإن دفعکم جهلکم وجنایتکم لأن تعتبروننی کافراً، فانّ هناک من ذهب إلی عکس ذلک- وبدافع الجهل أیضاً- لیقولوا بالوهیتی، والفئتان ضالتان، والطریف فی الأمر إنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أخبر الإمام علیه السلام منذ سنوات بهذا الإفراط والتفریط تجاهه، فقد روی ابن عبدالمالکی فی کتاب «الاستیعاب» أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله خاطب علیاً علیه السلام بالقول:

«لا یُحِبُّک إلّامُؤمِن ولا یُبغِضُک إلّا مُنافِق ... وَیَهْلَکُ فِیکَ رَجُلانِ مُحِبٌّ مُفرِطٌ وَکَذّابٌ مُفْتَرٍ .. وَتَفْتَرِقُ فِیکَ أُمَّتِی کَمَا افتَرَقَتْ بَنو إسرائیلَ فِی عِیسی [۳۷۸]

. (الحدیث إشارة إلی أنّ طائفة من بنیغ اسرائیل آمنت واعتقدت بالوهیته وطائفة لم تؤمن ورأته ابن اللَّه والعیاذ باللَّه).

وروی المرحوم السید محسن الأمین فی «أعیان الشیعة» عن «مسند أحمد» و «صحیح الترمذی» و «الاستیعاب» لابن عبدالبر و «مستدرک الحاکم» أنّ المعروف بین الصحابة بغض علی علیه السلام علامة النفاق والذی یمییزه عن المؤمن الصادق.

ثم أضاف والثابت تاریخیاً أنّ معاویة کان یسب علیاً علیه السلام ویدعو الناس إلی سبّه (وعلیه فمعاویة کان من المنافقین)[۳۷۹].

علی کل حال فالجهّال دائماً علی الإفراط والتفریط، الغلو أو العداوة.

ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه وبالتأکید علی حفظ الاعتدال فقال:

«وَخَیْرُ النَّاسِ فِیَّ حَالًا النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ».

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۱۳

فقد ورد عنه علیه السلام أنّه قال:

«أَلا إنّ خَیرَ شِیعَتِی النَّمطُ[۳۸۰] الأوسطُ إِلِیهِم یَرجَعُ الغالِی وَبِهِم یَلحَقُ التّالِی»[۳۸۱].

ثم أصدر أمراً مهما کانت مخالفته السبب فی سقوط الخوارج فی وادی الضلال فقال:

«وَالْزَمُوا السَّوَادَ[۳۸۲] الْأَعْظَمَ فَإِنَّ یَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَهِ».

کما بالغ فی هذا التأکید لیقول:

«وَإِیَّاکُمْ

وَالْفُرْقَهَ! فَإِنَّ الشَّاذَّ[۳۸۳] مِنَ النَّاسِ لِلشَّیْطَانِ، کَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ».

فالجماعهٔ المؤمنهٔ غالباً من تنطلق فی مسار الحق، فان ضلت طائفهٔ منهم ذکّرتها طائفهٔ أخری وانقذتها من وادی الضلال، أمّا الأفراد الشاذّون والفئات الصغیرهٔ والمعزولهٔ عن المجتمع الإسلامی فهی عرضهٔ لأنواع الأخطاء والانحرافات والشیطان غالباً من ما یشدد من وساوسه بینهم فهم لقمهٔ سائغهٔ للشیطان علی غرار الشاذهٔ من الغنم، فتکون لقمهٔ سائغهٔ للذئب، ثم أورد فی وصیّته فی الخصوص تقضی بقتل کل من رفع شعار لا حکم إلّااللّهودعی إلیه الناس وإن لاذ بالإمام علیه السلام واختفی تحت عمامته:

«أَلَا مَنْ دَعَا إِلَی هذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ کَانَ تَحْتَ عِمَامَتِی هذِهِ».

وهکذا أصدر حکمه النهائی بشأن هذه الفئهٔ الفاسدهٔ والمفسدهٔ والقاسیهٔ المتعطشهٔ للدماء والذی لا یشکلون سوی الخطر الجدّی علی الإسلام والمسلمین، أمّا ما هو مراد الإمام علیه السلام من مفردهٔ «الشعار» التی وردت فی العبارهٔ المذکورهٔ فقد اختلفت فیه أقوال شرّاح نهج البلاغهٔ فقیل: المراد بالشعار التفرقهٔ، قیل یعنی شعار الخوارج، وکان شعارهم أنّهم یحلقون وسط رؤوسهم ویبقی الشعر مستدیراً حوله کالإکلیل ۳۸۴]، وقیل هو الشعار الذی یعدّ شعار الخوارج أینما حلّوا وقد إرتکبوا بواسطته ما لا یحصی من الفتن والمفاسد وأشعلوا بالنیران المجتمع

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۲۱۴

الإسلامی، والواقع قد مهدوا بهذا الشعار أسباب الفرقهٔ، والقتال وسفک الدماء والفساد فی الأرض، ومن هنا فقد حکم بالإعدام علی حملهٔ هذا الشعار.

کما وردت عدّهٔ تفاسیر للعبارهٔ:

«لَوْ کَانَ تَحْتَ عِمَامَتِی هذِهِ»،

أنسبها ما ذکرناه سابقاً، وهو وإن اعتصم هؤلاء الأفراد الفاسدین بی ولاذوا بداری وکانوا تحت ثیابی.

تأمّلات

۱- الحذر من الإفراط والتفریط

من بین المسائل التی أکد علیها الإمام علیه السلام فی هذه الخطبهٔ ضلالهٔ وهلاک الفئهٔ المفرطهٔ والمفرطهٔ، وقد ظهرت هاتان الفئتان بصورهٔ جلیهٔ بشأن الإمام علیه السلام فی أوساط المجتمع الإسلامی، الفئهٔ التی تصوّرت الإمام علیه السلام هو اللَّه والتی عاشت علی عهده علیه السلام وقد تلقّت أشد العقاب من الإمام علیه السلام، والفئهٔ الأخری التی تراه- نعوذ باللَّه- کافراً، وقد عوقبت هذه الفئهٔ أشدّ العقاب أیضاً، فالإفراط والتفریط مذموم فی کل شیء ومصدر البؤس والشقاء، ولا یقتصر ذلک علی القضایا العقائدیهٔ، بل یتجاوزه لیشمل الحیاهٔ المتواضعهٔ، وعادهٔ ما یستند هذا الإفراط والتفریط إلی الجهل والعصبیهٔ، فهناک طائفهٔ انحرفت عن الإسلام

وشذت عن إتباع منهج أهل البيت عليهم السلام، فهبطت باللّه إلى منزلة متسافلة لتراه كالجسمانيات فصوّرته كفتى أمرد وشعر مجعد وما إلى ذلك من صفات الأجسام، بينما رفعته فئة أخرى عن فكر البشر، لتقول باستحالة معرفة ذاته لدينا، وأبعد من ذلك بأننا لا نعلم شيئاً من صفاته، وبعبارة أخرى قال بتعطيل معرفة اللّه، فئة سلكت طريق الإفراط فقالت: بالتفويض، وأخرى سلكت سبيل التفريط فقالت: بالجبر، أمّا أئمّة الهدى عليهم السلام فقد وصفوا أنفسهم بأنّهم «النمرقة الوسطى» أى الفئة المعتدلة البعيدة عن الإفراط والتفريط، والتى ينبغى أن يعود إليها المتطرفون ويلحق به المغالون:

«نَحنُ النُّمرَقَةُ الوُسطى بِها يَلْحَقُ التّالِى وَإلَيها يِرْجَعُ الغالِى»[۳۸۵].

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۱۵

۲- يد اللّه مع الجماعة

ورد التأكيد فى الخطبة المذكورة على مرافقة ومسايرة السواد الأعظم، أى جماعة المسلمين والابتعاد عن كافة أشكال العزلة والتفرد، فقال عليه السلام صراحة:

«يَدَ اللّهِ مَعَ الْجَماعَةِ»

، فالجماعة الإسلامية كانت قوية ومقتدرة ذات شوكة كما كانت متحدة ومتفقة، بينما عاشت الذل والهوان والضعف كلما سادها النفاق والشقاق، فمقاطعة الجماعة الإسلامية وبعبارة أخرى الانعزال الاجتماعى يشكل أحد الانحرافات والفكرية والعقائدية، والأفراد الانعزاليون عادة كما يعيشون خيال العجب بالنفس فيظون أنّهم أفضل من غيرهم وعلى الآخرين أن يعظموهم، وحيث لا يرون ذلك فى الناس تشتعل فى قلوبهم نيران العداوة والبغضاء وسوء الظنّ، الأمر الذى يجعلهم يهمون أحياناً بالثأر وقتل الأبرياء والإساءة إلى المثل الاجتماعية، وأحياناً أخرى يدّعى النبوة أو الإمام أو نيابة الإمام لمهدى عليه السلام فيصبح مصدراً لكل شقاق وفرقة ونفاق، ومن هنا نقف على عمق عبارة الإمام فى قوله:

«فَإِنَّ الشّاذَّ مِنَ النّاسِ لِلشَّيْطانِ، كَما أَنَّ الشّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ».

طبعاً المراد من مسايرة الجماعة بمعنى الأكثرية الموصوفة بالإيمان والقيم الأخلاقية والمبادىء الإنسانية، وإلّا فالإسلام لا يوصى بمسايرة الأكثرية الفاسدة، قال عليه السلام فى موضوع آخر:

«لا تَسْتَوحِشُوا فِى طرِيقِ الهُدىٰ لِقلَّةِ أَهلِهِ»[۳۸۶]

. واما الذمّ الذى أورده القرآن الكريم على لسان عدّة آيات بشأن الأكثرية إلّاكان المراد بها الأكثرية الفاسدة والمفسدة: «قُلْ لَایَسْتَوِی الْخَبِیثُ وَالطَّیِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَکَ کَثْرَةُ الْخَبِیثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ یَا أُولِی الْأَلْبَابِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ»[۳۸۷].

۳- شرار الخلق

وصف الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة الخوارج بصفتها شرار الناس، فهذا الكلام ليس مبالغة، فالحق أنّ الخوارج شرّف فئة ظهرت فى أوساط المسلمين، ليس فقط لتكفيرهم أشرف مؤمن

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۱۶

بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله أى على عليه السلام الذى سقى شجرة الإسلام بدمائه الزكية فاستقام عودها وكثفت أغصانها، وليس لحملهم سيوفهم على عواتقهم وسفكهم لدماء الأبرياء، بل لأنّهم أسسوا لأنفسهم بالتدريج مدرسة منحرفة من حيث العقائد،

کما ابتعدت عن أحکام الإسلام والقرآن السنّة، ففی جانب عقائدهم وردت عدّة أبحاث فی کتب الملل والنحل تصوّر مدی اختلافها وتضاربها، ولعل ذلک بسبب اختلاف فروعهم، مع ذلک فقد ذکر المؤرخ المعروف المسعودی اشتراک الخوارج فی ما یلی:

۱- تکفیر عثمان وعلی علیه السلام (والعیاذ وباللَّه)

۲- وجوب القیام ضد الإمام الجائر.

۳- کفر من إرتکب الکبیرة (وجوب قتله).

۴- أنّهم بریئون من الحکمین (أبو موسی الأشعری وعمرو بن العاص).

۵- کفر معاویة وأبتاعه وأتباعه.

لکنّهم یختلفون فی بعض المسائل کالتوحید والوعد والوعید فی القیامة والإمامة[۳۸۸].

وعدّ البعض الآخر من جملة عقائدهم المشترکة وجوب انتخاب الامّة للخلیفة سواء کان من قریش أم من غیرها، والأخری قبولهم الخلفاء الأربعة (وإن عزلوا عثمان وعلی علیه السلام)، وکذلک شدّة مخالفتهم لکافة خلفاء بنی الامیة وبنی العباس، خاصّة أنّهم یسبون بنی امیة[۳۸۹].

وأمّا الأباضیة الذین ینتشرون الیوم فی عمان ومراکش ولیبیا والجزائر وتونس ومصر والذین یعدّون أحیاناً من الخوارج، فهناک فارق کبیر لعقائدهم مع عقائد الخوارج، وإن اشترکوا معهم فی مخالفة التحکیم فی صفین وعدم اشتراط وصف القریشی فی إمام المسلمین.

ولعل عقائد الأباضیة تشبه کثیراً عقائد الشیعة مثل:

۱- صفات اللَّه لیست زائدة علی ذاته.

۲- استحالة رؤیة اللَّه فی الآخرة.

۳- القرآن حادث لا قدیم.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۱۷

۴- مرتکب الکبیرة کافر بالنعمة لا کافر ملی (یعنی مثل هذا الفرد مسلم ولیس خارجاً عن الإسلام).

۵- وجوب موالاة أولیاء اللَّه والبراءة من أعدائه.

وروی بعض أنّهم یقولون بوجوب حبّ الخلیفة الأول والثانی وبغض عثمان وعلی علیه السلام إلّا أنّ الأباضیة فی هذا الزمان ینکرون ذلک ۳۹۰].

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۱۹

القسم الثالث: انحراف الحکمین

اشارة

«فَإِنَّمَا حُکِّمَ الْحَکَمَانِ لِیُحْیِیَا مَا أَحْیَا الْقُرْآنُ، وَیُمِیتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَإِحْیَاؤُهُ الاجْتَماعُ عَلَیْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الافْتِرَاقُ عَنْهُ. فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَیْهِمُ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَیْنَا اتَّبَعُونَا. فَلَمْ آتِ- لَاأَبَالَکُمْ- بُجْراً، وَلَا خَتَلْتُکُمْ عَنْ أَمْرِکُمْ، وَلَا لَبَّسْتُهُ عَلَیْکُمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْیُ مَلَئِکُمْ عَلَی اخْتِیَارِ رَجُلَیْنِ، أَخَذْنَا عَلَیْهِمَا أَنْ لَایَتَعَدَّیَا الْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَکَا الْحَقَّ وَهُمَا یُبْصِرَانِهِ، وَکَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَیَا عَلَیْهِ. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَیْهِمَا- فِی الْحُکُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ- سُوءَ رَأْیِهِمَا، وَجَوْرَ حُکْمِهِمَا».

الشرح والتفسیر

عاد الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة والذى يمثل آخرها إلى الأدلة المنطقية ليكشف بالبراهين القاطعة خطأ الخوارج.

توضيح ذلك أنّ الخوارج حين رأوا النتيجة المريرة لقضية التحكيم التى خدع فيها الماكر عمرو بن العاص أبى موسى الأشعرى الساذج وقد حسم التحكيم لصالح معاوية، ارتفعت أصواتهم ليقولوا لم قبلنا التحكيم، ولماذا قبل على عليه السلام التحكيم، رغم أنّهم يعلمون:

أولًا: أنّ التحكيم فرض على على عليه السلام.

ثانياً: أنّ الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بأبى موسى الأشعرى ممثلًا عنه فى التحكيم، بل كان رأيه أن يلعب ابن عباس ذلك الرجل العالم دور التحكيم، رغم ذلك أصر اولئك الجهال وفرضوا عليه أبى موسى الأشعرى، وقد خاض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة فى جواب

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۲۰

آخر على أن تحكيم الحكمين كان مشروطاً بأن يتمّ على ضوء القرآن لا على أساس الأهواء النفسية والعقد الشخصية، فلم يعملا بهذا الشرط وهذا ذنبهم لا ذنب الإمام عليه السلام فقال:

«فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ».

جدير بالذكر إنّه ورد نفس هذا المطلب الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى متن العهد الذى أشرنا إليه سابقاً: «

وإنَّ كِتابَ اللَّهِ سُبحانَهُ بَينَنا مِنْ فَاتِحَتِهِ إلى خاتِمَتِهِ نُحيى مَا أَحيا القُرآنُ ونُميتُ مَا أَماتَ».

ثم أضاف قائلًا:

«وَإِحْيَاؤُهُ الاجْتَماعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الافْتِرَاقُ عَنْهُ»

، ووضح هذه العبارة من خلال التأكيد على مضمونها بالقول:

«فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمُ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا».

فهذا الكلام منطقى يدركه من كان له أدنى فكر وشعور، لكن كأن الخوارج لم يتمتعوا حتى بهذه النعمة الإلهيّة، ثم بيّن الإمام عليه السلام هذا المطلب بتعبير أوضح بحيث يبدو وكأنّه اشتاط غضباً من جهلهم وكلامهم الذى يفتقر إلى المنطق فقال:

«فَلَمْ آت- لَاأَبَالَكُمْ- بُجْراً[۳۹۱]، وَلَا خَتَلْتُكُمْ ۳۹۲]

عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْىُ مَلَئِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أنْ لَايَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ»

، لكنّهم فقدوا عقلهم «إيمانهم» وتركوا الحق وهم يرونه بام أعينهم، كما كان الظلم والجور ديدنهما وهواهما فاتخذوا سبيلًا وقد كنّا اشترطنا عليهما قبل أن يحكما بذلك الحكم الظالم أن يستندا إلى العدل ولا يهملا الحق:

«فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا- فِى الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ[۳۹۳] لِلْحَقِّ- سُوءَ[۳۹۴] رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا».

فالواقع أنّ زبدة الكلام الإمام عليه السلام هى:

أولًا: إنّ انتخاب الحكمين كان على أساس ضغطكم وإصراركم على هذا الأمر، فان كان

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۲۱

خلافاً فهو خلاف منكم لا منّى.

وثانياً: إننا اشترطنا عليهم الحكم على ضوء الآيات القرآنية، لكنّهم آثروا هوى أنفسهم وانحرفوا عن السبيل البيّن الذى هديناهم إليه، وعليه فان كان هناك من خلاف فقد بدر منهما لا منّى ۳۹۵].

ولكن طبيعة الأفراد الجهّال والمتعصبين حين يرتكبون مخالفة ويبتلون بسوء عواقبها شرعان ما يغرونها إلى الآخرين ويحملونها

مسؤولية أخطأهم وهذا أخس الأساليب، والحال يقتضى العقل والانصاف والإيمان الاعتراف بالذنب فى مثل هذه الموارد والاعتذار منها ومن ثم التفكير فى تدراكها.

تأمّل

دروس التحكيم

كثير هو الكلام بشأن قضية التحكيم وهى تنطوى على الدورس والعبر التى نقلتها التواريخ والسير ومنها: أنّ عمرو بن العاص اشترط على معاوية إن انتصر فى معركته أن يسلمه حكومة مصر، وقد وفى له معاوية بهذا الشرط وقد قدّم أكثر رشوة لعمرو بن العاص، ولم تمض مدّة حتى كتب معاوية لعمرو بن العاص أن إعطنى خراج مصر لهذا العام فبيت المال لا يسدّ حاجات أهل الحجاز والعراق، فرفض عمرو ذلك من خلال شعر بعثه لمعاوية، فلم يعد معاوية للحديث عن خراج مصر- أمّا كتابه الذى ضمنه فهو:
مُعاوِى حَظّى لا تَغْفَلِوَعَنْ سُنَنَ الحَقِّ لاتَعدِلِ
أَتَنسَى مُخادَعَتِى الأشعَرِىوَمَا كَانَ فِى دَومَةَ الجَندَلِ![۳۹۶]
وَأَعلَيتُهُ المِنبَرَ المُشَمَخِرَ كَرَجْعِ الحِسامِ إلَى المَفصِلِ فَأَضحى لِصاحِبِهِ خالِعاًكَخَلْعِ النِّعالِ مِنَ الأَرجُلِ

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۲۲
وَأَثبَتُها فِيكَ مَورُوثَةًثُبُوتَ الخَواتِمِ فِى الأَنمُلِ
وَهَبتَ لِغَيرِى وَزنَ الجِبالِوَأَعطَيتَنِى زِنَةَ الخَردَلِ
وَإنَّ عَلَيّاً غَداً خَصمُناسَيَحْتَجُّ بِاللَّه وَالمُرسَلِ
وَمَا دَمُ عُثَمانَ مُنْجٍ لَنافَلَيسَ عَنِ الحَقِّ مِنْ مَزْحَلِ [۳۹۷]
نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۲۳

الخطبة[۳۹۸] المأة والثامنة والعشرون

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام
فِيما يُخْبِرُ به عن المَلاحم بالبصرة

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى عدّة امور:
۱- فتنة صاحب الزنج وهم جماعة من العبيد بزعامة فرد أسمى نفسه على بن محمد العلوى وقد قاموا فى زمان خلافة المهتدى العباسى، وقد سفكوا الكثير من الدماء.
۲- إشارة إلى فتنة أخرى فسّرها شرّاح نهج البلاغة بفتنة المغول والعجيب أنّه أشار إلى أغلب صفاتهم هنا وفى القسم السابق.
۳- بيان الإمام عليه السلام بشأن الغيب بعد أن سأله أحد الحاضرين إنّك تعلم الغيب فتخبر عن المستقبل، كما أشار إلى الفرق بين

العلم الذاتی والعلم الإکتسابی، وهو فی الحقیقة تفسیر للآیات القرآنیة التی تنفی بعضها عن العباد علم الغیب بینما یثبته البعض الآخر.
أمّا المرحوم ابن میثم فقد إختتم الخطبة فی شرحه لنهج البلاغة بهذه العبارة «وناظرها
نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۲۴
بعینها» واعتبر بقیة الخطبة، خطبة أخری، وهذا ما نهجه أیضاً المرحوم الخوئی وابن أبی الحدید، فقد قسموا الخطبة إلی قسمین واعتبروا کل قسم خطبة منفصلة، بینما اعتبرهما المرحوم مغنیة فی شرحه کصبحی الصالح خطبة واحدة.
نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۲۵

القسم الأول: الفتنة المرعبة بالمرصاد

اشارة

«یَا أَحْنَفُ، کَأَنِّی بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَیْشِ الَّذِی لَایَکُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلَا لَجَبٌ، وَلَا قَعْقَعَةُ لُجُمٍ، وَلَاحَمْحَمَةُ خَیْلٍ. یُثِیرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ کَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَام.
(قَالَ الشَّرِیفُ: یُومِئ بذلک إلی صاحب الزنج) ثمّ قَال علیه السلام: وَیْلٌ لِسِکَکِکُمُ الْعَامِرَةِ، وَالدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ الَّتِی لَهَا أَجْنِحَةٌ کَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ، وَخَرَاطِیمُ کَخَرَاطِیمِ الْفِیَلَةِ، مِنْ أُولئِکَ الَّذِینَ لَایُنْدَبُ قَتِیلُهُمْ، وَلَا یُفْقَدُ غَائِبُهُمْ. أَنَا کَابُّ الدُّنْیَا لِوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاظِرُهَا بِعَیْنِهَا».
الشرح والتفسیر
خاطب الإمام علیه السلام بادیء الأمر الأحنف بن قیس [۳۹۹] وهو من أشراف قبیلته، فقال:
«یَا
أَحْنَفُ، کَأَنِّی بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَیْشِ الَّذِی لَایَکُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلَا لَجَبٌ [۴۰۰]، وَلَا قَعْقَعَةُ[۴۰۱] لُجُمٍ،
وَلَاحَمْحَمَةُ[۴۰۲] خَیْلٍ. یُثِیرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ کَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَام [۴۰۳]».
نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۲۶
والإمام علیه السلام لم یذکر إسماً لزعیم الجیش، إلّاأن القرائن الواردة فی هذه العبارات وما بعدها تشیر إلی أنّ المراد به صاحب الزنج الذی قام فی البصرة عام ۲۵۵ ه ق وجمع حوله العبید وقد خلق هناک فتنة عظیمة سنعرض لتفاصیلها فی البحث القادم إن شاء اللَّه.
والعبارة:
«لَا یَکُونُ لَهُ غُبَارٌ»
والعبارات القادمة تدلّ صراحة علی أنّ جیش صاحب الزنج کان من المشاة، حیث لم یکن لهم من خیول لیرکبوها، طائفة من العراة المستضعفین الذین ساءت أحوالهم فقاموا علی الأسیاد فارتکبوا الجرائم الفضیعة، والعبارة یثیرون الأرض بأقدامهم تدلّ علی أنّهم کانوا حفاة وقد اتسعت أرجلهم بسبب المشی حفاة طیلة أعمارهم لتصبح کرجل الناقة، مع ذلک کانوا مخفین فی السیر والحرکة،
وحین وصل هنا المرحوم السید الرضی رضی الله عنه قال:
(قَالَ الشَّرِیفُ: یُومِئ بذلک إلی صاحب الزنج).
ثم قال علیه السلام:
«وَیْلٌ لِسِکَکِکُمُ الْعَامِرَةِ، وَالدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ الَّتِی لَهَا أَجْنِحَةٌ کَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ، وَخَرَاطِیمُ کَخَرَاطِیمِ الْفِیَلَةِ، مِنْ أُولئِکَ الَّذِینَ لَایُنْدَبُ قَتِیلُهُمْ،

وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ».

والـذى يسـتفاد من هـذه العبارة أنّ البصـرة كانت عامرة (وإن عاش العبيـد منتهى الشـقاء والعسـر) فقـد كانت بيوتهم كالقصور مزودة بالشـرفات والظلال الجميلة وخراطيم المياه التى تزيدها روعة وجمالًا، وكما سيأتى فانّ كل ذلك قد تحطم إثر قيام صاحب الزنج وقد ضرّج أصحاب القصور بدمائهم، والعبارة

«لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ».

تشير إلى أنّ العبيد لم يكونوا ذوى زوجات وأولاد، بل كانوا عزّاباً فلا نادية لهم من الأقرباء ليبحثوا عنهم ويتفقدونهم ويبكون عليهم، وهـذه هى صـفات العبيـد فى ذلك الزمان حيث كانوا يجلبون إلى البلاد الإسـلامية وغير الإسـلامية بالقهر والغلبـة من البلـدان البعيـدة خاصّة أفريقيا، وخلافاً للتعاليم الإسـلامية فقد كانوا يعاملون كالحيوانات، فكان قيام صالحب الزنج ردّ فعل تجاه المعاملة غير الإسلامية والإنسانية، ثم قال آخر كلامه:

«أَنَا كَابُ [۴۰۴]

الدُّنْيَا لِوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا».

فهذه العبارات الثلاث إشارة إلى تفاهة متاع الدنيا لدى الإمام عليه السلام وكأنّ الدنيا موجود

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۲۷

حى شـرير لا قيمة له وقد كبّه الإمام عليه السـلام على وجهه وهو ينظر إليه بحقارة، وتشبه هذه العبارة ما ورد عن الإمام عليه السلام فى قصار كلماته حيث قال:

«يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، إِلَيْكِ عَنِّى أَبِى تَعَرَّضتِ؟ أَمْ إِلَىَّ تَشَوَّقْتِ؟ لَاحَانَ حِينُكِ، هَيْهَاتَ! غُرِّى غَيْرِى، لَا حَاجَةَ لى فِيكَ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلَاثاً لَا رَجْعَةَ فِيهَا!»[۴۰۵].

ولعل شـقاء أهل الدنيا المتكالبين عليها إنّما يعود إلى تقييمهم الباطل للدنيا فهم يرونها بعين أخرى فيعظمونها ويركعون لها ويضـحون بالغـالى والنفيس من أجلهـا، أمّا ما هو الإرتباط بين هـذه العبارة والعبارات السابقـة بشأن أخطار صاحب الزنـج، فيبـدو أنّ شـرّاح نهج البلاغة لم يخوضوا فى توضيـح هذا الأمر، وربّما كان الإرتباط من خلال ذلك الظرف العصيب الذى أصاب أهل البصـرة بسبب حبّ الـدنيا، فقـد شـيّدوا القصور واهتموا بالـدور وعاشوا الاسـراف والتبـذير فى حياتهم، فى حين عانى غالبيـة العبيـد فى مـدنهم ومزارعهم الأمرّين فسامهم الزنوج أنواع العذاب.

تأمّل: قيام صاحب الزنج

ظهر فى البصرة عام ۲۵۵ ه ق على عهـد الخليفة العباسـى المهتدى رجل زعم أنّه على بن محمد ونسب نفسه إلى الإمام زين العابدين وزيد بن على عليهما السـلام وقد دعى العبيد للقيام ضد مالكيهم ولبّوا دعوته مسـرعين بسـبب صعوبة معيشتهم فى الدور والمزارع فى خدمـة السـلاطين فاجتمع له مائـة نفر وألف نفر، وقـد وعدهم بعتقهم وتسـليمهم أموال مالكيهم ومزارعهم، وكانت الطبقية شديدة فى ذلـك الزمـان، فـالبعض مرفه فى القصور كمـا أشار إلى ذلك أمير المؤمنين على عليه السـلام فى هـذه الخطبـة، والبعض الآخر يعيش الحياة الصعبة، لذلك إلتحق به جماعة من غير العبيد أيضاً، فاجتمع له جيش عظيم، لقد أشعل فى قلوب العبيد والمحرومين نار

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۲۸

الإنتقـام حتى أمر غلمـانه بعـد غلبته للأثريـاء بـأن يضـرب كل رجل منهم خمسـمائة شـطبة وسبى نسائهم وكان يبيع كل واحـدة منهن بدرهمين أو ثلاث وملكهن العبيد.

قـال المؤرخ المشـهور المسـعودى فى «مروج الـذهب» أنّ صـاحب الزنـج قتـل النسـاء والأطفال والشـيخ الفانى والمريض وكان يحرق

أموالهم وأدواتهم ويخرب بيوتهم، وقد قتل فى البصرة ثلاثمائة ألف، ومن فرّ إلى الصحراء ونجى من القتل كان يأكل الكلاب والقطط والفئران، وأحياناً يأكلون الأموات، إستولى على قسم عظيم من العراق وإيران ودام حكمه مدّة تزيد على أربع عشرة سنة (وهذا يدلّ على أنّ حركته لم تكن عابرة بل كانت متجذرة فى أعماق ذلك المجتمع).

وقد أو شك صاحب الزنج أن يسقط الدولة العباسية، فهب له أبو أحمد الملقب بالموفق وهو أخو الخليفة العباسى فقاتله بجيش كبير حتى تمكن من قتله فى شهر صفر عام ۲۷۰ ه وفرق جيشه بعد معركة دموية طويلة، لقد ألفت عدّة كتب بشأن قيام صاحب الزنج فهو ليس بالأمر الهيّن الذى يمكن المرور عليه بسهولة، وذلك لأنّ جمع جيش يقارب عدده ثمانمائة ألف أو ثلاثمائة ألف آنذاك ليست بالشيء البسط وكذلك تلك المدّة من الحكم والتى تعتبر طويلة نسبياً، وكل ذلك يشير إلى رسوخ ذلك القيام بفعل الاضطراب وغياب العدل والذى ساد آنذاك، وإن قاد هذا القيام إلى الكثير من المظالم والجنايات.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى بعض الامور:

۱- شبّه بعض الكتّاب قيام صاحب الزنج بثورة العبيد التى حدثت فى ايطاليا عام ۷۳ قبل الميلاد بزعامة اسبارتكوس الذى جمع حول فئة عظيمة من العبيد وقد قاتل الأثرياء والمرفهين وأحرز عدّة انتصارات حتى قتل عام ۷۱ قبل الميلاد مع أربعين ألف من العبيد، لكن يبدو أنّ هناك بوناً شاسعاً بين قيامه وقيام صاحب الزنج، فقيام صاحب الزنج كان أوسع وأشمل وقد تمكن من تشكيل الحكومة آخر الأمر والتى حكمت قسماً كبيراً من العراق وايران لمدّة أربع عشرة سنة، على كل حال فهو رجل دموى ومجرم رغم إمتلاكه للحجج التى تبدو منطقية نسبياً من أجل قيامه وثروته.

۲- كما ذكرنا سابقاً فانّ صاحب الزنج أسمى نفسه على بن محمد ومن نسل الإمام السجاد عليه السلام، وتلقب بالعلوى، إلّاأنّ ذلك لا حقيقة له، ولم يكن هدفه سوى شرعية حركته

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۲۹

والاستفادة من مكانة آل بيت رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأميرالمؤمنين عليه السلام، ولذلك ورد عن الإمام الحسن العسكرى أنّ قال:

«صاحِبَ الزِّنجِ لَيسَ مِنّا أَهلَ البَيتِ»[۴۰۶]

، وكما أوردنا فانّ قيام صاحب الزنج كان أواخر عمر الإمام الحسن العسكرى عليه السلام وتزامناً مع الولادة المباركة لإمام العصر والزمان المهدى عليه السلام.

۳- كان ظاهر قيام صاحب الزنج وفتنته الدفاع عن العبيد والمحرومين، لكنّه انحرف عن هذا الهدف وتسبب فى دمار عظيم وسفك للدماء، حتى قال المسعودى فى «مروج الذهب»[۴۰۷] أنّه قتل خمسمائة ألف من النساء والأطفال والشيوخ وهذا أقل عدد لقتلاه، وقال بعض المؤرخين أنّه دخل البصرة بعد عامين فأحرق مسجدها الجامع وكثير من البيوت، وأحرق حتى المواشى وجرت الدماء فى أزقة البصرة[۴۰۸].

۴- رغم كل نقاط الضعف فى صاحب الزنج فقد كانت فيه بعض الجوانب الإيجابية ومنها خطه الجميل وضلوعه بعلم النحو النجوم وقد نقلت عنه بعض الأشعار التى تدلّ على ذوقه الشعرى ومن أشعاره:

لَهْفَ نَفسِى عَلَى قُصُورٍ ببغدادَ وَمَا قَدْ حَوَتْهُ مُلُّ عاصِ

وَخُمُورٍ هُناكَ تُشرَبُ جَهراًوَرِجَالٍ عَلَى المَعاصِى حِراصِ

لَستُ بِابنِ الفَواطِمِ الغُرِّ إنْ لَمأُجِلِ الخَيلَ حَوْلَ تِلكَ العِراصِ

رَأَيتُ المُقامَ عَلَى الإقتِصادِقَنُوعاً بِهِ ذِلَّةً فِى العِبادِ[۴۰۹]

ومن الشعر المنسوب إليه:

وَإِنّا لَتُصبِحُ أسيافَناإذا مَا انْتَضَينَ لِيوم سُفُوكِ

مَنَابِرُهُنَّ بُطُونُ الأَكُفِوَأَغمَادهُنَّ رؤوسِ المُلُوكِ ۴۱۰]

فهذان البيتان يكشفان بوضوح عن روحيته وأهدافه.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۳۱

القسم الثانى: نبوءة أخرى

اشارة

منه فى وصف الاتراك

«كَأَنِّى أَرَاهُمْ قَوْماً «كَأَنَّ وُجوهَهُمُ الَمجَانُّ الْمُطَرَّقَةُ»، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّيبَاجَ، وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ.

وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِىَ الَمجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ، وَيَكُونَ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ!».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة فى نبوءة عجيبة أخرى طبقها المرحوم السيد الرضى وتقريباً كافة شرّاح نهج البلاغة على المغول وحملاتهم الوحشية الهدّامة، ومن هنا قال المرحوم السيد الرضى: القسم الآخر من الخطبة فى وصف الأتراك (المغول).

فقد قال الإمام عليه السلام:

«كَأَنِّى أَرَاهُمْ قَوْماً «كَأَنَّ وُجوهَهُمُ الَمجَانُ ۴۱۱] الْمُطَرَّقَةُ[۴۱۲]».

وردت المفردة «كأنّى» فى عدّة موارد من نبوءات أميرالمؤمنين على عليه السلام، والمفردة أراهم إشارة إلى الشهود الباطنى والبصيرة التى كانت ترى الحوادث المستقبلية عبر القرون فيخبر عنها بصورة دقيقة، وتشبيه وجوههم بالدروع لأنّ وجوههم كانت عريضة وكبيرة ووصفها

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۳۲

بالمطرقة يمكن أن يكون إشارة أنّ أغلب وجوههم كانت تشبه بالضبط موضع المطرقة على صفيحة الترس، ثم قال عليه السلام:

«يَلْبَسُونَ السَّرَقَ ۴۱۳] وَالدِّيبَاجَ ۴۱۴]، وَيَعْتَقِبُونَ ۴۱۵] الْخَيْلَ الْعِتَاقَ ۴۱۶]».

فالعبارة تفيد أنّ هؤلاء وإن كانوا فقراء وجوعى أول أمرهم يرتدون الثياب الخشنة، إلّا أنّهم حين يستولون على البلدان الغنية ويسيطرون على أموالهم وثرواتهم يتجهون صوب الثياب الفاخرة والخيول النفيسة، ويحتمل أن يكون المراد أنّ لهم رغبة شديدة فى القتال، ومن المعروف أن لبس الحرير يمنح الإنسان قوة القلب ويجعله أكثر مقاومة للسيف، كما للخيول الخفيفة دور مهم فى ميدان القتال، وهذا ما يجعلهم يتجهون إلى هذه الأمور.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى أعمالهم وأشار بعبارات قصيرة إلى أبعاد ما يرتكبونه من فاجعة فقال:

«وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ[۴۱۷] قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِىَ الَمجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ، وَيَكُونَ

الْمُفْلِتُ ۴۱۸] أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ[۴۱۹]!».

فالعبارتان تشيران إلى مدى سعة أبعاد الفاجعة، حيث لا يبقى فى الأرض مكان يسمح لعبور الجرحى، لابدّ من وضع أقدامهم على أجساد القتلى، ومن لم يقتل يؤسر، وقليل هم الناجون، وإنّ أدنى مطالعة فى تاريخ المغول تفيد انطباق جميع هذه الأوصاف عليهم، قال ابن أبى الحديد: واعلم إنّ هذا الغيب الذى أخبر به على عليه السلام قد رأيناه نحن عياناً ووقع فى زماننا فقد فعل هؤلاء القوم ما لم تحتو التواريخ منذ خلق اللّه تعالى آدم إلى عصرنا هذا على مثله ۴۲۰].

وهنا يبرز هذا السؤال: ماذا كان قصد الإمام عليه السلام بالإخبار عن فتنة صاحب الزنج التى

وقعت بعد مئتى سنة وفتنة المغول التى وقعت بعد ستمائة سنة؟ ربّما أراد الإمام عليه السلام أن يذكّرهم بأنّ أعمالكم الطالحة هذه والتى تأتون بها فى هذا العصر وقد وليتم ظهوركم للحق وأقبلتم على الباطل وضربتم أحكام الإسلام ووقعتم أسرى هوى أنفسكم، فانّ تواصلت هذه الأعمال فى أجيالكم القادمة ستشهدون عواقب وخيمة وسيطالكم العقاب الإلهى، كما يحتمل أن يكون الإمام عليه السلام أراد تحذيرهم من البلاء العظيم الذى ينتظرهم، عليكم أن تتحدوا وتركزوا قوتكم لتتمكنوا من التقليل من آثاره المخربة.

فتنة المغول

المغول فرع من الترك الذين عاشوا فى آسيا المركزية والشرقية فى حدود الصين وهم طوائف مختلفة، طائفة منهم التاتار، وكانوا يأتمرون عادة بأوامر سلاطين الصين، وكان والد جنكيز أول من نهض من هذه الطائفة وإدّعى الاستقلال، وحين خلف جنكيز أباه ۶۰۰ ه سعى للسيطرة على الأقوام المختلفة لتلك المنطقة حيث أراد الرئاسة العامّة لنفسه واستولى على قسم واسع من الصين وسيطر على عاصمتها بكين.

أمّا السلطان محمود خوارزم شاه الذى كان يحكم أكثر الشرط الأوسط وآسيا المركزية، فقد عقد الهدنة بادىء الأمر مع جنكيز، ولكن لم تمض مدّة حتى نشبت بينهما عداوة فقتل رسل جنكيز، فما كان من جنكيز وبدافع الانتقام إلّاأن هجم على ايران وسائر المناطق الخاضعة لنفوذ خوارزمشاه.

أمّا ابن أبى الحديد الذى عاش فى ذلك الزمان وقد شهد تلك الأحداث حسب قوله كما سمع بعضها الآخر، فقد أفرد ۲۵ صفحة فى شرحه لنهج البلاغة وتطرق فيها بالتفصيل إلى حملة المغول على المناطق الإسلامية وقال: واعلم أنّ هذا الغيب الذى أخبر به الإمام عليه السلام قد رأيناه نحن عياناً، ووقع فى زماننا، وإليك الآن جانب ممّا أورده ابن أبى الحديد بهذا الشأن:

هم التاتار الذين خرجوا من أقاصى المشرق حتى وردت خيلهم العراق والشام، وقد فعلوا بالقوقاز وبلاد ما رواء النهر وبخراسان وما والاها من بلاد ما لم تحتو التواريخ منذ خلق اللّه تعالى آدم عليه السلام إلى عصرنا هذا على مثله، رئيسهم هو جنكيز الذى كان شجاعاً عاقلًا

موفقاً منصوراً فى الحرب، كما كان عسكره من الأفراد الشجعان وكانوا يعيشون بصورة شبه وحشية وأنّهم من أصبر الناس على القتال، لا يعرفون الفرار ويعلمون ما يحتاجون إلى من السلاح بأيديهم، وأنّ خيلهم لا تحتاج إلى الشعير، بل تأكل نبات الأرض وعروق المراعى، وأنّ عندهم من الخيل والبقر ما لا يحصى، وأنّهم يأكلون الميتة والكلاب والخنازير وهم أصبر خلق اللّه سبحانه على الجوع والعطش والشقاء، وثيابهم أخشن الثياب مسّاً، ومنهم من يلبس جلود الكلاب والدواب والميتة، وأنّهم أشبه شىء بالوحش والسباع، كانوا يقتلون كل من يرونه من الرجال ويغنمون الأموال ويحرقون المدن ويسبون النساء الأطفال، لقد دخلوا من شرق ايران وأشاعوا الخوف والرعب بحيث لم يفكر أحد فى مواجهتهم، ومن قاومهم استسلم أخيراً لهم، وأحياناً كانت تفتح لهم أبواب المدن بعد أن يعطيهم التاتار الأمان حين يطلبونه، ولكنّهم كانوا ينقضون عهدهم ويقتلون أهالى المدن ويسبون النساء والأطفال ويعذبون الناس بأنواع العذاب فى طلب المال .. ومن العجيب فى هذ الأحداث أنّهم وصلوا إلى إصفهان بعد أن سيطروا على المدن الإيرانية، فحصلت بين الفريقين مقتلة عظيمة، ولم يبلغوا منها غرضاً حتى اختلف أهل إصفهان فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وهم طائفتان: حنفية وشافعية، وبينهم حروب متصلة وعصبية ظاهرة، فخرج قوم من أصحاب الشافعى إلى ما يجاروهم ويتاخمهم من ممالك التتار، فقالوا لهم: اقصدوا البلد حتى نسلمه إليكم، وفتحت أبواب المدينة فلما دخلوا البلد بدؤا بالشافعية فقتلوهم قتلًا ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد

الذی عهدوه لهم، ثم قتلوا الحنفیۀ، ثم قتلوا سائرالناس وسبوا النساء وشقوا بطون الحبالی ونهبوا الأموال وصادروا الأغنیاء، ثم أضرموا النار، فأحرقوا إصفهان حتی صارت تلولًا من الرماد.

ثم ساروا إلی بلاد العرب فهجموا علی بغداد فتصدی لهم عسکر بغداد وثبت أحسن ثبوت ورشقوهم بالسهام، وبعد مدّۀ توفی جنکیز وخلفه حفیده هولاکو الذی تمکن من السیطرۀ علی بغداد بعد أن قتل آخر خلفاء العباسیین المستعصم باللّه وقد أنهی حکومتهم بذلک.

وبقی المغول فی إیران والبلدان الإسلامیۀ وقد فقدوا ما طبعوا علیه من وحشیۀ بالتدریج وتأثروا بالثقافۀ الإسلامیه، وأسلم هولاکو حتی تشیع السلطان محمد خدابنده أحد سلاطین المغول [۴۲۱].

نفحات الولایۀ، ج۵، ص: ۲۳۵

القسم الثالث: الغیب للّهولکن ...

اشارۀ

«فَقالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحابِهِ: لَقَدْ أُعْطِیتَ یَا أَمِیرَالْمُؤْمِنِینَ عِلْمَ الْغَیْبِ! فَضَحِکَ علیه السلام، وَقالَ لِلرَّجُلِ، وَکانَ کَلْبِیّاً: یَا أَخَا کَلْبٍ، لَیْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَیْبٍ، وَإِنَّما هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِی عِلْمٍ. وَإِنَّما عِلْمُ الْغَیْبِ عِلْمُ السَّاعَۀِ، وَمَا عَدَّدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَۀِوَیُنَزِّلُ الْغَیْبُ، وَیَعْلَمُ مَا فِی الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِی نَفْسٌ مَاذَا تَکْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِی نَفْسٌ بِأَیِّ أَرضٍ تَمُوتُ ...) الْآیَۀَ، فَیَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِی الْأَرْحَامِ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثَی وَقَبِیحٍ أَوْ جَمِیلٍ، وَسَخِیٍّ أَوْ بَخِیلٍ، وَشَقِیٍّ أَوْ سَعِیدٍ، وَمَنْ یَکُونُ فِی النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِی الْجِنَانِ لِلنَّبِیِّینَ مُرَافِقاً. فَهَذَا عِلْمُ الْغَیْبِ الَّذِی لَایَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا سِوَی ذلِکَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِیَّهُ فَعَلَّمَنِیهِ، وَدَعَا لِی بِأَنْ یَعِیَهُ صَدْرِی، وَتَضْطَمَّ عَلَیْهِ جَوَانِحِی».

الشرح والتفسیر

حین خاض الإمام علیه السلام فی تلک الحادثتین المهمتین (قیام صاحب الزنج وفتنۀ المغول) وذکر خصوصیاتهما

«فَقالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِیتَ یَا أَمِیرَالْمُؤْمِنِینَ عِلْمَ الْغَیْبِ!».

فالعبارۀ وإن کانت علی سبیل الإخبار، لکنّها فی الواقع استفهامیۀ، لأنّه سمع أن علم الغیب مختص باللّه سبحانه، ولذلک طلب توضیح الإمام علیه السلام:

«فَضَحِکَ علیه السلام، وَقالَ لِلرَّجُلِ، وَکَانَ کَلْبِیّاً: یَا أَخَا کَلْبٍ، لَیْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَیْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِی عِلْمٍ».

قطعاً أنّ ضحک الإمام علیه السلام لم یکن بدافع السخریۀ ولم یفرزه الغرور، بل کان ضحک الفرح

نفحات الولایۀ، ج۵، ص: ۲۳۶

والسرور، ولعل مرد ذلک إلی حسن الأمر فی طرح ذلک السؤال من الرجل الکلبی لیکشف الإمام علیه السلام عن کنه ذلک الموضوع أمام الجمیع .. أو أنّ ضحکه کان من تعجبه فی أنّه لا ینبغی أن یکون مثل هذا الأمر بخفی علی أحد، علی کل حال فانّ عبارۀ الإمام علیه السلام تشیر إلی حقیقۀ فی أنّ ذلک العلم مختص باللّه وهو علم ذاتی، والعلم الممکن لما سوی اللّه، فهو العلم الحاصل من التعلم والذی له بُعد إکتسابی، یعنی یتعلّمه الإمام علیه السلام من النّبی صلی الله علیه و آله والنّبی عن طریق الوحی الإلهی (سیأتی شرح هذا المطلب).

ثم قال الإمام علیه السلام:

«وَإِنَّما عِلْمُ الْغَیْبِ عِلْمُ السَّاعَۀِ، وَمَا عَدَّدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَۀِوَیُنَزِّلُ الْغَیْبُ، وَیَعْلَمُ مَا فِی الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِی

نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أرضٍ تَمُوتُ ...»[۴۲۲].

ثم أوضح معنى ذلک قائلًا:

«فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِى الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِى النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِى الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً».

فخلص عليه السلام إلى نتيجة نهائية مؤدّاها:

«فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِى لَايَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا سِوَى ذلِکَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِى بِأَنْ يَعِيَهُ ۴۲۳] صَدْرِى، وَتَضْطَمَ ۴۲۴] عَلَيْهِ

جَوَانِحِى ۴۲۵]».

فالذى يستفاد من مجموع هذه العبارات:

أولًا: أنّ علم الغيب علم ذاتى مختص باللَّه سبحانه وتعالى، لكن العلم الإكتسابى والإعطائى لا يسمى بعلم الغيب، بل هو ذ لک العلم الذى علّمه اللَّه سبحانه نبيّه وعلّمه النبى من يراه مستعداً لذلک العلم.

ثانياً: لهذه العلوم التعليمية استثناءات وردت خمسة منها فى الآية الشريفة الأخيرة من

سورة لقمان، وهذه مصاديق علم الغيب التى لم يعلّمها اللَّه سبحانه أحداً من الخلق.

وهنا لابدّ من طرح هذه الأسئلة

۱- كيف يستفاد من الآية الشريفة أنّ هذه العلوم الخمسة مختصة باللَّه سبحانه؟

۲- كيف تختص هذه العلوم باللَّه والحال أخبر النبى صلى الله عليه و آله والأئمة عليهم السلام أحياناً عن نزول الأمطار والأطفال فى الأرحام أو الزمان والمكان الذى يتوفون فيه، بل أحياناً أخرى كانوا يخبرون عن العلوم المعاصرة فمثلًا متى وأين سينزل المطر، وذلک الجنين ولد أم بنت؟

۳- ما الفارق بين هذه العلوم الخمسة وسائر الأمور الخفية التى لا يعلمها غير اللَّه سبحانه؟

ويقال فى الإجابة على السؤال الأول:

العبارة الاولى بشأن القيامة قد بيّنت بوضوح إختصاص علمها باللَّه سبحانه، وتقديم عنده على علم الساعة دلالة على الحصر، يعنى العلم بالقيامة مختص فقط بالذات اللَّه المقدس، كما تدلّ العبارة والرابعة والخامسة على الحصر أيضاً حيث قالت:

«وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أرضٍ تَمُوتُ ...».

وبناءاً على ما تقدم فانّ المورد الثانى والثالث بمقتضى وحدة السياق جزء من العلوم المختصة باللَّه سبحانه، والروايات المتعددة الواردة عن أئمة العصمة عليهم السلام فى تفسير الآية شاهد أخر على هذا المعنى ۴۲۶].

ويقال فى الردّ على السؤال الثانى:

أنّ الالتفات إلى هذه النقطة ضرورة، وهى أنّ العلم بهذه الأمور الخمسة بصورة تفصيلية مختص باللَّه سبحانه، وإن أمكن حصول العلم الإجمالى للمعصومين أو بعض أولياء اللَّه سبحانه، مثلًا يمكن أن يعلم المعصوم أنّ المطر ينزل غداً، أو الشخص الفلانى يموت فى الأرض الفلانية، أما العلم بجزئيات هذا الأمر من قبيل العلم بلحظة الشروع وحبات المطر التى تنزل فى المكان، وكذلک العلم بلحظة الموت والبقعة التى يموت فيها والحالات الناشئة من سكرات الموت وما إلى ذلک فى أمور فهو مختص بالذات الإلهيّة المقدّسة،

والشاهد على ذلک ما أورده الإمام عليه السلام بشأن الجنين فى رحم امّه فقال:

«فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِی الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِی النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِی الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً»

، وسائر الأمور التى يقتصر علمها على اللّه تبارک وتعالى، وبناءاً هلى هذا فما يعلمه الناس من حالات فى بعض الأدوار الجنينية من خلال تعلم الغيب أو المختبرات المتداولة فى الوقت المعاصر، فهو من قبيل العلم الجزئى، والحال يختص العلم الكلى باللّه سبحانه.

وأمّا الإجابة على السؤال الثالث:

فلابدّ من الإذعان بأننا لا نرى من فارق بين الموارد الأربعة الأخرى غير القيامة وسائر الأمور الخفية، سوى أنّ الآية المذكورة وروايات المعصومين عليهم السلام تفرّق هذه الأمور مع سائر الأمور الخفية وتقول بأنّ العلم التفصيلى فيها مختص بالذات الإلهيّة، ولكن فى الموارد الأخرى كالذى ورد فى هذه الخطبة بشأن فتنة صاحب الزنج وحملة المغول، فممكن أن يزود اللّه بعض الخواص من عباده بعلمها الإجمالى والتفصيلى، وعلى كل حال فاننا تبع للنصوص القرآنية وروايات المعصومين المعتبرة.

علم الغيب فى الآيات والروايات

اختلف العلماء فى قضية علم الغيب وهل هناک من يعلم الغيب سوى اللّه سبحانه أم لا؟

ويبدو اختلافهم يعود إلى اختلاف ظواهر آيات القرآن والروايات الإسلامية، فبعض الآيات القرآنية صرّحت علانية قائلة أنّ علم الغيب مختص باللّه تبارک وتعالى، مثل الآية ۶۵ من سورة النمل: «قُلْ لَايَعْلَمُ مَنْ فِی السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ...».

وصرحت فى الآية ۵۹ من سورة الأنعام قائلة: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ...»، فى حين يستفاد من البعض الآخر من الآيات أنّ جانباً من علم الغيب على الأقل قد زود به بعض أولياء اللّه تعالى، كما فى الآية ۴۹ من وسورة آل عمران بشأن السيد المسيح عليه السلام:

«ءَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِی بُيُوتِكُمْ ...»، والآية ۲۶ و ۲۷ من سورة الجن: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً* إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ...».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۳۹

ونرى نفس هذا التفاوت فى الروايات، فمثلًا جاء فى الحديث أنّ الإمام الصادق عليه السلام ورد مجلساً غاضباً وكان فيه أبو بصير وبعض أصحابه، فلما جلس قال:

«يَا عَجَباً لأقوامٍ يَزْعَمُونَ أَنَّا نَعلَمُ الغَيبَ مَا يَعْلَمُ الغَيبَ إلّا اللّهُ عزَّ وَجَلَّ»[۴۲۷].

بينما يستفاد من عدّة روايات علم الأئمّة المعصومين عليهم السلام بأغلب الأمور الخفية كالذى ورد فى هذه الخطبة بشأن فتنة صاحب الزنج والمغول، أو سائر خطب نهج البلاغة بخصوص الأمور المستقبلية، وممّا لا شک فيه أنّه ليس هناک من تضارب بين الآيات المذكورة وأمثالها ولا بين الروايات السابقة (والروايات الأخرى التى وردت بهذا المضمون) وقد ذكر المحققون عدّة آراء من أجل الجمع بين هذه الآيات والروايات، منها:

۱- المراد بعلم الغيب الذى اختصته الآيات والروايات باللّه تبارک وتعالى هو العلم الذاتى، وما يعلمه الأنبياء والأولياء هو العلم التعليمى من جانب اللّه سبحانه (وهو ما ورد فى كلام الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة).

۲- أسرار الغيب على قسمين: قسم يختص باللّه تعالى ولا يعلمه أحد إلّاهو كزمان الساعة والأمور الأخرى التى وردت فى الآية ۲۴ من سورة لقمان، وقد أشارت الخطبة إلى هذا الوجه فى الجمع وقد تقدم شرح ذلک.

۳- علم اللّه سبحانه بأسرار الغيب بالفعل يعنى يعلم كل شىء فى كل زمان، أمّا علم أولياء اللّه سبحانه، فليس بفعلى بل حينى، أى إن

أرادوا أن يعلموا شيئاً وتتحقق هذه الإرادة باذن اللّه تعالى ورضاه، ومن هنا نقرأ فى سورة يوسف أنّ يعقوب لم يكن يعلم مصير ولده فى صحراء كنعان، والحال علم بعد سنوات بمصيره فى مصر، فقد وجد ريح يوسف من مصر بينما لم يجده فى بئر كنعانه، فلم يكن مأذوناً فى المورد الأول لأن يريد فيعلم، بينما أذن له فى المورد الثانى.

۴- الطريق الآخر للجمع بين الآيات والروايات المختلفة فى أنّ أسرار الغيب مثبتة فى موضعين، اللوح المحفوظ والذى لا يحدث فيه أدنى تغيير ولا- يعلمه إلّاتعالى، واللوح المحو والإثبات وهو فى الواقع علم بالمقتضيات لا علم بالعلة التامة، ومن هنا فهو قابل للتغيير، وما

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۴۰

يعلمه أولياء اللّه إنّما يرتبط بهذا القسم.

ومن أراد المزيد من الشرح لكل من الطرق الأربعة المذكورة، فليراجع المجلد ۱۹، من تفسير الأمثل فى تفسير سورة الجن.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۴۱

الخطبة[۴۲۸] المأة والتاسعة والعشرون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ عليه السلام

فى ذكر المكاييل والموازين ۴۲۹]

نظرة إلى الخطبة

خاض الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بوعظ المسلمين فأورد عدّة نصائح شافية وكافية، الأولى وتحدث فيها عن قصر عمر الدنيا وأنّ الناس فيها كالضيوف وستنتهى بسرعة هذه الضيافة، بينما تبقى تبعات أعمال الإنسان حين الحساب والجزاء، ثم تحدث فى الثانية عن سعة الفساد فى ذلك العصر شاكياً منه، وأشار فى الثالثة إلى الأخيار والصلحاء والاتقياء والسمحاء ليحذر من خلال المقارنة بضرورة إصلاح النفس وإجتثاث الفساد من المجتمع وأخيراً إختتم الخطبة بذم المرائين الذين يأمرون بالمعروف وليسوا من أهله، وينهون عن المنكر ولا ينتهون عنه.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۴۳

القسم الأول: التحذير من الفساد الاجتماعى

«عِبَادَ اللّهِ، إنَّكُمْ- وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هذِهِ الدُّنيَا- أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ. فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ. وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِى زَمَنٍ لَايَزْدَادُ الخَيْرُ فِيهِ إلَّا إدْبَاراً، وَلَا الشَّرُّ فِيهِ إلَّا إقْبَالًا، وَلَا الشَّيْطَانُ فِى هَلَاكِ النَّاسِ إلَّا طَمَعاً. فَهذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ. اضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ

[[تنظر]]

إلَّا فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلًا اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللّهِ وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً!».

الشرح والتفسير

كما ورد فى سند الخطبة وخلافاً لما جاء فى عنوان هذه الخطبة فاننا لا نشاهد فى متنها ما يشير إلى رعاية العدل فى الكيل والوزن،

ولعل ذلک یعود إلی أحد سببین: إمّا أنّ المرحوم السید الرضی رضی الله عنه قد حذف بعض جوانب الخطبة المتعلقة بالکیل والوزن حسب طریقته فی اختیار الأفصح، أو لیس هنالک من حذف فی الخطبة إلّاأنّ الإمام علیه السلام خطب بهذه الخطبة فی ظروف حین اتسع الفساد فی الکیل والوزن والتطفیف فی البیع وظلم الناس وساد ذلک فی المجتمع، وبالنظر إلی ذلک أورد الإمام علیه السلام هذه الخطبة لیحذر المردة، بعبارة أخری فانّ شأن وورد الخطبة قضیة الکیل والمیزان وإن لم یذکر ذلک صریحاً فی متنها، إلّاأنّه ذکر من خلال الدلالة الالتزامیة، علی کل حال خاطب الإمام علیه السلام عامة الناس وقد حذرهم من تقلب الدنیا

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۴۴

وفساد المجتمع فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، إنَّکُمْ- وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هذِهِ الدُّنیَا- أَثْوِیَاءُ[۴۳۰] مُؤَجَّلُونَ،

وَمَدِینُونَ مُقْتَضَوْنَ: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ».

فقد شبّه الإمام علیه السلام وضع أهل الدنیا بهذه العبارة بالضیوف الذین دعوا لمدّة معینة فی ضیافة، وبالأفراد المدینین الذین لا یترکهم دائنوهم، فمن الطبیعی ألا یری الضیف دار المضیف محطته الأبدیة، فهم لا یتعلق بها أبداً ولا یثق بها ولا یحرص علیها، ولیس الشخص المدین الذی یتابع دائماً من قِبل الدائن من سبیل سوی منحه کل ما یجد بالتدریج، أملًا بأن یأتی الیوم الذی یکون قد سدد فیه کل دینه، کأنّ العمر الذی منحنا اللَّه تعالی من دیوننا التی تؤخذ منّا کل لحظة، والمشکلة المهمّة أنّ إلی جانب ذلک العمر المتقلب والذی ینقضی بسرعة أعمالنا التی نقوم بها والتی تحفظ ویجب علینا تحمل تبعاتها.

وری بعض شرّاح نهج البلاغة عن بعض الصلحاء قوله:

«مَا أَدرِی کَیفَ أَعجَبُ مِنَ الدُّنیا! أَمن حُسنِ مَنطَرِها وَقُبحِ مَخبَرِها أم مِنْ ذَمِّ النَّاسِ لَها وَتَناحُرِهُم عَلَیها»[۴۳۱].

نفحات الولایة ؛ ج۵ ؛ ص۲۴۴

واصل الإمام علیه السلام کلامه قائلًا:

«فَرُبَّ دَائِبٍ ۴۳۲] مُضَیَّعٌ، وَرُبَّ کَادِحٍ ۴۳۳] خَاسِرٌ».

صحیح أنّ السعی والجهد رمز الموفقیة والنجاح، إلّاأنّ هذا لیس قانوناً کلیاً، فهناک الأفراد الذین أفنوا عمرهم فی السعی والجد وأجهدوا أنفسهم لیل نها ولم یظفروا بشیء، وهذا أحد إحباطات الإنسان فی الحیاة الدنیا، ولعل العبارة إشارة إلی السعی المتعلق بالأمور المادیة أوالمعنویة، لأنّهم کثیرون هو الأفراد الذین أجهدوا أنفسهم من أجل الوصول إلی المقامات المعنویة والنجاة الاخرویة، ولکن تسللت إلیهم أهواء النفس ووساوس الشیطان فی اللحظات الحساسة فاشتعلت النیران فی مزارع طاعتهم وأحرقت کل شیء، ثم أشار إلی الأوضاع المزریة لزمانهم وإقبال الناس علی المساویء وفرارهم من الصالحات فقال:

«وَقَدْ

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۴۵

أَصْبَحْتُمْ فِی زَمَنٍ لَایَزْدَادُ الخَیْرُ فِیهِ إلَّا إدْبَاراً، وَلَا الشَّرُّ فِیهِ إلَّا إقْبَالًا، وَلَا الشَّیْطَانُ فِی هَلَاکِ النَّاسِ إلَّا طَمَعاً. فَهذَا أوَانٌ قَوِیَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَکِیدَتُهُ، وَأَمْکَنَتْ فَرِیسَتُهُ ۴۳۴]».

فهذه العبارات الصریحة والواضحة تشیر إلی مدی سقوط الوضع الأخلاقی للمسلمین فی ذلک العصر والزمان بفعل الحکومات المستبدة، ومدی الوسط المضحک الذی واجهه الإمام علیه السلام فی عهده، نعم إن فسد مسؤولوا البلاد ومن کان علی رأس الحکومة فانّ الفساد سیشمل کل شیء

«النّاس عَلی دینِ مُلوکِهِم».

فما الذى يمكن توقعه من الناس إن وزع الخليفة أموال بيت المال المسلمين على بطانته، وولى قرابته الطالحة ونصبهم فى المواقع الحساسة، وتعاطى عامله الشراب علانية ليدخل المحراب فيصلى بالناس جماعة ثملًا، ويمارس الآخرون الرذيلة والأعمال البشعة، أو ليست سلطة الشيطان بالتكالب على الدنيا وإبتاع الأهواء؟

نعم، إنّ سادت هذه الأمور تيسرت حكومة الشيطان، فقد ورد فى الخبر أنّ ابن عمر وبعض ولد أبى بكر وسعد بن أبى وقاص قصدوا علياً عليه السلام حين خلافته وسألوه زيادة العطاء من بين المال، فصعد عليه السلام المنبر وخطب الناس قائلًا:

«... إذا مَنعتُهُم مَا كانُوا فِيهِ يَخُوضُونَ وَصَيّرتُهُم إلى مَا يَستَوجِبُونَ فَيَفقِدون ذَلكَ فَيسأَلُونَ وَيَقُولُونَ: ظَلَمنا ابنُ أبى طالبٍ وَحَرَمنا وَمَنعنا حُقوقَنا– إلى أن قال– أَمّا أنّى أَعلَمُ الّذى تُرِيدُونَ وَيُقِيمَ أودكم، وَلَكن لا أَشتَرى صَلاحَكُم بِفَسادِ نَفسِى ...»[۴۳۵].

ثم قال:

«اضْرِبْ بِطَرْفِكَ ۴۳۶] حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ

[[تنظر]]

إلَّا فَقِيراً يُكَابِدُ[۴۳۷]

فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلًا اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللَّهِ وَفْراً[۴۳۸]، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَ

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۴۶

بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً[۴۳۹]!».

فقد ركز الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة والرائعة على أربع فئات محرومة أو منحرفة تشكل أساس فساد المجتمع وإنهياره:

الأولى: الفقراء الذين يقعون أسرى الفقر، وهو الفقر الذى عبرت عنه الروايات بالقول:

«كَادَ الفَقرُ أنْ يَكُونَ كُفراً».

الثانية: الأغنياء الذين غرقوا فى النعم والملذات والشهوات حتى نسوا كل شيء وهووا فى الكفر.

الثالثة: البخلاء الذين تصوروا أنّ البخل سبب زيادة الثروة.

الرابعة: المتمردون الذين عاشوا الغرور ولم تعد آذانهم تسمع كلام الحق.

فعبارة الإمام عليه السلام التى قال فيها:

«اضْرِبْ بِطَرْفِكَ ۴۴۰] حَيْثُ شِئْتَ ...»

فلا تبصر أحداً سوى هذه الفئات الأربع دليل على أنّ الفقر والفساد أصبح على درجة من الشمولية بحيث ظهرت أثارهما فى كل مكان، والدليل على تلك السعة والشمولية ما اشير إليه فى العبارة المذكورة.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۴۷

القسم الثانى: أين الأخيار؟

اشارة

«أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِى مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِى مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَالْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ. وَهَلْ خُلِقْتُمْ إلَّا فِى حُثَالَةٍ لَا تَلْتَقِى بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ، اسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَ (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، (ظَهَرَ الْفَسَادُ)، فَلَا مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَلَا زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أَفَبِهذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللَّهَ فِى دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟

هَيْهَاتَ! لَايُخْدَعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ. لَعَنَ اللَّهُ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ!».

الشرح والتفسير

استعمل الإمام عليه السلام عبارات بليغة رائعة فى هذا المقطع من الخطبة ليكشف النقاب عن فساد الزمان والتولى عن الصالحات والاقبال على السيئات فقال:

«أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ![۴۴۱] وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ ۴۴۲] فِي مَكَاسِبِهِمْ،

وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ!».

فقد بحث الإمام عليه السلام بهذه العبارات عن ستة طوائف فى المجتمع ليدل فقد انها أنذاك على مدى الانحطاط والفساد، والطوائف الست هى: الأخيار، الصالحون، الأحرار، السمحاء،

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۲۴۸

المتورعون، والمتنزهون، حقّاً إنّ افتقرت المجتمعات البشرية إلى هذه الطوائف الشريفة والنجيبة فى المجتمع، فليس هناك سوى الفساد والانحراف، والمراد من المتورعين فى مكاسبهم، الأفراد الذين لا يطففون فى البيع ولا يغشون ولا يكذبون ولا يقسمون بالباطل ولا- يرابون والذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم، فمن يرى المجتمع الصالح العامر بالأخيار والصلحاء والأحرار والسمحاء على أنّهم نماذج المجتمع إنّما يشعر بالامتعاظ لا سيّما إن رأى بدلًا منهم الأشرار والطلحاء والأسرى والبخلاء فلا يمتلك سوى الصراخ: اين اولئك الأعزة؟ كيف خلى مكانهم؟

ثم قال الإمام عليه السلام:

«أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا[۴۴۳] جَمِيعاً عَنْ هذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَالْعَاجِلَةِ

الْمُنَغِّصَةِ[۴۴۴]».

فأردفها عليه السلام بالقول:

«وَهَلْ خُلِقْتُمْ ۴۴۵] إِلَّا فِي حُثَالَةٍ[۴۴۶] لَاتَلْتَقِي بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ، اسْتِصْغَاراً

لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَ (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)».

وقد انبثقت هذه الظروف العصيبة والأفراد المنحطين منذ انحراف الخلافة الإسلامية عن محورها الأصلى وقد بلغ الأمر ذروته على عهد عثمان، فقد فوضت المواقع الحساسة من الحكومة الإسلامية إلى أصحاب الدنيا البعيدين عن الورع والتقوى وقد تغلغلوا فى المجتمع الإسلامى بحيث كان من المتعذر تغييرهم ابان حكومة على عليه السلام، كما كان هؤلاء الأفراد هم السبب لكافة المعارك التى حدثت ضد الإمام عليه السلام.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الوظيفة التى ينبغى أن يقوم بها أصحابه تجاه تلك الظروف والأوضاع فقال:

«ظَهَرَ الْفَسَادُ، فَلَا مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَلَا زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أَفَبِهذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللَّهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟».

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۲۴۹

طبعاً إنّ هذا الاستفهام إستفهام استنكارى، والمراد على ضوء هذا الوضع الذى سلكتموه وقد سكتم إزاء الفساد أو أعنتم عليه، فلا من أمر بمعروف ولا نهى عن منكر، فليس لكم أن تنالوا القرب الإلهى وتكونوا فى صفوف أولياء اللّه، فأكد ذلك بالقول:

«هَيْهَاتَ! لَايُخْدَعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ».

فاولئك المسلمون ظاهراً ويحسبون فى صفوف أهل الإيمان لكنّهم راضون بالفساد ساكتون باطناً، لا يقدرون على خداع اللّه العالم بأسرارهم وأعمالهم، لعلم يخدعون الآخرين، بل وأنفسهم لمدّة، ولكن أنى لهم ذلك يوم القيامة يوم لا يخفى على اللّه منهم خافية، فليس أمامهم سوى الندم.

ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«لَيسَ الإيمانُ بِالتَّحلّى وَلا بِالَّتمنِّى ولَكن الإيمانَ ما خَلصَ فِى القَلبِ وَصَدَّقَهُ الأَعمالُ»[۴۴۷].

ثم إختتم الخطبهٔ مشدداً فى التأكيد فقال:

«لَعَنَ اللَّهُ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ!».

صحيح أنّ عمل الإنسان لا- يشترط فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبعبارهٔ أخرى فانّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفتان مستقلتان وإن كان نفس الإنسان تاركاً للمعروف وعاملًا بالمنكر.

كما ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«مُروا بِالمَعرُوفِ وَإن لَم تَفعَلوهُ وَانهُوا عن المُنكَرِ وإن لَم تَجتَنِبُوا كُلَّهُ»[۴۴۸].

ولكن أن يأمر الإنسان بالمعروف ولا يأتمر به وينهى عن المنكر ولا ينتهى عنه بحدّ ذاته نوع من النفاق الواضح، والمنافق يستحق اللعن واللوم والعقاب.

وبعبارهٔ أخرى فانّ اختلاف الظاهر والباطن الذى يكون سبباً لخداع الناس وروح النفاق من أسوأ الصفات التى يجعل الإنسان يستحق اللعن فيوجب بُعده عن اللَّه ورحمته.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۲۵۰

شكوى أهل الزمان

من المسائل الغايهٔ فى الصعوبهٔ والمرارهٔ فى التاريخ الإسلام هو أنّ علياً عليه السلام بدلًا من أن يأخذ بزمام أمور الامهٔ الاسلاميهٔ بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لينشر الإسلام فى الشرق والغرب ويحفظ مبادئُ الإسلاميهٔ، قد تسلم الحكومهٔ الإسلاميهٔ والامّهٔ الإسلاميهٔ عاشت الانحراف عن العدالهٔ والزهد بفعل اضطراب عهود الخلفاء ولا سيّما عهد عثمان الذى ضاعت فيه القيم الإسلاميهٔ وقد وضعت الأموال والمناصب تحت تصرف حثالهٔ بنى أميهٔ وآل مروان، فهم لا يفكرون إلّافى المال والثروهٔ والمقام والسيطرهٔ على الناس، وقد انتعشت أغلب مثل الجاهليهٔ، فقد قام الإمام عليه السلام فى ظل هذه الظروف العصيبهٔ من أجل إحياء القيم الإسلاميهٔ وسنّهٔ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وإطفاء فتن الجاهليهٔ، من خلال الحث والتبشير أحياناً والانذار واللوم أحياناً أخرى، ون خلال الاستشهاد بحوادث عصر النبى الأكرم عليه السلام ومقارنتها بالأوضاع السائدهٔ، كما يستعين أحياناً بتاريخ سالف الأنبياء والعذاب الذى صبّ على العتاهٔ الذين تمردوا عليهم، وهكذا أخذت تظهر الفضائل الإسلاميهٔ والإنسانيهٔ شيئاً فشيئاً بين أصحاب الإمام عليه السلام حتى استقرت وتبلورت بعد أن رويت شجرتها بدم الإمام عليه السلام، وكادت أن تثمر، ولكن مع الأسف الشديد أنّ تلك الأجواء تعكرت بفعل فتن الناكثين والقاسطين والمارقين، وقد بلغت الجريمهٔ بأحدهم لأن ينهال بالسيف على رأس الإمام عليه السلام لتبقى تلك البرامج ناقصهٔ، فتنشط من جديد الشياطين لتعيث فى الأرض الفساد.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۲۵۱

الخطبهٔ[۴۴۹] المأهٔ والثلاثون

اشارهٔ

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام

لأبى ذرّ رحمه اللَّه لمّا أخرج إلى الربذهٔ

نظرة إلى الخطبة

لما إنهال أزلام بنی أمیة وبنی مروان علی بیت مال المسلمین بتلویح من عثمان فجعلوا ینهبون ما یریدون، واجههم أبو ذر رحمه الله ذلک الصحابی الشجاع والاسوة فی الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، فأصبح یشکل خطراً جدّیاً علی منافعهم، فأشاروا علی عثمان بنفیه إلی ربذة التی تعتبر أسوأ المناطق مناخاً، أمّا الإمام علیه السلام فقد أراد أن یثبت عدم شرعیة هذا الحکم الجائر من جهة، وأن یشد من عزیمة أبی ذر من جهة أخری، فیعینه علی تحمل ما یواجهه من صعوبات، ومن هنا شایع أبی ذر وقد واساه بکلمات رائعة وعمیقة وأمله بالمستقبل الزاهر الذی ینتظره، کما أضاف ورقة سوداء أخری إلی سجل بنی أمیة ومروان المظلم.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۵۳

القسم الأول: أبو ذر رحمه الله بطل مقارعة الفساد

اشارة

«یَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّکَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ. إنَّ الْقَوْمَ خَافُوکَ عَلَی دُنْیَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَی دِینِکَ، فَاتْرُکْ فِی أَیْدِیهِمْ مَا خَافُوکَ عَلَیْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَیْهِ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَی مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاکَ عَمَّا مَنَعُوکَ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً، وَالْأَکْثَرُ حُسَّداً [[خسّراً]]

. وَلَوْ أَنَّ السَّمواتِ وَالْأَرَضِینَ کَانَتَا عَلَی عَبْدٍ رَتْقاً ثُمَّ اتَّقَی اللَّهَ لَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً! لَا یُؤْنِسَنَّکَ إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا یُوحِشَنَّکَ إِلَّا الْبَاطِلُ. فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْیَاهُمْ لَأَحَبُّوکَ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لَأَمَّنُوکَ».

الشرح والتفسیر

کما ذکرنا فانّ الإمام علیه السلام أورد هذا الکلام حین نفی أبو ذر من قبل عثمان إلی الربذة، جاء فی الخبر: لما أخرج أبو ذر إلی الربذة أمر عثمان، فنودی فی الناس ألا یکلم أحد أبا ذر ولا یشیعه، وأمر مروان بن الحکم أن یخرج به، فخرج به، وتنحّی عنه الناس إلّاعلی بن أبی طالب علیه السلام وعقیلًا أخاه وحسناً وحسیناً علیهما السلام وعماراً رحمه الله، فانّهم خرجوا معه یشیعونه، فجعل الحسن علیه السلام یکلم أبا ذر، فقال مروان إیها حسن ألا تعلم أنّ أمیر المؤمنین (عثمان) قد نهی عن کلام هذا الرجل، فان کنت لا تعلم فاعلم ذلک، فحمل علی علیه السلام علی مروان فضرب بالسوط بین أذنی راحلته وقال: تنحّ لحالک اللَّه إلی النار، فرجع مروان مغضباً إلی عثمان فأخبره الخبر[۴۵۰].

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۵۴

وهنا وقف أبو ذر رحمه الله فودعه القوم، وخطب الإمام علیه السلام بهذه الکلمات التی تتضمن کل واحدة منها نقطة مهمّة بهدف مواساة أبی ذر وتحمله المصاعب التی ستواجهه فی المستقبل، فقد أشار علیه السلام إلی ست نقاط فقال أولًا:

«یَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّکَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ».

أمّا قوله علیه السلام فارج من غضبت له ولم یقل ارج اللَّه، فالواقع بیّن الإمام علیه السلام دلیل ذلک الأمل، لأنّ کل شخص یغضب لآخر بالنسبة لشیء یؤذیه، فمن الطبیعی أنّ ذلک الشخص سیقف إلی جانبه.

وقال فی الثانیة:

«إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوکَ عَلَی دُنْیَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَی دِینِکَ، فَاتْرُکْ فِی أَیْدِیهِمْ مَا خَافُوکَ عَلَیْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَیْهِ».

إشارة إلی أنّهم شعروا بالخطر علی حکومتهم ومنافعهم المادیة إثر صراحة کلامک فی الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، فلم یستطیعوا تحمل وجودک فی المدینة، لکنّک قاطعتهم ولم تقبل بذلهم، وذلک لأنّک شعرت بالخطر علی دینک، فلما قمت

بوظيفتك واطلعت الناس على أعمال هؤلاء الحكام، فاتركهم واهرب بدينك وإيمانك.

ثم قال الإمام عليه السلام:

«فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غداً، وَالْأَكْثَرُ حُسَّداً»،

فهم بحاجة إلى دينك، الدين الذى لم تكن مستعداً للتضحية به من أجل دنياهم، لكنّك لست بحاجة إلى دنياهم وإن منعوها عنك ۴۵۱]، والعبارة «وستعلم ...» مواساة أخرى لأبى ذر فعمر الدنيا قصير كأنه ويوم وغدا تقوم القيامة، أنذاك سيفتضح الظلمة عبدة الدنيا ويغبطون الأتقياء على درجاتهم العالية، ثم ضاعف من ذلك الرجاء فى قلب أبى ذر فقال فى الثالثة:

«وَلَوْ أَنَّ السَّموَاتِ وَالْأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتْقاً[۴۵۲] ثُمَّ اتَّقَى اللَّهَ لَجَعَلَ اللَّهُ

لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً!».

والواقع هو أنّ هذه العبارة إشارة إلى الآية الشريفة:

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً

* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِبُ»[۴۵۳].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۵۵

ثم قال فى الرابعة والخامسة:

«لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ».

فليكن أنسك فى الحق ولا تخشى شيئاً مادمت فى هذا السبيل، ولتكن وحشتك من الباطل وإنّك لسعيد مادمت هارباً من الباطل، فلا ضير عليك إنّك قمت للّهوأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فى اللّه، فلو قبلت دنياهم وعاونتهم فى نيل أطماعهم المادية لأحبّوك، ولو أخذت من ذلك شيئاً وهادنتهم لأمنوك، ولذا قال فى السادسة:

«فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ ۴۵۴] مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ»

، فهم تجار ظلمة ذائبون فى الدنيا وأهل معاملة فيها، فمن وافق على مظالمهم وهادنهم بقبول سهم من أموالهم، أحبّوه وقدّسوه ودافعوا عن ماله وعرضه.

فعبارته عليه السلام مواساة لأبى ذر من جانب وصاعقة شديدة على الحكام الظلمة من جانب آخر، فالحق أن نفى «أبوذر» ذلك العبد الصالح والزاهد الورع كان نموذجاً للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان وصمة عار فى جبين الحكام الظلمة وأعوانهم، فقد كانوا يعلمون أنّ لسان ذلك الصحابى الجليل يعدل مئة ألف سيف.

تأمّلات

۱- من هو أبو ذر رحمه الله

تعتبر حياة أبى ذر مليئة بالأحداث مقارنة بحياة سائر صحابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والتى يمكنها أن تكون أسوة لكافة المجاهدين فى سبيل الحق طيلة التاريخ البشرى، ولا غرو فحياته إقتباس من حياة مولاه رسول اللّه صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام مع فارق بسيط هو أنّه خضع لظروف صعبة جدّاً، لكنّه لم يتوان قط فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الوقوف بوجه الظلمة والفساد، وإليك جانب من سيرته:

اسمه جندب وأبوه جنادة[۴۵۵] وأسماه رسول اللّه عبداللّه، ينسب إلى طائفة معروفة من طوائف

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۵۶

العرب وهی بنی غفار، کانت له ضیعة أطراف مکّة، سمع ببعث النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فاتجه إلی مکّة، فلما دخل المسجد رأی فیه طائفة من قریش وهی تتحدث عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وهی تسبه وتشتمه، فدخل أبو طالب، فقالوا: إسکتوا هذه عمّه، عرف أبو ذر، أبا طالب، فلما خرج من المسجد تبعه فالتفت إلی أبو طالب وسأله هل من حاجة؟ قال: ارید الإیمان بالنبی صلی الله علیه و آله، فقال له أبو طالب تعال هنا غداً، فقضی أبو ذر لیلته فی المسجد الحرام، وفی الیوم التالی إلتقی حمزة، ثم تعرف بجعفر وعلی وأخیراً حمله علی علیه السلام إلی النبی صلی الله علیه و آله فأسلم وآمن طواعیة.

ثم أمره رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بالرجوع إلی أهله وقال له: فان لک ابن عم قد توفی ولیس به وارث غیرک فاستعن بتلک الأموال حتی یؤذن لی بالدعوة العلنیة آنذاک عد إلینا، کان أبو ذر من أوائل من أسلم، وإلتحق بالنبی الأکرم صلی الله علیه و آله بعد غزوة بدر وأحد و الخندق وحین أنفق کل ما لدیه فی سبیل اللَّه، وقد وصفه النبی صلی الله علیه و آله بصدّیق الأمّة وشبیه عیسی بن مریم.

قال العلّامة المجلسی رحمه الله فی کتاب «عین الحیاة» یستفاد من مصادر الفریقین أنّه لم یکن من بین الصاحبة بعد المعصومین من هو أجل قدراً من سلمان و أبی ذر والمقداد وقد قال فیه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

«مَا أَظَلَّتِ الخضرَاءُ ولا- أَقَلَّتِ الغَبرَاءُ عَلَی ذِی لَهجَةٍ أَصدَقُ مِن أَبِی ذَر یَعِیشُ وَحدَهُ وَیَمُوتُ وَحدَهُ وَیُبعَثُ وَحدَهُ وَیَدخُلِ الجَنَّةَ وَحدَهُ»[۴۵۶].

لازم أبو ذر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی المدینة، ولمّا ولی عثمان الخلافة وأعطی مروان من بیت المال، جعل أبو ذر یقول بین الناس وفی الطرقات والشوارع:

«وَالَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا یُنفِقُونَهَا فِی سَبِیلِ اللَّهِ ...»[۴۵۷].

فی إشارة إلی عثمان وبطانته الذین أخذوا ینهبون بیت مال المسلمین، کان أبو ذر یردد تلک الآیة ویرفع بها صوته، فرفع ذلک مراراً إلی عثمان وهو ساکت، ولم تمض مدّة حتی صعب علی الخلیفة وبطانته تحمل کلام أبی ذر، فأرسل إلیه عثمان مولی من موالیه أن إنته عمّا بلغنی عنک،

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۵۷

فقال أبو ذر: أو ینهانی عثمان عن قراءة کتاب اللَّه تعالی؟ فواللَّه لأن أرضی اللَّه بسخط عثمان أحبّ إلیّ وخیر لی من أن أسخط اللَّه برضا عثمان، فأغضب ذلک عثمان وأحفظه، فتطایر وتماسک، إلی أن قال یوماً والناس حوله: أیجوز للإمام أن یأخذ من المال شیئاً قرضاً، فاذا أیسر قضی؟ وکان فی المجلس کعب الأحبار وأبو ذر، فقال کعب الأحبار: لا بأس بذلک، فقال:

أبو ذر: یابن الیهودیة أتعلمنا دیننا؟ (فمثل هذه الأمور لا تجوز فی بیت مال المسلمین) فقال عثمان: قد کثر أذاک وتولعک بأصحابی، إلحق بالشام، فأخرجه إلیها.

ولم یسکت أبو ذر فی الشام حین شاهد الخضراء التی بناها معاویة فی دمشق إلی جانب البیوت المتواضعه للفقراء من الناس والمحرومین، فقال لمعاویة: یا معاویة إن کانت هذه من مال اللَّه فهی الخیانة، وإن کانت من مالک فهی الاسراف، واللَّه لقد حدثت أعمال ما أعرفها، واللَّه ما هی فی کتاب اللَّه ولا- سنّة نبیّه، واللَّه إنّی لأری حقاً یطفأ وباطلًا یحیا، وصادقاً مکذباً، وأثرة بغیر تقی، وصالحاً مستأثراً علیه، فثقل ذلک الکلام علی معاویة، فکتب إلی عثمان، فکتب عثمان أن إحمل جندباً إلی علی أغلظ مرکب وأوعره حتی قدم به المدینة.

فلما دخل أبو ذر رحمه الله علی عثمان، سعی عثمان لأن یضطره للقول بخلاف ما یرید فقال له: أنت الذی تزعم أنا نقول:

«إِنّ اللَّهَ فَقِیرٌ وَنَحنُ الأغنِیاء»

، فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال اللَّه على عباده، ولكنّى أشهد أنّى سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول:

«إِذا بَلَغَ بَنو العاصِ ثَلاثِينَ رَجُلًا، جَعَلُوا مالَ اللَّهِ دُولًا، وَعِبادَهُ خِولًا، وَدِينَهُ دَخلًا»

، فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله؟ قالوا: لا؟ قال عثمان: ويلك يا أبا ذر! أتكذب على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ثم قال: ادعوا لى علياً، فما جاء قال عثمان لأبى ذر: اقصص عليه حديثك فى بنى العاص، فأعاده، فقال عثمان لعلى أسمعت هذا من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: لا؛ وقد صدق أبو ذر، فقال: كيف عرفت صدقه؟ قال: لأنّى سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، يقول:

«مَا أَظَلَّتِ الخضرَاءُ ولا أَقَلَّتِ الغَبرَاءُ عَلَى ذِى لَهجَةٍ أَصدَقُ مِن أَبِى ذَر ...»

. فقال من حضر: أما هذا فقد سمعناه كلّنا من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فندم عثمان.

وجاء فى الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ عثمان بعث غلامين بمئتى دينار إلى أبى ذر وقال: قولا له إنّ عثمان يقرأك السلام وبعث بهذا المال لتستعن به على معيشتك، فقال أبو ذر:

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۵۸

فهل أعطى سائر المسلمين، قالا: لا، فقال: لا حاجة لى به، قالا: إنّ عثمان يقول إنّه من خاصة مالى ولم يخالطه الحرام، فلم يقبل أبو ذر وقال: إنّنى لأغنى الناس بولاية على بن أبى طالب، فعودا بالمبلغ إليه واللَّه يحكم بينى وبينه»[۴۵۸].

وأخيراً ضاق عثمان ذرعاً بأبى ذر واستشار من حوله، فأشاروا عليه بنفيه من المدينة، فاختار أبو ذر الشام والعراق، فلم يوافقوه حيث كانوا يخشون منه، إلى انتهى بهم الأمر لنفيه إلى الربذة[۴۵۹] المعروفة بسوء أحوالها ومناخها حتى توفى فيها، ولم يكن لديه حتى الكفن مرّت جماعة وفيهم مالك الأشتر فأخبرتهم بنته فى الطريق، فكفنوه وصلى عليه صحابى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عبداللَّه بن مسعود، ثم دفنوه ۴۶۰].

۲- أبو ذر رحمه الله والاشتراكية

لقد سعى البعض من المتعصبين بدافع حبّه لمعاوية وبنى أمية أو لفرط ذوبانه فى عثمان لإثارة بعض الغبار على شخصية أبى ذر، وذلك لعدم إمكانية الجمع بين كون أبا ذر من أولياء اللَّه أنّه أصدق من على الأرض وأنّ عثمان خليفةالمسلمين ومعاوية من الصحابة، ومن هنا فلم يروا أخف وطأة عليهم من أبى ذر فقالوا: إنّ أبا ذر لا يؤمن بالملكية الفردية وكانت له نزعة اشتراكيه.

وقال الزركلى فى كتاب «الاعلام فى أبى ذر»: «ولعله أول اشتراكى طادرته الحكومات»[۴۶۱].

وهذا فى الوقت الذى لم يتطرق فيه أبو ذر قط إلى نفى الملكية الفردية، بل شدد من حملاته ضد الأثرياء كمعاوية ممن يوزعون الثروة بصورة غير عادلة، ولذلك لم يكن يشن مثل هذه

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۵۹

الحملات على عهد الخيفة الأول والثانى، قال البعض وردت عبارة «مال اللَّه» فى كلمات أبى ذر، فاستفادو منها نفيه للملكية الخاصة، والحال التعبير بمال اللَّه عن بيت المال هو تعبير متداول وسائد، فقد صرّح المرحوم العلّامة الأمينى فى المجلد الثامن من الغدير حين نقل نعت أبى ذر بالاشتراكية أنّ التعبير بمال اللَّه كثير فى أقوال الصحابة، ثم نقل عدّة روايات عن عمر عبّر فيها صريحاً بمال اللَّه، كما وردت عدّة روايات عن أمير المؤمنين على عليه السلام عبّر فيها بمال اللَّه ۴۶۲].

لا شك أنّه يمكن التعبير عن تلك الأموال بمال اللَّه، بل يمكن اطلاق مال اللَّه حتى على الأموال الشخصية للناس، فقد جاء فى القرآن الكريم مثل هذه التعبير:

«وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ ...»[۴۶۳].

والحق إنّ هذه الفئة تسرعت فى الحكم على أبى ذر، حيث كان يؤكد مراراً تمسكه بالآية:

«وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ...»[۴۶۴]

، ونعلم جميعاً أنّ هذه الآية وردت بشأن مانعى الزكاة.

والأدهى من كل ذلك لجنة فتوى الأزهر قد أصدرت فتوى عام ۱۳۶۷ ق تحت تأثير بعض المتعصبين فى نفى الشيوعية لتنقل عقيدة أخرى لأبى ذر وحكمت ببطلانها لتعتبرها معلولة لبعده عن مبادىء الإسلام، وهى أنّه كان يعتقد بوجوب اعطاء المال الزائد عن حاجته إلى أهل الحاجة ولا ينبغى أن يحتفظ بتلك الأموال، قال المرحوم الأمينى بعد ذكره لهذه الفتوى لو اوكل شيخ الأزهر مطالعة هذه المسألة لمن هو أعرف بأبى ذر وحكموا فيها بعيداً عن التعصب، لعلم أنّ ليس هناك مثل هذه العقيدة لأبى ذر، والأسوأ من ذلك ماذكروه من عذر لأبى ذر بعدم معرفة بمبادىء الإسلام، وهذا ما يضحك الثكلى ويبكى كل مسلم غيور، فهل يصح مثل هذا الكلام بشأن صحابى جليل قضى شرطاً من حياته مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقد شبّهه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بعيسى خلقاً وخلقاً[۴۶۵]، والطريف فى الأمر أنّ أبا ذر ثقة عند بعض

المحدثين كالبخارى ومسلم حيث نقلوا عنه ۸۱ حديثاً[۴۶۶]، وهذا بدوره يكشف عن مدى بعد لجنة فتوى الأزهر عن الحقيقة.

۳- العاقبة المريرة لأبى ذر

إنّ الحديث فى أبى ذر وما لم يقال فيه لكثير ويتطلب كتاباً مستقلًا، ولكن يبدو من الضرورى ذكر هذه النقطة فى أنّ ما منح أبى ذر القوة والصلابة وأرعب خصومه هو زهده الممزوج بصراحة لسانه، فهم لم يستطيعوا الاعتراض عليه لزهده من جانب، ومن جانب آخر لم يطيقوا تحمل صراحته، وإليك نموذج من ذلك.

روى ابن أبى الحديد عن الجاحظ عن جلّام بن جندل الغفارى قال: كنت غلاماً لمعاوية على قنسرين والعواصم فى خلافة عثمان، فجئت إليه يوماً أسأله عن حال عملى، إذا سمعت صارخاً على باب داره يقول: أتتكم القطار بحمل النار (إشارة إلى الجمال التى كانت تحمل أموال بين المال)، اللّهم إلعن الآمرين بالمعروف التراكين به، اللّهم إلعن الناهين عن المنكر المرتكبين له، فازبأر معاوية وتغيّر لونه وقال: يا جلّام أتعرف الصارخ؟ فقلت: اللّهم لا. قال:

من عذيرى من جندب بن جنادة، يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت! ثم قال:

أدخلوه علىَّ، فجيئى بأبى ذر بين قوم يقودونه، حتى وقف بين يديه، فقال له معاوية: يا عدوّ اللَّه وعدوّ رسوله تأتينا كل ويوم فتصنع ما تصنع، أمّا لو أنى كنت قاتل رجلًا من أصحاب محمد من غير أذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك، ولكنى أستاذن فيك. فقال أبو ذر: ما أنا بعدوّ للَّهولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوّان للَّهولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول للَّهصلى الله عليه و آله ودعا عليك مرات ألا تشبع .. فغضب معاوية وأمر بحبسه وكتب إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية أن إحمل جندباً على أغلظ مركب وأوعره، فوجه به مع من سار به الليل والنهار، وحمله على شارف ليس عليها إلّاقتب، حتى قدم به المدينة وقد سقط لحم

فخذيه من الجهد، ثم نفاه عثمان إلى الربذة[۴۶۷].

ونختتم هذا البحث بحديث نبوى شريف ورد فى كتاب أسد الغابة، فقد أسلم أبو ذر لثلاث سنوات قبل البعثة، وكان يعبد اللَّه:

«وَبَايَع النَّبِى صلى الله عليه و آله عَلَى أنْ لاتَأْخُذُهُ فِى اللَّهِ لَومَةَ لائِم وَعَلَى أن يَقُولَ الحَقَّ وإرن كَانَ مرّاً»[۴۶۸].

۴- كلمات المؤدعين لأبى ذر

جاء فى الكتب التاريخية أنّ عقيلًا وحسناً وحسيناً عليهم السلام وعماراً رحمه الله قد ودعوا أبا ذر إلى جانب على عليه السلام وكل قال فى وداعه كلمة، فقد قال عقيل:

«ما عسى أن نقول يا أبا ذر وأنت تعلم إنّا نُحبّك، وأَنت تُحبّنا! فاتق اللَّه فان التقوى نجاة واصبر فان الصبر كرم».

ثم تكلّم الحسن عليه السلام فقال:

«يا عمّاه، لولا أنّه ينبغى للمودع أن يسكت، وللمشيّع أن ينصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها، وشدّة ما إشتد منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تلقى نبيّك صلى الله عليه و آله وهو عنك راض».

ثم تكلّم الحسين عليه السلام فقال:

«يا عمّاه، إن اللَّه تعالى قادر أن يغير ما قد ترى، واللَّه كل يوم هو فى شأن، وقد منعك القوم دنياهم، ومنعتهم دينك، فما أغناك عمّا منعوك وأحوجهم إلى منعتهم، فأسأل اللَّه الصبر والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع، فانّ الصبر من الدين والكرم ...».

ثم تكلّم عمار رحمه الله فقال:

«لا ـ آنس اللَّه من أوحشك، ولا ـ آمن من أخافك، أما واللَّه لو أردت دنياهم لأمنوك، ولو رضيت أعمالهم لأحبّوك، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلّاالرضا بالدنيا، والجزع من الموت، مالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه، والملك لمن غلب، فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۶۲

فبكى أبو ذر رحمه الله وكان شيخاً كبيراً، وقال: رحمكم اللَّه يا أهل بيت الرحمة إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ما لى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم، واللَّه ما أريد إلّااللَّه صاحباً، وما أخشى مع اللَّه وحشة، توكلت على اللَّه والصلاة والسلام على رسول اللَّه وآله ۴۶۹].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۶۳

الخطبة[۴۷۰] المأة والحادية والثلاثون

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام

وفيه يبيّن سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحقّ

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام على عليه السلام فى هذا الكلام إلى عدّة مطالب:

-۱

قبوله الحكومة من أجل رفع راية الدين والعدل فى المجتمع الإسلامى وإصلاح البلاد وأمان العباد واستقرار المظلومين.

-۲

أشار عليه السلام فى جانب آخر من الخطبة إلى الاختلافات الفكرية لأصحابه فقال: لا يمكن بسط العدل فى ظل هذه الظروف واعطاء

الحقوق إلى أصحابها، ويستحيل بلوغ هذه الأهداف ما لم تتحد قلوبكم وتتفق أعمالكم.

-۳

خاض عليه السلام فى تعريف نفسه فقال: أنى أول من سمع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فآمنت به، ولم يسبقنى إلّا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالصلاهٔ.

-۴

أشار فى القسم الأخير من الخطبهٔ إلى صفات الزعيم المقتدر، فعدد أوصافه بكل دقّهٔ، وهى الأوصاف التى يؤدّى توفرها فى الزعيم الإسلامى إلى الديمومهٔ والثبات.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۲۶۵

القسم الأول: لستم من الأصحاب الأخيار

اشارهٔ

«أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الُمخْتَلِفَهُٔ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَهُٔ، الشَّاهِدَهُٔ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَهُٔ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَهِٔ الْأَسَدِ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سَرَارَ الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ»».

الشرح والتفسير

من الحوادث الأليمهٔ فى التاريخ الإسلامى أن يبتلى إمام عالم وكفوء مقتدر كعلى عليه السلام بناس جهّال وعبدهٔ للأهواء يعيشون التناحر والفرقهٔ، فقد كانوا وسائل سيئهٔ لإقامهٔ حكومهٔ الحق والعدل، وقد رأينا منذ بدايهٔ الكتاب لحدّ الآن فى مختلف خطب نهج البلاغهٔ أنّ الإمام على عليه السلام كان يتألم بشدّهٔ من هذا الأمر وكان دائم الشكوى، باحثاً عن مختلف الأساليب لعلاج أمراضهم النفسيهٔ والأخلاقيهٔ، فقد قال عليه السلام مستهلًا هذه الخطبهٔ:

«أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الُمخْتَلِفَهُٔ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَهُٔ، الشَّاهِدَهُٔ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَهُٔ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ».

فقد ركز الإمام عليه السلام هنا على الجذور الأصليهٔ لداء المجتمعات والامم، ألا وهو الاختلاف والتشتت والذى يؤدّى إلى النزاعات وهدر الطاقات، والعبارهٔ:

«الشَّاهِدَهُٔ أَبْدَانُهُم ...»

إشارهٔ إلى حضورهم الجسمانى فى المجتمع وغيابهم الفكرى والروحى عن الحوادث الخطيرهٔ التى تصيب المجتمع، أمّا أهميهٔ هذا الموضوع فقد دفعت بالإمام إلى ذكر مثل هذه العبارات مع اختلاف طفيف فى الخطب الأخرى، كالذى ورد فى الخطبهٔ ۲۹ و ۹۷ حيث قال فى الأولى:

«أَيُّهَا النَّاس، الُمجْتَمِعَهُٔ أَبْدَانُهُمْ، والُمخْتَلِفَهُٔ أَهْوَاؤُهُمْ».

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۲۶۶

وقال فى الثانيهٔ:

«أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَهُٔ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَهُٔ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الُمخْتَلِفَهُٔ أَهْوَاؤُهُمْ».

ثم قال عليه السلام:

«أَظْأَرُكُمْ ۴۷۱] عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى ۴۷۲] مِنْ وَعْوَعَهِٔ[۴۷۳] الْأَسَدِ!»

، العبارة «أظأركم» بالنظر إلى أنّ «ظأر» جاءت فى اللغة بمعنى القابلة، فهى تشير إلى مراده أنّى كالقابلة الشفيقة قد رويتكم على الدوام من عين الحق الجياشة، لكنّكم كنتم تفرون من ذلك دائماً، تفرون فراركم من الأسد، وهذه أسوأ حالة يمكن أن تعرض لإنسان فينفر من الحق ويهرب منه بالشكل الذى يفوق التصور، والعبارة

«وَعْوَعَةِ الْأَسَدِ!»

، تعبير رائع فلم يقل «من الأسد» بل قال

«وَعْوَعَةِ الْأَسَدِ!»

يعنى إنّ هـذا الحيوان على درجة من الجبن بحيث لا ينظر إلى أطرافه ليرى هل هو أسد أم لا، بل يهرب لمجرّد سماعه الصوت، وهذا هو حال بعض الحيوانات التى تهرب إذا سمعت زئير الأسد مهما كانت المسافة بعيدة فى الصحراء.

ثم قال عليه السلام:

«هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ ۴۷۴] بِكُمْ سَرَارَ[۴۷۵] الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ».

قطعاً ليس للحق من إعوجاج ليراد قيامه، والمراد يخلطونه بالباطل وقد سعى أئمة الهدى عليهم السلام لتخليص الحق من شوائب الباطل، كما ليس فى العدل من ظلمة ليجلوها عنه، فالظلم الذى غالباً ما يخالط العدل ويلبسه على حال لا شك أنّ إزالة الظلمة عن العدالة وتمييز الباطل عن الحق، يتطلب أعواناً وأنصاراً من أهل الوعى والتضحية، ولم يكن للجهال والغدرة المشتتين كأهل الكوفة من قدرة للإستعانة بهم فى إزالة الظلمات وتسوية الاعوجاجات، وهذا داء دوى عرض لإمام عادل وشجاع كعلى بن أبى طالب عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۶۷

العوامل الرئيسية للفشل

أشرنا سابقاً إلى إبتلاء الإمام عليه السلام بالأصحاب الذين اعتادوا الحياة المرفهة والدعة والراحة، وقد اعتمدوا مختلف الذرائع للهروب من الجهاد ومقاتلة العدو، وقد سعى الإمام عليه السلام جاهداً لتطهير روحيتهم من هذه الأدران عن طريق الحث والتشجيع تارة واللوم والعتاب والذم تارة أخرى.

وقد أشار فى هذه الخطبة إلى نقاط ضعفهم ليخلصها فى ثلاث هى الاختلاف و التشتت وغياب العقل والهروب من الواقع، ثم صرّح إثر ذلك: كيف يمكن تطهير المجتمع من رواسب بنى أمية وعناصرهم المنافقة المتبقية من عصر الجاهلية وإقامة الحق وتسوية العوج، وأنتم بهذه الأحوال.

وكما أراده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة قانون كلى دائم يحكم كل عصر ومصر ويصدق فى المشاريع السياسية والاجتماعية والعسكرية، وهى الامة المتحدة الواعية التى تستقبل الحق وتعمل به مهما كان مريراً.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۶۹

القسم الثانى: الهدف هو إقامة الحق وبسط العدل

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِى كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِى سُلْطَانٍ، وَلَا الْتِمَاسَ شَىْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِى بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ. اللَّهُمَّ إِنِّى أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِى إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله بِالصَّلَاةِ».

الشرح والتفسير

بیّن الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة أهداف الحکومة الإسلامیة- ومنها حکومته- بعبارات غایة فی الروعة والدقة لیضمنها دروساً خالدة لجمیع الحکّام المؤمنین والمخلصین فقال:

«اللَّهُمَّ إِنَّکَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ یَکُنِ الَّذِی کَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً[۴۷۶] فِی سُلْطَانٍ، وَلَا الِتمَاسَ شَیْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَام».

ربّما کانت هذه العبارة إشارة إلی أصل قبول بیعة الامة علی الخلافة، أو إشارة إلی المعارک التی وقعت بینه وبین الأعداء فی صفین وأمثالها، وهی تعکس الأهداف الرئیسیة لحکّام الاستبداد الذین یهدفون إلی أمرین: الحصول علی المنصب مهما کان الثمن والاستیلاء علی الأموال أینما کانت ومن أی کان، والواقع لیس ذلک سوی حب الجاه وحب المال الذی ساد تاریخ البشر واجتاح حتی الحکومات المستبدة، وقد أثبت الإمام علیه السلام عملیاً ما قال، فقد

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۷۰

اشترط علی الإمام علیه السلام من قبل الشوری التی عینها عمر نیل الخلافة شریطة الانحراف عن مسار رسول اللّه صلی الله علیه و آله فلم یستجب الإمام علیه السلام کما وقف بقوّة بوجه طلحة والزبیر وما قدماه من اقتراح لیس بصواب، کیف یستجیب لهما الإمام علیه السلام هو یری الدنیا کعطفة عنز، ثم بیّن الإمام أهدافه الأربعة من أجل قبول الحکومة وهی:

«وَلکِنْ لِنَرِدَ[۴۷۷] الْمَعَالِمَ مِنْ دِینِکَ، وَنُظْهِرَ

الْإِصْلَاحَ فِی بِلَادِکَ، فَیَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِکَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِکَ».

فالواقع أشار الإمام علیه السلام فی العبارات الأربع التی أوردها کدافع أصلیة لقبول البیعة، إلی برامجه المعنویة فی الحکومة ومشاریعه المادیة والظاهریة، فلابدّ فی الدرجة الأولی من إعادة معالم الدین التی تعین للناس مسیرتها نحو اللّه سبحانه وقد اندثرت بفعل الحکومات المستبدة، ومن ثم الإصلاحات فی کافة الشؤون الاجتماعیة والسیاسیة والاقتصادیة والأخلاقیة، ونصرة المظلوم من الظالم وإجراء الحدود الإلهیّة بحیث یشعر المظلومون بالأمن والاستقرار حقاً، وإن کان هذه الأهداف الأربعة هی مراد الحکومات لعاشت المجتمعات السعادة والمادیة والمعنویة، وإن کان هدفهم الحصول علی المناصب ونیل الأموال والثروات، فلیست هناک من نتیجة سوی الفساد والظلم وتعطیل الحدود الإلهیّة ومحو الأخلاق والدین، وهذا بحدّ ذاته درس لجمیع المسلمین فی کافة الأزمنة والعصور، وهذه هی الأمور التی ذکرها القرآن الکریم کأهداف لبعثة الأنبیاء وتشکیل الحکومة الإسلامیة، فقد ذکر التعلیم والتهذیب والنجاة من الظلال المبین کهدف للبعثة فقال: (هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الْأُمِّیِّینَ رَسُولًا مِنْهُمْ یَتْلُو عَلَیْهِمْ آیَاتِهِ وَیُزَکِّیهِمْ وَیُعَلِّمُهُمُ الْکِتَابَ وَالْحِکْمَةَ وَإِنْ کَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلَالٍ مُبِینٍ»[۴۷۸]، کما ذکر فی موضع آخر هذا الهدف المتمثل ببسط العدل والقسط: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَیِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْکِتَابَ وَالْمِیزَانَ لِیَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...»[۴۷۹]، کما قال: «الَّذِینَ إِنْ مَکَّنَّاهُمْ فِی الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّکَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْکَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ»[۴۸۰].

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۷۱

ثم إختتم الإمام علیه السلام هذا المقطع من الخطبة بذکر شهادة واضحة علی صدق قوله بالنسبة لداوفعه فی قبول البیعة فقال:

«اللَّهُمَّ إِنِّی أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ یَسْبِقْنِی إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه و آله بِالصَّلَاةِ».

إشارة إلی أنّ الإسلام کان غریباً آنذاک، والرسول لوحده ولیس إلی جانبه سوی خدیجة علیها السلام زوجته الوفیة، فکان الجهر بالإسلام إزاء المشرکین المتعصبین غایة فی الخطورة، فقد بایع رسول اللّه صلی الله علیه و آله وإنقاد له، فکان أول من إلتحق به، ولم یکن همّه سوی طاعة اللّه سبحانه وإحیاء الحق والتوحید والعدل، ومازال ذلک الهدف هوالدافع له من أجل قبول البیعة.

لیس هناک من خلاف بین علماء الفریقین بشأن خدیجة علی أنّها أول إمرأة أمنت بالنبی الأکرم صلی الله علیه و آله وأنّ علیاً علیه السلام أول من آمن به من الرجال، وإن تذرع البعض من علماء العامّة بصغر سن علی حین أمن، لیسقطوا عنه تلک الفضیلة ویلصقوها

بالآخرين، ولكن يتضح خواء هذه الذريعة من خلال قبول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لإسلام على صلى الله عليه و آله وأبعد من ذلك تسميته بوصيّه فى يوم الدار[۴۸۱].

نفحات الولايهْ، ج۵، ص: ۲۷۳

القسم الثالث: شرائط حكّام العدل

اشارة

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَايَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ الْوَالِى عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِى أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَا الْجَافِى فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ، وَلَا الْمُرْتَشِى فِى الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ، وَلَا الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام فى المقطع الأخير من الخطبة فى بيان خصائص ولاة العدل ودعاة الحق حيث أشار إلى ست صفات من صفاتهم، وهكذا يختتم هذه الخطبة التى أوردها بشأن الحكومة الإسلامية، والحذير بالذكر أنه استهل الكلام بالعبارة «وقد علمتم» حيث يرى الالتزام بهذه الصفات من الأمور العقلية الواضحة والمسلمة التى يعرفها كل شخص، أو على الأقل ينبغى معرفتها من كل شخص، فقال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَايَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ الْوَالِى عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِى أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ[۴۸۲]».

والواقع هو أنّ هذه الأمور تشكل أصول الحياة الفردية والاجتماعية للناس وهى الفروج، والأرواح، والأموال، والقوانين، وإدارت الدولة التى ينبغى للإمام المدبّر والواسع الآفاق والعادل المنصف أن يؤدّى حقوقها جميعاً، فتأمن الأمّة على أرواحها وأموالها وأعراضها،

نفحات الولايهْ، ج۵، ص: ۲۷۴

وتطبق القوانين والأحكام وتوكل زعامة الامة وإمامتها إلى الصالحين من أفرادها، فان كان إمام الخلق بخيلًا اقتصرت همّته وشهوته على جمع الأموال وضحى بكل شيء من أجل بلوغ هذا الهدف، فلا من أمن واستقرار، ولا من احترام للقوانين والأحكام.

ثم قال عليه السلام فى بيان الصفة الثانية:

«وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ»،

فلا شك أنّ العلم بالأحكام والموضوعات والأساليب الصحيحة تعدّ من أهم دعائم الحكومة وليس للجهّال من الأفراد قدرة إدارة شؤون الحكومة وإن صفت نيّتهم واتصفوا بالورع و التقوى، فهم يقودون الامة إلى المجهول بجهلهم.

وقال عليه السلام فى بيان الصفة الثالثة:

«وَلَا الْجَافِى [۴۸۳] فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ»،

فمن أبرز صفات والى العدل العطف والمحبّة والسماحة والمدارسة، ونعلم بأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قد استقطب القلوب البعيدة عن الحق بهذه الشفقة والمحبّة، وهذه رحمة إلهيّة كبرى كما وصفها القرآن الكريم بالقول:

«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...»[۴۸۴].

ثم قال عليه السلام فى الصفة الرابعة:

«وَلَا الْحَائِفُ [۴۸۵] لِلدُّوَلِ [۴۸۶] فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ»،

وهذا هو البلاء الذى أصاب عثمان، وقد سدّد الضربات المهلكة للمجتمع الإسلامى بحيث لا يمكن معالجتها، فقد أغدق أموال بيت

المـال المسـلمين على قرابته وبطـانته ومتملقيه، ممّـا أدّى إلى قيـام المظلـومين عليه حـتى قتلـوه فظهرت الخلافـات العظيمـة بين النـاس آنذاك وما زالت آثارها باقية.

ثم قال عليه السلام فى الصفة الخامسة:

«وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ [۴۸۷]»،

فأهم عامل للحكم بالظلم والجور هو الرشوة التى يقـدمها أصـحاب الثراء والقدرة فيغيرون مسار القضاء ليصدر أحكامه لصالحهم ضـد أصحاب الحق فيحولون دون إجراء الحق والعدل.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۷۵

طبعاً فلسـفة القوانين والمحاكم حفظ حقوق الضـعفاء، وإلّا فالأقوياء يحفظون حقوقهم، وإن تسـللت هذه الرشوة إلى المحكمة ونفذت إلى ذهن القاضـى والتى لا يقوى على دفعها سوى الأثرياء والأقوياء، فعندما تسلب قدرة الضعفاء على الدفاع فتضيع حقوقهم، وهذا هو الأمر الذى نشـهده فى كافة أنحاء عالمنا المعاصـر، ومن الضـرورى الالتفات إلى هذه النقطة أنّ الرشوة لا تقتصـر على الجانب المالى، فقد تتخذ أشـكالًا أخرى كتصـفية الحسابات السياسـية والوصول إلى المناصب والمقامات والشـهوات الجنسية والمدح الكاذب وأمثال ذلك، وهكذا تتحرك عجلة المحكمة باتجاه الظلم والجور.

وقال عليه السلام فى الصفة السادسة الأخيرة:

«وَلَا الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ»، طبعاً

يمكن أن يكون المراد بالسـنّة سـنّة النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله أو السـنن والقوانين التى أمضاهـا اللّه فى عالم الخلقـة أوالسـنين الاجتماعية الحسنة التى أشير إليها فى عهد مالك الأشتر:

«وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هذِهِ لْأُمَّةِ»

، أو جميعها وإن بدا المعنى الأول هو الأقرب.

آفة الحكومات

كمـا ورد فى بدايـة هـذه الخطبـة، فهى تتـألف فى الواقع من ثلاثـة أقسام مرتبطـة مع بعضـها تماماً، الأول ذم الإمام عليه السـلام القوى الجاهزة التى ينبغى لها أن تنشط فى إقامة الحق والعدل، لكنّها عاشت الضـعف والجز بفعل الاختلاف وعدم توظيف العقل والفكر، ثم أشار إلى أهداف ودوافع حكومة العدل الإسلامية والإنسانية، بينما ذكر آخر الخطبة الأركان الأصلية لمواصفات حكّام العدل، طبعاً إن كانت القوى المؤمنـة والمتحـدة من جانب، والأهـداف والـدوافع المقدّسـة والوالى الذى يتحلى بالصـفات الست المذكورة من جانب آخر، فانّ ذلك سيؤدّى إلى قيام حكومة من شأنها حفظ الأمن والاستقرار وإحياء القيم الإنسانية، وبالعكس لو:

حل البخل بدل الكرم.

والجهل بدل العلم.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۷۶

والعنف بدل الرأفة والرحمة.

وخـاض الحكّـام فى البـذخ ونهب الأـموال والـثروات والتمييز والظلم والجور، وتسـللت الرشوة إلى الجهـاز القضـائى، وعطلت السـنن الحسنة، فتتأسس حكومة فاسدة ينعدم فيها الدين كما تزول فيها الدنيا ... ويا له من درس وعبرة لحكّام الحق.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۷۷

الخطبة[۴۸۸] المأة والثانية والثلاثون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ عليه السلام

يعظ فيها ويزهّد فى الدنيا

نظرة إلى الخطبة

تشمتل هذه الخطبة كما ورد فى عنوانها على المواعظ والإرشادت والنصائح والوصية بالزهد فى الدنيا، وتتألف من أربعة أقسام هى:

۱- حمد اللَّه والثناء عليه مع ذكر صفات اللَّه سبحانه الخاصة والشهادة الخالصة للنبى صلى الله عليه و آله بالنبوة.

۲- إشارة إلى انتهاء الأجل وسلخ الإنسان من كافة ممتلكاته التى حازها فى الحياة الدنيا.

۳- لزوم الاعتبار بحياة الامم السالفة، واولئك الذين جمعوا الأموال والثروات، فكان عاقبة دورهم أن أصبحت قبورهم، كما خلّفوا للآخرين أزواجهم وأموالهم.

۴- ضرورة اغتنام فرض الدنيا وإعداد المتاع والزاد للآخرة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۷۹

القسم الأول: صفات اللَّه الخاصة

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى وَعَلَى مَا أَبْلَى وَابْتَلَى الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ. العَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ. وَنَشْهَدُ أَنْ لَاإِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُهُ نجيّه وَبَعِيثُهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلَانَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ».

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد اللَّه والثناء عليه وذكر أوصافه الخاصة فقال:

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى وَعَلَى مَا أَبْلَى وَابْتَلَى .

والمراد من «أخذ» سلب النعم والآلاء الإلهيّة، والمراد من «أعطى» وهبها، ومن «أبلى» إعطاء النعمة و «إبتلى» الامتحان بواسه أخذ النعم، ومن هنا ذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ هاتين العبارتين تفسيرتين (أى أن أخذ تعادل أبلى وأعطى تعادل ابتلى)، لكن يحتمل أن تكون الأولى إشارة إلى النعم المادية والثانية إشارة إلى النعم المعنوية، لأنّ المفردة «أخذ» كثيراً ما تستعمل فى الأمور المادية.

على كل حال يستفاد من العبارات المذكورة أنّ سلب النعمة قد يكون نفسه نعمة، لأنّ وفور النعمة سبب الغرور والابتعاد عن اللَّه ومقاطعة الخلق، أضف إلى ذلك فانّ الحمد تجاه سلب النعم علامة على التسليم المطلق لمشيئة اللَّه.

ثم أشار إلى ذكر ثلاثة أوصاف أخرى من أوصاف اللَّه سبحانه وتعالى والتى تشكل فى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸۰

الواقع تحذيراً لكافة الأفراد الذين يراقبون أنفسهم ونيّاتهم فقال عليه السلام:

«الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ[۴۸۹]، وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ. العَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ».

فهذه الصفات تدلّ بوضوح على أنّ علم اللَّه سبحانه علم حضورى، يعنى أنّه حاضر وناظر فى كل مكان، فالخفيات والعلنيات لديه على حدّ سواء، والحضور والغياب عنده واحد، فهو يعلم أسرار الصدور وخائنة الأعين، وهو علم بباطن كل شخص وكل شىء.

حقّاً إنّ الإنسان لو تأمل حقيقة الحمد والثناء وذكر هذه الصفات وأمن بها إيماناً راسخاً لأدرك أنّ العالم حاضر عند اللَّه تبارك

وتعالى، وللّه حضور فى روحه وفكره، ولما قارف السيئة، بل لما فكر فيها.

ثم إختتم هذا المقطع من الخطبة بالشهادة للّهبالوحدانية وللنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالنبوة، فقال عليه السلام:

«وَنَشْهَدُ أَنْ لَاإِلهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُهُ ۴۹۰] نجيّه و بَعِيثُهُ ۴۹۱] شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلَانَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ».

طبيعى أنّ الشهادة بهذين الركنين الأصليين الذين يشكلان أسس الإيمان تدعو الإنسان إلى نفى معبود آخر وتحذر من عبادة الشيطان وهوى النفس الأمارة، كما تدعو الشهادة بالنبوّة إلى طاعة الإنسان لأوامر النبى صلى الله عليه و آله، ولا سيّما الشهادة التى لا تقتصر على اللسان بل تتعزز بالقلب وروح الإنسان.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸۱

القسم الثانى: نزول الموت؟

و منها: «فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لَااللَّعِبُ، وَالْحَقُّ لَاالْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ. فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذِرَ الْإِقْلَالَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ- طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ- كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا، يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكاً بِالْأَنَامِلِ. أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً! كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً؛ وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؛ لَافِى حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ!».

الشرح والتفسير

حذر الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة الجميع فى أنّ هذه الحياة الدنيا إلى زوال ولابدّ من مفارقة هذه الدنيا عاجلًا أم آجلًا والالتحاق بالآخرة وتحمل تبعات الأعمال فقال:

«فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لَااللَّعِبُ، وَالْحَقُّ لَاالْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ ۴۹۲]، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ ۴۹۳]».

ولما كان الموت حقيقة واقعة بالنسبة لجميع الأفراد، وقضية قطعية تأبى الاجتناب، فقد

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۸۲

أكّد الإمام عليه السلام كلامه بأنواع التأكيدات ۴۹۴]، والتى بلغت عشرة أنواع حسب قول بعض شرّاح نهج البلاغة، فقال أنّ صوت داعى الموت يطرق الأذن من كل جانب وقد دوّى صوت الرحيل ليملا كافة أرجاءالعالم، وملك الموت لا يفرق بين كهل وشاب وطفل، فقد كمن للجميع ولا ينتظر سوى أمر اللّه، ثم قال عليه السلام:

«فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذِرَ الْإِقْلَالَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ- طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ- كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ ۴۹۵] عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ»

، يمكن أن يكون للعبارة

«فَلَا يَغُرَّنَّكَ

سَوَادُ النَّاسِ»

، معنيان:

الأول: إن رأيت الناس أحياء وسالمين فلا يخدعك ذلك ولا يغفلك من الموت.

والثانى: لا تخدعك جماعات الناس لأن تفكر فى الحياة لا الموت، ومفهوم العبارة:

«وَحَذِرَ الْإِقْلَالَ»

، ابعاد النفس (حسب طنه) عن الفقر بجمع الأموال، والعبارة: «

وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ»

تعنی تصور الشخص أنّه بمأمن من عاقبة عمله بسبب الآمال الفارغة بأنّ الوقت مازال مبكراً على الموت، ولكن رغم كل هذه الآمال والأمانی، فقد فاجأهم الموت وأخرجهم بسرعة وعنف من وطنهم المألوف وطردهم من مكانهم الآمن، ثم واصل الإمام علیه السلام كلامه بأنّ ذلك فی الوقت الذی یحملون فیه على الأولاد وقد تناولتهم أیدی الرجال لیمسكوهم بالأنامل، وكأنّهم متنفرون ومرعبون من حمل توابیتهم بكامل أیدیهم: «

مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا، يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكاً بِالْأَنَامِلِ».

فقد رسم الإمام علیه السلام صورة واضحة بهذه العبارات الصریحة والبلیغة المؤثرة لكیفیة نهایة حیاة الأثریاء المرفهین والمغرورین بالجاه والمنصب، ولاسیّما حین یدركهم الموت المفاجیء، فهی عبارات تمزق كافة الحجب التی تسدل على عین الإنسان، كما توقظ كل سامع من نوم غفلته.

ثم أضفى علیه السلام صورة أخرى على هذا المعنى مواصلة لكلامه فقال:

«أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۸۳

بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً[۴۹۶]، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً! كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً؛ وَصَارتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؛ لَافِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ!

نعم، یفیق الإنسان من نوم الغفلة حین یصفعه الأجل، وفی تلك اللحظة تغلق صحف الأعمال تماماً، فلا من شیء یمكن واضافته إلى الحسنات، ولا یمكن تقلیل شیء من السیئات، ولو سلب الإنسان حیاته بینما بقیت صحف العمل مفتوحة والسبیل مشرع أمام تداركها فلا عقبة ولا ضیر، إلّاأنّ المشكلة تكمن فی غلق صحیفة الأعمال فلا مجال لتداركها، وهذا ما یجعل الإنسان یعیش الهم والغم.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۸۵

القسم الثالث: ممر یعرف باسم الدنیا

اشارة

«فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ

[[برز]]

مَهَلُهُ، وَفازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا: فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ. فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ. وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ [[للزّوال]».

الشرح والتفسیر

خلص الإمام علیه السلام إلى نتیجة بعد مقدمات دقیقة أوردها فی بدایة ووسط هذه الخطبة بشأن علم اللّه بكل شیء سیّما بأعمال العباد ونیّاتهم وكذلك قرب الموت والاعتبار بحیاة الماضین فقال:

«فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ[۴۹۷] برزمَهَلُهُ ۴۹۸]، وَفازَ عَمَلُهُ».

فمن الواضح أنّ التقوى إذا تجذرت فی أعماق قلب الإنسان ظهرت ثمارها على یدیه ولسانه وعینه وسمعه، وذلك لأنّ التقوى ملكة نفسیة تتمثل بخشیة اللّه وهی الدافع القوی للإتیان بالأعمال الصالحة وحاجز عن الذنوب والمعاصی.

ثم واصل الإمام كلامه فقال:

«فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا[۴۹۹]، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا»

، إشارة إلی أنّ

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۸۶

الجنّة لا تعطی لأحد بالمجان، كما لا تتأتی من خلال الظن والتصور والخیال والزعم الفارغ، فمفتاح الجنّة الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة تنبعث من التقوی.

ثم قال علیه السلام فی مواصلة لشرح وضع الدنیا والآخرة ومنزلة كل جماعة:

«فَإِنَّ الدُّنْیا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَی دَارِ الْقَرَارِ»

، فالنظرة الإسلامیة التی تعرض لها القرآن الكریم ونهج البلاغة مراراً تكمن فی أنّ الدنیا دار ممر وأنّها قنطرة ومیدان للتدریب وبالتالی فهی متجر ومقدمة للآخرة الموضوع الأصلی للإنسان، وإن اعتمدنا هذه النظرة للدنیا آنذاك سیبدو لنا كل شیء بصیغة أخری وستحول دون مقارفتنا للذنب والظلم، وتسوقنا نحو الخیر والاحسان.

أمّا أتباع المدارس المادیة التی‌تری الدنیا ولذاتها هدفها النهائی، وقد غفلت تماماً عن الآخرة، فلیس هناك من حد لتلوثها بالذنوب والنزاعات من أجل الاستحواذ علی الأموال والمناصب الظاهریة، وعلیه فلا أمل فی إطفاء غائلة المعارك والنزاعات بینها، وأخیراً خلص الإمام إلی نتیجة رائعة عمیقة المعنی فقال:

«فَكُونُوا مِنْهَا عَلَی أَوْفَازٍ[۵۰۰]. وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ

لِلزِّیَالِ ۵۰۱]»،

فی إشارة إلی أنّ الوقت ضیق والموانع كثیرة وزمان الرحیل مجهول تماماً، ولا ینبغی أن یقتصر التأهب علی الكهول، بل لابدّ أن یعیش ذلك التأهب حتی الشباب علی الدوام، فما أكثر من بقی من الآباء الكهول والعجزة، بینما رحل الشبان الأشداء.

نتیجة الخطبة

أشار الإمام فی هذه الخطبة إلی أمور مهمّة یمكن إیجازها فی ما یلی:

۱- لفت الأنظار فی بدایة الخطبة إلی حضور اللّه سبحانه فی كل مكان وعلمه بخفایا الإنسان وباطنه، لیراقب الجمیع أعمالهم.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۸۷

۲- عدّ الشهادة الحقیقة بالوحدانیة للحق والنبوة للنبی صلی الله علیه و آله من العلم الذی ینسجم فیه الظاهر والباطن وینفصل عن كل نفاق.

۳- إلفات إنتباه الجمیع إلی قرب الموت والرحیل عن الدنیا وهو سبب الیقظة والعلم.

۴- دعی مخاطبیه لمطالعة تاریخ الماضین من خلال الكتب والآثار التی خلفوها فی المدن والمناطق، لیعلموا أنّ ذلك المصیر ینتظرهم مهما كانوا ومهما بلغوا.

۵- دعی الجمیع إثر تلك المواعظ والإرشادات إلی الروع والتقوی، التقوی التی تخترق أعماق قلب الإنسان وتظهر آثارها علی جمیع أفعاله وممارساته.

۶- یذكّر كافة مخاطبیه بهذه النقطة وهی عدم إعطاء الجنّة لأحد دون حساب، بل لها ثمن لا یبلغها العبد إلّابه.

۷- یستعرض أخیراً هذا الأمر فی أنّ الدنیا ممر ولا مقر، متجر ینبغی للجمیع التزود منه فیستعدوا فی كل آن للرحیل والانطلاق.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۸۹

الخطبة[۵۰۲] المأة والثالثة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ علیه السلام

یُعظّم اللّه سبحانه ویَذکر القرآن والنبی ویَعظُ الناس

نظرة إلی الخطبة

یتضح من النظرة الإجمالیة إلی الخطبة أنّها تتألف من خمسة أقسام مهمّة هی:

القسم الأول: یتحدث عن عظمة اللّه وقدرته المطلقة وسجود کافة المخلوقات لذاته المقدّسة.

القسم الثانی: إشارة إلی عظمة القرآن الکریم وخلوده.

القسم الثالث: فی النبی صلی الله علیه و آله وأنّ اللّه سبحانه أرسله بعد فترة وختم به النبوة.

القسم الرابع: الحدیث عن تفاهة الدنیا ودعوة الجمیع للیقظة والتعرف علی الدنیا والتزود منها.

القسم الخامس: وعظ المخاطبین والعود علی التذکیر بالقرآن وعظمته ولزوم التدبر فی آیاته، وهکذا یعرض اطروحة کاملة لأهل الحق لنیل السعادة.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۹۱

القسم الأول: انقیاد ما فی الدنیا للّه

اشارة

«وَانْقَادَتْ لَهُ الدُّنْیَا وَالْآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا، وَقَذَفَتْ إِلَیْهِ السَّموَاتُ وَالْأَرَضُونَ مَقَالِیدَهَا، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ الْأَشْجَارُ النَّاضِرَةُ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النِّیرَانَ الْمُضِیئَةَ، وَآتَتْ أُکُلَهَا بِکَلِمَاتِهِ الِّثمَارُ الْیَانِعَةُ».

الشرح والتفسیر

خاض الإمام علیه السلام فی هذا المقطع فی بیان طائفة من أوصاف اللّه تبارک وتعالی، وأشار بخمس عبارات إلی أمور دقیقة بهذا الشأن فقال:

«وَانْقَادَتْ لَهُ الدُّنْیَا وَالْآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا[۵۰۳]».

فالواقع هو أنّ الإمام علیه السلام شبّه الدنیا والآخرة بالحیوانات السلسة والمروضة التی أسلمت زمامها فیقودها حیث یشاء، ثم قال علیه السلام فی العبارة الثانیة مؤکّداً ذات المعنی السابق بصیغة أخری:

«وَقَذَفَتْ إِلَیْهِ السَّموَاتُ وَالْأَرَضُونَ مَقَالِیدَهَا[۵۰۴]»،

فهو یفتح ما یشاء ویغلق ما یشاء ویفعل کل ذلک علی أساس الحکمة، وأشار فی العبارة الثالثة إلی سجود الأشجار والناضرة لذاته المقدّسة وقال علیه السلام:

«وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۵۰۵] الْأَشْجَارُ النَّاضِرَةُ».

صبعاً الترکیز علی الأشجار الناضرة لا یعنی الحصر، بل نموذج من أجمل الکائنات الحیة

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۹۲

لعالم الخليقة، كما يشير الغدو والآصال إلى جميع الأوقات، كقولنا إنا فى خدمة نشر المبادىء الإسلامية ليل ونهار، أى فى جميع الأحوال والأوقات، ومن هنا أطلق القرآن الكريم القول:

«والنَّجم والشَّجَرِ يَسجُدَانِ»[۵۰۶]، كما يحتمل أن تكون آثار اللَّه وعظمته أوضح فى الأشجار حين شروق الشمس وغروبها أكثر من أى زمان، ويمكن أن يكون هذا السجود بلسان الحال، لأنّ نظامها الدقيق يعكس علم خالقها وقدرته المطلقة، كما يمكن أن يكون بلسان القال، وبناءاً على تمتع كافة ذرات كائنات العالم بالعلم والشعور وتسبيحها للّهسبحانه عن علم وسجودها له.

وقال عليه السلام فى العبارة الرابعة:

«وَقَدَحَتْ ۵۰۷] لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا[۵۰۸] النِّيرَانَ الْمُضِيئَةَ».

وهذا من عجائب القدرة الإلهيّة بأن يخلق مادة بين الماء والتراب تكون مركزاً للنور والضوء، وذلك الضوء الذى تحل من خلاله أغلب مشاكل الإنسان.

ثم قال عليه السلام:

«وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الِّثمَارُ الْيَانِعَةُ[۵۰۹]».

اسجام الآيات والروايات

تتفق عبارات الخطبة التى تضمنت آثار التوحيد اللَّه وعظمته وما ورد فى الآيات والقرآنية، فقد ورد فى موضع من القرآن الكريم: «لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»[۵۱۰]، وفى موضع آخر: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ»[۵۱۱]، وكذلك: «أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ...»[۵۱۲]، وورد أيضاً: «الَّذِى

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۹۳

جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ»[۵۱۳]، وقال: «وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ...»[۵۱۴].

على كل حال كلما تأملنا آيات القرآن الكريم وخطب نهج البلاغة كهذه الخطبة اتضحت لنا عظمة الحق تبارك وتعالى وقدرته ونعمته فتثير الدنيا حس الشكر له لنرتوى من العين الصافية لفرات معرفته وتعرفنا على صفات جماله وجلاله.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۲۹۵

القسم الثانى: إعجاز القرآن

اشارة

منها: «وَكِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لَايَعْيَا لِسَانُهُ، وَبَيْتٌ لَاتُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لَاتُهْزَمُ أَعْوَانُهُ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع القصير من كلامه بالحديث عن أهميّة كتاب اللَّه القرآن الكريم، وقد أدّى حق المطلب بثلاث عبارات قصيرة وبليغة:

«وَكِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ۵۱۵]

نَاطِقٌ لَايَعْيَا[۵۱۶] لِسَانُهُ، وَبَيْتٌ لَاتُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لَاتُهْزَمُ أَعْوَانُهُ».

فقد أشار فى العبارة الاولى إلى هداية القرآن فى كل زمان ومكان وتحت أية ظروف، وإن بدا صامتاً، لكنّه تحدث بمئة لسان، وقد سمعه كل من جلس إليه ومنحه آذاناً صاغية، فهو لا ينفك يلقن الإنسان دورس الحياة السعيدة، والعبارة:

«لَا يَعْيَا لِسَانُهُ»،

يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ تقادم الزمان لا يؤثر مطلقاً على حقائق القرآن الكريم، وهو غض طرى على الدوام كما صورته الأخبار والروايات ۵۱۷].

وأشار فى العبارة الثانية إلى نقطة أخرى حفظ القرآن الكريم، فكما يحفظ البيت المستحكم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۹۶

ذا الأعمدة القوية أصحابه من مخاطر الحوادث والحرارة والبرودة والحيوانات الوحشية والأعداء واللصوص، فانّ القرآن الكريم يتكفل بحفظ أتباعه من الانحراف والضلال ووسوسة الخناسين وإلقاءات الشياطين.

وأشار فى العبارة الثالثة إلى هذده الحقيقة وهى أنّ قدرة الإنسان لا تقهر إن لاذ بالقرآن وهبّ لنصرته، وذلك لأنّ قدرة هداية القرآن تستند إلى قدرة اللّه سبحانه وقدرة اللّه قاهرة لا تغلب، وبفعل مصداق الآية الشريفة: «إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ...»[۵۱۸]، فمن تأيد بنصر القرآن لن يهزمه عدو.

القرآن الناطق

لعل العبارة التى وردت فى هذا المقطع من الخطبة والتى عبّرت عن القرآن الكريم بأنّ

«نَاطِقٌ لَايَعْيَا لِسَانُهُ»

تشير هذا السؤال: كيف التوفيق بين هذه العبارة وما ورد عن الإمام فى الخطبة ۱۵۸ بشأن القرآن إذ قال عليه السلام:

«ذلِكَ الْقُرْآنُ، فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ».

وكذلك العبارة التى وردت فى الخطبة ۱۸۳ إذ قال عليه السلام:

«فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ»، أو ليس

هناك من تضاد بين هذه العبارات؟

تتضح الإجابة على هذا السؤال من أدنى دقّة وتأمل، بعبارة أخرى فانّ العبارات المذكورة تفسر بعضها البعض الآخر، لأنّ القرآن حين يعبر عن القرآن بالصامت والناطق فمفهوم ذلك أنّ كل تعبير ناظر لشىء، مثلًا يمكن القول: القرآن صامت من حيث الظاهر، لكنّه فى الواقع تحدث بصوت جلى بليغ، أو أنه صامت إزاء الأفراد السطحيين بينما ناطق هو تجاه العلماء المفكرين، أو أنّه ناطق فى مواصلة الطرق العملية الأصولية، أمّا بالنسبة لتطبيقها على مصاديقها استنباط الأحكام الفرعية (كقضية التحكيم فى حادثة معركة صفين)، فيجب على المجتهدين أن ينطقوا عنه، ويمكن جمعها معاً فى مفهوم جامع لكلام على عليه السلام وسيأتى مزيد من التوضيح فى ذلك هذه الخطبة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۲۹۷

القسم الثالث: رسالة خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله

منهَا: «أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ، فَقَفَّى بِهِ الرُّسُلَ، وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْىَ، فَجَاهَدَ فِى اللَّهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَالْعَادِلِينَ بِهِ».

الشرح والتفسير

تحدّث الإمام علیه السلام فی المقطع الأول والثانی عن صفات اللَّه سبحانه والقرآن الکریم، ثم أشار هنا بعبارات قصیرة عمیقة المعنی إلی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی أنّ اللَّه تعالی أرسله بالإسلام بعد مدّة وفترة من الرسل السابقین حین کان النزاع قائماً علی قدم وساق بین الأفراد فی دفاع کل عن معتقده فقال:

«أَرْسَلَهُ عَلَی حِینِ فَتْرَةٍ[۵۱۹] مِنَ الرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ».

فالعبارة:

«تَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ»

، إشارة إلی أنّ الحوادث التی تدور بین أتباع المذهب المختلفة بما فیهم عبدة الأوثان وأهل الکتاب ومن لیس له دین وعقیدة، لم تکن حوارات منطقیة ذات محتوی فکری وعقلی، بل کان کل یسطّر بعض الألفاظ بدافع التعصب لإثبات أحقیقته، بل کان هذا النزاع والاختلاف اللفظی أحیاناً مصدر معارک طاحنة وسفک دماء غزیرة.

ثم قال علیه السلام:

«فَقَفَّی ۵۲۰] بِهِ الرُّسُلَ، وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْیَ»،

فقد أشار الإمام إلی نقطتین: الأولی أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله واصل مسیرة الأنبیاء الماضین، وذلک لأنّ مسرتهم بصورة کلیة واحدة، والثانیة أنّه بلغ بتعالیمهم الکمال وختم بهم النبوّة، ثم إختتم کلامه علیه السلام بالقول:

«فَجَاهَدَ فِی اللَّهِ الْمُدْبِرِینَ عَنْهُ، وَالْعَادِلِینَ ۵۲۱] بِهِ».

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۹۸

فالواقع هو أنّ الکفّار فریقان: فریق نسی اللَّه تعالی بالمرّة ولا یعتقد بالحق، وفریق آخر مشرک جعل للَّهسبحانه شریکاً، وقد جاهد النبی الأکرم صلی الله علیه و آله کلا الفریقین، جهاد ثقافی وإعلامی وخاضه لمدّة ثلاث عشرة سنة وقد أسلم العدید منهم، وعندما شاهد الفریق المعاند الذی حال دون إقبال الناس علی الدین اللَّه خاض الجهاد المسلح لیقضی علی تلک الموانع دون أن یجبر أحداً علی قبول دینه ذلک لأنّه:

«لَاإِکْرَاهَ فِی الدِّینِ ...»[۵۲۲]

، وزبدة الکلام فقد أوجز الإمام علیه السلام جمیع أنشطة نبی الإسلام صلی الله علیه و آله فی الجهاد، وهو الجهاد ذو المفهوم الواسع والذی یشمل کل سعی وجهد من أجل نشر دین الحق، والعبارة جاهد فی للَّهإشارة لطیفة فی أنّه لم یکن أسیراً للمال أو المقام والجاه والجلال، بل جاهد من أجل اللَّه سبحانه وسعی لنجاة العباد.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۲۹۹

القسم الرابع: الدنیا غایة بصر الأعمی

اشارة

منها: «وَإِنَّمَا الدُّنْیَا مُنْتَهَی بَصَرِ الْأَعْمَی لَایُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَیْئاً، وَالْبَصِیرُ یَنْفُذُهَا بَصَرُهُ، وَیَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا. فَالْبَصِیرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَالْأَعْمَی إِلَیْهَا شَاخِصٌ. وَالْبَصِیرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَی لَهَا مُتَزَوِّدٌ».

الشرح والتفسیر

أورد الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة کما ذکر ذلک الشارح البحرانی عدّة نقاط لطیفة ورائعة رغم اقتضابها، وقد لفت الأنظار إلی الأصول التی تعد معالم حیاة الأفراد فقال:

«وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الْأَعْمَى .

ثم أكمل ذلك بقوله:

«لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً، وَالْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا».

نعم، فعبّاد الدنيا وبسبب حبّهم وشغفهم بزخارف الدنيا وزبرجها كالمحبوس فى سجن لا يرى سوى ما فى داخل السجن، فأمّا نظرهم ضعيف، أو هناك حجب تحيط بأطرافهم، أو كلاهما، وأمّا دعاة الحق فنظرهم ثابت ولا حجاب لهم، ومن هنا فهم يرون ببصيرتهم الثاقبة الدار الآخرة منزلهم الأبدى الخالد بكل وضوح فليس لهم من هم سواها والحق إننا عرفنا الدنيا كما هى تبع ذلك الإيمان بالآخرة، وذلك لتعذر فهم الدنيا دون الآخرة، فهل خلق الخالق الحكيم كل ما فى هذا العالم الواسع ليعيش الإنسان هذه المدّة المعينة فيأكل ويشرب وينام ويصحو بالتالى يموت ويوارى جثمانه الثرى ويدع النسيان؟ والحال بداية عمره كنهايته ممزوجة بالضعف والعجز، ووسطه الذى يمكن الاستفادة منه مشوب بأنواعه المشاكل المصائب والآلام والمعاناة؟ هل هناك حكيم يقوم بمثل هذا العمل الطائش؟ ولذلك صرّح

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۰

القرآن الكريم:

«يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ»[۵۲۳].

وقال فى النقطة الثانية التى تمثل فى الواقع نتيجة بالنسبة للنقطة الأول:

«فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ».

وبناءاً على هذا فقد استعمل الشاخص بمعنيين وما يصطلح عليه بالجنس التام، المعنى الأول من مادة شخوص بمعنى الرحيل والمفارقة، والمعنى الثانى التطلع وتصويب العين نحو موضع والتخلف عن الحركة، وكأن العين تريد مغادرة الحدقة، وللعبارة تفسير آخر اقتصر على ذكره شرّاح نهج البلاغة وهو أنّ الشاخص هنا يعنى الراحل غاية ما فى الأمر تطلق حين يقال «منها شاخص»، كما يقال «إليها شاخص» وهذا هو الفارق بين من كانت له بصيرة والأعمى، وقال فى النقطة الثالثة والأخيرة:

«وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ».

فهل البصيرة يتزودون من الدنيا للآخرة كما صرّح بذلك القرآن الكريم: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»[۵۲۴]، بينما يتزود عمى القلوب من أجل العيش فى الدنيا، فهناك اختلاف تام بين المسيرين بتعين فقط بكلمة «منها» و «لها».

التعامل مع الدنيا

هناك على الدوام نظرتان يمتلكها الإنسان تجاه الدنيا، فأتباع الأديان السماوية يرون الدنيا بصفتها منزلًا لابدّ من التزود فيها إلى الآخرة، يبلغون مرادهم بواسطة هذا الزاد والمتاع وليس لهم من مراد سوى السعادة الأبدية والفوز برضوان اللّه سبحانه وتعالى، أمّا أتباع المدرسة المادية (والمدارس التى تتفق معها) فهم ينظرون إلى الدنيا على أنّها الهدف النهائى والغاية فيوظفون كافة طاقاتهم ويجندون قواهم من أجل الظفر بها، وأحياناً يتفق أصحاب النظرة الأولى فى العمل مع أتباع النظرة الثانية، يعنى رغم اعتقادهم بأنّ الدنيا وسيلة لنيل الآخرة، إلّا أنّ عملهم يشير إلى نسيان ذلك الاعتقاد وتعاملهم مع الدنيا كهدف نهائى ومن هنا وردت

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۱

تحذيرات أئمّة الدين التى تهدف ايقاظهم من الغفلة، فيقولون أحياناً:

«تَجَهَّزُوا، رحِمَكُمُ اللَّهُ، فَقَدْ نُودِىَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ»[۵۲۵].

وأخرى يقولون:

«النَّاسُ عَبيدُ الدُّنيا وَالدِّينُ لَعِرقٌ عَلى ألسِنَتِهِم»[۵۲۶]

، كما يقولون:

«الدنيا: تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ»[۵۲۷].

وأخيراً يقولون: إنّما الدنيا منتهى بصر الأعمى، ولا يبصر ما وراءها شيئاً والبصير ينفذها بصره، ويعلم أنّ الدار وراءها».

وأعظم مانع من الا فراد، وأهم وظائف أئمة الدين إيقاظ هؤلاء الأفراد ولفت إنتباهم إلى أنّ الدنيا ممر لا مقر.

نفحات الولاية ؛ ج۵ ؛ ص ۳۰۱

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۳

القسم الخامس: أهمية القرآن و دور عبادة الدنيا فى الصراعات

منها: «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ إِلَّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَايَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً. وَإِنَّمَا ذلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَّاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ، وَفِيهَا الغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلامَةُ. كِتَابُ اللَّهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ، وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ. قَدِ اصْطَلَحْتُمْ عَلَى الْغِلِّ فِيما بَيْنَكُمْ، وَنَبَتَ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِكُمْ. وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الْآمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ. لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ، وَتَاهَ بِكُمُ الْغُرُورُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع إلى مسائل مهمّة وقضايا مختلفة لا يبدو أنّها مرتبطة مع بضعها، ومن هنا يعتقد بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه العبارات قطوف اختارها المرحوم السيد الرضى من خطبة طويلة مرتبطة، وذلك لأنّه رآها أعظم فصاحة وبلاغة، وإلى هذا يعود سبب عدم رؤيتنا لإرتباط واضح بينها، ومع ذلك فهناك حكمة بالغة تختزنها هذه العبارات، فقد ساق فى البداية تثبيتها من أجل لفت الأنظار إلى أهميّة العلم الذى يمثل حياة قلب الإنسان فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ إِلَّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَايَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً».

وقد صرّح أغلب شرّاح نهج البلاغة هنا سؤالًا وهو: لا ينسجم هذا التعبير مع ما ورد في

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۴

بعض الآيات والروايات التى تصور راحة أولياء اللّه سبحانه فى الموت، ومن ذلك ما ورد فى سورة الجمعة: «قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ»[۵۲۸]. وما ورد فى سورة الواقعة: «فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ* فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ»[۵۲۹].

فمن الطبيعى ألا يكره الموت من يرى نفسه على أعتاب الروح والريحان والجنّة المليئة بالنعم، وقد ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«لَيسَ لِلمُؤمِنِ راحَةٌ دُونَ لِقاءِ اللَّهِ»[۵۳۰]

، كما ورد هذا المعنى بعبارة أخرى عن الإمام الصادق أنّه قال:

«لا راحَةَ لِلمُؤمِنِ عَلَى الحَقِيقَةِ إلّاعِندَ لِقاءِر اللَّهِ»[۵۳۱].

وجاء فى الدعاءالمعروف للإمام على بن الحسين عليهما السلام فى يوم الثلاثاء:

«وَاجعَل الحَياةَ زِيادَةً لِي فِي كُلِّ خَيرٍ وَالوَفاةَ راحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍ».

وقد ذكرت عدّة أجوبة على هذا السؤال أوضحها جميعاً أنّ هذه العبارة إشارة إلى الناس الذين يهربون عادة من الموت، بينما ليس

لأمر كـذالك بالنسبة لخواص اللّه سبحانه، كما يحتمل أن يكون المراد كراهة حتى أولياء اللّه تعالى للموت بفضله نهاية التزود ومواصلة مسيرتهم التكاملية، على كل حال فقد أراد الإمام على عليه السلام هذه المقدمة على أنّها نتيجة وتشبيه للعلم والمعرفة التى يرتوى منها الإنسان مطلقاً فقال:

«وَإِنَّمَا ذلِکَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِی هِیَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَّاءِ، وَرِیٌّ ۵۳۲] لِلظَّمْآنِ ۵۳۳]، وَفِيهَا الغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلامَةُ».

فالواقع أراد الإمام عليه السلام أن هناك نوعين من الحياة حياة مادية وجسمانية والتى لا ـ يشبع منها الناس غالباً، والحياة المعنوية والروحانية والأفضل منها العلم والمعرفة التى لا يرتوى منها العقلاء والعلماء قط، وبناءاً على هذا فانّ المشار إليه «ذلک» بالضبط هو ذلک الشیء الذی ورد

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۰۵

قبل ذلک وهو الحياة المادية التى لا يشبع منها الناس، والغريب هنا كما أورده شرّاح نهج البلاغة حيث ذكر كل واحد منهم احتمالًا للعبارة المذكورة، الحال تفسيرها واضح وهو يشبه ما ورد فى إحدى قصار الكلمات لأميرالمؤمنين على عليه السلام إذ قال:

«مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا»[۵۳۴].

على كل حال فالمراد بالحكمة فى العبارة المذكورة هو العلم والمعرفة التى تقرب الإنسان من اللّه وتنظم أموره المادية والمعنوية وتحول دون أعماله العبثية، وبعبارة قصيرة كما وردت فى القرآن الكريم فانّ الخير الكثير يعود إلى صاحبه: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِیَ خَيْراً كَثِيراً ...»[۵۳۵].

وقد يبيّن الإمام عليه السلام فى عبارته المذكورة العميقة المعنى الأوصاف الخمسة للحكمة وكشف عن منزلتها فى حياة الإنسان المادية والمعنوية، فقال أولًا إنّ الحكمة حياة القلب الميت، يعنى أنّ الأرواح والأفكار التى تصبح بفعل الجهل كالأموات خالية من أية حركة إيجابية، إنّما تعود إلى الحياة فى ظلّ العلم والحكمة فتحيا وتمارس الحركة.

وثانياً وثالثاً أنّ الحكمة تبصر الأعمى وتسمع الأصم وتوضح الحقائق لمن غطت الحجب بصره وأثقل الوقر أذنه، بحيث يرى الحق فى كافة أنحاء الخلق ويسمع نداء تسبيح الكائنات ويدرک رسالته أولياء اللّه سبحانه، وقال فى الوصف الرابع والخامس أنّ عطشى الحق لا يرتوون من منابع الحكمة ويجدون فيها أسباب عافيتهم وسلامتهم، وعليه فلن يبقى من الخير والبركة والسعادة شيئاً إلّاوقد اختزنته الحكمة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن القرآن الكريم والذى يراه بعض شرّاح نهج البلاغة أنّه جمل استئنافية قطع إرتباطها بالعبارات السابقة بسبب ما اعتمده السيد الرضى فى الانتخاب ۵۳۶]، ولكن كما أورد المرحوم البحرانى فانّه لا يمكن القول أنّ ليس هناک إرتباط بين هذه العبارات وسابقاتها حيث بيّنت أحد منافع الحكمة المهمّة وهى القرآن الكريم، أو بعبارة

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۰۶

أخرى قد ركّزت على المصداق التام للحكمة، والجدير بالذكر أنّ الأوصاف التى بيّنتها للقرآن تشبه الأوصاف التى بيّنتها العبارات المذكورة للحكمة، على كل حال فقد قال كتاب اللّه الذى تبصرون به الحقائق وتتحدثون به، وتسمعون به ينطق بعضه البعض الآخر (وتفسر فيه المتشابهات على ضوء المحكمات) ويشهد بضعه على البعض الآخر (ويؤيد بعضه الآخر) ولا يختلف ما يقوله فى اللّه، ومن يصحبه لا يخلاف اللّه: «كِتَابُ اللَّهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِی اللَّهِ».

والأوصاف السبعة التى بيّنها الإمام عليه السلام بشأن القرآن تشبه من جهات الأوصاف الخمسة التى بيّنها بصورة كلية بخصوص الحكمة.

والجدير بالذكر أنّ الحكمة اقترنت بالكتاب فى غلب الآيات القرآنية[۵۳۷] والذى يدلّ على العلاقة الوثيقة بينهما وأنّ رسل اللَّه سبحانه كانوا يمضون قدماً فى ظلّهما (الكتاب والحكمة).

من جانب آخر فانّ الأوصاف التى تضمنتها العبارة بشأن القرآن الكريم فى أنّه أساس البصر والسمع والنطق، وقد وردت الإشارة إليها فى بعض الآيات القرآنية ومن ذلك الآية:

«قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ...»[۵۳۸].

وممّا لا شك فيه أنّ الآيات الإلهيّة ودلائل الحق قد وردت بكثرة فى القرآن الكريم بحيث يسع الإنسان بواسطتها رؤية جمال الحق ويسمع نداء اللَّه تبارك وتعالى، وهناك فارق واضح بين العبارة:

«يَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ»

والعبارة:

«يَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ»

، لأنّ الحديث فى العبارة الأولى عن آيات القرآن التى يفسر بعضها البعض، وتتضح المتشابهات فى ظل المحكمات، وأمّا العبارة الثانية فتتحدث عن إنسجام آيات القرآن وكلّ منها يعاضد الأخرى وتشهد على صدقها، وبالعبارة:

«وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ»

، إشارة إلى عدم اختلاف القرآن الكريم فى بيان صفات الجمال والجلال والتى تعدّ من أهم مباحث القرآن الكريم، ويتحدث بجميع أياته عن تلك الذات المقدّسة الجامعة لكافة الكمالات اللامتناهية، والعبارة:

«وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ».

إشارة إلى أنّ أى من آيات القرآن لا تبعد الإنسان عن مسار الحق، بل

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۷

تأخذ بيده إليه، فمن تمسك بالقرآن لن يضل أبداً، ومن رجاه لا يخيب، فالقرآن يعرّف نفسه:

«أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً»[۵۳۹].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه كطبيب حاذق وحكيم ماهر فخاض فى بيان معاناة مخاطبيه المعنوية وقد ذكرهم بنقطة مهمّة، كيف ولم عجزتم عن مواصلة سبيل الحق وعندكم هذا القرآن- وعليه لا يبدو صواباً ما أورده شرّاح نهج البلاغة من عدم إرتباط العبارات اللاحقة بالعبارات السابقة، فقال بادىء الأمر كأنّى بكم قد إتفقتم على الخيانة والحسد والحقد:

«قَدِ اصْطَلَحْتُمْ عَلَى الْغِلِ ۵۴۰] فِيما بَيْنَكُمْ».

ثم قال:

«وَنَبَتَ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِكُمْ ۵۴۱]»،

إشارة إلى أن أعمالكم الخاطئة إنّما تفرزها أفكاركم الملوثة، وأضاف فى بيانه لنقطة ضعفهم الرابعة والخامسة فقال:

«وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الْآمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ»

، فنقطة اشتراككم تكمن فى تعلقكم بالآمال والأمانى الفارغة، ونقطة اختلافكم فى كسب المال، حيث يريد كل منك أن يختطف المال الذى فى يد غيره.

والواقع يمكن خلاصة نقاط ضعفهم فى أربع كلمات هى الحقد والحسد والرياء وطول الأمل والنزاع من أجل كسب المال، والحق أنّ المجتمع لن يرى الأمن والاسقرار إن سادته هذه الرذائل، ولا يسوده سوى النزاع والقتال وأنواع التوتر، كما لا يعيش سوى الضعف والوهن تجاه العدو الخارجى، وإن طالعتنا بعض مظاهر الجمال فى هذا المجتمع فهى بمثابة الزهور الجميلة التى تنبت فى المزابل

وجـذورها عفنـة، وكأنّ الإمام عليه السـلام أراد أن يفهمهم هذه القضـية وهى أنّ المبادىء التى سادت المجتمع الجاهلى قبل الإسـلام والتى وردت الإشارة إليها فى صدر هذه الخطبة قد إنتعشت اليوم مرّة أخرى فى وسـطكم، ثم أشار الإمام عليه السـلام فى آخر الخطبة إلى أحد الأركان المهمة لانحرافهم والذى يتمثل بوساوس الشياطين والتى جعلتهم يضلون سبيل

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۸

السعادة والنجاة:

«لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ، وَتَاهَ ۵۴۲] بِكُمُ الْغُرُورُ[۵۴۳]، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ».

قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً ...»[۵۴۴]، كمـا قال: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا»[۵۴۵]، اسـتهام من مادة هيام على وزن قيام خرج لا يدرى أين يذهب، فهو يمشى دون هدف حيران فلا يبلغ الهدف، ولمّا كان العاشق حيران فى حياته فقد اطلقت هذه المفردة على العشق الشديد.

على كل حال فانّ الشـيطان يحث الإنسان على العبث والعشوائيـة ولا يقود ذلك سوى للحيرة والاضـطراب، وهذا بدوره يلقى بالإنسان فى وادى الهلكـة، وبالنتيجـة فانّ صـفاتهم الباطنيـة القبيحـة من جانب، والانقياد لوساوس الشـياطين من جانب آخر قـد مهـدت السبيل لبؤسـهم وشـقائهم وسـلبتهم بصيرتهم وسمعهم ونطقهم وفهم الصحيح، وهكذا يستعرض هذا الطبيب الربانى بهذه الخطبة الغرّاء جذور الأمراض وطرق مكافحتها وعلاجها.

أشار الإمام فى هذا المقطع الأخير من الخطبة إلى عدّة أمور مهمّة منها:

۱- أنّ القرآن الكريم مصدر البصـر السمع والنطق، مع ذلك هناك من لم يستثمر ذلك، لأنّهم محجوبون وحجابهم فسادهم والباطنى وتلوثهم وطول أملهم وغرقهم فى حبّ الـدنيا، ونعلم أنّ هـذه الأمور أهم حجب المعرفـة، نعم فالكتب السـماوية مهما ملئت الحكمـة، ومهما تحلى الأئمّة بالعلم والبلاغة فلا جدوى من ذلك ما لم تكن هناك قابلية فى القابل، فالشمس ترسل أشعتها

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۰۹

على الدوام ولكن ما جدوى هذا الشعاع بالنسبة للأعمى، وكذلك هى الأمطار فى لطافة طبعها لكنه لا ينبت الأزهار فى كل مكان.

۲- إنّ حبّ المـال والثراء أساس الحروب والمعارك النزاعات ولا يقتصـر هـذا الأمر على الزمان والماضـى، بل تلمسه بوضوح فى كل مكان فى الوقت الحاضـر، فالدول الغاشـمة تصرّح دون خشية إننا دخلنا تلك الحرب من أجل حفظ مصالحنا، أو لدينا بعض المصالح فى البلـد الفلانى (طبعاً مصالـح غير مشـروعة) وعليه فلابدّ أن يكون لنا تواجد عسـكرى فيه لنرعى تلك المصالح، والمؤسف أن وجه الدنيا أخذ يتكدر يوماً بعد آخر والحياة أصبحت فيها عديمة الأمن، وليس ذلك سوى ما أورده الإمام عليه السلام إذا قال:

«وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۱۱

الخطبة[۵۴۶] المأة والرابعة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام

وقد شاوره عمرُ بن الخطاب فى الخروج إلى غزو الروم

نظرة إلى الخطبة

قال بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الإمام علیه السلام خطب بهذا الکلام حین اتّجه قیصر بجیشه نحو ثغور الإسلام عندما عزل خالد بن الولید عن إمرة جیش المسلمین وقد تولی الإمرة أبو عبیدة الجراح وشرحبیل وقد ضاق علیهما الأمر، لذلک عزم عمر أن یحضر بنفسه وأستشار أمیر المؤمنین علی علیه السلام ۵۴۷]، ویفهم من کلام ابن أبی الحدید أنّ عمر خالف ما أشار علیه علی علیه السلام، فلمّا علم الروم مقدم عمر بنفسه خافوا وسألوا الصلح علی أن یؤدّوا الجزیة إلی المسلمین، ثم روی قصة أشبه بالخرافة[۵۴۸].

قال المرحوم العلّامة التستری أولًا: ما وراه ابن أبی الحدید عن سیف وروایات سیف لا تخلو من الوضع والتحریف.

ثانیاً: لا دلیل لدنیا أنّ هذا الکلام قاله علی علیه السلام حین استشارة عمر فی الخروج بنفسه

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۱۲

لقتال الروم، بل ظاهر بعض کلمات الشیخ المفید رحمه الله أنّ الکلام فی معرکة القادسیة أو نهاوند[۵۴۹].

والجدیر بالذکر هنا أنّ عمر کان یقبل عادة ما یشیر علیه علی علیه السلام وکان یری نجاته فی ذلک القبول، وهذا بدوره یؤید ما أورده المرحوم العلّامة التستری.

علی کل حال تتألف هذه الخطبة من قسمین: الأول وعد اللَّه سبحانه لهذه الامة بالنصر والغلبة والامل بهذا الوعد، والثانی الذی قال فیه علی علیه السلام لعمر: لا تشخص بنفسک فانّک متی تسر إلی هذا العدو بنفسک، فتلقهم فتنکب لا یکن للمسلمین کهف دون أقصی بلادهم، لیس بعدک مرجع یرجعون إلیه.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۱۳

«وَقَدْ تَوَکَّلَ اللَّهُ لِأَهْلِ هذَا الدِّینِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ، وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ. وَالَّذِی نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِیلٌ لَایَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِیلٌ لَا یَمْتَنِعُونَ، حَیٌّ لَا یَمُوتُ.

إِنَّکَ مَتَی تَسِرْ إِلَی هذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِکَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْکَبْ، لَاتَکُنْ لِلْمُسْلِمِینَ کَانِفَةٌ دُونَ أَقْصَی بِلَادِهِمْ. لَیْسَ بَعْدَکَ مَرْجِعٌ یَرْجِعُونَ إِلَیْهِ. فَابْعَثْ إِلَیْهِمْ رَجُلًا مِحْرَباً، و احْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلاءِ وَالنَّصِیحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَذَاکَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَکُنِ الْأُخْرَی، کُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِینَ».

الشرح والتفسیر

الحضور الخطیر

استهل الإمام علیه السلام کلامه للخلیفة بهدف تقویة معنویاته حذراً من خوف لقاءالعدو الغاشم کالروم بقوله:

وَقَدْ تَوَکَّلَ اللَّهُ لِأَهْلِ هذَا الدِّینِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ[۵۵۰]، وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ»

، والعبارة توکل تشیر إلی أنّ اللَّه سبحانه تکفل بحمایتهم والدفاع عنهم، وهو الأمر الذی أشار إلیه القرآن الکریم: «هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَی وَدِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَلَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ»[۵۵۱].

وهذا الوعد الإلهی- طبق کلام الإمام علیه السلام- لم یکن مقتصراً علی زمان النبی صلی الله علیه و آله، بل یجری فی کل عصر ومصر، والعبارة:

«وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ»

، بالنظر إلی أنّ العورة تعنی فی الأصل النقاط الحدودیة الهشة وما یخشاه الإنسان ویخافه، فهی تشیر إلی أنّ الحق تبارک وتعالی وإضافة إلی

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۱۴

تعهده بعزّة المسلمین ورفعتهم فانّه یمنع العدو من الالتفات إلی نقاط ضعفهم أسرارهم حتی لا یتمکن من تسدید ضرباته للمسلمین.

ثم شدّ من العزائم أكثر فأتى بشاهد حى فقال عليه السلام:

«وَالَّذِی نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِیلٌ لَا یَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِیلٌ لَا یَمْتَنِعُونَ، حَیٌّ لَا یَمُوتُ ۵۵۲]».

فقد نصر اللَّه تعالى اولئك المسلمين الذين كانوا يبدون فى الظاهر ضعفاء ومن حيث العدّة قلائل، واليوم وقد اتسعت حوزة الإسلام والحمد للَّهوقد إنضوت عدّة أفواج تحت رايته، فهم مشمولون قطعاً بنصرة الحق والغلبة لهم والهزيمة لأعدائهم، فناصرهم هو اللَّه تعالى الحى القيوم الذى لاـ يموت، طبعاً إنّ أى موجود تثق به وتعتمد عليه فانّ مرور الزمان يصيبه بالضعف والهن والفتور وبالتالى الزوال والفناء، والذات الإلهيّة المقدّسة الوحيدة التى لا تعرف للضعف الفتور من معنى والتى لا ينبغى الاعتماد سوى عليها.

ثم ورد الإمام عليه السلام ذى مقدمة بعد هذه المقدمة فيخلص إلى نتيجة ليؤكد على عمر عدم حضور ميدان القتال بنفسه بعد أن ذكر دليلًا واضحاً لذلك والذى يقبل بصورة تامة فى الموارد المشابهة فقال:

«إِنَّکَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هـذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِکَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْکَبْ ۵۵۳]، لَاتَکُنْ لِلْمُسْلِمِینَ کَانِفَةٌ[۵۵۴] دُونَ أَقْصَى بِلَادِهِمْ، لَیْسَ بَعْدَکَ مَرْجِعٌ یَرْجِعُونَ إِلَیْهِ».

إشارة إلى هذا الأمر إن حضرت ميدان القتال بنفسك وقتلت فانّ أرادت الامة مبايعة شخص آخر فانّ المجتمع الإسلامى سيفقد مركزيته وتنها المناطق النائية التى تكون عرضة للخرق أكثر من غيرها وهذا ما سيسرى إلى سائر أنحاءالبلاد، ولما كان السلب فى القضايا الاجتماعية يقترن دائماً بالايجاب بغية سدالفراغ الاجتماعى، فبعد أن أشار عليه الإمام بعدم الذهاب بنفسه، طرح عليه البديل ببعث رجل مجرب فى الحرب وطائفة ممن أبلت فى القتال، من أهل النصح والخير فانّ أتاهم النصر فذلك ما يبغى ويحب، وإن حدث شيء آخر (إشارة

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۱۵

إلى الهزيمة المسلمين) فسيكون هو ملاذ المسلمين وكهفهم (فيستطيع ومن خلال بعث القوى السيطرة على الأوضاع وتحيق النصر على العدو):

«فَابْعَثْ إِلَیْهِمْ رَجُلًا مِحْرَباً[۵۵۵]، واحْفِزْ[۵۵۶] مَعَهُ

أَهْلَ الْبَلاءِ[۵۵۷] وَالنَّصِیحَهِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَذَاکَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَکُنِ الْأُخْرَى، کُنْتَ رِدْءاً[۵۵۸]

لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً[۵۵۹] لِلْمُسْلِمِینَ».

فقد بيّن الإمام عليه السلام جوابه للخليفة حين المشورة بدليل منطقى وواضح وهو أنّ حضور زعيم جماعة فى ميدان القتال أمر خطير سوى فى الموارد الاستثنائية، لأنّ من الاحتمالات الواردة قتله فى المعركة ونتيجة ذلك إنهيار الجيش من جانب وتصدع كيان البلاد من جانب آخر، بينما لو بقى مكانه كان له أن يبعث بجيوش بدل جيش واحد ويحتفظ بقدرته وسيطرته على جميع البلاد.

تأمّلات

۱- الردّ على سؤال

طرح بعض شرّاح نهج البلاغة هذا السؤال أشار على عليه السلام على عمر ألا يشخص بنفسه، فما بال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان يشاهد الحروب بنفسه، ويباشرهم بشخصه، وما بال أميرالمؤمنين على عليه السلام شهد حرب الجمل وصفين والنهروان بنفسه؟

وقد أجاب بعض الشرّاح بالقول أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان عالماً عن طريق الوحى بأنّه لا يقتل فى الحرب، كما كان على عليه السلام عالماً من جهة النبى صلى الله عليه و آله أنّه لا يقتل فى هذه الحروب، ويشهد لذلك الخبر المتفق عليه بين الناس يقاتل بعدى الناكثين، والقاسطين، والمارقين، وعليه

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۱۶

فليست هنالك من خطورة فى حضورهما، وقال البعض الآخر، أنّهما كانا يحضران المعارك التى لم تكن تدور بعيداً عن مركز البلاد، بينما اقتصـر حضور النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله فى المعارك الخارجية على تبوك فقط، وبعد أن اسـتخلف علياً عليه السـلام فى المدينة.

وبعبارة أخرى يمكن القول: الموارد مختلفة تماماً ولكل ميدان من ميادين القتال وشرائطه ووضع العدو حكمه الخاص، ولكن غالباً إن كـان الميـدان بعيـداً عن مركز الحكومـة واشترك رئيس الحكومـة فيه وقتـل أدّى إلى عـدّة مشاكـل، ومن هنا نهى الإمام عليه السـلام الخليفة عن حضور ميدان القتال بنفسه.

۲- شبهة أخرى

لعل هناك من يشـكل: كيف قدم الإمام عليه السـلام هذه النصـيحة الودّية والمشـفقة للخليفة مع أنّه يرى الحكومة من حقوقه المسلمة وقد صرّح النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والآيات القرآنية بهذا المعنى فى أنّ الولاية لعلى عليه السلام؟

الجواب على هذا السؤال واضح وهو أنّ الإمام عليه السـلام إنّما يفكر فى المصـير النهائى للإسلام والمسلمين لا فى شخصه، وهو يعلم أنّ الخليفة الثانى قد تربع على مسند الحكومة وتسلم زمام الأمور وقد وقف إلى جانبه عوام الناس وطائفة من الخواص، فانّ تعرض فى ظل هـذه الظروف إلى أزمـة عظيمـة وقتال خطير ساد الهرج والمرج البلاد وعمتها الفوضـى وتعرض كيان الإسـلام للخطر، فروح على عليه السلام العظيمة تقتضى نسيانه لكل شيء وإيثاره لخير المسلمين على كل شيء.

۳- الأمانة فى الاستشارة

الكلام المذكور درس لجميع المسـلمين بتقديم الخير والصـلاح حين المشورة دون الأخذ بنظر الاعتبار قضـية المستشار وكيفية العلاقة به.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۱۷

بعبارة أخرى: إمّا يرفض المشورة وإمّا أنّ يقبلها ويؤدّى حقها، فقد ورد فى الحديث أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال:

«اعْلَم أَنَّ ضَارِبَ عَلِيٍّ بِالسَّيفِ وَقَاتِلَهُ لَو إِتَمَنَنى واستَنصَحَنِي وَاستِشارَنِى ثُمَّ قَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُ لأَدَّيتُ الأَمانَةَ»[۵۶۰].

۴- إستنتاج خاطىء

أراد بعض المخالفين التشبـث بكلام الإمام عليه السـلام ليقيموا الدليل على أحقيّة الخليفة الثانى بالخلافة وعلى لسان على عليه السلام، ولكن من الواضح أنّ هذا الاسـتنباط خاطىء، لأنّ الوظيفة الشـرعية والعقلية وحفظاً لمصالح المسـلمين تتطلب من كل شخص فى مثل ظروف على عليه السـلام أن يقـدم النصح لمن كان يمر بظروف عمر، فينطق لسانه بخير المسـلمين وصـلاحهم، وإن جرت الأمور على خلاف مصالحه الشخصية، بل إن كانت بضرورة، والعبارة:

«لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ»

، لا تعنى قط أنّك أصلح الامة، بل معناها أنّ الناس عرفوك فى ظلّ الظروف الفعلية- حقّاً أم بغير حق- بهذه الصفة فان قتلت تطلبت البيعة لآخر زماناً طويلًا وهنا تنهار الامة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۱۹

الخطبة[۵۶۱] المأة والخامسة والثلاثون

اشارة

ومِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام

وقد وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان

فقال المغيرة بن الأخنس لعثمان: أنا أكفيكه، فقال على عليه السلام للمغيرة:

نظرة إلى الخطبة

صرّح ابن أبى الحديد وآخرون أنّ هذا الكلام لم يكن بحضرة عثمان، وإن أفادت عبارات الخطبة أنّ هذه المشاجرة كانت بحضرة عثمان، فقد جاء فى الخبر أنّ عماراً لما سمع بخبر وفاة أبى ذر ترحم عليه بحضور عثمان، فغضب عثمان وقال: انفوه إلى الربذة، فقال عمّار: مجالسة الكلاب والخنازير أحبّ إليَّ من مجالستك قال ذلك وخرج، فعزم عثمان على نفيه، فذهب بنو مخزوم إلى على عليه السلام وشكوا له ضرب عثمان لعمار وهو عازم الآن على إبعاده فسألوه أن يكلم عثمان وإلّا وقعت فتنة عظيمة، فذهب الإمام على عليه السلام إلى عثمان وقال له: نفيت أبى ذر إلى الربذة حتى مات غريباً وهو من صحابة رسول اللّه صلى الله عليه و آله وقد نقم عليك الناس ذلك، وتريد الآن نفى عمار.

فغضب عثمان وقال: لابدّ من نفيك أولًا لكى لا يجرأ عمار، ففسادهم منك، فقال على عليه السلام: لا تقدر على ذلك وفساد أمثال عمار بسبب أعمالك، فأنت تعمل خلاف دين اللّه تعالى فنقم

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۳۲۰

الناس عليك، قال ذلك ثم خرج من عند عثمان، وقد أحاط الناس به وقالوا فليبعدنا عثمان جميعاً لنموت بعيداً عن أهلنا، فقال الإمام عليه السلام قولوا لعمار يلازم بيته ولا يخرج.

فقال بنو مخزوم: إن كنت معنا فليس لعثمان أن يفعل شيئاً، فلما بلغ ذلك عثمان شكى علياً عليه السلام إلى الناس، فقال له زيد بن ثابت وكان من شيعته وخاصته: أفلا أمشى إليه فأخبره بموجدتك فيما يأتى إليك، قال: بلى، فأتاه زيد معه المغيرة بن الأخنس [۵۶۲] وعداده بنى زهرة وامّه عمة عثمان، فحمد زيد اللّه وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد فانّ اللّه قدم لك سلفاً صالحاً فى الإسلام، وجعلك من الرسول بالمكان الذى أنت به، فأنت للخير كل الخير أهل، وأميرالمؤمنين عثمان ابن عمك ووالى هذه الامة، فله عليك حقان، حق الولايهٔ وحق القرابهٔ، وقد شكا إلينا أنّ علياً يعرض لى، ويرد أمرى علىَّ، وقد مشينا إليك نصيحهٔ لك، وكراهيهٔ أن يقع بينك وبين ابن عمك أمر نكرهه لكما، فحمد على عليه السلام اللّه وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال: أمّا بعد، فواللّه ما أحبّ الاعتراض ولا الردّ عليه، إلّاأن يأبى حقّاً للّهلا يسعنى أن أقول فيه إلّابالحق، وواللّه لأكفنّ عنه ما وسعنى الكف.

فقال المغيرة بن الأخنس وكان رجلًا وقاحاً، وكان من شيعة عثمان وخلصائه: إنّك واللّه لتكفن عنه أو لتكفن، فانّه أقدر عليك منك عليه.

فقال له عليه السلام: يابن اللعين الأبتر، والشجرة التى لا أصل لها ولا فرع ...[۵۶۳].

بناءاً على هذا فخلاصة الكلام أنّه اعتراض شديد على المغيرة بن الأخنس الذى نطق بكلام أكبر منه واعتقد أنّ له منزلة أعظم ممّا فى نفسه.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۳۲۱

«يَابْنَ اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِیلَا أَصْلَ لَهَا وَلَا فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِی؟

فَوَاللَّهِ مَا أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ. اخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللَّهُ نَوَاكَ، ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَكَ، فَلَا أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ!».

الشرح والتفسير

أنت عاجز

كان على عليه السلام الكهف الحصين للمظلومين والمحرومين على عهد الخلفاء الثلاث سيّما على عهد الخليفة الثالث عثمان الذى جاوزت بطانته الحدّ فى الظلم والجور، فلم ترحم صغيراً ولم توقر كبيراً، فكان عليه السلام من يوصل نداء المظلومية للخليفة، فمن الطبيعى أن يسبب له هذا الأمر بعض المشاكل حيث كان يجند الامة ضد الخلافة الحاكمة.

فقد عرض الإمام عليه السلام بهذا الردّ على تهديد المغيرة بن الأخنس بالذم له والاستخفاف به، فأشار بادىء الأمر إلى جذور فساده ونقاط ضعفه ليخلص إلى نتيجة تفيد عجزه عن القيام بأى عمل ضد الإمام عليه السلام فقال:

«يَابْنَ اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِى لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِى؟»،

والتعبير عن المغيرة بن الأخنس باللعين كونه من رؤوس النفاق حيث أظهر الإسلام فى فتح مكة وأبطن الكفر، وقد حاول رسول اللّه صلى الله عليه و آله إستمالة قلبه فأعطاه سهماً كبيراً من غنائم حنين، وأخوه أبو الحكم الذى قتله على عليه السلام يوم احد، ومن هنا حقد المغيرة على على عليه السلام ۵۶۴].

وأمّا وصف الإمام لأبيه بالأبتر لا أنّه لم يكن له عقب، بل الأبتر هنا تعنى انقطاعه عن الخير والسعادة، أو أبتر من حيث النسب حيث كان أولاده ممن لا خير فيهم فكانوا كالعدم،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۲۲

وأمّا قوله والشجرة التى لا أصل لها ولا فرع فهو كناية عن وضاعة هذه الاسرة وبُعدها عن القيم والمثل، فالواقع أنّ قول الإمام عليه السلام إقتباس من الآية الشريفة:

«وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ»[۵۶۵].

ثم قال الإمام عليه السلام:

«فَوَاللَّهِ مَا أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ ۵۶۶]»،

العزّة والقدرة بيد اللّه سبحانه ذلك طبقاً للآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»[۵۶۷].

وقوله تعالى: «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ»[۵۶۸]، فالعزّة للّهلا ـ للمنافقين، ثم إختتم الخطبة باستخفافه الشديد بالمغيرة فقال:

«اخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللَّهُ نَوَاكَ ۵۶۹]، ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَكَ، فَلَا أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ ۵۷۰] إِنْ أَبْقَيْتَ!».

إشارة إلى أنّك لأصغر من أن تهدد علياً عليه السلام، فافعل ما بوسعك لترى إنّك لا تقوى على شىء، وبائس هو الفرد الذى أنت ناصره.

سلوك الإمام عليه السلام تجاه الفرد العديم المنطق

لو أنعمنا النظر فى شأن وورد هذا الكلام للإمام عليه السلام وتتبعنا بدقة مساره التاريخى لرأينا كيف اصطدم الإمام عليه السلام بصورة منطقية بالانحرافات فى عصر الخلفاء ولا سيّما على عهد عثمان، فلم يتوان فى تقديم الوعظ والنصح من أجل منع أى توتر واضطراب حيث كان يكتفى بالحدّ الأدنى من التذكير، أمّا حين كان يصطدم بالمنافقين والجهّال عديمى المنطق، فقد كان يقف بوجههم بكل شدّة وصلابة حتى لا يقتدح فى أذهانهم التفكير بالأعمال الطائشة والخطيرة، وصدر وذيل الكلام المذكور خير شاهد على السلوكين.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۲۳

الخطبة[۵۷۱] المأة والسادسة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ كَلام لَهُ عليه السلام
فى أمر البيعة

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى أمور:
الأول: أنّ بيعتى لم تكن صدفة بعيدة عن تفكير الناس وتخطيطهم، وعليه فلا يحق لأحد نقضها لأنّها بيعة عامّة.
الثانى: أنّى أريدكم جنوداً لتبلور الأهداف الربانية، لكنّكم تريدوننى من أجل ضمان منافعكم الدنيوية.
الثالث: أبغى من كل الافراد النصرة لاستنقاذ حق المظلوم من الظالم، ويبيّن الإمام عليه السلام عزمه القاطع بهذا الشأن
نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۲۵
«لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّاىَ فَلْتَةً، وَلَيْسَ أَمْرِى وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً. إِنِّى أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِى لِأَنْفُسِكُمْ.
أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِى عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَايْمُ اللَّهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً».
الشرح والتفسير

أنصف المظلوم من الظالم

كما ورد سابقاً فانّ الإمام أورد هذا الكلام- بعبارة أخرى هذا المقطع من الخطبة- حين إمتنع بعض صحابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عن بيعته، فأتمّ الإمام عليه السلام الحجة عليهم بهذا الكلام فقال:
«لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّاىَ فَلْتَةً»،
بل حين رأيتم المشاكل الناشئة من بيعة الخلفاء السابقين ولاسيّما بيعة الخليفة الثالث وما ترتب عليها من آثار فقد عزمتم على الإقبال علىّ فأبيتم أمراً جديداً فى مسألة البيعة، وبناءاً على ما تقدم فانّ الأقلية لا تمتلك الحق فى نقض البيعة التى سارعت إليها الأكثيرة من الامة.
وبالنظر إلى أنّ الفلتة تعنى العمل الذى يقع بغتة دون روية وتدبر فقد أراد الإمام:
أولًا: يوضح أنّ بيعته كانت دقيقة جدّاً وقد حصلت بعد مشورة الامة وزعماء القبائل مع بعضهم.
ثانياً: التلميح إلى بيعة أبى بكر التى حصلت فى أجواء متوترة مغلقة من قبل قلّة قليلة حتى قال عمر بهذا المضمون:
«إنَّ بَيعةَ أبى بَكرٍ كَانتْ فَلتَةً، وَقى اللّهُ شرّها»[۵۷۲]
، كما ورد فى بعض الروايات فى ذيل هذا الحديث
«فَمَن عادَ إلى مِثلِها فاقتُلوهُ»[۵۷۳]
، وسنقدم شرحاً وافياً لهذا الموضوع فى البحث اقادم.

ثم قال الإمام عليه السلام فى مواصلة كلامه:

«وَلَيْسَ أَمْرِى وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً، إِنِّى أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ،

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۲۶

وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِى لِأَنْفُسِكُمْ»، فلست

من قبيل طلاب الدنيا من الحكّام الذين ينشدون من وراءها تأمين جلالهم وأبهتهم ومصالحهم الشخصية، فما أريده هو إقامة الدين بواسطتكم وأن اؤدّى حقوق الناس وأفوز برضى اللّه سبحانه، ولكنكم تريدوننى لمصالكم الشخصية كالحصول على سهم كبير من بيت المال أو نيل المناصب والمقامات والرفاه فى الحياة، وبالإلتفات إلى الاختلاف بين هاتين النظرتين فمن الطبيعى ألا تتساوى المسارات تبعاً لوسائل العمل، ثم دعاهم لإصلاح أنفسهم بعد أن وبّخهم وأيقظهم فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِى عَلَى أَنْفُسِكُمْ»

، فى إشارة إلى أنّ مدرستى التربوية معدة لإصلاحكم، فما اريده منكم وبقبول نصائحى- التى تستند إلى مصدر الوحى والقرآن الكريم وتعاليم النبى الأكرم صلى الله عليه و آله- الإلتحاق بها والتعاون معى، فانّ لم يكن لديكم الإندفاع فلا جدوى من أى برنامج، ثم أشار فى الختام إلى نقطة مهمّة ووضح عزمه الراسخ فيها وهى مسألة بسط العدالة فى كافة أرجاء البلد الإسلامى مقاتلة الظلمة فقال:

«وَايْمُ اللَّهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ ۵۷۴] حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ ۵۷۵] الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً»

، فهذا التشبيه الرائع للظلمة بالبعير الجامح الذى يمتنع حتى من شرب الماء ويريد صاحبه أن يورده مشربه كرهاً ويرويه، يفيد أنّ الهدف من مقارعة الظلمة لا يقتصر على استرداد حقوق المظلومين فحسب، بل أنّ هذا العمل بنفعهم أيضاً، لأنّ الظالم إن جاوز الحدّ فانّ التمرد والعصيان العام سيكون كألسنة اللهب التى تحرق الأخضر واليابس وأنّ الظلمة أول من تحرقهم تلك النار، الأمر الذى وقع فى عصر عثمان قبيل حكومة الإمام عليه السلام كما يفيد من جانب آخر أنّ أهم هدف اجتماعى للإمام عليه السلام بسط العدل وأخذ حق المظلومين، وهذا هو الدواء الشافى المرير على ألسنة أغلب الأفراد الجهّال، وهذا أهم هدف لبعثة الأنبياء والذى صوره القرآن الكريم بالقول: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...»[۵۷۶].

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۲۷

الخطبة[۵۷۷] المأة والسابعة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ كَلام لَهُ عليه السلام

فى شأن طلحة والزبير وفى البيعة له

نظرة إلى الخطبة

المحاور الأصلية للخطبة هى:

۱- نقض طلحة والزبير للبيعة لحجّة اشتراك على عليه السلام فى قتل عثمان، والحال هم كانوا يحرضون الناس للقيام على عثمان.

۲- النصيحة المشوبة بالتهديد لطلحة والزبير ليكفا عن الفتنة، ويلتحقا بصفوف عامّة المسلمين.

۳- الإشارة إلى مسألة البيعة وأنّ الإمام عليه السلام لم يكن طالباً للحكومة، بل هم الذين أصروا عليه بقبول البيعة.

۴- لعن الإمام عليه السلام فى ختام الخطبة طلحة والزبير وهو الأمر الذى جرى عليهما عملياً فساءت عاقبتهما.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۲۹

القسم الأول: الحاقدون الظالمون

«وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً. وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ

[[وُلُّوهُ]

دُونِى فَمَا الطَّلِبَةُ إِلَّا قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. إِنَّ مَعِى لَبَصِيرَتِى؛ مَا لَبَسْتُ وَلَا لُبِسَ عَلَيَّ.

وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ؛ فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ، وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغَبِهِ. وَايْمُ اللَّهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ، لَايَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ، وَلَا يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِى حَسْيٍ!».

الشرح والتفسير

لا شبهة ولا شك أنّ طلحة والزبير كانا من بين اولئك الذين أثاروا الناس ضد عثمان ويجمع العدو والصديق على اشتراكهما فى قتل عثمان، كما أعلنت عائشة صراحة اعتراضها على عثمان، إلّا أنّ العجيب ما إن هبت الامة لمبايعة على عليه السلام فتسلم زمام الأمور حتى وقف بوجهه طلحة والزبير وكذلك عائشة، والأعجب من ذلك أنّ حجّتهم لذلك الوقوف هو الطلب بدم عثمان، ولا زال التاريخ يحفل بالكثير من هذه العجائب والأفراد الذين يحرصون على الدنيا وزخارفها، على كل حال فانّ الإمام عليه السلام أشار فى هذه الخطبة إلى هذا المطلب فقال:

«وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً[۵۷۸]»،

ثم أضاف قائلًا:

«وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ

حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۳۰

ثم استدلّ بدليل واضح على ذلك فقال:

«فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ

[[وُلُّوهُ]

دُونِى فَمَا الطَّلِبَةُ إِلَّا قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»

، قطعاً ليس الإمام عليه السلام من يد فى قتل عثمان، وإن اعتبر أغلب الصحابة أنّ عثمان يستحق القتل، إلّا أنّ الإمام عليه السلام ليس فقط لن يشترك فى هذا العمل فحسب، بل بعث بولديه الحسن والحسين عليهما السلام للدفاع عنه، مع ذلك صرّح تجاه ذرائع طلحة والزبير وبغية سلبهم حق المطالبة فقد قال لم يقل أحد بأنّى كنت الوحيد فى قتل عثمان على فرض أنّى اشتركت فى قتله، فقد شركتمونى فيه، وعليه فأى منطق يستول لكم مطالبة الآخرين بأمر اشتركتم فيه معهم، وإن كنتما لوحدكما من فعل ذلك، فالعقاب يقتصر عليكم، وعليكم أن تدينوا أنفسكم قبل أى شخص، فالمتعارف بين الساسة الشياطين أنّهم يسعون لخلق بعض الذرائع التى يستحسنها العوام بغية التشنيع على منافعهم، فهم يبذلون قصارى جهدهم لإتهام منافسهم بما يشوه سمعتهم لدى الرأى العام، وفى ظلّ هذه الأجواء تغيب معانى المنطق والعدالة والوجدان والشرف، فالهدف إقصاء المنافس الخصم مهما كان الثمن، وهذا بالضبط هو المنهج الذى مارسه طلحة الزبير وعائشة بعد بيعة الامة لعلى عليه السلام فألبّوا الكثير من الناس لقتاله عليه السلام حتى احترقوا بنيران

تلك المعارك، على كل حال فانّ الإمام عليه السلام سلب من خصومه الحجّة وأفشل خططهم ليعلم الناس أنّهم قتلة عثمان وقد تذرعوا بالمطالبة بدمه وهدفهم ضمان مصالحهم الشخصية، فهم لا يفكرون فى الناس ولا يهتمون بدم الخليفة المظلوم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى حديث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بشأن أصحاب الجمل الذين ينقضون البيعة:

«إِنَّ مَعِى لَبَصِيرَتِى ۵۷۹]؛ مَا لَبَسْتُ وَلَا لُبِسَ عَلَيَّ. وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ؛

فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ، وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغَبِهِ ۵۸۰]».

فهذا الكلام إشارة للحديث المعروف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«لا تَذهَب اللّيالِى وَالأَيّامُ حتّى تَتنابَحَ كِلابُ ماءٍ بِالعِراقِ يُقَالُ لَها الحَوأَبُ إمرَأَةً مِنْ نِسائِى فِى فِئَةٍ بَاغِيةٍ»[۵۸۱].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۳۱

فالحديث يشير إلى الحادثة المعروفة لأصحاب الجمل حين قدموا من المدينة إلى البصرة، فلمّا بلغوا الحوأب نبحت عائشة كلابها، فتذكرت حديث النبى صلى الله عليه و آله فقالت: إرجعونى إلى المدينة، لكن الساسة المحترفين جندوا أهل تلك المنطقة ليشهدوا بأنّ تلك المنطقة ليست الحوأب ۵۸۲].

وروى ابن عساكر فى «تاريخ دمشق» ومتقى الهندى فى كنز العمال أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام:

«يَا عَلَيُّ ستُقاتِلُ الفِئَةِ البَاغِيةِ وَأَنتَ عَلَى الحَقِّ فَمَن لَم يَنصُركَ يَومَئِذٍ فَلَيسَ مِنِّى»[۵۸۳]

، ومن هنا قال الإمام عليه السلام إنّ معى لبصيرتى ما لبست ولا لبس عليَّ، فالعبارة:

«فِيهَا

الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ»

، بالنظر إلى أنّ الحمأ بمعنى المستنقع والمادة الغامقة فى جرف الأحواض والجداول، والحمة بضم ففتح بمعنى الإبرة اللاسعة للعقرب والحية، فهى كناية عن الأفراد الأرجاس والخطيرين الذين كانوا من مثيرى فتنة الجمل.

وهنا تفسير آخر لهاتين المفردتين فى أنّ الحمأ بمعنى القرابة الحميمة والحمة بمعنى الزوج وهى كناية عن الزبير بن العوام ابن عمة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وعائشة إحدى أزواج النبى صلى الله عليه و آله، والعبارة الشبهة المغدقة بالنظر إلى أنّ المغدقة من مادة أغداق تعنى فى الأصل التغطية إشارة إلى الضجة التى أقامها أصحاب الجمل بعنوان المطالبة بدم عثمان والحال أيديهم ملطخة بدم عثمان، بينما صوروا أنفسهم من حماته، وهذه العبارة لا تنافى العبارة اللاحقة التى قالت بوضوح المطلب، لأنّ المراد هو عدم خفاء الأمر على الأفراد من ذوى العقول والإدراك، لأنّهم كانوا على علم بمؤامرات أصحاب الجمل ودعاياتهم المغرضة الكاذبة.

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بتوجيه تهديد شديد استهله بالقسم فقال عليه السلام:

«وَايْمُ اللَّهِ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۳۲

لَأُفْرِطَنَ ۵۸۴] لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ ۵۸۵]، لَايَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍ ۵۸۶]، وَلَا يَعُبُّونَ ۵۸۷] بَعْدَهُ فِى حَسْيٍ![۵۸۸]».

كما أوردنا فى الخطبة العاشرة التى تشبه إلى حدّ بعيد هذه الخطبة، مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنّى سأجعل من ميدان معركة الجمل مستنقعاً خطيراً مملوءاً بالماء بحيث لا يسعهم الهروب منه وأخمد الفتنة فى مهدها حتى لا يفكروا قط فى العودة إلى مثل ذلك الميدان، وكما ورد فى التواريخ فانّ الإمام عليه السلام حقق عملياً ما قاله، فقد قتل زعماء الجمل وعادت عائشة مخذولة إلى المدينة وافتضح أصحاب الفتنة وتشتتوا فى البلاد.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۳۳

القسم الثانى: إصراركم على البيعة

اشارة

و منه: «فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا. اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ؛ فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيما أَمَّلَا وَعَمِلَا. وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ، وَرَدَّا الْعَافِيَةَ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى مسألة البيعة فقال:

«فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ[۵۸۹] الْمَطَافِيلِ ۵۹۰] عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع إلى هذه الحقيقة وهى أنّ عليكم أن تقارنوا بى الزاعمين الطالبة بدم عثمان ليجعلوا ذلك ذريعة للوصول إلى الخلافة والحكومة وهم طلحة والزبير، فهما لا يتورعان عن أية حيلة وخدعة من أجل تحقيق أهدافهما، أمّا أنا فقد أريتكم منذ البداية أنّى لا أطلب المقام، وأنتم الذين أصررتم عليَّ البيعة، ولأن قبلت بيعتكم فإنما ذلك بسبب القيام بالمسؤولية التى تتمثل باجراء الحق وبسط العدل والقسط وإحياء الإسلام فعبارات الإمام عليه السلام

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۳۴

تكشف مدى شوق الناس للبيعة، وفى ذات الوقت مدى زهد الإمام عليه السلام بها.

ثم إتّجه إلى الحق تبارك وتعالى فشكى إلى اللّه الظلمة الذين نقضوا العهد وجعلوا من إراقة دماء الأبرياء وسيلة لتحقيق أطماعهم وأغراضهم، ثم أخذ بالدعاء عليهم ولعنهم:

«اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا[۵۹۱] النَّاسَ عَلَيَّ».

ثم قال:

«فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيما أَمَّلَا وَعَمِلَا»،

والتفت إلى الناس قائلًا:

«وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا[۵۹۲] قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ ۵۹۳] بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ ۵۹۴]، فَغَمَطَا[۵۹۵] النِّعْمَةَ، وَرَدَّا الْعَافِيَةَ»

، لعل العبارة الأخيرة مواصلة شكوى الإمام عليه السلام للّهسبحانه، ويمكن أن تكون خطاباً للناس،، يبدو المعنى الثانى أنسب، على كل حال فانّ هذه العبارات تبيّن مدى سعى الإمام عليه السلام لاجتناب الحرب وسفك الدماء وقد بذل قصارى جهده لوعظ أصحاب الجمل ومثيرى الفتن علّهم يعودون إلى رشدهم وتثار حميتهم الدينية، فيعودا عن سبيل الغى، إلّاأنّ حبّ الخلافة والجاه والمقام قد أعمى أبصارهم وأصم أسماعهم بحيث لم يعد لنصائح الإمام عليه السلام ومواعظه من تأثير عليهم، بالتالى حلّت عليهم لعنة الإمام عليه السلام ففشلوا فى تحقيق أهدافهم، فانهزموا شرّ هزيمة وقتلوا بذلة وهوان.

القاتل يطالب بالثأر

لا شك أنّ طلحة والزبير كانا ممن أثارا الناس ضد عثمان، فقد أورد ابن قتيبة فى كتابه «السياسة والإمامة» أنّ أهل الكوفة ومصر حين قاما ضد عثمان وحاصروه فى داره كان

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۳۵

طلحة ممن أثار الفريقين ضد عثمان ويقول: أنّ عثمان لا يهتم لمحاصرتكم طالما يحمل إليه الماء والغذاء فاقطعوا عنه الماء[۵۹۶]، كما ورد عن ابن أبى الحديد بشأن الزبير أنّه كان يقول: اقتلوا عثمان فقد أحدث فى دنيكم، فقالوا له: ابنك على باب دار عثمان يدافع عنه، قال: إن قتل عثمان فليقتل ابنى قبله ۵۹۷]، فقد كان تصور طلحة العكس حين قتل عثمان وبايع الناس علياً عليه السلام فتغيّرت الأوضاع تماماً، ولم تكن الامة مستعدة لبيعتهما على حدّ قول الكاتب المصرى المعروف العقاد، حيث لم يكن أمرهما يختلف عن عثمان ۵۹۸]، وكانت عائشة من الناقمين على عثمان ۵۹۹]، إلّاأنّ هؤلاء الأفراد الثلاث انقلبوا على عقبهم بعد بيعة الامة لأمير المؤمنين على عليه السلام فاصبحوا من أنصار عثمان وهبوا للمطالبة بدمه، وكثيرة هى هذه الانقلابات التى تسود حركة الساسة المحترفين، وبالتالى ذاق الثلاث العاقبة المريرة لإثارتهم الفتن، فقد هزم طلحة والزبير وقتلا فى المعركة، وعادت عائشة تجر أذيال الخيبة إلى المدينة، وقد تناولنا بالتفصيل موقعة الجمل وطيش عائشة ودور طلحة والزبير فى المجلدات السابقة من هذا الشرح ۶۰۰].

ولكن ما ينبغى إضافته هنا أنّ اتباعهم ممن حاول توجيه أعمالهم قد خسروا أنفسهم فى زواية حرجة، فمن جانب اعتبروا طلحة والزبير من الصحابة، كما يجرون عليهم نظرية عدالة الصحابة (طهارة وقدسية جميع صحابة النبى صلى الله عليه و آله)، ومن جانب آخر يعتبرونهما من ضمن العشرة المبشرة، تارة يزعمون أنهّم كانوا مجتهدين وإن أخطاؤا فى اجتهادهم، وعليه فهم معذورون ومأجورون، والحال لو وجهنا أعمالهم تحت هذا الغطاء لأمكن تبرير كل جريمة ومن كل فرد، ذلك لأنّ الاجتهاد لا يقتصر على هؤلاء الأفراد، وهذا بدوره يؤدّى إلى تجاوز البديهيات العقلية والنصوص القرآنية، وتارة أخرى يزعمون أنّهم تابوا، وتوبتهم مقبولة عند اللَّه، ولكن هل يمكن اشعال فتيل حرب تؤدّى بسبعة عشر آلف شخص ثم تنسلخ مسؤولية هذه الدماء بمجرّد لقلقة اللسان بالقول استغفر اللَّه؟! فهل أدّوا حق تلك الدماء لأصحابها؟ أم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۳۶

هل عوضوا تلك الأموال التى ذهبت هدراً بهذا الخصوص؟ وهل اعترف طلحة والزبير وعائشة بخطأهم أمام الملأ العام؟

إنّ مثل هذا الدفاع العابث هو نتيجة للأغماض عن الحقائق والتعصب الأعمى، أو ليس من الأجدر بنا تقسيم صحابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلى طائفتين، طائفة كانت صالحة على عهده وأخرى منافقة وطالحة، كما تقسم الطائفة الصالحة إلى فئتين، فئة واصلت صلاحها، وأخرى انقلبت على عقبها فجانبت الحق والعدل والإيمان والسلاح، كما علينا أن نعلم بأنّ المراد من بشارة القرآن الكريم النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بنجاة شخص أو أشخاص فى ذلك الزمان هو شمولها بهذا الحكم، على أنّهم ربّما غيروا مسيرتهم، فممكن أن يقوم الإنسان بعمل بحيث تجب له الجنّة، ثم يفعل بعد ذلك ما يوجب دخوله النار.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۳۷

الخطبة[۶۰۱] المأة والرابعة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ عليه السلام

يومئ فيها إلى ذكر الملاحم

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة فى الواقع من ثلاثة أقسام مرتبطة مع بعضها:

القسم الأول: إشارة إلى ولى من أولياء اللَّه سبحانه ينطلق فى عمله على أساس هداية القرآن، ويرى أغلب شرّاح نهج البلاغة أنّ ذلك الولى واستناداً إلى صفاته هو الإمام المهدى «عجلّ اللَّه تعالى فرجه الشريف».

والقسم الثانى: إشارة إلى الأحداث الداميةِ التى يفرزها قيام ذلك الولى من أجل بسط العدل فى ظلّ الحكومة الإلهيّة حيث يملأ الأرض بالقسط والعدل.

القسم الثالث: إشارة إلى الحوادث داميةٍ أخرى تظهر من الشام، ولعل ذلك إشارة إلى حكومة البعض من بنى مروان، أو ظهور بعض الأفراد كالسفيانى الذى يسبق ظهور الإمام المهدى عليه السلام.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۳۹

القسم الأول: خصائص الإمام المهدى عليه السلام

«يَعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ».

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فانّ هذه الخطبة تشير إلى الحوادث المستقبلة حيث تطرقت إلى ثلاث حوادث، الاولى عدّها أغلب شرّاح نهج البلاغة فى الإمام المهدى عليه السلام، لأنّه قال يجعل رغبات النفس وهواجس القلب تابعة للهدى حين يسود العكس باتباع الهدى للهوى، ويجعل الرأى والفكر منقاداً للقرآن فى الوقت الذى يجعلون القرآن فيه تابعاً للرأى:

«يَعْطِفُ ۶۰۲] الْهَوَى عَلَى

الْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ».

والسؤال هل للعبارتان مفهوم واحد ويؤكد كل منهما الآخر؟ أم أنّ العبارة الاولى إشارة إلى الهداية العقلية والعبارة الثانية إلى الهداية القرآنية؟ يبدو المعنى الثانى أنسب، يعنى فى ذلك اليوم الذى يغيب فيه الناس منطق العقل والهداية بسبب عبادة الهوى فانّه يزيل حجب الهوى، ويجعل السيادة لهداية العقل، كما يجعل القرآن هو ميزان التقييم بعد أن يقصى التفسير بالرأى حين يحاول ذوى الاطماع تطبيق النصوص القرآنية على ضوء تفسيرهم إيّاه حسب أرائهم

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۴۰

من أجل تحقيق أطماعهم للامشروعة، ولو تأملنا أسباب البؤس والشقاء لرأيناها تتمثل بهذين الدائين، تحكيم هو النفس على العقل وتطبيق الرغبات الخفية على آيات القرآن من التفسير بالرأى، وإن زال هذان السبيلان تمهد السبيل من أجل بلوغ حكومة العدل الإلهى، ولعل جميع القضايا التى أصابت المسلمين منذ البداية لحدّ الآن إنما تعود إلى هذين الانحرافين كما يعود سبيل الصلاح إلى إصلاحهما.

ذكر العلماء فى بحث المعرفة أنّ الهوى من بين حجب المعرفة، حيث قال القرآن الكريم:

«أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ...»[۶۰۳].

وما أورع ما قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى الخطبة ۱۰۹:

«وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ»

، والتفسير بالرأى وحمل الآيات القرآنية عليه إحدى مكائد الشيطان الكبرى فى تحريف العبارات عن معناها الواقعى وإسقاط الوحى عن قيمته، ومن هنا فقد عدت الأحاديث الإسلامية هذا العمل بمنزلة الكفر حيث قال الإمام الصادق عليه السلام:

«مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ آيَةً مِنْ كِتَابَ اللَّهِ فَقَد كَفَرَ»[۶۰۴]

، ولمّا كان الوقوف بوجه هذين الانحرافين من خصائص الإمام المهدى (أرواحنا فداه) فانّ الضمير فى هذه العبارات يعود كما يعتقد

شرّاح نهج البلاغة إلى الإمام المهدى عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۱

القسم الثانى: جانب من الحوادث المرعبة آخر الزمان

و منها: «حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ، بَادِياً نَوَاجِذُهَا، مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا، حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا. أَلَا وَفِى غَدٍ- وَسَيَأْتِى غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ- يَأْخُذُ الْوَالِى مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِى أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِى إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ، وَيُحْيِى مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

الشرح والتفسير

يمثل هذا القسم من الخطبة فىالواقع استمراراً للقسم السابق وهو إشارة إلى حوادث آخر الزمان يتعرض بادىء الأمر فيها إلى المعارك الدموية المدمرة التى تثقل كاهل المجتمعات البشرية ويعمّ الظلم والجور كافة الأماكن، ثم يظهر رمز العدل الإلهى فينهى النزاعات والاقتتال ويملأ الأرض قسطاً وعدلًا، ويوفر كافة مستلزمات الراحة والرفاه، فقال عليه السلام بأنّ هذا الوضع سيتواصل:

«حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ، بَادِياً نَوَاجِذُهَا[۶۰۵]»،

ثم أشار إلى الانتصارات التى تتحقق فى بداية الحرب والمرارة التى تختتم بها فقال:

«مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا[۶۰۶]،

حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً[۶۰۷] عَاقِبَتُهَا»،

وكأنّ الحرب تنطوى على لبن حلو وفى نفس الوقت مسموم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۲

بحيث يجذب الأفراد المهوسين ليأملوا بتحقيق نصر خاطف سريع، بينما يصرعون ويهلكون فى نهاية الأمر، ثم أشار الإمام إلى ظهور حكومة العدل الإلهى:

«أَلَا وَفِى غَدٍ- وَسَيَأْتِى غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ- يَأْخُذُ الْوَالِى مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِى أَعْمَالِهَا».

ثم تطرق إلى ذكر الأوضاع المطلوبة المفعمة بالخير والبركة والتى تحصل بعد قيامه فقال:

«وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ[۶۰۸] كَبِدِهَا، وَتُلْقِى إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ، وَيُحْيِى مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»،

فمن جانب: يتم اكتشاف المعادن النفيسة باطن الأرض بسهولة.

ومن جانب ثان: بيده مقاليد تلك الكنوز أو مقاليد حكومة أرجاء الأرض.

ومن جانب ثالث: يبسط العدل والقسط بالاستناد إلى التمتع بتلك المصادر الغنية وهذه الحكومة الشاملة.

ومن جانب رابع: يحيى التعاليم المندرسة والقيم المغيبة للقرآن والكريم والسنّة الشريفة، وهكذا تسير البشرية باتجاه التكامل على المستوى المادى والمعنوى، فالعقول تتم فى ظلّ حكومة الإمام المهدى عليه السلام، وتحيى القيم الإنسانية وتفيض النعم بأنواعها على الناس ويطاح بصنم الظلم والجور.

وقد وردت مثل هذه العبارات فى الروايات المتعلقة بقيام الإمام المهدى عليه السلام فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: « وتَظهرُ لَهُ الكُنُوزُ ويَبلُغُ سُلطَانُهُ المَشرِقَ والمَغرِبَ، ويُظْهِرَهُ دِيَنهُ عَلىَ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكوُنَ فَلا يَفقَى عَلَى وَجهُ الأَرضِ خَرابٌ إلّا عُمِّرَ»[۶۰۹].

وقا فى موضع آخر:

«يَملأَ اللّهُ بِهِ الأرضَ عَدلًا وَقِسطَاً كَما مُلِئَتْ ظُلمَاً وَجوراً، فَيَفتَحُ اللّهُ لَهُ شَرقَ الارضِ وَغَربِها»[۶۱۰].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۳

القسم الثالث: خصائص ذلک الحاکم الدموی

منهَا: «كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ. وَاللَّهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَايَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ، فَلَا تَزَالُونَ كَذلِكَ، حَتَّى تَؤُوبَ إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا! فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ، وَالْآثَارَ الْبَيِّنَةَ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فی هذا القسم من الخطبة إلى حاكم دموی وغاشم ومقتدر يظهر مستقبلًا بالشام فيشهر سيفه ويستولی على جميع البلاد الإسلامية، ثم ذكر له تسع صفات، فقال:

«كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ ۶۱۱] بِالشَّامِ، وَفَحَصَ ۶۱۲] بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي ۶۱۳] كُوفَانَ ۶۱۴]».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۴

ثم قال:

«فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ ۶۱۵]، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَغَرَتْ ۶۱۶]

فَاغِرَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ[۶۱۷]، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ[۶۱۸]».

ثم أقسم قائلًا:

«وَاللَّهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ ۶۱۹] فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَايَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ».

فهذه الصفات التسع لذلك الحاكم الدموی المقتدر والتی تكشف عن شخصه بصورة تامة تشير إلى أنّه يدك أهل الإيمان دكاً بحيث لا يبقى منهم إلّاالقليل، فهو يكتم الأنفاس فی الصدور ويخنق كل حركة ونشاط، ويستولی على البلاد بعد سفكه للدماء وانطلاقه من الشام إلى الكوفة ثم سائر المناطق، أمّا من هو هذا الشخص الذی يتصف بهذه الصفات؟ هناك رأيان لشرّاح نهج البلاغة، رأی يراه عبدالملك بن مروان خامس خلفاء بنی أمية، كان جباراً طاغياً ودموياً، فقد تحرك بجيش عظيم من الشام ليقضی على مصعب بن الزبير الذی كان يحكم الكوفة، فاستولی على العراق والكوفة، ثم وجه جشياً بقيادة الحجاج إلى الحجاز فقتل عبد اللّه بن الزبير فسيطر على مكة والمدينة، كما هدم جانباً من الكعبة بعد أن لاذ بها جمع من جيش عبداللّه بن الزبير.

والرأی الآخر أنّ ذلك الشخص هو السفيانی الذی يسبق ظهور الإمام المهدی عليه السلام حيث يظهر فی الشام ويسفك الدماء ويدعو الناس إلى نفسه، وبالنظر إلى أنّ الأقسام السابقة من الخطبة بشأن ظهور الإمام المهدی عليه السلام لذلك يبدو أنّ هذا القسم فی الظهور أيضاً، والعبارات المذكورة إشارة إلى ظهور السفيانی.

وقد ورد فی الخبر عن حذيفة بن اليمان أنّ رسول اللّه صلی الله عليه و آله أشار إلى فتنة بين أهل الشرق والغرب فيخرج السفيانی حتى يرد دمشق فيبعث بجيش إلى الشرق وآخر إلى المدينة حتى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۵

يصل بابل وبغداد، فيقتل أكثر من ثلاثة الاف وينتهك عرض أكثر من مئة إمرأة، ثم يتّجهون إلى الكوفة فيخربون أطرافها، ثم يعودون إلى الشام، فتظهر راية هدى فی الكوفة وينطلق جيشها إلى جيش السفيانی فيقتله ولا ينجو منه إلّاواحد يخبر عن الحادثة (وهكذا تخمد

الفتنة).

قال المرحوم العلّامة المجلسى نقل أصحابنا هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام ضمن أحاديث المهدى عليه السلام ۶۲۰].

ولكن القسم الأخير من هذه الخطبة لا ينسجم مع هذا التفسير، ثم قال الإمام عليه السلام: بأنّ هذا الوضع من الاضطراب وسفك الماء والابعاد والتشتت يستمر حتى يعود إلى العرب رشدها وعقلها فتتخلص بهذا العقل من فرقتها واختلافها وتتحد كلمتها:

«فَلَا تَزَالُونَ كَذلِكَ، حَتَّى تَؤُوبَ ۶۲۱] إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ ۶۲۲] أَحْلَامِهَا![۶۲۳]».

ثم أمر الناس بأربع من شأنها نصرهم على حكّام الظلم والجور، وإعادة الأمن والسلام إليهم فقال عليه السلام:

«فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ، وَالْآثَارَ الْبَيِّنَةَ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِى عَلَيْهِ بَاقِى النُّبُوَّةِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّى ۶۲۴] لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ».

والمراد بالسنن القائمة ضروريات الإسلام وتعاليمه التى ينبغى أن تكون محور الأنشطة السياسية والاجتماعية والفردية فى كل زمان، والمراد بالآثار البيّنة هى الأخبار والروايات التى ثبتت من الطرق المعتبرة والتى تختزن أغلب التعاليم والوصايا الإسلامية، والمراد بالعهد القريب وصيّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بولاية على عليه السلام، والمراد بالعبارة «واعلموا ...» مراقبة الشيطان والحذر منه فى الإتيان بالأمور المذكورة، وذلك لأنّ الشيطان يسهل طرقه ليصد الناس عن طاعة اللّه والأئمة المعصومين عليه السلام والذى لا يخلو عادة من المصاعب، أمّا الأفراد الذين اعتبروا

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۶

القسم الأخير من الخطبة بشأن حكومة عبدالملك بن مروان فيرد عليهم إشكالات:

الأول: مفهوم العبارة هو أنّ اسقاط حكومة بنى أمية ومجيىء حكومة بنى العباس قد تمّ فى ظلّ عقل العرب ودرايتها والعودة إلى الطريق الصحيح، والحال نعلم أنّ بنى العباس قد واصلوا جنايات بنى أمية ولم تكن حكومتهم أقلّ استبداداً من حكومة بنى أمية، إلّاأن يقال بعقلائية سقوط بنى أمية وشروع حركة بنى العباس وإن انحرفوا فى مواصلة الطريق.

الثانى: لم يكن ظهور بنى العباس مباشرة بعد موت عبدالملك، بل استغرق عشرات السنين حيث حكم ولد عبدالملك ثم أعقب ذلك سقوط بنى أمية، إلّاأن يقال فى جواب هذا الإشكال أنّ حكومة ولد عبدالملك كان امتداداً لحكومته، ولكن من اعتبر القسم الأخير من الخطبة إشارة إلى خروج السفيانى قبل قيام الإمام المهدى عليه السلام قد فسّر العبارات المذكورة على أنّها بعد سفك الدماء الطائش فى آخر الزمان والفساد الذى يحصل الناس مع خروج السفيانى، حيث يطرح حجب الغفلة وتتم العقول وتستعد الناس لقبول حكومة المهدى عليه السلام لابدّ فى تلك الشرائط ومن أجل مزيداً من الاستعداد من حفظ السنن الإسلامية والولاء للولاية، وقد مرّ علينا فى الخطبة ۱۰۱ العبارات المشابهة لما ورد فى هذه الخطبة، وقد وردت الابحاث بشأن تطبيقها على حكومة عبدالملك.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۷

الخطبة[۶۲۵] المأة والتاسعة والثلاثون

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام

فى وقت الشُّورَى

نظرة إلى الخطبة

نعلم أنّ عمر حين أشرف على الموت عهـد بتشـكيل الشورى المؤلفـة من سـتة أفراد لتعيين الخليفـة، كـان أحـدهم علياً عليه السـلام وعثمان، وكان إختيار الأفراد قد جرى وفق تخطيط وسياسة، وكان الهدف واضحاً منذ البداية فى إقصاء على عليه السلام وتسلم عثمان لزمام الأمور بصفته الخليفة السابق، بل بصفته منتخب شورى كبار المسلمين وقد مضى شرح ذلک فى الخطبة الشقشقية[۶۲۶].

أمّا الإمـام على عليه السـلام الـذى كـان ينظر لما هو أبعـد من الشورى فقـد خطب هـذه الخطبـة ليحـذر أصـحاب الشورى، وقـد ذكر المرحوم السيد الرضى جانب منها.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۴۹

«لَنْ يُسْـرِعَ أَحَدٌ قَبْلِى إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِـلَةِ رَحِمٍ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ. فَاسْـمَعُوا قَوْلِى، وَعُوا مَنْطِقِى؛ عَسَى أَنْ تَرَوْا هذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ».

الشرح والتفسير

تحذير من الحوادث المستقبلية

يتألف هذا الكلام فى الواقع من ثلاثة أقسام:

الأول: أشار فيه الإمام عليه السـلام إلى جانب من فضائله، ولم يكن ذلک بـدافع الفخر ومـدح النفس، بل ليمهـد السبيل أمام الآخرين للقبول.

الثانى: طلب فيه من مخاطبيه سماع ما يقول وقبول نصائحه التى تستبع خيرهم ومصالحهم وسعادتهم.

والقسم الثالث: تطرق فيه إلى الحوادث الأليمة التى يشهدها المجتمع الإسلامى فى حالة عدم قبول مواعظه وإشراته.

فقد قال فى القسم الأول: «لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِى إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ».

فقد أشار فى هذه الفضائل الكبرى الثلاث إلى قبول الإسلام فقال إنّ علياً عليه السلام هو أول من أسلم ومن الطبيعى أنّ مثل هذا الفرد يكون أكثر وعياً به من غيره وأحرص، والآـخرى إلى سبقه فى صـلة الرحم، لأنّه وقف إلى جانب رسول اللّه صـلى الله عليه و آله منذ إنبثاق الدعوة الإسلامية حتى وفاة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وقد فدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله بنفسه فى المواطن الصعبة من قبيل مبيته على فراش النبى صلى الله عليه و آله واقعة أحد وأمثال ذلک، كما كان الأبرز فى البر والخير والإحسان حتى نزلت

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۵۰

آيـات من القرآن الكريم بشأن تصـدّقه بالخاتم حين الركوع فى الصـلاة[۶۲۷]، وتصدقه بالطعام على المسـكين واليتيم والأسير[۶۲۸]، وتصدقه بدرهم فى السر وآخر فى العلانية، ودرهم فى الليل وآخر فى النهار[۶۲۹].

ثم قال بالاستناد إلى إذعان الجميع بالفضل فيما ذكر:

«فَاسْمَعُوا قَوْلِى، وَعُوا مَنْطِقِى»

، لا تتعجلوا الأمور بانتخاب عثمان، فهذا عمل خطير له عواقب وخيمة على المسـلمين، وتطرق عليه السـلام إلى المصـير الصـعب الذى سيفرزه هذا الانتخاب فقال:

«عَسَى أَنْ تَرَوْا هذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى ۶۳۰] فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ».

هناك خلاف بين شـرّاح نهـج البلاغـة فى أنّ هذا الإخبار إشارة لحادثة قتل عثمان وشـهر السـيوف ونقض البيعة من قبل بعض الأفراد كطلحـة والزبير وأمثالهمـا أم إشـارة إلى تمرد النـاكثين والقاسـطين والمارقين (أصـحاب الجمل وصـفين والنهروان)، ولكن بالنظر إلى الظروف التى وردت فيها هـذه الخطبـة (حين تشـكيل الشورى لانتخاب الخليفـة الثالث)، يبـدو المعنى الأول أقوى، وكما تكهن الإمام

عليه السلام فبمجرّد تسلم عثمان زمام الأمور حتى بدأ التبذير والبذخ فى بيت مال المسلمين وحصل أقرباؤه وبطانته على المراكز الحساسة فى البلد الإسلامى فتهافتوا على بيت المال ليفعلوا فيه ما شاؤوا، وهو الأمر الذى أثار غضب المسلمين فثاروا عليه وكان فى مقدمة من ثار عليه طلحة والزبير، وقد تبعهم طائفة من الناس فحصل ما لم ينبغى أن يحصل، والحال لو لم تسود الشورى تلك العصبيات والملاحظات الشخصية وفوضت الخلافة لأهلها، لما وقعت تلك الحوادث المريرة ولا ما تبعها من نتائج، وذلك لأنّ جذور فتنة الناكثين والقاسطين والمارقين إنّما ترعرعت فى ظلّ حوادث عصر عثمان.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۵۱

جذور الفساد

ذكرنا فى المجلد الأول من هذا الكتاب فى شرحنا لخطبة الثالثة المعروفة بالخطبة الشقشقية قصة الشورى المؤلفة من ستة أفراد والتى شكّلها عمر وأدّت إلى انتخاب عثمان كخليفة والتى تمثل فى الواقع مؤامرة ضد خلافة على عليه السلام، وقد أوردنا جانباً من الأقوال بهذا الشأن استناداً إلى التواريخ المعتبرة والذى نود إضافته هنا إلى ما ذكرناه هو أننا لو أنعمنا النظر فى تركيب هذه الشورى وحوادثها السلبية وسنرى أنّ أغلب مشاكل المسلمين قد أفرزتها تلك الشورى، ومن ذلك أيضاً حكومة عثمان واستيلاء بنى أمية وبنى مروان على المناصب الحساسة للبلاد الإسلامية وبيت المال المسلمين وحكومة معاوية ومعارك الجمل وصفين والنهروان ومن ثم حكومة يزيد وأمثال عبدالملك.

والجدير بالذكر هنا ما أورده شارح نهج البلاغة ابن أبى الحديد حيث قال بخصوص الشورى:

«إنّ ذلك كان سبب كل فتنة وقعت وتقع إلى تنقضى الدنيا»[۶۳۱].

فهذه الشورى هى التى أدّت بالتالى إلى تغييب القيم الإسلامية وأحيت السنن الجاهلية والمعايير المادية والدنيوية وشادت المجتمع الإسلامى وقطعت ألسن دعاة الحق ونفت وشردت أبى ذر وأثارات النقمة ضد عمّار بن ياسر حين اعترض على نتيجة الشورى فلم يكترث أحد لما كان يقول: فقد استوى اوالئك العتاة على عرش الغرور والحمية فعاثوا الفساد فى أوساط المجتمعات الإسلامية، الفساد فى الحكومة والفساد فى الإيمان والأخلاق، ولو سمحت النعرات الطائفية بالتعامل الدقيق مع هذه الأحداث لاتضحت فداحة الخسارة التى منى بها المسلمون من جراء الشورى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۵۳

الخطبة[۶۳۲] المأة والأربعون

اشارة

ومِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام
فى النهى عن غيبة الناس

نظرة إلى الخطبة

نهى الإمام عليه السلام الناس فى هذه الخطبة عن اغتياب بعضهم البعض الآخر وقد عزز ذلك بعدّة أدلة، فقد ذكر بادىء الأمر وجوب الشكر على من تطهر من العيوب والذنوب، ويتمثل شكرها بتجنب الغيبة واقتفاء عيوب الآخرين، الأمر الآخر لو تأمل صاحب الغيبة نفسه لإكتشف فيها العيوب التى يحاول العثور عليها فى الآخرين، فكيف والحال كذلك يسعى لذم الآخرين على عيوبهم وهم

يحملونها، وأخيراً لعل الإنسان يقارف الصغيرة وهو يظن بأنّه لم يرتكب الكبيرة من الذنوب فيخوض فى غيبة الآخرين، وتقصى معايبهم وهذا بحدّ ذاته من الكبائر، أضف إلى ذلك فما يدرى من يغتاب الآخرين أنّ اللّه قد غفر لهم بينما لم يغفر لمن فتش عن عيوب الآخرين، وزبدة الكلام فانّ اللّه قد أغلق الطريق على أصحاب الغيبة والباحثين عن عيوب الناس ليطهر المجتمع الإسلامى من هذه الفاحشة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۵۵

القسم الأول: التغابى عن عيوب الذات

«وَإِنَّمَا يَنْبَغِى لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِى السَّلَامَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِى عَابَ أَخَاهُ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ الذَّنْبِ الَّذِى عَابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيما سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَايْمُ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِى الْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِى الصَّغِيرِ، لَجَرَاتُهُ

[لَجُرأَتُه]

عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ!».

الشرح والتفسير

إهتم الإسلام بقضية الغيبة وإقتفاء عيوب الآخرين على أنّها من المشاكل الاجتماعية الكبرى التى تشيع روح التشاؤم والنفاق وتفكك عرى الثقفة وتقضى على روح الاتحاد والأخوة، ومن هنا عدّها الإسلام من الذنوب الكبيرة، وقد قسم الإمام عليه السلام الناس إلى خمس طوائف، الطائفة الاولى التى شملتها عناية اللّه سبحانه فلم تتلوث بالذنوب المعاصى، فقال بشأن هذه الطائفة:

«وَإِنَّمَا يَنْبَغِى لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِى السَّلَامَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ»

، فأى نعمة أعظم من أن يتلطف اللّه تعالى على إنسان ويصونه من مقارفة الذنب، وأى شكر أعظم من شكر هذه النعمة الإلهيّة الكبرى بأن يحفظ لسانه من إغتياب الآخرين واقتفاء عيوبهم.

الطائفة الثانية التى تحمل العيوب وتذم الآخرين على مثلها، أى إنّ حب الذات لا يدعهم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۵۶

يرون عيوبهم بينما دقيق هو فى متابعة عيوب الآخرين، وقد قال فيها على عليه السلام:

«فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِى عَابَ أَخَاهُ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ الذَّنْبِ الَّذِى عَابَهُ بِهِ!».

إشارة إلى أنّ الإنسان المؤمن يجب أن يتحلى بقبسات من صفات اللّه سبحانه، فاللّه ستار العيوب، فينبغى عليه أن يستر عيوب الآخرين.

الطائفة الثالثة التى ترتكب الذنوب وتذم الآخرين على مثلها، والحال من الطبيعى أن يكون الإنسان أحرص على نفسه من الآخرين، فكيف لهذا الإنسان بالتفكير فى عيوب الآخرين دون أن يهم بإصلاح نفسه وعيوبه، أى عقل يسوّل للإنسان نسيانه لذاته بصورة كلية ويلقى بها فى مستنقع البؤس والشقاء فيخوض فى ذنوب الآخرين، ناهيك عن أنّ الدافع من ذلك هوالفساد لا الإصلاح، فقد قال الإمام عليه السلام:

«وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ!».

الطائفة الرابعة من تذم الآخرين على ذنوب لم ترتكبها، لكنّها إرتكبت ما هو أفضع منها، وهو غافل عن هذه الذنوب غير مكترث لها،

فقال الإمام عليه السلام بشأنها:

«فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذلِکَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيما سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ».

الطائفة الخامسة التى ربّما لم ترتكب تلك الذنوب التى تذم الآخرين على إرتكابها، حيث لم تصدر منها سوى بعض الصغائر من الذنوب فقال قال الإمام عليه السلام بشأنها:

«وَايْمُ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجَرَاتُهُ

[[لَجُرأَتُه]

عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ!».

وهكذا أغلق الإمام عليه السلام جميع الطرق على اولئك الذين يقتفون عيوب الآخرين ويسلبهم أية ذريعة بعد أن يذكرهم بكافة العواقب الوخيمة التى تترتب على شنائع أعمالهم، ليبتعدوا عن وساوس الشياطين ويطلعهم على أهوائهم وقبح أفعالهم ليجسدها أمام أنظارهم.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۵۷

القسم الثانى: اقتفاء العيوب جحود عظيم

اشارة

«يَا عَبْدَاللَّهِ، لَاتَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ. فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ».

الشرح والتفسير

أكد الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة تلك المبادىء التى أوردها فى القسم السابق وقد حذر كافة العباد من تتبع عيوب الآخرين وغيبتهم، ثم تابع هذا الأمر من خلال الأدلة المنطقية فقال عليه السلام:

«يَا عَبْدَاللَّهِ، لَاتَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ».

فى إشارة إلى أنّ ذنب الآخرين قد يغفر بسبب التوبة أو شفاعة المعصومين عليه السلام أو على أساس القيام بأعمال الخير بينما يؤاخذ هذا الإنسان بذنبه مهما كان صغيراً بفعل الغرور والغفلة، وعليه كيف يسمح العاصى لنفسه بذم الآخرين على معايبهم ومثالبهم فيغتابهم؟

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال:

«فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ»،

فاللَّه هو المنزه من العيوب والطاهر من الذنب هوالمعصوم، وعليه فلا يجيزنا العقل بأن نصوب سهام غيبتنا وذمّنا للآخرين ونحن غارقون فى العيوب والذنوب.

ثم إختتم الخطبة بالإشارة إلى المطلب الذى ذكره فى القسم الأول من الخطبة ولكن بعبارة أخرى فقال عليه السلام:

«وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۵۸

فو فرضنا تنزه شخص عن كل عيب أو عيوب معينة، فذلك نعمة كبيرة تستحق شكر اللَّه والشعور بلطف اللَّه تعالى وعنايته، والحق إنّ مثل هذا الشكر يشغل الإنسان بنفسه إلى الحد الذى يسلبه فرصة البحث عن عيوب الآخرين.

نعم، فهـذا المعلم الربانی یعتمـد مختلف الأدلـة المنطقیـة بغیة القضاء علی هذه الرذیلة القبیحة المتمثلة بالغیبة وتحری عیوب الآخرین، کما یغلق جمیع الطرق علی أصحاب الحجج والذرائع.

الغیبة والبحث عن العیوب آفة المجتمعات الإنسانیة

الغیبـة تعنی إفشاء عیوب الأفراد ومثالبهم، والمؤسف له هو أنّ هذه الظاهرة شائعة فی أغلب المجتمعات البشـریة، وبما لا شک فیه أنّها تختزن مختلف الآثار السـلبیة علی المستوی الأخلاقی وکذلک الاجتماعی، وذلک لأنّ السند الرصین لکل مواطن فی المجتمع هو ماء وجهه، والغیبـة تزیـل مـاء الـوجه وتطعن فی شخصـیة الفرد وتقضـی علی روح الثقـة وبین أفراد المجتمع والتـالی تلعب دوراً سـلبیاً فی إضـعاف التعاون الاجتماعی، ومن هنا عدّها الشارع وحداة من أقبح وأشـنع الذنوب حتی شبهها القرآن الکریم یأکل لحم الأخ المیت، وقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی خطبة حجّة الوداع وهی خطبة حساسة:

«أیُّها النَّاسُ إنَّ دِماءَکُم وَأَموالَکُم وَأَعراضَـکُم عَلَیکُم حَرامٌ کَحُرمَةِ یومِکُم هذا فِی شِـهْرِکُم هذا فِی بَلَدِکُم هذا إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الغِیبَةَ کَمَا حَرَّمَ المَالَ والدَّمَ»[۶۳۳].

وکفی بقباحة الغیبة ما ورد فی الحدیث القدسی أنّ اللّه تبارک وتعالی أوحی إلی موسی بن عمران:

«مَنْ ماتَ تائِباً مِنْ الغِیبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَنْ یَدخُلُ الجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ مُصِراً عَلَیها فَهُوَ أولُ مَنْ یَدخُلُ النَّارَ»[۶۳۴].

وقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله بهذا الشأن:

«مَنْ مَشی فِی غِیبَةِ أَخِیهِ وَکَشَفَ عَورَتَهُ کَانَ أولُ خُطوةٍ خَطَاهَا وَضَعَها فِی جَهَنَّمَ»[۶۳۵].

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۵۹

کما قال صلی الله علیه و آله:

«مَا عَمَرَ مَجلِسٌ بِالغِیبَةِ إلّاخَرِبَ بِالدِّینِ»[۶۳۶].

وکثیرة هی الأحادیث التی وردت بهذا الخصوص والتی لا یسع المجال ذکرها، ونکتفی هنا بذکر حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السـلام: ونحیـل من أراد المزیـد إلی المجلـد الثـالث من کتـاب الأخلاق فی القرآن فی مبحث الغیبـة وکتاب جامع السـعادات المجلد الثانی والمجلد الثامن من وسائل الشیعة، حیث قال:

«الغِیبَةُ حَرامٌ عَلَی کُلِّ مُسلِمٍ وَأَنَّها تَأکُلُ الحَسَناتِ کَمَا تَأکُلُ النَّارُالحَطَبَ»[۶۳۷].

والحقیقة هی أنّ الإسـلام یری حرمة ماء وجه المسـلم والتی تعدل حرمة دمه، وقد اقترن العرض بالدم فی الروایات والأخبار الإسـلامیة وبناءاً علی ما تقـدم فانّ من إغتاب شـخصاً آخر وانتهک حرمته الاجتماعیة وأراق ماء وجهه فکأنه قتله، ومن هنا تواترت الروایات التی أکدّت الثمن الباهض الذی سـیدفعه صاحب الغیبة یوم القیامة وما سـیؤخذ منه حسـنات بسـبب ما اقترف من غیبة فتضاف إلی حسنات من إغتابه، فانّ لم یکن له من حسنات، أخذت من سیئات من إغتابه وأضیفت إلی سیئات صاحب الغیبة.

نعم، الغیبـة حق الناس علی غرار قتل النفس وجرح الأفراد، ولهـذا فلو إلتفت المؤمنون إلی تبعات السـیئة لهـذه الـذنوب والتی صورتها الروایات الإسـلامیة لما سـعی لمقارفـة هـذه السـیئة، وهـذا ما دفع بالإمام علیه السـلام للإتیان بعدّة أدلة منطقیة لبیان الآثار السـیئة لهذه السـیئة وقـد حـذر الجمیع من مقارفتها، ویبدو بحث موضوع الغیبة من الأبحاث الواسـعة کما صورها علماء الأخلاق ونکتفی هنا بذکر بعض الأمور بهذا الشأن:

۱- لابدّ أن نتّجه قبل کل شیء نحو دوافع الغیبة وذلک لأنّه یمکن الاستدلال علی قبح النتائج من خلال قبح الدوافع، فدافع الغیبة غالباً هوالحسـد وحبّ الـذات والغرور والتکبر والحقـد والریـاء وحبّ الـدنیا والثـأر والسـخریة والاسـتهزاء بالآخرین وما شاکل ذلک، حیث یحاول الأفراد الملوثون بهـذه الأمراض بلوغ أهـدافهم السـیئة عن طریق الغیبـة وبالنظر إلی أنّ الدوافع المذکورة جمیعاً من الکبائر فانّه

يمكن الوقوف على قباحة الغيبة.

نفحات الولاية ؛ ج۵ ؛ ص ۳۶۰

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۶۰

۲- إنّ أهم أرصدة المجتمع وسنده الأصل والذى من شأنه توحيد الأفراد ويدفعهم باتّجاه الأهداف النبيلة هو الثقة المتبادلة وممّا لا يشك فيه أنّ أولى النتائج السيئة للغيبة تتمثل بالقضاء على هذا السند، وذلك لأنّ كل فرد فى الغالب ينطوى على عيب أو عيوب فانّ بقيت خفية لن تنعكس سلباً على الآخرين ويبقى التفاؤل ثقة الأفراد بعضهم بالبعض الآخر قائمة، أمّا كشف هذه العيوب عن طريق تحريها والبحث عنها وممارسة الغيبة وذم كل فرد آخر إنّما يحيل المجتمع إلى جهنم محرقة بحيث يسيىء كل فرد الظن بالآخر وينفر منه، بالنتيجة تزعزع النظام العام للمجتمع وتعرّضه للقلق والاضطراب.

وبعبارة أخرى كما يتهدد الأمن العام للمجتمع بفعل نهب الأموال وسفك دماء الأبرياء، فانّ سلب ماء الوجه وسرقته من الآخرين عن عن طريق الغيبة إنّما يشيع تلك الفوضى ويقضى على الأمن، وذلك لأنّه كما ورد فى الرواية المذكورة عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فانّ التعرض لحيثيات الآخرين بمثابة التعرض لأنفسهم وأموالهم، لا يمكن كتمان الغيبة عادة وتفشى على صاحبها فتشتعل فيهم نيران الحقد والكراهية، الحقد الذى يمهد السبيل أمام سفك الدماء وعظام المشاكل، والغيبة أحد أسباب إشاعة الفحشاء وعامل مهم من عوامل سوء الظن، إلى جانب كونها تجعل الآثم جريئاً فى ذنوبه، لأنّ المذنب الآثم يراعى عادة جانب الاحتياط إن بقيت معصيته خفية مستورة، فان هتكت زال حجاب الحياء والخجل.

۳- الغيبة حق الناس، والمسألة المهمّة بشأن الغيبة أنّها ليست معصية بين الإنسان وربّه تبارک وتعالى يمكن غسلها بماء الندم فتحصل التوبة، بل كما لا يمكن تلافى الخسائر الناجمة عن سفك الماء وغصب الأموال دون القصاص أو الدية ودفع التعويضات المالية، فانّه لا يمكن غفران إزالة ماء وجه الآخرين دون تعويض، سيّما إن توفى من أغتيب ولم يكن هناک من سبيل لمن إغتابه للوصول إليه ولم يبق أمامه سوى الحساب والقيامة، يعنى حين لا يكون هنالک من سبيل للتعويض سوى إضافة حسناته إلى ذلک الفرد أو تقبل سيئاته، وهذه بحدّ ذاته مصيبة كبرى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۶۱

۴- إنّ أفضل علاج للغيبة يتمثل بما ذكره مولى الموحيد أميرالمؤمنين على عليه السلام فى الكلام المذكور وقد لفت انتباه الإنسان إلى هذه الحقيقة وهى إن رأى الإنسان عيباً ومنقصة فى شخص آخر وليس فيه مثلها، فقد وجب عليه شكر اللّه، الشكر الذى يصده عن تحرى عيوب الآخرين، وإن قارف معصية وقد إرتكبها مثله، فلا ينبغى له أن يتجاهل عيبه وينشغل بعيوب الآخرين، وإن إرتكب الصغيرة وجب عليه أن يفكر فى أنّ كبيرة غيره ربّما غفرت ولم يغفر له، بل جرأته على تقصى عيوب الآخرين لأكبر من ذنوبهم مهما كبرت.

أضف إلى ذلک فكما أنّ الأمراض البدنية لن تعالج بصورة تامة ما لم تزول جذورها فانّ الأمراض الروحية كالغيبة لابدّ من إقتلاع جذورها حتى تزول الرغبة فى مقارفتها.

۵- استماع الغيبة أحد الذنوب- كما سيأتى شرح ذلک فى الخطبة القادمة- ذلک لأنّ السامع شارک فى إراقة ماء وجه مسلم فهو شريک فى الجرم، سيّما إن إستمع مختاراً بما يجعله سبباً لتشجيع صاحبه الغيبة.

۶- لا- يقتصر سبيل التوبة عن الغيبة على الاستغفار، بل لابدّ من محاولة تعويض من أغتيب واريق من ماء وجهه إلى جانبى الندم والتوسل إلى اللّه تعالى فى طلب العفو الرحمة، فان أمكن مناشدته إبراء الذمّة، وأمّا إن تعذّر ذلک بسبب ترتب مفسدة، أو توفى الشخص، فلابدّ من القيام بأعمال الخير من أجله حتى يرضى، وكل هذه الأمور تشير إلى مدى فضاعة الغيبة وصعوبة التخلص من

تبعاتها، ومن أراد المزيـد بشأن المسائل المتعلقـة بالغيبـة ومن ذلك موارد الاسـتثناء عليه مراجعـة الجلـد الثالث من كتاب الأخلاق فى القرآن ۶۳۸].

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۶۳

الخطبة[۶۳۹] المأة والحادية والأربعون

اشارة

وَمِنْ كَلام لهُ عليه السلام

فى النهى عن سماع الغيبة وفى الفرق بين الحقّ والباطل

نظرة إلى الخطبة

يبـدو أنّ هـذا الكلام مواصـلة للخطبـة السابقـة، فقـد ورد الحـديث فى الخطبة السابقة عن نهى الناس عن الغيبة، وجرى الكلام هنا فى النهى عن سماع الغيبة، كما أكد عليه السلام عدم تصديق كل ما يصدر من الشخص بهدف حفظ شخصية الآخرين، فالخطأ جائز حتى على الصادقين.

وإختتم عليه السلام الخطبة بوصيّة الجميع بعدم تصديق الشيء ما لم يره، فما أكثر الخطأ واللبس فى السماع.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۶۵

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ. أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِى، وَتُخْطِئُ السِّهَامُ، وَيُحِيلُ

[[يُحيك]

الْكَلَامُ، وَبَاطِلُ ذلِكَ يَبُورُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ.

فَسُئِلَ، عليه السلام، عَن مَعْنى قولِهِ هـذَا، فجمع أَصابِعَهُ وَوَضعهَا بين أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ ثمَّ قَالَ: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ!».

الشرح والتفسير

المسافة بين الحق الباطل

كما ورد سابقاً، يبدو أنّ هذا الكلام جزء من الخطبة السابقة فصلها عن بعضها المرحوم السيد الرضى، وذكرها بصورة مستقلة، والواقع أنّ الهـدف من الخطبتين واحـد هو حفـظ مـاء الوجه وإشاعـة أجواء الثقـة بين أفراد المجتمع والابتعاد عن الآثار السـيئة للغيبـة وتحرى العيوب.

فقد بيّن الإمام عليه السلام فى الخطبة السابقة طرق معالجة الغيبة، وسعى هنا للحد من الآثار الهدامة للغيبة أو القضاء عليها تماماً.

فقال بادىء ذى بدء:

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ[۶۴۰] طَرِيقٍ، فَلَا

يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ».

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد أبطل بهذه العبارة القصيرة ومن خلال عدّة طرق الآثار السيئة للغيبة فى المستمع، وأول تلك الطرق

ما ورد فى العبارة المذكورة، لانّ الإنسان إن عرف

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۶۶

أحداً بحسن السيرة والورع والتقوى كان عليه أن يوقن بخطأ ما يقال فيه من أمور مخالفة، لأنّ الموارد المشكوكة غالباً ما تحمل على الموارد المعلومة وعلى حدّ التعبير المشهور:

«الظَّنُّ يَلحَقُ الشَّىءَ بِالأَعَمِّ الأغلَبِ»

، وبالطبع فانّ هذا الكلام لا يعنى قبولنا لغيبة الأفراد وتتبعهم لعورات الآخرين الذين ليس لهم من سابقة، بل الهدف مضاعفة التأكيد بالنسبة للأفراد من ذوى السوابق الحسنة، بحيث لا ينبغى التصديق مطلقاً بما يقال بشأن اولئك.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى وهى لو فرضنا أنّ المتكلم كان صادقاً، ولكن من الموقن به أنّه ليس بمعصوم، وعليه فالخطأ محتمل من جميع الناس سوى المعصومين، وعليه فلا ينبغى تصديق المقابل بكل سهولة فى ما ينسبه إلى الآخرين، ناهيك عن عدم مطابقة الظن والحدس إلى الواقع على الدوام، فقال:

«أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِى الرَّامِى، وَتُخْطِئُ السِّهَامُ»،

أضف إلى ذلك وعلى ضوء كلام الإمام عليه السلام: «

وَيُحِيلُ ۶۴۱]

[[يُحيك]

الْكَلَامُ، وَبَاطِلُ ذلِكَ يَبُورُ[۶۴۲]، وَاللَّهُ

سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ»، فى

إشارة إلى أنّ أغلب الناس لا يلتزمون بكلام الحق ويتفوهون بكل ما يرد على ألسنتهم، ومن هنا لا ينبغى قبول ما ينسبونه إلى الآخرين من عيوب، فقد يكون ذلك من الأقوال الباطلة التى تنسب إلى الأفراد دون تريث.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة أخريس فقال:

أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ».

وفى هذه الأثناء سأله أحد الحاضرين:

«عَنْ مَعْنى قولِهِ هذَا، فجمع أَصابِعَهُ وَوَضعهَا بين أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ ثمَّ قَالَ: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ!».

فالعبارة فى الواقع إشارة إلى الشائعات التى تتناقها الألسن فيطالعك هذا وذاك وهم يرددون يقال كذا ويقال كيت وليس الأمر سوى شائعات لا أساس لها، وقد قال عليه السلام لا تلتفتوا إلى الشائعات ولا تنسبوا إلى الآخرين ما لا ترون، ومن هنا تتضح الإجابة على السؤال الذى أورده أغلب شرّاح نهج البلاغة ومفاده: إنّ الآيات القرآنية والوحى السماوى وسنّة النبى

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۶۷

الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام كلها عن طريق السمع فكيف يحكم ببطلانها؟

فليس مراد الإمام عليه السلام بطلان أخبار الثقاة والأحاديث المتواترة والمستفيضة التى وصلتنا عن طريق السمع، بل مراده ذلك المعنى العرفى والمتداول بشأن الشائعات، والشاهد على ذلك ما روى عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لما سئل: كم بين الحق والباطل؟ فقال عليه السلام:

«أربع أصابع فما رأيته بعينك فهو الحق وقد تسمع باذنيك باطلًا كثيراً»[۶۴۳].

وزبدة الكلام ليس كل ما يراه الإنسان حق، وذلك لأنّ العين قد تخطىء أحياناً، وليس كل كما يسمعه باطل، وذلك لأنّ المتكلم قد يكون فرداً عادلًا وثقة، لكن قليل هو الخطأ على مستوى العين، أمّا الكلام الباطل عن طريق السمع فهو كثير، وهذا ما أشارت إليه

العبارة الواردة عن الإمام عليه السلام.

ولعل هـذا هو أنسب التفاسير للعبارة المـذكورة، بينما أورد البعض من شـرّاح نهج البلاغة تفسيراً آخر خلاصـته أنّ العبارة: «ليس بين الحق والباطـل إلّاأربع أصـابع» إشـارة إلى العيوب التى تقال فى حق الأفراد، أغلب هـذه العيوب ناشـىء من سوء الظن وعـدم التحقيق والحسـد، والحقـد والكراهيـة وما شاكل ذلك، وعليه فهناك الكثير من الكـذب والباطل فى هذه الأقوال، ولكن يمكن للإنسان القول بأنّ العيوب الفلانية فى الشخص الفلانى إن رآها بعينه.

درس أخلاقى رفيع

لو وضع النـاس نصب أعينهم واستحضـروا على الـدوام وفى كـل مكـان عبارة الإمام عليه السـلام ليس بين الحق ولباطل إلّاأربع أصابع وعملوا بها فى حياتهم، قطعاً كل التفاؤل محل التشاؤم وحسن الظن بـدل سوء الظن والثقة والاعتماد بدل عدمهما والمحبّة بدل البغض والكراهيـة، وسوف تبهت الإشاعـات ولا يكون لها ذلك الصـدى والتأثير وبالتالى سوف لن يبلغ أصـحابها ما يرومونه من أهـداف فلا يسود المجتمع سوى الحب والأخاء، والمؤسف له أنّ الشائعات فى

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۳۶۸

الوقت الحاضـر قـد جـاوزت الأـفراد لتطيل فئات البلاد وتجمعاته بحيث ألقت بظلالها الوخيمـة على جميع أرجاء العالم وما ذلك إلى للغفلـة عن الفارق بين الحق والباطل التى أشـير إليها فى كلام الإمام عليه السـلام، وإننا لنلمس الثمن الباهظ الـذى يدفعه العالم بسـبب عدم التزامه بهذا الأمر.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۳۶۹

الخطبهٔ[۶۴۴] المأهٔ والحاديهٔ والأربعون

اشارهٔ

ومِنْ كَلام لَهُ عليه السلام

المعروف فى غير أهله

نظرهٔ إلى الخطبهٔ

تدور هذه الخطبهٔ حول محورين:

المحور الأول: يشرح النتائج السلبيهٔ للمعروف والإحسان إلى غير أهله.

والمحور الثانى: الموارد المؤهلهٔ لأن يصنع الإنسان إليها المعروف لينال من خلالها شرف الدنيا والفوز بفضائل الآخرهٔ.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۳۷۱

القسم الأول: المعروف فى موضعه

«وَلَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِى غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْـدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظِّ فِيما أَتَى إِلَّا مَحْمَـدَةُ اللِّئَامِ، وَثَنَاءُ الْأَشْـرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ، مَادَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللَّهِ بَخِيلٌ!

مواضع المعروف

فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً هـذه الخطبة حسب بعض الروايات المعتبرة جزء من الخطبة رقم ۱۲۶، والتى اعترض فيها بعض الجهّال على الإمام عليه السلام بسبب تسويته بين الناس فى العطاء من بيت المال المسلمين، فكلّموه لم لا تزيد فى عطاء أشراف القبائل ليطروه ويثنوا عليه ويقفوا إلى جانبه عند الشدائد، أمّا الإمام عليه السلام فقد وبّخهم فى هذه الخطبة فى أنّ البذل والعطاء فى غير موضعه لا يوجب غضب اللَّه وسخطه فحسب، بل به آثاره السلبية حتى فى الدنيا أهونها ثناء الأشرار وإنسحاب الأخيار، فقال عليه السلام:

«وَلَيسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِى غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظِّ فِيما أَتَى إِلَّا مَحْمَدَةُ[۶۴۵] اللِّئَامِ، وَثَنَاءُ الْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ».

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۷۲

أضف إلى ذلك فانّ هذا المدح والثناء قائم مادام البذل والعطاء ومد يد الجود والسخاء، ولكن بمجرّد أن يقطع هذا البذل لا يبقى من أثر لـذلك المـدح ولاثناء، هـذا فى الوقت الـذى يكون فيه بخيلًا عن البذل فى سبيل اللَّه تعالى: «مَادَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللَّهِ بَخِيلٌ!».

وقـد جربنا كلام الإمام عليه السـلام مراراً فى حياتنا والـذاكرة البشـرية تحتفظ بالكثير من ذلك طيلة التاريخ، فقد حفلت الدنيا بالأفراد المتكالبين على الدنيا ممن تحكموا بثروات المجتمع وقد أغدقوها على المتملقين من الأشـرار ممن حولهم وبطانتهم وقد ولو ظهورهم بـالمرّة عن معانـاة المحرومين وآلام المسـاكين، فان دارت عليهم الـدوائر وتنكرت لهم الـدنيا، هب المحرومون للوقوف بوجههم ولم يكتف الأمر عنـد هـذا الحدّ، بل تنكر لهم حتى أنصارهم من المتملقين وعرضوا لهم بالذم والتوبيخ، فلم يتركوهم وشأنهم فحسب، بل سـارعوا للتمرد عليهم وأعـدوا أنفسـهم للإنسـجام مع من يخلفونهم من الحكّام، وهـذه هى عاقبـة من ولى ظهره للحق تبارك وتعالى والخلق والتحق بركب النفعيين.

ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«مَنْ طَلَبَ مَحامِدَ النَّاسِ بِمعاصِى اللَّهِ عادَ حامِدُهُ مِنهُم ذَامًّا»[۶۴۶]

، وعن المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«إذا أَرَدتَ أَنْ تِعلَمَ إلى

خَيرٍ يَصِييرُ الرَّجُلُ أم إلى شَرٍّ؟ انظُر إلى أَينَ يَضَعُ مَعرُوفَهُ؟ فَإنْ كَانَ يَضَعُ مَعرُوفَهُ عِنـدَ أَهلِهِ فاعلَم أَنَّهُ يَصِيرُ إلى خَيرٍ وَإنْ كَانَ يَضَعُ مَعرُوفَهُ عِندَ غَيرِ أَهلِهِ فاعلَم أَنَّهُ لَيسَ لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ»[۶۴۷].

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۷۳

القسم الثانى

«فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

الشرح والتفسير

عرض الإمام عليه السـلام بالـذم الشديـد لصانع المعروف فى غير أهله كما ورد ذلك فى المقطع الأول من الخطبـة والـذى كان يمثل الجـانب السـلبى من القضـية، أمّـا فى هـذا القسم فقـد تعرض إلى جانبهـا الإيجـابى فبيّن الموارد الطبيعـة التى تسـتحق الانفاق والبـذل والعطاء، حذراً من استغلال البعض لما مرّ معنا سابقاً فى العبارات، فيعتمد البخل وعدم الانفاق فقال:

«فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَ ۶۴۸]، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ ۶۴۹]».

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى ستة موارد للانفاق والبذل وفي مقدمتها القرابة من ذوي الحاجة، فمما لا شك فيه أنّ هؤلاء مقدمون على غيرهم، وهذا ما ورد في الخبر المروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفضَلُ؟ فقال صلى الله عليه و آله: عَلَى ذِي الرَّحِمِ الكَاشِحِ»[۶۵۰]

، ثم ركز الإمام على قضية الضيافة وهي الأمر الذي يؤدّي إلى إشاعة أجواء المودّة

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۷۴

والمحبّة بين الأصدقاء ويزيل الأحقاد، كما يوطد العلاقات العاطفية والاجتماعية وقد أولى الإسلام هذه المسألة الإنسانية والأخلاقية أهميّة قصوى حتى ورد في الخبر أنّ الإمام الصادق عليه السلام سأل أحد أصحابه:

«أَتُحِبُّ إخوانَكَ يا حُسَين؟ قُلتُ: نَعم، قَالَ: تَنفَعُ فُقَرائَهُم؟

قُلتُ: نَعم، قَالَ: إنَّهُ يَحُقُّ عَلَيكَ أنْ تُحِبَّ مَنْ يُحِبُّ اللَّهَ، أَمَا وَاللَّهِ لاتَنْفَعُ مِنهُم حَتّى تُحِبَّهُ، أَتَدعُوهُم إلى مَنزِلِكَ؟ قُلتُ: نَعم، مَا أَكُلُ إلّا وَمَعِي مِنْهُم الرَّجُلانِ والثَّلاثَةُ وَالأَقَلُّ وَالأَكثَرُ، فَقالَ أَبُوعَبدِاللَّهِ عليه السلام: أَمَ إنَّ فَضْلَهُم عَلَيكَ أَعظَمُ مِنْ فَضلِكَ عَلَيهِم، فَقُلتُ: فِداكَ أَطعِمُهُم طَعامِي وَأُوطِئُهم رَحلِي وَيَكُونُ عَلَيَّ فَضْلَهُم عَلَيَّ أَعظَمُ؟ قَالَ: نَعم، إنَّهُم إذا دَخَلُوا مَنزِلَكَ دَخَلُوا بِمَغفِرَتِكَ وَمَغفِرَةِ عِيالِكَ، وإذا خَرَجُوا مِنْ مَنزِلِكَ خَرَجوا بِذُنُوبِكَ وَذُنُوبِ عِيالِكَ»[۶۵۱].

ولمّا كان دفع الحقوق الواجبة والمستحبة وتعويض الخسائر شاقاً على النفس فقد أكد الإمام عليه السلام على الصبر والتحمل فقال:

«وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ ۶۵۲]، ابْتِغَاءَ

الثَّوَابِ».

وبناءاً على هذا فالتعبير بالحقوق يشمل الواجبة والمستحبة، والنوائب جمع نائبة والحادثة الأليمة، وتشير هنا إلى جميع الأمور التي تتضمن الخسارة المالية، سواء كان من جانب ظلم الظلمة وحكّام الجور، أو الحوادث غير المتوقعة التي تصيب الإنسان طيلة حياته.

والعبارة

«ابتغاء الثواب»

إشارة إلى أنّ الصبر تجاه كل هذا البذل وصرفه في الموارد المذكورة لابدّ أن يكون للّه‌تعالى ليحصل الأجر والثواب.

وإختتم كلامه بالإشارة إلى الآثار العظيمة لهذا البذل فقال عليه السلام:

«فَإِنَّ فَوْزاً بِهذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إنْ شَاءَ اللَّهُ»

، فالحقّ أنّ البذل في الموارد الستة المذكورة يؤدّي إلى حسن سمعة الإنسان في المجتمع، كما يوجب فوزه في الحياة الآخرة، وأفضل شاهد على ذلك ما روى عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال:

«مَنْ جَادَ سَادَ»[۶۵۳]

، وقد أصبحت هذه

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۷۵

العبارة مثل يضرب لتأكيد المعنى المذكور، وكذلك ما روى عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«وَأحسن إلى مَنْ شِئتَ تَكُنْ أَمِيرَهُ»[۶۵۴]

، بل يؤيد ذلك ما نلمسه في حياتنا اليومية، وهذا على مستوى الدنيا.

أمّا من حيث الآخرة فانّ البذل من أهم أسباب النجاة ولاسيّما إعانة المحتاجين، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«أَوَّلُ مَنْ يَدخُلُ الجَنَّةَ المَعرُوفُ»[۶۵۵].

والتعبير ب

«فوزاً»

بصيغة النكرة يفيد حقيقة فى أنّ هذا البذل وإن كان قليلًا فانّه يوجب عزّة الدنيا ورفعة الآخرة.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۷۷

الخطبة[۶۵۶] المأة والثلاثة والاربعون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لَهُ عليه السلام

فى الاستسقاء

وفيه تنبيه العباد على وجوب استغاثة رحمة اللّه إذا حبس عنهم رحمة المطر

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كما ورد فى عنوانها بشأن الاستسقاء والتضرع إلى اللّه سبحانه فى طلب نزول الأمطار، وهى الخطبة الثانية من خطب نهج البلاغة فى باب الاستسقاء (الخطبة الاولى رقم ۱۵۵)، وتتألف هذه الخطبة فى الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يشير إلى هذه الحقيقة فى أنّ السماء والأرض مطيعة لأمر اللّه فان شاء أخرج بركاتهما إلى الناس، وبناءاً على هذا فانّ الذى ينبغى التوجه إلى قبل عالم الأسباب هو ذات مسبب الأسباب.

القسم الثانى: ناظر إلى هذا المطلب وهو أنّ أعمال السوء والذنوب والمعاصى تؤدّى إلى إغلاق أبواب الخير والبركة بأمر اللّه تبارك وتعالى، ومفاتحها الاستغفار من الذنوب والإنابة إلى اللّه تعالى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۷۸

القسم الثالث: يعرض إلى رفع الإمام عليه السلام يده بالتوسل إلى اللّه سبحانه فى مراسم صلاة الاستسقاء حيث يطلب نزول المطر بعبارات دقيقة رائعة عميقة المعنى، والأمطار المفعمة بالبركة والتى تروى الأرض وتسقى الأشجار والثمار وتسرّ الناس.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۷۹

القسم الأول: درس فى التوحيد والأخلاق

«أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِى تُقِلُّكُمْ تحملكم، وَالسَّمَاءَ الَّتِى تُظِلُّكُمْ مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ، وَمَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلَا لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَأُقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا».

الشرح والتفسير

من الوصايا الإسلامية التى وردت بصورة موسعة فى الكتب الفقهية الوصيّة بصلاة الاستسقاء، حيث يقبل فيها الناس على اللّه تبارك وتعالى ويتوبون إليه من ذنوبهم معاصيهم ويسألونه نزول المطر، وقد حدث هذا الأمر كراراً ومراراً فى الإتيان بهذه الصلاة ونزول الرحمة الإلهيّة، ويبدو أنّ الإمام عليه السلام قد دعى الناس حين الاستسقاء، ومن هنا فقد خطب بهذه الخطبة المليئة بدروس التوحيد والتهذيب والتربية، فقد قال عليه السلام بادىء الأمر بهدف إعداد الناس وإحياء روح التوحيد فيهم والتوجه إلى اللّه تعالى الذى يمثل

مصدر الخير والبركة والعطاء:

«أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِی تُقِلُّکُمْ ۶۵۷] تحملکم، وَالسَّمَاءَ الَّتِی تُظِلُّکُمْ مُطِیعَتَانِ لِرَبِّکُمْ».

ثم قال علیه السلام:

«وَمَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَکُمْ بِبَرَکَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَکُمْ، وَلَا زُلْفَةً إِلَیْکُمْ، وَلَا لِخَیْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْکُمْ، وَلکِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِکُمْ فَأَطَاعَتَا، وَأُقِیمَتَا عَلَی حُدُودِ مَصَالِحِکُمْ فَقَامَتَا»

، والتعبیر بالسماء إشارة إلی الغیوم المحلیة، لأنّ العرب تستعمل السماء بمعنی الجانب العلوی،

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۸۰

فتطلقه أحیاناً علی موضع النجوم فتقول نجوم السماء، وتطلقه أحیاناً أخری علی موضع الشمس والقمر، وأخیراً علی موضع السحب والغیوم وحتی الموضع الذی یضم الغصون المرتفعة للأشجار، ومن ذلک الآیة القرآنیة: «أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِی السَّمَاءِ»[۶۵۸].

هذا الکلام یشتمل علی درس مهم فی التوحید والأخلاق، فقد قال الإمام علیه السلام من جانب أنّ اللّه أمر السماء والأرض بمنافعکم، وکأنّ السماء أشبه بالأب والأرض بالام اللذان یتحدان لتزوید الإنسان بما یحتاجه من غذاء وشراب ولباس ودواء ومرکب دون التمییز بین المطیع والعاصی والمؤمن والکافر، لأنّهما مظهر رحمانیة الحق.

الطریف فی الأمر أنّ المائدة الإلهیّة لا تنضب فالأجیال متعاقبة فی الذهاب والإیاب وهما قائمان علی خدمتهم، ومن جانب آخر فانّ السماء والأرض ورغم تقدیمها لکل هذه الخدمات فهما لا یرجوان أی عوض من الإنسان، بل یخدمان بکل إخلاص، وهذا درس مهم للإنسان یشدّه إلی خدمة الآخرین بعیداً عن الأجر والثواب.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۸۱

القسم الثانی: الذنب وقلّة البرکة

اشارة

«إِنَّ اللَّهَ یَبْتَلِی عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّیِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَکَاتِ، وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَیْرَاتِ، لِیَتُوبَ تَائِبٌ، وَیُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَیَتَذَکَّرَ مُتَذَکِّرٌ، وَیَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ إِنَّهُ کَانَ غَفَّاراً. یُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَیْکُمْ مِدْرَاراً. وَیُمْدِدْکُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِینَ وَیَجْعَلْ لَکُمْ جَنَّاتٍ وَیَجْعَلْ لَکُمْ أَنْهَاراً) فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَءاً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ خَطِیئَتَهُ، وَبَادَرَ مَنِیَّتَهُ!».

الشرح والتفسیر

أشار الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة إلی نقطة مهمّة من أجل إعداد الناس لصلاة الاستسقاء فقال:

«إِنَّ اللَّهَ یَبْتَلِی عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّیِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَکَاتِ، وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَیْرَاتِ، لِیَتُوبَ تَائِبٌ، وَیُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَیَتَذَکَّرَ مُتَذَکِّرٌ، وَیَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ».

ثم إعتمد الإمام علیه السلام بعد ذلک أسلوب الطبیب الماهر الذی یصف العلاج بعد تشخیص المرض فقال:

«وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ[۶۵۹] الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ،

فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ إِنَّهُ کَانَ غَفَّاراً. یُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَیْکُمْ مِدْرَاراً. وَیُمْدِدْکُمْ

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۳۸۲

بِأَمْوَالٍ وَبَنِینَ وَیَجْعَلْ لَکُمْ جَنَّاتٍ وَیَجْعَلْ لَکُمْ أَنْهَاراً»».

وأخيراً يخلص إلى نتيجة:

«فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَءاً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ ۶۶۰] خَطِيئَتَهُ،

وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ!».

نعم، حين تغلق أبواب الرحمة الإلهيّة بفعل كثرة الذنوب فليس هنالك من سبيل لفتحها سوى الاستغفار والتوبة والنصوح.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام وبهدف إثبات هذا الأمر قد استدلّ بأنسب أية قرآنية، وهى الآية التى وردت على لسان نبى اللَّه نوح عليه السلام حين خاطب قومه باستغفار اللَّه والتوبة إليه والذى يؤدّى إلى نزول البركات والخيرات ومضاعفة الأرصدة المادية والمعنوية وتقوية الوجود الإنسانى وتحسين الأوضاع الاقتصادية والزراعية.

والعبارة

وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ!»

، إشارة إلى أنّ التوبة لا- تقتصر على بلوغ الرفاه المادى فى الحياة الدنيا، بل الهدف الأهم من ذلك النجاة فى الآخرة، وذلك لأنّ الموت إن سبق التوبة فلا سبيل للتدارك، وإن كان العكس وسبقت التوبة والأعمال الصالحة الموت، كان مفتاح النجاة بيده فى الدار الآخرة.

جانب من فلسفة البلاء

لقد قيل الكثير فى فلسفة البلاء، والذى يستفاد من أغلب الآيات القرآنية والروايات الإسلامية هو أنّ الذنوب والمعاصى تشكل أحد علل الآفات والحوادث الصعبة فى الحياة البشرية، حيث تحدث عدّة آيات عن التلازم بين هذين الأمرين، بل يستفاد من بعض الروايات والأخبار الترابط الوثيق بين نوع الذنب والبلاء الذى يترتب عليه، على سبيل المثال فانّ الزنا وعدم العفة وشرب الخمر والتطفيف والربا وقطع الرحم كل ذلك يؤدّى إلى سلب نعمة معينة كما أشار إلى ذلك الحديث النبوى الشريف، من ذلك روى أبى حمزة عن الإمام الباقر أنّه قال:

«وَجَدنا فِى كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله: إذا ظَهَرَ الزِّنا مِنْ بَعدِى كَثُرَ مَوتُ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۸۳

الفُجأة، وإذا وإذا طَففَ المِكيالَ وَالمَيزانَ أَخَذَهُم اللَّهُ بِالسِّنِينِ وَالنَّقصِ إذا مَنَعُوا الزَّكاةَ مَنَعَتْ الأِضُ بَرَكَتَها مِنَ الزَّرعِ وَالثِّمارِ وَالمَعادِنِ كُلُّها، إذا جَارُوا فِى الأحكَامِ تَعاونُوا عَلَى الظُّلم والعُدوانِ، إذا نَقَضُوا العَهدَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيهم عَدُوَّهُم، إذا قَطَعُوا الأَرحامَ جُعِلتْ الأَموالُ فِى أَيدِى الأشرارِ إذا لَم يَأمرُوا بالمَعرُوفِ وَلم يَنهُوا عَنِ المُنكَرِ وَلَم يَتَّبعُوا الأخيارَ مِن أَهلِ بَيتِى سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيهم شِرارَهمُ فَيَدعُوا خِيارهُم فَلا يُستَجابُ لَهُم»[۶۶۱]

والدليل العقلى يؤكد هذا الأمر على أنّ هناك إرتباط بين الذنب وقطع النعم، فالفيض اللَّه يتوقف على الاستعداد والاستحقاق، فان قارف الإنسان الذنب وأفضح عن عدم استعداده كان من الطبيعى أن يقطع عن نفسه الفيض الإلهى.

أضف إلى ذلك فالذى يستفاد من الآيات القرآنية أنّ هناك هدفاً مهمّاً آخر يتمثل بايقاظ الغافلين وإعادتهم إلى اللَّه تبارك وتعالى، حتى صرّحت بعض الآيات بأنّ البلاء يعمّ الأقوام المشركة حين بعث الأنبياء والرسل لهدايتها من أجل تمهيد السبيل أمامهم لقبول الدعوة ومن ذلك الآية ۹۴ من سورة الأعراف التى قالت: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ».

وهكذا فانّ القضية التربوية تشكل أحد الأهداف المهمّة للبلاء والحوادث الأليمة، على كل حال فانّ مفتاح الأبواب الموصدة وإخماد جذوة أمواج البلاء إنّما يكمن فى العودة إلى اللّه سبحانه كما صرّح بذلك القرآن الكريم إذ قال: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»[۶۶۲].

وهكذا سائر الآيات، وورد فى الخبر أنّ شخصاً قال لأميرالمؤمنين على عليه السلام لقد أسرفت فى المعاصى فادعوا اللّه أن يغفر لى، قال على عليه السلام: عليك بالاستغفار، وقال الآخر: مزارعنا تشكو من قلّة الماء، فادعوا اللّه أن يرسل علينا المطر، فقال عليه السلام: عليك بالاستغفار، وشكى الثالث من الفقر فأشار عليه الإمام عليه السلام بالاستغفار، وشكى الرابع العقم وكان له مال كثير فأشار عليه الإمام بالاستغفار، وشكى له الخامس من قلّة ثمار البستان فنصحه عليه السلام بالاستغفار، وشكى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۸۴

السادس من جفاف الآبار وعيون الماء فقال له عليه السلام عليك بالاستغفار، فتعجب ابن عباس من إشارته على الجميع بالاستغفار وقد كان لكل مشكلته التى تختلف عن غيره، فقال عليه السلام أولم تسمع إلى القرآن والآيات ۱۰، ۱۱، ۱۲ من سورة نوح إذ قال: «وَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً* فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً»[۶۶۳].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۸۵

القسم الثالث: إلهى أمطرنا مطراً مباركاً

اشارة

«اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْکَ مِنْ تَحْتِ الْأَسْتَارِ وَالْأَكْنَانِ، وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِکَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِکَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِکَ وَنِقْمَتِکَ. اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَکَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ، وَلَا تُؤَاخِذْنَا (بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا) يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْکَ نَشْكُو إِلَيْکَ مَا لَايَخْفَى عَلَيْکَ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا الْمَضَايِقُ الْوَعْرَةُ، وَأَجَاءَتْنَا الْمَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةُ، وَأَعْيَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ، وَتَلَاحَمَتْ عَلَيْنَا الْفِتَنُ المحن الْمُسْتَصْعِبَةُ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُکَ أَلَّا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلَا تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ، وَلَا تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلَا تُقَايِسَنَا تناقشنا بِأَعْمَالِنَا. اللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَکَ وَبَرَكَتَکَ، وَرِزْقَکَ وَرَحْمَتَکَ؛ وَاسْقِنَا سُقْيَا نَاقِعَةً نافعة مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَد مَاتَ. نَافِعَةَ الْحَيَا، كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَى تُرْوِى بِهَا الْقِيعَانَ، وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ الْأَسْعَارَ؛ «إِنَّکَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ»».

الشرح والتفسير

بعد أن مهد الإمام عليه السلام قلوب الناس ودعاهم إلى التوبة من الذنوب والإنابة إلى اللّه سبحانه فى هذه الخطبة التى خطبها بمناسبة صلاة الاستسقاء، إلتفت إلى الحق تبارك وتعالى فتوسل إليه بعبارات وهو يسأله اللطف والرحمة، كما فرض عدّة مطالب من خلال خمس عبارات يستهلها بالقول اللّهم، فقد قال بادىء ذى بدء:

«اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْکَ مِنْ تَحْتِ الْأَسْتَارِ

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۸۶

وَالْأَكْنَانِ ۶۶۴]، وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِکَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِکَ،

وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِکَ وَنِقْمَتِکَ».

إشارة إلى أنّ خروجنا من المنازل وقدومنا إلى الصحراء من أجل أداء صلاة الاستسقاء دليل على إسرافنا على أنفسنا، فان كنّا من عبادك الخاطئين فما ذنب هذه الماشية والأطفال العطاشى، وليس لنا من دافع فى هذا الخروج سوى طلب رحمتك وفضلك وكرمك وقد أقبلنا عليك وأتينا إليك واستجرنا بك من عذابك وعقوبتك، وقد صرّحت الروايات الإسلامية الواردة فى باب آداب

صلاة الاستسقاء بحمل حتى الرضع من الأطفال والهيم العطاشى إلى الصحراء، بل وردت الوصيّة بتفريق الأطفال عن امهاتهم لترق القلوب لبكاء الأطفال ويزداد الإقبال على اللَّه تبارك وتعالى ۶۶۵].

ولا يخفى ما لهذا المنظر من عظيم الأثر فى إثارة عواطف الناس وحضور قلوبهم وجريان دموعهم والذى يؤدّى إلى استجابة الدعاء، إلى جانب كونه سبب المزيد من لطف اللَّه ورحمته.

ثم طرح طلبه الرئيسى فقال عليه السلام:

«اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ ۶۶۶]، وَلَا تُؤَاخِذْنَا «بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»

، أى وإن فعل فريق من الجهّال ما يوجب قطع الفيض الإلهى عنهم، ولكن عاملنا بكرمك وفضلك ولا تعاملنا بعدلك، فلا طاقة لنا بعدلك وليس لنا سوى عفوك ورحمتك، ولما كان شرط استجابة الدعاء فى إذعان الفرد بعجزه وأنّ اللَّه على كل شىء قدير فقد قال عليه السلام:

«اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَايَخْفَى عَلَيْكَ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا الْمَضَايِقُ الْوَعْرَةُ[۶۶۷]، وَأَجَاءَتْنَا[۶۶۸] الْمَقَاحِطُ[۶۶۹] الْمُجْدِبَةُ[۶۷۰]، وَأَعْيَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ، وَتَلَاحَمَتْ ۶۷۱] عَلَيْنَا الْفِتَنُ المحن الْمُسْتَصْعِبَةُ».

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۳۸۷

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى مسألة وهى إننا إن عددنا حاجاتنا ومشاكلنا الواحدة بعد الأخرى لا على أساس إنّك لا تعلمها، بل لأنّك تحبّ أن يطرح العباد مشاكلهم بألسنتهم ويقرون بعجزهم وسعة حاجاتهم، ثم أشار إلى أربع مشاكل تشترك مع بعضها من جهات وتشترك فى أخرى وهى: صعوبات الحياة والجدب والقحط و الرغبات التى يتعذر نيلها فى الشرائط العادية، وأخيراً الفتن الصعبة والمزعجة، وهى المشاكل التى لا يرجى حلّها إلّا من اللَّه تبارك وتعالى، ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ حَاجَتَكَ وَما تُرِيدُ وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ أن تَبُثَّ إِلَيهِ الحَوائِجَ»[۶۷۲].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال:

«اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلَّا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلَا تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ ۶۷۳]، وَلَا تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلَا تُقَايِسَنَا تناقشنا بِأَعْمَالِنَا».

فليس هنالك من سبيل للنجاة إن عاملتنا على أساس أعمالنا، فنسألك أن بحملنا على لطفك وكرمك وألّا نرجع خائبين من بابك، والطبع فانّ هذه الأدعية وإن اشتملت على الطلبات المؤكدة من اللَّه تبارك وتعالى، فهى تنطوى على الدروس العميقة المعنى للسامعين ليقضوا على آثار ذنوبهم وشناعة أعمالهم فيسارعوا لإصلاح أنفسهم، وتشتمل أغلب الأدعية التى تردنا عن المعصومين عليه السلام على هذه الأمور التربوية.

وأخيراً طرح طلبه النهائى قائلًا:

«اللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ؛ وَاسْقِنَا سُقْيَا نَاقِعَةً نافعة مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً[۶۷۴]، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَد مَاتَ. نَافِعَةَ الْحَيَا[۶۷۵]، كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَى تُرْوِى بِهَا الْقِيعَانَ ۶۷۶]، وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ الْأَسْعَارَ؛ «إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ»[۶۷۷].

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۳۸۸

سل اللَّه كل شىء

تحدثنا باسهاب فى ذيل الخطبة ۱۵۵ عن صلاة الاستسقاء وآدابها، ونخوض هنا فى الإجابة عن سؤال وهو لم شرح الإمام عليه السلام الصفات المذكورة فى المطر حين استغاثته باللَّه سبحانه فى نزوله (حيث ذكر فى هذه الخطبة تسع صفات وفى الخطبة السابقة عشرين

صفۀ) والحال اللَّه عليم بكل هذه الصفات ولا داعى من شرحها؟

وللإجابـۀ عن هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى أنّ شـرح الطلبات بجميع جزئياتها وبالنظر إلى طلب الحاجات من اللَّه تعالى، تفيد هذا المعنى وهو ضـرورة سؤال الناس من اللَّه عزّ اسـمه عن جميع وحاجاتهم وطلباتهم، وذلك لأنّ هـذه الأدعيـۀ تفيـد مـدى حاجۀ الناس، وهذا بدوره يضاعف من عشق الناس للَّهسبحانه، ومن جانب أخر لابدّ أن يعلموا كم هو حيوى المطر النافع وأى بركات وخيرات فيه.

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۳۸۹

الخطبۀ[۶۷۸] المأۀ والرابعۀ والاربعون

اشارۀ

وَمِنْ خُطبَۀٍ لهُ عليه السلام

مبعث الرسل

نظرۀ إلى الخطبۀ

تحدث الإمام عليه السلام فى هذه الخطبۀ عن ثلاثۀ محاور هى:

المحور الأول: الذى بيّن فيه بعض الأمورالمهمّۀ بشأن مبعث الأنبياء ورسالاتهم.

المحور الثانى: الذى تطرق فيه إلى فضائل أهل البيت عليه السلام وأفضليتهم على من سواهم.

المحور الثالث: الذى يتضمن إشارات عميقۀ المعنى إلى نهج الضالين وعاقبۀ أمرهم

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۳۹۱

القسم الأول: فلسفۀ الإمتحان الإلهى

«بَعَثَ اللَّهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ. أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً؛ لَاأَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلكِنْ «لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً».

الشرح والتفسير

يعتقـد جمع من شـرّاح نهـج البلاغۀ أنّ دافع الإمام عليه السـلام من هذه الخطبۀ بيان الرد القاطع على المغرضـين الذين ينكرون فضائل الإمام عليه السلام، والطبع فانّ جانباً من الخطبۀ قد عالج هذا الأمر، وإن إشتملت سائر الأقسام على إبعاد كليۀ.

وعلى كـل حال فقـد أشار الإمام عليه السـلام فى المقطع الأول من هـذه الخطبـۀ إلى أمرين: هما فلسـفۀ بعثـۀ الأنبياء وفلسـفۀ الامتحان الإلهى، فقال عليه السلام:

«بَعَثَ اللَّهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ[۶۷۹] إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ».

فهـذه العبارۀ تشـير إلى نقطـۀ مهمّـۀ وردت كراراً فى الآيات القرآنيـۀ وهى عدم مؤاخذۀ اللَّه سـبحانه العباد دون بعث الرسل وإبلاغهم أوامره ونواهيه سبحانه عن طريق الوحى، فقد جاء

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۳۹۲

فى الآية ۱۵ و ۱۶ من سورة الاسراء: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا* وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً»، هنا يطرح هذا السؤال وهو عدم انسجام ما ورد فى هذه الخطبة والآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن ومبدأ استقلال حكم القتل، فالحجة تتم على الإنسان من خلال العقل الذى يحكم بحسن وقبح الأشياء (كإدراكه لحسن العدل وقبح الظلم) وعليه فهو يستحق العقاب أو الثواب حتى دون بعث الأنبياء والرسل، ونقول فى الإجابة عن هذا السؤال صحيح أنّ هناك استحقاقاً للثواب والعقاب وإرادة الحق تبارك وتعالى ومن باب اللطف بالعباد واقتضت عدم مؤاخذة العباد وعقابهم ما لم تويد المستقلات العقلية بواجبات الشرع ومحرماته التى تعين عن طريق الوحى.

ومن هنا تتضح عدم الحاجة للإجابة التى ذكرها بعض شرّاح نهج البلاغة حيث صرّحوا بأنّ هذه الآية فى حكم العموم الذى يخصص فى المستقلات العقلية.

وبعبارة أخرى: إنّ اللَّه تعالى لا يعاقب شخصاً دون بعث الأنبياء ونزول الوحى سوى فى المستقلات العقلية من قبيل قبح الظلم والجور والسرقة وقتل النفس، ثم خاض الإمام عليه السلام فى مطلب آخر فى إطار مواصلة لكلامه والذى يتمثل بفلسفة الإمتحان الإلهى فقال:

«أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً؛ لَاأَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلكِنْ «لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً[۶۸۰]».

فقد كشف الإمام عليه السلام بهذه العبارة اللثام عن مسألة مهمّة حيث لا معنى لمفهوم الامتحان بالنسبة للَّهبالشكل الذى تعارف على العباد، فالهدف من اختبار العباد لرفع الجهل والإبهام، لمعرفة الأشياء و التعرف على الأشخاص، وليس لمثل هذه الأمور من مفهوم لمن كان الغيب والشهادة والظاهر والباطن عنده سواء، بل هدف البلاء الإلهى هو أن يظهر الإنسان ما يبطنه لتتحقق مسألة استحقاق الثواب والعقاب.

وبعبارة أوضح: لا يمكن إثابة الفرد أو معاقبته على ما يضمره من نيّات حسنة أو سيئة، بل يترتب الثواب والعقاب على ما يصدر منه من أعمال وأفعال تفرزها النيّات، وهذا ما بيّنه

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۹۳

الإمام عليه السلام فى إحدى قصار كلمات فى تفسير للآية القرآنية:

«وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ...»[۶۸۱]، معنى أن يختبرهم بالأموال والأولاد ... «وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلكِنْ لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتى بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ»[۶۸۲].

فلم يرد فى الفقه ولا فى دستور أى بلد التصريح بعقاب شخص بسبب نيّة القتل أو السرقة، وكما لا يثاب بسبب نيّته الحسنة فى الخدمة، وإن شمل مثل هؤلاء الأفراد بنوع من التكريم تفضلًا بسبب تلك النيّات وقد تظافرت الروايات التى صرّحت بجزاء الخير تفضلًا منه سبحانه كونه أرحم الجميع، لكنّه لايعاقب على نيّة الشرّ كما ورد فى الحديث:

«مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ... وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَم تُكتَبْ عَلَيهِ»[۶۸۳].

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۳۹۵

القسم الثانى: منزلة الولاية

اشارة

«أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا، أنْ رَفَعَنَا اللَّهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ. بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى، وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِى هذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ؛ لَاتَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ

غَيْرِهِمْ».

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة فى الرد على التخرصات فى مجال العلم والمعرفة الإسلامية تجاه أهل البيت عليهم السلام ويقدمهم على أنّهم أعلم من غيرهم بكذبهم، وأنّ الساسة المحترفين آنذاك كانوا يثيرون تلك التخرصات بهدف النيل من مسألة خلافة وإمامة أهل البيت عليهم السلام فقال:

«أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا».

وأضاف عليه السلام أينهم اولئك ليروا كيف رفعنا اللّه تعالى وفضلنا وأعطانا ووضعهم وحرمهم وأدخلنا فى سعة رحمته وأخرجهم منها:

«أَنْ رَفَعَنَا اللَّهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ».

فى إشارة إلى أنّ إتّباع أهل البيت عليهم السلام فى معارفهم والإسلامية ووقوفهم على القرآن والوحى والسنّة النبوية الشريفة ليس بالشيء الخفى على أحد، فهم كهف الامة الذى كان يلوذ به حتى الخلفاء فى ما يعترضهم من مشاكل وصعوبات، وهذا من البديهيات التى لا ـ يختلف عليها إثنان، وأمّا اولئك الذين تدفعهم القضايا السياسية والحب والبغض الناشيء من العلاقات المادية بانكار هذه الحقيقة فإنّما يفضحون أنفسهم.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۹۶

ثم قال عليه السلام: «

بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى، وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى ،

والشواهد التاريخية المستفيضة والأحاديث النبوية القطعية إنّما تؤيد هذا الكلام، وهذا ما سنتعرض له فى البحث القادم.

وأخيراً إختتم الإمام عليه السلام هذا المقطع من الخطبة بالإشارة إلى الحديث النبوى الشريف بشأن اقتصار الإمام على قريش وبنى هاشم فقال:

«إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ؛ لَاتَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ».

فالإمام بإشارته إلى الحديث النبوى المعروف:

«إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ»

، ومن ثم حصرها فى بنى هاشم أوضح بأنّ أدعياء الخلافة من غير بنى هاشم لا يستحقون هذا المقام ولابدّ من التحرى عن بنى هاشم فى كل زمان للعثور على الإمام الحق.

قبسات من علم على عليه السلام

لقد عمد تجّار السياسة بهدف نيل أهدافهم وتحقيق مآربهم إلى إنكار أوضح المسائل أحياناً أو المرور عليها من خلال التوجيهات الجوفاء وأحد مصاديق ذلك منح بعض الصحابة الأفضلية على على عليه السلام حتى قدموا عليه تلميذه فى التفسير والذى كان يفخر بذلك هو ابن عباس ۶۸۴]، وزيد بن ثابت فى العلم بأحكام الميراث وأبى بن كعب فى القراءة، ولم ينسبوا للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله حديثاً بهذا الشأن، فى حين تظافرت مصادر الفريقين (الشيعة والسنّة) التى تؤكد أعلميّة على عليه السلام على سائر الصحابة قاطبة بما لا يمكن إنكارها ومن ذلك:

۱- حديث الثقلين وهو من أشهر الأحاديث التى روتها مصادر العامّة- وقد استشهدنا به سابقاً[۶۸۵]- بالكتاب وأهل البيت عليهم السلام الذين لا يفترقون عنه والكل يعلم بأنّ القرآن هو مصدر جميع العلوم المعارف.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۹۷

۲- الحديث المعروف

«أقضاكُم عليّاً»[۶۸۶]

، هو الشاهد الآخر على هذا الأمر، وذلك لأنّ القضاء واصدار الأحكام الإسلامية يتطلب إحاطة علمية بأصول الإسلام وفروعه، ومن كان الأعلم كان هو الأقضى.

۳- الحديث المروى عن على عليه السلام أنّه قال:

«عَلَّمَنِى رَسُولُ اللَّهِ أَلفَ بَابٍ كُلُّ بَابٍ يَفْتَحُ (منه) أَلفَ بَابٍ»[۶۸۷]

، وهو دليل آخر يكشف بوضوح أن ليس بين الامّة من يماثله فى العلم والمعرفة وذلك لأنّ هذا الحديث لم يرد فى شخص سواه.

۴- قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى تفسير الآية: « «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ»[۶۸۸] إنّما هو على»[۶۸۹].

لابدّ من الإلتفات هنا إلى أنّه طبق الآية ۴۰ من سورة النمل فقد تمكن آصف بن برخيا:

«الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ ...»، من الإتيان بعرش بلقيس من اليمن إلى الشام، فما بالك بقدرة من لديه علم بكل الكتاب.

۵- الكلام المشهور لعلى عليه السلام حين قال:

«سَلُونِى قَبلَ أَنْ تَفقِدُونِى»

والذى صرّح كبار علماء العامّة أنّ شخصاً غير على عليه السلام لم يقل ذلك إلّاافتضح ۶۹۰].

۶- العارفون بتاريخ الإسلام فى عصر الخلفاء يعلمون أنّ عليّاً عليه السلام كان الكهف العلمى الحصين للُامة حتى قال الخليفة الثانى كراراً ومراراً

: «لولا على لهلك عمر»

، وقال فى عبارة اخرى:

«اللّهمّ لاتُبقِنِى لِمعضلَةٍ لَيسَ لَها ابن أَبِى طالبٍ»

، وقال:

«لا أَبقَانِى اللَّهُ بِأَرضٍ لَستَ فِيها (يا) أَبا الحَسن»[۶۹۱].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۳۹۸

وهذا المطلب على درجة من الوضوح حتى أصبح المثل يضرب به بين الناس، فكلما عصيت قضية على أحد ولم يكن هنالك من يحلّها قالوا:

«قَضِيةٌ وَلا أَبَا حَسَنٍ لَها»[۶۹۲].

رواية أنّ الأئمّة من قريش

نشير فى الخطبة إلى هذه النقطة وهى أنّ الأئمّة من قريش ومن بنى هاشم وليس للآخرين صلاحية الخلافة والإمامة وينسجم هذا الكلام مع عدّة روايات التى وردت فى أشهر مصادر العامّة ومنها:

۱- روى عن جابر بن سمرة فى صحيح مسلم أنه قال: سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«لا يَزالُ الإسلامُ عَزِيزاً إِلى إِثنى عَشَرَ خَلِيفة- ثُم قال كلمة لم أفهمها- فقلتُ لأَبِى مَا قَالَ؟ قال: فقال: كُلُّهُم مِن قُرَيش»[۶۹۳]

، وقد وردت هذه الروايات بعبارات مختلفة.

والجدير بالذكر إننا نقرأ فی أحد طرق هذا الحديث فی صحيح مسلم أنّ جابراً قال فی ذيل الحديث

«فَقَالَ صلى الله عليه و آله كَلِمةً أَصَمنِيها النَّاسُ فَقُلتُ لأَبِی مَا قَالَ؟ قَالَ: كُلُّهُم مِن قُرَيشٍ»

، كما ورد عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«لا يَزالُ الدِّينُ قَائِماً حَتّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَو يَكُونَ عَلَيكُم إثنا عَشَرَ خَلِيفَةً كَلُّهُم مِن قُرَيشٍ».

-۲

جاء فی صحيح البخاری عن جابر قال: سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«يَكُونُ إثنی عَشَرَ أَمِيراً فَقَالَ كَلِمَةً لَم أسمَعها فَقالَ: أَبِی أَنّه قَالَ: كَلُّهُم مِن قُرَيشٍ»[۶۹۴].

۳- وورد مثل هذا المضمون فی صحيح الترمذی مع اختلاف طفيف وقال فيه:

«هذا حِديثٌ حسَنٌ صَحيحٌ»[۶۹۵].

۴- كما ورد نفس هذا المضمون فی صحيح أبی داود ويفيد تعبير الحديث أنّ النبی صلى الله عليه و آله قاله فی جماعة، حيث جاء فی الخبر أنّ النبی صلى الله عليه و آله حين قال:

«لا يَزالُ الإِسلامُ عَزِيزاً إِلی إثنی عَشَرَ خَلِيفةٍ كَبّرَ النَّاسُ بِأَعلَی أَصواتِهِم»[۶۹۶].

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۳۹۹

۴- كما ورد الحديث فی عدّة موارد فی مسند أحمد بن حنبل ۶۹۷].

وقد ذهب بعض المحققين إلی أنّ عدد طرقه فی مسند أحمد ۳۴ طريق ۶۹۸].

لقد أسهب علماء العامّة بشأن تفسير الأحاديث المذكورة والتی وردت فی أشهر مصادرهم، إلّاأنّهم لم يقدموا تفسيراً قانعاً حول الإثنی عشر خليفة أو أمير، وذلك لأنّهم يعتقدون بعدم انطباق هذا العدد والخلفاء، ولا يمكن تفسيره إلّاعلی ضوء اعتقاد أتباع أهل البيت عليهم السلام.

منزلة بنی هاشم فی الإسلام

اشير فی الخطبة إلی منزلة بنی هاشم فی قريش، والذی أقتبس فی الواقع من كلمات النبی الأكرم صلى الله عليه و آله، ومن ذلك ما روی عن عائشة فی كتاب «فضائل الصحابة» لأحمد بن حنبل قالت:

قَال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«قَالَ لِی جِبرَائِيلُ يَا مُحَمِّد قَلّبتُ الأَرضَ مَشَارِقَها وَمَغَارِبَها فَلَم أَجِدْ وُلْدَ أَبٍ خَيْرَاً مِنْ بَنِی هَاشِمٍ»[۶۹۹].

ومن الواضح أنّ المقصود ليس جميع بنی هاشم، والحديث يبدو ناظراً إلی الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

نفحات الولايۀ، ج۵، ص: ۴۰۱

القسم الثالث: هؤلاء الجفاة يحرقون الأخضر واليابس

منهَا: «آثَرُوا عَاجِلًا وَأَخَّرُوا آجِلًا، وَتَرَكُوا صَافِياً وَشَرِبُوا آجِناً؛ كَأَنِّی أَنْظُرُ إِلَی فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ، وَبَسِئَ بِهِ وَوَافَقَهُ، حَتَّی شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لَايُبَالِی مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِی الْهَشِيمِ لَايَحْفِلُ مَاحَرَّقَ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فی هذا المقطع من الخطبة إلی الأفراد الذين وقفوا بوجه أئمّة الحق وقد ولوا ظهورهم للحق من أجل الحكومة لبضعة أيّام فقال:

«آثَرُوا عَاجِلًا وَأَخَّرُوا آجِلًا، وَتَرَكُوا صَافِياً وَشَرِبُوا آجِناً[۷۰۰]؛ كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ، وَبَسِئَ بِهِ [۷۰۱] وَوَافَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ ۷۰۲]».

ثم قال مواصلة لكلامه عليه السلام:

«ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً[۷۰۳] كَالتَّيَّارِ[۷۰۴] لَايُبَالِى مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ

فِى الْهَشِيمِ ۷۰۵] لَايَحْفِلُ ۷۰۶] مَاحَرَّقَ!».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۰۲

هنالـك خلاف بين شرّاح نهـج البلاغـة بشأن الضـمير وعودته فى هـذه العبارات، فقـد ذهب البعض إلى أنّ المراد بالخلفاء الأوائل، وذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بعض الصحابة الـذين انحرفوا، وقال البعض يراد بها مفهوماً عاماً وأخيراً رآه البعض إشارة إلى بنى اميـة، ويبـدو الاحتمال الأخير أنسبها جميعاً، لأنّهم آثروا الـدنيا على الآخرة جهرة وقـد تنكروا للحق وسقطوا فى مستنقع الدنيا العفن، وبناءاً على هذا فالمراد بالعبارة

«كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِم»

، هو عبدالملك بن مروان حيث كان من أقدر عناصر بنى امية، وقد إرتكب الكثير من الجرائم وباشرها بنفسه، وما أبشع الجنايات التى إرتكبها واليه الغاشم الحجاج، فقـد كان كالنار الملتهبة التى تحرق الأخضر واليابس ولا يقف أمامها شـىء، والعبارة كأنّى انظروا إلى فاسقهم إشارة إلى فرد يظهر فى المستقبل، فلا يمكن تطبيقها على الماضين أو المعاصرين له عليه السلام إلّامع تكلّف.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۰۳

القسم الرابع: دعاة الحق و أتباع الشيطان

«أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إِلَى مَنَارِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِى وُهِبَتْ لِلَّهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ! ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ، وَتَشَاحُّوا عَلَى الْحَرَامِ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ، وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!».

الشرح والتفسير

تحدّث الإمام عليه السلام فى المقطع الأخير من هذه الخطبة عن فئتين: فئة عاقلة ومتقية ومطيعة للحق وأخرى تكالبت على حطام الدنيا وتسابقت مع بعضها من أجل نيل الأموال الحرام فقال:

«أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ[۷۰۷] إِلَى مَنَارِ

التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِى وُهِبَتْ لِلَّهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ!»

، إشارة إلى أنّ جماعة عظيمة من الناس سلكت سبيل المخالفة، وقد قل الصالحون وكأن الإمام عليه السلام يبحث عنهم ليجدهم.

ثم تطرق عليه السلام إلى الفئة الثانية التى تهافتت على الدنيا فقال:

«ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ ۷۰۸]،

وَتَشَاحُّوا[۷۰۹] عَلَى الْحَرَامِ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۰۴

وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا[۷۱۰] وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا

وَأَقْبَلُوا!».

يبدو أن الفئتين اللتان أشار إليهما الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة، هما تلك الفئتان اللتان ذكرتا سابقاً، فئة سلمت لأئمّة

الهدى وانقادت لهم، وأخرى تمردت ووقفت بوجههم سعت لإطفاء نورهم، فهى فئة أخلدت إلى الدنيا ولم تهتم بالحلال والحرام وتسابق فيما بينها من أجل تبعية الشيطان وطاعته.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۰۵

الخطبة[۷۱۱] المأة والخامسة و الأربعون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لَهُ عليه السلام

فناء الدنيا وذم البدع

نظرة إلى الخطبة

الخطبة ناظرة إلى موضوعين:

الموضوع الأول: إشارة إلى تقلب الدنيا وزوال نعمها، حيث يتعرف الإنسان أكثر فأكثر على حقيقة هذا العالم المتغير حين يتأمل هذه العبارات التى تضمنت مواعظ توقظ السامع من غفلته.

الموضوع الثانى: حول ذم البدع حيث تتغيب سنة كلّما شاعت بدعة بين الناس.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۰۷

القسم الأول: تضارب نعم الدنيا

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِى هذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِى كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ! لَاتَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ، يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ، إِلَّا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَا تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِى أَكْلِهِ، إِلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ. وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ. وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ. وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ. وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة إلى أفات الدنيا التى تهدد الإنسان من كل ناحية وقد عكس هذه الآفات بثلاث عبارات عميقة المعنى فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِى هذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ ۷۱۲] تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ ۷۱۳]، وَفِى كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ![۷۱۴] لَاتَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى»

، فهى تشير من جانب إلى الآفات المميتة التى تشمل الفردية من قبيل أنواع الأمراض وحملات الحيوانات ومنازعة الأشرار والسقوط من الشاهق وإلى ذلك، وكذلك الآفات الجماعية كالزالزل والسيول والقحط والحروب، ومن جانب أخر ذكر اقتران كل نعمة بنقمة وكل نصر ونجاح بهزيمة وفشل، أهونها ما ورد فى عبارة الإمام عليه السلام حين قال:

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۰۸

«مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِى كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ! لَاتَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى»

، فلعله يغص بالطعام ويموت رغم لذّته وشوقه إليه، وأخيراً أشار إلى تنافر النعم الدنيوية المادية فصرّح بتعذر جمعها، فما إن ينال

واحـدة حتى تفارقه أخرى، مثلًا يحرم من نعمـة الولد فيهبه اللّه الولد لكنه يسـلبه الهدوء والراحة، أو أنّه فقير لا مال لديه ويعيش ظروفاً صعبة فيهبه اللّه المال، ولكن الحرص على هذا المال وكيفية التصـرف به لا تدع له مجالًا للراحة، ليس لديه وسـيلة نقلية فهو يعانى من المصـاعب ومـا إن يحصـل عليهـا حتى يعـانى من مشاكل جديـدة من قبيل إنفاق المال عليها وكيفيـة المحافظـة عليها، وهكـذا فهو لا يحصل على نعمة إلى بفراق أخرى.

والعبـارة تنتضـل بـالنظر إلى أنّها تسـتعمل بشأن الأفراد الـذين يشتركون فى مسابقات الرمى فهى تشـير إلى آفات الـدنيا وكأنّها تسابق لاسـتهداف حياة الإنسان، والعبارة منايا جمع منية بمعنى الموت إشارة إلى اختلاف أنواع الوفيات سواء الفردية أو الجماعية والتى اشير إليها فى الخطبة، قد يتصور أحياناً أنّ العبارة «

لَا تَنَالُونَ مِنْهَا ...»

، تعبير آخر عن الجملة

«مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ ...»

، والحال العبارتان مختلفتان، فالعبارة مع كل جرعـة شـرق إشارة إلى أنّ بانتظار كل نعمة آفة كامنة، وأمّا العبارة لا تناولوا منها ... فهى تشير إلى أنّه لو لم يكن هنالك من آفة فانّ النعم لا تجتمع، فلا تنال واحدة إلّابمفارقة أخرى.

ثم واصل الإمام عليه السـلام كلامه بشـرح رائع للعبارة السابقة حين قال لا تنالون نعمة إلّابفراق أخرى، فبيّن خمسة نماذج واضـحة فى خمس عبارات فقال:

«وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ، يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ، إلَّا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَا تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِى أَكْلِهِ، إلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ. وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ. وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إلَّا بَعْدَ أنْ يَخْلَقَ ۷۱۵] لَهُ جَدِيدٌ. وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ

إلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ[۷۱۶]».

نعم، للإنسان حيويـة خاصة حين الطفولة فان انتقل إلى مرحلة الشـباب ودبّ فيه نشاطه تزوال عنه حيوية الطفولة، فان اتّجه نحو مرحلة الشيخوخة وأصبح وجوده مجموعة من

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۰۹

التجارب والخيرات فقـد نشاط الشـباب، وهكـذا يمنـح اللّه الإنسان نعمـة الولـد ولا تمضـى مـدّة حتى يفقد أباه ويتعرف على أصدقاء جـدد، فى حين يسـلب القدماء من أصدقائه، وهكذا يحصل على نعمة ويفقد أخرى، وهذه هى طبيعة الحياة الدنيا والنعم المادية، فهى لا تجتمع لأحـد فى أى زمان ومكان فلا تنال نعمـة إلى بفراق نعمـة أخرى، وهـذا بحـدّ ذاته إنـذار لكافة الناس بعدم التعلق بنعم الدنيا وربط القلب بها، والعبارة

«وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ ...»

، إشارة إلى أنّ الإنسان إن خلّف بعض الآثار- سواء كانت هـذه الآثار علميـة أم خيرية ذات النفع العام- فانّه يفقد قطعاً من أجلها طاقة من حيث الفكر والبدن، والعبارة

«وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ ...»

، يمكن أن تكون إشارة إلى نعمة الولد والحفيد حيث كلما كبر هؤلاء فقدوا بالتدريج قرابتهم الأكبر، كما يمكن أن تكون إشارة إلى كل نمو وتقدم، مثلًا يغرس الإنسان بذور جديدة فى جانب من بستانه فى حين يعانى جانب أخر من ذبول الأشجار وموتها الواحدة بعد الأخرى.

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!»

، فقد ذهب أباؤنا وأسلافنا وصاروا إلى الزوال فلا ينبغى لنا إنتظار البقاء، لأنّ الفرع الزائد على الأصل ليس بممكن، وبناءاً على هذا سنلحق بهم عاجلًا أم آجلًا.

لقد رسم الإمام عليه السلام صورة واضحة ودقيقة فى هذا القسم من الخطبة عن الدنيا، نعم، فلهذه الدنيا نعيش فيها آفاق تختلف تماماً عن واقعها، أفاق القصور والثروات والنعم والجمال والنشاط ولكن ما إن نقترب منها حين نصطدم بصورتها القبيحة، فالإنسان من جانب- كما أشار الإمام عليه السلام- هو هدف دائم لسهام الآفات والبلاء، بحيث لا يسعه التهكن بمستقبله لما بعد ساعة، ومن جانب أخر فإلى جانب كل نعمة مصيبة وإلى جانب كل وردة شوكة وأخيراً لا ننال نعمة حتى نفقد أخرى، نعيش حياة متواضعة، لكنّها مفعمة بالاستقرار، نتمنى سعة هذه المعيشة، إلّاأننا إن نلنا منيتنا طالعتنا العديد من المشاكل، حفظ المال والثروة بحدّ ذاته مشكلة كبيرة، إلى جانب عين الحسّاد التى تصوب نحوه وأمانى الأشرار بزواله واللصوص الذين يتربصون به، وأحياناً خيانة الزملاء والأصدقاء وهكذا سائر المشاكل التى تصب على رأسه من كل حدب وصوب والتى تقضى على استقراره بصورة تامة، ناهيك عن مختلف الأمراض

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱۰

التى تعرض للإنسان بفعل الجهاد، إننا خام ما دمنا شباباً فان نضجنا وعجزنا، وآنذاك يسعنا الاستفادة الصحيحة من الأموال بينما أيدينا خالية، فان أصبحنا نملك شيئاً لم يسعنا الاستفادة منه، فهل يمكن التعلق بمثل هذه الدنيا والوثوق بها؟ يقال إنّ أحدهم طلب من ملك أن يجلس على عرشه ساعة ويسلمه مقاليد الحكم ويأتمر بأمره الحرس والغلمان، فأجابه الملك لكنه أمر أن يعلق فوق رأسه بشعرة، فلما جلس على العرش شعر بالفرح الشديد، فوقعت عينه على الخنجر وأنّه معلق بشعرة فارتعش، لأنّه ظن سيقع عليه فى كل لحظة، فلمّا همّ بالهروب قيل له لم تنتهى ساعتك، فجلس خائفاً ينتظر انتهاء المدّة وهو يدعو إلى إنتهائها، ففهم إن كان السلطة من جمال فهى تشتمل على آلاف الأخطار، ولعل هناك من يهم بقتله من أقرب مقربيه كما يفيد التاريخ ذلك، ورغم كل هذه المشاكل فليس هناك من بقاء وخلود فى الحياة الدنيا ليسعى إليها الإنسان ويجهد نفسه من أجلها، وما عليه إلّاالسير نحو الآخرة، وكما قال آخر خلفاء بنى امية

«لَمّا حَلا لَنا الدَّهرُ خَلا مِنّا»[۷۱۷].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱۱

القسم الثانى: موت السنن بظهور البدع

منها: «وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إِلَّا تُرِکَ بِهَا سُنَّةٌ. فَاتَّقُوا الْبِدَعَ وَالْزَمُوا الْمَهْيَعَ.

إِنَّ عَوَازِمَ الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا».

الشرح والتفسير

يعالج هذا الكلام من الخطبة قضية مهمّة وهى قبح البدع، وعلى ضوء عدم الإرتباط الواضح بين هذا القسم والذى سبقه فالذى يبدوا أنّ بين هذين القسمين أقسام حذفها المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه، ولابدّ من تغير مفردة البدعة على أساس اللغة والشرع ليتضح لدينا مضمون هذا القسم من الخطبة: فالبدعة لغوياً تعنى كل تجدد والذى يمكنه أن يكون حسناً أو سيئاً، حسب ما صرّح به أرباب اللغة: «البدعة إنشاء أمر على غير مثال سابق».

أمّا المعنى السائد بين الفقهاء العلماء- كما ذكرنا ذلک فى شرح الخطبة السابعة عشرة- إدخال شىء فى الدين أو إخراجه دون قيام دليل معتبر على ذلک، ولما كانت تعاليم الإسلام وأحكامه خالدة ونازلة عن طريق الوحى فكل بدعة كبيرة، وإليها تعود كل فرقة واختلاف أصاب الامة الإسلامية، نعود الآن إلى شرح كلام الإمام عليه السلام فقد قال:

«وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إِلَّا تُرِکَ بِهَا سُنَّةٌ».

ثم نصح باجتناب البدع وضرورهٔ السیر علی النهج المستقیم فقال علیه السلام:

«فَاتَّقُوا الْبِدَعَ

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۴۱۲

وَالْزَمُوا الْمَهْیَعَ ۷۱۸]. إِنَّ عَوَازِمَ ۷۱۹] الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا[۷۲۰] شِرَارُهَا».

فقد اتضحت حقیقهٔ ما قیل فی هذه العبارهٔ فی کیفیهٔ ترک سنّهٔ حین ظهور بدعهٔ، وکیف تکون البدعهٔ شرّ الامور، لأنّه لو سمح للأفراد أن ینقصوا من الدین شیئاً أو یضیفوا له شیئاً علی ضوء ذوقهم وفکرهم القاصر، لما بقی من أحکام الدین وتعالیمه شیئاً خلال مدّهٔ وجیزهٔ ولإنقلب کل شیء رأساً علی عقب، وفقد اعتباره وأصالته، ولإستبدلت التعالیم الأصلیهٔ للدین بسلسلهٔ من الأفکار المنحرفهٔ والواهیهٔ ولحل السراب محل العین الزلال، طبعاً إن کان التجدد ولید البحث والتحقیق والدقیق فی أدلهٔ أحکام الشرع وکشف حقائق حدیثهٔ من خلال الکتاب والسنّهٔ والدلیل القاطع للعقل، فلیس هذا من البدعهٔ فی شیء فحسب، بل سیکون سبب رفعهٔ الدین وإزدهاره. وبعبارهٔ أخری: فانّ الکشف شیء جدید، أمّا المکشوف فهو موجود سابقاً فی الدین، أمّا إن کان الذوق الشخصی والاستحسان الظنی هو دعامهٔ وأساس التجدد فلیس له من نتائج سوی الظلال ومسخ الصورهٔ الحقیقیهٔ الناصعهٔ للدین ویتضح ممّا مرّ معنا عدم صواب ما أورده شرّاح نهج البلاغهٔ للعبارهٔ المذکورهٔ من أن کلّ بدعهٔ خلاف لسنّهٔ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله الذی حرم البدعهٔ، وعلیه فالسنّهٔ تترک بظهور البدعهٔ، بل المراد أنّ لکل موضوعه فی الإسلام حکم، وکل بدعهٔ تعارض ذلک الحکم، إذن فبظهور البدع تترک الأحکام الأصلیهٔ للدین- کما تبیّن جسامهٔ خطأ ما أورده بعض شرّاح نهج البلاغهٔ مثل ابن أبی الحدید الذی قسم البدع إلی حسنهٔ وسیئهٔ، فاعتبر مثلًا صلاهٔ التراویح (تلک الصلاهٔ المتسحبهٔ التی کان یصلیها الناس فرادا علی عهد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی لیالی رمضان وقد ابتدع عمر أن تصلی جماعهٔ) من البدع الحسنهٔ،

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۴۱۳

وذلک لأنّه بهذه البدعهٔ ترک سنّهٔ، وترک سنّهٔ استحباب الإفراد فی الصلاهٔ المستحبهٔ، وعلیه فلیس لدینا بدعهٔ حسنهٔ، وإن أقررنا البدعهٔ الحسنهٔ کان ذلک الإقرار بأنّ السنّهٔ قد تکون حسنهٔ وقد تکون سیئهٔ، کما اتضح المعنی الذی أراده بعض العلماء للبدعهٔ حین أجروا علیها الأحکام الخمسهٔ من أن بعض البدع واجبهٔ وبعضها محرمهٔ، فانّما أرادوا المعنی اللغوی لا الشرعی باضافهٔ أو طرح أشیاء من الدین وأحکامه ومن هنا ورد فی الحدیث عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«ألّا وَکُلُّ بِدعَهٍٔ ضَلالَهٌٔ، ألا وَکُلُّ ضَلالَهٍٔ فِی النَّارِ»[۷۲۱].

ومن أراد الوقوف علی المزید بشأن البدعهٔ فلیراجع المجلد الأول من هذا الکتاب ذیل الخطبهٔ السابعهٔ عشرهٔ.

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۴۱۵

الخطبهٔ[۷۲۲] المأهٔ والسادسهٔ والأربعون

اشارهٔ

وَمِنْ کلامٍ لهُ علیه السلام

وقد استشاره عمر بن الخطاب فی الشخوص لقتال الفرس بنفسه

نظرهٔ إلی الخطبهٔ

هناک خلاف بین المؤرخین فی أنّ هذه الاستشارهٔ بخصوص الحضور فی معرکهٔ نهاوند أو القادسیهٔ، ویری الطبری حسب قول ابن

أبى الحديد أنّها فى معركة نهاوند، بينما يراها المدائنى فى كتاب «الفتوح» بشأن معركة القادسية[۷۲۳]، وخلاصة ما ورد فى تاريخ الطبرى أنّ عمر حين عزم على الشخوص بنفسه لقتال العجم طلب مشورة الصحابة فتقدم طلحة والزبير وقالا رأيهما، إلّاأنّ عمر استشار علياً عليه السلام فأشار عليه السلام بعدم الشخوص بنفسه كما فى الخطبة، قال المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله فى «الإرشاد»، ورد عن أبى بكر الهذلى أنّ من بين الامور التى نقلت عن أميرالمؤمنين على عليه السلام فى إرشاد الناس لما فيه مصلحتهم ولولا إرشاده لكان فسادهم أنّ فريقاً من أهل همدان والرى وإصفهان ودامغان ونهاوند تكاتبوا بينهم وبعثوا الرسل فرأوا أنّ الإسلام قد فقد زعيمه (النبى الأكرم صلى الله عليه و آله) وخلفه من لم يستمر، ثم خلفه من طال عمره وقد

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱۶

هجم على مدننا وإنّه لن يتركنا ما لم نخرجه، فلمّا بلغ عمر الخبر فقدم إلى المسجد وأطلع الصحابة بالخبر، فقال كل رأيه، فأشار على عليه السلام (كما ورد فى هذه الخطبة) بما فيه صلاح الإسلام والمسلمين، قال الشيخ المفيد: انظر كيف بيّن الإمام عليه السلام رأيه الصائب فى تلك الظروف الحساسة وأنقذ المسلمين ۷۲۴]، على كل حال فانّ هذه الخطبة تعالج بمجموعها موضوعاً واحداً، وهو أنّ حضور رئيس الدولة فى الحرب فى بعض الظروف أمر خطير جدّاً من شأنه أن يؤدّى إلى مشكلتين، أحدهما إتحاد أفراد العدو فيما بينهم وبذل قصارى جهدهم من أجل قتله، فيضطرب الجيش ويختل نظمه، والأخرى على فرض عدم حدوث مثل هذا الخطر فلعل إخلاء الجبهة الداخلية يشجع العدو على الهجوم على المراكز الأصلية للبلاد من كافة الجهات فتنجم من جراء ذلك الأخطار الشديدة التى تهدد كيان الإسلام والمسلمين، وتشير هذه الخطبة بوضوح إلى أنّ علياً عليه السلام أنّه كان يقف حتى إلى جانب أعدائه إذا اقتضت ذلك مصالح الإسلام والمسلمين حرصاً على الدين وكيانه.

طبعاً هذا الكلام لا يعنى أنّ رئيس الدولة لا ينبغى أن يشخص بنفسه قط فى ميدان القتال فقد شخص أمير المؤمنين على عليه السلام بنفسه فى معارك الجمل وصفين والنهروان، وأعظم من ذلك حضور النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى الغزوات، فالشرائط متفاوتة تماماً بحيث كانت تتطلب عدم حضور الخليفة الثانى فى الميدان.

والجدير بالذكر أنّ المعارك قد تقع أحياناً بالقرب من البلاد الإسلامية وفى المناطق القريبة منه فانّ حضور المعركة من قبل رئيس الدولة لا يترتب عليه أية مخاطر فى مثل هذه الظروف، فى حين تبرز مثل هذه المخاطر فى المناطق البعيدة وتجاه عدو قوى يمتلك جيشاً كبيراً، وقد تحدثنا فى مثل هذا الأمر فى شرحنا للخطبة ۱۳۴.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱۷

القسم الأول: الالتصاق بمركز الدولة

اشارة

«إِنَّ هـذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ. وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِى أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِى أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ؛ وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ. وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً. وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالاجْتَماعِ! فَكُنْ قُطْباً، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ».

الشرح والتفسير

صرّح الإمام عليه السلام فى البداية بهدف عدم رعب المسلمين بفعل كثرة جيوش العدو فى تلك المعركة القاسية، سيّما ما ذكرته

بعض التواريخ من أنّ رأى عثمان حين أشار عليه الخليفة الثانى كان مقبولًا، فقال:

«إِنَّ هـذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ. وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِى أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِى أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ»

، فى إشارة إلى أننا كنّا دائماً قلّة مقابل العدو فى الحروب التى خضناها على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، مع ذلك فقد انتصرنا وشملنا اللَّه برحمته وعنايته، وقد لمسنا هذا الفضل دائماً، وعليه فلا تخشوا من كثرة العدو وامضوا بعد التوكل على اللَّه تعالى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱۸

والعبارة هذه تذكّر بنصر المسلمين فى بدر والأحزاب وأمثالهما.

ولعل الفارق بين العبارتين بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع أنّ العبارة الثانية تخبر عن انتشار الإسلام والأولى عن منتهى منطقة نفوذ الإسلام، كما يحتمل أن تكون العبارة الاولى إشارة إلى المناطق التى نفذ إليها الإسلام، والعبارة الثانية إلى المناطق التى ذاع فيها صيت الإسلام وشع عليها بما يمهد السبيل أمامه وإن لم ينفذ إليها بعد، أو أنّ العبارة الاولى إشارة إلى قوّة الإسلام وقدرته، والثانية إلى سعة الإسلام وانتشاره.

ثم قال عليه السلام مؤكداً ذلك الكلام:

«وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ»

، إشارة إلى الآية الشريفة: «هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»[۷۲۵]. والآية: «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ»[۷۲۶].

نعم، فقد وعدنا فى ظل الإيمان بالنصر فى الدنيا والآخرة وتشهد سائر الآيات القرآنية على هذا المعنى، وما إن فرغ الإمام عليه السلام من بيان هذه المقدمة بهدف الاستقرار الروحى للخليفة والحاضرين حتى تطرق إلى الموضوع الأصلى للمشورة فى حضور عمر بنفسه فى المعركة فقال:

«وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ ۷۲۷] مِنَ الْخَرَزِ[۷۲۸] يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ

تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ ۷۲۹] أَبَداً»،

يا له من تعبير رائع وتشبيه جميل فالقائد والزعيم لبلد بمنزلة خيط المسبحة أو القلادة بفضله رمز الوحدة وإنسجام والأمّة، كما تحمل الزعيم قضية فى أن يتحلى بسعة الصدر ووسع الفكر بحيث يستطيع استقطاب كافة الأفراد وصهرهم فى كتلة متحدة.

ثم خاض الإمام ثانية فى رفع معنوياتهم على أنّ العرب اليوم هم الكثرة رغم قلّتهم وما

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۱۹

ذلك إلّابالإسلام فقهم عزيزون ومقتدرون فى ظل اجتماعهم واتفاقهم فى ظل هذا الدين:

«وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالاجْتِماعِ!».

فخلص من ذلك إلى نتيجة أصلية:

«فَكُنْ قُطْباً، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ ۷۳۰]

دُونَکَ نَارَ الْحَرْبِ».

ثم ذكر دليل ذلك فقال عليه السلام:

«فَإِنَّکَ إِنْ شَخَصْتَ ۷۳۱] مِنْ هذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْکَ الْعَرَبُ

مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَکَ مِنَ الْعَوْرَاتِ ۷۳۲] أَهَمَّ إِلَيْکَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْکَ»،

إشارة إلى أنّ الإسلام فى بداياته لحدّ الآن، وما زال المنافقون وسليلوا عصر الجاهلية فى صفوف العرب وهم يتربصون الفرصة لطعن

المسلمین من الخلف، فلو انطلق القائد وصحبه الأوفیاء إلی نقطة بعیدة یکون المیدان قد خلی للمفسدین والمنافقین، ولعلهم یسببون بعض الأخطار التی تفوق أخطار العدو الخارجی، أضف إلی لذلک فلو اصطدم الجیش بمشکلة فی الجبهات، کان بإمکان القائد إن استقر فی المرکز أن یعبیء جیشاً جدیداً ویبعث به إلی میدان القتال، بینما ینهار سند الجیش إن حضر بنفسه المیدان.

والجدیر بالذکر أنّ العرب فی العبارة

«وَالْعَرَبُ الْیَوْمَ ...»

تختلف عن العرب فی العبارة

«انْتَقَضَتْ عَلَیْکَ الْعَرَبُ ...»

فالمراد بالاولی المخلصون من المؤمنین، والثانیة المنافقون الذین یظهرون الإیمان، أو المسلمون الضعاف.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۲۰

فائدة

ما یستفاد من هذه العبارات دورس مهمّة فی مجال الإدارة والقیادة وتصریف شؤون البلاد:

أولًا: حفظ القائد والزعیم للُامّة لا من منظار شخصی بل کونها قضیة اجتماعیة تعدّ من أهم الواجبات، وذلک لأنّه رمز وحدة الامة وتماسکها، ومن هنا لابدّ من الأخذ بنظر الاعتبار جمیع التدابیر للازمة من أجل حفظه ودفع أی احتمال یمکنه أن یشکل خطراً علیه، سیّما أنّ العدو ومن خلال الاطلاع علی هذا الموضوع یسعی لاستهداف شخص القائد قبل کل شیء، وقد دلت التجربة التاریخیة أنّ أقصر طریق لهزم جماعة یتمثل بدک موقع القیادة واستهداف القائد، ولعلنا نلمس هذا الأمر فی قضیة بنی اسرائیل وقتالهم لجالوت التی عرضها القرآن الکریم حیث استهدف داود شخص جالوت فقتله فانهزم الجیش إثر ذلک.

ثانیاً: علی القائد أن ینظر باحدی عینیه إلی العدو الخارجی وبالاخری إلی الاعداء فی داخل البلاد، حتی ورد فی هذه الخطبة وکما دلّت التجارب التاریخیة الکثیرة علی خطر العدو الداخلی الذی یفوق الخطر الخارجی، وذلک لأنّ الذی یأتی من الخارج معروف، بینما یتمثل العدو الداخلی عادة بالمنافقین الذین یتخفون بین أبناء المجتمع، فانّ سنحت لهم أدنی فرصة سددوا سهام حقدهم وضربوا ضربتهم، إضافة إلی أنّهم علی علم تام بمواقع الخلل فی الداخل وکیفیة التسلل إلی المناطق، ومن هنا عبّر الإمام علیه السلام عنهم وعن أخطارهم المتوقعة بالعورات وعد أخطارهم من أهم الأخطار.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۲۱

القسم الثانی: الکثرة لا تسبب النصر

اشارة

«إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ یَنْظُرُوا إِلَیْکَ غَداً یَقُولُوا: هذَا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا اقتطعتموه

[قَطَعْتُمُوهُ

] اسْتَرَحْتُمْ، فَیَکُونُ ذلِکَ أَشَدَّ لِکَلَبِهِمْ عَلَیْکَ، وَطَمَعِهِمْ فِیکَ. فَأَمَّا مَا ذَکَرْتَ مِنْ مَسِیرِ الْقَوْمِ إِلَی قِتَالِ الْمُسْلِمِینَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَکْرَهُ لِمَسِیرِهِمْ مِنْکَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَی تَغْیِیرِ مَا یَکْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَکَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَکُنْ نُقَاتِلُ فِیما مَضَی بِالْکَثْرَةِ، وَإِنَّمَا کُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ!».

الشرح والتفسیر

هـذا المقطع من الخطبـة فی الواقع تأیید وتأکید للقسم الأول، وقد أشار إلی ثلاث نقاط، الأولی: الدلیل الذی أقامهٔ الإمام علیه السـلام علی عدم حضور الخلیفهٔ فی میدان الحرب فقال:

«إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ یَنْظُرُوا إِلَیْکَ غَداً یَقُولُوا: هذَا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا اقتطعتموه

[قَطَعْتُمُوهُ

] اسْتَرَحْتُمْ، فَیَکُونُ ذلِکَ أَشَدَّ لِکَلَبِهِمْ ۷۳۳] عَلَیْکَ، وَطَمَعِهِمْ فِیکَ».

الثانیهٔ:

«فَأَمَّا مَا ذَکَرْتَ مِنْ مَسِیرِ الْقَوْمِ إِلَی قِتَالِ الْمُسْلِمِینَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَکْرَهُ لِمَسِیرِهِمْ مِنْکَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَی تَغْیِیرِ مَا یَکْرَهُ»

، وتشیر العبارهٔ إلی أنّ عمر قال سابقاً بأنّ الأعاجم قـد زحفوا نحونا وینوون قتالنا وهـذا یـدلّ علی ما یرونه فی أنفسـهم من قوّهٔ، ولعل الأمر کان کـذلک حسب الظاهر وما تفیـده الشواهـد التاریخیهٔ، إلّاأنّ الإمام علیه السـلام ذکر بقدرهٔ اللَّه الخاصهٔ من أجل رفع معنویاته وهو الأمر الذی لمسه المسلمون کراراً فی غزواتهم، ومن

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۴۲۲

الطبیعی أن یتعقد الأمر لو بقی المسلمون فی دیارهم وهجم علیهم العدو فما أمراهم لو توکلوا علی اللَّه وتصدوا للعدو خارج بلادهم.

الثالثهٔ: أنّ الخلیفهٔ الثانی کان یخشی عدم التکافیء وموازنهٔ القوی بین المسلمین والأعداء، فرد علیه الإمام علیه السلام بالقول:

«وَأَمَّا مَا ذَکَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَکُنْ نُقَاتِلُ فِیما مَضَی بِالْکَثْرَهِٔ، وَإِنَّمَا کُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَهِٔ!»،

فقد کان عمر یری قوّهٔ العدو واقتداره فی أمرین، أحدهما کثرتهم وزیادهٔ عددهم، والآخر حرکتهم وهجومهم علی بلاد الإسلام.

نفحات الولایهٔ ؛ ج۵ ؛ ص۴۲۲

د صـرح الإمام علیه السـلام إننا لم نقاتل العدو وننتصر علیهم بهذه القوّهٔ الظاهریهٔ، وقد أیدنا اللَّه بنصره ومدده العینی فی جمیع مواقف القتال، وقد انتصـرنا رغم قلّهٔ العدد وکثرهٔ العدو وهجومه علینا، وهکذا شـجعه الإمام علیه السلام علی مواجهٔ العدو، وأکد وأیضاً عدم حضوره شخصاً فی الحرب، واستجاب له عمر وکان النصر حلیف المسلمین.

معرکهٔ القادسیهٔ ونهاوند

وقعت معرکتان مهمتان بین المسـلمین والساسانیین علی عهد عمر القادسیهٔ[۷۳۴] فی عام ۱۴ ه ومعرکـهٔ نهاوند عام ۲۱ ه، وقد استشار عمر بشأن حضوره القتال، وقـد مرّ علینا فی الخطبـهٔ أنّ الإمام علیه السـلام منعه من ذلک بعـد ذکره للأدلـهٔ المحکمـهٔ، بینما أشار علیه الآـخرون بـالحضور، فقبـل من الإمـام علیه السـلام وبقی فی المدینـهٔ، وذهب بعض المؤرخین إلی أنّ هـذه المشورهٔ کـانت فی معرکهٔ نهاونـد، علی کـل حـال حیـن عزم عمر علی عـدم الحضـور فی القادسـیهٔ ولی سـعد بن أبی وقـاص إمرهٔ الجیش، بینمـا نصب یزدجرد الساسانی رستم فرخزاد، فبعث سعد رسوله النعمان بن المقرن إلی یزدجرد، فعنفه حیث لم یتوقع ذلک من العرب آنذاک وقال له لولا أنّک رسول لقتلتک، ثم أمر بذر التراب علی رأسه وطرده من المدائن، وقال له أنّ رسـتم سـیدفن قائد عسـکرکم فی خندق القادسیهٔ، فلما عاد النعمان إلی سـعد، فقال سـعد، ابشـر أن وضعوا التراب علی رأسک فاننا سنملک بلدهم، والعجیب أنّ رستم کان یخشی قتال المسلمین رغم تعداد جیشه الذی بلغ

نفحات الولایهٔ، ج۵، ص: ۴۲۳

۱۲۰ ألف بینما کان عدد جیش المسلمین بضع وثلاثین ألف.

وأخیراً تقاتـل الجیشان، وفی الیوم الأول هجم الساسانیون بفیلهم علی المسـلمین، ولکن المسـلمین تمکنوا من قطع خراطیمها وقـد قتل

من العدو فی ذلک الیوم ۲۰۰۰ ومن المسلمین ۵۰۰، وفی الیوم الثانی تقدم أبوعبیدة الجراح بجیش من الشام لنصرة سعد بن أبی وقاص فقتل من الساسانیین عشرة آلاف بینما قتل ألفان من المسلمین، وفی الیوم الثالث إشتد القتال واستمر القتال حتی الیوم الرابع فبان الضعف علی العدو، فهبت ریح شدیدة فهجم المسلمون علی خیمة رستم، فحاول الهرب لکنه صرع تحت حوافر الخیل، فانهزم الجیش الساسانی فلما بلغ الخبر عمر أمر بعدم تعقیب العدو وأن تستقر الجیش هناک فبقی سعد هناک فی الکوفة فعلًا فبنی مسجداً وباشر بناء الکوفة، أمّا معرکة نهاوند[۷۳۵]، فقد ذکر الطبری أنّ عمر أراد أنّ یشخص لقتال الجیش الساسانی فی نهاوند فأشار علیه الصحابة حتی خطب الإمام علیه السلام فوافقه عمر وقال هذا هو الصواب.

ثم أمرّ النعمان الذی کان والی البصرة، فواجهة لقتال الفیروزان قائد جیش کسری فی نهاوند، فان قتل خلفه حذیفة ومن بعده نعیم، کما وجه معه طلحة بن خویلد وعمرو بن معدی کرب العارفین بالقتال ثم أمره بمشورتها، وقد قتل النعمان فی المعرکة، فحمل الرایة حذیفة حتی قتل الفیروزان ودخل المسلمون نهاوند وحصلوا عن غنائم کثیرة فبعثوا بها إلی عمر، فلما رآی عمر الغنائم بکی فسألوه عن ذلک، قال: أخشی خداع الناس من هذا الثراء.

قال بعض المؤرخین: أنّ هذه المعرکة حدثت عام ۲۱ ه لسبع سنوات بعد القادسیة وقد انهزم الساسانیون ودخل المسلمون ایران، فما کان من الایرانیین المعروفین بالفطنة إلّاأنّ تعرفوا علی الإسلام واعتنقوه فأصبحوا من رواد العلوم الإسلامیة.

والجدیر بالذکر أنّ مقاومة الایرانیین ترکزت فی القادسیة ونهاوند، بینما کانوا یستقبلون المسلمین حین دخلوا من سائر المدن، ولم یبدو أیة مقاومة، فقد کانوا یعانون من الساسانیین من جانب، ومن جانب آخر رأوا نجاتهم فی الإسلام ۷۳۶].

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۲۵

الخطبة[۷۳۷] المأة والسابعة والأربعون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ علیه السلام

فی الغایة عن بعثة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، وأهمیّة القرآن، والإخبار عن المستقبل

نظرة إلی الخطبة

تتألف هذه الخطبة من عدّة أقسام:

القسم الأول: إشارة إلی أهداف بعثة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله ودور القرآن فی هدایة الناس.

القسم الثانی: یخبر فیه الإمام علیه السلام عن الفتن القادمة ویتحدث عن وقت یغرق الناس فیه بالذنوب والمعاصی وینسون القرآن.

القسم الثالث: إنذار الناس والتذکیر بعاقبة الأقوام السابقة التی صب علیها البلاء.

القسم الرابع: بین فیه الإمام علیه السلام بعض المواعظ الموثرة والمفیدة وقد دعی الناس إلی إتباع القرآن وأهل البیت علیهم السلام من أجل النجاة من الفساد.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۲۷

القسم الأول: تجلی اللّه لعباده فی القرآن

اشارة

«فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ. فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلَاتِ، وَاحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة- كما ذكر ذلك الشارح البحرانى- إلى بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ثم شرح أهداف البعثة، ثم أشار إلى الوسيلة التى اعتمدها لتحقيق ذلك الهدف وهى القرآن الكريم فقال: «فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ»، يالها من عبارة بليغة رائعة وقصيرة بشأن الهدف من بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والتى تستند إلى ركنين:

الأول: ترك عبودية الأصنام والتمسك بالتوحيد فى العبادة، أى عبادة اللَّه.

الثانى: التحرر من طاعة الشيطان والاقبال على طاعة اللَّه سبحانه وتعالى.

لا شك أنّ طاعة الشيطان نوع من الوثنية، وعليه فهى داخلة فى مفهوم العبارة الاولى يعنى عبادة الأوثان، إلّاأنّ تقابل هاتين العبارتين يفيد أنّ العبادة قد استعملت فى معناها الخاص، والمراد طاعة الشيطان، إتباع أوامره لا عبادته، على كل حال فانّ للأوثان والشيطان فى هاتين

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۲۸

العبارتين مفهوم واسع يشمل كل معبود غير اللَّه سبحانه وتعالى ويضم شياطين الانس والجن، وبناءاً على هذا يدخل فى مفهوم هذه الجمل التسليم لحكام الظلم والجور وطاعة أوامرهم والاستسلام للاستعمار والاستغلال والانصياع للقوانين غير الشرعية، وهذا هو هدف البعثة والذى يتمثل بالتحرر من كل هذه الأمور.

نقل المرحوم الكلينى فى الكافى العبارات المذكورة بهذه الصيغة:

«إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعالى بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله بِالحَقِّ لِيُخرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةَ عِبَادِهِ إِلى عِبَادَتِهِ وَمِنْ عُهُودِ عِبَادِهِ إِلى عُهُودِهِ وَمِنْ طَاعَةِ عِبَادِهِ إِلى طَاعَتِهِ وَمِنْ وِلايَةِ عِبَادِهِ إِلى وَلايَتِهِ»[۷۳۸].

وهكذا بيّن الإمام الهدف الأصلى لبعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والذى تعود إلى سائر الأهداف بهذه العبارات المختصرة وقد أماط كل إبهام.

ثم أشار عليه السلام إلى الوسيلة اللازمة لتحقيق هذا الهدف السامى فقال:

«بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ».

لا- شك أنّ مشركى العرب كانوا يؤمنون باللَّه ويعترفون بوجوده وأنّه خالق السماوات والأرض ويرون الأوثان شفعائهم إليه، ولكن ليس لهذا الاعتقاد الممزوج بالشرك أية قيمة، وقد بعث اللَّه نبيّه الأكرم صلى الله عليه و آله ليطهّر أرواحهم وأفكارهم من أدران الشرك والوثنية ويشدهم نحو التوحيد والعبودية الخالصة، وهذا فى الواقع وظيفة كافة الأنبياء والمرسلين فى تطهير التوحيد من رواسب الشرك.

وقال عليه السلام فى تعريفه للقرآن وآثاره البنّاءة فى الفكر والعمل:

«فَتَجَلَّى ۷۳۹] لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي

كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ».

والعبارة إشارة إلى آيات التوحيد وبيان أسماء اللَّه وصفاته والتى تفعل مثل هذا الفعل فى الإنسان حين يتأملها وكأنّه يرى اللَّه سبحانه وتعالى جهرة، نعم يراه ولكن بالبصيرة لا

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۴۲۹

بالبصر، احتمل البعض أنّ المراد بالكتاب هنا كتاب عالم التكوين المملوء بآيات اللَّه سبحانه بحيث نشاهدها أينما نظرنا[۷۴۰]، ولكن يبدو هذا المعنى مستبعداً بالاستناد إلى العبارهٔ السابقهٔ التى أشير فيها إلى القرآن فى العبارهٔ اللاحقهٔ إلى الإنذار الإلهى، والمراد بالكتاب القرآن الكريم، ولما كان تجلى اللَّه بواسطهٔ الآيات القرآنيهٔ قد يوهم إمكانيهٔ رؤيهٔ اللَّه بالعين، فقد صرّح عقيب ذلك مباشرهٔ بأنّ هذا التجلى يحصل دون رؤيهٔ بالبصر.

وأشار فى العبارهٔ القادمهٔ إلى جانب آخر من آيات القرآن الكريم وهى آيات الإنذار والتخويف، فقال عليه السلام:

«وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ»،

ثم تطرق بعد ذلك إلى القصص الأليمهٔ للأقوام السابقهٔ وما تنطوى عليه من دروس وعبر فقال:

«وَكَيْفَ مَحَقَ ۷۴۱] مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلَاتِ ۷۴۲]،

وَاحْتَصَدَ[۷۴۳] مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!».

وأخيراً مازال هناك احتمال فى تفسير العبارات المذكورهٔ فى أنّ اللَّه تعالى قد تجلى فى كتابه بجميع هذه الموارد (آيات القدرهٔ والتخويف من السطوهٔ والقصص الأليمهٔ للأقوام العاصيهٔ).

كيفيهٔ تجلى اللَّه فى القرآن

كما شحن كتاب عالم التكوين بآثار عظمهٔ اللَّه وقدرته فى آيات الآفاق والأنفس وفى السماوات والأرض وفى أكثر المنظومات والكرات السماويهٔ وفى أصغر ذرات وجودنا، وكما صور ذلك الشاعر بأنّ كل نبات يخرج من الأرض يهتف وحده لا شريك له، وكذلك الذات الإلهيّهٔ متجليهٔ فى القرآن الكريم، حين يتحدث عن آياته فى السموات والأرض وحين يستعرض نعم الجنان ونقم النيران وحين يتحدث عن قدرته الباهرهٔ فى الخلق وحين يكشف اللثام عن صفات جلاله وجماله ورحمانيته، فذاته ظاهرهٔ متجليهٔ فى كل هذه الآيات وقد قال

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۴۳۰

بعض الأعلام أنّ أغلب المكاشفات تتم حين تلاوهٔ القرآن الكريم والتدبير فى مفاهيمه، أجل لا يمكن رؤيهٔ اللَّه سبحانه بهذه العين، بينما يمكن رؤيته بعين القلب ومن خلال آياته القرآنيهٔ، فما أحرانا بالنظر إلى عالم التكوين والتفكير وفى أسرار الوجود ومن ثم نفتح القرآن الكريم ونطالع آيات التكوين فى الكتاب التدوين، حقّاً لو كان لنا مئهٔ ألف عين لشاهدنا مئهٔ ألف تجلى من تجليات الحق تبارك وتعالى.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۴۳۱

القسم الثانى: لا يبقى من القرآن سوى اسمه

اشارهٔ

«وَإِنَّهُ سَيَأْتِى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِى زَمَانٌ لَيسَ فِيهِ شَىْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِىَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ وَلَا فِى الْبِلَادِ شَىْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ! فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ؛ فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ، فِى طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَايُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ. فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِى ذلِكَ الزَّمَانِ فِى النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ! لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لَاتُوَافِقُ الْهُدَى،

وَإِن اجْتَمَعَا. فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَی الْفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَلَی الْجَمَاعَةِ، کَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْکِتَابِ وَلَیسَ الْکِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ یَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا یَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ. وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِینَ کُلَّ مُثْلَةٍ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَی اللَّهِ فِرْیَةً، وَجَعَلُوا فِی الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّیِّئَةِ».

الشرح والتفسیر

تحدّث الإمام علیه السلام فی القسم المذکور عن ظهور الإسلام والهدف من بعثة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله والآثار العظیمة للقرآن فی الهدایة، ثم واصل علیه السلام کلامه فی هذا القسم بالحدیث عن زمان لا یبدو بعیداً وسیشهد تغیراً تاماً فی الأوضاع بما یهدد بالخطر جهود النبی صلی الله علیه و آله فینذر کافة المؤمنین بالالتفات إلی الأخطار التی تتربص بهم، فاستهل علیه السلام کلامه ببیان الوضع فی ذلک الزمان بسبع عبارات قصیرة بلیغة فقال:

«وَإِنَّهُ سَیَأْتِی عَلَیْکُمْ مِنْ بَعْدِی زَمَانٌ لَیسَ فِیهِ

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۳۲

شَیْءٌ أَخْفَی مِنَ الْحَقِّ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا أَکْثَرَ مِنَ الْکَذِبِ عَلَی اللَّهِ وَرَسُولِهِ»

، کما لیست لدی الناس من سلعة أبور من القرآن الکریم آنذاک إن فسّر وتلی حق تلاوته، بینما یزداد الإقبال علیه إن حرّف عن معناه الحقیقی:

«وَلَیسَ عِنْدَ أَهْلِ ذلِکَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ[۷۴۴] أَبْوَرَ[۷۴۵] مِنَ

الْکِتَابِ إِذَا تُلِیَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ ۷۴۶] مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ وَلَا فِی الْبِلَادِ شَیْءٌ أَنْکَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْکَرِ! فَقَدْ نَبَذَ الْکِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ ۷۴۷] حَفَظَتُهُ».

نعم، ستظهر غیوم الجاهلیة ثانیة فی سماء الإسلام فتحجب شعاع شمس النبوّة والقرآن فیتغیر کل شیء وتنطمس حقائق الإسلام ویستولی سلیلوا أئمّة الکفر والشرک والوثنیة علی الحکومة الإسلامیة فتعانی الامة من ظلمات الجهل والجور، والسؤال المطروح أی زمان هذا الذی أشار إلیه الإمام علیه السلام؟ هل المراد زمان معین؟ أم الحکومة مفهوم عام ویشمل مختلف الأزمنة حتی زماننا الحاضر؟ هناک خلاف بهذا الشأن بین شرّاح نهج البلاغة، ولکن بالنظر إلی العبارة «سیأتی» التی تفید عادة الإخبار عن المستقبل القریب والتعبیر ب «علیکم» ومن بعدی التی تشیر إلی درک مخاطبیه له، یبدو أنّه إشارة إلی زمان سیطرة بنی امیة ومعاویة ویزید وسائر حکامهم الذین تنطبق علیهم هذه الصفات، نعم، فهؤلاء الذین کتموا الحق وقطعوا رقبة کل من تعصب له، إلی جانب ذلک فقد إتسق سوق الکذابین والوضاعین والمتملقین لبنی امیة ممن اندفع فی مدحهم والثناء علیهم، فقد ظهرت المنکرات فی کل مکان وضاع المعروف.

طبعاً لا ـ ننکر أنّ هذا الأمر حدث ویحدث فی سائر الأزمنة وحتی فی عصرنا، مع ذلک فمراد الإمام علیه السلام من هذه العبارات العصر المظلم لبنی امیة.

ثم خاض الإمام علیه السلام فی وضع القرآن وأصحابه فی ذلک الزمان المظلم وشرح علّة بؤس الناس آنذاک والتی تتمثل بابتعادهم عن القرآن: «فَالْکِتَابُ یَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِیدَانِ ۷۴۸] مَنْفِیَّانِ ۷۴۹]،

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۳۳

وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ، فِی طَرِیقٍ وَاحِدٍ لَایُؤْوِیهِمَا[۷۵۰] مُؤْوٍ».

ثم أکّد علیه السلام قائلًا:

«فَالْکِتَابُ وَأَهْلُهُ فِی ذلِکَ الزَّمَانِ فِی النَّاسِ وَلَیْسَا فِیهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَیْسَا مَعَهُمْ!»

، فهم یتلون القرآن فی دورهم وعلی منابرهم، ویقبّلونه ویتبرکون به، بینما لیس هنالک أدنی أثر لتعالیمه ومفاهیمه فی حیاتهم الفردیة والاجتماعیة، فقد اکتفوا من القرآن بغلافه وترکوا مضمونه، إنهمکوا بالألفاظ وأهملوا المعانی.

ثم خاض عليه السلام فى الدليل قائلًا:

«لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لَاتُوَافِقُ الْهُدَى، وَإِن اجْتَمَعَا».

نعم، فالضالون فى وادى والهدى وأتباعه فى وادى آخر، وإن كانوا معاً فى الظاهر، والدليل الآخر المهم لشقائهم:

«فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَلَى الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ»،

بعبارة أخرى فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا، وقد أدّت هذه الفرقة إلى أن يفسّر كل القرآن حسب رغبته، أو بعبارة أخرى فقد أسسوا بنيانهم على التفسير بالرأى، يأخذون ما ينسجم مع رغباتهم من آيات بينما يسعون لتوجيه البعض الآخر من الآيات التى تتعارض وأهوائهم بما يتفق ورغباتهم، فهم يجعلون أنفسهم أئمة القرآن بدلًا من أن يكون القرآن الكريم إمامهم، ولذلك فهم لا ينتفعون بالقرآن، بل يجعلونه الموجّه لضلالهم، فيزدادوا ضلالًا وبعداً عن القرآن الكريم.

ثم رسم صورة واضحة عن مصير القرآن فى ذلك العصر والزمان بعبارة رائعة لا تماثلها عبارة فقال عليه السلام:

«فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ [۷۵۱]»

، فقد يسطر القرآن بخطوط غاية فى الجمال وتذهب صفحاته وغلافه ويبتدعوا روائع الفن بهذا الخصوص وتتداول الأيدى القرآن ويتلى فى المساجد بمختلف الأصوات بصورة فردية وجماعية، ولكن دون أن يكون هناك أدنى خبر عن مضمونه ومحتواه، بالضبط كالدواء الشافى الذى يوضع فى زجاجة جميلة تترك على الرف دون أن يتناول المرضى منها شيئاً، وهنا يبرز هذا السؤال: هل الصالحون والمؤمنون وأصحاب القرآن صامتون فى ذلك الزمان؟ كأنّ الإمام عليه السلام أجاب فى

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۳۴

العبارة الأخيرة على هذا السؤال فقال:

«وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا[۷۵۲] بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وَسَمَّوْا

صِدْقَهُمْ عَلَى اللَّهِ فِرْيَةً[۷۵۳]، وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ».

فالعبارة إشارة إلى التاريخ الأسود لبنى امية الذين مثلوا بالصالحين من العباد لما رأوهم يشكلون خطراً عليهم، حتى قيل بلغ تعداد من قتلهم معاوية ما يزيد على الأربعين ألف من المهاجرين والأنصار.

ولا ـ نرى من حاجة لاستعراض تلك الفاجعة التى إرتكبها ولده يزيد بحق الحسين عليه السلام وأنصاره فى كربلاء، كما لا يمكن إحصاء من قتلهم عبدالملك بن مروان وعامله الحجاج من أهل العراق والحجاز[۷۵۴]، وهكذا أخمدوا كل دعوة حق وقطعوا كل لسان صدق ومهدوا السبيل لإملاء أفكارهم ورغباتهم.

تأمّلان

۱- أبشع عصور الإسلام

لا شك إنّ عصر حكومة بنى امية من أبشع العصور التى شهدتها الامة الإسلامية، ويشترك حكام بنى امية من معاوية حتى أخرهم الذى يعرف بمروان الحمار فى ثلاث خصال هى: الجلافة والقسوة المتناهية وحبّ الحكومة والذوبان فيها مهما كان الثمن لبلوغها وحسن الثأر والانتقام، ومن هنا فقد ضحوا بكل معانى الحق والعدل والشرف والإنسانية من أجل حكومتهم المقيتة فارتكبوا من الظلم والجور ما لم يرد مثيله فى التاريخ، وقد أذاقوا دعاة الحق

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۳۵

وصحابة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الأمرّين بين قتل وتشريد وقطع الرأس ونفى وصلب وحصار فى البيت من أجل تلك الحكومة، وهـذا مـا أشآر إليه الإمام عليه السـلام فى عباراته الأخيرة من هـذا القسم من الخطبـة، إلّاأنّ أهم كهف كانت تلوذ به الامـة الإسـلامية والـذى يشـكل أكبر عقبـة تعـترض طريقهـم إنّمـا هـو القرآن، القرآن الـذى أعلن الحرب ضـد الظلمـة، والطغـاة وهـدد دائمـاً عروش الغاشـمين، وكان المعيار لتمييز الحكومة الإسـلامية من الحكومالت الغاصـبة والظالمة والكافرة، فما كان من اولئك الطغاة إلّاأن وظفوا أشـباه العلمـاء ووعـاظ السـلاطين ويهـدف إزالـة تلك العقبـة عن طريقهم بتفسـير القرآن حسب أهوائهم، فى أنّ آياته تشـهد بحقانية اولئـك الغربـاء على القرآن والبعيـدين عن الحق تبـارك وتعـالى، كمـا منعوا من يرون تلاـوة القرآن حق تلاـوته، وهكـذا لم يبق من القرآن سوى اسـمه ورسـمه فحكم عليه بأن يصبح كالسجين الذى أودع زنزانة إنفرادية مخيفة ليبعد عن أفكار الناس، وهو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة.

فقـد جاء فى الخبر أنّ معاوية حين قدم المدينة مرّ بمجلس من كبار قريش، فلما رأواه قاموا له خوفاً سوى ابن عباس، فقال له مالك لا تقوم يابن عباس أهى صفين، فقد قتل عثمان مظلوماً (وهذا ما دفعنا للقتال).

فقال ابن عباس: فقد قتل عمر بن الخطاب مظلوماً (لماذا لم تقم لنصـرته)، فقال معاوية: إنّ كافراً قتل عمر. قال ابن عباس: فمن هم قتلة عثمان، قال معاوية: المسلمون. قال ابن عباس:

فهذه عليك لا لك.

قـال معاويـة: لقـد أمرنـا بعـدم ذكر فضائـل على وأهـل بيته فاحفـظ لسانك. قال ابن عباس:، أتمنعنا من قراءة القرآن؟ قال: لا. قال ابن عباس: تمنعنا من تأويله؟ قال معاوية: بلى، لك القراءة دون التأويل، وإن كان ولابدّ فلا تحدث بفضائل أهل البيت.

ثم أمر لاـبن عباس بمئة ألف درهم (ليمزج الترهيب والترغيب ليتمكن بكل الوسائل من إسـكات ابن عباس)[۷۵۵]، ومن أراد المزيد بشأن جنايات بنى امية والتعرف عليهم بدقّة على ضوء القرآن وأخبار العامّة والأعمال التى قاموا بها من أجل مسخ المعارف الإسـلامية وتحريفها فليراجع المجلد الثالث من هذا الكتاب.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۳۶

۲- التاريخ يعيد نفسه

ما أورده الإمام عليه السـلام فى هذه الخطبة بشأن العصـر المظلم للحكومة الاموية بأنّ لا يبقى من القرآن إلّااسـمه لا يقتصر على ذلك الزمـان، والمؤسف له أنّ ذلـك الأـمر قـد تكرر فى مختلف النقاط وإن لم يبلغ ما بلغه أبان الحكومـة بنى اميـة، وما زلنا نلمس نماذج ذلك حتى فى عصرنا.

وقد وردت للإمام عليه السلام عبارة أشمل فى قصار كلماته بهذا الخصوص إذ قال:

«يَأتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لايَبقَى فِيهِن مِنَ القُرآنِ إلّا إِسـمُهُ وَمِنَ الإِسـلام إلّاإِسـمُهُ وَمَسَاجِـدُهُم يومَئِـذٍ عَامِرَةٌ مِنَ البِنَاءِ خَرابٌ مِنَ الهُـدى سُكَّانُها وَعُمَّارُها شَرُّ أَهلِ الأَرضِ مِنهُم تَجرُجُ الفِتنَةُ وَإلَيهِم تَأوى الخَطِيئَةُ».[۷۵۶]

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۳۷

القسم الثالث: أسباب شقاء الإنسان

«وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِى تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْـذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنِّقْمَةُ».

الشرح والتفسير

أنـذر الإمام علیه السـلام الجمیع فی هـذا المقطع من الخطبـة ودعاهم لتأمل تاریخ الامم السابقة ویفکروا فی أسباب بؤسـهم وشـقائهم فیعتبروا بذلک حیث قال:

«وَإِنَّمَا هَلَکَ مَنْ کَانَ قَبْلَکُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ»،

المراد بالهلـک فی قوله إنّمـا هلـک حسب ما ذهب إلی جمع من شـرّاح نهـج البلاغـة الهلاک المعنوی یعنی الضـلالة التی ینتـج عنها العـذاب الاخروی، ولکن لا یبعـد أن تشـمل الهلاک المعنوی والاخروی وکذلک المادی والدنیوی، أی أنّ طول الأمل ونشـیان أجل الحیاة والغرق فی الشـهوات، إنّما یفسـد الآخرة ویحط من قدر وعظمة الإنسان فی الدنیا، وبالتالی تعرضـهم لأنواع العذاب الدنیوی من قبیل طوفان قوم نوح وزلزلة قوم لوط والصواعق السماویة التی أصابت الأقوام الأخری.

نعم، فتغیب الآجال أحـد آثار طول الأمل والـذی یعـد من أعـدی أعـداء سـعادة الإنسان، لأنّه یلقی بحجاب ضـخم علی بصـیرة العقل ویجعل الهوی حاکماً علیه ویقذف بالإنسان فی مسـتنقع الذنوب والمعاصـی، وهذا ما ورد عن النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله وأمیر المؤمنین علی علیه السلام:

«وَأَمّا طُولِ الأَمَلِ فَيُنسِى الآخِرَةَ»[۷۵۷]

، ویفهم من العبارة:

«حَتّى نَزَلَ بِهِم المَوعُودُ»

، أنّ اولئک

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۳۸

الأفراد یفیقون فی تلک اللحظة، أجل یفیقون، ولکن حیث لا ینفعهم ذلک، ولذلک قال الإمام علیه السلام:

«الَّذِى تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ[۷۵۸] وَالنِّقْمَةُ[۷۵۹]».

نعم، فمصـدر کـل تلـک الجنایـات والمخالفـات التی ورد الکلام عنها فی القسم السابق من الخطبـة إنّما یکمن فی حبّ الـدنیا وطول الأمل ونسیان الأجل، الأجل الذی لا رجعة فیه ولا یمکن تدارک ما فرط من الإنسان فیه.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۳۹

القسم الرابع: سبیل النجاة

اشارة

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ اسْتَنْصَحَ اللَّهَ وُفِّقَ، وَمَنِ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدِىَ (لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ)؛ فَإِنَّ جَارَ اللَّهِ آمِنٌ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ؛ وَإِنَّهُ لَايَنْبَغِى لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَلَامَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ. فَلَا تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ، وَالْبَارِى مِنْ ذِى السَّقَمِ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِى تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِى نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ، حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِى نَبَذَهُ. فَالْتَمِسُوا ذلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ؛ لَايُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ».

الشرح والتفسير

تحـدّث الإمام علیه السـلام فی هـذا القسم السابق عن فئـة ضالة ومسـتبدة غیرت جمیع الحقائق وإرتکبت أفضع الجرائم، ثم حل أجلها

ولم تتب إلى ربّها فسارعت إلى عالم آخر ليصب عليها العذاب، فأبان الإمام عليه السلام فى هذا المقطع سبيل النجاة حتى لا يبتلى الآخرون بذلك المصير الأسود فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ اسْتَنْصَحَ اللَّهَ وُفِّقَ، وَمَنِ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدِىَ (لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ)»

، نعم، هذه هى الخطوة الاولى من أجل الإهتداء إلى الحق والصراط المستقيم ثم استدلّ على ذلك بقوله:

«فَإِنَّ جَارَ اللَّهِ آمِنٌ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۴۰

وأضاف بعد ذلك بهدف استماع الناس للمواعظ الإلهيّة ويبعدوا عنهم الكبر والغرور ويسلموا لأوامر اللَّه: «وَإِنَّهُ لَايَنْبَغِى لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَلَامَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ»، فى إشارة إلى أنّ اولئك الذين يعيشون الغرور والتكبر غافلون عن عظمة اللَّه سبحانه، والذين يغترون بقدرتهم جاهلون بقدرة اللَّه تعالى، أمّا من عرف اللَّه وقدرته فهو يدرك أنّه لا شيء تجاهه، عليه فلا داعى لهذا الكبر والغرور الفارغ.

ثم قال على سبيل الاستنتاج:

«فَلَا تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ، وَالْبَارِى ۷۶۰] مِنْ ذِى السَّقَمِ»

، إشارة إلى أنّ سعادتكم وفلاحكم وسلامتكم فى إتباع الحق، وأنّ النزوع نحو الباطل نوع من أنواع المرض والسقم، لكن من المؤسف هناك من يهرب من الحق وكأنّه يفر من مرض معدى، أو حسب تعبير القرآن الكريم: «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ»[۷۶۱].

ثم عرض الإمام عليه السلام فى الخطوة التالية سبيلًا واضحاً بهدف هداية مخاطبيه إلى الحق وإبعادهم عن الباطل فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِى تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِى نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ، حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِى نَبَذَهُ»،

والواقع هذا هو أحد طرق معرفة الحق والباطل والذى ينطوى تحت القاعدة المعروفة:

«تعرَفُ الأَشياءُ بِأضدَادها»

، فالإنسان يجهل معنى العافية ما لم يمرض ولا يدرك مفهوم الضياء ما لم يرى الظلمة، فقد اعتبر الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة كما ورد فى العبارة المذكورة- التعرف على تاركى الحق ومخالفيه كطريق بلوغ الحق، فأشار إلى ثلاث طوائف:

طائفة تركت الحق، وطائفة نقضت ميثاق القرآن، والطائفة الثالثة التى نبذته وراء ظهرها، والفارق بين هذه الطوائف الثلاث واضح، فالبعض يترك الحق دون أن يحضره والبعض الآخر يحقره علاوة على تركه، وأخيراً هناك من ينقض عهود اللَّه ومواثيقه، والذى وردت الإشارة

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۴۱

إليه فى الآية القرآنية الشريفة: «أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَايَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ...»[۷۶۲]، والآية صادقة على الآخرين وإن كانت فى الظاهر فى بنى اسرائيل.

نعم، يمكن الظفر بسبيل الحق من خلال معرفة هؤلاء التاركين للحق والناقضين لمواثيق اللَّه والمحقرين لكتاب اللَّه، ومعرفة المبادىء التى تسود حياتهم.

ثم عرض الإمام عليه السلام طريقاً آخر فى آخر قسم من هذه الخطبة من زيادة الاطمئنان بهدف الظفر بالحق وإدراك مفاهيم القرآن الكريم وهو التمسك بأهل البيت من عترة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بفضلهم أحد الثقلين الذين خلفهما النبى فى الامة، فقال عليه السلام:

«فَالَتمِسُوا ذلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ؛ لَايُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ».

فقد وصف الإمام عليه السلام أهل البيت عليهم السلام فى هذه العبارات القصيرة والعميقة المعنى بأوصاف منها:

«فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ ...»

، حيث عندهم علم اللَّه تعالى وسنّة النبى صلى الله عليه و آله، فأينما يحلّون يكشفون الظلام بنورهم، وحكمهم (سواء كان الحكم بمعنى القضاء أوالحكم بمعنى كافة وصاياهم وبيانهم للحلول) ينطق عن علمهم، وصمتهم العميق المعنى يفيد منطقهم ومقاصدهم (لأنّ السكوت أبلغ من الكلام فى أغلب الموارد)، وظاهر على قدر من الرزانة والإخلاص والطهر بحيث يعكس طهارة ونقاء باطنهم، من خصائصهم الأخرى أن علمهم لا يختلف مع الدين قط ولا يختلفون فى تفسيرهم لحقائق الدين، ولا غرو فعلومهم تنبع من ذات المصدر، ومن هنا لديهم حقيقة الدين والقرآن وروحهما، فى حديث الثقلين:

«... إنّهما لَن يَفتَرِقا (العترة والقرآن) مَا إن تَمَسَّكْتُم بِهِما فَلَن تَضِلُّوا ...».

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۴۴۲

تأمّل: معرفهٔ الأشياء بأضدادها

كثيرة هى طرق معرفة الحق والباطل والمهم أن يعزم الإنسان على معرفة الحق ويتجه قدماً بشجاعة- وإحدى هذه الطرق ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة والذى يتمثل بمطالعة الأضداد.

فانّ رأى الإنسان المصير الأسود لجماعة تسبح فى بحر من الأخطاء والزّلات، أدرك ببساط أنّ الطريق الصحيح عكس ذلك، وإن أراد السير على الحق وجب عليه التخلى عن الاصول التى اعتمدتها تلك الجماعة، فيتعلم الأدب من عديميه والعدل الظالمين والطهر من المدنيين.

لعل هناك من يتصور تضارب هذه العبارة مع ما ورد فى عبارة أخرى للإمام عليه السلام قالها للحارث الهمدانى:

«إنّ دِينَ اللَّهِ لا يُعرَفُ بِالرّجالِ بَل بِآيَةِ الحَقِّ فَاعرفْ الحقَّ تَعرِفُ أَهلَهُ»[۷۶۳]

، لكن الطريقان صحيحان، كل فى محلّه، فان عرف الحق بوضوح فى موضع كان لابدّ من معرفة شخصية الأفراد على أساس معياره، فمن كان مع الحق فهو الحسن الصالح ومن كان ضده فهو السيىء الطالح، فهنا نعرف الاشخاص بمعيار الحق. وان كان الأفراد معروفين والحق خفى كان لابدّ من التعرف على الحق والباطل بواسطتهم، على سبيل المثال لو تنازع عمار بن ياسر مع أبى جهل، فاننا ندرك بسهولة أنّ عمّاراً على الحق وأبى جهل على الباطل، وقد يتعذر أحياناً معرفة الأشخاص ومعرفة الحق، فهنا ننظر إلى حاشية وأصدقاء اولئك الأشخاص، فرضاً شككنا فى شخص معاوية ورأينا بطانته وحاشيته جماعة من المنافقين وأصحاب الدنيا كعمرو بن العاص وممن طردهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ومن تبقى من أقطاب الجاهلية آنذاك يمكننا التعرف عليه.

وزبدة الكلام هناك عدّة طرق لمعرفة الحق والباطل ولابدّ من استفادة ما يناسب كل مورد من طريق.

نفحات الولايهٔ، ج۵، ص: ۴۴۳

الخطبهٔ[۷۶۴] المأهٔ والثامنهٔ والأربعون

اشارهٔ

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام

فی ذکر أهل البصرة

نظرة إلی الخطبة

تحـدّث الإمام علیه السـلام فی المقطع الأول من هـذه الخطبـة عن طلحة والزبیر واللذان قد إتحدا فی الظاهر واتفقا علی قتال علی علیه السـلام فی الجمل، فقد کشف الإمام علیه السلام اللثام عن جانب من أسرارها فقا إنّهما وإن اتحدا ظاهریاً، إلّاأنّ ذلک الاتحاد مرحلی ومؤقت، فان تسـلّط أحـدهما أسـقط الآخر، وأشار علیه السـلام فی المقطع الثانی إلی فتنـة البصـرة وأصـحاب الجمل، وقد دعی الناس للعمـل علی إخمـاد نـار هـذه الفتنـة، کمـا حـذر فی الختـام من ضـرورة مراقبـة التحرکـات المشـبوهة لناقضـی المواثیق (طلحـة والزبیر وأعوانهما).

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۴۵

«کُلُّ وَاحِـدٍ مِنْهُمَا یَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَیَعْطِفُهُ عَلَیْهِ، دُونَ صَاحِبِهِ، لَایَمُتَّانِ إِلَی اللَّهِ بِحَبْلٍ، وَلَایَمُدَّانِ إِلَیْهِ بِسَـبَبٍ. کُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَـبٍّ لِصَـاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِیـلٍ یُکْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِی یُرِیـدُونَ لَیَنْتَزِعَنَّ هـذَا نَفْسَ هـذَا، وَلَیَأْتِیَنَّ هـذَا عَلَی هـذَا. قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِیَةُ، فَأَیْنَ الُمحْتَسِبُونَ! فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ. وَلِکُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِکُلِّ نَاکِثٍ شُبْهَةٌ.

وَاللَّهِ لَاأَکُونُ کَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ، یَسْمَعُ النَّاعِیَ وَیَحْضُرُ الْبَاکِیَ، ثُمَّ لَایَعْتَبِرُ!».

الشرح والتفسیر

الإتحاد الظاهری والعداء الباطنی

کشف الإمام علیه السـلام فی القسم الأول من هـذه الخطبـة النقاب عن حقیقـة فی عدم وجود دافع شـرعی لطلحة والزبیر- اللذان أثارا معرکـة الجمـل- ولیس لهما من همّ سوی الـدنیا والاستیلاء علی الحکومـة، ومن هنا فانّ تحقق لهما ما یریـدان سـعی کل منهما لإزالة الآخر لینفرد بالحکومة فقال:

«کُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا یَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَیَعْطِفُهُ عَلَیْهِ، دُونَ صَاحِبِهِ».

ثم استدلّ علیه السلام علی ذلک بالقول:

«لَا یَمُتَّانِ ۷۶۵] إِلَی اللَّهِ بِحَبْلٍ، وَلَایَمُدَّانِ إِلَیْهِ بِسَبَبٍ. کُلُ

وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبِ ۷۶۶] لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِیلٍ یُکْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ!»

، والضبّ هوالحیوان المعروف، وتعتقـد العرب بأنّه خال من العاطفـة إلی جانب حماقته حتی أنّه لیأکل فراخه ومن هنا ضـرب به المثل فی العقوق، وقد استشهد الإمام علیه السلام بذلک المثل فی قوله:

«حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ»،

فهی عبارة غایة فی الروعة لمدی العداوة والبغضاء التی یخفیها کل منهما لصاحبه.

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۴۶

ثم قال علیه السلام:

«وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِی یُرِیدُونَ لَیَنْتَزِعَنَّ هذَا نَفْسَ هذَا، وَلَیَأْتِیَنَّ هذَا عَلَی هذَا»

، والطریف أنّ ما أورده الإمام علیه السلام فی العبارة السابقة بشأن طلحة والزبیر یصدق علی جمیع الأفراد الذین یتحدون من أجل نیل السـلطة دون أن یکون لهم أی دافع إلهی، فهم متحدون ومتفقون مادامهم لم ینتصروا، فبمجرّد الانتصار یسعی کل واحد منهم للقضاء علی الآخر والتفرد بالسـلطة، وشواهـد ذلک کثیرة علی مرّ العصور وفی کل زمان ومکان، والحال لو کانت الـدوافع إلهیّة لدام الإتحاد

وربّما اقترح كل السلطة على غيره، وقد إتضحت حقيقة كلام الإمام عليه السلام بشأن طلحة والزبير حتى قبل شروع معركة الجمل وتنازعهما على الزعامة، وهذا ما سنتناوله إن شاء اللّه فى البحث القادم، ولما كانت هذه الخطبة قبل معركة الجمل فقد دعى الإمام الناس إلى الوقوف بوجه ناقضى العهد الذين حملوا رايات معركة الجمل فقال:

«قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، فَأَيْنَ الُمحْتَسِبُونَ ۷۶۷]! فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ».

والعبارة الفئة الباغية إشارة إلى كل جماعة تقوم بوجه الحق وحكومة العدل، كما يصدق هذا الكلام على أصحاب الجمل، وعلى أعوان معاوية أيضاً، لأنّهم وقفوا جميعاً ضد الحق، ومن هنا جاء فى الحديث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لعمّار الذى استشهد فى صفين وقتله أعوان معاوية:

«يَا عَمّارُ تَقتُلُکَ الفِئَةُ البَاغِيةُ»[۷۶۸].

والمفردة «المحتسبون» إشارة إلى الأفراد الذين يجاهدون حسبة للّهولا ينتظرون سوى ثوابه وأجره.

والعبارة

«فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ ...»

، إشارة إلى أنّ سنن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قد عرضت السبل اللازمة للقيام ضد البغاة والعصاة.

العبارة:

«وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ»

، إشارة إلى حديث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لصحبه:

«تُقاتِلُونَ النّاكِثِينَ والقَاسِطِينَ والمَارِقِينَ»[۷۶۹]

، بناءاً على هذا وبالنظر إلى اتضاح الضلال بالنسبة لتلک

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۴۷

الفئة واتضاح سنن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله تجاه مثل هؤلاءالأفراد والنبوءة السريعة التى طرحها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فلم يبق هنالک من مجال للإبهام ولابدّ لكل مؤمن مخلص أن يقف فى وجه الباطل.

ثم قال الإمام عليه السلام:

«وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ»

، قطعاً لم يرد الإمام عليه السلام بها الكلام توجيه الأعمال القبيحة والطائشة لطلحة والزبير، بل يريدالإشارة إلى هذه الحقيقة إلى أن الظلال ليس عبثياً، وعادة ما تكون علّته اختيارية، فالعلّة الأصلية لأغلب الظلال تتمثل فى هوى النفس وحبّ الدنيا والجاه والاستبداد والكبر والغرور والحسد، وهذا المعنى واضح تماماً بالنسبة لطلحة والزبير.

والعبارة:

«وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ»

، إشارة إلى أنّ كل ناكث لعهد عادة ما يخلق لنفسه ذريعة ليخدع العوام ويجرهم إليه، كما تذرع طلحة والزبير بدم عثمان على أنّه الخليفة الذى قتل مظلوماً، فيثيروا طائفة من العوام ضد على عليه السلام فيتمكنا من تحقيق أهدافهما المغرضة، بينما كانا من العناصر التى قتلت عثمان، كما مرّ معنا فى الخطبة ۱۳۷ خيث قال الإمام بشأن طلحة والزبير ومعاوية:

«وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ».

والعبارة

«ناكث»

إشارة إلى طلحة والزبير حيث بايعا علياً عليه السلام فى البداية ثم نقضوا البيعة.

ثم إختتم الإمام الخطبة بالإشارة إلى نقطة مهمّة وهى المراقبة وعدم الغفلة عن العدو فقال:

«وَاللَّهِ لَاأَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ ۷۷۰]، يَسْمَعُ النَّاعِيَ وَيَحْضُرُ الْبَاكِيَ، ثُمَّ لَايَعْتَبِرُ!»،

إشارة إلى أنّ الزعيم اليقظ لا يسمع أنين المظلومين وتعبئة قوى الشياطين، وقد مضى شبيه هذا المعنى فى الخطبة السادسة:

«وَاللَّهِ لَا أَكُونُ كالضَّبُعِ: تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْها طَالِبُهَا، وَيَخْتِلَهَا رَاصِدُها، وَلكِنّى أضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۴۸

تأمّل: أصدقاء الأمس وأعداء اليوم

العبارة أعلاه تبيّن حقيقة وهى أنّ أصحاب الباطل وإن إتّحدوا فى بادىء الأمر من أجل تحقيق أهدافهم، إلّاأنّهم ما إن ينتصروا ويتمكنوا حتى يسعى كل منهم لإزالة الآخر والتفرد بتناول ثمرة شجرة النجاح والنموذج البارز لذلك الإتحاد طلحة والزبير فى معركة الجمل والذى يشكل الموضوع الرئيسى لهذه الخطبة، والطريف فى الأمر أنّ بوادر هذه المنافسة الهدامة قد لاحت حتى قبل شروع المعركة.

فقد نقل ابن أبى الحديد عن المؤرخين أنّ خلافاً وقع بينهما قبل الجمل بشأن إمامة العسكر، ولمّا إشتد النزاع بينهما تدخلت عائشة فأمرت أن تصلى يوماً محمد بن طلحة وآخر عبداللَّه بن الزبير حتى تنتهى المعركة[۷۷۱].

من جانب آخر سأل طلحة عائشة أن يسلم عليه الناس بصفته أميرالمؤمنين، كما سألها الزبير ذلك، فسلّمت عائشة عليهما بأميرالمؤمنين، كما اختلفا فى إمرة الجيش فقد أراد طلحة الإمرة، بينما رأى الزبير نفسه الأجدر بها[۷۷۲]، وكل هذه الامور شواهد حيّة على ما أخبر به الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة حين قال كل واحد منها يرجو الأمر له ويفكر فى القضاء على صاحبه، فليس هناك من دافع إلهى، ولا تؤدّى الدوافع النفسانية سوى إلى الاحتكار دائماً.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۴۹

الخطبة[۷۷۳] المأة والتاسعة والأربعون

اشارة

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام

قبل شهادتة عليه السلام

نظرة إلى الخطبة

كما ورد فى أسناد الخطبة فانّ الإمام عليه السلام خطبها حين كان على أعتاب الشهادة، فقد أوردها على سبيل الوصية إلى جانب النصح والمواعظ، والواقع أنّ الخطبة تتألف من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: بشأن الموت الذى لا يستطيع أحد الفرار منه ولا يعلم أين ومتى يدركه.

القسم الثانى: وصيّة قصيرة وبليغة عظيمة المضمون تجذب القلوب وتوضح معالم الطريق فى المستقبل.

القسم الثالث: الدروس التى ينبغى للناس تعلمها من شهادة الإمام عليه السلام كما يشير عليه السلام إلى هذه الحقيقة وهى إننى إن رحلت عنكم وخلّفنى غيرى آنذاك ستعرفون، من كنت؟ وماذا أردت؟ وما كانت سرائرى؟

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۵۱

القسم الأول: إستحالة الهروب من الموت

«أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امْرِئٍ لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِى فِرَارِهِ. وَ الْأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ؛ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ. كَمْ أَطْرَدْتُ الْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هـذَا الْأَمْرِ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ!».

الشرح والتفسير

أكـد الإمـام عليه السـلام فى هـذا القسم من الخطبـة أنّ الفرار من الموت مسـتحيل، وأبعـد من ذلك فانّ الإنسان يسـتقبل الموت حين فراره، فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امْرِئٍ لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِى فِرَارِهِ. وَ الْأَجَلُ مَسَاقُ ۷۷۴] النَّفْسِ؛ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ».

هناك عدّة تفاسير لشرّاح نهج البلاغة للعبارة الهرب من الموت موافاته، فقد قال البعض:

المراد من هذه العبارة أنّ الأجل إذا حلّ وجاء أمر اللّه سبحانه برحيل من الدنيا فحتى الدواء يعطى نتيجة معكوسة، فما كان مشـفياً فى الأحوال العادية يصـبح سـبباً للموت، وقيل فى تفسير العبارة أنّ الزمان الذى يصرفه الإنسان من أجل العلاج فى مثل هذه الحالات إنّما يقرّبه من آجله ۷۷۵].

وبعبـارة أخرى، فقـد شوهـد كثيراً وقوع الإنسـان فى مـا يخـافه ويحـذره، ويـدركه مـا هرب منه، وعلى ضوء هـذا التفسير فـانّ الحكم المذكور حكم غالبى وليس كلى.

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۵۲

ثم قال عليه السلام:

«كَمْ أَطْرَدْتُ ۷۷۶] الْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هذَا الْأَمْرِ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ.

هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ!».

سؤال

هنـا يبرز هـذا السؤال وهو: كيف قال الإمام بأنّ اللّه وحـده العالم بالآجل ولا يعلمه أحـد[۷۷۷]، بينمـا تظافرت الأخبار التى وردت عن أميرالمؤمنين على عليه السـلام أنّه كـان يعلم بزمـان وفـاته، وكان يعرف قاتله، كما يخبر ولـده على الـدوام فى ليلـة شـهادته، بل أشار بعبـارات مختلفـة إلى زمـان شـهادته حتى خلاـل شـهر رمضان الـذى استشـهد فيه، وقـد ورد فى الكافى أنّ الطيور فى بيت الإمام عليه السلام كانت على علم بشهادته؟

جواب

يعتقد البعض بالاسـتناد إلى بعض الروايات ۷۷۸]، أنّ حالات المعصومين عليهم السـلام وأولياء اللّه تعالى مختلفـة، فأحياناً يعلمون كل شيء بـإرادة اللّه تعالى، وأحياناً أخرى تخفى عليهم بعض المسائل بإرادة اللّه تعالى حتى اللحظات يمكن أن تكون متفاوتـة، فقـد شـم نبى اللّه يعقوب رائحـة قميص يوسف من مساحـة بعيـدة (مصـر) بينمـا لم يراه فى بئر كنعـان، وهناك احتمال أخر ما ذكره الإمام عليه السـلام قانوناً كلياً حول الأجل وخاتمـة حياة جميع الأفراد، إلّاأنّ هـذا القانون الكلى كسائر القوانين الكلية له اسـتثناءات، فما المانع أن يعلم أولياء اللّه وباذن اللّه وتعليمه بلحظة موتهم.

وهنـاك نقطـة أخرى هى: إنّ علوم المعصومين عليهم السـلام بالنسـبة لمسائـل المسـتقبل على أسـاس لوح المحو والإثبـات وهو قـابل للتغيير، أو مـا يصـلح عليه بـالعلم بالمقتضـيات، لا العلم بالعلـة التامـة التى تأبى التغيير، لأنّ ذلك القسم الـذى يسـمى باللوح المحفوظ مختص باللّه تبارك وتعالى، مثلًا جاء فى قصة السـيد المسيح عليه السلام أنّه أخبر عن موت عروس فى ليلة زفافها، بينما لم يقع ذلك،

وذلك لأنّها تصدقت وحالت الصدقة دون وقوع تلك المصيبة.

وسنتناول شرح هذا الموضوع فى محله إن شاء اللَّه.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵۳

القسم الثانى: وصيّة الإمام عليه السلام

«أَمَّا وَصِيَّتِى: فَاللَّهَ لَاتُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ مَا لَمْ تَشْرُدُوا. حُمِّلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ.

رَبٌّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ. أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللَّهُ لِى وَلَكُمْ!».

الشرح والتفسير

بيّن الإمام عليه السلام فى القسم من الخطبة وصيّته وقد صبّ الإمام عليه السلام فيها عصارة روحه وفكره فى تلك اللحظة الحساسة والصعبة التى يوشك فيها على الرحيل فقال:

«أَمَّا وَصِيَّتِى: فَاللَّهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ [۷۷۹] مَا لَمْ تَشْرُدُوا».

والمراد بالشرك هنا المعنى الواسع للكلمة والذى يشمل الشرك فى الذات والصفات وكذلك الشرك فى الأفعال، وبعبارة أخرى، كل ميل لما سوى اللَّه سبحانه سواء فى العقيدة أو العمل، وكذلك اريد بالسنّة معناها الواسع الذى يشمل جميع البرامج العبادية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية، والواقع هو أنّ العبارتين قد تضمنتا جميع أسباب سعادة الإنسان،

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵۴

فالإنسان لم يتعلق بما سوى اللَّه ولا يطلب غير رضاه ولم يحكم هو نفسه وطبّق كافة تعاليم النبى الأكرم صلى الله عليه و آله على كافة الأصعدة والمجالات فهو الإنسان سعيد وموفق، ومن هنا شبّه الإمام هذين الاثنين بعمودى الخيمة إن اقيما فانّ الخيمة ملاذ آمن من الحرارة والبرودة وواقية من أغلب المخاطر، كما شبّهها بمصباحين على جانبى الإنسان وهما يضيئان الفضاء والطريق، ومن البديهى ألا يبقى مجالًا للظلالة مع وجود هذين المصباحين المضيئين.

ولذلك قال الإمام عليه السلام فى مواصلته لكلامه، إعملوا بهذه الوصايا وخلاكم ذم، وسوف لن يكون هناك من خلل ونقص فى دينكم وإيمانكم وحياتكم، ولكنه يشترط ذلك بمواصلة الطريق دون الانحراف، والالتزام بمسار التوحيد والعمل بالسنّة، والواقع هو أنّ جميع أصول الإسلام وفروعه قد جمعت فى هذه العبارة: فالتوحيد يشمل كافة الاصول العقائدية وحفظ سنة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يشمل جميع التعاليم العلمية والأخلاقية، وإن قال عليه السلام أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذم، للدليل السابق، ولما كان إقامة التوحيد وسنّة النبى صلى الله عليه و آله فى جميع الأبعاد ليس ميسراً للجميع وذلك لعدم تساوى القدرات الفكرية والجسمية، فقد قال عليه السلام:

«حُمِّلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ»

، وهو ذات الأمر الذى اشير إليه كراراً فى الآيات الروايات.

فقد قال القرآن الكريم: «لَايُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ...»[۷۸۰]، وقال فى موضع آخر:

«لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ...»[۷۸۱].

وجاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«يُغْفَرُ لِلجَاهِلِ سَبعُونَ ذَنباً قَبلَ أَنْ يُغفَرَ لِلعَالِم ذَنبٌ وَاحِدٌ»[۷۸۲]

. كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إنّما يُداقُ العِبادُ فِى الحِسابِ يَومَ القِيامَةِ عَلَى قَدَرِ مَا آتَاهُم مِنَ العُقُولِ فِى الدُّنيا»[۷۸۳]

، والواقع أنّ هذا هو مقتضى العدالة فى أن تؤخذ القدرات الفكرية والجسمية للأفراد بنظر الاعتبار فى تفويض المسؤوليات والحساب على المخالفات، ومن هنا قال الإمام عليه السلام:

«رَبٌّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵۵

والواقع هو أنّ كافة أسباب السعادة فى ظل هذه الثلاث، فاللَّه سبحانه رحيم قد فتح كافة أبواب السعادة بوجه الإنسان والدين الذى أتى به نبى الإسلام صلى الله عليه و آله يتمتع برسوخ لا مثيل له، والإمام عليه السلام الذى نصب لإجراء أحكام الدين عادل من جميع الجوانب يمكن أن تكون كلمة الإمام هنا إلى شخص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو على عليه السلام أو جميع أئمة الإسلام من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حتى آخر الأئمة الإمام المهدى (سلام اللَّه عليهم أجمعين)، ومن الطبيعى أنّ مثل هذا الرب والدين والإمام لا يكلّف الإنسان سوى على قدر وسعه.

ثم أشار الإمام عليه السلام فى الختام إلى نقطة مهمّة ليكمل بها القسم الأول والثانى فقال:

«أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللَّهُ لِى وَلَكُمْ!»

، إشارة إلى أنّكم إن جعلتم هذه الأيام الثلاث مع بعضها لعلمتكم مطالب كثيرة، فبالأمس كنت مثلكم، بل زعيمكم وقائدكم حيث صرعت الكثير من على شاكلة عمرو بن عبد ود، لقد فتحت خيبر وقلعت بابها، ودافعت عن رسول للّهصلى الله عليه و آله فى ميادين القتال حين تظافرت علينا الأعداء، وكنت أجندل الأبطال فى الجمل وصفين والنهروان، لكننى اليوم لكم عبرة بعد أن رقدت على فراش الموت، وغداً أنا مفارقكم،، سوف ترون مكانى خالياً، أو ليست هذه الأيام الثلاث تكفيكم عبرة لتكشف عن وضع الدنيا وتفاهتها؟ حقاً لم يسمع كلام أبلغ من هذا الكلام وبهذا الاختصار والعمق فى المعنى.

أمّا بشأن المراد من العبارة

«وَغَداً مُفَارِقُكُمْ ...»

، هل هو الإخبار عن شهادته فى ذلك الوقت أم الإخبار عن مستقبل بعيد والذى ورد التعبير عنه فى العبارات المتداولة بقولهم غداً؟ يبدو هنالك خلافاً بين شرّاح نهج البلاغة، ولكن ما يفهم من القرآن المختلفة وسائر كلمات الإمام عليه السلام فى تلك الحادثة الأليمة وقبلها أنّ المراد الخبرالقطعى عن المستقبل القريب، ولا يتنافى ذلك مع العبارة:

«إن تَثبتِ الوطأة ...»

، لأنّ مثل هذه التعبيرات تهدف إلى بيان مقاصد خاصة واعتيادية، كما ورد فى القرآن الكريم: «أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ...»[۷۸۴]. والحال يعلم اللَّه سبحانه أنّ نبيّه صلى الله عليه و آله لا يقتل، فهدف الإمام عليه السلام هنا بيان هذا المطلب، أنّى لو بقيت لعفوت عن ضاربى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۵۷

القسم الثالث: معرفتى بعد موتى

«إِنْ تَثْبُتِ الْوَطْأَةُ فِى هذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ. وَإِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِى أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ، وَمَهَابِّ رِيَاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِى الْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا، وَعَفَا فِى الْأَرْضِ مَخَطُّهَا. وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِى أَيَّاماً، وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّى جُثَّةً خَلَاءً: سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّى، وَخُفُوتُ إِطْرَاقِى، وَسُكُونُ أَطْرَافِى، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ. وَدَاعِى لَكُمْ وَدَاعُ

امْرِئً مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِی! غَداً تَرَوْنَ أَیَّامِی، وَیُکْشَفُ لَکَمْ عَنْ سَرَائِرِی، وَتَعْرِفُونَنِی بَعْدَ خُلُوِّ مَکَانِی وَقِیَامِ غَیْرِی مَقَامِی».

الشرح والتفسیر

شرح الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبهٔ مصیره علی فراش الشهادهٔ کما بیّن وضع المسلمین بعده فقال:

«إنْ تَثْبتِ الْوَطْأَهُ[۷۸۵] فِی هذِهِ الْمَزَلَّهِ[۷۸۶] فَذَاکَ. وَإِنْ تَدْحَضِ ۷۸۷] الْقَدَمُ فَإِنَّا کُنَّا

فِی أَفْیَاءِ[۷۸۸] أَغْصَانٍ، وَمَهَابِ ۷۸۹] رِیَاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِی الْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا[۷۹۰]، وَعَفَا[۷۹۱] فِی

الْأَرْضِ مَخَطُّهَا[۷۹۲]».

فتاریخ البشر وتجاربنا الیومیهٔ تکشف هذه الحقیقهٔ فی أنّ الحیاهٔ کظلال الأشجار والقدرات کظلال الغیوم تمرّ بشرعهٔ وتزول آثارها إلی الأبد، لکن العجیب عدم التفات الإنسان رغم رؤیته لکل هذه الأمور وکأنّه غیر مشمول بهذا القانون.

ثم بیّن هذا المعلم الربانی إثر ذلک وبالنظر إلی علمه بمفارقهٔ الدنیا عاجلًا بعض الدروس والعبر التی یمکن للآخرین الاستفادهٔ منها والتی من شأنها إیقاظهم من غفلتهم فقال:

«وَإِنَّمَا کُنْتُ جاراً جَاوَرَکُمْ بَدَنِی أَیّاماً، وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّی جُثَّهً خَلَاءً[۷۹۳] سَاکِنَهً بَعْدَ حَرَاکٍ ۷۹۴]، وَصَامِتَهً بَعْدَ نُطْقٍ».

ثم استنتج مباشرهٔ:

«لِیَعِظْکُمْ هُدُوِّی ۷۹۵]، وَخُفُوتُ ۷۹۶] إِطْرَاقِی ۷۹۷]، وَسُکُونُ أَطْرَافِی، فَإِنَّهُ

أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِینَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِیغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ».

حقّاً أنّ الأمر کذلک فالمتحکمون مهما کانوا فصحاء وبلغاء، والسامعون مهما کانوا صاغین ولکن هناک فارق کبیر بین النظر والسماع، فیا لها من عبرهٔ أن‌تری ذلک الرجل الشجاع الذی ذاع صیته فی الأرجاء وهو الآن طریح الفراش جثهٔ هامدهٔ لا یقوی حتی علی تحریک جفن عینیه، کما لا تقوی شفتاه علی الحرکهٔ وهذا ما ینطوی علی أعظم درس وعبرهٔ حیث یشاهد الإنسان بعینه أفول القوهٔ والقدره فیغرق فی هالهٔ من التفکیر، وهل لواعظ القدرهٔ علی إبراز هذا التأثیر؟

وأخیراً إختتم الوصیّهٔ بتودیع الناس، ذلک الوداع الألیهم فقال:

«وَدَاعِی لَکُمْ وَدَاعُ امْرِئً مُرْصِدٍ[۷۹۸] لِلتَّلَاقِی! غَداً تَرَوْنَ أَیَّامِی، وَیُکْشَفُ لَکُمْ عَنْ سَرَائِرِی، وَتَعْرِفُونَنِی بَعْدَ خُلُوِّ مَکَانِی وَقِیَامِ غَیْرِی مَقَامِی».

نعم، فحین رجل مظهر العدل ذلک الزعیم الشفیق والرؤوف، وحین غادر الناس تلک

الکنوز العلمیهٔ التی کانت تجری علی لسان الإمام علیه السلام وحل محلّه جبابرهٔ بنی امیهٔ الذی لا یجیدون سوی لغهٔ الظلم والجور ولا یفکرون سوی بأهوائهم وغرائزهم الحیوانیهٔ وأراقوا دماء الأبریاء، آنذاک فهم المسلمون من فقدوا، وأیهٔ خسارهٔ تکبدوا.

وبناءاً علی تقدم فالتعبیر بغد لا یثیر حسب ظاهر العبارهٔ إلی لعالم البرزخ ولا القیامهٔ (کما ذهب إلی ذلک بعض شرّاح نهج البلاغهٔ)، بل إشارهٔ إلی الأیّام السوداء والمریرهٔ التی مرّت علی المسلمین بعد شهادهٔ أمیرالمؤمنین علی علیه السلام.

والعبارهٔ

«مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِی»

، سواء کانت بمعنی لقاء ملائکهٔ الموت أو اللّه سبحانه فهی تفید عدم تعلق روحه المقدّسهٔ سلام اللّه علیه بهذا العالم المادی الزائل، بل کان متعلقاً بالعالم العلوی والملائکهٔ والذات الإلهیّهٔ المقدّسهٔ، وضربهٔ ابن ملجم کانت المقدمهٔ لذلک الفوز العظیم ولقاء ربّ

الكعبة، والشاهد الناصع على ذلك قوله عليه السلام حين ضرب:

«فُزتُ وَرَبُّ الكَعبَةِ».

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۶۱

الخطبة[۷۹۹] المأة والخمسون

اشارة

وَمِنْ خُطبَةٍ لَهُ عليه السلام

يومى فيها إلى الملاحم ويصف فئة من أهل الضلال

نظرة إلى الخطبة

تتألف الخطبة فى الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن فئة ظلت الطريق القويم وإتجهت نحو الانحراف، ثم تحدث عن إمامة أهل البيت عليهم السلام الذين يرون الفتن بمصابيح الهداية وينهضون بهداية الامة، الإمامة والزعامة التى تذلل الصعاب وتحرر الامم.

القسم الثانى: تحدث عن ضعاف الإيمان الذين يسبحون فى الفتن والظلال إثر إتباع أهواء النفس، فئة أخرى راسخة الإيمان وهى تجابه الكفر والشرك وقد نالت القرب الإلهى.

القسم الثالث: الذى أشار إلى الأفراد الذين تراجعوا القهقرى بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقطعوا أواصر الإيمان وجانبوا أولياء اللَّه سبحانه والتحقوا بأعدائه وقد اقتلعوا اسس الولاية وحولوها إلى غير موضعها.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۶۳

القسم الأول: إنتظام كل شىء فى ظل وجوده

اشارة

«وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالًا ظَعْناً فِي مَسَالِكِ الْغَيِّ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِىءُ بِهِ الْغَدُ. فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ! يَا قَوْمِ، هذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٍّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لَاتَعْرِفُونَ. أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِى فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ، لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً، وَيُعْتِقَ فِيهَا رِقّاً، وَيَصْدَعَ شَعْباً، وَيَشْعَبَ صَدْعاً، فِى سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ لَايُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ. ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِى مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ!».

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فانّ هذه الخطبة بالمجموع تتكهن بحوادث المستقبل وتفيد القرائن والعبارات الواردة فيها، أنّ الإمام عليه السلام قد أشار إلى الحوادث ما قبل ظهور الإمام المهدى عليه السلام ومن ثم قيامه المبارك.

فقد قال الإمام عليه السلام:

«وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالًا ظَعْناً فِي مَسَالِكِ الْغَيِّ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ[۸۰۰]، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِىءُ بِهِ الْغَدُ».

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۶۴

ثم خاض الإمام عليه السلام فى ذكر الدليل لترك الاستعجال فقال:

«فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ[۸۰۱] غَدٍ!»

، إشارة إلى الانتصارات الموعودة بعد الفتن (لاسيّما ظهور المهدى عليه السلام الذى وردت الوعود الصريحة فى عصر النبى بشأن بسط العدل والقسط فى كافة أنحاء العالم)، وفى عدم استعجالها وذلك لأنّ لكل شىء زمان وشرائط، وما لم تحصل الشرائط فهى كالثمار الخام وتقطف من الشجرة فلا يؤدّى ذلك سوى إلى الندم.

ثم خاطب الناس قائلًا بأنّ الآن أوان تحقق ما وعدتم به (من ظهور الفتن والبلابل وسلطة الظلمة وزيادة الضغط على المظلومين):

«يَا قَوْم، هذَا إِبَّانُ ۸۰۲] وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٍّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لَاتَعْرِفُونَ».

ثم تحدّث بصورة أوضح عن هذا الظهور العظيم فقال:

«أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِى فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو[۸۰۳] فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ»

، ثم تطرق فى مواصلته لحديثه إلى برامج ذلك المصلح الكبير بعبارات قصيرة عميقة المعنى، فقال:

«لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً[۸۰۴]، وَيُعْتِقَ فِيهَا رِقّاً،

وَيَصْدَعَ ۸۰۵] شَعْباً[۸۰۶]، وَيَشْعَبَ صَدْعاً، فِى سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ لَايُبْصِرُ الْقَائِفُ ۸۰۷] أَثَرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ».

فهذه العبارات تنطبق تماماً على قضية ظهور المهدى عليه السلام، لأنّه يقطع أغلال الأسر ويطلق المظلومين ويكسر شوكة الظالمين ويفرق جمعهم، فهو يعيش لسنوات فى الخفاء بحيث يعجز أعظم الباحثين عن العثور عليه، وقد أورد البعض من شرّاح نهج البلاغة عدّة تفاسير

نفحات الولايه، ج۵، ص: ۴۶۵

للعباره، وحيث لا يجدر الالتفات إليها فاننا نعزف عن ذكرها.

والجدير بالذكر أنّ شارح نهج البلاغة ابن أبى الحديد المعروف بتعصبه بالنسبه لأغلب المسائل المرتبطة بالإمامة، صرّح فى شرحه للعبارة المذكورة:

«وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِى فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ»،

إلى أنّ المراد بها مهدى آل محمد صلى الله عليه و آله، كماترى إنطباق سائر الصفات المذكورة عليه، وإن كان اعتقاد العامّة بالنسبة للإمام المهدى عليه السلام أنّه يولد فى آخر الزمان ۸۰۸].

ثم أشار فى ختام هذا المقطع من الخطبة إلى أصحاب الإمام المهدى عليه السلام وأوصافهم:

«ثُمَّ لَيُشْحَذَنَ ۸۰۹] فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ ۸۱۰] النَّصْلَ تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِى مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ ۸۱۱] كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ!».

ويستفاد من العبارات إلى أنّ أصحاب الإمام المهدى عليه السلام هم من الرجال الشجعان والعلماء الذين أعدوا سلفاً وعملية بنائهم مستمرة متواصلة، وقلوبهم نابضة بآيات القرآن وتفسير كلمات ا سبحانه، وهم دائموا التعلم صباح مساء ويزدادون إستعداداً وتأهباً، ولكن من هذا الذى أعدهم مسبقاً؟ هل حصل ذلك بأنفسهم أو لديهم بعض الأساتذة الذين أمروا باعدادهم؟ أم لإرتباطهم بإمامهم ومعلمهم الغائب؟ القضية ليست واضحة لدينا بالضبط، ولكن على كل حال أنّهم أفراد أعدوا للمساعدة فى هذه الثورة العظيمة حتى وصفهم ابن أبى الحديد بالعرفاء، فممن جمع فيهم الزهد والحكمة والشجاعة فهم أصحاب ولى اللّه الذى إصطفاه ۸۱۲].

ويفهم ممّا مرّ معنا فى هذا القسم من الخطبة أنّالإمام عليه السلام قد بشّر المسلمين بفجر مضيىء بعد تلك الظلمات، وهو الفجر الذى يأتى به ولده الميمون المهدى (عج) وبشروق شمس جماله تنجاب الظلمات.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۶۶

تأمّل: قطعية قيام المهدى الموعود عليه السلام

وردت فى هذه الخطبة الشريفة فى الفصل الشابق- كسائر خطب نهج البلاغة- البشارة بظهور الإمام المهدى عليه السلام، البشارة التى وصلتنا من خلال الروايات المتواترة عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله، ومن هنا إتفق علماء الإسلام من الفريقين على هذا الأمر، ولم يشذ سوى النزر اليسير الذين يعانون من انحراف فكرى، حتى سطر أبرز علماء العامّة كتباً تحت عنوان تواتر روايات المهدى عليه السلام ۸۱۳].

ويستفاد من هذه الخطبة كأغلب روايات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأئمة أهل البيت عليهم السلام أمران:

الأول: أنّ هذا الظهور المقدّس بهدف إزالة بساط الظلم ونشر التوحيد والعدل سيكون فى زمان يعم فيه الفساد العالم، أى يملّ الناس الظلم والجور وتغلق طرق الصلاح وتثبت جميع المدارس والقوانين البشرية فشلها وهزيمتها، وهذا ما يضاعف من استقبال تلك الحكومة الإلهيّة.

الثانى: أنّ أصحاب المهدى عليه السلام وبهدف إجراء هذا المشروع العالمى الإنسانى العظيم هم من الأفراد الشجعان والعلماء والحلماء والرهن لإمتثال الأوامر.

ونختتم هذا البحث بحديث عن الصحابى المعروف أبى سعيد الخدرى فى مسند أحمد بن حنبل قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«لا- تَقُومُ السَّاعَةُ حَتّى تَمتَلأ- الأَرضُ ظُلمَاً وَعُدواناً، قال: ثُمَّ يَخرُجُ رَجلٌ مِنْ عِترَتِى أو مِن أَهلِ بَيتِى يَملأُها قِسطَاً وَعَدلًا كَمال مُلِئَتْ ظُلماً وَعُدواناً»[۸۱۴].

كما ورد مثل هذا المعنى باختلاف طفيف فى سنن أبى داود[۸۱۵].

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۶۷

القسم الثانى: خصائص أنصار النبى صلى الله عليه و آله

منهَا: «وَطَالَ الْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْىَ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغِيَرَ؛ حَتَّى إِذَا اخْلَوْلَقَ الْأَجَلُ، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ، وَأَشَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللَّهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِى الْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ».

الشرح والتفسير

اختلف شرّاح نهج البلاغة فى هذا القسم من الخطبة وذلك لأنّ الضمائر التى وردت فى هذا القسم والأوصاف لا تبد منسجمة، ومن هنا قال بعض الشرّاح بوجود تقدير فى العبارات، واعتقدوا بأنّ عدم الإنسجام هذا يرتبط إختيار السيد الرضى رضى الله عنه، فلعل عدم الإنسجام هذا يزول لو نقل المرحوم جميع الخطبة، على كل حال ما يبدو مناسباً فى تفسير هذا القسم هو أنّ الإمام عليه السلام نظر إلى ناس العصر الجاهلى ومن ثم عصر الظهور النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، فقسم أهل ذلك الزمان إلى ثلاث طوائف: الضالون، وضعاف الإيمان، والمؤمنون الشجعان الأشداء، فقال بشأن الطائفة الأولى:

«وَطَالَ الْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْىَ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغِيَرَ[۸۱۶]».

نعم، فأحياناً يترك اللّه الأفراد الذين يصرون على سلوك سبيل العصيان والطغيان ليبلغوا قمة الفضحية فيستوجبوا العقاب الإلهى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۶۸

وقد أشارت الآثارت القرآنية إلى هذه الطائفة فى عدّة موارد واصطلحت على عقابهم بالاستدراج. ثم تحدّث عن الطائفة الثانية والثالثة فقال:

«حَتَّى إِذَا اخْلَوْلَقَ ۸۱۷] الْأَجَلُ،

وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ، وَأَشَالُوا[۸۱۸] عَنْ لَقَاحِ ۸۱۹] حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللَّهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ

يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ».

وهكذا ميّز هذه الطوائف الثلاث التى لا يخلو مجتمع من نظائرها، وكل تسلك طريقها، وقد قسمهم جمع من شرّاح نهج البلاغة إلى قسمين، والعبارة:

«وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ ...»

، اعتبروها إشارة إلى الصالحين الذين يتخذون جانب الصمت والتقية تجاه بعض الفتن فى زمان معين حتى يحين موعد القيام، والعبارة:

«لَمْ يَمُنُّوا ...»

معطوفة عليها.

وكما أشرنا سابقاً فقد اختلف شرّاح نهج البلاغة بشأن هؤلاء القوم ومن هم اولئك الأفراد ومتى ينهضون ومن هو زعيمهم وفى أى وقت يظهر.

ذهب البعض إلى أنّ ذلك هو زمان بنى امية الذين يتسلطون بادىء الأمر على كافة البلاد الإسلامية ويطردون الأخيار الصالحين من الساحة ويختفون أصوات المظلومين، ولكن لا تمرّ مدّة حتى تقوم طائفة ضدهم وتطيح بسلطانهم وتقذف بهم فى مزبلة التاريخ.

ويرى البعض الآخر أنّهم أنصار الإمام المهدى عليه السلام الذين ينهضون بالأمر بعد كل ذلك الفساد والظلم والإبتعاد عن اللّه سبحانه بأمر من إمامهم فيملأون الأرض قسطاً وعدلًا بعد أنّ تملأ ظلماً وجوراً، ولكن بالنظر إلى ما سيرد فى المقطع الآخر يبدو أنّها إشارة إلى ناس يعيشون فى الجاهلية وقد سلكوا سبيل الفساد، ثم نهض عليهم ثلة من الصالحين التى تهب لنصرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فتصحى بما لها ونفسها حتى ينتشر الإسلام فى كل مكان.

والعبارة:

«حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ ...»

، تعبير غاية فى الروعة تشير إلى أنّ الجهاد الإسلامى لابدّ أن يبتنى على العلم والجهاد الثقافى مقدم على الجهاد العسكرى.

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۶۹

القسم الثالث: العودة إلى القيم الجاهلية

اشارة

«حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِجِ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي

غَمْرَةٍ. قَدْ مَارُوا فِی الْحَیْرَةِ، وَذَهَلُوا فِی السَّکْرَةِ عَلَی سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَی الدُّنْیَا رَاکِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّینِ مُبَایِنٍ».

الشرح والتفسیر

واصل الإمام علیه السلام بحثه السابق عن العصر الجاهلی ومن ثم زمان قیام رسول اللّه صلی الله علیه و آله وإنبثاق الدعوة الإسلامیة، لیتحدث هنا عن العصر الذی یعقب النبی الأکرم صلی الله علیه و آله حیث رسم صورة واضحة عنه وأزاح الستار لیکشف الحقائق فقال:

«حَتَّی إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَی الْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمُ ۸۲۰] السُّبُلُ، وَاتَّکَلُوا عَلَی الْوَلَائِجِ ۸۲۱]، وَوَصَلُوا غَیْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِی أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ».

المراد من العبارة:

«رَجَعَ قَوْمٌ عَلَی الْأَعْقَابِ»

، العودة إلی الجاهلیة وإحیاء سنن ذلک الزمان والذی ظهر للأسف فی المجتمع الإسلامی بعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله، فقد استحوذ الطالحون علی

نفحات الولایة، ج۵، ص: ۴۷۰

مختلف المناصب وأقصی الصالحون وبرز حبّ الدنیا وأصبح بین المال العائد لجمیع المسلمین تحت تصرف طبقة معینة.

والعبارة:

«وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ»

، إشارة إلی اختلاف الآراء الذی ظهر بعد النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وقد فسّر العدید من الأفراد محکمات الإسلام علی ضوء میولهم ومنافعهم الشخصیة، وهذا ما أدّی إلی ضلالة الکثیر من الناس، وهی الضلالة التی عبّر عنها الإمام بالهلکة.

والمراد بالعبارة:

«وَاتَّکَلُوا عَلَی الْوَلَائِجِ»

أنّ جماعة من المسلمین قد إختارت المنافقین بطانة لها.

والعبارة:

«وَصَلُوا غَیْرَ الرَّحِمِ»

، إشارة إلی الآیة الشریفة:

«قُلْ لَاأَسْأَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی ...»[۸۲۲].

والعبارة:

«وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِی أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ»

، تأکید آخر علی هذا المعنی فی أنّهم مأمورون بمودة أهل البیت علیهم السلام واتّباع منهجهم، وإلّا أنّهم ترکوهم واتبعوا غیرهم.

ثم خاض الإمام علیه السلام بصراحة أبعد بشأن الخلافة وتغییر أساسها فقال:

«وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رَصِ ۸۲۳] أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِی غَیْرِ مَوْضِعِهِ»،

رغم أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله عین خلیفته مراراً صراحة وکنایة فقال، تمسکوا بالقرآن والعترة، لکنّهم هدّموا هذا البنیان ونقلوه إلی موضع هش آخر.

ثم تطرق الإمام علیه السلام فی ختام الخطبة إلی صفات العامل الأصلی وراء ذلک التغییر فقال:

«مَعَادِنُ کُلِّ خَطِیئَةٍ، وَأَبْوَابُ کُلِّ ضَارِبٍ فِی غَمْرَةٍ[۸۲۴]. قَدْ مَارُوا[۸۲۵] فِی الْحَیْرَةِ، وَذَهَلُوا فِی

السَّكْرَةِ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ».

فقد بيّن الإمام عليه السلام هذه الصفات الخمس لهم ليشير إلى انحراف أفكارهم وأعمالهم من

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۷۱

الجذور، فهم أفراد فاسدون ومفسدون ومغرورون وغافلون وغارقون فى الدنيا ومجانبون لدين الحق، وقد شبّههم الإمام عليه السلام بآل فرعون، وأحدى صفات آل فرعون أنّهم قسموا المجتمع إلى قسمين: الأقباط والأسباط، أو بعبارة أخرى آل فرعون وبنى اسرائيل، وقد تمتع الفريق الأول بكافة الامتيازات فى البلاد (مصر) ومرغوا انوف الفريق الثانى بالتراب، فكانوا يقتلون رجالهم ويسبون نسائهم وملأوا الأرض فساداً:

«إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ»[۸۲۶].

فقد اعتمد خط النفاق الجاهلى بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ذات السنة الفرعونية، فقد اقتصرت كافة إمتيازات البلاد الإسلامية على بنى امية ولم يكن نصيب شيعة على عليه السلام سوى القتل «تحت كل حجر ومدر» والتشريد والحبس والتعذيب، وقد ملؤا العالم الإسلامى بالفساد.

والعبارة:

«مُنْقَطِعٍ إِلَى الدُّنْيَا ...»

؛ إشارة إلى أنّ طائفة منهم قد أقبلت علانية على الدنيا، فقد طاولت قصورهم عنان السماء، كما ذكر ترفهم وبذخهم بحياة كسرى والقيصر، ويبدون أنّ من بين حاشيتهم ممن لا يبدى علاقة ظاهرية بالدنيا لكنه باع دينه بدنيا غيره ووضع له الأحاديث التى تصّرح بفضله ونسبها إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ووجه أعماله القبيحة، ومصداق ذلك واضح للجميع.

تأمّل: مصير جاحدوا الولاية

تعدّ هذه الخطبة من أقوى الخطب التى تدافع عن ولاية أهل البيت عليهم السلام، وإن مرّ عليها بعض شرّاح نهج البلاغة مرور الكرام، فقد أعلن الإمام عليه السلام صراحة وجود حركة رجعية بعد رحيل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وأساسها إسقاط ولاية أهل البيت عليهم السلام وضرب الوصايا المؤكدة للنبى

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۷۲

الأكرم صلى الله عليه و آله بهذا الخصوص، وأفضل محمل لها يتمثل ب «الاجتهاد مقابل النص» وعدم اعتبارهم وصايا النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لمصلحة المسلمين، ولكن على كل حال فانّ مؤججى نيران تلك المعركة هى العناصر المعروفة فى الجاهلية وخصوم الدعوة كأبى سفيان وأعوانه الذين نفذوا تدريجياً إلى الخلافة الإسلامية وتقدموا إلى الصفوف الأمامية بعد أن كانوا من المؤخرين، فسيطروا على كل شيء وإرتكبوا من المفضائع ما ليس له مثيل فى التاريخ أو قل مثيله، لكن الخطبة تشير بصورة دقيقة إلى نهجهم ومسارهم وبالتالى عاقبتهم.

والجدير بالذكر أنّ ابن أبى الحديد المعروف بتعصبه فى مسألة خلافة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والخلفاء الأوائل قد اعترض صراحة ليقول بأنّ الإمام عليه السلام قصد بهذه الخطبة مسألة الخلافة والإمامة غير أنّه سعى بتكلف ليراها مختصة بزمان بنى امية، ثم يفصل العبارة:

«حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»

عن

«رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ»،

ويفسّرها لما بعد أربعين سنة[۸۲۷]، وهو الضعف الذى لا يخفى على أحد، وذلك لأنّ صريح كلام الإمام عليه السلام هو أنّ هذه الحركة على الأعقاب قد بدأت مباشرة بعد رحيل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، والتاريخ يشهد بأنّ الجنايات بنى امية جذور فى عصر الخلفاء والطريف فى الأمر أنّ هذه الإشارة وردت فى «صحيح البخارى» الذى يعتبر من المصادر الروائية المعتبرة لدى العامّة فى أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أخبر عن الحوادث الأليمة من بعده، حيث قال:

«يَرِدُ عَلَيَّ الحَوضَ رِجَالٌ مِنْ أَصحَابِى فَيُحَلَّوَ عَنْهُ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصحَابِى، فَيَقُولُ، إِنَّكَ لاعِلمَ لَكَ بِما أَحدَثُوا بَعدَكَ إِنَّهُم إرتَدُّوا عَلَى أَدبَارِهِم القَهقَرى [۸۲۸]

. والعبارة إرتدوا جديرة بالتأمل.

والجدير بالذكر أنّه وردت عدّة روايات بهذا الخصوص وفى هذا الباب فى صحيح البخارى والتى تدلّ جميعاً على قلق النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بعد رحيله من أعمال طائفة من أصحابه، وهذا شاهد بيّن على ما ورد فى هذه الخطبة بشأن الأحداث الأليمة بعد رحيل النبى صلى الله عليه و آله، والواقع هو أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أراد بهذا البيان تحذير أصحابه فى أن يراقبوا أنفسهم وأنّهم

نفحات الولاية، ج۵، ص: ۴۷۳

مؤاخذون يوم القيامة على أى خلاف يصدر منهم فيسعوا لأن لا يكونوا من تلك الطائفة.

حسن الختام

انتهى المجلد الخامس من هذا الكتاب بالخطبة المأة والخمسين وهى نهاية رائعة حيث تتحدث عن ولاية أهل البيت عليهم السلام فى أيّام الولاية، الولاية بفضلها الصراط المستقيم وسبيل النجاة والمانعة من كل انحراف وزلل.

اللّهم ثبتنا على ولايتهم، واحشرنا بولايتهم، واجعلنا من أتباع منهجهم، إنّك حميد مجيد، وبالإجابة جدير وعلى كل شيء قدير.

نهاية المجلد الخامس

محرم الحرام ۱۴۲۴

---

[۱] (۱) سند الخطبة: نقل هذه الخطبة طائفة من الأعلام ممن عاشوا قبل وبعد المرحوم السيد الرضى ومنهم: ابن شعبة الحرّانى فى« تحف العقول»، وابن طلحة الشافعى فى« مطالب السؤول»، ومحمد بن عمران المرزبانى فى« الموفق»، كما فسّر ابن أثير ما صعب من مفرداتها فى كتابه« النهاية»، إلّا أنّ هناك اختلافاً فى نقله مع بعض عبارات هذه الخطبة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۱۴۴) وقال ابن أبى الحديد حين شرحه لهذه الخطبة: نقل هذه الخطبة أيضاً أبو عثمان الجاحظ فى كتاب« البيان والتبيين»(شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۲۳۶).

[۲] (۱)« راقت»: من مادة« ورق» على وزن ذوق بمعنى المسرة والإعجاب.

[۳] (۲) سورة آل عمران/ ۱۸۵؛ الحديد/ ۲۰.

[۴] (۳) سورة الإنسان/ ۲۷.

[۵] (۴) سورة آل عمران/ ۱۴.

[۶] (۱) سورة الحِجْر/ ۳.

[۷] (۲)« حبرة»: من مادة« حبر» باالفتح السرور والنعمة.

[۸] (۳)« حائلة»: من مادة« حول» على وزن قول المتغيرة.

[۹] (۴)« نافدة»: من مادة« نفاد» بمعنى الفناء والعدم والزوال.

[۱۰] (۵)« بائدة»: من مادة« بيد» على وزن صيد هالكة.

[۱۱] (۶)« غوالة»: من مادة« غول» على وزن قول الهلكة المباغتة.

[۱۲] (۷)« هشيماً»: من مادة« هشم» بمعنى كسر الأشياء ومن هنا تطلق على النبت اليابس المكسّر.

[۱۳] (۸) سورة الكهف/ ۴۵.

[۱۴] (۱)« منحت»: من مادة« منح» على وزن مدح بمعنى العطاء.

[۱۵] (۱)« تطلّه»: من مادة« طل» على وزن تل المطر الخفيف ويقابله الوابل المطر الشديد.

[۱۶] (۲)« ديمة»: من مادة« دوام» مطر دوم فى سكون لا رعد ولا برق معه.

[۱۷] (۳)« هتنت»: من مادة« هتن» على وزن حتم بمعنى إنصبت.

[۱۸] (۴)« مزنة» قطعة من السحاب الممطر.

[۱۹] (۵)« اعذوذب»: من مادة« عذب» الفرات الزلال.

[۲۰] (۶)« احلولى»: من مادة« حلو» الطعم المعروف.

[۲۱] (۷)« أوبى»: من مادة« وبى المرض والهلكة.

[۲۲] (۸)« غضارة»: من مادة« غضر» على وزن نذر كثرة النعم، وسعة العيش.

[۲۳] (۹)« أرهقت»: من مادة« رهق» على وزن شفق ألبسته بالقوّة والقهر.

[۲۴] (۱۰)« قوادم»: جمع« قادمة» الواحدة من الريشات فى مقدم جناح الطائر، وهى زلقة عادة.

[۲۵] (۱)« يوبق»: فى الأصل من مادة« وبوق» على وزن نبوغ، بمعنى الهلكة، وعليه فيوبقه يعنى يهلكه.

[۲۶] (۱)« أبهة»: بمعنى العظمة وقد اشتقت من مادة« أبه» بمعنين الفطنة حيث توصل ممن يتصف بها من الأفرادإلى المجد والعظمة.

[۲۷] (۱) الطبرى ۵/ ۳۰۵.

[۲۸] (۲)« دول»: بضم الدال وفتح الواو المشددة المتحول، الشيء الذى يتحول من يد إلى أخرى، ولما كانت حالالحكومات كذلك، فقد اصطلح عليها بالدول أيضاً.

[۲۹] (۳)« رنق»: صفة مشبهة من مادة« رنق» بمعنى الكدر.

[۳۰] (۴)« اجاجم»: شديد الملوحة تلدغ حرارته الفم.

[۳۱] (۵)« صبر»: جمع« صبرة» على وزن كلمة أو جمع صبر على وزن فقر عصارة شجرة مرّة، كما يطلق أحياناً على نفس الشجرة.

[۳۲] (۶)« سمام»: جمع« سم» المواد التى إذا خالطت بدن الإنسان أفسدته وأهلكته.

[۳۳] (۷)« رمام»: جمع« رمة» بالضم القطعة البالية من العظم أو الحبل.

[۳۴] (۸)« موفور»: من مادة« وفور» الكثير من الشيء.

[۳۵] (۹)« منكوب»: من مادة« نكبة» بمعنى المصاب.

[۳۶] (۱۰)« محروب»: من مادة« حرب» القتال والحرب.

[۳۷] (۱)« عديد»: بمعنى« العدد»، كما ورد بمعنى الشبيه والمثيل وأريد بها المعنى الأول فى عبارة الخطبة.

[۳۸] (۲)« أكثف»: تفضيل« كثيف» بمعنى الكثير.

[۳۹] (۳)« سخت»: من مادة« السخاوة» بمعنى العطاء.

[۴۰] (۴)« أرهقت»: من مادة« إرهاق» ستر الشيء بالقوّة، أرهقتهم بمعنى غشيتهم.

[۴۱] (۵)« قوادح»: جمع« قادحة» بمعنى الآفة.

[۴۲] (۶)« أوهقت»: من مادة« وهق» حلقة توضع على رقبة الحيوان.

[۴۳] (۱)« قوارع»: جمع« قارعة» بمعنى المحن والدواهي.

[۴۴] (۲)« ضعضعت»: من مادة« ضعضعة» بمعنى الذلة والهوان، كما تأتى بمعنى الإبادة.

[۴۵] (۳)« عفرت»: من مادة« التعفير» كبتهم على مناخرهم فى العفر وهو التراب.

[۴۶] (۴)« المناسم»: جمع« منسم» بكسر الميم وهو مقدم خف البعير.

[۴۷] (۵)« ريب المنون»: الريب الشك الذى يكشف عنه الغطاء آخر لأمر ويبلغ اليقين، والمنون يعنى الموت، وريب المنون الموت المحتمل ويراد بها أحياناً مكاره الدهر التى تكون فى البداية مشكوكة ثم يحصل بها اليقين.

[۴۸] (۶)« أخلد»: من مادة« إخلاد» وأصلها من الخلود، والعبارة أخلد إليها بمعنى الركون، أى أنّ أصحاب الدنيا قد أبدوا منتهى الرغبة بالدنيا وكأنّهم التصقوا بها.

[۴۹] (۱)« ضنك»: بمعنى« الضيق» والشدّة وهى مفردة تستعمل بصيغة المفرد دائماً.

[۵۰] (۱) اصول الكافى ۲/ ۱۲۸.

[۵۱] (۲) المصدر السابق/ ۳۱۹.

[۵۲] (۱)« ظاعنون»: من مادة« ظعن» على وزن دفن بمعنى السفر والرحيل.

[۵۳] (۱) سورة العنكبوت/ ۵۷.

[۵۴] (۲) سورة الرحمن/ ۲۷- ۲۸.

[۵۵] (۳) سورة الحجر/ ۹۹.

[۵۶] (۴) سورة فصلت/ ۱۵.

[۵۷] (۵)« ركبانا»: صرّح بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ العرب إعتادت الاصطلاح بالركبان على من يركب مختاراً وله التصرف فى مركوبه، فان نزلوا سموا ضيفان، أمّا الموتى الذين يحملون إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً ولا ضيفان.

[۵۸] (۶)« الاجداث»: جمع« جدث» على وزن قفص بمعنى القبور.

[۵۹] (۷) سورة القمر/ ۱۹- ۲۰.

[۶۰] (۱)« صفيح»: وردت هنا بمعنى وجه الأرض، من مادة« صفح» على وزن مدح.

[۶۱] (۲)« أجنان»: جمع« جنن» على وزن كفن بمعنى القبر، وأصلها بمعنى التغطية والستر، ولما كان القبر يستر بدن الميت فقد اطلق عليه الجنن.

[۶۲] (۳)« رفات»: بمعنى كل شيء بالي ومتعفن، كما يراد بها العظام المندقة المحطومة والمتنافرة.

[۶۳] (۴)« ضيماً»: له مفهوم المصدر واسم المصدر ويعنى الظلم.

[۶۴] (۵)« مندبة»: من مادة« ندبة» بمعنى البكاء.

[۶۵] (۶)« جيدوا»: من مادة« جود» على وزن قوم مبنى للمجهول بمعنى مُطروا.

[۶۶] (۷)« جيرة»: جمع« جار» وغالباً ما تجمع جيران.

[۶۷] (۱) منها البراعة ۸/ ۲۵، وردت هذه الأشعار فى حاشية بحار الانوار بعنوان مناجاة للإمام السجاد عليه السلام نقلًا عن البداية والنهاية، لابن كثير(بحار الانوار ۴۶/ ۴۸).

[۶۸] (۱) اختلفت أقوال شرّاح نهج البلاغة لهذه العبارة، ويبدو الأنسب هو ما أوردناه سابقاً.

[۶۹] (۲) سورة طه/ ۵۵.

[۷۰] (۳) سورة الانبياء/ ۱۰۴.

[۷۱] (۱) بحار الانوار ۶/ ۲۶۸.

[۷۲] (۱) سند الخطبة: ورد فى مصادر نهج البلاغة أنّه نقلها« على بن محمد الليثى» صاحب كتاب« عيون الحكم والمواعظ» مع فارق قليل، وقال ابن ميثم البحرانى حين شرحه لهذه الخطبة أنّها جزء من خطبة طويلة أوردها الإمام على عليه السلام بشأن توحيد اللَّه سبحانه وتعالى وتنزيهه. ويفيد هذا الكلام أنّه نقل هذه الخطبة من مصدر آخر غير نهج البلاغة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۴۴).

[۷۳] (۲) كتاب« تمام نهج البلاغة»، ص ۶۵.

[۷۴] (۱) سورة الزمر/ ۴۲.

[۷۵] (۱) وردت إشارة لهذا المعنى فى رواية عن على عليه السلام(بحار الانوار ۶/ ۱۴۲، ح ۶).

[۷۶] (۱) من لا يحضره الفقيه ۱/ ۸۰، ح ۱۲.

[۷۷] (۱) سند الخطبة:

ذكر البعض هذه الخطبة كل من الزمخشرى فى أوائل كتاب« ربيع الأبرار» والآمدى فى كتاب« غرر الحكم» باختلاف طفيف يفيد أنّه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۴۷).

[۷۸] (۱) وردت هذه العبارة فى سائر النسخ بهذه الصيغة« دار هانت على ربّها»، بينما يبدو أنّها وردت خطأ فى نسخة صبحى الصالح والتى أقتبست منها هذه النسخة بهذه الصيغة« دارها هانت».

[۷۹] (۲)« لم يصفها»: من مادة« الاصفاء» بمعنى الاختصاص إشارة إلى تفاهة نعم الدنيا بحيث منحها اللَّه الجميع.

[۸۰] (۳)« لم يضن»: من مادة« الضن» بمعنى البخل.

[۸۱] (۴)« عتيد»: من مادة« عتاد» على وزن جواب بمعنى حاضر وتأتى بمعنى الإدخار.

[۸۲] (۱) قرأها أغلب شرّاح نهج البلاغة مبنية للمجهول بينما قرأها البعض الآخر مبنيّة للمعلوم ففهموا من العبارة شبيه ما ذكر، والحال يتبيّن من الرجوع إلى المتون اللغوية أن للإغتباط معنى آخر هو السرور وحمد اللَّه وشكره على نعمة(انظر لسان العرب والقاموس وسائر المصادر اللغوية).

[۸۳] (۱)« لا توازرون»: من مادة« موازرة» بمعنى التعاون والمساعدة.

[۸۴] (۱)« زوى»: من مادة« زىّ» على وزن حىّ بمعنى الجمع والأخذ والإبعاد والمراد بها فى العبارة الفقدان والإبعاد حيث وردت بصيغة الفعل المجهول مقرونة بالفعل عن.

[۸۵] (۱)« لعقة»: من مادة« لعق» على وزن فرق بمعنى لحس الشىء وتطلق اللعقة على القليل من الطعام الذى يجعله الإنسان بأصبعه أو ملعقة صغيرة على لسانه ويبتلعه بسرعة، وهى كناية عن الشىء المختصر.

[۸۶] (۱) سند الخطبة:

ورد قسم مهم من هذه الخطبة فى كتاب« تحف العقول» الذى يحتمل تأليفه قبل نهج البلاغة، وقد نقل الزمخشرى مقطعها الأول فى أوائل كتابه« ربيع الابرار» والقسم الآخر فى أوائل المجلد الثانى من ذلك الكتاب، ويتضح من الفرق بين نقله ونقل السيد الرضى قدس سره أنّه إقتبسها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، كما نقلها مع اختلاف طفيف القاضى القضاعى(وهو من علماء القرن الخامس

ومن مقربی أحد خلفاء الدولة الفاطمية فی مصر) فی کتابه« دستور معالم الحکم» والمرحوم الشیخ الطوسی فی الآمالی(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۵۲).

[۸۷] (۱) مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۵۲.

[۸۸] (۱)« بطاء»: جمع« بطیئة» ضد السریعة.

[۸۹] (۱) ثواب الأعمال،(حیث نقل شرح نهج البلاغة، للعلّامة الخوئی ۸/ ۵۷) وهذا هو الحدیث الأول الذی ورد فی کتاب ثواب الأعمال.

[۹۰] (۱) سورة یوسف/ ۵۳.

[۹۱] (۱) سورة البقرة/ ۱۷۹.

[۹۲] (۱) سورة یوسف/ ۲۳.

[۹۳] (۲)« حمت»: من مادة« حمایة» بمعنی المنع، ولذلک یقال الحامی للذی یمنع عن الآخرین الخصوم والأعداء.

[۹۴] (۳)« هواجر»: جمع« هاجرة» وسط النهار فی الجو الحار.

[۹۵] (۱) أعظم الفضائل« نصب»: بمعنی العناء والتعب.

[۹۶] (۲)« الریّ»: بمعنی الارتواء من الماء.

[۹۷] (۳) نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۳(همّام).

[۹۸] (۱)« توسی»: من مادة« اسو» بمعنی علاج الجرح.

[۹۹] (۲)« ینقع»: من مادة« نقع» علی وزن نفع بمعنی إرواء وارتواء.

[۱۰۰] (۱) بحار الانوار ۶/ ۱۳۲.

[۱۰۱] (۲)« زلّ»: من مادة« زل» علی وزن حل بمعنی الانزلاق والسقوط.

[۱۰۲] (۳)« ریّ»: بمعنی الارتواء.

[۱۰۳] (۱) بحار الانوار ۷/ ۱۶۶.

[۱۰۴] (۱) بحار الانوار ۷۵/ ۲۳۸.

[۱۰۵] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار ۳۲.

[۱۰۶] (۲) بحار الانوار ۸/ ۱۹۱، ح ۱۶۸.

[۱۰۷] (۱) سورة البقرة/ ۲۶۱.

[۱۰۸] (۲) سورة التوبة/ ۱۱۱.

[۱۰۹] (۳) سورة آل عمران/ ۷۷.

[۱۱۰] (۱) الواقع أنّ العبارة« إنّ الذی أمرتم به ..» إشارة إلی الأحکام التکلیفیة الخمسة، والعبارة« ما أحل لکم ...» ناظرةإلی الأحکام الوضعیة، وعلیه فلا داعی لأنّ نعتبر العبارتین مترادفتین للتأکید کما ذهب إلی ذلک بعض شرّاح نهج البلاغة.

[۱۱۱] (۲) سورة الحج/ ۷۸.

[۱۱۲] (۳) بحار الانوار ۲۲/ ۲۶۴.

[۱۱۳] (۴) سورة النحل/ ۱۱۴- ۱۱۵.

[۱۱۴] (۱) یعتقد بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ« طلبه» فی العبارة المذکورة لیست نائب فاعل للمضمون ونائب الفاعل هو« الرزق» التی وردت فی العبارات السابقة، وإلّا أدنی تأمل یکشف أنّ هذا المطلب ینقض نسق العبارتین المذکورتین(المضمون لکم ... المفروض

عليكم) والحال يقتضى الانسجام بين هاتين العبارتين أن يكون كل من« طلب» و« عمل» نائب فاعل أحدهما للمضمون والآخرى للمفروض، وعليه يصبح معنى الجملة« لا ينبغى أن تولون الأهميّة للشىء الذى ضمنه لكم اللّه وتغفلون عمّا وجب عليكم من عمل» بعبارة أخرى فانّ الطلب هنا بمعنى تحصيل وإعداد الرزق من جانب اللّه تعالى.

[۱۱۵] (۲)« دخل»: يعنى الفساد فى مثل هذه الأمور ودخل على وزن دعل بمعنى الأمور الفاسدة التى تتسلل داخل الإنسان فتؤثر على عقله.

[۱۱۶] (۳) اصول الكافى ۱/ ۳۰.

[۱۱۷] (۱)« بغتة»: من مادة« بغت» على وزن وقت يعنى الشىء الذى يحدث فجأة.

[۱۱۸] (۲) بحار الانوار ۷۵/ ۱۶.

[۱۱۹] (۱) سورة آل عمران/ ۱۰۲.

[۱۲۰] (۱) سورة القصص/ ۷۷.

[۱۲۱] (۲) وسائل الشيعة ۱۲/ ۱۹.

[۱۲۲] (۱) بحار الانوار ۷/ ۱۴۰.

[۱۲۳] (۲) المصدر السابق.

[۱۲۴] (۳) المصدر السابق ۴۰/ ۳۲۷.

[۱۲۵] (۱) سند الخطبة:

رواها قبل السيد الرضى المرحوم الشيخ الصدوق فى كتابه« من لا يحضره الفقيه» فى آداب صلاة الاستسقاء مع اختلاف كبير وإضافات تدلّ على أنّ ما نقله السيد الرضى فى نهج البلاغة هو بعض ما اختاره من تلك الخطبة« من لا يحضره الفقيه ۲/ ۲۳۵» كما نقلها المرحوم الشيخ الطوسى فى« التهذيب ج ۲، ص ۱۵۱» وفى« المصباح المتهجد» فى آداب صلاة الاستسقاء مع اختلاف وما ورد فى نقل السيد الرضى فى نهج البلاغة ممّا يدلّ على وجود مصدر آخر اعتمده الشيخ، ونقلها من علماء العامّة الزمخشرى فى« ربيع الابرار» وابن الأثير فى« النهاية»(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۵۶).

[۱۲۶] (۱)« انصاحت»: من مادة« صوح» على وزن صوم بمعنى الانشقاق وقيل بمعنى الجفاف والتشقق والزوال الملازمة لبعضها البعض الآخر.

[۱۲۷] (۲)« اغبرت»: من مادة« غبار» وهى هنا إشارة إلى الجدب الذى يؤدّى إلى جفاف الأرض.

[۱۲۸] (۳)« هامت»: من مادة« هيم» على وزن حيف بمعنى الحيرة وتستعمل أحياناً بشأن الإنسان أو الحيوان الذى لا يدرى أين يذهب من شدّة العطش.

[۱۲۹] (۴)« مرابض»: جمع« مربض» موضع الماشية ومبرك الغنم.

[۱۳۰] (۵)« عجت»: من مادة« عجيج» بمعنى الصراخ والصياح بأعلى الصوت.

[۱۳۱] (۱)« ثكالى»: جمع« ثكلى» المرأة التى مات إبنها.

[۱۳۲] (۲)« آنة»: من مادة« أنين» وعادة ما تطلق على الشاة التى تتألم.

[۱۳۳] (۳)« حانة»: من مادة« حنين» التى تطلق على الجمل حين يتألم.

[۱۳۴] (۴)« موالج»: جمع« مولج» مدخل الشىء.

[۱۳۵] (۵)« اعتكرت»: من مادة« عكر» على وزن مكر بمعنى الهجوم.

[۱۳۶] (۶)« سنين»: اسم جمع السنوات، لكنّها ترد عادة فى العبارات كالعبارة المذكورة بمعنى القحط والجفاف(ورد معنيان لسنين

فى قاموس اللغة أحدهما بمعنى السنة والآخر بمعنى الجفاف والقحط).

[۱۳۷] (۷)« أخلفتنا»: من مادة« خلاف» بمعنى المخالفة.

[۱۳۸] (۸)« مخايل»: جمع« مخيلة» على وزن قبيلة بمعنى الغيوم التى يأمل الإنسان بنزول المطر منها لكنّها ليست بماطرة.

[۱۳۹] (۹)« جود»: لفتح الجيم جمع« جائد» المطر الكثير والجود بالضم بمعنى السخاء والهبة.

[۱۴۰] (۱)« مبتئس»: من مادة« بؤس» على وزن قرص الفقر وشدة الحاجة.

[۱۴۱] (۲)« البلاغ»: بمعنى الكفاية وحل المشكلة.

[۱۴۲] (۳)« سوام»: وسائمة الحيوان الذى يرعى فى الصحراء.

[۱۴۳] (۴) سورة نوح/ ۱۰- ۱۱.

[۱۴۴] (۵) سورة الأعراف/ ۹۶.

[۱۴۵] (۱)« منبعق»: من مادة« انبعاق» بمعنى انشقاق ولما كانت الغيوم حين نزول المطر تبدو منشقة وتجرى منهاالأمطار فقد استخدمت هذه المفردة بشأن نزول المطر.

[۱۴۶] (۲)« مغدق»: من مادة« غدق» على وزن شفق الماء الوفير وتستعمل كناية بشأن السنوات المفعمة بالخير والبركة.

[۱۴۷] (۳)« مونق»: من مادة« أنق» على وزن شفق بمعنى السرور والاعجاب بالشيء.

[۱۴۸] (۴)« سحّ»: بمعنى انسياب الماء الوفير وبصورة مستمرة.

[۱۴۹] (۵)« وابل»: المطر الشديد الضخم القطر.

[۱۵۰] (۱)« مريع»: من مادة« مرع» على وزن كثيف النبات.

[۱۵۱] (۲)« ثامر»: بمعنى ذو ثمر.

[۱۵۲] (۳)« ناصر»: بمعنى ذو نضرة.

[۱۵۳] (۴)« تنعش»: من مادة« نعش» على وزن فرش بمعنى الإثارة و اقامة.

[۱۵۴] (۵)« نجاد»: من مادة« نجود» على وزن سجود ما ارتفع من الأرض حيث تصطلح العرب بالنجد على الأرض المرتفعة.

[۱۵۵] (۶)« وهاد»: جمع« وهدة» على وزن غفلة ما انخفض من الأرض.

[۱۵۶] (۷)« يخصب»: من مادة« خصب» على وزن فكر كثير النبات.

[۱۵۷] (۸)« جناب»: ناحية الدار أو المدينة.

[۱۵۸] (۹)« تندى»: من مادة« نداوة» الرطوبة و هى هنا كناية عن الجود والسخاء.

[۱۵۹] (۱۰)« أقاصى»: جمع« أقصى» النقطة البعيدة.

[۱۶۰] (۱۱)« ضواحى»: جمع« ضاحية» المنطقة الخارجة عن المدينة.

[۱۶۱] (۱۲)« مرملة»: من مادة« إرمال» الفقر ونفاد المتاع والزاد.

[۱۶۲] (۱)« مخضلة»: من مادة« خضل» على وزن عمل البلل والرطوبة وتستخدم كناية للسنوات المليئة بالأمطارونزول البركة.

[۱۶۳] (۲)« هاطلة»: من مادة« هطل» على وزن سطل السيول والقطرات الضخمة.

[۱۶۴] (۳)« الودق»: حبات المطر، كما تطلق على ذرات الماء الصغيرة التى تتعلق كغبار فى الجو حين نزول المطر، والمعنى الأول هنا أنسب.

[۱۶۵] (۴)« يحفز»: من مادة« حفز» على وزن نبض الدفع بشدّة.

[۱۶۶] (۵)« خلّب»: بمعنى خارع من مادة« الخلّابة» وهى هنا إشارة إلى الغيوم ذات البرق والرعد الخالية من المطر.

[۱۶۷] (۶)« جهام»: بالفتح السحاب الذى لا مطر فيه.

[۱۶۸] (۷)« قزع»: القطع الصغيرة المتفرقة من السحب.

[۱۶۹] (۸)« رباب»: السحاب الأبيض(الذى لا مطر فيه).

[۱۷۰] (۹)« شفان»: الرياح الباردة أو الجو البارد المقرون بالرطوبة(لسان العرب ومعجم دهخدا) وأصلها شفون على وزن فنون النظر بطرف العين أو النظرة باعتراض، ولعل اطلاقها هنا على الرياح الشديدة لأنها تسبب انزاعاج الطرف المقابل.

[۱۷۱] (۱۰)« ذهاب»: جمع« ذهبة» بالكسر الأمطار القليلة.

[۱۷۲] (۱۱)« امراع»: بمعنى كثير البركة.

[۱۷۳] (۱۲)« مجدب»: من مادة الجفاف بسبب قطع الماء ويقال مجدب لمن اصيب بالجفاف والقحط.

[۱۷۴] (۱)« المسنت»: هو المقحط.

[۱۷۵] (۲) إقتباس من الآية الشريفة:« وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ»(سورة الشورى/ ۴۸).

[۱۷۶] (۱) ذكرت آداب صلاة الاستسقاء فى أغلب المصادر الفقهية وكتب الحديث ومنها جواهر الكلام ۱۲/ ۱۲۷ وتحرير الوسيلة للإمام الخمينى، ج ۱ و ج ۵، ص ۱۶۲ من وسائل الشيعة.

[۱۷۷] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۲۷۲؛ بحار الانوار ۸۸/ ۳۲۹.

[۱۷۸] (۲) سورة الاعراف/ ۹۴.

[۱۷۹] (۱) سورة الروم/ ۴۱.

[۱۸۰] (۲) بحار الانوار ۷۶/ ۲۱، ح ۱۳.

[۱۸۱] (۳) وسائل الشيعة ۱۳/ ۲۵۶.

[۱۸۲] (۱) سند الخطبة:

تتضمن الخطبة إشارة إلى موضوع خلافة الحجاج للكوفة وما إرتكب فيها من جرائم، وقد نقل أغلب المؤرخين والمحدّثين هذا الجانب من الخطبة ومنهم ابن عبد ربه فى العقد الفريد، والمسعودى فى مروج الذهب، والأزهرى فى تهذيب اللغة، وابن الفقيه فى كتاب البلدان، وابن أثير فى النهاية، والديلمى فى الإرشاد(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۵۹).

[۱۸۳] (۱) سورة النساء/ ۴۱.

[۱۸۴] (۱)« وان»: من مادة« ونى» على وزن وحى بمعنى الضعف والتثاقل، ويقال الوانى لمن يتباطىء فى الأعمال.

[۱۸۵] (۲)« معذِر»: من مادة« عذر» تقال لمن يعتذر ولا يثبت له عذر.

[۱۸۶] (۱)« طوى»: من مادة« طى» بمعنى الكتمان والاخفاء واريد بها هنا الكتمان.

[۱۸۷] (۲)« صعدات»: جمع« صعيد» بمعنى بقعة الأرض والتراب والمواضع المرتفعة من الأرض، وهى هنا إشارة إلى الصحراء والجبل والسهل، وصرّح البعض بأنّ صعدات جمع صعد على وزن دهل وصعدات جمع الجموع.

[۱۸۸] (۳)« تلتدمون»: من مادة« لدم» على وزن لفظ بمعنى الضرب وإلتدام بمعنى ضرب النساء صدورهن للنياحة.

[۱۸۹] (۱)« خالف»: من مادة« خلوف» من يخلف فى الأهل والمال حين الخروج إلى السفر أو الحرب، كما وردتبمعنى الفرد الكثير الخلاف، إلّاأنّ المراد هنا هو المعنى الأول.

[۱۹۰] (۲)« تاه»: من مادة« تيه» الحيرة والقلق.

[۱۹۱] (۱)« ميامين»: جمع« ميمون» بمعنى مبارك.

[۱۹۲] (۲)« مراجيح»: جمع« مرجاح» على وزن مثقال ذو حلم.

[۱۹۳] (۳)« متاريک»: جمع« متراک» على وزن مسواک من يترک الشيء تماماً.

[۱۹۴] (۴)« قدم»: من« مادة» قدوم بمعنى السبق، وهى هنا إمّا ظرف بمعنى فى مسار السبق وإمّا معنى جمعى بمعنى السابقون.

[۱۹۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۹۷.

[۱۹۶] (۲) المصدر السابق، الخطبة ۷۰.

[۱۹۷] (۳) المصدر السابق، الخطبة ۲۷.

[۱۹۸] (۱)« الذيال»: من ماده« ذيل» آخر كل شىء وتصطلح العرب بالذيال على الشخص الذى تخط ذيال ثوبه على‌الأرض، ولما كان هذا العمل يقوم به المتكبرون من الأفراد، فقد أطلقت الذيال على الأفراد الذين يتصفون بالكبر والأنانيه.

[۱۹۹] (۲)« الميّال»: من مادة« ميل» الفرد الطائش.

[۲۰۰] (۳)« وذحة»: كما سيرد فى المتن بعرة الشاة أو بولها والذى يلتصق بصوفها، كما ورد بمعنى الخنفساء، إلّاأنّ ابن أبى الحديد صرّح بأنّ المعنى الثانى لم يرد فى أى من لغات العرب، والحال إذا رجعنا إلى متون اللغة لرأينا أنّ أغلب أرباب اللغة ذكروا هذا المعنى لمفردة الوذحة.

[۲۰۱] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۷/ ۲۷۹.

[۲۰۲] (۲) مروج الذهب ۳/ ۱۲۵.

[۲۰۳] (۱) مروج الذهب ۳۶/ ۱۶۶؛ وتاريخ ابن الجوزى حسب نقل سفينة البحار، وسيرة الأئمة،/ ۲۴۴؛ وشرح نهج البلاغة للمرحوم التسترى ۶/ ۱۲.

[۲۰۴] (۱) سند الخطبة:

ورد فى مصادر نهج البلاغة أنّ أى مصدر غير نهج البلاغة لم يتعرض لنقل هذه الخطبة، ويكتفى بالإشارة إلى كلام ابن أبى الحديد فى آخر هذه الخطبة وقال: جاء فى بعض الروايات« أصل اخوانكم» بدلًا من« أوصل إخوانكم» ويستفاد إجمالًا من هذا الكلام أنّ هناک مصدراً آخر لابن أبى الحديد فى هذه الخطبة.

[۲۰۵] (۲) تمام نهج البلاغة، ص ۶۵۹.

[۲۰۶] (۱) ورد الفعل تكرمون بصيغة الفعل الثلاثى المجرد المعلوم الذى يعنى الإكرام والاحترام، وهى هنا بمعنى‌انتظار الإكرام.

[۲۰۷] (۱) سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة المؤرخ المعروف الطبرى فى كتابه« تاريخ الامم والملوک»، وابن قتيبة الدينورى فى كتاب« الإمام والسياسية»، وابن أبى الحديد الذى قال فى شرح هذه الخطبة، قال على عليه السلام هذا الكلام بعد معركة الجمل، كما نقلها المدائنى، والواقدى فى كتبهما(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۶۱).

[۲۰۸] (۱)« جنن»: جمع« جنة» على وزن قوّة الوقاية.

[۲۰۹] (۲)« بطانة»: من مادة« بطن» صاحب السر وخاصة الرجل.

[۲۱۰] (۱) الغدير ۱/ ۳۷۱.

[۲۱۱] (۱) سند الخطبة:

نقلت مصادر أخرى هذه الخطبة وكذلک فسّر ابن الأثير فى« النهاية» بعض المفردات من هذه الخطبة، كما أشار إلى بعض عباراتها. قال ابن أبى الحديد فى شرح لهذه الخطبة أنّ الإمام خطبها بعد معركة صفين والنهروان بعد غارات أهل الشام على مناطق البلاد الإسلامية، وهذا يفيد وجود مصدر آخر لابن أبى الحديد غير الذى إعتمده السيد الرضى(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۶۳).

[۲۱۲] (۱) هنالک خلاف بين شرّاح نهج البلاغة بشأن هذه الجملة هل هى جملة خبرية تخبر عن وضع جماعةالكوفة الضعيفة

والمسلوبة الإرادة على أنّهم سلكوا سبيلًا لا يدعهم يتوفقون فى حياتهم أبداً، أم أنّها جملة إنشائية ونوع من الاشمئزاز، يبدو المعنى الثانى هو الأنسب.

[۲۱۳] (۱)« سددتم»: من مادة« سد» المعروف المعنى ولما كان السد هو البناء المحكم فالتسديد يعنى الإحكاموالترسيخ وسدده وفقه للسداد.

[۲۱۴] (۲)« كتيبة»: طائفة من الجيش قال بعض أرباب اللغة يتراوح عددها من مئة إلى ألف.

[۲۱۵] (۳)« تقلقل»: الحركة من جانب إلى آخر.

[۲۱۶] (۴)« قدح»: بكسر القاف السهم أو القطعة من الخشب وقيل أيضاً هو السهم قبل أن يراش وينصل.

[۲۱۷] (۵)« جفير»: الكنانة التى توضع جانب الفرس وتوضع فيها السهام.

[۲۱۸] (۶)« الفراغ»: بمعنى الخالى.

[۲۱۹] (۱)« استحار»: من مادة« تحير وحيرة» بمعنى التردد والاضطراب وتطلق على السحب الثقيلة التى لا تدعها الرياح تتحرك فى مسارها وكأنّها تبقى مضطربة مترددة.

[۲۲۰] (۱)« حمّ»: من مادة« حم» على وزن غم بمعنى قدّر، وعليه فمفهوم العبارة قد حم لى لو قدر لى مثل هذا الأمر، أو إنّ وفقت لهذا الأمر.

[۲۲۱] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۶.

[۲۲۲] (۱) للأسف وحسب علمنا فانّ شرّاح نهج البلاغة لم يطرقوا هذا البحث ويردوا على هذه الأسئلة، وشذ منهم أحد أعلام القرن السادس هو المرحوم البيهقى الذى أجاب عن السؤال الثالث بأنّ الإمام عليه السلام قال: ذلك بغض النظر عن مقام الإمامة، وإلّا فانّ مقام الإمامة يقتضى من الإمام أن يكون بين الناس مهما كانت الشرائط، وبعبارة أخرى فانّ الإمام عليه السلام قال لولا مقام الإمامة وكنت حراً فى هذا الأمر لتركتكم.

[۲۲۳] (۲)« حيادين»: من مادة« حيد» على وزن حرف بمعنى الانحراف ويقال الحيّاد، لمن ينحرف كثيراً عن جادةالحق.

[۲۲۴] (۳)« رواغين»: من مادة« روغ» على وزن ذوق بمعنى الذهاب إلى هذا الطرف وذاك وهى كناية عن المكر والحيلة، ومن هنا تستخدم هذه المفردة بشأن الثعلب، فيقال(راغ الثعلب).

[۲۲۵] (۱) الغارات ۲/ ۶۲۷.

[۲۲۶] (۱) سند الخطبة:

جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ سليم بن قيس الذى عاش قبل السيد الرضى نقل القسم الأول من هذه الخطبة فى كتابه، كما وردت سائر أجزائها بصورة متفرقة فى كتاب« غرر الحكم»، ولما كان هناك تفاوت بين بعض عبارتها، فانّ ذلك يعنى أنّها أخذت من كتاب آخر غير نهج البلاغة، كما قال ابن أبى الحديد فى شرح بعض عبارات هذه الخطبة نقلها جماعة بشكل آخر وهذا يشير إلى أنّه كان لديه مصدراً آخر(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۶۴).

[۲۲۷] (۱) سورة الأحزاب/ ۲۳.

[۲۲۸] (۱) بحار الانوار ۳۶/ ۳۱۱.

[۲۲۹] (۲) للوقوف على مصادر هذا الحديث الشريف راجع كتاب نفحات القرآن ۹/ ۶۲- ۷۱.

[۲۳۰] (۱) سورة الشورى/ ۱۳.

[۲۳۱] (۲) سورة النحل/ ۹۶.

[۲۳۲] (۳) سورة الطارق/ ۹.

[۲۳۳] (۴)« عازب»: من مادۀ« عزوب» بمعنی الابتعاد وعازب بمعنی بعید.

[۲۳۴] (۵)« أعوز»: من مادۀ« عوز» علی وزن مرض وعوز الشیء بمعنی لمیوجد ویراد به عدم وجودالشیء عندالحاجۀ.

[۲۳۵] (۱)« صدید»: الماء الساخن، کما ورد بمعنی ماء الجرح الرقیق.

[۲۳۶] (۲) سورۀ التوبۀ/ ۸۱.

[۲۳۷] (۳) سورۀ ق/ ۳۰.

[۲۳۸] (۴) سورۀ الحاقۀ/ ۳۰- ۳۲.

[۲۳۹] (۵) سورۀ إبراهیم/ ۱۶.

[۲۴۰] (۱) سند الخطبۀ:

وردت هـذه الخطبـۀ فی عـدّۀ کتب ألفت قبل المرحوم السـید الرضـی مثل کتاب« العقـد الفرید» لابن عبد ربّه و« الاختصاص» للشـیخ المفیـد، والکتب التی الفت بعده« الکتب التی تفید عباراتها أنّها نقلت الخطبۀ من مصادر أخری غیر نهج البلاغۀ» مثل« مطالب السؤال» لمحمد بن طلحۀ الشافعی، و« الاحتجاج» للطبرسی، و« ربیع الابرار» للزمخشری مع اختلاف.

[۲۴۱] (۱)« عقدۀ»: ما حصل علیه« التعاقد» والمراد بها هنا الرأی الصحیح والعهد علی الطاعۀ.

[۲۴۲] (۱)« ضلع»: من مادۀ« ضلع» علی وزن سبب بمعنی المیل نحو الشیء، وتعنی هنا الشبه والمثل.

[۲۴۳] (۱)« داء»: من مادۀ« دوی» بمعنی المرض الشدید.

[۲۴۴] (۲)« کلت»: من مادۀ« کلول» علی وزن ملول بمعنی الضعف.

[۲۴۵] (۳)« نزعۀ»: من مادۀ« نزع» علی وزن جمع نازع بمعنی السحب.

[۲۴۶] (۴)« أشطان»: جمع« شطن» علی وزن وطن الحبل الطویل الذی یسحب به الماء من البئر.

[۲۴۷] (۵)« رکی»: جمع« رکیۀ» البئر.

[۲۴۸] (۶) بحار الانوار ۱۴/ ۳۲۳، ح ۳۶.

[۲۴۹] (۱)« هیجوا»: فعل مجهول من مادۀ« هیجان» وتعنی هنا أنّهم کانوا یندفعون إلی الجهاد.

[۲۵۰] (۲)« ولهوا»: من مادۀ« وَلَه» علی وزن فرح شدّۀ الشوق أوالحزن.

[۲۵۱] (۳)« لقاح»: من مادۀ« لقوح» الناقۀ.

[۲۵۲] (۴)« اغماد»: جمع« غمد» علی وزن هند موضع السیف.

[۲۵۳] (۵)« زحف»: تعنی فی الأصل المشی مع الثقل.

[۲۵۴] (۱)« مره»: أمره من مضت عینه أو وجعت.

[۲۵۵] (۲)« خمص»: جمع« أخمص» ضامر البطن.

[۲۵۶] (۳)« ذبل»: جمع« ذابل» الجفاف والتیبس.

[۲۵۷] (۴)« صفر»: جمع« أصفر» شاحب اللون.

[۲۵۸] (۵)« سهر»: البقاء واعیاً فی اللیل.

[۲۵۹] (۱)« یسنیّ»: من مادۀ« سناء» بمعنی الضیاء وإن استعملت فی باب التفعیل وردت بمعنی یسهّل.

[۲۶۰] (۱) سورۀ البقرۀ/ ۱۶۸.

[۲۶۱] (۲) سورۀ البقرۀ/ ۲۰۸؛ سورۀ الانعام/ ۱۴۲؛ سورۀ نور/ ۲۱.

[۲۶۲] (۳) سورۀ المائدۀ/ ۹۱.

[۲۶۳] (۴)« اصدقوا»: من مادۀ« صدق» على وزن عطف بمعنى الإعراض.

[۲۶۴] (۵) نزغات»: جمع« نزغۀ» على وزن ضربۀ وساوس.

[۲۶۵] (۶)« نفثات»: جمع« نفثۀ» تعنى هنا الوسوسۀ.

[۲۶۶] (۷)« اعقلوها»: من مادۀ« عقل» على وزن دغل احبسوها على أنفسكم لا تتركوها فتضيع منكم، والعقل ربط رجل الناقۀ.

[۲۶۷] (۱) سند الخطبۀ:

نقل المرحوم الطبرسی فی کتاب الاحتجاج أقصر ممّا ورد فی هـذه الخطبـۀ ممّا يـدل على أنّه أخـذها من مصدر آخر، وقال ابن أبی الحديـد إنّ هـذا الکلام وإن کان متصـلًا لکنّه يتألف فی الواقع من ثلاثـۀ أقسام منفصـلۀ، وقـد جرت عادۀ السيـد الرضـی على انتخاب الأفصح من الکلمات وحذف سائر الکلمات(مصادر نهج البلاغۀ ۲/ ۲۷۱).

[۲۶۸] (۱)« نشد»: من مادۀ« نشد» بمعنى النداء والسؤال والطلب وهنا بمعنى الاستشهاد.

[۲۶۹] (۲) هل هذه الجملۀ للسيـد الرضـی أم کلام روای الخطبۀ الذی نقل عنه السيد الرضی، لا يعلم بالضبط، لکن من المسلم به أنّ کلام الإمام عليه السلام أکثر ممّا ورد فی نهج البلاغۀ وقد اعتاد السيد الرضی على اقتطاف أفصح وأبلغه.

[۲۷۰] (۳)« غيلۀ»: بمعنى« غدر».

[۲۷۱] (۴)« استقالوا»: من مادۀ استقالۀ بمعنى عودۀ الشیء.

[۲۷۲] (۵)« تنفيس»: بمعنى الکف والحل.

[۲۷۳] (۱) فی ضلال نهج البلاغۀ، للمرحوم محمد جواد مغنيۀ، ذيل الخطبۀ التی بحثها ۲/ ۲۲۲.

[۲۷۴] (۱)« مضض»: الألم والحرقۀ.

[۲۷۵] (۲)« يلمّ»: من مادۀ« لمّ» على وزن غمّ بمعنى جمع، وتأتی أحياناً بمعنى الجمع والإصلاح.

[۲۷۶] (۳)« شعث»: وردت فی الأصل بمعنى ما يقع عليه الغبار، ثم يطلق على نوع من التشتت والتفرق.

[۲۷۷] (۴) سورۀ الحجرات/ ۹.

[۲۷۸] (۱) سند الخطبۀ:

يمکن التعرف على هذا الکلام بصورۀ متفرقۀ فی سائر الکتب، ومنها:

۱- الکافی فی باب فضل الجهاد.

۲- العقد الفريد لابن عبد ربه.

۳- الجمل للشيخ المفيد نقلًا عن کتاب الجمل للواقدی.

۴- الإرساد للشيخ المفيد.

۵- تجارب الامم لابن مسکويه طبق نقل تأسيس الشيعۀ.

۶- الآمالی للشيخ الطوسی.

(مصادر نهج البلاغۀ ۲/ ۲۷۳).

[۲۷۹] (۱)« رباطۀ جأش»: جأش على وزن عرش والرباطۀ الربط بإحکام، فالمراد بالعبارۀ قوّۀ القلب عند لقاء العدو، حيث يراد بالجأش القلب والصدر.

[۲۸۰] (۲)« نجدۀ»: من مادۀ« نجد» على وزن مجد، بمعنى الشجاعۀ.

[۲۸۱] (۱) مرّ علينا بالتفصيل بحث الموت الحتمی والمعلّق فی المجلد الثالث من هذا الکتاب.

[۲۸۲] (۱)« ميتۀ»: بکسـر الميم بمعنى کيفيۀ الموت، والميتۀ بفتح الميم الشـخص الميت(بدلًا من الالتفات هنا إلی ميت مذکر ومؤنث

ميتة).

[۲۸۳] (۱) مستدرك الوسائل ۱۱/ ۱۳، ح ۲۱.

[۲۸۴] (۲) المصدر السابق، ح ۲.

[۲۸۵] (۱)« كشيش الضباب»: بمعنى الصوت الذى لا يرتفع كثيراً ويطلق على صوت الضفدع، والضب وصوت الناقة.

[۲۸۶] (۱)« ضيم»: بمعنى الظلم.

[۲۸۷] (۲)« متلوم»: من مادة« تلوم» بمعنى الانتظار والتباطىء والتوقف.

[۲۸۸] (۱) سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة نصر بن مزاحم المتوفى عام ۲۰۲ ق فى كتاب صفين، كما نقلها المؤرخ المشهور الطبرى فى تاريخه عن أبى مخنف فى حوادث عام ۳۷ ه، كما وردت فى كتاب الجهاد عن الكافى وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۷۷).

[۲۸۹] (۱) سورة الصف/ ۴.

[۲۹۰] (۲) الكافى ۵/ ۳۹، ح ۴.

[۲۹۱] (۱)« الداع»: بمعنى لابس الدرع من مادة درع على وزن فعل.

[۲۹۲] (۲)« الحاسر»: من لا درع له من مادة حسر على وزن عصر بمعنى العرى.

[۲۹۳] (۳)« أضراس»: جمع« ضرس» على وزن حرس الإنسان وردت بمعنى سن العقل.

[۲۹۴] (۴)« أنبى : من مادة« نبو» على وزن عفو بمعنى عدم العمل.

[۲۹۵] (۵)« الهام»: جمع« هامة» على وزن قامة رأس الإنسان أو رأس أى موجود حى.

[۲۹۶] (۶)« التووا»: من مادة« التواء» بمعنى الانعطاف أو الميل لهذا الجانب وذاك.

[۲۹۷] (۷)« أمور»: من مادة« مور» على وزن غور بمعنى الحركة السريعة، كما وردت بمعنين الذهاب الإياب والاضطراب وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

[۲۹۸] (۱) فسرّت هذه المفردة سابقاً.

[۲۹۹] (۲) منتهى الآمال، ج ۱، وقائع العام الهجرى الثانى.

[۳۰۰] (۳)« تخلّوا»: من مادة« تخلية» بمعنى الإخلاء والترك، وعليه فالصحيح فتح الخاء لأنّها من باب التفعيل.

[۳۰۱] (۴)« ذمار»: بكسر الذال ما يلزم الرجل حفظه وحمايته.

[۳۰۲] (۱)« الحقائق»: جمع« حاقة» على وزن جادة النازلة الشديدة.

[۳۰۳] (۲)« حفافى»: مثنى« حفاف» على وزن كتاب بمعنى جانب الشىء وحفافيها هنا إشارة إلى جانبى الراية يمينهاوشمالها.

[۳۰۴] (۳) الكامل لابن الأثير ۲/ ۲۱۹، وتفسير الثعلبى(طبق نقل غاية المرام/ ۴۶۷) وصحيح مسلم، ج ۴ كتاب الفضائل الصحبة الحديث ۳۲؛ صحيح البخارى ۵/ ۱۷۱ باب غزوة خيبر(طبعاً ذكرت الجملة الأخيرة فقط بشأن على عليه السلام فى صحيح البخارى مسلم).

[۳۰۵] (۱) شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى ۱۳/ ۵۵۸.

[۳۰۶] (۲)« قرن»: الكفؤ وعدل الإنسان فى الشجاعة فى ميدان القتال ويطلق أحياناً القرن على كل كفو، وقد اشتق فى‌الأصل من قرن بفتح القاف والاقتران الذى يعنى الاقتراب بين شيئين أو عدة أشياء، ومن هنا يقال للزمان الطويل قرن حيث تكون فيه طائفة من الأجيال مع بعضها.

[۳۰۷] (۳)« آسى»: من مادة« وسى» على وزن مشى بمعنى عاون والمواساة تعنى المعاضدة ومساعدة كل واحد الآخر.

[۳۰۸] (۱)« لهاميم»: جمع« لهموم» على وزن حلقوم الجواد السابق من الإنسان والخيل.

[۳۰۹] (۲)« سنام»: أعلى الجمل ثم اطلق على كل شيء بارز.

[۳۱۰] (۳)« موجدهٔ»: من مادهٔ« وجد» علث وزن نجد بمعنى الغضب، كما ورد بمعنى الحزن والمعنى الأول هو الأنسب هنا.

[۳۱۱] (۴)« محجوز»: من مادهٔ« حجز» بمعنى المنع.

[۳۱۲] (۵) سورهٔ آل عمران/ ۱۵۴.

[۳۱۳] (۶)« رائح»: من مادهٔ« رواح» الاندفاع بسرعهٔ خلف شيء.

[۳۱۴] (۷)« العوالى»: جمع« العاليهٔ» تعنى أسنهٔ الرماح، كما تعنى الرمح.

[۳۱۵] (۱) نهج البلاغهٔ، الرسالهٔ ۲۳.

[۳۱۶] (۲) شرح نهج البلاغهٔ لابن أبى الحديد ۸/ ۶ الحديث(الجنّهٔ تحت ظلال السيوف)، كما ورد الحديث فى بحار الانوار ۹۷/ ۱۳.

[۳۱۷] (۱)« افضض»: من مادهٔ« فضّ» على وزن خط بمعنى الهزيمهٔ.

[۳۱۸] (۲)« أبسل»: من مادهٔ« بسل» على وزن نسل بمعنى المنع من الشيء أو القهر والغلبهٔ والإبسال بمعنى التسليم للهلكهٔ والعبارهٔ إشارهٔ إلى هذا المعنى.

[۳۱۹] (۱)« دراك»: من مادهٔ« درك» متتابع متوال وكأن كل واحد منهم يدرك الآخر ويصله، وعليه فانّ طعن الدراكبمعنى السهام التى تطلق تبعاً على العدو.

[۳۲۰] (۲)« يطيح»: من مادهٔ« إطاحهٔ» بمعنى الاسقاط.

[۳۲۱] (۳)« يندر»: من مادهٔ« اندار» بمعنى يسقط، كما يطلق على طرح شيء من الحساب.

[۳۲۲] (۴)« مناسر»: جمع« منسر» على وزن محفل القطعهٔ من الجيش تكون أمام الجيش العظيم ويطلق عليهاالطليعهٔ، ومنسر على وزن منبر بمعنى منقار الطيور.

[۳۲۳] (۵)« كتائب»: جمع« كتيبهٔ» طائفهٔ من الجيش من مئهٔ إلى ألف.

[۳۲۴] (۶)« الحلائب»: جمع« حليبهٔ أو حلوبهٔ» بمعنى الجماعهٔ التى تجتمع على صوب، كما تطلق على الخيّالهٔ.

[۳۲۵] (۷)« الخميس»: بمعنى الجيش الكامل الذى يتألف من خمسهٔ أقسام، المقدّمهٔ والميمنهٔ والميسرهٔ والقلب والساقهٔ.

[۳۲۶] (۸) سيأتى تفسير كلمهٔ« تدعق» فى كلام السيد الرضى.

[۳۲۷] (۹) سيأتى تفسير كلمهٔ« نواحر» فى كلام السيد الرضى.

[۳۲۸] (۱۰)« أعنان»: قال صاحب لسان العرب جمع« عنن» على وزن كفن بمعنى نواحى الشيء وأطرافه.

[۳۲۹] (۱۱)« مسارب»: جمع« مسربهٔ» بمعنى المرعى وكذلك مسارح بمعنى المرعى، إلّاأن بعض شرّاح نهج البلاغهٔ ذهب إلى أنّ المسارب ما يسرب فيه المال والمرعى، والمسارح ما يسرح فيه والفرق بين مسرح ومسرب أنّ السروح إنّما يكون فى أول النهار وليس ذلك بشرط فى السروب.(شرح نهج البلاغهٔ لابن أبى الحديد ۸/ ۹).

[۳۳۰] (۱) سند الخطبهٔ:

تطرق المؤرخ المعروف الطبرى فى حوادث عام ۳۷ ه إلى هذه الخطبهٔ وشأن صدورها وخلاصته أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام فى الخوارج حين حاججهم ابن عباس، حيث أمر الإمام عليه السلام ابن عباس بالسكوت، ثم حمد اللَّه وأثنى عليه وقال لهم: « من إمامكم؟ قالوا: ابن الكواء، قال: لم خالفتمونى، قالوا: لقبولك التحكيم فى صفين، فقال: ناشدتكم اللَّه ألم تطالبونى بالكفّ عن القتال حين رفعت المصاحف على أسنهٔ الرماح، فقلت: لكم إنى أعلم بهم منكم، فلا دين لهم ولا قرآن، فلم تسمعوا قولى وأبيتم إلّاالتحكيم فقبلت، لكنّى اشترطت عليهم أن يحكموا القرآن وإلّا لا نستجيب لحكمهم؟

قالوا: أمن العدل تحكيم الأفراد فى دماء المسلمين؟ قال عليه السلام: إننا لم نحكم الرجال بل حكمنا القرآن.

ثم أورد الطبرى جانباً من الخطبة، كما نقلها باختلاف طفيف السبط بن الجوزى فى تذكرة الخواص، والمرحوم المفيد فى الإرشاد، والطبرسى فى الاحتجاج.

[۳۳۱] (۱)« مستور»: الشىء الخفى، إلّاأن هذه المفردة وردت مسطورة فى بعض النسخ من مادة سطر وردت صفةللخط فى العبارة وهى أنسب.

[۳۳۲] (۲)« دفتين»: مثنى« دفة» بمعنى جانب كل شىء ويقال دفتين لجانبى الكتاب أو القرآن.

[۳۳۳] (۱) سورة الحجرات/ ۹.

[۳۳۴] (۲) سورة النساء/ ۵۹.

[۳۳۵] (۱) كما ورد فى سند هذه الخطبة.

[۳۳۶] (۲) مسند الإمام الشهيد ۲/ ۴۳، وقد نقل هذا الأمر فى الأصل مقتل الحسين، للمقرّم وقد نقله عن تذكرة الخواص لابن الجوزى(مقتل الحسين/ ۲۳۳).

[۳۳۷] (۱) سورة يوسف/ ۶۷.

[۳۳۸] (۱)« يتثبت»: من مادة« ثبت» بمعنى التحقيق.

[۳۳۹] (۲)« هدنة»: من مادة« هدون» على وزن قرون بمعنى الهدوء والسكون، وتستعمل عادة بمعنى المصالحة بعدالقتال أو وقف اطلاق النار.

[۳۴۰] (۳)« أكظام»: جمع« كظم» على وزن عزم وجمع كظم على وزن قلم بمعنى مخرج النَفَس.

[۳۴۱] (۴) منهاج البراعة، للعلّامة الخوئى ۸/ ۱۸۰.

[۳۴۲] (۵)« كرث»: من مادة« كرث» بمعنى شدّة الغم.

[۳۴۳] (۱) سورة النساء/ ۱۵۰.

[۳۴۴] (۲) شرح نهج البلاغة، للمرحوم التسترى ۱۰/ ۲۶۳؛ تاريخ الطبرى ۴/ ۵۰ طبعة الأعلمى بيروت.

[۳۴۵] (۳)« يتاه»: من مادة« تيه» على وزن قيد بمعنى الحيرة والاضطراب، ويقال التيه للصحراء التى يحتار فيها الإنسان.

[۳۴۶] (۴)« اتيتم»: من مادة« إتيان» لها معانى مختلفة وتعنى هنا الانخداع والتسليم للباطل.

[۳۴۷] (۵)« موزعين»: من مادة« ايزاع» بمعنى التشجيع وإيجاد الرغبة فى شىء وترد بمعنى الإلهام والتوفيق، والمعنى الأول هو ا لمراد بها فى هذه العبارة.

[۳۴۸] (۶)« نكب»: جمع« ناكب» من مادة نكب على وزن نفى الانحراف عن الشىء.

[۳۴۹] (۱)« زوافر»: جمع« زافرة» من مادة على وزن فقر بمعنى الألم والصراخ، ولما كان أعوان الإنسان بصفتهمالمواسين فى الألم والأنين فقد اطلقت مفردة الزافرة على النصير وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

[۳۵۰] (۲)« حشاش»: حمع« حاش» من مادة حش على وزن شك بمعنى إيقاد النار، والمراد بها هنا الأفراد الذين يسددون أولى الضربات للعدو.

[۳۵۱] (۳)« برح»: بفتح الباء الشدّة والغضب.

[۳۵۲] (۴)« نجاء»: ونجوى الهمس فى الاذن والشىء الذى يقال للآخرين سراً.

[۳۵۳] (۱) ورد فى أغلب التواريخ أنّ كتّاب الإمام عليه السلام كتبوا أميرالمؤمنين إلى جانب إسمه، فاعترض عمرو بن‌العاص وقال: لو علمناك أميراً للمؤمنين فلابد أن يكون من يعاديك أميراً للفاسقين، لابدّ من محو هذه الكلمة، فأطرق على عليه السلام وذكر صلح

الحديبية فقال:« اللَّه أكبر لقد كتبت محمد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فاعترض الكفّار وطالبوا بمحو رسول اللَّه، فلم أفعل، فأشار عليّ النبى أن أمحوها ثم محاها بنفسه دفعاً للفتنة، فغضب عمرو بن العاص وقال تشبهنا بالكفّار فلن أبق فى هذا المجلس- فقال عليه السلام: أسأل اللَّه أن يطهر مجلسى من مثلك، ثم استمر الكلام حول كتابة لقب أمير المؤمنين حيث رأى البعض عدم محوها وإن شهرت السيوف، ولكن محيت تلك الكلمة آخر الأمر(انظر تاريخ الطبرى ۴/ ۳۷ والتواريخ الأخرى).

[۳۵۴] (۲) بحار الانوار ۳۲/ ۵۴۲؛ وقد ورد هذا العهد فى تاريخ الطبرى ۴/ ۳۸ مع بعض الاختلاف.

[۳۵۵] (۱) سورة سبأ/ ۲۴.

[۳۵۶] (۱) سورة الأحزاب/ ۲۱.

[۳۵۷] (۲) سورة المائدة/ ۹۰.

[۳۵۸] (۳) الاحتجاج للطبرى ۱/ ۴۴۲،(يتصرف ونقل بالمعنى) ووردت فى مناقب ابن المغازلى/ ۴۰۶ مع اضافة، وبحار الانوار ۳۳/ ۳۷۷ مع اختلاف.

[۳۵۹] (۱) سند الخطبة:

هذه الخطبة جزء من خطبة طويلة للإمام عليه السلام فى تقسيم بيت المال لما اعترض عليه، ويبدو أنّها مرتبطة بالخطبة ۱۴۲، والجزءان من خطبة واحدة، وقد نقلها الكثيرون ممن عاشوا قبل السيد الرضى وبعده ومنهم: ابن قتيبة فى الإمامة السياسة، وابن شعبة فى تحف العقول، والكلينى فى فروع الدين، والشيخ المفيد فى كتاب المجالس، والمرحوم الشيخ الطوسى فى كتاب الآمالى(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۸۲).

[۳۶۰] (۱)« أطور»: من مادة« طور» على وزن غور بمعنى حام حول الشيء، والمفردة طور وجمعها أطوار وردتبمعنى نوع وحالة وصيغة.

[۳۶۱] (۲)« سمير»: من مادة« سمر» على وزن تمر حديث الليل، وقال البعض أن المعنى الأصلى لهذه المادة هو الاختلاط بالنور والظلمة، ولما كانت أحاديث الليل تتم أحياناً فى ظلّ النور، فقد ستخدمت هذه المفردة بشأن أحاديث الليل، وإن اطلق الأسمر على بعض الأفراد فذلك لأنّ بياض بشرتهم مشوب باللون الغامق.

[۳۶۲] (۳)« أمّ»: من مادة« أم» على ورن غم بمعنى القصد، والعبارة(ما أمّ نجم فى السماء نجماً) كناية عن طلوع النجوم وغروبها متتابعة، وكأنّ كل نجم يقصد متابعة الآخر.

[۳۶۳] (۱)« خدين»: من مادة« خدن» بمعنى الصداقة وخدن على وزن اذن بمعنى الصديق وجمع ذلك أخدان.

[۳۶۴] (۱) مرّت تفاصيل ذلك فى شرحنا للخطبة الشقشقية.

[۳۶۵] (۲) انظر الخطبة ۲۳۲.

[۳۶۶] (۳) ابو عبدالرحمن السلمى من مشاهير التابعين، ولم يكن من الصحابة وقال البعض كان بادىء الأمر منخواص أميرالمؤمنين عليه السلام(الكنى والالقاب).

[۳۶۷] (۴) كتاب منتخب ذيل المذيل، ص ۱۴۷ نقلًا عن العلّامة التسترى فى شرحه لنهج البلاغة ۶/ ۴۹۱.

[۳۶۸] (۱) ورد عن معاوية أنّه قال:« واللَّهِ لأستَمِيلنّ بالأموالِ أَهلَ ثُقاتِ عليٍّ ولااقسِمَنَّ فِيهِم المالَ حتّى تَغلِبَ دُنيایعَلَى آخِرَتِهِ» شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى ۶/ ۴۹۱.

[۳۶۹] (۱) سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة المؤرخ المعروف الطبرى فى حوادث سنة ۳۷ ه عن أبى مخنف باختلاف طفيف، وابن الأثير فى كتاب النهاية وأشار إلى المفردة(بجر).(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۸۵).

[۳۷۰] (۱)« عواتق»: جمع« عاتق» قسم من الجسم يقع بين الرقبة والكتف.

[۳۷۱] (۱) أصول الكافی ۲/ ۳۸۹، باب وجوه الكفر، ح ۱.

[۳۷۲] (۱) سورة التوبة/ ۶.

[۳۷۳] (۲) سرح ابن أبی الحدید ۲/ ۲۷۹- ۲۸۱.

[۳۷۴] (۳) انظر نفحات الولایة ۲/ ۳۷۷.

[۳۷۵] (۱) وسائل الشیعة ۱۷/ ۳۷۷.

[۳۷۶] (۱) سورة المجادلة/ ۱۹.

[۳۷۷] (۱) سورة الكهف/ ۱۰۳- ۱۰۴.

[۳۷۸] (۲) الاستیعاب ۳/ ۳۶.

[۳۷۹] (۳) شرح نهج البلاغة لمغنیة ۲/ ۲۴۷، كما وردت فی كتاب الغدیر عدّة روایات من المصادر المعتبرة للعامّة بخصوص معرفة المؤمن یحبّ علی علیه السلام والمنافق ببغضه(الغدیر ۳/ ۱۸۳).

[۳۸۰] (۱)« النمط»: هو الطائفة من الناس التی لها هدف واحد، كما تستعمل هذه المفردة أحیاناً بمعنی الاسلوب‌والطریق.

[۳۸۱] (۲) بحار الانوار ۶/ ۱۷۸.

[۳۸۲] (۳)« السواد»: تعنی فی الأصل اللون الأسود، ولما كانت الجماعة الكثیرة والأشجار المتشابكة والكثیرة تبدوسواء من بعید فقد وردت هذه المفردة بهذین المعنیین، وقد جاءت فی هذه الخطبة بمعنی الجماعة.

[۳۸۳] (۴)« شاذ»: من مادة« شذوذ» بمعنی القلّة والندرة ویطلق الشاذ علی من یتخلف عن الجماعة وینفرد لوحده.

[۳۸۴] (۵) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۸/ ۱۲۳.

[۳۸۵] (۱) نهج البلاغة، الكلمات القصار، ۱۰۹.

[۳۸۶] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۱.

[۳۸۷] (۲) سورة المائدة/ ۱۰۸.

[۳۸۸] (۱) مروج الذهب، طبق نقل سفینة البحار مفردة الخوارج.

[۳۸۹] (۲) قاموس دهخدا، ذیل مفردة الخوارج.

[۳۹۰] (۱) الملل والنحل لآیة اللّه السبحانی ۵/ ۲۴۲ و ۲۴۹.

[۳۹۱] (۱)« بجر»: بضم الباء الشر والأمر العظیم، كما ورد بمعنی اتساع البطن وملأها.

[۳۹۲] (۲)« ختلت»: من مادة« ختل» علی وزن قتل بمعنی المكر والخداع.

[۳۹۳] (۳)« الصمد»: بمعنی المكان المرتفع، كما یرد بمعنی القصد وعدم الاعتماد وهذا هو المعنی المراد فی العبارة.

[۳۹۴] (۴)« سوء»: مفتوح مفعول سبق الذی ورد فی أول العبارة ومفهوم الجملة قبل أن یبدی هؤلاء الرأی الظالم والفاسد قد اشترطنا علیهم إننا سوف لن نقبل رأیهم إن حاد عن الحق.

[۳۹۵] (۱) ورد شبه هذا المعنی مع إختلاف طفیف فی الخطبة ۱۷۷.

[۳۹۶] (۲) دومة الجندل منطقة قرب تبوك انتخبت كموضع للتحكیم.

[۳۹۷] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۱۰/ ۵۶ بتصرف.

[۳۹۸] (۱) سند الخطبة:

جاء فی كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ هذا الكلام جزء من خطبة طویلة لإمام علیه السلام فی البصرة بعد موقعة الجمل، وقد نقل

المرحوم ابن میثم البحرانی فی‌شرح نهج البلاغة أجزاء منها، والمخاطب هو الأحنف بن قیس من أشراف قومه والمعروف بحکمته وسابقته، وترتبط هذه الخطبة بالخطبة رقم ۱۱۰ التی شرحت سابقاً(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۸۸).

[۳۹۹] (۱) المراد بالأحنف بن قیس من أشراف البصرة وأحد صحابة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وورد فی الحدیث أنّ رسول‌اللّه صلی الله علیه و آله سأل اللّه له المغفرة، فکان یثق بدعائه رغم أنّه رجل شریف وکریم، کما وجهه رسول اللّه صلی الله علیه و آله إلی البصرة لنشر الإسلام، شهد صفین فی عسکر أمیر المؤمنین علی علیه السلام ولم یشهد الجمل بوصیّة منه علیه السلام حیث قال: إن لم أشهد المعرکة فلی أن أمنع عنک ستة آلاف سیف فوافقه علیه السلام.

سفینة البحار مادة حنف واسد الغابة ۱/ ۵۵، وشرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۲/ ۲۴۹.

[۴۰۰] (۲)« لجب»: بمعنی الصیاح وتطلق أحیاناً علی أصوات الخیل والمقاتلین.

[۴۰۱] (۳)« قعقعة»: الصوت الذی ینبعث من احتکاک الأشیاء الیابسة کالجام الذی ورد فی الخطبة.

[۴۰۲] (۴)« حمحمة»: بمعنی صوت الفرس التی لا تبلغ الصهیل المرتفع.

[۴۰۳] (۵)« نعام»: حویان المعروف.

[۴۰۴] (۱)« کاب»: من مادة« کب» علی وزن خط تعنی فی الأصل طرح الشیء علی وجهه فی الأرض.

[۴۰۵] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار، الکلمة ۷۷.

[۴۰۶] (۱) بحار الانوار ۶۳/ ۱۹۷.

[۴۰۷] (۲) مروج الذهب ۴/ ۱۲۰.

[۴۰۸] (۳) الکنی والألقاب ۲/ ۴۰۲.

[۴۰۹] (۴) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۸/ ۱۲۸.

[۴۱۰] (۵) المصدر السابق.

[۴۱۱] (۱)« المجان»: جمع« مجن» ومجنة الترس.

[۴۱۲] (۲)« المطرقة»: من مادة« طرق» علی وزن برق بمعنی دق الشیء بالمطرقة أو مطلق الدق، وعلیه فالمطرقة الشیء الذی دقّ بالمطرقة.

[۴۱۳] (۱)« السرقة»: بمعنی الحریر الفاخر أو الحریر الأبیض، وقال أغلب أرباب اللغة أصلها فارسی أخذ من السرّه بمعنی الحسن والخالص.

[۴۱۴] (۲)« الدیباج»: بمعنی القماش الحریری الملون، کما یستعمل أحیاناً بمعنی کل قماش حسن النقش، وأصله فارسی أیضاً.

[۴۱۵] (۳)« یعتقبون»: من مادة« اعتقاب» یحبسون کرائم الخیل ویمنعونها غیرهم.

[۴۱۶] (۴)« اعتاق»: جمع« عتیق» بمعنی کل شیء حسن وقیّم وتستعمل فی الخیل الأصیلة.

[۴۱۷] (۵)« استحرار»: من مادة« حرارة» بمعنی الشدّة والحدّة.

[۴۱۸] (۶)« المفلت»: من مادة« فلت» علی وزن فرد بمعنی الهروب والفرار وتطلق مفردة المفلت علی من ینجو من الشدّة.

[۴۱۹] (۷)« المأسور»: بمعنی الأسیر.

[۴۲۰] (۸) شرح نهج البلاغة ابن أبی الحدید ۸/ ۲۱۸.

[۴۲۱] (۱) شرح نهج البلاغة ابن أبی الحدید ۸/ ۲۱۸- ۲۵۲، وقاموس دهخدا مفرد المغول.

[۴۲۲] (۱) سورة لقمان/ ۳۴.

[۴۲۳] (۲)« یعی»: من مادة« وعی» علی وزن سعی بمعنی حفظ الشیء فی القلب، أو بعبارة أخری التعلم والایداع فی‌الحافظة.

[۴۲۴] (۳)« تضطم»: من مادهٔ« ضم» بمعنی جمع الشیء.

[۴۲۵] (۴)« جوانح»: جمع« جانحهٔ» الأضلاع تحت الترائب ممّا یلی الصدر.

[۴۲۶] (۱) تفسیر نور الثقلین، ووردت أحادیث سبعهٔ أقلّاً فی هذا المضمار فی ذیل الآیهٔ الشریفهٔ.

[۴۲۷] (۱) اصول الکافی ۱/ ۲۵۷، ح ۳ من باب« نادر فیه ذکر الغیب».

[۴۲۸] (۱) سند الخطبهٔ:

ورد فی مصادر نهـج البلاغـهٔ أنّ هـذه الخطبـهٔ وإن کانت فی رعایـهٔ العدل فی الکیل والمیزان، لکن لا یری مطلب بهذا الخصوص فی هذه الخطبهٔ سوی إشارهٔ قال فیها الإمام علیه السـلام:« این المتورعون فی مکاسـبهم»، وهذا یدلّ علی أنّها جزء من خطبهٔ طویلهٔ أشارت إلی هذه المسألهٔ المهمهٔ، إلّاأنّ المرحوم السـید الرضـی کعادته یختار منها ویترک بقیتها، رواها الزمخشری فی« ربیع الأبرار»، کما ورد قسم منها فی« غرر الحکم»(مصادر نهج البلاغهٔ ۲/ ۲۹۰).

[۴۲۹] (۲) مکاییل جمع مکیال، والموازین جمع المیزان.

[۴۳۰] (۱)« أثویاء»: جمع« ثوی» علی وزن قوی بمعنی الضیف وفی الأصل من مادهٔ« ثواء» بمعنی الإقامهٔ فی مکان.

[۴۳۱] (۲) شرح نهج البلاغهٔ ابن أبی الحدید ۸/ ۲۴۷.

[۴۳۲] (۳)« دائب»: من مادهٔ« دؤوب» علی وزن غروب المداوم فی العمل.

[۴۳۳] (۴)« کادح»: من مادهٔ« کدح» علی وزن مدح الساعی بجهد ومشقهٔ فی القیام بعمل.

[۴۳۴] (۱)« فریسهٔ»: من مادهٔ« فرس» علی وزن قرض بمعنی الصید.

[۴۳۵] (۲) اصول الکافی ۸/ ۵۵۱.

[۴۳۶] (۳)« طرف»: وردت أحیاناً بمعنی العین، وأخری حرکهٔ جفن العین، کما استعملت بمعنی النظر لأنّ الأجفانتتحرک حین النظر.

[۴۳۷] (۴)« یکابد»: من مادهٔ« کبد» بمعنی تحمل المشقهٔ وهذا هو المعنی المراد بها فی العبارهٔ، کما وردت بمعنی الجعل فی المشقهٔ.

[۴۳۸] (۵)« الوفر»: بمعنی الوفیر والکثیر.

[۴۳۹] (۱)« الوقر»: بمعنی الثقل.

[۴۴۰] (۲)« طرف»: وردت أحیاناً بمعنی العین، وأخری حرکهٔ جفن العین، کما استعملت بمعنی النظر لأنّ الأجفانتتحرک حین النظر.

[۴۴۱] (۱)« سمحاء»: جمع« سمیح» الشخص الرؤوف وصاحب الکرم، وقیل من یبذل حین وفرهٔ النعمهٔ وضیقها.

[۴۴۲] (۲)« متورع»: من مادهٔ« ورع» بمعنی اجتناب الذنب والشبههٔ.

[۴۴۳] (۱)« ظعنوا»: من مادهٔ« ظعن» السفر والرحیل.

[۴۴۴] (۲)« المنغصـهٔ»: من مادهٔ« نغص» علی وزن نقص الکدر وعدم الصـفاء ماء الشـرب، ثم اطلقت علی کدورهٔ العیش ومنه العیش المنغص.

[۴۴۵] (۳) وردت هـذه المفردهٔ فی أغلب شـروح نهـج البلاغـهٔ خلقتم التی لاـ تختلف کثیراً عن« خُلِّفتُم» کمـا لم تـذکر إلّافی العبارهٔ إلّابذمهم.

[۴۴۶] (۴)« حثالهٔ»: تعنی فی الأصل راسب الدهن ثم استعملت بشأن الأفراد الأراذل الذین لا شخصیهٔ لهم.

[۴۴۷] (۱) بحار الانوار ۶۶/ ۷۲، ح ۲۶.

[۴۴۸] (۲) کنز العمال ۳/ ۶۶، ح ۵۵۲۲.

[۴۴۹] (۱) سند الخطبهٔ:

ذکرها المرحوم الکلینی فی کتاب« روضهٔ الکافی» باختلاف طفیف ویستفاد من ذیلها أن لیس علی علیه السلام شیعه إلی الربذهٔ فقط،

بـل شـيعه الإمـام الحسن والحسـين عليهمـا السـلام وعمـار(وعقيـل حسب بعض الروايات)، وبعبارات رائعـة سـيأتى بيانها فى الأبحاث القادمة(الكافى ۸/ ۲۰۶، ح ۲۵)، قال صاحب مصادر نهـج البلاغـة بعـد الإشارة إلى روايـة الكافى نقلها ابن أبى الحديـد عن كتاب« السقيفة» لأحمد بن عبدالعزيز الجوهرى(مصار نهج البلاغة ۲/ ۲۹۱).

[۴۵۰] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۸/ ۲۵۲.

[۴۵۱] (۱) وعليه تفسير« مـا» بالموصولـة بمعنى الـدين لأنّهم أرادوا أن يستفيدوا من دين أبى ذر لصالـح دنيـاهم، فحالأبو ذر دون ذلك، كما يحتمل أن يكون الـدين بصورة مطلقـة، إلّاأنّ هناك تقـديراً فى العبارة حيث يكون المعنى ما أحوجهم إلى الـدين، الدين الذى حذرت عليه من إفسادهم له.

[۴۵۲] (۲)« رتق»: إلتحام شىء بآخر وتعنى فى العبارة إغلاق طرق الخلاص والفرار.

[۴۵۳] (۳) سورة الطلاق/ ۲- ۳.

[۴۵۴] (۱)« قرضت»: من مـادة« قرض» تعنى فى الأصـل قطع الشـىء ومن هنـا يقال المقراض للمقص، كما يقالالقرض لما يعطى من مال، ووردت فى العبارة المذكورة بمعنى قطعت منها جزءاً من المال لنفسك، ومهادنة الظالمين.

[۴۵۵] (۲) روت أغلب المصادر« جندب وجنادة» بضم الجيم، وكنيته أبو ذر، حيث كان له ولد بهذا الاسم.

[۴۵۶] (۱) بحار الانوار ۲۲/ ۲۹۸.

[۴۵۷] (۲) سورة التوبة/ ۳۴.

[۴۵۸] (۱) بحار الانوار ۲۲/ ۳۹۸.

[۴۵۹] (۲) ورد فى معجم البلدان أنّ الربذة من القرى الواقعة أطراف المدينة حيث تبعد عنها ثلاثة أميال(حدود ۱۵۰ كيلومتر).

[۴۶۰] (۳) لخصت هـذه المطالب من عـدّة كتب معروفـة كشـرح نهـج البلاغـة لابن أبى الحديـد، وشـرح المرحوم التسترى، وشـرح المرحوم الخوئى، وبحار الانوار.

[۴۶۱] (۴) الأعلام للزركلى، ذيل كلمة جندب.

[۴۶۲] (۱) الغدير ۸/ ۳۴۳.

[۴۶۳] (۲) سورة النور/ ۳۳.

[۴۶۴] (۳) سورة التوبة/ ۳۴.

[۴۶۵] (۴) الغدير ۸/ ۳۱۲ و ۳۶۳.

[۴۶۶] (۱) الأعلام للزركلى ۲/ ۱۴۰.

[۴۶۷] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۸/ ۲۵۷.

[۴۶۸] (۲) اسد الغابة ۱/ ۳۰۱.

[۴۶۹] (۱) الكافى ۸/ ۲۰۸، بتصرف، شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۸/ ۲۵۳.

[۴۷۰] (۱) سند الخطبة:

أشار ابن الجوزى فى« تـذكرة الخواص» إلى هـذه الخطبـة وقال: ابتـدأ الإمام هذه الخطبة حين اسـتوى على منبر الكوفة بالقول: الحمد للّهوأومن به ثم خطب الخطبـة، وأورد القاضـى نعمان الفصل الأخير من الخطبـة فى المجلد الثانى من« دعائم الإسـلام»، كما أشار إلى بعضـها ابن أثير فى« النهاية» فى مادة ظار ومادة دعا(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۹۵) وتدلّ هذه المصادر على أنّ الخطبة وردت فى عدّة كتب قبل السيد الرضى.

[۴۷۱] (۱)« أظـأر»: من مـادة« ظأر» على وزن ضـرب تعنى فى الأصل المراقبـة والمواظبـة على الشـىء ولما كان عمل القابلـة الإرضاع

ومراقبة الطفل فقد استعملت هذه المفردة لها.

[۴۷۲] (۲)« المعزى»: بمعنى السخلة فى مقابل الضأن بمعنى الخروف.

[۴۷۳] (۳)« وعوعة»: بمعنى الضراخ والضجة والزئير، وتطلق على الأموات المتداخلة.

[۴۷۴] (۴)« اطلع»: لها معنى اللازم وهو الطلوع والظهور وكذلك معنى المتعدى، وهنا بالنظر لسرار مفعولها فقد وردت متعدية، والباء فى بكم للاستعانة أو السبب.

[۴۷۵] (۵)« سرار»: من مادة« سر» تعنى فى الأصل آخر ليلة من الشهر« ليلة المحاق التام) ويراد بها شدّة الظلمة.

[۴۷۶] (۱)« منافسة»: تعنى فى الاصل سعى فردين يريد كل منهما الظفر بشىء نفيس يمتلكه الآخر، فالواقع هىمسابقة شريفة بين فردين من أجل بلوغ كمال من الكمالات، ولكن قد تستعمل هذه المفردة فى الموارد السلبية، كما تستعمل بشأن الأفراد الذين يتسابقون من أجل نيل المال والمقام، والمراد بها فى الخطبة المعنى الثانى.

[۴۷۷] (۱) يبدو أنّ هذه المفردة« لنَرِدَ» من مادة ورود قد وردت خطأ فى نسخة نهج البلاغة لصبحى والصحيح لنردبالتشديد من مادة الرد بمعنى الإعادة، كما وردت كذلك فى أغلب نسخ نهج البلاغة.

[۴۷۸] (۲) سورة الجمعة/ ۲.

[۴۷۹] (۳) سورة الحديد/ ۲۵.

[۴۸۰] (۴) سورة الحج/ ۴۱.

[۴۸۱] (۱) ورد شرح إسلام على عليه السلام وأنّه أول من أسلم فى أغلب مصادر الفريقين والرد على التخرصات فى المجلد الثالث من هذا الكتاب، والمجلد التاسع، ص ۳۲۶ من نفحات القرآن.

[۴۸۲] (۱)« النهمة»: تعنى فى الأصل الحاجة وشدّة الحب لشىء والمبالغة فى الحرص عليه.

[۴۸۳] (۱)« الجافى»: من مادة« جفاء» تعنى قى الأصل العنف وأخذ الشىء.

[۴۸۴] (۲) سورة آل عمران/ ۱۵۹.

[۴۸۵] (۳)« الحائف»: من مادة« حيف» بمعنى الظلم والجور وتعنى فى الأصل الانحراف فى الحكم التمييز.

[۴۸۶] (۴)« دول»: جمع« دولة» بمعنى المال.

[۴۸۷] (۵)« المقاطع»: جمع« مقطع» بمعنى أخر كل شىء، كما تطلق هذه المفردة أحياناً على الحدود الإلهيّة التىتنتهى بجرم المجرمين وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة، وفى إشارة إلى أنّ القاضى إن كان مرتشياً فانّه لا يأذن باجراء حدود اللَّه تعالى.

[۴۸۸] (۱) سند الخطبة:

نقلها بصورة متفرقة الآمدى- من علماء القرن الخامس- فى كتاب« الغرر»، ويفهم من اختلافها مع ما ورد فى نهج البلاغة أنّها كانت فى مصدر آخر غير نهج البلاغة، كما أشار ابن الأثير المتوفى عام ۶۰۶ ه فى« النهاية» إلى جوانب من هذه الخطبة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۹۸).

[۴۸۹] (۱) اللام فى« خفية» بمعنى فى أو بمعنى مع وكذلك اللام فى« لكل سريرة».

[۴۹۰] (۲)« نجيب»: من مادة« نجابة» الإنسان أوالشىء المصطفى والنفيس.

[۴۹۱] (۳)« بعيث»: من مادة« بعثة» بمعنى مبعوث.

[۴۹۲] (۱) اسمع فعل وداعى فاعل وضميره يعود إلى الموت ومفعوله محذوف وهو جميع الناس، أى إنّ داعى الموت أوصل صوته ليسمع الجميع.

[۴۹۳] (۲)« حادى»: من مادة« حداء» من يسوق الجمال بسرعة والعبارة فعل وفاعل ومفعول محذوف كالجملة السابقة.

[۴۹۴] (۱) هذه الأنواع العشرة من التأكيد هى:« ان» وضمير الشأن« إن» اعتبرنا الضمير فى« أنّه» ضمير الشأن والجملةالاسمية والقسم بلفظ الجلالة والجد والألف واللام التى دخلت عليه ولا اللعب والحق ولا الكذب والاستفادة من الحصر فى العبارة(ما هو إلّا ...).

[۴۹۵] (۲)« ازعج»: من مادة« ازعاج» بمعنى الاقتلاع والاخراج.

[۴۹۶] (۱)« مشيد»: من مادة« شيد» على وزن بيد، لها معنيان: الأول بمعنى الارتفاع والآخر بمعنى الجص ومن هنايطلق على القصور المرتفعة والعالية التى تعانق السماء باقصور المشيدة، كما تطلق على القصور المحكمة لتبقى محصنة من حوادث الدهر(فى مقابل مساكن المستضعفين التى تبنى عادة من الطين).

[۴۹۷] (۱)« برز»: من مادة« بروز» بمعنى الظهور والسبقة، وتوضيح ذلك أنّ هذه المفردة تكون أحياناً على هيئة ثلاثى مجرّد(على وزن ضرب) بمعنى الظهور، وأحياناً أخرى من باب تفعيل(على وزن صرّف) بمعنى السبقة، وقد استعملت فى العبارة الثانى، وإن وردت بصيغة الثلاثى المجرد فى بعض النسخ.

[۴۹۸] (۲)« مهل»: له معنى الاسم المصدرى وتعنى الوفق والمداراة، كما تستعمل بمعنى الفرصة للقيام بالعمل الصالح.

[۴۹۹] (۳)« هبل»: نعنى أحياناً الهلكة وفقدان الشىء أحياناً، وأخرى بمعنى الغنيمة والاهتبال بمعنى الخدعة، كمايعنى الاغتنام والاستيلاء على شىء، والمعنى الثانى هوالمراد بالعبارة.

[۵۰۰] (۱)« أوفاز»: جمع« وفز» على وزن نبض السرعة والعجلة والاستعداد للسفر.

[۵۰۱] (۲)« الزيّال»: بمعنى الفراق والعبارة« قربوا الظهور للزيّال» تعنى أعدوا المراكب للرحيل من الدنيا ولازمةذلك الإتيان بالأعمال الصالحة والتوبة من الذنوب وأداء حقوق المخلوق والخالق.

[۵۰۲] (۱) سند الخطبة:

لم يجد كاتب مصادر نهج البلاغة سنداً آخر لهذه الخطبة، سوى ما قاله ابن أبى الحديد من أنّ ما ورد فى هذه الخطبة جزء اقتطفه السيد الرضى من خطبة طويلة، فيراه دليلًا على أنّه أصل الخطبة وإن لم يشر إلى سندها، ولكن يحتمل أن يكون كلام ابن أبى الحديد استنباطاً لهذه الخطبة فى نهج البلاغة، لأنّ السيد الرضى بيّن من خلال تعبيره« منها ومنها» والذى كرره فى هذه الخطبة أنّه قطعها، كما أنّ عدم إرتباط أجزائها يفيد أنّ أصل الخطبة طويل جدّاً، وقد ذكرها الآمدى فى« الغرر» ويحتمل أنّه نقلها من مصدر آخر.

[۵۰۳] (۱)« أزمة»: جمع زمام اللجام.

[۵۰۴] (۲)« مقاليد»: قال أغلب أرباب اللغة مقليد وقال البعض الآخر جمع مقلاد بمعنى مفتاح، وقال صاحب« لسانالعرب» أنّ أصلها فارسى كليد الذى يعنى المفتاح، كما قال صاحب« لسان العرب» تأتى أحياناً بمعنى الخزائن إلّاأنّ المعنى الأول أنسب وأكثر إنسجاماً مع العبارة أزمة فى الجملة السابقة وقذفت فى هذه الجملة.

[۵۰۵] (۳)« غدو»: جمع« غدوة» بمعنى الصباح، و« الآصال» جمع أصل على وزن رسل وهى جمع من مادة أصل بمعنى العصر وآخر النهار واعتبر بعض أرباب اللغة الآصال والأصل جمع أصيل.

[۵۰۶] (۱) سورة الرحمن/ ۶.

[۵۰۷] (۲)« قدحت»: من مادة« قدح» على وزن مدح بمعنى ضرب الحجر بالسندان لتوليد شعلة النار والتى كانت شائدة سابقاً، ثم وردت بمعنى اشتعلت.

[۵۰۸] (۳)« قضبان»: جمع قضيب بمعنى عضن الشجرة وقضب على وزن نبظ بمعنى الفاكهة.

[۵۰۹] (۴)« يانعة»: من مادة« ينع» على وزن منع بمعنى نضج الفاكهة.

[۵۱۰] (۵) سورة القصص/ ۷۰.

[۵۱۱] (۶) سورة الزمر/ ۶۳.

[۵۱۲] (۷) سورة الحج/ ۱۸.

[۵۱۳] (۱) سورة يس/ ۸۰.

[۵۱۴] (۲) سورة الانعام/ ۱۴۱.

[۵۱۵] (۱)« أظهر»: جمع« ظهر» كل شيء، والتعبير بين أظهركم تعنى فى أغلب الموارد الدفاع عن الشيء، وذلك لأنّالأفراد إن أرادوا الدفاع عن منطقة ولوا إليها ظهورهم وإلتفوا حولها واستقبلوا العدو، ثم استعملت هذه المفردة حين يكون الشخص وسط جماعة سواء دافعوا عنه أم لم يدافعوا، وهذا هوالمعنى المراد بها فى العبارة.

[۵۱۶] (۲)« يعيى»: من مادة« عى» على وزن حى بمعنى التعب والعجز، وقال الراغب فى المفردات تعنى فى الأصل العجز الذى يعرض لجسم الإنسان إثر كثرة المشى، ثم اطلقت على كل تعب وعجز.

[۵۱۷] (۳) ورد هذا الكلام فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:« هو فى كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة»(بحار الانوار ۲/ ۲۸۰).

[۵۱۸] (۱) سورة آل عمران/ ۱۶۰.

[۵۱۹] (۱)« فترة»: وفتور تعنى فى الأصل الهدوء والاستقرار وتأتى أحياناً بمعنى الضعف والفتور، وتطلق على الفاصلة بين حركتين أو حادثتين أو انقلابين، ومن هنا عبروا بالفترة عن الفاصلة بين ظهور الانبياء.

[۵۲۰] (۲)« قفى»: من مادة« قفا» بمعنى ظهر، كما ورد بمعنى خلف الشيء فى المجيىء.

[۵۲۱] (۳)« العادلين»: جمع« عادل» من مادة عدل على وزن فكر بمعنى المعادل والشبيه والمثيل وإن وردت من مادة عدل على وزن نظم عنت العدالة، ومن مادة العدول بمعنى الانحراف والرجوع عن الشيء، وعليه فالعادل على ثلاثة معانى، وأريد بها المعنى الأول فى الخطبة(لابدّ من الالتفات إلى أنّ المعنى الأول يتعدى عادة بالباء والمعنى الثالث بواسطة عن).

[۵۲۲] (۱) سورة البقرة/ ۲۵۶.

[۵۲۳] (۱) سورة الروم/ ۷.

[۵۲۴] (۲) سورة البقرة/ ۱۹۷.

[۵۲۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۴.

[۵۲۶] (۲) بحار الانوار ۴۴/ ۳۸۳.

[۵۲۷] (۳) نهج البلاغة، قصار الكلمات ۴۱۵.

[۵۲۸] (۱) سورة الجمعة/ ۶.

[۵۲۹] (۲) سورة الواقعة/ ۸۸- ۸۹.

[۵۳۰] (۳) شرح نهج البلاغة، لابن ميثم ۳/ ۱۵۷.

[۵۳۱] (۴) بحار الانوار ۶۹/ ۶۹.

[۵۳۲] (۵)« رىّ»: له معنى مصدرى هو الارتواء.

[۵۳۳] (۶)« الضمآن»: من مادة« ظمأ» على وزن طمع بمعنى العطش.

[۵۳۴] (۱) نهج البلاغة، قصار الكلمات ۴۶۶.

[۵۳۵] (۲) سورة البقرة/ ۲۶۹.

[۵۳۶] (۳) هذا الاحتمال مختار ابن أبى الحديد والمرحوم الشارح الخوئى ومحمد عبده.

[۵۳۷] (۱) سورة البقرة/ ۱۲۹، ۱۵۱؛ وآل عمران/ ۴۸، ۸۱ و ...

[۵۳۸] (۲) سورة الانعام/ ۱۰۴.

[۵۳۹] (۱) سورة النساء/ ۸۲.

[۵۴۰] (۲)« غل»: من مادة« غلول» أو غلل على وزن أفول وأجل تعنى فى الأصل النفوذ التدريجى والخفى للماء فى‌جذور الأشجار، ثم اطلق الغل الذى له معنى(الاسم المصدرى) على الخيانة لأنّها تحصل بصورة تدريجية وخفية.

[۵۴۱] (۳)« دمن»: جمع« دمنة» على وزن فتنة بمعنى السرقين، كما يطلق على الحقد القديم.

[۵۴۲] (۱)« تاه»: من مادة« تيه» بمعنى الحيرة ومن مادة« توه» على وزن لوح بمعنى الهلكة، ويبدو المعنى الثانى فى‌العبارة هو الأنسب.

[۵۴۳] (۲)« غرور»: إن قرأ بالضم فهو الخداع والمكر، وإن قرأ بالفتح أفاد الوصف وعنى الشخص الخادع وقد أطلقه القرآن على الشيطان، وقد ورد بالصيغة الأولى فى النسخة المعروفة لصبحى الصالح، بينما ورد بالصيغة الثانية فى أغلب النسخ، وتبدو الصيغة الثانية أنسب على ضوء تناسق العبارات.

[۵۴۴] (۳) سورة النور/ ۲۱.

[۵۴۵] (۴) سورة النساء/ ۸۳

[۵۴۶] (۱) سند الخطبة:

نقل هذا الكلام عن الإمام عليه السلام باختلاف طفيف ابن الأثير فى النهاية فى مادة كنف وأبو عبيد فى كتاب الأموال(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۰۲)

[۵۴۷] (۲) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى ۳/ ۱۶۲.

[۵۴۸] (۳) شرح نهج البلاغة، لابن أبى الحديد ۸/ ۲۹۸.

[۵۴۹] (۱) شرح نهج البلاغة، للتسترى ۷/ ۴۲۱- ۴۲۳، بتصرف.

[۵۵۰] (۱)« حوزة»: من مادة« حوز» على وزن موز تعنى الجمع والاتصال والإمتلاك وعادة ما تطلق الحوزة على كل‌مجموعة.

[۵۵۱] (۲) سورة التوبة/ ۳۳.

[۵۵۲] (۱) العبارة« والذى نصرهم ...» مبتدأ وخبرها« حى لا يموت».

[۵۵۳] (۲)« تنكب»: من مادة« نكب» على وزن نخل بمعنى الانحراف عن المسير، وفى هذه العبارة بمعنى الهزيمة والقتل.

[۵۵۴] (۳)« كانفة»: من مادة« كنف» على وزن ظرف بمعنى الحفظ، وعليه كانفة تقال للشخص أو الشيء العاصم الذى يحفظ الأفراد.

[۵۵۵] (۱)« محرب»: من مادة« حرب» بمعنى المقاتل والشجاع.

[۵۵۶] (۲)« احفز»: من مادة« حفز» على وزن نبض الدافع والسوق الشديد.

[۵۵۷] (۳)« بلاء»: بمعنى الاختبار وأهل البلاء أهل المهارة فى الحرب.

[۵۵۸] (۴)« ردء»: بالكسر من مادة« ردء» على وزن عبد بمعنى المساعدة وعليه فردء بمعنى النصير والعضيد والسند.

[۵۵۹] (۵)« مثابة»: من مادة« ثوب» على وزن قوم بمعنى رجوع الشيء إلى حالته الاولى ومثابة بمعنى المرجع ومن يعاد إليه.

[۵۶۰] (۱) تحف العقول/ ۳۷۴.

[۵۶۱] (۱) سند الخطبة:

لم ينقل صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة من نقل هذه الخطبة سوى أحمد بن أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح، لكنّه أورد بعض التوضيحات بشأن وورد الخطبة عن كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد.

[۵۶۲] (۱) المغيرة بن الأخنس وأبوه أحد المنافقين وهو غير المغيرة بن شعبة المعروف بنفاقه وعداوته لأهل‌البيت عليهم السلام.

[۵۶۳] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۸/ ۳۰۱- ۳۰۲؛ والفتوح لابن أعثم الكوفى ۱/ ۱۶ طبقاً لنقل شرح نهج بالبلاغة

للمرحوم التستری ۹/ ۲۶۱.

[۵۶۴] (۱) یقال إنّ عداء آل المغیرة استمر ضد علی علیه السلام حتی شهد ولده عبد اللّهالمعرکة الجمل فقتل فیها(شرح نهج البلاغة للمرحوم التستری ۹/ ۲۶۶).

[۵۶۵] (۱) سورة ابراهیم/ ۲۶.

[۵۶۶] (۲)« منهض»: من مادة« نهض» القیام من المکان ومنهض من باب إفعال الشخص الذی یساعد غیره لینهض.

[۵۶۷] (۳) سورة محمّد/ ۷.

[۵۶۸] (۴) سورة غافر/ ۵۱.

[۵۶۹] (۵)« نواک»: من مادة« نوا» والکاف ضمیر متصل تعنی فی الأصل غایة المسافر بعیدة کانت أم قریبة.

[۵۷۰] (۶) فالعبارة لا أبقی اللّه علیک تطلق حین اللعن لیبعد عن رحمة اللّه، والعبارة إن بقیت تعنی لا رحمک اللّه إن رحمتنی، فهی فی الواقع استخفاف بالمخاطب، فافعل ما شئت إنّک لا تقدر علی شیء.

[۵۷۱] (۱) سند الخطبة:

قال المرحوم الشیخ المفید رحمه الله فی کتاب« الإرشاد» أنّ الإمام علی علیه السلام أورد هذا الکلام إمتنع البعض عن بیعة الإمام علیه السلام- حسب روایة الشعبی- ومنهم عبداللّه بن عمر وسعد بن أبی وقاص ومحمد بن مسلمة وحسان بن ثابت واسامة بن زید، فخطب الإمام علیه السلام لبیان أحقیّة بیعته(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۰۶) وهکذا نقل هذه الخطبة الشیخ المفید فی إرشاده وقد عاش قبل السید الرضی، وکذلک أشار إلیها ابن الأثیر فی کتاب« النهایة» فی مادة(فلت).

[۵۷۲] (۱) صحیح‌البخاری ۶/ ۲۵۰۵ طبعة دارالنشر بیروت وصحیح ابن‌جبان ۲/ ۱۴۸، طبع مؤسسةالرسالة.

[۵۷۳] (۲) بحار الانوار ۱۰/ ۲۴۸(نقلًا عن مناقب ابن شهر آشوب).

[۵۷۴] (۱)« خزامة»: بالکسر حلقة من شعر تجعل فی وترة أنف البعیر لیشد فیها الزمام ویشهل قیاده، وقال البعض‌إن کان جنس الحلقة من النحاس قیل لها البرة وإن کانت من الشعر فهی الخزامة.

[۵۷۵] (۲)« منهل»: من مادة« نهل» علی وزن جهل بمعنی الشربة الأولی ویطلق المنهل علی الموضع الذی یمکن الاستفادة منه من ماء النهر(لابدّ من الالتفات إلی أنّ سطح ماء أغلب الأنهار أکثر انخفاضاً من الساحل وعادة ما یشقون بعض الأماکن لوصول الماء لیبلغه الناس والحیوانات بسهولة ویقال لمسیر هذه الأماکن الشریعة وآخرها المنهل.

[۵۷۶] (۳) سورة الحدید/ ۲۵.

[۵۷۷] (۱) سند الخطبة:

رواها ابن عبد البر من علماء العامّة للقرن الخامس فی کتاب« الاستیعاب» فی شرج سیرة طلحة، کما رواها ابن الأثیر من علماء القرن السابع فی« اسد الغابة»، ونقلها المرحوم الشیخ المفید رحمه الله فی کتاب« الجمل» عن الواقدی، کما فسّر بعض أجزاءها ابن أبی الحدید عن أبی مخنف وکذلک ابن الأثیر فی کتاب« العوذ»(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۰۹).

[۵۷۸] (۱)« نصف»: بکسر النون وضمها الإنصاف.

[۵۷۹] (۱) أوردنا شرحاً تاماً للعبارة« إنّ معی لبصیرتی» فی هذا الکتاب ۱/ ۴۸۱.

[۵۸۰] (۲)« شغب»: مصدر وبمعنی تهییج الشر والفساد.

[۵۸۱] (۳) منهاج البراعة ۸/ ۳۳۸؛ الاحتجاج ۱/ ۱۶۵.

[۵۸۲] (۱) أورد ابن الأثیر فی المجلد الثانی، ص ۳۱۵ عن الکامل شرحاً مفصلًا لقضیة نباح کلاب الحوأب وصراخ عائشة وعزمها علی الرجوع وشهادة البعض علی کذب من قال تلک المنطقة هی الحوأب.

[۵۸۳] (۲) تاریخ دمشق ۳۲/ ۱۷۱، طبعه بیروت؛ کنز العمال ۱۲/ ۲۱۱ طبعة حیدر آباد(مطابق نقل أحقاق الحق ۱۷/ ۱۶۶).

[۵۸۴] (۱)« افرطن»: من مـادة« افراط» تعنی فی الأصـل تجـاوز الحـدّ، لکنّهـا وردت أحیانـاً بمعنی القیام بالحـدّ الأکثر من العمل وقد جـاءت بهـذا المعنی فی العبـارة، یعنی سأملأ- حوض المعرکـة للخصوم(طبعـاً المراد حوض المنیـة) بحیث لا- یبقی أمـامهم من سـبیل للنجاة، وبناءاً علی هذا فلا مجال لطرح مثل هذا السؤال أو یمکن للإمام علیه السلام أن یفرط فی شیء.

[۵۸۵] (۲)« ماتح»: من مادة« متح» علی وزن مدح بمعنی سـحب الماء من الأعلی کسـحب الماء من البئر بواسطة الدلو، وعلیه فالماتح تطلق علی من یطرح الدلو بواسطة الحبل فی البئر ویسحب منه الماء.

[۵۸۶] (۳)« ریّ»: اسم مصدری ومصدره« ری» علی وزن حی والباء للمعیة.

[۵۸۷] (۴)« یعبون»: من مادة« عبّ» بمعنی شرب الماء أو مانع أخر دون تنفس.

[۵۸۸] (۵)« حسی»: السهل من الأرض الذی یتجمع فیه الماء.

[۵۸۹] (۱)« العوذ»: بضم العین جمع« عائذ» الإنسان أو الحیوان الذی یلد حدیثاً.

[۵۹۰] (۲)« المطافیل»: جمع« مطفل» علی وزن مسلم ذات الطفل من الإنسان والوحش، وعلیه فالعوذ والمطافیل قریبة المعنی وهما هنا للتأکید.

[۵۹۱] (۱)« ألبا»: من مادة« تألیب» بمعنی الافساد وإثارة الناس.

[۵۹۲] (۲)« اسـتثبت»: من مـادة« ثوب» علی وزن صوم بمعنی رجوع الرمیض إلی العافیـة ومفهوم العبـارة أنی أردت من‌طلحـة والزبیر الرجوع عن انحرافهما.

[۵۹۳] (۳)« اسـتأنیت»: من مادة« أناة» علی وزن قناة بمعنی الصبر والانتظار ومفهوم الجملة أنّی کنت أنتظر تأثیر اقتراحی علیهما فیعودا إلی رشدهما ویسلکا سبیل العافیة والسلامة، لکن من المؤسف ...

[۵۹۴] (۴)« وقاع»: بمعنی الحرب وتستعمل هذه المفردة أحیاناً بمعنی المصدر وأخری الجمع« وقیعة».

[۵۹۵] (۵)« غمطـا»: من مادة« غمط» علی وزن غضب بمعنی استصـغار الشـیء وکفران النعمـة والعبارة المـذکورة إشارةإلی أنّ طلحة والزبیر استخفا بما منحتهم من فرصة وکفرا بالنعمة.

[۵۹۶] (۱) السیاسة والإمامة ۱/ ۳۸.

[۵۹۷] (۲) شرح نهج البلاغة ابن أبی الحدید ۹/ ۳۶.

[۵۹۸] (۳) فی ظلال نهج البلاغة ۲/ ۲۹۴.

[۵۹۹] (۴) الکامل لابن الأثیر ۳/ ۲۰۶؛ تاریخ الطبری ۳/ ۴۷۷.

[۶۰۰] (۵) ج ۱ شرح الخطبة الثالثة عشرة، ج ۲ شرح الخطبة الثلاثون والحادیة والثلاثون ج ۳، ص ۲۰۹- ۳۰۱.

[۶۰۱] (۱) سند الخطبة:

ورد فی مصادر نهـج البلاغـة أنّه نقل جانباً من هـذه الخطبة عن الآمدی فی« غرر الحکم» وقال بالنظر إلی أنّ بعض شـرّاح نهج البلاغة اعتبروا القسم الأول إشارة إلی قیام الإمام المهـدی علیه السـلام فانّ ذلک یـدل علی أنّهم نقلوا الخطبـة من مصـدر آخر أشار إلی هذه القیام(مصادر نهـج البلاغة ۲/ ۳۰۲) لکننا لا نعتقـد بتوجیه هـذا الاسـتنتاج، ولعلهم اسـتنبطوا ذلک من خلال بعض القرائن الواردة فی الخطبة.

[۶۰۲] (۱) یعطف من مادة عطف علی وزن فتـح بمعنی المیل والرغبـة أو الترغیب بشـیء، وقد تسـتعمل أحیاناً بصـیغةالمتعدی فتعنی الترغیب، کما تتعـدی أحیاناً بحرف إلی فتعنی الرغبـة فی شـیء، وتتعـدی أیضاً بحرف علی فتعنی الرجوع إلی الشـیء وأخیراً تتعـدی بحرف عن فتعنی الانصراف عن الشیء.

[۶۰۳] (۱) سورة الجاثية/ ۲۳.

[۶۰۴] (۲) بحار الانوار ۱/ ۱۹.

[۶۰۵] (۱)« نواجذ»: جمع« ناجذ» أقصى الأضراس أو الأنياب، كما فسّر بجميع الأسنان وهذا هو المعنى المراد منهافى العبارة.

[۶۰۶] (۲)« أخلاف»: جمع« خلف» بالكسر بمعنى حلمة ضرع الناقة، كما وردت بمعنى حلمة ضرع سائر الحيوانات كالبقرة والشاة.

[۶۰۷] (۳)« علقم»: برعم شديد المرارة يطلق عليه الحنظل، وتطلق هذه الكلمة على كل شيء مرّ.

[۶۰۸] (۱)« أفاليذ»: جمع« أفلاذ» وهذا جمع« فلذ» على وزن فكر بمعنى كبد الناقة، أو كبد كل إنسان أو حيوان،: وفلذةتعنى قطعة من الكبد، والمراد بها فى هذه العبارة الأشياء النفيسة والكنوز والمعادن الثمينة فى جوف الأرض.

[۶۰۹] (۲) شرح نهج البلاغة لعلّامة الخوئى ۸/ ۳۵۳.

[۶۱۰] (۳) بحار الأنوار ۵۲/ ۳۹۰.

[۶۱۱] (۱)« نعق»: من مادة« نعق» على وزن كعب تعنى فى الأصل صوت الغراب أوالصوت الذى يخرج من الشاة حين يذودها الراعى وتشير هنا إلى زعيق الظالم فى الشام.

[۶۱۲] (۲)« فحص»: من مـادة« فحص» على وزن بحث تعنى فى الأصـل البحث، كما وردت بمعنى البسط وهـذا هو المعنى المراد بها فى الخطبة.

[۶۱۳] (۳)« ضـواحى»: جمع« ضاحيـة» من مـادة« ضـحو» على وزن سـهو بمعنى التعرض للشـمس كمـا تطلق الضواحى على المنـاطق أطراف المدن.

[۶۱۴] (۴)« كوفان»: اسم آخر للكوفة وتعنى فى الأصل تلال الرمل الحمراء الدائرية.

[۶۱۵] (۱)« ضروس»: من مادة« ضرس» بمعنى عض الشيء والضغط عليه، وتطلق الضروس على الناقة السيئةالخلق التى تعض حالبها.

[۶۱۶] (۲)« فغرت»: من مادة« فغر» على وزن فقر بمعنى فتح الفم، وهى هنا كناية عن الحرص فى الاستيلاء على كل شـيء، وافغر اسم فاعل من هذه المادة.

[۶۱۷] (۳)« جولة»: من مادة« جول» على وزن قول بمعنى الحركة والدوران حول مكان، وهى كناية عن السعىوالجهد المتواصل.

[۶۱۸] (۴)« الصولة»: من مادة« صول» على وزن قول بمعنى الحملة فى الحرب أو القفز على شيء.

[۶۱۹] (۵)« ليشردنكم»: من مادة« تشريد» بمعنى النفى والطرد والتفريق.

[۶۲۰] (۱) بحار الانوار ۵۲/ ۱۸۶- ۱۸۷ بتصرف.

[۶۲۱] (۲)« يؤوب»: من مادة« أوب» الرجوع من السفر أو مطلق الرجوع.

[۶۲۲] (۳)« عوازب»: جمع« عازبـة» فى الأصل من مادة« عزبـة» من لا زوجـة له، لكنها وردت أحياناً بمعنى الخفاء والابتعاد، وهـذا هو المراد بها فى العبارة.

[۶۲۳] (۴)« أحلام»: جمع حلم بمعنى العقل.

[۶۲۴] (۵)« يسنى»: من مادة« سنو» تعنى فى لأصل رى الأرض من الغيوم، ثم استعملت بمعنى مطلق التسهيل من أجل القيام بعمل.

[۶۲۵] (۱) سند الخطبة:

نقل هـذه الخطبة الطبرى فى تاريخه فى شـرح حوادث عام ۲۳ ه(عام قتل عمر) وقال ابن أبى الحديـد هـذا جزء من خطبة خطبها على عليه السـلام فى أصـحاب الشورى بعد وفاة عمر، وقد ورد فى الكلمات القصار رقم ۲۲« لنا حق ...» وهو جزء من هـذه الخطبة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۰۲).

[۶۲۶] (۲) نفحات الولاية ۱/ ۲۴۴.

[۶۲۷] (۱) سورة المائدة/ ۵۵.

[۶۲۸] (۲) سورة الدهر/ ۸.

[۶۲۹] (۳) سورة البقرة/ ۲۷۴.

[۶۳۰] (۴)« تنتضی»: من مادة« نضو» و« نضی» علی وزن نظم بمعنی سل السیف، أوالخروج من البیت وشحوباللون وما شباه ذلک، والمراد بها فی العبارة المعنی الأول.

[۶۳۱] (۱) شرح نهج البلاغة ابن أبی الحدید ۱۱/ ۱۱.

[۶۳۲] (۱) سند الخطبة:

ذکر الآمدی فی کتاب« غرر الحکم» مع فارق وما ورد فی نهج البلاغة وهذا یدل علی أنّ مصدره غیر نهج البلاغة(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۱۴)، کما وردت هذه الخطبة فی بعض المصادر کجزء من خطبة تعرف بالدیباج(کتاب تمام نهج البلاغة).

[۶۳۳] (۱) شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ۹/ ۱۶۲.

[۶۳۴] (۲) جامع السعادات ۳/ ۳۰۲؛ بحار الانوار ۷۲/ ۲۵۷.

[۶۳۵] (۳) جامع السعادات/ ۳۰۳.

[۶۳۶] (۱) بحار الانوار ۷۵/ ۲۵۹.

[۶۳۷] (۲) جامع السعادات ۳/ ۳۰۵.

[۶۳۸] (۱) للمؤلف.

[۶۳۹] (۱) سند الخطبة:

نقلها القاضی القضاعی فی کتاب« دستور معالم الحکم»، کما نقل جزءاً منها علی بن هذیل فی کتاب« عین الأدب والسیاسة»، وکذلک المرحوم الصدوق فی« الخصال» وابن عبد ربه فی« العقد الفرید»،(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۱۵)

[۶۴۰] (۱)« سداد»: بمعنی الصحیح من الکلام والعمل وتستعمل هذه المفردة کمصدر واسم مصدر، ویبدو أنّها قریبةمن مادة سد بمعنی الجدار المحکم الذی یقام ضد السیول وما شابه ذلک، لأنّ للکلام الحق استحکام خاص.

[۶۴۱] (۱)« یحیل»: من مادة« إحالة» کل تغیر أو حرکة تخرج عن الحق والاستقامة وتحیل إلی الانحراف و الاعوجاج.

[۶۴۲] (۲)« یبور»: من مادة« بوار» تعنی فی الأصل شدّة کساد الشیء وحیث یبعث ذلک علی الفساد حسبما ورد فی المثل کسد حیا فسد فقد اطلقت هذه المفردة علی الفساد ومن ثم الهلکة.

[۶۴۳] (۱) بحار الانوار ۷۲/ ۱۹۶.

[۶۴۴] (۱) سند الخطبة:

ذکرها المرحوم الکلینی فی کتاب« الکافی»(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۰۲)، والمرحوم الشیخ المفید والشیخ الطوسی فی الآمالی وابن قتیبة فی کتاب« الإمامة والسیاسة»، والجدیر بالذکر أنّه یستفاد من بعض المصادر المذکورة مثل کتب الکافی أنّ هذه الخطبة هی استمرار للخطبة ۱۲۶(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۲۸۲ بتصرف).

[۶۴۵] (۱)« محمدة»: بمعنی الحمد والثناء وهو ضد الذم.

[۶۴۶] (۱) بحار الانوار ۷۴/ ۱۷۸.

[۶۴۷] (۲) منهاج البراعة ۷/ ۴۳۹.

[۶۴۸] (۱)« العانی»: من ماد« عنی» بمعنی الشدّة والتعب، وعدها البعض من شرّاح نهج البلاغة مرادفة لأسیر، ویبدوأنّ معناها واسع یشمل کل إنسان یعیش التعب والإرهاق.

[۶۴۹] (۲)« الغارم»: من مادة« غرامة» من عليه الديون.

[۶۵۰] (۳) الكافى ۴/ ۱۰.

[۶۵۱] (۱) المصدر السابق ۲/ ۴۰۱، ح ۸.

[۶۵۲] (۲)« النوائب»: جمع« النائبة» تعنى الحوادث الأليمة التى تصيب الإنسان، ولكن فسّرها بعض أرباب اللغةبمطلق الحوادث سواء المطلوبة منها أو غير مطلوبة.

[۶۵۳] (۳) كشف الغمة ۲/ ۲۴۲.

[۶۵۴] (۱) الإرشاد ۱/ ۳۰۳؛ وبحار الانوار ۷۴/ ۴۳۳.

[۶۵۵] (۲) ميزان الحكمة، ۱۲۶۱۱.

[۶۵۶] (۱) سند الخطبة:

وردت هذه الخطبة حسب تصريح صاحب مصادر نهج البلاغة فى كتاب« أعلام النبوة» للديلمى عن الإمام الصادق عليه السلام عن أميرالمؤمنين على عليه السلام، وفى« النهاية» لابن الأثير فى مادة بطن بمناسبة المفردة بطنان التى وردت فى آخر الخطبة،(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۱۹) كما وردت فى بحار الانوار، ج ۸۸ عن« أعلام» النبوة للديلمى، لكن لم يتضح على وجه الدقة فى أى قرن عاش الديلمى مؤلف الكتاب.

[۶۵۷] (۱)« تقلكم»: من مادة« اقلال» بمعنى حمل الشيء وأخذه، ولمّا كان الإنسان يعيش على الأرض فكأنّها تحملهعلى أكتافها، وقد وردت تحملكم بدلًا من تقلكم فى أغلب شروح نهج البلاغة والتى تفيد نفس المعنى.

[۶۵۸] (۱) سورة ابراهيم/ ۲۴.

[۶۵۹] (۱)« درور»: من مادة« درّ» على وزن جرّ بمعنى تقاطر الحليب من الثدى، ثم استعملت فى المطر وأمثاله، و« درور الرزق» بمعنى نزول الرزق من اللّه تعالى.

[۶۶۰] (۱)« استقال»: من مادة« إستقالة» بمعنى معونة من وقع على الأرض للقيام، ثم اطلقت على فسخ المعاملة أوطلب العفو على الذنب.

[۶۶۱] (۱) الكافى ۲/ ۳۷۴، ح ۲.

[۶۶۲] (۲) سورة الأعراف/ ۹۶.

[۶۶۳] (۱) تفسير نهج الصادقين ۱۰/ ۱۹(بتصرف، وقد ورد هذا الحديث بصورة مختصرة عن الإمام المجتبى عليه السلام)(مجمع البيان ۱۰/ ۳۶۱).

[۶۶۴] (۱)« الأكنان»: جمع« كن» على وزن« جن» بمعنى واسطة الحفظ والصون ومن هنا تطلق الأكنان على الغيران.

[۶۶۵] (۲) راجع الخطبة ۱۵۵ بشأن آداب صلاة الاستسقاء.

[۶۶۶] (۳)« السنين»: جمع« سنة» وإن استعملت مع مفردة الهلكة أو الأخذ عنت الجدب والقحط.

[۶۶۷] (۴)« الوعرة»: بالتسكين كناية عن صعوبة الحياة.

[۶۶۸] (۵)« أجاءت»: من مادة« مجيىء» من باب إفعال بمعنى ألجأته.

[۶۶۹] (۶)« مقاحط»: جمع« مقحطة» من مادة« قحط» بمعنى سنين الجدب.

[۶۷۰] (۷)« مجدية»: من مادة« جدب» على وزن جعل قلّة النعمة، وعليه المجدبة تطلق على السنين التى يعانى فيهاالناس من الشدّة فىغ أرزاقهم.

[۶۷۱] (۸)« تلاحمت»: من مادة« تلاحم» بمعنى الاتصال.

[۶۷۲] (۱) فی ظلال نهج البلاغۀ ۲/ ۳۱۹.

[۶۷۳] (۲)« واجم»: من مادۀ« وجم» علی وزن نجم من اشتد حزنه حتی أمسک عن الکلام.

[۶۷۴] (۳)« معشبۀ»: من مادۀ« عشب» علی وزن شرف نمو النبات.

[۶۷۵] (۴)« الحیا»: بمعنی المطر ووفرۀ النعمۀ.

[۶۷۶] (۵)« القیعان»: جمع« قاع وقاعۀ» الأرض السهلۀ الواسعۀ کما تطلق أحیاناً علی الأرض التی تتجمع فیها المیاه.

[۶۷۷] (۶) والجدیر بالذکر قد نزلت الآن(حین کتابتی لهذه السطور فی العاشر من رمضان عام ۱۴۲۳ ه) أمطار مفعمۀ بالبرکۀ والخیر بعد جفاف طویل، ویبدو أنّ هذا المطر ینطوی إن شاء اللَّه تعالی علی جمیع الصفات التی ذکرها الإمام علیه السلام فی هذه الخطبۀ.

[۶۷۸] (۱) سند الخطبۀ:

أورد الآمدی جانباً من هذه الخطبۀ فی کتابه« غرر الحکم» وفیها إضافات لما فی نهج البلاغۀ مما یدلّ علی أنّه استقاها من مصدر أخر غیر نهج البلاغۀ(مصادر نهج البلاغۀ ۲/ ۳۲۲).

[۶۷۹] (۱)« الاعذار»: مصدر باب إفعال من مادۀ« عذر» بمعنی إتمام الحجۀ.

[۶۸۰] (۱)« بواء»: تعنی فی الأصل العودۀ والنزول ثم أطلقت علی العقوبۀ المستمرۀ والمتواصلۀ وهذا هو المعنی المراد بها فی الخطبۀ.

[۶۸۱] (۱) سورۀ الانفال/ ۲۸.

[۶۸۲] (۲) نهج البلاغۀ، قصار الکلمات ۹۳.

[۶۸۳] (۳) وسائل الشیعۀ ۱/ ۳۶، من أبواب مقدمۀ العبادات، الباب ۶، ح ۶.

[۶۸۴] (۱) نقل الدکتور الذهبی فی کتابه« التفسیر والمفسرون» عن ابن عباس:« مَا أَخَذتُ مِنْ تَفسِیرِ القُرآنِ إلَّا مِنْعَلیٍّ بن أَبی طَالِبٍ» ج ۱، ص ۸۹ کما روی عن ابن عباس أنّه قال:« وَمَا عِلمِی وَعِلْمُ أَصحَابِ مُحَمَّدٍ فِی عَلْمِ عَلیٍّ إلّا کَقَطرَۀٍ فِی سَبعَۀِ أبحُرٍ»(الغدیر ۲/ ۴۵ فی شرح دیوان حسان).

[۶۸۵] (۲) ذکرنا أسناد حدیث ثقلین فی نفحات القرآن ۹/ ۶۲- ۷۱.

[۶۸۶] (۱) روی هذا الحدیث جمع من حفاظ العامّۀ کابن عبد البر فی« الاستیعاب»، والقاضی فی« الموقف»، وابن أبی الحدید فی« شرح نهج البلاغۀ»، وابن طلحۀ الشافعی فی« مطالب السئول»،(الغدیر ۳/ ۶۹، وابن عساکر فی(التاریخ المختصر لدمشق ۱۷/ ۳۰۱).

[۶۸۷] (۲) ورد هذا الحدیث فی کنزل العمال ۱۳/ ۱۱۴، ح ۳۶۳۷۲.

[۶۸۸] (۳) سورۀ الرعد/ ۴۳.

[۶۸۹] (۴) انظرو مصادر هذا الحدیث فی کتب العامّۀ فی إحقاق الحق ۳/ ۲۸۰، کما وردت روایات بهذا الخصوص فی شواهد التنزیل للحسکانی ۱/ ۳۰۷- ۳۱۰.

[۶۹۰] (۵) ذکرنا شرح هذا الموضوع فی المجلد الرابع من هذا الکتاب ذیل الخطبۀ ۹۳.

[۶۹۱] (۶) المرحوم العلّامۀ الأمینی أورد هذه العبارات بمصادر دقیقۀ من کتب العامّۀ(الغدیر ۳/ ۹۷) تحت عنوان آراء الصحابۀ بعلی علیه السلام.

[۶۹۲] (۱) التفسیر والمفسرون ۱/ ۸۹.

[۶۹۳] (۲) صحیح مسلم ۳/ ۱۴۵۳؛ طبع بیروت دار التراث العربی.

[۶۹۴] (۳) صحیح البخاری ۳/ ۱۰۱، جزء ۹، طبع دار الجیل بیروت.

[۶۹۵] (۴) صحیح الترمذی ۴/ ۵۰۱ طبع دار التراث الاحیاء العربی بیروت.

[۶۹۶] (۵) صحیح أبی داود ۴/ ۱۰۶(کتاب المهدی).

[۶۹۷] (۱) مسند أحمد ۵/ ۸۹- ۹۰- ۱۰۱.

[۶۹۸] (۲) انظر كتاب منتخب الأثر/ ۱۲؛ إحقاق الحق/ ۱۳.

[۶۹۹] (۳) فضائل الصحابة ۲/ ۶۲۸، ح ۱۰۷۳.

[۷۰۰] (۱)« آجن»: من مادة« اجن» على وزن فجر الماء المتغير اللون والطعم والرائحة.

[۷۰۱] (۲)« بسيء به» من مادة بسوء ألفه وإستأنس به.

[۷۰۲] (۳)« خلائق»: أحياناً جمع« خلق» بمعنى المخلوق وأخرى جمع« خليقة» بمعنى الخلق والملكة وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة.

[۷۰۳] (۴)« مزبد»: من مادة« زبد» رغوة الماء وما شابه ذلك ومزبد اسم فاعل.

[۷۰۴] (۵)« تيار»: يعني في الأصل الموج الشديد الذي يقذف الماء خارج البحر، ويطلق أحياناً على مطلق الموج.

[۷۰۵] (۶)« الهشيم»: من مادة« هشم» تطلق على النباتات الجافة المتكسرة.

[۷۰۶] (۷)« يحفل»: من مادة« حفول» بمعنى الاعتناء بالشيء وعليه فلا يحفل تعني لا يهتم.

[۷۰۷] (۱)« لامحة»: من مادة« لمح» على وزن لمس تعني في الأصل لمعان البرق، ثم جاءت بمعنى النظرة الخاطفة، كما وردت بمعنى النظر إلى الشيء وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة.

[۷۰۸] (۲)« حطام»: الشيء المكسور الفاني الذي لا قيمة له ويقال حطام الدنيا لأموالها بسبب فنائها وزوالها سريعاً.

[۷۰۹] (۳)« تشاحوا»: من مادة تشاح واصلها الشح بمعنى البخل المقرون بالحرص ويقال تشاح حيث يتنازع فردان أو طائفتان من أجل الحصول على الشيء.

[۷۱۰] (۱)« نفروا»: من مادة« نفر» و« نفور» بمعنى الابتعاد عن الشيء والفرار منه.

[۷۱۱] (۱) سند الخطبة:

أورد ابن شعبة الحراني في كتابه« تحف العقول» جانباً من هذه الخطبة ضمن خطبة تعرف باسم الوسيلة، كما ذكرها المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب« الإرشاد» مع اختلاف طفيف، كما نقلها المرحوم الشيخ الطوسي في الأمالي وأشار أبو العتاهية في أشعاره إلى مضمون بعض عبارات هذه الخطبة ويحتمل أنّه أخذها من كلام الإمام عليه السلام، ووردت أجزاء من هذه الخطبة في الكلمات القصار في كلمة رقم ۱۹۱.(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۲۳)

[۷۱۲] (۱)« غرض»: الهدف الذي يرمى بالسهام.

[۷۱۳] (۲)« شرق»: له معنى مصدري يعني الاختناق بالماء.

[۷۱۴] (۳)« غصص»: له معنى مصدري ويعني الاختناق بالطعام.

[۷۱۵] (۱)« يحلق»: من مادة« خلوق» بمعنى يبلى ويخلق من مادة خلق المراد المعنى الأول في الخطبة.

[۷۱۶] (۲)« محصودة»: من مادة« حصد و حصاد» على وزن غصب بمعنى حصاد الشيء.

[۷۱۷] (۱) في ظلال نهج البلاغة ۴/ ۳۸۹.

[۷۱۸] (۱)« المهيع»: من مادة« هيع» على وزن رأي بمعنى الطريق الواسع والواضح.

[۷۱۹] (۲)« عوازم»: جمع« عازمة أو عوزم» على وزن جوهر تعني في الأصل المسن من الإنسان أوالحيوان وتطلق على كل شيء قديم، وتعني هنا الأمور التي كانت موجودة منذ زمان النبي وأصالتها ثابتة في الدين.

[۷۲۰] (۳) وردت حدثات بكسر الدال في النسخة المعروفة لصبحي الصالح فلها معنى اسم الفاعل، وردت مفتوحة في أغلب النسخ بمعنى الحدوث وهذا هوالصحيح.

[۷۲۱] (۱) ورد مثل هـذا المعنى فى الأمـالى للشـيخ المفيـد رحمـه الله، ص ۱۸۸ مع اختلاـف طفيف كمـا ورد فى مصـادر العامّـة(الموسوعة الفقهية الكويتية ۸/ ۲۴).

[۷۲۲] (۱) سند الخطبة:

روى جانباً من هـذه الخطبـة أبو حنيفـة الـدينورى فى كتاب« الأخبار الطوال» وأحمـد بن أعثم الكوفى فى كتاب« الفتوح» والطبرى فى تـاريخه والمعروف فى حـوادث عـام ۲۷ ه(الصـحيح عـام ۲۱ ه كمـا ورد فى تاريـخ الطـبرى) وذكرهـا الشـيخ المفيـد رحمـه الله فى« الإرشاد»(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۲۵).

[۷۲۳] (۲) شرح ابن أبى الحديد ۹/ ۹۷.

[۷۲۴] (۱) إرشاد المفيد، ص ۱۲۰ بتصرف.

[۷۲۵] (۱) سورة التوبة/ ۳۳.

[۷۲۶] (۲) سورة غافر/ ۵۱.

[۷۲۷] (۳) وإن كان لهذه المفردة مفهوم كلى لكنّها تعنى هنا السلك ينظم فيه الخرز.

[۷۲۸] (۴)« خرز»: بمعنى حبـات السـبحة وتكون نفيسـة، كما تكون عاديـة ويصـنع منها المسبحة وأصـلها« الخرز» على وزن الفرض بمعنى ثقب الجلد أو شيء أخر.

[۷۲۹] (۵)« حذافير»: جمع« حذفور و حذفار» على وزن مضمار بمعنى جانب الشيء وناحيته وحذافير بمعنى‌جميع الجوانب.

[۷۳۰] (۱)« اصل»: من مادة« صـلى» على وزن سعى بمعنى دخول النار أو الاحتراق فيها، وإن استعملت فى باب‌الأفعال عن القذف فى النار، والعبارة إشارة إلى أنّ الجيش حين ينشغل بالحرب عليك بالابتعاد عنهم حتى لا يتمكن العدو من إصابتك.

[۷۳۱] (۲)« شـخصت»: من مادة« شـخوص» على وزن خلوص تعنى فى الأصل الخروج من المنزل أو المدينـة، ولماكان الإنسان يظهر حين الخروج فقـد أطلقت على قامـة الإنسان والمرتفعات التى تلوح من بعيـد، ويقال للمسافر شاخص حيث يبيّن حين دخوله المدينـة، وتطلق هذه المفرادة على كل شيء مرتفع.

[۷۳۲] (۳)« عورات»: جمع« عورة» تعنى فى الأصل العيب والعار ولما كان إظهار الآلـة الجنسـية مـدعاة للعيب والعارفقد اطلقت عليها العرب العورة، ولكن لهـذه المفردة معنى أوسع وأشـمل وهى النقطـة التى يمكن اختراقهـا وما يخشاه الإنسان ويقلق منه، وحيث كانت حـدود كل بلد من المناطق التى يمكن إلحاق الصدر بها والمقلقة فقد اسـتعملت بهذا المجال، إلّاأنّها لا تعنى الحدود خلافاً لما أورده أغلب شرّاح نهج البلاغة، والمراد بها النقاط المضـطربة داخل البلد الإسـلامى والتى يمكن هجوم المنافقين عليها، والشاهد على ذلك العبارة ما تدع وراءك، لأنّ الجيش حين يتحرك نحو عدو خارجى لا يبقى خلفه سوى الجبهة الداخلية للبلاد.

[۷۳۳] (۱)« كلب»: بمعنى الأذى.

[۷۳۴] (۱) القادسـية كانت من المـدن الإيرانيـة الغربيـة ولم تكن تبعد كثيراً عن الكوفة(ذكر البعض أنّها تبعد تسـعين‌كليومتراً) وهى الآن من مدن العراق.

[۷۳۵] (۱) نهاوند مدينة معروفة غرب ايران وهى الآن تابعة لمحافظة همدان ولا تبعد عنها كثيراً.

[۷۳۶] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۹/ ۹۶- ۱۰۲؛ وتاريخ الطبرى ۳/ ۲۰۲.

[۷۳۷] (۱) سند الخطبة:

نقلها قبل السيد الرضى باختلاف طفيف المرحوم الكلينى فى كتاب روضة الكافى، وقد اشير فى الخطبة ۲۳۷ إلى جزء من هذه الخطبة كما وردت إشارة إلى جانب منها فى قصار الكلمات، الكلمة ۹۸(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۳۱).

[۷۳۸] (۱) الكافى ۸/ ۳۸۶.

[۷۳۹] (۲)« تجلی»: من مادهٔ« تجلی» وأصل جلو علی وزن دلو بمعنی الظهور والبروز، وتجلی اللَّه بمعنی أنّ آیاتهعلی درجهٔ من الوضوح وکأنّه یمکن رؤیته من خلالها.

[۷۴۰] (۱) قال الشاعر:

وله فی کل شیء آیةتدلّ علی أنّه واحد [۷۴۱] (۲)« محق»: من مادهٔ« محق» علی وزن خلق بمعنی المحو الکامل أو إزالهٔ برکهٔ الشيء.

[۷۴۲] (۳)« المثلات»: جمع« مثلهٔ» علی وزن عضلهٔ بمعنی العقوبهٔ.

[۷۴۳] (۴)« احتصد»: من مادهٔ« حصد» بمعنی القطف.

[۷۴۴] (۱)« سلعهٔ»: المتاع والبضاعهٔ.

[۷۴۵] (۲)« أبور»: من مادهٔ« بوار» شدّهٔ کساد الشيء والأرض البائر والبوار المیتهٔ الخالیهٔ من النبات.

[۷۴۶] (۳)« أنفق»: فعل تفضیل من مادهٔ« نفاق» لها معانی مختلفهٔ وارید بها هنا غلاء السلعهٔ ورواجها.

[۷۴۷] (۴)« تناسا»: من مادهٔ نسیان.

[۷۴۸] (۵)« طریدان»: مثنی« طرید» من مادهٔ طرد ومعناها معروف.

[۷۴۹] (۶)« منفیان»: من مادهٔ« نفی» بمعنی الابعاد.

[۷۵۰] (۱)« یؤوی»: من مادهٔ« ایواء» بمعنی الملاذ والملجأ.

[۷۵۱] (۲)« زبر»: بالفتح الکتابهٔ(وقد جاء بالمعنی المصدری واسم المصدر).

[۷۵۲] (۱)« مثلوا»: من مادهٔ« تمثیل» وأصلها« المثلهٔ» بمعنی التنکیل والتشنیع.

[۷۵۳] (۲)« فریهٔ»: من مادهٔ« فری» علی وزن فرد تعنی فی الأصل القطع، ولما کان قطع الشيء یؤدّی إلی فساده غالباً، فهی تطلق علی کل خلاف ومنه الکذب والتهمهٔ.

[۷۵۴] (۳) روی ذلک المرحوم العلّامهٔ الحلی فی کتاب« کشف الحق» عن کتاب« الهاویهٔ»(شرح نهج البلاغهٔ للعلّامهٔالخوئی ۹/ ۷۰).

[۷۵۵] (۱) بحار الانوار ۴۴/ ۱۲۴.

[۷۵۶] (۱) بحار الانوار ۴۴/ ۱۲۴.

[۷۵۷] (۱) الخطبهٔ ۴۲؛ بحار الانوار ۷۰/ ۹۱.

[۷۵۸] (۱)« قارعهٔ»: من مادهٔ« قرع» علی وزن فرع بمعنی ضرب شيء بآخر وتطلق القارعهٔ علی کل حادثهٔ مهمّهٔ ومهلکهٔ.

[۷۵۹] (۲)« النقمهٔ»: تعنی فی الأصل استقباح الشيء بحیث تحصل أحیاناً باللسان وأخری بصورهٔ عقوبهٔ علمیهٔ، ومن هنا غالباً ما تستعمل هذه المفردهٔ بمعنی العقوبهٔ.

[۷۶۰] (۱)« الباریء»: من مادهٔ برء علی وزن قفل لها معنیان: الأول: بمعنی الخالق والایجاد ومن هنا یقال للّهالباریء، والآخر: بمعنی الابتعاد عن الشيء ولذلک تستخدم بمعنی العافیهٔ والبعد عن المرض وهذا هو المعنی المراد بها فی عبارهٔ الخطبهٔ.

[۷۶۱] (۲) سورهٔ المدثر/ ۵۰- ۵۱.

[۷۶۲] (۱) سورهٔ الأعراف/ ۱۶۹.

[۷۶۳] (۱) بحار الانوار ۶/ ۱۷۹.

[۷۶۴] (۱) سند الخطبهٔ:

قال ابن أبی الحدید فی شرحه لنهج البلاغهٔ روی هذه الخطبهٔ قبل السید الرضی أبو مخنف فی کتاب« الجمل»، کما رواها باختلاف« لابدّ من الالتفات إلی أنّ هذا الاختلاف لیس بقلیل) المرحوم الشیخ المفید رحمه الله فی کتاب« الإرشاد»(مصادر نهج البلاغهٔ ۲/ ۳۳۲)

[۷۶۵] (۱)« يمتان»: من مادة« مت» على وزن خط تعنى فى الأصل سحب الحب وحيث يسبب هذا العمل إقتراب‌الدلو فقد وردت هذه المفردة بمعنى الإقتراب والتقرب وهذا هوالمعنى المراد بها فى الخطبة.

[۷۶۶] (۲)« ضبّ»: لها عدة معانٍ ومنها سحب الماء والحقد والحيوان المعروف.

[۷۶۷] (۱)« المحتسب»: من مادة« حسبة» بمعنى الإتيان بالعمل حسبة للّه‌وإرادة الثواب منه سبحانه، ووردت مفردة المحتسب بمعنى المأمور الذى يكلف من الحكومة للإشراف على إجراء أحكام الدين ولعل ذلك لأنّه يقوم بالعمل للّه، أو أنّ هدفه حساب عمل الناس.

[۷۶۸] (۲) وردت هذه الرواية فى أغلب مصادر العامّة ومنها مسند أحمد بن حنبل وصحيح مسلم وطبقات ابن سعد ومصادر أخرى(انظر إحقاق الحق ۸/ ۴۲۲).

[۷۶۹] (۳) تاريخ بغداد ۱۳/ ۱۸۷ طبع دار الفكر.

[۷۷۰] (۱)« اللدم»: تعنى فى‌الأصل ضرب الشيء بأخر دون شدّة الصوت.

[۷۷۱] (۱) ورد هذا المعنى فى مروج الذهب فى شرح معركة الجمل وأضاف المسعودى ولم يتم تقسيم صلاة الجماعة بهذه البساطة، بل حدث ذلك بعد حوار طويل ونزاع طلحة والزبير(مروج الذهب ۲/ ۳۶۷ طبعة دار المعرفة بيروت).

[۷۷۲] (۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ۹/ ۱۱۰.

[۷۷۳] (۱) سند الخطبة:

رواها المرحوم الكلينى فى الكافى ۱/ ۲۹۹؛ والمسعودى فى مروج الذهب بصورة مختصرة، وابن عساكر فى كتاب مقتل أميرالمؤمنين، ويتفق الجميع على أنّ الخطبة بعد ضربة ابن ملجم وقبل شهادة الإمام عليه السلام، وقد ذكر صاحب مصادر نهج البلاغة أسناد الخطبة فى قسم الرسائل حيث جاء جانب مهم من هذه الخطبة فى الرسالة رقم ۳۳(مصادر نهج البلاغة ۲/ ۳۴۷).

[۷۷۴] (۱)« مساق»: مصدر ميمى أو اسم مكان من مادة« سوق» بمعنى الغاية التى يصلها الإنسان، أو بعبارة أخرى آخر الطريق.

[۷۷۵] (۲) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى، ومنهاج البراعة للخوئى.

[۷۷۶] (۱)« اطردت»: من مادة« طرد» بمعنى الاخراج، واطردت الأيّام طويتها واحداً بعد الآخر.

[۷۷۷] (۲) اصول الكافى، ج ۱ باب« أنّ الأئمة يعلمون متى يموتون» الحديث ۴.

[۷۷۸] (۳) المصدر السابق.

[۷۷۹] (۱)« خلاكم الذم»: مثل بين العرب مفهومه ليس هناك من ذم لكم لأنّكم تقومون بوظيفتكم، وقيل أنّ أول من قال هذه العبارة(قصير بن سعد) غلام(خزيمة)(أحد ملوك‌العرب) والذى قتل على يد الزباء، فقال قصير لابن شقشقة الملك خذ بثأر حزيمة، فقال: أنّى لى به وإنّه لأسرع من العقاب، فقال له قصير:(اطلب وخلاك ذم)،(شرح نهج البلاغة للبيهقى من علماء القرن السادس، ص ۲۳۹ ذيل الخطبة التى نبحثها).

[۷۸۰] (۱) سورة البقرة/ ۲۸۶.

[۷۸۱] (۲) سورة الطلاق/ ۷.

[۷۸۲] (۳) اصول الكافى ۱/ ۴۷، ح ۱.

[۷۸۳] (۴) المصدر السابق/ ۱۱.

[۷۸۴] (۱) سورة آل عمران/ ۱۴۴.

[۷۸۵] (۱)« وطأة»: بمعنى محل القدم وتأتى بصيغة كناية بمعنى الضغط الشديد.

[۷۸۶] (۲)« مزلّه»: من مادة« زلل» على وزن ضرر بمعنى محل الزلل.

[۷۸۷] (۳)« تدحض»: من مادهٔ« دحض» على وزن محض بمعنى الزلل أيضاً.

[۷۸۸] (۴)« أفياء»: جمع« فيىء» على وزن شيء بمعنى الظل.

[۷۸۹] (۵)« مهاب»: من مادهٔ هبوب بمعنى حركهٔ الرياح ومهاب جمع مهب محل هبوب الرياح.

[۷۹۰] (۶)« متلفق»: بمعنى القطع المتصلهٔ من مادهٔ لفق على وزن لفظ الجمع.

[۷۹۱] (۷)« عفا»: من مادهٔ« عفو» بمعنى ترك، ولكن ما كان ترك الشيء يؤدّى إلى ذهابه وإندراسه، فقد وردت في هذه العبارهٔ وأمثالها بمعنى الإندراس.

[۷۹۲] (۱)« مخط»: من مادهٔ« خط» بمعنى محل الخطوط.

[۷۹۳] (۲)« خلاء»: بمعنى خاليهٔ.

[۷۹۴] (۳)« حراك»: وحركهٔ لها معنى واحد.

[۷۹۵] (۴)« هدو»: على وزن غلو بمعنى السكون وعدم القدرهٔ على الحركهٔ.

[۷۹۶] (۵)« خفوت»: بمعنى السكون والتوقف عن الحركهٔ.

[۷۹۷] (۶)« اطراق»: خفض العين لضعف الأجفان.

[۷۹۸] (۷)« مرصد»: من مادهٔ« ارصاد» بمعنى الاستعداد والانتظار.

[۷۹۹] (۱) سند الخطبهٔ:

السند الوحيد الذى ورد في كتاب مصادر نهج البلاغهٔ هو كتاب المسترشد للطبرى الذى نقل أقساماً من أخر هذه الخطبهٔ باختلاف، ويفهم من روايهٔ الطبرى أنّ هذه الخطبهٔ أطول مما نقل المرحوم السيد الرضى وقد إكتفى السيد الرضى رحمه الله حسب طريقته ببعض مقاطعها(مصادر نهج البلاغهٔ ۲/ ۳۳۷).

[۸۰۰] (۱)« مرصد»: من مادهٔ رصد على وزن« صمد» تعنى في الأصل مراقبهٔ الشيء، ويطلق المرصد على الشيء الذى يراقب وينتظر.

[۸۰۱] (۱)« تباشير»: بمعنى البشارهٔ وأوائل كل شيء(والذى يشير في الواقع بوروده) وتباشير الصبح بمعنى أوائله، وذهب البعض إلى أنّ تباشير جمع تبشير، ولكن يستفاد من تعبيرات البعض أنّها مفرد أو جمع لا مفرد له.

[۸۰۲] (۲)« أبان»: بمعنى بدايهٔ ووقت كل شيء.

[۸۰۳] (۳)« يحذو»: من مادهٔ حذو على وزن حذف بمعنى الاتباع.

[۸۰۴] (۴)« ربق»: بكسر فسيكون حبل فيه عدّهٔ هرا، كل عروهٔ ربقهٔ تشدّ فيه البهم.

[۸۰۵] (۵)« يصدع»: من مادهٔ« صدع» تعنى في اللغهٔ مطلق الشق، أو شق الأجسام المحكمهٔ، كما وردت بمعنىالاظهار حيث يظهر باطن الشيء بالشق.

[۸۰۶] (۶)« شعب»: بمعنى جماعهٔ عظيمهٔ من الناس وتستعمل اليوم بمعنى الامهٔ.

[۸۰۷] (۷)« قائف»: من مادهٔ« قوف» على وزن خوف بمعنى البحث عن آثار الشيء، ويقال القائف لمن يتتبع آثار الأشياء أوالأفراد، وهذا هو معنى معرفهٔ القيافهٔ.

[۸۰۸] (۱) شرح نهج البلاغهٔ لابن أبى الحديد ۹/ ۱۲۸.

[۸۰۹] (۲)« ليشحذن»: من مادهٔ« شحذ» تعنى في الأصل حدّ السكين، إلّاأنّها وردت بمعنى حدّ الذكاء والاستعداد.

[۸۱۰] (۳)« القين»: بمعنى الحداد، ولهذه المفردهٔ معنى مصدرى يعنى الحدادهٔ والإعداد.

[۸۱۱] (۴)« يغبقون»: من مادهٔ غبوق بمعنى يسقو بالماء في مقابل صبوح بمعنى يشرب وقت الصباح ومصدرها غبق على وزن غبن.

[۸۱۲] (۵) شرح نهج البلاغهٔ لابن أبى الحديد ۹/ ۱۲۹.

[۸۱۳] (۱) ومن ذلك كتاب للعالم المعروف الشوكانى تحت عنوان التوضيح فى تواتر ما جاء فى المنتظر(راجع كتاب نفحات القرآن ۱۰/ ۴۲۳).

[۸۱۴] (۲) مسند أحمد ۳/ ۳۶.

[۸۱۵] (۳) سنن أبى داود ۴/ ۱۵۲.

[۸۱۶] (۱)« غير»: جمع« غيرة» بكسر ففتح بمعنى حوادث الدهر والتغيرات التى توجب تغير النعم، وقال البعض غير مفرد ولا جمع.

[۸۱۷] (۱)« اخلولق»: من مادة« خلق» أحد معانيها القدم، وتعنى هنا الانتهاء لأنّ لازمة القدم انتهاء العمر الشيء.

[۸۱۸] (۲)« اشالوا»: من مادة« شول» على وزن قول تعنى فى الأصل رفع الشيء كرفع الحيوان لذيله، وتعنى هناالكف عن القتال.

[۸۱۹] (۳)« لقاح»: تعنى بداية الحرب.

[۸۲۰] (۱)« غالتهم»: من مادة« غول» على وزن قول تعنى فى الأصل الفساد الذى ينفذ فى الشيء بصورة خفية، ومن‌هنا يقال غيلة للأغتيال والقتل السرى، ووردت هذه المفردة بمعنى الهلكة والتضاد بعوامل خفية، ولما كانت الضلالة بمعنى الهلكة المعنوية فقد جاءت بهذا المعنى وهو المراد فى العبارة.

[۸۲۱] (۲)« ولائج»: جمع« وليجة» بمعنى نظير ومثيل وشبه وخاصة الرجل من أهله.

[۸۲۲] (۱) سورة الشورى/ ۲۳.

[۸۲۳] (۲)« رص»: بمعنى الصاق شيء بآخر ويطلق المرصوص على كل بناء محكم، ورص العبارة المذكورة بمعنى‌مرصوص، وعبارة الإمام رص أساسه من قبيل إضافة الصفة على الموصوف يعنى الأساس المحكم للولاية.

[۸۲۴] (۳)« غمزة»: من مادة غمز على وزن أمر بمعنى إزالة آثار الشيء، ثم اطلق على الماء الوفير الذى يغطى شيئاًويزيل آثاره، وفى الخطبة إشارة إلى الأفراد الذين غطوا فى الغفلة والضلالة.

[۸۲۵] (۴)« ماروا»: من مادة« مور» على وزن فور بمعنى الحركة السريعة والاضطراب.

[۸۲۶] (۱) سورة القصص/ ۴.

[۸۲۷] (۱) يمكن الوقوف على شرح كلام ابن أبى الحديد واعترافاته وتوجيهاته الضعيفة فى شرح نهج البلاغة ۹/ ۱۳۴.

[۸۲۸] (۲) صحيح البخارى ۸/ ۲۱۷، ح ۱۶۵(باب ما جاء فى حوض النبى).

[الجزء السادس]

الخطبة ۱۵۱

اشارة

وَمِنْ خُطْبٍةٍ لَهُ عليه السلام يُحِذِّرُ مِنَ الفِتَنِ ۱]

نظرة إلى الخطبة

تتكوّن هذه الخطبة من أقسام ثلاثة:

أمّا القسم الأول: فهو حمد اللَّه والثناء عليه، ومن ثم الشهادة بالرسالة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله وبعض صفاته الخاصة. حيث أشار الإمام عليه السلام فى هذا القسم إلى الأوضاع المربكة التى كانت سائدة إبان الجاهلية ليقف المسلمون من خلال المقارنة على عظمة النعم التى أفاضها اللَّه عليهم ببركة الإسلام.

أمّا القسم الثانی من الخطبة: فقد أخبر فیه الإمام علیه السلام عن ظهور الفتن فی المستقبل والعودة القهقری إلی الجاهلیة بأفكارها وممارساتها، كالفتن التی یقودها

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۶

الظلمة والتی تفعل فعلها فی الوسط الإسلامی.

وأخیراً یختتم الخطبة بوصیة الناس بالحذر من الظلمة وعدم الإنخداع بفتنهم والاستجابة لتحقیق مآربهم، إلی جانب عدم اتّباع خطوات الشیطان والسقوط فی شراكه، والإبتعاد عن تناول الحرام وتقوی اللَّه علی كل حال.

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۷

القسم الأوّل

وَأَحْمَدُ اللَّهَ وَأَسْتَعِینُهُ عَلَی مَدَاحِرِ الشَّیْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ وَالاعْتِصَام مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَاإِلهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِیبُهُ وَصَفْوَتُهُ. لَایُؤَازَی فَضْلُهُ، وَلَا یُجْبَرُ فَقْدُهُ. أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَالْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِیَةِ؛ وَالنَّاسُ یَسْتَحِلُّونَ الْحَرِیمَ، وَیَسْتَذِلُّونَ الْحَكِیمَ؛ یَحْیَوْنَ عَلَی فَتْرَةٍ، وَیَمُوتُونَ عَلَی كَفْرَةٍ!

الشرح والتفسیر: الشمس التی أشرقت فی الظلام

إنّ هذه الخطبة من خطب الملاحم التی تتعرض إلی جانب من الأحداث الخطیرة التی تقع فی المستقبل وتحذّر الناس من ضرورة التحلی بالیقظة ومراقبة الذات بغیة عدم التلوث بالظلم والفتن والفساد. فقد استهل الإمام علیه السلام خطبته بحمد اللَّه والثناء علیه والاستعاذة بذاته المقدّسة من شر الشیاطین فقال:

«وَأَحْمَدُ اللَّهَ وَأَسْتَعِینُهُ عَلَی مَدَاحِرِ[۲] الشَّیْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ ۳] وَالاعْتِصَام مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ ۴]»

، فالإمام علیه السلام یسأل اللَّه تعالی فی هاتین العبارتین التوفیق للطاعة والعبادة والاعتصام من الذنب والمعصیة، فلیس هنالك من وسیلة لابعاد

«مداحر»

الشیطان و

«مزاجره»

سوی طاعة اللَّه وامتثال أوامره، ولیست

«حبائل»

الشیطان و

«مخاتله»

سوی

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۸

الذنوب والمعاصی.

ولا تبدو طاعة اللَّه والاحتراز من الذنب والمعصیة ممكنة دون تسدید اللَّه وتوفیقه، وذلك لأنّ طریق الطاعة واجتناب المعصیة صعب ملیءبالمطبّات والعوائق، ثم یقر للَّهبالوحدانیة وللنبی الأكرم صلی الله علیه و آله بالرسالة فیقول:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَاإِلهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيبُهُ وَصَفْوَتُهُ»

. وذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ

«نجيبه» و «صفوته»

بمعنى واحد هو الانتخاب والاصطفاء وكل منهما يؤكّد الآخر، والصحيح أنّ هنالك فارقاً بين المفردتين. بالنظر إلى أنّ النجيب يعنى النفيس، والمفردة الأُولى فى الواقع ممهدة للمفردة الثانية؛ لأنّ الشىء يصطفى حين يكون نفيساً قيّما، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى صفتين من صفات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقال:

«لَا يُؤَازَى فَضْلُهُ، وَلَا يُجْبَرُ فَقْدُهُ»

حقّاً يتعذر تعويض الشىء الذى لا نظير له حين يفقد، كما أشار فى آخر صفة إلى آثار النبى صلى الله عليه و آله الوجودية فى تلك الظروف التى شهدها عصر الجاهلية حيث أشرقت بنور وجوده البلاد التى كانت غارقة فى لجج الضلالة والظلمة وقد استحوذ الجهل على أفكار أهلها فقست قلوبهم وطفحت بالجمود:

«أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَالْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ[۵]»

. وذلك حين كان الناس يستحلون الحرمات ويحتقرون العلماء فى ظل الفترة وغياب أولياء اللَّه وهم يموتون على الكفر ومجانبة الدين

«وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ، وَيَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيمَ؛ يَحْيَوْنَ عَلَى فَتْرَةٍ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ!»

. فهذه الصفات السبع التى أوردها الإمام عليه السلام بعبارات مجملة بشأن عهد الجاهلية إنّما تجسد صورة رائعة عن ذلك الزمان الذى اتسم بالضلال، والجهل، والقسوة، واستحلال الحرمات، والإستخفاف بالعلماء، وانعدام وجود القائد والمرشد، والموت على الكفر.

وقد بلغ ضلال القوم مرتبة من الفضاعة إلى الحد الذى جعلهم يفخرون بجناياتهم

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۹

ويرون سفك الدماء ووأد البنات دليلًا على الغيرة، والسلب والنهب شجاعة، كما تأصلت لديهم معانى الجهل والخرافة حتى جعلهم يصنعون آلهتهم بأيدهم تارة من الخشب وأخرى من الحجر وأخيراً من التمر، فإن جاعوا التهموها. وأمّا قساوة قلوبهم فقد تجذّرت فى أعماقهم حتى توارثوا الحقد جيلًا عن جيل، فكانوا لايأبهون بسفك الدماء وممارسة سائر المفاسد والانحرافات. وفى ظل هذه الظروف العصيبة يمكن إدراك عظمة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ومعطياته فى تلك الأجواء المتلفّعة بالظلمة، حتى استطاع خلال تلك الفترة القصيرة من النهوض بذلك المجتمع الخرافى الجاهل والمتخلف ليضعه فى مصاف المجتمعات المتمدنة والمتحضرة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۱

القسم الثانى

«ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلَايَا قَدِ اقْتَرَبَتْ، فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ، وَتَثَبَّتُوا فِى قَتَامِ الْعِشْوَةِ، وَاعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَانْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمَدَارِ رَحَاهَا. تَبْدَأُ فِى مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ، وَتَؤُولُ إِلَى فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ. شِبَابُهَا كَشِبَابِ الْغُلَامِ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلَامِ، يَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ؛ يَتَنَافَسُونَ فى دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ. وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِندَ اللِّقَاءِ».

الشرح والتفسير: الحذر من الفتنة

أخبر الإمام عليه السلام الناس فى هذا المقطع من الخطبة بالفتن التى تنتظرهم إلى جانب تحذيرهم وإلفات نظرهم إلى خطورتها

ليتحصنوا قدر المستطاع من ضربات تلك الفتن ويحدّوا من الخسائر، حيث أشار الإمام عليه السلام بعبارات لطيفة إلى مصادر هذه الفتنة وكيفية تبلورها ومرورها بمختلف المراحل فقال:

«ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلَايَا قَدِ اقْتَرَبَتْ، فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ ۶] النِّقْمَةِ»

. فقد ركّز الإمام عليه السلام فى هذه العبارة على عنصرين يقفان وراء الفتن؛ أحدهما سكرات النعمة، والآخر عقوبة الأعمال.

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۱۲

وبيَّن نتيجة تلك الفتن التى يعصف بلاؤها بالناس. ثم أوصى الناس بالتحلى باليقظة والحذر بغية التقليل من الخسائر حين تهب رياح الحوادث المعتمة وتستفحل الفتن عند ظهور اجنتها وانتصاب محورها وحركة رحاها

«وَتَثَبَّتُوا فِى قَتَامِ ۷] الْعِشْوَةِ[۸]، وَاعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَانْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمَدَارِ رَحَاهَا»

. فالأمام عليه السلام يشبّه الفتنة فى هذه العبارة بالجنين الذى يترعرع بصورة خفية ويولد فجأة تارة، وتارة أخرى يعدّها كالرحى التى يقام محورها بادئ الأمر ثم تدور حوله، وتشير الشواهد التاريخية إلى أنّ الفتن كذلك حقّاً، فهى مراحل تتبلور أثر بعض العوامل الاجتماعية المختلفة لتنفجر فجأة ويطفو على السطح مايعتصر فى باطن المجتمع، ثم يتطرق الإمام عليه السلام مواصلًا كلامه إلى الملامح الأخرى لتبلور الفتن على أنها تبدأ من مراحل خفية لتظهر فى خاتمة المطاف بوجهها الخطير، وهى تنمو وتنتشر بسرعة على غرار نمو الشباب وتسدّد ضرباتها الموجعة إلى جسد المجتمع

«تَبْدَأُ فِى مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ، وَتَؤُولُ إِلَى فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ. شِبَابُهَا كَشِبَابِ ۹] الْغُلَامِ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلَامِ ۱۰]».

هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة فى الفتنة التى أشار إليها الإمام عليه السلام فى هذه العبارة وحذّر منها؛ ويبدو أنّ المراد بها فتنة بنى أمية التى بدأت منذ عهد عثمان وبرزت بقتله ثم بلغت ذروتها إثر خلافة معاوية ويزيد وعبد الملك بن مروان ومن سار فى فلكهم، وقد اتّضحت هذه الفتنة وتجلّت فضيحتها بشتم أمير المؤمنين على عليه السلام من على منابر المسلمين وتلك الضربات التى وجهت إلى الإسلام بحيث لو وضعت على جبل لتصدّع.

.

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۱۳

ثم واصل حديثه بالإشارة إلى سائر خصائص هذه الفتنة

«يَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ»

. أجل فقادة الفتن على هذه الشاكلة يتوارثون فيما بينهم أسباب الفتنة ويسيرون جميعاً فى خط واحد وباتّجاه مشترك، ومن شأن هذا الانسجام والاتفاق والوراثة أن يضاعف أخطار الفتنة ويشعب آثارها السلبية، آنذاك أشار الإمام عليه السلام إلى الدافع الأصلى لقادة الفتن والظلمة فى أنّهم يتسابقون من أجل الظفر بهذه الدنيا الدنية ويتكالبون على حطامها كتهافت الكلاب على المزابل النتنة، فالواقع هم متحدون فى الظاهر وينطلقون معا فى مسار واحد، غير أنّهم يعيشون باطنيا حالة من الصراع والنزاع ويسعى كل فرد منهم لأن يكون رأس الفتنة ويقتفى آثاره الآخرون

«يَتَنَافَسُونَ فى دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ[۱۱]».

ثم أشار عليه السلام بعبارة قصيرة وبليغة إلى عاقبتهم المريرة فقال:

«وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِندَ اللِّقَاءِ»

. لعل هذه العبارة إشارة إلى أصحاب الفتن من بنى العباس.

رغم أنّهم اقتفوا آثار بنى أمية فى سلوك هذا النفاق والتكالب على الدنيا وتوجيه الضربات إلى أهل البيت عليهم السلام زعماء الأُمّة

الإسلامية وأئمّتها، إلّاأنّ الظاهر أنّهم كانوا يلعنونهم ويتبرأون من أفعالهم، وكان شعارهم الذى أرادوا به خداع الناس «الرضا لآل محمد»، ففتكوا بفلول بنى أمية وسفكوا دماءَهم حتى سالت أنهار من الدماء وقضوا على تراثهم ونهبوا أموالهم، وذهب البعض من شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد من العبارة

«وَيَتَلَاعَنُونَ عِندَ اللِّقَاءِ»

، لقاء اللّه ويوم القيامة، كما ورد فى القرآن الكريم: «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ»[۱۲] كما ورد فى القرآن الكريم بشأن براءة المشركين من أئمّتهم: «وَيَوْمَ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۴

نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ* ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ»[۱۳]. وعبارة

«وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ»

تشبه هذه الفئة الطاغية المتهافتة على الدنيا بالكلاب التى تهجم على الميتة العفنة وينهش كل منها ما فى يد الآخر وفمه، وياله من تشبيه بليغ رائع!

تأمّل: مميزات الحكام اتباع الهوى

يستفاد من العبارات المذكورة فى خطبة الإمام عليه السلام أنّ الحكام الظلمة يتسمون ببعض المميزات التى يشهد بها التاريخ البشرى، ومنها:

۱. إثارة الفتن والبلابل بغية تحقيق الأهداف؛ الأمر الذى نشهده فى استغلال بنى أمية لقضية المطالبة بدم عثمان.

۲. الاتحاد والتنسيق فى الانطلاقة والتواطىء فى الخطط الهدامة وإثارة الفتن.

۳. اشتداد المنافسة حين الغلبة بحيث تبدو المجموعة وكأنّها حفنة من الكلاب التى تتكالب على جيفة ليحوز كل حصته من الآخر.

۴. لعن كل طرف للآخر فى خاتمة المطاف وتحميله المسؤولية ولعل التاريخ بماضيه وحاضره شاهد حى على كلام الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۵

القسم الثالث

«ثُمَّ يَأْتِى بَعْدَ ذلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، وَالْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجالٌ بَعْدَ سَلَامَةٍ؛ وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الْآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا. مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ؛ يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ الْحُمُرِ فِى الْعَانَةِ! قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ، وَعَمِىَ وَجْهُ الْأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا، وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا يَضِيعُ فِى غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِى طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ؛ تَرِدُ بِمُرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُدَبِّرُهَا الْأَرْجَاسُ. مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ! تُقْطَعُ فِيهَا الْأَرْحَامُ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الإِسْلَامُ! بَرِيُّهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!».

الشرح والتفسير: خصائص هذه الفتنه الكبرى

أشار الإمام عليه السلام- فى هذا المقطع من الخطبة- إلى فتنة مهمّة أخرى تنتظر المسلمين، فتنة مرعبة وكاسرة وردت تفاصيلها فى عبارات الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة، على أمل أن يتعرف عليها المسلمون فينأوا بأنفسهم بعيداً عنها ولإجتناب من فداحة

أضرارها، فقال عليه السلام:

«ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ ۱۴]،

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۶

وَالْقَاصِمَةِ[۱۵] الزَّحُوفِ ۱۶]، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلَامَةٍ؛

وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الْآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا[۱۷]».

ذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بهذه الفتنة هنا فتنة المغول والتاتار، ولم يذكروا حسب اطّلاعنا احتمالًا آخر؛ إلّاأنّ هذا الاحتمال يبدو بعيداً؛ لأنّ أهداف المغول لم تكن سوى نهب الأموال وخراب البلدان والسيطرة على الممالك الإسلامية؛ في حين أخبر الإمام عليه السلام بعبارات في هذه الخطبة عن فتنة تستهدف أفكار الناس ومعتقداتهم وتلقي بهم في غياهب الغي والضلال والاختلافات الفكرية والدينية، وعليه يمكن أن يكون المراد بها فتنة بني العباس التي أعقبت فتنة بني أمية والتي أشارت إليها العبارات السابقة، والواقع هو أنّ بني العباس وبني أمية وإن كانوا وجهين لعملة واحدة وسياسة شيطانية واحدة، إلّاأنّ بني أمية وكما صرّح زعيمهم معاوية كانوا لا يكترثون للصوم والصلاة وطقوس الناس الدينية، سوى- في المواقع- التي تصطدم بحكومتهم الغاشمة؛ بينما اخترق بنو العباس عقائد الأُمّة حتى ظهرت على عهدهم أغلب المدارس المنحرفة والمذاهب الفاسدة، كما اشتدت الاختلافات في بعض المسائل من قبيل «حدوث القرآن وقدمه» و «الجبر والتفويض» إلى جانب الخلافات بين «الأشاعرة والمعتزلة»، وممّا لا شك فيه أنّ ذلك كان يجري وفق خطة مرسومة حتى أنّهم كانوا يشجعون العلماء والمفكرين لإثارة مثل هذه المباحث بهدف الاستمرار في السلطة، طبعاً لا نزعم أنّ بني أمية تخلوا مطلقاً عن هذه الأمور، لكننا نقول ليس لمثل هذه المباحث من ظهور آنذاك كالذي أصبح عليه بنو العباس، كما يبدو، مستبعداً أيضاً، الاحتمال الآخر الذي ذكره بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ هذا الكلام إشارة إلى فتنة «الدجال» في آخر الزمان

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۷

الذي يضل فئة من الناس.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى شدّة تلك الفتنة قائلًا:

«مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ؛ يَتَكَادَمُونَ ۱۸] فِيهَا تَكَادُمَ الْحُمُرِ[۱۹] فِي الْعَانَةِ!»

وهذه العبارة تأكيد لما ذكر في الكلام السابق بشأن الفتنة الأولى من أنّ رؤوس الفتنة متحدون باديء الأمر، أنّهم سرعان ما يسعون لطرد كل منهم الآخر عند الغلبة، ثم تطرق إلى أوضاع الناس الدينية والأخلاقية آنذاك فقال:

«قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا[۲۰]، وَتَرُضُّهُمْ ۲۱] بِكَلْكَلِهَا[۲۲]»

. نعم، حين يغيب العلماء عن مسرح الأحداث تؤول الأمور إلى الظلمة ليقولوا ما يريدون ويحملوا الآخرين على فعل ما يشاؤون، آنذاك تعم الفتنة لتشمل البلاد بأسرها وتأتي على القرى الصغيرة والنائية.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشأن فضاعة أخطار هذه الفتنة (حيث يصبح الوضع بالشكل الذي) يضيع في غبارها المشاة من الأفراد وتهلك فيها الفرسان:

«يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ»

. إشارة إلى أنّ الفتنة على درجة من القوّة بحيث يكفي غبارها لقمع المعارضين المتفردين، كما تعصف بالجمع الكثير منهم إن اعترضوا سبيلها، بالتالي ليس لأحد القدرة على مواجهتها والصمود بوجهها.

قال بعض شرّاح نهج البلاغة في تفسيرهم لهذه العبارة، إنّ المراد ب

«الوحدان»

، العلماء والفضلاء الذين يبتلون بغبار الشبهات ويضيعون الحق، والركبان كناية عن الفئات المقتدرة التى لا تقوى أيضاً على مقاومة رؤوس الفتنة وتهلك فى مواجهتها؛

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۸

إلّا أنّ التفسير الأول أقرب، لأن

«الوحدان»

إشارة إلى الأفراد الوحيدين أو المشاة، و

«الركبان»

إلى الأفراد الأشداء أو الفرسان.

ثم قال عليه السلام:

«تَرِدُ بِمُرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ[۲۳] الدِّمَاءِ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُدَبِّرُهَا الْأَرْجَاسُ»

، أجل حين ينحّى الأكياس والحكماء ويتسلم الأراذل والأرجاس زمام الأمور تتصدع عرى الإيمان وتتفسخ عقد اليقين وتتعرض أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم إلى الخطر.

ويختتم الإمام عليه السلام بيانه لخصائص هذه الفتنة العظيمة بالقول:

«مِرْعَادٌ[۲۴] مِبْرَاقٌ، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ! تُقْطَعُ فِيهَا الأَرْحَامُ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الإِسْلَامُ! بَرِيُّهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!»

. و «مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ»، صفات كنائية لشدّة هول هذه الفتنة، لأن هذه العبارات عادة ما تستعمل بهذا المعنى، رغم أنّ بعض الشراح عدوا ذلك إشارة إلى أصوات ضربات السيوف وبرقها، غير أنّ المعنى الأول أنسب. وعبارة

«كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ»

كناية عن شدّة مشقتها؛ لأنّ الإنسان يشمر عن ذراعه وساقه عادة إن همّ بإتيان عمل شاق. وعبارة

«تُقْطَعُ فِيهَا الأَرْحَامُ»

إشارة إلى أنّ رؤوس الفتنة لا يرعون فى آخ وأب وأم إلّا ولا ذمة ويذبحون كل من يعترض طريقهم ولتحقق رغباتهم.

ومن الطبيعى أن تغيب التعاليم الإسلامية فى ظل هذه الظروف، وأخيراً عبارة

«بَرِيُّهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!»

إشارة إلى أنّ الفتنة تطال حتى من يعتقد بأنّه بعيد عن مخاطر هذه الفتنة، كما يقع فيها حتى من ظن باستطاعته الهرب منها، فهى فتنة كاسرة قاصمة قلّ من ينجو منها.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۹

القسم الرابع

بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ الأَيْمَانِ وَبِغُرُورِ الْإِيمَانِ؛ فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ؛ وَالْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ؛ وَاقْدَمُوا عَلَى اللَّهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ؛ وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ؛ وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ.

الشرح والتفسير: التكليف حين الفتنة

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى عدم إرتباط هذا الجانب من الخطبة بما سبقه من كلام، وقد اختاره السيد الرضى جرياً على عادته فى الاقتطاف ولم يذكر الكلام الذى سبقه؛ والحال هنالك ارتباط وثيق بين هذا المقطع من الخطبة وما سبقه من مقاطع، حيث تصدت المقاطع السابقة لبيان الفتن التى تنتظر الناس وأهم مميزاتها، وانتقلت هنا إلى نتائجها ووظيفة الأُمّة فى ظلها، فقد استهل الإمام عليه السلام كلامه هنا قائلًا:

«بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ ۲۵]، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ»

، ثم واصل كلامه بالقول:

«يَخْتِلُونَ ۲۶] بِعَقْدِ الأَيْمَانِ وَبِغُرُورِ الْإِيمَانِ».

أجل فرأس الفتنة يتشبث بكل وسيلة لتحقيق مآربه الشيطانية من قبيل ممارسة

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۰

القتل والقمع والتظاهر بالإيمان إن اقتضت الضرورة واعطاء الأمان لبعض الأفراد ومن ثم ضرب كل هذه الأمور عرض الحائط، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظائف الناس فى ظل هذه الفتن والإرباكات فأورد خمس تعليمات لأصحاب الحق فقال فى وصيّته الأولى:

«فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ»

إشارة إلى اعتزال هذه المعركة الخطيرة دون التعاون مع رؤوس الفتنة وأصحاب البدعة.

والوصية الثانية:

«وَالْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ»

والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطاعة إشارة إلى ضرورة الالتزام بالقوانين والتعاليم الشرعية التى تضمن طاعة اللّه وبقاء المجتمع الإسلامى ورعايتها قدر المستطاع فى ظل نشوب الفتن، ذلك لأنّه إن كان هنالك من سبيل للنجاة من الفتنة إنّما يتمثل فى الالتزام بهذه التعاليم، والكلام يشمل بالطبع التعاليم الإسلامية الواردة بهذا الخصوص من قبيل الجمعة والجماعة والحج والتكافل الاجتماعى، وهى الأمور التى تؤدى إلى النجاة من الفتنة.

وقال فى الوصية الثالثة:

«وَاقْدَمُوا عَلَى اللَّهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ»

. طبعاً ليس مفهوم العبارة الاستسلام للظلم والاستجابة للظالم؛ فهذا الأمر منهى عنه فى الإسلام وهو نوع من إعانة الظالم على الظلم، لكن المراد إن خيرتم بين أمرين إمّا أن تهضم حقوقكم أو تهضموا حقوق الآخرين، فما عليكم إلّا أنّ تغضوا الطرف عن حقوقكم لكى لا تدنسوا أنفسكم بظلم الغير، ومثل هذا الأمر عادل ومرضى للّهعلى ضوء قاعدة تقديم الأهم على المهم.

الوصية الرابعة:

«وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ»

أى لا تقتربوا من الخطوط الحمراء (الظلم والفساد)، والتعبير ب

«المدارج»

و

«المهابط»

إشارة إلى نكتة لطيفة، أى أنّ الشيطان يرفع الإنسان من سلم الطغيان، فإن بلغ القمة قذف به إلى الأسفل، وأحياناً يهوى به إلى أودية المعصية ليزل قدمه فتهوى به إلى أعماق الكبائر.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۱

والوصية الخامسة والأخيرة:

«وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ ۲۷] الْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ»

. لا شك فى أنّ الأموال الحرام تزداد فى أيدى الناس فى ظل حكومة الظلمة وبروز الفتن والاستفادة من تلك الأموال تنعكس سلباً على الإنسان، فهى تسود القلب وتبعد الإنسان عن اللَّه وتسوقه لاتباع خطوات الشيطان. فالإمام عليه السلام يحذر من الحرام ويلفت نظرهم إلى عدم غلق الرحمن لأبواب الطاعة والكسب الحلال قط، فاللَّه يترك الباب مفتوحاً فى كل الظروف بوجه عباده لممارسة الطاعة والنجاة من الفتنة. قال العلّامة مغنية: «إنّ أفضل تفسير لهذه العبارة وما بعدها ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبة ۱۱۴

إِنَّ الَّذِى أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِى نُهِيتُمْ عَنْهُ وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ».

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۳

الخطبة ۱۵۲

اشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام فِى صِفَاتِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَصِفَاتِ أئِمَّةِ الدِّينِ ۲۸]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة بصورة رئيسية من ثلاثة أقسام. أشار الإمام عليه السلام فى القسم الأول إلى بعض النقاط المهمّة بشأن صفات اللَّه التى صرح فيها بعض شرّاح نهج البلاغة بأنّها لم ترد فى أى كتاب وهى أعظم من تلك المطالب التى ذكرها الفلاسفة والحكماء والعرفاء بشأن صفات اللَّه، بينما أشار فى القسم الثانى إلى المنزلة الرفيعة لزعماء الدين وأئمة الهدى ومقامهم عند اللَّه وموقعهم فى المجتمع البشرى، وتحدث الإمام عليه السلام فى القسم الثالث عن نعمة اللَّه الكبرى أى الإسلام والقرآن، فذكر بعض النقاط الرقيقة بشأن هذا الكتاب السماوى ليقف المسلمون على عظمة الكتاب وينهلوا من فيضه العذب.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۵

القسم الأول

الْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ؛ وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَاشَبَهَ لَهُ. لَاتَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ؛ الْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَالْخَالِقِ لَابِمَعْنى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ، وَالسَّمِيعِ لَابِأَدَاةٍ، وَالْبَصِيرِ لَابِتَفْرِيقِ آلَةٍ، وَالشَّاهِدِ لَابِمُماسَّةٍ، وَالْبَائِنِ لَابِتَرَاخِى مَسَافَةٍ، وَالظَّاهِرِ لَابِرُؤْيَةٍ، وَالْبَاطِنِ لَابِلَطَافَةٍ. بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّزَهُ. عَالِمٌ إِذْ لَامَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لَامَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لَامَقْدُورٌ.

الشرح والتفسير: شمة من صفات اللَّه الجمالية والجلالية

كما ذكر آنفاً فإنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد أن بايعته الأمة أثر نقمتها على عثمان وبطانته وقتلها إيّاه، استهل الإمام عليه السلام الخطبة بمعرفة اللّه وبيان صفاته الجلالية والجمالية؛ كونها دعامة السعادة والفلاح والصلاح الفردى والاجتماعى. وقد ذكر ثمان صفات فى عبارات قصيرة عميقة المعنى بما يعجز الفلاسفة والمتكلّمون عن الوقوف على كنهها.

فقد قال عليه السلام:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ»

أجل، حين نتأمل عجائب

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۶

الخلقة إلى جانب الأسرار والنظم التى تكتنف خلق الأرض والسماء والإنسان والحيوان لا ـ نملك سوى التسليم بأنّ هنالك إرادة حكيمة وقادرة عالمة وراء كل تلك الآثار البديعة التى لا يسعها أن تكون وليدة هذه الطبيعة الصماء، وهذا هو برهان النظم الذى أشار إليه القرآن الكريم والروايات الإسلامية بفضله أدل دليل على معرفة اللّه.

ثم قال فى بيان الصفة الثانية:

«وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ»

والعبارة فى الواقع إشارة إلى برهان الوجوب والإمكان؛ ذلك أنّ سلسلة المخلوقات التى ارتدت لباس الوجود خلف بعضها البعض لا يمكنها الاستمرار إلى مالانهاية فكل حادث مخلوق، لأنّ عدم تناهى المعلول يحتاج بالتالى إلى علّة أزلية وغنية عن الخلق والتى يصطلح عليها بواجب الوجود.

وقال فى الصفة الثالثة:

«وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَاشَبَهَ لَهُ»

والسؤال الذى يطرح نفسه: كيف يكون تشابه المخلوقات دليلًا على عدم الشبيه للّه؟ الجواب: أنّ هذا الشبه دليل على تركب هذه المخلوقات، لأنّ لها قدراً مشتركاً من قبيل الزمان والمكان وبعض الإشكال والعوارض الظاهرية، كما هنالك بعض الجهات المختلفة التى تميزها عن بعضها. وبناءً على هذا فإنّ كل مخلوق مركب ممّا به الاشتراك وما به الامتياز (الجهات المشتركة والجهات المختلفة) ومن الطبيعى أن تكون هذه المخلوقات المركبة محتاجة (محتاجة إلى أجزائها ومن يركبها) ومن هنا نفهم أن لا شبيه للّهوإلّا للزم التركيب والحاجة على ذاته المقدّسة.

وقال فى الصفة الرابعة والخامسة:

«لَا تَسْتَلِمُهُ ۲۹] الْمَشَاعِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ،

لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ»

والدليل واضح على تعذر بلوغ مشاعر الإنسان بما فيها الحواس الظاهرية والباطنية والعقل كنه ذاته المقدّسة؛ فهو وجود غير محدود ولامتناهٍ من جميع الجهات، والعقل البشرى

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۷

محدود من جميع الجهات، وغير المحدود لا يسعه المحدود مطلقاً. من جانب آخر فقد ملأت آثار وجوده أركان العالم بأسره بحيث لا يسع شىء حجبها، فذاته خفية على الجميع وآثاره ظاهرة للجميع.

والعبارة

«لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ ...»

دليل على خفاء ذاته المقدّسة وظهور آثاره، لاختلاف الخالق والمخلوق والحاد والمحدود والرب والمربوب. فالمصنوع الممكن

الوجود لا ـ يمكنه إدراك الصانع الواجب الوجود، والمخلوقات المحدودة لا يسعها درك الخالق اللامحدود والموجودات الخاضعة لربوبية الرب يتعذر عليها إدراكه كما هو. جدير بالذكر أنّ طائفة من شرّاح نهج البلاغة ذهبوا إلى أنّ هذه استدلالات على جميع الصفات المذكورة سابقاً، إلّاأنّ التفسير الأول يبدو أنسب.

وقال فى بيانه للصفة السادسة والسابعة:

«الْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَالْخَالِقِ لَا بِمَعْنى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ ۳۰]»

فحين يقال: اللَّه واحد يتصور البعض أن مفهوم ذلك أنّه واحد وليس بثان، وهذا خطأ محض؛ لأنّ مفهوم هذا الكلام إمكانية تصور ثانٍ له ولكن لا ـ وجود له؛ والحال لا ـ يمكن تصور ثانٍ لذاته المقدّسة، وهل يمكن تصور التعدد فى الذات اللامحدودة من جميع الجهات؟! لو تصور التعدد لكان كلاهما محدودا. وعليه فتوحيد الذات الإلهية ليس بمعنى الوحدة العددية، بل بمعنى الوحدة بالنسبة للشبيه والنظير وما شاكل ذلك، لا فى الذهن ولا فى الخارج. وحين يقال: قد يقتدح إلى ذهن البعض أنّ الخالق شمّر عن ساقيه ويديه وانطلق من هنا إلى هنالك واجهد نفسه لخلق الموجودات؛ على غرار ما نقوم به حين نصنع بعض الأشياء، كلا:

«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[۳۱].

ثم تطرق إلى الصفة الثامنة والتاسعة فقال:

«وَالسَّمِيعِ لَابِأَدَاةٍ، وَالْبَصِيرِ لَابِتَفْرِيقِ آلَةٍ»

. والتوضيح الذى أورده الإمام عليه السلام منشأه ما يتوارد إلى الأذهان حين الحديث

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۸

عن السمع والبصر وما شابه ذلك إلى سمعنا وبصرنا الذى يتمّ من خلال بعض الوسائل من قبيل الاذن والعين، والحال سمعه وبصره سبحانه ليس بأداة، بل بحضور ذاته المطلقة فى كل مكان وفى ظاهر جميع الأشياء وباطنها. العبارة

«لَا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ»

يمكن أن تكون إشارة إلى نقطة وهى أنّ الإنسان إذا أراد رؤية صورة كاملة- بيت مثلًا- ينبغى له أن يركز بصره على مختلف جوانب ذلك البيت، ليرى أعلاه وأسفله وشرقه وغربه، وتنتقل عدّة صور إلى الدماغ ليقوم بترتيبها للظفر بصورة صحيحة تامة عن البيت. وبناءً على هذا فوظيفة العين الأولى، التقاط الصور المستقلة، والثانية، تحويلها إلى الدماغ ليركبها مع بعضها. وهكذا بشأن مشاهدة حركة معينة- كحركة إنسان مثلًا- والعملية أشبه بالتقاط الأفلام والتصوير، حيث تلتقط العين كل لحظة صورة لشكل ذلك الإنسان وهيئته، ثم تنقلها إلى الدماغ ليركب هذه الصور واظهار الحركة.

قال فى بيانه للصفة العاشرة والحادية عشرة:

«وَالشَّاهِدِ لَابِمُماسَّةٍ، وَالْبَائِنِ لَا بِتَرَاخِى مَسَافَةٍ»

. إشارة إلى أنّ حضور اللَّه فى كل مكان لا بمعنى الحضور المكانى من خلال الاتصال بالأشياء، بل حضوره بمعنى احاطته الوجودية بكل شىء، كما أنّ مباينته عن الأشياء ليس على نحو المسافة المكانية أو الزمانية، بل بمعنى أنّ ذاته فى ذروة الكمال وما سواه فى غاية النقص. لعل هنالك من يتصور تناقض هذه الصفات مع تلك التى ستأتى، فالبعد والقرب والعلو والدنو والظاهرية والباطنية من الصفات التى لا يسع تفكيرنا جمعها مع بعضها؛ والأمر كذلك بالنسبة لهذه الصفات أن استعملت بشأن المخلوقات المحدودة من حيث الزمان والمكان ومختلف الجهات، غير أنّ هذه الصفات المتضادة يمكن جمعها فى الذات المقدّسة اللامتناهية، فرغم حضوره المطلق فى كافة الأمكنة (بمعنى إحاطته العلمية بجميع الأشياء) لكن ليس له حضور مكانى فى أى مكان، ذلك لأنّه ليس بجسم ليحتاج إلى مكان.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۹

ثم خاض الإمام عليه السلام فى بيان الصفة الثانية والثالثة عشرة فقال:

«وَالظَّاهِرِ لَا بِرُؤْيَةٍ، وَالْبَاطِنِ لَابِلَطَافَةٍ»

أجل، فهو أظهر جميع الأشياء، فآثاره قد ملأت العالم بأسره فاصبح الوجود قبساً من صفات جلاله وجماله، وهو خفى لا على شاكلة الأشياء اللطيفة الغاية فى الصغر كالهواء، بل بمعنى عجز العقول عن إدراك كنه ذاته.

والصفة الرابعة عشرة:

«بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ»

أى إن قيل إنّ اللّه بائن عن كل شىء، فذلك لا يعنى أنّه بعيد عنّا، بل هو قريب منّا بمقتضى الأدلة الفلسفية القطيعة وصريح الآية القرآنية: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»[۳۲]، والمعنى أنّ قدرته قهرت كل شىء، فأين نحن من اللّه، وأين الثرى من الثريا؟ كما أنّ بينونة الأشياء عنه تعنى خضوع كل شىء لإرادته.

وقال فى الصفة الخامسة عشرة التى تنزه الذات عن الوصف:

«مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّزَهُ ۳۳]».

وتوضيح هذا الكلام: إننا كمخلوقات نعيش فى عالم الممكنات إنّما نقارن كل شىء بالنسبة لنا، ونصف اللّه فى أغلب الأحيان بأوصافنا الناقصة والمحدودة فنضفى عليه بعض صفات الممكنات وهذا هو وادى التشبيه الخطير الذى حذرتنا الآيات والروايات من السقوط فيه. ومن هنا قال الإمام عليه السلام من وصف اللّه بهذه الصفات فقد حده ومن حد اللّه فإنّه سيتصور له شبيها لا محال وعليه سيجعله فى قالب الأعداد فإن فعل ذلك أنكر عليه أزليته وأبديته، ذلك لأنّ هاتين الصفتين تترشحان من ذاته الغنية عن الحدود، كما أنّ من يسأل عن كيفية ذاته فقد نعته بصفات المخلوقات، ومن سأل عن مكانه أو زمانه فقد افترضه جسماً يقع ضمن

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۰

دائرة المكان والزمان. ولعل هنالك من يرى الوصف المذكور ليس بقوة الأوصاف السلبية الثلاث عدم الحدودية ونفى الكيفية ونفى المكان على الذات المقدّسة.

أمّا الصفات السادسة عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة، فقال فى بيانها عليه السلام:

«عَالِمٌ إِذْ لَامَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لَامَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لَامَقْدُورٌ»

. إمّا أنّه عالم إذ لاـ معلوم فذلك لأنّه عالم بذاته وذاته مصدر جميع الموجودات، وعليه فالعلم بالذات هو فى الواقع علم بجميع الموجودات التى لبست ثوب الوجود تدريجياً فى العالم. وإمّا أنّه ربّ قبل وجود الموجودات فذلك لأنّ القدرة على الربوبية وربوبية الموجودات عين ذاته المقدّسة، على غرار قولنا: إنّ فلاناً مديرا ومدبرا فى الوقت الذى لم يتسلّم فيه لحدّ الآن زمام الإدارة.

وأخيراً إن قيل هو قادر قبل وجود المقدور فإنّما يستند ذلك أيضاً إلى أنّ قدرته عين ذاته، وهكذا كقولنا إنّ فلاناً قادر على القيام بالعمل الفلانى ولم يقم به لحدّ الآن. وزبدة الكلام فإنّ صفاته كالعلم والقدرة وجميع الصفات الثبوتيه عين ذاته تبارك وتعالى، وعليه فقد كان كل شىء قبل أن يوجد أى شىء، ولو تمعنا قليلًا فهو الآن كل شىء وكل ما سواه لا شىء.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۱

القسم الثانى

منها: «قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لَامِعٌ، وَلَاحَ لَائِحٌ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ؛ وَاسْتَبْدَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْماً، وَبِيَوْمٍ يَوْماً؛ وَانْتَظَرْنَا الْغِيَرَ انْتِظَارَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرَ. وَإِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ؛ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ. وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ، وَذلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلَامَةٍ، وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ.

اصْطَفَى اللَّهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ، وَبَيَّنَ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْم، وَبَاطِنِ حِكَم. لَا تَفْنَى غَرَائِبُهُ، وَلَا تَنْقَضِى عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَم، وَمَصَابِيحُ الظُّلَم، لَا تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ. قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءُ الْمُسْتَشْفِى، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفِى».

الشرح والتفسير: إنتظار الفرج

يعتقد البعض من شرّاح نهج البلاغة- كما ذكرنا سابقاً- بأنّ هذه الخطبة ولاسيما هذا المقطع منها يعالج مسائل الخلافة عقب مقتل عثمان وبيعة الأُمّة للإمام عليه السلام بالخلافة، والشاهد على ذلك عباراتها وخاصة مايتعلق بأئمة المسلمين. على كل حال فإنّ الإمام عليه السلام أشار هنا بادىء الأمر إلى ظهور خلافة الحق فقال:

«قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لَامِعٌ، وَلَاحَ لَائِحٌ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ»

تفيد هذه العبارات بما لا يقبل الشك أنّ عهد حكومة عثمان كان من العهود المظلمة فى التاريخ الإسلامى، وذلك لأنّ بطانته وقرابته استاثرت بالسلطة وتسلطت على كافة المقامات المهمّة فى البلاد

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۳۲

وجعلت بيت المال جزءاً من ملكيتها الشخصية فتعالت صرخات المحرومين إلى عنان السماء، ثم أشرقت من بعده شمس العدالة واحترقت سحب الظلم لتعود الحكومة إلى سابق عزّها على عهد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله. جدير ذكره، هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة بشأن العبارات الثلاث الأولى، هل العطف فيها عطف تفسيرى وأنّها تبيّن مطلباً واحداً (بزوغ شمس ولاية الحق) بعدّة عبارات، أم أنّ كل عبارة تشير إلى معنىً معين. ويبدو الصحيح أنّ لكل عبارة معنىً معيّن؛ لأنّ الشمس إنّما تجتاز ثلاث مراحل حين البزوغ؛ الأولى: الخروج من الأفق، والثانية: نشر شعاعها على سطح الأرض، والثالثة: ارتفاع قرص الشمس وتوسطها للسماء وطلوعها للجميع. وكل عبارة من العبارات الثلاث تشير إلى مرحلة من هذه المراحل؛ أى أشرقت شمس الولاية وألقت بأشعتها على الأرض وبالتالى ارتفعت لتستقر فى قلب السماء.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالقول:

«وَاسْتَبْدَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْماً، وَبِيَوْمٍ يَوْماً؛ وَانْتَظَرْنَا الْغِيَرَ انْتِظَارَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرَ»

. حيث تشير هذه العبارات بوضوح إلى أنّ الحوادث التى وقعت على عهد عثمان لم تكن بعيدة عن التوقع، فكلّ شخص عاقل كان يتكهّن بأنّ مثل هذه الحكومة التى تتسلم فيها القرابة مقدّرات البلاد دون رادع أو وازع سوف لن يكتب لها النجاح وأنّها ترعرع نطفة الثورة فى رحمها، وهذه سنّة إلهية جارية طيلة التاريخ، ولعل مَن أشكل على على عليه السلام ما ورد فى هذه العبارة أنّه كان ينتظر مقتل عثمان، قد غفل عمّا ذكرناه آنفاً من أنّ تلك الأحداث كانت متوقعة من قبل شخص فطن، بعبارة أخرى إنّما كان ذلك نتيجة طبيعية لتلك الأعمال. أضف إلى ذلك فانّ الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بقتل عثمان- بل ينتظر التغييرات على غرار من ينتظر المطر حين الجفاف؛ وياله من تعبير رائع! فالبلاد الإسلامية أصبحت إثر ظلم بطانة عثمان وكأنّها صحراء مقفرة وقد أمطرتها السماء بزوال عثمان وظهور حكومة العدل العلوى. وقد تعرض ابن أبى الحديد المعتزلى لهذه القضية من خلال

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۳۳

إثارته لسؤال والإجابة عنه.

فقد سأل نفسه بادىء الأمر: هل يصح حسب عقيدة المعتزلة أن ينتظر على عليه السلام قتل عثمان انتظار نزول المطر حين الجفاف؟ أو ليس هذا دليلًا على حقّانية الشيعة؟

ثم قال ابن أبى الحديد فى مقام الجواب عن هذا السؤال: إنّ علياً عليه السلام لم يقل كنّا ننتظر قتله، بل كان ينتظر بعض التغييرات

كعزله عن الخلافة، لأننا نعتقد أنّه كان يرى أعماله توجب ضرورة عزله لا قتله، وهذا ينسجم مع عقيدتنا، كما تعرّض لسؤال آخر وهو: هل تعتقد المعتزلة أنّ علياً عليه السلام كان يعتبر عثمان فاسقاً يجب عزله عن الخلافة؟ فيجيب: إنّ المعتزلة لا ترى ذلك، بل تعتقد إنّ علياً عليه السلام كان يرى عثمان شخصاً ضعيفاً لا يستطيع تدبير أمور المسلمين، وذلك لأنّه قرب بطانته وسلّطهم على بيت مال المسلمين حتى قاموا عليه ۳۴].

ثم تطرّق الإمام عليه السلام مواصلًا كلامه إلى منزلة أئمة الهدى فقال:

«وَإِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرَفَاؤُهُ ۳۵] عَلَى عِبَادِهِ؛ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ.

وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ»

. وهذه العبارة تفيد أنّ نصب الإمام عليه السلام من قبل اللَّه تعالى لا من قبل الناس وإن كانت هنالك من بيعة وإنتخاب فبغية تنسيق الأعمال والنهوض بمستوى الأُمّة وتطوير شؤونها، والمفردة

«قُوَّامُ»

إشارة إلى تدبير شؤون الخلق والعرفاء جمع عريف إشارة إلى أنّ هؤلاء الأئمة بفعل معرفتهم بالآخرين وعلمهم بالظروف الزمانية والمكانية وخبرتهم بمصالح الناس ومفاسدهم إنّما يضعون كلّ فرد فى موضعه المناسب ويباشرون كلّ عمل بموعده وفى وقته.

وأمّا العبارة

«وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ

...

وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ»

تأكيد لما قيل فى العبارات السابقة؛ فلو سلّمنا أنّهم نُصبوا من قبل اللَّه، فمن تبعهم وسار على نهجهم وقبلوا عمله كان من الداخلين إلى الجنّة، ومن أنكرهم فقد أنكر فى واقع الأمر أوامر اللَّه،

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۴

ومثل هذا الفرد يدخل النار. وطبعاً كلّ هذه العبارات تنسجم مع المدرسة الشيعية التى ترى نصب الإمام من قبل اللَّه بواسطة النبى أو مَن سبقه من إمام، وتراه معيار الفرقان بين الحق والباطل، وتعتقد بعدم اتّصاف من يختاره الناس بهذه المقامات ولعله يسير فيهم بالخطأ والظلم والعدوان، ومن هنا ورد فى الحديث الشريف:

«مَن ماتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمامَ زَمانِهِ ماتَ مِيتَةَ الجاهِلِيةِ»[۳۶]

والغريب إصرار ابن أبى الحديد على أنّ هذه العبارة صادقة على جميع الخلفاء من بعد النبى صلى الله عليه و آله والحال عرض الإمام عليه السلام فى العبارات السابقة بالذم الشديد لحكومة عثمان؛ الأمر الذى يتناقض صراحة مع ما استنبطه ابن أبى الحديد. بل كيف يكون ذلك الخليفة الضعيف- الذى جعل كافة مناصب الدولة الإسلامية وبيت مال المسلمين ومقدّراتهم تحت تصرف قرابته الانتهازية الهزيلة من عبدة الأهواء حتى قامت ضدّهم جموع المسلمين وأباحوا دماءهم وقد صمت إزاء ذلك أغلب الصحابة- مصداقاً لقول الإمام عليه السلام: قوّام اللَّه على خلقه وعرفاؤه على عباده؟ ليدخل من أذعن له الجنّة ومن أنكره النار؟! ورد فى الحديث الشريف أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قال لأمير المؤمنين على عليه السلام:

«ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ أَنَّهُنَّ حَقٌّ، إِنَّكَ وَالأَوصِياءِ مِنْ بَعدِكَ عُرَفاءٌ، لايُعْرَفُ اللَّهَ إلّا بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِكُم، وَعُرَفاءٌ لايَدْخُلُ الجَنَّةَ إلّامَنْ عَرَفَكُم وَعَرَفْتُمُوه، وَعُرَفاءٌ لا يَدْخُلُ النَّارَ إِلّا مَنْ أَنْكَركُم وَأَنْكَرْتُمُوهُ»[۳۷].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أعظم النعمة التى منّ اللَّه بها على المسلمين:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ»

أجل، إنّ اللَّه تعالى خصّكم بهذه النعمة العظيمة ورآكم أهلًا للذود عنه.

ثم أضاف:

«وَذلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلَامَةٍ، وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ»

. ووضح ذلك بالقول:

«اصْطَفَى اللَّهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ، وَبَيَّنَ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْم، وَبَاطِنِ حِكَمٍ»

. لعلّ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۵

الضمير فى

«منهجه» و «حججه»

يعود إلى اللَّه أو الإسلام والنتيجة واحدة لكليهما، والعبارة

«ظَاهِرِ عِلْم»

إشارة إلى الأدلة العقلية التى تثبت حقانية الإسلام، كما أنّ العبارة

«بَاطِنِ حِكَم»

إشارة إلى أسرار الأحكام الشرعية المبيّنة فى الأدلة النقلية.

نعم، الإسلام دين السلامة وشرعة الكرامة، ودعوته أينما كان إلى الحب والسلام والوئام والتحذير من البغض والعنف والعداوة حيث يخاطب المؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»[۳۸]. أضف إلى ذلك فإنّه مصدر الكرامة الإنسانية وداعية العدل والمساواة والحرية وتنمية الفكر والبيان والورع والتقوى ومكارم الاخلاق. والحق أنّ المسلمين أفضل سند ودرع للذود عن الإسلام وقد ضحّوا بالغالى والنفيس طيلة التاريخ من أجل إسلامهم وسعوا جاهدين لحفظ بيضته وكيانه، ولما كانت هذه العبارات تختزن إشارة واضحة إلى القرآن الكريم، فقد أردفها ببيان خصائص هذا الكتاب السماوى بما يربو على عشر صفات فقال:

«لَا تَفْنَى غَرَائِبُهُ، وَلَا تَنْقَضِى عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ ۳۹] النِّعَمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ، لَاتُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ»

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى ست صفات مهمة للقرآن الكريم كل واحدة منها أروع من الأخرى فذكر بادىء الأمر أن غرائب القرآن (صفاته البارزة الفريدة) لا تفنى أبداً ولا يعتريها غبار القدم فتتآكل، فهى غضّة طرية على الدوام، وأشار فى الصفة الثانية إلى التجدد والحيوية التى تبدو عليه كلّ يوم فقال: إنّها لا تنقضى؛ وعليه فالفارق بين

«الغرائب»

و

«العجائب» و «الفناء» و «الانقضاء»

أن الأُولى إشارةالصفات البارزة التى كان وسيظل يتحلى بها القرآن، والثانية إشارة إلى نقاط مهمّة تظهر كلّ يوم من تقادم الزمان وكثرة القراءة، وهذا ما ورد فى الحديث المروى

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۶

عن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل:

«ما بالُ القُرآنِ لايَزدَادُ عَلى النَّشرِ وَالدَّرس إلّا غَضَاضَةً؟ قَالَ: لأَنَّ اللَّهَ تعالى لَمْ يَجْعَلْهُ لِزمانٍ دُونَ زَمانٍ وَلا لِناسٍ دُونَ ناسٍ فَهُو فِى كُلِّ

زَمانٍ جَدِيدٍ وَعِنْدَ كُلِّ قَوم غَضٌّ إلى يَوم القِيامَةِ»[۴۰].
ثم شبّهه فى الصفة الثالثة بالأرض المليئة بالنبات وتفيض بالنعم فى فصل الربيع، ونعلم جميعاً ما عليه نبات الربيع من طراوة ولطافة وطعم عذب، كما شبّهه فى الصفة الرابعة بمصابيح النور التى تخترق دهاليز الظلمة وتضىء بنورها كلّ شىء، بينما حصر فى الصفتين الخامسة والسادسة سبل نيل الخيرات بالقرآن، إشارة إلى خطأ من يبحث عن مفاتح الخير خارج القرآن ويستعين بغيره فى ضياء عتمة القلب وظلمة المجتمع.
ثم اختتم كلامه بالإشارة إلى أربع صفات أخر فى أنّ القرآن قد أوضح الحلال والحرام والمباح، فهو الشفاء لمن استشفاه والكفاية لمن استكفاه
«قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ ۴۱]، وَأَرْعَى ۴۲] مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءُ الْمُسْتَشْفِى، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفِى»
. فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه الأوصاف إلى النظام القانونى القرآنى حيث بين الأصول الكلية للحلال والحرام بصورة تامة وعرض سبل مواجهة الأمراض الأخلاقية والمفاسد الإجتماعية على عمق هذه العبارة مالم يتعرف على القرآن. أجل إنّ علاج الأمراض الخلقية والإنحرافات الفكرية والمشاكل الإجتماعية كافّة، فى القرآن. ومن كان القرآن معه وكان مع القرآن فقد ظفر بكل شىء، كما قال الإمام عليه السلام فى خطبة أخرى
«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى»[۴۳]
. ومن هنا بلغ
نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۷
ذلك المجتمع شبه الوحشى فى الجاهلية تلك المنزلة المرموقة فى ظل تعاليم القرآن بعد أن كان يعيش منتهى الفقر الأخلاقى والإقتصادى والإجتماعى، وما يجدر ذكره أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة يرى أنّ الصفات المذكورة تعود إلى الإسلام لا ـ القرآن والضمائر كذلك، ولكن بالنظر إلى ورود مثل هذه العبارات فى سائر خطب نهج البلاغة بشأن القرآن، يتضح أنّ المراد بتلك الأوصاف هو القرآن وإن لم ترد مفردة القرآن فى نصوص العبارة، ناهيك عن عدم اختلاف النتيجة مهما كان المراد[۴۴].
نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۹

الخطبة ۱۵۳

اشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام

نظرة إلى الخطبة[۴۵]

هذه الخطبة قطوف مختارة من خطبة طويلة للإمام عليه السلام. يتحدث فى القسم الأول عن صفات الأفراد الفاسدين والمفسدين ليتعرّف عليهم الناس وليبتعدوا عنهم.
وأشار فى القسم الثانى إلى مميزات الغافلين الذين لا يفيقون إلّاحين ضياع الفرصة وفوات الأوان فيبتلون بشر أعمالهم. ويعرض فى القسم الثالث بالوعظ والنصح لهم لينهضوا من سباتهم ويصلحوا أمر آخرتهم. وتطرق فى الفصل الرابع إلى بعض الأمور الخطيرة التى تحبط الأعمال وتحول دون النجاة. ويختتم الخطبة فى القسم الخامس بالمقارنة بين صفات البهائم والسباع والناس من أصحاب الدنيا

والمؤمنين.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۱

القسم الأول

«وَهُوَ فِی مُهْلَةٍ مِنَ اللَّهِ یَهْوِی مَعَ الْغَافِلِینَ، وَیَغْدُومَعَ الْمُذْنِبِینَ، بِلَا سَبِیلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ».

الشرح والتفسير

يعتقد بعض شرّاح نهج البلاغة- كما ذكرنا سابقاً- أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة أثناء حركته إلى البصرة للقضاء على فتنة طلحة والزبير وعائشة وضمّنها جانباً من الوعظ والنصح والإرشاد. تحدّث عليه السلام فی هذا المقطع من الخطبة عن الإنسان الضال- والذی يتجلى نموذجه فی مشعلی فتيل معركة الجمل- على ضوء أربع صفات تميّزه، فقد منحه اللَّه الفرصة فی عمره ليباشر الأعمال الصالحة من أجل الظفر بالسعادة الأبدية، ولكنه لا ينفك عن ملازمة الغافلين والمذنبين الذين يسلكون به مهاوی الردى، دون أن يسير على الحق ويقتدی بزعيم حق

«وَهُوَ فِی مُهْلَةٍ مِنَ اللَّهِ یَهْوِی ۴۶] مَعَ الْغَافِلِینَ، وَیَغْدُومَعَ الْمُذْنِبِینَ، بِلَا سَبِیلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ»

. نعم أنّ أسباب بؤسه وشقائه تكمن فی أربعة أمور؛ ملازمة الغافلين والآثمين، وعدم السير على طريق الحق إلى جانب عدم الإقتداء بالإمام الصالح.

ولعلّ العبارة

«إِمَامٍ قَائِدٍ»

إشارة إلى الإمام المعصوم عليه السلام أو كلّ عالم صالح من أتباع المعصومين عليهم السلام وعلى كلّ حال فإنّ الإمام عليه السلام يفصح عن دور القائد الصالح

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۲

فی هداية الناس ونجاتهم، كما يوضح دور ملازمة أهل الغفلة والمعصية فی بؤس الإنسان وسقوطه.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۳

القسم الثانی

منها: «حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِیَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِیبِ غَفْلَتِهِمُ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلًا، فَلَمْ یَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ.

إِنِّی أُحَذِّرُكُمْ، وَنَفْسِی، هذِهِ الْمَنْزِلَةَ. فَلْیَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِیرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً یَتَجَنَّبُ فِیهِ الصَّرْعَةَ فِی الْمَهَاوِی، وَالضَّلَالَ فِی الْمَغَاوِی وَلَا یُعِینُ عَلَى نَفْسِهِ الْغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِی حَقٍّ، أَوْ تَحْرِیفٍ فِی نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ».

الشرح والتفسير: الموعظة البالغة

لما أشار الإمام عليه السلام إلى غفلة أصحاب الدنيا أردفها بعدم ديمومتها وطرحها قريباً حين يصفعهم الموت ويخرجهم من غفلتهم، وعليه فمدى هذه الغفلة

«حَتَّى إذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ ۴۷] غَفْلَتِهِمْ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلًا»

أجل، عمر الدنيا قصير فإن أشرف الإنسان على الموت وأُزيلت عن عينه البرزخية حجب الغفلة ورأى أعماله آنذاك عندئذٍ يتغيّر كلّ شيء ويواجه حقيقة الموقف. ومن هنا يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة واضحة

«فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ ۴۸]»

. قد ظن هؤلاء بخلودهم في الدنيا

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۴۴

بما جنوا من تلك الأموال الطائلة والقصور الفارهة والبساتين الواسعة والخدم والحشم لكنّهم ودّعوها فى الحال وأصبحوا تحت التراب.

كأنّ العبارة الأولى تشير إلى أولئك الأفراد الذين لم ينتفعوا قط بإمكاناتهم (مثلًا شيّدوا قصراً فلم يتنعموا به حتى أتاهم الأجل). والعبارة الثانية إشارة إلى أولئك الذين تمتعوا قليلًا بإمكاناتهم ثم حال بينهم وبينها الموت من قبيل ذلك الذى بنى قصراً، وما أن حلّ فيه حتى أخرجه الموت منه.

ثم استطرد الإمام عليه السلام ليسدى بعض النصائح والمواعظ التى تقود إلى السعادة والفلاح بعد أن حذّر من الحياة العصيبة التى يعيشها أهل الغفلة

«إِنِّى أُحَذِّرُكُمْ، وَنَفْسِى، هذِهِ الْمَنْزِلَةَ»

. ثم بين أثر ذلك، سبيل النجاة من هذه الغفلة القاتلة من خلال خمسة تعاليم فقال:

«فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً[۴۹] وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِى الْمَهَاوِى ۵۰]،

وَالضَّلَالَ فِى الْمَغَاوِى ۵۱]»

فالإمام عليه السلام يخاطب نفسه والآخرين بادىء الأمر ليأخذ النصح موضعه من قلوب الآخرين، وذلك لأنّ المستمع إنّما يتفاعل مع الواعظ الذى يمزج القول بالعمل ولا يترفع عن الآخرين. ثم يحذّر الجميع من أنّ اللّه أسبغ عليهم ما لا يُحصى من النعم وأودعهم مختلف الإستعدادات والقابليات بغية استثمارها والإنتفاع بها من خلال تفعيل السمع بالأذن والنظر بالعين والإنفتاح على تجارب الآخرين وسلوك السبيل القويم الذى يجنبهم الإنحراف والضلال.

وأخيراً يحذّر الإمام عليه السلام من تمكين الغواة من النفس:

«وَلَا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغُوَاةَ[۵۲] بِتَعَسُّفٍ ۵۳] فِى حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِى نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ»

. إشارة إلى أنّ

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۴۵

البعض من الأفراد الضعاف النفوس والذين يميلون إلى الدعة والراحة حين يواجهون الغواة من الأفراد يسعون إلى التغاضى عن بعض الحقائق أو المداهنة فى بيان الحق أو الخشية من الصدق والصراحة بهدف الحدّ من معارضتهم وهذا ما يؤدّى إلى تسلط أولئك الغواة وتفاقم جرأتهم بما يجعل من المتعذر الوقوف بوجوههم. وعليه لابدّ من اعتماد الصراحة المفعمة بالأدب والشفقة فى بيان الحقائق والإبتعاد عن الخشية، فالغواة عادة ما يتراجعون وينكسرون إزاء المواقف الشجاعة، وقد دلّت بعض النماذج التى حفل بها التأريخ على أنّ الأفراد الذين يحرّفون الحقائق ويكتمون الواقع إنّما أسهموا فى مضاعفة المشاكل التى جرّت عليهم وعلى مجتمعاتهم الويلات. فقصة قرية الحوأب المعروفة فى معركة الجمل معروفة. حيث سمعت عائشة من النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال لها:

«فِيكَنَّ مَنْ تَنبَحها كِلابُ الحَوأب»

. وحين انطلق أصحاب الجمل إلى البصرة وبلغوا الحوأب سمعت عائشة ذلك النباح، فسألت عن اسم الموضع فقيل لها: الحوأب. فعزمت على العودة إلى المدينة، فاعترضها محمد بن طلحة وقال لها: هذه ليست الحوأب، ثم أتى ببعض الأفراد وشهدوا لها زوراً، فواصلت مسيرها.

وما أكثر القصص من هذا القبيل فى الماضى والحاضر[۵۴].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۷

القسم الثالث

«فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مَنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- مِمَّا لَابُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ؛ وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذلِكَ إِلَى غَيْرِهِ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِىَ لِنَفْسِهِ؛ وَضَعْ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ كِبْرَكَ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً، فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ. فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ! «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ»».

الشرح والتفسير: الحذر الحذر

خاض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة بعد تلك التحذيرات السابقة فى إسداء الوعظ والنصح بعبارات قصيرة عميقة المعنى فخاطب مستمعه قائلًا:

«فَأَفِقْ [۵۵

أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مَنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ»

. إشارة إلى أنّ زخرف الدنيا والمال والمقام والشهرة تسكر الإنسان وتقذفه فى سبات الغفلة وتضطرّه للعجلة دون التروى والتريث، وتورث هذه الأمور مختلف المعاصى والذنوب والأخطاء، وهل يرتجى من السكران سوى الخطأ والزلل؟

ثم قال عليه السلام:

«وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّي ۵۶]- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۸

وَآلِهِ وَسَلَّمَ- مِمَّا لَابُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ؛ وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذلِكَ إِلَى غَيْرِهِ وَدَعْهُ وَمَا رَضِىَ لِنَفْسِهِ»

فقد دعى بادىء الأمر إلى الاتباع التام للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله، فما يقوله عليه السلام هو الوحى السماوى الذى يهدف إلى سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة. ثم يوصى عليه السلام بمخالفة من يخالف ذلك مهما كثر عدد المخالفين واتباع الحق دون أدنى شك وريبة أو إكتراث للآخرين.

وواصل عليه السلام نصحه قائلا:

«وَضَعْ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ[۵۷] كِبْرَكَ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ»

فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه الوصايا الثلاث إلى أساس الشر والفساد الذى يتمثل فى الفخر والكبر التى لن تجعل الإنسان يذوق طعم السعادة ما لم يطرحها جانباً، وسيكون مصيره مصير الشيطان الذى قاده نحو فخره وكبره. وتطرق عليه السلام بعد ذلك إلى القبر الذى يسوق نسيانه الإنسان إلى طول الأمل والانغماس فى الدنيا، وهو الموضع الذى يتساوى فيه الجميع وهذا ما ورد فى الكلمة القصيرة رقم ۳۹۸ من قصار الكلمات وهذا يدلّ على أنّ السيد الرضى كان يقتطف أحياناً الكلمات القصار من بعض الخطب الطويلة.

ثم أورد عليه السلام ثلاث نصائح أخرى منسجمة مع بعضها، فقال:

«وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً، فَامْهَدْ[۵۸] لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ».

کيف ينتظر الإنسان من اللّه أن يعفو عن سيئاته ويجازيه بالاحسان وهو يظلم الآخرين ويقابل الاحسان بالإساءة؟ أم کيف ينتظر الورد من يزرع الشوک؟! الواقع

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۹

هو أنّ هذه النصائح مستقاة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فاللّه: «مِلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» وفى الحديث:

«الدُّنيا مَزرَعَةُ الآخِرةِ»

والآية الشريفة: «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ»[۵۹] والآية الكريمة: «وَمَا تُقَدِّمُوا لِانفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ»[۶۰]. ثم يعود الإمام عليه السلام فى ختام الخطبة الى ذات المطلب الذى ابتدأ به ليوقظ الغافلين ثانية من سباتهم ويسوقهم إلى الجد والاجتهاد فيقول:

«فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ!

«وَلَا يُنَبِّئُکَ مِثْلُ خَبِيرٍ»». العبارة الأخيرة المقتبسة من الآية ۱۴ من سورة فاطر إشارة إلى أنّ أى شخص لا يضاهى القائل فى بيانه لحقيقة الموت والحياة وحاضر الإنسان وغده ومصيره فى المستقبل وعاقبته فى الآخرة.

وقد قال أحد شرّاح نهج البلاغة: إنّ من يتأمل خطب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله وقصار كلماته يكتشف بوضوح أنّ أحداً لا يسعه التحدث بهذه الدقة والرقة عن الدنيا وماهيتها وبدايتها ونهايتها.

قال الشاعر بشأن النصائح الأخيرة فى الخطبة:

هِیَ الدُّنيا تَقُولُ بِمَل فِيهاحَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطشِی وَفَتکِی

فَلْا يَغْرَرَکُمْ حُسْنُ ابْتِسامِیفَقَولِی مُضْحِکٌ وَالفِعلُ مُبکِ [۶۱

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۵۱

القسم الرابع

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّهِ فِی الذِّکْرِ الْحَکِيمِ، الَّتِی عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَی وَيَسْخَطُ، إِنَّهُ لَايَنْفَعُ عَبْداً- وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ- أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لَاقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا: أَنْ يُشْرِکَ بِاللَّهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِیَ غَيْظَهُ بِهَلَاکِ نَفْسٍ، أَوْ يَعُرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَی النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِی دِينِهِ، أَوْ يَلْقَی النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِیَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اعْقِلْ ذلِکَ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَی شِبْهِهِ.

إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا؛ وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَی غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَکِينُونَ.

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ».

الشرح والتفسير: الموبقات الخمس

حذر الإمام عليه السلام مخاطبيه فى المقطع السابق من الخطبة من سبات الغفلة وحثهم على الجد والاجتهاد، ليشير هنا إلى خمسة من الذنوب الكبيرة الخطيرة التى لا يقبل عمل العبد دون التوبة منها، فقال:

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّهِ فِی الذِّکْرِ الْحَکِيمِ، الَّتِی عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَی وَيَسْخَطُ، إِنَّهُ لَايَنْفَعُ عَبْداً- وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ-

أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لَاقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هذِهِ الْخِصَال لَمْ يَتُبْ مِنْهَا»

. العبارة

«وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ»

– مع العلم، يتعذر الإخلاص فى العمل لمن اتصف بهذه الخصال

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۵۲

السيئة– تبدو إشارة إلى الإخلاص المرحلى والآنى حين ينسى فى لحظة كل هذه المساوىء من قبيل التصدق فى سبيل اللَّه ومد العون للفقير، إلّاأنّ هذا الإخلاص لايدوم حتى يحل محله الشرك والنفاق والبدعة.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح هذه الخصال المتمثلة بالشرك وقتل النفس والتهمة والبدعة والنفاق حيث بين كل واحدة منها بعبارة قصيرة فقال:

«أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِىَ غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يَعُرَّ[۶۲] بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِى دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِىَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اعْقِلْ ذلِكَ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ»

. وعلى هذا الضوء فإنّ أول كبيرة هى الشرك. فى عبودية اللَّه؛ وهى الكبيرة التى مالم يتب عنها العبد لن ينال عفو اللَّه ومغفرته «إِنَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»[۶۳].

والكبيرة الأخرى اطفاء الإنسان لغضبه بسفك دم الآخرين، حيث ورد فى القرآن: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا»[۶۴]. ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ العبارة تشمل الانتحار وقتل النفس أيضاً، إلّا أنّ المعنى الأول هو المراد من ظاهر الآية. على كل حال فإنّ البعض اعتبر الآية دليلًا على أنّ قتل النفس البريئة يؤدّى بالقاتل إلى الموت على الكفر، لأنّ الخلود فى جهنم يختص بالكافرين، أمّا بالنسبة للخصلة الثالثة، اتهام الأفراد بما لم يقارفوا من أعمال هو فى الواقع قتل لشخصية الآخرين وإراقة ماء وجوههم. الأمر الذى تعدّه بعض الروايات بمثابة إراقة الدم.

وأمّا الخصلة الرابعة أى البدعة فى الدين بهدف نيل المال والمقام فيكفى فى ذمها ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنه قال:

«أَهْلُ البِدَعِ شَرُّ الخَلْقِ وَالخَلِيقَةِ، أَهْلُ

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۵۳

البِدَعِ كِلابُ أَهْلِ النَّارِ»[۶۵].

وأخيراً خصلة النفاق التى قال بشأنها القرآن الكريم: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ»[۶۶] وقد صرحت ما بعدها من آيات أنّ الإحباط هو نصيب عمل هؤلاء المنافقين الذين لن يهديهم اللَّه.

حقّاً أنّ المجتمع البشرى إذا طهر من دنس هذه الرذائل الخمس لعاش الأمن والسلام والوئام ولحفظت فيه الأموال والأنفس والأعراض، ولتكاتف الجميع على الحبّ والمودة وسارعوا على مدارج السمو والكمال والإبتعاد عن البدعة والشرك، ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالعبارة

«أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ»

معنى معيّن، وبالعبارة

«أَوْ يَمْشِىَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ»

معنى آخر؛ فالأول يشير إلى نفاقه بالنسبه لنفسه، والآخر إلى النفاق بالنسبة للآخرين. ومن هنا جعلوا الصفات المذكورة ستاً، لكن يبدو أنّ كليهما من آثار النفاق، أحدهما باللسان والآخر بالوجه، وعليه فالأفضل جمعهما فى عنوان واحد. القضية الجديرة بالاهتمام ما

أورده بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ هذه الخطبة وإن وردت أثناء المسير إلى البصرة لمواجهة أصحاب الجمل إلى أنّها تشير إلى أنّ الصفات المذكورة موجودة فى أصحاب الجمل؛ ذلك لأنّهم حكموا أهواءهم بدلًا من اللّه من جانب، ومن جانب آخر فإنّهم يسعون لإطفاء غضبهم على على عليه السلام بسفك دماء الأبرياء، كما نسبوا لعلى عليه السلام تهمة قتل عثمان الذى قتل على أيديهم بتحريض الآخرين، كما أنكروا إمامة على عليه السلام ونسبته من رسول اللّه صلى الله عليه و آله فابتدعوا فى الدين ما ليس منه، وأخيراً منعوا الناس من التعرض لقتل عثمان من جهة، ومن جهة أخرى كانوا يتآمرون على قتله خفية. والعبارة

«اعْقِلْ ذلِكَ»

إشارة إلى هذا المعنى ۶۷]. قال الإمام عليه السلام إثر طرحه

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۵۴

لهذه الأمور

«اعْقِلْ ذلِكَ»

، وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ هذه العبارة إشارة إلى مطلب سيرد لاحقاً، إلّاأنّ هذا خلاف التعبير (ذلك).

وأخيراً أشار الإمام عليه السلام فى ختام الخطبة إلى بعض النقاط المهمّة التى لا تبدو بمعزل عن قضية معركة الجمل فقال:

«إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا؛ وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ ۶۸]. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ».

أجل فالمؤمنون الصالحون العاملون خائفون من اللّه وخائفون من خلق اللّه، إمّا خوفهم من اللّه بدليل تكاليفهم ووظائفهم تجاهه، وإمّا خوفهم من خلق اللّه حذراً من هضم حقوق فرد من الأفراد، خلافاً للسباع الذين لا يفكرون سوى فى بطونهم والعدوان على الآخرين.

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام يوجز المظاهر الدنيوية فى ثلاثة أشياء؛ الاهتمام بالبطن والنزعة السبعية والاهتمام بالزينة، فأسند أحدهما إلى البهائم والأخرى إلى السباع إشارة إلى قادة معركة الجمل الذين ساقتهم هذه العناصر إلى تأجيج نار حرب الجمل فسفكوا تلك الدماء ولم يظفروا بأهدافهم (لابدّ من الالتفات إلى أنّ الإمام عليه السلام على ضوء بعض الروايات أورد هذه الخطبة حين سار إلى قتال أصحاب الجمل.

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۵۵

الخطبة ۱۵۴

اشارة

يَذْكُرُ فِيها فَضَائِلَ أهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام ۶۹]

نظرة إلى الخطبة

تدور مطالب هذه الخطبة بصورة رئيسية حول ثلاثة محاور:

۱. فضائل أهل البيت عليهم السلام وعلومهم ومعارفهم الخارقة ووصية الناس باتباعهم.

۲. بحث بشأن ارتباط الظاهر بالباطن وأنّ طهارة الباطن عادة ما تؤدى إلى طهارة الظاهر لأعمال الإنسان، ومن كان ملوثاً باطناً غالباً ما يكون ملوثاً ظاهرياً.

۳. لابدّ من الرجوع إلى الجذور فى ممارسة إصلاح كل شيء والانطلاق من الأساس والبنية التحتية فى الإصلاحات.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۵۷

القسم الأول

«وَناظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِى، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِىَ. قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. نَحْنُ الشِّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّىَ سَارِقاً».

الشرح والتفسير: أبواب علم النبى

إنّ الأبحاث المتنوعة لهذه الخطبة تفيد جرى المرحوم السيد الرضى على عادته فى اقتطاف هذه المقاطع من خطبة طويلة، ولذلك يبدو هنالك نوع من التعقيد فى ترابط مقاطع هذه الخطبة. يورد الإمام عليه السلام مقدمة لبيان فضائل أهل البيت عليهم السلام فيتحدث عن صفات المهتدين والضالين فيقول:

«وَنَاظِرُ[۷۰] قَلْبِ اللَّبِيبِ ۷۱] بِهِ يُبْصِرُ

أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ ۷۲]»

إشارة إلى أنّ الإنسان العاقل لا يقنع بظواهر الأمور، بل يسعى إلى الوقوف على ملابساتها وتفاصيلها وما يمكن أن تؤول إليه عاقبتها فلا يسلك مساره جزافاً ويواجه بعض المطبات والمخاطر.

ثم قال عليه السلام:

«دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِى، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِىَ»

من

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۵۸

الواضح أنّ المراد بالداعى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله الذى أرسى دعائم الدين، والمقصود بالراعى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام الذى تزعّم الأُمّة الإسلامية بأمر اللّه ورسوله صلى الله عليه و آله.

فالكلام يشير إلى هذا الأمر: أنّكم إن نظرتم بحكمة لمعرفة رسول اللّه صلى الله عليه و آله وخليفته بالحق، وبموجب هذه المعرفة سوف لن يكون لديكم أدنى شك وريبة فى اجابة دعوته واقتفاء آثار خليفته.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الفئة الأخرى التى تقابل الفئة المذكورة وهى الفئة المعادية للحق التى خاضت فى بحار الفتن وابتدعت فى الدين حتى انتهى الأمر إلى اقصاء المؤمنين فخمدت أصواتهم ولم تصدح سوى اصوات الضالين المكذبين المنحرفين

«قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَأَرَزَ[۷۳] الْمُؤْمِنُونَ،

وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ».

فالعبارة إشارة إلى تلك الفئة المنحرفة التى غصبت الخلافة عقب رحيل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حتى انتهت إلى بنى أمية بزعامة معاوية ويزيد وآل مروان. أجل لم يكن هم تلك الفئة سوى إثارة الفتن من قبيل فتنة الجمل وصفين والنهروان واستغلالها لصالحها إلى جانب ايجاد البدع فى دين اللّه وهجران سنن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، الأمر الذى اتضح بجلاء على عهد خليفة بنى أمية الثالث، بعد ذلك خاض الإمام عليه السلام فى صفات وفضائل أهل البيت عليهم السلام فقال:

«نَحْنُ الشِّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّىَ سَارِقاً»

. إشارة إلى أننا أقرب الجميع للنبى صلى الله عليه و آله (لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ الشعار يعنى مايلى البدن من الثياب) وقد ورثنا علم النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وكل من أراد نيل تعاليمه صلى الله عليه و آله والاقتداء بهديه عليه أن يمر من خلالنا.

والواقع هو أنّ هذه العبارات قد اقتبست من روايات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بشأن أهل

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۵۹

البيت عليهم السلام عموماً وعلى عليه السلام على وجه الخصوص. ومن ذلك حديث الثقلين الذى ألزم المسلمين بالتمسك بالقرآن وأهل البيت إلى يوم القيامة وحديث:

«أَنا مَدِينَةُ العِلمِ وَعَلِيٌّ بابُها فَمَنْ أرادَ العِلمَ فَليأتِ البَابَ»[۷۴]

. جدير بالذكر أنّ شارح نهج البلاغة ابن أبى الحديد حين بلغ هذا الموضع من الخطبة صرّح بأنّ ما أشار إليه على عليه السلام فى هذه الخطبة لا ـ يتضمن سوى عشر الفضائل التى صرّحت بها العديد من الروايات الواردة عن النبى صلى الله عليه و آله بشأن على عليه السلام. ثم أضاف: لا ـ اقصد الروايات التى استدلت بها الإمامية على إمامة على عليه السلام، بل مرادى الروايات التى رواها كبار محدثى العامة فى مصادرهم عن فضائل على عليه السلام وأذكر هنا بعضها، ثم يذكر أربعاً وعشرين رواية معتبرة فى فضائل على عليه السلام سنشير فى البحث القادم إلى جانب منها إن شاء اللّه.

تأمّلان

۱. الفارق بين العُجب والتعريف بالذات

يتساءل بعض المغرضين هنا: لماذا خاض الإمام عليه السلام فى مدح ذاته والتعريف بها؟ أليس هذا الأمر دون شأن الإمام عليه السلام؟ وقد روى ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة أنّ البعض أشار على عمر بتأمير على عليه السلام على الجند. فقال: إنّ علياً عليه السلام يرى نفسه أرفع شأناً من ذلك.

ولكن يبدو أنّ مثل هذه الإشكالات إنّما يفرزها الجهل والحسد الذى لا يصمد أمام منطق العقل، وذلك أنّ أغلب الناس قد لا يقفون على عظمة شخص وعمق مكانته فلا يكادون ينفتحون على أفكاره ومشاريعه وخططه التربوية والإصلاحية، ونقول هنا: ألا ينبغى لهذا الشخص أن يعرف الآخرين بذاته وإمكاناته؟ ولعل هذا

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۶۰

الأمر أشبه بذلك الطبيب الماهر والمتخصص بمختلف الأمراض والذى نصب لوحة كبيرة على باب عيادته ليبيّن عليها شهاداته وخبرته الطبية والعلمية حتى يتعرف عليها الآخرون فيقبلون على عيادته، فهل هذا العمل من العُجب ومدح الذات أم التعريف بالنفس فى مقابل الجهال؟

ناهيك عّما سبق، فإن احدى مراحل شكر النعم التحدث بها. قال اللّه تبارك وتعالى فى قرآنه الكريم بهذا الشان: «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ»[۷۵].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآية الكريمة أنّه قال:

«حدث بما أعطاك اللّه وفضلك ورزقك وأحسن إليك وهداك»[۷۶]

. ومن هنا ورد فى بعض الروايات أنّ علياً عليه السلام حين سئل عن بعض فضائله، أجاب بأنّ الثناء على النفس مذموم؛ لكنّى أُجيبك عن هذه الفضائل على أساس ما ورد فى القرآن الكريم: «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» ثم بيّن عدداً من فضائله ومناقبه.

۲. الفضل ما شهدت به الاعداء

کما أشرنا سابقاً فإنّ ابن أبی الحدید حین بلغ فی شرحه لنهج البلاغة هذه الخطبة، نقل أکثر من أربع وعشرین روایة روتها مصادر العامة فی فضائل علی علیه السلام وصرّح بأنّ هذه الروایات غیر تلک الأحادیث التی تمسکت بها الشیعة الإمامیة فی مقام اثبات ولایة وإمامة علی علیه السلام. ومن الضروری بمکان أن نشیر هنا إلی بعض تلک الروایات العظیمة المضمون:

۱. قال النبی الأکرم صلی الله علیه و آله:

«یا عَلیُّ إنّ اللَّهَ قَدْ زَیَّنَکَ بِزینَةٍ لَمْ یُزَیِّن العِبَادَ بِزینَةٍ أَحبُّ إلیهِ مِنْها هِیَ زِینَةُ الأبرارِ عِنْدَ اللَّهَ تَعالی الزُّهْدُ فِی الدُّنیا جَعَلَکَ لاتَرْزَءُ مِنَ الدُّنیا شَیئاً، وَلا تَرْزَءُ الدُّنیا مِنْکَ شَیئاً وَوَهَبَ لَکَ حُبَّ المَساکِینَ فَجَعَلَکَ تَرضی

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۶۱

بِهِم أَتباعاً وَیَرْضُونَ بِکَ إماماً»[۷۷].

۲. قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

«إنَّ اللَّهَ عَهِدَ إلیَّ فِی عَلِیٍّ عَهْدَاً، فَقُلتُ: یاربِّ بَیِّنْهُ لِی.

قَالَ: إسْمَعْ أَنَّ عَلیّاً رَایَةُ الهُدی وَإمامُ أَولیائِی وَنُورُ مَنْ أَطاعَنِی وَهُوَ الکَلِمَةُ الَّتِی أَلْزَمتُها المُتَّقِینَ مَنْ أَحَبَّهُ فَقَدْ أَحَبَّنِی وَمَنْ أَطاعَهُ فَقَدْ أَطاعَنِی فَبَشِّرُهُ بِذَلِکَ»[۷۸].

۳. قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

«مَنْ سَرَّهُ أنْ یَحیا حَیاتِی وَیَمُوتُ مَماتِی وَیَسْکُنُ جَنَّةَ عَدنٍ الَّتِی غَرَسْها رَبِّی فَلْیُوالِ عَلیّاً مِنْ بَعْدِی وَلیُوالِ وَلِیَّهُ وَلیَقْتَدِ بالأَئِمَةِ مِنْ بعدِی فَإنَّهُم عِتْرَتِی خُلِقُوا مِنْ طِینَتِی وَرُزِقُوا فَهْماً وَعِلْماً فَوَیلٌ لِلمُکَذِّبینَ مِنْ أُمَّتِی القاطِعِینَ فِیهِم صِلَتِی لْاأنالَهُم اللَّهُ شَفاعَتِی»[۷۹].

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۶۳

القسم الثانی

منها: «فِیهِمْ کَرَائِمُ الْقُرْآنِ، وَهُمْ کُنُوزُ الرَّحْمنِ. إنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وَإنْ صَمَتُوا لَمْ یُسْبَقُوا. فَلْیَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْیُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْیَکُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، فَإنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإلَیْهَا یَنْقَلِبُ.

فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ، یَکُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ أنْ یَعْلَمَ: أَعَمَلُهُ عَلَیْهِ أَمْ لَهُ؟! فَإنْ کَانَ لَهُ مَضَی فِیهِ، وَإنْ کَانَ عَلَیْهِ وَقَفَ عَنْهُ. فَإنَّ الْعَامِلَ بِغَیْرِ عِلْمٍ کَالسَّائِرِ عَلَی غَیْرِ طَرِیقٍ. فَلَا یَزِیدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِیقِ الْوَاضِحِ إلَّا بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ. وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ کَالسَّائِرِ عَلَی الطَّرِیقِ الْوَاضِحِ. فَلْیَنْظُرْ نَاظِرٌ:

أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ؟!».

الشرح والتفسیر: خصائص دعاة الحق

تعرض الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة بالإشارة إلی غیض من فیض فضائل أهل‌البیت علیهم السلام بهدف إحباط الدعایات المغرضة لأجهزة بنی أمیة ضد أهل‌البیت علیهم السلام والعناصر التی تآمرت علیهم من بعض العملاء الذین تجلببوا بثیاب رواة الحدیث، فقال:

«فِیهِمْ کَرَائِمُ ۸۰] الْقُرْآنِ، وَهُمْ کُنُوزُ الرَّحْمنِ. إنْ نَطَقُوا صَدَقُوا،

وَإنْ صَمَتُوا لَمْ یُسْبَقُوا»

. العبارة

«فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ»

يمكن أن تكون إشارة إلى المعنى المذكور أو تعنى عندهم آيات القرآن الكريم، والعبارة

«كُنُوزُ»

إشارة إلى أنّ عندهم أحكام اللّه وتعاليم السماء؛ لأنّ الأشياء النفيسة عادة ما تحفظ فى الكنز.

نفحات الولايةُ، ج۶، ص: ۶۴

والعبارة

«إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا»

تتضمن احدى صفات أهل البيت عليهم السلام وهى الصدق فى الكلام التى تنسجم والآية الشريفة: «كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ»[۸۱].

والعبارة

«وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ

نفحات الولاية ؛ ج۶ ؛ ص۶۴

يُسْبَقُوا»

إشارة واضحة إلى أنّ صمتهم عليهم السلام لا يعنى عجزهم عن الإجابة قط، بل صمتهم على ضوء الحكمة والمصلحة، وعليه فلا يسع أحد أن يسبقهم. أومعنى ذلك أنّ هيبتهم تحول دون قدرة الآخرين على الكلام حين صمتهم. على كل حال فإنّ هذه الصفات الأربع فى أهل البيت عليهم السلام تميز مقامهم عن الآخرين وتكشف عن علو منزلتهم ومكانتهم العلمية، ثم قال تأكيداً لهذا المطلب فى أنّ الهدف ليس المدح والثناء على الذات:

«فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ[۸۲] أَهْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ،

فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ».

تعنى كلمة

«رَائِدٌ»

فى الأصل، الشخص الذى يتقدم القافلة ويبحث عن الماء والمرعى. فلو كان مثل هذا الشخص كاذباً لعرّض أهل القافلة أنفسهم إلى الخطر.

فاختيار هذه الكلمة يشير إلى لطيفة مؤداها أنّى إن شرحت لكم خصائص أهل البيت عليهم السلام فذلك لأنّى بمنزلة ذلك الشخص الذى يوفر لاتباعه ضروريات وسائل العيش. ولعل العبارة

«فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ»

تشيرمفهوم الآية الشريفة: «إِنَّا للَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». أو بعبارة أخرى أنّ الآخرة تعنى هنا ماوراء الطبيعة. نعم ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالعبارة أنّا خلقنا للآخرة، كما ورد ذلك فى قصار كلمات الإمام:

«أَلا فَما يَصْنَعُ بِالدُّنيا مَنْ خُلِقَ للآخِرَةِ»[۸۳].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالنظر إلى ما ورد قبيل ذلك بشأن أهل البيت عليهم السلام

نفحات الولايةُ، ج۶، ص: ۶۵

ليحذر الآخرين من ضرورة مراقبة أعمالهم وأن يلحقوا بتلك الكنوز أى الأئمّة العارفين بالقرآن ويحذوا حذوهم ويسيروا على هديهم وأن يفكروا فى بداية كل عمل بعاقبته ويعزمون عليه:

«فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأَ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ؟! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ»

. والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام يرى توقف النجاح على ثلاثة أمور تتفرع جميعها من العلم والمعرفة؛ التفكير في أصل العمل، والعمل على أساس البصيرة ودراسة وتأمل نتيجة ذلك العمل نافعة له أم مضرة؟

ثم خاض في بيان دليل ذلك وقد استعان بتشبيه رائع ليوضح الفارق بين العالم والجاهل فقال:

«فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ. فَلَا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلَّا بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ. وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ».

يا له من تشبيه رائع! فالعالم والجاهل كلاهما يسعى، إلّاأنّ العالم حيث يسير على الطريق الصحيح فإنّه يقترب من هدفه كل آن، أمّا الجاهل حيث يسير على غير هدى وعلى غير الطريق فإنّه يبتعد عن هدفه كل آن؛ بعبارة أخرى فإنّ سعيه لن يؤدّى إلّاإلى النتائج المعكوسة.

روى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله تعبير رائع بهذا الشأن حيث قال:

«مَنْ عَمِلَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَانَ ما يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمّا يُصْلِحُ»[۸۴].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«العامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ لْايَزِيدُهُ سُرْعَةَ السَّيْرِ إِلَّا بُعداً»[۸۵].

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ: أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ؟!»

. فالعبارة تشير إلى أنّ الجهال من الأفراد ليسوا فقط لا يبلغون الهدف بسعيهم وجهدهم، بل أحياناً يخطون بذلك الجهد إلى ما يخالفه.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۶۷

القسم الثالث

«وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ، وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ. وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ-: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ».

وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً. وَكُلُّ نَبَاتٍ لَاغِنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمَا طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ، خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ».

الشرح والتفسير: معرفة المحسن والمسيء

كشف الإمام عليه السلام هنا- مواصلة لما أورده سابقاً- سبيل معرفة المحسن من المسيئ فقال:

«وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ»

. فهذه قاعدة كلية من شأنها تمهيد السبيل أمام الإنسان لمعرفة الأفراد والمجتمعات البشرية ومختلف التنظيمات الاجتماعية والسياسية والعقائدية (وإن كانت لها على غرار كل قاعدة كلية شواذ) لأنّ أعمال الإنسان عادة ما تكون انعكاساً لأفكاره وأخلاقه وصفاته الباطنية، وظاهره ما يترشح عن باطنه، على غرار ما ورد في المثل المعروف: الظرف ينضح بما فيه.

وعلى هذا الإساس فإن شككنا في باطن شخص كان لابدّ لنا من التوقف عند أعماله لننظر من خلالها إلى باطنه. وقد أيد القرآن الكريم هذه الحقيقة في عدّة آيات فقال بشأن المنافقين: «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۶۸

أَكْبَرُ»[۸۶]. وقال فى موضع آخر: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ»[۸۷]. كما قال فى آية أخرى «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِوَالَّذِى خَبُثَ لَايَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً»[۸۸] كما ورد هذا الأمر فى الروايات الإسلامية وكلمات الفقهاء.

فقد قال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«ما أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيئاً إِلَّا ظَهَرَ فِى فَلَتاتِ لِسانِهِ وَصَفَحاتِ وَجْهِهِ»[۸۹]

. وصرّح الفقهاء فى مبحث العدالة: أنّ حسن الظاهر والعمل بالتكاليف الشرعية يفيد وجود ملكة العدالة فى الباطن. الغريب فى عصرنا الراهن أنّ العلماء توصلوا إلى صنع جهاز من شأنه التعرف على كذب المقابل من صدقه فى موضوع ما من خلال نبض قلبه وضغط دمه وما شاكل ذلك. وكما أشرنا سابقاً أنّ لهذه القاعدة كما لسائر القواعد الكلية شواذ؛ فهنالك بعض الأفراد الذين يعيشون حالة من التعقيد بحيث لا يمكن التعرف عليهم من خلال أعمالهم بسهولة، كما يمكن لبعض المرائين والمنافقين أن يخدعوا العقلاء، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه ليقول:

«وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ-: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ»»

. فافتراق الظاهر عن الباطن والعمل عن العقيدة فى بعض الحالات يعزى إلى بعض العوامل التى تحدث وتبعد الشخص عن ذلك الأصل الكلى؛ من قبيل مجالسة الصالحين والطالحين والتواجد فى الأوساط الطاهرة والفاسدة إلى جانب التعصب والبغض والحقد والحسد والدعاية المسمومة والفقر المدقع وما شاكل ذلك من الأمور التى تقدح أحياناً بانسجام الظاهرمع الباطن. آثار المرحوم العلّامة الخوئى شارح نهج البلاغة مطلباً آخر فى شرحه لهذه العبارة، فقد قال- بعد تلك الإشارة إلى تناقض صدر هذا القسم

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۶۹

من الخطبة وذيلها- إنّه تدبر وفكر لأيّام وتوسل بجده أمير المؤمنين عليه السلام ليخلص إلى هذه النتيجة وهى أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يشير بالاستناد إلى حديث النبى صلى الله عليه و آله إلى أنّ الشخص إن رأى عدم انسجام ظاهره وباطنه عليه أن يسعى لإصلاح نفسه، يعنى، إن كان باطنه حسناً وعمله سيئاً يسعى لأنّ يصلح عمله، وإن كان عمله حسناً وباطنه سيئاً يسعى لإصلاح باطنه ۹۰]. وهذا الكلام وإن كان صحيحاً إلّاأنّ استفادة هذا المعنى من العبارة المذكورة لا يخلو من إشكال، ويبدو التفسير الأول أنسب.

ثم اختتم الخطبة فى إطار اتمام عبارته السابقة فى مجال انسجام الظاهر والباطن ولزوم تطهير الباطن بهدف تطهير الظاهر بالقول:

«وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً. وَكُلُّ نَبَاتٍ لَاغِنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمَا طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ، خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ»

. فقد شبّه الإمام عليه السلام الإنسان وأعماله بالنبات وثمره، فكما أنّ النبات لا غنى به عن الماء لسقيه ونموه، فإنّ الإنسان لا يستغنى عن التعليم والتربية والإرشاد. فمن عكف على التعليم والتربية والإرشاد الصحيح ظهرت أعماله صالحة، بينما تسى وتخبث أعمال ذلك الذى لاحظّ له من الإرشاد والتربية. بعبارة أخرى فإنّ قيمة ثمرة النبات تنشأ فى الواقع من ثلاثة عوامل: البذرة الطيبة والأرض الخصبة والماء الوفير. والحق أنّ بذرة الإنسان على ضوءالفطرة التى أودعها إيّاه اللّه، طيبة؛ كما أنّ عوامل البيئة الوراثية بمثابة الأرض، والتعليم والتربية بمنزلة الماء، فإن طهرت وطابت هذه الأمور، كانت ثمرة وجود الإنسان طيبة وطاهرة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۷۱

الخطبة ۱۵۵

اشارة

يَذْكُرُ فِيْها بَدِيعَ خِلْقَةِ الْخُفّاشِ [۹۱]

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من خطب نهج البلاغة التوحيدية المهمّة وتتألف من قسمين.

يتعرض القسم الأول لحمد اللّه والثناء عليه وبيان عظمته التى حيرت العقول إلى جانب قدرته فى الخلق دون الاستناد إلى فكرة مسبقة حيث يختزن كل مخلوق عجائب الاسرار. اما القسم الثانى فقد ركز على الخفاش وعجائب خلقته، فيتعرض الإمام عليه السلام إلى تفاصيل خلقه وكأنه استغرق سنوات فى دراسة هذا المخلوق العجيب حتى وقف على اسراره.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۷۳

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی انْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ!

هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلًا. خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلَا مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَانْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ».

الشرح والتفسير: درس فى معرفة اللّه

ذكرنا آنفاً أنّ الإمام عليه السلام استهل هذه الخطبة بحمد الذات الإلهيّة المطلقة وبيان صفاتها الجمالية والجلالية، فأشار بادىء ذى بدء إلى معرفة كنه ذات اللّه فقال:

«الْحَمْدُلِلَّهِ الَّذِی انْحَسَرَتِ [۹۲] الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ،

فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً[۹۳] إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ![۹۴]».

والسؤال الذى يطرح نفسه: لماذا عجزت الاوصاف عن معرفة كنه الذات

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۷۴

الإلهيّة؟ ذلك لأنّ جميع الألفاظ الموضوعة لبيان الأوصاف إنّما ترتبط بصفات المخلوقين وهى صفات محدودة ومخلوقة. وبعبارة أخرى فإنّ ذات اللّه المطلقة واللامتناهية من جميع الجهات متعذرة الإدراك من قبل عقولنا المحدودة ولا يسع ألفاظنا وأفكارنا بيانها والوقوف عليها، وهذا ما أذهل العقول البشرية وحال دون ظفرها بالسبيل إلى معرفة تلك الذات، طبعاً هذا لا يعنى أننا نقول باستحالة معرفة البشر باللّه، أو بعبارة أخرى أننا لانقول بتعطيل المعرفة، بل المراد أنّ حظنا من العلم بتلك الذات المطلقة من جميع الجهات هو العلم الإجمالى الذى يسعنا الإشارة إليه من خلال آثاره وليس لدينا من علم تفصيلى بهذا الشأن. ولا تبدو هذه القضية عجيبة، فعظمة اللّه ممّا لا نقاش فيها. بل هنالك الكثير من مخلوقات عالم الإمكان التى نؤمن بها وتبدو واضحة لنا كالشمس، غير أننا نجهل كنهها، على سبيل المثال أننا نؤمن بوجود الروح، ووجود الجاذبية والزمان والمكان، لكن ما حقيقة كنه هذه الأمور؟ إنّ هذه الأمور تعدّ من الأبحاث التى حظيت باهتمام الفلاسفة والحكماء وعلماء العلوم الطبيعية ولم يتفقوا لحد الآن على نقطة مشتركة، بل أبعد من ذلك إننا لأقرب إلى أنفسنا من كل شيء ولكن ما زلنا نجهل الكثير من أسرار وجودنا، حتى انبرى العالم الغربى «ألكسيس كارل» ليكتب كتابه «الإنسان ذلك المجهول».

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ببيان صفة أخرى من صفات اللّه- وهى تأكيد لما سبق- فقال

«هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلًا» . نعم، فوجوده أظهر الأشياء وكنهه فى غاية الخفاء وما تاره العين قد يكون خطأ الباصرة- الذى ذكر له العلماء عدّة أنواع- ولكن العلم بوجود اللَّه لاأخطأ فيه. وإننا نشعر بحضوره فى كل زمان وكل مكان وكل حال، مع ذلك نحن حيارى فى إدراك حقيقة ذاته، وكلما تقدمنا خطوة فى هذه المرحلة رجعنا خطوات إلى الوراء، كما قال الشاعر:

كُلَّما قَدَّمَ فِكرِى فِيكَ شِبْراً فَرَّ مِيلا

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۷۵

ناكِصاً يَخْبِطُ فِىعَمياءَ لايَهْدِى سَبِيلا

كأنّ هذا الموضوع أشبه بذلك الإنسان الذى يبصر مصدراً شديداً للنور يخطف الأبصار فيقترب منه ببطء فإذا النور يهزه فجأة ويدفع به خائفا إلى الخلف. حقّاً يبدو أننا سنقع لا محال فى الخطأ إن حاولنا تشبيه أىٍّ من صفات وكنه الذات المقدّسة، ذلك لأننا نشبهه بمخلوقاته فنصاب بنوع من الشرك.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى خلقه سبحانه وتعالى للخلق فقال:

«خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلَا مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ ۹۵] لِطَاعَتِهِ،

فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَانْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ»

جدير ذكره أنّ كل ابداعات الإنسان إنّما تستند إلى برامج مسبقة وخطط معدة بشأن عالم الطبيعة. فأحياناً يستفيدها بعينها وأخرى يضيف لها بعض أفكاره، إلّاأنّ أيّة فكرة ليست جديدة فى الواقع، على العكس من ذلك فإنّ نظرنا إلى عالم الوجود سنرى ملايين الأنواع من النباتات والحيوانات الصحراوية والبحرية والطيور وسائر الكائنات التى يتسم كل واحد منها ببعض الخصائص المميزة له، كلها تدين لخالقها تبارك وتعالى.

وأخيراً فإنّ الإمام عليه السلام قد أشار فى هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاثة مواضيع مهمّة؟ عجز الإنسان عن إدراك كنه الذات الإلهيّة، وظهور وجوده تعالى، وأخيراً إبداعه الفريد فى عالم الخلق.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۷۷

القسم الثانى

«وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِى هذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِى يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَىْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَىٍّ؛ وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِى بِهِ فِى مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلَانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَعَهَا بِتَلَأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِى سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَأَكَنَّهَا فِى مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِى بُلَجِ ائْتِلَاقِهَا، فَهِىَ مُسْدَلَةُ الْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَى حِدَاقِهَا، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِى الْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا؛ فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِىِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ. فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضِّبَابِ فِى وِجَارِهَا، أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَآقِيهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِى ظُلَمِ لَيَالِيهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً!».

الشرح والتفسير: الطائر العجيب

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيانه العام والجامع بشأن خلق العالم حتى ركز هنا على أعجب وأظرف مخلوقات اللَّه، ألا- وهو الخفاش الفريد فى خلقه من كل النواحى، وإن كانت جميع المخلوقات عجيبة لو أجلنا التفكير بصورة صحيحة. فقد أشار عليه السلام

إلى جانبين فريدين فى خلقة هذا الحيوان؛ عينه وجناحيه، فقال:

«وَمِنْ لَطَائِفِ

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۷۸

صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِى هذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِى يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَىْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَىٍّ».

ثم يردفها بالعبارة:

«وَكَيْفَ عَشِيَتْ ۹۶] أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ

نُوراً تَهْتَدِى بِهِ فِى مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلَانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَعَهَا بِتَلَأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِىِّ فِى سُبُحَاتِ ۹۷] إِشْرَاقِهَا، وَأَكَنَّهَا[۹۸] فِى مَكَامِنِهَا[۹۹] عَنِ الذَّهَابِ

فِى بُلَجِ ۱۰۰] ائْتِلَاقِهَا[۱۰۱]»

. النقطة الجديرة بالتأمل، إنّ الإمام عليه السلام أشار إلى ثلاث نقاط مختلفة بثلاث عبارات إلى التأثير السلبى لضياء الشمس عليها، فقال: إنّ ضياء الشمس لم يدعها تتلمس طريقها وإنّ أشعة الشمس تمنعها من بلوغ مقاصدها فى هذه الطرق (كالطعمة والحجر) وأخيراً أنّها لو سلكت طريقاً وطلعت عليها الشمس فجأة لصدتها عن مواصلة السير.

وبالنتيجة، ليس لها سوى الاختباء فى الحجور المظلمة لتأمن أشعة الشمس، وعلى هذا الأساس فإنّ ضياء الشمس الذى ينير كل شيء ويساعد جميع الكائنات الحية لأن تعرف طريقها وتواصل حركتها نحو غايتها، لا يبدو كذلك بالنسبة لهذا الطائر «الخفاش» فآثاره سلبية عليه، وعلى العكس من ذلك فهو يستفيد من الظلمة التى تسوق كل ما سواه إلى السكون، ليبدأ بالنشاط والحركة.

ومن هنا واصل كلامه فقال:

«فَهِىَ مُسْدَلَةُ[۱۰۲] الْجُفُونِ ۱۰۳] بِالنَّهَارِ عَلَى

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۷۹

حِدَاقِهَا[۱۰۴]، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِى الْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا؛ فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا

إِسْدَافُ ۱۰۵] ظُلْمَتِهِ، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِىِّ فِيهِ لِغَسَقِ ۱۰۶] دُجُنَّتِهِ ۱۰۷]».

ثم تطرق إلى وضع الخفاش حين شروق الشمس وارسالها لأشعتها على الجبال والصحارى فقال:

«فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ ۱۰۸] نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ

إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضِّبَابِ ۱۰۹] فِى وِجَارِهَا[۱۱۰]، أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَآقِيهَا[۱۱۱]، وَتَبَلَّغَتْ ۱۱۲]

بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِى ظُلَمِ لَيَالِيهَا».

ياله من تشبيه لطيف! فقد شبه الشمس منتصف الليل بالمرأة التى تلفعت بخمارها وحين الشروق طرحته جانباً وقد أشرق ضياء وجه هذه الأم الحنون على مهد أولادها. العبارة الرائعة الأخرى أنّه قال: إنّ إشراق ذلك النور والضياء بلغ جحور الضباب المعروفة بشغفها بطلوع الشمس وقد أخرج آنذاك راسه من جحره ليستقبل ضياء الشمس. وهى إشارة أيضاً إلى أنّ الخفافيش تحتفظ بما اصطادته فى الليل لنهارها.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۸۰

ثم يخلص إلى نتيجة ليقول بعبارة قصيرة:

«فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً!»

فهذا الكائن الفريد، وخلافاً للكائنات الحية كافة- ولاسيما الإنسان- التى تقتات فى النهار وتستريح وتسكن فى الليل «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ

لِبَاساً* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً»[۱۱۳]، إنّما يستريح فى النهار ويكدّ من أجل المعاش فى الليل لتعلم الخليقة أنّ قدرة اللَّه لامتناهية وكل ما يريده سبحانه يكون.

وسنتكلم فى آخر الخطبة إن شاء اللَّه عن عجائب خلقة الخفاش ولاسيما خلقة عينيه.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۸۱

القسم الثالث

«وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا الْآذَانِ غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلَاماً. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا. تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لَاصِقٌ بِهَا لَاجِىءٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَايُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ.

فَسُبْحَانَ الْبَارِىءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!».

الشرح والتفسير: عجائب الخفاش

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى أمرين من عجائب خلقة الخفاش (جناحاه وتربيته لفرخه)، فقال:

«وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا[۱۱۴] الْآذَانِ غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ ۱۱۵] وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيِّنَةً

أَعْلَاماً. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا»

. حقّاً إنّ هذا لمن عجائب الخلقة، فاجنحة جميع الطيور تتكون من الريش الذى يتوسطه شىء يشبه القصبة، ونظراً لخفته فإن الطيور تستطيع الطيران بواسطته بسهولة، أمّا الخفاش المعروف بطيرانه السريع فهو يختلف تماماً عن جميع الطيور، فجناحه قطعة من اللحم يتوسطها عظام نحيفة أشبه بالغضاريف. وهذه القطعة رغم نحافتها إلّاأنّها شديدة

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۸۲

المقاومة، كما أنّها خفيفة وصامدة على الدوام وهى تشبه صفحة إذن الإنسان.

والغريب أننا لو نظرنا إليه إزاء ضوء الشمس أو المصباح لشاهدنا مجموعة من الأنابيب الظريفة والواسعة والمعقدة من العروق الدموية التى تغذيه والتى يشتد نشاطها حين يطير لتوصل المواد الغذائية اللازمة إلى الأجنحة بهدف السرعة فى الحركة.

ثم أشار إلى قضية عجيبة أخرى فى خلقة هذا الطائر والتى تتعلق بتربيته لولده فقال:

«تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لَاصِقٌ بِهَا لَاجِىءٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ»

. معروف أن لهذا الحيوان دورة شهرية كسائر (الثديّات) وهو يحمل ويضع الحمل، خلافاً لسائر الطيور البيوضة وتفقيس فراخها فى بيوضها. وينفرد الخفاش بحمله لفرخه معه حين الطيران والهبوط ليعلّمه الطيران وكيفية الحصول على الغذاء وصيد الحشرات والخروج والرجوع إلى العش والحجر، ولعل سرّ حمله لفرخه معه خلافاً لعادة جميع الطيور أنّه يمارس الطيران ليلًا فيضطر لحمله معه.

على أيّة حال فإنّ كل شىء عجيب فى هذا الطائر، وهذا بدوره أحد عجائب الخليقة التى تعرف الإنسان على تنوع المخلوقات وقدرة الخالق.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته الشريفة بالخشوع أمام عظمة اللَّه وقال:

«فَسُبْحَانَ الْبَارِىءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!»

وكما استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد اللّه والثناء عليه فقد اختتمها بتسبيحه وتنزيه ذاته المقدّسة.

تأمّل

خلقة الخفاش العجيبة

تحدث الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة عن بديع خلقة الخفاش الذى يختلف فى كل شىء تقريباً عن سائر الطيور، حتى صرّحت بعض المصادر العلمية أنّ الخفاش

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۸۳

ليس من فصيلة الطيور، بل جزء من الثديات وذلك لما يلى:

۱. للخفاش أسنان، بينما للطيور منقار.

۲. بدن الخفاش مغطى بالشعر، بينما للطيور ريش.

۳. تتكون أجنحة الخفاش من قطعة لحمية رقيقة وليست الطيور كذلك.

۴. للخفاش يدان ورجلان ويمشى على الأرض على يديه ورجليه وليست الطيور كذلك.

۵. الخفافيش ولودة، بينما الطيور بيوضة.

۶. ترضع الخفافيش صغارها، بينما توفر الطيور الغذاء المناسب لفراخها.

۷. معاش الخفافيش ليلًا، والطيور نهاراً.

۸. تنام الخفافيش نهاراً وتطير عقب الغروب وتتعلق حين النوم بأرجلها على الأشجار والسقوف، بينما ليست الطيور كذلك.

۹. تتغذى الخفافيش على الحشرات وتفتح أفواهها حين تطير وتبتلع عشرات أو مئات الحشرات ولعل هذا سبب رائحتها الكريهة، ولعل هذا العمل من الخفافيش هو الذى يسهم فى تنقية أجواء البيئة من الحشرات، ومن هنا فقد عمد الناس إلى بناء الأبراج لتربية الخفافيش فى المناطق التى تكثر فيها الحشرات. جدير بالذكر، وخلافاً لما يتصوره البعض من ضعف بصر الخفاش حتى راح يضرب به المثل أنّ الشخص الفلانى أعمى كالخفاش، فإنّ باصرة الخفاش حادة جدّاً، إلّاأنّ عينه حساسة للضوء ولا يطيق تحمله. والخفاش يطير بسرعة ومهارة فى الليل حتى حين شدّة الظلمة، ولا يستعين الخفاش فى طيرانه الليلى بعينه فقط، بل يتمتع بجهاز صوتى يشبه الرادار. فالخفاش حين الطيران يُخرج صوتاً من أنفه وليست لدينا القدرة على سماعه، إلّاأنّ هذا الصوت يصطدم بكل شىء يعترض طريقه وينعكس إليه، ويلتقط هذا الصوت المنعكس بأذنه الكبيرة فيقف على الأشياء التى تقف فى طريقه فيغيّر مساره، ومن هنا قيل: الخفاش يرى بأذنه. عادة ما يتغذى الخفاش على

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۸۴

الحشرات، إلّاأنّ بعض الخفافيش تتناول الفاكهة، وبعضها الآخر وحشية خطيرة، ويبدو أنّ عددها قليل جدّاً. وهى تهجم على الإنسان حين النوم فتغرس أسنانها بكل هدوء فى بعض المواضع التى تفتقر إلى الأعصاب والحساسية من قبيل شحمة الأذن فتمتص الدم، كما تتأتى خطورتها من إمكانية حملها لبعض الميكروبات القاتلة من قبيل الحمى الصفراء. والخفاش يقترب من الماء حين الطيران ليرتشف الماء كالقط بلسانه. ويضع الخفاش القليل الوزن ما يقارب من أربعة فراخ يحملها معه حين الطيران، أمّا تلك الثقيلة الوزن والتى تشبه القطة أحياناً، فلا تلد أكثر من فرخ، أضف إلى ذلك فهنالك بعض الخفافيش التى لاتزن أكثر من الدرهم ۱۱۶].

وقد وردت فى كتاب التوحيد للمفضل بعض العبارات القصيرة والعميقة المعنى بشأن خلقة الخفاش حيث إنّ اللّه خلقه وسطاً بين الطيور والأنعام (الثديّات) ذلك أنّ له أذنين طويلتين وأسناناً وهو يلد ويرضع وليده ويمشى على يديه ورجليه، وكل ذلك خلافاً للطيور، كما يطير فى الليل ويتغذى على الحشرات الطائرة فى الهواء، ويعتقد البعض أنّه لا- يتغذى سوى على الهواء، وهذا باطل،

وذلک أولًا: لخروج البول والغائط منه وهذا غير ممکن دون غذاء، وثانياً: إنّ له أسـناناً وليس لهذه الأسـنان من معنى إن لم يتغذّ ونعلم أنّ اللَّه لم يخلق شيئاً عبثاً[١١٧]. على كل حال فكلما أمعنا النظر فى الخفاش أدركنا عمق الأسرار المركبة فيه، وهنا نقف على عظمة ما أورده الإمام عليه السـلام فى أنّ اللَّه كأنّه خلق هـذا المخلوق للتعريف بعظمـة قـدرته بعرضه أحد بدائع خلقه الذى انطوى على العديد من العجائب والغرائب.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۸۵

الخطبة ۱۵۶

اشارة

خَاطَبَ بِهِ أَهْلَ البَصْرَةِ على جِهَةِ اقْتِصَاصِ المَلَاحِم ١١٨]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السـلام فى هذه الخطبة إلى مسائل مختلفة مرتبطة مع بعضها البعض رغم استقلالية كل منها، وتدور هذه الخطبة حول عدّة محاور هى:

الأول: أنّ الإمام عليه السلام حثّ الناس على طاعته وقد كشف لهم النقاب عن سبيل الجنّة الملئ بالمتاعب والمشقات.

الثانى: إشار الإمام عليه السـلام إلى دوافع عائشـة فى إثارة فتنة الجمل حتى لا يظن الآخرين بأنّ خروجها للمعركة يضـفى شـرعية على ممارسات طلحة والزبير.

الثالث: يتحدث عن القيامة والمعاد ويعدّ الناس لذلک بالتزود من التقوى والعمل الصالح وكسب الفضائل ومكارم الأخلاق.

الرابع: أشار فيه إلى كيفية بعث الموتى من القبور وحضورهم فى المحشر.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۸۶

الخامس: الحـديث عن ممارسـة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بما يخالف ظن البعض من المشاكل المترتبة عليها فى الحياة الدنيا والآخرة.

السادس: إشارة إلى أهميّة القرآن ودوره فى إصلاح الفرد والمجتمع.

السـابع: الرد على سؤال طرحه شـخص بشأن الفتنـة وهل سأل الإمام عليه السـلام رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله عن ذلک، إلى جانب إخبارهم عن شهادته.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۸۷

القسم الأول

فَمَنِ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذلِکَ أنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإنْ أَطَعْتُمُونِى فَإنِّى حَامِلُكُمْ إنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَإنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ.

وَأَمَّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْىُ النِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلَا فِى صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِى مَا أَتَتْ إلَىَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ تَعَالى

الشرح والتفسير: ظهور الاحقاد بذرائع واهية

ذكرنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد موقعة الجمل حيث تفيد العبارات الواردة فی طليعتها إشارة الإمام عليه السلام فبل ذلك إلى الفتن التی تنتظر الناس ويحذرهم أنّ فتنة الجمل ليست الأولی والأخيرة فقال:

«فَمَنِ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذلِکَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَی اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِی فَإِنِّی حَامِلُکُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَی سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ[۱۱۹]»

. مفهوم العبارة

«أنْ

يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ»

– بالنظر إلی أن يعتقل من مادة عقل بمعنی المنع– اقتصار النفس علی طاعة أوامر اللَّه التی تمثل أرفع درجات الطاعة والعبودية. والعبارة

«وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ»

إشارة إلی أنّ الإنسان لا ينال الجنّة والسعادة بالهين، وعلی الفرد الذی يبغی الجنّة أن يعد لها عدتها؛ وذلک لأنّ جهاد النفس ولجم هواها شاق كمواجهة العدو.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۸۸

وقد عبر الإمام عليه السلام عن هذا المعنی فی الخطبة ۱۷۶ بما رواه عن النبی الأكرم صلی الله عليه و آله

: «إِنَّ الجَنَّةَ حُفَّتْ بِالمَكارِهِ وَإِنَّ النّارَ حُفَّتْ بِالشَّهواتِ».

ثم أشار الإمام عليه السلام إلی الدافع الذی ساق عائشة إلی الجمل– الفتنة التی عمت العالم الإسلامی آنذاک– وقد تطرق إلی التفاصيل بخمس عبارات عميقة المعانی فقال:

«وَأَمَّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْیُ النِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلَا فِی صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ ۱۲۰] الْقَيْنِ ۱۲۱]،

وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِی مَا أَتَتْ إِلَیَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَی وَالْحِسَابُ عَلَی اللَّهِ تَعَالی

. لا شک فی أنّ المراد من فلانة فی العبارة المذكورة عائشة، وحيث إنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد موقعة الجمل، يبدو أنّ الهدف هو الرد علی بعض الشبهات، واحدی الشبهات، لو لم تكن هذه المعركة شرعية كيف تشترک فيها عائشة لتلعب ذلک الدور الحساس؟ وقد أشار الإمام عليه السلام فی رده علی هذه الشبهة إلی دافعين يكمنان وراء مساندة عائشة لطلحة والزبير:

الأول: آراؤها الضعيفة كامرأة والتی يستطيع طلحة والزبير اختراقها وضمها إلی جانبهما، ويؤيد ذلک، الأخبار التی صرحت بندم عائشة علی فعلتها وتوبتها.

والآخر، الحقد الدفين الذی كانت تكنه لعلی عليه السلام والذی فاق الحدود بحيث لم يدعها تفكر فی عواقب فعلتها وبوجه من تقف ولحساب من، وكيف ستكون نتيجة المعركة؟ وقد أسهب شرّاح نهج البلاغة فی بيانهم للعوامل التی تقف وراء ذلک الحقد والبغض؛ إلّاأنّ الشرح الوافی ما ذكره ابن أبی الحديد عن استاذه أبی يعقوب، ونشير إلی جانب من ذلک:

۱. علی عليه السلام زوج الزهراء عليها السلام والزهراء بنت خديجة وقد شحنت التواريخ المعروفة بالأخبار التی تتحدث عن حساسية عائشة من خديجة حتی بعد وفاتها.

۲. منزلة فاطمة الزهراء عليها السلام لدی رسول اللَّه صلی الله عليه و آله والتی تكشف عن شخصيتها عليها السلام

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۸۹

وأنّه كان يوليها منتهی الحب والاحترام حتی صرحت بعض الروايات المعتبرة أنّه اطلق عليها «سيدة نساء العالمين» وقال:

«فَاطِمَةُ بِضعَةٌ مِنِّی مَنْ آذاها فَقَدْ آذانِی وَمَنْ أَغَضبَها فَقَدْ أَغْضَبَنِی»[۱۲۲]

. وهذا ما أثار حفيظة عائشة حيث كانت ترى أنّها تستحق هذه الألقاب لا غيرها، ولذلک حملت الحقد على علی علیه السلام.

۳. منزلة علی علیه السلام لدى النبی صلى الله علیه و آله ومدى حبّ النبی صلى الله علیه و آله له وحديثه عن فضائله ومناقبه، وكانت ترى أحقية أبيها أبی بكر بتلک الفضائل.

۴. كون نسل رسول اللَّه صلى الله علیه و آله من فاطمة عليها السلام وعلی، وحبه للحسن والحسين عليهما السلام بينما لم تكن عائشة ولودة.

۵. إغلاق النبی صلى الله علیه و آله كافّة أبواب الصحابة فی المسجد حتى باب بيت أبی بكر سوى باب دار علی علیه السلام. أضف إلى ذلک فهنالک عدّة عوامل أخرى لا يسع المجال ذكرها[۱۲۳].

جدير بالذكر أنّ ابن أبی الحديد روى عن استاذه أبی يعقوب قال: «ثم بايع علی أباها-/ عائشة-/ فسّرت بذلک، وأظهرت من الاستبشار بتمام البَيعة واستقرار الخلافة وبطلان منازعة الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثروا واستمرّت الأمور على هذا مدّة خلاف أبيها وخلافة عمر وعثمان، والقلوب تغلی، والأحقاد تذيب الحجارة، وكلّما طال الزمان على عليٍّ تضاعفت همومه وغمومه، وباح بما فی نفسه إلى أن قتل عثمان، وقد كانت عائشة فيها أشدّ الناس عليه تأليباً وتحريضاً، فقالت:

أبعده اللَّه! لمَّا سمعت قتله، وأمّلت أن تكون الخلافة فی طلحة، فتعود الإمْرة تيمية، كما كانت أوّلًا، فعدل الناس عنه إلى عليّ بن أبی طالب، فلمّا سمعت ذلک صرخت:

واعثماناه! قتل عثمان ظلوماً، وثار ما فی الأنفس، حتى تولّد من ذلک يوم الجمل وما بعده»[۱۲۴].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۹۰

والغريب فی الأمر أنّ بعض العلماء رغم اعترافهم بخطأ عائشة وارتكابها المعصية فی معركة الجمل، يزعمون أنّها تابت وقد عفا اللَّه عنها. والسؤال الذی يطرح نفسه هنا: هل سفک دماء سبعة عشر ألفاً وفی رواية عشرين ألف مسلم فی الجمل بالإضافة إلى تلک المصائب التی طالت العالم الإسلامی بسبب تلک المعركة وما زالت آثارها عالقة، يُغفر بمجرّد قول: «استغفر اللَّه»؟ وهل يتجاوز اللَّه عن هذا الحق بهذه السهولة؟ ذكر ابن عبد ربه فی عقده الفريد أنّ امرأة تدعى أم أوفى دخلت على عائشة بعد الجمل وسألتها: يا أم المؤمنين ما تقولين فی من قتل ولده الصغير؟ قالت عائشة: وجبت له نار جهنم؟ ثم سألتها: فما تقولين فيمن قتلت عشرين ألفاً من ولدها؟ أدركت عائشة أنها المعنية بهذا السؤال لما فعلته فی الجمل فردت: عليكم بعدوة اللَّه هذه ۱۲۵].

وأما عبارة الإمام علیه السلام: (ولو دعيت لتنال من غيرى ما أتت إليّ، لم تفعل) إشارة إلى أنّ هذه المرأة لم تكن لتطالب بدم عثمان، بل هدفها تأليب الناس عليّ. وأمّا عبارته (ولها بعد حرمتها الاولى) ذلک انها كانت زوج رسول اللَّه صلى الله علیه و آله وقد غض النظر عن عقابها فی الدنيا حرمة لرسول اللَّه صلى الله علیه و آله ولذلک أردفها بالعبارة (والحساب على اللَّه تعالى فی أنّ اللَّه سوف لن يعفو عن هذه المعصية. وقد أشار القرآن إلى هذا الأمر فی الآية الكريمة ۳۰ من سورة الأحزاب: «يَا نِسَاءَ النَّبِیِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِکَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً».

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۹۱

القسم الثانی

منها: سَبِيلٌ أَبْلَجُ الْمِنْهَاجِ، أَنْوَرُ السِّرَاجِ، فَبِالْإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيمَانِ، وَبِالْإِيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الْآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبَرَّزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ الْخَلْقَ لَامَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُرْقِلِينَ فِی مِضْمَارِهَا إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى

الشرح والتفسیر: السبیل إلی النجاة

تحدث الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة عن الإیمان ثم آثاره- العمل الصالح والعلم والمعرفة وخوف العقاب والاستعداد للسفر الشاق وبالتالی نیل الجنّة- فقال:

«سَبِیلٌ أَبْلَجُ ۱۲۶] الْمِنْهَاجِ، أَنْوَرُ السِّرَاجِ»

. شبه الإمام علیه السلام الإیمان بالسبیل الواضح الخالی من العقبات نهاراً والملئ بالمصابیح لیلًا، کما یحتمل أن یکون المراد من السراج، العلامات والألواح التی تنصب علی جوانب الطرق بغیة إرشاد المسافر إلی الهدف، أی أنّ الإیمان طریقه واضح وعلاماته جلیة.

ثم قال علیه السلام:

«فَبِالْإِیمَانِ یُسْتَدَلُّ عَلَی الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ یُسْتَدَلُّ عَلَی الْإِیمَانِ، وَبِالْإِیمَانِ یُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ یُرْهَبُ الْمَوْتُ»[۱۲۷]

. قطعاً أنّ معنی الإیمان فی

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۹۲

العبارتین هو الاعتقاد الباطنی؛ و (یستدل) فی العبارة الأولی، یعطی معنی العِلّیة وفی العبارة الثانیة، الکاشفیة، أی أنّ الإیمان سبب العمل الصالح، والعمل الصالح کاشف عن الإیمان، مع ذلک ربّما تکون العلیة هی المرادة من (یستدل) فی المعنیین، أی کما أنّ الإیمان سبب العمل الصالح فإنّ العمل الصالح سبب قوة الإیمان. وقوله علیه السلام (وبالإیمان یعمر العلم) إشارة إلی أمرین:

الأول: إنّ الإنسان إن آمن بالخالق العالم والحکیم وانفتح علی الهدف الذی ینطوی علیه الخلق سیوقن بان لیس هنالک شیء خُلق عبثاً فی هذا العالم فیسعی أثر ذلک للوقوف علی علل الأشیاء وأسرار الظواهر. حیث صرح أحد علماء العلوم الطبیعیة بأنّ العنصر الذی دفع بکبار العلماء للسعی من أجل کشف أسرار الطبیعة ولسنین مدیدة إیمانهم بالهدفیة التی تحکم عالم الخلیقة وأن لیس هنالک من سبیل للعبث فی خلق أی شیء.

الثانی: إنّ أحد موانع العلم والمعرفة هو التعصب الأعمی والغرور، لکن إن حل الإیمان زالت کل هذه الموانع وتمهد السبیل أمام بلوغ منابع العلوم والمعارف. أضف إلی ذلک فإنّ العلم دون عمل هو علم هدام یستبطن الجهل، والعنصر الذی یقرن العلم بالعمل هو الإیمان، کما ورد ذلک فی الحدیث المروی عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، أنّه قال:

«إِنَّ العِلْمَ یَهْتِفُ بِالعَمَلِ فَإِنْ أَجابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ»[۱۲۸]

. وقوله علیه السلام: إنّ الإنسان بسبب العلم یرهب الموت فی أنّه لا یری الموت نهایة الحیاة، بل یراه بدایة حیاة جدیدة یعیشها علی ضوء ما أسلف من أعمال.

ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه بذکره للعلة والمعلول واللازم والملزوم فقال:

«وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْیَا، وَبِالدُّنْیَا تُحْرَزُ الْآخِرَةُ، وَبِالْقِیَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبَرَّزُ

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۹۳

الْجَحِیمُ لِلْغَاوِینَ. وَإِنَّ الْخَلْقَ لَامَقْصَرَ[۱۲۹] لَهُمْ عَنِ الْقِیَامَةِ، مُرْقِلِینَ ۱۳۰] فِی مِضْمَارِهَا إِلَی الْغَایَةِ الْقُصْوَی

. نعم، الموت نهایة الحیاة الدنیویة وانطلاقة الحیاة الأبدیة، وصحیفة الأعمال تطوی بالموت؛ ذلک أنّ مزرعة الآخرة هی الدنیا، ولیس فی القیامة سوی الجنّة والسعادة الأبدیة أو النار والعذاب الأبدی، وکل إنسان دون استثناء آیل إلی أحدهما. لا یستبعد أن یکون ذکره لهذه العبارة بعید موقعة الجمل أنّ أولئک النفر الضال لو کان إیمانهم قوی لما انساقوا إلی تلک الفتنة والمعرکة القاتلة. فالإیمان

يـدعو العلم والمعرفـة وترجيـح الـدار الباقيـة على تلك الفانيـة: ولكن من المؤسف أنّ حجاب الهوى يحول دون إدراك العقل لهـذه الحقائق رغم أنّ الطريق واضح والمعالم جلية.

أمّا العبارة

«وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبَرَّزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ»

مقتبسة من سورة الشعراء، الآية ۹۱- ۹۰: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ* وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ».

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۹۵

القسم الثالث

منها: قَدْ شَخَصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ.

لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا، لَايَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا.

وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّهُمَا لَايُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْق. وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، «فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ»، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّيُّ النَّاقِعُ، وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ. لَايَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، «وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ»، وَوُلُوجُ السَّمْعِ. «مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ».

الشرح والتفسير: عوامل النجاة فى القيامة

خاض الإمام عليه السـلام فى هـذا الجانب من الخطبـة عقب العبارات السابقـة- التى تحـدث فيها عن الموت والجنّة والنار- فى مسألة الحشـر والنشر يوم القيامة ثم تطرق إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأهميّة القرآن الكريم، كونها تشكل العناصر المحورية فى النجاة يوم القيامة فقال:

«قَدْ شَخَصُوا[۱۳۱] مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ ۱۳۲]،

وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ. لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا، لَايَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا»

. فأشار بادىء الأمر إلى أنّ الجميع ينهضون من القبر كما ورد ذلك كراراً فى القرآن

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۹۶

الكريم: «يَومَ يَخرُجُونَ مِنَ الأجـداثِ سـراعاً»[۱۳۳] ويسـتفاد من العبـارة أنّ ذرات البـدن الـتى تحولت إلى تراب تعود إلى القـبر أينما كانت لتحيا ثانية وتنفض عنها التراب.

وهنـا يرد هـذا السؤال: إنّ آيـات القرآن صـريحة فى أنّ الـدنيا سـتنتهى بزلزلـة عظيمـة تحطم كل شـىء فكيف سـتبقى القبور ويخرج الموتى منها إلى الحساب؟ أوردنا الاجابة عن هذا السؤال فى الجزء الثالث من الأنوار العلوية.

ثم أشـار الإمام عليه السـلام إلى عـدم اسـتبدال دور الجنّة والنار وسـيقيم كل شـخص على ضوء أعماله فى الجنّة أو النار؛ والمراد أنّ الثواب والعقاب فى الآخرة للمؤمن والكافر أبـديان، لا يمكن اسـتبداله ولا نقله. والحق أنّ تلك الدار على قدر من النظام والدقة الذى ينسجم مع العقيدة والعمل وكان كل مكان يبحث عن شخص لا العكس. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى قضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على أنّ معركة الجمل كانت من النماذج البارزة لهذا المفهوم، فقال:

«وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّهُمَا لَايُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْق»

. على غرار مـا جـاء فى القرآن الكريم: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَالإِحْسَـانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ». ويرى بعض شـرّاح نهـج البلاغـة أنّ التعبير (بالخُلُق) عن اللّه هو تعبير مجازى (مجاز فى الكلمة أو مجاز فى النسـبة)، لأنّ الخُلُق ملكة نفسانية

تنبعث من الأعمال الصالحة والسيئة، واللّه منزّه عن هذه العوارض والحالات، إمّا أن اعتبرنا الخُلق بمعنى الوصف فليست هنالك من مشكلة سواء أُريد به الحالة النفسانية أو الوصف عين الذات الذى يطلق على اللّه. على كل حال فإنّ الوظائف التى عينها الإسلام للناس تكون أحياناً متعلقة بالإنسان مثل العبادات وأغلب المحرمات، لكن هنالك أمور واسعة جدّاً تصدق حتى على اللّه، كالعدالة وترك الظلم وإرشاد الجاهل وتنبيه الغافل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل إنّ أساس نزول الكتب السماوية وبعث الأنبياء على ضوء

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۹۷

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو إرشاد الجاهل، وبناءً على هذا، كفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أهميّة أنّه محور انطلاقة جميع الأنشطة للأنبياء والرسل. وما قاله الإمام عليه السلام من أنّهما لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق، إشارة إلى أنّ أغلب الناس من ذوى النظرة الضيقة والآفاق المحدودة يعتقدون بأنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤدّى إلى الاشتباك مع أهل المعاصى، وهذا ما يؤدّى بدوره إلى القتل تارة وأخرى انفراج الناس عن هذا الإنسان وبالتالى قلة رزقه.

ولكن إن جرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفق الأسلوب الصحيح والمعقول وجانب الافراط والتفريط فإنّ اللّه يحفظ الإنسان الذى يمارس هذه الوظيفة ولا يبخل عليه فى رزقه. وللأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، شرائط، منها: احتمال التأثير وعدم الضرر، كما أنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نوعان؛ عام، وهو وظيفة كافّة الناس (عن طريق القلب واللسان، وخاص، وهو وظيفة الحكومة الاسسلامية (من خلال الإجراءات العملية). فلو راعى الإنسان هذه الأمور فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى جانب الأدب والاحترام فسوف يحظى بحب الآخرين واحترامهم لا انفراجهم عنه ونفرتهم، فإن عرضت له بعض المكاره يفرجها اللّه تعالى.

وزبدة الكلام إنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو أساس ودعامة نظام المجتمع وقدسيته ونهضته وتطوره، والعكس بالعكس، فإنّ المجتمع الذى يموت فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يستفحل فيه التنصل عن المسؤوليه وترتكب فيه الذنوب والمعاصى ويجهر فيه بالفسوق حتى يغط المجتمع فى وحل الانحراف والفساد.

ولما كان سبيل نيل السعادة وحل المشاكل الفردية والاجتماعية يتمثل بالعودة إلى القرآن فإنّ الإمام عليه السلام يتطرق هنا إلى أهميّة القرآن ليوضحها بعبارات حية عميقة المعانى وتشبيهات لطيفة ضمن احدى عشرة جملة- تشير كل جملة منها إلى ميزة من مزايا القرآن- قال

«وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ».

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۹۸

كأنّ البشرية قبل التعليم والتربية مستغرقة فى وحل الطبيعة ولابدّ لها من التمسك بحبل بغية النجاة. وينبغى أن يكون هذا الحبل متيناً كى لا يتركها منتصف الطريق.

ومن هنا يعبر عن القرآن بالحبل المتين، الوسيلة الفضلى فى النجاة، وبالنظر إلى أنّ سلوك الطريق فى الظلمات يؤدّى إلى الضلال والسقوط فى المستنقعات فقد شبه القرآن بالنور المبين الذى يحف الإنسان حتى يبلغ الهدف.

وقال فى صفته الثالثة والرابعة بالنسبة للقرآن:

وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّىُ ۱۳۴] النَّاقِعُ ۱۳۵]»

، فالصفات الذميمة والرذائل الأخلاقية سواء تلك التى يتسم بها الفرد أو الجماعة كالأمراض المعضلة وربّما القاتلة وقد ورد علاجها فى ظلال القرآن الكريم، وطالما كان أهم عوامل الحياة وديمومتها هو الماء فإنّ القرآن الكريم يلعب دور الماء فى حياة الإنسان المعنوية، ومن هنا عدّه الإمام عليه السلام وسيلة رى عطاشى الحق.

ثم قال فى الميزة الخامسة والسادسة:

«وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ»

فالإنسان عادة ما يتعرض فى مسيرته نحو الصلاح والسعادة إلى بعض المطبات ولابدّ له من التمسك بما يعونه من الوقوع فى تلك المطلبات. وقال فى الميزة السابعة والثامنة

«لَا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ ١٣۶]»

. قطعاً أنّ كلام اللَّه الذى يستند إلى علمه المطلق ليس من سبيل للخلاف والخطأ والانحراف إليه، ذلك لأنّ الخطأ إنّما يقارفه من كان علمه محدوداً وقدرته بسيطة، لا تلك الذات المطلقة العلم والقدرة، ونعلم جميعاً أنّ احدى ملامح اعجاز القرآن، عدم وجود التضاد والاختلاف فى آياته:

«وَلَو كَانَ مِن عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختِلافاً كَثِيراً»[۱۳۷]

كما

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۹۹

ورد فى سورة الكهف: «الحَمْدَ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً»[۱۳۸].

ثم قال فى الصفة التاسعة:

«وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ»

. أجل فطراوة القرآن وحلاوته ودوره التربوى يسمو على القراءة والتكرار، ذلك لأنّ القرآن كلام اللَّه وكلامه كذاته غير متناهٍ وكلما تدبر الإنسان فيه اكتشف حقيقة جديدة وكلما تطور العلم البشرى كلما تكشفت أبعاد جديدة منه كما قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله

: «لا تُحصَى عَجائِبُهُ وَلا تُبلَى غَرائِبُهُ»[۱۳۹]

أو كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام حين سأله شخص عن تسامى القرآن على التلاوة والتكرار فقال عليه السلام:

«لأنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعالى لَم يَجْعَلْهُ لِزمانٍ دُونَ زَمانَ وَلا لِناسٍ دُونَ ناسٍ فَهُو فِى كُلِّ زَمانٍ جَديدٍ وَعندَ كُلِّ قَوم غَضٌّ إلى يَوم القَيامَةِ»[۱۴۰].

وأخيراً قال فى الميزة العاشرة والحادية عشرة:

«مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ».

إشارة إلى أنّ القرآن معيار الحق والباطل والنصر والهزيمة، ومن تحدث على ضوء القرآن كان كلامه عين الحقيقة ومن التزم بالقرآن عملًا نال السعادة، ولاغرو فليس من سبيل للخطأ إلى القرآن وهذا ما يجعل الملتزم به قريباً من الحق فى منطقه وسلوكه.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۰۱

القسم الرابع

وقام إليه رجل فقال: يا أميرالمؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عنها؟ فقال عليه السلام:

إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلَهُ: «الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَايُفْتَنُونَ» عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَاتَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِى أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِى سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِى»، فَقُلْتُ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِى يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّى الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذلِكَ عَلَىَّ، فَقُلْتَ لِى: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» فَقَالَ لِى: «إِنَّ ذلِكَ لَكَذلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيسَ هذَا مِنْ مَوَاطِنِ

الصَّبْرِ، وَلكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرى وَالشُّكْرِ.

الشرح والتفسير: الفتنة الكبرى

جاء في متابعة الخطبة:

«وقام إليه رجل فقال: يا أميرالمؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول اللّه صلى الله عليه و آله عنها؟»

فالعبارة تشير إلى أنّ أذهان الناس كانت تساورها وقوع الفتنة، وأراد السائل أن يعرف هل ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله شيء بشأن هذه الفتنة الخطيرة. فأجابه الإمام عليه السلام:

«إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلَهُ:

«الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَايُفْتَنُونَ»[۱۴۱]

عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَاتَنْزِلُ بِنَا

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۰۲

وَرَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ ۱۴۲] عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ

وَرَائِكَ؟[۱۴۳]» فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

لَيسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرى وَالشُّكْرِ».

تأمّلان

۱. الرد على بعض الأسئلة

تفيد العبارة الواردة في الخطبة أنّ الآية: «الم* أَحَسِبَ النَّاسُ ...» أنّها نزلت في المدينة بعد موقعة أحد، في حين يتفق المفسرون على أنّ سورة العنكبوت مكية، حيث لم يكن آنذاك شيء عن الجهاد.

قيل في الجواب عن هذا السؤال: إنّ مكية سورة معينة يعنى نزول السورة بجميع آياتها في مكة، بل لا يمنع أن تكون أغلب آياتها نزلت في مكة كما نزلت آية أو أكثر، منها في المدينة، وقد أمر النبي صلى الله عليه و آله بوضع هذه الآية في السورة، على غرار إجماع المفسرين على مكية سورة النحل مع العلم اليقين بنزول ثلاث آيات منها بعد موقعة أحد.

السؤال الثاني: من أين علم على عليه السلام بعد نزول الآية المذكورة أنّ الفتنة لا تقع على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله بينما لم تشر الآية إلى هذا الأمر من قريب أو بعيد؟

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۰۳

والجواب واضح في أنّ المراد من الفتنة خطر الانحراف عن أصول الدين وفروعه والذي يهدد كيان الأُمّة الإسلامية وليس لمثل هذا الانحراف أن يقع طالما كان النبي صلى الله عليه و آله بين ظهرانيهم، ولكن ما أن تغيب شمس النبي صلى الله عليه و آله حتى يستغل المنافقون الفرصة وتبرز الخلافات.

السؤال الثالث: ما تلك الفتنة التي أشار النبي الأكرم صلى الله عليه و آله في هذه الخطبة إلى وقوعها بعده؟ فقد ورد في رواية عن النبي صلى الله عليه و آله تعرض للتفاصيل أكثر من رواية نهج‌البلاغة، أنّه قال:

«إنّ أمتی ستفتن من بعدی فتأول القرآن وتعمل بالرأی وتستحل الخمر بالنبیذ[۱۴۴] والسحت بالهدیة والربا بالبیع وتحرف الکتاب عن مواضعه وتغلب کلمة الضلال فکن جلیس بیتک حتی تقلدها، فإذا قلدتها جاشت علیک الصدور وقلبت لک الأمور»[۱۴۵]. فهذا الحدیث الذی ذکره ابن أبی الحدید فی شرحه لهذه الخطبة یبیّن تلک الفتنة الکبری ۱۴۶].

السؤال الرابع والأخیر:

لماذا سأل علی علیه السلام بشأن شهادته؟ فهل أشار النبی صلی الله علیه و آله إلی شهادته حین تحدث عن تلک الفتنة؟ والحال لم یرد فی الخطبة ما یشیر إلی هذا الأمر؟ والجواب کما أسلفنا أنّ المرحوم السید الرضی (ره) قد أوجز الخطبة. وقد ورد فی الروایات المفصلة أنّ علیاً علیه السلام لما سمع من النبی صلی الله علیه و آله وقوع هذه الفتنة قال: یارسول اللَّه لقد وعدتنی بالشهادة فاسأل اللَّه أن یعجل لی بین یدیک. قال صلی الله علیه و آله: فمن یقاتل الناکثین والقاسطین والمارقین؟ أمّا أنی وعدتک الشهادة وستستشهد تضرب علی هذه فتخضب هذه ۱۴۷].

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۰۴

۲. الشهادة مفخرة لا مصیبة

القضیة الجدیرة بالذکر فی هذا المقطع من الخطبة ما ورد من حوار بین النبی صلی الله علیه و آله وعلی علیه السلام، حیث تطرق النبی الأکرم صلی الله علیه و آله إلی مفهوم الصبر الذی یکشف عن ذروة الإیمان وقمة الإیثار والتضحیة فی سبیل اللَّه والقیم الإسلامیة التی لم تنقل عن شخص آخر علی غرار ما هی علیه بالنسبة لعلی علیه السلام، ولعلنا نلمس امتدادات ذلک فی صرخته التی اطلقها علیه السلام حین ضرب فی محراب عبادته وخضب بدمه،

«فُزْتُ وَرَبُّ الکَعْبَةِ».

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۰۵

القسم الخامس

وَقَالَ: «یَا عَلِیُّ، إنَّ الْقَوْمَ سَیُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَیَمُنُّونَ بِدِینِهِمْ عَلَی رَبِّهِمْ، وَیَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَیَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَیَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْکَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِیَةِ، فَیَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِیذِ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِیَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَیْعِ» قُلْتُ: یَا رَسُولَ اللَّهِ، فَبِأَیِّ الْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذلِکَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ».

الشرح والتفسیر: الحیل الشرعیة فی استحلال المحرمات

قال الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة الذی یمثل آخرها ومواصلة لنقل کلام النبی الأکرم صلی الله علیه و آله بخصوص الفتنة التی تقع من بعده:

«وَقَالَ: «یَا عَلِیُّ، إنَّ الْقَوْمَ سَیُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَیَمُنُّونَ بِدِینِهِمْ عَلَی رَبِّهِمْ، وَیَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَیَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَیَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْکَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِیَةِ، فَیَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِیذِ، وَالسُّحْتَ ۱۴۸] بِالْهَدِیَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَیْعِ».

فقد رکز رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی تفاصیل هذه الفتنة الکبری وأشار إلی خمس صفات من صفات الفئة التی تعیش ذلک الاختبار. فصرح قبل کل شیء بافتتانهم بأموالهم فی إشارة إلی أنّ المال من المحاور الرئیسیة فی الاختبار والامتحان، کما نری أنّ الأمر کذلک فی کل عصر ومصر، والآخر، أنّهم یعیشون حالة من الغرور

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۰۶

الزائف، ذلك أنّهم يتطاولون على الناس بإسلامهم وكأنّهم يمنّون على اللَّه، ويظنون رغم كل آثامهم بنيل رحمة اللَّه والأمان من عذابه، وهذه هى الحالة التى تستحوذ عادة على جميع الاثمين المغرورين الراضين عن أنفسهم.

قال القرآن الكريم بشأن بعض الأعراب الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً واتسموا بتلك الصفات: «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ»[۱۴۹].

الميزة الأخرى لهؤلاء أنّهم يحاولون التغطية على أعمالهم السيئة بغية خداع الآخرين وربّما خداع أنفسهم. فهم على سبيل المثال يتناولون الخمور وحين يشكل عليهم بأنّها من المحرمات، قالوا: بل هذا النبيذ الذى كان يشربه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأصحابه، فى حين لم يكن ذلك النبيذ مسكراً ولا حراماً، وقضية ذلك النبيذ أنّ أصحابه بعد أن قدموا إلى المدينة وشكوا من طبيعة الماء، أشار عليهم بقذف عدّة تميرات فى ظرف كبير من الماء. ولم يكن ذلك الماء مضافاً، كما لم تكن التميرات بالحد الذى يؤدّى إلى السكر، فكانوا يشربون من ذلك الماء ويتوضأون به، إلّاأنّ بعض المغرضين استغل هذه القضية وقذف المزيد من التمر وعرضها للحرارة حتى تخمرت وتحولت إلى مسكر، فكانوا يتعاطونه باسم النبيذ[۱۵۰]. على غرار الكثير من الأشخاص ضعاف الإيمان فى الماضى والحاضر الذين يصطلحون على الرشوة بالهدية، كما يمارسون الربا فى معاملاتهم باسم البيع. طبعاً يسعى الآثمون فى الأوساط الدينية التى لا يخفى فيها الإثم ويؤدّى إلى بعض المشاكل بالنسبة لمن يقارفه إلى ممارسة الحرمات من خلال بعض المظاهر الزائفة، وهذا ما تناولته الأخبار الواردة بشأن الفتنة.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته فى حديثه مع الرسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۰۷

فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ[۱۵۱]، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ»

. يبدو أنّ هؤلاء الأفراد يقرون بالتوحيد والنبوّة وكان انحرافهم فى القضايا العملية، ولم يكونوا منكرين حتى لضروريات الدين وكانوا يسعون لتمويه ما يقترفون من محرمات بغطاء الحلال، وعليه لا يجرى عليهم حكم الارتداد، ولم يعاملهم الإمام عليه السلام كمرتدين.

تأمّل: الحرام لا يحلل بالزيف

ما أورده النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بشأن الفتنة لا يقتصر على عهد على عليه السلام بل يمتد ليشمل كل العصور بما فيها عصرنا الراهن. فهنالك العديد من الأفراد الذى يظنون أنّهم فى ركب المؤمنين حين يجرى الكلام عن الأموال والثروة غير المشروعة وكأنّهم يمنون على اللَّه بإسلامهم ويطمعون بعفوه ورحمته. والأسوأ من ذلك ارتكاب الكبائر فى إطار بعض العناوين المباحة والمزيفة، بعبارة أخرى يرتكبون هذه المخالفات من خلال التحايل على القانون واستغلال بعض فقراته المرنة. ولعلنا نشاهد اليوم أغلب المرابين الذين يتشبثون بمختلف الحيل، تارة باسم تبديل العملات النقدية بأخرى وتارة أخرى عن طريق «ضم الضميمة» أى أنّهم يضمون إلى المعاملة شيئاً زهيد القيمة فيبيعونه بقيمة فادحة، وأحياناً باسم تقاضى الأجور وأخرى ببيع الشروط الكاذبة أو حق العمل وذريعة التضخم وسائر العناوين الكاذبة والزائفة لإضفاء الحلية على الربا، حتى عدنا نلمس بوضوح ما قاله النبى صلى الله عليه و آله بهذا الخصوص

«يَأتِى عَلَى النَّاسَ زَمانٌ لايَبقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرِّبا فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصابَهُ مِنْ غُبارِهِ»[۱۵۲]

. حقّاً أنّ هذا النوع من المخالفة للقوانين الشرعية هو أسوأ وأخطر من

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۰۸

المخالفة الصريحة؛ لأنّها قد تستشرى سريعاً فى أوساط المجتمع دون أن تصطدم ببعض الموانع، والحال ليست المعاصى الصريحة

بهـذا الشـكل والتى تصـطدم بـالكثير من العقبـات فى المجتمعات الدينيـة. أضف إلى ذلك فإنّ هـذا الهروب من القانون يعـد جريمة مضاعفـة؛ فهو ينطوى على معصيـة الربا إلى جانب الرياء والتلاعب بأحكام الـدين. بعبارة أخرى، لا يبقى من القانون والحكم الشـرعى فى الهروب سوى صورته الظاهريـة مع اسـقاط مضـمونه وفلسـفته؛ فتحريم الربا مثلًا يسـتند إلى مفاسـدة العديدة على النظام الاقتصادى للمجتمع وإثارة السلبية فى خلق الطبقية البغيضة وبروز الطبقة المعدمة إلى جانب تلك المرفهة، ومن هنا عدّته بعض الروايات أسوأ من الزنـا بالمحـارم وأنّه بمثابـة محاربـة اللَّه، وذكرت سـبعاً من مفاسـده أوضـحناها فى بحث الربا[۱۵۳]. ولنـا أن نتسـاءل: هل تزول هـذه المفاسـد بممارسـة بعض الأمور الظاهريـة من قبيل إضافة علبة كبريت أو مقدار من النبات إلى تلك المعاملة الثقيلة؟ كلا. وهل يكمن جوهر المشـكلة فى كلمـة السـحت والربا كما قال المرحوم وحيد البهبهانى وأنّ جميع مساوىء الربا إنّما تعود إلى هذه الألفاظ، أم أنّ هنالك حكمة فى هذا الحكم لا ينبغى الغفلة عنها؟!

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۰۹

الخطبة ۱۵۷

اشارة

يَحُثُّ النَّاسَ عَلَى التَّقْوى ۱۵۴]

نظرة إلى الخطبة

اسـتهل الإمام عليه السـلام هذه الخطبة كسائر خطب نهج البلاغة بحمد اللَّه والثناء عليه، ثم خاض فى بعض الأمور الحساسة. تطرق فى القسم الأول إلى الاعتبار بالماضـين- الذين نشترك معهم فى المصـير- ليأخذ بأيدينا إلى أعماق التاريخ لننظر بوضوح لمصـيرنا فنظفر بالسعادة.

وأشار فى القسم الثانى إلى أهميّـة الورع والتقوى والتزود من الـدنيا للآخرة، وحـذر من أنّ نهاية الحياة الدنيا ليست معلومة لأىفرد فلا ينبغى الغفلـة. وتحـدث فى القسم الثـالث عن المراصـد التى تتـابع أعمـال الإنسـان بمـا فيها الملائكـة والحفظـة وحتى جوارح الإنسان وأعضائه.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۱۰

وخاض فى القسم الأخير فى نهاية الحياة وعالم القبر والوحشة هنالك وفناء الدنيا والقيامة من خلال عبارات قصـيرة تهز الإنسان وتحثه على اغتنام الفرصة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۱۱

القسم الأول

الْحَمْدُللَّهِ الَّذِى جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ.

عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِى بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ؛ لَايَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَداً مَا فِيهِ.

آخِرُ فَعَالِهِ، كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَـةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ. فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَـةِ تَحْـدُوكُمْ حَـدْوَالزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ: فَمَنْ شَـغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِى الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَكَ فِى الْهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِى طُغْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّىءَ أَعْمَالِهِ. فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ.

الشرح والتفسير: انعطافهٔ على المبدأ والمعاد

استهل الإمام عليه السلام الخطبهٔ بحمد اللَّه بعبارات جديدهٔ فقال:

«الْحَمْدُ[۱۵۵] لِلَّهِ الَّذِی جَعَلَ

الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ»

. أمّا بشأن الـذكر الوارد فی العبارهٔ، فقـد قيل: المراد به القرآن الكريم حسب بعض الآيات التی عبرت عنه بالـذكر، وذلک لأن سورهٔ الحمـد بدايـهٔ القرآن (بناءً على أنّ سورهٔ الحمد أول سورهٔ نزلت على النبی الأكرم صـلى الله عليه و آله وأنّ القرآن جمع بهذا الشـكل على عهد

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۱۱۲

النبی صـلى الله عليه و آله بأمره وقـد صدر بسورهٔ الحمد[۱۵۶]. أو أنّها إشارهٔ إلى بعض السور القرآنيـهٔ التی تصـدرت بالحمد كسورهٔ الحمد والأنعام والكهف وسبأ وفاطر. أو أنّ الذكر مطلق ذكر اللَّه كما ورد فی الأحاديث عن النبی صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«كل كلام لا يبدأ فيه بحمد اللَّه فهو أجذم»[۱۵۷]

. ومن هنا نشاهد أغلب خطب النبی الأكرم صلى الله عليه و آله والمعصومين عليهم السلام تستهل بحمد اللَّه والثناء عليه. والعبارهٔ (سبباً للمزيد من فضله) إشارهٔ للآيهٔ الكريمهٔ:

«لَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم»[۱۵۸]

وهنا لابـدّ من الإلتفات إلى أنّ الحمـد ورد فی أغلب الآيات القرآنيـهٔ بمعنى الشـكر. والعبارهٔ (دليلًا على عظمته وآلائه) إشارهٔ إلى أننا حين نحمد اللَّه ونشكره فإننا نكون قد توجهنا إلى نعمه وآلائه إلى جانب التفاتنا لمقام عظمته.

ثم خاطب الإمام عليه السلام عباد اللَّه ليحذّرهم من تقلب الدنيا ويوصيهم بالاعتبار بمن سبقهم من الماضين فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، إنَّ الدَّهْرَ[۱۵۹] يَجْرِی بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ»

. والعبـارهٔ تشـير إلى موضوع معروف فی أنّ التاريـخ يعيـد نفسه وأنّ حوادث اليوم هی حوادث الأـمس بتغيير طفيف. ويقول موضـحاً ذلک

«لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَداً مَا فِيهِ، آخِرُ فَعَالِهِ، كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ».

أجـل، لو تمعنـا قليلًا لعرفنا أنّ سلسـلهٔ من الأصول تحكم تاريـخ البشـريهٔ وأنّها تبرز كل يوم بصـيغهٔ جديـدهٔ، ومن هنا يسـتطيع كل فرد الوقوف على مسـتقبله من خلال دراسـهٔ تاريـخ الماضـين، ذلک أنّ تاريخ الأمس مرآهٔ عاكسهٔ لأحداث اليوم. فهنالک على الدوام فئهٔ تمسک بزمام الأمور وتسيطر على كل شیء ولا تمضی عليها مدّهٔ حتى

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۱۱۳

يـدب فيهـا الضـعف والعجز وتتخلى عـن تلـک السـلطهٔ مختـارهٔ أو مرغمـهٔ إلى الآـخرين «فَإذا جَاءَ أَجَلُهُـم لايَسْتَـأْخِرُونَ ساعَـةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ»، كمـا جرت العـادهٔ على أنّ يولـد الفرد طفلًا ثم يصـبح شاباً يافعاً وبالتالی يسـير إلى الشـيخوخهٔ والهرم لينتظر أجله فيلتحق بقافلهٔ الموتى ويتوسد التراب.

وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من هذا الأمر حتى يسدی نصائحه ومواعظه

«فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ ۱۶۰] حَدْوَالزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ»

. وبالنظر إلى أنّ الزاجر تطلق على من يسوق الجمال بسرعهٔ، والشوال جمع شائلـهٔ التی تطلق على الجمال الخفيفهٔ، أی التی مضت مدّهٔ على وضـعها لحملها وقد جفّ ثدياها وبالطبع لا يلتفت إليها الراعی، نسـتنتج أنّ الدهر يسوق الناس سـراعاً إلى الفناء. فما أسرع الليالی والأيّام والسنوات والأشهر، إلى جانب الحوادث المفاجئهٔ والأمراض وسائر الأمور التی تستهدف حياهٔ الإنسان.

ثم يلفت عليه السلام الانتباه بعد ذلك التحذير إلى هذه الحقيقة:

«فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِی الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَکَ ۱۶۱] فِی الْهَلَکَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَیَاطِینُهُ فِی طُغْیَانِهِ، وَزَیَّنَتْ لَهُ سَیِّیءَ أَعْمَالِهِ»

. فکل إنسان ینطوی علی بعض المناقص والمثالب ونقاط الضعف ولیس له من سبیل سوی إصلاحها لیتدرج فی المسیرة نحو الإنسان الکامل فیستحق قرب اللّه وخلافته، أمّا من صوب نظره خارج ذاته وانهمک بسائر قضایا الناس کالمال والثروة والجاه فلا مناص أنّه سیعیش الحیرة والارباک، والأسوأ من ذلک أنّ الشیاطین تتخطف هذا الإنسان الغافل فتسوقه إلی الطغیان وتزین له سوء أعماله حتی یراها من مواطن قوته فیفخر بها، ومن الطبیعی أنّ مثل هذا الإنسان لا سبیل لدیه إلی النجاة. صرح القرآن بشأن مثل هذا الفرد: «کَمَنْ مَثَلُهُ فِی الظُّلُمَاتِ لَیْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا کَذَلِکَ زُیِّنَ لِلْکَافِرِینَ مَا کَانُوا یَعْمَلُونَ»[۱۶۲].

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۱۴

وأشار علیه السلام فی ختام هذا القسم من الخطبة إلی مصیر هذا العمل فقال:

«فَالْجَنَّةُ غَایَةُ السَّابِقِینَ، وَالنَّارُ غَایَةُ الْمُفَرِّطِینَ»

والمراد طبعاً من السابقین، السابقین فی میدان طاعة اللّه وهدفهم الجنّة، علی غرار ماورد فی القرآن الکریم: «سَابِقُوا إِلَی مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا کَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِینَ آمَنُوا»[۱۶۳] العبارة (والنار غایة المفرطین) إشارة إلی الأفراد الذین تؤول أمورهم إلی النار بفعل تقصیرهم وعدم استغلالهم الفرص؛ حیث یقول القرآن الکریم بشأن مثل هؤلاء الأفراد: «قَالُوا یَا حَسْرَتَنَا عَلَی مَا فَرَّطْنَا فِیهَا»[۱۶۴].

تأمّل: کیف یعید التاریخ نفسه

تاریخ البشریة سلسلة من الأحداث الجمة المتنوعة والمختلفة، ولکن ما أن نتأملها بدقة حتی نستطیع التوصل إلی خصائص تلک الأحداث المختلفة وتقولبها فی فئات معینة وعناوین خاصة، وبعض تلک الخصائص کما یلی:

۱. الزوال السریع للنعم والسلطات: نعم، فالنعمة والسلطة تأتی بسرعة وتزول کذلک وتنتقل من طرف لآخر.

۲. التقلب: التقلب هو احد ممیزات حوادث هذا العالم فما أن یتعلق الإنسان بشیء حتی یفقده، وما أن یذوب فی شخص حتی یفجع به.

۳. غدر الدنیا: وقد ضرب المثل بهذا الشأن حتی قیل (لمن صفت الدنیا لتصفو لنا).

۴. النصر والهزیمة: ما زالت ذاکرة التاریخ حافلة بالکثیر من الأفراد والطوائف

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۱۵

الذین عاشوا الانتصار وغروره ولکنهم ما لبثوا أن تجرعوا غصص الذل والهوان ومرغت انوفهم بوحل الهزیمة.

۵. استبدال الود بالعداء والعکس: فأقرب مقربی الإنسان الیوم قد یصبح عدوه فی الغد کما أنّ أعداء الأمس قد یصبحون أصدقاء الیوم، الأمر الذی نلاحظه بجلاء فی حیاة الساسة والحکام.

۶. الترحم واللعن: الذی یبقی فعلا ویدعو إلی الذکر الحسن لدی الناس هو أعمال الخیر والبر والمروءة والاخلاص، والعکس صحیح، فلیس للظلم والطغیان سوی اللعن.

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۱۷

القسم الثانی

اعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ. أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى

عِبَادَ اللَّهِ، اللَّهَ اللَّهَ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُم، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُم: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ. فَشِقْوَةٌ لَازِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ! فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأُمِرْتُم بِالظَّعْنِ، وَحُثِثْتُم عَلَى الْمَسِيرِ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ، لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ. أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ!

عِبَادَاللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ.

عِبَادَاللَّهِ، احْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ وَتَشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ.

الشرح والتفسير: تقلب الدنيا

قال الإمام عليه السلام هنا- بعد أن خاض فى تقلب أحوال الدنيا واعد المخاطبين لاستماع المواعظ والإرشادات:

«اعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَايَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ»

. إشارة إلى أنّ

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۱۸

التقوى ملكـة باطنيـة قويـة تحول دون مقارفـة الإنسان للذنب وهذا ما يؤدّى بدوره إلى الاحتراز من انعكاسات الذنب الخطيرة فى الدنيا والآخرة، بعكس الأفراد المجانبين للورع والتقوى والذين يصبحون عرضة لنفوذ الشياطين وأهواء النفس وبالتالى السقوط فى مستنقع الذنب والفضيحة فى الدنيا وسوء العذاب فى الآخرة.

ثم تطرق عليه السلام إلى آثار التقوى فقال:

«أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ[۱۶۵] الْخَطَايَا،

وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى

فالإمام عليه السلام يشبه سطوة الذنوب بالحشرات السامة كالحية والعقرب. نعم، فالتقوى هى التى تمنح الإنسان الحياة، ولما كانت التقوى واليقين لازماً وملزوماً لبعضهما البعض فقد صرح الإمام عليه السلام بأنّ من ينطق باليقين يبلغ الهدف، والتقوى تزيل عقبات الطريق ولا يفرز عدم التقوى سوى ضعف اليقين.

فهل يسع من يوقن بهذه الآية:

«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظلماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِم ناراً»[۱۶۶]

أن يأكل مال اليتيم؟ وهل يسعك أن تجد شخصاً يتناول قطعة من النار ويضعها فى فمه؟! ثم قال فى اطار حثّ الآخرين على التزود من الدنيا للآخرة:

«عِبَادَ اللَّهِ، اللَّهَ اللَّهَ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُم، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ»

. قطعاً المراد من (أعز الأنفس) فى هذه العبارة نفس الإنسان، ذلك لأنّ حب الذات مسألة طبيعية لدى الإنسان وإن تعلق بشخص أو شىء ففى ظل غريزة حب الذات (بغض النظر عن أولئك الذين تجاوزوا ذواتهم ولم يعودوا يروا سوى اللَّه وذاته المطلقة ولا يرومون سواه. على كل حال، فالمراد: إن لم ترحموا أحدا فعلى الأقل ارحموا أنفسكم وإن غفلتم عن مصالح الآخرين فلا تغفلوا عن مصالحكم، فهذا الأمر مودع فى فطرتكم.

ثم حذر قائلًا:

«فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ. فَشِقْوَةٌ لَازِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ!»

. وخاض أخيراً فی بیان أسباب نیل السعادة الدائمة واجتناب

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۱۹

الشقوة الدائمة فقال:

«فَتَزَوَّدُوا فِی أَیَّامِ الْفَنَاءِ لِأَیَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَی الزَّادِ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ ۱۶۷]، وَحُثِثْتُمْ ۱۶۸] عَلَی الْمَسِیرِ»

. جدیر ذکره أنّ المراد من الزاد: التقوی والعمل الصالح الذی أشار إلیه القرآن: «وتَزودَوا فإنَّ خَیرَ الزَّادِ التَّقوی [۱۶۹]. والعبارة (أمرتم بالظعن ...) یمکن أن تکون إشارة إلی أمر تشریعی ورد فی الآیات المرتبطة بفناء الدنیا وأنّ کل شخص سیذوق فی خاتمة المطاف طعم الموت علی ضوء الدلالة الالتزامیة، کما یمکن أن یکون إشارة إلی أمر تکوینی؛ لأنّ اللَّه خلق أسباب الحرکة بحیث یسرع الطفل نحو الشباب والشباب إلی الکهولة وحث الخطی نحو دار البقاء، وقد أصدر أمره بحث الحرکة نحو أسباب العفو والمغفرة: «وَسارِعوا إلی مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ»[۱۷۰]. کما ورد فی الخطبة ۳۱ من نهج البلاغة فی وصیة الإمام علیه السلام لابنه الحسن علیه السلام

: «یابنی من کانت مطیته اللیل والنهار، فإنّه یسار به وإن کان واقفاً، ویقطع المسافة وإن کان مقیماً وادعاً».

ثم واصل کلامه بتشبیه بلیغ فقال:

«فَإِنَّمَا أَنْتُمْ کَرَکْبٍ ۱۷۱] وُقُوفٍ، لَایَدْرُونَ مَتَی

یُؤْمَرُونَ بِالسَّیْرِ»

. لعل هنالک من یتساءل کیف التوفیق بین عبارة الإمام علیه السلام وقوله (أمرتم بالظعن) التی اردفها بالعبارة (لا یدرون متی یؤمرون بالسیر)؟ وإنّ أدنی تأمل یفید أنّ العبارة الأولی إشارة إلی الحرکة فی الدنیا نحو الکمال والمسارعة فی أعداد عناصر العفو والمغفرة، أمّا العبارة الثانیة فهی تشیرالحرکة من الدنیا إلی الآخرة.

علی کل حال فقد ورد هذا التشبیه فی سائر مواضع نهج البلاغة ومنها الکلمات القصار حیث قال علیه السلام:

«أَهلُ الدُّنیا کَرَکْبٍ یُسارُ بِهِم وَهُم نِیامُ»[۱۷۲]

وهذا النوم هو الغفلة

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۲۰

التی یعیشها أغلب الناس. ثم قال فی توضیح هذه الحقیقة:

«أَلَا فَمَا یَصْنَعُ بِالدُّنْیَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ! وَمَا یَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِیلٍ یُسْلَبُهُ، وَتَبْقَی عَلَیْهِ تَبِعَتُهُ ۱۷۳]

وَحِسَابُهُ!»

. إن کانت دارنا الأصلیة هی دار الآخرة والدار الدنیا لیست سوی ممر فما معنی تعلقنا بهذه الدنیا؟ وما معنی کل هذا السعی والجهد من أجل جنی الأموال ولو عن طریق مزج الحلال بالحرام وهی لیست سوی ودیعة لدینا وإنّ یوماً سنفارقها ونحاسب علیها؟

ثم استعان الإمام علیه السلام فی اطار حثه الآخرین علی الخیر والإحسان واجتناب الشر والسوء بمنطقین مؤثرین؛ الأول الذی قال فیه:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَیْسَ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْخَیْرِ مَتْرَکٌ، وَلَا فِیمَا نَهَی عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ»

. إشارة إلی أنّ من أمر ونهی ووعد بالثواب وتوعد بالعقاب لیس فرداً عادیاً یمکن الریبة فی کلامه.

والثانی الذی قال فیه:

«عِبَادَ اللَّهِ، احْذَرُوا یَوْماً تُفْحَصُ فِیهِ الْأَعْمَالُ، وَیَکْثُرُ فِیهِ الزِّلْزَالُ وَتَشِیبُ ۱۷۴] فِیهِ الْأَطْفَالُ»

. ففی ذلک الیوم ستخضع جمیع الأعمال مهما کانت صغیرة لدراسة دقیقة، کما قال القرآن الکریم: «یَا بُنَیَّ إِنَّهَا إِنْ تَکُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَکُنْ فِی صَخْرَةٍ أَوْ فِی السَّمَوَاتِ أَوْ فِی الْأَرْضِ یَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِیفٌ خَبِیرٌ»[۱۷۵]، والمراد من کثرة الزلازل فی ذلک الیوم زلزلة الافکار وارتعاد القلوب من هول المحشر وخوف نتیجة الأعمال. صحیح أنّ نهایة العالم ستشهد زلزلة بمعناها الحقیقی

والتى تقلب كل شىء رأساً على عقب، وما ورد فى العبارة إشارة إلى الزلزلة الفكرية والاضطراب الذى يعانيه الإنسان فى ساحة الحشر. والعبارة

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۲۱

«تشيب فيه الأطفال»

كناية عن عمق وشدة ذلك المشهد وهو التعبير السائد لدينا فى المكالمات اليومية حين نقول: إنّ تلك الحادثة مثلًا تشيب الإنسان، كما ورد فى القرآن الكريم: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً»[۱۷۶] نعم، ذهب البعض إلى أنّ شيب الأطفال هنالك بالمعنى الحقيقى لا ـ الكنائى، إلّاأنّ هذا الاحتمال بعيد، فليس هنالك مايشير إلى أنّ الطفل الذى يتلقى العذاب يشيب بفعل هول العذاب.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۲۳

القسم الثالث

اعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ، وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لَاتَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُورِتَاجٍ وَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ.

يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِىءُ الْغَدُ لَاحِقاً بِهِ، فَكَأَنَّ كُلَّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَمَخَطَّ حُفْرَتِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمُفْرَدِ غُرْبَةٍ! وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، قَدْ زَاحَتْ عَنْكُمُ الْأَبَاطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ الْعِلَلُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمُ الْحَقَايِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا، فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ.

الشرح والتفسير: حضور المحكمة الإلهيّة

أشار الإمام عليه السلام اتماماً لمواعظه السابقة إلى ثلاثة أمور مهمة؛ الأول، بشأن حفظة الأعمال، والثانى، الموت والقبر، والثالث، الحساب يوم القيامة والتى من شأنها تنبيه الغافل ويقظته من سبات الغفلة، فقال فى الأمر الأول:

«اعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ، وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ».

ثم وضح طبيعة هؤلاء المراقبين فقال:

«لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ ۱۷۷]، وَلَا

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۲۴

يُكِنُّكُمْ ۱۷۸] مِنْهُمْ بَابٌ ذُورِتَاجٍ ۱۷۹]»

. العبارة

«أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُم»

إشارة إلى شهادة أعضاء بدن الإنسان وجوارحه وجلده يوم القيامة، كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[۱۸۰] ثم قال:

«شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ»[۱۸۱]. بالنظر أنّ معنى «الرصد» الرقيب، و «عيون» بمعنى الاطلاع فإنّ المفردتين من قبيل الإجمال والتفصيل؛ أى أنّ مراقبى أعمال الإنسان فى الدرجة الأولى أعضاؤه وجوارحه التى تنطق يوم القيامة وتشهد على جميع أعماله. أمّا ما ذهب إليه بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ «الرصد» يعنى وجدان الإنسان الذى يلومه على الأعمال السيئة، فليس بصحيح؛ لأنّ الوجدان قاضى الباطن لا المراقب

والشاهد الكامن فى مفهوم الرصد. وهل هذه الشهادة بلسان القال والنطق المتعارف أم بلسان الحال وشهادة الآثار؟ الاحتمالان واردان؛ لأنّ أى عمل يقوم به الإنسان تنعكس آثاره على جميع أعضائه وستظهر هذه الآثار يوم القيامة لتفصح عن جميع أعماله التى أتى بها طيلة عمره، كما يمكن تبديلها إلى أمواج صوتية يسمعها الجميع. والعبارة

«وَحُفَّاظَ صِدْقٍ»

إشارة إلى الملائكة الموكلة بضبط أعمال الإنسان، كما ورد فى القرآن الكريم: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ* كِرَاماً كَاتِبِينَ* يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ»[۱۸۲] وهنا يرد هذا السؤال المعروف: ما حاجة اللّه إلى هؤلاء الملائكة رغم علمه الذى أحاط بكل شىء وأنّه أقرب إلينا من حبل الوريد؟ وتتضح الاجابة عن هذا السؤال من خلال الالتفات إلى هذه النقطة

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۲۵

وهى أنّ الإنسان كائن مادى وليس له من معرفة عميقة بعالم ماوراء المادة ولا يشعر بقرب اللّه منه؛ إلّاأنّه يدرك هذا المطلب تماماً حين يقال له إنّ أعضاء بدنك ستشهد عليك يوم القيامة، كما يعير هذا الموضوع أهميّة كبرى إن قيل له: عليك ملكان يكتبان كل أعمالك، وهذا بدوره يمثل عنصراً مهمّاً فى ردعه عن ارتكاب الذنوب والمعاصى. فاللّه سبحانه وتعالى أراد بكل وسيلة أن يصد عباده عن الذنوب، وشهادة الأعضاء والملائكة واحدة من هذه الوسائل.

الغريب فى الأمر أنّ هؤلاء الحفظة يحصون على الإنسان حتى عدد أنفاسه ولا يحتاجون فى كتابتهم لأعمالنا لأدنى سراج ومصباح، فهم يكتبون حتى فى عتمة الظلمة المطلقة، ولكن ما كيفية هذه الكتابة؟ قطعاً ليس ذلك من قبيل كتابتنا وإن لم نحط علما بتفاصيل ذلك.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه عن الموت والقبر الذى يهزّ الغافل بعنف فقال:

«وَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِىءُ الْغَدُ لَاحِقاً بِهِ»

. المراد من

«الغد»

قرب نهاية العمر والموت الذى إن غفل عنه الإنسان يهوى فى مستنقع الغفلة فإن رآه قريباً راقب أعماله وقام بوظيفته وتاب من ذنوبه. حقاً أنّ نهاية العمر ليست بعيدة مهما عمّر الإنسان، ذلك أنّ الأشهر والسنين تمرّ بسرعة إلى جانب الحوادث غير المتوقعة والأمراض التى تهجم على الإنسان فجأة وتقضى عليه. وذهب بعض الشرّاح لنهج البلاغة إلى أنّ المراد ب

«الغد»

فى العبارة المذكورة غد القيامة، وهذا المعنى وإن كان قريباً إلّاأنّ المعنى الأول وبالاستناد إلى العبارات القادمة التى تحدثت عن القبر أنسب.

ثم ذكّر الجميع بوحشة القبر فقال:

«فَكَأَنَّ كُلَّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَمَخَطَّ[۱۸۳] حُفْرَتِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمُفْرَدِ غُرْبَةٍ!».

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۲۶

أجل، فالإنسان الذى لا يتحمل الوحدة لساعة ويعيش دائماً بين صحبه وقرابته وأهله، لا يكاد يغمض عينيه عن هذه الدنيا حتى يفارق الجميع وإلى الأبد فينزل حفرة مظلمة ومرعبة فى وحدة وغربة مطلقة، فيالها من غربة أليمة صعبة، اللّهم إلّا أن يظفر بأصحاب جدد من أعماله الصالحة فتجعل الملائكة قبره روضة من رياض الجنّة، لا حفرة من حفر النار.

قال الإمام الصادق عليه السلام

نفحات الولاية ؛ ج۶ ؛ ص۱۲۶

«إنَّ لِلقبْرِ كَلاماً فِی کُلِّ یَوم یَقُولُ: أَنا بَیْتُ الغُربَةِ، أَنْا بَیْتُ الوَحشَةِ، أَنا بَیْتُ الدُّودَ، أَنا القَبْرِ، أَنا رَوضَةٌ مِنْ رِیاضِ الجَنَّةِ أَو حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ»[۱۸۴].

وأخیراً ما أن یفرغ الإمام علیه السلام من بیان الموت والقبر حتی یتجه صوب القیامة ومحکمة العدل الإلهی لیحذر الجمیع قائلًا:

«وَکَأَنَّ الصَّیْحَةَ قَدْ أَتَتْکُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِیَتْکُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، قَدْ زَاحَتْ عَنْکُمُ الْأَبَاطِیلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْکُمُ الْعِلَلُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِکُمُ الْحَقَایِقُ، وَصَدَرَتْ بِکُمُ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا»

. «وَکَأَنَّ الصَّیْحَةَ»

، فی العبارة، إشارة إلی صیحة القیامة التی توقظ جمیع الموتی وتنشرهم من قبورهم وتدفعهم إلی الحساب. یستفاد من الآیات والروایات أنّ العالم ینتهی بصیحة عظیمة یقال لها نفخة الصور الأُولی ثم تتبعها صیحة عظیمة أخری تدعی نفخة الصور الثانیة، وما ورد فی الخطبة بقرینة ما بعدها من عبارات، إشارة إلی النفخة الثانیة. والتعبیر بالساعة، إشارة إلی القیامة، لأنّ الساعة تعنی فی الأصل، برهة من الزمان أو لحظة عابرة، ولما کان قیام الساعة سریعاً والحساب أیضاً سریعاً لاستناده للّهسریع الحساب فقد عبّر عن القیامة بالساعة.

«لِفَصْلِ الْقَضَاءِ»

، القضاء الذی یفصل الحق من الباطل وزوال الأباطیل واضمحلال العلل، إشارة إلی خلو القیامة من الکذب والاعذار الواهیة والحجج الجوفاء وکل ما هنالک هو الحق والحقیقة. والعبارة

«وَصَدَرَتْ بِکُمُ الْأُمُورُ

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۲۷

مَصَادِرَهَا»،

إشارة إلی أنّ کل شخص یری نتیجة عمله وکل یحل فی مکانه الأصلی هنالک. والإمام علیه السلام یری القیامة قریبة إلی الحد الذی جعله یقول بأنّ کل شیء کأنّه قد وقع ونفخ فی الصور وقامت القیامة وخرج الموتی للحشر من قبورهم ونصبت موازین العدل وحصلت نتیجة الأعمال، وکل ذلک یشیر إلی مدی قصر عمر الدنیا بالنسبة للآخرة.

وقد عبّر القرآن الکریم عن القیامة فقال:

«یَوْمَ یَسْمَعُونَ الصَّیْحَةَ بِالحَقِّ ذَلِکَ یَوْمُ الخُرُوجِ»[۱۸۵]

کما عبّر عنها بیوم الفصل الذی یفصل الحق عن الباطل وعبّر عنها بسرعة الحساب، وقال فی موضع أخر:

«وَلا یُؤْذَنُ لَهُمْ فَیَعْتَذِرُونَ»[۱۸۶]

و

«یَوْمَ هُمْ

بارِزُونَ»[۱۸۷]

و

«یَوْمُ تُبلَی السَّرائِرُ»[۱۸۸].

واختتمها بالقول:

«فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغِیَرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ»

. و

«عبر»

جمع عبرة، إشارة إلى الحوادث الجديرة بالاعتبار والتى عادة ما يحفل بها تاريخ الإنسان وسيشهدها فى حياته، و

«غِيَر»

جمع غيرة بمعنى التغيير، إشارة تغيير النعم ونزول البلاء وتقلب الدهر، و

«نذر»

جمع نذير، والتى تشمل الأنبياء والأوصياء والآيات والروايات وحوادث الدهر.

تأمّلان

۱. الشهود على الأعمال

رغم أنّ اللّه شاهد وناظر لأعمالنا فى كل حال وزمان ومكان وعلمه الذى أحاط بكل شىء الكافى فى عدم شرود أدنى صغيرة وكبيرة، إلّاأنّه وللمبالغة فى الحجة ولفت أنظار المحسنين والمسيئين إلى مراقبة أعمالهم، فقد وكل بنا إضافة لذلك،

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۲۸

العديد من الشهود ومنها:

۱. أعضاء البدن وجوارحه حتى الجلود على ضوء ما ورد فى الآيات. والغريب فى الأمر اتضاح هذه الحقيقة بعد طرح قضية الإنسان الشبه من أنّ كل ذرة من ذرات بدن الإنسان استبطنت إنساناً كاملًا، والأغرب، الاستفادة من جلد الإنسان فى هذا الموضوع.

۲.

«الحَفظة»

و

«الكتّاب»

أى الملائكة الموكلة بثبت الأعمال.

۳. الأرض التى نعيش عليها هى الشاهد الآخر، جاء فى القرآن: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا* بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا»[۱۸۹].

۴. الزمان الذى نعيش فيه من الشهود علينا يوم القيامة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَا مِنْ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلى ابْنِ آدَمَ إِلَّا قالَ لَهُ ذَلِكَ الْيَوْمُ: يابْنَ آدَمَ أَنا يَوْمٌ جَدِيدٌ وَأَنا عَلَيكَ شَهِيدٌ فَقُلْ فِيَّ خَيراً وَاعْمَلْ فِيَّ خَيْرَاً أَشْهَدُ لَكَ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ»[۱۹۰].

۵. شهادة الأنبياء أعظم من كل ذلك، لنص القرآن الكريم فى شهادة كل نبىٍّ على أعمال أمّته يوم القيامة وشهادة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله على الجميع: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً»[۱۹۱] هكذا يخضع الإنسان طيلة عمره لهؤلاء الشهود ومن الجهات الست، وحق لمن آمن بحقيقة هؤلاء الشهود أن يراقب أعماله ويتحفظ عن الأخطاء.

۲. ثلاث عبارات عميقة المعنى

العبارة

«فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ»

، تنطوى على ثلاثة مفاهيم تكفى لايقاظ الإنسان من نوم الغفلة حيث تشير كل واحدة إلى حقيقة

نفحات الولايةَ، ج۶، ص: ۱۲۹

مستقلة. فالعبارة الأُولى ترى كفاية العبر فى الموعظة، وتشمل هذه المفردة كافة الحوادث الخطيرة فى الماضى والحاضر، بل حتى الحوادث الطبيعية. من قبيل الذهاب والإياب والليل والنهار يمكنها أن تكون عبرة لمن اعتبر: «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ»[۱۹۲]. والعبارة الثانية تشير إلى الوعظ فى التغييرات التى تطال حياة الإنسان والعالم. فأعزّة الأمس أذلّة اليوم، وأذلّة الأمس أعزّة اليوم، ما أسرع ما يحكم الحاكم ويعتلى المحكوم سدة الحكم، والشباب آيل الكهولة والعجز، والطفل الضعيف سرعان ما يشب ويهرم، ما كان غضاً بالأمس أصبح اليوم تحت التراب فى المقابر المهجورة، وهذا الضجيج المرتفع اليوم سيخمد بعد سنوات، يالها من دروس وعبر؟! العبارة الثالثة أنّ السن الأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء والآيات كلها مشرعة بالتحذير وهى تنادى الحذر الحذر والعمل العمل.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۳۱

الخطبة ۱۵۸

اشارة

يُنَبِّهُ فِيها على فَضْلِ الرَّسُولِ الأعْظَمِ صلى الله عليه و آله وَفَضْلِ القُرْآنِ، ثُمّ حَالِ دَوْلَةِ بَنى أُمَيَّةَ[۱۹۳]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة من قسمين: يؤكد الإمام عليه السلام فى القسم الأول على رسم صورة عن عصر البعثة وأهميّة القرآن وعظمته وأنّه الدواء لكل داء والعلم المتعلق بالماضى والحاضر والمستقبل. أمّا فى القسم الثانى فيشير إلى فتنة بنى أميّة ومدى ظلمهم وطغيانهم وسعة حجمه، إلّاأنّه يواصل كلامه بأنّ هذه الحكومة لن تدوم طويلًا وستولّى إلى غير رجعة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۳۳

القسم الأول

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَانْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ؛ فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ. ذِلكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ: أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِى، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِى، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ.

الشرح والتفسير: الكتاب الذى استوعب كل شيء

أشار الإمام عليه السلام فى مطلع الخطبة إلى الوضع على عهد الجاهلية والذى تزامن مع بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقال:
«أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ[۱۹۴] مِنَ
الْأُمَمِ، وَانْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ ۱۹۵]»
. ومضمون هذه العبارات من قبيل العلة والمعلول.
فالفترة التى توسطت عصر ظهور الأنبياء السابقين وخاتمهم كان سبب نوم الغفلة الذى غطت فيه الأُمم وهذه الغفلة أدّت إلى ذلك الانتقاض المبرم، بمعنى تقطع وشائج الحقائق ونظام الحياة البشرية التى وقعت فى وحل المعصية والظلمة. ثم تطرق عليه السلام إلى

بعثة النبى الخاتم والكتاب الذى جاء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب السماوية:

«فَجاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ»

. فقد قام النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بمهمتين؛ إنّه بيّن للناس المعارف والأحكام التى تنسجم مع الأصول الكلية لمعارف وأحكام من مضى من الأنبياء، والأخرى حمله لمشعل الهداية الذى

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۳۴

أضاء ظلمات الجهل والضلال. ثم خاض عليه السلام فى بيان هذا النور المتمثل بالقرآن:

«ذلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ»

. لقد شبهت أغلب الآيات القرآن بالنور، ومنها ما ورد فى سورة المائدة: «قَدْ جاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ»[۱۹۶]، وسورة الاعراف: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ»[۱۹۷]، وكما يضيئ النور أجواء الحياة ويحول دون تعثر الإنسان فى الظلمة والضلال وينمى النباتات ويرعى جميع الكائنات الحية، فللقرآن مثل هذه المهام فى حياة الإنسان المادية والمعنوية.

المراد من

«بِتَصْدِيقِ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ»

وبالنظر إلى أن بين يديه تعنى هنا ما قبل ليس تصديق التوراة والانجيل الذين طالهما التحريف، بل هى إشارة إلى تلك الكتب السماوية التى نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام كما لا- يعنى هذا التصديق أنّ الإسلام يتفق مع هاتين الديانتين فى جميع التفاصيل، بل المراد الأصول الكلية التى تشكل المحور المشترك لكافة الأديان السماوية، وإن طبقها الإسلام على مستوى أرفع وأوسع.

والعبارة

«وَلَنْ يَنْطِقَ»

لا تعنى أنّ القرآن لا ينفتح على أى شخص (سوى الأئمّة المعصومين عليهم السلام)، وذلك لأنّ القرآن نزل بلسان عربى مبين ومنطق واضح جلى وقد أمر الجميع بالتدبر فيه والاصغاء إلى مواعظه ليعيشوا الرجاء من خلال آيات البشارة والخوف من خلال آيات الوعيد والانذار. وعليه فالمراد من

«وَلَنْ يَنْطِقَ»

فيما يتعلق ببطون القرآن والأسرار الكامنة فيها، فهذه البطون من اختصاص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والائمّة المعصومين عليهم السلام.

ومن هنا قال:

«أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِى، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِى، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ»

. فالعبارة

«عِلْمَ مَا يَأْتِى»

كما أوردها بعض شرّاح نهج البلاغة

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۳۵

إشارة إلى المسائل المرتبطة بالآخرة من قبيل الحساب والكتاب والصراط والجنّة والنار، ولكن يبدو أنّها إشارة إلى الحوادث المستقبلية لهذا العالم والكامنة فى بطون هذا القرآن والتى يعلم بها المعصومين عليهم السلام بقرينة العبارة القادمة

«وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِى»

، التى تشير إلى الأمم السابقة وشرح سيرتها، كما قيل: هى إشارة إلى بداية الخليقة والعصور الأولى لخلق هذا العالم. والعبارة

«وَدَوَاءَ دَائِكُمْ»

إشارة إلى التعاليم والمفاهيم التى تعالج كافة أنواع الأمراض الأخلاقية والاجتماعية «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ»[۱۹۸].

والعبارة الأخيرة:

«وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ»

، إشارة إلى جميع القوانين التى تنظم شؤون المجتمع البشرى وتزيل العوائق وتنشر الأمن والاستقرار وبسط العدل والقسط فى ربوع البلاد.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۳۷

القسم الثانى

ومنها: فَعِنْدَ ذلِکَ لَايَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً. فَيَوْمَئِذٍ لَايَبْقَى لَهُمْ فِى السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِى الْأَرْضِ نَاصِرٌ. أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَأْكَلًا بِمَأْكَلٍ، وَمَشْرَباً بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ، وَمَشَارِبِ الصَّبِرِ وَالْمَقِرِ، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِثَارِ السَّيْفِ. وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ وَزَوَامِلُ الْآثَامِ. فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِى كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ، ثُمَّ لَاتَذُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ!

الشرح والتفسير: حكومة الظلم ودولة الطغيان

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى فتنة بنى أمية الشاملة والتى تلقى بظلامها على جميع المسلمين دون أن تغادر مسلماً إلّاوجرعته غصص ظلمها وطغيانها، إلى جانب تعذر الفرار من تلك الفتنة، وهى ليست سوى نتيجة طبيعية لأعمال الناس، فقال:

«فَعِنْدَ ذلِکَ لَايَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ[۱۹۹] وَلَا وَبَرٍ[۲۰۰] إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً[۲۰۱]، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً»

يمكن أن يرد الهم والغم بيتاً دون أن يرده الظلم، أمّا ظلم بنى أمية فقد بلغ درجة بحيث عمّ الهم والغم كل مكان، إلى جانب البلاء والمصائب، وذلك لأنّ ولاة

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۳۸

بنى‌أمية كانوا جميعاً من بطانتهم الذين سادتهم روح الظلم والانتقام بغية الاحتفاظ بسلطتهم لأقصى مدّة ممكنة.

ثم قال عليه السلام:

«فَيَوْمَئِذٍ لَايَبْقَى لَهُمْ فِى السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِى الْأَرْضِ نَاصِرٌ.

أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ»

ونفهم من هذه العبارة أنّها تخاطب أولئك الذين صمتوا إزاء الظلم والطغيان بعد أن قصروا فى أداء مسؤولياتهم، والدليل على ذلك العبارة

«أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ»

؟ وجاء مثل هذا المعنى فى الخطبة ۱۹۲ التى قال فيها:

«وَإِنَّكُم إنْ لَجَأْتُمْ إلى غَيرِهِ حارَبَكُم أَهْلُ الكَفْرِ ثُمَّ لَاجِبرَائِيلُ وَلَا مِيكَائِيلُ وَلَا مُهاجِرُونَ وَلَا أنصارٌ يَنْصُرُونَكَم»

وليس من الصواب ما ذهب إليه بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ المخاطب بالعبارة المذكورة هم الحكام الظلمة والذى يتابع فيه كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم السيئة:

«وَسَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَأْكَلًا بِمَأْكَلٍ، وَمَشْرَباً بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ ۲۰۲]، وَمَشَارِبِ الصَّبِرِ[۲۰۳] وَالْمَقِرِ[۲۰۴]، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْف، وَدِثَارِ السَّيْفِ.

وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا[۲۰۵] الْخَطِيئَاتِ وَزَوَامِلُ ۲۰۶] الْآثَام»

. إشارة إلى أنّ اللَّه سيجرعهم كل بلاء يصبوه على الناس وسيذيقهم مرارة الذلة إزاء كل لذة حصلوا عليها من مناصبهم، وقد شهروا سيوفهم على رقاب الناس، وسيسلط اللَّه عليهم من يضع السيف فى أعناقهم. وقد ثبت وقوع كل هذه الأحداث كما أخبر عنها الإمام عليه السلام وقد انتقم اللَّه من بنى أمية شر انتقام بحيث دبّ الرعب والهلع فى صفوف من تبقى منهم حتى فروا إلى المناطق النائية ولم يخلفوا لأنفسهم سوى الفضيحة والعار واللعنة الأبدية.

والعبارة:

وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ»

تشبيه لطيف ورائع. فقد شبههم بالحيوانات

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۳۹

حيث باءوا بخطايا الناس إثر جهلهم وافتقارهم للعقل والشعور، على غرار ما وصف به القرآن الكريم تلك الطائفة من الكفار: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ»[۲۰۷].

ثم اختتم الخطبة بنبوءة حاسمة أخرى بشأن مصير بنى أمية فقال:

«فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا[۲۰۸] أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِى كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ، ثُمَّ لَاتَذُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ!»

. فقد أورد الإمام عليه السلام عبارة عجيبة بشأن دولة بنى أمية على أنّهم شابوا الحكومة الإسلامية بالارجاس والأدناس والقذارة والظلم والفساد فأصبحت كالمواد المخاطية التى يدفعها الصدر والرأس، بحيث سينتهى الأمر إلى ما لا يطيقونه أنفسهم على غرار ذلك الذى يهم بطرح تلك المواد، فسيفقدون تلك السلطة ولا يظفرون سوى بلعنات الناس.

تأمّلان

۱. وظيفة الحاكم والرعية

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى مسألتين مهمتين تتعلقان بحوادث التاريخ المريرة؛ الأُولى وظيفة ومسؤولية الحاكم، والأخرى مسؤولية الرعية.

فالإمام عليه السلام لا يقتصر بإلقاء المسؤولية على الحاكم فى ممارساته الظالمة، بل يحمل الأُمّة المستسلمة والراضية بهذا الظلم جزءاً من تلك المسؤولية. فالحكّام ومرتزقتهم إنّما يمثلون فئة معينة، ولو مارست الأُمّة وظيفتها فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعدم الرضا والسكوت إزاء الظلم لما سهل على مثل هؤلاء الأفراد الأخذ بزمام الأمور ليعيشوا فى الأرض الفساد ويهلكوا البلاد والعباد.

فالإمام عليه السلام يحمل الأُمّة وأعمالها ماصب عليها من البلاء على أيدى حكومة بنى

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۴۰

أمية الظالمة، فأنتم الذين أسهمتم فى توطيد دعائم هذه الحكومة، وأنتم الذين سلمتم مقاليد الدولة لغير أصحابها، وأنتم الذين

تصـمتون اليوم إزاء هـذه الجرائم، ولعـل هـذا من الألطاف الإلهيـة بغيـة العودة إلى أنفسـكم وسـلوك طريق الحق «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِی الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِی النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»[۲۰۹]. طبعاً تحميل الأُمّـة مسؤولية تجاوز الحكّام الظلمة لا يعنی سـلب تلك المسؤولية عن أولئك الحكّام، ومن هنا تطرق الإمام عليه السلام العذاب الشديد الذی ينتظرهم، فبيّن بعبارات قصيرة عميقة المعنی مصيرهم الأسود ونهايتهم الأليمة.

۲. فاجعة نهاية دولة بنی امية

نعلم أنّ دولة بنی أمية اسـتغرقت أكثر من ثمانين سـنة لتحكم من قبل ۱۴ حاكماً من حكّام بنی أميـة وقـد حكم البعض منهم لأقل من شهرين، إلّاأنّ التاريـخ لم يشـهد مثيلًا لظلمهم الـذی طال الناس عامة ولا سـيّما أهل بيت النبی الأكرم صـلی الله عليه و آله وبنی هاشم. وبالطبع فإنّ بنی أمية لم يشـهدوا الأمان والراحة طيلة مدّة حكمهم حيث كانت تتوالی عليهم الثورات والنهضات، فكانوا يقمعونها بقوّة الحديد والنار وسفك المزيد من الدماء، حتی قامت عليهم الأُمّة بأسرها دفاعاً عن آل محمد إثر الشعار الذی رفع آنذاك

«الرضا لآل محمد»[۲۱۰]

والذی لم تكن نتيجته سوی مجی بنی العباس. أصدر الخليفة العباسـی أوامره بقتل جميع بنی أمية فوقع فيهم القتل بما لا يحصی، حتی نبشـوا القبـور وأحرقـوا من كـان فيهـا منهم (من أراد المزيـد فليراجع آخر الخطبـة ۱۰۶ الجزء الرابع والخطبـة ۹۳ الجزء الأـول والجزء الثالث). وذكر المرحوم العلّامة التستری فی الجزء السادس من شرحه لنهج البلاغة أنّه حين قتل مروان

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۴۱

آخر خلفاء بنی أمية مروان، هجم عامر بن إسماعيل علی داره وكان فيها ونسائه.

فغلقوا الأبواب وتعالت الصرخات. فأمسك عامر برجلً وسأله عن عائلة مروان.

قـال أمرنی مروان إن قتلت فاقتـل جميع بناتی (حتی لا يقعن فی أيـدی الآخرين) لكنی لم أفعل. وهنا احضـروا له اثنتين من بناته، فأمر بوضع رأس مروان فی حجر بنته البكر وقال لها: معـذرة، هـذا ما فعلتموه برأس يحيی بن زيـد حين وضـعتم رأسه فی حجر أمّه، وكنتم أول من فعل ذلك والبادیء أظلم، ثم أمر بقتلهم جميعاً[۲۱۱].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۴۳

الخطبة ۱۵۹

اشارة

يُبَيِّنُ فِيها حُسْنَ مُعَامَلَتِه لِرَعِيَّتِه ۲۱۲]

نظرة إلی الخطبة

أشار الإمام عليه السـلام فی هـذه الخطبـة إلی قضـية لطيفة فی أنّه عاملهم قدر المسـتطاع بالرفق والاحسان علی ما بدر منهم من حسـن التصرف والسلوك رغم قلته وكثرة إساءة التصرف فعفی عن كثير ظلمهم وما يكنون من العداء والبغضاء.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۴۵

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ، وَأَحَطْتُ بِجُهْدِی مِنْ وَرَائِكُمْ. وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رِبَقِ الذُّلِّ، وَحَلَقِ الضَّيْمِ، شُكْراً مِنِّی لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ

الْبَصَرُ، وَشَهِدَهُ الْبَدَنُ، مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ.

الشرح والتفسير

الدعم المطلق

أشار الإمام علیه السـلام فی هذه الخطبة القصـیرة إلی أیادیه الکریمة وخدماته للمسلمین والتابعین لحکومته وأوجزها فی أربع عبارات فقال:

«وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ»

المراد من حسن الجوار أن یعتمـد الإنسـان حالـة التعـایش السـلمی المقرون بالأدب والاحترام وحسن التصـرف تجاه الوسط الآخر من الأصدقاء وتحمل مساوئهم بحیث بشـعرون بالارتیاح لتواجده بینهم. وسـیرة الإمام علیه السـلام لاسیّما إبان عهد حکومته تفید أنّه کان یعامل الآخرین بالعطف والمحبـة، حتی کان یتفقـد الیتامی والأرامل لیلًا ویحمل لهم الطعام ویلبی حاجاتهم، کما کان یداعب الأطفال ویسهر علی راحتهم، ویواسی المهمومین ویداری المخالفین ویسعی جهده للترویح عن الموالین والمحبین. علی العکس تماماً من عهد حکومـة عثمان الذی بالغ وولاته فی ایذاء الناس، ولم یسـلم منهم حتی کبار الصـحابة کأبی ذر وعمار بن یاسـر وعبد اللَّه بن مسـعود، فکـان أن نفی الصـحابی الجلیـل أبـا ذر إلی تلک الأرض القاحلـة الجرداء حتی مات فیها، کما انـدفعت بطانته لتنال من عمار بـذلک الأسـلوب الهمجی البشع لمجرّد اعتراضه علی بعض الممارسات، فکسـرت أسـنانه وأشـبعوه رکلًا ورفساً، کما شـددوا علی عبد اللَّه بن مسعود حتی قیل إنّه فارق الحیاة إثر التعذیب. وإن ساوی علی علیه السلام

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۴۶

بین عقیـل وسـائر المسـلمین فی العطاء من بیت المال، فإنّ قرابـة عثمان تهافتت علی بیت المال حتی عـدت العراق بسـتان قریش وبنی أمیة[۲۱۳].

ثم قال:

«وَأَحَطْتُ بِجُهْدِى مِنْ وَرَائِكُمْ»

. أی أنّی حفظتکم من وساوس شـیاطین الجن والانس فی مسـیرة طاعـة اللَّه وعبودیته، ودفعت عنکم شـر الأعداء. وأشار إلی دوره فی عتقهم من قیود الذل والظلم والأسر فقال:

«وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رِبَقِ ۲۱۴] الذُّلِّ،

وَحَلَقِ ۲۱۵] الضَّيْمِ ۲۱۶]»

. وذلک لأنّ عهـد عثمان وحکومـة بنی أمیة وبنی مروان وسـیطرتهم علی مقدرات المسـلمین شـهدت اتساع رقعة الظلم والجور الذی وصل إلی کل مکان، ولم یکن هنالک من اعتبار سوی لأولئک الأفراد المتعاونین مع السـلطة والمسـتبدین؛ وقد أنقذهـم أمیر المؤمنین علی علیه السلام من هذه الحکومة القبلیة وحررهم من أیدی شرار بنی أمیة وبنی مروان.

ثم اختتم خطبته بالإشارة إلی دوافعه من تلک الأعمال الحسنة تجاههم والتی لا تنبعث من اقرارهم بحقه وفضله بل:

«شُكْراً مِنِّى لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقاً[۲۱۷] عَمَّا أَدْرَكَهُ

الْبَصَرُ، وَشَهِدَهُ الْبَدَنُ، مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ»

. فـالواقع مراد الإمـام علیه السـلام أنّکم لم تسـدوا إلیَّ معروفـا لأکـافئکم علیه، بـل ما أکثر الخطوب والمحن التی خلفتموها علیَّ، فإن أسدیت لکم معروفاً ففی سبیل اللَّه وأداء الوظیفة الشرعیة. وعلی ضوء هذا التفسیر فإنّ

«الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ»

فى هذه العبارة إشارة إلى تمرد الناس وغدرهم بالإمام عليه السلام، بينما فسّرها البعض من الشرّاح بالمنكرات بهذا الحجم على عهد الإمام عليه السلام ولم ينهاهم ويردعهم عنها؟ فأجابوا: لم يكن بوسع الإمام عليه السلام الحيلولة دون بعض

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۴۷

المنكرات المتجذرة، أو لو أراد منعها لآل الأمر إلى مفسدة أعظم. لكن كما ذكرنا فإنّ المراد من المنكر ليس ما ذهب إليه أولئك الشرّاح ليرد ذلك الإشكال وضرورة دفعة. والمراد المساوىء التى مارسوها بحق الإمام عليه السلام والدليل على ذلك العبارة السابقة: «لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ».

هذا، وقد ورد مثل هذا المعنى فى سائر خطب نهج البلاغة كالخطبة ۹۷ التى قال فيها:

«وَلَقَدْ أَصْبَحَتْ الأُمَمُ تَخافُ ظُلْمَ رَعاتِها وَأَصْبَحْتُ أَخافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِى».

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۴۹

الخطبة ۱۶۰

نظرة إلى الخطبة[۲۱۸]

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى مطالب متعددة تشكل بعض التعاليم القيمة بشأن تهذيب النفس ومعرفة اللّه حيث يمكن خصرها فى خمسة أقسام:

القسم الأول: تحدث فيه عن عظمة اللّه وحمده والثناء عليه بذكر أسمائه وصفاته.

القسم الثانى: جرى الكلام فيه عن حقيقة الرجاء بصفته أحد أركان السعادة الإنسانية.

القسم الثالث: تطرق فيه الإمام عليه السلام إلى جانب من صفات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأفعاله وأقواله التى ينبغى التأسى بها من قبل الجميع إلى جانب سائر صفات الأنبياء كموسى وداود وعيس عليه السلام.

القسم الرابع: عودة إلى صفات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وهى الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها الجميع.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۵۰

القسم الخامس: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى تواضعه واختتمه بالمثل الرائع

«فَعِنْدَ الصَّباحِ يُحْمَدُ القَومُ السُّرى .

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۵۱

القسم الأول

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَقْضِى بِعِلْم، وَيَعْفُو بِحِلْم.

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى ما تَأْخُذُ وَتُعْطِى، وَعَلَى مَا تُعَافِى وَتَبْتَلِى؛ حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْداً يَمْلَأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ. حَمْداً لَايُحْجَبُ عَنْكَ، وَلَا يُقْصَرُ دُونَكَ.

حَمْداً لَايَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ «حَيٌّ قَيُّومٌ، لَاتَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ». لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ.

أَدْرَكْتَ الْأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ الْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ «بِالنَّوَاصِى وَالْأَقْدَامِ». وَمَا الَّذِى نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سُتُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ،

وَأَعْمِـلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَـكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ وَالِهَاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً.

الشرح والتفسیر: عجز العقول امام عظمة اللّه

أشار الإمام عليه السلام فی هذا المقطع من الخطبة إلى أربعة مواضيع فقال:

«أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ»

أی يستند أمره إلى الحكمـة رغم قاطعيته على العكس من المستبدين والمقتدرين الذين يصدرون الأوامر الصارمة دون أدنى حكمه. ولمفردة (أمره) فی

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۵۲

العبارة معنى واسع يشمل الأوامر التكوينية: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[۲۱۹] والأوامر التشريعية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِی الْقُرْبَى [۲۲۰].

والحكمة واضحة فی كلا الأمرين تتضمن مصالح العباد والبلاد.

ثم قال:

«وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ»

يمكن أن يرضى الناس عن فرد ويأمنوه، إلّاأنّ أمانهم مشوب بالخوف والرهبة، بينما لا ـ ينطوی أمان اللّه سوى على الرحمة، كما تحدث فی العبارة التالية عن قضاء اللّه، فقال:

«يَقْضِی بِعِلْمٍ»

خلافاً لقضاء الإنسان الذی يمتزج عادة الجهل وعدم العلم.

ثم قال فی المقطع الرابع:

«وَيَعْفُو بِحِلْمٍ»

. نعم، عفوه بحلم ومن يعفو عنه لا يؤاخذه ولا يعاقبه، بخلاف البعض الذين يسعون لعقاب الآخرين حين يعفون عنهم لإطفاء غضبهم، كما هنالك من يعفو عن الآخرين لطفاً ورحمة. ثم اتّجه الإمام عليه السلام صوب حمد اللّه والثناء عليه وقد تكرر هذا الحمد ثمان مرات فی هذا الجانب من الخطبة حيث أورد صفة خاصة لكل مرحلة، ثم خاض فی هذا الحمد والثناء بأسلوب بليغ وفصيح فقال:

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى ما تَأْخُذُ وَتُعْطِی، وَعَلَى مَا تُعَافِی وَتَبْتَلِی»

أی أحمدك وأُثنی عليك فی كل الاحوال، ذلك لأنّ الخير والسعادة منك، فإن أفضت نعمة فتلك كرامة وإن سلبتها كان ذلك عن عناية. وإن منحت الصحة والعافية فتلك سعادة وإن أمرضت وابتليت فعن مصلحة، فلا تفعل إلّاالحكمة وكل ما يأتی منك رحمة.

ثم خاض الإمام عليه السلام فی صفات هذا الحمد ليوجزها فی ستة أوصاف ليجعله حمداً جامعاً شاملًا من جميع النواحی فقال:

«حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْداً يَمْلَأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ. حَمْداً لَايُحْجَبُ عَنْكَ، وَلَا يُقْصَرُ دُونَكَ. حَمْداً لَايَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ».

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۵۳

فهذا الحمد جامع شامل يتجاوز الزمان والمكان والعدد والقصور والحجاب.

أضف إلى ذلك فهو حمد على العافية والبلاء والأخذ والعطاء فهو حمد على كل شیء وفی كل زمان ومكان وعلى كل حال. ثم خاض عليه السلام فی صفات الجلال والجمال ليورد أوصافاً بليغة أعرب فيها عن العجز عن إدراك عظمة اللّه، فقال:

«فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ»

ذلك لأنّ اللّه وجود مطلق ولا متناهٍ من جميع الجهات، وهل من نصيب للإنسان المحدود مهما كان هذا الإنسان سوى العجز عن إدراك غير المحدود. إلّاأنّ الإمام عليه السلام وبغية دفع التصور الخاطئ من أنّ هذا الكلام ربّما يعنى عدم إمكان معرفة اللّه وتعطيل صفاته تطرق مباشرة إلى المعرفة الإجمالية من خلال بيان ثمان صفات من صفاته الثبوتية والسلبية على أننا وإن عجزنا عن إدراك كنه ذاتك المقدّسة

«إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ

«حَيٌّ قَيُّومٌ، لَاتَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ»».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلا:

«لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ. أَدْرَكْتَ الْأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ الْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ

«بِالنَّوَاصِى وَالْأَقْدَامِ»». طبعاً وصف اللّه بالحياة ليس المراد منه الحياة الواقعية بمعنى العلم المطلق والقدرة التامة على جميع الوجود. والقيوم القائم بذاته والذى يقوم به غيره، لأنّه واجب الوجود، وواجب الوجود غنى عن الغير ولكل محتاج إليه. والعبارة

«لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ»

إشارة إلى أنّ علمه ولطفه دائم على العباد، لا أنّه يلتفت أحياناً ويحف عباده بالعناية وأخرى ينام فينساهم. والعبارة

«لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ ...»

إشارة إلى أنّ علم الإنسان لا يسعه الاحاطة بذاته المقدّسة- لأنّ ذاته مطلقة- كما لا يسع البصر الظاهر رؤيته، لأنّه ليس بجسم وليس له جهة ولا لون، بينما يدرك سبحانه حركات العيون ويحاسب على أدنى الأعمال. والمراد من

«بِالنَّوَاصِى وَالْأَقْدَام»

- بالنظر إلى أنّ النواصى جمع ناصية بمعنى شعر مقدمة الرأس والأقدام جمع قدم- قدرة اللّه وغلبته لكل شىء، ذلك أنّ الإنسان متى أخذ منه ناصيته أو قيدت رجلاه سلب القدرة تماماً.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۵۴

ثم خاض الإمام عليه السلام فى عالم الخلقة وعظمته لإثبات تلك الصفات الجمالية والجلالية من خلال عبارات عميقة ورصينة تفيد أنّ العالم الذى نراه وندركه رغم عظمته لا يشكل بالنسبة لما لا نراه وندركه سوى قطرة إلى بحر فقال:

«وَمَا الَّذِى نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سُتُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ»

. نعم، ما نراه اليوم رغم اتساع العلوم والمعارف بشكل مذهل بشأن عالم الخلقة- لغيض من فيض ما لا نراه وندركه. والعلماء المعاصرون يتحدثون اليوم عن عوالم لا تكون كرتنا الأرضية بالنسبة لها سوى نقطة فى كتاب ضخم!! كما يتكلّمون عن كرات عظيمة فى هذا الكون تفوق كرتنا الأرضية بثلاثين مليارا! وأجرام سماوية عملاقة تفوق الشمس بثلاثة مليارات مرّة (وهى الأجرام التى تجذب كل شىء من حولها حتى النور الذى ينعكس حين اصطدامه ببعض الأجسام)، ومن هنا لا نراها سوى قطع سوداء متناثرة هنا وهنالك فى السماء، وتضم كرتنا الأرضية رغم صغرها ملايين النباتات والحيوانات التى تغوص فى أعماق البحار والغابات والتى لم يتعرف عليها العلماء لحد الآن ولا يمكن رؤيتها بالعيون المجردة. أجل، فعالم الملك والملكوت على قدر من السعة بما تعجز العقول عن إدراكه وتحير الأفكار فى عظمته فضلًا عن عظمة اللّه فى خلقه، وهذا بدوره أعظم درسٍ فى التوحيد ومعرفة اللّه.

ورد فى الرواية عن الإمام السجاد على بن الحسين عليه السلام أنّه قال:

«لَوِ اجْتَمَعَ أَهْلُ السَّماءِ والأَرْضَ أَنْ يَصِفُوا اللّهَ بِعَظَمَتِهِ لَمْ يَقْدِرُوا»[۲۲۱].

ثم قال علیه السلام مواصلًا خطبته:

«فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ ۲۲۲] خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِی الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ

نفحات الولایهٔ، ج۶، ص: ۱۵۵

عَلَى مَوْرِ[۲۲۳] الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ ۲۲۴] حَسِيراً[۲۲۵]، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً[۲۲۶]، وَسَمْعُهُ وَالِهاً،

وَفِكْرُهُ حَائِراً»

. فقـد رکز الإمام علیه السـلام بهـذه العبارات اللطیفـهٔ العمیقـهٔ المعنی علی أربعـهٔ أمور بشأن عظمهٔ الخلق؛ إقامهٔ العرش، وبدایهٔ الخلق، وتعلیق الکرات فی السـماء، وظهور الأـرض من تحت المـاء، وکل واحـدهٔ أعجب من الاخری ثم أشار عقبها إلی آثار هـذه الحیرهٔ من قبیـل تعب العین وعجزهـا، وبهت العقول، ووله السـمع، وحیرهٔ الفکر. أمّـا بشـأن تفسـیر العرش فهنالک کلام کثیر، والمستفاد من آیهٔ الکرسی أنّ العرش عالم فوق السماء والأرض، حیث ورد فی القرآن بشأنه: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ». جدیر ذکره أنّ الملوک القدماء کان لهم عرشان؛ عرش صغیر یطلق علیه الکرسی یستعملونه فی الأیام الاعتیادیهٔ، وآخر مرتفع یسمی العرش یعتلونه فی الأعیاد والمناسـبات الرسـمیهٔ، ثم أصبح هذان التعبیر أنّ کنایهٔ عن مختلف درجات العظمهٔ، والقرآن یعد السماوات والأرض التی نراها کرسی اللَّه، وعلیه فعرشه أرفع من ذلـک. ومن هنـا ربّمـا یکون العرش إشـارهٔ إلی عـالم ماوراء الطبیعـهٔ، أی عالم الملائکـهٔ والکروبیین ۲۲۷] أوعالم المادهٔ الذی لیس لدینا من سبیل إلیه.

والعبارهٔ

«وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ»

یمکن أن یکون إشـارهٔ إلی دحو الأـرض وظهور الیابسـهٔ من المیـاه؛ لأـنّ المیـاه عمت بـادیء الأـمر الکرهٔ الأرضـیهٔ برمتها، ثم تخللت فجوات الأرض وشـقوقها بالتدریـج حتی ظهرت الیابسـهٔ. أجل لا یمتلک الإنسان سوی الحیرهٔ والذهول أن فکر بشأن عالم الخلیقهٔ وما ینطوی علیه

نفحات الولایهٔ، ج۶، ص: ۱۵۶

من عجائب وغرائب وأسرار، وهی الحیرهٔ التی تلفت نظرنا إلی عظمهٔ الخالق وضرورهٔ معرفته وتنزیهه عمن سواه.

نفحات الولایهٔ، ج۶، ص: ۱۵۷

القسم الثانی

منها: يَدَّعِی بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللَّهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لَايَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِی عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِی عَمَلِهِ. وَكُلُّ رَجَاءٍ- إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ، إِلَّا خَوْفَ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ يَرْجُو اللَّهَ فِی الْكَبِيرِ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِی الصَّغِيرِ، فَيُعْطِی الْعَبْدَ مَا لَايُعْطِی الرَّبَّ! فَمَا بَالُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِی رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً؟ أَوْ تَكُونَ لَاتَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً؟ وَكَذلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَايُعْطِی رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْداً، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَاراً وَوَعْداً. وَكَذلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِی عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْداً لَهَا.

الشرح والتفسیر

عبید الدنیا

بعد أن أشار الإمام عليه السلام إلى عظمة اللّه وحمده وأثنى عليه وتطرق إلى علامات ذاته المقدّسة فى عالم الوجود، خاض فى وعظ الغافلين وإرشادهم وركز على مسألة من أهم المسائل وهى الخوف حيث كشف حقيقته وشرح تفاصيله وفضح الكاذبين فى دعواهم إيّاه فقال:

«يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللَّهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ![۲۲۸]»

. ثم خاض فى ذكر الدليل فقال:

«مَا بَالُهُ لَايَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۵۸

رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ»

. فهذا دليل واضح فالفلاح الذى يرجو جنى ثمار مزرعته ينهمك فى سقيها ودفع الآفات عنها وتوفر كافّة مقدمات الانبات والأثمار، فإن ادّعى مزارع الرجاء لكنه جلس فى بيته ولم يقدم على أى عمل فسوف يتفق الجميع على أنّ رجاءه كاذب فهو يتخيل الرجاء دون واقعية لذلك الخيال، فالرجاء الصادق المقرون بطاعة اللّه والسير على سبيله والفوز برضاه. قيل للإمام الصادق عليه السلام أنّ جماعة يرتكبون الذنوب ويرجون عفو اللّه ورحمته فقال:

«كَذَّبُوا لَيْسُوا بِرَاجِينَ أَنَّ مَنْ رَجا شَيْئاً طَلَبَهُ وَمَنْ خافَ شَيئاً هَرَبَ مِنْهُ»[۲۲۹].

ثم خاض عليه السلام فى تفاصيل ذلك الخوف والرجاء فقال:

«وَكُلُّ رَجَاءٍ- إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ ۲۳۰] وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ ۲۳۱] إِلَّا خَوْفَ اللَّهِ».

يبدو دليل ذلك واضحاً فليس هنالك من مبدأ للخير سوى اللّه وكل من قدر على الإتيان بالخير فبمعونته (لا مؤثر فى الوجود إلّااللّه). وعليه فلا ينبغى التعلق سوى باللّه والرجاء لما عنده، فالذى ينفع ويضر ويثيب ويعاقب هو اللّه وحده وليس للآخرين من ذلك شىء كما ورد فى القرآن الكريم: «وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»[۲۳۲]. صحيح أنّ اللّه ترك للعبد قدرة الإتيان بالأعمال، إلّاأنّ ذلك لا يعنى سلب القدرة عن ذاته المقدّسة. ولذلك لابدّ من حصر الرجاء فى تلك الذات والخوف من مخالفتها.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۵۹

ثم إشار عليه السلام إلى قضية مهمّة تكمن فى تضاد أعمال الناس بخصوص موضوع الخوف والرجاء. فلو أمل شخص شخصاً آخر فى مسألة لابدّ له من الخضوع والخشوع، وإن خاف شيئاً أيضاً حسب له ألف حساب، بينما لا يبدى مثل هذه الحساسية تجاه اللّه تبارك وتعالى سواء على مستوى الرجاء والأمل أو الخوف وحتى فى القضايا المهمّة، فهنالك تواضع بيديه لسائر العباد يفوق نظيره للّه تعالى:

«فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ يَرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي الرَّبَّ!».

ثم واصل كلامه عليه السلام بالإشارة إلى سبب ذلك فقال:

«فَمَا بَالُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً؟ أَوْ تَكُونَ لَاتَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً؟»

حقاً أنّ الإنسان الذى يؤمن باللّه وأنّه قادر على كل شىء ويؤمن برحمانيته ورحيميته وفضله وكرمه، لا يمكن أن يكون أمله باللّه كاذباً، أو أن لا يراه أهلًا للأمل. لو تأملنا قليلًا هذه الأفكار لأدركنا بما لا يقبل الشك أصل الانحراف عن التوحيد ومعرفة اللّه. فالحقيقة أنّ عصارة كلام الإمام عليه السلام هى أننا نرى أنّ بعض الأفراد يتجهون البعض الآخر لحاجة صغيرة فيبدون لهم صنوف الاحترام والاجلال، بينما لا تشاهد منهم هذه الأمور حين يقصدون اللّه لحاجاتهم الكبرى، وليس هنالك من تفسير لهذه القضية سوى ضعف مثل هؤلاء الأفراد وعجزهم عن معرفة اللّه والوقوف على صفاته الجلالية والجمالية.

ثم انتقل الإمام عليه السلام من الرجاء إلى الخوف وقارن بين خوف اللّه وخوف العبد، فقال:

«وَکَذلِکَ إنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِیدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَایُعْطِی رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْداً، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِماراً[۲۳۳] وَوَعْداً».

قطعاً أنّ سبب هذا الازدواج یعزی إلی ضعف الإیمان، ذلک لأنّ قدرة العباد هشة مقارنة بقدرة اللَّه، فلو فرضنا جمیع قدراتهم، ومضة، لکانت قدرة اللَّه بحاراً من

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۶۰

النیران بالنسبة لتلک الومضة، فکیف یتعرف الإنسان علی هذین المیدانین للخوف فیخاف الومضة ولا یخاف بحار النار؟! طبعاً یمکن أن یکون منشأ هذا التفاوت، الأمل المفرط بلطف اللَّه وکرمه والذی تفرزه بالطبع الغفلة، لأنّه أرحم الراحمین فی موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبین فی موضع النکال والنقمة. ولما کان هذا التعامل الازدواجی تجاه اللَّه والعباد ناشیء من ضعف المعرفة وضیق الافق، فقد خاض الإمام علیه السلام فی اختتامه لهذا الکلام فی هذا التعامل الازدواجی للإنسان حیال الدنیا والآخرة، فقال:

«وَکَذلِکَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْیا فِی عَیْنِهِ، وَکَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَی اللَّهِ تَعَالَی فَانْقَطَعَ إِلَیْهَا، وَصَارَ عَبْداً لَهَا».

أجل، أنّ عبید الدنیا عدیمو المعرفة لا یرون سوی متاع الدنیا الزائل وحطامها الفانی ویغفلون عن نعیم الآخرة الدائم، وهذا ما یدعوهم لایثار الدنیا علی الآخرة وتقدیم رضا المخلوق علی الخالق. علی العکس من عباد اللَّه من أهل الورع والتقوی الذین وصفهم الإمام علیه السلام فی خطبة المتقین:

«عَظُمَ الخالِقُ فِی أَنْفُسِهِم فَصَغُرَ ما دُونَهِ فِی أَعْیُنِهِم».

العبارة

«فَانْقَطَعَ إِلَیْهَا، وَصَارَ عَبْداً لَهَا»

إشارة إلی حقیقة هی أنّ طلاب الدنیا عادة ما ینتهی بهم الأمر إلی الخروج عن عبودیة اللَّه والاشتغال بعبودیة الدنیا وطاعة النفس والهوی والشیطان، وبالتالی الخروج من معسکر التوحید وعبودیة اللَّه إلی معسکر الشرک وعبودیة الدنیا. أجل عاقبة أمرهم ماآل إلیه أمر عمر بن سعد حیث لم یر شیئاً سوی الدنیا متمثلة بملک الری وغفل عن عذاب جهنم ونعیم الجنّة فاختار ذلک الموقف:

ألا إنَّما الدُّنْیا لِخَیْرٌ مِعَجَّلٌ فَمَا عَاقِلٌ باعَ الوُجُودَ بِدَیْنِ ۲۳۴]

تأمّل

الخوف والرجاء

إنّ أقوی دافع نحو الحرکة باتجاه الورع والتقوی یتمثل بالخوف من عقاب اللَّه والرجاء لرحمته وعفوه. ولیس لأحد أن یحلق فی سماء الحق ویقترب من ساحة القدس الربانی دون العنصرین المذکورین. فعلی غرار التلمیذ الذی یأمل تذوق طعم النجاح من خلال رجائه الموفقیة والحصول علی الدرجات العالیة إلی جانب الخوف من الرسوب فی الامتحان، فیجد ویجتهد ویجند طاقاته من أجل العلوم والمعارف، یبدو لابدّ من هذا الرجاء والخوف فی الجانب المعنوی أیضاً.

ورد فی الحدیث الشریف أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله قال:

«أَعْلَی النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ أَخْوَفُهُم مِنْهُ»[۲۳۵].

وقال الصادق علیه السلام:

«لا یَکُونَ المُؤمِنُ مُؤمِناً حَتّی یَکُونَ خائِفاً رَاجِیاً، وَلا یَکُونَ خائِفاً رَاجِیاً حَتّی یَکُونَ عامِلًا لِمَا یَخافُ وَیَرجُو»[۲۳۶]

. والإنسان لا یمکنه الاستفادة من هذین المفهومین، الخوف والرجاء أنّ زعمهما کذباً، والتأکید من عدم الکذب بهذا الشأن یکمن فی الموازنة والعمل علی أساسهما، إلّاأنّ المؤسف له هو أنّ أغلب الناس صادقون فی رجائهم وخوفهم بالنسبة لأمور الدنیا، لکنهم لیسوا

كذلك بالنسبة للاخرة. لقد ظهر الآن مرض شديد هو مرض ذات الرئه: «والذى يطلق عليه الالتهاب الرئوى اللانمطى» القاتل حيث بلغ عدد الوفيات سته بالمئة بالنسبة للمصابين بهذا المرض، ويبد وأنّ طرق الوقاية التى اتخذت بهذا الشأن تفوق التصور، فقد عمدوا إلى رش السموم فى المناطق الملوثة، والجميع يرتدى الأقنعة الواقية، وإن عثروا على من يظن أنّه مصاب يعزلونه عن الآخرين، كما هنالك تفتيش دقيق لكافةالمسافرين حين يهبطون فى‌المطارات. حقّاً هذا هوالخوف الصادق.

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۱۶۲

والسؤال الـذى يرد هنا: هل يبـدى المؤمنون مثل هذا الخوف من عذاب اللَّه يوم القيامهٔ الذى يفوق هذا الأمر بما لا يحصـى؟! يتعجب الإمام عليه السلام فى الخطبهٔ المذكورهٔ من كيفيهٔ شعور الإنسان بذلك الخوف من بعض الحوادث الطفيفهٔ بينما لا يعيش مثله من اللَّه! والأمر كـذلك بالنسـبهٔ للرجاء؛ نعم، أولياء اللَّه كانوا يرتعشون خوفاً من اللَّه فى محراب عبادتهم، وكان يسـمع من بعضـهم أنين وتأوه. الكلام بهذا الشأن كثير والهدف هنا إشارهٔ سـريعهٔ لاتمام المباحث، ونختتم البحث بهذا الحديث. قال الإمام الصادق عليه السـلام: كان أبى يقول:

«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤمِنٍ إلّا وَفِى قَلْبِهِ نُورَانِ، نُورُ خِيفَةٍ، وَنُورُ رَجاءٍ لَو وُزِنَ هَذا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذا وَلَو وَزِنَ هَذا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذا»[۲۳۷].

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۱۶۳

القسم الثالث

وَلَقَـدْ كَانَ فِى رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- كَافٍ لَکَ فِى الْأُسْوَةِ، وَدَلِيلٌ لَکَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا، إذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا، وَزُوِىَ عَنْ زَخَارِفِهَا.

الشرح والتفسير: التأسى بالنبى صلى الله عليه و آله

تحدث الإمام عليه السـلام فى العبارات الأخيرهٔ من المقطع السابق عن أولئك الأفراد الذين ذاعوا فى الدنيا فأصبحوا عبيدها الأذلّاء بعد أن ولّوا ظهورهم لكل شـىء وأخلدوا إلى الدنيا. وقد سـعى الإمام عليه السـلام لإيقاظ هذه الفئهٔ المتهافتهٔ على الدنيا من خلال الاقتداء بجوانب من سـيرهٔ النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله ومن سـبقه من الأنبياء، وقـد ركز بادىء الأمر على رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فقال:

«وَلَقَدْ كَانَ فِى رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- كَافٍ لَکَ فِى الْأُسْوَةِ، وَدَلِيلٌ لَکَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا[۲۳۸] وَمَسَاوِيهَا»

جـدير ذكره أنّ الإمـام عليه السـلام يرى النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله هنـا اسوهٔ ودليل. والواقع هو أنّ العبارتين تنتهيان إلى نتيجهٔ واحـدهٔ وهى اقتنـاء آثـار ذلك النبى الأعظم وتكييف الحياهٔ على ضوء حياته، لكن هنالك تفاوتاً لطيفاً فى المعنى؛ فالأُسوهٔ إشارهٔ إلى أننا نكيف حياتنا طبق حياهٔ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أمّا الدليل، فإشارهٔ إلى أنّه يدعونا إلى الآخرهٔ.

ثم ذكر عليه السلام توجيه ذلك التأسى فقال:

«إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۱۶۴

أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ ۲۳۹] عَنْ رَضَاعِهَا، وَزُوِىَ ۲۴۰] عَنْ زَخَارِفِهَا[۲۴۱]».

فقـد عاش رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله حين كان القياصـرهٔ والأكاسـرهٔ يرتعون فى الجزيرهٔ العربيهٔ، وقد واصل تلك الحياهٔ البسـيطهٔ المتواضعهٔ حتى حين تزعم الدولهٔ الإسلاميهٔ وحاز على الغنائم العظيمهٔ، وكان يفخر صلى الله عليه و آله بتلك المعيشهٔ فيقول:

«الفَقْرُ فَخْری»[۲۴۲]

فالعبارة لا- تعنی أنّه لم یكن بوسع النبی الأكرم صلی الله علیه و آله الحصول علی تلك الحیاة وأسلوب العیش، بل لم یكن شخصیاً یرغب فی مثل تلك المعیشة، ومن هنا ورد فی الروایة أنّه هبط علیه أحد الملائكة وبیده مفتاح خزائن الدنیا فقال:

«یا مُحَمَّدُ هَذِهِ مَفاتِیحُ خَزائِنُ الأرَضِ یَقُولُ لَکَ رَبُّکَ إِفْتَحْ وَخُذْ مِنها ما شِئْتَ مِنْ غَیْرِ أنْ تَنْقُصُ شَیئاً عِنْدِی»

، فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله

: الدُّنیا دَارُ مَنْ لادَارَ لَهُ وَلَها یَجْمَعُ مَنْ لاعَقْلَ لَهُ.

فقال الملك:

أُقْسِم بِاللّهِ الّذِی بَعَثَکَ نَبِیّاً بِالحَقِّ، إِنِّی سَمِعْتُ هَذا الکَلامَ مِنْ مَلَکٍ فِی السَّماءِ الرَّابِعةِ حِینَ تَسَلَّمْتُ هَذِهِ المَفاتِیحُ»[۲۴۳].

والعبارة

«إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا»

إشارة أنّ حكومة النبی الأكرم صلی الله علیه و آله وسلطته لم تكن كحكومة القیاصرة والأكاسرة، والعبارة

«وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا»

إشارة إلی عدم تناوله الأطعمة اللذیذة المتنوعة، والعبارة

«وَزُوِیَ عَنْ زَخَارِفِهَا»

أنّه لم یستفد من القصور الفارهة والمراكب الهنیئة والثیاب الفاخرة. علی كل حال فقد استعان الإمام علیه السلام بأعظم أُسوة وركز علی حیاة النبی الأكرم صلی الله علیه و آله إزاء أولئك الذین إنقادوا للدنیا وقصروا همتهم علیها. النبی الذی كان یجلس علی التراب ویعیش كأضعف الأفراد ولم یكن لدیه أحیاناً سوی ثوب واحد وقد اعترض علی ابنته فاطمة

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۶۵

الزهراء علیها السلام حین وضعت ستاراً جدیداً علی باب دارها وقد لبست بعض الحلی من الفضة لا الذهب، وسنخوض فی المزید بهذا الشأن فی ختام هذه الخطبة.

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۶۷

القسم الرابع

وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّیْتُ بِمُوسَی کَلِیمِ اللّهِ- صَلَّی اللّهُ عَلَیْهِ وَسَلَّمَ- حَیْثُ یَقُولُ:

«رَبِّ إِنِّی لِمَا أَنزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَیْرٍ فَقِیرٌ». وَاللّهِ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزاً یَأْکُلُهُ، لِأَنَّهُ کَانَ یَأْکُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ کَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَی مِنْ شَفِیفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ، لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ.

وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُودَ- صَلَّی اللّهُ عَلَیْهِ وَسَلَّمَ- صَاحِبِ الْمَزَامِیرِ، وَقَارِیءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ کَانَ یَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوصِ بِیَدِهِ، وَیَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَیُّکُمْ یَکْفِینِی بَیْعَهَا! وَیَأْکُلُ قُرْصَ الشَّعِیرِ مِنْ ثَمَنِهَا.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِی عِیسَی بْنِ مَرْیَمَ عَلَیْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ کَانَ یَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، وَیَلْبَسُ الْخَشِنَ، وَیَأْکُلُ الْجَشِبَ، وَکَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّیْلِ الْقَمَرَ، وَظِلَالُهُ فِی الشِّتَاءِ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَفَاکِهَتُهُ وَرَیْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَکُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلَا وَلَدٌ یَحْزُنُهُ، وَلَا مَالٌ یَلْفِتُهُ، وَلَا طَمَعٌ یُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ، وَخَادِمُهُ یَدَاهُ!

الشرح والتفسیر: زهد الأنبیاء

أشار الإمام عليه السلام فى البحث السابق إلى جانب من حياة النبى صلى الله عليه و آله كأسوة بالمؤمنين فى الزهد، ثم تطرق هنا إلى هذا الجانب فى حياة ثلاثة من سائر الأنبياء ليتضح من خلال ذلك أنّ هذا الأمر كان محوراً فى حياة الأنبياء فكانوا أُسوة لأُممهم، فقال:

«وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَيْثُ

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۶۸

يَقُولُ:

«رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ»». ثم خاض عليه السلام فى تفسير العبارة المذكورة وهى آية من آيات سورة القصص على لسان موسى عليه السلام حين وروده إلى مدين فقال:

«وَاللَّهِ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزاً يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ ۲۴۴] صِفَاقِ ۲۴۵] بَطْنِهِ، لِهُزَالِهِ ۲۴۶] وَتَشَذُّبِ ۲۴۷] لَحْمِهِ»

. فرّ موسى عليه السلام إلى الشام ثم مدين إثر دفاعه عن أحد أفراد بنى اسرائيل وقتله لأحد اتباع فرعون ومطاردته من قبل الأجهزة الفرعونية والبحث عنه فى مصر، ولم يكن يحمل فى سفره متاعه وحيث لم يكن يستجدى أحداً من الناس فقد اضطر لأكل نبات الأرض فهزل بدن موسى عليه السلام وضعف خلال هذه المدّة بفعل المسافة الطويلة التى قطعها ماشياً من بلد إلى بلد آخر وقد بلغ الضعف مداه بحيث كانت تبدو خضرة البقول من بطنه. وقد سأل اللّه سبحانه طعاماً يسد رمقه ويزيل جوعه، بينما كان باستطاعته سؤال اللّه عيشة هانئة وسفراً مريحاً. صحيح أنّ موسى عليه السلام كان يمر بظروف عصيبة اضطرته إلى تلك الأزمة العنيفة، إلّاأنّ المهم أنه لم يسأل اللّه سوى مقدار الضرورة، وهذا دليل واضح على الزهد الذى كان محور حياته.

ثم عرج على زهد داود عليه السلام فقال:

«وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِىءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ ۲۴۸] الْخُوصِ ۲۴۹] بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِى بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا»

. نعلم أنّ داود عليه السلام وإلى جانب النبوّة كان من ملوك بنى اسرائيل وكانت حكومته قوية شاملة على ضوء الآية الشريفة: «شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ»[۲۵۰]. فهل ما

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۶۹

قيل يتعلق بعهد حكومته أم بعدها؟ كيف ما كان الأمر فهنالك دليل دامغ على زهده ولاسيّما ما ورد فى بعض الروايات أنّه لم يكن يقتات من بيت المال، بل كان يعمل الدروع ويأكل من عرق جبينه. العبارة

«صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِىءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»

إشارة إلى مقاماته المعنوية الرفيعة فى الدنيا والآخرة. وقد أفاض اللّه عليه من العلوم المعنوية بحيث كان ينشىء المزامير (المزامير كما سيأتى بمبحث التأملات مجموعة من الأدعية والمناجاة والمواعظ والإرشادات التى كان يتلوها داود عليه السلام ويترنم بها بصوت عذب فكان يشد إليه الناس، بل حتى الطيور والحيوانات حسب الرواية).

وقارىء (أهل الجنّة) إشارة إلى مقامه الاخروى حيث يتذوق أولياء اللّه هناك لذّة القرب الإلهى وعشق ذاته المقدّسة من ترانيمه المعنوية لذلك الصوت العذب ومناجاته الروحية.

والعبارة

«أَيُّكُمْ يَكْفِينِى بَيْعَهَا»

ربّما تكون إشارة إلى هذه النقطة وهى أنّه أراد شخصاً يبيعها ويستفيد مقداراً من ثمنها، وإن كان هذا الأمر على عهد قضائه فهو إشارة

إلى أنّ القضاء لا يتعامل فى مثل هذه الأمور مباشرة مع الآخرين حذراً من معرفته واعطائه الكثير بغية استمالته فى إصدار الأحكام.
ثم تطرق عليه السلام إلى زهد عيسى عليه السلام حيث أوجز حياته المتواضعة فى ثلاث عشرة عبارة قصيرة، يصعب علينا حقّاً تصور تلك الحياة العجيبة لهذا النبى الزاهد فضلًا عن العمل بها فقال:
«وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ[۲۵۱] الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ
بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَظِلَالُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ!»
. المراد من العبارة
«وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ»
أنّه

نفحات الولايۀ، ج۶، ص: ۱۷۰

كان يكتفى من الطعام بالخبز. وتشير العبارة
«وَظِلَالُهُ فِي الشِّتَاءِ ...»
أنّه كان يستعين بدفء حرارة الشمس على برودة الشتاء. جدير بالذكر أنّ المسيح عليه السلام ظهر فى فترة كان يتنعم بها عبيد الدنيا من بنى اسرائيل فى القصور الفخمة والمراكب الهانئة والثياب الفاخرة وتنقل إليهم مختلف الأطعمة ممّا لذّ وطاب. وقد اختار عليه السلام هذا النوع من الحياة لتحذيرهم من مغبة التكالب على الدنيا المحفوفة بالقيود والاغلال والتى تذل فى خاتمة المطاف كل من ركن إليها، وقد قاطع بعض المحاور المهمّة التى من شأنها فتنة الإنسان من قبيل الدور الفارهة والزوجات الجميلة الفاتنة والمال والولد والمركب، فقد ولّى عليه السلام ظهره لكل هذه الأمور بهدف ايقاظ المجتمع من غفلته والسعى إلى دار الآخرة.

تأمّلات

۱. مزامير داود

مزامير جمع مزمور بمعنى الترانيم التى تنشد بنغمة معينة، ومزامير داود عليه السلام اشعار روحية مناجاة ومواعظ وعبر، كان يتلوها داود عليه السلام بصوته العذب لتؤثر فى القلوب ۲۵۲] وتتكون هذه المزامير التى تعد الآن من كتب أهل العتيق من خمسة كتب تكرر لفظ آمين آخر كل قسم منها، ويعتقد الأغلب من المفكرين أنّ هذا اللفظ من إضافات جامعى الكتب (لابدّ من الالتفات إلى أنّ المزامير الفعلية الموجودة فى الكتب المقدّسة تخلو من هذا اللفظ.
على كل حال يضم الكتاب الأول ۴۱ والثانى ۳۱ والثالث والرابع ۷۱ والخامس ۴۴ مزمورة. ويمكن ايجاز مفاهيم المزامير بصورة عامة فى العناوين الآتية:
۱. مزامير الحمد والتسبيح التى تشمل عدّة مزامير.
۲. مزامير الشكر التى يطلقها الأشخاص إزاء ألطاف اللَّه.
۳. المزامير المتعلقة بالتوبة.

نفحات الولايۀ، ج۶، ص: ۱۷۱

۴. المزامير السياحية (بشأن قصة الأفراد الذين خصتهم عناية اللَّه أوغضبه).
۵. المزامير التاريخية بشأن رحمة اللَّه وفضله على بنى اسرائيل.

۶. مزامير النبوّة على أساس وعد اللّه لداود عليه السلام وأبنائه.

المزامير التعليمية التى كان يوصى داود عليه السلام فيها ببعض الأمور.

أ) خصائص العادلين ومميزات الشريرين.

ب) قدسية وطهارة؟ الشريفة الإلهيّة.

ج) هوان قيمة الحياة الدنيا.

د) الوظائف الواجبة على الحكام.

۷. مزامير دعاء للمذنبين (يجدر الإشارة إلى أنّ أغلب هذه المزامير لا جميعها تنسب إلى داود عليه السلام)[۲۵۳].

۲. الصوت الداودى

يستفاد من الآيات والروايات أنّ لداود عليه السلام صوتاً شجياً، إلى درجة أنّه لا يقتصر على جذب الناس فحسب، بل كانت تجتمع إليه الطيور وتحط إلى جانبه أو على بدنه حين يناجى الحق فى محراب عبادته. ولما كانت الجنّة الموضع الأفضل فقد ورد فى الخطبة أنّ داود عليه السلام قارىء أهل الجنّة، كما أشار ابن أبى الحديد إلى رواية تحمل هذا المعنى فقال: ورد فى الخبر، داود قارىء أهل الجنّة.

۳. زهد الأنبياء

سنتعرض فى نهاية الخطبة عقب الحديث عن زهد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلى علية تشدد أنبياء اللّه على أنفسهم فى الحياة، بما نعجز عن تحمله.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۷۳

القسم الخامس

فَتَأَسَّ بِنَبِيِّکَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأَسِّى بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُّ لِأَثَرِهِ. قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً. أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً لِلَّهِ، وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللَّهِ.

الشرح والتفسير: سيرة النبى صلى الله عليه و آله إزاء عبدة الدنيا

إنّ اللّه جعل أنبياءه من البشر ليكونوا أُسوة للآخرين من جميع النواحى؛ ولو كانوا من جنس الملائكة لتعذر التأسى بهم ولأصاب الشلل أهم مفاصل حركتهم الرسالية المتمثلة بالتعاليم العملية. والواقع مهما كان الخطيب متمكناً وبليغاً والكاتب فصيحاً ومتعمقاً فإن تأثير مواعظه ونصائحه لا يرقى إلى الأسوة العملية، ولا يمكن مقارنة ما يستفيده الآخرون من السيرة العملية لأولياء اللّه مع تلك التى تحصل عند سماع الوعاظ؛ ومن هنا ركز الإمام عليه السلام بعد ذكره لبعض الأنبياء على سيرة الرسول اللّه صلى الله عليه و آله فى اطار مواجهته لأصحاب الدنيا الذين تكالبوا عليها فى ذلك الزمان وفى كل زمان، فأشار قبل الخوض فى الجوانب العملية لسيرة النبى صلى الله عليه و آله إلى رؤيته للدنيا فقال:

«فَتَأَسَّ بِنَبِيِّکَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۷۴

تَأَسّى، وَعَزاءً لِمَنْ تَعَزَّى وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأَسِّى بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُّ ۲۵۴] لِأَثَرِهِ».

وتطرق إلى نظرته صلى الله عليه و آله إلى الدنيا، فقال:

«قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً[۲۵۵]، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً.

أَهْضَمُ ۲۵۶] أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً[۲۵۷]، وَأَخْمَصُهُمْ ۲۵۸] مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ ۲۵۹]»

. إشارة إلى أنّه كان مسلم للّهبكل كيانه، يحب ما أحب اللّه ويعادى من يعاديه اللّه، وكل هذه العبارات إشارة إلى زخرف الدنيا الزائفة في أنّ الدنيا مبغوضة وحقيرة وصغيرة وتافهة. القضية المهمّة أنّ حبّ الدينا أساس الظلم والحروب وسفك الدماء، والذى ينظر إلى زخارفها نظرة حقيرة لن يحبها ويفتتن بها وقلّما يتلوث بآثامها.

ثم يخلص إلى نتيجة واضحة فيقول:

«وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً لِلَّهِ، وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللَّهِ»

. نعم فسعادتنا في الدارين وصدقنا في ادّعاء الإيمان بالله ورسوله في أن نعظم ما عظّماه ونستصغر ما صغّراه. فقد وقف النبي الأكرم صلى الله عليه و آله موقفاً مخالفاً لزخارف الدنيا ومظاهرها الزائفة، فكيف نزعم الإيمان به ونحن نعظّم هذه التوافه الدنيوية ونضحى من أجلها بالغالي والنفيس؟! يمكن أن يرد هنا هذا السؤال: إذا كان

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۷۵

النبي الأكرم صلى الله عليه و آله يجانب الطعام إلى هذه الدرجة وكان أخلى بطناً من عامة الناس، فكيف كان يصمد أمام العدو في المعركة حتى وصفه على عليه السلام بقوله:

«كُنَّا إِذا احْمَرَّ البأسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبُ إِلَى العَدُو مِنْهُ»[۲۶۰]

. فقد ورد مثل هذا السؤال بشأن على عليه السلام كيف وقف تلك المواقف الصعبة على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله في معركة بدر واحد والأحزاب وخيبر وحنين وإبان حكومته في الجمل وصفين والنهروان ولم يكن طعامه سوى الشعير. وقد أجاب الإمام عليه السلام عن السؤال في كتابه إلى عثمان بن حنيف ۲۶۱] فقال:

«أَلَا إِنَّ الشَّجَرَةَ البَرِيَّةِ

أَصْلَبُ عُوداً وَالرَّوائِعُ الخَضِرَةِ أَرَقُّ جُلُوداً وَالنَّابِتَاتِ الغِذيَةَ أَقوى وُقُوداً وَأَبطَأُ خُمُوداً»

وعليه، فالنهم في الطعام ليس بدليل على القوّة والقدرة. ولعل أولئك الأعراب الذين كانوا يقتاتون على الأطعمة العادية قد ابلوا بلاءاً حسناً في الحرب التى نشبت بين ايران والروم على العكس من أولئك الجنود الذين كانوا يطعمون مختلف الأطعمة، فقاوموا وصمدوا بالشكل الذى أذهل الجميع. القضية الأخرى هي أنّ معنويات المقاتل هي التي ترسم صورة واضحة عن مصيره في جبهة القتال لا الطعام وانواعه، وكانت معنويات النبي الأكرم صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام في القمة بما أهلهما لتلك الشجاعة الفائقة. جدير ذكره أنّ ما ورد بشأن طعام النبي الأكرم صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام لا- يعني أنّهما كانا يتناولان مثل ذلك الطعام طيلة حياتهما، بل المراد أنّهما لم يتعلقوا بطعام معين قط.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۷۷

القسم السادس

وَلَقَدْ كَانَ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ

الْعَارِیَ، وَیُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَیَکُونُ السِّتْرُ عَلَی بَابِ بَیْتِهِ فَتَکُونَ فِیهِ التَّصَاوِیرُ فَیَقُولُ: «یَا فُلَانَةُ- لِإِحْدَی أَزْوَاجِهِ- غَیِّبِیهِ عَنِّی، فَإِنِّی إِذَا نَظَرْتُ إِلَیْهِ ذَکَرْتُ الدُّنْیَا وَزَخَارِفَهَا». فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْیَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِکْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِیبَ زِینَتُهَا عَنْ عَیْنِهِ، لِکَیْلَا یَتَّخِذَ مِنْهَا رِیَاشاً، وَلَا یَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلَا یَرْجُو فِیهَا مُقَاماً، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ، وَغَیَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ.

وَکَذَلِکَ مَنْ أَبْغَضَ شَیْئاً أَبْغَضَ أَنْ یَنْظُرَ إِلَیْهِ، وَأَنْ یُذْکَرَ عِنْدَهُ.

الشرح والتفسیر

زهد النبی صلی الله علیه و آله

تطرق الإمام علیه السلام فی المقطع السابق من الخطبة بصورة عامة إلی زهد النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وضرورة الاقتداء والتأسی به، إلّاأنّه بیّن هنا مصادیق ذلک الزهد والتواضع فی حیاته الیومیة فأشار إلی سبعة مواضیع تکشف بجلاء عن مدی زهده وتواضعه ۲۶۲]، فقال:

«وَلَقَدْ کَانَ- صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- یَأْکُلُ عَلَی الْأَرْضِ،

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۷۸

وَیَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَیَخْصِفُ ۲۶۳] بِیَدِهِ نَعْلَهُ، وَیَرْقَعُ ۲۶۴] بِیَدِهِ ثَوْبَهُ، وَیَرْکَبُ الْحِمَارَ

الْعَارِیَ، وَیُرْدِفُ ۲۶۵] خَلْفَهُ، وَیَکُونُ السِّتْرُ عَلَی بَابِ بَیْتِهِ فَتَکُونَ فِیهِ التَّصَاوِیرُ فَیَقُولُ:

«یَا فُلَانَةُ- لِإِحْدَی أَزْوَاجِهِ- غَیِّبِیهِ عَنِّی، فَإِنِّی إِذَا نَظَرْتُ إِلَیْهِ ذَکَرْتُ الدُّنْیَا وَزَخَارِفَهَا»».

العبارة

«یَأْکُلُ عَلَی الْأَرْضِ»

إشارة إلی عدم امتلاک المحتاجین للمفروشات آنذاک لیجلسوا علیها فکانوا یضطرون للجلوس علی الأرض فکان النبی صلی الله علیه و آله یواسیهم فی الجلوس علی الأرض. والعبارة

«وَیَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ»

تشیر إلی مدی تواضعه فی جلوسه، لا علی غرار المتکبرین الذین یضعون رجلًا علی أخری بکل غرور. والمعروف عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه کان یجثو علی رکبتیه علی غرار العبید؛ فهی جلسة متواضعة إلی جانب کونها سهلة فی النهوض. ورد فی الحدیث أنّ امرأة سیئة اللسان مرّت بالنبی صلی الله علیه و آله وهو جالس فقالت له: یا محمّد إنّک لتجلس کالعبید؟

فقال صلی الله علیه و آله:

«وأیُّ عَبْدٍ أَعْبَدُ مِنّی»[۲۶۶].

والعبارة

«وَیَکُونُ السِّتْرُ ...»

إشارة إلی عائشة حین وضعت ستراً مزیناً فیه صور لذی أرواح، فامتعظ رسول اللّه صلی الله علیه و آله من رؤیته لأنّه مزین فقال:

«غَیبِیه عَنّی فإنّی إذا نَظَرتُ إلیهِ ذَکَرتُ الدُّنیا وَزَخارَفَها، وَأمرَ بَرفعهِ فَوراً»[۲۶۷].

ثم قال علیه السلام مواصلًا کلامه:

«فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْیَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِکْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ،

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۷۹

وَأَحَبَّ أَنْ تَغِیبَ زِینَتُهَا عَنْ عَیْنِهِ، لِکَیْلَا یَتَّخِذَ مِنْهَا رِیَاشاً[۲۶۸]، وَلَا یَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلَا

يَرْجُو فِيهَا مُقَاماً»

. إشـارة إلى أنّ حبين لاـ يجتمعـان فى قلب إنسان. فإن افتتن بالـدنيا وأحبّها رحل عن قلبه حبّ اللّه ونعيم الآخرة، فما لم يطرد من قلبه حبّ الدنيا لن يحبّ اللّه. ويصدق هذا المعنى على جميع الأفراد، وأبرز نموذج لذلك تمثل فى حياة النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله الذى قال:

«ما لِى وَللدُّنيا إنَّما مَثلِى وَمَثَلَها كَمَثَلَ الرَّاكِبِ رُفِعَتْ لَهُ الشَّجرةُ فِى يَوم صائِفٍ فَقَالَ تَحتَها ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَها»[۲۶۹].

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة واضحة أنّه طالما كانت الدنيا بهذا الشكل فما كان من النبى صلى الله عليه و آله إلّاأنّ قاطعها:

«فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا[۲۷۰] عَنِ الْقَلْبِ، وَغَيَّبَهَا

عَنِ الْبَصَرِ.

وَكَذلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ»

. وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: لماذا كل هذا الذم والتحقير للدنيا من قبل الإمام عليه السـلام؟ سنرد على هذا السؤال بالتفصيل فى آخر الخطبة إن شاء اللّه.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۸۱

القسم السابع

وَلَقَـدْ كَانَ فِى رَسُولِ اللَّهِ- صَـلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ- مَا يَـدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِىءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ.

فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللَّهُ مُحَمَّداً بِـذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ- وَاللَّهِ الْعَظِيمِ- بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الـدُّنْيا لَهُ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ. فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنِ الْهَلَكَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّداً- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- عَلَماً لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصاً، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيماً. لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِىَ رَبِّهِ. فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللَّهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ! وَاللَّهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِى هذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِى قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ:

اغْرُبْ عَنِّى، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى

الشرح والتفسير: لم التأسى بالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله

عـاود الإمـام عليه السـلام تأكيـده لمـا أورده فى المقطع السـابق من الخطبـة فى ذم الـدنيا والمتعلقين بهـا فقـال بـادىء الأمـر على نحو الاستدلال المنطقى:

«وَلَقَدْ كَانَ فِى رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ- مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِىءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۸۲

فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ ۲۷۱]، وَزُوِيَتْ ۲۷۲] عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ ۲۷۳]»

. وعلى ضوء هذه المقدمة خاض فى برهانه المنطقى فقال:

«فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللَّهُ مُحَمَّداً بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ- وَاللَّهِ الْعَظِيمِ- بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ»

. لا ينبغى أن ننسـى هنا أنّ فئـة من الأثرياء آنـذاك كانت ترى ثروتها دليلًا على عنايـة اللّه بها، وبالتالى فإنّ الفقراء والضـعفاء مبعدون

عن عنايـة اللّه، وهـذا التفكير دفع بهم لحث الآخرين على جمع الثروة عن أى طريق وبايـة وسـيلة. ومن هنا «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم»[۲۷۴] فرد عليهم الحق تعالى «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُـقُفاً مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ* وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ»[۲۷۵].

والإمام عليه السلام ليفند بالبرهان القاطع هذه الفكرة المريضة السائدة فى الأذهان.

فـالحق أنّ اللّه سـبحانه وتعـالى أولى رسوله صـلى الله عليه و آله عنايـة فائقـة، فى حين كـان محروماً من زخارف الـدنيا وزبرجها، ولا يستطيع أحـد أن يزعم أنّ اللّه أهـان نـبيّه، وعليه نخلص إلى نتيجـة مفادهـا أنّ الإمكانـات الماديـة والثروة ليست دليلًا على الشخصـية ولذلك خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَتَأَسَّى ۲۷۶] مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنِ الْهَلَكَةَ».

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۸۳

ثم واصل عليه السلام حديثه بالقول:

«فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّداً- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- عَلَماً لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصاً، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيماً. لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ»

. إشـارة إلى أنّ النبى صـلى الله عليه و آله ورغم عظمته وكونه عَلَمـاً للساعـة وبصـفته البشـير والنـذير فقـد عـاش تلك الحياة البسـيطة المتواضعة إلى درجة أنّه رحل عن الدنيا ولم يملأ بطنه أو يبنى له بيتاً مشيداً (طبعاً بنى النبى صلى الله عليه و آله حجرات لأزواجه عند المسجد من الطين وسعف النخيل والعبارة

«لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ»

تشير إلى بيوت الأثرياء الذين كانوا يبنون بيوتهم من الحجر).

وأخيراً خلص إلى هذه العبرة:

«فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللَّهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ!»

نفحات الولاية ؛ ج‌۶ ؛ ص۱۸۳

أجل، فإحـدى نعم اللّه العظمى على البشـر وجود هؤلاء الزعماء العظام الذين حفلت جميع حركاتهم وسـكناتهم بالدروس والعبر، ولم تنتفع أيّة أمة كالمسلمين من النعمة الفضـيلة، فالأُمم وإن كانت لها عظماء، إلّاأنّ نبى الإسـلام صلى الله عليه و آله كان أعظم الجميع، وليت شـعرى أى كفران للنعمة أعظم من ضـلالتنا وحيرتنا رغم نعمة اللّه علينا بهذا القائد العظيم. وأخيراً وليثبت الإمام عليه السـلام أنّه أول من يتمثل عملًا بما يقول وأنّه يحذو حذو رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقد قال:

«وَاللَّهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ ۲۷۷] مِدْرَعَتِي ۲۷۸] هـذِهِ حَتَّى اسْـتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَـدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْ ۲۷۹] عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى »

. يستفاد من هذه العبارة بوضوح أنّ الإمام عليه السـلام كان يعطى ثوبه بين الحين والآخر ليرقعوه (وإن قام أحياناً بهذا العمل شخصياً) وقد كثرت رقعات ثوبه حتى شـعر الإمام عليه السـلام بالخجل من رقعه، مع ذلك لم يكن مسـتعداً لطرحه. شـتان بين سـيرة الإمام عليه السلام وبعض الأفراد الذين

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۸۴

ينتقون ثياب كل فصل وزمان ومكان بما يناسـبه، فهناك ثوب لمجالس السـرور وآخر لمجالس العزاء، وهكذا للسـفر والحضر والنوم،

بل الأسوأ من كل ذلك طرح بعض الملابس كونها لا تناسب الموضة. العبارة

«فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى »

، مثل معروف عند العرب، معناه، أنّ من يصبر على النوائب ويتحمل الشدائد حين يبلغ هدفه يُسرّ بصبره ويحمد اللّه ويحمده الآخرون أيضاً[٢٨٠].

تأمّل

لعلنا نتعرف بصورة عميقة على حديث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال

«حُبُّ الدُّنيا رَأسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»

كلما أمعنا النظر فى حجم الذنوب والمعاصى والنزاعات الاجتماعية العنيفة وتأملنا الملفات الحقوقية والجزائية التى تضج بها المحاكم. والجدير بالذكر أنّ هذا الحديث لم يقتصر على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بل أكده سائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام كالإمام الصادق والإمام السجاد عليهما السلام إلى جانب تأكيده من الأنبياء السابقين عليهم السلام ٢٨١].

ولو توقفنا قليلًا وتأملنا لأمكننا ايجاز عمدة مظاهر حبّ الدنيا فى ثلاثة أشياء هى: حبّ المال وحبّ الجاه وحبّ الشهوة. فليس هنالك من حرب وقعت فى العالم ولا فساد انتشر فى صفوف المجتمع إلّاكان معلولًا لأحد هذه المحاور الثلاثة. وبناءً على هذا فإن أردنا ممارسة عملية الإصلاح فى المجتمعات الإسلامية كان لابدّ لنا

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۸۵

من مواجهة التعلق بالدنيا. ولعل هذا الموضوع يبدو بارزاً فى المجتمعات الفقيرة التى تنتقل فجأة إلى الغنى، كالمجتمع الإسلامى فى صدر الإسلام؛ ذلك أنّ الفقر كان قد عمّ المجتمع قبل بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، إلّاأنّ الفتوحات وما انطوت عليها من غنائم بصورة مفاجئة قد غيرت الأوضاع فأخذ أصحاب الدنيا يتهافتون على اللذات والغرق فى المعاصى. وعليه فلا يبدو من المستغرب على ذلك الإمام الهمام على عليه السلام وبغية تغيير تلك الأوضاع أن يورد تلك الخطبة ويكرسها لذم الدنيا ومن تعلق بها؛ فيأخذ بأيدى الناس ويغوص بهم فى أعماق تاريخ الأنبياء الماضين ويكشف لهم عن عمق زهد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وحياته البسيطة المتواضعة بهدف إيقاظهم من غفلتهم وإعادتهم إلى المسار الصحيح.

على سبيل المثال كان على عهد عثمان- حين إزدادت الأموال فى بيت مال المسلمين وكان ينبغى أن تصرف فى العمران وبناء الدولة الإسلامية وانقاذ المحرومين- أن سيطرت قرابته وبطانته على الأموال، فجنى كل منهم ثروة عظيمة أفرد لها العلّامة الأمينى رحمه الله فى الجزء الثامن من الغدير باباً أسماه (الكنوز المكنزة ببركة الخليفة) وقد عرض فيه بعض تلك الكنوز من مصادر العامة. وذكر بعض الأفراد من قبيل: مروان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص ويعلى بن أمية وعبدالرحمن بن عوف وزيد بن ثابت وسائر الأفراد، وقد حصل كل منهم على آلاف الدنانير من بيت المال، حتى ذكر أنّ ورثة زيد بن ثابت كانت تتقاسم ارثه من الذهب والفضة عن طريق كسرها بالفؤوس، كما ترك يعلى بن أمية مبلغ خمسمائة ألف دينار إلى جانب المزارع والبساتين والدور والديون التى له بذمة الناس والتى تبلغ مائة ألف دينار (كل دينار مثقال من الذهب المسكوك).

وأمّا عبدالرحمن بن عوف فقد ترك ألف ناقة وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس إلى جانب الأراضى الزراعية، ومن أراد المزيد فليراجع الغدير وما ذكره من مصادر

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۸۶

وأرقام بهذا الشأن ٢٨٢].

وعلى هذا الضوء ألا يتوجب على زعيم عظيم كعلى عليه السلام أن يكون كالطبيب الحاذق فيشمّر عن ساعديه ويعالج ذلك المجتمع

المريض بوباء حبّ الـدنيا من خلال ذمها واستصـغار شأنها؟ وعليه ينتفى السؤال الذى يطرح نفسه أنّه لم عرض على عليه السـلام بكل هـذا الـذم للدنيا وهو إمام الإسـلام هذا الدين الذى يعنى بالدنيا والآخرة والحضارة والمدنية. واليوم أيضاً إن أردنا أن نحول دون هذه النزاعـات الداميـة وسـفك الـدماء وتجـار السـلاح الـذين يصـدرون الموت والـدمار للشـعوب والوقوف بوجه مراكز الفساد والـدعارة والانـحراف، فليس أمامنـا من سبيـل سوى تحقير هـذه الـدنيا ومن تعلق بهـا واستصـغارها حتى تصـبح فضـيحة ليقتنع الآخرون بالحياة البسيطة المتواضعة على حد الكفاف.

ونختتم الكلام بالحديث الذى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال

«جَعَلَ الخَيْرَ كُلُّهُ فِى بَيتٍ وَجَعَلَ مِفتَاحُهُ الزُّهدُ فِى الدُّنيا»[۲۸۳].

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۸۷

الخطبة ۱۶۱

اشارة

فِى صِفَةِ النَّبِىِّ وَأهْلِ بَيْتِهِ وأتْباعِ دِينِهِ وَفِيها يَعِظُ بِالتَّقْوى [۲۸۴]

نظرة إلى الخطبة

تشـتمل هـذه الخطبـة على ثلاثة أقسام، أشار فى المقطع الأول إلى بعثة النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله وصـفاته الحميدة وخصائص أهـل بيته، ويـذكر آثـار دعوته فى إظهـار الحق ودحر الباطـل، ويخلص إلى نتيجـة مفادهـا أنّ شـقاء الـدنيا والآخـرة فى عـدم الإيمـان بالإسلام الحنيف.

وتطرق الإمام عليه السـلام فى المقطع الثانى من الخطبة إلى التوكل على اللّه وسؤاله الهدى. ثم اختتم الخطبة بدعوة الجميع إلى الورع والتقوى وطاعـة اللّه والحـذر من التعلق بالـدنيا بعبـارات عظيمـة المعـانى إلى جانب ضـرورة الاعتبار بالوقائع والأحـداث التى يشـهدها العالم.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۱۸۹

القسم الأول

ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيء، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِى وَالْكِتَابِ الْهَادِى. أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ. مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ. أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَافِيَةٍ. أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ.

«فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَام دِيناً» تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ، وَيَكُنْ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ.

وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكُّلَ الْإِنَابَةِ إِلَيهِ. وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ.

الشرح والتفسير: صفات النبى صلى الله عليه و آله

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بالحديث عن خصائص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ورسالته فقال:

«ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِیءِ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِیِّ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِی ۲۸۵] وَالْکِتَابِ الْهَادِی»

. المراد من النور المضیء نور نبوته صلی الله علیه و آله الذی أضاء کل شیء،

«وَالْبُرْهَانِ الْجَلِیِّ»

إشارة إلی معجزاته الواضحة، کما تبیّن العبارة

«وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِی»

شریعته الغراء،

«وَالْکِتَابِ الْهَادِی»

القرآن الذی یهدی عامة الخلق إلی اللَّه حتی قیام الساعة. هذا

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۹۰

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلی أنّ العبارات الأربع المذکورة تشیر إلی القرآن الذی نظر إلیه الإمام علیه السلام من عدّة جوانب؛ إلّاأنّ الأنسب ما ذکرناه من أنّ کل عبارة تشیر إلی جانب معین؛ الأمر الذی استحسنه سائر الشرّاح. علی کل حال فإنّ کلام الإمام علیه السلام إشارة إلی أرکان الدعوة الکاملة الشاملة والتی تستند إلی نور الوحی، والتی بینت بمختلف المعجزات والأدلة والبراهین وکتاب الهدایة القرآنیة بأحکامه الجلیة الواضحة.

ثم خاض علیه السلام بثمان عبارات قصیرة فی التعریف بالنبی الأکرم صلی الله علیه و آله فقال:

«أُسْرَتُهُ خَیْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتُهُ خَیْرُ شَجَرَةٍ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ. مَوْلِدُهُ بِمَکَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَیْبَةَ[۲۸۶] عَلَا بِهَا ذِکْرُهُ وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ»

. متهدل، بمعنی متدلٍ وهنا تعنی الفاکهة القریبة من الجمیع. ولعل موفقیة الإنسان وسعادته تتحقق فی ظل أمور مختلفة ولکل من نجابة الأسرة وکرامة الحسب والنسب ورفعة شخصیة الأهل والقرابة وأهمیّة مسقط الرأس والبیئة والنشاط فی أجوائها، دور مهم فی تلک السعادة. ولو أمعنا النظر فی حیاة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله نجد أنّه صلی الله علیه و آله إلی جانب سمّوه الذاتی قد توفرت له سائر العوامل اللازمة للتوفیق والنجاح لیتمکن علی ضوئها من ممارسة دوره فی هدایة الناس، فنسبه الشریف یمتد إلی إبراهیم وولده إسماعیل علیهما السلام حیث ورث منهما الشجاعة والتضحیة. قبیلته بنی هاشم من أشرف القبائل العربیة. أبوه عبداللَّه، وجدّه عبدالمطلب، وعمّه حمزة وأبوطالب، وابن عمّه علی وجعفر علیهما السلام، وبنته فاطمة الزهراء علیها السلام أم المعصومین علیهم السلام. وولادته فی مکة الحرم الإلهی الآمن، وهجرته إلی المدینة الطیبة مرکز الإیثار والفداء والتضحیة. ومن هناک وسع رقعة دعوته وأسمع صوته العالم بأسره، والأسرة من مادة أسر علی وزن عصر، بمعنی القوة والقدرة إشارة إلی أُسرة بنی هاشم وقرابة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله.

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۱۹۱

وتشیر الشجرة إلی أصل هذه الأُسرة التی تنتمی إلی إبراهیم علیه السلام، والأغصان المعتدلة إشارة إلی فروعه کعبدالمطلب وأبی‌طالب وحمزة وجعفر وأمیرالمؤمنین علیه السلام وأئمّة الهدی علیهم السلام وهم بمثابة الفروع المتداخلة للشجرة فی فضلهم وعلمهم وکمالهم وعدم اختلافهم ومعارفهم التی یتغذی علی ثمارها جمیع الناس علی مرّ العصور والدهور.

ثم اتّجه الإمام علیه السلام صوب سیرته العملیة فقال:

«أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ کَافِیَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِیَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَافِیَةٍ[۲۸۷]»

. نعم، فقد کانت له مختلف الأدلة العقلیة والفطریة والمعاجز الحسیة، فیعالج أمراض الناس والمجتمعات بکلماته الحکیمة ویصلح الخراب الذی لحق بالناس إبان الجاهلیة فی کافة مجالاتهم الاجتماعیة. فقد اقترنت دعوة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله بالدلیل

والبرهان من حيث جذورها وانطلاقتها، كما تضمّنت على مستوى المضمون الخطط العملية الهادية، وكل ذلك يقود إلى نتيجة مرجوة تتمثل فى إصلاح الفساد وإعادة بنية الأصول الفكرية والأخلاقية والاجتماعية.

ثم خاض عليه السلام فى الأعمال المهمّة التى أتى بها رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال:

«أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ[۲۸۸]، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ[۲۸۹]»

. فالواقع هو أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مارس ثلاثة أعمال مهمّة: أعلن العقائد الحقّة، وأزال البدع والخرافات، وبيّن الأحكام الشرعية بوضوح لجميع الناس، حصل كل منها بسعى متواصل وجهد عظيم. ثم خلص إلى هذه النتيجة التى صرّح بها القرآن الكريم: «

«فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً»

تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ، وَيَكُنْ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ»

. فمن الطبيعى أن لا تكون

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۹۲

نتيجة مخالفة الدين الذى يتّسم داعيته بكل تلك المكارم ودينه الجامع والشامل، سوى الشقاء والضلال والهلكة. ويتضح من هذه العبارات مدى زيف الشعارات الجوفاء التى يرفعها البعض اليوم فى الأوساط الإسلامية انفعالًا بكتّاب الغرب فيتبنون كفاية اعتناق أىٍّ من الأديان؛ الأمر الذى لا ينسجم ومنطق القرآن ولا كلمات أئمّة الهدى كعلى عليه السلام.

وأخيراً يعرب الإمام عليه السلام عن توكله على اللّه وإنابته إليه فيقول:

«وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكُّلَ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ. وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ»

. ربّما تكون هذه العبارة إشارة إلى أنّ أسباب سعادة البشرية توفرت ببيعة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والدين العظيم الذى بعث به، ولم يبق لتحقيق هذه السعادة سوى أن نسير على الدرب وبالتوكل على اللّه وطلب الهداية منه والإرشاد إلى الحق. ومن هنا اختتم الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبة بالتوكل على اللّه واسترشده الطريق إلى الجنّة.

تأمّل

من قال أم ما قال؟

يبدو أنّ هذه العبارة المعروفة:

«انْظُرْ إِلى ما قالَ وَلا تَنْظُرْ إِلى مَنْ قالَ»[۲۹۰]

صادقة فى القضايا الواضحة والمنطقية، أمّا فى القضايا المهمّة والمعقدة والمدارس الفكرية المطروحة فلابدّ من النظر والتركيز على من قال، حتى يتسنى الوثوق به والتأسى بسيرته، ولذلك خاض القرآن فى أكثر من موقع فى خصائص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقال:

«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ»[۲۹۱] وقال فى موقع اخر: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۹۳

لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»[۲۹۲]. ومن هنا أشار الإمام عليه السلام فى بداية الخطبة إلى شخصية النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من حيث النسب والأُسرة والأصل وصفاته الكمالية وأثنى على شجرته وفروعها المثمرة، ثم تطرق إلى شريعته السمحاء من مختلف الجوانب ليلفت انتباه الآخرين إلى ضرورة الوثوق به ويقطع اعذار المغرضين.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۹۵

القسم الثانى

أُوصِيكُمْ عِبَادَاللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَداً، وَالْمَنْجَاةُ أَبَداً. رَهَّبَ فَأَبْلَغَ، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ؛ وَوَصَفَ لَكُمُ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا. فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا. أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ! فَغُضُّوا عَنْكُمْ- عِبَادَاللَّهِ- غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا، لِمَا قَدْ أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا. فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ. وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ؛ فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقْدَهَا، وَبِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا. لَايَتَفَاخَرُونَ، وَلَا يَتَنَاسَلُونَ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ، وَلَا يَتَحَاوَرُونَ. فَاحْذَرُوا، عِبَادَاللَّهِ، حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدَدٌ وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بالامم السابقة

خاض الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة باسداء النصح والموعظة التى توقظ الغافلين بعد أن أكد فى الموضع السابق على تقوية روح الإيمان لدى المخاطبين ليؤكد هنا على بعض الجوانب العلمية، ذلك لأنّ عمل ثمرة الشجرة الإيمان فقال:

«أُوصِيكُمْ عِبَادَاللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَداً، وَالْمَنْجَاةُ[۲۹۳] أَبَداً».

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۹۶

ربّما أمكن عودة الطاعة والتقوى إلى مفهوم واحد، كما يمكن اعتبار التقوى أساس الطاعة، ذلك لأنّ طاعة اللَّه إنّما تنبعث من التقوى والورع، كما يحتمل أن تكون التقوى إشارة إلى ترك الذنب، والطاعة إلى امتثال الأحكام الشرعية، فهما لا يفترقان كيفما كان الأمر (ولعل ذلك هو سبب الإتيان بالضمير مفرداً فى أنّها والحال، ينبغى أن يكون مرجع الضمير مثنى). واطلاق النجاة على التقوى من قبيل اطلاق المسبب على السبب، لأنّ التقوى سبب النجاة فى الآخرة.

ثم قال:

«رَهَّبَ ۲۹۴] فَأَبْلَغَ، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ ۲۹۵]»

. إننا لنعلم أنّ الضمان الفعلى لجميع الأحكام الشرعية هو البشارة والإنذار. وقد شحنت الكتب السماوية بالوعد والوعيد والإنذار والبشارة ترغيباً للناس فى الطاعة وحياشة لهم عن المعصية. ولما كان التعلق بالدنيا والخداع بمظاهرها رأس المعاصى والذنوب فإنّ الإمام عليه السلام عاد ليؤكد هذا الأمر فقال:

«وَوَصَفَ لَكُمُ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا. فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا»

. فالذى يستفاد من هذه العبارة القصيرة والعميقة المعانى أنّ اللَّه بيّن أربعة أمور بشأن الدنيا؛ الأول أصل الحياة الدنيا وكما يبدو من أسمها حياة دنيئة وتافهة لا قيمة لها، والثانى، أنّها ليست مستقرة وذات يوم يحل الموت بالإنسان ويقضى على دنياه، والثالث، ما أن ينغمس الإنسان فى متع الحياة الدنيا حتى يشعر بزوالها التدريجى، حيث تأخذ قواه البدنية بالضعف وتختل صحته ويثكل بفقد الأعزة والأصدقاء، الواحد تلو الآخر، وينظر إليهم وهم يتوسدون التراب، والرابع، أنّ الدنيا دائمة الانتقال من قوم إلى قوم: «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ»[۲۹۶].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۹۷

فقد رسمت الآية القرآنية الشريفة صورة واضحة عن تفاهة الدنيا وانقطاع نعيمها وزوالها فى إطار واضح، كما ورد هذا الانتقال فى آية

أخرى: «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ»[۲۹۷].

ثم قال مواصلًا وصف الدنيا:

«أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ!»

. ودليل ذلك واضح هو أنّ الدنيا هوى وهوس يقذف بالإنسان فى مستنقع الذنب من كل جانب وهذا ما يوجب غضب اللّه وعدم رضاه. طبعاً، المراد من الدنيا هنا، الدنيا المادية التى يجعلها الإنسان هدفاً ويعتمد كل الوسائل للحصول عليها وإن قارف الذنوب، وإلّا فالدنيا وسيلة على الاقتدار للطاعة وشكر النعمة وبلوغ السعادة.

ثم خلص عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَغُضُّوا[۲۹۸] عَنْكُمْ- عِبَادَاللَّهِ- غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا،

لِمَا قَدْ أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا. فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ ۲۹۹]»

. إشارة إلى تصاعد آلام الدنيا وتزايد همها، فكلما اقترب الإنسان منها زاد غناؤه حتى يسيطر الهم على جميع كيانه.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«مَثَلُ الحَرِيصِ عَلَى الدُّنيا مَثَلُ دُودَةِ القَزِّ كُلَّما إزْدَادتْ مِنَ القُزِّ عَلَى نَفْسِها لَفاً كانَ أَبْعَدُ لَها مِنَ الخُرُوجِ حَتّى تَمُوتَ غَمَّاً»[۳۰۰]

. وقد تمثل الشاعر العربى فانشد[۳۰۱].

أَلَمْ تَرَ أنّ المَرءَ طُولَ حَياتِهِحَرِيصٌ عَلى ما لايَزالُ يَنَاسِجُهُ

كَدُودٌ كَدُودِ القَزِّ يَنْسِجُ دائماًفَيُهلَكُ غَمّاً وَسَطَ ما هُوَ ناسِجُ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۹۸

ثم أخذ الإمام عليه السلام بيد مخاطبيه إلى العهود الماضية ليشرح عاقبة الحياة الدنيا لمن تعلق بها ضمن عشر عبارات قصيرة بما يهزّ ضمير الإنسان فقال:

«وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصارِعِ ۳۰۲] الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ ۳۰۳]، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ».

وتشير العبارة

«تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُم»

إلى تآكل الجسد تحت التراب، كما يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى تآكل الوشائج الاجتماعية فى حياة الإنسان والتى تزول بعد وفاة الإنسان، كما يمكن أن تكون الأسماع والأبصار إشارة إلى الأذن والعين الظاهرية لقدرة الرؤية والسمع الحسى. ولا تزول حواس الإنسان الظاهرية وأعضائه البدنية فحسب، بل تزول كل امتيازاته الاجتماعية من قبيل الترف المادى والعزة وكافة النعم والمتع. ثم أشار عليه السلام إلى جانب آخر من النعم التى يفارقها الإنسان بالموت فقال:

«فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقْدَهَا، وَبِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا. لَا يَتَفَاخَرُونَ، وَلَا يَتَنَاسَلُونَ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ، وَلَا يَتَحَاوَرُونَ».

بل وصفهم الشاعر[۳۰۴]:

وَحَلُّوا بِدارٍ لاتَزاوُرَ بَينَهُموَأَنَّى لِسُكَانِ القُبُورِ التَّزاوُرُ

طبعاً هذا الكلام فى جسم الإنسان ولا مانع من اجتماع أرواح المؤمنين وتزاورها وتحاورها.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبة محذراً الجميع:

«فَاحْذَرُوا، عِبَادَ اللَّهِ، حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدَدٌ[۳۰۵] وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ»

. العبارة

«فَاحْذَرُوا ... النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ»

إشارة إلى أنّ الإنسان يمكنه

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۱۹۹

اجتياز الأخطار الواردة فى العبارات السابقة للإمام من خلال: غلبته لنفسه ليتمكن بعد ذلك من كبح جماح شـهواته ومن ثم النظر إلى الأمور ببصيرة العقل لا الشهوة المضلة، والعبارات الأربع الأخيرة فى الخطبة تشير كل واحدة منها إلى قضية مستقلة، قال فى الاولى: إنّ سبيل السعادة قد اتضح بواسطة القرآن وأولياء اللّه وقد نصبت الأعلام الواضحة على طول طريق السير إلى اللّه، كما أنّ الجادة محكمة ومستوية وخالية من العوائق والمطبات والانحراف، ولا يبقى شـىء سوى العزم والإرادة للسالكين على الدرب واجتيازه بصورة سريعة. وهنيئاً لأولئك الذين عزموا وساروا على الدرب كما قال الشاعر:

فَطُوبَى لِعَبدٍ آثَرَ اللَّهَ رَبَّهُوَجادَ بِدُنياهُ لِما يَتَوَقَّعُ ۳۰۶]

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۰۱

الخطبة ۱۶۲

اشارة

لِبَعْضِ أصْحَابِهِ وَقَد سَأَلَهُ: كَيْفَ دَفَعَكُمْ قَوْمُكُمْ عَنْ هذا المَقَامِ

وَأَنْتُم أحَقُّ بِهِ؟ فَقَالَ:[۳۰۷]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد آنفاً فإنّ الإمام عليه السـلام أورد هـذا الكلام كجواب لأحـد أصـحابه وقد ساله عن كيفية دفعه عن حقّه فى الولاية وجدارته بها. فأشار الإمام عليه السلام إلى أمرين تدور حولهما الخطبة:

الأول: أنّ السبب الرئيسى هو البخل والاستبداد والتعلق بالدنيا.

والثانى: الـذى قال فيه إنّك إن تعجب من قضـية بدايـة الخلافـة، فانظر اليوم وقـد تصـدى معاويـة وتبعه الناس، دون أدنى جدارة بهذا المنصب ولا يمكن المقارنة بينى وبينه.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۰۳

القسم الأول

فقال: يَا أَخَا بَنِى أَسَدٍ، إِنَّکَ لَقَلِقُ الْوَضِينِ تُرْسِلُ فِى غَيْرِ سَدَدٍ، وَلَکَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصِّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدِ اسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ: أَمَّا الْإِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهـذَا الْمَقَـامِ وَنَحْنُ الْـأَعْلَوْنَ نَسَـباً، وَالْأَشَـدُّونَ بِرَسُولِ اللَّهِ- صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- نَوْطاً، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَـحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ؛ وَالْحَكَمُ اللَّهُ، وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ.

وَدَعْ عَنْکَ نَهْباً صِيحَ فِى حَجَرَاتِهِوَلكِنْ حَدِيثاً مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

الشرح والتفسير: علة غصب الخلافة العلوية

أورد الإمام على عليه السلام هذا الكلام فى رده على السائل الذى يبدو أنّه طرح السؤال فى موقع لم يكن مناسباً، مع ذلك أجاب عليه السلام عن السؤال فقال:

«يَا أَخَا بَنِى أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِينِ تُرْسِلُ فِى غَيْرِ سَدَدٍ[۳۰۸]، وَلَکَ بَعْدُ ذِمَامَةُ[۳۰۹] الصِّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدِ اسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ»

. أمّا لماذا خاطبه الإمام عليه السلام

«يَا أَخَا بَنِى أَسَدٍ»

وأشار ضمن كلامه بالقول لک علينا ذمامة الصهر؟ هناک خلاف بين شرّاح نهج البلاغة بهذا الشأن؛ فالبعض کابن أبى الحديد ومغنية يقولان إنّ ذلک يعود إلى أنّ إحدى أزواج النبى الأكرم صلى الله عليه و آله زينب بنت جحش من طائفة بنىأسد[۳۱۰]. بينما يرى البعض الآخر أنّ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۰۴

علياً عليه السلام تزوج امرأة من بنى أسد، وإن لم تذكر كتب التاريخ ذلک، ولا مانع من الجمع بين الاحتمالين. العبارة

«لَقَلِقُ الْوَضِينِ»

بالنظر إلى أنّ

(الوضين)

بطان يشد به الرحل على البعير كالحزام للسرج، و

(قلق)

، بمعنى الضعيف فإنّ من الطبيعى أن اضطرب ذلک الحزام تململ الجمل وتحرک هنا وهناک ومن هنا يطلق على المضطرب: الوضين. والعبارة

«وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ»

تعبير حى رائع يفيد أنّ لكل شخص الحق فى سؤال الإمام، كما يستفاد ضمنياً التزام الإمام بالاجابة ما لم يكن هنالک محذور معيّن.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه السابق ليتطرق إلى الأسباب التى وقفت وراء دفعه عن حقّه فقال:

«أَمَّا الْإِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَباً، وَالْأَشَدُّونَ بِرَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- نَوْطاً[۳۱۱]، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً[۳۱۲] شَحَّتْ ۳۱۳] عَلَيْهَا نُفُوسُ

قَوْمٍ، وَسَخَتْ ۳۱۴] عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ؛ وَالْحَكَمُ اللَّهُ، وَالْمَعْوَدُ[۳۱۵] إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ».

المراد من الإستبداد، من مادة

(بدد)

، بمعنى الابعاد والتفريق، بحيث يستولى الإنسان على شيء ويبعد الآخرين عنه. فقد عزى الإمام عليه السلام فى هذا الموضع من كلامه الدليل الأصلى لغصب الخلافة رغم أولويته بها إلى الإستبداد والبخل الذى أعمى أعين البعض عن الواقع فسارععزل الآخرين واعتلى موقع النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

من الواضح أنّ المراد من هؤلاء الأفراد أولئک الذين اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة لاختيار الخليفة، وإن دفع التعصب ابن أبى الحديد لينسب المقصود إلى الشورى

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۰۵

التى نصبها عمر ومعارضة عبدالرحمن بن عوف لخلافة على عليه السلام والذى يعد فى الواقع من قبيل انكار البديهيات؛ ذلک لأنّ

سؤال السائل كان بشأن أصل الخلافة بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله وجواب الإمام عليه السلام أيضاً عالج هذه القضية والذى يشبه ما أورده الإمام عليه السلام بهذا الخصوص فى خطبة أخرى والمراد من العبارة

«وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ»

إننا بنى هاشم حين رأينا الإصرار العجيب لتلك الفئة على مصادرة الخلافة ولا ـ تعود المقاومة سوى إلى تصدع كيان المجتمع الإسلامى غضضنا الطرف عنها بكل سخاء ولم نمارس أيّة مقاومة.

ثم تمثل الإمام عليه السلام بذلك الشعر الذى ينسب إلى

امرؤ القيس

الذى قال فيه دع عنك الحديث بشأن الغارات التى وقعت فى الزمان الماضى وحدثنى عن غارات اليوم (حيث آلت فيه الخلافة الإسلامية إلى معاوية الذى أصبح الخطر العظيم الذى يهدد الإسلام).

ودع عنك نهباً صيح فى حجراته [۳۱۶] ولكن حديثا ما حديث الرواحل.

يذكر أنّ

امرؤ القيس

أنشد هذا البيت بعد قتل أبيه الذى لجأ إلى

خالد بن سدوس

فهجمت عليه طائفة من قبيلة

بنى جديلة

ونهبوا الأموال والجمال. فأخبر

امرؤ القيس خالد

الخبر فقال له: أعطنى جمالك حتى استعيد تلك الجمال فقبل. فاتّجه

خالد

إلى قبيلة

بنى جديله

فطالبهم باعادة الجمال. فأنزلوه من ناقته وأخذوا منه البقية. فلما اطلع

امرؤ القيس

على هذا الخبر أنشد ذلك البيت، ومضمونه: دع عنك نهب تلك الجمال وحدثنى عن هذه التى سلمها

خالد

لهذه القبيلة[۳۱۷]. ينطوى هذا القسم على موضوعين مهمين سنتطرق إليهما فى ختام الخطبة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۰۷

القسم الثانى

وَهَلُمَّ الْخَطْبَ فِى ابْنِ أَبِى سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِى الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ؛ وَلَا غَرْوَوَاللَّهِ، فَيَا لَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ، وَيُكْثِرُ الْأَوَدَ! حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَّارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ، وَجَدَحُوا بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً، فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَى أَحْمِلْهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُکَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

الشرح والتفسير

هـذا المقطع من الخطبـة شـرح لما ذكره الإمام عليه السـلام على نحو الإشارة فى البيت الـذى تمثل به والـذى أنشـده امرؤ القيس، فقد صرح الإمام عليه السلام بترك الماضى رغم عيوبه وإشكالاته والنظر إلى الطامة التى تحدث اليوم:

«وَهَلُمَ ۳۱۸] الْخَطْبَ ۳۱۹] فِى ابْنِ أَبِى

سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِى الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ».

إنّك تسألنى لِمَ أبعـدوك عن الخلافة بعد رسول اللّه صـلى الله عليه و آله فى حين لا يرقى إليك أحد؟ تعال اليوم وانظر إلى ابن أبى سفيان عدو الإسلام اللدود الذى يطالبنى بالخلافة. يا له من أمر مبكٍ ومضحكٍ، أمّا أنّه مبكٍ فذلك لأنّ الإسلام بلغ مرحلة يريد فيها ابن أعدى أعداء الدين زعامة الدولة الإسلامية والدفاع عن حمى الإسلام

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۰۸

والمسـلمين، وأمّا أنّه مضـحك فذلك لأنّه ليست هنالك من نسبة للمقارنة بينى وبينه، ولذا لا يقاس معاوية أبداً بى بل أنا وهو طرفى التضاد، نعم ربّما لا يعود هذا البكاء والضـحك لزمان واحد، فالبكاء لهضم حقوق الإسـلام والمسلمين فى كيفية رضاهم بحكومة بنى أمية حثالة عصر الجاهلية.

ثم قال عليه السلام

: «وَلَا غَرْوَ[۳۲۰] وَاللَّهِ، فَيَا لَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ ۳۲۱] الْعَجَبَ، وَيُكْثِرُ الْأَوَدَ[۳۲۲]!».

لعل صدر وذيل العبارة يبدو فى الوهلة الأُولى متناقضاً، إلّاأنّه فى الواقع نوع من البلاغة والفصاحة التى أوردها الشاعر حين أنشد:

قَدْ صِرْتُ فِى المَيدانِ يَوْمَ طِرادِهِمْفَعَجِبْتُ حَتّى كِدْتُ أن لْاأَعْجبا[۳۲۳]

أى، تعجبت إلى الحـد الـذى لم يبق لى من مجال للتعجب فقد وطأت الميدان فعجبت من الوضع إلى درجة أنّى كدت أن لا اتعجب، ولعل ذلك من باب المثل المعروف، «أنّ الشَّىءَ إذا تَجاوَزَ حَدُّهُ انْقَلَبَ ضِدُّهُ». والعبارة

«وَيُكْثِرُ الْأَوَدَا!»

إشارة إلى أنّ المجتمع الإسلامى بفعل حكومة يتزعمها ابن أبى سفيان سينحرف تماماً عن الصراط ويعيش الاعوجاج فى كل شىء.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى تفاصيل هذا الأمر فقال:

«حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَّارِهِ ۳۲۴] مِنْ يَنْبُوعِهِ، وَجَدَحُوا[۳۲۵] بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً[۳۲۶]»

. فالعبارة

«حَاوَلَ الْقَوْمُ ...»

إشارة إلى أنّ بنى أمية لا يسـعون إلى الحكومة وزعامة الأُمّة فحسب، بل هدفهم إطفاء نور الإسـلام والقرآن، والهدف إعادة الأُمّة إلى الجاهلية

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۰۹

وعصرها المظلم وأعمالهم خير شاهدة على ذلك.

والعبارة

«وَسَدَّ فَوَّارِهِ ...»

بينت نفس المعنى بتعـبير آخر، حيث شـبه الإسـلام والقرآن بعين فياضـة انفجرت فى صـحراء جاهليـة العرب وروت بمائهـا العـذب ما تصحو من قلوبهم واثمرت تلك النبتة، ويسعى بنى أمية لغلق هذه العين وسوق الأُمّة إلى تلك الصحراء.

والعبارة

«وَجَدَحُوا ...»

تعبير رائع آخر للمعنى المذكور. فقد خلط هؤلاء القوم ماء الشريعة العذب الفرات بالسموم الفتاكة ليسمموا أفكار الأُمّة ويلوثوا أخلاقها، فمثل هذه الأُمّة لن تنقاد إلى بنى أمية وآل أبى‌سفيان إن عاشت السلامة فى فكرها والطهر فى أخلاقها. نعم، فهؤلاء لم يسعوا لإطفاء نور الولاية فحسب، بل وعلى غرار المشركين الذين قال فيهم القرآن: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ»[۳۲۷] سعوا إلى إطفاء نور الإسلام والقرآن والحيلولة دون نشر الإسلام والمعارف الدينية وقد وضعوا العديد من الأحاديث لتلويث هذا الماء العذب.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى عزمه الذى اتخذه بهذا الشأن فقال:

«فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَى أَحْمِلْهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى

«فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»». أى، إن زالت الموانع فإنّى على استعداد تام لإعادة الأُمّة الإسلامية إلى سابق عزّها على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وسأبذل جهدى بهذا الخصوص، ولكن إن لم تسمح الظروف فلا إشكال، ذلك أنّى أعمل بوظيفتى وسيذوق هؤلاء وبال أعمالهم.

تأمّلات

۱. حق السؤال

عادة ما يواجه الإنسان من حوله سيلًا من المجاهيل التى ترتبط أحياناً بالأمور

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۱۰

المادية وأخرى المعنوية وسؤال العلماء والمختصين، مفاتيح حل تلك المجاهيل.

ولذلك فتح اللَّه تعالى على الإنسان أبواب السؤال بشأن عالم التشريع والتكوين.

وتمتاز الشريعة الإسلامية الغراء بأنّها لم تأذن بفتح باب السؤال لكل شخص وفى أى مجال فحسب، بل أمرت بذلك. القرآن الكريم من جانبه أكد على هذا الأمر فى آيتين: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ»[۳۲۸]. كما قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى بعض كلماته القصار فى نهج البلاغة:

«وَلا يَسْتَحْيِيَنَ أحدٌ إذا لَمْ يَعْلَم الشَّيءَ أن يَتَعَلَّمَهُ»[۳۲۹]

. نعم، فالسؤال ليس عيبا، بل العيب أن لا يسأل الإنسان ويبقى فى الجهل.

الجدير بالذكر أنّ الخطبة المذكورة إشارة إلى أنّ السؤال حق لكل شخص، ويبدو هذا الأمر أكثر أهميّة لدى الشباب وذلك لكثرة مجهولاتهم. فمن حيث التكوين والخلقة فإنّ اللَّه خلق فى ذات الإنسان حبّ الاستطلاع والبحث. فالإنسان يميل بطبعه لمعرفة الأشياء التى لا يعلمها، وتبدو هذه الرغبة أعمق لدى الشباب، بسبب تلك الحاجة، فهم يطرحون أحياناً على الوالدين بعض الأسئلة التى تنتهى عادة بارتفاع أصواتهم، والحال، واجبهم يتطلب منهم تلبية هذه الحاجة الروحية بكل عطف ورقة، فيعلمونهم ما لا يعلمون وإن عجزوا عن الجواب أرشدوهم إلى من يجيبهم. والبعض يعتقد أنّ السؤال عن القضايا الأصولية والعقائدية من دواعى الكفر والإلحاد، بينما تسهم مثل هذه الأسئلة فى ترسيخ الإيمان وشد الجانب العقائدى لدى الإنسان. لا شك أنّ وظيفة العلماء تقتضى تأهبهم للاجابة عن الأسئلة فى كافة الظروف والتعامل مع السائل بكل أدب واحترام، ولا ينبغى لهم نسيان ضرورة قيامهم بهذا الدور، لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنَّ اللَّهَ يأخُذُ عَلَى الجُهَّالِ عَهداً بِطَلَبِ العِلْمِ حَتّى أَخَذَ عَلَى العُلَماءِ عَهداً بِبَذْلِ العِلْم لِلجُهّالِ»[۳۳۰].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۱۱

ونختتم البحث ببعض الأحاديث الواردة بهذا الشأن: أولًا: ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام فى حثه أحد أصحابه وهو حمران بن أعين على السؤال أنّه قال:

«إِنّما يَهْلِكُ النَّاسِ لأَنَّهُم لايَسأَلُونَ»[۳۳۱].

وثانياً: قال على عليه السلام:

«القُلُوبُ أَقْفالٌ مَفاتِحُها السُّؤالُ»[۳۳۲].

وثالثاً: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«العِلْمُ خَزائِنُ وَمَفاتِيحُهُ السُّؤالُ فَاسْأَلُوا يَرْحَمُكُمُ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُؤجَرُ فِيهِ أَربَعَةٌ: السَّائِلُ وَالمُعَلِّمُ وَالمُسْتَمِعُ وَالمُحِبُّ لَهُم»[۳۳۳]

. التفت اعرأبى يوم الجمل إلى أمير المؤمنين وقال: يا أمير المؤمنين، تقول أنّ اللَّه واحد؟ ما المراد بهذه الوحدة. فهجم عليه الناس من كل جانب وقالوا له ألا ترى انشغال أمير المؤمنين بالقتال؟ (فلكل حادث حديث) فأشار عليهم الإمام عليه السلام دعوه فما يسأل عنه الأعرأبى هو ما نريده من القوم (إننا ندعوهم إلى التوحيد والقتال لمعرفة هذه التعاليم المقدّسة) ثم قسم الإمام عليه السلام التوحيد إلى أربعة أقسام اثنان مرفوضان واثنان مطلوبان ۳۳۴].

۲. الهدف الاصلى من السؤال والجواب فى الخطبة

مراد الرجل الاسدى من السؤال بشأن الخلافة واجابة الإمام عليه السلام واضحة تماماً أنّها بخصوص السقيفة وتغيير محور الخلافة عن أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بعد وفاته، إلّاأنّ تعصب ابن أبى الحديد لمذهبه جعله يفسر العبارة ومرادها على أساس احتمال ضعيف من قبيل أنّ المراد معارضة عبدالرحمن بن عوف لخلافة على عليه السلام ودفعها لعثمان. والغريب فى الأمر أنّ ابن أبى الحديد نقل هنا قصة عن

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۱۲

استاذه أبى جعفر النقيب تؤيد تماماً ما قلناه، وهى منطقية تماماً، مع ذلك لم يستطع هذا الرجل المفكر ابن أبى الحديد من التسامى على بعض تعصبه، إذ يروى عن أستاذه الذى يصفه بأنّه رجل منصف علوى المذهب وله حظ وافر من العقل أنّه يسأله ماذا عنى ذلك السائل بسؤاله الإمام على عليه السلام عمن أبعدوه عن حقّه؟ أكان مراده يوم السقيفة أم يوم الشورى أجاب: السقيفة. قلت: لا أجيز لنفسى أن أقول إنّ أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله خالفوه ولم يلتزموا بمعتى الخلافة. قال: إنا أيضاً لا أجيز لنفسى أن أنسب إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه أهمل أمر الخلافة والإمامة من بعده وترك الأُمّة دون إمام، فقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ينصب من يقوم مقامه إن سافر إلى المدينة، فكيف لا ينصب شخصاً للخلافة بعد وفاته وأضاف الأستاذ أنّ الجميع يعتقدون أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان قمة الكمال العقلى، كما يعتقد اليهود والنصارى والفلاسفة والحكماء أنّه رجل حكيم وله نظرة صائبة وقد أتى بقوانين منطقية وعقلية، وبغض النظر عن مقام النبوّة فإنّ تعاليمه تستند إلى الوحى، وهذا الإنسان كان عارفاً بالعرب ويعرف طباعهم وأحقادهم وإن قُتل شخص لقبيلة ثأروا له، فإن عجزوا فمن أهله وقرابته، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان يحب بنته فاطمة وولديها الحسن والحسين وبعلها علياً عليهم السلام، ولا شك فى أنّه لو لم يستند إلى الوحى فلن يتركهم دون إمام، أتظن أنّه أراد أن تكون إحدى ضعفاء المدينة. وفى وسط قوم أراق على عليه السلام دماء قرابتهم، والواقع هو أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سفك دماءَهم لا على عليه السلام.

خلاصة القول أنّ هذا الرجل العاقل كان لابدّ له من تنصيب أحد للخلافة من أهل بيته لكى لا تموت رسالته. قال: فقلت له: هذا صحيح، لكن كلام الإمام عليه السلام لا يدل على النص فى الخلافة، أجاب: صحيح، إلّاأنّ السائل لم يسأل عن النص فى الخلافة بل

سأل كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم الأعلى نسباً وقرابة من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فأجابه الإمام عليه السلام عن هذا السؤال ۳۳۵].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۱۳

۳. بنى امية ومؤامرة القضاء على الإسلام

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام فى الخطبة المذكورة ولاسيما قوله:

«حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ ...»

أنّ هدف بنى أمية لم يقتصر على الإستيلاء على الخلافة الإسلامية فحسب، بل إنّهم سعوا جاهدين لمحو آثار الإسلام، كونهم حثالى عصر الجاهلية، ولولا تضحيات تلك الثلة المخلصة فى كربلاء والتى كشفت عن كوامن بنى أمية لما بقى اليوم من الإسلام إلّااسمه، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة منها:

۱. إنّ المؤرخ المعروف المسعودى قد روى فى كتابه (مروج الذهب) قصة عن المأمون، الخليفة العباسى أنّه أصدر أمراً سنة ۲۱۲ ه وبعث بمنادٍ ينادى أن ليس لأحد أن يذكر معاوية بخير أو يقدمه على أىٍّ من صحابة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وحين حاول البعض معرفة دافع المأمون، اتضح أنّ السبب ما ذكره له ابن المغيرة بن شعبة، قال: دخلت الشام مع أبى وكان كل يوم يقصد معاوية ويمدحه حتى رجع يوماً حزيناً فسألته الخبر. قال: رجعت من أخبث الناس. قلت: لم؟ قال: كنت عند معاوية فأشرت عليه بالعدل والخير تجاه بنى هاشم وصلة الرحم فقال غاضباً:- هَيهاتَ هَيهاتَ أخو تيم (أبو بكر) ولّى الخلافة وفعل ما فعل، فلما مات انقطع ذكره، ثم ولاها أخو عدى (عمر) فلما مات انقطع ذكره، وكذلك عثمان إلّاأخو هاشم ينادى باسمه كل يوم خمس مرات

«أشهد أنّ محمّداً رسول اللَّه»

فما الذى يبقى لنا ثكلتك أُمّك.

ثم قال:

«وَاللَّهِ إِلَّادَفناً دَفناً»[۳۳۶]

. فلما سمع المأمون ذلك أصدر أمره المذكور بحق معاوية[۳۳۷] فهذا الخبر الذى تناقلته كتب التاريخ يكشف الكثير من الأمور ويتضمن

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۱۴

الأجوبة عن الكثير من الأسئلة التى تطرح بشأن مؤامرات بنى أمية.

والشاهد الآخر على ما ذكرناه الشعر الذى تمثل به يزيد بن معاوية حين سمع بمصرع الحسين فأنشد:

لَعِبَتْ هاشِمُ بِالمُلكِ فَلاخَبَرٌ جاءَ وَلْا وَحىٌ نَزَلْ

ولا غرو فهو ابن معاوية بن أبى سفيان. قال الطبرى: حين وُلّى عثمان الخلافة خاطب أبوسفيان بنى أمية: هل فيكم غيركم؟ قالوا: لا، قال:

«تَلَقَّفُوها تَلَقُّفَ الكُرَةِ فَما هُناكَ جَنَّةٌ وَلا نارٌ»[۳۳۸].

وروى المسعودى (فى مروج الذهب) أنّه قال

«يا بَنِى أُمَيَّةَ تَلَقَّفُوها تَلَقُّفَ الكُرَةِ فَوالَّذى يَحْلِفُ بِهِ أَبُوسُفيانَ ما زِلْتُ أَرجُوها لَكُم وَلَتَصِيرَنَّ إِلى صِبيانِكُم وراثَةً»[۳۳۹]

. كما روى هذا المعنى ابن عبدالبر فى الاستيعاب، وقال: كان هذا فى مجلس عثمان، فلما سمع انكاره للجنّة والنّار قال:

«قُم وانصرف عنّى»[۳۴۰].

نفحات الولايۀ، ج۶، ص: ۲۱۵

الخطبۀ ۱۶۳

نظرۀ إلى الخطبۀ[۳۴۱]

إنّها خطبۀ بليغۀ وفصيحۀ تتكون من قسمين:
القسم الأول: يتحدث عن صفات اللَّه الجماليۀ والجلاليۀ، وقد شرح الإمام عليه السلام تسع عشرۀ صفۀ من صفات اللَّه بعبارات غايۀ فى الروعۀ حسبما ذكره المرحوم المحقق البحرانى.
أمّا القسم الثانى: فخاطب فيه الإمام عليه السلام الإنسان وقد بين آيات القدرۀ الإلهيۀ فى خلقه رغم ضعفه وعجزه، ليربط صدر الخطبۀ بذيلها ويرسم صورۀ جميلۀ عن توحيد اللَّه ومعرفته.
نفحات الولايۀ، ج۶، ص: ۲۱۷

القسم الأول

الْحَمْدُللَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ الْمِهَادِ، وَمُسِيلِ الْوِهادِ، وَمُخْصِبِ النِّجادِ. لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ انْقِضاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِى بِلَا أَجَلٍ. خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ. حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا. لَاتُقَدِّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَدَوَاتِ. لَايُقَالُ لَهُ: «مَتَى » وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ «بِحَتَّى . الظَّاهِرُ لَايُقَالُ: «مِمَّ؟» وَالْبَاطِنُ لَايُقَالُ: «فِيمَ؟» لَاشَبَحٌ فَيُتَقَصَّى وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْتِصَاقٍ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ، وَلَا كُرُورُ لَفْظَةٍ، وَلَا ازْدِلَافُ رَبْوَةٍ، وَلَا انْبِسَاطُ خُطْوَةٍ، فِى لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا غَسَقٍ سَاجٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِى الْأُفُولِ وَالْكُرُورِ، وَتَقَلُّبِ الْأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، مِنْ إقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ. قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَنِهَايَاتِ الْأَقْطَارِ، وَتَأَثُّلِ الْمَسَاكِنِ، وَتَمَكُّنِ الْأَمَاكِنِ. فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ.

الشرح والتفسير: حادثۀ مهمّۀ

يبيّن المقطع الأول من الخطبۀ كما ذكرنا جانباً من صفات اللَّه، والمهم أنّه يستهل الخطبۀ بصفات الأفعال، يعنى خلق عالم الوجود وما ينطوى عليه من عجائب
نفحات الولايۀ، ج۶، ص: ۲۱۸
وغرائب، ذلك لأنّ هذه الصفات تدرك من قبل الجميع، حيث قال:
«الْحَمْدُللَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ ۳۴۲] الْمِهَادِ[۳۴۳]، وَمُسِيلِ الْوِهادِ[۳۴۴]، وَمُخْصِبِ ۳۴۵] النِّجَادِ[۳۴۶]»
. فقد أشار الإمام عليه السلام بادىء الأمر إلى خلق الناس بصفته، أروع خلق اللَّه، ثم أشار إلى ثلاثۀ محاور مهمۀ (موضع السكن والماء، مادۀ الحياۀ، والمواد الغذائيۀ) ليثير لدى الآخرين الشعور بالإمتنان والشكر ويعدّهم للتعرف على صفات اللَّه الجماليۀ والجلاليۀ.
(والعباد)
الواردۀ بقرينۀ العبارات القادمۀ تعود إلى الناس وأن تشمل أحياناً الملائكۀ والجن. وتشير
«وَسَاطِحِ الْمِهَادِ»
إلى ما ورد فى الآيۀ الشريفۀ: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً»[۳۴۷]. والعبارۀ

«وَمُسِيلِ الْوِهادِ»

بالنظر إلى أنّ الوهاد تعنى الوديان والمنخفضات إشارة إلى أنّ اللَّه تعالى جعل بعض مناطق الأرض منخفضة لتتخلها المياه دون غيرها. والعبارة

«وَمُخْصِبِ النِّجَادِ»

إشارة إلى قدرة اللَّه فى إحياء الأراضى المرتفعة بالنباتات رغم عدم وصول المياه إليها.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى جانب مهم من صفاته تعالى الأزلية والأبدية وواجب الوجود فقال:

«لَيسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِى بِلَا أَجَلٍ»

. أثبتت الأدلة العقلية أنّ اللَّه واجب الوجود ليس له بداية ولا نهاية، كان دائماً ولا يزال، فوجوده عين ذاته وذاته مطلقة، وعليه فالعبارة

«هُوَ الْأَوَّلُ ...

وَالْبَاقِى ...»

نتيجة للعبارة

« «لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ... وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ ...»

لأنّه حين لا ـ تكون لأزليته وأبديته بداية ولا نهاية، فهو الأول والآخر، وهاتان الصفتان فى الواقع أساس أغلب صفات اللَّه، وصفاته الجمالية والجلالية إنّما تعود إلى هاتين الصفتين.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۱۹

قال القرآن الكريم: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»[۳۴۸].

ثم قال عليه السلام:

«خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ»

. ومن المسلَّم به أنّ خالق جميع الأشياء والمخلوقات والنعم والذى يستمد الوجود بأسره، الوجود منه فهو أهلٌ للعبادة والسجود والحمد وليس لأحد غيره هذا المقام. وبالطبع فإنّ ذلك السجود والحمد يختص بالعارفين باللَّه لا الكفّار والمشركين الذين لا يستحقون الذكر.

ثم واصل كلامه بالإشارة إلى بعض الصفات السلبية المنزهة من كل نقص فقال:

«حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا»

. إشارة إلى أنّ جميع المخلوقات محدودة وذاته المقدّسة فقط لا تعرف الحدود، ومن هنا ليست هنالك من صعوبة فى تمييز الخالق من المخلوق والإبتعاد عن السقوط فى مستنقع الشرك. وهنا يرد هذا السؤال: أفيمكن أن يخلق اللَّه شيئاً غير محدود أو بعبارة أخرى، واجب الوجود؟ أنّ ذات كل مخلوق تقتضى كونه محدوداً، ومن هنا كيف يقال إنّ اللَّه خلق الأشياء المحدودة حتى لا تشبه ذاته؟

والجواب عن هذا السؤال: إنّ المراد من

«حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا ...»

تمييزه عن المخلوقات؛ بعبارة أخرى فإنّ

«إِبَانَةً لَهُ»

ليست مفعولًا لأجله، بل نتيجته وغاية الفعل. والمسألة الأخرى الجديرة بالإلتفات أنّ أغلب نسخ نهج البلاغة نقلت العبارة

«ابانة لها»

وفى هذه الحالة لا يرد أى غموض وإبهام؛ حيث مفهوم العبارة أنّ اللَّه حدّ الأشياء عند خلقها أى جعل لكل موجود حدود معينة تميزه

من الأخرى من قبيل ما ورد فى الآية ۱۳ من سورة الحجرات: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا»[۳۴۹].

ثم أسهب عليه السلام فى شرح مطلقية ذات اللَّه المقدّسة ليكشف عمق هذه الحقيقة

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۲۰

بعبارات مختلفة تسلط الضوء على كل جوانب غناه عن الحدود فقال:

«لَا تُقَدِّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَدَوَاتِ»

. ليست له أعضاء كأعضاء الأنسان ولا يعتمد الوسائل والأدوات لتحقيق مايشاء، كما لا يحتاج الحركة والإنتقال من مكان إلى آخر، ذلك لأنّ كل هذه الأمور من علامات المحدودية ولا تعرف ذاته الطاهرة أية حدود وقيود، ومن هنا تعذر على سكان العالم المحدود المعروف بالنقص والحاجة، الوقوف على كنه تلك الذات المقدّسة، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«كُلُّ ما مَيَّزْتُمُوهُ بِأَوهامِكُم فِى أَدْقِ مَعانِيهِ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلُكُم مَرْدُودٌ إِلَيكُم»[۳۵۰].

ثم وضح ماقاله سابقاً:

«لَا يُقَالُ لَهُ: «مَتَى » وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ «بِحَتَّى . الظَّاهِرُ لَا يُقَالُ: «مِمَّ؟» وَالْبَاطِنُ لَايُقَالُ: «فِيمَ؟»»

وعلى هذا الضوء ليست له من بداية ولا نهاية، لا ظاهر كظهور الشمس والقمر، ولا باطن كالمعادن الخفية فى باطن الأرض، وفى ذات الوقت فذاته أظهر من كل شىء وأخفى من كل شىء، بعبارة أخرى، فإنّ ظهوره ظهور ذاتى وخفاءه من كنه ذاته.

ثم خاض عليه السلام بصورة أعمق ليقول:

«لَا شَبَحٌ ۳۵۱] فَيُتَقَصَّى ۳۵۲]، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى ۳۵۳].

لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْتِصَاقٍ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ»

. فقد نفى الإمام عليه السلام فى هذه العبارات بادىء الأمر، الجسمية عن اللَّه، ذلك لأنّ الجسم إمّا ظاهر له حدّ وحدود أو مخفى ومحتجب فى شىء آخر وله حدّ وحدود فى كلا الحالتين، والحال ليس لواجب الوجود من حدود، كما يلاحظ فى العبارتين الأخيرتين تجلى آخر لغنى الذات المقدّسة عن الحدود. فهو أقرب لكل شىء، لكن ليس بمعنى الإلتصاق أو الحلول والإتحاد، بل بمعنى الحضور فى كل مكان والاحاطة بكل شىء، كما هو

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۲۱

بعيد عن كل شىء ليس بمعنى المسافة والانفصال عن الأشياء، بل بمعنى سمو ورفعة وجوده وصفاته بالنسبة لسائر الأشياء. وهذا يشبه ما ورد فى الخطبة الأُولى من نهج البلاغة:

«مَعَ كُلِّ شَىءٍ لْابِمُقارِنَةٍ وَغَيْرُ كُلِّ شَىءٍ لْابِمُزايَلَةٍ»

. لا شك أنّه يستحيل جمع هذه الصفات فى الممكنات؛ ذلك أنّ الشىء إن بعد فلا يسعه الاقتراب، وإن اقترب فلا يمكنه الإبتعاد، ولكن ليس هنالك من معنى لتضاد القرب والبعد وأمثال ذلك فى ذات واجب الوجود المطلق.

ثم تطرق عليه السلام إلى موضوع علم اللَّه تعالى بكل شىء وفى كل زمان ومكان من خلال عبارات رائعة عميقة المعنى فقال:

«وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ ۳۵۴]

لَحْظَةٍ، وَلَا كُرُورُ لَفْظَةٍ، وَلَا ازْدِلَافُ ۳۵۵] رَبْوَةٍ[۳۵۶]، وَلَا انْبِسَاطُ خُطْوَةٍ، فِى لَيْلٍ دَاجٍ ۳۵۷]، وَلَا

غَسَقٍ ۳۵۸] سَاجٍ ۳۵۹]»

. فالإمام عليه السلام بغية تشخيص عدم خروج أخفى الأشياء عن علم اللَّه يفترض مسافراً مرّ فى ليلة ظلماء بصحراء وقد صوب بصره إلى الصحراء وينبس ببعض الكلمات، يقترب من التلال والمرتفعات ويتسلقها بسرعة ليبلغ غايته وهو يشق طريقه فى تلك الظلمة

المعتمـة، فاللّه تعالى الذى لا يخفى عليه شـىء من حركات عيون وشـفاه وأقدام هذا المسافر لهو أعلم بأعمال عباده وهم يأتون بها فى وضح النهار وفى المدن والبلدان.

ثم قال فى وصف هذه اليلة الظلماء:

«يَتَفَيَّأُ[۳۶۰] عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ

ذَاتُ النُّورِ فِى الْأُفُولِ وَالْكُرُورِ[۳۶۱]»

. إشارة إلى أنّ علم اللّه بالموجودات وأعمال

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۲۲

الإنسـان لاـ يقتصـر على اليـالى المظلمـة، بل يشـمل اليالى المقمرة والنهار الواضـح، بالتالى ليس هنالك من مكان خارج عن علم اللّه كالذى ورد فى ما بعد:

«عِلْمُهُ بِما فِى السَّماواتِ العُلى كَعِلْمِهِ بِما فِى الأرضِينَ السُّفلَى .

ثم قال مواصلًا كلامه:

«وَتَقَلُّبِ الْأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، مِنْ إقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ»

. هذه العبارة كتلك التى وردت فى العبارات القادمة:

«عِلْمُهُ بِالأمواتِ الماضِينَ كَعِلْمِهِ بِالأَحياءِ الباقِينَ»

وكل هذه العبارات تشير إلى سعة علم اللّه الذى لا يحدّه الزمان والمكان. وهنا يرد هذا السؤال: لماذا استند إلى إقبال الليل والنهار مع أنّ لكـل من الليـل والنهـار إقبـال وإدبار؟ لعل هـذه العبارة تأكيـد لما مرّ فى العبارات السابقـة بشأن نفوذ علم اللّه إلى أعماق الظلمات وليس فقط وضـح النهار. وذهب بعض شـرّاح نهـج البلاغـة إلى أن تركيز الإمام على إقبال الليل وإدبار النهار ربّما إشارة إلى أنّ أمور الدنيا غالباً ما تجرى على خلاف رغبة الإنسان ۳۶۲].

ثم قال عليه السلام:

«قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ»

. الواقع أنّ العبار

(لا يخفى عليه من عباده ...)

التى تحدّث فيها عن علم اللّه بالزمان والمكان وكل إنسان وشـىء تشمل هذا المعنى أيضاً أنّه عليم بنهاية عمر كل إنسان وكل موجود قبل أن ينتهى عمره كما يعلم عدد الموجودات قبل أن تعد وتحصى ۳۶۳].

ثم قال فى نتيجة كلية:

«تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَنِهَايَاتِ الْأَقْطَارِ، وَتَأَثُّلِ ۳۶۴] الْمَسَاكِنِ، وَتَمَكُّنِ الْأَمَاكِنِ»

. نعم؛ فكل طائفة ضالة

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۲۳

تفتقر إلى المعرفـة من قبيل المشـبِّهة والمجسِّمة إنّما شـبهت اللّه بمخلوقاته وجعلت له جسـماً وأعضاءاً، وأنّ له مكان وينتقل من مكان إلى آخر فيحضـر هنـا ويغيب هنـاك، والحـال أنّه لأـرفع من الزمـان والمكـان والقيـاس والوهم؛ أرفع ممّا نرى ونقرأ ونكتب، فليس له جسم ولا مكان ولا صـفة من صـفات المخلوقات. والعبارة المـذكورة إشارة إلى أربعة أنواع من الحدود يتنزه اللّه عنها جميعا: الحدود من حيث القامة كالصغر والكبر ومن حيث النهاية كمقدار العمر ومن حيث اختيار السكن وأخيراً من حيث المكان. فهو وجود مطلق لا متناهٍ غنى عن أى من الحدود، ذلك لأنّ كل هذه الأمور من صفات المخلوقات. ومن هنا اختتم الخطبة بالقول:

«فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ»

. فهذه العبارة هى عصارة الأبحاث السابقة فى أنّ كل محدودية هى إنّما تعودالمخلوقات ومن شأن الممكنات، وليس لهذه الصفة من سبيل إلى ذاته المطلقة.

تأمّل: اللّه حقيقة مطلقة

إنّ أول وأهم مطلب ينبغى إثباته فى باب صفات اللّه ليتضح مفهوم التوحيد وكذلك سائر الصفات كالعلم والقدرة وماشابه ذلك يتمثل فى كون ذاته مطلقة لا متناهية، وذلك لأنّه إن ثبت هذا المطلب فقد تمهد السبيل أمام إدراك جميع صفاته الجمالية والجلالية (الصفات الثبوتية والسلبية). ولإثبات ذلك لابدّ من الألتفات إلى الأمور التالية:

۱. إنّ محدودية الوجود تعنى طروء العدم، ذلك لأنّه إن لم يرد العدم فلا معنى للحدود. فلو قلنا إنّ عمر فلان محدود، فذلك يعنى أنّ عمره سينتهى يوما إلى العدم، وهكذا بشأن العلم والقدرة وماشابه ذلك.

۲. إنّ الوجود ضد العدم فإن اقتضى شيء بذاته الوجود فلا يمكنه اقتضاء العدم.

۳. ثبت فى برهان العلة والمعلول أنّ سلسلة العلة والمعلول لهذا العالم يجب أن

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۲۴

تنتهى إلى نقطة ثابتة وأزلية يصطلح عليها (واجب الوجود) أى أنّ وجوده من ذاته لا- من خارجها، وعليه فإنّ العلة الاولى للعالم تقتضى الوجود بذاتها فهى لا تمتزج بالعدم. وعلى ضوء هذه المقدمات الثلاث يتضح أن طرأت حدود على الذات الواجبة الوجود فلابدّ أن تكون من خارجها، ذلك لأنّ المحدودية استناداً إلى المقدمات المذكورة بمعنى الامتزاج بالعدم، والشيء الذى تقتضى ذاته الوجود فإنّها لا- تقتضى العدم اطلاقاً. وبناءً على هذا فإنّ اعترته محدودية فلابدّ أن يحده عامل خارجى ويلزم من ذلك أنّه ليس بواجب الوجود، لأنّه معلول لذات أخرى ومخلوق آخر فى حد وجوده. بعبارة أخرى ممّا لا- شك فيه أنّ العالم ينتهى إلى واجب الوجود، فإن كان واجب الوجود غير محدود فليست هنالك من مشكلة، أمّا إن كان محدوداً فذلك ليس من مقتضيات ذاته، لأنّ ذاته تقتضى الوجود لا العدم، إذن لابدّ أن تطرأ عليه من الخارج. ومفهوم هذا الكلام أنّ هنالك علة خارج وجوده وهو معلول لتلك العلة وفى هذه الحالة سوف لن يكون واجب الوجود.

وقد تعرضت الرواية الواردة عن الإمام السجاد عليه السلام إلى وجوده المطلق على ضوء البرهان المذكور، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ لَايُوصَفُ بِمَحْدُودِيَّةٍ عَظُمَ رَبُّنَا عَنِ الصِّفَةِ فَكَيْفَ يُوصَفُ بِمَحدُودِيّةٍ مَنْ لايُحَدُّ»[۳۶۵]

. وورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال:

«هُوَ أَجَلُّ مِنْ

أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ أَوْ يُحِيطَ بِهِ وَهْمٌ أَوْ يَضْبِطَهُ عَقْلٌ»

قال السائل: حده لى؟ قال عليه السلام:

«إِنَّهُ لَايُحَدُّ قَالَ: لِمَ؟ قَالَ عليه السلام: لِأَنَّ كُلَّ مَحْدُودٍ مُتَناهٍ إِلى حَدٍّ فَاذَا احْتَمَلَ التَّحْدِيدَ احْتَمَلَ الزِّيَادَةَ وَاذَا احْتَمَلَ الزِّيَادَةَ احْتَمَلَ النُّقْصَانَ فَهُوَ غَيْرُ مَحْدُودٍ وَلَا مُتَزَائِدٍ وَلَا مُتَجَزِّىءٍ وَلَا مُتَوَهَّمٍ»[۳۶۶].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۲۵

القسم الثانى

لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ، وَلَا مِنْ أَوَائِلَ أَبَدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ. لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ

امْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ. عِلْمُهُ بِالأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى

الشرح والتفسير: العلم الإلهى المطلق

واصل الإمام عليه السلام ما طرحه سابقاً بشأن قدرة اللَّه التامة وعلمه المطلق فقال:

«لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ، وَلَا مِنْ أَوَائِلَ أَبَدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ»

فالعبارة إشارة إلى الابداع فى الخلق، أى خلق الأشياء دون سابقة، فلم تكن هناك مواد أزلية استعان بها اللَّه لخلق الأشياء، كما لم تكن هنالك إشكال وصور احتذاها فى تصويره الأشياء، خلافاً لما اعتقده الفلاسفة من أزلية المادة، فلا أبدية وأزلية سوى للذات المقدّسة، وهذا ما بيّناه فى برهان التوحيد من امتناع وجود الأبدى والأزلى فى عالم الممكنات. والعجيب أنّ الإمام عليه السلام كشف النقاب عن هذه الحقيقة فى عصر وبيئة لم ترق لهذه الأفكار ولم تشهد معرفة اللَّه مثل هذا المنطق الرصين.

ثم أشار عليه السلام إلى قدرة اللَّه المطلقة من زاوية أخرى فقال:

«لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ»

. بل الجميع مستسلم لإرادته التكوينية، فيوجد ما يشاء متى شاء ويعدم ما يشاء كيفما شاء، مع ذلك فاستسلام الموجودات وطاعة

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۲۶

المطيعين وعبادة العابدين لا تزيد فى عظمته شيئاً، لأنّ وجوده مطلق ومصدر جميع الخيرات والبركات. هذا من حيث القدرة، أمّا بشأن العلم المطلق فقال:

«عِلْمُهُ بِالأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى

. فما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه العبارات البليغة الرائعة العميقة المدى اقتباس من بعض الآيات القرآنية من قبيل: «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ»[۳۶۷] «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً»[۳۶۸] والاية: «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ»[۳۶۹]. وزبدة الكلام:

تتعذر معرفة اللَّه دون الوقوف على علمه المطلق وقدرته اللامتناهية وأزليته وأبديته الغنية عن الحدود.

تأمّل: دور الإيمان بعلم اللَّه على العمل

الموضوع المهم هنا أنّ مثل هذا الإيمان بعلم اللَّه وقدرته وأزليته وأبديته لا يقتصر دوره على البعد الذهنى والفكرى فحسب، بل له تأثير عميق وشامل على أعمالنا وأفعالنا، لأننا حين نوقن بأنّه معنا أين ما كنّا وكان قبلنا وسيكون بعدنا ولا يخفى عليه ظاهرنا وباطننا بل حتى تفاصيل دوافعنا وجزئيات نيّاتنا، فإنّ هذا الإيمان سيربيّنا ويضطرنا إلى مراقبة أنفسنا وأعمالنا ويسوقنا إلى محاسبة أنفسنا، إلى جانب إبعادنا عن الشعور باليأس والإحباط ويبعث فينا روح الرجاء والأمن.

وعلى هذا الأساس فإنّ إيماننا باللَّه على ضوء الصفات المذكورة لا يقتصر دوره

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۲۷

على يوم الجزاء فحسب، بل من شأنه إصلاح حياتنا الدنيوية والأخذ بأيدينا إلى الورع والتقوى والشعور بالأمن والاستقرار، وعليه فما نراه اليوم من تهتك لحجاب التقوى من جانب وحالة الاضطراب من جانب آخر إنّما يُعزى أحد أسبابها الرئيسية إلى الإبتعاد عن العقائد الدينية الصحيحة.

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۲۲۹

القسم الثالث

أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ، فِی ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ. بُدِئْتَ «مِنْ سُلَالَهٍٔ مِنْ طِینٍ»، وَوُضِعْتَ «فِی قَرَارٍ مَکِینٍ* إِلَی قَدَرٍ مَعْلُوم» وَأَجَل مَقْسُوم. تَمُورُ فِی بَطْنِ أُمِّکَ جَنِیناً لَاتُحِیرُ دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً؛ ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّکَ إِلَی دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا. فَمَنْ هَدَاکَ لِاجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْیِ أُمِّکَ، وَعَرَّفَکَ عِنْدَ الْحَاجَهِٔ مَوَاضِعَ طَلَبِکَ وَإِرَادَتِکَ! هَیْهَاتَ، إِنَّ مَنْ یَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِی الْهَیْئَهِٔ وَالْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِینَ أَبْعَدُ!

الشرح والتفسیر: الأرفع من الخیال والوهم

هـذا المقطع الـذی یمثل القسم الأخیر من الخطبـهٔ هو جواب عن سؤال من الأسـئلهٔ التی تفرزها الأقسام السابقـهٔ، وهو تعـذر معرفـهٔ اللَّه بهـذه الصـفات من قبیـل کونه الأول والآخر والظاهر والباطن والقریب من الأشـیاء والبعیـد عنهـا والمطلق العلم واللامتناهی القـدرهٔ. صحیـح، لـدینا علم إجمـالی بکـل هـذه الصـفات ولکن لیس لـدینا من سبیـل إلی العلم التفصـیلی الـذی نعبّر عنه بـالعلم بکنه الـذات والصـفات. یشـیر الإمام علیه السـلام هنا إلی جانب من خلق الإنسان والأسـرار المعقدهٔ التی تکتنف فترهٔ کونه جنیناً إلی جانب الأسرار العظیمهٔ لولادته وما بعدها، ثم یخلص إلی نتیجهٔ فی أنّک إن عجزت عن التوصل إلی أسـرار خلقتک کیف یسعک العلم بکنه صفات خالقک؟

نفحات الولایهٔ، ج۶، ص: ۲۳۰

فقال:

«أَیُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِیُّ ۳۷۰]، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِیُ ۳۷۱]، فِی ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ،

وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ»

. نعم؛ مرحلـهٔ الجنین من أعجب مراحـل الخلقـهٔ التی تنطوی علی العدیـد من الأسـرار. فنطفـهٔ الإنسان تطوی مراحلها التکاملیـهٔ بصورهٔ متتالیـهٔ فی وسط مغلق ومظلم ومحاط بالأسـتار بحیث یطأ کل یوم مرحلـهٔ جدیدهٔ فی إطار خلقهٔ موزونهٔ ومنظمهٔ، ورغم أنّها تجری فی وسط رقیق وشفاف إلّاأنّها بعیدهٔ کل البعد من المخاطر.

ثم خاض فی شرح هذا المطلب فقال:

«بُدِئْتَ

«مِنْ سُلَالَهٍٔ[۳۷۲] مِنْ طِینٍ»

، وَوُضِعْتَ

«فِی قَرَارٍ مَکِینٍ ۳۷۳]* إِلَی قَدَرٍ مَعْلُوم»

وَأَجَل مَقْسُوم»

. إشارهٔ إلی أنّ عملیهٔ توقف الإنسان فی الرحم خاضـعهٔ لحساب دقیق. من حیث کمیهٔ البدن وکیفیته من حیث المدهٔ والزمان وقد أشار الإمام علیه السلام إلی أحدهما بالعبارهٔ

«إِلَی قَدَرٍ مَعْلُوم»

والأخری بالعبارهٔ

«وَأَجَل مَقْسُوم».

ثم تطرق إلى المرحلة الأخرى التى تعقب الرحم فقال:

«تَمُورُ[۳۷۴] فِی بَطْنِ أُمِّکَ

جَنِیناً لَاتُحِیرُ[۳۷۵] دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً»

. فهذه العبارة إشارة لطيفة إلى الحركة المتتابعة للجنين فى بطن أُمّه والتى تتمّ من خلال السباحة فى ماء معين حوله. وأنّه ليتلقى بوازع من فطرته وبحكم طبيعته الأمر بالحركة، دون أن يسأل أو يجيب أحداً، ذلك لأنّه ليس له من سمع ولا لسان، لكن اللّه وفرّ له كل حاجاته مسبقاً حين كان فى ذلك الوسط المظلم والمغلق.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۳۱

ثم أشار عليه السلام إلى مرحلة الولادة والرضاعة فى احضان الأُم فقال:

«ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّکَ إِلَی دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا»

. نعم، يرد من ذلك القرار المكين والمكان الآمن إلى الدنيا لا يعرف منها شيئاً، فلا يعرف الغذاء اللازم ولا الإرادة للحصول عليه ولا كيفية تناوله، لا يعرف وسائل النمو، ولا معوقاته، ولا يعرف أسلوب التعايش ولا التعامل مع الآخرين، فإن لم يأخذ اللطف الإلهى بيده وتشمله الهداية التكوينية لعجز قطعاً عن مواصلة الحياة، غير أنّ اللّه الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هداه يحفه بعنايته فيتجاوز الطرق الوعرة بحكم الغريزة التى أودعها اللّه إيّاه.

لذلك واصل الكلام عليه السلام قائلًا:

«فَمَنْ هَدَاکَ لِاجْتِرَارِ[۳۷۶] الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْیِ أُمِّکَ،

وَعَرَّفَکَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِکَ وَإِرَادَتِکَ!»

. حقّاً من علم الوليد أنّ غذاءه فى ثدى أُمّه؟ عليك أن تضغط بأصابع يدك الصغيرة وتمتص ما فى الثدى من اللبن بفمك الصغير؟! من علمه ذلك البكاء بالصوت الحزين ليعلن من خلاله عن حاجاته كافة؟! العطش والجوع والحر والبرد والمرض والحاجة إلى النوم؟! والغريب أنّ فراخ الطيور والدواب وسائر الحيوانات يندفع كل منها بطريق عجيب نحو حاجته.

ثم اختتم الخطبة بهذه النتيجة:

«هَیْهَاتَ ۳۷۷]، إِنَّ مَنْ یَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذی الْهَیْئَةِ

وَالْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِینَ أَبْعَدُ!»

. أجل، لا يمكن حقّاً الوقوف على عجائب وغرائب عالم الخلق وسبر غور أسراره.

فإن عجزنا عن إدراك بعض ما يتعلق بمخلوقات اللّه فأنّى لنا بالوقوف على كنه الذات والصفات الغنية عن الحدود من جميع الجهات. البنية المعقدة للأعصاب والقلب والعروق والخلايا والجينات ومختلف الغرائز التى أودعها اللّه أجسامنا لمن المسائل التى شغلت أذهان العلماء لقرون وما زالوا يعترفون بكثرة المجاهيل التى

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۳۲

تعترى خلقة الإنسان حتى ألّف ذلك العالم الفرنسى المعروف، كتابه الشهير (الإنسان ذلك المجهول).

تأمّل

الدورة الجينية المذهلة

ما ورد فى هذا الجانب من الخطبة بشأن الأسرار الغريبة لخلق الإنسان فى الدورة الجينية ومن ثم الولادة والرضاع ينسجم تماماً والعديد من الآيات القرآنية التى أكدت على التفكير فى هذه الأسرار، ومنها سورة الزمر: «يَخْلُقُكُمْ فِی بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِی

ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ»[۳۷۸] وسورة المؤمنون:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِی قَرَارٍ مَّکِینٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَکَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِینَ»[۳۷۹]. وقد أشار الإمام الصادق علیه السلام إلی هذه المرحلة فی توحید المفضل کآیة من آیات اللّه فی التوحید والقدرة، وأوصی المفضل وقال: «نبتدیء یا مفضّل بذکر خلق الإنسان فاعتبر به، فأول ذلک ما یدبّر به الجنین فی الرحم، وهو محجوب فی ظلمات ثلاث: ظلم البطن، وظلم الرحم، وظلم المشیمة، حیث لا حیلة عنده فی طلب غذاء ولا دفع أذی، ولا استجلال منفعة ولا دفع مضرّة، فإنّه یجری إلیه من دم الحیض ما یغذوه کما یغذوا الماء النبات فلا یزال ذلک غذاؤه حتی إذا کمل خلقه واستحکم بدنه، وقوی أدیمه علی مباشرة الهواء، وبصره علی ملاقاة الضیاء هاج الطلق بأُمّه فأزعجه أشدّ إزعاج، وأعنفه حتی یولد، وإذا ولد صرف ذک الدم الذی کان یغذوه من دم أُمّه إلی ثدییها فانقلب الطعم واللّون إلی ضرب آخر من الغذاء ...»[۳۸۰].

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۲۳۳

ثم خاض الإمام علیه السلام فی شرح تکامل المولود فی مختلف المراحل وهو یعرض لعجائب الخلقة الواحدة تلو الأخری ۳۸۱]. (طبعاً لا یسع البحث الاستغراق فی القضایا المذهلة التی تم اکتشافها فی عصرنا الراهن بشأن تکامل النطفة من خلال مرورها بتلک المراحل، وکل الذی یسعنا قوله إنّ مثل هذا البحث ینطوی علی آلاف الأسرار والعجائب: «خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ». ومن الضروری أن نشیر هنا إلی سر من تلک الأسرار وهو أنّ الجنین طیلة هذه المدّة یسبح فی کیس صغیر مملوء بماء غلیظ، ولا یتأثر هذا الکیس بالضربات حتی وإن سقطت المرأة علی الأرض أو قامت بحرکات سریعة وعنیفة، فلیس هنالک أدنی أذی علی الجنین، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنّه یمتاز بتعدیله للحرارة والبرودة بالشکل الذی یحول دون تأثیرهما علی الجمیع. أضف إلی ذلک فإنّ سباحة الجنین فی ذلک السائل یبعد الضغط عن أعضائه الرقیقة، وأخیراً یحفظ هذا الکیس الجنین من الأمواج الصوتیة العالیة ویحافظ علی نعومة الجلد، کما یلعب دوراً مهمّاً فی التغذیة: «فَتَبَارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِینَ».

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۲۳۵

الخطبة ۱۶۴

اشارة

لَمّا اجْتَمَعَ النّاسُ إلَیْهِ وَشَکَوا مَا نَقِمُوهُ علی عُثْمَانَ وَسَأَلُوهُ مُخَاطَبَتَهُ لَهُمْ وَاسْتِعْتَابَهُ لَهُمْ، فَدَخَلَ عَلَیْهِ فَقَالَ:[۳۸۲]

نظرة إلی الخطبة

المراد الأصلی من هذه الخطبة کماذکرنا سابقاً أنّها تعرض بالنصح لعثمان وتحذیره بمنتهی الأدب والحرص للحیلولة دون تجاوز أجهزة حکومته للحدود، وهی تتألف من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خطاب لشخص عثمان، خطاب الناصح المشفق الذی یری مقابله علی شفا حفرة خطیرة، وقد رکز الإمام علیه السلام علی علم عثمان بالأحکام الإسلامیة وسوابقه مع النبی الأکرم صلی الله علیه و آله لیصده عن الزلل والأنحراف.

أمّا القسم الثانی: فیعرض فیه الإمام علیه السلام بحثاً جامعاً وکلیاً بشأن أئمّة العدل

نفحات الولاية ؛ ج ۶ ؛ ص ۲۳۶

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۳۶

والظلم وخصائص كل منهما، وبما يجعل كل إمام منهما اسوة للأخرين فى سيرته وفى كل زمان ومكان، ومن ثم حذر عثمان من أن يصبح العوبة بيد بطانته كمروان وأمثاله.

والقسم الثالث: نقل جواباً عن عثمان وما أن سمع الإمام عليه السلام ذلك الجواب حتى عرض عليه كيفية الخروج من المأزق، والمؤسف أنّ هذه النصائح لم تجد أذاناً صاغية من عثمان فوقعت تلك الحوادث العنيفة والمريرة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۳۷

القسم الأول

إنَّ النَّاسَ وَرَائِى وَقَدِ اسْتَسْفَرُونِى بَيْنَکَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِى مَا أَقُولُ لَکَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّکَ عَلَى أَمْرٍ لَاتَعْرِفُهُ. إنَّکَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاکَ إِلَى شَىْءٍ فَنُخْبِرَکَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَىْءٍ فَنُبَلِّغَکَهُ. وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- كَمَا صَحِبْنَا. وَمَا ابْنُ أَبِى قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْکَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى أَبِى رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا؛ وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا. فَاللَّهَ اللَّهَ فِى نَفْسِکَ! فَإِنَّکَ- وَاللَّهِ- مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمىً، وَلَا تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ.

الشرح والتفسير: إتمام الحجة على عثمان

ينبغى لاتضاح مضمون هذه الخطبة الإشارة إلى الأحداث والأوضاع التى أدّت إلى هذا الحوار بين الإمام عليه السلام وعثمان. حيث ذكر المؤرخ المعروف الطبرى أنّ الناس حين رأوا أعمال عثمان- من قبيل سلب ونهب بيت المال وتسليط الظلمة والفسقة على المناصب الحساسة فى الحكومة الأسلامية- كتب عدد من صحابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كتبهم إلى أمراء الجيش على الثغور ودعوهم إلى الجهاد فى سبيل اللّه ونشر دين محمد صلى الله عليه و آله والقدوم إلى هنا وإنقاذ من يقوم بهدم هذا الدين. وتقاطر الجنود من كل مكان على المدينة- سيما أولئك الذين أتوا من مصر والذين عاشوا

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۳۸

ظلم الولاة وعمال الخليفة- حتى قتلوا عثمان ۳۸۳]. آنذاک تعالت الأصوات التى ضجت من ظلم عثمان، فقدم جماعة من الناس إلى الإمام عليه السلام وسألوه وضع حد لتلك الأوضاع بطريقة سلمية، فيكون عليه السلام سفيرهم إلى عثمان ويتم الحجة عليه. فأورد الإمام عليه السلام ذلک الكلام بما يجعله وبطانته يكفون عن الظلم. وكلام الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة يتضمن براعة البلاغة والفصاحة والقضايا النفسية الدقيقة أملًا فى عودة الطرف المقابل إلى رشده ولعلّه يلتفت إلى الأخطار المحدقة بالإسلام والعالم الإسلامى. وقد تحدث الإمام عليه السلام بادىء الأمر عن علم عثمان ومعرفته بالأحكام الإسلامية بشأن رعاية حقوق الناس والإبتعاد عن الظلم والجور فقال:

«إنَّ النَّاسَ وَرَائِى وَقَدِ اسْتَسْفَرُونِى ۳۸۴] بَيْنَکَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِى مَا أَقُولُ لَکَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّکَ عَلَى أَمْرٍ لَاتَعْرِفُهُ. إنَّکَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاکَ إِلَى شَىْءٍ فَنُخْبِرَکَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَىْءٍ فَنُبَلِّغَکَهُ»

. من الواضح أنّ عبارات الإمام عليه السلام لا تعنى أنّ عثمان بمصاف الإمام على عليه السلام فى العلم والمعرفة، بل مراده أنّ عثمان كان يعلم بالأحداث التى وقعت وسوء الظلم والجور وضرورة رعاية حقوق الناس، وهى الأمور العادية التى يتساوى فيها عثمان مع عامة الناس الذين كانوا يعرفون تلك الأمور، بل حتى الأطفال- فضلًا عن العقلاء والكبار- كانوا يعلمون صحيحها من سقيمها كما

ذكر ذلك ابن أبى الحديد[۳۸۵]. وبناءً على هـذا فإنّه يخطئ كل من يتصور بأنّ العبارات المذكورة دليلًا على أنّ عثمان بمنزلة الإمام على عليه السلام فى العلم والمعرفة. فعلى عليه السلام كما قال النبى الأكرم صلى الله عليه و آله باب علم مدينة النبى صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام حسب الروايات الإسلامية من عنده علم الكتاب وهو الملاذ العلمى للأمة فى حل جميع مشاكلها حتى صرح بعض الخلفاء

«اللَّهُمَّ لَاتَبْقِنى لِمُعْضَلَةٍ لَيْسَ لَهَا ابْنُ

ابى طَالِبٍ»[۳۸۶].

ثم واصل كلامه مشيراً إلى سوابق عثمان فى الإسلام فقال:

«وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- كَمَا صَحِبْنَا»

. إشارة إلى أنّك كنت مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لسنوات عديدة وقد سمعت منه تعاليم الإسلام وأحكامه الشرعية، وعليه فكيف تخفى عليك هـذه المسائل الواضحة بشأن حق الناس وبيت المال والعدالة الاجتماعية. آنذاك طرق السبيل الثالث بغية التأثير على أفكار عثمان فقارنه بأبى بكر وعمر، ذلك لأنّهما لم يرتكبا ما ارتكبه عثمان قط، وإن كانت لهم زالتهم الأخرى فقال:

«وَمَا ابْنُ أَبِى قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى أَبِى ۳۸۷] رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا؛ وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا»

. بالنظر إلى أنّ الوشيجة بمعنى جذور الشجرة أو الألياف التى تصنع من النخيل وثم اطلقت على اشتباك القرابة، فإنّ الإمام عليه السلام أراد أن يذكره بقرابته من النبى صلى الله عليه و آله حيث يقرب للنبى صلى الله عليه و آله من جده عبد مناف. فقد اعتمد الإمام عليه السلام مختلف الطرق بغية التأثير عليه وإعداده لقبول الحق والكفّ عن ممارسة الباطل. إلّاأنّ المؤسف أنّ الخليفة الثالث لم يعد يسمع قول الحق وقد انغمس فى الفساد الذى دب فى كافّة مرافق الحكومة. على كل حال عاد الإمام عليه السلام ليؤكد على الخليفة ضرورة الأنصياع إلى الحق والشفقة على نفسه فقال:

«فَاللَّهَ اللَّهَ فِى نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ- وَاللَّهِ- مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمىً، وَلَا تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ»

. فالإمام عليه السلام لم يتخلَّ عن أى أسلوب من شأنه التأثير على الخليفة، فأحياناً يحدثه بحسن وقبح مثل هذه الأمور، وأخرى يقول له

إنّك سمعت من النبى صلى الله عليه و آله ما ينبغى سماعه، وتارة يقول له على الأقل سر بسيرة من سبقك من الخلفاء فهما ليسا أولى منك بالعمل بالحق. وأخيراً يبيّن له أنّ طريق الحق واضح فلماذا تعرض نفسك لكل هذه الأخطار وتسلك السبيل غير القويم، لكن لم يستجب عثمان حتى حدث ما لا ينبغى أن يحدث بعد أن ولّى ظهره لكل تلك المواعظ والإرشادات القيّمة.

تأمّل

سبُل نفوذ الكلام فى الآخرين

إذا قام شخص ببعض المخالفات وكان يبدو مدركاً لبعض الأعمال الخطيرة وأراد عاقل أن يوقظه من نوم الغفلة، فإنّ أفضل أسلوب يمكن اعتماده بادىء الأمر أن يستقطب قلبه ويذكره بإيجابياته، فيقول مثلًا: إنّك من أُسرة عريقة ولديك تحصيلات علمية قيمة وسمعتك حسنة بين الناس لعله يشعر بشخصيته ويثق بالمقابل فيتقبل منه. ومن ثم مقارنته بأمثاله وأقرانه بهدف إعادته إلى الصواب والإبتعاد عن الخطر.

الإمام عليه السلام بصفته سيد الفصحاء والبلغاء والعالم بالقضايا التربوية والنفسية، فقد ذكّر عثمان بكل هذه الأمور، فقال له إنّك لصهر رسول اللّه صلى الله عليه و آله ۳۸۸] وأقرب إليه من الخليفة الأول والثانى ولك سابقة فى الإسلام وقد لازمت النبى صلى الله عليه و آله وليس هنالك من شىء غائب عنك لأذكرك به، فهنالك ظلم وجور وتطاول على بيت مال المسلمين وهضم لحقوق الناس. إلّاأنّ الخليفة الثالث قد انغمس فى شباك بطانته- تلك البطانة التى يمثل اغلبها حثالات الجاهلية- ولم يعد يتحمل نصح ذلك الناصح الأمين وينقذ نفسه من تلك الورطة. ويتضح ممّا مر معنا أن ليس هنالك من فضيلة لعثمان تضمنتها عبارات هذه الخطبة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۴۱

القسم الثانى

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ امَامٌ عَادِلٌ، هُدِىَ وَهَدَى فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً. وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ. وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً. وَإِنى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِى نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِى قَعْرِهَا». وَإِنى أَنْشُدُكَ اللَّهَ الَّا تَكُونَ إِمَامَ هذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ:

يُقْتَلُ فِى هذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً.

فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السِّنِّ وَتَقَضِّى الْعُمُرِ.

فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلِّمِ النَّاسَ فِى أَنْ يُؤَجِّلُونِى، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ، فَقَالَ عليه السلام:

مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ.

الشرح والتفسير: خصائص الحاكم العادل والظالم

تضمن المقطع الأول من هذه الخطبة، خطاب الإمام عليه السلام بصورة خاصة لعثمان

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۴۲

وبذل له النصح والإرشاد لإنقاذه من خطورة الموقف الذى كان فيه وليطفىء عنه غضب الأُمّة، والأهم من كل ذلك رضى اللّه تبارك وتعالى. أمّا هنا فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى الضوابط الكلية والعامة للحاكم العادل ومن ثم صفات الحاكم الظالم ليتبيّن الخليفة من ذلك، الطريق الصحيح فيسلكه فقال عليه السلام:

«فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ امَامٌ عَادِلٌ، هُدِىَ وَهَدَى فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً. وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ»

. فقد ركز الإمام عليه السلام بادىء الأمر على هذا الموضوع المهم فى أنّ أفضل عباد اللّه هو الإمام العادل، كيف لا وقد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«عَدْلُ ساعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبادَةِ سِتِّينَ سَنَةً قِيَامَ لَيْلِهَا وَصِيام نَهَارِهَا»[۳۸۹]

ثم تطرق إلى خصائص الإمام العادل، ومنها أن تلمس الهدى عن طريق القرآن والوحى والعقل السليم ثم هدى الناس إلى الصراط المستقيم، ذلك لأنّ البرامج الثقافية البناءة من وظائف الحاكم العادل لأنّها تتمثل فى إقامة السنن المعلومة وإماتة البدع المجهولة؛ لأنّه لابدّ للحاكم العادل من رؤية دقيقة بحيث لا تطمس السنن الحسنة وتنسى وتسود المجتمع خصال الخير والفضيلة والتقوى والعلم والمعرفة والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إلى جانب عدم السماح لظهور البدع السيئة والخرافات

والاختلافات والنزاعات وكل ما جهد الأنبياء من أجل تنقية الأمّة من شوائبه، خاصة أنّ الإمام عليه السلام صرّح بأنّ للسنن والبدع علامات. فعلامات السنن الأمن والاستقرار وتطور البلاد ومسارعة الأفراد إلى المعنويات، على العكس من علامات البدع المتمثلة بالاضطراب والإرباك والركود والتخلف والخرافات. وبالطبع فإنّ مميزات الحاكم الظالم (الإمام الجائر) بالضبط على العكس من سابقتها فى الحاكم العادل، فهو ضال مضل لغيره، يطمس سنن اللّه ويحيى البدع، وللأسف كلنا نعلم أنّ الخليفة الثالث كان مصداقاً للإمام الجائر بتسليطه لبطانته على رقاب المسلمين ونهبهم لبيت المال.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۴۳

ثم قال عليه السلام:

«وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً»

. فمن البديهى أنّ دعائم العدالة وركائزها فى المجتمع إنّما تستحكم فى ظل إحياء السنن الإلهية التى تضمن خير البشرية وسعادتها، وتهجر البدع التى تسوق الناس إلى الفساد والظلم. والحاكم الذى يقوم بهذه الأعمال إنّما يفصح عن ظلمه وفساده، بالتالى فهو شر الناس، ذلك لأنّه يسوق المجتمع إلى البؤس والشقاء، بغض النظر عن ظلمه لنفسه وسوقها للشقاء الأبدى.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه مستشهداً بحديث خطير عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال:

«وَإِنِى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِى نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِى قَعْرِهَا»»[۳۹۰]

. فقوله عليه السلام:

«وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ»

إشارة إلى أنّه كان له فى الدنيا فئة من الناس يقفون إلى جانبه فى الشدائد والمشاكل التى تعرض عليه ويجدون له المبررات فى ممارسة الظلم والجور، ومن جانبه كان يغدق عليهم الإمتيازات بغية الإحتفاظ بهم. أمّا فى ذلك اليوم فهو وحيد فريد فى محكمة العدل الإلهى وليس له سوى النار جزاء لأعماله الشنعاء. ولعل العبارة

«فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى

إشارة إلى أنّ دورانه فى نار جهنم يوجب مزيداً من الألم والأحراق أولًا ويجلب انتباه الأخرين ثانياً فتبدوفضيحته علانية.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمّة تتعلق بمصير عثمان تحذره من مغبة سوء فعاله فقال:

«وَإِنى أَنْشُدُكَ ۳۹۱] اللَّهَ الَّا تَكُونَ إِمَامَ هذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِى هذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»

. فالإمام عليه السلام وإن لم يشر إلى من قال هذا الكلام، لكن من الواضح أنّه رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وقد وقع عين ما أخبر به حيث كان الظلم سبب قتل عثمان وأثر ذلك- وبحجة دم عثمان- حصل كل ذلك

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۴۴

القتال وسفك الدماء ومازلنا نشهد حتى العصر الراهن بعض التبعات والاختلافات التى تحدث بين المسلمين. والشاهد على ذلك الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله والذى ورد فى سنن أبى داود أنّه قال:

«وَإِنَّما أَخافُ عَلئ أُمَّتِى الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ وَإذا وَضِعَ السَّيفَ فِى أُمَّتِى لَمْ يُوْفَعْ عَنْها إلى يَوْمِ القِيامَةِ»[۳۹۲].

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح ما ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال:

«وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ يَمُوجُونَ ۳۹۳] فِيهَا مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ ۳۹۴] فِيهَا مَرْجاً»

. وتشير العبارة

«وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا»

إلى أنّ الساسة المحترفين يحاولون تضليل الرأى العام فهم ينطلقون فى الظاهر على أساس المطالبة بدم الخليفة المقتول، لكنهم يزيّفون الحقائق باطناً بهدف الوصول إلى الخلافة، فهم يصورون الظالم مظلوماً والمظلوم ظالماً[۳۹۵]. والعبارة

«وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا»

وهى إشارة إلى اتساع الفتن فى صفوف الأُمّة نتيجة ذلك، والعبارات القادمة بمثابة نتيجة، فمن جانب يصعب تمييز الحق من الباطل ومن جانب آخر فإنّ الناس سيعومون فى بحر من الفتن. والفارق بين يموجون ويمرجون أنّ الأُولى إشارة إلى اقتتال الأُمّة فى تلك الفتن، والثانية إشارة إلى اختلاط الحق والباطل فى المجتمع بحيث يصعب تمييز الحق من الباطل. جدير بالذكر أنّ كل ما تتبأ به النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى الرواية وأخبر به أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام وقع دون أدنى زيادة أو نقصان.

فقد ألب عثمان وبطانته الأُمّة عليهم لظلمهم حتى قتل عثمان واندفعت عقب ذلك فئة من بنى أمية لتستغل الأحداث السياسية لصالحها وارتفعت حدة الخلافات بين

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۴۵

الناس حتى تعذر تمييز الحق من الباطل وسفكت تلك الدماء الغزيرة، ثم امتدت تلك الاضطرابات لقرون. راجع المزيد بشأن عوامل القيام ضد عثمان الجزء الأول والثانى من هذا الكتاب ۳۹۶].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أهم عنصر يقف وراء انحراف عثمان- والذى جرّ عليه كل تلك الويلات- والمقصود من طاعته العمياء لمروان، فقال عليه السلام:

«فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً[۳۹۷] يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ ۳۹۸] السِّنِّ وَتَقَضِّى الْعُمُرِ».

ورد فى التاريخ أنّ عمر عثمان كان آنذاك ۸۲ سنة[۳۹۹]. لا شك أنّه كان لمروان الدور الأساسى فى حكومة عثمان بحيث كان سير الأمور حسب رغباته، وحتى حين استمع عثمان لنصائح الإمام عليه السلام وعزم على الاعتذار من الأُمّة، اعترضه مروان بشدّة وحال دون إصلاحه لأخطائه، والواقع أنّه صب الزيت على فتيل النار التى أوقدها الناس حتى طالت حياة عثمان، وربّما كان ذلك يستند إلى خطة تمكنه أو تمكن معاوية من استلام زمام الأمور بعد عثمان.

فلما بلغ الإمام عليه السلام هذا الموضع من كلامه استجاب له عثمان وتأثر شديداً:

«فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلِّم النَّاسَ فِى أَنْ يُؤَجِّلُونِى، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ.

فَقَالَ عليه السلام: مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ»

. إشارة إلى أنّ المهلة فى هذه الحالات الحادة قد تقود إلى ثورة عارمة فلا معنى لهذه المهلة، إضافة إلى أنّ المهلة إنّما تهدف إلى إعداد المقدمات، وإعادة حقوق الناس لا تحتاج إلى أى مقدمات، فما كان فى المدينة لابدّ من إصدار الأوامر بشأنه فوراً

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۴۶

فيؤخذ من الظلمة ويسلم إلى المظلومين، وما كان فى المناطق البعيدة فلابدّ من الإسراع فى انتزاعه. ولعل العبارة المذكورة إشارة إلى هذه النقطة فى أنّ الساسة حين يواجهون أزمة إنّما يلجأون إلى التسويف بغية الهروب من المسؤولية ويطلبون من الطرف المقابل مهلة زمنية على أمل امتصاص نقمة الغضب وتوجيه ضربة مهلكة إلى الطرف الآخر، فما كان من الإمام عليه السلام إلّاأنّ سد عليه الأبواب كافة واختلاق الذرائع. صرّحت كتب التاريخ بأنّ عثمان استجاب للإمام عليه السلام لكنه استمهل الإمام عليه السلام ثلاثة أيّام بالنسبة للمدينة. فوافقه الإمام عليه السلام وخرج من عند عثمان وأخبر الناس وكتب العهد على عثمان ومهلة الثلاثة أيّام لإعادة الحقوق المهضومة وعزل الولاة الظلمة الذين نقم منهم الناس. وقد أشهد على العهد طائفة من المهاجرين والأنصار، فانسحب الناس على أمل

وفاء عثمان بالعهـد بينما أراد عثمان خلال الأيّام الثلاثـة جمع العـدّة والعدد وتجهيز الجيش، فلما مضت المهلة شـعر الناس بعدم الوفاء بالعهد فثاروا على عثمان، حتى انتهى الأمر إلى قتل عثمان، جدير بالذكر أنّ كل ما ذكرناه أورده الطبرى فى تاريخه ۴۰۰].

أضواء على حادثة قتل عثمان

أشرنا فى الأجزاء السابقة من هذا الكتاب إلى الأحداث التى رافقت مقتل عثمان، ونود هنا أن نشير إلى بعض الأمور، ومنها:

۱. لاـ شك فى أنّ قتل عثمان حادثـة مفجعـة، ذلك لأنّها انعكست سـلباً على المسـلمين، وكما ورد فى الروايـة الواردة عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فإنّ قتل عثمان أدّى إلى تصاعد الخلافات بين المسـلمين وسـفك المزيد من الدماء، رغم أنّ المقصـر الأصلى فى هـذه الحادثـة شـخص عثمان وبطانته وقرابته الـذين أخرجوا الحكومـة من إطارها المتعارف وأشاعوا فى المجتمع معانى الظلم والجور إلى جانب الفساد والانحراف.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۴۷

۲. جـدير ذكره أنّ هذه الحادثة وقعت فى المدينة أمام الصـحابة من المهاجرين والأنصار ولم يهبّوا للدفاع عن عثمان، وكأنّهم راضون عن حركة الناس ضد عثمان، بل حسـبما ورد فى تاريخ الطبرى أنّ جماعة من الصحابة كتبوا لبعضهم إنّ الجهاد حقّاً فى المدينة لا فى الروم (لأنّ الحكومة الإسلامية اندفعت نحو الفساد وإصلاحها مقدم على كل شيء). أمّا الشخص الوحيد الذى وقف إلى جانب عثمان وحال دونه فهو أمير المؤمنين عليه السلام والذى أمر ولديه بالدفاع عنه، لأنّه كان يعلم بالآثار السلبية التى تترتب على قتل عثمان وإن كانت حركة الأُمّة عنيفة ولم تنجح تدابير الإمام عليه السلام فى الحيلولة دون وقوعها.

۳. تقـدم الإمام عليه السـلام فى الخطبـة المـذكورة وقبل تصاعد حدة الاعتراض بإسداء النصح والإرشاد المشـفق لعثمان وحذره بشدّة بضـرورة الكفّ عن مواصـلة ذلك الأسلوب وتلافى ما فرط منه، ووعد هو من جانبه بالعمل بذلك، لكنه إمّا أن يكون رفض أو منعته حاشيته من الإستجابة. والذى يستفاد من بعض المصادر التاريخية أنّه لم يكن مستعداً بفعل تعصبه الشديد لقرابته أن يعترف صراحة بما فرط منه، حيث قال بعد نصح الإمام: لم أرتكب خلافاً، فقد وصـلت رحمى (فالأموال التى أنفقتها على قرابتى من باب صلة الرحم) وأغنيت الفقراء وآويت المحتـاجين واسـتعملت مثـل من اسـتعمل عمر وولاـه. فرد الإمـام عليه السـلام إنّ عمر كـان يعـاقب بشـدّة من يرتكب الخلاف ممّن ولاه من عمّاله، لكنك ضعيف، أمّا قرابتك وولاتك فلا تكترث لما يرتكبون من أخطاء[۴۰۱].

والعجيب أنّ عثمان صـعد المنبر بعد هذه الأحداث ليحدث الناس بأنّ لكل شـيء آفة وآفة هذه الأُمّة أهل الغيبة الذين يتكلّمون بما لا يعلمون والأُمّة تلهث خلفهم، وإنّكم لتعيبون علىَّ بعض الأمور التى كنتم ترضونها لعمر، لغلضته عليكم، على العكس من مداراتى لكم وإن شئت لأشرت على رجالى، فلا تفعلوا ما يدعونى إلى

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۴۸

النقمة عليكم، فاسكتوا ولا تطعنوا فى ولايتى. وهنا انبرى مروان ليصـرخ: أيّها الناس إن شـئتم جعلنا السيف حكماً بينا وبينكم. فغضب عثمان وأسكته وقال له دعنى اكلم أصحابى، ألم أُوصيك بعدم الكلام؟ فصمت مروان ونزل عثمان من المنبر[۴۰۲].

وهـذه العبارات تفيـد أنّ عثمان إمّا كان جاهلًا بالأوضاع! أو أنّه كان يثق بقرابته وبطانته بحيث كان يرى ظلمهم وجورهم عين العـدالة والقسط! فكان أسيراً بيدهم بحيث لم يستطع تغيير مسار الأحداث ۴۰۳].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۴۹

الخطبة ۱۶۵

اشارة

يَذْكُرُ فِيها عَجِيبَ خِلْقَةِ الطَّاوُوسِ ۴۰۴]

نظرة إلى الخطبة

يمكن تقسيم هذه الخطبة إلى أربعة أقسام:

أشار الإمام عليه السلام فى القسم الأول إلى العجائب والغرائب التى تكتنف المخلوقات ولا سيما الطيور ليستدل عن هذا الطريق على وجود اللّه والإيمان به. ويركز فى القسم الثانى على خلق الطاووس من بين الطيور وأسرار خلقته ليشير إلى تفاصيل لطيفة ودقيقة عن هذا المخلوق، كما يرد على بعض الخرافات والأوهام الواردة بشأنه.

ويختتم هذا الكلام بالإشارة إلى نقطة وتتمثل بعجز العقول عن وصف مخلوقات

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۵۰

اللّه فأنّى لها بوصف الخالق العظيم؟ كما تطرق فى القسم الثالث إلى عجائب خلق الديدان الصغيرة وكشف عن عجائب خلق النمل ليستدل من خلال ذلك على توحيد اللّه تعالى. أمّا القسم الرابع والأخير فقد خاض فى جانب من أوصاف الجنّة بما يجعل السامع يعيش لهفة الشوق إليها، وعلى هذا الأساس يربط بين المبدأ والمعاد ليعرض صورة واضحة متكاملة فى بحث العقائد.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۵۱

القسم الأول

ابْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِى حَرَكَاتٍ؛ وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِى أَسْمَاعِنَا دَلَائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَمَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الْأَطْيَارِ الَّتِى أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا وَرَوَاسِى أَعْلَامِهَا، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ فِى زِمَامِ التَّسْخِيرِ، وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِى مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ. كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِى عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ، وَرَكَّبَهَا فِى حِقَاقِ مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِى الْهَوَاءِ خُفُوفاً، وَجَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً وَنَسَقَهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا فِى الْأَصَابِيغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِى قَالَبِ لَوْنٍ لَايَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ؛ وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِى لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافِ مَا صُبِغَ بِهِ.

الشرح والتفسير: خلق الطيور

إنّ معرفة اللّه من أهم أُصولنا العقائدية والتى يستند جانب كبير منها إلى القرآن الكريم، وهذا هو الهدف من الخطبة. وممّا لا شك فيه أنّ أعمال الإنسان وسلوكه إنّما يتوقف على تلك المعرفة ومدى رسوخ دعائمها. فقد بين الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة عجائب الخلقة التى تعكس وجود اللّه وعلمه المطلق وقدرته التامة، سيما أنّ الإمام عليه السلام يصطحبنا إلى عالم الطيور ويكشف لنا النقاب عن أسرار تلك الخلقة. ومن

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۵۲

ثم يتطرق إلى الطاووس ليكشف عجيب صنعه بما يحير العقول ويسوق الإنسان إلى حمد اللّه والثناء عليه وتسبيحه وتقديسه، فقال:

«ابْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِى حَرَكَاتٍ»

. المراد من الموات، الجوامد كالأرض والسماء والنجوم والشمس والقمر، وبعضها ساكنة والأخرى متحركة (وإن كان هنالك رأى بحركتها جميعاً). والمراد من الابداع، الخلق من غير مثال مسبق، وهذا موضوع فى غاية الأهميّة، ذلك لأنّ جميع ما سوى اللّه إنّما

يحتذى الأمثلة المسبقة فى تصويره وصنعه وابداعه. ثم خاض فى شرح هذا الكلام فقال:

«وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ ۴۰۵] فِى أَسْمَاعِنَا دَلَائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ»

. حقّاً أنّ الإنسان لو تعرّف على العلوم الطبيعية وخاض فى دراسة عجائب خلقة موجودات العالم لإنطلق نحو اللّه تبارك وتعالى.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى جانبٍ خاص من غرائب وعجائب العالم- الملى بالأسرار واللطائف- ليتحدث عن عالم الطيور ويشرح أسرارها، فقال:

«وَمَا ذَرَأَ[۴۰۶] مِنْ

مُخْتَلِفِ صُوَرِ الْأَطْيَارِ الَّتِى أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ[۴۰۷] الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ ۴۰۸] فِجَاجِهَا[۴۰۹]

وَرَوَاسِى ۴۱۰] أَعْلَامِهَا[۴۱۱]»[۴۱۲].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۵۳

هذا أول تنوع لخلق الطيور من حيث موضع سكنها، فبعضها كالبوم تلجأ إلى شقوق الأرض وتخرج عند الظلام، كما يسكن البعض فى الوديان كالفاخته والبعض الآخر فى سفوح الجبال كالنسر والعقاب، وقد أمدّ اللّه تعالى كلّا منها بما يتطلبه فى حياته. طبعاً ماذكره الإمام عليه السلام فى العبارات المذكورة يقتصر على نماذج من الحيوانات البحرية والأهلية الأليفة من قبيل الطيور التى تعيش فى الغابات والأعشاش والصحارى ولكل عجائبه وغرائبه التى تحير عقل الأنسان. فما ذكره الإمام عليه السلام تصنيف للطيور على أساس سكنها.

ثم أشار إلى تصنيف آخر- على أساس نوع الطيران والأجنحة-/ فقال:

«مِنْ ذَات أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ[۴۱۳] فِى زِمَامِ التَّسْخِيرِ، وَمُرَفْرِفَةٍ[۴۱۴]

بِأَجْنِحَتِهَا فِى مَخَارِقِ ۴۱۵] الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ ۴۱۶]، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ»

. وهو ما أشير إليه فى القرآن بعدة آيات مثل: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»[۴۱۷].

ثم خاض الإمام عليه السلام فى تصنيف ثالث ورابع للطيور فمنها ما لها أشكال مختلفة وطيور ثقيلة الوزن تعجز عن الطيران وأخرى خفيفة تحلق إلى عنان السماء فقال:

«كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِى عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ، وَرَكَّبَهَا فِى حِقَاقِ ۴۱۸] مَفَاصِلَ

مُحْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ[۴۱۹] خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِى الْهَوَاءِ خُفُوفاً[۴۲۰]، وَجَعَلَهُ يَدِفُ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۵۴

دَفِيفاً[۴۲۱]»

. نعم؛ فأشكال الطيور على درجة من الاختلاف بما يذهل تنوعها عقل الإنسان، فبعضها غاية فى الجمال بما لا تشبع العين من رؤيته، والبعض الآخر له شكل مخيف غالباً ما يفزع الإنسان من مشاهدته، وبعضها ذات أقدام طويلة وكأنّ أجسامها حملت على عمودين (كالنعامة واللقلق) والأخرى قصيرة لا ترى إلّا بصعوبة، ومنها الطيور ذات الجثة الضخمة والأخرى النحيفة، كما تختلف مع بعضها فى الطيران فبعضها لا- تستطيع الطيران لكنها تبسط جناحيها وتنطلق بسرعة، وتحلق الأخرى إلى ارتفاعات منخفضة فتنهض من الأرض كنهوض الطائرة، أمّا البعض الآخر فيرتفع سريعاً من الأرض ويحلق فى عنان السماء مستفيداً من دفع أقدامه بالإضافة إلى الإستعانة بأجنحته (كحركة المروحيات)، وتبقى بعض الطيور محلقة فى السماء لأسابيع دون أن تشعر بالتعب والملل، كالطيور المهاجرة التى تقطع أحياناً نصف الكرة الأرضية وتتغذى على ما تدخره من مواد غذائية. جدير بالذكر أنّ بعض الطيور ذات الأجنحة المنبسطة

والبـدن الخفيف تسـتغنى عن بسط جناحيها حين تبلغ ذروة التحليق وعلى العكس من ذلك الطيور ذات الجثـة الثقيلة والتى لا غنى لها عن الأجنحة مهما حلقت. حقّاً أنّ الإنسان كلما تأمل هذه الأنواع تعرّف أكثر على عظمة الخالق وعلمه المطلق وإرادته التامة.

وأشار عليه السلام فى المرحلة الرابعة إلى تنوع ألوان الطيور والذى يكشف أيضاً عن جانب من العجائب فقال:

«وَنَسَقَهَا[۴۲۲] عَلَى اخْتِلَافِهَا فِى الْأَصَابِيغ ۴۲۳] بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ،

وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ ۴۲۴] فِى قَالَبِ ۴۲۵] لَوْنٍ لَايَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ؛

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۵۵

وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِى لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافِ مَا صُبِغَ بِهِ»

. فتنوع ألوان الطيور هو الآـخر من العجـائب. وقـد قـام البعض بإنشـاء حديقـة كبيرة فى بعض المنـاطق تـدعى حديقـة الطيور فضـمت مختلف أنواع الطيور وتعيش ظروفاً كالظروف الطبيعية للحياة مع فارق بسـيط هى أنّها أحيطت بسـياج كبير بغية المحافظة عليها، والحق أنّ كل من يتأمل ألوانها المتنوعـة ليسـحره منظرها الخلاب فيخيل إليه أنّ رسّاماً ماهراً جلس لأيّام يخط هـذه الألوان، فلا يملك الناظر سوى التوجه إلى اللَّه بالحمد والثناء والتسبيح والتقديس.

تأمّل: عجائب عالم الطيور

إنّ النظر إلى طـائر جميـل والإبـداع فى بنيـة جناحه وبالتالى خلقه يجعل الإنسان مسـتغرقاً فى التوحيـد، فما ظنك لو قطعنا هـذه الرحلة الطويلـة فى عالم الطيور والتى تتطلب سـنوات عديـدة. لقـد ألف العلماء العديد من الكتب بشأن الأسـرار المودعة فى الطيور ومختلف أنواعها وأقسامها بما فيها الطيور البريـة والبحريـة والمهاجرة وغير المهاجرة، ولا يسع البحث لاستيعاب زاويـة منها ولذلك نقتصـر على الإشارة إلى جانب منها، فمما قاله العلماء:

١. هنالك حوالى أربعـة عشـر ألف نوع من الطيور فى الكرة الأرضـية وقد دفع اختلافها العلماء إلى تصـنيفها إلى عدّة فصائل، وبالطبع فإنّ لكل فصيلة آلاف المصاديق فى الخارج، ولا يخفى أنّ هنالك الآلاف المؤلفة أيضاً من الطيور فى الغابات والوديان التى لم يقف عليها الإنسان لحد الآن.

٢. إنّ بعض الطيور كالنعامـة الـتى تزن حوالى ١٠٠ كيلوغرام وتسـتطيع بأرجلها الطويلة أن تسـير بسرعة ٩٥ كيلومتر بالساعة، وهنالك الطيور الخفيفة الصغيرة التى لا يتجاوز وزنها بضعة كيلو غرامات، وربّما لا تقل سرعة طيرانها عن سرعة سير النعامة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۵۶

٣. إنّ خلقـة كـل طير تتنـاسب مع بيئته وظروفه المحيطـة وأوضاعه المعاشـية، فلبعضـها منقار طويل وحاد يتمكن من صـيد الأسـماك، ولبعضـها منقار قصـير ومخروطى يسـتطيع كسـر البذور النباتية، كما هنالك المنقار النحيف والحاد الذى يمتص رحيق الأزهار، وأخيراً المنقار الذى يشبه السلة ويتمكن من صيد عدد من الأسماك والاحتفاظ بها.

۴. ليس لأىمن الطيور أسنان لكنها تطحن الطعام وتمتصه فى أوعيتها الصلبة.

۵. الطيور بيوضـة عادة تنام على بيضـها لأيّام لتفقس عن أفراخ، طبعاً الانثى هى التى تنام عليها، كما يتناوب معها الذكر أحياناً، وأحياناً يحبس الذكر انثاه فى عش ولا يسمح لها بالخروج ولا يدع سوى فتحة صغيرة فى العش ليوصل إليها ما تحتاج من غذاء.

۶. بدن الطيور خفيف للغاية مستعد للطيران وهو مليء بالغضاريف والغدد التى تساعدها على الطيران.

۷. لطيور الماء ويقصد بها الطيور العائمة فى المياه وسواحل البحار برامج عجيبة فأحياناً تستهدف طعامها تحت الماء من خلال اكتشافه بجهاز يشبه الرادار فتغوص فى الماء لتحصل عليه وبالطبع فإنّ جسمها دهنى لا يسمح بنفوذ الماء إلى داخلها.

٨. ألوان الطيور من عجـائب الخلقـة، فهناك بعض الطيور الجميلـة التى تخطف الأبصار وتشـرح القلوب حتى يظن الناظر أنّها رسـمت

بريشة فنان عبقرى (وهذا من أبدع أمور الخليقة التى ركز عليها الإمام عليه السلام فى الخطبة المذكورة) ولا يدرك الإنسان هذه العظمة دون النظر والتأمل.

۹. أعشاش الطيور هى الأخرى متنوعة وعجيبة، ورغم أنّها لا تمتلك الأيدى إلّا أنّها تصنع أعشاشها وتبنيها بدقّة متناهية، فهنالك طائر يسمى (الخيّاط) يقوم بصنع عشه من خلال خياطته لأوراق الأشجار حيث يستعين بمنقاره كأبرة وخيوطه ألياف النباتات.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۵۷

۱۰. طيور الصيد لها أرجل وأجنحة قوية كالعقاب والغراب ولها رؤية حادة وقوية بحيث ترى حتى الحشرات الصغيرة فى الأرض وهى على ارتفاعات فى السماء، وبعضها على درجة من الضخامة بحيث يمكنها التقاط شاة وحملها معها.

۱۱. وللطيور المهاجرة عالم غريب وعجيب فهى تنطلق أحياناً من خط الإستواء نحو المناطق القطبية وبالعكس فتقطع أكثر من عشرة آلاف كيلومتر دون أن تضل طريقها، فهى تحلق لأيام وليالٍ دون تعب وتعكف قبل الهجرة غريزتاً على جمع المواد الغذائية لتستفيد منها طيلة مدّة الهجرة.

۱۲. للطيور مقاومة شديدة لدرجات الحرارة والبرودة فهى صامدة حتى فى درجة تحت الصفر، وحرارة جسمها أعلى من درجة حرارة جسم الإنسان وتصل إلى ۴۵ درجة فوق الصفر[۴۲۶].

۱۳. خدمات الطيور للإنسان كثيرة، فطعام أغلب هذه الطيور من الحشرات، وطيور الصيد تحول دون مضاعفة نسل الطيور الأخرى وهنالك الطيور التى تتغذى على الميتة فتطهر سواحل البحار وسطح الأرض كما تلعب دوراً فى القضاء على الآفات.

۱۴. نقل شارح نهج البلاغة عن كتاب روبرت لمن

«كل شىء عن الطيور»

والذى ترجمه الدكتور بدران، أنّ البعض يعتقد أنّ على وجه الأرض أكثر من مئة مليارد طير أكبرها النعامة التى يبلغ طولها مترين ونصف ... وأصغرها الطنان وطوله خمسة سانتى مترات، وتحلق بسرعة حيث تبلغ سرعتها أكثر من تسعين كيلومتر بالساعة وتستطيع الوقوف مدّة طويلة فى الجو، وتبلغ خطوة بعض الطيور أكثر من ستة أمتار. وتحلق بعض الطيور إلى ستة آلاف متر فى الهواء بينما تغطس بعضها إلى

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۵۸

عمق ۱۸ متر[۴۲۷]. وزبدة الكلام فإنّالإنسان لا ـ يملك إنّ تأمل هذا الخلق العجيب سوى الركون للّهوالإستسلام لقدرته المطلقة وصنعه العجيب.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۵۹

القسم الثانى

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُوسُ الَّذِی أَقَامَهُ فِی أَحْکَمِ تَعْدِیلٍ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِی أَحْسَنِ تَنْضِیدٍ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ. إِذَا دَرَجَ إِلَی الْأُنْثَی نَشَرَهُ مِنْ طَیِّهِ، وَسَمَا بِهِ مُطِلًّا عَلَی رَأْسِهِ کَأَنَّهُ قِلْعُ دَارِیٍّ عَنَجَهُ نُوتِیُّهُ. یَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ، وَیَمِیسُ بِزَیَفَانِهِ. یُفْضِی کَإِفْضَاءِ الدِّیَکَةِ، وَیَؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ لِلضِّرَابِ. أُحِیلُکَ مِنْ ذلِکَ عَلَی مُعَایَنَةٍ، لَاکَمَنْ یُحِیلُ عَلَی ضَعِیفٍ إِسْنَادُهُ. وَلَوْ کَانَ کَزَعْمِ مَنْ یَزْعُمُ أَنَّهُ یُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ، فَتَقِفُ فِی ضَفَّتَی جُفُونِهِ، وَأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذلِکَ، ثُمَّ تَبِیضُ لَامِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَی الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ، لَمَا کَانَ ذلِکَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ.

الشرح والتفسير: أعجب طير فى العالم

بعد أن تطرق الإمام عليه السلام فى المقطع السابق من الخطبة إلى عجائب عالم الطيور أشار هنا بالخصوص إلى أعجب وأجمل طيور الدنيا ألا وهو (الطاووس) الذى يضرب به المثل فى الجمال حتى يستفاد من ريشه الجميل كعلامة للوصول إلى آية معينة فى القرآن وصنع المكانس لنكث الغبار عن الأضرحة المقدّسة، حيث أشار الإمام عليه السلام الى بعض خصائص هذا الطائر فقال:

«وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُوسُ الَّذِى أَقَامَهُ فِى أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَضَّدَ[۴۲۸] أَلْوَانَهُ فِى أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۶۰

أَشْرَجَ ۴۲۹] قَصَبَهُ ۴۳۰]، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ ۴۳۱]».

الشىء الأول الذى يلفت الانتباه فى الطاووس، الألوان الرائعة العجيبة لأجنحته وذيله الطويل نسبياً حيث يخط وراءه عندما يمشى ويتبختر كأنّه العروس الجميلة فى ليلة زفافها. حقّاً لا يمكن وصف ألوان الطاووس بأى شكل من الأشكال، سوى أن يقف الإنسان مذهولًا أمام عظمة الخالق ويشاهد ويتمتع بهذا الطائر اللطيف. ما يجدر ذكره فى عالم الحيوانات أنّ الذكر يستغل مختلف الطرق بغية جلب انتباه الانثى له، فأحياناً عن طريق الصوت العذب وأخرى الحركات الموزونة وبعض الحركات الأخرى كما أشار الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمّة فقال:

«إِذَا دَرَجَ ۴۳۲] إِلَى

الْأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ ۴۳۳]، وَسَمَا بِهِ مُطِلًّا[۴۳۴] عَلَى رَأْسِهِ»

. حقا أنّ بسط الطاووس لجناحه لمن أروع المناظر ويعكس حالة من النسق والنظام الرائع.

ثم أورد الإمام عليه السلام تشبيها لذلك فقال:

«كَأَنَّهُ قِلْعُ ۴۳۵] دَارِيٍ ۴۳۶] عَنَجَهُ ۴۳۷] نُوتِيُّهُ ۴۳۸]»

. ربّما

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۶۱

كان هذا التشبيه لأنّ حركة الشراع نحو المقصد تمنح السفينة جمالًا خاصاً، الطاووس أيضاً عند حركته وفتحه لمظلته يجلب انتباه الآخرين لجماله وروعته.

ثم قال عليه السلام:

«يَخْتَالُ ۴۳۹] بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ ۴۴۰] بزَيَفَانِهِ ۴۴۱]. يُفْضِى ۴۴۲] كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ،

وَيَؤُرُّ[۴۴۳] بِمَلَاقِحِهِ ۴۴۴] أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ[۴۴۵] لِلضِّرَابِ ۴۴۶]»

. الواقع أنّ هذا الكلام مقدمة لابطال بعض خرافات عامة الناس بشأن هذا الطائر (ويالها من خرافات كثيرة يحيكها العوام بشأن عجائب الحيوانات) لذلك قال:

«أُحِيلُكَ مِنْ ذلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلًا:

«وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا[۴۴۷]

مَدَامِعُهُ ۴۴۸]، فَتَقِفُ فِى ضَفَّتَى ۴۴۹] جُفُونِهِ ۴۵۰]، وَأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لَامِنْ لِقَاحِ

فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ ۴۵۱]، لَمَا كَانَ ذلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ[۴۵۲] الْغُرَابِ»

. إشارة إلى عدم التعجب من هذه الخرافة التى قيلت بشأن الطاووس، فقد قيل الأعجب من ذلك بشأن الغراب، أنّه ليس هنالك من جماع لدى الغراب بل إنّ أراد لُانثاه الحمل يضع منقاره فى منقارها وينقل إليها مقداراً من الماء من القامصة الذكرية فتحمل، وهو كلام باطل ولقد شوهد الجماع كراراً لدى الغراب، وإن سعى إلى الإبتعاد عن

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۶۲

أنظار الناس، وعليه فعملية الجماع لديه خفية حتى ضرب المثل به لدى العرب فقيل:

«أخفى من سفاد الغراب»

ولعل سبب هذه الخرافة أنّ أغلب الطيور تضع مناقيرها أمام مناقير الطيور الأخرى قبل الجماع وهذا ما جعل البعض يلتبس عليه الأمر. وشبيه ذلك ما قيل في الطاووس من أنّ الانثى تمتص دمع الذكر قبل الجماع ۴۵۳].

سؤال: وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: ترى من الذي جعل الإمام عليه السلام يتعرض لهذه الخرافة بشأن الطاووس أو الغراب، والحال لو كان الأمر كذلك لكان من عجائب الخلقة وغرائبها؟

والجواب: أنّ الناس لو اتجهوا صوب الخرافات لإثبات العجائب والغرائب لاضطربت الواقعيات وسلبت نتائجها المطلوبة. والسؤال الآخر الذي يرد هنا لم يكن في الحجاز طاووس ليرى الإمام عليه السلام عملية التلقيح فكيف ورد هذا الكلام؟

أجاب ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الخطبة من نهج البلاغة أنّ المدينة وإن خلت من هذا الطائر غير أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة في الكوفة التي كان يجلب إليها كل شيء بما فيها هدايا وصفايا الملوك، وعليه فليس من العجيب أنّ الإمام عليه السلام شاهد الطاووس وحركاته ۴۵۴].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۶۳

القسم الثالث

تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِیَ مِنْ فِضَّةٍ، وَمَا أُنْبِتَ عَلَیْهَا مِنْ عَجِیبِ دَارَاتِهِ، وَشُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْیَانِ، وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ. فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ: جَنیً جُنِیَ مِنْ زَهْرَةِ کُلِّ رَبِیعٍ. وَإِنْ ضَاهَیْتَهُ بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ کَمَوْشِیِّ الْحُلَلِ، أَوْ کَمُونِقِ عَصْبِ الْیَمَنِ. وَإِنْ شَاکَلْتَهُ بِالْحُلِیِّ فَهُوَ کَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَیْنِ الْمُکَلَّلِ. یَمْشِی مَشْیَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ، وَیَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَیْهِ، فَیُقَهْقِهُ ضَاحِکاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ، وَأَصَابِیغِ وَشَاحِهِ؛ فَإِذَا رَمَی بِبَصَرِهِ إِلَی قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوِلًا بِصَوْتٍ یَکَادُ یُبِینُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ، وَیَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ کَقَوَائِمِ الدِّیَکَةِ الْخِلَاسِیَّةِ. وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِیصِیَةٌ خَفِیَّةٌ.

الشرح والتفسير: صورة رائعة لجناح الطاووس

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى عجيب خلقة الطاووس من خلال وصف جناحه وريشه الملون الرائع ليشرح ذلك بعبارات فصيحة بليغة وتشبيهات غاية في الروعة فقال:

«تَخَالُ قَصَبَهُ ۴۵۵] مَدَارِیَ ۴۵۶] مِنْ فِضَّةٍ، وَمَا أُنْبِتَ عَلَیْهَا مِنْ عَجِیبِ دَارَاتِهِ ۴۵۷]، وَشُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْیَانِ ۴۵۸]، وَفِلَذَ[۴۵۹] الزَّبَرْجَدِ[۴۶۰]».

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۶۴

يعلم كل من رأى ريش الطاووس أنّ ألوانه خارقة في الجمال، إلّاأنّ هنا لك لونين يجليان الإنتباه أكثر من غيرهما، هما اللون الأصفر- الذي يلمع كالذهب الخالص، واللون الأخضر الذي يشبه قطعات الزبرجد (ذلك الحجر النفيس الأخضر اللون والذي يستخدم في الزينة وتاج الملوك) ومن هنا ركز الإمام على هذين اللونين من بين سائر الألوان، والغريب أنّ جميع ريشه الجميل ينبت على قصبة بيضاء شبهها الإمام عليه السلام بالفضة. ثم شبّه الإمام عليه السلام جناحي الطاووس بغية زيادة التوضيح تارةً بالأزهار الربيعية المتنوعة الألوان وأخرى بالثياب النفيسة الملونة.

وأخيراً التيجان المرصعة بها، فقال:

«فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ: جَنيً ۴۶۱] جُنِيَ
مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ»

. ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّه يوجد فى بعض البلدان عشرة آلاف نوع من البراعم والزهور ولكل جماله الخاص به.

ثم ذكر الإمام عليه السلام تشبيها آخر وعبارة رائعة فقال:

«وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ ۴۶۲] بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ
كَمُوشِيِ ۴۶۳] الْحُلَلِ، أَوْ كَمُونِقِ ۴۶۴] عَصْبِ الْيَمَنِ»

والتشبيه الثالث والأخير:

«وَإِنْ شَاكَلْتَهُ
بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ۴۶۵] ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ ۴۶۶] الْمُكَلَّلِ ۴۶۷]»

. فقد كان لقدماء الملوك تيجان مفعمة بالنقوش والألوان ومليئة بالمجوهرات حيث يجعلون المجوهرات على شريط أو يخيطونها عليه بخيوط رقيقة ليزينوا بها تيجانهم.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۶۵

والقصبات التى تتوسط جناحى الطاووس- كما وردت سابقاً فى عبارة الإمام عليه السلام- بيضاء كالفضة والريش على جانبيها كالمجوهرات. الواقع، أنّ النقوش الجميلة والملونة لا تعدو عادة أحد هذه الأشياء الثلاثة: باقة الورد والملابس والجواهر. وقد استعان الإمام عليه السلام بالتشبيهات الثلاثة بتلك العبارات الفصيحة البليغة ليجسد جمالية ريش الطاووس.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليخوض فى شرح الطاووس من خلال مشيه ونظرته لنفسه فقال:

«وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ، يَمْشِى مَشْيَ الْمَرِحِ ۴۶۸] الْمُخْتَالِ ۴۶۹]، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَيْهِ،[۴۷۰] فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ
سِرْبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ ۴۷۱] وَشَاحِهِ ۴۷۲]؛ فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا[۴۷۳] مُعْوِلًا[۴۷۴] بِصَوْتٍ يَكَادُ
يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ ۴۷۵] كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ
الْخِلَاسِيَّةِ[۴۷۶]. وَقَدْ نَجَمَتْ ۴۷۷] مِنْ ظُنْبُوبِ ۴۷۸] سَاقِهِ صِيصِيَةٌ[۴۷۹] خَفِيَّةٌ»

. فقد أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة لطيفة وهى أنّ اللّه سبحانه جعل فى هذا الطائر بعض نقاط الضعف رغم آيات الجمال، وإذا ما شعر حيناً بالغرور ودفعه ذلک للضحک بالقهقهة فإنّه لا يكاد يخفى ألمه إن وقعت عينيه على نقصه. وبالطبع فإنّ هذا نموذج من عالم الخلق الذى حال فيه الحكيم دون الغرور والطغيان الناشىء من الشعور بالقوّة حيث جعل قدراً من الضعف والنقص بغية التوازن والقضاء على الغرور والغفلة. فهنالک الكسل والعجز الذى يطارد الشباب والنشاط، والمرض والسقم الذى يتبع الصحة والعافية،

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۶۶

والفقر الذى يجرى خلف الغنى، وإدبار الدنيا الذى يحثّ الخطى نحو إقبالها. نعم هذه إحدى فلسفات المرض والعجز وسائر المحن والويلات.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۶۷

القسم الرابع

وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ. وَمَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالْإِبْرِيقِ، وَمَغْرِزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ الْوَسِمَةِ الْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ. وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ

كَمُسْتَدَقِّ الْقَلَمِ فِى لَوْنِ الْأُقْحُوَانِ، أَبْيَضُ يَقَقٌ، فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِى سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ. وَقَلَّ صِبْغٌ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَعَلَاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ، وَبَصِيصِ دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمَبْثُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ، وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ.

الشرح والتفسير: صورة دقيقة عن جمال الطاووس

خاض الإمام عليه السلام هنا بعبارات فصيحة بليغة فى خمس خصائص أخرى تعكس جمال الطاووس ليذكر من خلالها هذه الجمالية على ضوء مظاهر جمال اللّه وجلاله، فقال:

«وَلَهُ فِى مَوْضِعِ الْعُرْفِ ۴۸۰] قُنْزُعَةٌ[۴۸۱] خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ[۴۸۲]»

. العرف عند العرب، شعيرات طويلة تبدأ من أعلى الكتف والرقبة حتى خلف الرأس لتنتهى بين الأذنين فيكون كالتاج وحيث هذا التاج أخضر براق فى الطاووس فإنّه يمنحه جمالًا يسحر الأبصار ويلفت نظر الإنسان إلى مبدأ هذا الجمال الساحر.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۶۸

وقال فى الخاصية الثانية:

«وَمَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالْإِبْرِيقِ ۴۸۳]، وَمَغْرِزُهَا[۴۸۴] إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ

كَصِبْغِ الْوَسِمَةِ[۴۸۵] الْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ ۴۸۶]».

وقال فى الثالثة:

«وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ ۴۸۷] بِمِعْجَرٍ[۴۸۸] أَسْحَمَ ۴۸۹]؛ إِلَّا أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ،

وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ»

. وقال فى الخاصية الرابعة:

«وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِ ۴۹۰] الْقَلَمِ فِى لَوْنِ

الْأُقْحُوَانِ ۴۹۱]، أَبْيَضُ يَقَقٌ ۴۹۲]، فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِى سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ ۴۹۳]».

وأخيراً قال فى الخاصية الخامسة:

«وَقَلَّ صِبْغٌ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَعَلَاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ ۴۹۴]، وَبَصِيصِ ۴۹۵] دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ ۴۹۶]، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمَبْثُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ، وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ[۴۹۷]».

إنّ التمعن فى هذه الخواص الخمس للطاووس إضافة لما ذكر فى مقاطع الخطبة السابقة يكشف من جانب، عن عظمة وقدرة المصور الماهر الذى جمع كل هذا الحسن والجمال فى هذا المخلوق وجعله نموذجاً لأنواع الجمال، حيث أدنى وقفة

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۶۹

عند هذا المخلوق دليل على وجود الخالق سوى لهذا المخلوق البديع لكفى فى الوقوف على الخالق العظيم، وكلما أوغل الإنسان أكثر وتعمق أصبح أكثر خضوعاً لخالقه الحكيم ونطق بلسان حاله: يا لك من مخلوق رائع جميل، فما أجمل من خلقك ومنحك كل هذا الجمال. ومن جانب آخر، نقف على مدى عظمة هذا الإمام العظيم بطل التوحيد ومدى دقته فى عرض عجائب وجمال عالم الخلقة وإرشاده الخلق إلى الخالق، والحق أنّ أحداً لم يستطع أن يتحدث عن جمال هذا الطائر كما تحدث الإمام عليه السلام.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۷۱

القسم الخامس

وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ، وَيَعْرَى مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى وَيَنْبُتُ تِبَاعاً، فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاحَقُ نَامِياً حَتَّى يَعُودَ

كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ، لَايُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِی غَيْرِ مَكَانِهِ! وَاذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ أَرَتْکَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً، فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ، اوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ!

وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَالْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ! فَسُبْحَانَ الَّذِی بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلَّاهُ لِلْعُيُونِ، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً؛ وَاعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ!

الشرح والتفسير: حيرة العقول فی الوصف

أشار الإمام فی هذا المقطع والذی يمثل ختام الكلام فی الطاووس إلی أمرين مهمين؛ الأول قال:

«وَقَدْ يَنْحَسِرُ[۴۹۸] مِنْ رِيشِهِ، وَيَعْرَى مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى ۴۹۹]،

وَيَنْبُتُ تِبَاعاً، فَيَنْحَتُّ ۵۰۰] مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاحَقُ نَامِياً حَتَّى

يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ».

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۷۲

ثم قال:

«لَا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِی غَيْرِ مَكَانِهِ!»

. لا شک فی أنّ ريش الطاووس ورغم كل هذا الجمال لكنه قد يتعرض مع مرور الزمان إلی الإتساخ بالتراب والغبار، ومن هنا فإنّ اللّه تعالی ينزع عنه كل سنة لباسه القديم ويغطی جسمه بلباس جديد وجميل ليبقی غضاً جميلًا علی الدوام. غالباً ما تسقط أوراق الأشجار فی فصل الخريف ويسلب الطاووس نشاطه وحيويته، وحين تتفتح الأزهار فی فصل الربيع تدب الحيوية فی الطاووس ويكتسی حلة جديدة ملونة تجعل قصبه الأبيض الفضی اللون يبدو كسيقان الأشجار.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلی نقطة لطيفة فقال:

«وَاذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ أَرَتْکَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً[۵۰۱]»

. لما كانت علی ريش الطاووس دوائر جميلة بألوان مختلفة، وكل لون يختص بخصلة معينة لتبدو بصورة رائعة.

وأخيراً يخلص الإمام عليه السلام إلی هذه النتيجة فقال:

«فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هذَا عَمَائِقُ ۵۰۲] الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ ۵۰۳] الْعُقُولِ، اوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ! وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ وَالْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ!»

. نعم؛ إن عجز الإنسان العاقل والمفكر عن الوقوف علی عجائب الطاووس وتعذر عليه وصفه وإدراكه فكيف بعالم الخلقة وأسراره؟! وإضافة إلی النتيجة السابقة الواضحة فی موضوع معرفة اللّه وإدراک عظمة الخالق وسعة علمه وقدرته إنّما خلص إلی نتيجة أخری فإن عجزنا عن إدراک كائن من هذه الكائنات فكيف لنا بإدراک كنه الذات والصفات والتعرّف علی اللّه كما هو[۵۰۴]، فقال:

«فَسُبْحَانَ الَّذِی

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۷۳

بَهَرَ[۵۰۵] الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلَّاهُ ۵۰۶] لِلْعُيُونِ، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً؛

وَاعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ ۵۰۷] صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ!».

تأمّل

غرائب الطاووس

إنّ عالم الخليقـة لعجيب كيفما نظرنا إليه، إلّاأنّ هنالك البعض الأعجب غيره ومن ذلك الطاووس. فهـذا الطائر فريـد فى الجمال ومن هنا ضـرب به المثل. لقد اصـطبغ ريشه بعدّة ألوان جميلة، وإن نشـر جناحيه بدأ أكثر جمالًا وروعة ويفعل ذلك على وجه السرعة حين تلحظه أنثاه ليلفت نظرها إليه، فهو يبدو كالعروس التى ترتدى حلتها ليلة الزفاف، ويشـعر بالمتعة من هذا المنظر فيمشى باختيال وغرور ويختتم ذلك بقهقهة ضاحكاً.

يبلغ عمر الطاووس ۲۵- ۲۰ سنة وتـبيض الانثى فى الثالثـة من العمر، تبيض الانثى عـادة مرّة فى العـام وتضع ۱۲ بيضـة، إلّاأنّ كثرة حركاته تجعله لا يحافظ على بيوضه، لذلك توضع البيضة تحت بطن آخر لتفقس، يعتبره اليونانون والرومانيون طائراً مقدّساً، بينما يراه الآخرون مشؤوماً أدى إلى دخول ابليس إلى الجنّة، يبلغ طوله من منقاره إلى انتهاء ذيله أكثر من مترين، والأنثى أقصر من الذكر.

وكما ذكر الإمام عليه السلام فى الخطبـة المـذكورة فإنّ هنالك خرافـة سائـدة بين الناس بشأن حمل الطاووس وأنّ الذكر حين يتهيج يضع قطرة دمع فى عين الانثى فتمتصها

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۷۴

وتحمل، والواقع أنّه يلقح انثاه على أساس الجماع كما لوحظ ذلك كثيراً. عادة ما يربى هذا الطائر الجميل الذى يستفاد منه فى الزينة، وهنالك من يتناول لحمه، غير أنّ الشريعة الإسلامية حرمت ذلك [۵۰۸].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۷۵

القسم السادس

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمَجَةِ إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ وَالْفِيَلَةِ! وَوَأَى عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلَّا وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ.

الشرح والتفسير: الديدان والفيلة والحيتان

أشار الإمام هنا بصورة عابرة إلى عجائب سائر الأحياء حتى لا يتصور أنّ العجائب تقتصر على الطاووس، فقال:

«وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ ۵۰۹] قَوَائِمَ ۵۱۰] الذَّرَّةِ[۵۱۱]

وَالْهَمَجَةِ[۵۱۲] إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ ۵۱۳] وَالْفِيَلَةِ!»

. فقـد أشار الإمام إلى حشـرتين من أصـغر الحشـرات على الأرض صـغار النمل والـذباب وإلى أضـخم وأكبر حيوانين هما الحوت فى البحار والفيل فى اليابسـة، ولقـد لفت الإنتباه إلى أيـدى وأرجل صـغار الحشـرات، اليد والرجل التى تضاهى يد الفيل ورجله فتتحرك يميناً وشـمالًا وتأخـذ أوامرهـا من الـدماغ وتشـتمل على الأعصـاب والعضـلات والمفاصل وما شابه ذلك، والحق لو جعلنا رجل هـذه الدودة الصغيرة تحت المجهر وتأملنا بنيتها لتعرفنا على قدرة اللّه تعالى وعلمه المطلق.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۷۶

كـذلك لو تأملنـا الحيوانـات الكبيرة حيث إنّ زنـة بعض الحيتان تبلغ طناً وترضع فراخها اللبن تحت الماء، حيث تسـكب الأُم اللبن فى المـاء ويمتصه الوليـد فوراً، وتنطوى سـائر عجائبهـا على الـدروس البليغـة فى التوحيـد ومعرفـة اللّه، نعم؛ إنّ هـذه الديـدان- على سبيل المثال- كثيرة من حولنا وقـد اعتدنا على رؤيتها فلم نعد نلفت إلى أنّ بنيتها تفوق بنية الطائرة الضـخمة. قال اللّه تعالى فى كتابه العزيز: «وَكَأَيِّنْ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ»[۵۱۴].

وأشار الإمام عليه السلام أخيراً إلى مصير الأحياء كافّة، أى الموت والعدم، فقال:
«وَوَأَى ۵۱۵] عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا يَضْطَرِبَ شَبَحٌ ۵۱۶] مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلَّا وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ»
. أجل؛ إنّ الموت هو مصير كل ذى روح وهذا الكلام هو إشارة إلى أنّ الدنيا لا تدوم رغم كل ما فيها من جمال وعجائب ولا يمكن التعلق بها، ومن جانب آخر يمكن الوقوف على عظمة اللّه تعالى بصورة أفضل من خلال مقارنة موت هذه الموجودات بحياتها، لأنّ أهميّة كل شيء تظهر حين فنائه.

تأمّل: غيض من عجائب الحيتان والفيلة

سنخوض فى شرح الخطبة ۱۸۵ التى أوردها الإمام عليه السلام بشأن النمل إن شاء اللّه، ونشير هنا إلى الحيتان والفيلة بصورة مختصرة:

الحيتان

يقول العلماء: إنّ هنالك خمسة عشر ألف نوع من الحيتان فى بحار ومحيطات العالم، بعضها صغيرة جدّاً لا تتجاوز سانتيمترين وبعضها الآخر كالحوت الذى يبلغ
نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۷۷
طوله ثلاثين متراً ويزن ثلاثين طناً تنطوى على العديد من العجائب. فمعدتها كبيرة جدّاً تستوعب الكثير من المواد الغذائية، ويبلغ طول وليدها ستة أمتار حين الولادة.
وتتغذى فراخها على لبنها الذى يخرج من بدنها بغزارة. تتحرك دائماً على سطح الماء للتنفس ولا تستطيع البقاء أكثر من ساعة تحت الماء، فهى أكبر الحيوانات على الأرض وتعتبر من الثديات. أبدانها دهنية، يستفاد منها فى الصناعات المختلفة ولا تملك أسناناً بل لها شفرات عظيمة طويلة وخطيرة تشبه الأسنان ويستفيد الصيادون من هذه الشفرات والغدد الدهنية.

الفيلة

يعتبر الفيل فى الوقت الحاضر من أكبر الحيوانات، والفيلة نوعان: الفيلة الهندية ويطلق عليها الفيلة الأسيوية، والآخر، الفيلة الأفريقية. والفيلة الأسيوية أكبر ومستعدة للتربية أكثر من نظيرتها الأفريقية. والواقع هو أنّ خرطوم الفيل بمثابة أنفه وشفته العليا، غير أنّه يقوم بعمل اليد عادة، أى أنّ الفيل يحمل الطعام بيده إلى فمه ويقذف الماء على ظهره عند الحرارة. يتغذى الفيل على العلف حيث يجمعه من الأرض بخرطومه ويضعه فى فمه، كما يستعين بعاجه القوى والحاد على اقتلاع الأشياء من الأرض. الفيل حيوان ذكى جدّاً يمكن ترويضه للقيام بعدّة أعمال، كما يقوم بالعديد من الحركات السريعة والعجيبة فى السيرك. تعيش الفيلة بصورة جماعية وهذا بدوره دليل على ذكائها. تعمر أحياناً مائة وخمسين سنة! تعرف أسنان الفيل (بالعاج) الذى يعتبر من الأشياء النفيسة والذى تصنع منه أشياء الزينة.
كان قدماء الملوك والسلاطين عادة ما يشكلون جيشاً من الفيلة ويزينون فيلتهم وينصبون عليها الأعلام. نعم؛ عجائب الحيتان والفيلة أكبر من أن تختصر فى هذا البحث، وغرض الإمام عليه السلام من التطرق إلى هذه الخصاص إلفات الإنتباه إلى آيات الخلقة العظيمة[۵۱۷].
نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۷۹

القسم السابع

فَلَوْ رَمَیْتَ بِبَصِرِ قَلْبِکَ نَحْوَ مَا یُوصَفُ لَکَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُکَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَی الدُّنْیَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا، وَلَذَهِلَتْ بِالْفِکْرِ فِی اصْطِفَاقِ أَشْجَارٍ غُیِّبَتْ عُرُوقُهَا فِی کُثْبَانِ الْمِسْکِ عَلَی سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا، وَفِی تَعْلِیقِ کَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِی عَسَالِیجِهَا وَأَفْنَانِهَا، وَطُلُوعِ تِلْکَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِی غُلُفِ أَکْمَامِهَا، تُجْنَی مِنْ غَیْرِ تَکَلُّفٍ فَتَأْتی عَلَی مُنْیَةِ مُجْتَنِیهَا، وَیُطَافُ عَلَی نُزَّالِهَا فِی أَفْنِیَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ. قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْکَرَامَةُ تَتَمَادَی بِهِمْ حَتَّی حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ الْأَسْفَارِ. فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَکَ أَیُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَی مَا یَهْجُمُ عَلَیْکَ مِنْ تِلْکَ الْمَنَاظِرِ الْمُونِقَةِ، لَزَهِقَتْ نَفْسُکَ شَوْقاً إِلَیْهَا، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِی هذَا إِلَی مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالًا بِهَا. جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِیَّاکُمْ مِمَّنْ یَسْعَی بِقَلْبِهِ إِلَی مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسیر: نعم الجنّة ومفاتنها

یشیر هذا المقطع من الخطبة کما یفهم من مضمونه وصرح به السید الرضی إلی صفات الجنّة، وبالطبع فإنّ هنالک مطالب أخری بین هـذا المقطع وما سبقه إلّاأنّ السید اقتطف هـذه الریاحین کعادته، لکن یبـدو أنّ الإمام تحـدث سابقاً عن التوحید، بینما تطرق هنا إلی المعاد، لیتکامل مبحث المبدأ والمعاد، أو بعبارة أخری یعرض لنعم الجنّة بعد هذه الدنیا. فقال:

«فَلَوْ رَمَیْتَ بِبَصَرِ قَلْبِکَ نَحْوَ مَا یُوصَفُ لَکَ مِنْهَا

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۲۸۰

لَعَزَفَتْ ۵۱۸] نَفْسُکَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَی الدُّنْیَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا، وَزَخَارِفِ

مَنَاظِرِهَا، وَلَذَهِلَتْ ۵۱۹] بِالْفِکْرِ فِی اصْطِفَاقِ ۵۲۰] أَشْجَارٍ غُیِّبَتْ عُرُوقُهَا فِی کُثْبَانِ ۵۲۱] الْمِسْکِ

عَلَی سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا».

وما أنّ فرغ الإمام علیه السلام من وصف الأشجار فی الجنّة، حتی تطرق إلی ثمارها فقال:

«وَفِی تَعْلِیقِ کَبَائِسِ ۵۲۲] اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِی عَسَالِیجِهَا[۵۲۳] وَأَفْنَانِهَا[۵۲۴]، وَطُلُوعِ تِلْکَ

الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِی غُلُفِ ۵۲۵] أَکْمَامِهَا[۵۲۶]، تُجْنَی ۵۲۷] مِنْ غَیْرِ تَکَلُّفٍ فَتَأْتی عَلَی مُنْیَةِ

مُجْتَنِیهَا».

إنّ أحد معضلات أشجار الفاکهة فی الدنیا یکمن فی جنیها الذی ینطوی علی متاعب جمة، إلی درجة أنّ البعض یتسلق الشجرة لعملیة الجنی، فیفقد حیاته. هذه هی طبیعة الدنیا فی مزج اللذّة بالألم، أمّا فی الجنّة حیث لا موضع للألم وکل شیء علی ما یرام وطبق المراد فإنّ ثمار الأشجار فی متناول الجمیع، وعلی کل حال، سوی الوقوف أو الجلوس، بل علی أساس بعض الروایات أنّ غصون الشجرة تحضر بثمارها عند الشخص کلما اشتهاها: «قُطُوفُهَا دَانِیَةٌ»[۵۲۸]، وفی أیة أخری

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۲۸۱

«وَجَنَی الْجَنَّتَیْنِ دَانٍ»[۵۲۹].

ثم خاض الإمام علیه السلام فی النعمة الأخری فی الجنّة فقال:

«وَیُطَافُ عَلَی نُزَّالِهَا فِی أَفْنِیَةِ[۵۳۰] قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ[۵۳۱]»

. وقد أشار القرآن إلی الشراب الطهور اللذیذ فی الجنّة الذی لا یصیب الرأس بالصداع ولا یذهب بعقل الإنسان، ومن ذلک ما ورد فی سورة الدهر التی أشارت إلی هذا الشراب اللذیذ وأربع صور وطبائع: «إِنَّ الْأَبْرَارَ یَشْرَبُونَ مِنْ کَأْسٍ کَانَ مِزَاجُهَا کَافُوراً* عَیْناً یَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ یُفَجِّرُونَهَا تَفْجِیراً ...* وَیُسْقَوْنَ فِیهَا کَأْساً کَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِیلًا* عَیْناً فِیهَا تُسَمَّی سَلْسَبِیلًا ... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً»[۵۳۲] وقال فی موضع أخر:

«لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ»[۵۳۳].

ثم أشار عليه السلام إلى أوصاف الجنّة فقال:

«قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ[۵۳۴] الْأَسْفَارِ»

. ويستفاد من هذه العبارة أنّ أصحاب الجنّة حفظوا قدسيتهم وطهارتهم وورعهم إلى آخر عمرهم ولم يخدشوا الكرامة الإنسانية التى أشارت إليها الآية القرآنية: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ...»[۵۳۵] فلقوا ربّهم على الإيمان والعمل الصالح الذى ملأ كيانهم، كما تفيد العبارة، التأكيد على حسن العاقبة وأنّ كل شيء يتوقف على خاتمة الأمور والأعمال. وأخيراً يشعل فى قلوب الآخرين شعلة

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۸۲

الشوق إلى لقاء اللطف الإلهى ونعمه التى لا تحصى فى ذلك العالم:

«فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاظِرِ الْمُونِقَةِ[۵۳۶]، لَزَهِقَتْ ۵۳۷] نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِى هذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالًا بِهَا»

. أراد الإمام عليه السلام أن يؤكد فى هذا الكلام على حقيقة هى أنّ عظمة نعم الجنّة أكبر من أن يحيطها وصف الإنسان، ولو تأملها الإنسان لذاب شوقاً إليها وكأنّه يروم التحليق إليها، كما ورد ذلك فى خطبة المتقين:

«فَاذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا الَيْهَا طَمَعاً وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ الَيْهَا شَوْقاً»[۵۳۸].

وهكذا اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بهذا الدعاء:

«جَعَلَنَا اللّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ»

. إشارة إلى أنّ الإنسان لا يبلغ شيئاً دون أن تشمله رحمة اللّه.

تفسير بعض الكلمات الصعبة فى الخطبة (من جانب الشريف الرضى):

قال السيد الشريف الرضى فى آخر هذه الخطبة:

قَوْلُهُ عليه السلام:

«يَؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ»

الْأَرُّ: كِنَايَةٌ عَنِ النِّكاحِ، يُقَالُ: أَرّ الرّجُلُ المَرْأةَ يَؤُرّهَا، إِذَا نَكَحهَا. وَقوْلُهُ عليه السلام:

«كَأَنَّهُ قَلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيّهُ»

الْقَلْعُ: شِرَاعُ السَّفِينَةِ، وَدَارِىّ:

مَنْسُوبٌ إِلى دَارِينَ، وَهِىَ بَلْدَةٌ عَلَى الْبَحْرِ يُجْلَبُ مِنْهَا الطِّيبُ. وَعَنَجَهُ: أىْ عَطَفَهُ.

يُقَالُ: عَنَجْتُ النَّاقَةَ- كَنَصَرْتُ- أَعْنُجُهَا» عَنْجاً إذَا عَطَفْتُهَا. وَالنُّوتِى: الْمَلَّاحُ.

وَقَوْلُهُ عليه السلام:

«ضَفَّتَىْ جُفُونِهِ»

أَرَادَ جَانِبَىْ جُفُونِهِ. وَالضّفّتَانِ: الجّانِبَانِ. وَقَوْلُهُ عليه السلام:

«وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ»

الْفِلَذُ: جَمْعُ فِلْذَة، وَهِىَ القِطْعَةُ. وَقَوْلُهُ عليه السلام:

«كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ»

الْكِبَاسَةُ: الْعِذْقُ وَالْعَسَالِيجُ: الْغُصُونُ، وَاحِدُهَا عُسْلُوجٌ.

تأمّل: أيّها أجمل؟

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۸۳

تحدث الإمام عليه السلام بكل فصاحته وبلاغته المعهودة فى هذه الخطبة عن جمال هذا العالم أحياناً، وأحياناً أخرى عن جمالية العالم الآخر، لكنه ما أن يبلغ شـرح نعم الآخرة حتى يشير إلى هذه الحقيقة وهى أنّ ما يتعلق بذلك العالم يتعذر بيانه، بحيث لو يراه الإنسان لتمنى المسارعة إليه. حقّاً أنّ آداب الحياة الدنيا لا يسعها شرح الحياة الآخرة، وذلك أشبه بأن يسجن الإنسان منذ ولادته فى غرفة ولما اكتمل عقله أرادوا أن يشرحوا له المناظر الجميلة المتناثرة فى الحدائق والبساتين والشلالات ومختلف الأماكن الطبيعية الرائقة، يحدثوه عن الطاووس وألوانه الجميلة وأصوات الطيور العذبة، والفاكهة الذيذة وسائر المناظر الخلابة، فبالطبع لا تسعفه الآداب التى تعلمها فى تلك الغرفة المظلمة لأن يفهم ما يسمع. الجدير بالذكر أنّ الإمام ينظر إلى نعم الآخرة من زوايا مختلفة، فتارة من زاوية حظ البصر وأخرى من خلال الفواكه الذيذة والثمار الطبيعية، وأحياناً من خلال الضيافة المفعمة بالكرامة والاجلال، والأخرى عن الأمن والسكينة التى تسود الجنّة. فليس هنالك من مرض ولا تعب ولا إرهاق ولا موت ولا سلطان ظالم ولا خيانة ولا مكر ولا غدر ولا حرب وخراب ودمار. بل الحاكم هو الإمن والأمان والسلام.

عن أبى سعيد الخدرى أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«انَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا حَوَّطَ حَائِطَ الْجَنَّةِ لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَغَرَسَ غَرْسَهَا قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِى فَقَالَتْ: قَدْ افْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَالَ: طُوبى لَكَ مَنْزِلَ الْمُلُوكِ»[۵۳۹].

وعن عبد اللّه بن جابر الأنصارى أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«اذَا دَخَلَ اهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ لَهُمْ رَبَّهُمْ تَعَالَى أَتُحِبُّونَ أنْ لَذِيذَكُمْ فَيَقُولُونَ: وَهَلْ خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَيْتَنَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ رِضْوَانِى أَكْبَرُ»[۵۴۰].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۸۵

الخطبة ۱۶۶

نظرة إلى الخطبة[۵۴۱]

تتألف هذه الخطبة من ثلاثة أقسام: حثّ الإمام عليه السلام فى القسم الأول الناس على احترام بعضهم البعض الآخر ويتبع الصغير الكبير ويراف الكبير بالصغير ولا يكونوا كجفاة الجاهلية. وأخبر فى القسم الثانى عن مصير بنى أمية الذين يستولون على كل شىء بفعل فرقة المسلمين وابتعادهم عن أصالتهم، وسيصلون إلى أقصى مناطق البلاد الإسلامية، إلّاأنّهم لا يلبثون كثيراً حتى يفقدون كل شيء.

وأخبر فى القسم الثالث عن عوامل تخلف المسلمين فى آخر الزمان وفى مقدمتها عدم نصرة الحق والوقوف بجانب الإمام العادل.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۸۷

القسم الأول

لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ؛ وَلَا تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ: لَافِى الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلَا عَنِ اللّهِ يَعْقِلُونَ؛ كَقَيْضِ بَيْضٍ فِى أَدَاحٍ يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرّاً.

الشرح والتفسير: ثلاث وصايا أخلاقية

أورد الإمام فى هذه العبارات القصيرة العميقة المعنى ثلاث وصايا أخلاقية واجتماعية مهمّة يؤدّى العمل بها إلى تماسك عرى المجتمع، فقال فى الأولى:

«لِيَتَأَسَ ۵۴۲] صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ»

. ذلك لأنّ الكبير عادة سلسلة من التجارب وقد ذاق حلاوة الدنيا ومرارتها ووقف على خيرها وشرّها، أضف إلى ذلك فقد اجتاز هذا الكبير عصر الفتوة بنشاطه وحيويته ويشعر الآن بنوع من الاستقرار الأخلاقى وقد تعرف على الآداب والأعراف الاجتماعية، ولا يمكن التنكر لهذه الحقيقة، بالرغم من أنّ هذه ليست قاعدة كلية ولا تخلو من الاستثناء.

الوصية الثانية

«وَلْيَرْأَفْ ۵۴۳] كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ»

فيتلافى ضعفهم وينقل إليهم تجاربه ويتغاضى قدر المستطاع عن أخطائهم ويقف فى كل الأحوال إلى جانبهم. ولو كان هناك التزام بهاتين الوصيتين لتوطدت العلاقات بين الجيل القديم والحديث بما يجعلهم يشكلون جبهة واحدة رصينة الصفوف. وإلّا فليس هنالك سوى احتدام

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۸۸

النزاع بينهما بما يعكر صفو المجتمع.

أمّا الوصية الثالثة والتى تمثل فى الواقع تأكيداً للوصايا السابقة:

«وَلَا تَكُونُوا كَجُفَاةِ[۵۴۴] الْجَاهِلِيَّةِ: لَافِى الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلَا عَنِ اللَّهِ يَعْقِلُونَ»

. نعم، فالجهال لم ينفتحوا على التربية الدينية ولم يستعينوا بعقولهم، فهم زمرة فضة متحللة تهد كيان المجتمع، لا ترحم الصغير ولا تتعظ بنصائح الكبير.

ثم خاض عليه السلام فى هذه الفئة فقال على سبيل التمثيل:

«كَقَيْضِ ۵۴۵] بَيْضٍ فِى أَدَاحٍ ۵۴۶]

يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا[۵۴۷] شَرّاً»

. إشارة إلى الحذر من كون ظاهركم الإسلام وباطنكم كجفاة العصر الجاهلى بحيث يشك الصالحون بكم حين التعامل، فلو عاملوكم بصدق وأمانة خشوا من باطنكم الذى تشم منه رائحة النفاق، وإن عاملوكم كمنافقين خشوا أن يكون باطنكم طاهراً. من المعروف أنّ النعامة تحفر الرمل وتبيض هناك وهكذا تفعل الحية والأفعى، ومن هنا فإنّ الإنسان حين يرى هذه البيضة لا يعلم هل هى للأفعى تعود أم النعامة؟ فيشك فى التعامل معها! وبعبارة أخرى أنّ صورة الإنسان الجافى صورة إنسان إلّاأنّ باطنه مملوء بالشر والفساد، كالبيضة التى صورتها بيضة الطيور وباطنها حية قاتلة. وعلى هذا الضوء فقد رسم الإمام عليه السلام بهذا التشبيه الرائع صورة واضحة للمشاكل التى تفرزها التعامل مع الفرد المنافق.

نفحات الولاية ؛ ج۶ ؛ ص۲۸۸

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۸۹

القسم الثانى

افْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ. فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ، مَالَ مَعَهُ. عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِى أُمَيَّةَ، كَمَا

تَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ يُؤَلِّفُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكاماً كَرُكَامِ السَّحابِ؛ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَاباً. يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ، وَلَاحِدَابُ أَرْضٍ. يُذَعْذِعُهُمُ اللَّهُ فِى بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِى دِيَارِ قَوْمٍ. وَايْمُ اللَّهِ، لَيَذُوبَنَّ مَا فِى أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ، كَمَا تَذُوبُ الْأَلْيَةُ عَلَى النَّارِ.

الشرح والتفسير: المصير الأسود لبنى أمية

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى المصير الباهر لأصحابه إلى جانب النهاية المفجعة فقال:

«افْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ»

فمنهم من التحق بالخوارج وقف فى وجه الإمام عليه السلام ومنهم من أصابه الشك واعتزل عن الجماعة، ومع ذلك فإنّ هناك بعض أصحابه

«فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ، مَالَ مَعَهُ»

. فهذه إشارة إلى طائفة ثبتت على الحق وتمسكت بالثقلين (الكتاب والعترة) وتعلقوا بغصن شجرة النبوة المتمثل بأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام فانطلقوا خلفهم لرضى اللّه. نعم؛ ذهب البعض إلى أنّ هذه العبارة إشارة إلى فئة منحرفة أيضاً، والحال تفيد العبارات القادمة أنّ المعنى الأول هو الصحيح. لأنّ الإمام قال لاحقاً:

«عَلَى أَنَّ اللَّهَ

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۹۰

تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِى أُمَيَّةَ، كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعُ ۵۴۸] الْخَرِيفِ ۵۴۹]»

. ثم قال:

«يُؤَلِّفُ

اللَّهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَاماً[۵۵۰] كَرُكَامِ السَّحَابِ؛ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَاباً».

ثم واصل عليه السلام كلامه ليبين كيف سيواجه اتباع أهل البيت عليهم السلام ظلمة بنى أمية فقال:

«يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ ۵۵۱] كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ[۵۵۲]، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ[۵۵۳]، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ ۵۵۴] رَصُّ ۵۵۵] طَوْدٍ[۵۵۶]، وَلَاحِدَابُ ۵۵۷] أَرْضٍ»

. ما ورد فى هذه العبارة إشارة إلى قوم سبأ الذين عاشوا فى اليمن وبنوا سداً عظيماً بين جبلين يعرف بسد مارب منعوا السيول واستفادوا من ماء السد فى بناء جنتين عظيمتين على جانبى نهر كان يجرى هناك، فعاشوا حياة مرفهة وادعة، إلّاأنّ جحودهم وبطر نعمتهم وغرورهم عرّضهم لأليم العقاب.

إنهار السد عند الليل فأتى السيل على جنّتيهم وأحال أرضهم خراباً فاضطر من تبقى منهم للهجرة. وسيكون أتباع أهل البيت عليهم السلام بمثابة السيل الذى يدمر ظلمة بنى أمية ويخربون بيوتهم ويقضون عليهم ويهاجر من يبقى منهم.

ثم شبه الإمام عليه السلام هذه الجماعة المدافعة عن الحق فيما بعد زوال بنى أمية بالماء المطمور فى الأرض والذى ينبع كعيون جارية فى البناء والعمران، فقال:

«يُذَعْذِعُهُمُ ۵۵۸] اللَّهُ فِى بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ ۵۵۹]، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۲۹۱

قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِى دِيَارِ قَوْمٍ»

. ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة احتمالًا آخر لتفسير العبارة المذكورة ومرجع الضمائر، ولا نرى حاجة لذكره سيما لعدم انسجامه مع العبارات السابقة واللاحقة. نعم؛ فأتباع أهل البيت عليهم السلام ينطلقون بادىء الأمر كالسيل الذى يحطم قصور بنى أمية كما حطم السيل عروش الظلمة فى سبأ، وسيطيحون بدولتهم، فيتفرقون فى كل مكان ويكونوا كعيون الماء فى إقامتهم للعدل والقسط.

وأخيراً أقسم الإمام عليه السلام قائلًا:

«وَايْمُ اللَّهِ، لَيَذُوبَنَّ مَا فِى أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ، كَمَا تَذُوبُ الْأَلْيَةُ[۵۶۰] عَلَى النَّارِ»

. والتشبيه المذكور إشارة إلى أنّ بنى أمية وإن ترهلوا على عهد حكومتهم، إلّاأنّ أعداءَهم سيكونون عليهم كالنار فيذيبون أجسادهم كما يذاب الشحم فى النار، يذوب أولًا ثم يحترق ولا تبقى له باقية. وقد اختلف شرّاح نهج البلاغة بشأن من يسلط على بنى أمية ويطيح بحكومتهم الظالمة وينتصر للمظلوم منهم؛ قيل المراد بهم بنو عباس، وقيل الشيعة الذين قاموا ضد بنى أمية، والظاهر أنّ كلاهما يعود إلى معنى واحد، لأننا نعلم أنّ قيام بنى العباس انطلق باسم العلويين وإن انحرف عن مساره وجعلوه لبنى العباس خاصة فساروا على نهج بنى أمية حتى قضى عليهم.

تأمّل: ثورات دامية ضد بنى أمية

دوّت أصداء شهادة الإمام الحسين عليه السلام وصحبه فى كربلاء فى أرجاء العالم الإسلامى وألبّت العديد من المسلمين على بنى أمية. وقد نال أغلبهم الشهادة بسبب

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۹۲

سطوة بنى أمية، بينما انتصر البعض الآخر لمدّة قصيرة. وقد ذكرنا هذه الثورات التى بلغ عددها خمسة عشر فى الجزء الثالث من هذا الكتاب،[۵۶۱] وكان آخرها قيام أبو مسلم الخراسانى والذى أدّى إلى سقوط دولة بنى أمية. وخلافاً لما يتصوره البعض فإنّ أبا مسلم وصحبه لم يثوروا لأجل بنى عباس، بل اجتمع بادىء الأمر عدد من زعماء الشيعة عند أبى‌مسلم- وكان رجلًا شجاعاً- فى خراسان وعزموا على مواجهة آخر خلفاء بنى‌أمية (مروان الحمار) وإقامة حكومة آل محمد وكان شعارهم

«الرضا لآل محمد»

ولم تمض مدّة حتى سيطر أبو مسلم على خراسان وأغلب مناطق إيران. ورغم محاولة إبراهيم الإمام وهو من بنى العباس للتقرب منه وكذلك عبد اللَّه بن محمد المعروف بالسفاح وأبو جعفر المنصور- وكلاهما أخ لإبراهيم الإمام- إلّاأنّه لم يرض بذلك. ومن هنا قام عامله على الكوفة أبو سلمة حين وصله الأخوة الثلاثة باخفائهم فى موضع ليتزعم المسلمين أحد أبناء على عليه السلام فبعث بثلاثة كتب إلى المدينة؛ إلى الإمام الصادق عليه السلام وعبد اللَّه بن الحسن وعمر بن على بن الحسين وأوصى رسوله أن يبتدىء بالصادق عليه السلام فإن وافق لا يسلم الرسالتين. وحيث كان الإمام عليه السلام يعلم بالمؤامرات الخفية حتى على أبى مسلم فلم يجب الدعوة، وهكذا عبد اللَّه وعمر تبعاً للإمام الصادق عليه السلام. لكن قبل أن يعود رسول أبى سلمة إلى الكوفة علم جماعة من أهل خراسان بموضع السفاح وأخويه فبايعوه، فما كان من أبى مسلم إلّاأن إلتحق بهم، حتى وصلت الحكومة لبنى العباس بعد قتال شديد بينهم وبين أتباع عبد اللَّه بن على عم المنصور، فوُلّىَ المنصور الخلافة بعد أبى العباس السفاح، فأحضر أبا مسلم إلى بغداد وقتله وفق خطة معدة سلفاً، لعله كان يعلم بأنّ أبا مسلم من أتباع آل على عليه السلام لا بنى العباس، فكان يراه خطراً يهدد حكومتهم ۵۶۲]. ذكر العلّامة المجلسى رواية بهذا الخصوص عن الإمام على عليه السلام أنّ جيش الشام هجم يوماً فى صفين على جند العراق ففرقهم عن

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۹۳

ميمنتهم وكان مالك الأشتر (رضوان اللَّه تعالى عليه) يدعوهم إلى الرجوع. فكان الإمام عليه السلام يصيح فى وجه جيش الشام: خذهم يا أبا مسلم ويكرر ذلك ثلاثاً. فقال الأشتر: أوَليس أبو مسلم فى جيش الشام؟ قال الإمام عليه السلام: لا أقصد أبا مسلم

الخولانى، بل أبا مسلم رجل يظهر من مشرق الأرض يهلك اللّه الأمويين على يده ويطيح بدولتهم ۵۶۳]. طبعاً شخصية أبى مسلم وإن كانت تعيش نوعاً من التعقيد على ضوء النظرة التاريخية، إلّاأنّ هنالك من يراه من أتباع أهل البيت عليهم السلام ويكنون له الاحترام، وعلى العكس، هنالك من يراه من أعدائهم ويقول بجواز لعنه. والمسلّم به أنّ قيامه كان فى بادىء الأمر لنصرة آل محمد وكان أنصاره من الشيعة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۹۵

القسم الثالث

أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِىَ عَلَيْكُمْ. لكِنَّكُمْ تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِى إِسْرائِيلَ. وَلَعَمْرِى، لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِى أَضْعَافاً بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَراءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأَدْنى وَوَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِىَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفِيتُمْ مَؤُونَةَ الاعْتِسَافِ، وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ.

الشرح والتفسير: عامل التخلف

خاض الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة- الذى هو آخرها- بعد بيانه لمصير بنى أمية الأسود فى بيان مصير فئة من أتباع الحق التى ضعفت عن نصرته فتسلط عليها عدوها فكانت عاقبتها كعاقبة بنى إسرائيل، فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِىَ عَلَيْكُمْ»

. هذا الكلام إشارة إلى حكومة معاوية وتسلطه وصحبه على أصحاب الإمام عليه السلام على عهده (بصورة محدودة) ومن بعده (دون حدود). وما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه العبارة لا يختص بزمان ومكان معين، بل هو أصل كلّى للأعصار والأمصار كافة فى أن تنامى الباطل معلول لضعف أتباع الحق.

ثم واصل عليه السلام كلامه بتشبيه تلك الفئة ببنى إسرائيل أثر إبتعادهم عن الحق وتيههم

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۹۶

(فى صحراء سيناء) فقال:

«لكِنَّكُمْ تِهْتُمْ ۵۶۴] مَتَاهَ بَنِى إِسْرائِيلَ. وَلَعَمْرِى، لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ

التِّيهُ مِنْ بَعْدِى أَضْعَافاً[۵۶۵] بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَراءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأَدْنى وَوَصَلْتُمُ

الْأَبْعَدَ»

. ثم أوضح فى الختام سبيل النجاة وذكرهم بأنّ باب العودة إلى الحق مفتوح على الدوام فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِىَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفِيتُمْ مَؤُونَةَ الاعْتِسَافِ ۵۶۶]، وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ ۵۶۷] عَنِ الْأَعْنَاقِ».

تأمّل: بنو اسرائيل

...

شبه الإمام عليه السلام بالعبارة المذكورة طائفة من المسلمين الذين حادوا عن الحق واحتاروا كبنى إسرائيل الذين تاهوا فى الصحراء أثر عنادهم وعدم استجابتهم لنبيهم موسى عليه السلام، بجهاد غاصبى بيت المقدس. وقد نقل بعض شرّاح نهج البلاغة رواية عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«لتركبنّ سَنَنَ مَن كان قبلكم حذو النعل النعل، والقذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا حُجر ضبّ ضبّ لدخلتموه، فقيل: يا رسول اللَّه اليهود والنصارى؟ قال: فمن إذن»[۵۶۸]

. وبغض النظر عن الإشكال الذى يرد على اسناد الروايه، فإنّ تطبيقها على الواقع لا يخلو من إشكال أيضاً، وعلى فرض صحة الرواية فإنّه يمكن حملها على الغالب. إشارة إلى أنّ أغلب الحوادث المريرة التى شهدتها الأقوام السابقة سيشهدها المسلمون، ويعيد التاريخ نفسه، ذلك لأنّ الأسباب المتشابهة تتطلب مسببات متشابهة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۹۷

الخطبة ۱۵۶

اشارة

فِى أوائِلِ خِلَافَتِهِ ۵۶۹]

نظرة إلى الخطبة

تتضمن هذه الخطبة عدّة مواضع وإرشادات بحيث ربّما يُتصور عدم وجود الترابط بين أقسام الخطبة، ولعل المرحوم السيد الرضى اقتطف هذه الخطبة من خطبة أطول خَطبها الإمام أوائل خلافته.

على كل حال فإنّ الخطبة تتكون من خمسة أقسام رئيسية:

القسم الأول: يتحدث عن عظمة القرآن الكريم وهدايته والتأكيد على اتّباعه.

القسم الثانى: التأكيد على إتيان الفرائض والعمل بالواجبات وترك المحرمات.

القسم الثالث: أهميّة حقوق المسلمين وحفظ كرامتهم وترك أذاهم.

القسم الرابع: يوصى فيه الإمام عليه السلام بالاستعداد للموت والقيامة والتزود للآخرة.

القسم الخامس: التأكيد على التقوى وطاعة اللَّه.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۲۹۹

القسم الأول

إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا.

الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِى مَعَاقِدِهَا، «فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أذَى الْمُسْلِمِ إلَّا بِمَا يَجِبُ.

الشرح والتفسير: معرفة سبيل الحق

أكد الإمام على ضرورة الالتزام بالقرآن والعمل بتعاليمه بصفته المصدر الرئيسى للتعاليم الإسلامية وتبيان كل خير وإحسان، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ ۵۷۰] الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا[۵۷۱] عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ

تَقْصِدُوا»

. فهذا الكلام يدل على أنّ جميع أصول الخير والشر والواجبات والمحرمات والفضائل والرذائل والعقائد الصحيحة والمنحرفة إنّما بُيّنت فى القرآن الكريم، وهو فى الواقع تعبير آخر عن

«تبيان كل شيء»

الذى ورد فى القرآن وإن فوض شرحه إلى سنة المعصومين عليهم السلام.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۰۰

ثم أكد الإمام عليه السلام من بين كل الفضائل على الفرائض والواجبات، فقال:

«الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ»

. إشارة إلى إن الخيرات التى دعى إليها القرآن على نوعين، واجبة وغير واجبة (مستحبات وفضائل) وعليكم قبل كل شيء بأداء الواجبات فإن شعرتم بقوّة فأتوا بالمستحبات؛ ذلك لأنّ ما يأخذ بيد الإنسان قبل كل شيء إلى الجنّة، أداء الفرائض والواجبات. طبعاً الفرائض تشمل العبادات والواجبات الأخرى التى أوجبها اللَّه على الإنسان فيما يتعلق بنفسه أو الآخرين.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة كأنّها دليل على العبارة السابقة، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَدْخُولٍ [۵۷۲]»

. إنّها عبارة لطيفة تشير إلى مصالح ومفاسد الأحكام الشرعية التى اعتبرها الحكيم فى الواجبات والمحرمات، بعبارة أخرى رغم وجوب طاعة أوامر اللَّه فى الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، إلّاأنّ هذه الطاعة ليست عمياء، ذلك لأنّ جميع الواجبات تشتمل على مصالح، بينما تنطوى المحرمات على مفاسد تعود على نفس العباد: «يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ»[۵۷۳] ولما كانت رعاية حقوق المسلمين وحفظ حرمتهم لا تقل أهميّة عن الفرائض والواجبات، فقد قال عليه السلام:

«وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ ۵۷۴] كُلِّهَا،

وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِى مَعَاقِدِهَا[۵۷۵]».

إنّ أدنى نظرة إجمالية على الكتب الفقهية كافة- من العبادات إلى الحدود والديات- لتشهد على صدق هذا المعنى فى أنّ الإسلام أولى أهميّة عظيمة لحرمة

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۰۱

المسلمين وحقوقهم، حتى وقف الإمام الكاظم عليه السلام أمام الكعبة، وقال:

«مَا أَعْظَمَ حَقَّكِ يا كَعْبَةُ وَاللَّهِ إِنَّ حَقَّ الْمُؤْمِنِ لَاعْظَمُ مِنْ حَقِّكَ»[۵۷۶]

وعبارة الإمام عليه السلام تشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ الإنسان الموحد والمخلص من يراعى حقوق المسلمين، وهذا ما قال به أغلب شرّاح نهج البلاغة، كما يحتمل أن يكون المراد ضرورة حرمة حقوق كل مسلم، لا إخلاصه وتوحيده (الإخلاص والتوحيد فى التفسير الأول صفة للمحافظين وصفة للمحفوظين فى التفسير الثانى). التفسير الثالث أن يكون احترام حقوق المسلمين فى مصاف الإخلاص والتوحيد.

ثم أضاف عليه السلام كنتيجة

« «فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ»

. فاستنتاج الإمام عليه السلام هذا يفيد أنّ التفسير الأول هو الأنسب للعبارة السابقة من التفاسير الأخرى لأننا إن اعتبرنا حفظ حقوق المسلمين علامة إخلاص وتوحيد الحافظين لهذه الحقوق فإنّ نتيجة ذلك ستكون:

المسلم من سلم الناس من لسانه ويده. جدير بالذكر أنّ العبارة

«إِلّا بِالْحَقِّ»

والأخرى

«إِلّا بِما يَجِبُ»

أن تكون الأولى: إشارة إلى عدم جواز أذى المسلمين ما لم يكن هنالك من مجوز من قبيل العقوبات والحدود الإسلامية والتعزيرات، والثانية: إشارة إلى الإكتفاء بالمقدار الذى أجازه اللّه من حيث الكمية والكيفية على فرض الجواز. ورد فى بعض الروايات أنّ قنبراً ورغم مكانته عند الإمام عليه السلام غلط فى حدّ رجل فأضاف ثلاثاً، فأخذ الإمام عليه السلام بالقصاص منه:

«إنَّ اميرَالْمُؤْمِنينَ امَرَ قَنْبراً أنْ يَضْرِبَ رَجُلًا حَدّاً فَغَلِطَ قَنْبَرٌ فَزادَهُ ثَلاثَةَ أَسْواطٍ فَأَقادَهُ عَلِيٌّ عليه السلام مِنْ قَنْبَرٍ بِثَلاثَةِ أَسْواطٍ»[۵۷۷].

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۳۰۳

القسم الثانى

بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ، تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّما يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ.

اتَّقُوا اللّهَ فِى عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهائِمِ.

أَطِيعُوا اللّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

الشرح والتفسير: المسؤولية الشاملة

واصل الإمام عليه السلام مواعضه السابقة بتذكير القوم بالموت والتأكيد على الورع والتقوى أفضل زاد إلى الآخرة فقال:

«بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ ۵۷۸] مِنْ خَلْفِكُمْ»

. المراد من الأمر العام والخاص الموت، لأننا إذا نظرنا إلى عامة المجتمع البشرى نرى الموت مصير الجميع، وعليه فللموت بعد عام، وإن نظرنا لأنفسنا فقط فإننا نرى الموت حاضراً آخر أعمارنا، فله على هذا الأساس بعد خاص. واستناداً إلى تفسير الإمام عليه السلام بقوله:

«وَهُوَ الْمَوْتُ»[۵۷۹]

فلا يبقى مجال للشك فى تفسيرنا، والعجيب ما ذهب إليه بعض شرّاح نهج البلاغة من تفسيرهم للعبارة

«بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ»

بإصلاح شؤون

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۳۰۴

المجتمع. العبارات القادمة أيضاً تشير إلى أنّ ما ورد فى هذه العبارة يتعلق بالموت ونهاية الحياة، لا إصلاح المجتمع البشرى والذى يعتبره مقولة أخرى نعم؛ هنالك دليلان على حقانيةالموت- على أنّه قانون عام- أحدهما: إننا نرى بأُم أعيننا الأفراد الذين كانوا سابقاً بيننا وقد التحقوا بهذه القافلة ونحمل أجسادهم الخالية من الروح على أكتافنا ونواريهم الثرى ونعود، فهل من فارق بيننا وبينهم أنّهم يمضون ونبقى؟!

والآخر: إنّ علامات الحركة باتجاه نهاية حياتنا الواحد بعد الآخر واضحة من قبيل الشيخوخة والعجز والمشيب وكسل الاعضاء. فهل يسع عاقل بعد هذين الدليلين أن يشعر باستثناء من هذا القانون؟

ثم خاض الإمام عليه السلام فى هذه النتيجة بناءً على ما ورد فى السابق وطالما كان الأمر كذلك قال:

«تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكَمْ آخِرُكُمْ»

. أجل، إنّ سفر الآخرة سفر شاق ومتعب ولا يجتاز مطباته سوى المخفين، أولئك الذين قنعوا بالكفاف فى الحياة الدنيا وغضوا الطرف عن جمع الثروة والعيش الرغيد الملئ بالكماليات، على غرار المسافر الذى يحمل معه ما يكفيه من الطعام للسفر فيمر بسهولة، بينما لا يسع المثقل إلّاالتخلف عن الركب والقافلة. روى المرحوم السيد الرضى، العبارة الأخيرة باختلاف طفيف فى الخطبة ۲۱ وقال: إنّ العبارة

«تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا»

ما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولًا، وما أبعد غورها من كلمة. وقد قدمنا من جانبنا شرحاً وافياً بهذا الشأن [۵۸۰].

وحيث يتطلب سفر الآخرة زاداً ومتاعاً وخيره التقوى على لسان القرآن: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»[۵۸۱].

فقد واصل الإمام عليه السلام كلامه داعياً الجميع إلى التقوى فقال:

«اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ [۵۸۲] وَالْبَهائِمِ [۵۸۳]».

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۳۰۵

ومفهوم التقوى فى العباد واضح يتمثل فى ترك آذاهم وحفظ حقوقهم ورعاية حرماتهم، أمّا تقوى البلاد فالسعى لإعمارها واجتناب تخريبها وعدم تلويث محيطها. وأمّا المسؤولية إزاء البهائم وعدم إيذائها عبثاً وتحميلها فوق طاقتها وتوفير متطلباتها من الغذاء والماء والدواء، وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة فى تفسيرهم للمسؤولية فى البقاع فى عدم السكن فى بلدان الكفر التى يتعذر فيها القيام بالوظائف الدينية وعدم تشييد القصور الضخمة للتطاول على الآخرين وحب الظهور. إلّاأنّ الصحيح ما أوردناه من تفسير، والشاهد على ذلك، الروايات التى سنذكرها فى المبحث القادم. ولما كان مفهوم التقوى ربّما يبدو معقداً للبعض فقد كشف الإمام عليه السلام عن حقيقته بوضوح، فقال:

«أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ»

. والجدير بالذكر أنّ بداية ونهاية الخطبة تتحد فى خصوص الخير والشر، حيث أشار فى مستهل الخطبة إلى مصدر الخير الذى يكمن فى الرجوع إلى القرآن.

تأمّل: سلامة البيئة وحماية الحيوانات فى الإسلام

إنّ التطور الصناعى ورغم فوائده الجمّة للبشرية، إلّاأنّه أخذ يهدد بالصميم سلامة البيئة وتلوثها، وهذا ما يهدد بدوره العديد من الكائنات ويعرضها إلى خطر الزوال، وإن استفيد من الأسلحة الفتاكة ولا سيما أسلحة الدمار الشامل فإنّ حجم الكارثة يبدو مفجعاً، ومن هنا هبّ عالمنا المعاصر لأخذ التدابير اللازمة بغية الحفاظ على سلامة البيئة والحيلولة دون انقطاع نسل الحيوانات، على الرغم من العراقيل التى يضعها أصحاب رؤوس الأموال الذين لا يفكرون سوى فى التنمية لثرواتهم فحدّوا من نشاطات الفرق القائمة على أساس تطهير البيئة ولا يعلم بعمق الفاجعة التى ستشهدها الأجيال القادمة. أمّا زعماء الإسلام وحماة الدين فقد أكدوا

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۳۰۶

على هذا الموضوع قبل ألف سنة، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى الخطبة المذكورة شاهد على ذلك، كما وردت عدّة روايات عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام بهذا الخصوص حيث أكدوا على هذه المسألة المهمّة، ومن تلك الروايات أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله رأى ناقة نائمة وجهازها على ظهرها بينما قيدت رجلها (والحال يجب أن تستريح الدابة فلا يبقى شىء على ظهرها) فقال:

«أَيْنَ صاحِبُهَا؟ مُرُوهُ فَلْيَسْتَعِدَّ غَداً لِلْخُصُومَةِ»[۵۸۴].

وروى عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«لَا تَتَوَرَّكُوا عَلَى الدَّوَابِّ وَلَا تَتَّخِذُوا ظُهُورَهَا مَجالِسَ»[۵۸۵]

إشارة إلى أنّكم إن رأيتم أصحابكم وأنتم على ظهر الدابة فأنزلوا لتتحدثوا معهم فإنّ تمّ حديثكم فاركبوا[۵۸۶].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«لِلدَّابَّةِ عَلَى صاحِبِها سِتَّةُ حُقوقٍ لَايُحَمِّلُها فَوْقَ طاقَتِها وَلَا يَتَّخِذُ ظَهْرَها مَجالِسَ يَتَحَدَّثُ عَلَيْها وَيَبْدَأُ بِعَلْفِها اذا نَزَلَ وَلَا يَسِمُها وَلَا يَضْرِبُها فِي وَجْهِها فَإِنَّها تُسَبِّحُ وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ إِذَا مَرَّ بِهِ»[۵۸۷]

. فهذه الروايات وغيرها تفيد مدى دقة الإسلام فى مجال حماية الحيوانات ورعاية حقوقها، ولا نرى دينا كالإسلام أوصى بهذه التعاليم. أمّا بشأن عدم تلويث البيئة فقد ورد النهى عن تلويث مياه الأنهار وكذلك تحت الأشجار المثمرة ومقابل أبواب الدور وموضع نزول القوافل وأطراف المساجد[۵۸۸]. كما ورد فى الوصايا الحربية عدم قطع الأشجار أو حرقها أو ردم عيون الماء والنهى عن تلويث مياه الأعداء[۵۸۹].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۰۷

الخطبة ۱۶۸

اشارة

بَعْدَما بُويِعَ بِالْخِلَافَةِ

وَقَدْ قَالَ لَهُ قَوْمٌ مِنَ الصَّحابَةِ: لَوْ عَاقَبْتَ قَوْماً مِمَّنْ أجْلَبَ على عُثْمانَ؟ فقال عليه السلام:[۵۹۰]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد آنفاً فإنّ قوماً من الصحابة طلبوا من الإمام عليه السلام بعد أن بويع بالخلافة أن يعاقب أولئك الذين ثاروا على عثمان وقتلوه، فأقنعهم الإمام عليه السلام بأنّ ذلك ليس فى أوانه، لأنّهم متّحدون وخلفهم اناس كثيرون، يقفون بوجه كل من يقف ضدهم ولا يتحرجون من عمل.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۰۹

القسم الأول

يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّی لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلكِنْ كَيْفَ لِی بِقُوَّةٍ وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ! وَهَاهُمْ هؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَالْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاؤُوا؛ وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَیْءٍ تُرِيدُونَهُ! إِنَّ هذَا الْأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً. إِنَّ النَّاسَ مِنْ هذَا الْأَمْرِ- إِذَا حُرِّكَ- عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى ما لَاتَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ لَاتَرَى هذَا وَلَا ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً؛ فَاهْدَؤُوا عَنِّی، وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِی، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مُنَّةً، وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً. وَسَأُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّواءِ الْكَیُّ.

الشرح والتفسير: أسباب تأخير عقوبة قتلة عثمان

هـذه الخطبـة، كمـا ذكر، ردّ على بعض أصـحاب الإمـام عليه السـلام الـذين طـالبوه بالقصـاص من قتلـة عثمان، حيث تطرق إلى هـذا الموضوع على ضوء تحليل دقيق، فقال:

«يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّى لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلكِنْ كَيْفَ لِى بِقُوَّةٍ»

. عـادة مـا يتصور البعض أنّه توصـل إلى قضـية لو إهتم بهـا الحـاكم لكانت لصالـح المجتمع الإسـلامى، والواقع أنّهم يرون شـيئاً دون ملاحظـة ملابساته، فهنالك حالـة من الغموض فى القضـية يجهلونه. ومن هنا أردف الإمام عليه السـلام عبارته السابقة بشـرح للظروف الاجتماعية

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۱۰

القائمة آنذاك ليتضح لهم عدم عملية اقتراحهم، فقال:

«وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ ۵۹۱] عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ!»

. كيف يمكن الوقوف بوجه فئـة متحـدة وغاضبـة أوائل الخلافـة؟ وهل هناك سوى سـفك المزيد من الدماء دون جدوى؟! والشاهد على ذلك ما رواه بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام جمع الناس ووعظهم.

ثم قال:

«لتقم قلتة عثمان»

فقام الجميع سوى قلة قليلة[۵۹۲]. ثم أشار عليه السلام إلى نقطة أخرى فقال:

«وَهَاهُمْ هؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَالْتَفَّتْ إِلَيهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ ۵۹۳] مَا شَاؤُوا»

. يستفاد من هذه العبارات أنّ الثورة ضد عثمان كانت متجذرة وقد أسهم المحرومون فيها بصورة واضحة.

ثم قال عليه السلام

«وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَىْءٍ تُرِيدُونَهُ!»

. إشارة إلى أنّكم لا تستطيعون القيام بعمل فى ظل هذه الظروف ولا أنا. ومارس عليه السلام تحليلًا آخر للتأكيد على هذا الأمر، فقال:

«إِنَّ هذَا الْأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً»

. إشـارة إلى أنّه إن وجب مؤاخـذة عثمـان لسوء تصـرفه فى بيت مـال المسـلمين وتسـليطه فسـاق القوم على رقاب المسـلمين وإغـداق المناصب عليهم، فلابدّ أن تتمّ من خلال الطرق الشرعية وقضاة العدل، ونتيجة العمل غير المدروس إنّما هو ضرب من ضروب الأنشطة الجاهليـة، وقوله: إنّ لهؤلاء القوم مادة، تأكيد لتلك الحقيقة التى ذكرها فى العبارة السابقة من أنّ تلك الفئة ليست وحيدة فى الساحة، بل يقف خلفها الأعراب وطائفة من الساسة المحترفين المتعطشين للمناصب، وعليه فليس من المصلحة الإصطدام بها.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۱۱

كما واصل كلامه بأنّ الاشتباك مع قتلة عثمان يؤدّى إلى تفرقة صفوف المجتمع، فقال:

«إِنَّ النَّاسَ مِنْ هـذَا الْأَمْرِ- إِذَا حُرِّكَ- عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَـةٌ تَرَى ما لَاتَرَوْنَ، وَفِرْقَـةٌ لَاتَرَى هـذَا وَلَا ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ[۵۹۴] النَّاسُ، وَتَقَعَ

الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً[۵۹۵]».

ثم أورد تأكيداً آخر:

«فَاهْدَؤُوا عَنِّى، وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِى، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ ۵۹۶] قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مُنَّةً[۵۹۷]، وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً»

. إشـارة إلى أنّ عـدم التـأنى فى القضايـا الاجتماعيـة ربّمـا يعطى نتائـج معكوسـة، فلا ينبغى القيام بفعل دون توفر شـروطه، ذلك لأنّ الاخفاق فيه يؤدّىالذلة والهوان. كما ورد شبيه ذلك فى الخطبة الخامسة:

«وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِيناعِها كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ ارْضِهِ»[۵۹۸].

وأخيراً اختتم الخطبة بهاتين العبارتين:

«وَسَأُمْسِکُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَکَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّواءِ الْکَیُ ۵۹۹]»

. ربّما تكون هـذه العبارة بفعل ضغوط طلبة الثأر لدم عثمان، حيث قال عليه السلام: سأصمد ولن ألجأ إلى السيف، لكن إن شعرت بغلق أبواب السلام فسأضطر إلى القوّة وأنهى التمرد. الاحتمال الآخر أنّ هذه العبارة إشارة إلى أولئك الذين تذرّعوا بدم عثمان ليقفوا بوجه الإمام عليه السلام كطلحة والزبير. فصرّح الإمام عليه السلام بإنّه سيعاملهم بالطرق السلمية وإلّا لجأ إلى القوة. طبعاً لا يبدو هذا الاحتمال منسجماً مع الخطبة، حيث لم ترد أدنى إشارة فى الكلام إلى طلحة والزبير وأمثالهما، إلّاأن يكون السيد الرضى قد حذف بعض الكلمات، وهذا أيضاً يبدو مستبعداً. أمّا العبارة

«فَآخِرُ الدَّواءِ الْکَیُّ»

فهو مثل معروف ورد فى الأصل بشأن

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۳۱۲

الجروح الخطيرة حيث كانوا يسلكون عدّة طرق لعلاجها فإن لم تنفع أحرقوا الجرح بحديد ساخن، ثم أصبحت هذه الجملة كناية عن القضايا المشابهة، وعليه تستعمل هذه العبارة حين تغلق الطرق السلمية كافة[۶۰۰].

تأمّلان

۱. معوقات العدالة

ما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة مطلب جدى، لا كما تصور البعض أنّه يهدف إلى إسكات المقابل. حقّاً كان الثائرون على عثمان آنذاك أشداء، حتى لم يجرأ على مجابهتهم حين قتلهم لعثمان بعض الصحابة الموالين له. والأهم من ذلك أنّ معاوية حين تسلّم الخلافة وعبء كل طاقاته للمطالبة بدم عثمان، لم يستطع مواجهة قتلة عثمان فضلًا عن التعرف عليهم، بل لما ورد معاوية المدينة وسيطر على الأوضاع اتّجه إلى دار عثمان، فصاحت بنته عائشة: أينك يا أبى؟ ومرادها الثأر من قتلة عثمان. فرد عليها معاوية بأنّ الناس قد استسلموا لنا وأعطيناهم الأمان وقد حملناهم على الحلم وسيوفنا لم تغمد، فإن نقضنا عهدنا نقضوا عهدهم ولا ندرى ينفعنا ذلك أم يضرنا (فالأولى أن نسكت ولا- تضعف خلافتنا) وأنت بنت عمّ الخليفة خير لك أن تكونى من عوّام النساء، أى إن زالت خلافتى فسوف لن تكونى أكثر من امرأة عادية[۶۰۱].

۲. إشكال الثوار

لا شك فى أنّ الثورة التى قامت ضد عثمان كانت متجذرة، ذلك لأنّ أنصار عثمان وبطانته لم يكونوا قلائل فى المدينة. لم يتمكنوا من الوقوف بوجههم واكتفى

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۳۱۳

المهاجرون والأنصار بالنظر إلى الأحداث. وسبب ذلك واضح، فقل من كان راضياً بحكومة عثمان واقتصر هذا على قرابته وبطانته التى عبثت ببيت المال وتسلطت على رقاب الناس. وأنّ كل محقق منصف لا يرى من مبرر لما وقع من أعمال على عهد خلافة عثمان. فقد كان من الأجدر بكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار أن يقتادوه إلى القضاء، تجنباً لغضب الأُمّة ومباشرتها لوضع حد لأعمال عثمان. وعليه فالإشكال الرئيسى الذى يرد على الثوار أنّهم تصرفوا بعيداً عن قوانين الإسلام القضائية، وقد لمسنا دور الإمام عليه السلام

إبان محاصرة عثمان وامتصاصه لنقمة غضب الناس وأمره الحسن والحسين بالدفاع عن عثمان. ونخلص ممّا سبق إلى أنّ جواب الإمام عليه السلام في هذه الخطبة كان دقيقاً ينسجم وروح الأحكام الشرعية والقضائية في الإسلام.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۱۵

الخطبة ۱۶۹

اشارة

عِنْدَ مَسِيرِ أَصْحَابِ الجَمَلِ إلى البَصْرَةِ

الأُمورُ الْجَامِعَةُ لِلْمُسْلِمِينَ ۶۰۲]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من قسمين:

القسم الأول: دعوة الناس إلى طاعة الحكومة الإسلامية عقب اتباع القرآن الكريم ونبذ البدع المضلة، ويحذرهم من أنّ اللّه يسلبهم النعمة إن لم يطيعوه، وبالتالى يعدهم لمواجهة الناكثين.

القسم الثانى: أشار فيه إلى اتحاد أعداء الحق رغم اختلافهم وإجماعهم على الوقوف بوجه الإمام عليه السلام وأنّه سيصبر فإن أصرّوا على غرضهم في القضاء على النظام الإسلامى فسأقف بوجههم بكل حزم.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۱۷

القسم الأول

إِنَّ اللّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لَايَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ.

وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللّهُ مِنْهَا. وَإِنَّ فِى سُلْطَانِ اللّهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا.

وَاللّهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَايَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ.

الشرح والتفسير: القيام أو زوال الحكومة الإسلامية

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة حين علم باتحاد الناكثين واقامتهم حكومة في البصرة مناوئة لحكومته العادلة عليه السلام وقد انطلقوا إلى البصرة. وهدف الإمام عليه السلام من هذه الخطبة تعبئة الناس لمواجهتهم. دعاهم بادىء الأمر إلى التمسك بالقرآن، فقال:

«إِنَّ اللّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لَايَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ ۶۰۳]»

. ثم حذرهم قائلًا:

«وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ ۶۰۴] الْمُشَبَّهَاتِ ۶۰۵] هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللّهُ مِنْهَا».

إشارة إلى أنّ رؤوس الفتنة بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله يسعون إلى تحقيق أهدافهم الخبيثة

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۱۸

تحت غطاء الإسلام، كأن يغفلوا نكثهم البيعة بالمطالبة بدم عثمان. وعليه، ينبغى التحلى باليقظة وعدم الانخداع بالظواهر والتوكل على اللّه.

ثم دعاهم إلى الطاعة فقال:

«وَإِنَّ فِی سُلْطَانِ اللَّهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَیْرَ مُلَوَّمَةٍ[۶۰۶] وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا. وَاللَّهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَیَنْقُلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَایَنْقُلُهُ إِلَیْكُم أَبَداً حَتَّی یَأْرِزَ[۶۰۷] الْأَمْرُ إِلَی غَیْرِكُمْ».

نعم، إنّ هذه النعمة عقوبتها الزوال إن لم تُشكر، وهكذا شأن سائر النعم: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِی لَشَدِیدٌ»[۶۰۸] وما يستفاد من العبادة المذكورة (بناءً على أن «حتى» للغاية) أنّكم إن لم تطيعوا إمام الحق، فإنّ اللّه يسلبكم نعمة الحكومة الإسلامية ولا تعود إليكم، إلّاأنّ يسلط عليكم العدو وتزول حكومته ثم تعود إليكم. وقد حيرت هذه العبارة الشرّاح، ذلك لأنّ الحكومة غير الصالحة بعد الإمام كانت بيد بنى أمية ولم تعد الحكومة بعد بنى أمية لأهل البيت عليهم السلام. قال البعض عادت إلى بنى العباس وهم من بنى هاشم وعليه فقد عادت إلى أهل البيت، إلّا أنّ هذا التفسير غير مستقيم لأنّ ظلم بنى العباس لم يكن أقلّ من ظلم بنى أمية.

واحتمل البعض الآخر أنّ عودة الحكومة إلى أهل البيت عند ظهور ولى العصر أرواحنا فداه. نعم، ليست هنالك من مشكلة إن كانت (حتى) عاطفة بمعنى الواو، لأنّ معنى العبارة سيكون: إن لم تطيعوا إمام الحق سيسلبكم اللّه الحكومة الإسلامية ولا تعود إليكم وسيكون الأمر لغيركم (طبعاً المراد فى المستقبل القريب، وإلّا ليس من شك فى المستقبل البعيد لحكومة صاحب العصر والزمان عليه السلام والتى تمثل عودة الحكومة العالمية لأهل البيت عليهم السلام).

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۱۹

القسم الثانى

إِنَّ هؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَؤُوا عَلَی سَخْطَةِ إِمَارَتِی، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَی جَمَاعَتِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَی فَیَالَةِ هذَا الرَّأْیِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِینَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هذِهِ الدُّنْیَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَیْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَی أَدْبَارِهَا. وَلَكُمْ عَلَیْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَی وَسِیرَةِ رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وَآلِهِ- وَالْقِیَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ.

الشرح والتفسير: الصبر على الفتنة

بالنظر إلى ورود الخطبة فى أوائل خلافة الإمام عليه السلام وإبان السير إلى البصرة لمواجهة أصحاب الجمل فقد حثّ الإمام عليه السلام أصحابه فى القسم الأول، على الطاعة، وحذر هنا، العدو من مغبة مواصلة الفتنة وإلّا سيقف بوجههم بكل ما أوتى من قوّة فقال:

«إِنَّ هؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَؤُوا[۶۰۹] عَلَی سَخْطَةِ[۶۱۰] إِمَارَتِی»

. إشارة إلى اختلافهم ففيهم المنافق والحسود والضيق الافق (كطلحة والزبير) ولا يجمعهم سوى عدائهم لى.

ثم قال:

«وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَی جَمَاعَتِكُمْ»

. فالعبارة تشير إلى تحمل الإمام عليه السلام لذلك العدو، ويرى عدم ضرورة المبادرة إلى السيف ما لم يكن هناك خطر يهدد الجماعة، وبالطبع، هذا لا يعنى أنّ الإمام عليه السلام كان يسكت تجاه كل أعمالهم.

ومن هنا قال عليه السلام

«فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ[۶۱۱] هذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ»

. ثم

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۳۲۰

قال:

«وَإِنَّما طَلَبُوا هذِهِ الدُّنْيا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا»

. فقد أخرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الحكومة من صورتها الدنيوية والمادية ومنحها صبغة ربانية بجهود الأولياء والأصفياء، إلّاأنّ أصحاب الجمل يظنون أنّ الحكومة لقمة سائغة وطعمة هنيئة فيصرون على اقتناصها وتحقيق أغراضهم الدنيوية.

والعبارة

«حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا»

بالنظر إلى أنّ أفاء من مادة فى بمعنى العودة فإنّها تشير إلى أنّ الحكومة على عهد النبى صلى الله عليه و آله كانت فى بنى هاشم وقد عادت إليهم الآن. وإن سعى الحساد لاستعادتها واحياء سنن الجاهلية.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى حقوق الناس على الحكومة، فقال:

«وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ ۶۱۲] لِسُنَّتِهِ»

. أى إن كان لى عليكم حق (وهو حق الطاعة والانقياد التام) فلكم على حق أيضاً هو إحياء كتاب اللَّه وسنّة رسوله صلى الله عليه و آله، ذلك لأنّ للحق طرفين، وليس هنالك من حق ذى طرف واحد. جدير ذكره أنّ الخطبة بدأت وانتهت بالتأكيد على أهميّة القرآن.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۳۲۱

الخطبة ۱۷۰

اشارة

فِي وُجُوبِ اتِّباعِ الحَقِّ عِنْدَ قِيامِ الحُجَّةِ[۶۱۳]

كَلَّمَ بِهِ بَعْضَ العَرَبِ وَ قَدْ أرْسَلَهُ قَوْمٌ مِنْ أهْلِ البَصْرَةِ لَمّا قَرُبَ عليه السلام مِنْها لِيَعْلَمَ لَهُمْ مِنْهُ حَقِيقَةَ حالِهِ مَع أصْحابِ الجَمَلِ لِتَزُولَ الشُّبْهَةُ مِن نُفوسِهِم، فَبَيَّنَ لَهُ عليه السلام مِنْ أمْرِهِ مَعَهُمْ مَا عَلِمَ بِه أنَّهُ على الحَقِّ، ثُمّ قالَ لَه: بَايِعْ، فَقالَ: إنِّى رَسُولُ قَوْمٍ، وَلا أُحْدِثُ حَدَثاً حَتّى أرْجِعَ إلَيْهِم فقالَ:

نظرة إلى الخطبة

الخطبة، كما ورد، سابقاً، جواب واضح لرسول بعض قبائل أطراف الكوفة والبصرة حين طالبه الإمام عليه السلام بالبيعة وحاول التهرب منها.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۳۲۳

القسم الأول

فقال: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلَإِ وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ، مَا كُنْتَ صَانِعاً؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفَهُمْ إِلى الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ.

فَقَالَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ-: فَامْدُدْ إِذاً يَدَكَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللَّهِ مَااسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالرّجلُ يُعْرَفُ بِكُلَيْبٍ الجَرْمِيّ.

الشرح والتفسير: لماذا لاتبايع

روى الواقدى فى كتاب الجمل عن (كليب الجرمى) أنّه لما قتل عثمان ولم تمضى مدّة حتى قدم طلحة والزبير إلى البصرة (ليمهدوا السبيل أمام حكومتهما) وحين علم على عليه السلام قدم إلى منطقة ذى قار (لمنعهما). سألنى شخصان من أهل البصرة لأحملهما إلى على، لنعلم ما هدفه؟ فلما بلغنا ذى قار وجدنا علياً عليه السلام أعقل العرب، سألنى من زعيم قبيلة بنى راسب؟ قلت فلان. قال من زعيم قبيلة بنى قدامة؟ قلت فلان. قال: هل لك أن تحمل كتابى لهما؟ قلت: بلى. قال: ألا تبايعنى؟

وهنا بايع الرجلان، بينما لم أبايع، فالتفت إليَّ عدد من الرجال الذين كان عليهم سيماء الصالحين فقالوا: بايع، بايع. قال على عليه السلام: دعوه. فقلت: أنا رائد القوم فأعود إليهم وأخبرهم فإن بايعوك أُبايعك وإن لم يبايعوا، تبعتهم، فأجابنى الإمام عليه السلام جواباً لم أجد بداً من البيعة. نعود الآن إلى النصّ لنرى ماذا قال له عليه السلام لقد قال:

«أَرَأَيْتَ لَوْ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۲۴

أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً[۶۱۴] تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ

عَنِ الْكَلَإ[۶۱۵] وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلى الْمَعَاطِشِ ۶۱۶] وَالْمَجَادِبِ ۶۱۷]، مَا كُنْتَ صَانِعاً؟ قَالَ: كُنْتُ

تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفَهُمْ إِلى الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ».

فما كان هنا من الإمام عليه السلام إلّاأنّ ابتدره:

«فَقَالَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ-: فَامْدُدْ إِذاً يَدَكَ.

فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللَّهِ مَااسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»

قال السيد الرضى:

«وَالرّجلُ يُعْرَفُ بِكُلَيْبٍ الجَرْمِيّ».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى جوابه المذكور إلى حقيقة مهمّة يحل الالتفات إليها الكثير من المشاكل. فكثيرون هم الأفراد الذين يفخرون بانصهارهم بالجماعة وتلونهم بلونها، فهم يفتقرون إلى الاستقلال الفكرى بحيث لا- يطيقون الانفصال عن الجماعة- وإن كانت ضالة- وهذا ما يؤدّى إلى انتقال الخرافات والمساوىء من جيل إلى آخر. فالإمام عليه السلام يفند هذا اللون من التفكير بمثال واضح حيث قال: لو كنت ضمن جماعة وبلغت موضعاً فى الصحراء حيث الماء والغذاء، بينما انحرفت الجماعة إلى موضع مجدب خالٍ من الماء والغذاء، فهل تبقى معهم أم ترجع إلى عقلك؟ فتنفصل عنهم وتسلك سبيل العافية والسلامة، هل من عاقل يبقى فى هذه الحالة مصرّاً على الجماعة؟! قطعاً لو كان الإنسان مستقلًا فكرياً فإنّه يسلك الطريق المستقيم أن تعرف عليه وإن سلكه لوحده. وهذا من قبيل ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبة ۲۰۱ حين قال

«أَيُّها النَّاسُ لاتَستَوحِشُوا فِى طَريقِ الهُدى لِقِلَّةِ أَهلِهِ»

. نعم، مبايعة إمام كعلى بن أبى طالب عليه السلام مجادب، جمع مجدب، المكان الذى لم ينزل إليه المطر فهو جاف لا نبات فيه. وقبول ولايته تمثل ماء الحياة فى

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۲۵

ذلک المجتمع الذی شهد فساد عصر عثمان، ولم یکد هذا الرجل یسمع کلام علی علیه السلام حتی بایعه.

تأمّل: عمق تأثیر کلام الإمام علیه السلام

یفید الکلام المذکور مدی عمق تأثیر کلام الإمام علیه السلام فی المستمع، والجدیر بالذکر أنّ هذا الأمر حدث بالنسبة لرسول عائشة ورسول طلحة والزبیر. ولما همّت عائشة ببعث رسولٍ إلی علی علیه السلام، سألت القوم أن یأتوها بأشد أعداء علی علیه السلام فأعطته عائشة کتابها وحذرته من تناول طعامه وشرابه ففیه سحر. فأتی بکتاب عائشة إلی علی علیه السلام، فلما أعطاه الکتاب قرأه ودعاه إلی بیته لیتناول الطعام حتی یکتب له الجواب، فأقسم الرجل علی عدم الذهاب. فقال له الإمام علی علیه السلام: هلا تجیبنی إن سألتک؟ قال: بلی. قال علیه السلام: ناشدتک اللّه حین أرادت عائشة أن تبعث برسولها ألم تسأل القوم عن رجل شدید العداوة لعلی، فأتوا بک إلیها وسألتک عن عدائی فأجبت کذا وکذا؟ قال: بلی. قال علیه السلام: ألم تحذرک من تناول الطعام فإنّ فیه سحر؟ قال: بلی. قال علیه السلام: أتکون رسولی؟ قال: بلی واللّه. لقد قدمت إلیک وأنت أبغض الخلق إلیَّ والآن أنت أحبّ الخلق إلیَّ. قال علیه السلام: إذهب بکتابی هذا إلی عائشة وقل لها: لقد عصیت اللّه وعصیت رسول اللّه صلی الله علیه و آله حیث خرجت من بیتک. وقل لطلحة والزبیر: حفظتم نساؤکم وأبرزتم زوج رسول اللّه صلی الله علیه و آله. فقدم الرجل وسلم عائشة الکتاب، وقال لها ما أوصاه الإمام علیه السلام، وقد قتل هذا الرجل فی صفین مع علی علیه السلام.

قالت عائشة: ما أرسلنا من رجل إلی علی إلّاعصانا وتمرد علینا[۶۱۸]. وقد حصل مثل هذا الأمر لرجل یدعی خداش رسول طلحة والزبیر، وقد ورد شرح ذلک فی

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۳۲۶

کتاب الکافی للمرحوم الکلینی،[۶۱۹] وخلاصته، أنّ هذا الرجل أتی بکتاب طلحة والزبیر إلی أمیر المؤمنین علی علیه السلام وقد حذراه سابقاً من بیان علی علیه السلام الذی یسحر العقول فلا ینبغی أن یجالسه ویتناول معه الطعام ولا یطیل النظر إلی وجهه وأن یقرأ عند رؤیته، آیة السحرة: «إِنَّ رَبَّکُمُ اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَی عَلَی الْعَرْشِ یُغْشِی اللَّیْلَ النَّهَارَ یَطْلُبُهُ حَثِیثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَکَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِینَ* ادْعُوا رَبَّکُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْیَةً إِنَّهُ لَایُحِبُّ الْمُعْتَدِینَ* وَلَا تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِیبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِینَ»[۶۲۰].

لیأمن من سحره. فلما قدم إلی الإمام علیه السلام نظر إلیه وضحک ثم قال: أجلس. قال:

لا. قال علیه السلام: نأتیک الطعام ثم قل ما عندک. قال: لا حاجة بی إلی ذلک. قال علیه السلام: تعال نتحدث فی مجلس. قال لیس لدیَّ ما أُخفیه. قال علیه السلام: قل الصدق، ألم یأمرک الزبیر بذلک؟ قال: بلی. قال علیه السلام: أخبرک أن تقرأ آیة السحرة إن رأیتنی؟ قال: بلی. فأخذ یقرأها والإمام علیه السلام یقرأ معه، ثم قال علیه السلام: کرّرها، حتی کرّرها سبعین مرّة. قال علیه السلام: قل ما عندک؟ فقال له ما أوصاه طلحة والزبیر، فرد علیه السلام علی تناقضاتهما وجعل (خداش) یصدقه حتی قال لنفسه: لقد جئت بکتاب یبطل بعضه بعضاً؟ إلهی أبرء إلیک منهما؟ قال علیه السلام: قل لهما ما قلت لک، قال: خداش واللّه لا أبرح حتی تسأل اللّه أن یرجعنی إلیک. ففعل الإمام علیه السلام فرجع إلی طلحة والزبیر وأوصل کتاب الإمام علیه السلام إلیهما ثم عاد مسرعاً إلی الإمام علیه السلام حتی قتل بین یدیه فی الجمل.

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۳۲۷

الخطبة ۱۷۱

اشارة

لَمَّا عَزَمَ على لِقاءِ الْقَوْمِ بِصِفِّينِ ۶۲۱]

نظرة إلى الخطبة

هذه الكلمات ليست خطبة وليست كلاماً عادياً، بل هى دعاء عظيم المعنى لهج به الإمام عليه السلام حين عزم على مواجهة القاسطين فى صفين معاوية ورهطه فى شهر صفر سنة ۳۷ ه واختتمه بدعوة صحبه إلى الجهاد. ويتضمن كلامه قسمين:
الأول: دعاء يثنى فيه على اللّه بما يرسخ الإيمان لدى الآخرين ويسأله تعالى التسديد إلى الحق والثبات إن انتصر على عدوه، وأن ينعم عليه بالشهادة والإبتعاد عن الفتنة إن كانت الغلبة للعدو.
أمّا القسم الثانى: فقد دعى فيه صحبه لجهاد معاوية ورهطه من خلال عبارات قصيرة، لكنها تثير الحماس والقوة.
نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۲۹

القسم الأول

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِى جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهارِ، وَمَجْرىً لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُوم السَّيَّارَةِ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَايَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ؛ وَرَبِّ هذِهِ الْأَرْضِ الَّتِى جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَام، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَام، وَمَا لَايُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا لَا يُرَى وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِى الَّتِى جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً، إنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَجَنِّبْنَا الْبَغْىَ وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ.
أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ، وَالْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ! العَارُ وَرَاءَكُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!

الشرح والتفسير: الجنّة أمامكم

كما ذكرنا سالفاً فإنّ الإمام عليه السلام استهل الخطبة بدعاء روحى عميق المعانى ليعد نفسه وصحبه للقاء العدو، وحيث يحمد اللّه فى الدعاء بصفات تعد القلوب فإنّ الإمام عليه السلام حمد اللّه فى هذا الدعاء باسم ربّ السموات والأرض وربّ الجبال فقال عليه السلام:
«اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ[۶۲۲] الْمَكْفُوفِ ۶۲۳]، الَّذِى جَعَلْتَهُ مَغِيضاً[۶۲۴]
نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۳۰
لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرىً لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً[۶۲۵] مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَايَسْأَمُونَ ۶۲۶] مِنْ عِبَادَتِكَ»
. العبارة
«السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ»
إشارة إلى موضع النجوم التى تشاهد فى السماء بصورة سقف- وقد سحبت من الشرق والغرب والشمال إلى الجنوب- أو إشارة إلى جو الأرض، أى طبقة الهواء التى تحيط بالأرض بقطر طوله مئتى كيلومتر ويحفظها كسقف من الأشعة الكونية القاتلة والصخور السماوية التائهة[۶۲۷]. إلّاأنّ التفسير الأول أنسب، وعليه فالسقف المرفوع محل نجوم العالم العلوى والتى تبدو لأهل الأرض كالسقف، ومفهوم مجرى الشمس والقمر ... بهذا المعنى.

«وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ»

طبقة الهواء المحيطة بالأرض موضع ظهور الليل والنهار (فالليل ظل الأرض ويظهر فى هذا الجو المكفوف وكذلك النهار موضع شروق الشمس).

وربّما تشير العبارة مختلفا

«وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ»

إلى جميع نجوم السماء السابحة فى هذا الفضاء الواسع، حيث تطلع كل ليلة من أُفق المشرق تغيب فى أُفق المغرب، أمّا إن كانت (النجوم السيارة) إشارة إلى السيارات الخمس المعروفة للمنظومة الشمسية فإنّ المفردة (مختلفاً) تشير إلى حركتها الخاصة فى السماء، وكأنّها تتقدم قليلًا ثم تعود ثم تنطلق (وإن لم تكن كذلك فى الواقع). ضمناً، فإنّ الكلمات المذكورة على غرار التعبيرات القرآنية التى تنسجم وعلم الفلك المعاصر وتنفى نظرية بطليموس، وذلك لأنّ معنى مجرى الشمس والقمر، هاتين الكرتين مستقلتان فى حركتهما فى السماء، وكذلك النجوم، لا أنّها مشدودة إلى أفلاك بلورية وتتحرك معها.

ثم أشار عليه السلام إلى الأرض وكائناتها الحية فقال:

«وَرَبِّ هذِهِ الْأَرْضِ الَّتِى جَعَلْتَهَا

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۳۱

قَرَاراً لِلْأَنَامِ، وَمَدْرَجاً[۶۲۸] لِلْهَوَامِ ۶۲۹] وَالْأَنْعَامِ، وَمَا لَايُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا لَايُرَى .

إنّ هذه العبارات تفيد احاطة الإمام عليه السلام العلمية بجميع الكائنات على الأرض والتى تشمل الإنسان والحيوانات الأهلية وغير الأهلية حتى الديدان التى لا ترى بالعين المجرّدة كأنواع الميكروبات والفيروسات. وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد من (ما لا يرى) الأحياء المتناثرة فى الصحراء والتى لا يراها أحد، وقالوا: لو أوقدت نار فى الصحراء فى ليلة مظلمة لاجتمعت حولها ديدان لم يرها الإنسان، ولكن بالنظر إلى الاكتشافات الحديثة بشأن الأحياء المجهرية التى لا ترى بالعين المجرّدة لا تبدو هناك حاجة لمثل هذا التفسير، فهناك طائفة من الأحياء التى لا ترى بأى شكل من الأشكال، وهذا الكلام من كرامات الإمام عليه السلام التى أماطت اللثام عن حقيقة كانت خفية على الجميع آنذاك. وعبّر عن الإنسان بالقرار (موضع الإستقرار والإقامة) وعن الحيوانات بالمدرج (موضع السير البطئ والتدريجى) ولعل الفارق فى التعبيرين، يعزى إلى الحركة فى الحيوانات التى تفوق نظيرتها عند الإنسان.

ثم قال عليه السلام فى الصفة الثالثة للذات المقدّسة فى دعائه العظيم:

«وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِى ۶۳۰] الَّتِى جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً»

. فالعبارة كون الجبال للأرض أوتاداً اقتباس من القرآن الكريم بشأن الجبال: «وَالْجِبَالَ اوْتَاداً[۶۳۱]»[۶۳۲]. أحياناً يتصور أنّ حجم أضخم الجبال صغير بالنسبة للكرة الأرضية، بحيث لا يصح اطلاق الوتد عليه، لكن بالنظر إلى أنّ لهذه الجبال العظيمة جذور فى أعماق الأرض، وهذه الجذور متصلة مع بعضها كدرع أحاط بالأرض يحول دون الضغوط الداخلية

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۳۲

والخارجية- والذى يفرزه جاذبية القمر وجزره ومده- فإنّ الجبال تعتبر بمثابة الأوتاد التى تحول دون تصدع الأرض. أمّا قوله: إنّ اللّه جعلها للخلق اعتماداً، ذلك لأنّ الجبال تحطم الرياح الشديدة العاتية وتمنع العواصف الرملية والسيول الخطيرة، أضف إلى ذلك فإنّ أغلب الأنهار والعيون تنحدر من الجبال وهى مركز أكثر المعادن المفيدة، إلى جانب بناء البيوت والقلاع المحكمة فيها، سيما المناطق التى تكون عرضة للسيول إنّما تلجأ لبناء الدور هناك خلاصاً من هذا الخطر. والسؤال ما الذى أراد أن يطلبه الإمام عليه السلام من اللّه فى هذا الدعاء. قال عليه السلام

«إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَجَنِّبْنَا الْبَغْىَ وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ».

فقـد أشار الإمام عليه السـلام بهذا الدعاء إلى هذه الحقيقة وهى أنّ الكثير ربّما يفارق العدالة حين النصـر والغلبة فى المعركة ويمارس الظلم بحق العـدو، ومن هنا يسأل اللّه فى حالة النصـر ابعاده عن هذا العمل أولًا، وثانياً، كثيرون هم الأفراد الذين ينشدون النصـر ارضاء لغرورهم والسيطرة على الآخرين. الإمام عليه السلام يدعو اللّه أن يسدده للحق وإقامة العدل إن كتب له النصر، وثالثاً، على فرض كون الغلبـة للأعـداء فإنّه يسأل اللّه الشـهادة والاعتصام من الفتنة. الفتنة هنا يمكن أن تكون إشارة إلى الامتحان، ذلك لأنّ ساحة القتال من ميـادين الامتحانـات الصـعبة وعلى الإنسـان أن يسـأل اللّه تثبيته فى القتـال. فالفرد الـذى يعتقـد أنّه على الحق ربّما ينقم حظه إن أصابه شىء، وينطلق لسانه بالشكوى وهذا فشل فى ميدان الامتحان.

ثم دعى الإمام عليه السلام أصحابه لمواجهة العدو من خلال عباراته المؤثرة فى الدعاء فقال:

«أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ[۶۳۳]، وَالْغَائِرُ[۶۳۴] عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ ۶۳۵] مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ![۶۳۶] العَارُ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۳۳

وَرَاءَكُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!»

. وأخيراً يختتم كلامه بتشجيع المدافعين وتهديد الهاربين فيقول:

«العَارُ وَرَاءَكُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!»

فإن فررتم كان ذلكم عاراً عليكم وإن ثبتم فلكم الجنّة.

تأمّل

لقـد شـهد تاريـخ البشـرية نشوب العديـد من الحروب العالميـة والأقليميـة، ولكن غالباً ما يكون الهـدف منها، الطمع وحب الاسـتعلاء والسـيطرة والثأر، ومن هنا فإنّ النصر فى المعركة إنّما يؤدّى إلى ارتكاب أفضع الجنايات، وذلك لغياب الهدف المقدّس. نعم، يستثنى من ذلـك حروب الأنبيـاء والأوليـاء، حيث الهـدف منها إطفاء نار الفتنـة، «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ»[۶۳۷] والـدفاع والوقوف بوجه المهاجم: «فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»[۶۳۸] ولذلك فإنّ الأصول الإنسانية لا تغيب قط فى المعركة. ومن ذلك ما أوصـى به أمير المؤمنين عليه السـلام جنـد الإسـلام عنـد النصـر بأنّ لا يتعقّبوا فاراً ولا يجهزوا على جريح ولا يتهيجوا النساء بأذى وإن شـتمن الأعراض وسـببن الأمراء[۶۳۹].

وتراه عليه السـلام فى هـذه الخطبـة والـدعاء الـذى تقرب به إلى اللّه يسأله الثبات والتسديد إلى الحق عند ظهوره على العدو، وهذا هو الفارق بين من يخوض الحرب من أهل الدنيا وأولئك الذين يعملون للآخرة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۳۵

الخطبة ۱۷۲

نظرة إلى الخطبة[۶۴۰]

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد اللّه والثناء عليه ثم أشار إلى بعض الأعمال والأقوال الطائشة لبعض الصحابة المعروفين. تتكون الخطبة من ثلاثة أقسام. أشار فى القسم الأول: إلى موقف عبدالرحمن بن عوف أو سـعد بن أبى وقاص يوم الشورى (الشورى المؤلفة من ستة أفراد والتى شـكلها عمر لاختيار الخليفة من بعده)، حيث نسب إلى الإمام عليه السـلام الحرص على الخلافة فأجابه الإمام عليه السلام بجواب رائع. وشكى إلى اللّه.

فى القسم الثانى، قريشاً ومن اصطف معها ضده. وتطرق.

فی القسم الثالث، إلی قضیة طلحة والزبیر وموقعة الجمل وعملها القبیح الذی ارتکباه حین أخرجا عائشة (زوج النبی) إلی المعرکة ولم یحفظا حرمة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وما تبع ذلک من سفک للدماء.

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۳۳۷

القسم الأول

الْحَمْدُللَّهِ الَّذِی لَاتُوَارِی عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً.

منها: وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّکَ عَلَی هـذَا الْأَمْرِ یَابْنَ أَبِیطَالِبٍ لَحَرِیصٌ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِی وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَیْنِی وَبَیْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِی دُونَهُ. فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِی الْمَلَاءِ الْحَاضِرِینَ هَبَّ کَأَنَّهُ بُهِتَ لَایَدْرِی مَا یُجِیبُنِی بِهِ! اللَّهُمَّ إِنِّی أَسْتَعْدِیکَ عَلَی قُرَیْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِی، وَصَغَّرُوا عَظِیمَ مَنْزِلَتِی، وَأَجْمَعُوا عَلَی مُنَازَعَتِی أَمْراً هُوَ لِی. ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِی الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِی الْحَقِّ أَنْ تَتْرُکَهُ.

الشرح والتفسیر: قریش والخلافة

إستهل الإمام علیه السلام الخطبة بحمد اللَّه والثناء علیه ورکز علی علم اللَّه وسعته- بما یتناسب وأبحاث الخطبة- فقال:

«الْحَمْدُللَّهِ الَّذِی لَاتُوَارِی عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً».

یبدو أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة تکلفوا فی تفسیر العبارة

«وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً»

علی أساس عدم وجود أکثر من أرض، فذهبوا إلی أنّها تشیر إلی الأقالیم السبعة علی الأرض التی نراها محیطة بالأرض بسبب کرویتها حتی وإن نظرنا إلیها من خارج الکرة الأرضیة، ولا یمکن رؤیة جمیع المناطق فی الأرض فی لحظة معینة وإن نظرنا إلیها من مسافة بعیدة، إلّاأنّ الأمر لیس کذلک بالنسبة للَّهالذی لا یغیب

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۳۳۸

عن علمه شیء. وقیل: تشیر العبارة إلی طبقات الأرض، فالأرض تتألف من طبقات ولا نری سوی طبقة واحدة منها، أمّا اللَّه فلا یغرب عنه شیء. وقیل: المراد، المخلوقات التی تعیش فی الأرضین، حیث ورد مثل هذا الکلام فی تفسیر الآیة الشریفة ۱۲ من سورة الطلاق: «اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» وقد قال کل من الفخر الرازی والمرحوم العلّامة الطبرسی بأحد هذین التفسیرین المذکورین. الاحتمال الآخر فی تفسیر الآیة وکلام الإمام علیه السلام أنّ المراد، العوالم الواقعة فی الجانب الآخر من الکرة الأرضیة. توضیح ذلک، أننا نصطلح علی ما فوقنا بالسماء وما تحتنا بالأرض، ونعلم أنّ الکرة الأرضیة وسط مجموعة من الکواکب الثابتة والسیارة، وکما أنّ هناک عدداً هائلًا من تلک المجموعة فوقنا، کذلک لو تأملنا الجانب الآخر للکرة الأرضیة فإنّ فیها مجموعة من هذه العوالم التی تعد سماءاً بالنسبة لسکنتها بینما تعتبر أرضاً بالنسبة لنا، فالسماء لا تقتصر علی هذا النصف الکروی الذی فوقنا، بل هنالک النصف الآخر تحتنا والملیء بالکواکب والکرات السماویة (علیک بالتأمل).

ثم أشار الإمام علیه السلام فی الجانب الآخر من الخطبة إلی وقائع یوم الشوری المکونة من ستة أعضاء لاختیار الخلیفة الثالث فرد علی مقولة عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبی وقاص فی حرص الإمام علیه السلام علی الخلافة فقال:

«وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّکَ عَلَی هذَا الْأَمْرِ یَابْنَ أَبِیطَالِبٍ لَحَرِیصٌ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ»

. فالواقع أنّ عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبی وقاص ومن شاکلهما ینظرون من خلال أُفقهم الضیق علی أنّ الخلافة طعمة لذیذة لهم أو من یرونه مؤهلًا لها، فهم لا یعلمون أو لا یریدون أن یعلموا أنّ الخلافة لیست بذات قیمة لدی ابن أبی طالب سوی إحقاق

الحق والانتصاف للمظلوم وزهق ودحر الظالم. والإمام عليه السلام لا يريد الخلافة لنفسه بقدر ما يريدها لبسط العدل والقسط وسلامة المجتمع الإسلامی.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۳۹

ثم قال عليه السلام

«وَإِنَّما طَلَبْتُ حَقّاً لِی وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِی وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِی دُونَهُ»

. إلّاأنّ حرصهم حال دون إذعانهم لهذه الحقيقة. لذلک واصل كلامه قائلًا:

«فَلَمّا قَرَّعْتُهُ ۶۴۱] بِالْحُجَّةِ فِی الْمَلَاءِ الْحَاضِرِينَ هَبَ ۶۴۲] كَأَنَّهُ بُهِتَ لَايَدْرِی مَا يُجِيبُنِی بِهِ!»

قضية الشورى التی شكلها عمر حين وفاته كانت ضجة ضخمة أفصحت عن الأحقاد والضغائن التی يكنّها بعض الصحابة لأمير المؤمنين علی عليه السلام وتشير إلى حجم المؤامرة المبيتة بغية زحزحته عن مقامه وحقّه الاجتماعی حتى طالبوه بالتخلی عن حقّه وإلّا إتّهم بالحرص على الخلافة. جدير بالذكر أنّ ابن أبی الحديد قال: يعتقد الشيعة أنّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام فی أبی عبيدة الجراح فی سقيفة بنی ساعدة التی شكلت لاختيار الخليفة بعد النبی صلى الله عليه و آله ۶۴۳]. والحال لم نر أحداً من علماء الشيعة قال بذلک، والمسلم لدينا أنّ الإمام عليه السلام لم يكن حاضراً فی السقيفة. وقد فرغنا من شرح هذه الأحداث فی الجزء الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية.

ثم تضرع الإمام عليه السلام إلى اللَّه يشكو ما ألم به من ظلم فيستلهمه العون قائلًا:

«اللَّهُمَّ إِنِّی أَسْتَعْدِيکَ ۶۴۴] عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِی، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِی، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِی أَمْراً هُوَ لِی. ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِی الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِی الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ»

. فهذه العبارة تكشف بوضوح أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يرى الخلافة حقّه الطبيعی، وذلک لأنّه كان أجدر بها من غيره إلى جانب نص النبی الأكرم صلى الله عليه و آله على ولايته فی الغدير والذی أكده مراراً وتكراراً، إلّاأنّ عشاق المناصب اسقطوا نص رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وحكم العقل، ومارسوا الأعمال التی من شأنها

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۴۰

قطع صلة الرحم، والأمر الغريب أنّهم يعترفون بهذا الحق، لكنهم يزعمون أنّها من الحقوق التی ينبغی الإغماض عنها، فالظروف ليست مناسبة لاستحصاله.

والتعبير بقطع صلة الرحم إمّا لاستدلالهم بأوليتهم فی أمر الخلافة لقربهم من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقد رد عليهم الإمام عليه السلام بأنّه أخصّ منهم وأقرب (كما مرّ علينا فی عبارة الخطبة) أو (أنا) إشارة إلى أنّهم لم يأخذوا الخلافة وهی حقّی فحسب، بل لا يكفون عن ارتكاب الجنايات التی تعدّ مصداقاً بارزاً لقطع الرحم.

تأمّلان

۱. العيون المعصوبة ازاء الحقائق

إنّ البعض وإن سعى المرور مرّ الكرام على القضايا المتعلقة بالخلافة، إلّاأنّ الأمر لا يبدو بهذه السهولة والبساطة. لا شک فی أنّ علياً عليه السلام شكى مراراً من سلبه حقّه المسلّم فی الخلافة (طبعاً ليس المراد من الحق، المقام الذی يختزن الفائدة والربح والمنفعة) بل يمثل المسؤولية الشرعية وهدفها- على ضوء ما ذكره الإمام عليه السلام- إقامة العدل وإحقاق الحق وإجراء الحدود. ولعل الكلام المذكور هو أحد النماذج البارزة على شكواه حتى قال: إنّهم اجمعوا على منازعتی ليصادروا حقّی، وسنورد المزيد بهذا الشأن فی

شرحنا للخطبة رقم ۲۱۷.

الجدير بالذكر أنّ ابن أبى الحديد نقل هذا الكلام وحاول تبريره وتوجيهه بما لا يمكن قبوله بأى شكل من الأشكال. فقد صرّح قائلًا: أعلم أنّه وردت أخبار متواتر عنه عليه السلام ومنها هذه الخطبة أنّه قال:

«مَا زِلْتُ مَظْلُوماً مُنْذُ قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ حَتَّى يَوْمَ النَّاسِ هَذا»

، وقال أيضاً:

«اللَّهُمَّ اخْزِ قُرَيْشاً فَانَّهَا مَنَعْتَنِى حَقّى وَغَصَبْتَنِى امْرى

وسمع شخصاً يقول:

«أنَا مَظْلُومٌ»

فقال عليه السلام:

«هَلُمَّ فَلْنَصْرَخْ مَعاً فَإِنّى ما زِلْتُ مَظْلُوماً»

وقال فى الخطبة الشقشقية:

«وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلّى مِنْها مَحَلَّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحى

وأضاف فى الخطبة المذكورة:

«أرى تُراثى نَهبا»

ولما فرغ ابن أبى

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۴۱

الحديد من ذلك هب للدفاع عن الخلافة ليقول: أنّ أصحابنا يوجهون ذلك بأنّ مراد الإمام عليه السلام أنّه كان أفضلهم وأولاهم- وهذه حقيقة- لا ـ أنّ مراده أنّ النبى صلى الله عليه و آله نص عليه، لأنّ ذلك يدعونا إلى تكفير وتفسيق كبار المهاجرين والأنصار (ننسبهم للكفر أو الفسق) وأضاف أنّ الزيدية والإمامية يحملون هذا الكلام على ظاهره (ويرون الخلفاء غاصبين للخلافة). ثم قال: والذى نفسى بيده أنّ مفهوم هذه العبارات وإن كان أغلب الظن ما يقوله هؤلاء، إلّاأنّ هذا الظن باطل وليس أمامنا سوى اعتبار هذا الكلام من قبيل الآيات القرآنية المتشابهة التى تطرح بعض الأمور التى لا نقرّها للّه ۶۴۵]. والعجيب كيف يتأول ابن أبى الحديد وأمثاله هذه الكلمات الواضحة بهذا الشكل، والأسوأ من ذلك أنّه قاس هذا الكلام بآيات القرآن المتشابهة، فالآية القرآنية: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»[۶۴۶] يفهم كل فرد عاقل أنّ المراد منها قدرة اللّه، وإلّا فاللّه ليس بجسم لتكون له يد كيدنا. نعم، قال الإمام صراحة فى العبارة السابقة أنّ هؤلاء غصبونى حقّى، وليس لهذه العبارة أكثر من تفسير وتأبى التوجيه، ليت شعرى ما الضير فى قولنا إنّ طائفة من المهاجرين والأنصار أخطأت بشأن الخلافة بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله؟ أفكانوا معصومين؟ الحق أنّ الأحكام المسبقة والتعصّب للمذهب يؤدّى بالإنسان أحياناً إلى أنّ يعصب عينيه عن رؤية القضايا الواضحة والتشبث بالتوجيه غير المنطقى.

۲. هل ينبغى التنازل عن بعض الحق

تمسك غاصبوا الخلافة- كما ورد فى الخطبة- بضرورة استيفاء بعض الحقوق والتنازل عن بعضها الآخر على ضوء بعض المصالح. ويرون خلافة أمير المؤمنين عليه السلام من النوع الثانى. نعم، العبارة المذكورة تنطوى على مفهوم صحيح

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۴۲

وآخر باطل. فالإنسان ينبغى له التنازل عن جانب من حقّه الشخصى أو جميعه بغية الحيلولة دون نشوب النزاعات ومواصلة الخصومة ومراعاة للمحبة والمودة، أمّا بالنسبة للحقوق المتعلقة بالمجتمع ومصيره، فلا يحق لأحد التنازل عنه أو المساومة على حسابه. وأصحاب

هـذه الحقوق هم وكلاء الأمّـة. وليس للوكيل مثل هذا التنازل، والخلافة من هذا النوع من الحقوق، إلّاأنّ غاصبى الخلافة حاولوا خلط الأوراق. بمنطقهم الأجوف بغية تحقيق أهدافهم ومآربهم. والعبارة المذكورة تشير ضمنياً إلى أنّ أعداء الإمام عليه السلام كانوا يعترفون بحقّه، أو بعبارة أخرى فإنّ حقّه كان على درجة من الوضوح بحيث لم يسعهم إنكاره، فعمدوا إلى الذرائع والحجج الواهية.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۴۳

القسم الثانى

فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- كَمَا تُجَرُّ الْأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِى بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، فِى جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِى الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِى بِالْبَيْعَةِ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِى بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً، وَطَائِفَةً غَدْراً. فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحَلَّ لِى قَتْلُ ذلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ. دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِى دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!

الشرح والتفسير

فضيحة أصحاب الجمل

شرح الإمام عليه السلام هنا الخطأ الفادح الذى ارتكبه أصحاب الجمل ليعلم الجميع بأنّ الإمام عليه السلام إن قاتلهم وقتل طائفة منهم فهى مستحقة لذلك، فلا ينبغى التذرع بالأعذار ومواجهة هذا المنطق المتين، حيث أشار عليه السلام إلى ثلاث من جرائمهم الكبرى، فقال فى الأُولى

«فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- كَمَا تُجَرُّ الْأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ»

. ثم قال:

«فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِى بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ [۶۴۷] رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا».

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۴۴

كلّنا نعلم أنّ القرآن الكريم أوصى أزواج النبى صلى الله عليه و آله بأن يقرن فى بيوتهن وأن لا يتبرجن تبرج الجاهلية فيتصفحن هذا وذاك: «وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى [۶۴۸] وكأنّ بعض الأحداث كموقعة الجمل كانت منظورة من قبل، إلّا أنّ هؤلاء المتحللين أبقوا على نسائهم فى بيوتهن وأخرجوا زوج النبى صلى الله عليه و آله خلاف نص القرآن ليجعلوها وسيلة لتحقيق مآربهم.

ثم قال عليه السلام فى جنايتهم الثانية:

«فِى جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِى الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِى بِالْبَيْعَةِ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ»

. ولا يقتصر الالتزام بالبيعة على الإسلام، بل كان يلتزم بها حتى قبل الإسلام، بينما نقض أصحاب الجمل هذه السنّة ونكثوا عهدهم علانية واستعدوا لمواجهة الإمام عليه السلام. وأشار إلى جريرتهم الأخرى فقال عند ما دخلوا البصرة:

«فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِى بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً [۶۴۹]، وَطَائِفَةً غَدْراً»

. ذكر ابن أبى الحديد فى شرح لجنايات أهل الجمل أنّ طلحة والزبير وأعوانهما تدرعوا وقدموا المسجد عند صلاة الصبح وكان فيه عامل على عليه السلام عثمان بن حنيف. فتقدم للصلاة فدفعه أصحاب طلحة والزبير وقدموا الزبير. فتقدم

(السبابجة)

(حماة بيت المال)[۶۵۰] ودفعوا الزبير خارج المسجد، فهجم عليهم أنصار الزبير وقدموه واستمر النزاع حتى طلوع الشمس. فصاح الناس: اتقوا اللّه يا أصحاب محمد صلى الله عليه و آله فالشمس تكاد تطلع، فغلبهم الزبير وصلى بالناس. ثم أمر بالقبض على ابن حنيف فضربوه حتى كاد يموت، كما قبضوا على السبابجة وهم سبعون، حملوا عثمان بن حنيف إلى عائشة، فأمرت بقتله. فقال عثمان: إن قتلتمونى سيقتص منكم أخى (والى المدينة) فخافوا وتركوه. وأمرت

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۴۵

الزبير بقتل السبابجة فذبحهم ابنه عبداللّه كما تذبح الشاة. قال بعض المؤرخين كأبى مخنف كان السبابجة أربعمائة وقد نقض طلحة والزبير عهدهم مع عثمان بن حنيف- بعدم التعرض لأحد- فكان السبابجة أول طائفة قتلت صبراً فى الإسلام ۶۵۱]. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً، وَطَائِفَةً غَدْراً».

وأخيراً خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحَلَّ لِی قَتْلُ ذلِکَ الْجَیْشِ کُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ یُنْکِرُوا، وَلَمْ یَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِیَدٍ. دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِینَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِی دَخَلُوا بِهَا عَلَیْهِمْ!».

أثار هنا بعض شرّاح نهج البلاغة أسئلة وأجابوا عنها، نوردها بما يناسب البحث:

سؤال: كيف تفسر فقهياً عبارة الإمام عليه السلام فى حلية قتل الجيش كله وإن أصابوا واحداً فضلًا عن قتلهم لذلك العدد الكثير؟

الجواب: أجاب البعض بأنّهم أباحوا قتل المسلمين وهذا نوع من انكار ضروريات الدين وعليه فهم مرتدون. وقيل: إنّ قتلهم من باب النهى عن المنكر، ولو توقف النهى عن المنكر بذلك لكان جائزاً. الجواب الثالث: والأنسب، أنّهم كانوا مصداقاً للمفسدين فى الأرض، فقد جهزوا الجيوش ونكثوا البيعة وعاثوا فساداً فى بعض مناطق البلد الإسلامى، فهم مشمولون بالآية الشريفة «إِنَّمَا جَزَاءُواْ الَّذِینَ یُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَیَسْعَوْنَ فِی الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ یُقَتَّلُوا ...»[۶۵۲] وعبارة الإمام عليه السلام أنّهم حضروا ولم ينكروا ولم يدفعوا بلسان ولا بيدهم فى الواقع مقدمة لاثبات كونهم من

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۴۶

المحاربين والمفسدين.

الجواب الرابع: الذى يتبناه مذهب أتباع أهل البيت عليهم السلام فى أنّ الخارج عن الإمام المعصوم كافر، كما ذكر ذلك الخواجة الطوسى فى تجريد العقائد[۶۵۳] فقال:

«ومُحارِبُو عَلیٍّ کَفَرَة»

ذلك لأنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام:

«حَرْبُکَ حَرْبِی»

. وقد فصلنا فجائع طلحة والزبير وعائشة فى موقعة الجمل فى الجزء الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبة الثالثة عشرة، والجزء الثانى فى تفسير الخطبة ۲۲ و ۳۱، والجزء الخامس فى شرح الخطبة ۱۳۷.

سؤال آخر:

لو استحق أولئك، القتل لمجرّد قتلهم جماعة من المسلمين وقبل المعركة، لماذا لم يقتص الإمام عليه السلام من أتباع طلحة والزبير بعد أن انتصر عليهم فى المعركة؟ بل حتى عائشة كانت تستحق القتل لخروجها على أمام المسلمين والفساد فى الأرض، لكن الإمام

عليه السلام أعادها بكل احترام إلى المدينة؟ والجواب على هذا السؤال واضح، فالأوضاع كانت مضطربة والظروف معقدة بحيث لو قام الإمام عليه السلام بمثل هذا العمل لتمكن أعداء الإمام عليه السلام من تأليب عامة المسلمين عليه وتعبئتهم ضده. ومن هنا قال عمرو بن العاص لعائشة: ليتك قتلت فى الجمل. قالت: لم لا أم لك؟ فقال عمرو:
لدخلت الجنّة وحرضنا الناس على على بقتلك [۶۵۴]. على كل حال، فإنّه لمن دواعى الفخر لعلى عليه السلام أنّه غضّ النظر عنهم وأراح المجتمع الإسلامى من شرّهم.
نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۴۷

الخطبة ۱۷۳

اشارة

فِى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله وَمَنْ هُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَكُونَ لِلْخِلَافَةِ،
وَفِى هَوانِ الدُّنْيا[۶۵۵]

نظرة إلى الخطبة

تبدأ هذه الخطبة ببيان صفات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بصورة مختصرة، كما يتعرّض الإمام عليه السلام فى القسم الثانى إلى خصائص الجدير بخلافة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فيؤدى حق الموضوع بعبارات قصيرة. ويتحدث فى القسم الثالث عن تقوى اللَّه ويوصى صحبه بعدم العجلة فى الأعمال والتروى عند الإقدام. وأخيراً يذم الدنيا والتعلق بها والخداع بزخارفها.
نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۴۹

القسم الأول

أَمِينُ وَحْيِهِ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ.
أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِامْرِ اللَّهِ فِيهِ.
فِإنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتِبَ، فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ. وَلَعَمْرِى، لَئِنْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذلِكَ سَبِيلٌ، وَلكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أنْ يَخْتَارَ. أَلَا وَإِنِّى أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِى عَلَيْهِ.

الشرح والتفسير: أجدر الأفراد بزعامة الأُمّة

كما ورد سابقاً فإنّ الإمام عليه السلام قد إستهل الخطبة ببيان جانب من خصائص رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حيث أشار إلى أربع منها، فقال:
«أَمِينُ وَحْيِهِ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ»
والواقع، إنّ أنشطة النبى صلى الله عليه و آله كافة يمكن إيجازها فى هذه الصفات الأربع؛ ذلك لأن الفعالية الأولى للنبى، تلقّى الوحى وإيصاله وإبلاغه إلى الناس بكل أمانة والتخطيط لنشر مبادىء الدين إلى نهاية الدنيا ومن ثم التمهيد لطاعة اللَّه عن طريق البشارة

بالرحمهٔ والإنـذار بالعـذاب والجزاء. وقـد أكّـدت هـذه الصـفات الأربع من خلال الآيات القرآنيـهٔ حيث أشارت إلى بعضـها من قبيل البشارهٔ والإنذار.

ثم تطرق عليه السلام إلى شرائط خليفهٔ الأُمّهٔ وإمامها ليوجزها فى أمرين:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِامْرِ اللَّهِ فِيهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع إلى ركنين أساسيين، لأحدهما بُعد عملى، والآخر

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۳۵۰

علمى، فعلى المستوى العلمى ينبغى أن يكون أعلم الجميع، وفى الجـانب العملى أقواهم فى أمور الإدارهٔ، فكثيرون هم الأفراد العلماء، لكنهم يفتقرون إلى حسن الإـدارهٔ، أو أنّهم يتمتعون بحسن الإـدارهٔ إلّاأنّهم يفتقرون إلى العلم، ولا يمكن النهوض بزعامـهٔ الأُمّـهٔ دون توفر هذين الشـرطين معاً. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الموضوع فى قصهٔ بنى إسـرائيل أثر اختيار (طالوت) كزعيم وقائد فاعترض البعض على أنّهم أولى بالزعامـهٔ منه على أساس الثروهٔ، فرد القرآن عليهم بأنّ طالوت أولى بها لعلمه وقـدرته: «إِنَّ اللَّهَ اصْـطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْـطَهً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ»[۶۵۶] ومـن الواضـح أنّ الإمـام عليه السـلام أراد أن يكشـف عن أولـويته من الجميـع بالتصـدى لأـمر الخلافهٔ، ذلك لأنّ الجميع يعلم بأنّه الأعلم فى أصول الدين وفروعه وهو الأقوى والأقدر على الإدارهٔ ومواجههٔ العدو.

سؤال:

نفحات الولايهٔ ؛ ج۶ ؛ ص ۳۵۰

اذا لم يستدل الإمـام عليه السـلام بنص النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله على خلافته؟ أليس هـذا دليلًا على أنّ الخلافـهٔ لم تكن على أساس النص، بل على ضوء انتخاب الناس لأكفأ الأفراد؟

الجواب:

قطعاً، لو اسـتدل الإمام عليه السـلام بالنص، لهب أغلبهم لإنكاره، وعليه فمن الأفضل الاسـتناد إلى مسـلماتهم وإلزامهم بمنطقهم (الأمر الذى يصـطلح عليه فى المنطق بالجدل) والذى قال بشأنه القرآن: «وَجادِلهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ»[۶۵۷]. جدير بالذكر أنّ ابن أبى الحديد حين يبلغ هذا الموضع من شـرحه لنهج البلاغهٔ، وخلافاً لأولئك الذين لا يصـغون لصوت الضـمير يُقرّ بأنّ علياً عليه السلام أعلم القوم، لكنه يرى أنّ هـذا ليس بـدليل على نفى خلافهٔ الآخرين، ذلك لأنّه يمكن أحياناً تقديم المفضول على الأفضل ۶۵۸]. طبعاً، هذا منطق الأفراد الذين لا يفقهون قوانين العقل ولا يرون قبح

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۳۵۱

ترجيح المرجوح على الراجح، والحال، قبح هذا الأمر واضح للجميع، إلّاأنّ التعصب الأعمى يحول عادهً دون رؤيهٔ الواقع.

ثم قال عليه السلام: فإن تصدى مثل هذا الفرد، للأمر:

«فِإنْ شَغَبَ ۶۵۹] شَاغِبٌ اسْتُعْتِبَ ۶۶۰]، فَإنْ

أَبَى قُوتِلَ»

. وقال القرآن بهذا الخصوص «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْـلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ...»[۶۶۱].

ثم خاض الإمام عليه السـلام فى الردّ على بعض المتخرصـين، حيث انبرى البعض كمعاويـهٔ وعمرو بن العاص وطلحـهٔ والزبير وأمثالهم

وصرّحوا بأنّ الخلافة والإمامة لمن تنتخبه عامة الأمّة. وعليه، لا تكفى بيعة المدينة وأطرافها لعلى عليه السلام.

فقال عليه السلام:

«وَلَعَمْرِى، لَئِنْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَاتَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذلِكَ سَبِيلٌ، وَلكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا»

. ثم واصل كلامه قائلًا:

«ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ»

. وأخيراً حذّرهم جميعاً بالقول:

«أَلَا وَإِنِّى أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِى عَلَيْهِ»

. يبـدو أنّ العبارة الأُولى تشير إلى معاويـة الـذى تخلف عن البيعة بذريعة المطالبة بدم عثمان، والحال، أن تتمّ المطالبة بدم عثمان من قبـل أوليـاء الـدم أو إمـام المسـلمين، ومن بايعه الناس أى، على بن أبى طالب عليه السـلام. والثانيـة إشارة إلى طلحـة والزبير وأمثالهما الـذين بايعوا ثم نكثوا البيعـة بما فيهم معاويـة والآخرون. وأمّا ما قيل: إنّ المراد، ادّعاء الخلافـة من قبل معاوية والذى ليس له حقّ، فلا ينسجم مع التواريخ، لأنّ معاوية لم يدع الخلافة على عهد أميرالمؤمنين على عليه السلام، بل ركّز على المطالبة بدم عثمان.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۵۲

سؤال:

لم يستدل الإمام عليه السلام فى حديثه المذكور فى إثبات خلافته وإمامته على نص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بهذا الخصوص، ولم يتطرق إلى حديث الغدير وما شابهه، بل أكّد على بيعة الأُمّة، وهذا فى الواقع إمضاء لخلافة من سبقه. لذلك قال ابن أبى الحديد، هنا، صراحةً: إنّ هذا الكلام من الإمام عليه السلام دليل على صحة مذهبنا، ولا يؤيد مذهب الإمامية، فكيف تُحلّ هذه الشبهة؟

الجواب:

لابدّ من الإلتفات إلى أمور:

الأـول: أنّ الإمام عليه السـلام اسـتدل بمسـلمات الخصم لإثبات حقّه، لأنّهم يرون كفايـة قبول أهل الحل والعقـد (علماء الأُمّـة) لثبوت الخلافة والإمامة. وعليه فقد أجابهم بمنطقهم (منطق الجدال بالتى هى أحسن)، ولو استدل بالنص لأنكروه.

الثانى: أنّ خلافـة من سـبقه لم تسـتند إلى قبول الناس، أمّا أبو بكر فقـد انتخب من قبل أهل السـقيفة حيث كانوا عـدّة قليلة من الناس، وأمّا عمر فقد انتخب بنص من أبى بكر، بينما لم تتمّ خلافة عثمان إلّامن قبل ثلاثة أو أربعة أفراد من الشورى.

الثـالث: أضف إلى ذلك، فإنّ الوقوف على رأى الإمام عليه السـلام بشأن الخلافـة لا يمكن من خلال خطبـة أو خطبتين، بل لابـدّ من دراسة شاملة لجميع كلماته بهذا الخصوص، لنرى كثرة تركيزه فى نهج البلاغة على النص فى الخلافة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۵۳

القسم الثانى

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا خَيْرُ مَا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرُ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَاللَّهِ. وَقَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَلَـا يَحْمِـلُ هـذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصَرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ، فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ؛ وَلَا تَعْجَلُوا فِى أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً.

الشرح والتفسير

تعليمات عسكرية

أعدّ الإمام عليه السلام صحبه هنا لمواجهة الظلمة والطواغيت حيث أوصاهم بادىء الأمر بالتقوى فقال:

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا خَيْرُ مَا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرُ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَاللَّهِ»

. القرآن الكريم من جانبه أكّد هذا المعنى حيث إنّ الأفراد الذين لا يصيبهم الخسران هم فقط الذين يتواصون بالحق والصبر: «وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ». وقال: «وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى»[۶۶۲] وقال أيضاً: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»[۶۶۳].

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلًا:

«وَقَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَلَا يَحْمِلُ هذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصَرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ»

. ثم قال:

«فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ؛ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۵۴

مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً[۶۶۴]».

تشير العبارة

«وَلَا يَحْمِلُ هذَا الْعَلَمَ»

إلى أننا نضطر لأول مرّة فى الإسلام لأن نقاتل أفراداً يدّعون الإسلام، وأنّهم من أهل القبلة لبغيهم وطغيانهم، ويبدو هذا الأمر مستصعباً بالنسبة للأفراد السطحيين وضيقى الافق، وعليه، فلا يستحق حمل هذا العلم سوى من تحلّى بالبصر والعلم والصبر.

والعبارة

«فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ ...»

إشارة إلى أنّ هذا الطريق مسؤولية كبيرة، فينبغى المضى فيه بدقّة ورعاية النظم والانضباط. أمّا العبارة الأخيرة

«فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً»

فتشير إلى أنّ الأوامر التى تصدر أحياناً من القيادة- الإمام عليه السلام- فى القضايا الحربية وجزئيات الأعمال، بما لا ينسجم ورغبات أكثرية الناس، مثلًا، يرد الأمر بالهجوم على العدو فى البصرة من شمالها، إلّاأنّ الأكثرية ترى صعوبة ذلك وتود لو أنّها هجمت من جنوبها. فالإمام عليه السلام يوصى هنا بالتريث وعدم الاستعجال طالما لا تتضارب هذه الأوامر مع الشرع والمصلحة، فربّما نمارس بعض التغييرات ونحقق رغباتكم، كذلك إن شكى بعض الناس من بعض الولاة فليس لدىّ من إصرار، كعثمان، على بقائهم وما دام رأى الناس موافقاً للشريعة والمصلحة فهو مقبول لدىّ. ولعل إحدى خصائص الآمر والمدير الناجح تتمثل فى احترامه لأفكار الآخرين والإنفتاح عليها ما لم تتعارض مع الأصول. أمّا ما ذكره بعض شرّاح نهج البلاغة من تفسير لهذه العبارة فلا يبدو مناسباً؛ ففسّروا

(غيرا)

مثلًا، بالمصالح، ولكن هذه المفردة؛ والاحتمالات الأخرى التى وردت فى كلمات بعض الشرّاح ليست منسجمة مع ظاهر كلمات الإمام عليه السلام ومن هنا لا نرى ضرورة الخوض فيها.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۵۵

تأمّل: حوار مع عمار بن ياسر فى صفين

لا شك فى أنّ أهل القبلة والمسلمين إن مارسوا بعض الأعمال التى تهدد كيان الإسلام أو قاموا ضد الحكومة الإسلامية، فلابدّ من إرشادهم وإعادتهم إلى جادة الصواب من خلال الطرق السلمية؛ لكن إن واصلوا غيهم وتمادوا فى أعمالهم، فليس هنالك من سبيل سوى اللجوءالقوّة، ولا يبدوهذا العمل مستساغاً من قبل الأفراد السطحيين وضيقى الأُفق، لذلك قال الإمام عليه السلام:

«وَلَا يَحْمِلُ هذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ»

. ورد فى أحداث موقعة صفين: روى عن نصر بن مزاحم، قال: «حدثنى يحيى بن يعلى، قال: حدثنى صباح المزنى، عن الحارث حصن، عن رجاء بن ياسر، عن أسماء بن حكيم الفزارى، قال: كنّا بصفّين مع علىّ، تحت راية عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى، وقد استظللنا برداء أحمر، إذ أقبل رجل يستقرى الصف حتى انتهى إلينا فقال: أيّكم عمار بن ياسر، فقال عمار:

أنا عمار، قال: أبواليقظان؟ قال: نعم، قال: إنّ لى إليك حاجة أفأنطق بها سرّاً أو علانية؟ قال: اختر لنفسك، أيّهما شئت، قال: لا بل علانية، قال: فانطق، قال: إنّى خرجت من أهلى مستبصراً فى الحقّ الذى نحن عليه، لا أشك فى ضلالة هؤلاء القوم، وأنّهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً، حتى ليلتى هذه، فإنّى رأيت فى منامى منادياً تقدّم، فأذّن وشهد أن لا إله إلّااللّه وأنّ محمداً رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ونادى بالصلاة ونادى مناديهم مثل ذلك، ثم أقِيمت الصلاة، فصلّينا صلاة واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ودعونا دعوةً واحدة، فأدركنى الشك فى ليلتى هذه، فبتّ بليلة لا يعلمها إلّااللّه تعالى، حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين، فذكرت ذلك له فقال: هل لقِيت عمار بن ياسر! قلت: لا، قال عليه السلام فالقه، فانظر ماذا يقول لك عمار، فاتبعه، فجئتك لذلك، فقال عمار: تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لى! فإنّها راية عمرو بن العاص، قاتلتُها مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۵۶

ثلاث مرات، وهذه الرابعة فما هى بخيرهنّ، ولا أبرِّهن، بل هى شرّهن وأفجرهُنّ.

أشهد بدراً وأحداً يوم حُنين، أو شهدها أب لك فيخبرك عنها؟ قال: لا، قال: فإنّ مراكِزنا اليوم على مراكز رايات رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يوم بدر، ويوم أحد ويوم حنين، وإنّ مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، فهل ترى هذا العسكر ومَن فيه! واللّه لوددت أن جميع مَن فيه ممن أقبل مع معاوية ويريد قتالنا، مفارقاً للذى نحن عليه، كانوا خَلقاً واحداً، فقطّعته وذبحته، واللّه لدماؤهم جميعاً أحلُّ من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا بل حلال، قال: فإنّهم حلال كذلك، أترانى بينت لك، قال: قد بينت لى، قال عليهما السلام فاختر أىّ ذلك أحببت»[۶۶۵]. فهذه الواقعة وأمثالها تفيد أنّ ارتداء ثوب الإسلام من قبل تلك الفرق المنحرفة إنّما كان يخدع البعض من السذج، وهذا ما دفع الإمام عليه السلام لتحذيرهم من الفتنة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۵۷

القسم الثالث

أَلَا وَإِنَّ هذِهِ الدُّنْيا الَّتِى أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلَا مَنْزِلِكُمُ الَّذِى خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّذِى دُعِيتُمْ إِلَيْهِ. أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقُونَ عَلَيْهَا؛ وَهِىَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا؛ وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِى دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَانْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا؛ وَلَا يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الْأَمَةِ عَلَى مَا زُوِىَ عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طاعَةِ اللَّهِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَىْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَىْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ. أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ!

الشرح والتفسير: الدنيا ليست داركم

أشـار الإمـام عليه السـلام فی هـذا الموضوع من الخطبـة إلی تقلّب الـدنيا وعـدم ثباتها وحـذّر الجميع من زخرفها وزبرجها، ذلک لأنّ الإنـحراف الـذی طال أصـحاب الجمـل إنّمـا يُعزی إلی تهـافتهم علی الـدنيا وحطامهـا، فلا ينبغی لهم السير علی خطاهم، وعليهم أن يسلکوا سبيل الحق وإن انتهی بهم إلی الشهادة، فقال:

«أَلَا وَإِنَّ هذِهِ الدُّنْيَا الَّتِی أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُکُمْ وَتُرْضِيکُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِکُمْ، وَلَا مَنْزِلِکُمُ الَّذِی خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّذِی دُعِيتُمْ إِلَيْهِ».

نفحات الولايۀ، ج۶، ص: ۳۵۸

فالعبارۀ، إشارۀ لما تأکـد مراراً فی نهـج البلاغـۀ والقرآن أنّ الـدنيا ليست خالدۀ وأنّها ليست بدار إقامتنا، بل هی ممرّ مؤقت نجتازه فی سفرنا إلی الآخرۀ حيث مقرّنا ومقامنا بعد التزود من هذه الدنيا لتلک الحياۀ الحقيقيۀ التی قال عنها القرآن:

«لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَوْ کَانُوا يَعْلَمُونَ»[۶۶۶].

ثم أکّد الإمام عليه السلام أکثر فقال:

«أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَکُمْ وَلَا تَبْقُونَ عَلَيْهَا».

کما ردّ علی أولئک الذين يصفون الدنيا دائماً بالخداع والغرور، فقال:

«وَهِیَ وَإِنْ غَرَّتْکُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْکُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا»

. صـحيح أنّ أغلب مظـاهر الـدنيا تثير الغرور والغفلـۀ، لکنها ترينا إلی جانب ذلک بعض المشاهـد التی توقظ کل غافل من نوم غفلته. فاللحظـۀ التی ينـال فيهـا أحـدهم السـلطۀ ويسـتولی علی العرش، هی ذاتها التی يسـقط فيها أخيراً، وفی الوقت الـذی يرث فيه شـخص الآلاف المؤلفۀ من الثروۀ، هو نفس الوقت الذی يحمل فيه جثمان صاحب تلک الثروۀ ليوسّد التراب، وحين يولد طفل وتطالعنا مظاهر الفرح والسـرور علی سيماء وجوه أُسـرته، ترتفع إلی جانبه أصوات أُسـرۀ بالعويل لفقدهم أحد أعزتهم، فلم نرکز علی الصورۀ الأُولی ونتناسـی الصورۀالثانيۀ؟! حاول الإمام عليه السـلام بهذه العبارات العميقۀ المعنی أن يلفت الانتباه إلی هذه الحقيقۀ وقد أکّدها فی سائر خطب نهج البلاغۀ وقصار الکلمات.

ثم واصل الإمام عليه السلام کلامه قائلًا:

«وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَی الدَّارِ الَّتِی دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَانْصَرِفُوا بِقُلُوبِکُمْ عَنْهَا»

، کما قال:

«وَلَا يَخِنَّنَّ أَحَدُکُمْ خَنِينَ الْأَمَةِ عَلَی مَا زُوِیَ ۶۶۷]

عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْکُمْ بِالصَّبْرِ عَلَی طاعَةِ اللَّهِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَی مَا اسْتَحْفَظَکُمْ مِنْ کِتَابِهِ».

نفحات الولايۀ، ج۶، ص: ۳۵۹

فقـد شبـه الإمام عليه السـلام الأفراد الضـعاف الـذين لا يکادون يفقدون نعمۀ من نعم الدنيا حتی يعيشوا حالۀ من العزاء وکأنّهم فقدوا عزيزاً من أعزتهم بتلـک الأَمَـۀ التی يرتفع صوتهـا بالبکاء لأدنی مُلمّـۀ، وربّما دوی صوت البکاء أثر شـدّۀ الجزع. نعم، هـذا فعل العبيد الضـعاف؛ ضـعاف الدنيا وأسـری مظاهرها، والحال، لو فکروا بصورۀ صـحيحۀ لأدرکوا أنّ ما فقدوه مهما کان مهمّاً فلا قيمۀ له، لأنّهم يفقدونه عاجلًا أم آجلًا، وإن لم يفقدوه اليوم فسيفقدونه ويفقد کل شیء عندما يموت غداً.

أضف إلی ذلـک فـإنّ أغلب النعم التی تزول إنّمـا تعود فيمـا بعـد بفضـل اللّه ولطفه، وعليه فلا داعی للتأوه والشـعور بالألم والحسـرۀ. ويستفاد من العبارۀ الأخيرۀ أنّ أحد عوامل بقاء نِعم اللّه وديمومتها طاعۀ اللّه واتباع أوامره والإلتزام بالقرآن والعمل بأحکامه.

وأشار الإمام عليه السـلام فی ختام الخطبۀ إلی نقطۀ مهمّۀ أخری تتمثل فی ضرورۀ حفظ الدين حين يکون هنالک مفترق طرق وتضاد

بين حفظ الدنيا بزينتها وزخرفها وحفظ الدين، فليس هنالك من ضرر يطيل الإنسان إن ذهبت دنياه، بينما لا ينفعه شيء إن ذهب دينه: «أَلَا وَإِنَّهُ لَايَضُرُّكُم تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُم قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَايَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ»

. إشارة إلى أنّ الغنى الحقيقى، فى حفظ الدين والإيمان الذى يشكل مفتاح حياة الإنسان الأبدية، لا النعم المادية العابرة، فهى عناصر ثانوية تغادر سريعاً كالفقاعات التى تطفو على سطح الماء. نقل المرحوم الكلينى أنّ أحد أصحاب الإمام عليه السلام كان يقدم كل عام إلى الحج ويرى الإمام عليه السلام، لكنه غاب مدّة. فسأل الإمام عليه السلام أحد أصحابه المعروفين عن ذلك الشخص، فلم يشأ أن يخبر الإمام عليه السلام بوضعه المالى الصعب. فقال عليه السلام وكيف دينه وإيمانه؟ قال: هو واللّه كما تحبّ. فقال عليه السلام: هو واللّه الغنى ۶۶۸].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۶۰

وأخيراً اختتم عليه السلام الخطبة بهذا الدعاء:

«أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ!»

لقد قلنا مراراً إنّ الإمكانات المادية إن استعملت كوسيلة لتحقيق الأهداف المعنوية فهى ليست مذمومة، بل هى من أفضل الوسائل لتطور الإنسان، ولما كان عصر الإمام عليه السلام والأئمّة من بعده قد شهد إقبال المسلمين على الدنيا أثر الفتوحات وما جلبت إلى البلاد من أموال طائلة وثروات، فقد جهد الإمام عليه السلام على ذم الدنيا وتحذير الآخرين من الخداع بها، والخطبة المذكورة نموذج لذلك.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۶۱

الخطبة ۱۷۴

اشارة

فِي مَعْنى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيدِاللَّهِ وَقَدْ قَالَهُ حِينَ بَلَغَهُ خُروجُ
طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ إلى البَصْرَةِ لِقِتَالِهِ ۶۶۹]

نظرة إلى الخطبة

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة حين بلغه خروج طلحة والزبير إلى البصرة للإستيلاء عليها وقتال الإمام عليه السلام. فأراد الإمام عليه السلام بهذه الخطبة رفع معنويات صحبه وكشف حقيقة طلحة والزبير، وتتألف الخطبة من قسمين:

الأول: الذى قال فيه الإمام عليه السلام إنّه لم يهدد من قبل شخص بالحرب لحدّ الآن، فقد لمس الجميع شجاعتى فى ميدان القتال، وعليه فتهديد طلحة والزبير هراء.

والآخر: يستدل فيه الإمام بالبرهان والمنطق أنّ المطالبة بدم عثمان- التى يتذرع بها طلحة والزبير من أجل إشعال فتيل الحرب- كذبة فارغة، ذلك لأنّ يد طلحة ملطخة قبل أى أحد بدم عثمان.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۶۳

القسم الأول

قَدْ كُنْتُ وَمَا أَهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ؛ وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَنِى رَبِّى مِنَ النَّصْرِ. وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لَأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِى الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ الْأَمْرُ وَيَقَعَ الشَّكُّ. وَوَاللَّهِ مَا صَنَعَ فِى أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِماً- كَمَا كَانَ يَزْعُمُ- لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يُوَازِرَ قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ وَلَئِنْ كَانَ فِى شَكٍّ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ وَيَرْكُدَ جَانِباً، وَيَدَعَ النَّاسَ، مَعَهُ، فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ.

الشرح والتفسير: تناقض طلحة دليل فضيحة

أشار الإمام عليه السلام فى بداية الخطبة إلى تهديد طلحة والزبير فقال:

«قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ».

إشارة إلى أنّ الجميع يعلم بشدّة وقع سيفى فى المعارك الإسلامية قد جندلت صناديد العرب حتى اقترن اسمى بالشجاعة لدى الدانى والقاصى. وأنّه لمن دواعى العجب أن يجرأ طلحة والزبير على تهديدى بالحرب وقد شهدوا صولاتى فى الحروب.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۶۴

ثم قال عليه السلام:

«وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَنِى رَبِّى مِنَ النَّصْرِ»

. يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى الوعد الإلهى للمؤمنين بالنصر والذى نصت عليه الآية الشريفة «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ»[۶۷۰] كما يمكن أن تكون إشارة إلى وعد خاص وعده به رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى ظهوره على الناكثين، وقد أطلعه على موقعة الجمل وأخبر عائشة بها صراحة ونهاها عن الخروج، وقد ورد هذا الأمر فى التواريخ [۶۷۱].

ثم تطرق عليه السلام إلى نيّة طلحة والزبير من هذه الفعلة القبيحة فقال:

«وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً[۶۷۲] لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لَأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِى الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ ۶۷۳] فِيهِ لِيَلْتَبِسَ الْأَمْرُ وَيَقَعَ الشَّكُّ. وَوَاللَّهِ مَا صَنَعَ فِى أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِماً- كَمَا كَانَ يَزْعُمُ- لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يُوَازِرَ[۶۷۴] قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ[۶۷۵] نَاصِرِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَهْنِهِينَ ۶۷۶] عَنْهُ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ وَلَئِنْ كَانَ فِى شَكٍّ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ وَيَرْكُدَ[۶۷۷] جَانِباً، وَيَدَعَ النَّاسَ، مَعَهُ».

ثم قال عليه السلام:

«فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ ۶۷۸]».

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۶۵

وهكذا يكشف الإمام عليه السلام النقاب عن كذب طلحة ومؤامرته بهذا الأسلوب المنطقى ويشير إلى أنّه سياسى محتال ومحترف، ذلك لأنّ وضعه إزاء عثمان- طبق الحصر العقلى- لا يتجاوز إحدى ثلاث حالات: إمّا، كان يعتبره ظالماً أو مظلوماً أو شاكاً فيه؛ وكل حالة تتطلب تعامل مناسب، لكنه وقف يوماً خلف الكواليس يؤلب الآخرين على قتل عثمان، وما أن قتل عثمان حتى هبّ للدفاع عنه والمطالبة بدمه.

هذه هى طريقة الساسة المحترفين الذين يغيرون مسيرتهم بين ليلة وضحاها أحياناً.

ولا تبـدو سـياسة معاويـة- وإن حاول الإبتعاد عن هـذه الأحداث- مختلفة عن سـياسة طلحة. فقد تخلى عن عثمان حتى قتل، ثم طالب بـدمه. كان هؤلاء راضـيين في الواقع بقتل عثمان، أملًا في نيل الخلافة. وقد صـرح الإمام على عليه السـلام بأنّ طلحة لم يتعاون مع قتلة عثمان، والحال، يفيـد التاريخ أنّه ساعدهم. طبعاً، مراد الإمام عليه السـلام أنّه لم يرد الميدان علناً، لكنه كان ينسّق بعيداً عن الأنظار- ما يجـدر ذكره أنّ ابن قتيبة ذكر في كتابه (الامامة والسـياسة) أنّ عائشة خطبت الناس في البصـرة ودعتهم للطلب بدم عثمان، فأبرز رجل من أشـراف البصـرة كتابا كتبه إليه طلحـة يحثّه فيه على قتل عثمان. فقال لطلحـة: أتعرف هـذا الكتاب؟ قال طلحـة: بلى. قال: فما الذى حـدث؟ بالأمس تريـد قتل عثمان، واليوم تدعوا إلى المطالبة بدمه؟ وقد قلت: إنّ علياً عليه السـلام دعاك ليوليك الناس الخلافة لكبر سنـك، فأبيت وبايعته حيث قلت: هو أقرب للنبى الأكرم صـلى الله عليه و آله وسوابقه فى الإسـلام مقدمـة، فلمَ نقضت بيعتك؟ أجاب طلحـة: لقـد قـال ذلـك بعـد أن بايعه الناس وولّىَ الخلافـة، وكنت أعلم أنّه لا يفعل، وإن فعل لم يرض بخلافـة المهاجرين والأنصار، فخفت إن لم أبايع أُقتل فبايعت مكرها؟

فقال له الرجل: وكيف تغيّر موقفك من عثمان؟ قال طلحة: إنّ قومنا عابوا علينا عدم نصرته، واليوم نطالب بدمه ۶۷۹] ويتضح من هذا، أنّ الناس آنذاك كانوا يدركون عدم

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۶۶

صـدق طلحـة فى مزاعمه. ومن عجائب التاريخ الإسـلامى ما رواه المدائنى فى كتاب مقتل عثمان أنّ طلحة منع دفن عثمان ثلاثة أيّام، حتى استعان بعض الصحابة بعلى عليه السلام لدفنه. وقد أمر طلحة بعض الأفراد بإطلاق الحجر على الجنازة، حتى دفنوه فى المدينة فى موضع يدفن فيه اليهود، يدعى (حش كوكب)، ثم رماه البعض بالحجر. فبعث على عليه السلام مَن منعهم عن هذا العمل ۶۸۰].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۶۷

الخطبة ۱۷۵

اشارة

فِي المَوْعِظَةِ وَبَيانِ قُرْبَاهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله ۶۸۱]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هـذه الخطبـة من ثلاثـة أقسام: ذكر الإمام عليه السـلام فى القسم الأول: مواعظ قيمـة لجميع مخاطبيه- الذين يمثلون فى الواقع، الناس على مر العصور- بعبارات مؤثرة توقظ الغافل من غفلته.

وأشار فى القسم الثانى إلى علمه بالأحداث القادمة وأنّ ذلك ممّا علّمه إيّاه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حيث صرح بأنّه يستطيع أن يخبر كل أحد منهم بتفاصيل حياته، لكنه يتحفظ ذلك خشية الغلو والكفر.

أمّا القسم الثالث- الـذى يمثل آخر الخطبـة- فقد أشار فيه إلى سـبقه الجميع فى الأوامر والنواهى، فلايأمر بشـىء حتى يأتمر هو به ولا ينهى عنه حتى ينتهى هو عنه.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۶۹

القسم الأول

أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ. مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعىً وَبِيٍّ، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ، وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَى لَاتَعْرِفُ مَاذا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشِبَعَهَا أَمْرَهَا. وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

الشرح والتفسير: الغفلة التامة

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بخطاب جميع الناس قائلًا:

«أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ».

ثم أضاف عليه السلام:

«مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ ۶۸۲] بِهَا سَائِمٌ ۶۸۳] إِلَى مَرْعىً وَبِيٍ ۶۸۴]، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍ ۶۸۵]».

رغم أنّ جميع المسلمين يتحدثون عن اللّه، إلّاأنّ عمل البعض يشير إلى أنّه

نفحات الولايۀ، ج۶، ص: ۳۷۰

تولى عن اللّه والتصق بالدنيا وهوى النفس، فقد شبّه الإمام عليه السلام مثل هؤلاء بالحيوانات التى حملها الراعى الجاهل أو المغرض إلى مرعى ليس فيه ماء ولا كلاء سوى المرض والموت. هذا الراعى، هو الشيطان وهذه الحيوانات، هم الناس الذين لا يصغون لنداء العقل وقد استغرقوا فى هوى أنفسهم، وهذا المرعى المميت هو وادى اللذات والشهوات الذى يفرز الذنوب والمعاصى وبالتالى يقتل روح الإنسان ومعنويته.

ثم قال عليه السلام:

«وَإِنَّما هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَى ۶۸۶] لَاتَعْرِفُ مَاذا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا

تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشِبَعَهَا أَمْرَهَا».

فقد شبّه الإمام عليه السلام بهذين التشبيهين أصحاب الدنيا، بالحيوانات التى لا همّ لها سوى شبعها وأنّ من يقدّم لها العلف يحسن إليها، ولا تعلم أنّ علفها وسقيها مقدمۀ لذبحها، وهذا حالهم حين ينغمسون فى لذات الدنيا وشهواتها.

وأخيراً أشار إلى جانب من علمه بأسرار الغيب وحوادث المستقبل ليقفوا على جديته ومعرفته بما يصلحهم:

«وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ ۶۸۷] وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

ورد فى الحديث أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله كان جالساً فدخل عليه على عليه السلام فقال:

«إِنَّ فِيكَ شَبَهاً مِنْ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ وَلَوْ لَاأَنْ تَقُولَ فِيكَ طَوائِفٌ مِنْ أُمَّتِي ما قَالَتِ النَّصارى فِي عَيسَى بْنَ مَرْيَمَ لَقُلْتُ فِيكَ قَوْلًا لَاتَمُرُّ بِمَلَأٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا اخَذُوا التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْكَ يَلْتَمِسُونَ بِذلِكَ الْبَرَكَةَ»[۶۸۸].

نفحات الولايۀ، ج۶، ص: ۳۷۱

القسم الثانى

أَلَا وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذلِكَ مِنْهُ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاصْطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقاً، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَآلِ هذَا الْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا.

الشرح والتفسير: علّمنى رسول اللّه صلى الله عليه و آله كل شىء

بالنظر إلى أنّ الإمام عليه السلام أشار فى السابق إلى علمه بأسرار الغيب وإخبار كل شخص عن تفاصيل حياته، إلّاأنّه يخشى منهم الغلو والكفر، ليشير هنا إلى أمرين؛ الأول: إنى أطلع على هذه الأسرار بعض الخواص من المؤمنين ممن يتحمّلون الأسرار ويحفظونها، والآخر، ما أقوله إنّما سمعته من رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال:

«أَلَا وَإِنِّی مُفْضِیهِ ۶۸۹] إِلَی الْخَاصَّةِ مِمَّنْ یُؤْمَنُ ذلِکَ مِنْهُ»

. هذه الخاصة، مثل، كميل بن زياد، ورشيد الهجرى، والأصبغ بن نباتة، وميثم التمار، وحبيب بن مظاهر، الذى يسع كل واحد منهم حفظ بعض الأسرار. وقد حفلت حياتهم بالتعرّض لبعض الأسرار فى المواقع الحساسة؛ فإذا كان التلامذة يحملون مثل هذه الأسرار ولهم مثل هذه

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۷۲

المقامات، فما ظنك بالأسرار المودعة لدى الأستاذ، والمقام الذى هو عليه؟!!

ثم خاض فى الأمر الثانى فقال:

«وَالَّذِی بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاصْطَفَاهُ عَلَی الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقاً، وَقَدْ عَهِدَ إِلَیَّ بِذلِکَ کُلِّهِ، وَبِمَهْلِکِ مَنْ یَهْلِکُ، وَمَنْجَی مَنْ یَنْجُو، وَمَآلِ هذَا الْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَی شَیْئاً یَمُرُّ عَلَی رَأْسِی إِلَّا أَفْرَغَهُ ۶۹۰] فِی أُذُنَیَّ وَأَفْضَی بِهِ إِلَیَّ».

ترى هل كان تعليم النبى صلى الله عليه و آله لهذه الأسرار بصورة بيان جزئى وشرح لكل واقعة، أم أنّه علّم علياً عليه السلام أصول وكليات، وأن كل باب يفتح ألف باب، أم كانت الموارد مختلفة فتارة من خلال الأصول الكلية وأخرى من خلال التفاصيل؟ يبدو الإحتمال الثالث، هو الأقرب. نعم، هذه الأمور ليست واضحة لدينا، واللّه ورسوله أعلم، إلّاأننا نعلم أنّه أخبر عن حوادث جمة ووقعت كما أخبر، وقد بينت فى خطب متعددة من نهج البلاغة، ولو جمعت لكانت كتاباً رائعاً. وبالطبع فإنّ أى من ذلك ليس من علم الغيب الذاتى- الذى يختص باللّه تعالى- بل كما قال عليه السلام فى الخطبة ۱۲۸

«إِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِی عِلْمٍ»[۶۹۱]

ولما كان الإمام عليه السلام قد أفرد جانباً مهمّاً من الخطبة فى دعوة الناس إلى ترك الانغماس فى الدنيا عاد فى ختام الخطبة ليشير إلى هذه النقطة المهمّة فى سبقه للعمل بما يأمر فقال:

«أَیُّهَا النَّاسُ، إِنِّی، وَاللّهِ، مَا أَحُثُّکُمْ عَلَی طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُکُمْ إِلَیْهَا، وَلَا أَنْهَاکُمْ عَنْ مَعْصِیَةٍ إِلَّا وَأَتَنَاهَی قَبْلَکُمْ عَنْهَا»

. فالشرائط اللازمة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإن لم تتضمن ضرورة عمل الأمر والناهى.

كما روى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْکَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ کُلَّهُ»[۶۹۲]

. ولكنّ الآمر والناهى إذا كان عاملًا قبل الآخرين بما

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۷۳

يأمر به وينهى عنه فسيكون لكلامه أبلغ الأثر فى نفوسهم، لأنّ تأثير الكلام إنّما ينبع من القلب، فإن خرج من القلب استقر لا محالة فى القلب. ومن هنا كان هذا هو الأسلوب الذى اعتمده رسول اللّه صلى الله عليه و آله والائمة المعصومين عليهم السلام وأتباعهم وأنصارهم، فإن نشبت الحرب، كانوا فى خطوطها الأمامية وإن حل وقت العبادة تغيّرت ألوانهم، حتى حذر القرآن الكريم رسول اللّه صلى الله عليه و آله من إجهاد نفسه فى العبادة: «طه* مَا أَنْزَلْنَا عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَی [۶۹۳]. وقال أميرالمؤمنين على عليه السلام بشأن سبق رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى القتال:

«كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ فَلَمْ يَكَنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبُ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ»[۶۹۴].

ونعلم جميعاً أنّ علياً عليه السلام إن حثّ الناس فى هذه الخطبة وسائر الخطب على الزهد فى الدنيا وعدم التعلق بزخارفها، فقد كان أزهد العباد، وحياته خير شاهد على زهده الفريد، والحق لو انطلق زعماء البلدان الإسلامية من هذه المفاهيم فى أن يلتزموا هم وبطانتهم بالعمل بالقوانين قبل غيرهم، لكان لكلماتهم أعظم التأثير فى نفوس الآخرين.

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۳۷۵

الخطبهٔ ۱۷۶

اشارهٔ

وَفِيهَا يَعِظُ وَيُبَيِّنُ فَضْلَ الْقُرْآنِ وَيَنْهى عَنِ الْبِدْعَةِ[۶۹۵]

نظرهٔ إلى الخطبهٔ

هذه خطبهٔ طويلهٔ تتحدث عن مسائل مهمّهٔ وتتضمن وصايا حيهٔ وبناءهٔ لحياتنا المعاصرهٔ وتتألف من ثمانيهٔ أقسام: القسم الأول، الذى يتضمن مواعظ قيّمهٔ يؤكد فيها الإمام عليه السلام أنّ جهنم حُفّت بالشهوات، والجنّهٔ بمقاومهٔ هذه الشهوات. وشرح فى القسم الثانى، أهميّهٔ القرآن مع ذكر بعض التفاصيل الظريفهٔ التى تضاعف من شوق القلوب إلى آيات القرآن. وتطرّق عليه السلام فى القسم الثالث، إلى العمل بالأحكام والاستقامهٔ.

ثم عاود النصح والوعظ فى القسم الرابع، مؤكّداً على مراقبهٔ اللسان الذى يمثل

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۳۷۶

أولى مراحل إصلاح الذات والمجتمع. وأكّد فى القسم الخامس، على حفظ أصالهٔ التعاليم الإسلاميهٔ، ونبذ البدع، كما تعرض فى القسم السادس، إلى أهميّهٔ القرآن وخصائصه. وأوضح فى القسم السابع، أقسام ظلم النفس والآخرين. أمّا القسم الثامن (والأخير فى الخطبهٔ) فهو بيان مختصر عميق المعنى بشأن إصلاح الذات.

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۳۷۷

القسم الأول

انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهَهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هذِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِى فِى كُرْهٍ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِى فِى شَهْوَةٍ. فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً وَإِنَّهَا لَاتَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِى هَوىً.

الشرح والتفسير: حفت الجنّهٔ بالمكاره والنار بالشهوات

إستهل الإمام عليه السلام خطبته قائلًا:

«انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ»

يمكن اعتبار هـذه العبارات الثلاث تبياناً لحقيقـة واحـدة بجمل مختلفـة، ويحتمل أن تكون كل عبارة مُبيِّنـة لمطلب معيّن. فقد أوصـى عليه السـلام بـادىء الأمـر بالإنتفاع ببيان اللَّه والمراد به الأوامر والنواهى، ومن ثم الإتعاظ بمواعظ اللَّه، أى الترغيب والترهيب والبشارة والإنـذار الـتى تشـكل دوافع الطاعـة وترك المعصـية، والمرحلـة الأـخيرة مرحلـة الخير التى تتضـمن بركـات الطاعـة وهجر المعصـية، فالمراحل الثلاث هى السبيل إلى القرب الإلهى. جـدير ذكره أنّ لفظ الجلالـة تكرر فى العبارات الثلاث، وذلك لبيان أهميّـة المواعظ والنصائح والشعور بمراقبة اللَّه.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۳۷۸

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال الدليل والبرهان، فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيكُم بِالْجَلِيَّةِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ ۶۹۶] مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهَهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هذِهِ».

فالإمـام عليه السـلام لاـ يرى من مبّرر للتوانى فى قبول المواعـظ والإتيان بالواجبات وترك المحرمات، ذلك لأنّ اللَّه أتمّ الحجـة على الجميع ووضع بما لا يقبل الشك، سبيل قبح العقاب بلا بيان. وخاض عليه السلام فى الرد على إشكالات مقدرة فقال:

«فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ ۶۹۷] بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

وواصل عليه السلام كلامه فى بيان حديث الرسول صلى الله عليه و آله، فقال:

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ شَـيْءٌ إِلَّا يَأْتِى فِى كُرْهٍ، وَمَا مِنْ مَعْصِـيَةِ اللَّهِ شَـيْءٌ إِلَّا يَأْتِى «فِى شَهْوَةٍ. فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً نَزَعَ ۶۹۸] عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ ۶۹۹] هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً وَإِنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِى هَوىً».

فهذه حقيقة، وهى أنّ الإنسان لابدّ له من اجتياز الطرق الصـعبة الوعرة فى مسـيرته العبادية وكسب الفضائل ودفع الرذائل، وعليه مراقبة الأخطار التى تكمن فى طريقه وتعيقه عن الوصول إلى هدفه، أمّا فى مسيرة المعصـية فكأن هذه النفس الجامحة تسـلك سبيلًا سهلًا لا ينطوى على أيّة صعوبات، وهذا هو سر ثواب الطاعة وعقوبة المعصية.

نقرأ فى حديث لطيفة عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«أنّ اللَّه حين خلق الجنّة أمر جبريل

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۳۷۹

بالنظر إليها، فأقسم بعزّة اللَّه وجلاله أنّ كل من سمع عنها يود دخولها، ثم حفّها اللَّه بالمكاره وأمره بالنظر إليها، فنظر إليها وقال أخشى أن لاـ يرغب فيهـا أحـد، وحين خلق النار أمر جبريل بالنظر إليها، فلما نظر إليها أقسم بعزّة اللَّه وجلاله أنّ كل من سـمع عنها سوف لن يدخلها، ثمّ حفّها بالشهوات، وأمره بالنظر إليها، فأقسم بعزّة اللَّه وجلاله أنّه يخشى أن يدخلها الجميع»[۷۰۰].

تأمّل: عشق الطاعة

مـا ورد فى هـذه الخطبـة حكم غـالب، لا دائم، بعبارة أخرى أنّ أكثر الطاعات مصـحوبة بالمشاكل وأغلب المعاصـى محفوفـة باللـذة. والجـدير بالـذكر أنّ هـذا الحكم الغالب يختص بعامّـة الناس، وإلّا فإنّ أولياء اللَّه ودعاة الحق إنّما يبلغون درجة تجعلهم يتلذّذون بكل طاعة ويذوبون فيها ويتنفّرون من كل معصية، حيث ورد فى الرواية عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَشِقَ الْعِبادَةَ فَعَانَقَها»[۷۰۱]

وقد اعتمد الإمام عليه السلام تلك العبادة لأنّ مخاطبيه عامة الناس لا الخواص والأولياء. وصدر الخطبة يشهد على هذا الأمر. القرآن الكريم من جانبه يقول بشأن الصوم والصلاة:

«وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ»[۷۰۲] سؤال: قيل فى تفسير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أنّ المعروف ما عُرِف؛ لأنّ روح الإنسان متعرّفة على المحاسن، والمنكر ما لم يُعرَف، وروح الإنسان لا تعرف المساوىء، أليس العبارة المذكورة فى الخطبة، تتعارض مع هذا التفسير المشهور؟

يتضح من التأمل أن ليس هنالك من تعارض، لأنّ معرفة المعروف ومجهولية

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۸۰

المنكر لا تتنافى من حيث الإدراك الكلّى مع جاذبة المعصية ودافعة الطاعة، مثلًا نلتذّ جميعاً بالعلم ونتنفّر من الجهل، إلّاأنّ تحصيل العلم ينطوى على عدّة مصاعب، بحيث يزهد فيه بعض الأفراد، وينزعون إلى الجهل، حيث الكسل والخمول.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۸۱

القسم الثانى

وَاعْلَمُوا- عِبَادَاللَّهِ- أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَايُصْبِحُ وَلَا يُمْسِى إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ، فَلَا يَزَالُ زَارِياً عَلَيْهَا وَمُسْتَزِيداً لَهَا. فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ. قَوَّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَوْهَا طَيَّ الْمَنَازِل.

الشرح والتفسير: نقد الذات

أعطى الإمام عليه السلام هنا دعاة الحق والسالكين إلى اللَّه درساً معنوياً مهمّاً فقال:

«وَاعْلَمُوا- عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَايُصْبِحُ وَلَا يُمْسِى إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ ۷۰۳] عِنْدَهُ، فَلَا يَزَالُ زَارِياً[۷۰۴] عَلَيْهَا وَمُسْتَزِيداً لَهَا».

فإننا نعلم أن أحد حجب تكامل الإنسان، هو حبّ الذات الذى يبدى له عيوبه محاسن وضعفه قوة، وعليه فإن أراد الإنسان سلوك طريق السمو والتكامل، لابدّ أن يتّهم نفسه ويعرضها للنقد ليطرح عنها حجب حب الذات ويريها الواقع كما هو. وقد بين الإمام عليه السلام هذا الأمر بثلاث عبارات قصيرة، قال فى الأولى بوجوب إساءة الظن بالنفس ومن ثم انتقادها وأخيراً إيصالها إلى الكمال المطلوب. وقد أشار فى خطبة المتقين التى تضمنت مائة وعشرة دروس أخلاقية إلى هذه القضية المهمّة:

«فَهُمْ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۸۲

لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ».

ثم رغّب مخاطبيه- الإنسانية جمعاء- فى ترك التعلق بالدنيا وقد عرض لهم نماذج السلف الصالح فقال:

«فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ.

قَوَّضُوا[۷۰۵] مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَوْهَا[۷۰۶] طَيَّ الْمَنَازِل».

وصايا ضرورية

۱. ورد الحثّ فى الإسلام والتأكيد على حسن الظن، فما معنى تأكيد الإمام عليه السلام هنا على إساءة الظن؟ سبب ذلك واضح فى أنّ حسن الظن يتعلق بالآخرين، أمّا بالنسبة للذات التى تعيش طبيعياً حسن الظن المفرط إلى درجة رؤية الضعف قوّة، والرذيلة فضيلة، ورد

الحثّ على إساءة الظن لإيجاد حالـة من التوازن. فلابـدّ للإنسان من نقـد ذاته وتقييم أعماله وسـلوكه دون تهاون لينفتـح على الكمال. فهو كذاك الذى يجتاز طريقاً خطراً، فإن اطمأن للطريق، هوى وإن احتاط وحذر، نجى.

جدير بالذكر أنّ نقد الذات لا يتنافى والثقة بالنفس، فالثقة بالنفس من قبيل وجود قوّة عظيمة لدى الإنسان وهو عالم بها، وهذا لا يمنع من الحذر فى مواضع الخطر وعدم نسيان الإحتياط حين الإستعانة بتلك القوّة.

٢. أورد الإمام عليه السـلام لمخاطبيه نموذجين (كالسابقين من قبلكم) و (الماضـين أمامكم) لانطواء حياة كل فئـة منهما على الدروس والعبر.

٣. اختتم الإمام عليه السـلام الخطبة بأمرهم بالنظر إلى الدنيا كمَن قوض عماد الخيمة وجمعها وسلك سبيله يطوى المنازل دون الإقامة فى الـدنيا والإسـتقرار فيهـا، ويبـدو أنّ جميع مشاكـل أهل الـدنيا تنبعث من هنا، فى أنّهم نسوا الموت تماماً وظنوا بخلودهم فى الـدنيا، وكأنّهم لا يرون الزلازل والسيول التى تضرب بعض المناطق

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۸۳

فتحيلها خلال ثوانٍ، خراباً كأنّها لم تسكن من قبل، وتأتى على مزارع وحقول لتحطم كل محاصيلها التى استغرقت مئات السنين ۷۰۷].

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۸۵

القسم الثالث

وَاعْلَمُوا أَنَّ هـذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِى لَايَغُشُّ، وَالْهَادِى الَّذِى لَايُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِى لَايَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِى هُـدىً، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمىً. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَـدٍ بَعْـدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَـةٍ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنىً؛ فَاسْتَشْـفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْـتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِـفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَىُّ وَالضَّلَالُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ.

الشرح والتفسير: القرآن دواء لكل داء

بيّن الإمام عليه السلام هنا أهميّة القرآن الكريم بصفته الكتاب السماوى الشافى فى خمسة أوصاف فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ هذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِى لَايَغُشُّ، وَالْهَادِى الَّذِى لَايُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِى لَايَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِى هُـدىً، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمىً. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَـدٍ بَعْـدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَـةٍ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنىً»

. فقـد أشار بالعبارة الأُولى والثانيـة والثالثة إلى هذه الحقيقة و هى أنّ الناصح الأمين والهادى من لا يكذب أو يغش أو يغدر أو يضـل حتى لاـ يكون سـبباً لاـنحراف الآـخرين، فلعـل هنـاك من يعرف السبيل إلّاأنّه لا يصـدق الآخرين أو يخـدعهم، كما يمكن أن يكون صادقاً لكنه لا يعرف الطريق، والحال، ليس القرآن كذلك، فالوحى إنّما يستند إلى علم اللّه المطلق

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۳۸۶

الذى لا يتسلل إليه الكذب والغش والخيانة، فهو كتاب اللّه الغنى عن الجميع والمشفق بهم.

ومن هنـا خلص الإمـام عليه السـلام إلى نتيجتين مهمتين لهدايـة القرآن؛ الأُولى أنّ من يجـالس القرآن فهو دائماً فى إزدياد ونقصان؛ زيـادة فى الهـدى، ونقصـان، من العمى والضـلال، والأـخرى أنّ القرآن مصـدر عظيم، والفرد أو المجتمع الـذى يلتزم بأحكامه ويعمل بتعاليمه، لا يصـيبه فقر معنوى، ولا مادى، وعلى العكس من فارقه شـهد الفقرين. طبعاً قـد لا يكون الفرد فى زمرة أتباع القرآن الكريم إلّاأنّ أعماله تنسـجم مع تعاليمه، كأن لا يكـذب ولا يغش ولا يهضم الآخرين حقوقهم فـذلك له نصـيبه من النجاح والتوفيق، وهذا ما

أكده الإمام عليه السلام فى وصيته

«اللَّهَ اللَّهَ فِى الْقُرآنِ لَايَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ»[٧٠٨]

وقـد اختلف شـرّاح نهـج البلاغة فى كلمة (بعد) فى العبارة (بعد القرآن) هل معناها، بعد نزول القرآن، أم بعد العمل به؟ ويبدو المعنى الثانى هو الصواب، لأنّ العمل بالقرآن يزيل الفقر المعنوى والمادّى، لا النزول دون العمل.

ويستفاد ضـمنيا من هـذه العبـارة أنّ ما يشـهده العالم الإسـلامى من ضـعف وفقر فى الجانب المعنوى والمادى إنّما يُعزى لابتعاده عن القرآن، على غرار من جلس عند عين ماء صافية ويشكو العطش.

ثم خلص إلى نتيجة أخرى فقال عليه السلام

: «فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ ٧٠٩]، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَىُّ ٧١٠] وَالضَّلَالُ»

. فالإمـام عليه السـلام يعتبر القرآن وسـيلة لحـلّ المشاكل والشـفاء من جميع الأمراض الأخلاقيـة والإجتماعيـة والمعنويـة، ويوجز هـذه الأمراض فى أربعة: الكفر والنفاق والجهل والضلال؛ ذلك لأنّ القرآن يقذف نور الإيمان والإخلاص فى القلب

نفحات الولاية، ج۶، ص: ٣٨٧

ويهتـك حجـاب الجهـل ويهـدى الإنسـان مـن الضـلالة. قطعـاً، ليس هنالـك مـن مرض يهـدد المجتمـع القرآنى المعروف بالإيمـان والإخلاص.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة أخرى:

«فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ»

. ويستفاد من هذا التعبير أنّ القرآن أهمّ وسيلة للنجاة ونيل العناية الإلهية، والعبارة

«وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ»

إشارة إلى عـدم جعل القرآن وسـيلة لإلفات انتباه الآخرين بهدف تحقيق بعض الأطماع الدنيوية. روى عن الإمام الصادق عليه السـلام أنّه قال:

«إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ فُلَانٌ قارِىءٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيَطْلُبَ بِهِ الدُّنْيَا وَلَا خَيْرَ فِى ذلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ فِى صَلَاتِهِ وَلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ»[٧١١].

تأمّل

القرآن والشفاء

صحيـح أنّ عدّة روايات تحدّثت عن تأثير القرآن فى شـفاء أمراض البدن أيضاً، ولا يسـتبعد من كلام اللَّه حتى إحياء الموتى به فضلًا عن شـفاء الأمراض، إلّاأنّ ما ركز عليه الإمام عليه السـلام فى الخطبة، شـفاء القرآن للأمراض المعنوية والخلقية التى أوجزها فى أربعة؛ الكفر والنفاق والجهل والضـلال، كما أكّـد عليه السـلام على ضـرورة الإسـتغاثة بالقرآن وتعزيز العلاقة به وحبّه. ويتضح أنّ المراد من التوسل والحب، ما ليس ببعيـد عن العمل. وبالطبع فإنّ الاستشـفاء بالقرآن من الأمراض الخلقيـة والإجتماعيـة والعقائديـة يتم من خلال الوقوف على مضـامين الآيـات والإلتزام بها على صـعيد العمل، على غرار مافعله النبى صـلى الله عليه و آله حين نهض بـذلك المجتمع المريض ليجعله من أقوى وأفضل المجتمعات.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ٣٨٩

القسم الرابع

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حارِثٍ مُبْتَلىً فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ.

الشرح والتفسير: القرآن شفيع القيامة

واصل الإمام عليه السلام حديثه هنا عن بركات القرآن وآثاره، مع هذا الفارق فى أنّ الكلام فى السابق عن البركات المعنوية والمادّية للقرآن فى هذه الدنيا، وهنا عن بركاته فى الآخرة، وقد أكّد على شفاعته، فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ [۷۱۲] بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ»

. لا شك فى أنّ شفاعة القرآن بلسان الحال أو القال لمن عمل به، وشكواه ممن هجره ولم يحط به علماً.

ثم وضح عليه السلام أكثر فقال:

«فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حارِثٍ [۷۱۳] مُبْتَلىً

فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ»

. وتشير هذه العبارة إلى الحديث المعروف

«الدُّنيا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ»

فالإمام عليه السلام يوصى بزرع بذور الآيات القرآنية فى هذه المزرعة، فلا بذور مثمرة سوى هذه، وكل ما سواها ضرر وخسران. فمن طابقت أعماله تعاليم القرآن كانت بذوره آياته، ومن خالف سلوكه القرآن، فلا يحصد سوى الخيبة والخسران.

ثم اختتم عليه السلام بالإشارة إلى هذه الحقيقة وهى كون القرآن بمعيار والميزان لكل الأشياء، فقال:

«وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَغِشُّوا[۷۱۴] فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ»

. حيث أشار عليه السلام بهذه العبارات القصيرة إلى ثلاثة أمور مهمّة، الأول: ضرورة أخذ العقائد الصحيحة من القرآن، والثانى: كسب الفضائل الخلقية عن طريق القرآن، والثالث: جعل القرآن، الفرقان بين الحق والباطل، فما وافق القرآن صحيح وحق وما خالفه خاطئ وباطل. وهذه العبارة، تأكيد آخر على بطلان التفسير بالرأى وتحميل الأفكار على المفاهيم القرآنية.

جاء فى الرواية

«مَنْ فَسَرَّ بِرَأْيِهِ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ»[۷۱۵].

وورد فى رواية أخرى أنّ اللَّه تعالى قال:

«ما آمَنَ بِى مَنْ فَسَرَّ بِرَأْيِهِ كَلَامِى»[۷۱۶]

. جدير بالذكر أنّ الاستدلال بالقرآن لمعرفة اللَّه يتمّ تاره عن طريق أدلة التوحيد- الواضحة فى القرآن بأسره- وتارة أخرى عن طريق ذات القرآن، حيث هذا الكتاب العظيم هو دليل النبوة من جانب، وذاته المقدّسة من جانب آخر. ويصدق هذا الكلام على جميع المعجزات بخصوص القرآن.

أمّا الفارق بين الآراء والأهواء التى وردت فى العبارة. أنّ الآراء إشارة إلى

العقائد المخالفة للقرآن، والأهواء، الرغبات النفسانیة المضادة له.

القسم الخامس

الْعَمَلَ الْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَایَةَ النِّهَایَةَ، وَالْاسْتِقَامَةَ الاسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ! «إِنَّ لَکُمْ نِهَایَةً فَانْتَهُوا إِلَی نِهَایَتِکُمْ»، وَإِنَّ لَکُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِکُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَایَةً فَانْتَهُوا إِلی غَایَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَی اللَّهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَیْکُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَیَّنَ لَکُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَکُمْ، وَحَجِیجٌ یَوْمَ الْقِیَامَةِ عَنْکُمْ.

الشرح والتفسیر: الدفاع المشروط

أشار الإمام علیه السلام بعد الفراغ من بیان أهمیّة القرآن، إلی هذه الحقیقة وهی أنّ الهدف النهائی من نزول القرآن، العمل به، لا الاقتصار علی تلاوته:

«الْعَمَلَ الْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَایَةَ النِّهَایَةَ، وَالْاسْتِقَامَةَ[۷۱۷] الاسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ!»

. حقّاً أنّ هذه المراحل الخمس التی ذکرها الإمام علیه السلام هی فی الحقیقة عصارة السمو والتکامل والسیر إلی اللَّه. فالإنسان ینبغی أن یتجه بادیء الأمر إلی العمل ومن ثم لا یتهاون فی إتمامه، ویراقب نفسه خلال ذلک حذراً من الانحراف عن جادة الصواب ویتحلی بالصبر إزاء أهواء النفس ووساوس الشیطان، حتی یصل المرحلة الأسمی، الورع عند الشبهة حتی یصل الهدف.

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۳۹۲

ذکر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ العبارة الثانیة والرابعة عطفت بالحرف ثم والثالثة والخامسة، بالواو، لأنّ بلوغ الهدف یکون بعد العمل، ولما کانت الإستقامة هی کیفیة العمل فقد عطفت بالواو، وحیث الصبر إزاء المعصیة وما ورد قبله، فی الطاعة فقد عطفت بالحرف ثم، وعطف الصبر والورع بالواو لأنّهما متلازمان ۷۱۸]. طبعاً هنالک تفاسیر أخری واردة بشأن العبارة.

ثم أشار علیه السلام إلی هدف المراحل المذکورة وعلامة بلوغ الهدف، فقال:

«إِنَّ لَکُمْ نِهَایَةً فَانْتَهُوا إِلَی نِهَایَتِکُمْ، وَإِنَّ لَکُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِکُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَایَةً فَانْتَهُوا إِلی غَایَتِهِ».

فقد أشار الإمام علیه السلام إلی قضیة مهمّة هی هدفیة حیاة الإنسان إلی جانب هدفیة التعالیم الدینیة، فاللَّه لم یخلقنا عبثاً، والشریعة تنشد هدفاً هاماً هو سعادة الإنسان فی الدنیا والآخرة. وقد أوصی الإمام علیه السلام بالسعی لنیل هذا الهدف وحذّر من الغفلة والتوقف فی الطریق، فعلاماته واضحة. وربّما کان المراد من العلم وجوده علیه السلام والأنبیاء والأولیاء فی کل عصر ومصر، الذین أضاءوا الطریق للجمیع، أو المراد، القرآن المجید، بعبارة أخری الکتاب والسُنّة، أو جمیع ذلک.

وخلص فی الختام إلی هذه النتیجة

«وَاخْرُجُوا[۷۱۹] إِلَی اللَّهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَیْکُمْ مِنْ

حَقِّهِ، وَبَیَّنَ لَکُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَکُمْ، وَحَجِیجٌ ۷۲۰] یَوْمَ الْقِیَامَةِ عَنْکُمْ».

المقصود بالشاهد أنّه علیه السلام یشهد فی القیامة علی الأعمال الصالحة للناد وأداء الحقوق واستقامتهم فی سبیل الوصول إلی الهدف وصبرهم وورعهم وتقواهم، والمراد من الحجیج، أنّی سأدافع عنکم وأجیب الملائکة فی محکمة العدل الإلهی.

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۳۹۳

فهذه العبارات اقتباس من القرآن الکریم وقوله: «یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ»[۷۲۱] وقال بشأن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله: «وَجِئْنَا بِکَ شَهِیداً عَلَی هَؤُلَاءِ»[۷۲۲].

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۳۹۵

القسم السادس

أَلَا وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَع، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ؛ وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللّهِ وَحُجَّتِهِ. قَالَ اللّهُ تَعَالَى «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ لَاتَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ»، وَقَدْ قُلْتُمْ: «رَبُّنَا اللّهُ»، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ثُمَّ لَاتَمْرُقُوا مِنْهَا، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَاللّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى الأحداث السابقة، فقال:

«أَلَا وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَع، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ[۷۲۳]»

. وردت عدّة احتمالات من قبل بعض شرّاح نهج البلاغة بشأن المراد من القضاء والقدر في العبادة، ولكن بالنظر إلى العبارات القادمة فلا يستبعد أن تكون إشارة إلى الأمور المرتبطة بزعامته عليه السلام- التي أخبر عنها رسول اللّه صلى الله عليه و آله ومواجهته للناكثين- والمفروغ منه أنّ القضاء والقدر- كما شرحناه في محله- لا يعني إجبار العباد وسلب اختيارهم، بل إنّ آثار الأفعال الإختيارية للإنسان نوع من القضاء والقدر؛ مثلًا، إنّ اللّه قدّر نجاح من يسعى ويجد ويجتهد، وفشل من يتواني ويكسل، فهذه الأمور وإن جرت باختيار الإنسان إلّاأنّ اللّه مسببّ الأسباب جعل لذلك آثاراً تعتبر من القضاء والقدر، طبعاً، هناك القضاء والقدر

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۳۹۶

الإلزامي الخارج عن حدود الأفعال الإنسانية[۷۲۴].

ثمّ بيّن عليه السلام وظيفة الناس بالنسبة للمستقبل، فقال:

«وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللّهِ وَحُجَّتِهِ.

قَالَ اللّهُ تَعَالَى

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ»».

ثم خلص إلى نتيجة واضحة، فقال:

«وَقَدْ قُلْتُمْ:

«رَبُّنَا اللّهُ»

، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ».

إشارة إلى أنّ القول بلا عمل لا يؤدّي إلى الهدف ولا يوجب دخول الجنّة والفوز بالسعادة الأبدية، فما دمتم أظهرتم الإيمان فعليكم بالعمل لتشملون بوعد اللّه.

ثم بيّن عليه السلام الأخطار التي تكمن في طريق المؤمنين، فقال:

«ثُمَّ لَاتَمْرُقُوا مِنْهَا، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ ۷۲۵] مُنْقَطَعٌ ۷۲۶] بِهِمْ عِنْدَاللّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

. فقد أشار عليه السلام في هذه العبارة إلى ثلاث فرق من المنحرفين وحذّر من السير على نهجهم، الفئة الأُولى التي تمرق من الدين وترى نفسها على الدين بينما هي بعيدة عنه كل البعد، كخوارج النهروان الذين نعتتهم الروايات والتواريخ بالمارقين، فقد بلغوا درجة من التعبد والتمسك بقشور الدين بحيث يحسبهم الجاهل من المتدينين الحقيقيين، والحال، ليس لهم حظ من الدين سوى ظاهره ولا

یعلمون عن حقیقة الدین شیئاً.

الفئة الثانیة: أهل البدع الذین یُحمّلون الدین ما لیس منه، والواقع أنّهم یقدمون أهواءهم وأفکارهم علی أحکام الدین ولم یکونوا قلائل علی عهد الخلفاء. الفئة الثالثة: التی تخالف الأحکام الشرعیة عامدة وتترک ما لا ینسجم مع مصالحها

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۳۹۷

ومنافعها، وأفضل نموذج علی ذلک، معاویة حین ظهر ودخل الکوفة خطب الناس، فقال: «واللّه لم أقاتلکم لتصوموا وتصلوا وتحجوا وتزکوا فأنتم تفعلون ذلک، ولکن قاتلتکم لأتأمر علیکم» (وقیل علی روایة، لأتسلّط علی رقابکم)[۷۲۷]. نعم، من جانَب هذه الطرق المنحرفة ولم یصغ لوساوس الشیطان وهوی النفس فهو الذی قال:

«قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَیْهِمْ الْمَلَائِکَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ»[۷۲۸].

تأمّل: الإستقامة فی مسار الولایة

ورد فی بعض الروایات فی تفسیر العبارة

«ثُمَّ اسْتَقَامُوا»

(المقتبسة من الآیة ۳۰ من سورة فصلت) أنّها إشارة إلی الولایة. فقد أجاب الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام مَن سأله عن الإستقامة فی الآیة المذکورة، فقال:

«هِیَ وَاللَّهِ ما أنْتُم عَلِیهِ»[۷۲۹]

. طبعاً الإستقامة والثبات علی الصراط لهما مفهوم واسع، واحد مصادیقه البارزة، ولایة أهل البیت علیهم السلام.

سؤال: متی هذه البشارة التی تزفها الملائکة للمؤمنین، عند الموت أم فی الحیاة الدنیا أم القیامة؟ هل یلمس المؤمنون هذه البشارة، أم لا؟

الجواب: ممّا لا شک فیه أنّ نجدة الملائکة- طبق صریح الآیات القرآنیة- للمؤمنین فی الظروف الحساسة مبذولة فی هذه الحیاة الدنیا، ونموذج ذلک ما حصل

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۳۹۸

فی موقعة بدر والأحزاب ۷۳۰]؛ طبعاً لم یرهم المؤمنون إلّاأنّهم شاهدوا إمداداتهم الغیبیة علی صعید نصرتهم فی میدان القتال. وما یستفاد من الروایات أنّ بشارة الملائکة المذکورة فی الآیة السابقة، والتی أشارت إلیها الآیة ۳۱ من سورة فصلت، تتعلق بلحظة الموت أو الحشر وقد فسّرت العبارة

«نَحْنُ أَوْلِیَاؤُکُمْ فِی الْحَیَاةِ الدُّنْیا ...»

بصیغة «ونحن کنّا أولیاءکم فی الحیاةالدنیا»، أی، کنّا أولیاءکم فی الحیاة الدنیا وسنتولاکم لحظة الإحتضار والقیامة. روی صاحب مجمع البیان عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال:

«أَلَّا تَخافُوا ما تَقْدِمُونَ عَلَیْهِ وَلَا تَحْزَنُوا مَا خَلَّفْتُمْ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ فِی الدُّنْیا»[۷۳۱].

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۳۹۹

القسم السابع

ثُمَّ إِیَّاکُمْ وَتَهْزِیعَ الْأَخْلَاقِ وَتَصْرِیفَهَا، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً، وَلْیَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ. وَاللَّهِ مَا أَرَی عَبْداً یَتَّقِی تَقْوَی تَنْفَعُهُ حَتَّی یَخْزُنَ لِسَانَهُ. وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ یَتَکَلَّمَ

بِكَلَام تَدَبَّرَهُ فِی نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ. وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَايَدْرِی مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ. وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ-: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ». فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ.

الشرح والتفسير: فرق المؤمن عن المنافق فی إصلاح اللسان

بيّن الإمام عليه السلام فی هذا الجانب من الخطبة بعض المسائل المهمّة المرتبطة بتهذيب الأخلاق وتطهير الروح من الرذائل الخلقية، وأشار إلى الأمور المهمّة التی تشكل مفتاح الإصلاح الأخلاقی، فقال:

«ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَتَصْرِيفَهَا[۷۳۲]»

. بالنظر إلى أنّ تهزيع، من مادة هزع، على وزن نظم، بمعنى التكبير، وكأنّ الإمام عليه السلام يرى أنّ الفضائل الأخلاقية كالبناء الشامخ والجوهر الثمين الذی يمثل أی انحراف فيه كسره وتغيير شكله، ولا يقتصر هذا البناء على الفرد، بل حتى المجتمعات البشرية إن

نفحات الولايۀ، ج۶، ص: ۴۰۰

فقدت الفضائل الاخلاقية تنحدر نحو الفساد والانحراف والزوال:

إنَّما الأمَمُ الأَخلاقُ ما بَقِيتْفَإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخلاقُهُم ذَهَبُوا

ثم ركّز الإمام عليه السلام على واحدة من أهم المسائل الأخلاقية التی لا يتسنى تهذيب النفس إلّامن خلالها والتی تتمثل بإصلاح اللسان، قائلًا:

«وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً»

حيث تقابل هذه العبارة تلك العبارة

«ذواللسانين»

بحق المنافق، الذی يقول شيئاً فی حضور الإنسان وآخر فی غيابه، «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون»[۷۳۳] ومن الطبيعی أن تغيب كل معانی المحبّة والمواساة التی تشكل الركن الأساس للحياة الإجتماعية فی المجتمع الذی يمتاز أفراده بالنفاق والإبتعاد عن الصدق، وليس هنالك سوى سوء الظن الذی يسود المجتمع.

ثم قال فی الوصية الثانية:

«وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ ۷۳۴]

بِصَاحِبِهِ»

. فتشبيه اللسان بالفرس الجموح تشبيه رائع ولطيف، ذلك لأنّ اللسان أسهل عضو لدى الإنسان يحركه دون عناء، إلّاأنّ أهواء النفس ووساوس الشيطان قد تغلب الإنسان بحيث لا يستطيع السيطرة عليها، فيصبح كالفرس الجموح الذی يغلب فارسه فيوشك أن يطرحه فی المهلكة. ولعل أفضل وسيلة لحفظه من الخطر أن يقلّل الإنسان من كلامه، وهذا هو المراد من حفظ اللسان، وليس بعدم الكلام قط، ذلك لأنّ اللسان أهم وسيلة فی التربية والتعليم ونقل العلوم والمعارف والتجارب وذكر اللّه تعالى.

ثم أكّد عليه السلام ذلك، فقال:

«وَاللَّهِ مَا أَرَى عَبْداً يَتَّقِی تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزُنَ لِسَانَهُ»

. فهذا التأكيد المقرون بالقسم إشارة إلى المرحلة الأُولى التی قال بها أرباب السير والسلوك إلى اللّه والتی تتمثل بإصلاح اللسان، وما لم يجتز الإنسان هذه العقبة فلن

نفحات الولايۀ، ج۶، ص: ۴۰۱

يقف على حقيقة التقوى والقرب من اللّه.

ثم تطرّق الإمام عليه السلام إلى أهميّة حفظ اللسان فى أنّ إحدى فوارق المؤمن عن المنافق إنّما تكمن فى هذا الموضوع فقال:

«وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِى نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ. وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَايَدْرِى مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ».

طبعاً، لسان كل شخص فى فيه، والقلب- سواء العضو الواقع فى وسط الصدر أو المراد به العقل- مفصول عن اللسان، ولا فرق فى هذا بين المؤمن والمنافق، لكن هناك كناية لطيفة فى العبارة، أنّ المؤمن يفكّر ثم يتكلّم، أمّا المنافق فيتكلّم ثم يفكّر، الأمر الذى فسره الإمام عليه السلام فى العبارات القادمة.

جدير ذكره أنّ هذا المعنى ورد بصورة أخرى فى قصار كلمات الإمام عليه السلام ومنها:

«لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسانِهِ»[۷۳۵]

. وقال:

«قَلْبُ الْأَحْمَقِ فِى فِيهِ

وَلِسَانُ الْعَاقِلِ فِى قَلْبِهِ»

وكل هذه العبارات تشير إلى حقيقة واحدة هى أنّ المؤمن والعاقل يفكّر وينطق والمنافق والأحمق ينطقان ولا يفكّران.

سؤال: يمتاز المنافقون عادة بالذكاء والخطط الجهنمية فى مشاريعهم الهدّامة فكيف يوصفون بأنّهم لا يدرون ماذا لهم وماذا عليهم؟!

الجواب: تمكن الإجابة عن هذا السؤال من خلال الآيات القرآنية الواردة بشأن المنافقين وهو أنّ المنافق وإن كانت له بادىء الأمر بعض الخطط الشيطانية والذكية حتى يرى نفسه عاقلًا والمؤمن سفيهاً، إلّاأنّ المنافق فى خاتمة المطاف هو السفيه الحقيقى، قال القرآن الكريم: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلكِنْ لَّايَعْلَمُونَ»[۷۳۶]. وعليه تتضح فطنة المؤمن

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۰۲

وبلادة المنافق من خلال التأمل الدقيق، والمنافق شاء أم أبى فهو مفضوح فى الدنيا والآخرة.

ثم استدل عليه السلام بحديث عميق المعنى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ-: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ».

فالعلاقة القائمة بين إصلاح اللسان والقلب والإيمان فى هذا الحديث هى علاقة جدلية واضحة. وقد دلّت التجربة على أنّ سوء اللسان وتلوثه بالذنوب والكلمات العبثية الفارغة، يسود القلب ويخلى الروح من المعنوية، ومن الطبيعى أنّ القلب إذا اسودَّ لن يجد بصيص نور الإيمان. قال القرآن الكريم فى تعبير دقيق وبعيد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ»[۷۳۷]

وعليه فالعلاقة بين إصلاح اللسان وإصلاح القلب وإصلاح الإيمان علاقة لازم وملزوم، وإن تكلّف بعض الشرّاح فى تفسير العبارة. طبعاً، لا يمكن إنكار صدق عكس هذا المعنى، أى أنّ قوة الإيمان تؤدى إلى نورانية القلب والذى يؤدّى إلى إصلاح اللسان، وبعبارة أخرى تؤثر هذه الأمور الثلاثة فى بعضها البعض الآخر تأثيراً متبادلًا، إلّاأنّ الأبرز، ما ورد فى حديث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى ثلاثة مواضيع مهمّة أخرى فقال:

«فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ»

قطعاً، أنّ مثل هذا الفردعلى درجة رفيعة من الورع والتقوى التى تجعله مشمولًا بعناية اللّه ورحمته. وأىّ تقوى أعظم من كفّ الأذى عن الناس واحترام أموالهم وأعراضهم وأنفسهم. ويبدو هذا الموضوع على قدر من الأهميّة بحيث كانت رعايته دليلًا على كون الفرد مسلماً وهجره دليلًا على بعده عن

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۰۳

الإسلام. ورد فى الحديث الشريف أن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[۷۳۸]

وأبعد من ذلک ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام الذى أوسعه ليشمل الناس، فقال:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنِ ائْتَمَنَهُ النَّاسَ عَلَى امْوَالِهِمْ وَانْفُسِهِمْ»[۷۳۹].

تأمّلان

۱. اللسان اعجب اعضاء البدن

لهذه القطعة البسيطة من اللحم والتى نسـمّيها (اللسان) مسؤوليات خطيرة على مستوى الظاهر والباطن. ولو تأملنا نطق الآخرين لرأينا أنّ اللسـان يتحرک بسـرعة مذهلـة فى الفم فيرتب الحروف سـريعاً لينطلـق ببعض الكلمـات، ولاـ يكـل أبـداً. ولـو أخطـأ قليلًا فى الحركة لصدرت منه الكلمات المهملة والمضـحكة أحياناً، كما يقوم بدور فريد حين تناول الطعام حيث يدفع الغذاء بسـرعة فائقة إلى الاسـنان وينسـحب قليلًا بغيـة طحنه. ووظيفته الأـخرى تتمثل فى جمع الطعام الممضوغ ودفعه إلى البلعوم، ولولا اللسان لتعـذر علينا ابتلاع الماء والغـذاء؛ هـذا من حيث الظاهر. وأمّا من حيث القضايا المعنويـة والأخلاقية، فدور اللسان واضح وجلىّ؛ فهو أبسط وسـيلة عبادية وأهم وسـيلة للمعصـية؛ فأفضـل العبادات (الصـلاة، تلاوة القرآن، التربيـة والتعليم، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر و ...) إنّما تتمّ باللسان، كمـا قيـل بـأنّ ثلاـثين كبيرة (من قبيـل الغيبـة، التهمـة، أذى المؤمن، الحكم بالباطل، إيجاد الفساد، والإختلاف و ...) ترتكب بواسـطة اللسان، فاللسان أفضل وسائل الطاعـة كما أنّه أخطر وسائل الـذنب، ذلک لأنّه مسـتعد فى كافة الأزمنة والأمكنة والظروف ودون أدنى تكـاليف لارتكـاب الـذنب،، والأدهى من ذلک أنّ ذنوب اللسان أثر كثرتها وسـعتها لم تعـد قبيحـة لـدى عوامّ الناس، ومن هنا كانت الخطوة الأُولى لإصلاح

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۰۴

الـذات تكمن فى إصـلاح اللسان. هنالک طريقان مهمّان للنجاة من معاصـى اللسان أشار إليهما الإمام عليه السـلام؛ الأول: قلّـة الكلام واجتنـاب الفضول للخلاص من آفات اللسان. الثانى: أن يفكر كلما أراد الكلام، كما قال الإمام عليه السـلام أن يكون لسانه وراء قلبه، لا أن يكون قلبه وراء لسانه كالمنافق والأحمق. ويبـدو الكلام بهذا الشأن كثير، نختصـره ونختتمه بالحديث النبوى الشـريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«يُعَذِّبُ اللَّهُ اللِّسَانَ بِعَذَابٍ لَايُعَذِّبُ بِهِ شَيْئاً مِنَ الْجَوَارِحِ فَيَقُولُ: اىْ رَبِّ عَذَّبْتَنِى بِعَذَابٍ، لَمْ تُعَذِّبْ بِهِ شَيْئاً فَيُقَالُ لَهُ: خَرَجَتْ مِنْکَ كَلِمَةٌ فَبَلَغْتَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَسُفِکَ بِهَا الدَّمُ الْحَرَامُ وَانْتُهِبَ بِهَا الْمالُ الْحَرامُ وَانْتُهِکَ بِهَا الْفَرْجُ الْحَرامُ، وَعِزَّتِى (وَجَلَالِى) لَأُعَذِّبَنَّکَ بِعَذَابٍ لَااعَذِّبُ بِهِ شَيْئاً مِنْ جَوَارِحَکَ»[۷۴۰].

۲. رصيد الإنسان

إنّ رصـيد الإنسان ثلاثة أشياء: النفس والمال والعرض، ولعل العرض يتقدم على الجميع حيث يستعد الإنسان للتضحية بنفسه من أجله، ثم النفس والأموال. وقد أولى الإسـلام هذه الأمور الثلاثة أهميّة فائقة، وكما ورد فى الخطبة فإنّ النجاة يوم القيامة لمن سلمت يده من دماء الناس وأموالهم ولم يتعرض لأعراضـهم. ويرى الإسـلام حرمـة الأموال كحرمة الأنفس، وأنّ حرمة إنسان كحرمة البشـرية جمعاء، وأنّ انتهاک حرمـة مؤمن بغيبته كمن يأكل لحم أخيه ميتاً. ورد فى الحـديث النبوى فى حجة الوداع فى منى، (التى يقصدها الناس من

مختلف مناطق العالم) أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله خطب الناس بعد أداء مناسک الحج فقال: أیّ یوم أفضل أیّام السنة؟ قالوا: هذا الشهر. قال: و أیّ أرض؟ قالوا هذه الأرض. فقال صلى الله عليه و آله:

«إِنَّ دِماءَکُمْ وَامْوَالَکُمْ

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۴۰۵

عَلَیْکُمْ حَرامٌ لَحُرْمَةِ یَوْمِکُمْ هذا فِی شَهْرِکُمْ هذا فِی بَلَدِکُمْ هذا إِلَی یَوْمِ تَلْقُونَهُ فَیَسْئَلُکُمْ عَنْ اعْمَالِکُمْ»

، ثم قال: هل بلّغت؟ قالوا: بلی. قال صلى الله عليه و آله:

«اللّهم فاشْهَد»[۷۴۱].

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۴۰۷

القسم الثامن

وَاعْلَمُوا عِبَادَاللَّهِ أَنَّ الْمُؤمِنَ یَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلَ، وَیُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلَ؛ وَأَنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لَایُحِلُّ لَکُمْ شَیْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَیْکُمْ، وَلکِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ. فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ کَانَ قَبْلَکُمْ، وَضُرِبَتِ الْأَمْثَالُ لَکُمْ، وَدُعِیتُمْ إِلَی الْأَمْرِ الْوَاضِحِ؛ فَلَا یَصَمُّ عَنْ ذلِکَ إِلَّا أَصَمُّ، وَلَا یَعْمَی عَنْ ذلِکَ إِلَّا أَعْمَی وَمَنْ لَمْ یَنْفَعْهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ یَنْتَفِعْ بِشَیْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتَاهُ التَّقْصِیرُ مِنْ أَمَامِهِ، حَتَّی یَعْرِفَ مَا أَنْکَرَ، وَیُنْکِرَ مَا عَرَفَ. وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً، لَیْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ، وَلَا ضِیَاءُ حُجَّةٍ.

الشرح والتفسیر: أخطار البدع

أشار الإمام علیه السلام هنا إلی آفة دینیة واجتماعیة أخری لیکمل ما ذکره من آفات، وتلک الآفة هی البدعة وتغییر أحکام اللَّه علی ضوء الرغبات والأهواء النفسیة، فقال:

«وَاعْلَمُوا عِبَادَاللَّهِ أَنَّ الْمُؤمِنَ یَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلَ، وَیُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلَ».

لاـ یُخضع الأحکام الشرعیة لهوی نفسه ویُغیرها بأفکاره الناقصة، فلو فتح باب البدع فی الأحکام لغیّر الظلمة والطواغیت کل ما لا ینسجم مع مصالحهم ومنافعهم، فلا تمضی مدّة حتی تندرس أصول الدین وفروعه ویمحق محتواه. والعبارة تشیر

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۴۰۸

إلی البدع التی وردت إلی الدین عقب وفاة النبی الأکرم صلى الله عليه و آله، ولم یکتف القوم بالقیاس عند عدم وقوفهم علی نصوص الکتاب والسُّنّة، بل هبّوا لمخالفة صریح القرآن وسُنّة النبی الأکرم صلى الله عليه و آله. فالخلیفة الثالث خالف طریقة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فی توزیع أموال بیت مال المسلمین وتسویته بینهم فی العطاء، فقدم الأعیان والأشراف ولا سیما خاصته وبطانته من قرابته. ثم انبری الخلیفة الثانی لیقول صراحة: متعتان کانتا حلالًا علی عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأنا أُحرمهما واعاقب علیهما، متعة النساء (الزواج المؤقت) ومتعة الحج (الحج بصورة حج التمتع) ناهیک عن سائر البدع التی ظهرت علی عهد الخلفاء والتی أحصتها بعض الکتب ۷۴۲]. والإمام علیه السلام بدرایته الواسعة شعر أنّه إن لم یقف بوجه هذه البدع لمحق الدین وغیبت أحکامه، ولذلک عدَّ الإبتعاد عن البدعة من الإیمان.

ثم قال علیه السلام

: «وَأَنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لَایُحِلُّ لَکُمْ شَیْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَیْکُمْ، وَلکِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ»

. ومن ثم أشار إلی نقطة بمثابة الدلیل علی ما ذکر، فقال:

«فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا[۷۴۳]، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،
وَضُرِبَتِ الْأَمْثَالُ لَكُمْ، وَدُعِيتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ»

. بمعنى أنّكم شاهدتم حجم المصائب والإرباكات التى جرّتها البدع السابقة على الإسلام والمسلمين. فالبدع فى زمان عثمان أدّت إلى تلك الثورة الهوجاء التى سفكت دمه وأحدثت التمييز بين العرب والموالى، إلى تلك الفرقة بين المسلمين أيضاً وكان عاقبتها سفك دمه أيضاً[۷۴۴]. وناهيك عمّا سبق، فإنّ اللّه ذمّ اليهود فى القرآن الكريم على بدعهم وتحريفاتهم وكشف عن مصيرهم، وأنتم قد جرّبتم البدع وقد وعظتم بمن كان

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۰۹

قبلكم، فقد دعوتم إلى مطلب واضح قامت عليه الأدلة الحية والتجريبية والنقلية.

ثم خلص إلى هذه النتيجة:

«فَلَا يَصَمُّ عَنْ ذلِكَ إِلَّا أَصَمُّ، وَلَا يَعْمَى عَنْ ذلِكَ إِلَّا أَعْمَى وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ ۷۴۵]، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ».

فالتجارب الحسية والبلاء الإلهى أهم وسيلة لإيقاظ الإنسان، فمن لم يتيقظ بهذا الاسلوب يستبعد أن ينتفع بالمواعظ والنصائح، وليس له من عاقبة سوى رؤيته للحسن سيّئاً والسيء حسناً، كما أورد ذلك القرآن الكريم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»[۷۴۶].

فقد حسب معاوية وطلحة والزبير أنفسهم من المدافعين عن دم المظلوم (دم عثمان) هذا فى صدر الإسلام، واليوم يرى أصحاب البدع الوهابيون أنّهم مصلحو هذه الأُمّة، وعادة ما يزعم المبتدعون طيلة التاريخ أنّهم مصلحون.

ويختتم الإمام عليه السلام الخطبة بعبارة، لتمييز صفوف المبتدعين من صفوف المتبعين للدين، فيقول:

«وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ، وَلَا ضِيَاءُ حُجَّةٍ»

وعليه فلابدّ لكل شخص من معرفة صنفه. فإن كان متشرّعاً فهو تابع للكتاب والسُنّة والدليل العقلى اليقينى، وإن كان فى صف المبتدعين فليس لديه دليل من كتاب ولا سُنّة ولا نور ولا ضياء من عقل ولا يتبع سوى أهوائه ويغيّر أحكام اللّه بما ينسجم وتلك الأهواء. وبناءً على ما سبق فإنّ برهان السُنّة إشارة إلى الأدلّة النقلية، وضياء الحجة الأدلة العقلية، وهكذا يُعرِّف الإمام عليه السلام أهل البدع بأنّهم الأفراد الذين يتبعون أهواءَهم وخيالاتهم الباطلة.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۱۰

تأمّل

البدعة

ركّز الإمام عليه السلام فى المقطع المذكور من الخطبة على وقوفه بوجه البدع. والبدعة فى اللغة تعنى إيجاد الشيء دون تجربة أو مثال وهى ممدوحة حيناً ومذمومة حيناً آخر. فالقرآن يصف اللّه بالقول: «بَدِيعُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ»[۷۴۷]، كما يصف النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ»[۷۴۸] والمراد هو المفهوم المذكور. إلّاأنّ لهذه المفردة مفهوماً خاصاً فى لسان الروايات وكلمات الفقهاء وهو تغيير الأحكام الشرعية وتبديلها بأحكام طبق الرغبات النفسية والمنافع الشخصية. ومن هنا ورد الذم الشديد للبدعة فى الروايات، حيث قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«اهْلُ الْبِدَعِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ»[۷۴۹].

وقال أميرالمؤمنين على عليه السلام:

«امَّا أَهْلُ الْبِدْعَةِ فَالْمُخَالِفُونَ لِأَمْرِاللَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ الْعامِلُونَ بِرَأْيِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَإِنْ كَثُرُوا»[۷۵۰]

والروايات كثيرة بهـذا الشأن والتى ذمّت بشـدّة، البدعـة والمبتدع. والسبب واضح، فكما ذكرنا سابقاً أنّ باب البدع لو فتح لما بقى من أحكام الدين وأصوله وفروعه شيءٌ ولمحق الدين. وعلى هذا الأساس قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله

: «مَنْ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ مُبْتَدِعٍ فَقَدْ أَعانَ عَلَى هَدْمِ دِينِهِ»[۷۵۱]

. ويتضـح من هنا خطأ أولئك الذين خلطوا المعنى الواسع للبدعة بمعناها الخاص ليزعموا أنّ كل القضايا متجددة، فمن يسعه الوقوف بوجه التجـدد؟ وأمّا أولئك فإنهم يرون تغيير الآراء الإجتهادية وكشف المسائل المستحدثة من الكتاب والسُـنّة ضـرباً من البدعة، فإمّا أنّهم يخدعون أنفسهم أو أنّهم يريدون خداع الآخرين. فكشف

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۱۱

المسائل المسـتحدثة من الكتاب والسُنّة تبعيـة للشـرعة لا بدعـة بالمعنى الخاص للكلمـة؛ أى، تحريم حلال اللّه وتحليل حرمته اسـتناداً لأهـواء النفس والمنـافع الشخصـية. جـدير بالـذكر أنّ المبتـدعين وخشـية اعتراض المؤمنين يلجأون إلى التغيير بالرأى، فيحرفون آيات القرآن الكريم أو روايات المعصومين عليهم السلام ليوردوا البدع.

وبـالطبع فـإنّ هؤلاء أعظم خطراً من الـذين يمارسون البدعـة علانيـةً. على كل حال، فقـد قال الإمام عليه السـلام فى هـذه الخطبـة: إنّ المؤمن مَن يلتزم بحلال اللّه وحرامه ولا يغيرهما، ويعمل بالأحكام الشرعية فى كل الأوقات ولا يحيد عن الكتاب والسُنّة.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۱۳

القسم التاسع

وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ»، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوِ الْمُتَنَاسُونَ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- كَانَ يَقُولُ: «يَابْنَ آدَمَ، اعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعِ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ».

الشرح والتفسير: القرآن ربيع القلوب وينابيع العلوم

تطرق الإمام عليه السلام هنا ثانية إلى القرآن وعظمته ليتم ما ذكره سابقاً فأشار إلى بعض الأمور الجديدة فقال:

«وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ»

. ذلك لأنّ الكتب السماوية التى أنزلها اللّه لهداية الخلق تشتمل على أعظم المواعظ.

ويمتاز القرآن من بين هذه الكتب بكونه الشمس المشرقة ومواعظه فريدة وإرشاداته قيّمة. فتارة يتحدث مباشرة للعباد، وأخرى كسؤال يجيب عنه الوجـدان، وأحيانـاً يطرق التاريـخ الماضـى المليء بالـدروس والعبر، وأحيانـاً أخرى يتحـدث من خلال المثال البليغ ويلبس الحقائق العقلية ثوب الحسّ، ويورد كل ذلك بعبارات تفيض رقة وعذوبة وبلاغة، ومن هنا فليس هنالك من مواعظ كمواعظ القرآن.

ثم ذكر عليه السلام أدلة ذلك، فقال:

«فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ ۷۵۲]»، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۱۴

الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ ۷۵۳] الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ غَيْرُهُ»

. فقد أوجز الإمام عليه السلام بهذه العبارات الخمس ما يمكن قوله فى القرآن؛ الأول: أنّه حبل اللّه المتين وكأنّه سحب من السماء إلى الأـرض ليتمسـك به العباد، فيحلّقون به إلى عنان السـماء ويبلغون مقام القرب. وهـذه هى العروة الوثقى التى أشار اللّه إليها فى كتابه:

«فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَاانفِصَامَ لَهَا». يعنى لا شك فيه أنّ الطريق إلى الإيمان باللَّه والكفر بالطاغوت هو القرآن.

الثانى: أنّه السبب الأمين، أى، الواسطة بين الخلق والخالق والذى لا يعرف الزلل والخيانة وكل ما فيه حق خالص. والثالث: أنّ القرآن ربيع القلوب، فكما تدبّ الحياة فى الربيع فى الأشجار الميتة وتتفتح غصونها وأوراقها، كذلك من ينفتح على القرآن يشعر بحيوية روحه وحياته بالإيمان والفضائل والأخلاق. الرابع: أنّ القرآن ينابيع العلوم، ليس فقط العلوم التى تتعلق بمعرفة اللَّه وتربى فى الإنسان روح الفضيلة والورع والتقوى فحسب، بل القرآن دافع للخوض فى العلوم التى تعنى بخلق الإنسان والسماء والأرض وسائر الأحياء والكائنات، وله إشاراته العميقة المعنى فى كل هذه العلوم. وأشار فى الخامس إلى هذه الحقيقة وهى، أنّ جلاء القلوب مما يعلق بها من أدران الذنب والغفلة لا يتيسر إلّابنور القرآن الذى يزيل عنها الصدأ من خلال تلاوته وتدبّر آياته. أمّا قصْر الجلاء على القرآن فذلك لأنّ سائر الوسائل إنّما تستند فى الواقع إلى القرآن، فالقرآن مصدر كل شىء. ومن الطبيعى أن يكون الكتاب الذى يشتمل على هذه الخصائص أفضل واعظ.

نفحات الولاية ؛ ج۶ ؛ ص۴۱۴

عرب الإمام عليه السلام عن أسفه لوضع المسلمين تجاه القرآن، فقال:

« «مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ، وَبَقِىَ النَّاسُونَ أَوِ الْمُتَنَاسُونَ»

هذه العبارة إجابة عن سؤال مقدّر فى أنّ الآثار العظيمة التى أُشير إليها بشأن القرآن إن انحسرت فى المجتمع الإسلامى فسبب ذلك لا يُعزى إلى القرآن، بل لغفلة الجهال والمنافقين أو تغافلهم

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۱۵

عن هذا الفيض الإلهى. ولعل هذه العبارة تشبه تلك التى ذكرها الإمام عليه السلام فى الخطبة ۱۸۲ حين أعرب عن أسفه على شهادة صحبه الأوفياء، فبكى، وقال:

«أَوِّهْ عَلَى إِخْوَانِى الَّذِينَ تَلَوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ».

فقد صنّف الإمام عليه السلام الناس إلى ثلاث فئات، فئة يقظة تنتفع دائماً بآيات اللَّه، وأخرى غارقة فى ماديات الدنيا نَسِيَت القرآن، وثالثة، عمدت إلى تناسى تعاليم القرآن، فهى تمرّ عليه بكل بساطة رغم معرفتها بأهدافه. طبعاً إن رأينا المجتمع الإسلامى يشكو المرض من عدّة جوانب، فذلك ليس لتقصير الطبيب ولا عدم فائدة الوصفة الطبية، بل السبب الحقيقى يكمن فى عدم الإلتزام بهذه الوصفة الإلهية الشافية.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وكأنّه ردّ على إشكال مَن يقول: إن كانت هناك فئة نَسِيَت طريق الحق أو تناست، فذلك لأنّ طريق الحق ليس معروفاً وقد امتزج بطرق الباطل، بحيث لا يبدو تشخيصه سهلًا، فقال:

«فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- كَانَ يَقُولُ: «يَابْنَ آدَمَ، اعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعِ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ[۷۵۴] قَاصِدٌ[۷۵۵]».

يتّضح من العبارة أنّ للخير والشرّ معانىَ واسعة، كما تشير العبارة إلى الحسن والقبح العقليين فى أنّ الإنسان يدرك بعقله وفكره الخير والشر، وإن عمل به فقد طوى مسافة واسعة من الطريق القويم والجادة المستقيمة. وللوقوف على عظمة القرآن وأهميّة مضمونه، فقد أوردنا مباحث كثيرة فى الأجزاء السابقة (الجزء الأول، ذيل الخطبة ۱۸، والجزء الرابع، ذيل الخطبة ۱۱۰) وسنتطرق بإذناللَّه إلى مبحث مفصل بهذا الشأن فى شرح الخطبة ۱۹۸.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۱۷

القسم العاشر

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَايُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَايُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَايُطْلَبُ.

فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِى لَايُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «إِنَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ». وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِى يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ.

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِى لَايُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً. الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ. لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمُدَى وَلَاضَرْباً بِالسِّيَاطِ، وَلكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذلِكَ مَعَهُ. فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِى دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضَى وَلَا مِمَّنْ بَقِىَ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ»، وَطُوبى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ» فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِى شُغُلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِى رَاحَةٍ!

الشرح والتفسير: إصلاح النفس

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة الذى يمثل ختامها إلى ثلاثة مواضيع مهمّة؛ أحدها، أقسام الظلم الثلاثة، والآخر، موضوع وحدة المسلمين وأهميّتها، والثالث، التهذيب وإصلاح النفس بدلًا من تقصّى عيوب الآخرين، والأبحاث التى ذُكرت فى هذه الخطبة بشأن المسائل الأخلاقية والنصائح الواردة بهذا الخصوص تكتمل بهذه المواضيع الثلاثة. فقد قال عليه السلام فى الموضوع الأول:

«أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۱۸

ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَايُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَايُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَايُطْلَبُ».

ثم خاض عليه السلام فى شرح كل قسم، فقال:

«فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِى لَايُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى

«إِنَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ»». طبعاً، بالتوجه إلى صدر الآية وذيلها:

«وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»[۷۵۶] يتبيّن لنا أنّ الذنب الوحيد الذى لا يغفره اللّه، إن مات الإنسان ولم يتب منه، هو الشرك، أمّا سائر الذنوب، كبيرةً كانت أم صغيرةً إن مات الإنسان ولم يتب منها، فربّما يُشمل بالعفو الإلهى، وإن لم يكن ذلك قطعياً وشموله بالعفو خاضع لبعض الشرائط، لأنّ العبارة

(من يشاء)

لا- تعنى العفو عن المذنبين دون حساب وكتاب، ذلك لأنّ اللّه حكيم وإرادته ومشيئته حكيمة، ولا يشمل بالعفو سوى من امتلك مقوماته، بالضبط على غرار العفو عن السجناء والذى ينظر إلى حالة السجين، فإن رأى فيه الإستعداد شمل بالعفو، والمراد من الشرك هنا هو الشرك الجلىّ من قبيل عبادة الأوثان وما شابه ذلك، وأمّا الشرك الخفىّ

(كالرياء)

فهو من قبيل الكبائر الداخلة فى ذيل الآية المذكورة.

ثم خاض عليه السلام فى بيان القسم الثانى والثالث، فقال:

«وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِى يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ ۷۵۷]. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِى لَايُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً.

الْقِصَاصُ هُنَاکَ شَدِيدٌ. لَيسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمُدَى ۷۵۸] وَلَاضَرْباً بِالسِّيَاطِ، وَلكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذلِکَ مَعَهُ»

. فقد أشار الإمام عليه السلام فی العبارة الأُولی إلی الصغائر التی ذکر القرآن شرط عفوها بترک الکبائر: «إِنْ تَجْتَنِبُوا کَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَيِّئَاتِکُمْ»[۷۵۹]. أو إشارة إلی الکبائر التی لها بعد حق اللّه ويستطيع الإنسان غسلها بماء التوبة والندم وتدارکها بالأعمال الصالحة، أمّا العبارة الثانية التی تبيّن النوع الثالث

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۱۹

للظلم، فهی إشارة إلی حق الناس الذی توعد الإسلام عليه أشد العقوبات، واللّه لا يغفره ما لم يتنازل صاحب الحق، وعليه، فالتعبير بالقصاص فی العبارة إشارة إلی العقاب، لا القصاص الإصطلاحی المعروف، ولذلک قال: ليس ذلک القصاص جرحاً بالسکين والخنجر ولا ضرباً السياط، بل عقاب يهون کل ذلک معه: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ* الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَةِ»[۷۶۰].

ورد فی الرواية، عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إنّ اللّهَ أَوحی إلی نَبِيٍّ مِنْ أَنبيائِهِ فِی مملَکَةِ جَبّارٍ مِنَ الجَبّابرينَ أن ائتِ هذا الجَبّارَ فَقُلْ لَهُ: إنّنی لَمْ أَستَعمِلَک عَلی الدِّماءِ اتّخاذِ أموالِ، بَل استَعمَلتُک لِتَکُفَّ عَنّی أَصواتَ المَظلُومِينَ، فإنّی لَمْ أدعْ ظَلامَتَهُم وَإنْ کَانُوا کُفّاراً»[۷۶۱].

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

«ما مِن أَحِدٍ يَظلِمُ بِمَظلَمَةٍ إلّاأَخَذَهُ اللّهُ بها فِی نَفْسِهِ وَمالِهِ وَمَّا الظُّلمَ الَّذی بَينَهُ وَبَينَ اللّه فإذا تابَ غَفَرَ اللّهُ لَهُ»[۷۶۲].

ثم تطّرق الإمام عليه السلام إلی موضوع وحدة صفوف المسلمين، فقال:

«فَإِيَّاکُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِی دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَکْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضَی وَلَا مِمَّنْ بَقِیَ».

العبارة

«فَإِيَّاکُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِی دِينِ اللَّهِ ...»

إشارة إلی أنّ کل طائفة کانت تتخذ لها صيغة تميز برنامجها من الآخرين، سواء فی المسائل العقائدية أو العملية، وهذا التلوّن يؤدّی إلی فرقة الصفوف وضياع الطاقات وأحياناً نشوب الحروب الأهلية التی تهدد مصير المجتمع ومنافعه. وکلما کان أفراد المجتمع- کما ورد فی عبارات الإمام عليه السلام المذکورة- يتحولون بالمرونة فی القضايا البسيطة، والصبر فی الأمور التی لا تنسجم مع رغباتهم، فإنّ الوحدة ستسود هذا المجتمع جانب الهدوء والأمن

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۲۰

والإستقرار. وبالطبع، فإنّ اختلاف الصفوف والفرق طيلة التاريخ- کما ذکر الإمام عليه السلام- لم يجلب من خير قط.

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بدعوة الجميع إلی إصلاح الذات وترک البحث عن عيوب الآخرين، فقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبی لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ»، وَطُوبی لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَکَلَ قُوتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَکَی عَلَی خَطِيئَتِهِ»

. ثم خلص عليه السلام إلی هذه النتيجة:

«فَکَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِی شُغُلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِی رَاحَةٍ!»

إشارة إلی أنّ کل انسان- سوی أولياء اللّه والمعصومين عليهم السلام- ينطوی علی عيب، فإن إنهمک بعيوب الآخرين غفل عن إصلاح نفسه ولا يسعه بلوغ القرب الإلهی والتهذيب الخلقی والسير إلی اللّه، أمّا إن اختلی بنفسه وانشغل بعيبه وشعر بالندم لما فرط منه وغسل أدران المعصية بمياه طاعة اللّه ولاسيّما بقطرة دمع صادقة، أنذاک سيتمکن من إصلاح تلک نفسه والعروج بها إلی ساحة القدس.

تأمّل: العيش بصورة جماعية أم الإنزواء

حثّ الإمام عليه السلام فى ختام الخطبة على الإنزواء والإعتزال، الإعتزال الذى يعدّ مقدمة لتهذيب النفس والإبتعاد عن المفاسد الإجتماعية، وذهب أغلب علماء الأخلاق إلى أنّ الإعتزال يعدّ أحد الشرائط اللازمة لتهذيب الأخلاق. ولو تأملنا آيات القرآن الكريم لرأينا مرحلة العزلة التى شهدها الأنبياء العظام والصالحون فى حياتهم. فقد قال إبراهيم الخليل عليه السلام حين واجه المجتمع الضال والمتعصب- الذى كان يصر على عبادة الأوثان- «وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيّاً»[۷۶۳].

وقد اعتزل موسى عليه السلام قومه أربعين يوماً لأخذ الألواح واتّجه إلى الطور، حيث

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۲۱

وردت تفاصيل هذا الموضوع فى الآية ۱۴۲ من سورة الأعراف.

وكما ورد اعتزال مريم عليها السلام حيث أشارت إليه الآية ۱۶ من سورة مريم، وكذلك ما ورد فى شأن أصحاب الكهف عندما عجزوا من مقارعة الوثنيين فاعتزلوهم إلى الكهف وأشار القرآن الكريم إلى ذلك حيث قال: «وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً»[۷۶۴].

وإننا لنعلم جميعاً باعتزال النبى صلى الله عليه و آله القوم حين كان يختلى فى الغار لأيّام بل أشهر قبل البعثة ويجدّ ويجتهد فى العبادة.

نعم، وردت عدّة روايات بهذا الشأن ومنها، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«الْعُزْلَةُ عِبادَةٌ»[۷۶۵].

وقال أميرالمؤمنين على عليه السلام:

«الْعُزْلَةُ أَفْضَلُ شِيَمِ الْأَكْياسِ»[۷۶۶].

وقال عليه السلام أيضاً:

«فِى اعْتِزَالِ ابْناءِ الدُّنْيا جِمَاعُ الصَّلَاحِ»[۷۶۷]

. والحال هنالك بعض الروايات أكدت على الجماعة، فقد روى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةِ»[۷۶۸].

وورد مثل هذا المضمون عن أميرالمؤمنين على عليه السلام قال:

«وَالْزَمُوا السَّوادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ»[۷۶۹].

فالأحاديث فى الموضوعين كثيرة، ويتصور أحياناً تعارضها مع بعضها، والحال، صرحت ذات الروايات بكيفية الجمع بينها. فالذى يفهم من النصوص القرآنية

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۲۲

والروائية أنّ العزلة تتمّ على ضوء بعض الشرائط الإجتماعية الخاصة، والواقع أنّها استثناء إزاء حكم كلّى بالاجتماع، وقد ورد الحثّ على العزلة فى الأمور التالية:

۱. الإبتعاد عن طلاب الدنيا والتى صرّحت به الأحاديث المذكورة.

۲. الإبتعاد عن المجتمع الفاسد والمنحرف، كما ورد ذلك فى قصّة إبراهيم وأصحاب الكهف، وقد سئل الصادق عليه السلام عن سبب اعتزاله، فقال:

«فَسَدَ الزَّمَانُ وَتَغَيَّرَ الْإِخْوَانُ فَرَأَيْتَ الْإِنْفِرادَ أَسْكَنُ لِلْفُؤادِ»[۷۷۰].

۳. حین تكون العزلـة بهـدف التفكیر والتهـذیب وإصـلاح النفس، كالـذی كان علیه رسول اللّه صـلی الله علیه و آله قبل البعثة وتفرغه للعبـادة فی غـار حراء. ولاـ شـك أنّ الإنسـان إذا أفرد بعض الوقت من یومه ولیلته للتفكیر فی نفسه ومجتمعه كان لـذلك آثاره الطیبة والنافعة.

۴. الإبتعاد عن الأشـرار- الذین یشكلون جزءاً من المجتمع- فقد. ورد الحثّ علی الإعتزال عن هؤلاء، وقد روی عن أمیر المؤمنین علی علیه السلام أنّه قال:

«مَنِ اعْتَزَلَ النَّاسَ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ»[۷۷۱]

. وإلّا لیس هنالك من یسعه التنكر للجماعة التی حظیت باهتمام واسع من أحكام الشـریعة السـمحاء. والإبتعاد التام عن المجتمع یعنی الإبتعـاد عن التجـارب والعلوم والمعـارف وطاقـات أفراد المجتمع، أضف إلی ذلـك فإنّ العزلـة علی ضوء ما أثبتته التجربـة قـد تـدفع بالإنسان إلی العجب والفخر وإساءة الظن بالآخرین، إلی جانب بعض الإدّعاءات الباطلة والفاسدة.

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۴۲۳

الخطبة ۱۷۷

اشارة

فِی مَعْنی الحَكَمَیْنِ ۷۷۲]

نظرة إلی الخطبة

كما ورد فی سـند الخطبة فقد خاطب الإمام علیه السـلام الخوارج الذین ضـغطوا بادیء الأمر علی الإمام علیه السلام فی قبول التحكیم فاضـطر إلی الموافقـة رغم ممانعته للحیلولة دون الإنقسام فی صـفوف أتباعه ووقوع الحرب الأهلیة، ولكن ما إن ظهرت نتیجة التحكیم السـلبیة أثر خیانة ممثله فی تحكیم أبی موسـی الأشـعری وخداعه من قبل عمرو بن العاص ممثل معاویة حتی اعترضوا علی الإمام علیه السـلام فی قبوله التحكیم. فرد علیهم الإمام علیه السـلام بـذلك الردّ الحاسم فی أنّكم أنتم الـذین أثرتم هـذه الفتنة وقد حذّرتكم فلم ترعووا، والآن حیث ترون سوء اختیاركم تعترضون! أضف إلی ذلك أنّ التحكیم كان مشـروطاً لا مطلقاً، وشـرطه عـدم الإنحراف عن القرآن ولكنّهم انحرفوا، وعلیه فینبغی الاعتراض علیهم لا علیَّ.

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۴۲۵

القسم الأول

فَـأَجْمَعَ رَأْیُ مَلَئِكُمْ عَلَی أنِ اخْتَارُوا رَجُلَیْنِ، فَأَخَـذْنَا عَلَیْهِمَا أنْ یُجَعْجِعَا عِنْـدَ الْقُرْآنِ، وَلَا یُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِـنَتُهُما مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ، فَتَاهَـا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا یُبْصِـرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالْإِعْوِجَاجُ رَأْیَهُمَا. وَقَـدْ سَـبَقَ اسْـتِثْنَاؤُنَا عَلَیْهِمَا فِی الْحُكْمِ بِالْعَـدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْیِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا. وَالثِّقَةُ فِی أَیْدِینَا لِأَنْفُسِنَا، حِینَ خَالَفَا سَبِیلَ الْحَقِّ، وَأَتَیَا بِمَا لَا یُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ.

الشرح والتفسیر: بطلان الحكم بانحراف الحكمین

فصّلنا الكلام بشأن الحكمین فی الخطب السابقة ولا سیما الخطبة ۱۲۵ و ۱۲۷ وخلاصته، أنّه لما أوشك جیش الشام علی الهزیمة، لجأ

عمروبن العـاص إلى خدعـة، فـأمر برفع المصـاحف على أسـنّة الرمـاح وقولوا: بينـا وبينكم القرآن، فما حكم به القرآن رضـينا به. أمير المؤمنين عليه السـلام حـذّرهم من أنّهـا خدعـة وأنّ هؤلاـء القوم لاـ يتبعون القرآن فامضوا فى القتال، إلّاأنّ بعض الجهال والمغرضـين رفضوا وضغطوا على الإمام عليه السلام فى قبول الإحتكام إلى القرآن. لم يستجب لهم الإمام عليه السلام، فأصروا عليه بعد أن اختلفوا، فلم ير الإمـام عليه السـلام بـدّاً من القبول. ثم أصّر هؤلاـء القوم على اختيار أبى موسـى الأشـعرى. الإمام عليه السـلام الـذى كان يعلم بحماقـة هـذا الرجل وضـعف إيمانه، أشار إليهم بابن عباس الرجل العاقل العالم المعروف والـذى لا يخـدع بألاعيب عمرو بن العاص، لكنّهم رفضوا وأصروا على اختيار ابى موسى، وهنا

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۴۲۶

اضـطر الإمام عليه السـلام ودفعاً للفرقـة والانقسام، إلى القبول بعـدّة شـروط، منها، عـدم خروج الحكمين عن الحق والعـدل. اسـتغرقت المحادثات بين عمرو بن العاص وأبى موسـى الأشـعرى، شـهوراً عديـدة حتى قال ابن العاص: ليخلع كلٌّ منّا صاحبه حتى يختار الناس خليفـة. فـأعلن أبو موسـى هـذا الجاهـل والأـحمق- عن خلعه للإمـام على عليه السـلام من الخلافـة، ثم انبرى ابن العـاص ليعلن نصـبه لمعاوية. فشبّ النزاع بين القوم، وقدم أولئك الذين أصـرّوا على وقف القتال وقبول التحكيم واختيار الأشـعرى على الإمام عليه السـلام واعترضوا عليه، لم قبلت التحكيم؟ قال الإمام على عليه السلام:

«فَأَجْمَعَ رَأْىُ مَلَئِكُمْ ۷۷۳] عَلَى أَن اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجَعْجِعَا[۷۷۴] عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُما مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ»

. فالإمام عليه السـلام يشير إلى أنّ قبول التحكيم وإن حصل بفعل الضغط إلّاأنّه كان مشروطاً لا مطلقاً دون قيود وشروط بحيث يفعلون ما يشاؤون حسبما تمليه عليهم أهواؤهم ورغباتهم وينبغى أن يقبله الآخرون. فالشـرط كان تبعيـة القرآن وعـدم الإنحراف عن تعاليمه، إلّاأنّ الشىء الوحيد الذى غُيِّب فى العملية، إنّما كان القرآن، فانطلق الأشعرى الأحمق ليتصرف خلاف منطق الحق والعدل القرآنى. ومن هنا قال الإمام عليه السلام مواصلًا كلامه:

«فَتَاهَا[۷۷۵] عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ،

وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالْإِعْوِجَاجُ رَأْيَهُمَا»

. ثمّ أكد الإمام عليه السلام على شروط التحكيم، فقال:

«وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِى الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا».

فهل فى القرآن الكريم آيهٔ تصـرّح بضرورهٔ خلع شخص كعلى عليه السلام الذى بنى صرح الإسلام بجهاده وتربى فى حجر رسول اللّه صلى الله عليه و آله والقرآن، وكان مظهر الحق

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۴۲۷

والعدل من الخلافهٔ، أم هل هناك من آيهٔ تصـرّح باسـتخلاف سليل الجاهلية والكفر والظلم والجور الذى لا يخفى مكره وخداعه على أحد، وقد استقطب حوله كل المنافقين والشياطين؟

ثم خلص عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«وَالثِّقَةُ فِى أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لَايُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ»

. وهكذا يردّ بحسم على المعترضين:

أولًا، إنّ قبول التحكيم كـان من قبلكم، ثانيـاً، إنّ هؤلاـء لم يطلق لهم العنـان فى التحكيم، بل كانوا مأمورين باتّباع القرآن والإنصـياع لأحكـامه لا الإنصـياع لأهوائهم. وماداموا لم يلتزموا بالشـروط فلا اعتبار لحكمهم، الغريب فى الأمر أنّ الحكمين نفسـيهما لم يتفقا فى الحكم وسـعى كـل منهمـا لخـداع الآـخر وليضـعه أمـام حقيقـة لاـ نقاش فيها، بينما يشترط فى التحكيم اتفاق الحكمين على الشـروط

المطروحة فی التحکیم؟

تأمّل: تولّی الحکمین عن القرآن

صرّح الإمام فی هذه الخطبة بتجاهل الحکمین للقرآن ومخالفة الحق وهما یبصرانه وقدّموا أهواءَهما علی الحقیقة وکان ذلک واضحاً، ولو أنّهما فکّرا قلیلًا فی مختلف الآیات القرآنیة الواردة بحق علی علیه السلام أو تلک التی تبیّن أصلًا کلیاً، والذی یمثل الإمام علی علیه السلام نموذجه البارز طبق روایات رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لما ترددّا لحظة فی ترجیحه علی شخص کمعاویة بن أبی سفیان أعدی أعداء رسول اللَّه صلی الله علیه و آله. فقد صرّح القرآن قائلًا: «إِنَّمَا وَلِیُّکُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلَاةَ وَیُؤْتُونَ الزَّکَاةَ وَهُمْ رَاکِعُونَ»[۷۷۶] وهل کان غیر الإمام علی علیه السلام من تصدق بخاتمه حین رکوعه ونزلت هذه الآیة بحقّه؟ وقد روی هذا، عشرة من کبار الصحابة مثل ابن عباس

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۴۲۸

وعمّار بن یاسر وجابر بن عبد اللَّه الأنصاری وأبوذر الغفاری وأنس بن مالک وعبد اللَّه بن سلام ومسلمة بن کهیل وعبداللَّه بن غالب وعقبة بن حکیم وعبداللَّه بن أبی، وذکر شرحه فی التفاسیر العامة.

وهل یساوی شخص بمن نام فی فراش النبی صلی الله علیه و آله لیلة المبیت ۷۷۷] وفداه بنفسه فنزلت بحقه الآیة الشریفة: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ یَشْرِی نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ»[۷۷۸] وهل یتقدم علیه شخص وهو الذی عدّه القرآن الکریم خیر البریة [بعد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقال: «إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ»[۷۷۹]. لما نزلت هذه الآیة قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

«أَنْتَ وَشِیعَتُکَ یا علیّ خَیرُ

البَرِیَّةِ»[۷۸۰].

وهل ینبغی الإستغراق لشهورٌ، لکی تعلم الأُمّة الإسلامیة أیّها أفضل علیٌّ أم معاویة؟ حقّاً إنّها مقارنة عجیبة وجفاء کبیر لأمیرالمؤمنین الإمام علی علیه السلام فی أن یُقرَن بمعاویة ویعلم فضله، أین هذا من ذاک وأین الثری من الثرّیا؟!

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۴۲۹

الخطبة ۱۷۸

اشارة

فِی الشَّهَادَةِ وَالتَّقْوی

وَقِیلَ إِنَّهُ خَطَبَها بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ فِی أوَّلِ خِلافَتِهِ ۷۸۱]

نظرة إلی الخطبة

أشار الإمام علی علیه السلام بادیء الخطبة إلی صفات اللَّه، ومنها، علمه المطلق سبحانه بجمیع الأشیاء حتی أصغرها حجماً- کعدد قطرات المطر وذرّات التراب- لیعلم الناس أنّ أعمالهم محفوظة عند اللَّه ولا یخفی علیه شیء من أسرارهم.

ثم شهد فی القسم الثانی، للَّه‌تعالی بالوحدانیة ولرسوله الأکرم صلی الله علیه و آله بالنبوّة، وقرن کل بصفاته لیکشف عن عمق تلک

الشهادة.

أمّا القسم الثالث، فقد تحدّث فيه عن خداع الدنيا ووعودها الكاذبة التى تمنى بها من تعلق بزخرفها.

وأخيراً حذّر الجميع من أنّ الذنوب سبب زوال النعم، وأنّ أيّاً من الأُمم لم تعشِ

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۳۰

البؤس والشقاء إلّالارتكابها الذنوب والمعاصى، ومن هنا فقد دعى الجميع لإعادة النظر فى أعمالهم وتصرفاتهم فيهبّوا لإصلاحها بغية السعادة والفلاح.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۳۱

القسم الأول

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلَا سَوَافِى الرِّيحِ فِى الْهَوَاءِ، وَلَا دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِى اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَاإِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ، شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ، وَصَفَتْ دِخْلَتُهُ وَخَلَصَ يَقِينُهُ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ، وَالْمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ وَالْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالَاتِهِ، وَالْمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى وَالْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ الْعَمَى

الشرح والتفسير: عظمة اللَّه وكرامة نبيّه صلى الله عليه و آله

كما أشرنا سابقاً استهل الإمام عليه السلام خطبته خمس صفات من صفات اللَّه الجمالية والجلالية بعبارات قصيرة وعميقة المعنى فقال:

«لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ [۷۸۲] مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ»

. هذه الصفات تنبع من ذاته القدسية المطلقة. فالفرد المحدود العلم والقدرة إن خاض فى شىء واستعان بعلمه وقدرته، فمن الطبيعى إلّا يسعه التعامل مع عمل آخر، أمّا الذات المقدّسة فهى تدبر عالم الوجود برمته فى لحظة واحدة، يسمع سبحانه استغاثة العباد ويعلم بحاجاتهم، وحيث كانت ذاته غنية

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۳۲

عن الحدود وجامعة للكمالات كافة فليس من سبيل لتغيير تلك الذات، كما أنّ المكان من لوازم محدود الوجود، فتلك الذات المطلقة عن الحدود حاضرة فى كل مكان، وفى نفس الوقت هى ليست بحاجة إلى مكان. أضف إلى ذلك فإنّ صفات اللَّه خارجة عن نطاق وصفنا، فنحن محدودون، والذات وصفاتها ليست محدودة، وليست لنا من قدرة للحديث عن كمالات اللَّه وإن طال بنا الحديث فإننا نعود من حيث ابتدأنا، شئنا أم أبينا. نعم، له وحده وصف ذاته وكمالاته كما ورد فى الحديث:

«لَا أَبْلُغُ مَدْحَكَ وَالثَّنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا اثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[۷۸۳].

ثم خاض فى الصفة الخامسة وهى علمه المطلق حيث ركّز على سبعة مواضيع خفية تماماً عن الآخرين، فقال:

«وَلَا يَعْزُبُ [۷۸۴] عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ،

وَلَا سَوَافِى [۷۸۵] الرِّيحِ فِى الْهَوَاءِ، وَلَا دَبِيبُ [۷۸۶] النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا[۷۸۷]، وَلَا مَقِيلُ [۷۸۸] الذَّرِّ[۷۸۹] فِى اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ [۷۹۰] الْأَحْدَاقِ».

فالعبارة

«عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ»

تشير إلى قطرات المطر وقطرات ماء البحار والأنهار والآبار والينابيع التى لا يعلمها إلّااللّه، كما يعلم عدد نجوم السماء التى يقول العلماء اليوم أنّ مجرتنا فقط تحتوى على ۲۰۰ مليار نجمة، لكن ما عدد النجوم فى سائر المجرات التى لا تعد ولا تحصى؟ لا يعلم ذلك إلّااللّه. والأدهى من ذلك، ذرات الغبار التى ترتفع فى كل آن فى أمواج الرياح فى كرتنا الأرضية وتنتقل من موضع إلى آخر ولا يعلم بها إلّااللّه. ذهب البعض إلى أنّ المراد من دبيب النمل، الأصوات

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۴۳۳

التى تصدر عن وقع أقدام النمل على الحجر، والذى يصعب إدراكها بأيّة وسيلة متطورة، إلّاأنّ اللّه عالم بكل ذلك، كما يعلم بمخادعها، والمراد، جميع النمل فى نقاط العالم كافة.

وتشير العبارة

«يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ»

إلى موضع سقوطها فى أنحاء الكرة الأرضية كافة حيث يسقط فى كل لحظة ما لا يعدّ ولا يحصى من الأوراق فى البساتين والحدائق وأعالى الجبال وأعماق الوديان ولا يعلم ذلك إلّااللّه، كما يعلم عدد أطباق أجفان عيون الناس والحيوانات وكل ذى عينين. أجل، لا يخفى عليه شىء من الكليات ولا الجزئيات فى عالم الوجود بأسره، وكفى الإنسان تربية وأدباً، إيمانه بهذا الإله، كفاه أن يعلم أنّ العالم حاضر بأسره لدى اللّه وهو عليم بظاهرنا وباطننا، ومن هنا ورد فى القرآن «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»[۷۹۱]. ثم شهد للّه بالوحدانية، فليس سوى اللّه تعالى أهلٌ للعبودية:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَاإِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ ۷۹۲] بِهِ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ»

. وهكذا ينفى الإمام عليه السلام كلّ أنواع الشرك والشك والكفر بالآيات التكوينية والتشريعية، بعبارة أخرى ينفى كل شبيه وشريك للّهثم يخوض فى الشك فى ذاته المقدّسة وأفعاله التشريعية والتكوينية ويقول: ليس من سبيل للشك فى دينه ولا فى خالقيته وربوبيته فى عالم التكوين، ثم قال:

«شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ، وَصَفَتْ ۷۹۳] دِخْلَتُهُ ۷۹۴] وَخَلَصَ يَقِينُهُ،

وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ».

إشارة إلى أنّ هذه الشهادة لذات الحق وصفاته شهادة من اتصف بهذه الصفات الأربع: صدق نيّته وطهارة قلبه من الشرك والرياء وبعد يقينه عن الريبة والشك

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۴۳۴

وتكشف أعماله عن عمق إيمانه باللّه، وهى ليست كشهادة المنافق أو الطامع بالمال والجاه، ولا ذلك الذى خلط إيمانه بالشك، ولا ذلك الذى يتحدث عن الإيمان ولا يبادر العمل الصالح.

ثم أردف شهادته للّهبالوحدانية بالشهادة لمحمد صلى الله عليه و آله بالرسالة ونعته بست صفات، فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبى مِنْ خَلَائِقِهِ، وَالْمُعْتَامُ ۷۹۵]

لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ ۷۹۶] كَرَامَاتِهِ وَالْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالَاتِهِ،

وَالْمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى وَالْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ ۷۹۷] الْعَمَى .

الصفة الأُولى التى ورد الحديث فيها عن صفته التى سببت اختياره للرسالة.

والصفة الثانية، وظيفته فى شرح حقائق الدين والعقائد الصحيحة. وتطرق فى الصفة الثالثة، إلى مكارم خلقه، والصفة الرابعة، فى وظيفته المهمّة فى بيان الأحكام، والصفة الخامسة، هدايته صلى الله عليه و آله عن طريق قوله وفعله وإمضائه العملى. وتحدث فى الصفة السادسة، عن جهوده فى محاربة الجهل والذى عبّر عنه بالعمى. وتشير هذه الصفات إلى أنى لم أشهد اعتباطاً بنبوته وأنقاد

لإمامته.

تأملان

١. مشكلة الصفات

كما ورد فى كلمات الإمام عليه السلام العميقة المعنى فإنّ الذات القدسية تتجاوز الحدود والزمان والمكان ولها إحاطة علمية تامة بكل شىء فى عالم الوجود. نعم، فالعالم بأسره حاضر عند اللّه وله حضور فى كل مكان دون أن يضمه مكان. وإنّ صفاته الجمالية والجلالية وإن منحتنا معرفة عميقة، إلّاأنّه لابدّ من الإعتراف بأنّه خارج

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۳۵

عن وصفنا. أحياناً تبدو تعبيراتنا بشأن الذات لغز ونوع من التناقض، إلّاأنّ حلّ هذا اللغز يمكن فى الإلتفات إلى نقطة وهى أنّ وجوده مطلق ولا متناهٍ من جميع الجهات، فليس له من بداية ولا نهاية ولا حد محدود. وإن تصور هذا الموجود للانسان المحدود من جميع الجهات يبدو مستصعباً، ولكن على كل حال لا تحل قضية الصفات الإلهية دون الإلتفات إلى ذلك الأمر. فإن قلنا إنّه عالم بكل شىء حتى بذرات الغبار التى تتعلق بالهواء، فذلك لأنّه حاضر فى كل مكان، وقولنا إنّه حاضر فى كل مكان بمعنى أنّ وجوده غنى عن الحدود ومحيط بكل شىء. وإن قلنا ليس له مكن زمان أو مكان، ذلك لأنّ الزمان يأتى من الحركة والمكان بواسطة محدودية الإنسان، وليس للوجود المطلق من حركة نحو النقص أو الكمال، وحيث هو غنى عن كل شىء فلا حاجة به إلى مكان. وخلاصة الكلام إذا أردنا معرفة اللّه فإنّ علينا أن ننفى جميع صفات المخلوقات التى تنبع من الحاجة والمحدودية عن تلك الذات المقدّسة.

٢. أهداف بعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله

تضمنت آيات القرآن الكريم والروايات وخاصة نهج البلاغة، الكثير من الكلمات بشأن هدف بعث الأنبياء ولا سيما نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، ومن ذلك، العبارات العميقة التى أوردها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة. فقد بين الإمام عليه السلام أنّ أحد أهداف رسالة النبى صلى الله عليه و آله شرح الحقائق والتى يمكن أن يراد منها كل حقيقة أو حقائق مرتبطة بالمبدأ والمعاد وأصول العقائد، إلى جانب بيان القيم الخلقية كما روى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[۷۹۸].

والهدف الآخر، بيان الرسالات السماوية فى الأحكام الدينية وكشف علامات الهداية وأخيراً طرح حجب الجهل والعمى عن قلوب الناس وأبصارها. فهو معلم عظيم ومربٍّ ربّانى ومرشد خبير.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۳۷

القسم الثانى

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَهَا وَالْمُخْلِدَ إِلَيْهَا، وَلَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا. وَايْمُ اللَّهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا، لِأَنَّ «اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ. وَإِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ. وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيهَا مَيْلَةً، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ. وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ اقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ!

الشرح والتفسير: صدق النيّة مع اللّه

خـاطب الإمام عليه السـلام فى هـذا المقطع من الخطبـة الناس كافـة وذكرهم بأربع نقاط مهمّـة، لها بالغ الأثر فى حياة الناس، فقال فى النقطة الأُولى

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَهَا وَالْمُخْلِدَ[۷۹۹] إِلَيْهَا، وَلَا تَنْفَسُ ۸۰۰] بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا»

. لما كان حبّ الدنيا كما ورد فى الحديث رأس كل خطيئة فقد شرع الإمام عليه السلام بحبّ الدنيا. الجدير بالذكر أنّه لم يرد ذم لمن حصل على الدنيا بل على

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۳۸

أولئك الذين يتهافتون على الدنيا ويتعلقون بزخارفها. وقد تغر زخارف الدنيا أولئك المتكالبين عليها حتى يظنون بأنّ كل شـىء خالد فيها، إلّاأنّهم يرون فجاة زوال كل شـىء بفعل حادثة أليمة، على سبيل المثال، فإنّ زلزلة لا تسـتغرق بضع ثوان تضـرب المدينة فتقضى على ما فيها ومن فيها، نعم ربّما يفيق لمدّة وسرعان ما يعود إلى سبات الغفلة.

ثم أشار إلى النقطة الثانية فقال كقاعدة كلية:

«وَايْمُ اللَّهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِى غَضِ ۸۰۱] نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبِ اجْتَرَحُوهَا[۸۰۲]، لِأَنَ «اللَّهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيـدِ»». والواقع أنّ هذه العبارة اقتباس من الآية الشـريفة: «إِنَّ اللَّهَ لَايُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِـهِمْ»[۸۰۳] والآية: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَـذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِـبُونَ»[۸۰۴]. طبعاً، نعم اللّه تقسّم على العباد حسب استعدادهم وأهليتهم، ومن هنا يستحقها الصالحون الطاهرون لا الآثمون الملوثون.

سؤال: ورد فى بعض الروايـات أنّ اللّه يبتلى أوليـاءه بأنواع البلاء كما جاء فى الخبر «البلاء للولاء»[۸۰۵] لرفع مقام أوليائه، كما يستفاد من بعض الروايات أنّ البلاء قد يكون امتحاناً للمؤمن وأخرى تحذيراً وايقاظاً للعباد، أفلا يتنافى هذا وما ورد فى عبارة الإمام؟

الجواب: ما ورد فى كلام الإمام عليه السـلام قانون كلّى ونعلم أنّ لكل قاعدة شواذ، فموارد الامتحان والإيقاظ وأمثال ذلك استثناءات من تلك القاعدة الكلية والقانون

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۳۹

العـام، وبعبارة أخرى عبارة الإمام عليه السـلام تحمل على الغالب وهـذا شبيه ما ورد فى القرآن: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِـيبَةٍ فَبِمَا كَسَـبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ»[۸۰۶] قطعاً، ليس هناك من منافاة بين هذه الآية، والآية: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِنَ الْخَوْفِ ...»[۸۰۷] التى تتحدث عن مختلف الإمتحانات الإلهية بواسطة البلاء، وكذلك الآية: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»[۸۰۸] ولعـل الإنسـان إذا تأمـل قليلًا لأمكنه التعرف على الموارد التى يكون البلاء فيها جانب العقاب والجزاء أو الامتحان والتحميص والتحذير. فإن بدرت منه معصية أو قارف المجتمع أنواع الفساد وأصابته بعض الحوادث المريرة فإنّ ذلك عقاباً؛ أمّا الحوادث المريرة التى تطيل الصالحين فهى تمحيص يهدف إلى رفع مقامهم.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة فقال:

«وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَوَلَهٍ ۸۰۹] مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَ شَارِدٍ[۸۱۰]، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ»

. عـادة مـا يعمـد هـذا الطبيب الربـانى المـاهر إلى وصف العلاـج بعـد ذكر المرض، ويعلم الناس سبيل دفع المكروه والبلاء، ويرى أنّ الدعاء إن كان صادقاً وخارجاً من أعماق القلب بمعنى تحدث حالة من التغيير لدى الإنسان فإنّه يدفع البلاء كما ورد ذلك فى العديد من الروايات، ومنها ما روى عن الإمام السجاد عليه السلام أنّه قال:

«الدُّعاءُ يَدْفَعُ الْبَلاءَ النَّازِلِ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ»[۸۱۱].

ثم أشار إلى النقطة الرابعة التى بينها سابقاً على نحو العموم فقال:

«وَإِنِّى

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۴۴۰

لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أنْ تَكُونُوا فِى فَتْرَةٍ[۸۱۲]. وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيهَا مَيْلَةً، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِى غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ. وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ اقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ!»

. أمّا مراد الإمام عليه السلام من هذه الإشارة المطلقة إلى بعض انحرافاتهم، فقد قيل إنّه أشار قضية عثمان وحكومته التى فوّضت إليه من جانب شورى عمر الظالمة بعد أن سلبتها من أولى الناس بها (علىّ)- والذى أثبتت الحوادث اللاحقة هذه الحقيقة- وقد سلمتم لتلك الحكومة، وورود الخطبة بعد مقتل عثمان فى أوائل خلافة الإمام عليه السلام شاهد على هذا المعنى. لكن الاحتمال الأكبر أنّه إشارة إلى جميع الخلفاء والأحداث المريرة التى رافقت الخلافة. ومراده من العبارة «

وَلَوْ أَشَاءُ أنْ اقُولَ لَقُلْتُ»

، أى لو أردت أن أكشف النقاب عن هذه الأحداث الأليمة لاستطعت، لكننى أغض النظر عنها وأسال اللّه أن لا يؤاخذكم ويعفو عن تقصيركم ۸۱۳].

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۴۴۱

الخطبة ۱۷۹

اشارة

وَقَدْ سَأَلَهُ ذِعْلِبُ اليَمَانِيُّ فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ يا أمِيرَالمُؤمِنِينَ؟ فَقَال عليه السلام: أفَأَعْبُدُ مَا لَاأرى فَقَالَ: وَكَيْفَ تَراهُ؟ فَقَال:[۸۱۴]

نظرة إلى الخطبة

يدور محور الكلام حول صفات اللّه ويؤكد هذا المعنى: إن تعذرت رؤية اللّه بالعين فإنّه يمكن مشاهدته من خلال قبسات صفاته بالبصيرة.

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۴۴۳

القسم الأول

فقال: لَاتُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، وَلكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ. قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَابِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ. مُتَكَلِّمٌ لَا بِرَوِيَّةٍ، مُرِيدٌ لَابِهِمَّةٍ، صَانِعٌ لَابِجَارِحَةٍ. لَطِيفٌ لَايُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لَايُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ، رَحِيمٌ لَايُوصَفُ بِالرِّقَّةِ. تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ.

الشرح والتفسير: هل رأيت اللّه؟

یستفاد من مختلف الروایات فی سیرة أمیر المؤمنین علی علیه السلام أنّه قال مراراً:

«سَلُونِی قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِی»

، فقد أعرب عن استعداده للإجابة عن کل سؤال یتعلق بدین الناس ودنیاهم، وقد کّرر هذه العبارة حتی حین التقی الناس وهو علی فراش الموت بعد ضربة ابن ملجم. وحین وُلّی علیه السلام الخلافة خطب فقال:

«سَلُونِی قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِی»

وأکّد بهذا المعنی بأنّه أعلم بآیات القرآن فیم نزلت وأین نزلت وناسخها ومنسوخها ومتشابهها ومحکمها. فقام ذعلب الیمانی وکان رجلًا شجاعاً وبلیغاً فسأله السؤال المذکور وأجابه الأمیر علیه السلام ۸۱۵] فقال:

«أَفَأَعْبُدُ ما لاآری »

بمعنی أنّ العبادة فرع من المعرفة وللمعرفة درجات أرفعها درجة الشهود، وقد التفت الإمام فی کلامه علیه السلام إلی مرحلته العبادیة الرفیعة التی ترافق مشاهدة الذات المقدّسة، ذعلب غرق فی التفکیر فی أنّ مراد الإمام علیه السلام هنا أیّة رؤیة؟ هل الرؤیة الحسیة التی

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۴۴۴

یقول بها أم المجسمة؟ أم الرؤیة الروحیة والمعنویة التی تفوق الرؤیة العقلیة؟ لذلک أردف سؤاله بسؤال آخر فقال:

«وَکَیفَ تَراهُ؟»

هل هذا سؤال واستفهام لکشف الحقیقة أم نوع من الإنکار والجدال؟ الجواب عن هذا السؤال یتوقف علی تقییمنا لذعلب، فإن کان من أصحاب الإمام علیه السلام فلا شک فی أنّ سؤاله کان لمعرفة الحقیقة، وإن کان أنساناً طائشاً، کما یستفاد من بعض روایات المارة- فإنّ سؤاله یستند إلی الانکار والجدال. علی کل حال أجابه الإمام علیه السلام بما یمیط اللثام عن بعض الحقائق وقد أثر جوابه بالجمیع بما فیهم ذعلب، حیث نفهم علی قدر مطالعتنا أنّه أُصیب بالذهول عندما فرغ الإمام من الکلام.

فقد قال علیه السلام:

«لَا تُدْرِکُهُ الْعُیُونُ بِمُشَاهَدَهِ الْعِیَانِ، وَلکِنْ تُدْرِکُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِیمَانِ»

. المراد من حقائق الإیمان، الأصول العقائدیة والمعارف الحقة. ولتوضیح هذا الکلام ینبغی الالتفات إلی هذه النقطة وهی أنّ المشاهدة علی ثلاثة أنواع:

۱. المشاهدة الحسیة التی تتم بالعین، وأحیاناً تزود هذه العین ببعض الأجهزة کالمجهر والتلسکوب.

۲. المشاهدة العقلیة التی یبلغها عن طریق الإستدلال به فیری الحقائق ببصیرة کالشمس من قبیل- ما ذکره المرحوم مغنیة فی شرح نهج البلاغة- مشاهدة نیوتن لقانون الجاذبیة الذی یستحیل رؤیته بالعین أثر مشاهدته لسقوط التفاحة من الشجرة علی سطح الأرض.

۳. الشهود الباطنی وهو نوع من الإدراک الباطنی لکن لیس الاستدلالی.

فالإنسان یری ببصیرته الواقع الموجود ویؤمن به دون الحاجة إلی الاستدلال ویبدو فهم هذا الإدراک والرؤیة صعباً ما لم یبلغه الإنسان، ولهذا الموضوع نماذج کثیرة فی الآیات القرآنیة والروایات الإسلامیة، فقد ورد فی آیة بشأن إبراهیم: «وَکَذَلِکَ نُرِی إِبْرَاهِیمَ مَلَکُوتَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ»[۸۱۶]. وبشأن یعقوب حین انطلق إخوة یوسف

نفحات الولایة، ج۶، ص: ۴۴۵

بقمیصه، فقال: «إِنِّی لَأَجِدُ رِیحَ یُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ»[۸۱۷] والنبی الأکرم صلی الله علیه و آله حین حفر الخندق قبیل شروع معرکة الأحزاب لما ضرب الحجر ثلاث مرات وزف البشارة لصحبه بفتح قصور کسری وقیصر وقصور صنعاء فی الیمن ۸۱۸]. وقد أخبر علی مراراً فی نهج البلاغة عن المستقبل، وکان یقول فی بعض المواقع، کأنّی أری جماعة ستفعل کذا وکذا، بل نال بعض المؤمنین المخلصین هذا الکشف والشهود.

ومعروفة هى قصّة ذلك الفتى الذى قال للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

«كَأنِّى أنظُرُ إلِى أَهْلَ الجَنَّةِ، يَتَنَعَّمُونَ فِيى الجَنَّةِ ... كَأنِّى أنظُرُ إلِى أَهْلَ النّارِ وَهُم فِيها مُعَذَّبُونَ»

. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لأصحابه:

«هذا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالإِيمانِ»[۸۱۹]

. وسائر الموارد التى تستحق كتاباً مستقلًا فى الكشف والشهود، والتى تدل جميعاً على وجود شهود آخر يفوق الشهود الحسى والعقلى [۸۲۰].

ثم بيّن الإمام عليه السلام احدى عشرة صفة من صفات اللَّه وأسمائه الحسنى، وقد قرن تسعة منها بعبارات تنفى عنه صفات المخلوقات لتوضيح هذا المطلب فى كيفية إدراك القلوب للَّهبحقائق الإيمان فقال فى الصفة الأُولى والثانية:

«قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَابِسٍ ۸۲۱]، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ»

. ذكرنا مراراً أنّ مشكلتنا فى فهم صفات اللَّه هى الإنطلاق من صفات المخلوقات والممكنات التى تعيقنا عن إدراك صفات اللَّه ما لم نبتعد عنها، مثلًا فى هذين الوصفين حين نقول: اللَّه قريب، يتراءى لنا سيء مثل

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۴۶

قرب جسمين من بعضهما يقعان فى مكانين حسيين، وعندما نقول: اللَّه بعيد يتداعى لنا جسمان بعيدان عن بعضهما وانفصالهما، والحال، بعدهما وقربهما ليس كذلك، فهو قريب من كل شىء، بمعنى إحاطته التامة بجميع الموجودات، وبعيد بمعنى تنزه كبريائه عن أدناس المكان وصفات المخلوقات الناقصة.

وقال فى الصفة الثالثة والرابعة:

«مُتَكَلِّمٌ لَابِرَوِيَّةٍ[۸۲۲]، مُرِيدٌ لَابِهِمَّةٍ[۸۲۳]»

. وإن طرح موضوع الكلام والإرادة يتبادر إلى أذهاننا إنّ الشخص يجيد لغة معينة ويفكر فى مطلب ثم يصوغه فى إطار كلمات وعبارات، ثم يستعين بلسانه وشفتيه ليوصل صوته المنطلق من حنجرته إلى الآخرين، وهكذا الأمر بالنسبة للإرادة فى أن يفكر المريد مسبقاً ويتأمل صلاح الشىء من فساده ثم يعزم على القيام بالعمل وأمر الجوارح والأعضاء بالتنفيذ. قطعاً إنّ أيّاً من هذه الأمور لا تصدق على اللَّه، فهو ليس بجسم وليس له أعضاء وجوارح وليس بحاجة إلى التفكير. فكلامه ليس سوى خلق الموجات الصوتية فى الفضاء كتلك الأمواج التى سمعها النبى موسى عليه السلام من الشجرة، وإرادته ليست سوى علمه بالمصالح والمفاسد. وهذه الحقيقة صادقة تماماً على الصفات السبع الأخرى ومن هنا اعتبر الإمام عليه السلام أنّ أفضل طريق لمعرفة اللَّه، نفى صفات المخلوقات عنه، فقال:

«وَكَمالُ الْإِخْلاصِ نَفْىُ الصِّفَاتِ عَنْهُ»[۸۲۴].

وقال فى الصفة الخامسة:

«صَانِعٌ لَابِجَارِحَةٍ»

نعم، إنّ أمره إذا أراد شيئاً إنّما يقول له كن فيكون، وله أن يخلق عالماً واسعاً ومترامياً كعالمنا فيقول له كن فيكون ولا يحتاج إلى وسائل وأدوات وأجزاء كالإنسان.

وقال فى الصفة السادسة والسابعة:

«لَطِيفٌ لَايُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَايُوصَفُ بِالْجَفَاءِ»

، لشرّاح نهج البلاغة وعلماء الكلام أحاديث مسهبة فى باب صفات اللَّه ومنها صفة اللطيف، فذكروا لها عدّة معانٍ، فتارة فسّروه بالخفى، وأخرى بخالق الأشياء الظريفة وأخيراً ذو اللطف والحبّ، وللَّه كل هذه الصفات، إلّاأنّ المعنى الأول أنسب، أى أنّ الذات

المقدّسة ظريفة الخفاء، لكن لا بمعنى الخفاء عن العباد،

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۴۷

ذلك لأنّ آثاره ملأت أركان العالم وتجلّت فيه جميع الموجودات، والعبارة

«لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ»

إشارة إلى عظمته، لكن ليست كعظمة الطواغيت والجبابرة الممزوجة بالظلم والجور والجفاء، كما قال القرآن الكريم فى أواخر سورة الحشر:

«الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ».

وقال فى الصفة الثامنة والتاسعة:

«بَصِيرٌ لَايُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ، رَحِيمٌ لَايُوصَفُ بِالرِّقَّةِ»

. فإن قلنا: فلان بصير، تبادر إلى الذهن بسرعة العين التى يبصر بها، وحين يقال: فلان رحيم تتداعى شفقة قلبه ورقته، والحال، هذه الصفات الممكنات والموجودات الجسمانية واللّه أسمى من ذلك. فبصره سبحانه بمضى علمه بالموجودات كافة التى ترى بالعين ورحيميته بمضى لطفه وعطائه لعباده، وإن مثل هذه الصفات مركبة من النقص والكمال، وللّه كمالها ونزاهته من نقصها.

وقال فى الصفتين الأخيرتين:

«تَعْنُو[۸۲۵] الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ ۸۲۶] الْقُلُوبُ مِنْ

مَخَافَتِهِ»

. إشارة إلى أنّه رغم لطفه ورحمته، إلّاأنّ ذلك لا يعنى جرأة العباد على الذات من خلال التشبث بتلك الصفات، بل لابدّ من خشية عقابه إلى جانب الأمل بلطفه ورحمته. ومن هنا قال القرآن بشأن المؤمنين: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ»[۸۲۷]. ونعلم جميعاً بأنّ تعادل الخوف والرجاء من شأنه الأخذ بيد الإنسان إلى السمو والكمال.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۴۹

الخطبة ۱۸۰

اشارة

فِى ذَمِّ الْعَاصِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ ۸۲۸]

نظرة إلى الخطبة وسبب الورود

يستفاد من كتاب (الغارات) للثقفى، أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين أتاه رسولا محمد بن أبى بكر لنجدته قبل قتاله مع عمرو بن العاص فى مصر، فدعى الإمام عليه السلام الناس إلى المسجد وأخبرهم بالأمر، إلّاأنّه لم يستعد للجهاد سوى نفر قليل. ثم بعث، ليلًا، إلى أشراف الكوفة ودعاهم إلى دار الإمارة، وكان حزيناً، لأنّه كان يعلم بعمق الخسارة فى ظهور ابن العاص وأعوان معاوية على مصر. فعرض بالذم فى هذه الخطبة لصحبه العاصين وناشدهم دفع فتنة عمرو بن العاص عن مصر.

ويتضح ممّا قيل أنّ مضمون الخطبة ذم لترك الجهاد وحثّ على جهاد العدو إلى جانب العواقب الوخيمة للوهن والضعف.

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۵۱

القسم الأول

أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ابْتِلَائِى بِكُمْ أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِى إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ وَإِنِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ. لَاأَبَا لِغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ؟ فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِى- وَلَيَأْتِيَنِّى- لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ.

الشرح والتفسير: الجهاد أو الموت والعار

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة كسائر أغلب الخطب بحمد اللّه والثناء عليه، وقال:

«أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى مَا قَضى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ابْتِلَائِى بِكُمْ»

. لشرّاح نهج البلاغة عدّة تفاسير فى المراد بالقضاء والقدر فى هذه العبارات هل له معنى واحد ويشير بأجمعه إلى المقدرات الإلهيّة، أم له معنيان؟ قال البعض: كلاهما بمعنى واحد، وقال الآخر: القضاء يتعلق بخلق عالم الأمر والعقول يعنى عالم ماوراء الطبيعة، والقدر إشارة إلى عالم الخلق أى عالم الطبيعة. وأحد التفاسير الواضحة للقضاء والقدر- والذى تؤيده الآيات والروايات- أنّ القضاء سواء فى عالم التكوين أو عالم التشريع يشير إلى أمر اللّه بأصل وجود الشىء، ويشير القدر بحجمه وأجزائه وشرائطه، مثلًا، شخص يأمر ببناء مسجد أو مستشفى فهذا مصداق للقضاء، ثم يبيّن متطلباته، وهذا هو القدر. فأمر اللّه بالصلاة والصوم فى عالم

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۵۲

التشريع، القضاء، وأمره بالنسبة لأجزائه وشروطه، قدر.

النقطة الأخرى فى كلام الإمام عليه السلام حمده اللّه على ابتلائه بأصحابه العاصين. ذلك لأنّ أولياء اللّه المسلمون لأمره ويرون كل ما ينالهم منه حسناً جميلًا.

ثم خاطب عليه السلام الحاضرين فى المجلس من زعماء قبائل الكوفة فقال:

«أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِى إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ ۸۲۹]، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ ۸۳۰] وَإِنِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ ۸۳۱] إِلَى مُشَاقَّةٍ[۸۳۲] نَكَصْتُمْ ۸۳۳]»

. فقد أشار إلى أربع نقاط لضعف الناس تجاهه: المعصية وعدم الإهتمام بالدعوة وتضييع الفرصة والضعف فى ميدان القتال، ولا شك أنّ كل واحدة تكفى لأن تكون سبباً للهزيمة فضلًا عن اجتماعها. ثم وبخهم بنوع من الحب، فقال:

«لَا أَبَا لِغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ؟»[۸۳۴].

إشارة إلى أنّ الوضع الذى أنتم عليه- إزاء العدو الماكر كمعاوية وجيشه والذى يتسم بالضعف وعدم الإكتراث- ليس له من نتيجة سوى الموت أو الذل، وإن بقيتم أحياء فالذلّة لهؤلاء، العزّ فى الجهاد ونتيجته النصر أو الشهادة، كما قال الإمام عليه السلام:

«الْمَوْتُ فِى حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَياةُ فِى مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ»[۸۳۵].

ثم قال:

«فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِى- وَلَيَأْتِيَنِّى- لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۵۳

قَالٍ ۸۳۶]، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ»

. فقد لفّت الإمام عليه السلام انتباههم إلى قضية مهمّة وهى أنّ وجودى سند عظيم لكم فعُوا ذلك. واعلموا إن مِتُّ فسوف لن أخسر شيئاً سوى جيش لا إرادة له، بينما ستخسرون أنتم كل شىء وستفقدون قائداً شجاعاً وآمراً لا يقهر.

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۵۵

القسم الثانى

لِلّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ! وَلَا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ! أَوَلَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ- وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الْإِسْلَامِ، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ- إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟ إِنَّهُ لَايَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضىً فَتَرْضَوْنَهُ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ! قَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ! وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَةِ!

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام عرضه بالذم لأولئك الضعاف من أصحابه فى الامتثال لأوامره:

«لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ! وَلَا حَمِيَّةٌ[۸۳۷] تَشْحَذُكُمْ [۸۳۸]!».

إشارة إلى أنّ الوقوف بوجه العدو والدفاع عن الأهداف المقدّسة يتطلب أحد العنصرين: أحدهما الإيمان باللّه ويوم الجزاء ووعده للمجاهدين والشهداء أو الدفاع القومى الوطنى، وللأسف ليس فيكم أىّ من هذين العنصرين، فدينكم وإيمانكم ضعيفان وليس فيكم من دافع أو هاجس لحب الوطن، ولذلك توانيتم حتى شنّت

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۴۵۶

عليكم الغارات وداهمكم العدو.

ثم قارن الإمام عليه السلام بينهم وبين أصحاب معاوية فقال:

«أَوَلَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ[۸۳۹] الطَّغَامَ [۸۴۰] فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ- وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ[۸۴۱] الْإِسْلَامِ، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ- إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟»

. فهنا سؤالان جديران بالاهتمام، الأول أنّ معاوية معروف فى البذل والعطاء السياسى الهادف، فكيف يقول الإمام عليه السلام إنّ معاوية لا يقدم للأفراد معونة ولا عطاء؟ أجاب بعض شرّاح نهج البلاغة عن هذا السؤال بأنّه كانت لمعاوية مساومات سياسية مع زعماء القبائل وقادة الجيش فكان يغدق عليهم الأموال الطائلة دون الالتفات إلى الناس، أمّا الإمام على عليه السلام فكان يقسّم أموال بيت المال بالتسوية على الناس بمنتهى العدل والقسط ويقدم التكاليف الحربية لجميع المقاتلين.

والثانى: لم عبّأ معاوية الناس بتلك الطريقة من توزيع الأموال، بينما لم يتعبّأ الناس لأمير المؤمنين عليه السلام رغم تعميمه العطاء والمعونة على أساس العدل؟ ولا تبدو الإجابة عن هذا السؤال صعبة، فإضافة إلى ضعف أهل الكوفة وغدرهم كان هناك وفاء أهل الشام وانصياع الأفراد لزعماء قبائلهم الذين كان يرشيهم معاوية بالأموال، ولكن زعماء القبائل كانوا يشعرون بعدم الرضا من تسوية الإمام عليه السلام بينهم بالعطاء، فلم يكونوا يعبئون أفراد قبيلتهم.

ثم ذم الإمام عليه السلام فرقتهم واختلافهم فقال:

«إِنَّهُ لَايَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضىً فَتَرْضَوْنَهُ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ».

ويبدو تفسير هذه العبارة واضحاً رغم اختلاف الشراح فى تفسيرها فالامام عليه السلام

نفحات الولايهٔ، ج۶، ص: ۴۵۷

يريد أن يقول إنّكم دائماً تحثون الخطى باتّجاه التشتت والفرقة وليس هناك ما يوحّد كلمتكم، لا العناصر التى ترضينى ولا النواهى

عن الأمور التى تغضبنى، والفرقة هى أهم عوامل فشلكم، فأنتم لا تمتثلون لأوامرى ولا تنتهون بنهيى، كما يحتمل أن يكون مراد الإمام عليه السلام أنّكم تجتمعوا على ما يخالف رغبتكم أو يطابقها، كمن يقول للمريض انك لا تتناول الدواء المر ولا الحلو، أى إن لم تقبل الأول فاقبل الثانى، كحد أدنى. ثم تشتعل النار فى قلب الإمام عليه السلام بعد ذلك الذم والتوبيخ فيقول:

«وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ!»

. حقّاً إنّها لفاجعة أن تبلغ الحالة درجة يتمنى معها هذا الجبل الشامخ الذى يفيض صبراً وتحمّلًا الموت. نعم أحياناً يصيب الإنسان من صحبه الغدرة الفجرة ما لا ـ يصيبه من أعدائه وهنا يتمنى الإنسان الموت، الموت الذى يفرق بينه وبين مثل هؤلاء الأفراد الناكرين للجميل المنحرفين عن الحق.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أياديه الثقافية والتربوية لأُمّة الإسلامية سيما بالنسبة لصحبه فأشار إلى أربعة مواضيع مهمّة فقال:

«قَدْ دَارَسْتُكُمُ ۸۴۲] الْكِتَابَ»

. طبعاً القرآن كان بأيدى المسلمين يتلونه أثناء الليل والنهار ولم تكن هنالك من حاجة لتدريس الإمام عليه السلام، فالمراد فهم مضمون القرآن الكريم وسبر أغواره والوصول إلى مفاهيمه حيث يعتبر الإمام عليه السلام المفسّر الأول بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فكان يفسّر للناس آيات القرآن ويستشهد بها فى أغلب خطبه، ثم تطرق إلى خدمته الثانية للأمة فقال:

«وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ ۸۴۳]»

. أى علمتكم الأدلة العقلية كحجة شرعية بعد الأدلة النقلية.

وقال فى الخدمة الثالثة:

«وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ»

فقد كشفت لكم الغطاء عن مكنون كثير من الحقائق الخافية عليكم وكنتم تجهلونها، كما يمكن أن يكون لهذه العبارة مفهومٌ آخر هو انكاركم لبعض المسائل واتخاذكم مواقف أخرى منها بفعل

نفحات الولايه، ج۶، ص: ۴۵۸

جهلكم، فعرفتكم حقيقتها لتقلعوا عن انكاركم، وأخيراً

«وَسَوَّغْتُكُمْ ۸۴۴] مَا مَجَجْتُمْ ۸۴۵]»

. فهنالك الكثير من المفاهيم التى لم تبلغوا عمقها وحقيقتها، ومن هنا كنتم تمجون هذه المفاهيم وتبتعدون عنها، إلّاأنّى كشفت لكم عن أسرارها لتصبح لديكم كالماء الزلال.

ثم أعرب عن أسفه عن سذاجة مخاطبيه فقال:

«لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ!»

. فأنا لم أُقصر فى تربيتكم وتعليمكم، وقد بنيت لكم كل ما ينفعكم، ولكن ليس لديكم من استعداد وكان بذور علمى وتربيتى وحكمتى قد صادفت أرضاً قاحلة.

ثم اختتم عليه السلام خطبته بإبراز تعجبه قائلًا:

«وَأَقْرِبْ ۸۴۶] بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ
مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَةِ[۸۴۷]!»

. جاء فى الرواية أنّ الإمام عليه السلام قال هذه العباراة مع إضافات حين مرّ بجماعة من أهل الشام كان فيهم الوليد بن عقبة، المعروف بشرب الخمر وقد أُقيم عليه الحد، حين سمعه البعض قد شتم الإمام عليه السلام فهمّوا به ونهاهم الإمام عليه السلام ۸۴۸].

تأمّلان

۱. الفرق بين المعونة والعطاء

قال الإمام عليه السلام فى الخطبة المذكورة إنّ معاوية لم يقدم لأتباعه معونةً ولا عطاءً

نفحات الولاية، ج۶، ص: ۴۵۹

(طبعاً، المراد الأفراد العاديون، وإلّا فإنّ شراءه لزعماء القبائل بواسطة الأموال الطائلة ما تناقلته كتب التاريخ). والفارق بين المعونة والعطاء، إلّاأنّ العطاء شيء من قبيل المرتبات الرسمية والمعونة ما يقدم من منح ومساعدات لإعداد السلاح أو الدابّة للقتال.

۲. الخدمات الثقافية الأربع للإمام عليه السلام

أشار الإمام عليه السلام فى الخطبة المذكورة إلى أربع من خدماته لصحبه، وأوجزها فى:

تعليم كتاب اللّه، القرآن الكريم، والثانية، تعريفهم بالأدلة العقلية والبراهين الجلية، والثالثة، تعليمهم ما كانوا يجهلونه وكشف أسرار أغلب الحقائق المتعلقة بالدين والدنيا، والرابعة، والأخيرة إعادتهم إلى المفاهيم الحقة وجعلها مستساغة لهم بعد أن كانت ممجوجة، والواقع هو أنّ هذه الأصول الأربعة تشكل دورة تعليمية ودينية وفكرية متكاملة، ينبغى لجميع القائمين على شؤون التعليم، الإلتفات لها، وبالطبع فإنّ النتيجة المطلوبة لهذه اللحظة إنّما تتأتى حين يتمتع الفرد الخاضع للتربية والتعليم بالإستعداد التام لتقبّلها.

اللّهم ارزقنا عيناً باصرةً وأُذناً سامعةً ويقظةً ووعياً لنصغى إلى كلمات أوليائك التى تطهّر روح الإنسان وتهذّبها وننظر إلى آيات عظمتك بعين البصيرة.

اللّهم لا تفرّق بيننا وبينهم ولا طرفة عين فى الدنيا وفى الآخرة وثبّتنا على مسيرتهم. ياربّ العالمين.

ختام الجزء السادس

كانون الثانى ۲۰۰۳ م

محرم الحرام ۱۴۲۵ هجرى

---

[۱] (۱). سند الخطبة:

لم ترد هذه الخطبة فى مصادر أُخرى والشيء الوحيد الذى يعتمده مؤلف« مصادر نهج البلاغة» ما ذكره السيد اليمانى فى كتاب« الطراز» وقد استشهد فيه بعدة عبارات من هذه الخطبة، رغم أنّه عاش بعد السيد الرضى، إلّاأنّ اختلاف بعض العبارات مع ماورد فى نهج البلاغة يفيد أنّه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة. راجع مصادر نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۳۴۱

[۲] (۱).« مداحر» جمع مدحر، بمعنى الأمر الذى يسبب طرد الشيء وإبعاده من مادة(دحور) بمعنى الطردوالإبتعاد

[۳] (۲).« مزاجر» جمع مزجر، بمعنى المانع من الشيء من مادة(زجر) بمعنى المنع

[۴] (۳).« مخاتل» جمع مختل، المكيدة وهى الوسيلة التى يتمّ بها الخداع من مادة(ختل)

[۵] (۱).« الجفوة» بمعنى القسوة

[۶] (۱).« بوائق» جمع بائقة، بمعنى الحادثة المهمّة والداهية المميتة من مادة(بوق) على وزن فوق، بمعنى الفساد

[۷] (۱).« قتام» بمعنى الغبار

[۸] (۲).« العشوة» ركوب الأمر على غير بيان

[۹] (۳).« شباب» بكسر الشين أى بداياتها فى عنفوان وشدة كشباب الغلام وفتوته، وقد وردت هذه المفردة بكسر الشين فى بعض نسخ نهج البلاغة وبالفتح فى البعض الآخر

[۱۰] (۴).« السلام» بكسر السين جمع سلمة، على وزن كلمة بمعنى الحجارة الصم

[۱۱] (۱).« مريح» بمعنى النتن والعفن من مادة(ريح) بمعنى النتن

[۱۲] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۶۶

[۱۳] (۱). سورة الأنعام، الآيتان ۲۳ و ۲۴

[۱۴] (۱).« رجوف» من مادة(رجف) على وزن حذف بمعنى شدة الاضطراب، وتطلق الأراجيف على الاشاعات التى‌تجعل المجتمع شديد الاضطراب

[۱۵] (۱).« قاصمة» من مادة(قصم) على وزن خصم بمعنى الكسر مع الشدّة

[۱۶] (۲).« زحوف» من مادة(زحف) على وزن حرف بمعنى الثقل فى المشى وتطلق على حركة الجيش الكثير، وزحوف فى العبارة إشارة إلى الافتتان الذى يستشرى فى المجتمع

[۱۷] (۳).« نجوم» وردت هنا بالمعنى المصدرى وهو الظهور

[۱۸] (۱).« يتكادمون» من مادة(كدم) على وزن شرم بمعنى العض والتكادم أن يلتحم حيوانان فيعض كل منهماالآخر

[۱۹] (۲).« حمر» جمع حمار، بمعنى الحمار الوحشى هنا بقرينة العانة وهى الجماعة من حمر الوحش

[۲۰] (۳).« مسحل» من مادة(سحول) بمعنى الفأس والمبرد وما شابه ذلك ممّا يبرد به الشىء

[۲۱] (۴).« ترض» من مادة(رض) التهشيم

[۲۲] (۵).« كلكل» بمعنى الصدر

[۲۳] (۱).« عبيط» من مادة(عبط) على وزن خبط بمعنى قطع رأس الحيوان ويقال الدم العبيط للدم الطرى الذى‌يجرى من بدن الإنسان أو الحيوان

[۲۴] (۲).« مرعاد» من مادة(رعد) الشىء العظيم الصوت والمبراق من مادة(برق) الشىء البراق الذى يخطف الأبصار

[۲۵] (۱).« مطلول» من هدر دمه من مادة(طل) على وزن حل بمعنى هدر الدم

[۲۶] (۲).« يختلون» بمعنى(يخدعون) من مادة(ختل) على وزن قتل بمعنى الخداع

[۲۷] (۱).« لعق» جمع لعقة، الشىء القليل، وما تأخذه من طعام بالملعقة

[۲۸] (۱). سند الخطبة:

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة بعد تسلّمه الخلافة. هذا ما ذكره ابن أبى الحديد والذى يدل على أنّه وجدها فى مصدر آخر غير نهج البلاغة؛ وذلك لأنّ نهج البلاغة لم يشر إلى هذا الموضوع، كما روى المرحوم الكلينى بعضها فى الجزء الأول من أصول الكافى، وأشار الآمدى فى غرر الحكم إلى بعض جوانب الخطبة.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۳۴۴)

[۲۹] (۱).« تستلمه» من مادة(الاستلام) بمعنى الاتصال بالشىء

[۳۰] (۱).« النصب» بمعنى التعب والمشقة

[۳۱] (۲). سورة يس، الآية ۸۲.

[۳۲] (۱). سورة ق، الآية ۱۶

[۳۳] (۲).« حيزه» من مادة(حيز) بمعنى المكان

[۳۴] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ۹، ص ۱۵۳

[۳۵] (۲).« عرفاء» جمع عريف، بمعنى رئيس القوم الذى يدير أمورهم ويعرفه جميعهم

[۳۶] (۱). اصول الكافى، ج ۱، ص ۳۷۱-/ ۳۷۸؛ بحار الأنوار، ج ۹۲، ص ۲۳ ومستدرك‌الوسائل، ج ۱۸، ص ۱۸۷

[۳۷] (۲). خصال الصدوق، باب الثلاثة، ح ۱۸۳

[۳۸] (۱). سورة البقرة، الآية ۸۲

[۳۹] (۲).« مرابيع» جمع مرباع، على وزن مثقال بمعنى المكان ينبت نبته فى أول الربيع. وقال بعض: المطر الذى‌ينزل أول الربيع

[۴۰] (۱). بحار الأنوار، ج ۸۹، ص ۱۵، ح ۸، وقد قدمنا شرحا وافياً بهذا الشأن ذيل الخطبة ۱۸

[۴۱] (۲).« حمى» المنطقة المحرمة العائدة لشخص أوجماعة ولا يحق للآخرين دخولها دون إذن، ووردت فى‌الخطبة بمعنى حرمات اللَّه

[۴۲] (۳).« ارعى» من مادة(رعى) مراقبة الشيء ومن هنا يطلق الرعى على الأغنام وحيث يترك الحيوان بحريته فى‌المرعى فإنّ الارعاء ورد بهذا المعنى فى الخطبة، أى أنّ اللَّه حكم فى قرآنه بحرية ما ينبغى بقاؤه حراً

[۴۳] (۴). نهج البلاغه، الخطبة ۱۷۶

[۴۴] (۱). قال المرحوم العلّامة التسترى فى شرحه لنهج البلاغة: كأنّ مفردة القرآن أو كتاب أنزله سقطت من نسخة نهج البلاغة الموجودة(نهج الصباغة، ج ۳۳، ص ۱۳)

[۴۵] (۱). سند الخطبة:

ورد فى مصادر نهج البلاغة: ذكرت هذه الخطبة فى بعض نسخ نهج البلاغة كجزء من الخطبة السابقة. قال ابن أبى الحديد إنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين اتجه إلى البصرة(لقتال أصحاب الجمل والقضاء على الفتنة). وممّا لا شك فيه أنّه عثر على هذه الخطبة فى مصدر آخر ليقول ذلك الكلام. وردت هذه الخطبة بالتفصيل من قبل السيد الرضى فى كتاب تحف العقول، كما روى الكلينى بعضها فى الجزء الخامس من كتابه الكافى، كما وردت عبارة من خطبة فى قصار الكلمات وهى الكلمة ۲۹۸(ضع فخرك، واحفظ كبرك واذكر قبرك)،(مصادر نهج البلاغة، ج ۲، ص ۳۴۷)

[۴۶] (۱).« يهوى» من مادة(هوى) على وزن نهى تعنى فى الأصل، السقوط من شاهق، وهوى على وزن نوى بمعنى‌الرغبة فى الشيء وعادة ما تستعمل فى الميول النفسية والأمور الباطلة، والمعنى الأول هو المراد فى العبارة، أى أنّ الشخص الذى يعبد الدنيا يسقط مع الغافلين فى وادى الشقاء

[۴۷] (۱).« جلابيب» جمع جلباب، الستار والثوب

[۴۸] (۲).« وطر» بمعنى الحاجة وقضاء الوطر الاستفادة التامة من الشيء

[۴۹] (۱).« جدد» و« جادة» بمعنى واحد يطلق على الطريق السهل الذى لا تغوص فيه القدم.

[۵۰] (۲).« مهاوى» جمع مهواة، على وزن مقلاة الخفرة التى يسقط فيها الإنسان.

[۵۱] (۳).« مغاوى» جمع مغواة، على وزن مقلاة، الشبهة المضلة.

[۵۲] (۴).« غواة» جمع غاوى، الشخص الضال

[۵۳] (۵).« تعسف» من مادة(عسف) على وزن خسف، المشى على غير هدى، ومن هنا يقال للظالم متعسف لأنّه يسير بغير هدى.

[۵۴] (۱). شرح نهج البلاغة للشوشترى، ج ۲، ص ۷۴

[۵۵] (۱).« افق» من مادة(افاقة) بمعنى الصحو

[۵۶] (۲).« أُمي» ينسب إلى الام بمعنى عديم القراءة، وكأنّه بقى على تلك الحالة التى ولد فيها من بطن امّه ولم يتتلمذ، وبالطبع فإنّ معنى أمية النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّ جميع علومه ومعارفه إلهية ولم يتعلم من الإنسان. راجع سائر الآراء بهذا الشان فى الجزء السادس من تفسير الأمثل، ذيل الآية ۵۷، سورة الأعراف

[۵۷] (۱).« احطط» من مادة(حط) على وزن خط لازم ومتعدى بمعنى الخفض والاخفاض واريد به المعنى الثانى فى‌الخطبة

[۵۸] (۲).« فامهد» من مادة(مهد) على وزن عهد تعنى فى الأصل مهد الطفل أو الموضع الذى يعد للأطفال، ثم‌استعملت بمعنى الإعداد كما وردت فى هذه الخطبة

[۵۹] (۱). سورة الحشر، الآية ۱۸

[۶۰] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۶۰

[۶۱] (۳). الابيات للشاعر أبو الفرج الساوى(شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۳، ص ۳۳۵)

[۶۲] (۱).« يعر» من مادة(عر) على وزن شَر، أوعُر على وزن حُر، يعنى فى الأصل الجرب الذى يصيب الجلد، ثم أطلق‌على كل ضرر يلحق بالإنسان، وأُريد به العيب والتهمة فى العبارة

[۶۳] (۲). سورة النساء، الآية ۴۸

[۶۴] (۳). سورة النساء، الآية ۹۳

[۶۵] (۱). كنز العمال، ح ۱۱۲۶، ۱۰۵۹.

[۶۶] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۴.

[۶۷] (۳). اقتباس من شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۹، ص ۱۶۲

[۶۸] (۱).« مستكينون» من مادة(سكون) بمعنى الوضوح، ثم اطلقت على الخضوع والخشوع

[۶۹] (۱). سند الخطبة:

أورد الآمدى الذى صنف كتابه(تحرر الحكم على أساس الحروف الأبجدية) جوانب مختلفة من هذه الخطبة بتفاوت فى حروف« ق» و« ن» و« ه» و« ا» ورغم أنّ الآمدى عاش بعد المرحوم السيد الرضى، إلّاأنّ اختلاف عباراته مع نهج البلاغة يفيد أنّه اقتبسها من مصدر آخر، كما أوردها السيد باختلاف طفيف فى كتابه، الطراز، وهذا يشير إلى أنّه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة

[۷۰] (۱).« ناظر» بمعنى سواد العين التى يقع فيها البؤبؤ

[۷۱] (۲).« لبيب» من مادة(لب) على وزن حب بمعنى الدماغ ويقال: اللبيب للشخص العاقل الحكيم

[۷۲] (۳).« نجد» ما ارتفع من الأرض

[۷۳] (۱).« ارز» من مادة(ارز) على وزن فرض، تعنى فى الأصل الايقاض والثبات، ثم استعملت بمعنى الاعتزال والانعزال عن المجتمع، وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة

[۷۴] (۱). ورد هذا الحديث المشهور فى مصادر العامة المعروفة مثل مستدرك الحاكم و المعجم الكبير للطيرانى و غيرها(وللوقوف على‌المزيد من‌مصادر هذا الحديث فى كتب العامة راجع كتاب احقاق الحق، ج ۵، ص ۴۶۹ و ما بعدها)

[۷۵] (۱). سورة الضحى، الآية ۱۱

[۷۶] (۲). مجمع البيان، ذيل الآية المذكورة

[۷۷] (۱). نقل ابن أبی الحدید فی شرحه لنهج البلاغة هذا الحدیث عن أبی نعیم الاصفهانی فی حلیة الأولیاء ومسند أحمد بن حنبل(شرح نهج‌البلاغة، ج ۹، ص ۱۶۶)

[۷۸] (۲). المصدر السابق

[۷۹] (۳). شرح نهج‌البلاغة لإبن أبی‌الحدید، ج ۹، ص ۱۶۶

[۸۰] (۱).« کرائم» جمع کریمة، الآیات المبارکة التی نزلت بشأن أهل البیت علیهم السلام

[۸۱] (۱). هذه هی الآیة ۱۱۹ من سورة التوبة التی تأمر المؤمنین فی کل عصر ومصر باتباع الصادقین وملازمتهم، وقدفسّرت الروایات الواردة فی مصادر الفریقین، الصادقین، بالأئمّة المعصومین علیهم السلام. راجع للوقوف علی مصادر هذا الحدیث کتاب، نفحات القرآن، ج ۹، ص ۱۶۷

[۸۲] (۲).« رائد» من مادة« ورد» علی وزن قوم بمعنی السعی للقیام بشی، کما ورد فی الشرح، فانها تطلق عادة علی‌الشخص الذی ینطلق امام القافلة ویبحث عن المرعی والمرتع

[۸۳] (۳). نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۷

[۸۴] (۱). اصول الکافی، ج ۱، ص ۴۴ باب العمل بغیر علم، ح ۳.

[۸۵] (۲). المصدر السابق، ص ۴۳، ح ۱

[۸۶] (۱). سورة آل عمران، الآیة ۱۱۸

[۸۷] (۲). سورة الحمد، الآیة ۳۰

[۸۸] (۳). سورة الأعراف، الآیة ۵۸

[۸۹] (۴). نهج البلاغة، الکلمات القصار، الکلمة ۲۶

[۹۰] (۱). منهاج البراعة، ج ۹، ص ۲۴۸ بتلخیص

[۹۱] (۱). سند الخطبة:

لم یرد فی مصادر نهج البلاغة سند یمکن الاعتماد علیه کما فی سائر المصادر، ویبدو أنّ السند الرئیسی لهذه الخطبة ما ذکره المرحوم السید الرضی، إلّاأنّ مضمون الخطبة علی درجة من الرفعة بحیث یقوی سندها حیث یفید عدم ترشح تلک الکلمات سوی من فکر عظیم کفکر الإمام أمیر المؤمنین علی علیه السلام

[۹۲] (۱).« انحسرت» من مادة(حسر) علی وزن قصر، تعنی فی الأصل العری، ثم استعملت بمعنی الضعف والعجزحیث یتعری الإنسان فی هذه الحالة من قواه

[۹۳] (۲).« مساغ» من مادة(سوغ) بمعنی سهولة الاکل والشرب ثم أُطلقت علی کل مسیر سهل، وهذا هو المعنی المراد فی العبارة

[۹۴] (۳).« ملکوت» من مادة(ملک) علی وزن قفل، بمعنی الحکومة والملکیة، وإضافة الواو والیاء تفید التأکید والمبالغة وإن استعملت بشأن اللَّه تبارک وتعالی فإنّها تفید حکومته المطلقة علی العالم قاطبةً

[۹۵] (۱).« اذعی» من مادة(اذعان) بمعنی الاقرار والامتثال

[۹۶] (۱).« عشیت» من مادة(عشو) بمعنی الظلمة، إشارة إلی أنّ عیونها عاجزة عن رؤیة ضیاء الشمس

[۹۷] (۲).« سبحات» جمع سُبحة، علی وزن لقمة، بمعنی النور، کما تعنی الظُلمة

[۹۸] (۳).« اکنها» من مادة(کن) علی وزن جن، تعنی فی الأصل، الظرف الذی یحفظ فیه الشیء، ثم اطلقت علی جمیع الوسائل التی تؤدی إلی الخفاء

[۹۹] (۴).« مکامن» جمع مکمن، من مادة(کمون)، بمعنی الاخفاء والمکمن هو الموضع الذی یختفی فیه الإنسان أو الشیء

[۱۰۰] (۵).« بلج» جمع بلجة، أول ضياء الصباح

[۱۰۱] (۶).« ائتلاق» من مادة(الق) على وزن برق، بمعنى البريق، وبلج ائتلاقها بمعنى أول الضياء ولمعان الشمس

[۱۰۲] (۷).« مسدلـة» من مادة(سـدل) على وزن عدل، تعنى فى الأصل، هبوط الشـىء من الأعلى إلى الأسـفل بحيث يتغطى وهى هنا إشارة إلى سقوط أجفان الخفاش إلى الأسفل

[۱۰۳] (۸).« جفون» جمع جفن، على وزن قفل، ما يغطى العين

[۱۰۴] (۱).« حداق» جمع حدقة، سواد العين

[۱۰۵] (۲).« اسداف» جمع سدفة، على وزن وزنة، تعنى، أحياناً الظلمة، وأخرى النور، ووردت هنا بالمعنى الأول

[۱۰۶] (۳).« غسق» بمعنى شدة الظلمة، كما تستعمل بمعنى منتصف الليل لاشتداد الظلمة منتصف الليل

[۱۰۷] (۴).« دجنـة» من مادة(دجون) بمعنى، السـحاب والمطر، ولما كان السـحاب والمطر يؤدّى إلى الظلمة، فإن مفردة الدجنة تعنى الظلمة، وغسق دجنته، تعنى، شدّة الظلام

[۱۰۸] (۵).« اوضاح» جمع وضح، على وزن شفق، بياض الصبح

[۱۰۹] (۶).« ضباب» جمع ضب، على وزن سد، الحيوان المعروف

[۱۱۰] (۷).« وجار» بمعنى، جحر

[۱۱۱] (۸).« مـآقى» جمع مؤق، على وزن قفل، بمعنى طرف العين ممّا يلى الأنف، كما فسّـرها البعض بمجرى الـدمع الواقع فى زاوية العين، ووردت فى العبارة كإشارة إلى أنّ جفون الخفاش تغطى جميع عينه حتى زواياها. ولعل هذه العبارة إشارة إلى نقطة لطيفة وهى أنّ آخر نقطة تغلق عند غلق العين ما يلى طرف أنفه

[۱۱۲] (۹).« تبلغت» من مادة(تبلغ) بمعنى اكتفت بالشىء

[۱۱۳] (۱). سورة النبأ، الآيتان ۱۰ و ۱۱

[۱۱۴] (۱).« شظايا» جمع شظية، على وزن قضية، القطع المتفرقة

[۱۱۵] (۲).« ريش» الشىء المعروف عند الطيور

[۱۱۶] (۱). الرسالـة الثقافية، ج ۷، ص ۶۵۸. ألّف هـذا الكتـاب العالم الغربى موريس باركر وقـد ترجم إلى الفارسـية من قبل« رضـا أقصـى» ونخبـة من الكتاب المعروفين، كذلك كتاب المعجم الزولوجى الحديث للمؤلف محمد كاظم المالكى، المتخصـص فى علم الأحياء، ج ۲، ص ۶۳۶ وكتاب البحث عن اللّه، لآية اللّه العظمى مكارم الشيرازى.

[۱۱۷] (۲). راجع بحارالأنوار، ج ۳، ص ۱۰۷

[۱۱۸] (۱). سند الخطبة:

لم يرد فى مصادر نهج البلاغة سند يمكن الاعتماد عليه كما فى سائر المصادر، ويبدو أنّ السند الرئيسى لهذه الخطبة ما ذكره المرحوم السيد الرضـى، إلّاأنّ مضـمون الخطبـة على درجة من الرفعة بحيث يقوى سـندها حيث يفيد عدم ترشح تلك الكلمات سوى من فكر عظيم كفكر الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام

[۱۱۹] (۱).« مريرة» من مادة(مر) على وزن حُر الطعم المعروف بمرارته

[۱۲۰] (۱).« المرجل» هو القدر

[۱۲۱] (۲).« القين» الحداد

[۱۲۲] (۱). بحارالأنوار، ج ۷۶، ص ۴۳

[۱۲۳] (۲). شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱، ص ۱۹۲ بتصرف وتلخيص

[۱۲۴] (۳). المصدر السابق، ص ۱۹۸ و ۱۹۹

[۱۲۵] (۱). العقد الفريد، ج ۵، ص ۷۹

[۱۲۶] (۱).« ابلج» من مادة(ولوج) بمعنى الوضوح، سيما ضياء أول الصبح

[۱۲۷] (۲). المعروف من شرّاح نهج البلاغة أنّ(سبيل) مبتدأ لخبر محذوف هو الإيمان، بقرينة ما ورد فى الجملةالقادمة، كما احتمل البعض أنّ المبتدأ المحذوف« سبيل الجنّة» التى وردت فى المقطع السابق، والواقع، عبارة(واما فلانة ...) ذكرت كجملة اعتراضية

[۱۲۸] (۱). بحارالأنوار، ج ۲، ص ۳۳

[۱۲۹] (۱).« مقصر» من مادة(قصر) على وزن فصل، أحد معانيه، المنع، كما يطلق المقصر على الموقف، كونه يمنعالإنسان من الحركة

[۱۳۰] (۲).« مرقل» من مادة(ارقال) بمعنى المسرع

[۱۳۱] (۱).« شخصوا» من مادة(شخوص) على وزن خلوص، بمعنى الخروج من الدار، كما وردت بمعنى، تركيز النظرعلى نقطة معينة، وكأنّ العين تريد الخروج من حدقتها، وأريد بها هنا، الخروج

[۱۳۲] (۲).« اجداث» جمع(جدث)، القبر

[۱۳۳] (۱). سورة المعارج، الآية ۴۳

[۱۳۴] (۱).« رى» بمعنى السقى

[۱۳۵] (۲).« ناقع» من مادة(نقع) على وزن نفع، تعنى فى الأصل انغمار الماء، وتعنى هنا الرى الكامل، بحيث يزول العطش

[۱۳۶] (۳).« يستعتب» من مادة(عتب) على وزن ثبت تعنى فى الأصل الانفعال الباطنى وان استعملت فى بابالاستفعال بمعنى كسب ود الطرف المقابل وكانه يطلب منه العتبى حتى يرضى ويعودالى سبيل الحق

[۱۳۷] (۴). سورة النساء، الآية ۸۲

[۱۳۸] (۱). سورة الكهف، الآية ۱

[۱۳۹] (۲). اصول الكافى، ج ۲، ص ۵۶۹

[۱۴۰] (۳). بحارالأنوار، ج ۱۵، ص ۹۲

[۱۴۱] (۱). سورة العنكبوت، الآيتان ۱ و ۲

[۱۴۲] (۱).« حيزت» من مادة(تعنى) الوصول إلى شيء إن تعدت بإلى، وعدمه إن تعدت بعن، كما فى الخطبة المذكورة

[۱۴۳] (۲).« وراء» تعنى الخلف كما تعنى أحياناً الأمام

[۱۴۴] (۱). المراد من النبيذ كما ورد فى روايات أهل البيت أنّ النبى صلى الله عليه و آله أراد الحد من برودة ماء المدينة فأمر بطرح كميّة من التمر فى ظرف كبير من الماء(لا- أن يكون الماء مضافاً) إلّاأنّ بعض المنافقين تذرع لاحقاً بهذا الموضوع وقذف بمقدار كبير من التمر حتى تخمر وخرج منه هذا الشراب الشفاف الذى يعرف بالنبيذ

[۱۴۵] (۲). بحار الأنوار، ج ۳۲، ص ۲۴۳

[۱۴۶] (۳). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۹، ص ۲۰۶

[۱۴۷] (۴). المصدر السابق

[۱۴۸] (۱).« السحت» يعنى فى الأصل، فصل القشر عن الشيء، ثم اطلق على كل مال غير شرعى ولا سيما الرشوة، لأنّ هذه الأموال تسلب الإنسان البركة على غرار الشجرة التى تذبل حين سقوط قشرها

[۱۴۹] (۱). سورة الحجرات، الآية ۱۷۰

[۱۵۰] (۲). راجع الكافى، ج ۶، ص ۴۱۶، ح ۳۰

[۱۵۱] (۱).« ردّة» على وزن مكة الرجوع عن شىء، و(ردّة) على وزن فتنة، الرجوع عن الدين، وهذا هو المعنى المراد فى العبارة المذكورة فى الخطبة

[۱۵۲] (۲). مستدرك الوسائل، ج ۱۳، ص ۲۳۳

[۱۵۳] (۱). راجع كتاب الربا والبنوك المصرفية لسماحة المؤلّف

[۱۵۴] (۱). سند الخطبة:

رغم سمو مضامين الخطبة وألفاظها الفصيحة والبليغة التى يستبعد صدورها- على غرار سائر خطب نهج البلاغة- عن غير الإمام المعصوم عليه السلام، مع ذلك نشير إلى بعض المصادر التى وردت بشأنها فى كتاب مصادر نهج البلاغة، فقد أشار إلى بعضها العالم اللغوى ابن الأثير فى النهاية فى مادة شول ومادة ربك، كما وردت بعض عباراتها باختلاف فى غرر الحكم والذى يفيد أنّها أخذت من مصدر آخر غير نهج البلاغة

[۱۵۵] (۱).« الحمد» فى اللغة، بمعنى المدح على عمل أو صفة اختيارية، ولما كانت افاضته النعم على المحتاجين احدى الأعمال الحسنة فإنّ هذه المفردة ترد بمعنى الشكر أيضاً

[۱۵۶] (۱). أكدنا على هذا الاحتمال فى بحث سورة الحمد فى التفسير الأمثل واعتبرنا تسميتها من قبل الروايات بفاتحة الكتاب دليلًا على ما ذهبنا إليه

[۱۵۷] (۲). فقه السنة، ج ۲، ص ۲۳۰(كما وردت بعض الروايات بهذا الخصوص فى كتاب المغنى لابن قدامة ونيل الأوطار للشوكانى)

[۱۵۸] (۳). تفيد هذه العبارة أنّ الاحتمال الثالث أنسب الاحتمالات

[۱۵۹] (۴).« الدهر» حسب الراغب فى المفردات أنّها فى الأصل اسم لعمر العالم، ثم أطلقت على معنى أوسع يشمل الزمان وتاريخ الحياة البشرية، كما تستعمل بمعنى ناس عصر معين وخالق الزمان أيضاً

[۱۶۰] (۱).« تحدو» من مادة(حدو) و(حدى)، سوق الابل، ومطلق السوق

[۱۶۱] (۲).« ارتبك» من مادة(ربك) على وزن ربط، الاضطراب، بحيث يصعب على الإنسان النجاة

[۱۶۲] (۳). سورة الانعام، الآية ۱۲۲

[۱۶۳] (۱). سورة الحديد، الآية ۲۱

[۱۶۴] (۲). سورة الانعام، الآية ۳۱

[۱۶۵] (۱).« حمة» بالضم، على وزن قوة، بمعنى لسع الحشرات والعقارب وما شابه ذلك، كما تطلق على سمها أيضاً

[۱۶۶] (۲). سورة النساء، الآية ۱۰

[۱۶۷] (۱).« الفطن» بمعنى(الرحيل) من مكان إلى آخر

[۱۶۸] (۲).« حثثتم» من مادة(حث) على وزن وصف، الاندفاع والسرعة

[۱۶۹] (۳). سورة البقرة، الآية ۱۹۷

[۱۷۰] (۴). سورة آل عمران، الآية ۱۳۳

[۱۷۱] (۵).« ركب» جمع(راكب) تعنى فى الأصل، ركوب الدابة، إلّاأنّ معناها المتعارف، القافلة

[۱۷۲] (۶). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۶۴

[۱۷۳] (۱).« تبعة» من مادة(تبع) على وزن خبر، بمعنى المتابعة، ويطلق تبعة العمل على الجزاء الذى يطال الإنسان بعد مقارفته المعصية

[۱۷۴] (۲).« تشیب» من مادة(شیب) علی وزن عیب، بمعنی بیاض الشعر، وتطلق عادة علی الکهول، وشیب: علی وزنسیب، جمع أشیب بمعنی الکهول فی مقابل الشباب، والشبیبة بمعنی الشباب

[۱۷۵] (۳). سورة لقمان، الآیة ۱۶

[۱۷۶] (۱). سورة المزمل، الآیة ۱۷

[۱۷۷] (۱).« داج» من مادة(دجو) علی وزن هجو، بمعنی الظلم، ولیل داج، اللیلة الظلماء التی لا یری فیها القمروالنجوم

[۱۷۸] (۱).« یکنّکم» من مادة(کنّ) علی وزن جن، یقال عادة للظرف الذی یحفظ فیه الشیء، ثم توسع هذا المعنیوأصبح یطلق علی کل ما یحفظ الأشیاء أو الأشخاص

[۱۷۹] (۲).« رتاج» و« رتج» علی وزن کرج، الباب العظیم المحکم الاغلاق

[۱۸۰] (۳). سورة النور، الآیة ۲۴

[۱۸۱] (۴). سورة فصلت، الآیة ۲۱-/ ۲۲

[۱۸۲] (۵). سورة الانفطار، الآیات ۱۰-/ ۱۲

[۱۸۳] (۱).« مخط» من مادة(خط) بمعنی الخط والعلامة، فهو اسم مکان، والمراد به فی العبارة، المکان الذی یُخط لحفر القبر

[۱۸۴] (۱). بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۶۷؛ اصول الکافی، ج ۳، ص ۲۴۲

[۱۸۵] (۱). سورة ق، الآیة ۴۲

[۱۸۶] (۲). سورة المرسلات، الآیة ۳۶

[۱۸۷] (۳). سورة المؤمن، الآیة ۱۶

[۱۸۸] (۴). سورة الطارق، الآیة ۹

[۱۸۹] (۱). سورة الزلزال، الآیة ۴-/ ۵

[۱۹۰] (۲). بحار الانوار، ج ۷۴، ص ۳۷۹

[۱۹۱] (۳). سورة النساء، الآیة ۴۱

[۱۹۲] (۱). سورة النور، الآیة ۴۴

[۱۹۳] (۱). سند الخطبة:

بدایة هذه الخطبة کبدایة الخطبة ۸۹ التی مرّت علینا فی الجزء الثالث، ومن هنا ذهب البعض إلی أنّها خطبة واحدة وقد جمعها الشریف الرضی، والحال، لیس الأمر کذلک، فهاتان الخطبتان لا تتشابهان إلّافی جملتین. علی کل حال المصدر فالوحید غیر نهج البلاغة الذی ذکر أن ابن الأثیر خاض فی تفسیر بعض مفردات هذه الخطبة فی کتابه(النهایة) وما ذکره من عبارات تختلف عمّا جاء فی هذه الخطبة، وهذا یفید أن ابن الأثیر أخذها من مصدر آخر غیر نهج البلاغة(مصادر نهج البلاغة، ج ۲، ص ۳۶۴، کما أورد الکلینی فی کتاب الکافی جانباً من هذه الخطبة بالاختلاف، راجع اصول الکافی، ج ۱، ص ۱۶۰ کذلک تفسیر القمی، ج ۱، ص ۲)

[۱۹۴] (۱).« هجعة» من مادة(هجوع) النوم لیلًا، ولما کان هذا النوم أعمق فقد شبه به أوضاع أقوام الجاهلیة

[۱۹۵] (۲).« مبرم» من مادة(ابرام) المحکم، من ابرام الحبل إذا أحکم فتله ثم اطلق علی مطلق الأعمال المحکمة

[۱۹۶] (۱). سورة المائدة، الآیة ۱۵

[۱۹۷] (۲). سورة الاعراف، الآیة ۱۵۷

[۱۹۸] (۱). سورة الاسراء، الآیة ۸۲

[۱۹۹] (۱).« مدر» ورد فی اللغة بمعنی الزهور المتداخلة، أحیاناً والحجر والطابوق، أحیاناً أخری وبیت المدر عادةمایطلق علی بیوت

الحضر

[۲۰۰] (۲).« وبر» وبيت(الوبر) عادة ما يطلق على بيوت البادية

[۲۰۱] (۳).« ترحة» الغم والحزن

[۲۰۲] (۱).« علقم» شجرة ثمرتها شديدة المرارة، والتى يطلق عليها أيضاً الحنظل

[۲۰۳] (۲).« صبر» بكسر الباء، على وزن فقر، عصارة شجر مر، والتى صار يضرب بها المثل، كما يطلق على نفس الشجرة

[۲۰۴] (۳).« المقر» نبات سام، كما يطلق على كل سم

[۲۰۵] (۴).« مطايا» جمع(مطية) المركب الهنىء السريع

[۲۰۶] (۵).« زوامل» جمع(زاملة) دابة الحمل

[۲۰۷] (۱). سورة العنكبوت، الآية ۱۳

[۲۰۸] (۲).« تنخمنّها» من مادة(نخامة) وبمعنى الاخلاط التى تجتمع على الرأس والصدر ويرمى بها خارجاً

[۲۰۹] (۱). سورة الروم، الآية ۴۱

[۲۱۰] (۲). تكرر رفع هـذا الشـعار فى التاريـخ كثيراً، حيث ورد بشأن أبى مسـلم الخراسانى(وقد قام يدعو إلى الرضا من آل محمد). كتاب شرح الأخبار للنعمان بن محمد، ج ۳، ص ۴۱۸

[۲۱۱] (۱). شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى، ج ۶، ص ۱۱۶

[۲۱۲] (۱). سند الخطبة:

لم يرد فى مصادر نهـج البلاغة سـند خاص غير ماورد فى نهج البلاغة، إلّاأنّ سائر الكتب التى أُلفت بعد النهج أخذتها منه، ومن ذلك ما ذكره العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ۲۱، ص ۳۴

[۲۱۳] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۲، ص ۱۲۹. قول سعيد بن العاص والى عثمان على الكوفة

[۲۱۴] (۲).« ربق» جمع ربقة، على وزن فتنة، الحبل الذى يربط به الشخص، كما فسّره البعض بالحبل الذى يشتمل على عدّة عقد

[۲۱۵] (۳).« حلق» جمع حلقة، معروف

[۲۱۶] (۴).« الضيم» الظلم والحيف

[۲۱۷] (۵).« أطراق» بمعنى السكوت والاغماض عن مطلب معين

[۲۱۸] (۱). سند الخطبة:

قيل فى سـند هـذه الخطبة: ذكر الزمخشـرى المتوفى عام ۵۳۸ ه والـذى عاش بعـد قرن من وفاة الشـريف الرضـى رحمه الله بعض هذه الخطبة باختلاف فى كتابه(ربيع الابرار) وهذا يفيد أنّه أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۳۷۳)

[۲۱۹] (۱). سورة يس، الآية ۸۲

[۲۲۰] (۲). سورة النحل، الآية ۹۰

[۲۲۱] (۱). اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۰۲

[۲۲۲] (۲).« ذرأت» من مادة(ذرء) على وزن زرع، الخلق والايجاد

[۲۲۳] (۱).« مور» على وزن قول، لها معان مختلفة فى اللغة، منها التيار السريع أو أمواج الماء

[۲۲۴] (۲).« طرف» على وزن حرف، أهداب العين

[۲۲۵] (۳).« حسير» من مادة(حسر) على وزن قصر، التعب والضعف

[۲۲۶] (۴).« مبهور» من مادة(بهر) على وزن قهر، الغلبة والحيرة

[۲۲۷] (۵). أشرنا إلى هذا المطلب فى شرح آية الكرسى فى التفسير الأمثل

[۲۲۸] (۱). التعبير بـالعظيم بـدل واللَّه العظيم، لأنّه حـذف الموصوف والتركيز على الصـفة يكشف عن مـدى التاكيـد، يعنى أنّ هـذه الصفة للعظمة لذاته تعالى إلى درجة من الثبات وكأنّها اسم من أسمائه

[۲۲۹] (۱). اصول الكافى، ج ۲، ص ۶۸

[۲۳۰] (۲).« مدخول» من مادة(دخل) على وزن أجل، بمعنى الفساد، وعليه فالمدخول، هو المغشوش غير الخالص

[۲۳۱] (۳).« محقق» معلوم وقطعى وثابت، وورد فى العبارة المذكورة صفة لخوف- ولابدّ أن يكون مجروراً إشارة إلى أنّ خوفهم من اللَّه ثـابت لا غبار عليه، ذلك لأنّه هو الـذى يؤاخـذ العباد وعليه إن خفنا اللَّه ولم نعص أوامره فسوف لن نخاف أى أحـد. إلّاأنّ بعض الشرّاح ذهبوا إلى أنّ محقق خبر كل خوف فتكلفوا مرجع الضـمير فى« فأنّه» وكذلك الاسـتثناء ومفهوم العبارة، بينما لو اعتبروا محقق صفـة لخوف لوضـح معنى العبـارة تماماً، ولعل العبارة السابقـة بشأن الرجاء قرينـة جيـدة على هـذا المعنى، بعبارة أخرى أنّ الإمام عليه السلام قال ببطلان كل رجاء سوى رجاء اللَّه وكل خوف سوى خوف اللَّه

[۲۳۲] (۴). سورة البقرة، الآية ۱۰۲

[۲۳۳] (۱).« ضمار» الوعد البعيد، وتعنى الوعود والديون التى لا رجاء فيها

[۲۳۴] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۱۸۰

[۲۳۵] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۱۸۰

[۲۳۶] (۲). اصول الكافى، ج ۲، ص ۷۱

[۲۳۷] (۱). اصول الكافى، ج ۲، ص ۶۷

[۲۳۸] (۱).« مخازى» من جمع، مخزاة من مادة(خزى)، الفضيحة

[۲۳۹] (۱).« فطم» من مادة(فطام) منع الطفل من اللبن

[۲۴۰] (۲).« زوى» من مادة(زى) على وزن حى، الجمع والابعاد

[۲۴۱] (۳).« زخـارف» جمع زخرف، على وزن هرمز، تعنى فى الأصـل كـل زينـة مكتوبـة، واطلاـق الزخرف على الكلاـم الفارغ لما ينطوى على تزويق وتجميل

[۲۴۲] (۴). مستدرك الوسائل، ج ۱، ص ۱۷۳

[۲۴۳] (۵). اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۲۹

[۲۴۴] (۱).« شفيف» من مادة(شفوف) رقة الشيء، بحيث يستشف ما وراءه

[۲۴۵] (۲).« صفاق» الجلد الباطن الذى فوقه جلد البطن الظاهر

[۲۴۶] (۳).« هزال» ضعف

[۲۴۷] (۴).« تشذب» بمعنى تفرق، واريد بها هنا، تفرق لحم البدن

[۲۴۸] (۵).« سفائف» جمع سفيفة، ما ينسج من سعف النخيل

[۲۴۹] (۶).« خوص» سعف النخيل

[۲۵۰] (۷). سورة ص، الآية ۲۰

[۲۵۱] (۱).« يتوسد» من مادة(وسد) جعل الشيء كالوسادة تحت الرأس

[۲۵۲] (۱). وأحياناً جمع مزمار، المعروف

[۲۵۳] (۱). اقتباس من قاموس الكتاب المقدس امستر هاكس

[۲۵۴] (۱).« مقتص» من مادة(قص) على وزن نص، قطع الشيء وقصه، كما وردت بمعنى متابعة الشيء، قصة أيضاً بمعنى متابعة حادثة، ومنه القصاص أيضاً

[۲۵۵] (۲).« اقضم» تعنى فى الأصل لوك الأشياء الجافة مقابل الخصم للأشياء الرطبة وابتلاعها، وأريد بها هنا قلّةالاستفادة من الدنيا

[۲۵۶] (۳).« اهضم» من مادة(هضم) على وزن قدم، بمعنى الضعف للبدن، ومنه هضم الطعام حيث تضمر البطن بعدالهضم، ومنه ضمور الخاصرة والبطن

[۲۵۷] (۴).« كشح» الخاصرة

[۲۵۸] (۵).« اخمص» من مادة(خمص) على وزن شمس، خلو البطن اثر الجوع

[۲۵۹] (۶). الفارق بين التصغير والتحقير، أنّ الحقير يطلق عادة بشأن الكيفية؛ مثلًا يعتبر الإنسان المحروم من العلموالمعرفة والصفات الحميدة حقيراً، أمّا الصغير فيطلق على الشيء القليل من حيث الكمية كالإنسان الصغير العمر وما شابه ذلك، إشارة إلى عدم قيمة الدنيا وقلتها

[۲۶۰] (۱). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۲۶

[۲۶۱] (۲). نهج البلاغة، الرسالة ۵۳

[۲۶۲] (۱). يستفاد من المطالعات التاريخية أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان عادة ما يركب أحداً خلفه، أحياناً اسامة وأخرى الفضل‌بن العباس وسائر الأفراد من الصحابة حتى بلغ عددهم حسب ما أورده المؤرّخون ۳۳ شخصاً(انظر شرح العلّامة التسترى لنهج البلاغة، ج ۲، ص ۴۳۷) كما ورد فى الحديث أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يستقبله الأطفال حين يعود من المدينة فكان يأمر بإركابهم خلفه وأمامه، وكان يوصى أصحابه بإركابهم، فكانوا يفخرون بركوبهم على مركب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله(المحجة البيضاء، ج ۳، ص ۳۶۶)

[۲۶۳] (۱).« يخصف» من مادة(خصف) على وزن وصف، رقع الشيء وخياطة القطع. وتعنى هذه المفردة فى الأصل ضمالشيء إلى آخر ومن هنا تطلق على خياطة الحذاء والثوب

[۲۶۴] (۲).« يرقع» من مادة(رقع) على وزن رفع، بمعنى وصل الشيء

[۲۶۵] (۳).« يردف» من مادة(ردف) على وزن حرف الكون خلف شيء، ومن هنا يقال لمن يركب خلف غيره رديف

[۲۶۶] (۴). اصول الكافى، ج ۲، ص ۲۷۱ بتلخيص

[۲۶۷] (۵). تاريخ بغداد للخطيب البغدادى، ج ۲، ص ۲۹۳ ولكن ورد فى هذا الحديث كلمة النمرقة بدل الستر

[۲۶۸] (۱).« رياش» جمع ريش، تعنى فى الأصل، ريش الطيور، ولما كان ذلك الريش ثوبه الطبيعى الجميل فإنّها تطلق‌أحياناً على كل ثوب جميل كما تطلق على كل زينة، والمعنيان محتملان فى العبارة المذكورة

[۲۶۹] (۲). اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۳۴(لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ العبارة(قال تحتها) من القيلولة، بمعنى الاستراحة والنوم عند منتصف النهار)

[۲۷۰] (۳).« أشخصها» من مادة(شخوص) على وزن خلوص، تعنى فى الأصل التركيز فى النظر على نقطة، ويفيد عادةالخوف ثم اطلقت على اخراج شخص من مكانه فجأة

[۲۷۱] (۱).« خاصة» بمعنى(قرابة الإنسان)، شرّاح نهج البلاغة فسّروا(خاصة) اسم الفاعل بالمعنى المصدرى والمفهومأنّه جاع رغم خصوصيته عند اللَّه تعالى، لكنه لا يبدو مستقيماً

[۲۷۲] (۲).« زويت» من مادة(زى) على وزن حى، قبض الشيء وأبعاده

[۲۷۳] (۳).« زلفة» بمعنى المقام والمنزلة

[۲۷۴] (۴). سورة الزخرف، الآية ۳۱

[۲۷۵] (۵). سورة الزخرف، الآيات ۳۳-/ ۳۵

[۲۷۶] (۶).« فتأسى» وردت فى أغلب نسخ نهج البلاغة(تأسّ) كفعل ماض، لكن يستفاد منها معنى الأمر بقرينة العبارة(وإلّا فلا يأمن الهلكة)، لكنّها وردت بصيغة فعل الأمر فى بعض النسخ« فتأسى»

[۲۷۷] (۱).« رقعت» من مادة(ترقيع) معروفة، وتستعمل اليوم بخصوص تطعيم الأعضاء

[۲۷۸] (۲).« مدرعة» ثوب الصوف

[۲۷۹] (۳).« اغرب» من مادة(غروب) اذهب وابعد

[۲۸۰] (۱). كتب أغلب شرّاح نهج البلاغة كلمة« يَحمد» على شكل فعل معلوم، لأنّهم اعتبروا لكلمة(سرى) معنىً مصدرياً، يعنى(السير فى الليل) وفى هذه الصورة يكون مفهوم الجملة: يحمد السير فى الليل والسائرون يحمدون اللّه تعالى عندما يصلون إلى مقاصدهم، ولكن فى بعض النسخ« يَحمد» جاءت بشكل فعل مجهول، عندئذٍ تكون كلمة(سرى) بمعنى الوصف، يعنى(السائرين فى الليل)، وفى هذه الصورة يكون مفهوم الجملة: عند الصباح يحمد السائرين فى الليل، البتة النتيجة فى المفهومين واحدة

[۲۸۱] (۲). روى المرحوم الكلينى فى أصول الكافى، ج ۲، ص ۳۱۷ حديثاً فى باب حبّ الدنيا عن الإمام السجاد عليه السلام شرح فيه المصادر السبعة للذنب حتى ورد فى آخره:« فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك: حب الدنيا رأس كل خطيئة»

[۲۸۲] (۱). الغدير، ج ۸، ص ۲۸۲

[۲۸۳] (۲). أصول الكافى، ج ۲، ص ۱۲۸

[۲۸۴] (۱). سند الخطبة:

يبدو أنّ لهذه الخطبة سنداً غير نهج البلاغة، كما لم يعثر صاحب مصادر نهج البلاغة على سند آخر، مع ذلك رواها بعض الأعلام مِمّن عاش بعد المرحوم السيد الرضى كالعلّامة المجلسى وآخرين(نحن أيضاً بحثنا فى الحاسوب ولم نعثر على مصادر أخرى لهذه الخطبة)

[۲۸۵] (۱).« البادى» على وزن(النادى)، بمعنى الواضح والجلى بصورة تامة، ووصف شريعة النبى بالبادية إشارة إلى أنّأوامره وتعاليمه تحظى بقبول العقلاء

[۲۸۶] (۱).« طيبة» بمعنى الطاهرة، ويستفاد من لسان العرب أنّ النبى صلى الله عليه و آله دعاها بهذا الاسم(بمناخها المعتدل وكثرةاشجارها وإيثار أهلها) ونهى عن بقاء اسم يثرب لأنّه يعنى فى الأصل الفساد

[۲۸۷] (۱).« متلافى» من مادة(تلافى) بمعنى تدارك، وتأتى بمعنى معالجة الفساد، وهذا هو المعنى المراد بها فى هذهالعبارة

[۲۸۸] (۲).« مدخولة» من مادة(دخول) إشارة هنا إلى البدع التى كانت تنسبها الجاهلية إلى اللّه. أو من مادة دخل، علىوزن دغل، بمعنى الفساد، لأنّ هذه البدع مصدر فساد الفرد والمجتمع

[۲۸۹] (۳).« المفصولة» من مادة(فصل) واطلقت على الكلام والقضاء الذى يميز الحق من الباطل ويمكن أن يكون المراد بها المعنيان معاً؛ الأول إنّ أحكام الشريعة بيّنت بصورة منفصلة والآخر، فصل الحق عن الباطل،(تكون الجملة فى الأول اسم المفعول وفى الثانى اسم الفاعل)

[۲۹۰] (۱). وردت هذه الكلمة فى غرر الحكم، ح ۱۰۱۸۹ لعلى عليه السلام أنّه قال:« لا تَنْظُرْ إِلى مَنْ قَالَ وَانْظُرْ إِلىٰ ما قَالَ»

[۲۹۱] (۲). سورة التوبة، الآية ۱۲۸

[۲۹۲] (۱). سورة الأعراف، الآية ۱۵۷

[۲۹۳] (۱).« منجاة» من مادة(نجاة) اسم مكان بمعنى موضع النجاة، ولها معنى مصدرى، ونجاة، بمعنى الخلاص

[۲۹۴] (۱).« رهب» من مادة(ترهیب) بمعنی التخویف.

[۲۹۵] (۲).« أسبغ» من مادة(اسباغ) بمعنی الإتیان بالعمل بصورة تامة، و اطلقت علی النعمة التامة و الوضوء التام.

[۲۹۶] (۳). سورة الحدید، الآیة ۲۰

[۲۹۷] (۱). سورة آل عمران، الآیة ۱۴۰

[۲۹۸] (۲).« غضوا» من مادة(غض) علی وزن حظ، بمعنی الحد والتقلیل، وغض البصر، بمعنی عدم ترکیز الإنسان علی‌الشیء فی النظر إلیه، بل یخفض عینیه إلی الأسفل

[۲۹۹] (۳).« کادح» من مادة(کدح) علی وزن مدح، السعی المصحوب بالمشقة

[۳۰۰] (۴). اصول الکافی، ج ۲، ص ۳۱۶

[۳۰۱] (۵). حاشیة الکافی، ج ۲، ص ۳۱۶، کدود فی البیت الثانی صیغة مبالغة من مادة(کد) یعنی الجهد

[۳۰۲] (۱).« مصارع» جمع مصرع، موضع الوقوع علی الأرض ویطلق أیضاً علی المقتل

[۳۰۳] (۲).« أوصال» جمع وصل، علی وزن قفل، العظام وانسجة الأعصاب التی تربط الأعضاء

[۳۰۴] (۳). منهاج البراعة، ج ۹، ص ۴۱۲

[۳۰۵] (۴).« جدد» من مادة(جد) علی وزن خط، القطع وطی الطریق المستوی، ویقال للطریق المحکم والمستوی، الجادة

[۳۰۶] (۱). منهاج البراعة، ج ۹، ص ۴۱۲

[۳۰۷] (۱). سند الخطبة:

ذکر هذا لعلی علیه السلام قبل السید الرضی، المرحوم الشیخ الصدوق فی کتابه الامالی فی سبب ترک الناس لعلی علیه السلام والطبری فی المسترشد والمرحوم الشیخ المفید فی الإرشاد، کما ذکروا أنّ السائل هو(ابن دودان).(مصادر نهج البلاغة، ج ۲، ص ۳۷۷)

[۳۰۸] (۱).« سدد» بمعنی الاستقامة

[۳۰۹] (۲).« ذمامة» الحق والحرمة

[۳۱۰] (۳).« بنو أسد» قبیلة معروفة بالقتال بالجاهلیة والإسلام. عاشت هذه القبیلة قرب نجد واعتنقت الإسلام وقاتلت‌إلی جانب سعد بن أبی وقاص فی القادسیة وقدمت العدید من القتلی. وتاریخ بنی أسد ملیء بالأحداث وقد سارعت فئة من بنی أسد لدفن أجساد شهداء کربلاء، کما کانت فئة منهم فی جیش عبید اللَّه بن زیاد

[۳۱۱] (۱).« نوط» بمعنی التعلق والالتصاق

[۳۱۲] (۲).« أثرة» بمعنی الاختصاص بالشیء(الاحتکار) دون الغیر المستحق علی العکس من الإیثار الذی یعنی تقدیم الغیر علی الذات

[۳۱۳] (۳).« شحت» من مادة(شح) بمعنی البخل

[۳۱۴] (۴).« سخت» من مادة(السخاء)

[۳۱۵] (۵).« معود» اسم مکان، موضع العودة

[۳۱۶] (۱).« حجرات» جمع حجرة، علی وزن ضربة، بمعنی الناحیة

[۳۱۷] (۲). شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید، ج ۶، ص ۲۴۴

[۳۱۸] (۱).« هلم» ترکیب من هاء التنبیه ولم، بمعنی اجمع، وتستعمل هذه المفردة کلمة واحدة بمعنی تعال إلینا وإلی‌جانبنا

[۳۱۹] (۲).« خطب» علی وزن ختم، بمعنی الأمر العظیم، ومنه الخطاب والمخاطبة حیث الحوار المهم

[۳۲۰] (۱).« غرو» بمعنى، التعجب

[۳۲۱] (۲).« يستفرغ» من مادة(فراغ) تعنى هنا، الاخراج ومعنى العبارة، يستفرغ العجب أنّه يزيل أى عجب ولا يترك له من مكان

[۳۲۲] (۳).« أود» من مادة(أود) على وزن قول، بمعنى العوج، وأود على وزن سند، بمعنى الاعوجاج

[۳۲۳] (۴). شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۹، ص ۲۴۷

[۳۲۴] (۵).« فوار» صيغة مبالغة بمعنى كثير الفوران، كما تعنى عين الماء والثقب الذى يخرج منه الماء بشدّة

[۳۲۵] (۶).« جدحوا» من مادة(جدح) على وزن مدح، بمعنى، الخلط والمزج

[۳۲۶] (۷).« وبيئا» الشىء الذى يكثر فيه الوباء، طبعاً يطلق الوباء أحياناً على مرض خاص، وأخرى على كل مرض، والمعنى الثانى هو المراد فى الخطبة

[۳۲۷] (۱). سورة الصف، الآية ۸.

[۳۲۸] (۱). سورة النحل، الآية ۴۳؛ سورة الأنبياء، الآية ۷

[۳۲۹] (۲). نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ۸۲

[۳۳۰] (۳). الكافى، ج ۱، ص ۴۱

[۳۳۱] (۱). الكافى، ج ۱، ص ۴۰

[۳۳۲] (۲). ميزان الحكمة، ج ۴، ح ۸۰۳۹

[۳۳۳] (۳). المصدر السابق، ح ۸۰۴۱

[۳۳۴] (۴). راجع كتاب توحيد الصدوق، ص ۸۳ باب« معنى الواحد والتوحيد»

[۳۳۵] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۹، ص ۲۴۸

[۳۳۶] (۱). ورد فى شرح ابن أبى الحديد أنّه قال: لا واللّه إلّادفناً دفناً

[۳۳۷] (۲). مروج الذهب، ج ۳، ص ۴۵۴؛ شرح نهج‌البلاغة، ج ۵، ص ۱۲۹

[۳۳۸] (۱). تاريخ الطبرى، ج ۸، ص ۱۸۵ حوادث عام ۲۸۴ هجرية لرسالة كتبت للمعتضد العباسى فى فضائح معاوية

[۳۳۹] (۲). مروج الذهب، ج ۱، ص ۴۰۳

[۳۴۰] (۳). الاستيعاب، ج ۲، ص ۶۹

[۳۴۱] (۱). سند الخطبة:

ذكر أبو نعيم الإصفهانى فى حلية الأولياء والواسطى فى عيون الحكم والمواعظ والزمخشرى فى ربيع الأبرار جوانب من هذه الخطبة

[۳۴۲] (۱).« ساطح» من مادة(سطح) بمعنى معروف، ويقال ساطح، لمن يجعل الشىء مسطحاً

[۳۴۳] (۲).« مهاد» و« مهد» بمعنى الفراش، وتطلق على الأرض موضع السكن والاستراحة، وهذا هو المعنى المراد

[۳۴۴] (۳).« وهاد» جمع وهدة، بمعنى الأراضى المنخفضة

[۳۴۵] (۴).« مخصب» من مادة(خصب) على وزن غضب، بمعنى كثرة النبات، وعليه فالمخصب تطلق على الشخص الذى يملأ الأرض نباتاً وبركة

[۳۴۶] (۵).« نجاد» جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض، ومصدرها نجود

[۳۴۷] (۶). سورة النبأ، الآية ۶

[۳۴۸] (۱). سورة الحديد، الآية ۳

[۳۴۹] (۲). وردت هذه العبارة ضمن خطبة أخرى وبصيغة أخرى فى أصول الكافى والتى تدعم التفسير الأول وهى« حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ

خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَ، وإِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا»(أصول الكافى، ج ۱، ص ۱۳۵)

[۳۵۰] (۱). بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۲۹۲

[۳۵۱] (۲).« شبح» بمعنى الشخص، وتطلق أحياناً على الشخص الذى لا يبدو واضحاً من بعيد

[۳۵۲] (۳).« يتقصى» من مادة(قصو) على وزن قصد، بمعنى الإبتعاد، وتعنى أيضاً، البحث والتحرى عن الشيء

[۳۵۳] (۴).« يحوى» من مادة(حواية)، الاستيلاء على الشيء

[۳۵۴] (۱).« شخوص» بمعنى التركيز فى النظر على الشيء

[۳۵۵] (۲).« ازدلاف» بمعنى الاقتراب والصعود من نقطة مرتفعة، ويقال(المزدلفة) للمشعر الحرام لاقتراب الناس هناك من منى أو اقترابهم من اللَّه بهذه العبادة

[۳۵۶] (۳).« ربوة» الموضع المرتفع

[۳۵۷] (۴).« داج» من مادة(دجو) على وزن علو، المظلم، وليل داج، اليلة المظلمة الخالية من القمر

[۳۵۸] (۵).« غسق» شدة الظلمة، وتطلق هذه المفردة على منتصف الليل لشدّة ظلمته

[۳۵۹] (۶).« ساج» الساكن، والمراد من الغسق الساج، الظلام الطويل والمستمر

[۳۶۰] (۷).« يتفيأ» من مادة(فيئ) على وزن غيب، العودة، وتفيأ بمعنى، الإنتقال والذهاب والإياب

[۳۶۱] (۸).« كرور» له معنى مصدرى، الرجوع

[۳۶۲] (۱). شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى، ج ۱، ص ۲۷۳

[۳۶۳] (۲). إعتبر أغلب شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه العبارة مستقلة تشير إلى عدم حدود الذات المقدّسة، إلّاأنّ هذا التفسير لا يبدو صحيحاً، لأنّه لو كان كذلك لقال(بعد كل غاية ومدّة) أى أنّ ذاته موجودة بعد كل نهاية كما هى موجودة قبل كل بداية. أمّا من فسّرها كما أوردنا فهو العالم المعروف محمد عبدة فى شرحه لنهج البلاغة حيث ربط هذه العبارة بعبارة(لا يخفى) وهذا ما عليه ظاهر عبارة العلّامة الجعفرى

[۳۶۴] (۳).« تاثل» بمعنى عمران المسكن، ومن مادة اثل على وزن أمل، شجرة معروفة

[۳۶۵] (۱). اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۰۰ باب النهى عن الصفة

[۳۶۶] (۲). بحارالأنوار، ج ۳، ص ۱۵ للوقوف على المزيد راجع نفحات القرآن، ج ۳، ص ۱۴۹

[۳۶۷] (۱). سورة يونس، الآية ۶۱

[۳۶۸] (۲). سورة فاطر، الآية ۴۴

[۳۶۹] (۳). سورة الحجر، الآية ۲۴

[۳۷۰] (۱).« سوى» من مادة(تسوية) التنظيم والرعاية لتناسب أجزاء الشيء

[۳۷۱] (۲).« مرعى» على وزن منفى، بمعنى الشيء الذى يرعى ويحافظ عليه

[۳۷۲] (۳).« سلالة» من مادة(سل) على وزن حل، عصارة الشيء وخلاصته، ومنه معنى الإختيار أيضاً

[۳۷۳] (۴).« مكين» من مادة(مكانة) بمعنى المنزلة وبمعنى الشخص أو الشيء الذى له منزلة واستقرار وثبات وتحت تصرفه جميع وسائل العمل

[۳۷۴] (۵).« تمور» من مادة(مور) على وزن قول، بمعنى الحركة السريعة، كما وردت بمعنى الذهاب والإياب. وورد هذاالتعبير بشأن الجنين بسبب كونه دائم الحركة داخل الرحم

[۳۷۵] (۶).« تحير» من مادة(حوْر) على وزن غوْر، بمعنى الذهاب والإياب، وكذلك وردت هذه المادة بمعنى الحوار فى الكلام،

فعليه(لا تحير) فى العبارة المذكورة بمعنى أنّ الجنين لا يردّ على أى كلام ولا يقدر على بيان حاجاته

[۳۷۶] (۱).« اجترار» من مادة(جر) بمعنى الجر الشيء وسحبه

[۳۷۷] (۲).« هيهات» اسم فعل يفيد البعد

[۳۷۸] (۱). سورة الزمر، الآية ۶

[۳۷۹] (۲). سورة المؤمنون، الآيات ۱۲- ۱۴

[۳۸۰] (۳). بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۶۲

[۳۸۱] (۱). بحارالأنوار، ج ۳، ص ۱۶۲

[۳۸۲] (۱). سند الخطبة:

كما ورد سابقاً حين إزداد حجم المخالفات فى أجهزة حكومة عثمان وظهرت للقاصى والدانى، اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام وطلبوا منه أن يكون سفيرهم إلى عثمان فيعظه وينصحه. وقد نقل هذا الكلام قبل السيد الرضى، البلاذرى فى(أنساب الأشراف) والطبرى المؤرّخ المعروف(فى حوادث سنة ۳۴ هجرية)، وابن عبد ربّه فى(العقد الفريد) والمرحوم الشيخ المفيد فى(الجمل).(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۳۸۷)

[۳۸۳] (۱). تاريخ الطبرى، ج ۳، ص ۴۰۰ و ۴۰۱، فى بيان حوادث سنة ۳۵

[۳۸۴] (۲).« استسفرونى» من مادة(سفارة) والسفير، يقال لشخص يقوم بالوساطة بين شخصين أو بلدين

[۳۸۵] (۳). شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۹، ص ۲۶۳

[۳۸۶] (۱). الغدير، ج ۶، ص ۲۶۳

[۳۸۷] (۲). الغريب أنّ كلمة« أبى» التى وردت فى نسخة صبحى الصالح لم ترد فى أى من سائر النسخ. فلم ينقلها هناالمرحوم الشارح البحرانى والخوئى والعلّامة الجعفرى ومحمد عبده وابن أبى‌الحديد ومغنية والتسترى وصاحب مصادر نهج البلاغة، ويبدو أنّها من زلات صبحى الصالح، سيما بالنظر إلى أنّ مثل هذه التعبيرات لم ترد فى كلمات على عليه السلام بالنسبة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله

[۳۸۸] (۱). كان عثمان زوج رقية بعد أم كلثوم بنتى النبى صلى الله عليه و آله

[۳۸۹] (۱). ميزان الحكمة، ج ۶، ح ۱۱۹۷۳

[۳۹۰] (۱). روى الطبرى هذه الخطبة مع الحديث فى(تاريخه)، ج ۳، ص ۳۷۶ حوادث سنة ۳۴

[۳۹۱] (۲).« أنشد» بصورة ثلاثى مجرّد على وزن أقتل من مادة(نشد)، على وزن قتل، بمعنى التذكير والطلب وإنشادضالة، بمعنى كسب الإطلاع من الناس بشأن الضالة

[۳۹۲] (۱). سنن أبى داود، ج ۴، ح ۴۲۵۲

[۳۹۳] (۲).« يموجون» من مادة(موج) بمعنى الحركة، كما تستعمل بمعنى الاضطراب والحيرة والكناية

[۳۹۴] (۳).« يمرجون» من مادة(ورج) على وزن فلج، بمعنى الاختلاط أو البعث والترك، ولما كان الاختلاط وتركالشيء يؤدّى إلى الفساد، فإنّ هذه المفردة تستعمل بمعنى الفساد

[۳۹۵] (۴). يفهم من بعض كلمات شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه العبارة جزء من حديث النبى صلى الله عليه و آله لكن بالنظر إلى أنّالحديث المذكور ورد فى بعض المصادر المعروفة(كسنن أبى داود) دون ذيلها، فالذى يستفاد أنّ حديث النبى صلى الله عليه و آله ينتهى بالعبارة(إلى يوم القيامة)

[۳۹۶] (۱). نفحات الولاية، ج ۱، ص ۲۴۴ علل القيام ضد عثمان، ج ۲، ص ۱۵۲ عوامل قتل عثمان وكذلك الجزء الثانى بعنوان

الأعمال التی مارسها عثمان ودعت إلی الغضب العارم

[۳۹۷] (۲).« سیقة» علی وزن(سیدة) صفة مشبهة من مادة سوق، علی وزن فوق، بمعنی ما یستاق من الدواب إلی هذا الجانب أو ذاک، وتعنی أحیاناً ما یستاقه العدو من الحیوانات

[۳۹۸] (۳).« جلال» بمعنی الکبر، وجلال السن، بمعنی السن الرفیعة

[۳۹۹] (۴). تاریخ الطبری، ج ۳، ص ۴۴۱ وهنالک أقوال أخری فی سن عثمان آنذاک وأغلبها تری أنّ عمره کان ۸۲ سنة

[۴۰۰] (۱). تاریخ الطبری، ج ۳، ص ۴۰۴ حوادث سنة ۳۵ هجری

[۴۰۱] (۱). تاریخ الطبری حسب نقل ابن أبی‌الحدید، ج ۸، ص ۲۶۴

[۴۰۲] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبی‌الحدید، ج ۹، ص ۲۶۵

[۴۰۳] (۲). راجع بشأن قتل عثمان وأسباب القیام علیه وأعماله التی جعلت العامة تنقم علیه الجزء الأول والثانی من هذا الکتاب فی الصفحات التی ذکرتها سابقاً

[۴۰۴] (۱). سند الخطبة:

روی الزمخشری من أعلام القرن السادس بعض هذه الخطبة فی کتابه« ربیع الأبرار» حیث نقل أغلب کلمات الإمام علیه السلام باختلاف بحیث یفهم أنّه رواها من مصدر آخر غیر نهج البلاغة، ورغم أنّه عاش بعد الشریف الرضی لکن من المستبعد أن یستند إلی کتب الشیعة لموقفه المعادی لهم، وفسر ابن اثیر بعض مفردات هذه الخطبة فی کتابه(النهایة)، ویفهم من عباراته أنّه اقتبسها من مصدر آخر، ذلک لأنّه ذکر کلمات لم ترد فی الخطبة التی رواها السید الرضی(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۴۰۰)

[۴۰۵] (۱).« نعقت» من مادة(نعق) علی وزن برق، تعنی فی الأصل صوت الغراب، ثم أُطلقت علی الأصوات التی تقال‌لأمر الحیوانات ونهیها عن الحرکة

[۴۰۶] (۲).« ذرأ» من مادة(ذرأ) علی وزن زرع، الخلق والإیجاد

[۴۰۷] (۳).« أخادید» جمع(أخدود) الشق الواسع والعمیق فی الأرض ویطلق علی الوادی

[۴۰۸] (۴).« خروق» جمع(خرق) علی وزن زرع، الصحراء الواسعة، کما تعنی الشقوق

[۴۰۹] (۵).« فجاجها» جمع(فج) علی وزن حج، الطریق الواسع، وتعنی فی الأصل الودیان الواسعة بین الجبال والتی کانت تجتازها القوافل

[۴۱۰] (۶).« رواسی» جمع(راسیة) تعنی الثابت والراسخ، ولذلک تطلق علی الجبل

[۴۱۱] (۷).« أعلام» جمع(علم) علی وزن قلم، بمعنی العلامة وتطلق علی القمم والجبال

[۴۱۲] (۸). احتمل البعض بشأن إعراب ما ذرأ أنّها عطف علی(ما انقادت)، کما قالوا إنّها معطوفة علی الضمیر فی دلائله أو کلمة دلائله، ولا یبدو هذا الأحتمال مستبعداً أنّها مبتدأ لخبر محذوف وتقدیر الجملة وما ذرأ ... من آثار صنعه وعظمته

[۴۱۳] (۱).« مصرفة» من مادة(صرف) علی وزن حرف، بمعنی التغییر وتأتی معرفة بمعنی الأشکال المختلفة

[۴۱۴] (۲).« مرفرفة» من مادة(رفرفة) بمعنی الجناح، وبسطه، کما وردت بمعنی القماش الجمیل والملون، والمعنی الأول هو المراد فی العبارة

[۴۱۵] (۳).« مخارق» جمع(مخرق) علی وزن مشرب، الفلاة والصحراء الشاسعة

[۴۱۶] (۴).« منفسح» من مادة(فسح) علی وزن مسح، بمعنی الوسیع

[۴۱۷] (۵). سورة النحل، الآیة ۷۹

[۴۱۸] (۶).« حقاق» جمع(حق) علی وزن، حب، مجتمع المفصلین

[۴۱۹] (۷).« عبالة» بمعنى الثقل والضخامة

[۴۲۰] (۸).« خفوف» السرعة والخفة التى تكون غالباً لازماً وملزوماً

[۴۲۱] (۱).« دفيف» بسط الجناح و لما كانت الطيور تبسط اجنحتها قرب سطح الأرض فإنّ هـذه المفردة تطلق على مرور الطائر فوق الأرض.

[۴۲۲] (۲).« نسقها» من مادة(نسق) على وزن غسق، الترتيب سواء فى الصفوف أو العبارات و الكلمات و غيرها.

[۴۲۳] (۳).« أصابيغ» جمع اصباغ، و اصباغ جمع صبغ، على وزن فعل اللون.

[۴۲۴] (۴).« مغموس» من مادة(غمس) على وزن لمس، غمر الشيء فى الماء، و قد شبّه الإمام لون الطيور و كأنّها مرتبة فى قالب من اللون فأخرجت بهذا الشكل.

[۴۲۵] (۵).« قالب» على وزن فالَج، ما يصب فيه الفلز ليظهر بالشكل المطلوب

[۴۲۶] (۱). القاموس الثقافى وكتب أخرى

[۴۲۷] (۱). فى ضلال نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۴۶۷

[۴۲۸] (۱).« نضد» من مادة(تنضيد) بمعنى نظم الأشياء وترتيبها مع بعضها

[۴۲۹] (۱).« اشرج» من مادة(اشراج) بمعنى خلط الأشياء مع بعضها أو إدخال الحبال والخيوط بكيس أو صندوق مع بعضها وإحكام غلقها

[۴۳۰] (۲).« قصب» بمعنى ساق النبات الأجوف

[۴۳۱] (۳).« مسحب» من مادة(سحب) على وزن(سهو) السحب على الأرض، وله هنا معنى المصدر أو اسم المصدر

[۴۳۲] (۴).« درج» من مادة(درج) على وزن خرج، المشى إلى موضع معين أو صعود السلم، والمعنى الأول هو المراد فىعبارة الخطبة، كما يطلق على حركة الطفل البطيئة

[۴۳۳] (۵).« طى» بمعنى اللوى من طيه، وفى الخطبة بمعنى بعد طيه، إشارة إلى أنّ الطاووس يفتح جناحيه المركبين

[۴۳۴] (۶).« مطل» من مادة(طل) على وزن حل، بمعنى المشرف والنظر من الأعلى والمعنى الأول هو المراد فى العبارة

[۴۳۵] (۷).« قلع» شراع السفينة

[۴۳۶] (۸).« دارى» ينسب إلى(دارين) فى البحرين مركز تجارة المسك ومفهوم العبارة أنّ الطاووس ينشر مظلته كأنّه شراع السفينة التى تجلب العطر من دارين

[۴۳۷] (۹).« عنج» من مادة(عنج) على وزن رنج، السحب والغلق

[۴۳۸] (۱۰).« نوتى» ربان السفينة من مادة(نوت) على وزن فوت الحركة هنا وهناك واطلاق هذه المفردة على الربان لأنّه يحرك السفينة كيفما يشاء

[۴۳۹] (۱).« يختال» من مادة(اختيال) بمعنى التكبر والغرور الذى يظهر عادة من الخيال الفارغ

[۴۴۰] (۲).« يميس» من مادة(ميس) على وزن حيث الحركة والغرور

[۴۴۱] (۳).« زيفان» المشى المتبختر تأكيد لعبارة يميس

[۴۴۲] (۴).« يفضى» من مادة(افضاء) كناية عن اللقاح وتعنى فى الأصل التوسعة

[۴۴۳] (۵).« يؤر» من مادة(أر) على وزن شر، الجماع واللقاح

[۴۴۴] (۶).« ملاقح» جمع ملقحة، من مادة(اللقاح)، الآلة التناسلية وتعنى الحمل

[۴۴۵] (۷).« مغتلمة» من مادة(غلمة) على وزن لقمة، شدة الشهوة، وفحول مغتلمة بعض الحيوانات التى تندفع من شبقية الشهوة

[۴۴۶] (۸).« الضراب» لقاح الفحل لأنثاه

[۴۴۷] (۹).« تسفح» من مادة(سفح) على وزن محو، نبع الدموع والسفاح، سفک الدم

[۴۴۸] (۱۰).« مدامع» جمع مدمع، على وزن منبر، مجرى الدمع

[۴۴۹] (۱۱).« ضفة» ساحل النهر أو البحر، حيث شبه الأجفان بجانبى النهر

[۴۵۰] (۱۲).« جفون» جمع جفن، معروفة فى العين

[۴۵۱] (۱۳).« منبجس» من مادة(انبجاس) وأصله بجس على وزن نحس، نبع الماء بصورة رقيقة وشفافة

[۴۵۲] (۱۴).« مطاعمة» من مادة(طعم) بمعنى تناول الطعام مع الآخرين، ومن ثم أطلق على عمل الطيور التى تضع مناقيرها فى مناقير الأخرى وكأنّ كل واحد يطعم الآخر

[۴۵۳] (۱). وعليه فما ذكر جواب القضية الشرطية« ولو كان ...» جملة« لما كان ذلک بأعجب ...»

[۴۵۴] (۲). شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۹، ص ۲۷۰

[۴۵۵] (۱).« قصب» بمعنى عمود الريش

[۴۵۶] (۲).« مدارى» جمع مدرى، على وزن املاء، بمعنى المشط

[۴۵۷] (۳).« دارت» جمع دارة، بمعنى الحلقة أو الهالة لطرف القمر

[۴۵۸] (۴).« عقيان» بمعنى الذهب

[۴۵۹] (۵).« فلذ» جمع فلذة، على وزن بدعة، بمعنى القطعة

[۴۶۰] (۶).« زبرجد» حجر ثمين للزينةله عدّة ألوان و أشهره الأخضر، و من هنا يُشبَّه كل شىء أخضر اللون جميل بالزبرجد

[۴۶۱] (۱).« جنى» بمعنى الحصاد، وقيل باقة الزهور

[۴۶۲] (۲).« ظاهيته» من مادة(مظاهاة) بمعنى، التشبيه

[۴۶۳] (۳).« موشى» بمعنى المنقوش من مادة(وشى)، بمعنى النقش والنميمة أيضاً

[۴۶۴] (۴).« مونق» بمعنى الجميل والعجيب من مادة انق

[۴۶۵] (۵).« فصوص» جمع فص على وزن نص، فص الخاتم

[۴۶۶] (۶).« لجين» بمعنى الفضة

[۴۶۷] (۷).« مكلل» ذوتاج من مادة(إكليل)، بمعنى التاج، كما يطلق على ما يزين بالمجوهرات

[۴۶۸] (۱).« مرح» بمعنى سكر النعمة والقدرة، من مادة(مرح) على وزن فرح، بمعنى شدّة السرور

[۴۶۹] (۲).« مختال» المتكبر والزاهى بنفسه، من مادة(خيال)

[۴۷۰] (۳). قال الراغب فى المفردات: الثوب ويطلق على مطلق اللباس

[۴۷۱] (۴).« أصابيغ» جمع أصباغ، و« أصباغ» جمع صبغ، بمعنى اللون

[۴۷۲] (۵).« وشاح» شريط عريض جميل يلقى على الكتف ويحمل

[۴۷۳] (۶).« زقا» من مادة(زقو) على وزن ضعف، بمعنى الصيام

[۴۷۴] (۷).« معول» بمعنى رفع صوته بالبكاء، وأصله عويل

[۴۷۵] (۸).« حمش» جمع أحمش الشخص أو الشىء النحيف الرجل كما وردت بمعنى اللون الغامق

[۴۷۶] (۹).« الخلاسى» الديک المتولد من دجاجتين هندية وفارسية

[۴۷۷] (۱۰).« نجمت» من مادة(نجم) على وزن حجم، بمعنى نبتت

[۴۷۸] (۱۱).« ظنبوب» الإنحراف والإعوجاج

[۴۷۹] (۱۲).« صيصية» شوكة فى رجل الديك وتعنى أيضاً، المشط الذى يصفف به القماش قبل نسجه

[۴۸۰] (۱).« العرف» ما على الرأس من شعر

[۴۸۱] (۲).« قنزعة» الخصلة من الشعر

[۴۸۲] (۳).« موشاة» بمعنى منقوشة

[۴۸۳] (۱).« ابريق» وقال البعض فيها أنّ أصلها فارسى(أبريز) الذى يستعمل لغسل اليد أو الفم قبل تناول الطعام أولرش الورد فى الضيافة وقد صنع أنبوبها بانحناء خاص وشكل جميل

[۴۸۴] (۲).« مغرز» بمعنى موضع الغرز

[۴۸۵] (۳).« وسمة» لون خاص تخصب به اللحية والحاجب

[۴۸۶] (۴).« صقال» بمعنى الجلاء

[۴۸۷] (۵).« متلفع» بمعنى الملفوف، من مادة(لفع) على وزن نفع، الاحاطة وستر جميع الأشياء

[۴۸۸] (۶).« معجر» بمعنى المقنعة والربطة

[۴۸۹] (۷).« اسحم» بمعنى الأسود

[۴۹۰] (۸).« مستدق» بمعنى النحيف والرقيق، من مادة(دق)، على وزن حق

[۴۹۱] (۹).« الاقحوان» بمعنى البابونج

[۴۹۲] (۱۰).« يقق» بمعنى شديد البياض، من مادة(يقوقة)

[۴۹۳] (۱۱).« يأتلق» بمعنى يلمع، من مادة(الق)، على وزن دلق

[۴۹۴] (۱۲).« بريق» بمعنى لمعان، من مادة(برق)

[۴۹۵] (۱۳).« بصيص» بمعنى اللمعان

[۴۹۶] (۱۴).« رونق» بمعنى الحسن، من مادة(رنق)، على وزن فتق

[۴۹۷] (۱۵).« قيظ» بمعنى شدة الحرارة

[۴۹۸] (۱).« ينحسر» يعنى يعرى ويتكشف، من مادة(حسر)، على وزن حشر، بمعنى العُرى

[۴۹۹] (۲).« تترى» من مادة(وتر)، بمعنى الواحد، وتأتى بمعنى الواحد تلو الآخر

[۵۰۰] (۳).« ينحت» يعنى يتقشر، من مادة(نحت)، على وزن تخت، التقشر

[۵۰۱] (۱).« عسجدية» من عسجد، الذهب

[۵۰۲] (۲).« عمائق» جمع عميقة، الدقيق والعميق

[۵۰۳] (۳).« قرائح» جمع قريحة، بمعنى الذهنية والذكاء الذى أودعه اللّه فى الفطرة

[۵۰۴] (۴). على ضوء التفسير المذكور فإنّ جميع الضمائر تعود إلى الطاووس، وهذا ما فهمه أغلب شرّاح نهج البلاغةوإن مروا عليه بنوع من الإجمال والإبهام، كما يحتمل أن يعود الضمير فى العبارة(أعجز الألسن عن تلخيص صفته) وكذلك العبارة(عن تادية نعته إلى اللّه تعالى). وعليه فمفهوم العبارة: أنّى للعقل بإدراك كنه الذات والصفات وهى عاجزة عن إدراك صفات المخلوق

[۵۰۵] (۱).« بهر» من مادة(بهر)، على وزن نهر، بمعنى الغلبة والقهر

[۵۰۶] (۲).« جلاه» يعنى أظهره، من مادة(جلاء)

[۵۰۷] (۳).« تلخيص» ورد بمعنى الشرح، وكذلك الخلاصة والمعنى الأول هو المراد هنا

[۵۰۸] (۱). جواهر الكلام، ج ۳۶، ص ۳۰۹؛ راجع حياة الحيوان للدميرى، وقاموس دهخدا، والزولوجى الحديث

[۵۰۹] (۱).« ادمج» من مادة« دموج»، بمعنى الاستحكام

[۵۱۰] (۲).« قوائم» جمع قائمة، بمعنى العمود، وهنا إشارة إلى الأيدى والا رجل التى تعتبر أعمدة البدن

[۵۱۱] (۳).« ذرة» صغار النمل، وبمعنى الغبار، كما تطلق على الذرة فى الكيمياء

[۵۱۲] (۴).« همجة» ذباب صغير، وجمعه همج

[۵۱۳] (۵).« حيتان» جمع حوت معروفة

[۵۱۴] (۱). سورة يوسف، الآية ۱۰۵

[۵۱۵] (۲).« وأى» من مادة« وأى»، على وزن سعى، بمعنى الوعد

[۵۱۶] (۳).« شبح» بمعنى الشخص، وكل شىء يترائى للإنسان ويدركه الحس

[۵۱۷] (۱).« الموسوعة» المسماة(موسوعة ومفردات قاموس عميد)

[۵۱۸] (۱).« عزفت» من مادة(عزف)، على وزن حذف، الترك والانصراف عن شيء، كما وردت بمعنى اللعب واللهو

[۵۱۹] (۲).« ذهلت» من مادة(ذهل)، بمعنى غفلة العقل وترك الشيء ونسيانه

[۵۲۰] (۳).« اصطفاق» بمعنى اضطراب شيء بحيث يحدث صوتاً كالتصفيق أو تضارب أوراق الأشجار

[۵۲۱] (۴).« كثبان» جمع كثيب، بمعنى التل، من مادة(كثب)، على وزن حرب، بمعنى الجمع

[۵۲۲] (۵).« كبائس» جمع كباسة، على وزن حماية، بمعنى عنقود الفاكهة وما شابهه

[۵۲۳] (۶).« عساليج» جمع عسلوج، على وزن بهلول، بمعنى غصن الشجرة

[۵۲۴] (۷).« أفنان» جمع فن وفنن، على وزن قلم، بمعنى الغصن الطرى الملئ بالأوراق، ويقال الفنون لمختلف فروع العلم والمعرفة والصناعة وما شاكل ذلك

[۵۲۵] (۸).« غلف» جمع غلاف، من مادة(غلف)، على وزن قصر، بمعنى الغطاء

[۵۲۶] (۹).« اكمام» جمع كم، على وزن جن، بمعنى الوعاء الذى يغطى الفاكهة، وجمع كم على وزن أم بمعنى الردن التى تغطى اليد

[۵۲۷] (۱۰).« تجنى» من مادة(جنى) على وزن نَهْى، بمعنى قطف الثمار

[۵۲۸] (۱۱). سورة الحاقة، الآية ۲۳

[۵۲۹] (۱). سورة الرحمن، الآية ۵۴

[۵۳۰] (۲).« افنية» جمع فناء، على وزن غناء، بمعنى الساحة ومقدمة الدار

[۵۳۱] (۳).« مروقة» بمعنى المصفاة، من مادة(روق)

[۵۳۲] (۴). سورة الدهر، ۵ و ۶ و ۱۷ و ۱۸ و ۲۱

[۵۳۳] (۵). سورة الواقعة، الآية ۱۹

[۵۳۴] (۶).« نقلة» من النقل وتأتى أحياناً بمعنى النميمة

[۵۳۵] (۷). سورة الاسراء، الآية ۷۰

[۵۳۶] (۱).« مونقة» بمعنى المعجبة، من مادة(أنق)، على وزن شفق، الإعجاب بالشيء

[۵۳۷] (۲).« زهقت» من مادة(زهوق) على وزن غروب، بمعنى الهلكة

[۵۳۸] (۳). نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۳

[۵۳۹] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ۹، ص ۲۸۰

[۵۴۰] (۲). المصدر السابق

[۵۴۱] (۱). سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة قبل المرحوم السيد الرضى، مسلم ابن قيس فى كتابه، كما روى صاحب الكافى جوانب منها فى الجزء الثامن. وقال صاحب مصادر نهج البلاغة يستفاد من رواية الكافى والشيخ المفيد فى الإرشاد أنّ هذه الخطبة وما ورد فى الخطبة ۸۶(طبق نسخة صبحى الصالح ۸۸) خطبة واحدة(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۴۰۳)

[۵۴۲] (۱).« ليتاس» من مادة(اسوة) على وزن عروة، بمعنى اتباع الغير والاقتداء به

[۵۴۳] (۲).« ليرأف» من مادة(رأفة) بمعنى العطف والشفقة

[۵۴۴] (۱).« جفاة» جمع جافٍ، من مادة(جفاء)، بمعنى الغلظة، ويقال للشخص العنيف، الجافى

[۵۴۵] (۲).« قيض» قشرة البيضة، وتأتى بمعنى كسر البيضة أيضاً

[۵۴۶] (۳).« أداح» جمع دَحْى، على وزن نَهْى، بمعنى مبيض الانعام فى الرمال، ومن مادة(دحو) على وزن سَهْو، بمعنى السعة

[۵۴۷] (۴).« حضان» بمعنى البيض تحت بطن الطائر ليفقس عن فرخ، ومن مادة(حضانة) بمعنى ما تحت الجناح‌والريش

[۵۴۸] (۱).« قزع» جمع قزعة، على وزن ثمرة، بمعنى قطعة من السحاب، كما تطلق على الأشياء التى لها قطع متناثرة

[۵۴۹] (۲).« الخريف» هو أحد فصول السنة المعروفة

[۵۵۰] (۳).« ركام» من مادة(ركم) على وزن مكر، بمعنى الأشياء المتراكمة

[۵۵۱] (۴).« مستثار» بمعنى موضع الغليان والخروج، من مادة(ثور)، على وزن فور، بمعنى الهيجان

[۵۵۲] (۵). قارة بمعنى الجبل الصغير

[۵۵۳] (۶).« أكمة» بمعنى التل والهضبة

[۵۵۴] (۷).« سنن الطرق» بمعنى المسير المادى والمعنوى

[۵۵۵] (۸).« رص» من مادة(رصاص) بمعنى المحكم

[۵۵۶] (۹).« طود» بمعنى الجبل العظيم

[۵۵۷] (۱۰).« حداب» جمع حدب، على وزن هدف، بمعنى الأرض المرتفعة

[۵۵۸] (۱۱).« يذعذع» من مادة(ذعذعة) بمعنى التفرق

[۵۵۹] (۱۲).« اودية» جمع وادٍ، معروف

[۵۶۰] (۱).« الألية» بمعنى الشحم المعروف

[۵۶۱] (۱). نفحات الولاية، ج ۳، ص ۳۵۸-/ ۳۶۰

[۵۶۲] (۲). راجع كتاب المعارف والمصاريف، ج ۱، ص ۴۸۱ والموسوعة الإسلامية الكبرى، ج ۶، ص ۲۲۷

[۵۶۳] (۱). بحار الأنوار، ج ۴۱، ص ۳۱۰

[۵۶۴] (۱).« تهتم ومتاه» كلاهما من مادة(تيه)، تعنى فى الأصل، الزهو والتكبر، ثم استعملت بمعنى الحيرة والضلال‌عن الطريق وهذا هو المراد بها فى العبارة، أى احترتم كحيرة بنى إسرائيل(متاه مصدر ميمى)

[۵۶۵] (۲).« أضعاف» جمع ضعف، على وزن فعل، معروف

[۵۶۶] (۳).« اعتساف» من مادة(عسف) على وزن وصف، بمعنى الضلال

[۵۶۷] (۴).« فادح» بمعنى ثقيل وشاق، وهى هنا تأكيد لكلمة ثقل

[۵۶۸] (۵). شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۹، ص ۲۸۶؛ منهاج‌البراعة، ج ۱۰، ص ۸۳

[۵۶۹] (۱). سند الخطبة:

قال المرحوم عبد الزهراء الحسینی: لم أعثر فی کتاب مصادر نهج البلاغة علی سند قبل السید الرضی للخطبة سوی ما ذکره المؤرخ الطبری فی حوادث سنة ۳۵ هجریة(ج ۵، ص ۱۵۷). وینبغی الإلتفات إلی أنّ بعض هذه الخطبة مر سابقاً فی الخطبة ۲۱

[۵۷۰] (۱).« النهج» بمعنی الطریق الواضح، من مادة(نهج)، علی وزن خرج، الوضوح

[۵۷۱] (۲).« اصدفوا» من مادة(صدف) علی وزن صبر، بمعنی الإعراض

[۵۷۲] (۱).« مدخول» بمعنی معیب، من مادة(دخل) علی وزن نخل، بمعنی الفساد من الداخل. ولهذه المفردة معانٍأخری منها الدخول فی المکان

[۵۷۳] (۲). سورة الأعراف، الآیة ۱۵۷

[۵۷۴] (۳).« حرم» بفتح الراء جمع حرمة بمعنی الاحترام، وحرم بضم الراء، جمع حرام بمعنی الممنوع، و« احرام» جمعحرم علی وزن قلم، بمعنی الناحیة الممنوعة

[۵۷۵] (۴).« معاقد» جمع(معقد) علی وزن مجلس، بمعنی موضع اغلاق الشیء، کالحزام الذی یربط الظهر، وفی العبارة إشارة إلی رابطة الإخلاص والتوحید لحقوق المسلمین

[۵۷۶] (۱). بحارالأنوار، ج ۷۱، ص ۲۲۷

[۵۷۷] (۲). وسائل الشیعة، ج ۱۸، ص ۳۱۲(الحدیث الثالث من الباب الثالث من أبواب مقدمات الحدود)

[۵۷۸] (۱).« تحدوا» من مادة(حدو) حدی، علی وزن حَذو، بمعنی طرد الشر أو الصوت الخاص للحادی ثم أطلق علی کل سوق

[۵۷۹] (۲). لابدّ من الالتفات إلی أنّ الضمیر« هو» مذکر یعود إلی أمر وعلیه لابدّ أن تکون خاصة مجرورة لا مفتوحة کماورد فی النص

[۵۸۰] (۱). نفحات الولایة، ج ۲، ص ۵

[۵۸۱] (۲). سورة البقرة، الآیة ۱۹۷

[۵۸۲] (۳).« بقاع» جمع(بقعة) بمعنی مساحة من الأرض متمیزة عنها، ووردت فی العبارة بمعنی مطلق الأرض العامرة

[۵۸۳] (۴).« بهائم» جمع(بهیمة) بمعنی الحیوانات، ویشتمل السباع والطیور

[۵۸۴] (۱). وسائل‌الشیعة، ج ۸، ص ۳۹۴

[۵۸۵] (۲). ورد فی بعض المصادر اللغویة أن التورک علی الدابّة، وضع الرجل علی الأخری فوق سرج الدابّة

[۵۸۶] (۳). اصول الکافی، ج ۶، ص ۵۳۹

[۵۸۷] (۴). المصدر السابق، ص ۵۳۷، ح ۱

[۵۸۸] (۵). وسائل الشیعة، أحکام الخلوة، الباب ۱۵

[۵۸۹] (۶). المصدر السابق، کتاب الجهاد، الباب ۱۶ و ۱۵ باب جهاد العدو

[۵۹۰] (۱). سند الخطبة:

المصدر الوحید الذی ذکرها غیر نهج البلاغة، تاریخ الطبری فی حوادث سنة ۳۵ ه(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۴۰۶)

[۵۹۱] (۱).« مجلبون» من مادة(جلب) علی وزن کلب، بمعنی السوق والطرد وتطلق علی الأفراد الذین یغیرون مواقفهمبسهولة، وجلب، علی وزن غضب، وإجلاب، بمعنی الجمع، ومجلبون، هنا إشارة إلی الثوار الذین جمعوا الناس ضد عثمان

[۵۹۲] (۲). منهاج البراعة، ج ۱۰، ص ۱۰۲. روی الحدیث المرحوم العلّامة المجلسی فی بحارالأنوار، ج ۳۱، ص ۵۰۳

[۵۹۳] (۳).« یسومونکم» من مادة(سوم) علی وزن قوم، بمعنی البحث عن الشیء، کما وردت بمعنی تکلیف الآخرینبعمل

[۵۹۴] (۱).« یهدأ» من مادهٔ(هدوء)، معروفهٔ

[۵۹۵] (۲).« مسمحهٔ» من مادهٔ(سماح وسماحهٔ) السهولهٔ والیسر، وتعنی أحیاناً السخاء والکرم أو الموافقهٔ، والمعنی الأول هو المراد بها فی العبارهٔ

[۵۹۶] (۳).« تضعضع» من مادهٔ(ضعضعهٔ) بمعنی الهدم والتخریب

[۵۹۷] (۴).« منّهٔ» بمعنی القوهٔ

[۵۹۸] (۵). نفحات الولایهٔ، ج ۱، ص ۲۸۹

[۵۹۹] (۶).« کی» علی وزن حی، احراق بدن الإنسان أو الحیوان بحدیدهٔ ساخنهٔ وما شابه ذلک

[۶۰۰] (۱). قال المرحوم العلّامهٔ المجلسی فی بحار الأنوار إنّها وردت فی أغلب النسخ: آخر الداء الکی، بمعنی أن ختام الألام الصعبهٔ الحرق، لکن هذا المعنی مستبعد(بحارالأنوار، ج ۳۱، ص ۵۰۳)

[۶۰۱] (۲). العقد الفرید، ج ۵، ص ۱۱۳

[۶۰۲] (۱). سند الخطبهٔ:

لم یذکر هذه الخطبهٔ، سوی الطبری فی حوادث سنهٔ ۳۶ فی تاریخه ج ۳، ص ۴۶۵(ذکر الطبری، القسم الأول من الخطبهٔ فقط)

[۶۰۳] (۱).« هالک» من مادهٔ(هلاک) تعنی فی الأصل الموت والفناء، لکنّها ترد أحیاناً بمعنی الهلکـهٔ المعنویهٔ وهیالضـلال والبؤس والشقاء، والمراد بها فی العبارهٔ الهلکهٔ المعنویهٔ، فمعنی لا یهلک عنه إلّاالهالک أنّه لا یضل ألّا من استعد للضلال والهلکهٔ

[۶۰۴] (۲).« مبتدعات» من مادهٔ(بدع) علی وزن بدر، ظهور الشـیء دون سابقهٔ، وتطلق فی الردّ علی ما خالف الکتاب والسـنهٔ، وعلیه فالمبتدعات الطرق المخالفهٔ للکتاب والسنّهٔ

[۶۰۵] (۳).« مشبهات» البدع التی تلبس ثوب الدین وتوجب الضلال

[۶۰۶] (۱).« ملومهٔ» من مادهٔ(لوم) علی وزن قوم، معروفهٔ

[۶۰۷] (۲).« یأرز» من مادهٔ(أرز) علی وزن فرض، بمعنی الجمع

[۶۰۸] (۳). سورهٔ إبراهیم، الآیهٔ ۷

[۶۰۹] (۱).« تمالؤوا» من مادهٔ(ملائهٔ) تعاونوا علی أمر، وعلیه فمفهوم تمالؤوا أنّهم اتحدوا وتعاونوا

[۶۱۰] (۲).« سخطهٔ وسخط» بمعنی واحد الغضب

[۶۱۱] (۳).« فیالهٔ» ضعف الفکر

[۶۱۲] (۱).« نعش» بمعنی الرفع والحمل، ویقال لجسد المیت، النعش، لرفعه علی الأیدی وحمله إلی القبر

[۶۱۳] (۱). سند الخطبهٔ:

أوردها العدید قبل السید الرضـی، ومنهم المرحوم الشیخ المفید فی کتابه الجمل عن جمل الواقدی(کتاب الجمل للشیخ المفید، ص ۱۵۶) ورواها الطبری فی تاریخه فی حوادث سنهٔ ۳۶ هجریهٔ، والزمخشری فی ربیع الأبرار فی باب الجوابات المسکتهٔ

[۶۱۴] (۱).« رائـد» من مـادهٔ(رود) علی وزن ذوب، بمعنی اللقاء، وتطلق عادهٔ علی من ینطلق أمام القافلـهٔ أو الجیش ویسـتطلع المکان المناسب من حیث الماء والغذاء

[۶۱۵] (۲).« کلاء» النبات الطویل

[۶۱۶] (۳).« معاطش» جمع(معطش) الموضع الذی یعطش فیه الإنسان

[۶۱۷] (۴).« مجادب» جمع(مجدب) المکان الذی لم ینزل إلیه المطر فهو جاف لا نبات فیه

[۶۱۸] (۱). شرح نهج البلاغهٔ للخوئی، ج ۱۰، ص ۱۱۵ بتلخیص طفیف

[۶۱۹] (۱). اصول الكافى، ج ۱، ص ۳۴۳

[۶۲۰] (۲). سورة الأعراف، الآيات ۵۴-/ ۵۶

[۶۲۱] (۱). سند الخطبة:

روى هذا الدعاء قبل السيد الرضى، كل من نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، وحسين بن سعيد الأهوازى فى كتاب الدعاء والذكر، حسب نقل السيد ابن طاووس رحمه الله فى منهج الدعوات، والطبرى فى تاريخه فى حوادث سنة ۳۷ ه.(مصادر نهج البلاغة، ج ۲، ص ۴۱۱)

[۶۲۲] (۱).« جو» بمعنى السماء، وردت بمعنى الهواء

[۶۲۳] (۲).« مكفوف» بمعنى المتراكم، كما جاء بمعنى المقيد، ومن مادة(كفّ)، بمعنى الجمع أو المنع

[۶۲۴] (۳).« مغيض» بمعنى موضع نفوذ الماء، كأنّ الجو كالأرض يبتلع فى صدره الليل والنهار، وهذه المفردة من مادة(غيض) على وزن فيض، بمعنى استقرار الماء فى عمق الأرض

[۶۲۵] (۱).« سبط» بمعنى القبيلة والطائفة، وتعنى فى الأصل، اتساع الشىء بسهولة، ولما كانت الطوائف تتسع فقداطلقت عليها هذه المفردة

[۶۲۶] (۲).« يسأمون» من مادة(سئامة) بمعنى التعب عن مواصلة العمل

[۶۲۷] (۳). راجع التفسير الامثل، ذيل الآية ۳۲ من سورة سبأ

[۶۲۸] (۱).« مدرج» من مادة(دروج) بمعنى طى الطريق، ومدرج، يطلق على موضع طى الطريق

[۶۲۹] (۲).« هوام» جمع(هامة) الحيوانات الصغيرة كالفأرة والحية

[۶۳۰] (۳).« رواسى» جمع(راسية) الثابت والراسخ

[۶۳۱] (۴).« أوتاد» جمع(وتد) على وزن نمد، المسمار، ومن مادة(وتد)، على وزن وقت، بمعنى تثبيت الشىء

[۶۳۲] (۵). سورة النبأ، الآية ۷

[۶۳۳] (۱).« ذمار» ما يجب على الإنسان حفظه كالأهل والعرض والوطن، ومن ذمر، على وزن رمل، بمعنى اللوموالتوبيخ، فهى تطلق بهذا المعنى على من يقصر فى حفظ الأهل والشرف والوطن حيث يستحق اللوم

[۶۳۴] (۲).« غائر» بمعنى الغيور

[۶۳۵] (۳).« حقايق» جميع حقيقة، تشير هنا إلى النوازل التى تحل بالإنسان أو المجتمع والوطن

[۶۳۶] (۴).« حفاظ» من مادة(حفظ) تعنى هنا، الوفاء بالعهد ورعاية الذمة

[۶۳۷] (۱). سورة البقرة، الآية ۱۹۳

[۶۳۸] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۹۱

[۶۳۹] (۳). نهج البلاغة، الرسالة ۱۴

[۶۴۰] (۱). سند الخطبة:

يبدو أنّ هذه الخطبة جانب من كتاب كتبه الإمام عليه السلام فى أواخر أيّام خلافته ذكر فيه الأحداث التى وقعت بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأمر أن تقرأ على الناس، وقد ردّ الإمام عليه السلام على عبدالرحمن بن عوف حين قال له يوم الشورى: إنّك على هذا الأمر لحريص، بذلك الجواب الذى ورد فى الخطبة. رواها الطبرى فى كتاب المسترشد(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۴۱۴)

[۶۴۱] (۱).« قرعته» من مادة(قرع) على وزن فرع، بمعنى ضرب الشىء على آخر بحيث يتولد صوت شديد. وتستعمل‌هذه المفردة فى الأمور المعنوية، أى تستعمل بشأن الأدلة الواضحة والدامغة كالخطبة المذكورة

[۶۴۲] (۲).« هب» من مادة(هبوب) بمعنی حرکة الریاح، أحیاناً، وأخری بمعنی الهیجان، وکذلک البهت أو النهوض من النوم، والمعنی الثانی هوالمراد فی العبارة

[۶۴۳] (۳). شرح نهج البلاغة لابن أبیالحدید، ج ۹، ص ۳۰۵

[۶۴۴] (۴).« استعدیک» من مادة(استعداء) بمعنی الشکوی وطلب العون

[۶۴۵] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبیالحدید، ج ۹، ص ۳۰۶ و ۳۰۷

[۶۴۶] (۲). سورة الفتح، الآیة ۱۰

[۶۴۷] (۱).« حبیس» من مادة(حبس) بمعنی المحبوس، وإشارة إلی عائشة زوج النبی صلی الله علیه و آله التی کانت منهیة عن الاشتراک فی الحرب والخروج إلی المسرح الاجتماعی، لکن طلحة والزبیر دفعاها لذلک العمل

[۶۴۸] (۱). سورة الأحزاب، الآیة ۳۳

[۶۴۹] (۲).« صبر» تعنی فی الأصل الحبس، ومن هنا یطلق الصبر علی مسک النفس وحبسها عن المکارة. المعنی الآخرللصبر أنّ یحبس الإنسان أو الحیوان فی موضع، ثم یرمی بحجر أو سهم، بالتالی یقال، قتل صبراً لمن یقتل بالزجر والتعذیب

[۶۵۰] (۳).« السبابجة» جمع(سبیجی) قال صاحب لسان العرب، من مادة(سبج) طائفة شجاعة من السند استؤجرواللقتال(الدفاع عن بیت المال). وقیل: کلمة فارسیة تعنی الشبان الصغار وألوانهم سوداء

[۶۵۱] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبیالحدید، ج ۹، ص ۳۲۰

[۶۵۲] (۲). سورة المائدة، الآیة ۳۳

[۶۵۳] (۱). شرح التجرید، ص ۲۴۰

[۶۵۴] (۲). شرح نهج البلاغة لابن أبیالحدید، ج ۶، ص ۳۲۲

[۶۵۵] (۱). سند الخطبة:

ذکر صاحب تحف العقول قبل السید الرضی، الفصل الأخیر من الخطبة(إلّا وأنّ هذه الدنیا ...) باختلاف، کما نقلها أبوجعفر الإسکافی(المتوفی عام ۲۴۰ ه) فی رسالته(نقض العثمانیة)(مصادر نهجالبلاغة، ج ۲، ص ۴۱۷)

[۶۵۶] (۱). سورة البقرة، الآیة ۲۴۷

[۶۵۷] (۲). سورة النحل، الآیة ۱۲۵

[۶۵۸] (۳). شرح نهجالبلاغة لإبن أبیالحدید، ج ۹، ص ۳۲۷

[۶۵۹] (۱).« شغب» من مادة(شغب) علی وزن شرق، بمعنی إثارة الفتنة والشر والفساد

[۶۶۰] (۲).« استعتب» من مادة(عتب) وعتاب بمعنی اللوم والتوبیخ بقصد الرجوع إلی الحق، وإن استعملت فی باب الإستفعال أفادت معنی الإسترضاء

[۶۶۱] (۳). سورة الحجرات، الآیة ۹

[۶۶۲] (۱). سورة طه، الآیة ۱۳۲

[۶۶۳] (۲). سورة الأعراف، الآیة ۱۲۸

[۶۶۴] (۱).« غِیر» بمعنی الحوادث والتغییرات التی تقع فی حیاة الإنسان، وأرید بها فی الخطبة، مطلق التغییر

[۶۶۵] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبیالحدید، ج ۶، ص ۲۵۶ بتصرف وتلخیص، وقد نقل هذه الواقعة نصر بن مزاحم فی کتاب صفین، ص ۳۲۱

[۶۶۶] (۱). سورة العنکبوت، الآیة ۶۴

[۶۶۷] (۲).« زوی» من مـادهٔ(زی) علی وزن حی، بمعنی الجمع والأخـذ والحمـل والإبعـاد، وتعنی فی العبـارهٔ الإبعادوالفقـدان لأـنّها وردت بصیغهٔ الفعل المجهول فی العبارهٔ ومعها الحرف عن

[۶۶۸] (۱). اصول الکافی، ج ۲، ص ۲۱۶، ح ۴

[۶۶۹] (۱). سند الخطبهٔ:

یری صاحب کتاب مصادر نهـج البلاغـهٔ أنّ هـذه الخطبهٔ متصـلهٔ بالخطبهٔ ۲۲ و ۱۳۵(وحسب أرقامنا، الخطبـهٔ ۱۳۷)، وأضاف: رواها(باختلافـات) المرحوم الشیـخ الطوسـی فی کتـابه الأمـالی، والخوارزمی فی المناقب وشـرح ابن أثیر فی کتابه اللغوی(النهایـهٔ) کلماتها الصعبهٔ(مصادر نهجالبلاغهٔ، ج ۲، ص ۴۱۹)

[۶۷۰] (۱). سورهٔ غافر، الآیهٔ ۵۱

[۶۷۱] (۲). أوردنا شرحاً مفصلًا، ذیل الخطبهٔ ۱۳ فی الجزء الأول

[۶۷۲] (۳).« متجرد» من مادهٔ(تجرد) بمعنی الإستعداد للقیام بعمل بجد واجتهاد، ومنه السیف المجرّد

[۶۷۳] (۴).« أجلب» من مادهٔ(اجلاب) بمعنی، الجمع والعون

[۶۷۴] (۵).« یوازر» من مادهٔ(موازرهٔ) ینصر ویعین

[۶۷۵] (۶).« ینابذ» من مادهٔ(منابذهٔ) بمعنی، المدافعهٔ والمقاتلهٔ

[۶۷۶] (۷).« منهنهین» بمعنی، الزجر والمنع من العمل، من مادهٔ(نهنههٔ)، علی وزن قهقههٔ

[۶۷۷] (۸).« یرکد» من مادهٔ(رکود) السکوت والصمت

[۶۷۸] (۹). معذرین من یصطنع العذر لنفسه أو غیره

[۶۷۹] (۱). الإمامهٔ والسیاسهٔ، ج ۱، ص ۸۸ ذکرنا مطالب أخری فی الجزء الخامس من هذا الکتاب، ذیل الخطبهٔ ۱۳۷

[۶۸۰] (۱). شرح نهج البلاغهٔ لابن أبیالحدید، ج ۱۰، ص ۶، کما ذکر هذه القصهٔ دون ذکر اسم طلحهٔ، الطبری فی الجزء الثالث من تاریخه فی حوادث سنهٔ ۳۵ ص ۴۳۸ ثم کتب: أمر معاویهٔ أن یهدم جدار حش کوکب ویوصل بالبقیع

[۶۸۱] (۱). سند الخطبهٔ:

من المصـادر التی نقلت بعض هـذه الخطبـهٔ، غرر الحکم للآمـدی(مصـادر نهجالبلاغـهٔ، ج ۲، ص ۴۲۲) ویفهم من کتـاب تمـام نهج البلاغـهٔ أنّ هـذه الخطبـهٔ وردت فی مصادر أخری وفیها إضافات: ومنها إخبار علی علیه السـلام عن الحجر الأسود ونقله من مکـهٔ إلی بلاد أخری من قبل الأعداء ثم یعاد إلی موضعه الاصلی(کتاب تمام نهجالبلاغهٔ، ص ۲۸۷)

[۶۸۲] (۱).« أراح» من مادهٔ(إراحـهٔ) بمعنی إعادهٔ الحیوانات عنـد المساء إلی الإصـطبل، وتطلق أحیاناً علی حرکـهٔ الحیوانات فی کل زمان، وهذا هو المراد بها فی العبارهٔ

[۶۸۳] (۲).« سـائم» تعنی فی الأصـل الشـخص الـذی یتابع الشـیء، ثم اسـتعملت بمعنی الراعی الـذی یحمل الحیوانات إلی المرعی، والحیوانات التی ترعی، وتعنی فی العبارهٔ، الراعی(وعلیه لها معنی المتعدی واللازم)

[۶۸۴] (۳).« وبی» من مـادهٔ(وبـاء) بمعنی، الشـخص المصـاب بالوبـاء أو أی مرض معـدٍ، ومرعی وبی، فی العبـارهٔ المـذکورهٔ بمعنی المرعی الذی یجلب الوباء أو الملوث بالمرض

[۶۸۵] (۴).« دوی» من مادهٔ(داء) بمعنی، المرض، ودوی، یقال للماء والغذاء الذی یجلب المرض

[۶۸۶] (۱).« مدی» جمع(مدیهٔ) علی وزن لقمهٔ، بمعنی السکّین

[۶۸۷] (۲).« مولج» بمعنی الدخول إلی الشیء، من مادهٔ(ولوج)، علی وزن، ورود

[۶۸۸] (۳). اصول الکافی، ج ۸، ص ۵۷

[۶۸۹] (۱).« مفضیة» فی الأصل، من مادة(فضاء)، بمعنی السعة، وعلیه فالإفضاء، بمعنی، التوسعة، وحین یتصل شخص بآخر بصورة تامة یكون فی الحقیقة قد وسع الوجود بمعونة الآخر. وتعنی هذه المفردة الاختلاء بالشخص لبیان الأسرار وهذا هو المعنی المراد بها فی العبارة

[۶۹۰] (۱).« أُفرغه» من مادة(إفراغ) تعنی فی الأصل، سكب شیء سیال من الظرف بحیث یخلو ممّا فیه، ثم استعملت بمعنی إلقاء المطالب المختلفة علی الآخر

[۶۹۱] (۲). للوقوف علی المزید بشأن علم الغیب وعلم الأنبیاء والأئمّة علیهم السلام راجع إلی هذا الكتاب ج ۵، ص ۳۶۶

[۶۹۲] (۳). میزان الحكمة، ج ۱، ح ۱۲۷۷۶ هناك قضیة، وهی أنّ الإنسان إن دعی الآخرین إلی المعروف ونهاهم عن‌المنكر ولم یلتزم هو بذلك فإنّه یشعر بالخجل من نفسه، وهذا الخجل یسوقه بالتالی إلی المعروف والإبتعاد عن المنكر

[۶۹۳] (۱). سورة طه، الآیتان ۱ و ۲

[۶۹۴] (۲). نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ۲۲۶

[۶۹۵] (۱). سند الخطبة:

صرّح ابن أبی الحدید فی شرحه لنهج البلاغة، وابن میثم بأنّ هذه الخطبة أولی خطبة بعد البیعة وقتل عثمان. وهذا یدل علی أنّ هذین الشارحین وجداها فی مصدر آخر، غیر نهج البلاغة، لأنّ المرحوم السید الرضی لم یشِر إلی ما قالاه، كما روی الزمخشری فی كتابه(ربیع الأبرار) بعضها باختلافات متعددة، وقد بین البعض الآخر من هذه الخطبة فی أربعة كتب ألّفت قبل نهج البلاغة(كتاب الكافی، والمحاسن، للبرقی، والأمالی للصدوق، وتفسیر العیّاشی)،(مصادر نهج البلاغة، ج ۲، ص ۴۳۰)

[۶۹۶] (۱).« محاب» جمع(محب) من مادة الأمر المحبوب

[۶۹۷] (۲).« حفت» من مادة(حف) علی وزن كف، بمعنی الاحاطة بالشیء

[۶۹۸] (۳).« نزع» من مادة(نزع) علی وزن نبض، تتعدی هذه المادة بحرف(إلی) أحیاناً فیقال: نزع عنه أی أقلع عن هذاالعمل، وقد وردت فی العبارة بالمعنی الثانی، واستعملت بالمعنی الأول فی العبارات اللاحقة(تنزع إلی المعصیة). وتتعدی أحیاناً دون حرف الجر كقولهم نزع الشیء أی، إبطاله وهدمه

[۶۹۹] (۴).« قمع» من مادة(قمع) علی وزن منع، بمعنی، القهر والغلبة

[۷۰۰] (۱). سنن أبی داود، ج ۲، ص ۴۲۲، ح ۴۷۴۴؛ وبحارالأنوار، ج ۶۸، ص ۷۲

[۷۰۱] (۲). اصول الكافی، ج ۲، ص ۸۳

[۷۰۲] (۳). سورة البقرة، الآیة ۴۵

[۷۰۳] (۱).« ظنون» صیغة مبالغة من مادة(ظن) ترد فی مثل هذه الحالات بمعنی سوء الظن، وعلیه، تعنی هنا، من‌ینظر إلی نفسه بالنقد ویتّهمها، كما وردت مادة ظن بمعنی الشیء القلیل، وعلیه فالظنون تطلق علی الفرد الضعیف، والمعنی الأول هو المراد

[۷۰۴] (۲).« زاری» بمعنی عائب، من مادة(زرْی)، علی وزن جری

[۷۰۵] (۱).« قوضوا» من مادة(تقویض) بمعنی الهدم، والمراد هنا نزع أعمدة الخیمة وإطنابها لرفعها وجمعها

[۷۰۶] (۲).« طووها» من مادة(طی) بمعنی الاجتیاز

[۷۰۷] (۱). تعیش البلاد الإسلامیة حالة من العزاء بسبب الزلزال الذی ضرب مدینة(بم) ونواحیها وخلف آلاف الضحایا، حیث أحالت هذه الزلزلة خلال ۱۲ ثانیة(نعم، فقط ۱۲ ثانیة) هذه المدینة النضرة إلی كثبان من التراب كأنّها مدینة مهجورة منذ آلاف السنین. نعم، نعلم أن لا اعتبار لهذه الدنیا، لكننا لم نر مثل هذا، حدث ذلك فی ۲ ذی العقدة عام ۱۴۲۴ ه

[۷۰۸] (۱). نهج البلاغة، الرسالة ۴۷

[۷۰۹] (۲).« لأوى من مادة(لأى) على وزن سعى، بمعنى الشدة والمحنة

[۷۱۰] (۳).« غى» بمعنى العمل الطائش أو الجهل النابع من الاعتقاد الفاسد، حسب الراغب فى المفردات

[۷۱۱] (۱). اصول الكافى، ج ۲، ص ۶۰۷(باب من حفظ القرآن ... ذيل الحديث)

[۷۱۲] (۱).« محل» من مادة(محل) على وزن نحل، بمعنى الشكوى الممزوجة بالسعاية والعيب، لكنّها وردت هنابمعنى الشكوى

[۷۱۳] (۲).« حارث» تطلق على الفلاح، من مادة(حرث)، على وزن غرس، بمعنى الزراعة

[۷۱۴] (۱).« استغشوا» من مادة(غش) على وزن مسّ، بمعنى، الخداع والأعمال غير الصالحة، وأريد به فى العبارة، الظن‌بالغش فى العمل

[۷۱۵] (۲). وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۳۹

[۷۱۶] (۳). بحارالأنوار، ج ۸۹ ص ۱۰۷

[۷۱۷] (۱).« الاستقامة» ملازمة الطريق المستقيم والثبات على المسار الصحيح، وفسّره بعض أرباب اللغة، بالإعتدال، وكلاهما بمعنى واحد، كما وردت بمعنى الثبات والرسوخ، والاحتمالان واردان بشأن العبارة ولا مانع من الجمع بينهما

[۷۱۸] (۱). شرح نهج البلاغة للعلّامة الخوئى، ج ۱، ص ۲۰۴

[۷۱۹] (۲).« اخرجوا» من مادة(خروج) ولما كان أداء الحق يخرج الإنسان من المسؤولية فقد وردت بهذا المعنى، وإذاتعدت هذه المفردة بالحرف(من) عنت أداء الحق

[۷۲۰] (۳).« حجيج» من مادة(حج) وردت بمعنى الغلبة، ويطلق الحجيج على من يغلب الخصم بالدليل والبرهان

[۷۲۱] (۱). سورة الاسراء، الآية ۷۱

[۷۲۲] (۲). سورة النحل، الآية ۸۹

[۷۲۳] (۱).« تورّد» من مادة(ورود) بمعنى، الدخول، وتستعمل حين يكون الدخول تدريجياً

[۷۲۴] (۱). للوقوف على المزيد، راجع شرح آيات القضاء والقدر فى التفسير الأمثل، ذيل الآية ۴۹ من سورة القمر، وكتاب دوافع ظهور الدين

[۷۲۵] (۲).« مروق» تعنى فى الأصل، مرور السهم من الهدف، ويطلق المارقين على الخوارج الذين أفرطوا فى الدين‌حتى خرجوا منه

[۷۲۶] (۳).« منقطع» بهم: بمعنى الفرد الذى انتهى متاعه أو أوقف مركبه وسط الطريق ولم يصل الهدف

[۷۲۷] (۱). نقل ذلك الكلام الكثير من مصادر المحدّثين والمؤرخين ومنها: مصنف ابن أبى‌شيبة، ج ۷، ص ۲۵۱؛ وتاريخ دمشق، ج ۵۲، ص ۳۸۰؛ والبداية والنهاية لأبن كثير، ج ۸، ص ۱۴؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۶، ص ۵۱۰ وورد إلى جانب ذلك، قوله: كل شرط أعطيته فهو تحت قدمى(إشارة إلى عدم التزامه بالشروط فى صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام)

[۷۲۸] (۲). سورة فصلت، الآية ۳۰

[۷۲۹] (۳). مجمع البيان ذيل الآية ۱۲۴

[۷۳۰] (۱). سورة آل عمران، الآية ۱۲۴؛ سورة الأحزاب، الآية ۹

[۷۳۱] (۲). مجمع البيان، ذيل الآية المذكورة

[۷۳۲] (۱).« تصريف» بمعنى، التغيير

[۷۳۳] (۱). سورة البقرة، الآية ۱۴

[۷۳۴] (۲).« جموح» من مادة(جمح) الفرس، الذى يغلب صاحبه

[۷۳۵] (۱). نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ۴۰

[۷۳۶] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۳

[۷۳۷] (۱). سورة الاحزاب، الآيتان ۷۰ و ۷۱

[۷۳۸] (۱). ميزان الحكمة، ح ۸۷۷۸

[۷۳۹] (۲). بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۵۱، ح ۳

[۷۴۰] (۱). وسائل الشيعة، ج ۱۹، ص ۳، ح ۳

[۷۴۱] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۸، ص ۲۵۰

[۷۴۲] (۱). راجع النص والاجتهاد للمحقق المرحوم السيد عبدالحسين شرف الدين

[۷۴۳] (۲).« ضرستموها» من مادة(ضرس) على وزن درس، بمعنى، العض أو البعض أو العض الشديد بالأسنان، ثمووردت بمعنى الدراسة الدقيقة للشيء، وهذا هو المراد بها في العبارة

[۷۴۴] (۳). ذكرنا قصّة أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة الذى شكى مظالم المغيرة إلى عمر فلم يُصغِ له فشعر بالبغضوالكراهية له حتى قتله. راجع الجزء الأول من هذا الكتاب، ذيل الخطبة الشقشقية

[۷۴۵] (۱).« أمامه» تعنى فى الأصل جهة الأمام والعبارة(أتاه التقصير من أمامه)، أى، أتاه التقصير علانية

[۷۴۶] (۲). سورة الكهف، الآيتان ۱۰۳ و ۱۰۴

[۷۴۷] (۱). سورة البقرة، الآية ۱۱۷

[۷۴۸] (۲). سورة الأحقاف، الآية ۹

[۷۴۹] (۳). ميزان الحكمة، ح ۱۶۲۹

[۷۵۰] (۴). المصدر السابق، ح ۱۶۳۲

[۷۵۱] (۵). المصدر السابق، ح ۱۶۳۵

[۷۵۲] (۱).« متين» من مادة(متن) يعنى فى الأصل العضلتان القويتان على طرفى العمود الفقرى، ثم أطلق على كلموضوع محكم

[۷۵۳] (۱).« ينابيع» جمع ينبوع، على وزن مقبول، العين

[۷۵۴] (۱).« جواد» تعنى فى الأصل، الفرس السريع، ومن مادة(جود)، معروف، ثم اطلقت على الإنسان المجدوالمستقيم

[۷۵۵] (۲).« قاصد» من مادة(قصد) بمعنى الإعتدال، وعليه فالقاصد، مَن يسير على الدرب دون إفراط وتفريط

[۷۵۶] (۱). سورة النساء، الآية ۴۸

[۷۵۷] (۲).« هنات» جمع(هن) على وزن من، بمعنى الأمر المهم والحادثة الشديدة، كما ورد فى لسان العرب، مادة(هن)، وتطلق أحياناً على الموضوعات الصغيرة قليلة الأهميّة، وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة

[۷۵۸] (۳).« مدى» جمع(مدية) على وزن، بنية، السكين

[۷۵۹] (۴). سورة النساء، الآية ۳۱

[۷۶۰] (۱). سورة الهمزة، الآيتان ۶ و ۷

[۷۶۱] (۲). اصول الكافى، ج ۲، ص ۳۳۳، ح ۱۴

[۷۶۲] (۳). المصدر السابق، ح ۱۵

[۷۶۳] (۱). سورة مريم، الآية ۴۸

[۷۶۴] (۱). سورة الكهف، الآية ۱۶

[۷۶۵] (۲). ميزان الحكمة، ح ۱۲۸۸۴

[۷۶۶] (۳). غرر الحكم، ح ۱۴۱۴ و ۶۵۰۵

[۷۶۷] (۴). المصدر السابق

[۷۶۸] (۵). كنز العمال، ج ۱، ص ۲۰۶، ح ۱۰۲۸

[۷۶۹] (۶). نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۷

[۷۷۰] (۱). بحار الأنوار، ج ۴۷، ص ۶۰، ح ۱۱۶

[۷۷۱] (۲). غرر الحكم، ح ۸۱۵۱

[۷۷۲] (۱). سند الخطبة:

روى هـذه الخطبة مع اضافات كثيرة، المؤرخ المعروف، الطبرى، في تاريخه في حوادث سـنة ۳۷ هجريـة عن أبى مخنف، وقد خاطب بها أصـحاب النهروان. وقـد ذكر الإمام على عليه السـلام فى بداية الخطبة أموراً بشأن الحكمين وأخطائهما، ثم بيّن(باختلاف) ما رواه المرحوم السيد الرضى(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۴۲۸) ولا يبعد أن تكون هذه الخطبة جزءاً من الخطبة ۱۲۸

[۷۷۳] (۱).« ملأ» تعنى لغوياً، ما يملأ العين ويثير إعجاب الناظر، ومن هنا تطلق على الجماعـة الكثيرة المتفقـة فى الرأىوالعقيدة والتى يملأ تجمعها العين، ومادة هذه الكلمة وكلمة مملوء واحدة

[۷۷۴] (۲).« يجعجع» من مادة(جعجعة) تطلق فى الأصل على بروك البعير، ثم استعملت بمعنى الخضوع والإستسلام

[۷۷۵] (۳).« تاه» من مادة(تيه) بمعنى، الحيرة والضلال

[۷۷۶] (۱). سورة المائدة، الآية ۵۵

[۷۷۷] (۱). راجع مَن ذكر سبب نزول الآيـة فى على عليه السـلام ومنهم، الطبرى وابن هشام والحلبى واليعقوبى وأحمد بن‌حنبل وابن الجوزى وابن الصبّاغ المالكى(الغدير، ج ۲، ص ۴۸-/ ۴۹)

[۷۷۸] (۲). سورة البقرة، الآية ۲۰۷

[۷۷۹] (۳). سورة البينة، الآية ۷

[۷۸۰] (۴). راجع شواهد التنزيل والصواعق المحرقة والدر المنثور ونور الأبصار وتفسير الطبرى وكتاب آيات الولاية لسماحة المؤلّف

[۷۸۱] (۱). سند الخطبة:

روى الشيـخ صـدوق، إلى جانب كتابه الخصال، جانباً من هذه الخطبة، وشـرح ابن أثير فى كتابه(النهاية) مفرداتها الصـعبة، كما روى بعضها الزمخشرى، فى(ربيع الأبرار)(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۴۳۵)

[۷۸۲] (۱).« يحوى» من مادة(حواية) على وزن شفاعة، بمعنى الإحاطة بالشىء

[۷۸۳] (۱). أصول الكافى، ج ۳، ص ۳۲۴، ح ۱۲. مناجاة النبى عند سجوده منتصف الليل

[۷۸۴] (۲).« يعزب» من مادة(عزوب) على وزن غروب، بمعنى الإبتعاد والإختفاء، ومن هنا يقال، الأعزب

[۷۸۵] (۳).« سوافى» جمع سافية، بمعنى، الريح الشديدة

[۷۸۶] (۴).« دبيب» المشى البطىء

[۷۸۷] (۵).« صفا» جمع صفاة، على وزن وفا، بمعنى، الحجر الأملس الضخم

[۷۸۸] (۶).« مقيل» من مادة(قيلولة) النوم قبل الزوال، ومقيل اسم مكان بمعنى، موقع الراحة والنوم منتصف النهار

[۷۸۹] (۷).« ذر» جمع ذرة، وهى صغار النمل

[۷۹۰] (۸).« طرف» بمعنى جفن العين، وترد بمعنى النظر وتحريك الأجفان

[۷۹۱] (۱). سورة لقمان، الآية ۲۷

[۷۹۲] (۲).« معدول» من مادة(عدل) على وزن علم، بمعنى التشبيه والمثيل

[۷۹۳] (۳).« صفت» من مادة(صفا) بمعنى طهرت

[۷۹۴] (۴).« دخله» بمعنى، باطن الشيء

[۷۹۵] (۱).« معتام» من مادة(عيم) على وزن غيب، تعنى فى الأصل الشغف باللبن، والمعتام هنا، الشخص الشديدالحب لإتيان الوظيفة المكلف بها

[۷۹۶] (۲).« عقائل» جمع عقيلة، بمعنى اقتطاف كل شيء، ومن هنا يقال للجوهرة الثمينة عقيلة البحر

[۷۹۷] (۳).« غِربيب» تعنى الشيء الأسود المعتم، وتعنى هنا، ظلمة الجهل

[۷۹۸] (۱). كنز العمال، ج ۳، ص ۱۶، ح ۵۲۱۷۵

[۷۹۹] (۱).« مخلد» من مادة(خلد وخلود) الشخص الذى يسكن مكاناً بصورة دائمية وتشير فى العبارة إلى من التصقبالدنيا

[۸۰۰] (۲).« تنفس» من مادة(نفاسة) بمعنى الثمين، ووردت هنا، بمعنى الأهميّة

[۸۰۱] (۱).« غض» النظر والجديد

[۸۰۲] (۲).« اجترحوا» من مادة(جرح) وما يصيب البدن من ضرر ويبقى أثره، واجتراح، بمعنى، الإتيان بالذنب، وكأنّ الإنسان يجرح نفسه، ثم توسع هذا المعنى ليطلق على كل اكتساب وارتكاب

[۸۰۳] (۳). سورة الرعد، الآية ۱۱

[۸۰۴] (۴). سورة الاعراف، الآية ۹۶

[۸۰۵] (۵). وردت فى كلمات العلماء وهى مقتبسة من الأحاديث الإسلامية، مثل قول الإمام الصادق عليه السلام« إنّ أشَدَّالنّاسِ بَلاءًالأنبياءُ ثُمَالَّذينَ يَلُونَهُم ثُمَالأَمثلُ فَالأَمثل».(أصول‌الكافى، ج ۲، ص ۳۵۲ باب شدة ابتلاء المؤمن)

[۸۰۶] (۱). سورة الشورى، الآية ۳۰

[۸۰۷] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۵۵

[۸۰۸] (۳). سورة الروم، الآية ۴۱

[۸۰۹] (۴).« وله» بمعنى الحيرة، من شدّة الحزن حتى يفقد الإنسان أحياناً عقله ووعيه، ومن هنا اطلقت على العشق‌الذى يسلب عن الإنسان سكونه وواعيته

[۸۱۰] (۵). شارد الشخص الذى يفر من الطريق أو ينحرف

[۸۱۱] (۶). اصول الكافى، ج ۲، ص ۴۶۹، باب الدعاء يرد البلاء، ح ۵

[۸۱۲] (۱).« فترة» تعنى فى الأصل، التوقف والضعف والعجز، ومن هنا هى تطلق على الفاصلة بين برنامجين لإيقاف‌الأعمال، وحيث تمتزج بالغفلة استعملت لهذا المعنى

[۸۱۳] (۲). ذهب كأغلب شرّاح نهج البلاغة ومترجميه، إلى ترجمة هذه العبارة بمعنى:« إذا أردت أن أقول شيئاً قلت، عفا اللَّه عمّا سلف»، ولكن هذا المعنى بعيد، لأنّه ما ورد فى كلام الشيخ المفيد فى كتاب« الجمل» وفى كتاب« مناقب» حسب ما نقله كتاب« تمام نهج البلاغة» بوجود(لكن) قبل العبارة« عفا اللَّه عمّا سلف»، فعليه أنّ جملة« عفا اللَّه عمّا سلف» دعاء لأولئك، وهذا ما تقتضيه العلاقة بين هذه الجملة والجمل التى سبقتها: واختار عدّة من الشرّاح هذا المعنى، راجع الكتب، معارج نهج البلاغة، تأليف البيهقى، بحار الأنوار، العلّامة المجلسى، ج ۲۹، ص ۵۹۹، وشرح حدائق الحقائق، البيهقى، ج ۲، ص ۹۴، وشرح المرحوم الخوئى، ج ۱۶، ص ۳۵۹

[۸۱۴] (۱). سند الخطبة:

وردت العبارة المذكورة(باختلاف فيها) فى عدّة كتب معتبرة من كتب علماء الشيعة بطرق متعددة قبل تأليف نهج البلاغة، ومنها

المرحوم الكلينى فى الجزء الأول من أصول الكافى حيث نقلها فى بابين، والمرحوم الصدوق فى كتاب التوحيد والمرحوم الشيخ المفيد فى الإرشاد. ومن علماء العامة ابن الجوزى الحنفى فى كتابه(التذكرة) عن ابن عباس(مصادر نهج البلاغة، ج ۲، ص ۴۳۷)

[۸۱۵] (۱). توحيد الصدوق، ص ۳۰۵ الباب ۴۳، ح ۱ و ۲

[۸۱۶] (۱). سورة الأنعام، الآية ۷۵

[۸۱۷] (۱). سورة يوسف، الآية ۹۴

[۸۱۸] (۲). الكامل لابن أثير، ج ۲، ص ۱۷۹

[۸۱۹] (۳). اصول الكافى، ج ۲، ص ۵۳(باب حقيقة الإيمان واليقين، ح ۲)

[۸۲۰] (۴). للوقوف على المزيد وفهم معنى الشهود وأسبابه وموانعه(راجع نفحات القرآن، ج ۱، ص ۱۹۳)

[۸۲۱] (۵).« ملابس» اسم فاعل من مادة(ملابسة) بمعنى، الإختلاط والإلتصاق بشىء

[۸۲۲] (۱).« روية» من مادة(تروية) تعنى، أحياناً، الشبع من الماء، كما وردت بمعنى التفكير

[۸۲۳] (۲).« همة» من مادة(همّ) بمعنى العزم على الإتيان بشىء، كما تعنى، الهم الذى يشغل فكر الإنسان، والنوع الأول هو المراد

[۸۲۴] (۳). نهج البلاغة، الخطبة ۱

[۸۲۵] (۱).« تعنو» من مادة(عنو) على وزن غلو، بمعنى، تذل وتخضع

[۸۲۶] (۲).« تجب» من مادة(وجوب) تعنى أحياناً، الثبوت، وأخرى السقوط والوقوع ولازمته الثبوت والاستقرار، وإن وردت بشأن القلب عنت الاضطراب

[۸۲۷] (۳). سورة المؤمنون، الآية ۶۰

[۸۲۸] (۱). سند الخطبة:

روى هذه الخطبة قبل السيد الرضى، إبراهيم بن هلال الثقفى، فى(الغارات) عن حبيب بن عبداللّه.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۴۳۹ و ۴۴۰)

[۸۲۹] (۱).« خضتم» من مادة(خوض) على وزن حوض، قال الراغب فى المفردات، الورود شيئاً فشيئاً فى الماء والمشى‌فيه، ثم وردت بالمعنى الكنائى للشروع بالأعمال السيئة أو الأقوال القبيحة

[۸۳۰] (۲).« خرتم» من مادة(خوار) الصراخ وحيث ينشىء الصراخ من الضعف فهى تعنى الضعف أو العجز

[۸۳۱] (۳).« أُجئتم» من مادة(أجاء) وجذرها مجىء، جلب الشخص أو الشىء، وعليه إن اجئتم بمعنى أن جلبوكم

[۸۳۲] (۴).« مشاقة» بمعنى الصعوبة أو الخصومة والعداة من مادة(شق) على وزن حق

[۸۳۳] (۵).« نكصتم» من مادة(نكص) على وزن عكس، الرجوع إلى الوراء، القهقرى

[۸۳۴] (۶). اعتبر أغلب شرّاح نهج البلاغة العبارة« الموت أو الذل» لكم نوعان من اللعن والدعاء عليهم، أى متّم أوذللتم، وهى ليست كذلك فقد أراد الإمام عليه السلام أن يبيّن وهنهم وضعفهم فى الجهاد، أى أنّ نتيجة عملكم إمّا الموت أو الذلة، لاسيّما أنّ العبارة التى وردت قبلها« لا أبا لغيركم!» والعبارة اللاحقة« للَّه أنتم!» تفيد أنّه لم يكن فى مقام الدعاء عليهم، وقد أذعن الشرّاح بأنّه تلطف من الإمام عليه السلام بتوجيه الدعاء لغيرهم

[۸۳۵] (۷). نهج البلاغة، الخطبة ۵۱

[۸۳۶] (۱).« قال» بمعنى العدو، ومن مادة(قلا)، على وزن نداء، بمعنى، شدة البغض والعداء

[۸۳۷] (۱).« حمية» بمعنى الغيرة والشخصية والتعصب، كما وردت بمعنى التكبر وأصلها من مادة(حماية)، لأنّ مثل هذه الصفات سبب لحماية الشخص أو الشىء

[۸۳۸] (۲).« تشحذ» من مادة(شحذ) على وزن قبض، بمعنى حد، وتستعمل فى المسائل المعنوية كالذكاء والفطنة

[۸۳۹] (۱).« الجفاة» جمع جافٍ، الشخص الغليظ والسيء الخلق، من مادة(جفاء)

[۸۴۰] (۲).« الطغام» جمع طغامة، بمعنى، ضعاف الفكر وأراذل الناس

[۸۴۱] (۳).« تريكة» من مادة(ترك) والمراد به، الشخص أو الشيء المتبقى، والمراد هنا المتبقون من شخصيات صدرالإسلام

[۸۴۲] (۱).« دارستكم» من مادة(مدارسة) بمعنى، التدريس والتعليم والتفهيم

[۸۴۳] (۲).« حجاج» جمع حجة، بمعنى الدليل والبرهان، ولها أحياناً معنى مصدرى وتستعمل بصيغة المفرد

[۸۴۴] (۱).« سوغتكم» من مادة(تسويغ) جعلت الشيء سائغاً، ثم استعملت بمعنى، الأذن

[۸۴۵] (۲).« مججتم» من مادة(مج) على وزن حج، بمعنى رمى الماء أو شيء آخر من الغم، ثم استعملت بمعنى كنائى هو إبراز الكراهية من شيء

[۸۴۶] (۳).« أقرب» بقوم من قبيل صيغة التعجب، حيث يبدى الإمام عليه السلام تعجبه بهذه الصيغة من الأفراد الجهال الذين استسلموا لخطط معاوية

[۸۴۷] (۴).« نابغة» تعنى فى الأصل الفرد المشهور والعبقرى، من مادة(نبوغ)، وتطلق أحياناً على الفرد المشهوربالفساد، ليس لها داعٍ هنا

[۸۴۸] (۵). تاريخ الطبرى، ج ۴، ص ۳۱ حوادث سنة ۳۷ هجرية

[الجزء السابع

الخطبة ۱۸۱

اشارة

وقَدْ أَرْسَلَ رَجُلًا مِنْ أَصْحابِهِ، يَعْلَمُ لَهُ عِلْمَ أَحْوالِ قَوْم مِنْ جُنْدِ الْكُوفَةِ، قَد هَمُّوا بِاللِّحاقِ بِالْخَوارِجِ، وكانُوا عَلى خَوْف مِنْهُ عليه السلام، فَلَمّا عادَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ قالَ لَهُ: «أأمِنُوا فَقَطَنُوا[۱]، أم جبنوا فَظَعَنُوا[۲]؟» فَقالَ الرَّجُلُ: بَلْ ظَعَنُوا ياأَميرَالْمُؤمنينَ. فَقالَ عليه السلام:

[۳]

نظرة إلى الخطبة

لابدّ من التعرف على سبب ذكر هذا الكلام الذى ورد فى الخطبة بغية الوقوف على معناها.

إنّ رجلًا يُدعى الخريت بن راشد أحد بنى ناجيّة قد شهد مع على عليه السلام صفين

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۶

فجاء بعد تحكيم الحكمين فى ثلاثين من صحبه (وفى رواية الطبرى ثلاثمائة) فقال:

«وَاللَّهِ ياعَلىُّ لا أُطيعُ أَمْرَكَ ولا أُصلّى خَلْفَكَ وإِنّى غَداً مُفارِقُكَ».

فقال الإمام عليه السلام:

«ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ إذاً تَعْصِى رَبَّكَ وتَنْكِثُ عَهْدَكَ وَلا تَضُرُّ إلَّا نَفْسَكَ»

، «أَخبِرنِى لِمَ تَفْعَلْ ذَلِكَ؟»

قال:

«لأنّکَ حَکَمْتَ فِی الکِتابِ وَضَعُفْتَ عَنِ الحَقِّ إذا جَدّ الجَدُّ فَأنا عَلَیکَ رَادٌّ وَلَکُم جَمِیعاً مُباینٌ».

فقال علیه السلام:

«وَیحَکَ هَلُمَّ إلیّ أُدارِسُکَ وَأُناظِرُکَ فِی السُّننِ وأُفَاتِحُکَ أمُوراً مِنَ الحَقِّ أنَا أعلَمُ بِها مِنْکَ فَلَعَلَّکَ تَعرِفُ ما أنْتَ الآنَ لَهُ مُنکِرٌ».

فقال الخریت:

«فإنّی غادٍ عَلَیکَ غَداً».

فقال علیه السلام:

«أُغدو وَلا یَستَهوِینَّکَ الشَّیطانُ وَلا یَتَقَحَمِنَّ بِکَ رَأی السُّوء وَلا یَسْتَخِفَنَّکَ الجُهلاءُ الّذین لایَعلَمُونَ، فَوَاللّهِ إن اسْتَنْصَحْتَنِی وَاسْتَرْشَدتَنِی وَقَبِلْتَ مِنّی لأهدِیَنَّکَ سَبِیلَ الرَّشادِ»[۴].

فقرر هذا الرجل الجاهل الإلتحاق بقومه من الخوارج لیبتلی بذلک المصیر الأسود، وإثر ذلک بعث الإمام علیه السلام أحد أصحابه خلف هذا الرجل علّه یتراجع عن موقفه، ولکن سرعان ما عاد مبعوث الإمام علیه السلام لیخبره بإلتحاقه وصحبه بالخوارج ومغادرته الکوفة.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۷

بُعْداً لَهُمْ «کَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ»! أَمَا لَوأُشْرِعَتِ الأَسِنَّةُ إِلَیْهِمْ، وصُبَّتِ السُّیُوفُ عَلَی هَامَاتِهِمْ، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَی مَا کَانَ مِنْهُمْ. إنَّ الشَّیْطَانَ الْیَوْمَ قَدِ اسْتَقَلَّهُمْ، وهُو غَداً مُتَبَرِّیءٌ مِنْهُمْ، ومُتَخَلٍّ عَنْهُمْ. فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَی، وَارْتِکَاسِهِمْ فِی الضَّلَال وَالْعَمَی، وصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وجِمَاحِهِمْ فِی التِّیهِ.

الشرح والتفسیر: مصیر المشککین الجهّال

کما مضی سابقاً کان الکلام من قبل فئة قلیلة جاهلة ومتعصبة أشکلت علی الإمام علیه السلام بسبب استجابته لتحکیم القرآن، والحال هذا وأمثاله ممّا کانوا قد مارسوا ضغوطهم علی الإمام علیه السلام لقبول التحکیم، والأسوأ من ذلک وإثر اعتراضهم علی الإمام علیه السلام الذی یمثل محور الهدی انشقّوا عنه وإلتحقوا بالخوارج محور الجهل والتعصب والضلال، ویشرح الإمام علیه السلام فی هذه الخطبة عوامل تعاسة هذه الفئة الضالّة بغیة تجنّب الآخرین السقوط فی هذا المستنقع فقال علیه السلام:

«بُعْداً[۵] لَهُمْ

«کَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ»

!». کان هذا التعبیر إشارة لما ورد فی القرآن الکریم بشأن قوم ثمود إذ قال تعالی

«أَلَا بُعْداً لِّمَدْیَنَ کَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ»[۶] والذی کان لعنة لقوم شعیب الوثنیین، کما کان إشارة إلی الجهات المشترکة بین هؤلاء القوم الضالّین وقوم شعیب وقوم صالح،

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۸

حیث کان هؤلاء اناساً متکبرین ومغرورین وردت قصّتهم فی عدّة سور من القرآن الکریم، ثم قال علیه السلام:

«أَمَا لَو أُشْرِعَتِ ۷] الأَسِنَّةُ إِلَیْهِمْ، وصُبَّتِ السُّیُوفُ عَلَی

هَامَاتِهِمْ ۸]، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَی مَا کَانَ مِنْهُمْ، إنَّ الشَّیْطَانَ الْیَوْمَ قَدِ اسْتَقَلَّهُمْ ۹]، وهُو غَداً

مُتَبَرِّیءٌ مِنْهُمْ، ومُتَخَلٍّ عَنْهُمْ».

یشیر هذا الکلام فی الواقع إلی ما ورد مراراً فی القرآن الکریم بخصوص الطغاة الغافلین الذین ما أن یرکبوا السفینة وتغشاهم أمواج

البحار الهادرة ويستشعروا بالخطر حتى تطرح عنهم حجب الغفلة ويتوجّهون إلى اللّه، ولكن سرعان ما يعودون لتلك الغفلة إذا ما بلغوا ساحل النجاة[۱۰].

كما يشير أيضاً إلى ما ورد كراراً فى القرآن الكريم أنّ الشيطان ۱۱] وأئمّة الضلال ۱۲] يتبرأون يوم القيامة من أتباعهم.

ثم قال عليه السلام:

«فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى، وَارْتِكَاسِهِمْ ۱۳] فِى الضَّلَال وَالْعَمَى،

وصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وجِمَاحِهِمْ ۱۴] فِى التِّيهِ».

إشارة إلى أنّه نتيجة تلك اللجاجة التيه فى الضلال والحيرة والإبتعاد عن الهدى وهذا المصير الأسود الذى يصنعه كلّ إنسان لجوج وجاهل، جدير بالذكر أنّه يستفاد من هذا الكلام وتلك المقدّمة التاريخية الواردة فى سبب ذكره:

إنّ الإمام عليه السلام كان رحيماً حتى بالأفراد من أهل اللجاجة والجهل والتعصب، وكان

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۹

يسعى قدر المستطاع لإصلاحهم، وإن لم تؤثر مواعظه البليغة كان يقرعهم بكلمات عنيفة ويريهم عاقبة أعمالهم فى الدنيا والآخرة لعلّهم يفيئون إلى الحقّ.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۱

الخطبة ۱۸۲

اشارة

رُوىَ عَنْ نَوْفِ الْبَكّالى قالَ: خَطَبَنا بِهذِهِ الْخُطْبَةِ أَميرُالْمؤمنينَ عَلىٌّ عليه السلام بِالْكُوفَة وهُوقائِمٌ عَلى حِجارَة، نَصَبَها لَهُ جُعْدَةُ بنُ هُبَيْرَةَ[۱۵] الْمَخْزُومى، وعَلَيْهِ مِدْرَعَةٌ[۱۶] مِنْ صُوف

وحَمائِلُ سَيْفِهِ لِيفٌ، وفى رِجْلَيْهِ نَعْلانِ مِنْ لِيف، وكأنّ جَبينَه ثَفِنَةُ[۱۷] بَعير[۱۸]

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من أواخر هذه الخطبة أنّ الإمام عليه السلام خطبها قبل شهادته بأسبوع، وهدفه

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۲

منها إعداد الناس لجهاد معاوية ولصوص الشام، واستجابوا لدعوته فتقاطروا عليه أُلوفاً مؤلفة، ولكن للأسف ....

خاض الإمام عليه السلام فى استعراض عدّة أمور من هذه الخطبة بغية إثارة أرواحهم وعواطفهم لمواجهة الأعداء الظلمة، فاستهلّ حديثه فى القسم الأوّل والثانى والثالث من الخطبة بحمد اللّه والثناء عليه إلى جانب بيان صفاته الجماليّة والجلاليّة ومن ثم وحدانيته وعلمه المطلق بذرات الوجود كافّة، وأنّ ذاته وصفاته أسمى من أن يستوعبها الفكر، كما لا يقوى على ذلك الأمر حتى الملائكة المقرّبون.

ثم تطرق الإمام عليه السلام فى القسم الرابع إلى الورع والتقوى والزهد فى الدنيا، وبين جوانب من سيرة سالف الأنبياء مثل نبى اللّه

سليمان عليه السلام الذى عاش الزهد فى الدنيا مع ما كان لديه من الملك.

وبين فى القسم الخامس من الخطبة المصير الأسود الذى طال طغاة العالم كالفراعنة والعمالقة وأصحاب الرسّ الذين قتلوا أنبياء اللَّه وسعوا لإطفاء نور اللَّه، ولكن سرعان ما صرعوا وغادروا الدنيا.

وأشار فى الفصل السادس إلى ظهور المهدى عليه السلام وتشكيل حكومة العدل العالميّة وتطرق إلى جانب من فضائله ومناقبه.

وخاض فى القسم السابع ثانية فى الوعظ والإرشاد، وتحدّث عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها وتفاهتها، وذكر شهداء صفين الذين عانقوا الشهادة وبكى عدداً من أصحابه مثل عمار بن ياسر وابن التيهان وخزيمة ذى‌الشهادتين، ثم مدحهم على طاعتهم لأوامر اللَّه وإحيائهم لسنّة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وإماتتهم البدع واستعدادهم الدائم للجهاد.

وأصدر فى القسم الثامن من خطبته أمره بالجهاد ودعى الجميع للإلتحاق بسوح الوغى.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۳

القسم الاوّل

اشارة

الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ، وعَوَاقِبُ الأَمْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، ونَيِّرِ بُرْهَانِهِ، ونَوَامِى فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، ولِشُكْرِهِ أدَاءً، وإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرِّباً، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً. ونَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ. ونُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ رَجَاهُ مُوقِناً، وأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وخَنَعَ لَهُ مُذْعِناً، وأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وعَظَّمَهُ مُمَجِّداً، ولَاذَ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً.

الشرح والتفسير: هو من يستحق الشكر

ينبغى قبل الشروع فى شرح هذه الخطبة الإشارة إلى شخصية (نوف البكالى) راوى هذه الخطبة، لا شك ولا ريب فى أنّه من أصحاب الإمام على عليه السلام وقيل حاجبه، ويعتقد البعض أنّه من قبيلة حمير التى سكنت اليمن، بينما يراه البعض الآخر من قبيلة همدان، وهنالك كلام فى لقبه، قيل بَكّال (على وزن فَعّال) وقيل بِكال (على وزن كِتاب) وقيل بَكال (على وزن طَواف)، على كلّ حال فقد كان رجلًا عفيفاً ومؤمناً ووفياً.

***

استهل الإمام عليه السلام هذا القسم من الخطبة بحمد اللَّه والثناء عليه بهدف إعداد قلوب المخاطبين وإزالة صدأ الغفلة عنها، ثم استعان بذاته المقدّسة وأبرز إيمانه المطلق بها

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۴

فقال فى الحمد والثناء:

«الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى إِلَيْهِ مَصَائِرُ[۱۹] الْخَلْقِ، وعَوَاقِبُ الأَمْرِ».

نعم فمنه تعالى بداية الخلق وإليه المصير، فموجودات هذا العالم كافّة من فيض وجوده وستؤول عاقبة أمرها إليه، وهذه إشارة إلى قضية المعاد ويوم القيامة فالحديث فى هذه العبارة عن مبدىءٍ نحمده ونثنى عليه.

ولكن لم هذا الحمد والثناء؟ قال عليه السلام:

«نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، ونَيِّرِ بُرْهَانِهِ، ونَوَامِی ۲۰] فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ».

العبارة:

«عَظِيمِ إِحْسَانِهِ»

يمكن أن تكون إشارة إلى نعمة الإيمان والاعتقاد الخالص باللّه تعالى بقرينة

«نَيِّرِ بُرْهَانِهِ»

التى تشير إلى الأدلّة الواضحة، وكما يمكن أن تكون إشارة إلى نعمة الحياة والخلق التى تعدّ من أعظم نعم اللّه، إلّاأنّ التفسير الأوّل أنسب، والعبارة:

«ونَوَامِی فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ»

إشارة إلى تكامل الإنسان فى المجالات الماديّة والمعنويّة والتى تعدّ من النعم الإلهيّة الكبرى.

ثم خاض عليه السلام فى بيان كيفية هذا الحمد فقال:

«حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، ولِشُكْرِهِ أَدَاءً، وإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرِّباً، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً».

من البديهى أن لا ـ يسع أحد أداء حقّ الشكر والحمد للّهتبارك وتعالى، ويعجز عن ذلك حتى جميع الأنبياء والأولياء والملائكة المقرّبين، وعليه فالمراد من الأداء ما كان فى وسع الإنسان والذى يوجب ثواب اللّه ونيل المزيد من نعمه.

وعلى هذا الأساس تطرق فى هذه الجملات الحكيمة، تارة الصفات الإلهيّة وإحسانه ونِعمه، وتارة أخرى إلى أساس النعم المتنوعة الإلهيّة وأصولها، وفى الثالثة إلى كيفية الحمد والشكر، وبذلك تطرق إلى مجموعة كاملة من الصفات الإلهيّة ونعمه.

ثم تطرق بعد الحمد- كما ورد شبيه ذلك فى سورة الفاتحة- إلى الاستعانة باللّه

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۵

تبارك وتعالى فقال:

«ونَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ ۲۱]، مُذْعِنٍ ۲۲] لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ».

تشير هذه العبارات الخمس إلى مواضيع متنوعة؛ الأوّل: الحديث عن الأمل بفضل اللّه فى الأمور المعنويّة، والثانى: الأمل والرجاء فى المنافع والمصالح الماديّة، والثالث: الثقة بدفع الآفات والمضرّات عن العباد، والرابع: مقام الاعتراف بالنعم، وأخيراً أداء حقّ الشكر بالقول والعمل.

فقد اتّجه الإمام عليه السلام بعد بيانه لما يستحق اللّه تعالى من حمد واستعانة تامة بذاته المقدّسة الإفصاح عن إيمانه بالذات المقدّسة، وهو الإيمان الذى انطوى على جميع المزايا فقال عليه السلام:

«ونُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ رَجَاهُ مُوقِناً، وأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وخَنَعَ ۲۳] لَهُ

مُذْعِناً، وأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وعَظَّمَهُ مُمَجِّداً، ولَاذَ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً».

حقّاً إنّ الإيمان الذى ينطوى على كلّ هذه الصفات ويختزن كلّ هذه الآثار لهو أرفع إيماناً وأرسخ عقيدة، ولا يتأتّى مثل هذا الإيمان إلّامن خلال تطهير القلب من دنس المعصية والإبتعاد عن الأهواء والسعى إلى تهذيب النفس والتوجه إلى اللّه سبحانه وتعالى، ولعلّ هنالك من يتساءل: لماذا استهل الإمام عليه السلام كلامه بحمد اللّه والثناء عليه ثم استعان بذاته المقدّسة ليتجه أخيراً إلى الإيمان، والحال أنّ الإيمان هو دافع الحمد والاستعانة؟

والجواب عن ذلك، إنّ الإيمان الذى تطرق إليه الإمام عليه السلام هنا هو الإيمان الجامع للكمال، والذى لا يحصل إلّابعد حمد اللّه والإستعانة بذاته المقدّسة وما وجب سابقاً قبل الحمد والإستعانة إنّما يمثل المراحل الابتدائية للإيمان.

نفحات الولايۀ، ج۷، ص: ۱۷

القسم الثانی

اشارۀ

لَمْ یُولَدْ سُبْحَانَهُ فَیَکُونَ فِی الْعِزِّ مُشَارَکاً، ولَمْ یَلِدْ فَیَکُونَ مَوْرُوثاً هَالِکاً.

ولَمْ یَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ ولَا زَمَانٌ، ولَمْ یَتَعَاوَرْهُ زِیَادَةٌ ولَا نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِیرِ الْمُتْقَنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ. فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَات بِلَا عَمَد، قَائِمَات بِلَا سَنَد. دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَات مُذْعِنَات، غَیْرَ مُتَلَکِّئَات ولَا مُبْطِئَات؛ ولَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِیَّةِ وإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِیَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ، ولَا مَسْکَناً لِمَلَائِکَتِهِ، ولَا مَصْعَداً لِلْکَلِمِ الطَّیِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ.

الشرح والتفسیر: دلالۀ السماء علی اللّه

قال الإمام علیه السلام فی هذا القسم من الخطبۀ- فی مواصلۀ شرح صفات اللّه التی تصدرت بها الخطبۀ:

«لَمْ یُولَدْ سُبْحَانَهُ فَیَکُونَ فِی الْعِزِّ مُشَارَکاً، ولَمْ یَلِدْ فَیَکُونَ مَوْرُوثاً هَالِکاً، ولَمْ یَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ ولَا زَمَانٌ، ولَمْ یَتَعَاوَرْهُ ۲۴] زِیَادَةٌ ولَا نُقْصَانٌ».

إنّ من بین القوانین التی تحکم عالم المادۀ والممکنات أنّ کلّ جماعۀ ترد الحیاۀ تفارقها بعد مدّۀ لتحل محلها طائفۀ أخری فالأبناء یرثون صفات الآباء، کما ینقل هؤلاء صفاتهم إلی الأبناء، وبما أنّ الذات الإلهیّۀ أزلیّۀ وأبدیّۀ فهی لم تولد من أحد لیکون لها مثیل ولم یولد منها أحد لیرثها.

نفحات الولایۀ، ج۷، ص: ۱۸

والعبارۀ:

«ولَمْ یَتَقَدَّمْهُ ...»

إشارۀ إلی أنّه یفوق الزمان؛ لأنّ الزمان نتیجۀ لحرکۀ الموجودات من النقص إلی الکمال وبالعکس، وبما أنّ وجوده المقدّس عین کماله المطلق ولیس للزیادۀ والنقصان من سبیل إلی ذاته فلا معنی لطرو الوقت والزمان علیه ۲۵].

وحیث إنّ نفی الشبیه والنظیر والزمان والزیادۀ والنقصان عن ذاته القدسیّۀ ربّما یخلق وهماً یتمثل فی تعطیل معرفۀ اللّه، وبعبارۀ أخری إنعدام السبیل إلی معرفته؛ فقد قال:

«بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِیرِ الْمُتْقَنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ».

إشارۀ إلی أنّ الذات القدسیّۀ وإن کانت خارجۀ عن متناول العقول البشریّۀ إلّاأنّ إثبات أصل وجودها ممکن من خلال تأمّل نظام الخلیقۀ والتدبیر الحکیم الذی یحکمه، وهذا ما أشارت إلیه بعض الروایات الإسلامیّۀ التی حث علی عدم الاستغراق فی الذات المقدّسۀ، بل التفکیر فی آثار قدرته وعظمته وعلمه فی عالم الوجود، الأمر الذی جعله القرآن الکریم محوراً فی معرفۀ اللّه ودعی أصحاب الفکر وأولوا الألباب إلی التفکیر علی الدوام فقال تعالی «انَّ فِی خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّیْلِ وَالنَّهَارِ لآیَاتٍ لِاولِی الأَلْبَابِ* الَّذِینَ یَذْکُرُونَ اللَّهُ قِیاماً وَقُعُوداً وَعَلَی جُنُوبِهِمْ وَیَتَفَکَّرُونَ فِی خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَکَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»[۲۶].

ثم رکز الإمام علیه السلام علی مصادیق هذا البیان الکلّی والعام فقال:

«فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَات ۲۷] بِلَا عَمَد[۲۸]، قَائِمَات بِلَا سَنَد[۲۹]».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۹

ثم أشار إلى هذه الحقيقة:

«دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَات مُذْعِنَات، غَيْرَ مُتَلَكِّئَات ۳۰] ولَا مُبْطِئَات».

يبـدو هنالـك رأيان بشأن المراد من طاعـة السـماوات لأوامر اللَّه وإقرارها بربوبيّته تعالى؛ قال البعض: إنّ المراد الإقرار والطاعـة بلسان الحال، أى أنّ اللَّه سبحانه وتعالى خلقها بهـذه الصـيغة بحيث تعيش حالة التسـليم له من حيث نظام العلّة والمعلول وقوانين الخلق دون أن يكون لها أيّة إرادة أو علم، لأنّها موجودات جامدة ولا روح لها.

وقال البعض: إنّ العبارات أعلاه تـدلّ على أنّ جميع عالم الوجود- من الإنسان والحيوان والجماد وجميع الكواكب السـماويّة- له عقل وشعور، وقد أقرّوا بإرادتهم على ربوبيّته تعالى وأذعنوا له بالطاعة.

طبعاً هذان التفسيران صحيحان ولا يختلفان عمّا أراد الإمام عليه السلام بيانه، لأنّ الهدف بيان عظمة الخلق وتسليم عالم الوجود لأمر اللَّه تبارك وتعالى.

ثم قال عليه السلام:

«وَلَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ[۳۱]، لَمَا جَعَلَهُنَ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ، ولَا مَسْكَناً لِمَلَائِكَتِهِ، ولَا مَصْعَداً[۳۲] لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ».

أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة إلى أنّ طاعة السماوات لأوامر اللَّه منحها ثلاثة امتيازات: الأوّل: أنّها موضع عرش اللَّه، والثانى: مسكن لملائكته، والثالث: موضع لصعود الأعمال والأقوال الصالحة للعباد؛ بمعنى أنّ حفظة الأعمال وكتبة الأفعال

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۰

تكتبها فى سجل الأعمال ويرفع إلى السماء ما يستحق منها القرب الإلهى.

ومن الطبيعى أن يختار اللَّه تعالى موضعاً لهذه الأمور خاضعاً لسيطرته وهيمنته، وبعبارة أخرى بما أنّ جميع السماوات فى قبضته فقد أسبغ عليها تلك الأمور، والتعبير بالملائكة فى العبارة المذكورة إشارة إلى الملائكة المقربين، وإلّا فللملائكة حضور فى العالم برمته من أرض وسماء.

وأمّا حقيقة العرش فهذا ما سيأتى شرحه فى هذه الخطبة إن شاء اللَّه.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۱

القسم الثالث

اشارة

جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَاماً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِى مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الْأَقْطَارِ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ادْلِهْمَامُ سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، ولَا اسْتَطَاعَتْ جَلَابِيبُ سَوَادِ الْحَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِى السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلَأْلُؤِ نُورِ الْقَمَرِ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَايَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ دَاجٍ، وَلَا لَيْلٍ سَاجٍ، فِى بِقَاعِ الْأَرَضِينَ الْمُتَطَأْطِئَاتِ، ولَا فِى يَفَاعِ السُّفْعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ؛ ومَا يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِى أُفُقِ السَّمَاءِ، ومَا تَلَاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ، ومَا

تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الأَنْوَاءِ وانْهِطَالُ السَّمَاءِ! ويَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ ومَقَرَّهَا، ومَسْحَبَ الذَّرَّةِ ومَجَرَّهَا، ومَا يَكْفِى الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِهَا، ومَا تَحْمِلُ الْأُنثَى فِى بَطْنِهَا.

الشرح والتفسير: احاطته العلميّة بكلّ شيء

تطرق الإمام عليه السلام فى مواصلته لبيان آثار عظمة اللّه فى عجائب السماوات فى العالم العلوى عن القمر والنجوم حيث قال ابن أبى الحديد: إنّ هذا القسم من كلام الإمام عليه السلام بيان لتوحيد اللّه وتمجيده بأحسن وجه وبأفصح الكلام وأجمل العبارات حيث قال عليه السلام:

«جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَاماً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِى مُخْتَلِفِ فِجَاجِ [۳۳]
الأَقْطَارِ[۳۴]».

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۲

هذه العبارة إشارة إلى ما ورد كراراً فى القرآن الكريم بشأن النجوم: «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ»[۳۵].

وقال تعالى فى موضع آخر: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ»[۳۶].

نعلم أنّ النجوم الثابتة التى تشكل تقريباً أغلب كواكب السماء إنّما تطلع من نقاط معينة وتغيب فى أخرى معينة كذلك وأنّ مواضعها فى السماء من شأنها تعيين الجهات الأربع الشمال والجنوب والشرق والغرب وتعدّ أفضل وسائل للإهتداء فى الأسفار الطويلة خلال الليالى المظلمة فى الصحارى والبحار.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة بديعة أخرى فقال:

«لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ادْلِهْمَامُ ۳۷] سُجُفِ ۳۸]
اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، ولَا اسْتَطَاعَتْ جَلَابِيبُ ۳۹] سَوَادِ الْحَنَادِسِ ۴۰] أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِى
السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلَأْلُؤِ نُورِ الْقَمَرِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع إلى نكتة ظريفة إلى أنّ اللّه سبحانه وتعالى خلق ظلمة الليل كنعمة كبيرة لهدوء المخلوقات وراحتها من جانب، ومن جانب آخر جعل النجوم ليهتدى بها فى الصحارى والبحار وخلق القمر منيراً، إلّاأنّ هذين المصدرين المضيئين خُلقا بحيث لا يقضيان على عتمة الليل، والجمع بين هذا النور والظلمة بهدفين مختلفين نموذج لقدرته المطلقة سبحانه.

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۳

وما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان آثار عظمة اللّه وقدرته فى عالم الخلق حتى تطرق لسعة علمه وإحاطته بجميع الموجودات فى الأرض والسماء؛ حتى أشار بشرح رائع إلى عشرة موارد منها تجسد سعة علمه سبحانه فقال:

«فَسُبْحَانَ مَنْ لَايَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ ۴۱] دَاجٍ ۴۲]، وَلَا لَيْلٍ سَاجٍ ۴۳]، فِى بِقَاعِ الأَرَضِينَ الْمُتَطَأْطِئَاتِ ۴۴]، ولَا فِى
يَفَاعِ ۴۵] السُّفْعِ ۴۶] الْمُتَجَاوِرَاتِ؛ ومَا يَتَجَلْجَلُ ۴۷] بِهِ الرَّعْدُ فِى أُفُقِ السَّمَاءِ، ومَا تَلَاشَتْ ۴۸]
عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ، ومَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ ۴۹] الأَنْوَاءِ[۵۰]
وانْهِطَالُ ۵۱] السَّمَاءِ! ويَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ ومَقَرَّهَا، ومَسْحَبَ ۵۲] الذَّرَّةِ ومَجَرَّهَا[۵۳]، ومَا
يَكْفِى الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِهَا، ومَا تَحْمِلُ الْأُنثَى فِى بَطْنِهَا».

حقّاً إنّ تأمّل عبارة الإمام عليه السلام بشأن علم اللّه تبارك وتعالى بجميع الكائنات فى السماوات والأرض التى تجعل أعظم الأشياء وأصغر الموجودات وأخفى المخلوقات يغوص فى بحرٍ من التفكير هل بالإمكان خفاء أعمالنا وأقوالنا، بل نيّاتنا وأفكارنا على اللّه تبارك وتعالى المحيط بكلّ شيء؟ وهذه أحد أهم الآثار التربويّة للإيمان بسعة علم اللّه وإحاطته بجميع الأشياء.

والطريف أنّ الإمـام عليه السـلام حين يتحـدّث عن ظلمـة الليل أو سـكونه يشـير إلى آثاره المختلفـة فى مختلف بقاع الأرض من قمم الجبال إلى سفوحها، وحين يتحدّث عن

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۴

تساقط الأوراق يخوض فى جملة الأسباب التى تؤدّى إلى هـذا التساقط، وبالتالى حين يتطرق إلى هطول قطرات المطر لاـ ينسى الحديث عن مواضع استقراره فى جوف الأرض الذى يعدّ خزاناً مباركاً لتلك المياه، وحين يتحدّث عن طعام ذبابة يشير إليه بمقدار، وهذا بدوره ما يجعل هذه الخطبة فى مصاف أفصح وأبلغ خطب نهج البلاغة، وهى الفصاحة والبلاغة التى بلغت حدّ الإعجاز.

جدير بالذكر أنّ لأغلب هذه التعبيرات جذوراً فى الآيات القرآنيّة، فاللّه تبارك وتعالى حين يشير إلى علمه بجميع الموجودات يقول: «اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىء عِنْدَهُ بِمِقْدَار»[۵۴] ويقول تعالى فى موضع آخر: «انَّ اللّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ»[۵۵].

تأمّل

ما الأنواء؟

تضمنت الخطبة إشارة إلى عواصف الأنواء التى تستحق المزيد من الشرح، فأنواء جمع نوء على وزن نوع تعنى لغوياً طلوع النجوم أو غروبها، إلّاأنّهم اقتصروا على معنى الطلوع، وإن أضاف البعض إليها الغروب واعتبرها من مفردات الأضداد، ومن العقائد السائدة لدى العرب أنّ القمر يطوى ۲۸ منزلًا خلال دورته حول نفسه ويستغرق كلّ منزل ۱۳ يوماً، وتقترن بداية كلّ منزل بطلوع نجم فى المشرق وغروب آخر فى المغرب، كما يعتقدون بحصول تغيير فى الجو وسقوط مطر أو هبوب رياح يتزامن مع بداية كلّ منزل، ومن هنا كانوا يقولون: (مُطِرنا بنوء فلان)، وقد اتخذ هذا الاعتقاد صيغة خرافية بالتدريج ليعتقدوا بأنّ هذا النجم هو العنصر المسبب لنزول الأمطار ولابدّ من التضرع إليه بغية نزول المطر.

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۵

ذكر العلّامة المجلسى رحمه الله فى الجزء ۵۵ من بحار الأنوار باباً مفصلًا حمل عنوان:

«فى النهى عن الاستمطار بالأنواء والطيرة والعدوى»

ونقل فيه عدّة روايات بهذا الشأن منها ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام:

«ثَلاثَةٌ مِنْ عَمَلِ الْجاهِلِيّةِ، الْفَخْرُ بِالْانْساب والطَّعْنُ فِى الأَحْسابِ والاسْتِسْقاءُ بِالْانْواءِ»[۵۶].

والـذى تجدر الإشارة إليه هنا أنّ أحـداً لوطرح الموضوع بصيغة بحث فلكى وقال باقتران هبوب رياح شديدة أو سقوط مطر فى كلّ منزل من المنازل الثمانية والعشرين بأمر اللّه فإنّه لم يجانب الحقيقة، وليس هناك من نهى عن هذا الكلام، غير أنّ عرب الجاهلية نسبوا هبوب الرياح وهطول الأمطار إلى تلك الأنواء وهـذا نوع من الشرك، لأنّهم قالوا باستقلالية تلك الأنواء بعيداً عن إرادة اللّه، من هنا يتّضح عدم وجود أى إشكال فى عبارة الإمام:

«تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الأَنْوَاءِ»

لأنّ مراد الإمام عليه السلام أنّ كل ما اقترن بطلوع وغروب هذه الأنواء تابع لإذن اللّه وأوامره.

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۷

القسم الرابع

اشارة

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوعَرْشٌ، أَوسَمَاءٌ أَوأَرْضٌ، أَوجَانٌّ أَوإِنْسٌ. لَايُدْرَكُ بِوَهْم، ولَا يُقَدَّرُ بِفَهْم، ولَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، ولَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ، ولَا يَنْظُرُ بِعَيْن، ولَا يُحَدُّ بِأَيْن، ولَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ، ولَا يُخْلَقُ بِعِلَاج، ولَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ. الَّذِى كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً، وأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً؛ بِلَا جَوَارِحَ وَلَا أَدَوَات، وَلَا نُطْق وَلَا لَهَوَات. بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ ومِيكَائِيلَ وجُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِى حُجُرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجَحِنِّينَ، مُتَوَلِّهَةً عَقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. فَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُوالْهَيْئَاتِ وَالأَدوَاتِ، ومَنْ يَنْقَضِى إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ. فَلَا إِلهَ إِلَّا هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَام، وأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُور.

الشرح والتفسير: عجزنا عن إدراك صفاته

تابع الإمام عليه السلام بيان صفات اللّه تعالى بعد أن أشار إلى عظمة الخالق وقدرته وذكر آياته فى عالم الوجود، فشرح فى هذا القسم جانباً مهمّاً من الصفات الثبوتيّة والسلبيّة والصفات الفعلية بصورة رائعة فأتمّ درسه لمخاطبيه فى سبيل معرفة اللّه، فقد تحدّث فى بادئ الأمر عن أزليّة اللّه تبارك وتعالى المقرونة بالأبديّة فقال عليه السلام:

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوعَرْشٌ، أَوسَمَاءٌ أَوأَرْضٌ، أَوجَانٌّ أَوإِنْسٌ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۸

فالأمور الستة هذه إشارة إلى تكوين العالم، ذلك لأنّها الأصل والأساس وما سواها تابع لها، على كلّ حال فإنّ هذه العبارة إشارة إلى أهم صفاته الجماليّة سبحانه والتى تعود إليها سائر الصفات وهى عدم تناهى ذاته القدسيّة من جميع الجهات، فلكل المخلوقات زمان وتاريخ لحدوثها سوى الذات القدسيّة التى كانت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد، ومن هنا أشار إثر ذلك إلى إحدى عشرة صفة من صفاته السلبيّة والتى تنبع جميعها من ذاته القدسيّة اللامتناهيّة.

فقال فى العبارة الأولى والثانية:

«لَا يُدْرَكُ بِوَهْم، وَلَا يُقَدَّرُ بِفَهْم».

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ الفارق بين هاتين العبارتين هو أنّ الوهم هنا إشارة إلى القوّة التى تدرك الجزئيات، والفهم إشارة إلى إدراك الكليات، وهنالك احتمال آخر هو أنّ الوهم إشارة إلى قوّة الحدس والفرض، والفهم إشارة إلى الإدراك واليقين، أى لا ـ يمكن الوصول إليه تعالى عن طريق العلم ولا ـ الحدس ولا الظن، أضف إلى ذلك أنّ العبارة الأُولى إشارة إلى إدراك أصل وجوده، والعبارة الثانية إشارة إلى قياس ذاته القدسيّة وبما أنّها لامتناهيّة فهى لا تدرك بوهم ولا تقاس بعقل.

ثم قال فى الصفتين السلبيتين الثالثة والرابعة:

«وَلَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ ۵۷]».

إنّ الإنسان مهما كان ذكياً وفطناً إن تحدّث إليه شخص أو عدّة أشخاص بشأن موضوع مهم لا يسعه إدراك مطلب الآخرين، أو تعامله مع شخص يحول دونه والآخرين، ذلك لأنّه وجود محدود ومتناهٍ، أمّا الذات الإلهيّة القدسيّة فلا يضيق بها التعامل مع جميع المخلوقات وفى آن واحد فهى تسمع أصواتهم وتقضى حاجاتهم وتعلم بنيّاتهم ولا يشغلها سائل عن آخر، وكذلك لو طرق جميع العباد باب اللّه وسألوه ما سألوا وضمن لهم الإجابة لما نقص شيء من ملكه وخزائنه، بل لما شكل

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۹

ذلك قطرة من بحر جوده، كيف لا وهو الخلّاق لما يشاء وفيضه غنى عن الحدود[۵۸].

ثم قال علیه السلام: فی الصفتین الخامسة والسادسة:

«وَلَا یَنْظُرُ بِعَیْن، وَلَا یُحَدُّ بِأَیْن ۵۹]».

أجل! إنّه یری کلّ شیء وکل مکان والعالم برمّته حاضر عنده، مع ذلک لیس له عین ولا مکان، لإنّه أسمی من الزمان والمکان والعوارض الجسمیّة.

ثم قال علیه السلام فی الصفتین السابعة والثامنة:

«وَلَا یُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ ۶۰]، وَلَا یُخْلَقُ

بِعَلَاج».

ذکروا عدّة معانٍ لأزواج منها: جمع زوج مثل النظیر والقرین والزوج والشبیه والمثیل والضد والترکیب، ولا مانع من جمع کلّ هذه المفاهیم فی العبارة السابقة، أی أنّ اللَّه منزّه عن کلّ هذه الأمور، والعبارة

«لَا یُخْلَقُ بِعَلَاجٍ»

إشارة إلی الناس وأشباههم إن أرادوا خلق شیء- أو بتعبیر أدق- إن أرادوا ترکیب هیئة من أشیاء إنّما یستعینون ببعض الوسائل التی قد تکون بسیطة وأخری صعبة، والخالق الوحید الذی لا یحتاج إلی أیّة وسائل وأدوات هو الحقّ سبحانه وتعالی ۶۱]، بل أبعد من ذلک کما قال القرآن الکریم: «انَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ»[۶۲].

ثم قال فی الصفتین التاسعة والعاشرة من صفاته السلبیّة سبحانه:

«وَلَا یُدْرَکُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا یُقَاسُ بِالنَّاسِ».

إننا نعلم بأنّ دائرة حواس الإنسان هی الأجسام المادیّة، وعلیه فالذات القدسیّة

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۰

التی تفوق عالم المادة لا تدرک إلّابالعقل والفکر، ویخطئ أولئک الذین یعتقدون بإمکانیّة رؤیة اللَّه تعالی فی الدنیا والآخرة بهذه العین.

العبارة:

«لَا یُقَاسُ بِالنَّاسِ»

تشیر إلی أصل کلّی بشأن صفات اللَّه تعالی فی عدم إمکانیّة مقارنة هذه الصفات بصفات المخلوق فإنّ ذلک ینتهی إلی الضلالة، وهذا المعنی ورد فی الخطبة الأُولی من نهج البلاغة:

«وکَمالُ الْاخْلاصِ لَهُ نَفْیُ الصِّفاتِ عَنْهُ».

وقال أخیراً فی بیان آخر الصفات:

«الَّذِی کَلَّمَ مُوسَی تَکْلِیماً، وأَرَاهُ مِنْ آیَاتِهِ عَظِیماً؛ بِلَا جَوَارِحَ وَلَا أدَوَات، وَلَا نُطْق وَلَا لَهَوَات ۶۳]».

بما أنّه نقل فی السابق مختلف الصفات وأثبتها للَّهتعالی بأکمل وجه، فقد خاض هنا فی مسألة تکلّم اللَّه سبحانه وتعالی وأوضح أنّ اللَّه کلّم موسی علیه السلام ولکن لیس علی غرار الناس الذین یتکلّمون بواسطة اللسان والفم والأمواج الصوتیة وأداء الحروف، بل یخلق الأمواج الصوتیة لیتحدّث بواسطتها مع موسی علیه السلام، فکان موسی یسمع الکلام من ست جهات وهذا من عظمة آیات اللَّه دون الحاجة إلی الجوارح والأعضاء الصوتیة، وظاهر کلام الإمام علیه السلام أنّ عظمة آیات اللَّه هو سماع کلامه سبحانه من الجهات الست، والشاهد علی ذلک قوله علیه السلام:

«بِلَا جَوَارِحَ وَلَا أدَوَات، وَلَا نُطْق وَلَا لَهَوَات».

الاحتمال الآخر الذی ذکره شرّاح نهج البلاغة بهذا الشأن أنّ المراد من عظیم آیاته المعجزات التسع التی حبی بها موسی بن عمران

۶۴]، ولكن يبدو هذا الاحتمال بعيداً ولا ينسجم مع سياق كلام الإمام عليه السلام فهو لا يخلو من تكلّف ومخالفة الظاهر،

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۱

ويحتمل أن يكون المراد معجزتى العصا واليد البيضاء التى اقترنت بتكليم موسى عليه السلام.

على كلّ حال فلا- يصح إطلاق صفة الناطق أو اللافظ على اللّه تبارك وتعالى، هذين اللفظين يشيران إلى حركة اللسان ومخارج الحروف والأمواج الصوتية التى يتنزّه عنها اللّه تبارك وتعالى، بينما يصح إطلاق لفظ المتكلّم على اللّه لأنّه يوجد الكلام ويخلق الأمواج الصوتية فى ست جهات كى لا يتصور موسى والآخرون أنّ اللّه يحويه مكان.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى مطلبين آخرين بهدف إكمال هذه الصفات وإثبات عجز الفكر البشرى عن تبيانه لحقيقة اللّه تبارك وتعالى فقال فى الأُولى

«بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ ۶۵] لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ ومِيكَائِيلَ وجُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجُرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجَحِنِّينَ ۶۶]، مُتَوَلِّهَةً[۶۷] عَقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ».

إشارة إلى أنّ الإنسان الذى يعجز عن بيان صفات ملائكة اللّه المقرّبين ولا يسعه إدراك حقيقة وجودها وحقيقة صفاتها، فكيف يتوقع إدراك صفات الخالق ويستوعب فى حيزه الفكرى صفاته الجماليّة والجلاليّة، مع العلم أنّ الملائكة الذين نعجز عن بيان صفاتهم يعيشون حالة الحيرة ضمن دائرتهم.

ثم خاض عليه السلام فى النقطة الثانية التى تعدّ دليلًا عقلياً واضحاً فقال:

«فَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُوالْهَيْئَاتِ وَالأَدْوَاتِ، ومَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ».

ثم اختتم هذا القسم باستنتاج واضح فقال عليه السلام:

«فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَام، وأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُور».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۲

وقد ركز شرّاح نهج البلاغة فى تفسيرهم لهذه العبارة على معنى مطابق؛ فقالوا:

المراد القضاء على ظلمة الليل بضياء النهار وجمع ضياء النهار بظلمة الليل وجعل الظلمة المقرونة بالسكون والهدوء تعمّ كلّ مكان، بينما أخذ البعض الآخر المعنى الكنائى، فقال: إنّ المراد من الظلمات الأخلاق القبيحة التى تزول من روح الإنسان بنور معرفة اللّه، وبالمقابل فإنّ الأفراد الذين يعيشون ظلمة الجهل وعدم معرفة اللّه إنّما تزول عن وجودهم أنوار الفضيلة والأخلاق الإنسانيّة.

نعم، ليست هنالك من حاجة للتفسير الكنائى استناداً إلى إمكانيّة التفسير على ضوء المعنى المقارن وعدم وجود القرينة على المعنى الكنائى وإن أمكن الجمع بين المعنيين.

تأمّلان

۱. سرّ صعوبة معرفة صفات اللّه

ذكرنا كراراً أنّ طريق معرفة اللّه صعب بنفس الدرجة التى يتّضح فيها السلوك إليه والتعرف عليه، وبعبارة أخرى فإنّ العلم بوجود اللّه عن طريق تدبر أسرار الخلق فى الأرض والسماء والوقوف على عجائب الخلقة أمر فى غاية الصعوبة، فكلّ إنسان مهما كان لديه من علم وشعور يرى آثار علمه وقدرته وعظمته تعالى فى كلّ مكان وفى كلّ شيء، ولكن يستحيل عليه فهم كنه ذاته وصفاته، ذلك لأنّه

كما ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة أننا نعاني من القياس المضل بهذا الشأن، فليس لنا حظ سوى معرفة الصفات بواسطة الوسائل والأدوات والمقرونة بالزمان والمكان، فكان من الطبيعي أن يتعذر علينا إدراك ما يفوق الزمان والمكان والأدوات واللامتناهي من حيث الوجود والصفات، أو بتعبير:

«ما لِتُراب وربِّ الأَرْبابِ».

إننا لنعجز عن إدراك صفات بعض المخلوقات الأسمى كالملائكة المقرّبين – كما أشار إلى ذلك الإمام عليه السلام في الخطبة – فضلًا عن إدراك صفات خالقها، وعلى هذا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۳

الأساس أُمرنا بالإكتفاء بالعلم الإجمالي في مرحلة إدراك كنه الذات والصفات، وأن لا نسعى للوصول للعلم التفصيلي فهو خارج عن طاقتنا، على سبيل المثال إننا نعلم أنّ اللَّه عالم بكلّ شيء وقادر على كلّ شيء، ولكن هل علمه عن طريق الصور الذهنية كالذي عليه الأمر بالنسبة للإنسان؟ طبعاً لا! ولكن كيف ذلك، حقّاً إننا لا نعلم وهذه هي الحقيقة التي أشار إليها الإمام عليه السلام كراراً في خطب نهج البلاغة ولا سيما في الخطبة ۹۱ المعروفة بخطبة الأشباح، كما حذرنا سائر أئمّة الهدى عليهم السلام من سلوك هذا الوادي وقد نقل المرحوم الكليني في الكافي والصدوق في كتاب التوحيد بعض نماذج ذلك.

يذكر أنّ عبد الملك بن أعين أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام كتب له رسالة أنّ طائفة في العراق يصفون اللَّه بالأوصاف الجسميّة فطلب منه بيان المذهب الحقّ في التوحيد فكتب الإمام عليه السلام:

«سَألتَ عَنِ التَّوحِيدِ رَحِمَكَ اللَّهُ، فاعلِم أنّ اللَّهَ لَيسَ كَمِثِلِهِ شَيءٌ وَهوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ، وأنَّهُ أَسمَى مَنَ الصِّفاتِ الّتي يَشبَه بِها مَخلُوقَاتِهِ، وَاعلَم أنّ المَذهبَ الصَّحيح ما جَاءَ فِي القُرآنِ الكَريم فَنَزِّهُهُ عَنِ الشُّبُهِ»[۶۸]

(إشارة إلى أنّه في باب صفات اللَّه أن لا نشبّهه بالمخلوقات وأن لا نعتقد بالعدم بصورة كليّة بالاكتفاء بالمعرفة الإجماليّة).

۲. العرش والكرسي

قيل الكثير في العرش والكرسي، وقد أسهبنا في شرح العرش وحملته في الخطبة الأُولى من نهج البلاغة[۶۹].

تكررت مفردة العرش في القرآن الكريم ۲۰ مرّة، وإن لم تكن جميعها متعلقة بالعرش الإلهي، كما ذكرت مفردة الكرسي مرتان تتعلق إحداهما فقط بكرسي اللَّه

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۴

كما وردت عبارة «العرش» في نهج البلاغة سبع مرّات والكرسي مرّة واحدة في هذه الخطبة، ورغم أنّ العرش يعني المسند المعهود والأريكة التي ينصبها السلاطين ويجلسون عليها في الأعياد والمناسبات الرسمية، ويعني الكرسي الأريكة القصيرة الدعامة والتي يجلسون عليها في الأيّام الاعتيادية، ولكن قطعاً ما ورد في القرآن ونهج البلاغة والروايات بشأن العرش والكرسي ليس المراد منه هذا المعنى وإنّما هي كناية عن أمور أخرى.

فقد اعتبر البعض العرش إشارة إلى مجموع عالم الوجود، بينما عدّه البعض الآخر علم اللَّه تعالى، وذهبت طائفة ثالثة إلى أنّ المراد به صفات الجمال والجلال، كما فسّروا الكرسي بهذا المعنى أيضاً، وهناك من اعتبر الكرسي إشارة إلى تدبير الأمور الجزئيّة للعالم والعرش بمعنى التدبير الكلّي والأحدي والذي يفرز جميع التدبيرات الجزئيّة، ولكن كما أشرنا سابقاً فإنّ ما يفهم من القرآن الكريم أنّ أحد معاني الكرسي على الأقل مجموعة السماوات والأرض وعالم المادة أو الحاكميّة عليه، والعرش إشارة إلى عالم الأرواح والملائكة وعالم ما وراء المادة أو الحاكميّة عليها، ذلك أنّ القرآن الكريم قال في آية الكرسي: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّموات

وَالأرْضَ»[۷۰] ومن الطبيعى أنّ العرش أسمى وأرفع من الكرسى، طبعاً ما ذكرناه هو أحد التفاسير الواضحة للعرش والكرسى، وهناك بعض التفاسير الأخرى كما صرحت بها الروايات ۷۱].

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۵

القسم الخامس

اشارة

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِى أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ، وأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ؛ فَلَوأَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً، أَولِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلًا، لَكَانَ ذلِكَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِى سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ والْانْسِ، مَعَ النُّبُوَّةِ وعَظِيمِ الزُّلْفَةِ. فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ، واسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ الْمَوْتِ، وأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، والْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً، ووَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ. وإِنَّ لَكُمْ فِى الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً!

أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ، وأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ، وهَزَمُوا بِالْأُلُوفِ، وعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ، ومَدَّنُوا الْمَدَائِنَ!

الشرح والتفسير: أين الفراعنة والعمالقة؟

خاض الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبة بعد الأبحاث المرتبطة بصفات الجمال والجلال وعظمة عالم الوجود بالأبعاد العمليّة، ذلك لأنّ الأعمال الصالحة إنّما تفرزها العقيدة الصالحة، فقد دعى الإمام عليه السلام الجميع للتقوى إزاء تلك النعم التى أفاضها تعالى على عباده فقال عليه السلام:

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِى أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاش ۷۲]، وأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ».

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۶

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع إلى نعمتين عظيمتين تعدان مصدراً لنعم جمّة أخرى؛ النعمة الأُولى أنواع الثياب التى تحفظ البدن من الحرارة والبرودة ومختلف المخاطر، وتضفى على الإنسان الوقار والهيبة والاحترام وتميّزه عن الحيوانات.

والنعمة الأخرى المعاش، أى أنواع الرزق التى يحتاجها الإنسان فى حياته، وللمعاش من مادة معيشة مفهوم واسع يشمل الطعام والماء والهواء والدواء والسكن، وجميع مواهب الحياة ولا يبدو صحيحاً ما تصوره البعض من أنّه يقتصر على الماء والغذاء، ورغم أنّ هذا المفهوم عام إلّاأنّه يشمل أنواع الألبسة الفاخرة، ولكن ممكن ذكر ذلك بالخصوص بسبب أهميّته الفائقة فى حياة الإنسان.

وبما أنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة فقد خاض الإمام عليه السلام فى تقلب أحوال الدنيا وزوالها ثم ركز على مصداق واضح فقال عليه السلام:

«فَلَو أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً، أَو لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلاً لَكَانَ ذلِكَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِى سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ والْانْسِ، مَعَ النُّبُوَّةِ وعَظِيمِ الزُّلْفَةِ[۷۳]».

نعم فسليمان عليه السلام مع ما كان له من جلال وجبروت وقدرة وعزّة وكر وفر لم يستطع الحيلولة دون الموت ليغادر الدنيا فى الأجل المعين دون أدنى تأخير أو تريث، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا:

«فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ، واسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِىُّ ۷۴] الْفَنَاءِ بِنِبَالِ ۷۵] الْمَوْتِ، وأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، والْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً، ووَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ».

يا له من تشبيه رائع! فقد شبّه الإمام عليه السلام قانون الفناء بالنبال التى تحمل الموت! وقد صوبت هذه النبال نحو الجميع لتنتظر آخر لقمة طعام يتناولونها وآخر دقيقة عمر يقضونها لتصوب نحوهم سهام الموت فتصيب أهدافها، سواء كان هذا الهدف

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۷

نملة ضعيفة أو سليمان الذى سخرت له جنود الإنس والجن والوحش والطير، والعجيب أنّ قانون الموت والفناء من القوانين التى لا تعرف من معنى للاستثناء، فهو يَطال الصالحين والسيئين والأتقياء والأشقياء والأقوياء والضعفاء دون أن يرحم أحداً أو يمهله مدّة: «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»[۷۶] وسنورد بحثاً مهمّاً فى التأملات بشأن كيفية موت سليمان عليه السلام.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«وإِنَّ لَكُمْ فِى الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً! أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ، وأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ، وهَزَمُوا[۷۷] بِالْأُلُوفِ، وعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ، ومَدَّنُوا الْمَدَائِنَ!».

فالإمام عليه السلام فى هذه العبارات العميقة المعنى وعقب إشارته للاعتبار بموت سليمان عليه السلام يسلط الضوء على تاريخ البشريّة السالفة فيتطرق إلى ذوى النفوذ والقدرة الذين حكموا البلاد بقبضتهم الفولاذية آنذاك ولم يبق منهم اليوم سوى حفنة من التراب مركزاً على طائفة معينة منهم فقد أشار بادئ الأمر إلى العمالقة الذين ينحدرون من العملاق أحد أحفاد نبى اللَّه نوح عليه السلام ممن كانت لهم أجساد قويّة وضخمة وقد حكموا البلاد لسنين متمادية.

ثم أشار إلى الفراعنة أى ملوك مصر الذين كانوا من أقوى ملوك التاريخ، بينما تطرق فى المرحلة الثالثة إلى أصحاب الرس (نهر الرس أو الأبار المليئة بالماء التى كانت فى بعض مناطق ايران)، وهم أولئك الذين وقفوا بوجه الأنبياء وقتلوهم وأطفأوا سنن اللَّه وأحيوا سنن الظلمة.

وأشار فى المرحلة الأخيرة بصورة كلية إلى الملوك المتجبرين السابقين كافّة

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۸

الذين كانوا يمتلكون العدّة والعدد وشيّدوا المدن الجميلة والرائعة، ولكن لم تكن عاقبتهم سوى الركوع للموت ومغادرة العروش المذهبة والاكتفاء بحفرة صغيرة فى باطن الأرض.

تأمّلات

۱. شوكة سليمان عليه السلام وموته

خلافاً للتوراة المعاصرة التى تصور سليمان عليه السلام كملك جبار وصانع للمعابد الوثنية[۷۸] يعتبره القرآن الكريم من الأنبياء العظام ونموذجاً للقدرة والحاكمية الاستثنائية، وقد اختزنت سيرته العديد من الدروس والعبر للجميع فالقرآن الكريم يصرح بأنّ اللَّه سبحانه وتعالى أفاض عليه العديد من النعم فسخر له الريح التى تنقله من مكان إلى آخر وسخر له الإنس والجن وأفاض عليه العلم الجم حتى علّمه منطق الطير وزوده بالعديد من الجنود والعمال، مع ذلك كان موته عبرة ودرساً، جاء فى بعض الروايات: أنّ سليمان عليه السلام قال ذات يوم لأصحابه:

«إنّ اللَّهَ قَد وَهبَ لُى مُلكاً عَظِيماً وَمَعَ جَميع ما أُوتيتُ مِنَ المِلكِ ما تمّ لِى سُرورَ يَومٍ إلى اللّيلِ، وَقَد أَحببتُ أن أدخلَ قَصرى فِى غَدٍ فأصعدِ أعلاهُ وَانظرُ إلى مَمالِكى فَلا تَأذَنُوا لأحدٍ بِالدُّخولِ عَلىَّ»

فلما كان من الغد أخذ عصاه بيده وصـعد إلى أعلى موضع من قصره ووقف متكئاً على العصا ينظر إلى ممالكه مسروراً بما أوتى فرحاً بما أُعطى، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه واللباس قد خرج عليه من بعض زوايا قصره فقال له سليمان:

«مَنْ أَدخلكَ إلى هذا القّصر وَقَد أردتُ أن أخلُو فيهِ اليومَ فَبِإذن مَنْ دَخلتَ»

. فقال الشاب:

«أدخَلَنى هذا القَصر رَبّهُ وَبِإذنِه دَخلتُ»

. فقال:

«رَبُّهُ أَحَقُّ بِهِ مِنّى فَمَنْ أنتُ؟»

قال:

«أنا مَلَكُ المَوت»

. قال:

«وَفِيما جِئتَ»

. قال:

«لأَقبضَ رُوحكَ»

. قال سليمان:

«إمضِ لِما أمِرتَ بِهِ فَهذا يَومُ سُرورى وأبى اللَّهُ عَزّ وَجلّ أنْ يَكونَ لِى

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۹

سُرور دُونَ لِقائِهِ»

، فقبض ملـك الموت روحه وهو متكئـاً على عصاه (ولم يمنحه إذن الجلوس) وهو ميت ما شاء اللّه والناس ينظرون إليه وهم يقـدرون أنّه حى فافتتنوا فيه واختلفوا فمنهم من قال إنّ سـليمان عليه السـلام قـد بقى متكئاً على عصاه هذه الأيّام الكثيرة ولم يتعب ولم ينم ولم يأكل ولم يشـرب، إنّه لربّنا الذى يجب علينا أن نعبده، وقال قوم إنّ سـليمان عليه السلام لساحر وأنّه يرينا أنّه واقف متكىء على عصاه يسـحر أعيننا وليس كـذلك، فقال المؤمنون: إنّ سـليمان هو عبـد اللّه ونبيّه يدبر اللّه أمره بما شاء، فلما اختلفوا بعث اللّه الارضة فدبّت فى عصاه فلمّا أكلت جوفها انكسرت العصا وخرّ سليمان عليه السلام على وجهه فعلموا جميعاً بموته ۷۹].

وكما أشار الإمام عليه السلام فى الخطبة لما تمّ عمر سليمان صوبت إليه أقواس المنيّة وأصابه سهم الموت.

۲. من هم العمالقة؟

«عمالقة»:

جمع «عملاـق» اسم شـخص من أحفـاد نوح وإليه تنسب قبيلـة العمالقـة وكـان هؤلاء الأفراد أقوياء وأشـداء ومقاتلين عاشوا فى شـمال الحجاز لألفى سنة قبل الميلاد حسب بعض المؤرخين، هجموا على مصر فاحتلوها وحكموها مدّة، ولكن حمل عليهم المصريون لسبعة عشـر قرن قبل الميلاد فعادوا إلى جزيرة العرب وأقاموا فى اليمن والحجاز وسائر المناطق وشـكلوا هناک بعض الـدويلات ويرى بعض المفسـرين أنّ الجبـابرة الـذين تحـدّث عنهـم القرآن فى قصّهٔ دخـول موسـى وبنى اسـرائيل إلى بيـت المقـدس هم طائفـهٔ من أولئك العمالقة.

وأخيراً قضى عليهم يوشع حيث أمر بنى اسرائيل بأمر من موسى عليه السلام، وقد تساءل أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبة قائلًا:

«أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ»

الذين

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۴۰

كـانوا يتمتعون بقـدرات هائلـهٔ وشـكلوا الحكومـات المقتـدرهٔ ليحكموها لعقود من الزمان، ثم زالوا من صـفحهٔ الوجود ولـم يبق سوى اسمهم ۸۰].

۳. فراعنهٔ مصر

كان ملك مصر يسمى (فرعون) وسلطان الروم (القيصر) وسلطان ايران (كسرى ، ويُدعى فرعون مصر الذى عاصر نبى اللَّه موسى عليه السلام رمسيس الثانى والذى عاصر نبى اللَّه يوسف عليه السلام كان الريان بن الوليد، وقيل إنّ الفراعنهٔ الذين حكموا مصر قبل الميلاد بلغوا ۳۲ فرعونـاً، كـان بعضـهم من مصـر والبعض الآخر من العمالقـهٔ والروم واليونانيين وبعض الايرانيين الـذين أوفـدوا من قبل بعض السلاطين لفتح مصر فحكموا البلاد ولم يبق لهم من اليوم أثر.

۴. أصحاب الرسّ

تعنى مفردهٔ الرس فى الأصـل (الأثر المختصـر)، ويرى البعض أنّ الرس مختصـر الأرس (نهر معروف فى شـمال ايران) بينما يرى الأعم الأغلب أنّها بئر ويعتقـدون أنّ القوم الـذين لم يبق منهم الآن إلّاالقليل كانوا مزارعين ولـديهم عـدّهٔ آبار مليئـهٔ بالمياه فكانت أوضاعهم المعاشـيهٔ جيـدهٔ، وهنالك خلاف بين المفسـرين بشأن المكان الذى عاشوا فيه والنّبى الذى أرسل إليهم، فالبعض يعتقد أنّهم بقايا عاد وثمود، بينما يرى البعض الآخر أنّهم عاشوا فى اليمامهٔ وكان نبيّهم يدعى حنظلهٔ، ويرى آخرون أنّ نبيّهم كان شعيب.

جاء فى كتاب عيون أخبار الرضا أنّ أميرالمؤمنين على عليه السلام قال:

«إِنّهُم كَانُوا قَوماً يَعبُدونَ شَجرَةً صُنوبر يُقالُ لَها شاه دَرخت وَكَانتْ لَهُم إثنَتا عَشَرَ قَريةً عَلى

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۴۱

شاطئ نَهرٍ يِقالُ لَهُ أرسُ يُسـمى إحـدَاهُنَّ آبان والثّانيـهٔ آذَر وَالثّالثـهٔ دى وَالرّابِعهٔ بَهمن وَالخامِسهٔ اسـفندار وَالسّادسَهٔ فَروردين وَالسّابعهٔ ارديبهشت وَالثّامنهٔ خرداد وَالتّاسـعهٔ تِير وَالعاشِـرهٔ مُرداد وَالحاديهٔ عَشـرهٔ شـهريور وَالثّانيهٔ عشرهٔ مِهر، وَكَانُوا يَأتُون بِشِياهٍ وَبقَر فَيذبَحُونَها لِلشـجرهِٔ وَيَشـعِلُونَ النِّيرانَ بِالحَطبِ فَإذا إرتَفَع دُخان تِلكَ الذَّبائِح خَرّوا لَلشـجرهِٔ سُـجّداً يَبكُونَ وَيَتضرعُونَ إليها، ثُمَّ بَعثَ اللَّهُ عَزّ وَجلّ إليهِم نَبيّاً مِنْ بَنى اسرائيلَ فَلَم يَتّبُعُوهُ فَدعا اللَّهَ قَائلًا: أَيبِس شَـجَرَهُـم أَجْمَع، أرِهم قُدرَتَك وَسُـلطانَك، فَأصبَحَ القَومُ وَقَد يَبِس شَجَرُهُم كُلّه فَهـالَهُم ذَلِـكَ وَاجتَمَعَ رَأيُهم وَاتّخـذُوا أَنابِيبَ طُوال مِنْ رِصاص وَاسـعهِٔ الأفواهِ ثُمَّ أَرسـلُوها فِى قَرارِ العِينِ وَأَرسلُوا فِيها نَبِيّهُم حَيّاً حَتّى مَاتَ، فَأرسلَ اللَّهُ عَلَيهِم رِيحاً عَاصِفاً، شديدهٔ الحُمرهٔ؛ فَأماتَهُم جَميعاً»[۸۱].

نعم، لقـد رأت الـدنيا الكثير من السـلاطين والأقوام المنحرفهٔ والجبابرهٔ الظالمهٔ، وقد طفح غبار النسـيان لا على قبورهم فحسب بل على تاريخهم، وهذا أفضل سند ودليل على عدم وفاء الدنيا لأحد.

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۴۳

القسم السادس

اشارة

ومنها: قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا، وأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا، مِنَ الْاقْبَالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا؛ فَهِىَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِى يَطْلُبُهَا، وحَاجَتُهُ الَّتِى يَسْأَلُ عَنْهَا، فَهُو مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الْاسْلَامُ، وضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ، وأَلْصَقَ الأَرْضَ بِجِرَانِهِ، بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ.

الشرح والتفسير: خصائص ذلک الولی

ما ورد فی هذا القسم یبدو ظاهراً عدیم الإرتباط بالأقسام السابقة من الخطبة وسبب ذلک أنّ السید الرضی لا ینقل جمیع الخطبة فی أغلب الأحیان، بل یختار قطوفاً منها، ویدلّ علی ذلک ما صدر به هذه الخطبة بقوله

«مِنْها»

، وهذا ما أدی إلی نوع من الإبهام والغموض فی هذا القسم وعودة الضمائر فیه لیقدم کلّ شارح ما یراه من احتمال بشأنها، لکننا نعتقد بوجود بعض القرائن لها هنا.

فقال علیه السلام:

«قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا[۸۲]، وأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا، مِنَ الْاقْبَالِ عَلَيْهَا،

وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا».

هنالک عدّة احتمالات بشأن هذا الشخص الذی تدرع بالحکمة وأخذ بجمیع آدابها ومنها أربعة احتمالات هی:

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۴۴

۱. قال البعض: المراد به الإمام المهدی علیه السلام وغیبته ونهضته، وقد نسب ابن أبی الحدید هذا الرای إلی الإمامیّة ولم یقرّ به بادئ الأمر، بینما أذعن أخیراً بأنّه الشخص الذی سیولد فی آخر الزمان واسمه المهدی علیه السلام.

۲. قال الفلاسفة: هم نخبة من العرفاء یتواجدون بین الناس فی کلّ زمان.

۳. جاء عن بعض المتصوفه أنّ المراد أولیاء اللّه وسالکی طریق الحقّ الذین یتواجدون علی الأرض علی الدوام.

۴. وتری المعتزلة أنّ المراد به العالم العدل والموحّد من المؤمنین من الأفراد الذین یعیشون بین الناس، ولکن حین نسلط الضوء علی هذه العبارات إلی آخر القسم سیتّضح لدینا بما لا یقبل الشک أنّ المراد هو الإمام المهدی علیه السلام.

علی کلّ حال فالعبارة:

«قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا»

تشیر إلی أنّه حکیم وقد لبس جلباباً لحفض هذه الحکمة والمراد من ذلک طبعاً جلباب الورع والتقوی، کما ورد فی هذا الحدیث الشریف:

«ما أَخْلَصَ عَبْدٌ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَرْبَعینَ صَباحاً إِلَّا جَرَتْ یَنابیعُ الْحِکْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلی لِسانِهِ»[۸۳].

والعبارات اللاحقة:

«وأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا ...»

کلّها تشیر إلی أنّه حکیم، قد عمّت الحکمة والعلم کلّ کیانه وبها یدیر شؤون من حوله.

ثم قال علیه السلام:

«فَهِىَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِى يَطْلُبُهَا، وحَاجَتُهُ الَّتِى يَسْأَلُ عَنْهَا».

وهذا الكلام تأكيد آخر على أنّ ذلك الولى ينطلق فى مشروعه من الحكمة والعلم ليمارس قبل كلّ شيء خلق الثورة العلميّة والثقافيّة، وينسجم هذا الكلام تماماً وما ورد فى الروايات بشأن المهدى عليه السلام.

ومن ذلک ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«إذا قامَ قائِمُنا وَضَعَ يَدَهُ عَلى رُؤُوسِ الْعِبادِ فَجَمَعَ بِها عُقُولَهُمْ وكَمُلَتْ بِها أَحْلامُهُم»[۸۴].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۵

وواصل كلامه عليه السلام فى بيان ميزة أخرى لذلک الولى فقال:

«فَهُو مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ ۸۵] الْاسْلَامُ، وضَرَبَ بِعَسِيبِ ۸۶] ذَنَبِهِ ۸۷]، وأَلْصَقَ الأَرْضَ بِجرَانِهِ ۸۸]».

حين تتخلف الناقة عن المشى فإنّها تفترش الأرض بحيث يلتصق ذنبها بالأرض حتى تضع عليه أسفل عنقها وهذه دلالة على شدّة التعب ويستفيد العرب من هذا الأمر بصفته كناية عن الضعف والعجز، وهذا الكلام إشارة واضحة أخرى إلى أحد صفات ذلک الولى الربّانى فى أنّ الإسلام والمسلمين يعيشون أقصى درجات الضعف فى غيبته وتتكالب عليهم الأعداء من كلّ حدب وصوب بغية القضاء على الإسلام وكسر شوكة المسلمين.

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام:

«الْعِلْمُ سَبْعَةٌ وعِشْرُونَ حَرْفاً فَجَميعُ ما جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ حَرْفانِ فَلَمْ يَعْرِفِ النّاسُ حَتّى الْيَوْمِ غَيْرَ الْحَرْفَيْنِ فَإذا قامَ قائِمُنا أَخْرَجَ خَمْسَةً وعِشْرينَ حَرْفاً فَبَثَّها فى النّاسِ وضَمَّ إِلَيْها الْحَرْفَيْنِ حَتّى يَبُثَّها سَبْعَةً وعِشْرينَ حَرْفاً»[۸۹].

(إشارة إلى أنّ الإمام المهدى عليه السلام يمارس ثورة ثقافية هائلة وسريعة بحيث يرقى بسطح العلم والمعرفة عشرة أضعاف ما كانت عليه).

ويختتم الإمام عليه السلام هذا القسم بمسألة واضحة بهذا الخصوص فيقول:

«بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ».

وكما يفهم من بيان هذه الصفات فإنّ مرجع الضمير فى العبارات السابقة لا يعود

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۶

إلّا إلى الإمام المهدى عليه السلام سيما من خلال هذه المفردات «بقية»، «بقيّة اللّه»، «الحجّة»، «الخليفة» الواضحة فى نصوصنا الدينيّة.

تأمّل

إشارات لنهضة الإمام المهدى عليه السلام

يستفاد من الإشارات الواضحة التى تضمنتها هذه الخطبة بشأن نهضة الإمام المهدى عليه السلام وخلافاً لما يتصوره الجهّال فإنّ القاعدة الأصلية التى ينطلق منها الإمام عليه السلام إنّما تستند إلى الثورة الثقافية والعلميّة والفكريّة، لا النهضة العسكريّة التى تختزن إراقة الدماء، حيث يرتقى بالمستوى العلمى لدى الناس بحيث يمارس حكومته القائمة على أساس العدل والقسط، طبعاً سيواجه الإمام عليه السلام فى بداية مشروعه تلک الأقليّة المتغطرسة والمنحرفة التى تحاول إعاقة مشروعه ممّا يضطره لمعالجتها عسكرياً، ولكن يبقى همه محصوراً فى طلب العلم والارتفاع بالمستوى العلمى لدى الأمّة ولسان حاله وقاله على غرار سيرة جدّه النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «رَبِّ زِدْنِى عِلْماً»[۹۰].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۷

القسم السابع

اشارة

ثُمَّ قالَ عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّى قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِى وَعَظَ الأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ، وأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِى فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا، لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِى يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ، ويُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ؟
أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً، وأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللَّهِ الأَخْيَارُ، وبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لَايَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ الآخِرَةِ لَا يَفْنَى. مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وهُمْ بِصِفِّينَ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً؟ يُسِيغُونَ الْغُصَصَ ويَشْرَبُونَ الرَّنْقَ! قَدْ واللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وأَحَلَّهُمْ دَارَ الأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ.

الشرح والتفسير: التذكير بما يلزم!

خاض الإمام عليه السلام فى الوعظ والإرشاد والنصح المشوب بالتحذير فقال:
«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّى قَدْ بَثَثْتُ [۹۱] لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِى وَعَظَ الأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ، وأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِى فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وحَدَوْتُكُمْ [۹۲] بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا[۹۳]».

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۸

تشير هذه العبارات إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يستغل كلّ فرصة بغية هداية أهل الكوفة الذين عرفوا بالضعف والتشتت وقد مارس شتّى الأعمال الثقافية بهذا الشأن حتى أفاض عليهم مختلف مواعظ الأنبياء وإرشادات الأوصياء إلّاأنّ المطر الرحمة الإلهيّة لم يجد له من سبيل فى أرض قلوبهم السبخة، ثم تخلى عن الرفق والمرونة ليجابههم بشدة علهم يعودون إلى أنفسهم ويعيشون الوحدة؛ ومرّة أخرى لم تجد هذه المسامير من سبيل فى تلك الأحجار الصلدة، ليتّضح بجلاء أن لا نقص ولا عيب فى الزعامة والقيادة، بل العيب كلّه فى تلك الفئة الجاهلة الفاقدة للحميّة.

كما تفيد هذه العبارات أنّ مساعى جميع الأنبياء والأوصياء لا تبدو مجدية مع هؤلاءالقوم.

«لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِى يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ، ويُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ؟».

أى حين لا يتمكن زعيم مثلى من إعادتكم إلى جادة الصواب فسوف لن يكون هنالك قط من يسعه القيام بذلك.

والغريب أنّه رغم حالة اليأس والقنوط التى تفرزها طبيعة تلك الفئة إلّاأنّ الإمام عليه السلام لا يكفّ عن النصح والإرشاد، فيستعرض لهم طبيعة ما حولهم وما تحكمه من ظروف ويكشف لهم عن منزلة الشهادة فى سبيل اللَّه فيقول:

«أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً».

إشارة إلى اقبال جميع الفضائل على المجتمع الإنسانى إبان بزوغ فجر الإسلام وشروق شمس النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، إلّاأنّ هذه القيم والسنن الإلهيّة قد ولّت ظهرها لهذا المجتمع وحلّت محلّها قبائح عصر الجاهلية التى طويت صفحتها عن المجتمع الإسلامى بفعل ظهور بنى أميّة وسليلى عصر الجاهلية.

ثم ذكر عليه السلام مقدمة بهدف الاشادة بمقام الشهداء فى سبيل اللَّه وترسيخ ثقافة الجهاد والشهادة إزاء الطواغيت والظلمة فقال:

«وأَزْمَعَ [۹۴] التَّرْحَالَ [۹۵] عِبَادُ اللَّهِ الأَخْيَارُ،

نفحات الولايئ، ج۷، ص: ۴۹

وبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لَايَبْقَى بِكَثِيرٍ مِنَ الآخِرَةِ لَايَفْنَى».

تشير هذه العبارة اللطيفة إلى أنّ أولئك الأخيار الذين فازوا بالشهادة وتقلّدوا وسام الشرف بالجهاد فى سبيل اللّه لم يجانبوا الضرر فحسب، بل مارسوا تجارة مربحة حيث باعوا القليل من متاع الدنيا الفانى بالكثير من متاع الآخرة الباقى، كما أنّ أولئك الذين وفقوا لجهاد أنفسهم ولم ينالوا الشهادة وولّوا ظهورهم لزخرف الدنيا وزبرجها وأقبلوا على الآخرة ونعيمها هم أيضاً فى مصاف عباد اللّه الأخيار.

ثم أكّد الإمام عليه السلام ذلك بقوله:

«مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وهُمْ بِصِفِّينَ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً؟ يُسِيغُونَ ۹۶] الْغُصَصَ ويَشْرَبُونَ الرَّنْقَ![۹۷]».

إشارة إلى أنّهم ذهبوا واستراحوا لنبقى اليوم ونشهد هذه الأوضاع المزرية التى يصول ويجول فيها العدو بينما يكتفى الأصحاب الضعاف فى الحقّ والفاقدو الإرادة بالتفرج على هذا المشهد الذى يهز من الأعماق كلّ مؤمن غيور، والواقع أنّ الإمام عليه السلام يشير بهذه العبارات إلى جنايات معاوية وجند الشام وسكوت وضعف أهل الكوفة والعراق.

ثم بلغ كلام الإمام عليه السلام ذروته فقال:

«قَدْ واللَّهِ لَقُوا اللَّهُ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وأَحَلَّهُمْ دَارَ الأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ».

أجل، فالأمر كما قال القرآن الكريم: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحياءٌ عِنْدَ رَبِهِم يُرزَقُونَ»، بل الموتى أولئك الذين استسلموا للذل وواصلوا حياتهم الماديّة التافهة فى ظلّ راية الطواغيت والظلمة، والحقّ أنّ الشهادة مدعاة للفخر، ويتضاعف هذا الفخر حين يكون فى وسط اجواء فاسدة وقذرة وتنتهى إلى الخلاص من الطغمة المفسدة والمتجبرة.

ولعل الرسالة التى اطلقها الإمام على عليه السلام من محراب عبادته حين شهادته بقوله:

نفحات الولايئ، ج۷، ص: ۵۰

«فُزْتُ ورَبِّ الْكَعْبَةِ»

لتختزن العديد من الدروس والعبر التى ينبغى أن يحتذى بها المؤمنون.

***

نفحات الولايئ، ج۷، ص: ۵۱

القسم الثامن

اشارة

أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، ومَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ؟ وأَيْنَ ذُوالشَّهَادَتَيْنِ؟ وأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ، وأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ!

قال: ثمّ ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة، فأطال البكاء، ثم قال عليه السلام: (أَوِّهِ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، ووَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ).

ثم نادى بأعلى صوته: الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ! أَلَا وإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ!

الشرح والتفسير: النفير العام للجهاد

تغيّر خطاب الإمام عليه السـلام فى هذا القسم من الخطبة ليواصل خطبته بعبارات مليئة بالحزن ويذكر تلك الثلّة من الشهداء فى صفين التى خلا مكانها الآن بين الأصحاب فقال:

«أَيْنَ إِخْوَانِى الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، ومَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟».

ثم ركز عليه السلام على الطليعة منهم فى الاثرة والشهادة والعلم والمعرفة فقال:

«أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ؟»

ثم ذكرهم بصورة كلية وعامة فقال:

«وأَيْنَ ذُوالشَّهَادَتَيْنِ؟ وأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ، وأُبْرِدَ[۹۸]

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۲

بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ!».

إشارة إلى عشرات الأفراد من أصحاب النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله الذين لزموا عليّاً عليه السلام ونالوا الشهادة فى صفين وقام جناة جيش معاوية بحز رؤوسهم وارسالها إلى طاغيتهم معاوية[۹۹].

«قالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَريمَةِ، فَأَطالَ الْبُكاءَ»

، ثُمَّ قالَ عليه السلام:

«أَوِّهِ ۱۰۰] عَلَى إِخْوَانِى الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجابُوا، ووَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ».

فهذه الصفات الست تفيد عظمة مقامهم فى العمل والعلم فى حفظ الدين والجهاد وطاعة الإمام والزعيم الربّانى، فقد كانوا على بصيرة بالقرآن فيطبقونه على تفاصيل حياتهم كما كانوا على علم بالواجبات فيعملون بها ويميتون البدعة ويحيون السنّة كما كانوا من أهل الإيثار والتضحية حين الجهاد.

فى الواقع أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقدم لأصحابه أُسوة حسنة ويقول إنّ المؤمن الواقعى والمسلم الحقيقى وصاحب النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله من يتصف بهذه الخصائص، أملًا فى أن تفعل هذه الكلمات الحماسية فعلها فى تلك القلوب الباهتة فيهب أصحابها لجهاد الظلمة والطواغيت.

«ثُمَّ نادى بِأَعْلى صَوْتِهِ: الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ! أَلَا وإِنِّى مُعَسْكِرٌ فِى يَوْمِى هذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ!»

. وهكذا دعا الإمام عليه السلام القوم للجهاد بعد تلك المواعظ البالغة، فأقبل العديد منهم وشعر بخطورة المسؤوليّة فتأهب للجهاد.

«قال نوْفٌ: وعَقَد لِلْحُسَيْنِ عليه السلام فى عَشَرَةِ آلاف، ولِقيسِ بن سعد فى عَشَرَةِ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۳

آلاف، ولِأبى أَيُّوبِ الأَنْصارى فى عَشَرَةِ آلاف، ولِغَيْرِهِمْ عَلى أَعْداد أُخَر، وهُو يُريدُ الرَّجْعَةَ إلى صِفينَ، فَما دارَتِ الْجُمْعَةُ حَتّى ضَرَبَهُ الْمَلْعُونُ ابنُ مُلْجَم لَعَنهُ اللَّهُ، فَتَراجَعَتِ الْعَساكِرُ، فَكُنّا كَأَغْنام فَقَدتْ راعيها، تَخْتَطُفها الذِئابُ مِن كُلِّ مَكان!».

وعلى هذا الأساس فرح ذئاب الشام ولصوص جيش معاوية بتخلصهم من ذلك الخطر العظيم، بينما عاش المؤمنون حالة من الأسى والهم، جاء فى الرواية أنّ الشام لما بلغها خبر قتل أمير المؤمنين عليه السلام علم بذلك عمرو بن العاص فبشر معاوية قائلًا:

«انَّ الأَسَد المُفرِشِ ذِراعَيْهِ بِالْعَراقِ لاقى شُعُوبَه»[۱۰۱].

تأمّل

صحب الإمام عليه السلام الميامين

اشارة

ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بعض الأصحاب الأوفياء الذين كانوا من صحابة رسول اللّه صلى الله عليه و آله الأشداء، ثم وفوا بما عاهدوا عليه الإمام عليه السلام حتى نالوا الشهادة في صفين، وكما ذكر سابقاً وجاء في الرواية أنّ ۳۰۰ من صحابة النّبي صلى الله عليه و آله الذين بايعوه في بيعة الرضوان وكان منهم ممن شهد بدر قد وقفوا إلى جانب على في صفين فقتل منهم ۶۳ وقد ذكر الإمام عليه السلام ثلاثة منهم، ونذكر هنا نبذة عن كلّ واحد منهم ثم نخوض في سيرة قيس بن سعد وابى أيوب الأنصارى الذين ورد إسماهما في آخر الخطبة بصفتهما من امراء جيش الإمام عليه السلام.

۱. عمّار بن ياسر

كنيته أبواليقظان، أسلم في مكة وتحمل أشدّ العذاب، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنّ ياسر حين قدم إلى مكة تزوج من جارية هي سمية التي ولدت له عماراً الذي عذب على يد المشركين وأجبر على الطعن بالإسلام، فأتى النّبي صلى الله عليه و آله

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۴

باكياً فنزلت الآية الشريفة: «الَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْايمَانِ»[۱۰۲] التي تدلّ على التقية في هذه الموارد، وأجمع المفسرون على أنّ الآية نزلت في عمّار، وكان ممن هاجرالحبشة وصلى إلى القبلتين ومن أوائل المهاجرين الذين شهدوا بدراً وجميع الغزوات الإسلاميّة.

قال فيه النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله:

«انَّهُ مَليئٌ إيماناً إلى أَخْمُصِ قَدَمَيْهِ»

؛ وقال أيضاً:

«مَنْ أَبْغَضَ عَمّاراً أبْغَضَهُ اللَّهُ»

؛ وقال صلى الله عليه و آله:

«تَشْتَاقُ الجَنَّةُ إلى أربَعة: عَليٍّ وَعمّار وَسَلمان وأبِى‌ذر».

وأضاف ابن عبد البر تواتر عن النّبي صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«تَقْتُلُ عَمّاراً الْفِئَةُ الْباغِيَةُ».

وعدّه ابن عبد البر من أصح الأخبار، وقد قتل يوم صفين وهذا أعظم دليل على بطلان معاوية، وروى ابن عبد البر عن أبى عبد الرحمن السلميانة قال: شهدنا صفين فرأيت عمار بن ياسر ومعه أصحاب محمّد وكأنّه رأيتهم وسمعت عمار يقول لهاشم ابن‌عقبة (عتبة) احمل يا هاشم فالجنّة في ظلال السيوف، اليوم نلقى محمّداً وأصحابه فإنّما نحن على الحقّ وهم على الباطل. يقول عبد اللّه ابن سلمة: نظرت عمّار في صفين وقد أصابه العطش فالتمس ماء، فأتوه بظرف من اللبن فقال اليوم التقى أصحابى فقد قال لى رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«إنّ آخِرَ شَرابِکَ مِنَ الدُّنيا ضَباحاً مِنْ لَبن»[۱۰۳].

جدير ذكره أنّه لما بلغ معاوية خبر قتل مالك الأشتر- بعد صفين- خطب الناس فقال: «أما بعد فإنّه كانت لعلى يمينان فقطعت إحداهما بصفين- يعنى عمّار بن ياسر، وقطعت الأخرى اليوم- يعنى الأشتر-»[۱۰۴].

۲. ابن التيّهان

هو أبوالهیثم بن التیهان واسمه مالک من قبیلهٔ الأنصار، وهو أحد النقباء لیلهٔ
نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۵۵
العقبهٔ وممن شهد بدراً، وقیل إنّه أدرک صفین وقتل فیها، ویؤید ذلک هذه الخطبهٔ، وذکر ابن أبیالحدید أسماء طائفهٔ من علماء أهل السنّهٔ الذین قالوا بقتله فی صفین ۱۰۵].

۳. ذو الشهادتین

هو خزیمهٔ بن ثابت الأنصاری وکنیته أبو عمّار وممن التحق بالنّبی صلی الله علیه و آله فی المدینهٔ وقد وروی ابن الأثیر فی أُسد الغابهٔ سبب لقبه ذوالشهادتین فقال: إنّ النّبی صلی الله علیه و آله اشتری فرساً من سواء بن قیس المحاربی، فجحد سواء، فشهد خزیمهٔ بن ثابت للنبی فقال له رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:
«ما حَمَلَکَ عَلی الشّهادهِ وَلَم تَکُن مَعنا حاضِراً»
، فقال: صدقتک بما جئت به وعلمت أنّک لا تقول إلّاحقّاً، فقال: رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:
«مَن شَهِدَ لَهُ خُزَیمهُ أو عَلَیهِ فَحَسبُهُ»[۱۰۶]
، فجعل رسول اللَّه شهادهٔ خزیمهٔ بشهادتین (طبعاً هذا استثناء وذلک بسبب إیمان خزیمهٔ ولعل ذلک کون شهادته تدعو إلی علم القاضی). کان ممن شهد الغزوات الإسلامیّهٔ، وذکر ابن عبد البر فی الاستیعاب أنّه شهد صفین فقاتل فیها حتی قتل ۱۰۷].

۴. قیس بن سعد بن عبادهٔ

کنیته أبوالفضل. کان رجلًا شجاعاً وجواداً، وأبوه سعد رئیس الخزرج، وکان قیس من کبار شیعهٔ أمیر المؤمنین علیه السلام وهو معروف بمحبّته وولائه للإمام وشهد معه حروبه کلّها وروی انس بن مالک أنّ قیس بن سعد کان رئیس حاجبی النّبی صلی الله علیه و آله (وکان ثقهٔ فی کلّ الأمور) وذکر ابن شهاب: أنّ قیس بن سعد کان أحد الساسهٔ العرب الخمسهٔ الذین یحلّون المشاکل والفتن ۱۰۸].
نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۵۶

۵. أبو أیوب الأنصاری

هو خالد بن زید ویعرف عادهٔ بالکنیهٔ، کان ممن صحب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وشهد العقبهٔ وشهد بدراً، وعلیه نزل النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله حین قدم المدینهٔ ولم یزل عنده حتی بنی مسجده ومساکنه، شهد مع علی علیه السلام الجمل وصفین وکان فی المقدمهٔ یوم النهروان، عاش عشر سنوات بعد علی علیه السلام وتوفی سنهٔ ۵۰ للهجرهٔ[۱۰۹].
ویتّضح ممّا مرّ معنا سابقاً هذه النقطهٔ التاریخیّهٔ من هم الأفراد الذی قاتلوا مع علی علیه السلام قاسطی الشام وسائر البغاهٔ؟ ومن هم أولئک الأفراد الذین نالوا الشهادهٔ مع علی علیه السلام ومن هم قادهٔ جیشه؟ ولو لم یکن هناک من دلیل علی أحقیّته علیه السلام وبطلان خصمه سوی هذا لکفی.

نفحات الولایهٔ ؛ ج۷ ؛ ص۵۶
نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۵۷

الخطبة ۱۸۳

اشارة

فی قُدْرَةِ اللَّهِ وفِی فَضْلِ الْقُرْآنِ وفِی الْوَصِیَّةِ بِالتَّقْوی ۱۱۰]

نظرة إلی الخطبة

هذه الخطبة من الخطب الغایة فی الفصاحة والبلاغة والتی تتضمن عدّة مباحث تبدو غیر متصلة الأقسام، وذلک بسبب اسلوب السید الرضی رحمه الله المعهود فی الاختیار. علی کل حال تتعرض الخطبة لخمسة مواضیع مهمّة هی:

۱. جانب من صفات اللّه الجلالیّة والجمالیّة بعبارات عمیقة المعنی.

۲. التعریف بالقرآن الکریم وبیان بعض خصائصه المهمّة.

۳. الوصیّة بالورع والتقوی وشرح آثارها وبرکاتها.

۴. ذکر للقیامة ونار جهنم الألیمة وعجز الإنسان عن تحملها.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۵۸

۵. بیان سبل النجاة من نار جهنم والاستفادة من إمکانات الدنیا فی هذا السبیل وأهمها إغاثة المحرومین والمساکین.

***

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۵۹

القسم الأوّل

اشارة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَیْرِ رُؤْیَهٔ، والْخَالِقِ مِنْ غَیْرِ مَنْصَبَهٔ. خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ؛ وهُوالَّذِی أَسْکَنَ الدُّنْیَا خَلْقَهُ، وبَعَثَ إِلَی الْجِنِّ والْانْسِ رُسُلَهُ، لِیَکْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، ولِیُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، ولِیَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، ولِیُبَصِّرُوهُمْ عُیُوبَهَا، ولِیَهْجُمُوا عَلَیْهِمْ بِمُعْتَبَر مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وأَسْقَامِهَا، وحَلَالِهَا وحَرَامِهَا، ومَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُطِیعِینَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ مِنْ جَنَّهٔ ونَار، وکَرَامَهٔ وهَوَان. أَحْمَدُهُ إِلَی نَفْسِهِ کَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَی خَلْقِهِ، وجَعَلَ لِکُلِّ شَیء قَدْراً، ولِکُلِّ قَدْر أَجَلا، ولِکُلِّ أَجَل کِتَاباً.

الشرح والتفسیر: دور الأنبیاء علیهم السلام فی هدایة الأمم

جدیر ذکره أنّ «ابن أبی الحدید المعتزلی» لما بلغ هذه الخطبة تأثر جدّاً بفصاحتها وبلاغتها. ثم خاض فی مقارنتها مع أحد أبرز وأفضل الخطب التی خطبها الکاتب العربی المعروف (ابن أبی الشحماء العسقلانی) فأشار إلی ضعف تلک الخطبة إزاء خطبة أمیرالمؤمنین علیه السلام، واستنتج أنّ مثل هذه العبارات لا تصدر إلّامن علی علیه السلام وعرض بالذم لأولئک المتعصبین الذی یحاولون عبثاً نسب خطب نهج البلاغة لغیر الإمام علیه السلام ویراهم لا یتبعون إلّاأهواءهم ورغباتهم ۱۱۱].

علی کلّ حال استهل الإمام علیه السلام خطبته قائلًا:

«الْحَمْدُ اللَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَهٔ،

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۶۰

والْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَهٔ[۱۱۲]. خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ».

لا شك فى أنّ الرؤيـهٔ والمشاهدهٔ تختص بالأجسام، واللَّه أسـمى من الجسـميّهٔ، والتعب والإرهاق أثر القيام بالأعمال من شؤون الأفراد ذوى القـدرهٔ المحـدودهٔ، وليس لها من سبيل إلى من كانت جميع صـفاته لامتناهيّـهٔ فى خلقه لما يشاء، فخلق هذا العالم أهون عليه من رؤيتنا لبعضـنا خلال لحظـهٔ، كما ليس لمقتـدر من قـدرهٔ أمام اللَّه، فهو القادر على فناء كلّ شـىء بعاصـفهٔ أو صاعقهٔ أو زلزلهٔ أو سـيل جارف.

العبارهٔ:

«وسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ»

إشارهٔ لطيفهٔ إلى هذه الحقيقهٔ أنّ عظمهٔ الإنسان فى جوده وكرمه فكلما كانت كرمه أكبر كان عظمته كذلك، ولكن بما أنّ جميع نعم الأرض والسماء من اللَّه الذى بسط مائدته لتشمل الجميع فهو أعظم من كلّ عظيم.

ثم أشار إلى جانب من صفاته سبحانه فى خلق الإنسان والهدف من هذه الخلقهٔ وطُرق الأنبياء عليهم السلام فى التربيهٔ والتعليم فقال:

«وهُوالَّذِى أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ والْإِنْسِ رُسُلَهُ».

ثم تطرق إلى الهدف من بعثهٔ الأنبياء ليوجزها فى عدّهٔ أمور فقال:

«لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، ولِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، ولِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، ولِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا».

أجـل، فزخارف الـدنيا ومتاعها غفلـهٔ وعيشـها نكـد ومالها ومقامها ضـلالهٔ، ومن هنا كان أحـد المبادىء الأساسيّهٔ للأنبياء تحـذيراتهم المتكررهٔ للإنسان بغيـهٔ عـدم الغفلـهٔ عن الهـدف الأساسـى للخلقـهٔ وعـدم الاسـتغراق فى هـذه الـدنيا واتخاذها قنطرهٔ إلى الآخرهٔ وعدم الركون إلى الإقامهٔ فيها فهى ليست إلّامنزل يتوقف فيه الإنسان لليلهٔ.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالاشارهٔ إلى سائر أهداف الأنبياء فقال:

«ولِيَهْجُمُوا[۱۱۳] عَلَيْهِمْ

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۶۱

بِمُعْتَبَرٍ[۱۱۴] مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا[۱۱۵] وأَسْقَامِهَا، وحَلَالِهَا وحَرَامِهَا، ومَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ مِنْ جَنَّهٔ ونَار، وكَرَامَهٔ وهَوَان».

إشارهٔ إلى أنّ الأنبياء عليهم السـلام وإضافهٔ لما سبق ينشدون ثلاثهٔ أهداف مهمّهٔ أخرى لهدايهٔ الناس؛ فذكر فى البدايهٔ الدروس والعبر التى تختزنهـا هـذه الحياهٔ العابرهٔ، ومن ذلك أننا نرى بعض الأفراد الأصـحاء والأقوياء الـذين سـرعان ما يهجم عليهم المرض فيسـلبهم قـدرهٔ الحركـهٔ ويسير بهم إلى حافـهٔ الموت، وإذا بهم ينهضون فجأهٔ ليسـتأنفوا نشاطهم من جديـد، والآخر بيان الحلال والحرام الـذى يشكل جانباً مهماً من دعوهٔ الأنبياء ويمثل الحد الفاصل بين المنطقهٔ الآمنهٔ والمحظورهٔ.

والثالث بيان الثواب والعقاب المادى والمعنوى- المادى مثل الجنّهٔ والنار والمعنوى مثل الاحترام والتحقير- فكلّ هذه الأمور من شأنها أن تكون دافعاً لطاعهٔ اللَّه ۱۱۶].

العبارهٔ:

«لِيَهْجُمُوا»

إشـارهٔ إلى أنّ أنبيـاء اللَّه يخوضون فى أهـداف الـدعوهٔ من خلال بيانـاتهم البلاغيـهٔ وتعبيراتهم المؤكـدهٔ والتى تفعـل فعلهـا فى نفس

المخاطب.

ثم عاد الإمام عليه السلام فى ختام هذا القسم إلى حمد اللّه والثناء عليه فقال:

«أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ».

وقد اختلف شرّاح نهج البلاغة فى مفهوم هذه العبارة، ولكن بالنظر إلى العبارة

«اسْتَحْمَدَ إِلَى فلان»

التى تعنى أنّه عامله بإحسان ليحمده ۱۱۷] يصبح معنى العبارة

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۶۲

(أحمده على إفاضة النعم) كما طلب من عباده.

وعاد عليه السلام فى الختام إلى ما استهل به الخطبة فتطرق إلى محدودية الحياة الدنيا والحساب الدقيق الذى يسود العالم فقال:

«وجَعَلَ لِكُلِّ شَىء قَدْراً، ولِكُلِّ قَدْر أَجَلا، ولِكُلِّ أَجَل كِتَاباً».

نعم! فكلّ ذرات هذا العالم تسير وفق حساب وكل شيء فى لوح محفوظ، كما أنّ لجميع موجودات هذا العالم نهاية ستبلغها فى وقت معين ينتهى فيه عمرهم وهـذه عبرة لجميع الناس ليعلموا من جانب أنّ الـدنيا ليست باقية ومن جانب آخر أنّ هنالك حساباً دقيقاً ينتظر جميع الأعمال.

***

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۶۳

القسم الثانى

اشارة

منهـا: فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وصَـامِتٌ نَـاطِقٌ. حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَـذَ عَلَيْهِ مِيثَـاقَهُمْ، وارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَـهُمْ. أَتَمَّ نُورَهُ، وأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ، وقَبَضَ نَبِيَّهُ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وقَـدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَـامِ الْهُـدَى بِهِ. فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُـبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئـاً مِنْ دِينِهِ، ولَمْ يَتْرُكْ شَـيْئاً رَضِـيَهُ أَوكَرِهَهُ إِلَّا وجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً، وآيَـةً مُحْكَمَـةً، تَزْجُرُ عَنْهُ، أَوتَـدْعُوإِلَيْهِ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِىَ وَاحِـدٌ، وسَخَطُهُ فِيمَا بَقِىَ وَاحِدٌ. واعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَـى عَنْكُمْ بِشَـىء سَـخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، ولَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَـىء رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وإِنَّمَـا تَسِـيرُونَ فِى أَثَر بَيِّن، وتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْل قَـدْ قَـالَهُ الرِّجَـالُ مِنْ قَبْلِكُمْ. قَـدْ كَفَـاكُمْ مَؤُونَـةَ دُنْيَـاكُمْ، وحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ.

الشرح والتفسير: الهدى فى ظلّ القرآن

تحـدّث الإمام عليه السـلام فى القسم السابق من الخطبة عن المبدأ والمعاد وصـفات الجلال والجمال والثواب والعقاب يوم القيامة إلى جانب بعثة الأنبياء والرسل وبيانهم للحلال والحرام.

وتطرق هنا إلى القرآن الكريم لكونه معجزة نبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله وأعظم مشـروع عمل يوم القيامـة وذكر له عدّة أوصاف تشير جميعاً إلى جامعية القرآن وشموليته فقال:

«فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وصَامِتٌ نَاطِقٌ. حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ،

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۶۴

وارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ».

فقد ذكر عليه السلام سبع صفات مهمّة للقرآن كافية شافية لبيان أهميّة القرآن ومنزلته الرفيعة، العبارة

«آمِرٌ زَاجِرٌ، وصَامِتٌ نَاطِقٌ»

فى الواقع كلّ منهما صفتان للقرآن وقد حذفت واو العطف بينهما، أى للقرآن أوامر ونواهٍ سكت فى بعض الأمور التى تقتضى المصلحة فيها السكوت وانطلق بيانه فى الأمور التى يتوجب على الجميع الإلمام بها أو أنّ القرآن ساكت فى الظاهر ذلك أنّه ليس أكثر من حروف وكلمات، إلّا أنّ حقيقة الأمر أنّه تحدّث بمئة لسان وإماط اللثام عن الحقائق، العبارة

«أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ»

إشارة إلى العهد الذى أخذه اللَّه وأنبياؤه من المؤمنين حين الإيمان بالتوحيد والنبوّة، لأنّ من يبدى إيمانه بهذين المبدأين فمعنى ذلك تسليمه لأوامر اللَّه وأوامر رسوله صلى الله عليه و آله، أو أنّ اللَّه بافاضته للعقل من جانب وفطرة التوحيد من جانب آخر أخذ هذا العهد من جميع الناس من خلال التكوين ليسلموا لأمره ويعملوا بكتابه.

العبارة:

«وارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ»

إشارة إلى الحقيقة التى صرّح بها القرآن الكريم «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ»[۱۱۸] فكما لا تطلق العين المرهونة دون تسديد الديون فإنّ الإنسان لا يبلغ حريته الحقيقية ما لم يمارس وظائفه الدينيّة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ليكشف عن عمق أهميّة كتاب اللَّه بذكره لصفتين أخريين فقال:

«أَتَمَّ نُورَهُ، وأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ».

والمراد من النور هنا الفيض الإلهى الذى يشمل العباد عن طريق القرآن، والعبارة

«أَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ»

إشارة إلى الآية: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»[۱۱۹] التى كمل بموجبها الدين بنزول القرآن ومشروع الولاية.

وتطرق الإمام عليه السلام إلى شمولية أحكام الإسلام والقرآن فقال:

«وقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۶۵

اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وقَدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ».

ثم استنتج من ذلك

«فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ».

إشارة إلى عدم ارتجال الصفات للَّهوعدم الابتداع فى العبادة والدعاء وتنزيه اللَّه سبحانه وتعالى عن كلّ شىء بل لابدّ من اتباع هديه وإرشاده الذى ورد فى القرآن فى كل هذه الأمور (يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى توقيفيّة صفات اللَّه والتعبديّة فى الطاعة).

ثم خاض عليه السلام فى بيان علّة هذا الموضوع فقال:

«فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ، ولَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوكَرِهَهُ إِلَّا وجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً[۱۲۰]، وآيَةً مُحْكَمَةً، تَزْجُرُ عَنْهُ، أَوتَدْعُوإِلَيْهِ».

بعبارة أخرى أنّ اللَّه سبحانه وتعالى أتمّ الحجّة فى جميع أوامره ونواهيه وجهد رسول اللَّه فى ابلاغ الرسالة؛ فأوضح المعالم من الدين وبين الأصول والفروع، وعليه فلم يدع من مجال للبدع فى الدين.

ثم قال عليه السلام:

«فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِىَ وَاحِدٌ، وسَخَطُهُ فِيمَا بَقِىَ وَاحِدٌ».

وعليه فقد سلب هذه الذريعة فى أنّ أحكام عصر النّبى صلى الله عليه و آله إنّما تختص بعهده وعلينا الاجتهاد على ضوء تغير الزمان وتبدل الوسط، والواقع أنّ هذه العبارة إشارة إلى الحديث النبوى الشريف:

«حَلالُ مُحَمَّد حَلالٌ أبَداً إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وحَرامُهُ حَرامٌ أبَداً إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ»[۱۲۱].

وقال فى تأكيده على وحدة الرسالة بشأن جميع الناس بما فيهم الماضون والحاضرون والقادمون:

«واعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَىء سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، ولَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَىء رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِى أَثَر بَيِّن، وتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْل قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۶۶

وتشير كلّ هذه العبارات إلى وحدة تعاليم الأنبياء وسفراء اللّه وطُرق السعادة والتكامل التى ابلغت من جانب اللّه بواسطة أنبيائه، رغم رقى التكامل البشرى بفعل تقادم الزمان وهذا فى الواقع أحد فروع التوحيد، وهو ما أكّده القرآن الكريم.

«آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد مِّنْ رُسُلِهِ»[۱۲۲].

واختتم الإمام عليه السلام كلامه هنا بالإشارة لبعض الأمور المهمّة فقال:

«قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ، وحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ».

إشارة من جانب إلى أنّه شملكم بأنواع النعم: «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السَّمواتِ ومَا فِى الأَرْضِ»[۱۲۳]

و

«هُوالَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً»[۱۲۴] ومن جانب آخر أمركم بالشكر الذى يوجب زيادة النعمة واستمرار العناية الإلهيّة، ومن جانب آخر دعاكم لذكره والذى يعود على قلوبكم بالطمأنينة والنجاة من مخالب الشيطان: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»[۱۲۵] «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُّبْصِرُونَ»[۱۲۶].

وما يلاحظ من أنّ الإمام عليه السلام اكد على ذكر اللسان من بين جميع الأعمال الواجبة والمستحبة كونه مدعاة ليقظة القلب وهذه اليقظة هى المصدر الرئيسى للحركة نحوالخير والسعادة، أضف إلى ذلك فإنّ اللسان إن لم يلهج بالذكر سينطلق لخدمة الشيطان وأننا لنعلم أنّ العديد من الكبائر إنّما تصدرمن اللسان، جدير بالذكر أنّ التوجه إلى النعم وشكر المنعم على فضله ونعمه هو المحور الأصلى لمعرفة اللّه كما ورد فى علم العقائد.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۶۷

تأمّلان

۱. وحدة حكم اللّه فى الأولين والآخرين

إنّ وحدة الأحكام الشرعيّة وسريانها على الأولين والآخرين بما فيها الأقوام والأمم كافّة لمن الأمور المهمّة التى أكّد عليها الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة، وتوضيح ذلك أنّ تاريخ البشريّة فى الماضى والحاضر شهد أنواع التمييز بين الأقوام والشعوب فى وضع القوانين والتشريعات، فكانت هنالك الأحكام المختلفة التى تتأثر عادة بلون البشرة والأخرى بالمنزلة الاجتماعيّة وكان دم ذوى البشرة البيضاء أثمن من نظيره لدى العبيد فكانت هنالك الامتيازات الخاصّة لدى طبقة الأشراف فى سن القوانين.

فـانبثق الإسـلام لیلغی تلک الامتیازات کافّـة إثر تبنیه لرسالـة المساواة وعـدم التمایز الطبقی وتکافو جمیع الأفراد مهما اختلفت ألوانهم وأعراقهم فی الحقوق والواجبات وجاء فی الخبر أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله بینما کان فی منی أیّام الحج راکباً دابته إذ التفت إلی الناس فقال:

«یا أَیُّها النّاسُ ألا إنَّ رَبَّکُمْ واحِدٌ وإنَّ أَباکُمْ واحِدٌ ألا لا فَضْلَ لِعَرَبِیٍّ عَلی عَجَمی، ولا لِعَجَمِی عَلی عَرَبی، ولا لِاسْوَدَ عَلی أَحْمَرَ[۱۲۷]، ولا

لِاحْمَرَ عَلی اسْوَدَ إِلّا بِالتَّقْوی. أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قالُوا نَعَم! قالَ لِیَبْلُغَ الشّاهِدُ الْغائِبَ»[۱۲۸].

ولم یقتصر النّبی صلی الله علیه و آله علی هذا الکلام فی ذلک التجمع العظیم بمنی، بل أشار إلیه فی موارد کثیرة بصفته أحد المبادئ الإسـلامیّة المسـلمة، ففی الخبر أنّ سـلمان الفارسی دخل مجلس النبی صلی الله علیه و آله فأکرمه النّبی لفضله وسنه وأجلسه فی صدر المجلس فلما رآه عمر أنکر ذلک وقال:

«مَنْ هذَا الْعَجَمِیُّ الْمُتَصَدِّرُ فیما بَیْنَ الْعَرَبِ»

فصعد النبی الأکرم صلی الله علیه و آله المنبر (الأمر الذی کان یقوم به لبیان حکم عام وأساسی) فخطب الناس وقال:

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۶۸

«انَّ النّاسَ مِنْ آدَمَ إلی یَوْمِنا هذا مِثْلُ أسْنانِ الْمِشْطِ؛ لا فَضْلَ لِلْعَرَبِیِّ عَلَی الأَعْجَمِیِّ ولا لِلْاحْمَرِ عَلَی الأَسْوَدِ إِلّا بِالتَّقْوی، سَلْمانُ بَحْرٌ لا یُنْزَفُ وکَنْزٌ لا یَنْفَد، سَلْمانُ مِنّا أهْلَ الْبَیْتِ»[۱۲۹].

یشـیر هـذا الحـدیث صـراحة إلی عـدم مساواة الناس الذین یعیشون فی عصـر معین إزاء القوانین الشـرعیّة فحسب، بل شـمولیته لجمیع الأفراد الـذین سـکنوا الأرض طیلـة تاریـخ البشـریّة فی ظلّ نفس الظروف ویبدو لهذا المبدأ والحکم الإسـلامی جدواه الفعلیه آنذاک حین کانت الامتیازات القبلیة بین العرب والامتیازات العرقیّة والتمایز الطبقی هو الحاکم فی العالم انذاک.

وکلام أمیرالمؤمنین علیه السلام فی هذه الخطبة إنّما هو تأکید لهذا الموضوع حین قال إنّ اللَّه لن یرضی عنکم بشیء سخطه علی من کان قبلکم ولن یسـخط علیکم بشـیء رضیـه ممن کان من قبلکم وما زال هـذا القانون هو الحاکم، کما یبـدو لهذا الکلام الذی یمثل امتداداً لکلمات النّبی الأکرم صـلی الله علیه و آله قیمته القصوی علی أساس إعادة تلک الامتیازات الجاهلیة بما فیها امتیاز العرب علی العجم إبان خلافة عمر کما تفید تواریخ الفریقین.

ونختتم الحدیث هنا بعبارة من خطبته صلی الله علیه و آله فی حجة الوداع حین بین للجمیع أسس وقوانین الشریعة الإسلامیّة للجمیع:

«أَیُّهَا النّاسُ إنّ رَبَّکُمْ واحِدٌ وإنَّ أباکُمْ واحِدٌ کُلُّکُمْ لِآدَمَ وآدَمُ مِنْ تُراب،

«إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَاللَّهِ أَتْقاکُمْ»

ولَیْسَ لِعَربیٍّ عَلی عَجَمِیٍّ فَضْل إِلّا بِالتَّقوی؛ ألا هَلْ بَلّغْتُ؟ قالُوا: نَعَمْ. قالَ: فَلْیَبْلُغِ الشّاهِدُ الْغائِبَ»[۱۳۰].

۲. القرآن ناطق أم صامت؟

صدرّ الإمام علیه السلام کلامه فی هذه الخطبة بأنّ القرآن صامت وناطق، بینما وصفه فی

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۶۹

الخطبة ۱۲۵ فی قصة التحکیم قائلًا:

«هذَا الْقُرْآنُ إِنَّما هُوخَطٌّ مَسْتُورٌ بَیْنَ الدَّفَتَیْنِ لا یَنْطِقُ بِلِسان ولابُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمان. وإِنَّما یَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجالُ»

کما ورد شبیه ذلک فی الخطبة ۱۵۸.

فهل هنالك من تناقض بين هذه التعابير؟ الجواب هو أنّ المراد من ناطقية القرآن أنّه بين أحكام اللَّه فيه بلسان عربى مبين، فكلّ من كان لديه استعداد دعاه لنفسه وهداه للخير والسعادة وعليه فهو ناطق بالنسبة لدعاة الحقّ؛ أمّا بالنسبة إلى أولئك الأفراد المتعصبين والذين انبروا للنزاع فهم لا يسمعون رسالة القرآن وإن سمعوها تظاهروا بعدم السماع، ولا مناص لهؤلاء الأفراد من قاضٍ وحكم عادل يبلغهم رسالة القرآن ويتم عليهم الحجّة، على سبيل المثال للقرآن رسالة واضحة فى قصة صفين حيث يقول: «فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ»[۱۳۱]. فمن الواضح للجميع أنّ عليّاً عليه السلام وإضافة إلى نصبه لخلافة النّبى صلى الله عليه و آله من جانب اللَّه تعالى إنّما بويع من قبل قاطبة المؤمنين وأغلبية المهاجرين والأنصار، ولم يكن معاوية وجيشه سوى حفنة من الطغاة الجفاة الذين أرادوا فرض أنفسهم على الأمة، ولكن حيث انبروا لمواجهة حكم اللَّه لزم أن يكون هناك حكم يأخذ بأيديهم إلى الحقّ رغم أنّ مسألة التحكيم وللأسف لم تسر بالاتجاه الصحيح ولم تتوصل إلى النتيجة المتوخاة.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۷۱

القسم الثالث

اشارة

وأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ، وحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ. فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، ونَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وتَقَلُّبُكُمْ فِى قَبْضَتِهِ. إنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وإنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ؛ قَدْ وَكَّلَ بِذلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً، لَايُسْقِطُونَ حَقّاً، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلًا. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ (مَنْ يَتَّقِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَّهُ مَخْرَجاً) مِنَ الْفِتَنِ، ونُوراً مِنَ الظُّلَم، ويُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، ويُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِى دَار اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ؛ ظِلُّهَا عَرْشُهُ، ونُورُهَا بَهْجَتُهُ، وزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ، ورُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ؛ فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وسَابِقُوا الآجَالَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الأَمَلُ، ويَرْهَقَهُمُ الأَجَلُ، ويُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِى مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وأَنْتُمْ بَنُوسَبِيل، عَلَى سَفَر مِنْ دَار لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالْارْتِحَالِ، وأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ.

الشرح والتفسير: منزلة التقوى

أكّد الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة على الدعوة إلى التقوى إلى جانب ذكره لسبب ذلك مع الإشارة إلى آثار التقوى، كما قدم شرحاً عميقاً لتقلب الدنيا ورحلة الآخرة وما يلزمها من زاد ومتاع يكمن فى الورع والتقوى.

فقال بادئ الأمر:

«وأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ، وحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ».

وتشير هذه العبارة إلى أنّ التقوى أفضل شيء سأله اللَّه عباده وأعظم فخر يتقلّده

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۷۲

الجميع والذى ينسجم مع الآيات القرآنية القائلة: «انَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»[۱۳۲]، «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»[۱۳۳]، «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً»[۱۳۴] وجعل للتقوى قيمتها العميقة.

والحقيقة هى أنّ التقوى شعور باطنى بالمسؤولية فهى وليدة الإيمان القوى من جانب وأساس الطاعة واجتناب المعصية من جانب آخر، والتعبير بالحاجة بشأن اللَّه تعالى لا يعنى أنّ اللَّه محتاج إلى العباد فالحاجة لغوياً لا تقتصر على الفقر، بل ترد أحياناً بمعنى الطلب والسؤال.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى الإشارة إلى الداعى لرعاية تقوى اللَّه فقال:

«فَاتَّقُوا اللَّهُ الَّذِی أَنْتُمْ بِعَیْنِهِ، وَنَوَاصِیکَمْ ۱۳۵] بِیَدِهِ، وتَقَلُّبَکُمْ ۱۳۶] فِی قَبْضَتِهِ».

نعم فالعالم حاضـر عنـد اللّه وزمام الجمیع بیـده سـبحانه، ورغم أنّ العباد أحرار فی ما یمارسون من أعمال، إلّاأنّ هـذه الحریـۀ لا تعنی سلب الذات القدسیّۀ قدرتها.

ثم قال علیه السلام لمزید من التأکید:

«انْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وإِنْ أَعْلَنْتُمْ کَتَبَهُ؛ قَدْ وَکَّلَ بِذلِکَ حَفَظَةً کِراماً، لَایُسْقِطُونَ حَقّاً، وَلَا یُثْبِتُونَ بَاطِلًا».

وجاء فی القرآن أیضاً: «وَأَسِرُّوا قَوْلَکُمْ أَواجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»[۱۳۷].

وکذلک: «وَإِنَّ عَلَیْکُمْ لَحَافِظِینَ* کِرَاماً کَاتِبِینَ* یَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ»[۱۳۸].

فمن البـدیهی أنّ کتابـۀ الأعمال من قبل الملائکۀ الحفظۀ إنّما هو للتأکید، وإلّا فقد اتضح من العبارات السابقۀ أنّ السـر والعلانیّۀ سواء عند اللّه وعلمه محیط بکلّ ما فی السماوات والأرض، استناداً للعبارة

«قَدْ وَکَّلَ بِذلِکَ»

وحصر هذه الکتابۀ بأعمال

نفحات الولایۀ، ج۷، ص: ۷۳

معینۀ

«وإِنْ أَعْلَنْتُمْ کَتَبَهُ»

فالذی یسـتفاد أنّ الملائکۀ لیست مأمورة بکتابۀ کلّ الأعمال الخفیۀ وأنّ اللّه السـتار للعیوب قد أخرج جانباً من هذه الأعمال عن دائرة علمهم واختص بها نفسه وهذا یشیر إلی منتهی لطفه.

جاء فی دعاء کمیل:

«وَکُلَّ سَیِّئَۀٍ أَمَرْتَ بِاثْباتِهَا الْکِرامَ الْکـاتِبینَ الَّذینَ وَکَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ ما یَکُونُ مِنّی وَجَعَلْتَهُمْ شُـهُوداً عَلَیَّ مَعَ جَوارِحی وَکُنْتَ أَنْتَ الرَّقیبَ عَلَیَّ مِنْ وَرآئِهِمْ وَالشّاهِدَ لِما خَفِیَ عَنْهُمْ وَبِرَحْمَتِکَ اخْفَیْتَهُ وَبِفَضْلِکَ سَتَرْتَهُ».

ثم خاض الإمام علیه السلام فی بیان آثار وبرکات التقوی فذکر بعبارة قصیرة عمیقۀ المعنی أربع نتائج تفرزها التقوی. فقال فی الأُولی والثانیۀ:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ

«مَنْ یَتَّقِ اللَّهُ یَجْعَلْ لَّهُ مَخْرَجاً»

مِنَ الْفِتَنِ، ونُوراً مِنَ الظُّلَمِ».

فالشق الأوّل من الکلام اقتباس من الآیۀ الشریفۀ: «وَمَنْ یَتَّقِ اللَّهُ یَجْعَلْ لَّهُ مَخْرَجاً»[۱۳۹].

روی أبوذر الغفّاری عن النّبی صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«إِنّی لَاعْلَمُ آیۀً لَوأَخَذَ بِهَا النّاسُ لَکَفَفَتْهُمْ:

«ومَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»

فَما زالَ یَقُولُها ویُعیدُها»[۱۴۰].

والشق الثـانی من سـائر الآیـات مثـل: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ امَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ یَجْعَلْ لَّکُمْ فُرْقَاناً»[۱۴۱] (ورؤیـۀ خاصۀ تتعرفون من خلالها علی الحقّ والباطل).

وقال فی الثمرة الثالثۀ والرابعۀ للتقوی:

«ویُخَلِّدْهُ فِیمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، ویُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْکَرَامَۀِ عِنْدَهُ، فِی دَار اصْطَنَعَهَا[۱۴۲] لِنَفْسِهِ».

فنتيجة التقوى فى هذه العبارة الخروج من الفتنة وزوال الظلمات من حياة المتّقين فى هذا العالم والخلود فى النعم الماديّة والمعنويّة فى العالم الآخر، فالواقع أنّ اللَّه سبحانه وتعالى جمع للمتّقين النعم الماديّة والمعنويّة لهذا العالم والعالم الآخر

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۷۴

والعبارات تشير كلّ منها إلى إحدى هذه النعم.

وتشير العبارة

«اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ»

أنّ اللَّه خلق منازل الآخرة الخاصّة لخواصه أو أنّها من قبيل بعض العبارات مثل «بيت اللَّه» و «شهراللَّه» التى تشير إلى عظمة تلك الدار وأهميّتها.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح صفات ذلك المنزل الخاص فقال:

«ظِلُّهَا عَرْشُهُ، ونُورُهَا بَهْجَتُهُ، وزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ، ورُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ».

يا له من منزل رفيع ذلك الذى يفوق السماء والأرض وفى ظلّ عرش اللَّه، أضاءته أشعة نور اللَّه وتقاطرت فيه ملائكته على زيارة ذلك الإنسان وجالس فيها رسل‌اللَّه وأنبياءه، وهى الصفات التى تسحر الإنسان عند سماعها، فما ظنك برؤيتها؟

قال تعالى فى القرآن الكريم: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً»[۱۴۳].

وخلص الإمام عليه السلام فى مواصلة كلامه بالدعوة إلى التقوى وبيانه لبركاتها بالقول:

«فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وسَابِقُوا الآجَالَ».

كما قال القرآن: «سَابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[۱۴۴].

وقال فى موضع آخر: «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّنْ كُلِّ بَابٍ* سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»[۱۴۵].

ثم خاض عليه السلام فى بيان العلّة فقال:

«فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الأَمَلُ، ويَرْهَقَهُمُ ۱۴۶] الأَجَلُ، ويُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۷۵

مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

والكلام إشارة لما ورد فى القرآن: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوقَائِلُهَا»[۱۴۷].

ومراد الإمام عليه السلام بادروا اليوم إلى العمل الصالح والتوبة من الذنب قبل أن تعيشوا مثل هذا المصير وتطلبوا ما لا يلّبى لكم.

وحث إثر ذلك على التأهب لسفر الآخرة والاستعداد والتزود لذلك السفر الطويل والمليئ بالمخاطر فقال:

«وأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ».

واختتمها بالعبارة:

«وقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالْارْتِحَالِ، وأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ».

وعادة ما يلاحظ مثل هذا التشبيه الرائع للدار الآخرة والدنيا وسكنة هذا العالم فى بعض الآيات القرآنيّة والعديد من الروايات الإسلاميّة التى شبهت الإنسان بالمسافر الذى ينطلق نحو الهدف المطلوب وعليه أن يطرق بعض الأيّام أثناء الطريق فيتوقف فى بعض الأماكن فيهيء الزاد والمتاع وينطلق من هناك وليس المراد من الزاد والمتاع سوى التقوى كما ليس المراد من المركب سوى الإيمان، فأولئك الذين يقصرون فى الإعداد إنّما يتخلّفون فى الطريق ويهلكون ولا يبلغون المقصد قط فقافلة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام مازالت

تنادی بالرحيل والتزود لذلک السفر الطويل، وإن غط البعض فی نوم عميق وفقد الآذان الصاغية فصم عن سماع ذلک النداء.

قال تعالی فی محكم كتابه:

«وَإِنَّ الْاخِرَةَ هِیَ دَارُ الْقَرَارِ»[۱۴۸]

. وقال: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوی»[۱۴۹].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۷۷

القسم الرابع

اشارة

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَی النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِی مَصَائِبِ الدُّنْيَا.

أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ، والرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَار، ضَجِيعَ حَجَر، وقَرِينَ شَيْطَان! أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَی النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ!

الشرح والتفسير: العذاب الشديد يوم القيامة

إثر تأكيدات الإمام عليه السلام علی الورع والتقوی فی القسم السابق من الخطبة أشار هنا بعبارات رائعة إلی شدة العذاب يوم القيامة فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَی النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ».

ثم جسد بمقارنة بسيطة وواضحة شدّة إحراق نار جهنم فقال:

«فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِی مَصَائِبِ الدُّنْيَا، أَفَرَأَيْتُم جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ[۱۵۰] تُصِيبُهُ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ ۱۵۱]، والرَّمْضَاءِ[۱۵۲] تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ ۱۵۳] مِنْ نَار، ضَجِيعَ حَجَر،

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۷۸

وقَرِينَ شَيْطَان!».

وقال فی مواصلته لهذا الكلام:

«أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَی النَّارِ حَطَمَ ۱۵۴]

بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ ۱۵۵] بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ!».

وللمرحوم «مغنية» حين بلغ هذا القسم من الخطبة كلام رائع حيث يقول: «إنّ جميع خطب نهج البلاغة تبحث أصلين أو ثلاثة أصول مع بعضها، فمن جانب الثناء علی صفات اللّه الجماليّة والجلاليّة وأسمائه الحسنی ومن جانب آخر مدح النّبی الأكرم صلی الله عليه و آله وما أتی به من هدی للناس وأخيراً الكلام عن خداع الدنيا وسكرات الموت ووحشة القبر وأليم العذاب فی القيامة، والعجيب أنّ هذه الخطب لا تتضمن التكرار رغم تكرر هذه المواضيع، حيث يوردها بأسلوب بديع وشكل جديد، الأمر الذی أذهل شرّاح نهج البلاغة»[۱۵۶].

علی كلّ حال فإنّ الإمام عليه السلام شرح فی هذا الكلام عجز الإنسان وانزعاجه الشديد من مصائب الدنيا الهينة وقارنها مع أليم العذاب وشدّة المصاب فی الآخرة ليحذر الجميع من ذلک.

وقد ورد شبيه ذلک فی دعاء كميل حيث يقول:

«يـا رَبِّ وَانْتَ تَعْلَمُ ضَـعْفى عَنْ قَليـل مِنْ بَلاـءِ الـدُّنْيا وَعُقُوباتِها وَما يَجْرى فيها مِنَ الْمَكارِهِ عَلى اهْلِها عَلى انَّ ذلِکَ بَلاءٌ وَمَكْرُوهٌ قَليلٌ مَكْثُهُ يَسيرٌ بَقآؤُهُ قَصيرٌ مُـدَّتُهُ فَكَيْفَ احْتِمالى لِبَلاءِ الْاخِرَةِ وَجَليلِ وُقُوعِ الْمَكارِهِ فيها وَهُوبَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ وَيَدُومُ مَقامُهُ وَلا يُخَفَّفُ عَنْ اهْلِهِ».

والـذى يسـتفاد ضـمنياً من العبـارات المـذكورة أنّ نـار جهنم مخلوق فطن، يشـعر بـالرعب من غضب مالـك خازن النار فيتأرجـح هنا وهناک، كما يفهم من تلك

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۷۹

التعبيرات أنّ لعذاب جهنم بعد جسمى هو حرقة النار وآخر معنوى يتمثل فى مجاورة الشيطان.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۸۱

القسم الخامس

اشارة

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ، الَّذِى قَـدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الأَعْنَاقِ، ونَشِـبَتِ الْجَوَامِعُ حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ. فَـاللَّهَ اللَّهَ مَعْشَرَ الْعِبَـادِ! وأَنْتُمْ سَـالِمُونَ فِى الصِّحَّةِ قَبْـلَ السُّقْمِ، وفِى الْفُسْـحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ. فَاسْعَوْا فِى فَكَـاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا. أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، واسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَبْخَلُوا بِهَـا عَنْهَـا، فَقَـدْ قَـالَ اللَّهُ سُـبْحَانَهُ: «إِنْ تَنصُـرُوا اللَّهُ يَنصُـرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْـدَامَكُمْ» وقَالَ تَعَالَى: «مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَـناً فَيُضَـاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ». فَلَمْ يَسْتَنْصِـرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، ولَمْ يَسْتَقْرِضْـكُمْ مِنْ قُـلٍّ؛ اسْتَنْصَـرَكُمْ «ولَهُ جُنُودُ السَّمَـاوَاتِ والأَـرْضِ وهُوالْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وَاسْتَقْرَضَكُمْ «ولَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وهُوالْغَنِىُّ الْحَمِيدُ». وإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا».

الشرح والتفسير: الامتحان الإلهى

تغيرت نبرة الإمام عليه السلام فى هـذا الجانب من الخطبـة ليخاطب الكهول ويسـتعرض لهـم جانباً من أشد عذاب وأهوال يوم القيامة، ثم يـدعو عباد اللَّه كافّة اغتنام الفرصة بغية الخلاص من عذاب اللَّه ونقمته ليقدم تعاليم دقيقة بهذا الشأن يتمثل أحدها فى الانفاق فقال عليه السلام:

«أَيُّهَا الْيَفَنُ ۱۵۷] الْكَبِيرُ، الَّذِى قَدْ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۸۲

لَهَزَهُ ۱۵۸] الْقَتِيرُ[۱۵۹]، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ ۱۶۰] أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الأَعْنَاقِ، ونَشِبَتِ ۱۶۱]

الْجَوَامِعُ ۱۶۲] حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ[۱۶۳]».

السؤال الـذى يطرح نفسه هنا: لمـاذا خـاطب الإمـام عليه السـلام الشـيخ المسن؟ لعـل ذلـك يعود إلى أنّ شـمس عمره توشـک على المغيـب- وإن كـان المـوت يـأتى كـلّ أحـد بغتـة- وعليـه أن يركز فى الانتبـاه لنفسـه، أو لأـنّ للكهـول تـأثيراً على أُسـرهم وأبنـائهم وباستطاعتهم نصحهم ووعظهم.

العبارة:

«قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ»

استناداً إلى أنّ

«لهز»

يعنى فى الأصل نفوذ الشيء واتساعه فى شيء آخر و

«قتير»

من مادة قتر بمعنى التضييق والتصعب فالعبارة تفيد أنّ الشيخوخة قد نفذت فى كلّ كيانهم فقد ضعفت العظام وبهت الدماغ والأعصاب وعجزت أعضاء البدن كافّة.

وقد أشار الإمام عليه السلام إلى نوعين من العذاب الأليم الذى يحيق بأهل جهنم، أحدهما أطواق النار التى تطوق أعناق المجرمين وتتغلغل فى لحومهم حتى تبلغ عظامهم والآخر غل الجامعة التى تربط أيديهم إلى أعناقهم بحيث تجرح سواعد أيديهم، طبعاً هذا العذاب وإن كان شديد الألم إلّاأنّه يعتبر رحمة بفعل دوره فى حجزهم عن الذنب والمعصية.

ثم واصل كلامه عليه السلام موجهاً الخطاب لجميع العباد فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ مَعْشَرَ الْعِبَادِ!

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۸۳

وأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِى الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وفِى الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ. فَاسْعَوْا فِى فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا[۱۶۴]».

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا إلى نعمتين كبيرتين؛ إحداهما السلامة والعافية والأخرى إعداد الإمكانات التى تمكن الإنسان من الإقدام على أى عمل. نعم فهو يحذر الجميع من استغلال هذه الفرص والخلاص من تبعات المسؤوليّة.

وتشير العبارة

«فَاسْعَوْا فِى فَكَاكِ رِقَابِكُمْ»

إلى سلسلة من التكاليف التى لا مناص للإنسان من القيام بها، فقد كان السائد لدى الأقوام السابقة أنّ الدائن يستعبد المدين مالم يتمكن من أداء دينه، ولا يعتق مالم يسدد ذلك الدين، فالعبارة المذكورة يمكن أن تكون كناية عن هذا المطلب.

والعبارة:

«مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا»

إشارة إلى أنّ الشخص المدين إن تخلف عن أداء الدين خرج عن ملكيته ما كان مرتهناً لدى المدين (طبعاً بمقدار الطلب) فقد أشار الإمام عليه السلام إلى ضرورة أداء الديون الإلهيّة والمراد بها الواجبات بغية تحرير رهائنهم لديه والمراد به أنفسهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام بالخوض فى تفاسير العبارات التى ذكرها سابقاً بصورة كلية فركز على خمسة مواضيع وقال:

«أَسْهِرُوا[۱۶۵] عُيُونَكُمْ، وأَضْمِرُوا[۱۶۶] بُطُونَكُمْ،

واسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا».

والمراد من

«أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ»

أسهروا عيونكم المناجاة فى الليل سيما صلاة التهجد.

«وأَضْمِرُوا بُطُونَكُم»

إشارة إلى الصيام،

«واسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ»

إشارة إلی قیام اللیل أو السعی فی قضاء حوائج الناس واغاثة الملهوفین،

«وأَنْفِقُوا أَمْوَالَکُمْ»

إشارة إلی الخمس والزکاة الواجبة والصدقات المستحبة

«وخُذُوا مِنْ أَجْسَادِکُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَی أَنْفُسِکُمْ»

إشارة إلی العبادة وتهذیب النفس والجهاد فی سبیل اللَّه.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۸۴

ثم استدل الإمام علیه السلام علی کلامه بالاستشهاد بآیتین من القرآن فقال:

«فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ:

«إِنْ تَنصُرُوا اللَّهُ یَنصُرْکُمْ وَیُثَبِّتْ أَقْدَامَکُمْ»[۱۶۷]».

وقَالَ تَعَالَی: «مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حسَناً فَیُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ کرِیمٌ»[۱۶۸].

وقال علیه السلام فی شرحه لهذه الآیات:

«فَلَمْ یَسْتَنْصِرْکُمْ مِنْ ذُلٍّ، ولَمْ یَسْتَقْرِضْکُمْ مِنْ قُلٍّ؛ اسْتَنْصَرَکُمْ

«ولَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وهُوالْعَزِیزُ الْحَکِیمُ»

وَاسْتَقْرَضَکُمْ

«ولَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وهُو الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ»

وإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ

«لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلا»».

إشـارة إلی أنّ اللَّه اعتمـد غایـة اللطف فی الکلام لیتعظ من کـان له أدنی اسـتعداد لطاعته بتلک التعبیرات المفعمـة باللطف والمحبّة فیحث الخطی علی التسلیم للَّه.

والحقیقة أنّ کلام الإمام علیه السـلام جواب لسؤال هو هل یمکن للَّهتعالی الذی له جند السماوات والأرض أن یستعین بعبده الضعیف العـاجز الـذی لاـ یملـک لنفسه سـوی مـا أفـاض اللَّه علیه؟ أم یسـتقرض عبـده الضـعیف الـذی یرتـع فی نعمه وهو الـذی بیـده خزائن السـماوات والأرض؟ فلو أراد اللَّه اعانة ضعیف لما لا یعینه، ولو أراد اثراء فقیر لما لا یقوم هو بهذا العمل؟ أشار الإمام علیه السلام إلی أنّ الهدف من کلّ هذه الأمور هو الامتحان والاختبار.

جـدیر بالـذکر أنّ جمیع مـا ذکر اقتبـاس من القرآن الکریم، إذ قـال تعالی فی موضع «وَلَو یَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلکِنْ لِّیَبْلُوَا بَعْضَکُمْ بِبَعْض»[۱۶۹].

وفی موضع آخر: «الَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَیَاةَ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»[۱۷۰] وآیات أخری.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۸۵

القسم السادس

اشارة

فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِکُمْ تَکُونُوا مَعَ جِیرَانِ اللَّهِ فِی دَارِه. رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وأَزَارَهُمْ مَلَائِکَتَهُ، وأَکْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِیسَ نَار أَبَداً، وصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَی لُغُوباً ونَصَباً: (ذَلِکَ فَضْلُ اللَّهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشَاءُ وَاللَّهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِیمِ). أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَی نَفْسِی

وأَنْفُسِكَمْ، وهُوحَسْبُنَا ونِعْمَ الْوَكِيلُ!

الشرح والتفسير: الانتقال إلى جيران اللّه

خلص الإمام عليه السلام فى ختام الخطبة إلى نتيجة واضحة وهى أنّ كان الأمر كذلك

«فَبَادِرُوا بَأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللَّهِ فِى دَارِهِ».

ثم خاض عليه السلام فى خصائص هؤلاء الجيران فقال:

«رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ، وأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ ۱۷۱] نار أَبَداً، وصَانَ ۱۷۲] أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً[۱۷۳] ونَصَباً[۱۷۴]:

«ذَلِکَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِيم»[۱۷۵]».

فقد بيّن الإمام عليه السلام بهذه العبارات الرائعة أربع خصائص لجيران اللّه اثنان منها لهما

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۸۶

بعد معنوى والاثنان الآخران لهما بعد مادى؛ فمرافقة الأنبياء وزيارة الملائكة كرامتان معنويتان وكرامتان روحيتان لا مثيل لهما كما أنّ عدم سماع أدنى صوت لنار جهنم وصون الاجساد من أى تعب ونصب كرامتان ماديتان لا نظير لهما كذلك.

وليت شعرى أى كرامة أسمى من أن يرافق الإنسان هؤلاء المقرّبين فى غرف الجنّة ويشمل بهذه النعم المعنويّة والماديّة.

ويؤكد الإمام عليه السلام ضمنياً بالاستفادة من الآية الشريفة على أهميّة هذه النعم الأخروية ويعدها من فضائل اللّه العظمى.

والعبارة:

«وأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ ...»

اقتباس من الآية: «لَايَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ»[۱۷۶].

والعبارة:

«وصَانَ أَجْسَادَهُمْ ...»

إشارة إلى الآية الشريفة: «لَايَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ»[۱۷۷].

وهنا يرد هذا السؤال: تُرى من هم جيران اللّه الذين لهم هذه الكرامات؟

فالتعبير بجيران اللّه يشير إلى أنّهم من خواص اللّه ومقرّبيه بحيث استحقوا اسم جيران اللّه ويتّضح من زيارة الملائكة والأنبياء لهم أنّهم ليسوا أنبياء ولا ملائكـة، وعليه فلابـدّ أن يكونوا من الصـديقين والشـهداء والحواريين الذين تمحوروا حول الأنبياء والأولياء وأصبحوا على ما هم عليه فى ظلّ الورع والتقوى وتهـذيب النفس ليشـملوا بكل هـذه العنايـة الإلهيّة، على غرار ما قال القرآن الكريم: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلئِکَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلِئکَ رَفِيقاً»[۱۷۸].

والشاهد على هذا الموضوع ما ذكره الإمام عليه السلام فى الرسالة ۲۷ بشأن تلك الثلّة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۸۷

من المتّقين الذى بلغوا درجة من الورع والتقوى ومنزلة رفيعة من الزهد وعدم الاعتناء بزخارف الدنيا واكتسبوا بحقّ اسم جيران اللّه.

ثم اختتم خطبته لإتمام الحجّة فقال:

«أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِى وأَنْفُسِكُمْ، وهُوحَسْبُنَا ونِعْمَ الْوَكِيلُ!».

وعليه فقد أتمّ الحجّة عليهم من جانب ودعا لهم بالموفقية من جانب آخر وأفصح بالتالى عن توكله على اللّه فى جميع الأحوال.

تأمّل

طریق السیر والسلوک إلی اللَّه

لقـد کشف الإمـام علیه السـلام فی هـذه الخطبـهٔ عن أروع الـدروس الـتی یمکن أن ینطوی علیهـا من سـلک سبیـل الحقّ بغیـهٔ التربیهٔ والتهذیب کما تطرق بعبارات قصیرهٔ وعمیقهٔ المعنی إلی منهج السیر والسلوک إلی اللَّه تعالی.
فقد أثار لدیهم الشعور بخشیهٔ اللَّه من خلال ذکره لجانب من العذاب الألیم لنار جهنم، ثم حذرهم من أنّ أعمارهم وعافیتهم إنّما هی أمانهٔ مستودعهٔ وستعاد یوماً ما إلی صاحبها.
وعلیه فلابدّ من اغتنام الفرصهٔ والمبادرهٔ إلی العمل کما ورد فی الحدیث النبوی الشریف:
«إغْتنم خَمساً قَبْلَ خَمْس؛ حَیاتَکَ قَبْلَ مَوْتِکَ وصِحَّتَکَ قَبْلَ سُقْمِکَ وفَراغَکَ قَبْلَ شُغْلِکَ وشَبابَکَ قَبْلَ هَرَمِکَ وغِناکَ قَبْلَ فَقْرِکَ»[۱۷۹].
ثم أشار إلی العبادهٔ وتهـذیب النفس فأوصـی بإحیاء اللیل وقلّهٔ الطعام وتوظیف الجوارح فی خدمهٔ الخلق والسـعی إلی الجهاد ومن ثم انفـاق الأـموال، وبالتـالی الحـد من الجسم لصالـح الروح لیبث الأمل فی قلوب السالکین بوعـد اللَّه من خلال استشـهاده ببعض الآیات القرآنیّهٔ.
نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۸۸
وأخیراً رسـخ الـدوافع المعنویّهٔ عن طریق ذکر الثواب العظیم الـذی ینتظرهم جوار قرب اللَّه. نعم فقد أدی معلم الإنسانیّهٔ العظیم وقائد الغرّ المحجلین حقّ المطلب بعبارات قصیرهٔ واضحهٔ فی اطار تعالیم متکاملهٔ.
***

نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۸۹

الخطبهٔ ۱۸۴

اشارهٔ

قالَهُ لِلْبُرجِ بْنِ مُسْهِر الطّائی، وقَدْ قالَ لَهُ بِحَیْثُ یَسْمَعُهُ:
«لا حُکْمَ إِلَّا للَّهِ»، وکانَ مِنَ الْخَوارِجِ ۱۸۰]

نظرهٔ إلی الخطبهٔ

نعلم أنّ الخوارج- تلک الفئهٔ الجاهلهٔ والمتعصبهٔ التی ثارت علی الإمام علیه السلام بعد التحکیم فی صفین- وکان شعارهم
«لا حُکْمَ إِلَّا للَّهِ»
ومرادهم عـدم ضـرورهٔ تعیین حَکم یوم صـفین، فلا حَکم إلّااللَّه؛ وقـد اسـتعمل هـذا الشـعار بصـیغهٔ منحرفهٔ وخاطئهٔ من قبل الخوارج، وحین رفع بُرج بن مُسـهر الطائی هذا الشـعار عند الإمام علیه السـلام، عنفه علیه السلام بکلمات لاذعهٔ وعنیفهٔ، حتی لا یجر واحداً غیره علی رفع هذا الشعار المضل (قدمنا شرحاً وافیاً بشأن هذا الشعار الذی رفعته هذه الفئهٔ الضالهٔ فی الخطبهٔ ۴۰ من هذا الشرح)

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۹۱

اسْكُتْ قَبَّحَكَ اللَّهُ يَا أَثْرَمُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلًا شَخْصُكَ، خَفِيّاً صَوْتُكَ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ.

الشرح والتفسير: صه يا أحمق

فى بدايهٔ الكلام أجبر الإمام عليه السلام هذا الخارجى على السكوت. ثمّ ليعرفه جيداً الناس ذكر صفاته السيئهٔ وسابقته البشعهٔ، فقال: «اسْكُتْ قَبَّحَكَ اللَّهُ يَا أَثْرَمُ».

كلمهٔ «أثرم» التى تعنى الشخص الذى ضرب على فمه وكسرت أسنانه الإماميّهٔ إشارهٔ إلى أنّ فمك واسنانك تشير إلى أنّ مخالفيك ضربوك لأنّك بذىء اللسان، إضافهٔ إلى ذلك فإنّ من كسرت أسنانه الأماميّهٔ لا يستطيع أن يتكلّم بطلاقهٔ والأفضل له أن يسكت.

ثم واصل ذكر ماضيه السيء فقال:

«فَوَاللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلًا[۱۸۱]

شَخْصُكَ، خَفِيّاً صَوْتُكَ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ ۱۸۲] نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ[۱۸۳]».

إشارهٔ إلى أنّك لم تحضر ولم تدافع عن الحقّ عند ظهور الإسلام حين بعثهٔ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو ظهور ولايهٔ الحقّ لأميرالمؤمنين على عليه السلام بل كنت شخصاً ضعيفاً لا يكترث لكلامك، أمّا الآن وقد صدع صوت الباطل فقد انضممت إليه لتطلق ذلك الشعار عن حماقهٔ وجهل، ويتّضح من خلال تأمّل سوابق هذا الرجل ومن شاكله

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۹۲

العقيدهٔ والظروف التى كانت سائدهٔ آنذاك أنّ هذه المواجههٔ العنيفهٔ من قبل الإمام عليه السلام والعبارات المحقرهٔ له كانت غايهٔ فى الحكمهٔ، ولولا ذاك لكان يخشى انخداع الأفراد السطحيين بزيف ذلك الشعار.

والخوارج فئهٔ سطحيهٔ متعصبهٔ جاهلهٔ خلقت العديد من الإرباكات للمجتمع الإسلامى. كما أنّ قسوتهم وغلظتهم فاقت الوصف فى تاريخ الإسلام، ولحسن الحظ فقد تعرفت عليهم المجتمعات الإسلاميّهٔ طيلهٔ التاريخ فاقصتهم عن الساحهٔ ولعل هنالك القليل من سليليهم والذين لا يتظاهرون وبتلك العقيدهٔ الباطلهٔ.

تأمّل

من هو بُرج بن مُسهِر؟

اعتبر ابن أبى الحديد برج بن مسهر أحد شعراء الخوارج الذى ينتمى إلى يعرب بن قحطان؛ إلّاأنّ البعض يعتقد أنّ برج بن مسهر الشاعر هو شخص آخر، عاش فى العهد الجاهلى (ويحتمل أنّه أدرك ظهور الإسلام) وقد روى أبو تمام أبياتاً من شعره فى الحماسهٔ[۱۸۴].

وبرج بن مسهر الطائى الخارجى الذى حقره الإمام عليه السلام شخص مجهول لم يرد اسمه فى كتب الرجال المعروفهٔ، ويؤيد ذلك عبارهٔ أمير المؤمنين عليه السلام حين خاطبه بأنّك شخص ضئيل ومجهول ولا قدرهٔ لك على الكلام.

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۹۳

الخطبهٔ ۱۸۵

اشارة

يَحْمَدُ اللَّهَ فِيْها وَيُثْنِي على رَسُولِهِ وَيَصِفُ خَلْقاً مِنَ الْحَيَوانِ ١٨٥]

نظرة إلى الخطبة

تعدّ هذه الخطبة من الخطب الجامعة فى نهج البلاغة والتى تسهب فى المعارف الدينيّة وتتكون فى الواقع من ستة أقسام، ففى القسم الأوّل- وعلى غرار أغلب خطب نهج البلاغة- جرى الكلام فى حمد اللَّه والثناء عليه وذكر أسمائه وصفاته بعبارات غاية فى الدقة والروعة.

وتطرق القسم الثانى إلى رسالة الرسول صلى الله عليه و آله ومشاريعه العمليّة.

وركز فى القسم الثالث على خلق بعض الأحياء كنموذج حى لآيات علم اللَّه وقدرته سيما بشأن النمل وخلق السماوات والأرض والشمس والقمر.

وخاض- فى القسم الرابع- فى نتائج ما قيل ليكشف عن عظمة الخالق التى تقف وراء هذه المشاهد العجيبة وحذر أولئك الذين يرون هذه الآيات وينكرونها عملياً.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۹۴

وتطرق فى القسم الخامس ثانية إلى خلقة كائن عجيب آخر هو الجرادة وخاض فى جزئيات خلقه.

واختتم الخطبة فى القسم الأخير ليخلص فى نتيجة جامعة لينهى خطبته ببحث كلّى بشأن نظام الخلق وعظمة الخالق وخضوع جميع المخلوقات لذاته القدسيّة.

جدير ذكره أنّ تنظيم الخطب هنا يختل فى أغلب شروح نهج البلاغة؛ فقد ذكر البعض هذه الخطبة بالرقم ۲۳۱ (مثل ابن أبى الحديد وفيض الإسلام) بينما ذكروا بدلًا من هذه الخطبة التى وردت بالرقم ۱۸۵ فى نسخة صبحى الصالح خطبة همام؛ والبعض بالرقم ۲۲۷ (مثل نسخة بنياد نهج البلاغة وشرح ابن ميثم).

وذكرها المرحوم الشارح الخوئى بالرقم ۱۸۴؛ ولكننا- كما يعلم الإخوة القراء- نتبع نسخة صبحى الصالح.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۹۵

القسم الاوّل

اشارة

الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى لَاتُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وَجُودِهِ، وبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أنْ لَاشَبَهَ لَهُ. الَّذِى صَدَقَ فِى مِيعَادِهِ، وارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وقَامَ بِالْقِسْطِ فِى خَلْقِهِ، وعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِى حُكْمِهِ. مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ. وَاحِدٌ لَابِعَدَد، ودَائِمٌ لَابِأَمَد، وقَائِمٌ لَا بِعَمَد. تَتَلَقَّاهُ الأَذْهَانُ لَابِمُشَاعَرَة، وتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِى لَابِمُحَاضَرَة. لَمْ تُحِطْ بِهِ الأَوْهَامُ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا، وبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وإِلَيْهَا حَاكَمَهَا. لَيْسَ بِذِى كِبَر امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلَا بِذِى عِظَم تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً؛ بَلْ كَبُرَ

شَأْناً، وعَظُمَ سُلْطَاناً.

الشرح والتفسير: معرفة اللَّه الحقيقية

ما أن استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد اللَّه والثناء عليه حتى خاض فى صفاته التى تنفى عنه الجسمية والحدوث والشبيه والمثيل فقال عليه السلام:

«الْحَمْدُ اللَّهِ الَّذِى لَاتُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ».

فما جاء فى هذه الصفات الأربع أمور تنفى أى شائبة جسميّة عن اللَّه تعالى، فلا عين تراه ولا حواس تدركه ولا مكان يحويه ولا شيء يخفيه.

«شَواهِد»

جمع

«شاهِدَة»

بمعنى الحس و

«مَشاهِد»

جمع

«مَشْهد»

بمعنى

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۹۶

مكان الحضور والظهور.

«نَواظِر»

جمع

«ناظِرَة»

قوّة الباصرة و

«سَواتِر»

جمع

«ساتِرَة»

بمعنى الستر وكل ما يستر الأشياء.

فالصفات المذكورة والمقتبسة فى الواقع من القرآن الكريم فى عدد من الآيات تبطل عقيدة المجسمة (الفرقة التى تقول بجسميّة اللَّه) وتكشف مدى بعد أصحابها عن التعاليم الإسلاميّة.

ثم أشار عليه السلام إلى صفات أخرى ومنها صفة الأزلية وتنزيهه عن كلّ شبيه ومثيل فقال عليه السلام:

«الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وَجُودِهِ، وبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أنْ لَاشَبَهَ لَهُ».

تستند هذه الأدلة الثلاثة إلى هذه النقطة وهى استحالة مضى سلسلة العلل ومعاليل العالم إلى مالا نهاية، لأنّ التسلسل باطل، وعليه فحدوث الموجودات دليل على وجود العلّة الأزليّة والأبديّة التى ينبع وجودها من ذاتها؛ فالكلّ حادث وهو القديم، والكلّ مخلوق وهو الخالق، لأنّ ذاته الطاهرة لا متناهية من جميع الجهات فليس له شبيه ولا مثيل، لاستحالة وجود وجودين لا متناهيين من جميع الجهات

ذلك أنّ كلّاً منها يحد الآخر أمّا المخلوقات المحدودة من جميع الجهات بما فيها الزمان والمكان إنّما تعددت أشباهها وأمثالها.

ثم تطرق عليه السلام إلى صفتين من صفات الذات وهما تعدان من صفات الفعل فقال:

«الَّذِى صَدَقَ فِى مِيعَادِهِ، وارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وقَامَ بِالْقِسْطِ فِى خَلْقِهِ، وعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِى حُكْمِهِ».

نعم، فليس فى وعوده غير الصدق، ذلك لأنّ التخلف فى الوعد إمّا يعزى إلى العجز أو إلى الجهل أو الحاجة (مثلًا يعدّ الإنسان ثم يعجز ويتخلف عمّا وعد بعد القيام به، أو يعد ثم يفهم لاحقاً ما كان ينبغى عليه أن يعد مثل ذلك أو يعد ويرى أن خلف الوعد لصالحه) ومن الطبيعى أنّ أيّاً من الصفات الثلاث؛ العجز والجهل والحاجة ليست لها من سبيل إلى الذات القدسيّة ومنها يستحيل عليه خلف الوعد.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۹۷

وأشار فى بيانه للصفة الثانية إلى سمو مقام اللّه عن الظلم، وهو ذات الأمر الذى يفرزه العجز والجهل أو الحاجة.

ثم ركز عليه السلام على جانبين من جوانب عدله أحدهما فى عدم التمييز والآخر العدل فى القضاء والعقاب والثواب، وعليه فالعبارات الثلاث

«وارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ» «وقَامَ بِالْقِسْطِ فِى خَلْقِهِ، «وعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِى حُكْمِهِ»

تشير جميعها إلى عدالة اللّه ونفى الظلم عنه فى مختلف الجوانب.

ثم تطرق عليه السلام إلى صفات أخرى من صفات الجمال والجلال فقال:

«مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ».

فقد قال الإمام عليه السلام فى العبارة الأولى: إنّ اللّه قد جعل حدوث الأشياء دليل على أزليّته، ذلك لأننا نرى فى هذا العالم مجموعة من الموجودات تنتهى إلى علل سابقة بصيغة سلسلة من العلل والمعاليل، فهل يمكن أن تستمر سلسلة العلل والمعاليل إلى مالانهاية؟ وكل علّة معلولة لآخر وبعبارة أخرى هل نقبل تسلسل العلّة والمعلول إلى مالا نهاية؟

الجواب عن هذا السؤال بالسلب قطعاً، لأنّ مفهوم ذلك أنّ المالانهاية تتطلب التبدل إلى موجود غنى، أو بتعبير آخر تتبدل مالانهاية الصفر إلى عدد، وعليه فإننا ندرك من حدوث الأشياء وجوداً أزلياً ووجوده من ذاته وهو واجب الوجود.

وأشار فى العبارة الثانية إلى حقيقة هى أنّ فى جبين كلّ موجود علامة على العجز، فالأعمار والقدرات والاستعدادات كلّها محدودة، وهذا العجز يكشف أنّ وراءها يد القدرة المطلقة التى أفاضت القدرة على كلّ شيء بالمقدار الذى تطلبته حكمته.

وجرى الحديث فى العبارة الثالثة عن فناء الكائنات، وهو الفناء الذى يسير طواعية وقد كمن لها الموت بالمرصاد شائت أم أبت، ومن الواضح أنّ هذه الكائنات الفانيّة ليست خالقة لنفسها كما أنّ وجودها لا ينبع من ذاتها وإلّا لما آلت إلى الفناء،

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۹۸

وعليه فهنالك قدرة تفوقها أزليّة وأبديّة والكلّ مستند فى وجوده إلى الذات المقدّسة، والذى نود بيانه هنا أنّه ما الفارق بين العبارة

«مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ»

والعبارة السابقة

«الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ؟»

فهل العبارتان تفيدان اثبات أزلية اللّه عن طريق حدوث الموجودات؛ أى أنّها صفة وضحت بعبارتين أم أنّ لكلّ منهما مفهوماً مستقلًا؟ طبعاً فصاحة وبلاغة الإمام عليه السلام تستلزم أن تختزن كلّ عبارة مفهوماً جديداً.

فلا يستبعد أن تكون العبارة السابقة إشارة إلى الدلالة التكوينيّة والعبارة الأخيرة إشارة إلى الدلالة التشريعيّة، أى كما يدل حدوث الموجودات على أزليّة اللّه بلسان التكوين ففى الآيات القرآنيّة وروايات المعصومين وردت مثل هذه الاستدلالات بعبارات مختلفة.

قال القرآن الكريم: «كُلّ مَنْ عَلَيْهَا فَان* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُوالْجَلَالِ وَالْاكْرَامِ»[۱۸۶].

وقال فى موضع آخر: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَئُ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»[۱۸۷].

فالآيـة فى الواقع إشارة لبرهان العلية الذى جاء فى الفلسـفة لاثبات وجود اللَّه وهو أنَّ العالم الذى نعيش فيه حادث لا شك، فهل وجد هـذا الحادث بـدون علّـة أم أنّه علّة لنفسه أم أنّه معلول لعلة أخرى معلولة لعلة أخرى أو مخلوق للَّه‌تعالى واجب الوجود؟ الذى وجوده فى ذراته ولا يبقى سوى الاحتمال الرابع بعد الإلتفات إلى بطلان الاحتمالات الثلاثة الأولى.

ثم ذكر الإمام عليه السلام ثلاث صفات أخرى من صفات اللَّه تعالى فقال:

«وَاحِدٌ لَابِعَدَد، ودَائِمٌ لَابِأَمَد، وقَائِمٌ لَابِعَمَد».

والمراد من الواحد العددى الأشياء التى لها شبيه ومثيل وثانى وثالث ولكن لم يوجد إلّا فرد منها؛ كالشمس فى المنظومة الشمسيّة فهى واحدة فقط لا غير ولكن لها ثان.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۹۹

فهـذا المعنى لا يصـح بالنسبـة للَّه‌تعالى؛ لأنّ وجوده لا متناهٍ من جميع الجهات ويسـتحيل عليه التعـدد، ولذلك فوحدة الذات القدسـيّة ليست وحـدة عدديـة، بـل بمعنى انعـدام الشـبيه والنظير والمثيـل لهـا، وهـوذات المعنى الـوارد فى سـورة التوحيـد: «وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُـواً أَحَدٌ»[۱۸۸].

وبعبارة أخرى يمكن التعدد فى الواحد العددى؛ لكنه يستحيل فى الواحد الذاتى.

وأشار فى العبارة الثانية

«دَائِمٌ لَابِأَمَد»

إلى أنّ دوام وجوده سبحانه ليس بدوام زمانى لأنّ ذاته القدسيّة تفوق الزمان والمكان بل المراد منه الدوام الذاتى.

ومفهوم العبارة

«قَائِمٌ لَابِعَمَد»

أنّ قيامه بذاته؛ لا بمساعدة الآخر وبعبارة أخرى فإنّ القيام ذو مفهوم مادى وهو وقوف الشـىء على قدميه أو بالاسـتعانة بعمود، كما له مفهوم يفوق المادة وهو أنّه وجود مدير ومدبر لعالم الوجود ودون الاستناد إلى شيء آخر وهذا هو معنى قائمية اللَّه تعالى.

بعبارة أخرى فإنّ جميع الموجودات تعتمد على ذاته القدسيّة وهو قائم بهذه الذات.

ثم بلغ كلام الإمام عليه السـلام ذروته ليخوض فى تلك الـذات المطلقـة إلى الحد الذى يسـعه الفكر البشـرى فشـرح الذات المقدّسـة بأسلوب رائع ضمن عبارة قصيرة وعميقة المعنى بما يبعدها عن التشبيه ولا ينتهى إلى تعطيل المعرفة فقال:

«تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَابِمُشَاعَرَة[۱۸۹]، وتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِى ۱۹۰] لَابِمُحَاضَرَة[۱۹۱]».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۰۰

دليل واضـح إشارة إلى أنّ آثار عظمته وقـدرته وعلمه وحكمته التى ملأت العالم على وجوده؛ الوجود الكائن خلف حجب الغيب وما وراء الطبيعة وجعل كلّ شيء تجلياً لعلمه وقدرته.

وقال فى مواصلته لكلامه عليه السلام:

«لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ ۱۹۲]، بَلْ تَجَلَّى لَهَا[۱۹۳] بِهَا، وبِهَا

امْتَنَعَ مِنْهَا، وإِلَيْهَا حَاكَمَهَا».

فالإمام عليه السلام طبق ما ورد أبطل مذهب التعطيل إلى جانب نفى التشبيه؛ أى أنّه حذر من مغبة خطأ أولئك الذين يزعمون أنّهم لا يفهمون من صـفات اللَّه تعالى سوى صـفاته السلبيّة، إلى جانب أولئك الذين هبطوا باللَّه تعالى إلى درجة الممكنات فقالوا: له صفات

محـدودة وممكنة، فقد تحدّث من جانب عن تلقى الأذهان وتجلى الصـفات ومن جانب آخر عن عدم احاطة الأفكار بالذات القدسـيّة وصفاتها وينتج من ذلك أنّ لدينا علماً إجمالياً بالنسبة لذاته وصفاته سبحانه رغم عجزنا عن الاستغراق فى تفاصيلها وجزئياتها.

ثم قال عليه السلام:

«لَيسَ بِذِى كِبر امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلَا بِذِى عِظَم تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً؛ بَلْ كَبُرَ شَأْنَاً، وعَظُمَ سُلْطَاناً».

إشارة إلى أننا حين نقول:

«اللَّه أكبر»

إنّما يقتدح أحياناً إلى ذهن الأفراد غير المطلعين إلى أنّ أبعاده الوجودية ملأت شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه، وحين نقول:

«اللَّه عظيم»

يتصورون أنّه كـذلك بالنسـبة لسائر الموجودات كالجبال والبحار والسـماوات، والحال ليس لكبره وعظمته من بعـد جسـمى، بل كبره وعظمته معنوى،

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۱۰۱

لأنّه إن كـان اللَّه جسـماً كبيراً لاشـتمل حتماً على أجزاء ونهايـة وزمان ومكان بينما هو أسـمى وأرفع من كلّ ذلك ويالها من كلمات رائعة تلك التى ساقها الإمام الصادق عليه السلام لذلك الشخص الذى قال عنده: اللَّهُ أكبر، فسأله عليه السلام:

«أَكْبَرُ مِنْ أىِّ شَىءٍ؟»

، قال:

«مِنْ كُلِّ شَىء».

فأشار عليه الإمام عليه السلام:

«بِأنّكَ جَعلتَ لَهُ حُدوداً فِى الزّمانِ وَالمَكانِ»

. فقال الشخص فماذا أقول: قال عليه السلام: قل:

«اللَّهُ أَكْبر مِنْ أنْ يُوصَفَ»[۱۹۴].

إشـارة إلى أننـا لا نعـدو صـفات مخلوقاته فى كلّ صـفة نطبقها عليه ذلك لأنّ فكرنا محـدود فى الاستيعاب، وعليه فهواسـمى من كلّ الصفات وهذا ما أكّده القرآن الكريم بقوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ»[۱۹۵]. (الذين يصفونه بما يليق به).

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۱۰۳

القسم الثانى

اشارة

وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ الصَّفِىُّ، وأَمِينُهُ الرَّضِىُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِأَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ، وظُهُورِ الْفَلَجِ، وإِيضَاحِ الْمَنْهَجِ؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً بِهَا، وحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دالّا عَلَيْهَا، وأَقَامَ أَعْلَامَ الْاهْتِدَاءِ ومَنَارَ الضِّيَاءِ، وجَعَلَ أَمْرَاسَ الْاسْلَامِ مَتِينَةً، وعُرَى الْايمَانِ وَثِيقَةً.

الشرح والتفسير: الأبعاد الوجوديّة للنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله

بعد أن فرغ الإمام عليه السـلام من بيان صـفات الجمال والجلال خاض فى الأصل الثانى للدين أى الشهادة بنبوة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فوصفه بتلك الصفات التى تكشف عن أبعاده الوجوديّة كافّة فقال:

«وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وأَمِينُهُ الرَّضِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ-».

حقاً إنّ اللّه تعالى إن اصطفى شخصاً واعتبره أميناً وارتضاه من خلقه فذلك لكمال إخلاصه وطهارته على جميع المستويات، فهذه العبارات إشارة إلى عصمة النّبى صلى الله عليه و آله من الذنب والخطأ.

ثم خاض عليه السلام فى الأهداف المتوخاة من بعثته صلى الله عليه و آله وتعاليمه فقال:

«أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ، وظُهُورِ الْفَلَجِ ۱۹۶]، وإِيضَاحِ الْمَنْهَجِ».

وهكذا بيّن الإمام عليه السلام من خلال هذه العبارات الثلاث أهداف البعثة التى تتمثل فى إتمام الحجّة وانتصار الحقّ على الباطل وايضاح سبيل السعادة. آنذاك تناول

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۰۴

المهام العمليّة للنبى صلى الله عليه و آله فقال:

«فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً[۱۹۷] بِهَا، وحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دالّا

عَلَيْهَا، وأَقَامَ أَعْلَامَ الْاهْتِدَاءِ ومَنَارَ الضِّيَاءِ، وجَعَلَ أَمْرَاسَ ۱۹۸] الْاسْلَامِ مَتِينَةً، وعُرَى ۱۹۹]

نفحات الولاية ؛ ج۷ ؛ ص۱۰۴

الْايمَانِ وَثِيقَةً».

فقد ورد الحديث بادئ الأمر عن الخوض فى إبلاغ الرسالة بصورة كلية على غرار ما ورد فى القرآن الكريم: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ»[۲۰۰].

ثم خاض فى الجزئيات فى أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله دعا الناس إلى جادة الصواب وعرض لهم علامات لسير على هذا النهج ونصب لهم مصابيح الهدى حتى لا يضلوا الطريق فى ظلمة الليل ولا يتخلفوا عن مواصلة السير، وبالتالى رسخ أسس الإسلام وشدّ عرى الإيمان بشرح وافٍ وتدبير محكم.

وقلّما نجد كلاماً يستعرض هذا المطلب بشأن أهداف النّبى صلى الله عليه و آله وخططه فى الدعوة بهذه العبارة القصيرة والعميقة.

العبارة:

«جَعَلَ أَمْرَاسَ الْاسْلَامِ مَتِينَةً»

كأنّه شبّه الإسلام بالخيمة التى شدّت بحبال متينة من كلّ جانب إلى الأرض لتحول دون إقتلاعها من قبل العواصف وليست هذه الحبال سوى بعض الأمور من قبيل الجمعة والجماعة والحج والزكاة والأمر وبالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد التى حفظت على الدوام بيضة الإسلام وذادت عن كيانه، فالإسلام بخير ما طبقت هذه التعليمات الإسلاميّة فإنّ ضعفت هيمن الأعداء على المسلمين.

والعبارة:

«وعُرَى الْايمَانِ وَثِيقَةً»

شبهت الإيمان بحبل له عدّة عقد لابدّ من التمسك بها للنجاة من قعر البئر أو الخلاص من المطبات، ومن الطبيعى أنّ هذه العقد

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۰۵

إن كانت ضعيفة وخاوية فلا يتعذر على الإنسان النجاة فحسب بل يشرف على سقوط خطير فهذه العقد هى فروع الإسلام وتعليماته فى مختلف مشاريعه العباديّة والاجتماعيّة التى صرّحت بها الأخبار والروايات، ومن ذلك ما ورد فى الحديث النبوى الشريف أنّه صلى الله عليه و آله سأل أصحابه يوماً:

«أيّ عُرَى الإيمانِ أَوْثَق؟»

قالوا: «اللّه ورسوله أعلم؟» وذكر البعض الصلاة أو الزكاة و ... فقال صلى الله عليه و آله:

«بَلى فِی ذَلِکَ فَضلٌ، ولکِنْ أوْثَقُ عُرَى الإیمانِ الحُبُّ فِی اللَّهِ والبُغْضُ فِی اللَّهِ وتَولّى اوْلِیاءَ اللَّهِ وَالتّبرى مِنْ اعْداءِ اللَّهِ»[۲۰۱].

طبعاً یمکن أن تکون المفاهیم الأخلاقیّة التی أشارت إلیها الروایات من قبیل التوکل والتفویض والتسلیم والرضا والصبر والیقین وما شابه ذلک من عرى الإیمان ولیست هنالک أی منافاة مع بعضها البعض الآخر.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۱۰۷

القسم الثالث

اشارة

ولَوفَکَّرُوا فِی عَظِیمِ الْقُدْرَةِ، وجَسِیمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إلَى الطَّرِیقِ، وخَافُوا عَذَابَ الْحَرِیقِ، ولکِنِ الْقُلُوبُ عَلِیلَةٌ، وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ! أَلَا یَنْظُرُونَ إلَى صَغِیرِ مَا خَلَقَ، کَیْفَ أَحْکَمَ خَلْقَهُ، وأَتْقَنَ تَرْکِیبَهُ، وفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ! انْظُرُوا إلَى النَّمْلَةِ فِی صِغَرِ جُثَّتِهَا، ولَطَافَةِ هَیْئَتِهَا، لَاتَکَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَکِ الْفِکَرِ، کَیْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إلَى جُحْرِهَا، وتُعِدُّهَا فِی مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِی حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وفِی وِرْدِهَا لِصَدْرِهَا؛ مَکْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا؛ لَایُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ، وَلَا یَحْرِمُهَا الدَّیَّانُ، ولَوفِی الصَّفَا الْیَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ! ولَوفَکَّرْتَ فِی مَجَارِی أَکْلِهَا، فِی عُلْوِهَا وسُفْلِهَا، ومَا فِی الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِیفِ بَطْنِهَا، ومَا فِی الرَأْسِ مِنْ عَیْنِهَا وأُذُنِهَا، لَقَضَیْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، ولَقِیتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً! فَتَعَالَى الَّذِی أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ یَشْرَکْهُ فِی فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، ولَمْ یُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ. ولَوضَرَبْتَ فِی مَذَاهِبِ فِکْرِکَ لِتَبْلُغَ غَایَاتِهِ، مَا دَلَّتْکَ الدَّلَالَةُ إلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوفَاطِرُ النَّخْلَةِ، لِدَقِیقِ تَفْصِیلِ کُلِّ شَیء، وغَامِضِ اخْتِلَافِ کُلِّ حَیٍّ. ومَا الْجَلِیلُ واللَّطِیفُ، والثَّقِیلُ والْخَفِیفُ، والْقَوِیُّ والضَّعِیفُ، فِی خَلْقِهِ إلَّا سَوَاءٌ.

الشرح والتفسیر: قدرته المطلقة فی خلق الکائنات

عاد الإمام علیه السلام ثانیة إلى موضوع معرفة اللّه الذی استهل به خطبته وعرج فیها

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۱۰۸

على معرفة النّبی صلى الله علیه و آله لیخوض هنا فی أدلة اثبات وجود اللّه وعلمه وقدرته المطلقة، فحذر أولئک الذین ضلّوا الطریق فقال:

«ولَوفَکَّرُوا فِی عَظِیمِ الْقُدْرَةِ، وجَسِیمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إلَى الطَّرِیقِ، وخَافُوا عَذَابَ الْحَرِیقِ».

إشارة إلى أمرین: أنّه لو استعمل الفکر لاتّضحت آثاره عاجلًا على أعمال الإنسان؛ الأوّل التفکیر فی عظمة قدرة اللّه الذی خلق النجوم السماویّة العظیمة وملیاردات الکواکب فی المجرة ومئات الملایین من المجرات بحیث لم یتّضح لأحد سعة ملکه وعظمته، وکل ما نورده بشأن عظمة العالم إنّما یقتصر على الأشیاء التی لا تتجاوز دائرة علمنا القاصر، ولعل کلّ ذلک لا یعدو ورقة شجرة بلغت عنان السماء فی وسط غابة کثیفة، فالتفکیر بهذا الشأن یجعل الإنسان خاضعاً لهذه القدرة فیقبل على اللّه ویتعلق به قلبه فینیر باسمه وذکره حیاته.

والآخر التفکیر فی النعم کونها ملأت وجودنا وهی متصلة منذ لحظة انعقاد النطفة حتى ختام العمر؛ فقد سخر لنا لشمس والقمر والسماوات والأرض ومنحنا التصرف فی السحب والریاح والأمطار، فقد بسط نعمته فی کلّ مکان وجعل الجمیع یتغذى على رزقه، والحقّ أنّ شکر النعمة المودع فی فطرة کلّ إنسان یسوقه إلى معرفة المنعم.

ثم تساءل عليه السلام ترى ما العامل الذى يصد الإنسان عن السبيل ويسوقه إلى العذاب الأليم مع وجود كلّ هذه الدوافع القويـة؟ فقال:

«ولكِنِ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ، وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ!»[۲۰۲].

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا إلى سببين رئيسيين، لأنّ المراد من القلوب العقول التى تتعطل عن المعرفة أثر الهوى والهوس وسائر الآفات، والمراد من البصائر عيون البصيرة التى تطرح عليها حجب المعصية والتعصب وحبّ الذات.

وبالطبع فإنّ هذه الأمور طارئة على أصل الخلقة بل الغفلة والهوى والهوس

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۰۹

والشهوة هى التى قادت إلى ذلك، فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة القصيرة إلى موانع المعرفة والتى أفصح عنها القرآن الكريم بقوله: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[۲۰۳].

وقوله:

«أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً»[۲۰۴].

كما تضمنت العديد من الآيات القرآنيّة دعوة الجميع إلى تأمّل أسرار الخلق والتفكر فى قدرة اللَّه ونعمه علهم يعودون عن هذا الطريق إلى جادة الصواب.

ثم ركز الإمام عليه السلام على بعض الكائنات العجيبة فى هذا العالم بعد فراغه من بيان أسرار الخليقة بصورة كلّية فقال:

«أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وسَوَّى ۲۰۵] لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ!»[۲۰۶].

حيث أشار الإمام عليه السلام إلى ستة أمور بشأن الحيوانات والحشرات الغاية فى الصغر؛ الخلق المحكم، التركيب الصحيح، الإشتمال على الأذن والعين، والنظام الخاص فى العظام والجلد، نعم فهذه الحشرات تتمتع بالأعضاء والوسائل كافّة التى تحتاجها رغم صغرها فقد أفاض اللَّه عليها بقدر جسمها وحاجتها ما أفاضه على بعض الحيوانات العظيمة كالفيل والجَمل وبالطبع يبدو خلق هذه الكائنات الصغيرة أعظم من تلك الكبيرة لما فيها من دقة وظرافة عجيبة.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى مرحلة أدق فى تفاصيل مخلوقين صغيرين غالباً ما لا يكترث الإنسان لخلقتهما بعبارات رائعة، فقال بادئ الأمر بشأن النملة:

«انْظُرُوا إلى النَّمْلَةِ فِى صِغَرِ جُثَّتِهَا، ولَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَاتَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۱۰

ثم قال عليه السلام:

«كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وتُعِدُّهَا فِى مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِى حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وفِى وِرْدِهَا[۲۰۷] لِصَدْرِهَا[۲۰۸]».

نعم، فهذا المخلوق الضعيف على درجة من الفطنة بحيث يعرف كيف يمارس حياته، فهو يتجول بهذه اليد والرجل الصغيرة فى الجبل والصحراء ويتسلق الأشجار ويختار ذلك النوع من الطعام من بين مختلف الأطعمة والذى ينسجم مع طبيعته ومزاجه ويجلب إلى عشه الحبوب من الطرق القريبة والبعيدة فهو يختار حتى هذه الحبوب ويسلك بعض الطرق المتشعبة فى عشّه كى لا يخلق بعض المتاعب لسائر جنسه فى الحركة والعبور ثم يضع هذه الحبوب فى مكان معين بغية الحيلولة دون فسادها، ويعمد فى فصل الصيف بإلهام ذاتى ودون أن يرى فصل الشتاء- أى ولد فى تلك السنة- لادّخار بعض الحبوب والمواد الغذائيّة التى يحتاجها فى المستقبل خشية هطول الأمطار وتعذر الحركة فى فصل الشتاء فيلتقط ما يعينه على قضاء تلك المدّة.

ثم قال عليه السلام:

«مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا؛ لَايُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ ۲۰۹]، ولَوفِى الصَّفَا[۲۱۰] الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ![۲۱۱]».

أشار إلى أنّ اللّه سبحانه وتعالى قد عمّ لطفه هذه الموجودات الصغيرة التى تعيش فى الجبال والصحارى والسهول فزودها بالطعام الذى يلائم طبعها وقد وفر لها ما تحتاجه من غذاء ورطوبة لازمة عن طريق الهواء حتى وإن كانت تعيش فى جوف صخرة صماء، والهمها قدرة التزود بالطعام لتلك التى تفتقد فيها هذه القدرة وهذا حقاً ما يذهل العقول.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۱۱

هل تدرى هذه الحشرة أنّه يتعذر عليها الخروج من عشها فى بعض أيّام الشتاء؟

وهل تفهم المقدار الذى تحتاجه من المواد الغذائيّة فى تلك المدّة؟ وهل تعى طبيعة المواد التى يمكن أن تبقى سالمة أو فاسدة خلال هذه المدّة؟ وهل تعلم أين هذه المواد وكيف يجب عليها الحصول عليها؟

نعم، إنّها تعرف كلّ ذلك بعد أن علّمها خلقها.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى البنية العجيبة لهذا المخلوق الحى الصغير فقال:

«ولَوفَكَّرْتَ فِى مَجَارِى أَكْلِهَا، فِى عُلْوِهَا وسُفْلِهَا، ومَا فِى الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ ۲۱۲]

بَطْنِهَا، ومَا فِى الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، ولَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً!».

إشارة إلى أنّ الإنسان لو تأمّل خلق هذا الموجود الصغير الذى لا يرى بسهولة لرآى عالَماً عجيباً حقّاً فذلك الرأس الغاية فى الصغر يضم العين والأذن والفم وقرنان كأنّهما هوائيان تستفيد منهما فى الإرتباط بالعالم الخارجى وتحوى بطنها شىء أشبه بالمعدة والأمعاء واحاطت به أضلاع غاية فى الصغر والدقة كما لها أعصاب وعضلات ظريفة تتناسب مع حاجتها ويتولى دماغها الصغير إدامة حياتها المعقدة، ولأرجلها مفاصل مختلفة ولكلّ مفصل وظيفة معينة على غرار مفاصل الحيوانات الكبرى.

ثم خلص الإمام عليه السلام ممّا سبق إلى هذه النتيجة فقال:

«فَتَعَالَى الَّذِى أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يُشْرِكْهُ فِى فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، ولَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ».

فقد لفت الإمام عليه السلام فى هذه العبارة انتباه الجميع إلى موضوعين:

وهوأنّ اللّه سبحانه وتعالى خلق هذا الجسد الظريف على يد ورجل ظريفة تستطيع حمله بل أحياناً تحمل حملًا ثقيلًا يفوق دفعة أضعاف وزنها، والغريب أنّها

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۱۲

تتسلق الحائط الأملس بهذا الحمل وتلتصق أحياناً بالسقف وتواصل طريقها وهو العمل الذى يتعذر على أى إنسان بطل القيام به، أضف إلى ذلك فقد خلق لها جهازاً عظمياً يناسب طبيعتها والذى عبّر عنه الإمام عليه السلام بالدعائم، وهذا الجهاز ليس ثقيلًا بحيث يحدّ من حركتها ولا خفيفاً وظريفاً إلى الدرجة التى لا تستطيع حفظ حياتها وما بجوفها.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة أخرى فقال:

«ولَو ضَرَبْتَ فِى مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوفَاطِرُ النَّخْلَةِ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَىء، وغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ».

أى لا تعتقدوا أنّ بنية كائن كبير كالنخلة الضخمة أعقد من بنية موجود صغير كالنملة، لأنّكم إن نظرتم بدقّة فإنّ لكليهما بنية غاية فى التعقيد والدقّة وتحكم كلّ منهما قوانين معينة وتبدو عليهما الهداية الإلهيّة منذ الولادة حتى الممات بالإضافة إلى أنّ لتلك الشجرة الكبيرة أعضاء مختلفة صغيرة وكبيرة وقوية وضعيفة بحيث يؤدّى كلّ منهما وظيفة معينة تتناسب معه (وعلى هذا الضوء تتضح علاقة العلّة والمعلول فى العبارات المذكورة).

وزبدة الكلام إنّ الإنسان يرى أحياناً آثاراً مختلفة من حيث الصغر والكبر لصانع اساعة التى لا يعدو حجمها سانتيمتراً واحداً وأخرى

التى تبلغ بضعة أمتار، أو كتاب من بضع صفحات وآخر ذو عشرة أجزاء، فإنّ الإنسان حين يقارنها مع بعضها ويرى وحدة الأصول الكلية السائدة فيها ويقف على انسجام الآداب التى ضمها ذلك الكتاب الصغير وذلك الكبير يفهم أنّ هذين الأثرين يعودان إلى مصدر واحد وأنّ الذى أبدعهما واحد أيضاً.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة مهمّة أخرى لمواصلة كلامه السابق فقال:

«ومَا الْجَلِيلُ واللَّطِيفُ، والثَّقِيلُ والْخَفِيفُ، والْقَوِيُّ والضَّعِيفُ، فِی خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ».

إشارة إلى أنّ الصغير والكبير والبسيط والمعقّد إنّما يتصور بالنسبة لموجود

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۱۱۳

محدود القدرة ويمتنع عليه ما كان خارجاً عن استعداده ويصعب عليه ما كان بمنتهى استعداده ويسهل عليه ما كان دون قدرته، أمّا اللّه تبارك وتعالى اللامتناهى القدرة فالجميع لديه على حد سواء، فلا فرق عنده بين تسيير المنظومة الشمسية وتسيير ذرة من الغبار، وخلق نملة غاية فى الصغر مع خلق شجرة غاية فى الضخامة.

وحمل حبّة قمح بالنسبة لنملة يفرق عما عليه فى حمل حبتين، فلعل حملها للأولى يبدو سهلًا بينما يشقّ عليها حمل الثانية والحال لا نشعر نحن البشر بأدنى فارق بين الحالتين.

كما أننا نستطيع فى تصوراتنا الذهنية أن نتصور قطرة ماء كما نستطيع بنفس البساطة تصور بحر متلاطم من المياه.

لعل هذه الأمثلة تستطع إيضاح عمق البحث الذى ذكرناه بشأن قدرته المطلقة سبحانه.

تأمّل

حياة النمل العجيبة

رغم أنّ طبيعة النمل بفعل كثرتها وتنوعها وتواجدها فى الجبال والصحراء وداخل البيوت بحيث لا تحصى باهتمام عامة الناس، لكنها تبدو عجيبة للغاية بالنسبة للعلماء الذين فكروا لأكثر من عقدين بشأن حياتها فالدراسات التى أجريت بشأن أسرار خلقة هذه الكائنات فتحت الباب على مصراعيه أمام الوقوف على عظمة الخالق ونشير هنا إلى جانب من تلك الدراسات:

۱. إنّ الحيوانات والحشرات التى تعيش بصورة جماعية ليست بالقليلة من قبيل:

الطيور والأسماك والغزلان بينما قليلة هى الحيوانات التى تستند حياتها الجماعية على أساس تقسيم الوظائف والأعمال وأبرزها النمل فلإناث النمل وظيفة جمع

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۱۱۴

الطعام وحفظ الفراخ وحتى حراسة ملكة النمل فى عشّها، ووظيفة الذكور تلقيح الملكة كما أنّ وظيفة الملكة وضع البيوض، والغريب فى الأمر أنّ الذكور تموت بعد التلقيح، وهنالك طائفة منها تبدو كمجموعة مسلحة لها مجسّات قوية تنبرى للدفاع بها عن نفسها وصد هجمات الأعداء على لاعشاش.

۲. تقوم العاملات بوظيفة ثقب الأرض وايجاد حفرة بالتدريج لتوفر لبقيتها الحياة تحت سطح الأرض إلّاأنّ جميع النمل لا يعيش تحت الأرض فهنالك طائفة منها التى يطلق عليها «النجارة» تعمد إلى ثقب الأخشاب لتصنع أعشاشها بداخلها

۳. تملك النملة- على الرغم من صغرها ودقّة هيكلها- جميع الأجهزة التى يملكها الحيوان الكبير بل لديها ما يفوق تلك الحيوانات من قبيل: الأرجل الإضافية والمجسّات التى تمكنها من التعرف على الوسط الذى تعيش فيه.

۴. هناك نوع من النمل يتغذى على بعض الأحياء ومن ذلك النمل المعروف بالحنطى والذى يخدمه البرغوث النباتى، فهذه الحشرات تفرز سائلًا حلواً كالعسل يتغذى عليه النمل، كما يستفيد سائر النمل من بعض الحشرات التى تضع بيوضها على قشور الأشجار.

۵. إذا لا- يعتريكم العجب فإنّ بعض النمل يمارس الزراعة، فهناك نوع من النمل يدعى المظلى حيث يرتب مزرعة صغيرة حول أعشاشها ويزرعها بالفطريات الصغيرةوتقوم العاملات بفصل قطع صغيرة من الأوراق وتضعها على رأسها فتبدو وكأنّها مظلة وهذا سبب التسمية.

۶. هنالك نوع من النمل يدعى بالحرس الذى يتنقل كالبدو من مكان إلى آخر، وهو فى الواقع حشرات مفترسة تتجنبها حتى الفيلة وإلّا كبدتها خسائر جسيمة، وطائفة من هذه الحشرات التى تعيش فى المناطق الحارة تأكل اللحوم، فإن هاجمت حيواناً افترسته ونهشت لحمه وعضلاته ولا تبقى منه سوى العظام وخلال مدّة وجيزة.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۱۵

۷. للنمل عادة رأس كبير وخصر نحيف وجثة قوية فهى قادرة على حمل الحبوب التى تعادل بضعة أضعاف وزنها وتتسلق الجدران التى لا يقوى على تسلقها الأبطال من حملة الأثقال، نعم فالنملة وخلافاً لجثتها الصغيرة تحمل مايبلغ عشرة أضعاف وزنها وتنقله من مكان لآخر.

۸. نظرة النملة للمستقبل وإدارتها رائعة جدّاً، فهى تفكر فى الصيف بمؤونة الشتاء والحال ربّما لم تكن شاهدت الشتاء طيلة عمرها، فتلتقط الحبوب وتخرجها أحياناً من عشّها لكى لا تفسد، وأحياناً أخرى تشطرها نصفين حتى لا تخضر وتنمو.

۹. للنمل خبرة عجيبة بالمكان فقد ذكر العلماء أنّهم جعلوا نملة وسط دائرة من النار فحاولت الخروج ولم تستطع حتى ماتت وكان ذلك فى مركز الدائرة، أى أبعد نقطة عن النار.

۱۰. ذكر العلماء أنّ النمل أنواع ربّما يتجاوز الأربعة آلاف وأنّ عدده على الأرض عشرة أضعاف عدد الناس، وتفيد المطالعات الحديثة أنّ النمل سبق الإنسان فى التغلب على مشكلة الازدحام، فملايين النمل تتخذ أقصر الطرق لتبلغ مقصدها بأسرع وقت ودون أى تأخير.

إنّ عجائب عالم النمل ليفوق ما ذكرناه وقد سطرت العديد من المقالات والكتب بهذا الشأن، ومن هنا تتضح أهميّة المسألة التى ركز عليها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة من شرحه لخلق اللّه سبحانه ۲۱۳].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۱۷

القسم الرابع

اشارة

وكَذلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، والرِّيَاحُ وَالْمَاءُ. فَانْظُرْ إِلى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ والشَّجَرِ، وَالْمَاءِ والْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هذَا اللَّيْلِ والنَّهَارِ، وتَفَجُّرِ هذِهِ الْبِحَارِ، وكَثْرَةِ هذِهِ الْجِبَالِ، وطُولِ هذِهِ الْقِلَالِ وتَفَرُّقِ هذِهِ اللُّغَاتِ، والأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ. فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ، وجَحَدَ الْمُدَبِّرَ! زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ؛ ولَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيق لِمَا أَوْعَوْا، وهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوجِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ؟!

الشرح والتفسير: نظرة إلى كائنات السموات والأرض

تحدّث الإمام عليه السلام فى القسم السابق من الخطبة عن عجائب خلق النمل وبغية دفع التوهم بأنّ العجائب التى تسلب العقول

وتخطف الأبصار ربّما تنحصر فی هذه الموارد صرح مباشرة بأن تأمّل مواضع هذا العالم الواسع فی أرضه وسمائه إنّما ينطوی علی مثل هـذه العجـائب أيضاً، فركز الإمام عليه السـلام هنا علی ست عشـرة ظاهرة عجيبـة فی هـذا العالم من السـماء والأرض إلی بعض الأمور المرتبطة بالإنسان فقال:

«وكَذلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، والرِّيَاحُ وَالْمَاءُ».

وواصل كلامه قائلًا:

«فَانْظُرْ إِلَی الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ والشَّجَرِ، وَالْمَاءِ والْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هذَا اللَّيْلِ والنَّهَارِ، وتَفَجُّرِ هذِهِ الْبِحَارِ، وكَثْرَةِ هذِهِ الْجِبَالِ، وطُولِ هذِهِ الْقِلَالِ ۲۱۴] وتَفَرُّقِ هذِهِ اللُّغَاتِ، والأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۱۸

فقد طرح الإمام عليه السـلام هنا سلسـلة من الموجودات المتنوعة فی هذا العالم لكلّ منها مميزاتها العجيبة وخصائصـها الجمّة، والمراد من السماء مجموعة العالم العلوی من الثوابت والسيارات إلی المجرات وعليه فالشمس والقمر فی الجملة القادمة من قبيل ذكر الخاص بعـد العام وأننا لنعلم أنّ السـماء بهـذا المعنی تنطوی علی خلقـة غاية فی الدهشة كما أشار إلی ذلك القرآن الكريم: «لَخَلْقُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ»[۲۱۵].

المراد من الهواء هوذلك الهواء المحيط بالكرة الأرضيّة، الأكثر حيوية من كلّ شیء والأكثر من كلّ شیء.

والرياح (جمع ريـح) والتی له عـدّة وظائف فی تسيير عجلـة حياة الإنسان والكائنات الحيـة فهی تسوق السـحب والغيوم إلی الأراضـی الجافـة والقاحلـة فتخرج النباتـات، وتبث الأمواج فی البحار وتزود الكائنات البحريـة بالأوكسـجين وتنقل الهواء الملوث من مكان إلی آخر وتبعث إلی المدن بهواء الغابات النقی.

والمـاء هنـا بقرينـة الريـاح إشـارة إلی نزول الأمطار التی تبعث الحياة كما ذكر ذلك القرآن الكريم: «وَأَرْسَـلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِـحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً»[۲۱۶].

ثم أمر الإمام عليه السلام بتأمّل مختلف كائنات هذا العالم من الشمس والقمر إلی النباتات والأشجار والمياه والأحجار (يبدو أنّ المراد من الماء الذی ذكر هنا إلی جانب الحجر هو العيون والأنهار الجارية) واختلاف الليل والنهار إشارة إلی النظام الدقيق ذو النور والظلمة حيث يعقب كلّ منهما الآخر وينبثق من بركتهما الفصول الأربعة وتلك الليالی الساكنة والهادئة والأيّام المفعمة بالحركة والتی أشارت إليها العديد من الآيات القرآنيّة.

العبارة:

«وتَفَجُّرِ الْبِحارِ»

يمكن أن تكون إشارة إلی ظهور البحار أو الحركة التی

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۱۹

تظهر تلك الأمواج العاتية ونعلم أنّ البحار مركز عجائب مخلوقات اللَّه حيث ورد فی دعاء الإمام السجاد عليه السلام:

«يا مَنْ فِی الْبِحارِ عَجائِبُهُ»[۲۱۷]

وأنّها مصدر مهم للمواد الغذائيّة والمعدنيّة ووسيلة مناسبة للنقل بصورة واسعة جدا ومصدر ظهور السحب وهطول الأمطار.

وكثرة الجبال إشارة إلی عددها الجم والذی جعلها تبدو كدرع يحيط بالكرة الأرضيّة وتكسر الرياح العواتی وتحتفظ بالسحب لسقی الأراضـی وتمنـح الأرض الهـدوء والاسـتقرار إزاء عمليّـة المـد والجزر الناشـئة من الجاذبية الأرضـيّة، كما أنّ سـفوحها مرعی خصـب للـدواب والأنعـام. كمـا أنّ اسـتطالة القطعـان تؤدّی إلی ادّخـار المياه بصورة بَرَد أو حبـات ثلـج علی سـفوحها فتنحـدر تـدريجيا إلی الأراضـی القاحلـة فتسـقيها بالميـاه، كمـا تسـقی الإنسـان والحيوان، قال القرآن الكريم: «وَالأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا

وَمَرْعَاهَا* وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا* مَتَاعاً لَّكَمْ وَلِانْعَامِكَمْ»[۲۱۸].

وأشار الإمام عليه السلام فى النهاية إلى نقطة مهمّة من حياة الإنسان والتى تتمثل فى اختلاف اللغات واللهجات وكثرة الألسن، فكيف تعددت هذه اللغات وكيف كان لكلّ قوم لغتهم الخاصّية مع أنّ الجميع ينحدر من ذات الأب والام؟ فالآن هنالك أكثر من ألف لغة فى العالم بما فيها اللغات الرسمية والمحلية، وقد أفاض اللّه على الإنسان استعداداً لخلق اللغة بحيث تتمكن كلّ جماعة من اختراع لغة ووسيلة للتفاهم بينها ولعل ذلك لكى تنحصر أسرارهم بينهم دون أن يطلع عليها الآخرون، قال القرآن الكريم: «الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْانسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ»[۲۱۹].

وقال أيضاً: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوَانِكُمْ»[۲۲۰].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۲۰

ولما فرغ الإمام عليه السلام من استدلالاته الرصينة والمقنعة فى إثبات وجود اللّه اتّجه صوب من ينكر وجود اللّه ليفند دعواه الواهية بدليلين. (طبعاً قلّما يرى فى القرآن ونهج البلاغة كلام بشأن الماديين ومنكرى الذات الإلهيّة القدسيّة، ذلك لأنّهم كانوا قلّة قليلة آنذاك وكان أكثر الناس ممن يعتقدون بالأديان والمذاهب).

فقال عليه السلام:

«فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ، وجَحَدَ الْمُدَبِّرَ!».

إشارة إلى أنّ آثار التدبير فى أرجاء عالم الخلق كافّة على درجة من الوضوح بحيث لا يستحق منكر مدبر العالم سوى الويل واللعنة.

ثم قال عليه السلام:

«زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ».

طبعاً هذه العبارة بسبب النظرة الساذجة التى يبديها الإنسان عادة تجاه العلف المهمل والحال من وجهة نظر عالم النبات أنّ كلّ ورقة منها هى دفتر من معرفة اللّه تعالى وقد توصل العلماء المعاصرون اليوم إلى أنّ آلاف الأنوع من هذا النبات يختزن العديد من الخواص الطبيّة والعلاجيّة ولكلّ منها بنية معقدة، الجذور والسيقان والأوراق والبذور كلّ منها تبدو أعجب من الاخرى إذن يتّضح من تأمّلها أنّ لها زارعاً وخالقاً عليماً وقديراً.

ثم فند الإمام عليه السلام قولهم بدليلين: فقال أولًا:

«ولَمْ يَلْجَأُوا[۲۲۱] إلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا،

ولَا تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا[۲۲۲]».

والدليل الثانى أنّ لكلّ بناء منظم ومبنى مرتب مهندس ومعمار فقال عليه السلام:

«وهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أوجِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ».

وتوجد اليوم العديد من الآثار والمبانى هنا وهناك فى الكرة الأرضيّة وقد مرّت عليها آلاف السنين وحفظت كآثار تراثية لما فيها من دقة وفنون وليس هنالك أحد

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۲۱

من عباد اللّه ولا أحد من الماديين من يدعى أنّ هذه المبانى ظهرت بواسطة الأمطار والرياح والعواصف أو أنّها رتبت من قبل أفراد جهال من عديمى الخبرة عن طريق الصدفة، بل يجمع الجميع دون استثناء على وجود البانى لها صاحب العقل والشعور ويشيد بهندسته وفنه فى البناء.

والعبارة:

«أوجِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ»

إشارة إلى أنّه ليس فقط البناء بحاجة إلى علم وتدبير بل التخريب والجناية المتعمدة تحتاج إلى تخطيط الشخص العاقل الذى يتعين عليه انتخاب الزمان والمكان والوسيلة وكيفية ممارسة العمل لتحقيق الهدف.

ويستعان اليوم بذوى الخبرة والاختصاص فى هدم بعض المبانى الضخمة بغية تفادى وقوع العوارض الجانبية، وعليه فالبناء والهدم المبرمج كلاهما يحتاج إلى العقل والتدبير.

والدليل على هذا الكلام ما سيرد فى القسم القادم من هذه الخطبة وكلام الإمام عليه السلام عن الجراد وبنيته العجيبة وعمله التخريبى المنظم ضد النباتات.

تأمّل

قبسات من برهان النظم

ما قاله الإمام عليه السلام فى العبارة الأخيرة من هذه الخطبة:

«وهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوجِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ»

إشارة لطيفة إلى البرهان المعروف ببرهان النظم الذى يعدّ من أهم الاستدلالات على معرفة اللّه.

توضيح ذلك:

أننا حين نرد مبناً ضخماً ذا عدّة طبقات يحتوى على غرف متعددة، وصالة للاستقبال، ومطبخ وحمام، ومرافق صحية، ومصاعد وحين نظر إلى الجدران والسقوف المزينة بالمرايا الجميلة والنقوش الظريفة الملونة ووسائل التكييف والتبريد ومد أنابيب المياه والغاز وخطوط الكهرباء والهاتف فنرى كلّ شىء منظم ومرتب.

فهل هنالك من أحد- مهما كانت درجته من العقل والشعور- يحتمل أنّ الصدفة الناشئة من الحوادث الطبيعية المختلفة هى التى تقف وراءه؟ أم أنّ عدّة عمال أميين

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۲۲

جمعوا مقداراً من مواد البناء فبنوا هذاالبناء الرائع دون أن يكون لديهم أدنى فن أو خبرة؟

قطعاً أنّ كلّ من يحتمل هذا الشىء إمّا أن يمزح أو أنّه فقد عقله، فالعقلاء كافّة يحكمون بأنّ بعض الأفراد الأذكياء أعدّوا خريطة مسبقة ثم تكاتف عدد من المهندسين البنائين المهرة والمختصين وذوى المهن المنزلية ليشيّدوا معاً هذا المبنى.

ويصدق هذا الكلام على كلّ بناء وكل مصنع وكل كتاب علمى و ... ويعبر عن ذلك ببرهان النظم ويقال إنّ النظم يدل دائماً على عقل وشعور من يأتى به، وكلّما كان النظم أدق وأعقد كان صاحبه أوعى عقلًا وشعوراً وعلماً.

ولو تأمّلنا بنية نملة والتى يمكن أن نقضى عليها لحظة واحدة دون أن نلتفت إليها لوقفنا على أنّها أعظم وأهم من تلك المبانى الشاهقة والضخمة، فبنية الأرجل، ومفاصلها والأيدى والمجسّات والعين الغاية فى الصغر وجهاز الشامّة القوى الذى يمكنها من الشمّ من مسافات بعيدة والفم والأمعاء وجهاز الهضم وسلسلة الأعصاب والأهم من كلّ ذلك الدماغ الغاية فى الصغر والخارق للذكاء لكشف كلّ منها بمفرده خلقه من قبل خالق عالم وقدير.

أضف إلى ذلك فإنّ هذه الحشرة الصغيرة تتغذى وتنمو وتنجب بينما ذلك المبنى الضخم موجود جامد خالٍ من الروح لا يأكل ولا يشرب ولا ينمو ولا ينجب.

والحقّ أنّ إيماننا ليتعمق بذلك الخالق القادر والعالم إن اتجهنا صوب بنية الإنسان وأجهزته الغاية فى التعقيد كالقلب والدماغ

والأعصاب وألوف الكيلومترات من الشرايين والأوعية الدمويّة التى تغذى كلّ لحظة جميع ذرات البدن.

أضف إلى ذلك فإننا نعلم أنّ العالم يحتوى على مئات الأُلوف من أنواع النباتات ومئات الأُلوف من أنواع الحيوانات والطيور والحشرات و ... ولكلّ منها قصته العجيبة والمذهلة.

والقرآن المجيد جعل كلّ واحدة منها آية من آياته فقال: «سَنُرِيهِمْ ايَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»[۲۲۳].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۲۳

القسم الخامس

اشارة

وإنْ شِئْتَ قُلْتَ فِى الْجَرَادَةِ، إذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِىَّ، وفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِىَّ، وجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِىَّ، ونَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، ومِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ. يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِى زَرْعِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا، ولَوأَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِى نَزَوَاتِهَا، وتَقْضِى مِنْهُ شَهَوَاتِهَا. وخَلْقُهَا كُلُّهُ لَايُكَوِّنُ إصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً.

الشرح والتفسير: صنع الجرادة

يمكن تصنيف الحشرات إلى ثلاثة أنواع؛ الصنف الذى يخدم الإنسان كالنحل الذى يزودنا بالشهد وعامّة النحل التى تنقل حبوب اللقاح وتنمى ثمار الأشجار.

والصنف الآخر الحشرات غير المؤذية (ظاهرياً) التى لا تعود على الإنسان بالنفع ولا تصيبه بضرر، والصنف الثالث الحشرات التى تعدّ من الآفات مثل الجراد.

وقد أسهب الإمام عليه السلام فى الأقسام السابقة من هذه الخطبة فى عجائب خلقة النمل فى أنّها وجودات خالية من الأضرار غالباً ومجدّة ومثابرة يمكن أن تكون نموذجاً للإنسان؛ لكنّه تحدّث هنا عن حشرة تعدّ من وسائل العذاب الإلهى وبإمكانها أن تجهز جيشاً لتهجم به على الحقول والمزارع ولا يسع قوّة الحد من زحفها، وهكذا يفصح اللّه تعالى عن قدرته فى جميع الجهات ويرسخ لدى الإنسان شعور الخوف والرجاء.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۲۴

فقال:

«وإنْ شِئْتَ قُلْتَ فِى الْجَرَادَةِ[۲۲۴]، إذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ ۲۲۵]، وجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِىَّ، وفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِىَ ۲۲۶]».

وأضاف قائلًا:

(وجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِىَّ، ونَابَيْنِ ۲۲۷] بِهِمَا تَقْرِضُ، ومِنْجَلَيْنِ ۲۲۸] بِهِمَا تَقْبِضُ».

صرح بعض العلماء بأنّ الجرادة حشرة عجيبة يشبه كلّ عضو منها أحد الحيوانات، وبعبارة أخرى مع أنّها تبدو حشرة ضعيفة لكنها تشبه عشرة حيوانات قوية، فوجهها كوجه الفرس، وعيونها كعيون الفيل ورقبتها كرقبة البقرة، ومجسّاتها كقرنى الضبى وصدرها كصدر الأسد وبطنها كبطن العقرب وأجنحتها كأجنحة العقاب وسيقانها كسيقان الجمل وأرجلها كأرجل النعامة وذيلها كذيل الحية، وقد

أشار الإمام علیه السلام فی هذه العبارات إلی سبع خصائص عجیبهٔ فیها؛ کالعیون والأحداق والأذن الخفیهٔ والفم والشعور القوی والأسنان الحادهٔ والعضوین اللذین یشبهان منجلین علی جانبی الفم (وسنعرض لها فی التأمّلات).

ثم تطرق علیه السلام إلی الأخطار العظیمهٔ لهذه الحشرهٔ التی تبدو ضعیفهٔ فقال:

«یَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِی زَرْعِهِمْ، وَلَا یَسْتَطِیعُونَ ذَبَّهَا، ولَوأَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّی تَرِدَ الْحَرْثَ فِی نَزَوَاتِهَا[۲۲۹]، وتَقْضِی مِنْهُ شَهَوَاتِهَا. وخَلْقُهَا کُلُّهُ لَایُکَوِّنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً[۲۳۰]».

حقّاً أنّه لمن العجب أنّ کبار أبطال التاریخ کلّما جهّزوا جیشاً لمقاومهٔ هذه الحشرهٔ الضعیفهٔ فشلوا فی التخلص منها؛ فأسراب الجراد تظهر کقطع السحب

نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۱۲۵

الکبیرهٔ فی السماء فتهجم بغتهً علی البساتین والمزارع الواسعهٔ، فتلتهم خلال مدّهٔ قصیرهٔ سیقان النباتات وأغصانها وأوراقها فتحیلها إلی أشجار عاریهٔ جرداء من الأوراق والثمار.

ویستعان الیوم بالطائرات التی ترش المبیدات الحشریهٔ وسائر الوسائل لمواجهۀ خطر هذه الآفهٔ مع ذلک لم تحرز سوی بعض التقدم وفی بعض الأحیان، وإن کانت حملهٔ الجراد قویهٔ، فإنّ الوسائل المعاصرهٔ هی الأخری تعجز عن مواجهتها.

تأمّل

عجائب الجرادهٔ

إنّ إحدی الحشرات العجیبهٔ هی الجرادهٔ، الحشرهٔ التی تبدو بصورهٔ عادیهٔ خالیهٔ من الضرر والأذی حیث تعیش هنا وهناک فی المزارع والبساتین والودیان والجبال، ولکن ما أن تتلقی بعض الأوامر المشفرهٔ حتی تتکاثر بسرعهٔ وتتطایر کأسراب عظیمهٔ بمثابهٔ السحب فی السماء لتحط علی کلّ مزرعهٔ وبستان فتحیله خراباً.

ویقول العلماء: إنّ بنیهٔ هذه الحشرهٔ غایهٔ فی التعقید والدهشهٔ ومن ذلک لها عینان مرکبتان وثلاثهٔ عیون بسیطهٔ، وتتکون عیونها المرکبهٔ من أربعهٔ آلاف قسم ولکلّ قسم بنیته الخاصّهٔ وتتشکل من جمیع هذه العیون المرکبهٔ رؤیهٔ واحدهٔ.

أمّا العیون الثلاثهٔ البسیطهٔ فتقع فی أعلی الرأس، ویتألف صدرها من ثلاث حلقات وبطنها من عشر حلقات تشبه بعضها البعض الآخر.

لها زوجان من الأجنحهٔ زوج أمامی بصیغهٔ مقوسهٔ لا یستعمل فی الطیران ووظیفته حفظ أجنحهٔ الطیران الظریفهٔ التی تنطبق حین الاستراحهٔ لتحفظ تحت الأجنحهٔ الأمامیّهٔ القویّهٔ.

وقد استطالت أرجلها الخلفیهٔ لتساعدها فی القفز والوثوب، تضع الجرادهٔ بیوضها فی فصل الصیف أو الربیع، حیث تخرج هذه البیوض بواسطهٔ نوع من المواد

نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۱۲۶

من ذیلها فتضعها فی ثقوب من الأرض تصنعها بنفسها، وتمتاز صغار الجراد التی تتفقس عن البیوض بشدّهٔ النهم والحرص فتأکل کلّ ما یصادفها فی طریقها، ومن هنا لابدّ من التعرف علی موضع بیوضها من أجل مکافحتها والتصدی لصغارها قبل تفقیسها من البیوض.

والجراد أنواع وأقسام منه الجراد البحری والجراد المراکشی والجراد الإیطالی الذی یسبب خسارهٔ للمزارع أکثر من غیره من سائر الأنواع، ومن عجائب هذه الحشرهٔ أنّها تغیر شکلها ست مرّات منذ تفقیسها من البیضهٔ إلی تکاملها کحشرهٔ قادرهٔ علی الطیران.

وتبدو أسراب الجراد علی درجهٔ من السعهٔ بحیث تغطی آلاف الکیلومترات المربعهٔ من السماء[۲۳۱].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۲۷

القسم السادس

اشارة

فَتَبارَکَ اللَّهُ الَّذِی یَسْجُدُ لَهُ (مَنْ فِی السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَکَرْهاً)، ویُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً ووَجْهاً، ویُلْقِی إِلَیْهِ بِالطَّاعَهِٔ سِلْماً وضَعْفاً، ویُعْطِی لَهُ الْقِیَادَ رَهْبَهًٔ وخَوْفاً! فَالطَّیْرُ مُسَخَّرَهٌٔ لِأَمْرِهِ؛ أَحْصَی عَدَدَ الرِّیشِ مِنْهَا والنَّفَسَ، وأَرْسَی قَوَائِمَهَا عَلَی النَّدَی والْیَبَسِ؛ وقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وأَحْصَی أَجْنَاسَهَا. فَهذَا غُرَابٌ وهذَا عُقَابٌ. وهذَا حَمَامٌ وهذَا نَعَامٌ؛ دَعَا کُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وکَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ.

وأَنْشَأَ (السَّحَابَ الثِّقَالَ) فَأَهْطَلَ دِیَمَهَا، وعَدَّدَ قِسَمَهَا. فَبَلَّ الأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

الشرح والتفسیر: اللَّه العظیم

بین الإمام علیه السلام فی ختام الخطبهٔ خلاصهٔ عامّهٔ لیعتبر موجودات الأرض والسماء کافّهٔ وأنواع الطیور والسحب والریاح مؤتمرهٔ بأمره سبحانه وتعالی فقال:

«فَتَبارَکَ [۲۳۲]

اللَّهُ الَّذِی یَسْجُدُ لَهُ

«مَنْ فِی السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَکَرْهاً»[۲۳۳]

، ویُعَفِّرُ[۲۳۴] لَهُ خَدّاً[۲۳۵]

نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۱۲۸

ووَجْهاً، ویُلْقِی إِلَیْهِ بِالطَّاعَهِٔ سِلْماً وضَعْفاً، ویُعْطِی لَهُ الْقِیَادَ رَهْبَهًٔ وخَوْفاً!».

ربّما یکون السجود هنا إشارهٔ إلی الخضوع الإرادی للذات الإلهیّهٔ المقدّسهٔ فاعله أصحاب العقول والذی یفهم من کلمهٔ «مَنْ»، کما یحتمل أن یکون المراد من السجود الإرادی التشریعی والتکوینی، إستناداً إلی أنّ مفردهٔ «مَنْ» تشمل هنا ذوی العقول وغیرهم (أی لها حیثیهٔ تغلیبیهٔ کما فی الاصطلاح).

ویمکن أن تکون العبارهٔ

«طَوْعاً وَکَرْهاً»

إشارهٔ إلی هذا المعنی، لأنّ السجود التشریعی قائم علی أساس الإرادهٔ، بینما لیست هنالک مثل هذه الإرادهٔ فی السجود التکوینی، وعلیه فربّما تکون إشارهٔ إلی الطائفهٔ التی تسجد مختارهٔ للَّهوالاخری التی تسجد حین البلاء والشدّهٔ کما ورد فی القرآن الکریم: «فَإِذَا رَکِبُوا فِی الْفُلْکِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَی الْبَرِّ إِذَا هُمْ یُشْرِکُونَ»[۲۳۶].

کما أنّ العبارهٔ

«یُعَفِّرُ لَهُ ...»

إن فسّرت بمعناها الحقیقی فهی إشارهٔ إلی السجدهٔ الاعتیادیهٔ التی یضع فیها الإنسان جبهته علی التربهٔ، وإن فسرت بالمعنی المجازی فهی شاملهٔ للخضوع التشریعی والتکوینی.

کما أنّ العبارهٔ

«یُلْقِی إِلَیْهِ بِالطَّاعَهِٔ ...»

واردة بهذا المعنى أيضاً فى أنّ طائفة من العقلاء يخضعون للّهإنطلاقاً من الرغبة والاختيار والشعور بالضعف والعجز بينما تعيش الموجودات غير العاقلة حالة التسليم لقوانين الخلق دون إرادة واختيار.

وتشير العبارة

«يُعْطِى لَهُ الْقِيَادَ ...»

إلى مرحلة أبعد من مرحلة الطاعة لأنّ الإنسان يسمع أمر المولى فى الطاعة فينهض ويباشر العمل، أمّا فى القياد فهو يسلم نفسه لمولاه ليأخذه حيث يشاء.

ثم وذهب بعض اللغويين إلى التمييز بين «الرهبة» و «الخوف» فى أنّ الخوف يعنى مطلقه، بينما تعنى الرهبة الخوف المقرون بالاضطراب وضبط النفس.

ثم خاض الإمام عليه السلام ثانية فى جانب من مخلوقات اللّه العجيبة هى الطيور التى

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۲۹

تمتاز حقّاً بعالمها العجيب. فلا يقتصر الأمر على تحليقها إلى السماء باتّجاه مضاد للجاذبية الأرضيّة فتنطلق هنا وهناك بسرعة فائقة، بل تمتاز بنيتها ببعض الأشياء المعقدة من جميع الجهات والتى سنعرض إلى جانب منها فى ختام هذا البحث فقال:

«فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِامْرِهِ».

والعبارة اقتباس من الآية الشريفة: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَات فِى جَوالسَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِى ذلِكَ لَايَات لِّقَوْم يُؤْمِنُونَ»[۲۳۷].

ثم أسهب الإمام عليه السلام فى شرح هذه الطيور فأشار إلى بعض الأمور المهمّة فقال:

«أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ ۲۳۸] مِنْهَا والنَّفَسَ، وأَرْسَى ۲۳۹] قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى ۲۴۰] والْيَبَسِ؛ وقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وأَحْصَى أَجْنَاسَهَا. فَهذَا غُرَابٌ وهذا عُقَابٌ. وهذَا حَمَامٌ وهذَا نَعَامٌ؛ دَعَا كُلَّ طَائِر بِاسْمِهِ، وكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ».

أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات إلى أمور رائعة، فعدّ ريش الطيور من أغرب عجائبها فكلّ منها يشبه البرعم الجميل الذى غاصت جذوره بصورة سطحية فى لحم بدنه وظهرت أغصانه وأوراقه بصورة منتظمة وتجمعت على بعضها بهيئة خاصّة على جوانب الرأس والعنق والجناح والصدر وما أن يسقط أحد منها حتى ينمو آخر غيره فلطافتها عجيبة وألوانها أعجب.

ثم أشار إلى أقدامها فقد صممت بعضها لليابسة فهى قصيرة ومحكمة، وأخرى للفائدة عند حافات البحار والأنهار فهى طويله ومرتفعة وبرقبة طويلة لتمكن الطائر من تناول طعامه من داخل المياه.

ثم تطرق عليه السلام إلى موادها الغذائيّة حيث لكلّ حصته من الحبوب وما شابه ذلك

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۳۰

والطريف فى الأمر أنّ أيّاً من الطيور لا يملك أسناناً لقضم هذه الحبوب وبالمقابل زودت بمعدة (والتى يطلق عليها اسم القانصة) والتى تمتاز بحراراتها الشديدة فتفرز بعض السوائل التى تطحن الحبوب وتمتصها، وحيث لا تمتلك الوقت الكافى لالتقاط الحبوب خشية مهاجمتها من مختلف الأعداء فقد زودت بعضو آخر هو الحوصلة التى تشبه الكيس فتقوم عن طريقها بجمع سريع لتلك الحبوب ثم تهضمها وتمتصها.

ثم أشار إلى أنواع مختلفة ومتفاوتة للطيور حيث لكلّ بنيّته الخاصّة وطريقته المختصة به كالغراب والعقاب إلى الحمام والنعام والتى انطوت على العديد من العجائب والغرائب بما يبهت الإنسان فتعالى اللّه الملك الحقّ الذى أبدع كلّ هذا الخلق.

ولعل العبارة

«دَعَا كُلَّ طَائِر بِاسْمِهِ»

تشير إلى هذا الموضوع حيث إنّه سبحانه خلق كل طائر من هذه الطيور على ضوء ما أراده من خصائص والواقع هذه دعوة تكوينيّة مع مجموعة الخصائص التى عبّر عنها بالاسم وشبيه تلك العبارة التى وردت فى القرآن الكريم بشأن خلق جميع الموجودات: «انَّمَآ أَمْرُهُ إِذَا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[۲۴۱].

واختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى السحب التى تعدّ المصدر الأصلى بما تفيضه من مياه ضرورية لحياة جميع الموجودات فقال:

«وأَنْشَأَ

«السَّحَابَ الثِّقَالَ»[۲۴۲]

فَأَهْطَلَ ۲۴۳] دِيَمَهَا[۲۴۴]، وعَدَّدَ قِسَمَهَا. فَبَلَّ الأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا وأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ

جُدُوبِهَا[۲۴۵]».

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۱۳۱

وإننا لنعلم أنّ السحب على أنواع فهنالك السحب المغطاة التى تخلو تقريباً من المياه وتلك التى تحمل قليلًا من الماء، والنوع الثالث السحب المتجمعة المليئة بالمياه والشديدة الرطوبة وكأنّها بحار علقت فى عنان السماء وتكون عادة فى الطبقات السفلى من الجو والتى عبّر عنها القرآن الكريم بالسحاب الثقال فقال:

«وَهُوالَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَد مَّيِّت فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ»[۲۴۶].

تأمّل

دروس عظيمة بعبارات قصيرة

تعلّمنا من هذه الخطبة عدّة دروس؛ ومن ذلك أن نتأمّل أسرار عظمة اللّه حتى فى أصغر موجودات هذا العالم، فما أكثر الموجودات الصغيرة والتى لا تبدو فى ظاهرها مهمّة كالنمل والجراد بينما تختزن عجائب أسرار الخلقة، فما علينا إلّاأنّ نعيد النظر فى رؤية كلّ شيء وكأننا نراه لأول مرّة لنقف على عجائبه فنستدل من خلالها على خالقها الحكيم والقادر العليم.

جدير ذكره أنّ الأسلاف ذكروا بعض الأمور عن أسرار خلق الموجودات ولا سيما الحيوانات والتى لا تخلو من الأساطير والخرافات والحال ما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة عن أسرار الخليقة يخلو تماماً من أى إغراق وخرافة واسطورة.

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۱۳۳

الخطبة ۱۸۶

اشارة

فِى التَّوْحِيدِ وتَجْمَع هذِهِ الْخُطْبَةُ مِنْ أُصولِ الْعِلْمِ

ما لا تَجْمَعُهُ خُطْبَةٌ[۲۴۷]

نظرة إلى الخطبة

تحدّث الإمام عليه السـلام فی هذه الخطبة عن صـفات اللَّه تعالى ليشـير إلى أكثر من سـبعين صفة حيث لم يلاحظ ذكر هذا العدد من صفات الجلال والجمال فى أى من سائر الخطب.

والواقع كشف الإمام عليه السـلام فى هـذه الخطبـة عن قدرات تفكيره الربّانى فى شـرح وتوضـيح أعقد المسائل العقائدية، فتطرق إلى تفاصيل صفاته تعالى الثبوتيّة والسلبيّة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۳۴

والإضافيـة بنظـام خـاص ورائع، ومـا أحرانا أن نعـدّ ذلك بمنزلـة سورة التوحيـد- التى اعتبرتها بعض الروايات أنّها تعـدل ثلث القرآن الكريم- فى نهج البلاغة.

والخطبة فى الحقيقة قسم واحد هو شرح أسماء اللَّه وصفاته لكننا من باب المسامحة نقسمها إلى ثلاثة أقسام، قسم يتحدّث عن صفات اللَّه الثبوتيّة والقسم الآخر فى صفاته السلبيّة وقسم ثالث فى قدرته تعالى فى مسألة المعاد وعودة الناس إلى الحياة الاخرويّة.

وبالتالى فإنّ كلّ من يتأمّل هذه الخطبة ليقطع بأنّ أحداً من الفلاسـفة الإلهيين فى الماضى والحاضر لم يقدموا مثل هذه الصورة الرائعة والدقيقة والجلية بشأن اللَّه تعالى؛ حتى أنّ من يطلع على هذه الخطبة من غير المسلمين لا يملك إلّاالإشادة بقائلها.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۳۵

القسم الأوّل

اشارة

مَـا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلَـا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَـبَّهَهُ، وَلَا صَـمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوف بِنَفْسِهِ مَصْـنُوعٌ، وكُلُّ قَائِم فِى سِوَاهُ مَعْلُولٌ. فَاعِلٌ لَاباِضْـطِرَابِ آلَـة، مُقَـدِّرٌ لَابِجَوْلِ فِكْرَة، غَنِىٌّ لَا بِاسْـتِفَادَة. لَاتَصْـحَبُهُ الْأَوْقَاتُ، وَلَا تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ؛ سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالْابْتِدَاءَ أَزَلُهُ. بِتَشْـعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَامَشْعَرَ لَهُ، وبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْامُورِ عُرِفَ أَنْ لَاضِدَّ لَهُ، وبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْـيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ. ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، والْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، والْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ. مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا.

الشرح والتفسير: أضواء مهمّة فى صفات اللَّه

تشتمل هذه الخطبة الشـريفة كما ورد سالفاً على مواضيع قيمة ومباحث هامّة فى علم اللَّه والتى بيّنت بمنتهى الفصاحة والبلاغة وحسن الأسلوب وانسجام العبارات، فقد استهل الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى جانب من صفات اللَّه السلبيّة فقال:

«مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ ۲۴۸] مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وتَوَهَّمَهُ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۳۶

فقـد أشـار الإمام عليه السـلام فى أول صـفة من صـفاته السـلبيّة إلى مسألـة نفى الكيفيـة عن اللَّه تعالى، تلك الحالـة التى تعرض على

الجسم المادى أو الموجود الروحانى وبما أنّ طرو العوارض دليل على المخلوقيّة فإنّ الذات الإلهيّة الطاهرة لا تطرأ عليها الكيفية كونها أزليّة وأبديّة.

ثم نفى الإمام عليه السلام عن اللَّه فى الصفة الثانية أى شبيه ومثيل، ذلك إن كان له مثيل وكانت هذه المثليّة فى جميع الجهات لأصبح عينه، وإن كانت فى بعض الجهات لزم منها التركيب (تركيب ما به الاشتراك وما به الامتياز) والتركيب لا ينسجم مع كونه واجب الوجود، ذلك لأنّ كلّ مركب يحتاج أىّ أجزائه ولا معنى للحاجة فى واجب الوجود، وبعبارة أخرى تكون الأجزاء فى المرتبة السابقة للكلّ، وعليه إن كان واجب الوجود لكانت تلك الأجزاء، لا (الكلّ) المولود من تلك الأجزاء، ومن جانب آخر فإنّ الذى يلزم من الأجزاء التعدد والتعدد محال فى واجب الوجود، لأنّ واجب الوجود لامتناهٍ من جميع الجهات ويستحيل وجود لامتناهيين من جميع الجهات.

ونفى الشبيه فى الصفة الثالثة عن الذات القدسيّة، فالذات اللامتناهية من جميع الجهات لا شبيه لها (الفارق بين المثل والشبيه أنّ المثل يلاحظ فى جميع الجهات أو أكثر الصفات بينما الشبيه يمكن فى بعض الجهات).

وقال فى الصفة الرابعة والخامسة: من أشار إلى اللَّه أو توهمه لم يعرفه، لأنّ الإشارة الحسية دلالة على الجسميّة والاشتمال على الجهة والمكان المنزّه اللَّه منها، وتوهمه يعنى جعل حدود لذاته اللامحدودة، وعلى هذا الأساس نقول ليس لأحد درك ذاته سبحانه وعلمنا به هو علم إجمالى فنقول مثلًا: اللَّه خالق وخالق لهذا العالم.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين أخريين فقال:

«كُلُّ مَعْرُوف بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وكُلُّ قَائِم فِى سِوَاهُ مَعْلُولٌ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۳۷

قلنا كراراً أنّ اللَّه وجود لا متناهٍ من جميع الجهات ولا يستوعبه فكرنا المحدود، ولهذا فهو أسمى من الخيال والقياس والظن والوهم، فإن قيل: فكيف نعرف اللَّه؟

نقول: عن طريقين رئيسيين؛ الأوّل الإشارة إلى آثاره وأفعاله التى ملأت عالم الوجود وكلّما أمعنا النظر فى شىء رأيناه إجمالًا خلفه، والآخر عن طريق تحليل حقيقة الوجود التى تنتهى إجمالًا بواجب الوجود والذى يصطلح عليه (برهان الصديقين) والذى أشير إليه فى الأحاديث والأدعية بعنوان

«يا مَنْ دَلَّ عَلى ذاتِهِ بِذاتِهِ»

وهو أيضاً علم إجمالى؛ لا علم بكنه وحقيقة ذاته الخارجة عن متناول جميع الأفكار بما فيها أفكار الأنبياء والأولياء.

كما توضح هذه النقطة أنّ كلّ شىء قائم بآخر سواء بصورة عرض عارض على ذلك الشىء أو بصورة وجود جوهرى متوقف عليه، على كلّ حال معلول آخر واللَّه تعالى واجب الوجود ليس بمعلول؛ بل هو القيوم؛ أى القائم بذاته وقيام الآخرين به.

ثم أشار عليه السلام إلى أفعاله وتدبيره وغناه فقال:

«فَاعِلٌ لَابِاضْطِرَابِ آلَةٍ، مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ ۲۴۹] فِكْرَة، غَنِيٌّ لَاباسْتِفَادَة».

لأنّ الشخص إنّما يستعين فى عمله بالوسائل والأدوات من حيث كانت قدرته محدودة ولابدّ له من الاستفادة والاستعانة بتلك الوسائل ومن يحتاج فى تدبيره الفكر والمطالعة فإنّما يعزى ذلك لمحدودية علمه وهذا ما يدفعه لزيادة فكره ومطالعاته؛ أمّا من كان علمه وقدرته لامتناهيان فهو غنى عن كلّ ذلك كما أنّ جميع الأغنياء غيره يصبحون أغنياء عن طريق كسب المال والمقام وأمثال ذلك من خارج وجودهم أمّا اللَّه تعالى فهو الغنى بالذات.

قال تعالى فى القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوالْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»[۲۵۰].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۳۸

ثم واصل کلامه علیه السلام فی بیان هذه الصفات فقال:

«لَا تَصْحَبُهُ الأَوْقَاتُ، وَلَا تَرْفِدُهُ ۲۵۱] الأَدَوَاتُ؛ سَبَقَ الأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالْابْتِدَاءَ أَزَلُهُ».

العبارة:

«لَا تَصْحَبُهُ الأَوْقَاتُ ...»

تشیر إلی أنّ الزمان أمر حادث واللّه تعالی الأزلی والأبدی الذات لم ولن یقترن بالحوادث کما لم تکن الأدوات والآلات سنده ومعینه.

والفارق بین هذه العبارة والعبارة:

«فَاعِلٌ لَابِاضْطِرَابِ آلَة»

یمکن أن تکون فی أنّ الکلام فی العبارة السابقة فی أفعال اللّه التی لا ـ تتطلب الآلات والأدوات؛ بینما تشیر هذه العبارة إلی عدم استعانته بهذه الأدوات فی بقائه.

العبارة:

«سَبَقَ الأَوْقَاتَ كَوْنُهُ ...»

فی الواقع، شرح للعبارة

«لَا تَصْحَبُهُ الأَوْقَاتُ»

لأننا حین نقرّ بأنّ وجوده أسمی من الزمان والمکان نخلص إلی نتیجة أنّ وجوده سبق الزمان وتقدم علی العدم وأنّ أزلیته مقدمة علی کلّ بدایة.

وهنا یرد هذا السؤال، وهو أنّ الإمام علیه السلام قال: وجوده سبق عدمه والحال العدم لیس بالشیء الذی یسبقه وجود اللّه والجواب یمکن القول إنّ المراد من العدم هنا هو انعدام المخلوقات أی أنّ اللّه تعالی کان موجوداً حین لم یکن أی من الموجودات.

ویقال أحیاناً هذه العبارة کنایة عن کون اللّه واجب الوجود لأنّ الذات الواجبة الوجود کائنة وستکون علی الدوام وتتغلب علی العدم ولا یعرض لها العدم بأی شکل من الأشکال.

وتشیر العبارة:

«وَالْابْتِدَاءَ أَزَلُهُ»

إلی أنّ الذات الأزلیّة والأبدیّة أسمی من أن یکون لها ابتداء.

ثم خاض علیه السلام فی صفات أخری کلّ واحدة منها أهم من الأخری فقال:

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۱۳۹

«بِتَشْعِيرِهِ ۲۵۲] الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَامَشْعَرَ لَهُ»

، لأنّ وجود الحواس من لوازم المخلوقات الممکنة الوجود ویتنزّه عن ذلک واجب الوجود، أضف إلی ذلک أنّ الحواس من عوارض الموجودات، والعرض والمعروض شیئان مختلفان بینما نعلم أن لیس للترکیب من سبیل إلی ذات اللّه.

بعبارة أخری لقد دلّ اللّه تعالی بخلقه الحواس لعباده أنّ الاحساس والحواس عارضة ومنفصلة عن ذات الأشیاء، وهنا فهم العباد أن لیس له حواس لأنّ ذاته لیست محلّاً للعوارض.

ثم قال علیه السلام:

«وبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَاضِدَّ لَهُ، وبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَاقَرِينَ لَهُ»

وتفسیر هذا الکلام أنّ وجودین متضادین یکونان قطعاً محدودین ولهما حالتان مختلفتان، والحال الذات الإلهیّة لیست محدودة ولا شیء عارض علیها، کما أنّ الموجودین المقرونین محدودان ولهما عوارض مشابهة بینما الذات الإلهیّة لامحدودة من کلّ الجهات

وعارية من كلّ العوارض.

وواصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى بعض المصاديق من الأمور المتضادة فقال:

«ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، والْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ[۲۵۳]، والْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ[۲۵۴]».

طبعاً ينطوى هـذا التضاد على فلسـفة تتمثل فى ايجاد التوازن وإزالـة آثار السوء لكلّ شـىء بآخر، فلو أشـرقت الشـمس على جانب من الكرة الأرضيّة دائماً وغط الجانب الآخر منها فى ظلمة دائمة لزالت الحياة عاجلًا؛ فالجانب الذى يتعرض إلى الشمس يحترق بفعل شدّة الحرارة ويهلك، كما ينجمد ويزول ذلك الذى يعيش الظلمة: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ»[۲۵۵]؛ «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۴۰

الْقِيَامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْل تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»[۲۵۶]؛ «وَمِنْ رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»[۲۵۷].

قد يقال هنا إنّ الظلمة أمر عدمى وليس بالشىء الذى خلقهاللّه أو يكون مضاداً للنور.

وهوذات السؤال الذى ورد فى الآية الشريفة: «الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ»[۲۵۸].

ولكن بالإلتفات إلى هـذه النقطـة وهى أنّ ظلمـة الليل وأمثالها ليست ظلمة مطلقة لتكون عدميّة، بل ضـعف شديد للنور ومن هنا حين تطفأ المصابيـح فى الليل فجأة لا نكاد نرى شـيئاً مطلقاً، ولكن بالتدريج تعتاد عيوننا ذلك النور الضـعيف فى جوف الظلمة فنبدأ برؤية الأشياء من حولنا، وعليه فالظلمة مخلوق من مخلوقات اللّه مضادة للنور.

ويمكن أن تكون العبارة

«والْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ»

إشـارة إلى اختلاـف الأـلوان وفلسـفة ذلك تمييز الأشـياء عن بعضـها البعض الآخر، فالوضوح إشارة إلى الألوان الفاتحـة والبهمـة إلى الألوان الغامقة والقاتمة، أو إشارة إلى الحالات شبه المضيئة وشبه المظلمة بين الطلوعين والغروبين.

«والْجُمُودَ بِالْبَلَلِ»

أشار إلى اليابسة والبحار والأشياء الجامدة والمرطوبة والتى لكلّ منها فلسفته الوجودية المختصة به.

كما تشير

«والْحَرُورَ بِالصَّرَدِ»

إلى فصول السنة أو بصورة كلية الحرارة والبرودة والتى لكلّ منهما دوره فى حياة ورشد الكائنات الحية.

ثم أشار عليه السلام إلى أربع صفات أخرى فقال:

«مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۴۱

مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا»

. حيث تطرق الإمام عليه السـلام إلى أمور غايـة فى الأهميّـة اعتمـدها اللّه سـبحانه وتعالى فى تـدبير عالم الوجود، فقد جمع فى أغلب الموارد بين الضـدين فربط بين الروح هـذا الجوهر اللطيف الذى يفوق المادة مع هذا الجسم الترابى وجعل عدّة موجودات مختلفة إلى جانب بعضـها البعض الآخر الأمر الذى نلاحظه فى تركيب بدن الإنسان والحيوان والنبات حيث جعل عشـرات الفلزات وأشباه الفلزات إلى جـانب بعضـها البعض الآـخر ليخلق منهـا ذلـك الـتركيب البـديع، والعجيب أنّه جعـل الجاذبيـة والتنـاقض بين الضـدين كـالقطب الكهربائى الموجب والقطب السالب وبين القطبين المتشابهين أوجد حالة من التنافر كما فى القطبين الموجبين أو القطبين السالبين كما

جعل جاذبية بين الجنس المذكر والمؤنث والتنافر بين المتجانسين.

وهكذا فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة أقسام من موجودات العالم: قسم منها متضاد كالنور والظلمة والروح والجسم، وآخر متباين كأنواع النباتات والحيوانات المتباينة غير المتضادة وقد جعل اللّه بينها جميعاً نوعاً من الألفة.

والقسم الثالث تلك المتباعدة وقد قرّبها اللّه كالأزواج من قومين منفصلين عن بعضهما البعض الآخر ويقترنان ببعضهما إثر الحبّ والمودّة.

وأخيراً القسم الرابع الأمور القريبة من بعضها ذاتاً، وقد ابعدها اللّه عن بعضها بتدبيره لهذا العالم مثل كرات المنظومة الشمسية التى كانت مع بعضها البعض حسب النظرية المعروف ففصلها اللّه تعالى وخلق المنظومة الشمسيّة.

رغم أنّ الأجزاء المركبة للنباتات وأوراقها تنفصل عنها بعد الجفاف وتتحول إلى عناصر فعالة لتنمية سائر الأشجار والنباتات كما أنّ سحب الغيوم أحياناً تتصل مع بعضها من مختلف المناطق بواسطة الرياح فتهطل الأمطار الحيوية، كما يأمر الرياح بحملها إلى مناطق أخرى

نعم! فربوبيّته وتدبيره تقتضى أحياناً أن يجمع بين الضدين وأحياناً أخرى للتقريب بين المتباينين وثالثة تقريب المتباعد وإبعاد المتقارب.

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۱۴۲

تأمّل

كيفية الجمع بين الضدين

يعتقد البعض أنّ العالم مؤلف من جمع الأضداد والتضاد سبب التكامل وحسب بعض الحكماء

«لَولا التَّضادُ ما صَحَّ الْفَيْضُ عَنِ الْمَبْدَأَ الْجَوادِ»

. كما استدل البعض على هذا المطلب بعبارة الإمام عليه السلام الواردة فى الخطبة:

«مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا ...».

ويرى اتباع المدرسة الماديّة الديالكتيكية أنّ أحد المبادئ الأربعة يتمثل فى الجمع بين الضدين ويزعمون أنّ كلّ موجود يحمل ضده فى داخله وبظهور الضد يزول الموجود السابق ويضربون على ذلك مثال البيضة والدجاجة وأمثال ذلک ليخلصوا فى النتيجة إلى أنّ المجتمع الرأسمالى يبلور مضطراً داخله ضده الذى يتمثل فى المجتمع الاشتراكى والشيوعى وما تظهر حتى تزول الرأسمالية، وهكذا طرحوا مبادئهم الواهية الجوفاء على هذا الأساس بحيث اتضح ضعفهم وعجزهم عملياً على مستوى الظاهر، وقد لمسنا كيفية إنهيار هذه المدرسة.

ويجب الإلتفات إلى أنّ الجمع بين الضدين (أو النقيضين) مصطلح فلسفى يعنى الجمع فى محل واحد من جميع الجهات بمعنى أن يكون الشىء الواحد أسوداً وأبيضاً فى آن واحد، وهذا محال؛ أو يكون مكان معين فى لحظة معينة ليلًا ونهاراً أو يكون الإنسان حيّاً وميّتاً فى زمن معين ومن الطبيعى أنّ الجمع بين هذين النقيضين محال بهذا المعنى، ولكن أحياناً يكون المراد الجمع العرفى: كأن يجتمع جسمان أبيض وأسود مع بعضهما فى آن واحد أو فى زمنين متصلين، فأحياناً يكون الجسم أبيضاً وأخرى أسوداً.

وهذا المعنى ليس ممكناً فقط فحسب بل شمل جوانب عظيمة من هذا العالم وعلى ضوء هذه النقطة نعود إلى أصل الموضوع فنقول: فى العالم الذى نعيش فيه فإنّ مدبّره هو الذات الإلهيّة القدسيّة التى أشاعت نظام الأضداد، وكما ورد فى كلام

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۱۴۳

الإمـام عليه السـلام فقـد مزج النور بالظلمـهٔ والحرارهٔ والبرودهٔ واليبوسـهٔ والبلـل ووظف نظـام الليل والنهار والفصول الأربعـهٔ والسـحب والأمطار والشـمس ببعض الأعمال المهمّهٔ، وأحياناً يلاحظ بين الأمثال أنّ عضواً من أعضاء الإنسان أو النبات ليس فقط لا يتضادان بل هما منسجمان مع بعضهما.

على كـلّ حـال فـإنّ التضـاد بالصـيغهٔ المـذكورهٔ من شـأنه فى أغلب المواقع أن يلعب دوراً مهمـاً فى تطوير المجتمع البشـرى وتكـامل الكائنات؛ والتنافس البناء فى كلّ مجتمع مدعاهٔ للتطور وعادهٔ ما يؤدّى إلى القوّهٔ والمنعهٔ فى مختلف المجالات حتى أنّ وجود الشيطان أمام المؤمنين مدعاهٔ لتأصل ورسوخ إيمانهم.

***

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۱۴۵

القسم الثانى

اشارهٔ

لَا يُشْـمَلُ بِحـِدٍّ، وَلَا يُحْسَبُ بِعَـدٍّ، وإِنَّمَا تَحُـدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَـهَا، وتُشِـيرُ الْالاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا. مَنَعَتْهَا «مُنْذُ» الْقِدْمَـهَٔ، وحَمَتْهَا «قَدُ» الأَزَلِيَّهَٔ، وجَنَّبَتْهَـا «لَولَـا» التَّكْمِلَـهَٔ! بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ، وَلَا يَجْرِى عَلَيْهِ السُّكُونُ والْحَرَكَـهُٔ، وكَيْفَ يَجْرِى عَلَيْهِ مَا هُوأَجْرَاهُ، ويَعُودُ فِيهِ مَـا هُوأَبْـدَاهُ، ويَحْـدُثُ فِيهِ مَا هُوأَحْـدَثَهُ! إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، ولَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلَامْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْنَاهُ، ولَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِـدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ. وإِذاً لَقَامَتْ آيَـهُٔ الْمَصْـنُوعِ فِيهِ، ولَتَحَوَّلَ دَلِيلا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولا عَلَيْهِ، وخَرَجَ بِسُـلْطَانِ الْامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِى غَيْرِهِ. الَّذِى لَايَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْافُولُ. لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، ولَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً. جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الأَبْنَاءِ، وطَهُرَ عَنْ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا القسم إلى صفات أخرى من صفات اللّه السلبيّهٔ فقال:

«لَا يُشْمَلُ بِحدٍّ، وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وتُشِيرُ الْالاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا».

وتفسـير العبارهٔ الأُولى والثانيـهٔ واضـح لأنّ اللّه وجود لا متناهٍ من جميع الجهات ولو كان محـدوداً لما كان واجب الوجود، بل لأصبح ممكن الوجود كذلك لو حسب بعدد لكان من الممكنات التى يمكن عدّها، وقولنا إنّ اللّه واحد لا بمعنى الواحد

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۱۴۶

العددى بل بمعنى عدم وجود مثيل له: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ»[۲۵۹].

بينما اختلف شـرّاح نهج البلاغهٔ فى تفسـيرهم للعبارتين الثالثهٔ والرابعهٔ بسـبب الإبهام الذى يسودها ولعلّ مفتاح حلّ المشكلهٔ فى تفسير هاتين العبارتين يكمن فى هذا الأمر وهو أنّ القرائن تشـير إلى أنّ المرحوم السـيد الرضى قد حذف العبارات المرتبطهٔ بهاتين العبارتين درجاً على عادته فى الاقتطاف.

ورغم حرص المرحوم الرضى على عدم بتر العبارات المرتبطهٔ مع بعضها إلّاأنّ ذلك قد يقع سهواً ونسياناً أحياناً.

والشاهد على سقوط بعض العبارات فى هذه الخطبهٔ ما ورد فى «تحف العقول» حيث قال الإمام عليه السلام:

«لا تَفَوّتُهُ «مَتى وَلا تَدنيهِ «قَد» وَلا تَحجُبُهُ «لَعلّ» وَلا تُقارُنُهُ «مَع» وَلا تَشتَمِلُهُ «هو» إنّما تَحدّ الأدواتُ أنفُسَها وَتشيرُ الآلةُ إلى نَظائِرِها».

فهذه الكلمات (بعض العبارات مثل متى وقد ولعل ومع وهو) تحدد نفسـها (أى تسـتعمل فقط حين يكون للزمان والمكان وعدم العلم إليها من سبيل) وهذه العبارات إنّما تشير إلى نظائرها (النظائر الموجودة فى عالم الممكنات لا الذات المقدّسة التى لا نظير لها).

ثم أكّد عليه السلام هذا الكلام بقوله:

«مَنَعَتْهَا «مُنْذُ» الْقِدْمَةَ، وحَمَتْهَا «قَدُ» الأَزَلِيَّةَ، وجَنَّبَتْهَا «لَولَا» التَّكْمِلَةَ!»[۲۶۰].

توضيح ذلك: أنّ المفردة

«مُنْذُ»

تستعمل حيث السيرة التاريخية لوجود الشـىء، وعليه واسـتناداً إلى اسـتعمال هذه المفردة بشأن الممكنات يمكن التوصل بسهولة إلى أنّها حادثة وليست قديمة، كما أنّ المفردة

«قَد»

حين تستعمل فى الماضى تعنى

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۴۷

وقوع الشىء القريب من الزمن الحاضر وهذا أيضاً لا ينسجم مع الأزلية، كما تستعمل المفردة

«لَولَا»

حيث المانع الذى يكمن فى طريق تكامل الشـىء، كالقول الذى نقله القرآن الكريم على لسان الكافرين حين مخاطبتهم للمسـتكبرين: «لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ»[۲۶۱]. واستناداً إلى أزليّته وأبديّته سبحانه وكماله المطلق فلا تستعمل بحقّه هذه الأدوات والعبارات.

ثم قال الإمام عليه السلام فى بيانه لصفات أخرى من صفات اللَّه أنّه تجلى للعقل بخلقه لمخلوقاته ومن هنا تعذرت رؤيته بهذه العيون:

«بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ».

نعم، فآثاره واضحة فى كلّ زاوية من زوايا عالم الوجود ومنها ندرك وجوده المقدّس؛ مع ذلك لا يمكن رؤيته بعين، لأنّ رؤية العين تختص بالأجسام ذات الزمان والمكان والأجزاء والجهة، واللَّه منزّه عن كلّ هذه الأمور.

ثم تعرض الإمام عليه السلام لمسألة مهمّة أخرى ليتحدّث بشأن نفى السكون والحركة عن الذات القدسيّة فقال عليه السلام:

«وَلَا يَجْرِى عَلَيْهِ السُّكُونُ والْحَرَكَةُ، وكَيْفَ يَجْرِى عَلَيْهِ مَا هُو أَجْرَاهُ، ويَعُودُ فِيهِ مَا هُوأَبْدَاهُ، ويَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوأَحْدَثَهُ!».

نعم، فالحركة والسـكون من عوارض الممكنات، والحركة أن يكون للشـىء موضعين أو حالتين فى زمانين، والسكون أن يكون له فى زمانين نفس المكان والحالـة، وعليه فالسـكون حادث والحركة كذلك؛ لأنّ كلا الصـفتين بيان للحالة الثانية للشـىء التى مضـى عليها الزمان، بعبارة أخرى فى الحالـة الأولى لا سـكون ولا حركة بينما للسـكون والحركة معنى فى الحالة الثانية، فإنّ كان فى المكان الأوّل سكون كان فى موضع آخر حركة.

أضف إلى ذلك إن كانت الحركـة فى المكان والزمان والكيفيّـة وما شابه ذلك فهى من عوارض الجسم وكـذلك إن كانت الحركة فى الجوهر، وأننا لنعلم أنّ اللَّه ليس

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۴۸

بجسم ولا بجوهر.

والنتيجة هى أنّ الحركة والسكون من مخلوقات اللَّه ومن الممكنات وليس لها من سبيل قط إلى الذات القدسيّة واجبة الوجود.

ثم خاض الإمام عليه السلام ليذكر ثمانية أدلة على هذا الموضوع فقال:

الأوّل: لوجرت عليه الحركة والسكون

«اذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ»

ونعلم أنّه وجود ذوکمال مطلق ولیس لأىّ تغییر من سبیل إلى ذاته الثابتهٔ.

والثانى لزم أیضاً:

«ولَتَجَزَّأَ کُنْهُهُ»

لأنّ ما یلزم الحرکهٔ بلوغ الموجود نقطهٔ لم تکن عنده، وعلیه فوجوده مرکب ممّا ما بالفعل وما بالقوّهٔ.

والثالث:

«ولَامْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْنَاهُ»

، لأنّ الحرکهٔ والسکون کما قلنا حادثان وذاته سبحانه أزلیّهٔ وقدیمهٔ ویستحیل الجمع بین الحادث والقدیم.

والرابع: یلزم من الحرکهٔ

«ولَکَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ»

، لأنّ للحرکهٔ بأى اتجاه وبأى مفهوم لها جههٔ تعدّ أمامیّهٔ وما یعاکسها جههٔ خلفیهٔ.

والخامس: یلزم من الحرکهٔ البحث عن الکمال، فمن عانى النقص یبحث عن الکمال

«وَلَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ»

، لأنّ الحرکهٔ إمّا إلى النقص أو الکمال، ومهما کانت فهى تعنى عدم مطلقیهٔ الموجود المتحرک.

السادس: لو تخللته الحرکهٔ لظهرت فیه آیهٔ الخلق

«وإِذاً لَقَامَتْ آیَهُٔ الْمَصْنُوعِ فِیهِ».

السابع: أنّه لو کان کذلک لکان دلیلًا على وجود خالق آخر، لا أن تکون المخلوقات دلیلًا علیه:

«ولَتَحَوَّلَ دَلِیلا بَعْدَ أَنْ کَانَ مَدْلُولا عَلَیْهِ».

الثامن: فسوف لن یؤثر علیه ما یؤثر على غیره بسبب قوّته المطلقهٔ

«وخَرَجَ بِسُلْطَانِ الْامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ یُؤَثِّرَ فِیهِ مَا یُؤَثِّرُ فِی غَیْرِهِ»

. إشارهٔ إلى أنّ سلطته المقتدرهٔ وغیر القابلهٔ للتغییر إلّاأن یکون فى معرض الحوادث وما یؤثر فى غیره لایؤثر علیه، لأنّ ذاته القدسیّهٔ لیست قابلهٔ للتغییر.

نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۱۴۹

وزبدهٔ الکلام فإنّ الحرکهٔ سواء کانت فى العرض أو الجوهر، فى الکمیهٔ (کنمو بدن الإنسان أو النبات) أو فى الکیفیهٔ (کتغیر الألوان فى عالم الطبیعهٔ وزیادهٔ ونقصان الحرارهٔ والبرودهٔ فى فصول السنهٔ) وسواء کانت نحوالکمال (کنموالطفل) أو نحوالنقصان (کالضعف والعجز لدى الکهول) لیس لها من سبیل إلى الذات القدسیّهٔ، واجب الوجود وکمال مطلق وتختص الحرکهٔ بالممکنات والوجودات الناقصهٔ.

أضف إلى ذلک فإنّ الحرکهٔ عبارهٔ عن الجزئیّهٔ والحدوث التى لیس لها من سبیل إلى الذات الأزلیّهٔ.

ثم تطرق الإمام علیه السلام إلى بیان سبع صفات أخرى ذات علاقهٔ قویهٔ بمسألهٔ الحرکهٔ فقال:

«الَّذِی لَایَحُولُ وَلَا یَزُولُ، وَلَا یَجُوزُ عَلَیْهِ الْافُولُ».

فالتغییر والزوال والأفول والغروب کلّها من عوارض الموجودات الممکنهٔ والمحدودهٔ والناقصهٔ ولا تتصور هذه الصفات على اللّه.

ثم قال علیه السلام:

«لَمْ یَلِدْ فَیَکُونَ مَوْلُوداً، ولَمْ یُولَدْ فَیَصِیرَ مَحْدُوداً. جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الأَبْنَاءِ، وطَهُرَ عَنْ مُلَامَسَهِٔ النِّسَاءِ».

لاـ شـك فی أنّ كلّ هـذه الأمور من قبيل الولادة والزواج والولـد والابن من عوارض الوجودات الجسـميّة، واللّه سـبحانه ليس بجسـم وليست له عوارض جسميّة، أضف إلى ذلك كلّ هذه الأمور من علامات الحدوث وكذلك الحاجة، وهوليس بحادث ولا محتاج.

والعبارة:

«لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً»

إشارة إلى الوضع المعروف لـدى الكائنات الحيّـة التی تولد من أحد ومن جانب آخر يولد منهم أولادهم، وعليه فلا يبدو النقض على آدم عليه السـلام أنّه صاحب ولد لكنه لم يولد من أحد لا يبدو وارداً لأنّ آدم عليه السلام كان فرداً استثنائياً، إضافة إلى أنّ آدم إن لم يولد من إنسان فقد ولد من التراب وهذا بحدّ ذاته نوع ولادة.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۵۱

القسم الثالث

اشارة

لَا تَنَالُهُ الأَوْهَامُ فَتُقَـدِّرَهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلَا تُـدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ الأَيْدِی فَتَمَسَّهُ. وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَال، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِی الأَـحْوَالِ. وَلَـا تُبْلِيهِ اللَّيَـالِی والأَـيَّامُ، وَلَـا يُغَيِّرُهُ الضِّيَـاءُ وَالظَّلَـامُ. وَلَـا يُوصَفُ بِشَـیء مِنَ الأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَض مِنَ الأَعْرَاضِ، ولَا بِالْغَيْرِيَّةِ والأَبْعَاضِ. وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ؛ وَلَا أَنَّ الأَشْـيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ أَوتُهْوِيَهُ، أَوأَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ، فَيُمِيلَهُ أَويُعَدِّلَهُ. لَيْسَ فِی الأَشْـيَاءِ بِوَالِج، وَلَا عَنْهَا بِخَارِج. يُخْبِرُ لَا بِلِسَان ولَهَوَات، ويَسْمَعُ لَا بِخُرُوق وأَدَوَات. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، ويَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، ويُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ.

يُحِبُّ ويَرْضَـی مِنْ غَيْرِ رِقَّة، ويُبْغِضُ ويَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّة. يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: (كُنْ فَيَكُونُ)، لَابِصَوْت يَقْرَعُ، وَلَا بِنِدَاء يُسْمَعُ؛ وإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ ومَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ كَائِناً، ولَوكَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلهاً ثَانِياً.

الشرح والتفسير: جانب من صفاته المطلقة

إنّ من النقاط المهمّـة الواضـحة والمتجلية فی كلمات الإمام عليه السـلام فی هذه الخطبة هی نفيه عليه السـلام عن اللّه تعالى أی صـفة من الصـفات الماديّـة والجسـميّة بعبـارات متنوعـة؛ ذلـك لأنّ أغلب الناس يعانون من التشبيه فی معرفـة اللّه ويصورون له فی أذهانهم بعض صفات المخلوقات وهذا خطأ جسيم لا يغفر.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۵۲

وقد ركز هذا الموحد العارف باللّه كراراً على هذه المسألة لينقذ مخاطبيه من هوة التشبيه بعبارات غاية فی الجمال والروعة والدقّة.

ومن هنا قال فی مواصلته للأبحاث السابقة فی هذا الجانب من الخطبة:

«لَا تَنَالُهُ الأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ الأَيْدِی فَتَمَسَّهُ. وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَال، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِی الأَحْوَالِ. وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِی والأَيَّامُ، ولَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ».

«اوْهام»

جمع

«وَهْم»

بمعنى قوّة الخيال التى تتعلق بالمادة والمحسوسات ولو أحاط الوهم باللّه لكان له مكان وزمان وكيفيّة وكميّة، بينما ذاته المقدّسة منزّهة عن هذه الأمور فللجسم أجزاء والزمان والمكان والتغيير والحركة أمور ليست لها من سبيل إلى ذاته اللامتناهيّة.

«فِطَن»

جمع

«فِطْنه»

قوّة العقل ويقال

«الفَطِن»

وتنشط قوّة العقل أيضاً بمساعدة الواهم والتصورات الذهنية المتعلقة بالأجسام، وعليه فلو أدرك بالعقل وبمساعدة الوهم لظهرت ثانية قضية العوارض الجسميّة.

العبارة:

«ولا تَلْمِسُهُ ...»

بالنظر إلى أنّ اللمس يختلف عن المس، حيث يطلق المس على التماس بالأجسام بينما يطلق اللمس على الطلب والسعى للتماس- إشارة إلى أنّه مهما يسعى الإنسان للمسه تعالى بيده لما أمكن ذلك لأنّه ليس بجسم فيلمس.

وأمّا بالإلتفات إلى ثبات ذاته فإنّ تغييره بمرور الزمان والحوادث كالنور والظلمة ليس بممكن؛ لأننا قلنا كراراً أنّه وجود كامل ولا متناهٍ من جميع الجهات ويفوق المكان والزمان والحركة، ومثل هذه الذات لا تتأثر بالحوادث والتغييرات كما لا يجرى عليها ليل ونهار ونور وظلمة.

ثم أردف ذلك عليه السلام بقوله:

«وَلَا يُوصَفُ بِشَىء مِنَ الأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ، ولَا بِعَرَض مِنَ الأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ والأَبْعَاضِ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۵۳

من الواضح أنّ جميع هذه الأمور أى الاشتمال على الأجزاء وأعضاء البدن وقبول العوارض- مثل الألوان والكميّة المتفاوتة والكيفيّة- كلّها من خواص الجسم والجسمانيات والمادة والممكنات وكذلك التفاوت مع الأشياء الأخرى، لأنّه يلزم من ذلك التركب من قدر مشترك وما به الامتياز، وكل تركب دليل على احتياج المركب إلى أجزائه والموجود المحتاج لا يكون واجب الوجود.

ثم بين الإمام عليه السلام صفات أخرى فى مواصلته لبيان صفاته السلبيّة فقال:

«وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ؛ وَلَا أَنَّ الأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ ۲۶۲] أو تُهْوِيَهُ ۲۶۳]، أَوأَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ، فَيُمِيلَهُ أَويُعَدِّلَهُ».

هذه الصفات الست (الحد والنهاية والانقطاع والغاية والاحاطة والحمل) كلّها من صفات الأجسام واللّه منزّه عن الجسمية فليس لهذه الصفات من سبيل إلى ذاته المقدّسة.

وعلى فرض أنّ بعض هذه الصفات صادقة على غير الموجودات الماديّة، فمما لا شك فيه أنّها من صفات ممكن الوجود المحدود من كلّ جهة دائماً، وقلنا كراراً أنّ ذات واجب الوجود لامتناهية من جميع الجهات وعليه فلا- تجرى أى من هذه الصفات على تلك الذات.

أضف إلى ذلك فإنّ للصفات المذكورة لوازم هى الأخرى مرتبطة بعالم الأجسام، فالاحاطة بالشىء تؤدّى إلى رفعه أو خفضه، وحمل الشىء يسبب أحياناً ميله إلى جانب معين أو ثباته وكل ذلك من صفات الأجسام.

بـل ذهب بعض الفلاسـفة إلى أنّه لا يمكن وصف اللَّه تعالى باللانهايـة لأنّه قـد يتـداعى منه اللانهائيـة الجسـميّة، على كلّ حال سـعى الإمام عليه السلام فى جوانب هذه

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۱۵۴

الخطبة لانتشال مخاطبيه من الوقوع فى فخ التشبيه فنزه اللَّه تعالى عن كلّ صفة من صفات مخلوقاته.

ثم أردف حديثه عن الصفات بذكر صفات أخرى فقال عليه السلام:

«لَيسَ فِى الأَشْيَاءِ بِوَالِج ۲۶۴]، وَلَا عَنْهَا بِخَارِج».

قـد يتصور البعض من هـذه العبارات التى وردت بشأن إحاطـة اللَّه تعالى بجميع الأشـياء فى هـذه الخطبـة وسائر الخطب والروايات أنّ هنالك شـيئاً من التناقض فكيف يكون هنالك وجود لا داخل فى الأشـياء ولا خارج عنها، إلّاأنّ هـذه حقيقـة واقعـة، ففى تشبيه ناقص يمكن القول إنّ ذاته المقدّسـة هى روح عالم الوجود، وروح الإنسان فى بـدنه لا بمعنى أنّها جزء من البدن كما أنّها خارجة من البدن لا بصـفتها غريبـة عنه بل لها احاطـة تـدبير وتصـرف فى الجسم، وإن خرجت هـذه الروح من الجسم قطعت علاقـة تـدبيرها وتصـرفها؛ فيموت. فاللَّه تعالى بمنزلة عالم الوجود.

ثم خاض عليه السلام فى بيان خمس صفات أخرى فقال:

«يُخْبِرُ لَابِلِسَان ولَهَوَات ۲۶۵]،

ويَسْمَعُ لَابِخُرُوق ۲۶۶] وأَدَوَات. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، ويَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، ويُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ».

إشـارة إلى اطلاق بعض الصـفات على اللَّه تعالى كالسـميع والحفيظ والمتكل والمريـد؛ لكنه مجرّد من العوارض الجسـميّة والأسـباب الماديّـة، لأنّـه ليس بجسم ولاـ مـادة، والسـميع أو الحفظ بمعنى علمه بجميع الأقوال والكلمات وحفظه لجميع الحوادث الماضـية وهى نتيجة للحفظ والسمع والإرادة، بعبارة أخرى فإنّ هذه العبارات من قبيل المجازات التى تفوق الحقيقة ولا ينبغى أبداً حين نسمع هذه

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۱۵۵

الألفاظ التى ابتدعها البشـر لحياته اليوميّة وتتصف عادة بالجسـمية والماديّة أن نتصور أنّها تجرى كذلك على الذات القدسيّة، بل لابدّ من التخلص من الأغطية الجسميّة والماديّة كافّة حين استعمال هذه الألفاظ بشأن اللَّه تعالى، وهى بالتالى من قبيل:

«خُذِ الْغاياتِ واتْرُكِ الْمَبادِىء»

ليمكن استعمالها بشأن اللَّه تعالى.

احتمل بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد فى العبارة

«يَحْفَظُ ولا يَتَحَفَّظُ»

أنّ اللَّه تعـالى يحفـظ الموجودات من الحوادث وهو لاـ يحتـاج إلى حافظ، ولكن بالإلتفـات إلى سائر الصـفات التى وردت قبل هـذه الصفة يتّضح أنّ المفهوم الصحيح لهذا الكلام ما ورد سابقاً بمعنى الإشارة إلى قوّة الحافظة.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين فقال:

«يُحِبُّ ويَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّة، ويُبْغِضُ ويَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّة».

رغم أنّ البعض تصور معنيين مختلفين لِ

«يُحِبُّ ويَرضى»

وكذلك

«يُبْغِضُ وَيَغْضَبُ»

غير أنّ سياق كلام الإمام عليه السلام يفيد أنّهما ذات معنى واحد أو استعملتا بمعنى واحد.

على كلّ حال فهاتان الصفتان تشبهان الصفات المذكورة سابقاً، لأسبابهما بعد سماوى، لكن نتيجتهما تصدق على اللّه فمحبّتنا ورضانا ممزوجة برقة القلب ونوع من الرغبة الباطنيّة كما أنّ بغضنا وغضبنا لألم ومعاناة باطنيّة مقرونة بإثارة الأعصاب وارتفاع ضغط الدم، ومن البديهى أنّ هذه المعانى ليست صادقة على اللّه، ولذلك فسّروا هذه الأوصاف بالنتيجة، فقالوا إنّ حبّ اللّه لعباده ورضاه عنهم بهذه الصيغة أنّه يشملهم عملياً بنعمه وتوفيقاته وبغضه وغضبه على شخص فى أن يسلبه النعمة والتوفيق والسعادة.

هذا النوع من التفسير بالنتيجة أحد المبادئ الأساسيّة الذى يستعمل بشأن العديد من صفات اللّه.

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۱۵۶

ثم قال عليه السلام:

«يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ:

«كُنْ فَيَكُونُ»[۲۶۷]

نفحات الولاية ؛ ج‏۷ ؛ ص۱۵۶

، لَابِصَوْت يَقْرَعُ، وَلَا بِنِدَاء

يُسْمَعُ؛ وإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ ومَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ كَائِناً، ولَوكَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلهاً ثَانِياً».

مراد الإمام عليه السلام من هذا الكلام أنّ العبارة

«كُنْ فَيَكُونُ»

وردت فى الآيات القرآنيّة بمعنى الأمر اللفظى؛ ليس من قبيل أوامر الملوك والسلاطين لمن دونهم بحيث يجرون بعض الألفاظ على ألسنتهم ويسمعون مخاطبيهم، وربّما يدفعهم الحرص أحياناً للصراخ حتى ليسمع صوتهم من مكان بعيد، بل أوامر اللّه تعالى هى أوامر تكوينيّة وبتعبير آخر هى فعل، فإنّ أراد شيئاً (الإرادة أيضاً بمعنى العلم بالنظام الأصلح) يوجد مباشرة، فلو أراد لوجدت الكائنات فى لحظة واحدة كما توجد فى تلك اللحظة السماء والأرض والنجوم والمجرّات ولو أراد أيضاً لوجدت بصورة تدريجيّة خلال ألف سنة أو ملايين السنين دون زيادة أو نقيصة.

وفعل اللّه هوخلق الموجودات ليس على سبيل شبيه سابق؛ لأنّ الأمر لوكان كذلك للزم تعدد الوجود الأزلى وتعدد الإله والمعبود، وكما ذكرنا فى أبحاث التوحيد فإنّ التعدد فى هذا المورد محال لأنّ الوجود اللامتناهى واللامحدود من جميع الجهات يأبى التعدد.

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۱۵۷

القسم الرابع

اشارة

لَا يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِىَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وبَيْنَهُ فَصْلٌ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِىَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، ويَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ. خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَال خَلَا مِنْ غَيْرِه، ولَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَد مِنْ خَلْقِهِ. وأَنْشَأَ الأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَال، وأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَار، وأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، ورَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ، وحَصَّنَهَا مِنَ الأَوَدِ وَالْاعْوِجَاجِ، ومَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالْانْفِرَاجِ. أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وخَدَّ أَوْدِيَتَهَا؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ. هُوالظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وعَظَمَتِهِ، وهُوالْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ ومَعْرِفَتِهِ، والْعَالِى عَلَى كُلِّ شَىء مِنْهَا بِجَلَالِهِ وعِزَّتِهِ. لَايُعْجِزُهُ شَىٌ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ

فَيَغْلِبَهُ، وَلَا يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِى مَال فَيَرْزُقَهُ. خَضَعَتِ الأَشْيَاءُ لَهُ، وذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لَاتَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وضَرِّهِ، وَلَا كُفءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ.

الشرح والتفسير: صفات أخرى فى الجمال والجلال

أشار الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة إلى صفات أخرى من صفات اللّه ليكمل ما تطرق إليه سابقاً، فاتّجه بادئ الأمر صوب أزليّة اللّه تعالى فقال عليه السلام:

«لَا يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِىَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وبَيْنَهُ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۵۸

فَصْلٌ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِىَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، ويَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ ۲۶۸]».

ثم خاض فى شرح صفة أخرى من صفاته البارزة تعالى أى قدرته فتعرض لمسألة الابدع والخلق دون سابقة فقال:

«خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَال خَلَا مِنْ غَيْرِهِ، ولَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَد مِنْ خَلْقِهِ»

. فحين نتأمّل عالم الخلقة تطالعنا أنواع لا تحصى من المخلوقات فى عالم الحشرات والنباتات والجمادات التى يمتاز كلّ منها ببنيته البديعة وخلقه الرائع الخاص، وهى الموجودات التى ليس لها من سابقة وقد كساها اللّه سبحانه حلّة الوجود من طيات العالم وساقها لمسيرتها التكامليّة، والحال لو كان للإنسان بعض الصناعات لاكتسبها من الآخرين، فمثلًا تأمّل الإنسان أجنحة الطيور وكيفية طيرانها ففكّر فى صنع طائرة غاية فى البساطة، ثم جاء العلماء فى زمان لاحق الواحد تلو الآخر ليستفيدوا من الاختراع السابق ويجدوا فى إتمامه حتى بلغ الأمر ذروة تكامله فى عصرنا الراهن.

وعلى هذا الأساس فإنّ علماءنا إمّا يستلهمون من الطبيعة فى اختراعاتهم أو من الآخرين فهم لا يقومون بعمل دون سابقة ولا يقومون به دون الاستعانة بالآخرين والحال أعمالهم محدودة بينما اللّه تعالى وفى ايجاده لهذه المخلوقات المتنوعة كافّة والتى لا تعدّ ولا تحصى ليس بحاجة إلى سابقة ولا لمعونة أحد.

ثم اتّجه عليه السلام إلى جانب آخر من قدرته اللامتناهية فقال:

«وأَنْشَأَ الأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَال، وأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَار، وأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، ورَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ، وحَصَّنَهَا مِنَ الأَوَدِ[۲۶۹] وَالْاعْوِجَاجِ، ومَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ ۲۷۰] وَالْانْفِرَاجِ ۲۷۱]».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۵۹

من المسلم به اليوم من قِبل الجميع أنّ الكرة الأرضيّة تدور منذ ملايين السنين حول نفسها والشمس فى مدار معين فى الحركة وهذه الحركة على درجة من السرعة المنتظمة والهادئة بحيث لايشعر بها سكان الأرض ممّا دفع العلماء السابقين لاعتبار الأرض ثابتة ومركز العالم، ترى ماهذه القدرة العظيمة التى حفظت ثبات الكرة الأرضيّة منذ ملايين السنين ورغم تعدد حركاتها دون دعائم وأعمدة، ودون أدنى تشقق وتحطم أجزاء رغم مضى كلّ هذه المدّة الزمانيّة؛ وهل من قدرة غير القدرة الإلهيّة من شأنها القيام بهذا العمل؟ إننا لنعلم اليوم أنّ المسافة التى جعلت الأرض بهذا البعد عن الشمس وفى وضع طبيعى معلول للتعادل بين قوّة الجاذبة والدافعة، وعلى أساس الجاذبيّة فإنّ كلّ كتلتين تجذب إحداهما الأخرى بقوة تتناسب طردياً مع حاصل ضرب الكتلتين وعكسياً مع مربع المسافة بينهما. فهذه القوّة تجعل الأرض تندفع بسرعة نحو الشمس فتنجذب إليها وتتحول إلى بخار، ومن جانب آخر فإنّ الحركة الدورانيّة حول المركز تسبب فرار ذلك الجسم من المركز والتى تسمى قوّة الطرد المركزية وكلّما كانت الحركة أسرع كانت القوّة الطاردة أكبر، ولذلك حين يدور القلاب الحجرى بسرعة ويترك فجأة فإنّه يقذف إلى نقطة بعيدة، وعليه وبغية دوران الأرض فى مدارها لملايين السنين بصورة طبيعية لابدّ من مساواة قوّة الجاذبية للقوّة الطاردة، وتختل لهذه المعادلة لو إزدادت أو قلت المسافة وكذلك

لوازدادت أو قلت الحركة فتتيه الأرض فى الفضاء أو تنجذب باتجاه الشمس.

وهنا يرد هذا السؤال: لم كلّ هذه العبارات المختلفة؟

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّها من قبيل العطف التفسيرى؛ ولكن يبدو أنّ الإمام عليه السلام استعمل كلّ عبارة بمعنى معين ليوضح جوانب الموضوع كافّة، توضيح ذلك إن أريد ثبات جسم فلابدّ من موضع يستند إليه، ومن ثم حاجته لدعائم وأعمدة قوية ومحكمة، وقد قال الإمام عليه السلام إنّ اللّه أثبت الأرض دون الحاجة إلى

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۶۰

هذه الأمور، فهى تسبح فى الفضاء بانتظام دون موضع وأعمدة، ثم أشار فى العبارة اللاحقة إلى أنّ اللّه حال دون إعوجاج الأرض أو تهافتها وانفراجها وأودها، ولكلّ من هذه المفردات معنى معين، فالأود إشارة إلى الثقل والضغط الذى يؤدّى إلى الإعوجاج، كما يوجب أحياناً التهافت أو الانفراج فى البناء، واللّه حفظ الأرض من كلّ ذلك.

ثم تطرق عليه السلام إلى سائر عجائب الأرض والتدبير الإلهى لإعدادها للحياة البشريّة فقال عليه السلام:

«أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وضَرَبَ أَسْدَادَهَا[۲۷۲]، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وخَدَّ[۲۷۳] أَوْدِيَتَهَا؛

فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ».

فالعبارة الأُولى إشارة إلى العديد من الآيات القرآنيّة الواردة بشأن الجبال وأنّ اللّه وتد بها الأرض وجعلها كالمسامير، فقد جاء فى سورة النبا: «وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً»[۲۷۴][۲۷۵] ولما كان أحد آثار الجبال أنّها تكمن بصورة سد فى مقابل السيول والعواصف فقد عبّر عنها بالأسداد، وبالنظر إلى أنّ الخلل والشقّ فى الجبال والمواضع الخالية فى بعض أقسامها يؤدّى إلى خزن الماء ومن ثم جريان العيون، وكذلك شقوق الجبال التى تؤدّى إلى ظهور الأودية وانحدار مياه الأمطار إلى الأودية فقد ركز عليها الإمام عليه السلام فى خطبته.

ولما أراد عليه السلام الإشارة إلى ربوبية اللّه وتدبيره والتى تعدّ من صفات أفعاله فقد تطرق إلى صفات الذات وأشار بعبارات غاية فى الروعة والدقّة إلى علم اللّه وقدرته ووحدانيته فقال:

«هُوالظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وعَظَمَتِهِ، وهُوالْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ ومَعْرِفَتِهِ، والْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيء مِنْهَا بِجَلَالِهِ وعِزَّتِهِ. لَايُعْجِزُهُ شَيٌ مِنْهَا طَلَبُهُ، وَلَا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۶۱

يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَلَا يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِى مَال فَيَرْزُقَهُ».

أساس كلّ هذه الصفات فى الواقع علمه وقدرته اللامتناهيّة، ومن له القدرة اللامتناهيّة يغلب كلّ شىء ويسمو على كلّ موجود، لا يغلبه شيء ولا يفر من قدرته وبالطبع غنى عن الكلّ، لأنّه القادر على كلّ شيء.

كما أنّ من كان علمه لامتناهياً فهو عليم ببواطن الأشياء وظواهرها بل الظاهر والباطن لديه على حد سواء، كما يتساوى لديه القوى والضعيف والبعيد والقريب والأعلى والأسفل.

ولا يخفى الدور الذى يلعبه الإلتفات إلى هذه الصفات فى تربية الإنسان وتزكيته بغض النظر عن الارتقاء بمستوى معرفته.

ثم واصل كلامه عليه السلام فى شرحه لقدرة اللّه تعالى فى عالم الوجود فقال:

«خَضَعَتِ الأَشْيَاءُ لَهُ، وذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لَاتَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وضَرِّهِ».

نعم فالعالم كلّه ملك اللّه وقوانينه حاكمة فى كلّ مكان وأينما اتّجهنا فإنّما نحن خاضعين لسلطانه وليس خارج ذلك إلى العدم ولا معنى للفرار من سلطته.

وهنا يتساءل شرّاح نهج البلاغة أنّ الفرار من الضرر ممّا لا شك فيه؛ ولكن ما المراد بالهروب من المنفعة؟

فأجابوا: إنّ المراد بأنّ الشخص إذا لم يرد أن يكون مديناً لآخر لكى لا يخضع له أو بعبارة أخرى يهرب من منافعه وعطاياه لكى لا يضطر للخضوع له؛ فإنّ مثل هذا العدد لا معنى له إزاء اللّه ولطفه وقهره.

قال تعالى: «قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكَمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكَمْ سُوءاً أَوأَرَادَ بِكَمْ رَحْمَةً»[۲۷۶].

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۱۶۲

ثم جرى الكلام هنا عن الامتناع عن قبول رحمهٔ اللّه وعقابه فأشار عليه السلام إلى أن لا سبيل أمامكم سوى القبول سواء أراد بكم رحمهٔ أو مصيبهٔ إزاء رحمته؛ ففى كلّ الأحوال أنتم مدينون له.

ثم اختتم عليه السلام الخطبهٔ بالتأكيد على وحدانيته سبحانه فقال:

«وَلَا كُفءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ، ولَا نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ».

قلنا مراراً، إنّ الذات الإلهيّهٔ لامتناهيهٔ من جميع الجهات، ومن الطبيعى أن تستحيل الأثنيهٔ فى الوجود اللامتناهى، لأنّ التعدد إنّما يقترن دائماً بالمحدوديهٔ، لأنّ كلّ واحد منهما فاقد لوجود الآخر، أو بعبارهٔ أخرى فإنّ حد كلّ واحد منهما نقطهٔ نهايته وهذا ما لا ينسجم مع الذات الإلهيّهٔ اللامتناهيّهٔ وغير المحدودهٔ.

والجدير بالذكر أنّ هذا القسم ينطلق بالتوحيد ويختتم بالتاكيد عليه بعد ذكر سلسلهٔ من صفات الذات وصفات الأفعال.

***

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۱۶۳

القسم الخامس

اشارهٔ

هُوالْمُفْنِى لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا. ولَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا. وكَيْفَ وَلَواجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وبَهَائِمِهَا، ومَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وسَائِمِهَا، وأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وأَجْنَاسِهَا، ومُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وأَكْيَاسِهَا، عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَهٔ، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا، ولَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِى عِلْمِ ذلِكَ وَتَاهَتْ، وعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، ورَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا!

الشرح والتفسير: العجز عن خلق بعوضهٔ

تحدّث الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبهٔ عن قضيهٔ فناء العالم وقدرهٔ اللّه المطلقهٔ على خلق العالم وعدمه بعد أن فرغ من أبحاثه العميقهٔ فى الأقسام السابقهٔ من هذه الخطبهٔ بشأن خلق العالم ولا سيما الأرض وعجائبها فقال:

«هُوالْمُفْنِى لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا».

ثم واصل كلامه فقال:

«ولَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا. وكَيْفَ وَلَو اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وبَهَائِمِهَا، ومَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا[۲۷۷] وسَائِمِهَا[۲۷۸]، وأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا[۲۷۹] وأَجْنَاسِهَا، ومُتَبَلِّدَةِ[۲۸۰] أُمَمِهَا وأَكْيَاسِهَا،

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۱۶۴

عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَهٔ، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا».

فهذا الكلام لا يعد حقيقهٔ إبان صدوره من الإمام عليه السلام آنذاك، بل هوحقيقهٔ واقعهٔ اليوم، ذلك أنّه لو اجتمع علماء العالم كافّهٔ لخلق بعوضهٔ لعجزوا عن ذلك، لأنّ قضيهٔ بعث الحياهٔ فى الجمادات مستحيلهٔ، أضف إلى ذلك فإنّ بنيهٔ البعوضهٔ من حيث الأجنحهٔ

والأرجل والدماغ والأعصاب وجهاز الهضم والانجاب على درجة من التعقيد والدقّة فغير الخالق سبحانه لا يستطيع المخلوق خلق بعوضة.

وتشير كلّ عبارة من العبارات:

«مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا»

إلى نقطة معينة، فالعبارة الأولى تشير إلى عجز الإنسان والحيوان عن خلق بعوضة، بينما تشير العبارة الثانية إلى الجهل بتلك الأسباب والعوامل.

وقد ورد مثل هذا المعنى فى القرآن الكريم بشأن خلق الذباب حيث قال تعالى:

«انَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَواجْتَمَعُوا لَهُ»[۲۸۱].

ثم قال عليه السلام:

«ولَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِى عِلْمِ ذلِكَ وَتَاهَتْ، وعَجِزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، ورَجَعَتْ خَاسِئَةً[۲۸۲] حَسِيرَةً[۲۸۳]، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً

بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا!».

نعم لو عزمت هذه البعوضة الصغيرة على أذى الإنسان وسائر الحيوانات ولم يحد اللّه من انجابها لتكاثرت بشكل يضيّق الحياة على الإنسان ولعجزت كلّ المبيدات عن مواجهتها، وما نشاهده اليوم من القضاء عليها فى بعض المناطق بفعل المواد السامة فذلك لأنّها محدودة فى انجابها وإلّا لكانت كالجراد فى خروجها عن

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۶۵

السيطرة ولشكلت أسراباً عظيمة تملأ أركان الفضاء، وهذه البعوضة التى تبدو فى ظاهرها ضعيفة قد كشفت فى بعض الأحيان عن قدرتها- بإذن اللّه- لتهاجم أحياناً بصورة جماعية فيلًا فتقضى عليه.

ويمتاز بعضها- فى ظروف معينة- بنقلها للميكروبات الخطيرة أو السموم القاتلة فتشعر الإنسان بعجزه عن مواجهتها لتثبت له مدى قدرتها.

تأمّلان

۱. المعاد الجسمانى واعادة المعدوم

تحدّث بعض شرّاح نهج البلاغة بشأن المعاد الجسمانى عند العبارة

«هُوالْمُفْنِى لَها بَعْدَ وُجُودِها»

التى تصدر بها هذا الجانب من الخطبة واستشهدوا على ذلك بهذه الآية: «يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْق نُّعيدُهُ»[۲۸۴].

ثم أضافوا أنّ جميع الأنبياء وخاصة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أخبر عن فناء هذا العالم، وأضافوا أنّ الفلاسفة خالفوا هذا الأمر لا على أساس عدم إمكانيّة فناء العالم، بل على أساس استحالة انعدام العالم مع بقاء العلّة وهى الذات الإلهيّة المقدّسة.

ثم خاضوا فى شرح مسألة امتناع إعادة المعدوم وأشاروا إلى شكّ البعض فى مسألة المعاد الجسمانى، والحقّ فناء العالم ليس بمحال، لأنّ اللّه فاعل مختار وإن رآى المصلحة خلق الشيء أو عدمه، كما ليس هنالك من شكّ فى المعاد الجسمانى، فقد صرّح القرآن فى

العدید من آیاته بهذا الأمر، کما أنّه لیس هنالک من دلیل عقلی علی امتناعه ۲۸۵].
ولیست هنالک من علاقة بین مسألة استحالة إعادة المعدوم ومسألة المعاد، لأننا إن قلنا إعادة المعدوم مستحیلة؛ یعنی ذلک أنّ إعادة ذلک الشیء بجمیع خصوصیاته حتی الزمان والمکان محال وبالطبع لیست هنالک من عودة للزمان الذی مضی، إلّا
نفحات الولایة، ج۷، ص: ۱۶۶
أنّ عودة الإنسان فی المعاد یوم القیامة لا تعنی عودة الزمان والمکان الماضیین، فلیس هنالک من عاقل یزعم بعودة ذلک الزمان الذی عاشه فی الدنیا یوم القیامة، بل المراد عودة إنسان بجمیع خصائصه فی زمان ومکان آخر، مثلًا حین یحیی المسیح علیه السلام میتاً فسیکون ذلک الشخص السابق قطعاً وإن أحیاه فی زمان ومکان آخر، وهکذا إحیاء الأموات فی القیامة.
وزبدة الکلام فما جاء فی هذه الخطبة هو بعینه ما ورد فی القرآن الکریم، بل شرح الإمام علیه السلام فی الواقع آیات المعاد هنا بعبارات رائعة وعمیقة.

۲. الخلقة العجیبة للبعوض!

صرّح الإمام علیه السلام فی هذا الجانب من الخطبة لواجتمعت الکائنات کافّة لخلق بعوضة لما استطاعت، ولواطلق اللّه العنان للبعوض فی التکاثر لما کانت هنالک من قوّة فی العالم قادرة علی القضاء علیها وکما أسلفنا فإنّ هذا الکلام لا یبدو حقیقة علی عهد نزول القرآن وعصر الإمام فحسب بل هو کذلک حتی فی عصرنا الراهن.
فللبعوضة خلقة معقدة؛ أغلبها لا تعیش سوی فی المیاه الراکدة فی حافات الأنهار والمستنقعات وما شابه ذلک، وتضع انثی البعوض ما یقرب من ۱۵۰ بیضة فی کلّ مرّة لتفقس عن بعوضة ولکلّ بعوضة ولیدة انبوب تنفسی نحیف للغایة یرتبط بسطح المیاه تتعلق به البعوضة، ثم تظهر بعد بضعة أیّام قشرة علی جوانبه کما یحدث الکثیر من التغییرات فی بنیتها داخل القشرة التی تبدو ظاهراً عدیمة الحرکة، وبعد عدّة أیّام تخرج البعوضة غیر الکاملة من تلک القشرة فتطیر وتقضی سائر عمرها لتعیش فی الهواء.
والتغییرات التی تطرأ خلال هذه المدّة القصیرة علی بنیة البعوضة وتحولها من کائن مائی إلی طائر حقّاً لمذهلة وعجیبة.
یقول العلماء إنّ ذکور البعوض تتغذی علی عصارة الفواکه وسوائل النباتات؛
نفحات الولایة، ج۷، ص: ۱۶۷
بینما تتغذی الاناث علی امتصاص الدم فهی تلسع الإنسان وتمتص دمه کمادة غذائیة.
والبعوض حشرات صغیرة لها جناحان ولو وُضعت تحت المجهر لشوهدت بنیتها الظریفة والعجیبة ویستحیل علی الإنسان صنع مثلها فضلًا عن کائن حی قادر علی التغذیة والنمو والانجاب.
والعجیب أنّ بعضها عدیمة اللون بحیث لا تری بالعین المجردة.
والبعوض العادی وإن کانت حشرات مؤذیة قد تسلب الإنسان القوی والشدید البنیة نومه لیلة کاملة، لکنها غالباً لیست خطیرة، مع ذلک هنالک بعض البعوض خطیر وسام بحیث یستطیع القضاء علی أقوی الحیوانات ۲۸۶].
نفحات الولایة، ج۷، ص: ۱۶۹

القسم السادس

اشارة

وإِنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ، يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لَاشَىَ مَعَهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذلِكَ يَكَونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلَا وَقْت وَلَا مَكَان، وَلَا حِين وَلَا زَمَان.

عُدِمَتْ عِنْدَ ذلِكَ الآجَالُ وَالأَوْقَاتُ، وزَالَتِ السِّنُونَ والسَّاعَاتُ. فَلَا شَىءَ إِلَّا اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِى إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْامُورِ. بِلَا قُدْرَة مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وبِغَيْرِ امْتِنَاع مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، ولَوقَدَرَتْ عَلَى الْامْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا.

لَمْ يَتَكَاءَدْهُ صُنْعُ شَىء مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، ولَمْ يَؤُدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ، ولَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَان، وَلَا لِخَوْف مِنْ زَوَال ونُقْصَان، وَلَا لِلْاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِر، وَلَا لِلْاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِر، وَلَا لِلْازْدِيَادِ بِهَا فِى مُلْكِهِ، وَلَا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيك فِى شِرْكِهِ، وَلَا لِوَحْشَة كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا.

الشرح والتفسير: الغنى عن الخلق

قال الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة ومواصلة لكلامه السابق بشأن وجود العالم وعدمه:

«وإِنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ، يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لَاشَىءَ مَعَهُ. كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائهَا، كَذلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلَا وَقْت وَلَا مَكَان، وَلَا حِين وَلَا زَمَان».

ثم واصل كلامه فقال:

«عُدِمَتْ عِنْدَ ذلِكَ الآجَالُ وَالأَوْقَاتُ، وزَالَتِ السِّنُونَ والسَّاعَاتُ».

ثم استنتج من ذلك:

«فَلَا شَىءَ إِلَّا اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِى إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۷۰

الْامُورِ. بِلَا قُدْرَة مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وبِغَيْرِ امْتِنَاع مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، ولَوقَدَرَتْ عَلَى الْامْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا».

إشارة إلى تسليم جميع عالم الخلقة لإرادة اللّه سبحانه وتعالى، فليس له من اختيار فى بداية خلقه ولا حين زواله ونهاية حياته، فلو كان خلقه وفناؤه بيده لعاش الخلود، فمما لا شك فيه كلّ كائن يسعى لبقائه.

طبعاً هـذا الكلام لا يتنافى مع كون الإنسان مختاراً فى أفعاله، لأنّ مراد الإمام عليه السـلام بيان بداية الخلقة وختامه الخارج عن الإرادة والاختيار والذى يتم وفق الحكمة والمصلحة.

ثم أشار عليه السلام إلى هذه النقطة فقال:

«لَمْ يَتَكَاءَدْهُ ۲۸۷] صُنْعُ شَىء مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، ولَمْ

يَؤُدْهُ ۲۸۸] مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ».

لأنّ التعب والضعف والعجز من خصائص الإنسان المحدود القدرة، فإنّ أراد القيام بعمل يفوق طاقته فإنّه يعجز، وإن كان بمستوى طاقته فإنّه يشعر بالتعب أمّا بالنسبة لمن كانت قدرته مطلقة فحمل القشة من الأرض والجبل العظيم لديه على حد سواء فهو ليس بحاجة لوسيلة أو أداة ليستعين بها وإرادته تكفى فى ذلك: «اذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[۲۸۹].

وينسجم كلام الإمام عليه السلام هذا مع ما ورد فى جانب من آية الكرسى: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا»[۲۹۰]:

وقال فى موضع آخر بعد الإشارة إلى خلق السماء والأرض «وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ»[۲۹۱].

ثم خاض عليه السلام فى بيان هذه النقطة المهمّة فى أن خلقه لعالم الخلقة لم يكن لجلب

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۷۱

نفع أو دفع ضرر لأنّه غنى بالذات ولا فناءه بعد خلقه لتعب منه، وهكذا ينفى أى حاجة تحتاجها الذات القدسيّة فى خلق العالم ومن ثم

فى فنائه.

فقـد أشـار عليه السـلام فى القسم الأـوّل إلى الأهـداف السـبعة التى يتطلع إليهـا الإنسـان عادة فى قيامه بأعماله ثم نفاها جميعاً عن اللّه تعـالى كونهـا دلالـات على الضـعف والعجز والنقص فقال إنّه لم يخلق الموجودات لتوطيـد حكومته كونه وجوداً لا متناهى وغنى من جميع الجهات:

«ولَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَان».

كما أنّه واجب الوجود الذى ليس للزوال والنقصان من سبيل إليه

«وَلَا لِخَوْف مِنْ زَوَال ونُقْصَان».

كما ليس له مثيل:

«وَلَا لِلْاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِر[۲۹۲]».

وبما أنّه لا ضد له ولا عدو والكلّ خاضع لسيطرته

«وَلَا لِلْاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِر[۲۹۳]».

كما أنّه ليس بحاجة لمخلوقاته ليقضى بها حاجته

«وَلَا لِلْازْدِيَادِ بِهَا فِى مُلْكِهِ».

وحيث له شريك ولا قرين

«وَلَا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيك فِى شِرْكِهِ».

وكذلك:

«وَلَا لِوَحْشَة كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا».

لأنّ الوحشـة حيث الشـعور بالخطر من جانب العـدو أو بروز المشاكل والمصائب ولا عـدوله ولا مشـكلة تجرى عليه، ومن الطبيعى أنّ هذه الأهداف السـبعة إنّما تعود لجلب المنفعة ودفع الضـرر، لكن الإمام عليه السـلام شـرحها بأسلوب رائع وركز على جميع المصاديق بما لا يتصور أبلغ وأفصـح منه ومن الواضـح حين تنتفى كلّ هذه الأهداف يثبت أنّ اللّه خلق الخلق إفاضة ولطفاً بالمخلوقات لا لجلب منفعة، لأنّ جلب المنفعة ودفع الضرر من لوازم الممكنات وهو واجب الوجود.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۷۲

تأمّل

هل هناك زمان دون مخلوق

ما ذكره الإمام عليه السـلام فى هذا الجانب من الخطبة حول فناء الدنيا فى البداية والنهاية حيث إنّ اللّه واحدٌ أزلىٌّ أبدىٌّ ليس له بداية ولا نهايـة، آثار سؤالًا لـدى شـرّاح نهج البلاغة وهو كيف مرت مدّة لم يظهر فيها الفيض من الذات الإلهيّة الفياضة على الدوام وأجابوا بأنّ المراد ليس إنعدام وجود الأشـياء بصورة مطلقة بل فى مرحلة الذات الإلهيّة، أى كانت هنالك موجودات لكنها ليست مسـتقلة عنه (طبعاً هذا الجواب لا يبدو مقنعاً).

إن السؤال الأهم الذى نطرحه هنا هو: كيف ينسـجم ما طرحه الإمام عليه السـلام بشأن فناء العالم مع ظاهر الآيات القرآنيّة؟ فقد صـرّح القرآن فى عـدّة آيـات أنّ هـذا العالم سـيتعرض إلى الـدمار فى خاتمـة المطاف لا أنّه يعـدم بالمرّة إذ قال: «اذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ* وَإِذَا

النُّجُومُ انكَدَرَتْ* وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ* وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ* وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ* وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ»[۲۹۴].

وقال فى موضع آخر: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ»[۲۹۵].

كما قال: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً* فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً* لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً»[۲۹۶].

إضافة إلى ذلك يقول إنّ الموتى يخرجون من قبورهم، ويعتقد أغلب العلماء أنّ الجنّة والنار موجودتان الآن طبق ظاهر الآيات والروايات وأعمالنا هى التى تبلورهما، فكيف والحال هذه يصرّح بانعدام جميع الأشياء بنهاية العالم ولا يبقى سوى اللَّه فيزول حتى الزمان والمكان؟ كما ورد فى الخطبة المذكورة، والذى يقال

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۷۳

فى جواب السؤال الأوّل: كما أنّ اللَّه فياض فهو حكيم على الاطلاق وفاعل ليس بمجبر فممكن أن تقتضى حكمته أن لا يكون شىء فى البداية ثم يوجد، وعليه فإنّ فيضه لا يمنع من انعدام الإشياء قبل خلقها.

ويقال فى الجواب على السؤال الثانى، إنّ العالم يتحطم فى البداية كما ورد فى الآيات المذكورة، لكنه يعدم بعد ذلك بصورة كلية بحيث لا يبقى سوى الذات القدسيّة ثم يكتسب كلّ ما فُنِى- بطريقة إعادة المعدوم وبالطبع بشكلها المعقول ۲۹۷]- حلة الحياة وكما كان فى السابق بالضبط من تلك الجنّة والنار والإنسان والقبور وهذا أمر معقول وسنشير إلى هذا المطلب فى القسم القادم من الخطبة أيضاً.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۷۵

القسم السابع

اشارة

ثُمَّ هُو يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لَالِسَأَم دَخَلَ عَلَيْهِ فِى تَصْرِيفِهَا وتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحَة وَاصِلَة إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقْلِ شَىء مِنْهَا عَلَيْهِ. لَا يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، ولكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بلُطْفِهِ، وأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَة مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِعَانَة بَشَىء مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لِانْصِرَاف مِنْ حَالِ وَحْشَة إِلَى حَالِ اسْتِئْنَاس، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْل وعَمىً إِلَى حَالِ عِلْم وَالْتِمَاس، وَلَا مِنْ فَقْر وحَاجَة إِلَى غِنىً وكَثْرَة، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَة إِلَى عِزٍّ وقُدْرَة.

الشرح والتفسير: دوام الخلقة والفناء

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيانه لأهداف عالم الخلق تحدّث فى هذا الجانب من الخطبة عن فناء العالم والهدف من ذلك فقال:

«ثُمَّ هُويُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لَالِسَأَم ۲۹۸]

دَخَلَ عَلَيْهِ فِى تَصْرِيفِهَا وتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحَة وَاصِلَة إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقْلِ شَىء مِنْهَا عَلَيْهِ.

لَا يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا».

فجميع هذه الأمور كالتعب والعجز والملالة وطلب الراحة، ناشئة من محدودية القوّة وقدرة الفاعل وليس لهذه الحوادث من سبيل إلى صاحب القدرة المطلق، فهذه كلّها صفات الممكنات ومن توهم مثل هذه الصفات على اللَّه فقد وقع فى هوة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۷۶

التشبيه (الواجب بالممكن).

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا أو هنالك من يحتمل هذه الأمور على اللَّه لينفيها الإمام عليه السلام؟

لا شک فی أنّ أصحاب العقول السليمة لا يتصورون مثل هذا الاحتمال، إلّاأنّ هذه الوسوسة قد تساور أذهان بعض الأفراد العاديين، أولئک الذين يرون اللّه جسماً ويرون له أذناً وعيناً ويداً ورجلًا وظفيرة ويا له من وهم ساذج! والسؤال الآخر الذی يرد هنا أنّ الإمام عليه السلام يذكر هذه الأهداف لنفی فناء الدنيا إلّاأنّه لم يذكر بدل ذلک أی هدف ايجابی والجواب على هذا السؤال واضح: أنّ اللّه حكيم وكلّ أفعاله تستند إلى الحكمة والتی تعود آثارها وفوائدها على الإنسان وسائر الموجودات، لا إلى ذاته القدسيّة الغنية عن كلّ شیء، ولعل الهدف الأصلی من هذا الفناء حتى لا يشتبه الإنسان فيتصور وجوده من نفسه ويعتقد بأزليّة وأبديّة السماء والأرض وليعلم أنّ كلّ شیء متوقف على إرادة اللّه.

ثم قال عليه السلام فی مواصلته لكلامه وفی خلاصة للأبحاث السابقة:

«ولكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِعَانَةٍ بَشَیء مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لِانْصِرَاف مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَى حَالِ اسْتِئْنَاس، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْل وعَمىً إِلَى حَالِ عِلْم وَالْتِمَاس ۲۹۹]، وَلَا مِنْ فَقْر وحَاجَةٍ إِلَى غِنىً وكَثْرَةٍ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ[۳۰۰] إِلَى عِزٍّ وقُدْرَةٍ».

فما بيّنه الإمام عليه السلام فی ختام هذه الخطبة وضمن ست عبارات نفی الأهداف التی لا تليق بذاته الطاهرة بالنسبة لخلق العالم؛ باختلاف طفيف مع الأهداف السبعة التی مضت فی الأقسام السابقة فذكرها الإمام عليه السلام هنا بصيغة خلاصة وبعبارات جديدة وخلاصتها أنّه لم تكن لديه من حاجة لإيجاد عالم الخلق ولا فی فنائه ولا فی

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۷۷

الخلق الجديد بعد الفناء.

وهنا يطرا هذا السؤال أيضاً: إن كان خلق اللّه للعالم ثم إفناؤه ثم الخلق الجديد لا لنفعٍ ولا حاجة ودفع نقص فماذا كان هدفه من ذلک ولماذا لم يشر الإمام عليه السلام إلى ذلک الهدف؟

والجواب على عن هذا السؤال هو ما ذكرناه سابقاً فهو وجود كامل من جميع الجهات، وليس هنالک لقيامه بأفعاله ما يعود إليه، بل يعود عادة على المخلوقات والممكنات دون أن يعود عليه بشیء، وبعبارة أخرى كلّ ما لدى مخلوقاته منه وليس لديهم من شیء فيهبوه للّه: «وَإِنْ مِّنْ شَیء إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَر مَّعْلُوم»[۳۰۱].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۷۹

الخطبة ۱۸۷

اشارة

وَهِیَ فِی ذِكْرِ المَلَاحِمِ ۳۰۲]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة فی الواقع من قسمين، تطرق الإمام عليه السلام فی القسم الأوّل إلى قوم سيتصدون فی المستقبل للدفاع عن الحقّ والقيام من أجل بسط القسط والعدل فی عصر يُملأ فيه العالم بالمفاسد ويضيق فيه الناس والذی يتناسب مع ظهور المهدی عليه السلام وصحبه.

وفی القسم الثانی وعظ أصحابه وأهل زمانه فی اجتناب الفتن وعدم التفرق عن إمامهم.

وجـدير ذكره أنّ المدائنى- كما ورد فى سـند الخطبـة- ذكر فى كتابه (صـفين) أقسام أخرى من هذه الخطبة التى لم يذكرها المرحوم السيد الرضى وقال فى

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۱۸۰

آخرها: إنّ رجلًا من أهل البصـرة قال لرجل من أهل الكوفـة إلى جانبه: أشـهد أنّه كاذب على اللّه ورسوله. قال الكوفى: وما يدريك؟ (فلم يجبه) ثم أضـاف، قـال الكوفى: واللّه مـا نزل من المنـبر حتى شـلت يـد الرجـل البصـرى ورجله فحملوه إلى بيته ومـات فى تلك الليلة[۳۰۳].

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۱۸۱

القسم الأوّل

اشارة

أَلَا بِأَبِى وأُمِّى، هُمْ مِنْ عِدَّة أَسْمَاؤُهُمْ فِى السَّماءِ مَعْرُوفَةٌ وفِى الأَرْضِ مَجْهُولَةٌ. أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَانْقِطَاعِ وُصَلِكُمْ، وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ. ذاکَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الـدِّرْهَم مِنْ حِلِّهِ. ذَاکَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الْمُعْطِى. ذَاکَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَاب، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ والنَّعِيم، وتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَار، وتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاج. ذَاکَ إِذَا عَضَّكُمُ الْبَلَاءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ. مَا أَطْوَلَ هذَا الْعَنَاءِ، وأَبْعَدَ هذَا الرَّجَاءَ!

الشرح والتفسير: الحوادث المرعبة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بالحديث عن طائفة من خواص اللّه تعالى الذين ينهضون بمهمّة خاصة فقال:

«أَلَا بِأَبِى وأُمِّى ۳۰۴]، هُمْ مِنْ عِدَّة أَسْمَاؤُهُمْ فِى السَّماءِ

مَعْرُوفَةٌ وفِى الأَرْضِ مَجْهُولَةٌ».

والسؤال من هى هـذه الطائفـة ومـا مهمتهـا؟ مرّ ذلـك مجملًا فى متن الخطبـة ومن هنا كان هنالك اختلاف بين شـرّاح نهـج البلاغـة، فالبعض يعتقد أنّهم الأحد عشـر معصوماً من ولد على عليه السـلام الذين هم أسـماؤهم فى السـماء معروفة، بينما لا يعرفهم فى الأرض سوى طائفة معينة.

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۱۸۲

وذكر بعض علماء أهل السـنّة أنّ المراد بهم طائفة من المؤمنين والأولياء الذين عبّر عنهم بالقطب والأبدال، وهى العبارات التى عادة ما يسـتخدمها المتصوفة فى كلماتهم، إلّاأنّ العديد من القرائن تشـير إلى أنّ المراد بهم الإمام المهدى عليه السـلام وخواص أصـحابه لأنّ الإمام عليه السـلام، أخبر بعـد هذه العبارة عن حوادث خطيرة تذكر الإنسان بعلامات آخر الزمان وظهور المهدى عليه السلام. أضـف إلى ذلك فقـد ورد فى جانب من الخطـة التى رواها المدائنى فى كتاب (صـفين)[۳۰۵] إشارة إلى الخسف فى البيـداء وهروب طائفة منها وأننا لنعلم أنّ الخسف فى البيداء من علامات الظهور التى أشارت إليها الروايات ۳۰۶].

ويتّضح منها أنّ مهمتهم هى تلك المهمّة التى أشارت من الروايات فى مصادر الفريقين ومنها

«يَمْلَا الأَرْضَ عَدْلا وقِسْطاً كَما مُلِئَتْ ظُلْماً وجَوْراً»[۳۰۷].

وطرح البعض هذا السؤال: كيف يقول الإمام عليه السلام (بأبى أنتم وأمى) والحال أنّ المهدى أحدهم بينما البقية هم أصحابه؟

والجواب على هذا السؤال أنّه صدرت مثل هذه العبارات من الأئمّة عليهم السلام بشأن من لهم مهمّات خاصة، ومن ذلك ما ورد ذيل

زيارة وارث

«بِأبى أنْتُم وأُمّى طِبْتُمْ وطابَتِ الأَرْضُ الَّتى فيها دُفِنْتُمْ»

التى وردت عن بعض الأئمة عليهم السلام حين قرأوا هذه الزيارة على قبور شهداء كربلاء.

ونقل المرحوم الأربلى فى كشف الغمة عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: رأيت عمى الحمزة وأخى جعفر بن أبى طالب فى المنام فقلت لهما:

«بابى وأُمّى أنْتُما أَىُّ الأعْمالِ وَجَدْتُما أَفْضَلُ؟»

فقالا: فديناك بآبائنا وأمهاتنا:

«وَجَدْنا أَفْضَلَ الأَعْمالِ الصَّلاةُ عَلَيْكَ وسَقْىَ الْماءِ وحُبّ عَلىّ بنِ أَبى طالب»[۳۰۸].

نفحات الولايۀ، ج۷، ص: ۱۸۳

ثم تنبأ الإمام عليه السلام بالحوادث الخطيرة مُستقبلًا والتى تنتظر الناس، وهى الحوادث التى تشبه العلامات التى ذكرت فى الظهور فقال عليه السلام:

«أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَانْقِطَاعِ وُصَلِكُمْ، وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ».

ومن الطبيعى أن تبدأ مسيرة التخلف وتقطع الأواصر الاجتماعيّة حين يتزعم بعض الأفراد قليلى الخبرة والسذج والذين يفتقرون إلى الكفاءة، لكن لماذا تتجه طائفة من‌الزعامات إلى الصغار وقليلى التجربة فى الإدارة والتدبير؟ لا شك فى كونهم فئة من المهزوزين والآذان الصاغية لكلّ أمر وهذا من أكبر عوامل البؤس والشقاء.

ثم خاض عليه السلام فى شرح هذه الحوادث الأليمة فقال:

«ذاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ. ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الْمُعْطِى».

فقد ذكر الإمام عليه السلام بادئ ذى بدئ فى هذا الجانب من الخطبة مسألة حلية وحرمة الأموال وذلك لتوقف المصير المادى والمعنوى للمجتمعات عليها حيث أشار عليه السلام إلى أنّ جمع الأموال الملوثة بالحرام والغصب والرشوة والغش إنّما يبلغ درجة فى المجتمع بحيث يكون تحصيل الدرهم من الحلال أعقد من تحمل ضربة السيف فى المعركة، ومن هنا قلّما يتعرض من ينفق أمواله فى سبيل اللّه آنذاك إلى الأجر والثواب لأنّهم يعلمون أنّ أموالهم ليست طاهرة، إلّاأنّ الآخذين لا يعلمون ذلك، أو أنّهم يعلمون لكنهم يضطرون لأخذ تلك الأموال المشكوكة أو المحرمة، وعليه فلا مسؤولية عليهم أمام اللّه وأجرهم وثوابهم ثابت عنده بينما تبدو القضية معكوسة لو كان المجتمع سليماً وعلى ضوء الحديث النبوى المعروف:

«انَّ الْيَدَ الْعُلْيا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلى»[۳۰۹]

فيكون أجر المعطى أعظم من المعطى له.

على كلّ حال فما ورد فى كلام الإمام عليه السلام بشأن كثرة الأموال الحرام فى آخر الزمان صرحت بها بعض الروايات ومن ذلك ما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

نفحات الولايۀ، ج۷، ص: ۱۸۴

«أَقلُّ ما يَكُونُ فى آخِرِ الزَّمانِ أَخٌ يُوثَقُ بِهِ اودِرْهَمٌ مِنْ حَلال»[۳۱۰].

ويتّضح ممّا ذكرنا آنفا أنّ العبارة لا تنطوى على مفهوم معقد ومجهول كما ذهب‌إلى ذلك بعض شرّاح نهج البلاغة فقدموا عدّة احتمالات مستبعدة وضعيفة.

ثم خاض عليه السلام فى سائر المشكلات التى يعانى منها ذلك المجتمع الفاسد والذى ينتظره الناس بحكم الإجبار فقال:

«ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَاب، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ والنَّعِيمِ، وتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَار، وتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاج».

فأیّ مجتمع إنّما یؤول إلی الإنهیار إن شهد هذه البلایا الثلاث، الأثریاء یسکرون بالثروة فینسون اللَّه وخلقه، وبالطبع فإنّ سکر النعمة أخطر من سکر الشراب، فسکر الشراب قد ینتهی بعد مرور لیلة بینما قد یستمر سکر النعمة طیلة العمر، کذلک القسم من غیر اضطرار والذی یوهن من شأن اللَّه تعالی، والکذب من دون احراج الذی یزیل الثقة والاطمئنان وبالتالی تتعقد الحیاة فی ظلّ هذا المجتمع.

وقال علیه السلام فی اختتامه لهذا التکهن:

«ذَاکَ إِذَا عَضَّکُمُ ۳۱۱] الْبَلَاءُ کَمَا یَعَضُّ الْقَتَبُ ۳۱۲]

غَارِبَ ۳۱۳] الْبَعِیرِ مَا أَطْوَلَ هذَا الْعَنَاءَ، وأَبْعَدَ هذَا الرَّجَاءَ!».

یعتقد أغلب الشرّاح أن هذه العبارة منفصلة عن العبارات السابقة فإنّ السید الرضی- طبق عادته- أسقط بعض العبارات حین اقتطافه لبعض العبارات الرائعة لخطب الإمام علیه السلام.

ولا یبدو هذا الکلام مستبعداً، لأنّ

«ذاکَ»

تشیر ظاهراً إلی النجاة والفرج الذی سیحصل للمؤمنین بعد کلّ ذلک البلاء، والعبارة

«ما أَطْوَلَ هذَا الْعَنَاءَ وأَبْعَدَ هذَا الرَّجاءَ»

شاهد متین علی هذا المعنی حیث قال علیه السلام: هنالک أمل فی النجاة بعد کلّ هذا البلاء.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۱۸۵

کما تشیر العبارة

«ألا بِأَبی وأُمّی»

أنّ الإمام علیه السلام کان ینتظر تلک الفئة التی تنتشل المجتمع الإسلامی من الشر والفساد، وعلی کلّ حال فإنّ أنسب تفسیر لمجموع هذا البحث ما ذکر سابقاً وقلنا إنّه ناظر لحوادث آخرالزمان المریرة ونجاة المجتمع البشری منها بواسطة الإمام المهدی علیه السلام.

وهنا لابدّ من الإشارة إلی نقطتین ضروریتین: الأُولی أنّه لماذا شبّه الإمام علیه السلام البلاء بالقتب (خشبة توضع علی الناقة لحل مشکلة سنامها الذی یؤذی ظهر الناقة)؟ لا یستبعد أنّ هذا التشبیه علی أساس أنّ القتب یوضع لانقاذ الناقة من مشکلة بروز السنام، لکنه یخلق مشکلة أخری فی أنّه یؤذی ظهر الناقة ورقبتها ویجرحها أحیاناً، والبلاء فی ذلک الزمان والحوادث هکذا فی أنّ التفکیر بالسبیل للخلاص منها یخلق مشکلة أخری للناس.

والسؤال الذی یطرح نفسه کیف یصرح علیه السلام باستبعاد الأمل بالنجاة بینما تورد الروایات قرب ذلک الأمل؟

والجواب أنّ ظهور الإمام علیه السلام مشروط بشرائط إن تحققت کان الفرج قریباً وإن لم تتحقق فهو بعید؛ وبعبارة أخری یمکن للمؤمنین بتوفیرهم لشرائط الظهور من قبیل التزکیة والتهذیب والاستعداد الکامل والأدعیة المتواصلة أن یقربوا ظهور الإمام علیه السلام بینما إن ترکت هذه الأمور تأخر الظهور، وعلیه فالظهور قریب من جهة وبعید من جهة والذی نأمّل أن یکون قریباً بلطف اللَّه ورحمته.

تأمّل

الحوادث الألیمة آخر الزمان

وردت فی هذه الخطبة وبعض خطب نهج البلاغة وروایات النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام بعض الأخبار عن المستقبل المظلم والمعقد الذی ینتظر المؤمنین.

ومن خصائص ذلك الزمان عدم إكتراث أغلب الناس بالحلال والحرام. فيرون

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۸۶

كلّ ما يقع فى أيديهم حلالًا كيفما حصلوا عليه ومن أى شخص اقتنصوه وهذه القذارة تلوث جميع حياتهم.

الخاصية الأخرى سكر النعمة الذى يؤدّى إلى نسيان المبدأ والمعاد فيعيش الإنسان فى عالم من الجهل على غرار من يسكر من الشراب، كما أنّ الإبتعاد عن الأحكام والتمسك بالحجج الواهية لممارسة الأفعال غير المباحة والتعويل على الحيل الشرعيّة من الخصائص الأخرى لذلك الزمان وبالتالى تتحول البدع إلى سنن وتلبس السنن ثوب البدع.

جاء فى الحديث النبوى الشريف:

«يَأْتى عَلَى النّاسِ زَمانٌ لا يَبْقى أحَدٌ إلَّا أكلَ الرِّبا فَإنْ لَمْ يَأْكُله أَصابَهُ مِنْ غُبارِهِ»[۳۱۴].

كما ورد فى حديث آخر فى وصايا الرسول صلى الله عليه و آله إلى ابن مسعود أنّه يأتى على الناس زمان يتناولون فيه الأطعمة اللذيذة ويركبون المراكب الفارهة ويتزين الرجال لنسائهم وتخرج النساء دون حجاب ويشاركن فى التجمعات حتى وصفهم النّبى صلى الله عليه و آله بأنّهم منافقو الأُمّة فى آخر الزمان ثم قال:

«يَاابْنَ مَسْعُودُ يَأْتى عَلَى الناسِ زَمانٌ الصّابِرُ عَلى دينِهِ مِثْلُ الْقابِضِ عَلَى الْجَمْرَةِ بِكَفِّهِ»[۳۱۵]

، وسائر الحوادث الأليمة التى يطول ذكرها.

هذه النبوءات وبالإضافة إلى جانبها الاعجازى هى تحذير للمسلمين المخلصين للإسلام فى ضبط أنفسهم ويعلم أنّ هذا العصر سينتهى بظهور المهدى الموعود (أرواحنا فداه).

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۸۷

القسم الثانى

اشارة

أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هـذِهِ الأَزِمَّةَ الَّتِى تَحْمِلُ ظُهُورُهَا الأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، ولَا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعَالِكُمْ. وَلَا تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ الْفِتْنَةِ، وأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا، وخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا: فَقَدْ لَعَمْرِى يَهْلِكُ فِى لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، ويَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ. إِنَّمَا مَثَلِى بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِى الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا. فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا، وأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

الشرح والتفسير: وصايا للنجاة من الفتنة

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من كلامه عن الحوادث الأليمة فى المستقبل فى الجانب السابق من هذه الخطبة حتى ذكّر أصحابه هنا ببعض الوصايا التى تنجيهم من أخطار تلك الأحداث فقال عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هذِهِ الأَزِمَّةَ[۳۱۶] الَّتِى تَحْمِلُ

ظُهُورُهَا الأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ».

هذه العبارة كناية عن أنّ الحوادث ستقع حولكم وتحمل آثار الفتنة والفساد فعليكم أن لا تتزعموها ولا تسهموا فى تطورها، فالواقع أنّه يذكّرهم بما أمر به القرآن الكريم حين يقول: «وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْاثْمِ وَالْعُدْوَانِ»[۳۱۷].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۸۸

ثم أضاف:

«وَلَا تَصَدَّعُوا[۳۱۸] عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَ ۳۱۹] فِعَالِكُمْ. وَلَا تَقْتَحِمُوا[۳۲۰] مَا

اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ[۳۲۱] نَارِ الْفِتْنَةِ، وأَمِيطُوا[۳۲۲] عَنْ سَنَنِهَا[۳۲۳]، وخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ ۳۲۴] لَهَا».

هذا الكلام إشارة إلى أنّ الناس إن لم يسهموا فى استفحال الفتن ولم يلجوها وابتعدوا عنها وقطعوا دابرها فسوف لن تتنامى مخلفاتها والقضية بالضبط أشبه بسيل الماء العظيم الذى يعجز الناس عن السيطرة عليه، لكنهم إن فسحوا المجال لكى ينحدروا إلى الوديان والسهول فإنّ الاضرار التى تصيبهم ستكون أقل ممّا لو ولجوه وكانوا فى وسطه.

ثم ذكر عليه السلام علّة ذلك فقال:

«فَقَدْ لَعَمْرِى يَهْلِكُ فِى لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، ويَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ».

إشارة إلى أنّ موج الفتنة على درجة من القوّة بحيث لو انبرى المؤمنون لمواجهته لهلكوا ولسلم غيرهم من نحّى نفسه عنها، وعليه لا ينبغى تبديد الطاقات عبثاً فى مثل هذه الموارد، بل لابدّ من الحفاظ عليها والتربص حتى تحين الفرصة المناسبة وهذا بالضبط الفلسفة الأصليّة للتقية فى المسائل الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والتى تعنى ببساطة حفظ الطاقات وانتظار الفرصة.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى موقعه بغية فواق الغافلين والانتفاع بفيوضاته عليه السلام فقال:

«انَّمَا مَثَلى بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِى الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِئُ بِهِ مَنْ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۸۹

وَلَجَهَا. فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا[۳۲۵]، وأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا».

نعم، فالإمام عليه السلام حين يتكهن بحوادث المستقبل المريرة وظلمات الفتن يشير إلى سبيل النجاة فيقول: إنّكم إنّما تنجون من شر الأشرار والفتن التى يثيرها المفسدون إن سمعتم ما أقول لكم وحفظتموه وفكرتم فيه كما ينبغى.

وقد شبّه الإمام عليه السلام نفسه هنا بالسراج المنير فى أمواج الظلمة ثم أمر الناس بالاستضاءة بنور هذا السراج، فقد أمر أولًا بسماع كلامه وحفظه ثم أردفه بالأمر للتعمق به وإدراك حقيقته (وهذا هو الفارق بين مفهوم العبارة

«فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا»

، والعبارة

«وأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا»

حيث الأولى سماع وإدراك وحفظ والأخرى دقّة وتعمق).

تأمّل

الانسحاب من الفتن

أحياناً تظهر فى المجتمعات البشريّة بعض الفتن التى لا يقوى الأفراد المؤمنون على مواجهتها، كما لا يستطيعون تشكيل خلية للوقوف بوجهها وليس للأفراد الذين يقفون مباشرة إزاء هذه الفتن ويقتحمونها من مصير سوى الهزيمة والانكسار.

فأفضل سبيل فى ظلّ هذه الظروف هو الانسحاب من أمام سيول الفتنة والتربص بالفرصة المناسبة بغية مواجهتها، وبالطبع فإنّ الاجراءات المتهورة لا- تنطوى على نتيجة سوى التضحية بالطاقات والقضاء على الفرص المستقبلية، وهذه هى فلسفة النهى عن النهضات فى عصر أئمّة العصمة عليهم السلام وهذا فى الواقع فرع من فروع التقية التى تهدف إلى حفظ القوى واستغلالها فى الوقت

المناسب.

فقـد أكّد الإمام أمير المؤمنين عليه السـلام فى هذه الخطبة على هذه النقطة وأكّد عليها مع أنّه أشـجع فرد فى الأمة ومن ابطال مواجهة أعداء الإسلام وخصوم الدعوة.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۹۱

الخطبة ۱۸۸

اشارة

فِي الْوَصِيَّةِ بِأُمُور[۳۲۶]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السـلام فى هذه الخطبة إلى ثلاثة أمور مهمّة: أوصـى أولًا بالورع والتقوى واجتناب المعصية وذكرهم بنعم اللَّه لتكون لهم دافعاً نحوالتقوى والطاعة.

ثم ذكرهم بالموت والانتقال من الدنيا وكيفية هذا الانتقال بعبارات تهز النفس لتكون عاملًا نحوالطاعة وترك المعصية.

وأخيراً حذّر من سرعة انقضاء الأيّام والليالى والساعات ولابدّ من الجد والمثابرة للتزود للدار الآخرة.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۹۳

القسم الأوّل

اشارة

أُوصِيكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، بِتَقْوَى اللَّهِ وكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلَائِهِ إِلَيْكُمْ، ونَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وبَلَائِهِ لَدَيْكُمْ. فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَة، وتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَة! أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وتَعَرَّضْتُمْ لِاخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ!

الشرح والتفسير: التوصية بالتقوى والحمد

دعا الإمام عليه السلام جميع مخاطبيه فى هذا القسم من الخطبة كما أشرنا سابقاً إلى التقوى وشكر اللَّه على نعمه فقال:

«أُوصِيكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، بِتَقْوَى اللَّهِ وكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلَائِهِ إِلَيْكُمْ، ونَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وبَلَائِهِ ۳۲۷] لَدَيْكُمْ».

رغم أنّ

«آلاء» و «نعماء»

تستعمل فى أغلب الموارد بمعنى واحـد هو النعمـة، إلّا أنّ البعض يعتقـد أن آلاـء إشـارة إلى النعم المعنويّـة ونعمـاء إشارة إلى النعم الماديّة؛ سيما إن وردت المفردتان مع بعضهما.

وتستعمل كلمة

«البلاء»

بمعنى الامتحان والاختبار أو بمعنى الحوادث السارّة والأليمة وفى العبارة السابقة وبالنظر إلى تناسق العبارات فهى بمعنى الحوادث السارّة، وقال البعض: المقصود هو الحوادث الأليمة التى يختبر اللّه الإنسان بها وتسبب ارتقاء رتبته وزيادة ثوابه عند اللّه وتعتبر نعمة بالنظر إلى هذا الأمر.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۹۴

على كلّ حال فكلام الإمام عليه السلام هذا شبيه ما إستند إليه علماء الكلام فى بحث معرفة اللّه، وقالوا: الدافع الرئيسى لهذا البحث هو مسألة شكر المنعم، لأنّ الإنسان يرى نفسه غارقاً فى النعم وحيث إنّ شكر منعم النعمة كامن فى فطرة الإنسان فإنّه يفكر فى واهب النعمة فيتجه إليه ليتعرف عليه ومن شأن هذا الأمر أن يكون سبباً لطاعته وتركه للمعصية.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح بعض هذه النعم فقال:

«فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَة، وتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَة! أَعْوَرْتُمْ ۳۲۸] لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وتَعَرَّضْتُمْ لِاخْذِهِ ۳۲۹] فَأَمْهَلَكُمْ!».

فقد أشار الإمام عليه السلام بادئ الأمر إلى النعم والرحمة المختصة بهذه الأمّة مثل خاتمية النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وكونها خير أمّة وعدم نزول البلاء على الأمّة ما دام النّبى فيهم أو هم يستغفرون، ثم خاض عليه السلام بعد ذلك إلى مسألة ستر اللّه تعالى مقابل خرق هذا الستر من قبل العصاة وكذلك إعطاء المهلة الكافية من أجل التوبة والعودة إلى النفس وعدم العجلة فى معاقبتهم وكل واحدة منها نعمة عظيمة للغاية.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۹۵

القسم الثانى

اشارة

وأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ. وكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيسَ يُغْفِلُكُمْ، وطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيسَ يُمْهِلُكُمْ! فَكَفَى واعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، وكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً. أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا. لَاعَنْ قَبِيح يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالا، وَلَا فِي حَسَن يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَاداً. أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، ووَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ.

الشرح والتفسير: أفضل الوعظ

أشار الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة إلى نقطة مهمّة من شأنها أن تكون دافعاً قوياً للتقوى آنفة الذكر؛ والتى تكمن فى ذكر الموت، فأوصى بصورة عامة إلى ذكر الموت فقال:

«وأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ. وكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيسَ يُغْفِلُكُمْ، وطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيسَ يُمْهِلُكُمْ!».

نعم! فليس هنالك من عقل يسوغ للإنسان الغفلة عن حادثة لابدّ له من الوصول إليها، وعدم الإكتراث للشىء الذى لا أمل فى الفرار منه، فالعاقل مَن يقرّ بهذه الحقيقة فى أنّ الموت مصير حتمى لجميع الناس، بل الموجودات كافّة، وما أعظم ما قال الشاعر:

كُلُّ ابنُ انثى وإنْ طَالَتْ سَلامَتُهُ يَوماً عَلَى آلةِ حَدباءِ مَحمُولُ

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح دقيق يهزّ الأعماق فى تفاصيل لحظات الموت خلال ۱۲ عبارة صغيرة وعميقة المعنى فقال:

«فَكَفَى واعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ».

نعم! فقد حملوا على أكتاف الناس ليتجهوا بهم صوب موطنهم الأبدى دون رغبتهم وأوردوهم حفرة القبر دون إرادتهم.

ثم کشف علیه السلام عن مصیرهم ببیانه لصفتین فقال:

«فَکَأَنَّهُمْ لَمْ یَکُونُوا لِلدُّنْیا عُمَّاراً[۳۳۰]، وکَأَنَّ الْاخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً».

إشارة إلی أنّ کلّ شیء ینتهی فی لحظة فیبلغ بهم البعد عن الدنیا درجة کأنّهم لم یعیشوا فیها ویقتربوا من الآخرة وکأنّهم عاشوا فیها منذ الأزل.

ثم قال علیه السلام:

«أَوْحَشُوا مَا کَانُوا یُوطِنُونَ، وأَوْطَنُوا مَا کَانُوا یُوحِشُونَ».

أجل! کانوا یشعرون بالوحشة حین یمرون بتلک القبور الهامدة فیشیحون عنها بوجوههم، سیما إن کان مرورهم باللیل، بینما أصبحت الآن وطنهم ولو عادوا الیوم بهذه الحال إلی بیوتهم ومساکنهم لاستوحش منهم الناس وبالعکس سیعیشون هم أیضاً تلک الوحشة- إن کان لهم إدراک وشعور-.

من جانب آخر فإنّ مشکلتهم الرئیسیّة أنّهم لم یعمروا دار الآخرة واستفرغوا کلّ طاقاتهم فی عمران الدنیا حیث وصف ذلک الأمم علیه السلام فی مواصلته لکلامه فقال:

«وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وأَضَاعُوا مَا إِلَیْهِ انْتَقَلُوا».

والأسوأ من ذلک لا مجال هنا لتلافی ما فرط منهم وهذا ما أکّده الإمام علیه السلام بقوله:

«لَا عَنْ قَبِیح یَسْتَطِیعُونَ انْتِقَالا، وَلَا فِی حَسَن یَسْتَطِیعُونَ ازْدِیَاداً».

فهل لثمار الشجرة إن انفصلت عنها من عودة إلیها ومواصلة حیاتها ناضجة کانت أم فاسدة؟ وهل الولید الذی یخرج من بطن أُمه سواء کان جنیناً کاملًا أم ناقصاً یستطیع العودة إلی رحمها ویواصل نموه؟ کلا، نعم هذا هو حال أصحاب الدار

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۱۹۷

الآخرة لیس لهم من سبیل إلی العودة ولذلک تغلق صحیفة أعمالهم وإلی الأبد، فلا یسعهم تلافی سیئة ولا إضافة حسنة، ولعل هذه أعظم مصیبة یفجع بها أصحاب الدنیا الآثمین، وإلّا فإنّ اقترن الموت بالأعمال الصالحة فلا یعدّ مصیبة فحسب بل سعادة ورحمة فهو لا یعنی سوی تحطیم القفص وانطلاق الروح الإنسانیّة وتحلیقها فی الفضاء العلوی، ومن هنا حین نزلت ضربة أشقی الأولین والآخرین عبد الرحمن بن ملجم علی رأس مولی المتّقین علی علیه السلام قال:

«فُزْتُ ورَبِّ الْکَعْبَةِ».

ثم تناول علیه السلام سبب ذلک البؤس والشقاء فقال:

«أَنِسُوا بِالدُّنْیا فَغَرَّتْهُمْ، ووَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ ۳۳۱]».

نعم! فالوثوق بالدنیا کالوثوق بالسراب الذی یدعو الإنسان فی الصحراء المحرقة نحوه فلا یزیده إلّاعطشاً ویحیل أمله یأساً، أو کالاعتماد علی الجدار الرخو الذی ینهار عاجلًا أم أجلًا فیبقی الإنسان تحت أنقاضه.

تأمّل

ذکر الموت

لم یقتصر التأکید علی ذکر الموت ونهایة الحیاة علی أمیر المؤمنین علیه السلام بل هذا ما أکّده اساتذة الأخلاق والهداة إلی الصراط وفی مقدمتهم جمیعاً القرآن الکریم بغیة إیقاظ الغافلین الموتی فی أنّ هذه الحیاة زائلة ولیست خالدة، فأطفال الأمس هم شباب الیوم

وشباب اليوم هم كهول الغد وكهول الغد كأوراق الخريف التى تتساقط برياح الأجل لتلتحق بصفوف الأسلاف.

ويبدو الإلتفات إلى هذه الحقيقة مدعاة لليقظة والاعتبار، فأغلب الناس يجدّون فى العمل وكأنّهم مخلدون فى هذه الدنيا، والحال ليس هنالكم من طمأنينة لاستمرار هذه الحياة ولولساعة أخرى ويكفى الإلتفات إلى هذه النقطة فى انزال

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۹۸

الإنسان من مركب الغرور وفتح عينه على الحقائق وإنارة الطريق أمامه.

ويبدو ذكر الموت وختام الحياة مفيداً نافعاً حين يتأمّل الإنسان تلك الأحداث التى تواجهه حين الموت والانفتاح على العبارات والأمور التى ركز عليها أمير المؤمنين فى هذه الخطبة؛ فالانفصال عن الأعزة، ومغادرة الثروة والقصور والمقامات، والإبتعاد عن الأحبّة، ونزول تلك الحفرة تحت التراب، والأهم من كلّ ذلك غلق صحيفة الأعمال واستحالة تلافى الأخطاء كلّ هذه الأمور تعدّ أعظم واعظ وأفضل ناصح.

ومن هنا جاء فى الحديث النبوى الشريف:

«إنّ أَكْيَسَ الْمُؤْمِنِينَ، أَكْثَرُهُم ذِكْراً لِلْمَوْتِ وأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْداداً»[۳۳۲].

وفى حديث آخر أنّه صلى الله عليه و آله سئل:

«هَلْ يَحْشُر مَعَ الشُّهَداءِ أَحَدٌ»

فقال:

«نَعَمْ مَنْ يَذْكُر الْمَوْتَ فِى الْيَوْم واللَّيْلَةِ عِشْرينَ مَرَّةً»[۳۳۳].

ونختتم هذا البحث بحديث ينطوى على الدروس والعبر ورد بهذا الشأن عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال:

«إنّ ابنَ آدَم إذا كَانَ فِى آخِرِ يَوم مِنْ أيّام الدُّنيا وَأوَّلِ يَوم مِنْ أيّام الآخرةِ مَثّلَ لَهُ مَالُهُ وَعَملُهُ وَوُلدُهُ، فَيلتَفت إلى مَالِهِ وَيقولُ: واللَّهِ إنِّى كُنتُ عَلَيكَ حَريصاً شَحِيحاً فَما لِى عِندَكَ؟ فَيقُول: خُذْ مِنّى كَفَنَكَ، قَالَ: فَيلتَفِت إلى وُلدِهِ فَيقول: وَاللَّهِ إنِّى كُنتُ لُكُم مُحبّاً وَعَلَيكُم مُحامِياً فَماذا لِى عِندَكُم، فَيقُولُون:

نُؤدّيكَ إلى حُفرتِكَ وَنُوارِيكَ فِيها، قَالَ فَيلتَفِت إلى عَمِلِهِ فَيقُول: إنِّى وَاللَّهِ كُنتُ فِيكَ لَزاهِداً وإنْ كُنتَ علىَّ لَثقِيلًا فَماذا عِندَكَ؟ فَيقُول: أنا قَرينُكَ فِى قَبرِكَ وَيَومَ نَشرِكَ حَتّى أعرض أنا وأنتَ عَلىْ رَبِّكَ»[۳۳۴].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۱۹۹

القسم الثالث

اشارة

فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى مَنَازِلِكُمْ الَّتِى أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، والَّتِى رَغِبْتُمْ فِيهَا، ودُعِيتُمْ إِلَيْهَا. وَاسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، والْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِى الْيَوْمِ، وأَسْرَعَ الأَيَّامَ فِى الشَّهْرِ، وأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِى السَّنَةِ، وأَسْرَعَ السِّنِينَ فِى الْعُمُرِ!

الشرح والتفسير: سبيل النجاة

كشف الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة سبيل النجاة بعد أن فرغ من التذكير بالموت ونهاية الحياة الدنيا والانتقال السريع إلى عالم الآخرة والحسرة على ما بدر من تقصير واسراف فقال عليه السلام:

«فَسَابِقُوا رَحِمَكَمُ اللّهُ إِلَى مَنَازِلِكَمْ الَّتِى أَمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، والَّتِى رَغِبْتُمْ فِيهَا، ودُعِيتُمْ إِلَيْهَا».

قطعاً المراد من المنازل منازل الآخرة التى ورد الحث فى الآيات والروايات على إعمارها كما ورد الحض على الرغبة فيها والدعوة إليها، حيث قال اللّه تعالى فى كتابه الكريم: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَة مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّة عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ»[۳۳۵].

وقال فى موضع آخر: «وَاللّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَنْ يَشَآءُ إِلى صِرَاط

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۰۰

مُّسْتَقِيم».[۳۳۶] وقال فى سورة البقرة: «وَاللّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ»[۳۳۷].

ثم أشار عليه السلام إلى سبيل آخر من سبل النجاة فقال:

«وَاسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، والْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ».

ويمكن أن يكون هذا الكلام إشارة إلى إكمال النعم الماديّة الدنيويّة أو إتمام هذه النعم مع زيادة نعم اللّه الكبرى فى القيامة، لأنّ الصبر على الطاعة والإبتعاد عن المعصية بمقتضى الآية الشريفة: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَازِيدَنَّكُمْ»[۳۳۸] سبب زيادة النعم الماديّة والمعنويّة الدنيويّة والأخرويّة، ونعلم أنّ الشكر الحقيقى فى أن يستعين الإنسان بنعم اللّه على طاعته ولا يستغلها أبداً ويتقوى بها على معصيته.

ونقرأ فى حديث عن على عليه السلام أنّه قال:

«أَقَلُّ ما يَلْزِمُكُم اللّهِ أنْ لا تَسْتَعينُوا بِنِعْمَتِهِ عَلى مَعاصيهِ»[۳۳۹].

ثم قال فى الختام كدليل على ما ذكر:

«فَإِنَّ غَداً مِّنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِى الْيَوْمِ، وأَسْرَعَ الأَيَّامَ فِى الشَّهْرِ، وأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِى السَّنَةِ، وأَسْرَعَ السِّنِينَ فِى الْعُمُرِ![۳۴۰]».

والمراد من الغد فى هذه العبارة إمّا الموت كما قال الشاعر:

عَلَى المَوْتِ إعْدادُ النُّفُوسِ ولا أرىبَعيداً غَدَاً ما أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِن غَدِ

أو المراد يوم القيامة كما ورد فى الخطبة ۲۸:

«ألا وإنَّ الْيَوْمَ الْمِضمارُ وغَداً السِّباقُ».

ولكن بالإلتفات إلى أنّ جانباً مهمّاً من هذه الخطبة ركز على الموت ونهاية

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۰۱

الحياة الدنيا وغلق صحيفة الأعمال؛ فالمعنى الأوّل هو الأمثل والعبارات الواردة بشأن سرعة مضى الأيّام والشهور والسنوات والعمر شاهد آخر على هذا المعنى.

والطريف فى الأمر أنّ الإمام عليه السلام ولتوضيح سرعة مضى العمر انطلق من أجزائه الصغيرة فأشار فى البداية إلى سرعة مضى الساعات فى اليوم ثم مضى الأيّام فى الشهر والشهور فى السنة والسنوات فى العمر ليتّضح تماماً هذا المرور السريع والحقّ أنّ الأمر كذلك. فأغلب الكهول حين يسألون: كيف مضى عمركم؟ يجيبون:

أسرع من البرق أو كطرفة العين، كأننا بالأمس كنّا نلعب مع الصبية فى الأزقة ونسرح ونمرح مع الشباب، ولم نكد ننظر فى المرآة حتى طالعتنا علامات الكهولة وبدت واضحة على رؤوسنا ووجوهنا، فضعف البدن وشلت الأعضاء عن الحركة وانحنت القامة وتقطعت الأنفاس.

والحقّ أنّ الخطبة برمتها سيما الجانب الأخير منها تحذير غاية فى التأثير لإيقاظ العقول النائمة، قال ابن أبى الحديد فى ختام هذه الخطبة:

«كَلامٌ شَريفٌ وَجيزٌ بالِغٌ فى مَعْناه والْفَصْلُ كُلُّه نادِرٌ لا نَظيرَ لَهُ»[۳۴۱].

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۰۳

الخطبة ۱۸۹

اشارة

فِی الإیمانِ ووُجُوبِ الْهِجْرَةِ[۳۴۲]

نظرة إلی الخطبة

رغم قصر هـذه الخطبـة إلّاأنّهـا عظیمـة المضـامین ومؤلفـة من أربعـة أقسـام، خـاض القسم الأـوّل فی أقسـام الإیمان (الإیمان الراسـخ والمتقلب) وتطرق الثانی إلی مفهوم الهجرة فی الإسـلام علی أنّها من المفاهیم المسـتمرة والدائمة، وأشار فی القسم الثالث إلی صعوبة إدراک بعض أحـادیث المعصومین أو تعـذر تحملهـا، وأخیراً أشـار القسم الرابع إلی سـعة علمه علیه السـلام داعیاً الجمیع للانتهال من منبعه الفیاض قبل فقده.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۲۰۵

القسم الأوّل

اشارة

فَمِنَ الْإیمَـانِ مَا یَکُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرّاً فِی الْقُلُوبِ، ومِنْهُ مَا یَکُونُ عَوَارِیَ بَیْنَ الْقُلُوبِ والصُّدُورِ، إِلَی أَجَل مَعْلُوم، فَإِذَا کَانَتْ لَکُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَد فَقِفُوهُ حَتَّی یَحْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذلِکَ یَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ.

الشرح والتفسیر: الإیمان الثابت والأجوف

کما أشیر سابقاً فقد أشار الإمام علیه السلام فی هذا القسم من الخطبة إلی أقسام الإیمان الثابت منه وغیر الثابت، فقال:
«فَمِنَ الْإیمَانِ مَا یَکُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرّاً فِی الْقُلُوبِ، ومِنْهُ مَا یَکُونُ عَوَارِیَ بَیْنَ الْقُلُوبِ والصُّدُورِ، إِلَی أَجَل مَعْلُوم».
فتقسیم الإیمان إلی ثابت ومستقر وأجوف ومتزلزل وبعبارة أخری عارٍ ممّا وردت الإشارة إلیه فی الأخبار والروایات.
فقد جاء عن الإمام الصادق علیه السلام فی تفسیر الآیة الشریفة: «وَهُوالَّذِی أَنشَأَکُمْ مِّنْ نَّفْس وَاحِدَة فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ»[۳۴۳]:
«فَالْمُسْتَقَرّ الإیمانُ الثابِتُ والْمُسْتَوْدَعُ
الْمُعارُ»[۳۴۴].
وفی حدیث آخر عن أبی الحسن علیه السلام فی تفسیر الآیة السابقة:
«ما کانَ مِنَ الإیمانِ الْمُسْتَقَرِّ فَمُسْتَقَرٌّ إلی یَوْمِ الْقِیامَةِ وأبداً وما کانَ مُسْتَودَعاً سَلَبَهُ اللّهُ قَبْلَ الْمَماتِ»[۳۴۵].
نفحات الولایة، ج۷، ص: ۲۰۶
ورغم الاختلاف فی تفسیر الآیة المذکورة؛ ومن ذلک ما قیل أنّ المراد من المستقر أولئک الذین قرّوا فی الدنیا من الرحم والمستودع أولئک الذین ما زالوا فی الأرحام، إلّاأنّ ذلک لا یمنع من أن یکون للآیة عدّة تفاسیر.

على كـلّ حال فإن كان للإنسان نفس مطمئنـة ورسـخ الإيمان فى أعماقه كان إيمانه مسـتقراً ولا يتزلزل مهما تغيرت الظروف وتعرض للترغيب والترهيب؛ بينما يمكن زواله بسهولة إزاء المغريات ما لم يكن راسخاً.

وأسباب تزلزل الإيمان متعددة؛ منها عدم الانفتاح على الأدلة المحكمة واتباع الهوى وضعف النفس ومقارفة الذنوب والمعاصى، فكلّ من هذه الأمور قد يزلزل الإنسان آواخر عمره ليغادر الدنيا فى خاتمة المطاف بلا إيمان.

والعبارة:

«عَوَارِىَ بَيْنَ الْقُلُوبِ والصُّدُورِ»

كنايـة عن أنّ الإيمان لم يتسـلل لحـدّ إلى قلب الإنسان وروحه ولـذلك لم يسـتقر، أشـبه بالإنسان الـذى يبلغ جـدار منزل ولا يـدخله، فبالطبع ليس لهذا الشخص من استقرار.

ثم واصـل الإمام عليه السـلام كلامه فحـذر من البراءة من الأفراد قبل اختتام عمرهم، ذلك لأنّ مصـير الإنسان يتّضـح آخر عمره؛ فقال عليه السلام:

«فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَد فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ».

وعلى هذا الضوء فلا يمكن إصدار الأحكام القطعيّة بحقّ أى شـخص، لا بشأن الفرد المؤمن ولا غير المؤمن، لإمكانيّة عودة كلّ منهما آخر الطريق بفعل بعض العوامل المختلفة، وإن كان هنالك من حكم فهو حكم مرحلى ومؤقت.

تأمّل

عناصر ثبات الإيمان

أشار الإمام عليه السـلام فى القسم الأوّل من هـذه الخطبـة المـذكورة آنفاً إلى تصـنيف الإيمان إلى صـنفين مسـتقر ومتزلزل، والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: ما هى العناصر

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۰۷

التى تقف وراء زعزعة الإيمان وثباته؟

وتبدو الإجابة عن هذا السؤال واضـحة إجمالًا، فالكبائر والاستخفاف بالوظائف الشرعيّة لمن دواعى زعزعة الإيمان وسوء العاقبة؛ إلّاأنّ الآيات والروايات أكّدت على أمور معينة، منها:

مجالسـة رفاق السوء والمنافقين؛ ففى الآيـة ۲۸ و ۲۹ من سورة الفرقـان يُعرب بعض أصـحاب النار يوم القيامـة عن أسـفهم لاتخاذهم بعض الأصدقاء فيقولون: «يَا وَيْلَتى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى».

وفى الآية ۵۶ و ۵۷ من سورة الصافات ينادى أحـد أصـحاب الجنّـة صاحبه الضال فى جهنم: «تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَّ لَتُرْدِينِ* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ».

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عمّا يثبت الإيمان فى قلب الإنسان؟ فقال:

«الَّذى يُثْبِتُهُ فيهِ الْوَرَعُ، والَّذى يُخْرِجُهُ مِنْهُ الطَّمَعُ»[۳۴۶].

وروى عنه عليه السلام أنّه قال:

«مَنْ كانَ فِعْلُهُ لِقَوْلِهِ مُوافِقاً فَاثْبُتْ لَهُ الشَّهادَةُ بِالنَّجاةِ ومَنْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهُ لِقَوْلِهِ مُوافِقاً فَإنَّما ذلِكَ مُسْتَوْدَعٌ»[۳۴۷].

كما بين أميرالمؤمنين على عليه السلام لكميل سبيل ثبات الإيمان فقال:

«يا كُمَيلَ! إِنَّما تَسْـتَحِقّ أنْ تَكُونَ مُسْـتَقَراً إذا لَزِمْتَ الْجادَّةَ الْواضِـحَةَ الَّتى لا تُخْرِجُكَ إلى عِوْجَ ولا تُزِيلُكَ عَنْ مِنْهَج ما حَمَلْناكَ عَلَيْهِ

وهَدَيْناكَ إِلَيْهِ»[۳۴۸].

طبعاً لا تقتصر عناصر ثبات وزعزعة الإيمان على ما ذكر سالفاً، غير أنّها تمثّل أهم تلك العناصر.

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۲۰۹

القسم الثانی

اشارهٔ

وَالْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الأَوَّلِ. مَا كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ الْامَّةِ ومُعْلِنِهَا. لَايَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَد بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وأَقَرَّ بِهَا فَهُومُهَاجِرٌ. وَلَا يَقَعُ اسْمُ الْاسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ ووَعَاهَا قَلْبُهُ.

إِنَّ أَمْرَنا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لَايَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَلَا يَعِى حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُونِى قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِى، فَلَانَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّى بِطُرُقِ الأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِى خِطَامِهَا، وتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا.

الشرح والتفسير: سلونی قبل أن تفقدونی

أشار الإمام عليه السلام فی هذا الجانب من الخطبهٔ إلی ثلاثهٔ أمور مهمّة: الأوّل تفسير واضح لمفهوم الهجرة، فنحن نعلم أنّ الهجرة كانت من علامات الإيمان أوائل الدعوة؛ أی أنّ من آمن وكان فی سائر المناطق غير المدينهٔ ومنها مكهٔ وجب عليه الإلتحاق بالنّبی صلی الله عليه و آله فی المدينهٔ؛ لينهل من تعاليم الإسلام ويشد بحضوره شوكهٔ المؤمنين، إلّاأنّ الهجرة فقدت مفهومها كما يبدو بعد بسط الإسلام لنفوذه على الجزيرة العربيهٔ، وعليه فلم يعد من ضرورة لأنّ يلتحق بالنّبی من آمن فی سائر المناطق، غير أنّ الهجرة بمفهومها الواقعی أی جوهر الهجرة وروحها ما زال باقياً

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۲۱۰

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا المعنى من الهجرة فقال:

«وَالْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الأَوَّلِ. مَا كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرٍّ[۳۴۹] الْامَّةِ ومُعْلِنِهَا»[۳۵۰].

«إمّة»:

بكسر الهمزة فی العبارة المذكورة بمعنى (الحالة) وتشير هنا إلى الإيمان، أی الشخص الذی يكتم إيمانه، إلّاأنّ البعض قرأها بضم الهمزة ليصبح معنی العبارة، أولئك الأفراد من الأمّة الإسلاميّة الذين كتموا إيمانهم وأولئك الذين أعلنوه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعد هذا البيان الإجمالی إلی شرح معنی الهجرة بكلام رقيق فقال:

«لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَد بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وأَقَرَّ بِهَا فَهُومُهَاجِرٌ. وَلَا يَقَعُ اسْمُ الْاسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ ووَعَاهَا قَلْبُهُ»[۳۵۱].

وزبدهٔ كلام الإمام عليه السلام أنّ الهجرة باقيهٔ فی كلّ زمان ومكان على غرار عصر النّبی الأكرم صلی الله عليه و آله، لكن ليس بمعنى انتقال المؤمن من مكان إلى آخر، بل بمعنى معرفهٔ حجّة اللَّه أی خليفهٔ رسول اللَّه الحقّ، وحسب تعبير الحديث النبوی الشريف معرفهٔ إمام الزمان والإيمان به، سواء حصل هذا الأمر عن طريق الهجرة المكانيّهٔ أو بدونها، فالمهاجر الحقّ من عرف إمام زمانه، لأنّ الهدف من الهجرة الذی يتمثل فی معرفهٔ حجّة اللَّه فی الأرض قد حصل عليه، ومن لم يكن كذلك فهو مستضعف قد يكون معذوراً وقد لا يكون كذلك.

فأولئك الـذين تعـذر عليهم السبيل إلى المعرفـة هم من الطائفة الأولى (معذورون) وأولئك الذين اتيح لهم سبيل المعرفة ولم يغتنموه فهم من الطائفة الثانية (غير معذورين).

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۱۱

ويطلق «المستضعف» فى القرآن والروايات الإسلاميّة على معنيين: الأوّل:

الأفراد الـذين يعانون من الضيـق فى الحياة الماديّة كما ورد فى الآية ۵ من سورة القصـص: «وَنُرِيـدُ أَنْ نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ». هذه الآية إشارة إلى قصة بنى اسرائيل والفراعنة وتشير إلى أصل كلّى فى باب المستضعفين. الثانى: الأفراد الـذين يعانون من الضـيق من الناحيـة الدينيّة ولا يسـتطيعون الهجرة من مناطقهم وقد قال القرآن الكريم فيهم: «وَمَا لَكُمْ لَاتُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَّدُنْكَ نَصِيراً»[۳۵۲]. فهـذه الآيـة تتحـدّث عن مسـلمى مكـة الـذين تعـذرت عليهم الهجرة وضـيّق عليهم المشـركون فى أداء مناسـكهم الدينيّة بحرية وقد شـجع القرآن مسـلمى المدينة على إنقاذهم من مخالب المشـركين واطلق عليهم اسم الاستضعاف.

ولهذه المفردة معنى ثالث فى الروايات حيث يراد بها الشـخص العاجز عن تحرى الحقّ ومعرفته؛ سواء بسـبب الضعف الفكرى أو بعده عن مصادر التحقيق.

ففى الخبر سئل الإمام الباقر عليه السلام عن المستضعف فقال:

«هُو الَّذى لا يَهْتَدى حيلَةً إلَى الْكُفْرِ فَيَكْفُرُ ولا يَهْتَدى سَبيلًا إلى الإيمانِ، لا يَسْتَطيعُ أنْ يُؤْمِنَ ولا يَسْتَطيعُ أنْ يَكْفُرَ»[۳۵۳].

ومراد الإمام عليه السلام فى الخطبة هو المعنى الثالث.

وسنقدم شرحاً وافياً فى بحث التأملات بشأن حقيقة الهجرة.

ثم أشار عليه السلام إلى الأمر الثانى فقال:

«انَّ أَمْرَنا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ ۳۵۴]، لَايَحْمِلُهُ إلَّا عَبْدٌ

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۱۲

مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَلَا يَعِى ۳۵۵] حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ[۳۵۶]».

لقـد ورد مثـل هـذا التعبير فى سائر الروايات عن الأئمّـة المعصومين عليهم السـلام وربّما يكون إشارة إلى الروايات التوحيديـة العميقة المتعلقة بصـفات اللَّه الجماليّة والجلاليّة ومقامات النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمة المعصومين عليهم السلام وأفعالهم فى عالم التكوين بإذن اللَّه وشـفاعتهم الواسـعة لمذنبى الأمّة وعلمهم بالغيب وحوادث المستقبل بتعليم اللَّه تعالى والتى لا يحتملها كلّ شخص؛ ذلـك لأنّ أغلب الجهّـال يرون صـفات اللَّه على غرار صـفات المخلوق ويرون النّبى والإمـام المعصوم كسـائر النـاس العـاديين، فمن الطبيعى أن لاـ يتحمـل أمثـال هؤلاـء الأـفراد استيعـاب تلـك الأحاديث، على غرار ما جاء فى بعض خطب نهـج البلاغـة حيث إنّ أمير المؤمنين عليه السـلام حين أشـار إلى جـانب من الأخبـار الغيبيّـة اتّهمه بعض الجهّـال الـذين ضـاق عليهم قبول ذلك الكلام بالكـذب والعياذ باللَّه.

وسنتطرق إلى جانب من هذه المقامات فى آخر هذه الخطبة وبالتأكيد سوف لن يتحمله الجميع.

والعلاقـة بين هـذا القسم من الخطبـة وما ذكره الإمام عليه السـلام بشأن الهجرة أنّ من يهاجر لمعرفـة إمام زمانه عليه أن يتحلى بصـدر رحب وروح واسعة وفكر رصين ليتسنى له الانتهال من فيض هذه العيون الربانيّة الجياشة.

ثم قال عليه السلام فى الأمر الثالث:

«أَيُّهَـا النَّاسُ، سَـلُونِى قَبْـلَ أَنْ تَفْقِـدُونِى، فَلَانَـا بِطُرُقِ السَّمَـاءِ أَعْلَمُ مِنِّى بِطُرُقِ الأَـرْضِ، قَبْـلَ أَنْ تَشْـغَرَ[۳۵۷] بِرِجْلِهَا فِتْنَـةٌ تَطَأُ فِى

خِطَامِهَا[۳۵۸]،

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۱۳

وتَذْهَبُ بِأَحْلَام ۳۵۹] قَوْمِهَا».

هذا الكلام هو الآخر من الأحاديث الصعبة والمستصعبة بشأن مقامات المعصومين التى لا يتحملها الجهّال؛ إلّاأنّ عليّاً عليه السلام قالها كراراً وأجاب كلّ شخص بما سأل.

والجدير بالذكر أنّ هذا الكلام لم يقتصر على مصادر الشيعة بل رواه علماء العامّة أيضاً، قال يحيى بن سعيد بن المسيب حسب نقل الاستيعاب:

«ما كانَ أَحَدٌ مِنَ النّاسِ يَقُولُ سَلُونى غَيْرَ عَلىِّ بنِ أبى طالِب رَضِىَ اللَّهُ تَعالى عَنْهُ»[۳۶۰].

كما روى فى ذلك الكتاب عن أبى الطفيل قال: رأيت عليّاً عليه السلام خطب وقال:

«سَلُونى فَوَاللَّهِ لا تَسْأَلُوننى عَنْ شَىْ إلَّا أخْبَرْتُكُمْ؛ وسَلُونى عَنْ كِتابِ اللَّهِ فَوَاللَّهِ ما مِن آيَةٍ إلَّا وأنَا أَعْلَم أَبليل نُزِّلَتْ أمْ بِنَهار أمْ فى سَهْل أمْ فى جَبَل»[۳۶۱].

كما ورد عن عبد اللَّه بن عباس فى كتاب الاستيعاب أنّه قال:

«وَاللَّهِ لَقد اعْطِىَ عَلىُّ بْنُ أبى طالِب تِسْعَةُ أعْشارِ الْعِلْمِ وأيْمُ اللَّهِ لَقَدْ شارَكَكُمْ فِى الْعُشْرِ الْعاشِرِ»[۳۶۲].

ونختتم هذا الكلام بحديث آخر ذكره محمدبن يوسف البلخى فى كتابه، فقد روى:

نفحات الولاية ؛ ج۷ ؛ ص۲۱۳

ّ عليّاً عليه السلام خطب الناس فقال:

«سَلُونى قَبْلَ أنْ تَفْقِدُونى ...»

سلونى عن طرق السماوات فإنى أعرف بها من طرق الأرض، فقام إليه رجل من وسط القوم وقال له:

أين جبرئيل فى هذه الساعة. فرمق بطرفه إلى السماء ثم رمق بطرفه إلى المشرق ثم رمق بطرفه إلى المغرب فلم يجد موطناً فالتفت إليه وقال: يا هذا الشيخ أنت جبرئيل. فقال الرجل: بخ بخ لك يا على بن أبى طالب إنّ اللَّه يباهى بك ملائكته.

قال ذلك ثم صفق طائراً من بين الناس ۳۶۳].

وضمنياً فإنّ أعلميّته عليه السلام بطرق السماء بالنظر لأهميّتها بالنسبة للأرض.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۱۴

تأمّل

الهجرة فى الإسلام

نعلم أنّ التاريخ الإسلامى كتب على أساس الهجرة أى أنّ المسلمين لم يعتمدوا ميلاد النّبى صلى الله عليه و آله كمبدأ للتاريخ ولا بعثته، بل جعلوا المبدأ عام الهجرة وهذا يدل على أنّ أهم فصل فى حياة المسلمين كان الهجرة، والواقع أنّ الهجرة هى التى فتحت صفحة جديدة فى تاريخ الإسلام لتكون انطلاقة للحكومة الإسلاميّة وتقدم المسلمين فى جميع المجالات.

فالوسط المكى لم يستطع استيعاب الرسالة بصورة تامة رغم الدعوة النبويّة التى استمرت ثلاث عشرة سنة، لأنّ زعماء قريش الطغاة سعوا للقضاء على كلّ حركة تهدد كيانهم فى مهدها؛ حيث كانوا يرون الوثنية راعية لمصالحهم والتوحيد خطراً عليها؛ إلّاأنّ النّبى

الأكرم صلى الله عليه و آله أعدّ خلال هذه الفترة طائفة من الفتية المخلصين فأوفدهم إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها ثم التحقت بهم صفوة من أهل المدينة فاتفقوا وتعاهدوا حتى قدم رسول اللّه فاستقبل هنالك وأخذ ينشر الإسلام بكلّ حرية وتمكن من بناء مسجد.

واستمرت الهجرة كفريضة إلهية؛ أى أنّ كلّ فرد كان يعتنق الإسلام وأينما كان فى الجزيرة العربية ينبغى عليه الإلتحاق بالمدينة وشد ظهور المسلمين، أمّا أولئك الذين لم يهاجروا فلم يشملوا بالولاية الإسلاميّة حسب النص القرآنى الصريح «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَىء حَتَّى يُهَاجِرُوا»[۳۶۴].

ويبدو أنّ موضوع الهجرة قد انتهى إبان فتح مكة وبسط نفوذ الإسلام على جميع المنطقة، ولم يُعتبر الأفراد الذين قدموا إلى المدينة من مكة بعد ذلك التاريخ من المهاجرين حيث ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«لا هِجْرَةَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّة»[۳۶۵].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۱۵

ثم اتسع مفهوم الهجرة فأصبح المهاجر مَن يغادر بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، كما يعتبر من زمرة المهاجرين مَن يهجر منطقة إلى أخرى لدفع شر خصوم الدعوة، لذلك جاء فى الحديث النبوى الشريف:

«أيُّها النّاسُ هاجِرُوا وتَمَسَّكُوا بِالْاسْلامِ فَإنَّ الْهِجْرَةَ لا تَنْقَطِعُ مادامَ الْجِهادُ»[۳۶۶].

ثم تجاوزت الهجرة هذا المعنى لتشمل الهجرة الباطنيّة والمعنويّة بالإضافة إلى الهجرة المكانيّة والخارجيّة، فقد ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«وَالْمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطايا والذُّنُوبَ»[۳۶۷].

كما ورد عن على عليه السلام أنّه قال:

«يَقُولُ الرّجلُ هاجَرْتُ ولَمْ يُهاجِرْ إنّما الْمُهاجِرُونَ الَّذينَ يَهْجُرُونَ السَّيئاتِ ولَمْ يَأْتُوا بِها»[۳۶۸].

وعلى هذا الضوء فمن يهاجر من مكان إلى آخر دون أن تكون له هجرة معنوية وباطنيّة، أى لا يبتعد عن الذنوب والمعاصى، فهو ليس فى زمرة المهاجرين الواقعيين.

ويبدو دليل هذا الاتساع فى مفهوم الهجرة واضحاً، لأنّ روح الهجرة وجوهرها الانتقال من الكفر إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة.

ومن هنا يدخل فى دائرة الهجرة مَن عرف إمام كلّ زمانه ثم سارع إلى الإلتحاق به لنيل المعارف الدينيّة كما ورد فى الخطبة.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۱۷

الخطبة ۱۹۰

اشارة

يَحْمَدُ اللَّهَ ويُثْنى عَلى نَبِيِّهِ ويَعِظُ بِالتَّقْوى ۳۶۹]

نظرة إلى الخطبة

تعدّ هذه الخطبة من أبلغ خطب أمير المؤمنين عليه السلام وتتكون من عدّة أقسام:

القسم الأوّل: فى حمد اللّه والثناء عليه والشهادة للنبى صلى الله عليه و آله بالنبوة والرسالة وتطرق فيها لنصره صلى الله عليه و آله على أعدائه بلطف اللّه.

القسم الثانى: تضمّن التأكيد على مسألة التقوى، فقد دعى الجميع إلى الاستعداد لسفر الآخرة والحديث عن نهاية الحياة وخطورة الموت والحوادث التى تعقبه.

القسم الثالث: الحديث عن المصير المشرق للصالحين فى الدار الآخرة ونعم الجنّة العظيمة والسكينة التامة والثواب الأُخروى العظيم الخالد ضمن التأكيد على

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۱۸

تقلب الدنيا وشرح العذاب الأخروى الذى ينتظر المجرمين فى الآخرة.

القسم الرابع: عاد الإمام عليه السلام إلى ما بيّنه فى القسم الثانى من الخطبة ليحث الجميع بعبارات جديدة على التأهب للرحيل إلى عالم الآخرة.

القسم الخامس وهو القسم الأخير من الخطبة: خاطب فيه الإمام عليه السلام أصحابه وحذرهم من التسرع والقيام بالنهضات غير المجدية والقرارات الساذجة بغية نيل الشهادة وأمثال ذلك، وصرّح بأنّ الشهادة ستكون من نصيب من سار على الطريق المستقيم وإن مات على فراشه.

***

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۱۹

القسم الأوّل

اشارة

أَحْمَدُهُ شُكْراً لإِنْعامِهِ، وأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ، عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ.

وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَاداً عَنْ دِينِهِ؛ لَايَثْنِيهِ عَنْ ذلِكَ اجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ، والْتِمَاسٌ لإِطْفَاءِ نُورِهِ.

الشرح والتفسير: نبى الرحمة والجهاد

استهل الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبة بحمد اللّه والثناء عليه فقال:

«أَحْمَدُهُ شُكْراً لإِنْعامِهِ، وأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ؛ عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ[۳۷۰]».

التعبير ب

«الوظائف والحقوق»

لعله إشارة إلى الواجبات الدينيّة كالصوم والصلاة والخمس والزكاة التى لا تتمّ بصورة كاملة إلّابتوفيق اللّه، ويمكن أن تكون إشارة إلى حقوق اللّه التى تفرزها نعمه كنعمة الأذن والعين والعقل والفتوة والمعافاة والتى يتطلب كل واحدة منها شكراً.

ثم خاض فى الشهادة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالرسالة وبعض صفاته فقال:

«وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَاداً عَنْ دِينِهِ؛ لَايَثْنِيهِ [۳۷۱] عَنْ ذِلِكَ اجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ، والْتِمَاسٌ لإِطْفَاءِ نُورِهِ».

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۲۰

فقـد أشـار الإمـام عليه السـلام فى هـذا الجـانب من خطبته إلى نقطتين مهمتين فى سـيرة النّبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله؛ الأولى أنّه منتصـر دائماً فى قتاله لأعـدائه، وهـذا دليل واضـح على زعامته صـلى الله عليه و آله وخططه فى مواجهـة الأعداء وخصوم الدعوة، إلى جانب الإمداد الغيبى والعناية الإلهيّة.

والأـخرى أنّ اتحاد الأعـداء ووقوفهم بوجهه لم يؤثر على عزمه وإرادته صـلى الله عليه و آله ويصـرفه عن دعوته، فكان يحث الخطى- بصبرٍ على المصاعب- نحو هدفه حتى بلغه.

ومن الحوادث التاريخيـة المعروفـة عنـدما جاء رؤوساء قريش إلى أبى طالب وأرادوا أن يكلّموا النبى صـلى الله عليه و آله وقالوا له: يا محمّـد إنا قـد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنا واللّه ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك لقـد شـتمت الآباء، وعبت الـدين، وشـتمت الآلهـة، وسـفهّت الأحلام، وفرّقت الجماعـة .. فإن كنت إنّما جئت بهـذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنـا حتى تكون أكثرنـا مالًا، وإن كنت إنّما تطلب به الشـرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريـد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هـذا التى يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك- وكان يسـمّون التابع من الجن رئياً- فربّما كان ذلك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه، فقال لهم:

«مـا جِئتُ بِما جِئتُكُم بِهِ أطلبُ أموالَكُم ولا الشّـرف فِيكُم، ولا المُلك عليكُم، ولكنّ اللّه بَعَثَنِى إلَيكُم رَسُولًا، وَأنزَلَ عَلىَّ كِتابَاً، وَأَمِرنِى أنْ أكُونَ لَكُم بَشِـيراً ونَـذِيراً، مُبَلِّغُكُم رِسالاـتِ رَبّى ونَصـحتُ لَكُم، فـإنْ تَقبَلُوا مِنّى مـا جِئتُكُم بِهِ فَهَو حَظّكُم فِى الـدُّنيا وَالآـخرةِ، وإنْ تَردُّوهُ عَلىَّ أصبِر لأمرِ اللّهِ حَتّى يَحكُمَ اللّهُ بَينى وَبَينَكُم»[۳۷۲].

وكـذلك عنـدما جـاء روءسـاء قريش إلى أبى‌طـالب وقالوا: أنت شـيخنا وكبيرنا وقـد آتيناك تقضـى بيننا وبين ابن أخيك، فإنّه سـفّه أحلامنا، وشتم آلهتنا، فدعا أبو طالب

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۲۲۱

رسول اللّه صلى الله عليه و آله وقال: يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك، فقال:

«مَاذا يَسألُونَنى؟»

، قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وآلهك، فقال:

«أتُعطُونَنى كلِمَةً واحدَةً تَملِكُونَ بِها العربَ والعَجمَ؟»

، فقال له أبوجهل: للّه‌أبوك نعطيك ذلك عشر أمثالها، فقال:

«قُولُوا: لاإله إلّا اللّه»

، فقاموا وقالوا: «أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إلَهاً وَاحِداً إنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ»[۳۷۳].

وروى أنّ النبى صلى الله عليه و آله استعبر ثم قال:

«يا عَمّاهُ لَو وُضِعَتِ الشَّمْسُ فى يَمينى والْقَمَرُ فى شِمالى ما تُرِكَ هذَا الْقَوْلُ حَتّى أنْفَذَهُ أو أُقْتَلَ دُونَهُ»

، فقال له أبوطالب:

امض لأمرك فواللّه لا أخذلك أبداً[۳۷۴].

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۲۲۳

القسم الثانى

اشارهٔ

فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلًا وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، ومَعْقِلًا مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ.

وبَادِرُوا الْمَوْتَ وغَمَرَاتِهِ، وامْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ فانَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ؛ وكَفَى بِذلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، ومُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ! وقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ الْأَرْمَاسِ، وشِدَّةِ الْإبْلَاسِ، وهَوْلِ الْمُطَّلَعِ، ورَوْعَاتِ الْفَزَعِ، واخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ، واسْتِكَاكِ الْأَسْمَاعِ، وظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وخيفَةِ الْوَعْدِ، وغَمِّ الضَّرِيحِ، وَرَدْمِ الصَّفِيحِ.

الشرح والتفسير: الأهوال القادمة

خاض الإمام عليه السلام بعد حمد اللّه والثناء عليه والشهادة للنبى صلى الله عليه و آله بالرسالة، فى موضوع مهم ومصيرى فى حياة الإنسان ألا وهو التقوى فقال:

«فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلًا وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، ومَعْقِلًا[۳۷۵] مَنِيعاً[۳۷۶] ذِرْوَتُهُ[۳۷۷]».

فالواقع أنّ عالم الدنيا بمنزلة البئر الذى يتعذر الخلاص من مخاطره سوى من خلال التمسك بحبل متين ألا وهو التقوى، ثم شبّه التقوى بالحصن الحصين حيث ينجو مَن تحصّنَ فيه من الأخطار أو كقمة الجبل المنيعة وعلى هذا الأساس فإنّ التقوى وسيلة للنجاة من حضيض الذلّة إلى ذروة السعادة والعزّة كما أنّها الدرع الذى يقى الإنسان عواصف الشهوات والهوى والهوس.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۲۴

ثم تعرض الإمام عليه السلام إلى أهم وسائل العبرة والعظة فرسمها بصورة دقيقة ومعبرة فقال:

«وبَادِرُوا الْمَوْتَ وغَمَرَاتِهِ،[۳۷۸] وامْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ:

فانَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ؛ وكَفَى بِذلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، ومُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ!».

فمن الطبيعى أنّه ينبغى للشخص المقبل على سفر مليىء بالأخطار والذى لا عودة فيه، من التأهب التام له وتوفير جميع السبل التى تلزم للمسير إليه وهو السفر المعروف بسفر الآخرة الشاق، وممّا لا شك فيه أنّه ليس هنالك أى خشية أو قلق إن اتجه الإنسان إليه بصحيفة أعمال مليئة بالحسنات وخالية من السيئات، وهنا خاض الإمام عليه السلام فى ذكر جانب من الحوادث المريرة للموت والقبر فقال:

«وقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ الْأَرْمَاسِ ۳۷۹]، وشِدَّةِ الإِبْلَاسِ ۳۸۰]، وهَوْلِ الْمُطَّلَعِ ۳۸۱]، ورَوْعَاتِ ۳۸۲] الْفَزَعِ، واخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ ۳۸۳]، واسْتِكَاكِ ۳۸۴] الْأَسْمَاعِ، وظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وخيفَةِ الْوَعْدِ، وغَمِّ الضَّرِيحِ ۳۸۵]، وَرَدْمِ ۳۸۶] الصَّفِيحِ ۳۸۷]».

بالإلتفات إلى أنّ الموت لا يعنى لنا انتهاء كلّ شيء حيث تبقى الروح بعد الموت تعيش الحياة الأخرى الخالدة، فإنّ القبور الضيقة والمظلمة مقارنة بالبيوت الواسعة والجميلة تبدو غاية فى الوحشة إلى جانب القلق المتعلق بضغطة القبر والخوف من

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۲۵

المستقبل وفقد الأعزّة والأحبّة والشعور بالوحدة المطلقة وتآكل أعضاء الجسم تحت التراب وبالتالى الانتقال من الوسط الهادىء والمرفه إلى الوسط المرعب، كلّ ذلك من الأمور التى يهتز لها الإنسان لمجرّد التفكير بها فيحذر الإمام عليه السلام من ضرورة التأهب لمثل هذا السفر الشاق والمليىء بالأخطار.

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام جسّد لمخاطبيه بهذه العبارات العشر الفصيحة والبليغة كلّ الأمور ذات الصلة بالموت والقبر وكأنّهم يرونها عياناً؛ وهى الأمور التى ينتظرها الجميع دون استثناء والتفكير فيها ينتشل الإنسان من نوم الغفلة مهما كانت عميقة فيوقظه ويجبره على إصلاح أعماله وأقواله.

ولعل هذا هو السبب فى ما ورد من الوصايا الإسلاميّة التى توصى بوضع الميت على الأرض قبل وضعه فى قبره حين يحمل إليه والتريث مدّة ثم التقدم ووضعه ثانية على الأرض والصبر مدّة أخرى وهكذا حتى يرد ذاك الموضع الموحش ۳۸۸].

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۲۷

القسم الثالث

اشارة

فَاللَّهَ اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَن، وأَنْتُمْ والسَّاعَةُ فِى قَرَن. وكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، ووَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا. وكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بزَلَازِلِهَا، وأَنَاخَتْ بِكَلاكِلِهَا، وانْصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْم مَضَى، أَوشَهْر انْقَضَى، وصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً، وسَمِينُهَا غَثًّا. فِى مَوْقِف ضَنْكِ الْمَقَام، وأُمُور مُشْتَبِهَة عِظَام، ونَار شَدِيد كَلَبُهَا، عَال لَجَبُهَا، سَاطِع لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّج سَعِيرُهَا، بَعِيد خُمُودُهَا، ذَاك وُقُودُهَا، مَخُوف وَعِيدُهَا، عَم قَرَارُهَا، مُظْلِمَة أَقْطَارُهَا، حَامِيَة قُدُورُهَا، فَظِيعَة أُمُورُهَا. (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً) قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ، وانْقَطَعَ الْعِتَابُ؛ وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ، واطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، ورَضُوا الْمَثْوَى والْقَرَارَ. الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وكانَ لَيْلُهُمْ فِى دُنْيَاهُمْ نَهَاراً، تَخَشُّعاً واسْتِغْفَاراً؛ وكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا، تَوَحُّشاً وانْقِطَاعاً. فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآباً، والْجَزَاءَ ثَوَاباً، (وكانُوا أَحَقَّ بِهَا وأَهْلَهَا) فِى مُلْك دَائِم، ونَعِيم قَائِم.

الشرح والتفسير: أهوال المحشر!

مـا أن فرغ الإمام عليه السـلام من التـذكير بالموت وشدائـده حتى حث الجميع على الاسـتعداد والتأهب لهـذا السـفر الخطير والمرعب فتحدث بعبارات رائعة عن بداية القيامة واختتام الدنيا فقال:

«فَاللَّهَ اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۲۸

سَنَن ۳۸۹]، وأَنْتُمْ والسَّاعَةُ فِى قَرَن ۳۹۰]. وكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا[۳۹۱]، وأَزِفَتْ ۳۹۲] بِأَفْرَاطِهَا[۳۹۳]، ووَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا. وكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلازِلِهَا، وأَنَاخَتْ ۳۹۴] بِكَلَاكِلِهَا[۳۹۵]».

العبارة:

«وأَنْتُمْ والسَّاعَةُ فِى قَرَن»

وبالإلتفات إلى أنّ القرن هو الحبل الذى يربط به البعيران، إشارة إلى أنّ المسافة بينكم وبين القيامة ليست بعيدة، كما يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى القيامة الصغرى أى الموت أو القيامة الكبرى بمعنى يوم القيامة، ذلك لأنّ عمر الدنيا مهما كان فهوقليل ولابدّ أن تحل القيامة، والفارق بين العبارة

«وكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا»

والعبارة

«وأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا»

هو أنّه قال فى العبارة الأُولى قد جاءت علامات الآخرة بينما تطرق فى العبارة الأخرى إلى توفر مقدماتها.

وذهب البعض إلى أنّ العبارة

«وأَنَاخَتْ بِكَلَاكِلِهَا»

إشارة إلى مصاعب القيامة، فالبعير حين ينام ويلصق صدره بالأرض يقذف بثقله على الأرض، لكن لا يبعد أن تكون إشارة قضية الموت والقيامة كالناقة التى تنام على عتبة أبواب الجميع. كناية عن أنّ أحداً؛ لا ينجو منه.

ثم قال بشأن أوضاع الدنيا:

«وانْصَرَمَتِ الدُّنْيا بِأَهْلِهَا، وأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا[۳۹۶]،

فَكَانَتْ كَيَوْم مَضَى أَوشَهْر انْقَضَى، وصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً[۳۹۷]، وسَمِينُهَا غَثّاً[۳۹۸]».

نعم، فأولئك الذين كانت أعمارهم قصيرة كأنّها بمثابة يوم ومن عمّر طويلًا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۲۹

فكأنّه عاش شهراً.

العبارة:

«أَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا»

إشارة إلى أنّ الدنيا أخذتهم مدّة بأحضانها ثم رمتهم إلى الموت وتشير العبارات

«صَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً، وسَمِينُهَا غَثّاً»

إشارة إلى تقلب جميع نعم الدنيا فالجديد يصبح قديماً ويزول والسمان يضعفون ويودعون هذا العالم.

ثم واصل عليه السلام كلامه عن وضع الإنسان في نهاية الدنيا ليخوض في مواقف القيامة وكان هنا كلام مقدر وربّما لم يورد السيد الرضي بعض العبارات على طريقته في الاقتطاف ليصف العصاة الظلمة حين يردون المحشر ويرون ذلك المشهد المرعب فقال:

«فِي مَوْقِف ضَنْكِ ۳۹۹] الْمَقَامِ، وأُمُور مُشْتَبِهَة عِظَام، ونَار شَدِيد كَلَبُهَا[۴۰۰]، عَال

لَجَبُهَا[۴۰۱]، سَاطِع لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّج ۴۰۲] سَعِيرُهَا، بَعِيد خُمُودُهَا، ذَاك ۴۰۳] وُقُودُهَا،

مَخُوف وَعِيدُهَا، عَم ۴۰۴] قَرَارُهَا، مُظْلِمَة أَقْطَارُهَا، حَامِيَة قُدُورُهَا، فَظِيعَة أُمُورُهَا».

يشير التعبير بالموقف إلى مشهد القيامة أو مشهد جهنّم، بقرينة الصفة التي جاءت بعد ذلك وجدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام بيّن بهذه العبارات والصفات الاثنتى عشرة التي وصف بها نار جهنم جميع هذه الاعجازات الإلهيّة بدقّة متناهية وفصاحة تامة بحيث يقضّ مضاجع الآثمين.

النار المحرقة والخطيرة، النار الشديدة اللهيب والتي تتداعى منها تلك الأصوات الرهيبة بفعل ما يحدث فيها من انفجارات، فهي لا تخمد أبداً ودخانها كثيف وقاتل تلتهم كلّ ما حولها بحيث تحيل النهار الواضح إلى ظلمة مطلقة.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۳۰

فالإمام عليه السلام يشير إلى هذه الصفات وكأنّه يراها بأُم عينيه خلف حجب الغيب.

ثم خاض عليه السلام في أوضاع أهل الجنّة فرسم لها صورة دقيقة بما يؤجج نيراناً من الشوق في قلوب المؤمنين فقال مستشهداً بالآية الكريمة: « «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً[۴۰۵]»

: قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ؛ وزُحْزِحُوا[۴۰۶] عَنِ النَّارِ، واطْمَأَنَّتْ

بِهِمُ الدَّارُ، ورَضُوا الْمَثْوَى والْقَرَارَ».

حيث أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيرة إلى خمسة امتيازات عظيمة لهذه الطائفة الورعة من أصحاب الجنّة والتي يمكن خلاصتها في السكينة والطمأنينة المطلقة حيث الأمان من العذاب وغياب العتاب وابتعاد عن النار والاستقرار التام في الجنّة والرضا بهذه العاقبة.

آنذاك خاض الإمام عليه السلام في شرح جانب من أعمال هذه الفئة فقال:

«الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيا زَاكِيَةً، وأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً، تَخَشُّعاً واسْتِغْفَاراً؛ وكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا، تَوَحُّشاً وانْقِطَاعاً».

حيث رسم الإمام عليه السلام بهذه الصفات الأربع مقامهم الرفيع بأجمل الصور ليعتبره العنصر الذى جعلهم من أصحاب الجنّة.

فمن جانب كانت أعمالهم فى الدنيا طاهرة ونقية عن الرياء والعجب والفخر، وكانت أعينهم باكية من خشية اللَّه وعلى مصاب المظلومين من عباد اللَّه، ومن جانب آخر كانوا ينقطعون فى الليل للتهجد والعبادة والخشوع والخضوع والاستغفار كما كان نهارهم ليلًا بسبب ابتعادهم عن أهل الدنيا والتنازع على المتع الماديّة فلا يعيشون سوى الانقطاع إلى اللَّه، نعم هذه هى صفات أصحاب الجنّة من ذوى المقامات الرفيعة والسعداء من أصحاب النجاة فاستحقوا بذلك تلك الدرجات، ومن هنا اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآباً، والْجَزَاءَ ثَوَاباً،

«وكانُوا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۳۱

أَحَقَّ بِهَا وأَهْلَهَا»[۴۰۷]

فِى مُلْكٍ دَائِمٍ، ونَعِيمٍ قَائِمٍ».

وعلى هذا الضوء فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أهليتهم واستعدادهم بالإضافة إلى أجرهم وثوابهم العظيم، فقد حاربوا هوى أنفسهم مدّة قليلة وأثبتوا أهليتهم ورفعة مقامهم من خلال عبادتهم لربهم وخشيتهم منه وسهرهم الليالى بالعبادة وإخلاصهم للَّه تعالى فأفاض اللَّه الجواد الكريم عليهم عظيم أجره وثوابه الذى يفوق تلك الأعمال والذى لا يعرف من معنى للزوال والفناء.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۳۳

القسم الرابع

اشارة

فَارْعَوْا عِبَادَ اللَّهِمَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ.

وبَادِرُوا آجَالَكُم بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، ومَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ. وكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ، فَلَا رَجْعَةً تَنَالُونَ، وَلَا عَثْرَةً تُقَالُونَ.

اسْتَعْمَلَنَا اللَّهُ وإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وطَاعَةِ رَسُولِهِ، وعَفَا عَنَّا وعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير: الاستعداد للرحيل

تابع الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة فى بيانه لمصير الطالحين والصالحين حين الموت وفى القيامة، مطلباً يؤدّى إلى النجاة والتوفيق حين الموت والعرض على اللَّه فقال:

«فَارْعَوْا عِبَادَ اللَّهِ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ ۴۰۸]».

من الواضح أنّ عبارة الإمام عليه السلام البليغة هذه إشارة إلى التقوى والعمل الصالح الذى يدعو إلى الفلاح بينما يدعو التولى عنه إلى الفشل والخسران كما صرح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلًا: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ»[۴۰۹].

ثم واصل كلامه فى الحديث عن قصر عمر الإنسان وذمّ التعويل على ما بقى منه

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۳۴

والإبهام الذى يحيط بلحظة الموت فدعى الجميع لادّخار العمل الصالح والمسارعة للخيرات فقال:

«وبَادِرُوا آجَالَكَمْ بِأَعْمَالِكَمْ؛ فَإِنَّكَمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، ومَدِينُونَ ۴۱۰] بِمَا قَدَّمْتُمْ».

يا له من تعبير رائع (التعبير بالرهن والدين) بالنسبة للذنوب السالفة وكأنّ الذنوب تطوق عنق الإنسان كدين ليكون بمنزلة المرهون بكلّ كيانه إزاء هذا الدين فلا ينفك عنه ما لم يتب ويبادر إلى تلافى ما فرط منه بالعمل الصالح، الأمر الذى أكده القرآن الكريم: «كُلُّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ»[۴۱۱].

ورد فى الحديث النبوى الشريف (الخطبة الشعبانيّة فى أهميّة شهر رمضان):

«أَيُّهَا النّاسُ إنَّ أَنْفُسَكُمْ مَرْهُونَةُ بِأَعْمالِكُمْ فَفُكُّوها بِاسْتِغْفارِكُمْ»[۴۱۲].

ثم حذر الجميع فقال:

«وكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ، فَلَا رَجْعَةً تَنَالُونَ، وَلَا عَثْرَةً تُقَالُونَ ۴۱۳]».

فالحقيقة هى أنّ الإمام عليه السلام يشير إلى هذه النقطة وهى أنّ الموت يمكن أن يأتىالإنسان فى كلّ حادثة لا سيما أننا نرى موت الفجأة أثر السكتة القلبيّة أو سائر حوادث الموت الذى لا عودة فيه والتى تعجز أمامه جميع الأسباب الظاهريّة، ثم اختتم الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبة بدعاء قصير وجامع فقال:

«اسْتَعْمَلَنَا اللَّهُ وإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وطَاعَةِ رَسُولِهِ، وعَفَا عَنَّا وعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ».

نفحات الولايۀ، ج۷، ص: ۲۳۵

القسم الخامس

اشارة

إلْزَمُوا الأَرْضَ، واصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ. وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُم وسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بما لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ. فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وهُوعَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وحَقِّ رَسُولِهِ وأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً، ووَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، واسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلَاتِهِ لِسَيْفِهِ؛ فانَّ لِكُلِّ شَيء مُدَّةً وأَجَلًا.

الشرح والتفسير: لكلّ شيء أجل ومدّة

خاطب الإمام عليه السلام فى القسم الأخير من هذه الخطبة أولئك الذين يتطلعون إلى الشهادة بفارغ الصبرودون تروٍ ويتعجلون فى مواجهة العدو بعيداً عن تخطيط الإمام عليه السلام فقال:

«إلْزَمُوا[۴۱۴] الأَرْضَ، واصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ. وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ

وسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بما لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ».

فكما أنّ هنالك من يتهرب من الجهاد فى سبيل اللّه، هنالك من يتعجل ويبغى الشهادة قبيل أوانها، ورغم أنّ نيّات هؤلاء الأفراد مقدسة لكن الأعمال التى لا تخضع للتخطيط وتسبق أوانها تنطوى على العديد من الأخطاء والانعكاسات السلبيّة.

ومن هنا نهى الإمام عليه السلام عن مثل هذه الأفعال ثم قال بصيغة دليل لما ذكر:

«فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وهُوعَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وحَقِّ رَسُولِهِ وأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ

نفحات الولايۀ، ج۷، ص: ۲۳۶

شَهِيداً، ووَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، واسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلَاتِهِ ۴۱۵] لِسَيْفِهِ».

واختتمها بالعبارة:

«فانَّ لِكلِّ شَىء مُدَّةً وأَجَلًا».

وتبدو هذه العبارة مجدية فى كلّ عصر وزمان وتشكل رداً حاسماً على المتسرعين من الأفراد من ذوى النيات الطاهرة الذين ربّما يعشقون الجهاد والشهادة لكنهم لا يميزون الوقت المناسب من غير المناسب فهم يتحرقون على الدوام ويمارسون بعض الضغوط على زعامتهم إلّاأنّ الزعيم الحكيم من لا يستجيب للضغوط ولا يتعجل النتائج، لكنه يبشرهم بأنّ اللَّه سيثيبهم على تلك النيات إن كانوا صادقين فى دعواهم وإيمانهم بالمبدأ والمعاد والنّبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام فسيحصلون لا شك على ثواب المجاهدين فى سبل اللَّه والشهداء ولا- يصدق هذا الكلام على الجهاد والشهادة فحسب بل يشمل جميع أفعال الخير التى ينبغى ممارستها فى وقتها المناسب، وقد وردت مثل هذه العبارة فى الخطبة الخامسة من نهج البلاغة بتعبير آخر إذ قال:

«ومُجْتَنِى الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْت ايناعِها كَالزّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ».

ويصدق هذا الكلام على عصرنا وزماننا إذ إنّ هنالك طائفة تسعى لمواجهة المنافقين فى الداخل والأعداء فى الخارج دون التطلع إلى الفرصة المناسبة والتخطط الدقيق، أو تعيش حالة من الانتظار الممل لظهور الإمام المهدى عليه السلام والقتال بين يديه والذى يقال لجميع هؤلاء إنّ اللَّه سيعطيكم أجر المجاهدين والشهداء إن صدقتم فى إيمانكم وأخلصتم فى نيّاتكم.

تأمّل

الثورات المتعجلة

قد يضيق البعض ذرعاً فى المجتمعات التى تعيش حالة من المعاناة بفعل العدو

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۳۷

الداخلى أو الخارجى فيعمد إلى القيام بالثورة فى غير وقتها، الأمر الذى لا يؤدّى إلى فشل تلك الثورة فحسب بل يوقظ العدو ويسلب زمام المبادرة فى المستقبل، وهذه إحدى المعضلات التى تواجه القيادات الحكيمة.

وقد حفل تاريخ التشيع بالعديد من هذه الثورات المتعجلة عقب واقعة كربلاء والتى جوبهت بالنهى من جانب الأئمّة عليهم السلام، مع ذلك فقد التحق بها بعض من اشياعهم المخلصين.

والقضية المهمّة هى أنّ الثورة ضد العدوبغية القضاء عليه تتطلب العديد من الشروط التى يسعى القائد الحكيم لتوفرها جميعاً لتفضى الثورة إلى نتائجها المتوخاة منها.

فالقائد عادة يرى ما لا يراه الفرد العادى ويتمتع بسعة افق تجعله يرى ويفكر فى ما خلف هذا الواقع، والذى تفيده هذه الخطبة أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام ورغم كونه أعظم بطل ومجاهد فى الإسلام قد عانى من مثل هؤلاء الأفراد إلى جانب أولئك المتقاعسين عن الجهاد.

فقد عانى فى الواقع من افراط وتفريط هاتين الطائفتين.

فبعض الأفراد لا يكاد يسمع الآيات والروايات الواردة فى مقام الشهداء وثواب الشهادة ودعوة الناس لهذا المضمار حتى يعيشوا حالة عجيبة من عشق الشهادة، إلّا أنّ الإمام عليه السلام يريهم أفضل سبيل والذى تلخص فى نصحهم عدم الاستعجال واليقين بأنّ اللَّه سيعطيهم أعظم الأجر والثواب إن صدقوا فى إيمانهم وأخلصوا فى نيّاتهم.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۳۹

الخطبة ۱۹۱

اشارة

يَحْمَدُاللَّهَ ويُثْنى عَلى نَبِيِّهِ ويُوصى بِالزُّهْدِ والتَّقْوى ۴۱۶]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة فى الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: فى حمد اللَّه والثناء عليه المقرون بذكر النعم وجانب من صفات الجلال والجمال، ثم الشهادة للنّبى صلى الله عليه و آله بالرسالة وتوضيح الظروف التى بعث فيها النّبى وهداية الأمّة.

القسم الثانى: الحديث عن التقوى وبركاتها والوصيّة بالتمسك بهذه العروة الإلهيّة فى جميع شؤون الحياة.

القسم الثالث: تحذير أصحاب الدنيا من الغرور بها والكشف عن الدنيا وعيوبها ليعتبر بذلك الآخرون.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۴۱

القسم الأوّل

اشارة

ألْحَمْدُ للَّهِ الْفَاشِى فِى الْخَلْقِ حَمْدُهُ، والْغَالِبِ جُنْدُهُ، والْمُتَعَالِى جَدُّهُ أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ التُّؤَام، وآلَائِهِ الْعِظَام. الَّذِى عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وعَدَلَ فِى كُلِّ مَا قَضَى، وعَلِمَ مَا يَمْضِى ومَا مَضَى، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ، ومُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلَا اقْتِدَاء وَلَا تَعْلِيم، وَلَا احْتِذَاء لِمِثَالِ صَانِع حَكِيم، وَلَا إِصَابَةِ خَطَأ، وَلَا حَضْرَةِ مَلَا.

وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، ابْتَعَثَهُ والنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِى غَمْرَة، ويَمُوجُونَ فِى حَيْرَة. قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ، واسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ.

الشرح والتفسير: بديع خلق اللَّه

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة التى تعدّ من أفصح خطبه عليه السلام بحمد اللَّه والثناء عليه ووصفه بثلاث صفات فقال:

«ألْحَمْدُ للَّهِ الْفَاشِى ۴۱۷] فِى الْخَلْقِ حَمْدُهُ، والْغَالِبِ جُنْدُهُ،

والْمُتَعَالِى جَدُّهُ».

التعبير

«الْفَاشِى فِى الْخَلْقِ حَمْدُهُ»

التى تفيد سعة حمد اللَّه فى جميع مخلوقاته يمكن أن تشير إلى حمده من قِبل الأقوام المؤمنة والثناء عليه، أو إشارة إلى الحمد والثناء التى تعيشه موجودات العالم كافّة ولا سيما إزاء نعم اللَّه بلسان الحال والقال فتسبح اللَّه وتقدسه وتحمده، وغلبة جند اللَّه تستند إلى أنّ

جند اللَّه تعالى لا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۴۲

يقتصرون على ملائكته سبحانه بل كلّ ما فى العالم، وليس لأحد مقاومته والوقوف بوجهه: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ»[۴۱۸].

والعبارة:

«وَالْمُتَعَالِي جَدُّهُ»

اقتباس من الآية الشريفة: «وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا»[۴۱۹] وبالإلتفات إلى أنّ الجَدّ هنا تعنى العظمة فإنّها إشارة لعظمة الذات الإلهيّة المقدّسة[۴۲۰].

ثم ركز الإمام عليه السلام على النعم الماديّة والمعنويّة ليحمد اللَّه ويثنى عليه إزاء تلك النعم فقال:

«أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ التُّؤَام ۴۲۱]، وآلَائِهِ الْعِظَام».

بالنظر إلى أنّ (تؤام) على وزن (غلام) جمع (توأم) على وزن (جوهر) بمعنى الأشياء المقترنة مع بعضها فإنّها تشير إلى النعم الإلهيّة التى تكون عادة متصلة ومتتالية، فمثلًا نعمة اللسان هى وسيلة للتكلّم وكذلك عنصر لدفع الطعام تحت الأسنان بغية مضغه من جانب كونه وسيلة مهمّة لابتلاع الطعام وتذوق الأطعمة وللاطلاع على سلامة الطعام من فساده وهكذا سائر النعم التى لا تعدّ ولا تحصى، وهل يطيق الإنسان احصاء نعم اللَّه وأفضاله؟

ويمكن أن تكون «آلاء» مقابل «نعم» إشارة إلى النعم المعنويّة فى مقابل النعم الماديّة، ثم خاض فى معرفة اللَّه فحمده واثنى عليه وذكره بخمس صفات من شأن كلّ واحدة منها أن تكون دافعاً لحمد اللَّه والثناء عليه فقال عليه السلام:

«الَّذِى عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وعَدَلَ فِى كُلِّ مَا قَضَى، وعَلِمَ مَا يَمْضِى ومَا مَضَى، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ، ومُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ».

فهذه الصفات الخمس التى تنطلق من سعة حلم اللَّه تعالى وتنتهى بخلق الخلائق

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۴۳

وابداع الكائنات تعدّ أهم صفات اللَّه التى تشمل العلم والقدرة والعدالة واللطف والرحمة.

ثم أشار إلى هذه الحقيقة أن خلق اللَّه تعالى دون أدنى سابقة تعلم وتجربة ومشورة فقال عليه السلام:

«بِلَا اقْتِدَاء وَلَا تَعْلِيم، وَلَا احْتِذَاء[۴۲۲] لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيم، وَلَا إِصَابَةِ

خَطَإ، ولَا حَضْرَةِ مَلَا».

فالواقع إنّ الشخص الذى يستلهم من الآخرين فى صناعته إنّما يستند إلى ذلك فى واحدة من طرق خمسة:

الأوّل: أن يقلد غيره، والثانى: أن يتعلم، والثالث: أن يرى صناعة عالم غيره فيستفيد منها فى تحقيق غرضه، والرابع: الاستفادة من أخطائه السابقة والخروج بتجربة، والخامس: أن يستشير جماعة معينة ويتعاون معها، أمّا اللَّه الصانع الحكيم فخلقه لا يستند إلى سابقة وغنى عن كلّ ما قيل سابقاً ومن هنا يطلق على خلقه الابداع (الخلق دون سابقة).

وتبدو هذه المسألة فى غاية الأهميّة إذ إنّ الإنسان مهما صنع ومهما ابدع وابتكر إنّما شاهد نماذج ذلك فى عالم الخلق؛ فمثلًا الذين اخترعوا الطائرة فممّا لا شك فيه أنّهم استفادوا واستلهموا تصميمها من الطيور، ومن هنا كان هنالك شبه كبير بين أنواع الطائرات وأنواع الطيور، وفى نفس الوقت وبغية تحقيق أهدافهم عليهم أن يستفيدوا من علوم السابقين وتجاربهم ويقوموا باختباراتهم الواسعة والمتكررة ليتمكنوا من تلافى أخطائهم عن طريق الاختبار والتجربة، وعادة ما يعمدون إلى تشكيل بعض المجالس وعقد المؤتمرات والندوات لهذا الغرض والحال فإنّ الصانع الحكيم ليس بحاجة إلى أى من هذه الأمور فى خلقه الواسع والأنواع الخارجة عن الحدود من مخلوقاته.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من حمد اللَّه والثناء عليه خاض فى الشهادة للنبى صلى الله عليه و آله

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۴۴

بالرسالة والأوضاع على عهد بعثته ليشرحها بعبارات قصيرة وعظيمة المعنى وليكشف النقاب عن مضمون تلك الدعوة فتبدو واضحة وجلية وملموسة، فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ؛ ابْتَعَثَهُ والنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ[۴۲۳]، ويَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ. قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ [۴۲۴]، واسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ [۴۲۵]».

فقد استعار الإمام عليه السلام عدة تشبيهات لرسم صورة واضحة لِما كانت عليه الناس فى العصر الجاهلى؛ فقد شبههم أحياناً بالشخص الـذى وقع فى ورطـة مرعبـة فهو لا ينفك عن الصـراخ وطلب النجـدة، وأحياناً أخرى شـبههم بأنّ أزِمَّهم انيطت بأيـدى أفراد فاسـدين مفسدين لا يقودونهم سوى إلى الهاوية، وأخيراً شبه قلوبهم بالمخازن المقفلة بحيث لم يلجها أى علم ومعرفة وفضيلة.

حقّاً، إنّ الإنسان ما لم يقف على وضع الناس فى العصـر الجاهلى من الناحيـة الفكريّـة والعقائديّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة والسياسـيّة لا يسعه إدراك عظمة النّبى صـلى الله عليه و آله وعظمة الدعوة الإسـلاميّة، ومن هنا يذكر الإمام عليه السـلام فى العديد من خطب نهج البلاغـة وبعبارات غاية فى الروعة والجمال الوضع آنذاك للأجيال الذين لم يدركوا ذلك العصـر أو أنّهم أدركوا واقعه ولكنهم نسوه ومن ذلك ما قاله فى الخطبة الثانية من النهج:

«أرْسَلَهُ بِالدّينِ الْمَشْهُورِ ... والنّاسُ فى فِتَنٍ انْجَزَمَ فيها جَعْلُ الدّينِ ...».

ووقال عليه السلام فى الخطبة ۲۶:

«إنّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمّداً ... وأنْتُمْ مَعْشَرُ الْعَرَب فى شَرِّ دين وفى شَرِّ دار ...».

والخطبة ۵۹:

«بَعَثَهُ والنّاسُ ضُلّالٌ فى حيرَةٍ وحاطِبُونَ فى فِتْنَةٍ ...».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۴۵

والخطبة ۱۹۵:

«أَرْسَلَهُ وأعْلامُ الْهُدى دارِسَةٌ ومَناهِجُ الدّينِ طامِسَةٌ ...».

حقّا لونظرنـا إلى عبـارات الإمـام عليه السـلام فى هـذه الخطب مع بعضـها البعض الآـخر لتجسـدت أمامنا صورة غايـة فى الروعـة عن الاوضـاع فى العصـر الجـاهلى والمشاكـل التى كان يعانى الناس منها آنـذاك على الصـعيد العقائـدى والاجتماعى والأخلاقى وبالتالى سنقف على مـدى أهميّـة الإسـلام والجهود التى بذلها رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فى الإرتقاء بذلك المجتمع وتحويله من مجتمع جاهلى ذى تقاليد متوحشة إلى مجتمع إسلامى ذى مبادىء إنسانيّة عاليّة.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۴۷

القسم الثانى

اشارة

عِبَادَ اللَّهِ! أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِفَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، والْمُوجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقَّكُمْ، وأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللَّهِ، وتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ: فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ والْجُنَّةُ، وفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ. مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ، وسَالِكُهَا رَابِحٌ، ومُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا

عَلَى الْمَمِ الْمَاضِـينَ مِنْكَمْ والْغَابِرِينَ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَـداً، إِذَا أَعَادَ اللَّهُ مَا أَبْـدَى، وأَخَذَ مَا أَعْطَى، وسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى. فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا، وحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولئِكَ الْأَقَلُّونَ عَدَداً، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: (وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

الشرح والتفسير: التقوى كهف فى الدنيا ونور فى الآخرة

يشكل هذا الجانب من خطبة الإمام عليه السلام هدفها الأصلى وما مضى فى القسم الأوّل يمثّل فى الواقع مقدمة وتمهيداً لهذا القسم، ذلك لأنّه لا موضوعيّة للحديث عن الورع والتقوى ما لم يكن هناك إيمان باللَّه وإيمان بنبوّة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقال عليه السلام:

«عِبَادَاللَّهِ! أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، والْمُوجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقَّكُمْ».

وهذا التعبير بشأن التقوى بديع، فهو يمثل حقّ اللَّه من جانب على عباده ومن جانب آخر يجعل للعباد حقّاً على اللَّه تعالى، أمّا حقّ اللَّه فدليل ذلك أنّ نتيجة الورع والتقوى هو طاعة جميع أوامر اللَّه ونواهيه وطاعة حقّ اللَّه لدى عباده، وأمّا حقّ العباد على اللَّه فكونهم يستحقون على أثرها الأجر والثواب.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۴۸

وقد ذهب العديد من شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ التقوى هنا تعنى الطاعة التامة لأوامر اللَّه تعالى، والحال أنّ التقوى هى خشية اللَّه الباطنيّة والالتزام بالمبادئ التى يكون أثرها طاعة أوامر اللَّه.

فالتقوى تظهر فى مراحلها الابتدائيّة بصورة العدالة وفى مراحل أروع بصورة العصمة وكل ذلك من الصفات الباطنيّة.

والشخص الذى يستخف بالطاعة ولا يكترث للذنب هوشخص عديم التقوى وذلك الشخص الملتزم يتعاليم الدين والعامل بها هو المتقى وتظهر آثار كلّ من الحالتين على الأعمال.

ثم قال عليه السلام فى تحصيل هذه الجوهرة الثمينة:

«وأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللَّهِ، وتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ».

نعم، فسلوك سبيل التقوى، التقوى التى تحيط بحياة الإنسان، ليست ميسرة إلّا بتوفيق اللَّه، حتى أنبياء اللَّه وأولياءه يفوّضون أمورهم إلى اللَّه ويسألونه الأخذ بأيديهم ويقولون: «وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ»[۴۲۶].

وورد فى الدعاء الذى ورد الحث عليه عقب زيارة الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام:

«كُلَّما وَفَّقْتَنى بِخَيْرٍ فَأَنْتَ دَليلى عَلَيْهِ وطَريقى إلَيْهِ»[۴۲۷].

ثم أشار عليه السلام إلى معطيين مهمين من معطيات التقوى كدليل عليها فقال:

«فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ والْجُنَّةُ».

نعم! فمعظم الحوادث المريرة الفرديّة والاجتماعيّة التى تعكر صفو حياة الإنسان فى هذا العالم معلولة للمعصية والخروج عن جادة العدل والانصاف؛ فالتقوى تنقذ الإنسان فى هذا العالم من السقوط فى مستنقع الذنب وعواقبه الخطيرة وتجعله يعيش حياة هانئة مقرونة بالسكينة والسعادة وفخير زادٍ يتزوّد به الإنسان

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۴۹

هى التقوى كما تقول الآية الشريفة: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»[۴۲۸].

التى تعنى دخول الجنّة والتلذذ بنعمها الخالدة، فهل هناك من جوهرة ثمينة أثمن من التقوى بحيث تحفظ الإنسان فى الدنيا وتنجيه فى الآخرة.

ثم أشار فى مواصلته لحديثه إلى ثلاثة أمور مهمّة بشأن التقوى فقال عليه السلام فى الأمر الأوّل:

«وَفِی غَد الطَّرِیقُ إِلَی الْجَنَّةِ. مَسْلَکَهَا وَاضِحٌ، وسَالِکَهَا رَابِحٌ، ومُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ».

إلّا أنّ وضوح جادة التقوی ومسلکها کونها من جانب منسجمة بصورة تامة مع فطرة الإنسان، ومن جانب آخر قد بین مسار هذه الجادة فی عالم التشریع فی الکتاب والسنّة النبویّة المطهرة.

وأمّا ربح السالک لهذا الطریق کونها تسوق المتّقین إلی الجنّة وفق الآیة القرآنیّة:

«تِلْکَ الْجَنَّةُ الَّتِی نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ کَانَ تَقِیّاً»[۴۲۹] هذا من جانب، ومن جانب آخر تنقذ صاحبها فی الدنیا من الدنس والدنائة والحیاة المظلمة وتجعله سعیداً ذا عزّة لدی الجمیع، أمّا حفظها لمستودعها (إذا اعتبرنا مستودع بمعنی اسم المفعول) فسبب ذلک أنّ اللَّه تعالی تعهد بمثوبة المتّقین والورعین، وعلیه فأمانة هؤلاء محفوظة لدی اللَّه وملائکة اللَّه حفظت أعمال المتّقین، وإن اعتبرنا مستودع بمعنی اسم المکان فإنّ موضع التقوی هو القلب الذی یحفظها بعناء ویصونها من کلّ شیء، واعتبر البعض (حافظ) بمعنی المحفوظ وعلیه یصبح معنی الجملة، المتّقون محفوظون فی ظلّ التقوی.

الأمر الثانی الذی أشار إلیه الإمام علیه السلام هی أنّ التقوی حقیقة خالدة لا تتأثر بالزمان والمکان فقال:

«لَمْ تَبْرَحْ ۴۳۰] عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَی الْاُمَمِ الْمَاضِینَ مِنْکُمْ

والْغَابِرِینَ ۴۳۱]، لِحَاجَتِهِمْ إِلَیْهَا غَداً، إِذَا أَعَادَ اللَّهُ مَا أَبْدَی وأَخَذَ مَا أَعْطَوسَأَلَ عَمَّا أَسْدَی ۴۳۲]».

نعم فالتقوی کالقصر الجمیل الفخم والهادئ الذی یدعو إلیه الجمیع والذی کان وما زال ماثلًا أمام أعین جمیع الناس وقد دعی إلیه الجمیع من جانب الکتب السماویة وأنبیاء اللَّه وأولیائه، فقد صرح القرآن الکریم قائلًا: «وَلَقَدْ وَصَّیْنَا الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتَابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَإِیَّاکُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ»[۴۳۳].

وقال الإمام علیه السلام فی الأمر الثالث:

«فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا، وحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولئِکَ الْأَقَلُّونَ عَدَداً، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ یَقُولُ:

«وقَلِیلٌ مِنْ عِبَادِیَ الشَّکُورُ»[۴۳۴]».

والسؤال الذی یرد: لم کان طلاب التقوی قلائل مع ما لها من الأهمیّة؟ ولا یبدو الجواب علی هذا السؤال صعباً، ذلک لأنّ التقوی تعنی مخالفة هوی النفس ومخالفة هوی النفس لیس بالأمر الهیّن، فسبیل التقوی ینطوی علی الکثیر من المطبات والصعوبات وإن کانت عاقبته حلوة هنیئة، ذلک لأنّ جادة هوی النفس معبدة وللسائرین ولکنّ عاقبتها فی غایة الخطورة.

إنّ اللَّه تعالی لما خلق الجنّة قال لجبرئیل: انظر إلیها. فلما نظر إلیها قال:

«یا ربِّ لا یَتْرُکُها أحَدٌ إلَّا دَخَلَها»

فلما حفّها بالمکاره قال: انظر إلیها. فلما نظر إلیها قال:

«یا رَبّ أخْشی أنْ لا یَدْخُلَها أَحَدٌ»

ولما خلق النار قال: انظر إلیها. فلما نظر إلیها قال:

«یا رَبِّ لا یَدْخُلُها أحَدٌ»

فلما حفّها بالشهوات قال: انظر إلیها، فلما نظر إلیها قال:

«یا رَبِّ أخْشی أنْ یَدْخُلَها کُلُّ أحَد»[۴۳۵]

. فهذا الحدیث فی الواقع شرح لما ورد عن النّبی

الأکرم صلی الله علیه و آله وعن وعلی علیه السلام:

«حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَکارِهِ وحُفَّتِ النّارُ بِالشَّهَواتِ»[۴۳۶].

القسم الثالث

اشارة

فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِکُمْ إِلَیْهَا، وأَلِظُّوا بِجِدِّکُمْ عَلَیْهَا، واعْتَاضُوهَا مِنْ کُلِّ سَلَف خَلَفاً، ومِنْ کُلِّ مُخَالِف مُوَافِقاً. أَیْقِظُوا بِهَا نَوْمَکُمْ، واقْطَعُوا بِهَا یَوْمَکُمْ، وأَشْعِرُوهَا قُلُوبَکُمْ، وارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَکُمْ، وداوُوا بِهَا الأَسْقَامَ، وبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ، واعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلَا یَعْتَبِرَنَّ بِکُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلَا فَصُونُوهَا وتَصَوَّنُوا بِهَا، وکُونُوا عَنِ الدُّنْیَا نُزَّاهاً، وإِلَی الْآخِرَةِ وُلَّاهاً. وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَی، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْیا. وَلَا تَشِیمُوا بَارِقَهَا، ولَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَا تُجِیبُوا نَاعِقَهَا وَلَا تَسْتَضِیئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلَا تُفْتَنُوا بِأَعْلَاقِهَا، فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ، ونُطْقَهَا کاذِبٌ، وأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ، وأَعْلَاقَهَا مَسْلُوبَةٌ. أَلَا وهِیَ الْمُتَصَدِّیَةُ الْعَنُونُ، والْجَامِحَةُ الْحَرُونُ، والْمَائِنَةُ الْخَؤُونُ، والْجَحُودُ الْکَنُودُ، والْعَنُودُ الصَّدُودُ، والْحَیُودُ الْمَیُودُ.

الشرح والتفسیر: سماع نداء التقوی

خاض الإمام علی علیه السلام فی هذا الجانب من الخطبة فی بحث واسع وعمیق عن آثار التقوی علی الإنسان صاحب البصیرة وتطرق إلی أبعادها المختلفة باثنتی عشرة عبارة قصیرة وعمیقة المعنی فقال علیه السلام:

«فَأَهْطِعُوا[۴۳۷] إِلَیْهَا، وأَلِظُّوا[۴۳۸] بِجِدِّکُمْ

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۲۵۲

عَلَیْهَا، واعْتَاضُوهَا مِنْ کُلِّ سَلَف خَلَفاً، ومِنْ کُلِّ مُخَالِف مُوَافِقاً».

وکانت التقوی قد دعت إلی نفسها جمیع الناس وقد بیّنت للجمیع آثارها الطیبة والمحمودة ولذلک قال الإمام علیه السلام سارعوا إلیها بآذانکم لسماعها ثم انهضوا وجدوا واجتهدوا فی تحصیل مقدماتها فإن کانت لکم تقوی فسوف لن تحزنوا علی ما یفوتکم من حطام الدنیا واعلموا أنّ التقوی حافظتکم من مخالفیکم.

ویمکن أن تکون

«مُخالِف»

فی العبارة إشارة إلی الذنوب السالفة التی تزول آثارها بالتقوی، أو المراد اعداءُ الإنسان ومخالفوه، لأنّ اللَّه وعد المتّقین بالنصر والغلبة إذ قال تعالی فی کتابه العزیز: «انَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِینَ اتَّقَواْ وَالَّذِینَ هُمْ مُّحْسِنُونَ»[۴۳۹]، وقال: «وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا یَضُرُّکُمْ کَیْدُهُمْ شَیْئاً»[۴۴۰].

ثم نصحنا بست عبارات أخری فقال:

«ایْقِظُوا بِهَا نَوْمَکُمْ واقْطَعُوا بِهَا یَوْمَکُمْ، وأَشْعِرُوهَا قُلُوبَکُمْ، وارْحَضُوا[۴۴۱] بِهَا ذُنُوبَکُمْ، وداوُوا بِهَا الأَسْقَامَ».

وعبارة

«أَیْقِظُوا بِها نَوْمَکُمْ»

یمکن أن تکون إشارة إلی النوم العادی، أی ینبغی فی ظلّ التقوی قضاء جانبٍ من اللیل فی العبادة والتفرغ لمناجاة اللَّه تعالی:

«فی مقابل واقْطَعُوا بِها یَوْمَکُمْ

» كما يُحتمل أن يكون المراد، اليقظة من نوم الغفلة بالتقوى، والعبارة

«اشْعِرُوها قُلُوبكم»

بالنظر إلى أنّ (شعار هى الثياب الملاصقة للبدن) فيمكن أن تكون إشارة إلى تنوير القلب بالتقوى أو اجعلوا التقوى شعاركم وعلامتكم أو ايقظوا قلوبكم بالتقوى (حيث إنّ أشعروا من مادة شعور).

والعبارة:

«دَاوُوا بِهَا الأَسْقَامَ»

إشارة إلى الأسقام الباطنيّة التى تعالج بواسطة التقوى.

وقال فى العبارة التاسعة حتى الثانية عشرة:

«وبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ ۴۴۲]، وَاعْتَبِرُوا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۵۳

بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلَا فَصُونُوهَا وتَصَوَّنُوا[۴۴۳] بها».

وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَة مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّة عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ».[۴۴۴] وقال تعالى فى موضع آخر: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ»[۴۴۵].

والعبارة

«واعتبروا ...»

إشارة إلى أنّ عاقبة عدم التقوى واضحة لكم فى هذه الحياة الدنيا وترونها بأُم أعينكم كما تقرأونها فى التاريخ بشأن الأفراد والمجتمعات التى سارت إلى ذلك المصير المشؤوم والأسود فما عليكم إلّاالاعتبار بهم ولا تكونوا ممن يعتبر بهم الآخرون، وقد أشار القرآن فى قصة يوسف وإخوته وامرأة عزيز مصر إلى النتائج السلبيّة التى عمت البعض بسبب انعدام التقوى والبركات التى ساقتها التقوى ليوسف فقال تعالى «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى الأَلْبَابِ»[۴۴۶].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى عواقب الانغماس فى الدنيا التى يفرزها انعدام التقوى فحذر من هذه الدنيا الغرور بتسع عبارات قال فيها:

«وكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهاً[۴۴۷]، وإِلَى

الْآخِرَةِ وُلَّاهاً[۴۴۸]. وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيا. وَلَا

تَشِيمُوا[۴۴۹] بَارِقَهَا[۴۵۰] ولَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا[۴۵۱]. وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا،

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۵۴

وَلَا تُفْتَنُو بِأَعْلَاقِهَا[۴۵۲]».

ففى الواقع إنّ الإمام عليه السلام لفت الانتباه فى هذه العبارات العميقة المعنى إلى طرق نفوذ الدنيا إلى فكر الإنسان وروحه ليحذر منها جميعاً وضرورة الإبتعاد عن زخارف الدنيا وزبرجها والتوجه إلى الآخرة واسناد المتّقين وعدم الإكتراث لمقامات أصحاب الدنيا وغض الطرف عن الأموال والثروات والقصور والزينة الظاهريّة وصم الاسماع عن وساوس المتهافتين على الدنيا وتنحيتهم جانباً وعدم الانخداع بمظاهر الدنيا البراقة والانقطاع عن جميع الأمور التى تذل صاحبها.

والحقّ أن كلّ من امتثل هذه التحذيرات وسار على الدرب سوف لن يقع فى شباك الشيطان وفخ طلاب الدنيا.

ثم تطرق عليه السلام إلى أدلة تحذيراته السابقة فقال:

«فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ ۴۵۳]، ونُطْقَهَا كاذِبٌ،

وأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ[۴۵۴]، وأَعْلَاقَهَا مَسْلُوبَةٌ».

فالواقع إنّ كلّ دليل من هذه الأدلة الأربعة إشارة إلى جانب من التعبيرات السابقة:

فبرق الـدنيا خادع لا حقيقـة له وليس وراءه مطر وكلامها كاذب بدليل أنّها لم تف لأحد من الناس فى أى وقت من الأوقات، وأموالها منهوبة من قِبل أصحاب الدنيا ينهبونها من غيرهم، وكونها مسـروقة من غيرهم فى أنّ كلّ شخص يمتلك مالًا نفيساً على الظاهر يجعل صاحب الدنيا يتطلع إليه فيسلبه إيّاه فى الوقت المناسب.

ثم عاد الإمام عليه السلام ثانية ليحذر مخاطبيه من الوقوع فى ورطة الدنيا من خلال ذكره لست رذائل من رذائلها فقال عليه السلام:

«أَلَا وهِىَ الْمُتَصَدِّيَةُ[۴۵۵] الْعَنُونُ ۴۵۶]، والْجَامِحَةُ[۴۵۷]

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۵۵

الْحَرُونُ ۴۵۸]، والْمَائِنَةُ[۴۵۹] الْخَؤُونُ ۴۶۰]، والْجَحُودُ الْكَنُودُ[۴۶۱]، والْعَنُودُ الصَّدُودُ[۴۶۲]، والْحَيُودُ[۴۶۳] الْمَيُودُ[۴۶۴]».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۵۷

القسم الرابع

اشارة

حَالُهَا انْتِقَالٌ، ووَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وعُلْوُهَا سُفْلٌ. دَارُ حَرَب وسَلَب، ونَهْب وعَطَب. أَهْلُهَا عَلَى سَاق وسِيَاق، ولَحَاق وفِرَاق. قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا، وأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا، وخَابَتْ مَطَالِبُهَا؛ فَأَسْلَمَتْهُمُ الْمَعَاقِلُ، ولَفَظَتْهُمُ الْمَنَازِلُ، وأَعْيَتْهُمُ الْمَحَاوِلُ: فَمِنْ نَاج مَعْقُور، ولَحْم مَجْزُور، وشِلْومَذْبُوح، ودَم مَسْفُوح، وعَاضٍّ عَلَى يَدَيْهِ، وصَافِق بِكَفَّيْهِ، ومُرْتَفِق بِخَدَّيْهِ، وزَار عَلَى رَأْيِهِ، ورَاجع عَنْ عَزْمِهِ؛ وقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ، وأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ، (وَلَاتَ حِينَ مَنَاص) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وذَهَبَ مَا ذَهَبَ، ومَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا، (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ والأَرْضُ ومَا كَانُوا مُنْظَرِينَ).

الشرح والتفسير: عاقبة أصحاب الدنيا

بالنظر إلى أنّ حبّ الـدنيا والتعلق الشديـد بالأمور الماديّـة هوأساس أنواع الذنوب والمعاصـى والجنايات، وبالنظر إلى أنّ عصـر الإمام عليه السـلام شـهد بسـبب الفتوحـات الإسـلاميّة سـعة الـثروات التى عمّت البلاـد الإسـلاميّة وانغمس بعض النـاس فى حالـة من الـدعة والرفاهية وبطر النعمة، فقد نهى الإمام عليه السـلام فى خطبته الناس عن التكالب على الدنيا والانغماس فى لذاتها فكشف بعبارات قلّما يرى نظيرها آثار السوء للتعلق بهـذه الـدنيا، ولـذلك أكّـد الإمام عليه السـلام فى هـذا الجانب من الخطبة بخمس عبارات قصـيرة على تفاهة النعم الماديّة فقال:

«حَالُهَا انْتِقَالٌ، ووَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وعِزُّهَا ذُلٌّ،

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۵۸

وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وعُلْوُهَا سُفْلٌ ۴۶۵]».

أمّا تغير حال الـدنيا فليس بخافٍ على أحـد؛ فما أكثر أولئك الذين تربعوا على عرش السـلطة ليلًا ويفكرون فى الاستيلاء على البلدان، فلم يطلع عليهم الفجر حتى زالت عروشـهم وفـارقوا الحيـاة فبين لحظـة وأخرى تتهاوى عروش الأقوياء ويحل محلهم الضـعفاء فيصبح أعزّة الأمس أذلّة اليوم.

وأمّا زلزلـة وطأتها وخطواتها فـذلك لأنّ مقر الإنسان فى هـذا العالم متزلزل على الدوام، فعلى أى شـىء إسـتند من قبيل المال والثروة والفتوة والصحة والسلامة فهى‌متقلبة وليست ثابتة، وأمّا أنّ عزّتها عين ذلّتها، فقد فسّر ذلك بعض الشرّاح أنّ العزّة الماديّة واللامشروعة سبب الذلّة فى الآخرة، وقال البعض الآخر إنّه سبب الإبتعاد عن اللَّه فى هذه الدنيا؛ إلّاأنّ التفسير الأنسب هو أنّ العزّة الماديّة تؤدّى إلى التعلق الشديـد وهو التعلق الـذى يسوقه إلى الذلّـة ويجعله يعيش الخنوع مقابل كائن من كان بغيـة حفظها، وأمّا أنّ جدّها هزل فسـبب ذلك التقلب وسـرعة الزوال وعدم الاسـتقرار، وأمّا علوها تسافل فلأنّ الأفراد من ذوى المقامات الرفيعة يخضـعون للعديد من المطبات بغية حفظ مناصبهم ومواقعهم ويستعينون من أجل حفظ تلك القدرة بالأفراد الفاسدين والطالحين.

ثم أكمل هذا الموضوع بذكره لصفتين أُخريين فى وصف الدنيا فقال:

«دَارُ حَرَب وسَلَب، ونَهْب وعَطَب. أَهْلُهَا عَلَى سَاق وسِيَاق [۴۶۶]، ولَحَاق وفِرَاق [۴۶۷]».

المفردات

«حَرَب وسَلَب، ونَهْب»

وإن كانت جميعها تشير إلى معنى أخذ أموال الآخرين؛ لكن يبدو هنالك اختلاف دقيق بينها،

«حَرَب»

أخذ جميع أمواله لأنّها

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۵۹

فسّرت لغوياً بهذه العبارة

«اخْذُ جَميعِ مالِهِ».

لكن

«سلب»

غالباً فسّرت بمعنى أخذ ثياب الأفراد وما فى أيديهم ولذلك ورد فى الحديث:

«مَنْ قَتَلَ قَتيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ»[۴۶۸].

وأمّا

«نَهْب»

التى وردت لغوياً بمعنى الغنيمة فربّما تكون إشارة إلى الاغتنام الجماعى، وعليه يصـبح معنى كلام الإمام عليه السـلام أنّ الدنيا تسـلب الإنسان جميع وجوده أو جانباً منه أو قد تأتى جماعة من السلّابين ليتحكموا بالأمور فيسلبوا الناس أموالهم.

نعم، فالـدنيا لو نظرنا إليها بإمعان لوجـدناها ميـداناً لصـراع السـلّابين والناهبين الذين يمارسون فيها السـلب والنهب بصور مختلفة وهذا العمـل لا ينتهى سوى إلى الهلكـة والزوال، والحال يسـتعد جميع الناس إلى السـفر نحو العالم الآخر وليس هنالك من يعلم بما يصـيبه غداً، ثم أشار الإمام عليه السلام بثلاث عبارات أخرى إلى جانب آخر من مصائب الدنيا وعيوبها فقال:

«قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا، وأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا[۴۶۹]،

وخَابَتْ مَطَالِبُهَا».

إشارة إلى أنّ الإنسان اليقظ كلّما حاول النجاة من مصائبها لم يكن الأمر عليه سهلًا فتشخيص سبيل الفرار منها يبدو متعذراً والأعقد منه الظفر بموضع الهروب.

وقـد جربنـا هـذه المسألـة عنـد الأفراد الـذين يتعلقون بالـدنيا ثم يصـحون من غفلتهم وينوون الهروب فإنّ العديـد من المشاكل تعرقل حركتهم وعليهم بـذل قصارى جهـدهم بغية الوصول إلى سبيل الخلاص، ثم أشار عليه السـلام إلى مصـير أصـحاب الدنيا حين يقفون

على أعتاب الموت فقال:

«فَأَسْلَمَتْهُمُ الْمَعَاقِلُ ۴۷۰]، ولَفَظَتْهُمُ ۴۷۱] الْمَنَازِلُ،

وأَعْيَتْهُمُ الْمَحَاوِلُ ۴۷۲]».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۶۰

نعم! حين يطفح بهم الكيل ويتخلى عنهم كلّ شيء ويجعلهم وحيدين أمام الحوادث فلا يسع أقوى الأقوياء الدفاع عنهم حيث النتائج العكسية التى تنتهى بهم إلى الموت وحالهم كما يضرب به المثل: «إذا حل الموت أعيى الطبيب».

وبالتالى سوف لن يكون مصير من اغتروا بالدنيا إلّاكما قال الإمام عليه السلام::

«فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُور[۴۷۳]، ولَحْمٍ مَجْزُور[۴۷۴]، وشِلْوٍ[۴۷۵] مَذْبُوحٍ، ودَمٍ مَسْفُوحٍ ۴۷۶]، وعَاضٍ ۴۷۷] عَلَى يَدَيْهِ،

وصَافِقٍ ۴۷۸] بِكَفَّيْهِ، ومُرْتَفِقٍ ۴۷۹] بِخَدَّيْهِ ۴۸۰]، وزَارٍ[۴۸۱] عَلَى رَأْيِهِ، ورَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ».

فقد بين الإمام عليه السلام عاقبة ومصير المغرورين بالدنيا فالصور التسع الواردة فى الفقرة المذكورة لا تُبقى مجالًا لما هو أفصح وأبلغ وأدق منها فهذه الأصناف التسعة يُشعر كلّ منها بنوع من ضربات الدنيا التى تهز كيان المغررين بها والقدر الجامع بينهم جميعاً مصيرهم البؤس والشقاء والحسرة والندم؛ سواء أولئك الذى تلقّوا ضربات ثقيلة وسيقوا نحو الموت أو أولئك الذين بقوا ولم تعدّ أمامهم سوى الحسرة.

وقد عكس التاريخ نماذج كثيرة لكلّ من هذه الأصناف التسعة ولعل الكثير منّا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۶۱

قد رآها خلال مدّة عمره القصيرة.

ثم اختتم الخطبة بالإشارة إلى هذه الحقيقة أنّه حين حلول الحوادث الشاقة والموت الحتمى تغلق جميع السبل فقال:

«وقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ، وأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ[۴۸۲]،

«وَلَاتَ ۴۸۳] حِينَ مَنَاصٍ ۴۸۴]»».

وأضاف عليه السلام:

«هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وذَهَبَ مَا ذَهَبَ، ومَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا[۴۸۵]،

«فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ والأَرْضُ ومَا كَانُوا مُنْظَرِينَ»».

نعم! فأولئك الذى ركبوا يوماً موجة الغرور وعاشوا فى تلك القصور الفارهة وضنوا أنفسهم من امراء الأرض والسماء لم يجدوا بداً حين أتاهم القضاء ونزل بهم المقدور سوى الاستسلام بكلّ ذلّة ومغادرة الدنيا وكأنّهم لم يكونوا فيها، فلم تبكهم عينٌ ولم يصدع عليهم خاطر، ثم واصلت الدنيا من بعدهم مسيرتها وأعقبهم مجيئ الأقوام والأمم المقتدرة والقوية الذين حلوا وفنوا فطواهم غبار النسيان ومحوا من صفحة التاريخ.

والعبارة: «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» المقتبسة من القرآن المجيد[۴۸۶] أوردها الإمام عليه السلام بشأن طائفة من الأقوام السابقة التى عاشت غرور الاختلاف وظنت الخلود فى الحياة الدنيا وحين حلّ بها عذاب اللَّه تعالت أصواتها طالبة النجدة إلّاأنّ وقت النجاة قد ولّى ومضى.

والعبارة: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ» آية قرآنيّة أخرى ۴۸۷] أشارت إلى حال الفراعنة حين غرقوا جميعاً فى البحر وخلّفوا تلك القصور والعيون والنعم للآخرين وغادروها دون أن يبكيهم أحد.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۶۲

ولعلّ التعبير بعدم بكاء السماء عليهم والأرض كناية عن حقارة ودناءة قرنائهم وأصحابهم فى الحياة الدنيا، ذلك لأنّ المعروف عند

العرب أنّهم حين يريـدون الإشارة إلى علو منزلـة شـخص بعـد أن فقدوه يقولون: لقد بكته السـماوات والأرض وأظلم لفقده الشـمس والقمر.
كمـا قيل إنّه قـد يكون المراد من بكاء أهل السـماء والأرض ذلك لأنّ الملائكـة أحياناً تبكى على المؤمنين والمقرّبين من اللّه تعالى، بينما لا تبكى على الظلمة والجبارين.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۶۳

الخطبة ۱۹۲

اشارة

تُسَمّى الْقاصِعَةُ
وهِيَ تَتَضَمَّنُ ذَمَّ إبليسَ لَعَنَهُ اللَّهُ، عَلَى اسْتِكْبارِهِ وتَرْكِه السُّجُودَ لِآدَمَ عليه السلام، وأنَّه أوّلُ مَنْ أَظْهَرَ الْعَصَبِيَّةَ وتَبَعَ الْحَمِيَّةَ، وتَحْذيرَ النَاسِ مِنْ سُلُوكِ طَريقَتِهِ ۴۸۸]

نظرة إلى الخطبة

قيـل فى شـأن هـذه الخطبـة أنّ أهـل الكوفـة عاشوا حالـة كبيرة من الفساد آواخر خلافـة الإمام عليه السـلام إثر ازدياد الثروات وانتقال الثقافة الفاسدة من بعض البلدان المجاورة للبلاد الإسلاميّة والمشاكل التى خلفتها فترة الخلافة فى المجتمع
نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۶۴
الإسـلامى، وفى مقـدمتها التفاخر والتعصب القبلى والنعرات الجاهليـة حتى بلغ الأمر ببعض الفتيـة الطائشـين إلى التنازع فيما بينهم فإذا جرح أحـدهم أو ضـرب اسـتعان بقبيلته فتهب دون أدنى تريث وتمحيص لنجـدته ويراق المزيـد من الدماء، فانبرى الإمام عليه السـلام بهـذه الخطبة بغية إطفاء الفتنة فعرض بالذم للكبر والعصبيّة القبليّة الجاهليّة، فأدّى حقّ الكلام وبالغ فى النصح والوعظ، فهى خطبة غاية فى الفصاحة والبلاغة والإثارة ومن هنا سُمّيت بالقاصعة وإن لم ترد مفردة (القاصعة) فى هذه الخطبة.
وذكر بعض شـرّاح نهج البلاغة وجوهاً أخرى لسـبب التسمية على ضوء تعدد معانى مفردة القاصعة؛ فقد ذكر المرحوم الشارح الخوئى سبعة وجوه فى تسمية هذه الخطبة بالقاصعة إستند كلّ واحد منها إلى أحد معانى (القصع) لغوياً ويبدو ما ذكرناه هو أنسب الجميع.
على كلّ حال تتألف هـذه الخطبـة من عدّة أقسام صـنفها كلّ من شـرّاح نهج البلاغة حسب ذوقه وطريقته فقسـمها البعض إلى خمسـة أقسام وآخر إلى أحد عشر قسماً وثالث إلى تسعة عشر قسماً.
ومن الواضح أنّ جميع أقسام هذه الخطبة تدور حول محور واحد هو ذمّ التعصب الجاهلى والتكبر والفخر، ولا سـيما التعصبيات القبليّة والعرقيّة التى تعـدّ مصـدراً للعديـد من الاختلافات والإرباكات والمفاسـد الاجتماعيّة وتتضح هذه الحقيقة من خلال التمعن فى عموم الخطبة إلى جانب سبب ايرادها من قبل الإمام عليه السلام ونحن بدورنا نقسمها إلى عشرين قسماً:
القسم الأوّل: بعد حمد اللّه والثناء عليه أشار إلى طرد الشيطان لتعصبه وتكبره على آدم عليه السلام.
القسم الثانى: إشارة لخلق الإنسان من الطين والذى يبعث فيه روح التواضع، والتذكير ثانية بسوء عاقبة الشيطان بسبب كبره وتعصبه.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۶۵

القسم الثالث: تحذير الجميع من الوقوع فى فخ الشيطان والسير فى طريقه.

القسم الرابع: ذم الأفراد الذين سقطوا فى شباك التكبر والفخر الجاهلى الموهوم.

القسم الخامس: تحذير الجميع من اجتناب طاعة وإتباع الحكّام المتكبرين والمتعصبين.

نفحات الولاية ؛ ج۷ ؛ ص۲۶۵

قسم السادس: الوصية بالاعتبار بالأقوام السابقة والعاقبة السيئة التى كانت بانتظار المتكبرين منهم والسعادة التى نالها المتواضعون وفى مقدمتهم أنبياؤهم عليهم السلام.

القسم السابع: الحديث عن الحياة المتواضعة لموسى بن عمران وأخيه هارون عليهما السلام وما كانا يرتديان من ثياب بسيطة حين دخولهما على فرعون المتكبر المغرور وبالتالى تواضع أولياء اللَّه فى جميع شؤون حياتهم.

القسم الثامن: الإشارة إلى اختيار الأرض الجافة والمحرقة لبناء الكعبة بمواد البناء البسيطة ليطرد عنهم الكبر والغرور وتصوير الشعائر التى ترمز إلى البساطة والتواضع التام.

القسم التاسع: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى مختلف شباك الشيطان ولا سيما الظلم والجور واعتبر إمتثال الفرائض الدينيّة كالصوم والصلاة والزكاة وسيلة لمقاومة الشيطان.

القسم العاشر: يشير إلى مصادر التعصب والغرور.

القسم الحادى عشر: إشارة إلى التعصب الإيجابى وعلاماته وآثاره.

القسم الثانى عشر: اعتبر مصير الأُمم السابقة درساً وعبرة ودعى الجميع للنظر فى سيرة تلك الأقوام.

القسم الثالث عشر: الحديث عن الآثار المباركة للوحدة والألفة وعواقب السوء للفرقة والتشتت والاختلاف.

القسم الرابع عشر: أعاد مخاطبيه ثانية إلى التاريخ الماضى والتذكير بالآثار السلبيّة لاختلاف أبناء اسماعيل واسحاق وبنى اسرائيل.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۶۶

القسم الخامس عشر: أشار عليه السلام إلى النعمة العظيمة فى وجود النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وآثارها على المجتمع الإسلامى.

القسم السادس عشر: عرض فيه بالذم لتلك الطائفة من الناس التى عادت القهقرى بعد الدعوة إلى عادات الجاهليّة.

القسم السابع عشر: ركز فيه على الأفعال المشينة للناكثين والقاسطين.

القسم الثامن عشر: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى منزلته من النّبى بصفته أوّل من آمن به من الرجال ولازمه تلك المدّة.

القسم التاسع عشر: تحدّث فيه الإمام عليه السلام عن معجزة الشجرة التى تحركت من مكانها نحو النّبى بأمره صلى الله عليه و آله.

القسم العشرون: تحدّث فيه عن مناقب أهل البيت عليهم السلام واختتم به الخطبة بعنوانه «مسك الختام».

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۶۷

القسم الأوّل

اشارة

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِیَاءَ؛ واخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وجَعَلَهُمَا حِمیً وحَرَماً عَلَی غَیْرِهِ، واصْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ. وجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَی مَنْ نَازَعَهُ فِیهِمَا مِنْ عِبَادِهِ. ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِکَ مَلَائِکَتَهُ الْمُقَرَّبِینَ، لِیَمِیزَ الْمُتَوَاضِعِینَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَکْبِرِینَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وهُوالْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ، ومَحْجُوبَاتِ الْغُیُوبِ: (إِنِّی خَالِقٌ بَشَراً مِّنْ طِینٍ* فَإِذَا سَوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُّوحِی فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِینَ* فَسَجَدَ الْمَلَائِکَةُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِیسَ) اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِیَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَی آدَمَ بِخَلْقِهِ، وتَعَصَّبَ عَلَیْهِ لِاصْلِهِ. فَعَدُوا للّهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِینَ، وسَلَفُ الْمُسْتَکْبِرِینَ، الَّذِی وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِیَّةِ، ونَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَ الْجَبْرِیَّةِ، وادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ.

أَلَا تَرَوْنَ کَیْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَکَبُّرِهِ، ووَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِی الدُّنْیَا مَدْحُوراً، وأَعَدَّ لَهُ فِی الْاخِرَةِ سَعِیراً؟!

الشرح والتفسير: الشيطان رأس العصبية

كما أشير فی سبب الخطبة أنّ الهدف الأصلی من هذه الخطبة الطويلة والمفعمة بالمواعظ والإرشادات الساميّة التی تهذب الإنسان، مواجهة الكبر والغرور والعصبيّة الجاهلیةّ والطائفيّة التی كانت مصدر النزاعات القبليّة الدمويّة علی عهد الإمام عليه السلام، وعلی هذا الضوء استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد اللّه والثناء عليه، اللّه المتجلبب

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۶۸

بالعظمة والكبرياء التی لا تليق إلّابذاته القدسيّة فقال:

«أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِیَاءَ، واخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وجَعَلَهُمَا حِمیً ۴۸۹] وحَرَماً عَلَی غَیْرِهِ،

واصْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ. وجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَی مَنْ نَازَعَهُ فِیهِمَا مِنْ عِبَادِهِ».

لا شك فی أنّ العزّة والعظمة مختصة بالذات الإلهيّة المقدّسة، ذلك لأنّ كلّ ما سواه كائنات ضعيفة وعاجزة أمامه، إضافة إلی أنّ كلّ ما لديها منه، متی ما شاء أفاضه عليها ومتی شاء سلبه منها.

والعبارات الخمس الواردة فی هذه الخطبة من قبيل قوله عليه السلام: لبس العز والكبرياء والتی لا تليق بغيره وأنّهما صفتان مختصتان باللّه تعالی ويعبر عنهما أحياناً بالحمی والحرم (المنطقة المحظورة التی لا يحق للغير الدخول فيها) كما يعبر عنها بأنّ اللّه تعالی اختارهما لنفسه وخص باللعن من سلك سبيل التكبر والفخر، كلّ هذه العبارات المختلفة تهدف إلی إيضاح حقيقة واحدة حيث تشير جميعها إلی أن لا سبيل لعباد اللّه أمام الذات الإلهيّة القدسيّة سوی التواضع تجاهها وتجاه بعضهم البعض الآخر.

والواقع هو إنّ اللّه سبحانه وتعالی ليس بحاجة إلی الكبر ولا بحاجة إلی أن يمدحه الآخرون به، فذاته القدسيّة عظيمة من جميع الجهات، ولكن لما كان الكبر والفخر لدی العباد مصدراً للبؤس والشقاء وظلم الناس لبعضهم البعض الآخر، فقد ورد هذا التحذير فی‌العبارات السابقة من هذا الأمر ودعی الجميع للبساطة والتواضع.

وعلی هذا الأساس أشار الإمام عليه السلام فی مواصلته لكلامه إلی أول امتحان للتواضع حين خلق اللّه آدم عليه السلام فقال:

«ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِکَ مَلَائِکَتَهُ الْمُقَرَّبِینَ، لِیَمِیزَ الْمُتَوَاضِعِینَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَکْبِرِینَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وهُوالْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ، ومَحْجُوبَاتِ الْغُیُوبِ:

«إِنِّی خَالِقٌ بَشَراً مِّنْ طِینٍ* فَإِذَا سَوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُّوحِی فَقَعُوا لَهُ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۶۹

سَاجِدِینَ* فَسَجَدَ الْمَلَائِکَةُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِیسَ»».

وبالطبع فإنّ اختبار اللّه يختلف عن اختبار العباد؛ فإننا حين نختبر أحداً نريد أن نبدل جهلنا به إلی علم ولذلك يعبر عن هذا الامتحان بالاختبار؛ أمّا اللّه تعالی طبق ما ورد سالفاً، العالِم بمكنونات القلوب ومحجوبات الغيوب لا يريد قط بهذه الاختبارات إضافة شیء لعلمه، بل اختباره لتظهر النيات الباطنيّة والخلقيّة والأسرار الخفية لعباده بلباس الأفعال فيستحقوا الثواب والعقاب، ذلك لأنّ النية

لوحدها ليست كافية فى هذا الأمر، والثواب والعقاب إنّما يترتب على الأعمال.

وهذا ما ذكره الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغة إذ قال:

«إنّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالْاَمْوالِ والأَوْلادِ لِيَتَبَيَّنَ السّاخِطُ لِرِزْقِهِ والرّاضى بِقِسْمِهِ وإنْ كانَ سُبْحانَهُ أعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أنْفُسِهِمْ لكِنْ لِتُظْهِرَ الأَفْعالُ الَّتى بِها يَسْتَحِقُّ الثَّوابَ والْعِقابَ»[۴۹۰].

ثم خاض عليه السلام فى شرح قضية إبليس وسبب تمرده على أمر اللَّه تعالى فقال:

«اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِاَصْلِهِ. فَعَدُوا للَّهِ إمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِى وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ، ونَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وادَّرَعَ ۴۹۱] لِبَاسَ التَّعَزُّزِ[۴۹۲]، وخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ».

فالواقع أنّ السبب الرئيسى لتمرد إبليس عملياً على أمر اللَّه تعالى هو تعصبه وغروره الذى أفرزه حسابه الخاطئ والذى يستند إلى الفخر والأنانيّة حيث لم يرَ فى خلق آدم سوى حيثية التراب ولذلك عد نفسه أفضل منه فقال: «خَلَقْتَنِى مِنْ نَّار وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِين»[۴۹۳] بينما أغفل تماماً الجانب المهم فى وجود آدم إلّاوهو الروح الإلهيّة: «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»[۴۹۴].

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۲۷۰

نعم! فالعجب والأنانيّة أسوأ حجاب يصد الإنسان عن إدراك أوضح الحقائق.

وقد التبس الأمر على إبليس حتى فى تقييمه لأفضليّة النار على التراب، لأنّ التراب هو المصدر الأساس للحياة ونمو النباتات وتفتح الأزهار والثمار وأنواع البركات، وبينما تقتصر فاعليتها على بعض جانب من حياة الإنسان.

على كلّ حال فإنّ تعبير الإمام عليه السلام إبليس بأنّه عدواللَّه إشارة إلى أنّه لم يكن عدواً لآدم فحسب، بل كان عدواً لخالق آدم ومتمرداً على أوامره فقد أرسى أُولى لبنات العصبية ومنهج التكبر والاستكبار، العمل الذى يعتبر فى الواقع محاربة للَّه تبارك وتعالى؛ ذلك لأنّ العزّة والعظمة لا- تليق إلّابذاته المقدّسة وجمال عباد اللَّه فى تواضعهم فالتكبر والغرور حسب ما ذكر علماء الأخلاق من أُمّهات الرذائل.

روى أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنّه سأله عن أدنى مراحل الكفر والإلحاد؟ فقال عليه السلام:

«إنَّ الْكِبْرَ أَدْناهُ»[۴۹۵]

. كما ورد فى الخبر عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام أنّهما قالا:

«لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فى قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّة مِنْ كِبْر»[۴۹۶].

ثم اتّجه الإمام عليه السلام إلى مخاطبيه ليحذّرهم من عاقبة الشيطان السيئة فقال:

«ألا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكَبُّرِهِ، ووَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِى الدُّنْيَا مَدْحُوراً[۴۹۷]، وأَعَدَّ لَهُ فِى الْاخِرَةِ سَعِيراً؟».

فالعبارة إشارة لآيات القرآن الكريم حيث قال تعالى: «فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ* وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ»[۴۹۸].

وقال تعالى فى موضع آخر: «قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَامْلَانَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۲۷۱

تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ»[۴۹۹].

القسم الثانى

اشارة

ولَوأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُور يَخْطَفُ الأَبْصارَ ضِيَاؤُهُ، ويَبْهَرُ الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ، وطِيب يَأْخُذُ الأَنْفَاسَ عَرْفُهُ، لَفَعَلَ. ولَوفَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، ولَخَفَّتِ الْبَلْوَى فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ. ولكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمْيِيزاً بِالاخْتِبَارِ لَهُمْ، ونَفْياً لِلاسْتِكْبارِ عَنْهُمْ، وإِبْعَاداً لِلْخُيَلَاءِ مِنْهُمْ.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِبِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وكَانَ قَدْ عَبَدَاللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَة، لَايُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلَّا، مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْر أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً. إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وأَهْلِ الأَرْضِ لَوَاحِدٌ. ومَا بَيْنَ اللَّهِ وبَيْنَ أَحَد مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمىً حَرَّمَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بعاقبة إبليس

قال الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة في مواصلته لاختبار إبليس الذي ذكر سابقاً بعد أن أشار إلى قضية مهمّة وهي أنّ اللّه تبارك وتعالى يختبر عباده بأمور تخفى فلسفتها عليهم وربّما يشق عليهم تحملها:

«ولَو أَرَادَاللَّهُ أَنْيَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُور يَخْطَفُ ۵۰۰]

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۷۲

الأَبْصارَ ضِيَاؤُهُ، ويَبْهَرُ[۵۰۱] الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ ۵۰۲] وَطِيب يَأْخُذُ الأَنْفَاسَ عَرْفُهُ ۵۰۳] لَفَعَلَ ولَوفَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، ولَخَفَّتِ الْبَلْوَى فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ».

إشارة إلى أنّ الامتحان الإلهي إنّما يفقد أثره إذا كان منسجماً مع رغبات العباد وميولهم؛ ذلك لأنّ الجميع سوف يعملون على أساسه؛ سواءً كانوا من عباد اللّه أو من عبدة الأهواء ولا ينطوي مثل هذا الامتحان على أية نتيجة، أما إن كان على خلاف رغباتهم فآنذاك تمتاز صفوف المؤمنين المخلصين من العاصين المتكبرين.

فامتحان أصحاب الغرور والتكبر ينبغي أن يكون في الأمور التي تستهدف غرورهم وتكبرهم على غرار الامتحان الذي حصل للملائكة وإبليس.

ومن هنا قال الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه:

«ولكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمْيِيزاً بِالاخْتِبَارِ لَهُمْ، ونَفْياً لِلاسْتِكْبارِ عَنْهُمْ، وإِبْعَاداً لِلْخُيَلَاءِ[۵۰۴] مِنْهُمْ».

وعلى هذا الضوء تتضح علية خفاء فلسفة الأحكام الشرعيّة، طبعاً تبدو واضحة لدينا فلسفة العديد من هذه الأحكام بحكم العقل والآيات والروايات الواردة بهذا الشأن، إلّاأنّ جانباً مهماً من هذه الأحكام ما زال مبهماً، وذلك لمعرفة المطيع المخلص من المتمرد العاصي. جدير ذكره إنّ هنالك أدلة أخرى غير ما ذكر في خفاء أسرار هذه الأحكام.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى عاقبة فعل إبليس المتكبر والمتعصب ليعتبر بها الجميع فحذرهم من مغبة اتباع خطواته حتى لا يبتلوا بما ابتلي به من عاقبة سيئة فقال:

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۷۳

«فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وجَهْدَهُ ۵۰۵] الْجَهِيدَ،

وكَانَ قَدْ عَبَدَاللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَة، لَايُدْرَى أمِنْ سِنِي ۵۰۶] الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ، عَنْ

كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ».

والعبارة

«لا يُدرى أمِنْ سِنِي الدُّنيا أمْ مِنْ سِني الْآخِرَةِ»

لا تعنى عـدم علم الإمام بهـذا الأمر، بل إشارة إلى أنّ الناس لا يعلمون بـذلك، والمراد من سـنوات الـدنيا هـذه السـنوات التى نعيشـها والمعلومـة المقـدار، كمـا أنّ سـنوات الآـخرة مـا أشـير إليه كراراً فى القرآن الكريم ومن ذلك: «وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةً مِّمَّا تَعُدُّونَ»[۵۰۷].

وهنا يرد هـذا السؤال: كيف يمكن زوال ستة آلاف سنة من العبادة بساعة من التكبر؟ والجواب واضح؛ فالبناء عمل شاق وطويل، أمّا الهدم فعمل بسيط وسريع، فقد يستغرق بناء بيت عدّة سنوات إلّاأنّ حريقاً يحيله خراباً خلال لحظات، كما يبنى السد العظيم فى عدّة سنوات بينمـا ينهار بطرفـة عين بفعل الزلزال أو تفجيره بالـديناميت والمواد المفجرة، ومسألـة إحباط الأعمال بفعل بعض الـذنوب لمن المطالب المهمّة التى سنتعرض إليها فى مبحث التأمّلات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فأشار إلى أنّ مصير المتكبرين من البشر هوذات مصير إبليس فقال:

«فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلَّا، مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْر أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً».

ثم قال عليه السلام فى التأكيد على هذا المعنى:

«انَّ حُكْمَهُ فِى أَهْلِ السَّمَاءِ وأَهْلِ الأَرْضِ لَوَاحِدٌ. ومَا بَيْنَ اللَّهِ وبَيْنَ أَحَد مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ[۵۰۸] فِى إِبَاحَةِ حِمىً ۵۰۹] حَرَّمَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ».

إشارة إلى أنّ جميع المكلفين سواسـية أمام اللَّه تعالى وليس لأىأحـد أى امتياز على آخر، فليس للَّهمع أحـد من قرابة، والمعصـية من أى عبدٍ صدرت هى معصية،

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۷۴

والطاعـة هى الطاعة فلا ينبغى أن يتصور البعض أنّ العقاب الأليم الذى شـمل إبليس على تكبره يختص به والآخرون بمعزل عن ذلك إن إرتكبوا نفس الفعل.

تأمّلات

۱. حبط الأعمال

جاء فى هذا الجانب من الخطبة أنّ عبادة ستة آلاف سنة قد ذهبت هدراً بفعل ساعة من الكبر ومسألة الاحباط والتكفير، وبعبارة أخرى زوال الأعمـال الحسـنة أو تـدارك الأعمـال السـيئة بالتوبـة والطاعـة، لمن المسائل المهمّـة التى حظيت باهتمام المتكلمين والمفسـرين وأرباب الحديث.

فالذى يسـتفاد من بعض الآيات القرآنيّة أنّ هناك سلسـلة من الأعمال السـيئة التى من شأنها القضاء على الأعمال الصالحة ومنها الكفر باللَّه ورسوله واليوم الآخر الـذى ورد فى الآيـة ۸۸ من سورة الأنعـام: «وَلَوأَشْـرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» والآيـة ۱۴۷ من سورة الأعراف: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِايَاتِنَا وَلِقَاءِ الْاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ» وصـرّحت الآية ۷ من سورة العنكبوت بشأن التكفير قائلـة: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ».

طبعاً هذا لا يعنى جعل السيئات والحسنات أمام بعضهما البعض الآخر يوم القيامة بحيث لوكانت الحسنات أكثر لما اكترث للسيئات أو لوكانت السـيئات أكثر أهملت الحسـنات بصورة كليّة، فليس هنالك هذا النوع من الاحباط والتكفير وهولا ينسجم مع الآيات القرآنيّة أيضاً فقد جاء فى الآيتين ۷ و ۸ من سورة الزلزال: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةً خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةً شَرّاً يَرَهُ».

وزبـدة الكلام إنّ لكلّ عمل صالـح وطالـح آثاره الخاصّـة عنـد اللَّه يوم القيامة، ولكن لهذا المطلب اسـتثناءات فهنالك بعض الأعمال

الصالحة التى تغطى الأخطاء، وبعض الأعمال القبيحة التى تزيل الحسنات ۵۱۰].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۷۵

۲. هل إبليس من الملائكة؟

جاء فى هذا القسم من الخطبة أنّ إبليس كان من الملائكة وقد طرده اللّه من الجنّة ومن حضيرة الحقّ لتلك المعصية الكبيرة.

ولعل هذه العبارة توحى بأنّ إبليس كان حقّاً من الملائكة بينما يصرّح القرآن علانيّة: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»[۵۱۱].

كما جاء فى القرآن من جانب آخر أنّ الملائكة معصومون ولا يقارفون المعصية قط: «بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ* لَايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»[۵۱۲]. فكيف لملك معصوم أن يتمرد على أوامر اللّه ويسلك طريق الكفر ومخالفة اللّه تعالى؟!

ومن هنا يتّضح أنّ إبليس كان فى مصاف الملائكة بفعل عبادته الكثيرة ولم يكن حقّاً من الملائكة فهذه العبارة وإن كانت مجازية إلّاأنّ القرائن الكثيرة والواضحة تزيل أىّ إبهام.

۳. كبر إبليس أساس كفره

يستفاد من الآيات القرآنيّة والروايات الإسلاميّة وهذه الخطبة أن كبر إبليس أدّى بالتالى إلى كفره، أقصى درجات الكفر، ذلك لأنّه اعترض على حكمة اللّه وعدّ أمره بالسجود لآدم منافياً للحكمة ولذلك عوقب بأشدّ العذاب وهو الطرد من حضيرة القدس وحبطت أعماله وعبادته التى استغرقت ستة آلاف سنة.

فالكلام يحمل رسالة واضحة للجميع هى عدم الاستخفاف بالكبر والعصبية، التى قد تقود أحياناً إلى الكفر واحباط الأعمال والطرد من القرب الإلهى، طبعاً كان بإمكان إبليس أن يرجع ويتوب، ولكن كان أوّل شرط فى توبته طاعة أمر اللّه فى

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۷۶

السجود لآدم عليه السلام، فقد جاء فى الحديث المروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«وَاللّهِ لَو أنّ إبْليسَ سَجَدَ لِلّهِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ والتَّكَبُّرِ عُمْرَ الدُّنْيا، ما نَفَعَهُ ذلِكَ ولا قَبِلَهُ اللّهُ مِنْهُ ما لَمْ يَسْجُدْ لِادَمَ كَما أمَرَ اللّهُ أنْ يَسْجُدَ لَهُ»[۵۱۳].

۴. وحدة حكم اللّه فى الجميع

إنّ أحد الدروس المهمّة فى هذا الجانب من الخطبة هى أنّ علاقة الخلق بالخالق علاقة الطاعة والعبودية وأنّ جميع مخلوقات اللّه سواسية فى الأحكام فى الشرائط المتساوية أو المتشابهة وما يعتقده طائفة من اليهود والنصارى أنّهم أبناء اللّه وخواصه وسوف لن ينالهم سوى جانب من العقاب على أعمالهم: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ»[۵۱۴] إنّما هى عقيدة خاطئة وفكرة باطلة.

وعليه فإنّ كلّ كبر وعصبية وعصيان سيؤدى إلى الطرد من رحمة اللّه وسوف لن يكون مصير كلّ من ارتكب هذه المعصية سوى مصير إبليس، وهذه القاعدة سارية على جميع العباد على اختلاف مراتبهم.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۷۷

القسم الثالث

اشارة

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ عَدُواللَّهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ، وأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ ورَجِلِهِ. فَلَعَمْرِى لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، ورَمَاكُمْ مِنْ مَكَان قَرِيب، فَقَالَ: (رَبِّ بِمآ أَغْوَيْتَنِى لَازَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ ولَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)، قَذْفاً بِغَيْب بَعِيد، ورَجْماً بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيب، صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وفُرْسَانُ الْكِبْرِ والْجَاهِلِيَّةِ. حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، واسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ الْحَالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الأَمْرِ الْجَلِيِّ، اسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، ودَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ ولَجَاتِ الذُّلِّ، وأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وأَوْطَؤُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ، طَعْناً فِى عُيُونِكُمْ، وحَزًّا فِى حُلُوقِكُمْ، ودَقًّا لِمَنَاخِرِكُمْ، وقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وسَوْقاً بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ. فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِى دِينِكُمْ حَرْجاً، وأَوْرَى فِى دُنْيَاكُمْ قَدْحاً مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ. فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ، ولَهُ جَدَّكُمْ.

الشرح والتفسير: أعدى أعداء الإنسان

خاض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة فى الاستنتاج من قصة ضلال الشيطان وطرده من الرحمة إثر كبره وعصبيته ليحذر الجميع من سوء العاقبة والمصير فقال:

«فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ عَدُو اللَّهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ ۵۱۵] بِدَائِهِ، وأَنْ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۷۸

يَسْتَفِزَّكُمْ ۵۱۶] بِنِدَائِهِ، وأَنْ يُجْلِبَ ۵۱۷] عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ ورَجِلِهِ ۵۱۸]»

. وعبارة الإمام عليه السلام هذه اقتباس من القرآن الكريم حيث قال تعالى «وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ»[۵۱۹].

وخيل تعنى الفرس وكذلك الفرسان وأريد بها هنا المعنى الثانى ورجل تعنى المشاة وهى إشارة إلى كثرة الأعوان الذين يقفون إلى جانب الشيطان سواء من نوعه أو من البشر والذين يعينونه على إضلال الآخرين؛ فبعضهم سريع كالفرسان والآخر بطيئ كالمشاة.

وبالطبع فإنّ الصفات الرذيلة وعوامل المعصية ومراكز الفحشاء والدعايات السامة والمضلّة ووسائل الذنوب تعدّ من أعوان الشيطان وجنوده حيث حذّر الإمام عليه السلام الناس من كلّ هذه الأمور.

ثم أقسم الإمام عليه السلام بعمره لتأكيد هذا الكلام فقال عليه السلام:

«فَلَعَمْرِى لَقَدْ فَوَّقَ ۵۲۰] لَكُمْ

سَهْمَ الْوَعِيدِ، وأَغْرَقَ ۵۲۱] إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ ۵۲۲] الشَّدِيدِ، ورَمَاكُمْ مِنْ مَكَان قَرِيب».

ثم استشهد الإمام عليه السلام بقوله تعالى عن إبليس:

«فَقَالَ:

«رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَازَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ ولَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»».

أمّا قسم الإمام عليه السلام بعمره فيشير إلى أنّ القضية غاية فى الجدية؛ وليت شعرى أى

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۷۹

شيء أشرف من عمر الإمام وقوله عليه السلام إنّ الشيطان فوّق لكم سهم الوعيد واغرق إليكم بالنزع الشديد إشارة إلى أنّ خطر

الشيطان قد أحاط بكم بأخدع صوره التى قلّما تخطئ وقد دلكم على سبله وذلك من خلال المظاهر الماديّة للدنيا وتزيين نعمها الماديّة والغرق فى مستنقع الشهوات واللذات.

وتعبير الإمام عليه السلام بأنّ الشيطان جند طاقاته وقواه كافّة واستعد للهجوم عليكم وقد استهدفكم من مكان قريب فكنتم فى مرماه من كلّ جانب، إشارة إلى كثرة عناصر الوساوس الشيطانيّة فى باطن الإنسان وخارجه، فهوى النفس من جهة والعوامل الخارجية للمعصية من جهة أخرى

والعبارة «لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» التى تبدأ بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة وتنتهى بالمفردة أجمعين، شاهد على أنّه بمنتهى الجد فى تحقيق اهدافه المشؤومة، ومن هنا لابدّ أن يعيش الناس اليقظة والحذر حتى لا يقعوا فى شباك فخّه ومصائده.

جدير ذكره أنّ العبارة:

«رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ...»

من أكاذيب الشيطان وافترائاته على اللَّه تعالى والتى تشير إلى مدى تمرده ووقاحته بحيث يفترى على اللَّه مثل هذا الكذب، اللَّه الذى يهدى الجميع ويزودهم بعناصر الهدى، ولما كان كلام الشيطان واضح البطلان فالقرآن لا يرد عليه، فكيف يضلّه اللَّه سبحانه وتعالى وهو الذى أمره والملائكة بقوله: «فَاذا نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» فالشرف الذى حظى به آدم عليه السلام على أساس روح اللَّه التى نفخت فيه، إلّاأنّ الشيطان الحسود والأنانى تجاهل ذلك واكتفى بالنظر إلى خلقه من الطين! فهل الضلال كان من جانب اللَّه أم من نفس الشيطان؟!

ثم قال عليه السلام فى مواصلته لكلامه:

«قَذْفاً بِغَيْب بَعِيد، ورَجْماً بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيب».

فقد وردت العبارة

«رَجْماً بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيب»

بهذه الصيغة فى أغلب نسخ نهج‌البلاغة والتى يظن أحياناً أنّها لا تنسجم مع الآية الشريفة: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۸۰

إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ»[۵۲۳] والحال إنّ الآية الشريفة نازلة بشأن قوم سبأ لا بشأن جميع الناس وإلّا فالمؤمنون ليسوا بقلّة فى أمم الأنبياء.

ورجّحت طائفة من شرّاح نهج البلاغة النسخة الأخرى التى لا تتضمن كلمة «غير» وبصيغة:

«رَجْماً بِظَنٍّ مُصِيب»

لأنّهم قالوا إنّ ظن الشيطان بشأن الناس مطابق للواقع حيث لم ينج من وساوسه سوى قلّة قليلة من الناس وهذا ما صرح به القرآن الكريم إذ قال: «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ»[۵۲۴] وقال فى موضع آخر: «الَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ»[۵۲۵].

أضف إلى ذلك بأنّها أكثر انسجاما مع العبارة التالية فى هذه الخطبة التى قال فيها:

«صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وفُرْسَانُ الْكِبْرِ والْجَاهِلِيَّةِ».

فالعبارة:

«أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ»

كناية عن أنّهم عجنوا بالكبر على درجة وكأنّهم أصبحوا أبناءه كما أنّ التعبير إخوان العصبيّة كناية عن علاقتهم الوثيقة بالعصبيات القبليّة والقوميّة وما شابه ذلك.

والعبارة

«وفُرْسَانُ الْكِبْرِ والْجَاهِلِيَّةِ»

كناية عن أنّهم بلغوا درجة من الكبر والجهل والغرور وكأنّهم اعتلوا مركباً من الجهل والكبر اندفعوا به إلى الأمام.

ثم قال الإمام عليه السلام:

«حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ[۵۲۶] مِنْكُمْ، واسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ[۵۲۷]

مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ ۵۲۸] الْحالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الأَمْرِ الْجَلِيِّ. اسْتَفْحَلَ ۵۲۹] سُلْطَانُهُ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۸۱

عَلَيْكُمْ، ودَلَفَ ۵۳۰] بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ».

إشارة إلى أنّ إبليس يسعى بادئ الأمر إلى الهيمنة على الأفراد الذين يتمردون عليه ثم يرسخ قاعدته لديهم ثم يبسط نفوذه عليهم فيهجم عليهم بجنوده والحال فهم فقدوا قدرتهم الدفاعيّة وعانوا من أنواع المصائب الماديّة والمعنويّة، كما أشار الإمام عليه السلام بثمان عبارات قصيرة عميقة المعنى إلى آثار ذلك الهجوم الشيطانى الواسع فقال:

«فَأَقْحَمُوكُمْ ۵۳۱] وَلَجَاتِ ۵۳۲] الذُّلِّ، وأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ ۵۳۳] الْقَتْلِ، وأَوْطَؤُوكُمْ ۵۳۴] إِثْخَانَ ۵۳۵]

الْجِرَاحَةِ، طَعْناً فِى عُيُونِكُمْ، وحَزّاً[۵۳۶] فِى حُلُوقِكُمْ، ودَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ ۵۳۷]، وَقَصْداً

لِمَقَاتِلِكُمْ، وسَوْقاً بِخَزَائِمِ ۵۳۸] الْقَهْرِ إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ».

فهذه العبارات الغاية فى الدقة والبيان والمقرونة بمنتهى البلاغة والفصاحة تجسد عظم بؤس المهزومين أمام الشيطان، الذين إن هربوا من جنده وأعوانه ولجأوا إلى كهف فسوف لن يكون سوى كهف الذل والهوان وإن قاوموا فليس لهم من مصير سوى الموت والفناء كما أنّ موتهم سوف لن يكون هيناً بل ممزوج بالضرب والجرح وغرز السهام فى العيون وقطع الحناجر وتحطيم الأنوف وبالتالى سوف يجرون إلى نار الغضب الإلهيّة.

ثم خلص عليه السلام إلى استنتاج قاطع فقال:

«فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِى دِينِكُمْ حَرْجاً[۵۳۹]،

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۸۲

وأَوْرَى ۵۴۰] فِى دُنْيَاكُمْ قَدْحاً[۵۴۱] مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ ۵۴۲]، وعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ ۵۴۳].

فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ ۵۴۴]، ولَهُ جِدَّكُمْ ۵۴۵]».

إشارة إلى أنّ إبليس أعدى أعدائكم فى الدين والدنيا وخطره أعظم من خطر كلّ عدو فلابد من تجنيد طاقاتكم لمواجهته.

وقد عبّر الإمام عليه السلام عن الفساد بالحرج يعنى الصعوبة والمشقّة (ووردت فى بعض النسخ جرح والتى تبدوانسب للعبارة) وعن وساوس الشيطان المضلّة بالقدح (ما يشعل به النار)، لأنّ قداحة صغيرة يمكن لها أن تحرق بيتاً أو حياً، ووساوس الشيطان قد تقود أحياناً إلى تصدع مجتمعات وإنهيارها، ولا سيما العصبيات العمياء والكبر والغرور كما ذُكر فى الخطبة حيث تأجيج نيران القبليّة التى تدعو إلى مزيد من سفك الدماء واغراق الأرض بها من الأفراد الأبرياء.

والتعبير بالجد بفتح الجيم بمعنى القطع تشير إلى قطع العلاقة مع إبليس وعدم طاعة أوامره (وقد ورد الجد فى بعض النسخ بكسر الجيم والذى يعنى السعى والمثابرة والذى يبدو أنسب للعبارات السالفة) فالبعض يبذل قصارى جهده وسعيه فى مجاهدته لإبليس وجنده.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۸۳

القسم الرابع

اشارة

فَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَی أَصْلِكُمْ، ووَقَعَ فِی حَسَبِكُمْ، ودَفَعَ فِی نَسَبِكُمْ، وأَجْلَبَ بِخَیْلِهِ عَلَیْكُمْ، وقَصَدَ بِرَجِلِهِ سَبِیلَكُمْ، یَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَان، ویَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَان. لَاتَمْتَنِعُونَ بِحِیلَة، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِیمَة، فِی حَوْمَةِ ذُلٍّ، وحَلْقَةِ ضِیق، وعَرْصَةِ مَوْت، وجَوْلَةِ بَلَاء. فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِی قُلُوبِكُمْ مِنْ نِیرَانِ الْعَصَبِیَّةِ واحْقَادِ الْجَاهِلِیَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِیَّةُ تَكُونُ فِی الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّیْطَانِ ونَخَوَاتِهِ، ونَزَغَاتِهِ ونَفَثَاتِهِ. واعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَی رُؤُوسِكُمْ، وإِلْقَاءَ التَعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَیْنَكُمْ وبَیْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِیسَ وجُنُودِهِ؛ فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّة جُنُوداً وأَعْوَاناً، ورَجِلًا وفُرْسَاناً، وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَی ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَیْرِ مَا فَضْل جَعَلَهُ اللَّهُ فِیهِ سِوَی مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ، وقَدَحَتِ الْحَمِیَّةُ فِی قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، ونَفَخَ الشَّیْطَانُ فِی أَنْفِهِ مِنْ رِیحِ الْكِبْرِ الَّذِی أَعْقَبَهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وأَلْزَمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِینَ إِلَی یَوْمِ الْقِیامَةِ.

الشرح والتفسیر: التحذیر من التشبه بالشیطان أو قابیل

عبأ الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة الجمیع للوقوف بوجه الشیطان ووساوسه وأشار إلی سوابقه السیئة وعداوته بعبارات تفیض فصاحة وبلاغة فقال:

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۲۸۴

«فَلَعَمْرُ اللَّهِ ۵۴۶] لَقَدْ فَخَرَ عَلَی أَصْلِكُمْ، ووَقَعَ فِی حَسَبِكُمْ ۵۴۷]، ودَفَعَ فِی نَسَبِكُمْ، وأَجْلَبَ بِخَیْلِهِ عَلَیْكُمْوقَصَدَ بِرَجِلِهِ سَبِیلَكُمْ».

وهذه العبارات العمیقة المعنی هی اقتباس من الآیات القرآنیّة الشریفة؛ فالآیة ۳۳ من سورة الحجر تشیر إلی أنّ الشیطان حقر آدم بهذه الصیغة قائلًا: «لَمْ أَكُنْ لِّاسْجُدَ لِبَشَر خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَال مِّنْ حَمَإ مَّسْنُون» فغروره وحسده وتكبره جعله یتناسی العبارة: «نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُّوحِی» من كلام اللَّه والتی تعدّ من أعظم مفاخر آدم علیه السلام، كما قال تعالی عن إبلیس فی الآیة ۱۲ من سورة الأعراف «أَنَا خَیْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نَّار وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِین» والحال لو تخلی عن كبره وغروره لأیقن أنّ التراب هو مصدر أنواع البركات وأساس حیاة الموجودات وهو أفضل من النار، وصرّحت الآیة ۶۴ من سورة الإسراء أنّ اللَّه تعالی قال له: «وَأَجْلِبْ عَلَیْهِمْ بِخَیْلِكَ وَرَجِلِكَ» كما قال تعالی عن الشیطان فی الآیة ۱۶ من سورة الأعراف: «لَاقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِیمَ».

وهنا تكمن خطورة هذا العدو الذی ینبغی الحذر منه فهو لا یقرّ بشخصیة آدم الرفیعة ولا یسلم بنسبه وقد جند طاقاته كافّة من أجل اغوائه واضلاله.

ثم قال علیه السلام فی مواصلته لكلامه:

«یَقْتَنِصُونَكُمْ ۵۴۸] بِكُلِّ مَكَان، ویَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَ بَنَان ۵۴۹]. لَاتَمْتَنِعُونَ بِحِیلَة، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِیمَة. فِی حَوْمَةِ[۵۵۰] ذُلٍّ، وحَلْقَةِ ضِیق، وعَرْصَةِ مَوْت، وجَوْلَةِ بَلَاء».

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۲۸۵

والعبارة:

«ویَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَان»

تشبه ما ورد فی القرآن الكریم بشأن هجوم الملائكة علی الكفار یوم بدر: «وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَان»[۵۵۱]. فإنّ قطع كلّ بنان إن كان بشأن الأیدی یؤدّی بالإنسان إلی العجز عن الإتیان بأغلب الأعمال، ذلك لأنّ لكلّ عمل وسیلة ووسائل الأعمال عادة الأصابع والأیدی، وإن كان المراد بنان الأرجل فذلك یؤدّی إلی اختلال توازن الإنسان حین المشی والعبارة الواردة فی الخطبة إشارة إلی أنّ

الشياطين يهجمون عليكم ويعيقونكم عن العمل بحيث يسلبونكم زمام التفكير والقدرة على اتخاذ القرار.

ثم ركز الإمام عليه السلام على لب الموضوع فاستعار تشبيهات غاية فى الجمال وبمنتهى الفصاحة والبلاغة ليحذر الجميع من الآثار السيئة للعصبية العمياء والكبر الأجوف فقال عليه السلام:

«فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ واحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ ونَخَوَاتِهِ [۵۵۲]، ونَزَغَاتِهِ [۵۵۳]

ونَفَثَاتِهِ [۵۵۴]».

فقد شبه الإمام عليه السلام بهذه العبارات العصبيات الطائشة والأحقاد الجاهلية بالنار الكامنة فى أعماق القلوب التى تقتدح فجأة وتلتهم جميع كيان الإنسان فتسرى إلى الخارج لتعم وتحرق أمم بأسرها، ويعدّ الإمام عليه السلام هذه الصفة الرذيلة من وساوس الشيطان والتى تنتقل من الخارج إلى بواطن المسلمين أى هى قريبة من المسلم الحقّ.

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلًا:

«واعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وإِلْقَاءَ التَعَزُّزِ

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۲۸۶

تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ؛ وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً[۵۵۵] بَيْنَكُمْ وبَيْنَ

عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وجُنُودِهِ».

فقد شبّه الإمام عليه السلام فى هذه العبارات التواضع بالتاج والتعزز بما يلقى تحت الأقدام ممّا لا قيمة له وشبّه التكبر بالغل الذى يوضع على العنق والبساطة بالمسلحة أو بالموضع الذى يحفظ الإنسان من مكائد العدو وكلّ منها يحمل رسالة واضحة للناس ولا سيما الأفراد المؤمنين منهم.

ثم بين الإمام عليه السلام دليلًا واضحاً لهذه الوصايا فقال:

«فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وأَعْوَاناً، ورَجِلًا وفُرْسَاناً».

طبعاً ليس جميع هؤلاء من الجن بل بعضهم من الناس الشياطين من الضالّين والمضلّين أعوان الشيطان وأنصاره وقد قال القرآن الكريم: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْانسِ وَالْجِنِّ»[۵۵۶].

وهنا تطرق الإمام عليه السلام بعبارة قصيرة وعميقة المعنى إلى قصّة قابيل الشخص الثانى بعد الشيطان الذى إعتراه الكبر والعصبيّة فارتكب جناية عظيمة وغاص فى وحل الندم والشقاء فقال عليه السلام:

«وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْل جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ».

العبارة

«ابن أُمّه»

بدلًا من أخ إشارة إلى البعد العاطفى للموضوع، أى أنّ التكبر فعل فِعله رغم تلك العلاقة العاطفيّة بينهما فدفعه لقتل أخيه ولعلنا نلمس شبيه هذا المعنى فى قصة موسى وهارون حين نقم على عبادة بنى إسرائيل للعجل وقد أخذ برأس أخيه هارون فناداه على سبيل آثارة عواطفه: «يَبْنَؤُمَّ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى»[۵۵۷].

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۲۸۷

والعبارة:

«سِوى ما أَلْحَقَتِ»

من قبيل ما يصطلح عليه بالاستثناء المنقطع وقد وردت هنا لشدة الذم كأن نقول: «ليس لفلان من فضل سوى الكذب والخيانة».

والعبارة:

«عَداوَةُ الْحَسَد»

إشارة إلى أنّ الحسد يؤدّى بالإنسان إلى العداوة والخصومة؛ العداء الذى من شأنه أن يكون مدعاة لقتل الأخ لأخيه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى توضيح هذا الأمر فقال:

«وقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِى قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، ونَفَخَ الشَّيْطَانُ فِى أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِى أَعْقَبَهُ اللَّهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وأَلْزَمَهُ آثَامَ ۵۵۸] الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ».

ويستفاد من هـذه العبارات أنّ الانحرافات إنّما تنطلق بادئ الأمر من باطن الإنسان ثم يعمقها الشيطان لتطال آثارها المشؤومة الإنسان وعليه فكلّ ما هنالك يعزى إلى باطن الإنسان الملوث وهـذا رد حاسم على أولئك الذين يقولون لماذا يفعل الشيطان كل هذا ولماذا يبتلينا اللّه تعالى بكلّ تلك المصائب.

وقد نقل ابن أبى الحديد عند هذه العبارة حديثاً عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله رواه المؤرخ المعروف الطبرى أنّه قال:

«ما مِنْ نَفْس تُقْتَلُ ظُلْماً إلّاكانَ عَلى ابْن آدَمَ الأوّلَ كِفْلٌ مِنها وذلِكَ بِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».

وأضاف ابن أبى الحديد: إنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبة يؤيد ذلك ۵۵۹].

وقد وردت عدّة أبحاث مطولة فى الروايات الإسلاميّة بشأن إقامة السنة الحسنة والسنة السيئة وآثارهما سنتطرق إلى ذلك إن شاء اللّه فى محله والذى يمكن قوله على نحو الخلاصة: إنّ كلّ من سن فعل خير وحثّ الناس على القيام به فهو شريك لهم فى الأجر والثواب ومن سن سنة سيئة فهو شريك لهم فى الذنب والمعصية بسبب انتهاكه للحرمات وتشجيعه الناس من ضعاف الإيمان على المعصية.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۸۹

القسم الخامس

اشارة

ألَا وقَدْ أَمْعَنْتُمْ فِى الْبَغْيِ، وأَفْسَدْتُمْ فِى الأَرْضِ مُصَارَحَةً لِلَّهِ بِالْمُنَاصَبَةِ، ومُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ. فَاللَّهَ اللَّهَ فِى كِبْرِ الْحَمِيَّةِ وفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلَاقِحُ الشَّنَآنِ، ومَنَافِخُ الشَّيْطَانِ، الَّتِى خَدَعَ بِهَا الْامَمَ الْمَاضِيَةَ، والْقُرُونَ الْخَالِيَةَ. حَتَّى أَعْنَقُوا فِى حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ، ومَهَاوِى ضَلَالَتِهِ، ذُلُلًا عَنْ سِيَاقِهِ، سُلُساً فِى قِيَادِهِ. أَمْراً تَشَابَهَتِ الْقُلُوبُ فِيهِ، وتَتَابَعَتِ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وكِبْراً تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ.

أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وكُبَرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وأَلْقَوُا الْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ، وجَاحَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، ومُغَالَبَةً لِالائِهِ. فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، ودَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وسُيُوفُ اعْتِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً. وَلَا تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وأَدْخَلْتُمْ فِى حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وأَحْلَاسُ الْعُقُوقِ. اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَال. وجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ، وتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ ودُخُولًا فِى عُيُونِكُمْ، ونَفْثاً فِى أَسْمَاعِكُمْ.

فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ، ومَوْطِئَ قَدَمِهِ، ومَأْخَذَ يَدِهِ.

الشرح والتفسير: اجتناب تبعية المتكبرين

لما فرغ الإمام عليه السلام من تلك المقدمات فى المقاطع السابقة بشأن مخاطر الكبر

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۹۰

والغرور والعصبيـة حـذر مخاطبيه مباشـرة من سوء عاقبـة السير على هـذا المسار الشيطانى وألقى باللائمـة على أولئك الـذين يثيرون الخلافات والنزاعات ويؤججون نيران الصراعات تحت ذرائع واهية تستند إلى العصبية القبلية والتفاخر الذى تقوم به جماعة على أخرى فقال عليه السلام:

«أَلَا وقَدْ أَمْعَنْتُمْ ۵۶۰] فِى الْبَغْيِ، وأَفْسَدْتُمْ فِى الأَرْضِ

مُصَارَحَةً[۵۶۱] للَّهِ بِالْمُنَاصَبَةِ[۵۶۲]، ومُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ».

ذهب بعض شـرّاح نهـج البلاغـة إلى أنّ المخاطب بهـذه العبارات هم جنـد الشام واتباع معاويـة ولعلهم إسـتندوا فى ذلك إلى خطاب الإمـام عليه السـلام اللاذع والشديـد الـذى لم يكن مناسـباً لما عليه أهل الكوفـة والعراق، فى حين يفهم من سـبب هـذه الخطبـة وسائر الخطب أنّ مخاطبى الإمام عليه السـلام هم طغاة الكوفة والعراق الذين كانوا يثيرون الصراعات بين القبائل وأدّوا إلى المزيد من الفساد وإراقة الدماء انطلاقاً من التعصبات الجاهليّة والقبليّة؛ الأمر الذى يعتبر عداءً صريحاً للّهمن جانب وحرباً شعواء على المؤمنين من جانب آخر.

ثم اشتد كلام الإمام عليه السلام فخاطبهم قائلًا:

«اللَّهَ فِى كِبْرِ الْحَمِيَّةِ وفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلَاقِحُ الشَّنَآنِ، ومَنَافِخُ الشَّيْطَانِ».

وبالنظر إلى أنّ

«ملاقح»

جمع

«ملقح»

على وزن مجرم، فإنّ مفهوم العبارة أنّ الكبر والتعصب سبب ايجاد البغض والعداوة وكذلك

«منافخ»

جمع

«منفخ»

على وزن «مصرف» وسيلة ينفخ بواسطتها ومفهومها أنّ الشيطان يوسوس فى القلوب عن هذا الطريق ويسوقهم إلى الفساد.

ثم أشار عليه السلام إلى آثار ومخاطر هذه الوساوس والنفخات الشيطانيّة فقال:

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۹۱

«الَّتِى خَدَعَ بِهَا الْامَمَ الْمَاضِيَةَ، والْقُرُونَ الْخَالِيَةَ. حَتَّى أَعْنَقُوا[۵۶۳] فِى حَنَادِسِ ۵۶۴]

جَهَالَتِهِ، ومَهَاوِى ۵۶۵] ضَلَالَتِهِ، ذُلُلًا[۵۶۶] عَنْ سِيَاقِهِ، سُلُساً[۵۶۷] فِى قِيَادِهِ».

ثم أضاف عليه السلام قائلًا:

«أَمْراً تَشَابَهَتِ الْقُلُوبُ فِيهِ، وتَتَابَعَتِ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وكِبْراً تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ».

فى إشارة إلى أنّ مسألـة الكبر والغرور وآثارها ومخاطرها الجمـة أمر متجـذر فى جميع الأمم والشـعوب والـذى كان مصـدر الحروب الدموية والنزاعات الواسعة ومختلف أنواع الجرائم والجنايات والحماقات.

فالتكبر والتعصب صفتان سودتا وجه التاريخ البشرى واللتان تعتبران من أهم شباك الشيطان فى العصور الماضية والحاضرة والقادمة.

نقل أحـد شـرّاح نهـج البلاغـة (المرحوم محمـد جواد مغنية) فى شـرحه أنّ الفيلسوف الانجليزى المعروف (راسل) قال: إنّ كلّ إنسان يحب أن يكون إلهـاً والغريب قلّ من يعتقـد أنّ هـذا الأمر محال، ثم يضـيف هـذا الشارح العالم أنّ هـذا الكلام صـحيح إلّاأنّ أولئك الذى يتمنون أن يكونوا آلهة ولا يبلغون ذلك يعمدون لاشـباع رغباتهم الباطنيّة إلى التكبر والفخر بالعظام البالية لآبائهم أو ما هم عليه

من مقام أو ذكر أسمائهم فى الصحف.

ثم ركز الإمام عليه السلام على الموضع الأصلى للقضية والذى يكمن فى الطاعة العمياء لزعماء القبائل والمفسدين والمتكبرين الأنانيين الذين يدعون الناس إلى أهوائهم وملذّاتهم ويثيرون الفتن والمفاسد فقال عليه السلام:

«أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۹۲

وكُبَرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وأَلْقَوُا الْهَجِينَةَ[۵۶۸] عَلَى رَبِّهِمْ، وجَاحَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، ومُغَالَبَةً لِالائِهِ ۵۶۹]».

فهذا الكلام فى الواقع اقتباس من الآية القرآنيّة الشريفة التى يظهر فيها الناس ندمهم يوم القيامة على طاعتهم لكبرائهم وزعمائهم فيقولون: «رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا* رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنْ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً»[۵۷۰].

وإننا كلّما تأمّلنا تاريخ البشريّة الماضى نرى أنّ أحد العناصر الرئيسيّة فى الحروب والصراعات وإراقة الدماء كان يكمن فى التكبر والعصبيات القبلية والقوميّة والتى ما زالت قائمة لحد الآن، وهى أحد العوامل المهمّة فى نشوب الحرب العالمية الأُولى والثانية التى حطمت دولًا من العالم وأودت بحياة الملايين من الناس، والحال لو أمعن الإنسان النظر لأدرك أنّ أصله من التراب وأصله الآخر نطفة لا قيمة لها ونهايته جثة متعفنة، فقد نهى الإسلام عن الافتخار بالآباء والمناصب والتمسك ببعض الألقاب التى تفرز الغرور والغفلة، فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف:

«حُبُّ الرَّجُلِ دِينُهُ، ومُرُوَّتُهُ، خُلْقُهُ، وأَصْلُهُ عَقْلُهُ»[۵۷۱].

فقد قاله النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله حين حاول البعض الاستخفاف بسلمان الفارسى حين سألوه عن نسبه، فرد عليهم بأنّ نسبه عتقه من العبودية بواسطة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

والعبارة:

«أَلْقَوُا الْهَجِينَةَ عَلى رَبِّهِمْ»

إشارة إلى أنّ هؤلاء رأوا أنّ نسبهم هو الأفضل ونسب الآخرين أدنى ثم نسبوا دناءة نسب الآخرين إلى اللَّه تعالى، واعتقدوا أنّ اللَّه تعالى خلق خلقاً فاضلًا وكانوا هم من ذلك الخلق، وخلق تعالى خلقاً أدنى هم الآخرون كما نسبوا لأنفسهم ما نالوا من النعم الإلهيّة على أنّها تستند

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۲۹۳

إلى كفائتهم وجدارتهم وتنكروا لنعم اللَّه وآلائه وألطافه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى ذكر السبب الذى يقف وراء ضرورة عدم تبعية مثل هؤلاء الأفراد فقال:

«فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، ودَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وسُيُوفُ اعْتِزَاءِ[۵۷۲] الْجَاهِلِيَّةِ».

فقد شبّه الإمام عليه السلام العصبية والفتنة بالبيت، وأعمدته دعاة الفساد، وأركانه المتكبرون الأنانيّون، وقد نهى الجميع عن السكن فى هذا البيت، كما شبه عليه السلام الشعارات السائدة فى زمان الجاهليّة لإثارة القبائل وتأليبها على بعضها البعض الآخر، بالسيوف الحادة، ثم شبه زعماء الفساد بهذه السيوف.

فقد كان السائد فى العصر الجاهلى أنّ أية قبيلة من القبائل إذا ما تعرّضت لتهديد من الطرف الآخر عمد زعماؤها بدلًا من اعتماد الفكر والمنطق فى إصلاح الأمور وإرساء الصلح والسلام إلى تأليب الآخرين على اطلاق شعارات الحرب مستغلين جميع الوسائل من أجل إثارة عواطف الأفراد الجهّال بغية تأجيج نار الحرب، سيما أنّ كل قبيلة كانت تنادى الأخرى بأسماء آبائها وأجدادها السابقين فزعماء القبائل فى الواقع هنا بمنزلة السيوف.

ویشیر التاریخ إلی أنّ الزعماء المتهافتین علی المناصب والمقامات فی العصور السابقة کانوا یعبئون الجماهیر بمختلف الشعارات ویزجون بالجهّال فی أتون الحرب بغیة الحفاظ علی مصالحهم ومقاماتهم ولعلنا نلمس الیوم ما علیه وسائل الإعلام العالمیّة التی تعتمد شتی الأسالیب وبصورة واسعة بغیة الحفاظ علی الحکومات الاستکباریة ومصالح کبار رؤساء الأموال، وکما قال القرآن الکریم: «انَّ الْمُلُوکَ إِذَا دَخَلُوا قَرْیَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً»[۵۷۳]، وهذه هی الفئة التی وقفت علی الدوام بوجه الأنبیاء الذین بعثوا لتنویر عقول الناس وهدایتهم إلی

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۲۹۴

الصراط المستقیم وبسط القسط والعدالة الاجتماعیّة، فهبت لمعاداتهم ومواجهتهم:

«وَمَا أَرْسَلْنَا فِی قَرْیَةٍ مِّنْ نَّذِیرٍ الَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ کَافِرُونَ»[۵۷۴].

ثم أضاف علیه السلام:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَکُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَیْکُمْ أَضْدَاداً، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَکُمْ حُسَّاداً».

فی الواقع إنّ هؤلاء الذین یکفرون بنعم اللَّه ویسلکون سبیل الکبر والغرور بدلًا من توظیف هذه النعم فی خدمة الخلق إنّما یهبون لمناجزة نعمهم ویحسدون أنفسهم فی ما أفاض اللَّه علیهم ذلک لأنّ فعل هؤلاء بالنتیجة یتفق مع ما علیه الحساد والأعداء، فکلاهما ینشد سلب النعمة والفضل الإلهی من الآخرین.

ثم أشار الإمام علیه السلام إلی نقطة أخری فقال:

«وَلَا تُطِیعُوا الأَدْعِیَاءَ[۵۷۵]».

ذهب بعض الشرّاح إلی أنّ المراد بالأدعیاء ذلک المعنی الأصلی (الأفراد الذین لا حسب لهم ولا نسب، أبناء الحرام) بینما فسّرها البعض الآخر بأنّ المراد بها المنافقین، ذلک لأنّ النفاق إنّما هو نتیجة دناءة النسب وخسة الجوهر، وأخیراً هناک من فسّرها بالوضیعین. جدیر ذکره أنّ التکبر الذی یعدّ الموضوع الأصلی لهذه الخطبة إنّما یستند إلی عقدة الحقارة، وهذا ما صرحت به الروایة الواردة عن الإمام الصادق علیه السلام حیث قال:

«ما مِنْ رَجُل تَکَبَّرَ او تَجَبَّرَ إِلّا لِذِلَّة وَجَدَها فی نَفْسِهِ»[۵۷۶].

ثم خاض علیه السلام فی شرح أوصاف طائفة الأدعیاء فقال:

«الَّذِینَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِکُمْ کَدَرَهُمْ، وخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِکُمْ مَرَضَهُمْ، وأَدْخَلْتُمْ فِی حَقِّکُمْ بَاطِلَهُمْ».

إشارة إلی أنّ هؤلاء المنافقین المستکبرین إنّما استغلوا حسن نیاتکم وأنفذوا

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۲۹۵

إلیکم نیاتهم السیئة وأمراضهم النفسیّة وأعمالهم المریضة والمطالب الباطلة ورسخوها فی أوساطکم؛ وعلیه فما علیکم إلّاالتعرف علیهم والانسحاب من تبعیتهم وطرح أفکارهم الفاسدة وخططهم الشیطانیّة من أوساطکم.

ثم أفصح الإمام علیه السلام عن التعریف بهم فقال:

«وهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وأَحْلَاسُ ۵۷۷]

الْعُقُوقِ ۵۷۸]».

بالنظر إلی معنی الفسوق وهو الخروج عن الطاعة والعقوق الذی یطلق علی مطلق العصیان، فإنّ المراد بالعبارة السابقة أنّ جمیع المعاصی والمفاسد الاجتماعیّة إنّما تنبع من المفسدین والمستکبرین حیث یقوم هؤلاء الأفراد باستقطاب الناس وشدهم إلیهم کونهم مصداق للعبارة:

«النّاسُ عَلی دینِ مُلُوکِهِمْ».

ثم تحدّث الإمام عليه السلام عن العلاقة القائمة بين هذه الفئة وإبليس ومدى ارتباط افكارهم وخططهم بوساوسه فقال:

«اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَال. وجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ ۵۷۹] عَلَى النَّاسِ، وتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ ودُخُولًا[۵۸۰] فِي عُيُونِكُمْ، ونَفْثاً[۵۸۱] فِي أَسْمَاعِكُمْ».

فالواقع، إنّما يمتطى إبليس هـذه الفئة بالدرجة الأُولى لإضـلال الناس وإغوائهم، ثم يستعين بها فى هجومه عليهم فإن استسلموا لقنهم مطالبه بلسان زعماء هذه الفئة الضالة فيعطل لديهم جميع مصادر الفهم والإدراك بما فيها العقل والعين والاذن؛ فيسلبهم عقلهم بأمانيه البعيدة وأهوائه ورغباته ويزين لهم الدنيا، فيصادر بصيرتهم ويقرأ فى آذانهم كلمات الخداع ويوسوس إليهم فلا ـ تكون عاقبتهم إلّاتلك التى

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۹۶

أشار الإمام عليه السلام إليها فى خطبته وعلى هذا الأساس فقد جعلكم أهدافاً لسهامه ووطأكم بقدمه واستحوذ عليكم:

«فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ ۵۸۲]، ومَوْطِئَ قَدَمِهِ، ومَأْخَذَ

يَدِهِ».

فمن الطبيعى أن يتيه الإنسان تحت أرجل الشيطان ويكون بدنه عرضة لسهامه ويحكم عليه قبضته إذا ما فقد عقله وبصيرته وإدراكه.

وقد ذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ العبارة «ومَأْخَذَ» إشارة إلى الأسر فى مخالب الشيطان، وعليه يكون مفهوم العبارات الثلاث أنّ الشيطان يقضى عليكم أو يذلكم أو يأسركم، إلّاأنّ التفسير الذى أوردناه يبدو أنسب مع العبارات السابقة.

والواقع أنّ هـذه الكلمات العميقة للإمام عليه السلام بشأن نفوذ الشيطان فى الإنسان اقتباس من القرآن الكريم إذ قال تعالى: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ»[۵۸۳].

وقال تعالى فى الآيـة ۱۱۲ من سورة الأنعام: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْانسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْض زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً» وقد مر شبيه ما ورد فى هذه العبارة فى الخطبة السابعة حين قال:

«اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِامْرِهِمْ مِلَاكاً واتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً ... فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، ونَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ».

تأمّل

التكبر والعصبية

«التكبر»

يعنى الشعور بالأفضلية من الآخرين، و

«التعصب»

يعنى التعلق غير المنطقى بشخص والتفانى فى الدفاع عنه بصورة عمياء، أو الغلو فى الحب للقبيلة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۹۷

وتمجيدها بحقّ وبغير حقّ، وتعصب من مادة عصب على وزن غضب بمعنى الأوعية الخاصّة التى تربط عضلات الإنسان بدماغه وتشكل سلسلة الأعصاب.

ثم اطلقت على الفئة والجماعة المنسجمة فكرياً والمتعاضدة فيما بينها، ويطلق على هذه الجماعة

«عُصبة»

على وزن

«سُفرة»

وتطلق مفردة

«تعصّب»

عادة على التبعية الهمجية المطلقة والتى يفرزها عادة الجهل وضيق التفكير والكبر؛ لأنّ الشخص الذى يريد أن يلصق بنفسه قيمة معينة يسعى لإكبار من يتعلق به أو يتعلق بهم، فيتجاهل نقط ضعفهم ويبالغ فى تضخيم نقاط قوتهم إن وجدت فيهم.

وهذه الرذيلة الأخلاقيّة الجاهليّة إذا انطلقت من التعصب العرقى والقبلى فإنّها تؤدّى إلى اندلاع النزاعات والحروب والعنف والصراعات الدمويّة التى حدثت فى التاريخ القديم والتاريخ المعاصر.

ولعل أحداً لم يأمن مخاطر الكبر والعصبيّة منذ التاريخ الجاهلى حتى تاريخنا الراهن. فقد نشب فى العصر الجاهلى قتالان عنيفان بين القبائل العربية باسم الفجار المعروفة فى التاريخ. حيث حدثت فجار الأُولى حين كان لفرد من قبيلة بنى كنانة دين بذمة رجل من قبيلة هوازن الذى ما كان يستطيع تسديد دينه؛ فشاهد الرجل الهوازنى قرداً فى سوق عكاظ (السوق الذى كان يعقد كلّ سنة قرب الطائف) وقال:

هل مِن رجل يبيعنى هذا القرد مقابل دينى من فلان الكنانى ومراده من هذا الكلام تحقير الرجل الكنانى الذى عجز عن تسديد دينه، وهنا قام رجل من كنانة فقتل القرد، فصرخ الهوازنى بوجه الرجل واستنجد الكنانى بقبيلته فاقتتلت القبيلتان قتالًا شديداً.

وفجار الثانية التى حدثت بعد وفاة عبد المطلب، وسببها أنّ فتى من قبيلة بنى غفار جلس فى زاوية من سوق عكاظ ومد رجليه وكان يقول: أنا أفضل العرب ومن لم يقبل ذلك فليقطع رجليّ، فانبرى له فتى جاهل من قبيلة بنى قيس وسل سيفه وضربه على رجليه، فاقتتلت قبيلتيهما قتالًا شديداً حتى تصالحا بعد مدّة من

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۹۸

العداوة والخصومة[۵۸۴]، وما شهده القرن العشرين متمثلًا فى الحرب العالمية الثانية وكان سببها كما نعلم العصبية الألمانيّة النازيّة والتى خلفت عشرات الملايين من القتلى وعشرات الملايين من الجرحى والعديد من المفقودين وذلك الخراب العظيم الذى حلّ بأوروبا وسائر دول العالم، وحتى اليوم فإنّ العوامل الرئيسيّة التى تقف وراء اعتداءات المستكبرين والجناة الاسرائيليين لا تستند إلى شيء سوى إلى الكبر والتعصب.

وبالنظر لما ذكرناه سابقاً نقف على عمق كلام الإمام عليه السلام فى إظهاره لكلّ هذا القلق من النتائج الوخيمة للكبر والعصبيّة، وفى ذلك ورد عن النّبى صلى الله عليه و آله:

«مَنْ كانَ فى قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَل مِنْ عَصَبِيَّة، بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مَعَ أعْرابِ الْجاهِلِيَّةِ»[۵۸۵].

كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«مَنْ تَعصَّبَ او تُعصِّبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَ الإيمانِ»[۵۸۶].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۲۹۹

القسم السادس

اشارة

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْاُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ، ووَقَائِعِهِ ومَثُلَاتِهِ، واتَّعِظُوا بِمَثَاوِى خُدُودِهِمْ، ومَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ،

واسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ.

فَلَورَخَّصَ اللَّهُ فِى الْكِبْرِ لِاحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وأَوْلِيَائِهِ؛ ولكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، ورَضِىَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالْارْضِ خُدُودَهُمْ، وعَفَّرُوا فِى التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ. وخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وكانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ. قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، ومَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ. فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَى والسُّخْطَ بِالْمَالِ والْوَلَدِ جَهْلًا بِمَواقِعِ الْفِتْنَةِ، والْاخْتِبَارِ فِى مَوْضِعِ الْغِنَى والْاقْتِدَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى:

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّال وبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَلْ لَّا يَشْعُرُونَ). فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِى أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِى أَعْيُنِهِمْ.

الشرح والتفسير: آفة التكبّر

لما فرغ الإمام عليه السلام من تحذيراته فى المقطع السابق من هذه الخطبة من تبعية المستكبرين والعصاة المتعصبين، أخذ فى هذا الجانب من الخطبة بيد مخاطبيه ليغوص بهم فى أعماق التاريخ ويوقفهم على مصير الأمم المستكبرة وأئمّة الكبر

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۰۰

والغرور فى التاريخ القديم فقال:

«فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْامَمَ الْمُسْتَكْبِرينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ،[۵۸۷] ووَقَائِعِهِ ومَثُلَاتِهِ ۵۸۸]».

فقد عرض لنا القرآن الكريم كيف كانت عاقبة الطغاة سيئة ومصيرهم أسود كفرعون وجنوده حيث هلكوا غرقاً فى أمواج البحر وكانت أجسامهم طعمة لحيتان البحار، وطغاة مع أقوامهم هلكوا تحت الزلازل الشديدة ومنهم مَن أُمطروا بالحجارة أو خسف بهم الأرض ومنهم مَن قلبَ اللَّه بهم مدنهم فجعل عاليها سافلها كقوم لوط، وطائفة أخذهم بالطوفان والعواصف التى جعلتهم كأعجاز النخل الخاوية كقوم عاد، بينما أخذ البعض الآخر بالصاعقة ليحيلهم أجساداً خاوية بطرفة عين كما قال تعالى فى محكم كتابه العزيز: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»[۵۸۹].

ثم قال عليه السلام:

«واتَّعِظُوا بِمَثَاوِى ۵۹۰] خُدُودِهِمْ، ومَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ،[۵۹۱] واسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ

مِنْ لَوَاقِحِ ۵۹۲] الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ».

يبدو أنّ الوصايا الثلاث التى ذكرها الإمام عليه السلام:

«اعتبروا» و «اتَّعِظُوا» و «اسْتَعِيذُوا»

إشارة إلى المراحل الثلاث التى تنتظر الإنسان اليقظ فى مسيرته نحو الحقّ حين تأمّله لسيرة الماضين: وأهمها مصير الأمم السابقة بما كانت تمتلكه من نعم وما كانت عليه من عزة وقدرة ثم الت إلى الزوال أثر الكبر والغرور، لكى يتعلم الدروس والعبر من تاريخ حياتهم ومماتهم فيستعيذ باللَّه فى خاتمة المطاف حتى لا

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۰۱

يُصاب بالكبر والغرور.

وتشير العبارة

«كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ»

إلى آثار الكبر المشؤومة والتى تعد من الحوادث المريرة التى لا تقل عن الزلازل والعواصف والحوادث الطبيعية المفجعة الأخرى

ثم طرق هذا المعلم الربّانى العظيم سبيلًا آخر بغية خلق النفرة فى قلوبهم إزاء الكبر والغرور فقال عليه السلام:

«فَلَورَخَّصَ اللَّهُ فِى الْكِبْرِ لِاحَـد مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وأَوْلِيَائِهِ؛ ولكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، ورَضِىَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالْأرْضِ خُدُودَهُمْ، وعَفَّرُوا[۵۹۳] فِى التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ. وخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ».

لعل بعض المتكبرين يعتقدون أنّ التكبر يكشف عن الشخصية وأنّها بالتالى نعمة من نعم اللّه تعالى، فالإمام عليه السلام يشير إلى أنّ هذا العمل لوكان نعمة وكرامة لأنعم به تعالى على أنبيائه وأوليائه قبل كلّ شخص آخر؛ بينما نرى القضية معكوسة تماماً حيث كرَّهَ تعالى إليهم الكبر والغرور، والتواضع بمثابة تاج وضع على رؤوسهم، وعلى هذا الأساس عاشوا الخضوع للّه‌تعالى فكانوا يعفرون وجوههم بالتراب، كما عاشوا البساطة والتواضع للمؤمنين.

والعبارة:

«وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ»

كناية لطيفة عن التواضع، لأنّ الطيور حين تريد أن تحنو على فراخها تضمها تحت أجنحتها بعد أن تفتحها لها.

والعبارة:

«وَكانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ»

لا- تفيد هنا معنى الضعف والعجز، بل تعنى أنّهم كانوا لا- يتكبرون على أبناء مجتمعهم فهم عباد بُسطاء وأنّهم يشاطرون الآخرين حياتهم.

ثم هم الإمام عليه السلام برفع الخطأ واللبس الذى شاب بعض المستكبرين الذين اعتقدوا بأنّ المال والأولاد علامات على القرب من اللّه تعالى، فخاض فى بعض

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۰۲

التفاصيل من سيرة وحياة خاصة أولياء اللّه وأنبيائه وما تعرضوا له من امتحانات واختبارات بعبارات فصيحة وبليغة ليركز على أربعة أنواع من الاختبارات فقال:

«قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ بِالْمَخْمَصَةِ[۵۹۴]، وابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ[۵۹۵]، وامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، ومَخَضَهُمْ ۵۹۶] بِالْمَكَارِهِ».

فطرق اللّه تعالى الامتحانيّة لا تحصى، فأحياناً بالنعمة وكذلك بالنقمة، وتارة بالمرض والسقم وأخرى بالصحة والعافية وثالثة بالعزّة وأخرى بسلبها؛ لكن يمكن تقسيم هذه الاختبارات إلى أقسام متعددة؛ الضيق فى المعيشة والجوع والعطش، الحوادث الشاقة والأليمة من قبيل المصائب التى تحملها المسلمون الأوائل فى شعب أبى طالب حتى مختلف الغزوات وحالة اللاأمن التى كان يفرضها عليهم خصوم الدعوة، إلى جانب الأمراض والمعاناة التى سادت حياة جميع أنبياء اللّه، إنّما تعدّ دليلًا على هذه الامتحانات ومن ذلك حياة موسى بن عمران عليه السلام منذ ولادته حتى لجوئه إلى بيت النبى شعيب عليه السلام، وحين انبرى لدعوة الفراعنة وما أعقبها من حوادث أليمة والمصائب التى عاشها فى بنى اسرائيل، وكذلك مختلف المراحل التى شهدها نبى اللّه إبراهيم عليه السلام فى حياته من بابل حتى أرض مصر ثم مكة ولا سيما سيرة النّبى الأكرم محمد صلى الله عليه و آله والغنية عن التوضيح، كلّها شواهد حية على هذا الأمر.

ثم خاض عليه السلام فى دفع خطأ مهم بعد ذكره لهذه المقدمة والذى أصيب به العديد من الناس فى الماضى والحاضر والذى يتمثل فى ظنهم بأنّ كثرة الأموال والأولاد دليل على التوفيق والسعادة والقرب من اللّه تبارك وتعالى فقال عليه السلام:

«فَلَا تَعْتَبِرُوا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۰۳

الرِّضَى والسُّخْطَ بِالْمَالِ والْوَلَدِ جَهْلًا بِمَواقِعِ الْفِتْنَةِ، والْاخْتِبَارِ فِى مَوْضِعِ الْغِنَى والْاقْتِدَارِ».

ثم استدل عليه السلام بآية قرآنيّة أشارت صراحة إلى هذا الأمر فقال:

«فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى:

«أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّال وبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَلْ لَّا يَشْعُرُونَ ۵۹۷]»».

ثم خلص من الآية الشريفة إلى هذه النتيجة فقال:

«فَإِنَّ اللَّه سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِى أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِى أَعْيُنِهِمْ».

فالعبارة

«فِى أَنْفُسِهِمْ»

بشأن المستكبرين إشارة إلى أنّهم ليسوا على شيء من الفضيلة، بل هم عباد ضعاف وعاجزون يرون أنفسهم كباراً. والعبارة

«فِى أَعْيُنِهِمْ»

(استناداً لعودة الضمير للمستكبرين) تشير إلى أنّ عباد اللَّه ليسوا ضعافاً وعاجزين قط، بل المستكبرون يظنونهم مستضعفين بفعل زهدهم وورعهم وتقواهم وطاعتهم لأوامر اللَّه، ومن هنا يتّضح اختلاف مفردة المستضعف هنا مع ما وردت فى العبارة السابقة حيث قال عليه السلام الأنبياء مستضعفون إشارة إلى تواضعهم ووزهدهم وبساطة حياتهم، وقوله أولياء اللَّه المستضعفين فى عين المستكبرين إشارة إلى الضعف والعجز والذلّة التى يظنونها.

تأمّل

تصحيح خطأ

أشارت العديد من الآيات القرآنيّة إلى هذا الموضوع حيث إنّه كان فى الأقوام السابقة بعض الأفراد الذين يعتقدون بأنّ كثرة الاموال والأولاد دليل على القرب من اللَّه تعالى، وقد دفع بهم هذا التصور الخاطئ لأنّ يعتقدوا لأنفسهم ببعض المقامات المعنويّة بموازاة تلك الإمكانات الماديّة الضخمة ليوردوا هذا الأمر بصيغة مغالطة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۰۴

فيزعموا أنّ هذه نعم اللَّه فمن شمله اللَّه بهذه النعم فقد أحبّه، ومن أحبّه اللَّه كان مقرّباً منه، وعلى هذا الأساس كانوا ينظرون باستخفاف إلى المؤمنين على المستوى المادى والمعنوى.

وقد غفلوا عن أنّ إفاضة الإمكانات الماديّة إنّما يستند إلى عدة عوامل، فقد تكون نعمة من نعم اللَّه، كما قد تكون للامتحان والاختبار أو الاستدراج للعذاب، أى أنّ اللَّه سبحانه وتعالى إنّما يتابع نعمه على بعض الأفراد الذين لا يمكن إصلاحهم فيسلبها تعالى منهم بغتة ليكون ذلك أشد وقعاً على قلوبهم وأكثر إيلاماً. والقضية أشبه بالضبط بذلك المعتدى الذى يتسلق شجرة مثمرة ثم يأخذ بالتسلق شيئاً فشيئاً حتى يسقط فجأة فتتحطم جميع عظامه.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۰۵

القسم السابع

اشارة

ولَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ ومَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ (عليهما السلام) عَلَى فِرْعَوْنَ، وعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ، ودَوَامَ عِزِّهِ؛ فَقَالَ:

«أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وبَقَاءَالْمُلْكِ؛ وهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ والذُّلِّ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَب»؟ إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وجَمْعِهِ، واحْتِقَاراً لِلصُّوفِ ولُبْسِهِ! ولَوأَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِانْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ، ومَعَادِنَ الْعِقْيَانِ، ومَغَارِسَ الْجِنَانِ، وأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ ووُحُوشَ الأَرَضِينَ لَفَعَلَ، ولَوفَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ، وبَطَلَ الْجَزَاءُ، واضْمَحَلَّتِ الأَنْبَاءُ، ولَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلِينَ، وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتِ الأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا. ولكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الأَعْيُنُ مِنْ حَالاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَا الْقُلُوبَ والْعُيُونَ غِنىً، وخَصَاصَةٍ تَمْلَا الأَبْصَارَ والأَسْمَاعَ أذىً.

الشرح والتفسير: درس وعبرة فى قصة موسى عليه السلام

تابع الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة من خلال طريق آخر ينطوى على الدروس والعبر ذم الكبر والغرور والعصبية التى تشكل المحور الأصلى لهذه الخطبة، فأشار إلى قصّة موسى بن عمران عليه السلام حين دخل مع أخيه هارون على

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۰۶

فرعون وكانا يرتديان تلك الثياب البسيطة فتعرضا إثر ذلك لاستخفاف فرعون المتكبر فقال عليه السلام:

«وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ ومَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ عليهما السلام عَلَى فِرْعَوْنَ، وعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ [۵۹۸] الصُّوفِ، وبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ،[۵۹۹] فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ

مُلْكِهِ، ودَوَامَ عِزِّهِ».

فقد دخل موسى وهارون عليهما السلام بذلك اللباس البسيط وعصا الرعى على فرعون ليحطما كبرياءه وطغيانه ويبيّنا له ولحاشيته أنّ العزّة ليست فى الأموال والكنوز وكثرة الخدم ليعلنا نهاية ذلك النوع من العيش وانطلاقة العهد الجديد فى الحكومة الإلهيّة بواسطة المستضعفين.

ثم واصل عليه السلام حديثه فتطرق إلى ردود الفعل التى ابداها فرعون إزاء دعوة موسى وهارون فقال عليه السلام:

«فَقَالَ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وبَقَاءَ الْمُلْكِ؛ وهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ والذُّلِّ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ[۶۰۰] مِنْ ذَهَب»؟

إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وجَمْعِهِ، واحْتِقَاراً لِلصُّوفِ ولُبْسِهِ!».

نعم! فالنظام المادى للجهاز الفرعونى يدور حول هذا المحور فى أنّ من كانت إمكاناته فى الذهب والجواهر أكثر كانت شخصيته أسمى، وثياب الصوف البسيطة إنّما هى لباس الشخصيات الوضيعة فى المجتمع؛ أى لم يكن هنالك أى دور للقيم الإنسانيّة فى بيان شخصية الإنسان فى ظلّ ذلك النظام، والقيم الاعتبارية والخيالية هى التى تحدد معيار الشخصية.

وقد تعرض الإمام عليه السلام لشرح هذه الحقيقة بعبارات غاية فى الروعة والبيان والتى لم تكن لها آنذاك قيمة واقعية بينما كان يحسبها كذلك فرعون وحاشيته فقال:

«ولَوأَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِانْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ ۶۰۱]، ومَعَادِنَ

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۰۷

الْعِقْیَانِ ۶۰۲]، ومَغَارِسَ ۶۰۳] الْجِنَانِ، وأَنْ یَحْشُرَ مَعَهُمْ طُیُورَ السَّماءِ ووُحُوشَ الأَرَضِینَ

لَفَعَلَ، ولوفَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ، وبَطَلَ الْجَزَاءُ، واضْمَحَلَّتِ الأَنْبَاءُ، ولَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِینَ أُجُورُ الْمُبْتَلِینَ، ولَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِینَ، وَلَا لَزِمَتِ الأَسْمَاءُ مَعَانِیَهَا».

إشارة إلی أنّ الحکیم تبارک وتعالی یستطیع أن یمد أنبیاءه بجمیع أسباب القوّة ویزینهم بمختلف صنوف الذهب والمجوهرات والثروات ویغدق علیهم القصور ووسائل الراحة، بل یجعل أنبیاءه أغنی الملوک والسلاطین- لأنّه خالق السماوات والأرض ومالک کلّ شیء- لکنه حکیم فإن فعل ذلک سیزول الهدف الأصلی لبعث الأنبیاء والدعوة إلی اللَّه تعالی، بل ستکون النتیجة معکوسة وتتحول القیم والمثل إلی ما یضادها ویفسد الإیمان وتسوء الأخلاق والتربیة.

ولذلک خاض الإمام علیه السلام فی تفاصیل ست مفاسد فی بیان الآثار السیئة لمثل هذا الأمر وهی:

۱. انعدام معطیات الامتحان الإلهی للعباد فی ظلّ هذه الظروف، ذلک لأنّ الأفراد غیر المؤمنین وبسبب ما علیه الأنبیاء من إمکانات وزینة سیندفعون إلیهم دون الاقتناع بمنهجهم ودعوتهم.

۲. زوال ثواب المحسنین، ذلک لأنّ إیمانهم لا یکون خالصاً فی ظلّ تلک الشرائط.

۳. لا یعدّ الوعد الإلهی وأخبار الوحی بشأن الحلال والحرام دافعاً لطاعة الناس، بل الدوافع المادیّة هی التی تحرکهم، کما أنّ سیرتهم سوف لن تعدّ أسوة ونموذجاً للعباد.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۰۸

۴. سوف لن یحصل المؤمنون بالأنبیاء علی الأجر الجزیل الذی یناله المجاهدون فی سبیل اللَّه.

۵. لا یستحق المؤمنون المخلصون ثواب المحسنین ذلک لأنّهم لم یتحملوا عناءً.

۶. بعض الصفات المقدّسة والأسماء من قبیل المؤمن والصالح والمجاهد والمخلص سوف تفقد مصادیقها الواقعیة کما ستفقد بعض الصفات التی تنسب إلی الأنبیاء من قبیل الزهد والورع والتقوی وعدم التعلق بالدنیا مفهومها ومعناها.

ثم قال الإمام علیه السلام فی توضیحه لهذا المعنی:

«ولکِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِی قُوَّةٍ فِی عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَةً فِیمَا تَرَی الأَعْیُنُ مِنْ حَالاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَا الْقُلُوبَ والْعُیُونَ غِنیً، وخَصَاصَةٍ[۶۰۴] تَمْلَا الأَبْصَارَ والأَسْمَاعَ أذیً».

فالواقع إنّهم کانوا رجالًا أشداء باستطاعتهم اقتناء الذهب والمجوهرات ووسائل الزینة، إلّاأنّهم جعلوا کلّ أسباب الترف ومباهج الدنیا التی تعدّ مصدراً للکبر والغرور والفخر والعجب والأنانیّة وراء ظهورهم، وجعلوا الهدف الرسالی أمام عیونهم.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۰۹

القسم الثامن

اشارة

ولَوْکَانَتِ الأَنْبِیَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَاتُرَامُ، وعِزَّةٍ لَاتُضَامُ، ومُلْکٍ تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وتُشَدُّ إِلَیْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ، لَکَانَ ذلِکَ أَهْوَنَ عَلَی الْخَلْقِ فِی الإِعْتِبَارِ، وأَبْعَدَ لَهُمْ فِی الإِسْتِکْبَارِ، ولَآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَورَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ، فَکَانَتِ النِّیَّاتُ مُشْتَرَکَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً. ولکِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ یَکُونَ الاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، والتَّصْدِیقُ بِکُتُبِهِ، والْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، والاسْتِکَانَةُ لِامْرِهِ، والاسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً لَاتَشُوبُهَا مِنْ غَیْرِهَا شَائِبَةٌ. وکُلَّمَا کانَتِ الْبَلْوَی والاخْتِبَارُ أَعْظَمَ کانَتِ الْمَثُوبَةُ والْجَزَاءُ أَجْزَلَ.

الشرح والتفسير: زهد الأنبياء

أشـار الإمام عليه السـلام فى القسم السابق من الخطبـة بوضوح إلى الحياة المتواضـعة للأنبياء ومنهم موسـى بن عمران عليه السـلام، ثم واصل كلامه فى هذا الجانب من الخطبة لبيان الآثار المعنويّة والتربويّة للبساطة والتواضع فقال:

«ولَوْكَانَتِ الأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّة لَا تُرَامُ ۶۰۵]، وعِزَّة لَاتُضَامُ ۶۰۶]، ومُلْك تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ[۶۰۷] الرِّحَالِ ۶۰۸]، لَكَانَ ذلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِى الإِعْتِبَارِ، وأَبْعَدَ لَهُمْ فِى الإِسْتِكْبَارِ،

نفحات الولاية ؛ ج۷ ؛ ص۳۰۹

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۱۰

ولَامَنُوا عَنْ رَهْبَة قَاهِرَة لَهُمْ، أورَغْبَة مَائِلَة بِهِمْ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً».

نعم، فالمحور الأصـلى الـذى حظى باهتمام الأنبياء هو الإخلاص وطهارة النيّة، والحقّ أنّ الأنبياء عليهم السـلام لو كانوا ذوى قوّة قاهرة وملكوا كنوز الأرض وعـاشوا حيـاتهم فىالقصور مترفين كالسـلاطين لمـا اعتبر بهم النـاس، وإذا آمن بهم البعض فإمّـا عن خوف من سلطانهم، وإمّا عن طمع فى ملكهم، حيث

«النّاسُ عَبيدُ الدّنيا».

ثم قال عليه السلام مؤكدا هذا الكلام:

«ولكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، والتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، والْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، والاسْتِكَانَةُ[۶۰۹] لِامْرِهِ، والاسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً لَاتَشُوبُهَا[۶۱۰] مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ».

فقـد أشـار الإمـام عليه السـلام فى الواقع إلى خمسـة أشـياء ينبغى أن تتم جميعهـا على أساس الإخلاص فى النيّـة وهى: ۱. قبول دعوة الأنبياء، ۲. التصـديق بالكتب السـماوية، ۳. الخشوع العملى للـذّات الإلهيّـة القدسـيّة، ۴. التسـليم القلبى لأـوامر اللَّه، ۵. التسـليم العملى وإمتثال الأوامر، وعلى هـذا الأساس ينبغى أن ينطلق الإيمان والعمل والأخلاق من قاعـدة الإخلاص؛ فقد قال تعالى فى القرآن الكريم: «أَلَا اللَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ»[۶۱۱] وقال تعالى فى موضع آخر: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»[۶۱۲].

ثم أشار عليه السلام فى مواصلته لكلامه إلى هذه النتيجة فقال:

«وكُلَّمَا كانَتِ الْبَلْوَى والاخْتِبَارُ أَعْظَمَ كانَتِ الْمَثُوبَةُ والْجَزَاءُ أَجْزَلَ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۱۱

إشارة إلى أنّ بساطة حياة الأنبياء وانصـرافهم عن زخارف الدنيا وزبرجها جعل المؤمنين إزاء امتحان أشدّ صـعوبة، وبالطبع كلّ ما كان الامتحـان أشق وأصـعب كـان الأجر والثواب أعظم وأبلغ وهـذا فى الواقع درس عظيم فى الإخلاص لجميع الأفراد الـذين يسـعون إلى السير على خط الأنبياء حيث ينبغى أن يسيروا على نفس النهج ليستطيعوا إعداد الأتباع المخلصين.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۱۳

القسم التاسع

اشارة

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَار لَاتَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ.

فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ «الَّذِى جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِياماً». ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ حَجَراً، وأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً، وأَضْيَقِ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْراً. بَيْنَ جِبَال خَشِنَة، ورِمَال دَمِثَة، وعُيُون وَشِلَة، وقُرًى مُنْقَطِعَة؛ لَايَزْكُوبِهَا خُفٌّ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْفٌ. ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ووَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوِى إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَار سَحِيقَة ومَهَاوِى فِجَاج عَمِيقَة، وجَزَائِرِ بِحَار مُنْقَطِعَة، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلًا يُهَلِّلُونَ للَّهِ حَوْلَهُ، ويَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلَاءً عَظِيماً، وامْتِحَاناً شَدِيداً، واخْتِبَاراً مُبِيناً، وتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، ووُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ.

الشرح والتفسير: الدروس والعبر فى بيت اللّه

سلك الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة سبيلًا آخر لمتابعة الغاية الأصلية التى تتمثل فى القضاء على التكبر والدعوة للبساطة والتواضع ليشرحه بعبارات غاية فى الروعة والجمال والبلاغة بحيث عجز البلغاء والفصحاء أن يأتوا بمثلها فقال:

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۱۴

هذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَار لَاتَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ. فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ

«الَّذِى جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِياماً»».

فالذى يستفاد من هذه العبارة أنّ الكعبة التى هى أقدم معبد فى العالم قد بنيت لأوّل مرّة فى زمن آدم عليه السلام (ثم جدد بناؤها على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام) كما يفهم أنّ بساطتها ومواد بنائها البدائيّة تهدف إلى عدم لفت انتباه الآخرين إلى جانبها وبعدها المادى، بل الاستغراق فى أبعادها المعنويّة حيث بيّن عليه السلام: أنّ الكعبة تحظى بمركزية يتوجه إليها الجميع ليأتوا كلّ سنة لأداء شعائر الحجّ ومناسكه بما يؤدّى إلى تنامى شوكة المسلمين وقوّتهم وعزّتهم ووحدتهم وسمّوهم وعلوّ شأنهم ومبادئهم فى مختلف الاتجاهات.

فالعبارة الواردة فى كلام الإمام عليه السلام اقتباس من الآية الشريفة: ۹۷ من سورة المائدة التى تقول: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِياماً لِّلنَّاسِ».

وقد ورد

«القيام»

هنا كمصدر بمعنى اسم الفاعل أى تقويم حياة الناس من الناحية الماديّة والمعنويّة، على غرار الدعائم القوية التى يقوم عليها البيت والخيمة.

فبيت اللّه هو رمز الوحدة وقوّة المسلمين ورفعتهم وعظمتهم من جانب ومن جانب آخر فإنّه ينطوى على المناسك التى تطهر القلب من دنس المعصية وتفيض عليه نور الهدى وتغمره بالرحمة الإلهيّة.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من ذكر بساطة الكعبة، عرج على التعرض لخصائص الأرض التى تضم البيت وهى مكة فقال:

«ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ[۶۱۳] بِقَاعِ الْأَرْضِ حَجَراً،

وأَقَلِّ نَتَائِقِ ۶۱۴] الدُّنْيَا مَدَراً[۶۱۵]. وأَضْيَقِ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْراً[۶۱۶]. بَيْنَ جِبَال خَشِنَة، ورِمَال

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۱۵

دَمِثَة[۶۱۷]، وعُيُون وَشِلَة[۶۱۸]، وقُرًى مُنْقَطِعَة؛ لَايَزْكُو[۶۱۹] بِهَا خُفٌّ ۶۲۰]، وَلَا حَافِرٌ[۶۲۱] وَلَا ظِلْفٌ ۶۲۲]».

فقد كشف الإمام عليه السلام بهذه الصفات الثمان لأرض مكة عن محروميّة هذه الأرض من مختلف الجهات؛ فقد تحدّث بادئ الأمر عن وعورتها وصعوبتها بحيث يرى كلّ من تشرف بها أنّ بيت اللّه واقع فى وادٍ ضيق بين الجبال الشامخة والقاحلة والتى يصعب تسلقها، حتى استطاعوا اليوم حفر العديد من الأنفاق والمنعطفات لشقّ الشوارع التى يمكنها اختراق تلك الجبال بغية مرور الناس عليها.

ثم أشار عليه السلام إلى قلة التربة الصالحة للزراعة؛ والحقّ أن كذلك، حيث يضطرون اليوم لحمل التربة من المناطق القريبة والنائية إليها بغية غرس بعض الأشجار، ثم تطرق عليه السلام إلى ضيق وديانها، فنحن نعلم أنّ الوديان الواسعة التى تضم الأراضى الزراعيّة الصالحة للزراعة تعدّ من أفضل البقاع لمعيشة الإنسان، والعديد من المدن الكبيرة إنّما تقع فى مثل هذه الوديان، بينما تتعذر الحياة والعيش بأى شكل من الأشكال فى الوديان الضيقة.

ثم أشار عليه السلام إلى جبال مكة الوعرة التى قلما ينموفيها نبات والرمال الناعمة التى يصعب السير عليها، وتنقلها الرياح من مكان إلى آخر وعيونها قليلة المياه، والمناطق المعمورة المتفرقة على تلك الصحارى الجرداء والتى تتوسطها، ليتطرق بالتالى إلى عدم صلاحية تلك الأرض لتربية الحيوانات الأليفة كالجمل والبقر والشاة. حقّاً لولم يكن بيت اللّه وسط تلك الجبال فإنّ أحداً سوف لن يفكر أن تكون مكة موضع سكناهإلّا أنّ اللّه تبارك وتعالى اختار هذه المنطقة كأفضل موضع للعبادة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۱۶

ودعى المستطيعين كافّة إلى التوجه إليها للإتيان بمناسك الحج بهدف تهذيب النفوس والقضاء على آثار الكبر والغرور.

وهذه هى الحقيقة التى أذعن لها خليل اللّه إبراهيم عليه السلام الذى أمر بإعادة بناء الكعبة حيث قال: «رَبَّنا إِنِّى أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَاد غَيْرِ ذى زَرْع عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّم»[۶۲۳].

وحين فرغ الإمام عليه السلام من ذكر موضع البيت وخصائص أرض مكة، تطرق إلى شعيرة الحج وزيارة بيت اللّه الحرام الذى بدأ منذ خلق آدم وسيستمر حتى نهاية الخليقة فقال:

«ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ووَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا[۶۲۴] أَعْطَافَهُمْ ۶۲۵] نَحْوَهُ، فَصَارَ

مَثَابَةً[۶۲۶] لِمُنْتَجَعِ ۶۲۷] أَسْفَارِهِمْ، وغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ ۶۲۸]. تَهْوِى إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْئِدَةِ مِنْ

مَفَاوِزِ[۶۲۹] قِفَار[۶۳۰] سَحِيقَة[۶۳۱] ومَهَاوِى ۶۳۲] فِجَاج ۶۳۳] عَمِيقَة، وجَزَائِرِ بِحَار مُنْقَطِعَة».

فهذه العبارات الرائعة للإمام عليه السلام اقتباس من الآيات القرآنيّة الشريفة، حيث اعتبر الإمام عليه السلام مكة بصفتها «مثابة» على غرار ما صرّح به القرآن الكريم: «وَإِذْ جَعَلْنا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً»[۶۳۴]. كما عبّر عنها بالمنتجع (الموضع الذى يقصد لتحقيق المنافع) كما جاء فى الآية القرآنيّة الشريفة: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ»[۶۳۵]. والعبارة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۱۷

«تهوى إليه ثمار الأفئدة»

اقتباس من الآية الشريفة: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ»[۶۳۶].

وتنسجم العبارة

«من مفاوز قفار»

مع الآية الشريفة: «وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِر يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجّ عَمِيق»[۶۳۷].

وهكذا تحدّث عن توجّه مختلف الأقوام من مناطق العالم إلى مكة وأردفها بالإشارة إلى مناسك الحج والأعمال التى تختزن الدروس والعبر فقال:

«حَتَّى يَهُزُّوا[۶۳۸] مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلًا يُهَلِّلُونَ للّهِ حَوْلَهُ، ويَرْمُلُونَ ۶۳۹] عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً[۶۴۰] غُبْراً[۶۴۱] لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ ۶۴۲] وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وشَوَّهُوا[۶۴۳] بِإِعْفَاءِ[۶۴۴] الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيرة إلى جانب من مناسك الحج من قبيل ارتداء ملابس الإحرام وترك ما يحرم على المحرم من الزينة، وكذلك الطواف حول البيت والسعى بين الصفا والمروة وفق آداب معينة ينطوى كلّ واحد منها على تعليمات تربوية من دروس الحج، والحقّ لا يسع الإنسان الوقوف على عمق تأثير هذه التعليمات ما لم يؤدّى الإنسان تلك المناسك ويطلع عن كثب على هذا المشروع التهذيبى. ثم قال عليه السلام فى مواصلته لكلامه:

«ابْتِلَاءً عَظِيماً، وامْتِحَاناً شَدِيداً، واخْتِبَاراً مُبِيناً، وتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، ووُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۱۸

فالتعبير بالابتلاء والامتحان والاختبار يدل جميعاً على الامتحان، إلّاأنّها ذكرت مرّة بوصف عظيم وأخرى شديد وثالثة مبين، والمراد الامتحان المهم للغاية الذى يكون كبيراً وشديداً وواضحاً، وامتحان الحج ينطوى على هذه الصفات الثلاث.

والعبارة

«تَمْحِيصاً بَلِيغاً»

إشارة إلى نتيجة هذا الامتحان الذى يترك بصماته العميقة فى تطهير القلوب واخلاص النيات، حيث ورد فى الخبر أنّ زائر بيت اللّه بعد إتيانه بتلك المناسك العظيمة يعود كما ولدته امّه، حيث قال الإمام الصادق عليه السلام: قال أبى:

«مَنْ أَمَّ هذَا الْبَيْتَ حاجّاً أومُعْتَمِراً مِبْرأً مِنَ الْكِبْرِ، رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَهيئَةِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[۶۴۵].

وبالطبع فإنّ كلّ هذه الكلمات فى إطار تحقيق هدف الخطبة المتمثل بمكافحة الكبر والغرور والعجب والأنانيّة، لأنّ الحج يخلع عن الإنسان ثوب الغرور والكبر ويلقنه درس التواضع والإخلاص.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۱۹

القسم العاشر

اشارة

ولَوأَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، ومَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّات وأَنْهَار، وسَهْل وقَرَار، جَمَّ الأَشْجَارِ، دَانِيَ الثِّمَارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّة سَمْرَاءَ، ورَوْضَة خَضْرَاءَ، وأَرْيَاف مُحْدِقَة، وعِرَاص مُغْدِقَة، ورِيَاض نَاضِرَة، وطُرُق عَامِرَة، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ. ولَوكَانَ الْاسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، والأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرُّدَة خَضْرَاءَ، ويَاقُوتَة حَمْرَاءَ، ونُور وضِيَاء، لَخَفَّفَ ذلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِى الصُّدُورِ، ولَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، ولَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ، ولكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، ويَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، ويَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِى نُفُوسِهِمْ، ولِيَجْعَلَ ذلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ، وأَسْبَاباً ذُلُلًا لِعَفْوِهِ.

الشرح والتفسير: الكعبة المقدّسة

واصل الإمام عليه السلام هنا ماذكره فى المقطع السابق من الخطبة، فأشار إلى هذه النقطة وهى أنّ اللّه كان قادراً على أن يجعل البيت فى أروع البقاع مناخاً، ويشيدها ويزينها بالأحجار الكريمة؛ إلّا أنّه لم يفعل ذلك خشية إلتفات الناس وتركيزهم على الجوانب الماديّة فيقلّ أجرهم وثوابهم، فأشار عليه السلام لهذا الأمر بعبارات بمنتهى الروعة والجمال بما يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله فقال عليه

السلام:

«ولو أَرَادَ سُبْحانَهُ أنْ يَضَعَ

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۲۰

بَيْتَهُ الْحَرَامَ، ومَشَاعِرَهُ ۶۴۶] الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّات وأَنْهَار، وسَهْل وقَرَار، جَم ۶۴۷] الأَشْجَار،

دَانِيَ الِّثمَار، مُلْتَف ۶۴۸] الْبُنَى،[۶۴۹] مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّة[۶۵۰] سَمْرَاء،[۶۵۱] ورَوْضَة خَضْرَاءَ،

وأَرْيَاف ۶۵۲] مُحْدِقَة[۶۵۳]، وعِرَاص ۶۵۴] مُغْدِقَة[۶۵۵]، ورِيَاض نَاضِرَة[۶۵۶]، وطُرُق عَامِرَة، لَكَانَ قَدْ

صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ».

فقد رسم الإمام عليه السلام صورة رائعة ودقيقة لمنطقة نضرة من خلال اثنتى عشرة صفة مختلفة.

فـذكر الإمام عليه السـلام كلّما ينبغى ذكره بهـذا الخصوص فأشار عليه السـلام بدقّـة متناهية إلى جميع مواضع الجمال التى تتصف بها الأرض الجميلة والمعمورة فبلغ بها منتهى الفصاحة والبلاغة والبديع والبيان، فالواقع لو كان البيت فى منطقة نظرة حسنة جميلة المناخ، لتبدل إلى مُتنزَّه لطيف يقصده الناس من أجل الاستجمام والرفاهية، ولزالت الدروس التربوية والأخلاقيّة للحج.

ثم قال عليه السلام بشأن بنيان الكعبة:

«ولَو كَانَ الْاسَاسُ ۶۵۷] الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، والأَحْجَارُ

الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرُّدَة خَضْرَاءَ، ويَاقُوتَة حَمْرَاءَ، ونُور وضِيَاء، لَخَفَّفَ ذلِكَ

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۲۱

مُصَارَعَةَ[۶۵۸] الشَّكِّ فِى الصُّدُورِ، ولَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، ولَنَفَى مُعْتَلَجَ ۶۵۹]

الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ».

قطعاً أنّ فلسـفة الحـج تهدف إلى دفع الإنسان إلى مقاومة هوى النفس والوساوس الشـيطانيّة، وتصـبح هذه المقاومة ضـعيفة إن كانت لهذه المناسك مسحة جماليّة، بينما تصبح مقاومة الوساوس الشيطانيّة والأهواء النفسيّة أقوى حين تقام هذه المناسك بنوع من الصعوبة والمشـقّة فى ذلك الوسط الجاف والبسيط؛ وعلى هـذا الأساس تشـتد مقاومـة عباد اللّه ويصبـح إيمانهم أقوى وأرسخ وتنفعهم الآثار التربويّة للحج.

والمراد من

«مُصَارَعَةَ الشَّكِّ»

مبـارزة وسـاوس الشـك والهـواجس الـتى تخطر على قلـب المـؤمن وهى الوسـاوس الباطنيّـة، والمراد مـن «مجاهـدة إبليس» وساوسـه الخارجيّة، ومفهوم العبارة

«مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ»

تلاطم أمواج الشكوك التى تطغى على المؤمنين فى التكاليف الدينيّة الشاقة، و

«شكّ» و «ريب»

وإن فسّرت بمعنى واحد إلّا أنّ بعض أرباب اللغة ذهب إلى أنّ الريب بمعنى الشك والترديد الذى يرفع عنه الغطاء لاحقاً، بينما يمكن أن يكون الشك باقياً.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة كلّية فقال:

«ولكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، ويَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، ويَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِى نُفُوسِهِمْ، ولِيَجْعَلَ ذلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً[۶۶۰] إِلَى فَضْلِهِ، وأَسْبَاباً

ذُلًّا[۶۶۱] لِعَفْوِهِ».

إشارة إلى أنّ الواجبات الشرعيّة كالصوم والصلاة والحج والزكاة والخمس

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۲۲

والجهاد فى سبيل اللَّه وكذلك بعض النواهى وترك الأهواء والرغبات غالباً ما تكون ثقيلة وشاقة، لتتميز صفوف المطيعين والمتواضعين إزاء أوامر اللَّه من العصاة والمتكبرين عبدة الأهواء، ولولا ذاك لما إمتازت هذه الصفوف عن بعضها البعض الآخر.

والمفردات

«شدائد» و «مجاهد» و «مكاره»

وإن كانت متقاربة المفهوم والمعنى وأنّها تشير جميعاً إلى الأعمال الشاقّة والصعبة، لكنها تستند إلى ثلاث رؤى؛ الشدّة التى تتطلب الصبر والمشقّة التى تستلزم التحمل والحلم والكراهية التى تقتضى الصبر والاستقامة.

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام قد بين أربع نتائج من قبيل اللازم والملزوم لهذا الأمر وهى: ۱. إزالة الكبر من القلوب. ۲. استبداله بالتواضع الذى يمثل الهدف الأصلى للخطبة. ۳. فتح أبواب الجنّة. ۴. شمول العفو والرحمة.

تأمّل

«أفْضَلُ الْاعْمالِ أحْمَزُها»!

ما ورد آنفاً فى كلام الإمام عليه السلام هوعين ما صرحت به الروايات

«أفْضَلُ الْاعْمالِ أحْمَزُها»[۶۶۲]

ويشير هذا الحديث المروى عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلى أنّ الطاعة وأعمال الخير تختزن أجراً وثواباً أعظم كلّما كانت الطاعة وأعمال الخير شاقة على الجسم عند الإمتثال.

«احْمَزَ»

من مادة

«حَمْز»

تعنى لغوياً الشدّة والصعوبة والمشقّة، ويفيد هذا التعبير أنّ للأعمال الشاقّة والثقيلة والمجهدة قيمة عظيمة عند اللَّه تعالى. وسبب ذلك واضح فهى تتطلب قوّة وطاقة أكبر على مستوى الروح والجسم بغية الإتيان بها، ونعلم جميعاً أنّ أجر الأعمال وثوابها على قدر مشقّتها والقوّة اللازمة للإتيان بها.

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۲۳

ولا تقتصر هذه القوّة على الجانب البدنى (مثل حج بيت اللَّه مشياً على الأقدام فى ظلّ ظروف تشير إلى عظمة هذه السنة) فغالباً ما تتعداها إلى الجانب الروحى والمعنوى؛ فمثلًا «إخلاص النيّة» بحيث لا يقارفها أى شائبة فى التوجه لغير اللَّه لا تبدو عملية سهلة وبالأمر الهيّن، وكذلك يبدو التواضع والخشوع الذى لا ينسجم مع روحية الإنسان المتمردة أمراً فى غاية الصعوبة، ومن هنا شق على إبليس تحمله فشق على نفسه عصى الطاعة والعبودية وإلى الأبد.

فكلّ مشقّة من هذه المشقات توجب عظيم الثواب والأجر من جهة وتهذب النفس البشريّة وعلى هذا الضوء كانت الرياضات مدعاة لصفاء النفس وقوتها واقتدارها.

وبالطبع فإنّ مكافحة الكبر والعصبية التى تعدّ الموضوع الأصلى لهذه الخطبة لمن أبرز مصاديق الحديث الشريف

«أفْضَلُ الْاعْمالِ أحْمَزُها»

كما أنّ حج بيت اللّه الحرام فى تلك البقعة الصعبة والوعرة والمحرقة وطبق آدابها المعروفة لتشق على النفس البشريّة؛ من قبيل الإحرام والسعى بين الصفا والمروة وطواف بيت اللّه والوقوف بصحراء عرفة والمشعر ومنى وحلق الرأس وهى من المصاديق الأخرى الواضحة للحديث الشريف.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۲۵

القسم الحادى عشر

اشارة

فَاللَّهَ اللَّهَ فِى عَاجِلِ الْبَغْىِ، وآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ، وسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ، فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، ومَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى، الَّتى تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَما تُكْدِى أَبَداً، وَلَا تُشْوِى أَحَداً، لَا عَالِماً لِعِلْمِهِ، ولَا مُقِلًّا فِى طِمْرِهِ. وعَنْ ذلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ والزَّكَوَاتِ، ومُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِى الأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَسْكِيناً لِاطْرَافِهِمْ، وتَخْشِيعاً لِابْصَارِهِمْ، وتَذْلِيلًا لِنُفُوسِهِمْ، وتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ، وإِذْهَاباً لِلْخُيَلَاءِ عَنْهُمْ، ولِمَا فِى ذلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتَاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضُعاً، والْتِصَاقِ كَرَائِمِ الْجَوَارِحِ بِالْارْضِ تَصَاغُراً، ولُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلًا؛ مَعَ مَا فِى الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الأَرْضِ وغَيْرِ ذلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ والْفَقْرِ.

انْظُرُوا إِلَى مَا فِى هذِهِ الأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ، وقَدْعِ طَوَالِعِ الْكِبْرِ.

الشرح والتفسير: آفة الكبر والغرور

واصل الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة متابعة الهدف الأصلى لهذه الخطبة والذى يتمثل بذم الكبر والغرور واستعراض سوء آثاره، غير أنّه سلك طريقاً رائعاً بهذا الخصوص فاتجه صوب الفرائض والعبادات والواجبات ليبين مدى تأثيرها فى القضاء على آثار الكبر والغرور.

فحذر بادئ الأمر وبصورة كلية من العواقب السيئة للبغى والظلم فقال:

«فَاللَّهَ اللَّهَ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۲۶

فِى عَاجِلِ الْبَغْىِ، وآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ، وسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ».

ثم تطرق عليه السلام إلى السبب الجلى على هذا التحذير فقال:

«فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ[۶۶۳] إِبْلِيسَ

الْعُظْمَى، ومَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى، الَّتِى تُسَاوِرُ[۶۶۴] قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ،

فَمَا تُكْدِى ۶۶۵] أَبَداً، وَلَا تُشْوِى ۶۶۶] أَحَداً، لَا عَالِماً لِعِلْمِهِ، وَلَا مُقِلًّا[۶۶۷] فِى طِمْرِهِ ۶۶۸]».

فالأمور الثلاثة التى حذر منها الإمام عليه السلام فى بداية كلامه والتى تتمثل بالبغى والظلم والكبر من قبيل اللازم والملزوم لبعضها البعض الآخر.

فالأفراد المتكبرون لا يرون سوى أنفسهم ولذلك فهم لا يرون من أهميّة لحقوق الآخرين فيرتكبون أنواع الظلم والجور والذى يعد من الشباك الخبيثة والخطيرة للشيطان والتى لا ينجومنها سوى أولياء اللّه والصالحين من الأفراد المؤمنين.

والعبارة:

«فَمَا تُكْدِى أَبَداً ...»

إشارة إلى عموميّة هذا التحذير؛ فلا يتصور العالم أنّ بإمكانه النجاة من هذه المصيدة بما لديه من علم ومعرفة فقط، أو ينجو من آثاره شخص فقير بفقره، فكلّ شخص بدون استثناء معرض للتلوث بالبغى والظلم والكبر ستكون عاقبته سيئة ومريرة.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى العبادات الإسلاميّة ليركز على جانب مهم منها فشرح الانعكاسات الإيجابية لهذه العبادات فى القضاء على آثار الكبر والغرور وإحياء روح التواضع والبساطة فقال:

«وعَنْ ذلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ ۶۶۹] عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۲۷

والزَّكَوَاتِ، ومُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِى الأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَسْكِيناً لِاطْرَافِهِمْ ۶۷۰]،

وتَخْشِيعاً لِابْصَارِهِمْ، وتَذْلِيلًا لِنُفُوسِهِمْ، وتَخْفِيضاً[۶۷۱] لِقُلُوبِهِمْ، وإِذْهَاباً لِلْخُيَلَاءِ[۶۷۲] عَنْهُمْ».

إشارة إلى أنّ أحد الجوانب الفلسفية المهمّة لهذه العبادات تحطيم دوافع الكبر والغرور الذى يفضى إلى البغى والظلم، فآداب الصلاة وأركانها تدعو الإنسان بصورة كاملة إلى التواضع من قبيل الوقوف كالعبد الخاضع للّهومن ثم الركوع والأهم من كلّ ذلك السجود يربى فى الإنسان روح التواضع من جهة ومن جهة أخرى يصده عن الذنب والمعصية: «انَّ الصَّلَوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ»[۶۷۳].

كما أنّ الزكاة تعدّ فى الواقع نوعاً من التقدير والاحترام للمحتاجين، فتعمل بدورها على إزالة الكبر والغرور عن روح الاثرياء والمتمكنين، وهكذا الصوم الذى يجعل الإنسان فى مصاف الفقراء والمحتاجين بما يشعر به الإنسان من جوع وعطش والذى يحطم بالتالى كبره وغروره؛ طبعاً لا تنحصر فلسفة هذه العبادات بما ذكرناه آنفاً، إلّاأنّ ما مضى كان جانباً من فلسفتها والتى أشار إليها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة.

وقد أشير إلى هذا المعنى فى عدد من الروايات والأحاديث؛ فقد جاء فى الحديث المروى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال:

«إنَّ عِلَّةَ الصَّلاةِ أنَّها إقْرارٌ بِالرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ تَعالى وخَلْعُ الأَنْدادِ وقِيامٌ بَيْنَ يَدَىِ الْجَبّارِ جَلَّ جَلالُهُ بِالذُّلِ والْمَسْكَنَةِ والْخُضُوعِ والإعتراف ...»[۶۷۴].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۲۸

كما قال عليه السلام فى فلسفة الزكاة:

«وهُومَوْعِظَةٌ لِاهْلِ الْغِنى وعِبْرَةٌ لَهُمْ لِيَسْتَدَلُّوا عَلى فُقَراءِ الْاخِرَةِ بِهِمْ»[۶۷۵].

كما روى عنه عليه السلام فى فلسفة الصوم:

«عِلَّةُ الصَّوْمِ عِرْفانُ مَسِّ الْجُوعِ والْعَطَشِ لِيَكُونَ ذَليلًا مُسْتَكيناً ...»[۶۷۶].

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح ما ذكره فى العبارات السابقة بصورة إجمالية حول فلسفة الصوم والصلاة والزكاة فقال:

«ولِمَا فِى ذلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ[۶۷۷] عِتَاقِ ۶۷۸] الْوُجُوهِ

بِالتُّرَابِ تَوَاضُعاً، والْتِصَاقِ كَرَائِمِ ۶۷۹] الْجَوَارِحِ بِالْارْضِ تَصَاغُراً[۶۸۰]، ولُحُوقِ الْبُطُونِ

بِالْمُتُونِ ۶۸۱] مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلًا؛ مَعَ مَا فِى الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الأَرْضِ وغَيْرِ ذلِكَ

إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ».

حقّاً إنّ ما ورد هنا، هوجانب من الجوانب الفلسفية لهذه العبادات الإسلاميّة المهمّة، ذلك لأنّ العبادات تنطوى على العديد من الجوانب ذات الأهميّة وفى مقدمتها تفعيل روح التواضع والبساطة ومناهضة الكبر والغرور، وفلسفة النهى عن الفحشاء والمنكر للصلاة وكونها معراج المؤمن إلى جانب تربية روح التقوى والإخلاص فى ظلّ الصوم ونبذ آفة التمايز الطبقى فى الزكاة وغيرها من العبادات ممّا لا يسع الإنسان التنكر لدوره وجدواه.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۲۹

وقد وردت إشارات واضحة فى الأخبار والروايات إلى هذه الأمور، من ذلك ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إنّ اللّهَ أوحى إلى مُوسى عليه السلام أتَعلَم لِمَ اخْتَرتُکَ مِنْ بَين خَلقِى؟ قَالَ مُوسى عليه السلام: لا، فَقَالَ تَعالى «يا مُوسى إنّى قَلَّبْتُ عِبادِى ظَهْراً وبَطْناً فَلَمْ أَجِدْ أَحَداً أذلَّ لِى نَفْساً مِنْکَ يا مُوسى انَّکَ إذا صَلَّيْتَ وَضَعْتَ خَدَّيْکَ عَلَى التُّرابِ»[۶۸۲].

ثم خلص عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«انْظُرُوا إلى مَا فِى هذِهِ الأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ ۶۸۳]

نَوَاجِمِ ۶۸۴] الْفَخْرِ وقَدْعِ ۶۸۵] طَوَالِعِ الْكِبْرِ»

. جدير ذكره أنّ بعض هذه العبادات تتكرر كلّ يوم حتى لا يشهد الإنسان يوماً يخلوفيه من مفهوم نبذ الكبر.

تأمّل

فلسفه العبادات

لاشك فى أنّ اللّه تبارك وتعالى غنى عن عباداتنا وعبادة الملائكة ولوسلك جميع من فى السموات والأرض طريق الإيمان أو الكفر لما أضاف ذلك إلى جلاله شيئاً أو انتقص منه: «انْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِى الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ»[۶۸۶].

وكذلك قال: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»[۶۸۷].

وكل إنسان مهما كان له من شىء فمن اللّه تعالى ونفحة من نفحاته سبحانه، وعليه فلا يستطيع هذا المخلوق أن يقوم بفعل من شأنه زيادة عظمة اللّه، ومن هنا يمكن الاستنتاج أنّ فلسفة الأحكام وفائدتها ولا سيما العبادات إنّما تعود على الإنسان نفسه، وللعبادات فلسفة مشتركة وفلسفة خاصّة؛ فالفلسفة المشتركة للعبادات تتمثّل فى الخضوع والتواضع للّهوتحطيم صنم الكبر والغرور والطغوى والعصيان، أضف إلى ذلك فإنّ العبادة تذكر الإنسان باللّه وتبث الروح فى قلبه ونفسه

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۳۰

وتزيل عنه آثار الغفلة، وهكذا فإنّ العبادات تأخذ بالانسان دائماً إلى مسير العبوديّة والطاعة.

ناهيك عن أنّ لكلّ عبادة فلسفتها المختصة بها؛ فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والصوم يشد من عزم الإنسان فى مواجهة هوى النفس، والزكاة تحد أو تقضى على التمايز الطبقى، والحج يؤدّى إلى وحدة المسلمين وتنامى قدرة الإسلام وشوكته، وقد وردت الإشارات لكلّ هذه الأمور فى الروايات الإسلاميّة بشأن فلسفة الأحكام ۶۸۸].

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۳۱

القسم الثانى عشر

اشارة

ولَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَىْ مِنَ الأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلَاءِ، أوحُجَّة تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ. فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِامْر مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ. أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدمَ لِاصْلِهِ، وطَعَنَ عَلَيْهِ فِى خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نارِيٌّ وأَنْتَ طِينِيٌّ.

وأَمَّا الأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْامَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِاثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ، فَقَالُوا: (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وأَوْلَاداً ومَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ).

الشرح والتفسير: العصبية الطائشة

خاض الإمام عليه السلام هنا فى بيان نقطة أخرى لمواجهة الكبر والغرور والعصبية الجاهلية وخلاصتها أنّ للأفراد المتعصبين أدلتهم على ذلك وإن كانت ضعيفة وواهية وخاطئة؛ إلّاأنّ تعصبكم القبيح أدّى إلى هذه النزاعات وسفك الدماء بما ليس له مبرر، وهذا يعنى أنّ تعصبكم أسوأ واقبح من ذلك التعصب.

فقال عليه السلام:

«ولَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَىْ مِنَ الأَشْيَاءِ إِلَّا عن عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ ۶۸۹] الْجُهَلَاءِ، أوحُجَّة تَلِيطُ[۶۹۰] بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ. فَإِنَّكُمْ

تَتَعَصَّبُونَ لِامْر مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۳۲

إشارة إلى أنّه كلّما تأمّلنا تاريخ الأسلاف والأقوام المعاصرة نخلص إلى هذه النتيجة أنّهم كانوا يمتلكون ذريعة لتعصبهم من قبيل إخفاء الحقيقة على الجهّال أو اختراق أفكار السفهاء والسذج وبالنتيجة تحقيق سلسلة من المنافع الماديّة، بينما ليس لتعصبكم أى أثر أو فائدة ويفتقر إلى أىّ دليل، سوى الكلمات البذيئة والجنونيّة والاقتتال الطائش الذى ينتهى إلى سفك الدماء، والفارق بين الجهّال والسفهاء هو أنّ الجهّال يفتقرون إلى أدنى علم بينما للسفهاء حض من علم، ومن شأن بعض الأسباب الواهيّة أن تسوق الطائفتين لتحقيق أهداف ومنافع المتعصبين والمستكبرين.

طبعاً ليس مراد الإمام عليه السلام أنّ تعصبكم معلول لعدم وجود علّة، ذلك لأنّ لكلّ شىء فى العالم على ضوء النظرة الفلسفية علّة، بل المراد أنّه كان لمن سبقكم من المتعصبين بعض الذرائع الظاهريّة الخادعة، وأنّكم لتفتقرون حتى إلى هذه الذرائع، فالمتعصبين الذين خاطبهم الإمام عليه السلام كانوا يتصفون بضحالة ثقافتهم وعقائدهم الجاهليّة التى أفرزت ذلك التعصب والتى لا تصلح أن تكون ذريعة أبداً.

ثم أشار عليه السلام إلى نموذجين من التعصبات التى يبدو أنّها كانت معززة ظاهرياً ببعض الأدلة وإن لم تكن صائبة؛ أحدهما تعصب إبليس واستكباره والآخر تعصب الأثرياء المستكبرين أصحاب الثروة فقال:

«أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدمَ لِاصْلِهِ، وطَعَنَ عَلَيْهِ فِى خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِىٌّ وأَنْتَ طِينِىٌّ».

لا شك فى أنّ إبليس خلق من النار، حيث كان ينحدر من الجن الذين خلقوا من النار بينما خلق آدم من الطين والتراب، وللنار ظاهرياً نور وشعاع، بينما يمتاز الطين بالظلمة، الأمر الذى يمكن أن يكون ذريعة لإبليس فى الكبر، والحال تمتاز النار بأنّها محرقة والطين باعث الحياة، أضف إلى ذلك فإنّ فضيلة آدم بفعل الروح الإلهيّة التى ولجت فيه حيث قال تعالى: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۳۳

سَاجِدِينَ»[۶۹۱] لكن إبليس وبفعل أنانيّته وتعصبه لم يشأ إدراك تلك الحقيقة.

ثم خاض عليه السلام فى الطائفة الثانية وهم الأثرياء المتكبرون من الأمم السابقة الذين ابطرتهم النعمة وكثرة عددهم حيث كانوا يتباهون بذلك والحال ليست لديكم حتى هذه الذرائع فى تعصبكم فقال:

«وأَمَّا الأَغْنِيَاءَ مِنْ مُتْرَفَةِ[۶۹۲] الْامَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ

مَوَاقِعِ ۶۹۳] النِّعَمِ، فَقَالُوا:

«نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وأَوْلَاداً ومَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ»[۶۹۴]».

إشارة إلى أنّهم جعلوا نعم اللّه فى الجوانب الماديّة التى تشمل القوّة البشريّة والأموال الطائلة وسيلة للكبر والتعصب وتمردوا على دعوة الأنبياء حتى شملهم العقاب الإلهى، أمّا تعصب مخاطبى الإمام عليه السلام فقد دفعهم إلى الاقتتال والنزاع تحت طائلة ذراع واهيّة وطفوليّة، فهى لا تشبه تعصب الشيطان ولا تعصب المترفين المستكبرين السابقين، بل تدور حول محور بعض الأمور التى لا تصلح لأنّ تكون حجة قط، وهذا أسوأ أنواع التعصب.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۳۵

القسم الثالث عشر

اشارة

فَإِنْ كَانَ لَابُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، ومَحَامِدِ الأَفْعَالِ، ومَحَاسِنِ الْامُورِ، الَّتى تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ والنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ ويَعَاسِيبِ الْقَبَائِلِ؛ بِالْاخْلَاقِ الرَّغِيبَةِ، وَالأَحْلَام الْعَظِيمَةِ، والأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، والْاثَارِ الْمَحْمُودَةِ. فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، والْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، والْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، والأَخْذِ بِالْفَضْلِ، والْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ، والْاعْظَامِ لِلْقَتْلِ، والْانْصَافِ لِلْخَلْقِ، والْكَظْمِ لِلْغَيْظِ، واجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِى الأَرْضِ.

الشرح والتفسير: العصبية الممدوحة

التعصّب كما ذكرنا سابقاً بمعنى التعلق الشديد بالشيء والذى يظهر بصورتين؛ بصورة سلبيّة ويراد بها التعلق الشديد الهمجى البعيد عن المنطق بالمسائل ذات القيمة الدنيئة وربّما العديمة القيمة والوهميّة والتى تفضى إلى العديد من الخلافات والنزاعات الدمويّة.

والصورة الإيجابية والمراد بها الصمود والإصرار على الأمور ذات المثل والقيم الإنسانيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة الرفيعة، وهذا التعصب ليس فقط منزّه عن العيب والذنب، بل يعتبر من نقاط القوّة والإيجابية، من قبيل من يصمد لحفظ الدين والإيمان أو حفظ الوطن والعرض والشرف.

ومن هنا سعى الإمام عليه السلام لدفع مخاطبيه المتعصبين للنجاة من تعصباتهم السلبيّة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۳۶

والقبيحة فاقترح عليهم العصبية الإيجابيّة ليشبع تطلعهم العاطفى ويسوق قواهم الباطنيّة نحو المشروع الإيجابى، وهذه هى الخطة التى ينبغى أن يمارسها جميع الزعماء الحكماء فى مجتمعاتهم بغية إصلاح المفاسد الاجتماعيّة، فبدلًا من الوقوف بوجه الأمواج العاتية للدوافع السلبيّة لابدّ من السعى إلى تغيير مسارها ودفعها باتجاه القنوات الإيجابية ولذلك قال عليه السلام:

«فَإِنْ كانَ لَابُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، ومَحَامِدِ الأَفْعَالِ، ومَحَاسِنِ الْامُورِ، الَّتى تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ[۶۹۵] والنُّجَدَاءُ[۶۹۶] مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ ويَعَاسِيبِ ۶۹۷] الْقَبَائِلِ».

أي لا ينبغى أن يكون مثلكم فى هـذه الأمور الجهّال الـذين يفتقرون إلى المنطق، بل عليكم الإقتداء والتأسـى بالعقلاء والأفراد الواعين الذين يتسابقون فى كسب الفضائل ونيل مكارمالأخلاق ويوظفون إمكاناتهم كافّة فى ميدان هذا السباق الإنسانى.

ثم خاض عليه السلام فى شرح ذلك ببضع عبارات قصيرة فقال:

«بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيبَةِ، وَالأَحْلَام الْعَظِيمَةِ، والأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، والْاثَارِ الْمَحْمُودَةِ».

فالواقع إنّ هـذه الصـفات الأربع التى وردت فى كلام الإمام عليه السـلام تبيّن أبعاد شخصـية الإنسان، التى تتمثّل فى الأخلاق الكريـمة والفكر الحر والمقام الرفيع والآثار الحميـدة (كالآثار العلميّـة والخـدمات الاجتماعيّـة) وبالطبع فإنّ الشـخص الـذى ينال هـذه الصـفات هوإنسان فاضل يسعه أن يكون قدوة وأسوة للآخرين.

ثم ركز الإمام عليه السـلام فى مواصلته لكلامه على جزئيات وتفاصـيل المسائل الأخلاقيّة ليشـير إلى عشرة نماذج من مكارم الأخلاق والصفات الإنسانيّة البارزة داعياً الجميع إلى التمسك بها فقال:

«فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، والْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ،[۶۹۸] وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، والْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، والأَخْذِ بِالْفَضْلِ، والْكَفِّ عَنِ

الْبَغْيِ، والْاعْظَامِ لِلْقَتْلِ، والْانْصَافِ لِلْخَلْقِ، والْكَظْمِ لِلْغَيْظِ، واجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ».

وممّا لا شك فيه أنّ الإنسان الجامع لهذه الصـفات العشـر هوإنسان ماجد كما أنّ المجتمع الذى تسوده هذه الخصال هو مجتمع سـليم وسعيد ومتطور من جميع الجهات.

جـدير ذكره أنّ الصـفات المـذكورة على صـنفين؛ فبعضـها تشـير إلى اجتناب المفاسد الفرديّة والاجتماعيّة مثل اجتناب القتل ومخالفة الكبر والإبتعـاد عن الفسـاد فى الأـرض، والبعض الآـخر يشـير إلى الأفعـال النافعـة والبنـاءة مثـل حفظ الحقوق والوفاء بالعهـد والإتيان بالخيرات والبذل والجود.

أمّا حفظ الجوار فيعنى رعاية حقوق الجار التى ورد التأكيد عليها فى الشـريعة الإسـلاميّة، فقد روى عن الإمام الصادق عليه السـلام أنّه قال:

«حُسْنُ الْجَوارِ يَعْمُرُ الدِّيارِ ويَزِيدُ فِي الأَعْمارِ»[۶۹۹].

وبالطبع فإنّ

«حُسْنُ الْجَوار»

لاـ يقتصـر على كف الأـذى عن الجـار فحسب، بل لابـدّ من نجـدته ومـدّ يـد العون إليه، وإن تعرض للأذى منه جابهه بكلّ رفق وود، والحقّ لو التزم الجميع بهذه التعاليم الإسلاميّة لسادت المحبّة جميع ربوع العالم.

والوفـاء بالـذمام إشـارة إلى الاـلتزام بالعهود التى تحظى بفائق الأهميّـة فى الشـريعة السـمحاء. وانصاف الخلق إشارة إلى عـدم التفريط بحقوق النفس والآخرين والنظر بعين واحدة، فينبغى أن يريد للآخرين ما يريده لنفسه ويرفض للآخرين ما يرفضه لنفسه.

تأمّل

العصبيّة الإيجابيّة والسلبيّة

يختزن الإنسان العديد من الدوافع المعقدة التى لو ترك لها العنان وانطلقت من

مصـادر الجهـل لأـدّت إلى نتائـج سـلبيّة للغايـة وأحيانـاً تكون قاتلـة، ويتوجب على قـادة المجتمع فى مثـل هـذه الحالاـت أن لا ينبروا لمواجهـة هذه الدوافع بغية القضاء عليها فحسب، بل لابدّ من تصـحيح مسـيرتها وإعادتها إلى الطريق الصـحيح، وبعبارة أخرى لابدّ من توظيفها من خلال اختيار البدائل الإيجابية دون الاقتصار على مواجهتها.

فالسيل العظيم ربّما يؤدّى إلى القضاء على أموال الناس وهـدر طاقاتهم ما لم تتمّ السـيطرة عليه، غير أنّه يكون سـبباً للعمران والبناء من قبيل انتاج الطاقة الكهربائيّة وتشـغيل المصانع الكبيرة وخزن المياه طيلة السنة وانعاش قطاع الزراعة لو بوشر ببناء سد عظيم بغية السيطرة على ذلك السيل.

ويبدو هذا المطلب واضحاً جلياً فى النصوص الدينيّة؛ فقد ورد على سبيل المثال فى خطبة النكاح:

«الْحَمْدُ للَّهِ الَّذى أَحَلَّ النِّكاحَ وحَرَّمَ الزِّنا والسِّفاح»

فـاللَّه تبـارك وتعـالى لم يأمر قط بقمع وكبت الغريزة الجنسـية، بل طرح موضوع النكاح الشـرعى كى لا يؤدّى الأمر إلى الأعمال التى تتنافى مع العفـة، وحين نصح نبى اللَّه لوط عليه السـلام قومه ونهاهم عن إتيان الفاحشة اقترح عليهم الزواج من بناته فقال: «هَؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ»[۷۰۰].

وجاء فى سورة النور بشأن حدّ الزنا: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِد مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَة»[۷۰۱] ثم رافقته دعوة عامّة لأبناء المجتمع إلى الزواج والتكافـل الاجتماعى بهـذا الشأن فقال: «وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»[۷۰۲].

كما صرّحت بعض الروايات الإسلاميّة:

«فأمّا شُؤمُ الْمَرْأَةِ فكَثْرَةُ مَهْرِها ...»[۷۰۳].

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۳۹

كما ورد فى البعض الآخر:

«وَمِن شُؤمُها شِدَّةُ مَؤُونَتِها»[۷۰۴].

فقـد تعارف بين الناس وجود بعض الأمور من قبيل الشؤم والتفائل ولكن بصورة خرافيـة وغاية فى الضـرر؛ فما كان من الإسـلام إلّاأنّ كساها ثوب المنطق دون أن ينبرى لاقتلاعها.

والقضية هذه جارية عينها على التعصب؛ فهنالك بعض الدوافع الباطنيّة للإنسان التى تسوقه نحوالتعصب فإن خلى بينه وبينها ساقته إلى الجوانب السـلبيّة التى تؤدّى إلى الكبر والغرور وربّمـا الاختلاـف والنزاعـات الدمويـة؛ إلّـاأنّ الإمـام عليه السـلام سـعى توجيهه باتجـاه الجوانب الإيجابيـة فصـرح أنّه إن كـان ولابـدّ لهؤلاـء الأـفراد والقبائل من التعصب فليكن هـذا التعصب فى مكارم الأخلاق ومحاسـن الأفعال والدفاع عن المظلومين ومواجهة الظالمين ومدّ يد العون إلى المعوزين والمحتاجين.

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۴۱

القسم الرابع عشر

اشارة

واحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْامَم قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلَاتِ بِسُوءِ الأَفْعَالِ، وذَمِيم الأَعْمَالِ.

فَتَذَكَّرُوا فِى الْخَيْرِ والشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، واحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ.

فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِى تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْر لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وزَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، ومُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وانْقَادَتِ

النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، ووَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ مِنَ الْاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، واللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ، والتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، والتَّوَاصِي بِهَا، واجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ؛ مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وتَخَاذُلِ الأَيْدِي.

الشرح والتفسير: الاعتبار بالماضين

دعا الإمام عليه السلام في هذا القسم وبعض الأقسام القادمة مخاطبيه إلى تأمّل أحوال الأمم السابقة فاستعرض عناصر ضعفهم وقوتهم وعرفهم بالأسباب التي تقف وراء نجاحهم وفشلهم في مختلف زوايا حياتهم، حتى ينفتحوا على تجاربهم ويشقوا طريقهم الصائب في حياتهم في ظلّ الاستفادة من التاريخ، وهذا النوع من التعليم والتعلّم عن طريق النظر في تاريخ الأمم السالفة) ممّا أكّده القرآن الكريم في أكثر السور القرآنيّة والذي لا يخفى مدى تأثيره ودوره.

فقال عليه السلام:

«واحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلَاتِ بِسُوءِ الأَفْعَالِ، وذَمِيمِ الأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ والشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، واحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۴۲

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى مصير بعض الأقوام مثل قوم عاد، وثمود وقوم نوح وقوم لوط وعاقبة الفراعنة وأمثال نمرود وما أصابهم من العذاب بفعل أعمالهم القبيحة فحذّرهم من مغبّة الإبتلاء بذات المصير.

والعبارة:

«سُوءِ الأَفْعَالِ وذَمِيمِ الأَعْمَالِ»

يمكن أن تكون تأكيداً لمعنى معين هو الأفعال القبيحة والذميمة، وهنالك احتمال آخر أنّ سوء الأفعال إشارة إلى الأعمال السيئة وذميم الأعمال، الأفعال المستهجنة وإن لم تبلغ مرحلة الذنب مثل الغفلة عن المحرومين وترك الانصاف والبذل والعطاء والأثرة.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من هذا البيان الإجمالي خاض في التفاصيل ليستفيد من ذات الأسلوب القرآني الذي طرح كراراً بغية بيان المسائل المهمّة فقال:

«فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وزَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، ومُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، ووَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ».

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان العناصر التي تقف وراء هذه الأمور الخمسة (العزّة ودحر العدووالعافية والنعمة والكرامة) فقال:

«مِنَ الْاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، واللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ، والتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، والتَّوَاصِي بِهَا».

ورغم أنّ هذه العناصر الأربعة تعود جميعاً إلى مسألة الاتحاد والوحدة، غير أنّ كلّ واحد يعالج نقطة معينة: فاجتناب الفرقة ناظر لنفي عناصر التفرقة والاختلاف ولزوم الإلفة لترسيخ عوامل الوحدة، والتحاض إشارة إلى الحض والتشجيع (ربّما التشجيع العلمي) والتواصي المراد به عن طريق البيان والحوار.

ثم أشار عليه السلام إلى الجانب السلبي لهذه المسألة؛ أي التفرقة وعناصرها فحذرهم بعبارات عميقة المعنى من ضرورة نبذ عوامل الفرقة والاختلاف فقال:

«واجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ ۷۰۵]، وأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ ۷۰۶]».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۴۳

آنذاك ركز الإمام عليه السلام على العوامل الخاصّة بعد ذكره لهذا المبدأ الكلّي فقال:

«مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وتَخَاذُلِ الأَيْدِي».

فهذه العناصر الأربعة هى العوامل الرئيسيّة للاختلاف والتى لبعضها جانب باطنى من قبيل الأحقاد الكامنة فى الصدور والحسد والبخل بينما لبعضها الآخر جانب ظاهرى من قبيل تولى البعض عن البعض الآخر وترك الأخوة والمؤمنين عند الحوادث والشدائد، نعم! لوسادت هذه الأمور أية أمّة لكسرت فقرتها وسلبتها قوتها وقدرتها.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۴۵

القسم الخامس عشر

اشارة

وتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِى حَالِ التَّمْحِيصِ والْبَلَاءِ. أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً، وأَجْهَدَ العِبَادِ بَلَاءً، وأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالًا. اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِى ذُلِّ الْهَلَكَةِ وقَهْرِ الْغَلَبَةِ، لَايَجِدُونَ حِيلَةً فِى امْتِنَاعٍ، وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعٍ. حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِى مَحَبَّتِهِ، والْاحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلَاءِ فَرَجاً، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، والأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً، وأَئِمَّةً أَعْلَاماً، وقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الْآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

الشرح والتفسير: عناصر انتصار المؤمنين الأوائل

بالنظر إلى أنّ الموضوع الأصلى لهذه الخطبة يتمثّل فى مواجهة الكبر والغرور والعصبيات السلبيّة وقد بيّن الإمام عليه السلام ذلك فى الفصل السابق ولفت انتباه مخاطبيه إلى أحوال الأمم السالفة وانتصاراتهم ونجاحهم فى ظلّ وحدتهم وإلفتهم، وعاد ثانية ليلفت أنظارهم إلى التأمّل فى سيرة الأمم السابقة وما عانوه من امتحانات شاقة وعسيرة ليستعرض لهم كيفية نجاحهم فى تلك الامتحانات وتسلطهم على العدو، فأفاض اللّه عليهم العزّة والعظمة ومنحهم الأمن فقال:

«وتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِى حَالِ التَّمْحِيصِ والْبَلَاءِ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۴۶

ثم تطرق عليه السلام إلى توضيح تلك الامتحانات الصعبة فقال:

«أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً[۷۰۷]، وأَجْهَدَ العِبَادِ بَلَاءً، وأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالًا».

ثم غاص أكثر فى التوضيح بهذا الشأن ليركز على ما واجهتهم من صعوبات فى حياتهم فقال:

«اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ ۷۰۸] سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمُ
الْمُرَارَ[۷۰۹]، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِى ذُلِّ الْهَلَكَةِ وقَهْرِ الْغَلَبَةِ، لَايَجِدُونَ حِيلَةً فِى امْتِنَاعٍ،
وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعٍ».

ورغم أنّ خطوب حياة الأقوام السابقة وامتحاناتهم الصعبة والشاقّة لا تقتصر على زمان الفراعنة، ولكن بما أنّ القرآن أشار كراراً إلى المصائب التى عانى منها بنو إسرائيل فى زمان فرعون والتى يعرفها جميع المسلمين، فقد أشار الإمام عليه السلام على وجه الخصوص إلى تلك الحقبة حيث تحول فيها الجميع إلى عبيد من جانب وكانوا يضطرونهم إلى أعقد الأعمال ويزودونهم بأدنى الإمكانات وحين يشعرون بالخطر يعمدون إلى قتل رجالهم واستحياء نسائهم واستعمالهن للخدمة، وقد مضت عليهم عدّة سنين ولم يكن لهم من

سبيل للنجاة حتى تلطف اللّه عليهم فكانت معجزة اللّه فى انتصارهم على عدوهم بهلاك الفراعنة وأعوانهم، حيث قال عليه السلام فى مواصلته لكلامه

«حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِى مَحَبَّتِهِ، والْاحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلَاءِ فَرَجاً».

نعم! فحين يجتاز الإنسان الامتحان يبعث اللّه عليه ما يفرج عنه مشكلاته وتُشرق عليه شمس النصر والغلبة، الأمر الذى لمسناه فى موسى عليه السلام وقومه.

فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة إلى نصرهم بصورة كليّة، ثم خاض فى التفاصيل فقال:

«فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، والأَمْنَ مَكانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكاً

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۴۷

حُكَّاماً، وأئِمَّةً أَعْلَاماً، وقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الْامَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ».

وقد ورد المزيد من التوضيح فى القرآن المجيد بشأن بنى إسرائيل والفراعنة بهذا الخصوص والذى يكشف النقاب عن دقائق هذا النصر فقال تعالى «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّات وَعُيُون* وَزُرُوع وَمَقَام كَرِيم* وَنَعْمَة كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ* كَذلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ»[۷۱۰].

وقال تعالى فى موضع آخر: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ»[۷۱۱].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۴۹

القسم السادس عشر

اشارة

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْلَاءُ مُجْتَمِعَةً، والأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، والْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، والأَيْدِى مُتَرَادِفَةً، والسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، والْبَصَائِرُ نَافِذَةً، والْعَزَائِمُ وَاحِدَةً. أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِى أَقْطَارِ الأَرَضِينَ، ومُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ! فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِى آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وتَشَتَّتِ الْأُلْفَةُ، واخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالأَفْئِدَةُ، وتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ، وبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ.

الشرح والتفسير: الوحدة والفرقة، والنصر والهزيمة

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من كلامه السابق بشأن الأقوام السابقة ومصيرهم الذى يختزن الدروس والعبر، خلص فى هذا المقطع من الخطبة إلى نتيجة ليركز على العنصر الرئيسى للنصر المتمثّل باتحاد الصفوف والعنصر الرئيسى للفشل المتمثّل بتفرّق الصفوف ليشير إلى أبعاد وحدة الكلمة من خلال عدّة عبارات بسبع جمل فقال:

«فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْلَاءُ[۷۱۲] مُجْتَمِعَةً، والأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، والْقُلُوبُ

مُعْتَدِلَةً، والأَيْدِى مُتَرَادِفَةً، والسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، والْبَصَائِرُ نَافِذَةً، والْعَزَائِمُ وَاحِدَةً.

أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِى أَقْطَارِ الأَرَضِينَ، ومُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ».

فالإمام عليه السلام أشار بهذه العبارات الغاية فى الروعة والعميقة المعنى إلى الاتحاد

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۵۰

والاتفاق فى جميع مظاهره ليعده عنصر الإقتدار والرفعة، الاتفاق فى التطلعات والرغبات والخطط والمشاريع والاتفاق فى العمل

والاتفاق عند الصلح والقتال وبالتالى وحدة الصفوف فى جميع مظاهر الحياة.

ويبدو الدليل على هذا الكلام واضحاً تماماً؛ ذلك لأنّه ليس للأفراد بمفردهم من قدرة كبيرة وكل واحد منهم كالقطرة بحيث لو كانت فى صحراء وأشرقت عليها أشعة الشمس أو هبت عليها الريح لحولتها إلى بخار، غير أنّ هذه القطرات أن اجتمعت مع بعضها البعض شكلت تلك البحار العظيمة التى من شأنها أن تكون مصدر لكلّ خير وبركة، فخيط العنكبوت بمفرده ضعيف وايل للزوال ولايسعه الصمود أمام أدنى نسيم، غير أنّهم اليوم يلفونها مع بعضها ليصنعوا منها بدلة مضادة للرصاص والتى تفوق مقاومتها جميع المقاومات وهذا هو دور الاتحاد والاتفاق.

ولعل هذه العبارات واردة بشأن بنى إسرائيل حين نهض موسى بن عمران عليه السلام بالأمر ووحّد صفوفهم فشملتهم العناية الإلهيّة والألطاف الربّانيّة فورثوا حكومة مصر والبلدان المجاورة لها، حتى تشكلت بعد موسى عليه السلام حكومات مقتدرة كحكومة داود وسليمان عليهما السلام، وربّما يكون أصلًا كلياً وعاماً حصل كراراً فى تاريخ الأمم السابقة، وكلّما كان هنالك اتحاد واتفاق ووحدة قرار وخطة حكيمة كان هنالك الانتصار والغلبة، على كلّ حال فإنّ شرح الإمام عليه السلام يكشف النقاب عن هذه الحقيقة أنّه وإن كانت عدّة عوامل ضرورية للنصر والتقدم إلّاأنّ أهمها مسألة الاتحاد والاتفاق.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فذكر العنصر الرئيسى فى الفشل والهزيمة وهو الاختلاف؛ الاختلاف فى وجهات النظر وتشتت الصفوف، ثم أشار إلى أبعاده المختلفة بخمس عبارات فقال:

«فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِى آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وتَشَتَّتِ الْاُلْفَةُ، واخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْئِدَةُ، وتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ،

نفحات الولايةً، ج۷، ص: ۳۵۱

وتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ[۷۱۳] نِعْمَتِهِ، وبَقِىَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ».

نعم، فحين تتجه طاقات أمّة نحو الاختلاف، وتستبدل الإلفة والمحبّة بالنفرة والعداوة وتتصاعد فيها ألسنة لهيب اختلاف الكلمة وتفرق الأفكار إنّما تخوض حربها ضد نفسها وتهدر طاقاتها بدلًا من تصديها لعدوها الذى ينوى القضاء عليها، واللَّه سبحانه وتعالى ينزع عنها لباس العزّة ويكسيها لباس الذل والهوان.

ويمكن أن يكون هذا الجانب من كلام الإمام عليه السلام إشارة إلى قصّة بنى إسرائيل بعد تلك الانتصارات المتتالية حين فقدوا مجدهم وعزّتهم إثر الاختلاف والتشتت فتفرقوا فى الأرض، وربّما يكون إشارة إلى جميع الأقوام التى تعيش حالة السقوط بسبب كفران النعمة والاختلاف والتشتت عقب الانتصارات الباهرة التى تحققها فى ظلّ الاتحاد ووحدة الكلمة.

نفحات الولايةً، ج۷، ص: ۳۵۳

القسم السابع عشر

اشارة

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وبَنِى إِسْحَاقَ وبَنِى إِسْرَائِيلَ (عليهم السلام). فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ، وأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الْأَمْثَالِ! تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِى حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وتَفَرُّقِهِمْ، لَيَالِىَ كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ والْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الْآفَاقِ، وبَحْرِ الْعِرَاقِ، وخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ، ومَهَافِى الرِّيحِ، ونَكَدِ الْمَعَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبَرٍ ووَبَرٍ، أَذَلَّ الْاُمَمِ دَاراً، وأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً، لَايَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِها، وَلَا إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا. فَالْاحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، والْأَيْدِى مُخْتَلِفَةٌ، والْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ؛ فِى بَلَاءِ أَزْلٍ، وأَطْبَاقِ جَهْلٍ! مِنْ بَنَاتٍ مَوْؤُودَةٍ، وأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ، وأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ، وغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بولد إسماعيل وإسحاق

تابع الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة ما ذكره فى المقاطع السابقة بشأن العناصر التى تقف وراء انتصار وفشل الأمم السابقة فركز على المصاديق العينية لهذا الموضوع وأخذ بيد مخاطبيه ليغوص بهم فى أعماق التاريخ فيكشف لهم النقاب عن قصة ولد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام وبنى إسرائيل ليعتبروا بهم فقال:

«فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وبَنِي إِسْحَاقَ وبَنِي إِسْرَائِيلَ عليهم السلام. فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ ۷۱۴] الأَحْوَالِ،

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۵۴

وأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ ۷۱۵] الأَمْثَالِ!».

وعلى هذا الضوء فقد دعاهم الإمام عليه السلام لمقارنة أنفسهم بمن سبقهم ليتعرفوا على عناصر نجاحهم وإخفاقهم لكى لا يقعوا فى شباك الشيطان ويعيشوا هوى النفس والغرور والتعصب.

وهنا لابدّ من الإلتفات إلى أنّ ولد إبراهيم عليه السلام ينقسمون إلى ثلاث طوائف؛ طائفة هم بنو إسماعيل الذين يعدون أجداد النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وبنو إسحاق الذين يتفرعون إلى فرعين؛ فرع هم بنو يعقوب الذين يشكلون قوم بنى اسرائيل وفرع آخر هم بنو «عيسو» ومن نسلهم «الأدوميون» (قوم من أولى القوّة كانوا يقطنون فى منطقة «أدوم» التى تمتد من جنوب البحر الميت إلى شمال الحجاز).

ويحتمل أن يكون المراد بالعبارات السابقة قد أشار إلى قانون كلّى فى أنّ التاريخ يعيد نفسه باستمرار وعادة ما تعيش الشعوب والأمم ظروفاً متشابهة تستطيع من خلالها كلّ أمّة أن تحدد معالم مصيرها.

ثم تطرق عليه السلام إلى شرح هذا الكلام بأسلوب الاجمال والتفصيل الذى يلعب دوراً فى بيان الحقيقة فقال:

«تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وتَفَرُّقِهِمْ، لَيَالِيَ كَانَتِ الأَكَاسِرَةُ[۷۱۶] والْقَيَاصِرَةُ[۷۱۷] أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ ۷۱۸] عَنْ رِيفِ ۷۱۹] الْآفَاقِ، وبَحْرِ الْعِرَاقِ،

وخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ ۷۲۰]، ومَهَافِي ۷۲۱] الرِّيحِ، ونَكَدِ[۷۲۲] الْمَعَاشِ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۵۵

إشارة إلى أنّهم سلبوهم حياة القرى والمدن المباركة وهجّروهم إلى الصحارى والمناطق الجرداء القاحلة.

ثم قال عليه السلام:

«فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً[۷۲۳] مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبَرٍ[۷۲۴] ووَبَرٍ[۷۲۵]، أَذَلَّ الْاُمَمِ دَاراً،

وأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً لَايَأْوُونَ ۷۲۶] إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِها، وَلَا إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا».

انذاك خاض عليه السلام فى شرح معطيات هذا الوضع فقال:

«فَالْاحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، والأَيْدِى مُخْتَلِفَةٌ، والْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِى بَلَاءِ أَزْل ۷۲۷]، وأَطْبَاقِ جَهْل! مِنْ بَنَات مَوْؤُودَة[۷۲۸]، وأَصْنَام مَعْبُودَة، وأَرْحَام مَقْطُوعَة، وغَارَات ۷۲۹] مَشْنُونَة[۷۳۰]».

إشارة إلى أنّ اختلاف الآراء وتشتت الأفكار، إنّما تفرز على الدوام المحن والخطوب التى تصيب المجتمعات البشريّة فتطمرها فى وادى الجهل، كما يشير تاريخ الجاهلية إلى أنّهم كانوا يمارسون الأعمال الهمجيّة والبربريّة، وقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة نماذج منها؛ فكانوا يعمدون إلى وأد بناتهم أحياءً تحت ذريعة حفظ الحرمة وابراز الغيرة والنجاة من الفضيحة والعار، ويعبدون الأحجار التى كانوا يصنعونها بأيديهم فكان لكلّ قبيلة صنمها ووثنها، فقريش وبنو كنانة والأوس

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۵۶

والخزرج کانوا یعبدون «مناة»، وبنو ثقیف «اللاة والعزی» وهذیل «سواع» وبنو کلب «ود» وسائر الطوائف کانت تعبد سائر الأصنام، وقد نصب «هبل» کأعظم صنم لهم فی الکعبة بینما کان «اساف» و «نائلة» علی الصفا والمروة فکان الجمیع یعظم هذه الأصنام الثلاثة فتحولت الکعبة مرکز التوحید والعبودیة إلی أکبر معبد وثنی للأصنام.

وقطع الرحم الوارد فی کلام الإمام علیه السلام یمکن أن یکون إشارة إلی قتلهم أولادهم خشیة الفقر أو بصفته عبادة یتقربون بها لأصنامهم، وتشیر «الغارات المشنونة» الحروب المتعددة التی کانت تنشب بین القبائل العربیة فی العصر الجاهلی تحت مختلف الذرائع، حتی ذهب بعض المؤرخین إلی أنّ نار تلک الحروب لم تکن تطفأ حتی ظهر الإسلام فوضع حداً للاقتتال القبلی وقتل الأولاد ووأد البنات وعبادة الأوثان.

وهذا هو مصیر من یقطع أواصر الوحدة ویقبل علی الاختلاف والتشتت والنفاق والذی یتجلی بصیغة معینة فی کلّ أمّة ولا یقتصر علی العصر الجاهلی.

تأمّل

القطرة والبحر

لعلنا سمعنا کراراً هذا الکلام فی أنّ قطرات الأمطار لیس لها من قیمة تذکر بمفردها، غیر أنّها إن اتصلت بسائر القطرات وشکلت نهراً عظیماً وتراکمت مع بعضها البعض الآخر ألفت کتلة عظیمة من شأنها القیام ببعض الأعمال الکبیرة ومن ذلک إنتاجها للقوّة الکهربائیة التی تشغل المصانع والمعامل الضخمة، وتضیئ المدن والقری وتسقی قطاعات واسعة من المزارع والحقول، وبالتالی یمکنها إضفاء الحیاة والحیویّة.

ویبدو أنّ الناس کذلک، فکلّ إنسان مهما کانت قدرته وطاقته لا یمکنه القیام ببعض الأعمال بمفرده، علی غرار قطرة المطر، ولکن ما أن تتظافر هذه الجهود الصغیرة حتی یکون لها تأثیراتها الواضحة فی هذا العالم، فهی لا تشکل درعاً

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۵۷

حصیناً العدو فحسب، بل تلعب دورها فی عالم الاقتصاد والعلم والمعرفة فتؤدی إلی کلّ ذلک الرقی والتقدم والإزدهار، والحقّ لولا تلاقح قطرات علم العلماء طیلة التاریخ وفی المجتمعات البشریّة لما شهدنا لیوم کلّ هذا التقدم العلمی الهائل ولما کان التمدن یفوق مدنیة العصور الحجریة.

وفإذا دبّ الاختلاف فی صفوف المجتمعات البشریّة فلا تتوقف عجلة الرقی والتقدم فحسب، بل تنعدم کلّ القدرات والقوی فی اتون الاقتتال الداخلی والذی لا یفضی سوی إلی الدمار والخراب والتخلف.

وقد أکّد الإمام علیه السلام مراراً فی هذه الخطبة الشریفة علی هذا المعنی، فأخذ بید مخاطبیه إلی أعماق التاریخ البشری لیریهم عن کثب نتائج الاتحاد والفرقة.

من جانب آخر فقد ورد مثل هذا التأکید فی الآیات القرآنیّة والروایات الإسلامیّة؛ ولکن ما تجدر الإشارة إلیه أنّ الظفر بوحدة الصفوف لا یبدو بالأمر الهیّن بل یحاط بالعدید من الصعوبات والعوائق، ومنها التعصب والکبر والفخر وترجیح المصالح الذاتیة الضیقة والقصیرة الأمد علی المنافع العامّة والبعیدة الأمد، وقد عدّها الإمام علیه السلام فی هذه الخطبة من العقبات التی تعترض سبیل الوحدة.

وقد أکّد الإمام علیه السلام هذا المعنی فی سائر خطب نهج البلاغة أیضاً؛ ومن ذلک ما ورد فی الخطبة ۱۲۷ أنّه قال:

«وإيّاكُمْ والْفُرْقَةَ فَإنَّ الشّاذَّ مِنَ النّاسِ لِلشَّيْطانِ كَما أنّ الشّاذّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ».

كما وردت إشارة رائعة إلى هذا المعنى فى الخطبة ۸۶:

«ولا تَباغَضُوا فَإنّها الْحالِقَةُ».

ونختتم هذا الكلام بالرسالة المهمّة التى صرح بها القرآن الكريم فى قوله تعالى

«وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»[۷۳۱].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۵۹

القسم الثامن عشر

اشارة

فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ: كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، والْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ. قَدْ تَرَبَّعَتِ الْأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَان قَاهِر، وآوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنَفِ عِزٍّ غَالِب، وتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْك ثابت. فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، ومُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الْأَرَضِينَ. يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، ويُمْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ! لَاتُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ، وَلَا تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ.

الشرح والتفسير: عزتكم بالاسلام

بعد كلام الإمام عليه السلام فى القسم السابق من هذه الخطبة بشأن خطوب العصر الجاهلى والمشاكل والإرباكات والفقر وعدم الاستقرار التى اتصف بها، تناول هنا شرح المعطيات المباركة التى حصلوا عليها فى ظلّ انبثاق دعوة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وما أصبحوا عليه من اتحاد وإلفة ومحبّة، ليشرح هذا الأمر بعبارات غاية فى الجمال والبلاغة فقال:

«فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ».

نعم؛ فقد كان كلّ قوم وقبيلة بل كلّ فرد فى العصر الجاهلى يلهث خلف مصالحه ورغباته الضيقة حتى سادهم جو من الفرقة والاختلاف والتشتت، فجمعهم اللَّه

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۶۰

تبارك وتعالى تحت راية واحدة فى ظلّ الإسلام والتوحيد فانقلب كلّ شيء رأساً على عقب.

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان هذه النعم من خلال تشبيهات واستعارات رائعة ليتطرق إلى الواحدة تلو الأخرى فقال:

«كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ ۷۳۲] نَعِيمِهَا، والْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ ۷۳۳]».

فقد شبه الإمام عليه السلام هذه النعم بالطيور التى تفتح اجنحتها لتضم إليها صغارها فتمنحها الدفء والحنان والأمان، ثم شبهها ثانية بالماء العذب الفرات الذى ينحدر نحو الحقول والمزارع فيجعلها خضراء نضرة، ونتيجة ذلك الغرق فى النعم والعيش بأمان فى ظلّ حياة هانئة وديعة.

ثم واصل كلامه عليه السلام ليشير إلى نعمة الحكومة الإسلاميّة، الحكومة العزيزة والمقتدرة فقال:

«قَدْ تَرَبَّعَتِ ۷۳۴] الْأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَان قَاهِر، وآوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَى

كَنَفِ عِزٍّ غَالِب، وتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى ۷۳۵] مُلْكٍ ثَابت».

والتاريخ الإسلامى أفضل شاهد على جميع ما ذكره الإمام عليه السلام بهذه العبارات حيث انتصار العرب بالخصوص والمسلمين بصورة عامة فى ظلّ الإسلام، الأمر الذى يقرّه مؤرخو الشرق والغرب.

ثم أشار فى ختام هذا الكلام إلى النصر المطلق للمسلمين على خصومهم بعبارة بليغة فقال:

«فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، ومُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الأَرَضِينَ. يَمْلِكُونَ الْأمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، ويُمْضُونَ الأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ! لَا

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۶۱

تُغْمَزُ[۷۳۶] لَهُمْ قَنَاةٌ[۷۳۷]، ولَا تُقْرَعُ ۷۳۸] لَهُمْ صَفَاةٌ[۷۳۹]».

إشارة إلى سطوة الحكام والسلاطين فى العهود السابقة عليهم إثر اختلافهم وفرقتهم وضعفهم وعجزهم حتى استعبدوهم بينما بث فيهم الإسلام روح الاتحاد والقدرة والعزّة فانحنوا لهم حيث تحولوا إلى قوّة لا تقهر.

قال أحد المستشرقين: بلغ المسلمون درجة من القوّة بحيث يوصف بالجنون كلّ من يفكر فى مواجهتهم.

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۶۳

القسم التاسع عشر

اشارة

أَلَا وإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وثَلَمْتُمْ حِصْنَ اللَّهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هَذِهِ الْأمَّةِ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هذِهِ الْأُلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، ويَأْوُونَ إِلَى كَنَفِهَا، بِنِعْمَةٍ لَايَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً، لِانَّها أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

واعْلَمُوا أَنَّكُم صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً، وبَعْدَ الْمُوَالاةِ أَحْزَاباً. مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْاسْلَام إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْايمَانِ إِلَّارَسْمَهُ. تَقُولُونَ: النَّارَ وَلَا الْعَارَا! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا الْاسلَامَ عَلَى وَجْهِهِ انْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ، ونَقْضاً لِمِيثَاقِهِ الَّذِى وَضَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ، وأَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ. وإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لَاجَبْرَائِيلُ وَلَا مِيكائِيلُ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ.

وإِنَّ عِنْدَكُمُ الأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وقَوَارِعِهِ، وأَيَّامِهِ ووَقَائِعِهِ، فَلَا تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ، وتَهَاوُناً بِبَطْشِهِ، ويَأْساً مِنْ بَأْسِهِ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَعَنَ اللَّهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، والْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي.

أَلَا وقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْاسْلَامِ، وعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ، وأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ.

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۶۴

الشرح والتفسير: اجتناب الفرقة

أشار الإمام عليه السلام فى المقاطع السابقة إلى شؤون بنى إسرائيل وضعفهم قبل قيام موسى عليه السلام ومن ثم قوتهم واقتدارهم فى ظلّ حركة موسى التى وحدت صفوفهم وبالتالى ضعفهم وذلتهم ثانية حين تولوا عن الدين الجديد ودعوة موسى، فذكّر المسلمين بهذه المراحل الثلاث، المرحلة الأُولى المتعلقة بالعصر الجاهلى، والمرحلة الثانية المرتبطة بانبثاق الدعوة الإسلاميّة وما انطوت عليه من

انتصارات باهرة والذی مر علینا فی الأقسام السابقة، وخاض هنا فی تفاصیل المرحلة الثالثة التی انطوت علی تخلف المسلمین عن الوحدة والانتصارات السابقة فقال:

«أَلَا وإِنَّکُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ ۷۴۰] أَیْدِیَکُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وثَلَمْتُمْ ۷۴۱] حِصْنَ اللَّهِ الْمَضْرُوبَ عَلَیْکُمْ، بِأَحْکامِ الْجَاهِلِیَّةِ).

ثم خاض علیه السلام فی شرح هذا الکلام فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَی جَمَاعَةِ هذِهِ الْامَّةِ فِیمَا عَقَدَ بَیْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هذِهِ الْالْفَةِ الَّتی یَنْتَقِلُونَ فِی ظِلِّهَا، ویَأْوُونَ إِلَی کَنَفِهَا[۷۴۲]، بِنِعْمَة لَایَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِینَ لَهَا قِیمَةً، لِانَّها أَرْجَحُ مِنْ کُلِّ ثَمَن، وأَجَلُّ مِنْ کُلِّ خَطَر».

فکلّ هذه العبارات تشیر إلی أهمیّة الاتحاد والإلفة، الأمر الذی أکّده القرآن الکریم فی عدّة مواضع فی قوله تعالی «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِیعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْکُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ إِذْ کُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِکُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً[۷۴۳]»[۷۴۴].

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۶۵

فکشف النقاب أکثر عن الموضوع لیقول صراحة:

«وَاعْلَمُوا أَنَّکُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً وَبَعْدَ الْمُوَالاةِ أَحْزَاباً. مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْاسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْایمَانِ إِلَّارَسْمَهُ».

فقد أفصح الإمام علیه السلام فی هذه العبارات عن مدی قلقه علی أوضاع المسلمین آنذاک وکیف بدت علیهم آثار العصبیّة القبلیّة التی جهد النّبی صلی الله علیه و آله علی إزالتها فی ظلّ التعالیم الإسلامیّة السمحاء، فکانت هذه العصبیة أساس الاقتتال وسفک الدماء ولذلک صرّح لهم الإمام علیه السلام: (أنّکم لتتحدثون عن الإسلام والإیمان بینما لا تحسنون من الإسلام سوی اسمه ومن الإیمان سوی شکله)، نعم! إنّکم لتنطقون بالشهادتین وتأتون ظاهریاً بالصوم والصلاة لکنکم غافلون عن تعالیم هذا الدین.

ثم شرح الإمام علیه السلام هذه العبارة فقال:

«تَقُولُونَ: النَّارَ وَلَا الْعَارَ! کَأَنَّکُمْ تُرِیدُونَ أَنْ تُکْفِئُوا[۷۴۵] الْاسلَامَ عَلَی وَجهِهِ انْتِهَاکاً لِحَرِیمِهِ، ونَقْضاً لِمِیثَاقِهِ الَّذِی وَضَعَهُ اللَّهُ لَکُمْ حَرَماً فِی أَرْضِهِ، وأَمْناً بَیْنَ خَلْقِهِ».

عبارة هذه الشعار

«النّارَ وَلَا الْعارَ»

اطلقت حسب بعض الشرّاح لأول مرّة من قبل «أوس بن حارثة»[۷۴۶] وهو من الشعارات التعصبیّة البعیدة عن الإسلام. فهؤلاء یزعمون أنّهم مستعدون لدخول النار، لکنهم لیسوا مستعدین لأنّ تظهر علیهم القبیلة الفلانیّة، أو یراق لهم دم ولا یردّون الصاع صاعین. فالإمام علیه السلام یصف هذا الکلام بأنّه نقض العهود والتراجع عن الإسلام.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۶۶

وقال جمع من شرّاح نهج البلاغة إنّ العبارة

«النّارَ ولَا الْعارَ»

عظیمة إن کانت فی الأهداف القدسیّة، بینما تعدّ قبیحة ومذمومة إن کانت فی المفاخر القبلیّة الواهیّة.

إنّما یصح هذا الکلام إن لم تکن النار بمعنی جهنم، بل کانت بمعناها الواسع الذی یشمل نار المشاکل الدنیویة أیضاً، مثلًا یقال (نتحمل جمیع المحن وحتی الموت لکننا لا- نقبل بسیطرة الکفّار علی البلاد الإسلامیّة) فالشعار بالطبع صحیح؛ أمّا أن یقال (نحن مستعدون لدخول النار لکننا لا نتحمل أفضلیة القبیلة الفلانیّة) فالشعار هنا خاطئ وینسجم مع العصبیة الجاهلیة.

وعلیه فلا یبدو صحیحاً ما ذکره المحقق التستری فی شرحه لنهج البلاغة حیث صرّح بأنّ هذا التقسیم مضحک، ذلک لأنّ من قال بهذا

التقسيم إنّما فسّر النار بمعناها الواسع، رغم إنّ ما ورد فى كلام الإمام عليه السلام على لسان المتعصبين آنذاك يراد به الجانب السلبى لذلك الشعار.

ثم أشار عليه السلام إلى العاقبة السيئة لهذا الأسلوب فقال:

«وإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ [۷۴۷]

حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لَاجَبْرَائِيلُ وَلَا مِيكائِيلُ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ[۷۴۸]

يَنْصُرُونَكُمْ إِلَّا الْمُقَارَعَةَ[۷۴۹] بِالسَّيْفِ ۷۵۰] حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ».

إشارة إلى أنّكم حين كنتم متمسكين آنذاك بالإسلام فقد أمدكم اللَّه بنصرته بملائكته وعنايته الغيبية التى عمت الأنصار والمهاجرين، فدحرتم الأعداء ونلتم

نفحات الولاية ؛ ج ۷ ؛ ص ۳۶۶

نفحات الولاية، ج ۷، ص: ۳۶۷

النصر وعشتم العزّة والكرامة والأمن، ولكن ستسلبون كلّ ذلك إذا وليتم ظهوركم للإسلام وعليه فما لكم إلّاالعودة إلى الإسلام الأصيل واطردوا عن أنفسكم الكبر والغرور والعصبية الجاهلية واطفئوا نيران الفرقة لتشملكم عناية اللَّه وألطافه.

ثم حذرهم الإمام عليه السلام ودعاهم لمقارنة أوضاعهم بما أصاب الأمم الظالمة من قبلهم، فاستعرض لهم نماذج العقاب الإلهى كما ورد فى القرآن الكريم فقال:

«وإِنَّ عِنْدَكُمُ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وقَوَارِعِهِ، وأَيَّامِهِ ووَقَائِعِهِ».

والعبارات الأربع

«بأس» و «قوارع»

و

«أيّام»

و

«وقائع»

كلّها إشارة إلى العاقبة الثقيلة والصعبة للأمم المذنبة السالفة، ولكن لكلّ من هذه العبارات مفهومها الخاص؛ فالبأس تعنى القتال والعذاب والقوارع إشارة إلى العقوبات الشاقة من قبيل طوفان نوح والزلزلة التى أصابت قوم لوط وصاعقة قوم عاد وثمود، والأيّام إشارة إلى مجموع الأيّام التى تشهد وقوع هذه الحوادث، والوقائع هى هذه الحوادث بما فيها المقدمة وذى المقدمة وآثارها ونتائجها.

و

«أيّام اللَّه»

هنا إشارة إلى أيّام الأمم السابقة الصعبة والمرعبة، فقد جاء فى القرآن المجيد بشأن قوم عاد: «انَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى يَوْمِ نَحْس مُسْتَمِرّ»[۷۵۱]. وقال إثر ذلك: «تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْل مُنْقَعِر»[۷۵۲]. وسائر الآيات الكثيرة الواردة بشأن قوم فرعون ونوح وأمثالهم.

ثم قال عليه السلام:

«فَلَا تَسْتَبْطِئُوا[۷۵۳] وَعِيدَهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ، وتَهَاوُناً بِبَطْشِهِ ۷۵۴]، ويَأْساً مِنْ بَأْسِهِ».

أی إن تأخر عقاب العصاة لبضعة أيّام أو بضعة شهور فلا تظنوا باستحالة وقوعه،

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۶۸

فقد اثبت التاريخ وقوع هذا العذاب رغم تأخيره، وبالطبع فليس لهذا التأخير من أهميّة مقارنة بعمر العالم.

ثم خاض عليه السلام فی أسباب هذا الموضوع (التشابه فی المصير) ليركز على أهمها فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِیَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْیَ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَعَنَ اللَّهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِی، والْحُلَمَاءَ[۷۵۵] لِتَرْكِ

التَّنَاهِی».

والكلام إشارة إلى الآية القرآنيّة الشريفة التی تقول: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِی إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ* كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُّنكَر فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»[۷۵۶].

وبالطبع وردت إشارات إلى سائر عوامل سقوطهم فی القسم القادم من الخطبة؛ إلّا أنّ عبارة الإمام عليه السلام تشير إلى أنّ أفدح أخطائهم تركهم فريضة الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر، وذلك لأنّ تطبيق جميع الأحكام الشرعيّة يتوقف على إحياء هاتين الفريضتين، فإن أُقيمتا أُقيمت جميع الفرائض وإن تركتا تعطلت سائر الفرائض والت إلى الفناء والزوال، ولذلك ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«إنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْیَ عَنِ الْمُنْكَرِ ... فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِها تُقامُ الْفَرائِضُ»[۷۵۷].

وسنتطرق إن شاء اللَّه فی الخطب القادمة إلى الأهميّة الفائقة لفريضة الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر فی الإسلام فی الموضع الذی ورد الحديث فيه صراحة عن هذه الفريضة.

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه فی هذا الجانب من الخطبة بالقول:

«أَلَا وقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْاسْلَامِ، وعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ، وأَمَتُّمْ أَحْكامَهُ».

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۶۹

هذه الكلمات تشير إلى أنّ الاكتفاء بظاهر الإسلام وبعض الطقوس الظاهريّة ليس مدعاة للنجاة، بل لابدّ من الالتزام بأحكامه وتعاليمه وإقامة حدوده وتحكيم الإسلام فی جميع المجالات وأنتم لستم كذلك، فأنتم تتشدقون باسم الإسلام وتتصرفون تصرف الجاهلية، ومع ذلك تتوقعون العزّة والإقتدار.

***

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۷۱

القسم العشرون

اشارة

أَلَا وقَدْ أَمَرَنِی اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْیِ والنَّكْثِ وَالْفَسَادِ فِی الأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَة سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ ورَجَّةُ صَدْرِهِ، وبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْیِ. ولَئِنْ أَذِنَ اللَّهُ فِی الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لُادِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَذَّرُ فِی أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَذُّراً.

الشرح والتفسير: تكليفی فی قتال المفسدين

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى معاركه المعروفة ضد الفئات الظالمة فى الجمل وصفين والنهروان وكيف كشف لهم عن قدرته وقوته، وكأنّه أراد بهذا الكلام أن يلوح بقوته لبعض القبائل المتمردة التى عاشت الاقتتال مع بعضها بفعل العصبيات القبليّة ويلقمها حجراً ويفهمها أنّها إن واصلت هذه المسيرة الخاطئة ستجابه بأشدّ العذاب فقال:

«أَلَا وقَدْ أَمَرَنِى اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ والنَّكْثِ ۷۵۸] وَالْفَسَادِ

فِى الأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وأَمَّا الْقَاسِطُونَ ۷۵۹] فَقَدْ جَاهَدْتُ، وأَمَّا الْمَارِقَةُ[۷۶۰]

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۷۲

فَقَدْ دَوَّخْتُ ۷۶۱]».

إشارة إلى أنّ قتالى لهذه الفئات الثلاث كان بأمر اللَّه تعالى، ويستند هذا الكلام إلى الرواية الواردة عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال لأمير المؤمنين على عليه السلام:

«وإِنَّكَ سَتُقاتِلُ بَعْدى النّاكِثينَ والْقاسِطينَ والْمارِقينَ»[۷۶۲].

وقد ورد هذا الكلام فى (أسد الغابة) أنّه عليه السلام قال:

«عَهْدٌ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ أنْ أقاتِلَ النّاكِثينَ والْقاسِطينَ والْمارِقينَ»[۷۶۳]

. هذا أولًا.

ثانياً: إشارة إلى أننى هزمت الفئات الثلاث، أمّا أصحاب الجمل فقد تفرّقوا أيادى سبأ وكسرت شوكة خوارج النهروان، كما تحطم معاوية وصحبه يوم صفين، غير أنّ حيلة ابن النابغة عمربن العاص قد أنقذته من الهزيمة المطلقة.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليركز على زعيم الخوارج حرقوص بن زهير وكنيته ذوالثدية، الذى قتل شر قتلة يوم النهروان فقال:

«وأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ[۷۶۴] فَقَدْ كُفِيتُهُ

بِصَعْقَةٍ[۷۶۵] سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ[۷۶۶] قَلْبِهِ ورَجَّةُ[۷۶۷] صَدْرِهِ».

وهنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة بشأن هذه الصاعقة، فقد ذهب البعض إلى أنّ صاعقة من السماء نزلت حقّاً على زعيم الخوارج ذوالثدية فأهلكته وقذفت بجسمه فى تلك الحفرة (ردهة بمعنى حفرة ماء) بينما يعتقد البعض الآخر أنّ تلك الصاعقة هى الصراخات الشجاعة المدوية التى كانت تنطلق من الإمام عليه السلام فى بداية المعركة، فكانت هذه الصرخات تقض مضاجع البعض ومنهم ذو الثدية الذى إعتراه

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۷۳

الرعب فصعق وصرع أرضاً لينحدر إلى تلك الحفرة، ثم هدد ما تبقى من أولئك الأوغاد العتاة فقال:

«وبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ. ولَئِنْ أَذِنَ اللَّهُ فِى الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لَادِيلَنَ ۷۶۸] مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَذَّرُ فِى أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَذُّراً[۷۶۹]».

وتشير العبارة:

«أَهْلِ الْبَغْي»

إلى ظلمة الشام وأصحاب معاوية الذين كانوا سيهلكون لولا قضية التحكيم يوم صفين، فالإمام عليه السلام يقول: لو أُتيحت لى الفرصة لقضيت عليهم وأرسيت حكومة العدل والقسط فى ربوع البلاد الإسلاميّة كافّة.

ولعل ذكر هذا المعنى بصيغة الجملة الشرطية يشير إلى أنّ الإمام عليه السلام سوف لن يُوفّق لشن هجومه الكاسح عليهم، فقد طالته المنية قبل أن يقوم بهذا العمل؛ ولكن على كلّ حال أعلن عن استعداده التام لمواجهتهم مادام فيه عرق ينبض ويعلم ضمنياً صحبه خططه المستقبليّة.

تأمّل

من هو ذو الثدیة؟

اسـمه حرقوص بن زهیر السـعدی التمیمی المعروف بذی الخویصرة، ذی الثدیة ومُخدج، ولا یعلم وجه تسمیته بذی الخویصرة؛ ولکن بالنظر إلی اللحم الزائد فی عضده کالثدی فی الصدر لقب بذی الثدیة، کما عرف بالُمخدج الید لنقص فی یده.

جاء فی التفاسـیر فی ذیل الآیة ۵۸ من سورة التوبـة: «وَمِنْهُمْ مَّنْ یَلْمِزُکَ فِی الصَّدَقَاتِ فَـإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَّمْ یُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ یَسْخَطُونَ». والمصادر التاریخیة تؤکّد أنّه لما انتهت غزوة حنین وقف رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله فی موضع اسمه «جعرانة» لتوزیع الغنـائم فطلب أبو سـفیان وبعض المسـلمین من قریش المزیـد من الغنـائم؛ فمنحهم رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله أموالًا کثیرة لتألیف قلوبهم، فنهض ذو الثدیة وخاطب

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۷۴

رسول اللَّه قائلًا: «إعدل یا محمّد!».

فقال صلی الله علیه و آله:

«ویحک! فمن ذا یعدل إن لم أعدل؟»

. فاستأذنه عمر أن یضرب عنقه، فنهاه النّبی صلی الله علیه و آله وقال:

«دَعْهُ، فَسَـیَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِـیءِ هـذا قَوْمٌ یَمْرُقُونَ مِنَ الدّینِ کَما یَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرِّمْیَةِ، ... تُحْتَقَرُ صَـلَاتُکُمْ فی جَنْبِ صَـلَاتِهِمْ، وصَوْمُکُمْ عِنْدَ صَوْمِهِمْ، یَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَایُجاوِزُ تَراقیهِمْ، آیَتُهُمْ رَجُلٌ أسْوَدٌ مُخْدَجُ الْیَدِ، إحدی یَدَیْهِ کَأنَّها ثَدْیُ امْرَأَة أو بَضْعَةٌ تَدَرْدَر»[۷۷۰].

وعلی ضوء هـذه النبوءة فقـد ظهرت فئـة فی الأمّـة الإسـلامیّة تقرأ القرآن وتعبـد اللَّه، ولکن حقیقـة الأمر أنّهم خارجون عن الدین ولا یعرفون حقیقته.

وهـذه الحقیقـة معروفـة بین المسـلمین حتی أنّ عائشة المعروفة ببغضـها لعلی علیه السـلام قالت بعد النهروان وقتل ذی الثدیة: سـمعت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال:

«یَقْتُلُهُ خَیرُ أُمّتی مِنْ بَعدِی»[۷۷۱].

وقـد تحققت هذه النبوءة بعد صـفین وقضـیة التحکیم، حیث اجتمع الخوارج عند عبداللَّه بن وهب الراسبی، فخطبهم ذوالثدیة ودعاهم للقتال وکان زعیمهم عبد اللَّه بن وهب (وإن کانت الزعامة الفکریة والعقائدیة لذیالثدیة)[۷۷۲].

یذکر أنّ أمیر المؤمنین علیه السلام أخبرهم أنّ قوماً یخرجون من الدین ویقاتلون المسلمین وعلامتهم رجل (مُخدج الید)[۷۷۳].

وکـان النـاس یبحثـون عـن ذی الثدیـة، لکنهـم لـم یعـثروا علیـه، فطعنـوا فی علی علیـه السـلام وقـالوا: خـدعنا ابـن أبی طـالب لنقـاتل إخواننا[۷۷۴].

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۷۵

وکان علی علیه السلام یقول:

«ما کَذِبتُ وَلَا کُذِبْتُ».

فطلب ذا الثدیة طلباً شدیداً وقلب القتلی ظهراً لبطن فلم یعثر علیه، ثم قال:

اطلبوا الرجل وأنّه لفی القوم، فلم یزل یتطلبه حتی وجـده وهو رجل مخـدج الید کأنّها ثدی فی صدره، فکبّر علی علیه السـلام وسـجد شاکراً[۷۷۵].

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۳۷۷

القسم الحادى والعشرون

اشارهٔ

أَنـا وَضَعْتُ فِی الصِّغَرِ بِکَلَاکِلِ الْعَرَبِ، وکَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِیعَهَٔ ومُضَرَ. وقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِی مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وآلِهِ بِالْقَرَابَهِٔ الْقَرِیبَهِٔ، والْمَنْزِلَهِٔ الْخَصِیصَهِٔ. وَضَعَنِی فِی حِجْرِهِ وأَنَا وَلَدٌ یَضُمُّنِی إِلَی صَدْرِهِ، ویَکْنُفُنِی فِی فِرَاشِهِ، ویُمِسُّنِی جَسَدَهُ، ویُشِمُّنِی عَرْفَهُ. وکَانَ یَمْضَغُ الشَّیْ ثُمَّ یُلْقِمُنِیهِ، ومَا وَجَدَ لِی کَذْبَهً فِی قَوْل، وَلَا خَطْلَهً فِی فِعْل.

ولَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ کَانَ فَطِیماً أَعْظَمَ مَلَک مِنْ مَلَائِکَتِهِ یَسْلُکُ بِهِ طَرِیقَ الْمَکَارِم، ومَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَم، لَیْلَهُ ونَهَارَهُ. ولَقَدْ کُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِیلِ أَثَرَ أُمِّهِ، یَرْفَعُ لِی فِی کُلِّ یَوْم مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً، ویَأْمُرُنِی بِالْاقْتِدَاءِ بِهِ. ولَقَدْ کَانَ یُجَاوِرُ فِی کُلِّ سَنَهٔ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، ولَا یَرَاهُ غَیْرِی. ولَمْ یَجْمَعْ بَیْتٌ وَاحِدٌ یَوْمَئِذ فِی الْاسْلَامِ غَیْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وآلِهِ وخَدِیجَهَٔ وأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَی نُورَ الْوَحْیِ والرِّسَالَهِٔ، وأَشُمُّ رِیحَ النُّبُوَّهِٔ.

ولَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّهَٔ الشَّیْطَانِ حِینَ نَزَلَ الْوَحْیُ عَلَیْهِ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وآلِهِ فَقُلْتُ: یَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هذِهِ الرَّنَّهُٔ؟ فَقَالَ: «هذَا الشَّیْطَانُ قَدْ أَیِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ.

إِنَّکَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وتَرَی مَا أَرَی، إِلَّا أَنَّکَ لَسْتَ بِنَبِیٍّ، ولکِنَّکَ لَوَزِیرٌ وإِنَّکَ لَعَلَی خَیْر».

الشرح والتفسیر: التربیهٔ فی کنف النّبی صلی الله علیه و آله

أشار الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبهٔ إلی أمرین مهمین بغیهٔ تقویهٔ معنویات

نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۳۷۸

أصحابه فی مقابل الأعداء والأوباش ومثیری الفتن القبلیین؛ فتطرق إلی موقفه فی الغزوات الإسلامیّهٔ أمام صنادید العرب والضربات الموجعهٔ التی کان یسددها لهم، لیرعب ذلک الخصم العنید، ومن ثم عرج علی قرابته من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله والتی تنحصر به دون غیره، لیندفع المؤمنون بکلّ قوّهٔ واخلاص لطاعهٔ أوامره، وعلیه فلا ینبغی التصور بأنّ الإمام علیه السلام خاض فی الإشادهٔ بنفسه فی هذا الجانب من الخطبهٔ؛ الأمر الذی یتناقض والجوانب السابقهٔ من الخطبهٔ، بل الإمام یتابع هدفاً أسمی من هذه التصورات. فقال بادئ الأمر:

«أَنَا وَضَعْتُ فِی الصِّغَرِ بِکَلَاکِلِ الْعَرَبِ وکَسَرْتُ نَوَاجِمَ ۷۷۶] قُرُونِ رَبِیعَهَٔ ومُضَرَ».

والتعبیر بالصغر فی العبارهٔ السابقهٔ والذی یقابل الکبر إشارهٔ إلی شبابه علیه السلام؛ لا الطفولهٔ، فالعبارهٔ سائدهٔ لدی الجمیع إذا إنّ الأفراد الذین تقدم بهم العمر حین یریدون الإشارهٔ إلی عصر الفتوهٔ یقولون: (لقد فعلت کذا وکذا فی الصغر).

علی کلّ حال تتداعی فی عبارهٔ الإمام علیه السلام هذه الخواطر الرائعهٔ للانتصارات التی تحققت فی المعارک الإسلامیّهٔ؛ سیما الضربات التی سددها فی میدان «بَدْر» إلی «عتبهٔ» و «الولید» و «حنظلهٔ» وحین دفاعه المستمیت فی میدان «احُد» عن النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله أمام حشود الأعداء والضربهٔ المهلکهٔ التی سددها یوم الأحزاب إلی أشجع شجعان العرب «عمروبن عبدود» وذاع صیته فی أرجاء الجزیرهٔ العربیهٔ کافّهٔ، ثم بطولاته فی فتح «مکه» وغزوهٔ «حنین» وسائر الغزوات الإسلامیّهٔ والتی تکشف برمتها عن مدی إقتدار الإمام علیه السلام وشجاعته وصموده فی الحروب دفاعاً عن الإسلام ونبیّ الإسلام صلی الله علیه و آله وتکشف عن الجانب المعنوی والروحی، وبالطبع فإنّ استعراض هذه الأمور یبث حالهٔ الرعب والذعر فی صفوف الأعداء ویدفع المؤمنین لخوض الجهاد.

نفحات الولايۀ، ج۷، ص: ۳۷۹

وذكر بعض شرّاح نهج البلاغـۀ كلاماً رائعاً بهذا الخصوص فبيّنوا أنّ النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله أمضـى ثلاثۀ عهود بعد البعثۀ؛ الأوّل: العهد الذى اسـتغرق ثلاث عشرۀ سنۀ فى مكۀ والذى اكتفى فيه بإعداد صحبه لمقاومۀ الأعداء دون اللجوء إلى السيف. والثانى: الذى يبدأ منذ الهجرۀ حتى معركۀ الأحزاب والذى كان موقف المسـلمين فيها يقتصر على الدفاع. والثالث: عهد فتح مكۀ وغزوۀ حنين والذى تميز بالهجوم وإن كان الهدف إطفاء نار الفتنۀ.

وقـد كان على عليه السـلام إلى جانب النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله يضـحى بنفسه طيلـۀ هـذه العهود، حيث بات على فراش النّبى ليفديه بنفسه فى الفترۀ الأُولى ولا تنسـى مواقفه فى الفترۀ الثانيۀ يوم بدر وأحد والأحزاب، كما تقدم الصفوف فى فتح مكۀ وحنين فى الفترۀ الثالثۀ[۷۷۷].

وقـال بعض الكتّاب إنّ أمير المؤمنين عليه السـلام كـان يـدافع عن النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله حتى قبل البعثـۀ وأشار إلى قصـۀ حدثت حين كان عليه السلام فى الثامنۀ من عمره فقد كان يقول:

إنّ النّبى لا يتحدّث فى بيته عن العبيد ويخاطب الغلمان بالشباب ولا يغضب عليهم ولم يقل لأحدهم افٍ ۷۷۸].

والتعبير

«بكَلَاكِلْ»

(جمع كلكـل بمعنى عظام الصـدر) إشارۀ إلى الأبطال والزعماء فى المجتمع آنـذاك، و «قرون» جمع «قرن» كنايـۀ عن المقتـدرين من الأفراد وأنّ قرن الحيوان من أعضائه القويۀ.

ثم تطرق الإمام عليه السـلام إلى الأمر الثانى من هـذا القسم؛ وهو علاقته الحميمۀ بالنّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله والتى ابتدأت منذ الطفولۀ حتى آخر عمره حيث تربى عليه السلام فى كنفه صلى الله عليه و آله فقال:

«وقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِى مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ بِالْقَرَابَۀِ الْقَرِيبَۀِ، والْمَنْزِلَۀِ الْخَصِيصَۀِ».

نفحات الولايۀ، ج۷، ص: ۳۸۰

ثم قال لمزيد من الايضاح:

«وَضَعَنِى فِى حِجْرِهِ وأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنى الَى صَدْرِهِ، ويَكْنُفُنِى فِى فِرَاشِهِ، ويُمِسُّنِى جَسَدَهُ، ويُشِمُّنِى عَرْفَهُ ۷۷۹]. وكَانَ يَمْضَغُ الشَّىءَ ثُمَ يُلْقِمُنِيهِ».

فالعبارۀ تفيد أنّ النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله لم يفرق قط بينه وبين ولده، وقد احتضن الإمام عليه السـلام منذ كان صغيراً وأفاض عليه من أخلاقه الساميّۀ وغمره بالحبّ والحنان، وأضاف عليه السلام:

«ومَا وَجَدَ لِى كَذْبَۀً فِى قَوْل، وَلَا خَطْلَۀً[۷۸۰] فِى فِعْل».

إشـارۀ إلى أنّه تربى فى حضن النّبى صـلى الله عليه و آله بحيث كـان بمنتهى الصـدق والإخلاـص فى القول والفعل والسير على الحقّ دون أدنى انحراف.

ثم تطرق عليه السـلام إلى بيان هـذه النقطـۀ وهى: إنّى إن اتبعت النّبى صـلى الله عليه و آله قبل البعثـۀ واعتز بتلك الفترۀ وافتخر بتلك الفرصۀ، فذلك لأنّ النّبى صلى الله عليه و آله كان يتمتع منذ نعومۀ أظفاره بهدى اللّه والطافه فقال:

«ولَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً[۷۸۱]

أَعْظَمَ مَلَـك مِنْ مَلَـائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، ومَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ ونَهَارَهُ. ولَقَـدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِـيلِ ۷۸۲] أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِى فِى كُلِّ يَوْم مِنْ أَخْلَاقِهِ

عَلَماً، ويَأْمُرُنِى بِالْاقْتِدَاءِ بِهِ».

أی أنّ رعایهٔ النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله لی لم تکن مقتصرهٔ علی الجوانب الظاهریّهٔ فحسب، بل کان یعلمنی کلّ یوم درساً فی الأخلاق والکمال والفضیلهٔ وکنت أعی ذلک.

وتشیر العبارهٔ

«علماً»

إلی العلامات التی کانت توضع سابقاً علی الطرق فی الصحاری حتی یهتدی بها المسافرون فی مسیرتهم فلا یضلون الطریق فیتجهون بکلّ ثقهٔ إلی مقصدهم، وقد کانت لعلی علیه السلام هذه الهدایهٔ إلی الحقّ.

نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۳۸۱

ثم تطرق الإمام علیه السلام إلی أحد الفصول المهمّهٔ فی حیاهٔ النّبی صلی الله علیه و آله قبل البعثهٔ؛ أی عبادته فی غار حراء فقال:

«ولَقَدْ کَانَ یُجَاوِرُ فِی کُلِّ سَنَهٔ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلَا یَرَاهُ غَیْرِی. ولَمْ یَجْمَعْ بَیْتٌ وَاحِدٌ یَوْمَئِذ فِی الْاسْلَامِ غَیْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وآلِهِ وخَدِیجَهَٔ وأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَی نُورَ الْوَحْیِ والرِّسَالَهِٔ، وأَشُمُّ رِیحَ النُّبُوَّهِٔ».

فالعبارهٔ تشیر إلی أنّ عبادته صلی الله علیه و آله فی غار حراء کانت تتکرر لسنوات حیث قال الإمام علیه السلام:

«ولَقَدْ کَانَ یُجَاوِرُ فِی کُلِّ سَنَهٔ بِحِرَاءَ»

کما تشیر إلی أنّ علیّاً فقط کان یراه.

أضف إلی ذلک فقد مضت علی الدعوهٔ الإسلامیّهٔ سنوات ولم یؤمن بها إلّاثلاثهٔ:

النّبی وخدیجهٔ وعلی (صلوات اللَّه وسلامه علیهم).

وأمّا بشأن رؤیهٔ نور الوحی واستشمام ریح النبوّهٔ فقد حملها بعض شرّاح نهج البلاغهٔ علی الجوانب المعنویّهٔ بینما ذهب البعض الآخر إلی عدم المانع علی حملها علی الجوانب الظاهریّهٔ والمادیّهٔ، أی أنّه حین نزول الوحی کان هنالک نور یسطع منه لا یراه سوی النّبی صلی الله علیه و آله وأمیرالمؤمنین علیه السلام کما کان الجو یتعطر برائحهٔ زکیهٔ لا یشمها سواهما ولا مانع من وجود بعض الکائنات المادیهٔ التی یدرکها الأفراد من ذوی الشعور القوی بینما یتعذر إدراکها علی الآخرین، فمثلًا یقال: إنّ بعض الطیور ذات الحاسهٔ القویهٔ بإمکانها إدراک الأشعهٔ فوق البنفسجیهٔ أو الأشعهٔ الحمراء التی یتعذر إدراکها علینا نحن البشر وسنتحدث فی مبحث التأمّلات عن عبادهٔ النّبی صلی الله علیه و آله فی غار حراء وإیمان خدیجهٔ علیها السلام وعلی علیه السلام بصفتهما أول من آمن باللَّه وصدق بالنبی.

ثم أشار علیه السلام إلی أمر آخر بشأن علاقته بالنّبی فقال:

«ولَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّهَٔ[۷۸۳] الشَّیْطَانِ

حِینَ نَزَلَ الْوَحْیُ عَلَیْهِ صَلَّی اللَّهُ عَلَیْهِ وآلِهِ فَقُلْتُ: یَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هذِهِ الرَّنَّهُٔ؟ فَقَالَ:

«هذَا الشَّیْطَانُ قَدْ أَیِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ».

نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۳۸۲

وأضاف علیه السلام فقال لی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

«انَّکَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وتَرَی مَا أَرَی، إِلَّا أَنَّکَ لَسْتَ بِنَبِیٍّ، ولکِنَّکَ لَوَزِیرٌ وإِنَّکَ لَعَلَی خَیْر».

لعل هنالک من یقول: هنالک من لایزال یعبد الشیطان فکیف التوفیق بین هذا الکلام وماجاء فی هذه الخطبهٔ؟ والجواب واضح فی أنّ عری الطاعهٔ المطلقهٔ للشیطان وعلی جمیع المستویات التی کانت سائدهٔ فی العصر الجاهلی والتی تشمل الوثنیهٔ وعبودیهٔ الأصنام والانحرافات الأخلاقیّهٔ والمظالم الاجتماعیّهٔ الشدیدهٔ قد انهارت بظهور الإسلام وظهرت الفئات الخیرهٔ الکثیرهٔ المؤمنهٔ فی کلّ قرن وإن لم تکن أکثر عدداً وعدّهٔ من اتباع الشیطان فإنّ کیفیتهم الوجودیّهٔ ومقاماتهم لأرفع وأسمی.

بعبارهٔ أخری فقد صرح الشیطان منذ الیوم الأوّل قائلًا: «وَلَاغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ* إِلَّا عِبَادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ»[۷۸۴]. وقد زال هذا المعنی

بانبثاق الدعوة الإسلامیّة، فطائفة کبیرة من المؤمنین من ذوی الإیمان القوی والعمل الصالح قد خرجوا من تبعیة الشیطان بالإضافة إلی المخلصین والمراد بهم خاصة أولیاء اللَّه.

علی کلّ حال فإنّ هذه العباراة من قبیل العدید من الروایات التی سنشیر إلیها لاحقاً، والتی تشیر إلی مدی عظم منزلة علی علیه السلام بالنسبة للنبی الأکرم صلی الله علیه و آله فقد کان صنوه فی کلّ شیء سوی النبوّة، وهذه هی الحقیقة التی وردت فی حدیث المنزلة الذی ورد مفصلًا فی کتب الفریقین، حیث إنّ النّبی صلی الله علیه و آله استخلف علیّاً علیه السلام علی المدینة فی غزوة تبوک فلما سأله الإمام أخبره صلی الله علیه و آله بحدیث المنزلة.

والحدیث حسبما رواه ابن عباس ونقلته مصادر العامّة المعتبرة کحدیث صحیح السند أنّ علیّاً علیه السلام بکی لما استخلفه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی المدینة حین انطلق إلی تبوک فقال له صلی الله علیه و آله:

«أما تَرْضی أنْ تَکُونَ مِنّی بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسی إِلَّا أنَّهُ لَیْسَ بَعْدی نَبِیّ»

. ثم قال:

«إنّهُ لا یَنْبَغی أنْ أذْهَبَ إِلَّا وأنْتَ خَلیفَتی».

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۸۳

رواه الحاکم فی المستدرک وقال حدیث صحیح السند، کما رواه الذهبی فی تلخیص المستدرک وصرح بصحته؛ کما ورد فی سائر المصادر مثل: مسند أحمد، ذخائرالعقبی، مناقب الخوارزمی، الإصابة لابن حجر عسقلانی وسائر المصادر التی یضیق المقام عن ذکرها[۷۸۵].

تأمّلات

۱. العلاقة الحمیمة بین علی علیه السلام والنّبی صلی الله علیه و آله

لقد کانت هذه العلاقة منذ کان علی علیه السلام فی طفولته حین تعرضت مکة لتلک الأزمة الاقتصادیة والقحط الشدید الذی أصابها، وکان لأبی طالب أولاد کثیرون فشق علیه ذلک فطلب النّبی صلی الله علیه و آله- وذلک قبل نبوته- من العباس الذهاب معه إلی بیت أبی طالب علی أن یکفل أحد أبنائه، ویکفل النّبی آخر فأتیا أبا طالب فقال لهما: اترکا لی عقیلًا واحملا من تریدان، فاختار النّبی صلی الله علیه و آله علیّاً علیه السلام والعباس جعفراً، ومنذ ذلک الحین لازم علی علیه السلام النّبی صلی الله علیه و آله حتی بعث فآمن به وصدقه ۷۸۶].

وکانت الید الغیبیّة وراء تلک الحادثة لیکون علی علیه السلام منذ نعومة أظفاره إلی جنب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فیتربی علی یدیه وقد تتلمذ علی ید رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حتی رآی نور الوحی وشم رائحته وسمع صوت جبرئیل، بل سمع حتی رنة الشیطان حین المبعث وبالتالی کانت له علاقة تامة بعالم الغیب حتی خاطبه النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله:

«انَّکَ تَسْمَعُ ما أَسْمَعُ وتَرَی ما أرَی إِلَّا أَنَّکَ لَسْتَ بِنَبِیٍّ»[۷۸۷].

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۸۴

۲. غار حراء

يقع غار حراء على سفح جبل يعرف اليوم بجبل النور، وكان هذا الجبل خارج مكة أمّا اليوم وبسبب اتساع مكة فإنّ جبل النور وغار حرا أصبحا داخلها، ويستغرق صعود هذا الجبل ما يقارب الساعة.

والغار المذكور غار صغير يستوعب شخصين فى حال الوقوف للعبادة واثنان أو ثلاثة عند الجلوس، ولكن إلى جانبه موضع واسع يستوعب الكثير، والجدير بالذكر أنّ جانبى الغار مفتوحان ليدخله هواء لطيف، بحيث لايشعر الإنسان بالحرارة الشديد فى فصل الصيف، وبغض النظر عمّا سبق فهو موضع للاختلاء والمليىء بالمعنويات.

وكان صلى الله عليه و آله قبل البعثة وأحياناً حتى بعد البعثة يذهب إلى غار حراء بعيداً عن ضوضاء الجاهلية وعبادة الأصنام والخرافات السائدة فى ذلك العصر، فيناجى اللَّه ساعات وأيّاماً فى ذلك الغار، ويفكر فى خلق السماوات والأرض؛ والغريب أنّ من يدخل الغار ويتجه إلى الشمال فإنّه يستقبل الكعبة وبيت المقدس.

ويستفاد من بعض الروايات أنّه صلى الله عليه و آله كان يذهب إلى غار حراء حتى بعد النبوّة ليبتعد عن أذى المشركين ويخوض فى عبادة اللَّه ومناجاته وكان معه أحياناً على عليه السلام وخديجة عليها السلام، ونعلم أنّ الوحى كان أوّل نزوله عليه هناك.

قال ابن أبى الحديد فى شرحه: وأمّا حديث مجاورته صلى الله عليه و آله بحراء فمشهور وقد ورد فى كتب الصحاح أنّه كان يجاور فى حراء من كلّ سنة شهراً، وكان يطعم فى ذلك الشهر من جاءه من المساكين فإذا قضى جواره من حراء كان أوّل ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتى باب الكعبة فيطوف سبعاً ثم يرجع إلى بيته، حتى جاءت السنة التى أكرمه اللَّه فيها بالرسالة، فجاور فى حراء ومعه أهله خديجة وعلى ابن أبى وطالب وخادم له. فجاءه جبرئيل بالرسالة.

(إنّ هذا الحديث يبدو إشارة إلى النزول الدفعى للقرآن على النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى شهر رمضان؛ ولا ينافى النزول التدريجى فى ۲۷ من رجب)[۷۸۸].

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۳۸۵

۳. النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله قبل البعثة

كثيراً ما يتساءل الناس عن الدين الذى كان يعتنقه النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله قبل البعثة؛ ولم ينزل آنذاك الدين الإسلامى الحنيف؟

يقال أحياناً إنّه كان على دين شيخ الأنبياء، إبراهيم الخليل عليه السلام، وهذا الكلام صائب من جانب حيث كان صلى الله عليه و آله موحداً عابداً للَّه، والتوحيد من أبرز خصائص دين إبراهيم عليه السلام، ورغم أنّ جميع الأنبياء كانوا موحدين، إلّاأنّ ذلك ليس دليلًا على أنّ النّبى صلى الله عليه و آله كان متعبداً بشريعة إبراهيم فى فروع الدين كافّة.

ويفهم من كتاب المرحوم ابن زهرة (غنية) أنّ هذا السؤال كان مطروحاً منذ ذلك الوقت، وقد أفرد فصلًا فى كتابه لهذا الموضوع؛ وهو: هل كان النّبى صلى الله عليه و آله متعبداً بشريعة سالف الأنبياء، ورغم أنّه ذكر كلاماً مختصراً بهذا الخصوص، لكنه اكتفى بأنّ النّبى صلى الله عليه و آله ربّما عمل بدينه دون أن يذكر أى دليل على ذلك.

وورد فى حاشية الطبعة الأخيرة لهذا الكتاب أنّ هذا السؤال كان مطروحاً منذ عهد السيد المرتضى والشيخ الطوسى، حيث صرح البعض بصورة كليّة: أنّه صلى الله عليه و آله كان يتبع ما سبقه من أديان، ونفى البعض الآخر ذلك، وأمسك آخرون عن الكلام، وروى عن الشيخ الطوسى أنّه قال: إنّه صلى الله عليه و آله كان على شرعة خاصة قبل النبوّة نزلت عليه عن طريق الوحى دون أن يتبع الأنبياء السابقين.

ويعتقد العلّامة المجلسى أنّه كان للنبى هذا المقام قبل البعثة، فكانت تحدّثه الملائكة فيسمع كلامهم وكان أحياناً أخرى يلهم فى

الرؤيا الصادقة، وبلغ مقام النبوّة فى الأربعين من عمره حيث نزل عليه القرآن والشريعة الإسلاميّة؛ ثم استدل على ذلك بستة أدلة[۷۸۹].

وما أجدر علمائنا الأعلام أن يلتفتوا إلى الخطبة القاصعة وكلام أمير المؤمنين عليه السلام بشأن ما كان عليه النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله من خلال أعظم ملائكته حيث قال:

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۸۶

«ولَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، ومَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ ونَهَارَهُ».

فهذا الكلام يشير صراحة إلى أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله لم يكن متبعاً لما سبقه من أديان، بل كانت له منهجيته الخاصّة التى بلغته عن طريق الإلهام من ذلك الملك العظيم وكان صلى الله عليه و آله ملتزماً بها.

فكيف يعلِّمه هذا الملك العظيم سبل مكارم الأخلاق، ولا يلهمه الواجبات، وهكذا يتّضح الجواب عن السؤال بشأن تعبد النّبى صلى الله عليه و آله قبل البعثة بما سبقه من أديان، من عدمه ۷۹۰].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۸۷

القسم الثانى والعشرون

اشارة

ولَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلَا مِنْ قُرَيْش، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، ونَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وأَرَيْتَنَاهُ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ ورَسُولٌ، وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ: «ومَا تَسْأَلُونَ؟» قَالُوا:

تَدْعُولَنَا هذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ، «فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىء قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنِّى سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وإِنِّى لَاعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَى خَيْر، وإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِى الْقَلِيبِ، ومَنْ يُحَزِّبُ الأَحْزَابَ». ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ: «ياأَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الْاخِرِ، وتَعْلَمِينَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ، فَانْقَلِعِى بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِى بَيْنَ يَدَىَّ بِإِذْنِ اللَّهِ». فَوَالَّذِى بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وجَاءَتْ ولَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ؛ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَىْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ مُرَفْرِفَةً، وأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ، وبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِى، وكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ- فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذلِكَ قَالُوا عُلُوَّا وَاسْتِكْباراً: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا ويَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَال وأَشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ- فَقَالُوا- كُفْراً وعُتُوّاً-: فَمُرْ هذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ فَرَجَعَ؛ فَقُلْتُ أَنَا: لَاإِلهَ إِلَّا اللَّهُ؛ إِنِّى أَوَّلُ مُؤْمِن بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وأَوَّلُ مَنْ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۸۸

أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ، وإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وهَلْ يُصَدِّقُكَ فِى أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هذَا! يَعْنُونَنِى.

الشرح والتفسير: معجزة حركة الشجرة

أشار الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة الذى يعدّ من أهم جوانبها إلى إحدى معجزات النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى مكة وقد شهدها الإمام عليه السلام ليؤكّد علاقته الحميمة به صلى الله عليه و آله وسبقه إلى‌الإيمان، وهى المعجزة التى قل من رآها من المسلمين آنذاك فقال عليه السلام:

«ولَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلَا[۷۹۱] مِنْ قُرَيْش، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ،

إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، ونَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وأَرَيْتَنَاهُ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ ورَسُولٌ، وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ».

العبارة:

«الْمَلَا مِنْ قُرَيْش»

تشير إلى أنّ هذه المعجزة حدثت فى مكة وحين جهر النّبى صلى الله عليه و آله بدعوته وسمعها الكثير من الناس، ولكن لم يكن يتمتع المسلمون بقوّة وقدرة، وإلّا لما تجرّأ خصوم الدعوة بالتحدّث معه بهذه الطريقة الفظة.

على كلّ حال ظن أولئك أنّهم يختبرون النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وقد سنحت الفرصة لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله، لأن يثبت لهم حقانيّة دعوته من خلال المعجزة التى طلبوها (لا التى يريدها هو) ولذلك جاء فى هذه الخطبة:

«فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ: «ومَا تَسْأَلُونَ؟» قَالُوا: تَدْعُولَنَا هذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ».

فما كان منه صلى الله عليه و آله

: «فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىء قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟» قَالُوا: نَعَمْ».

جدير ذكره أنّه صلى الله عليه و آله قال:

«فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ»

ولم يقل:

«فَإِنْ فَعَلْتُ»

إشارة إلى أنّ

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۳۸۹

المعجزة بيد اللَّه وإن ظهرت على يد النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

والعبارة:

«أَتُؤْمِنُونَ» و «تَشْهَدُونَ»

إشارة إلى الإيمان القلبى بالإضافة إلى الشهادة بالحقّ ظاهرياً.

على كلّ حال فلم يقرّوا بالأمرين فما كان منه صلى الله عليه و آله إلّاأن:

«قَالَ: «فَإِنِّى سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وإِنِّى لَاعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَى خَيْر، وإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِى الْقَلِيبِ ۷۹۲]، ومَنْ يُحَزِّبُ الأَحْزَابَ».

والعبارة:

«وإِنَّ فِيكُمْ ...»

إشارة إلى أبى جهل وعتبة وشيبة وأميّة بن خلف الذين قتلوا يوم بدر ورمى بأجسادهم فى بئر كانت هناك.

والعبارة:

«مَنْ يُحَزِّبُ الأَحْزَابَ»

إشارة إلى أبى سفيان. فالواقع أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أكمل طلبهم المعجزة بثلاثة أخبار غيبية يعدّ كلّ منها معجزة، عدم إيمانهم وطرح بعضهم فى البئر ومعركة الأحزاب التى حدثت بعد سنوات عديدة لاحقاً.

ثم إلتفت النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلى أصل سؤالهم وإلتفت إلى الشجرة

«ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ: «ياأَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الْاخِرِ، وتَعْلَمِينَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ، فَانْقَلِعِى بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِى بَيْنَ يَدَىَّ بِإِذْنِ اللَّهِ».

وخطاب النّبى صلى الله عليه و آله لتلك الشجرة يفيد أنّ للنباتات والجمادات نوعاً من الإدراك والشعور الذى أفاضه عليها اللَّه، كما تفيد العبارة القادمة أنّها مؤمنة أيضاً باللَّه واليوم الآخر ولكن ما حقيقة هذا الإيمان وكيفية ذلك الشعور والإدراك، وهل لها بعد اختيارى أم إجبارى، فذلك من الأمور التى ليست واضحة لدينا على وجه الدقّة.

ولدينا العديد من الآيات القرآنيّة التى تشير إلى ذلك الإيمان والشعور والإدراك لدى جميع الأشياء بما فيها الجمادات وتفيد أنّها تسبح اللَّه وتقدسه، وقد أسهب المفسرون بهذا الشان ۷۹۳].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۹۰

فاستطرد أميرالمؤمنين على عليه السلام وقال:

«فَوَالَّذِى بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وجَاءَتْ ولَهَا دَوِىٌّ ۷۹۴] شَدِيدٌ، وقَصْفٌ ۷۹۵] كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ؛ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَىْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ مُرَفْرِفَةً[۷۹۶]، وأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ، وبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِى، وكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ».

فالذى يستفاد من هذه العبارة أنّ تلك الشجرة كانت ضخمة بحيث صاحبت حركتها أصوات عالية كانت مدوية، فألقت ببعض أغصانها على النّبى صلى الله عليه و آله وبالبعض الآخر على على عليه السلام، فكانت تلك معجزة كبيرة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله بإذن اللَّه فى إقتلاع تلك الشجرة ووقوفها بين يديه صلى الله عليه و آله.

ولكن هل أدّت تلك المعجزة الباهرة إلى إيمان المشركين المتعصبين؟ كلا! بل كعادة المتعصبين المعاندين أخذوا يفتشون عن الذرائع وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام

«فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذلِكَ قَالُوا عُلُوّاً وَاسْتِكْبَاراً: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا ويَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وأَشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ».

والذى يستفاد من العبارة أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أراهم معجزتين أُخريين؛ الأُولى أنّه أمر الشجرة بالرجوع إلى مكانها، والثانية أنّه أمرها بأن يأتيه نصفها بإذن اللَّه.

وهل اقتنع القوم المشركون المتعصبون بذلك؟ للأسف كلا! كما ورد فى كلام الإمام عليه السلام:

«فَقَالُوا كُفْراً وعُتُوّاً: فَمُرْ هذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۹۱

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ فَرَجَعَ؛ فقُلْتُ أَنَا: لَاإِلهَ إِلَّا اللَّهُ؛ إِنِّى أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ، وإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ».

وهل آمن أولئك بعد مشاهدتهم لهذه المعجزات الأربع العجيبة والخارقة للعادة والتى حصلت جميعاً استجابة لاقتراحهم وليس لاقتراح رسول اللَّه صلى الله عليه و آله؟، كلا! وليتهم اقتصروا على عدم الإيمان بل رموه صلى الله عليه و آله بكلمات كافرة وطائشة وبعيدة عن المنطق كما أشار إلى ذلك الإمام:

«فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ ۷۹۷] فِيهِ، وهَلْ يُصَدِّقُكَ فِى أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هذَا! يَعْنُونَنِى».

إشارة إلى أننا شـهدنا العديد من السحرة طيلة أعمارنا ونعلم أنّ فعلك كفعلهم، بل أمهر منهم ولا يصدقك فى ذلك سوى أمثال هذا الصبى السريع التصديق!

والعجيب أنّ صـدر كلامهم ينـاقض تماماً عجزه! فقـد اقـترحوا المعجزة وصـرحوا باقتنـاعهم وإيمـانهم بمجرد حصولهـا، ولكن حين تكررت المعجزة أربع مرات رموه بالسحر وهنا يرد هـذا السؤال: إنّ هؤلاء لولم يكونوا يعرفون السحر من المعجزة ويحتملون السحر على النّبى، فما بالهم اقترحوا عليه المعجزة منذ البداية؟ فقد كان لهم أن يرموه منذ البداية بالسحر.

نعم، فالأفراد المتعصبون إنّما يفتقرون على الدوام إلى المنطق والوجدان والانصاف.

تأمّلان:

۱. معجزة الشجرة فى الروايات الإسلاميّة

كان للنبى صلى الله عليه و آله عدة معجزات، والمعجزة المذكورة كانت أبرزها ولم تختصـر الإشارة إليها فى هذه الخطبة فحسب، بل وردت هذه المعجزة فى أغلب التواريخ

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۳۹۲

والروايات الإسلاميّة.

ويكفى هنا الإلتفات إلى ما ذكره ابن أبى الحديـد فى شـرحه لهـذه الخطبـة فقد قال: وأمّا أمر الشـجرة التى دعاها رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فالحـديث الوارد فيها كثير مستفيض قـد ذكره المحـدّثون فى كتبهم والمتكلمون فى معجزات النّبى، وقد وردت فى أغلب الروايات كما جاء فى الخطبة القاصعة (التى نحن بصددها) وإن اختصرها البعض وقال:

«إِنَّهُ دَعا شَجَرَةً فَأَقْبَلَتْ تَخِدُّ إِلَيْهِ الأَرْضَ خَدّاً».

ثم أضاف: وقد ذكر البيهقى فى كتاب دلائل النبوّة حديث الشـجرة ورواه أيضاً محمد بن اسـحاق بن يسار فى كتاب السيرة والمغازى [۷۹۸].

وقال المرحوم العلّامـة التسترى فى شـرح نهج البلاغة: رواها ابن أثير فى كتاب الكامل وفى أسد الغابة والبلاذرى فى أنساب الأشـراف والكراجكى فى كنزالفوائد[۷۹۹].

طبعـاً يعلم من له معرفـة بمعجزات الأنبيـاء بصورة عامـة ومعجزات رسول اللَّه خاصـة أنّ مثـل هـذه المعجزات ليست عجيبـة فى إثبات حقانيّة دعوة النّبى، كما أنّ اصرار الأفراد الجهّال والمتعصبين على إنكار الدعوة ليست بالشىء الجديد.

۲. الفارق بين السحر والمعجزة

كما ورد سابقاً فممّا لا شك فيه فقد كانت لأنبياء اللَّه والأئمة المعصومين عليهم السلام أفعال خارقة للعادة تتعذر على الإنسان العادى، أى الأمور التى تجرى خلافاً للقوانين الطبيعية السائدة ولا تتمّ إلّامن خلال الاستمداد من قوّة تفوق القوّة الطبيعية من قبيل إحياء الموتى وشـفاء المرضـى الـذى لا علاج لهم والإخبار عن الغيب الـذى ورد فى القرآن الكريم بشأن المسـيح عليه السـلام ومعجزة العصا واليد البيضاء لموسى عليه السلام وناقة صالح عليه السلام واطفاء نار نمرود على إبراهيم لتصبح عليه برداً وسلاماً

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۳۹۳

ومعجزة شق القمر والأهم من كل ذلك معجزة القرآن الكريم التى خُصَّ بها النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

ومن الواضح أنّ المعجزات لا ـ تعنى تحقق معلول دون علّـة لينكر ذلـك بعض الأـفراد، بـل بمعنى الاستبداد من العلل غير الطبيعية المجهولة، والزعم بأننا عارفون بجميع العلل الطبيعية والتى تفوق الطبيعة هو زعم لا يقرّه أحد.

ومن جانب آخر فإنّ السحر حقيقة وإن امتزجت بالعديد من الخرافات، والسحرة عادة ما يستفيدون من العلل الطبيعية، لكنها علل وأسباب لم يلمّ بها الناس العاديون فمثلًا قيل بشأن سحر السحرة على عهد موسى عليه السلام أنّهم صنعوا شيئاً شبيه الحيّة وسكبوا داخله «الزئبق» الذى جعل ذلك الشيء الذى يشبه الحيّة يتحرك حين واجه أشعة الشمس بفعل «تطايره»، وعليه ففعلهم لم يكن خارقاً للعادة؛ لكنهم استغلوا بعض الأسباب التى لم تكن معروفة لدى عوام الناس.

وهنا يرد هذا السؤال: كيف يتسنى للناس التمييز بين السحر والمعجزة ليتعرفوا على الأنبياء ويكتشفوا كذب السحرة؟

ويبدو الفرق بينهما واضح؛ ومن ذلك؛ أولًا: إنّ سحر السحرة محدود لأنّه يستند العلوم البشريّة المحدودة، ولذلك يقوم السحرة بما يريدون من خرق العادة لا تلك التى يقترحها عليهم الآخرون، ذلك لأنّ عملهم ينطلق من تجاربهم وتمريناتهم ورياضاتهم السابقة.

أمّا بشأن الإعجاز فإنّ الأنبياء يتجهون صوب الأمور التى يقترحها عليهم الناس كالمعجزة آنفة الذكر ومعجزة شق القمر وسائر المعجزات التى طلبها قوم موسى من نبيّهم عليه السلام رغم ما كان عليه الأنبياء من معجزات منذ انطلاقتهم مثل معجزة القرآن والعصا واليد البيضاء.

ثانياً: تقترن معجزات الأنبياء بادعاء النبوّة والحال ليس للسحرة مثل هذا الادعاء فى خرقهم للعادة، فالحكمة الإلهيّة لم تسمح بحصول ما يخرق العادة بيد

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۹۴

الكذابين والمفترين ليدعى النبوّة فيقود الناس إلى الضلال والغواية، بل تقتضى الحكمة الإلهيّة فضح هؤلاء السحرة، ومن هنا فقد افتضح كلّ ساحر همّ بهذا الادعاء.

ثالثاً: لما كان السحر أمر منحرف، فلا يتجه إليه إلّاالأفراد المنحرفون، أى الأفراد الذين تشهد أقوالهم وأولادهم على انحرافهم. وعلى هذا الأساس إن بدرت من شخص قضية خارقة للعادة فلابدّ من تأمّل سيرته، فإنّ كانت سيرته حسنة صالحة كان ذلك علامة على كون تلك القضية الخارقة للعادة معجزة، وإن كانت سيرته طالحة وأعماله مشينة كان ما بدر منه سحراً، ذلك لأنّ السحرة من المصاديق البارزة للكذابين من الأفراد والغشاشين.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۹۵

القسم الثالث والعشرون

اشارة

وإِنِّى لَمِنْ قَوْم لَاتَأْخُذُهُمْ فِى اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِم، سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ، وكَلَامُهُمْ كَلَامُ الأَبْرَارِ، عُمَّارُ اللَّيْلِ ومَنَارُ النَّهَارِ. مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ، يُحْيُونَ سُنَنَ اللَّهِ وسُنَنَ رَسُولِهِ؛ لَايَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَعْلُونَ، وَلَا يَغُلُّونَ ولَا يُفْسِدُونَ. قُلُوبُهُمْ فِى الْجِنَانِ، وأَجْسَادُهُمْ فِى الْعَمَلِ.

الشرح والتفسير: أولياء اللَّه

خاض الإمام عليه السلام فى ختام الخطبة فى التعريف بنفسه ليكمل ما ذكره فى السابق من التعريف بمنزلته وموقعه ليمنح ما ورد فى هذه الخطبة قوّة وعمقاً واتقاناً أكثر، من جهة، لأنّ الإيمان بالمتكلم والوقوف على مدى علمه وتقواه يدفع بالمخاطب لأنّ يحمل خطابه محمل الجد، ومن جهة أخرى وليتعرف عليه أولئك الشباب وسط أصحابه الذين لم يعلموا بمواقفه، إلى جانب ضرورة أن يعرف الجميع أنّ هذه الكلمات لم يكن هدفها الدنيا ولا ترسيخ دعائم الحكومة بل الهدف منها هداية الأمة إلى الصراط المستقيم، فقد أشار عليه السلام إلى تسع عشرة صفة من صفاته والتى تعدّ كلّ واحدة منها فضيلة ومنقبة عظيمة فقال:

«وإِنِّى لَمِنْ قَوْم لَاتَأْخُذُهُمْ فِى اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِم».

فالقيام بالوظيفة أحياناً يكون مخالفاً للأفكار ورغبات طوائف معينة فى المجتمع وهنا يتخلى بعض الأفراد الانتهازيين وأصحاب الدعة والراحة أو الجبناء عن أداء وظائفهم خشية التعرف لملامة الآخرين وتقريعهم، وولى اللّه من يواصل

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۹۶

طريقه إن رآه صحيحاً ولو انتهج عامّة الناس طريق الخطأ دون أن يشعر بأدنى خشية أو خوف ويقدّم رضا اللّه على رضا الخلق، وقد كان الإمام على عليه السلام رائد هذا الطريق بعد النّبى صلى الله عليه و آله وهى الصفة التى امتاز بها جميع أئمة أهل البيت عليهم السلام وأبرز مصداق على ذلك الإمام الحسين عليه السلام وشهادته فى كربلاء.

وقد أثنى اللّه فى كتابه الكريم على المجاهدين الذين يتسمون بهذه الصفة فقال:

«يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِم ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»[۸۰۰].

وقال فى الصفة الثانية والثالثة: «سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ، وكَلَامُهُمْ كَلَامُ الأَبْرَارِ».

و «الصدّيقين»:

هم الصادقون والمصدقون بأنبياء اللّه الذين كانوا يصدقونهم فى أقوالهم وأفعالهم وقد جعلهم اللّه تعالى فى الآية ۶۹ من سورة النساء فى مصاف أنبيائه فقال: «فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ ...».

و «الأبرار»:

من ذكر لهم القرآن ثمانى عشرة صفة فى سورة الدهر، وهى الصفات التى ترفع صاحبها إلى أسمى مقام فى القرب من اللّه، ونعلم أنّ هذه الصفات نعت بها (على وفاطمة الزهراء والحسن والحسين عليهم السلام).

ثم قال فى الصفتين الرابعة والخامسة:

«عُمَّارُ اللَّيْلِ ومَنَارُ النَّهَارِ».

والعبارة:

«عُمّار»

جمع (عامر) إشارة إلى التهجد وإحياء الليل وعبادات اليوم والنهار التى تعمر روح الإنسان وقلبه وتضفى عليه معانى الصفاء والجمال وتحيى القلوب الميتة وتغسل الذنوب بماء حياة التوبة، والعبارة «منار» إشارة إلى الأبراج العالية التى كانت توضع سابقاً فى مسير الطرق الصحراوية وتنصب عليها المصابيح حتى لا يضل المسافر الطريق (تشبه العلامات المرورية التى تنصب اليوم فى الشوارع). فهؤلاء الأفراد كتلك المصابيح فى هداية الناس إلى اللّه والسعادة والخير والنجاة من الضلال والغواية.

ثم قال فى الصفتين السادسة والسابعة:

«مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ؛ يُحْيُونَ سُنَنَ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۳۹۷

اللَّهِ وسُنَنَ رَسُولِهِ».

المراد من التمسک بحبـل القرآن التوسـل به لیخرج الإنسـان من مسـتنقع الطبیعـة وهـوی النفس ویعرج إلی ساحـة القرب الإلـهی، أو خروج ماء الحیاة من باطن أرض الوجود الإنسانی بواسـطته أو التمسک بحبل القرآن فی المعابر الخطیرة بغیـة عدم السـقوط فی أودیة الضلال.

قال النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی أهمیّة القرآن الکریم الوارد فی حدیث الثقلین:

«کِتابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّماءِ إلَی الأَرْضِ»[۸۰۱].

وإحیـاء سـنّة اللَّه وسـنّة النّبی العمـل بـالفرائض الواردة فی القرآن والواجبات التی فرضـها النّبی صـلی الله علیه و آله، لا العمل لوحـده فحسب بل لابدّ من دعوة الآخرین إلی ذلک.

ثم قال فی الصفات الثامنة والتاسعة والعاشرة والحادیة عشرة:

«لَا یَسْتَکْبِرُونَ ولَا یَعْلُونَ، وَلَا یَغُلُّونَ ۸۰۲] وَلَا یُفْسِدُونَ».

وهـذه الصـفات فی الواقع مرتبطة مع بعضـها، فالتکبر والشـعور بالعُلو وحمل الغلّ والإفساد من صـفات الطغاة المسـتکبرین بغیة تحقیق أهـدافهم اللامشـروعة، قال القرآن الکریم: «انَّ الْمُلُوکَ إِذَا دَخَلُوا قَرْیَةً أَفْسَدُوهَا»[۸۰۳]، وقال أیضاً: «تِلْکَ الـدَّارُ الْاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِینَ لَایُرِیدُونَ عُلُوّاً فِی الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً»[۸۰۴].

وبالنظر إلی أنّ کلمتی الفساد والخیانة وردت هنا بصورة مطلقة فإنّهما تشملان فی العقائد والأخلاق والأموال وجمیع شؤون الحیاة.

وأخیراً قال فی الصفة الثانیة عشرة التی تمتاز بشمولیتها:

«قُلُوبُهُمْ فِی الْجِنَانِ، وأَجْسَادُهُمْ فِی الْعَمَلِ».

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۹۸

إشـارة إلی أنّ هـدفهم نبیـل للغایـة فهم لاـ یفکرون سوی برضا اللَّه وجنانه الخالـدة، ومن هنا فأبـدانهم تعیش علی الـدوام طاعـة الحقّ والعمل بالواجبات الإلهیّة والواجبات الإنسانیّة، جـدیر بالـذکر أنّ الخطبـة ابتـدأت بنفی الکبر والاسـتکبار واختتمت به وهـذه إحـدی شؤون الفصاحة والبلاغة فی إرتباط النهایة بالبدایة.

حقّاً إنّ الذین یتصـفون بهذه الصفات الإثنتی عشرة هم المؤمنون المخلصون الذین ینتظرهم الجنّة بشوق، وهم القدوة الحسنة لعباد اللَّه فی الحیاة الدنیا.

***

اللّهم اجعلنا من السائرین علی دربهم، ووفقنا لاتباع تعالیمهم ولا تفرق بیننا وبینهم فی الدنیا والآخرة طرفة عین أبداً!

***

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۳۹۹

الخطبة ۱۹۳

اشارة

یَصِفُ فِیهَا الْمُتَّقِینَ ۸۰۵] رُوی أنّ صاحِباً لأَمیرالمُؤمنِینَ علیه السـلام یُقالَ لَهُ هَمّامُ کانَ رَجُلًا عابِـداً، فَقالَ لَهُ: یا أَمیرالمُؤمنینَ، صِفْ لِی الْمُتَّقِینَ حَتّی کَأَنی أَنظُرُ إِلَیْهِمْ. فَتَثاقَلَ علیه السـلام عَنْ جَوابِهِ ثُمَّ قـالَ: یـا همّام! اتَّقِ اللَّهَ وأَحْسِنْ: «انَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِینَ اتَّقَوْا والَّذینَ هُمْ

مُحْسِنُونَ». فَلَمْ يَقْنَعْ هَمّامُ بِهذَا الْقَولُ حَتّى عَزَمَ عَلَيْه، فَحَمِدَاللَّهَ وأَثنى عَلَيهِ، وصلّى عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه و آله ثُمَّ قالَ عليه السلام:

نظرة إلى الخطبة

تتابع الخطبة مطلباً معيناً وهو صفات المتّقين حيث ذكر الإمام عليه السلام مائة وعشر

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۰۰

صفات للمتّقين، لكننا إن تأمّلنا تفاصيل الخطبة لرأينا أنّ هذه الصفات تعالج أبعاداً مختلفة من حياة المتّقين.

فبعضها يتحدّث عن سجاياهم الأخلاقيّة الفرديّة، بينما يبحث البعض الآخر فی أخلاقهم الاجتماعيّة.

ويكشف جانب آخر من الخطبة علو شأنهم فی القضايا العقائديّة والمعارف الدينيّة بينما يشير جانب آخر منها إلى منزلة تقواهم وورعهم من حيث الأقوال والأفعال.

كما تطرق جانب آخر من الخطبة إلى سيماهم وعلاماتهم التی ترشدنا إلى التعرف على المتّقين الورعين فی جماعة معينة من خلال هذه الصفات.

واختتمت الخطبة بحادثة عجيبة لهمام- السائل الذی أصر على بيان صفات المتّقين- حيث صعق صعقة فارق على أثرها الحياة الدنيا؛ فقال الإمام عليه السلام: هكذا تفعل المواعظ البالغة بأهلها، فقام إليه رجل فقال: فما بالك يا أمير المؤمنين؟ فأجابه الإمام بجواب مقنع.

ويستفاد من بعض الطرق الروائية أنّ الإمام خطب بهذه الخطبة بعنوان صفات الشيعة[۸۰۶].

إجابة عن سؤال

طبق لما ورد فی صدر الخطبة فإنّه يرد هذا السؤال: لم تحفّظ الإمام عليه السلام عن بيان صفات المتّقين بادئ الأمر ثم شرحها أثر إصرار السائل؟

وردت عدّة وجوه فی سبب تأمّل الإمام عليه السلام بشأن الجواب منها:

۱. إنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بأنّ ذلك الرجل من أهل الموعظة والنصح ويخشى عليه من شعوره المرهف وحساسيته المتزايدة، ومن هنا اكتفى الإمام عليه السلام بجواب

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۰۱

إجمالی يدل عليه ذيل الخطبة.

۲. شهد المجلس آنذاك بعض الأفراد الغرباء الذين لم ير الإمام عليه السلام من مصلحة فی سماعهم لتلك الكنوز والجواهر الثمينة، ولعل ذيل الخطبة شاهد على ذلك، فسؤال السائل وجواب الإمام عليه السلام يدلّ على وجود غير المؤهلين فی ذلك الوسط.

۳. أثار الإمام عليه السلام اهتمام همام بصورة أعمق لسماع الجواب بذلك التأمّل والسكوت لتأخذ تلك الموعظة مأخذها المطلوب منه.

۴. إنّ أدب السؤال والجواب يقتضی ألا يتعجل المجيب بجوابه، بل يتأمّل فی بداية الحديث ليعرف السائل بأهميّة المطلب، الأمر هل الذی ذكر بشأن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه كان يتريث فی الجواب حتى يسئل عن ذلك التريث هو تفكير فی الجواب؟ فيرد صلى الله عليه و آله: لا، بل إكرام للعلم والعمل ۸۰۷].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۰۳

القسم الأوّل

اشارة

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِانَّهُ لَاتَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ. فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، ووَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ.

فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، ومَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ، ومَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ، ووَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ. ولَوْلَا الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَادُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ والْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وهُمْ والنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ.

أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

الشرح والتفسير: صفات المتّقين

قبل أن نخوض فى شرح هذا القسم من الخطبة علينا أن نبيّن هذه النقطة وهى ما كيفية العلاقة بين جواب الإمام عليه السلام المقتضب بداية الأمر وسؤال همام؟ فقد طلب السائل بيان صفات المتّقين، فأمر الإمام عليه السلام بالتقوى والإحسان بدلًا من بيان

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۰۴

الصفات، ثم تطرق إلى فوائد التقوى ويبدو للوهلة الاُولى أنّ الأمر بالتقوى ليس جواباً عن سؤال همام ولا ذكر الفوائد.

الظاهر أنّ الإمام عليه السلام أراد بهذا الكلام أن يفهمه بأنّ التقوى مفهوم واضح بالإجمال وعليك بالعمل، ثم تطرق عليه السلام لنتائج التقوى لحثه عليها، على كلّ حال فقد خاض الإمام عليه السلام فى بداية الخطبة فى بيان هذه النقطة المهمّة حيث بيّن أنّ اللّه تعالى غنى عن الجميع فإنّ وردت بعض الوصايا الثقيلة والعديدة بشأن التقوى فى هذه الخطبة فهى لا تضيف للّهشيئاً من الجلال والجاه، بل ليطوى الإنسان مسيرة التكامل فقال عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِانَّهُ لَاتَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ».

ودليل ذلك واضح، فأوّلًا: اللّه تعالى وجود لامتناهٍ من جميع الجهات وكمال مطلق وليس للنقص من سبيل إلى هذا الوجود ليرقى به إلى كمال عن طريق الطاعة والعبودية ولو كفر من فى الأرض كلّهم جميعاً لما نال ذلك من كبرياء اللّه شيئاً، إذ إنّ المخلوقات أعجز من أن يلحقوا ضرراً بذاته القدسيّة.

وثانياً: كلّ ما لدى المخلوقات من اللّه وفيوضاته ولا معنى لإعادة الفيض عليه، كلّ خلق يتغذى على مائدته، بل حياتهم بلطفه ورحمته ولو أوكلهم اللّه إلى أنفسهم طرفة عين لهلكوا.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أوضاع الناس الدنيوية كمقدمة فى الواقع لبيان الجوانب المعنويّة التى ذكرت لاحقاً، فبيّن بعبارتين الأمور كافّة فى جوانب حياتهم الماديّة وقال:

«فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، ووَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ».

إشارة إلى أنّ اللّه بيده جميع حوائج الخلق الماديّة وهو يُفيض عليهم من لطفه بقدر كلٌّ حسب موقعه. وهذا ما ورد فى القرآنالكريم

فی‌الآیة ۳۲ من سورة الزخرف:

«نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْض دَرَجَات».

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۴۰۵

طبعاً تقسیم المعیشة لا یعنی وصول کلّ شیء للإنسان فی داره دون سعی ومثابرة، ولکن الرزق یأتی بالسعی والجهد فقد خلق اللّه جمیع الموارد ودعی الجمیع للسعی والعمل، وهکذا المقامات الظاهریّة التی افاضها اللّه علی العباد لا تتحصل هی الأخری دون السعی والجد والاجتهاد.

جدیر ذکره أننا أن شاهدنا موت البعض فی العصر الراهن بسبب الجوع، فذلک لیس معلولًا لشحة المواد وقلتها، بل یعزی ذلک إلی ظلم وجور الطبقة الأنانیّة النفعیّة المستغلة، فلو کان هنالک تقسیم عادل فی الأرزاق لما جاع أحد حتی فی ظلّ أصعب السنین قحطاً.

ولم یوفّر اللّه تعالی الرزق للإنسان فحسب دون الکائنات، بل وفر ذلک بصورة مذهلة لجمیع الأحیاء والحیوانات، فلم یغفل عن نطفة فی جنین ولا یرقة فی بیضة طائر أو بذرة نبات ووفّر للجمیع ما یحتاجون إلیه، وتبدو قصّة تقسیم الأرزاق فی مختلف أسالیبها وطرقها لمن القصص العجیبة التی ینبغی أن تؤلف فیها الکتب.

ثم خاض علیه السلام فی بیان السجایا البارزة للمتّقین فاستهلها بثلاث صفات بارزة وقال:

«فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، ومَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ، ومَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ».

العبارة:

«مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ»

إشارة إلی الخطوة الأُولی فی تهذیب الإنسان وتربیته والتی تتمثل فی صون لسانه ومنطقه؛ اللسان الذی تصدر بواسطته الکبائر، کما تحقق بواسطته أفضل العبادات، فإنّ صلح صلح کلّ ما فی الإنسان وإن فسد فسد کلّ شیء فیه.

ولمفردة

«صواب»

، هنا مفهوم غایة فی السعة یشمل کلّ کلمة حقّ وحکمة، نعم فالمتقون ینبرون قبل کلّ شیء لصون ألسنتهم ومنطقهم، ومن هنا یعتقد أصحاب السیر والسلوک أنّ صون اللسان یعد الخطوة الأُولی فی إصلاح الذات، ذلک لأنّ صلاحه یعنی صلاح سائر الأعضاء، قال تعالی فی کتابه العزیز: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۴۰۶

اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ»[۸۰۸].

وإصلاح الأعمال وغفران الذنوب أثر التقوی والقول السدید، قرینة حسنة علی إرتباطهما ببعضهما.

والتعبیر بالملبس فی العبارة

«ومَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ»[۸۰۹]

والتی ذکرت ثانی صفة وفضیلة للمتّقین إن وردت بمعناها الحقیقی فهی إشارة إلی اللباس الظاهری الذی ینبغی أن یکون بعیداً عن الاسراف والتبذیر وکذلک التقتیر والبخل کما روی ذلک بعض الشرّاح.

أمّا إن کان اللباس بالمعنی الکنائی الواسع بقرینة بعض الآیات مثل

«وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذلِكَ خَيْرٌ»[۸۱۰]

و «وَهُوالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيلَ لِبَاساً»[۸۱۱] و «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ»[۸۱۲] فلا ینبغی الاقتصار به علی معنی الارتداء الظاهری بل یکون معناه واسع یشمل جمیع حیاة الإنسان، أی إعتدال الحیاة برمتها فیکون بمثابة اللباس علی أجسادهم، کما عبّر فی الجملة

الثالثة:

«مَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ»

فهى لا- تقتصر على المشى الظاهرى، ذلك لأنّ المشى المتواضع وإن كان حسناً لكنه لا يصلح فى مصاف أولى الصفات البارزة للمتّقين، ولكن إن كان إشارة لمعنى المشى الواسع فمعناه أنّ سلوكياتهم كافّة مقرونة بالتواضع.

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع بداية الخطبة إلى ثلاثة مبادئ أساسيّة: الصواب والاعتدال والتوضع التى تسود حياة المتّقين فى جميع جوانبها.

وقد وردت عدّة تأكيدات على هذه المبادئ الثلاث فى الأخبار والروايات، فقد ورد فى الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«إنَّ هذَا اللِّسانَ مِفْتاحُ كُلّ خَيْر وشَرٍّ

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۴۰۷

فَيَنْبَغى لِلْمُؤْمِنِ أنْ يَخْتِمَ عَلى لِسانِهِ كَما يَخْتِمُ عَلى ذَهَبِهِ وفِضَتِهِ»[۸۱۳].

وقال أميرالمؤمنين عليه السلام:

«ما عالَ مَنِ اقْتَصَدَ»[۸۱۴].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«فيما اوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى داوُدَ عليه السلام: يا داوُدُ كَما أنَّ أقْرَبَ النّاسِ مِنَ اللَّهِ الْمُتَواضِعُونَ كَذلِكَ أبْعَدُ النّاسِ مِنَ اللَّهِ الْمُتَكَبِّرُونَ»[۸۱۵].

ثم بين عليه السلام هاتين الصفتين فقال:

«غَضُّوا[۸۱۶] أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، ووَقَفُوا

أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ».

«غَضُّوا»:

من مادة

«غضّ»

تعنى فى‌الأصل (التقليل) وحين تستعمل فى العين تعنى الخفض أى خفض الرأس إلى الأسفل أو إسدال الجفنين على العينين.

«وَقَفُوا»:

من مادة

«وقف»

تعنى لغوياً التوقف بينما تعنى فى الاصطلاح الفقهى وقف شىء لآخر أو تستعمل بمعنى أوسع بمعنى خص الشىء بآخر. وعليه فإنّ أخذنا المعنى الحقيقى للكلمة فى العبارتين المذكورتين كان المفهوم أنّهم لا ينظرون إلى الحرام ولا يسمعون سوى العلم النافع، وإن أخذنا بنظر الاعتبار المعنى الكنائى الواسع فمفهوم العبارة الأُولى أنّهم يخفضون بصرهم عن جميع المحرمات ويوقفون سمعهم على العلم النافع فقط.

والمراد من

«الْعِلْمِ النَّافِعِ»

فى الدرجه الأُولى العلوم الدينيّة المفيدة والقيم المعنويّة والحياة السعيدة فى العالم الآخر، وبالدرجة الثانية كلّ العلوم الضروريّة للعزّة والمجد والاستقرار والرفعة للبشريّة فى هذه الدنيا، بما فيها العلوم المرتبطة بصحة الإنسان وسلامته أو الصناعة والزراعة أو العلوم

السياسيّة وما شابه ذلك.

لا شك في أنّ علاقة الإنسان بالعالم الخارجي والعالم المعاصر والسابق بصورة

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۰۸

رئيسيّة عن طريق هاتين النعمتين أي العين والأذن، فالإنسان يرى الحقائق بعينه وبها يقرأ التاريخ، ويسمع بأذنه رسالة السماء وأئمّة الدين وتفاصيل تجارب العظماء السابقين. فهو يرتبط بجميع الأشياء من حوله بهاتين الوسيلتين بحيث لو سلبتا منه لما بقى لديه شيءٌ ولكان عقله وشعوره كعقل وشعور الصبى غير المميز، بل حتى لسانه وسائر حواسه إنّما تنشط فى ظلّ سلامة هذين العضوين ومن هنا فإنّ الفرد الأصم والأعمى أخرس على الدوام وإن كان لسانه سالماً.

ورد فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«كُلُّ عَيْن باكِيَةٌ يَوْمَ الْقِيامَةِ غَيْرُ ثَلاث؛ عَيْنٌ سَهِرَتْ فى سَبيلِ اللَّهِ، وعَيْنٌ فاضَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وعَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ مَحارِمِ اللَّهِ»[۸۱۷].

وفى حديث آخر عن الإمام الحسن عليه السلام قال:

«انَّ أبْصَرَ الأبْصارِ ما نَفَذَ فِى الْخَيْرِ مَذْهَبُهُ وأسْمَعُ الْاسْماعِ ما وَعَى التَّذْكيرَ وانْتَفَعَ بِهِ»[۸۱۸].

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى صفة أخرى من صفات المتّقين والتى تتمثّل بالرضا والتسليم فقال:

«نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِى الْبَلَاءِ كَالَّتِى نُزِّلَتْ فِى الرَّخَاءِ[۸۱۹]».

فالنعمة لا- تسكرهم ولا- تبطرهم، والمصائب والخطوب لا- تحزنهم ولا- تجزعهم؛ فهم راضون برضا اللَّه مسلّمون لإرادته فى جميع الأحوال. طبعاً أنّهم لا يتوانون فى السعى لمواجهة المحن والخطوب وتوفير أسباب النعم والعيش الكريم لكنهم لا يعيشون سوى الرضا والتسليم بالنسبة لما كان خارجاً عن إرادتهم؛ ذلك لأنّهم يعلمون من جانب أنّ اللَّه حكيم ورحيم وأرحم من الأُم بولدها ولا يقدرّ سوى ما فيه مصلحة عبده المؤمن.

ويعلمون من جانب آخر أنّ الجزع إزاء الحوادث الأليمة ليس فقط لا يحلّ

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۰۹

الأزمة بل يحبط الأجر والثواب وأحياناً يضاعف من شدة الخطب ويوجب بالتالى اليأس والقنوط إزاء كلّ حادثة.

وقد وردت عدّة روايات عن المعصومين عليهم السلام بشأن مقام الرضا والتسليم ومنها ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«رَأْسُ طاعَةِ اللَّهِ الصبرُ والرِّضا عَنِ اللَّه فيما احَبَّ الْعَبْدُ اوكَرِهَ، ولا- يَرْضى عَبْدٌ عَنِ اللَّهِ فيما احَبَّ أوكَرِهَ إلَّا كانَ خَيْراً لَهُ فيما أحَبَّ أوكَرِهَ»[۸۲۰].

وقد روى المرحوم الكلينى بعد نقله لهذه الرواية اثنتى عشرة رواية فى الرضا والتسليم ومقامات المؤمن الراضى والمسلم لإرادة اللَّه تبارك وتعالى.

ثم تطرق عليه السلام إلى صفة بارزة أخرى للمتّقين والتى تدل على الإيمان القوى والثقة بوعد اللَّه فقال:

«ولَوْلَا الأَجَلُ الَّذِى كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِى أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْن، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ».

فأرواحهم أشبه بالطير المسجون فى القفص فهو يرى نفسه من جهة إزاء الحدائق النضرة المفعمة بأنواع الزهور والنباتات والفواكه والثمار، ومن جانب آخر يرفرف بأجنحته إزاء النار المحرقة داخل القفص فيحنو إلى الحرية ليحلق إلى تلك الحدائق ويتخلص من تلك النار المحرقة.

والمتقون على هذه الشاكلة، فعشقهم للثواب من جانب وخوفهم من العقاب (أثر سوء العاقبة) من جانب آخر يشد أرواحهم المرهفة إلى العالم الآخر، بينما يحول عنهم دون ذلك الأجل الذى ضربه اللَّه لهم.

ويكشف هذا التعبير ضمنياً سيادة الخوف والرجاء فى وجودهم، فهم راجون من جانب لثواب اللَّه ولطفه، ويخشون من جانب آخر أن

تزل أقدامهم فى هذه الدنيا فيقعون فى فخ الشيطان وهوى النفس فيغادرون الدنيا وقد ساءت عاقبتهم.

جاء فى الحديث أنّ لقمان الحكيم خاطب ولده فقال له:

«يا بُنَيَّ خَفِ اللَّهِ خَوْفاً

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۱۰

لَوأَتَيْتَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِبِرِّ الثَقَلَيْنِ خِفْتَ أنْ يُعذّبَکَ وارْجُ اللَّهَ رَجاءً لَوْوافَيْتَ الْقِيامَةَ بِإِثْمِ الثَّقَلَيْنِ رَجَوْتَ أنْ يَغْفِرَاللَّهُ لَکَ»[۸۲۱].

وذكر الإمام عليه السلام صفة بارزة جدّاً فى المتّقين فقال:

«عَظُمَ الْخَالِقُ فِى أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَادُونَهُ فِى أَعْيُنِهِمْ».

فكلّ شخص يبدو له النهر الكبير ضئيلًا حين يكون إلى جانب المحيط المتلاطم الأمواج، وحين ينظر الإنسان إلى الشمس التى تضيئ العالم لا يرى من وجود لضوء أكبر وأكبر مصابيح العالم ضياءً، نعم، فقد تعرّف المتقون على القدرة المطلقة والعلم اللامتناهى لخالق عالم الوجود فأدركوا بقدر استعدادهم عظمة ذاته المقدّسة، فكان من الطبيعى أن يصغر كلّ ما سواها فى أعينهم، وهذه هى إحدى العوامل التى تقف وراء تقوى المتّقين وورعهم وأعظم من ذلک عصمتهم من الذنب والمعصية، فكلّما عظمت معرفة الإنسان باللَّه صغر ما سواه فى نظره فلم يعد يتعلق بهذه الأشياء الحقيرة والتافهة ولذلک لا يقارف الذنب.

ومن هنا نفهم ما قاله الإمام على عليه السلام:

«وَاللَّهِ لَو أُعْطيتُ الأَقاليمَ السَّبْعَةَ بِما تَحْتَ أفْلاكِها عَلى أنْ أعصِى اللَّهَ فى نَمْلَة أسْلُبُها جُلْبَ شَعيرَة ما فَعَلْتُهُ»[۸۲۲].

وقال فى مواصلته لكلامه:

«وإنَّ دُنْياكُمْ عِنْدى لَاهْوَنَ مِنْ وَرَقَة فى فَمِ جَرادَة تَقْضِمُها».

فإنّ ذلک يُعزى ذلک إلى عرفانه عليه السلام باللَّه تبارک وتعالى. نعم، كلّما إزدادت معرفة اللَّه لدى الإنسان صغرت الدنيا فى عينيه وضعفت لديه أسباب الذنب واستشعر المزيد من الطمأنينة والسكينة، وبالطبع فإنّ أحد آثارها حضور القلب فى العبادة والصلاة، بحيث لا يلتفت إلى الألم حين تُسَل السهام من جسده.

ثم اتّجه عليه السلام إلى صفة بارزة أخرى تتمثل فى مقام المتّقين الشهودى فقال:

«فَهُمْ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۱۱

والْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وهُمْ والنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ».

للإيمان واليقين مراحل، فإيمان البعض تفرزه الأدلة العقلية وسائر الأدلة الكافية والشافية عليه، وقد عبّر العرفاء وأساتذة الأخلاق وبالاستناد إلى الآيات القرآنيّة عن هذه المرحلة بمرحلة (العلم اليقينى)، والمرحلة الأسمى هى (مرحلة الشهود) حيث يتجاوز الإنسان فى هذه المرحلة الأدلة العقليّة ليبلغ مقام الشهود فيرى اللَّه ويشاهد عظمته ببصيرته وتزول عنه جميع الشكوک والوساوس التى تترتب أحياناً على الأدلة العقلية وهذا ما يصطلح عليه بمقام (عين اليقين).

والمرحلة الثالثة وهى مرحلة (حق اليقين) المختصة بخواص اللَّه ومقرّبيه حيث يصل الإنسان فى ظلها إلى مرتبة تذوب فيها ذاته فلا يرى سوى اللَّه ويغيب عن ناظريه كل ما سواه.

فالواقع أنّ المرحلة الأُولى عامة وتشمل جميع المؤمنين الصادقين، بينما تختص المرحلة الثانية بالمتقين المخلصين والمجاهدين، وتختصر المرحلة الثالثة على صفوة معينة من أولياء اللَّه كالمعصومين عليهم السلام، ولكلّ مرحلة آثارها ومعطياتها وأحد آثار مرحلة الشهود التى أشير إليها فى هذه الخطبة بشأن المتّقين أنّهم يرون أنفسهم حاضرين على الدوام أمام الحقّ ولا ينفكون عن طاعته وإمتثال أوامره، وبالطبع فإنّ قدسيّة حياتهم خير شاهد على إيمانهم الشهودى فقد جاء فى الحديث المروى عن الإمام الصادق عليه السلام: إنّ

رسول اللَّه صلى الله عليه و آله صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شابٍ فى المسجد وهو يخفق ويهوى ۸۲۳] برأسه، مصفّراً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه فى رأسه، فقال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«كَيْفَ أصْبَحْتَ يا فُلانَ؟»

قال:

«أَصْبَحْتُ يا رَسُولَ اللَّهِ مُوقِناً»

. فعجب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من قوله، وقال صلى الله عليه و آله:

«إنَّ لِكُلِّ يَقين حَقيقَةً فَما حَقيقَةُ يَقينِكَ؟».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۱۲

فقال:

«إنّ يَقينِى يا رَسُول اللَّهِ هُو الَّذى أَحزَننى وَأَسهَرَ لَيلى وَأَظمَأ هَواجِرى فَعزَفتْ نَفسِى عَنِ الدُّنيا وَما فِيها حَتّى كَأنّى إلى أنْظُر عَرشَ رَبِّى وَقَد نُصِبَ للحِسابِ وَحُشرَ الخَلائقُ لِذلكَ وَأَنا فِيهم، وَكَأنّى أنْظُر إلى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ فِى الْجَنَّةِ ويَتَعارَفُونَ، عَلَى الأرائِكِ مُتَّكِئُونَ، وكَأنّى أنْظُرُ إلى أهْلِ النّارِ وهُمْ فيها مُعَذَّبُونَ مُصْطَرِخُونَ وكَأنّى الْانَ أَسْمَعُ زَفيرَ النّارِ يَدُورُ فى مَسامِعى».

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لأصحابه:

«هذا عَبْدٌ نَوَّر اللَّهُ قَلْبَه بِالإيمانِ»

. ثم قال صلى الله عليه و آله له:

«إلزم ما أَنتَ عَليهِ».

فقال: يا رسول اللَّه ادع لى أن أُرزق الشهادة معك. فدعا له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلم يلبث أن خرج فى بعض غزوات النّبى صلى الله عليه و آله فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر[۸۲۴].

وقد وردت العديد من الأخبار التى تشبه ما ورد سابقاً بشأن المتّقين طيلة التاريخ والذين بلغوا مقام الشهود والتى تؤكد كلام الإمام عليه السلام.

ثم واصل كلامه عليه السلام فذكر خمس صفات أخرى من صفات المتّقين فقال:

«قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ».

فهذه الصفات سلسلة من صفات المتّقين، ذلك لأنّ حزنهم الذى ورد فى صفتهم الأُولى يشير إلى خوفهم من اللَّه والتقصير فى الإتيان بالوظائف، قال الإمام الصادق عليه السلام:

«الْحُزْنُ مِنْ شِعارِ الْعارفينَ»

. وواصل كلامه قائلًا:

«ولَو حَجَبَ الْحُزنُ عَنْ قُلُوبِ الْعارِفينَ ساعةً لاسْتَغاثُوا»[۸۲۵].

نعم، فهم وجلون دائماً إزاء وظائفهم، ومن هنا خيم الحزن على قلوبهم خشية

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۱۳

التقصير فى حقّ مظلوم أو صدور ظلم منهم أو أنّهم فكروا فى ما سوى اللَّه، أضف إلى ذلك لا يفارقهم غم العشق وحزن الإبتعاد عمّا يرجونه من قرب اللَّه، على كلّ حال فهم لا يعيشون هم الدنيا أبداً، لانّهم لا يعشقون الدنيا.

وعليه فإن قال القرآن: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»[۸۲۶]. فهذا لا ينافى ما ورد فى هذه الخطبة، لأنّ الخطبة متعلقة بالخوف عمّا سوى اللَّه والحزن على الدنيا الماديّة وقوله فى الصفة الثانية أنّ الناس منهم فى أمان إشارة إلى أنّ وجودهم لا يختزن

سوی الخیر والبرکة للجمیع ولا یفرز أی عناء وعذاب. قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

«إنّ شَرَّ النّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَاللَّهِ یَوْمَ الْقِیامَةِ مَنْ یَخافُ النّاسُ شَرَّهُ»[۸۲۷].

وقال علیه السلام فی الصفة الثالثة إنّ أجسامهم نحیفة ولا یراد به النحافة المتعارفة الیوم فی المجتمع، بل تعنی الضعف الذی یفید الزهد من جانب والتقوی والصوم ویدل من جانب آخر علی الخفة والاستعداد فی إتیان الوظائف الشرعیّة، علی کلّ حال فإنّ هذه الصفة کبعض الصفات الأخری لها استثناءات حیث إنّ البعض من الأفراد لیس بنحیف بحسب بنیته الجسمیّة لکنه فی صف المتّقین.

وأشیر فی الصفة الرابعة إلی حاجاتهم المحدودة لا علی غرار أصحاب الدنیا کانزی الذهب والفضة الذین یشبهون جهنم کلّما أُعطوا شیئاً نادوا «هل من مزید»، والحقّ أنّ القناعة والحاجات الخفیفة لتصون الإنسان من العدید من الذنوب وتریح فکره لسلوک سبیل الحقّ، کما ذکر الإمام علیه السلام فی إحدی کلماته القصار حیث قال:

«تَخَفَّفُوا تَلحَقُوا»[۸۲۸].

وجاء فی الخبر أنّ الإمام الصادق علیه السلام دخل حماماً فقال له صاحب الحمّام:

نخلّیه لک؟ فقال علیه السلام:

«لا، انَّ الْمُؤْمِنَ خَفیفُ الْمَؤُونَةِ»[۸۲۹].

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۴۱۴

وأشار فی الصفة الخامسة إلی مقام العفة فی أنّ أرواحهم عفیفة، تلک العفة التی تسوق الإنسان إلی غض الطرف عن الهوی والمعصیة، وبعبارة أخری لم یعد للأهواء والمعاصی من سبیل إلیهم بحیث ینفرون من رؤیة المناظر القبیحة والفاحشة.

قال علیه السلام فی إحدی کلماته القصار:

«مَا الْمُجاهِدُ الشَّهیدُ فی سَبیلِ اللَّهِ بِأَعْظَمَ اجراً مِمَّنْ قَدَرَ فَعَفَّ؛ لَکادُ الْعَفیفُ أنْ یَکُونَ مَلَکاً مِنَ الْمَلائِکَةِ»[۸۳۰].

وکیف لا یکونون کذلک وقد انتصروا فی میدان الجهاد الأکبر علی عدوٍ خطر هو هوی النفس والشیطان.

ثم قال فی ذکر صفة أخری من صفاتهم:

«صَبَرُوا أَیّاماً قَصِیرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِیلَةً. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ یَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ»

. فالصبر سواء علی الطاعة أو إزاء وساوس المعصیة أو علی المصیبة لمن الصفات البارزة للمتّقین.

ولا یسع أحد الظفر بأی هدف معنویاً کان أم مادیاً ما لم یتحل بالصبر والاستقامة ولوفقد الإنسان هذه الصفة فإنّه یخاطر بدینه وإیمانه وعزته وشرفه ومن هنا جاء فی حدیث عن الإمام علیه السلام أنّه قال:

«وعَلَیْکُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْایمانِ کَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ»[۸۳۱].

ونقل المرحوم الکلینی فی الکافی عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال:

«الْجَنَّةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَکارِهِ والصَّبرِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَی الْمَکارِهِ فِی الدُّنْیا دَخَلَ الْجَنَّةَ؛ وجَهَنَّمُ مَحْفُوفَةٌ بِاللَّذاتِ والشَّهَواتِ فَمَن أَعْطی نَفْسَه لَذَّتَها وشَهْوَتَها دَخَلَ النّارَ»[۸۳۲].

واعتبر الإمام علیه السلام کما ورد فی العبارة أنّ هذا العمل؛ أی الصبر مدّة قلیلة إزاء نیل تلک السعادة الخالدة تجارة مربحة یسرها اللَّه لهم.

قال تعالی: «انَّ الَّذِینَ یَتْلُونَ کِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلوةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۴۱۵

وَعَلَانِیَةً یَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ»[۸۳۳].

وقال فی موضع آخر إنّ الملائکة تتلقی الصالحین من المؤمنین حین یرومون دخول الجنّة بالسلام: «سَلامٌ عَلَیْکُمْ بِما صَبَرْتُمْ»[۸۳۴].

ثم تطرق عليه السلام إلى صفتين من صفات المتّقين فقال:

نفحات الولاية ؛ ج۷ ؛ ص۴۱۵

«أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا».

إشارة إلى اقبال الدنيا بجميع متعها ولذائذها إلى الجميع لتستقطب إليها النفوس البشريّة، ولكن لا يقع فى شباكها سوى أولئك الجهّال أو أصحاب الأهواء، بينما لا يغتر بها المتقون الذين يعلمون أنّ حقيقتها سراب، وهنالك البعض الذى يغتر بالدنيا عن طريق المال والثروة والجاه والمقام والشهرة، بينما لا يخفى هذا المعنى على المتّقين.

والحقّ أننا لنرى الكثير من الناس الذين يصبحون اسارى المقام بحيث يدفعهم الحفاظ عليها إلى عدم التورع عن ارتكاب كلّ موبقة وجناية، وهناك البعض الذى يأسره المال والشهوات بحيث يضحى من أجل ذلك بكرامته الإنسانيّة، أمّا المتقون السائرون على خطى المعصومين يتجاوزون ذواتهم وشعارهم فى ذلك

«هَيْهاتَ مِنَّا الذِّلَّةُ».

تأمّل

محاور هذا الجانب من الخطبة

تدور محاور هذا الجانب من الخطبة الذى تضمن عشرين صفة من صفات المتّقين حول عدّة أمور، إيمان المتّقين الراسخ وهو الإيمان الذى بلغ حد الشهود ومشاهدة عالم ما وراء الطبيعة، مسألة التولى عن متع الدنيا ولذاتها وعدم الانخداع

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۱۶

بالأهواء والشهوات وتحرى العلم والمعرفة واجتناب الذنوب والمعاصى سيما معاصى اللسان والتواضع وكفّ الشر عن الخلق تمثّل معظم تلك الأمور.

وإن لم يكن للمتّقين سوى هذا الجانب المذكور فى الخطبة لكفاه أن يصنع منهم أُناساً كمل فضلًا عن الجوانب القادمة من الخطبة التى تشير إلى هذه الصفات.

والصفات السابقة ليست منفصلة عن بعضها البعض الآخر، بل هى سلسلة متصلة ومشروع جامع للسالكين إلى اللَّه والذين ينشدون القرب منه تعالى.

فذلك الشخص الذى بلغ به الأيمان درجة كأنّه يرى حجب النور وينظر من خلف حجب الطبيعة الضخمة إلى الجنّة والنار من الطبيعى أن يصغر فى عينه كلّ ما سوى اللَّه ولا تخدعه مفاتن الدنيا وزخارفها ويعيش الواقع إزاء خلق اللَّه ويكف عنهم أذاه.

وهنا يطرح هذا السؤال: كيف يتحصل هذا الإيمان الشهودى ولمن سيكون نصيب هذه السعادة؟

وتتضح الاجابة عن هذا السؤال من خلال بعض التشبيهات، فالصورة الحقيقية لا تنعكس فى مرآة القلب مادام ملطخاً بقذارة الأهواء، ولا يسع الإنسان التحليق إلى سماء الحقيقة مادام مسجوناً فى زنزانة الطبيعة.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۱۷

القسم الثانی

اشارة

أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِاجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَـهُمْ ويَسْـتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ. فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وتَطَلَّعَتْ نُفُوسُـهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ. وإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وشَـهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وأَكُفِّهِمْ ورُكَبِهِمْ، وأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

الشرح والتفسیر: لیل المتّقین

خاض الإمام عليه السلام فی هذا الجانب من الخطبة فی حال المتّقين فی الليل ليركز على التفاصيل ويمهد السبيل أمام الجميع فقال:

«أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِاجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ويَسْتَثِيرُونَ ۸۳۵] بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ».

ويمكن أن تكون هـذه العبـارة إشـارة إلى تلاوة القرآن فی صـلاة الليل، ذلك لأنّهم يرتلون القرآن حين القيام بعـد سورة الحمـد فی الصلاة؛ كما يمكن أن يكون الأمران منفصلين، أی أنّهم ينهضون فی الليل للصلاة وتلاوة القرآن أيضاً.

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام بيّن أسلوب قراءة المتّقين للقرآن بعبارة قصيرة عميقة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۱۸

المعنى فهم يقرأون القرآن بصيغة الترتيـل الـذی يعنی التأمّل والتـدبر فی مفـاهيم القرآن أضف إلى ذلـك قـال: إنّهم يرون أنفسـهم مخاطبين بالقرآن فإن مرّوا بآية فيها تشويق تطلعوا إليها طمعاً وإن مرّوا بآية فيها تخويف، استشـعروا منها الحزن، كما أنّهم يبحثون عن دواء دائهم الأخلاقی والمعنوی فی زوايا الآيات القرآنيّة فهوالطبيب وهو الدواء.

ثم قال فی شرحه لهذا المعنى:

«فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وتَطَلَّعَتْ ۸۳۶] نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وظَنُّوا أَنَّها نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ».

نعم! فهؤلاء لا يطالعون القرآن بصورة سطحيّة بل يرون أنفسهم مخاطبين به فتتأجج فی قلوبهم نيران الشوق حيث البشارة الإلهيّة ويرون ببصائرهم ما وهم فيه فی هذه الحياة الدنيا، وهذا ما يدفعهم إلى السير والسلوك إلى اللّه تعالى.

«وإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ[۸۳۷] جَهَنَّمَ وشَهِيقَهَا فِی أُصُولِ آذَانِهِمْ».

فقد بلغ إيمانهم مرحلة الشهود فأخذوا يرون حقائق عالم الغيب وكأنّها تعيش معهم، وبالطبع إن كانت قراءة القرآن بهذه الصيغة كانت أفضل وسيلة فی التهذيب والتربية.

ورد فی إحدى كلمات الإمام عليه السلام أنّه قال:

«ألا لا خَيْرَ فی قِراءَةٍ لَيْسَ فيها تَدَبُّرٌ ألا لا خَيْرَ فی عِبادَةٍ لَيْسَ فِيها تَفَقُّهٌ»[۸۳۸].

وروى عن الإمام السجاد عليه السلام أنّه قال:

«آياتُ الْقُرْآنِ خَزائِنٌ فَكُلَّما فُتِحَتْ خَزينَةٌ يَنْبَغی لَكَ انْ تَنْظُرَ ما فيها»[۸۳۹].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۱۹

ولما فرغ الإمام عليه السلام فی العبارات السابقة من بيان كيفية صلاة المتّقين المقرونة بتلاوة الآيات القرآنيّة والمتزامنة مع الخضوع

والخشوع والتدبّر وحضور القلب أردفها فی العبارة التالیة ببیان رکنین آخرین هما الرکوع والسجود فقال:
«فَهُمْ حَانُونَ ۸۴۰] عَلَى أَوْسَاطِهِمْ ۸۴۱]، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ ۸۴۲] وأَكُفِّهِمْ ورُكَبِهِمْ، وأَطْرَافِ ۸۴۳]
أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِی فَكَاكِ ۸۴۴] رِقَابِهِمْ».
فالعبارات التی ذکرها الإمام علیه السلام بشأن الرکوع والسجود تعبیرات بمنتهی الروعة والجمال والتی تُطلع الإنسان علی عمق هذه العبادات، فالإنحناء أمام اللّه وافتراش الجبین وبسط الأرجل علی الأرض إزاء عظمة اللّه بالتوجه وحضور القلب ینطوی علی عالم من المعنویات، والطریف أنّ الهدف النهائی لذلک تحریر رقبة الإنسان من قید الأسر، ولکن هل المراد تحریرها من مخالب نار جهنم أم من کلّ قید من قیود هوی النفس والشیطان والأشرار من الناس؟ یبدو أنّ عبارة الإمام علیه السلام مطلقة تشمل الجمیع رغم تظافر الروایات التی وردت فیها العبارة
«مِنَ النّارِ»
بعد
«فَكاكَ الرَقَبَة».
نعم! فحریة الإنسان مرهونة بعبودیّته للّهفی الدنیا وفی الآـخرة وسوی المتّقین أسری الأهواء والرغبات والأموال والثروات والمقامات والشیاطین.
وما بیّنه الإمام علیه السلام فی هذا الجانب من الخطبة بشأن المتّقین إقتباس فی الواقع من الصفات التی ذکرها القرآن الکریم للمتّقین فی آواخر سورة الفرقان عن
«عِبادُ الرّحمن
» فقد قال تعالی: «وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً* وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً»[۸۴۵].
نفحات الولایة، ج۷، ص: ۴۲۰

تأمّل

۱. خاض الإمام علیه السلام بعد بیانه لصفات المتّقین فی مستهل الخطبة فی انشطتهم فی اللیل والنهار والتی تغص بدروس السعادة.
فشرح بادئ الأمر نشاطهم باللیل حیث یسیرون فیه بصورة کاملة باتجاه التربیة والتهذیب والقرب الإلهی.
ویستند أساس هذا النشاط إلی أمرین: ۱. الصلاة بحضور قلب تام، وهی الصلاة الموصلة لکلّ سمو
«قُرْبانُ كُلِّ تَقِيٍّ»
وهی الطریق المتّقین للقرب من اللّه والناهیة عن کل فحشاء ومنکر.
۲. تلاوة القرآن فی الصلاة وخارجها فی غسق اللیل حیث الصمت المطلق والشرائط التی تنفی الموانع کافّة من الحضور بین یدی القرآن والمقرونة بالتدبّر فی الآیات بحیث یری المؤمن نفسه مخاطباً بآیات الثواب والعقاب فیری بأُم عینیه مصیر أصحاب الجنّة وأصحاب النار فی خضم الآیات وینفتح علی معارفها ویتعظ بمواعظها ویمتثل فی حیاته لأحکامها.
حقّاً إنّ مثل هذه الصلاة والتلاوة القرآنیّة فی جوف اللیل إنّما تربیهم بحیث یستطیعون فی النهار القیام بوظائفهم بأحسن نحو، وسیرد الحدیث عن نشاطهم فی النهار فی القسم القادم من الخطبة.
***

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۴۲۱

القسم الثالث

اشارة

وأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْىَ الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، ومَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَض؛ ويَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا!

ولَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لَايَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِانْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، ومِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إِذَا زُكِّىَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِى مِنْ غَيْرِى، ورَبِّى أَعْلَمُ بِى مِنِّى بِنَفْسِى! اللَّهُمَّ لَاتُؤَاخِذْنِى بِما يَقُولُونَ، واجْعَلْنِى أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لى مَا لَايَعْلَمُونَ!

الشرح والتفسير: نهار المتّقين

خاض الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة فى نشاط المتّقين فى النهار (على غرار القسم السابق الذى شرح فيه نشاطهم فى الليل) فأشار بادئ الأمر إلى خمس صفات من صفاتهم فقال:

«وأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمُ ۸۴۶]

الْخَوْفُ بَرْىَ الْقِدَاحِ ۸۴۷] يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، ومَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَض؛

ويَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا![۸۴۸] ولَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ!».

والصفات الخمس التى ذكرها الإمام عليه السلام بشأن نشاط المتّقين فى النهار دلالة

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۲۲

واضحة على هذه الحقيقة وهى أنّ تقوى هؤلاء المتّقين ليست منفصلة عن المجتمع قط، بل تقواهم مقرونة بالعلم والمعرفة والإدارة وتحمل المسؤوليّة والإحسان والعيش فى وسط المجتمع.

«حُلَمَاءُ»:

من ماده «حلم» التى تعنى حسب (الراغب) ضبط النفس حين الغضب، ولما كانت هذه الحالة نابعة من العقل فإنّ مفردة الحلم تستعمل أحياناً بمعنى العقل ومن هنا تُطلق كلمة الحليم على من يتمالك نفسه عند الغضب وعلى العالم أيضاً.

وقال علماء الأخلاق أنّ صفة الحلم تمثّل حالة الإعتدال بين الصفتين الرذيلتين؛ إحداهما الذلّة والأخرى المفرطة وهى الغضب.

على كلّ حال فإنّ هذه الصفة غالباً ما تظهر حين التعامل مع الجهّال فيضطر الحليم إلى مداراتهم بحيث لا يُستغل علهم يفيقون إلى أنفسهم ويكفون عن جهلهم.

والتعبير بالعلماء لا يقتصر على أولئك الذين انفتحوا على العلوم المعروفة بل يشمل الأفراد ممن لهم اطلاع ومعرفة واسعة وقدرة على إدراك الحقيقة.

والعبارة:

«قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْىَ الْقِدَاحِ»

ليس المراد منها أنّ المتّقين ضعيفو البنية خشية المسؤوليّة، بل المراد أنّ تلك الخشية جعلتهم أكثر فاعلية وحسماً فى القيام بوظائفهم، ذلك لأنّ السهم حين يبرى ليصيب الهدف يكون انطلاقه أفضل وحدته أعظم.

والتعبير

«يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى

» إشارة إلى أنّ العلماء الحلماء والمتّقين الأبرار يبدون فى أعين السذج من الناس كأفراد ضعيفى الإرادة وغير جادين فى قراراتهم. ومن هنا نرى رمى الأنبياء من قبل أممهم بتهمة الجهل والجنون، سيما أنّهم لا يشابهون سائر قومهم، فمن لم يكن مثلهم يرونه مجنوناً لأنّه يخالف عاداتهم وعقائدهم بينما الواقع هم المجانين.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۲۳

قال القرآن بشأن السابقين فى الخيرات: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا أَتَوا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ»[۸۴۹].

جاء فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد فى ذيل الآية الشريفة أنّه سئل النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله: هل المراد من الآية من يذنب ويخشى الذنب؟ فقال صلى الله عليه و آله:

«لا، بَلِ الرَّجُلُ يَصُومُ ويَتَصَدَّقُ ويَخافُ أنْ لا يَقْبَلَ مِنْهُ»[۸۵۰].

ثم خاض الإمام عليه السلام فى بيان علوّ همّة المتّقين فقال:

«لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِانْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، ومِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ ۸۵۱]».

فعلوّ همّتهم وسمّو معرفتهم لا تدعهم يرضون بالأعمال القليلة أو يستكثرون تلك الأعمال على خلاف المغرورين ضيقى النظر الذين يرضون من أنفسهم بالقليل من العمل وكأنّهم أشرف خلق اللَّه، وبغض النظر عن ذلك فهؤلاء يتمتعون بصفة بارزة هى نقد الذات التى يفر منها أغلب الأفراد والذين لا يقبلون النقد من الآخرين وبطريق أولى لا ينتقدون أنفسهم وبذلك يهجرون الأمر الذى يؤدّى إلى سموهم وتكاملهم.

فهؤلاء يشعرون بالخشية دائماً وكأنّهم لم يؤدّوا حقّ نعمة اللَّه وهجروا طريقة عبودية اللَّه وأنّهم مسؤولون أمام خلق اللَّه.

وقد فسّر بعض شرّاح نهج البلاغة الأعمال الواردة هنا بالعبادات فقط واستشهدوا بالروايات الواردة فى كثرة عبادات النّبى صلى الله عليه و آله وأمير المؤمنين عليه السلام والإمام السجاد عليه السلام. صحيح أنّ العبادات تعدّ إحدى الوظائف المهمّة للعباد، ولكن ليس لدينا أى دليل على حصر الأعمال الواردة فى العبارة المذكورة بالعبادة وعدم شمولها

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۲۴

للمسؤوليات الاجتماعيّة.

وقد كان أئمّتنا عليهم السلام يقرون بذلك للَّهتعالى مع ما كانت لديهم من أعمال ضخمة واسعة ورغم قدسيتهم وطهارتهم، فقد ورد عن الإمام السجاد عليه السلام فى دعاء أبى حمزة الثمالى تضرعه قائلًا:

«وما قَدْرُ أعْمالِنا فى جَنْبِ نِعَمِكَ وكَيْفَ نَسْتَكْثِرُ أعْمالا نُقابِلُ بِها».

وجاء فى كتاب الغارات عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أنّ أحدهم تعجب من كثرة ما ينفق ويتصدق فى سبيل اللَّه فقال له عليه السلام:

«لَو أعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَبِلَ مِنّى فَرْضاً واحِداً لأمْسَكْتُ، ولكنّى وَاللَّهِ ما أدْرى أَقَبِلَ اللَّهُ مِنّى شَيْئاً أمْ لا؟»[۸۵۲].

وهذا فى الواقع درس لعامة الناس فى عدم الاغترار بأعمالهم العباديّة والخيريّة مهما كانت كثيرة ذلك لأنّ مسألة الإخلاص صعبة ومعقدة.

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«ثَلاثٌ قاصِماتُ الظَّهْرِ؛ رَجُلٌ اسْتَكْثَرَ عَمَلَهُ، ونَسِىَ ذُنُوبَهُ، وأُعْجِبَ بِرَأْيِهِ»[۸۵۳].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى فى إطار حديثه عن مسألة نقد الذات فقال:

«اذَا زُكِّىَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِى مِنْ غَيْرِى، ورَبِّى أَعْلَمُ بِى مِنِّى بِنَفْسِى! اللَّهُمَّ لَاتُؤَاخِذْنِى بِما يَقُولُونَ،

واجْعَلْنِی أَفْضَلَ مِمَّا یَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لی مَا لَایَعْلَمُونَ!».

وإننا لنعلم أنّ من موانع الرقی والتقدم نحو اللّه وفی المجتمع البشری هو مدح المداحین وتملق المتملقین الذی قذف بأغلب زعماء العالم فی أودیة الخطأ والضلال، والمتقون یشعرون بالخوف دائماً من مدح الآخرین حذراً من أن یسوقهم إلی الغرور والعجب فیتعرضون لسخط اللّه، فهم یسألون اللَّه أن یکونوا أعظم من ذلک المدیح وإن کانت لدیهم معصیة خفیّة سألوه غفرانها.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۴۲۵

تأمّل

إشفاق المتّقین من أعمالهم

یتصف نشاط المتّقین نهاراً بالصبغة الشعبیّة والاجتماعیّة المحضة رغم نشاطهم اللیلی فی تهذیب النفس فی ظلّ المناجاة والعبادة والتضرع إلی اللّه، والاستناد إلی العلم والحلم والإحسان والخوف فی تحمل المسؤولیّة لأفضل دلیل علی هذا المعنی.

فهم علماء یوضفون العلم لهدایة وإرشاد المجتمع.

وحلماء یتحمّلون الصبر إزاء تعصب ولجاجة الجهّال من الأفراد، ومحسنون یمدون ید الخدمة بقدر استطاعتهم إلی المحتاجین.

خائفون ووجلون من القیام بالمسؤولیات الکبیرة، فخوفهم خوف إیجابی لیکون الدافع للعمل أسمی وأعظم لا خوف سلبی یدعو إلی التقوقع وترک النشاط، ولذلک قال علیه السلام: إنّ الخوف لم یضعفهم بل جعلهم أکثر عملًا علی غرار السهم الذی یبری لیعد لإصابة الهدف.

ومن صفاتهم أنّهم لیسوا کأصحاب الدنیا الذین ینتهزون الفرص والنفعیین الذین یتأقلمون مع کلّ شخص ومع جمیع الظروف بغیة تحقیق أهدافهم المادیّة، ومن هنا یتهمهم مثل هؤلاء الأفراد بخفة العقل والسذاجة، وزبدة الکلام فإنّهم مشفقون من أعمالهم سباقون للنظر فیها قبل أن یتعرض لها الآخرون.

حقّاً مثل هؤلاء الأفراد یستطیعون انقاذ المجتمع البشری من الظلم والجور وإیصال الحقوق إلی أصحابها.

***

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۴۲۷

القسم الرابع

اشارة

فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّکَ تَرَی لَهُ قُوَّةً فِی دِین، وحَزْماً فِی لِین، وإیماناً فِی یَقِین، وحِرْصاً فِی عِلْم، وعِلْماً فِی حِلْم، وقَصْداً فی غِنیً، وخُشُوعاً فِی عِبَادَة، وتَجَمُّلًا فِی فَاقَة، وصَبْراً فِی شِدَّة، وطَلَباً فِی حَلَال، ونَشَاطاً فِی هُدًی، وتَحَرُّجاً عَنْ طَمَع. یَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وهُو عَلَی وَجَل. یُمْسِی وهَمُّهُ الشُّکْرُ، ویُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّکْرُ. یَبِیتُ حَذِراً ویُصْبِحُ فَرِحاً؛ حَذِراً لَمَّا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ والرَّحْمَةِ. إنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَیْهِ نَفْسُهُ فِیما تَکْرَهُ لَمْ یُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِیما تُحِبُّ. قُرَّةُ عَیْنِهِ فِیما لَایَزُولُ، وزَهَادَتُهُ فِیما لَایَبْقَی، یَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، والْقَوْلَ بِالْعَمَلِ.

شرح وتفسير

اثنتا عشرة صفة أخرى

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى اثنتى عشرة صفة أخرى من صفات المتّقين بعبارات قصيرة عميقة المعانى ليستهلها بقوتهم فى الدين وبعدهم عن الطمع فقال عليه السلام:

«فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّکَ تَرَی لَهُ قُوَّةً فِی دِین، وحَزْماً[۸۵۴] فِی لِین،

وإِيماناً فِی يَقِين، وحِرْصاً فِی عِلْم، وعِلْماً فِی حِلْم، وقَصْداً فی غِنیً، وخُشُوعاً فِی عِبَادَة، وتَجَمُّلًا[۸۵۵] فِی فَاقَة، وصَبْراً فِی شِدَّة، وطَلَباً فِی حَلَال، ونَشَاطاً[۸۵۶] فِی هُدًی،

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۲۸

وتَحَرُّجاً[۸۵۷] عَنْ طَمَع».

والعبارة:

«قُوَّةً فِی دِين»

تشير إلى عدم استطاعة المشككين والمنافقين النفوذ إليهم وليس بإمكان خطوب الدنيا ومصاعب الحياة زعزعة إيمانهم.

وتشير العبارة

«وحَزْماً فِی لِين»

إلى أنّهم رغم إشراقتهم الفكرية التى تستلزم عادة الحزم- خلاف العادات اليوميّة التى تسهل العمل- لا- ينسون الليونة والمرونة ويعاملون من يرافقهم فى تحقيق الأهداف الاجتماعيّة بالرفق والمحبّة على ضوء المثل القائل:

«لا تَكُنْ حُلْواً فَتُسْتَرَطُ ولامُرّاً فَتُلْفَظُ».

والعبارة:

«وإِيماناً فِی يَقِين»

تشير إلى أنّ للإيمان درجات أعلاها درجة علم اليقين وحق اليقين التى تحصل أحياناً عن طريق الاستدلالات القوية والمتينة، وأخرى عن طريق الشهود من خلال ذلك السمّو.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الْايمانَ أَفْضَلُ مِنَ الإِسْلامِ وإِنَّ الْيَقينَ أَفْضَلُ مِنَ الْايمانِ وما مِنْ شَیء أعَزُّ مِنَ الْيَقين»[۸۵۸]

. نعم فقد بلغ المتقون هذه المرتبة الساميّة والنادرة.

والعبارة:

«حِرْصاً فِی عِلْم»

رغم أنّ مفردة الحرص تحمل الجانب السلبى عادة لكنّها هنا تشير إلى أنّهم بمنتهى الجدية فى كسب العلم، ذلك لأنّه لا أصالة للتقوى ولا عمق دون العلم.

والعبارة:

«وعِلْماً فِی حِلْم»

تشير إلى أنّ العالم لا ينبغى أن يغضب وينفعل إزاء جهل الجاهلين بل ينفذ إليه بحلمه بصورة تدريجية فيزيل جهله.

ونقرأ مانقله المرحوم العلّامة المجلسى فى حديث مفصّل حوار الإمام الصادق عليه السلام مع البصرى الذى جاء إلى الإمام الصادق

عليه السلام لتحصل العلم، فقال له فى شأن الحلم:

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۲۹

«فَمَنْ قالَ لَکَ إنْ قُلْتَ واحِدَةً سَمِعْتَ عَشْراً فَقُلْ إنْ قُلْتَ عَشْراً لَمْ تَسْمَعْ واحِدَةً».

وقال بشأن العلم:

«فَاْسْأَلِ الْعُلَماء ما جَهِلْتَ وإيّاکَ أنْ تَسْأَلَهُمْ تَعَنُّتاً وتَجْرِبَةً وإيّاکَ أنْ تَعْمَلَ بِرَأْيِکَ شَيْئاً»[۸۵۹].

العبارة:

«قَصْداً فى غِنىً»

إشارة إلى أنّهم إن أصبحوا أغنياء وأثرياء لا يتخلون عن الإعتدال ويجتنبون الإسراف والتبذير ويُعينون الفقراء بما لديهم من أموال فائضة عن الحاجة.

والعبارة:

«وخُشُوعاً فِى عِبَادَة»

إشارة إلى أنّ عبادتهم ليست سطحيّة جوفاء خالية من الروح، بل تصدح عباداتهم بالخضوع والخشوع وحضور القلب الذى يمثّل روح العبادة فى أعمالهم العبادية وكل صلاة من صلواتهم معراج للقرب الإلهى، ومن هنا قال القرآن الكريم فى وصفه للمؤمنين المفلحين:

«الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ»[۸۶۰].

والعبارة:

«تَجَمُّلًا فِى فَاقَة»

التى تقابل فى الواقع

«قَصْداً فى غِنىً»

إشارة إلى أنّ المتّقين ولا يشكون حين الفقر والفاقة.

وتفيد مفردة

«تجمّل»

أنّهم رغم فقرهم وعوزهم يحافظون على ظاهرهم، كما يصفهم القرآن: «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ»[۸۶۱].

والعبارة:

«صَبْراً فِى شِدَّة»

تشير إلى استقامتهم وصبرهم إزاء مكاره الدهر والحوادث الأليمة وكمصداق لقوله تعالى: «اذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا اللَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»[۸۶۲].

حيث يرون أنفسهم راجعين إلى اللّه ودار الأمن والأمان والروح والريحان دون الإكتراث لهذه الدنيا فقد قال النّبى صلى الله عليه و آله:

«إنَّ الصَّبْرَ نِصْفُ الإيمانِ»[۸۶۳]

. وقال:

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۳۰

«الإيمانُ نِصْفانِ؛ نِصْفٌ فِى الصَّبْرِ ونِصْفٌ فِى الشُّکْرِ»[۸۶۴].

والعبارة:

«طَلَباً فِى حَلَال»

تشير إلى أنّ المتّقين ليسوا أفراداً متقوقعين ومعتزلين للأنشطة الحيوية، بل يسعون ويجدون من أجل المعاش والنهوض بالمجتمع الإسلامى الذى يشكل أحد أهدافهم الأساسيّة، مع هذا الفارق وهو أنّ أصحاب الدنيا لا يهتمون للحلال والحرام بينما يعيش هؤلاء هم الكسب الحلال ويهربون من العمل مهما كان دخله كثيراً إن شمّوا منه رائحة الحرمة، قال النّبى صلى الله عليه و آله:

«الْعِبادَةُ سَبْعُونَ جُزْءاً أفْضَلُها طَلَبُ الْحَلالِ»[۸۶۵].

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً»[۸۶۶]. ويمكن أن تكون العبارة دلالة على أنّ العمل الصالح وليد الغنى الحلال والطيب.

والعبارة:

«نَشَاطاً فِى هُدىً»

تفيد أنّ طى طريق الهدى بالنسبة لهؤلاء وخلافاً لما يعتقده الأفراد ضيقى الفكر وقليلى المعرفة منطلقاً للنشاط والحيوية، فهم لا يكلّون قط من السير على هذا الدرب وسلوك هذا الطريق يضاعف من نشاطهم وفاعليتهم.

المراد من العبارة

«وتَحَرُّجاً عَنْ طَمَع»

أنّ المتّقين بعيدون كلّ البعد عن الطمع، الطمع نتيجة التعلق الشديد بالدنيا بسبب التوجه لغير اللّه والذى يؤدّى إلى العديد من المفاسد ومنها أنّه أحد عناصر الذلّة والبغض والعداوة والحقد والحسد؛ فالطماع لا يشبع قط من مال الدنيا ويسعى للحصول عليه بالطرق والوسائل كافّة فهو فى الواقع يعيش أسر هذا القيد على الدوام كما قال الإمام عليه السلام فى إحدى كلماته القصار:

«الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ»[۸۶۷].

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۳۱

أضف إلى ذلك فالطمع يعطل الفكر والعقل ويعرض الإنسان للتذبذب والحيرة، كما قال عليه السلام فى إحدى كلماته القصار:

«أكْثَرُ مَصارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطامِعِ»[۸۶۸].

ثم تطرق عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى من صفات المتّقين فقال:

«يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وهُو عَلَى وَجَل ۸۶۹]. يُمْسِى وهَمُّهُ الشُّكْرُ، ويُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ».

نعم! فلو أتى أولياء اللّه بكلّ الأعمال الصالحة لظلوا يخشون عدم أدائهم حقّ العبودية للّهوالتقصير فى إمتثال التكليف، كما ورد فى الحديث الشريف عن الحارث بن المغيرة أو أبيه، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: ما كان فى وصيّة لقمان؟

قال عليه السلام:

«كَانَ فِيها الأعاجِيب وَكانَ أَعجَبُ مَا كَانَ فِيها أنْ قَالَ لإبنِهِ: خِفِّ اللَّهَ عَز وَجلَّ خِيفَةً لَو جِئتَهُ ببِرّ الثّقَلَين لَعَذَّبَک، وَارجُ اللَّهَ رجَاءً لَو جِئتَهُ بِذُنُوب الثّقَلَين لَرَحِمَک ...»[۸۷۰].

وللقرآن الكريم تعابير مختلفة ورائعة بهذا الخصوص فى وصفه للسابقين فى الخيرات: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا أَتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ»[۸۷۱].

والعبارة:

«يُمْسِى وهَمُّهُ الشُّكْرُ، ويُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ»

إشارة إلى أنّ هؤلاء يبتدئون يومهم الذى يستانفون فيه العمل والنشاط باسم اللّه وفى آخر اليوم حيث انفتحوا على تلك النعم الإلهيّة واستغلوها فى مرضات اللّه فيندفعون فى الحمد والشكر، بالضبط كالجلوس على مائدة الطعام، فهم يشرعون بتناول الطعام باسم اللّه وينتهون بشكره حين يرفعون أيديهم عن الطعام، رغم ما ذهب إليه بعض الشرّاح ۸۷۲] أنّ الاختلاف فى التعبير من باب التنوع فى

العبارة والمراد أنّهم ذاكرون وشاكرون فى الصباح والمساء وفى جميع الأحوال، إلّاأنّ الأنسب ما ذكرناه.

وقد وردت عبارات عميقة المعنى فى الآيات والروايات بشأن أهميّة ذكر اللَّه.

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۴۳۲

فقد ورد فى الحديث عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

«ثَلاثَةٌ مَعْصُومُونَ مِنْ إبْليسَ وجُنُودِهِ:

الذّاكِرُونَ للَّهِ، والْباكُونَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، والْمُسْتَغْفِرُونَ بِالأسْحارِ»[۸۷۳].

كما وردت عدّة آيات وروايات فى الشكر منها: ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام فى غرر الحكم أنّه قال:

«شُكْرُ النِّعْمَةِ أَمانٌ مِنْ حُلُولِ النِّقْمَةِ»[۸۷۴].

ثم أشار إلى صفتين مهمتين من صفات هؤلاء الأولياء فقال:

«يَبِيتُ حَذِراً ويُصْبِحُ فَرِحاً؛ حَذِراً لَمَّا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ والرَّحْمَةِ».

طبعاً ليس مفهوم العبارة تقسيم الوقت فى الخوف والرجا، فالخوف والرجاء راسخ فى قلوب المتّقين فى كلّ زمان، وعلى كلّ حال ولكن لما كان المتّقون يخلون إلى أنفسهم بعد نهاية يومهم للحساب يشعرون بالقلق إن كان بدر منهم زلة أو خطأ ومن هنا ورد الحث على الاستغفار عند الليل قبل النوم فقد روى عن الصادق عليه السلام أنّه قال:

«... مَنِ اسْتَغْفَرَاللَّهَ حينَ يَأْوِى إلى فِراشِهِ مِائَةَ مَرَّة تَحاتَتْ ذُنُوبُهُ كَما يَسْقُطُ وَرَقُ الشَّجَرِ»[۸۷۵].

ولما كان النهار انطلاقة فعالية وأعمال صالحة جديدة، الفعالية التى ينبغى أن تستهل بالأمل والرجاء فقد أصبح تجلياً لصفة الرجاء والأمل.

وللمفسرين عدّة أقوال بشأن الفارق بين الفضل والرحمة ذيل الآية الشريفة: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ»[۸۷۶] فقد ذهب البعض إلى أنّ الفضل الإلهى هو النعم الظاهريّة والماديّة والرحمة النعم الباطنيّة والمعنويّة، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ الفضل بداية النعمة والرحمة دوامها، كما احتُمِلَ أن يكون الفضل إشارة إلى نعم اللَّه العامّة على جميع الناس والرحمة إشارة إلى رحمته الخاصّة بالمؤمنين. وبالطبع ليس هنالك من تناقض فى هذه التفاسير ويمكن الجمع بينها جميعاً.

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۴۳۳

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى بيان صفة أخرى من صفات المتّقين ذات الصلة بالتربية وتهذيب النفس فقال:

«ان اسْتَصْعَبَتْ ۸۷۷] عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ».

هذا فى الواقع أحد مراحل السلوك إلى اللَّه والذى يصطلح عليه بمرحلة «المعاقبة» التى تأتى بعد مراحل «المشارطة» و «المراقبة» و «المحاسبة» أى يشترط على نفسه منذ الصباح حين ينطلق فى يومه الجديد على عدم مقارفة أى ذنب، ثم يعيش المراقبة طيلة يومه ومن ثم يتفرغ ليلًا لحساب ما أتى به من عمل فى النهار، فإنّ ظفر بمخالفة هب لمعاقبة نفسه كأن يمنع نفسه ما ترغب فيه، مثلًا يحرم نفسه من الطعام اللذيذ والفراش المريح والنوم الكافى وما شاكل ذلك ليؤدب نفسه الجامحة فتعيش طاعة اللَّه فى الأيّام القادمة، وهذا البرنامج مؤثر وعملى لتهذيب النفس وبالطبع أنّ كلّ من داوم عليه سيلمس آثاره وبركاته بعد مدّة ليست طويلة.

ثم أشار إلى أربع صفات مهمّة أخرى فقال:

«قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَايَزُولُ، وزَهَادَتُهُ فِيمَا لَايَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، والْقَوْلَ بِالْعَمَلِ».

والعبارة

«قُرَّةُ عَيْنِهِ»

بـالنظر إلى أنّ «قرّة» من مـادة «قرّ» (على وزن حرّ) تعنى فى الأصـل البرودة والعرب تعتقـد أنّ دموع الشوق بـاردة دائمـاً ودموع الحزن حـارة ومحرقـة، فـإنّ هـذه العبـارة تقال حيث السـرور والفرح، وعليه فمفهوم العبارة المـذكورة أنّ عين المتّقين مسـرورة بعالم الآخرة، ذلك لأنّه عالم خالد ودائم، كما قال القرآن عن أصحاب الجنّة: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّموَاتُ وَالأَرْضُ»[۸۷۸] وقال أيضاً:

«فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».[۸۷۹] وبالنظر إلى أنّه وحسب ما ورد فى الأقسام السابقة من الخطبة فإنّ هؤلاء يرون بأعينهم فى هذه

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۳۴

الـدنيا الجنّة ونعمها، وتحصل لهم حالة السـرور وقرة العيون، وبالعكس حيث ايقنوا أنّ الدنيا متقلبة فلم يتعلقوا بها قط، ومزجهم الحلم بـالعلم والقول بالعمـل كان من أهم نقاط قوّتهم، ذلك لأنّ العالم إن لم يكن حليما إزاء جهل الجهّال تعـذر عليه هـدايتهم وإرشادهم وإن لم يقترن قوله بفعله لم يعد لكلامه من تأثير، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إنَّ الْعالِمَ إذا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقُلُوبِ كَما يَزِلُّ الْمَطَرُ عَنِ الصَّفا»[۸۸۰].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۳۵

القسم الخامس

اشارة

تَرَاهُ قَرِيبـاً أَمَلُهُ، قَلِيلًا زَلَلُهُ، خَاشِـعاً قَلْبُهُ، قَانِعَـةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَـهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَـةً شَـهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ. الْخَيرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، والشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إنْ كَانَ فِى الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِى الذَّاكِرِينَ، وإنْ كانَ فى الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ.

يَعْفُوعَمَّنْ ظَلَمَهُ، ويُعْطِى مَنْ حَرَمَهُ، ويَصِـلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيـداً فُحْشُهُ، لَيِّنـاً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِـراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلًا خَيْرُهُ، مُـدْبِراً شَـرُّهُ. فِى الزَّلَازِلِ وقُورٌ، وفِى الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وفِى الرَّخَاءِ شَكُورٌ. لَايَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لَا يُضِـيعُ مَا اسْـتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِى الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إنْ صَـمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَـمْتُهُ، وإنْ ضَـحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وإنْ بُغِىَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوالَّذِى يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِى عَنَاء. والنَّاسُ مِنْهُ فِى رَاحَـة. أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِاخِرَتِهِ، وأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْـدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَـدَ عَنْهُ زُهْـدٌ ونَزَاهَـةٌ، ودُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ ورَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْر وعَظَمَة، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْر وخَدِيعَة.

الشرح والتفسير: تسع صفات أخرى

اشارة

تطرق الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى تسع من صفات المتّقين فقال:

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۳۶

«تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلًا زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً[۸۸۱] أَكْلُهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ،

حَرِيزاً[۸۸۲] دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً[۸۸۳] غَيْظُهُ».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة إلى قصر الأمل، لأنّ طول الأمل- كما ورد فى الروايات- ينسى الآخرة ونسيان الآخرة طامة كبرى تفرز مختلف المعاصى والذنوب.

صحيح أنّ وجود الأمل لدى الإنسان مدعاة للحركة والنشاط، كما جاء في الحديث النبوى الشريف:

«الأَمَلُ رَحْمَةٌ لِامَّتى ولَوْلا الأَمَلُ ما رَضَعَتْ والِدَةٌ وَلَدَها ولا غَرَسَ غارِسٌ شَجَراً»[۸۸۴]

. ولكن إن تجاوز هذا الأمل الحد وتبدل إلى أمل طويل فإنّه يدفع جميع قوى الإنسان وأفكاره نحوالدنيا وينسيه كلّ شيء، بل يتعذر حتى على الإنسان فى ظلّ هذه الحالة أن يستثمر دنياه.

وإننا لنرى أنّ قلّة زلات المتّقين كونهم يبعدون أنفسهم عن مطبات الذنب وذكرهم الدائم للّه‌تبارك وتعالى. وخشوع قلوبهم نتيجة لعرفانهم باللّه، لأنّ الإنسان كلّما إزداد إدراكه لعظمة المعبود ازداد خضوعه له، وقناعة المتّقين معلولة لسعة افقهم إزاء النعم الماديّة للدنيا ومتاعها وزخرفها، وبما أنّهم يؤمنون بفنائها وزوالها فهم لا يجازفون فى السعى للحصول عليها فيقتنعون منها بذلك المقدار اللازم، وقلّة طعامهم لعلمهم بأنّ كثرة الأكل- وبغض النظر عمّا تفرزه من أنواع الأمراض- فإنّها تسلبهم حيوية العبادة ومناجاة اللّه، أضف إلى ذلك فإنّها تجعلهم يغفلون عن ذكر المعوزين من أهل الفاقة.

وجاء فى الحديث عن الإمام عليه السلام فى غرر الحكم:

«مَنِ اقْتَصَدَ فى أكْلِهِ كَثُرَتْ صِحَّتُهُ وصَلُحَتْ فِكْرَتُهُ».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۳۷

العبارة:

«سَهْلًا أَمْرُهُ»

إشارة إلى أنّه سهل لين فى أعماله الشخصية، كما أنّه سهل المؤونة إزاء الناس، وأننا لنرى بعض الأفراد الذين يعيشون حالة من التكلف القصوى بشأن سفر أو ضيافة ويزجون بأنفسهم فى أتون عذاب أليم، أو يخوضون صراعاً قد يستغرق أشهراً وربّما سنوات تجاه الناس لانتزاع حقّ بسيط، والحال يعيش المتساهلون حياة وادعة مريحة على المستوى الشخصى إلى جانب الراحة فى علاقاتهم مع الآخرين.

العبارة:

«حَريزاً دِينُهُ»

إشارة إلى أنّه يهتم قبل كلّ شيء بحفظ إيمانه وعقيدته ومبادئ دينه، ولا يضحى بها من أجل المال والمقام والشهوة.

والعبارة:

«مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ»

لا- تعنى أنّهم يفتقرون إلى الشهوات، بل يسيطرون بعقولهم وإيمانهم على تهذيب هذه الشهوة، وهوذات التعبير الرائع الذى ساقه القرآن الكريم بشأن يوسف عليه السلام: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أن رَّءا بُرْهَانَ رَبِّهِ»[۸۸۵].

وأمّا العبارة:

«مَكْظُوماً غَيْظُهُ»

بعد الصفات السابقة إشارة إلى أنّ حفظ الدين وأداء الوظائف قد يؤدّى أحياناً إلى ردود فعل طائشة من قبل بعض الجهّال والذى يثير الغضب لدى المتّقين، لكنهم مسلّطون على أنفسهم ويكظمون غيظهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فأشار إلى أربع صفات من صفات المتّقين البارزة فقال:

«الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، والشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إنْ كانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وإِنْ كانَ فى الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ».

ورد فى الحديث عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

«ألا أُنَبِّئُكُم لِمَ سُمِّىَ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِناً؟

لإيمانِهِ النّاسَ عَلى أنْفُسِهِمْ وأمْوالِهِمْ، ألا أَنَبِّئُكَمْ مَنِ الْمُسْلِمُ؟ الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النّاسُ مِنْ يَدِهِ ولِسانِهِ»[۸۸۶].

فإنّ كان هذا هو حال العاديين من المسلمين والمؤمنين، فمن الأولى أن يكون

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۳۸

كـذلك الوضع بالنسـبة للمتّقين الـذين يمثلون نخبة المؤمنين والمسـلمين، فهؤلاء مصدر الخيرات والبركات ولا يتلقى الناس منهم أى شرّ.

وجاء فى الحديث النبوى الشريف:

«انَّ مَثَلَ الْمُؤمِنِ كَمَثَلِ النَّحْلَةِ إنْ صاحَبْتَهُ نَفَعَكَ وإنْ شاوَرْتَهُ نَفَعَكَ وإنْ جالَسْتَهُ نَفَعَكَ وكُلّ شَأْنِهِ مَنافِعٌ وكَذلِكَ النَّحْلَة كُلّ شَأْنِها مَنافِع»[۸۸۷].

قـال بعض الأعلام: إنّ وجه المشابهـة بين المؤمن والنحل حـذق النحل وفطنته وقلّة أذاه ومنفعته وقناعته وسـعيه فى النهار وتنزهه عن الاقـذار وطيب أكله، وأنّه لا ـ يأكـل من كسب غيره ۸۸۸]، أضف إلى ذلك فإنّ النحلـة تنتـج الشـهد العظيم الفائـدة، بالإضافة إلى أنّ دورانها حول الأزهار يؤدّى إلى تلقيـح مختلف أنواع النباتات، ناهيك عن لسعتها التى تعـدّ وسـيلة للـدفاع عن نفسـها من العـدو ذات فائـدة عظيمـة فى علاج بعض الأمراض ومفردة الخير والشـر مفهوم غايـة فى السعة تشـمل الخيرات الماديّة والمعنويّة وجميع الشـرور الماديّة والمعنويّة كذلك.

والعبارة:

«انْ كَانَ فِى الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِى الذَّاكِرينَ»

إشـارة إلى أنّه لا ـ يتـأثر حين يكون وسـط بعض الغافلين من الأفراد فهو لا ينفك عن ذكر اللّه واليوم الآخر، كما لا يعيش حالـة الغفلة حين يكون وسط الذاكرين.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات مهمّة أخرى والتى تعدّ من كرامات المتّقين فقال:

«يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، ويُعْطِى مَنْ حَرَمَهُ، ويَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ».

يردّ الإنسـان بالمثـل أحيانـاً على مـا يواجهه من إساءات من الآخرين والتى غالباً ما تفرزها حالـة الثأر والانتقام؛ ولكن لا تمارس أحياناً مثل هـذه المعاملة وهذا بالطبع الأسـلوب الذى يطبع سـيرة أولياء اللّه والمتّقين، فهم يتجاوزون ويعفون عن ظلم الظلمة فى الوقت الذى يتمكنون فيه من الانتقام والرد بالمثل، وهذا بحد ذاته

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۳۹

شجاعـة لأـنّه ينبع من موقع القوّة وليس من قبيل الاستسـلام تجاه الظلم، ويعتمـد البـذل والعطاء تجاه من حرمه ومنعه، وهـذا دليل على جوده وكرمه.

وبالتالى فهو يمد يد المصالحة والسلام لمن يقاطعه ويشمله بعونه ونجدته وهذا شجاعة وكرم.

جاء فى الخبر المروى عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال:

«إذا كَانَ يَومَ القِيامَـةِ نادى مُنادٍ أَينَ أَهلُ الفَضلَ؟ فَيَخرُجُ عُنقٌ مِنَ النّاسِ. فَتَسأَلُهُم المَلائِكَةُ: وَما كَانَ فَضلُكُم؟ فَيَقُولُونَ: «كُنّا نَصِلُ مَنْ قَطَعَنا ونُعْطى مَنْ حَرَمَنا ونَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَنا».

فَيَقَولُونَ لَهُم: «صَدَقْتُمْ ادْخُلوا الْجَنَّةَ»[۸۸۹].

وقـد أمرنا اللّه تعالى فى القرآن الكريم بصورة عامـة وشاملـة بهذا الخلق، حيث خاطب النّبى صـلى الله عليه و آله قائلًا: «ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ»[۸۹۰].

ثم أشار الإمام عليه السلام فى عبارات قصيرة وعميقة المعنى إلى ست صفات بارزة أخرى فى المتّقين فقال:

«بَعِيداً فُحْشُهُ ۸۹۱]، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ،

مُقْبِلًا خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ».

والصفات الست التى يقابل كلّ زوج فيها الآخر وتفسر بعضها البعض الآخر تشير إلى سلوكيات وتصرفات المتّقين الاجتماعيّة.

والعبارة:

«بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ»

إشارة إلى أنّ معاملتهم لجميع الناس تنطلق من اللسان الجميل والكلمات المفعمة بالخير والمحبّة وليس فى أقوالهم وأعمالهم أى نوع من العنف والغلظة، فهم ليسوا بعيدين غاية البعد عن الفاحش من القول فحسب بل هم أبعد ما يكونون عن الفاحشين.

وقد ورد فى الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل عن حد حسن الخلق أنّه

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۴۰

قال:

«أنْ تُلينَ جَناحَكَ، وتُطيبَ كَلامَكَ، وتَلقى أخاكَ بِبِشْر حَسَن»[۸۹۲].

والعبارة:

«غَائِباً مُنْكَرُهُ»

تشير إلى انعدامه؛ أى لا يبدر منه أى منكر إزاء الآخرين.

ويحتمل أن يكون المراد أنّه لو بدرت منهم زلّة، فهى ليست بزلّة علنيّة على الأقل لتلوث المجتمع.

والعبارة:

«حَاضِراً مَعْرُوفُهُ»

إشارة إلى جميع المحاسن التى يقرّها العقل والوجدان والشرع وليست غريبة عليها (من مادة عرفان بمعنى المعرفة).

والمراد من

«مُقْبِلًا خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ»

أنّهم مندفعون على الدوام فى الإتيان بأفعال الخير، وإن كانت لهم من أعمال سيئة فى الماضى فهم يسعون إلى هجرانها والإبتعاد عنها.

ثم أشار إلى ثلاث من صفاتهم الحميدة فقال:

«فِى الزَّلَازِلِ ۸۹۳] وَقُورٌ[۸۹۴]، وفِى

الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وفِى الرَّخَاءِ شَكُورٌ».

والمراد من

«زلازل»

الحوادث الأليمة والفتن العظيمة التى تهز القلوب. فالمتقون يربطون جأشهم إزاء هذه الخطوب ولا يفقدون معنوياتهم ويقفون إزاءَها كالجبل الأصم الذى لا تحركه الرياح العاتية،

«الْمُؤْمِنُ أصْلَبُ مِنَ الْجَبَلِ»[۸۹۵]

فهم صامدون وهذا يدل على أنّ التقوى لا تعنى الإعتزال عن المجتمع والخلود إلى الدعة والراحة، بل المتقون الحقيقيون هم أولئك الذين يتصدون للأحداث الصعبة ويسعون جاهدين وبكل شجاعة لإنقاذ أنفسهم ومجتمعاتهم ممّا يعصف بها من خطوب.

والصبر على المكاره يمثل أحد فروع الصبر الذى يشمل كلّ مصيبة وحادثة أليمة. فالمتقون ثابتون وصامدون فى هذا الميدان، ذلك لأنّ الجزع إزاء المصائب

نفحات الولايئ، ج۷، ص: ۴۴۱

يقود الإنسان إلى المعصية والسيىء من القول من جهة، ومن جهة أخرى يغلق على الإنسان السبيل لمعالجة الموقف.

وشكرهم عند النعمة ناشىء من تواضعهم للّهوالخلق، فهم ليسوا على غرار المتكبرين الذين تنسيهم النعمة والمال والمقام والثروة كلّ شىء فيتمردون على الخالق والمخلوق.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى للمتّقين فقال:

«لَا يَحِيفُ ۸۹۶] عَلَى مَنْ يُبْغِضُ،

ولَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ».

فهذه الصفات الثلاث تنطلق من روح المتّقين الداعية إلى الحقّ والساعية للعدالة، والعادل من ينصف حتى عدوه فى إيصال حقّه، كما قال تعالى فى القرآن: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْم عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا»[۸۹۷].

ولا يهب صحبه أكثر من حقهم بما يؤدّى لتضييع حقوق الآخرين، كما قال القرآن الكريم: «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوكَانَ ذَاقُرْبَى»[۸۹۸].

وهذا هو سرّ اعترافهم بالحقّ قبل إقامة الشهود عليه، ذلك لأنّ الذين يسلمون إزاء الشهود لا يعتبرون ممن يسلم للحقّ، وإقامة الشهود هى التى اضطرتهم للتسليم؛ أمّا من ينشد الحقّ والعدل فهوذلك الفرد الذى ينطلق إلى صاحب الحقّ ليعثر عليه ويؤدّى حقّه ويفك رقبته من ظلامة الآخرين، وعلى هذا الضوء لابدّ أن ينطلق المدين إلى الدائن ويفتش المؤتمن عن صاحب الأمانة، على العكس ممّا تشهده المجتمعات المجانبة للتقوى.

نعم، فالمتقون من لا يقصرون فى أداء الحقوق وليسوا بحاجة للقضاء والمحاكم كما أنّ العداوة والصداقة لا تخرجهم من حدود الحقّ والعدل.

نفحات الولايئ، ج۷، ص: ۴۴۲

قال النّبى صلى الله عليه و آله:

«أَتْقَى النّاسِ مَنْ قالَ الْحَقَّ فيما لَهُ وعَلَيْهِ»[۸۹۹].

ثم واصل عليه السلام كلامه ليشير إلى سبع صفات بارزات أخرى من صفات المتّقين بعبارات منسجمة فقال:

«لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ[۹۰۰]

بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ ۹۰۱] بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِى الْبَاطِلِ، وَلَا

يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ».

للعبارة:

«لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ»

معنى واسع يشمل جميع الأمانات الإلهيّة والاجتماعيّة، من الصلاة التى قال فيها القرآن: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ»[۹۰۲].

حيث يحافظون عليها من خلال أدائها بإخلاص بعيداً عن السمعة والرياء، وكذلك سائر الأمانات، كالقرآن الكريم وأحكام الشريعة والأولاد الذين وهبهم إيّاهم اللّه تعالى ومختلف الأمانات التى يأتمنهم عليها الآخرون، فهم يسعون حثيثاً للحفاظ عليها ولا يفرطون بها بسبب التساهل والغفلة والتقصير.

العبارة:

«لَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ»

إشارة إلى جميع ما يذكر به من الأمور المفيدة من جانب اللّه تعالى وأولياء اللّه والمخلصين من الأساتذة والمعلمين والأصحاب والأصدقاء، فهؤلاء ليسوا من أهل النسيان الذين يتغاضون عن دروس الهدى والحقّ ولا يلتزمون بها، وإذا ما اعتراهم شىء من وساوس

الشيطان تـذكروا اللّه وإرشادات أوليائه فيعودون إلى رشدهم وهداهم، قال اللّه تعالى فى القرآن: «انَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإذَا هُمْ مُّبْصِرُونَ»[۹۰۳].

والعبارة:

«وَلَا يُنَابِزُ بِالْألْقَابِ»

إشارة لما ورد فى القرآن الكريم: «وَلَا تَنَابَزُوا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۴۳

بِالْألْقَابِ»[۹۰۴]. لأنّ ذكر هـذه الألقاب يؤجـج فى القلوب نيران العـداوة والبغضاء فيضـطر الطرف المقابل إلى ممارسـة ردود الأفعال الطائشة، الأمر الذى يلوث أجواء المجتمع ويحطم شخصية الأفراد.

وعدم أذى الجار والشماتة بالمصائب التى وردت بعد مسألة التنابز بالألقاب تشير إلى رعايتهم للحقوق الاجتماعيّة واحترام الآخرين فى الجوانب كافّة. وقـد ورد الحـث على رعايـة حقـوق الجـار فى القرآن الكريم وأحـاديث النّبى صـلى الله عليه و آله وروايـات الأـئمّة المعصومين عليهم السلام فقد روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال:

«اللّهَ اللّهَ فى جيرانِكُمْ فَإنَّهُمْ وَصيَّةُ نَبِيِّكُمْ ما زالَ يُوصى بِهِمْ حَتّى ظَنَّنا أَنَّهُ سَيُورِّثُهُمْ»[۹۰۵].

من جانب آخر فإننا نعلم أنّ من أصابته مصيبة فهو كالإنسان المجروح المحتاج إلى مَن يخفف عنه ويطبب جرحه، والشماتة هنا كذر الملح على جروحه، وليس هنالك من إنسان حى يسمح لنفسه أن يقوم بهذا العمل. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«مَنْ شَمَتَ بِمُصيبَة نَزَلَتْ بِأَخيهِ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيا حَتّى يُفْتَتَنَ»[۹۰۶].

وآخر الصـفات التى وردت فى العبـارة المـذكورة عـدم دخول المتّقين فى الباطـل وخروجهم من دائرة الحقّ والتى تنطوى على معـانٍ عميقة جدّاً، يأبى المتقى- على ضوء ما ذكر- الدخول فى الأفكار الباطلة والتصرفات الباطلة والخوض فى الأقوال الباطلة ولا يتبع سوى الحقّ المطلق ولا يحيد عنه فى مطلقاً وأينما كان وتجاه كلّ شخص وازاء كلّ عمل.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى من صفاتهم فقال:

«انْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وإنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وإنْ بُغِىَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللّهُ هُوالَّذِى يَنْتَقِمُ لَهُ».

فالمتقى لا يغتم فى سكوته، مع أنّ السكوت فى أغلب الأحيان يؤدّى إلى حالة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۴۴

من الكآبـة والحزن، ذلـك لأـنّ السـكوت أساس نجاة اللسان من أغلب الآفات، بالإضافـة إلى كونه يـدعو إلى التفكر فى أمور الـدين والدنيا، جاء فى الحديث النبوى الشريف:

«طُوبى لِمَنْ ... أنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مالِهِ وأمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ»[۹۰۷].

كمـا أنّ المتقى لاـ يضـحك بصوت عـال ويقهقه فى ضـحكه، لأـنّ القهقهـة من عـادات الأثريـاء المغرورين والأـفراد الفـارغين، قـال أميرالمؤمنين عليه السلام فى غرر الحكم:

«خَيْرُ الضَّحِكِ التَّبَسُّمُ».

والعبارة:

«وإنْ بُغِىَ عَلَيْهِ ...»

إشـارة إلى أنّه أحياناً قـد يمارس بعض الأصـدقاء والقرابـة وربّما حتى الاخوة ظلماً بحقّ الإنسان بحيث لوهب للإنتقام لنشبت نزاعات مستمرة قـد تنتهى إلى مـا لاـ يحمـد عقبـاه، فإنّ إعتمـد الإنسان فى ظلّ هـذه الظروف التحمل واستيعاب الآخر وسـلم الطرف المقابل للّهيكون قـد أنقـذ نفسه من الوساوس الشـيطانيّة الخطيرة، كما يكون قـد حافظ على حالـة الهـدوء والاسـتقرار فى المجتمع، طبعاً ليس

المراد من هذا الكلام العدوالغادر والقاسى، ذلك لأنّ مثل هذا التحمل والسكوت يدعوه لمزيد من الظلم والطغيان.

ثم أشارالإمام عليه السلام إلى أربع صفات أخرى تكمل كلّ واحدة منها الأخرى فقال:

«نَفْسُهُ مِنْهُ فِى عَنَاء. والنَّاسُ مِنْهُ فِى رَاحَة»

. أى أنّه يتحمل المزيـد من العناء بغيـة اسـتقرار المجتمع، مثلًا لو ظهرت بعض المشاكل فى المجتمع جهـد نفسه وتحمل بعض المشاق لحل تلك المشـكلات بغيـة إراحة المجتمع فالواقع أنّ هذا نوع من الإيثار والتضـحية يعمد بموجبه الإنسان إلى تحمل بعض المشاكل الاجتماعيّة من أجل راحة خلق اللّه.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ العبارة الثالثة والرابعة

«أَتْعَبَ نَفْسَهُ ...»

بمثابـة الدليل على العبارتين السابقتين؛ أى إن كانت نفسه فى عناء من جانبه فذلك لأنّه يسـعى دائماً للاسـتعداد والتزود للدار الآخرة، وإن كان الناس منه فى راحة

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۴۵

فذلك لأنّه قرر ذلك.

كمـا يحتمـل أن تكون العبارتـان واردتين بشـأن مسألـة أخرى فالعبارتـان السابقتـان إشارة إلى الأمور الماديّة، وهاتان العبارتان إشارة للأمور المعنويّة.

قال الإمام عليه السلام:

«مَنْ عَمَّرَ دارَ إِقامَتِهِ فَهُوَ العاقِلُ»[۹۰۸]

. وقال تعالى: «وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ»[۹۰۹].

ثم اختتم الإمام عليه السـلام الخطبة بأربع صفات أخرى من الصفات البارزة للمتّقين الاختتام الذى ربّما لم يكن آخر الخطبة لولا تلك الحادثة التى وقعت لهمام ولعله أشار لمطالب مهمّة أخرى بهذا الشأن) فقال:

«أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِـآخِرَتِهِ، وأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْـدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَـدَ عَنْهُ زُهْـدٌ ونَزَاهَـةٌ؛ ودُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَـا مِنْهُ لِينٌ ورَحْمَـةٌ، لَيْسَ تَبَاعُـدُهُ بِكِبْر وعَظَمَة، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْر وخَدِيعَة».

فقـد أشار الإمام عليه السـلام فى ذكره لهذه الصـفات إلى نقطة مهمّة وهى: أنّ المتّقين فى صِـلاتهم الاجتماعيّة وتعاملهم مع الأصدقاء والأعـداء واقـامتهم للعلاقات أو قطعها مع هـذا أو ذاك وبالتالى التعامل مع جميع الأمور إنّما ينشـدون أهـدافاً مقدّسـة؛ فإن بعـدوا عن شخص فإنّما ذلك بسـبب تلوثه بالمعاصـى أو أنّ الاقتراب منه يجعلهم عرضة للافتتان بزخارف الدنيا التى ابتلى بها هذا الفرد، وبالطبع فإنّ اقترابهم من الأفراد يسـتند إلى دورهـم فى هداية الجهّال وتنبيه الغافل ومساعدة الضـعيف والفقير، أمّا أصحاب الدنيا فإنّما يبتعدون عن هذا الفرد أو ذاك بسبب كبرهم وغرورهم ويقتربون من هذا أو ذاك بغية تحقيق مصالحهم الماديّة والخداع والتضليل.

مصير همام بعد سماع الخطبة

صرّح الراوى بعد نهاية الخطبة التى ذكرها الإمام عليه السلام حين بلغ هذا الموضع من

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۴۶

الخطبة

«قَالَ: فَصَعِقَ هَمَّامٌ صَعْقَةً كانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا».

«فَقَالَ أَمِيرُالْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: أَمَا واللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: أَهكَذَا[۹۱۰] تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا».

«فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَمَا بَالُكَ يَا أَمِيرَالْمُؤْمِنِينَ!».

«فَقَالَ عليه السلام: وَيْحَكَ، إِنَّ لِكُلِّ أَجَل وَقْتاً لَايَعْدُوهُ، وسَبَباً لَايَتَجَاوَزُهُ».

ثم أضاف الإمام عليه السلام:

«فَمَهْلًا! لَاتَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!».

وهنا يرد هذا السؤال: لم كانت عاقبة همام تلك الصعقة بينما لم تحدّث للإمام عليه السلام الذى ساق هذا الكلام؟

لابدّ من الإلتفات فى الجواب عن هذا السؤال إلى نقطة مهمّة وهى أنّ همام وإن كان رجلًا عابداً وزاهداً كما ورد فى مستهل الخطبة «كانَ رَجُلا عابِداً»

وقلبه يفيض حكمة ومعرفة وروحه مفعمة بالصفاء والنقاء (كما يتجلى ذلك من سؤاله) ولكن مهما كانت روحه سامية لا يمكن مقارنتها بروح أمير المؤمنين عليه السلام التى تمثّل بحراً من السمّو والكمال، ومن هنا لم يسع قلب همام تحمل كلّ تلك المفاهيم والمعارف، وهل يمكن سكب البحر فى جدول صغير؟ وعليه فليس من العجب أن يصعق همام صعقة تكون نفسه فيها ويفارق الدنيا.

فقد ورد فى القرآن الكريم بشأن قصة موسى وبنى اسرائيل وتجلى النور الإلهى للجبل: «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً»[۹۱۱].

فلم يقتصر الأمر على عدم تحمل موسى، بل إنهار ذلك الجبل بعظمته.

نعم! فالمواعظ التى تنطلق من القلب تستقر هكذا فى القلب، والمهم أن يكون الإنسان من ذوى

«الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ»

وإلّا فالعتاة من الأفراد من ذوى القلوب

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۴۷

القاسية والملوثة والواقعة فى شباك الشيطان لا تمتلك الآذان الصاغية لسماع المواعظ ولا القلب الوادع لاستيعابها.

بعبارة أخرى أنّ همام وإن كان متّقياً عالى الهمّة، لكنه لم ير فى نفسه ذلك السمّو الذى بيّنه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة، فاشتعلت فى أعماقه نيران الحسرة وصعقت نفسه كمداً.

ويشهد التاريخ الإسلامى على وجود العديد من هذه النماذج من الآثمين أحياناً الذين عادوا إلى رشدهم وعدد من المتّقين الذين سمعوا مثل هذه المواعظ فلم يتحملوها وفارقوا الحياة[۹۱۲].

وهنالك احتمال ثالث وهو أنّ همام لما سمع البشائر التى ذكرها أميرالمؤمنين عليه السلام للمتّقين حلقت روحه شوقاً إلى ديار المعبود لتعانق الجنان.

وجاء فى الخبر أنّ «ربيع بن الخُثَيم» كان فى ذلك المجلس فلما صعق همام جرت دموعه على خديه وقال لأمير المؤمنين عليه السلام ما أسرع أثر وعظك فى ابن أخى ليتنى كنت مكانه، فقال عليه السلام:

«هكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا!»[۹۱۳].

والجواب عن السؤال الثانى هو ما ذكره الإمام عليه السلام أنّ لكلّ إنسان أجلًا فلا يفارق الدنيا حتى يحلّ أجله، ولكن حين حلول الأجل يمكن أن يكون العامل النهائى بعض الأمور المختلفة، والعامل النهائى هنا العبارات العميقة لأمير المؤمنين عليه السلام، أضف إلى ذلك لا يمكن مقارنة روح الإمام عليه السلام بروح همام، فروح الإمام بحر متلاطم من الأمواج وليس من قبيل البركة التى تتغير أوضاعها بفعل التلاطم الشديد للمياه.

ويتّضح ممّا تقدم جواب السؤال الثالث وهو لِمَ قبل الإمام عليه السلام طلب همام وبين له تلك المواعظ الشافية والكافية والساميّة، بينما قال عليه السلام كنت أخشى عليه هذه

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۴۸

الحادثة؟! لأنّ العامل النهائى حين حلّ أجله يمكن أن يكون تغييراً لمختلف أجهزة البدن أو الأمواج المعنويّة العاتية داخل الروح.

أمّا قول الإمام عليه السلام للمعترض: (لا تعدّ لمثلها فإنّما نفث الشيطان على لسانك) فذلك لأنّه لم يطرح السؤال بغية التحقيق لفهم الموضوع بل كان هدفه نقض كلام الإمام عليه السلام وبعبارة أخرى إبطاله حسبما يظن، والحقّ أنّ سؤالًا بهذا الشكل ولأجل هذا الهدف لهو سؤال شيطانى.

تأمّل

نظرة أخرى لخطبة همام

هذه الخطبة فى الواقع دورة متكاملة فى الأخلاق الإسلاميّة التى تسلط الضوء على جميع زوايا الحياة الفرديّة والاجتماعيّة والماديّة والمعنويّة للإنسان، كما أنّها نظام متكامل لأولئك الذين يرومون السير والسلوك إلى اللّه.

فقد بيّنت صفات المتّقين بأسلوب بديع خلال أكثر من مائة وعشر صفات (وكأنّه عليه السلام اختار العدد الذى يمثل اسمه المبارك) فانطلق بها من إصلاح اللسان واختتمها بالتدين الاجتماعى واحترام حقوق الآخرين، فهنالك بعض الأفراد الذين ينسحبون من الميدان منذ الخطوة الأُولى أثر ضعف إيمانهم وخواء إرادتهم، لكن غيرهم من الأفراد مثل همام وباجتيازه لهذه الخصال يحث الخطى للقاء المعبود.

ومن المزايا التى تتصف بها هذه الخطبة أنّها تنتشل التقوى من صيغتها السلبيّة التى تراود أذهان البعض وتعرضها بصيغتها الإيجابيّة كما وردت فى الآيات القرآنيّة والروايات الإسلاميّة.

وهذه الخطبة لا تقول لك عليك باعتزال عن المجتمع والانقطاع عن كلّ شىء فى الدنيا لتبقى محافظاً على طهرك، بل ترشد إلى الإندكاك فى وسط المجتمع ووسط الأمواج العاتية لحياة أصحاب الدنيا بحيث لا يترك ذلك بصماته السيئة عليك، على

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۴۹

غرار الإنسان القوى البنية الذى يبقى محافظاً على سلامته وسط المرضى ويقاوم كافّة الميكروبات والجراثيم.

وقد صنف المرحوم العلّامة الشهيد المطهرى التقوى إلى قسمين فى كتابه (عشر مقالات): تقوى الضعف وتقوى القوّة، وقال عن تقوى الضعف: إنّ الإنسان وبغية صون نفسه من المعاصى يهرب من أسبابها، وتقوة القوّة: أن يخلق فى روحه قوّة وقدرة بحيث تمنحه حصانة روحية وأخلاقيّة.

ويضيف: يشاهد فى أدابنا الشعريّة والنثريّة بعض التعليمات التى تعكس التقوى بصورتها الأُولى والتى ينبغى التعامل معها بحذر، ثم يتطرق إلى شرح تقوى القوّة ويقول: «إنّ التقوى فى النصوص الدينيّة سيما نهج البلاغة تعنى تلك الملكة المقدّسة التى تمد الروح بالقوّة والإقتدار وتلجم النفس الأمّارة وتكبح جماح العواطف الجامحة»[۹۱۴].

نعم فالتقوقع والإعتزال لا يعدّ فخراً، والفخر إنّما يحقّ ليوسف عليه السلام الذى صان نفسه عن تلك الرغبات الجنسية الشديدة وحفظ نفسه من الفحشاء ببرهان ربّه وذلك مثّل التقوى فى أعلى مستوياتها.

طبعاً لا ننكر أنّ البعض لم يبلغ هذه المرحلة من التقوى (تقوى القوّة)، وما أكثر من يضطر لانتخاب الصنف الأوّل (تقوى الضعف).

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۵۱

الخطبة ۱۹۴

اشارة

يَصِفُ فيهَا الْمُنافِقِينَ ۹۱۵]

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كما يبدو من عنوانها فى المنافقين حيث تتحدث عن صفاتهم وتتكون من قسمين:
القسم الأوّل: يبتدئ بحمد اللَّه والثناء عليه والشهادة بالرسالة للنبى صلى الله عليه و آله وتركزت خاتمته على المحن العظيمة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله وما حاكه المنافقون وخصوم الدعوة الإسلاميّة ضده من مؤامرات خطيرة، وحيث تواصل خط النفاق واشتد بعد النّبى صلى الله عليه و آله على عهد الإمام عليه السلام فقد حذر عليه السلام فى القسم الثانى من الخطبة من خطورة المنافقين وذكر بالأدلة والبراهين للمجتمع الإسلامى خصائصهم الواحدة تلو الأخرى ليتعرف عليهم جميع المسلمين ويقبروا مؤامراتهم فى مهدها.
نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۵۳

القسم الأوّل

اشارة

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، ونَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَمَاماً، وبِحَبْلِهِ اعْتِصَاماً. ونَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كُلَّ غَمْرَةٍ، وتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ. وقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الأَدْنَوْنَ، وتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ، وخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا، وضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَها، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ، وأَسْحَقِ الْمَزَارِ.

الشرح والتفسير: محن الرسالة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة كسائر الخطب بحمد اللَّه والثناء عليه والشهادة للنبى صلى الله عليه و آله بالرسالة، وقرن الحمد والثناء هنا بالتضرع والدعاء فقال:
«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ[۹۱۶] عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، ونَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَماماً، وبِحَبْلِهِ اعْتِصَاماً».
ولما كان أعظم فخر للإنسان هو التوفيق للطاعة وترك المعصية، فقد ركز الإمام عليه السلام هنا على هاتين النقطتين، والمراد من التوفيق هنا توفير أسباب الطاعة وترك المعصية، ذلك لأنّ اللَّه أفاض علينا العقل والفطنة والضمير الحى وبعث الأنبياء والرسل وأنزل الكتب السماوية التى تقرّبنا جميعاً من الطاعة وتبعدنا عن المعصية، ولولا هذه الأسباب لغرقنا فى مستنقع المعصية، وعليه يجدر بنا حمد اللَّه وشكره على الدوام على هذه النعم العظيمة.
أمّا الدعاء الذى ذكره الإمام عليه السلام فى عبارتين عقب هذا الحمد والثناء؛ فهو يتعلق

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۵۴

بطلب إكمال هذه النعم والتوفيق للاعتصام بحبل اللّه، والمراد منه دين اللّه كما يفهم من الآية الشريفة: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا»[۹۱۷].

أو المراد القرآنالكريم كما يستفاد من حديث الثقلين حيث قوله:

«كِتابَ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَالسَّماءِ الَىالأَرْضِ»[۹۱۸]

أو المراد كلاهما حيث ليس هنالك من فارق بينهما.

الحقّ سنصبح أسعد الناس إن شملنا هذا التوفيق الإلهى بحيث تتمّ نعمه علينا ويقوى تمسكنا بحبل اللّه.

وقد طرح بعض شرّاح نهج البلاغة إشكالًا مفاده: كيف يطلب الإمام عليه السلام إتمام النعمة، بينما صرّح القرآن الكريم قائلًا: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَاتُحْصُوهَا»[۹۱۹] فى إشارة إلى أنّ نعم اللّه خارجة عن حدود العد والإحصاء؟

ولكن ما ينبغى الإلتفات إليه هو أنّ لإتمام النعم مراحل ودرجات؛ فإن تعذر على الإنسان بلوغ المرحلة النهائيّة فإنّه يستطيع الوصول إلى سائر مراحلها الأخرى وهذا ما سأله الإمام عليه السلام اللّه تبارك وتعالى.

ثم شهد عليه السلام بنبوّة النّبى صلى الله عليه و آله بذكر بعض الصفات البارزة من صفاته فقال:

«ونَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِاللَّهِ كُلَغَمْرَة[۹۲۰]، وتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَغُصَّة[۹۲۱]».

وهاتان الصفتان التى بينهما الإمام عليه السلام بشأن النّبى صلى الله عليه و آله جامعتان لكلّ صفات الخير؛ فالوقوف بوجه المحن والجلد على المصائب مالم يقترن بتلك المقاومة والتحمل فإنّه لن يتمخض عن تبلور الأعمال ذات الأهميّة.

وتشير العبارة:

«تَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّة»

إلى أنّ المحن والخطوب التى تحملها رسول اللّه صلى الله عليه و آله لم تكن واحدة أو اثنتين بل كان يتجرعها الواحدة تلو الأخرى

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۵۵

فقد تحمل من أعداء الإسلام أشد المصاعب، صابراً حيث زرعوا طريقه بالأشواك والعقبات، لكنه تخطاها جميعاً، وهذا بحد ذاته درس لجميع الأفراد الذين يرومون مواجهة الطاغوت وإصلاح مجتمعهم.

ثم بين الإمام عليه السلام جانباً من بعض المصائب العظيمة التى واجهها النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله إبان الدعوة إلى اللّه بعبارات قصيرة وعميقة المعنى فقال:

«وقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الأَدْنَوْنَ ۹۲۲]،

وتَأَلَّبَ ۹۲۳] عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ، وخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا[۹۲۴]، وضَرَبَتْ إِلى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا[۹۲۵]، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَها، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ، وأَسْحَقِ ۹۲۶] الْمَزَارِ».

والعبارة:

«تَلَوَّنَ لَهُ الأَدْنَوْنَ»

إشارة إلى أنّ البعض من قرابة النّبى صلى الله عليه و آله كالعباس الذى كان يرغب فى دعمه وإسناده لم يكن جاداً بهذا الخصوص.

والعبارة:

«تَأَلَّبَ عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ»

إشارة إلى سائر القبائل البعيدة عن قريش والتى اتّحدت مع بعضها وألّبت سائر القبائل للوقوف بوجه النّبى صلى الله عليه و آله ودعوته بحيث لم يكن يجرأ أحد من قرابته للدفاع عنه بشجاعة فى ظلّ تلك الظروف كما كانت وتيرة العداء تتصاعد بالشكل الذى يصعب

معه مواجهتها.

والعبارة:

«خَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا، وضَرَبَتْ إِلى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا»

إشارة إلى سرعة وجدّية الخصوم فى معاداته صلى الله عليه و آله، ذلك لأنّهم حين يريدون للراحلة أن تسير بسرعة يسلسون قيادها ويضربون بطنها واضلاعها. والتاريخ الإسلامى بكلّ فصوله وصفحاته ليشهد على هذه الحقيقة، حيث إنّ الأعداء لم يتورعوا عن القيام بأى فعل كانوا يعتقدون أنّ من شأنه القضاء على الإسلام والنّبى صلى الله عليه و آله والدعوة؛ لكن اللَّه أراد لهذا النور أن يتمّ ولا يطفأ وأن يزداد إشراقاً يوماً بعد آخر، وفقد أفشل

نفحات الولاية ؛ ج۷ ؛ ص۴۵۵

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۵۶

خططهم واطفأ بمطر لطفه ورحمته نيران فتنهم ومؤامراتهم فخرج النّبى صلى الله عليه و آله من هذه الأحداث الخطيرة منتصراً مرفوع الرأس وبسط نفوذ الإسلام ونشر راياته فى غرب العالم وشرقه.

ولكن حيث كان للمنافقين فى الداخل- أولئك الذين أظهروا إسلامهم وإلتحقوا ظاهرياً بركب المسلمين بينما كانت قلوبهم مع الأعداء وتختزن البغض والعداء- دور مهم وخطير تواصل حتى عهد الإمام عليه السلام وتغلغل بين صفوف المسلمين، فقد حذّر المسلمين تحذيرات جدّية بشأن خط النفاق وشرح- كما سياتى- فى القسم القادم خصائص المنافقين وأخطارهم وسلط ابن أبى الحديد الضوء هنا على المخاطر والصعوبات التى تخطاها رسول اللَّه إبان الدعوة وقال:

«من قرأ وكتب السيرة علم ما لاقى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى ذات اللَّه من المشقّة واستهزاء قريش به فى أول الدعوة ورميهم إيّاه بالحجارة حتى أدموا عقبيه وصياح الصبيان به وفرث الكرش على رأسه وفتل الثوب فى عنقه وحصره وحصر أهله فى شعب بنى هاشم سنين عدّة محرمة معاملتهم ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم حتى كادوا يموتون جوعاً لولا أنّ بعضاً ممن كان يحنو لرحم أو لسبب غيره فهو يسرق الشىء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلًا، ثم ضربهم أصحابه وتعذيبهم بالجوع والوثاق فى الشمس وطردهم إيّاهم عن شعاب مكة حتى خرج من خرج منهم إلى الحبشة وخرج عليه السلام مستجيراً منهم تارة بثقيف وتارة ببنى عامر وتارة بربيعة الفرس وبغيرهم، ثم اجمعوا على قتله والفتك به ليلًا حتى هرب منهم لائذاً بالأوس والخزرج تاركاً أهله وأولاده حتى وصل المدينة فناصبوه الحرب ولم يزل منهم فى عناء شديد وحروب متصلة حتى أكرمه اللَّه تعالى ونصره وادّى دينه، ومن له أنس بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال ما يطول شرحه»[۹۲۷]. (هذه هى الأمور التى أشار إليها الإمام عليه السلام فى هذه العبارات القصيرة والعميقة المعنى).

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۵۷

القسم الثانى

اشارة

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، والزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، ويَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً، ويَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ، ويَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ، وصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ الْخَفَاءَ، ويَدِبُّونَ الضَّرَاءَ. وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ. حَسَدَةُ الرَّخَاءِ، ومُؤَكِّدُوالْبَلَاءِ، ومُقْنِطُوالرَّجَاءِ.

لَهُمْ بِكَلِّ طَرِيق صَرِيعٌ، وإِلَى كُلِّ قَلْب شَفِيعٌ، ولِكَلِّ شَجْودُمُوعٌ. يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، ويَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا، وإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا، وإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا.

الشرح والتفسير: خطر المنافقين

كما ذكرنا فى آخر القسم السابق فإنّ الإمام عليه السلام أشار هنا إلى صفات المنافقين ليحذر المسلمين من خطرهم فذكر أوصافهم بمنتهى الدقّة بحيث يعجز غيره بالخوض فى صفات المنافقين بهذا العمق والدقّة.

واستهل كلامه بست من صفاتهم فقال:

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، والزَّالُّونَ ۹۲۸] الْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، ويَفْتَنُّونَ ۹۲۹] افْتِنَاناً».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۵۸

فالصفة الأُولى التى ذكرها الإمام عليه السلام للمنافقين تتمثل فى ضلالهم؛ ليس ضلالهم فحسب بل إصرارهم على إضلال وإغواء الآخرين، أضف إلى ذلك فهم خاطئون يسعون إلى قذف الآخرين فى لهوات الخطأ والزلل.

ويبدو الفارق بين الضالّين والزالّين واضحاً، فالأولى إشارة إلى السير عن عمد وعلم فى طريق الضلال والغواية، وتشير الثانية إلى كثرة زلاتهم وأخطائهم.

نعم! فزلاتهم جمة كثيرة وكيف لا تكون كذلك ولم يستضيئوا بنور العلم والإيمان.

وبغض النظر عن هذه الخصال الذميمة الأربع فهم أفراد متلونون يخرجون كلّ يوم بلون معين ويلبسون شكلًا آخر فى كلّ زمان ليحققوا أغراضهم الدنيئة من خلال ذلك فإذا كانوا بين المصلّين وقفوا للصلاة، وإن خالطوا أهل الخمور والفجور انغمسوا فى تعاطيها، بالضبط كما وصفهم القرآن: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ»[۹۳۰].

وربّما يكون الفارق بين

«يتلّونون» و «يفتنون»

أنّ الأُولى تشير إلى جوانبهم وأبعادهم الظاهريّة حيث يكتسبون كلّ يوم لوناً، والثانية إشارة إلى خططهم الخفيّة بحيث يعمدون كلّ يوم لخطة مشبوهة، فطبيعة النفاق تتمثل فى أقوالهم وأفعالهم وخططهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى هذا الإطار فأشار إلى ست صفات أخرى من الصفات الخطيرة التى يتصف بها المنافقون بعبارة قصيرة عميقة المعنى فقال:

«وَيَعْمِدُونَكُمْ ۹۳۱] بِكُلِّ عِمَاد، ويَرْصُدُونَكُمْ ۹۳۲] بِكُلِّ مِرْصَاد. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ[۹۳۳]،

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۵۹

وَصِفَاحُهُمْ ۹۳۴] نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ الْخَفَاءَ، ويَدِبُّونَ ۹۳۵] الضَّرَاءَ[۹۳۶]، وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ[۹۳۷]».

والعبارة:

«ويَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَاد»

إشارة إلى أنّهم لا يتورعون عن التشبث بكلّ وسيلة للقضاء عليكم، من قبيل بثّ الشائعات وإثارة الشكوك فى صفوف المؤمنين وبث الفرقة والعداوة والبغضاء والفساد و ....

والعبارة:

«ويَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَاد»

إشارة إلى أنّهم لا يغضون الطرف عن أدنى فرصة بغية تسديد الضربات إلى السلمين والانقضاض عليهم. فهم متربصون فإذا ما سنحت أدنى فرصة وثبوا عليكم.

وجميع العبارات القادمة تعكس إزدواج شخصيّة المنافقين واختلاف ظاهرهم عن باطنهم فقال إنّ قلوبهم مريضة وظاهرهم سليم، أقوالهم تبدو شافية، غير أنّ تصرفاتهم سقيمة لا علاج لها، فجميع أعمالهم مقرونة بالمؤامرات السرية والخطط الشيطانيّة الخفيّة.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليبين ثلاث صفات أخرى فقال:

«حَسَدَةُ[۹۳۸] الرَّخَاءِ، ومُؤَكِّدُ

والْبَلَاءِ، ومُقْنِطُوالرَّجَاءِ».

قال تعالى فى القرآن المجيد: «انْ تَمَسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا»[۹۳۹] وهذه هى طبيعة المنافقين فى كلّ عصر ومصر.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۶۰

إن بثّ اليأس والتشاؤم بغية إضعاف الإرادة والقضاء على قوّة الجهاد والمقاومة، هى إحدى الحيل الخطيرة للمنافقين بحيث لو نجحت لانطوت على آثار غاية فى الخطورة، ويبدو هذا الموضوع أعظم خطورة فى العصر الراهن حيث تخيم فيه وسائل الإعلام على جميع أرجاء المعمورة، وقد وضّف المنافقون هذه الوسيلة فى داخل وخارج البلدان الإسلاميّة لإدخال اليأس فى قلوب المسلمين وصدهم عن الرقى والتقدم والتطور وتمهيد السبيل للقضاء عليهم. ولابدّ هنا من الصمود لمواجهة هؤلاء الشياطين بكلّ ما أوتى المسلمون من قوّة والتذكير بالألطاف الإلهيّة والعنايات الخفيّة وخلق الأمل هنا وهناك والجهر بهذا المبدأ: «انْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»[۹۴۰]، «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ»[۹۴۱].

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات من صفاتهم فقال:

«لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيق صَرِيعٌ ۹۴۲]، وإِلَى

كُلِّ قَلْب شَفِيعٌ، ولِكُلِّ شَجْو[۹۴۳] دُمُوعٌ».

العبارة الأُولى كناية عن كثرة الأفراد الذين يذهبون ضحية مؤامراتهم وخططهم أو يتعرضون للأذى والضرر.

وتشير العبارة الثانية إلى أنّ المنافقين يسعون بمختلف الحيل وأساليب الخداع والتملق للنفوذ إلى القلوب والإيحاء إلى الآخرين بأنّهم من أصدقائهم.

وتشير العبارة الثالثة إلى أساليبهم المضللة فى الخداع وذرف دموع التماسيح على مصائب المؤمنين ليغطوا من خلال ذلك على بغضهم الباطنى وعداوتهم

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۶۱

المتأصلة فى قلوبهم فيخدعون الناس ويستقطبونهم إلى أودية الضلال فيجعلونهم يعيشون ذلك البؤس والشقاء.

والعبارة الرابعة إشارة إلى كثرة الأفراد الذين خدعوا بهم وهلكوا بفعل ضرباتهم الموجعة، وإشارة إلى أنّ ضحاياهم ليسوا قلائل بحيث يمكن تجاوزهم بسهولة، فهم على درجة من الكثرة وكان كلّ زقاق وشارع فقد ضحية لمؤامراتهم ومخططاتهم، وبناءً على ما تقدم فلولم يتصد المسلمون لإفشال خططهم فسوف لن يسلم أحد من ضرباتهم المهلكة.

والعبارة الخامسة تخبر عن ألاعيبهم بغية اختراق القلوب، فهم على الدوام شركاء مع اللصوص ورفاق قطاع الطرق والذين يزودون السراق بكلّ المعلومات عن القوافل ويتعاونون معهم جنباً إلى جنب، ولذلك فهم يسعون ليوحوا لكلّ من يصادفونه أنّهم من خلص

أصدقائه.

والعبارة السادسة هى إكمال وتأكيد لما ورد فى العبارة السابقة؛ فهؤلاء يصوّرون للآخرين أنّهم يشاطرونهم أحزانهم ويذرفون دموع التماسيح على مصائبهم بينما يضحكون فى باطنهم ويشعرون بالسرور والفرح، نعم هذا هوديدن النفاق.

وأشار عليه السلام فى مواصلته لكلامه إلى صفتين قبيحتين وذميمتين من صفات المنافقين فقال:

«يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، ويَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ».

نعم فكلّ واحد منهم يخوض فى المجلس فى مدح الآخر والاشادة به وينسب له بعض الصفات الحميدة التى ليس لها من صلة بشخصيته، على أساس أنّه يطالبه أن يعامله بالمثل فيمدحه ويثنى عليه فى مجلس آخر، فمدحهم وثنائهم لا ينطلق من الحقّ قط وتقدير المحسنين والأخيار، بل الهدف سماع المزيد من الكذب المشابه لما يورد بحقّه.

والعبارة:

«يَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ»

هى الأخرى تأكيد على هذا الموضوع وتعبير آخر عن هذه الصفة الذميمة والمريضة، أى أنّهم لا يقدمون خدمة مجانيّة بعيدة عن الرياء لكائن من كان، بل يتوقعون مقابلها خدمة لهم، ولا يقتصر ذلك على الثناء فحسب بل فى كلّ أمر وحيثما ما كان.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۶۲

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام هذا القسم ببيان ثلاث رذائل أخلاقيّة ذميمة للمنافقين فقال:

«انْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا[۹۴۴]، وإِنْ عَذَلُوا[۹۴۵] كَشَفُوا، وإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا».

إنّ حاجة الناس لبعضها البعض ممّا لا يمكن إنكاره وقد توجب هذه الحاجة أحياناً أن يلجأ أحد للآخر لمساعدته فى حلّ مشكلته، إلّاأنّ الإلحاح عمل قبيح، فذلك الطرف المقابل ربّما لا يريد أو يتعذر عليه القيام بذلك العمل أو قبول ذلك الطلب فيشعر بحالة من الخجل والانزعاج من ذلك الإلحاح.

قال القرآن الكريم فى بيان صفة المؤمن حين الحاجة: «لَايَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً»[۹۴۶] إلّاأنّ المنافقين يريدون نيل أهدافهم وإن أخذ الطرف المقابل حياءً واضطر للعمل خلاف رغبته وميله؛ وكذلك إن إرادوا نصح شخص وأمره بالمعروف كما يزعمون ذهبوا بماء وجهه وسط الآخرين، بينما صرحت التعاليم الإسلاميّة بأنّ هذا العمل ينبغى أن يتمّ بمنتهى الدقّة واللطافة؛ بما يحفظ ماء وجه المسلم ولا يكدره ويجعله يعيش حالة من الحزن والغم.

وتشير العبارة:

«وإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا»

إلى أنّ المنافقين إن بلغوا منصباً فإنّهم ليس فقط لا- يؤدّون حقّ ذلك المنصب، بل يسلكون طريق الاسراف فيغضبون اللّه والناس لضمان مصالحهم اللامشروعة، قال القرآن الكريم بشأن بعض المنافقين:

«وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الْفَسَادَ»[۹۴۷].

ويحتمل أن يكون المراد من قوله

«إِنْ حَكَمُوا»

أنّهم إن تصدّوا للحكم فى مسألة معينة فإنّ حكمهم لا يستند إلى العدل قط وأنّهم ينتهكون حدود العدل والقسط، ولا مانع من الجمع بين التفسيرين.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۶۳

القسم الثالث

اشارهٔ

قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلًا، ولِكُلِّ قَائِم مَائِلًا، ولِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا، ولِكُلِّ بَاب مِفْتَاحاً، ولِكُلِّ لَيْل مِصْباحاً. يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، ويُنْفِقُوا بِهِ أَعْلَاقَهُمْ، يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ، ويَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ. قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ، فَهُمْ لُمَةُ الشَّيْطَانِ، وحُمَةُ النِّيْرَانِ:

(أُولئِکَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

الشرح والتفسير: التخطيط الدقيق للمنافقين

أشار الإمام عليه السلام فى هذا الحانب من الخطبهٔ الذى يمثل ختامها إلى أنّ المنافقين يندفعون نحو تنفيذ مآربهم وفق خطط جهنميّهٔ متكاملهٔ، واستنفروا أفكارهم لحل كلّ معضلهٔ تعرض عليهم وأعدوا البرامج اللازمهٔ للقضاء على معارضيهم فقال عليه السلام:

«قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلًا، ولِكُلِّ قَائِم مَائِلًا، ولِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا، ولِكُلِّ بَاب مِفْتَاحاً، ولِكُلِّ لَيْل مِصْبَاحاً».

فقد كشف الإمام عليه السلام عن حقيقهٔ فى هذه العبارات الخمس واستناداً لمفردهٔ

«أَعَدُّوا»

أنّ المنافقين يلمّون بجميع الشؤون الإيجابيهٔ للمجتمع ويخططون لمواجهتها والقضاء عليها، وقد انطلقوا من بعض الحلول حتى فى المواقف الصعبهٔ التى تواجههم ليتمكنوا من خلال ذلک من فتح ما أغلق عليهم من أبواب وإزالهٔ ما يعترض طريقهم من عقبات، فهم يحملون سراجاً فى الليالى الظلماء لتحقيق مآربهم.

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۴۶۴

وكثيراً ما تلاحظ الشواهد الحيّهٔ لهذه العبارات العميقهٔ المعنى فى كلام الإمام عليه السلام طيلهٔ التاريخ ولا سيما القرون الإسلاميّهٔ الأُولى ومن ذلک الحجج والذرائع لتنحيهٔ الإمام عليه السلام عن الخلافهٔ (كونه شاباً أو فيه دعابهٔ) وإحراق بيت الوحى بعد النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله بذريعهٔ المخالفهٔ لإجماع المسلمين (الإجماع الذى ليس له من وجود خارجى) والمطالبهٔ بدم عثمان ومن جانب أولئک الذين تلطخت أيديهم بدمه، ورفع القرآن على أسنهٔ الرماح حين الأشراف على الهزيمهٔ وما شابه ذلک.

والطريف أنّهم يتشبثون أحياناً ببعض الأُمور التى تثير الدهشهٔ لدى كلّ إنسان مطلع؛ مثلًا حين قيل لجيش معاويهٔ إنّكم أنتم «الفئه الباغيه» التى أخبر عنها رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى حديثه المعروف بشأن عمار حين خاطبه قبل ثلاثين سنهٔ وقال له:

«يا عَمّارُ تَقْتُلُکَ الفِئةُ الباغيةِ»

فردّوا على ذلک: إنّ قاتل عمار هو على، لأنّه هو الذى أتى به! ونحن لم نقتله ۹۴۸].

ثم أشار عليه السلام إلى حيلهٔ أخرى من حيلهم فى النفوذ إلى القلوب فقال:

«يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، ويُنْفِقُوا بِهِ أَعْلَاقَهُمْ ۹۴۹]».

فهم نفعيون مشبوهون رأس مالهم الكفر والنفاق والضلال وزبائنهم السذج من الأفراد وثمن هذه المعاملهٔ فقدان الدين والإيمان، على غرار بعض التجار الذين لا يهتمون للمشترى حين الشراء بغيهٔ استقطاب الآخرين لشراء بضائعهم على أساس أن:

«الإنْسانُ حَريصٌ عَلى ما مُنِعَ»

فيثيروا الرغبهٔ لدى الطرف المقابل ليقبل على متاعهم الفاسد والتالف فيشتريه بأغلى الأثمان.

ثم قال عليه السلام:

«يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ، ويَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ ۹۵۰]».
نعم! فهؤلاء دائماً ما يبدون النفاق والضلال بصيغة الحقّ ليقبله منهم الناس
نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۶۵
الذين ينشدون الحقّ بفعل فطرتهم وطبيعتهم فيغوصوا فى مستنقع من الضلال.
وقال فى صفة أخرى
«قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وأَضْلَعُوا[۹۵۱] الْمَضِيقَ».
ونحن نجد هذا الأسلوب عند منافقى عصرنا الذين يستقطبون العديد من الناس بسهولة ويلحقونهم بهم، ثم يقطعون العديد من التعهدات والمواثيق التى يبدو من الصعوبة بمكان الخروج منها كما يقوم الاستكبار العالمى الناهب وبغية توريط الأمم والشعوب بمنحها بعض القروض وبشروط غاية فى السهولة بادئ الأمر، فإذا ما وقعت فى شباكهم وخدعت بألاعيبهم مارسوا معها مختلف الضغوط وبشتى الوسائل ليفرضوا عليها رغباتهم وأغراضهم فى حين تكون هذه الشعوب قد غاصت فى مأزق يصعب عليها الخروج منه.
وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام خطبته بهذا التحذير قائلًا:
«فَهُمْ لُمَةُ[۹۵۲] الشَّيْطَانِ، وحُمَةُ[۹۵۳]
النِّيْرَانِ:
«أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ»[۹۵۴]».

تأمّل

النفاق والمنافقون طيلة التاريخ

لا يسع أحد تحديد الانطلاقة التاريخية للنفاق والمنافقين. فهنالك العديد من الأفراد الفاسدين والمفسدين فى المجتمعات البشريّة الذين ينبرون للمواجهة حين يمتلكون القوّة والقدرة اللازمة لها؛ ولكنهم حين يتجرّعون الهزيمة، يعمدون إلى إرتداء ثوب النفاق ليتحولوا إلى خلايا سرية ويواصلوا من خلال ذلك العمل لتحقيق أهدافهم المشبوهة، ويبدو أنّهم يستسلمون فى الظاهر ويعربون عن إخلاصهم وإلتحاقهم بالجماهير لكنهم يعتمدون سرياً مختلف الخطط والمشاريع لتحقيق
نفحات الولايه، ج۷، ص: ۴۶۶
مآربهم وأهدافهم المُغرضة.
ولعل من أبرز خصائص المنافقين الإزدواج فى الشخصية، الإزدواج فى الظاهر والباطن والقول والفعل والمجالس الخاصّة والعامّة وبالتالى الإزدواج فى كلّ شىء والذى شرحه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بعبارات بمنتهى العمق والدقّة، فهؤلاء يزعمون أنّهم مصلحون بينما فى الواقع هم مفسدون حقيقيون، ويحسبون أنفسهم أذكياء وعقلاء والآخرين حمقى وأغبياء، والحال هم الحمقى والبلهاء.
وهؤلاء شركاء اللصوص وأصحاب القوافل ورفاق الناس وعملاء الأجانب الذين يعتاشون على البلد ويعيشون التبعية للاستعمار.
وإذا ما برزت عاصفة وجدّ الجدّ وحان وقت التضحية والفداء التمسوا الذرائع الواهية وصرحوا «إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ»[۹۵۵] وانسحبوا من الميدان، وهنا بالضبط تتكشف أوجه النفاق ويماط اللثام عنها أثر بروز الأحداث والصعوبات.

وخلافاً لما يعتقده بعض السذج من أبناء العامّة من أنّ كلّ من رآى رسول اللّه صلى الله عليه و آله وسمع كلامه أو وقعت عيناه عليه اكتسب هالة من القدسيّة واصطلح عليه بالصحابى وأحرزت عدالته وصدقه، فإنّ هنالك العديد من المنافقين الخطرين بين معاصرين لرسول اللّه صلى الله عليه و آله والذين أشارت إليهم سورة المنافقين وكما أشارت بصورة أوضح وأعمق سورة التوبة وسورة الأحزاب وسائر السور القرآنيّة، وكان لرسول اللّه صلى الله عليه و آله موقفه الشديد منهم، ومن يتأمّل هذه السور القرآنيّة ويتمعن فيها يدرك شدّة موجة النفاق حتى فى آواخر عمر النّبى صلى الله عليه و آله إلّاأنّ نفوذ النّبى وقدرته والانتصارات الباهرة للمؤمنين سلبتهم زمام المبادرة.

فقد نشطوا عقب رحيل النّبى صلى الله عليه و آله وأعدوا مختلف الخطط المشبوهة وبلغ سعيهم درجة بحيث اعتلوا على عهد بنى أميّة منبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله بعنوان خلفاء النّبى صلى الله عليه و آله حيث شغله من اعتنق الإسلام آواخر عهد النّبى صلى الله عليه و آله وابن أعدى أعداء النبى ألا وهو

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۶۷

معاوية «خال المؤمنين» وهذه قصة لا مجال لبحثها.

وكثيراً ما يشاهد اليوم النفاق فى عالمنا المعاصر أكثر من أى وقت مضى، حيث ينشط فيها المنافقون بإعداد مختلف الخطط التآمرية وبوسائل وأدوات وإمكانات هائلة والكثير من العملاء فى مختلف بقاع العالم والاستفادة من جميع الوسائل الحديثة والمتطورة والمشاريع الشيطانيّة.

كما تمارس البلدان الاستعمارية التى تتوقف حياتها على إمتصاص دماء الآخرين مختلف الجرائم والجنايات تحت غطاء بعض العناوين البراقة من قبيل حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية، سيما فى البلدان التى لا تتماشى مع سياستهم، حيث تتعالى أصواتهم لممارسة أدنى عنف بحقّ سجين بينما تخرس ألسنتهم حيال ما يجرى فى سائر السجون كسجن «أبو غريب» فى العراق و «غوانتانامو» حيث ترتكب أبشع الجرائم التى قل نظيرها فى التاريخ والتى دوت فضائحها فى مختلف أرجاء العالم.

فهم يسعون فى ظلّ هذه الحرية لسلب حرية العمل والعقيدة جميع معارضيهم ويسعون لترسيخ وتأسيس الحكومات العميلة لهم، بل لا يتورعون أحياناً من التصريح علناً بأنّ أفضل خيار لنا هى الحكومات التى ترعى مصالحنا.

وبالتالى يتحدّث هؤلاء عن الحكومات الشعبية، بينما يسعون جاهدين لإسقاط أى حكومة يقف ورائها الشعب لكنها لا تضمن مصالحهم.

ولعل إحدى طرقهم الخبيثة ما يقدمونه أحياناً كمساعدات أو قروض دون مقابل وأخرى مع مقابل وفائدة، والهدف غير المعلن بالطبع هوخلق التبعية فى تلك الدول والبلدان، ذلك لأنّها إن أصبحت تابعة كان عليها أن تقبل مكرهة كلّ ما يملى عليها؛ وهذه قصة عميقة الفصول كثيرة التشعب يتطلب شرحها العديد من الكتب والمجلات وليس هنالك من سبيل للخلاص من مخالب هؤلاء المنافقين المتغطرسين والمتسلطين والمتلونين سوى وحدة الشعوب المظلومة والمقهورة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۶۸

فتقوم بالدرجة الأولى بكشف النقاب عنها وكشف حقيقتها ليعرفها الجميع، ثم تهب وفق خطة مدروسة لمقاومتها، والحقّ بما أنّ المنافقين يقتصرون على تحقيق أهدافهم الماديّة فإنّهم يفتقرون إلى روح الفداء والتضحية وبالتالى فهم محكومون بالهزيمة والفشل.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۶۹

الخطبة ۱۹۵

اشارة

يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِى عَلى نَبِيِّهِ وَيَعِض ۹۵۶]

نظرة إلى الخطبة

يمكن تصنيف الأبحاث التى بينها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: حمد اللَّه والثناء عليه مع ذكر بعض آثار الذات القدسيّة والتى تعدّ من عجائب عالم الوجود، ثم الشهادة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالرسالة والإشارة إلى بعض الصفات البارزة من صفاته.

والقسم الثانى: إشارة إلى الهدف من خلق الإنسان ومراقبة اللَّه له وشرحها بعبارات غاية فى الروعة والجمال.

والقسم الثالث: الوعظ بالتقوى والاستعداد لحساب الآخرة وحضور محكمة العدل الإلهيّة.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۷۱

القسم الأوّل

اشارة

الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، ورَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ.

وأَشْهَدُ أَنْ لَاإِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، شَهَادَةَ إِيمان وإِيقَان، وإِخْلَاص وإِذْعَان. وأَشْهَدُ أَنَّ مَحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَةٌ، ومَنَاهِجُ الدِّين طَامِسَةٌ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ؛ ونَصَحَ لِلْخَلْقِ، وهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ.

الشرح والتفسير: البعثة النبوية والظروف الصعبة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة- كسائر الخطب- بحمد اللَّه والثناء عليه، ولكن بعبارات جديدة وتشبيهات مربية للنفوس ومهذبة لها.

فقال:

«الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَ ۹۵۷]

الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، ورَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِم ۹۵۸] النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ».

حقّاً لو أمعن الإنسان النظر فى عالم الخلق من الذرة حتى المنظومات السماوية والمجرات وأنواع النباتات والأزهار والثمار مروراً بالأصناف العجيبة للحيوانات

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۷۲

والطيور والسباع وحيتان البحار ووحوش الصحارى والأنواع المذهلة للحشرات والأحياء الدقيقة لتعرف كلّ يوم على عجائب جديدة وغرائب شتى فيها؛ والتى يكشف عنها كلّ يوم تطور العلم البشرى ويعكس عجائب خلقتها بما يجعل الإنسان يعيش حالة من الذهول إزاء قدرة الخالق الحكيم، وهذه هى الحقيقة التى تتضح يوماً بعد آخر فى أنّه أسمى من الخيال والقياس والوهم، بل أسمى من كلّ ما

رأينا وقرأنا وكتبنا.

ثم اتّجه عليه السلام صوب الاقرار بالشهادتين ليبيّن كلّ واحدة منهما بعبارات جديدة فقال:

«وأَشْهَدُ أنْ لَاإلَهَ إلَّا اللَّهُ، شَهَادَةَ إِيمان وإِيقَان، وإِخْلَاص وإِذْعَان ٩٥٩]».

فهـذه العبارات الأربع (إيمان وإيقان وإخلاص وإذعان) تشير إلى أربع مراحل من العقائد الدينيّة، فالإيمان هو المرحلة الأُولى حيث يقرّ الإنسان بشيء ثم يؤمن به رغم ما يثار حوله من شكوك وشبهات جزئية؛ ولكن مرحلة الإيقان هي المرحلة التى يزول فيها تلك الشبهات والشكوك ويضحى فيها الإيمان القلبى شفافاً ومشرقاً.

ومرحلة الإخلاص مرحلة نفى كلّ ما سوى اللّه فلا يرى المؤمن سواه فيعشقه ويناجيه ويطلب منه ولا يلتفت إلى أحد غيره، وأخيراً ترد مرحلة الإذعان التى تعنى حسب أرباب اللغة الإقرار المقرون بالخضوع، أى يظهر إيمانه فى جميع أعماله وأقواله وتصرفاته، فتصطبغ حياته بالصبغة الربّانيّة فيصبح مصداقاً لقوله تعالى «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً»[٩٦٠].

ومن الطبيعى أنّ الإيمان واليقين والإخلاص كلّما تجذر فى الإنسان كانت ثمرته النهائية تلك الأعمال.

ولما فرغ عليه السلام من الشهادة للّهبالوحدانيّة خاض فى الشهادة بالرسالة مع ذكر بعض

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۷۳

الصفات البارزة للنبى صلى الله عليه و آله وأهدافه؛ فقال:

«وأَشْهَدُ أَنَّ محَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَةٌ[٩٦١]، ومَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ[٩٦٢]، فَصَدَعَ ٩٦٣] بِالْحَقِّ؛ ونَصَحَ لِلْخَلْقِ، وهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ».

والعبارة:

«أَعْلَامُ الْهُدَى»

تعنى العلامات التى توضع فى طريق المسافرين حتى لا يضلوا الطريق (كالإشارات الضوئيّة التى تنصبها إدارة المرور فى الطرق والشوارع ليتعرف الناس على تلك الطرق) وتشير هنا إلى تعاليم أئمّة الدين وإرشادات الكتب السماوية.

والعبارة:

«ومَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ»

إشارة إلى قوانين السماء التى اعتراها النسيان على عهد الجاهليّة.

نعم فقد نهض رسول اللّه صلى الله عليه و آله بالأمر وحمل لواء الدعوة فى ظلّ هذه الظروف وذلك الوسط الذى خيمت فيه ظلمات الكفر على كلّ مكان فقام بأربعة أمور: الأوّل أنّه بين الحقّ فى المعارف الدينيّة بصورة جلية، ثم هب لابتغاء الخير للناس ودعاهم بإرشاداته ومواعظه إلى ترك الذنوب والفساد والآثام وإمتثال الأوامر والطاعة للّهورسوله، وهداهم فى المرحلة الثالثة إلى كلّ ما فيه سموهم وتكاملهم، وأخيراً أوصاهم بالعدل والقسط والاعتدال فى جميع الأمور (صلوات اللّه وسلامه عليه)، فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة إلى أركان الدعوة الإسلاميّة إلى جانب رسمه صورة واضحة للاوضاع فى عصر الجاهليّة.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۷۵

القسم الثانى

اشارة

واعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، ولَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا، عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ، وأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ، فَاسْتَفْتِحُوهُ، واسْتَنْجِحُوهُ،

واطْلُبُوا إِلَيْهِ واسْـتَمْنِحُوهُ، فَمـا قَطَعَكَمْ عَنْهُ حِجـابٌ، وَلـا أَغْلِقَ عَنْكَمْ دُونَهُ بـابٌ، وإنَّهُ لَبِكَـلِّ مَكَان، وفِی كُلِّ حِین وأَوَان، ومَعَ كُلِّ إِنْس وجَـانٍّ؛ لَـايَثْلِمُهُ الْعَطَـاءُ، وَلـا يَنْقُصُهُ الْحِبَـاءُ، وَلَا يَسْـتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَقْصِـيهِ نَائِلٌ، وَلَا يَلْوِيهِ شَـخْصٌ عَنْ شَـخْص، وَلَا يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْت، وَلَـا تَحْجُزُهُ هِبَـةٌ عَنْ سَـلْب، وَلَـا يَشْـغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَـة، وَلَا تُولِهُهُ رَحْمَـةٌ عَنْ عِقَاب، وَلَا يُجِنُّهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُور، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ. قَرُبَ فَنَأَى، وعَلَا فَدَنَا، وظَهَرَ فَبَطَنَ، وبَطَنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ ولَمْ يُدَنْ. لَمْ يَذْرَءِ الْخَلْقَ بِاحْتِيَال، وَلَا اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَال.

الشرح والتفسير: الموائد الإلهيّة المطلقة

أشار الإمام عليه السـلام فی هـذا المقطع من الخطبـة إلی ثلاث مسائل رئيسـيّة: الأُولی هـدف الخليقة، ثم النعم الجمة التی تفاض علی جميع العباد، وأخيراً التأكيد علی المراقبة الدائمية والحضور الإلهی فی كلّ مكان وعلی كلّ حال. فقال فی الأمر الأوّل:

«واعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، ولَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا[۹۶۴]».

وهذا هو اقتباس من الآية الشريفة: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۷۶

لَاتُرْجَعُونَ»[۹۶۵].

ومن المفروغ منه أنّ اللَّه عليم وحكيم لاـ يفعـل العبث قط، رغم أنّ منافع الأفعال وفوائـدها لا تعود عليه بشـیء؛ لأنّه غنی مطلق، ولكن بالطبع لأفعاله آثار وبركات تعود علی عباده.

وبما أنّ الشرط الأوّل لبلوغ الهدف يتمثل فی وجود الهادی والمرشد فقد وردت العبارة:

«لَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا»

عقب العبارة

«لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً»

، لأنّ الإرسال فی مثل هـذه الحالات بمعنی الترك والهمل تقال فی الأصل للقطيع دون راعٍ، وعلی هـذا الضوء تتّضح مسؤولية الإنسان إزاء أهداف الخليقة وهداية الأولياء.

وقال عليه السلام فی المسألة الثانية:

«عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ، وأَحْصَی إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ».

والنعمـة والإحسان تشـمل جميع النعم الماديّـة والمعنويّـة بالإضافـة إلی مختلف القابليات والاسـتعدادات الباطنيّة، وهذا يعنی أنّ الناس يتمتعون بنعمه فلا يسـلكون طريق الجحود ولا يهـدرون نعم اللَّه ويجتنبون الكسل والتقاعس فی الانتفاع بهـذه النعم وليعلموا أنّ جميع الأسباب والوسائل متوفرة للوصول إلی الهدف المنشود والكمال المطلوب.

ثم انتقل إلی المسألة الثالثة فقال عليه السلام:

«فَاسْتَفْتِحُوهُ ۹۶۶]، واسْتَنْجِحُوهُ ۹۶۷]، واطْلُبُوا إِلَيْهِ

واسْتَمْنِحُوهُ ۹۶۸]، فَما قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ».

إشـارة إلی أنّ الفيض جـاهز من المبـدیء الفياض، وقـد جاء الآن دوركم لتمـدوا إلی خزائن لطفه يـد العوز والحاجـة وتفتحوا أبواب رحمته وتسألوه التوفيق والفلاح، وأننا لنعلم بالطبع أنّ النتيجة ستكون قطعيّة وحتميّة حين تقترن قابلية

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۷۷

القابل بفاعلية الفاعل.

وخلافـاً لما يظنه الوثنيون وعبـدة الأصـنام والمشـركون وأتباعهم فی عصـرنا الراهن من أنّه لا ينبغی التوجه مباشـرة إلی اللَّه ولابـدّ من

عبادة غيره ليفتح لهم الطريق إليه تعالى فقد صرح الإمام عليه السلام أن ليس هنالك من مانع ولا رادع فى الطريق ولكلّ العباد طرق بابه وإن استعانوا أحياناً بوجاهة الشفعاء فهذا تأكيد آخر على الاتصال المباشر بالذات القدسيّة وإمتثال أوامره.

ثم خاض فى توضيح هذا الكلام من خلال الإشارة إلى ثلاث نقاط أخرى ليوضح من خلالها الفارق بين عطاء اللّه وبذل الآخرين فقال:

«وإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَان، وفِى كُلِّ حِين وأَوَان، ومَعَ كُلِّ إِنْس وجَانٍّ؛ لَايَثْلِمُهُ ۹۶۹] الْعَطَاءُ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْحِبَاءُ[۹۷۰]، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ».

حيث إنّ اللّه الرحيم حاضر فى كلّ مكان وتمد إلى ساحة كبريائه أعناق وأيدى جميع المحتاجين، بل هو مع كلّ شخص أينما كان، ومن جانب آخر فإنّه ليس لعطائه من حدود، وهو دائم لا ينضب ولا ينفد ولا يخشى عليه التقتير على الآخرين إن منح البعض الآخر، لأنّه وجود لامتناهٍ من جميع الجهات ومن هنا فإنّ جوده وكرمه لا متناهٍ ونعمته وعطاءه لامتناهيان أيضاً، بل كما ورد فى دعاء الافتتاح:

«ولا تَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطاءِ إِلَّا جُوداً وكَرَماً»

، إشارة إلى أنّه كلّما أفاض أكثر كلّما ازداد أمل الناس بجوده وكرمه.

ثم خاض فى المسألة الثالثة:

«وَلَا يَلْوِيهِ ۹۷۱] شَخْصٌ عَنْ شَخْص، وَلَا يُلْهِيهِ صَوْتٌ

عَنْ صَوْت، وَلَا تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْب، وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَة، وَلَا تُولِهُهُ ۹۷۲]

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۷۸

رَحْمَةٌ عَنْ عِقَاب، وَلَا يُجِنُّهُ ۹۷۳] الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ».

فهذه العبارات السبع تشجيع من جانب للعباد فى أن يسألوه كلّ ما يريدون، ويعلموا أنّه لو تزامنت مع طلبات الخليقة كافّة فإنّه عليم بكلّ هذه الطلبات خبير بها، الأمر الذى لا يدركه اطلاقاً سوى اللّه تبارك وتعالى وكل ما سواه قد يشغله سؤال شخص عن الإلتفات إلى سؤال آخر.

ومن جانب آخر تحذير لجميع العباد فى مراقبة حضور اللّه تبارك وتعالى فى جميع الأحوال وليدركوا كما أنّ نعمه وعطاياه لامتناهيّة وأنّه لا يخيب أحداً فى سؤاله وطلبه وأنّ رحمته سبقت ومنعت غضبه وأنّ نعمه لا تحول دون مؤاخذة الظلمة والطغاة وأنّه عالم بكلّ ما يفعلونه فى خلوتهم وعلانيتهم، والحقّ ليس هنالك من معنى للغيب والشهادة والبعيد والقريب على الذات القدسيّة ولا تجرى هذه الأمور سوى على مخلوقاته المحدودة التى تشعر بالقرب والبعد والخفاء والعلانيّة.

ثم شرح وأكّد ما ذكره فى العبارات السابقة بسبع عبارات أخرى تتعلق بصفات اللّه تبارك وتعالى فقال:

«قَرُبَ فَنَأَى، وعَلَا فَدَنَا، وظَهَرَ فَبَطَنَ، وبَطَنَ فَعَلَنَ، ودَانَ ۹۷۴]

وَلَمْ يُدَنْ. لَمْ يَذْرَءِ[۹۷۵] الْخَلْقَ باحْتِيَال، وَلَا اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَال ۹۷۶]».

والواقع أنّ جميع هذه الصفات السبع تستند إلى حقيقة واحدة وهى: أنّه وجود لامتناهٍ من جميع الجهات، ولذلك فهو حاضر فى كلّ مكان وفى نفس الوقت فإنّ كنه هذه الذات اللامتناهية خارج عن متناول الأفكار، والظاهر والباطن والقريب

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۷۹

والبعيد لديه على حد سواء، واستناداً إلى علمه اللامتناهى فهوغنى عن الحاجة للتفكير حين الخلق ولهذا السبب فليس للتعب والكلل والملل من سبيل إلى ذاته القدسيّة، لأنّ هذه صفات المخلوقات ذات القدرة المحدودة، فيشعرون بالتعب حين تنفد طاقتهم وقدرتهم والحقّ أنّ الإمام عليه السلام قد اعتمد منتهى الفصاحة والبلاغة فى هذه الخطبة ليصور حقيقة واحدة بأوجه مختلفة وبعبارات متنوعة غاية فى الجمال والروعة.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۸۱

القسم الثالث

اشارة

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهَا الزِّمَامُ والْقِوَامُ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا، واعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا، تَؤُلْ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ وأَوْطَانِ السَّعَةِ، ومَعَاقِلِ الْحِرْزِ ومَنَازِلِ الْعِزِّ، (يَوْم تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)، وتُظْلِمُ لَهُ الأَقْطَارُ، وتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ. ويُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتُزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ، وتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ، وتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ، وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ، فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً، ومَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً، فَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ، وَلَا حَمِيمٌ يَنْفَعُ، وَلَا مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ.

الشرح والتفسير: أهوال القيامة

أوصى الإمام عليه السلام الجميع هنا بالورع والتقوى وعدد آثار التقوى المهمّة فقال:

«أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّها الزِّمامُ والْقِوَامُ».

والتعبير

«بزمام»

إشارة إلى قوّة التقوى المانعة والتى تحول دون الإنسان وإرتكاب المعصية وتصده عن السقوط فى مستنقع الفساد والذنب والانحدار فى فخ الشيطان وهوى النفس، و

«قِوَام»

إشارة إلى أسس الحياة الطيبة والمقرونة بالسعادة، وبعبارة أخرى أنّ للتقوى بعد الحيلولة من جانب والبناء من جانب آخر، فإنّ امتزج الجانبان كملت سعادة الإنسان ونجاته، وبكلمة موجزة فإنّ سعادة الإنسان تتكامل مادياً ومعنوياً بوجود التقوى.

واعتبر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ

«الزِّمامُ والْقِوَامُ»

يتعلقان بالعبادات، والحال أنّ العبارة من قبيل حذف المتعلق الذى يهب المفهوم شمولية، والآيات القرآنيّة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۸۲

شاهد على ذلك أنّ التقوى سبب النجاة فى الآخرة ومصدر البركة فى الحياة الماديّة الدنيويّة حيث صرح تعالى من جانب: «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً»[۹۷۷].

ومن جانب آخر: «وَلَو أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[۹۷۸].

ثم قال فى مواصلة كلامه كتوضيح وتأكيد:

«فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِها[۹۷۹]، واعْتَصِمُوا

بِحَقَائِقِهَا[۹۸۰]، تَؤُلْ ۹۸۱] بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ ۹۸۲] الدَّعَةِ[۹۸۳] وأَوْطَانِ السَّعَةِ، ومَعَاقِلِ ۹۸۴] الْحِرْزِ ومَنَازِلِ الْعِزِّ».

والتعبير

«بوثائق»

جمع وثيقة بمعنى العروة المحكمة إشارة إلى الأبعاد الظاهريّة للتقوى، والتعبير

«بالحقائق»

جمع حقيقة إشارة إلى جوانبها الواقعيّة.

والعبارات الأربع التى ذكرت فى العبارة المذكورة كنتيجة (وجزاء الشرط مقدر) تشير إلى أنّ التمسك بالتقوى سبب الهدوء والسكينة وكذلك الفتح والحفظ من الأخطار والتمتع بالعزة والكرامة.

نعم! حين تسود التقوى فى المجتمع بصفتها شعور بالمسؤوليّة الربّانيّة فإنّه قلّ من يتجاوز على حقوق الآخرين ويمارس الظلم والجور ونتيجة ذلك الاستقرار والسكينة، وإن سادت التقوى بصفتها وظيفة فإنّ المجتمع يأخذ بالرقى والاتساع

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۸۳

شيئاً فشيئاً، وإن برزت التقوى بصفتها سداً منيعاً أمام العدو فإنّ المجتمع سيصان من شره ومجموع هذه الأمور هى أساس العزّة والرفعة والسمّو.

ثم قال عليه السلام: إنّ هذه الآثار الأربعة إنّما تتحقق بصورة كاملة فى الآخرة؛ ليس بمعنى إنعدام هذه الآثار فى الحياة الدنيا بل المعنى: أنّ الهدف الأصلى والنهائى هناك:

« «يَوْمَ تَشْخَصُ ۹۸۵] فِيهِ الأَبْصَارُ»

وتُظْلِمُ لَهُ الأَقْطَارُ، وتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ ۹۸۶]

الْعِشَارِ[۹۸۷]».

فهذه الصفات الثلاث تتعلق بالصيحة الأُولى وزلزلة نهاية العالم، لأنّها على درجة من الرعب والهول وإثارة الدهشة بحيث تنسى الإنسان كلّ شىء سوى نفسه، كما رسم هذه الصورة القرآن الكريم فقال: «يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَىالنَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ»[۹۸۸].

ثم تطرق الإمام عليه السلام فى مواصلته لكلامه ليشرح جوانب أخرى من بداية القيامة والتى تهزّ القلوب وتذهل الأفكار فقال:

«ويُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتَزْهَقُ ۹۸۹] كُلُّ مُهْجَةٍ[۹۹۰]،

وتَبْكَمُ ۹۹۱] كُلُّ لَهْجَةٍ، وتَذِلُّ الشُّمُّ ۹۹۲] الشَّوَامِخُ ۹۹۳]، وَالصُّمُّ ۹۹۴] الرَّوَاسِخُ ۹۹۵]، فَيَصِيرُ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۸۴

صَلْدُهَا[۹۹۶] سَرَاباً رَقْرَقاً[۹۹۷]، ومَعْهَدُهَا[۹۹۸] قَاعاً[۹۹۹] سَمْلَقاً[۱۰۰۰]».

والذى يستفاد من الآيات القرآنيّة أنّ تغيرين شديدين وعظيمين يحدثان فى نهاية العالم وعلى أعتاب القيامة والتى عبّر عنها بالنفخ فى الصور، ذلك لأنّهم فى الماضى كانوا يعمدون إلى النفخ فى بوق الحركة أو بوق الحرب وبعدة أصوات مختلفة لتبلغ مسامع الآخرين حين يراد تحريك الجيش أو إعلان الحرب أو إيقاظه من النوم، وعليه فالنفخ فى الصور هذا يعنى بداية تغيير عظيم.

كما يستفاد من الآيات القرآنيّة حدوث زلزلة عظيمة تتزامن مع النفخة الأُولى وبموجبها تذهل الكائنات الحيّة كافّة من شدّتها وهذه نفخة الموت، وإلى ذلك أشارت الآية الشريفة: «انَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا ...»[۱۰۰۱]. وكذلك الآية:

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ...»[۱۰۰۲].

وفى النفخة الثانية أى إعادة الحياة يحدث تغيير آخر يظهر فيه عالم جديد على إنقاض العالم السابق فينطلق الأموات من القبور للحساب، وقد وردت الإشارة فى سورة الزلزلة إلى النفخة الثانية: «اذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا* وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا* وَقَالَ الْانسَانُ

مَا لَهَا* يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا». كما ورد فى الآيـة ۶۸ من سورة الزمر إشـارة لـذلك: «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ». وما ذكره

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۸۵

الإمـام عليه السـلام فى هـذا الجـانب من الخطبـة إشـارة إلى النفخـة الأُولى التى تؤدّى إلى خراب العـالم ونسف الجبال ومحو آثارها وذهول الإنسان وبالتالى موته.

وما ورد فى ذيل هذه الخطبة إشارة للأحداث التى تعقب النفخة الثانية حيث قال:

«فَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ، وَلَا حَمِيمٌ يَنْفَعُ، وَلَا مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ»

. وهـذا الكلام اقتباس من الآيـة القرآنيّة الشريفة: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ»[۱۰۰۳]. والآيـة: «فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ»[۱۰۰۴].

ومن الطبيعى أنّ عدم قبول المعذرة كما يفهم من الآيات المذكورة يختص بأولئك الذين حطموا الجسور الموصـلة للشفاعة بأعمالهم وأفعالهم؛ وإلّا فإنّ أولئك الذين أبقوا السـبل الموصـلة إليها فسيشـملون بتلك الشـفاعة، قال تعالى فى القرآن الكريم بهذا الخصوص: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى»[۱۰۰۵].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۸۷

الخطبة ۱۹۶

نظرة إلى الخطبة[۱۰۰۶]

يفيد ترتيب هذه الخطبة أنّها جزء من خطبة مفصلة وقد اختار المرحوم السيد الرضى هذا القسم حسب منهجه فى الاقتطاف، وقد اقتطع هذا القسم من سائر الأقسام وذكره بصورة مستقلة. على كلّ حال تتكون هذه الخطبة من ثلاثة أقسام:

تضـمن القسم الأوّل إشارات قصـيرة وعميقة المعنى إلى بعثة النّبى صـلى الله عليه و آله وبالنتيجة فضله العظيم على البشريّة برمتها سيما المجتمع العربى.

وحـذر فى القسم الثانى من الخـداع والاغترار بزخارف الـدنيا بعـد الوصـية بالورع والتقوى، ثم أوضـح تفاهـة الـدنيا بعبارات غايـة فى الروعة والمعنى وبتشبيهات رائعة.

وكشف فى القسم الثالث عن سبيل النجاة وأكّـد على ضـرورة المبادرة إلى اسـتغلال الفرص ما دامت سانحـة قبل فوات الأوان وحلول الموت.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۸۹

القسم الأوّل

اشارة

بَعَثَهُ حِينَ لَاعَلَمٌ قَائِمٌ، وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ، وَلَا مَنْهَجٌ وَاضِحٌ.

أُوصِيكُمْ، عِبَادَاللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، وأُحَذِّرُكُمُ الـدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ شُـخُوص، ومَحَلَّةُ تَنْغِيص، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وقَاطِنُهَا بَائِنٌ، تَمِيـدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِى لُجَجِ الْبِحَارِ، فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ، ومِنْهُمُ النَّاجِى عَلَى بُطُونِ الأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ الرِّيَاحُ بِأَذْيَالِهَا، وتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَك، ومَا نَجا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلَك!

الشرح والتفسیر: أهوال الدنیا

قال الإمام علیه السلام فی المقطع الأوّل من هذه الخطبهٔ حیث أراد کشف النقاب عن العصر الذی انطلقت فیه الدعوهٔ النبویّهٔ والمراد به العصر الجاهلی ومن خلال ثلاث عبارات قصیرهٔ:

«بَعَثَهُ حِینَ لَاعَلَمٌ قَائِمٌ، وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ ۱۰۰۷]، وَلَا مَنْهَجٌ وَاضِحٌ».

فالطرق الصحراویّهٔ والجبلیّهٔ لم تکن واضحهٔ فی الأزمنهٔ السابقهٔ کما هی علیه الیوم، طبعاً الطرق الرئیسیّهٔ کانت معروفهٔ بفعل کثرهٔ التردد علیها والعبور والمرور، غیر أنّ الطرق الفرعیّهٔ لم تکن کذلک، وبغیهٔ إرشاد المسافرین کی لا یضلوا الطرق کانوا ینصبون فی النهار بعض العلامات بصیغهٔ أعمدهٔ وما شابه ذلک فی أغلب الطریق منذ بدایتها حتی نهایتها والتی یصطلح علیها ب «العلم» وکانوا یشعلون السراج علی سطوحها والتی یصطلح علیها ب «المنار»، وعلیه لولا أعلام النهار

نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۴۹۰

وأسرجهٔ اللیل ووضوح الطرق الرئیسیّهٔ لتزاید احتمال ضلال سالکی الطریق.

فقد شبه الإمام علیه السلام حیاهٔ الناس فی الجاهلیّهٔ بالطرق العشوائیّهٔ التی لم تنصب علیها أیهٔ علامهٔ وسراج یضییء الدرب، ولیس لذلک من نتیجهٔ سوی الضلال المبین للناس والذی أشار إلیه القرآن الکریم بقوله: «وَإِنْ کَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلَالٍ مُبِین»[۱۰۰۸].

ثم واصل علیه السلام کلامه فخاطب الجمیع قائلًا:

«أُوصِیکُمْ، عِبَادَاللَّهِ، بِتَقْوَی اللَّهِ، وأُحَذِّرُکُمُ الدُّنْیا، فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوص،[۱۰۰۹] ومَحَلَّهُ تَنْغِیص، سَاکِنُهَا ظَاعِنٌ، وقَاطِنُهَا بَائِنٌ».

وتشیر هذه العبارات الأربع جمیعاً إلی تقلب أحوال الدنیا وعدم استقرارها، مع إقترانها بالألم والمعاناهٔ، والعجیب مع إتضاح دلالات تقلبها وتصرم أحوالها وکثرهٔ خطوبها ومحنها فی جمیع مواضعها إلّاأنّ هنالک طائفهٔ من الناس تراها خالدهٔ من الناحیهٔ العملیّهٔ وتسعی إلیها بکلّ ما أوتیت من قوّهٔ.

وعلی هذا الأساس تطرق الإمام علیه السلام إلی بیان مثال بلیغ ومثیر بشأن هذه الدنیا الغرور بحیث لا یمکن الإتیان بصورهٔ أفضل منه فقال:

«تَمِیدُ بِأَهْلِهَا مَیَدَانَ السَّفِینَهِ تَقْصِفُهَا[۱۰۱۰] الْعَوَاصِفُ فِی لُجَجِ ۱۰۱۱] الْبِحَارِ، فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ ۱۰۱۲]، ومِنْهُمُ النَّاجِی عَلَی بُطُونِ الأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ ۱۰۱۳] الرِّیَاحُ بِأَذْیَالِهَا، وتَحْمِلُهُ عَلَی أَهْوَالِهَا، فَما غَرِقَ مِنْهَا فَلَیْسَ بِمُسْتَدْرَک، ومَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَی مَهْلَک!».

وتشبیه الدنیا بالبحر وسکنتها برکاب السفینهٔ وإبان العواصف الشدیدهٔ التی لا تفضی سوی إلی الغرق قد ورد قبیل هذه الخطبهٔ للإمام علیه السلام فی مواعظ لقمان الحکیم، فقد ورد عن الإمام الکاظم علیه السلام فی ما روی عن لقمان الحکیم أنّه وعظ ابنه

نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۴۹۱

قائلًا:

«یا بُنَیَّ إِنَّ الدُّنْیا بَحْرٌ عَمِیقٌ قَدْ غَرِقَ فیها عالَمٌ کَثِیرٌ فَلْتَکُنْ سَفِینَتُکَ فیها تَقْوَی اللَّهِ وحَشْوُهَا الإِیمانُ وشَراعُهَا التَّوَکُّلُ وقَیِّمُهَا الْعَقْلُ ودَلِیلُهَا الْعِلْمُ وسُکّانُهَا[۱۰۱۴] الصَّبْرُ»[۱۰۱۵].

وقد أشار الإمام علیه السلام فی مواصلته لهذه الخطبهٔ إلی سبیل النجاهٔ من هذا البحر المرعب.

علی کلّ حال فما بیّنه الإمام علیه السلام فی هذا التشبیه البلیغ والرائع هو أنّه رسم صورهٔ لأهل الدنیا کیف یتبدل أمنهم إلی خوف وصحتهم إلی مرض وغناهم إلی فقر وتجمعهم إلی فرقهٔ حین یتعرضون لمختلف أنواع المصائب والمحن والخطوب، وکیف تقضی علیهم هذه الدنیا من خلال أحداثها وعلی هذا الأساس یبدو من العجیب کیف یتعلق الناس بها ویطمأنون إلیها.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۴۹۳

القسم الثانی

اشارة

عِبَادَ اللَّهِ، الْانَ فَاعْلَمُوا، والأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، والأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، والأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ، والْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ، والْمَجَالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ إِرْهَاقِ الْفَوْتِ، وحُلُولِ الْمَوْتِ.
فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ.

الشرح والتفسیر: اغتنام الفرصة

کشف الإمام علیه السلام بوضوح فی شرحه لهذا الجانب من الخطبة- کما أشرنا سابقاً- النقاب عن سبیل النجاة من تلک المحن الخطیرة التی أشار إلیها فی القسم السابق، حیث تبدو النجاة من الخطوب الخطیرة لهذه الدنیا المزخرفة والغرور حتمیةً إذا ما طبقت هذه الوصایا والتعالیم فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، الْانَ فَاعْلَمُوا، والأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، والأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، والأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ[۱۰۱۶]، والْمُنْقَلَبُ ۱۰۱۷] فَسِيحٌ ۱۰۱۸]، والْمَجَالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ
إِرْهَاقِ ۱۰۱۹] الْفَوْتِ، وحُلُولِ الْمَوْتِ. فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ».

فقد حذّر الإمام علیه السلام فی هذه العبارات العمیقة المعنی الجمیع، ولاسیما الشباب والکهول من ضرورة اغتنام الفرصة والمبادرة إلی العمل کونه أفضل وسیلة للنجاة قبل فوات الأوان وحلول عهد الشیخوخة والعجز حیث تتباطئ فیه الألسن ویضعف

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۴۹۴

فیه البدن ویمرض وتذبل الأعضاء ویضیق المیدان وتسلب الفرصة، نعم لابدّ من المبادرة للعمل الصالح قبل حلول هذه العقبات.

کما أکّد علی عدم الظن ببعد الأجل مهما کان عمر الإنسان، فلا ینبغی الغفلة حتی لمن کان فی سنی الشباب والفتوة والشعور بالقوّة والنشاط والصحة والسلامة، والإبتعاد عن الغرور بحیث لو قیل له: کفاک ذنباً ومعصیة فعد إلی اللّه وتب إلیه، قال مازالت الفرصة سانحة، وسیأتی یوماً وقت التوبة والعمل الصالح فیما بعد، فهل هنالک من یعلم ماذا سیحصل غداً، وهل هناک من یضمن ماذا سیحل بعد ساعة، ومن منّا سیبقی حیاً ومن منّا سیموت؟ وقد ورد مثل هذا المعنی فی مستهل الخطبة ۲۳۷ حیث قال علیه السلام:

«فَاعْلَمُوا وانْتُمْ فی نَفْسِ الْبَقاءِ والصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ والتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ».

جدیر ذکره أنّ أغلب نسخ نهج البلاغة ذکرت فی مستهل هذه الخطبة العبارة

«الآنَ فَاعْلَمُوا»

بدلًا من (فاعلموا) وتشهد القرائن، علی صحة هذه النسخة، أضف إلی ذلک فإنّ انسجام المطالب وتناسب المواعظ تفید ضرورة العمل، والخطبة ۲۳۷ شاهد علی ذلک.

***

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۴۹۵

الخطبة ۱۹۷

اشارة

يُنَبِّهُ فيهِ عَلى فَضيلَتِهِ لِقَبُولِ قَوْلِهِ وامْرِهِ ونَهْيِهِ ۱۰۲۰]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من ثلاثة أقسام:

أشار الإمام عليه السلام فى القسم الأوّل إلى طاعته الخالصة ودفاعه المطلق عن النّبى واستدل على ذلك بعلم صحب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وشهادتهم.

وتطرق فى القسم الثانى إلى الأحداث المهمّة منذ احتضار النّبى ووفاته حتى غسله ودفنه والصلاة عليه والتى تفيد أنّه عليه السلام أقرب من غيره للنبى صلى الله عليه و آله.

وخلص فى القسم الثالث إلى نتيجة واضحة تتمثل فى وجوب طاعته من قبل الجميع بدليل كلّ سوابقه وفضائله ومناقبه، ثم دعا مخاطبيه لمواكبته فى حفظ بيضة الدين وإرث النّبى صلى الله عليه و آله وإمتثال أوامره فى جهاد العدو (معاوية وجند الشام) وأن لا يشعروا بأدنى شكّ فى أنّهم على الحقّ وأنّ أعداءهم على الباطل.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۹۷

القسم الأوّل

اشارة

ولَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ أَنِّى لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. ولَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِى فِى الْمَوَاطِنِ الَّتِى تَنْكُصُ فِيهَا الأَبْطَالُ، وتَتَأَخَّرُ فِيهَا الأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِى اللَّهُ بِهَا.

الشرح والتفسير: طاعتى المطلقة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بالإشارة إلى أمرين مهمين؛ الأوّل أنّه كان دائماً وفى جميع المواطن مطيعاً مطلقاً للَّهولرسوله، بينما كان هنالك بعض الأفراد من هذه الأُمّة وبعض الصحابة ممن ينبرى بين حين وآخر للرد على النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقال:

«ولَقَدْ[۱۰۲۱] عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ أَنِّى لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ».

«مستحفظون»:

(بفتح الفاء صيغه اسم مفعول) إشارة إلى تلك الطائفة التى استودعها رسول اللَّه أمانة سرّه والتاريخ الإسلامى الصحيح، وهذا يدلّ على وجود

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۹۸

ثلّة من صحبه الذين حفظت سره بدقّة بعيدة عن أى غرض وسوء نيّة، فهم حفظة الأسرار الإسلاميّة والحوادث التاريخيّة والذين كان يعرفهم الناس بالإخلاص والأمانة.

فى مقابل تلك الزمرة على عهد معاوية التى باعت دينها بالدنيا ووضعت الأحاديث والروايات وانبرت للقضاء على فضائل على عليه السلام ونسبت النقص والكذب له عليه السلام لتعمر دنياها بهذه المعاصى.

وهذه العبارة تمثّل فى الوقت ذاته إشارة إلى أولئك الذين تنطلق ألسنتهم أحياناً بالردّ والإعتراض على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، كما ورد فى القرآن الكريم: «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ»[۱۰۲۲].

وإشارة إلى بعض الأفراد المعروفين مثل عمر والذى ورد بشأنه فى روايات العامّة أنّه اعترض يوم الحديبية- طبق نقل المصنّف عبدالرزّاق الصنعانى، العالم المعروف لدى العامّة على النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث قال له: ألست رسول اللَّه؟ قال صلى الله عليه و آله:

بلى. قال عمر: ألسنا على الحقّ وعدونا على الباطل؟ قال صلى الله عليه و آله: بلى. فقال عمر:

فعلام نعطى الدنيّة فى ديننا (ونمضى صلحاً مع العدو أشبه بالاستسلام؟) فردّ عليه النّبى صلى الله عليه و آله بأنّه رسول اللَّه ويتبع أمر اللَّه وأنّه سينصره، فواصل عمر إعتراضه وقال: أو لم تقل إننا سنحج البيت؟ فقال صلى الله عليه و آله: نعم سنحج البيت ولم أقل سنحجه هذا العام ۱۰۲۳].

ويفهم من الرواية أنّه لم يكن الخليفة الثانى فقط من يعترض على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بل كانت معه طائفة ممن تعترض أيضاً.

إلّا أننا لا نلمس فى أى من صفحات التاريخ أنّ عليّاً عليه السلام اعترض على فعل من

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۴۹۹

أفعال النّبى صلى الله عليه و آله بل كان يتبعه فى الأمور كافّة ويمتثل لأوامره دون نقاش.

ثم واصل عليه السلام كلامه مشيراً إلى تضحياته فى سبيل الإسلام والنّبى صلى الله عليه و آله فقال:

«ولَقَدْ وَاسَيْتُهُ ۱۰۲۴] بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ ۱۰۲۵] فِيهَا الأَبْطَالُ، وتَتَأَخَّرُ فِيهَا الأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا».

هذه العبارات القصيرة إشارة إلى تضحياته عليه السلام فى الغزوات الإسلاميّة كأحد وخيبر والأحزاب وحنين.

وإننا لنعلم حسب تصريح المؤرخين بشأن معركة أُحد أنّ خصوم الدعوة لما بثّوا شائعة قتل النّبى صلى الله عليه و آله فى المعركة وقتل العديد من المسلمين انفرج سائر المسلمين عن المعركة ولم يبقَ حول النبى سوى على عليه السلام الذى دافع بكلّ صبر وثبات ۱۰۲۶].

كما نعلم أنّ أحداً لم ينبر فى يوم الأحزاب ل «عمرو بن عبدود» ويبارزه سوى أميرالمؤمنين على عليه السلام حين تخلف جميع المسلمين ۱۰۲۷].

وفى معركة خيبر كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يسلم الراية كلّ يوم لمن يزعم القتال لكنهم لم يحققوا شيئاً حتى كان آخر يوم فسلم الراية لعلى عليه السلام ففتح حصون خيبر الواحدة تلو الأخرى ۱۰۲۸].

ولقد فرّ أغلب المسلمين يوم حنين حين تعرضوا لهجوم العدو المباغت لما شعروا بالخوف والرعب وكان على رأس مَن ثبت وصمد فى الدفاع عن النّبى صلى الله عليه و آله هو على عليه السلام ۱۰۲۹].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۰۰

وبالطبع فإنّ تضحيات على عليه السلام لا تقتصر على ميادين القتال، بل اقتحم عليه السلام سائر الميادين بكلّ شجاعة سيما تلك التى يتخاذل فيها الأبطال، فقد بات عليه السلام على فراش رسول اللَّه حين همَّ الكفّار والمشركون بالقضاء على رسول اللَّه صلى الله عليه و

آله ففداه بنفسه.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۰۱

القسم الثانى

اشارة

ولَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ وإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِى. ولَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِى كَفِّى، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِى. ولَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِى، فَضَجَّتِ الدَّارُ والأَفْنِيَةُ. مَلَأٌ يَهْبِطُ، ومَلَأٌ يَعْرُجُ، ومَا فَارَقَتْ سَمْعِى هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ. يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِى ضَرِيحِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّى حَيًّا ومَيِّتاً؟ فَانْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ. فَوَالَّذِى لَاإِلَهَ إِلَّا هُوإِنِّى لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ، وإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِى وَلَكُمْ!

الشرح والتفسير: أولى الناس بالنّبى صلى الله عليه و آله

اشارة

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيان رابطته الحميمة والقائمة على أساس الإخلاص والطاعة مع النّبى صلى الله عليه و آله فى حياته ذكر علاقته به بعد وفاته والتى تفيد أنّه لم يكن لأحد من المسلمين غيره مثل هذه العلاقة بالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقال:

«ولَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ وإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِى. ولَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِى كَفِّى، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِى».

والعبارة:

«انَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِى»

يمكن أن تشير إلى أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام رفع رأس النّبى صلى الله عليه و آله وضمه إلى صدره فى تلك اللحظة والتى كانت سكينة للنّبى صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام بالإضافة إلى أنّ هذه الوضعية تسهل من التقاط الأنفاس، كما يحتمل أن

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۰۲

يكون رأس النبى كان فى حجر الإمام عليه السلام وقد انحنى فمسّ صدره عليه السلام رأس النّبى صلى الله عليه و آله، إلّاأنّ هذا الاحتمال لا ينسجم مع قوله

«عَلَى صَدْرِى»

. وقد اختلف الشرّاح فى المراد من النفس فى العبارة

«سَالَتْ نَفْسُهُ»

حيث دارت أقوالهم حول محورين:

الأوّل: أنّ المراد من النفس الدم الذى ورد فى أغلب عبارات الفقهاء والأدباء والتى أشارت إلى هذا المعنى، ومن ذلك

«النفس السائلة»

فى الكتب الفقهية كما ورد مثل هذا الاستعمال فى الأشعار العربية حيث قيل: ثم سيلان نفسه فى كفّه، وإمرارها على وجهه، وأراد

بنفسه دمه يقال: إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قاء وقت موته دماً يسير، وأنّ عليّاً عليه السلام مسح بذلك الدمه وجهه [۱۰۳۰].

والتفسير الآخر هو أنّ النفس تلك الروح البشريّة القدسيّة التى وردت الإشارة إليها كراراً فى القرآن الكريم «اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا»[۱۰۳۱]. وعليه فمفهوم العبارة أنّ روح النّبى الطاهرة فاضت على يد على حين فارقت بدنه الطاهر فمسح بها وجهه [۱۰۳۲].

إلّا أنّ العبارة التى بقيت مبهمة على أغلب الشرّاح والمترجمين هى قوله عليه السلام:

«أَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِى»

فقالوا: وهل الروح شيء يمكن مسح الوجه بها؟!

ولحل هذا الإشكال يمكن أن يقال إنّ

«الكفّ»

مؤنثة لأنّ الأعضاء الثنائية فى البدن مؤنثة بينما الأعضاء المفردة مذكرة، قال الشاعر العربى:

«وكَفٍّ خَضيب زُيِّنَتْ بِبَنانى»

، وعليه فمعنى العبارة أنّ كفّى لامست الروح القدسيّة للنّبى صلى الله عليه و آله ثم مسحت وجهى بتلك الكفّ للبركة، وهكذا يحلّ إشكال تفسير العبارة المذكورة.

ثم خاض عليه السلام فى سائر مراسم وفاة النّبى صلى الله عليه و آله كالغسل والدفن فقال:

«ولَقَدْ وُلِّيتُ

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۵۰۳

غُسْلَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِى، فَضَجَّتِ الدَّارُ والأَفْنِيَةُ[۱۰۳۳]. مَلَأٌ يَهْبِطُ، ومَلَأٌ يَعْرُجُ، ومَا فَارَقَتْ سَمْعِى هَيْنَمَةٌ[۱۰۳۴] مِنْهُمْ. يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ ۱۰۳۵] فِى ضَرِيحِهِ».

والعبارة:

«وُلّيت غسله»

يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ النّبى صلى الله عليه و آله كلّفنى بالقيام بهذا العمل، ومعونة الملائكة بهدف إكرام النّبى صلى الله عليه و آله وتعظيمه وإجلاله، وضجيج الدار والأفنية الوارد فى العبارة يمكن أن يراد به المعنى الحقيقى، من قبيل ما ذكروه بشأن تسبيح الجمادات فى تفسير آيات التسبيح الواردة فى القرآن الكريم، كما يمكن أن يكون المراد به المعنى المجازى ليشير إلى الحزن والأسى العظيم الذى خيم على بيت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهنالك احتمال أن تكون الملائكة محذوفة والعبارة تدل على ذلك، وعليه فمعنى العبارة

«ضجت ...»

هو ضجيج الملائكة الذين كانوا فى بيته صلى الله عليه و آله، ولكن يبدو هذا الاحتمال بعيداً.

والاحتمال الرابع هو أنّ هذا الضجيج كان من قبل الناس الحاضرين حول البيت.

والعبارة هبوط وعروج الملائكة إشارة إلى أنّ الملائكة كانت تأتى جماعات جماعات تصلّى على النّبى وتعرج، وكان الإمام عليه السلام يسمع بأذنه الشريفة أصواتهم حين الصلاة والسلام على النّبى صلى الله عليه و آله وقد تواصلت هذه الصلوات والتحيات على النّبى صلى الله عليه و آله حتى دفنه.

والتعبير بالضريح إشارة إلى الحفرة التى أعدت لدفن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله؛ لأنّ هذا هو المعنى اللغوى للضريح، وإن كان الضريح اليوم يطلق على ما يوضع على القبر.

وقد تواترت روايات الفريقين على أنّ علياً عليه السلام تولى لوحده غسل النّبى ودفنه فقد روى المرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار عن كتاب الوصية للشيخ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۰۴

«عيسى الضرير» عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال:

«قالَ رَسُولُ اللَّهِ يا عَلى! أَضَمِنْتَ دَيْنى تَقْضيهِ عَنِّى! قالَ نَعَمْ. قالَ اللّهُمَّ فَاشْهَدْ. ثُمَّ قالَ يا عَلى تَغْسِلْنى ولا يَغْسِلْنى غَيْرُكَ فَيَعْمى بَصَرُهُ ... قالَ عَلى عليه السلام فَكَيْفَ أَقْوى عَلَيْكَ وَحْدى؟ قالَ يُعِيُنكَ جِبْرَئيلُ وميكائيلُ وإسْرافيلُ»[۱۰۳۶].

ثم خاض الإمام عليه السلام فى استنتاج من مجموع الأبحاث السابقة ليعتبر قربه من النّبى صلى الله عليه و آله فى حياته ووفاته دليلًا واضحاً على أولويته بأمر الخلافة، فقال:

«فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّى حَيّاً ومَيِّتاً؟»

وأثر ذلك عُبىء الجميع للجهاد ضد العدو.

لعل هنالك من يتساءل وما علاقة هذه الأمور بقضية الخلافة؟ وتبدو الإجابة عن هذا السؤال واضحة؛ ومراد الإمام على عليه السلام لو كانت خلافة النّبى- على فرض- أنّه غير منصوص عليها فلابدّ أن تسند إلى أقرب الأفراد منه وأولاهم به صلى الله عليه و آله، أوَليس ذلك الشخص الذى عاش التسليم المطلق لأوامر النّبى وأعظمهم تضحية وجهاداً فى‌الغزوات الإسلاميّة ومن كان يرى هبوط الملائكة وعروجها ولا- تفارق سمعه هينمة من أصواتها ومن تولى غسل النّبى وتكفينه ودفنه كما عهد إليه أولى من غيره بهذا الأمر؟ فعلمه ومعارفه من جانب وتضحياته الجسام من جانب آخر وقربه من رسول اللَّه من جانب ثالث والوصية له بغسل النّبى ودفنه وتكفينه من الجانب الرابع فكلّ هذه الامتيازات لو وضعت فى كفّة ميزان لرجحت على الكفّة الأخرى مهما كانت ثم خلص عليه السلام إلى نتيجة فقال:

«فَانْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ. فَوَالَّذِى لَاإِلهَ إِلَّا هُوإِنِّى لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ، وإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ[۱۰۳۷] الْبَاطِلِ».

فقد اعتمد الإمام عليه السلام فى الواقع منطقاً منظماً بصيغة علّة ومعاليل متسلسلة فى هذه الخطبة، فقد أثبت بادئ الأمر قربه من النّبى وتضحياته فى حياته ثم قربه منه

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۰۵

بعد وفاته، وأثر ذلك خلص إلى أولويته فى إحراز مقام الخلافة. ثم تطرق إلى نتيجة كليّة فدعى الجميع إلى جهاد العدو[۱۰۳۸].

والعبارة:

«جادَةِ الْحَقِّ ومَزَلَّةِ الْباطِلِ»

هى عبارة رائعة ودقيقة، ذلك لأنّ الحقّ كالجادة المستقيمة والواضحة التى توصل الإنسان إلى مقصده المطلوب، إلّاأنّ الباطل ليس بطريق بل مزلة وهاوية.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بعبارتين فقال:

«أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِى وَلَكُمْ!».

فقد أتمّ الإمام عليه السلام على الناس الحجّة بهذه العبارة وأكّد ضرورة العمل بتعاليمه ووصاياه ثم سأل اللَّه كحسن ختام للخطبة المغفرة للجميع ليشمل اللَّه صحبه بلطفه ورحمته إن إرتكبوا بعض الأخطاء.

الحوادث الأليمة إبان وفاة النّبى صلى الله عليه و آله وبعدها

أشار الإمام علیه السلام فی هذه الخطبهٔ إلی الفاجعهٔ الألیمهٔ لرحیل النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله وضجیج الملائکهٔ التی تکشف عن عظم هذا المصاب الجلل.

وتبدو هذه الحادثهٔ أعظم خطورهٔ حین تتزامن مع سائر الرزایا والأحداث والتی تکشف دراستها عن مدی عمق تلک الفاجعهٔ.

وقد خاض جمع من شرّاح نهج البلاغهٔ هنا فی ذکر بعض هذه الأحداث؛ لکننا رأینا من الأفضل أن نترک العنان لقلم «الشهرستانی» أحد علماء القرن السادس صاحب کتاب الملل والنحل والمعروف بتعصبه للعامّهٔ لنری ما ذکره بهذا الخصوص فقد أشار إلی عشرهٔ اختلافات مهمّهٔ کلّ واحدهٔ منها تعدّ مصیبهٔ للعالم، وإن سعی لتبریرها تحت ذریعهٔ اجتهاد الصحابهٔ، ولکن تلک الأعمال کانت علی درجهٔ من

نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۵۰۶

الوضوح فی شناعتها بحیث تأبی التبریر بالاجتهاد أو الخطأ.

الاختلاف الأوّل فی النزاع الذی حدث عند النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی مرضه حیث روی البخاری فی صحیحه عن ابن عباس أنّ النّبی صلی الله علیه و آله قال حین اعتل:

«إیتُونی بِدَواءٍ وقِرْطاس أکْتُبُ لَکُمْ کِتاباً لا تَضِلُّوا بَعْدی».

قال عمر:

«إنّ رسول اللَّه غلب علیه الوجع (وما یقوله خارج عن الوعی) حسبنا کتاب اللَّه».

فاشتد نزاع الصحابهٔ فقال صلی الله علیه و آله:

«قُومُوا عَنّی لا یَنْبَغی عِنْدی التَّنازُعُ».

قال ابن عباس بعد نقله لهذا الحدیث:

«الرَّزِیَّهُ کُلُّ الرَّزِیَّهِ ما حالَ بَیْنَنا وبَیْنَ کِتابِ رَسُولِ اللَّهِ»[۱۰۳۹].

ثم تطرق إلی الاختلاف الثانی فی مرض رسول اللَّه أیضاً حین قال صلی الله علیه و آله:

«جَهِّزُوا جیشَ أُسامَهَ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ»

. فقال البعض علینا إمتثال أمر النّبی، وکان أسامهٔ خارج المدینهٔ یتأهب للحرکهٔ نحوالشام للقضاء علی فتنتهم، وقال البعض الآخر غلب الوجع علی النّبی ولا نطیق مفارقته.

والاختلاف الثالث حین وفاهٔ النّبی صلی الله علیه و آله حیث قال عمر:

«مَنْ قالَ أَنَّ مُحَمّداً قَدْ ماتَ قَتَلْتُهُ بِسَیْفی هذا وإِنَّما رُفِعَ إِلَی السَّماءِ کَما رُفِعَ عیسی علیه السلام».

وقال أبوبکر: من کان یعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن کان یعبد ربّ محمد فانّه حی لا یموت ثم تلی هذه الآیهٔ: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ ...»[۱۰۴۰].

فقبل الناس منه وقال عمر: کأنّی لم أسمع هذه الآیهٔ إلّاالآن ۱۰۴۱].

نفحات الولایهٔ، ج۷، ص: ۵۰۷

والاختلاف الرابع فی موضع دفن النّبی حیث أراد المهاجرون دفنه فی مکهٔ، بینما أراد الأنصار دفنه فی المدینهٔ لأنّها دار الهجرهٔ، ورغبت فئهٔ ثالثهٔ بدفنه فی بیت المقدس حیث الأنبیاء ثم اتفقوا جمیعاً علی دفنه فی المدینهٔ، ویعتقد البعض أنّ هدف عمر من هذا الکلام هو اشغال الناس حتی یحضر أبوبکر وتتمّ له الخلافهٔ.

حیث روی عنه صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«الأَنْبِياءُ يُدْفَنُونَ حَيْثُ يَمُوتُونَ»[۱۰۴۲].

وبرز الاختلاف الخامس فى الخلافة والذى عدّه الشهرستانى من أهم الخلافات حيث قال:

«اذْ ما سُلَّ سيفٌ فِى الْاسْلامِ عَلى قاعِدَة دِينيّة مِثْلَ ما سُلَّ عَلَى الْامامَةِ فى كُلِّ زَمان».

ثم نقل قصّة سقيفة بنى‌ساعدة وماحدث فيها من اختلافات وبالتالى بيعة أبى بكر.

واعتبر الخلاف السادس قضية فدك وأشار فيه إلى خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام حيث طالبت بها كهبة من النّبى أو ميراث، فاحتج عليها أبوبكر بالحديث (الموضوع)

نفحات الولاية ؛ ج۷ ؛ ص۵۰۷

«نَحْنُ مَعاشِرَ الأَنْبياءِ لا نُوَرِّثْ، ما تَرَكْناهُ صَدَقَةٌ».

ثم أشار إلى الاختلاف السابع بشأن مانعى الزكاة الذى اعتبرهم البعض كفرة بينما لم يكفرهم البعض الآخر والاختلاف الثامن نص أبوبكر على خلافة عمر حين وفاته فقال له الناس:

«وَلَّيْتَ عَلَيْنا فظّاً غَليظاً»

؛ بينما استجاب له سائر الناس.

والاختلاف التاسع فى الشورى التى نصبها عمر لتعيين الخليفة من بعده، والاختلاف العاشر الذى حدث على عهد أمير المؤمنين على عليه السلام بعد أن بايعته الأُمة على الخلافة، فأثار طلحة والزبير وعائشة، فتنة الجمل، ومعاوية، صفين، والخوارج، النهروان ۱۰۴۳].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۰۹

الخطبة ۱۹۸

اشارة

يُنَبِّهُ عَلى إحاطَةِ عِلْمِ اللَّهِ بِالْجُزْئِيّاتِ، ثُمَّ يَحُثُّ عَلَى التَّقْوى،
ويُبَيِّنُ فَضْلَ الْاسْلامِ والْقُرْآنِ ۱۰۴۴]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من عدّة أقسام:

تحدّث الإمام عليه السلام فى القسم الأوّل بعبارات رائعة عن العلم الإلهى المطلق وشهد للنبى صلى الله عليه و آله بالرسالة، ليكمل فى الواقع الشهادتين بعبارات جديدة.

وأوصى عليه السلام فى القسم الثانى بالتقوى وأنّها دواء كلّ داء والشفاء من جميع الأمراض والوسيلة لإصلاح المفاسد كافّة وطهارة الروح وقرة العين، وقد تضمنت إشارات إلى التقوى من خلال ذكر بعض النقاط التى قلّما ذكرت فى سائر الخطب.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۱۰

وتطرق فى القسم الثالث إلى أهميّة الإسلام ومزاياه بعبارات مشوقة تستقطب القلوب.

وتحدّث فى القسم الرابع عن النّبى صلى الله عليه و آله وخدماته الجليلة فى ذلك العصر المظلم الجاهلى وزعامته للنهضة الإسلاميّة.

واختتم الخطبة بالحديث عن القرآن الكريم من خلال ذكره لأربعين صفة من صفاته التى يمكن القول إنّها أشمل إشادة وتمجيد للقرآن، عليه آلاف التحية والثناء.

***

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۵۱۱

القسم الأوّل

اشارة

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِى الْفَلَوَاتِ، ومَعَاصِىَ الْعِبَادِ فِى الْخَلَوَاتِ، واخْتِلَافَ النِّينَانِ فِى الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ، وتَلَاطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ. وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ اللَّهِ، وسَفِيرُ وَحْيِهِ، ورَسُولُ رَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير: احاطة اللَّه العلميّة

بما أنّ هذه الخطبة تتحدّث حول الإسلام والقرآن، فقد استهلها الإمام عليه السلام بالحديث عن الإيمان بالمبدأ والمعاد؛ الإيمان الذى يشكل الدافع لجميع الخيرات والوسيلة لجميع البركات، حين يريد التحدث عن معرفة اللَّه فإنّه يركز على العلم الإلهى المطلق الذى يعد من أهم صفات الحقّ تعالى فقال:

«يَعْلَمُ عَجِيجَ [۱۰۴۵] الْوُحُوشِ
فِى الْفَلَوَاتِ [۱۰۴۶]، ومَعَاصِىَ الْعِبَادِ فِى الْخَلَوَاتِ، واخْتِلَافَ النِّينَانِ [۱۰۴۷] فِى الْبِحَارِ
الْغَامِرَاتِ [۱۰۴۸]، وتَلَاطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ [۱۰۴۹]».

فقد ركز الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة على أربع ظواهر مختلفة عن بعضها البعض الآخر فى هذا العالم ولا تحضى بالاهتمام، ليشير إلى علم اللَّه تعالى بها:

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۵۱۲

الأُولى وكما نعلم فإنّ الصحارى المترامية الأطراف فى العالم تضم العديد من الحيوانات الوحشية التى لا يطرق سمعنا ضجيجها وعجيجها، لكن اللَّه تعالى عالم بها ويعلم كلّ حيوان فيها ومتى يضج بصوته وما طبيعة ذلك الضجيج.

والظاهرة الثانية: كثرة الذنوب التى تمارس فى الخلوات والبعيدة عن أنظار الناس والتى تخفى علينا جميعاً، لكن اللَّه يعلم بكلّ إنسان فى كلّ مكان وكل زمان والذنب الذى يرتكبه.

والظاهرة الثالثة: أنّه يعلم بحركات وسكنات الحيتان فى أعماق البحار والغائبة عن عيون الناس.

وأخيراً يعلم الأمواج فى المحيطات والبحار وحركاتها فى الليل والنهار والتى لا ندرك سوى جزء يسير منها، فهو العالم متى تتحرك واين تتحرك وكيف تتوقف.

ولو أضفنا لكلّ هذه الأمور أنّ علم اللَّه تعالى بهذه الأمور لا يقتصر على اليوم والأمس، بل منذ الأزل الذى شهد وقوع هذه الحوادث ليل نهار (ما عدا الذنوب البشريّة المحددة بزمان معين) فاللَّه يعلم كيف تحققت كلّ واحدة من هذه الظواهر وأين وكيف.

وكذلك لو أضفنا أنّ الأمور المذكورة لا تقتصر على الكرة الأرضيّة، التى تعدّ مركز مختلف الحوادث، بل مليارات الكواكب فى مجرّاتنا والتى تعتبر مركزاً للعديد من الحوادث الدائمية بالإضافة إلى سائر المجرّات الأخرى والتى يتجاوز عددها المليارات.

نعم! كلّ هذه الأمور حاضرة فى علم اللَّه وهنا نوقن بما ذكره القرآن الكريم فى الآية ۲۷ من سورة لقمان اذ قالت: «وَلَوأَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَجَرَة أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُر مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فى أنّه عين الواقع وهى ليست من قبيل الاستغراب فحسب، بل لا تعدّ بشىء بالنسبة لدائرة علم اللَّه المطلق.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۱۳

ثم واصل كلامه عليه السلام بعد بيان علم اللَّه تعالى بعالم الخلق بالشهادة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالرسالة واثنى عليه بثلاث صفات مهمّة من صفاته فقال:

«وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ ۱۰۵۰] اللَّهِ، وسَفِيرُ وَحْيِهِ، ورَسُولُ رَحْمَتِهِ».

نعم! فهو إنسان غاية فى النجابة والسمو انتجبه اللَّه للنبوّة وأنزل عليه وحيه وجعله موضع رحمته.

وقد تجلت هذه الرحمة بعدة صور ووجوه، فتارة عن طريق بيان المعارف الدينيّة الساميّة، وتارة أخرى بواسطة شرح التعاليم وثالثة بطلب الرخصة من اللَّه للأمّة، وبالتالى ستظهر هذه الرحمة بصيغة الشفاعة يوم القيامة؛ نسأل اللَّه أن نشمل بها جميعاً

جاء فى الحديث النبوى الشريف أنّه لما نزلت الآية الشريفة: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»[۱۰۵۱] أنّه صلى الله عليه و آله قال لجبرئيل عليه السلام لما نزلت هذه الآية:

«هَلْ أَصابَكَ مِنْ هَذِهِ

الرَّحمَة شَىءٌ؟ قال: نَعم إنِّى كُنتُ أخشى عَاقبةَ الأمر، فآمَنتُ بِكَ لَمّا أَثنى اللَّهُ عَلىَّ بِقَولِهِ:

«ذى قُوَّة عِنْدَ ذى الْعَرْشِ مَكِين»[۱۰۵۲]

وَقَدْ قَالَ: إنّما أنا رَحمَةٌ مُهداةٌ»[۱۰۵۳].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۱۵

القسم الثانى

اشارة

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّى أُوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِى ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، ونَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وإِلَيْهِ مَرَامِى مَفْزَعِكُمْ. فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وجَلَاءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ، وأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ، وضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ. فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، ودَخِيلًا دُونَ شِعَارِكُمْ، ولَطِيفاً بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ، وأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، ومَنْهَلًا لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وشَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ، وجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، ومَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، ونَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ. فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَة، ومَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَة، وأُوَارِ نِيرَان مُوقَدَة. فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، واحْلَوْلَتْ لَهُ الْامُورُ بَعْدَ مَرَارَتِها، وانْفَرَجَتْ عَنْهُ الأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ انْصَابِهَا، وهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا، وتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، ووَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا.

فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، ووَعَظَكُمْ، بِرِسالَتِهِ، وامْتَنَّ عَلَيْكُم بِنِعْمَتِهِ. فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ.

الشرح والتفسير: التقوى مصدر الخيرات

بعد أن أشار الإمام عليه السلام إلى علم اللَّه المطلق والشهادة بالنبوّة فى القسم السابق

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥١٦

والـذى كان يمثل فى الواقع مقدمـة، خاض فى هـذا القسم فى ذى المقدمة والذى تمثّل فى الدرجة الأُولى فى الوصـية بالتقوى وقرنها ببعض صفات اللّه ليؤجج فى قلوبهم نيران عشق التقوى والورع فقال:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّى أُوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِى ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، ونَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وإِلَيْهِ مَرَامِى مَفْزَعِكُمْ ١٠٥۴]».

كما قال القرآن الكريم: «وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ»[١٠٥٥]. وقال أيضاً: «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ»[١٠٥۶].

ثم خاض عليه السلام إثر الوصية بالتقوى إلى ذكر آثارها بثمان عبارات قصيرة وعميقة المعنى فقال:

«فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُم، وبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وجَلَاءُ عَشَا[١٠٥٧] أَبْصَارِكُمْ،

وأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ ١٠٥٨]، وضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ».

العبارة الأُولى إشارة إلى الأمراض الفكريـة والروحيـة فى الغوايـة والضـلال، والعبارة الثانية إشارة إلى إزالة الموانع وحجب المعرفة فى ظلّ التّقوى، وتشير العبـارة الثانيـة إلى قلّة الطعـام ورعايـة الاعتـدال فى تناول الأغذيـة فى ظلّ التّقوى؛ ذلك لأننا نعلم وكما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«الْمِعْدَةُ رَأْسُ كُلِّ داء والْحِمْيَةُ رَأْسُ كُلِّ دَواء»[١٠٥٩].

والذى أيده الأطباء المعاصرون قاطبة أنّ قسماً مهماً من الأمراض معلول لكثرة

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥١٧

الطعام، والصـحة وطول العمر فى قلّة الطعام، والعبارتان الرابعة والخامسة كلاهما إشارة إلى تطهير الباطن من الرذائل الأخلاقيّة كالكبر والحسد والبغض والعداء وما شابه ذلك، غير أنّ العبارة الرابعة واردة بشأن الصـفات القبيحة التى تترسخ فى باطن الإنسان بحيث تقوده إلى الفساد، بينما تشير العبارة الخامسة إلى الانحراف السطحى والبسيط والذى يغسل بماء التقوى.

والعبارة السادسة إشارة إلى أنّ التقوى تجعل رؤية الإنسان الباطنيّة أعظم حدة وعينه أشد بصيرة، ويبدو أنّ الفارق بينها وبين العبارة «وبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ»

أنّ الكلام فى تلك العبارة عن العمى المطلق بالتقوى وهنا إشارة إلى قلّة نور البصيرة الذى يزداد فى ظلّ التّقوى.

والعبارة السابعـة إشارة إلى الاضـطرابات التى يعيشـها الإنسان أثر مقارفـة الذنب والمعصـية؛ فالخوف من عذاب اللّه فى الدنيا والآخرة وتأنيب الضمير الموجود فى طبيعة الذنب كلّها تزال بالتقوى.

قال القرآن الكريم «مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذ آمِنُونَ»[١٠۶٠].

والعبـارة الأـخيرة تشـير إلى تـأثير التقوى فى القضـاء على ظلمات الجهل وإنهيار العدالـة والظلم والجور. وعلى هـذا الضوء فإنّ التقوى تجلب للإنسان خير وسعادة الدنيا والآخرة.

ثم تطرق الإمـام عليه السـلام بعـد ذكره للتقوى وآثارهـا المهمّـة فى الحيـاة الماديّة والمعنويّة البشـريّة إلى طاعـة اللّه والـتى تعـدّ من المعطيات الهامة للتقوى ليوضح بعشر عبارات قصيرة وعميقة المعنى أهميّة الطاعة فى حياة الأفراد المؤمنين فقال:

«فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، ودَخِيلًا دُونَ شِعَارِكُمْ، ولَطِيفاً بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ، وأَمِيراً فَوْقَ

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥١٨

أُمُورِكُمْ، ومَنْهَلًا[١٠۶١] لِحِينِ وُرُودِكُمْ ١٠۶٢]، وشَفِيعاً لِدَرَكِ ١٠۶٣] طَلِبَتِكُمْ، وجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ،

ومَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، ونَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ».

فقد شخص الإمام عليه السلام فى العبارات الثلاث الأولى منزلة طاعة اللّه فى وجود الإنسان، فشبهها بادىء الأمر بالشعار الذى يعنى مايلى البدن من الثياب لا ـ الدثار الذى يعنى الثياب الخارجية التى تقتصر على الرياء والاهتمام بالظاهر، ثم غاص أبعد من ذلك ليسحبها إلى باطن الجسم على أنّها اعمق من الشعار، ثم تعمق أكثر ليرى موضعها فى القلب.

وهنا لابدّ من الإلتفات إلى أنّ العبارة «بين اضلاع» إشارة لطيفة إلى القلب، ذلك لأنّ القلب داخل الصدر وقد احيط من جميع جوانبه بالاضلاع.

جدير ذكره أنّ القلب ليس مركز الإدراكات، إلّاأنّه على صلة وثيقة بدماغ الإنسان وروحه، وكل ظاهرة تطرأ على الروح إنّما تظهر آثارها بادئ الأمر فى القلب.

العبارة:

«أَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ»

إشارة إلى ضرورة سيادة أوامر اللّه فى جميع شؤون الحياة الفرديّة والاجتماعيّة والسياسيّة.

والعبارة:

«ومَنْهَلًا لِحِينِ وُرُودِكُمْ ...»

تشير إلى أنّ المعطيات الإيجابيّة والبركات الجمة لطاعة اللّه على الحياة الماديّة والمعنويّة للإنسان إنّما تغذى روحه، وتوصله إلى أهدافه الساميّة وتحميه ممّا يتعرض له من مشاكل، وتعد مصدر السكينة والطمأنينة فى عالم البرزخ والقبر ويوم القيامة.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالتطرق إلى علّة لزوم الطاعة فقال:

«فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَة، ومَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَة، وأُوَارِ[۱۰۶۴] نيرَان مُوقَدَة».

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۵۱۹

فالعبارتان الأولى والثانية فى الواقع إشارة إلى معطيات الطاعة فى الحياة الدنيا، والعبارة الثالثة ترمز إلى آثارها فى الآخرة؛ فهى تحفظه فى الدنيا من المخاطر الحاضرة والمستقبليّة، وفى الآخرة من العذاب الأليم لنار جهنم.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بهذه الأخطار، المفاسد الأخلاقيّة والباطنيّة والتى تؤدّى إلى البعد عن هدى اللّه، والحال من شأن هذه الأخطار أن تشمل المخاطر الماديّة، ذلك لأنّ الطاعة الإلهيّة تفيض الأمن الاستقرار على المجتمع البشرى وتنزل عليه بركات السماء والأرض وتحد من نسبة الوفيات، كما أشير إلى ذلك فى الآيات الشريفة من سورة نوح: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَال وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّات وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً»[۱۰۶۵].

ثم عاد الإمام عليه السلام ثانية إلى مسألة التقوى والورع ومعطياتها وآثارها، على أنّ الطاعة والتقوى من قبيل اللازم والملزوم، فالتقوى تؤدّى إلى الطاعة، كما أنّ الطاعة عنصر بلورة التقوى فى باطن الإنسان؛ حيث أشار عليه السلام إلى ثمانية من آثار التقوى بعبارات مقتضبة عميقة المعنى فقال:

«فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ ۱۰۶۶] عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ

دُنُوِّهَا، واحْلَوْلَتْ ۱۰۶۷] لَهُ الْامُورُ بَعْدَ مَرَارَتِها، وانْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا،

وأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ انْصَابِهَا[۱۰۶۸]، وهَطَلَتْ ۱۰۶۹] عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا[۱۰۷۰]،

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۵۲۰

وتَحَدَّبَتْ ۱۰۷۱] عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا[۱۰۷۲]، ووَبَلَتْ ۱۰۷۳]

عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا[۱۰۷۴]».

فتتضح قيمة التقوى على صعيد الحياة الماديّة والمعنويّة للإنسان من خلال هذه الآثار التى بينها الإمام عليه السلام للتقوى.

نعم! فالشدائد تزول فى ظلّ التّقوى وتفاض أمطار الرحمة الإلهيّة على التقاة والمجتمعات التقية، ويغيب الفساد والانحراف. قال القرآن الكريم بهذا الخصوص:

«وَلَوأَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ»[۱۰۷۵]. وقال:

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَّهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِبُ»[۱۰۷۶].

ولا تختصر علاقة التقوى بهذه الأمور على الجانب المعنوى، بل هى كذلك حتى من وجهة نظر التحليلات العقلية والمنطقية، فإننا نرى المجتمعات التى استطاعت من خلال انطلاقها من التقوى والثقة بين أبنائها وتعاونهم مع بعضهم من التغلب على العديد من المحن والمخاطر وحدّت من حجم الاختلافات والنزاعات والقضايا الجزائية والعقابية إلى أدنى ما يمكن. والطريف فى الأمر أنّ شهر رمضان المبارك الذى يتمتع فيه الصائمون بمزيد من التقوى بمقتضى الآية الشريفة: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»[۱۰۷۷]

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۲۱

شهد هبوطاً ملحوظاً للجرائم والجنايات، كما أنّ العديد من المشاكل الاجتماعيّة التى تفرزها المشاكل الأخلاقيّة تزول بأقصى ما يمكن من السرعة أبان مزاولة الناس للأسفار المعنويّة كالسفر لحج بيت اللَّه الحرام، ذلك لأنّ التقوى ملكة مانعة إزاء كلّ هذه المشاكل، والأفراد الذين يشعرون بثقل حقوق الآخرين التى تثقل رقابهم إنّما يبحثون عمّا ينجيهم من هذا الثقل، وعلى هذا الضوء هنالك تفسير مادى إلى جانب التفسير المعنوى للعلاقة بين التقوى وغياب المشاكل ومضاعفة البركات.

ثم اختتم الإمام عليه السلام هذا القسم من الخطبة بالعودة إلى مسألة التقوى ليؤكد ثانية على ما استهل به هذا الجانب من الخطبة فقال:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، ووَعَظَكُمْ، بِرِسالَتِهِ، وامْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ».

وهذه الصفات الثلاث التى ذكرها الإمام عليه السلام للَّه‌تبارك وتعالى تمثّل جميعاً دوافع لسلوك سبيل التقوى، لأنّها تشمل جميع النعم الماديّة والمعنويّة والمواعظ الإلهيّة وهى المواعظ التى تفاض على جميع أهل الإيمان عن طريق رسالات الأنبياء سيّما النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وسائر أنواع النعم الماديّة والمعنويّة التى تمنح للإنسان والتى يمكن من خلالها بلوغ ذروة العبودية والورع والتقوى والكمال المعنوى والمادى تثير لدى الإنسان الشعور بالشكر والحمد لواهب هذه النعم وتنتهى به إلى تقوى اللَّه وطاعته وإمتثال أوامره.

وقال فى العبارة الأخيرة:

«فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ».

«عبّدوا» وإن أخذت من مادة عبادة إلّاأنّها تعنى فى هذه الموارد الاعداد والتسليم ومن ذلك قولهم «عبّد الطريق».

ومن الواضح أنّ إعداد النفس لعبودية اللَّه مقدمة لأداء حقّ الطاعة، ولا يتيسر هذا الإعداد إلّاعن طريق الإيمان والمعارف الإلهيّة وتزكية النفس وتهذيبها والانفتاح على أسرار العبادات.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۲۳

القسم الثالث

اشارة

ثُمَّ إِنَّ هذَا الْاسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِى اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، واصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ، وأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ. أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ،

ووَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وخَذَلَ مُحَادِّيهِ بِنَصْرِهِ، وهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ. وسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ، وأَتْأَقَ الْحِيَاضَ بِمَواتِحِهِ. ثُمَّ جَعَلَهُ لَاانْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَلَا فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلَاانْهِدَامَ لِاساسِهِ، وَلَا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ، وَلَا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلَا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلَا عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ، وَلَا جَذَّ لِفُرُوعِهِ، وَلَا ضَنْكَ لِطُرُقِهِ، وَلَا وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ، وَلَا سَوَادَ لِوَضَحِهِ، ولَا عِوَجَ لِانْتِصَابِهِ، وَلَا عَصَلَ فِي عُودِهِ، وَلَا وَعَثَ لِفَجِّهِ، وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ. فَهُوَدَعَائِمُ أَسَاخَ فِي الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا، وثَبَّتَ لَهَا أَسَاسَهَا، ويَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا، ومَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا؛ ومَنَارٌ اقْتَدَى بِهِا سُفَّارُهَا، وأَعْلَامٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، ومَنَاهِلُ رُوِىَ بِهَا وُرَّادُهَا. جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وسَنَامَ طَاعَتِهِ؛ فَهُوعِنْدَ اللَّهِ وَثِيقُ الأَرْكَانِ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ، مُضِىءُ النِّيرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُعْوِذُ الْمَثَارِ. فَشَرِّفُوهُ واتَّبِعُوهُ، وأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ.

الشرح والتفسير: فضل الإسلام

خاض الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة فى بيان أهميّة الإسلام وعظمة هذا الدين الحنيف، حيث أكمل بهذا القسم ما أورده فى القسم السابق بشأن التقوى

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۵۲۴

والطاعة، ذلک لأنّ الطاعة والتقوى إنّما تتحصل فى ظلّ التبعية لهذا الدين. فتحدث بادئ الأمر عن إحدى عشرة صفة من صفات الإسلام العظيم فقال:

«ثُمَّ إِنَّ هذَا الْاسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِى اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، واصْطَنَعَهُ ۱۰۷۸] عَلَى عَيْنِهِ، وأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ،

وأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ».

فقد بيّن فى هذه الصفات الخمس الأُولى الأركان الأصلية لهذا الدين المقدّس والذى انفرد اللَّه تعالى بتشريعه بمنتهى الدقّة، وتولى إبلاغه أفضل خلق اللَّه النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله واستندت دعائمه على أساس حبّ اللَّه.

العبارة:

«اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ»

إشارة إلى أنّ الطريق الذى يؤدّى إلى القرب الإلهى يقتصر على الدين الإسلامى الحنيف: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْاسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ»[۱۰۷۹].

والعبارة:

«واصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ»

تقال فى الأمور التى يكون الشخص حاضراً وناظراً حين الإتيان بها وبعبارة أخرى تتم أمام عينيه. وأمّا بشأن اللَّه فهى كناية عن نهاية عنايته ومراقبته له، قال القرآن الكريم بشأن موسى عليه السلام: «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى»[۱۰۸۰].

والعبارة:

«أَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ»

(بالنظر إلى عودة الضمير فى محبته إلى اللَّه) إشارة إلى أنّ الإسلام بنى على المحبّة وهذه إحدى افتخاراتنا فى أنّ ديننا بنى على أساس الحبّ، ولذلک جاء فى الرواية:

«هَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبِّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ:

«قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ»»[۱۰۸۱].

وعلى هذا الضوء فإنّ أساس هذا الدين محبّة العباد للّهمن جانب، وحبّ اللَّه للعباد من جانب آخر، ثمّ واصل كلامه بالإشارة إلى ست

صفات أخرى فقال:

«أَذَلَّ الْأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، ووَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وخَذَلَ مُحَادِّيهِ ۱۰۸۲] بِنَصْرِهِ،

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۵۲۵

وهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ. وسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ، وأَتْأَقَ ۱۰۸۳] الْحِيَاضَ

بِمَواتِحِهِ ۱۰۸۴]».

والعبارتان:

«أَذَلَّ الْأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، ووَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ ...»

(بالنظر إلى أنّ الضمير فى العبارات يعود إلى الإسلام) إشارة إلى ما ورد فى القرآن الكريم: «هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوكَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»[۱۰۸۵].

وجاء فى الآية التى سبقتها: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوكَرِهَ الْكَافِرُونَ»[۱۰۸۶].

وقد انتصر الإسلام على سائر الأديان فى جبهتين؛ إحداهما الجبهة الظاهريّة من الناحية السياسيّة والعسكريّة، والأخرى الجبهة الباطنيّة من حيث المنطق والدليل والبرهان، فقد أقام القرآن الكريم أقوى الأدلة لإثبات المعارف الدينيّة الحقّة التى تسوق كلّ منصف إلى تقبلها، وكما قال الإمام عليه السلام فى العبارة المذكورة فقد سقى كلّ من عطش من معين فيضه وملأ حقول العلم والمعرفة بأدلته وبراهينه.

ثم تطرق عليه السلام إلى سائر الامتيازات المهمّة التى اتّصف بها الإسلام ليركز بادئ ذى بدئ على خلود هذا الدين المقدّس، فأماط اللثام عن حقيقة هذا الخلود بثمان عبارات عميقة المعنى وبرسم صورة غاية فى الوضوح والروعة فقال:

«ثُمَّ جَعَلَهُ لَا انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَلَا فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلَاانْهِدَامَ لِاساسِهِ، وَلَا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ، وَلَا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ، ولَا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلَا عَفَاءَ[۱۰۸۷] لِشَرَائِعِهِ، وَلَا جَذَّ لِفُرُوعِهِ».

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۵۲۶

وهو ذات الأمر الذى قال فيه القرآن بشأن النّبى: «مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحد مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلكِنْ رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ..»[۱۰۸۸].

وقد نظمت أصول الإسلام وأركانه من جانب الحكيم بما يبعدها عن التزلزل مهما تقادم الزمان وقد تكهن بمتطلبات كلّ زمان ومكان فى ظلّ أحكامه الثابتة والمتغيرة (بتغير الموضوعات) وهذه الشمولية هى التى جعلته خالداً.

ثم خاض الإمام عليه السلام بعد فراغه من إثبات خلود الإسلام فى بيان سائر صفاته من قبيل سهولته ووضوحه واستقامته ووضوح قوانين الدين من خلال ثمان عبارات فقال:

«وَلَا ضَنْكَ ۱۰۸۹] لِطُرُقِهِ، وَلَا وُعُوثَةَ[۱۰۹۰] لِسُهُولَتِهِ، وَلَا سَوَادَ لِوَضَحِهِ ۱۰۹۱]، وَلَا عِوَجَ

لِانْتِصَابِهِ ۱۰۹۲]، ولَا عَصَلَ ۱۰۹۳] فِى عُودِهِ، وَلَا وَعَثَ لِفَجِّهِ ۱۰۹۴]، وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلَا مَرَارَةَ

لِحَلَاوَتِهِ».

والعبارة الأُولى

«وَلَا ضَنْكَ لِطُرُقِهِ»

إشارة إلى ما ورد فى الحديث النبوى الشريف

«بُعِثْتُ بِالْحَنَفِيّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ»[۱۰۹۵]

. الشريعة التى لا ـ تختزن أى صعوبة أمام السالكين إلى اللّه وقوانينها سهلة مستساغة، ولما كان الإفراط فى السهولة قد يؤدّى إلى الضعف فقد قال فى العبارة اللاحقة:

«وَلَا وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ»

أى أنّ هذه السهولة واليسر والسماحة للشريعة لا تسير نحو الإفراط قط، بل ضمن إطار الاعتدال، وتشير العبارة الثالثة إلى هذه الحقيقة فى أنّ وضوح جادة الإسلام دائمى

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۲۷

وليس ممّا يتخلله الظلام أحياناً والفارق بين العبارتين الرابعة والخامسة أنّ كليهما إشارة إلى استقامة الشريعة الإسلاميّة وخلوها من الاعوجاج، فى حين أنّ العبارة الرابعة أشارت إلى استقامة المسيرة، بينما أشارت العبارة الخامسة إلى استقامة أعمدة واسس بناء هذا الصرح العظيم.

وتشير العبارة السادسة:

«وَلَا وَعَثَ لِفَجِّهِ»

إلى أنّ سطح هذه الجادة محكم وراسخ والسير عليه سهل يسير، وليس من قبيل الطرق المليئة بالتراب والرمل والتى تغوص فيها أرجل السالك وبالتالى يصعب المشى والسير عليها.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بالعبارة السابعة

«وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ»

هو وجود العلماء فى كلّ عصر وزمان حيث تلطف اللّه بهؤلاء الأدلاء فى كل زمان والذين يضيئون الطريق لجميع السالكين، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بهم الأئمّة المعصومين عليهم السلام الذين لا تخلو الأرض منهم. كما يمكن أن تكون إشارة إلى مفهوم عام يشمل الأدلة الواضحة وعلامات الحقّ وآثار العظمة فى كلّ عصر ومصر.

والعبارة الأخيرة:

«وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ»

إشارة إلى المرارة التى تشوب العديد من حلوات الدنيا، أوالتى تختتم بها، من قبيل المال والثروة والمقام والانتفاع باللذات التى عادة ماتستبطن القلق والإرباك؛ غير أنّ حلاوة الإسلام ممّا لا تشوبها مرارة قط.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من بيان خلود الإسلام وسهولة أحكامه أشار إلى قوّته وإقتداره ليؤدى حقّ الكلام بسبع عبارات قصيرة من خلال هذا الاستنتاج فقال:

«فَهُو دَعَائِمُ أَسَاخَ ۱۰۹۶] فِى الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا[۱۰۹۷]، وثَبَّتَ لَهَا أَسَاسَهَا[۱۰۹۸]، ويَنَابِيعُ غَزُرَتْ ۱۰۹۹]

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۲۸

عُيُونُهَا، ومَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا؛ ومَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا[۱۱۰۰]، وأَعْلَامٌ قُصِدَ بِهَا

فِجَاجُهَا، ومَنَاهِلُ رُوِىَ بِهَا وُرَّادُهَا».

وعلى هذا الأساس فقد شبّه الإسلام بقصر عظيم الأسس والدعائم وراسخ القوائم وإلى جانبه الحقول والبساتين والعيون المليئة بالمياه وقد يسر الوصول إليه من خلال ملء طريقه بالمصابيح فى الليالى المظلمة والعلامات الواضحة فى النهار، بحيث لا يعيش سالك هذا الطريق أى ضلال فى ليل أو نهار، كما شقت العيون فى ذلك الطريق لتروى ضما العطاشى المسافرين.

ويمكن أن تكون هذه الأسس والدعائم إشارة إلى ما ورد فى الحديث الشريف:

«بُنِىَ الْاسْلامُ عَلى خَمْسَة؛ عَلَى الصَّلاةِ والزَّكاةِ والصَّوْمِ وَالْحَجِّ والْوِلايَةِ ولَمْ يُنادَ بِشَىء كَما نُودِىَ بِالْوِلايَةِ»[۱۱۰۱].

أمّا العيون التى أُشير إليها فى العبارة الثالثة فيمكن أن تكون إشارة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وائمّة العصمة عليهم السلام والمصابيح والمنائر إشارة إلى ما ظهرت منهم عليهم السلام من إعجازات وكرامات، ومناهل الرى إشارة إلى علوم المعصومين عليهم

السلام والتی تسقی الجمیع.

ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه بالإشارة إلی ثلاث خصائص من خصائص الإسلام فقال:

«جَعَلَ اللَّهُ فِیهِ مُنْتَهَی رِضْوَانِهِ، وذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وسَنَامَ طَاعَتِهِ».

فالعبارة الأُولی إشارة إلی ما ورد فی القرآن الکریم فی قوله تعالی: «وَرَضِیتُ لَکُمُ الْاسْلَامَ دِیناً»[۱۱۰۲].

کما یمکن أن تکون العبارة الثانیة إشارة إلی الآیة الشریفة: «وَمَنْ یَبْتَغِ غَیْرَ

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۵۲۹

الْاسْلَامِ دِیناً فَلَنْ یُقْبَلَ مِنْهُ»[۱۱۰۳].

والعبارة الثالثة إشارة إلی الجهاد طبق بعض الروایات، فقد جاء عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال لأحد أصحابه:

«ألا اخْبِرُکَ بِأَصْلِ الْاسْلامِ وفَرْعَهُ وذَرْوَةِ سَنامِهِ»

. قال: بلی! جعلت فداک. فقال علیه السلام:

«أمّا أَصْلُهُ الصَّلاةُ وفَرْعُهُ الزَّکاةُ وذَرْوَةُ سَنامِهِ الْجِهادُ»[۱۱۰۴].

ثم أشار علیه السلام فی ختام هذا القسم إلی سبع صفات أخری من صفات الإسلام بعبارات قصیرة وعمیقة المعنی فقال:

«فَهُو عِنْدَ اللَّهِ وَثِیقُ الأَرْکانِ، رَفِیعُ الْبُنْیَانِ، مُنِیرُ الْبُرْهَانِ، مُضِیُ النِّیرَانِ، عَزِیزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُعْوِذُ[۱۱۰۵] الْمَثَارِ».

وتشیر العبارة الأُولی

«فَهُو عِنْدَ اللَّهِ ...»

إلی أنّ الإسلام بنی علی أسس محکمة من الأدلة العقلیة والمنطقیة والمعجزات الواضحة للنبی الأکرم صلی الله علیه و آله.

کما تشیر العبارة:

«رَفِیعُ الْبُنْیانِ»

إلی سعة وعظمة الخطط الإسلامیّة التی تشمل جمیع أصول وفروع حیاة الناس المادیّة والمعنویّة.

والعبارة الثالثة:

«مُنِیرُ الْبُرهان»

یمکن أن تکون إشارة إلی الأدلة والبراهین التی تثبت حقانیّة الدین الإسلامی الحنیف.

والعبارة الرابعة:

«مُضِیُ النِّیرَانِ»

بشأن العلوم والمعارف الحقّة التی تنبع من الإسلام، کما جاء فی التاریخ: من أنّ الإسلام خلق حرکة فی القرون الوسطی المظلمة لیحقق إنجازات وتطوراً هائلًا فی جمیع العلوم البشریّة والتجریبیّة وقد صدّر المسلمون من خلالها نتاجاتهم العلمیّة إلی جمیع أکناف العالم وکان کما صرّح بعض علماء الغرب بمنزلة الشمعة التی أضاءت ظلمات القرون الوسطی لأوربا.

ویمکن أن تکون العبارة الخامسة:

«عَزِیزُ السُّلْطَانِ»

إشارة إلی منعة وإقتدار حاکمیة الإسلام الذی لا یقهر، أو منعة أدلته وبراهینه القویة والمتقنه وحصانتها من الإنهیار.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۵۳۰

والعبارة السادسة:

«مُشْرِفُ الْمَنَارِ»

واستناداً إلى أنّ «منار» أعمدة مرتفعة كانوا يضعون عليها المصابيح المضيئة لكى لا يضلّ المسافرون طريقهم فى الصحارى والفلوات، وكلّما كان هذا المنار أرفع وأعلى كان أعظم هداية وإرشاداً للآخرين- إشارة إلى أنّ هدى القرآن والإسلام على درجة من القوّة بحيث يدعو إليه جميع النائين من مختلف البقاع.

والعبارة السابعة:

«مُعْوِذُ الْمَثَارِ»

بالنظر إلى أنّ «مثار» مصدر ميمى وبمعنى الحمل على الحركة والإثارة والطرد- فهى إشارة إلى أنّ أى قدرة وقوّة لا يسعها مواجهة الإسلام الأصيل.

ثم أصدر عليه السلام أثر ذكره لهذه الصفات أربع وصايا تمثّل فى الواقع لوازم تلك الصفات فقال:

«فَشَرِّفُوهُ واتَّبِعُوهُ، وأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ».

ومن البديهى أن يكون عظيماً من يتصف بهذه الصفات وعلى العاقل أن يعزه ويكرمه ولابدّ من اتباع هذا الدين الذى يمتاز بهذه الأدلة القوية والواضحة والائتمار بأوامره ويعطيه ما يستحقه من منزلة بأن يجعله أسوة لحياته فى جميع شؤونه.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۳۱

القسم الرابع

اشارة

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّم بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيا الْانْقِطَاعُ، وأَقْبَلَ مِنَ الْاخِرَةِ الْاطِّلَاعُ، وأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاق، وقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاق، وخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ، وأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِى انْقِطَاع مِنْ مُدَّتِهَا، وَاقْتِرَاب مِنْ أَشْرَاطِهَا، وتَصَرُّم مِنْ أَهْلِهَا، وانْفِصَام مِنْ حَلْقَتِهَا، وانْتِشَار مِنْ سَبَبِهَا، وعَفَاء مِنْ أَعْلَامِهَا، وتَكَشُّف مِنْ عَوْرَاتِهَا، وقِصَر مِنْ طُولِهَا.

جَعَلَهُ اللَّهُ بَلَاغاً لِرِسَالَتِهِ، وكَرَامَةً لِامَّتِهِ، ورَبِيعاً لِاهْلِ زَمَانِهِ، ورِفْعَةً لِاعْوَانِهِ، وشَرَفاً لِانْصَارِهِ.

الشرح والتفسير: ربيع الإسلام

اشارة

بين الإمام عليه السلام فى الفصل السابق ببحث رائع عظمة الإسلام وبعض خصائصه وامتيازاته من خلال عبارات عميقة وبليغة. ثم تطرق هنا بشأن من بعث بذلك الدين أى النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ولاسيما تلك الظروف المعقدة التى انبثقت فى ظلها دعوته الشريفة. وسيتطرق فى الفصل القادم إلى أهميّة القرآن الكريم بصفته أهم معجزة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله ودستور الشريعة الإسلاميّة.

وركز فى هذا الفصل- كما ورد انفآ- إلى الظروف المعقدة للعصر الجاهلى والفترة التى انطلقت فيها الدعوة الإسلاميّة من خلال أربع عشرة عبارة قصيرة وعميقة المعنى فى كشف ملابسات ذلك الزمان فقال:

«ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۳۲
مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْانْقِطَاعُ، وأَقْبَلَ مِنَ الْاخِرَةِ الْاطِّلَاعُ ۱۱۰۶]، وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاق، وقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاق ۱۱۰۷]».

وأضاف:

«وخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ[۱۱۰۸]، وَأَزِفَ ۱۱۰۹] مِنْهَا قِيَادٌ[۱۱۱۰]، فِي انْقِطَاع مِنْ مُدَّتِهَا، وَاقْتِرَاب مِنْ أَشْرَاطِهَا[۱۱۱۱]».

ثم قال:

«وتَصَرُّم ۱۱۱۲] مِنْ أَهْلِهَا، وانْفِصَام مِنْ حَلْقَتِهَا، وانْتِشَار مِنْ سَبَبِهَا، وَعَفَاء[۱۱۱۳] مِنْ أَعْلَامِهَا، وتَكَشُّف مِنْ عَوْرَاتِهَا، وقِصَر مِنْ طُولِهَا».

وهذه العبارات الأربع عشرة تشير جميعاً إلى أنّ العالم آيل إلى الزوال، وأننا لنعيش أواخره. فالنعم والإمكانات والمواهب والاستعدادات في جميع الجوانب تسير نحو الفناء.

ثم قال عليه السلام:

«جَعَلَهُ اللَّهُ بَلَاغاً لِرِسَالَتِهِ، وكَرَامَةً لِامَّتِهِ، ورَبِيعاً لِاهْلِ زَمَانِهِ، وَرِفْعَةً لِاعْوَانِهِ، وشَرَفاً لِانْصَارِهِ».

نعم! فهذا النّبي العظيم صلى الله عليه و آله قد خلق ربيعاً مفعماً بالنضارة والحيوية آخر الدنيا وبلغ باتباعه قمة الفخر وذروة الانتصار وأغنى الجميع ببركة وجوده وأشرقت بطلعته تلك الشمس الساطعة في ذلك الوسط المعتم.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۳۳

اجابة عن سؤال

بالنظر إلى ما ورد سابقاً فإنّ القسم الأعظم من هذه الدنيا قد مضى ولم يبق من عمرها سوى القليل، وهذا ما يستفاد بصورة جلية من الآيات القرآنيّة، فقد جاء في الآية الشريفة الأُولى من سورة الأنبياء: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَة مُّعْرِضُونَ».

كما جاء في الآية الأُولى من سورة القمر: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ».

وفي الآيتين السادسة والسابعة من سورة المعارج: «انَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً* وَنَرَاهُ قَرِيباً» وسائر الآيات.

وهنا يرد هذا السؤال: وكم هو عمر الدنيا ليقال ولّى شطرها الأعظم؟ لقد مضى ۱۴ قرناً على الدعوة الإسلاميّة ويمكن أن تمضي قرون طويلة أخرى والحال لا نشعر بأثر على زوال الدنيا وبداية القيامة.

وردت عدّة أقوال لشرّاح نهج البلاغة بهذا الشان وكأنّهم بلغوا طريقاً مسدوداً وأخذ كلٌّ يبحث عن سبيل للخروج منه، وأعرب البعض الآخر بعد كثرة الكلام عن عجزه ورأى من الأنسب الصمت والسكوت.

والطريف في الأمر أنّ كلّ شارح ذكر شيئاً بشأن عمر الدنيا؛ فقيل ۵ آلاف سنة وقيل ۷ آلاف سنة وقيل ۱۲ ألف سنة، بينما عدّها البعض الآخر أكثر من ذلك، والأعجب من ذلك أنّ البعض أضاف مقداراً من الشهور والأيّام إلى ما ذكره من سنوات، ويبدو أنّ أحداً منهم لم يعزز كلامه بدليل معتبر بل مجرّد استناد الكلام إلى الحدس والظن؛ أو كإطلاق السهم في الليل كما يقولون. ونرى من الأفضل قبل أن نخوض في تعيين عمر الدنيا بالسنوات والأشهر والأيّام؛ أن نتجه صوب الإجابة عن السؤال المذكور لنرى كيف أنّ ما تبقى من عمر الدنيا أقلّ ممّا تصرم منها.

ذكرت هنا عدّة أجوبة والجواب الآتي يعدّ أفضلها.

فالعلم المعاصر وكذلك الروايات الإسلاميّة ترى للحياة البشريّة تاريخاً طويلًا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۳۴

على الكرة الأرضيّة وبمقارنته بما بقى من عمر الإنسان على وجه الأرض يمكن أن يكون قصيراً.

فقد جاء فى بعض الروايات:

«أوتظنون أنّ اللَّه لم يخلق خلقاً غيركم، إنّ اللَّه خلق ألف ألف آدم قبل آدمكم هذا»[۱۱۱۴].

وعليه فليس هنالك من مشكلة فى ما ورد فى هذه الخطبة وكذلك الإشارات التى تضمنتها مختلف الآيات القرآنيّة إلى هذه المسألة والتى تشير إلى قصر عمر ما تبقى من الدنيا.

والتفسير الآخر للعبارات المذكورة أنّ المراد من انقطاع الدنيا واقبال الآخرة هو نهاية حياة الناس أو الأمم، لأنّ مدّة عمر الإنسان قصيرة ولا يكاد يعيش فترة حتى يحل أجله.

ولو أمعنا النظر فى العبارات الأربع عشرة المذكورة لرأينا أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع تلك العبارات.

تأمّل

ربيع النبوّة

أشار الإمام عليه السلام فى ختام هذا القسم إلى الافتخار بخلق النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله لاتباعه، ليعتبره بمنزلة فصل الربيع لأهل زمانه وشرف ورفعة وعزّة أعوانه وأنصاره.

وإننا لندرك حقيقة هذه العبارات التى وردت فى الخطبة كلّما تأمّلنا تاريخ العصر الجاهلى ثم تلك النهضة والثورة العظيمة التى احدثتها البعثة النبويّة الشريفة، فقد كان أعراب الجاهلية يعتبرون الإنسان فاقداً لأية منزلة اجتماعيّة وتاريخيّة تذكر، بينما حظى بمكانة قل نظيرها أو انعدم فى التاريخ البشرى فى ظلّ البعثة النبويّة،

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۳۵

فلم يكتف أتباع نبى الإسلام صلى الله عليه و آله من العرب والعجم بتشكيل تلك الحكومة الواسعة الأطراف آنذاك فى معظم مناطق العالم، بل بلغوا ذروة العلم والمعرفة والمدنيّة ممّا جعل العلوم الإسلاميّة فى خاتمة المطاف تعدّ بؤرة وانطلاقة لتلك الثورة العلميّة التى شهدتها أوربا فى العصر الحديث، ولو عاد المسلمون اليوم لأمجادهم السابقة وأحيوا تلك القيم الإسلاميّة والمثل الدينيّة لاحتلوا الصدارة ثانية فى المجالات العلميّة والسياسيّة والاقتصاديّة.

***

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۳۷

القسم الخامس

اشارة

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لَاتُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وسِرَاجاً لَايَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وبَحْراً لَايُدْرَكُ قَعْرُهُ، ومِنْهَاجاً لَايُضِلُّ نَهْجُهُ، وشُعَاعاً لَايُظْلِمُ ضَوْءُهُ،

وفُرْقَانـاً لَايَخْمَـدُ بُرْهَانُهُ، وتِبْيَاناً لَاتُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وشِفَاءً لَاتُخْشَى أَسْقَامُهُ، وعِزًّا لَاتُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وحَقّاً لَاتُخْذَلُ أَعْوَانُهُ. فَهُومَعْدِنُ الْإيمَانِ وبُحْبُوحَتُهُ، ويَنَابِيعُ الْعِلْمِ وبُحُورُهُ، ورِيَاضُ الْعَدْلِ وغُدْرَانُهُ، وأَثَافِيُّ الْاسْلَامِ وبُنْيَانُهُ، وأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وغِيطَانُهُ. وبَحْرٌ لَايَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وعُيُونٌ لَايُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ ومَنَاهِلُ لَايُغِيضُهَا الْوَارِدُونَ، ومَنَازِلُ لَايَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وأَعْلَامٌ لَايَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وآكَامٌ لَايَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ.

جَعَلَهُ اللَّهُ رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، ورَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، ومَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، ودَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، ونُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وحَبْلًا وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، ومَعْقِلًا مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وهُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ، وعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ، وبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، ومَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلْأَمَ. وعِلْماً لِمَنْ وَعَى، وحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى، وحُكْماً لِمَنْ قَضَى.

الشرح والتفسير: خصائص القرآن الكريم

كما قيل سابقاً فقد استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة البليغة بالحديث عن أهميّة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۳۸

التقوى، ثم شرح سبيل التقوى الذى يتمثّل فى تبعية هذا الدين الحنيف، وخاض فى المرحلة التالية فى أهميّة الدعوة النبويّة وحامل الرسالة الإسلاميّة، وتعرض فى القسم الأخير من الخطبة إلى خصائص وإمتيازات القرآن معجزة النّبى الخالدة ودستور الشريعة الإسلاميّة السمحاء، والذى يجدر ذكره أنّ الإمام عليه السلام أشار ب ۴۲ عبارة قصيرة وعميقة المعنى إلى ۴۲ إمتيازاً مهمّاً من امتيازات القرآن وشرح خصائصه باسهاب بحيث لا يمكن تصور ما هو أفضل منه.

فتطرق فى البداية إلى عشر فضائل وامتيازات فقال:

«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وسِرَاجاً لَايَخْبُو[۱۱۱۵] تَوَقُّدُهُ، وبَحْراً لَايُدْرَكُ قَعْرُهُ، ومِنْهَاجاً[۱۱۱۶] لَايُضِلُّ نَهْجُهُ، وشُعَاعاً لَايُظْلِمُ ضَوْءُهُ، وفُرْقَاناً لَايَخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وتِبْيَاناً لَاتُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وشِفَاءً لَاتُخْشَى أَسْقَامُهُ، وعِزًّا لَاتُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وحَقًّا لَاتُخْذَلُ أَعْوَانُهُ».

والعبارتان الأُولى والثانية فى الواقع اقتباس من الآيات القرآنيّة التى شبهت القرآن بالنور ومن ذلك الآية ۱۵ من سورة المائدة: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ»، فالقرآن الكريم أضاء بنوره طرق الحياة المظلمة وكشف السبيل القويم من بين سبل الضلالة والحيرة، وأرشد قوافل المجتمعات الإنسانيّة فى صحارى وفلوات هذا العالم إلى هدفها المنشود ألا وهو سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

وتشير العبارة الثالثة:

«وبَحْراً لَايُدْرَكُ قَعْرُهُ»

إلى الأسرار الخفية ودقائق العلوم المودعة فى القرآن الكريم والتى تسمو على الأفكار ولا يبلغها سوى خاصة أولياء اللّه، وقد أشارت بعض الروايات الإسلاميّة إلى بطون القرآن المتعددة.

والتعبير بالمنهاج الوارد فى العبارة الرابعة بشأن القرآن الذى يعنى الطريق الواضح والمستقيم الذى لا يضلّ فيه السالكون إشارة إلى الأفراد الذين انتفعوا بهذا الطريق الواضح والصراط الإلهى المستقيم ولا يعتريهم الضلال قط.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۳۹

كما تضمنت العبارة الخامسة: إشارة أخرى إلى نور القرآن حيث إنّ ضياءه خالد لا يزول أبداً كما وصف القرآن نفسه فقال: «لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيم حَمِيد»[۱۱۱۷].

وأشارت العبارة السادسة إلى نقطة مهمّة أخرى وهى أنّ القرآن فرقان؛ أى حين يمتزج الحقّ بالباطل أحياناً، فما كان مطابقاً للقرآن

فهو حقّ وما خالفه فهو باطل، وعليه فهو يفرق الحقّ عن الباطل، وقد ورد التعبير عن القرآن بالفرقان فى الآية الأولى من سورة الفرقان إذ قالت: «تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً» والأهم من كلّ ذلك أنّ هذه الصفة للقرآن لا تؤول إلى الخمود والانطفاء والاختفاء أبداً.

وفى العبارة السابعة شبه القرآن بالبناء الراسخ الأركان والأسس بحيث لا يهدم أبداً، وهذه إشارة إلى خلود التعاليم القرآنيّة[۱۱۱۸].

ويطالعنا تشبيه آخر فى العبارة الثامنة؛ حيث شبه القرآن بالدواء الشافى الذى ليس بعده سقم، ذلك لأننا نعلم

«لَيْسَ مِنْ دَواء إِلَّا ويُهَيِّجُ داء»[۱۱۱۹]

فإنّ هنالك آثاراً مختلفة سلبيّة للدواء أحياناً، غير أنّ القرآن لا ينطوى سوى على المنافع والآثار الإيجابيّة.

وقد ورد التعبير بالشفاء عن القرآن فى ذات القرآن فى الآية ۵۷ من سورة يونس: «قَدْ جَاءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ».

وفى الآية ۸۲ من سورة الاسراء: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

حتى أنّه ليستفاد من أغلب روايات المعصومين أنّ القرآن الكريم شفاء

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۴۰

للأمراض البدنيّة بالإضافة إلى الأمراض العقائديّة والأخلاقيّة، ومن تلك الروايات ما أكّدت على فائدة سورة الحمد فى علاج الأمراض البدنيّة.

وقد جاء تفسير سورة الحمد فى العديد من الروايات، وكذلك فى سائر التفاسير، ومنها تفسير كنز الدقائق، كما ذكر المرحوم الكلينى فى الجزء الثانى من كتابه أصول الكافى فى باب فضل القرآن العديد من هذه الروايات الواردة بهذا الخصوص.

كما ورد الكلام فى العبارتين التاسعة والعاشرة من عبارات الخطبة فى أنصار القرآن وأعوانه الذين كتبت لهم الغلبة على الأعداء دائماً فلا يعيشون الفشل والهزيمة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى احدى عشرة فضيلة أخرى بعبارات قصيرة ومتتابعة، حيث شبه القرآن بالبحر والعين الصافية والبناء المتقن والمعدن الثمين والمنهج الواضح فقال:

«فَهُو مَعْدِنُ الْايمانِ وبُحْبُوحَتُهُ ۱۱۲۰]، ويَنَابِيعُ الْعِلْمِ

وبُحُورُهُ، ورِيَاضُ ۱۱۲۱] الْعَدْلِ وغُدْرَانُهُ ۱۱۲۲]، وأَثَافِىُّ ۱۱۲۳] الْاسْلامِ وبُنْيَانُهُ، وأَوْدِيَةُ الْحَقِ

وغِيطَانُهُ ۱۱۲۴]. وَبَحْرٌ لَايَنْزِفُهُ ۱۱۲۵] الْمُسْتَنْزِفُونَ، وعُيُونٌ لَايُنْضِبُهَا[۱۱۲۶] الْمَاتِحُونَ ۱۱۲۷]، ومَنَاهِلُ لَا

يُغِيضُهَا[۱۱۲۸] الْوَارِدُونَ، ومَنَازِلُ لَايَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وأَعْلَامٌ لَايَعْمَى عَنْهَا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۴۱

السَّائِرُونَ، وَآكَامٌ ۱۱۲۹] لَايَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ».

العبارة:

«مَعْدَنِ الْايمانِ»

إشارة إلى أنّ أدلة المعارف الإسلاميّة من التوحيد واثبات وجود اللّه حتى مسألة المعاد وإعجاز القرآن والولاية؛ إنّما ذكرت جميعاً وبصورة واسعة فى القرآن الكريم وهى الأدلة التى تشكل مصادر الأدلة الأخرى ذلك لأنّ المعدن يطلق على المصدر والمنبع والمركز الأصلى للأشياء الثمينة.

كما ذكر هذا المطلب بتعبير آخر فى العبارة الثانية، اعتبر فيها القرآن عيناً فياضة وبحراً من العلم، بل عيون متدفقة وبحار يستطيع أهل الإيمان انتهال مختلف العلوم منها، وإننا لنعلم اليوم أنّ مصدر علم الكلام والفقه والأخلاق وتاريخ الأنبياء وتاريخ الإسلام والعلوم

الأخرى هو القرآن الكريم.

وأشار في العبارة الثالثة إلى مسألة مهمّة أخرى ليصف فيها القرآن على أنّه حدائق ورياض العدل وغدرانه ومنابعه، فقد خاطب القرآن الكريم جميع المؤمنين قائلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ امَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ»[۱۱۳۰]؛ أي أنّه لا يرى القيام بالعدل كافياً ويرى ضرورة القيام بالقسط حيث القوام صيغة مبالغة وتأكيد، حتى أنّه ليصرح بأنّ العداوة والبغضاء والقرب والصداقة لا ينبغي أن تحول دون إجراء العدالة: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوأَقْرَبُ لِلتَّقْوَى»[۱۱۳۱].

كما أوصى في ذيل الآية الأُولى بعدم التواني في إجراء العدالة حتى تحت طائلة إسناد الأب والام والأقرباء.

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام شبه العدالة بالروضة والغدير الذي يسقى الروضة، وبالطبع فإنّ المجتمع الذي تطبق فيه العدالة بمثابة جمال الحديقة والروضة والحركة والحيوية الناشئة من السقى الكافي، في حين أنّ المجتمع الذي يسوده الظلم

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۵۴۲

والتمييز الطبقي أشبه بالصحراء القاحلة والمحرقة الخالية من الماء والزرع.

والكلام في العبارة الرابعة عن أساس وبنيان الإسلام الذي ورد في القرآن الكريم، لأنّ «أثافي» و «بنيان» تعني الأسس والجذور، وحسب رواية الإمام الباقر عليه السلام:

«بُنِيَ الْاسْلامُ عَلى خَمْسَةِ اشْياء؛ عَلَى الصَّلاةِ والزَّكاةِ والْحَجِّ والصَّوْمِ والْوِلايَةِ»[۱۱۳۲]

ونعلم أنّ أصول هذه الفرائض وردت بصورة موسعة في القرآن الكريم.

وجرى الكلام في العبارة الخامسة عن الحقّ (الحقّ بمعناه الجامع الواسع الذي يشمل جميع الحقوق الإلهيّة والإنسانيّة والاجتماعيّة) حيث قال الإمام عليه السلام:

«وأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وغِيطَانُهُ».

وجرى الكلام في العبارات السادسة والسابعة والثامنة عن عدم نفاد المعارف والعلوم القرآنيّة التي لا تتناقص مهما اغترف منها، وتمد العلماء والباحثين والسالكين بالجديد من الحقائق حتى يوم القيامة، والدليل على ذلك واضح، فالقرآن كلام اللّه وكلام اللّه كذاته لا متناهٍ، على غرار ما ورد عن النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«لا تُحْصى عَجائِبُهُ ولا تُبْلي غَرائِبُهُ»[۱۱۳۳].

ويحمل هذا الكلام رسالة واضحة لجميع مفسري القرآن وهي أن لا يتصوروا أنّ ما قالوه بشأن القرآن هو آخر الكلام وليس هنالك ما هو جديد غيره.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام بشأن مَن سأله عن القرآن الكريم، قائلًا: ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلّاغضاضةً؟ فقال عليه السلام:

«لأنّ اللَّه لَم يَجْعَلْهُ لِزَمانٍ دُونَ زَمانٍ وَلا لِناسٍ دُون نَاس، فَهُو فِي كُلِّ زَمانٍ جَديدٌ وعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ»[۱۱۳۴].

والعبارات التاسعة والعاشرة والحادية عشرة إشارة إلى وضوح منهج القرآن

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۵۴۳

وضمانه الهدى لسالكي هذا الطريق، فلا يضل من سلكك ولا تخفى علاماته على من سار عليه كما لا تغيب عنهم منازله الآمنة.

ثم أشار عليه السلام في مواصلته لذكر هذه الصفات الرفيعة للقرآن إلى خمس صفات أخرى فقال:

«جَعَلَهُ اللَّهُ رِيّاً[۱۱۳۵] لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، ورَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، ومَحَاجَ ۱۱۳۶] لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، ودَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، ونُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ».

والعبارة الأُولى

«جَعَلَهُ اللَّهُ رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ»

إشـارة إلى أنّ كـلّ عالم أكثر تعطشاً للعلم، ذلك لأنّه ذاق طعم العلم والمعرفـة، وبما أنّ علوم القرآن الكريم ومعارفه غايـة فى السعة وليست محدودة فإنّ العلماء يستطيعون رى عطشهم العلمى بالقرآن.

جاء فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام فى نهج‌البلاغة:

«مَنْهُومانِ لا يَشْبَعانِ؛ طالِبُ عِلْم وطالِبُ دُنْيا»[۱۱۳۷].

والعبارة الثانية:

«ورَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ»

إشارة إلى أنّ عالم الطبيعـة يستأنف حياته فى فصل الربيع، فتظهر النباتات والأزهار والثمار، وللقرآن مثل هذا الأثر فى القلوب الواعية، فأزهار الفضيلة وثمار الإيمان اللذيذة والأخلاق والمعرفة وبالتالى القرب الإلهى إنّما يتيسر فى ظلّ القرآن الكريم.

واعتبر القرآن فى العبارة الثالثة جادة واسـعة وواضحة لسالكى الحقّ، لأنّ الصلحاء هم أولئك الذين يحثون الخطى فى السير والسلوك إلى اللَّه وأنّ أفضل جادة وطريق يُمكّنهم من بلوغ المقصد هى جادة القرآن الكريم.

وأشار فى العبارة الرابعـة إلى نقطة جديدة وهى أنّ الأدوية قد يكون لها أحياناً تأثير فى التسـكين فقط، كما تكون أحياناً أخرى علاجاً مؤقتاً وثالثة علاجاً تاماً،

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۴۴

لكنها تستبطن عوارض سـلبيّة وأمراضـاً عرضـيّة، أمّا القرآن فهو الـدواء المنزه عن هـذه الأـمور فهو العلاج التام الخالى من العوارض السـلبيّة، كمـا أشـار فى العبـارة الخامسـة إلى أمر جديـد وهو أنّ أنوار عـالم المـادة تمتزج أحيانـاً بالظلمـة (كالنور بين الطلوعين وبين الغروبين) وإن لـم تخالطه ظلمـة فإنّ له خسوفاً وكسوفاً أو غروباً وافولًا أمّا نور القرآن فلا غروب ولا أفول فيه ولا خسوف ولا كسوف، لأنّه ينبعث من نور علم الحقّ وليس هناك من سبيل إلى الظلمة: «اللَّهُ نُورُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ ...»[۱۱۳۸].

ثم أشار عليه السلام إلى أربعة امتيازات أخرى من امتيازات القرآن فقال:

«وحَبْلًا وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، ومَعْقِلًا[۱۱۳۹] مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ».

فالإمام عليه السلام ببيانه لهذه الصفات الأربع إنّما شبه فى الواقع سعادة الإنسان بالقلعة الحصينة الواقعة على سفح الجبل، وعلى سالكى هـذا الطريق- على غرار متسـلقى الجبـال- أن يتمسـكوا بحبـال قويـة مربوطـة اعلى الجبل ويتمسـكوا بعـدّة عروات وثيقـة ليتمكنوا من الوصول إلى تلك القلعة وتلك القلعة فى موضع لا يبلغها العدو وكل من دخلها كانت له قدرة لا تقهر وعاش فيها سليماً معافى

ومن هنـا يفرز العـدو الأصـلى للإنسان هوى النفس والشـيطان وعـدم الاسـتقرار، ومن يسـتظل بالقرآن سـيبلغ ذروة السـلامة والسـعادة والكرامة والأمن.

ثم أشار عليه السلام إلى خمس صفات منسجمات اخر من صفات القرآن فقال:

«وهُدىً لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ، وعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ ۱۱۴۰]، وبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وفَلْجاً[۱۱۴۱] لِمَنْ حَاجَّ بِهِ».

المراد من الهدى فى العبارة الأُولى واضح، والمراد من العذر فى العبارة الثانية

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۴۵

يمكن أن يكون إتمـام الحجّـة، حيث أتمّ القرآن الحجّـة على جميع الأـفراد بشـأن الإيمـان والإتيان بالواجبات الإلهيّـة، كما يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ القرآن سـيكون معـذوراً أمام اللَّه تعالى فى القيامـة، بمعنى كلّ من كان عمله وفق تعاليم القرآن سـيكون معـذوراً عند اللَّه، ويبدو المعنى الثانى أصوب من الأوّل.

والعبارة:

«بُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ»

إشارة إلى أنّ الإنسان لا يستطيع الاستدلال بالقرآن فى عقائده وأعماله فحسب، بل البراهين القرآنيّة أفضل برهان فى دحر حجّة المخالفين سواء فى المبدأ والمعاد أو فى الإرشادات الدنيويّة.

والعبارة:

«شَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ»

تأكيد أكثر على هذا المعنى إذ إنّ كلّ من جعل القرآن شاهده على خصمه كان أعظم شاهد له ونتيجة ذلك ما ورد فى العبارة الخامسة من أنّ الاستدلال والاستشهاد بالقرآن سبب التغلب والانتصار على الخصم.

ثم قال الإمام عليه السلام فى آخر سبع صفات اختتم بها هذه الخطبة:

«وحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ۱۱۴۲]، وجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلأَمَ ۱۱۴۳]، وعِلْماً لِمَنْ وَعَى، وحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى، وحُكْماً لِمَنْ قَضَى».

فقد شبه المؤمن بالقرآن فى العبارة الأُولى والثانية بالشخص الذى ركب مركباً يحلق به إلى سماء السعادة.

واعتبر القرآن فى العبارة الثالثة وسام شرف لجميع الأفراد الذين جعلوه دلالة حياتهم، فآيات القرآن أفضل شعار وعلاماته ودلالاته أفضل العلامات والدلالات.

وعدّه فى العبارة الرابعة كدرع يقى الإنسان مكاره الحوادث فى مواجهته للأعداء، العدوالظاهرى المخالف للإسلام والعدو الباطنى، أى هوى النفس والعدو

نفحات الولايه، ج۷، ص: ۵۴۶

الخفى أى الشيطان.

وأشار فى العبارات الخامسة والسادسة والسابعة إلى العلوم الحاصلة من القرآن، ويمكن أن تكون العبارة

«وعِلْماً لِمَنْ وَعى»

إشارة إلى استدلالات القرآن المنطقية والعبارة

«حَديثاً لِمَنْ رَوى»

إشارة إلى الأحاديث النقلية والأحاديث التى بلغتنا من جانب الوحى.

وأشار عليه السلام فى العبارة الأخيرة إلى تطبيقه العملى فى مسألة القضاء واصدار الأحكام، بناءً على أنّ القضاء فى العبارة بمعنى الأحكام فى الخصومات، وإن كان القضاء يشمل الأحكام كافّة، فهوإشارة إلى جميع الأحكام الفقهية والعقائدية.

تأمّلان

۱. عظمة القرآن لدى أمير المؤمنين عليه السلام

ورد البحث بشأن عظمة القرآن فى عدّة خطب من نهج البلاغة، ولكن لم يرد أى بحث بهذه السعة والشمولية، وما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة (إثنا وأربعين امتيازاً للقرآن) من مطالب يمكن أن تجعل المراقب غير الواعى يظنها من قبيل الادعاء الذى يفتقر إلى الدليل، إلّاأنّ الدقّة فى الآيات القرآنيّة تفيد وجود العديد من الشواهد والأدلة الكافية على هذا الأمر.

فمثلًا حین عد الإمام علیه السلام القرآن معدن الإیمان ومصدر العلم فذلک لأنّ القرآن ذکر عدّة أدلة بشأن أهم المسائل العقائدیّة أی المبدأ والمعاد بحیث فتح أبواب الإیمان باللّه والمعاد بوجه کلّ إنسان منصف.

وبشأن مسألـة معرفـة اللّه، فهو یأخـذ بیـد الإنسان فی أعالی السـماء وأعماق الأرض لیریه الحرکة المنظمة لتعاقب اللیل والنهار وحرکة الریاح [۱۱۴۴]، وخلق أنواع

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۵۴۷

الحیونـات والنباتـات والثمار،[۱۱۴۵] وتحلیق الطیـور فی السـماء[۱۱۴۶]، وحرکـة الغیـوم وامتلاء الأرض العطشـی بالمیـاه أثر نزول الأمطار[۱۱۴۷] والتی تعکس کلّ واحدة منها نظام عالم الخلیقة لیوقن أنّ وراء ذلک مبدأ علم وقدرة صاغه بهذا الشکل. وبشأن مسألة المعاد فقـد أخـذ بید الإنسان الطالب للحقیقة إلی بدایة الخلیقة[۱۱۴۸] ولیریه مشاهـد المعاد فی عالم النباتات ۱۱۴۹] وقدرة اللّه علی إحیاء العظام البالیة للموتی ۱۱۵۰].

وأمّا بشأن العدالـة فقـد أولاها أهمیّـة بحیث اعتبرهـا من وظائف المؤمنین القطعیـة[۱۱۵۱] وتطبیقهـا حتی بشأن العـدو[۱۱۵۲] وعدّ الانحراف عنها کبیرة من الکبائر.

وإن عـدّ أمیرالمؤمنین علیه السـلام القرآن کعین فیاضة لری قلوب العلماء وربیع قلوب الفقهاء فدلیل ذلک فی ذات القرآن، ذلک لأنّه وإن کتبت آلاف التفاسیر للقرآن فما زال العلماء یکتشفون کلّ یوم ما هو جدید فیه.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۵۴۸

وإن قال الإمام علیه السـلام: إنّ القرآن سـبب عزّة المسـلمین واقتـدارهم فـدلیل ذلک وقد ورد فی عدّة آیات قرآنیّة فی أنّه یدعو إلی وحدة الکلمة وعدم التفرقة ویری الإخوة هی رابطة المؤمنین ونتیجة ذلک عزّة المؤمنین فی ظلّ عزّة اللّه ۱۱۵۳].

کما أنّ جذور جمیع المواضیع التی ذکرها الإمام علیه السلام بصفتها ۴۲ إمتیازاً للقرآن فی هذا الجانب من الخطبة موجودة فی القرآن الکریم، ولو جمعت لأصبحت کتاباً ضخماً، ولو عمل بهذه الأوامر والتعالیم لحصلت منها کلّ هذه الآثار.

۲. العلماء الأجانب والقرآن

إنّ عظمة القرآن لم تقتصـر علی الإشادة به بهذه الصفات العظیمة من قبل المسلمین وکبار العلماء الأعلام، بل أذعن لهذه العظمة حتی أولئک الأباعد الذین غاصوا فی تأمّل آیات هذا الکتاب السماوی فذکروا بعض العبارات الجدیرة بالتأمّل والاهتمام.

کتب «آلبرماله» المورّخ والعالم الفرنسی المعروف فی کتابه «التاریخ العام» حول القرآن:

«إنّ القرآن ممتاز بمعنی الکلمـة، البـدیل عن سائر الکتب القیمـة والـذی یضم جمیع العلوم (الإنسانیّـة) وهو الکتاب الذی یحتوی علی التعالیم الدینیّة والقوانین المدنیّة المعاصرة، ونسخة مرشدة للقاضی وکمال تام للزعیم الروحانی»[۱۱۵۴].

وکتب «ویل دیورانت» العالم والفیلسوف المعروف المعاصر فی کتابه تاریخ الحضارة:

«إنّ القرآن یخلق عقائد سهلة وبعیدة عن الغموض فی القلوب المتواضعة، منزّهة

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۵۴۹

من طقوس العـادات الهجینـة ومن سـنن الوثنیـة والکهنـة، وببرکته بلغ المسـلمون ذلـک الرقی الأخلاقـی والثقـافی ورسـخ بینهم النظم الاجتماعیّة وأسس الوحدة.

وأضاف: إنّه حرّر عقولهم من العدید من الأوهام والخرافات والظلم والعنف وأکسبهم عزّة وکرامة، وقد غرس فی المجتمع الإسـلامی حالة من الاعتدال والتقوی لیس لها مثیل فی أیٍّ من مناطق العالم التی قطنها الإنسان الأبیض ...»[۱۱۵۵].

وكتب «رولف لين تون» صاحب (سير الحضارة):

«لقـد مهـدت المدرسة القرآنيّة سبيل الرقى والتطور لكلّ فرد مهما كان انتماؤه، بحيث أمكن حتى لابن العبد أن يبلغ المقامات الرفيعة والعالية فى المجتمع الإسلامى»[۱۱۵۶].

وقال البروفسور «درابرز اروب»:

«القرآن سلسـلة من الوصايـا والتعـاليم الأخلاقيّـة والـذى يتكون من مفـاهيم يقبلها الجميع. وهـذه الوصايا والتعاليم بليغـة وكاملـة وهى ضرورية ولازمة لتنظيم شؤون الناس»[۱۱۵۷].

وقال «جان ديون بورت» مؤلّف كتاب «الاعتذار إلى القرآن ومحمد من التقصير»:

«إنّ القرآن منزّه عـن كـلّ عيـب ونقص بحيـث لاـ يتطلـب أدنى إصـلاح، ولاـ يشـعر الإنسـان بـأى ملـل إذا مـا تصـفحه مـن أولـه إلى آخره»[۱۱۵۸].

وقال الشاعر الألمانى المعروف والعالم «جيته»:

«لسـنين طويلـة، أبعـدنا القساوسـة عن فهم حقـائق القرآن المقـدس وعن عظمـة النبى محمّـد، ولكن كلما خطونا على طريق فهم العلم تنزاح من أمام أعيننا حُجُب

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۵۰

الجهل والتعصب المقيت، وقريباً سيلفت هذا الكتاب الفريد أنظار العالم، ويصبح محور أفكار البشرية»[۱۱۵۹].

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۵۱

الخطبة ۱۹۹

اشارة

كانَ يُوصى بِهِ أَصْحابَهُ ۱۱۶۰]

نظرة إلى الخطبة

أوصى الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة بأربعة أمور مهمّة من التكاليف الإسلاميّة والتى تشكل جانباً من الخطبة.

فقد تطرق فى القسم الأوّل إلى الصلاة وأهميتها وأشار إلى الإكثار منها والمحافظة على كيفيتها ليعتبرها وسيلة النجاة فى الآخرة وسبب التطهر من المعاصـى فى الدنيا وغسل الروح والقلب من الرذائل الأخلاقيّة، ثم ذكَّر باهتمام النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله والمؤمنين بالصلاة.

وخـاض فى القسم الثانى فى مسألـة الزكاة التى تعـدّ من أهم أركان الإيمان بعـد الصـلاة وعـدّها من كفّارات الـذنوب وحجاباً من نار جهنم، وأنّ أدائها مفخرة عظيمة، وعرض بالذم لمن يغفل عنها.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۵۲

وانتقل فى القسم الثالث إلى موضوع غايـة فى الأهميّة والذى يتمثل بأداء الأمانة ليعتبر المؤتمن سـعيداً وخائن الأمانة مهزوماً وآيساً من رحمة اللَّه وخاض فى تفسير مختصر للآية الشريفة: «انَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ ...»[۱۱۶۱].

وتحـدّث فى القسم الرابع عن موضوع مهم يضـمن إجراء جميع التكـاليف والأحكـام الإلهيّـة وهو مراقبـة اللَّه واحـاطته العلميّـة بجميع

أعمال الإنسان، وكذلك أعضاء الإنسان وجوارحه وضميره هى الأخرى مراقبة ومحيطه بأعماله.

وتفيد العبارة

«كانَ يُوصى بِهِ أصْحابَهُ»

أنّ الإمام عليه السلام كان يكرر هذا الكلام كلّما سنحت الفرصة ليحذر صحبه من خطورة هذه الأصول الأربعة المهمّة، ويجدر بالسالكين لخط الإمام عليه السلام أن يواصلوا وينفذوا هذه الوصايا ويتواصوا بعضهم البعض بهذه المبادئ الأربعة المنجية.

نفحات الولايهْ، ج۷، ص: ۵۵۳

القسم الأوّل

اشارهْ

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ، وحَافِظُوا عَلَيْهَا، واسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّها (كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً). أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ). وإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ، وتُطْلِقُهَا إِطْلَاقَ الرِّبَقِ، وشَبَّهَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَيَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ واللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّات، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ؟ وقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنينَ الَّذِينَ لَاتَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاع، وَلَا قُرَّةُ عَيْن مِنْ وَلَد وَلَا مَال. يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وإِقَامِ الصَّلَاةِ وإِيتَآءِ الزَّكَاةِ). وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ نَصِباً بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: (وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ واصْطَبِرْ عَلَيْهَا)، فَكَانَ يَأْمُرُ بِها أَهْلَهُ ويَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ.

الشرح والتفسير: الأهميّة القصوى للصلاة

اشارهْ

أشار الإمام عليه السلام كما ذكرنا فى مبحث «نظرة إلى الخطبة» إلى أربعة أمور مهمّة وأكّد على أنّها من الأركان، تتعلق ثلاث منها بفروع الدين (الصلاة والزكاة وحفظ وأداء الأمانة) والرابع من آثار أصول الدين وهو الإيمان بحضور اللَّه فى كلّ مكان وعلمه بمضمرات القلوب وأعمال الجوارح، وأشار فى القسم الأوّل المتعلق بالصلاة إلى آثار الصلاة المعنويّة والتربويّة والعاقبة السيئة لتاركى الصلاة والمستخفين بها

نفحات الولايهْ، ج۷، ص: ۵۵۴

وقد عرَّف من خلال ذلك بالمصلّى الحقيقى فقال بادئ الأمر:

«تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ، وحَافِظُوا عَلَيْهَا، واسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّها

«كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً»[۱۱۶۲]».

فقد تضمنت العبارة القصيرة أربعة أوامر بشأن الصلاة هى: تعاهدها، والمحافظة عليها، والإكثار منها، والتقرب بها إلى اللَّه.

والمراد من التعاهد المراقبة والإصلاح، ويطلق هذا التعبير على الشخص الذى يتفقد أملاكه ومزارعه ويجد ويجتهد فى إصلاحها، وعليه فالعبارة المذكورة إشارة إلى مواصلة المذاكرة بشأن واجبات الصلاة ومستحباتها ومكروهاتها، بحيث يكون كلّ يوم أفضل من سابقه فى الصلاة.

والمراد من المحافظة ما أشير إليه فى الآية ۲۳۸ من سورة البقرة: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلوةِ الْوُسْطَى» والمتمثل بحفظها من

الموانع والرياء والسمعة وامثال ذلك.

كما ذهب البعض إلى أنّ المراد حفظ أوقات كلّ صلاة وأدائها فى وقت الفضيلة.

ويشير التعبير «استكثروا» لما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«الصَّلاةُ خَيْرُ مَوْضُوع فَمَنْ شاءَ اسْتَقَلَّ ومَنْ شاءَ اسْتَكْثَرَ»[۱۱۶۳].

كما ورد فى الرواية:

نفحات الولاية ؛ ج۷ ؛ ص۵۵۴

«إنَّ أَحَبّ الأَعْمالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ الصَّلاةُ والْبِرُّ والْجِهادُ»[۱۱۶۴].

وقال فى العبارة الرابعة التى تمثّل فى الواقع نتيجة للعبارات الثلاث السابقة:

«وَتَقَرَّبُوا بِهَا».

جاء فى الحديث المروى عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام أنّه قال:

«الصَّلاةُ

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۵۵

قُربانُ كُلِّ تَقِيٍّ»[۱۱۶۵].

ثم تطرق عليه السلام إلى الدليل على الوصايا الأربع بشأن الصلاة، فأشار إلى سبعة واستشهد ببعض الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة فقال فى البداية: «انَّ الصَّلوةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً»[۱۱۶۶].

وقد ذكر المفسرون تفسيرين لهذه الآية فقالوا: إنّ المراد من «موقوت» الوجوب حيث يستعمل هذا التعبير بدل الوجوب؛ والثانى إنّه إشارة إلى أوقات الصلاة التى ينبغى مراقبتها بدقّة من قبل المؤمنين فيأتون بكلّ صلاة فى وقتها.

ثم خاض فى الدليل الثانى فقال عليه السلام:

«أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا:

«مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَر[۱۱۶۷]* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ»[۱۱۶۸]».

طبعاً أشير فى مواصلة الآية الشريفة المذكورة إلى سائر الذنوب التى أدّت إلى دخولهم النار من قبيل: عدم إطعام المسكين ومسايرة أهل الباطل والتكذيب بيوم القيامة: «وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ* وكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّين»[۱۱۶۹]؛ إلّاأنّ المهم هو أنّ القرآن أشار إلى تقديم ترك الصلاة على كلّ تلك الأمور، وهذه دلالة واضحة على أهميّة الصلاة ودورها فى سعادة الإنسان.

وهذه الآيات هى أدلّة واضحة على عقاب الكفّار على ترك فروع الدين كتركهم لأصول الدين.

وقال الإمام عليه السلام فى بيان الدليلين الثالث والرابع لإثبات أهميّة الصلاة:

«وإِنَّهَا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۵۶

لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَ ۱۱۷۰] الْوَرَقِ، وتُطْلِقُهَا إِطْلَاقَ الرِّبَقِ ۱۱۷۱]».

نعم؛ فكما أنّ الصلاة تحول دون الذنوب فى المستقبل بمضمون الآية الشريفة:

«انَّ الصَّلوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ»[۱۱۷۲]، فإنّها تؤثر مثل ذلك فى الذنوب السابقة عن طريق التوبة والإنابة إلى اللَّه والتى تعدّ الصلاة مصدره فتقضى على المعاصى التى هى كالقيد على رقبة الإنسان وتصده عن الرقى والكمال؛ وتحرره من تلك القيود.

روى عن سلمان الفارسى قال: كنت مع رسول اللّه إذ جلسنا عند شجرة فهزها رسول اللّه فتساقطت أوراقها، ثم قال صلى الله عليه و آله:

«أَلا تَسْأَلُوننى عَمّا صَنَعْتُ؟»

قالوا:

فأخبرنا يا رسول اللّه قال:

«انَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ إذا قامَ إِلَى الصَّلاةِ تَحاتَتْ خَطاياهُ كَما تَحاتَتْ وَرَقَ هذِهِ»[۱۱۷۳].

ثم استشهد الإمام عليه السلام فى استدلاله الخامس بكلام رسول اللّه بشأن أهميّة الصلاة فقال:

«وشَبَّهَهَا رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّم بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُو يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِى الْيَوْمِ واللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّات، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ ۱۱۷۴]؟»[۱۱۷۵].

ويتّضح من خلال ما ورد فى متن الخطبة من كلمة «الحمّة» (عين المياه الحارة التى يستفاد منها فى علاج المرضى) أنّ الصلاة ليست كعين الماء العاديه، بل عين خاصة لها آثار عجيبة فى القضاء على الأدناس، ولكن لابدّ من الإلتفات إلى أنّ هذا

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۵۷

التعبير حسب تحقيقنا وبحثنا إنّما جاء فقط فى كلام الإمام عليه السلام وفى هذه الخطبة.

ويمكن أن يكون هذا التأثير نابع من كون الصلاة تحيى فى الإنسان روح التقوى وبمقتضى الآية الشريفة: «انَّ الصَّلوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ» فهى تصده عن الفحشاء والمنكرات فى المستقبل وتدعوه بالطبع إلى التوبة بالنسبة لما سلف منه.

ثم واصل كلامه عليه السلام ليستدل فى دليله السادس بآية قرآنيّة أخرى تكشف عن عظم منزلة المصلين فقال:

«وقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَاتَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاع، وَلَا قُرَّةُ عَيْن مِنْ وَلَد وَلَا مَال. يَقُولُ اللّهُ سُبْحَانَهُ: «رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وإِقَامِ الصَّلَاةِ وإِيتَآءِ الزَّكَاةِ»[۱۱۷۶]».

جدير ذكره أنّ الآية المذكورة وردت بعد آية من تلك التى أعقبت آية النور فى القرآن وجرى الحديث فى الآية التى سبقتها عن تلك البيوت الرفيعة التى أشرق فيها نور اللّه وانشغلت بتسبيح اللّه ليل نهار والرجال الذين أشير إليهم فى الآية التى نحن بصددها هم امناء نور اللّه الذين لم تستهوهم زخارف الحياة الدنيا أو تصدهم عن ذكر اللّه والإحسان إلى خلقه ومعونتهم.

وأخيراً أشار عليه السلام فى آخر دليل على أهميّة الصلاة إلى سيرة النّبى المقتبسة من القرآن الكريم فقال:

«وكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ نَصِباً[۱۱۷۷] بِالصَّلَاةِ بَعْدَ

التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللّهِ سُبْحَانَهُ:

«وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ واصْطَبِرْ عَلَيْهَا»[۱۱۷۸]

، فَكَانَ

يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ ويَصْبِرُ[۱۱۷۹] عَلَيْهَا نَفْسَهُ».

وتشير هذه الأدلة السبعة التى ذكرها أمير المؤمنين على عليه السلام بشأن أهميّة الصلاة والتى استلهمها من القرآن والسنة وعشرات الأدلة الأخرى التى لم يكن عليه السلام فى مقام

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۵۸

التطرق إليها، تشير إلى مدى أهميّة الصلاة وكونها جوهرة ثمينة ومدى تأثيرها ودورها فى تهذيب الإنسان وسعادته إلى جانب المخاطر التى يستبطنها الإبتعاد عن الصلاة والحرمان من بركاتها.

تأمّل

دور الصلاة فی تربیة الإنسان

الإنسان موجود رصیده النسیان؛ فهولا ینسی الآخرین فحسب، بل غالباً ما یعانی من نسیان ذاته، وهذا النسیان الذاتی من أعدی أعداء سعادة الإنسان.

وهنالک عنصران مهمّان یسهمان فی هذا النسیان الذاتی؛ الأوّل: المتطلبات الواقعیة لحیاته الیومیّة سیما فی العصر الذی تعقدت فیه الحیاة وكثرت مشاكلها، والثانی: الحاجات الكمالیّة والخیالیّة والظاهریّة والمقرونة بالهوی وحبّ المال والجاه والشهوة، فهی أشبه بالمسافر الذی تطالعه علی جانبی الطریق القصور الفخمة والشواهد الجمیلة التی تصده فجأة عن مساره الرئیسی وتقذف به إلی الهاویة.

ولعل أهم آثار الصلاة إیقاظ الإنسان من سباته ووضعها حدّاً لنسیانه، ذلك لأنّه إن ذكر اللَّه انقلب الوضع رأساً علی عقب، فلسفة الصلاة حسب الآیة الشریفة: «أَقِمِ الصَّلوةَ لِذِكْرِی»[۱۱۸۰] هی ذكر اللَّه والتی جاءت بعد الآیة الشریفة: «ولَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ»[۱۱۸۱] والتی أعقبت هذه الآیة الشریفة: «انَّ الصَّلوةَ تَنْهَی عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ» تشیر إلی أنّ الجذور الأصلیة لفلسفة الصلاة إنّما تكمن فی ذكر اللَّه، لأنّ حبّ الدنیا رأس كلّ خطیئة، وحبّ الدنیا هو الذی یصد الإنسان عن ذكر اللَّه، كما ورد فی الآیة ۲۹ من سورة النجم: «فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّی عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ یُرِدْ إِلَّا الْحَیَاةَ الدُّنْیَا».

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۵۵۹

وتفید سائر الآیات القرآنیّة أنّ الشیطان إنّما یطوف حول قلب الإنسان فإذا ما ذكر اللَّه هرب منه: «انَّ الَّذِینَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّیْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ»[۱۱۸۲].

وهذا هودلیل ما صرحت به الروایات الإسلامیّة من أنّ الصلاة عمود الدین وعین ماء صافیة، سیما إن أوتی بهذه الصلاة فی جماعة وأقبل فیها المؤمنون زمراً علی اللَّه تبارك وتعالی، جاء فی الحدیث عن نبیّ الإسلام صلی الله علیه و آله:

«مَنْ صَلّی الصَّلاةَ فی جَماعَةٍ فَظُنُّوا بِهِ كُلَّ خَیْرٍ وَاقْبَلُوا شَهادَتَهُ»[۱۱۸۳].

ولو تأمّلنا مقدمات الصلاة (الطهارة والوضوء والغسل) التی تدعوالإنسان إلی طهارة الروح والبدن وسائر شرائطها من قبیل حلیة لباس المصلی والتوجه إلی المسجد، أقدم مركز للتوحید، وسائر الأركان ومضامین الآیات والأذكار والتعقیبات، فإنّها تعمق فهم الإنسان لمدی أهمیّة هذه العبادة العظیمة والاستثنائیّة، والذی یشیر إلی مدی الدور الذی تلعبه الصلاة فی تربیة الإنسان وإیصاله إلی القرب الإلهی والسیر والسلوك المعنوی والعرفانی.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۵۶۱

القسم الثانی

اشارة

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَاناً لِاهْلِ الْاسْلَام، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَیِّبَ النَّفْسِ بِهَا، فانَّها تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، ومِنَ النَّارِ حِجَازاً ووِقَایَةً. فَلَا یُتْبِعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلَا یُكْثِرَنَّ عَلَیْهَا لَهَفَهُ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَیْرَ طَیِّبِ النّفْسِ بِهَا، یَرْجُوبِهَا مَا هُوأَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوجَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ، مَغْبُونُ الْأَجْرِ، ضَالُّ الْعَمَلِ، طَوِیلُ النَّدَم.

الشرح والتفسیر: بركات الزكاة

كما أشير فى مستهل الخطبة أنّ الإمام عليه السلام أشار فيها إلى أربعة أمور غاية فى الأهميّة كان أولها الصلاة وقد مر بحثها بصورة وافيّة، والأمر الثانى الزكاة حيث قال عليه السلام:

«ثُمَّ إنَّ الزَّكاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَاناً لِاهْلِ الْاسْلَامِ».

و «القربان»:

هنا يعنى ما يوجب التقرب إلى اللّه تعالى ونعلم أنّ الصلاة هى رابطة الخالق بالخلق والزكاة رابطة الخلق بسائر عباد اللّه والتى تعدّ نوعاً من الإرتباط باللّه. جدير ذكره أنّ الصلاة والزكاة ذكرتا مع بعضهما فى سبع وثلاثين آية من الآيات القرآنيّة، وهذا يدل على أنّهما لازم وملزوم فى تحقيق سعادة الفرد والمجتمع.

ثم عدد الإمام عليه السلام بعض الآثار المهمّة للزكاة وشرائطها فقال:

«فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا، فانَّها تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، ومِنَ النَّارِ حِجَازاً ووِقَايَةً».

فالشرط الأوّل لقبول الزكاة حسب ما ذكر الإمام عليه السلام فى هذه العبارة أن تؤدّى

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥٦٢

عن طيب نفس ورغبة وبصفتها إمتثال لأمر اللّه ونيل رضاه لتنطوى فى ظلّ هذه الحالة على أثرين مهمّين؛ أحدهما أنّها كفّارة للذنوب السابقة، والآخر حجاب من نار جهنم.

طبعاً، من يؤدّى الزكاة مكرهاً ولا- يسعه طرح حبّ المال من قلبه يكون قد أدّى التكليف، ولكن لا- حظ له من بركاتها المعنويّة والروحيّة والأخلاقيّة.

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«أَرْضُ الْقِيامَةِ نارٌ ما خَلا ظِلَّ الْمُؤْمِنِ فَإنّ صَدَقَتَهُ تُظِلُّهُ»[١١٨۴].

وقد صرّح القرآن بأنّ إحدى صفات المنافق أنّه إن انفق شيئاً إنّما ينفقه كراهة ولذلك فهو لا يحظى بقبول اللّه تعالى «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ... وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ»[١١٨۵].

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَلَا يُتْبِعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلَا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ ١١٨۶]».

نعم! فالناس صنفان؛ صنف يؤدّى زكاته وسائر صدقاته فى سبيل اللّه بمنتهى الرضا، وليس له هم سوى الفوز برضا اللّه دون توقع أدنى شكر أو جزاء ممن يأخذ الزكاة والصدقة «انَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَانُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُوراً»[١١٨٧]؛ أمّا الصنف التالى فذلك الذى يكون أداء الزكاة عنده كحالة الاحتضار، وهولا ينفك يعيش حالة من القلق، ليقول على الدوام: كم كان ثمين ذلك المال الذى زكيته وكم جهدت من أجل الحصول عليه، ولوكان عندى اليوم لفعلت به كذا وكذا، فهذا الصنف مصداق لما ذكره الإمام عليه السلام فى العبارة المذكورة، ولابدّ أن نرى هنا كيف يبيّن الإمام عليه السلام الآثار السلبيّة لذلك، فقال:

«فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النّفْسِ بِهَا، يَرْجُوبِهَا مَا هُوأَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوجَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ، مَغْبُونُ الأَجْرِ، ضَالُّ الْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ».

نفحات الولاية، ج٧، ص: ٥٦٣

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة فى تفسيرهم لهذه العبارة

«يَرْجُوبِهَا مَا هُوأَفْضَلُ مِنْهَا»

: إلى أنّ المراد أنّ الإنسان المؤمن لا يتوقع حتى بركة المال والحصول على المزيد من النعم فى أدائه للزكاة وسائر القربات، بل هدفه رضا اللّه، إلّاأنّ هذا التفسير لا يبدو منسجماً مع العبارة

«جاهِلْ بِالسُنَّةِ»

و

«ضَالُّ الْعَمَلِ»

، ذلك لأنّ المستفاد من الروايات الإسلاميّة أنّ انتظار الفضل الإلهى والعناية ليس ممنوعاً فى هذه الموارد، بل مرغوب فيه.

فقد جاء فى الرواية أنّه يستحب التوجه للّهوطلب سعة الرزق حين الحاجة عن طريق التصدق ۱۱۸۸] وقد قال القرآن بهذا الخصوص:

«يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ»[۱۱۸۹].

إلّا أنّ التفسير الثانى الذى يمكن قوله بشأن هذه العبارة والذى ينسجم مع سائر العبارات، الأوّل أنّ هذه العبارة استمرار للعبارة

«غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا»

؛ أى أنّه لا يُعطى الزكاة عن نفس طيّبة ولا يأمل بما هو أفضل منها، ومن الطبيعى أنّ مثل هذا الشخص قد عمل خلاف السنة وانحدر إلى الضلال. والآخر أنّ المراد الشخص الذى لا يعيش الرضا الباطنى حين أداء الزكاة ويطلب من اللَّه ما هو أفضل منها، فهو شخص خاطئ وجاهل بالسنة.

تأمّل

الزكاة؛ ركن مهم فى المجتمع الإسلامى

الزكاة من أهم الفرائض بعد الصلاة؛ فالكلام فى الصلاة عن الرابطة بالخالق، وفى الزكاة عن الرابطة بخلق اللَّه. والواقع أن صدق الإنسان وجديته فى موضوع الإرتباط بالخالق إنّما يثبت حين تكون رابطته قوية بالخلق، فيحيط بمشاكلهم

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۶۴

ويسعى لحلها ويعبّر عن مواساته للمحتاجين والمساكين والمحرومين ويسعى بكلّ ما أوتى من قوّة لمساعدتهم، وبالطبع فإنّ أهم مظاهر ذلك هو أداء الزكاة، ومن هنا وكما أشير سابقاً فقد ذكرت الزكاة إلى جنب الصلاة فى ۳۷ آية من الآيات القرآنيّة.

من جانب آخر فإنّ التمايز الطبقى يعدّ من أخطر الظواهر الاجتماعيّة فى أن تكون هناك طبقة مرفهة مهيمنة على كلّ شىء وأخرى محرومة تفتقر إلى أبسط المقومات الأساسيّة للحياة، الأمر الذى يترك آثاره السلبيّة على هذه الطبقة المعدمة، كما تعانى الطبقة المرفهة من بعض الضغوط بفعل ردود الفعل التى تمارسها تلك الطبقة وهذا ما يؤدّى بالتالى إلى سلب الأمن عن المجتمع.

قال القرآن الكريم فى الآية ۱۹۵ من سورة البقرة: «وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» والمراد إذا أردتم النجاة من الهلكة فلا تنسوا الانفاق فى سبيل اللَّه.

وهى الحقيقة التى وردت إشارة لطيفة إليها فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام، حيثُ قال بعد تصنيفه أبناء المجتمع إلى عالم وجاهل وغنىّ وفقير:

«وإذا بَخِلَ الْغَنِىُّ بِمَعْرُوفِهِ باعَ الْفَقيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْياهُ»

أى حين يبخل الأغنياء بالتفضل على الفقراء والمحرومين فإنّ هؤلاء المحرومين يبيعون آخرتهم بدنياهم وبالتالى يثورون ويحطمون جميع القوانين الاجتماعيّة.

ومن جانب ثالث هنالك الصفات الرذيلة بالفعل وبالقوّة فى أغلب الأفراد والتى لا يمكن استئصالها إلّابأداء الزكاة، قال القرآن الكريم:

«خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ...»[۱۱۹۰].

نعم! هنالك تأثيرات عظيمة لأداء الزكاة فى تهذيب النفس وتهذيب صفاته الإنسانيّة.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۶۵

القسم الثالث

اشارة

ثُمَّ أَدَاءَ الأَمَانَـةِ، فَقَـدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا. إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّماوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ، والأَرَضِـينَ المَدْحُوَّةِ، والْجِبَالِ ذَات الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ فَلَا أَطْوَلَ ولَا أَعْرَضَ، وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا. ولَوامْتَنَعَ شَيٌ بِطُول أَوعَرْض أَوقُوَّة أَوعِزٍّ لَامْتَنَعْنَ؛ ولكِنْ أَشْـفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَـةِ، وعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوأَضْعَفُ مِنْهُنَّ، وهُوالْانْسَانُ، (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا).

الشرح والتفسير: أداء الأمانة

طرح الإمام عليه السـلام فى القسم الثالث من الخطبة- بعد بيان أهميّة الصلاة والزكاة- مسألة أخرى غاية فى الأهميّة هى «أداء الأمانة». والأمانة إن لم تؤدّى فقدت سائر المشاريع الإسلاميّة أثرها ومعطياتها، فقال:

«ثُمَّ أَدَاءَ الأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا».

وقد اختلف شرّاح نهج البلاغة فى المراد (بأداء الأمانة) الوارد فى هذه العبارة؛ فقد ضيّقه البعض ليراه يعنى الولاية والإمامة أو ما شابه ذلك، والحال أنّ مجىء أداء الأمانـة بعـد الصـلاة والزكاة يفيـد أنّ المراد به مفهوم عام وشامل، ذلك لأنّ أداء الأمانـة أساس ودعامة جميع الأنشـطة الاجتماعيّة والإيجابيّة بحيث لو تسـللت الخيانـة إلى أداء الأمانـة لانعـدمت الثقـة بين الجميع ولزال التعاون الاجتماعى ولساد سوء الظنّ بين الناس ممّا يؤدّى إلى إرباك المجتمع، ولذلك جاء فى الرواية أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إنّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيّاً إِلَّا بِصِدْقِ الْحَديثِ وأداءِ الأَمانَةِ إِلَى

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۶۶

الْبَرِّ والْفاجِرِ»[۱۱۹۱].

كما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«الأَمانَةُ تَجْلِبُ الْغِنى والْخِيانَةُ تَجْلِبُ الْفَقْرَ»[۱۱۹۲].

جـدير ذكره أنّ للأمانـة معنيين؛ معنى خـاص يشـمل أمانـات النـاس الماليـة التى يسـتودعها بعضـهم البعض الآخر وحفظها من أوجب الواجبات، ومعنى عام يشمل جميع المسؤوليات الإلهيّة، وعلى هذا الأساس فإنّ عمرنا وأولادنا وبلدنا ومراكزنا الاجتماعيّة والحكومات الإلهيّة كلّها أمانات أودعت لدينا ولا ينبغى خيانتها.

والمفهوم العام يشـمل أمانات الناس الماديّة وكذلك الأمانات الإلهيّة والمعنويّة وحفظها من أركان الدين كما أشار الإمام عليه السلام إليها بعـد الصـلاة والزكاة، وتفيـد العبارات اللاحقـة بعـدها إلى أنّ الهدف من ذكر الأمانة هنا هو المفهوم العام، ذلك لأنّ الإمام عليه السلام قال عقب هذه العبارة:

«انَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّماوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ[۱۱۹۳]، والأَرَضِينَ
المَدْحُوَّةِ[۱۱۹۴]، والْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ، فَلَا أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ، وَلَا أَعْلَى وَلَا
أَعْظَمَ مِنْهَا».

ثم قال عليه السلام:

«ولَوامْتَنَعَ شَيٌ بِطُول أَوعَرْض أَوقُوَّة أَوعِزٍّ لَامْتَنَعْنَ؛ ولكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوأَضْعَفُ مِنْهُنَّ، وهُوالْانْسَانُ،

«إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا»».

هـذا الكلام إشارة لما ورد فى الآيـة ۷۲ من سورة الأحزاب: «انَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْانْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جهولًا».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۶۷

تأمّلان

۱. نقطة مهمّة

هنالك نقطـة مهمّة فى هذه الآية الشريفة: وهى: ما المراد بهذه الأمانة الإلهيّة التى بلغت هذا القدر من الثقل بحيث عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال؟

وقد ذهب أغلب المفسرين إلى أنّ المراد بها التكاليف الشرعيّة والأوامر والنواهى والإيمان ومنها ولاية المعصومين عليهم السلام وأنّ عـدم تحملها من قِبل السـماء والأرض والجبال دليل على عـدم اسـتعدادها لقبول هـذه المسؤوليّـة، وعليه فعرض هذه التكاليف الإلهيّة عليهـا كـان بلسـان الحـال، رغم مـا ذهب إليه البعض من أنّ اللّه أفـاض عليهـا آنـذاك ما يكفيها من العقل والشعور لتخاطب بـذلك الخطاب، ولكن على كلّ حال فقد حملها وقبلها الإنسان بفضل ما أودع من استعداد ربّانى شامل.

حقاً أنّ هذا لوسام شرف عظيم للإنسان لأنّ يخاطب بأوامر اللّه ونواهيه ولذلك فهويحتفل فى اليوم الذى يبلغ فيه التكليف.

وعلى هـذا الضوء فسر «الظلوم والجهول» بعاقبـة العمـل، أى أنّه لم يكن ظلوماً فى قبول هـذه الأمانـة بـل ظلم نفسه فى أداء حقها ولم يلتفت إلى قدر نفسه ومقامه وكان جاهلًا به.

فهـذا أوضـح تفسير يمكن ذكره للآيـة الشريفة، لكنه لاـ ينسـجم مع مـا ورد فى الخطبـة الـتى نحن بصـددها من جهـتين، الأُولى إنّ السـماوات والأرض والجبال إنّما لم تتحمل هـذه الأمانة بسبب ما هى عليه من عقل وفطنة، والثانية: إنّ الإنسان كان أضـعف منها وقد ظلم نفسه إثر جهله وحمل تلك الأمانـة، ومن هنا فإنّ النهوض بهـذه الأمانـة والتكليف يعد نقطة ضـعف فى الإنسان، وعدم قبولها من قبل السماوات والأرض يعد نقطة قوّة لها.

وهـذا المعنى وبغض النظر عن عـدم انسـجامه مع الآيـة الشـريفة، فهو لا يتفق أيضاً مع سائر الآيات القرآنيّـة، فاللّه جعل الإنسان أفضـل خلقه فقال: «لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ادَمَ ...

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۶۸

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا»[۱۱۹۵] وقد أمر جميع ملائكته بالسجود له وجعله خليفته فى أرضه وقال بحقه: «انِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً»[۱۱۹۶]. فهـل يمكن أن يقـال بعـد كـل هـذه الافتخـارات إنّ الإنسان أضـعف واحط من الجمادات كالأرض والسـماء والجبال؟!

حقّاً إنّ هذه مسألة معقدة ولا يبدو من السـهل الجمع بين مضـمون هذه الخطبة وما جاء فى الآية الشـريفة، ولم يتجه شرّاح نهج البلاغة صوب حل هـذه المشـكلة، والحل الوحيـد هو أن نعتبر الآيـة قضـية كليّة ونحمل كلام الإمام عليه السـلام على قضـية جزئيّة فنقول: إنّ الإمام عليه السلام تطرق إلى فئة من الناس، فئة بحكم الآية الشريفة:

«أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ»[۱۱۹۷] ممن ليس لهم حظ من عقـل ومعرفـة ويعيشون فى دوّامـة من الجهـل والغرور والغفلـة واتباع الهوى الـذى تسـلل إلى أفكارهم فكان قبول هـذه الأمانـة سـبب بؤسـهم وشـقائهم بدلًا من أن يكون أساس إعتزازهم وفخرهم؛ ولعلنا

نلمس شبيه ذلك فی القرآن الكريم بشأن المنافقين ومرضى القلوب: «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِی قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ»[۱۱۹۸].

ومن هنا يجدر بالباحثين التركيز والتعمق فی هذه المسألة.

۲. أفضل علامات الإيمان

إنّ حفظ الأمانـة، سواء بالمعنى الخاص الـذی يعنی حفظ ثروات الآخرين المالية، أو بمعناها العام فی حفظ وصون المسؤوليات الإلهيّة والمعنويّة والماديّة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۶۹

والفرديّة والاجتماعيّة، لمن المبادئ الأساسيّة لجميع الأنبياء عليهم السلام، والدليل على ذلک الحديث النبوی الشريف:

«انَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيّاً إلّابِصِدْقِ الْحَديثِ وأداءِ الأَمانَةِ إلَى الْبَرِّ والْفاجِرِ».

وحفـظ هـذه الأمانـة على درجـة من والعظمـة بحيث أبت حمله تلک السـماوات المرفوعـة والجبال الشامخـة، وحملها الإنسان أشـرف مخلوقـات اللَّه بمـا أفاض اللّه عليه من اسـتعداد، وقـد صانها وحملها الأنبياء والأولياء ومن سار على دربهم ليفوزوا بهـذا الشـرف، رغم عدم أداء تلک الأمانة من قبل طائفة جاحدة من الظلمة والجهّال، والنقطة المهمّة هی أنّ المصادر الإسلاميّة ذكرت المزيد من الحقوق للمسـلمين بالنسـبة لبعضهم البعض الآخر؛ إلّاأنّ حفظ الأمانة أهمها جميعاً والتی تعتبر جزءً من حقوق الإنسان. ومن هنا جاء فی الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ أحد وصاياه كانت بهذا الخصوص:

«إعْلَمْ أنَّ ضارِبَ عَلِيٍّ بِالسَّيْفِ وقاتِلِهِ لَوإئْتَمَنَنی واسْتَنْصَحَنی واسْتَشارَنی ثُمَّ قَبِلْتُ ذلِكَ مِنْهُ لأدّيتُ إلَيْهِ الأَمانَةَ»[۱۱۹۹].

وتبـدو هـذه المسألـة على درجة من الأهميّة بحيث اعتبرت من أفضل الدلالات على شخصـية الإنسان وإيمانه حتى أنّها لتفوق الصـلاة والصوم والحج.

جاء فی الحديث النبوی الشريف:

«لا تَنْظُرُوا إلى كَثْرَةِ صَلاتِهِمْ وصَوْمِهِمْ وكَثْرَةِ الْحَجِّ والْمَعْرُوفِ وطَنْطَنَتِهِمْ بِاللَّيْلِ ولكِنِ انْظُرُوا إلى صِدْقِ الْحَديثِ وأداءِ الأَمانَةِ»[۱۲۰۰].

والـدليل الواضـح على صـدق هذا الحديث الشـريف، التجارب التی عشـناها طيلة حياتنا، فما أكثر الأفراد الذين يعيشون حالة من الجدّ والاجتهاد والالتزام بالمسائل العادية، ولكن ما أن ترد بعض المسائل المهمّة سيما الأموال الطائلة حتى تزل أقدامهم وتهتز شخصيتهم.

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۷۱

القسم الرابع

اشارة

انَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى لَايَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِی لَيْلِهِمْ ونَهَارِهِمْ. لَطُفَ بِهِ خُبْراً، وأَحَاطَ بِهِ عِلْماً. أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ.

الشرح والتفسير: عالم الغيب والشهادة

أشار الإمام عليه السلام فى الأقسام السابقة من هذه الخطبة إلى ثلاثة مواضيع مهمّة تعدّ من أركان الأوامر الإلهيّة وهى الصلاة والزكاة وأداء الأمانة، ثم تطرق الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة إلى أمر بمثابة العنصر الإجرائى لهذه الأوامر المهمّة والذى يتمثل بإحاطة اللَّه تعالى العلميّة بالإنسان فى أحواله كافّة.

وبعبارة أخرى أنّ الإنسان حين يهم بطاعة هذه الأوامر يشعر بأنّه حاضر على كلّ‌حال عند اللَّه وأنّ علمه محيط به على غرار العيون التى تبث داخل الطرق والمدن بغية رعاية الناس للقوانين السائدة فقال:

«انَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى لَايَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِى لَيْلِهِمْ ونَهَارِهِمْ. لَطُفَ بِهِ خُبْراً، وأَحَاطَ بِهِ عِلْماً».

والتعبير بالعباد تعبير واسع يشمل جميع الناس بما فيهم المسلم والكافر والصغير والكبير والعالم والجاهل، وتقديم الليل على‌النهار لأنّ الليل موضع خفى لأغلب العصاة.

والعبارة:

«لَطُفَ بِهِ خُبْراً»

بالنظر إلى أنّ اللطيف أحد أسماء اللَّه الحسنى ويطلق على من يلم بأظرف الأمور وأدقّها، إشارة إلى عدم غياب أصغر أعمال العباد وأخفاها عن علمه تبارك وتعالى: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ»[۱۲۰۱].

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۵۷۲

وكل هذه الأمور تستند إلى كون علمه سبحانه وتعالى بجميع الأشياء علماً حضورياً فهو حاضر فى كلّ مكان والكون برمته حاضر لديه، فلا يخفى عليه شىء ولا يعزب عن علمه شىء.

وقد تمسك البعض بمثال فقال: لو كان فى يدنا شىء ننظر إليه فهل يخفى علينا شىء منه، وبالطبع فإنّ علم اللَّه لأعمق وأسمى من ذلك بالنسبة لجميع الكائنات.

وقال فى مواصلته لكلامه ولإثبات شدّة الرقابة الإلهيّة على الإنسان:

«أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ».

ولمفردة الأعضاء (جمع عضو) معنى عام يشمل الأعضاء التى بها يقوم الإنسان بأعماله، مثل الأيدى والأرجل، وكذلك الأعضاء التى يبدو ظاهرياً لا يقوم بها بعمل كالأضلاع والعظام؛ أمّا الجوارح (جمع جارحة) واستناداً إلى مادتها اللغويّة جرح التى تعنى الاكتساب فهى تقتصر على الإشارة إلى تلك الأعضاء التى يقوم بواسطتها الإنسان ببعض الأعمال ويحسن بها أو يسيىء بها، وعليه فذكر الجوارح بعد الأعضاء من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

و «ضمائر» جمع «ضمير» بمعنى باطن الإنسان وتشير هنا إلى وجدان الإنسان الذى يمثل القاضى الباطنى.

و «خلوات»:

جمع «خلوة» تعنى الموضع الذى لا- يتواجد فيه عامة الناس، ولما كانت أغلب الذنوب إنّما ترتكب فى الخلوات، فقد ركزت عليها العبارة السابقة.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ (خلوات) تعنى ما يرتكب من أعمال فى الخلوة وستكون من قبيل حذف المضاف، على كلّ حال فإنّ هدف الإمام عليه السلام من بيان هذه العبارات الأربع الأخيرة أن يقول ليس لعلم اللَّه إحاطة بجميع أعمال الإنسان فحسب، بل أعضاء الإنسان وجوارحه ووجدانه شهوده وجنوده وعيونه، وإنّ كلّ بقعة من مكان حتى الخلوات لتشهد على أعمال الإنسان.

***

نفحات الولايهٔ، ج۷، ص: ۵۷۳

الخطبة ۲۰۰

اشارة

فِی مُعَاوِیَهَ[۱۲۰۲]

نظرة إلی الخطبة

أشار الإمام علیه السلام فی هذه الخطبة إلی سیاسة معاویة المؤسسة علی الکذب والخداع والمکر والحیلة، وذکر علیه السلام أنّه أعرف بهذه الفنون من السیاسة إلّاأنّ الورع والتقوی وخشیة اللّه لا تدعه أبداً یمارس هذا الأسلوب الرخیص، وصرّح فی آخر کلامه بأنّه ممن لا تنطلی علیه هذه السیاسة فیستغفل ولا یبدی مقاومة.

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۵۷۵

واللّهِ مَا مُعَاوِیَةُ بِأَدْهَی مِنِّی، ولکِنَّهُ یَغْدِرُ ویَفْجُرُ. ولَولَا کَرَاهِیَةُ الْغَدْرِ لَکُنْتُ مِنْ أَدْهَی النَّاسِ، ولکِنْ کُلُّ غُدَرَة فُجَرَةٌ، وکُلُّ فُجَرَة کُفَرَةٌ.

«ولِکُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ یُعْرَفُ بِهِ یَوْمَ الْقِیَامَةِ».

واللّهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَکِیدَةِ، وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِیدَةِ.

الشرح والتفسیر: السیاسة الآثمة

إنّ بعض السذج والجهّال فی عصر أمیرالمؤمنین یرون حین مقارنتهم للإمام علی علیه السلام بمعاویة أنّ هذا الأخیر کان أعظم سیاسة منه، وهو ذات الکلام الذی سمع فی القرون اللاحقة من قبل البعض وما زال یکرره الیوم بعض الجاهلین، وعبارات الإمام علیه السلام تعدّ رداً منطقیاً یلقم مثل هؤلاء الأفراد حجراً، حیث قال علیه السلام:

«واللَّهِ مَا مُعَاوِیَةُ بِأَدْهَی ۱۲۰۳] مِنِّی، ولکِنَّهُ یَغْدِرُ ویَفْجُرُ».

و «یَغْدِرُ»:

من «غدر» بمعنی الخدعة ونقض العهد و

«یَفْجُرُ»

من «فجور» بمعنی الإثم والمعصیة، والواقع أنّ هذا الفجور نتیجة لذلک الغدر، لأنّ الغدر یمهد السبیل للمعصیة.

ثم قال علیه السلام:

«ولَولَا کَرَاهِیَةُ الْغَدْرِ لَکُنْتُ مِنْ أَدْهَی النَّاسِ».

فقد أشار الإمام علیه السلام فی الواقع إلی نقطة مهمّة وهی أنّ السیاسة علی نوعین:

سیاسة طائشة ومقرونة بأنواع المعاصی، وبالتالی فهی سیاسة شیطانیّة، وسیاسة عن

نفحات الولایة، ج۷، ص: ۵۷۶

تدبیر مفعم بالورع والتقوی، وبالتالی فهی سیاسة رحمانیّة، وفی الواقع تتفاوت السیاستین وتبعاً لذلک تتفاوت نتائجهما.

والسیاسة بالمعنی الأوّل لا تعرف من حد خلقی ودینی وإنسانی ووجدانی، وتقضی علی کلّ قانون أو مبدأ أو ضابطة تشکل خطراً علیها، علی غرار ما نلاحظه الیوم فی عالم السیاسة الذی یحکم الشرق والغرب.

أمّا الصنف الثانی فتخضع فیه السیاسة لأطر معینة حدودها القیم والمثل الدینیّة والإنسانیّة والوجدان والضمیر؛ فهی لا تعتمد الظلم

والجور والمعصية قط سيما تجاه العزل من الأفراد الأبرياء؛ ولا تسمح بالغدر والخيانة والفجور ونقض العهود والمواثيق، وترفض التسلط والتوسع وبالتالى ترى وجود بعض الخطوط الحمراء التى لا يمكن تجاوزها.

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام فى مواصلته لكلامه إلى أولئك الأفراد الذين انتهجوا الغدر والفجور ليعتمدوهما كوسيلة لسياساتهم فقال:

«ولكِنْ كُلُّ غُدَرَة فُجَرَةٌ، وكُلُّ فُجَرَة كُفَرَةٌ. (ولِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)».

والعبارة:

«ولِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ ...»

حديث معروف عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله روته أغلب المصادر، ومنها: الشوكانى فى نيل الأوطار، والبخارى فى صحيحه، وقال الشوكانى:

متفق عليه ۱۲۰۴].

ثم قال عليه السلام فى اختتامه لهذا الكلام وحتى لا يتصور أحد أنّ الإمام عليه السلام بما هو عليه من نقاء القلب تنطوى عليه سياسة الغدر والمكر:

«واللّهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، ولَا أُسْتَغْمَزُ[۱۲۰۵] بالشَّدِيدَةِ».

وهذا الكلام فى الواقع رد على أولئك الذين يزعمون أنّه لا يمكن مواجهة أولئك الفجرة سوى من قبل أمثالهم وليس أمام الفرد المتدين سوى الوقوع فى مخالبهم،

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۷۷

فمضمون كلام الإمام عليه السلام هو إنّ الإنسان قد لا يكون من أهل الخداع والفجور والخيانة ولكن يعرف طريقة أهل الغدر والخيانة حتى لا يقع فى شباكهم ويخدع بالأعيبهم.

تأمّل

السياسة الإنسانيّة والسياسة الشيطانيّة

حقيقة السياسة هى التدبير وإدارة الحكومة ورعاية شؤون الناس، وهو أمر متعارف عليه منذ قديم الزمان فى المجتمعات البشريّة، وقد حكمت تلك المجتمعات من قبل بعض الساسة طالحين كانوا أم صالحين.

والسياسة على صنفين: سياسة طائشة وأخرى حكيمة، أمّا السياسة الطائشة فهى تلك السياسة التى لا تؤمن بأى مانع أو رادع من أجل تحقيق أهدافها فتبيح كلّ شىء فهى تقتل المتهم والبرىء وتهدم البيوت العامرة والخالية، وتتشبث بكلّ حيلة وكذب وغش، وإذا ما عقدت اتفاقية وتعارضت مستقبلًا مع أهدافها نقضتها، وبالتالى فهى لا ترحم الولد والأب والام، ومن هنا قيل: إنّ السياسة لا تعرف من معنى للأب والام.

وقد قرأنا فى التاريخ أنّ الخليفة العباسى هارون الرشيد قال لابنه المأمون: «لو نازعتنى الملك لأخذت الذى فيه عيناك»، كما استقبل المأمون جسد أخيه الأمين بفرح وسرور، وما أكثر أمثال هذه الحوادث فى تاريخ العرب والعجم والشرق والغرب والتى أشار القرآن الكريم إلى نماذجها بشأن فرعون فقال: «انَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ»[۱۲۰۶].

أمّا السياسة الحكيمة والإنسانيّة فهى السياسة التى تعتمد الأسس المشروعة

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۷۸

بغية الوصول إلى الهدف ولا تنتهك قط حدود الأحكام الشرعيّة والمبادئ الإنسانيّة، وتجرى العدل بحقّ العدو والصديق؛ وترعى الأمانة، وتلتزم بالعهود والمواثيق وتنظر بعين الاعتبار إلى الإنسان وكرامته وعزته.

وإنّ أصحاب السياسة الحكيمة والإنسانيّة مهما كانوا قلائل مقارنة بأصحاب السياسة الشيطانيّة، قد يعانون من المشاكل والمعضلات، إلّاأنّهم ظلّوا ناصعى الجبين فى التاريخ وأضحت سياستهم قدوة للبشريّة برمتها.

والنموذج البارز للصنف الأوّل من السياسة، معاوية ورهطه فى الشام، والنموذج الجلى الواضح للسياسة بصنفها الثانى أميرالمؤمنين على عليه السلام، وهو ما أذعن له العدو والصديق سوى تلك الثلة المتعصبة.

ابن أبى الحديد واستناداً إلى مبادئ مذهبه قارن بين سياسة أمير المؤمنين عليه السلام فى إدارة البلاد والسياسة التى انتهجها عمر، فقال: «زعموا أنّ عمر كان أسوس من أميرالمؤمنين وإن كان هو أعلم منه».

ثم خاض فى الرد على هذه النظرية فقال: «إنّ سياسة على هى سياسة النّبى صلى الله عليه و آله». وروى عن استاذه أبو جعفر النقيب أنّه قال: «كانت سياسة على عليه السلام هى ذاتها سياسة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله».

ثم تطرق إلى شرح كلمات الجاحظ (العالم السنى المعتزلى) فى مقارنة سياسة على عليه السلام ومعاوية وإليك خلاصة كلامه:

زعم البعض أنّ معاوية كان أسوس من على عليه السلام وهذا خطأ كبير، ثم واصل كلامه فى إبطال هذا الكلام حيث صرّح بأنّ علياً عليه السلام لم يعمل فى الحروب سوى بما وافق القرآن والسنّة، بينما كان معاوية يخالف القرآن.

فكان عليه السلام يوصى الجيش بعدم البدء بالقتال وتعقيب الهاربين والإجهاز على المجروحين (والحال لم يكن معاوية يرعى أيّاً من هذه الوصايا).

ولما فرغ ابن أبى الحديد من نقل هذا الكلام اتّجه صوب بعض الإشكالات التى

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۷۹

أوردها البعض على سياسة على عليه السلام ومنها:

۱. لو كان على عليه السلام حين بويع له بالخلافة فى المدينة أقر معاوية على الشام إلى أن يستقر الأمر له ثم يعزله، وقال فى الجواب: إنّ أميرالمؤمنين كان يعلم أن إقراره أقوى لحال معاوية وأكّد فى الامتناع من البيعة، فلا يبقى بعد ذلك من عذر لعزله.

۲. إنّه حين ملك شريعة الفرات فى صفين هلّا منعها عن معاوية وأهل الشام، فكان يأخذهم قبضاً بالأيدى بعد أن ملكها معاوية فمنعها عنه وعن أهل العراق؟

وقال فى الجواب: إنّه لم يكن يستحل ما استحله معاوية من تعذيب البشر بالعطش؛ فإنّ اللَّه تعالى ما أمر أحداً بذلك.

۳. إنّه عليه السلام أخطأ حين محى اسمه من الخلافة فقوى الشبهة فى نفوس أهل الشام.

وقال فى الجواب: إنّه عليه السلام احتذى فى ذلك لما دعى إليه واقترحه الخصم عليه، فعل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى صلح الحديبية، حين أصر زعماء الشرك على محو اسمه من النبوّة (وحيث لم يرض ذلك أحد) فقد أقدم عليه بنفسه، وأخبره النّبى صلى الله عليه و آله بذلك سابقاً.

۳. إنّه عليه السلام كان غير مصيب فى ترك الاحتراس، فقد كان يعلم كثرة أعدائه؟

وقال فى الجواب: إنّ هذا إن كان قادحاً فى السياسة والتدبير فليكن قادحاً فى سياسة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الذى لم يكن يرضى بذلك [۱۲۰۷].

ولابن أبى الحديد كلمات أكثر من ذلك حيث أفرد أكثر من ۵۰ صفحة فى شرح ذيل هذه الخطبة للبحث المذكور ولا يسعنا ذكرها هنا.

والجدير ذكره ما ذكره فی آخر كلّ هذه الأبحاث، حيث قال: فقد بان بما أوضحناه فساد قول من قال إنّ تدبيره عليه السلام وسياسته لم تكن صالحة:

«انَّهُ أصحُّ النّاسِ تَدْبيراً وأحْسَنُهُمْ سِياسَةً وإنَّمَا الْهَوى والْعَصَبِيَّةُ لا حيلَةَ فيهما».

نفحات الولاية، ج۷، ص: ۵۸۰

إلى هنا تمّ وبحمد اللَّه الخطبة ۲۰۰ من خطب أميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فی نهج البلاغة ومن الجزء السابع لهذا الكتاب القيم، نشكر اللَّه تعالى على توفيقه ومنّه أن يسّر لنا هذا الطريق، ونسأله أن يظلّلنا بغمام لطفه وكرمه كی نتمّ الأجزاء الآتية من هذا السفر المبارک إن شاءاللَّه تعالى.

وكذلک نحمده أن نال هذا الشرح إعجاب ورضا الطوائف المختلفة من الناس انتخب بعنوان أفضل كتاب لسنة ۲۰۰۲ م ونأمل أن يفتح هذا الشرح فصلًا جديداً بين الشروح المطروحة لنهج‌البلاغة.

***

ولا- يخفى أننا تلقّينا ببالغ الأسى والحزن رحيل وفقدان أحد الإخوة العاملين الأعزّاء معنا، ألا وهو العالم الفاضل والمتتبع المتبحر المغفور له المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ إبراهيم البهادرى (قدّس سرّه).

كان المرحوم رجلًا فاضلًا، جاداً، منظماً، مخلصاً، متّقياً، ومحققاً بارعاً، حيث أقدم على تحقق أكثر من عشرين كتاباً من كتب العلماء الكبار، وترک من بعده تراثاً قيّماً، نسأل اللَّه تعالى أن يغمده برحمته الواسعة إنّه قريب مجيب.

«رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِی قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّکَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»

نهاية الجزء السابع لنفحات الولاية فی شرح نهج البلاغة لأميرالمؤمنين عليه السلام

۲۷/ شعبان المعظم/ ۱۴۲۶ ه ق، الموافق ۲۰۰۴ م

---

[۱] (۱).« قطنوا»، من مادة« قطون» على وزن« فنون» بمعنى الإقامة الإستوطان.

[۲] (۲).« ظعنوا» من مادة« ظعن» على وزن« رهن» فی مقابل قطون وبمعنى الرحيل والانتقال.

[۳] (۳). سند الخطبة:

مع الإلتفات إلى اتصال هذه الخطبة بالخطبة ۴۴، فأورد صاحب المصادر أسنادها فی ذيل الخطبة ۴۴ ويقول:« تضمّنت كتب السير قصّة بنی ناجية هذه، وكلام أميرالمؤمنين عليه السلام هذا قبل أن تلد الرضى امّه، منهم أبوجعفر الطبرى فی تاريخه المعروف فی حوادث سنة ۳۸ هجرى، وإبراهيم بن هلال الثقفی فی كتاب« الغارات»، والبلاذرى فی« أنساب الاشراف»، وكما رواه آخرون مثل ابن عساكر فی« تاريخ دمشق»، وأبوالفرج الاصفهانی فی« الأغانی» فی شرح حال مثقلة بن‌هبيرة،(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۱، ص ۴۵۱ و ۴۵۲؛ ج ۲، ص ۴۴۱).

[۴] (۱). تاريخ الطبرى، ج ۴، ص ۷۶؛ شرح نهج البلاغة لابن أبی الحديد، ج ۳، ص ۱۲۸ وقد ذكرنا شرحاً مسهباً بهذا الشأن فی الخطبة ۴۴.

[۵] (۱).« بُعداً» مفعول مطلق لفعل محذوف جاء للتوكيد وتقديره« أبعَدَهُم اللَّهُ بُعداً».

[۶] (۲). سورة هود، الآیة ۹۵.

[۷] (۱).« أشرعت» من مادة« شرع» تعنی فی‌الأصل الذهاب إلی برکة الماء، أو شقّ الطریق إلی الماء، ومتی ماستعملت هذه المفردة فی« الرماح» تأتی بمعنی سُدّدت وصُوّبت نحوهم.

[۸] (۲).« هامات» جمع« هام» بمعنی الرأس.

[۹] (۳).« استقل» من مادة« قلّ» علی وزن« شل» بمعنی التفرقة والتشتت.

[۱۰] (۴). انظر: سورة العنکبوت، الآیة ۶۵.

[۱۱] (۵). انظر: سورة الحشر، الآیة ۱۶.

[۱۲] (۶). انظر: سورة البقرة، الآیتان ۱۶۶ و ۱۶۷.

[۱۳] (۷).« ارتکاس» من مادة« رکس» علی وزن« مکث» بمعنی الانقلاب وعودة الشیء.

[۱۴] (۸).« جماح» و« جموح» بمعنی الطغیان.

[۱۵] (۱). جعدة بن هبیرة المخزومی: ابن اخت أمیر المؤمنین علیه السلام وأمّه اُم هانی بن أبی طالب، کان رجلًا شجاعاًوعالماً أدرک عصر النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله، وولاه الإمام علی علیه السلام علی خراسان(أسد الغابة، ج ۱، ص ۲۸۵).

[۱۶] (۲).« مدرعة»« جُبّه» من مادة« درع»، ثوب یعرف عند بعض العامّة بالدراعیة، قمیص ضیق الأکمام.

[۱۷] (۳).« ثفنة» تعنی فی الأصل ما یمسّ الأرض من رُکبتی البعیر بعد البروک ویکون فیه غلظة من ملاطمة الأرض.

[۱۸] (۴). سند الخطبة:

هذه آخر خطبة خطبها أمیر المؤمنین علیه السلام(وقتل بعدها بأسبوع). ذکرها الزمخشری فی کتابه ربیع الأبرار، کما روی بعضها أبو شاکر اللیثی فی عیون الحکم والمواعظ، وفسّر ابن الأثیر بعض کلماتها وبالنظر لاختلاف کلماتهم مع ما ورد فی نهج‌البلاغة یبدو أنّها ذکرت من مصدر آخر غیر نهج‌البلاغة.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۴۵۱).

[۱۹] (۱).« مصائر» جمع« مصیر» بمعنی موضع الرجوع.

[۲۰] (۲).« نوامی» جمع« نامیة» من مادة« نمو» بمعنی الشیء الزائد.

[۲۱] (۱).« الطول» بمعنی الفضل والنعمة، وأصلها من طول علی وزن« نور» بمعنی ما یحفظ للإنسان قوّته وبقاءه وإمکان استمراره فی الوجود، مادة« طَوْل» علی وزن« قَوْل» وعلیها اطلقت هنا.

[۲۲] (۲).« مذعن» من مادة« إذعان» بمعنی التصدیق والطاعة.

[۲۳] (۳).« خنع» من مادة« خنوع» بمعنی الخضوع والتواضع.

[۲۴] (۱).« یتعاور» من مادة« تعاور» بمعنی تبادل الشیء والقیام بعمل بصورة متناوبة، والمراد منها فی العبارة عدم طرو الزیادة والنقصان علی الذات القدسیّة، وأنّ هذه الذات منزّهة عن الحوادث.

[۲۵] (۱). اعتبر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الوقت یرادف الزمان، بینما عدّه البعض الآخر بالزمن المعین وأنّ للزمان مفهوماً عاماً، والتفسیر الثانی یبدو أصح. کما ورد فی القرآن الکریم فی الآیة ۱۰۳ من سورة النساء بشأن الصلاة،« إنّ الصَّلاةَ کانَتْ عَلَی المُؤمِنینَ کَتابا مَوقُوتاً».

[۲۶] (۲). سورة آل عمران، الآیتان ۱۹۰ و ۱۹۱.

[۲۷] (۳).« موطدات» من مادة« وطد» علی وزن« وقت» بمعنی التثبیت والإحکام.

[۲۸] (۴).« عمد» جمع« عماد» بمعنی العمود.

[۲۹] (۵).« سند» بمعنی ما یستند علیه.

[۳۰] (۱).« متلكّئات» من مادة« تلكّؤ» على وزن« تكلّم» بمعنى التباطؤ.

[۳۱] (۲).« طواعية» بمعنى الطاعة والانقياد.

[۳۲] (۳).« مصعد» موضع الصعود.

[۳۳] (۱).« فجاج» جمع« فج» على وزن« حج» بمعنى الفاصلة بين جبلين.

[۳۴] (۲).« أقطار» جمع« قطر» على وزن« قفل» بمعنى الناحية.

[۳۵] (۱). سورة النحل، الآية ۱۶.

[۳۶] (۲). سورة الأنعام، الآية ۹۷.

[۳۷] (۳).« ادلهمام» بمعنى شدّة الظلمة.

[۳۸] (۴).« سجف» جمع« سجاف» حسب أرباب اللغة بمعنى الستر.

[۳۹] (۵).« جلابيب» جمع« جلباب» بمعنى ثوب واسع تلبسه المرأة فوق ثيابها وتغطى به رأسها وهو أقصر من العباءة.

[۴۰] (۶).« حنادس» جمع« حندس» على وزن« قبرص» بمعنى الليل المظلم.

[۴۱] (۱).« غسق» الظلمة التى تقع عادة منتصف الليل.

[۴۲] (۲).« داج» من مادة« دجوّ» على وزن« غلوّ» بمعنى الشديد الظلام.

[۴۳] (۳).« ساج» من مادة« سجوّ» على وزن« غلوّ» السكون والهدوء.

[۴۴] (۴).« متطأطئات» جمع« متطأطئ» المنخفضات.

[۴۵] (۵).« يفاع» التل وكل شيء مرتفع.

[۴۶] (۶).« سفع» جمع« سفعة» على وزن« سفرة» الحمرة المائلة للسواد.

[۴۷] (۷).« يتجلجل» من« جلجلة» صوت الرعد ثم اطلقت على كلّ صوت شديد.

[۴۸] (۸).« تلاشت» من« تلاشى» بمعنى الاضمحلال. ويرى البعض أنّ مادتها لا شيء.

[۴۹] (۹).« عواصف» جمع« عاصف» و« عاصفة» الرياح الشديدة.

[۵۰] (۱۰).« أنواء» جمع« نوء» على وزن« نوع» غروب النجم فى جهة المغرب، وللعرب عقيدة فى الأنواء سنعرض لها فى مبحث التأملات بمعنى الطوفان.

[۵۱] (۱۱).« انهطال» نزول المطر كما تطلق على إنهمار الدموع.

[۵۲] (۱۲).« مسحب» اسم مكان من مادة« سَحْب» على وزن« سهو» الجذب نحو الشيء.

[۵۳] (۱۳).« مجرّ» اسم مكان من مادة« جرّ»؛ السحب والجر.

[۵۴] (۱). سورة الرعد، الآية ۸.

[۵۵] (۲). سورة لقمان، الآية ۳۴.

[۵۶] (۱). بحار الأنوار، ج ۵۵، ص ۳۱۵.

[۵۷] (۱).« نائل» له معنى اسم الفاعل والمصدر بمعنى العطاء أو البذل أو طالب البذل أو المعنيان هنا مناسبان.

[۵۸] (۱). جاء فى الحديث القدسى:« يا عِبادى لَو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ قامُوا فِى صَعيدٍ واحِدٍ فَسَأَلُونى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنْسان مَسْأَلَتَهُ ما نَقَصَ ذلِكَ مِمّا عِنْدى شَيْئاً إلّاكَما يَنْقُصُ الْمَخيطُ إذا دَخَلَ الْبَحْرَ»(صحيح مسلم، ج ۸، ص ۱۷؛ كنز العمال، ج ۱۵، ص ۹۲۴).

[۵۹] (۲).« أين» بمعنى المكان.

[۶۰] (۳).« أزواج» جمع« زوج» لها معنى واسع يشمل كلّ قرين ومثيل.

[۶۱] (۴). لابدّ من الإلتفات إلى أنّ كلمة« يخلق» وردت بصيغة المجهول فى متن نهج البلاغة لصبحى الصالح ولا يبدولها أى مفهوم صحيح، بينما ذكرها أغلبية الشرّاح مثل المرحوم ابن ميثم ومغنية وعبده والتسترى والخوئى والجعفرى بصيغة المعلوم والحقّ ما ذكروه، أمّا العبارة« وَلَا يَنْظُرُ بِعَيْن» وإن كانت ذات معنى بصيغة المعلوم إلّاأنّها أنسب مع العبارة اللاحقة بصيغة المجهول.

[۶۲] (۵). سورة يس، الآية ۸۲.

[۶۳] (۱).« لهوات» جمع« لهاة» بمعنى اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى الفم، ويقال لها اللسان الصغير، ولكن يبدو معناها فى الخطبة الحنجرة بقرينة المجاورة.

[۶۴] (۲). المراد من الآيات التسع ما وردت الإشارة إليها فى آيات مختلفة من القرآن الكريم، وهى عبارة عن الجرادوالقمّل والضفادع والدم والرياح العاصفة والعصا واليد البيضاء والقحط الشديد الذى أصاب الفراعنة وآفات الفاكهة.

[۶۵] (۱).« متكلّف» تطلق على الشخص الشديد التعرض لما لا يعنيه.

[۶۶] (۲).« مرجحنين» من الفعل الرباعى« رجحن» على وزن« دحرج» بمعنى المائل لثقله والمتحرك يميناً وشمالًاووردت فى الخطبة بمعنى الخضوع والتواضع.

[۶۷] (۳).« متولّهة» من مادة« وله» بمعنى الحائرة أو متخوفة من شدّة الحب.

[۶۸] (۱). كتاب الوافى، ج ۱، ص ۴۰۵، الباب ۴۰.

[۶۹] (۲). نفحات الولاية، ج ۱، ص ۱۰۵.

[۷۰] (۱). سورة البقرة، الآية ۲۵۵.

[۷۱] (۲). روى المرحوم العلّامة المجلسى فى ج ۵۵ من بحار الأنوار عدّة أقوال وروايات بشأن العرش والكرسى.

[۷۲] (۱).« رياش» جمع« ريش» تعنى فى‌الأصل ريش الطائر ثم اطلقت على كلّ نوع من الثياب، ولما كان ريش الطيور بألوان مختلفة وجميلة فهذه المفردة تختزن مفهوم الجمال والزينة، ويطلق الرياش على الثياب الفاخرة.

[۷۳] (۱).« زلفة» و« زلفى» بمعنى القرب والمنزلة.

[۷۴] (۲).« قسى» جمع(قوس).

[۷۵] (۳).« نبال» جمع« نبل» بمعنى السهم.

[۷۶] (۱). سورة الأعراف، الآية ۳۴.

[۷۷] (۲).« هزموا» من مادة« هزيمة» بمعنى الغلبة.

[۷۸] (۱). التوراة: الكتاب الأول للملوك والسلاطين.

[۷۹] (۱). بحار الأنوار، ج ۱۴، ص ۱۳۶ و ۱۳۷(بتلخيص كما ورد هذا المطلب مختصراً فى القرآن الكريم فى الآية ۱۳ و ۱۴ من سورة سبأ).

[۸۰] (۱). راجع دائرة المعارف لفريد وجدى، قاموس دهخدا والتفاسير ذيل الآية« قَالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوماً جَبّارِينَ» سورة المائدة، الآية ۲۲.

[۸۱] (۱). راجع بحار الأنوار، ج ۱۴، ص ۱۴۸ فما فوق، وتفسير الميزان، ج ۱۵؛ التفسير الأمثل، ج ۱۵ ذيل الآية ۳۸ من سورة الفرقان، والآية ۱۲ من سورة ق.

[۸۲] (۱).« جنّة» من مادة« جن» على وزن« فن» بمعنى تغطية الشيّ وتطلق على المجنون وكأنّ ستراً غطى عقله. والجن كائن لا يرى والجنين أيضاً مستور فى الرحم كما تطلق الجنّة على البستان كونه مغطى بالأشجار وجنان على وزن« زمان» تطلق على القلب المستور

فى الصدر ووردت الجنّة فى الخطبة بمعنى الدرع الذى يلبسه الإنسان فى الدفاع عن نفسه.

[۸۳] (۱). عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ۲، ص ۶۹، ح ۳۲۱.

[۸۴] (۲). بحار الأنوار، ج ۲، ص ۳۲۸، ح ۴۷.

[۸۵] (۱).« اغترب» من مادة« اغتراب» بمعنى الهجرة.

[۸۶] (۲).« عسيب» يقال للعظم فى مؤخرة ذيل الدابة أو الفرس.

[۸۷] (۳).« الذنب» من مادة« ذنب» على وزن« ضرب» بمعنى متابعة الشىء، وبما أنّ للذنب آثار وتبعات لا تفارق الإنسان لذلك قيل له ذنب على وزن« ضرب» وذنب على وزن« هدف» الذى ورد فى هذه الخطبة بمعنى ذيل الحيوان وذيل كلّ شىء.

[۸۸] (۴).« جران» يقال لمقدّم عنق البعير والعبارة(ضرب بجرانه) كناية عن الإطراق فى مكان.

[۸۹] (۵). بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۳۳۶.

[۹۰] (۱). سورة طه، الآية ۱۱۴.

[۹۱] (۱).« بثت» من مادة« بثّ»، على وزن« نص» بمعنى النشر.

[۹۲] (۲).« حدوتكم» من مادة« حَدْو» على وزن« محو» و« حُدى» على وزن« دعا» تعنى فى الأصل سير الدابّة بصوت مخصوص من قبل الجمال ثم اطلقت على كلّ سوق وسير.

[۹۳] (۳).« تستوسقوا» من« وسوق» بمعنى الاجتماع والانضمام إلى بعض.

[۹۴] (۱).« أزمع» من مادة« زمع» على وزن« شمع» فى الأصل بمعنى التصميم على الشىء.

[۹۵] (۲).« ترحال» من مادة« رحلة» بمعنى السفر والحركة.

[۹۶] (۱).« يسيغون» من مادة« سوغ» على وزن« فوق» وسيغ، على وزن« سيل» بمعنى الهنيىء.

[۹۷] (۲).« رنق» بمعنى الكدر.

[۹۸] (۱).« أبرد» من مادة« برود» و« برودة» بمعنى البرودة وتستعمل هذه المفردة بشأن يرد مكاناً آخر النهار وكذلك بشأن الرسالة التى تنقل من مكان إلى آخر وتطلق اليوم على دائرة البريد والمراد هنا ارسلت مع البريد بعد قتلهم إلى معاوية.

[۹۹] (۱). روى ابن عبد البر عن عبد الرحمن بن أبزى أنّ ثلاثمائة ممن بايع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى بيعة الرضوان شهدوا صفين مع على عليه السلام فقتل منهم ثلاثة وستون، ومنهم عمار بن ياسر(الاستيعاب، ج ۲، ص ۷۰ عمار بن ياسر).

[۱۰۰] (۲).« اوِّه» بفتح الهمزة وكسر الواو وتشديدها وكسر الهاء كلمة توجع.

[۱۰۱] (۱). بحار الأنوار، ج ۴۱، ص ۶۹.

[۱۰۲] (۱). سورة النحل، الآية ۱۰۶.

[۱۰۳] (۲). الاستيعاب، ج ۲، ص ۶۸(سيرة عمار).

[۱۰۴] (۳). كامل ابن الأثير، ج ۳، ص ۳۵۳، فى حوادث سنة ۳۸ هجرى.

[۱۰۵] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۰، ص ۱۰۷ و ۱۰۸.

[۱۰۶] (۲). اسد الغابة، ج ۲، ص ۱۱۴(سيرة خزيمة).

[۱۰۷] (۳). الاستيعاب، ج ۱، ص ۲۶۸(سيرة خزيمة بن ثابت).

[۱۰۸] (۴). أسد الغابة، ج ۴، ص ۲۱۵؛ الاستيعاب، ج ۲، ص ۱۵۹(سيرة قيس بن سعد).

[۱۰۹] (۱). الاستيعاب، ج ۱، ص ۲۵۳؛ ج ۲، ص ۳۶۸.

[۱۱۰] (۱). سند الخطبة:

روى هـذه الخطبـة بعض الأفراد بعـد السـيد الرضـى وإن لم نعثر عليها فى كتب الحـديث قبله، فـذكروها بما يفيد أنّهم عثروا عليها فى مصدر آخر غير نهج البلاغة، وممن روى هذه الخطبة الزمخشرى فى كتاب ربيع الأبرار فذكر بعض هذه الخطبة الذى يرتبط بأنواع نار جهنم، كما فسّر ابن الأثير كلماتها فى كتابه النهاية، وكما ذكر السيد هاشم البحرانى فى كتابه البرهان جانباً منها مع اختلاف وما ورد فى نهج البلاغة، وهذا يدلّ على أنّه استقاها من مصدر آخر(مصادر نهج البلاغة، ج ۲، ص ۴۵۹).

[۱۱۱] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۰، ص ۱۲۶.

[۱۱۲] (۱).« منصبة» مصدر ميمى من مادة« نصب» على وزن« غضب» بمعنى التعب، وللمصدر هنا معنى اسم المصدر.

[۱۱۳] (۲).« يهجموا» من مادة« هجوم» بمعنى الدخول أو الحملة غفلة ويراد بها فى بعض الموارد القوّة.

[۱۱۴] (۱).« معتبر» اسم مفعول من مـادة« عبرة» تعنى فى الأصـل العبور من شـىء، ويقـال العبرة للحوادث التى يعتبر بهاالإنسان كونها تعبر الإنسان من شىء إلى آخر، وعليه فالمعتبر يطلق على كلّ أساس لعبرة واتعاظ.

[۱۱۵] (۲).« مصاح» جمع« مصحّة» بمعنى اسم المصدر من مادة« صحة» تعنى الصحة والعافية.

[۱۱۶] (۳). كثرت أقوال شـرّاح نهـج البلاغة التى لا تخلو من تكلّف فى تفسـيرهم لهذه العبارات والمعطوف عليه فى العبارة(حلالها وحرامها ...) والأنسب أن تكون العبارة(حلالها ... وما أعـد اللَّه ...) عطف على(بمعتبر) ليكون المعنى أنّ للأنبياء ثلاثة وظائف أخرى والتى شرحناها آنفاً.

[۱۱۷] (۴). المعجم الوسيط، مفردة« حمد».

[۱۱۸] (۱). سورة المدّثر، الآية ۳۸.

[۱۱۹] (۲). سورة المائدة، الآية ۳.

[۱۲۰] (۱).« بادياً» من مادة« بدو» على وزن« جبر» بمعنى الايضاح ولها حيثية وصفية.

[۱۲۱] (۲). الكافى، ج ۱، باب البدع والرأى والمقاييس، ح ۱۹.

[۱۲۲] (۱). سورة البقرة، الآية ۲۸۵.

[۱۲۳] (۲). سورة الجاثية، الآية ۱۳.

[۱۲۴] (۳). سورة البقرة، الآية ۲۹.

[۱۲۵] (۴). سورة الرعد، الآية ۲۸.

[۱۲۶] (۵). سورة الأعراف، الآية ۲۰۱.

[۱۲۷] (۱).« أحمر»، إشارة إلى حمرة الوجه، أو كونه حنطاوياً، لأنّ بيض الوجوه كانت فى ذلك المحيط ألوانهم بلون‌الحنطاوى.

[۱۲۸] (۲). تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۱ و ۶۲.

[۱۲۹] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۳۴۸.

[۱۳۰] (۲). المصدر السابق، ص ۳۵۰.

[۱۳۱] (۱). سورة الحجرات، الآية ۹.

[۱۳۲] (۱). سورة الحجرات، الآية ۱۳.

[۱۳۳] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۹۷.

[۱۳۴] (۳). سورة مريم، الآية ۶۳.

[۱۳۵] (۴).« نواصى» جمع« ناصية» بمعنى شعر مقدمة الرأس وهى إشارة لقدرة اللَّه وكناية عن هيمنته على كلّ شىء.

[۱۳۶] (۵).« تقلب» هنا بمعنى التصرف وكل تغيير إشارة إلّاأنّ بيده كلّ حركاتكم.

[۱۳۷] (۶). سورة الملک، الآیة ۱۳.

[۱۳۸] (۷). سورة الانفطار، الآیات ۱۰- ۱۲.

[۱۳۹] (۱). سورة الطلاق، الآیة ۲.

[۱۴۰] (۲). تفسیر مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۰۶.

[۱۴۱] (۳). سورة الانفال، الآیة ۲۹.

[۱۴۲] (۴).« اصطنع» من مادة« صنع».

[۱۴۳] (۱). سورة النساء، الآیة ۶۹.

[۱۴۴] (۲). سورة الحدید، الآیة ۲۱.

[۱۴۵] (۳). سورة الرعد، الآیتان ۲۳ و ۲۴.

[۱۴۶] (۴).« یرهق» من مادة« رهق» علی وزن« شفق» فی الأصل من تغطیة شیء بالقهر والغلبة وتعنی هنا الغلبة وتسلطالموت علی الإنسان.

[۱۴۷] (۱). سورة المؤمنون، الآیتان ۹۹ و ۱۰۰.

[۱۴۸] (۲). سورة غافر، الآیة ۳۹.

[۱۴۹] (۳). سورة البقرة، الآیة ۱۹۷.

[۱۵۰] (۱).« شوکة» تطلق علی حراب الجنود والأسلحة کافّة، لأنّ السلاح علامة القدرة والشدّة وتطلق الشوکة علی کلّقدرة، وتطلق علی التنوء المدبّب کالإبرة فی النبات الشائک.

[۱۵۱] (۲).« تدمیه» من مادة« إدماء» بمعنی إخراج الدم من البدن.

[۱۵۲] (۳).« رمضاء» بمعنی شدّة الحرارة وکذلک الأرض والحجر المحرقة بفعل أشعة الشمس.

[۱۵۳] (۴).« طابقین» تثنیة« طابق» بکسر وفتح الباء بمعنی طبقة البناء ویطلق علی ما یخبز علیه.

[۱۵۴] (۱).« حطم» من مادة« حطم» علی وزن« حتم» بمعنی هدم وکسر الشیء ویطلق علی الأشیاء التی تتهشم بقوّةومن هنا کان أحد أسماء جهنم الحطمة.

[۱۵۵] (۲).« توثبت» من مادة« وثوب» بمعنی القفز.

[۱۵۶] (۳). فی ظلال نهج البلاغة، ج ۳، ص ۴۶(باقتباس).

[۱۵۷] (۱).« یفن» بمعنی الشیخ المسن.

[۱۵۸] (۱).« لهز» من مادة« لهز» علی وزن« محض» المخالطة والنفوذ فی شیء.

[۱۵۹] (۲).« قتیر» تعنی فیالأصل رؤوس المسامیر فی حلقات الدرع ثم اطلق علی کلّ أمر صعب ومرهق وبما أنّ فترة الکهولة تعدّ إحدی المشاکل الشدیدة فقد اطلق القتیر علی الکهل وهذا هو المعنی المراد بها فی الخطبة.

[۱۶۰] (۳).« التحمت» من مادة« لحم» علی وزن« فهم» بمعنی اندکت واستحکمت وتعنی فی العبارة المذکورة أنّ أطواق النار تلتصق بعظام الرقبة.

[۱۶۱] (۴).« نشبت» من مادة« نشب» علی وزن« رجب» التعلق.

[۱۶۲] (۵).« جوامع» جمع« جامعة» الغل لأنّها تجمع الیدین إلی العنق.

[۱۶۳] (۶).« سواعد» جمع« ساعد».

[۱۶۴] (۱).« رهائن» جمع رهینة.

[۱۶۵] (۲).« اسهروا» من مادة« سهر» على وزن« سفر» بمعنى اليقظة فى الليل.

[۱۶۶] (۳).« اضمروا» من مادة« ضمور» على وزن« عبور» بمعنى الضعف وتتعدى فى باب الأفعال.

[۱۶۷] (۱). سورة محمد، الآية ۷.

[۱۶۸] (۲). سورة الحديد، الآية ۱۱.

[۱۶۹] (۳). سورة محمد، الآية ۴.

[۱۷۰] (۴). سورة الملك، الآية ۲.

[۱۷۱] (۱).« حسيس» من مادة« حس» تعنى الصوت الخفيف أو الضعيف.

[۱۷۲] (۲).« صان» من« صيانة» بمعنى المحافظة.

[۱۷۳] (۳).« لغوب» مصدر بمعنى شدة العياء.

[۱۷۴] (۴).« نصب» بمعنى التعب. وذهب البعض إلى أنّ لغوب بمعنى التعب الروحى والنصب التعب البدنى. وعلى هذا الأساس فليس فى الجنّة ومجاورة اللَّه من تعب روحى ولا بدنى.

[۱۷۵] (۵). سورة الحديد، الآية ۲۱.

[۱۷۶] (۱). سورة الأنبياء، الآية ۱۰۲.

[۱۷۷] (۲). سورة فاطر، الآية ۳۵.

[۱۷۸] (۳). سورة النساء، الآية ۶۹.

[۱۷۹] (۱). كنز العمال، الحديث رقم ۴۳۴۹۰؛ بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۱۷۵ مع اختلاف طفيف.

[۱۸۰] (۱). سند الخطبة:

ذكر صاحب مصادر نهج البلاغة أنّ أبا هلال العسكرى ذكر هذا الكلام فى كتابه الصناعتين قبل أن يجمع المرحوم السيد الرضى نهج البلاغة(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۲، ص ۴۶۱).

[۱۸۱] (۱).« ضئيل» من مادة« ضئولة» على وزن« كهولة» تعنى النحيف المهزول.

[۱۸۲] (۲).« نجمت» من مادة« نجم» بمعنى الظهور والبروز ويقال للكواكب نجوم كونها تظهر فى السماء.

[۱۸۳] (۳).« ماعز»، الشاة.

[۱۸۴] (۱). أعلام الزركلى، ج ۲، ص ۴۷.

[۱۸۵] (۱). سند الخطبة:

ذكر هذه الخطبة جمع من الأعلام ممن عاش بعد السيد الرضى كالمرحوم الطبرسى فى الاحتجاج والزمخشرى فى ربيع الأبرار بالإضافة إلى آخرين ويتّضح من الاختلاف بين ما ذكروه وما ذكره السيد الرضى أنّهم رووها من مصدر آخر غير نهج البلاغة(مصادر نهج البلاغة، ج ۲، ص ۴۶۷).

[۱۸۶] (۱). سورة الرحمن، الآيتان ۲۶ و ۲۷.

[۱۸۷] (۲). سورة طور، الآية ۳۵.

[۱۸۸] (۱). أشرنا فى شرحنا للخطبة ۶۵ فى الجزء الثالث من هذا الشرح إلى حديث عميق المعنى والذى بيّنه أميرالمؤمنين عليه السلام فى رده على السائل الذى سأله عن وحدانيّة اللَّه تعالى، فذكر عليه السلام للواحد أربعة معانٍ يستحيل اثنان منهما على اللَّه بينما يصح الآخران(راجع نفحات الولاية، ج ۳، ص ۴۱).

[۱۸۹] (۲).« مشاعرة» تعنى الإدراك بواسطة الحواس ومادته شعور بمعنى الاحساس.

[۱۹۰] (۳).« مرائی» جمع مرءاة تطلق أحياناً على العين حيث تنعكس فيها صور الموجودات.

[۱۹۱] (۴).« محاضرة» بمعنى الحضور والمجالسة.

[۱۹۲] (۱).« أوهـام» جمع« وهم» على وزن« فهم» تعنى لغويـاً مـا يخطر على القلب ولكن تشـير القرائن إلّاأنّهـا وردت فی‌هـذه الخطبة وسائر الخطب بمعنى الأفكار الخيالية.

[۱۹۳] (۲).« تجلى لها» تعود الضـمائر الست فی هـذه العبارة والعبارتين التاليتين إلى الأوهام ومفهومها فی العبارة الأولى أنّ اللَّه تعالى تجلى للعقول عن طريق الإدراكـات العقليـة وللأنظمـة التی يراهـا العقـل فی عـالم الخلقـة وسـلم عن طريق الإدراك العقلى باسـتحالة إدراك ذاته على العقول. وحوكم العقل بادعائه درك كنه ذاته من قبل العقل نفسه(عليك بالدقة). أمّا ما ذكره البعض من احتمالات أخرى لعودة الضمائر فلا يبدو صحيحاً.

[۱۹۴] (۱). الكافی، ج ۱، ص ۱۱۷، ح ۸.

[۱۹۵] (۲). سورة الصافات، الآيتان ۱۵۹ و ۱۶۰.

[۱۹۶] (۱).« فلج» بمعنى الظفر سواء فی الاستدلال أو العمل.

[۱۹۷] (۱).« صـادع» من مـادة« صـدع» على وزن« صبر» تعنى فی الأصـل الشقّ ولمـا كـان شق الأـرض يـدعو إلى ظهورالنباتـات فإنّ الصدع يستبطن معنى الظهور والجهر.

[۱۹۸] (۲).« أمراس» جمع« مرس» على وزن« مرض» يعنى الحبل.

[۱۹۹] (۳).« عرى» جمع« عروة» بمعنى العقدة.

[۲۰۰] (۴). سورة الحجر، الآية ۹۴.

[۲۰۱] (۱). الكافی، ج ۲، ص ۱۲۶، ح ۶.

[۲۰۲] (۱).« مدخولة» من مادة« دخل» على وزن« دغل» بمعنى الفساد.

[۲۰۳] (۱). سورة المطففين، الآية ۱۴.

[۲۰۴] (۲). سورة الجاثية، الآية ۲۳.

[۲۰۵] (۳).« سوى» من مادة« تسوية» بمعنى التنظيم والترتيب.

[۲۰۶] (۴).« بشر» جمع« بشرة» بمعنى ظاهر جلد البدن وتأتى بمعنى الإنسان.

[۲۰۷] (۱).« الورد» بمعنى العطش وهنا كناية عن القدرة.

[۲۰۸] (۲).« صدر» الرجوع بعد الورود وهی هنا كناية عن العجز والفقدان.

[۲۰۹] (۳).« ديان» بمعنى المفيد والحاكم والمدبر.

[۲۱۰] (۴).« صفا» بمعنى الحجر الأملس لا شقوق فيه.

[۲۱۱] (۵).« جامس» جامد.

[۲۱۲] (۱).« شراسيف» جمع« شُرسُوف» بمعنى الاضلاع التی تشرف على البطن.

[۲۱۳] (۱). راجع دائرة المعارف لموريس باركر وحياة الحيوان للدميرى.

[۲۱۴] (۱).« القلال» جمع« قلة» بمعنى قمة الجبل.

[۲۱۵] (۱). سورة غافر، الآية ۵۷.

[۲۱۶] (۲). سورة الحجر، الآية ۲۲.

[۲۱۷] (۱). دعاء أبو حمزة الثمالی.

[۲۱۸] (۲). سورة النازعات، الآيات ۳۰- ۳۳.

[۲۱۹] (۳). سورة الرحمن، الآيات ۱- ۴.

[۲۲۰] (۴). سورة الروم، الآية ۲۲.

[۲۲۱] (۱).« يلجأُوا» من مادة« لجوء» على وزن« غروب».

[۲۲۲] (۲).« اوعوا» من مادة« وعى» على وزن« سعى» تعنى فى الأصل حفظ الشيء فى القلب ومنه الوعاء.

[۲۲۳] (۱). سورة فصلت، الآية ۵۳

[۲۲۴] (۱).« الجرادة» من مادة« جرد» على وزن« فرد» بمعنى إزالة القشور ويبدو أنّ هذه المفردة اقتبست منها.

[۲۲۵] (۲).« قمراوين» تثنية« قمراء» من مادة« قمر» و« القمراء» مفردة وصفية تعنى المضيء.

[۲۲۶] (۳).« سوى» بمعنى الكائن الكامل الذى لا عيب فيه.

[۲۲۷] (۴).« نابين» تثنية« ناب» السن الأمامى.

[۲۲۸] (۵).« منجلين» تثنية« منجل» كناية هنا عن أرجل الجرادة أو أيديها القوسيّة الشكل وتمسك بهما الأوراق والسيقان.

[۲۲۹] (۶).« نزوات» جمع« نزوة» بمعنى الوثوب.

[۲۳۰] (۷).« مستدقة» من مادة« دقّة» بمعنى النحافة ومستدقة بمعنى نحيفة.

[۲۳۱] (۱). انظر: الزلجيّ الحديث تأليف وترجمة محمد كاظم المالكى، ج ۲، ص ۳۲۹؛ قاموس معين، كلمة الجرادة.

[۲۳۲] (۱).« تبارك» من مادة« برك» فى الأصل من« البرك» على وزن« الفرك» بمعنى صدر الناقة ولما كانت الجمال تلصق‌صدرها بالأرض حين الاستقرار فقد استعملت هذه المفردة بمعنى ثبات الشيء واستقراره ومنه البركة لبقاء الماء مدّة فيها، ويقال للشيء مبارك إن ثبت واستقر خيره، وعليه فإن استعملت هذه المفردة بشأن اللَّه عنت كثرة بركته وخلودها.

[۲۳۳] (۲). سورة الرعد، الآية ۱۵.

[۲۳۴] (۳).« يعفر» من مادة« عفر» و« عفر» على وزن« فقر» و« سفر» بمعنى التراب والتعفير بمعنى التمريغ بالتراب.

[۲۳۵] (۴).« خد» تعنى فى الأصل الشق ثم اطلق على ما فى الوجه ووردت هنا بمعنى جانبى الوجه.

[۲۳۶] (۱). سورة العنكبوت، الآية ۶۵.

[۲۳۷] (۱). سورة النحل، الآية ۷۹.

[۲۳۸] (۲).« الريش» معروف لدى الطيور وبما أنّ الريش غالباً ما يكون للزينة فقد اطلقت هذه المفردة على الثياب‌المزينة.

[۲۳۹] (۳).« أرسى» من مادة« رسو» على وزن« رسم» بمعنى الثبات وأرسى بمعنى أثبت.

[۲۴۰] (۴).« الندى» و« نداوة» بمعنى الرطوبة والبلل.

[۲۴۱] (۱). سورة يس، الآية ۸۲.

[۲۴۲] (۲). سورة الرعد، الآية ۱۲.

[۲۴۳] (۳).« اهطل» من مادة« هطل» على وزن« حتم» بمعنى تتابع المطر.

[۲۴۴] (۴).« ديم» جمع« ديمة» مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق.

[۲۴۵] (۵).« جدوب» و« جدب» على وزن« جم» بمعنى اليبس الناشيء من عدم نزول المطر.

[۲۴۶] (۱). سورة الأعراف، الآية ۵۷.

[۲۴۷] (۱). سند الخطبة:

قال صاحب مصادر نهج البلاغة أنّ السيد المرتضى(رحمه اللَّه) قال:« إنّ شرح أصول التوحيد والعدل اقتبست من كلمات أمير

المؤمنين عليه السلام وخطبه وكل ما قاله المتكلمون هنا هوشرح لهذه الكلمات». وأضاف:« إنّ الطبرسى ذكر هذه الخطبة مع اختلاف يفيد أنّه أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، كما روى المرحوم الكلينى قبل السيد الرضى بعض هذه الخطبة فى الجزء الأوّل من اصول الكافى».(مصادر نهجالبلاغة، ج ۲، ص ۴۷۷) ومن جانب آخر فإنّ مضامين الخطبة على درجة من الرفعة والسمو بحيث يستحيل صدورها من غير الإمام المعصوم وحجّة اللّه وأننا لنعلم أنّ أحد أدلة صحة استناد الروايات إلى المعصومين عليهم السلام هو علو مضمونها.

[۲۴۸] (۱).« صمد» من مادة« صمد» تعنى أحياناً العظمة وأحياناً أخرى الصلابة والاستحكام كما تعنى الطهارة والتنزهوهذا هو المعنى المراد بها فى هذه العبارة.

[۲۴۹] (۱).« جول» و« جولان» بمعنى الحركة فى كل اتجاه وجولان الفكر بمعنى التفكير.

[۲۵۰] (۲). سورة فاطر، الآية ۱۵.

[۲۵۱] (۱).« ترفده» من مادة« رفد» بمعنى المعونة و المساعدة.

[۲۵۲] (۱).« تشعير» من« شعور» بمعنى العلم والمعرفة وتعنى هنا العلم بالشى عن طريق الحواس.

[۲۵۳] (۲).« بهمة» بمعنى السواد والليالى الظلماء والمعنى الأوّل هو المطلوب.

[۲۵۴] (۳).« صرد» بمعنى البرد وقيل إنّها مفردة فارسية.

[۲۵۵] (۴). سورة القصص، الآية ۷۱.

[۲۵۶] (۱). سورة القصص، الآية ۷۲.

[۲۵۷] (۲). سورة القصص، الآية ۷۳.

[۲۵۸] (۳). سورة الأنعام، الآية ۱.

[۲۵۹] (۱). سورة الشورى، الآية ۱۱.

[۲۶۰] (۲). لابدّ من الإلتفات إلى أنّ الكلمات(منذ وقد ولولا) فى العبارات الثلاث فاعل للأفعال منعت وحمد وجنبت ومفعولها قدمه وأزليّة وتكملة، وتعود الضمائر المؤنثة فى منعتها وحمتها وجنبتها إلى المخلوقات.

[۲۶۱] (۱). سورة سبأ، الآية ۳۱.

[۲۶۲] (۱).« تقل» من مادة« قل» على وزن« ذل» بمعنى الرفع ولهذا اطلقت القلة على قمة الجبل حيث تقع فى ارفعنقطة منه.

[۲۶۳] (۲).« تهوى» من مادة« هوى» على وزن« تهى» بمعنى السقوط من شاهق، و« هوا» على وزن« قفا» تطلق على الحب والرغبة.

[۲۶۴] (۱).« والج» من مادة« ولوج» تعنى الدخول.

[۲۶۵] (۲).« لهوات» جمع« لهاة» اللحمة فى سقف أقصى الفم وقيل معلقة بالحلق ومن هنا فهى تطلق على الحلق وقدوردت فى هذه الخطبة بهذا المعنى.

[۲۶۶] (۳).« خروق» جمع« خرق» على وزن« برق» بمعنى الشقّ الذى يوجد فى الحائط أو فى غيره وتعنى هنا ثقبالأذن.

[۲۶۷] (۱). سورة التوبة، الآية ۱۱۷.

[۲۶۸] (۱). من الواضح أنّ الضمائر فى بينها وعليها تعود إلى المحدثات، وأنّ قراءة صفات المحدثات بصيغة الإضافة وبدون الألف واللام(كما وردت فى بعض النسخ) لأصبح المطلب أكثر وضوحاً، كما يصبح مفهوم العبارة أوضح إن استبدلت المبتدع بالمبدع كما فى بعض النسخ لأنّ المبدع يعنى الخالق والبديع فى هذه الحالة يعنى المخلوق والذى له معنى اسم المفعول.

[۲۶۹] (۲).« أود» بمعنى الثقل الذى يوجب الاعوجاج.

[۲۷۰] (۳).« التهافت» يعنى التساقط.

[۲۷۱] (۴).« الانفراج» يعنى الانشقاق.

[۲۷۲] (۱).« أَسداد» جمع« سدّ».

[۲۷۳] (۲).« خـد» أخذ فى الأصل من خد الإنسان الواقع على طرفى الوجه ثم اطلق علىالشـقوق الواسـعة والعميقة فى الأرض. وذكر فى الخطبة بمعنى الشق.

[۲۷۴] (۳). سورة النبأ، الآية ۷.

[۲۷۵] (۴). راجع شرح هذا الموضوع فى التفسير الأمثل ذيل الآية ۳ من سورة الرعد والآية ۱۵ من سورة النحل.

[۲۷۶] (۱). سورة الأحزاب، الآية ۱۷.

[۲۷۷] (۱).« مراح» من مادة« روح» مأوى الحيوانات.

[۲۷۸] (۲).« سائم» من« سوم» على وزن« قوم» الراعى وتعنى فى الأصل الذهاب خلف الشىء.

[۲۷۹] (۳).« اسناخ» جمع« سنخ» تعنى الأصول والجذور وهنا تعنى أنواع الحيوانات.

[۲۸۰] (۴).« متبلدة» من مادة« بلادة» بمعنى الغباء مقابل الذكاء.

[۲۸۱] (۱). سورة الحج، الآية ۷۳.

[۲۸۲] (۲).« خاسئة» من مادة« خسأ» على وزن« مدح» تعنى فى الأصل الذلّة وخاسىء بمعنى الذليل والعاجز.

[۲۸۳] (۳).« حسير» من« حسر» على وزن« حبس» تعنى فى الأصل العرى ورفع غطاء شىء ثم استعملت بمعنى الضعف والتعب.

[۲۸۴] (۱). سورة الأنبياء، الآية ۱۰۴.

[۲۸۵] (۲). انظر: هذا الموضوع فى الجزء الأوّل من نفحات الولاية بحث المعاد الجسمانى.

[۲۸۶] (۱). القاموس.

[۲۸۷] (۱).« يتكاءده» من« كاد» على وزن« وعد» بمعنى المشقّة والعبارة هنا تعنى لا يشق عليه وكؤود: كثير المشقّة.

[۲۸۸] (۲).« يؤده» من مادة« أود» على وزن« قول» بمعنى الثقل ولم يؤده بمعنى لم يثقل عليه.

[۲۸۹] (۳). سورة يس، الآية ۸۲.

[۲۹۰] (۴). سورة البقرة، الآية ۲۵۵.

[۲۹۱] (۵). سورة الاحقاف، الآية ۳۳.

[۲۹۲] (۱).« مكاثر» من« الكثرة» كما تطلق على من يطلب الكثرة.

[۲۹۳] (۲).« المثاور» من مادة« ثور» على وزن« غور» تعنى المهاجم.

[۲۹۴] (۱). سورة التكوير، الآيات ۱- ۶.

[۲۹۵] (۲). سورة ابراهيم، الآية ۴۸.

[۲۹۶] (۳). سورة طه، الآيات ۱۰۵- ۱۰۷.

[۲۹۷] (۱). لإعادة المعـدوم صـيغتان؛ صـيغة غير معقولـة وأخرى معقولـة، والصـيغة غير المعقولـة أن يعود الموجود الـذىفنى بجميع خصائصه بما فيه الزمان إلى ما كان عليه فى السابق وهذا محال حيث لا معنى لعودة الزمان ثم إنّه تناقض، أمّا الصيغة المعقولة فهى أن يعاد كلّ شىء بصورته السابقة ما عدا الزمان، ولعل عدم الإلتفات إلى هذا الفارق أدى إلى ذلك النزاع اللفظى بين العلماء بشأن إعادة المعدوم فرآها البعض محالة بينما رآها البعض الآخر ممكنة.

[۲۹۸] (۱).« سأم» بمعنى التعب والملل ونفى الملل فى العبارات التاليـة ليس تكراراً بل نفى فى العبارة الأُولى المللالناشـىء من تدبير العالم من الذات القدسيّة، وفى العبارة التالية الملل الناشىء من طول بقاء العالم.

[۲۹۹] (۱).« التماس» من لمس بمعنى الطلب.

[۳۰۰] (۲).« ضعة» من مادة« وضع» بمعنى الخسة.

[۳۰۱] (۱). سورة الحجر، الآية ۲۱.

[۳۰۲] (۱). سند الخطبة:

روى هـذه الخطبـة أبوالحسن المدائنى من علماء القرن الثالث فى كتاب(صـفين) وتبدأ الخطبة التى رواها« إذا كثر فيكم الاخلاط ...» ثم ذكر الخطبـة بعـد عبارات مفصلـة مع اختلاف وإضافات بما يفيـد أنّه أخذها من مصدر آخر لأنّه أولًا عاش لفترة مديدة قبل السـيد الرضـى، وثانياً ما نقله يحتوى على إضافات بالنسبة لما نقله السيد الرضى كما ذكر جانب منها الزمخشرى فى ربيع الابرار(مصادر نهج البلاغة، ج ۲، ص ۴۷۸).

[۳۰۳] (۱). مصادر نهج البلاغة، ج ۲، ص ۴۷۹؛ كما رواه ابن أبى الحديد فى شرح نهج‌البلاغة، ج ۶، ص ۱۳۶.

[۳۰۴] (۱). ذكر بعض شـرّاح نهـج البلاغة(الخوئى) فى تركيب العبارة المذكورة أنّ(هم) مبتدأ و(بأبى وأمى) فى محل‌خبر و(من) بيانيّة وهذه العبارة تشبه العبارة(بأبى أنتم وأمى) والتى استخدم فيها هنا بدل الضمير المخاطب ضمير الغائب فى آخر الجملة.

[۳۰۵] (۱). مصادر نهج البلاغة، ج ۲، ص ۴۷۸.

[۳۰۶] (۲). انظر: بحث علامات الظهور فى كتاب سفينة البحار مادة« هدى»؛ بحار الأنوار، ج ۲، ص ۱۱۹ و ۱۸۱.

[۳۰۷] (۳). وردت هذه الروايات فى جميع الكتب المؤلفة بشأن المهدى عليه السلام بما فيها كتب الفريقين.

[۳۰۸] (۴). كشف الغمة، ج ۱، ص ۹۵؛ بحار الأنوار، ج ۲۲، ص ۲۸۴.

[۳۰۹] (۱). ميزان الحكمة، ج ۱، ص ۴۳ مادة« اخ».

[۳۱۰] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۱۵۷.

[۳۱۱] (۲).« عَضَّ» من مادة« عضّ» على وزن« خزّ» تستعمل كناية عن الحوادث التى تزعج الإنسان.

[۳۱۲] (۳).« قتب» جهاز الناقة(اطار صغير أصغر قليلًا من سنام الناقة يوضع عليها ليجلس عليها الراكب).

[۳۱۳] (۴).« الغارب» موضع بين العنق والسنام.

[۳۱۴] (۱). مستدرك الوسائل، ج ۱۳، الباب ۱ من أبواب الربا، ح ۱۸.

[۳۱۵] (۲). سفينة البحار، مادة زمان.

[۳۱۶] (۱).« ازمة» جمع« زمام»، معروفة.

[۳۱۷] (۲). سورة المائدة، الآية ۲.

[۳۱۸] (۱).« تصـدعوا» من مادة« صدع» على وزن« صبر» تعنى فى الأصل التشـقق ثم جاءت بمعنى التفرق والاختلاف أوافشاء الشـىء وأريد بها التفرق.

[۳۱۹] (۲).« غبّ» عاقبة الشيء كما جاء بمعنى بين يوم ويوم وأريد به هنا المعنى الأوّل.

[۳۲۰] (۳).« تقحموا» من مادة« اقحام» الإلقاء بالنفس دون روية.

[۳۲۱] (۴).« فور» و« فوران» معروف.

[۳۲۲] (۵).« اميطوا» من مادة« ميط» على وزن« صيت» بمعنى الإبتعاد ومعنى الابعاد فى باب الأفعال.

[۳۲۳] (۶).« سنن» بمعنى الطريق و« سُنَن» على وزن« كهن» جمع« سنّة» بمعنى الأساليب.

[۳۲۴] (۷).« قصـد السبيـل» يعنى وسـط الطريق سواء طريق الحقّ أم الباطل ولكن غالباً ما تطلق على السبيل الوسط للحقّ قال القرآن:« وَعَلى اللَّهِ قَصدُ السَّبيل»(النحل، الآية ۹) وأريد بها فى الخطبة المعنى الأوّل.

[۳۲۵] (۱).« وعى من مـادهٔ« وعى» على وزن« سـعى» بمعنى الفهم والحفـظ وتحـذف منهـا الـواو حين ترد بصـيغهٔ فعـل الأـمر والفعل المضارع.

[۳۲۶] (۱). سند الخطبهٔ:

لم يرد في كتاب مصادر نهج البلاغهٔ مصدر آخر لهذه الخطبهٔ غير نهج البلاغهٔ سوى كتاب الإعجاز والإيجاز للثعالبي ويتّضح من كثرهٔ الاختلافات مع ما جاء في نهـج البلاغـهٔ أنّه رواها من مصـدر آخر غير نهـج البلاغهٔ(مصادر نهجالبلاغهٔ، ج ۳، ص ۱۷). طبعاً مضمون الخطبهٔ على درجهٔ من الرفعهٔ بحيث يبدو من المستبعد جدّاً صدورها من غير الإمام المعصوم.

[۳۲۷] (۱).« بلاـء» أحيانـاً من مادهٔ« بلو» ناقص واوى وأخرى من مادهٔ« بلى» ناقص يائى والأولى بمعنى الاختبار والامتحان، فالامتحان بوفور النعمـهٔ أحيانـاً ونـدرتها، وأحياناً بسـلب النعم والآفات. قال اللّه تعالى« بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتْنَةً»(الأنبياء، الآيهٔ ۳۵) والثانيهٔ تعنى الكبر ثم وردت بمعنى الغم والحوادث الأليمـهٔ الـتى تنهـك الإنسـان، كمـا وردت هـذه المفردهٔ بمعنى اختبـار، لأنّهـا ثقيلـهٔ على جسم الإنسـان وروحه.

[۳۲۸] (۱).« أعورتم» من مادهٔ« عار» بمعنى العيب وكل شـىء يعـدّ اظهارها عيباً يطلق عليه العورهٔ وحين يرد في باب الأفعال كما ورد في العبارهٔ فهو يعنى إظهار العيب.

[۳۲۹] (۲).« أخذ» وردت هذه الكلمهٔ بمعنى العقاب.

[۳۳۰] (۱).« عمار» جمع« عامر» من مادهٔ« عمارهٔ» و« عمران» معروفهٔ.

[۳۳۱] (۱).« صرعت» من مادهٔ« صرع» على وزن« فرع» بمعنى التمريغ بالتراب.

[۳۳۲] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۹، ص ۱۶۷.

[۳۳۳] (۲). المحجهٔ البيضاء، ج ۸، ص ۲۴۰.

[۳۳۴] (۳). الكافى، ج ۳، ص ۲۳۱، ح ۱.

[۳۳۵] (۱). سورهٔ آل عمران، الآيهٔ ۱۳۳.

[۳۳۶] (۱). سورهٔ يونس، الآيهٔ ۴۵

[۳۳۷] (۲). سورهٔ البقرهٔ، الآيهٔ ۲۲۱.

[۳۳۸] (۳). سورهٔ ابراهيم، الآيهٔ ۷.

[۳۳۹] (۴). نهج البلاغهٔ، الكلمهٔ ۳۳۰.

[۳۴۰] (۵).« عمر» على وزن« دهل» وعمر على وزن« ظهر» كلاهما بمعنى واحد أى مدّهٔ الحياهٔ، وقال البعض يطلق العمر على الأربعين سنهٔ الأُولى والعمر بضمتين على جميع العمر أو الشق الثانى منه.

[۳۴۱] (۱). شرح نهجالبلاغهٔ لابن أبىالحديد، ج ۱۳، ص ۱۰۰.

[۳۴۲] (۱). سند الخطبهٔ:

روى هـذه الخطبـهٔ عـدد من الأعلام ممّن عاش قبل وبعـد السـيد الرضـى. كما روى بعضـها كلّ من المرحوم محمد بن حسن الصـفار المتوفى عـام ۲۹۰ فى بصـائر الـدرجات والمرحوم الصـدوق المتوفى عـام ۳۸۱ فى عيون الأخبـار والخصـال. ورواهـا الآمـدى فى غرر الحكم والثعالبى فى الإيجاز والإعجاز باختلاف(مصادر نهجالبلاغهٔ، ج ۳، ص ۱۹).

[۳۴۳] (۱). سورهٔ الأنعام، الآيهٔ ۹۸.

[۳۴۴] (۲). ميزان الحكمهٔ، ج ۱، ص ۲۶۵، ح ۱۳۵۰.

[۳۴۵] (۳). تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۷۵۱، ح ۲۰۷.

[۳۴۶] (۱). ميزان الحكمة، ج ۱، ص ۱۳۵۹.

[۳۴۷] (۲). الكافى، ج ۲، ص ۴۲۰.

[۳۴۸] (۳). بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۲۷۲.

[۳۴۹] (۱).« مستسرّ» من مادة« سرّ» بمعنى الشخص الذى يكتم شيئاً.

[۳۵۰] (۲). طبقاً لما ورد فى العبارة فإنّ(ما) فى العبارة(ما كان للّه ...) نافية، إلّاأنّ بعض شرّاح نهج البلاغة اعتبروها زمانيّة بمعنى(ما دام) وقالوا إنّ مفهوم العبارة هو أنّ الهجرة باقية ما دام اللّه بحاجة إلى إيمان الناس والحاجة هنا بمعنى الطلب والمراد منها أوامر اللّه ونواهيه للناس، ولكن يبدو المعنى الأوّل أنسب.

[۳۵۱] (۳). لابدّ من الإلتفات إلى أنّ(إلّا) محذوفة فى بعض نسخ صبحى الصالح لكنّها موجودة فى النسخ المصححة وليس للعبارة من معنى صحيح بدون(إلّا).

[۳۵۲] (۱). سورة النساء، الآية ۷۵.

[۳۵۳] (۲). الكافى، ج ۲، ص ۴۰۴، باب المستضعف، ح ۱.

[۳۵۴] (۳).« مستعصب» من مادة« صعب» بمعنى المشكل وصعوبة فهم الشىء ومجيىء المفردتين صعب ومستصعبمع بعضهما، للتأكيد.

[۳۵۵] (۱).« يعى» من مادة« وعى» على وزن« سعى» بمعنى الفهم والحفظ.

[۳۵۶] (۲).« رزينة» من« رزانة» بمعنى الوقار ورزين بمعنى الشخص الوقور.

[۳۵۷] (۳).« تشغر» من« شغور» على وزن« شعور» لها عدّة معان ومنها الهجوم الذى يناسب العبارة المذكورة ومنمعانيهاالرفع ورفع الرجل بمعنى شروع الحركة أى قبل حركة الفتنة.

[۳۵۸] (۴).« خطام» بمعنى« زمام» والعبارة« تطأ فى خطامها» كناية عن كون الفتنة كالدابة فى ارسالها وطيشها ولا قائد لها.

[۳۵۹] (۱).« أحلام» جمع« حلم» على وزن« نهم» بمعنى العقل كما وردت بمعنى النوم والرؤيا والمعنى الأوّل هو المراد.

[۳۶۰] (۲). الاستيعاب، ج ۲، ص ۵۰.

[۳۶۱] (۳). المصدر السابق، ص ۵۲.

[۳۶۲] (۴). المصدر السابق، ص ۵۰.

[۳۶۳] (۵). احقاق الحق، ج ۷، ص ۲۶۱ وجاءت هذه الرواية مع اختلاف طفيف فى بحار الأنوار(من كتاب فضائل شاذان بن جبرئيل) ج ۳۹، ص ۱۰۸، ح ۱۳.

[۳۶۴] (۱). سورة الانفال، الآية ۷۲.

[۳۶۵] (۲). كنز العمال، ح ۴۶۲۵۱.

[۳۶۶] (۱). كنزالعمال، ح ۶۴۲۶۰.

[۳۶۷] (۲). ميزان الحكمة، ج ۱۱، ح ۲۱۰۶۵.

[۳۶۸] (۳). سفينة البحار، مادة هجرة.

[۳۶۹] (۱). سند الخطبة:

قال ابن أبى الحديد: وأعلم أنّ هذه الخطبة من أعيان خطبه ومن ناصح كلامه ونادره، وفيها من صناعة البديع الرائعة المستحسنة البريئة من التكلّف ما لا يخفى. وقد أخذها ابن نباتة فأودعها خطبه وشذر بها كلامه. وقال صاحب مصادر نهج البلاغة بعد نقله لهذا الكلام: فلو لم يكن ابن أبى الحديد اطلع عليها فى غير نهج البلاغة لم يقل إنّها من أعيان خطبه مع ملاحظة أنّ ابن نباتة توفى سنة ۳۷۴ هجرى

أی قبل صدور نهج البلاغة. وروی الآمدی من هذه الخطبة فی غرر الحکم.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۲۳).

[۳۷۰] (۱).« مجد» بمعنی الشرف والجلال والوقار والعظمة، وهذه الصفة تختص بصورة تامة باللَّه تعالی.

[۳۷۱] (۲).« یثنیه» من مادة« ثنو» علی وزن« سعی» تعنی فی الأصل طی الخبر وحین تقترن بالعطف علی وزن« کتف» بمعنی طی الضلع وهی کنایة عن الانصراف عن الشیء وعدم الاهتمام به.

[۳۷۲] (۱). سیره ابن هشام، ج ۱، ص ۳۱۷.

[۳۷۳] (۱). سورة ص، الآیة ۵.

[۳۷۴] (۲). انظر: بحار الأنوار، ج ۹، ص ۱۴۳؛ تاریخ الطبری، ج ۲، ص ۶۷.

[۳۷۵] (۱).« معقل» بمعنی الملجأ والجبل المرتفع من العقل بمعنی المنع.

[۳۷۶] (۲).« منیع» من« منع» بمعنی الأصم الصعب المنال والبرج العالی.

[۳۷۷] (۳).« ذروته» تطلق علی قمة الجبال والجانب المرتفع من کلّ شیء.

[۳۷۸] (۱).« غمرات» جمع« غمرة» علی وزن« ضربة» بمعنی إزالة آثار الشیء، ثم اطلقت هذه المفردة علی ما یغطی تماموجه الأرض، ووردت فی هذه الخطبة بمعنی غمرات الموت وشدائده التی تستولی علی تمام وجود الإنسان.

[۳۷۹] (۲).« أرماس» جمع« رمس» بمعنی القبر والتراب وهذا هو المعنی المراد بها أی القبر.

[۳۸۰] (۳).« إبلاس» تعنی فی الأصل الحزن الذی یصیب الإنسان فی أوقات الشدّة.

[۳۸۱] (۴).« مطلع» تعنی فی الأصل الموضع المرتفع ثم اطلق علی مواقف یوم القیامة أو عالم البرزخ الذی یطلع فیه الإنسان علی نتیجة أعماله.

[۳۸۲] (۵).« روعات» جمع« روع» بمعنی الخوف.

[۳۸۳] (۶).« اضلاع» جمع« ضلع» المواضع جوانب الصدر.

[۳۸۴] (۷).« استکاک» من مادة« سک» بمعنی سدّ الشیء واستکاک الاسماع صممها علی أعتاب الموت.

[۳۸۵] (۸).« ضریح» القبر أو اللحد فی وسط القبر.

[۳۸۶] (۹).« ردم» غلق الشیء کما تطلق علی السد الکبیر ومل الحفرة بالتراب.

[۳۸۷] (۱۰).« الصفیح» الحجر العریض.

[۳۸۸] (۱). وسائل الشیعة، ج ۲، ص ۸۳۸، وکتاب الطهارة، أبواب الدفن، باب ۱۶، ح ۶.

[۳۸۹] (۱).« سنن» بمعنی الطریق والأسلوب وتطلق علی الجادة أیضاً.

[۳۹۰] (۲).« قرن» ما یقرن به البعیران.

[۳۹۱] (۳).« اشراط» جمع« شرط» علی وزن« شرف» بمعنی العلامات.

[۳۹۲] (۴).« ازفت» من مادة« ازف» علی وزن« شرف» بمعنی قربت.

[۳۹۳] (۵).« افراط» جمع« فرط» علی وزن« شرط» جبل صغیر وعلامة والمراد بها هنا المعنی الثالث.

[۳۹۴] (۶).« أناخت» من« أناخ» بمعنی نوم الدابّة.

[۳۹۵] (۷).« کلاکل» جمع« کلکل» بمعنی الصدر.

[۳۹۶] (۸).« حضن» بمعنی الصدر.

[۳۹۷] (۹).« رث» بمعنی قدیم.

[۳۹۸] (۱۰).« غث» بمعنی المهزول ویقابل السمین.

[۳۹۹] (۱).« ضنک» بمعنی الشدّة والضیق.

[۴۰۰] (۲).« کلب» بمعنی عضّة الکلب ثم استعملت فی کلّ انزعاج وشدّة.

[۴۰۱] (۳).« لجب» بمعنی اضطراب الأمواج.

[۴۰۲] (۴).« متأجج» من مادة« أجیج» بمعنی إشعال النار المقرون بالصوت.

[۴۰۳] (۵).« ذاک» من مادة« ذکاء» علی وزن« دواء» بمعنی إشتد لهیبها وحرارتها.

[۴۰۴] (۶).« عم» صفة مشبهة تعنی العمی من مادة« عمی» علی وزن« جفا».

[۴۰۵] (۱).« زمر» جمع« زمرة» علی وزن« عمرة» طائفة صغیرة.

[۴۰۶] (۲).« زحزحوا» من مادة« زحزح» علی وزن« قهقهة» بمعنی الإبعاد.

[۴۰۷] (۱). سورة الفتح، الآیة ۲۶.

[۴۰۸] (۱).« مبطل» من مادة« بطلان» بمعنی إبطال الحقّ.

[۴۰۹] (۲). سورة النور، الآیة ۵۲.

[۴۱۰] (۱).« مدینون» من مادة« دین» بمعنی الجزاء ویقال المدینون لمن جُوزوا علی عمل قاموا به.

[۴۱۱] (۲). سورة المدّثر، الآیة ۳۸.

[۴۱۲] (۳). وسائل الشیعة، ج ۷، ص ۲۲۷، ح ۲۰، الباب ۱۸ من أبواب حکم شهر رمضان.

[۴۱۳] (۴).« تقالون» من مادة« إقالة» بمعنی الإعادة وتعنی هنا قبول العذر.

[۴۱۴] (۱).« الزموا» من« لزوم» بمعنی الملازمة والعبارة إلزموا الأرض الأمر بالتوقف والسکون.

[۴۱۵] (۱).« اصلات» بمعنی سل السیف.

[۴۱۶] (۱). سند الخطبة:

ذکر ابن أبی الحدید اختلاف الروایة فی بعض کلماتها، ممّا یدل علی أنّه رآها فی غیر نهج البلاغة(مصادر نهجالبلاغة، ج ۳، ص ۲۸).

[۴۱۷] (۱).« الفاشی» من مادة« فشو» علی وزن« کشف» بمعنی الانتشار والاتساع.

[۴۱۸] (۱). سورة الفتح، الآیة ۷.

[۴۱۹] (۲). سورة الجن، الآیة ۳.

[۴۲۰] (۳). فالتعبیر عن الجد بهذا الأسم لعظم مقامه.

[۴۲۱] (۴).« تؤام» علی وزن« غلام» جمع« توأم» علی وزن« جوشن» تعنی فی الأصل المولود مع غیره فی بطن واحدة ویقال لهما التوأمان، ثم اطلق علی کلّ شیء یقترن بآخر ویشیر فی العبارة المذکورة إلی أنّ نعم اللَّه سبحانه وتعالی لیست مفردة بل مقرونة عادة بالعدید من النعم.

[۴۲۲] (۱).« الاحتذاء» یعنی التنسیق من مادة« حذو» علی وزن« جذب» بمعنی التنسیق والانسجام.

[۴۲۳] (۱).« غمرة» الماء الکثیر الذی یغطی کلّ شیء ثم اطلق علی کلّ شدّة.

[۴۲۴] (۲).« حین» بفتح الحاء تعنی الموت والهلکة واستعمل بمعنی الغم والهم الشدید الذی یؤدّی بالإنسان إلی الموت وحین بکسر الحاء بمعنی الزمان وقد وردت فی هذه الخطبة بالمعنی الأوّل.

[۴۲۵] (۳).« رین» بفتح الراء تعنی الصدأ الذی یصیب المعادن والذی یفید الفساد والتلف أو ضیاع شفافیة المعدن ولمعانه.

[۴۲۶] (۱). سورة هود، الآیة ۸۸، ورد هذا الکلام فی القرآن علی لسان النبی شعیب علیه السلام تجاه قومه الطاغین.

[۴۲۷] (۲). بحار الأنوار، ج ۹۹، ص ۵۵.

[۴۲۸] (۱). سورة البقرة، الآية ۱۹۷.

[۴۲۹] (۲). سورة مريم، الآية ۶۳.

[۴۳۰] (۳).« تبرح» من مادة« برح» بمعنى الإبتعاد لكنها تعطى معنى الإيجاب حين تقترن بكلمة النفى.

[۴۳۱] (۱).« الغابرين» جمع« غابر» من غبور على وزن« عبور» تعنى بقاء الشيء وعليه فغابرين تعنى الباقين.

[۴۳۲] (۲).« اسدى» من مادة« سدى» على وزن« عبا» بمعنى الإحسان والعطاء.

[۴۳۳] (۳). سورة النساء، الآية ۱۳۱.

[۴۳۴] (۴). سورة سبأ، الآية ۱۳.

[۴۳۵] (۵). بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۷۲.

[۴۳۶] (۱). بحارالأنوار، ج ۶۸، ص ۷۲؛ نهج البلاغة، خطبة ۱۷۶.

[۴۳۷] (۲).« اهطعوا» من مادة« هطوع» على وزن« طلوع» بمعنى الاندفاع سريعاً نحو الشيء.

[۴۳۸] (۳).« ألظوا» من مادة« لظّ» على وزن« خط» بمعنى الإلحاح على الشيء.

[۴۳۹] (۱). سورة النحل، الآية ۱۲۸.

[۴۴۰] (۲). سورة آل عمران، الآية ۱۲۰.

[۴۴۱] (۳).« ارحضوا» من« رحض» على وزن« محض» بمعنى الغسل.

[۴۴۲] (۴).« الحمام» بكسر الحاء الموت.

[۴۴۳] (۱).« تصونوا» من مادة« صون» على وزن« قوم» بمعنى الحفظ وتصون بالتشديد بمعنى حفظ النفس.

[۴۴۴] (۲). سورة الحديد، الآية ۲۱.

[۴۴۵] (۳). سورة الأعراف، الآية ۲۶.

[۴۴۶] (۴). سورة يوسف، الآية ۱۱۱.

[۴۴۷] (۵).« نزاه» جمع« نازه» بمعنى عفيف النفس.

[۴۴۸] (۶).« ولاه» جمع« واله» بمعنى المشتاق.

[۴۴۹] (۷).« لا تشيموا» من مادة« شيم» على وزن« غيب» نظر إليه أين يمطر.

[۴۵۰] (۸).« بارق» السحاب الذى يقدح منه البرق و جاء أيضاً بمعنى السيف البراق.

[۴۵۱] (۹).« ناعق» من مادة« نعق» على وزن« برق» بمعنى مناداة الحيوانات ثم اطلقت على المناداة بصورة عامة.

[۴۵۲] (۱).« اعلاق» جمع« علقة» على وزن« فتنة» بمعنى الشيء النفيس(وإن كانت له حيثية ظاهرية) وتوجب تعلق النفس بها.

[۴۵۳] (۲).« خالب» من« خلابة» بمعنى الخادع.

[۴۵۴] (۳).« محروبة» بمعنى منهوبة.

[۴۵۵] (۴).« المتصدية» بمعنى المرأة تتعرض إلى الرجال وتميلهم إليها من مادة تصدى بمعنى التعرض.

[۴۵۶] (۵).« عنون» من مادة« عن» على وزن« ظن» بمعنى الظهور.

[۴۵۷] (۶).« جامحة» من« جموح» على وزن« فتوح» الصعبة على راكبها.

[۴۵۸] (۱).« حرون» بمعنى« الجامحة» أيضاً مع هذا الفارق أن الجموح، حيوان يركض هنا وهناك مضطرباً، وعنون، حيوان معاند متمرد يقف ولا يتحرك.

[۴۵۹] (۲).« مائنة» أى كاذبة من مادة« مين» على وزن« عين» بمعنى الكذب.

[۴۶۰] (۳).« خؤون» المبالغة فى الخيانة.

[۴۶۱] (۴).« الكنود» الجحود والبخل وتعنى فى الأصل الأرض التى لا يظهر عليها شيء.

[۴۶۲] (۵).« صدود» أى المعترض والمانع من مادة« صد» وتستعمل بمعنيين الاعراض والمنع.

[۴۶۳] (۶).« حيود» من مادة« حيد» على وزن« صيد» تعنى الميل عن الطريق.

[۴۶۴] (۷).« ميود» بمعنى المنحرف والمضطرب من مادة« ميدان» على وزن« ضربان» بمعنى الانحراف والاضطراب.

[۴۶۵] (۱).« علو وسفل» بمعنى الأعلى والأسفل والتى تلفظ أحياناً بضم الحرف الأوّل وكسره.

[۴۶۶] (۲).« ساق» بمعنى« ساق» الرجل. والعبارة« على ساق» تطلق على من يقف على رجل ويستعد للقيام بعمل. وسياق من مادة سوق بمعنى التقدم والاندفاع وعليه فالعبارة على ساق وسياق أنّ أهل الدنيا يتأهبون للحركة للعالم الآخر.

[۴۶۷] (۳).« لحاق وفراق» نقطتان متقابلتان بمعنى الإلتحاق والانفصال.

[۴۶۸] (۱). بحارالأنوار، ج ۴۱، ص ۷۳، كما ورد هذا الحديث عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى سنن‌البيهقى، ج ۶، ص ۳۰۷ و ۳۰۹.

[۴۶۹] (۲).« مهارب» جمع« مهرب» على وزن« مطلب» بمعنى مكان الهروب.

[۴۷۰] (۳).« معاقل» جمع« معقل» على وزن« مجلس» بمعنى القلعة الحصينة والملجأ.

[۴۷۱] (۴).« لفظت» من مادة« لفظ» على وزن« حلف» بمعنى رمت ويقال لهذه الألفاظ كأنّها ترمى من الفم.

[۴۷۲] (۵).« محاول» جمع« محالة» على وزن« حوالة» تعنى الحذق وحسن التدبير والتصرف.

[۴۷۳] (۱).« معقور» من مادة« عقر» على وزن« فقر» يعنى مجروح وقتل أو قطع يد الناقة ورجلها.

[۴۷۴] (۲).« مجزور» من مادة« جزر» بمعنى المسلوخ.

[۴۷۵] (۳).« شلو» بعض لحم الحيوان المذبوح.

[۴۷۶] (۴).« مسفوح» يعنى« مسفوك» من مادة« سفح» على وزن« صبر» بمعنى السفك وتستعمل عادة فى سفك الدماء.

[۴۷۷] (۵).« عاض» من مادة« عض» على وزن« سد» ويطلق هذا اللفظ عادة على أولئك الذين يعضون أيديهم بأسنانهم من شدّة الندم.

[۴۷۸] (۶).« صافق» من مادة« صفق» على وزن« دفع» تعنى ضرب اليدين ببعضها مع الصوت وتشير هنا إلى الأشخاص الذين يضربون أيديهم ببعضها من شدّة الحسرة.

[۴۷۹] (۷).« مرتفق» بمعنى الشخص الذى يستند على يديه ووردت فى العبارة كناية عن الشخص الحائر الذى وضع رأسه على يديه وغرق فى التفكير، وارتفاق يعنى الاستناد.

[۴۸۰] (۸).« خديه» مثنى« خد» لدى الإنسان وهو معروف.

[۴۸۱] (۹).« زار» بمعنى اللوم والتوبيخ من مادة« زرى» ولذلك وردت بمعنى الاستصغار والاستحقار.

[۴۸۲] (۱).« الغيلة» بمعنى الشر والقرار الخطير الخفى وتطلق هذه المفردة على الاغتيال.

[۴۸۳] (۲).« لات» أداة نفى كانت فى الأصل لا نافية أضيفت إليها التاء للتأكيد بينما قيل إنّها زائدة وللمبالغة.

[۴۸۴] (۳).« مناص» بمعنى من مادة« نوص» الفرار.

[۴۸۵] (۴).« بال» بمعنى القلب والخاطر.

[۴۸۶] (۵). سورة ص، الآية ۳.

[۴۸۷] (۶). سورة الدخان، الآية ۲۹.

[۴۸۸] (۱). سند الخطبة:

قال صاحب مصادر نهج البلاغة بعد أن ذكر أنّ هذه أطول خطب أمير المؤمنين عليه السلام على ما ذكره الشارحون وهى فى عدة فصول فى المواعظ والزواجر وأنّ طائفة ممن عاشوا قبل السيد الرضى ذكروها فى كتبهم وكانت نسخة خطية عند السيد ابن طاووس ذكرها فى كتابه(اليقين) وقال رأيت هذه النسخة مع أخبار فى فضائل أهل البيت عليهم السلام وردت عن الأعلام السابقين ويعود تاريخها إلى سنة ۲۸۰ هجرى، كما روى المرحوم الكلينى فصلًا من هذه الخطبة فى الجزء الرابع من كتابه الكافى كما روى المرحوم الصدوق بعضها فى كتابه(من لايحضره الفقيه) ورواها بعد السيد الرضى؛ الزمخشرى فى(ربيع الأبرار) وروى الماوردى فى(أعلام النبوّة) المعجزة التى رواها أميرالمؤمنين عليه السلام عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى حركة الشجرة(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۵۶).

[۴۸۹] (۱).« حمى» بمعنى المنطقة الممنوعة من مادة« حماية» بمعنى الممانعة والدفاع عن الشىء ومن هنا تطلق‌الحميّة على وزن« جزية على» المريض الذى يجتنب ما يضرّ به.

[۴۹۰] (۱). نهج البلاغة، الكلمة ۹۳.

[۴۹۱] (۲).« ادرع» من« درع» على وزن« فكر» بمعنى الثوب ويستعمل أحياناً بمعنى لبس الثوب.

[۴۹۲] (۳).« تعزز» بمعنى افتخر ورأى نفسه عزيزاً.

[۴۹۳] (۴). سورة ص، الآية ۷۶.

[۴۹۴] (۵). سورة ص، الآية ۷۶.

[۴۹۵] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۳۰۹، ح ۱، باب الكبر.

[۴۹۶] (۲). المصدر السابق، ص ۳۱۰.

[۴۹۷] (۳).« مدحور» بمعنى مطرود من مادة« دحر» على وزن« دهر».

[۴۹۸] (۴). سورة الحجرات، الآيتان ۳۴ و ۳۵.

[۴۹۹] (۱). سورة ص، الآيتان ۸۴ و ۸۵.

[۵۰۰] (۲).« يخطف» من« خطف» على وزن« عطف» بمعنى الأخذ بسرعة.

[۵۰۱] (۱).« يبهر» من مادة« بهر» على وزن« بحر» بمعنى الحيرة والبهت.

[۵۰۲] (۲).« رواء» بمعنى حسن المنظر.

[۵۰۳] (۳).« عرف» بمعنى الرائحة الطيّبة.

[۵۰۴] (۴).« خُيَلاء» بمعنى التكبّر.

[۵۰۵] (۱).« جهد» على وزن« مهد وجهد» على وزن« كفر» كلاهما يعنى السعى الجاد وجهيد على وزن« فعيل» من هذه‌المادة يذكر للتأكيد وعليه فجهد وجهيد تعنى منتهى السعى.

[۵۰۶] (۲).« سنى» هى سنين فى الأصل وحذفت النون للإضافة.

[۵۰۷] (۳). سورة الحج، الآية ۴۷ وقريب من هذا المعنى سورة السجدة، الآية ۵.

[۵۰۸] (۴).« هوادة» بمعنى اللين والرخصة.

[۵۰۹] (۵).« حمى» بمعنى المنطقة المحظورة من حمى على وزن« نفى» بمعنى المنع والاعراض.

[۵۱۰] (۱). للوقوف على المزيد بهذا الشأن انظر: التفسير الأمثل ذيل الآية ۲۱۷ من سورة البقرة.

[۵۱۱] (۱). سورة الكهف، الآية ۵۰.

[۵۱۲] (۲). سورة الأنبياء، الآيتان ۲۶ و ۲۷.

[۵۱۳] (۱). الكافی، ج ۸، ص ۲۷۱.

[۵۱۴] (۲). سورة المائدة، الآية ۱۸.

[۵۱۵] (۱).« يعدى» من« عدو» على وزن« صبر» تعنى فی الأصل التجاوز والعدوان والعداوة معروفة و« عدوى» بمعنی‌الركض وكذلك بمعنى انتقال المرض من شخص لآخر وهذا هو المراد فی العبارة أی أنّ الشيطان ينقل إليكم مرضه فی التعصب والغرور.

[۵۱۶] (۱).« يستفز» من« استفزاز» بمعنى الاستنهاض والإثارة.

[۵۱۷] (۲).« يجلب» من« جلب» بمعنى الصراخ بشخص أو نقله من موضع إلى آخر.

[۵۱۸] (۳).« رِجل» جمع« راجل» بمعنى المشاة.

[۵۱۹] (۴). سورة الاسراء، الآية ۶۲.

[۵۲۰] (۵).« فوق» من« فوق» موضع الوتر من السهم، إشارة إلى أنّ الشيطان استعد لاطلاق سهمه عليكم والمفردةتشير إلى هذا المعنى.

[۵۲۱] (۶).« اغرق» من مادة« اغراق» و« غرق» على وزن« ورق» استوفى مد قوسه ويطلق أيضاً على كلّ عمل بمنتهى السعی.

[۵۲۲] (۷).« نزع» بمعنى استئصال الشیء أو جره مثل مد القوس.

[۵۲۳] (۱). سورة سبأ، الآية ۲۰.

[۵۲۴] (۲). سورة سبأ، الآية ۱۳.

[۵۲۵] (۳). سورة ص، الآية ۲۴.

[۵۲۶] (۴).« جامحة» بمعنى الحيوان الجامح. من« جموح» على وزن« فتوح».

[۵۲۷] (۵).« الطماعية»،« طماعية» و« طمع» بمعنى واحد.

[۵۲۸] (۶).« نجمت» من« نجوم» بمعنى ظهرت كما يطلق على النبات بدون ساق لأنّه يظهر من الأرض و يطلق على‌النجوم لأنّها تظهر فی السماء.

[۵۲۹] (۷).« استفحل» من مادة« استفحال» ومن« فَحْل» على وزن« نخل» بمعنى العظيم البارز و« استفحال» الثقيل والمتعب.

[۵۳۰] (۱).« دلف» من« دلوف» بمعنى المشی ببط ورفع الخطوات القصيرة وتشير هنا إلى التقدم التدريجی للشيطان.

[۵۳۱] (۲).« اقحموكم» من مادة« قحوم» بمعنى العمل دون تروی و« اقحام» يعنی حمل شخص بالقوّة على عمل معين.

[۵۳۲] (۳).« ولجات» بمعنى الملاجئ والكهوف جمع« ولجة» على وزن« درجة» ما يلجا إليه المارة عند المشاكل.

[۵۳۳] (۴).« وَرَطات» بمعنى المشاكل والمهالك جمع« وَرْطه» على وزن« غفله».

[۵۳۴] (۵).« اوطأوكم» من مادة« وَطْئ» بمعنى الوطئ بالارجل.

[۵۳۵] (۶).« اثخان» من« ثخونة» تعنى فی الأصل الضخامة والغلظة و« اثخان» المبالغة فی قتل العدو.

[۵۳۶] (۷).« حزّ» بمعنى القطع.

[۵۳۷] (۸).« مناخر» جمع« منخر» الانف أو خرم الانف.

[۵۳۸] (۹).« خزائم» جمع« خزامة» على وزن« كتابة» حلقة توضع فی أنف البعير فيشد فيها الزمام ويسحب عند الجماح.

[۵۳۹] (۱۰).« حرج»، على وزن« خرج» و« حَرَج» على وزن« حرم» بمعنى الانزعاج والمحدودية الشديدة وتعنى فی الأصل‌اجتماع الأشجار والتفافها.

[۵۴۰] (۱).« اورْی» من مادهٔ« وَرْی» علی وزن« نفی» تعنی فی الأصل الاخفاء ویطلق الوری علی النار الکامنهٔ فی الوسائل النارية وتقتدح عن طريق الجدحهٔ وتعنی فی هذه العبارهٔ اشعال النار.

[۵۴۱] (۲).« قَدْح» اخراج النار من الآلهٔ(شیء أشبه بالکبریت).

[۵۴۲] (۳).« مناصبین» جمع« مناصب» بمعنی المجاهر بالعداوهٔ من مادهٔ نصب بمعنی العداوهٔ.

[۵۴۳] (۴).« متألبین» طائفهٔ تجتمع علی القیام بعمل من ماده« ألب» علی وزن« سلب» بمعنی الاجتماع.

[۵۴۴] (۵).« حدّ» و« حدّت» بمعنی الشدّهٔ والغضب، وفی الأصل بمعنی الحدّهٔ.

[۵۴۵] (۶).« جدّ» یعنی القطع. ولما کان کلّ موجود عظیم یمتاز عن الآخرین فقد اطلق علی الجد وورد فی الآیهٔ الشریفهٔ« وأنّه تعالی جَدُّ رَبِّنا» إشارهٔ إلی عظمهٔ اللَّه والمعنی المراد بها قطع العلاقهٔ.

[۵۴۶] (۱).« لعمر اللَّه»« عَمْر»، بفتح« العین» بمعنی العمر، بضم« العین» یستعمل فی القسم وعلیه فالعبارهٔ لعمری تعنی أقسم بنفسی و« لعمر اللَّه»؛ تعنی ببقاء ذات اللَّه تعالی.

[۵۴۷] (۲).« حسب» تذکر هذه العبارهٔ عادهٔ مقرونهٔ بالنسب لکنهما مختلفان فی المعنی. فالحسب فی الأصل قدر الشیء ومنزلته وشرفه وبما أنّ الأصل والنسب یؤثر علی منزلهٔ الإنسان وقدره فإنّ هذه المفردهٔ تشمل أیضاً النسب الرفیع والعزیز فیقال الحسب لمقدار کلّ شیء، والواقع أنّ هذه المفردهٔ أخذت من مادهٔ حساب لأنّ الأفراد یحسبون مفاخرهم ومفاخر آبائهم عند ذکر الحسب.

[۵۴۸] (۳).« یقتنصون» من مادهٔ« قنص» علی وزن« حبس» بمعنی یصیدون.

[۵۴۹] (۴).« بنان» جمع« بنانهٔ» تعنی لغویاً الأصابع ورؤوس الأصابع والشخص الذی تقطع بنانه لا یقوی علی العمل.

[۵۵۰] (۵).« حومهٔ» بمعنی أهم موضع فی الشیء وتطلق الحومهٔ علی القسم الرئیسی من القتال أو الذل.

[۵۵۱] (۱). سورهٔ الأنفال، الآیهٔ ۱۲.

[۵۵۲] (۲).« نخوات» جمع« نخوهٔ» بمعنی الکبر.

[۵۵۳] (۳).« نزغات» جمع« نزغهٔ» بمعنی الفساد من مادهٔ« نزغ» علی وزن« وضع» بمعنی الدخول فی فعل بقصد الافساد.

[۵۵۴] (۴).« نفثات» جمع« نفثهٔ» بمعنی ما یخرج من الفم من اللعاب وفی الأصل من مادهٔ« نفث» علی وزن« حبس» بمعنی النفخ واستعملت هنا لخروج مقدار من اللعاب حین النفخ علی الشیء وهی کنایهٔ عن وساوس الشیطان فی العبارهٔ، السائد بین السحرهٔ أنّهم یقرأون بعض الأوراد عند السحر وینفخون علی الشخص المطلوب فهی کنایهٔ عن الوسوسهٔ.

[۵۵۵] (۱).« مسلحهٔ» بمعنی موضع الجمع وبعبارهٔ أخری یطلق علی المواضع ومخازن السلاح لأنّهم یجمعون عادهٔمقداراً من الأسلحهٔ فی الموضع وقد وردت بهذا المعنی فی العبارهٔ السابقهٔ.

[۵۵۶] (۲). سورهٔ الأنعام، الآیهٔ ۱۱۲.

[۵۵۷] (۳). سورهٔ طه، الآیهٔ ۹۴.

[۵۵۸] (۱).« آثام» جمع« إثم» بمعنی الذنب و تعنی فی الأصل تلک الحالهٔ التی یصل إلیها روح و عقل الإنسان و یمنعه من الوصول الی الکمال والحسنات.

[۵۵۹] (۲). شرح نهج‌البلاغهٔ لابن أبی‌الحدید، ج ۱۳، ص ۱۴۶.

[۵۶۰] (۱).« أمعنتم» من مادهٔ« إمعان» بمعنی المبالغهٔ فی القیام بشیء مشتقهٔ فی الأصل من مادهٔ« معن» علی وزن« دهن» بمعنی ارتواء الأرض بالماء.

[۵۶۱] (۲).« مصارحهٔ» من مادهٔ« صرح» بمعنی الوضوح والظهور ومصارحهٔ تعنی مواجههٔ الشخص بصورهٔ علنیهٔ.

[۵۶۲] (۳).« مناصبهٔ» من مادهٔ« نصب» علی وزن« نسب» بمعنی التعب والمشقّهٔ کما تعنی المناصبهٔ التظاهر بالعداوهٔ التی تؤدّی إلی

تعب ومعاناة الطرفين.

[۵۶۳] (۱).« أعنقوا» من مادة« عنق» بمعنى الرقبة و« عناق» الاسراع فى الذهاب خلف الشيء.

[۵۶۴] (۲).« حنادس» جمع« حندس» على وزن« قبرص» بمعنى الظلام ومن هنا يقال حنادس لليالى الثلاثة الأخيرة فى الشهر لشدّة ظلمتها وامتزاجها بالمحاق.

[۵۶۵] (۳).« مهاوى» جمع« مهواة» يعنى الحفرة كما تعنى الحفرة العميقة التى يقع فيها السيل وليس له من سبيل.

[۵۶۶] (۴).« ذلل» جمع« ذلول» بمعنى الشخص المنقاد والمستسلم للحيوان الهادئ.

[۵۶۷] (۵).« سُلسُ» جمع« سلس» على وزن« خشن» بمعنى السهل والمنقاد.

[۵۶۸] (۱).« هجينة» بمعنى الفعلة القبيحة والمستهجنة من مادة هجونة.

[۵۶۹] (۲).« آلاء» جمع« ألا» على وزن« جفا» أو إلا على وزن« فعل» بمعنى النعم وقيل بمعنى خصوص النعم المعنويّة خاصة حين تأتى مع مفردة النعمة، ويقال:« النعم والآلاء».

[۵۷۰] (۳). سورة الأحزاب، الآيتان ۶۷ و ۶۸.

[۵۷۱] (۴). بحار الأنوار، ج ۲۲، ص ۳۸۱، ح ۱۶.

[۵۷۲] (۱).« اعتزاء» بمعنى النسب من مادة« عزو» على وزن« رزم».

[۵۷۳] (۲). سورة النمل، الآية ۳۴.

[۵۷۴] (۱). سورة سبأ، الآية ۳۴.

[۵۷۵] (۲).« أدعياء» جمع« دعى» على وزن« جلى» تعنى فى الأصل المتبنى أى الولد من أب آخر ومن ينسب نفسه لآخر، وبما أنّ مثل هؤلاء الأفراد لا يمتلكون نسباً واضحاً يطلق عليهم الأدعياء ووردت بمعنى عديم النسب أو ابن الزنا.

[۵۷۶] (۳). الكافى، ج ۲، ص ۳۱۲.

[۵۷۷] (۱).« أحلاس» جمع« حلس» على وزن« حرص» بمعنى كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له، ثم اطلق« الحلس» على كل شيء ملازم لآخر ولذلك يقال للأفراد الذين يلازمون البيوت« أحلاس البيوت».

[۵۷۸] (۲).« عقوق» تعنى فى الأصل التقطيع والتمزيق ثم اطلقت هذه الكلمة على مخالفة الأب والأُم والآخرين و« أحلاس العقوق» بمعنى الأفراد الملازمين للطغيان والعصيان.

[۵۷۹] (۳).« يصول» من مادة« صولة» بمعنى الهجوم.

[۵۸۰] (۴).« دخول» معروف المعنى ولكن يأتى بمعنى الفاسد أيضاً وهذا ما أريد به فى العبارة.

[۵۸۱] (۵).« نفث» تعنى فى الأصل طرح مقدار من لعاب الفم وحيث يقترن بالنفخ فقد وردت بمعنى النفخ أيضاً.

[۵۸۲] (۱).« نبل»، السهام.

[۵۸۳] (۲). سورة الأنعام، الآية ۱۲۱.

[۵۸۴] (۱). الكامل، لابن الأثير، ج ۱، ص ۵۸۸ و ۵۸۹.

[۵۸۵] (۲). منهاج البراعة، ج ۱۱، ص ۳۰۹.

[۵۸۶] (۳). المصدر السابق.

[۵۸۷] (۱).« صولات» جمع« صول» على وزن« قول» بمعنى التسلط والغلبة.

[۵۸۸] (۲).« مثلات» جمع« مثلة» على وزن« عضلة» بمعنى العقوبة ومن ذلك العذاب الذى نزل على الأمم السابقة والذى اصبح يضرب به المثل.

[۵۸۹] (۳). سورة العنكبوت، الآية ۴۰.

[۵۹۰] (۴).« مثاوى جمع« مثوى» من مادة« ثواء» بمعنى الإقامة فى موضع، وعليه فالمثوى بمعنى المنزل والمكان.

[۵۹۱] (۵).« جنوب» جمع« جنب» على وزن« جمع» بمعنى الجهة والجانب.

[۵۹۲] (۶).« لواقح» جمع« لاقح» من مادة« لقاح» تشير فى العبارة إلى عوامل ظهور الكبر والغرور.

[۵۹۳] (۱).« عفّروا» من مادة« عفر» بمعنى التمريغ بالتراب.

[۵۹۴] (۱).« مخمصة» بمعنى الجوع وخلو البطن من الطعام، ومن مادة« خمص» على وزن« لمس» بمعنى الجوع الشديدالذى يدعو إلى خسف البطن.

[۵۹۵] (۲).« مجهدة» مصدر ميمى بمعنى المشقّة من« جهد» على وزن« مهد» و« جهد» على وزن« كفر» بمعنى التعب الناتج من السعى والحركة.

[۵۹۶] (۳).« مَخَضَ» من مادة« مخض» على وزن« خفض» تعنى فى الأصل، تحريك اللبن ليخرج زبده، ثم أُطلقت على كل حركة شديدة وشاقة.

[۵۹۷] (۱). سورة المؤمنون، الآيتان ۵۵ و ۵۶.

[۵۹۸] (۱).« مدارع» جمع« مدرع» على وزن« منبر» بمعنى الجبّة.

[۵۹۹] (۲).« عصىّ» جمع« عصا».

[۶۰۰] (۳).« أساورة» و« أساور» جمع« أسورة» وجمع« سُوار»، على وزن« غبار» أو« سوار» على وزن« كتاب» وهى فى الأصل كلمة فارسية(دستور) بمعنى السوار الذى يوضع فى اليد للزينة.

[۶۰۱] (۴).« ذهبان» جمع« ذهب» معروف.

[۶۰۲] (۱).« عقيان» مفردة وهو نوع من الذهب الخالص.

[۶۰۳] (۲).« مغارس» جمع« مغرس» يعنى محلّ غرس الأشجار.

[۶۰۴] (۱).« خصاصه» من« خصاص» على وزن« أساس» تعنى فى الأصل الشق الذى يظهر فى جدار البيت ثم اطلق على الفقر والحاجة التى توجب الشدّة فى العيش.

[۶۰۵] (۱).« ترام» من مادة« روم» على وزن« قوم» تعنى الطلب.

[۶۰۶] (۲).« تضام» من مادة« ضيم» بمعنى الذلّة.

[۶۰۷] (۳).« عقد» جمع« عقدة».

[۶۰۸] (۴).« رحال» جمع« رحل» ما يوضع على ظهر البعير ويجلس عليه و« شدّ الرحال» تعنى الاستعداد للسفر أو السفر.

[۶۰۹] (۱).« استكانة» تعنى الخضوع.

[۶۱۰] (۲).« تشوب» من« شوب» على وزن« شوق» تعنى الخدعة وخلط شىء مع آخر للخداع.

[۶۱۱] (۳). سورة الزمر، الآية ۳.

[۶۱۲] (۴). سورة البينة، الآية ۵.

[۶۱۳] (۱).« أوعر» من« وعر» على وزن« قعر» تعنى الأرض الوعرة والشديدة.

[۶۱۴] (۲).« نتائق» جمع« نتيقة» بمعنى البقاع المرتفعة من مادة« نتق»، على وزن« فتق» بمعنى الحفر والارتفاع.

[۶۱۵] (۳).« مدر» بمعنى الطين اليابس.

[۶۱۶] (۴).« قطر» بمعنى البلد والمنطقة.

[۶۱۷] (۱).« دمثة» من مادة« دماثة» بمعنى الليّنة.

[۶۱۸] (۲).« وشلة» بمعنى قليل الماء من« وَشْل» على وزن« حشر».

[۶۱۹] (۳).« يزكو» من« زكاة» بمعنى النموّ.

[۶۲۰] (۴).« خف» تعنى فى‌الأصل النعل وهى هنا كناية عن الدابة لأنّ أسفل قدمها كالحذاء.

[۶۲۱] (۵).« حافر» من الحفر وتعنى قدم الفرس.

[۶۲۲] (۶).« ظلف» كناية عن البقر والغنم.

[۶۲۳] (۱). سورة إبراهيم، الآية ۳۷.

[۶۲۴] (۲).« يثنوا» من مادة« ثنى» بمعنى طوى الشيء، أو تقريب شيء من آخر.

[۶۲۵] (۳).« اعطاف» جمع« عطف» على وزن« كتف» بمعنى كتف الانسان.

[۶۲۶] (۴).« مثابة» مكان الرجوع« ثوب» على وزن« فوق» بمعنى العودة.

[۶۲۷] (۵).« منتجع» يعنى محل الفائدة من« نجوع» بمعنى المنفع ولذلك يقال منتجع لمكان الراحة والمتنزّه أيضاً.

[۶۲۸] (۶).« ملقى رحالهم» يعنى محط رحالهم، من الأصل« إلقاء» و« رحال» جمع« رحل».

[۶۲۹] (۷).« مفاوز» جمع« مفازة» بمعنى الصحراء.

[۶۳۰] (۸).« قفار» جمع« قفر» بمعنى خلو المكان من السكن.

[۶۳۱] (۹).« سحيقة» بمعنى البعيدة من« سحق» على وزن« سقف» بمعنى التليين والتبعيد.

[۶۳۲] (۱۰).« مهاوى» جمع« مهوى» منخفضات الأراضى من« هُوِىّ» على وزن« حُلِىّ» بضم« الحاء» وتشديد« الياء») بمعنى السقوط والوقوع.

[۶۳۳] (۱۱).« فجاج» جمع« فج» بمعنى الطرق الواسعة بين الجبال من« فج» على وزن« حجّ» بمعنى فتح الساقين وتبعيدهما عن بعضهما.

[۶۳۴] (۱۲). سورة البقرة، الآية ۱۲۵.

[۶۳۵] (۱۳). سورة الحج، الآية ۲۸.

[۶۳۶] (۱). سورة إبراهيم، الآية ۳۷.

[۶۳۷] (۲). سورة الحج، الآية ۲۷.

[۶۳۸] (۳).« يهزوا» من مادة« هزّ» على وزن« حظ» بمعنى التحريك.

[۶۳۹] (۴).« يرملون» من مادة« رمل» على وزن« عمل» بمعنى الهرولة.

[۶۴۰] (۵).« شعث» جمع« أشعث» بمعنى الشعر مع تلبد فيه.

[۶۴۱] (۶« ").غبر» جمع« اغبر»: من علا بدنه الغبار.

[۶۴۲] (۷).« سرابيل» جمع« سربال»: الثياب.

[۶۴۳] (۸).« شوهوا» من مادة« شوه» على وزن« قول» بمعنى أنّ مناظرهم مشوّهة.

[۶۴۴] (۹).« إعفاء» بمعنى الترك و« اعفاء الشعور» يعنى ترك الشعر بلا قص.

[۶۴۵] (۱). الكافى، ج ۴، ص ۲۵، باب فضل الحج والعمرة، ح ۲.

[۶۴۶] (۱).« مشاعر» جمع« مشعر» موضع تقام فيه بعض مناسك الحج ويقال له« مشعر» حيث تجرى فيه الشعائر الإسلاميّة.

[۶۴۷] (۲).« جم» كثير.

[۶۴۸] (۳).« ملتف»: مجتمع ومتراكم من مادة« لفّ» على وزن« كف».

[۶۴۹] (۴).« بنى» جمع« بنية» يعنى بناء.

[۶۵۰] (۵).« برّة» و« بُرّ» بمعنى الشعير.

[۶۵۱] (۶).« سمراء» معروفة اللون.

[۶۵۲] (۷).« أرياف» جمع« ريف» تعنى القرية.

[۶۵۳] (۸).« محدقة» يعنى الموضع الذى تكثر فيه البساتين.

[۶۵۴] (۹).« عراص» جمع« عرصة» فناء الدار.

[۶۵۵] (۱۰).« مغدقة» يعنى كثيرة وفى‌الأصل من« غدق» على وزن« شفق» بمعنى الماء الوفير.

[۶۵۶] (۱۱).« ناضرة» الخضراء من مادة« نضرة» الرفاهية الحاصلة بسبب وفور النعمة.

[۶۵۷] (۱۲).« أساس» بكسر الهمزه جمع« أُس»(بفتح أو بكسر أو بضم الهمزه) دعامة.

[۶۵۸] (۱).« مصارعة» من« صرع» على وزن« فرع»: الصرع فى الأرض و يقال المصروع على من أصيب بمرض الصرع لأنّه‌يطرحه أرضاً.

[۶۵۹] (۲).« معتلج» تعنى« التلاطم» من مادة« اعتلاج» يعنى نزاع أحدهما للآخر.

[۶۶۰] (۳).« فتحاً» بمعنى« الفتح» معروفة.

[۶۶۱] (۴).« ذلل» جمع« ذلول» بالمعنى التسليم والانقياد.

[۶۶۲] (۱). بحارالأنوار، ج ۶۷، ص ۱۹۱.

[۶۶۳] (۱).« مصيدة»(بسكون الصاد وفتح الياء) وقرأها البعض بكسر الميم وتعنى الفخ.

[۶۶۴] (۲).« تساور» من« سور»، على وزن« غور» بمعنى الوثوب والمقاتلة وتعنى هنا نفوذ السموم فى القلوب.

[۶۶۵] (۳).« تكدى» من مادة« كَدْى» على وزن« كسب» بمعنى البخل والحبس والتعطيل.

[۶۶۶] (۴).« تشوى» من مادة« شىّ» على وزن« شرّ» تاتى بمعنى الطبخ أحياناً وأخرى بمعنى اليد والقدم وأطراف الجسم وإن وردت فى باب الأفعال عنت تخطىء المقتل.

[۶۶۷] (۵).« مقلّ» تعنى الفقير من مادة« قليل».

[۶۶۸] (۶).« طمر» الكساء البالى.

[۶۶۹] (۷). اختلف الشرّاح والمفسرون فى تركيب هذه الجملة« عَنْ ذلِكَ ما حَرَسَ اللَّهُ». قال ابن أبى الحديد: إنّ« ما» زائدة و« ذلك» إشارة إلى الظلم والتكبر، وعلى هذا الضوء يصبح مفهوم الجملة أنّ اللَّه حفظ عباده من هذه الأمور الثلاثة بواسطة الصوم والصلاة والزكاة، وقال المرحوم الشارح الخوئى: إنّ« عن» هنا سببية وما مصدرية ومعنى الجملة إنّ اللَّه لهذا السبب حفظ عباده عن الكبر والغرور والظلم بواسطة الصلاة والصوم والزكاة.

[۶۷۰] (۱).« أطراف» من مادة« طرف» على وزن« هدف» بمعنى قطعة من أى شىء وأطراف الجسم هى الأيدى والأرجل.

[۶۷۱] (۲).« تخفيض» من« خفض» على وزن« لفظ» تعنى السهولة واللين والتنزيل.

[۶۷۲] (۳).« خيلاء» بمعنى التكبر والأنانيّة.

[۶۷۳] (۴). سورة العنكبوت، الآية ۲۵.

[۶۷۴] (۵). وسائل‌الشيعة، ج ۳، ص ۴، كتاب الصلاة، أبواب أعداد الفرائض ونوافلها، ح ۷.

[۶۷۵] (۱). وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۵، كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة وما تستجب فيه، باب ۱، ح ۷.

[۶۷۶] (۲). من لايحضره الفقيه، ج ۲، ص ۷۳، ح ۱۷۶۷.

[۶۷۷] (۳).« تعفير» تعنى التمريغ فى التراب من« عفر» بمعنى التراب والغبار.

[۶۷۸] (۴).« عتاق» جمع« عتيق» بمعنى الشيء الثمين والقيم، و« عتاق الوجوه» إشارة إلى القسم المهم من وجه الإنسان، هى الجبهة.

[۶۷۹] (۵).« كرائم» جمع« كريمة» نفيس، ثمين، شريف.

[۶۸۰] (۶).« تصاغر» من مادة« صغر» معروفة.

[۶۸۱] (۷).« متون» جمع« متن» بمعنى الظهر ويأتى بمعنى الأصل والمراد المعنى الأوّل.

[۶۸۲] (۱). من لا يحضره الفقيه، ج ۲، ص ۳۶۳.

[۶۸۳] (۲).« قمع» بمعنى القهر.

[۶۸۴] (۳).« نواجم» جمع« ناجمة» كلما يطلع ويظهر. من« نجم» على وزن« حجم» بمعنى الطلوع والظهور.

[۶۸۵] (۴).« قدع» تعنى الكفّ والمنع.

[۶۸۶] (۵). سورة إبراهيم، الآية ۸.

[۶۸۷] (۶). سورة آل عمران، الآية ۹۷.

[۶۸۸] (۱). راجع كلمات نهج البلاغة القصار، الكلمة ۲۵۲.

[۶۸۹] (۱).« تمويه» يعنى الخداع وتعنى فىالأصل طلى النحاس بالذهب لخداع الآخرين.

[۶۹۰] (۲).« تليط» من مادة« لوط» على وزن« موت» بمعنى الالتصاق وتستعمل عبارة« لاطَ بِقَلْبى» لمن تعلق بشيء لا يفارقه وكأنّه لصق به. وتستعمل هذه المفردة بصيغة أجوف واوى وأجوف يائى.

[۶۹۱] (۱). سورة الحجر، الآية ۲۹.

[۶۹۲] (۲).« مترفة» و« مترف» كما ورد فى لسان العرب من مادة« ترف» على وزن« هدف» بمعنى التنعّم ويقال عادةللشخص أغرته وفرة النعمة وساقته للطغيان.

[۶۹۳] (۳).« مواقع» جمع« موقع» بمعنى المحلّ و مواقع النعم إشارة إلى النعم التى يستفاد منها والمراد من الآثار اللذات التى تتوفر لأصحاب النعم.

[۶۹۴] (۴). سورة سبأ، الآية ۳۵.

[۶۹۵] (۱).« مجداء» جمع« مجيد» بمعنى العزيز والعظيم.

[۶۹۶] (۲).« نجداء» جمع« نجيد» بمعنى الشجاع من« نجد» بمعنى الأرض المرتفعة.

[۶۹۷] (۳).« يعاسيب» جمع« يعسوب» وهو أمير النحل. ويستعمل مجازاً بمعنى رئيس القوم كما هنا.

[۶۹۸] (۴).« ذمام» يعنى العهد.

[۶۹۹] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۶۶۷، ح ۸.

[۷۰۰] (۱). سورة هود، الآية ۷۸.

[۷۰۱] (۲). سورة النور، الآية ۲.

[۷۰۲] (۳). سورة النور، الآية ۳۲.

[۷۰۳] (۴). وسائل الشيعة، ج ۱۵، الباب ۵ من أبواب المهور، ح ۱۱.

[۷۰۴] (۱). وسائل الشيعة، ج ۱۵، الباب ۵ من أبواب المهور، ح ۱۰.

[۷۰۵] (۱).« فقرة» وجمعها« فقرات» بمنزلة العمود الذى يشد ظهر الإنسان ويجعله يستقيم وينحنى.

[۷۰۶] (۲).« مُنَّة» بمعنى القوّة و« مِنّة» على وزن« عِزّة» بمعنى النعمة العظيمة التى توجب القدرة والقوة وقال الراغب فى المفردات إنّها مشتقة فى‌الأصل من« منّ» وحدة الوزن.

[۷۰۷] (۱).« أعباء» جمع« عِبء» على وزن« فكر» بمعنى الحمل الثقيل.

[۷۰۸] (۲).« ساموا» من مادة« سوْم» على وزن« قوم» بمعنى البحث عن شيء أو إجبار الآخرين على العمل وكذلك‌الاستمرار أى أنّ العبارة« ساموهم ...» تعنى استمرارهم فى عذاب بنى اسرائيل.

[۷۰۹] (۳).« مرار» نوع من الشجرة المرة المذاق. ثم اطلقت على كلّ حادث مرير.

[۷۱۰] (۱). سورة الدخان، الآيات ۲۵- ۲۸.

[۷۱۱] (۲). سورة القصص، الآية ۵.

[۷۱۲] (۱).« أملاء» جمع« ملأ» بمعنى الجماعة و القوم وأحياناً بمعنى الأيادى المتعاونة مثل أشراف القوم.

[۷۱۳] (۱).« غَضارَة» بمعنى السعة.

[۷۱۴] (۱).« اعتدال» الحد الوسط بين الافراط والتفريط وأيضاً المساواة بين الشيئين وتشابههما(كل واحدة عدل‌الأخرى) وهو المعنى المراد فى العبارة.

[۷۱۵] (۱).« اشتباه» لها معنيان؛ الأول الخطأ فى الفهم أو العمل و الثانى تشابه شيئين والمعنى الثانى هو المراد فى العبارة أيضاً.

[۷۱۶] (۲).« أكاسرة» جمع« كسرى»(بكسر وفتح الكاف) لقب عام لملوك ايران قبل الإسلام.

[۷۱۷] (۳).« قياصرة» جمع« قيصر» على وزن« حيدر» لقب عام لملوك الروم.

[۷۱۸] (۴).« يحتازونهم» من مادة« حيازة» بمعنى التملك والمعنى المراد فى هذه العبارة أنّهم يقبضونهم عن الأرضى الخصبة.

[۷۱۹] (۵).« ريف» الأرض الخصبة والزراعية.

[۷۲۰] (۶).« شيح» نبات مر ذات ريحة طيبة.

[۷۲۱] (۷).« مهافى» جمع« مهفى» المواضع التى تهفّ فيها الرياح أى تهب.

[۷۲۲] (۸).« نكد» بمعنى الشىء القليل.

[۷۲۳] (۱).« عالة» جمع« عائل» الفقير و« عيلولة» قضاء حوائج الآخرين.

[۷۲۴] (۲).« دبر» جمع« دبرة» على وزن« شجرة» القرحة فى ظهر الدابة.

[۷۲۵] (۳).« وبر» شعر الجمال والمراد فى العبارة أنّهم رعاة.

[۷۲۶] (۴).« يأوون» من مادة« إواء» على وزن« كتاب» بمعنى الدخول والسكن فى مكان.

[۷۲۷] (۵).« أزل» بمعنى الشدّة؛ وتأتى بمعنى الحبس أيضاً.

[۷۲۸] (۶).« موؤودة» من« وأد» على وزن« رعد» تعنى فى‌الأصل الثقل، ثم اطلقت على البنت التى كانت تدفن وهى حيّة فى عصر الجاهليّة أيضاً، لأنّهم كانوا يخفونها تحت التراب ويضعون فوقها الكثير من التراب.

[۷۲۹] (۷).« غارات» جمع« غارة» تعنى فى‌الأصل الهجوم، وحين يكون الهجوم من كلّ جانب يقال له« غارات مشنونة».

[۷۳۰] (۸).« مشنونة» من« شَنّ» على وزن« ظنّ» الهجوم من كلّ جانب.

[۷۳۱] (۱). سورة الأنفال، الآية ۴۶.

[۷۳۲] (۱).« جداول» جمع« جدول» بمعنى مجرى النهر.

[۷۳۳] (۲).« فكهين» جمع« فكه» على وزن« خشن» بمعنى الراضين والفرحين فى‌الأصل من« فكاهة» على وزن« قبالة» بمعنى المزاح والضحك، يقول البعض أنّ أصلها« فاكهة» أى أنّ المزاح حلو كالفاكهة الحلوة.

[۷۳۴] (۳).« تربّعت» من« تربّع» بمعنى الاقامة باطمئنان فى مكان.

[۷۳۵] (۴).« ذرى» جمع« ذروة»(بضم الذال وكسرها) فوق كلّ شيء مثل قلة الجبال.

[۷۳۶] (۱).« تغمز» من مادة« غمز» على وزن« همز» تعنى الإشارة بالعين واليد للتعييب وتأتى بمعنى الانحناء وهنا المراد هو المعنى الثانى.

[۷۳۷] (۲).« قناة» به بمعنى الرمح وتأتى بمعنى العصا أيضاً، ويقال لمسير الماء المستقيم أيضاً وهنا المراد هو المعنى الأوّل.

[۷۳۸] (۳).« لا تقرع» من مادة« قرع» على وزن« فرع» يعنى صدم شيء بآخر بحيث يصدر عنهما صوت عالٍ.

[۷۳۹] (۴).« صفاة» بمعنى الحجر الصلد وفى العبارة كناية عن القوّة.

[۷۴۰] (۱).« نفضتم» من مادة« نفض» على وزن« نبض» بمعنى تحريك الشيء لإخراج ما فى داخله والمراد فى العبارةتقطع عرى الطاعة.

[۷۴۱] (۲).« ثلمتم» من مادة« ثلم» على وزن« عزم» بمعنى الخرق والكسر.

[۷۴۲] (۳).« كنف» بمعنى الحماية.

[۷۴۳] (۴). سورة آل عمران، الآية ۱۰۳.

[۷۴۴] (۵). وشاهدنا آثار هذا الأمر القرآنى وتعليمات الإمام فى أيّامنا هذه، وقد أعدّ أعداء الإسلام والاستعمار الغربى خططاً جهنميّة ضد البلدان الإسلاميّة ولبنان ليسيطروا عليها بواسطة عملائهم فى المنطقة، لكى تضمن حماية إسرائيل من جانب ولتكون قاعدة من جانب آخر للتطاول على سائر البلدان الإسلاميّة غير أنّ الشعب اللبنانى عبّر عن وحدته فى ذلك اليوم التاريخى(يوم ۲۶ محرم الحرام ۱۴۲۶) ليخرج بتلك المسيرات المليونية ويطلق الشعارات المعادية للامبريالية فأفشل تلك الخطط:« وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

[۷۴۵] (۱).« تكفئوا» من مادة« اكفاء» بمعنى الانقلاب.

[۷۴۶] (۲). عاش فى عصر الجاهليّة؛ وروى حفيده« حميد بن منهب» أنّ جده أوس بن الحارثة قدم على النّبى صلى الله عليه و آله وبايعه مع سبعين نفر من قبيلة« طىّ».(أسدالغابة، ج ۱، ص ۱۴۱).

[۷۴۷] (۱). مرجع الضمير فى« غيره» هو الإسلام الذى سبق ذكره، كما احتمل البعض أن يكون المراد اللَّه.

[۷۴۸] (۲). جاءت مفردة« لا» فى أربعة موارد وردت فى هذه الجملة ولو كانت« لا» نافيه للجنس لابدّ أن يراد جبرائيل وميكائيل والمهاجرون والأنصار بالنصب، كما جاء فى بعض النسخ. وإن اعتبرناها« لا» نافية(اللام المشبهة بليس) فلابدّ أن تقرأ الكلمات الأربع المذكورة بالرفع كما جاءت فى النسخة الموجودة.

[۷۴۹] (۳).« المقارعة» النزاع والقتال والضرب.

[۷۵۰] (۴). العبارة« إلَّا المُقارَعَةَ بِالسَّيْفِ» يحتمل أن تكون من قبيل الاشتثناء المنقطع، إشارة إلى أنّه سوف لن يكون لكم من نصير ومعين سوى الضرب بالسيف والذى لا يسعها أن تؤدّى إلى النصر مع ما أنتم عليه من الفرقة، وعليه ستهزمون، كما ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ العبارة المذكورة استثناء متصل، أى أنّ معينكم الوحيد سيوفكم التى فيها نصركم، ولكن يبدو أنّ هذا الاحتمال لا ينسجم مع سياق عبارات الإمام عليه السلام.

[۷۵۱] (۱). سورة القمر، الآية ۱۹.

[۷۵۲] (۲). سورة القمر، الآية ۲۰.

[۷۵۳] (۳).« تستبطئوا» من مادة« استبطاء»« بُطىء» على وزن« قفل» ضد السرعة.

[۷۵۴] (۴).« بطش» تعنى فى‌الأصل الحصول على شيء بالقوّة، وردت بمعنى العقاب لأنّهم يقبضون على المجرم بالقوّة حين العقوبة.

[۷۵۵] (۱).« الحلماء» جمع« حليم» بمعنى العاقل ومن مادة« حُلُم» على وزن« سُبُل» بمعنى العقل.

[۷۵۶] (۲). سورة المائدة، الآيتان ۷۸ و ۷۹.

[۷۵۷] (۳). الكافى، ج ۵، ص ۵۶.

[۷۵۸] (۱).« نكث» بمعنى نقض العهد. وأهل النكث إشارة إلى طلحة والزبير وأمثالهما ممن بايع الإمام عليه السلام ثم نقضواالبيعة وقاتلوا الإمام عليه السلام فى معركة الجمل وأخيراً قتلوا ويقال لهم الناكثون.

[۷۵۹] (۲).« قاسطون» من مادة« قسط» تأتى بمعنى الظلم والعدالة، وتشير هنا إلى أصحاب معاوية الذين كانوا جائرين عن الحقّ وظالمين بحقّ الناس.

[۷۶۰] (۳).« مارقة» من مادة« مروق» على وزن« غروب» بمعنى الخروج من شىء وغالباً هو السهم حين يطلق من القوس ويتجاوز الهدف، وقيل المارقة للخوارج فى النهروان بسبب إفراطهم وتعصبهم وتحجّرهم وأنّهم كفّروا الجميع غيرهم(كالوهابية).

[۷۶۱] (۱).« دوّخت» من مادة« دوخ» على وزن« فوق» بمعنى أضعف وأذل.

[۷۶۲] (۲). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۶، ص ۱۳۰.

[۷۶۳] (۳). أسد الغابة، ج ۴، ص ۳۳.

[۷۶۴] (۴).« ردهة» النقرة التى يتجمع فيها الماء، ويقال للغرف والصالات الواسعة فى البيوت.

[۷۶۵] (۵).« صعقة» أخذت فى الأصل من الصاعقة التى تسبب الهلاك. ثم اطلقت على الهلاك أو الخوف الذى يصيب قلب الإنسان.

[۷۶۶] (۶).« وجبة» بمعنى السقوط والخفقان والعطل والسكوت، ومفردة« وجبة» تطلق على وقت الطعام.

[۷۶۷] (۷).« رجّة» من مادة« رجّ» على وزن« حج» بمعنى الاهتزاز والارتعاد.

[۷۶۸] (۱).« اديلن» من مادة« دولة» تعنى الانتقال وتأتى أحياناً بمعنى الضعف والمراد هنا هو المعنى الأوّل؛ أى لأمحقنهم.

[۷۶۹] (۲).« يتشذر» من« تشذر» أى يتفرق.

[۷۷۰] (۱). جاء هذا الحدث وتنبّأ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى كتب السنّة المعتبرة(مع اختلاف طفيف) من قبيل: صحيح البخارى، ج ۷، ص ۱۱۱ و ج ۸، ص ۵۲؛ صحيح مسلم، ج ۳، ص ۱۱۲؛ مسند أحمد، ج ۳، ۵۶ و ۶۵؛ مصنف ابن أبى شيبة، ج ۸، ص ۷۴۱؛ شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۲، ص ۲۶۶؛ تاريخ الطبرى، ج ۲، ص ۳۶۰؛ أسد الغابة، ج ۲، ص ۱۳۹ وكنزالعمال، ج ۱۱، ص ۳۰۷ فما فوق.

[۷۷۱] (۲). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۲، ص ۲۶۷ و ۲۶۸؛ البداية والنهاية، ج ۷، ص ۳۳۷.

[۷۷۲] (۳). راجع، تاريخ الطبرى، ج ۴، ص ۵۴ و ۵۵.

[۷۷۳] (۴). مصنف ابن أبى شيبة، ج ۱۰، ص ۷۴۰.

[۷۷۴] (۵). المصدر السابق، ص ۷۳۷.

[۷۷۵] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۲، ص ۲۷۵- ۲۷۷.

[۷۷۶] (۱).« نواجم» جمع« ناجمة» من« نجم» على وزن« حجم» بمعنى الطلوع والظهور ويقال نواجم القرون وهى من قبيل الحاق الصفة بالموصوف.

[۷۷۷] (۱). فى ظلال نهج البلاغة(شرح محمّد جواد مغنية لنهج البلاغة)، ج ۳، ص ۱۵۱- ۱۵۵.

[۷۷۸] (۲). المصدر السابق، نقلت هذه العبارة عن عبدالرحمن الشرقاوى.

[۷۷۹] (۱).« عرف» بمعنى الرائحة الزكية.

[۷۸۰] (۲).« خطلة» من مادة« خطل» على وزن« خطر» بمعنى الخطأ الذى ينشأ عن عدم الرؤية.

[۷۸۱] (۳).« فطيم» من« فطام» معروفة.

[۷۸۲] (۴).« فصيل» ولد الناقة الفطيم.

[۷۸۳] (۱).« رَنَّة» بمعنى العويل والصوت الحزين ويطلق أحياناً على الصراخ الشديد.

[۷۸۴] (۱). سورة الحجر، الآيتان ۳۹ و ۴۰.

[۷۸۵] (۱). أشار المرحوم السيّد شرف الدين فى كتابه« المراجعات» إلى هذه الحديث وكذلك ومحققو كتاب المراجعات فى هوامشهم إلى مصادر عديدة لهذا الحديث.(المراجعات، ص ۲۶۱، مراجعة ۲۶). وذكر فى كتاب إحقاق الحقّ أكثر من مئة صفحة حول هذا الحديث ومصادره من كتب السنة(إحقاق الحق، ج ۵، ص ۱۳۲- ۲۳۸).

[۷۸۶] (۲). انظر: تاريخ الطبرى، ج ۲، ص ۵۷ و ۵۸.

[۷۸۷] (۳). أشار إلى أنّ على بن أبى طالب عليه السلام كان أول الناس إسلاماً بصورة مفصلة فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

[۷۸۸] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۳، ص ۲۰۸.

[۷۸۹] (۱). بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۷۷ فما فوق.

[۷۹۰] (۱). للمرحوم العلّامة المجلسى بحث بهذا الخصوص فى كتاب بحار الأنوار حيث يعتقد أنّه صلى الله عليه و آله كان نبيّاً قبل البعثة لكنه لم يكن رسولًا.(ج ۱۷، ص ۲۷۷- ۲۸۱) وللفخر الرازى بحث بهذا الشأن فى كتاب المحصول(ج ۱، ص ۴۲۶، طبعة دارالكتب العلميّة).

[۷۹۱] (۱).« ملأ» يقال لما يملأ العين ويثير التعجب، ولذلك قيل« ملأ» لرؤساء وكبار القوم.

[۷۹۲] (۱).« قليب» من مادة« قلب» تعنى التغيير كما وردت بمعنى البئر.

[۷۹۳] (۲). للاطلاع أكثر راجع التفسير الأمثل، ج ۱۲، ذيل الآية ۴۴ سورة الاسراء« تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَىء إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً».

[۷۹۴] (۱).« دوىّ» بمعنى الصوت القوى والصدى.

[۷۹۵] (۲).« قصف» تعنى فى‌الأصل الكسر، ويقال« قاصف» للرياح العاتية وكذلك تعنى الصوت الشديد بسبب الأصوات التى تسمع فى العواصف و ....

[۷۹۶] (۳).« مرفرف» من مادة« رفرف» تعنى فى‌الأصل أوراق الأشجار العريضة وكذلك يقال« رفرف» للأقمشة الجميلةوالملونة و« مرفرفة» هو الطائر الذى يحرك أجنحته، وكان مراد الإمام فى العبارة أنّ الشجرة عندما اقتربت للرسول صلى الله عليه و آله كانت أغصانها تتحرك كأنّها أجنحة الطائر.

[۷۹۷] (۱).« خفيف» يعنى فى‌الأصل القليل(كمية أو وزناً أو ...) وكذلك يقال خفيف لمن يجرى حركات سريعة بمهارة.

[۷۹۸] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۳، ص ۲۱۴.

[۷۹۹] (۲). شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى، ج ۲، ص ۴۶۹.

[۸۰۰] (۱). سورة المائدة، الآية ۵۴.

[۸۰۱] (۱). مجمع البيان، ذيل الآية ۱۰۳ من سورة آل عمران:« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً».

[۸۰۲] (۲).« يغلّون» من« غلل» على وزن« أجل» أو« غلول» على وزن« غروب» بمعنى الخيانة، وتعنى فى العبارة أنّهم لا يخونون.

[۸۰۳] (۳). سورة النمل، الآية ۳۴.

[۸۰۴] (۴). سورة القصص، الآية ۸۳.

[۸۰۵] (۱). سند الخطبة:

هـذه الخطبـة من الخطب المعروفـة والمعتبرة وردت بأسانيـد مختلفـة عن غير نهـج البلاغـة، عاش طائفة من رواتها قبل السـيد الرضـى وطائفة بعده.

قال صاحب مصادر نهج البلاغة: فمن رواها قبل الشـريف الرضـى المرحوم الشـيخ الصدوق فى« الأمالى»، وابن شـعبة المعاصـر للشـيخ الصـدوق فى« تحف العقول»، وسـليم بن قيس فى كتـابه، ونقل ابن قتيبـة(المتوفى فى القرن الثالث) قسـماً من هـذه الخطبـة فى كتابه« الزهد» و كتابه« عيون الأخبار» وغيرهم.

هذا قبل السـيد الرضـى، فقد رواها جماعة من العلماء باسانيد وصور يعرف منها على أنّهم لم يأخذوها عن نهجالبلاغة، منهم سـبط ابن الجوزى« فى تـذكرة الخواص»، وابن طلحة الشافعى فى« مطالب السؤول»، والكراجكى فى« كنز الفوائد» مع اختلاف يسـير فى نقلهم.(مصادر نهجالبلاغة، ج ۳، ص ۶۵).

[۸۰۶] (۱). راجع مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۶۵.

[۸۰۷] (۱). مستدرك سفينة البحار، باب التدبير، ج ۳، ص ۴۲۱.

[۸۰۸] (۱). سورة الأحزاب، الآيتان ۷۰ و ۷۱.

[۸۰۹] (۲).« اقتصاد» من مادة« قصد» بمعنى الاعتدال وتشمل الاعتدال فى كلّ شىء.

[۸۱۰] (۳). سورة الأعراف، الآية ۲۶.

[۸۱۱] (۴). سورة الفرقان، الآية ۴۷.

[۸۱۲] (۵). سورة البقرة، الآية ۱۸۷.

[۸۱۳] (۱). تحف العقول، قسم كلام الإمام الباقر عليه السلام، ص ۲۱۸.

[۸۱۴] (۲). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۴۰.

[۸۱۵] (۳). وسائل الشيعة، كتاب الجهاد، الباب ۲۸ أبواب جهاد النفس، ح ۲.

[۸۱۶] (۴).« غضّـوا» مـن مـاده« غضّ» على وزن« خزّ» كمـا ورد فى الخطبـة تعنى التقليـل، وإن اسـتعملت فى العيـن عنتالخفض أى خفض الرأس بغية عدم النظر.« غمض» تعنى غلق العين.

[۸۱۷] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۸۰، باب اجتناب المحارم، ح ۲.

[۸۱۸] (۲). ميزان الحكمة، ج ۴، ص ۵۵۱ نقلًا عن بحار الأنوار، ج ۷۸، ص ۱۰۹.

[۸۱۹] (۳).« رخاء» و« رخوه» تعنى فىالأصل اللين والضعف وإن استعملت بشأن الحياة فإنّها تعنى الحياة الهانئة.

[۸۲۰] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۶۰، باب الرضا بالقضاء، ح ۱.

[۸۲۱] (۱). بحار الأنوار، ج ۱۳، ص ۴۱۲.

[۸۲۲] (۲). نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۴.

[۸۲۳] (۱). يقال خفق برأسه إذا أخذته سنة من النعاس فمال رأسه دون سائر جسده.

[۸۲۴] (۱). نقـل المرحوم الكلينى هـذا الحـديث فى بـاب حقيقـة الإيمـان(الكـافى، ج ۲، ص ۵۳) وكـذلك نقله المرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ۶۷، ص ۱۷۴ عن كتاب المحاسن.

[۸۲۵] (۲). بحارالأنوار، ج ۶۹، ص ۷۰.

[۸۲۶] (۱). سورة يونس، الآية ۶۲.

[۸۲۷] (۲). كنزالعمال، ج ۳، ص ۵۰۲، ح ۷۶۱۳.

[۸۲۸] (۳). نهج البلاغة، خطبة ۲۱.

[۸۲۹] (۴). وسائل الشيعة، ج ۱، الباب ۲۲، أبواب آداب دخول الحمام، ح ۳.

[۸۳۰] (۱). نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ص ۵۷۴.

[۸۳۱] (۲). المصدر السابق، الكلمة ۸۲.

[۸۳۲] (۳). الكافى، ج ۲، ص ۸۹، باب الصبر، ح ۷.

[۸۳۳] (۱). سورة فاطر، الآية ۲۹.

[۸۳۴] (۲). سورة رعد، الآية ۲۴.

[۸۳۵] (۱).« يستثيرون» من مادة« ثور» على وزن« غور» و« ثوران» على وزن« فوران» بمعنى الهياج و« استثارة» بمعنى التهييج ويعنى فى العبارة المذكورة البحث فى الآيات القرآنيّة لشفاء الأمراض الأخلاقيّة والمعنويّة.

[۸۳۶] (۱).« تطلعت» من طلوع« تطلع» بمعنى البحث عن شىء.

[۸۳۷] (۲).« زفير» و« شهيق»« زفير» فى الأصل إخراج الهواء من الرئة و« شهيق» بمعنى إدخال الهواء إلى داخل الرئة؛ لكن صرح البعض أنّ« زفير»، هو إخراج الهواء مع صراخ و« شهيق» هو إدخال الهواء مع وأنين.

[۸۳۸] (۳). بحار الأنوار، ج ۹۲، ص ۲۱۱.

[۸۳۹] (۴). الكافى، ج ۲، كتاب فضل القرآن، باب فى قراءته، ح ۲.

[۸۴۰] (۱).« حانون» من مادة« حنو» بمعنى الانعطاف، اذن« حانون» جمع« حانى» بمعنى الشخص الذى ينحنى.

[۸۴۱] (۲).« أوساط» جمع« وسط» بمعنى الظهر.

[۸۴۲] (۳).« جباه» جمع« جبهة» بمعنى الجبين.

[۸۴۳] (۴).« أطراف» جمع« طرف» بمعنى رأس كلّ شىء وتعنى هنا رأس البنان الذى يوضع على الأرض فى السجود.

[۸۴۴] (۵).« فكاك» و« فك» بمعنى التحرير والتفريق.

[۸۴۵] (۶). سورة الفرقان، الآيتان ۶۴ و ۶۵.

[۸۴۶] (۱).« براهم» من مادة« برى» على وزن« سعى» بمعنى نحت القلم أو الخشب وتعنى هنا التصغير.

[۸۴۷] (۲).« قداح» جمع« قدح» على وزن« قشر» بمعنى السهم قبل أن يراش.

[۸۴۸] (۳).« خولطوا» من« خلط» أى مزجوا وتعنى هنا الأمر الذى خالط عقولهم، وكما يقال إلتبس عليه الأمر.

[۸۴۹] (۱). سورة المؤمنون، الآية ۶۰.

[۸۵۰] (۲). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۰، ص ۱۴۶.

[۸۵۱] (۳).« مشفقون» من« اشفاق» بمعنى الرغبة المقرونة بالخوف؛ يعنى خائفون من التقصير فى اعمالهم، كما تعنى من يخشى على آخر يحبّه تعرضه لبعض الحوادث.

[۸۵۲] (۱). الغارات، ج ۱، ص ۹۰.

[۸۵۳] (۲). وسائل الشيعة، ج ۱، ص ۷۳، الباب ۲۲ من أبواب مقدمات العبادات، ح ۶.

[۸۵۴] (۱).« حزم» الإحكام والاتقان ومادته الأصلية« حزام»، رباط الحيوان(رباط محكم يربط به سرج الحيوان إلى بطنهوورد بمعنى مطلق الربط المحكم).

[۸۵۵] (۲).« تجمّل» من« جمال» التظاهر بالجمال و« تجمل» التظاهر باليسر عند الفقر والفاقة.

[۸۵۶] (۳).« نشاط» العمل الصادق و« نشاطات» علمية بمعنى الأعمال العلميّة.

[۸۵۷] (۱).« تحرّج» من مادة« حرج» المشقّة. وعندما تتعدى هذه المفردة بالحرف« عن» تعنى الابعاد.

[۸۵۸] (۲). الكافى، ج ۲، ص ۵۱، باب فضل الإيمان على الإسلام، ح ۱.

[۸۵۹] (۱). بحار الأنوار، ج ۱، ص ۲۲۶.

[۸۶۰] (۲). سورة المؤمنون، الآية ۲.

[۸۶۱] (۳). سورة البقرة، الآية ۲۷۳.

[۸۶۲] (۴). سورة البقرة، الآية ۱۵۶.

[۸۶۳] (۵). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱، ص ۳۱۹؛ بحارالأنوار، ج ۷۹، ص ۱۳۷، ح ۲۲.

[۸۶۴] (۱). بحارالأنوار، ج ۷۴، ص ۱۵۱.

[۸۶۵] (۲). الكافى، ج ۵، ص ۷۸.

[۸۶۶] (۳). سورة المؤمنون، الآية ۵۱.

[۸۶۷] (۴). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۸۰.

[۸۶۸] (۱). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۱۹.

[۸۶۹] (۲).« وجل» بمعنى الخوف و« وَجِل» على وزن« خجل» بمعنى الشخص الخائف.

[۸۷۰] (۳). الكافى، ج ۲، ص ۶۷، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، ح ۱.

[۸۷۱] (۴). سورة المؤمنون، الآية ۶۰.

[۸۷۲] (۵). فى ظلال نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۱۶۹.

[۸۷۳] (۱). مستدرك الوسائل، ج ۱۲، الباب ۹۳ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ح ۵.

[۸۷۴] (۲). غرر الحكم، ۵۶۶۴.

[۸۷۵] (۳). وسائل الشيعة، ج ۴، الباب ۱۲ من أبواب التعقيب، ح ۷.

[۸۷۶] (۴). سورة يونس، الآية ۵۸.

[۸۷۷] (۱).« استصعب» من« صعوبة» مأخوذة من« استصعاب» بمعنى التصعيب وعدم الخضوع.

[۸۷۸] (۲). سورة هود، الآية ۱۰۷.

[۸۷۹] (۳). سورة السجدة، الآية ۱۷.

[۸۸۰] (۱). بحارالأنوار، ج ۲، ص ۳۹، ح ۶۸.

[۸۸۱] (۱).« منزور» من مادة« نزر» على وزن« نذر» قليل.

[۸۸۲] (۲).« حريز» من مادة« حَرْز» على وزن« قرض» الحفظ و« حريز» الشيء المحفوظ.

[۸۸۳] (۳).« مكظوم» من مادة« كظم» على وزن« هضم»، ويقال« مكظوم» للشخص الغاضب والذى يتمالك نفسه.

[۸۸۴] (۴). سفينة البحار، ج ۱، ص ۳۰، مادة« أمل»؛ بحارالأنوار، ج ۷۴، ص ۱۷۳.

[۸۸۵] (۱). سورة يوسف، الآية ۲۴.

[۸۸۶] (۲). بحارالأنوار، ج ۶۴، ص ۶۰، ح ۳.

[۸۸۷] (۱). بحار الأنوار، ج ۶۱، ص ۲۳۸.

[۸۸۸] (۲). المصدر السابق.

[۸۸۹] (۱). الكافى، ج ۳، ص ۱۴۹.

[۸۹۰] (۲). سورة المؤمنون، الآية ۹۶.

[۸۹۱] (۳).« فحشه» يقال لكلّ مَن تجاوز حد الاعتداء وبلغ الحد الفاحش. ولذا يقال فحشاء للأعمال والأقوال القبيحةوالمنكرة، وأخذت المفردتان فاحشة وفحشاء من هذا أيضاً.

[۸۹۲] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۱۰۳.

[۸۹۳] (۲).« زلازل» جمع« زلزلة» و« زلزال» بمعنى الحركة الشديدة والصعبة. ويقال الزلازل للشدائد من الأحداث.

[۸۹۴] (۳).« وقور» من« وقر» على وزن« فقر» تعنى فى‌الأصل الثقل ويقال الوقور للشخص الذى لا يضطرب.

[۸۹۵] (۴). الكافى، ج ۲، ص ۲۴۱.

[۸۹۶] (۱).« يحيف» من مادة« حيف» تعنى الظلم فى‌الأصل و« لا يحيف» أى لا يظلم.

[۸۹۷] (۲). سورة المائدة، الآية ۸.

[۸۹۸] (۳). سورة الأنعام، الآية ۱۵۲.

[۸۹۹] (۱). بحارالأنوار، ج ۷۴، ص ۱۱۲.

[۹۰۰] (۲).« ينابز» من مادة« نبز» على وزن« نبض» نعت الآخرين بلقب سيىء و« التنابز بالألقاب» أن يدعو الآخرينويذكرهم بألقاب سيئة.

[۹۰۱] (۳).« يشمت» من« شماتة» بمعنى التقريع والفرح لحزن الآخرين.

[۹۰۲] (۴). سورة المؤمنون، الآية ۹.

[۹۰۳] (۵). سورة الأعراف، الآية ۲۰۱.

[۹۰۴] (۱). سورة الحجرات، الآية ۱۱.

[۹۰۵] (۲). نهج البلاغة، الرسائل، ۴۷.

[۹۰۶] (۳). الكافى، ج ۲، ص ۳۵۹.

[۹۰۷] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۱۴۴.

[۹۰۸] (۱). غررالحكم.

[۹۰۹] (۲). سورة غافر، الآية ۳۹.

[۹۱۰] (۱). جاءت فى النسخة علامة الاستفهام على رأس« هكذا»؛ لكنها لم تذكر فى الكثير من النسخ القديمة وشرح‌نهج البلاغة وهو الأنسب.

[۹۱۱] (۲). سورة الأعراف، الآية ۱۴۳.

[۹۱۲] (۱). ذكر المرحوم العلّامة التسترى فى شرحه نهج‌البلاغة، ج ۱۰، ص ۴۵۹ نماذج منها.

[۹۱۳] (۲). شرح نهج البلاغة للتسترى، ج ۱۲، ص ۴۶۲.

[۹۱۴] (۱). راجع الأقوال العشرة، ص ۷- ۱۱.

[۹۱۵] (۱). سند الخطبة:

أشار صاحب مصادر نهج البلاغة إلى مصدرين لإثبات نقل الخطبة من أشخاص غير السيد الرضى؛ الأوّل: ما رواه المير يحيى العلوى فى كتاب الطراز الذى ذكر جوانب من الخطبة مع بعض الاختلافات ما يدل على أنّه أخذها من غير نهج البلاغة. والثانى: ما ذكره الآمدى فى غرر الحكم.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۶۹).

[۹۱۶] (۱).« ذاد» من مادة« ذود» على وزن« ذوق» الدفع والطرد.

[۹۱۷] (۱). سورة آل عمران، الآیة ۱۰۳.

[۹۱۸] (۲). مجمع البیان، ذیل الآیة ۱۰۳، سورة آل عمران، رواه أبوسعید الخدری عن النّبی صلی الله علیه و آله.

[۹۱۹] (۳). سورة إبراهیم، الآیة ۳۴.

[۹۲۰] (۴).« غمرة» من« غمر» علی وزن« خمر» إزالة أثر الشیء ثم اطلقت الغمرة والغامر علی ما ازدحم وکثر من الماء.

[۹۲۱] (۵).« غصّة» تعنی فی الأصل الماء والغذاء وکل ما یحشر فی الحلقوم وحیث یشعر الإنسان بأنّ شیئاً یحشر فی حلقه عند الغم فقد عبّر عن ذلک بالغصّة.

[۹۲۲] (۱).« أدنون» جمع« أدنی» بمعنی القریب، وعلیه« أدنون» یعنی الأقرباء فی مقابل« أقصون» الأباعد.

[۹۲۳] (۲).« تألّب» من مادة« ألب» علی وزن« أمر» بمعنی التجمع من کلّ حدب وصوب کما تستعمل بمعنی تعبئةالآخرین وحشدهم ضد شخص معین أو جماعة.

[۹۲۴] (۳).« أعنّة» جمع« عنان» وهوحبل اللجام.

[۹۲۵] (۴).« رواحل» جمع« راحلة» بمعنی المرکب وغالباً ما تعنی الناقة.

[۹۲۶] (۵).« أسحق» من مادة« سحق» علی وزن« قفل» بمعنی أقصی کما تعنی اسحق أقصی نقطة.

[۹۲۷] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبی الحدید، ج ۱۰، ص ۱۶۵.

[۹۲۸] (۱).« الزالّون المزلّون» من مادة« زلّة» بمعنی الخطأ والزلل.

[۹۲۹] (۲).« یفتنون» من« افتنان» من مادة« فنّ» بمعنی التزیین« یفتنّون افتناناً» بمعنی تزیینهم لأعمالهم بأشکال مختلفة لخداع الآخرین.

[۹۳۰] (۱). سورة البقرة، الآیة ۱۴.

[۹۳۱] (۲).« یعمدونکم» من مادة« عمد» المراد أنّهم یعتمدون کلّ وسیلة للقدح بکم.

[۹۳۲] (۳).« یرصدونکم» من« رصد» علی وزن« صدف» بمعنی الاستعداد للمراقبة وبمعنی التربص والارتقاب.

[۹۳۳] (۴).« دویة» من مادة« دوًی» من« دواً» بمعنی المرض ودوًی(صفة مشبهه علی وزن فعیل) بمعنة المریض ومؤنثه دوّیة ولکن« دواء» علی وزن دمار من هذه المادة بمعنی ما یعالج به المرض.

[۹۳۴] (۱).« صفاح» جمع« صفح» بمعنی صفحة الوجه أو الورقة وأمثال ذلک وتشیر هنا إلی أنّ ظاهر المنافقین طاهروباطنهم سیىء.

[۹۳۵] (۲).« یدبّون» من« دبیب» أی یمشون علی هیئة الدبیب ببطء وتأنی وشمل کلّ متحرک من حیث المفهوم اللغوی سواء کان یمشی سریعاً أم بطیئاً.

[۹۳۶] (۳).« ضرّاء» یعنی الأرض الواسعة التی تلتف فیها الأشجار وتلجأ إلیها الحیوانات الصحراویة للاختفاء.

[۹۳۷] (۴).« عیاء» من« عیّ» بمعنی العجز و« داء العیاء» یراد بها هنا المرض الذی أعجز الأطباء علاجه(العیاء هنا مصدر له معنی الصفة).

[۹۳۸] (۵).« حسدة» جمع« حاسد» مثل« قتلة» جمع« قاتل» بمعنی الشخص الذی یحسد.

[۹۳۹] (۶). سورة آل عمران، الآیة ۱۲۰.

[۹۴۰] (۱). سورة محمد، الآیة ۷.

[۹۴۱] (۲). سورة آل عمران، الآیة ۱۳۹.

[۹۴۲] (۳).« صریع» من« صرع» علی وزن« فرع» بمعنی المطروح علی الأرض وله معنی اسم المفعول بمعنی المطروح.

[۹۴۳] (۴).« شجو» بمعنی الحزن.

[۹۴۴] (۱).« ألحفوا» من« الحاف» بمعنی الإصرار والإلحاح فی الطلب.

[۹۴۵] (۲).« عذلوا» من« عذل» على وزن« هزل» بمعنى لاموا.

[۹۴۶] (۳). سورة البقره، الآية ۲۷۳.

[۹۴۷] (۴). سورة البقرة، الآية ۲۰۵. والتفسير فوق أحد تفاسير هذه الآية.

[۹۴۸] (۱). صحيح مسلم، ج ۸، ص ۱۸۵ وسفينة البحار، مادّة« عمر» وسائر مصادر الفريقين.

[۹۴۹] (۲).« إعلاق» جمع« عِلْق» على وزن« حزب» الأشياء المحببة أو الشىء النفيس.

[۹۵۰] (۳).« يمّوهون» من« تمويه» بمعنى تزيين الشيء للاضلال ومزج الحقّ بالباطل.

[۹۵۱] (۱).« أضلعوا» فى الأصل من مادة« ضلع» وبسبب عوج الاضلاع فإنّ« اضلاع» يعنى يجعلونها معوجة.

[۹۵۲] (۲).« لُمة» تعنى الجماعة من النساء والرجال من ثلاثة إلى العشرة وتشير هنا إلى قلة عددهم وكثرة خطرهم.

[۹۵۳] (۳).« حمة» تعنى السم ويقال« حمة» لكل ما يلسع، مثل حمة وحرارة الشمس.

[۹۵۴] (۴). سورة المجادلة، الآية ۱۹.

[۹۵۵] (۱). سورة الأحزاب، الآية ۱۳.

[۹۵۶] (۱). سند الخطبة:

هذه الخطبة من خطب نهج البلاغة المحدودة التى لا مصدر لها سوى نهج البلاغة.

[۹۵۷] (۱).« مقل» جمع« مقلّة» على وزن« غرفة» الجانب المحيط بالعين الذى يشمل السواد والبياض وقد شبهالإمام عليه السلام العقل هنا بالإنسان الذى له عين باصرة تطلع إلى الأشياء العجيبة فتندهش لها.

[۹۵۸] (۲).« هماهم» جمع« همهمة» بمعنى الصوت الخفى الذى يطرق الأذن ولكن لا تدرك معناه.

[۹۵۹] (۱).« إذعان» من« ذعن» على وزن« وطن» بمعنى الخضوع والإنقياد والطاعة، ومن هنا كان فى المرحلة الرابعة التى ذكرها الإمام عليه السلام فى العبارة، الإيمان واليقين والإخلاص ونتيجة ذلك الطاعة والإنقياد.

[۹۶۰] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۳۸.

[۹۶۱] (۱).« دارسة» من مادة« دراسة» تعنى تكرار الشىء وبما أنّ الاستاذ يكرر المطلب حين التعلم لذلك يقال درس كما ترد هذه المفردة بمعنى التآكل والاندفاع وهذا هو المعنى المراد فى الخطبة حيث إنّ الحوادث المتتالية والرياح والأمطار تؤدّى إلى إندثار المبانى فقد استعملت بهذا المعنى.

[۹۶۲] (۲).« طامسة» من« طمس» على وزن« شمس» بمعنى محووزوال آثار الشىء، كما وردت بمعنى الإزالة.

[۹۶۳] (۳).« صدع» من مادة« صدع» على وزن« صبر» مطلق الشقّ أو شقّ الأجسام القوية كما وردت بمعنى الاتضاح حيث يتّضح باطن الشىء بشقّه وهذا هو المعنى الذى أريد بها فى الخطبة.

[۹۶۴] (۱).« همل» من مادة« همل» على وزن« حمل» تعنى فى الأصل ترك الجمال دون راعٍ، ثم اطلقت على كلّ شخص أو عمل دون مشرف.

[۹۶۵] (۱). سورة المؤمنون، الآية ۱۱۵.

[۹۶۶] (۲).« استفتحوا» من مادة« فتح» تعنى فى الأصل الفتح، وعليه فالاستفتاح طلب الفتح والعون.

[۹۶۷] (۳).« استنجحوا» من« نجاح» السهولة والوصول إلى المطلوب.

[۹۶۸] (۴).« استمنحوا» من مادة« منح» على وزن« منع» تعنى فى الأصل اعطاء لبن الحيوان للحيوان ثم اطلقت على مطلق البذل والعطاء، وعليه استمناح تعنى التماس العطاء.

[۹۶۹] (۱).« يثلم» من مادة« ثلم» على وزن« صبر» و« ثلمة» على وزن« ضربة» تعنى فى الأصل كسر جانب الشىء، ثم اطلقعلى كلّ ما

يسبب كسراً لشخص أو شىء.

[۹۷۰] (۲).« حباء» من مادة« حبو» على وزن« ختم» تعنى فى‌الأصل العطاء دون مكافأة وهذا هو المعنى المراد.

[۹۷۱] (۳).« يلوى» من مادة« لىّ» على وزن« حىّ» بمعنى الاعراض والانحراف والميل.

[۹۷۲] (۴).« توله» من« وله» على وزن« فرح» بمعنى الذهول من شدّة الهم والغم ولذلك يقال الواله للعاشق المغموم.

[۹۷۳] (۱).« يجن» من مادة« جنّ» على وزن« فنّ» أى يستره ولذا يقال لمن ستر عقله مجنون وكذلك يقال لطائفة الجن بسبب سترهم؛ ويقال كذلك للجنين فى رحم أُمّه، ويقال« جنّة» للبساتين التى سترت أرضها بالأشجار والنباتات.

[۹۷۴] (۲).« دان» من مادة« دين» على وزن« غير» تعنى أحياناً القرض وأحياناً الجزاء والحساب وهو المعنى المطلوب.

[۹۷۵] (۳).« لم يذرأ» من« ذرأ» على وزن زرع؛ بمعنى الخلق.

[۹۷۶] (۴).« كلال» له معنى المصدر واسم المصدر ويعنى التعب.

[۹۷۷] (۱). سورة مريم، الآية ۶۳.

[۹۷۸] (۲). سورة الأعراف، الآية ۹۶.

[۹۷۹] (۳).« وثائق» جمع« وثيقة» ما يعتمد عليه.

[۹۸۰] (۴).« حقائق» جمع حقيقة، معناه معروف، ولكن أخذه بعض شرّاح نهج البلاغة(ابن أبى الحديد) بمعنى الراية‌الذى لم يعثر عليه فى أى قاموس لغوى.

[۹۸۱] (۵).« تؤل» التى كانت فى‌الأصل« تؤول» وجزمت لأنّها وقعت جزاء لشرط مقدر، فأصبحت تؤلْ) من مادة« أول» على وزن« قول» بمعنى العودة، وعلى هذا الأساس فإنّ العبارة« تؤل بكم» تعنى أنّها تعيدكم.

[۹۸۲] (۶).« أكنان» جمع« كنّ» على وزن« جنّ» بمعنى الستر والحاجز.

[۹۸۳] (۷).« دعة» بمعنى الاستراحة والهدوء.

[۹۸۴] (۸).« معاقل» جمع« معقل» على وزن« مسجد» بمعنى الملجأ والحصن ويقال أحياناً للجبال العالية التى تحمى الناس من الفيضانات وغيرها.

[۹۸۵] (۱).« تشخص» من مادة« شخوص» بمعنى تركيز العين على نقطة معينة وإمتناعها عن الحركة، وهذه العبارة فى‌الغالب كناية عن الرعب والخوف.

[۹۸۶] (۲).« صروم» جمع« صرم» على وزن« فعل» وهو القاطع من الناقة وقيل فيما بعد لمجموعة الناس أو غيرهم أيضاً.

[۹۸۷] (۳).« عشار» جمع« عشراء» على وزن« وكلا» وهى الناقة مضى لحملها عشرة أشهر وهى نفيسة من حيثها وابنها الكامل فى بطنها وهذه المفردة كناية عن الشىء الغالى والنفيس.

[۹۸۸] (۴). سورة الحج، الآية ۲.

[۹۸۹] (۵).« تزهق» من« زهوق» على وزن« غروب» بمعنى الهلاك.

[۹۹۰] (۶).« مهجة» تعنى فى الأصل الدم الموجود فى القلب والذى ترتبط بحياة الإنسان، ثم اطلقت هذه المفردة على القلب.

[۹۹۱] (۷).« تبكم» من« بكم» على وزن« قلم» بمعنى الخرس وعدم تحرك اللسان و« بكم» على وزن« قفل» جمع« أبكم» تعنى الفرد الأصم والأبكم.

[۹۹۲] (۸).« شمّ» جمع« أشمّ» أى الرفيع.

[۹۹۳] (۹).« شوامخ» جمع« شامخ» بمعنى‌العالى. وعلى هذاالأساس« الشمّ‌الشوامخ» على سبيل التأكيد على علو الجبال.

[۹۹۴] (۱۰).« صمّ» جمع« أصم» تأتى بمعنى الأصم وكذلك الضخور الثقيلة وهو المراد فى العبارة.

[۹۹۵] (۱۱).« رواسخ» جمع« راسخ» بمعنى الثابت والصلد.

[۹۹۶] (۱).« صلد» يقال للصخر الصلب الأملس الذى لا يثبت عليه شى، وتأتى أيضاً بمعنى الصعب البخيل أيضاً والمراد هنا هو المعنى الأوّل.

[۹۹۷] (۲).« رقرق» بمعنى الدمع الذى يحيط بالعين ويلمع ولا يخرج منها، ثم اطلق على كلّ قليل وخفيف وكذلك تعنى اللمعان والبريق.

[۹۹۸] (۳).« معهد» المكان الذى يرجع إليه وتطلق هذه المفردة اليوم على المدارس. و« معهدها» تعنى محل الجبال.

[۹۹۹] (۴).« قاع» تعنى الأرض المستوية.

[۱۰۰۰] (۵).« سملق» الأرض المستوية التى لا يوجد فيها مكان أعلى من الآخر.

[۱۰۰۱] (۶). سورة الحج، الآيتان ۱ و ۲.

[۱۰۰۲] (۷). سورة الزمر، الآية ۶۸.

[۱۰۰۳] (۱). سورة غافر، الآية ۱۸.

[۱۰۰۴] (۲). سورة الروم، الآية ۵۷.

[۱۰۰۵] (۳). سورة الأنبياء، الآية ۲۸.

[۱۰۰۶] (۱). سند الخطبة:

روى الآمدى بعضها(فى غرر الحكم فى حرف الالف) كما روى بعض ممّا فى الخطبة ۱۹۲ مع جوانب من هذه الخطبة والخطبة ۱۹۱ وهذا يدل على أنّ الخطبتين خطبة واحدة(وأنّ الآمدى أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة)(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۷۴).

[۱۰۰۷] (۱).« سطوع» بمعنى الصعود والاتساع والنور الساطع الذى يضيىء ما حوله.

[۱۰۰۸] (۱). سورة الجمعة، الآية ۲.

[۱۰۰۹] (۲).« شخوص» بمعنى الظهور والطلوع أو الانتقال من محل إلى آخر وهذا هو المعنى المراد بهذه العبارة.

[۱۰۱۰] (۳).« تقصفها» من مادة« قصف» على وزن« حذف» بمعنى الكسر.

[۱۰۱۱] (۴).« لجج» جمع« لجّه» البحر العميق.

[۱۰۱۲] (۵).« وبق» من مادة« وبق» على وزن« فقر» بمعنى الهالك صيغة« وبق» على وزن« خشن» له معنى الصفة.

[۱۰۱۳] (۶).« تحفزه» من مادة« حفز» على وزن« لفظ» بمعنى الدفع قدماً والطرد.

[۱۰۱۴] (۱).« سكّان» ما يشبه مقود المركبة الذى يقود السفينة إلى اليمين واليسار.

[۱۰۱۵] (۲). الكافى، ج ۱، ص ۱۶.

[۱۰۱۶] (۱).« لَدْنَة» من مادة« لدانة» على وزن« شبانة» يعنى اللين قبل حلول الشيخوخة والذبول وقلّة الحركة.

[۱۰۱۷] (۲).« منقلب» محل الرجوع وهو إشارة هنا إلى ميدان العمل.

[۱۰۱۸] (۳).« فسيح» من مادة« فسح» على وزن« مسح» بمعنى الواسع.

[۱۰۱۹] (۴).« ارهاق» من« رهق» على وزن« شفق» بمعنى الضغط على شخص، كما وردت بمعنى الإقتراب، وعليه« ارهاق الفوت» يمكن أن تكون إشارة إلى الضغط من حيث الموت أو إقترابه.

[۱۰۲۰] (۱). سند الخطبة:

رواها المرحوم الشيخ المفيد قبل السيد الرضى مع اختلاف طفيف فى كتاب المجالس، كما ذكر أغلبها الآمدى فى غرر الحكم فى حرف الواو. وفى رواية الآمدى إضافات تفيد أنّه استقاها من مصدر آخر غير نهج البلاغة(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۷۵ و ۷۶).

[۱۰۲۱] (۱). ورد فى هـذه الخطبـة الكلمـة« ولقـد» خمس مرات حيث تؤكّـد كل واحدة منها موضوعاً معيناً، ويرى بعضشرّاح نهج البلاغـة أنّ الواو هنا هى واو القسم، بينما ذهب بعض اساتـذة العربيـة إلى أنّ الواو استئنافيـة واللام جواب القسم، ويعتقدون أنّ القسـم محـذوف تقـديره« وأقسم بـاللَّه لقـد ...». وجـاء فى كتـاب مغنى اللبيب المشـهور أنّ اللام فى هـذه الموارد هى لام القسم؛ لكن قـال أبوحيان: إنّ اللام فى الآية(ولقد علمتم ...) لام الابتداء للتأكيد، وربّما سبقت بقسم محذوف،(مغنى اللبيب، حرف« لام») ويحتمل أن لا يكون قسم فى العبارة، بل« لام» و« قد» كلاهما للتأكيد، ولذلك لم يذكر أغلب المترجمين معنى القسم هنا فى الترجمة.

[۱۰۲۲] (۱). سورة التوبة، الآية ۵۸.

[۱۰۲۳] (۲). انظر: المصنّف عبدالرزاق الصنعانى، ج ۵، ص ۳۳۹. وكذلك نقل هذا الحديث السيوطى فى الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۷۷ ذيل الآية ۲۶ سورة الفتح، والطبرى فى تاريخه المعروف فى ج ۲، ص ۲۸۰ حوادث سنة ۶ للهجرة.

[۱۰۲۴] (۱).« واسيت» و« آسيت» كلاهما من مادة واحدة ولهما معنى واحد؛ كلاهما من« أسّى» على وزن« سعى» بمعنىالاشراك فى الشيء و« مواساة» بمعنى إشراك الآخرين فى المال والإمكانات الدنيوية.

[۱۰۲۵] (۲).« تنكص» من مادة« نكص» على وزن« عكس» يعنى العودة إلى الوراء وتطلق على انسحاب الجيش من المعركة و« نجدة» بمعنى الشجاعة والصمود مقابل العدو.

[۱۰۲۶] (۳). انظر: تاريخ الطبرى، ج ۲، ص ۱۹(حوادث السنة الثالثة).

[۱۰۲۷] (۴). المصدر السابق، ص ۲۳۹(حوادث السنة الخامسة).

[۱۰۲۸] (۵). المصدر السابق، ص ۳۰۰(حوادث السنة السابعة).

[۱۰۲۹] (۶). المصدر السابق، ص ۳۴۷(حوادث السنة الثامنة).

[۱۰۳۰] (۱). انظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم وابن أبى الحديد؛ وفى ظلال القرآن للشيخ محمّد جواد معنية،(ذيل الخطبة).

[۱۰۳۱] (۲). سورة زمر، الآية ۴۲.

[۱۰۳۲] (۳). منهاج البراعة، للمحقّق الخوئى ونهج الصباغة للمحقّق التسترى(ذيل خطبة).

[۱۰۳۳] (۱).« أفنية» جمع« فناء» على وزن« غناء» ما اتسع أمام الدار وجوانبه.

[۱۰۳۴] (۲).« هينمة» تعنى الصوت الخفى.

[۱۰۳۵] (۳).« وارينا» من مادة« مواراة» ومن مادة« ورى» على وزن« نَفْى» بمعنى الكتمان والتغطية وتعنى هنا الدفن.

[۱۰۳۶] (۱). بحار الأنوار، ج ۲۲، ص ۴۹۲.

[۱۰۳۷] (۲).« مزلّة» من مادة« زلل» على وزن« ضرر» مكان الزلل الموجب للسقوط فى الهلكة.

[۱۰۳۸] (۱). كتب المرحوم العلّامـة التسترى فى شـرحه نهج البلاغة: ج ۴، ص ۸۸، هـذه الخطبة من الخطب التى ألقاها أميرالمؤمنين عليه السلام فى صفين حسب نقل نصر بن مزاحم فى كتاب صفّين.

[۱۰۳۹] (۱). صحيح البخارى، كتاب العلم، ح ۱۱۴ وكتاب المرضى، ح ۵۶۶۹.

[۱۰۴۰] (۲). سورة آل عمران، الآية ۱۴۴.

[۱۰۴۱] (۳). جـاء فى تاريـخ الطبرى أنّه لمـا حضـرت رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله الوفـاة، كـان أبوبكر فى موضع« سُـخ» فى أحد أطراف المدينـة، وحين توفى صـلى الله عليه و آله نهض عمر وقـال: يظن بعض المنافقين أنّ رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله قـد مات، واللَّه إنّه لم يمت وإنّما رفعه اللَّه إليه، كما غاب موسـى عن قومه أربعين ليلة ثم عاد(وسوف يعود رسول اللَّه صلى الله عليه و آله) فلمّا علم أبوبكر ذهب إلى بيت النّبى فعلم بوفـاة النّبى صـلى الله عليه و آله ورجع إلى المسـجد وكـان عمر مـا زال يحـدث النـاس فقـاطعه أبوبكر وقال ما ورد سابقاً.(تاريخ الطبرى، ج ۲، ص ۴۴۲ حوادث سنة ۱۱).

[۱۰۴۲] (۱). ورد فى المصادر الروائية لأهل البيت عليهم السلام أنّ عليّاً عليه السلام قال: إنّ أشرف موضع هو الموضع الذى قبض فيه اللَّه نبيّه صلى الله عليه و آله؛ ومن هنا دفن فى بيته.(الكامل البهائى، ج ۱، ص ۲۸۵، تأليف عماد الدين الطبرى).

[۱۰۴۳] (۲). الملل والنحل للشهرستانى، ص ۱۶- ۱۹، طبعة دار الفكر بيروت،(بتلخيص).

[۱۰۴۴] (۱). سند الخطبة:

قال صاحب مصادر نهج البلاغة: ما ذكره السيد الرضى هنا فى الخطبة ۱۰۴(الخطبة ۱۰۶ حسب التسلسل فى هذا الكتاب) واحد كما يتّضح من التأمّل فى العبارات(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۸۲)؛ لكنه لم يذكر لذلك مصدراً آخر غير نهج البلاغة، وتفيد سائر الدراسات والتحقيقات عدم وجود مصدر آخر غير نهج البلاغة. وللأسف فقد ذكرت فى بعض الكتب(مثل نهج البلاغة نسخة المعجم المفهرس للنشر الإسلامى التابع لجماعة المدرسين) ستة مصادر غير نهج البلاغة لهذه الخطبة وليس فيها حتى مصدر صحيح واحد؛ إلّاأنّ مضمون الخطبة ورفعتها لا يمكن أن تصدر من غير الإمام، وهذا دليل على قوّة سندها.

[۱۰۴۵] (۱).« عجيج» من مادة« عجّ» على وزن« حج» بمعنى الصراخ وتستعمل غالباً للحيوانات.

[۱۰۴۶] (۲).« فلوات» جمع« فلاة» بمعنى الأرض الواسعة والقاحلة ويقال أحياناً للصحراء.

[۱۰۴۷] (۳).« نينان» جمع« نون» تعنى السمكة الكبيرة ويقال أيضاً للحوت.

[۱۰۴۸] (۴).« غامرات» من مادة« غمر» على وزن« عمد» بمعنى محو شيء. ثم اطلقت على المياه التى تغطى الأرض أو موجوداته، والبحر الغامر هو البحر العميق.

[۱۰۴۹] (۵).« عاصفات» جمع« عاصفه» من مادة« عصف» على وزن« حذف» تعنى القشّة و« عاصف» الرياح الشديدة التى تفرق القش والأوراق اليابسة أو تفرق الأشياء كالقشّة.

[۱۰۵۰] (۱).« نجيب» من« نجابة» تعنى المختار المصطفى وكل غال ونفيس.

[۱۰۵۱] (۲). سورة الأنبياء، الآية ۱۰۷.

[۱۰۵۲] (۳). سورة التكوير، الآية ۲۰.

[۱۰۵۳] (۴). مجمع البيان، ذيل الآية ۱۰۷ من سورة الأنبياء.

[۱۰۵۴] (۱).« مفزع» من مادة« فزع» بمعنى الخوف وتعنى مفردة(مفزع) الملجأ، لأنّ الإنسان يلجأ إليها فى خوفه.

[۱۰۵۵] (۲). سورة يونس، الآية ۱۰۷.

[۱۰۵۶] (۳). سورة النحل، الآية ۵۳.

[۱۰۵۷] (۴).« عشا» من« عشو» على وزن« نشر» بمعنى ضعف العين أو البحث عن شيء بعين ضعيفة و« عشا» اسم مصدرتعنى ضعف البصر.

[۱۰۵۸] (۵).« جأش» بمعنى ما يضطرب فى القلب عند الفزع ومن حيث إنّ القلب(الروح) هومركز هذه الأمور فيقال أحياناً جأش للقلب أيضاً ويمكن للاثنان أن يكونا المعنى المراد.

[۱۰۵۹] (۶). بحارالأنوار، ج ۵۹، ص ۲۹۱.

[۱۰۶۰] (۱). سورة النمل، الآية ۸۹.

[۱۰۶۱] (۱).« منهل» بمعنى المكان الذى يصلون منه إلى الماء ومن مادة« نهل» على وزن« محل» بمعنى ابتداء شرب‌الماء.

[۱۰۶۲] (۲).« ورود» تعنى فى‌الأصل الذهاب قرب الماء، ثم اتسع معناها ليشمل الدخول فى كلّ شيء.

[۱۰۶۳] (۳).« درك» على وزن« سَمك» بمعنى اللحاق والوصول والتعويض عن شيء.

[۱۰۶۴] (۴).« أوار» على وزن« غبار» بمعنى حرارة الشمس ولهيبها وتطلق أحياناً على العطش الناتج منه.

[۱۰۶۵] (۱). سورة نوح، الآيات ۱۰– ۱۲.

[۱۰۶۶] (۲).« عزبت» من مـادة« عزوب» على وزن« غروب» تعنى فى‌الأصـل الغيـاب والبعـد عن العائلـة لايجاد مرتع للبهائم‌ثم اطلقت على كـلّ غيـاب وابتعـاد. ويقال كـذلك للرجال والنساء البعيـدين عن أزواجهم، أو يقال« عزب» على وزن« عَزَب» لمن لم يختر زوجة بعد.

[۱۰۶۷] (۳).« احلولت» فى‌الأصـل من« حلو» على وزن« حكم»، معروف و« احلولت» الـتى من بـاب المزيـد فيه أخـذت معنى‌الكـثرة؛ وعلى هذا الأساس فإنّ« احلول» يعنى الكثير الحلاة، مثل« اعشوشب» بمعنى الكثير العشب.

[۱۰۶۸] (۴).« انصاب» مصدر باب الأفعال بمعنى الاتعاب من مادة« نصب» على وزن« نَسَب» بمعنى التعب.

[۱۰۶۹] (۵).« هطل» بمعنى نزول المطر المتواصل.

[۱۰۷۰] (۶).« قحوط» بمعنى المجاعة.

[۱۰۷۱] (۱).« تحـدبت» من مـادة« حـدب» على وزن« أدب» تعنى فى‌الأصل الأراضـى العاليـة بين الأراضـى الواطئـة، وكـذلك‌يقال« حدب» للبروز فوق الجسم وكذلك يقال للشىء الذى يحيط بآخر وهو المعنى المقصود فى العبارة.

[۱۰۷۲] (۲).« نضوب» تعنى فى‌الأصل ذهاب الماء فى الأرض، ثم اطلقت على القضاء على كلّ شىء.

[۱۰۷۳] (۳).« وبلت» من مـادة« وبـل» على وزن« جبـل» بمعنى المطر الشديـد ذى القطرات الكبيرة وهنا تعنى سـقوط البركات الإلهيّة بكثرة.

[۱۰۷۴] (۴).« إرذاذ» بمعنى سقوط المطر الخفيف.

[۱۰۷۵] (۵). سورة الأعراف، الآية ۹۶.

[۱۰۷۶] (۶). سورة الطلاق، الآيتان ۲ و ۳.

[۱۰۷۷] (۷). سورة البقرة، الآية ۱۸۳.

[۱۰۷۸] (۱).« اصطنع» من مادة« اصطناع» على وزن افتعال بمعنى التحضير والتنمية والتكبير لشىء.

[۱۰۷۹] (۲). سورة آل عمران، الآية ۸۵.

[۱۰۸۰] (۳). سورة طه، الآية ۳۹.

[۱۰۸۱] (۴). بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۲۳۷، ح ۵. والآية الواردة فى النص هى، الآية ۳۱ سورة آل عمران.

[۱۰۸۲] (۵).« محادّى» من« محادّة» بمعنى المخالفة والعداوة ومادته الأصـلية« حدّ» التى تعنى نهاية وطرف كلّ شىءوذلك لأنّ العدو يكون فى الطرف الآـخر.« محـادّة» بمعنى المخالفـة(جـدير ذكره أنّ« محـادّى» فى‌الأصل« محادّين» اسم فاعل صـيغته الجمع وحـذفت النون للإضافة).

[۱۰۸۳] (۱).« أتأق» من مادة« تأق» بمعنى الامتلاء وإن وردت فى باب الأفعال عنت الملىء.

[۱۰۸۴] (۲).« مواتح» جمع« ماتح» بمعنى من يسحب الماء من البئر.

[۱۰۸۵] (۳). سورة الصف، الآية ۹.

[۱۰۸۶] (۴). سورة الصف، الآية ۸.

[۱۰۸۷] (۵).« عفاء» بمعنى القدم والاندراس وهى فى‌الأصل من عفوية معنى صـرف النظر عن شىء ولأنّ صرف النظر يؤدّى إلى قدم واندراس الشىء استخدمت هذه المفردة فى العبارة الفوق.

[۱۰۸۸] (۱). سورة الأحزاب، الآية ۴۰.

[۱۰۸۹] (۲).« ضنك» بمعنى الضيق وهى تستخدم دائماً مفردة.

[۱۰۹۰] (۳).« وعوثة» بمعنى المشقّة والعسر.

[۱۰۹۱] (۴).« وضح» من مادة« وضوح» بمعنى الظهور والتبيان.

[۱۰۹۲] (۵).« انتصاب» من مادة« نصب» يعنى الوقوف.

[۱۰۹۳] (۶).« عصل» بمعنى الاعوجاج.

[۱۰۹۴] (۷).« فجّ» تعنى فی‌الأصل الوادی؛ أی الطریق الواسع بین جبلین. ثم اطلقت على الطرق العامّة بصورة عامّة.

[۱۰۹۵] (۸). ورد هذا الحدیث فی العدید من کتب الشیعة والسنّة منها فی المحصول للفخر الرازی ج ۵، ص ۱۷۵، وشرح‌نهج‌البلاغة لابن أبی‌الحدید، ج ۱۵، ص ۱۴۴؛ الکافی، ج ۵، ص ۴۹۴.

[۱۰۹۶] (۱).« أساخ» من مادة« سوخ» على وزن« صوت» بمعنى الغوص فی شیء ما وإن وردت فی باب الأفعال عنت الغوص‌والخوض.

[۱۰۹۷] (۲).« أسناخ» جمع« سنخ» على وزن« صبر» بمعنى الأصل.

[۱۰۹۸] (۳).« آساس» جمع« أساس» بمعنى عمود البناء.

[۱۰۹۹] (۴).« غزرت» من مادة« غزارة» بمعنى الکثرة.

[۱۱۰۰] (۱).« سفّار» جمع« سافر» بمعنى المسافر.

[۱۱۰۱] (۲). الکافی، ج ۲، ص ۱۸، باب دعائم الإسلام، ح ۱.

[۱۱۰۲] (۳). سورة المائدة، الآیة ۳.

[۱۱۰۳] (۱). سورة آل عمران، الآیة ۸۵.

[۱۱۰۴] (۲). منهاج البراعة، ج ۱۲، ص ۲۹۴.

[۱۱۰۵] (۳).« معوز» من مادة« اعوزاز» بمعنى الازمة والقلة.

[۱۱۰۶] (۱).« اطّلاع» من مادة« طلوع» بمعنى الظهور والإتیان والاشراف والعلم بشیء.

[۱۱۰۷] (۲).« ساق» تعنى فی‌الأصل ساق الإنسان ولأنّ الإنسان یقف على ساقه فی الأعمال الصعبة والمعقدة، لذا أصبحت هذه المفردة کنایة عن الشدّة والمشقّة.

[۱۱۰۸] (۳).« مهاد» تعنى فی‌الأصل الفراش، ثم اطلقت على الأراضی المستویة بصورة عامة.

[۱۱۰۹] (۴).« أزف» من مادة« ازوف» على وزن« وقوف» بمعنى التقرب.

[۱۱۱۰] (۵).« قیاد» من« قید» تعنى القبض و« قیاد» هو الحبل الذی یوضع حول رقبة الحیوانات والعبارة« ازف منها قیاداً» تعنى کأنّهم وضعوا حبلًا حول رقبة الدنیا وسحبوها إلیهم.

[۱۱۱۱] (۶).« اشراط» جمع« شرط» على وزن« شرف» بمعنى العلامة.

[۱۱۱۲] (۷).« تصرّم» من مادة« صرم» على وزن« سرو» بمعنى القطع و« تصرّم» بمعنى الانتهاء.

[۱۱۱۳] (۸).« عَفاء» تستعمل بالمعنى المصدری والاسم المصدری؛ یعنی الزوال والاضمحلال، واقتبس العفو من هذا المعنى؛ لأنّ الذنوب تضمحل على أثر العفو.

[۱۱۱۴] (۱). بحار الأنوار، ج ۵۴، ص ۳۳۶. وذکر المرحوم العلّامة الطباطبائی فی الجزء الرابع من المیزان فی ذیل الآیة الأولى من سورة النساء بحث جامع.

[۱۱۱۵] (۱).« یخبو» من مادّه« خبو» على وزن« سرو» بمعنى الانطفاء.

[۱۱۱۶] (۲).« منهاج» تعنى الطریق الواسع الواضح و« نهج» تعنى السیر فی مثل هذا الطریق.

[۱۱۱۷] (۱). سورة فصّلت، الآية ۴۲.

[۱۱۱۸] (۲). جاء فی نسخه نهج البلاغة« لصبحی الصالح»« تبیان» بدل« بنیان»؛ ولکن ذکر مجموعة من الشرّاح کلمة« بنیان» وهی المتناسبة مع« لا تهدم أرکانه».

[۱۱۱۹] (۳). الکافی، ج ۸، ص ۲۷۳، ح ۴۰۹.

[۱۱۲۰] (۱).« بحبوحة» بمعنی مرکز ووسط کلّ شیء.

[۱۱۲۱] (۲).« ریاض» جمع« روضه» بمعنی البستان.

[۱۱۲۲] (۳).« عذران» جمع« عذیر» بمعنی البرکة والنهر وهی فی‌الأصل حفرة تتجمع فیها المیاه من السیول.

[۱۱۲۳] (۴).« أثافیّ» جمع« أثفیّة» علی وزن« أضحیّة» من ماده« أثف» علی وزن« أنف» بمعنی الثبات والاستقرار ویقال« أثفیة» للصخور الثابتة التی یوضع علیها الإناء.

[۱۱۲۴] (۵).« غیطان» جمع« غیط» علی وزن« زید» بمعنی الشدّة والأرض الوسیعة.

[۱۱۲۵] (۶).« ینزف» من مادة« نزف» علی وزن« نظم» بمعنی اخراج الماء من شیء(و کذلک بمعنی أخذ الدم) ویقال« مستنزفون» لمن یخرجوا الماء من الحفرة أو البئر بحیث ینفد.

[۱۱۲۶] (۷).« ینضب» فی‌الأصل من مادة« نضوب» بمعنی غوص الماء فی الأرض وعبارة« لا ینضبها» أنّ الماء لا ینفذ تلک العیون.

[۱۱۲۷] (۸).« ماتحون» جمع« ماتحة» من مادة« متح» علی وزن« مدح» بمعنی سحب الماء من البئر أو العین.

[۱۱۲۸] (۹).« یغیض» من مادّه« غیض» علی وزن« غیب» تعنی فی‌الأصل الغوص أو السحب(اللازم والمتعدی) وتعنی فی‌هذه العبارة التقلیل.

[۱۱۲۹] (۱).« آکام» جمع« أکمة» علی وزن« طلبة» بمعنی المرتفع الذی صنع من الصخر أو الرمل.

[۱۱۳۰] (۲). سورة النساء، الآیة ۱۳۵.

[۱۱۳۱] (۳). سورة المائدة، الآیة ۸.

[۱۱۳۲] (۱). الکافی، ج ۲، ص ۱۸، باب دعائم الإسلام.

[۱۱۳۳] (۲). المصدر السابق، ص ۵۹۹.

[۱۱۳۴] (۳). بحار الأنوار، ج ۱۷، ص ۲۱۳، ح ۱۸.

[۱۱۳۵] (۱).« ریّ»(بکسر الراء وفتحه) بمعنی الارتواء.

[۱۱۳۶] (۲).« محاجّ» جمع« محجّة» بمعنی الطریق الواسع والواضح.

[۱۱۳۷] (۳). نهج البلاغة، الکلمات القصار، الکلمة ۴۵۷.

[۱۱۳۸] (۱). سورة النور، الآیة ۳۵.

[۱۱۳۹] (۲).« معقل» بمعنی الملجأ والموضع من مادة« عقل» بمعنی المنع، لأنّ الملاجیء تقی الإنسان من الحوادث.

[۱۱۴۰] (۳).« انتحل» تعنی قبول مذهب ودین من مادة« نحلة» علی وزن« خرقة» تعنی الإیمان.

[۱۱۴۱] (۴).« فلج» بمعنی الظفر والفوز.

[۱۱۴۲] (۱).« توسّم» من« وسم» علی وزن« وصل» بمعنی نصب العلامة وتعنی أحیاناً الجمال.

[۱۱۴۳] (۲).« استلأم» من مادة« لئم» علی وزن« لعن» بمعنی التجمیع والالتیام وتناسب شیئین و« استلام» تعنی لبس الآلات الحربیة والدروع، أی کما أنّهم قد ناسبوا بین أجسامهم ولبس هذه الأشیاء.

[۱۱۴۴] (۱).« انَّ فِی خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّیْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْکِ الَّتِی تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِمَا یَنفَعُ‌النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ

السَّمَآءِ مِنْ مَآء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّة وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأرْضِ لَآيَات لِّقَوْم يَعْقِلُونَ».(سورة البقرة، الآية ۱۶۴).

[۱۱۴۵] (۱).« وَفِی الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَاب وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَان يُسْقَی بِمَآءوَاحِد وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَی بَعْض فِی الْاُكُلِ إِنَّ فِی ذلِكَ لَآيَات لِّقَوْم يَعْقِلُونَ».(سورة الرعد، الآية ۴).

[۱۱۴۶] (۲).« أَلَمْ يَرَوْا إِلَی الطَّيْرِ مُسَخَّرَات فِی جوالسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِی ذلِكَ لَآيَات لِّقَوْم يُؤْمِنُونَ».(سورة النحل، الآية ۷۹).

[۱۱۴۷] (۳).« اللَّهُ الَّذِی يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِی السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَی الْوَدْقَيَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ»،« فَانظُرْ إِلَی آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».(سورة الروم، الآيتان ۴۸ و ۵۰).

[۱۱۴۸] (۴).« كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ».(سورة الأعراف، الآية ۲۹).

[۱۱۴۹] (۵).« وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَآء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْاَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَی كُلِّ شَیْ مُّقْتَدِراً».(سورة الكهف، الآية ۴۵)

[۱۱۵۰] (۶).« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِیَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِیَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِی أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْق عَلِيمٌ».(سورة يس، الآيتان ۷۸ و ۷۹).

[۱۱۵۱] (۷).« يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلوعَلَی أَنفُسِكُمْ أَوالْوَالِدَيْنِ وَالْاَقْرَبِينَ».(سورة النساء، الآية ۱۳۵).

[۱۱۵۲] (۸).« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْم عَلَی أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوأَقْرَبُ لِلتَّقْوَی وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».(سورة المائدة، الآية ۸).

[۱۱۵۳] (۱).« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً».(سورة آل عمران، الآية ۱۰۳).

« وَللَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَايَعْلَمُونَ».(المنافقون، الآية ۸).

[۱۱۵۴] (۲). ثقافة المستشرقين المسلمين، تأليف حسين عبداللهی خروش، ج ۱، ص ۱۵.

[۱۱۵۵] (۱). عصر الإيمان، القسم الثانی، الحضارة الإسلاميّة، ص ۵۲.

[۱۱۵۶] (۲). ثقافة المستشرقين المسلمين، ج ۱، ص ۱۵.

[۱۱۵۷] (۳). المصدر السابق، ص ۱۴.

[۱۱۵۸] (۴). من مقدمة منظمات المدنيّة للامبراطورية الإسلاميّة، ص ۱۱۱.

[۱۱۵۹] (۱). التفسير الأمثل، ج ۱، ذيل تفسير الآية ۲۳ و ۲۴ من سورة البقرة.

[۱۱۶۰] (۱). سند الخطبة:

روی المرحوم الكلينی قبل السيد الرضی قسما رئيسياً من هذا الكلام فی الكافی، كتاب الجهاد(الكافی، ج ۵، ص ۳۶). ولم يرد أكثر من هذه فی مصادر نهج البلاغة.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۸۵).

[۱۱۶۱] (۱). سورة الأحزاب، الآية ۷۲.

[۱۱۶۲] (۱). سورة النساء، الآية ۱۰۳.

[۱۱۶۳] (۲). بحار الأنوار، ج ۷۹، ص ۳۰۸، ح ۹.

[۱۱۶۴] (۳). وسائل الشيعة، ج ۳، باب ۱۰، أبواب اعداد الفرائض، ح ۷.

[۱۱۶۵] (۱). الكافی، ج ۳، ص ۲۶۵، ح ۶.

[۱۱۶۶] (۲). سورة النساء، الآية ۱۰۳.

[۱۱۶۷] (۳).« سقر» فى‌الأصل من« سقر» على وزن« فقر» بمعنى التغيير والتذوب وتغير اللون والأذى من أشعة الشمس ولأنّها من آثار جهنم اطلق عليها« سقر». ويستفاد من بعض الروايات أنّ« سقر» يطلق على قسم خاص من جهنم هو مكان المتكبّرين.

[۱۱۶۸] (۴). سورة المدثر، الآيتان ۴۲ و ۴۳.

[۱۱۶۹] (۵). سورة المدثر، الآيات ۴۴- ۴۶.

[۱۱۷۰] (۱).« حتّ» تعنى فى‌الأصل فصل الورقة عن الشجرة، واطلقت فيما بعد على فصل الأشياء عن بعضها.

[۱۱۷۱] (۲).« ربق» على وزن« عنب» جمع« ربق» على وزن« فعل» تعنى الحبل الذى يتضمن عقد عديدة وعندما يريد الشخص أن يضعها فى صف يشدّ كلّ واحدة بإحدى العقد.

[۱۱۷۲] (۳). سورة العنكبوت، الآية ۴۵.

[۱۱۷۳] (۴). وسائل الشيعة، ج ۳، الباب ۳۲ من أبواب أعداد الفرائض، ح ۳.

[۱۱۷۴] (۵).« درن» على وزن« لجن» بمعنى الوسخ والقذارة.

[۱۱۷۵] (۶). نقل هذا الحديث المرحوم الشيخ الحرّ العاملى فى وسائل الشيعة، ج ۳، الباب الثانى من أبواب أعداد الفرائض، ح ۳، مع هذا الفارق أنّه نقل بدل« حمّه»« نهر» و« النهر الجارى». وهذا المتن ورد فى مسند أحمد، ج ۱، ص ۷۲، طباعة دار الصادر بيروت وصحيح مسلم، ج ۲، ص ۱۳۲ طبعة دار الفكر أيضاً.

[۱۱۷۶] (۱). سورة النور، الآية ۳۷.

[۱۱۷۷] (۲).« نصب» على وزن« خجل» بمعنى التعب(بكسر العين) والصفة المشبّهة« نَصَب» على وزن« حسب» التعب.

[۱۱۷۸] (۳). سورة طه، الآية ۱۳۲.

[۱۱۷۹] (۴).« يصبر» من« صبر» معروفة وهو غالباً ما يكون فعلًا لازماً؛ ولكن يمكن أن يكون متعدياً أحياناً؛ أى اجبارهم على الصبر وهو المعنى المراد فى العبارة.

[۱۱۸۰] (۱). سورة طه، الآية ۱۴.

[۱۱۸۱] (۲). سورة العنكبوت، الآية ۴۵.

[۱۱۸۲] (۱). سورة الأعراف، الآية ۲۰۱.

[۱۱۸۳] (۲). بحار الأنوار، ج ۸۵، ص ۱۶.

[۱۱۸۴] (۱). الكافى، ج ۴، ص ۳، ح ۶.

[۱۱۸۵] (۲). سورة التوبة، الآية ۵۴.

[۱۱۸۶] (۳).« لهف» بمعنى التأسف والندم والحزن.

[۱۱۸۷] (۴). سورة الدهر، الآية ۹.

[۱۱۸۸] (۱).« إذا أمْلَقْتُمْ فَتاجِرُوا اللَّهَ بِالصَّدَقَةِ»(نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۵۸).

[۱۱۸۹] (۲). سورة البقرة، الآية ۲۷۶.

[۱۱۹۰] (۱). سورة التوبة، الآية ۱۰۳.

[۱۱۹۱] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۱۰۴.

[۱۱۹۲] (۲). بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۱۱۴.

[۱۱۹۳] (۳).« مبنيّة» من مادة« بناء» ولأنّ وجود البناء فى تركيب السماء والأرض أمر بديهى فلذلك أشارت هذه المفردةإلى مفهوم

أهم وهو الارتفاع والعظمة في البناء.

[۱۱۹۴] (۴).« مدحوّة» من مادة« دحو» على وزن« محو» أى البسط والمراد من« دحو الأرض» هو أنّه في بادئ الأمر- كماتؤكد علوم الأرض- كانت الأرض مغطاة من قبل الأمطار والفيضانات، ثم تجمعت هذه المياه في أخاديد الأرض وظهرت اليابسة من تحت الماء فأصبحت الأرض مهيّئة لسكن.

[۱۱۹۵] (۱). سورة الإسراء، الآية ۷۰.

[۱۱۹۶] (۲). سورة البقرة، الآية ۳۰.

[۱۱۹۷] (۳). سورة الأعراف، الآية ۱۷۹.

[۱۱۹۸] (۴). سورة التوبة، الآيتان ۱۲۴ و ۱۲۵.

[۱۱۹۹] (۱). الكافي، ج ۵، ص ۱۳۳، ح ۵.

[۱۲۰۰] (۲). بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۱۱۴.

[۱۲۰۱] (۱). سورة غافر، الآية ۱۹.

[۱۲۰۲] (۱). سند الخطبة:

روى المرحوم الكليني هذه الخطبة(بعبارات مختصرة ومشابهة) في الجزء الثاني من أصول الكافي ص ۳۳۶ و ۳۳۸ بسندين أحدهما عن الإمام الصادق عليه السلام والآخر عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين على عليه السلام. وبالنظر لما ذكره ابن نباتة من أنّ الإمام ألقى هذه الخطبة على منبر الكوفة فإنّها جانب من خطبة طويلة اكتفى المرحوم الشريف الرضي منها بهذا المقدار.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۸۵).

[۱۲۰۳] (۱).« أدهى» من مادة« دهى» على وزن« وحى» بمعنى شدّة الفطنة وتأتى أيضاً بمعنى الكارثة والمصيبة، والمراد في العبارة هو المعنى الأوّل.

[۱۲۰۴] (۱). نيل الأوطار، ج ۸، ص ۷۹؛ وصحيح البخاري، ج ۸، ص ۶۲(كتاب الحيل).

[۱۲۰۵] (۲).« استغمز» من مادة« غمز» على وزن« رمز» بمعنى الإضعاف وأيضاً بمعنى الضغط والكلام البذيء والمراد هنا هو المعنى الأوّل.

[۱۲۰۶] (۱). سورة القصص، الآية ۴.

[۱۲۰۷] (۱). انظر: شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ۱۰، ص ۲۱۲- ۲۶۰.

[الجزء الثامن]

الخطبة ۲۰۱

اشارة

يَعِظُ بِسُلُوك الطَّرِيقِ الْواضِحِ ۱]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيرة إلى ثلاثة أمور مهمّة تشكل كلّ واحدة منها جزءاً من هذه الخطبة:

۱. إنّها تدعو السائرين على طريق الحقّ إلى الثقة بالنفس بحيث وألّا يشعروا بوحشة من هذا الطريق رغم قلّة سالكيه.

۲. أشارت إلى أصل اسلامی مهم وهو أنّ الرضا بأعمال الآخرين يجعل الإنسان شريكاً لهم فی تلك الأعمال، وإن لم يكن له من تدخل فی تلك الأعمال.

۳. يوصی بانتخاب طريق الحقّ الواضح والشفاف والبيّن من أجل الوصول

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۶

إلی الهدف والحذر من سلوك الطرق المظلمة الملتوية التی تنتهی إلی الغی والضلال.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۷

أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِی طَرِيقِ الْهُدَی لِقِلَّةِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَی مائِدَة شِبَعُهَا قَصِيرٌ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَی وَالسُّخْطُ. وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَی، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ»[۲] فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِی الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِی التِّيهِ!

الشرح والتفسير: سبيل النجاة

يواسی الإمام عليه السلام- فی هذا الموضع العميق المعنی- السائرين علی النهج أن لا يشعروا قلوبهم أدنی تردّد بسبب قلّة سالكيه، فيقول: «أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِی طَرِيقِ الْهُدَی لِقِلَّةِ أَهْلِهِ».

ثم يشير إلی تبرير ذلك فيقول: «فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَی مائِدَة شِبَعُهَا[۳] قَصِيرٌ، جُوعُهَا طَوِيلٌ». فی إشارة إلی أنّ أهل الطريق القويم إن كانوا قلّة فإنّما يعزی ذلك إلی مغريات الدنيا، فقد شبّه الإمام عليه السلام الدنيا فی هذا الكلام العميق المعنی

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۸

بمائدة الطعام الغناء التی مُلئت بالأطعمة ذات القيمة القليلة أو العديمة القيمة من الناحية الغذائية؛ ولكنّها زيّنت بالبهرجة والزخرف، وقد اجتمع حولها طلّاب الدنيا متناسين أنّ أطعمتها إنّما تشبعهم لأمد قصير يتبعه جوع طويل.

ولعل هذا «الجوع الطويل» إشارة إلی الحزن والحسرة الأبدية التی تطال المتهافتين علی الدنيا عند الموت وبعده وفی مشهد القيامة، ومدی الأسی الذی يعتريهم علی تقصيرهم فی هذه الدنيا.

والواقع أنّ عبارة الإمام عليه السلام هذه العظيمة المعنی هی اقتباس من آيات القرآن الكريم، فقد جاء فی الآية ۱۰۰ من سورة المائدة: «قُلْ لَّا يَسْتَوِی الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَك كَثْرَةُ الْخَبِيثِ».

بالاضافة إلی الآيات التی تتحدّث عن الأكثريّة الجاهلة، عديمة الإيمان، غير العاقلة، الفاسقة، الجاحدة وأمثال ذلك.

ثم ذكر الأمر الثانی؛ الأمر الذی من شأنه حلّ الكثير من المسائل العقائدية والاجتماعية تكمن فی أنّ الذی يميز الجماعات البشريّة، الاتجاهات الفكرية ونوازع القلوب، وإن كانوا أفراداً معينين فی ظرف معين؛ حيث ينضوی معهم كلّ من تضامن معهم فكرياً وارتضاهم قلبياً.

قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَی وَالسُّخْطُ[۴]».

وعليه فليس سبب الاشتراك فی النتيجة مجرّد الاشتراك فی العمل أو إعداد مقدّماته والإعانة علی الإثم فحسب؛ بل يترتب هذا الاشتراك علی الرضی القلبی، ومن هنا وردت صراحة هذه العبارة فی الزيارة: «وَلَعَنَ اللَّه امَّةً سَمِعَتْ بِذلِك فَرَضِيَتْ بِهِ»[۵].

وقد مرّ علینا فی الخطبهٔ الثانیهٔ عشرهٔ التی مضی شرحها فی الجزء الأوّل أنّ

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۹

علیّاً علیه السلام لما سمع أحد أصحابه بعد معرکهٔ الجمل وقد تمنی أن یکون أخوه شهد معهم المعرکهٔ فیشترک معهم فی تحقیق ذلک النصر. فقال له علیه السلام: «فَقَدْ شَهِدنَا، وَ لَقَدْ شَهِدَنا فِی عَسْکَرِنا هذَا أَقْوَامٌ فِی أَصْلابِ الرِّجَالِ، وَ أَرْحَامِ النّسَاءِ، سَیَرْعَفُ بِهِمُ الزَّمانُ وَ یَقْوَی بِهِمُ الْإِیمانُ».

ولعل هذا الکلام یفتح لنا افقاً جدیداً فی المطالعات الإسلامیّهٔ ویحّث الجمیع علی ضرورهٔ مراقبهٔ الروابط القلبیّهٔ والرضی والسخط الباطنی.

ویحظی هذا المطلب بدرجهٔ من الأهمیّهٔ بحیث أشارت إلیه العدید من روایات المعصومین علیهم السلام؛ فقد ذکر المرحوم الشیخ الحر العاملی فی کتاب «الوسائل» فی أبواب الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر باباً تحت عنوان: «وُجُوبُ إنْکارِ الْمُنْکَرِ بِالْقَلْبِ عَلی کُلِّ حال وَتَحْریمُ الرِّضا بِهِ وَوُجُوبُ الرِّضا بِالْمَعْرُوفِ» أورد فیه سبعهٔ عشر حدیثاً بهذا الخصوص؛ ومنها حدیث مفصّل عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام أنّه قال: «لَوْ أنَّ رَجُلًا قُتِلَ بِالْمَشْرِقِ فَرَضِیَ بِقَتْلِهِ رَجُلٌ بِالْمَغْرِبِ لَکانَ الرّاضِی عِنْدَ اللَّه عَزَّوَجَلَّ شَرِیکَ الْقاتِلِ»[۶].

وزبدهٔ القول، لیس مجرّد العمل أو التعاون فی مقدّماته سبب الاشتراک فی النتائج المترتبهٔ علی ذلک العمل فیالشریعهٔ الإسلامیّهٔ فحسب؛ بل للرضا القلبی مثل هذا الأثر.

ثم استشهد الإمام علیه السلام بدلیل محکم من القرآن المجید لإثبات هذه الحقیقهٔ فقال:

وإنّما عقر ناقهٔ ثمود واحد بینما عمّ العذاب جمیع قوم ثمود کونهم رضوا جمیعاً بعمل ذلک الفرد، فقال سبحانه: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِینَ» عقر القوم الناقهٔ فلمّا نزل العذاب ندم الجمیع «وَإِنَّمَا عَقَرَ[۷] نَاقَهَْ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَی، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِینَ»[۸] فَمَا کَانَ إِلَّا أَنْ

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۱۰

خَارَتْ ۹] أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَهِْ خُوَارَ السِّکَّهِْ[۱۰] الْمُحْمَاهِْ[۱۱] فِی الْأَرْضِ الْخَوَّارَهِْ».

یشیر کلام الإمام علیه السلام إلی معجزهٔ صالح علیه السلام، نبی قوم ثمود، فلما طلب منه قومه معجزهٔ، خرجت بقدرهٔ اللَّه ناقهٔ من صخرهٔ فآمنت طائفهٔ بینما أنکر ذلک أغلب القوم، وأوصاهم نبیّهم ألا یتعرضوا لتلک الناقهٔ بسوء فیأخذهم العذاب، فلم یأبهوا بقول النّبی وعمدوا إلی الناقهٔ فعقروها، فأتتهم زلزلهٔ عظیمهٔ فانشقّت الأرض وابتلعت الکفّار وبیوتهم.

والمعروف أنّ قاتل هذه الناقهٔ شقی یدعی «غدّار بن سالف»؛ إلّاأنّ العبارهٔ وردت فی الآیهٔ القرآنیهٔ بصیغهٔ الجمع «فَعَقَرُوهَا»، لأنّهم رضوا جمیعاً بعمله وقد عبّروا عن هذا الرضی من خلال دعوته وتشجیعه علی الإتیان بذلک العمل الشنیع کما ورد ذلک فی الآیهٔ ۲۹ من سورهٔ القمر: «فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَی فَعَقَرَ».

العبارهٔ «خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَهِْ خُوَارَ السِّکَّهِْ الْمُحْمَاهِْ» إشارهٔ إلی أنّ حدیدهٔ المحراث إذا احمیت فی النار انغمرت سریعاً فی الأرض لاسیما فی الأرض الرخوهٔ، نعم، فقد انغمرت منطقتهم وما علیها بهذه السرعهٔ فی جوف الأرض إثر ذلک الزلزال العظیم.

ثم حذّر الإمام علیه السلام فی القسم الثالث من هذه الخطبهٔ، عامّهٔ الناس فقال: «أَیُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَکَ الطَّرِیقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ، وَمَنْ خَالفَ وَقَعَ فِی التِّیهِ ۱۲]!».

المراد من «الطَّرِیقَ الْوَاضِحَ» الطریق الذی عرضه القرآن والسنّهٔ والدلیل العقلی والذی یهدی الناس إلی ماء الحیاهٔ المعنویهٔ وأولئک الذین یضلون الطریق إنّما یحرمون من الهدی ویموتون علی الکفر والإلحاد.

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۱۱

وممّا لا شک فيه أنّ منهج وطريق الإمام عليه السلام أحد مصاديق «الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ» والبينة الواضحة، ذلک لأنّه بمنزلة نفس النّبى وأعلم الأمّة بمنهجه وطريقه، وهذا ما صرّح به الإمام عليه السلام فى الخطبة ۹۷ إذ قال: «و إنّى لَعلى بيّنة مِنْ رَبّىَ ومِنهاج مِنْ نبى وَإنّى لَعلى الطَّريقِ الواضحِ».

ومن البديهى أنّ الإنسان الذى يسير على الطريق القويم المعلوم إنّما يبلغ اثناء الطريق بعض المنازل ذات المياه الوفيرة، ومن يزلّ عن الطريق عادة مايجد نفسه فى الصحارى الجرداء القاحلة فيهلكه العطش.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۳

الخطبة ۲۰۲

اشارة

رُوِىَ عَنْهُ أَنَّهُ قالَهُ عِنْدَ دَفْنِ سَيِّدَةِ النِّساءِ فاطِمَةَ عليها السلام،
كَالْمُناجى بِهِ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه و آله عِنْدَ قَبْرِهِ ۱۳] و[۱۴]

نظرة إلى الخطبة

كلام الإمام عليه السلام هذا بليغ إلى درجة؛ الكلام الذى يعكس حرقة قلب الإمام عليه السلام
نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۴
حين دفنه الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، والذى يتضمن بث الشكوى الأليمة والمفجعة ولوعة الفؤاد التى تعكس شكوى الإمام عليه السلام للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله بشأن مصائب فاطمة الزهراء عليها السلام من جهة ومصابه بسبب فراق الزهراء عليها السلام من جهة أخرى، وجانب من الحقائق التاريخيّة المهمّة فى صدر الإسلام بصورة غير مباشرة؛ لكنّه يعكسها بصيغة بليغة وعميقة وسيرد شرح ذلک فى ختام تفسير هذا الكلام.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۵
السَّلَامُ عَلَيْک يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّى، وَعَنِ ابْنَتِک النَّازِلَةِ فِى جِوَارِک، وَالسَّرِيعَةِ اللِّحَاقِ بِک، قَلَّ، يَا رَسُولَ اللَّه، عَنْ صَفِيَّتِک صَبْرِى، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِى، إلَّا أَنَّ فِى التَّأَسِّى لِى بِعَظِيمِ فُرْقَتِک، وَفَادِحِ مُصِيبَتِک، مَوْضِعَ تَعَزٍّ، فَلَقَدْ وَسَّدْتُک فِى مَلْحُودَةِ قَبْرِک، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِى وَصَدْرِى نَفْسُک، «فَإِنَّا للَّه وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!»[۱۵] فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ! أَمَّا
حُزْنِى فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِى فَمُسَهَّدٌ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّه لِى دَارَک الَّتى أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ. وَسَتُنَبِّئُک ابْنَتُک بتَضَافُرِ أُمَّتِک عَلَى هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ، وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ؛ هذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْک الذِّكْرُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامَ مُوَدِّعٍ، لَا قَالٍ وَلَا سَئِمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ، وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّه الصَّابِرِينَ.

الشرح والتفسير: لوعة على عليه السلام عند قبر الزهراء عليها السلام

قال الإمام عليه السلام هذا الكلام الأليم والمفجع حين وسد بيده الشريفة البدن الطاهر لسيدة النساء الزهراء البتول عليها السلام فى‌القبر، وهوالكلام‌الدال- من جهة- على عظمة‌الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام ومن جهة أخرى مدى لوعة على عليه السلام على فراقها الأليم.

اختار الإمام عليه السلام أروع وأفضل مخاطب فى بيان هذه العبارات؛ أى‌رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ليشكو له ذلك المصاب، فابتدأ كلامه قائلًا: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه عَنِّى، وَعَنِ

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۶

ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِى جِوَارِكَ، وَالسَّرِيعَةِ اللِّحَاقِ بِكَ».

ورغم أنّ مضمون كلام الإمام عليه السلام، شكوى أليمة ومفجعة؛ إلّاأنّ أدب الخطاب يقتضى أن يستهلّه بتحية النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله والسلام عليه.

تفيد العبارة: «النَّازِلَةِ فِى جِوَارِكَ» أنّ قبر سيّدة النساء عند قبر النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وهذا يدعم نظرية من يرى أنّ الزهراء عليها السلام إنّما دفنت فى بيتها.

طبعاً يمكننا أن نعتبر الدفن فى البقيع على أنّه إلى جوار رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أو أن نعتبر المراد بالجوار هو الجوار الروحى والمعنوى فى الجنّة؛ غير أنّ المعنى الأوّل أنسب لظاهر العبارة ويؤيد ذلك العديد من الروايات.

أورد المرحوم الكلينى رواية تقول: إنّ أحد الصحابة أحمد بن محمد بن أبى نصر قال: سألت الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام عن قبر فاطمة عليها السلام فقال: «دُفِنَتْ فى بَيْتِها فَلَمّا زادَتْ بَنُو امَيَّةَ فى الْمَسْجِدِ صارَتْ فِى الْمَسْجِدِ»[۱۶].

العبارة: «السَّرِيعَةِ اللِّحَاقِ بِكَ» إشارة عميقة المعنى لهول مصائب الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام التى ساقتها فى ربيع عنفوان شبابها إلى الدار الأبدية فتكون المدّة التى أعقبت التحاقها بالنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله طبق بعض الروايات ۴۵ يوماً وطبق البعض الآخر ۷۵ يوماً وطبق روايةأخرى ۹۵ يوماً، كما قيل حسب بعض‌الروايات غيرالمشهورة ۴ أشهر و ۶ أشهر وهذا ما سنتطرق له فى مبحث التأملات بالإضافة إلى موضع قبرها.

ثم واصل الإمام عليه السلام خطابه للنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله قائلًا: «قَلَّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ ۱۷] صَبْرِى، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِى ۱۸]، إِلَّا أَنَّ فِى التَّأَسِّى ۱۹] لِى بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ،

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۷

وَفَادِحِ ۲۰] مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ[۲۱]».

يشير إلى أنّ مصيبة الزهراء عليها السلام وإن كانت أليمة للغاية؛ لكنّ ألم مصيبتك كان أعظم وأعمق وتحملها هوّن احتمال هذه المصيبة، قطعاً كان مصاب على عليه السلام برحيل النّبى أعظم، وإن كانت فاطمة الزهراء زوجة عظيمة المنزلة انعدم مثيلها؛ فقد كان النّبى بمنزلة أبى على عليه السلام وإضافة إلى ذلك، كان بالنسبة لعلى القائد والمرشد والمعلم والأستاذ وبالتالى كلّ شىء لعلى، ومن هنا ورد فى الحديث أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام: «يا أَبَا الرَّيْحانَتَيْنِ ... عَنْ قَليلٍ يَنْهَدُّ رُكْناكَ».

ولما توفى رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله قال على عليه السلام: «هذا أَحَدُ رُكْنَىَ الَّذى قالَ لى رَسُولُ اللَّه».

وقال حين استشهدت الصديقة الطاهرة الزهراء عليها السلام: «هذَا الرُّكْنُ الثّانى الَّذى قالَ رَسُولُ اللَّه»[۲۲].

ثم أضاف الإمام عليه السلام فى شرحه لهذا الكلام قائلًا: «فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ ۲۳] فِى مَلْحُودَةِ[۲۴] قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِى وَصَدْرِى نَفْسُكَ، فَ‌ «إِنَّا لِلَّهِوَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»!».

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ «نفس» هنا تعنى الدم (لأنّ أحد معانى النفس هو الدم) وقالوا: إنّ قليلًا من الدم خرج من فم النّبى عند وفاته وجرى على صدر على عليه السلام؛ ولكن هذا المعنى يبدو مستبعداً، على كلّ حال تفيد القرائن (كما تدل الخطبه

۱۹۷) أنّ رأس النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله حين وفاته كان فى حجر على عليه السلام ففاضت روحه الطاهرة فمرّت على صدر على عليه السلام ونحره، رغم ما ذكره بعض

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۸

محدثى العامّة من أنّ عائشة قالت: «كان رأس رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى حجرى لما فاضت روحه»[۲۵]؛ فليس هنالك من دليل معتبر على هذا الكلام ولعله من قبيل العديد من الروايات التى سعوا من خلالها لنسب فضائل على عليه السلام الواحدة تلو الأخرى لغيره.

آنذاك عاد الإمام ثانية لشرح مصيبة الزهراء عليها السلام فخاطب النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله قائلا؛ «فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ! أَمَّا حُزْنِى فَسَرْمَدٌ[۲۶]، وَأَمَّا لَيْلِى فَمُسَهَّدٌ[۲۷]، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللّه لِى دَارَك الَّتى أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ».

هذه العبارة التى تعكس مدى لوعة على عليه السلام إزاء حادثة شهادة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام تشير بوضوح إلى مدى قيمة سيّدة النساء لدى على عليه السلام وعمق الإرتباط العاطفى والمعنوى والروحى بينهما.

التعبير ب «وديعة» إشارة إلى مافعله رسول اللّه صلى الله عليه و آله على أعتاب وفاته حين أخذ بيد فاطمة ووضعها بيد على عليه السلام وقال: «يا أَبَاالْحَسَنِ هذِهِ وَدِيعَةُ اللّهِ وَوَدِيعَةُ رَسُولِهِ عِنْدَك فَاحْفَظَ اللّه وَاحْفَظْنى فيها وَإِنَّك لَفاعِلُهُ»[۲۸].

ويرى البعض أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله قال ذلك ليلة زفاف الزهراء عليها السلام، وذهب بعض الشرّاح إلى أنّ التعبير بالوديعة هنا يشير إلى أنّ أرواح الناس فى الأبدان شبيهة بالوديعة والأمانة التى تسترد عند الوفاة، إلّاأنّ هذا التفسير يبدو مستبعداً هنا.

ويمكن أن يكون التعبير ب «الرهينة» حيث إنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أخذ من على عليه السلام عهد الخلافة والوصاية والوفاء وكانت كريمته الزهراء عليها السلام رهينة إزاء ذلك.

وقد استعمل هذا التعبير كون الصديقة أعظم نعمة من اللّه على على عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۹

وتفسير العبارة: «أَمّا حُزِنى فَسَرْمَدٌ» واضح، فالإمام عليه السلام لا يكاد يذكر البتول حتى تتجدد أحزانه وآلامه وهو الحزن الذى خيم على جميع تفاصيل حياة الإمام على عليه السلام.

والعبارة: «وَأَمَّا لَيْلِى فَمُسَهَّدٌ» كناية عن أنّى أعيش أغلب الليالى على ذكر تلك الصديقة الطاهرة، وأنّ ذكرها ليسلب من عينىَّ النعاس، وخير شاهد على ذلك الأشعار التى أنشدها بعد فراق فاطمة الزهراء عليها السلام:

نَفْسى عَلى زَفَراتِها مَحْبُوسَةٌيا لَيْتَها خَرَجَتْ مَعَ الزَّفَراتِ

لا خَيْرَ بَعْدَكَ فِى الْحَياةِ وَإِنَّماأَبْكى مَخافَةَ أَنْ تَطُولَ حَياتى ۲۹]

آنذاك أشار الإمام عليه السلام إلى جانب من مصائب فاطمة الزهراء عليها السلام المفجعة فقال:

«وَسَتُنَبِّئُك ابْنَتُك بِتَضَافُرِ أُمَّتِك عَلَى هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا[۳۰] السُّؤَالَ، وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ؛ هذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْك الذِّكْرُ».

الظاهر أنّ هذه العبارات المقتضبة من أميرالمؤمنين على عليه السلام بغية رعاية الأدب عند قبر النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فلا يخوض فيها ولا يشرحها، والتى تشير إلى الأحداث المأساوية التى أعقبت رحيل النّبى؛ من قبيل الهجوم على بيت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهرا عليها السلام، وإضرام النار فى البيت، وإسقاط جنينها المحسن وحمل الإمام على عليه السلام إلى المسجد بالقوّة من أجل البيعة وهذا ما سنتناوله فى ختام هذا البحث، وهى الأحداث التى لم ترد بصيغة مركزة فى مصادر الإماميّة والعجيب أنّها ذكرت صراحة فى مصادر العامّة.

والمفردة «تضافر» من مادة «ضفر» (على وزن ضعف) تعنى التعاون والتعاضد للقيام بعمل، إشارة إلى أنّ فئة من الامّة كانت شريكة فى ارتكاب تلك الجرائم، ولما كان الأعم الأغلب قد لاذ بالصمت الذى يعنى تأييد ذلك الفعل نسب إلى جميع

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۰

الأمّة، و «هضم» تعنى فى الأصل الظلم والكسر، والمفردة «عهد» هنا بمعنى الزمان ولها معانٍ أخرى.

كما يحتمل أن يكون المراد من هذا العهد هو العهد الذى أخذه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بشأن خلافة على عليه السلام وحفظ حرمة أهل البيت عليهم السلام ولاسيما ابنته الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام وجعلهم عدل القرآن بمقتضى حديث الثقلين وأمثال ذلك؛ أى‌لم تمض مدّة طويلة على تلك العهود حتى نسيت طائفة من الامّة كلّ شىء وإرتكبت أفظع الجرائم التى تذهل العقول.

ثم اختتم خطبته مخاطباً النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وفاطمة الزهراء عليها السلام قائلًا: «وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامَ مُوَدِّع، لَا قَال [۳۱] وَلَا سَئِم [۳۲]، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَة، وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّه الصَّابِرِينَ».

ورد فى رواية «الكافى» فى ذيل هذا الكلام: «واه واهاً وَالصَّبْرُ أَيْمَنُ وَأجْمَلُ وَلَوْ لا غَلَبَةُ الْمُسْتَوْلينَ لَجَعَلْتُ الْمَقامَ وَاللَّبْثَ لِزاماً مَعْكُوفاً وَلأَعْوَلْتُ إعْوالَ الثَّكْلى عَلى جَليلِ الرَّزيَّةِ فَبِعَيْنِ اللَّه تُدْفَنُ ابْنَتُك سِرّاً وَتُهْضَمُ حَقَّها وَتُمْنَعُ إرْثَها وَلَمْ يَتَباعَدِ الْعَهْدُ وَلَمْ يَخْلُقْ مِنْك الذِّكْرُ وَإلَى اللَّه يا رَسُولَ اللَّه الْمُشْتَكى وَفيك يا رَسُولَ اللَّه أحْسَنَ الْعَزاء وَصَلَّى اللَّه عَلَيْك وَعَلَيْها السَّلامُ وَالرِّضْوانُ»[۳۳].

ويتضح بجلاء من هذه العبارات وما ورد فى «نهج البلاغة» مدى شدّة المصائب التى جرّعها الفسقة أهل البيت عليهم السلام وبضعة النّبى صلى الله عليه و آله عقب تلك المدّة الوجيزة بعد رحيل النّبى صلى الله عليه و آله والتى هزّت عليّاً عليه السلام بصفته جبل الحلم والصبر وجعلته يبكى بكاء الثكلى، والعجيب أنّ أسناد ذلك الهجوم البربرى على بيت الرسالة ورد فى مصادر العامّة بصورة مستفيضة.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۱

تأمّلات

اشارة

برغم قصر المدّة التى عاشتها فاطمة الزهراء، الصديقة الطاهرة سيّدة نساء العالمين؛ غير أنّ سيرتها وفضائلها ومناقبها ومصائبها طويلة للغاية، وقد أشار بعض شرّاح نهج البلاغة إلى جانب من ذلك حين تعرضوا لشرح هذه الخطبة، ومن الضرورى أن نشير بدورنا إلى بعض الأمور:

۱. فاطمة الزهراء عليها السلام على لسان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله

تتمتع الصديقة الطاهرة بنت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بمنزلة رفيعة، وتتضح عصمتها من الذنوب من خلال ما ورد فيها من أحاديث النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث قال فيها:

«فاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنّى فَمَنْ أَغْضَبَها أَغْضَبَنى»[۳۴].

ومن الواضح أنّ غضب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مدعاة لأذاه وقد صرّح القرآن الكريم بشأن مَن يؤذيه قائلًا:

«وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّه لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»[۳۵].

وليت شعرى أى‌دليل أدل على فضيلتها وعصمتها من حديث النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله الذى نص على أنّ رضاها رضى اللَّه وغضبها غضبه سبحانه فقال:

«يا فاطِمَةُ إنَّ اللَّه يَغْضَبُ لِغَضَبِك وَيَرْضى لِرِضاك»[۳۶].

ولتمتعها بهذه المنزلة العظيمة فهى سيّدة نساء العالمين فقال لها النّبى صلى الله عليه و آله:

«يا فاطِمَةُ! أَلا تَرْضينَ أنْ تَكُونى سَيِّدَةَ نِساءِ الْعالَمينَ، وَسَيِّدَةَ نِساءِ هذِهِ الامَّةِ وَسَيِّدَةَ نِساءِ الْمُؤْمِنينَ»[۳۷].

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۲

۲. حرمة بيت الزهراء عليها السلام فى القرآن والسنّة

قال المحدّثون: لما نزلت الآية المباركة: «فِى بُيُوت أذنَ اللَّه أنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ»[۳۸]. قرأ رسول اللَّه هـذه الآية: «فى بُيُوتِ أذنَ اللَّه أنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيها اسْمُهُ» فقام إِلَيْهِ رَجُلٌ: فَقالَ: أَيُّ بُيُوت هذِهِ يا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه و آله؟ قالَ: بُيُوتُ الأَنْبِياءِ.

فَقامَ إِلَيْهِ أَبُوبَكْرٍ، فَقالَ يا رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه و آله: أَهذَا الْبَيْتُ مِنْها، مُشيراً إِلى بَيْتِ عَلِيٍّ وَفاطِمَةَ عليها السلام.

قالَ صلى الله عليه و آله: نَعَمْ، مِنْ أَفاضِلِها[۳۹].

كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يمرّ تسعة أشهر على بيت فاطمة فيسلم عليها وعلى على عليه السلام ۴۰] ويقرأ هـذه الآية: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّه لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»[۴۱].

البيت الذى كان مركز النور الإلهى وقد أمر اللَّه أن يرفع إنّما يتمتع بحرمة عظيمة.

نعم البيت الذى يضم أصحاب الكساء ويثنى اللَّه تبارك وتعالى عليه لابدّ أن يحظى باحترام قاطبة المسلمين.

وهنا لابدّ أن نرى كيفية التعامل مع حرمة ذلك البيت عقب وفاة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله؟

وكيف هتكت حرمة ذلك البيت، وقد اعترفوا أنفسهم بذلك صراحة؟

ومن هم أولئك الذين انتهكوا الحرمات، وماذا كان هدفهم؟

۳. انتهاك حرمة بيت الزهراء عليها السلام

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۳

للأسف رغم كلّ هـذه الوصايا والتأكيدات فإنّ البعض تجاهل هذه الحرمة وانتهكها، وهذه ليست بالمسألة الهينة التى يمكن التغاضى عنها.

وسنذكر هنا نصوصاً من مصادر العامّة ليتضح من خلالها أنّ انتهاك حرمة بيت الزهراء عليها السلام وما تبعه من أحداث، قضية تاريخيّة ومسلّمة؛ وليست خرافة! ورغم الضغوط الشديدة فى عصر الخلفاء إزاء ذكر وتدوين فضائل ومناقب أهل البيت عليهم السلام إلّاأنّ «الشمس لا تحجب بالغربال» فلم تحجب هـذه الحقيقة التى بقيت حيّة فى بطون كتب التاريخ والحديث، وسنراعى الترتيب الزمانى فى عرض الوثائق منذ القرون الأولى حتى العصر الحاضر.

الف) ابن أبى شيبة، المحدّث المعروف لدى العامّة فى كتاب «المصنّف»

قال أبوبكر بن أبى‌شيبة (۱۵۹– ۲۳۵) مؤلف كتاب «المصنّف» بسند صحيح:

«إِنَّهُ حينَ بُويِعَ لأَبى بَكْر بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله كانَ عَلِىٌّ وَالزُّبَيْرُ يَدْخُلانِ عَلى فاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّه، فَيُشاوِرونَها وَيَرْتَجِعُونَ فى أَمْرِهِم. فَلَمّا بَلَغَ ذلِكَ عُمَرَ بنَ الْخَطّابِ خَرَجَ وَدَخَلَ عَلى فاطِمَةَ، فَقالَ: يا بِنْتَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله وَاللَّهِ ما أَحِدٌ أَحَبُّ إِلَيْنا مِنْ أَبِيك وَما مِنْ أَحَد أَحَبُّ إِلَيْنا بَعْدَ أَبِيك مِنْك، وَأَيْمُ اللَّه ما ذاك بِمانِعى إِنِ اجْتَمَعَ هؤلاءِ النَّفَرُ عِنْدَك أَنْ أَمَرْتُهُمْ أَنْ يُحْرَقَ عَلَيْهِمُ الْبَيْتُ.

قالَ: فَلَمّا خَرَجَ عُمَرُ جاؤُوها، فَقالَتْ: تَعْلَمُونَ أَنَّ عَمَرَ قَدْ جاءَنى، وَقَدْ حَلَفَ بِاللَّه لَئِنْ عُدْتُم لَيَحرِقَنَّ عَلَيْكُمُ الْبَيْتَ، وَأَيْمُ اللَّه لَيُمِضَيَنَّ لِما

حَلَفَ عَلَيْهِ»[۴۲].

وقد وردت هذه الحادثة بسند صحيح فى كتاب «المصنّف».

ب) البلاذرى، المحدّث الكبير عند العامّة فى كتاب «أنساب الاشراف»

روى أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى البلاذرى (م ۲۷۰) صاحب التاريخ المعروف، هذه الحادثة التاريخيّة فى كتابه «أنساب الأشراف» قائلًا:

«إنَّ أَبابَكر أَرْسَلَ إلى عَليٍّ يُريدُ الْبَيْعَةَ فَلَمْ يُبايِعْ، فَجاءَ عُمَرُ وَمَعَهُ فَتيلة! فَتَلَقَّتْهُ

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۲۴

فاطِمَةُ عَلَى الْبابِ.

فَقالَتْ فاطِمَةُ: يَا ابْنَ الْخَطّاب، أَتَراك مُحْرِقاً عَلَىَّ بابى؟ قالَ: نَعَمْ، وَذلِك أَقْوى فيما جاءَ بِهِ أَبُوك ....»[۴۳].

ج) ابن قتيبة وكتاب «الإمامة والسياسة»

المؤرّخ الشهير عبداللَّه بن مسلم بن قتيبة الدينورى (۲۱۲- ۲۷۶) من أساطين الأدب، وكتاب التاريخ الإسلامى ومؤلف كتاب (تأويل مختلف الحديث)، (أدب الكاتب) و ....[۴۴] قال فى كتاب «الإمامة والسياسة»:

«إنّ أبابَكْر (رض) تَفَقَّدَ قَوْماً تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَتِهِ عِنْدَ عَلىّ كَرَّمَ اللَّه وَجْهَهُ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عُمَرَ فَجاءَ فَناداهُمْ وَهُمْ فى دارِ عَلىٍّ، فَأَبَوْا أنْ يَخْرُجُوا فَدَعا بِالْحَطَب وَقالَ:

وَالَّذى نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَتَخْرُجَنَّ أَوْ لَأُحْرِقَنَّها عَلى مَنْ فيها، فَقيلَ لَهُ: يا أبا حَفص إنَّ فيها فاطِمَةَ. فَقالَ: وَإنْ!»[۴۵].

وأضاف ابن قتيبة عقب ذكره لهذه الحادثة البشعة والمؤلمة فقال:

«ثُمَّ قامَ عُمَرُ فَمَشى مَعَهُ جَماعَةٌ حَتّى أَتَوْا فاطِمَةَ فَدقُّوا الْبابَ فَلَمّا سَمِعَتْ أصْواتَهُم نادَتْ بِأَعْلى صَوْتِها يا أَبَتاهُ يا رَسُولَ اللَّه ماذا لَقينا بَعْدَك مِنْ ابنِ الْخَطّابِ وَابنِ أبىقُحافة فَلَمّا سَمِعَ الْقَوْمُ صَوْتَها وَبُكاءَها انْصَرَفُوا وَبَقِىَ عُمَرُ وَمَعَهُ قَوْمٌ فَأَخْرَجُوا عَلَيّاً فَمَضَوْا بِهِ إلى أبى بَكْر فَقالُوا لَهُ: بايِعْ، فَقالَ: إنْ أَنَا لَمْ أَفْعَلْ فَمَه؟

فَقالُوا: إذاً وَاللَّه الَّذى لا إلهَ إلّا هُوَ نَضْرِبُ عُنُقَك ...!»[۴۶].

طبعاً يصعب جدّاً هضم هذه الحقبة من التاريخ على بعض الموالين للشيخين، لذلك سعى البعض للتشكيك فى نسب هذا الكتاب لابن قتيبة، فى حين يراه ابن

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۲۵

أبىالحديد الأستاذ البارع فى التاريخ، أنّه من كتبه وقد روى منه العديد من المطالب، والمؤسف أنّ هذا الكتاب طالته يد التحريف وحذفت بعض مواضيعه عند الطباعة، بينما وردت نفس تلك المطالب فى «شرح نهج البلاغة» لابن أبى الحديد المعتزلى.

وعدّه الزركلى فى كتاب «الأعلام»، من آثار ابن قتيبة وقال: هنالك رأى للعلماء فى هذه النسبة؛ أىأنّه ينسب الشك إلى الآخرين وليس لنفسه، كما يراه إلياس سركيس من كتب ابن قتيبة[۴۷].

د) الطبرى وتاريخه

ذكر محمد بن جرير الطبرى (م ۳۱۰) فى تاريخه حادثة هتك حرمة بيت الوحى فقال:

«أتى عُمَرُ بنُ الْخَطّاب مَنْزِلَ عَلىٍّ وَفيهِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَرِجالٌ مِنَ الْمُهاجِرينَ، فَقالَ: وَاللَّه لَاحْرِقَنَّ عَلَيْكُمْ أوْ لَتَخْرُجَنَّ إلى الْبَيْعَةِ، فَخَرَج عَلَيْهِ الزُّبيرُ مُصْلِتاً بِالسَّيْفِ فَعَثَرَ فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَوَثَبُوا عَلَيْهِ فَأَخَذُوهُ»[۴۸].

تفيد هذه الحقبة التاريخيّة أنّ أخذ البيعة للخليفة تمّ فى ظلّ التهديد والوعيد وأمّا قيمة مثل هذه البيعة فمتروكة لإنصاف القراء الأعزاء.

ه) ابن عبد ربه وكتاب «العقد الفريد»

أورد شهاب الدين أحمد المعروف ب (ابن عبد ربه الأندلسی) مؤلف كتاب (العقد الفريد) (م ۴۶۳) بحثا مسهباً فی كتابه بشأن تاريخ السقيفة، فقد قال فی فصل من تخلف عن بيعة أبی‌بكر:

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۶

«فَأمّا عَلیٌّ وَالْعَبّاسُ وَالزُّبَيرُ فَقَعَدُوا فِی بَيْتِ فاطِمَةَ حَتّی بَعَثَ إِلَيْهِمْ أَبُوبَكْر، عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ بَيْتِ فاطِمَةَ وَقالَ لَهُ: إنْ أَبَوْا فَقاتِلْهُمْ، فَأَقْبَلَ بِقَبَس مِنْ نار أَنْ يُضرِمَ عَلَيْهِمُ الدّارَ، فَلَقِيَتْهُ فاطِمَةُ فَقالَتْ لَهُ: يا ابْنَ الْخَطّابِ أَجِئْتَ لِتُحْرِقَ دارَنا؟! قالَ: نِعَمْ، أوْ تَدْخُلُوا فيما دَخَلَتْ فيهِ الأُمَّةُ!»[۴۹].

تمّ إلی هنا الفصل الذی صرّح فيه بالعزم علی انتهاک الحرمة، ونخوض الآن فی الفصل الثانی الذی يفيد التطبيق العملی لنيّة السوء المبيتة، والحذر من الاعتقاد بأنّ نيّة القوم كانت تقتصر علی التهديد والوعيد ليجبروا علياً عليه السلام وصحبه علی البيعة وأنّهم لم يكونوا يفكرون بتفعيل ذلک التهديد.

وقوع الهجوم

انتهی إلی هنا كلام تلک الطائفة من المؤرّخين الذين اقتصروا علی الإشارة إلی سوء نيّة الخليفة وبطانته، الطائفة التی لم ترد أو لم تستطع عكس الفصول القادمة لتلک الفاجعة بصورة واضحة، فی حين أشار البعض الآخر إلی أصل الجريمة؛ أی الهجوم علی البيت و ... وإليک الآن وثائق الهجوم وانتهاک حرمة بيت الرسالة والوحی، بيت فاطمة الزهراء عليها السلام: (وسنراعی فی هذا الفصل أيضاً الترتيب الزمانی فی نقل المصادر).

و) أبوعبيد وكتاب «الأموال»

قال أبوعبيد، قاسم بن سلام (م ۲۲۴) فی كتابه (الأموال) الموثق عند العامّة:

«قال عبدالرّحمن بن عوف: عدت أبابكر فی مرضه فی بيته، فقال بعد كلام طويل: وددت أنی لم أفعل ثلاثاً كنت فعلتهنّ، كما وددت أنی سألت النّبی عن ثلاث؛ وإحدی الثلاث التی فعلتها ووددت أنّی لم أفعلها: «وَدَدْتُ أنّی لَمْ أكْشِفْ

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۷

بَيْتَ فاطِمَةَ وَتَرَكْتُهُ وَإنْ أُغْلِقَ عَلَی الْحَرْبِ»[۵۰].

قال أبوعبيد لما بلغ هذا الموضع بدلًا من العبارة: «لم أكشف بيت فاطمة وتركته ...»: «كذا وكذا» وقال، لا أود ذكره!

ورغم امتناع أبی عبيد، عن ذكر الحقيقة بسبب تعصبه المذهبی أو لعلة أخری؛ غير أنّ المحقّقين لكتاب الأموال قالوا فی الحاشية: وردت العبارة المحذوفة فی كتاب ميزان الاعتدال، كما ذكر الطبرانی تلک العبارة فی معجمه وابن عبد ربّه فی العقد الفريد، وغيرهم من المؤرخين. (لابدّ من الدقّة!).

ز) الطبرانی و «المعجم الكبير»

أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانی (۲۶۰- ۳۶۰) الذی عدّه الذهبی فی ميزان الاعتدال ثقة[۵۱]. حيث تحدّث فی كتاب (المعجم الكبير) الذی طبع كراراً عن أبی بكر ووفاته:

ود أبوبكر عند وفاته أموراً فقال: وددت أنّی لم أفعل ثلاثاً وفعلت ثلاثاً وسألت رسول اللّه عن ثلاث: «أمّا الثّلاثُ اللّائی وَدَدْتُ أنّی لَمْ أَفْعَلْهُنَّ، فَوَدَدْتُ أنّی لَمْ أَكُنْ أكْشِفُ بَيْتَ فاطِمَةَ وَتَرَكْتُهُ ...»[۵۲].

تفيد هذه العبارات أنّ تهديدات عمر دخلت حيز التنفيذ وفتح باب الدار بالقوّة (أو بالنار).

ح) أيضاً ابن عبد ربّه و «العقد الفريد»

روی ابن عبد ربّه الأندلسی مؤلف كتاب العقد الفريد (م ۴۶۳) فی كتابه عن

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۸

عبدالرحمن بن عوف:

«دَخِلتُ عَلى أبِى بَكرٍ فِى مَرضِهِ فَقَالَ: وَدَدّتُ أنّى لَم أفعَل ثَلاثاً إحدَاها:

وَدَدْتُ أنّى لَمْ أكْشِفْ بَيْتَ فاطِمَةَ عَنْ شيء وَإنْ كانُوا أغْلَقُوهُ عَلَى الْحَرْبِ»[۵۳].

وسيرد علينا أسماء وعبارات سائر الشخصيات الذين نقلوا هذا القسم من كلام الخليفة.

ط) كلام النظّام فى كتاب «الوافى بالوفيات»

إبراهيم بن سيار النظّام المعتزلى (۱۶۰- ۲۳۱) الذى لقب بالنظّام لجمال كلامه فى النظم والنثر، نقل فى عدّة كتب تفاصيل الواقعة بعد الوقوف على بيت فاطمة الزهراء عليها السلام. فقال:

«إنَّ عُمَرَ ضَرَبَ بَطْنَ فاطِمَةَ يَوْمَ الْبَيْعَةِ حَتّى ألْقَتِ الْمُحْسِنَ مِنْ بَطْنِها»[۵۴].

ى) المبرّد فى كتاب «الكامل»

كتب ابن أبى الحديد: روى الأديب المعروف صاحب المؤلفات المشهورة محمد بن يزيد بن عبدالأكبر البغدادى (۲۱۰- ۲۸۵) فى كتاب «الكامل» عن عبدالرحمن بن عوف، قصّة أمانى الخليفة فقال:

«وَدَدْتُ أنّى لَمْ أكُنْ كَشَفْتُ عَنْ بَيْتِ فاطِمَةَ وَتَرَكْتُهُ وَلَوْ أُغْلِقَ عَلَى الْحَرْبِ»[۵۵].

ك) المسعودى و «مروج الذهب»

كتب المسعودى (م ۳۲۵) فى «مروج الذهب»: لما حضرت أبابكر الوفاة قال:

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۲۹

فعلت ثلاثاً تمنيت أنّى لم أفعلها:

«فَوَدَدْتُ أنّى لَمْ أكُنْ فَتَّشْتُ بَيْتَ فاطِمَةَ» وَذَكَرَ فى ذلِك كَلاماً كَثيراً!!![۵۶].

ورغم اعتقاد المسعودى بأهل البيت؛ لكنه امتنع هنا عن التعرض لكلام الخليفة ومرّ عليه على نحو الكناية، وبالطبع فإنّ اللّه يعلم السبب وعباد اللّه أيضاً يعلمونه إجمالًا!

ل) الذهبى وكتاب «ميزان الاعتدال»

روى الذهبى فى كتاب «ميزان الاعتدال» عن الحافظ محمّد بن أحمد الكوفى أنّه قرأ هذا الخبر على أحمد بن محمّد المعروف ب (ابن أبى دارم)، المحدّث الكوفى (م ۳۵۷):

«إنّ عُمَرَ رَفَسَ فاطِمَةَ حَتّى أسْقَطَتْ بِمُحْسِن!»[۵۷].

م) عبدالفتاح عبدالمقصود وكتاب «الإمام على»

فقد ذكر الهجوم على بيت الرسالة فى موضعين من كتابه ونكتفى بنقل أحدهما:

قال عمر: «وَالّذى نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَيَخْرُجَنَّ أوْ لَاحْرِقَنّها عَلى مَنْ فِيها ...! قالَتْ لَهُ طَائِفَةٌ خافتْ اللّهَ وَرَعتْ الرّسُولَ فِى عَقِبِهِ: يا أباحَفْص، إنَّ فِيها فاطِمَةَ ...»!

فَصاحَ لايُبالى: وإن ...! وَاقْتَرَبَ وَقَرَعَ الْباب، ثُمَّ ضَرَبَهُ وَاقْتَحَمَهُ ... وَبَدا لَهُ عَلىّ ... وَرَنَّ حينَذاك صَوْتُ الزَّهْراءِ عِنْدَ مَدْخَلِ الدّارِ ... فَإنْ هِىَ إلّاطَنينَ اسْتِغاثَة ...!»[۵۸].

ونختتم هذا البحث برواية أخرى عن مقاتل بن عطيّة فى كتاب الإمامة والخلافة (وإن كان هنالك الكثير الذى يقال!).

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۳۰

حيث ذكر فى هذا الكتاب:

«إنّ أبابكر بَعْدَ ما أَخَذَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ مِنَ النّاسِ بِالإرْهابِ وَالسَّيْفِ وَالْقُوَّةِ أرْسَلَ عُمَرَ وَقُنْفُذاً وَجَماعَةً إلى دارِ عَلىّ وَفاطِمَةَ عليهما السلام

وَجَمَعَ عُمَرُ الْحَطَبَ عَلى دارِ فاطِمَةَ وَأَحْرَق بابَ الدّارِ! ...»[۵۹].

وردت فی ذیل هذه الروایهٔ عبارات یعجز القلم عن بیانها.

النتیجهٔ

بالرغم من کلّ هذه الوثائق الواضحهٔ وأغلبها من مصادر العامّهٔ مازال هناک البعض الذی یستعمل عبارهٔ «اسطورهٔ الشهادهٔ» ویؤمن بأنّ هذه الحادثهٔ المریرهٔ مصطنعهٔ! ولولا إصرار هذا البعض علی نفی هذه الحقائق لما أسهبنا إلی هذا الحد فی البحث.

۴. القبر الطاهر لفاطمهٔ الزهراء علیها السلام

إن إحدی المصائب العظیمهٔ لبضعهٔ النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّ قبرها الشریف مازال مجهولًا لحدّ الآن؛ ویری البعض وحسب طائفهٔ من الروایات أنّها دفنت فی البقیع، والبعض الآخر أنّها دفنت فی بیتها إلی جانب مسجد النّبی، وآخرون أنّها دفنت فی الروضهٔ (المسافهٔ الواقعهٔ بین قبر النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله ومنبره الشریف).

وهذا المطلب یحمل کلّ محقق علی التفکیر، تری، ما العاصفهٔ التی اعترت الامّهٔ بعد رسول اللّٰه صلی الله علیه و آله لیخفی القبر الطاهر لبضعهٔ النّبی الوحیدهٔ؟ وإن دلّت أغلب القرائن علی دفنها فی بیتها، فالدفن فی الروضهٔ لم یکن هیناً آنذاک ومن المستبعد أن یرضی علی علیه السلام بهذا العمل، کما لا ینسجم دفنها فی البقیع وما ورد فی هذه الخطبهٔ، لأن

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۳۱

العبارهٔ: «النّازِلَهِٔ فِی جَوارِکَ» تشیر إلی أنّ قبرها علیها السلام کان جوار قبر النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله.

روی المرحوم العلّامهٔ المجلسی عن إبراهیم بن محمّد الهمدانی أنّه قال: کتبت للإمام الهادی (علی بن محمّد النقی علیهما السلام) أخبرنی عن قبر فاطمهٔ علیها السلام! فکتب إلیَّ:

«هِیَ مَعَ جَدّی صَلَواتُ اللّٰه عَلَیْهِ وَآلِهِ»[۶۰].

قال المرحوم الصدوق: الصحیح عندی أنّها دفنت فی بیتها وحین زاد بنو امیهٔ فی المسجد أصبحت جزءً منه ۶۱].

ورغم أنّ قبر النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله وسائر القبور هی داخل المسجد؛ ولکنه عزل عن المسجد بواسطهٔ الجدران والشبابیک.

روی فی کتاب «عیون أخبار الرضا علیه السلام» عن البزنطی قال: «سألت الرضا عن قبر فاطمهٔ؛ قال:

«دُفِنَتْ فی بَیْتِها فَلَمّا زادَتْ بَنُو امَیَّهَٔ فی الْمَسْجِدِ صارَتْ فِی الْمَسْجِدِ»[۶۲].

وعلیه فکلّ من یقف عند قبر النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی الروضهٔ المقدّسهٔ ویزور فاطمهٔ الزهراء علیها السلام فإنّه ینال إن شاء اللّٰه فضیلهٔ زیارتها عن قرب، کما یمکن زیارتها فی البقیع برجاء المطلوبیهٔ.

۵. زمان شهادهٔ بضعهٔ النّبی

لم یقتصر الخلاف علی موضع دفن بضعهٔ النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله فحسب، بل هنالک خلاف حتی فی تاریخ وفاتها.

ففی الروایهٔ المعروفهٔ عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال:

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۳۲

«إنَّ فاطِمَهَٔ علیها السلام مَکَثَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللّٰهِ صلی الله علیه و آله خَمْسَهًٔ وَسَبْعینَ یَوْماً».

وورد فی ذیل هذه الروایهٔ:

«کانَ سَبَبُ فَوْتِها أَنَّ قُنْفُذَ مَوْلی عُمَرَ لَکَزَها بِنَعْلِ السَّیْفِ بِأَمْرِهِ فَأَسْقَطَتْ مُحسِناً وَمَرِضَتْ مِنْ ذلِک مَرَضاً شَدیداً»[۶۳].

وبالنظر إلى أن وفاة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله كانت فى ۲۸ صفر فإنّ شهادتها لابدّ أن تكون فى أحد هذه الأيّام الثلاثة؛ الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر من جمادى الأولى (مع الأخذ بنظر الاعتبار احتمال تمامية أو نقصان الأشهر الوسط).

وورد فى رواية أخرى أنّ الصديقة الطاهرة فاطمة عليها السلام توفيت يوم الثلاثاء الثالث من جمادى الآخرة السنة الحادية عشرة للهجرة[۶۴] وتنسجم هذه الرواية مع الرأى القائل أنّ فاطمة الزهراء عليها السلام عاشت بعد أبيها ۹۵ يوماً.

وعدّ المرحوم العلّامة المجلسى فى «زاد المعاد» هذا القول بشأن زمان وفاة الزهراء عليها السلام، معتبراً وقال: وهذا مقبول الشيخ الطوسى والسيّد ابن طاووس وآخرين، ورغم منافاة هذه الرواية مع رواية ال ۷۵ يوماً؛ ولكن حيث تعززها رواية مشهورة ومعتبرة، فلابدّ من إقامة مراسم العزاء على الصديقة الطاهرة فى اليوم الثالث من جمادى الثانية[۶۵].

كما ورد فى رواية غير مشهورة أنّها عاشت بعد وفاة رسول اللّه صلى الله عليه و آله ۴۰ يوماً[۶۶].

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۳

الخطبة ۲۰۳

اشارة

فِى التَّزْهيدِ مِنَ الدُّنْيا وَالتَّرْغيبِ فِى الآخِرَةِ[۶۷]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة القصيرة والعميقة المعانى إلى بضعة أمور:

۱. أنّ الدنيا دار ممر ليس أكثر وأنّ الآخرة هى مقرّ الإنسان الأبدى ولابدّ من التزود من الممر لدار المقرّ.

۲. ينبغى للإنسان أن يحلق بروحه خارج الدنيا قبل أن يزول جسده.

۳. الدنيا دار امتحان ومسرح ابتلاء.

۴. إنّ الناس ينظرون إلى أموال الإنسان التى يخلفها حين يغادر الدنيا بينما تنظر الملائكة إلى أعماله.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۵

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَاز، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَار، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ، فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ للّه آبَاؤُكُمْ! فَقَدِّمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ قَرْضاً، وَلَا تُخْلِفُوا كُلًّا فَيَكُونَ فَرْضاً عَلَيْكُمْ.

الشرح والتفسير الدنيا ممرّ

أشار الإمام عليه السلام فى بداية هذه الخطبة إلى مسألة مهمّة بشأن حقيقة الدنيا والآخرة حيث تعدّ الغفلة عنها مصدر شقاء الإنسان وتعاساته، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَاز[۶۸]، وَالأخِرَةُ دَارُ قَرَار، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ».

إنّ أغلب المشاكل تنبع من كون الإنسان يرى الدنيا دار بقاء، ومن هنا ينهمك بجمع المال والثروة عن أى طريق ومهما كلّف الأمر، ويبخل بها إزاء صرفها فى الأمور الخيرية، ولذلك يرتكب العديد من الأفعال السيئة ويسوّف التوبة، وقد وردت هذه الحقيقة بعدّة تعبيرات فى الروايات لتعتبر الدنيا أحياناً:

«الدنيا قنطرة»[۶۹]، وأخرى: «مَتْجَرُ أوْلِياءِ اللّه»[۷۰]، وتارة «الدُّنْيا مَزْرَعَةُ

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۶

الآخِرَةِ»[۷۱] والتى تفيد جميعاً ذات المعنى.

ثم أشار فى هذا السياق إلى أمر آخر فقال: «وَ لَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ».

يرى أغلب الشرّاح أنّ هذه العبارة تشير إلى عدم التجاهر بالمعصية، لأنّ المعصية الخفية فى الواقع معصية واحدة، بينما تعتبر المعصية العلنية مضاعفة كونها انتهاك للستار وتلويث للبيئة الاجتماعية؛ إلّاأنّ بعض الشرّاح اعتبرها إشارة إلى أعمال الخير فإنّها أفضل أن يؤتى بها فى الخفاء، والحال العبارة (وَلا تَهْتِكُوا) لا تتناسب مع هذا المعنى.

على كلّ حال فإنّ اللّه ستّار العيوب وغفّار الذنوب؛ فمادام العبد لا يهتك الستر فإنّ اللّه يستر العيب والذنب.

فقد ورد فى الحديث عن أميرالمؤمنين على عليه السلام: «ما مِنْ عَبْد إلّاوَعَلَيْهِ أرْبَعُونَ جُنّة حَتّى يَعْمَلَ أرْبَعينَ كَبيرَة فَإذا عَمِلَ أرْبَعينَ كَبيرَة انْكَشَفَتْ عَنْهُ الجُنَنْ». ثم قال الإمام عليه السلام مواصلًا كلامه: «فَيوحِى اللّهُ إلَيهَم أنْ استُروا عَلى عَبدِى بِأجْنِحَتِكُم فَتَستُرُهُ المَلائِكةُ بِأجنِحَتِها، قَالَ: فَما يَدع شَيئاً مِنَ القَبيحِ إلّاقَارَفَهُ حَتّى يَمتَدِحَ إلى النّاسَ بِفِعْلِهِ القَبيحَ، فَيقَولُ المَلائكةُ: ياربّ هَذا عَبدُكَ ما يَدعُ شَيئاً إلّاركِبَهُ، وَإنّا لَنستَحى مِمّا يَصنَعُ، فَيُوحِى اللّهُ عزّ وجلّ إلَيهم أنْ ارفَعُوا أَجْنِحَتَكُم عَنهُ فَإذا فَعَلَ ذَلكَ أخَذ فِى بُغضِنا أهلَ البَيتِ فَعندَ ذَلِكَ يَنهَتِكُ سِترُهُ فِى السَّماءِ وَسِتْرَهِ فِى الأرضِ، فَيقَولُ المَلائكةُ: ياربّ هَذا عَبدُكَ قَد بَقى مَهتُوكَ السِّترِ، فَيُوحِى اللّهُ عزّوجلّ إلَيهم: لَو كَانَتْ للّهِ فِيهِ حَاجةً مَا أَمرَكُم أنْ تَرفَعُوا أجنِحَتَكُم عَنهُ»[۷۲].

ولعل إرتباط هذه العبارة بالعبارات السابقة أنّ من أسوأ الذنوب التى تخرب الدار الآخرة للإنسان يكمن فى التجاهر بالمعصية.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۷

ثم واصل الإمام عليه السلام حديثه عن الزهد فى الدنيا مشيراً إلى نقطة ثالثة فقال:

«وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ».

إخراج القلوب، كناية لطيفة عن ترك التعلّقات الدنيوية والتهافت على متاعها وحطامها، والتعبير «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ ...» تحذير من تقلب هذا العالم بمعنى أفيقوا فإنّ هذه الأجساد ستصبح تراباً فاسعوا لإخراج قلوبكم من هذه الدنيا قبل الأوان فحبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة.

طبعاً لا- يعنى هذا أن لا- يتمتع المسلمون بحوائج الحياة أو أن تتخلف المجتمعات الإسلاميّة عن التقدم الاقتصادى ويحتاجون إلى غيرهم، بل المراد التبعية الشديدة التى تضطر الإنسان لخرق القانون ومن هنا عدّ الشرّاح هذه العبارة إشارة لترك الأموال الحرام.

ثم قال فى رابع نقطة واكمال ما سبق فقال: «فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ».

فهاتان العبارتان الموجزتان توضحان كلّ شى ويشير الالتفات إليهما إلى المسار السعيد لحياة الإنسان، نعم فالدنيا دار امتحان والآخرة دار الخلود، قال تعالى:

«أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»[۷۳]، فالامتحان الإلهى كوسيلة لتكامل الإنسان وتهذيبه أمر قطعى لا مفرّ منه وبعبارة أخرى من أهداف خلق الإنسان الذى لا استثناء فيه ولابدّ من التعرض لها فى الليل والنهار والسر والعلانية والكهولة والشباب.

ثم أشار إلى ثلاثة أمور مهمّة أخرى وقال؛ «إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟».

المراد من الناس هنا المتعلقين بالدنيا الذين غالباً ما يسألون عن أموال وثروات من يموت، والحال انقطعوا نهائياً عن تلك الأموال وعليهم أن يجيبوا عن طرق تحصيل هذه الأموال يوم القيامة والطريف أنّه جعل مقابلهم الملائكة الذين يقتصر

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۸

ترکیزهم على الأمور والمسائل المعنویة.

ثم قال فی الأخیر: «لِلَّه آبَاؤُکُمْ! فَقَدِّمُوا بَعْضاً یَکُنْ لَکُمْ قَرْضاً، وَلَا تُخْلِفُوا کُلًّا فَیَکُونَ فَرْضاً عَلَیْکُمْ».

الجملة «للّه آبَاؤُکُمْ!» تذکر عادة للتعجب المقرون بالاحترام ۷۴] والمراد من الجملة «فَقَدِّمُوا بَعْضاً ...» أنّ الإنسان مادام حیّاً ینفق من أمواله فی سبیل اللّه على الفقراء أو الأمور الخیریة بمقتضى «وَمَا عِنْدَ اللّه بَاق»[۷۵] و «مَّنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللّه قَرْضاً حَسَناً»[۷۶] والتعبیر ب «بعض» حتى لا ینبغی للإنسان أن یحرم ورثته المحتاجین غالباً فذلک بعید عن الانصاف، وقد ورد الذم فی الروایات على من ینفق أمواله فی حیاته ولا یترک شیئاً للورثة.

قال رسول اللّه صلى الله علیه و آله فی أحد الأنصار الذی أنفق جمیع أمواله قبل موته ولم یبق شیئاً لأولاده: «لَوْ أعْلَمْتُمُونی أمْرَهُ ما تَرَکْتُکُمْ تَدْفُنُوهُ مَعَ الْمُسْلِمینَ یَتْرُک صِبیتَهُ صِغاراً یَتَکَفَّفُونَ النّاسَ»[۷۷]. طبعاً هذا النهی فی من له ورثة محتاجون.

من جانب آخر ورد الذم بشدّة لمن لا ینفق شیئاً من أمواله فی سبیل اللّه ویبقیه جمیعاً للورثة.

قال الإمام الصادق علیه السلام فی تفسیر الآیة «کَذَلِک یُرِیهِمُ اللّه أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَیْهِمْ»[۷۸]: «هُوَ الرَّجُلُ یَدَعُ مالَهُ لا یَنْفِقُهُ فی طاعَةِ اللّه بُخلًا ثُمَّ یَمُوتُ فَیَدَعُهُ لِمَنْ یَعْمَلُ فیهِ بِطاعَةِ اللّه أوْ فی مَعْصِیَةِ اللّه فإنْ عَمِلَ بِهِ فی طاعَةِ اللّه رَآهُ فی میزانِ غَیْرِهِ فَرآهُ حَسْرَةً وَقَدْ کانَ الْمالُ لَهُ وَإنْ کانَ عَمِلَ بِهِ فی مَعْصِیَةِ اللّه قَوّاهُ بِذلِک الْمالِ حَتّى عَمِلَ بِهِ فی مَعْصِیَةِ اللّه عَزَّوَجَلَّ»[۷۹].

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۳۹

الجملة «فَرْضاً عَلَیْکُمْ» إشارة إلى أنّه إن خلّف کلّ أمواله للورثة فحسابها علیه فی القیامة ومنافعها للاخرین.

وهنا لطیفة أدبیة أنّ الإمام على علیه السلام استفاد فی هاتین العبارتین من أربعة أشیاء، «قدّموا» فی مقابل «لا تخلفوا» و «بعض» إزاء «کلّ» و «قرض» مقابل «فرض» و «لکم» فی مقابل «علیکم» وهی دلالة على فصاحة وبلاغة کلام الإمام علیه السلام.

تأمّل: الإکثار من هذه العبارة

الأجدر بکلّ إنسان أن یتلو کلّ صباح هذه العبارة، فالغفلة والإنهماک طبیعة الدنیا؛ الغفلة التی غالباً ما تؤدی إلى المعصیة التی تبعد العبد عن اللّه.

فالعبارة المذکورة وضحت موضع الدنیا وتضمنت وصایا بشأن الاستعداد والتاهب لذلک السفر المصیری.

طبعاً کلمات الإمام علیه السلام لا تعنی أن یکفّ الإنسان عن السعی من أجل الحیاة المادیة، فذلک مدعاة للفقر والعوز، فالفقر هو الأساس لأنواع المعاصی والتغرب عن الإسلام وهی التبعیة التی تقضی على عزّة الإسلام وتکسر شوکته؛ بل المراد تغییر النظرة إلى الدنیا؛ التمتع بجمیع النعم ولکن شریطة الاستفادة من الأموال فی سبیل قضاء الحوائج واستثمارها من أجل نیل السعادة فی الدار الآخرة وتسکین أنین المحرومین، والابتعاد عن کنز الأموال والثروة وإنفاق قسمٍ من الأموال حال الحیاة وآدخارها للمعاد.

***

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۴۱

الخطبة ۲۰۴

اشارة

كانَ كَثيراً ما يُنادى بِهِ أصْحابه ۸۰]

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من العنوان الذى اختاره السيد الرضى للخطبة أنّ الإمام عليه السلام خاطب صحبه كراراً وكثيراً ما كرر هذا الكلام، كما يفهم من رواية وردت فى «مصادر نهج البلاغة» أنّه عليه السلام نادى الناس ثلاثاً بعد صلاة العشاء ليسمع الجميع ويطرق سمعهم هذا الكلام، والخطبة فى الواقع موعظة لجميع الناس أنّ الحياة الدنيا قصيرة ولابدّ من الاستعداد للمنازل المرعبة بعدها كالقبر والبرزخ والقيامة، تحذير بقطع التعلق العميق بالدنيا وأنّ عمرها قصير ونهايتها وشيكة، تحذير بغية التزود لذلك السفر الطويل والخطير.

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۴۳

تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ اللّه، فَقَدْ نُودِىَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤُوداً، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً، لَابُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ فِيهَا مُفْظِعَاتُ الْامُورِ، وَمُعْضِلَاتُ الَمحْذُورِ. فَقَطِّعُوا عَلَائِقَ الدُّنْيَا وَاسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى.

الشرح والتفسير: الابتعاد عن طلّاب الدنيا

تشبه هذه الخطبة الخطبة السابقة وتدور فى فلكها، فهى تحذير لأهل الدنيا بأن لا ينسوا مكانهم منها وأن يلتفتوا لما ينتظرهم من أيّام ويستعدوا لها، فيقول:

«تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ اللّه، فَقَدْ نُودِىَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا».

فقد شبه الإمام عليه السلام المجتمع البشرى بقافلة ينتظرها مقصد عظيم، وبصفته زعيم القافلة ينادى الجميع بالتأهب للحركة.

و «الرحيل» بمعنى السفر وقد ورد لها معنيان لدى الشراح، الحركة نحو الآخرة والسير والسلوك إلى اللّه، ولا مانع من مناداة الناس بالتأهب والحركة باتجاه القيامة ودعوة الخواص إلى السير والسلوك إلى اللّه.

ورد فى بعض الروايات الاستعداد للموت بدل التجهز لسفر الآخرة، فقد سئل أميرالمؤمنين عليه السلام: «مَا الاسْتِعْدادُ لِلْمَوْتِ؟» قال عليه السلام: «أداءُ الْفَرائِضِ وَاجْتِنابُ

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۴۴

الْمَحارِمِ وَالاشْتِمالُ عَلَى الْمَكارِمِ ثُمَّ لايُبالى أوَقَعَ عَلَى الْمَوْتِ أمْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ»[۸۱].

وقد وردت عدّة احتمالات بشأن المنادى، فقيل: ملك من الملائكة كما ورد فى إحدى الكلمات القصار لنهج البلاغة[۸۲] كما نظمه البعض بصيغة شعرية:

لَهُ مَلَكٌ يُنادى كُلَّ يَوْمٍ لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرابِ

أو أنّ المنادى هو الحوادث والبلايا كالعواصف التى تجتاح حياة الناس كلّ يوم، أو إشارة إلى آثار الشيخوخة التى تتبلور فى ذبول الجسد ومشيب الشعر وانحناء القامة والتى تنادى بالرحيل بلسان الحال، وإن اعتبرنا الرحيل بمعنى السير والسلوك إلى اللّه وتهذيب النفس، فالمنادى هو اللّه فى القرآن، وأئمّة العصمة فى الروايات، الذين يهتفون بنداء الموت ومغادرة الدنيا.

ومفهوم العرجة على ضوء معنى الإقامة، هو الحدّ من التعلق بالإقامة فى الدنيا وعدم عدّها خالدة، كحال المتهافتين عليها.

ثم بيّن أسلوب الاستعداد لسفر الآخرة فقال: «وَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ ۸۳] مِنَ الزَّادِ».

«انقلبوا» عبارة، لطيفة تشير إلى التحول الباطنى، أى حولوا انتباهكم عن الانغماس فى الدنيا إلى إعداد الزاد والمتاع الأخروى.

«بحضرتكم» إشارة لما يتمتع به الإنسان من قدرات وفرص.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى‌الدليل على لزوم تحصيل الزاد والمتاع فقال: «فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤُوداً[۸۴]، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً[۸۵]، لَابُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا».

نفحات الولايهٔ، ج۸، ص: ۴۵

وقد ورد فى الخبر المروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إِنَّ فى الْقِيامَةِ خَمْسينَ مَوْقِفاً كُلُّ مَوْقِف كأَلْفِ سَنَة مِمّا تَعُدُّونَ»[۸۶].

وروى ما يشبه هذا المعنى بصورهٔ أسهب عن الإمام عليه السلام ۸۷] ويحتمل أنّ هناك أحد الأعمال الواجبهٔ فى كلّ موقف من المواقف كالصلاهٔ والصوم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو السؤال عن الكبائر والتى يتطلب من أصحابها إجابهٔ فى ظلّ الظروف الصعبهٔ والمخيفهٔ فإنّ عبروها بسلام كانوا موضع رحمهٔ اللّه والجنّهٔ وإلّا عرضوا للبلاء.

وبعبارهٔ أخرى كما قال المرحوم الشيخ المفيد: إنّ المراد من هذه العقبات، الأعمال الواجبهٔ التى تشبه كلّ منها بالعقبهٔ، وكما يصعب عبور هذه العقبات تصعب الاجابهٔ عن هذه الأعمال.

قال تعالى فى سورهٔ البلد: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ* يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ* أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ».[۸۸]

طبعاً لا فرق بهذا الشأن بين الدنيا والآخرهٔ فى ما المراد من هذه العقبات؟ سيما ورد بشأن القيامهٔ: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً* فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً* لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً»[۸۹].

وعليه لا يبدو وارداً اعتراض المرحوم العلّامهٔ المجلسى على الشيخ المفيد فى ضرورهٔ عدم حمل الألفاظ على معانيها المجازيهٔ دون الأصليهٔ[۹۰]، فهذا الإشكال

نفحات الولايهٔ، ج۸، ص: ۴۶

يرد حين لا تكون هناك قرائن ويكفى فى هول القيامهٔ قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّه شَدِيدٌ»[۹۱].

ثم تعمق الإمام عليه السلام فى شرح هذا الأمر فوعظ الجميع قائلًا: «وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ[۹۲] الْمَنِيَّةِ[۹۳] نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ[۹۴]، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا[۹۵] وَقَدْ نَشِبَتْ ۹۶] فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ ۹۷] فِيهَا مُفْظِعَاتُ ۹۸] الْامُورِ، وَمُعْضِلَاتُ ۹۹] الْمَحْذُورِ».

ويشير هذا الكلام إلى عدم وجود مسافهٔ بين الإنسان والموت مهما كان عمره، ففى كلّ آن يمكن وقوع حادثهٔ مفاجئهٔ ويصيبه مرض فى كلّ حين أو يباغته عدو فى الهجوم، ولعل حياهٔ الإنسان تزول إذا غص بلقمهٔ، أو يلاقى حتفه إذا انسدت شرايين قلبه أو اصيب بسكتهٔ دماغيهٔ أو أن يقطع نخاعه أثر ضربهٔ مفاجئهٔ فيعيش طريح الفراش طيلهٔ حياته.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبهٔ باستنتاج بيّن وبليغ فقال: «فَقَطِّعُوا عَلَائِقَ الدُّنْيَا وَاسْتَظْهِرُوا[۱۰۰] بِزَادِ التَّقْوَى».

والمراد من علائق الدنيا هو التعلق المفرط بالمال والجاه والزوج والولد، بالشكل الذى يغفل الإنسان عن اللّه ويسهل عليه مقارفهٔ المعصيهٔ لنيل الدنيا ويزين له مفاتنها

نفحات الولايهٔ، ج۸، ص: ۴۷

وعبارهٔ الاستظهار بزاد التقوى إشارهٔ إلى أنّ آخرهٔ الإنسان تتطلب فى هذا السفر الخطير والمخيف نقاط ارتكاز تسهل عليه اجتياز الطريق وليس هنالك من مرتكز أفضل من زاد الورع والتقوى.

وحين بلغ المرحوم السيّد الرضى هذا الموضع قال: «وَقَدْ مَضى شَئٌ مِنْ هذا الْكَلامِ فيما تَقَدَّمَ بِخِلافِ هذِهِ الرِّوايَةِ».

والظاهر أنّ مراده، الخطبهٔ ۸۵ التى تشترك ببعض العبارات مع الكلام المذكور.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۹

الخطبة ۲۰۵

اشارة

كَلَّم بِهِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ بَعْدَ بَيْعَتِهِ بِالْخِلافَةَ وَقَدْ عَتَبا عَلَيْهِ مِنْ تَرْك مَشْوِرَتِهِما، وَالاسْتِعانَةِ فى الْأُمُورِ بِهِما[۱۰۱]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد فى عنوان الخطبة فإنّ هذا الكلام ردّ على بعض إشكالات طلحة والزبير اللذين كانا يتوقعان أن يجعل لهما الإمام عليه السلام نصيب كبير من الحكومة واستشارتهما فى جميع الأمور، فذكر لهما الإمام عليه السلام بعض الأمور التى تبيّن بوضوح مسيرة حكومته وتضع حدّاً لتوقعاتهما الخاطئة:

الأوّل: إنّ هؤلاء يعتبون من هذا الباب، لم كلّ هذا الغضب على شىء يبدو بسيطاً وقد نسيت العديد من المحاسن.

ثم بين فى جانب آخر أن ليست هنالك من مشكلة مستجدة بشأن الحكومة

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۵۰

ليستشيرهما بخصوصها؛ بل سيقود الدولة على هدى الكتاب والسنّة، وبالطبع لو استجد أمر يدعو إلى المشورة فإنّه لن يمتنع عنها قط.

وأجاب فى القسم الثالث عن الإشكال الذى يرد عليه على التسوية فى العطاء من بيت المال والذى يستند أيضاً إلى السنّة النبوية.

وخاض فى ختام الخطبة فى دعاء عظيم المعنى سائلًا اللّه الرحمة لكل من رأى حقّاً وأعان عليه ووقف بوجه الباطل.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۵۱

القسم الأوّل

لَقَدَ نَقَمْتُمَا يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً. أَلا تُخْبِرَانِى، أَىُّ شَىْء كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَىُّ قَسْم اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَىُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَىَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهِلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!

وَاللَّه مَا كانَتْ لِى فِى الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِى الْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِى إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِى عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَىَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّه وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْم بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَنَّ النَّبِىُّ (صلى اللّه عليه وآله)، فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ فِى ذلِك إِلَى رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْىِ غَيْرِكُمَا، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جهِلْتُهُ؛ فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذلِك لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا.

الشرح والتفسير: حجج طلحة والزبير

لما تفاقمت الأوضاع ومشاكل المسلمين على عهد عثمان وقام الناس عليه ناقمين على اغداقه المناصب على بطانته وقرابته وتوزيع أموال بيت مال المسلمين عليهم وتجاهله للمحرومين والمحتاجين، هب عدد من الصحابة لنصرتهم وكان فى مقدمتهم طلحة والزبير،

وهما اللذان أصرا على الإمام بقبول الحكومة، فكانا من السباقين لبيعة الإمام عليه السلام؛ إلّاأنّهما على غرار أولئك الذين يفكرون بطريقة سياسية وليست ربانيّة ورحمانيّة، فهم يتوقعون على الدوام نيل المناصب الحكومية؛ ويوردون ذلك صراحة تارة وأخرى عن طريق بعض الذرائع ليبينوا هدفهم من

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۵۲

خلال الكناية.

وهذا ما كان يتوقعه طلحة والزبير من الإمام عليه السلام؛ فكان طلحة يطمح فى حكومة البصرة، والزبير فى حكومة الكوفة، وقال البعض: إنّ طلحة كان يريد حكومة اليمن، والزبير حكومة العراق، ولما كانت مثل هذه الرشاوى السياسية تقود عادة إلى تجزئة الدولة بغض النظر عن مخالفتها لروح العدالة، ناهيك عن كون ذلك هو السبب الذى أدى إلى قيام المسلمين على عثمان فإنّ الإمام لم يستجب لتلك الطموحات.

وحين يئس طلحة والزبير من تحقيق غرضهما أخذا بالنقد والإشكال على الإمام أوّلًا، ثم أشعلا نار الجمل؛ النار التى احترقا فى أتونها فقال عليه السلام: «لَقَدْ نَقَمْتُمَا[۱۰۲] يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُما[۱۰۳] كَثِيراً».

والمراد من اليسير ترك مشورتهما، والمراد من الكثير مصالح المسلمين، فطلحة والزبير استعانا بذرائع واهية بغية تحقيق أهدافهما وأدارا ظهريهما لمصالح المسلمين التى تفرزها وحدة الصف والوقوف خلف الإمام عليه السلام، وهذا هو أسلوب الباحثين عن العيوب ضيقى الافق الذين يضحون بمصالح الامّة من أجل تحقيق أطماعهم.

ثم قال الإمام عليه السلام: «أَلَا تُخْبِرَانِى، أَىُّ شَىْء كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ؟ أَمْ أَىُّ قَسْم اسْتَأْثَرْتُ ۱۰۴] عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَىُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَىَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهِلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!».

الواقع أنّ الإمام عليه السلام أراد بهذه العبارة أن يغلق جميع أبواب النقد والإشكال التى يمكن أن يلجها طلحة والزبير، فالانتقاد إمّا يرتبط بحقهما الشخصى أو بسائر المسلمين، ومطالباتهما الشخصية إمّا تتعلق بضياع حقهما أو التصرف فيه، وما يتعلق بسائر

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۵۳

المسلمين إمّا يكون تقصير فى إحقاق الحقوق أو الجهل بحق أو الخطأ فى التنفيذ.

والإمام عليه السلام يقول لهما: إن كان لديكما إشكال على أىٍّ من هذه الأمور قولا لى صراحة، وحيث لم يستطيعا الإشارة إلى قضية عجزا عن الإتيان بإجابة، وهذا ديدن جميع المخطئين الانتهازيين الذين يرسلون الكلام على عواهنه ويثيرون الضجيج دون الإشارة إلى نقطة معينة.

ثم قدم الإمام عليه السلام جواباً واضحاً لإشكالهما بخصوص ترك المشورة فقال: «وَاللَّه مَا كانَتْ لِى فِى الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِى الْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ[۱۰۵]، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِى إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِى عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَىَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّه وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَنَّ النَّبِىُّ صلى الله عليه و آله، فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ فِى ذلِك إِلَى رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْىِ غَيْرِكُمَا، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ؛ فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذلِك لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا».

أشار الإمام عليه السلام فى الواقع بهذه العبارة إلى أمرين؛ الأوّل: إنّه لم يتخذ عضداً فى قبول الخلافة الظاهرية وقد تمّت الحجّة عليه بقبولها بفعل إصرار المسلمين ولاسيما بعضهم كطلحة والزبير، وعليه فليس هنالك من توقع من الإمام سوى رعاية حقوق الناس.

طبعاً أصحاب الدنيا الذين ينشدون المناصب يدعون هذا وذاك لدعمهم ويعدونهم ببعض المناصب قبل بلوغها إن وصلوا لسدّة الحكم، لكن لا معنى لمثل هذا التوقع بالنسبة لأولياء اللّه الذين لا يرغبون فى هذه المناصب سوى استجابة لرغبة الناس.

الثانى: إنّ مسألة المشورة صحيحة؛ ولكن «لكل مقام مقال ولكل حادثة حديث» حقاً ليس هنالك من مجال للمشورة فى الأمور الإسلاميّة القطعيّة وأوامر اللّه والنّبى صلى الله عليه و آله، بينما تبدو المشورة مفتوحة فى الأمور التنفيذية التى تتنوع أساليبها.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۵۴

فالإمام عليه السلام يقول: لا تتوقعوا أن أستشيركما فى القضايا المهمّة كالعدل وإعادة الأموال المغصوبة على عهد عثمان إلى بيت المال والتسوية فى العطاء، وسوف لن اتردد فى هذه المشورة إن كان إليها من سبيل.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۵۵

القسم الثانى

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْاسْوَةِ، فَإِنَّ ذلِک أَمْرٌ لَمْ أَحْکُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِی، وَلَا وَلِيتُهُ هَوًى مِنِّی، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه و آله قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْکُمَا فِيما قَدْ فَرَغَ اللَّه مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضَى فِيهِ حُکْمَهُ، فَلَيْسَ لَکُمَا، وَاللَّه، عِنْدِی وَلَا لِغَيْرِکُمَا فِی هذَا عُتْبَى. أَخَذَ اللَّه بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِکُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاکُمُ الصَّبْرَ.

ثم قال عليه السلام: رَحِمَ اللَّه رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْراً فَرَدَّهُ، وَکَانَ عَوْناً بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبه.

الشرح والتفسير: حكم اللَّه

ركّز الإمام عليه السلام هنا على أحد الإشكالات الرئيسيّة لطلحة والزبير وأمثالهما على الإمام فى التسوية فى العطاء من بيت المال فقال: «وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْاسْوَةِ، فَإِنَّ ذلِک أَمْرٌ لَمْ أَحْکُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِی، وَلَا وَلِيتُهُ هَوًى مِنِّی، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه و آله قَدْ فُرِغَ مِنْهُ».

المفردة «اسوة» وإن استعملت غالباً بمعنى الإقتداء والاتباع ولم تذكر لها المصادر اللغوية معنى آخر غير هذا المعنى ۱۰۶]؛ إلّاأنّ بعض اللغويين صرحوا بأنّ

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۵۶

أحد معانيها، المساواة، ومن هنا يقال لمن افلس: «المال أُسوة بين الغرماء».

فإن اعتبرنا معنى «أسوة» حسب المتعارف (الإقتداء) فسيكون مفهوم العبارة أنّ طلحة والزبير وأمثالهما اعترضوا على الإمام عليه السلام: لم لم تقتد بسيرة عمر وعثمان؟

فأولئک كانوا يراعون شأن الشخص واسمه وعنوانه فى العطاء ولم يسوّوا فى العطاء بين المسلمين قط.

ثم قال: «فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْکُمَا فِيما قَدْ فَرَغَ اللَّه مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضَى فِيهِ حُکْمَهُ، فَلَيْسَ لَکُمَا، وَاللَّه، عِنْدِی وَلَا لِغَيْرِکُمَا فِی هذَا عُتْبَى ۱۰۷]».

واختتم الإمام عليه السلام كلامه بالدعاء له ولهم موصياً إيّاهم بالثبات على الحقّ والصبر عليه فتضرع قائلًا: «أَخَذَ اللَّه بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِکُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاکُمُ الصَّبْرَ».

من الواضح أنّ الحقّ مرير فى أغلب المواقع ويصعب تحمله، وهذا ما يجعل الإنسان أحياناً لا يرى الحقّ ولو رآه لايحتمله، لذلک يطلب الإمام عليه السلام من اللَّه شيئين؛ الأوّل أن يريه والآخرين الحقّ كما هو، ومن ثم يتلطف عليه بتحمل مرارته.

ورد فى إحدى قصار كلمات «نهج البلاغة» أنّه عليه السلام قال: «إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِىءٌ وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِىءٌ»[۱۰۸]. ثم قال عليه السلام: «رَحِمَ اللَّه رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْراً فَرَدَّهُ، وَکَانَ عَوْناً بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ».

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۵۷

تأمّلات

۱. علّة التسوية فی العطاء

لو ولی أميرالمؤمنين علی عليه السلام الخلافة الظاهرية عقب رسول اللَّه صلی الله عليه و آله لَما كانت هنالك من مشكلة، لأنّه كان سيواصل سيرة رسول اللَّه صلی الله عليه و آله؛ إلّاأنّ الطامة الكبرى أنّ الإمام تولّاها حين اعتاد المسلمون أنواع التميز على عهد الخليفة الثانی وأعظم منها على عهد عثمان وكان من الصعب عليهم للغاية تغيير ما اعتادوا عليه وكانت جلّ جهود الإمام تتركز على القضاء على تلك السياسات العنصرية، والسبب الرئيسی للحروب كالجمل وصفين إنّما يقف وراءَها أنصار التمييز العنصری.

لا شك أنّ طلحة والزبير كانا من السابقين إلى الإسلام وكان لهما دور مهم فی نصرة الدين، كما كانت لهما مواقفهما المعروفة فی الدفاع عن النّبی فی أغلب الغزوات الإسلاميّة؛ إلّاأنّ الانحراف عن المنهج النبوی الذی شهده عهد الخليفة الثانی والثالث وما رصدا من امتيازات خاصة لهذين وأمثالهما من بيت المال جعلهما يعتادان الابتزاز، ومن هنا تعالت أصواتهما منذ البداية حين وقف الإمام عليه السلام بحزم بوجه تلك الامتيازات، وعلى غرار الدهشة التی أصابت الناس فی العصر الجاهلی حين تبدلت الهتهم المتعددة إلى الإله الواحد القهار فقد اصيب هؤلاء بالذهول لتغير ذلك المنهج فاعترضا على الإمام، لم لم يستشرهما، ولم يتوقعا هذه المشورة فی تقسيم أموال بيت المال، بل توقعاها فی توزيع المناصب والمقامات الحساسة، وبالتالی كانا يطمعان بحصّة ولم يصدّقا أنّ الإمام بهذا الحزم سيعيد الامّة إلى منهج النّبی الأكرم صلی الله عليه و آله .

ولما طاشت احلامهما استعرت نيران الحقد فی قلبيهما واستحوذت عليهما الأفكار الشيطانيّة فأجّجا نيران الحروب التی احترقا بلهيبها.

جدير بالذكر أنّ أموال بيت المال على نوعين؛ قسم منه كالزكاة الذی له عدّة مصارف ويمكن ترجيح البعض على البعض الآخر (بما يناسب جهودهم)؛ مثلا

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۵۸

«الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ» و «العامِلِينَ عَلَيْها» أو القضاة وأمثالهم كان كلّ يتسلم سهماً من الزكاة بما يتناسب وموقعه وجهده، كما كان النّبی صلی الله عليه و آله يميز بين المشاة والفرسان فی الغنائم؛ إلّاأنّ قسماً مهماً من الدخل كالخراج الذی يؤخذ من الأراضی الخراجيّة[۱۰۹] والتی تشكل مبالغ طائلة فلابدّ من توزيعها بالسوية على المسلمين.

بالضبط كالشی الموقوف على الأولاد والذين ينبغی أن يأخذوا منه بالتساوی كيفما كانوا وكالدعم الذی يدفع فی عصرنا من بيت المال الذی يتساوى فيه رئيس الجمهورية والإنسان العادی، وأدنى امتياز لشخصٍ دون شخصٍ مرفوض.

وقد شهد عصر الخليفة الأوّل، المنهج النبوی ومساواة الجميع؛ إلّاأنّ التمييز بدأ منذ عهد عمر بشهادة التواريخ المعتبرة وبلغ ذروته على عهد عثمان واستمر ذلك ۲۲ سنة حتى أصبح هذا الفعل الشنيع بالتدريج سُنّة.

ولنترك الكلام هنا لابن أبی الحديد الذی بين خفايا مهمّة بالاستناد إلى التواريخ والروايات فكشف النقاب عن أغلب أسرار عصر الخلفاء وحكومة أميرالمؤمنين علی عليه السلام، فقد أورد شرحاً مسهباً هذه خلاصته:

«ثم بويع- الإمام علی عليه السلام- وصعد المنبر فی اليوم الثانی من يوم البيعة، وهو يوم السبت، لإحدى عشرة ليلة بقينَ من ذی الحجّة، فحمد اللَّه وأثنى عليه، وذكر محمّد صلّی عليه، ثم ذكر نعمة اللَّه على أهل الإسلام، ثم ذكر الدنيا، فزهّدهم فيها، وذكر الآخرة فرغّبهم إليها، ثم قال:

أما بعد، فإنّه قبض رسول اللَّه صلّی اللَّه عليه ... ثم إلتفت عليه السلام يميناً وشمالًا، فقال: ألا يقولنّ رجال منكم غداً قد غرتهم الدنيا فاتخذوا العَقار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الرّوقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتُهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التی يعلمون، فيقيمون ذلك،

نفحات الولايهٔ، ج۸ ص: ۵۹

ویستنکرون یقولون: حَرَمَنا ابن أبی طالب حقوقنا! ألا وأیّما رجل من المهاجرین والأنصار من أصحاب رسول اللّه صلی اللّه علیه یری أن الفضل له علی مَنْ سواه لصحبته، فإنّ الفضل النیر غداً عند اللّه، وثوابه وأجره علی اللّه، وأیّما رجل استجاب للّه وللرسول، فصدق ملّتنا، ودخل فی دیننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد اللّه، والمال مال اللّه، یقسّم بینکم بالسویّهٔ، لا فضل فیه لأحد علی أحدٍ، وللمتقین عند اللّه أحسن الجزاء، وأفضل الثواب، لم یجعل اللّه الدنیا للمتقین أجراً ولا ثواباً، وما عند اللّه خیر للأبرار، وإذا کان غداً إن شاء اللّه فاغدوا علینا، فإنّ عندنا مالًا نقسّمه فیکم، ولا یتخلّفن أحد منکم، عربی ولا عجمی، کان من أهل العطاء أو لم یکن، إلّاحضر، إذا کان مسلماً حرّاً، أقول قولی هذا وأستغفر اللّه لی ولکم، ثم نزل.

فلما کان من الغد، غدا الناس لقبض المال، فقال لعبید اللّه بن أبی رافع کاتبه: إبدأ بالمهاجرین فنادهم، وأعط کلّ رجل ممن حضر ثلاثهٔ دنانیر، ثم ثنّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلک، ومن یحضر من الناس کلّهم الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلک.

فقال سهل بن حنیف: یا أمیرالمؤمنین، هذا غلامی بالأمس، وقد أعتقته الیوم، فقال: نعطیه کما نعطیک، فأعطی کلّ واحد منهما ثلاثهٔ دنانیر، ولم یفضّل أحد علی أحد، وتخلّف عن هذا القسم یومئذٍ طلحهٔ والزبیر، وعبداللّه بن عمر، وسعید بن العاص، ومروان بن الحکم، ورجال من قریش وغیرها.

قال: وسمع عبید اللّه بن أبی رافع عبداللّه بن الزبیر یقول لأبیه وطلحهٔ ومروان وسعید: ما خفی علینا أمس کلام علیّ، ما یرید؟ فقال سعید بن العاص- والتفت إلی زید بن ثابت: إیّاک أعنی وأسمعی یا جارهٔ، فقال عبید اللّه بن أبی رافع لسعید وعبداللّه بن الزبیر: إنّ اللّه یقول فی کتابه: «ولکنّ أکثرَهُم لِلحقِّ کَارِهُون»[۱۱۰].

ثم إنّ عبید اللّه بن أبی رافع أخبر علیّاً علیه السلام بذلک، فقال: «وَاللّهِ إن بَقیتُ وَسلمتُ

نفحات الولایهٔ، ج۸ ص: ۶۰

لَهُم لأُقیمَنّهم عَلی المحجّهٔ البَیضاءِ، وَالطّریقُ الواضحُ، قَاتَل اللّهُ ابن العاص! لَقَد عَرفَ مِن کَلامی وَنظری إلیهِ أمس أنّی أُریدهُ وَأصحابَهُ مِمَن هَلکَ فِیمَن هَلکَ.

فقال، فبینا الناس فی المسجد بعد الصبح إذ طلع الزبیر وطلحهٔ، فجلسا ناحیهٔ عن علی علیه السلام، ثم طلع مروان وسعید وعبداللّه بن الزبیر، فجلسوا إلیهما، ثم جاء قوم من قریش فانضموا إلیهم، فتحدّثوا نجیّاً ساعهٔ! ثم قام الولید بن عقبهٔ بن أبی معیط، فجاء إلی علی علیه السلام، فقال: یا أباالحسن، إنّک قد وترتنا جمیعاً، أمّا أنا فقتلت أبی یوم بدر صبراً، وخذلت أخی یوم الدار بالأمس، وأمّا سعید فقتلت أباه یوم بدر فی الحرب- وکان ثور قریش- وأمّا مروان فسخفت أباه عند عثمان إذ ضمّه إلیه، ونحن إخوتک ونظراؤک من بنی عبدمناف، ونحن نبایعک الیوم علی أن تضع عنّا ما أصبناه من المال فی أیّام عثمان، وأن تقتل قتلته، وإنا إن خفناک ترکناک، فالتحقنا بالشام.

فقال: أمّا ما ذَکرتُم مِن وَتری إیّاکَم فَالحقُّ وَترَکُم، وأمّا وَضعی عَنکُم ما أصبتُم فَلیس لِی أن أضعَ حقّ اللّهَ عَنکُم وَلا عَن غَیرکُم، أمّا قَتلی قتلهٔ عُثمان فَلو لَزمَنی قَتلَهم الیوم لَقَتَلتُهم أمس، وَلکن لکُم علیّ إن خِفتُمونِی أن أؤمّنکُم وإن خِفتُکُم أن أُسیّرکم.

فقام الولید إلی أصحابه فحدّثهم، فافترقوا علی إظهار العداوهٔ وإشاعهٔ الخلاف، فلما ظهر ذلک من أمرهم، قال عمار بن یاسر لأصحابه، قوموا بنا إلی هؤلاء النفر من إخوانکم فإنّه قد بلغنا عنهم ورأینا منهم ما نکره من الخلاف والطعن علی إمامهم، وقد دخل أهل الجفاء بینهم وبین الزبیر والأعسر العاق- یعنی طلحهٔ.

فقام أبوالهیثم وعمّار وأیوب وسهل بن حنیف وجماعهٔ منهم، فدخلوا علی علیّ علیه السلام، فقالوا: یاأمیرالمؤمنین، انظر فی أمرک وعاتب قومک، هذا الحیّ من قریش، فإنّهم قد نقضوا عهدک، وأخلفوا وعدک، وقد دعونا فی السر إلی رفضک، وهداک اللّه لرشدک! وذاک لأنّهم کرهوا الاسوهٔ، وفقدوا الأثرهٔ، ولما آسیت بینهم وبین الأعاجم

نفحات الولايۀ، ج۸ ص: ۶۱

أنكروا واستشارك عدوك وعظّموا الطلب بدم عثمان فرقۀ للجماعۀ، وتألفاً لأهل الضلالۀ، فرأيك.

فخرج على عليه السلام فدخل المسجد، وصعد المنبر مرتدياً بطاق، مؤتزراً ببرد قطرى، متقلّداً سيفاً، متوكئاً على قوس، فقال:

أما بعد، فإنا نَحمدُ اللَّهَ رَبّنا وإلهنا وَوَليّنا، وَولى النّعم عَلينا، الّذى أَصبحتْ نُعمهُ عَلينا ظاهرةً وباطنةً، امتناناً مِنهُ بِغير حَولٍ منّا وَلا قُوّةٍ، لَيبلُونا أَنشكُر أو نَكفر، فمَن شَكرَ زادَهُ وَمَن كَفرَ عذّبهُ، فَأفضلُ النّاسِ عِندَ اللَّهِ مَنزلةً، وَأَقرَبهم مِن اللَّهَ وَسيلةً أَطوَعهم لأمَرهِ وَأعمَلهم لطَاعتهِ، وَأَتبَعهم لِسُنّهٔ رَسُولِه، وَأحياهُم لِكتابِهِ، لَيس لأحدٍ عِندنا فَضل إلّابطاعةِ اللَّهِ وطاعةِ الرّسولِ، هَذا كَتابُ اللَّهِ بَينَ أَظهرنا، وَعهدُ رِسولِ اللَّهِ وَسيرَتهِ فِينا، لا يَجهل ذَلكَ إلّاجاهِل عاندَ عَن الحقّ، مُنكر، قال اللَّه تعالى: «يا أيُّها الناس إنّا خَلَقناكُم مِنْ ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلناكُم شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتعارفُوا إنّ أَكرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أَتقَاكُم»[۱۱۱].

ثمّ صَاحَ بِأعلى صَوتِهِ، أَطيعُوا اللَّهَ وَأطيعُوا الرّسولَ فإن تَولّيتُم فإنّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الكَافرِينَ.

ثم قال: يا مَعشرَ المُهاجرينَ والأنصار، أَتَمنُونَ عَلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ بإسلامِكُم، بَل اللَّهُ يَمنّ عَليكُم أن هَداكُم للإيمانِ إن كُنتُم صادِقِينَ.

ثمّ قال: أنا أبوالحَسن- كان يقولها إذا غضب- ثم قال: أَلا إنّ هَذِه الدّنيا الّتى أَصبَحتُم تَمنّونَها وَتَرغبونَ فِيها، وَأصبحَتْ تُغضبكُم وَترضيكُم، لَيستْ بِداركُم وَلا مَنزلكُم الّذى خُلقتُم لَه، فَلا تَغرنّكُم فَقد حَذرتُموها، واستَتموا نِعم اللَّهِ عَليكُم بِالصبْرِ لأنفُسكُم عَلى طَاعةِ اللَّهِ، وَالذُّل لِحُكمِهِ، جَلّ ثناؤه، فأمّا هَذا الفى، فَليس لأحدٍ عَلى أحدٍ فِيهِ أثرۀ، وَقد فَرغَ اللَّهُ من قِسمتهِ، فَهو مالُ اللَّهِ، وَأنتُم عِبادُ اللَّهِ المُسلمونَ، وَهَذا كِتابُ اللَّهِ بِهِ أَقررَنا وَلهُ أَسلَمنا، عَهد نبيّنا بَين أَظهُرنا فمَن لَم يَرضَ بِه فَليَتولَ كَيفَ

نفحات الولايۀ، ج۸ ص: ۶۲

شاءَ فإنّ العامِل بِطاعةِ اللَّهِ وَالحاكِم بِحُكم اللَّهِ لا وَحشةَ عَليهِ.

ثم نزل عن المنبر، فصلّى ركعتين، ثم بعث بعمار بن ياسر، وعبدالرحمن بن حسل القرشى إلى طلحۀ والزبير، وهما فى ناحيۀ المسجد، فأتياهما فدعواهما، فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام، فقال لهما: نَشدتُكما اللَّهِ، هَل جُئتُمانِى طَائِعينِ للبَيعۀِ، وَدعَوتُمانِى إليها، وَأنا كَاره لَها!

قالا: نعم.

فقال عليه السلام: غَيرَ مُجبرين وَلا مقسورين، فأسلمتُما لِى بَيعتُكُما وَأعَطيتُمانى عَهدكُما!

قالا: نعم.

قال: فَما دَعاكُما بَعد إلى ما أرى.

قالا: أعطيناك بيعتنا على ألا تقضى الأمور ولا تقطعها دوننا، أن تستشيرنا فى كلّ أمر ولا تستبد بذلك علينا، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت، فأنت تقسم القسم وتقطع الأمر، وتمضى الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا.

فقال: لَقَد نَقَمتُما يَسيراً! وأرجأتُما كَثيراً! فاستَغفِرا اللَّهَ يَغفِر لَكُما، ألا تُخبرانِى أَدفعتُكما عَن حقٍّ وَجبَ لَكُما فَظلمتُكُما إيّاه؟

قالا: معاذ اللَّه!

قال: فَهل استَأثرتُ مِن هَذا المالِ لِنفسِى بشىء؟

قالا: معاذ اللَّه!

قال: أَفَوقعَ حُكم أو حقّ لأحدٍ مِنَ المُسلمينَ فَجَهلتُه أو ضَعفتُ عَنه؟

قالا: معاذ اللَّه!

قال: فَما الّذى كَرِهتُما مِن أمرى حَتّى رَأيتُما خِلافى؟

قالا- خلافك عمر بن الخطاب فى القسم، أنّك جعلت حقّنا فى القسم كحق غيرنا، وسويّت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء اللَّه تعالى

علينا بأسيافنا ورماحنا

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۶۳

وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا، أخذناه قسراً قهراً، ممن لا يرى الإسلام إلّاكرهاً.

فقال: فأمّا ما ذَكرتُماهُ مِنَ الاستشارهٔ لَكُما فَواللَّهِ ما كَانتْ لِى فِى الولايـهٔ رَغبهً، وَلكِنكُم دَعوتُمونِى إليها، وَجعلتُمونِى عَليها، فَخِفتُ أن أردّكُم فَتختَلفُ الامّهٔ، فَلمّا أَفضتْ إلىّ نَظرتُ فِى كِتابِ اللَّهِ وَسنّهِٔ رَسولهِ فَأمضيتُ مادلّانِى عَليهِ وَأتّبعتُه، وَلَم أَحتَج إلى آرائِكُما فِيهِ، وَلا ـ رأى غَيرِكُما، وَلو وَقعَ حُكم لَيس فِى كِتابِ اللَّهِ بَيانُه وَلا فِى السنّهٔ بُرهانُهُ، واحتِيج إلى المَشاورهٔ فِيهِ لَشاورتُكُما فِيهِ، وَأمّا القِسم والأسوهٔ، فإنّ ذَلكَ أَمرٌ لَم أَحكُم فِيهِ بادىء بِدء! قَد وَجدتُ أَنا وأنتُما رَسُول اللَّهِ صلّى اللَّه عليه وآله يَحكُم بِذلكَ، وَكتابُ اللَّهِ ناطقٌ بِهِ، وَهو الكَتاب الّذى لا ـ يَأتيهِ الباطلُ مِن بَين يَديه وَلا مِن خَلفهِ تَنزيلٌ مِن حَكيم حَميدٍ، وَأمّا قَولُكُما: جَعلتَ فَيئنا وَما أَفاءتهُ سُيوفنا ورماحُنا سَواء بَيننا وبَين غَيرنا، فَقَديماً سَبق الإسلام قَوم ونَصرُوه بِسيوفِهم وَرماحِهم فَلم يُفضّلُهم رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وآله فِى القسم، وَلا آثرهم بِالسّبق، واللَّهُ سبحانه مُوفٍ السّابقَ وَالمُجاهدَ يَومَ القِيامهِٔ أَعمالَهُم، وَلَيس لَكُما وَاللَّهِ عِندى وَلا لِغَيركُما إلّاهَذا، أَخذ اللَّهُ بِقُلوبِنا وَقُلوبِكُم إلى الحقّ، وَأَلهَمنا وَإيّاكُم الصّبر، ثم قال: رَحم اللَّهُ امرأً رَأى حَقّاً فَأعانَ عَليهِ، وَرأى جَوراً فَردّه، وَكانَ عَوناً للحقّ عَلى مَن خَالفَهُ.

ثم قال ابن أبى الحديد:

فإن قلت: فإنّ أبابكر قسّم السواء، كما قسمه أميرالمؤمنين عليه السلام ولم ينكروا ذلك، كما أنكروا أيّام أميرالمؤمنين عليه السلام، فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إنّ أبابكر قسم محتذياً لقسم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله، فلما ولى عمر الخلافهٔ وفضّل قوماً على قوم ألفوا ذلك، ونسُوا تلك القسمهٔ الاولى، وطالت أيّام عمر، وأشربت قلوبهم حبّ المال ... ولما ولى عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه، فازداد وثوق القوم بذلك، ومن ألف أمراً شقّ عليه فراقه، وتغيير العادهٔ فيه،

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۶۴

فلما ولى أميرالمؤمنين عليه السلام أراد أن يردّ الأمر إلى ما كان فى أيّام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وأبى بكر، وقد نسى ذلك ورفض، تخلّل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنهٔ، فشقّ عليهم وأنكروه وأكبروه، حتى حدث ما حدث من نقض البيعهٔ، ومفارقهٔ الطاعهٔ وللَّه أمر هو بالغه»[۱۱۲].

۲. مكانهٔ المشورهٔ

لا ـ شك فى أنّ المشورهٔ من الأصول الإسلاميّهٔ المسلمهٔ ولدى عقلاء العالم والتى تشرك إلى العقل سائر العقول كما ورد فى الخبر «مَنْ شاوَرَ الرِّجالَ شارَكَهُمْ فى عُقُولِهِمْ»[۱۱۳] إلّاأنّ لها بعض الشروط والأركان إن لم تراع فهى لا تفقد جدواها فحسب؛ بل تعطى أحياناً نتائج معكوسهٔ، ومن ذلك أنّ المشورهٔ لابدّ أن تكون فى الأمور التى تخضع للتردد والنفى والإثبات ولو أراد الناس التشاور فى الأمور المسلّمهٔ والأحكام فلربّما أدّى ذلك إلى الريبهٔ فى أصل الأحكام الشرعيّهٔ والوظائف العقليهٔ المسلمهٔ.

مثلًا لو أراد شخص المشورهٔ فى الحج أو الحجاب أو عرضها على الرأى العام فلربّما انبرى من يقول: ما الضرورهٔ لأن يرصد الناس فى هذا العصر هذه الأموال الطائلهٔ من أجل الذهاب إلى الحج أو إنّ الحجاب فى المجتمع المعاصر قيد مضروب على المرأهٔ!

ولكن إن سلّمنا أنّ الحج أو الحجاب أمر شرعى مقبول لدى جميع المسلمين بل ضرورهٔ دينيهٔ، يمكننا الجلوس فى شورى كيف يمكن أن يقام الحج وكيف يكون ارتداء الحجاب أفضل؟ ولابدّ من الإذعان إلى أنّ بعض المشاكل التى أصابت المسلمين بسبب كونهم نسوا المكانهٔ الحقيقيهٔ للمشورهٔ.

نفحات الولايهٔ، ج۸ ص: ۶۵

وما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبهٔ نموذج واضح لهذا المطلب، وما كان ينشده طلحهٔ والزبير انحراف عن هذا الأمر؛ فقد أرادا المشورهٔ فى سنّهٔ النّبى فى التسويهٔ بأموال الخراج فرفض الإمام عليه السلام ذلك.

۳. طلحهٔ وحلم الخلافهٔ

يستفاد من مختلف المصادر التاريخيّهٔ أن طلحهٔ والزبير كانا يتطلعان إلى الخلافهٔ منذ أمد بعيد يعود إلى عهد أبى بكر.

ذكر الطبرى المؤرّخ المعروف، طبق نقل ابن أبى الحديد فى تاريخه أنّ طلحهٔ كان يهم بالخلافهٔ حتى على عهد أبى بكر ويروم أن يجعلها فيه بشبههٔ أنّه ابن عمه، وسخط خلافهٔ عمر فقال لأبىبكر: وليت علينا فظاً غليظاً، وكان له فى أيّام عمر قوم يجلسون إليه ويحادثونه سرّاً فى معنى الخلافهٔ ويقولون له: لو مات عمر لبايعناك بغتهٔ، فبلغ ذلك عمرفخطب وهددهم بالقتل.

وذكر ابن أبى الحديد فى موضع آخر: إنّ طلحهٔ والزبير أشادا بعمر الذى ميّز المهاجرين والأنصار على سائر المسلمين (وأعطاهم سهماً أكثر من بيت المال).

وكان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين، الخروج فى البلدان لأنّه يرى أنّهم إن خرجوا التفّ حولهم الناس وحصلوا على الأموال وفيهم من يضمر الفرقهٔ ويروم خلع الربقهٔ، قال الطبرى طبق نقل ابن أبى الحديد: فملته قريش ذلك حتى أنّه لم يأذن لهم بالمعارك وقال لهم كفاكم ما أبليتم فى الغزوات مع رسول اللَّه، فلمّا ولى عثمان أجازهم، فخرجوا إلى البلاد وجمعوا الأموال، فكان ذلك أول وهن على الإسلام وأول فتنهٔ كانت على العامّهٔ.

وقال ابن ابىالحديد: وكان عمر نقض هذا الرأى السديد بما فعله بعد طعن أبى لؤلؤهٔ له من أمر الشورى، فإنّ ذلك كان سبب كلّ فتنهٔ وقعت وتقع إلى أن تنقضى الدنيا[۱۱۴].

نفحات الولايهٔ، ج۸ ص: ۶۶

ويتضح من هذه السابقهٔ التاريخيّهٔ لماذا انزعج طلحهٔ والزبير من خلافهٔ على عليه السلام فى حين بذلا قصارى جهدهما من أجل تأليب الناس على قتل عثمان، على أمل أن يأتى الدور لطلحهٔ، ولما منعهما على عليه السلام المنصب والمقام (لأنّه يعلم أنّ ذلك مقدمهٔ لتقسيم البلد الإسلامى) بل قطع امتيازاتهما من بيت المال وساوى بين المسلمين حذو النهج النبوى، تمردا عليه وتواطئا مع عائشهٔ ضدّ أميرالمؤمنين عليه السلام، فى اشعال فتيل حرب الجمل، وبعد تلك الهزيمهٔ ومقتلهما أثار أتباعهما معركهٔ صفّين لتسلّم بنى أميهٔ بالتالى مقاليد العالم الإسلامى، ثم خلفهم بنو مروان الذين أثاروا ذلك الفساد العظيم.

ومن هنا يتضح أنّ مشكلهٔ طلحهٔ والزبير لم تكن المشورهٔ بل حتى التسويهٔ فى العطاء كانت قضيهٔ فرعيهٔ؛ كانت مشكلتهما الطمع فى الخلافهٔ، وماسبق لم يكن سوى حجج وذرائع.

***

نفحات الولايهٔ، ج۸ ص: ۶۷

الخطبهٔ ۲۰۶

اشارهٔ

وَقَدْ سَمِعَ قَوْماً مِنْ أَصْحابِهِ يَسُبُّونَ أَهْلَ الشّامِ

نفحات الولاية ؛ ج‌۸ ؛ ص۶۷

أَیّامَ حَرْبِهِمْ بِصِفِّینَ ۱۱۵]

نظرة إلى الخطبة

ورد فی کتاب «مصادر نهج البلاغة» أنّ حجر بن عدی وعمرو بن الحمق وهما من أصحاب علی علیه السلام المعروفین کانا یسبّان أهل الشام (فی أیّام صفین) فدعاهما الإمام ونهاهما، فقالا: یا أمیرالمؤمنین، ألسنا علی الحق؟ قال: بلی! قالا: ألیسوا علی الباطل؟ قال: بلی! قالا- فلم تنهانا عن سبهم؟ قال: إنّی أکره لکما أن تکونا سبّابین، وواصل کلامه فأراهم السبیل الفصل بالدعاء لهم إلی الهدی ووحدة المسلمین واطفاء نار الحرب، ویشیر هذا الکلام إلی أنّ الإمام علیه السلام فی الوقت الذی کان فیه حازماً إزاء العدو کان ینهی عن العنف الطائش الذی یعکس ضعف الشخصیّة.

نفحات الولایة، ج‌۸ ص: ۶۹

انِّی أَکْرَهُ لَکُمْ أَنْ تَکُونُوا سَبَّابِینَ، وَلَکِنَّکُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَکَرْتُمْ حالَهُمْ، کانَ أَصْوَبَ فِی الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِی الْعُذْرِ، وَقُلْتُمْ مَکانَ سَبِّکُمْ إِیَّاهُمْ:

اللهمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَیْنِنَا وَبَیْنِهِمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّی یَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَیَرْعَوِیَ عَنِ الْغَیِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ.

الشرح والتفسیر: الدعاء بدل السبّ!

ما ورد فی هذا الکلام درس أخلاقی واجتماعی عظیم یختزن آثاراً کثیرة وهو النهی عن سبّ العدو ولعنه الذی من شأنه إثارة غضبه وتعمیق الکراهیة.

وکما ذکر فإنّ الإمام قال ذلک لما سمع بعض أصحابه یسبّ أهل الشام أیّام صفین فقال: «إِنِّی أَکْرَهُ لَکُمْ أَنْ تَکُونُوا سَبَّابِینَ، وَلَکِنَّکُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَکَرْتُمْ حَالَهُمْ، کانَ أَصْوَبَ فِی الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِی الْعُذْرِ».

«سبّاب» تطلق علی من یکثر السباب، وحقیقة «السبّ» تتضمن الإساءة للطرف المقابل؛ من قبیل مخاطبة المقابل بکلمة أحمق، رذل وأمثال ذلک.

واللعن أحد مصادیق «السبّ» و «القذف» من مراحل «السبّ» الشدیدة وعلیه الحد فی أغلب الموارد، قطعاً لیس مراد الإمام فی هذا الکلام هذا النوع من السبّ، لأنّ القذف حرام ومن الکبائر ولیس من المکروهات.

والإمام علیه السلام ینهی أصحابه فی هذه الخطبة عن هذا الفعل وإن کان لهم الحق فی

نفحات الولایة، ج‌۸ ص: ۷۰

مخاطبة العدو بهذا الخطاب ویأمرهم بدلًا من ذلک بنقد أعمالهم القبیحة وصفاتهم الذمیمة وإتمام الحجّة علیهم ولتکون أبلغ فی التأثیر کما تسلب العدو ذریعة المعاملة بالمثل، ولدینا الکثیر بخصوص السبّ واللعن نترکه لمبحث التأملات.

ثم واصل الإمام علیه السلام کلامه من خلال بیان المصداق الواضح لیعلمهم کیفیة التعامل مع العدو فی مثل هذه الحالات فقال: «وَقُلْتُمْ مَکَانَ سَبِّکُمْ إِیَّاهُمْ: اللهمَّ احْقِنْ ۱۱۶] دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَیْنِنَا وَبَیْنِهِمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ، حَتَّی یَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَیَرْعَوِیَ ۱۱۷] عَنِ الْغَیِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ ۱۱۸] بِهِ».

فالإمام عليه السلام أورد بهذه العبارة العميقة ثلاثة أدعية أو بعبارة أخرى كانت له ثلاث طلبات:

الاولى: إطفاء نار الحرب وحقن دماء الطرفين.

الثانى: إشاعة الصلح والسلام بالإضافة إلى وقف الحرب وأن يتحد المسلمون.

الثالثة: يبعد عنهم الضلال الذى أصابهم وحال دون بلوغهم الحق؛ فيتعرّف الجهلة على الحقّ ويكفّ أهل الحق عن مناهضته.

وتكشف هذه الأدعية بجلاء عن مدى سعة صدر الإمام عليه السلام ورأفته ورحمته حتى بأعدائه، ورغم كلّ تلك الجنايات التى إرتكبوها بحقّ الإمام وأصحابه فلا ينطق بأدنى ما يكشف عن غضبه وانتقامه، وينهى حتى صحبه عن سبّ العدو والتعرض له.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۷۱

تأمّل: السبّ واللعن

صرح أغلب أرباب اللغة بأنّ «السبّ» هو الشتم، واعتبر البعض، اللعن من مصاديقه ۱۱۹].

طبعاً لا ينبغى سبّ أىّ مؤمن أو لعنه، والأولى تركه حتى بالنسبة للكفّار والمخالفين، ذلك لأنّه ينطوى على أمرين سلبيين: الأوّل: إنّ الطرف المقابل يعمد إلى المعاملة بالمثل فيسىء إلى المقدّسات، لذلك ورد فى الآية ۱۰۸ من سورة الأنعام: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّه فَيَسُبُّوا اللَّه عَدْواً بِغَيْرِ عِلْم».

الآخر: أنّ هذا السبّ ربّما يثير المقابل فيصرّ على كفره وضلاله ويزداد كفراً وضلالًا.

ولكن لهذه القاعدة كما لغيرها من القواعد الكلية استثناءات، ومن هنا ورد بعض السبّ للمخالفين، فى «نهج البلاغة» أو عبارات سائر المعصومين عليهم السلام كما لُعنَ البعض فى القرآن الكريم.

مضى فى الخطبة ۱۹ من نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام قال للأشعث بن قيس المنافق الذى كلّم الإمام بكلمات خارجة عن الأدب: «عَلَيْك لَعْنَةُ اللَّه وَلَعْنَةُ اللّاعِنينَ حائِك ابْنُ حائِك مُنافِقٌ بْنُ كافِر».

كذلك حين أسر مروان فى المعركة وجىء به إلى الإمام عليه السلام شفع له الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام عند أبيهما فأطلقه الإمام عليه السلام، فقال الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام: ياأميرمؤمنين! يبايعك مروان؟ قال الإمام عليه السلام: ألم يبايعنى بعد قتل عثمان لا حاجة لى ببيعته «إِنَّها كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ»[۱۲۰].

ولكن سبّ المؤمن التقىّ يعدّ من الكبائر؛ قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «سِبابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتالُهُ كُفْرٌ وَأَكْلُ لَحْمِهِ مَعْصِيَةٌ وَحُرْمَةُ مالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ»[۱۲۱].

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۷۲

وورد فى حديث آخر أنّ رجلًا قال للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله: أوصنى! فكان ممّا أوصاه النّبى أن قال: «لا تَسُبُّوا النّاسَ فَتَكْسِبوا العَداوَةَ بَيْنَهُمْ»[۱۲۲].

جدير ذكره أنّ أصحاب معاوية وإن كانوا من المنافقين والظلمة والمفسدين فإنّ الإمام عليه السلام نهى أصحابه عن سبّهم أيّام صفّين، فالسبّ فى تلك الظروف العصيبة ربّما كان يوسع دائرة الحرب.

أمّا بشأن اللعن فالذى يستفاد من آيات القرآن أنّ اللَّه لعن البعض وأذن بلعنهم ولعنَ الشيطان فقال: «وَإِنَّ عَلَيْك لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّين»[۱۲۳].

وقال فى المرتدّين: «أُوْلَئِك جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّه وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[۱۲۴].

وقال فى الظلمة: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّه عَلَى الظَّالِمِينَ»[۱۲۵].

وفى الناكثين وقاطعى الرحم والمفسدين فى الأرض: «أُوْلَئِك لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ»[۱۲۶].

وفى الذين يكتمون الحق: «أُوْلَئِك يَلْعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللّاعِنُونَ»[۱۲۷].

لاـ شـك فى أنّ اللعن فى اللغـة بمعنى الطرد والإبعاد الـذى يتمّ أحياناً بصـيغة عمليـة وأخرى لفظيـة أو دعاء؛ كأن يقال مثلًا: «لعنـة اللّه عليك».

من المسلّم به أنّه لاـ يمكن لعن أىّ مؤمن؛ أمّا الكفّار والمنافقون والـذين يرتكبون الكبائر كالظلم والجور والفساد فى الأرض وأمثال ذلك إنّما يستحقون اللعن، وعليه فلا يختص اللعن بالكفّار والمنافقين.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۷۳

الخطبة ۲۰۷

اشارة

فى بَعْضِ أيّام صِفّينَ وَقَدْ رَأى الْحَسَنَ ابْنَهُ عليه السلام

يَتَسَرَّعُ إلَى الْحَرب ۱۲۸]

نظرة إلى الخطبة

يختص هذا الكلام القصير لأميرالمؤمنين علىّ عليه السلام بحفظ الإمام الحسن والإمام الحسين من الأخطار ليدوم بهما نسل رسول اللّه صلى الله عليه و آله وقـد تحقق هـذا المعنى فيتصـل اليوم نسب الملايين بواسـطة الإمام الحسن أو الإمام الحسـين عليهما السـلام بالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأنّ هذه الجذور المباركة لتتعمق فى العالم كلّ يوم.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۷۵

أَمْلِكُوا عَنّى هـذَا الْغُلَامَ لَا يَهُـدَّنِى، فَإِنَّنِى أَنْفَسُ بِهذَيْنِ (يَعْنى الْحَسَنَ وَالْحُسَـيْنَ عليهما السـلام) عَلَى الْمَوْتِ لِئَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللّه صلى الله عليه و آله.

الشرح والتفسير: حفظ نسل النّبى صلى الله عليه و آله

أوصـى الإمام عليه السـلام صـحبه بالإمام الحسن والإمام الحسـين عليهما السلام يوم صفين بغية الحفاظ على هدف مهم فقال: «أَمْلِكُوا عَنّى هـذَا الْغُلَامَ لَا يَهُـدَّنِى ۱۲۹]، فَـإِنَّنِى أَنْفَسُ ۱۳۰] بِهـذَيْنِ (يَعْنى الْحَسَنَ وَالْحُسَـيْنَ عليهما السـلام) عَلَى الْمَوْتِ لِئَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْـلُ رَسُولِ اللّه صلى الله عليه و آله».

التعبير «أملكوا» من مادة «ملك» تأكيـد للحيلولة عن مسارعة الإمام الحسن عليه السـلام لميدان القتال، لأنّ الإنسان إن ملك شـيئاً صار تماماً تحت تصـرفه وهذا أعظم تأكيد يمكن اسـتعماله بشأن صدّ الشـخص عن أمر، ومن هنا قال المرحوم السـيّد الرضـى رحمه الله فى ختام هذا الكلام: «هذا من أعلى الكلام وأفصحه».

العبارة «لا يَهُدَّنى» تأكيد آخر لهذا المعنى، كأنّه عليه السلام يريد القول: لو قتل الحسن والحسين سيفنى وجودى.

وكى لا يتصور أنّ هذه التأكيدات من جانب الإمام عليه السلام تستند لمجرّد عاطفة

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۷۶

الأبوة فقد بيّن عليه السلام: إنّى أنشد هدفاً عظيماً فى أن يبقى نسل النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى العالم عن طريقهما، وهذا بحدّ

ذاته أحد أسباب ديمومة الإسلام.

***

قالَ السيِّدُ الشَّريفُ: وَقَوْلُهُ عليه السلام «أَمْلِكُوا عَنّى هذَا الْغُلَامَ» مِنْ أعلَى الْكَلامِ وَأَفْصَحِهِ.

مراد السيّد الرضى رحمه الله أنّ العبارة «أَمْلِكُوا عَنّى» تأكيد بليغ ولطيف لهذا المعنى أن سارعوا واجتهدوا واحفظوا هذا الفتى، لأنّ الإنسان يبذل قصارى جهده للمحافظة على أملاكه، وهذه أبلغ عبارة فى الحفظ والاستعادة.

تأمّل: شبهات وردود

۱. لا شك فى أنّ عمر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام آنذاك كان أكثر من ثلاثين سنة، حيث ولد فى السنة الثالثة للهجرة وحادثة صفين كانت سنة ۳۷ الهجرة، فلم التعبير عنه بالغلام؟

لابدّ من الالتفات إلى هذه النقطة فى الجواب أنّ هذه المفردة وإن اطلقت على الحدّ الفاصل بين الطفل والشابّ؛ لكنّها تطلق كما صرّح بعض أرباب اللغة[۱۳۱] على الكبار أيضاً. أضف إلى ذلك فإنّ الآباء يستعملون هذه المفردة على الأبناء فى مختلف أعمارهم، كما تطلق العرب هذه المفردة على الخدم فى مختلف سنىّ أعمارهم.

على كلّ حال فإنّ اطلاق كلمة الغلام من قِبل الإمام عليه السلام على ولده الإمام الحسن عليه السلام مطلب ليس بمستبعد.

۲. كان للإمام الحسن وكذلك الإمام الحسين عليهما السلام حسبما ذكر آنفاً أكثر من

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۷۷

ثلاثين سنة (فالفارق بينهم كان سنة أو أقل) وقطعاً كان لهما زوج وأولاد، فكيف يخشى الإمام انقطاع نسل النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله؟

نقول فى الجواب: كان المراد ليبقيا وليبق أكثر عدد ممكن من نسل النّبى، ذلك لأنّ نسل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان يتعرض إلى مخاطر جديّة من عدّة جوانب.

۳. كيف ذهب الإمام عليه السلام إلى بقاء نسل النّبى من خلال هذين الإمامين وذريّتهما فى حين تنسب العرب نسلها إلى ولدها وليس عن طريق البنت؟ وكلنا نعلم أنّ الحسن والحسين كانا إبنى بنت النّبى!

للإجابة عن هذا السؤال لابدّ من القول إنّ هذا التفكير يعود إلى الجاهلية الذين لم يروا أى شأن للنساء ولا يعتبرون أبناء بناتهم أبناءهم فأنشدوا فى ذلك:

بَنُونا بَنُو أبْنائِنا وَبَناتُنابَنُوهُنَّ أبناءُ الرِّجالِ الأَباعِدِ

لذلك حين نزلت آية المباهلة: «فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ»[۱۳۲] أجمع المفسّرون على أنّ المفردة «أبناءنا» فى هذه الآية الشريفة إشارة إلى الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام و «نساءنا» فاطمة عليها السلام، وماكثر الخطاب «يا ابن رسول اللَّه» لأئمّة أهل البيت عليهم السلام فى الروايات.

وقد عدّت الآية الشريفة ۸۵ من سورة الأنعام: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَ ... عِيسى» المسيح من ذريّة إبراهيم عليه السلام، فى حين ينتسب إليه من جانب امّه (مريم).

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۷۹

الخطبة ۲۰۸

اشارة

قالَهُ لَمّا اضْطَرَبَ عَلَيْهِ أَصْحابُهُ فى أمْرِ الْحُكُومَةِ[۱۳۳]

نظرة إلى الخطبة

جاء فى كتاب «مصادر نهج البلاغة» فى مناسبة هذا الكلام: لما رفع عمرو بن العاص ورهطه المصاحف على أسنّة الرماح يوم صفين لخداع جيش على عليه السلام، وبدت أعلام النصر والفتح ولم يبق على تحقيق النصرالكامل سوى بضع خطوات، انقسم أصحاب الإمام عدّة فئات؛ فئة اعتقدت بأنّ أهل الشام لم يفعلوا ذلك خدعة؛ بل يريدون حقّاً الإحتكام إلى القرآن، وفئة عظيمة أخرى سئمت القتال ولا يرون فى أنفسهم القدرة على مواصلته، وكان هذا الموضوع ذريعة لاعتزال القتال والخلود إلى الدعة، وفئة ثالثة كانت من المنافقين التى تكنّ البغض والعداء للإمام عليه السلام وكانت تنتظرالفرصة، فلما رأت المصاحف على الرماح حدّثوا أنفسهم بأنّ الفرصة قد سنحت للتخلى عن نصرة على عليه السلام فارتفعت أصواتهم مطالبين بوقف القتال وفئة

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۸۰

قليلة هى التى أصرّت على مواصلة القتال وكان فى مقدمتهم مالک الأشتر الذى صرخ بهم، الويل لكم أتعتزلون القتال وأوشكنا على النصر؟ أيّها الجهّال! ... ولكن الفئة التى اعتزلت القتال شتمته وهددته وصرخت «المَصاحِفُ المَصاحِفُ وَالرُّجُوعُ إليْها لا نَرى غَيْرَ ذلِک» وأجبرت الإمام عليه السلام على قبول التحكيم.

وهنا أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام فقال ما ملخصه: كنتم تتبعوننى وكنت أميركم، أمّا الآن تريدون أن تكونوا أنتم الامراء وأنا المأمور، إنّكم تريدون الحياة مهما كلّف الأمر فكيف يسعنى صدكم عن ذلک؟!

***

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۸۱

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِى مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ، حَتَّى نَهِكَتْكُمُ الْحَرْبُ، وَقَدْ، وَاللَّه، أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَتَرَكَتْ، وَهِىَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَک. لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِى أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ.

الشرح والتفسير: رفاق السلاح الجهّال

أورد الإمام عليه السلام هذا الكلام حين أصرّ عليه أغلب جيشه وخلافاً لرغبته لعدّة أسباب على إيقاف القتال والتسليم للتحكيم، حيث يجيب فى الواقع عن هذا السؤال: لماذا استسلمتم لمؤامرة عمرو بن العاص فى رفع المصاحف على الرماح وقبلتم بالتحكيم، حيث قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِى مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ، حَتَّى نَهِكَتْكُمُ ۱۳۴] الْحَرْبُ، وَقَدْ، وَاللَّه، أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَتَرَكَتْ، وَهِىَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَک».

هذا الكلام فى الواقع إجابة للصامدين فى القتال الذين يرون عاقبته النصر، إلّا أنّهم كانوا للأسف أقلية، فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه الكلمات إلى عذره فى قبول مقترح وقف القتال والتحكيم إزاء تلک الأقلية من جانب، ومن جانب آخر إلى يقينه بضرورة مواصلة القتال حتى النصر إزاء تلک الأكثريّة التى أتعبها القتال وأنّ كثرة

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۸۲

القتلى لا تبرر الاستسلام لمطالب العدو اللامشروعة.

ثم أوضح ذلك بالقول: «لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ!».

وهذا أيضاً جواب لفئتين: الأقليّة المطالبة بمواصلة القتال حتى النصر والمعترضة على قبول التحكيم وإيقاف القتال الذى أوشك على تحقيق النصر، فقال: ما عسانى أفعل وقد سلبت المبادرة وتعثرت الإمرة وعصيتم وتمردتم، والأكثرية التى استجابت لطلب العدو فخاطبها أنّها لم تستجب لذلك الطلب حرمة للقرآن، بل بسبب حبّ البقاء والتنصل من التضحية فى سبيل اللّه (فتأمّل).

تأمّل: التضحية بالفرصة الكبرى

رقة كلمات أمير المؤمنين عليه السلام إزاء معارضى مواصلة القتال تفيد مدى مرونته، والتى ربّما تثير هذا السؤال: لماذا لم يدع الإمام مالك الأشتر ليواصل المعركة التى أشرفت على تحقيق النصر وإنقاذ المسلمين من شرّ بنى أمية وأتباعهم؟

والجواب عن هذا السؤال يكمن فى تاريخ صفين.

فقد أشرنا فى الأبحاث السابقة إلى أنّ معارضى القتال لم يقتصروا على أولئك الذين خدعوا بحيلة عمرو بن العاص فى تعليق المصاحف على أسنّة الرماح، بل هناك الفئة الخاوية الإرادة التى لم تكن مستعدة لمواصلة القتال، بالإضافة إلى المنافقين ومبغضى الإمام الذين رأوا الفرصة مؤاتية للاصطياد فى الماء العكر، فاتحدوا جميعاً وأصروا على الإمام بإيقاف القتال.

قال ابن أبى الحديد: فأرسل إلى الأشتر يأمره بالرجوع وترك الحرب، فأبى عليه فقال: كيف أرجع وقد لاحت إمارات الظفر! فقولوا له: «ليمهلنى ساعة واحدة»، ولم

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۸۳

يكن علم صورة الحال كيف قد وقعت، فلما عاد إليه الرسول بذلك، غضبوا ونفروا وشغبوا، وقالوا: أنفذت إلى الأشتر سرّاً وباطناً، تأمره بالتصميم، وتنهاه عن الكفّ، وإن لم تعده الساعة، قتلناك كما قتلنا عثمان، فرجعت الرسل إلى الأشتر فقالوا له:

أتحبّ أن تظفر بمكانك وأمير المؤمنين قد سُلّ عليه خمسون ألف سيف! فقال: ما الخبر؟ قالوا: إن الجيش بأسره قد أحدق به، وهو قاعد بينهم على الأرض، تحته نطع، وهو مطرق، والبارقة تلمع على رأسه، يقولون: لئن لم تعد الأشتر قتلناك! قال:

ويحكم! فما سبب ذلك؟ قالوا: رفع المصاحف، قال: واللّه لقد ظننت حين رأيتها رفعت أنّها ستوقع فرقة وفتنة.

ثم كرّ راجعاً على عقبيه، فوجد أميرالمؤمنين عليه السلام تحت الخطر، قد جعله أصحابه بين أمرين: إمّا أن يسلموه إلى معاوية، أو يقتلوه، ولا ناصر له منهم إلّاولداه وابن عمه ونفر قليل لا يبلغون عشرة، فلما رآهم الأشتر سبّهم وشتمهم، وقال: ويحكم! أبعد الظفر والنصر صبّ عليكم الخذلان والفرقة! يا ضعاف الأحلام! يا أشباه النساء! يا سفهاء العقول! فشتموه وسبّوه، وقهروه.

وقالوا: المصاحف المصاحف! والرجوع إليها، لا نرى غير ذلك! فأجاب أميرالمؤمنين عليه السلام إلى التحكيم، دفعاً للمحذور الأعظم بارتكاب المحظور الأضعف، فلذلك قال: «كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً ...»[۱۳۵].

تفيد بعض القرائن والشواهد أنّ رفع المصاحف على الرماح كانت من صنع المنافقين وبعض الأفراد فى جيش أميرالمؤمنين على عليه السلام وطائفة من أهل الشام بقيادة عمرو بن العاص والأشعث بن قيس، الذين لايبغون انتصار الإمام عليه السلام ۱۳۶].

أوردنا بحثاً مطولًا بشأن التحكيم والذى يعتبر مكملًا لهذا البحث فمن أراد المزيد فليراجع ذيل الخطبة ۳۵، الجزء الثانى، الصفحة ۳۶۴.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۸۵

الخطبة ۲۰۹

اشارة

بِالْبَصْرَةِ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَى الْعَلاءِ بنِ زِيادِ الْحارِثى - وَهُوَ مِنْ أَصْحابِهِ - يَعُودُهُ، فَلَمّا رَأى سَعَةَ دارِه قالَ:[۱۳۷]

نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام كما ورد أعلاه إشارة لقصة عيادة على عليه السلام لأحد أصحابه فى البصرة وهو علاء بن زياد الحارثى (رغم ما ذهب إليه أغلب شرّاح نهج البلاغة من أنّه كان الربيع بن زياد وليس العلاء بن زياد) فقال عليه السلام ذلك لما رأى سعة داره فوعظه وسائر الناس ممن على غراره بموعظة بليغة ويتضمن هذا الكلام ثلاثة أقسام:

الأوّل: أنّها موعظة حيّة للعلاء بن زياد.

الثانى: وعظ ونصح عميق لأخيه، أىعاصم بن زياد الذى عاش حياة على العكس تماماً من أخيه وكان يعيش حياة متقشفة.

الثالث: اجابة عن أسئلة عاصم بن زياد بشأن معيشة الإمام.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۸۷

القسم الأوّل

اشارة

مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هذِهِ الدَّارِ فِى الدُّنْيا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِى الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ؟ وَبَلَى إنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ: تَقْرِى فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ.

الشرح والتفسير: الدار الواسعة

رغم أنّ هذا الكلام ورد فى قضية شخصية بشأن اثنين من أصحاب الإمام عليه السلام لكنه فى الواقع مبدأ كلى وخطة عامة فى ضرورة الاعتدال فى الاستعانة بالوسائل المعاشية، والأمّة الإسلاميّة طيلة التاريخ مشمولة بهذا الخطاب، فالإمام لما شاهد دار العلاء بن زياد الواسعة الفارهة والمؤثثة بالتأكيد وبّخه بادئ الأمر ثم نصحه مشفقاً فقال: «مَا كُنْتَ ۱۳۸] تَصْنَعُ بِسَعَةِ هذِهِ الدَّارِ فِى الدُّنْيا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِى الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ؟».

اعتاد الناس حين يعودون مريضاً على قول ما من شأنه إراحته والتخفيف عنه، إلّا أنّ معلماً ربانياً كعلى عليه السلام حين يرى صاحبه طريح الفراش الذى ربّما لا يعاود النهوض منه لابدّ أن يوقظه ويشدّه إلى مصيره ويريه سبيل السعادة ويجرعه مرارة النصح المصحوب بالعتاب، عله يتماثل للشفاء الحقيقى، ثم أراه اسلوب استغلال تلك الثروة الهائلة لنيل سعادة الآخرة فقال: «وَبَلَى إنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ:

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۸۸

تَقْرِى ۱۳۹] فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ ۱۴۰] مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ».

فقد أشار عليه السلام إلى حقيقة هى أنّ المال والثروة ليست مذمومة أو تتعارض مع القيم، بل المهم كيفية إنفاقها، فهى مذمومة إن أدّت إلى الفخر والتكاثر والاحتكار.

لكنّها تعتبر رصيد الآخرة إن وضع قسم منها تحت تصرف المعوزين والقرابة والأصحاب، ومن هنا ذكر المال بصفة «خير» فى القرآن: «إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ»[۱۴۱].

جاء فی الخبر أنّ شخصاً ذم الأغنیاء عند الإمام الصادق علیه السلام وأساء لهم فقال علیه السلام:

«أُسْکُتْ فَإِنَّ الْغَنِیَّ إذا کانَ وَصُولًا لِرَحِمِهِ، بارّاً بِإِخْوانِهِ أَضْعَفَ اللَّه تَعالی لَهُ الأَجْرَ ضِعْفَیْنِ لأَنَّ اللَّه تَعالی یَقُولُ: وَما أَمْوالُکُمْ وَلا أَوْلادُکُمْ بِالَّتی تُقَرِّبُکُمْ عِنْدَنا زُلْفی إلّا مَنْ امَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِک لَهُمْ جَزاءَ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِی الْغُرُفاتِ امِنُونَ»[۱۴۲].

وعلیه فإنّ المال من شأنه أن یکون أفضل وسیلة للسعادة إن استغل بصورة صحیحة، کما یمکن أن یکون وسیلة للبؤس والشقاء إن اقترن بالبخل والإسراف والإحتکار.

تأمّل: الدار الواسعة فی الروایات

یستفاد من عدّة روایات أنّ إحدی علامات سعادة الإنسان، الدار الواسعة «مِنْ سَعادَةِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ، المَسْکَنُ الْواسِعُ»[۱۴۳].

ووردت فی ذلک الباب من «الکافی» سبع روایات بهذا المضمون أو ما یقرب منه

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۸۹

عن المعصومین علیهم السلام، وأورد المرحوم العلّامة المجلسی فی الجزء ۷۳ من «بحارالأنوار» عدّة روایات بهذا الخصوص منها ما روی عن الإمام الرضا علیه السلام أنّه اشتری داراً لأحد أصحابه وأشار علیه بالانتقال إلیه کون داره صغیرة، فقال: إنّ والده اشتری تلک الدار (وأنا اتبعه) فقال علیه السلام: «إنّ أباکَ کَانَ جَاهلًا فَهلْ تَکونَ کأبیکَ»[۱۴۴].

طبعاً هذه الروایات لا تعنی أن یتجاوز الإنسان حالة الاعتدال ویقبل علی الإسراف، بل تشیر إلی ضرورة عدم قناعة الإنسان بالدار الضیقة والصغیرة ذریعة لترک صلة الرحم وعدم استقبال الضیوف. یقال: إن قصدنا دار الأرحام فسیأتون إلی دارنا وهی صغیرة، ومن هنا یتحفظون عن استقبال الضیف أساس الخیر والبرکة، وإنّ أحد أسباب شیوع ثقافة الدور الصغیرة فی عصرنا بغض النظر عن المشاکل المالیّة یتمثل فی هیمنة الثقافة الغربیة الخالیة من العواطف الإنسانیّة والتی لا تقیم وزنا لصلة الرحم ولا إقراء الضیف.

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۹۱

القسم الثانی

اشارة

فقال له العلاء: یا أَمیرالمؤمنین، أشکو إلیک أَخی عاصمَ بنَ زیاد. قال:

وَمَا لَهُ؟ قال: لبِس الْعَباءَةَ وتَخَلَّی عن الدُّنیا. قال: عَلیَّ بِهِ. فَلَما جاءَ قال:

یَا عُدَیَّ نَفْسِهِ! لَقَدِ اسْتَهَامَ بِک الْخَبِیثُ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَک وولَدَک! أَتَرَی اللَّه أَحَلَّ لَک الطَّیِّبَاتِ، وَهُوَ یَکْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَی اللَّه مِنْ ذلِک!

قال: یا أَمیرالمؤمنین، هذا أَنْتَ فی خُشُونَةِ مَلْبَسِک وجُشُوبَةِ مأکَلِک!

قال: وَیْحَک، إِنِّی لَسْتُ کَأَنْتَ، إِنَّ اللَّه تَعَالَی فَرَضَ عَلَی أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ یُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، کَیْلَا یَتَبَیَّغَ بِالْفَقِیرِ فَقْرُهُ!

الشرح والتفسیر: ذم الهروب من الدنیا

لما وعظ الإمام علیه السلام العلاء بن زیاد، عرض العلاء قضیة أخیه الذی اختار طریقاً مغایراً له، «فقال له العلاء: یا أَمیرالمؤمنین، أشکو إِلیک أَخی عاصمَ بنَ زیاد. قال:

وما له؟ قال: لِبس الْعَبَاءَةَ وتَخَلَّى عن الدُّنيا. قال: عَلَيَّ بِهِ». «فَلَمَّا جَاءَ قال: يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ! لَقَدِ اسْتَهَامَ ۱۴۵] بِكَ الْخَبِيثُ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ!».

«عديّ» تصغير «عدوّ» وأراد الإمام عليه السلام بهذه الوسيلة أن يحفزه لخروجه من مسار الاعتدال من جهة ويعتبر عمله عدواناً على نفسه من جهة أخرى، ثم يتعرض لهذه القضية فيبيّن له أن أعمالك إنّما تنطلق من وساوس الشيطان بالاضافة إلى

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۹۲

هوى النفس والتى تؤدى إلى نوع من الازدواجية والارباك فى المعيشة.

ثم ذكره عليه السلام بأنّك تظلم أهل بيتك فضلًا عن نفسك دون حجة أو دليل، والسبب وراء كلّ هذا التقريع المكرر رفض الإسلام للرهبنة ونسيان الدنيا بهذا الشكل والاقبال على العبادة ولا يرى ذلك سوى انحراف عن جادة الصواب كما سيرد تفصيل ذلك.

ثم قال: «أَتَرَى اللَّه أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّه مِنْ ذلِكَ!».

هذا الكلام فى الواقع إشارة إلى دليل لطيف وهو: أنّك اعتمدت طريقة ظاناً استنادها لأمر اللَّه، فى حين أحلّ القرآن صراحة الطيبات والثياب الطاهرة والأطعمة للجميع «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّه الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[۱۴۶].

الجملة «أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّه مِنْ ذلِكَ!» ربّما إشارة إلى أنّ هؤلاء الأفراد الذين يعيشون حياة خاصة ويعتزلون المجتمع الإسلامى، يرون أنّهم مميزون للغاية ويظنون أنّ الاعتزال والإرتياض يميزهم عن الآخرين وكأنّ اللَّه شرع منهاجاً خاصاً، إنّك أهون على اللَّه.

أراد عاصم أن يبرر وضعه: «قال: يا أَميرالمؤمنين، هذا أَنْتَ فى خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وجُشُوبَةِ[۱۴۷] مأكَلِكَ!».

فردّ عليه الإمام عليه السلام قائلًا: «وَيْحَكَ، إِنِّى لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللَّه تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلَا يَتَبَيَّغَ ۱۴۸] بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ!».

وعلى ضوء هذا المنطق فإنّ عامة الناس أحرار فى التمتع بلذات الحياة باعتدال

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۹۳

وبعيداً عن الإسراف والتبذير، أمّا أئمّة الدين فلابدّ أن يقنعوا بالحياة المتواضعة على غرار ضعفاء المجتمع ليواسوا الطبقات الفقيرة والمحرومة كيلا يشعروا بالهم والأسى.

قال ابن أبى الحديد: فما قام على عليه السلام حتى نزع عاصم العباءة، ولبس ملاءة.

وأكد ابن أبى الحديد أنّ موضوع البحث الأصلى لم يكن العلاء بن زياد، بل شخص معروف هو الربيع بن زياد، والربيع بن زياد هو الذى افتتح بعض خراسان، وفيه قال عمر: دلونى على رجل إذا كان فى القوم أميراً فكأنّه ليس بأمير، واذا كان فى القوم ليس بأمير فكأنه الأمير بعينه! وكان خيّراً متواضعاً، وهو صاحب الوقعة مع عمر لما أحضر العمال فتوحش له الربيع، وتقشف وأكل معه الجشب من الطعام، فأقره على عمله، وصرف الباقين، وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم.

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد، وهو على قطعة من خراسان: أنّ أمير المؤمنين معاوية كتب إليَّ يأمرك أن تحرز الصفراء والبيضاء وتقسم الخرثى وما أشبهه على أهل الحرب.

فقال له الربيع: إنّى وجدت كتاب اللَّه قبل كتاب أمير المؤمنين (يعنى لابدّ من تقسيم الغنائم مثل رسول اللَّه وعلى)، ثم نادى فى الناس: أن اغدوا على غنائمكم، فأخذ الخمس وقسم الباقى على المسلمين، ثم دعا اللَّه أن يميته، فما جمع حتى مات يوم الجمعة[۱۴۹].

تأمّلات

۱. ذم عموم الافراط والتفريط

الامّـة الإسـلاميّة أمّـة معتدلـة والمسـلمون أتباع الإسـلام والقرآن بعيـدون عـن مطلق الافـراط والتفريـط: «وَكَذلِك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً»[۱۵۰].

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۹۴

لكن المؤسف أنّ بعض الجهّال أو المغرضين والمعارضين للإسلام يعتمدون الافراط والتفريط ويسعون أحياناً لمنحه صيغة إسلامية.

والبعض وعلى ضوء أن الإسـلام أباح الطيبات، فقد أقبل على الكماليات، ويسـتدل أحياناً بحياة سليمان وفخامة ملكه التى تحدث عنها القرآن.

والبعض الآخر سـلك سبيل التفريط فأغلق الأبواب بوجهه وآثر العزلـة والتقوقع وحرم على نفسه الطيبات المحللـة، وقـد ابتعد الفريقان عن الصـراط المستقيم حيث صرح القرآن بأن علماء بنى اسرائيل قالوا لقارون: «وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاك اللَّه الدَّارَ الْاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَك مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْك وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ»[۱۵۱].

والحق لو إمتثل قارون وأمثاله هـذه المواعظ الاربع ولم ينس نصـيبه من الـدنيا وجعل رصـيده المادى وسـيلة لنيل سـعادة الآخرة وهب لمعونة المستضعفين بدل الافساد فى الأرض، لما طاله قط الغضب الربانى.

وفى حديث معروف عن الباقر عليه السلام قال: «لَيْسَ مِنّا مَنْ تَرَک دُنْياهُ لِاخِرَتِهِ وَلا آخِرَتَهُ لِدُنْياهُ»[۱۵۲].

۲. التصوف ونتائجه

اعتقـد بـأنّ بعض الأفراد فى اليونـان والهنـد منـذ آلاف السـنين أنّه بإمكـانهم الإتيـان بـالخوارق أو نيـل المراتب المعنويـة من خلال الإرتياض والتشدد على النفس فى الملذات والأطعمة والأشربة والملبس، كونهم يعتقدون أنّ ترك اللذة سبب قوّة النفس وقدرتها.

وحين انتشـر الإسـلام تسـللت إليه هـذه الأفكار من سائر البلـدان فخلطه البعض بالزهـد وبعض التعاليم الإسـلاميّة فحمّلوا الـدين أفكاراً منحرفة وشاذة كانت نتيجتها

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۹۵

«التصوف» ولعل الاسم يعود إلى أنّهم لبسوا فى البداية الثياب الصوفية الخشنة، رغم ما يزعمه بعض المتصوفة من أنّ مادة هذه المفردة هى الصفـاء «صـفاء النفس» والحال ليس هنالك أدنى صـلة بين هـذين اللفظين، فأحدهما أجوف واوى والآخر ناقص واوى، كما وقع فى هذا الخطأ من ذهب إلى أنّها مشـتقة من مفردة «أصـحاب الصفة» فصفة من مادة صفف «يعنى مضاعف» وصوفى من مادة «صوف» وعليه فهذه المفردة لا تعنى سوى لبس الصوف قطعاً.

على كلّ حال، لهـذه الفرقـة زعامات يطلق عليهم القطب والشـيخ والمرشد وأمثال ذلك ويدّعون أنّ لهم كرامات، وقد انقسـموا فئات لكل فئـة طريقتها واسـلوبها على أثر الاختلافات الداخليّـة وأهواء الأقطاب، فهـذه الفرقـة تنظر إلى الأحكام الدينيـة التى تصـطلح عليها بالشـريفة أنّهـا قابلـة للتوجيه والتغيير، والمحور هو السـير الباطنى الـذى يسـمونه (الطريقـة)، ومن هنا فهى ترتكب العديـد من الـذنوب وتفسح المجال لاتباعها لانتهاك الأحكام الشرعيّة، بعبارة أخرى، تؤمن بأنّ الشريعة قشر والطريقة لب، والحقيقة «لب اللب».

وعلى هـذا الأساس فهى تسـتقطب الفاسـدين والمفسدين والمتهتكين من الأفراد وتعقد حفلات الرقص وتناول المخدرات، وتصـر من الناحيـة العقائديـة على «وحـدة الوجود» بمعنى «وحـدة الموجود» فيـدعى أغلب زعمائهـا بين الفينـة والأـخرى اتحـاده الوجودى بـاللَّه، ويصـطلحون على هذا الكلام الهجين بالشـطحيات، يبدو أنّ هذه الفرقة ظهرت بالتدريج بين المسـلمين منذ القرن الهجرى الثانى فأنكر

عليها ذلك بشدّة أئمة أهل البيت عليهم السلام وحذروا المسلمين منهم وربّما شدّة تقريع الإمام عليه السلام لعمل عاصم بن زياد رؤيته عليه السلام أنّ ذلك مقدمة لظهور تلك الفئة فى المستقبل.

ورد أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام سأله: ما تقول فى الصوفية التى ظهرت فى زماننا، قال:

«إنّهُم أعداؤنا فَمَنْ مالَ إلَيهِم فَهُو مِنْهُم وَيُحشرُ مَعَهُم وَسَيكُونُ أَقوامٌ يَدّعُونَ

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۹۶

حُبّنا وَيَميلُونَ إلَيهِم، ويَتَشَبَّهُونَ بِهِم وَيُلقِّبُونَ أَنْفُسَهُم بِلَقَبِهِم، ويَأوِّلُونَ أَقوالَهُم ألا فَمَن مالَ إلِيهِم فَلَيسَ مِنّا وإنّا مِنهُ بَراءُ ومَنْ أَنكَرَهُم وَرَدَّ عَلَيهِم كَانَ كَمَن جاهَدَ الكُفّارَ بَينَ يَدى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله»[۱۵۳].

وروى البزنطى وإسماعيل عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «مَنْ ذَكَرَ عِنْدَهُ الصُّوفِيَّةُ وَلَمْ يُنْكِرْهُمْ بِلِسانِهِ وَقَلْبِهِ فَلَيْسَ مِنّا وَمَنْ أَنْكَرَهُمْ فَكَأَنَّما جاهَدَ الْكُفّارَ بَيْنَ يَدَى رَسُولِ اللَّه»[۱۵۴].

تنطوى جميع الفرق الصوفية على انحرافات فى القضايا العقائديّة والفقهيّة والأخلاقيّة نوجز بعضها:

۱. حيث يرون أنّهم أهل الطريقة يعتقدون بأنّ الطريقة الكامنة فى مسار الحقيقة وأحكام الشريعة مقدمة فى الوصول إلى الطريقة والحقيقة، ولا يولون أهميّة للمسائل الشرعيّة ويتخلون عن أكثرها من خلال بعض الحجج والاعذار الواهيّة.

۲. الوقوع غالباً فى مطب التفسير بالرأى للكتاب والسنّة فيحمّلون الكتاب والسنّة آراءهم ويجيزون لأتباعهم مقارفة بعض الذنوب.

۳. يؤمنون بلزوم طاعة القطب والمرشد وينسبون لأقطابهم العديد من الكرامات الموضوعة التى تفوق أحياناً معاجز الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، ومن هنا ينتهى بعض اتباعهم إلى الشرك فيرى القطب والمرشد كالمعبود فيعبده.

۴. ابتدعوا الكثير فى الدين ولكل فرقة بدعتها من قبيل كيفية مجالس الأذكار والأوراد وسائر المجالس ومن هنا قلّما يحضرون المساجد، فقد أقاموا لهم مراكز عبادية ليكونوا أحراراً فى الإتيان بأعمالهم.

۵. يؤمن أغلبهم بالتعددية وكل دين سبيل إلى اللَّه ولا يرون كساد متاع الكفر والدين.

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۹۷

۶. من أهم انحرافاتهم، الإيمان بوحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود، حيث يرون مجموعة موجودات العالم شيئاً واللَّه عين ذلك الشيء ومن هنا يرون عبادة الأصنام نوعاً من عبادة اللَّه شريطة عدم تحديد اللَّه فى ذلك الصنم.

وقد ألّفت عدّة كتب من قِبل الأعلام والمحققين بشأن انحرافاتهم، وما ورد آنفاً مجرّد إشارة[۱۵۵].

القضية الأخرى الجديرة بالذكر أنّ التصوف باهت فى وسط اتباع أهل‌البيت عليهم السلام وواسع للغاية فى وسط أبناء العامّة وينشط العديد من فئات هذه الفرقة وبعقائد مختلفة فى البلدان الإسلاميّة.

والعنصر الرئيسى فى هذا الفارق، الإيمان بولاية أهل البيت عليهم السلام ولاسيما الإيمان بوجود المهدى عليه السلام.

وهنالك جذور تاريخيّة واجتماعية مختلفة للتصوف واعتناقه ومنها:

۱. هوّل خلفاء بنى العباس قضية التصوف بهدف صرف الأنظار عن أهل‌البيت عليهم السلام الذين يرونهم منافسيهم الحقيقيين للتقليل من أهمّية زهد أهل البيت عليهم السلام وكراماتهم من خلال أدعياء الصوفية وحيث إنّ الصوفية تؤمن بالسير الباطنى فهى لا تهدد دنيا المتهافتين عليها، كما حظيت بدعم السياسات المستبدة فى عصرنا، كونها تمنع اتباعها من التدخل فى السياسة وتعبد الطريق للاستعمار والاستبداد.

۲. الوصول إلى المقامات العرفانية الصوفية- على العكس من بلوغ المقامات العلمية والفقهية كما يعتقدون بأنّ من ارتاض أربعين يوماً وداوم على قراءة بعض الأوراد وإن كان امياً ربّما يتحوّل إلى ولى من أولياء اللَّه وينال مقامات رفيعة، بينما لا تكفى أحياناً أربعين سنة من الجهد لبلوغ المقامات العلمية الرفيعة.

نفحات الولایهٔ، ج۸ ص: ۹۸

۳. بما أنّهم ینظرون إلی الشریعهٔ کوسیلهٔ بسیطهٔ ویفسحون المجال عملیاً لأتباعهم لمخالفهٔ بعض الأحکام الشرعیّهٔ فإنّ أغلب الآثمین والمذنبین والساسهٔ المحترفین الظلمهٔ یتعاطفون معهم بغیر حساب، أیأنّهم یواصلون ظلمهم وإثمهم، کما یشبعون بصورهٔ کاذبهٔ حسهم الدینی، بعبارهٔ أخری أنّ تساهلهم فی أمور الدین وترکهم أیحزم یؤدی إلی التحاق الأفراد بهم.

قال أحد الفضلاء: لما القی القبض علیّ فی عهد النظام المباد وحملت إلی رئیس جهاز السافاک فی طهران قال لی: سمعت أنّک رجل متدین وعالم، لکن قطعاً لست أقل منک تدیناً فأنا درویش وألهج بذکر علی ویعطینی کلّ ما سألته، مع ذلک لا أطیق تحمل معارضهٔ الشاه ولا أتردد فی قتل ملیون شخص دفاعاً عنه.

ثم قال ذلک الفاضل: أدرکت أنّ التصوف والدروشهٔ تبیح حتی قتل ملیون بریء دفاعاً عن الظالمین.

۳. الانتفاع بالطیبات

یعتقد البعض أنّ الزهد یناقض الانتفاع بالنعم الدنیویهٔ وأنّ الإسلام یعتبر التشدد علی النفس والإرتیاض وهجران لذائذ الدنیا حسناً، والحال لیس الأمر کذلک، وکما أشرنا سابقاً فقد قال تعالی فی القرآن: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَهَ اللَّه الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّیِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیَاهِٔ الدُّنْیا خَالِصَهً یَوْمَ الْقِیَامَهِٔ»[۱۵۶].

وقال تعالی فی موضع آخر شارحاً أهداف البعثهٔ النبویهٔ وتعالیمها: «الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْامِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْرَاهِٔ وَالْانجِیلِ یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَیَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنکَرِ وَیُحِلُّ لَهُمُ الطَّیِّبَاتِ وَیُحَرِّمُ عَلَیْهِمُ الْخَبَائِثَ وَیَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِی کَانَتْ عَلَیْهِمْ فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِک هُمُ الْمُفْلِحُونَ»[۱۵۷].

نفحات الولایهٔ، ج۸ ص: ۹۹

وهنالک العدید من الآیات والروایات التی لا یسمح المقام ذکرها، لکن لا بأس بذکر موردین:

أحدهما: ما ورد فی هذه الخطبهٔ من ضرورهٔ عیش أئمّهٔ العدل المعیشهٔ المتواضعهٔ ومواساهٔ الطبقات الاجتماعیهٔ المحرومهٔ بغیهٔ ذکرها والعمل علی إزالهٔ حرمانها إلی جانب کونها تضامن مع هذه الطبقات.

والآخر: ضرورهٔ القناعهٔ بالقلیل وبذل الکثیر لإنقاذ المحرومین حین یتعرضون لبعض الأزمات الاجتماعیهٔ ویعانون من الضغوط.

وزبدهٔ الکلام الذی یفهم من الروایات أنّ الانتفاع بنعم اللَّه ضمن الحدود المعقولهٔ والبعیدهٔ عن الإسراف والتبذیر لیس مذموماً وترکها لا یعد فضیلهٔ وإن کان تواضع العیش سیما حین فقر البعض وکذلک بالنسبهٔ لأئمّهٔ العدل وزعماء المسلمین یعتبر فضیلهٔ.

***

نفحات الولایهٔ، ج۸ ص: ۱۰۱

الخطبهٔ ۲۱۰

اشارهٔ

وَقَدْ سَأَلَهُ سائِلٌ عَنْ أحادیثِ الْبِدَعِ، وَعَمّا فی أیْدِی النّاسِ

مِن اخْتِلافِ الْخَبَرِ، فَقالَ عليه السلام:[۱۵۸]

نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة التى تتحدّث عن أقسام الحديث والرواة على ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: خاض فيه الإمام عليه السلام ببيان أقسام الأحاديث التى فى أيدى الناس، وقال بينها حق وباطل وناسخ ومنسوخ و ... ثم أشار إلى عقاب وضّاع الأحاديث وبشرهم بنار جهنم على ضوء الحديث النبوى الشريف.

وذكر فى القسم الثانى صفات رواة الحديث فصنفهم أربعة أصناف: المنافقين والخاطئين والجاهلين والحفظة الصادقين.

وخاض فى القسم الثالث والأخير فى بعض خصائص أحاديث النّبى صلى الله عليه و آله وأشار

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۰۲

إلى كيفية فهمها، واختتمها بالإشارة إلى وعيه التام لأحاديث النّبى صلى الله عليه و آله، جدير ذكره أنّه ورد فى «الكافى» بشأن هذه الخطبة:

عن سليم بن قيس الهلالى قال: قلت لأميرالمؤمنين عليه السلام: إنى سمعت من سلمان والمقداد وأبى‌ذر شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبىّاللَّه صلى الله عليه و آله غيرما فى أيدى الناس، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم ورأيت فى أيدى الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبى اللَّه صلى الله عليه و آله أنتم تخالفوهم فيها، وتزعمون أنّ ذلك كله باطل، أفترى الناس يكذبون على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله متعمدين ويفسّرون القرآن بآرائهم؟ قال: فأقبل علىَّ وقال: قد سألت فافهم الجواب، وذكر الخطبة عن عليه السلام مع شيء من الإضافات ۱۵۹].

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۰۳

القسم الأوّل

اشارة

إنَّ فِى أَيْدِى النَّاسِ حَقّاً وَبَاطِلًا، وَصِدْقاً وَكَذِباً، ونَاسِخاً وَمَنْسُوخاً، وَعَامّاً وَخَاصّاً، وَمُحْكَماً وَمُتَشَابِهاً، وَحِفْظاً وَوَهْماً، وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله عَلَى عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

الشرح والتفسير: نقد الروايات

منعت الخلافة عقب وفاة النّبى صلى الله عليه و آله لمدّة طويلة (أكثر من ۱۰۰ سنة) تدوين السنّة لأسباب سترد فى محلها، مع ذلك كانت الألسن تتناقل أخبار النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فكانت تنسب له صلى الله عليه و آله بعض الأخبار المتناقضة، واستغل المنافقون والأعداء الخفيون والظاهرون تلك الظروف الذهبية فحاكوا بعض الأكاذيب لصالحهم أو لصالح زعمائهم ونسبوها للنبى صلى الله عليه و آله، وإن قام البعض فى القرون اللاحقة لتهذيب الأخبار ووضع معايير الصدق والكذب فانتعش تأليف كتب الحديث والرجال، لكن كما قيل فإنّ منع الكتابة حال دون تدوين الأحاديث.

فقد بيّن عليه السلام بعبارات قصيرة بليغة وعلى وجه الدقّة منبع اختلاف الأخبار ليوجزه بستة أمور فقال: «إنَّ فِى أَيْدِى النَّاسِ حَقّاً وَبَاطِلًا، وَصِدْقاً وَكَذِباً، ونَاسِخاً وَمَنْسُوخاً، وَعَامّاً وَخَاصّاً، وَمُحْكَماً وَمُتَشَابِهاً، وَحِفْظاً وَوَهْماً».

فأشار عليه السلام أوّلًا إلى السبب الأصلى المتمثل بوجود الحق والباطل التى ربّما تشير إلى عقيدة الحق والباطل، فأهل الحق يتابعون

أحاديث الحق وأهل‌الباطل يروِّجون للباطل.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۰۴

والصدق والكذب الذى يمثّل نوعاً آخر للحق والباطل بلباس القول هو عامل آخر.

فالكاذبون وضعوا عمداً بعض الأخبار المختلقة ونسبوها للنبى صلى الله عليه و آله وكانوا يتلقون أحياناً أموالًا باهضة من الحكام مثل معاوية وهو السبب الثانى، والسبب الثالث الناسخ والمنسوخ، فالبعض سمع حكم المنسوخ فقط ورواه والبعض الآخر سمع الناسخ ورواه.

والسبب الرابع العام والخاص مثلًا سمع البعض أنّ اللّه أحلّ للناس المعاملات لكنه لم يسمع الحكم الخاص، أى‌بعض الاستثناءات، والبعض الآخر روى الاستثناء والذى يتناقض ظاهرياً مع الخبر العام.

المحكم والمتشابه هو السبب الخامس: فبعض الأخبار مثل بعض آيات القرآن تتحمل عدّة وجوه فى التفسير ثم ترد لاحقاً بعض الأخبار وتزيل الابهام، وعدم اطلاع الرواة على الحالتين أدى إلى الاختلاف فى الرواية.

السبب السادس: الحفظ والوهم فبعض الرواة روى حديث النّبى صلى الله عليه و آله بدقّة تامة، بينما رواها البعض الآخر على أساس الظن والوهم الذى لا- يطابق الواقع، هذه هى الأسباب التى تشابكت مع بعضها وعكرت أجواء الروايات الإسلاميّة، ثم بدأت هذه الأجواء تظهر فى ظل جهود علماء الحديث والرجال وإن ترسبت بعض الروايات الموضوعة.

ثم خاض عليه السلام فى ذكر دليل واضح على كلامه فقال: «وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله عَلَى عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ[۱۶۰] مَقْعَدَهُ ۱۶۱] مِنَ النَّارِ»».

ورد فى حديث آخر أنّه صلى الله عليه و آله قال: «قَدْ كَثُرَتْ عَلَيّ الْكَذّابَةُ وَسَتَكْثُرُ بَعْدى ألا فَمَنْ

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۰۵

كَذَبَ عَلَيّ مُتَعَمّداً فَلْيَتَبوّأ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ»[۱۶۲].

وقد ورد هذا الحديث فى مصادر العامّة، ومنها «مستدرك الحاكم» و «سنن ابن ماجة» مع اختلاف طفيف ۱۶۳].

وأكد أغلب الشرّاح أنّ هذا الحديث يجعلنا نوقن بالكذب على النّبى صلى الله عليه و آله لأنّ هذا الحديث إن صدق فمعناه كثرة الكذب على النّبى صلى الله عليه و آله حتى خطب المسلمين واعداً الوضاعين بنار جهنم، وإن كان الحديث كاذباً فعلى الأقل أنّ هذا من الكذب الذى نسب للنبى صلى الله عليه و آله.

على كلّ حال، ممّا لا شك فيه أنّ بعض المنافقين والأعداء شهدوا عصر النّبى صلى الله عليه و آله وقد أشار إليهم القرآن فى عدّة سور، وقد اشتد خط النفاق عقب رحيل رسول اللّه صلى الله عليه و آله؛ حيث كان هؤلاء أحد أسباب وضع الأحاديث، وطائفة أخرى خاضت فى الوضع لجهلها بالناسخ والمنسوخ وعدم تميزها بين المحكم والمتشابه والعام والخاص وهذا ما عكر صفو الأحاديث، واضطر علماء الحديث والرجال لبذل جهودهم ليعيّنوا معايير الحديث ويميزوا الصحيح من السقيم، وهذا ما سنشير له فى ختام الخطبة.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۰۷

القسم الثانى

اشارة

وَإِنَّما أَتَاک بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَال لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ:

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْايمَانِ، مُتَصَنِّعٌ بِالْاسْلَامِ، لَا يَتَأَثَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ

مُنَافِقٌ کَاذِبٌ لَمْ یَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ یُصَدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلکِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّه صلی الله علیه و آله رَآهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ عَنْهُ، فَیَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَک اللَّه عَنِ الْمُنَافِقِینَ بِما أَخْبَرَک، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَک، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَی أَئِمَّهِٔ الضَّلَالَهِٔ، وَالدُّعَاهِٔ إِلَی النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمُ الأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُکَّاماً عَلَی رِقَابِ النَّاسِ، فَأَکَلُوا بِهِمُ الدُّنْیَا، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوک وَالدُّنْیَا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّه، فَهذَا أَحَدُ الأَرْبَعَهِٔ.

الشرح والتفسیر: وضع المنافقین للحدیث

کان ما مضی إشارهٔ إجمالیهٔ عمیقهٔ المعنی لمختلف العناصر التی تقف وراء الاختلاف وتعارض أحادیث النّبی صلی الله علیه و آله، وقد خاض الإمام علیه السلام هنا فی شرح ذلک الکلام فقسّم الرواهٔ إلی أربعهٔ أصناف وشخّص موقف کلّ صنف بصورهٔ دقیقهٔ.

والواقع أنّ الإمام علیه السلام اعتمد فی هذه الخطبهٔ أحد فنون الفصاحهٔ والبلاغهٔ الذی یتمثل فی اسلوب الإجمال والتفصیل والذی ورد کراراً فی القرآن لیضع مخاطبیه بدقّهٔ فی واقع الحدث، حیث خاطب علیه السلام السائل الذی استهل به الخطبهٔ- وإن کان الخطاب للجمیع- فقال: «وَإِنَّما أَتَاک بِالْحَدِیثِ أَرْبَعَهُٔ رِجَال لَیْسَ لَهُمْ خَامِسٌ».

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۱۰۸

ثم تحدث الإمام علیه السلام عن الطائفهٔ الاولی بصفتها العامل الأصلی للاختلاف فقال:

«رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِیمَانِ، مُتَصَنِّعٌ ۱۶۴] بِالْاسْلَامِ، لَا یَتَأَثَّمُ وَلَا یَتَحَرَّجُ ۱۶۵]، یَکْذِبُ عَلَی رَسُولِ اللَّه صلی الله علیه و آله مُتَعَمِّداً».

هبّ الأعداء لمواجهة الإسلام علانیهٔ حین لم یکن یتمتع بالقدرهٔ الکافیهٔ غیر أنّهم هزموا بعد فتح مکهٔ وسیطرهٔ الإسلام، فارتدوا- کسائر المجتمعات البشریّهٔ- ثیاب النفاق فالتحقوا ظاهریاً بصفوف المسلمین وانهمکوا باطنیاً بأعمالهم التخریبیهٔ، وکانت إحدی طرقهم التخریبیهٔ المهمّهٔ أن یکسوا أهدافهم ثیاب أحادیث النّبی صلی الله علیه و آله لیحرفوا المسلمین ویحققوا اغراضهم، وکان المسلمون- الذین یثقون بالمقابل- یسمعون کلامهم کونهم صحابهٔ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فعاش المجتمع الإسلامی مشکلهٔ کبری- ولحسن الحظ فقد أفرط هؤلاء فی وضع الروایات لصالح الحکام الظلمهٔ کمعاویهٔ إلی درجهٔ جعلت أغلب الناس یقفون علی دجلهم وستتابع فی مبحث التأملات بعض النماذج.

ثم قال علیه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ کَاذِبٌ لَمْ یَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ یُصَدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلکِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّه صلی الله علیه و آله رَآهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ ۱۶۶] عَنْهُ، فَیَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ».

یبدو أنّ أحد أسالیب المنافقین أنّهم اسبغوا قدسیهٔ علی الصحابهٔ وأنّهم جمیعاً مؤمنون صلحاء ومقدسون لینفذوا من ذلک لتحقیق مآربهم (وسنتعرض لذلک إنشاءاللَّه).

ثم استشهد علیه السلام بالقرآن علی صحهٔ کلامه بحیث لا یبقی من مجال للشک فی أذهان مخاطبیه فقال: «وَقَدْ أَخْبَرَک اللَّه عَنِ الْمُنَافِقِینَ بِما أَخْبَرَک، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَک».

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۱۰۹

وهذا الکلام إشارهٔ إلی آیات کثیرهٔ وردت فی سورهٔ (المنافقون)، التوبهٔ، الأحزاب، النساء، البقرهٔ، وسائر السور القرآنیّهٔ وکشفت النقاب عن وضع المنافقین وفضحت أسالیبهم وذکرت حیلهم ومصائدهم.

ثم قال علیه السلام: «ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَی أَئِمَّهِٔ الضَّلَالَهِٔ، وَالدُّعَاهِٔ إِلَی النَّارِ بِالزُّورِ[۱۶۷] وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمُ الأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُکَّاماً عَلَی رِقَابِ النَّاسِ». وکانت النتیجهٔ کما خلص إلیها الإمام علیه السلام «فأکلوا بهم الدنیا». والمراد من أئمّهٔ الضلالهٔ والدعاهٔ إلی النار بالدرجهٔ الاولی، حکام بنی‌أمیهٔ الذین استهتروا بجمیع شؤون الإسلام بما فیها أحادیث النّبی صلی الله علیه و آله لیتأمّروا علی الناس، فکانت أفضل وسائلهم تسخیر منافقی عصر النّبی صلی الله علیه و آله واذنابهم لتحقیق أهدافهم، وهکذا تکدرت أجواء الأحادیث.

والمؤسف أنّ أغلب الناس لهثوا خلفهم معصوبى العيون حيث قال عليه السلام: «وَإِنَّما النَّاسُ مَعَ الْمُلُوك وَالدُّنْيا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللّه». العبارة المعروفة «النّاسُ عَلى دينِ مُلُوكِهِمْ» وإن لم ترد بهذه الصيغة فى الروايات ۱۶۸] إلّاأنّها حقيقية ورد مضمونها فى الروايات وكلمات الأعلام حيث إنّ الطبقة الفاسدة المفسدة إذا وردت الميدان بخطة مدروسة ووسائل إعلاميّة ودعائيّة واسعة أمكنها خداع الرأى العام واستقطاب العديد من الناس ولا تقتصر هذه الحقيقة على التاريخ الماضى وصدر الإسلام بعد النّبى صلى الله عليه و آله بل نلمسها اليوم فى أغلب البلدان المتقدمة، حيث استحوذ الطغاة على الشعوب وخدعوها وتلاعبوا بأفكارها من خلال الاستعانة بوسائل الاعلام ومعونة المنافقين، ثم اختتم عليه السلام هذا القسم بقوله «فهذا أحد الأربعة».

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۱۰

تأمّلات

۱. المنافقون على عهد النّبى صلى الله عليه و آله

يعلم مَن له إلمام بالقرآن أنّ المنافقين ذُمّوا بشدّة فى مختلف السور والآيات ليدل هذا على أنّ المنافقين لم يكونوا عدّة معدودة، وقد انطلقت خططهم منذ قدم النّبى صلى الله عليه و آله إلى المدينة واستقبل من قبل أكبر قبيلتين هما الأوس والخزرج وشكل الدولة الإسلاميّة، وهى الفئة التى شعرت بخطورة مصالحها إبّان ظهور الإسلام فأعلنت إسلامها فى حين كانت تكن العداء للنبى صلى الله عليه و آله والرسالة.

ورغم سعيها الجاد للتخفى، غير أنّها كانت تفتضح فى الظروف العصيبة التى تشهد العواصف السياسية والاجتماعية، فتارة من خلال اعتزال القتال وأخرى ببناء مسجد ضرار، وأحياناً من خلال التجسس لصالح المشركين على هامش فتح مكة وأخرى عن طريق تهويل قضية الإفك والتى كانت تكشف النقاب عن صورتهم الحقيقيّة.

وقد اتسع نطاق النقاب عقب فتح مكة؛ فأبو سفيان عدو الإسلام الأوّل وأتباعه اعتنقوا الإسلام لإنقاذ حياتهم، لكنهم كانوا يتحيّنون الفرص للانقضاض عليه.

۲. المنافقون بعد النّبى صلى الله عليه و آله

فتح الباب على مصراعيه عقب وفاة النّبى صلى الله عليه و آله لاتساع أنشطة المنافقين، فلم يكن من يردعهم بعد انقطاع الوحى ووفاة النّبى صلى الله عليه و آله ويحذر الناس منهم ويوجه لهم الضربة القاصمة كما يقول ابن أبى الحديد[۱۶۹] من جانب آخر فإنّ الفتوحات وكثرة الغنائم شغلت أغلب المسلمين وجعلتهم يغفلون عن مؤامرات المنافقين، سيما أنّ أغلب المنافقين شغلوا مناصب حساسة فى البلاد الإسلاميّة على عهد الخلفاء، وإحدى مؤامراتهم الخطيرة وضع الروايات بما يناسب رغبة الخلفاء والتى بلغت ذروتها على عهد معاوية بغية توجيه الضربة للإسلام من جهة والتقرب إلى الخلفاء

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۱۱

من جهة أخرى.

وقد وردت هذه القضية فى أغلب المصادر حتى وصل الأمر بمعاوية أن يتواطأ مع بعض الصحابة، فمن وضع الرواية كذا فله كذا.

فعمد المنافقون أحياناً إلى تحريف الحديث النبوى، وتغيير مضمونه تماماً، كالحديث المروى عن النّبى صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إذا رَأَيْتُمْ مُعاوِيَةَ يَخْطِبُ عَلى مِنْبَرى فَاقْتُلوه»[۱۷۰].

قال الحسن البصرى قال أبوسعيد الخدرى: «فَلَمْ نَفْعَل وَلَمْ نَفْلَحْ» ولكن المنافقين الوضاعين حرّفوا الحديث بأنّه قال: «إذا رَأَيْتُمْ مُعاوِيَةَ يَخْطِبُ عَلى مِنْبَرى فَاقْبَلُوهُ فَإِنَّهُ أمينٌ مَأمُونٌ»[۱۷۱].

قال ابن أبى الحديد: وكتب معاوية إلى عماله فى جميع الآفاق: ألّا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا لى بكلّ ما يروى كلّ رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك، حتى أكثروا من فضائل عثمان ومناقبه، لِما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والقطائع، ويفيضه فى العرب منهم والموالى، فكثر ذلك فى كلّ مصر، وتنافسوا فى المنازل والدنيا، فليس يجىء أحد مردود من الناس عاملًا من عمال معاوية، فيروى فى عثمان فضيلة أو منقبة إلّاكتب اسمه وقرّبه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً، ثم كتب إلى عماله: إنّ الحديث فى عثمان قد كثر وفشا فى كلّ مصر وفى كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابى هذا فادعوا الناس إلى الرواية فى فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خيراً يرويه أحد من المسلمين فى أبى تراب

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۱۱۲

إلّا وتأتونى بمناقض له فى الصحابة، فإنّ هذا أحبّ إلىّ وأقرّ لعينى، وأدحض لحجّة أبى تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله ۱۷۲].

إلّا أنّ المحدّثين إنّما يطعنون فيما دون الصحابة ولا يتجاسرون فى الطعن على أحد من الصحابة لأنّ عليه لفظ الصحبة[۱۷۳].

۳. عدالة الصحابة

هناك رأيان مختلفان بشأن صحابة النّبى صلى الله عليه و آله: الرأى القائل: إنّهم أفراد صالحون وصادقون وعدول جميعاً ولهم قدسية خاصة، وعليه فروايتهم عن النّبى صلى الله عليه و آله مقبولة ولا يرد عليها شىء، وإن بدر منهم خلاف من قبيل التصرفات الخاطئة للخليفة الثالث فى بيت المال وإثارة طلحة والزبير لفتنة الجمل وخروج معاوية على إمام المسلمين على عليه السلام وأمثال ذلك، فلابدّ أن نبرره فنقول: أقصى ذلك أنّهم كانوا مجتهدين وأخطأوا فى الاجتهاد.

والرأى الآخر: رغم وجود العدول من بين الصحابة والأتقياء، لكن كان بينهم المنافق والطالح الذى تبرأ منه النّبى صلى الله عليه و آله وذمّه القرآن كراراً حتى لعن البعض منهم، ولا يملك أصحاب نظرية التنزيه المطلق للصحابة من دليل، وكلماتهم تخالف صريح القرآن والتاريخ الإسلامى.

صحيح أنّ القرآن أشاد فى بعض آياته بالمهاجرين والأنصار (رضى اللَّه عنهم ورضوا عنه) لكننا إن قارنا ذلك بسائر الآيات التى ذمت بعض الصحابة ووصفتهم بأنّهم أداة بيد الشيطان (سورة آل عمران، الآية ۱۵۵) وعرّف بعضهم بالفسّاق (سورة حجرات، الآية ۶) واعترض بعضهم فى تقسيم النّبى صلى الله عليه و آله للغنائم وأنّه لم يعمل بالعدالة (سورة التوبة، الآية ۵۸) وفرار البعض الآخر عن الجهاد (سورة الأحزاب،

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۱۱۳

الآية ۱۲ و ۱۳) يتضح لنا أنّ نظرية تنزيه جميع الصحابة لا تعدو كونها خرافة وكان فئة من موالى الخلفاء عزفت على هذا الوتر بغية قطع الألسن التى ربّما تنطلق بالاعتراض على أعمالهم ولاسيما حكام بنى أمية (معاوية وطائفة من رهطه الذين كانوا ظاهراً من الصحابة) تعصبوا لهذه النظرية أكثر من غيرهم ليبرروا من خلالها عظيم جناياتهم، ولكن لحسن الحظ فإنّ محققى العامّة أدركوا اليوم هذه الحقيقة فألّفوا العديد من الكتب فى تفنيد نظرية التنزيه ۱۷۴].

وخطبة الإمام عليه السلام هذه تدل أوّلًا: على إنّ هذه العقيدة (تنزيه الصحابة) كانت سائدة لدى البعض على عهده فتزعم أنّ فلاناً صحابى وكلامه حجّة.

وثانياً: أنّ الإمام عليه السلام رفض تلك النظرية على أنّ من بين الصحابة منافقين تسللوا إلى الإسلام.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۱۵

القسم الثالث

اشارة

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّه شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهَمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً، فَهُوَ فِى يَدَيْهِ، وَيَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذلِك لَرَفَضَهُ!

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَىْء، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ.

الشرح والتفسير: أحاديث الناسخ والمنسوخ

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى قسمين من أسباب اختلاف الأحاديث وتعارضها فقال:

«وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّه شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهَمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً، فَهُوَ فِى يَدَيْهِ، وَيَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله».

فهذا الخطأ يعود تارة إلى التساهل والتسامح، وأخرى إلى الجهل بمفاهيم الألفاظ والعبارات، وأحياناً كون الإنسان ليس بمعصوم ويجوز عليه الخطأ والسهو والنسيان، ومهما كان السبب فالنتيجة واحدة وهى النقل الخاطئ للآخرين.

مثلًا ورد عن عبداللَّه بن عمر أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ». فلما بلغ الحديث ابن عباس قال: أخطأ عبد اللَّه فى نقل الحديث، إنّما مرّ

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۱۶

النّبى صلى الله عليه و آله بقبر يهودى فقال «إِنَّ أَهْلَهُ لَيَبْكُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُعَذَّبُ»[۱۷۵].

ومن هنا اشترط فى علم الدراية ضبط الراوى فى قبول الحديث حيث ينبغى أن يكون ملمّاً عالماً بالمطلب فيرويه صحيحاً.

القضية المهمّة أيضاً أنّ أغلب الأعلام جوّزوا النقل بالمعنى، أىأنّ الراوى ليس ملزماً برواية ذات ألفاظ، بل له صياغتها فى قالب آخر ويرويها، ونعلم أنّ هذا العمل ليس هيناً وربّما يخطئ الراوى فى ذلك.

ثم قال عليه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهَمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذلِك لَرَفَضَهُ!».

وعليه فليس للراوى نيّة سيئة فى هذه الموارد وإن أخطأ فى فعله ولعله يضل الآخرين دون قصد، وأغلب هذه الأخطاء كون الراوى لم ينقل صدر الرواية وذيلها فيتغير مفهومها.

مثلًا قال أحدهم للإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: إنّ الناس يروون عن النّبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إِنَّ اللَّه خَلَقَ آدَمَ عَلى صُورَتِهِ». فقال عليه السلام: لعنهم اللَّه فقد أسقطوا صدر الحديث، إنّما مرّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله برجلين يسبّ أحدهما الآخر فيقول له: «قَبَّحَ اللَّه وَجْهَك وَوَجْهَ مَنْ يُشْبِهُك».

فقال صلى الله عليه و آله: «يا عَبْدَاللَّه لا تَقُلْ هذا لأَخيك فَإِنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدمَ عَلى صُورَتِهِ»[۱۷۶]، أى على صورة أخيك هذا

الذی أنت تسبّه الآن.

***

ثم قال الإمام علیه السلام فی الطائفة الثالثة من الرواة: «وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّه صلی الله علیه و آله شَیْئاً یَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَی عَنْهُ، وَهُوَ لَا یَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ یَنْهَی عَنْ شَیْء، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا یَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ، وَلَمْ یَحْفَظِ النَّاسِخَ».

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۱۱۷

مسألة النسخ من المسائل الإسلامیّة التی حصلت بصیغة محدودة فی أصل نزول القرآن، أی أنّه نزل حکماً لزمان معین ثم أزیل لیحلّ محلّه حکم دائم، مثلًا، أمر المسلمون بادئ الأمر بالتوّجه إلی بیت المقدس فی الصلاة واستمر هذا الأمر مدّة فی مکة ثم المدینة وقد نسخ هذا الحکم لعله ربّما لأنّ الکعبة تحولت آنذاک إلی معبد للأصنام، ولکن حین رسخ النّبی دعائم التوحید أُمر المسلمون فی السنة الثانیة للهجرة بالتوجه إلی الکعبة، وورد هذا المعنی فی الأحادیث النبویة فکان النّبی یبیّن حکماً هو فی الواقع مؤقت ولکن لم یبیّن زمانه ثم ینسخ ذلک الحکم بحکم دائمی، علی سبیل المثال قال النبیّ: «نَهَیْتُکُمْ عَنْ ثَلاث؛ نَهَیْتُکُمْ عَنْ زِیارَةِ الْقُبُورِ، ألا فَزُورُوها، وَنَهَیْتُکُمْ عَنْ إخْراجِ اللُّحُومِ الأضاحی مِنْ مِنی بَعْدَ ثَلاث ألا فَکُلُوا وَادَّخِرُوا، وَنَهَیْتُکُمْ عَنِ النَّبیذِ ألا فَانْبُذُوا وَکُلُّ مُسْکِرٍ حَرام»[۱۷۷].

وعلیه یسع نقل الأحادیث الصحیحة للنبی لمن له إحاطة تامة بکلّ الأحادیث فیعرف الناسخ والمنسوخ ویضع کلًا فی محله، وموضوع العام والخاص کذلک حیث یقال أحیاناً، حکم عام یشمل جمیع الأفراد، مثلًا، قوله صلی الله علیه و آله: «النّاسُ مُسَلَّطُونَ عَلی أَمْوالِهِمْ»[۱۷۸].

ثم یقول فی موضع آخر: «لا ضَرَرَ وَلا ضِرارَ فی الْاسْلام»[۱۷۹].

فمن سمع الحکم العام ولم یعلم الخاص یبلغه الآخرین بما یناقض الحکم الخاص، بینما یعلم بعدم التناقض کلّ من سمعهما معاً، ثم قال علیه السلام: «فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ».

ومن هنا فإنّ بعض اختلاف الأحادیث ناشیء من عدم الإحاطة بروایات الناسخ والمنسوخ دون سوء نیّة من الرواة.

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۱۱۸

تأمّل: النسخ فی أحکام الشرع

رغم أنّ موارد النسخ فی آیات القرآن وروایات النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله محدودة ومعدودة؛ إلّاأنّ لهذه المسألة أهمّیة خاصة؛ من حیث إرتباطها بالمسائل العقائدیة والمسائل المتعلقة بالنبوّة والأحکام.

یتساءل البعض: کیف یمکن أن یوحی اللَّه للنبی حکماً ظاهره أبدیّ ودائمی؛ لکنه ینسخ بعد مدّة ویحلّ محلّه حکم آخر غالباً ما یناقضه، مع أنّ علم اللَّه غیر محدود وعلم النّبی أیضاً یستند إلی الوحی؟ والنسخ کثیر فی الأحکام العرفیة والوضعیة ولیس ذلک من العجب، لأنّه یدرس الأمور ویضع الأحکام؛ إلّاأنّ ضعفها وعجزها یتضح عند العمل فینسخها، ولو علم العیوب والمثالب منذ البدایة ربّما لم یضعها؛ إلّاأنّ هذا الأمر لا یصدق علی الأحکام الشرعیّة، فما معنی النسخ فیها؟

یتضح الجواب عن هذا السؤال من الالتفات إلی نقطة وهی: أنّ النسخ فی الأحکام الشرعیّة من حیث تغییر الموضوع؛ بعبارة أخری أنّ عمر ذلک الحکم کان محدوداً منذ البدایة بزمان معین وإن لم یُشر إلی نفاده لبعض المصالح.

مثلًا، حکم التصدق قبل النجوی الواردة فی الآیة ۱۲- ۱۳ من سورة المجادلة کان لاختبار أصحاب النّبی صلی الله علیه و آله وتفهیم هذه القضیة أنّ أغلب مناجاة الأفراد للنبی لم تکن ضروریة ولابد من ترکها حتی لا- یکون هنالک اساءة ظن، ومن هنا لما أمر بالتصدق قبل النجوی ترکه جمیع الأصحاب سوی علی علیه السلام الذی تصدق وناجی النّبی فی أمر مهم لیفخر بأنّه الوحید الذی عمل بالآیة.

ثم نزلت بعد ذلك آية نسخت التصدق قبل النجوى وعلم الجميع أنّ أغلب نجواهم لم تكن ضرورية فامتنعوا عنها، ومن هذا القبيل النسخ سواء فى القرآن أو الحديث حيث يوضع حكم فى ظروف معينة لمدّة معينة ثم ينسخ بعد تغيير الشرائط.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۱۹

جدير ذكره أن النسخ حسب ما ورد هنا يقتصر على زمان النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله حين فتح باب الوحى ولم يقع أى نسخ بعد النّبى ۱۸۰].

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۲۱

القسم الرابع

اشارة

وَآخَرُ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّه، وَلَا عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللَّه، وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله وَلَمْ يَهِمْ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْء مَوْضِعَهُ.

وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله الْكَلَامُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلَامٌ خَاصٌّ، وَكَلامٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنَى اللَّه سُبْحَانَهُ، بِهِ، وَلَا مَا عَنَى رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه و آله فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوَجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قُصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِيءُ، فَيَسْأَلَهُ عليه السلام حَتَّى يَسْمَعُوا، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِى مِنْ ذلِك شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ، فَهذِهِ وُجُوهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِى اخْتِلَافِهِمْ، وَعِلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ.

الشرح والتفسير: حفظة الحديث

تطرق الإمام عليه السلام هنا إلى الصنف الرابع من الرواة السالكين الصراط المستقيم وحملة أحاديث النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام الثقاة والمبينين لأحكام الدين فقال:

«وَآخَرُ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّه، وَلَا عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللَّه، وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله».

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۲۲

وعليه تغيب فيهم أُولى مناشىء تضاد الأخبار: الكذب على اللَّه ورسوله ووضع الأحاديث، حيث إنّ مجانبة الكذب جزء من ذاتهم وخوف اللَّه وتعظيم النّبى بغّض إلى نفوسهم الكذب.

ثم قال: «وَلَمْ يَهِمْ ۱۸۱]، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ».

وهنا زال عنهم المصدر الآخر لاختلاف الأحاديث والذى يتمثل بتساهل الرواة، ثم بيّن عليه السلام صفة أُخرى لرواة الصدق العارفين فقال: «فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ ۱۸۲] عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْء مَوْضِعَهُ».

فهذه العبارة العميقة المعنى إشارة إلى الرواة الصادقين المحيطين إحاطة تامة بالأخبار المختلفة؛ ويعرفون الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمحكم والمتشابه، فيجعلون كلّاً فى موضعه ليبتعدوا عن التناقض والخطأ.

وكلام‌الإمام عليه السلام بشأن دراسة أساس اختلاف الأحاديث، ليس خاصاً يتعلق بالحديث فحسب، بل يعلمنا درساً أهم وأشمل

فلابد من التوجه إلى الأسس والتعرف على العوامل المؤثرة فى السعى لإزالة المعوقات وإلّا فإنّ كلّ إصلاح يبقى سطحياً وعابراً.

ثم أشار إلى سبب آخر لاختلاف الأحاديث والذى يكمل المباحث السابقة، وهو اختلاف استعداد الأصحاب فى تعلّم الأحاديث وتفسيرها وفهم معناها فقال:

«وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله الْكَلَامُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلَامٌ خَاصٌّ، وَكَلَامٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنَى اللَّه، سُبْحَانَهُ، بِهِ، وَلَا مَا عَنَى رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه و آله فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوَجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَة بِمَعْنَاهُ، وَمَا قُصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ».

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۲۳

ليس المراد من الخاص والعام فى هذه العبارة، الخاص والعام الاصطلاحيّان فى علم الفقه والأصول، بل المراد الخاص والعام اللغويان؛ أى الحكم الخاص بمورد معين والحكم العام، مثلًا ورد فى بعض الروايات أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أمر المسلمين فى السنة السابعة للهجرة بعد الحديبية حين أتوا إلى مكة لإتيان مناسك الحج، أن يسرعوا فى الطواف حول البيت الحرام (ليشعر المشركون بالخوف من قوّتهم وسرعة حركتهم)[۱۸۳] والحال لم تكن سنة ثابتة ودائمية، وورد فى الكلمات القصار من «نهج البلاغة» أنّه سئل الإمام عليه السلام عن حديث النّبى صلى الله عليه و آله حين قال: «غَيِّرُوا الشَّيْبَ وَلا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ».

قال عليه السلام: «إنّما قال ذلك (الحكم الخاص) والدين قُلّ، أمّا الآن وقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرئ وما اختار»[۱۸۴].

ثم خاض الإمام عليه السلام فى مشكلة أخرى بشأن نقل الأحاديث وهى؛ «وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّى إِنْ كانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِىءُ[۱۸۵]، فَيَسْأَلَهُ عليه السلام حَتَّى يَسْمَعُوا».

الظاهر أنّ هذه العبارة إشارة إلى الأصحاب الذين لم يكونوا من أهل التحقيق ولا طرح الأسئلة المختلفة فى أصول الدين والفروع ومن هنا لم يقفوا على ناسخ ومنسوخ وعام وخاص ومحكم ومتشابه ومجمل ومبيّن، فلا يسألون عنها ولا يلمون بالمسائل ولكن إن جاء أحد وسأل وتلقى الجواب المطلوب تفاعلوا معه.

وقد فسّر بعض الشراح، العبارة المذكورة أنّ بعض الصحابة لم يكن يسأل النّبى لهيبته أو أنّ كثرة السؤال تحمل على إساءة الأدب فيمتنعون عن السؤال ۱۸۶]؛ إلّاأنّ هذا

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۲۴

الاحتمال لا يتناسب والعبارة التى وردت فى كلام الإمام حيث قال عليه السلام مواصلًا كلامه؛ «وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِی مِنْ ذلِكَ شَیْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ».

وإن رأينا استعداد الإمام للاجابة عن كلّ سؤال وبغض النظر عن الامداد الغيبى والالهام الباطنى والتأهب الذاتى فإنّ ذلك لملازمته الحميمة للنبى وروح السؤال للإحاطة بكلّ شیء من المسائل الإسلاميّة.

ثم قال فى ختام الخطبة: «فَهذِهِ وُجُوهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِی اخْتِلَافِهِمْ، وَعِلَلِهِمْ فِی رِوَايَاتِهِمْ». وردت عدّة عبارات فى ذيل هذه الخطبة فى بعض المصادر ومنها «الكافى» حيث قال:

«وَقَدْ كُنْتُ أدْخُلُ عَلى رَسُولِ اللَّه كُلَّ يَوْم دَخْلَةً وَكُلَّ لَيْلَةٍ دَخْلَةً فَيُخلّينى فيها أدُورُ مَعَهُ حَيْثُ دارَ وَقَدْ عَلِمَ أصْحابُ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله أنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ ذلِك بِأَحَد مِنَ النّاسِ غَيْرى ... فَما نَزَلَتْ عَلى رَسُولِ اللَّه آيةٌ مِنَ الْقُرآنِ إلّاأقرأنيها وَأملاها عَلَیّ فَكَتَبْتُها بِخَطّى وَعَلَّمنى تَأْويلَها وَتَفْسيرَها وَناسِخَها وَمَنْسُوخَها وَمُحْكَمَها وَمُتَشابِهَهَا وَخاصَّها وَعامَّها وَدَعا اللَّه أنْ يُعْطِيَنى فَهْمَها وَحِفْظَها ... وَما تَرَك شَيْئاً عَلَّمَهُ اللَّه مِنْ حَلالٍ وَلا حَرامٍ وَلا أمْرٍ وَلا نَهْيٍ كانَ أوْ يَكُونُ وَلا كِتابٍ مُنْزَل عَلى أَحَدٍ قَبْلَهُ مِنْ طاعَةٍ أوْ مَعْصِيَةٍ إلّاعَلَّمَنيهِ وَحَفِظْتُهُ فَلَمْ أنسَ حَرْفاً واحِداً ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلى صَدْرى وَدعا اللَّه لِی أنْ يَمْلأَ قَلْبى عِلْماً وَفَهْماً وَحِكْماً وَنُوراً»[۱۸۷].

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۲۵

الخطبة ۲۱۱

اشارة

فی عَجیبِ صَنْعَةِ الْکَون ۱۸۸]

نظرة إلی الخطبة

تتناول الخطبة عجائب خلق السماء والأرض منذ انطلاقة الخلیقة ولحد الآن وتشیر إلی عدّة أمور منها:

۱. قدرة اللَّه العظیمة فی خلق الکون.

۲. بدایة خلق الأرض والسماء وأنّها کانت بادئ الأمر کتلة ضخمة من مادة مذابة کالبحر المتلاطم.

۳. تشکیل کتلة جدیدة علی سطح هذا البحر المذاب ثم تکون الکرة الأرضیة وسائر الکرات السماویة.

۴. ظهور التشققات الأرضیة وتکوّن الجبال والقمم التی تمتد لعنان السماء.

۵. تمجید اللَّه وتسبیحه علی هذا الخلق العظیم والاعتبار بهذا الخلق العجیب.

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۱۲۷

القسم الأوّل

اشارة

وَکانَ مِن اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَبَدِیعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، أنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاکِم الْمُتَقَاصِفِ، یَبَساً جَامِداً، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَماوَات بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا، فَاسْتَمْسَکَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلی حَدِّهِ. وَأَرْسَی أَرْضاً یَحْمِلُهَا الأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجِرُ، وَالْقَمْقَامُ الْمُسَخَّرُ، قَدْ ذَلَّ لِامْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِهَیْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِی مِنْهُ لِخَشْیَتِهِ.

الشرح والتفسیر: بدایة خلق الکون

حمل الإمام علیه السلام مخاطبیه إلی بدایة خلق الکون لیریهم عظمة الخلق وعجائبه فقال: «وَکَانَ مِن اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَبَدِیعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، أنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ[۱۸۹] الْمُتَرَاکِم الْمُتَقَاصِفِ ۱۹۰]، یَبَساً جَامِداً».

(اقتدار) من مادة قدرة وجبروت صیغة مبالغة تفید السلطة التامة، وعلیه فانطلاقة الخلق العظیم للسماء والأرض هی قدرة الخالق العظیم من جهة وابداعه اللطیف والظریف من جهة أخری، فالفرد ربّما یفقد الدقّة والظرافة فی فعل عظیم أو یتعذر علیه التوسع فی هذا الفعل؛ إلّاأنّ القادر المتعال مزج ذلک فی خلق الأرض والسماء، فهناک العظمة فی فعله والدقّة واللطف.

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۱۲۸

فقد ذکر الإمام علیه السلام فی هذه الخطبة علی غرار الخطبة الاولی والخطبة ۹۱ من «نهج البلاغة» أنّ بدایة الخلق کانت من المیاه، وقطعاً لیس المراد المیاه الطبیعیة الیوم، بل الکتل العظیمة المذابة والمتلاطمة التی صنعها اللَّه بقدرته، وقد تحولت هذه المادة المذابة بمرور الزمان إلی مواد جافة فکونت الأرض والکرات السماویة، ویتفق هذا الطرح مع النظریات العلمیة المعاصرة بشأن ظهور الکون، جدیر ذکره أنّ العبارة (من ماء البحر الزاخر) تفید أنّ قسماً من هذا البحر الزاخر تحول إلی کرات سماویة وبقی قسم منها وهذا ما ینسجم أیضاً والاکتشافات العلمیة التی تقول: ما زالت مواد عظیمة من الکتل الغازیة المحرقة أو المواد المذابة فی السماء لم تتحول

إلی کرات علی غرار کرات المنظومة الشمسیة.

ثم تحدّث عن ظهور السموات السبع فقال: «ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً[۱۹۱]، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَماوَات بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا[۱۹۲]، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلی حَدِّهِ».

والکلام اقتباس ممّا ورد فی الآیة ۳۰ من سورة الأنبیاء: «أَوَلَمْ يَرَی الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ».

ومن الواضح أنّ المشاهدة فی هذه الآیة لیست المشاهدة الحسیة وبالعین، بل المشاهدة الباطنیة من خلال العلم والمعرفة، ذهبت النظریات العلمیّة الیوم إلی أنّ السماء والأرض کانتا فی البدایة کتلة عظیمة من الغازات والمواد المذابة وقد انفصلت منها بعض القطع الواحدة تلو الأخری اثر دورانها حول نفسها أو بفعل عوامل أخری فقذفت فی زاویة من الفضاء وکونت الکرات والمنظومات والمجرات.

ثم تطرق علیه السلام إلی خلق الأرض فقال: «وَأَرْسَی ۱۹۳] أَرْضاً يَحْمِلُهَا الأَخْضَرُ[۱۹۴]

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۱۲۹

الْمُثْعَنْجِرُ[۱۹۵]، وَالْقَمْقَامُ ۱۹۶] الْمُسَخَّرُ، قَدْ ذَلَّ لِامْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِی مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ».

ولعل الکلام إشارة إلی الأمطار الغزیرة التی اجتاحت الکرة الأرضیة فی بدایة خلق الأرض بصیغة بحر عظیم وتخللت هذه المیاه فجوات الأرض بمرور الزمان فشکلت الیابسة التی تکون ربع الکرة الأرضیّة، وهدات المیاه لتذلل الأرض لکی یعیش علیها الإنسان وسائر الکائنات.

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۱۳۱

القسم الثانی

اشارة

وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا، وَنُشُوزَ مُتُونِهَا وَأَطْوَادِهَا، فَأَرْسَاهَا فِی مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا. فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِی الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِی الْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِی مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا، وَجَعَلَهَا لِلْارْضِ عِمَاداً، وَأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنَتْ عَلَی حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً! فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَايَجْرِی، وَقَائِمٍ لَايَسْرِی، تُكَرْكِرُهُ الرِّيَاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمْخُضُهُ الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ؛ «إِنَّ فی ذلِک لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَی».

الشرح والتفسیر: خلق الجبال

خاض الإمام علیه السلام بعد بیانه لخلق السموات والأرض واستقرار الأرض فی موضعها فی شرح إحدی الظواهر الأرضیة المهمّة التی تلعب دوراً مهمّاً فی حیاة الإنسان وسائر الکائنات الحیة فقال: «وَجَبَلَ ۱۹۷] جَلَامِيدَهَا[۱۹۸]، وَنُشُوزَ[۱۹۹] مُتُونِهَا[۲۰۰]

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۱۳۲

وَأَطْوَادِهَا[۲۰۱]، فَأَرْسَاهَا فِی مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا. فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِی الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِی الْمَاءِ».

المفروغ منه علمیّاً أنّ سطح الکرة الارضیة لم تَعلُهُ المرتفعات قبل أن یبرد، إلّا أنّ الشقوق تخللتها بعد برودتها (کالتفاحة التی تمر علیها مدّة فتتصلب) فکونت هذه الشقوق الجبال والودیان العظیمة، وکانت الجبال تنطلق إلی السماء وتغوص جذورها فی المواد

المذابة فى جوف الأرض فتكون سطح الأرض بصيغته الفعليّة.

ثم وضح أكثر فقال: «فَأَنْهَدَ[۲۰۲] جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ ۲۰۳] قَوَاعِدَهَا فِى مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا[۲۰۴]، فَأَشْهَقَ ۲۰۵] قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا[۲۰۶]».

تفيد هذه العبارة أنّ جبال الارض بغض النظر عن استوائها خارجياً فإنّ لها جذوراً عظيمة فى أطناب الأرض وهى الجذور التى تشدها معاً من الداخل، بالضبط كالشجرة التى كلما امتد ساقها وأوراقها إلى الأعلى انغمرت جذورها أعمق فى الأرض، فالامتداد والاستقرار يرسخ الجذور فى الأرض.

ثم ذكر عليه السلام فوائد الجبال وأهمها حفظ استقرار الأرض وسكانها، فقال بعبارات دقيقة وعميقة: «وَ جَعَلَهَا لِلْارْضِ عِمَاداً، وَأَرَّزَهَا[۲۰۷] فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ[۲۰۸] بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ ۲۰۹] بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا».

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۳۳

كيف تهب الجبال الأرض الاستقرار وتحول دون اضطرابها؟ وتتضح الاجابة عن هذا السؤال من خلال قضية هى أنّ نواة جوف الأرض مواد مذابة وغازات تسلط ضغطاً على الدوام على القشرة الخارجية وتظهر أحياناً كبراكين، إلّاأنّ الجبال لا تتحمل تلك الضغوط بفعل جذورها المحكمة والمتصلة فتحول دون الاضطراب فتصبح مصدراً لاستقرار القشرة الأرضيّة.

أضف إلى ذلك فإنّ الجبال تعتبر من العوامل المؤثرة فى استقرار الأرض بفعل الضغوط الخارجية الناشئة من جاذبيّة الشمس والقمر وما يحصل منها من مد وجزر، من جانب آخر فإنّها ملاذات إزاء العواصف التى تصيب سطح الأرض ومن شأنها تهديد حياة الإنسان، ومن أراد المزيد بهذا الخصوص فليراجع الخطبة ۹۱ من الجزء الرابع لهذا الشرح وتفيد العبارة «فسكنتا على حركتها» استنادا للعبارة «على» أنّ الإمام عليه السلام أشار بوضوح آنذاك إلى حركة الأرض التى كان يقول بسكونها آنذاك جميع علماء الهيئة حيث قال رغم حركة الأرض إلّاأنّها مستقرة ولا تعرض سكانها للاضطراب.

وقد أشار المرحوم العلّامة شرف الدين صاحب كتاب (مؤلفو الشيعة فى صدر الإسلام) إلى هذه النقطة الظريفة[۲۱۰].

ثم قال عليه السلام: «فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً! فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَايَجْرِى، وَقَائِمٍ لَايَسْرِى، تُكَرْكِرُهُ ۲۱۱] الرِّيَاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمْخُضُهُ ۲۱۲] الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ ۲۱۳]؛ «إِنَ فى ذلِك لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى»».

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۳۴

تبدو للوهلة الاولى فى هذه العبارة جملتان متناقضتان؛ فقد قال فى الاولى: إنّ اللّه بسط الأرض على بحر عظيم لجّى راكد لا يجرى وقال فى ذيلها: تكركره الرياح العواصف، إلّاأنّ تأمّل العبارة يوضح نفى أىتناقض، فالعبارة الاولى تتحدّث عن استقرار طبيعة البحر، والثانية عن تأثير العوامل الخارجية، أىالرياح الشديدة على سطوح البحار.

وقوله: «وَتَمْخُضُهُ الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ» إمّا لأنّ هذه السحب مقترنة دائماً بالعواصف، أو أنّ سيول الأمطار تسقط على سطوح المحيطات تؤثر عليها وتجعلها متلاطمة.

والعبارة «إِنَّ فى ذلِك لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى» إمّا إشارة إلى سكون البحار وحركتها التى أشرنا إليها، أو إشارة لما ذكره عليه السلام فى هذه الخطبة بشأن خلق الجبال وخلق الأرض والسماء، والآية: «إِنَّ فى ذلِك لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى»[۲۱۴] تصرّح بأنّ الخشية وليدة العلم والعلماء ممن يعتبرون بهذه الأمور كما قال فى موضع آخر «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»[۲۱۵].

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۳۵

الخطبة ۲۱۲

اشارة

كانَ يَسْتَنْهِضُ بِها أصْحابَه إلى جِهادِ أهْلِ الشّامِ فی زَمانِهِ ۲۱۶]

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة فی الواقع استغاثة باللَّه ممزوجة بالدعاء لنصرة جند الإسلام ومؤاخذة العناصر العاكفة عن نصرة الحق واتمام الحجة علیهم أمام اللَّه تعالی، ویشیر الکلام إلی مدی امتعاظ الإمام علیه السلام عن ضعف أهل الکوفة وعدم مبالاتهم بأمر جهاد طغام أهل الشام؛ الأمر الذی یستفاد من أغلب خطب «نهج البلاغة» ولولا الضعف والنکوص لنحا التاریخ الإسلامی منحی آخر ولکن للاسف ...!

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۱۳۷

اللّهمَّ أَیُّمَا عَبْد مِنْ عِبَادِک سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَیْرَ الْجَائِرَة، وَالْمُصْلِحَةَ غَیْرَ الْمُفْسِدَة، فِی الدِّینِ وَالدُّنْیا، فَأَبَی بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا النُّکُوصَ عَنْ نُصْرَتِک، وَالْابْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِینِک، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُک عَلَیْهِ یَا أَکْبَرَ الشَّاهِدِینَ شَهَادَةً، وَنَسْتَشْهِدُ عَلَیْهِ جَمِیعَ مَا أَسْکَنْتَهُ أَرْضَک وَسَماواتِک، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ الْمُغْنِی عَنْ نَصْرِهِ، وَالآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ.

الشرح والتفسیر: جزاء المتخلفین

تفید القرائن أنّ هذه العبارات العمیقة المعنی الملیئة بالأسی واللوعة کانت بعضاً من خطبة طویلة اقتطف منها المرحوم السید الرضی هذا القسم وفصله عنها، ویری البعض أنّه ذیل الخطبة ۱۹۸[۲۱۷].

والهدف الأصلی لأمیرالمؤمنین علیه السلام من هذه الخطبة تعبئة صحبه لجهاد أهل الشام الظلمة؛ لکن بصیغة شکوی إلی اللَّه، شکوی من أولئک الذین یسمعون دعوته العادلة ویتمردون علیه فی الجهاد، الشکوی التی تبیّن مدی مظلومیة الإمام علیه السلام ومدی افتقار صحبه للشعور بالمسؤولیة. فقال: «اللّهمَّ أَیُّمَا عَبْد مِنْ عِبَادِک سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَیْرَ الْجَائِرَة، وَالْمُصْلِحَةَ غَیْرَ الْمُفْسِدَة، فِی الدِّینِ وَالدُّنْیا، فَأَبَی بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا النُّکُوصَ ۲۱۸] عَنْ نُصْرَتِک، وَالْابْطَاءَ[۲۱۹] عَنْ إِعْزَازِ دِینِک، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُک عَلَیْهِ یَا أَکْبَرَ

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۱۳۸

الشَّاهِدِینَ شَهَادَةً».

جدیر ذکره أنّ الإمام علیه السلام أکّد بهذه العبارات بشأن الدعوة إلی جهاد ظلمة أهل الشام علی أربع أو علی اعتبار علی صفتین:

۱. إنّ هذا الکلام کلام علی مسار العدل.

۲. لا ظلم فیه قط.

۳. سبب إصلاح الناس.

۴. لا یترتب علیه أیفساد وآثاره الایجابیة ظاهرة فی دنیا الناس ودینهم.

والبداهة تحکم بضرورة إتّباع هذا الکلام الملییء بالحق والعدل والصلح والمصلحة وانحراف من یخالفه عن شرع اللَّه والعقل.

القضیة الأخری أنّ الإمام علیه السلام یقول: إنّ من یتمرد علی دعوته لجهاد أهل الشام الظلمة إنّما ینکص عن نصرة اللَّه واشتداد دینه دون أن یجنی الإمام علیه السلام نفعاً خاصاً من ذلک، کما أراد أن یذکر الإمام علیه السلام ضمنیاً بأنّ مسیر أهل الشام مسیر الظلم والجور وأساس الفساد فی دین الناس ودنیاهم.

وواصل علیه السلام کلامه بإشهاد من فی السماء والأرض إلی جانب إشهاد اللَّه فقال:

«وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَك وَسَماواتِك، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ الْمُغْنِى عَنْ نَصْرِهِ، وَالآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ».

فقد أتمّ الإمام عليه السلام بهذه الشكوى إلى اللَّه المنبعثة من قلب حزين ملتاع، الحجة على المتثاقلين عن الجهاد من جهة وتحذير من جهة أخرى لصحبه الأوفياء ألّا يهنوا بسبب ضعف أولئك الأفراد ويعلموا أنّ اللَّه ناصرهم واؤلئك الناكصين سيلاقون جزاء أعمالهم، ويشهد التاريخ أنّهم ابتلوا عقب شهادة الإمام عليه السلام وولّى عليهم ظلمة من ولاة بنى أمية فلم يرعوا فيهم ذمّة ولم يألوا جهداً فى اذاقتهم العقاب.

ورد فى كتاب «صفين» لنصر بن مزاحم أنّه قام رجل من بنى فزارة فقال للإمام:

تريدنا أن نقاتل أهل الشام فنقتل إخوتنا كما قتلناهم فى البصرة يوم الجمل فلن

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۳۹

نفعل ذلك، فنهض مالك الأشتر وقال: أمسكوه (فهو من أفراد العدو) فنهضوا إليه فهرب إلى موضع لبيع الخيل فجعلوا يطأونه بأرجلهم ۲۲۰].

العبارة «جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَك وَسَمواتِك» تبدو إشارة إلى الملائكة والإنس والجن، لإنّ العبارة «اسكنتها» تناسب ذلك وعليه «ما» اطلقت هنا على العاقل وإشهادهم رغم إشهاد اللَّه قبل ذلك تأكيد لهذا الأمر المهم، كما جعل اللَّه إلى جانب ذاته القدسية شهداء كثيرين على أعمالنا.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۴۱

الخطبة ۲۱۳

اشارة

فى تَمْجيدِ اللَّه وَتَعْظيمِه ۲۲۱]

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من تعبير المرحوم السيد الرضى أنّ ما ورد فى هذه الخطبة جانب من كلام الإمام عليه السلام اقتطفه السيد الرضى فى قسمين:

القسم الأوّل: الذى جرى الكلام فيه عن صفات اللَّه الجلالية والجمالية ولا سيما احاطته العلمية بجميع المخلوقات.

وورد الكلام فى القسم الثانى عن صفات النّبى وإمداده الغيبى وإزالة الموانع عن مسيرته وتطورها السريع، وبالتالى فإنّ الخطبة قبسات بشأن التوحيد والنبوّة.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۴۳

الْحَمْدُ للَّهالْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ الَمخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ، وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ، الْعَالِمِ بِلَا اكْتِسَاب وَلَا ازْدِيَاد، وَلَا عِلْم مُسْتَفَاد، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ، الَّذِى لَا تَغْشَاهُ الظُّلَمُ، وَلَا يَسْتَضِىءُ بِالأَنْوَارِ، وَلَا يَرْهَقُهُ لَيْلٌ، وَلَا يَجْرِى عَلَيْهِ نَهَارٌ لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالْأبْصَارِ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْاخْبَارِ.

ومنها فى ذكر النّبى صلى الله عليه و آله:

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِى الْاصْطِفَاءِ، فَرَتَقَ بِهِ الْمَفَاتِقَ، وَسَاوَرَ بِهِ الْمُغَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحُزُونَةَ، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَال.

الشرح والتفسير: قبسات من صفات اللّه ورسوله

أشار الإمام عليه السلام فى المقطع الأوّل من هذه الخطبة الذى ورد فى صفات اللّه الجمالية والجلالية إلى اثنتى عشرة صفة، فقال فى الصفات الإربع الاولى: «الْحَمْدُ للّه الْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ الَمخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ، وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ ۲۲۲]».

وكما قيل آنفاً فإنّ الذات الإلهيّة لامتناهية، ومن البديهى أن تعجز جميع

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۴۴

مخلوقاته المتناهية من جميع الجوانب عن درك كنه ذاته، وعليه إنّما ندرك تلك الذات عن طريق آثاره العجيبة السائدة فى عالم الوجود؛ ومن هنا فإن قلنا أوضح من كلّ شىء وأخفى من كلّ شىء فذلك ناظر لهذين البعدين؛ من حيث آثار علمه وقدرته ظاهراً تماماً، وخفى من حيث كنه ذاته.

ثم خاض فى الصفة الخامسة والسادسة فقال: «الْعَالِمِ بِلَا اكْتِسَاب وَلَا ازْدِيَاد، وَلَا عِلْم مُسْتَفَاد، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الْامُورِ بِلَا رَوِيَّة وَلَا ضَمِير».

لا شك فى أنّ علم اللّه كذاته لا متناهٍ، فلا يحتاج إلى اكتساب ولا تعلم من آخر، وهذا يقتصر على ذوى العلم المحدود والذين لهم الازدياد من خلال ثلاثة طرق:

التجربة وأمثالها، تأثير العلوم فى بعضها والانتقال من مسالة لأخرى وأخيراً التتلمذ والتعلم من الآخرين، أمّا مَن كان علمه لا متناهٍ فغنى عن كلّ هذه الأمور، كما هو غنى عن إحالة الفكر فى خلق الكائنات وتقدير كلّ مخلوق من حيث الكمية والكيفية والقوانين التى تحكمه، فلا حاجة للرجوع إلى الوجدان بخلاف الإنسان الذى يحاول اختراع شىء ربّما يستغرق أحياناً لسنوات ويطالع ويستعين بمعلوماته وأفكاره لينجح فى محاولته.

وقال فى الصفة السابعة والثامنة: «الَّذِى لَاتَغْشَاهُ الظُّلَمُ، وَلَايَسْتَضِيءُ بِالْانْوَارِ».

ثم تطرق إلى الصفة التاسعة والعاشرة لايضاح هذا المطلب فقال: «وَلَا يَرْهَقُهُ ۲۲۳] لَيْلٌ، وَلَا يَجْرِى عَلَيْهِ نَهَارٌ». ولعل هذه العبارات تشير إلى أنّ ذاته القدسيّة جلية دائماً عن طريق الآثار ولا يعتريها الليل والنهار، أو إشارة إلى غناه عن الضياء بخلاف الإنسان فى المشاهدة والاحاطة بالاشياء.

وقال فى الصفة الحادية عشرة والثانية عشرة المكملة والموضحة لما سبق من صفات «لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالْابْصَارِ، وَلَا عِلْمُهُ بالْاخْبَارِ». فهذه الأمور مرتبطة بالجسم والجسمانيات وذوى العلوم الناقصة والمحدودة، هو ليس من قبيل الأجسام ولا

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۴۵

محدود فى إحاطته العلميّة.

وهنا يرد هذا السؤال: لم يركز الإمام عليه السلام فى عدّة خطب على هذه المضامين ويؤكد عليها ويصر على غنى علم اللّه عن الأمور المذكورة، ما سرّ هذا التأكيد؟

نقول فى الجواب: إنّ إحدى أعظم المشاكل فى معرفة اللّه، قضية مقايسته بالمخلوقات، كونه يتعامل طيلة حياته معها فيقيس بها كلّ شيء، المخلوقات المحدودة من جميع الجوانب، العلم والقدرة والزمان والمكان والإدراك والشهود والتقلب والزوال، فإذا دار الكلام عن معرفة اللّه استعان- عالماً أو جاهلًا- بذلك القياس فيهوى فى وادى التشبيه الخطير.

ومن هنا فإنّ هذا المعلم الربانى يحذر كراراً من الانزلاق إلى الهاوية والمقايسة بين اللّه وأىّ من مخلوقاته التى تبعد عن معرفة اللّه وتخلق لديه أوهاماً يتعبد بها.

والحديث المروى عن الإمام الباقر عليه السلام: «كُلُّ ما مَيَّزْتُموه بأوْهامِكُمْ فى أدَقِّ مَعانيهِ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلُكُمْ مَرْدُودٌ إلَيْكُمْ»[۲۲۴].

إشارة رائعة لهذا المطلب.

ولذلک کان الأئمّة علیهم السلام دائمی المراقبة لصحبهم وأتباعهم حذراً من السقوط فی مستنقع التشبیه أو التعطیل، فی حین سقط فیه العدید ممن لم یسِر علی نهجهم ویتبعهم، ومن نماذج هذا الانحراف الخطیر، الإیمان بتجسم اللّه وتشبیهه بمخلوقاته والاعتقاد بإمکانیة رؤیته ومشاهدته الحسیة فی الدنیا أو علی الأقل فی الآخرة والتی یلتزم بها الأعم الأغلب.

وأورد الإمام علیه السلام کلمات قصیرة عظیمة المعنی بشأن النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله.

فی القسم الآخر من هذه الخطبة الذی ذکره السید الرضی تحت عنوان «وَمِنْها فی ذِکْرِ النَّبِی صلی الله علیه و آله» فبیّن علیه السلام سبعاً من صفات النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله التی تشیر إلی رفعة مقامه وسعة إصلاحاته فی المجتمع الإسلامی فقال: «أَرْسَلَهُ بِالضِّیَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِی

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۱۴۶

الْاصْطِفَاءِ، فَرَتَقَ ۲۲۵] بِهِ الْمَفَاتِقَ ۲۲۶] وَسَاوَرَ[۲۲۷] بِهِ الْمُغَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحُزُونَةَ[۲۲۸]، حَتَّی سَرَّحَ ۲۲۹] الضَّلَالَ عَنْ یَمِین وَشِمَال».

المراد من الضیاء أحد الاحتمالات: نور الإیمان أو العلم أو القرآن أو الوحی أو جمیعها، أیأنّ اللّه بعث النّبی صلی الله علیه و آله بنور الوحی والقرآن والإیمان لیضیء بها الکون العبارة «قَدَّمَهُ فِی الْاصْطِفَاءِ»، ربّما إشارة إلی خاتمیة النّبی صلی الله علیه و آله (لأنّه لو لم یکن خاتماً سیرد دیناً أسمی من دینه) أو إشارة لأفضلیته علی جمیع الأنبیاء والخلق، المراد من «مفاتق» الاختلافات الواسعة التی سادت مجتمع الجزیرة وقضی علیها النّبی صلی الله علیه و آله، ووحدهم تحت لواء الإسلام.

العبارة «وَسَاوَرَ بِهِ الْمُغَالِبَ» إشارة إلی قطع أیدی الظلمة والطغاة عن المستضعفین والمحرومین والذی حصل ببرکة ظهور الإسلام والذین سلموا جمیعا لقدرة الدین الجدید.

والعبارة «وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ» یمکن أن تکون إشارة إلی حل المشاکل المعنویة والعقائدیة والاخلاقیة أو المشاکل المادیة والاجتماعیة أو جمیع ذلک فی ظل ظهور الإسلام.

وتشیر العبارة «حَتَّی سَرَّحَ الضَّلَالَ عَنْ یَمِین وَشِمَال» إلی نهایة جمیع المفاسد التی اشیر إلیها فی العبارات السابقة، أیزوال أنواع الضلال الیمین والشمال ومن جمیع الجوانب بالنبی صلی الله علیه و آله ورسالته.

وربّما تشیر العبارة «عَنْ یَمِین وَشِمَال» إلی الإفراط والتفریط أو إشارة لکل الطرق التی تؤدی إلی الفساد، قطعاً هذه الاصلاحات لیست مختصة بزمان ظهور

نفحات الولایة ؛ ج۸ ؛ ص۱۴۶

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۱۴۷

النّبی صلی الله علیه و آله فلو عملنا الیوم بالتعالیم والوصایا الإسلامیّة لتحققت وحدة الامّة الإسلامیّة ولقطعت أیدی الطغاة والظلمة ولهانت جمیع الازمات والمشاکل الاجتماعیة، فکلّ ذلک من آثار التعالیم الإسلامیّة.

***

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۱۴۹

الخطبة ۲۱۴

اشارة

يَصِفُ جَوْهَرَ الرَّسُولِ، وَيَصِفُ الْعُلَماءَ، وَيَعِظُ بِالتَّقْوى ۲۳۰]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة كما أشرنا من ثلاثة مقاطع: أشار عليه السلام فى المقطع الأوّل عقب شهادته للّهبالعدل إلى جانب من صفات النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله التى تشير إلى طهارة جوهر ذات النّبى من جميع الجهات، وتطرّق ضمنياً إلى لطف اللّه بالمطيعين من عباده وإمداده الغيبى لهم.

وتحدث فى المقطع الثانى عن العلماء الربانيين وصفاتهم البارزة وكيفية تعاملهم مع الآخرين.

وأورد فى الختام مواعظ كثيرة من شأن العمل بها تربية روح الورع والتقوى لدى الإنسان بعبارات موجزة بليغة.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۵۱

القسم الأوّل

اشارة

وَأَشْـهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ، وَحَكَمٌ فَصَلَ، وَأَشْـهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ، كُلَّمَا نَسَخَ اللَّه الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِى خَيْرِهِمَا، لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ، وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ.

أَلَا وَإِنَّ اللَّه سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ، وَلِلطَّاعَةِ عِصَماً.

وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَة عَوْناً مِنَ اللَّه سُبْحَانَهُ يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَيُثَبِّتُ الأَفْئِدَةِ، فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ.

الشرح والتفسير: النسب الطاهر للنبى صلى الله عليه و آله

استهل الإمام عليه السلام خطبته- كسائر الخطب- بالشهادتين (وإن دلت الواو فى «وأشهد» أنّه كانت قبلها بعض المطالب) فقال: «وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ، وَحَكَمٌ فَصَلَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ».

التعبير (عَدْلٌ) الذى له معنى مصدرى، للتأكيد، أىأنّ ذات اللّه عين العدل، والعبارة التى أتت به بصيغة الفعل الماضى (عدل) تأكيد آخر و (حكم) له معنى واسع يشمل حكم اللّه فى جميع الجوانب التكوينيّة والتشريعيّة، وأنّه فصل وفرقان بين الحق والباطل على الدوام.

والعجيب أنّ ابن أبى الحديد نسب الضمير فى (أنّه) إلى القضاء والقدر ويعتقد بأنّه كان قبل هذه العبارة (وفصله السيد الرضى، ووافقه عدد من الشراح، فى حين تشير العبارة «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» إلى أنّ الشهادة السابقة شهادة

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۵۲

مرتبطة باللّه، بالإضافة إلى أنّ «حكم عدل» من صفات اللّه لا صفات القضاء والقدر[۲۳۱].

ويشير وصف النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى العبارة المذكورة بالعبودية قبل الرسالة إلى أنّ أعظم فخر للإنسان عبودية اللّه والعبارة «سَيِّدُ عِبَادِهِ» تأكيد آخر لهذا المعنى، نعم كلّ ما هنالك فى عبودية اللّه، ثم قال فى ذكر صفات النّبى صلى الله عليه و آله: «كُلَّمَا نَسَخَ ۲۳۲] اللَّه الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِى خَيْرِهِمَا».

إشارة إلى أنّ نوره صلى الله عليه و آله فى صلب آدم كان ينتقل من صلب لآخر ولما كان يظهر عدّة أبناء من نسله كان نوره

المبارك فی الفرع الأفضل من ذلک النسل وما زال کذلک حتی انتقل من صلب عبد اللَّه لرحم آمنهٔ بنت وهب.

ثم أضاف: «لَمْ یُسْهِمْ فِیهِ عَاهِرٌ[۲۳۳]، وَلَا ضَرَبَ فِیهِ فَاجِرٌ». وهونفس المضمون الذی ورد فی زیارهٔ وارث فی الإمام الحسین علیه السلام: «أشْهَدُ أنَّک کُنْتَ نُوراً فی الأَصْلابِ الشّامِخَهِٔ وَالأَرْحامِ الْمُطَهَّرَهِٔ، لَمْ تُنَجِّسْک الْجاهِلِیَّهُٔ بِأنْجاسِها وَلَمْ تُلْبِسْک مِنَ مُدْلَهِمّاتِ ثِیابِهَا»[۲۳۴].

وهو ذات المعنی الذی ورد فی النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله: «لَمْ یَزَلْ یَنْقُلُنی اللَّه مِنْ أصْلابِ الطّاهِرینَ إلَی الْمُطَهَّراتِ حَتّی أخْرَجَنی فی عالَمِکُمْ هذا لَمْ یُدَنِّسْنی بِدَنَسِ الْجاهِلِیَّهِٔ»[۲۳۵].

والعبارهٔ الواردهٔ فی هذه الخطبهٔ والزیارهٔ والروایهٔ بالإضافهٔ إلی بیان فضل النّبی

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۱۵۳

الأکرم صلی الله علیه و آله تعلمنا جمیعاً هذا الدرس وهو أنّ فترهٔ تربیهٔ الإنسان بغیهٔ بلوغ المقامات الرفیعهٔ تبدأ من أصلاب الآباء وآرحام الامهات وأنّ العامل الوراثی أحد عوامل تبلور شخصیّهٔ الإنسان، وإن لم یکن العامل الفرید، وهنالک الکثیر الذی یقال بهذا الخصوص سنتعرض له فی الأبحاث القادمهٔ علی ضوء مناسبهٔ الکلام إن شاء اللَّه.

ثم تطرق الإمام علیه السلام إلی السائرین علی نهج رسول اللَّه صلی الله علیه و آله الذی بین صفاته فی العبارات السابقهٔ لیشیر إلی ضرورهٔ تربیهٔ بعض الطوائف فی کلّ عصر فی ظل تعالیم النّبی صلی الله علیه و آله ولیواصلوا مسیرته، فقال: «أَلَا وَإِنَّ اللَّه سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَیْرِ أَهْلًا، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ، وَلِلطَّاعَهِٔ عِصَماً».

إشارهٔ إلی أنّ هذا الطریق لا یخلو فی أیعصر ومصر من سالکیه ولا تتوقف خطط الخیر والحق والطاعهٔ؛ فهؤلاء من ذوی الإرادات الصلبهٔ والنیات الطاهرهٔ ولذلک شملتهم الطاف اللَّه، العبارهٔ «وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ، وَلِلطَّاعَهِٔ عِصَماً» ربّما تشیر إلی الأئمّهٔ المعصومین علیهم السلام أوصیاء النّبی صلی الله علیه و آله حماهٔ الحق وامناء طاعهٔ أوامر اللَّه، کما ورد فی الزیارهٔ الجامعهٔ: «وَالْحَقُّ مَعَکُمْ وَفیکُمْ وَمِنْکُمْ وإِلَیْکُمْ وَأَنْتُمْ أهْلُهُ وَمَعْدِنُهُ».

وما ورد فی الحدیث الذی روته مصادر الفریقین: «عَلیّ مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَ عَلیٍّ یَدُورُ مَعَهُ حَیْثُما دارَ»[۲۳۶].

وربّما تشیر إلی القرآن وسنّهٔ المعصومین علیهم السلام أو العلماء ولا یبعد جمع هذه التفاسیر الثلاثهٔ فی مفهوم العبارهٔ، ثم بشر أولئک السائرین بأنّهم لیسوا وحیدین إزاء زخم مشاکل الطاعهٔ وأنّ نصرهٔ اللَّه منجزهٔ لهم دائماً، فقال: «وَإِنَّ لَکُمْ عِنْدَ کُلِّ طَاعَهٍٔ عَوْناً مِنَ اللَّه سُبْحَانَهُ یَقُولُ ۲۳۷] عَلَی الْأَلْسِنَهِٔ، وَیُثَبِّتُ الْأَفْئِدَهَٔ. فِیهِ کِفَاءٌ لِمُکْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ».

نعم، فاللَّه لا یترک عباده المؤمنین فینطق ألسنتهم ویرسخ إرادتهم ویقوی

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۱۵۴

عزائمهم؛ وقد ورد هذا الأمر کراراً فی القرآن: «إِنَّنِی مَعَکُمَا أَسْمَعُ وَأَرَی»[۲۳۸].

وقال فی موضع آخر: «یُثَبِّتُ اللَّه الَّذِینَ امَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِی الْحَیَاهِٔ الدُّنْیَا»[۲۳۹].

وهذا ما نلتمسه کلّ یوم فی الصلوات الیومیهٔ ونسأل اللَّه: «إِیَّاک نَعْبُدُ وَإِیَّاک نَسْتَعِینُ»[۲۴۰].

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۱۵۵

القسم الثانی

اشارهٔ

وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّه الْمُسْتَحْفَظِینَ عِلْمَهُ، یَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَیُفَجِّرُونَ عُیُونَهُ. یَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَایَهِٔ، وَیَتَلَاقَوْنَ بَالْمَحَبَّهِٔ، وَیَتَسَاقَوْنَ بِکَأْسٍ رَوِیَّهٍٔ

وَيَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ، لَا تَشُوبُهُمُ الرِّيبَةُ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيبَةُ. عَلَى ذلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ، فَكَانُوا كَتَفَاضُلِ الْبَذْرِ يُنْتَقَى، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ، وَهَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ.

الشرح والتفسير: حفظة علم اللَّه

تطرق الإمام عليه السلام بعد أن فرغ من ذكر جانب من أبرز صفات النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلى السائرين على نهجه أى‌العلماء والعرفاء وخلّص المؤمنين فبيّن عشراً من صفاتهم، والحق أنّ مَن تحلى بهذه الصفات فهو من أولياء اللَّه وخاصة أتباع النّبى صلى الله عليه و آله فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّه الْمُسْتَحْفَظِينَ ۲۴۱] عِلْمَهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ».

تشير هذه الصفات الثلاث إلى أنّ هذه الطائفة من عباد اللَّه تمكنوا بتوفيق اللَّه وإلهاماتهم الباطنية من تحصيل العلوم وحرسوا هذه العلوم وبلّغوها طالبيها، فهم الحفظة والحارسون والناشرون لتلك العلوم وعلى غرار رى عيون الماء المتدفقة للأراضى العطشى وإنماء مختلف الأشجار والأزهار والنباتات فهم ينشرون الدين فى قلوب عطشى للمعارف ويغرسون فى نفوسهم الفضائل الإنسانية.

ولعل العبارة «يَصُونُونَ مَصُونَهُ» تعنى ما ذكر آنفاً؛ أى‌أنّهم يتحفظون على

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۵۶

العلوم الربانية عمّن لا يستحقها، أو بمعنى أنّهم صانوا هذه العلوم بأمانة وجهدوا فى إيصالها من جيل لآخر من خلال تأليف الكتب ونشرها.

وواصل كلامه بالإشارة إلى أربع صفات أخرى فقال: «يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ، وَيَتَلَاقَوْنَ بَالْمَحَبَّةِ، وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ[۲۴۲] وَيَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ[۲۴۳]».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى المقطع السابق إلى الأبعاد العلمية لأولئك العلماء الربانيين وتطرق هنا إلى جوانبهم العلمية؛ وربّما كان المراد من « «يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ» ولاية اللَّه وأوليائه التى ربطت هذه الفئات مع بعضها؛ أو الولاية بمعنى الحب والمودة التى الفت قلوبهم.

وتشير العبارة «وَيَتَلَاقَوْنَ بَالْمَحَبَّةِ» إلى أنّ هذه المحبّة القلبية تتجلى حين لقائهم بالفعل والقول.

وتشير العبارة الثالثة إلى أنّ جلساتهم مركز تبادل العلوم والمعارف؛ فكلّ منهم يملأ إناء الآخر بعلمه كما ورد فى العبارة الرابعة «وَيَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ» ثم قال فى بيان صفتين اخريين «لَا تَشُوبُهُمُ الرِّيبَةُ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيبَةُ». ولعل العبارة (ريبة) تشير إلى أنّ مبانيهم العقائدية وإيمانهم على درجة من الرسوخ بحيث لا يشوبه أدنى شك وارتياب أو أنّ حياتهم نقية وطاهرة بحيث لا يشك أحد فى حسن سريرتهم ودقّة أعمالهم كما يمكن أن تشير العبارة «وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيبَةُ» أنّهم لا يتلوثون بالغيبة أو أنّهم على درجة من الطهر بحيث لا يسمح الآخرون لانفسهم باغتيابهم.

طبعاً لا تتنافى هذه التفاسير المتعددة ويمكن جمعها معاً فى مفهوم العبارة السابقة.

ثم قال على سبيل التأكيد: «عَلَى ذلِك عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ».

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۵۷

لا ينافى هذا التعبير الاختيار فى الأعمال لأنّ الإنسان إن انطلق مختاراً إلى اللَّه أتته الإمدادات الغيبية والعنايات الإلهيّة، وبغض النظر عن ذلك فإنّ اللَّه أودع البشريّة منذ البداية أرضية الصلاح والسعادة لتطوى بها مسيرة التكامل.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين من صفات أولئك العلماء الربانيين فقال: «فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ».

نعم! حبّهم لأحدهم الآخر للَّه‌وإرتباطهم ناشىء من علاقتهم المشتركة بالكمالات، أمّا المنافع المادية والصلات الحيوانية والاشتراك

فى المقامات الدنيوية ليست سبباً قط فى إرتباطهم وحبّهم لبعضهم البعض.

ثم بيّن فى ختام هـذه الفقرة بتشبيه رائع كيفيـة انتخاب هـذه الفئة من بين سائر الناس وقال: «فَكَانُوا كَتَفَاضُلِ الْبَذْرِ يُنْتَقى ۲۴۴]، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ، وَهَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ ۲۴۵]».

أجل! هؤلاء بـذور عالم الخليقـة المنتقى الـذين اختارهم خالق عالم الوجود للتهـذيب والكمال ليجعلهم بهيئـة شـجرة طيبـة أُكلها دائم بتوفيق اللّه ومدده الغيبى.

وزبدة الكلام أنّ هؤلاء الأعلام الذين يتصفون بهذه الصفات ويطوون مراحل التكامل فى ظل عناية اللّه ويزدادون كلّ يوم قرباً من اللّه لم يبلغوا هـذا المقام عبثاً، فقد جدوا واجتهدوا فى إصـلاح أنفسـهم وجلاء قلوبهم من صدأ الأهواء وأخلصوا نيّاتهم واجتازوا الامتحان الإلهى الشاق فبلغوا ذلك المقام، وتلك عاقبة كلّ من سلك طريقهم.

نفحات الولايۀ، ج۸، ص: ۱۵۹

القسم الثالث

اشارة

فَلْيَقْبَلِ امْرُءٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ فِى قَصِيرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِى مَنْزِل، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلًا، فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ. فَطُوبَى لِذِى قَلْب سَلِيم، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ، وَطَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقْطَعَ أَسْبَابُهُ، وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ الحَوْبَةَ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِىَ نَهْجَ السَّبِيلِ.

الشرح والتفسير: المهتدون

خاطب الإمام عليه السـلام هنا الجميع داعياً إيّاهم إلى سـلوك سبيل العلماء الربانيين الـذين بيّن صـفاتهم فى القسم السابق، والواقع أنّه استعرض هنا مراحل السير والسلوك إلى اللّه فقال: «فَلْيَقْبَلِ امْرُءٌ كَرَامَةً[۲۴۶] بِقَبُولِهَا، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً[۲۴۷] قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ فِى قَصِيرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِى مَنْزِل، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلًا، فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ».

فالإمام عليه السلام لفت فى الخطوة الاولى إنتباه الجميع إلى قصر عمر الدنيا وفناء الحياة

نفحات الولايۀ، ج۸، ص: ۱۶۰

وحلول الموت حتى لايكونوا كأصحاب الدنيا الذين نسوا الآخرة ورأوا الدنيا خالدة.

وهـذه هى حالـة اليقظة التى تمثل المرحلـة الاولى فى السـيرو السـلوك إلى اللّه، وهل من عامل لليقظـة أنجع من ذكر الموت وحلول الأجل؟

وواصل كلامه بالإشارة إلى طهارة واصطفاء دليل الطريق فقال: «فَطُوبَى لِذِى قَلْب سَلِيم، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ ۲۴۸]».

وبالنتيجـة فإنّه يظفر بطريق السـلامة بمعونـة من يبصـره وبطاعته للمرشـد الهادى الـذى يأتمر به فيبلغ الطريق قبل أن تغلق بوجهه أبوابه وتتقطع سبله «وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ، وَطَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقْطَعَ أَسْبَابُهُ».

وهكـذا يوصـى الإمـام عليه السـلام أتبـاعه أن يسـلكوا الطريق فلاـ يسـيروا عليه دون دليـل وهاد فيبلغوا الهـدف فى ظل هدايـة العلماء الربانيين والسائرين السابقين مادامت الفرصة سانحة وأبواب الهدى مشرعة.

واختتم الإمام عليه السـلام كلامه بالـدعوة إلى التوبـة وجلاء صـدأ الذنب عن القلب والذى يعد الشـرط الأصـلى لسـلوك هذا الطريق فقال: «وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ الحَوْبَةَ[۲۴۹]، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِىَ نَهْجَ السَّبِيلِ».

فيفتح بهذ الطريق مسار القرب إلى اللَّه بوجه الإنسان ويشمل بخاصة لطف اللَّه.

تأمّل: الحاجة إلى المرشد فى السير والسلوك

تضـمنت هذه الخطبة بعض الإشارات إلى نقطة وهى: هنيئاً لمن اقتفى آثار الهادى وواصل طريقه ببصيرة من يبصّره بالطريق وأطاع من يهديه إلى الطريق القويم.

نفحات الولايه، ج‌٨ ص: ١۶١

وتثير هذه الخطبة وماورد فى أمثالها من «نهج البلاغة» هذا السؤال: هل طى المقامات المعنوية التى يعبر عنها بالسير والسلوك إلى اللَّه تتطلب استاذاً خاصاً طوى هذا الطريق وخبر مطباته وآفاته فيأخذ بأيدى السائرين الجدد ويوصلهم إلى الهدف؟

بعبارة أخرى: هل تكفى التعليمات الكليـة التى وردت فى الكتاب والسـنّة لسـلوك هـذا الطريق أم أنّ كلّ سالك لهـذا الطريق بحاجة إلى اسـتاذ بما يناسب اسـتعداده وروحيّته ليعينه فى تشـخيص الجزئيّات؟ وكما لا تكفى نصائح الاطباء لجميع المرضـى، بل يحتاج كلّ مريض إلى فحص وتشخيص للمرض ليصف له العلاج، فهل بلوغ المقامات المعنوية كذلك؟

طبعـاً سـياق الآيـات القرآنيـة والروايات الإسـلاميّة أنّ لجميع المؤمنين من خلال الإتيان بما ورد فى الكتاب والسـنّة والالتزام بالأحكام الشرعيّة والإلتفات إلى لطائف هذين المصدرين العظيمين، الوصول إلى ذروة الإيمان والمسارعة إلى القرب الإلهى.

فإننا لا نجد فى سـيرة صحابة النّبى الإكرم صلى الله عليه و آله وأصحاب الأئمّة المعصومين عليهم السلام من انتخاب أستاذ خصوصى، حتّى الروايات التى وردت كإجابة لسؤال بعض الأفراد مفيدة لعامة المؤمنين.

يستدل أنصار انتخاب الأستاذ الخاص أحياناً بهذه الأمور:

١. تشير قصّة الخضر وموسى عليهما السلام إلى أنّ اللَّه اصطفى مرشداً لموسى وكان مكلفاً بطاعة أوامره.

٢. ربّما من هذا القبيل قصة موسى وشعيب عليهما السلام.

٣. يلمس مثل ذلك فى قضية لقمان وابنه.

۴. آيـة السؤال فى القرآن المجيـد: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الـذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»[٢٥٠] تأمر الجهال بطرح مشاكلهم العلميّـة والفكريّـة على العلماء.

۵. مضى فى الخطبة ١٠۵ من «نهج البلاغة» أنّ الإمام عليه السلام قال: «أَيُّهَا النّاسُ

نفحات الولايه، ج‌٨ ص: ١۶٢

اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْباحِ واعِظٍ مُتَّعظ».

۶. قال الإمام السجّاد عليه السلام: «هَلَكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حَكيمٌ يُرْشِدُهُ وَذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ سَفيهٌ يَعْضُدُهُ»[٢٥١].

٧. يمكن أن تكون العبـارات الواردة فى هـذه الخطبـة شاهـد آخر على هـذا المطلب؛ لكن أغلب ما ذكر كـدليل على هـذا المطلب لا يخلو من مناقشة، فالذى يفهم ممّا ورد فى آيات القرآن بشأن موسى والخضر لا علاقة له بهذا المطلب.

فقـد أمر موسـى عليه السـلام بأن يتعلم من الخضـر بعض العلوم بخصوص العالم البشـرى أو عـدم الاعتراض على بعض الحوادث التى يستهجن ظاهرها ومن هنا لما رأى موسى عليه السلام بعض الأمور انفصل عن الخضر وواصل طريقه ولا صلة لهذا الأمر بطى المقامات المعنوية والسير والسلوك إلى اللَّه على هدى المرشد.

كمـا لاـ يلمس أدنى شـيء ممّـا ذكر فى القصـة، طبعـاً لاـ يمكن إنكـار أنّ الإنسان يسـعه التعلم ممن لازم النّبى وتعلم منه العديـد من المطالب والتجارب.

كما يشاهد فى قضية لقمان وولده سلسلة من المواعظ الكلية ذات الطابع العام وقد أوردها القرآن بهذه الصفة.

آية السؤال أيضاً بخصوص مسألة التقليد والرجوع إلى العلماء والمجتهدين، كما استدل بذلك في كتب الأصول، بعبارة أخرى إشارة لبيان الأحكام بصورة كلّية، لا الأحكام الخاصّة والشخصيّة.

وقد اقتصرت الإشارة إلى هذا المطلب في رواية «البحار» وبعض خطب «نهج‌البلاغة».

وزبدة الكلام إن أردنا التسليم بانتخاب الاستاذ المرشد كشرط ضروري في طي المقامات المعنوية، فإنّ ذلك لا ينسجم مع ظواهر الكتاب والسنّة وسيرة أصحاب النّبي صلى الله عليه و آله وأئمّة الهدى عليهم السلام؛ ولكن إن أردنا التسليم به كمساعد لطي هذا الطريق،

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۶۳

فالأمر يبدو حسناً؛ إلّاأنّه لا ينبغي الغفلة عن قضية أساسيّة وهي أنّ هذا الموضوع استغل طيلة التاريخ وحتى في هذا الزمان من قبل الطالحين والمنحرفين، وفي بعض الموارد خلط بأفكار المتصوفة وتعاليمهم الشاذة لكي لا تبعد السالك عن مقام القرب فحسب، بل أبعدته عن اللَّه تماماً.

فإن رأى الإنسان حقاً أنّه بحاجة لمثل هذا الاستاذ، عليه أن يتشدد في اختياره خشية أن يسلم نفسه للشيطان ظاناً أنّه الخضر والمرشد إلى اللَّه، وإننا ننصح الجميع لاسيما الشبّان الأنقياء الذين يفتشون عن الاستاذ أن يعكفوا بالدرجة الاولى على الكتب الحسنة التي ألفها العلماء الأتقياء الورعون المعروفون ومن ثم اصطفاء الاستاذ الذي ينشدون.

والجدير بالذكر أيضاً ما يراه البعض أنّ الاستاذ ضرورة في بداية الطريق فإذا ما سار على الدرب فلا حاجة لذلك الاستاذ ولابدّ من الانفتاح على التعاليم الإسلاميّة الواردة في الكتاب والسنّة.

يستفاد من الروايات والتواريخ الإسلاميّة أنّه كان للنبي الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام أصحاب خاصين حملة أسرارهم كعلي عليه السلام بالنسبة للنبي صلى الله عليه و آله و «كميل» و «الأصبغ بن نباتة» و «ميثم» و «رُشَيدِ الهَجَري» وأمثالهم وكذلك سائر الأئمة؛ ولكن لا علاقة لهذا الموضوع بمسألة الاستاذ والتلميذ في أمر السير والسلوك بحيث يعين الاستاذ كل يوم درساً جديداً لطي الطريق ويكون لكل تلميذ دروسه الخاصّة، بل كما قيل إنّ أولئك كانوا حملة أسرار المعصومين عليهم السلام وعلومهم التي يعجز عن إدراكها الآخرون.

على كلّ حال لا شك في أنّ وجود الأستاذ الخبير والعالم بالطريق يستفيد منه الإنسان في طي الطريق المعنوي، الأستاذ الثقة من جميع الجوانب لمن الأمور الحسنة، إلّاأنّ الأمر ليس كما يذهب إليه من عدم إمكانية بلوغ هذه المقامات بالكتاب والسنّة وما فيهما من تعاليم، والمهم أن يكون للإنسان عزم وإرادة على طي

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۶۴

هذا الطريق وإلّا فالطريق واضح وسالك إن توكل الإنسان على اللَّه فهو هاديه ومرشده.

ونؤكد في الختام ثانية أنّ هنالك العديد من الطالحين الذين أضلوا الكثير من الشبّان بهذه العناوين الزائفة على أنّه المرشد والدليل فلابد من الاحتياط والحذر الشديد في التعامل مع هؤلاء الشياطين الذين يتلبسون بلباس الإنس.

***

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۶۵

الخطبة ۲۱۵

اشارة

كانَ يَدْعُو بِهِ كَثير[۲۵۲]

نظرة إلى الخطبة

هـذه الخطبـة فى الواقع مركبة من سلسـلة من الأدعية العميقة المعنى والقيمة للغاية كان الإمام عليه السـلام يدعو بها فى أغلب الأوقات وتتكون من قسمين:

القسم الأوّل: الحمد والثناء على اللّه الذى غذانا بهذه النعم المعنوية والمادية ولم يحجبها عنّا.

وسأل الإمام عليه السـلام اللّه ثلاثاً من خلال ثلاثـة أقسام قصـيرة وعميقة تشـرع كلّ منها ب «اللهم»، وغالباً ما تنطوى هذه الأدعية على جانب معنوى، وإن لم تخل من بعض العبارات المادية، ومن المناسب التضرع بها عقب الصلاة أو القنوت وفى سائر الأوقات التى يقبل فيها الإنسان على الدعاء لينال بركاته وفضله.

نفحات الولايهٔ، ج۸ ص: ۱۶۷

القسم الأوّل

اشارهٔ

الْحَمْدُ للّهالَّذِى لَمْ يُصْـبِحْ بِى مَيِّتاً وَلَا سَـقِيماً، وَلَا مَضْـرُوباً عَلَى عُرُوقِى بِسُوءٍ، وَلَا مَأْخُوذاً بِأَسْوَأ عَمَلِى، وَلَا مَقْطُوعاً دَابِرِى، وَلَا مُرْتَدًّا عَنْ دِينِى، وَلَا مُنْكِراً لِرَبِّى، وَلَا مُسْـتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِى، وَلَا مُلْتَبِساً عَقْلِى، وَلَا مُعَذَّباً بِعَذَابِ الْاُمَمِ مِنْ قَبْلِى. أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظَالِماً لِنَفْسِى، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلَا حُجَّةَ لى. وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِى، وَلَا أَتَّقِى إِلَّا مَا وَقَيْتَنِى.

الشرح والتفسير: اللّهم كلّ شىء لک

هذا القسم من كلام الإمام عليه السلام ليس خطبة، بل دعاء عميق المعنى جمع فيه جميع خير الدنيا والآخرة.

فقد حمد اللّه واثنى عليه على إنقاذه له من عشـرة أشياء من شأن كلّ منها سلب رزق الدنيا والآخرة، فقال فى أربعة أقسام منها: «الْحَمْدُ للَّهالَّذِى لَمْ يُصْبِحْ بِى مَيِّتاً وَلَا سَقِيماً، وَلَا مَضْرُوباً عَلَى عُرُوقِى ۲۵۳] بِسُوء، وَلَا مَأْخُوذاً بِأَسْوَأ عَمَلِى، وَلَا مَقْطُوعاً دَابِرِى ۲۵۴]».

العبارة «لَمْ يُصْـبِحْ» إشارة إلى أنّ الإنسان يمكنه النجاح فى حياته حين يكون سـليماً نشـيطاً منذ تباشير الصباح ولابدّ من شكر اللّه على هذه النعمة.

العبارة «وَلَا مَضْرُوباً عَلَى عُرُوقِى بِسُوءٍ» فسرّها طائفة من شرّاح «نهج‌البلاغة»

نفحات الولايهٔ، ج۸ ص: ۱۶۸

بأنها إشارة إلى الأمراض التى تشوّه شـكل الإنسان كالبرص والجذام، وذلک كناية عن هذا المعنى فى عرف العرب، بينما فسّر البعض العروق بمعنى الأعضاء وأنّ العبارة إشارة إلى سلامة أعضاء الإنسان التى تعد من أعظم النعم.

وفسّـر البعض الآخر العروق بمعناها الأصـلى؛ يعنى إشارة إلى أنّ خلوّ العروق من الآفات، من النعم العظمى التى تستحق الحمد والثناء، ونعلم اليوم أنّ أحد الأمراض الشائعة والخطيرة انغلاق عروق القلب والدماغ الذى يعدّ العامل المهم للسكتة القلبيّة والدماغيّة.

النعمـة الأخرى الكبرى هى بقاء نسل الإنسان ووجود الأولاد الصالحين الذين تعود أعمالهم الصالحة على آبائهم وامهاتهم والتى أشـير إليها بالعبارة «وَلا مَقْطُوعاً دابِرِى».

ثم أشار إلى ست نعم أخرى تستحق الحمد والشكر: «وَلَا مُرْتَدًّا عَنْ دِينِى، وَلَا مُنْكِراً لِرَبِّى، وَلَا مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِى، وَلَا مُلْتَبِساً[۲۵۵] عَقْلِى، وَلَا مُعَذَّباً بِعَذَابِ الْامَمِ مِنْ قَبْلِى».

ما أكثر أن يشمل الإنسان بداية أمره بالنعم الربّانية العظيمة لكنّه قد يفقدها فى أثناء مواصلته الطريق: وهناك عدد من العبارات المذكورة إشارة إلى تداوم النعم؛ نعمة الدين والإيمان والعقل، وعليه فالشمول بالنعمة يستحق الحمد والثناء وبقاؤها ودوامها كذلك، فالنعم آيلة للزوال لولا لطف اللّه.

العبارة «وَلَا مُنْكِراً لِرَبِّى» بعد العبارة «وَلَا مُرْتَدًّا عَنْ دِينِى» من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

العبارة «وَلَا مُعَذَّباً بِعَذَابِ ...» إشارة إلى العذاب الأليم والشاقّ الذى أصاب بعض الناس كالصاعقة، العواصف الشديدة والزلازل العظيمة والآفات العصيبة فى بدن الإنسان وروحه.

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۱۶۹

العبارة «وَلَا مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِى» إشارة إلى أنّ الإنسان يمتلك الإيمان أحياناً لكنّه يخشى أن يلوّث بالمعاصى أو يخشى من زواله.

تضرع الإمام عليه السلام: أحمدك وأشكرك على إفاضة الإيمان المقرون بالسكينة.

ولما كان أحد أهم مقامات العارفين والمقرّبين، التسليم لأمر اللّه والاعتراف بالنقص تضرع الإمام عليه السلام مواصلًا دعاءه: «أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظَالِماً لِنَفْسِى، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَىَّ وَلَا حُجَّةَ لِى. وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِى، وَلَا أَتَّقِىَ إِلَّا مَا وَقَيْتَنِى».

أعظم فخر للإنسان أنّه عبد للّه كما ورد على لسان الإمام: «إلهى كَفَى بِى عِزّاً أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْداً»[۲۵۶].

والتعبير «ظَالِماً لِنَفْسِى» إشارة إلى أنّ الإنسان لا يسعه قط أداء حق العبودية حيث تضرع النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «إلهى ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ»[۲۵۷] فلابدّ أن يكون الآخرون أولى بهذا الاعتراف بالتقصير.

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۱۷۱

القسم الثانى

اشارة

اللهمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فى غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فى هُدَاكَ، أَوْ أُضَامَ فِى سُلْطَانِكَ، أَوْ أُضْطَهَدَ وَالْأَمْرُ لَكَ!

اللهمَّ اجْعَلْ نَفْسِى أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِى، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِى!

اللهمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِى جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!

الشرح والتفسير: النعم المكملة

حمد الإمام عليه السلام فى القسم الأوّل من هذه الخطبة، اللّه وأثنى عليه على ما يغذيه به من نعم كبرى ويتضرع هنا إلى اللّه ويسأله النعم المكملة لتلك النعم السابقة من خلال ثلاث عبارات استهلها ب «اللهم»: «اللهمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فى غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فى هُدَاكَ، أَوْ أُضَامَ ۲۵۸] فِى سُلْطَانِكَ، أَوْ أُضْطَهَدَ[۲۵۹] وَالْأَمْرُ لَكَ!».

فهذه العبارات الأربع التى تعود جميعاً إلى التوحيد الأفعالى تشير إلى أنّ الغنى والهدى والنصر وغلبة الأعداء وجميع المشاكل ميسّرة فى ظلّ لطف اللّه؛ كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ»[۲۶۰].

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۱۷۲

وقال تعالى «مَنْ يَهْدِ اللَّه فَهُوَ الْمُهْتَدِى»[۲۶۱].

وقال تعالى «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّه فَلَا غَالِبَ لَكَمْ»[۲۶۲].

ثم تضرع فى الـدعاء الثانى وطلب فقال: «اللهمَّ اجْعَلْ نَفْسِى أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِى، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِك عِنْدِى!».

«كريمة» تعنى فى الأصل، الشخص القيم والأشياء النفيسة وهى هنا إشارة إلى أعضاء الإنسان المهمّة كالعين والأذن واللسان التى تذكر كنعمة إلهيّة ووديعة ربّانيّة لتكون إشارة إلى لطف اللّه ورحمته وإلى أنّ النعم ودائع تسترد فى خاتمة المطاف.

على كلّ حال فمضمون هذا الدعاء ورد بصيغة أخرى فى أدعية سائر المعصومين عليهم السلام؛ جاء فى دعاء الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى أعمال ليلة النصف من شعبان: «اللّهمَّ أمْتِعْنا بِأسْماعِنا وَأبْصارِنا وَقُوَّتِنا ما أحْيَيْتَنا وَاجْعَلْهُ الْوارِثَ مِنّا»[۲۶۳].

حقّاً إنّ الإنسان إذا فقد أواخر عمره نعمة قدرة الروح والبدن والبصر والسمع فإنّما يتحول إلى ميت متحرك تصبح حلاوة شهد الحياة مرارة على لسانه بحيث يتمنى الموت والخلاص من هذه الحالة فى كلّ لحظة.

من البديهى أنّه ليس المراد فى هذه الأدعية أنّ اللّه يأخذ من الإنسان فى البداية آواخر عمره، روحه ثم بصره وسمعه، بل المراد أنّ أعضاءه تبقى سليمة حتى آواخر عمره.

وتضرع فى الدعاء الثالث: «اللهمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِك أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِك، أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِك، أَوْ تَتابَعَ ۲۶۴] بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِى جَاءَ مِنْ عِنْدِك!».

تعوّذ الإمام عليه السلام باللّه فى هذا الدعاء من ثلاث معاصى ودواهى عظمى:

۱. أن ينسى الإنسان أوامر اللّه ونواهيه ويمرّ عليها غير مُبالٍ.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۷۳

۲. أن تتسلل وساوس الشيطان إلى قلب الإنسان فتصده عن الحقّ.

۳. أن تستولى أهواء النفس على الإنسان فتصده عن هدى اللّه.

يقيناً، لو استجيبت هذه الأدعية الثلاث التى تبتدأ ب (اللّهم) لنال الإنسان جميع خير الدنيا وسعادة الآخرة فما أحرانا أن نستحضر هذه الأدعية فإذا شعرنا بحالة الدعاء أقبلنا على اللّه وطلبنا منه ذلك.

أورد الإمام عليه السلام الكلام فى القسم الأوّل والثانى من هذا الدعاء، بصيغة المتكلّم؛ لكنّه ذكره فى القسم الأخير بصيغة المتكلّم مع الغير ليسأل اللّه صالحه وصالح جميع المسلمين.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۷۵

الخطبة ۲۱۶

اشارة

خَطَبَها بِصِفّينَ ۲۶۵]

نظرة إلى الخطبة

هـذه الخطبـة من خطب «نهج البلاغة» المهمّة التى أوردها الإمام عليه السـلام فى يوم صـفين، فاشـتملت على مباحث مهمّة تتمحور فى أربعة أقسام:

۱. الحقوق المتبادلة بين الوالى والرعية (الحاكم والشعب) تناول فيه القانون الكلى بشأن الحقوق فقال: الحق دائماً ذو حدين؛ فمن كان له حق على آخر فللآخر أيضاً حق عليه، وهذه مسألة مهمّة سنتعرض لها إن شاء اللّه.

۲. شـرح فى القسم الثانى حقوق الحاكم على الأمّـة وحقوق الامّـة على الحاكم وأكّـد هنا اسـتحالة صـلاح الامّة دون صـلاح الحاكم، والعكس، أى كلّ من هذين الأمرين يؤثر فى الآخر.

۳. القسم الثالث إجابة الإمام عليه السلام لأحد أصحابه حيث أثنى كثيراً على الإمام

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۷۶

وعبّر له عن وفائه التام، فتواضع الإمام للغاية فى الردّ عليه وصرّح له: بأننى لا استسيغ أىمدح وثناء فالعظمة للّهوحده.

۴. جرى الكلام فى القسم الرابع عن العلاقة الصـحيحة بين الحاكم والشـعب وأكّد على ضـرورة ابتعاد الحاكم عن التملق، والاسـتعداد لسماع النقد والمعارضة لينطلق المجتمع نحو الصلاح والسداد.

***

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۷۷

القسم الأوّل

اشارة

أَمَّا بَعْـدُ؛ فَقَـدْ جَعَـلَ اللّه سُـبْحَانَهُ لِى عَلَيْكُـمْ حَقّاً بِوِلَايَـةِ أَمْرِكُـمْ، وَلَكُـمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَـقِّ مِثْـلُ الَّذِى لِى عَلَيْكُمْ، فَالْحَقُّ أَوْسَـعُ الأَشْـيَاءِ فِى التَّوَاصُفِ، وَأَضْـيَقُهَا فِى التَّنَـاصُفِ، لَـا يَجْرِى لأَحَـدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَـا يَجْرِى عَلَيْه إِلَّا جَرَى لَهُ. وَلَوْ كَانَ لأَحَـدٍ أَنْ يَجْرِىَ لَهُ وَلَا يَجرِىَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذلِكَ خَالِصاً للّهسُـبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُـدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِى كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُـرُوفُ قَضَائِهِ، وَلكِنَّهُ سُـبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلًا مِنْهُ، وَتَوَسُّعاً بِما هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ.

الشرح والتفسير: سعة حجم الحقوق

دعا الإمام عليه السـلام فى مسـتهل هذه الخطبة جميع صحبه إلى أداء وظائفهم من خلال بيان حقّه على الامّة فقال: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ جَعَلَ اللّه سُبْحَانَهُ لِى عَلَيْكُم حَقًّا بِوِلَايَةِ أَمْرِكُم، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِى لِى عَلَيْكُمْ».

فقد أشار عليه السلام إلى قضية مهمّة فى باب الحكومة الإسلاميّة كانت تختلف فى الواقع عن جميع الحكومات آنذاك، فالحكومات المستبدة كانت ترى كلّ شـىء لها والرعية كالعبيد ما عليهم إلّاالطاعة العمياء وإن كان لها من شـىء فهو منه وبالتفضل وليس حقّاً من حقوقهم عليه، بينما يصـرّح الإمام عليه السـلام، بأنّ الحكومـة الإسـلاميّة حقوق متبادلة؛ حق الحاكم على الامّة وحق الامّة على الحاكم وكلاهما ثقيل وذو مسؤوليّة.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۷۸

ثم أشار إلى قاعـدة كليـة وشاملـة فى الثقافة الإسـلاميّة فقال: «فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْـيَاءِ فِى التَّوَاصُفِ ۲۶۶]، وَأَضْـيَقُهَا فِى التَّنَاصُفِ ۲۶۷]، لَايَجْرِى لِاحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ، وَلَا يَجْرِى عَلَيْه إِلَّا جَرَى لَهُ».

حيث أشار عليه السلام فى الواقع إلى أمرين:

الأوّل: أنّ الجميع عارفون بالحقّ وكل يتحدّث عنه ويتشدق به لحفظ مصالحه، بينما تراه فى غاية التشدد حين العمل لأداء حقوق الآخرين، وكأنّه يرى الحق أحادى الجانب.

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام فى الأمر الثانى إلى هذا الأمر الأساسى وهو ليس هنالك من حق أحادى الجانب فى أىمورد؛ فإن كان لأحد حق، كان عليه مثله؛ مثلًا، للأستاذ حق على تلميذه، كونه علمه ورباه، وللتلميذ قطعاً حق على أستاذه، فعليه أن لا يألو جهداً فى تعليمه وتربيته، كونه وضع فكره وعمره وشبابه تحت تصرفه، وإن كان للدائن حق على المدين فى ضرورة أداء الدين فى وقته، فإنّ للمدين حقّاً متبادلًا فى أن يمهل إن تعذر عليه التسديد فى الوقت المطلوب «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ»[۲۶۸].

وإن كان للرجال حقوق على النساء، فللنساء مثل ذلك على أزواجهنّ: «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ»[۲۶۹].

بل للأبناء عليهما حقوق كثيرة، كما أنّ للأبناء حقوقاً على الآباء والامهات، ومن أراد الوقوف على سعة الحقوق المتبادلة للناس على بعضهم فليراجع رسالة الحقوق

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۷۹

للإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السلام ۲۷۰]، حتى الحيوان له حق على الإنسان إن كان مملوكه ۲۷۱].

ثم أشار عليه السلام إلى حق اللّه على العباد حتى أنّ هذا الحق ليس أحادياً، وإن كانت عبارة حق العباد على اللّه ليست مناسبة من جوانب؛ إلّاأنّ هذا الحق يبدو بلباس التفضل: «وَلَوْ كَانَ لِاحَدٍ أنْ يَجْرِىَ لَهُ وَلَا يَجرِىَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذلِكَ خَالِصاً للّهسُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِى كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ».

فالكلام إشارة إلى أنّ قدرة اللّه تقتضى من جانب أن لا يترك عباده ويلطف بهم من جميع الجهات وتقتضى عدالته من جانب آخر أن لا يصيب الإنسان أدنى ظلم، سواء فى عالم التشريع أم عالم التكوين، وعليه فهنالك فارق بين اللّه وعباده؛ فلعل العباد يفرطون بحقوق الآخرين إثر عجزهم أو الحاجات التى تضطرهم لهجر العدالة، لكن كيف يرضى القادر المطلق والعادل على الاطلاق بضياع حقوق عباده؟! ومن هنا يمكن استثناء الحق المتبادل بشأن اللّه واقتصار الحقّ عليه.

ثمّ واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلًا: «وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلًا مِنْهُ، وَتَوَسُّعاً بِما هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ».

وبعبارة أخرى أنّ اللّه جعل لعباده حقّاً عليه إزاء حقّه عليهم، وإن كان هذا الحق تفضّل دون أن يكون لعباده دين عليه، كونهم لا يؤدون جزءاً من شكره مهما أطاعوه وعبدوه إزاء ما غمرهم به من نعم، ومن هنا لم يستثن حتى اللّه تعالى من هذا الأمر؛ أى كما له تعالى حق على العباد فهم كذلك لهم حق عليه، وإن كان هذا الحق من باب التفضّل، لا الاستحقاق.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۸۰

تأمّل: الثواب استحقاق أم تفضّل؟

ورد هذا البحث لدى علماء الكلام منذ القدم، هل الثواب الإلهى استحقاق أم تفضّل؟ بمعنى إن أطاع العباد أوامر اللّه فهل على اللّه إثابتهم، وإلّا كان ذلك قبيحاً عليه؟ أم ليس للعباد أىشىء على اللّه إن إمتثلوا أوامره وتركوا نواهيه، وإن أثابهم فمن باب اللطف والرحمة، وإلّا كان عين العدل؟

قال بعض المتكلمين الذين يميلون لمذهب الأشاعرة بالتفضّل بينما ذهب مذهب الاعتزال للقول بالاستحقاق.

يرى القائلون بالاستحقاق أنّ إلزام العباد بالطاعة يتضمن مشقّات، فإن كان الإلزام هدفاً فهو ظلم وقبيح ولا يصدر من الحكيم، وإن كان له هدف فليس ذلك الهدف سوى الثواب الجميل، وعليه إن لم يعط اللّه الثواب استلزم القبح المحال على اللّه، أمّا القائلون

بالتفضّل فيقولون: إنّ اللَّه غمرنا بالنعم لو فنينا أعمارنا فى طاعته لم نؤد شكر جزء من نعمه، وعليه فلا نستحق منه شيئاً ليلزم بإعطائه.

إلّا أنّ المذهبين كأنّهما غفلًا نقطةً الالتفات إليها يكشف النقاب عن هذه المسألة ويجلى الحق، وهى أنّ استحقاق الثواب حين يقدم أحد خدمة لآخر فيتوقع عليها الأجر والثواب، بعبارة أخرى، قال المذهبان بالثواب أو ما يشبهه على طاعة أوامر اللَّه؛ فالمذهب الأوّل يقول: إنّهم تلقوا أجرهم من قبل بصيغة نعم إلهية، والثانى يرى أنّهم لابدّ أن يحصلوا عليه لاحقاً.

والحال نعلم أنّ لجميع الأوامر والنواهى مصالح تعود لنفس المكلفين، فالصوم والصلاة والحج والجهاد سبب صفاء الروح وتكامل النفس والعزّة والرفعة وترك الذنب والغيبة والخمر والقمار ينقذهم من المفاسد والانحرافات، وعلى هذا الأساس فإنّ المكلفين إنّما يخدمون أنفسهم فى الطاعة وترك المعصية، فهل لهم أن يروا لأنفسهم أجراً على اللَّه إزاء خدمتهم لأنفسهم؟!

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۸۱

يبدو الأمر أشبه بالطبيب الرؤوف بمريضه فينصحه مجاناً ويزوده بالدواء فيلتزم بها المريض ويشفى من مرضه، فلو ذهب هذا المريض إلى الطبيب وطالبه بالأجر على طاعته لأوامره، ألا يتعجب منه الجميع ويضحكون عليه؟

وجميع الأوامر والنواهى كذلك، فالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله طبيب دوار بطبه وكل ما ذكره لصالح المكلفين، وعليه فلا مجال لبحث قضية ثواب الناس إزاء الطاعة سواءً استحقاقاً أم تفضلًا.

نعم كتب اللَّه على نفسه الثواب ووعد به بلطفه وكرمه وحثاً لعباده على طاعته التى توجب كما لهم واللَّه لا يخلف وعده لاستحاله خلف الوعد على الحكيم القادر والعالم، قال تعالى: «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»[۲۷۲].

وقال أيضاً: «إِنَّ اللَّه لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ»[۲۷۳].

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۸۳

القسم الثانى

اشارة

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْض، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْض. وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّه سُبْحَانَهُ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِالْفَتِهِمْ، وَعِزًّا لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوُلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ، فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَالِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الأَعْدَاءِ. وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الْادْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ الأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللَّه سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ.

الشرح والتفسير: حق الوالى والرعية

أشار الإمام عليه السلام فى المقطع السابق إلى حقّ اللَّه على الناس وتطرق هنا إلى حقّ الناس على بعضهم وأهمها حقّ الوالى على الامّة وحقّ الامّة على الوالى فقال: «ثُمَ

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۸۴

جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْض».

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام اعتبر حقّ الناس على بعضهم فرعاً من حقّ اللّه على الناس وناشئ من حقوقه، وبعبارة أخرى فإنّ حقّ اللّه وحق الناس ليسا فى عرض بعضهما، بل فى طول بعضهما.

ثم قال: «فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ[۲۷۴] فِى وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْض».

بعبارة أخرى لا حقّ أحادى الجانب من هـذه الحقوق، بل هى ثنائيـة جميعاً كما ورد فى القسم السابق، فإن كان لأحـد حقّ على الآخر كان هناك حق لـذلك الآخر عليه، وعليه فهـذه الحقوق متساوية ومتلازمة؛ ليس بمعنى إن لم يلتزم أحد بوظيفته كان على الآخر عدم الالتزام بها؛ مثلًا، لو لم يقم الولد بطاعة والده يتمرد الأب على تربيته وأداء نفقته، أو إن لم تعمل طائفة من الرعية بوظيفتها يقطع الوالى عنها الخدمات، بعبارة أخرى، أنّ هذه من قبيل اللازم والملزوم فى مقام الوجوب، لا فى مقام التحقق والعمل؛ أى كلاهما واجب، سواء عمل الطرف المقابل بوظيفته أم لا.

ولمزيـد من الإيضـاح إليـك هـذا المثـل، إن أدّت الرعيـة مـا عليها من ضـرائب وخراج سوف لن يتقاعس الوالى عن وظيفته فى توفير الأمن لهم وتعليم وتربية أولادهم ومعالجة مرضاهم وجرحاهم، لأنّ كلًا من هاتين الوظيفتين مسـتقلة وليست مشروطة بالاخرى فى مقام العمل، وإن تشابكتا كوجوبين فى مقام التشريع.

وقـال الإمـام عليه السـلام مواصـلًا كلامه: «وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُـبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقوقِ حَقُّ الْوَالِى عَلَى الرَّعِيَّةِ[۲۷۵]، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِى، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللّه سُبْحَانَهُ لِكُلٍ عَلَى كُلٍّ».

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۸۵

ثم خاض الإمام عليه السـلام فى فلسـفة هذين الحقّين فقال: «فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِالْفَتِهِمْ، وَعِزًّا لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوُلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ».

فرعاية هذه الحقوق لها فى الواقع آثار مادية مهمة ومعنوية فالعبارة «فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِالْفَتِهِمْ» إشارة لآثارها المادية والظاهرية والعبارة «عِزّاً لِدِينِهم» لآثارها المعنوية والروحية، وإلى هذه الحقيقة أشارت العبارتان بعدها إلى صـلاح الرعية والوالى وفسادهما تداخلًا مع بعضـهما ولكل منها أثره على الآخر، فالوالى الفاسد يسوق الرعية إلى الفساد والرعية الصالحة تضطر الوالى لقبول الحق والعدل، وإن صلحا معاً توفرت أفضل الظروف لرقى المجتمع وتطوره.

ثم خاض فى الآثار السـلبيّة لتقاعس الطرفين فى أداء الحقوق، بعبارة أوضـح وأبلغ عـدّد هـذه الآثار الواحـد تلو الآخر فقال: «فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِى حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِى إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّين، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَالِهَا[۲۷۶] السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذلِك الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِى بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الأَعْدَاءِ».

فقـد بيّن الإمام عليه السـلام هنا سـبعة آثار مهمّـة لأداء الحقوق المتبادلـة بين الوالى والرعية؛ أولها: العزّة والاقتدار، وثانيها: قيام مناهج الدين وضـعف البدع، وثالثها: ارتفاع راية العدل فى البلاد الإسـلاميّة، ورابعها: إحياء السـنّة، وخامسها: كنتيجة لما سبق، صلاح الوسط الاجتماعى، وسادسـها: الطمع فى بقاء الحكومـة ودوامها، وسابعها: يأس الأعداء، وقد اتضح هذا الأمر على عهد النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله حيث كان أعظم مؤد لحقوق الأمّة وكانت أغلبيتها الساحقة تؤدى حق الطاعة فبدت واضحة تلك الآثار السبعة.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۸۶

وأمّا فى عهـد أمير المؤمنين عليه السـلام وإن احييت السـنن الإسـلاميّة والعـدل والقسط إلى حد معين، غير أنّ الانحرافات التى حدثت عقب وفـاة النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله طيلـة ۳۵ سـنة الواحـد تلو الآـخر والتى أدت فى الختام إلى الخروج على حكومـة عثمان، وبالتـالى قتله، جعلت من المتعـذر إعـادة المسيرة لمـا كانت عليه خلال المـدّة القليلـة لحكومـة الإمام على عليه السـلام وبقاء العناصـر الخطيرة من الحكومـات السابقـة كمعاويـة وبنى أميـة وبنى مروان، الحقيقـة التى يعترف بهـا كـلّ من تمعن بهـذه الحقيقـة من التاريخ

الإسلامى دون تعصب وباستطاعة المسلمين اليوم الظفر بعزتهم واقتدارهم بالاستلهام من كلمات الإمام عليه السلام وانسجام الولاة والرعايا والحكام والشعوب.

ثم تناول الإمام عليه السلام الآثار السيئة لتقاعس الوالى والرعية عن حقوق بعضها البعض وقال: «وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ ٢٧٧] الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الْادْغَالُ ٢٧٨] فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُ ٢٧٩] السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ».

فبيّن الإمام عليه السلام أيضاً سبع مفاسد لعدم الانسجام بين الحاكم والشعب والذى لمسناه كراراً فى حكومات الجور؛ اختلاف الكلمة، الظلم والجور، البدعة والخداع، ترك المنهاج الواضح، العمل بالأهواء والاستبداد، ثم تطرق اثر ذلك إلى النتيجة النهائية لهذه الأوضاع المؤسفة فقال: «فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ الأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللَّه سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ».

فهذه الأمور الخمسة نتيجة مباشرة وغير مباشرة لحكومات الجور، فالناس فى ظلّ هذه البيئة يعتادون على إبطال الحقوق ولا يكترثون لرواج الباطل فتصبح هذه

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۸۷

الأمور قضايا عادية لمسنا نماذجها طيلة التاريخ وفى عصرنا، فمن الطبيعى أن لا يشق طريقه صوت الأخيار والأطهار الذين يتبنّون الحق ويناهضون الباطل وينحّون من الميدان، وبالعكس تكون المناصب الحساسة بيد الأشرار والملوّثين المسايرين لذلك الجو، الأمر الذى حدث على عهد حكومة الخليفة الثالث؛ فنفى أبوذر وتسلّط مروان وواصل أمثال معاوية ذلك الطريق فقتل من على شاكلة عمار حتى بلغ الأمر يزيد وابن زياد فقتلا أطهر نسل النّبى صلى الله عليه و آله وصحبه.

ومن البديهى أن يمسك اللَّه لطفه فى هذه الظروف عن الرعية وواليها ويؤاخذهم بتبعات أعمالهم.

***

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۱۸۹

القسم الثالث

اشارة

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنِ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللَّه حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا اللَّه سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّه عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَلَيْسَ امْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ اللَّه مِنْ حَقِّهِ. وَلَا امْرُؤٌ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَاقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ.

الشرح والتفسير: ضرورة التعاون فى أداء الحقوق

دعا الإمام عليه السلام هنا الجميع بما فيهم الوالى والرعية لما فرغ من الوصية بشأن حق الوالى والرعية بالتعاون مع بعض، ثم أشار إلى ثلاثة أمور اجتماعية مهمّة فقال فى القسم الأوّل: «فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ».

ثم اتّجه صوب الأمور الثلاثة المهمّة فقال بادئ الأمر- بغية عدم اغترار الأفراد وأن لايظنّوا أنّهم أتوا بوظيفتهم بهذا الخصوص بأحسن

وجه ويتوقفوا بالنتيجة عن الحركة- «فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِن اشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللَّه حِرْصُهُ، وَطَالَ فِى الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا اللَّه سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّه عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ».

وهذا أصل كلّى أنّ الإنسان إن رضى تماماً عن عمله ولم ير فيه نقصاً وخللًا،

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۹۰

كفّ عن الحركة وتعثرت مسيرته نحو الكمال، والأمر كذلك فليس للسمو والتكامل وجلب رضى اللَّه من حدود ليقنع بها الإنسان، فلابدّ من الاعتراف بالتقصير دائماً وبذل الجهد على الدوام، وعليه فليس هنالك من يستغنى عن وعظ الآخرين، لأنّ النقص والتقصير يبدو أظهر للآخرين، بينما يحول حبّ الذات دون رؤيته.

ورد فى حيث مفصّل عن الزهرى، قال: «دخلت مع على بن الحسين عليهما السلام على عبدالملك بن مروان قال: فاستعظم عبدالملك ما رأى من أثر السجود بين عينى على بن الحسين عليه السلام فقال: ياأبا محمّد لقد بيّن عليك الاجتهاد، ولقد سبق لك من اللَّه الحسنى وأنت بضعة من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قريب النسب وكيد السبب ... وأقبل يثنى عليه ويطريه، قال: فقال على بن الحسين عليه السلام: كلّ ما ذكرته ووصفته من فضل اللَّه سبحانه وتأييده وتوفيقه فأين شكره على ما أنعم ...؟ كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقف فى الصلاة حتى تورم قدماه، ويظمأ فى الصيام حتى يعصب فوه، فقيل له: يا رسول اللَّه! ألم يغفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول صلى الله عليه و آله: أفلا أكون عبداً شكوراً ..

واللَّه لو تقطّعت أعضائى وسالت مقلتاى على صدرى لن أقوم للَّهجلّ جلاله بشكر عشر العشر من نعمة واحدة من جميع نعمه التى لا يحصيها العادّون، ولا يبلغ حدّ نعمة منها فى جميع حمد الحامدين»[۲۸۰].

ثم قال فى بيان ذانک الأمرين: «وَلَيْسَ امْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِى الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِى الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ اللَّه مِنْ حَقِّهِ. وَلَا امْرُؤٌ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَاقْتَحَمَتْهُ ۲۸۱] الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذلِك أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ».

إشارة إلى ضرورة إدراك الجميع لهذه الحقيقة أن ليس أحد من الأقوياء ولا الضعفاء فى المجتمع غنى عن الآخر، فاللَّه لم يودع شخصاً كلّ شىء، فقد جعل فى

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۱۹۱

كلّ رأس فكراً وفى كل بدن قوّة وقدرة؛ صغيراً كان أم كبيراً، وعليه فليس لمن كان مقتدراً من حيث الفكر والإدارة والقوة البدنية أن يرى نفسه غنيّاً عن عون أضعف أفراد المجتمع، كما لا ينبغى للأفراد الضعفاء والعاجزين ظاهرياً أن يتصوروا أنّهم ليس لهم دور فى إدارة شؤون المجتمع.

روى عن الإمام الرضا عليه السلام أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «غَريبان: كَلِمَةُ حِكْمَةٍ مِنْ سَفيهٍ فَاقْبَلُوها وَكَلِمَةُ سَفَهٍ مِنْ حَكيم فَاغْفِرُوها فَإِنَّهُ لا حَكيمَ إلّاذُو عَثْرَةٍ وَلا سَفيهَ إلّاذُو تَجرِبَةٍ»[۲۸۲].

والتاريخ يحتفظ فى ذاكرته بالعديد من مثل هذه الحوادث منها ماورد فى المعتصم:

لما خرج ملك الروم، وفعل فى بلاد الإسلام ما فعل بلغ الخبر المعتصم فاستعظمه وكبر لديه، وبلغه أنّ امرأةً هاشميّة صاحت وهى اسيرة فى أيدى الروم: وامعتصماه، فأجبها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك، ونهض من ساعته وصاح فى قصره:

النفير النفير، وبلغه أنّ عمورية عين النصرانية وأشرف عندهم من القسطنطنية، فتجهز بما لم يعهد من السلاح وحياض الأدم وغير ذلك، وفرّق عساكر ثلاث فرق، فخربوا البلاد الروم وقتلوا كثيراً وأحرقوا ووصلوا إلى فانورية، ثم اجتمعوا فى عمورية وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وكانت فى غاية الحصانة.

وقد ذكر الشيخ محيى الدين بن العربى فى كتابه المسمى بالمسامرة فتح عمورية فقال: فتحها المعتصم فى رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وسبب فتحها أن رجلًا وقف على المعتصم فقال: يا أميرالمؤمنين كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء أسيرة قد لطمها علج

على وجهها، فنادت: وامعتصماه، فقال العلج: وما يقدر عليه المعتصم يجىء على أبلق ينصرك! وزاد فى ضربها، فقال المعتصم: وفى

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۱۹۲

أىّ جهة عمورية، فقال له: الرجل هكذا، وأشار إلى جهتها، فردّ المعتصم وجهه إليها، وقال: لبيك أيتها الجارية، لبيك هذا المعتصم باللّه أجابك، ثمّ تجهز إليها فى اثنى عشر ألف فرس أبلق وفى هذه التلبية يقول له فى قصيدة أبوتمام حبيب الطائى:

لَبيتُ صَوتاً رَطيباً قَد هَرقت لَه كأس الكَرى وَرضاب الحَردِ العرب

فلما حاصرها وطال مقامه عليها، جمع المنجّمين، فقالوا له: إنا نرى أنّك ماتفتحها إلّافى زمان نضج العنب والتين، فبعد عليه ذلك واغتمّ لذلك، فخرج ليلةً متجسّساً فى العسكر يسمع ما يقول الناس، فمرّ بخيمة حدّاد يضرب نعال الخيل، وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة بضرب نعال الخيل ويقول: فى رأس المعتصم، فقال له معلمه: اتركنا من هذا، مالك والمعتصم فقال: ما عنده تدبير، له كذا وكذا يوماً على هذه المدينة على قوّته ولايفتحها، لو أعطانى الأمر ما بتّ غداً إلا فيها، فتعجّب المعتصم ممّا سمع وانصرف إلى خيامه وترك بعض رجاله موكّلًا بالغلام، فلمّا أصبح جاءوا به فقال: ما حملك ياهذا على ما بلغنى عنك؟

فقال: الذى بلغك حقّ، ولكن ماوراء خبائك، وقد فتح اللّه عمورية فقال: قد ولّيتك، وخلع عليه وقدّمه على الحرب، فجمع الرماة، واختار منهم أهل الإصابة وجاء إلى بدن من أبدان الصور وفى البدن من أوّله إلى آخره خطّ أسود من خشب، عرضه ثلاثة أشبار أو أكثر، فحمى السهام بالنار وقال للرماة: من أخطأ منكم ذلك الخطّ الأسود ضربت عنقه، وإذا بذلك الخطّ خشب ساج، فعند ما حصلت فيه السهام المحميّة قامت النار فيه واحترق، فنزل البدن كما هو، وتحامى الرجال، ودخل البلد بالسيف، وذلك قبل الزمان الذى ذكره المنجّمون، وفى ذلك يقول أبوتمام حبيب الطائى فى قصيدته التى امتدح بها المعتصم عند فتح عمورية:

السَّيفُ أَصدقُ أَنباءً مِنَ الكُتُبِفِى حَدّهِ الحَدُّ بَينَ الجدِّ وَاللعبِ

بِيضُ الصَّفائحِ لا سُودُ الصَّحائِفِ فِىمُتونهِنّ جِلاءُ الشكِّ والرّيبِ ۲۸۳]

تأمّل: الحكومات الشعبية

كثر الكلام فى عالمنا المعاصر عن الحكومات الجماهيرية؛ لكنها غالباً ما تنتهى إلى دكتاتوريات مرئية وغير مرئية تقتصر على حفظ مصالح الأقوياء والغاصبين، كونها تفتقر إلى العنصر المعنوى والورع السياسى.

وقلنا غير مرئية، كون الطغاة يستعينون بالوسائل الاجتماعية المتطورة وأبواق الدعاية فى غسل أدمغة الجماهير ويصادرون آراءَهم بوعودهم المعسولة، والنموذج الواضح فى عصرنا: الديمقراطية الأمريكية

أضف إلى ذلك فإنّ آراء هذه الحكومات فى أفضل صورة حكومة النصف زائد واحد ونتيجة ذلك الاصطفاف بين الطبقة الحاكمة والنصف ناقص واحد، وقد رأينا فى عصرنا مراراً الحكومات التى تتسلم الحكم من خلال آراء الشعب وحيث لم يعملوا لصالح الجبابرة فقد سعوا بشتى الوسائل لإسقاطهم، فنجحوا فى أغلب الحالات، وكلّ ذلك كونهم يفتقرون فى حكومتهم المادية للغاية للشرط الأساس المتمثل بالعنصر الروحى، وعدم شعورهم بالمسؤولية أمام اللّه.

وما ورد فى كلام الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة يشير إلى سيادة الشعب بأحسن صورها، فقد تطرق بادئ الأمر إلى العنصر المعنوى للحكومة وذكّر الجميع أنّكم تغرقون بنعم اللّه بحيث لا يسعكم شكر عشر أعشارها مهما اجتهدتم فى طاعته ثم يوصى الحكام أنّكم لا تستغنون عن مساعدة كلّ فرد فى المجتمع

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۱۹۴

مهما بلغتم من القوّة والعلم والتجربة والفطنة، فلابدّ لكم من إشراك الجميع والاستعانة بهم.

ثمّ ذكّر الجماهير بعدم اعتزال المساهمة فى إدارة شؤون المجتمع كيفما كانت أعمارهم ومستوى علومهم، فلابدّ من تضافر الجهود والتركيز على عنصر التقوى فى تشكيل الحكومة المرضية للّهوالمجتمع ۲۸۴].

نفحات الولايهٔ، ج۸، ص: ۱۹۵

القسم الرابع

اشارهٔ

فَأجابَهُ عليه السلام رَجُلٌ مِنْ أصْحابِهِ بِكَلام طَويلٍ، يُكْثِرُ فيهِ الثَّناءَ عَلَيْهِ، وَيَذْكُرُ سَمْعَهُ وَطاعَتَهُ لَهُ؛ فَقالَ عليه السلام:

إنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلَالُ اللَّه سُبْحَانَهُ فِى نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ لِعِظَم ذلِك كُلُّ مَاسِوَاهُ، وَإنَّ أحَقَّ مَنْ كَانَ كَذلِك لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّه عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إحْسَانُهُ إلَيْهِ، فَإنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللَّه عَلَى أحَدٍ إلّا ازْدَادَ حَقُّ اللَّه عَلَيْهِ عِظَماً. وَ إنَّ مِنْ أسْخَفِ حَالاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أمْرُهُمْ عَلَى الْكِبْرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أنْ يَكُونَ جَالَ فِى ظَنِّكُمْ أنِّى أُحِبُّ الْاطْرَاءَ، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّه كَذلِك، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أنْ يُقَالَ ذلِك لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطاً للّهسُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ. وَرُبَّما اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِاخْرَاجِى نَفْسِى إلَى اللَّه سُبْحَانَهُ وَإلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِى حُقُوق لَمْ أفْرُغْ مِنْ أدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَابُدَّ مِنْ إمْضَائِهَا.

الشرح والتفسير: الشكر على الواجب

لما بلغ الإمام عليه السلام العبارة الأخيرة من القسم السابق «فَأَجابَهُ عليه السلام رَجُلٌ مِنْ أصْحابِهِ بِكَلام طَويل، يُكْثِرُ فيهِ الثَّناءَ عَلَيْهِ، وَيَذْكُرُ سَمْعَهُ وَطاعَتَهُ لَهُ؛ فَقالَ عليه السلام:».

لم يذكر شرّاح نهج البلاغة من كان ذلك الشخص، إلّاأنّ المرحوم الكلينى ذكر فى «الكافى» كلاماً طويلًا بين أميرالمؤمنين عليه السلام وذلك الرجل، ثم قال: ولم يشاهد

نفحات الولايهٔ، ج۸، ص: ۱۹۶

أحد ذلك الرجل بعد ذلك الكلام ۲۸۵].

ومن هنا احتمل المرحوم الكلينى أنّ ذلك الرجل هو الخضر عليه السلام الذى كان يرد فى بعض المواقع الحساسة على الإمام عليه السلام فيؤدى وظيفته ثم يختفى عن العيون:

على كلّ حال حسب رواية «الكافى» فإن ذلك الرجل قال:

«أنت أميرنا ونحن رعيّتك، بك أخرجنا اللّه عزّ وجلّ من الذلّ وإعزازك أطلق عباده من الغل، فاختر علينا وأمض اختيارك وائتمر فأمض ائتمارك فإنّك القائل المصدّق والحاكم الموفّق والملك المخوّل لا نستحلّ فى شيء معصيتك ولا نقيس علماً بعلمك، يعظم عندنا فى ذلك خطرك ويجلّ عنه فى أنفسنا فضلك».

فردّ عليه الإمام عليه السلام فأستانف مدحه وثناءه وتكررت هذه القضية مراراً ثم اختفى الرجل ۲۸۶].

على كلّ حال ما ورد فى «نهج البلاغة» أنّ الإمام عليه السلام أجابه: «إنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلَالُ اللَّه سُبْحَانَهُ فِى نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ لِعِظَمِ ذلِك كُلُّ مَاسِوَاهُ».

يبدو واضحاً تماماً هذا المعنى من خلال الالتفات إلى أنّ ذات اللّه وجود مطلق منجهة ولا متناهى من حيث العلم والقدرة وكل ما سوى اللّه، قطرة إزاء بحر عظيم متلاطم، كما ورد ذلك فى خطبة همام فى صفات المتقين: «عَظُمَ الْخالِقُ فى أنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ ما دُونَهُ فى

أعْيُنِهِم». فمن تطلع لقرص الشمس كان ضوء الشمعة لا شيء بنظره.

ثم أضاف عليه السلام: «وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذلِك لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّه عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللَّه عَلَى أَحَد إِلّا ازْدَادَ حَقُّ اللَّه عَلَيْهِ عِظَماً». هذا الكلام فى الواقع جواب على مديح ذلك الرجل المحبّ للمولى عليه السلام، أى لا تظن أنّ

نفحات الولاية، ج‌٨، ص: ١٩٧

كلامك يسوقنى للكبر والغرور، فأولًا: أنا عرفت اللَّه بعظمته وما سواه صغير حقير بنظرى. وثانياً: أنا مشمول بنعم جمّة وعلىَّ أن أخضع أكثر من الآخرين لولى نعمتى.

وقال مكملًا ومؤكداً هذا الكلام: «وَ إِنَّ مِنْ أَسْخَفِ ٢٨٧] حَالاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبْرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْاطْرَاءَ[٢٨٨]، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللَّه كَذلِك».

صحيح أنّه طبق بعض الاحتمالات كان ذلك المادح هو الخضر عليه السلام ولم ينطق سوى بالحق وما أورده كان فى الإمام، بل أكثر من ذلك، إلّاأنّ الإمام أشار إلى أمر ضرورى وهو أننى لا استحسن حتى الثناء بالحق فلعله يخلق انطباعاً لدى السامع فيظن أنّه يحب هذا الكلام ويتصف بالكبر والفخر والعجب الذى يؤثر سلباً على علاقة الإمام بالامّة.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذِلِك لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطاً للَّهسُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ».

«وَرُبَّما اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِاِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللَّه سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِى حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَابُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا».

ورد فى النسخة الموجودة فى المتن المذكور «وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ» إشارة إلى تقوى الإمام عليه السلام وخشيته فى أداء حقوق الناس، بينما ورد فى بعض نسخ «نهج البلاغة» ومتن «الكافى» «بقية» ومعنى ذلك، ما زالت لكم علىَّ بقية حقوق لابدّ أن أجدّ فى أدائها، فقد أبان الإمام عليه السلام فى هذه العبارة غاية رفعته، حيث بيّن عدم إكتراثه بالمدح والثناء من جانب ومنتهى خضوعه للّهمن جانب آخر وبالتالى اعترافه بعدم أداء الحقوق بصورة كاملة، الأمر الذى قلّما نجده فى زعيم طيلة التاريخ.

نفحات الولاية، ج‌٨، ص: ١٩٨

تأمّلان

١. المدح والثناء

مدح الآخرين والثناء عليهم على نوعين؛ نوع ايجابى وبنّاء وسبب حركة الخدام ويأس الخونة ورقى المجتمع، والآخر مدعاة للخراب والتخلف وتقوية شوكة الظلمة، وللنوع الأوّل ثلاثة شروط: الأوّل، مدح من يستحق المدح، الثانى، عدم خروج المدح عن حده، والثالث، ألا يكون هدف المادح التقرب إلى الممدوح وتحقيق الاطماع.

قال النّبى صلى الله عليه و آله: «إذا مُدِحَ الْفاجِرُ اهْتَزَّ الْعَرْشُ وَغَضِبَ الرَّبُّ»[٢٨٩].

وورد فى حديث آخر: «الثَّناءُ بِأَكْثَرَ مِنَ الْاسْتِحْقاقِ مَلَقٌ وَالتَّقْصيرُ عَنِ الْاسْتِحْقاقِ عَيٌّ أَوْ حَسَدٌ»[٢٩٠].

ولا ينبغى الغفلة عن هذا الأمر فى ضرورة الأخذ بنظر الاعتبار قابلية الممدوح؛ حذراً من أن يدعوه المدح للغرور ويحرفه عن الحق، كما ورد فى قصار كلمات الإمام على عليه السلام: «رُبَّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فيهِ»[٢٩١].

لا شك فى أنّ كلّ هذه الأمور مع أخذها بنظر الاعتبار فإن المدح والثناء دلالة على التقدير ومعرفة الحق ومدعاة لتشجيع الأخيار والصالحين.

وتعقد اليوم العديد من التجمعات لتكريم المهرة من خدمة المجتمع والعلماء الأعلام وأصحاب الكفاءات العالية وتقدّم لهم الجوائز تقديراً لجهودهم مثلًا، للكتاب جراء أفضل كتاب للسنة والعمال والفلاحين النموذجيين ورسائل السلام والصداقة فى العالم وتكريمهم وتقديرهم، والتى تلعب دوراً بناءاً إن لم تكتسب صبغة سياسية وتقدم الروابط على الضوابط وحفظ الشرط الثالث المذكور فى حسن نية المشرفين.

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۱۹۹

إلّا أنّ النوع الثانى يناقضه تماماً؛ أى إذا مُدحَ الأشرار وغير المستحقين وأثنى عليهم أكثر من الحد وكانت دوافع ذلك العوامل السياسية والحبّ والبغض الشخصى تشجّع الطالحون ويئسَ الفضلاء والخيرون، فينفرد المتملقون فى الميدان والمجتمع ويتقوقع الصادقون المخلصون.

قال على عليه السلام: «إيّاك وَالْمَلَقُ فَإنَّ الْمَلَقَ لَيسَ مِنْ خَلائِقِ الايمانِ»[۲۹۲].

وقال النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «أُحْثُوا فى وُجُوهِ الْمُدّاحينَ التُّراب»[۲۹۳].

والنقطة الأخيرة فى هذه الرسالة ونرى من الضرورى ذكرها أنّ للمدح أحياناً جانباً إيجابياً ويتصف بالشروط المذكورة، لكنه يخلق حالة شاذة لدى الرأى العام ويتهم الممدوح بحب المادح وهذا ما ينبغى أيضاً الابتعاد عنه، وأكثر ما ورد فى هذه الخطبة من هذا القبيل.

۲. ألسنة التملق

التملق كما قيل، المدح والثناء الذى يتجاوز الحدود والكلام الجُزاف فى فضائل الأفراد للتقرب منهم والاستفادة من منافعهم المادية، حتى ذكر الصفات الحقيقية لشخص دون الإشارة إلى نقاط ضعفه يعدّ نوعاً من التملق، وأبعد من ذلك ما يفعله بعض المتملقين ممّن جعل نقاط الضعف كنقاط القوّة والتملق عادة لأرباب القدرة والجاه والذى يعتبر من أعظم المخاطر التى تهدد الولاة والحكام والمدراء، لأن أول شرائط الإدارة المعرفة بالحقائق المتعلقة بحيز الإدارة والمتملقون يغطون الحقائق ويخفونها عن انظار المدراء والمسؤولين فيخلق ما لا يحصى من المفاسد.

والعجيب أنّ الزعماء الضالين غير المؤهلين غالباً ما يشجعون المتملقين ويمتعظون من قول الحق ويشعرون بالهدوء الكاذب من تملق المتملقين.

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۲۰۰

وقد عدّ الإمام عليه السلام التملق من أسوأ الأمراض أو مرض لا علاج له «أدوى الداء الصلف»[۲۹۴] واحد معانى الصلف التملق والآخر مدح الذات.

وقال فى موضع آخر: «إنَّما يُحِبُّك مَنْ لا يَتَمَلَّقُك»[۲۹۵].

وقال: «لَيْسَ الْمَلَقُ مِنْ خُلُقِ الأَنْبِياءِ»[۲۹۶].

ولا ينبغى أن ننسى أنّ التملق يتم تارة بصورة مباشرة وأخرى غير مباشرة أو عن طريق النثر أو الشعر أو العمل وكل آثاره السيئة متساوية.

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۲۰۱

القسم الخامس

اشارة

فَلَا تُكَلِّمُونِی بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّی بِمَا یُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَة، وَلَا تُخَالِطُونِی بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِیَ اسْتِثْقَالًا فِی حَقٍّ قِیلَ لِی، وَلَا الِتمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِی، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ یُقَالَ لَهُ أَو الْعَدْلَ أَنْ یُعْرَضَ عَلَیْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَیْهِ. فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَهٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَهٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّی لَسْتُ فی نَفْسِی بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِیء، وَلَا آمَنُ ذلِک مِنْ فِعْلِی، إِلَّا أَنْ یَكْفِیَ اللَّه مِنْ نَفْسِی مَا هُوَ أَمْلَکُ بِهِ مِنِّی، فَإِنَّما أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِیدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَیْرُهُ؛ یَمْلِک مِنّا مَا لَا نَمْلِک مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِیهِ إِلَی مَا صَلَحَنا عَلَیْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَهِ بِالْهُدَی، وَأَعْطَانَا الْبَصِیرَهَ بَعْدَ الْعَمَی.

الشرح والتفسیر: لا تتملقوا أمامی

جانب مهم من هذه الخطبة- كما أشرنا- فی بیان حقوق الوالی والرعیة وقد غیر الإمام علیه السلام مسار الخطبة بعد أن أثنی علیه أحد الحاضرین إلی جانب خاص من حقوق الوالی والرعیة وهو ترک المدح والثناء علی الولاة والحکّام.

ثم خاض هنا آخر الخطبة فی آفة أخری من آفات الحکّام والناس فی أنّ إرتباطهم ببعضهم علاقة تملّق وكتمان الحقائق المریرة لصعوبتها وترک النقد الصائب والبناء فقال: «فَلَا تُكَلِّمُونِی بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّی بِمَا یُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ[۲۹۷]، وَلَا تُخَالِطُونِی بِالْمُصَانَعَةِ».

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۲۰۲

إشارة إلی أنّ العادیین من الأفراد حین یقفون بین یدی الجبابرة یخفون شخصیتهم الحقیقیة ویتحفظون عن كلّ نقد وشكوی واعتراض حذراً من أن یغضبوا علیهم، ویسعون بالعكس إلی الأمن من شرّهم بالمدح والثناء والتملق، ومن هنا فلا تتضح لهم قط الحوادث الحقیقیة فی المجتمع فیغطون فی وادی الضلالة والجهل.

یطمئن الإمام علیه السلام كلّ مخاطبیه بضرورة بثّ ما لدیهم من شكوی ومشكلة فهم أحرار فی ما یقولون بشأن الحكومة والمجتمع.

نعم فهذه إحدی الفوارق البارزة بین حكام العدل والجور، ورد فی «العقد الفرید»: وقام رجل إلی هارون الرشید، وهو یخطب بمكة، فقال: «كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّه أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ»[۲۹۸]. فأمر به فضرب مائة سوط، فكان یئن اللیل كله ویقول:

الموت! الموت! فأخبر هارون أنّه رجل صالح، فأرسل إلیه واستحلّه فأحلّه ۲۹۹].

وجاء فی نفس هذا الكتاب أیضاً: جلس الولید بن عبدالملک علی المنبر یوم الجمعة حتی اصفرت الشمس، فقام إلیه رجل فقال: ...، إنّ الوقت لا ینتظرک، وإنّ الربّ لا یعذرک، قال: صدقت: ومن قال مثل مقالتک، فلا ینبغی له أن یقوم مثل مقامک، من هاهنا من أقرب الحرس یقوم إلیه فیضرب عنقه ۳۰۰].

بینما رأینا مراراً فی سیرة أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّ عدداً من المنافقین تفوهوا بأسوأ الكلمات بحضرته كالأشعث بن قیس وبعض الخوارج، فلم یتعرّض لهم قط.

ثم قال مواصلًا ذلک الكلام: «وَلَا تَظُنُّوا بِیَ اسْتِثْقَالًا فِی حَقٍّ قِیلَ لِی، وَلَا الِتمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِی، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ یُقَالَ لَهُ أَو الْعَدْلَ أَنْ یُعْرَضَ عَلَیْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَیْهِ».

إشارة إلی أنّ الذین لا یطیقون سماع الانتقاد أعجز عن ممارسة الإصلاح، ومن هنا یوغلون كلّ یوم فی مزید من الظلم والفساد، وشجع الإمام علیه السلام فی تأكید هذا

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۲۰۳

الكلام جمیع مخاطبیه ببیان الحق صراحة وذكر المشاكل الفردیة والاجتماعیة والتأكید علی العدالة الاجتماعیة فقال: «فَلَا تَكُفُّوا عَنْ

مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْل، فَإِنِّی لَسْتُ فی نَفْسِی بِفَوْقِ أَنْ أَخْطِیءَ، وَلَا آمَنُ ذلِک مِنْ فِعْلِی، إِلَّا أَنْ یَکْفِیَ اللَّه مِنْ نَفْسِی مَا هُوَ أَمْلَکَ بِهِ مِنِّی».

الجملهٔ «فَإِنِّی لَسْتُ فی نَفْسِی بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِیءَ» کانت مبرّراً لبعض مخالفی عصمهٔ الأئمّهٔ وأکثروا الضجیج بشأنها، بینما العبارهٔ «إِلَّا أَنْ یَکْفِیَ اللَّه مِنْ نَفْسِی» تفسرها بصراحهٔ، فمفهوم العبارهٔ الاولی أنّی کإنسان لا آمن الخطأ، ومفهوم العبارهٔ الثانیهٔ لی وضع آخر فی ظل رعایهٔ اللَّه، شبیه ما أورده القرآن بشأن النّبی یوسف علیه السلام: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أن رَّأی بُرْهَانَ رَبِّهِ»[۳۰۱].

إشارهٔ إلی أنّ یوسف علیه السلام کإنسان یخشی علیه أن یتلوث بأهواء امرأهٔ العزیز، إلّا أنّ مشاهدهٔ برهان الربّ الذی یشیر إلی مقام وعصمهٔ یوسف ومعرفته الرفیعه باللَّه، حفظته من ذلک.

أضف إلی ذلک فإنّ الإمام علیه السلام فی مقام تربیهٔ وتعلیم أصحابه فیرشدهم إلی احتمال الخطأ علی أنفسهم مهما کانوا؛ لکنّه یضع نفسه فی زمرتهم تواضعاً، علی کلّ حال لا ینبغی التذرع بهذه العبارهٔ إزاء کلّ الأدلهٔ علی عصمهٔ النّبی والإمام.

قال النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله: «ما مِنْکُمْ مِنْ أَحدٍ إلّاوَلَهُ شَیْطانٌ. قیل: ولا أنت یا رسول اللَّه؟ قال: وَلا أَنَا إلّاأنَّ اللَّه تعالی أعانَنی عَلَیْهِ فَأَسْلَمَ»[۳۰۲].

والشاهد البلیغ الآخر علی ما قلنا ما أورده الإمام علیه السلام أواخر الخطبهٔ ۹۷: «وَإِنّی لَعَلی بَیِّنَهٍ مِنْ رَبّی وَمِنْهاجٍ مِنْ نَبِیّی وَإِنّی لَعَلَی الطَّرِیقِ الْواضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً».

وعلی هذا الضوء فالإمام علیه السلام یؤید أنّه سائر علی الصواب دائماً بلطف اللَّه ولا سبیل للخطأ إلیه.

نفحات الولایهٔ، ج۸ ص: ۲۰۴

ثم قال فی إکمال وتأیید الکلام المذکور: «فَإِنَّما أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِیدٌ مَمْلُوکُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَیْرُهُ؛ یَمْلِک مِنَّا مَا لَا نَمْلِکُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا کُنَّا فِیهِ إِلَی مَا صَلَحَنَا عَلَیْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَهِ بِالْهُدَی، وَأَعْطَانَا الْبَصِیرَهَ بَعْدَ الْعَمَی».

وکما ذکر فإنّ روایهٔ فی «الکافی» حیث وردت هذه الخطبهٔ أطول ممّا ورد فی «نهج البلاغهٔ»، والسید الرضی اقتطف فی الواقع جوانب من الخطبهٔ.

ونقرأ فی روایهٔ «الکافی» قسماً آخر من هذه الخطبهٔ:

«یقال: لم یر الرجل بعد کلامه هذا لأمیرالمؤمنین، فأجابه وقد عال الذی فی صدره فقال والبکاء یقطع منطقه وغصص الشجا تکسر صوته إعظاماً لخطر مرزئته ووحشهٔ من کون فجیعته.

فحمد اللَّه وأثنی علیه، ثم شکا إلیه هول ما أشفی علیه من الخطر العظیم والذل الطویل فی فساد زمانه وانقلاب جدّه وانقطاع ما کان من دولته ثم نصب المسألهٔ إلی اللَّه عزّ وجلّ بالامتنان علیه والمدافعهٔ عنه بالتفجع وحسن الثناء، فقال: یا ربّانیّ العباد ویا سکن البلاد أین یقع قولنا من فضلک وأین یبلغ وصفنا من فعلک أنّی نبلغ حقیقهٔ حسن ثنائک أو نحصی جمیل بلائک فکیف وبک جرت نعم اللَّه علینا وعلی یدک اتّصلت أسباب الخیر إلینا، ألم نکن لذلّ الذلیل ملاذاً وللعصاهٔ الکفّار إخواناً فبمن إلّابأهل بیتک وبک أخرجنا اللَّه عزّ وجلّ من فظاعهٔ تلک الخطرات، أو بمن فرج عنّا غمرات الکربات ...»[۳۰۳].

نفحات الولایهٔ، ج۸ ص: ۲۰۵

الخطبهٔ ۲۱۷

اشارهٔ

فِی التَّظَلّمِ وَالتَّشَکّی مِنْ قُرَیْش ۳۰۴]

نظرة إلی الخطبة

کما قیل فی سند الخطبة فإنّ هذه الخطبة والخطبة ۱۷۲ والخطبة ۲۶ تشترک مع بعضها فی أقسام مختلفة وتبدو أنّها رسالة کتبها الإمام علیه السلام أواخر حکومته فی الردّ علی طائفة من أصحابه، فقد أصرت طائفة علی الإمام أن یبیّن رأیه فی الأحداث التی أعقبت عصر النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله وعصر الخلفاء.

فکتب الإمام علیه السلام بناءاً علی إصرارهم هذه الرسالة وأمر بقراءتها علی الناس حتی لا یتمکن المخالفون من تزییف الحقائق وتحریف التاریخ.

أشار الإمام علیه السلام إلی قضیتین أساسیتین فی هذه الخطبة:

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۲۰۶

الأولی: إنّه شکا قریشاً للّهأنّهم اتحدوا علی هضمه حقّه وأنّهم قالوا له صراحة علیک أن تتنازل عن حقّک فی الخلافة!

الثانیة: إنّ الإمام علیه السلام شرح علّة عدم قیامه لأخذ حقّه لأنّه لم یجد أعواناً علی هذا الأمر وقد رأی الخطر محدقاً بأرواح أهل بیته.

***

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۲۰۷

اللهمَّ إنّی أَسْتَعْدِیک عَلَی قُرَیْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِی وَأَکْفَؤُوا إِنَائِی، وَأَجْمَعُوا عَلَی مُنَازَعَتِی حَقّاً کُنْتُ أَوْلَی بِهِ مِنْ غَیْرِی، وَقَالُوا:

أَلَا إنَّ فِی الْحَقِّ أنْ تَأْخُذَهُ، وَفِی الْحَقِّ أنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً. فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَیْسَ لِی رَافِدٌ، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ، إلَّا أَهْلَ بَیْتِی؛ فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنْ الْمَنِیَّةِ، فَأَغْضَیْتُ عَلَی الْقَذَی، وَجَرِعْتُ رِیقِی عَلَی الشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ کَظْمِ الْغَیْظِ عَلَی أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَارِ.

قالَ الشَّرِیفُ رَضِیَ اللَّه عَنْهُ: وَقَدْ مَضی هذا الْکَلامُ فی أثْناءِ خُطْبَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ، إلّا أنّی ذَکَرْتُهُ هاهُنا لِاخْتِلافِ الرِّوایَتَیْن.

الشرح والتفسیر: تحمل الصعاب

استهل الإمام علیه السلام هذه الخطبة قائلًا: «اللهمَّ إنّی أَسْتَعْدِیک عَلَی قُرَیْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِی وَأَکْفَؤُوا[۳۰۵] إِنَائِی، وَأَجْمَعُوا عَلَی مُنَازَعَتِی حَقّاً کُنْتُ أَوْلَی بِهِ مِنْ غَیْرِی».

بالرغم من أنّ الإمام علیه السلام قال هذا الکلام أواخر عهد خلافته، لکن هنالک خلاف عند شراح «نهج البلاغة» والمؤرخین بشأن الزمان، فهل المراد قضیة السقیفة والأحداث التی أعقبت وفاة النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله أم الشوری التی تألفت من ستة

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۲۰۸

أشخاص أم الزمان الذی نکث فیه العهد طلحة والزبیر واشعلا فتنة حرب الجمل؟

ویبدو الاحتمال الأوّل هو الأقوی من بینها ثم الثانی، بینما یستبعد الاحتمال الثالث فتمرد طلحة والزبیر لا یعدّ من اجتماع قریش علی الإمام.

العبارة «أسْتَعْدیک» من «الإستعداء» بمعنی الاستعانة أو الشکوی لأحد.

العبارة «إِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِی» ربّما تشیر إلی أنّ غاصبی الخلافة استندوا إلی القرابة من النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی حین کان

الإمام أقرب إليه من غيره.

العبارة «أَكْفَؤُوا إِنَائِی» يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ النّبی الأكرم صلى الله عليه و آله هو الذی ملأ هذا الإناء وسلّمه إلى الإمام وعرّفهم به أنّه الأولى بالخلافة من الجميع كراراً؛ لكنهم قلبوا إناء ماء الحياة رأساً على عقب.

أمّا قوله إنّه أولى بهذا الحق منهم جميعاً فهذا ممّا ثبت بالدليل العقلی والنقلی لكل منصف؛ فليس هنالك من يمتلك شجاعته أو ورعه وتقواه وزهده.

نقل ابن أبی الحديد فی شرح الخطبة ۱۷۲ حين ذكر هذه العبارة، عبارات شبيهة أخرى تدل جميعاً على أنّ عليّاً عليه السلام كان يرى الخلافة حقّه المسلّم وقد غصبه الآخرون، ثم قال: فسّرت الإماميّة والزيديّة هذه العبارات حسب ظاهرها ولم يروا غير علی عليه السلام يليق بها، وأضاف قائلًا: رغم أنّ هذا هو الظاهر الذی ذهبوا إليه لكننا نعتبرها كالمتشابه من الآيات فلا نحملها على ظاهرها[۳۰۶].

هذا الكلام العجيب ناشیء عن نوع من التعصب والذهنية المريضة ومعنى ذلك أننا لا نقبل سوى مانرغب فيه، يقول جزءاً من المتشابهات، فی حين يرد المتشابه عندما يكون هنالك إبهام وإجمال فی الكلام، لا مثل هذا الكلام الواضح الصريح.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى منطق مخالفيه العجيب: «وَقَالُوا: أَلَا إِنَّ فِی الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِی الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً».

حقّاً هذا منطق رهيب أن يعترف الإنسان ببعض الأمور أنّها حق لكن لابدّ من

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۰۹

التنازل عنها استجابة للقوّة والغطرسة فإمّا أن يصبر ويتحمل أو يموت كمداً من القهر، وهذا هو الشعار الذی يهتف به الاستكبار العالمی خفية أو علانية: «المُلْكُ لِمَنْ غَلَبَ» ولابدّ هنا من سؤال ابن أبی الحديد: هل هذه العبارة جزء من المتشابه وينبغی تأويلها وعدم حملها على الظاهر؟!

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلًا كلامه: «فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيسَ لِی رَافِدٌ[۳۰۷]، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِی؛ فَضَنَنْتُ ۳۰۸] بِهِمْ عَنْ الْمَنِيَّةِ».

تشير هذه العبارة إلى أنّ الناس انساقت للحكومة آنذاك فهذا طمعاً وذاك خوفاً وثالث حقداً وبغضاً ورثه من المعارك الإسلاميّة السابقة، وأخيراً الغفلة الجهالة، كان من الطبيعی أن يتعذر على الإمام فی ظل تلك الشرائط أن ينهض ليشكل حكومة العدل الإسلامی وهی الامتداد لحكومة النّبی الأكرم صلى الله عليه و آله.

ومن هنا قال إثر ذلك: «فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى ۳۰۹]، وَجَرِعْتُ رِيقِی عَلَى الشَّجَا[۳۱۰]، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ ۳۱۱]، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ[۳۱۲] الشِّفَارِ[۳۱۳]».

إشارة إلى أنّه لا ينبغی قط أن يفسّر سكوتی على تلك الاوضاع بالدليل على الرضی، بل إنی أتأوّه بشدّة من الانحرافات التی أعقبت وفاة النّبی الأكرم صلى الله عليه و آله فی الحكومة الإسلاميّة؛ لكن لم يكن أمامی سوى الصبر والسكوت.

وعقب اختتام الخطبة: «قالَ الشَّرِيفُ رَضِیَ اللَّه عَنْهُ: وَقَدْ مَضى هذا الْكَلامُ فی أثْناءِ خُطْبَة مُتَقَدِّمَة، إلّاأنّی ذَكَرْتُهُ هاهُنا لِاخْتِلافِ الرِّوايَتَيْنِ».

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۱۱

الخطبة ۲۱۸

اشارة

فی ذِکْرِ السّائِرینَ إلَی الْبَصْرَةِ لِحَرْبِهِ علیه السلام [۳۱۴]

نظرة إلی الخطبة

أشـار الإمام علیه السـلام فی هـذه العبارات القصـیرة إلی الجرائم المتعـددة التی إرتکبها أصـحاب الجمل الـذین انطلقوا برفقـة عائشـة وطلحـة والزبیر فی طریقهم إلی البصـرة لیتمردوا علی الإمام علیه السـلام، ویبثّوا التفرقـة فی صـفوف أهل البصـرة الذین کانوا متحدین علی بیعـة الإمام وطاعته، فقـد نهب أصـحاب الجمل بیت مال المسـلمین ونحّوا خزانه وقتلوا طائفـة من شـیعة الإمام وفئـة ممن قاومتهم وإرتکبوا بعض الجنایات التی لایأتیها من کان له أدنی حظ من الإیمان.

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۲۱۳

فَقَدِمُوا عَلَی عُمَّالی وَخُزَّانِ بَیتِ مالِ المُسـْلِمینَ الَّذِی فِی یَدَیَّ وَعَلَی أَهْلِ مِصْر، کُلُّهُمْ فِی طَاعَتِی وَعَلَی بَیْعَتِی؛ فَشَتَّتُوا کَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَیَّ جَمَاعَتَهُمْ، وَوَثَبُوا عَلَی شِیعَتِی، فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً؛ وَطَائِفَةٌ عَضُّوا عَلَی أَسْیَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّی لَقُوا اللّه صَادِقِینَ.

الشرح والتفسیر: جنایات أصحاب الجمل فی البصرة

کما ورد فی سـند الخطبـة فإنّ هذا الکلام فی الواقع جانب من رسالة طویلة کتبها الإمام علیه السـلام لتسـجل فی التاریخ وعدم نسـیان الحوادث المریرة التی حدثت بعد النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله.

أشار الإمام علیه السـلام فی هذا الکلام القصیر إلی الجنایات العظمی للناکثین الذین أثاروا فتنة حرب الجمل قال: «فَقَدِمُوا عَلَی عُمَّالِی وَخُزَّانِ مالِ بَیْتِ الْمُسْلِمِینَ الَّذِی فِی یَدَیَّ».

ثم أضاف قائلًا: «وَعَلَی أَهْلِ مِصْر، کُلُّهُمْ فِی طَاعَتِی وَعَلَی بَیْعَتِی؛ فَشَتَّتُوا کَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَیَّ جَمَاعَتَهُمْ».

وأشار إلی جریمتهم الکبری الثالثـة وقال: «وَوَثَبُوا عَلَی شِـیعَتِی، فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً؛ وَطَائِفَةٌ عَضُّوا[۳۱۵] عَلَی أَسْیَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّی لَقُوا اللّه صَادِقِینَ».

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۲۱۴

فقـد أشـار الإمـام علیه السـلام بهـذه العبارة القصـیرة إلی ثلاث من جرائمهم البشـعة: نهب بیت المال، بث الفرقـة والنفاق فی صـفوف المسلمین وقتل عدد من الأبریاء من المسلمین الصالحین الصادقین.

ورد فی حوادث الجمل [۳۱۶]، عندما أقبلت عائشة- إلی البصـرة- علی جَملِها فنادت بصوت مرتفع: أیّها الناس، أقلّوا الکلام واسکتوا، فأسـکت النـاس لهـا، فقـالت: إنّ أمیرالمؤمنین عثمـان قـد کـان غیّر وبـدّل، ثم لم یزل یغسِل ذلک بالتوبـة .. ألا إنّ عثمان قتل مظلوماً فـاطلبوا قتلته، فـإذا ظفرتم بهم فـاقتلوهم، ثم اجعلوا الأـمر شوری بین الرهط الـذین اختارهم أمیرالمؤمنین عمر بن الخطاب، ولا یـدخل فیهم من شرک فی دم عثمان.

قال (الراوی): فماج الناس واختلطوا، فمن قائل: القول ما قالت، ومن قائل یقول:

وما هی وهذ الأمر، إنّما هی امرأة مأمورة بلزوم بیتها، وارتفعت الأصوات وکثر اللغط حتی تضاربوا بالنعال، وتراموا بالحصا.

ثمّ إن الناس تمایزوا وصاروا فریقین: فریق مع عثمان بن حنیف، وفریق مع عائشة وأصحابها[۳۱۷].

هـذا ما أشار إلیه الإمام علیه السـلام بشأن بثّ النفاق والفرقة بین المسـلمین الذین کانوا متّحدین من قبل الفئة الباغیة التی شـقت عصـا المسلمین وزرعت الفتنة بینهم إلی یوم القیامة.

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۲۱۵

الخطبة ۲۱۹

اشارة

لَمّا مَرَّ بِطَلْحَةَ بْنِ عَبْدِاللَّه وَعَبْدِالرَّحمنِ بْنِ عَتّابِ بن أُسَيْد وَهُما قَتيلانِ يَوْمَ الْجَمَل ۳۱۸]

نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام القصير الذى اقتطفه المرحوم السيّد الرضى من كلام طويل يبيّن فى الواقع ثلاث نقاط: إحداها، إعرابه عن أسفه على قتل طلحة الذى ما كان ينبغى أن يسلك هذا الطريق الخاطئ وله تلك السوابق فى الإسلام فيقتل تلك القتلة الغريبة تحت السماء.

الأخرى، أنّ أمراء معركة الجمل الذين قتلوا خزّان بيت مال المسلمين فى البصرة وشيعة الإمام سينالون جزاءهم.

والثالثة، أنّ أولئك (وأمثالهم) لم يكونوا مؤهلين لما كان يدور فى أذهانهم.

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۲۱۷

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهذَا الْمَكَانِ غَرِيباً! أَمَا وَاللَّه لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ! أَدْرَكْتُ وَتْرِى مِنْ بَنِى عَبْدِ مَنَاف، وَأَفْلَتَتْنِى أَعْيَانُ بَنِى جُمَحَ، لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا دُونَهُ!

الشرح والتفسير: المشهد المروع بعد الجمل

كما قيل، فإنّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما مرّ بعد حرب الجمل بجسد طلحة بن عبداللَّه وعبدالرحمن بن عتّاب اللذين صرعا غريبين على التراب.

وطلحة بن عبداللَّه هو صاحب النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله المعروف الذى بايع الإمام بعد مقتل عثمان ولكن حين لم تتحقق آماله فى الوصول إلى حكومة بعض الولايات الإسلاميّة، رفع لواء المعارضة واتحد مع الزبير وعائشة واشعل فتيل حرب الجمل واكتوى بنارها.

ولم يكن عبدالرحمن بن عتّاب من الصحابة؛ ولكنه يعتبر من التابعين، وكان أبوه عتاب ممن أسلم فى فتح مكة وولّاه النّبى صلى الله عليه و آله إمرة مكة، وكان لوالده آنذاك اثنتان وعشرون سنة وقال له النّبى لو كان هنالك من هو أفضل منك لذلك الأمر لولّيته، واستمر ذلك حتى عهد أبى بكر وتوفى مع أبى بكر فى نفس اليوم، لكن للأسف فإنّ ابنه عبدالرحمن انحرف عن الجادة وأصبح العوبة بيد طلحة والزبير ووسيلة لتحقيق أطماعهما حتى قتل فى حرب الجمل فكان جسده فى العراء قرب جسد طلحة.

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۲۱۸

قيل: لما قتل عبدالرحمن بن عتّاب فى الجمل حمل يده المقطوعة عقاباً وألقى بها فى اليمامة وتعرّف الناس على خبره من خاتمه الذى خط عليه اسمه.

على كلّ حال، أعرب الإمام عليه السلام فى بداية الخطبة عن اسفه لقتل طلحة فقال:

«لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهذَا الْمَكَانِ غَرِيباً!».

التعبير (أبو محمد) دلالة على نوع من الاحترام والأسف على غربته لسوابق طلحة الحسنة فى الإسلام، حيث كان ممّن صحب النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ومن الأشداء فى الذبّ عن بيضة الإسلام؛ ولكن للاسف فإنّ حبّ الجاه والمقام والحسد دفعه لشن حرب دموية ضد خليفة المسلمين الذى نصب من جانب اللَّه والمبايع من قبل الامّة والتى خلفت أكثر من سبعين ألف قتيل.

ثم قال الإمام عليه السلام: «أَمَا وَاللَّه لَقَدْ كُنتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكونَ قُرَيْشٌ قَتْلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ!».
صحيح أنّ طلحة والزبير وأمثالهما يستحقون ذلك العقاب، لكن الإمام عليه السلام أعرب عن امتعاظه بكلّ حبّ ورأفة وعاطفته الخاصّة بالنظر لسوابقه فى الإسلام ليته لم يقتل فى هذا الطريق وتكون هذه العاقبة، فجميع الأنبياء والأوصياء وأولياء اللّه يرجحون كفّ الخاطئين وحتى المجرمين الطغاة عن مسيرتهم والالتحاق بصفوف المؤمنين والصالحين.
ثم قال عليه السلام: «أَدْرَكْتُ وَتْرِى ۳۱۹] مِنْ بَنِى عَبْدِ مَنَاف، وَأَفْلَتَتْنِى ۳۲۰] أَعْيَانُ بَنِى جُمَحَ».
هنالك خلاف بين الشرّاح بشأن المراد من «بنى عبد مناف» من هم؛ قال البعض:
إنّ المراد بهم طلحة والزبير وعبدالرحمن الذين أشير إليهما آنفاً.
وأشكل ابن أبى الحديد على أنّ طلحة والزبير لم يكونا من بنى عبدمناف، واجيب أنّهما يتصلان بعبد مناف من جانب الام وإن لم يتصلا به من طرف الأب.
نفحات الولاية، ج‌٨ ص: ٢١٩
واعترض المرحوم العلّامة التسترى فى شرحه لنهج البلاغة على هذا الكلام من جهتين: الاولى أنّ الانتساب إلى القبائل فى عرف العرب عن طريق الأب؛ وليس الام، والأخرى أنّ ام الزبير وإن انتهى نسبها لعبد مناف كونها بنت عبدالمطلب إلّاأنّ ام طلحة كانت من اليمن. ولم يذكر العلّامه التسترى بعد هذين الاعتراضين، من الأفراد المرادون ببنى عبد مناف.
وربّما كان فى أهل الجمل غير عبد الرحمن، بنو عبد مناف الذين إرتكبوا بعض الجرائم وقتلوا هناك؛ إلّاأنّ أسماءهم لم ترد فى التاريخ لعدم شهرتهم.
فبنو جمح طائفة من قريش كانت فى معسكر أهل الجمل؛ ولما رأوا المعركة ليست لصالحهم فروا ولم يقتل منهم سوى اثنان.
واختتم عليه السلام هذا الكلام قائلًا: «لَقَدْ أَتْلَعُوا[۳۲۱] أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا[۳۲۲] دُونَهُ!».
هذا الكلام إشارة إلى طلحة والزبير وأمثالهما الذين يفتقرون لأهلية الخلافة بوجود الإمام عليه السلام بل ليس لهم أهليتها حتى مع عدم وجود الإمام عليه السلام، فحبّ الجاه والتعلق بالدنيا يحول دون أهلية زعامة الامّة الإسلاميّة.

تأمّلان

۱. حبّ دنيا وعواقبه المشؤمة

كان طلحة والزبير من السابقين إلى الإسلام الذين قاتلوا ببسالة دفاعاً عن النّبى والإسلام، كما كانت لهما مكانتهما المميزة بعد النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلى درجة أنّ عمر لم يتمكن من تجاوزهما فى الشورى التى شكّلها لانتخاب الخليفة من بعده؛ لكن حبّ الجاه والمقام والتعلق بالدنيا أخرجهما عن طريق الحق فغيرا مسارهما والتحقا
نفحات الولاية، ج‌٨ ص: ٢٢٠
بصفوف المنافقين.
فمن جانب غارا على بيت مال المسلمين فى البصرة وقتلا خزان بيت المال واستغلاه لإثارة معركة الجمل.
ومن جانب، آخر أجّجا نيران فتنة الجمل التى راح ضحيتها مئات الآلاف من المسلمين وأسسا للحروب الأهلية.
ومن جانب ثالث، أخرجا زوج النّبى صلى الله عليه و آله من بيتها وجعلوها مطية لأهوائهم السياسية فانتهكا من خلال ذلك حرمة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله.
ومن جانب رابع، كلاهما قتل فى تلك المعركة ولم يحققا اطماعهما الشخصية، وبالطبع سيذوقا وبال أمرهما يوم القيامة بما سوّدا به

صحيفة أعمالهما.

هـذه كلّها نتائج حبّ الجاه وحبّ الدنيا، الأمر الذى عدّه جميع الأنبياء والأولياء مصدر جميع الذنوب فقد قال الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله: «حُبُّ الدُّنْيا رَأْسُ كُلِّ خَطيئَة»[۳۲۳].

وقـد بيّن الإمام عليه السـلام هذه الحقيقة بوضوح بعبارات موجزة عقب الجمل طبق رواية المرحوم الشـيخ المفيد، قال ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة فى قضية معركة الجمل: «مرّ الإمام عليه السلام بعد الجمل بطلحة قتيلًا فقال: أجلسوه، فأجلسوه، فقال: «لَقَدْ كانَ لَک قَدَمٌ لَوْ نَفَعَک وَلكِنَّ الشَّيْطانَ أَضَلَّک فَأَزَّلَک فَعَجَّلَک إلَى النّارِ»[۳۲۴].

۲. الكفاءة الشرط الاوّل لكل عمل

صرّح الإمام عليه السـلام مختتماً خطبته المـذكورة بأنّ طائفة اشـرأبّت أعناقها لنيل الحكومة الإسـلاميّة؛ وحيث لم تكن جديرة بها فقد كسرت رقبتها، إشارة إلى أنّ كلّ عمل ومشروع يتطلب كفاءة معينة ولا يكفى مجرّد الرغبة بالشىء بغية الوصول إليه

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۲۱

ولا يمكن شغل مواقع العظماء بالمجان إلّاأنّ يعدّ الإنسان الأسباب العظيمة.

صحيح أنّ البعض اسـتند إلى تلك المواقع دون إعداد تلک الأسـباب؛ ولكنهم واجهوا الهزيمة والخسـران فى خاتمة المطاف إثر سوء إدارتهم.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۲۳

الخطبة ۲۲۰

اشارة

فى وَصْفِ السّالِک الطَّريقَ إلَى اللَّه سُبْحانَهُ ۳۲۵]

نظرة إلى الخطبة

كمـا يتّضـح من عنوان الخطبـة خـاض الإمـام عليه السـلام فى هـذا الكلاـم الموجز البليغ، فى التعريف بالسالـک إلى اللَّه والسـائر على الطريق وعـدّ سـبب موفقيته إلى إحيـاء العقـل وإماتـة أهواء النفس وصـرح أنّ بارقـة من نور ألطاف الحق تقتـدح فى قلبه فى ظلّ هـذا العمل؛ الذى يضيىء المسير ويوصله إلى مقام النفس المطمئنة ورضى اللَّه.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۲۵

قَـدْ أَحْيَـا عَقْلَهُ، وَأَمَـاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ لَـامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ، فَأَبَـانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَـلَک بِهِ السَّبِيـلَ، وَتَـدَافَعَتْهُ الأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارِ الْاقَامَةِ، وَثَبَتَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِى قَرَارِ الأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ.

الشرح والتفسير: سالک طريق الحق

طرح الإمام عليه السلام فى هذا الكلام العميق المعنى، دورة عرفانية إسلامية من خلال عبارات موجزة واستعرض شرائط السير والسلوك إلى اللّه ونتائجه ومقاماته فقال:

«قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ ۳۲۶]، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ ۳۲۷]».

إحياء العقل إشارة إلى الانفتاح على الأدلة العقلية لتكامل الإيمان والحسن والقبح العقليين لتكامل الفضايل الأخلاقيّة، وهكذا فإنّ مفردة العقل هنا تشمل العقل النظرى والعقل العملى.

أمّا النفس فلا تعنى القضاء على الغرائز النفسانيّة، بل المراد تهذيبها بحيث لا يسعها القذف بالإنسان فى مصائد الشيطان وتصده عن سبيل اللّه.

المفردة «جَليل» فى العبارة «دَقَّ جَليلُهُ» إشارة إلى الأبدان السمينة والتى أصبحت بهذه الصورة إثر كثرة الأكل والافراط فى أكل الأطعمة الدسمة، ويخفف

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۲۶

الوزن بترك الشهوات.

والمفردة «غَليظ» فى «لَطُفَ غَليظُهُ» إشارة إلى أنّ الخلق الخشن والرذائل الأخلاقيّة تتلطف فى ظل الرياضة النفسانيّة.

ثم اتجه الإمام عليه السلام صوب آثار هذه الحركة العقلانيّة والرياضة الشرعيّة ليعدّ ثمارها الطيبة فى ثلاث فقال: «وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ».

وهذا هو نور المعرفة والمعنويّات التى تتجلى للإنسان إثر الرياضات العقلانيّة والنفسانيّة وتضيئ له الطريق كما يقول القرآن المجيد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ»[۳۲۸].

فقد شبّه السائرين على الدرب بالسالكين لطريق صحراوى مظلم؛ ولكنهم يشملون بالعنايات الربّانية، يبرق لهم بريق من السماء فينير لهم الطريق ليبلج لهم عمق الصحراء. صرّح بعض العارفين المسلمين بثلاث مراحل لأنوار الهداية الربّانية التى تحصل إثر الرياضات النفسانيّة، المرحلة الاولى التى تسمى «اللوائح»؛ وهو نور يشرق فى باطنهم؛ ولكنه لا يدوم طويلًا. المرحلة الثانية، التى تسمى «اللوامع» التى لا تزول بسرعة؛ ولكنها تنطفئ بالتالى، والمرحلة الثالثة، «الطوالع» التى تدوم مدّة مديدة وتصون السالك إلى اللّه من الانحراف.

وقال فى القسم الثانى من تلك الآثار: «وَتَدَافَعَتْهُ ۳۲۹] الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارِ الْاقَامَةِ».

على غرار ما ورد فى القرآن الكريم: «لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[۳۳۰].

نفحات الولاية ؛ ج۸ ؛ ص۲۲۶

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۲۷

وقال على لسان أهل الجنّة: «إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ* الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ»[۳۳۱].

ثم قال فى القسم الثالث من تلك الآثار: «وَثَبَتَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِى قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ».

وكأنّه ماورد فى القرآن: «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِى إِلَى رَبِّك رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً* فَادْخُلِى فِى عِبَادِى* وَادْخُلِى جَنَّتِى»[۳۳۲].

نعم! الإنسان فى مسير القرب إلى اللّه فى كلّ زمان يكون عرضة لوساوس شياطين الجنّ والإنس ويهزّه خوف الضلال حتى يبلغ ما يزيل عن سماء روحه غيوم وساوس النفس والشيطان، ويقدح فى كيانه بريق معرفة اللّه فيعيش السكينة التامة ويستحق الخطاب «فَادْخُلِى فِى عِبَادِى* وَادْخُلِى جَنَّتِى».

ثم اختتم هذا الكلام بالتأكيد على هذه الحقيقة: «بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ».

نعم! وهذا ما اشير له فى الآيات المذكورة: «ارْجِعِى إِلَى رَبِّك رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً».

تأمّل: مقامات السير والسلوك

إنّ رواج التعبير بالسير والسلوك فى تعبيرات أهل العرفان فى عصرنا والعصر القريب منه مقتبس فى الواقع من القرآن حين قال: «يَا أَيُّهَا الْانسَانُ إِنَّک كَادِحٌ إِلَى رَبِّک كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ»[۳۳۳].

وآيات التوبة مثل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّه تَوْبَةً نَّصُوحاً»[۳۳۴]. (بالنظر إلى

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۲۸

أنّ التوبة فى الأصل تعنى العودة). والآية الشريفة «إِنَّا للَّهوَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»[۳۳۵].

الواقع أنّ روح الإنسان كالغواص الذى وطئ عالم المادة واقترن بالجسم المادّىليغوص فى أعماق بحار هذا العالم ويحمل معه الجواهر النفيسة هناك ويخرجها معه.

ويربط الغواصون أحياناً جسماً ثقيلًا بأرجلهم ليبلغ بهم أعماق البحارفان أتمّوا بحثهم طرحوا ذلک الجسم الثقيل ثم يعودون إلى سطح الماء، والسعيد من يعلم اين هذه الجواهر النفيسة.

الهدف من هذا السير والسلوک إلى اللَّه الذى يشرع بالتربية وتهذيب النفس والتوبة والإنابة والرياضات الشرعيّة، هو العبور من النفس الأمّارة بالسوء إلى النفس اللوامة ومن هناک إلى النفس المطمئنة والوصول إلى رفعة مقام راضية مرضية. العبور الذى ينتهى بالتالى بالمكاشفات وإزالة الحجب عن عين الإنسان، حيث قال النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله لذلک الشاب السعيد الذى رآه مواقيت الفجر فى صلوات الجماعة وبدت عليه آثار قيام الليل: «هذا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّه قَلْبَهُ بِالْايمانِ»[۳۳۶].

هناک مقامات ومراحل متفاوتة لهذا السير والسلوک يراها العرفاء والسالكون ويعتقد البعض بأنّهم اقتبسوها من الآيات القرآنية وروايات المعصومين عليهم السلام.

فقد أوجز بعضهم النظام اليومى للسالكين إلى اللَّه فى أربعة أمور: المشارطة، المراقبة، المحاسبة والمعاقبة أو المؤاخذة.

وعلى هذا الضوء يشترط السالک على نفسه فى الصباح أن لا يتقدم خطوة فى غير رضى اللَّه؛ ثم يراقب أعماله طيلة النهار ويفرغ ليلًا للحساب فإن بدر منه خلاف عاقب نفسه بحرمانها من اللذائذ وماترغب فيه.

وورد اثنا عشر منزلًا ومقاماً لهذا النظام فى رسالة السير والسلوک للفقيه الكبير

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۲۹

المرحوم العلّامة بحر العلوم، ثم يرد الإنسان بعد طيها عالم الإخلاص ومصداقه «بَلْ أَحْيَآءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»[۳۳۷].

وقد ذكرت فى هذه الرسالة الآداب الخمسة والعشرون لبلوغ هذا المقام[۳۳۸].

المؤسف أنّ هذه المسألة استغلت كثيراً لاسيما فى عصرنا وقد تشبث بها الصوفيون أساس الانحرافات فى العقيدة والعمل ليجعلوه شماعة ويتصورون أنّهم سالكون إلى اللَّه، بينما هم غالباً مصداق «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْاخْسَرِينَ أَعْمَالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»[۳۳۹] ولكن هنالک بعض الأفراد الذين يتحركون على هدى الكتاب والسنّة ولا يحيدون عن مسير القرآن وقول المعصومين وهؤلاء هم السائرون والسالكون الحقيقيون.

وقد اعتبر أميرالمؤمنين على عليه السلام إمام العارفين فى كلامه الموجز كما بيناه أنّ أساس سلوک طريق الحق هو إحياء العقل وإماتة النفس وإصلاح الأخلاق، وبيّن الثمرات الثلاث المهمّة لهذا السلوک بصيغة غاية فى الروعة والجمال والبلاغة.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۳۱

الخطبة ۲۲۱

اشارة

قالَ بَعْدَ تِلاوَتِهِ: «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ»[۳۴۰]

نظرة إلى الخطبة

يمكن تقسيم هذه الخطبة إلى أربعة أقسام وإن كانت واردة فى تفسير قوله تعالى: «أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ»[۳۴۱].
الحديث فى القسم الأوّل عن جهل المتبقين، بمصيرهم كيف لا يتعظون بمن يتوسدون التراب وبيّن فى القسم الثانى، كيفية أحوال الماضين وكيف رقدوا تحت التراب وتوسدوا القبور الباردة المظلمة، لا يخبر بهم أحد، خلت بيوتهم ونسيت حياتهم.
القسم الثالث، كأن الإمام يحدثهم ويردون عليه بلسان الحال بما يهز ويوقظ.
نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۳۲
وتحدث الإمام عليه السلام فى القسم الرابع عن أواخر أيّام العمر كيف ييأس الأطباء عن العلاج ولا ينفع الدواء ويقترب الإنسان كلّ آن من نهايته ويبتعد عن أهله وقرابته ويتوقف لسانه ويفقد سمعه ويستحوذ الموت على كيانه، والتمعن فى هذه الخطبة يؤثر فى الإنسان ويوقظه مهما كان قاسى القلب.
***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۳۳

القسم الأوّل

اشارة

يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ! وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ! وَخَطَراً مَا أَفْظَعَهُ! لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِر، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَان بَعِيد! أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ! يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ وَلَانْ يَكُونُوا عِبَراً، أَحَقُّ مِنْ أنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً؛ وَلَانْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ، أَحْجى مِنْ أنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ! لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِى غَمْرَةِ جَهَالَةٍ، وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْك الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِى الأَرْضِ ضُلَّالًا، وَذَهَبْتُمْ فِى أَعْقَابِهِمْ جُهَّالًا، تَطَؤُونَ فِى هَامِهِمْ، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِى أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا؛ وَإِنَّمَا الأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ.

الشرح والتفسير: التفاخر الفارغ بدل الاعتبار!

كما مضى فإنّ هذه الخطبة إحدى خطب أميرالمؤمنين على عليه السلام الجامعة الشاملة والمؤثرة.
وقد أشاد ابن أبى الحديد إشادة عجيبة بهذه الخطبة وعدّها فريدة من حيث الفصاحة والبلاغة وقال: ومن تأمّل هذا الفصل علم صدق معاوية فى على عليه السلام:
«وَاللّه ما سَنَّ الْفَصاحَةَ لِقُريشٍ غَيْرُه».
ثم قال: وينبغى لو اجتمع فصحاء العرب فى مجلس وتلى عليهم، أن يسجدوا له

نفحات الولايۀ، ج۸، ص: ۲۳۴

كما سجد الشعراء فی مواضع الشعر.

وأضـاف: وإنّی لُاطيـل التعجب مـن رجـل يخطب فی الحرب بكلاـم يـدل علی أنّ طبعه منـاسب لطبـاع الاـسود، ثمّ يخطب فی ذلك الموقف بعينه إذا أراد الموعظـۀ بكلام يـدل علی أنّ طبعه مشاكِل لطباع الرهبان لابسـی المسوح الـذين لم يأكلوا لحماً ولم يريقوا دماً فيكون كالمسيـح فی زهـده. وأقسم لقـد قرأت هـذه الخطبـۀ منذ خمسيـن سـنۀ وإلی الآن أكثر من ألف مرّۀ ما قرأتها قط إلّاوأحدثت عنـدی روعـۀ وخوفاً وعظـۀ وأثرت فی قلبی وجيباً وفی أعضائی رعدۀ وكم قال الواعظون والخطباء فی هذا المعنی وكم وقفت علی ما قالوه وتكرر وقوفی عليه فلم أجد لشیء منه مثل تأثير هذا الكلام ۳۴۲].

واسـتناداً لما قيل يجدر بنا أن نتوقف عند شـرحنا لهذه الخطبۀ علی عمق كلام الإمام عليه السـلام فنسـتفيد منها بما فيه الكفايۀ ونلمس آثارها فی أنفسنا وأرواحنا.

وكما ورد فی عنوان الخطبۀ فإنّ هذا الكلام فی الواقع تفسير لأول آيتين من سورۀ التكاثر «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّی زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ».

ونلقی بادئ الأمر نظرۀ إجماليۀ علی تفسير الآيتين:

ذكر المفسّرون المعروفون تفسيرين لهما:

الف) المراد أنّ تكاثركم أنساكم اللَّه والقيامۀ حتی خرجتم من الدنيا وحللتم القبور.

ب) المراد أنّ تكـاثركم وتفـاخركم أنسـاكم اللَّه والقيامـۀ حتـی زرتم المقـابر لإثبـات أفضـليتكم فعـددتم قبور موتـاكم فخراً علی من سواكم.

طبعاً الأصح التفسير الثانی، لأنّه: أوّلا زيارۀ القبور مسـتبعدۀ جدّاً بمعنی الدفن فی القبور وثانياً، لو كان التفسـير الأوّل صحيح فلابدّ من القول: «تزوروا القبور» أی يكون الفعل بصيغۀ المضارع لا الماضی، لأنّ المخاطبين أحياء.

نفحات الولايۀ، ج۸، ص: ۲۳۵

يدور كلام الإمام عليه السلام فی هذه الخطبۀ حول المحور الثانی وهذا دليل واضح علی ترجيح هذا التفسير.

فقال الإمام عليه السلام: «يَا لَهُ مَرَاماً[۳۴۳] مَا أَبْعَدَهُ! وَزَوْراً[۳۴۴] مَا أَغْفَلَهُ! وَخَطَراً[۳۴۵] مَا أَفْظَعَهُ![۳۴۶]».

نعم، فالعظام الباليـۀ تحت التراب والأجساد المتفسـخۀ ليس فيها مايـدعو للفخر، فما أحراهم بالاعتبار بـدل هـذا الافتخار وهم يرون بأم أعينهم أنّهم سـيحملون ليوسـدوا هـذا التراب وينقطعوا عن الأهل والقرابـۀ فيفيقون من هـذا السـبات العميق والنوم الوبيل. ومن هنا قال الإمام عليه السلام مواصلًا كلامه: «لَقَدِ اسْتَخْلَوْا[۳۴۷] مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِر، وَتَنَاوَشُوهُمْ ۳۴۸] مِنْ مَكَان بَعِيد!».

فسّر بعض الشـرّاح العبارۀ «لَقَدِ اسْـتَخْلَوْا»: «أنّهم سيذكروا من مات منذ مدّۀ وأصبح تراباً ففی التفسير الأوّل «استَخْلَوْا» وجدوهم خالين وفی التفسير الثانی بمعنی ذكر الأموات.

ثم وبّخهم توبيخاً شديداً وذمهم فقال: «أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَی يَتَكَاثَرُونَ!».

تری مامـدی جهل الإنسان الـذی يريـد أن يفخر بتلك العظام النخرۀ ويجعل أمواته فی عداد الأحياء ويعدّهم من الأدلۀ علی كثرته. ثم قال: «يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ ۳۴۹]، وَحَرَكَات سَكَنَتْ».

نفحات الولايۀ، ج۸، ص: ۲۳۶

وأضـاف: «وَلَانْ يَكُونُوا عِبَراً، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً؛ وَلَانْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ۳۵۰] ذِلَّۀ، أَحْجَی ۳۵۱] مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّۀ!».

فقـد أكد الإمام عليه السـلام فی هذه العبارات علی هذه النقطۀ أنّ نظرۀ هؤلاء للأموات مقلوبۀ تماماً وقد أخطأوا فی مسارهم حتی عاد القبيح لديهم حسناً، فعلی هؤلاء أن ينظروا إلی الأموات بعين الاعتبار؛ ويشاهدوا أوضاع أخيارهم تحت التراب ويتأملوا مصيرهم علی

ضوء قانون الموت الذى لا استثناء فيه قط.

ورد فى الخبر أنّه لما سار على عليه السلام بصحبه إلى صفين بلغ ساباط المدائن وأطرافه (الموضع الذى كان يوماً مركز أقوى الحكومات ولكن انتهى فيه كلّ شيء).

فالتفت أحد أصحابه إلى آثار كسرى فأنشد قائلًا:

جَرَتِ الرِّياحُ عَلى مَكانِ دِيارِهِمْفَكَأَنَّهُمْ كانُوا عَلى ميعادِ

ولم يكتف الإمام عليه السلام بهذا المقدار فقال هلّا قرأت هذه الآيات: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ* وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ* كَذلِك وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ۳۵۲]»[۳۵۳].

وخاض الإمام عليه السلام مواصلًا كلامه فى بيان هذا الموضوع، لم هذا الفخر على الآخرين بهذه الأجساد الميتة الخاوية بدل الاعتبار «لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِى غَمْرَةِ جَهَالَةٍ».

ثم قال: «وَ لَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْك الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ ۳۵۴] الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِى الأَرْضِ ضُلَّالًا[۳۵۵]، وَذَهَبْتُمْ فِى أَعْقَابِهِمْ جُهَّالًا، تَطَؤُونَ فِى

هَامِهِمْ ۳۵۶]، وَتَسْتَنْبِتُونَ ۳۵۷] فِى أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ ۳۵۸] فِيمَا لَفَظُوا[۳۵۹]، وَتَسْكُنُونَ فِيما خَرَّبُوا؛ وَإِنَّمَا الأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ ۳۶۰] وَنَوَائِحُ ۳۶۱] عَلَيْكُمْ».

العبارة «ضَرَبُوا مِنْهُمْ فِى غَمْرَةِ جَهَالَة» إشارة إلى غرقهم فى بحر الجهل و «ضرب» تعطى معنى الغرق بقرينة آخر هذه العبارة.

والجملة «تَطَؤُونَ فِى هَامِهِمْ» إشارة إلى أنّ أجسام الناس حين تتعفن وتصبح تراباً فإنّ ذلك التراب ينتقل إلى سطح الأرض بفعل بعض العوامل كالرياح والأمطار والسيول وتقلب التربة بواسطة الإنسان وهذا الإنسان الغافل يمر عليها ولا يدرى ماذا يفعل، وذكر «الهام» (أعلى الرأس) كون أهم شيء فى جسم الإنسان جمجمته وإلّا فإنّ الجسد بأكمله أصبح تراباً يطأه الآخرون.

الجملة «تَسْتَنْبِتُونَ فِى أَجْسَادِهِمْ» إشارة إلى أنّ المزارعين يلقون بذورهم على الأرض الممزوجة بتراب أجساد الماضين ومع ذلك هم غافلون.

الجملة «تَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا» تعنى أحياناً ما ذكر وأخرى أنّه تتناثر من أجسادهم قطع والمزارعون يلقون عليها بذورهم وينتفعون بثمارها.

الجملة «تَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا» ربّما هى إشارة إلى أنّهم عاشوا مدّة فى تلك البيوت فلما انتهوا ووسدوا التراب حللتم فى مساكنهم وذهب بعض الشراح إلى أنّ

العبارة «خربوا» تعنى الخلو من السكنة، وقيل المراد منه أنّها خربة لتركها الذكر والعبادة على غرار العمران فى الآية الشريفة «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّه»[۳۶۲] الذى فسّر بذكر اللَّه والعبادة.

نعم إنّ هؤلاء لم يؤدوا حق المساكن وخربوها عملياً بالغرور والغفلة ونسيان ذكر اللَّه وإن كانت فى الظاهر عامرة وورثوها للغفلة وارتحلوا.

الجملة «وَإِنَّمَا الأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاك» إشارة لطيفة إلى هذه النقطة أنّكم تبكون وتتأوّهون على الأموات؛ ولكن الدهر يبكيكم وينوح عليكم على مدى غفلتكم وجهلكم بمصيركم وتنسون أنّكم ملتحقون بهم عما قريب.

القسم الثانى

اشارة

أولئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ، وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ، الَّذينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ، مُلُوكاً وَسُوَقاً. سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلًا سُلِّطَتِ الأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ؛ فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونَ، وَضِمَاراً لَايُوجَدُونَ؛ لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الأَحْوَالِ، وَلَا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ. غُيَّباً لَا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُوداً لَا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا، وَآلَافاً فَافْتَرَقُوا، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَات. جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَّسُونَ، وَأَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ. بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْاخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَّاءُ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلِ صَبَاحاً، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً.

أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً، شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكِلْتَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَة، فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا.

الشرح والتفسير: العالم العجيب بعد الموت

بعد أن وبّخ الإمام عليه السلام بشدّة أولئك الذين يزورون قبور موتاهم ويفخرون

نفحات الولاية، ج٨، ص: ٢٤٠

بالأجساد البالية لأخيارهم، خاض في هذه النقطة أنّ مصيرهم من شأنه أن يكون عبرة ودرساً وموعظة قيمة لمن يخلفهم فقال: «أولئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ ٣٦٣]، وَفُرَّاطُ[٣٦۴] مَنَاهِلِكُمْ ٣٦۵]، الَّذينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ ٣٦٦] الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ ٣٦٧] الْفَخْرِ، مُلُوكاً وَسُوَقاً[٣٦٨]».

التعبير «سَلَفُ غَايَتِكُمْ» إشارة إلى أنّ هؤلاء بلغوا آخر نقطة فيحياتهم التي هي الموت الذي سبقوكم إليه وعلى الخلف أن يعتبر بمصير سلفه.

العبارة «فُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ» إشارة إلى أنّ الناس كأنّهم في قافلة ينطلقون إلى الموت فهنالك طائفة تتقدم القافلة وأخرى تسير خلفها.

التعبير «مَقَاوِمُ الْعِزِّ» إشارة إلى أنّ ذوي القدرة ينبغي عليهم أن يطؤوا هذا الطريق كالآخرين.

وشبّه الناس في العبارة «وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ» بالذين يشتركون في سلسلة من المسابقات العظيمة والواسعة لكسب مزيد من الفخر فقد قال الإمام عليه السلام: كلّ أولئك سيبلغون في الختام منزلًا اسمه القبر.

ثم قال بكلمة واحدة: «مُلُوكاً وَسُوَقاً» الكل يذهبون الملوك والرعايا.

وقال لمزيد من الايضاح: «سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلًا سُلِّطَتِ الأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ».

ورغم أنّ البرزخ يطلق عادة الذي يتوسط الدنيا والآخرة كما ورد في القرآن

نفحات الولاية، ج٨، ص: ٢۴١

المجيد: «وَمِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»[٣٦٩] ولكن البرزخ هنا يعني القبر بقرينة العبارات التي أعقبتها كما ورد في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْبَرْزَخُ الْقَبْرُ»[٣٧٠] طبعاً أحياناً القبر بمعناه المادي من قبيل ما ورد في هذه الخطبة وأحياناً أخرى بمعناه غير المادي من قبيل ماورد في الحديث المشهور: «الْقَبْرُ إمّا رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الْجَنَّةِ اوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النِّيرانِ»[٣٧١].

ثم قال موضحاً أكثر: «فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ ٣٧٢] قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونَ، وَضِمَاراً[٣٧٣] لَايُوجَدُونَ؛ لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الأَحْوَالِ، وَلَا يَحْفِلُونَ ٣٧۴] بِالرَّوَاجِفِ ٣٧۵]، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ ٣٧٦]. غُيَّباً لَا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُوداً لَا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا

كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا، وَآلَافاً[۳۷۷] فافْتَرَقُوا».

ما ورد في هذه العبارات الملهبة إشارة بالظاهر لجسم الأموات، وإن كانت لأرواحهم في العالم الآخر احساس وخوف ورعب وهمّ وحزن.

نعم ففي لحظة يغمض الإنسان- اليقظ والضاحک أو المهموم المحزون النشط أو الكسل- عينيه عن الدنيا وتنتهي عنده جميع ظواهر الحياة حتى يتحول إلى حجرة خالية من الروح.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى فقال: «وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۴۲

خَرَساً، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالِ ۳۷۸] الصِّفَةِ صَرْعَى ۳۷۹] سُبَات ۳۸۰]».

يالها من عبارات بليغة وموقظة وكلمات مؤثرة وعميقة! نعم! فقد نسوا حتى كأنّهم ابتعدوا عنّا قروناً وانطفأت مساكنهم وكأنّهم غادروها منذ سنين مديدة في حين ربّما تجرعوا كأس المنون في لحظة وانتهى كلّ شيء.

وأضاف في عبارات أخرى عميقة المعنى وموقظة: «جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَّسُونَ، وَأَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ. بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَا[۳۸۱] التَّعَارُفِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْاخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَّاءُ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَباحاً، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً. أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً».

نعم كلّ شي لهؤلاء يختلف عن الأحياء؛ بيوت قبورهم الواحد يلاصق الآخر دون أن يخبر أحدهم بالآخر أو يزوره؛ إنّهم مجتمعون مع بعضهم في الداخل مع ذلک كأنّهم مقاطعون لأحدهم الآخر؛ إن غادروا الدنيا ليلًا فسوف لن يروا طلوع الشمس قط وإن غادروها نهاراً لم يروا ظلمة الليل أبداً وفي هذا أنشد الشاعر:

لابُدَّ مِنْ يَوْمٍ بِلا لَيْلَةٍأَوْ لَيْلَةٍ تَأتى بِلا يَوْم

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى جانب آخر من أحوال الموتى وأرواحهم عند مشاهدة العذاب الإلهي والثواب العظيم فقال: «شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ ۳۸۲] مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آياتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكِلْتَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ[۳۸۳]، فَاتَتْ مَبَالِغَ

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۴۳

الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا[۳۸۴] بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا».

الواقع أن ما بيّنه الإمام عليه السلام هنا ماجاء صراحة في الخطبة ۱۱۴ من «نهج البلاغة»: «كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيا سَماعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيانِهِ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الآخِرَةِ عِيانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَماعِه».

ودليل ذلک واضح، فعالم الآخرة غاية في السعة والكبر وإذا ما قورن بالدنيا كان كالدنيا بالنسبة لعالم الجنين في رحم امّه.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۴۵

القسم الثالث

اشارة

وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتِ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ، وَخَوَتِ الأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَى، وَتَكَاءَدَنَا ضِيقُ الْمَضْجَعِ، وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ، وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ، فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا؛ وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً، وَلَا

مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً! فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَاقَتِهَا، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلىً سَمَّجَهَا وَسَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ، وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي.

الشرح والتفسير: أحوال الأموات!

شرح الإمام عليه السلام فی هذا المقطع من الخطبة، وضع الأموات ومتوسدی القبور ببيان بليغ ومؤثر فقال: «وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ».

ففی الواقع أشار الإمام عليه السلام فی هذه العبارة إلی أمرين: أنّ الاستخبار عنهم ليس

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۴۶

بالطرق العادية (كالبصر والسمع)، بل بطرق أعمق وأقوی من خلال بصيرة القلب وسمع العقل، كما أنّ تكلّمهم ليس بلسان القال، بل بلسان الحال الأعمق آثاراً، فلسان القال قد يشوبه الكذب الذی لا مجال له للسان الحال.

ولنری الآن ما يقولون بهذا اللسان؟ يشير الإمام عليه السلام إلی طبيعة كلامهم: «فَقَالُوا:

كَلَحَتِ ۳۸۵] الْوُجُوهُ النَّواضِرُ[۳۸۶]، وَخَوَتِ ۳۸۷] الأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ ۳۸۸] الْبِلَى، وَتَكَاءَدَنَا[۳۸۹] ضِيقُ الْمَضْجَعِ، وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ، وَتَهَكَّمَتْ ۳۹۰] عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ ۳۹۱]».

نعم! يتحدثون أحياناً عن مصير أبدانهم وأخری عن مواضعهم. الأبدان الذابلة بداية، الوجوه العابسة، ومن ثم تحلّلها، وبالتالی تفسّخها واستحالتها إلی تراب، القبور الضيقة والمظلمة والباردة الساكنة وقد سيطرت عليهم أجواء الرعب فسادهم الصمت التام.

ثم قال: «فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا، وَطَالَتْ فِی مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا؛ وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً، وَلَا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً!».

نعم! فالوجوه النظرة الجميلة والمعروفة والمساكن الواسعة والفارهة التی قلبت رأساً علی عقب بحلول الموت، فتبدلت تلك المنازل الجميلة الفارهة إلی قبور مقفرة مظلمة، وتلك الوجوه الناعمة لم تفقد نضارتها وحيويتها فحسب؛ بل تحولت إلی أشباح موحشة.

ومن هنا قال النّبی الأكرم صلی الله عليه و آله فی كلمة موجزة موقظة: «ما رَأَيْتُ مَنْظَراً إلّاوَالْقَبرُ

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۴۷

أَفْضَعُ مِنْهُ»[۳۹۲].

ثم سعی الإمام عليه السلام ليكشف لمخاطبيه أوضاعهم فی القبور بعبارات حيّة فقال:

«فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ ۳۹۳] أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِ ۳۹۴] فَاسْتَكَّتْ ۳۹۵]، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَاقَتِهَا[۳۹۶]، وَهَمَدَتِ ۳۹۷] الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَعَاثَ ۳۹۸] فِی كُلِ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلىً ۳۹۹] سَمَّجَهَا[۴۰۰] وَسَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ ۴۰۱] قُلُوبٍ، وَأَقْذَاءَ[۴۰۲] عُيُونٍ».

صحيح بقبض الروح يتوقف كلّ شیء لكنه مادام سالماً فإنّ له القابلية لاستعادة نشاطه لو فرض عودة الروح إليه؛ ولكن يفقد كلّ شیء بعد تعفّنه وتلاشيه، ولذلك صرّح الإمام عليه السلام: توقف الحشرات أسماعهم عن العمل والتراب أبصارهم وألسنتهم عن النظر والنطق.

ثم أكمل كلامه بعبارة بصيغة خلاصة فقال: «لَهُمْ فِی كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ[۴۰۳] لَا تَنْجَلِی».

نفحات الولايهٔ، ج۸، ص: ۲۴۸

إشارهٔ إلى أنّ مصيبتهم الكبرى أنّ هذه الأهوال لا- تزول عنهم، بل تتشدد عليهم كلّ يوم؛ وتعاستهم أن ليس أمامهم من مستقبل واضح، وكلما تقادم عليهم الزمان كلّما تآكلت أجسامهم أكثر وبليت عظامهم.

***

نفحات الولايهٔ، ج۸، ص: ۲۴۹

القسم الرابع

اشارهٔ

فَكَمْ أَكَلَتِ الأَرْضُ مِنْ عَزِيز جَسَدٍ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ، كَانَ فِى الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ، وَرَبِيبَ شَرَفٍ! يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِى سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنًّا بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ، وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ! فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِى ظِلِّ عَيْش غَفُولٍ، إِذْ وَطِىءَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ وَنَقَضَتِ الأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَعْرِفُهُ، وَنَجِيُّ هَمٍّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ، آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ، فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِىءْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً، وَلَا اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ؛ حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ: فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ لِمَا بِهِ، وَ مُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ. فَبَيْنَا هُوَ كَذلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرْكِ الأَحِبَّةِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ. فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ! وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَات هِىَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

نفحات الولايهٔ، ج۸، ص: ۲۵۰

الشرح والتفسير: عقبات الموت لاتستوعب فى الالفاظ

أشار الإمام عليه السلام هذا المتكلم البليغ الفصيح الفريد، فى آخر مقطع من هذه الخطبهٔ إلى جوانب أخرى من قضيهٔ الموت ونهايهٔ الحياهٔ وعقباته ليوجزها فى أربع مراحل فقال أوّلًا: «فَكَمْ أَكَلَتِ الأَرْضُ مِنْ عَزِيز[۴۰۴] جَسَدٍ، وَأَنِيقِ ۴۰۵] لَوْنٍ، كَانَ فِى الدُّنْيَا غَذِىَ ۴۰۶] تَرَفٍ، وَرَبِيبَ ۴۰۷] شَرَفٍ! يَتَعَلَّلُ ۴۰۸] بِالسُّرُورِ فِى سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ[۴۰۹] إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنًّا[۴۱۰] بِغَضَارَةِ[۴۱۱] عَيْشِهِ، وَشَحَاحَةً[۴۱۲] بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ!».

وهذا الكلام إشارهٔ دقيقهٔ لمن اعتادوا الحياهٔ الهانئهٔ المرفّههٔ والعيش الرغيد والنعمهٔ الوافرهٔ، الذين يسعون حين نزول المصائب الخروج من ذلك عن طريق أنواع اللعب وقد نسوا كلّ ما من شأنه إيقاظهم وهدايتهم وهذا بحد ذاته مصيبهٔ عظمى فى أن يلوذ الإنسان بعوامل السكر والجهل والغفلهٔ؛ لكن الأحداث المريرهٔ لاتنساهم، وبالتالى فإنّ الأرض سوف تبتلعهم.

نعم، «فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِى ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ ۴۱۳]؛ إِذْ وَطِىءَ

نفحات الولايهٔ، ج۸، ص: ۲۵۱

الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ ۴۱۴] وَنَقَضَتِ الأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ ۴۱۵] مِنْ كَثَبٍ ۴۱۶] فَخَالَطَهُ بَثٌّ ۴۱۷] لَا يَعْرِفُهُ، وَنَجِىُ ۴۱۸] هَمٍّ مَا

كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ، آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ».

إشارة إلى أنّ هؤلاء الجهال مهما سعوا للتناسى إزاء المصائب والضحك على الدوام على الدنيا فإنّ الدنيا هى الأخرى تضحك عليهم؛ ولكن سرعان ما يباغتهم الموت فتفنى قواهم وطاقاتهم الواحدة تلو الأخرى، فالعين تعشو وتضعف، والأذن تثقلّ والعظام تنحف والأعصاب تنهك وتعجز، وتهجم عليهم أنواع الأمراض فيدق العالم فى آذانهم أجراس الموت.

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا فى الواقع إلى انحلال قوى الإنسان أوّلًا، وظهور الأمراض إثر ذلك والتى تعدّ الخطوة الاولى نحو الموت.

ثم اتّجه صوب الخطوة الثانية فى رجوعه دائماً إلى الأطباء وتناول أنواع الدواء وانعدام تأثيرها فقال: «فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ[۴۱۹]، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِىءْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوَّرَ[۴۲۰] حَرَارَةً، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً، وَلَا اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ ۴۲۱] لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ».

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۵۲

نعم! فإن حلّ الأجل زالت اسباب الصحة والسلامة ولم يعد هنالك من أثر للدواء، وعادة ماتكون نتيجته معكوسة فيعيى الأطباء وليس للمريض من سبيل سوى السير إلى الموت.

ما ورد هنا فى عبارات الإمام الدقيقة إشارة للتقسيمات التى كانت متداولة فى الطب القديم حيث كان الأطباء آنذاك يعتقدون بأربعة أنواع من الأمزجة: المزاج الحار، المزاج البارد، المزاج الرطب، والجاف، وهنالك أربعة أمزجة مركبة من زاوية أخرى: المزاج الحار والرطب (الذى يسمى الدموى) والمزاج الحار والجاف (الصفراوى) والمزاج البارد والرطب (البلغمى) والمزاج البارد والجاف (السوداوى).

طبعاً هذه الأمزجة إن كانت فى حد الاعتدال لاتقدح بالصحة، ولأصحابها جميعاً باختلافهم الكثير حياة طيبة؛ ولكن إن غلبت إحدى هذه الأمزجة (الحرارة، البرودة، الرطوبة والجفاف) فلا مناص من التعامل بالعوامل المخالفة لإعادته إلى اعتدال المزاج؛ فالحرارة تسكن بالبرودة والبرودة تحرك بعوامل الحرارة والرطوبة توازن بالجفاف والجفاف يعدل بالرطوبة.

كل هذا التأثير حين لا يختل الأمر وإلّا فليس هنالك أدنى تأثير.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى المرحلة الثالثة وهى مرحلة اليأس من عودة السلامة وانتظار نهاية العمر عن قريب: «حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُه ۴۲۲]، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ ۴۲۳]، وَتَعَايَا[۴۲۴] أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ».

وكأنّ الإمام عليه السلام كان حاضراً عند هؤلاء المرضى واسرهم فهو يتابع عن كثب حالاتهم فالطبيب يظهر عجزه والممرض يبدى تعبه واسرته لا تدرى ما تقول للناس، إذا قالت: صحته أحسن، فذلك غير صحيح، وإذا قالت: أسوأ، فهذا متعب فلا مناص لها من الصمت وتجيب بنظرات العيون المليئة باليأس.

ثم قال عليه السلام: «وَ تَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِىَ ۴۲۵] خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ: فَقَائِلٌ يَقُولُ: هُوَ لِمَا بِهِ،

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۵۳

وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى ۴۲۶] الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ».

وأخيراً بيّن الإمام عليه السلام رابع وآخر مرحلة حياة هذا المريض. حين يكون على اعتاب الموت والتأهب لسفر الآخرة ومغادرة هذا العالم فقال: «فَبَيْنَا هُوَ كَذلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرْكِ الأَحِبَّةِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ».

ثم قال مواصلًا كلامه: «فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ ۴۲۷] عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ!».

نعم! وفى هذه الحالة حيث يعلم بحلول أجله ونهاية عمره يغط فى التفكير فى الأموال التى أخفاها أو الديون على الآخرين ويريد إبلاغها الورثة أو يريد أن يحدّث أهله عن قضايا الدفن وموضع القبر فلا يسعه الكلام.

أشار ابن أبى الحديد هنا إلى قصة فيها عبرة حيث أنّه شهدها آنذاك وهى أنّ أحدهم حضرته الوفاة فأراد الوصيّة فانعقد لسانه فأشار إلى القلم والدواة ليكتب فاضطربت يده فكتب كلاماً غير مفهوم حتى توفى ۴۲۸].

واختتم الإمام عليه السلام خطبته العظيمة الموقظة بهذه العبارة فقال: «وَ إِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ ۴۲۹] هِىَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيا».

نقل المرحوم العلّامة التسترى فى شرحه لنهج البلاغة حديثاً عن كتاب «الكافى» عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنّ فِتيةً مِنْ أولادِ مُلوك بَنى إسرائيل كَانُوا مُتعبِّدينَ وَكانتْ العِبادةُ فِى أولادِ بنىاسرائيل، وإنّهم خَرجُوا يَسيرونَ فِى البِلادِ لَيعتَبِروا فَمرّوا بِقَبرٍ عَلى ظَهرِ الطّرِيقِ قَد سفى عِليهِ السّافى، لَيس يُبيّن مِنهُ إلّا

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۵۴

رَسمُهُ، فَقالُوا: لَو دَعونا اللَّهَ السّاعةَ فَينشُر لَنا صاحِبَ هذا القَبرِ، فَسألناهُ كَيفَ وَجد طَعمَ الموتِ، فَدعوا اللَّهَ ... فَخرجَ مِن ذَلكَ القَبرِ رَجلٌ أبيضُ الرأسِ واللّحيةِ يَنفُضُ رَأسهُ مِنَ التُرابِ فَزعاً شاخِصاً بَصرهُ إلى السّماءِ، فَقالَ لَهم: ما يُوقفُكُم عَلى قَبرى؟

فَقالُوا: دَعوناكَ لِنسألكَ كَيف وَجدتَ طَعم الموتِ، فَقالَ: لَهُم لَقد سَكنتُ فِى قَبرى تِسعةَ وَتسعينَ سنَةً ما ذَهبَ عَنّى ألمُ الموتِ وَكربُهُ وَلا خَرج مِرارةُ طعمِ الموتِ مِن حَلقِى ...»[۴۳۰].

تأمّل: ممرّ يرده الجميع

قيل وقلنا كراراً إنّ الإنسان إن شكّ فى كلّ شىء ليس له أن يشك فى أنّه سيغادر يوماً هذه الدنيا ويشرب راغباً أو مرغماً كأس المنون. كما أنّ كلّ جنين مهما كان شكله وصورته لابدّ أن يمر يوماً برحم الام ويطأ هذه الدنيا، وكل فاكهة لابدّ يوماً أن تسقط من الشجرة وتقطف. والإنسان شاء أم أبى لابدّ أن يشهد الموت.

فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يرغب البعض بسماع اسم الموت؟ لم يسعون لنسيان هذه الحقيقة التى لاتنساهم؟!

والأهم من كلّ ذلك مقدّمات الموت ونتائجه؛ فالحالات العجيبة التى رسمها المولى أميرالمؤمنين على عليه السلام فى هذه الخطبة بتلك الدقّة كصورة حيّة، وصدى الموت الذى اسمعه كل إنسان مستعد لمغادرة هذه الدنيا ولاسيما من حوله، حيث يبدو أنّ الهدف الأصلى للإمام هو إيقاظ الغافلين وهزّ الثملين من الغرور والأنانية والعجب والأهواء، والحق والإنصاف أنّ الإمام عليه السلام أعطى الكلام حقّه بهذا الخصوص وقال كلّ ماينبغى أن يقال بحيث لا يقرأه غافل أو جاهل إلّاأيقظه وبلغ منه تأثيره.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۵۵

قال الإمام عليه السلام فى حديث آخر: «ما رَأَيْتُ إيماناً مَع يَقينٍ أَشْبَهُ مِنْهُ بِشَكٍّ عَلى هذَا الإنْسانِ، إنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ يُوَدِّعُ إلَى الْقُبُورِ وَيُشَيِّعُ، وَإلى غُرُورِ الدُّنْيا يَرْجِعُ وَعَنِ الشَّهْوَةِ وَالذُّنُوبِ لا يُقْلِعُ»[۴۳۱].

بالمقابل نعرف أفراداً هبوا للقاء الموت وابتسموا للأجل ولم يكن لسكرات الموت عندهم من معنى وكأنّهم كمن يتطلع لعزيز فكانت هذه حالتهم أواخر عمرهم. والنموذج الواضح لذلك شخص الإمام عليه السلام الذى قال فى كلامه المعروف فى «نهج البلاغة»: «لَابْنُ أبِىطَالِب آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْىِ امِّهِ»[۴۳۲].

جدير ذكره أنّه ورد فى الأحاديث الإسلاميّة أن موت المؤمن الصالح يختلف عن موت الآخرين. قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: «صِفْ لَنَا الْمَوْتَ» قال: «لِلْمُؤْمِنِ كَأَطْيَبِ طِيْبٍ يَشُمُّهُ فَيَنْعَسُ لِطِيبِه وَيَنْقَطِعُ التَّعَبُ وَالأَلَمُ عَنْهُ وَلِلْكافِرِ كَلَسْعِ الأَفاعَى وَلَدْغِ الْعَقارِبِ وَأَشَدُّ»[۴۳۳].

لا شک فی أنّ عدم تعلق المؤمن بزخارف الدنیا، وبالعکس تهافت الملحدین علیها هو الذی یؤدی إلی الاختلاف المذکور وإن کان هنالک تأثیر فی هذا الأمر لالطاف اللّه ومشاهدات المؤمن بالنسبهٔ للنعم التی تنتظره وبالعکس مشاهدات الکافر والعذاب الذی ینتظره.

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۲۵۷

الخطبهٔ ۲۲۲

اشارهٔ

قالَهُ عِنْدَ تِلاوَتِهِ: «یُسَبِّحُ لَهُ فِیهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۴۳۴]* رِجَالٌ لَّاتُلْهِیهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللَّه ۴۳۵]»[۴۳۶].

نظرهٔ إلی الخطبهٔ

هنالک عدّهٔ أقسام مهمّهٔ فی هذه الخطبهٔ:

القسم الأوّل: بیّن الإمام علیه السلام أهمیّهٔ ذکر اللّه فی کلّ شیء وخاض فی آثارها علی روح للإنسان ونفسه لیشرحها بعبارات مؤثرهٔ.

وأشار فی القسم الثانی إلی حملهٔ الأذکار فی کلّ عصر ومصر ومواعظه فی کیفیهٔ انقاذ عباد اللّه من الانحراف ویضییء طرقهم بمصابیح نوره البینات.

وجری الکلام فی القسم الثالث عن صفاتهم وتولیهم عن زخارف الدنیا

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۲۵۸

واجتناب المعصیهٔ ومناصرهٔ العدل والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر.

وشرح فی القسم الرابع أحوالهم فی القیامهٔ عند نشر صحف الأعمال وحشر العباد للحساب والحدیث عن حسن عاقبتهم والنتائج الباهرهٔ لأعمالهم الصالحهٔ.

وأمر فی القسم الخامس مخاطبیه بحساب أنفسهم وإصدار الحکم علی أعمالهم.

***

نفحات الولایهٔ، ج۸، ص: ۲۵۹

القسم الأوّل

اشارهٔ

إنَّ اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَی جَعَلَ الذِّکْرَ جِلَاءً لِلْقُلوب، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَهِٔ، وَ تُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَهِٔ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَهِٔ، وَمَا بَرِحَ لِلّهعَزَّتْ آلَاؤُهُ فِی الْبُرْهَهِٔ بَعْدَ الْبُرْهَهِٔ، وَفِی أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِی فِکْرِهِمْ، وَکَلَّمَهُمْ فِی ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ یَقْظَهٔ فِی الْأَبْصَارِ وَالأَسْمَاعِ وَالأَفْئِدَهِٔ، یُذَکِّرُونَ بِأَیَّامِ اللّه، وَیُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَهِٔ الأَدِلَّهِٔ فِی الْفَلَوَاتِ.

مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَیْهِ طَرِیقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاهِٔ، وَمَنْ أَخَذَ یَمِیناً وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَیْهِ الطَّرِیقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَکَهِٔ، وَکَانُوا کَذلِکَ مَصَابِیحَ تِلکَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّهَٔ تِلْکَ الشُّبُهَاتِ.

الشرح والتفسير: أدلة السائرين على الطريق

لابدّ بادئ الأمر من معرفة تفسير آية سورة النور ليتضح الكلام العميق للإمام عليه السلام فى شرحه للموضوع.

تحدث القرآن المجيد فى الآية ۳۵ من سورة النور: «اللَّه نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ...» عن نور اللَّه وشرحه بمثال لطيف يتضمن العديد من الأمور التعليمية ثم قال فى الآيات التالية: «فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ* رِجَالٌ لَاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ»[۴۳۷].

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۲۶۰

من الواضح أنّ هؤلاء الرجال بالدرجة الاولى هم الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام ومن بعدهم المخلصين السائرين على نهجهم.

ونخوض بعد هذه الإشارة الاجمالية فى شرح الخطبة، قال الإمام عليه السلام فى مستهل هذه الخطبة: «إِنَّ اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ[۴۳۸] جِلَاءً[۴۳۹] لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ[۴۴۰]، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ[۴۴۱]، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ».

نعم! هنالك آثار عجيبة للذكر إن اقترن بالفكر. فإذا ذكر الإنسان اسم اللَّه بعظمة وعدد صفاته الجماليّة والجلاليّة من علم وقدرة وسمع وبصر ومقام الرحمانيّة والرحيميّة ومراقبته بالنسبة لعباده، زالت عن بصيرته حجب الغفلة ورأى الحق واضحاً، وتخمد لجاجة الأهواء والشهوات فيسمع باذن روحه خطاب أولياء اللَّه والدعاة إلى مرضاته ونتيجة ذلك الانقياد التام لأوامر اللَّه.

ذهب بعض الشراح أو احتملوا أنّ المراد من الذكرفى العبارة، القرآن المجيد بقرينة ما أورده القرآن بشأنه فقال: «وَهذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ»[۴۴۲] ولكن الحق أنّ للذكر مفهوم عام، أحد مصاديقه البارزة الآيات الشريفه للقرآن.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَ مَا بَرِحَ ۴۴۳] اللَّه عَزَّتْ آلَاؤُهُ فِى الْبُرْهَةِ[۴۴۴] بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِى

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۲۶۱

أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِى فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِى ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِى الأَبْصَارِ وَالأَسْمَاعِ وَالأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّه، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الأَدِلَّةِ فِى الْفَلَوَاتِ ۴۴۵]».

ربّما هذا التعبير إشارة لأوصياء الأنبياء المتواجدين طيلة الفترات الزمنية ويستلهمون الحقائق الربانية عن طريق الإلهامات القلبيّة ويوصلونها إلى العباد.

كما يمكن أن تكون إشارة إلى الصالحين والمخلصين والعارفين والبصيرين غير الأنبياء والأوصياء الذين يعيشون بين الناس فى كلّ زمان؛ فهؤلاء أيضاً يقفون على الصراط المستقيم بالإلهام الغيبى والتأييد الربّانى ويسعون لهداية الآخرين، ولعلها تشمل الفريقين.

والتعبير ب «أَدلّة» جمع دليل إشارة إلى ما كان سائداً فى الأسفار فى الأزمنة الماضية، فلم تكن الطرق مشخصة آنذاك كما هى عليه اليوم، فيمر بها المسافر ويصل المقصد، ومن هنا فإنّ القوافل تحمل معها عارفين بالطريق حتى لايضلوا الطريق ويطلق عليهم «الأدلة».

فهؤلاء الأولياء فى الحياة الدنيا كأدلة الطريق الذين يهدون قافلة البشريّة من الضلال وينقذونهم من الهلكة.

ثم قال عليه السلام: «مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ».

نعم! فهؤلاء يراقبون بنى جنسهم على الدوام؛ فيشجعون السائرين على الدرب ويشدون عزائمهم ويحذرون المنحرفين ويذمونهم ويصرخون بهم حتى لا يواصلوا طريق الانحراف فيهلكوا.

ثم قال فى استنتاج لما ورد فى العبارات السابقة: «وَكَانُوا كَذلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ».

نعم! فهنالك الظلمات المعتمة فى مسيرة الحياة الدنيا والطرق المضلة وكلاهما خطر على السالكين، ووجود أولئك الأولياء مصابيح

للدجى والأدلة على ذلك الطريق الخطير.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۶۲

تأمّلان

۱. ما المراد من أيّام اللَّه؟

أشـار الإمـام عليه السـلام فى هـذا الجـانب من الخطبـة إلى أنّ أوليـاء اللَّه يـذكّرون النـاس بأيّام اللَّه. طبعاً كلّ الأيّام هى أيّام اللَّه وكل موضع بيته وفى نفس الوقت ليس له يوم ولا بيت فهو اسـمى من الزمان والمكان؛ ولكن كما سـميت الكعبـة كونها اعظم مركز للعبادة «بيت اللَّه»، فإنّ هناك بعض الأيّام الخاصّة التى تلألأت لما تحمله من حوادث مهمّة.

قـال البعض: «أيّـام اللَّه» إشـارة إلى غلبـة الأنبيـاء لجيوش الشـرك والكفر. وقال البعض الآخر: أيّام العبادة كأيّام الشـهر المبارك وأيّام الحج، ما ورد فى تاريخ بنى إسـرائيل وموسـى أنّه أمر أن يذكر بنى إسرائيل بأيّام اللَّه فى إشارة إلى يوم النصر على فرعون والنجاة من البحر وما شابه ذلك، ولكن جاء فى حـديث الإمام الصادق عليه السـلام أنّه قال فى تفسـير «أيّام اللَّه»: «يُرِيدُ بِأيّامِ اللَّه سُـنَنَهُ وَأفْعالَهُ فى عِبادِهِ مِنْ إنْعام وَانْتِقام»[۴۴۶].

وطبق هذه الرواية فإنّ كلّ يوم يلمس فيه العبد نعمة من نعم اللَّه أو ينتصف فيه من الأعداء إنّما يعتبر من أيّام اللَّه.

على كلّ حال فإنّ ذكر ايام اللَّه عامل تكامل الإيمان وآثاره حسن الشكر والتوجه إلى اللَّه.

حتى أيّـام البلاء الربّانى عـدّت فى الروايـة من أيّام اللَّه كما ورد عن النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله: «أَيّامُ اللَّه نَعْماؤُهُ وَبَلاؤُه وَمَثُلاتُهُ سُبْحانَهُ»[۴۴۷]. لا شك فى أنّ لمفردة أيّام اللَّه فى هذه الخطبة مفهوم عام يشمل كلّ ما ذكر سابقاً.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۶۳

۲. الإلهامات الغيبية

العبـارة «عِبادٌ ناجاهُمْ فى فِكْرِهِمْ وَكَلَّمَهُمْ فى ذات عُقُولِهِمْ ...» أشار فيها الإمام عليه السـلام إلى رجال ألقى اللَّه فى قلوبهم نور الهـدى عن طريق النجوى الفكريـة والإلهامـات القلبيّـة وطرح عنهم حجب الجهـل والظلمـة فسـعوا بما يتلقّون من هـدى لهدايـة الخلق وإرشاد ضالى سبيل الإيمان والتقى.

فهـل هؤلاـء هم الأوصـياء والأئمّـة المعصومون عليهم السـلام الـذين يتلقون الحقـائق من عـالم الغيب عن طريق الإلهام فى فترات بعثة الأنبياء، أم يشمل الصالحين من الأفراد الذين بلغوا قمة الورع والتقوى؟

أى أنّ قلوبهم مرتبطـة بعالم الغيب كما هو به مضـمون «إِنْ تَتَّقُوا اللَّه يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَاناً»[۴۴۸]. ومضمون «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا»[۴۴۹].

واللَّه لا يتركهم لوحدهم فى الشدّة كأُم موسـى عليه السلام: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ...»[۴۵۰] حيث ألهمها مسير ولدها، فكيف يمكن أن يحرم من هـذا الفيض سـائر الصـالحين، ومن هنـا يعتقـد بعض الأعلاـم بأنّ كلّ عمل مهم يصـدر من تقى، أو اكتشاف يتوصل إليه عالم، إنّما يتمّ فى ظل هداية اللَّه التكوينيةّ والإلهاميّة.

فروح القـدس الذى يعين بعض الأفراد مثل حسان بن ثابت والكميت حين إنشادهم لتلك الأشـعار الرفيعة وينطق الشعر على ألسـنتهم

۴۵۱] فلِمَ لا يمدّ سائر العشاق.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۶۵

القسم الثانى

اشارة

وَإنّ لِلـذِّكْرِ لِاهْلًا أَخَـذُوهُ مِنْ الـدُّنْيَا بَـدَلًا، فَلَم تَشْـغَلْهُمْ تِجارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّه فِى أَسْـمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذلِك، فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِى طَولِ الْاقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَـفُوا غِطَاءَ ذلِك لِاهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ.

الشرح والتفسير: أولياء اللَّه وأهل الذكر

لما فرغ الإمام عليه السـلام من بيان آثار ذكراللَّه فى جلاء القلوب وسعة معطياته على روح الإنسان، خاض فى شرح أهل الذكر بالحق، وتطرق إلى صفاتهم الواحدة تلو الأخرى فقال «وَ إنّ لِلذِّكرِ لِاهْلًا أَخَذُوهُ مِنْ الدُّنْيا بَدَلًا».

إشارة إلى أنّ ذكر اللَّه يعصم من الغرور بالماديات الزائلة للدنيا التى عبرت عن حبّها الأحاديث الإسلاميّة أنّها «رَأْسُ كُلِّ خَطيئَة»[۴۵۲] ومصدر جميع المعاصى.

طبعاً هـذا لا يعنى أنّ هؤلاء كالرهبان الملازمين للـدير أو المقاطعين للـدنيا الـذين يولون أدبارهم للحياة الاجتماعيـة (بقرينـة العبارات القادمة) بل المراد أنّ هؤلاء لا تأسرهم مُغريات الدنيا.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۶۶

أمّا ما المراد ب «الذكر» و «الأهل»؟ هنالك تفسـيران رئيسـيان: أحدهما خاص والآخر عام؛ التفسير الخاص: أنّ المراد من الذكر، النّبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله أو القرآن وأهـل الـذكر «أهل‌البيت» والأئمـة المعصومون عليهم السـلام والصـفات التى وردت بعـد هـذه العبارة فى أهل الذكر تنطبق عليهم بصورة تامة.

ومفهومه العام يشمل جميع العلماء الأتقياء والمؤمنين الكمل، والصفات الواردة بعدها تنطبق عليهم.

وليس هنالك مانع من الجمع بين المعنيين؛ فمفهوم الجملة عام وأهل البيت من مصاديقها البارزة وأنصع نماذجها.

ثم بين الإمام عليه السلام فى مواصلته لكلامه آثار ذكر اللَّه لدى هؤلاء ضمن خمس صفات فقال: «فَلَم تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ».

لاـ أنّهم لم يكن لـديهم بيع وتجارة ولم يمارسوا الأنشـطة الاقتصاديـة والاجتماعيـة، بل كانوا يخطون خطوات مؤثرة فى هـذا المجال؛ ولكن هذه الأنشطة الاقتصادية تجعلهم يغفلون عن ذكر اللَّه ويتهالكون فى الاقبال على الدنيا.

أمّـا ما الفرق بين التجارة والبيع؟ يقال أحياناً النسـبة بينهم العموم والخصوص المطلق وذكر البيع بعـد التجارة من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّ البيع أحد أنواع الفعاليات الاقتصادية.

كما يحتمل أن تكون التجارة إشارة إلى الفعاليات الاقتصادية المستمرة ويشمل البيع الفعاليات المحدودة والزمانية؛ أى أنّ أهل الذكر لا يفقدون هذا ولا ذاك وفى نفس الوقت يتجلى فيها ذكر اللَّه بصورة دائمة.

ثم أشار إلى باقى صـفاتهم فقال: «يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتِفُونَ ۴۵۳] بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّه فِى أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ».

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۶۷

الجملة «يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ» إشارة إلى أنّ ذكر اللّه وآثاره المباركة ليست مرتبطة بيوم أوبضعة ايام من عمرهم، بل يشمل أيّام حياتهم منذ الشباب حتى الكهولة والشيخوخة.

وتشير العبارات بعدها إلى أنّهم لا يتخلون قط كالمتقوقعين عن المسؤوليّات الاجتماعية؛ بل نشطون للغاية فى ميدان إرشاد الجاهل وتنبيه الغافل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبالنظر إلى أنّ العبارة وردت بصيغة الفعل المضارع والفعل المضارع يدل على الاستمرار، فهى إشارة إلى أنّ أعمالهم الصالحة هذه دائمية.

جدير ذكره أنّ الإمام بيّن هنا أنّهم يأمرون بالمعروف ويأتمرون به وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، كما قال الإمام عليه السلام فى الخطبة ۱۷۵: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى، وَاللَّه، مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا!».

ثم خاض الإمام عليه السلام فى مزيد من الشرح بخصوص أحوال أولياء اللّه وأهل الذكر فقال: «فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذلِكَ».

نعم! فهؤلاء يرون هذا العالم بأعينهم الباصرة النافذة عالم ما بعد الموت والقيامة والبرزخ ويشاهدون مصير الأخيار والأشرار.

ثم قال فى ايضاح ذلك الكلام: «فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِى طَولِ الْاقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا[۴۵۴]».

ثمّ بيّن نتيجة هذه المكاشفة الروحية: «فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذلِكَ لِاهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ».

لم يعجز أهل الدنيا العاديون عن إدراك أحوال البرزخ والآخرة بينما يشاهدهما

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۶۸

أولياء اللّه أهل الذكر بل يرون فيها أنفسهم؟

لأنّ أرواح أهل الدنيا معلقة بالدنيا فألقت حجاباً بينهم وبين العوالم الأخرى؛ أمّا أهل الذكر الأطهار المتحررون من تلك التعلّقات والذين جلوا أرواحهم بدوام التفكير والعبادة، أزيلت عن أعينهم تلك الحجب فانعكست فيها صور حقائق عالم البرزخ والقيامة.

هؤلاء حملة الرسائل الإلهيّة من ذلك العالم إلى هذا العالم، الرسائل التى تؤدى إلى يقظة الغافلين وإبصار المكفوفين.

***

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۶۹

القسم الثالث

اشارة

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِى مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الْاسْتِقْلَالِ بِهَا، فَنَشَجُوا نَشِيجاً، وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً، يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ، لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدىً، وَمَصَابِيحَ دُجىً، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ فِى مَقْعَدٍ اطَّلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِىَ سَعْيَهُمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ. يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ، رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ، وَأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ. لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللَّه مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ.

فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ.

الشرح والتفسير: مصير السائرين على الصراط

رسم الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة صورة دقيقة لحال أهل الذكر وأولياء اللّه، كيف يحاسبون أنفسهم ويتلافون ما بدر منهم فقال: «فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ ۴۵۵] لِعَقْلِكَ فِى

نفحات الولايهْ، ج۸، ص: ۲۷۰

مَقَاوِمِهِمُ ۴۵۶] الْمَحْمودَةِ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ ۴۵۷] أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ۴۵۸] ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الْاسْتِقْلَالِ بِهَا، فَنَشَجُوا نَشِيجاً[۴۵۹]، وَتَجَاوَبُوا[۴۶۰] نَحِيباً[۴۶۱]، يَعِجُّونَ ۴۶۲] إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ».

ولما فرغ الإمام عليه السلام من ذكر حالات أولياء اللّه كيف يراقبون أنفسهم ويحاسبون أعمالهم وما يبدون من ردود أفعال إزاء ما يبدر منهم من تقصير ويتأوّهون إلى اللّه خلص إلى نتيجة ذلك فقال: «لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدىً، وَمَصَابِيحَ دُجىً ۴۶۳]، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ فِى مَقْعَدٍ اطَّلَعَ اللّه عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِىَ سَعْيَهُمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ».

هذا القسم من كلام الإمام فى الواقع جواب شرط للجملة السابقة: «فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ ...». ذكر الإمام عليه السلام هنا خمس صفات أو نتيجة مهمّة لمراقباتهم تفيد الهدى وكشف الدجى. إشارة إلى أنّهم ليسوا كالزهاد المعتزلين قط الذين لا يرون إلّا أنفسهم، بل هم منقذو الغرقى الذين يسعون لإنقاذ الغرقى فى بحر المعاصى، وأنّهم على درجة من العلو والرفعة من حيث المقام والمكانة بحيث تحفهم الملائكة وتقوم

نفحات الولايهْ، ج۸، ص: ۲۷۱

على خدمتهم كما ورد فى القرآن: «الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّه ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ»[۴۶۴].

وقد عمهم الأمن والسكينة بمضمون «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ»[۴۶۵]. وتنتظرهم بمضمون «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّات وَنَهَر* فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ»[۴۶۶] مقامات لا توصف من الفضل والرحمة الإلهيّة.

حقاً حين يقرأ الإنسان هذه الكلمات العميقة المعنى كيف يبلغ أولياء اللّه فى ظل العبودية مقاماً لا يرى سوى اللّه يستغرق فى التفكير فى عظم الاستعداد الذى يملكه ولو عرف قدره وفجر استعداده.

ثم خاض فى جانب آخر من أحوال أهل الذكر فى إرتباطهم باللّه وعبادته فى الخلوات فقال عليه السلام: «يَتَنَسَّمُونَ ۴۶۷] بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ، رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ، وَأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَى ۴۶۸] قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ».

إشارة إلى أنّهم كلما جدّوا فى الطاعة والعبودية شعروا بالتقصير أزاء عظمة اللّه، ومن هنا يتجهون إليه على الدوام ويلتمسون السكينة عن طريق العفو، ومن جانب آخر فإنّهم لايعوّلون قط على أعمالهم، بل يتكلون على فضل اللّه فيثقل الهم قلوبهم ويكشف ذلك الهم عيونهم الباكية.

ثم قال عليه السلام: «لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللّه مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ ۴۶۹]، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ».

إشارة إلى أنّهم لا يتعلقون بأعمالهم وكل أملهم بكرم اللّه.

يقرعون كلّ باب ويأتون بكلّ عمل يعتقدون بأنّه سبب لمرضاة اللّه واستنزال

نفحات الولايهْ، ج۸، ص: ۲۷۲

رحمته.

إنّهم يعيشون فى الواقع بين الخوف والرجاء دائماً وهو أفضل حالات المؤمن، الخوف من التقصير والأمل بفضل اللّه.

وفى الختام تغير لحن كلام الإمام عليه السلام عن شرح حالات أهل الذكر ليتطرق إلى موعظة عامة فقال: «فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ».

إشارة إلى أنّه ينبغى عليك أن تحاسب نفسك هنا قبل أن تحاسب فى البرزخ والقيامة من جانب الملائكة فإن بدر منك خطأ تلافيته وإن كان لك عمل صالح حمدت اللّه عليه؛ وليس لك أن تدقق فى أعمال الآخرين الصغيرة والكبيرة فإنّ لهم حسيباً غيرك.

فهنالك فى الواقع رسالتان فى العبارة الأخيرة؛ إحداهما، رسالة الحديث المعروف «حاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحاسَبُوا»[۴۷۰].

والأخرى، رسالة الآية الشريفة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ امَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»[۴۷۱].

تأمّل: ذكر اللّه والذاكرون

كل ما ورد فى هذه الخطبة الغراء والعظيمة المضمون كان شرحاً لعبارة من آية فى القرآن الكريم وهى أنّ أولياء اللّه لايغفلون قط عن ذكر اللّه لمتاع الدنيا، فنور اللّه يسطع فى بيوتهم وهم كالنجوم التى تهدى الخلق فى ظلمات البر والبحر.

بغض النظر عن أنّ للذكر ثلاث مراحل: الذكر القلبى، واللسانى والذكر بالعمل، فهنالك مصاديق متفاوتة لكل مرحلة كالنور الذى يشمل نور الشمس ونور الشمعة.

ويكون أحياناً هذا الذكر محدوداً بحيث لايضيئ اكثر من الوسط، وأخرى على

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۲۷۳

درجة من العمق والسعة بحيث يضيئ العالم.

وأولى القرآن أهمّيّة فائقة للذكر والذاكرين. فقد خاطب اللّه تعالى موسى عليه السلام:

«أَقِمِ الصَّلوةَ لِذِكْرِى»[۴۷۲].

وقال أيضاً: «إِنَّ الصَّلوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّه أَكْبَرُ»[۴۷۳].

وقال بخصوص الخمر: إنّه نهى عن الخمر كونه يصدّ عن ذكر اللّه: «وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّه»[۴۷۴].

كما يقول إن نفوذ الشيطان يبدأ حين يغفل الإنسان ذكر اللّه: «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»[۴۷۵].

وأوجز تعالى كلّ عظمة القرآن فى عبارة فقال: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ»[۴۷۶].

وقال تعالى: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»[۴۷۷].

وأخيراً وصف ذكر اللّه أنّه وسيلة لاطمئنان القلوب: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّه تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»[۴۷۸].

ورغم أنّ للذكر معانى مختلفة فى هذه الآيات؛ لكنها تشترك جميعاً فى أمر هو أنّه يسوق الإنسان إلى اللّه، يجرى من القلب على اللسان ويتسع من اللسان لجميع أعمال الإنسان. وكأنّ جميع الأعضاء تذكر اللّه بصوت بليغ فى كلّ الأعمال.

كما وردت الأهميّة الفائقة للذكر والذاكرين فى الروايات:

منها ماروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما مِنْ شَىْءٍ إِلّاوَلَهُ حَدٌّ يَنْتَهى إِلَيْهِ

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۲۷۴

إِلّا الذِّكْرَ فَلَيْسَ لَهُ حَدٌّ يَنْتَهى إِلَيْهِ»[۴۷۹].

كما ورد عنه عليه السلام أيضاً: «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أَظَلَّهُ اللَّه فى جَنَّتِه»[۴۸۰].

ويستفاد من بعض الروايات أنّ ذكر اللّه يدفع أنواع البلاء. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الصَّواعِقَ لا تُصيبُ ذاكِراً»[۴۸۱].

بل أبعد من ذلك أنّه عليه السلام قال: «ما مِنْ طَيْرٍ يُصادُ إِلّابِتَرْكِ التَّسْبيحِ وَما مِنْ مالٍ يُصابُ إِلّابِتَرْكِ الزَّكاةِ»[۴۸۲].

زبـدة الكلام أنّ الآيات والروايات فى ذكر اللَّه وأهمّيته وآثاره على الحياة الماديـة والمعنويـة والدنيا والآخرة كثيرة، وما ورد سابقاً هو جانب من ذلك.

ونختتم هذا الكلام برواية عن الإمام الصادق عليه السـلام التى بيّنها فى تتمّة حديث، عدم محدودية الذكر فقال: «كانَ أبى كَثيرَ الذِّكْرِ لَقَدْ كُنْتُ أمْشى مَعَهُ وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ اللَّه وَآكُلُ مَعَهُ الطَّعامَ وَ إِنَّهُ لَيَذْكُرُ اللَّه وَلَقَدْ كانَ يُحدِّثُ الْقَومَ وَما يَشْغُلُهُ ذلِكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّه ...»[۴۸۳].

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۷۵

الخطبة ۲۲۳

اشارة

قالَهُ عِنْدَ تِلاوَتِهِ:

«يَا أَيُّهَا الْانسَانُ مَا غَرَّك بِرَبِّك الْكَرِيمِ ۴۸۴]»[۴۸۵]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة الواردة فى تفسير الآية الشريفة: «يَا أَيُّهَا الْانسَانُ مَا غَرَّك بِرَبِّك الْكَرِيم» من عدة أقسام:

القسم الأوّل: تساءل الإمام ووبّخ صـحبه ومخاطبيه من أجل إيقاظهم وبثّ الوعى بين صـفوفهم فإلى متى هم نائمون ولم لا يفيقون من هـذا السبات؟ لمَ لاـ يرحمون أنفسـهم وينقـذونها ممّـا تغـط به فى مسـتنقع الـذنوب والمعاصـى ويطببون جروحهم وآلام قلوبهم التى أفرزتها الآثام.

ودعا فى القسم الثانى هذا الإنسان الهارب لمحاكمة نفسه. فيذكرها بنعم اللَّه فلو

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۷۶

تفرغ لمحاكتها لأدان نفسه قطعاً.

وتحـدث فى القسم الثـالث عن تقلب أوضـاع الـدنيا والاعتبار بحياة الماضـين ومماتهم. وحـذّر فى آخر قسم ببضع عبارات موجزة فناء الدنيا وقيام القيامة وحضور محكمة العدل الإلهى وغياب الأعذار هناك.

ثم جعل كلّ هذه التذكيرات والتحذيرات وسيلة لخرق حجاب الغرور الذى أشار إليه فى الآية المذكورة.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۷۷

القسم الأوّل

اشارة

أَدْحَضُ مَسْؤُولٍ حُجَّةً، وَأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ.

يَا أَيُّهَا الْانْسَانُ، مَا جَرَّأَك عَلَى ذَنْبِك، وَمَا غَرَّك بِرَبِّك، وَمَا أَنَّسَك بِهَلَكَةِ نَفْسِك؟ أَمَا مِنْ دَائِك بُلُولٌ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِك يَقَظَةٌ؟

أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِك مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِك؟ فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلِي بِأَلَم يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَّرَك عَلَى دَائِك، وَجَلَّدَك عَلَى مُصَابِك، وَعَزَّاك عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِك وَهِيَ أَعَزُّ الأَنْفُسِ عَلَيْك! وَكَيْفَ لَا يُوقِظُك خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ! فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ الْفَتْرَةِ فِي قَلْبِك بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَى الْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِك بِيَقَظَةٍ، وَكُنْ للّه مُطِيعاً، وَبِذِكْرِهِ آنِساً.

الشرح والتفسير: الرحمة بالنفس؟

قال الإمام عليه السلام في مستهل الخطبة على ضوء الآية المذكورة «أَدْحَضُ ۴۸۶] مَسْؤُولٍ حُجَّةً، وَأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ ۴۸۷] جَهَالَةً بِنَفْسِهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى هذه النقطة وهي أنّ اللّه يصرّح في هذه الآية:

لقد أفاض اللّه عليك كلّ هذا الكرم بالنعم المادية والمعنوية من رأسك إلى أخمص قدمك ومازلت مغروراً وعاصياً ومتمرداً؟!

فليس لديك أدنى حجة وليس لديك من

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۷۸

عذر وعملك يدل على أنّك لم تعرف نفسك.

ومن هنا يتضح خطأ من ذهب إلى أنّ صفة الكريم في الآية لتلقين المخاطب بأن يقول في الجواب: «غرّني كرمك»، بل يريد أن يقول بالعكس رغم كلّ هذا الكرم واللطف مع كلّ هذا العصيان المخجل الذي يفتقر إلى العذر والحجّة، لذلك ورد في الحديث النبوي أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله لما تلا الآية قال: «غرّهُ جَهلُهُ»[۴۸۸].

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح هذا الكلام ليسلط بهذه العبارات سوط ملامته وتوبيخه على جسد أرواحهم الهامدة علّهم يفيقون ويعودوا عن غيهم فقال: «يَا أَيُّهَا الْانْسَانُ، مَا جَرَّأَك عَلَى ذَنْبِك، وَمَا غَرَّك بِرَبِّك، وَمَا أَنَّسَك بِهَلَكَةِ نَفْسِك؟».

إشارة إلى أنّ غريزة حبّ الذات في الإنسان أقوى الغرائز؛ فالإنسان بصورة طبيعية يحب نفسه أكثر من أي شخص آخر وإذا رأينا شخصاً يطعن صدره وعضده لذهلنا وتساءلنا مع أنفسنا: هل أصيب بالجنون، أو يرغب شخص عاقل بهلاك نفسه؟ فإن لم تكن للإنسان أدنى رغبة بهلاك نفسه فلم يتقبل الغرور والذنب والمعصية التي تؤدي إلى هلاكه؟!

ثم قال عليه السلام: «أَمَا مِنْ دَائِك بُلُولٌ ۴۸۹]، أَمْ لَيسَ مِنْ نَوْمَتِك يَقَظَةٌ؟ أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِك مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِك؟».

ثم أوضح هذه الحقيقة بذكر مثال فقال: «فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ ۴۹۰] مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلِي بِأَلَم يُمِضُّ ۴۹۱] جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ! فَمَا صَبَّرَك عَلَى دَائِك، وَجَلَّدَك ۴۹۲] عَلَى مُصَابِك، وَعَزَّاك عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِك وَهِيَ أَعَزُّ الأَنْفُسِ عَلَيْك!».

إشارة إلى ما نراه من تناقض في فعل الآخرين وازدواج في أحكامهم فهم يبدون

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۷۹

أشد ردود الأفعال إزاء انزعاج الآخرين وسقم المرضى وأحياناً تسيل الدموع من أعينهم في حين مرضهم أشد ومصيبتهم أعظم ولا يبدون أي رد فعل.

أراد الإمام عليه السلام بهذا البيان المنطقي البليغ أن يوقظ هؤلاء الغافلين الجهّال والساذجين ويلفت انتباههم إلى ما ينتظرهم من مصير خطير لعلهم يتوبون وينيبون إلى اللّه.

ثم قال عليه السلام: «وَكَيْفَ لَا يُوقِظُك خَوْفُ بَيَاتِ ۴۹۳] نِقْمَة، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ ۴۹۴] بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ ۴۹۵]! فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ الْفَتْرَةِ فِي قَلْبِك بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَى ۴۹۶] الْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِك بِيَقَظَةٍ».

هنالك أمران ضروريان للخلاص من الخطر: اليقظة والحذر من جهة والإرادة والعزم الراسخ من جهة أخرى وقد أشار الإمام إلى

هـذين الأمرين بهـذه العبارة الموجزة فحذّر الجهال بأن يفيقوا من سبات الغفلة ويعقدوا العزم مادامت الفرصة سانحة على خلاص أنفسهم من مخالب المعاصى التى تؤجج نيران الغضب الربانى.

التعبير ب «بَيَاتِ نِقْمَهٔ» كون ضحايا البلاء النازل ليلًا أكثر؛ من قبيل الزلازل والسيول والعواصف التى تحدث ليلًا ويغط الناس فى النوم ولا يملكون من وسيلهٔ للدفاع عن أنفسهم.

قال تعالى فى القرآن المجيد: «أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ* أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ»[۴۹۷].

وقال فى ختام هذه الفقرهٔ: «وَكُنْ لِلّهِ مُطِيعاً، وَبِذِكْرِهِ آنِساً».

نفحات الولايهٔ، ج۸ ص: ۲۸۱

القسم الثانى

اشارهٔ

وَتَمَثَّلْ فِى حَالِ تَوَلِّيک عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْک، يَدْعُوک إِلَى عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُک بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَک عَلَى مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِى كَنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِى سَعَهِٔ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ. فَلَمْ يَمْنَعْک فَضْلَهُ، وَلَمْ يَهْتِک عَنْک سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرِفَ عَيْنٍ فِى نِعْمَهٍٔ يُحْدِثُهَا لَک، أَوْ سَيِّئَهٍٔ يَسْتُرُهَا عَلَيْک، أَوْ بَلِيَّهٍٔ يَصْرِفُهَا عَنْک! فَمَا ظَنُّک بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ! وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ هذِهِ الصِّفَهَٔ كَانَتْ فِى مُتَّفِقَيْنِ فِى الْقُوَّهِٔ، مُتَوَازِيَيْنِ فِى الْقُدْرَهِٔ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِک بِذَمِيمِ الأَخْلَاقِ، وَمَسَاوِىءِ الأَعْمَالِ.

الشرح والتفسير: رحمهٔ اللّه ومعصيهٔ العبد؟!

دعا الإمام عليه السلام الناس فى هذا الجانب من الخطبهٔ إلى الحكم على أنفسهم وعدد أدلهٔ إدانته، ومن ذلك أنّه يحث الخطى دائماً فى طريق العصيان من جهة ومن جهة أخرى يمطره اللّه بوابل فضله ورحمته فقال: «وَتَمَثَّلْ ۴۹۸] فِى حَالِ تَوَلِّيک عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْک، يَدْعُوک إِلَى عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُک ۴۹۹] بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ».

حقّاً إنّه لمن المؤسف والمخجل أن يكون مولى الإنسان كريماً يغذيه بأنواع النعم لكنه يتولى عنه دائماً؛ الأمر الذى لا يقبله أى وجدان.

نفحات الولايهٔ، ج۸ ص: ۲۸۲

وهذا ما نقرأه فى دعاء الافتتاح فى شهر رمضان المبارک: «يا رَبِّ، انَّک تَدْعُونى فَاوَلّى عَنْک، وَتَتَحَبَّبُ الَىَّ فَاتَبَغَّضُ الَيْک، وَتَتَوَدَّدُ الَىَّ فَلا اقْبَلُ مِنْک، كَانَّ لِىَ التَّطَوُّلَ عَلَيْک، فَلَمْ يَمْنَعْک ذلِک مِنَ الرَّحْمَهِٔ لى وَالْاحْسانِ الَىَّ، وَالتَّفَضُّلِ عَلَىَّ بِجُودِک وَكَرَمِک».

ثم قال: «فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَک عَلَى مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِى كَنَفِ ۵۰۰] سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِى سَعَهِٔ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ!».

إشارة إلى أنّه ليس من العجب أن يعتمد الأفراد الأقوياء أُسلوب العنف. والعجب أن يسلک الفرد الضعيف والذليل العاجز هذا الطريق؛ إلّاأنّ اللّه بكلّ تلک القدرهٔ العظيمهٔ هو منتهى الحب والرأفهٔ بينما يبدى هذا الإنسان بكلّ هذا الضعف والعجز كلّ هذه الجرأهٔ على المعصيهٔ فى حين لا يمسک عنه فضله ورحمته وهذا عجيب حقّاً!

ثم قال عليه السلام: «فَلَمْ يَمْنَعْک فَضْلَهُ، وَلَمْ يَهْتِک عَنْک سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرِفَ عَيْنٍ ۵۰۱] فِى نِعْمَهٍٔ يُحْدِثُهَا لَک، أَوْ سَيِّئَهٍٔ

يَسْتُرُهَا عَلَيْک، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْک! فَمَا ظَنُّک بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ!».

إشارة إلى أنّ الإنسان لا يخلو من ثلاث حالات: إما مشمول بنعمة لابدّ أن يؤدى شكرها، أو ارتكب معصية سترها اللَّه وعليه أن يمتن لذلك الستر ويستغفر أو دفع عنه بلاءً وينبغى له أن يعرف قيمة هذه النعمة، هذا بينما مَن يسير فى طريق العصيان لا يكترث لأوامر اللَّه ونواهيه، فما عساه أن فكر بأنّ اللَّه الرحيم والغاية فى الكرم كيف سيجازيهم إن أطاعوه، وهذه هى مسألة «وجوب شكر المنعم» التى يمكنها أن تكون دافعاً لمعرفة اللَّه كما يقول علماء العقائد.

آنذاك نظر الإمام إلى هذه المسألة من زاوية أخرى فخاض فى بيان آخر لإيقاظ

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۲۸۳

مخاطبيه فقال عليه السلام: «وَأَيْمُ اللَّه ۵۰۲] لَوْ أَنَّ هـذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِى مُتَّفِقَيْنِ فِى الْقَوَّةِ، مُتَوَازِيَيْنِ فِى الْقُدْرَةِ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِك بِذَمِيمِ الأَخْلَاقِ، وَمَسَاوِىءِ الأَعْمَالِ».

ذهب بعض شرّاح «نهج البلاغة» إلى أنّ العبارة السابقة بصيغة صغرى وكبرى من الشكل الأوّل من القياسات المنطقية؛ ولكن الظاهر أنّ سياق العبارة ناظر لقياس الأولويّة؛ أى أنّ فردين متشاكلين لا يخشيان بعضهما عادة، مع ذلك إن كان أحدهما يحسن دائماً والآخر يسيىء فإنّ وجدان الفرد الثانى يدينه ويتهمه بسوء الخلق. فإن كانت هذه المسألة بين أحد غاية فى العظمة وآخر غاية فى الصغر بحيث ليست هنالك من حاجة وخوف وخشية فى لطفه ورحمته من جهة ومن جهة أخرى كله حاجة وخشية من العقاب على المعاصى، قطعاً على ذلك الفرد الصغير فى ظل تلك الظروف أن يلوم نفسه لِمَ الفعل المخجل إزاء كلّ هذا الكرم.

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۲۸۵

القسم الثالث

اشارة

وَ حَقّاً أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْك، وَلكِنْ بِهَا اغْتَرَرْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْك الْعِظَاتِ، وَآذَنَتْك عَلَى سَوَاءٍ، وَلَهِىَ بِمَا تَعِدُك مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِك، وَالنَّقْصِ فِى قُوَّتِك، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَك، أَوْ تَغُرَّك. وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَك مُتَّهَمٌ، صَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ، وَلَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِى الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِك، وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِك، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْك، وَالشَّحِيحِ بِك! وَلَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً، وَمَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلًّا! وَإِنَّ السُّعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ.

الشرح والتفسير: الدنيا أعظم واعظ

لما كان أغلب المتهافتين على الدنيا يحملون الدنيا مسؤولية معاصيهم لإبراء أنفسهم ويعدون زخارف الدنيا ونعمها المادية سبب اثامهم فإنّ الإمام ردّ عليهم فى هذا الجانب من الخطبة فقال: «وَحَقّاً أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْك، وَلكِنْ بِهَا اغْتَرَرْتَ».

ثم خاض فى بيان دليل ذلك الكلام فقال: «وَلَقَدْ كَاشَفَتْك الْعِظَاتِ ۵۰۳]، وَآذَنَتْك ۵۰۴] عَلَى سَوَاء».

إشارة إلى أنّ الدنيا ليست غرّارة فحسب، بل تقع فيها أحداث موقظة، والإمام

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۲۸۶

خاض فى العبارات الآتية فى شرحها قائلا: «وَلَهِىَ بِمَا تَعِدُك مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِك، وَالنَّقْصِ فِى قُوَّتِك، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَك، أَوْ تَغُرَّك. وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَك مُتَّهَمٌ، وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ».

إشارة إلى أنّ الدنيا عندما تصيبك بأنواع البلاء والمصائب والأحداث الأليمة وتغير القدرة، وهى صادقة ولا يصح وصفها بالخداع كما

صدق من أخبرك من أولياء اللّه والصالحين عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها وإن لم يكن كلامهم موافقاً لهوى نفسك؛ فلم تقبل لسان حال الدنيا ولا لسان حال أولياء اللّه واتهمت الجميع بالكذب، وعليه فهذا أنت من غرّ نفسه.

كما يحتمل أن يكون تفسير العبارة الأخيرة، أنّالناصح هو الحوادث الأليمة وأخبار الصدق علامات غدر الدنيا التى يراها الإنسان بعينه ويسمعها بأذنه؛ ولكنّها حيث لا تتفق وأهوائه فإنّه يكذبها جميعاً ويقول هى مجرّد حادثة صدفة فزالت ولن تتكرر.

ثم وضح أكثر هذه الحقيقة وجعلها معلومة للجميع فقال: «وَ لَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِى الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ[۵۰۵]، وَالرُّبُوعِ ۵۰۶] الْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِك، وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِك، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْك، وَالشَّحِيحِ ۵۰۷] بِك!».

ثم قال فى آخر عبارة: «وَ لَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً، وَمَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلًّا! وَإِنَّ السُّعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ».

إشارة إلى أنّ الأفراد المؤمنين واليقظين يسعهم أن يجعلوا من هذه الدنيا المليئة بالشر والمفعمة بالغرور والخداع وسيلة لسعادتهم الأبديّة وسلّماً لبلوغ المقامات

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۸۷

الرفيعة، بحيث تكون نظرتهم إلى الدنيا بخلاف نظرة المتعلقين بها فهى نظرة إلى الممر أو السلم؛ فأولئك الذين يهربون من زخارفها وينتفعون بطيباتها للقرب من اللّه، ومن هنا يتضح الفارق بين الدنيا الممدوحة والمذمومة كما سيرد فى مبحث التاملات.

تأمّل: الدنيا الممدوحة والمذمومة

وصف الإمام عليه السلام الدنيا فى العبارات السابقة بالواعظ الحريص والمخبر الصادق والوفى والتى أفصحت عن تقلبها من خلال تقلباتها السريعة وأحداثها وآفاتها المختلفة وحذّر الجميع من التعلّق بها وإنّما عليهم التزود منها.

نفحات الولاية ؛ ج۸ ؛ ص۲۸۷

لأكثر صراحة من ذلك ما ورد فى قصار كلماته بشأن الدنيا حيث قال:

«مَسْجِدُ أحِبّاءِ اللَّه» «وَمَتْجَرُ أولياءِ اللَّه»، «وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللَّه»، «وَمُصَلّى مَلائِكَةِ اللَّه»، «دارُ عافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْها ... وَدارُ مَوْعِظَةٍ لِمَن اتَّعَظَ بِها»[۵۰۸].

هذا فى الوقت الذى ذُمّت الدنيا بشدّة فى خطب متعددة من «نهج البلاغة» والعديد من الروايات: «دارٌ بِالْبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ»[۵۰۹]، «مَثَلُ الدُّنْيا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّها وَالسَّمُّ النّاقِعُ فى جَوْفِها»[۵۱۰].

ثم حذر فى عبارة أخرى من الدنيا فقال: «تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ»[۵۱۱].

وطلاق الدنيا ثلاثاً من جانب الإمام عليه السلام لمساوئها وقبائحها، معروف اشير له فى قصار الكلمات ضمن عبارات موقظة[۵۱۲].

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۲۸۸

وأبعد من ذلك آيات القرآن المجيد التى ذمّت الدنيا بشدّة ومنها ما ورد فى سورة الزخرف: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّنْ فَضَّة وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ»[۵۱۳].

وإن رتبنا هذه الآيات والروايات مع بعضها لورد هذا السؤال: إن كانت الدنيا بكلّ هذا الحسن، فِلمَ كانت سيئة لهذا الحدّ، وإن كانت سيئة فلم هذا الحسن؟

يكمن الجواب فى عبارة: أنّ الاختلاف نتيجة لاختلاف الرؤى.

والذين يكتفون بالنظر الظاهرى وأصحاب الدنيا من ذوى النظرة الضيقة والسطحية لا يرون سوى زخارف الدنيا وزينتها وملذاتها فيتعلقون بها، والدنيا خطيرة للغاية على هذه الفئة، ولما كانت هذه الفئة تشكل الأكثرية، كانت هنالك الكثير من الآيات والروايات

التی تـذم الدنیا ولذلک یهتف القرآن: «فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّه الْغَرُورُ»[۵۱۴] الجدیر بالذکر أنّ الدنیا الغرور فی هذه الآیة عدت فی مصاف الشیطان المکار (لأنّ المراد من الغرور فی هذه الآیة هو الشیطان).

أمّا أهل البصائر والمؤمنون الصلحاء والعقلاء الذین ینظرون ببصرهم الحاد إلی باطن الدنیا ویرون بأُفقهم البعید بدایتها ونهایتها وتتجسد لهم عاقبة الأسلاف وتاریخهم ویضعون مصیر الفراعنة والعمالقة والأباطرة نصب أعینهم یسمعون بآذان أرواحهم رسائل الوعظ الدنیوی المشفق ویعتبرون بتلک الدروس؛ فیستبدلون الدنیا بجامعةٍ لکسب المعارف الربانیة ومتاجر للتزود وحمل المتاع ومعبد رائع للعروج إلی ساحة القرب الربوبی.

وزبدة الکلام فإنّ الدنیا حسب قول أمیرالمؤمنین علی علیه السلام فی إحدی الخطب:

«مَنْ أَبْصَرَ بِها بَصَّرَتَهُ وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْها أَعْمَتْهُ»[۵۱۵].

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۲۸۹

***

القسم الرابع

اشارة

إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا هَمْسُ قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ، وَعَلَائِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ!

فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ، وَتَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ، وَخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ، وَتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ؛ وَشِمْ بَرْقَ النَّجَاةِ؛ وَارْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ.

الشرح والتفسیر: الاستعداد لسفر الآخرة

أشار الإمام علیه السلام فی آخر جانب من هذه الخطبة بالالتفات إلی الإشارة فی العبارة السابقة إلی عالم الآخرة إلی محکمة العدل الربّانیة فی عالم الآخرة فذکر بعض الأمور الدقیقة وقال: «إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ[۵۱۶]، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا[۵۱۷] الْقِيَامَةُ، وَلَحِقَ بِكُلِ مَنْسَكٍ ۵۱۸] أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ[۵۱۹] فِی عَدْلِهِ

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۲۹۰

وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا هَمْسُ ۵۲۰] قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ».

وکلام الإمام یؤکد علی أمرین: الأوّل أنّ کلّ طائفة تلحق ذلک الیوم بإمامها ومعبودها ومطاعها وما کان فی هذه الدنیا سیتجسم هناک قطعاً حتی ورد عن الإمام الرضا أنّه قال: «فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا أَحَبَّ حَجَراً لَحَشَرَهُ اللَّه مَعَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ»[۵۲۱] ومن قبل صرّح القرآن قائلًا: «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ* مِنْ دُونِ اللَّه فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ»[۵۲۲].

والآخر: أنّ حساب اللَّه ذلک الیوم علی درجة من الدقة والعدل المطلق بحیث لا یغادر ذرة من ذنب أو خطوة من باطل علی الأرض فالویل للآثمین والظلمة والمذنبین!

طرح هنا بعض شرّاح «نهج البلاغة» سؤالًا: إنّ لحقَ ذلک الیوم کلّ عابد بمعبوده ومطیع بمن أطاع، فلابدّ أن تلحق النصاری بالمسیح، والغلاة بأمیرالمؤمنین وعبدة الملائکة بهم، وفی ذلک سرورهم طبعاً؟

أجاب القرآن المجيد عن هذا السؤال فقال: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّه فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ* قَالُوا سُبْحَانَك مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِك مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً».

وقال إثر ذلك: «فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً»[۵۲۳].

نعم! لعلهم يلحقون لولا أن تبرأ أئمتهم منهم؛ وعليه واستناداً لهذه البراءة فسوف

نفحات الولايۀ، ج۸، ص: ۲۹۱

لن يلتقوا بهم قط.

ثم حذّر أولئك الذين يبرّئون أنفسهم فى هذه الدنيا بالأدلة الواهيّة والأعذار التافهة أنّ الأمر ليس كذلك فى الآخرة فقال: «فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاك دَاحِضَةٌ[۵۲۴]، وَعَلَائِقِ ۵۲۵] عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ!».

إشارة إلى أنّه يتضح ويظهر كلّ شيء فى ذلك اليوم وليس هنالك من قيمة للأعذار الواهية فى ظل تلك الأجواء.

قال القرآن المجيد بشأن المكذبين بآيات اللَّه: «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ»[۵۲۶].

ثم أشار فى ختام الخطبة- بعنوان استنتاج عملي واضح- إلى سبيل الخلاص ضمن خمس عبارات موجزة وعميقة المعنى فقال: «فَتَحَرَّ[۵۲۷] مِنْ أَمْرِك مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُك، وَتَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُك».

وقال فى السبيل الثانى: «وَخُذْ مَا يَبْقَى لَك مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ».

المراد من «مَا يَبْقَى لَك» النعم الأبدية يوم القيامة اى الأعمال الصالحة، والمراد من «مَا لَا تَبْقَى لَهُ» نعم الدنيا التى يتركها الإنسان ويمضى.

وقال فى الثالث: «وَ تَيَسَّرْ لِسَفَرِك».

والذى قال فيه اللَّه: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»[۵۲۸].

وقال فى الرابع: «وَشِمْ ۵۲۹] بَرْقَ النَّجَاةِ».

نفحات الولايۀ، ج۸، ص: ۲۹۲

وقال أخيراً: «وَارْحَلْ مَطَايَا[۵۳۰] التَّشْمِيرِ[۵۳۱]».

وخلاصة الكلام فإن الإمام أبان سبيل النجاة من مخالب أخطار الدنيا والآخرة فى هذا السفر المنتظر وذكر المواعظ بشأن زاد السفر ومتاعه والالتفات إلى علائم الدليل ومن ثم إعداد أعذار التقصير وأسباب الزلل والخطأ، فمثل هذا المسافر لايضل الهدف ولا يتوقف حين يبلغ: «بلى يا زُهْرى لَيْسَ ما ظَنَنْتَ وَلكِنَّهُ الْمَوْتُ وَلَهُ كُنْتُ اسْتَعِدٌّ وَإِنَّما الْاسْتَعْدادُ لِلْمَوْتِ تَجَنُّبُ الْحَرامِ وَبَذْلُ النَدى وَالْخَيْرِ»[۵۳۲].

نفحات الولايۀ، ج۸، ص: ۲۹۳

الخطبۀ ۲۲۴

اشارۀ

يَتَبَرَّأُ مِنَ الظُّلْمِ ۵۳۳]

نظرۀ إلى الخطبۀ

قال بعض الشرّاح أنّ الإمام عليّاً عليه السلام قال هذا الكلام لما اعترض عليه بعض أصحابه قائلين: إنّ معاوية جمع الناس حوله بما

يبذل لهم من بيت المال فلو فعلتَ لرضىَ الناس ولتولّوك، فغضب الإمام وصرّح بأننى ... هذا الكلام الذى يتألف فى الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: الذى استهله ببحث كلى جامع وقارع فى البراءة من الظلم والجور وقال لست مستعداً لأدنى ظلم وجور وإغضاب اللّه وإسخاطه.

وخاض فى القسم الثانى فى بيان أحد المصاديق الواضحة لذلك المطلب وبين فقر عقيل وما كان يطلب بغير حق من بيت المال وكيف أجابه بالحديدة المحماة.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۹۴

وذكر فى القسم الثالث مصداقاً حيّاً آخر عن براءته من الظلم والجور فتطرق إلى قصة الأشعث بن قيس المنافق والحلوى الملفوفة.

واختتم الكلام بعبارات بليغة وفريدة فى إعلان براءته من الظلم والجور وهضم حقوق الآخرين.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۹۵

القسم الأوّل

اشارة

وَاللَّهِ لَئِنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلَالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّه وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا؟!

الشرح والتفسير: إرتكاب الظلم

كما اشير فإنّ بعض أصحاب الإمام عليه السلام قالوا للإمام: إنّك عمد العدالة وتساوى بين الصغير والكبير إلّاأنّ جماعة نقموا عدالتك بينما يغدق عليهم معاوية الأموال والهدايا حتى التحق به جماعة كثيرة فهلا قرّبتهم بالأموال. فأجابهم الإمام عليه السلام بكلام بعضه هذه الخطبة موضوع البحث ۵۳۴].

يستفاد من هذا الكلام مدى نقمة الإمام عليه السلام من هذا الانحراف الفكرى الذى أصاب جماعة من خاصته، لذلك سعى لإزالة هذه الثقافة الجاهلية الفاشلة من أفكارهم التى يتبناها اليوم بعض الساسة المحترفين بايضاحات قاطعة وذكر الشواهد وأمثال ذلك ويستبدلها بثقافة القرآن والنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله التى تنشد بسط العدل والقسط تجاه الجميع فقال: «وَ اللَّه لَئِنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَك ۵۳۵] السَّعْدَانِ ۵۳۶] مُسَهَّداً[۵۳۷]،

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۲۹۶

أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً[۵۳۸]، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّه وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ ۵۳۹]».

أسوأ العذاب بالنسبة للإنسان أن ينام على أشواك السعدان (الأشواك الثلاثية أطرافه على الأرض وطرفه الحاد إلى الأعلى) ويقيدون يده ورجله فى النهار ويجر فى السوق والشارع.

وقد أقسم الإمام عليه السلام باللّه بكلّ حزم فقال: تحمل هذا العذاب أهون علىَّ من أن ألقى اللّه وأنا ظالم لبعض العباد وغاصب لشىء من حطام هذه الدنيا الزائلة فذلك العذاب ابدى وعذاب هذه الدنيا عابر مهما كان، فكيف تتوقعون أن أسلك طريق معاوية

الذی لا یقیم وزناً لحساب الآخرة. فأترک الشریعة وألجأ إلی الشرک والجاهلیة.

ثم قال علیه السلام: «وَ کَیْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ یُسْرِعُ إِلَی الْبِلَی قُفُولُهَا[۵۴۰]، وَیَطُولُ فِی الثَّرَی [۵۴۱] حُلُولُهَا؟!».

إشارة إلی أنّ أی عقل لا یقبل بهذا المنطق فی أن یضحی الإنسان بالسعادة الأبدیة من أجل السعادة العاجلة وأولئک الذین لهم هذه الممارسات کمعاویة وبطانته علی خطأ عظیم.

وهکذا یریق الإمام علیه السلام الماء الطاهر فی ید من اقترح علیه الظلم واعتقد بأنّ الغایة تبرر الوسیلة فقد یئس أولئک الذین یظنون أنّهم قادرون علی تغییر نهجه العادل الشاق للغایة.

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۲۹۷

لاینبغی أن ننسی أنّ عهد خلافة الإمام الظاهریة وبمنتهی الأسف، إنّما ابتدأت حین اعتاد المسلمون بکرم عثمان علی طریقة حاتم الطائی من بیت المال والتمییز البغیض والذی أدی بالتالی إلی الخروج علیه وسار معاویة علی نهجه، غیر أنّ الإمام علیه السلام کان یسعی لإعادة الامّة إلی عصر النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله.

ورغم عدم تحقیق هذا المشروع، النتیجة التامة؛ لکنّه انطوی علی فائدة مهمّة حفظت الرسالة الإسلامیّة الأصیلة وفضحت المنحرفین.

***

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۲۹۹

القسم الثانی

اشارة

وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَیْتُ عَقِیلًا وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّی اسْتَمَاحَنِی مِنْ بُرِّکُمْ صَاعاً، وَرَأَیْتُ صِبْیَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، کَأَنَّما سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَعَاوَدَنِی مُؤَکِّداً، وَکَرَّرَ عَلَیَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَیْتُ إِلَیْهِ سَمْعِی، فَظَنَّ أَنِّی أَبِیعُهُ دِینِی، وَأَتَّبِعُ قِیَادَهُ مُفَارِقاً طَرِیقَتِی، فَأَحْمَیْتُ لَهُ حَدِیدَةً، ثُمَّ أَدْنَیْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِیَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِیجَ ذِی دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَکَادَ أَنْ یَحْتَرِقَ مِنْ مِیْسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَکِلَتْکَ الثَّوَاکِلُ، یَا عَقِیلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِیدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِی إِلَی نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ الْأَذَی وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظیً؟!

الشرح والتفسیر: قصة الحدیدة المحماة

کان للإمام علیه السلام فی القسم السابق بحث کلّی بشأن اجتناب الظلم والجور التی تشیر إلی ذروة السلامة من الظلم والجور، وقد رکز هنا علی مصداقین واضحین کشاهدی صدق علی ماذکر. فبیّن أوّلًا قصة عقیل والحدیدة المحماة فشرح نموذجاً من عدله الذی لیس له مثیل ربّما فی تاریخ العالم فقال: «وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَیْتُ عَقِیلًا وَقَدْ أَمْلَقَ ۵۴۲] حَتَّی اسْتَمَاحَنِی ۵۴۳] مِنْ بُرِّکُمْ ۵۴۴] صَاعاً[۵۴۵]».

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۳۰۰

ظاهراً، مراد عقیل «صاع» کحصة یومیة منظمة لتؤمن بصورة کاملة هذه المادة الغذائیة وإلّا لو کان صاعاً لیوم فإنّه لا یحل مشکلته ولیس له قیمة أن یأتی عقیل من ذلک البعد لأخیه.

کما تجدر الاشارة إلی أنّ عقیلًا طلب طلباً آخر بأداء دین ثقیل علیه لکن الإمام اقتصر علی الإشارة إلی الطلب الأوّل. ثم قال: «وَرَأَیْتُ صِبْیَانَهُ شُعْثَ ۵۴۶] الشُّعُورِ، غُبْرَ[۵۴۷] الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، کَأَنَّما سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ ۵۴۸]».

وأضاف علیه السلام: «وَ عَاوَدَنِی مُؤَکِّداً، وَکَرَّرَ عَلَیَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَیْتُ ۵۴۹] إِلَیْهِ سَمْعِی، فَظَنَّ أَنِّی أَبِیعُهُ دِینِی، وَأَتَّبِعُ قِیَادَهُ مُفَارِقاً

طَريقَتِى».

شرح الإمام عليه السلام هنا جميع العوامل التى يراها اهل الدنيا تقتضى التمييزبالنسبة لأخيه.

فمن جانب لم يطلب كثيراً.

ومن جانب آخر كان أولاده فقراء ومعدمين.

وأخيراً كان يكثر من تكرار طلبه.

ولكن مع كـلّ ذلك كان على الإمام أن يميز بين عقيل والآخرين من المحتاجين ويعطى لأخيه من بيت المال العائـد لعامـة المسـلمين ويضفى عليه ميزة خاصّة.

قطعاً هذا العمل لا ينسجم مع العدالة الإسلاميّة وسمّو روح الإمام عليه السلام، لذلك وبغية كفّ عقيل عن التكرار ليقنع بحقّه من بيت المال عامله بما يثبت له عملياً عاقبة الظلم فقال: «فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا».

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۰۱

عقيل ظاهراً كان مكفوفاً آنذاك ومدّ يده علّه يحصل على درهم أو دينار ولم يكن يعلم ما الذى ينتظره فلما شعر بالحرارة تقترب من يده: «فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِى دَنَف ۵۵۰] مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيْسَمِهَا[۵۵۱]».

ثم قـال الإمـام عليه السـلام مواصـلًا كلامـه: «فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ ۵۵۲]، يَا عَقِيـلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيـدَة أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا[۵۵۳] لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِى إِلَى نَا سَجَرَهَا[۵۵۴] جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ ۵۵۵] مِنَ الأَذَى وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظىً؟![۵۵۶]».

«ثواكل» جمع «ثاكلة» الام التى مات ولدها وإن اطلق على كلّ ام فى عزاء.

التعبير باللعب إشارة إلى أنّ نار الـدنيا مهما كانت محرقـة إلّاأنّها ليست أكثر من لعبة إزاء نار الآخرة فالنار الحقيقية هناك، لذلك عبّر الإمام عليه السلام عن الاولى ب «أذى» والثانية «لظى».

يسـتفاد ضـمنياً من تعبيرات الإمام عليه السـلام خلافاً لما يظنه بعض الجهّال، فإنّ الإمام عليه السـلام لم يضع قط حديـدة محماة فى يد عقيل، بل قربها من يده وحيث كان أعمى خاف وصرخ.

انتشرت هذه القصّة فى جميع الأوساط حتى وصلت إلى معاوية حسب بعض الروايات فأيقظت العديد من الغافلين وأفادت نهاية الكرم العثمانى من بيت المال على القرابـة والأفراد المقربين. فإذا كانت هذه معاملة الإمام لأخيه إزاء طلب صـغير على خلاف العدالة فما بال الآخرين، فما عليهم سوى عدم التفكير بأى امتياز.

وتطلق هذه المفردة أحياناً على جهنم كما ورد فى الآية ۱۵ من سورة المعارج:

«كَلَّا انَّهَا لَظَى».

بعبارة اخرى أنّ ذلك لم يكن درساً لعقيل فحسب، بل لعامة الناس فى العالم

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۰۲

الإسـلامى فأفاد مساواة الجميع أمام العدالـة، وليس لأحـد طلب المزيد وإن كان أقرب المقرّبين إلى رئيس الدولة. الطريف ما ورد فى ذيل بعض الروايات أنّ عقيلًا قال للإمام عليه السـلام إذا كان الأمر كـذلك فسأذهب إلى مَن يكثر من البـذل والعطاء. ومراده (معاوية) فردّ عليه عليه السلام: «راشِداً مَهْدِيّاً»[۵۵۷].

ولنترك الكلام لعقيل يتحدّث عن قصة الحديده الُمحماة: ثم تلا الآية: «إِذِ الأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ»[۵۵۸].

فقال معاوية: «هَيْهاتَ هَيْهاتَ عَقِمَتِ النِساءُ أنْ يَلِدْنَ مِثْلَهُ»[۵۵۹].

وقد روى المرحوم العلّامة المجلسى فى «بحارالأنوار» قصّة مكملة لما سبق ۵۶۰].

على كلّ حال تشير القرائن إلى أنّ هدف الإمام عليه السـلام لم يكن مجرّد بيان قضـية شخصية وتحذير عقيل، بل كان الهدف انتشار

هـذه القضـية فى كلّ مكان وكان كذلك وأن يفكر أصـحاب الامتيازات أنّ تكليفهم أصـبح واضـحاً بعد أن تصـرف الإمام مع عقيل بهذه الطريقة فلا يفكرون قط فى تلك الامتيازات، وبعبارة أخرى كان الهدف وضع حد لثقافة عهد عثمان فى بيت المال وإعادة ثقافة العهد النبوى.

تأمّلان

۱. نظرة إلى شخصية عقيل

هو عقيـل بن أبى طـالب وأخو أميرالمؤمنين على عليه السـلام لُامّه وأبيه وكان بنو أبى طالب أربعـة وهو أسن من الإمام بعشـرين سـنة ويكنى أبا يزيد.

وكان أبو طالب يحبّه كثيراً فلذلك قال له النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «يا أبا يَزيد إنّى أُحِبّك حُبَّيْنِ؛ حُبّاً لِقَرابَتِك مِنّى وَحُبّاً لِما كُنْتُ أعْلَمُ مِنْ حُبِّ عَمّى إيّاك».

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۰۳

وورد فى بعض الروايـات أنّ النّبى صـلى الله عليه و آله قـال لعلى عليه السـلام: «إِنَّ وَلَـدَهُ لَمَقْتُولٌ فى مَحَبَّةِ وَلَـدِك فَتَـدْمَعُ عَلَيْهِ عُيُونُ الْمُؤمِنينَ وَتُصَلّى عَلَيْهِ الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ثُمَّ بَكى حَتّى جَرَتْ دُمُوعُهُ عَلى صَدْرِه».

شهد عقيل كعمّه العباس بن عبدالمطلب معركة بدر الكبرى مع المشـركين مجبراً فاسر وعاد إلى مكة بفدية وأسلم بعد صلح الحديبية وهاجر ووصل إلى النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ۵۶۱].

۲. التسوية بين المسلمين فى بيت‌المال

لا شك فى أنّ لبيت المال مصادر مختلفة؛ وأحد تلك المصادر، الزكاة، ونعلم أنّ المساواة ليست شـرطاً فى الزكاة، بل تصرف الزكاة على أساس الحاجة كما لا ضرورة لأن ننتظر محتاجاً آخر بحضور محتاج معين، بل لنا أن نعطى المحتاج الحاضر بما فيه الكفاية.

المصـدر الآخر: الخمس الذى كان يؤخذ فى صدر الإسـلام غالباً من غنائم الحرب، والخمس بيد الحاكم الإسـلامى ليصل المحتاجين حسبما ورد فى الفقه والروايات ولا يشترط فيه المساواة أيضاً.

الثالث: الغنائم الحربيـة التى توزع على المقاتلين بالسويـة؛ لكن للمشاة سـهم وللفرسان سـهمان حيث كانوا آنـذاك هم الذين يشترون الفرس، طبعاً كـان النّبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله أحياناً يسـتجيز أصـحابه فى دفع شـىء من الغنـائم إلى أفراد معينين لجلبهم إلى الإسلام.

المصدر الرابع والخامس والسادس، المداخل الخيرية وخمس غير الغنائم والأنفال التى لا يشترط فى توزيعها المساواة أيضاً، ولا مجال لشرحها هنا.

المصدر السابع الذى كان أهم من الكل آنذاك والذى يشكل عمدة بيت المال

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۰۴

وهو دخل أراضـى الخراج؛ أى مبالغ الاستئجار أو خراج الأراضـى للمناطق المفتوحـة والتى توضع فى خزانـة الدولة الإسـلاميّة، فتلك الأراضـى ملك لعامة المسلمين وليس الجيل القائم آنذاك، بل جميع الأجيال، وبالطبع فإنّ دخلها يعود إلى الجميع. بالضبط كالملك

المشاع الـذى يتساوى فيه الجميع، ومن الطبيعى أن ليس للدولـة الإسـلاميّة أن تميز بين المسـلمين فى هـذا الدخل. وإن لم يلتزم اغلب الخلفاء بهذا الحكم وبل يتصرفون فى تلك الاموال حسب مايشاؤون.

وماورد فى قصّـة عقيل فى هـذه الخطبـة يتعلق بهـذا الأمر الذى يشـكل أهم قسم فى بيت المال ولعل عقيلًا أعتقد أنّ تلك الأموال بيد الحاكم الإسلامى يتصرف بها كما يشاء ولاسيما أنّه شاهد ما كان يفعله الخليفة الثالث بتلك الأموال.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۰۵

القسم الثالث

اشارة

وَأَعْجَبُ مِنْ ذلِک طَارِقٌ طَرَقَنا بِمَلْفُوفَةٍ فِی وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَـنِئْتُهَا، کَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِیقِ حَیَّةٍ أَوْقَیْئِها، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ، أَمْ زَکَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَـذَلِک مُحَرَّمٌ عَلَیْنَا أَهْلَ الْبَیْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاک، وَلکِنَّهَا هَدِیَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبِلَتْک الْهَبُولُ! أَعَنْ دِینِ اللّه أَتَیْتَنِی لِتَخْدَعَنِی؟ أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُوجِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟

وَاللّهِ لَوْ أُعْطِیتُ الْأَقَالِیمَ السَّبْعَـةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاکِهَا، عَلَی أَنْ أَعْصِـیَ اللّه فِی نَمْلَةٍ أَسْـلُبُهَا جُلْبَ شَـعِیرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْیَاکُمْ عِنْدِی لَاهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِی فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضِمُهَا. مَا لِعَلِیٍّ وَلِنَعِیمٍ یَفْنَی، وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَی! نَعُوذُ بِاللّه مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ. وَبِه نَسْتَعِینُ.

الشرح والتفسير: قصة المنافق الأشعث بن قيس

بيّن الإمام عليه السـلام فى القسم السابق كما رأينا القصة التاريخيّة لأخيه عقيل والحديدة المحماة لييأس أصـحاب الامتيازات الطامعين فى بيت المال، القصـة التى تتجلى فيها ثقافـة العدالـة الإسـلاميّة وتقـديم الضابطـة على الرابطـة، ثم أشار هنا إلى مصداق آخر من هذا القبيل فـذكر قضـية المنافق الأشـعث بن قيس وقال: «وَأَعْجَبُ مِنْ ذلِک طَارِقٌ ۵۶۲] طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِی وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَـنِئْتُهَا[۵۶۳]، کَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِیقِ حَیَّة أَوْقَیْئِها».

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۰۶

المعروف أنّ ذلـك الطـارق كـان الأشـعث بن قيس رأس النفاق فى الكوفـة شبيه عبـداللّه بن أُبىّ رأس النفاق على عهـد النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى المدينة.

أمّا قـول الإمـام عليه السـلام: «مَلْفُوفَةٍ فِی وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَـة شَـنِئْتُهَا، کَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِیقِ حَیَّةٍ أَوْقَیْئِهـا» حيث كـان هـدف الأشـعث أن يستعطف قلب الإمام لتحقيق غرض دنيوى. (يقال أحياناً إنّه تنازع مع أحـد المسـلمين باطلًا على مياه وملك، ورفع الأمر إلى على عليه السـلام، لعـل هـذا الرجـل الأعمى البصـيرة أراد من خلال ذلك أن يستميل الإمام ويشترى رأيه؛ ولكن الإمام عليه السـلام رأى بعينه الملكوتية باطن تلك الحلوى الذى كان كسم الحيّة، لأنّها كانت بمثابة رشوة).

المفردة «مَلْفُوفَة» رغم أنّها من مادة «لفّ» لتشير هنا إلى طرف القماش الذى يلف به؛ ولكن حيث قال الإمام عليه السـلام كانت تلك الملفوفـة فى وعـاء وعطـف عليهـا مفردة معجونـة فيحتمـل أن تكـون الملفوفـة نوعـاً مـن الحلوى الـتى كـانت معروفـة ومرغوبـة فى الكوفة[۵۶۴].

احتمل بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ المفردة «قىء» بمعنى سمّ الحيّة لاقيئها، لأنّها تطرحه من فمها كقيئها وهذا ما يقتضيه المقام والشائع

لدينا في الاستعمال بشأن الطعام. «فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِك مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاك، وَلكِنَّهَا هَدِيَّةٌ».

طبعاً الزكاة محرمة على جميع بنى هاشم والصدقة التى تشير إلى الإنفاق المستحب وهى ليست حرام حسب المشهور ولعل حرمتها كانت مختصة بأهل البيت عليهم السلام، واحتمل البعض أنّها إشارة إلى الكفارات والصدقات الواجبة غير الزكاة، هذا أيضاً حرام على بنى هاشم.

أمّا «صلة» فربّما تعنى الرشوة التى يعبر عنها فى مباحث رشوة القاضى ب «صِلَة

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۰۷

القُضاة» ومن هنا يقال لها «صلة» التى يجعلها الراشى وسيلة للوصول إلى هدفه غير المشروع.

وقيل «صلة» تعنى «هدية» أو جائزة ومنه فى جائزة الشاعر، يقال «صلة شاعر» وعليه فالعبارة: «لَا ذَا وَلَا ذَاك، وَلكِنَّهَا هَدِيَّةٌ» إشارة إلى نفى الزكاة والصدقة وإثبات كونها هدية.

كما احتمل أن تكون العبارة «لا ذا ولا ذاك» نفى للجميع؛ أىليست رشوة ولا زكاة ولا صدقة، بل هدية.

ثم وجّه الإمام عليه السلام أشدّ ضربات التوبيخ والتقريع للمنافق الأشعث بن قيس، وقال: «فَقُلْتُ: هَبِلَتْك الْهَبُولُ![۵۶۵] أَعَنْ دِينِ اللَّه أَتَيْتَنِى لِتَخْدَعَنِى؟».

إشارة إلى أنّك كأغلب الشياطين تلبس طلبتك المنكرة لباس الشرعيّة لتحقق غرضك فتسمى الرشوة هدية وتظن أنّك تغرّ بهذا الظاهر من ترى عينه أعماق الوجود. ثم قال: «أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟».

إشارة إلى أنّ عاقلًا لا يتصور أنّ أحداً يمكنه خداع شخص كعلى عليه السلام بهدية تفوح من باطنها رائحة الرشوة فإن جرب ذلك أحدهم فهو مجنون أو مختبط فى عقله لمرض.

«مختبط» من مادة «خبط» بمعنى فقدان التوازن ويستعمل تارة فى التوازن الظاهرى وأخرى فى التوازن الفكرى، والمعنى الثانى هو المراد هنا والعبارة «ذُو جِنّة» إمّا إشارة إلى وساوس الشيطان التى تعدّ من الجنون ويختل إثرها عقل الإنسان، أو إشارة إلى المعروف بين الناس حيث البعض ممن أصابه الجن.

المفردة «تَهْجُر» من مادة «هَجْر» هذيان القول، وعليه فالفرق واضح بين هذه المفردات الثلاث؛ فالمختبط المختل العقل الذى يفقد توازنه العقلى، وذو جنة، الذى يعانى من نوع من الجنون لعامل باطنى، وتهجر تقال للمجنون ذاتاً ويصاب بالهذيان

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۰۸

اثر شدّة المرض.

طبعاً حين تكون هذه المفردات مع بعضها تفيد المعنى المذكور بينما إن أتت كلّ مفردة لوحدها أفادت معانٍ أُخرى.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى قضية بمنتهى الأهمّية بشأن عدالته لعلها لم تسمع من غيره طيلة التاريخ ليفهمه مدى الخطأ الذى إرتكبه ولم يعرفه وهى تحذير إلى جميع الزعامات وحكّام المجتمعات الإنسانية فقال: «وَاللَّه لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ[۵۶۶] بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّه فِى نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ ۵۶۷] شَعِيرَة مَا فَعَلْتُهُ».

ثم تطرق عليه السلام إلى دليل ذلك فقال: «وَ إِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِى لَاهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِى فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضِمُهَا[۵۶۸]».

وأكد عليه السلام ذلك بالقول: «مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيم يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى!».

حيث صرّح الإمام عليه السلام فى هذه العبارات الصريحة والبليغة، لو أعطيت أعظم الرشاوى المتصورة فى العالم بما فيها ما على الأرض والقصور والثروات والأموال، لُمارس أدنى ظلم وهو سلب غطاء حبّة شعير (لا حبة شعير) من فم نملة والتى تبدو أصغر المخلوقات، لما فعلت.

ما أكثر الأفراد الذين تستميلهم المبالغ البسيطة والمتوسطة فى الرشوة أما إذا كان امتيازاً هاماً يعادل جميع حياته فذلك ما يهزّه من

الأعماق.

وهل هنالك من يسعه الزعم أنّه لن يمارس أدنى خلاف ولو أعطى أعظم امتياز

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۰۹

ولا يهتز لذلك؟ الإمام يقول أنا ذلك الشخص ويقسم عليه صراحة.

ويمكن توجيه الدليل الذى ذكره الإمام عليه السلام على هذا الأمر، فالامتيازات المادية إنّما تحظى بأهمّية من الدنيا كبيرة وعظيمة لديه أمّا من كان فى قمة معرفة اللَّه وكل ما سواه لا شىء بالنسبة له والدنيا عنده كورقة نبات فى فم جرادة، فليس هنالك من داعٍ لأن يعصى اللَّه ويرتكب الظلم.

فالإمام على عليه السلام كان ينظر إلى باطن الدنيا ببصيرته؛ حيث كان يرى كلّ تلك الملذات والنعم المادية آيلة إلى الفناء والزوال وليس هنالك مايستحق التعلق به أو يفكر بالتعلق به.

ومن هنا إن أردنا أن نقطع دابر الرشوة والظلم والجور والتعدى على حقوق الآخرين لابدّ أن نجتهد من أجل رفع مستوى معرفة الإنسان باللَّه والدنيا.

يفهم ضمنياً من هذه العبارات بالدلالة الالتزامية أنّ الظلم والجور والحكم بغير الحق لمن أسوأ المعاصى لاينبغى إرتكابها حتى لو حصل على الدنيا برمتها.

ثم اختتم الإمام عليه السلام بعبارة موجزة وموقظة فى الواقع ناظرة لكل مضمون الخطبة فقال: «نَعُوذُ بِاللَّه مِنْ سُبَاتِ ۵۶۹] الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ. وَبِه نَسْتَعِينُ».

إشارة إلى أنّ العقل إن كان يقظاً واقترن بلطف اللَّه لما قارف الإنسان الكبيرة وقلّما يرتكب الصغيرة.

ونختتم هذا الكلام بنقل روايتين: قال الحافظ أبونعيم الاصفهانى أحد علماء العامّة فى كتابه المشهور «حلية الأولياء»: «إنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله قال لعلىّ عليه السلام:

«يا عَلىّ! إنّ اللَّه قَدْ زَيَّنَك بِزينَةٍ لَمْ يُزيِّنِ الْعِبادَ بِزينَةٍ أَحَبَّ إلَى اللَّه مِنْها هِى زينَةُ الْابْرارِ عِنْدَاللَّه تَعالى وَالزُّهْدُ فِى الدُّنْيا فَجَعَلَك لا تَرْزَءُ مِنَ الدُّنْيا شَيْئاً وَلا تَرْزَءُ مِنْك

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۱۰

الدُّنْيا شَيْئاً»[۵۷۰].

وورد فى رواية أُخرى أنّ امرأة شجاعة من شيعة على عليه السلام تدعى «دارميّة الحجونيّة» أُحضرت عند معاوية فسألها:

هل رأيت عليّاً؟

قالت: أى واللَّه رأيته.

قال: كيف رأيتيه؟

قالت: «رَأَيْتُهُ لَمْ يَفْتِنْهُ الْمُلْكُ الَّذى فَتَنَك وَلَمْ تَشْغَلْهُ النِّعْمَةُ الَّتى شَغَلَتْك»[۵۷۱].

تأمّل: من هو الأشعث بن قيس؟

ذكرنا فى الجزء الأوّل عند تفسير الخطبة التاسعة عشرة أنّ «الأشعث» كان من المنافقين ثمّ أسلم ظاهراً على عهد النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ثم إرتدّ بعد وفاته واسر فندم عند أبى بكر فعفا عنه، ووقف إلى جانب أعداء أميرالمؤمنين على عليه السلام مثل عمرو بن العاص، لبثّ الفرقة والنفاق فى صفوف أصحاب الإمام ليكون مصدراً لكثير من المفاسد والاضطرابات، وكان صاحب نفوذ فى قبيلته فكان يستعين بهم لتحقيق مآربه، حتى قال بعض المحقّقين: إنّ أغلب مشاكل عصر خلافة أميرالمؤمنين على عليه السلام كانت من

هذا المنافق اللدود.

للمزيد يراجع الجزء الأوّل صفحة ۶۴۴ فصاعداً.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۱۱

الخطبة ۲۲۵

اشارة

يَلْتَجِئ إِلَى اللَّه أنْ يُغْنِيَهُ ۵۷۲]

نظرة إلى الخطبة (الدعاء)

الهدف الأصلى للإمام عليه السلام فى هذا الدعاء كما يتضح من العنوان، طلب الغنى وعدم الحاجة إلى غيره، فالحاجة إلى الآخرين مدعاة أحياناً لمدح الآخرين، بينما لا يستحقون ذلك المدح، أو ذم المانعين ولعلهم لا يستحقون ذلك الذم، والأسوأ من ذلك مد اليد إلى شرار الخلق، فالدعاء فى الواقع تعليم لجميع الناس ولاسيما الأتباع، وإلّا فالإمام عليه السلام أسمى مقاماً من أن يتجه صوب الأشرار أو يمدحهم.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۱۳

اللهمَّ صُنْ وَجْهِى بِالْيَسَارِ، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِىَ بِالْاقْتَارِ، فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِى رِزْقِك، وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِك، وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِى، وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِى، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذلِك كُلِّهِ وَلِيُ الْاعْطَاءِ وَالْمَنْعِ؛ «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْء قَدِيرٌ».

الشرح والتفسير: الغنى عن شرار الخلق!

ذكر الإمام عليه السلام فى هذا الدعاء القصير مطالب عميقة ضمن ثمان عبارات فهو دعاء ودرس فى الأخلاق، فبيّن فى البداية أصل الدعاء بعبارتين فقال: «اللهمَّ صُنْ ۵۷۳] وَجْهِى ۵۷۴] بِالْيَسارِ[۵۷۵]، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِىَ ۵۷۶] بِالْاقْتَارِ[۵۷۷]».

ليس المراد من «اليسار» الغنى بالمعنى السائد فى العرف، بل المراد الغنى عن الآخرين المقترن بالكفاف والعفاف، وإلّا فالغنى بالمعنى المذكور يؤدى أحياناً إلى إراقة ماء الوجه، وهنالك تفسيران للعبارة «وَلَا تَبْذُلْ جَاهِىَ بِالْاقْتَارِ» بالنظر إلى أنّ «ولا تبذل» من مادة «بذل» و «بذل» له معنيان: أحدهما العطاء والفقدان، والآخر القدم والضياع: التفسير الأوّل اللّهم لا ـ تتوفانى على الفقر، والآخر لا تبتذل شخصيتى بالفقر.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۱۴

ثم خاض فى أربع عبارات فى آثار الفقر والحاجة إلى الآخرين فقال:

«فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِى رِزْقِك، وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِك، وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِى، وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِى».

وقال عليه السلام فى الختام: «وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذلِك كُلِّهِ وَلِيُّ الْاعْطَاءِ وَالْمَنْعِ؛ «إِنَّك عَلَى كُلِّ شَىْء قَدِيرٌ»».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات الموجزة فى أربعة آثار سيئة للفقر التى تتمّ فى مرحلتين فقال أوّلًا: أدنى ما يترتب على ذلك أن أمد يد الحاجة إلى المحتاجين إليك والأسوأ من ذلك أن تقضى الحاجة من قبل السيئين، وحقاً أليمة للغاية هى الحياة فى ظلّ تلك الشرائط بالنسبة للأفراد المؤمنين ذوى الشخصية.

فی المرحلة الثانیة: أی بعد الطلب فإن أجاب الطرف المقابل اضطر الإنسان إلی مدحه وإن تحفّظ عن الاجابة انطلق لسانی بذمّه ولعل لدیه حاجاته الکبیرة، ولکن حیث «صاحِبُ الْحاجَةِ لا یَری إلّاحاجَتَهُ»[۵۷۸]، فبمجرّد أنّه لم یستجب لی اتّهمته بالبخل، والحال ما أحرانی أن اتّجه إلی اللَّه فهو ولی المنع والعطاء وهو القادر علی کلّ شیء!

من البدیهی أنّ روح الإمام علیه السلام السامیة لا تقبل هذه الأمور قط وإن أصابته الحاجة، فالإمام یرید بیان الآثار الطبیعیة للفقر والتی تبدو علی أغلب الناس لیجدوا ویواجهوا الفقر ولا یمدوا أیدیهم إلی الآخرین أبداً.

تأمّل: الآثار السیئة للفقر

رغم ما ورد فی عدّة روایات فی مدح الفقر، کحدیث النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله: «الْفَقْرُ

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۳۱۵

فَخْری وَبِهِ أَفْتَخِرُ». وروایة الإمام الصادق علیه السلام: إنّ اللَّه أوحی إلی موسی علیه السلام: «إذا رَأَیْتَ الفَقْرَ مُقبِلًا فَقُلْ مَرْحباً بِشِعارِ الصّالِحینَ وَاذا رَأَیْتَ الْغِنی مُقْبِلًا فَقُلْ: ذَنْبٌ عُجِّلَتْ عُقُوبَتُهُ»[۵۷۹]. وسائر الروایات، ولکن من الواضح أنّ الفقر بمعنی العوز ولاسیما الذی یحصل بفعل الکسل والتقصیر وضعف الإدارة فانه لیس مدعاة للفخر ولا شعار الصالحین، بل مدعاة للذل والهوان والتلوث بأنواع المعاصی.

المدعاة إلی الفخر، الفقر إلی اللَّه، فالکل محتاج إلی اللَّه: «یَا أَیُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَی اللَّه وَاللَّه هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ»[۵۸۰] والذی یشبه ما ورد فی حدیث أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «کَفی بی عِزّاً أنْ أکُونَ لَکَ عَبْداً وَکَفی بی فَخْراً أنْ تَکُونَ لی رَبّاً»[۵۸۱].

أو أنّ المراد بالفقر، الحیاة البسیطة الخالیة من التکلف والتعقید إزاء الثراء الذی یؤدی إلی السکر والغرور والتطاول.

والعبارة «شعار الصالحین» عن الفقر، والتعبیر ب «العقاب المعجل» عن الغنی، شهادة واضحة علی هذا المعنی، لأنّ شعار الصالحین قطعاً مایوجب الصلاح والفلاح؛ کالزهد وبساطة العیش وعقوبة المعصیة ترتبط بالأمر الملوث بالذنب.

کما یحتمل أن تکون بعض الروایات التی أثنت علی الفقر تشیر إلی الفقر المفروض الذی یطال الإنسان إثر القیام بالوظیفة، مثلًا، فی بدایة الدعوة النبویة اضطر العدید من المسلمین إلی الهجرة من مکة إلی المدینة ولم یتمکنوا من حمل ممتلکاتهم معهم فعانوا هناک من فقر شدید أو المسلمون الذین حاصرهم خصوم الدعوة اقتصادیاً فأصبحوا فقراء، الفقر الذی أصابهم بسبب الإیمان باللَّه وطاعة أوامره وکان النّبی صلی الله علیه و آله یواسیهم ویبیّن لهم أنّ الفقر مدعاة للفخر وشعار الصالحین.

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۳۱۶

کما عانی خواص أهل‌البیت علیهم السلام فی العصور اللاحقة بمضمون المثل المعروف «الْبَلاءُ لِلْوِلاءِ» من هذا الفقر المفروض واستمر ذلک حتی عصرنا الحاضر، وهذا الفقر لیس بعیداً عن العیب فحسب، بل هو فخر، والعیب أن یتخلی الإنسان عن الوظیفة من أجل الدنیا والاستسلام للعدو.

وإلی ذلک أشار الحدیث الشریف «مَنْ أَحَبَّنا أهْلَ الْبَیْتِ فَلْیُعِدَّ لِلْفَقْرِ جِلْباباً»[۵۸۲].

وعلیه فالفقر الحاصل من الکسل والهروب من العمل أو سوء الإدارة لیس مطلوباً للإنسان قطّ.

ویشیر کلام الإمام علیه السلام فی هذا الدعاء إلی أنّ سلسلة من الرذائل الأخلاقیّة التی یفرزها الفقر بمعنی العوز والحاجة، فالتواضع للأشرار ومدح وذم من لا یستحق، لمن تلک الرذائل الأخلاقیّة التی تنشأ من الفقر بمعنی العوز.

الجملة «لا تَبْذُلْ جاهی بِالْاقْتارِ» دلیل علی أنّ الفقر الفردی یزیل ماء وجه الإنسان، والفقر الاجتماعی یزیل ماء وجه المجتمع وهذا ما لا ینسجم أبداً والعزة الناشئة من الإیمان: «وَلِلَّه الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِینَ وَلَکِنَّ الْمُنَافِقِینَ لَا یَعْلَمُونَ»[۵۸۳].

قال أمیرالمؤمنین علی علیه السلام: «یا بُنَیَّ الْفَقیرُ حَقیرٌ لایُسْمَعُ کَلامُهُ وَلا یُعْرَفُ مَقامُهُ لَوْ کانَ الْفَقیرُ صادِقاً یُسَمُّونَهُ کاذِباً وَلَوْ کانَ

زاهِداً يُسَمُّونَهُ جاهِلًا».

ثم أضاف عليه السلام: «يا بُنَىَّ مَنِ ابْتُلِىَ بِالْفَقرِ ابْتُلِىَ بِأَرْبَعِ خِصالٍ: بِالضَّعْفِ فى يَقينِهِ وَالنُّقْصانِ فى عَقلِهِ وَالرِّقَّةِ فى دينِهِ وَقِلَّةِ الْحَياءِ فى وَجْهِهِ، فَنَعُوذُ بِاللَّه مِنَ الْفَقْرِ»[۵۸۴].

وإننا لنرى اليوم بام أعيننا أنّ الفقر مصدر ما لا يحصى من المفاسد كالابتلاء بالمخدرات والفحشاء والخيانة والسرقة وخدمة الأجانب وما شابه ذلک، ومن هنا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «غِنىً يَحْجُزُک عَنِ الظُّلم خَيرٌ مِنْ فَقْرٍ يَحْمِلُک

عَلَى الْإِثْم»[۵۸۵].

ولذلک قال النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «الْفَقْرُ سَوادُ الْوَجهِ فِى الدّارَينِ»[۵۸۶].

وقال صلى الله عليه و آله أيضاً: «كادَ الْفَقْرُ أنْ يَكُونَ كُفراً»[۵۸۷].

ومن الطبيعى أن تكون تلک العيوب التى اشير إليها أعظم خطورة إن عمّ الفقر المجتمع، وإننا نرى اليوم المجتمعات الإسلاميّة الفقيرة كيف هوت فى مخالب الأجانب وأعداء الإسلام بما يدعو الإنسان إلى مزيد من الأسى والأسف.

ونختتم هذا البحث بدعاء عن الإمام السجاد عليه السلام ضمن أحد أدعيته العميقة المعانى إذ تضرع: «اللّهمَّ إنّى أسئَلُک خَيْرَ الْمَعيشَةِ مَعيشَةً أقْوى بِها عَلى طاعَتِک وَأبْلُغُ بِها جَميعَ حاجاتى وَأَتَوَسَّلُ بِها إلَيک فى الْحَياةِ الدُّنْيا وَفى الآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أنْ تُتْرِفَنى فيها فَأطْغى أوْ تَقْتُرَها عَلىّ فَأَشْقى»[۵۸۸].

الخطبة ۲۲۶

اشارة

فى التَّنْفيرِ مِنَ الدُّنْيا[۵۸۹]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة فى الواقع من ثلاثة أقسام وكل قسم فى مطلب مكمل لمطلب آخر: خاض الإمام عليه السلام فى القسم الأوّل فى التعريف بالدنيا أنّها دار متقلبة مليئة بالأحداث الأليمة دائمة التغير وأهلها عرضة لسهام البلاء.

وحذر فى القسم الثانى من أن قبلكم كثير ممن عمّر الدنيا وكانوا أكثر منكم إمكانات وأقوى لكنهم رحلوا جميعاً وحلّوا مساكن من التراب والطين والحجر بدل تلک القصور، هى قبورهم.

وقال فى القسم الثالث: إنّكم سائرون على طريقهم وملاقون مصيرهم. وسيحل اليوم الذى تنتهى فيه حياتكم وتضم القبور أجسادكم وستبعثون من تلک القبور وتظهر لكم أعمالكم التى أسلفتم وعليكم تبعتها.

***

القسم الأوّل

اشارة

دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا.

أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، وَالأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا.

الشرح والتفسير: تقلب احوال الدنيا

تناول الإمام عليه السلام كما قيل فى هذا الجانب من الخطبة تقلّب الدنيا وغدرها فقال:

«دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ[۵۹۰] مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلَا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا[۵۹۱]».

والبلاء الذى يصيب الحياة فى هذه الدنيا كثير ومتنوع من قبيل الأمراض البدنيّة والنفسيّة والأحداث الاجتماعية الأليمة والعواصف والزلازل والسيول والغارات والحروب وما يؤدى إلى جرح الإنسان أو موته وفقدان الأعزّة وأمثال ذلك.

والعبارة: «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ» إشارة بليغة لكل ما ذكر، غدر الدنيا وربّما يشير إلى أهلها الغدرة غالباً فإن أقبلت الدنيا على أحد أحيوه وإن ولّت ولّوا كأنّهم لم يعرفوه. أو إشارة إلى غدر النعم الدنيوية بينما ترى الإنسان سالماً معافى ويظن أن وضعه سيستمر كذلك وإذا بحادث بسيط يقضى على سلامته، أو تراه جمع أموالًا وثروة طائلة فتفاجأ بحدث أفلسه. وتقلّب الدنيا المبين فى العبارة «لَا تَدُومُ

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۳۲۲

أَحْوَالُهَا» نتيجة لتلك الحوادث المتنوعة والبلايا التى تصيب الإنسان من كلّ جانب، وعدم أمن سكنتها فى العبارة «وَ لَا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا» بسبب تلك الحوادث المريرة وتقلبات الدنيا.

ثم أكّد عليه السلام ذلك بعبارة موقظة فقال: «أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ ۵۹۲] مُتَصَرِّفَةٌ[۵۹۳]، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، الأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ».

وتاريخ البشريّة برمته شاهد حى على هذا الكلام العميق المعنى وأبعد من ذلك آيات القرآن التى تكشف الستار عن قصص الماضين، والصورة ذات العبرة التى رسمها القران أواخر سورة القصص عن حياة الثرىّ المعروف من بنى إسرائيل قارون الذى ظهر يوماً بين بنى إسرائيل بزينته وخدمه وحشمه ويستعرض قوّته وثراءه أمام الجميع حتى انبرى البعض منهم ممن غرّته زخارف الدنيا ليقولوا: «يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ» ولم يطلع الغد حتى ابتلعته الأرض بالزلزلة والخسف بكلّ ما يملك فأخذت أصحاب الدنيا الرهبة ليقولوا «لَوْلَا أَنْ مَّنَّ اللَّه عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا».

ولا تبدو هذه الحودات قليلة فى عصرنا، بل اتسعت للغاية وانتشرت لنرى كلّ يوم تلك المشاهد باعيننا.

ثم شبّه الإمام عليه السلام فى ختام هذا المقطع حوادث الدنيا وسكنتها تشبيهاً رائعاً فقال: «وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ[۵۹۴]، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا[۵۹۵]».

نعم فالناس فى هذا العالم أهداف فاقدة للدفاع أمام سهام البلاء المصوبة نحوها من اليمين والشمال والأعلى والأسفل؛ السهام التى قلّما تخطئ وتصيب كبد الهدف فتقضى عليه، وهل من أمن فى الميدان الذى أحاط به الرماة ويستهدفون الإنسان

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۳۲۳

كلّ حين؟! أليست الحياة مذمومة قبيحة فى هذا الوسط؟ لعل ذلك الميدان مليئ بالجواهر والألبسة الفاخرة والأطعمة المتنوعة، لكن هل يسع هذه الأمور إسعاد الإنسان فى ذلك الوسط؟! كلا. هنالك قصة معروفة من شأنها تجسيد غدر الدنيا.

تأمّل: دار محفوفهٔ بالبلاء

هذا العالم موضع المشاکل والمصائب والآلام والمحن. وإننا نعلم إجمالًا بهذا الموضوع، لکننا غالباً نتأمل فی شرحه وتفصیله.

والآفات التی تهدد سلامهٔ الإنسان أکثر من أن تحصی. تتألف بنیهٔ الإنسان من أعضاء مختلفهٔ لکل منها عدّهٔ شرائط للقیام بوظیفته، وأدنی تغیر فی تلک الشرائط بالنسبهٔ للقلب والکلیتین والعروق والأعصاب والعضلات والعظام یخلق أزمهٔ.

یعتقد بعض الأطباء بأنّ کبد الإنسان یدفع ثلاثمائهٔ نوع من السموم ولو اختل قلیلًا لما وسعه دفع بعضها وهذه أولی الأزمات، وهکذا العین والأذن والأنف واللسان وأمثالها ولو تجاوزنا الآفات الباطنیهٔ فإنّ الآفات الظاهریهٔ کثیرهٔ للغایهٔ ومتنوعهٔ بحیث إنّ موت الإنسان کامن فی عوامل حیاته؛ فالمطر مصدر الحیاهٔ لو زاد عن حدّه لکون سیولًا عظیمهٔ تأتی علی کل شیء، والریاح المهمّهٔ للحیاهٔ لو ازدادت سرعتها لأصبحت عاصفهٔ تجتث الأشجار وتقذف بسقوف المنازل بعیداً، والشمس الذی تفیض بأشعتها الحیاهٔ لو ترکزت هذه الأشعهٔ لأصیب الإنسان بضربهٔ الشمس وهدده خطر الموت، والأرض التی یسکنها الإنسان ومنها جمیع البرکات لو طغت وحدثت الزلازل لأحالت مدناً عمرت بالبناء لسنوات إلی رکام من التراب خلال لحظهٔ.

وآفات النباتات وطغیان البحار وهجوم الأمراض المعدیهٔ من الأرض والهواء والماء والطعام کلّ منها من شأنه تهدید حیاهٔ الإنسان، وإذا صدرت الأوامر لأسراب

نفحات الولایهٔ، ج۸ ص: ۳۲۴

الجراد بالهجوم وتقدمت بجیشها الجرار من کلّ مکان لأبادت أوراق الأشجار والسیقان والمحاصیل دون أن یسع أحد مواجهتها ولو بأقوی الوسائل المتطورهٔ.

هذا ما یتعلق بالحوادث الطبیعیهٔ أمّا الآفات الاجتماعیهٔ فلیست بأقل منها خطراً، فهنالک الحروب الدمویهٔ کالبراکین التی تحدث کلّ یوم فی منطقهٔ من العالم والتی تهدد علی الدوام حیاهٔ الإنسان، التنافس المحموم للاستیلاء علی المناصب السیاسیهٔ والقضایا الاقتصادیهٔ تمرغ کلّ یوم أنف جماعهٔ فی التراب أو تقضی علی حیاتها الاختلافات الاسریهٔ التی تؤدی إلی الطلاق وتصدع کیان الاسرهٔ وعقوق الأبناء وخیانهٔ الشرکاء وأصحاب السوء وضربات المنافقین کلّ منها عامل یهدد حیاهٔ الإنسان واستقراره.

وعلیه فلابدّ أن نقبل بکلّ کیاننا علی کلام «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَهٌ».

***

نفحات الولایهٔ، ج۸ ص: ۳۲۵

القسم الثانی

اشارهٔ

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّه أَنَّکُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِیهِ مِنْ هـذِهِ الـدُّنْیَا عَلَی سَبِیلِ مَنْ قَدْ مَضَـی قَبْلَکُمْ، مِمَّنْ کانَ أَطْوَلَ مِنْکُمْ أَعْمَاراً، وَأَعْمَرَ دِیَاراً، وَأَبْعَدَ آثَاراً؛ أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُم هَامِدَهً، وَرِیَاحُهُمْ رَاکِدَهً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِیَهً، وَدِیَارُهُمْ خَالِیَهً، وَآثَارُهُمْ عَافِیَهً. فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِالْمُشَیَّدَهِ، وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَهِ، الصُّخُورَ وَالإَحْجَارَ الْمُسَنَّدَهَ، وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَهَ الْمُلْحَدَهَ، الَّتی قَدْ بُنِیَ عَلَی الْخَرَابِ فِنَاؤُهَا، وَشُیِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، وَسَاکِنُهَا مُغْتَرِبٌ، بَیْنَ أَهْلِ مَحَلَّهٍ مُوحِشِینَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِینَ، لَا یَسْتَأْنِسُونَ بِالْاوْطَانِ، وَلَا یَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِیرَانِ، عَلَی ما بَیْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجِوَارِ، وَدُنُوِّ الدَّارِ.

وَکَیفَ یَکُونُ بَیْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِکَلْکَلِهِ الْبِلَی، وَأَکَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَالثَّرَی.

الشرح والتفسير: جيران متباعدون

أخذ الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبهٔ يد مخاطبيه ليحملهم إلى أعماق تاريخ الماضين ليريهم مصيرهم بعد ذلك العمر الطويل وتلك القوّهٔ والاقتدار ويضع أمسهم مع يومهم فيلهم مخاطبيه وجميع عباد اللّه من كلّ ملّهٔ ونحلهٔ أعظم وأعمق درس وعبرهٔ فقال: «وَ اعْلَمُوا عِبَادَ اللّه أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هذِهِ الدُّنْيا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ».

ثم خاض عليه السلام فى شرح هذا المجمل فقال: «مِمَّنْ كانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً، وَأَعْمَرَ

نفحات الولايهٔ، ج۸، ص: ۳۲۶

دِيَاراً، وَأَبْعَدَ آثَاراً؛ أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُم هَامِدَةً[۵۹۶]، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً[۵۹۷]».

وقد قدّم القرآن فى مختلف السور نماذج واضحهٔ لهؤلاء الأقوام، ومن ذلك قوم عاد وثمود كنموذج واضح فقال فى سورهٔ والفجر «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ* الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ* وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ* وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ* الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ»[۵۹۸].

فقد ذكر عليه السلام ثلاث خصائص تفيد رجحان الأقوام السابقهٔ عليهم؛ الاولى طول العمر (بحيث قيل إنّ بعضهم كان يعمر أربعمائهٔ سنهٔ)[۵۹۹] وعمارهٔ المدن حتى قال فيهم القرآن: «وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً امِنِينَ»[۶۰۰]. وكانت لهم أراضٍ عامرهٔ وبساتين نضرهٔ ونعمهٔ وافرهٔ وكانوا بارعين فى الزراعهٔ.

وأخرى كانت آثارهم أبقى، إشارهٔ إلى أنّ مساكنهم وقصورهم وسائر أعمالهم العمرانيهٔ كانت على درجهٔ من الإحكام بحيث بقيت لسنين عديدهٔ، لكن كيف كانت عاقبتهم، سكنت الأصوات والضجيج وسيطر عليها الصمت وتعفنت أجسادهم تحت التراب وبليت عظامهم وطويت آثارهم.

والعبارهٔ «وَرِيَاحُهُم رَاكِدة» بالنظر إلى أنّ رياح جمع ريح والريح هنا بمعنى الروح والقوّهٔ فمفهوم ركودها أنّهم قعدوا تماماً عن‌العمل، وفسّره البعض بمعنى سكون ريح الغرور. كما يحتمل أن يكون المراد بها الريح التى تطال رايات الملوك والمقتدرين.

نفحات الولايهٔ، ج۸، ص: ۳۲۷

ثم أشار عليه السلام إلى قضيهٔ مهمّهٔ بعد مغادرتهم لتلك القصور الفارههٔ والحياهٔ المترفهٔ وأين حلّوا فقال: «فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ[۶۰۱]، وَالنَّمَارِقِ ۶۰۲] الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ وَالأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ[۶۰۳]، وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ[۶۰۴] الْمُلْحَدَةَ[۶۰۵]».

حقّاً يا له من أمر عظيم أن ينتقل الإنسان من ذروهٔ القدرهٔ وهو يعيش النعمهٔ واللذّهٔ إلى النقطهٔ المقابلهٔ تماماً، فلا بيت ولا شمعهٔ ولا سراج ولا فراش ولا نعمهٔ وبطر. طبعاً هذا الأمر المؤلم بالنسبهٔ لأولئك الذين اعتادوا الحياهٔ المرفههٔ والمريحهٔ، أمّا أولئك الذين عاشوا حياهٔ الزهد والبساطهٔ فلا يعانون من هذا الانتقال، لاسيما أنّ القبر بالنسبهٔ لهم روضهٔ من رياض الجنّهٔ.

ثم خاض فى بيان وضع قبورهم وسكنتها فقال: «الَّتى قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فِنَاؤُهَا[۶۰۶]، وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا؛ فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، وَسَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ».

نعم، إن كانت قصورهم بنيت بمواد قيمهٔ باهضهٔ جمعت بجهد جهيد من مختلف المناطق فإنّ قبورهم بنيت بمواد لا قيمهٔ لها فهى حفنهٔ تراب، وسكنهٔ هذه القبور فى حالتين متناقضتين، القرب والبعد، قريبون من حيث المكان وبعيدون من حيث الإرتباط، أو أنّهم منهمكون بأنفسهم إلى درجهٔ عدم الإرتباط بالآخرين، أو لا يؤذنون لهم بالإرتباط، ويبدو أنّ ذلك ليس مهماً لهم، لكنّهم فى الواقع متضجرون

نفحات الولايهٔ، ج۸، ص: ۳۲۸

لأنّه وإن لم يكن هناك شىء من الأمور الدنيويهٔ، لكنّهم وجلون من أعمالهم بحيث لا يكترثون لغيرهم (طبعاً يحدث كلّ هذا فى

الحياة البرزخية).

ثم قال عليه السلام فى مواصلة ذلك: «لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ، وَلَا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ، عَلَى ما بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجِوَارِ، وَدُنُوِّ الدَّارِ».

العبارة «لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ» لعل العبارة لا يستأنسون بالأوطان إشارة إلى أنّهم وإن ناموا سنين متمادية فى قبورهم؛ لكن لا رغبة لهم بها ولا يأنسون بها، كما احتمل أن يكون المراد ترك إرتباطهم بأوطانهم فى عالم الدنيا فهم لا يفكرون فى الرجوع إليه، إلّاأنّ المعنى الأوّل بقرينة العبارة (ولا يتواصلون ...) أصوب.

وأشار عليه السلام فى الختام إلى هذه النقطة، لم لا يسعهم الإرتباط مع بعضهم: «وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ [۶۰۷] الْبِلَى، وَأَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ [۶۰۸] وَالثَّرَى [۶۰۹]!».

إشارة إلى أنّهم كانوا متلاصقين فى قبورهم، لكنّهم فقدوا كلّ قدرتهم وتحولوا إلى قبضة تراب، وهل من تزاور ولقاء من العظام البالية والأجساد الخاوية؟

غَرِيبٌ وَأَطْرافُ الْبُيُوتِ تَحُوطُهُألا كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّرابِ غَرِيبٌ [۶۱۰]

تأمّل: عاقبة الإنسان بعد الموت

ما ورد فى الجمل المذكورة قرينة من الجمل التى جاءت بعدها والتى ترتبط بجسم الإنسان بعد الموت، لأنّ الأجساد تتحول إلى التراب وليس فى مقدورها الترابط والتواصل بل تعيش الغربة تماماً.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۲۹

ولا شك أنّ الأرواح لها شأن آخر، فإنّ أرواح المسيئين فى عذاب شديد كما أشار القرآن الكريم إلى نماذج منها مثل عاقبة آل فرعون حيث قال:

«النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»[۶۱۱].

وأمّا أرواح الأخيار فى الجنّة البرزخيّة وكما قال القرآن الكريم بشأن الشهداء الذين قتلوا فى سبيل اللّه: «فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّه مِنْ فَضْلِهِ»[۶۱۲].

بل هذا ما يستفاد من بعض الروايات أنّ أرواح الأخيار فى تلاقى وتزاور، بل هم فى حلقات الانس والمؤانسة.

فقد روى المرحوم الكلينى فى الجزء الثالث من كتاب «الكافى» فى باب أرواح المؤمنين عن حبّة العرنى قال: خرجت مع أميرالمؤمنين عليه السلام إلى الظهر، فوقف بوادى السلام كأنّه مخاطب لأقوام، فقمت بقيامه حتى أعييت ثم جلست حتى مللت، ثم قمت، حتى نالنى مثل ما نالنى أوّلًا، ثم جلست حتى مللت، ثم قمت وجمعت ردائى فقلت: يا أميرالمؤمنين إنى قد أشفقت عليك من طول القيام، فراحة ساعة! ثمّ طرحت الرداء ليجلس عليه، فقال لى: «يا حَبّة، إنْ هُو إلّامُحادثة مُؤمن أو مُؤانسته». قال: قلت: ياأميرالمؤمنين، وإنّهم لكذلك؟ قال: «نَعم، وَلَو كُشِفَ لَكَ لَرأيتَهُم حَلَقاً حَلَقاً مُحتبين يَتَحادَثُون». فقلت: أجسام أم أرواح؟ فقال: «أَرواحٌ، وَما مِن مُؤمنٍ يَموتُ فِى بُقعَةٍ مِن بِقاعِ الأرضِ، إلّاقِيلَ لِروحِه: إلحَقى بِوادى السّلام، وإنّها لَبُقعةٍ مِنْ جَنّةِ عَدنٍ»[۶۱۳].

وعلى هذا الأساس فإنّ الإمام على عليه السلام صرّح فى هذه العبارات إلى عدم انحصار الموت بالحياة الجسمانيّة للإنسان ولا بعالم الأرواح فقط، وذلك أنّ أغلب الناس

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۳۰

فى هذه الحياة يقتصرون على الجانب المادى والملذات الجسمانية فقط، بل يحذرهم بأنّ هذه الأجساد إلى أين يكون مصيرها؟

فعليكم أن تستيقظوا من سباتكم ولا تنغمسوا فى الملذات الجسمانية والمعاصى والذنوب فقط.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۳۱

القسم الثالث

اشارة

وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنَكُمْ ذلِكَ الْمَضْجَعُ، وَضَمَّكُمْ ذلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ. فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الْامُورُ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ: «هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْس مَا أَسْلَفَتْ، وَرُدُّوا إِلَىاللّه مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

الشرح والتفسير: المصير المحتوم

طبق الإمام عليه السلام على مخاطبيه هنا ما أورده بشأن مصير الأسلاف كى لا يظنّوا أنّ الوفاة ومغادرة القصور والثروات وإمكانات الحياة واللحاق بالموسدين تحت التراب الذين لم‌يحملوا معهم شيئاً ولايتصلوا ببعضهم مقتصر على أولئك‌الأسلاف فقال: «وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهَنَكُمْ ذلِكَ الْمَضْجَعُ ۶۱۴]، وَضَمَّكُمْ ذلِكَالْمُسْتَوْدَعُ».

نعم فهذا قانون لا استثناء فيه مع أنّ لكل عام ما يخصصه، إلّاأنّ هذه الأمور لا تخصص (أى أنّ تلك القاعدة لها استثناء أنّها لا تعرف الاستثناء فى بعض الموارد).

ثم أشار عليه السلام إلى قضية مهمّة وهى أنّ مشكلة الإنسان لا تنتهى بالموت، والمشكلة حضوره محكمة القيامة ومسؤوليّته عن صغار أعماله وكبارها فقال:

«فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ ۶۱۵] بِكُمُ الْامُورُ، وَبُعْثِرَتِ ۶۱۶] الْقُبُورُ: «هُنَالِك تَبْلُو[۶۱۷]. كُلُّ نَفْس مَا

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۳۲

أَسْلَفَتْ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّه مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كانُوا يَفْتَرُونَ».

نعم هنالك بعض الأمور المهمّة فى ذلك اليوم؛ فالجميع حاضرون بين يدى العدل الإلهى ويرون ى أعمالهم أمام أعينهم ولا تنفع جميع الأعذار الواهية والكذب لتبرير أسباب المعصية والانحراف وليس لأحد من سبيل للهروب من نتيجة أعماله.

حقاً لو تأمّل الإنسان هاتين القضيّتين سيرى أنّ الحياة آيلة للزوال وسيترك كلّ شىء ويلتحق بالنائمين تحت التراب ثم يعقب ذلك الحساب وجزاء الأعمال، الحساب الذى لا مفرّ منه؛ لو فكر فى هذين الأمرين لراقب أعماله قطعاً فى هذه الدنيا ولما بدر منه كلّ هذا الفساد والعصيان.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۳۳

الخطبة ۲۲۷

اشارة

يَلْجَأُ فيهِ إِلَى اللَّه لِيَهْدِيَهُ إِلَى الرَّشادِ[۶۱۸]

نظرة إلى الخطبة (الدعاء)

يتألف هذا الدعاء العميق المعنى ذو المضامين الرفيعة من قسمين:

القسم الأوّل فى حبّ اللَّه لعباده والمتوكلين عليه والعلم ببواطنهم.

ويستعيذ عليه السلام فى القسم الثانى باللَّه ليرشده فى الحوادث المضلّة ويهديه لما فيه الخير ويعامله برحمته لا بعدله.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۳۵

القسم الأوّل

اشارة

اللّهُمَّ إِنَّك آنَسُ الْآنِسِينَ لِاوْلِيائِك، وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْك. تُشَاهِدُهُمْ فِى سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِى ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَأَسْرَارُهُمْ لَك مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْك مَلْهُوفَةٌ. إنْ أَوْحَشَتْهُمُ الْغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُك، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمْ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الْاسْتِجَارَةِ بِك، عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ الْامُورِ بِيَدِك، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِك.

الشرح والتفسير: انس العباد

تضرع الإمام عليه السلام إلى اللَّه فى مستهل هذا الدعاء المهذِّب للروح والمربى للإنسان قائلًا: «اللّهُمَّ إِنَّك آنَسُ ۶۱۹] الْآنِسِينَ لِاوْلِيائِك، وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْك».

إشارة إلى أنّ من تحلّى بهاتين الصفتين سيشمل بهذه النعمة العظيمة بالأُنس باللَّه وقضائه لمشاكله بأن يكون فى عداد أولياء اللَّه أو المتوكلين عليه، وهكذا يعطى الإمام عليه السلام درساً فى تهذيب الإنسان ضمن مناجاته لربه. ولما كان حلّ المشاكل منوط بالعلم بهم قال مواصلًا دعاءه: «تُشَاهِدُهُمْ فِى سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِى ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ. فَأَسْرَارُهُمْ لَك مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْك مَلْهُوفَةٌ[۶۲۰]».

نعم، اللَّه عالم بأسرارهم وبواطنهم، فهو أقرب إلينا من حبل الوريد: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۳۶

الْانْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»[۶۲۱].

ولعل الفارق بين السرائر والضمائر أنّ السرائر تقال للحالات الخلقية والضمائر للنيات التى تساور قلب الإنسان ويتحرك إثرها. كما تستعمل هاتان المفردتان بنفس المعنى. وبصائر البشريّة بالإضافة لاكمالها مفهوم هذا الدعاء تكمن فى المراقبة التامة للظاهر والباطن والنيّة والعمل، فاللَّه عالم بكلّ هذه الأمور، أسرارهم الخفية مكشوفة للَّهونيّاتهم ظاهرة له.

والعبارة: «قُلُوبُهُمْ إِلَيْك مَلْهُوفَةٌ» نتيجة لإيمانهم باللَّه ومعرفتهم به وتوكّلهم عليه.

فكلما إزداد الإيمان والعلم به إزداد شوقه لمبدأ الرحمة والحبّ والكرم.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطة هى أنّ أولياء اللَّه والمتوكلين عليه لا يركعون قط للمصائب ولا يفقدون ثقتهم باللَّه فقال: «إنْ أَوْحَشَتْهُمُ

الْغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُك، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الْاسْتِجَارَةِ بِك، عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ الْامُورِ بِيَدِك، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِك».
وفى الواقع أنّ كلّ هذه الصفات والحالات ناشئة من الإيمان بالتوحيد الأفعالى ويشير إلى أنّ هذا الغصن من التوحيد إن نما فى روح الإنسان أفضى إلى ثمار جمّة، فلا يشعر بالوحدة إزاء المشاكل ولا يشعر بالغربة فى وحدته.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۳۷

القسم الثانى

اشارة

اللهمَّ إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتِى، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِى، فَدُلَّنِى عَلَى مَصَالِحِى، وَخُذْ بِقَلْبِى إِلَى مَرَاشِدِى، فَلَيْسَ ذلِك بِنُكْر مِنْ هِدَايَاتِك، وَلَا بِبِدْع مِنْ كِفَايَاتِك.
اللّهمَّ احْمِلْنِى عَلَى عَفْوِك، وَلَا تَحْمِلْنِى عَلَى عَدْلِك.

الشرح والتفسير: اللَّه كهف الورى

عقب بيان مقدمات الدعاء وإعداد القلب والروح للتضرع إلى اللَّه الذى ورد سابقاً، خاض الإمام عليه السلام هنا فى أصل الدعاء فذكر أصلًا كلياً أوجز فيه طلباته دون التركيز على كل واحدة فقال: «اللّهمَّ إِنْ فَهِهْتُ ۶۲۲] عَنْ مَسْأَلَتِى، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِى، فَدُلَّنِى عَلَى مَصَالِحِى، خُذْ بِقَلْبِى إِلَى مَرَاشِدِى، فَلَيْسَ ذلِك بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِك، وَلَا بِبِدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِك».
فهذا الدعاء ينطوى على منتهى الآدب أمام اللَّه وتلاحظ فيه ضمنياً شموليّة لجميع الطلبات ويشير إلى هذه الحقيقة وهى أننا مهما علمنا بمصالحنا ومطالبنا مع ذلك تغيب عنّا كثيراً من الأمور أو نخطئ فى تشخيصها؛ إلّاأنّ اللَّه أعلم بمفاسدنا ومصالحنا، فنسأله إرشادنا لمصالحنا وما نسأله اللَّه ما فيه خيرنا وصلاحنا ولا يستبعد ذلك قط من لطف اللَّه.
وأود أن أذكر هنا حديثاً رائعاً عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّ الحسن البصرى

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۳۸

قال: «لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّن هَلَك كَيْفَ هَلَك وَ إنّما الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجا كَيفَ نَجا».
فقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجا كَيْفَ نَجا وَإِنَّما الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَك كَيْفَ هَلَك مَعَ سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّه»[۶۲۳].
ثم ابتهل عليه السلام فى الختام: «اللّهمَّ احْمِلْنِى عَلَى عَفْوِك، وَلَا تَحْمِلْنِى عَلَى عَدْلِك».
وكأنّه عليه السلام عدّ العدل والعفو فى هذه العبارة مطيّة، والعدل مطية مقلقة بينما العفو مطيّة سمحة فسأل اللَّه أن يحمله على تلك المطية السهلة لنفوز بالقرب هانئين ومرتاحين من العقاب الأليم فى ظل لطفك، وهذا مضمون العبارة التى تورد كدعاء فى الصلاة وغيرها: «إلهَنا عامِلْنا بِفَضْلِك وَلا تُعامِلْنا بِعَدْلِك يا كَرِيمُ».
قال النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «وَالَّذى نَفْسى بِيَدِهِ ما مِنَ النّاسِ أحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمِلِهِ».
فقال الأصحاب: «وَلا أنْتَ يا رَسُولَ اللَّه؟».
فقال صلى الله عليه و آله: «وَلا أنَا إلّاأنْ يَتَغَمَّدنِى اللَّه بِرَحْمَةً مِنْهُ وَفَضْلٍ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلى فَوْقِ رَأْسِهِ وَطَوَّلَ بِها صَوْتَهُ»[۶۲۴].

تأمّل: أدعية المعصومين عليهم السلام المهذبة

تختزن أدعيـة النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله وأئمّـة العصـمة عليهم السـلام جانباً مهماً من التعاليم الدينيّـة، ولقراءة هـذه الأدعية أثر عظيم فى ترسـيخ عرى الإيمان وتهـذيب النفوس وتربيـة الفضائل بالاضافـة إلى سوق الإنسان إلى القرب من اللَّه وإبعاده عن الشـيطان ووسـاوسه وتلطيف الروح. ولمـا كانت تلك الأدعيـة نابعـة من الروح الساميـة للمعصوم فهى جميعاً فى مسـتوى رفيع واحـد وإذا تلاها الإنسان عالماً بمضامينها ساقته لذروة المعرفة والكرامة فإذا جمعت هذه الأدعية- وقد تصدى لذلك أخيراً بعض

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۳۹

المحققين ۶۲۵]- كانت خزانـة نفيسة من المعارف الدينية والدروس الخلقية ومرآة السـير والسـلوك إلى اللَّه. وقد وردت على هامش خطب نهج البلاغة والرسائل.

وقصار الكلمات ما يقارب ثلاثين دعاءً تؤيـد بأجمعها ما ذهبنا إليه. فبعض الأدعيـة كدعاء الصـباح وكميل وعرفة للإمام الحسـين عليه السـلام وأدعية الصـحيفة السـجاديّة وسائر الأدعية كالندبة وغيره التى وصلت عن المعصوم عليه السلام كلّ واحد منها شاهد آخر على هذه الدعوى، وليت اتباع مدرسة أهل البيت عليهم السـلام سبقوا سائر المذاهب الإسلاميّة بهذا الخصوص وألزموا الشبّان بحفظ مقاطع من هذه الأدعية (مع فهم معانيها) ليُصانوا من هجوم أمواج المعصية التى تنامت فى عصرنا.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۴۱

الخطبة ۲۲۸

اشارة

يُريدُ بِهِ بَعْضَ أصْحابِهِ ۶۲۶]

نظرة إلى الخطبة

هذا الكلام الموجز تعريف بشخصـية أدّت وظائفها فى عصرها ورحلت طاهرة وجهدت فى حفظ سنّة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وطاعـة اللَّه. هنالك خلاف بين الشـرّاح فى هذه الشخصـية. فالشـرّاح من أبناء العامّة كابن أبى الحديد ومحمد عبدة زعموا أنّها إشارة إلى الخليفـة الثـانى وزعموا أنّ عليّاً عليه السـلام قال هـذا الكلام بعـد وفاة عمر، فى حين لا ينسـجم هـذا الكلام مع سائر خطب «نهج البلاغـة». فقـد شـكا عليه السـلام كثيراً فى الخطبة الشقشـقية من خلافة الثانى وبث شدّة شـكواه من غصب الخلافة فى الخطب وبعض الرسائل، فكيف يمكن تجاهل كلّ ذلك واعتبار هذا الكلام المبهم والمجمل فى الخليفة الثانى؟

والطريف أنّ الطبرى ۶۲۷] الذى يراه فى عمر إنّما رواه عن المغيرة بن شعبة وهو من

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۴۲

خصوم على عليه السلام.

العجيب ما قاله ابن أبى الحديد أنّه رأى فى نسـخة من «نهج البلاغة» بخط الرضى أنّه كتب «عمر» تحت كلمة فلان ويدل هذا على أنّ الرضـى له مثل هـذا الاعتقاد[۶۲۸]، والحال لا يسـتبعد أبـداً أنّ تلك النسـخة إن كانت أصـلية تقلّبت لسـنوات بيـد هـذا وذاك فكتب بعضهم تلك الكلمة.

والأعجب من ذلك أنّ ابن أبى الحديـد روى حديثاً عن ابن عباس (ج ۱۲، ص ۲۰) ذكرناه سابقاً أنّ النّبى‌الأكرم صلى الله عليه و آله أراد أن يكتب بصراحة اسم على وصيّه فى مرضه الذى توفى فيه فمنعته.

فهل ينسجم هذا الكلام مع تفسير ابن أبى الحديد للخطبة التى تبحث؟

ولنفرض أنّ كلام على عليه السلام كان فى عمر، فلا يبعد هذا الاحتمال أنّه لم يكن جدّياً وكان تقية، سيما طبق الرواية المذكورة أنّ المغيرة طرح هذا السؤال بعد وفاة عمر، بالنظر إلى أنّ المغيرة كان طالحاً ولعله أراد بثّ الشر فى صفوف المسلمين.

فأورد الإمام عليه السلام هذا الكلام على أساس المصلحة الإسلاميّة، وإلّا فرأيه الصريح ما ورد فى الشقشقية وسائر خطب «نهج البلاغة».

وقوله: فلان، بدل عمر من شأنه تأييد هذا المعنى، فهذا الإبهام علامة على التقية، يوقن للشرّاح الإماميّة أنّ هذا الكلام ليس فى الخليفة الثانى ويعتقدون بأنّه إشارة إلى مالك الأشتر والبعض الآخر يرى أنّه فى سلمان الفارسى يبدو أنّ الاحتمال الأوّل أنسب وينسجم مع موقع مالك ودوره من بين أصحاب أميرالمؤمنين عليه السلام وإمرته للجيش وفكره الرفيع وعزمه الراسخ.

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۳۴۳

للَّه بِلَاءُ فُلَانٍ فَلَقَدْ قَوَّمَ الْأَوَدَ، وَدَاوَى الْعَمَدَ، وَأَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَّفَ الْفِتْنَةَ! ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ. أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا. أَدَّى إِلَى اللَّه طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِى طُرُق مُتَشَعِّبَةٍ، لَا يَهْتَدِى بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِى.

الشرح والتفسير: مالك الأشتر

لقد اختلف شرّاح الفريقين كما قيل فى تفسير هذه الخطبة والشخص المعنى بهذا الكلام. فقد ذهب أغلب الشرّاح من أبناءالعامّة (سوى صبحى الصالح) إلى أنّ المراد به الخليفة الأوّل أو الثانى فى حين لا ينسجم هذا المدح البليغ مع ذلك الذم الشديد الذى أورده الإمام عليه السلام فى مختلف خطب «نهج البلاغة» ولاسيما الخطبة الشقشقية، ولكلماته حين دفن الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام (الخطبة ۲۰۲) فى ذمّهما واستهجان أعمالهما.

ومن هنا أجمع الشرّاح الشيعة على أنّ الخطبة إشارة إلى أحد خواص أصحابه ولاسيما مالك الأشتر، خاصة وردت فى بعض العبارات المروية عنه عليه السلام مثل ذلك المدح البليغ لمالك التى تشير إلى جدارته بهذا الكلام، ومن ذلك ما رواه ابن أبى الحديد فى شرحه أنّه عليه السلام قال:

«رَحِمَ اللَّه مالِكاً فَلَقَدْ كانَ لى كَما كُنْتُ لِرَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَآلِهِ»[۶۲۹].

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۳۴۴

على كلّ حال، قال: «للَّه بِلَاءُ فُلَانٍ فَلَقَدْ قَوَّمَ ۶۳۰] الأَوَدَ[۶۳۱]، وَدَاوَى الْعَمَدَ[۶۳۲]، وَأَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَّفَ ۶۳۳] الْفِتْنَةَ!».

البلاء هنا الامتحان ويشير هنا إلى ثواب هذا الامتحان ويعنى أنّ اللَّه امتحنه كثيراً وقد دعا الإمام عليه السلام ليوفيه أحسن الثواب على ذلك البلاء.

وردت فى كثير من النسخ (بلاد) بدل (بلاء) جمع بلد، أى‌للَّه‌البلد التى ترعرع فيها حتى هذا الشخص وهو كلام شائع الاستعمال لدى العرب فيقال: «للَّه دَرُّ فُلان» و «للَّه نادى فُلان».

فقد بيّن عليه السلام فى العبارة أربعاً من صفاته، الاولى أنّه قوم الأوَد ولهذه العبارة معنى واسع يشمل المسائل العقائدية والأخلاقيّة والاجتماعية، والكلام فى العبارة الثانية عن معالجة المرضى يشير قطعاً إلى الأمراض الأخلاقيّة والاجتماعية، وإقامة السُنّة بمعنى العودة إلى عصر النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله والتولى عن البدع الكثيرة التى ظهرت بعده صلى الله عليه و آله والعبارة «خَلَّفَ الْفِتْنَةَ» إشارة إلى أنّه ظهرت بعده العديد من الفتن والاختلافات بين المسلمين ومن توفيقاته أنّه لم يتعرض لتلك الفتن.

ثم خاض فى صفات مهمّة أخرى فقال: «ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ. أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا».

هذه الصفات الأربع تأكيد لما ورد فى الصفات الأربع السابقة. وبالطبع فإنّ من يقوّم الاوَد ويداوى العمد ويقيم السُنّة سيكون: «نَقِيَّ

التَّوْب، قَلِيلَ الْعَيْبِ وَيُغادرُ الدّنيا مَلِيئاً بِالخيَراتِ».

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۳۴۵

ثم اختتم عليه السلام الكلام بثلاث صفات أخرى فقال: «أَدَّى إِلَى اللَّه طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ. رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِى طُرُق مُتَشَعِّبَة[۶۳۴]، لَا يَهْتَدِى بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِى».

هذا الكلام إشارة إلى الحوادث التى وقعت الواحدة بعد الأخرى بعد مالك الأشتر رحمه الله والتى كانت من آثار موقعة صفين والنهروان والتى يثيرها المنافقون وأعداء الإسلام، فلم يمر يوم دون ظهور فتنة ولا اسبوع وشهر دون قتال.

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۳۴۷

الخطبة ۲۲۹

اشارة

فى وَصْفِ بَيْعَتِهِ بِالْخِلافة[۶۳۵]

نظرة إلى الخطبة

مضمون الخطبة واضح. أكّد الإمام على عليه السلام: إنّى لم اطلبكم للبيعة وأنتم من انبريتم لها وتلهفتم عليها واندفعتم حتى أسقطتم ردائى وقطعتم نعلى وعمّ الفرح والسرور المجتمع برمته بهذه البيعة.

ترى لِمَ أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة؟ الجواب يكمن فى سائر عبارات الخطبة كون هذه الخطبة جانب من رسالة طويلة رواها الكلينى فى كتاب الرسائل حيث إنّ الإمام عليه السلام لما عاد من النهروان كتب كتاباً وأمر بأن يقرأ على الناس، حيث تحرك المنافقون وقصدت فئة، الإمامَ وقالت: ما تقول فى أبى بكر وعمر وعثمان؟

فأجاب الإمام عليه السلام: رغم هذه الظروف وقتالنا لأهل الشام فإنّه سؤال حسن

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۳۴۸

وسأكتب جواباً شافياً وكافياً وليطلع عليه المسلمون.

ثم كتب ذلك الكتاب التاريخى فى ما يقارب من عشرين صفحة وأمر بقراءته فى صلاة الجمعة. فلما بلغ قضية مقتل عثمان وبيعته التى تضمنت ذلك الهجوم الفريد شرح ذلك بعبارات موجزة عميقة المعنى فى هذه الخطبة، كما شرح ما حدث من وقائع عقب ذلك حتى يسلب المتذرعين الحجة، وهنالك كلمات رائعة للإمام بشأن اندفاع الناس لبيعته ورد بعضه فى الخطبة الشقشقية (الخطبة ۳) والخطبة ۱۳۷.

***

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۳۴۹

وَبَسَطْتُمْ يَدِى فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَىَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ، وَسَقَطَ الرِّدَاءُ، وَوُطِىءَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّاىَ أن ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ.

الشرح والتفسير: الإندفاع العجيب لبيعة الإمام عليه السلام

ركز الإمام عليه السلام فى كلّ هذا الكلام على قضية مهمّة هى أنّى لست طالباً قط للحكومة وأنتم الذين أصررتم علىَّ، فأشار هنا إلى موضوعين: الأوّل اندفاع الناس المتلهفة لبيعتى، والثانى سرورهم الفائق وفرحهم الكبير بذلك العمل.

فقال فى القسم الأول: «وَبَسَطْتُمْ يَدِى فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ ۶۳۶] عَلَىَّ تَدَاكَّ الْابِلِ الْهِيمِ ۶۳۷] عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا حَتَّى انْقَطَعَتِ الْنَّعْلُ، وَسَقَطَ الرِّدَاءُ، وَوُطِىءَ الضَّعِيفُ».

حقّاً ليس هناك من شبه بين بيعة الناس لعلى عليه السلام ومبايعة الخلفاء السابقين، فبيعته تشبه بيعة المسلمين للنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى فتح مكة فقد سئمت الامّة حكومة

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۵۰

عثمان وعانت الأمرّين على عهده من غياب العدالة، ومن هنا كانت متعطشة للعدل وحيث رأتها فى ينبوع على عليه السلام سارعت إليه بتلك اللهفة والشوق.

ذكر المرحوم مغنية فى شرحه «فى ظلال نهج البلاغة» قضية من شأنها ايضاح سبب هجوم الامّة لمبايعة على عليه السلام فقال: قرأت اليوم وأنا أشرح هذه الخطبة نسخة من صحيفة أخبار اليوم المصرية فى ۲۱/ ۱۰/ ۱۹۷۲ مقالة بقلم الأستاذ سامى محمود عنوانها «شرح فى خلافة المسلمين» يقول فيها: لما ولى عثمان الخلافة أسرف فيها وطغت بنى أمية لتفسد هنا وهناك: «الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ»[۶۳۸].

فسلطهم على المسلمين حتى غرقت الامّة فى الفتنة وقامت على عثمان فقتلته.

أمّا على عليه السلام وولده سبطى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان لهم أسلوب واضح وصحيح فلم يفكروا لحظة فى الدنيا وزخارفها، فهجرتهم كانت منذ البداية للَّهورسوله ۶۳۹].

وعليه فلا عجب أن تندفع الامّة لبيعة الإمام على عليه السلام.

وقال فى المرحلة الثانية: «وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّاىَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ ۶۴۰] إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ ۶۴۱] نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وحَسَرَتْ ۶۴۲] إِلَيْهَا الْكِعَابُ ۶۴۳]».

عادة ما يلتحق كبار السن للمشاركة فى الأحداث العادية أو غير العادية، أمّا فى الأحداث الفريدة النادرة التى تشهد حضوراً عظيماً فهنالك حضور حتى للعجزة والمعذورين الذين لا يشتركون فى أى تجمع. والإمام رسم بما عهد عنه من فصاحة فريدة حضور الامّة فى ذلك المشهد العظيم وتلك البيعة التاريخيّة بأسمى صورة

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۵۱

وأشار إلى موجة الفرح والسرور العارمة التى اجتاحت جميع أفراد الامّة بحيث خرج لها حتى الضعفاء والعجزة وشهدوا ذلك الحدث العظيم.

تأمّل: البيعة الفريدة المطلقة

رغم أنّ نصب الأئمة المعصومين عليهم السلام زعماء الامّة خاضع لانتخاب النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ومن جانب اللَّه كما أنّ اصطفاء النّبى لهذا المقام من جانب اللَّه، لكن للبيعة: أى إعلان الوفاء والطاعة دور مهم فى مسيرتهم، ومن هنا أخذ النّبى صلى الله عليه و آله البيعة من الامّة كراراً (بيعة العقبة الاولى والثانية والحديبيّة وبيعة المهاجرات فى المدينة).

وعلى هذا الأساس سعى الخلفاء لأخذ البيعة من الناس؛ إلّاأنّ البيعة لم تكن كبيعة الإمام عليه السلام. فبيعة الخليفة الأوّل فى الواقع

حصلت فی السقیفة وشهدها عدد محدود جدّاً وأصبحت الامّة أمام أمر واقع فبایعت.

والخلیفة الثانی نصب من جانب الخلیفة الأوّل فجعل الامّة أمام فعل حاصل.

وحصلت بیعة الخلیفة الثالث فی الشوری المؤلفة من ستة أفراد التی شکلها عمر ولبنتها الأصلیة التی صوّتت لعثمان ثلاثة أفراد (عبدالرحمن بن عوف، وطلحة، وسعد بن أبی وقاص) ورأت الامّة أنّها أمام أمر واقع.

أمّا أمیرالمؤمنین علی علیه السلام- بغض النظر عن کونه منصب من جانب اللّه بواسطة النّبی صلی الله علیه و آله- فقد انتخب من قبل الأکثریة الساحقة ودون مقدمات فبویع بیعة غایة فی النشاط ومفعمة بالفرح والسرور الذی بیّنه علیه السلام بدقة فی هذه الخطبة، وعلیه قد قلنا بضرورة انتخاب الامّة والتعویل علی آرائها وأسمینا ذلک بالدیمقراطیة الإسلامیّة فالحاکم الوحید الذی حصل علی هذه الآراء هو أمیرالمؤمنین علی علیه السلام دون من سواه.

***

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۳۵۳

الخطبة ۲۳۰

اشارة

فی مَقاصِدَ أُخْری ۶۴۴]

نظرة إلی الخطبة

تتکون هذه الخطبة فی الواقع من أربعة أقسام:

تحدّث الإمام علیه السلام فی القسم الأوّل عن أهمّیة الورع والتقوی وآثارهما.

وتناول فی القسم الثانی بعد الفراغ من الوصیة بإتیان العمل الصالح ضرورة ذکر الموت ونهایة الحیاة وفقدان الفرص.

وأکّد ثانیة فی القسم الثالث علی بذل الجهد والسعی للتزود للدار الآخرة فأشار إلی خداع الدنیا مخاطباً المسلمین: احذروا أن تفتنکم الدنیا واعتبروا بما آلت إلیه حیاة أسلافکم وقارنوا بمصیرهم مصیرکم.

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۳۵۴

کما أورد فی القسم الرابع والأخیر الذی یبدو منفصلًا عن الخطبة حسب ظاهر کلام السید الرضی، کلمات موجزة عمیقة المعنی فی صفات الزهاد وخصائص معیشتهم وشرح حقیقة الزهد.

***

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۳۵۵

القسم الأوّل

اشارة

فَإِنَّ تَقْوَى اللَّه مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ. بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرَّغَائِب.

الشرح والتفسير: سرّ السعادة والفلاح

بيّن الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة كسائر أغلب الخطب، أهمّية التقوى وآثارها ليوجزها فى سبع عبارات قصيرة عظيمة المعنى، فقال فى الاولى: «فَإِنَّ تَقْوَى اللَّه مِفْتَاحُ سَدَاد[۶۴۵]».

فبالنظر إلى أنّ التقوى هى خشية اللَّه الباطنيّة التى تصد الإنسان عن الفحشاء والمنكر وتسوقه للمعروف والإحسان فإنّه يمكن القول: التقوى مفتاح أبواب السعادة؛ فكما توضع النفائس فى الخزائن وتقفل أبوابها ولا يمكن فتحها سوى بمفاتيحها فإنّ مفتاح التقوى من شأنه فتح خزائن السعادة بوجه الإنسان واستنزال رحمة اللَّه المطلقة.

وقال عليه السلام فى العبارة الثانية: «وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ». وهى إشارة فى الواقع لذيل الآية الشريفة: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»[۶۴۶].

وقال فى‌الثالثة: «وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ[۶۴۷]».

وسعة مفهوم هذه العبارة يشمل التحرر من عبودية الشيطان واهواء النفس

نفحات الولاية، ج‌۸، ص: ۳۵۶

والظلمة. وقال عليه السلام فى العبارة الرابعة: «وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ» فهلكة الإنسان فى اتّباع هوى النفس، فإذا كبح الإنسان هوى النفس بالتقوى نجا من الهلكة.

وقال عليه السلام فى الخامسة: «بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ» فالتقوى هى الصراط المستقيم البعيد عن كل إفراط وتفريط وتقصير وعدوان، ومن الطبيعى أن يختزل الصراط المستقيم ليوصل الإنسان بأقل مدّة إلى الهدف.

نفحات الولاية ؛ ج۸ ؛ ص۳۵۶

ال عليه السلام فى السادسة: «وَيَنْجُو الْهَارِبُ» فالعذاب الإلهى يطال عبدة الأهواء، والمتقون بعيدون عن الأهواء، وكما ورد فى الآيتين ۷۱- ۷۲ من سورة مريم: «وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّك حَتْماً مَّقْضِيّاً* ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً» وقال عليه السلام فى العبارة السابعة والأخيرة التى تعتبر عصارة العبارات السابقة «وَ تُنَالُ الرَّغائِبُ ۶۴۸]»، لِمَ عدّ اللَّه الأتقى أكرم إنسان عنده. «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّه أَتْقَاكُمْ»[۶۴۹] ولم كانت التقوى مفتاح الجنّة «تِلْك الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً»[۶۵۰]، ولِمَ لا ينفك الأنبياء وأئمة أهل البيت عليهم السلام وأولياء اللَّه عن التأكيد على أنّ أهم شىء هو التقوى ولم كانت ضرورة فى الوصية بالتقوى فى كلّ صلاة جمعة وفى كلا الخطبتين؟

نفحات الولاية، ج‌۸، ص: ۳۵۷

القسم الثانى

اشارة

فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِئَةٌ، وَالأَقْلَامُ جَارِيَةٌ. وَبَادِرُوا بِالْاعْمَالِ عُمُراً نَاكِساً، أَوْ مَرَضاً حَابِساً، أَوْ مَوْتاً خَالِساً. فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ، وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ. زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوب، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوب، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوب. قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ. وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ. فَيُوشِك أَنْ تَغْشَاكُمْ دَواجِى ظُلَلِهِ وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ، وَغَوَاشِى سَكَرَاتِهِ، وَأَلِيمُ إِرْهَاقِهِ، وَدُجُوُّ أَطْبَاقِهِ، وَجُشُوبَةُ مَذَاقِهِ. فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ

بَغْتَةً فَأَسْکَتَ نَجِیَّکَمْ، وَفَرَّقَ نَدِیَّکَمْ، وَعَفَّى آثَارَکُمْ، وَعَطَّلَ دِیَارَکُمْ، وَبَعَثَ وُرَّاثَکَمْ، یَقْتَسِمُونَ تُرَاثَکَمْ، بَیْنَ حَمِیمٍ خَاصٍّ لَمْ یَنْفَعْ، وَقَرِیبٍ مَحْزُونٍ لَمْ یَمْنَعْ، وَآخَرَ شَامِت لَمْ یَجْزَعْ.

الشرح والتفسیر: المعبر الذی لا مفر منه

أوصى الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الخطبة بضرورة استغلال الفرص المتاحة قبل حلول الأجل وأکّد ذلک فقال: «فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ یُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ یُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِئَةٌ[۶۵۱]، وَالأَقْلاَمُ جَارِیَةٌ»[۶۵۲].

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۳۵۸

حیث أشار علیه السلام فی هذه العبارات الموجزة إلى أمر مهم: لدیکم خمس فرص ما دمتم فی الدنیا: أعمالکم الصالحة ترفع إلى اللّه ویسعکم أن تغسلوا المعاصی بماء التوبة. ودعاؤکم یسمع عند اللّه وأنتم وادعون فیمکنکم الإتیان بما تشاؤون من العمل الصالح وأخیراً الملائکة مستنفرون لیکتبوا صالح أعمالکم فی صحیفة أعمالکم، لکن إن مرت هذه الفرصة وکنتم على أعتاب الموت ستسلبون هذه الفرص ولیس لکم من زاد سوى الحزن والحسرة.

ثم قال علیه السلام موضحاً کلامه ومکمله: «وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمُراً نَاکِساً[۶۵۳]، أَوْ مَرَضاً حَابِساً، أَوْ مَوْتاً خَالِساً[۶۵۴]».

فالواقع أنّ الإمام علیه السلام شجّع جمیع مخاطبیه للسبق فی هذه الأمور الثلاثة؛ مدّة الکهولة التی تفقد فیها جمیع الأعضاء قوّتها وقدرتها والتی أسماها القرآن الکریم «أرذل العمر» والأمراض التی تطول أحیاناً وتسلب الإنسان نشاطه وحیویته فلا یقدر على الإتیان بالعبادات بصورة تامة ولا ـ خدمة المؤمنین وقضاء حوائجهم، والموت الذی شبّهه علیه السلام بالسارق الذی یسرق کلّ شیء من الإنسان خلسة.

ثم وضع حقیقة الموت من خلال ذکره لستّ من خصائصه، الموت الذی لا مهرب منه ولا مفر لأحد من ملاقاته فقال: «فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِکُمْ، وَمُکَدِّرُ شَهَوَاتِکُمْ، وَمُبَاعِدُ طِیَّاتِکُمْ ۶۵۵]. زَائِرٌ غَیْرُ مَحْبُوب، وَقِرْنٌ ۶۵۶] غَیْرُ مَغْلُوب، وَوَاتِرٌ[۶۵۷] غَیْرُ مَطْلُوب».

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۳۵۹

فقد حذّر علیه السلام من أنّ الزائر الذی یقدم على الجمیع والرامی المصوب نحو الجمیع والأشوس الذی یعجز عن مواجهته الجمیع. فإن قدم حطم کلّ شیء فطوى بساط العیش وصادر اللّذات والمتع وحمل معه الإنسان، والأهم من کلّ ذلک أنّه لا یعرف من معنى للزمان والمکان. حقّاً أنّ هذه العبارات البلیغة العمیقة المعنى موقظة ومحرکة توقظ الغافلین وتفیق الثملین.

وکما خاض علیه السلام فی ستة خصائص أخرى للموت لیکمل کلامه السابق فقال:

«قَدْ أَعْلَقَتْکُمْ حَبَائِلُهُ، وَتَکَنَّفَتْکُمْ ۶۵۸] غَوَائِلُهُ ۶۵۹]، وَأَقْصَدَتْکُمْ مَعَابِلُهُ ۶۶۰]. وَعَظُمَتْ فِیکُمْ سَطْوَتُهُ وَتَتَابَعَتْ عَلَیْکُمْ عَدْوَتُهُ ۶۶۱]، وَقَلَّتْ عَنْکُمْ نَبْوَتُهُ ۶۶۲]».

شبه الإمام علیه السلام الموت فی هذه العبارات الرائعة بصیاد رمى شباکه نحو جمیع الناس وأخرى برام لا تطیش سهامه أو سیاف قاطع بسیفه.

نعم، إن شک الإنسان فی کلّ شیء فلن یشک فی الموت ونهایة الحیاة. یرکع له صنادید أبطال العالم ویقع فی شباکه أذکى الأذکیاء وکفى به أنّه لم یستثن حتى الأنبیاء والأولیاء وکما قال تعالى: «کُلُّ نَفْس ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»[۶۶۳].

وأشار علیه السلام إلى سبعة أمور أخرى بشأن حملات الموت على الإنسان والعجز عن مواجهته فقال: «فَیُوشِکُ أَنْ تَغْشَاکُمْ دَوَاجِی ۶۶۴] ظُلَلِهِ ۶۶۵] وَاحْتِدَامُ ۶۶۶] عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ ۶۶۷]

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۳۶۰

غَمَرَاتِهِ ۶۶۸]، وَغَوَاشِی سَکَرَاتِهِ، وَأَلِیمُ إِرْهَاقِهِ ۶۶۹]، وَدُجُوُّ[۶۷۰] أَطْبَاقِهِ ۶۷۱]، وَجُشُوبَةُ[۶۷۲] مَذَاقِهِ».

حيث بيّن عليه السلام بهذه الحملات السبع وبمختلف العبارات وبأدق وصف، اللحظات الرهيبة آخر العمر، لحظات مهولة وموحشة للغاية، لحظات مظلمة ودامية وصف عليه السلام ظلمتها بأربع مفردات مختلفة (دواجى، حنادس، غواشى ودجو) تكشف مدى بلاغة الإمام عليه السلام وتنوع الألفاظ يضاعف فصاحة كلماته وبلاغتها.

ثم حذّر عليه السلام مخاطبيه من نزول الموت المفاجئ وضرورة اليقظة فى أنّ هذا الموت لا يقبل دائماً بعد مقدمات طويلة وأمراض، بل ما أكثر أن يحلّ ويفنى كلّ شىء بلحظة فقال: «فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ ۶۷۳]، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُمْ ۶۷۴]، وَعَفَّى ۶۷۵] آثَارَكُمْ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وُرَّاثَكُمْ، يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ».

وموت الفجأة الذى كان وما زال يفاجىء الناس، أعظم عبرة من غيره، حيث لا يعرف صغيراً أو كبيراً ويطال الإنسان كيفما كان، وقد ذكر المرحوم العلّامة التسترى فى شرحه لنهج البلاغة عدداً من الأنبياء ومنهم موسى وداود وسليمان الذين ماتوا موت الفجأة، نعم، ظاهر القرآن بشأن سليمان يشهد أنّ ملك الموت توفّاه واقفاً مستنداً على عصاه «فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ»[۶۷۶].

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۶۱

حتى شوهد البعض وقد توفى وهو يتحدّث، فذكر المبتدأ ولم يبلغ الخبر.

فقد بيّن عليه السلام فى هذه العبارات آثار الموت فى وسط المتبقين حيث لا ينقطع كلامه الظاهرى فحسب، بل يخمد حتى الهمس؛ فيتفرق عنه الحاضرون فجأة وسرعان ما تزول آثار الإنسان ويفرغ بيته وينطفئ ضياؤه وإن كان هنالك من ضجيج فبين الورثة الذين عادة ما يتنازعون على الميراث وكأنّهم لا يدرون أنهم سيلتحقون بالموتى عن قريب.

ثم قسّم عليه السلام الورثة فى ختام هذه الفقرة إلى ثلاث؛ فئة من خواص الإنسان؛ إلّا أنّ مودتهم تزول آنذاك: «بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ».

والثانية، القرابة المحزونة والملتاعة التى لا يسعها دفع الموت «وَ قَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ». والثالثة، العدو الشامت الذى لا يجزعه موت «وَآخَرَ شَامِت لَمْ يَجْزَعْ».

وأشار الإمام عليه السلام فى المقطع الأخير من كلامه إلى موت الفجأة؛ السكتة القلبية أو الدماغية والحوادث الأليمة المتنوعة التى تفنى الإنسان فى لحظة، الموت الذى لا يأبه بمكانة الأشخاص ولا بعمرهم فيطال كما مضى حتى الأنبياء، ويالها من عبرة يختزنها هذا الموت الذى يحدث كثيراً ويزداد يوماً بعد آخر، ففى لحظة آنية ينتهى كلّ شىء ويتفرق الجمع ويغتنم الصديق ويفرح العدو- ويالهم من غافلين أولئك الذين يتجاهلون هذه الحوادث وينهمكون بالذنوب والمعاصى ويقارفون أنواع الآثام بغية الحصول على المال. نعم إنّ هؤلاء المغفلين ينسون طبيعة ظروف حياتهم.

ورد فى كتاب «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة: فلما كانت سنة إحدى وخمسين، مرض الحسن بن علىّ مرضه الذى مات فيه، فكتب عامل المدينة ا لى معاوية يخبر بشكاية الحسن، فكتب إليه معاوية: إن استطعت ألّا تمضى يوم يمرّ بى إلّايأتينى فيه خبره فافعل،: فلم يزل يكتب إليه بحاله حتى توفى (الإمام الحسن عليه السلام)، فكتب إليه بذلك، فلما أتاه الخبر أظهر فرحاً وسروراً حتى سجد وسجد من كان معه، فبلغ ذلك عبداللّه بن عباس وكان بالشام يومئذٍ، فدخل على معاوية، فلمّا جلس قال معاوية:

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۶۲

يا ابن عباس هلك الحسن بن على، فقال ابن عباس: نعم، هلك «إنّا للّهِ إنّا إليهِ راجِعُون»[۶۷۷] ترجيعاً مكرراً، وقد بلغنى الذى أظهرت من الفرح والسرور لوفاته، أمّا واللّه ما سدّ جسده حفرتك، ولا زاد نقصان أجله فى عمرك، ولقد مات وهو خير منك ولئن أُصبنا لقد أصبنا بمن كان خيراً منه، جدّه رسول اللّه صلى الله عليه و آله فجبر اللّه مصيبته، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة، ثم شهق ابن عباس وبكى، وبكى من حضر فى المجلس، وبكى معاوية فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم ۶۷۸].

وجاء فی «تاریخ الطبری»: عندما وصل خبر وفاة علی علیه السلام إلی معاویة فرح فرحاً شدیداً، وكذلك لما انتهی الخبر إلی عائشة قتل علی علیه السلام وقالت:

فَأَلقَتْ عَصاها وَاستَقرّتْ بِها النَّوی كَما قَرَّ عَیناً بالإِیابِ المُسافِرِ

فقالت زینب بنت أبی سلمة: ألعلیّ تقولین هذا، فقالت: إنّی أنسی فإذا نسیت فذكّرونی ۶۷۹].

نعم، فمثل هؤلاء الأشخاص الغفلة ینسون ما هم علیه من العیش الدونی والانحراف وحبّ الدنیا والقدرة.

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۳۶۳

القسم الثالث

اشارة

فَعَلَیْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُّبِ والْاسْتِعْدَادِ، وَالتَّزَوُّدِ فِی مَنْزِلِ الزَّادِ.
وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَیَاةُ الدُّنْیَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْامَمِ الْمَاضِیَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِیَةِ، الَّذِینَ احْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا. وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثاً، وَأَمْوَالُهُمْ مِیرَاثاً. لَا یَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ، وَلَا یَحْفِلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ، وَلَا یُجِیبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ. فَاحْذَرُوا الدُّنْیَا فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِیَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ، لَا یَدُومُ رَخَاؤُهَا، وَلَایَنْقَضِی عَنَاؤُهَا، وَلَا یَرْكُدُ بَلَاؤُهَ.

الشرح والتفسیر: الدنیا الغرارة!

متابعة لبحث الإمام علیه السلام فی شدائد الموت وفناء الحیاة فی المقطع السابق خاطب الجمیع فأوصاهم بالتزود من الدنیا ما دامت الفرصة قائمة وعدم الاغترار بزخارفها ولذاتها والاعتبار بالماضیین فقال: «فَعَلَیْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُّبِ ۶۸۰] وَالْاسْتِعْدَادِ، وَالتَّزَوُّدِ فِی مَنْزِلِ الزَّادِ».

قال بعض الشرّاح فی الفارق بین الجد والاجتهاد أنّ الجد یشیر إلی مرحلة العزم علی الإتیان بالفعل والاجتهاد مرحلته العملیة، والتأهب إشارة إلی النیّة علی الاستعداد والاستعداد جانبها العملی ۶۸۱].

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۳۶۴

لكن لم یذكر لذلك أیدلیل من اللغة أو القرائن المتصلة والمنفصلة ولا یبعد أن یكون الجد حین یقترن بالاجتهاد إشارة إلی أنّه ینبعث من الإنسان نفسه ولعل الفارق بین التأهب والاستعداد كذلك، طبعاً لا یستبعد احتمال التأكید.

ثم قال: «وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَیَاةُ الدُّنْیَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْامَمِ الْمَاضِیَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِیَةِ».

نعم، یمكننا مشاهدة مصیر حیاتنا بصورة شفافة فی مرآة حیاة الآخرین وهذه حقیقة أكدها الإمام علیه السلام فی عدّة خطب من «نهج البلاغة» فتأخذ بأیدینا لتضعنا فی تاریخ الماضین؛ التاریخ التكوینی لا التدوینی الذی یتجلی فی أطلال قصورهم الخربة والآثار الباقیة من معیشتهم المترفة.

ولحسن الحظ فإنّ المتاحف التی تضم الكثیر من آثار الماضین یمكنها أن ترشدنا؛ فعرش الملك الفلانی وتاجه هنا والمهند المرصع وجواهر الآمر الكبیر هناك وفی زاویة الأجساد المحنطة للفراعنة، مع أنّ طلاب الدنیا شوهوا هذا الموضوع المهم وأحالوه إلی صورة أخری من الاستغراق فی الدنیا؛ فأصبحت المتاحف وسیلة تدر الأرباح علی أصحابها.

وقال الهیثم بن عدی، عن رجاله: بینا حذیفة بن الیمان وسلمان الفارسی یتذاكران أعاجیب الزمان، وتغیّر الأیّام، وهما فی عرصَة أیوان كسری، وكان أعرابی من غامد یرعی شویهات له نهاراً، فإذا كان اللیل صیرهنّ إلی داخل العرصة، وفی العرصة سریر رخام كان

کسری ربّما جلس علیه، فصعدت غنیمات الغامدی علی سریر کسری، فقال سلمان: ومن أعجب ما تذاکرنا صعود غنیمات الغامدی علی سریر کسری ۶۸۲].

أَتَبنِی بِناءَ الخالِدِینَ وَإنّمامُقامُکَ فِیها لَو عَقَلْتَ قَلِیلُ

لَقد کانَ فِی ظِلِّ الأراکِ کِفایةٌلِمَن کَانَ یَوماً یَقْتَضیهِ رَحِیلُ

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۳۶۵

ثم تناول علیه السلام حال الماضین ببضع عبارات موجزة فقال: «الَّذِینَ احْتَلَبُوا[۶۸۳] دِرَّتَهَا[۶۸۴]، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا[۶۸۵]، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا، وَأَخْلَقُوا[۶۸۶] جِدَّتَهَا[۶۸۷]. وَأَصْبَحَتْ مَسَاکِنُهُمْ أَجْدَاثاً[۶۸۸]، وَأَمْوَالُهُمْ مِیرَاثاً. لَا یَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ، وَلَا یَحْفِلُونَ ۶۸۹] مَنْ بَکَاهُمْ، وَلَا یُجِیبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ».

العبارات: «الَّذِینَ احْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا ...» والعبارات ... إشارة إلی الأشخاص الذین تمتّعوا بجمیع ملذات الدنیا. وکان لبناً فی ثدی الدنیا فحلبوه وشربوه إلی آخره واستغلوا کلّ متع الدنیا ولکنهم کأن لم یلبثوا فیها فکانوا طبق العبارة «وَأَصْبَحَتْ مَسَاکِنُهُمْ أَجْدَاثاً».

ولهذه العبارة القیمة معنیان؛ الأوّل: انتقلوا من قصورهم إلی القبور، والآخر: إنّ قصورهم تهدمت علیهم بفعل بعض الحوادث المهولة کالزلزلة فأضحت قبورهم.

وبیّن علیه السلام بالدقة فی العبارات الخمس الأخیرة التی تبدأ ب (أصبحت) أنّهم اغتربوا عن الدنیا بحیث لم یعودوا یعرفون من یزورهم ویبکیهم من قرابتهم ومعارفهم ولا یسمعون صراخهم.

طبعاً هذا بخصوص أصحاب الدنیا الذین نسوا اللّه ولم تکن حصیلة أعمارهم سوی التهافت علی الدنیا، أما المؤمنون الصالحون حسب ما ورد فی الروایة فیعرفون من یقف علی قبورهم ویأنسون بهم ویغتمون لانصرافهم.

قال أحد أصحاب الکاظم علیه السلام إسحاق بن عمار: سألته عن المؤمن یعرف من یزوره فی قبره؟ فقال: «نَعَمْ وَلایَزالُ مُسْتَأْنِساً بِهِ مادامَ عِندَ قَبْرِهِ فَإذا قامَ وَانْصَرَفَ

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۳۶۶

مِنْ قَبْرِهِ دَخَلَهُ مِنْ إنْصِرافِهِ عَنْ قَبْرِهِ وَحْشَةً»[۶۹۰]. ثم استنتج علیه السلام عقب ذلک «فَاحْذَرُوا الدُّنْیا».

ثم أورد ثمان صفات للدنیا (أو عشرة علی قول) کأدلة دامغة علی الحذر من الدنیا فقال: «فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِیَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ ۶۹۱]، لَا یَدُومُ رَخَاؤُهَا، وَلَایَنْقَضِی عَنَاؤُهَا، وَلَا یَرْکُدُ[۶۹۲] بَلَاؤُهَا».

والمفردات «غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ» وإن کانت متقاربة من حیث المعنی لکنها فی الواقع تختلف فی الدقّة؛ غدارة من مادة غدر نقض العهد، وغرارة من غرور، الخدوع من خدعة الحیلة وتعلم أنّها متفاوتة وإن کانت غالباً من قبیل اللازم والملزوم، نعم، فالدنیا لا تفی لأحد وزخارفها تغرّ العدید من الناس ومختلف مناظرها ومشاهدها خدعة، العبارة «مُعْطِیَةٌ مَنُوعٌ» تعود لصفة؛ أی لا تکاد تعطی الإنسان شیئاً حتی تسترده، فلا یمضی عهد الشباب حتی تحل الکهولة ولا یذوق السلامة حتی تطاله الأمراض.

وذهب بعض الشرّاح إلی أنّ هاتین الصفتین منفصلتان وقال: الدنیا تعطی الأشیاء التافهة وتمنع الأشیاء القیمة، فلا قیمة لعطائها ولا یطاق منعها.

کما هنالک تفسیران للعبارة «مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ»: الأوّل: إنّه وصف مفهومه أنّ الدنیا تکسو الإنسان لباساً جمیلًا من القدرة والعظمة وتنزعه بعد مدّة قلیلة من قبل الآخرین، أو المراد أنّها تلبس ثیاباً تافهة وتنزع ثیاباً قیمة والتفسیر الأوّل یبدو أصح فی کلتا العبارتین.

وهنالک اختلاف واضح بین المفردات (رَخَاء) و (وعناء) و (بلاء) فالرخاء، الهدوء الذی قلما یحصل فی الدنیا، والعناء، المتاعب والمصاعب التی تطال دائماً أهلها،

نفحات الولاية، ج‌٨ ص: ٣۶٧

والبلاء، الحوادث الأليمة سواء الحوادث الطبيعية كالزلازل والسيول والعواصف أم البلايا التى يصنعها الإنسان كالحروب، وزبدة الكلام: الدنيا دار لا تدوم.

***

نفحات الولاية، ج‌٨ ص: ٣۶٩

القسم الرابع

اشارة

مِنْها فى صِفَةِ الزُّهّادِ: كانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ، تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَىْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ.

الشرح والتفسير: الزهاد الحقيقيون

قال الإمام عليه السلام فى الجانب الآخر من هذه الخطبة الذى يشير تعبير السيد الرضى أنّه مستقل عمّا سبق لأنّه يقول (منها فى صفة الزهاد). «كانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا».

هذه هى الصفة الاولى من الصفات الخمس التى ذكرها الإمام عليه السلام للزهاد فى هذه العبارة. من الواضح أن لا تناقض قط فى العبارة، فالمراد أنّ جسمهم فى الدنيا لكن روحهم وقلبهم معلق بالآخرة.

وقد جرب ذلك كلّ شخص فى حياته أنّ قلبه حين ينشغل بقضية مهمّة يكون فكره متعلق بموضوع آخر وإن كان وسط أى‌جماعة، وتؤدى هذه الصفة إلى اختلاف أعمال الزهاد مع أصحاب الدنيا، فهؤلاء يجدون فى التزود من الدنيا وأولئك فى التزود لها، ودليل ذلك واضح أنّ الزهاد لا يرون الدنيا سوى ممر والحياة الواقعيّة حسب القرآن هى الدار الآخرة «وَإِنَّ الدَّارَ الْاٰخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»[۶٩٣].

نفحات الولاية، ج‌٨ ص: ٣٧٠

ثم أشار عليه السلام إلى الصفة الثانية «عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ».

ومن ثم قال عليه السلام: «وَ بَادَرُوا[۶٩۴] فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ». فهؤلاء يرون ببصيرتهم سبل النجاة ويقفون على عناصر السعادة والفلاح، ومن هنا يلهثون وراءها دائماً، ويعرفون من جانب آخر عوامل البؤس والشقاء، لذلك يسعون للهروب منها وعدم التلوث بها.

وقال فى الصفة الرابعة: «تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَىْ ۶٩۵] أَهْلِ الْآخِرَةِ». نعم فهم يعيشون مع الجميع ظاهرياً؛ إلّاأنّ معاشريهم الحقيقيين أهل الآخرة، كونهم يعلمون أنّ معاشرتهم لأصحاب الدنيا تميت قلوبهم، فلا شىء فى مجالسهم سوى الدنيا ولذاتها، فهم فى الواقع أموات بصورة أحياء.

ثم قال فى الصفة الخامسة والأخيرة: «وَ يَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ».

يستفاد من الصفات الخمس المذكورة أنّ معنى الزهد وحقيقته ليس فى كون الإنسان فقيراً ومعدماً أو يتخلى عن الحياة الاجتماعية والتقوقع فى زاوية للعبادة؛ بل حقيقة الزهد أن يرى الأولوية للدار الآخرة فى كلّ شىء وحيثما كان ولا يكون أسير زخارف الدنيا والأهواء والشهوات، وجاء فى خطبة أخرى للإمام عليه السلام.

«أَيُّهَا النّاسُ الزَّهادَةُ قَصْرُ الْاَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحارِمِ»[۶۹۶].

وقد بحثنا بما فيه الكفاية حقيقة الزهد فى تلك الخطبة.

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۳۷۱

الخطبة ۲۳۱

اشارة

خَطَبَها بِذىقار[۶۹۷] وَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْبَصْرَةِ، ذَكَرَهَا الْواقِدى ۶۹۸]

فى كِتابِ «الْجَمَلِ»:[۶۹۹]

نظرة إلى الخطبة

يفيد مستهل الخطبة أن ما ورد ذكره من جانب من خطبة مفصلة أوردها الإمام عليه السلام فى ذى قار ولا يبدو مستبعداً أن تكون هذه الخطبة متمّمة للخطبة ۱۰۴ والتى تبدو امتداداً للخطبة ۳۳ والتى قيلت فى ذىقار.

على كلّ حال أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى أمرين مهمين؛ الأوّل: إنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أبلغ ما أمر به وأتى بوظيفته بأكمل وجه.

والآخر: إنّ إحدى المهام الرئيسية للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله توحيد الصفوف وتكوين المجتمع الإسلامى الموحد وحصد العداوات من الصدور.

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۳۷۳

فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ اللَّهِ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَقَ بِهِ الْفَتْقَ، وَ أَلَّفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِى الأَرْحَامِ، بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ فِى الصُّدُورِ، وَالضَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ فِى الْقُلُوبِ.

الشرح والتفسير: النّبى صلى الله عليه و آله حصد العداء من الصدور

قال الإمام عليه السلام بعد بيانه لمقدمات فى خطبته بذىقار: «فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ».

بالنظر إلى أنّ (صدع) من مادة (صدع) على وزن (صبر) تعنى لغةً الشق أو الشق فى الأجسام المحكمة أو شق الشىء فيظهر باطنه، فإنّ هذه المفردة تعنى الظهور والوضوح وقد استعملت هنا كون إبراز حقيقة التوحيد فى ذلك الوسط الجاهلى المليئ بالشرك بمثابة شق تلك الحجب الضخمة للكفر والانحراف، والواقع انها اقتباس من الآية ۹۴ من سورة الحجر «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ».

ولعل الفارق بين هذه العبارة والعبارة «وَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ» أنّ فى «بلغ» مفهوم التأكيد والتكرار. وعليه فمفهوم العبارتين أنّ النّبى أظهر الحق وأكّد عليه.

ثم خاض عليه السلام فى إحدى أهم وأمثل خدمات النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقال: «فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَقَ بِهِ الْفَتْقَ، وَأَلَّفَ بِهِ الشَّمْلَ ۷۰۰] بَيْنَ ذَوِى الأَرْحَامِ، بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ[۷۰۱]

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۳۷۴

فِى الصُّدُورِ، وَالضَّغَائِنِ ۷۰۲] الْقَادِحَةِ[۷۰۳] فِى الْقُلُوبِ».

فقد ذکر الإمام علیه السلام فی وحدة الکلمة التی بثها النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله بین صفوف الامّة رغم کلّ تلک الاختلافات ثلاثة تعابیر:

الأوّل: التعبیر ب «لمّ» علی وزن (غم) بمعنی الجمع أو الجمع المقرون بالإصلاح ویصبح مفهومه أنّ النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله ردم تلک الهوة فی ظل التعالیم الإسلامیّة بحیث لم یعد هنالک من أثر للماضی.

الثانی: التعبیر ب «رتق» الذی یعنی ترقیع القطع الممزقة ولعله تأکید علی العبارة السابقة أو إشارة إلی الموارد التی کانت متصلة سابقاً وانفصلت، ثم وصلها.

الثالث: التعبیر ب «تألیف» الذی یعنی الجمع المقترن بالانس والإنسجام الذی ذکر بخصوص ذوی الأرحام، فکثیراً ما کان الأب والابن أو الأخ یتنازعون علی بعض المصالح البسیطة فی الجاهلیة، وقد ألف بینهم رسول اللّه صلی الله علیه و آله علی هدی الإیمان ومبادئ الإسلام.

النتیجة: إنّ الألفاظ الثلاثة یمکن أن تکون تأکیداً لبعضها البعض الآخر ویمکن أن یکون کل تعبیر فی نوع من الاختلاف فی المجتمع. کما یحتمل أن تکون العبارة (تألیف الشمل) مرتبط باختلافات الاسرة والقرابة، ورتق إشارة لزوال الاختلافات القبلیة و (لم) إشارة لرفع الاختلافات عن المجتمع وتوحید صفوفه.

علی کلّ حال لم یکن یصدق أحد أن یتحول یوماً ذلک المجتمع الصغیر فی العصر الجاهلی رغم کلّ تلک الاختلافات العجیبة والرهیبة إلی مجتمع موحد کبیر الذی قصم بوحدته ظهر الأعداء وکان بحق معجزة ربانیة کما قال القران: «هُوَ الَّذِی أَیَّدَکَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِینَ* وَأَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِی الأَرْضِ جَمِیعاً مَا أَلَّفْتَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَکِنَّ اللَّه أَلَّفَ بَیْنَهُمْ»[۷۰۴].

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۳۷۵

الخطبة ۲۳۲

اشارة

کَلَّمَ بِهِ عَبْدَاللَّه بْنِ زِمْعَة[۷۰۵]، وَهُوَ مِنْ شیعَتِهِ، وَذَلِکَ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَیْهِ فِی خِلافَتِهِ یَطْلُبُ مِنْهُ مالًا، فَقَالَ علیه السلام ۷۰۶]

نظرة إلی الخطبة

کما ورد فی عنوان هذا الکلام فإنّ عبد اللّه بن زمعة طلب مالًا من الإمام علیه السلام وکان من شیعته فلم یجبه، حیث کان المال من الغنائم الحربیة ولا حق فیه سوی للمقاتلین ولم یکن له حق لأنّه لم یشترک فی القتال.

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۳۷۷

إِنَّ هذَا الْمَالَ لَیسَ لِی وَلَا لَکَ، وَإِنَّمَا هُوَ فیءٌ لِلْمُسْلِمِینَ، وَجَلْبُ أَسْیَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِکْتَهُمْ فِی حَرْبِهِمْ، کَانَ لَکَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَاةُ أَیْدِیهِمْ لَا تَکُونُ لِغَیْرِ أَفْوَاهِهِمْ.

الشرح والتفسیر: غنائم المقاتلین

رغم أنّ المراد بهذا الکلام شخص معین؛ أیعبد اللّه بن زمعة الذی اعتنق الإسلام وکان من شیعة علی علیه السلام بخلاف أبیه وجدّه اللذین لم یعتنقا الإسلام وکانا من الأعداء، إلّاأنّ مضمون الکلام موضوع یصدق علی جمیع المسلمین، وهو أنّ أی مال من بیت مال

المسلمين لابدّ أن يصرف فى الموارد التى عينها الشارع ولا ينبغى تقديم الروابط على الضوابط بهذا الشأن.

وتشير قرائن الكلام إلى أنّ عبد اللّه طلب سهماً من الأموال التى كانت بين يدى الإمام وتعتبر من غنائم الحرب، إلّاأنّ الإمام عليه السلام قال له: «إِنَّ هذَا الْمَالَ لَيسَ لِی وَلَا لَک، وَإِنَّمَا هُوَ فیءٌ لِلْمُسْلِمِینَ، وَجَلْبُ أَسْیَافِهِمْ».

لابدّ من الالتفات رغم أنّ مفردة (الفيئ) إن كانت مقابل الغنيمة فلها معنيان مختلفان؛ فالفيئ يطلق على الأموال التى تقع فى أيدى جند الإسلام دون قتال وتتعلق حسب الموازين الشرعيّة ببيت‌المال؛ أمّا الغنيمة فهى الأموال التى يجنيها المقاتلون بواسطة القتال، لكن إن استعملت الفيئ بمفردها اطلقت أحياناً على الغنيمة، وعليه فقوله عليه السلام: «هُوَ فیءٌ لِلْمُسْلِمِینَ، وَجَلْبُ أَسْیَافِهِمْ»، لا ينافى مفهوم الفيئ.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۷۸

ثم قال عليه السلام: «فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِی حَرْبِهِمْ، كَانَ لَک مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَاةُ[۷۰۷] أَیْدِیهِمْ لَا تَكُونُ لِغَیْرِ أَفْوَاهِهِمْ».

وقوله عليه السلام ليس لى من سهم فى هذه الأموال ربّما يرتبط بالمعارك المحدودة التى يخوضها بعض قوّاد الإمام وليس الإمام عليه السلام، صحيح أنّ خمس الغنائم الحربية لبيت المال، وصحيح أنّ عبد اللّه بن زمعة كان من بنى المطلب (المطلب أخو هاشم) وليس بنى هاشم، ويرى البعض أنّ بنى‌المطلب يستحقون الخمس ۷۰۸].

لكن ربّما لم يكن فقيراً ليعطيه شيئاً من الخمس، على كلّ حال يشير هذا الكلام إلى أنّ الإمام عليه السلام كان فى غاية الدقّة فى الأموال ولا يسمح بإعطاء حق مسلم لآخر وإن كان من صحبه الأوفياء، بخلاف عهد عثمان الذى يعتقد المؤرخون بأنّ بيت المال لم يكن خاضعاً لحساب وكتاب، وما أجدر أن يكون كلام الإمام عليه السلام جدول عمل لجميع زعماء الامّة الإسلاميّة والالتزام بالحق والعدل فى بيت المال حتى بالنسبة لحاشيتهم ومقربيهم.

كما يستفاد من الكلام أنّ عبداللّه بن زمعة لم يكن تام المعرفة بالإمام ليطلب منه ذلك ولم يكن يعلم أنّ الإمام عليه السلام عامل أخاه عقيل كذلك وإلّا لما طلب منه.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۷۹

الخطبة ۲۳۳

اشارة

بَعْدَ أنْ أقْدَمَ أحَدُهُمْ عَلَى الْكَلامِ فَحَصَرَ، وَهُوَ فی فَضْلِ أهْلِ‌الْبَیْتِ، وَوَصْفِ فَسادِ الزَّمانِ ۷۰۹]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من قسمين:

الأوّل: بشأن أهمّية التكلم وحرمان البعض من هذه النعمة. ومن ثم أشار إلى تماميّة هذه النعمة العظيمة فى أهل البيت عليهم السلام.

وشرح فى القسم الثانى الوضع على عهده والذى انحدر فيه الناس إلى الفساد إثر توليهم عن تعاليم الإسلام فذلّ أصحاب الحق وكل أصحاب الصدق وساءت أخلاق الشبّان وأثم الكهول وغدا عالِمهم منافق والصديق خائن.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۸۰

ومن هنا حثّهم على العودة إلى طريق الحق واليقظة قبل أن يصيبهم العذاب الإلهى.

***

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۸۱

القسم الأوّل

اشارة

أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الْانْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ،
وَلَا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ. وَإِنَّا لَامَرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ.

الشرح والتفسير: نحن امراء الكلام

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبة إلى أمرين:

الأوّل: يتلعثم البعض حين الخطابة وينطلق بها البعض الآخر فقال: «أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ[۷۱۰] مِنَ الْانْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ، وَلَا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ».

قطعة اللحم هذه المسماة باللسان من عجائب خلق اللّه، فبحركات سريعة للغاية ودقيقة ومنظمة يصنع الحروف الثمانية والعشرين أو الاثنين والثلاثين فيصفها خلف بعضها ليبيّن بمجموعها جميع هواجسه ورغباته المادية والمعنوية، فيفصح بها عن المحاسن والمساوئ والجميل والقبيح، والطريف أنّ لكل قوم لغتهم فهنالك أكثر من ألف لغة فى العالم، وقد منحت هذه النعمة للإنسان وحده ليجيد الكلام فهى على درجة من الأهمّية بحيث ذكرها اللّه فى طليعة سورة الرحمن التى شرحت نعم اللّه:

«الرَّحْمنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْانسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ»[۷۱۱] طبعاً لا ينبغى أن ننسى أنّ

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۸۲

المهم إمرة الروح بالنسبة للسان، فإن كانت هذه الإمرة جاهزة انطلق اللسان بالفصاحة والبلاغة بسهولة وإن غابت هذه الجاهزية تلعثم اللسان، والامتناع والاتساع الذى نسب فى العبارة للسان المراد منه فى الواقع امتناع واتساع روح الإنسان.

فالحق لقد بيّن الإمام عليه السلام سبب نجاح أو فشل الإنسان فى الخطابة من خلال هذا الكلام ضمن إشارته لأهمية اللسان والنطق.

ثم قال عليه السلام: «وَإِنَّا لَامَرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ ۷۱۲] عُرُوقُهُ ۷۱۳]، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ ۷۱۴] غُصُونُهُ».

فقد شبّه الكلام فى هذه العبارة الرائعة بالشجرة الضخمة ذات الأغصان والجذور وأضاف أنّ هذه الشجرة المورقة متجذرة فى أرض وجودنا واظلتنا أغصانها ومن هنا سمى أهل بيت الوحى «امراء الكلام».

وكلنا نعلم أنّ ذلك ليس مجرّد ادّعاء، بل حقيقة يعترف بها العدو والصديق فقد كان النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أفصح العرب، وكيف لا يكون كذلك وعلى لسانه جرى كلام اللّه الذى بلغت فصاحته الاعجاز، وفصاحة أميرالمؤمنين عليه السلام أشهر من نار على علم وخطب «نهج البلاغة» ممّا تتناقله الألسن، حتى كان الأساتذة يوصون تلامذتهم فى الماضى إن أرادوا الفصاحة والبلاغة فى حديثهم بحفظ خطب «نهج البلاغة».

كما كانت خطب سيّدة النساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام من أفصح الخطب وأبلغها، وقد فعلت خطب ربيبى هذا البيت الرسالى زينب وزين العابدين عليهما السلام فعلها فى الكوفة والشام لتؤثر على العدو والصديق.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۸۳

وعليه لابدّ من الإذعان بأنّ التسمية بامراء الكلام تليق بأهل هذا البيت.

تأمّلان

١. عجائب اللسان

اللسان الظاهری أیهـذه القطعة اللحمیة فی فم الإنسان وتتولی الأمور الهامة والمعقدة وكذلك اللسان الفكری الذی یعنی القدرة علی أداء الكلمات وترتیب العبارات وبیان المطالب، لمن النعم الإلهیّـة العظیمـة، ومن هنا عدّ الفلاسـفة والأعلام، النطق (اللسانی والفكری) الفصل الممیز وعرفوا الإنسان بأنّه حیوان ناطق. وكلما أمعنا فی هذین الأمرین واجهنا المزید من العجائب.

الطریف أنّ هـذا اللسـان ملأـ تقریباً جمیع فضـاء الفم تحت الأسـنان، وحین تناول الطعام یرسل المواد الغذائیـة بسـرعة تحت الأسـنان وینسحب بمهارة دون أن یصیبه أذی.

یقول الأطبـاء: هنالك أربعـة أنواع من الهضم للطعام: الهضم الأوّل فی الفم حیث یرطب تماماً ویمزج بلعاب الفم فتجری علیه تغییرات فیزیائیة وكیمیائیة شتی، ثم یتجه إلی المعدة وبالطبع فاننا ننتفع باللسان صباح مساء دون أن نقف علی دوره المهم عند تناول الطعام.

والوظیفـة الأـهم للسـان صـنع الكلمـات ومقاطع الحروف وصف العبارات وبیان جمیع المقاصـد الصـغیرة والكبیرة والبسـیطة والصـعبة والمعقدة للغایة التی تعد من عجائب الخلیقة.

إلّا أنّ المهم عـدم مهارة الجمیع فی ذلك، فالمهارة فی الكلام تتوقف علی عـدّة عوامل أحـدها وأهمّها الممارسـة والتـدریب، والثقة بـالنفس وعـدم خشـیة الآـخرین، ورباطـة الجـاش والایحـاء إلی النفس من بین تلك العوامل المهمّـة، ومن تلك العوامل أیضاً حضور مجالس أساتذة الكلام والانفتاح علی تجاربهم واستخدامهم القضایا الظریفة إزاء مخاطبیهم.

طبعاً المطالعات المسبقة وإمتلاك الرصید العلمی من العوامل المهمّة وهذا ما

نفحات الولایة، ج٨، ص: ٣٨۴

یفسّر براعة البعض فی الخطابة فی التجمعات الكبری، وإعیاء البعض الآخر فی التجمعات الصغری، كما أنّ حالات الإنسان الروحیة من قبیل الحزن والسـرور والعافیـة والسـقم والهـدوء والاضـطراب لمن الأمور التی لها غایة التأثیر فی هذه القضـیّة، وهذا ما أشار إلیه الإمام علیه السلام فی الخطبة بعبارة الامتناع والاتساع.

وقد ذكر ابن أبی الحدید نماذج رائعة فی الأشـخاص الذی ارتقوا المنبر وتلعثموا فی الخطابة وعیوا فی الألفاظ فهبطوا من المنبر، فنقل عن كتاب «البیان والتبیین» للجاحظ موارد منها:

إنّ عثمـان صـعد المنبر وتوقف عن الكلاـم فقال هـذا الكلام، ونزل: «أنتم إلی إمامٍ عادلٍ أحوج منكم إلی إمام خطیب» (تركیز عثمان علی مسألة العدالة رائعة للغایة).

وروی أنّ عدی بن أرطاة رقی المنبر ولم تكد تقع عینه علی الناس حتی توقف فقال: (الحمد للّهالذی یطعم هؤلاء ویسقیهم) ثم نزل.

كمـا صـعد روع بن حـاتم، المنبر فلما رأی الناس یتطلعون إلیه نادی: إخفضوا رؤوسـكم وأغمضوا أعینكم فركوب الدابـة صـعب أول الأمر فإن فتح اللّه شیئاً سهل.

وقیل: أراد مصـعب بن حیان أن یلقی خطبة فی النكاح فقال: لقّنوا موتاكم لا إله إلّا اللّه. فقامت له ام العروس وقالت: عجّل اللّه موتك ألهذا دعوناك! وسائر الموارد من هذا القبیل ٧١۵].

۲. امراء الكلام

ما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة (وإنّا لُامراء الكلام) حقيقة لا تنكر يعترف بها العدو قبل الصديق. وما خلّفه هذا البيت من تراث خير شاهد على ذلك؛ كأحاديث النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله التى نشرت تحت عنوان (نهج الفصاحة، ونهج البلاغة) بأجزائه الثلاثة والأدعية كدعاء كميل والصباح الذى ينتهى سنده للإمام على عليه السلام وخطبتى
نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۸۵
سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام ودعاء عرفة المسند للإمام الحسين عليه السلام وخطب أهل بيته فى الكوفة والشام ثم المدينة عقب واقعة كربلاء وأدعية الصحيفة السجادية كدعاء أبى حمزة الثمالى الذى ينتهى سنده للامام السجاد عليه السلام وأمثال ذلك.
كما ينبغى الالتفات إلى إذعان الأعداء بهذه الحقيقة. وروى ابن أبى الحديد فى الجزء الأوّل من شرحه لنهج البلاغة أنّ محقن بن أبى محقن دخل على معاوية فسأله من أين جئت؟
قال: «جِئْتُك مِنْ عِنْدِ أَعْيَى النّاسِ». فقال له معاوية: «وَيْحَك كَيْفَ يَكُونُ أعْيَى النّاسِ فَوَاللَّه ما سَنَّ الْفَصاحَةَ لِقُرَيْش غَيْرُهُ»[۷۱۶].
وروى عن عبدالحميد الكاتب: حفظت سبعين خطبة من نهج البلاغة ففاضت ثم فاضت ۷۱۷].
وروى المرحوم السيد الرضى فى مقدمته الرائعة على نهج البلاغة قائلًا:
قال ابن أبى الحديد كما ذكرنا فى الجزء الأوّل ذيل الخطبة ۲۲۱ بعد شرحه لجانب من كلام المولى فى عالم البرزخ: «لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة فى مجلس وتلى عليهم، أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدى بن الرقاع ومطلعها: «قلم أصاب ...»، فلما قيل لهم فى ذلك قالوا: نعرف مواضع السجود فى الشعر كما تعرفون مواضع السجود فى القرآن»[۷۱۸].
ولمزيد من المعلومات بهذا الشأن يراجع كتاب «فى رحاب نهج البلاغة» للشهيد المطهرى ومقدمة الجزء الأوّل من «نفحات الولاية».
نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۸۷

القسم الثانى

اشارة

وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّه أَنَّكُمْ فِى زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ. أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ، مُصْطَلِحُونَ عَلَى الْادْهَانِ، فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِنُهُمْ مُمَاذِقٌ. لَا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ، وَلَا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ.

الشرح والتفسير: خصائص البيئة الملوثة

تناول الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة، المفاسد التى ظهرت آنذاك إثر سياسات الخلافة السابقة والتى سرت تقريباً إلى جميع المجتمعات، ليرسم صورة واضحة لذلك المجتمع بإحدى عشرة عبارة موجزة غاية فى الدقّة بحيث لم ينس شيئاً (وهذا مفهوم الفصاحة والبلاغة والخطابة المعجزة) فقال: «وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّه أَنَّكُمْ فِى زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ ۷۱۹]، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِ ذَلِيلٌ».
فقد شخّص عليه السلام بهذه الصفات الثلاث، الجذور الأصلية لفساد المجتمع، سكوت أهل الحق خشية المعارضين أو إزدياد

الأزمات، وصمت الصادقين بفعل ضغوط البيئة والهيئة الحاكمة أو مخافة زوال مصالحهم الشخصية أو التلوث بالكذب والإفتراء عوض الصدق وكذلك أولئك الذين ينشدون الحق ويطلبونه ينحون أو ينسحبون من المجتمع وليس هنالك من يسمع مقالتهم الحقة، وزبدة القول ينسى

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۸۸

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويهجر إرشاد الجاهل وتنبيه العاقل.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين هما فى الواقع نتيجة للصفات الثلاث السابقة فقال:

«أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ، مُصْطَلِحُونَ ۷۲۰] عَلَى الْادْهَانِ ۷۲۱]».

لا شك فى أنّ هناك معاصٍ فى كلّ مجتمع ومداهنة ومسايرة، إلّاأنّ البؤس والشقاء فى حركة عامة نحو الذنب والمعصية وبصورة مستمرة ودائمية، كما أنّ المصيبة والتعاسة فى اصطفاف المداهنين واتحادهم على هذا الأمر.

ثم قال عليه السلام فى الصفة السادسة والسابعة: «فَتَاهُمْ عَارِمٌ ۷۲۲]، وَشَائِبُهُمْ ۷۲۳] آثِمٌ».

من البديهى فى الوسط الذى يصمت فيه أصحاب الحق ويغيب فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن تتلوث الأوساط الاسرية فينشأ الشبّان فى هذه الأوساط سيئى الخلق وفاقدى الأدب، كما أنّه من الواضح أنّ هؤلاء الشبّان حين يشيخون لا يفارقون الاعتياد على المعصية ويغفلون عن أنّ عمرهم اقترب من نهايته وسيحل أجلهم فيغطون فى بحر المعاصى بسبب تلك الغفلة.

وقال فى الصفة الثامنة والتاسعة: «وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ ۷۲۴]».

نعم، فعلماء ذلك الوسط الذين أقبلوا على الدنيا إنّما يرون النفاق سبيلًا لنيلها، كما ورد فى الخطبة ۱۹۴: «وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ».

وردت المفردة «قارئهم» فى أغلب نسخ «نهج البلاغة» وهذا ما رجحه أغلب الشرّاح كونه يناسب العبارة السابقة، فالكلام هناك عن العلماء وهنا عن قراء القرآن والعابدين. بينما وردت فى بعض النسخ (قارن) من مادة قرين بمعنى الصديق

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۳۸۹

ويصبح مفهوم العبارة أنّ الأصدقاء آنذاك منافقون؛ ولكن من الواضح أنّ النسخة الاولى أكثر تناسباً مع مجموع كلام الإمام عليه السلام.

وأخيراً قال فى الصفتين العاشرة والحادية عشرة من صفات أهل ذلك الزمان:

«لَا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ، وَلَا يَعُولُ ۷۲۵] غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ».

واضح أنّ الشبّان واليافعين تربوا بعيداً عن الأدب والخجل والحياء لا يحترمون كبارهم، كما أنّ الكبار الذين غرسوا هذه البذور يتجرعون مرارة ثمارها.

ومن الواضح أيضاً أنّه إن غابت الفضائل الإنسانية عن المجتمع وحلّ مكانها الفساد والتكالب على الدنيا فإنّ الأغنياء سوف لن يرحموا الفقراء وينسون حقيقة أنّ اللَّه جعل للفقراء حقاً فى أموالهم، ومن هنا يرون أنّ جميع تلك الأموال لهم فينفقونها فى ملذاتهم. هذا إن كانت تلك الأموال جمعت من الحلال، وإلّا إن كانت من الحرام ولا يعلم أصحابها، فهى جميعاً للفقراء والمحتاجين.

وهنا يرد هذان السؤالان؛ الأوّل: لم عمّت كلّ هذه المفاسد المجتمع الإسلامى على عهد حكومة الإمام على عليه السلام؟ ولا تبدو الإجابة صعبة إن عدنا قليلًا إلى الوراء وتأملنا عصر الخليفة الثالث وماذا فعل وبطانته ببيت المال والمناصب الحساسة الحكومية التى أغدقها على خاصته وقرابته، فالتاريخ يفيد أنّ الفساد بلغ درجة بحيث قام المسلمون على الخليفة وقتلوه بمرأى ومسمع المهاجرين والأنصار وقلّما كان له ناصر.

السؤال الآخر: أين الجذور الأصلية لتلك المفاسد الإحدى عشرة؟ لو تأملنا بدقة لرأينا أنّ أغلبها إن لم نقل جميعها ناشئة من فساد

الخلافة، وكون الناس غالباً على دين حكامهم يواصلون تلك المسيرة، وأحياناً يترسخ الفساد بحيث يشق الإصلاح على من يخلفهم، كما شق على الإمام عليه السلام.

حقّاً لو دعوا الإمام يتسلّم زمام الأمور بعد النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ويقود المجتمع

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۹۰

الإسلامى بذلك العدل والزهد والدراية بالمسلمين لكان للإسلام والمسلمين مسار آخر. الطريف أننا لو نظرنا إلى البلدان المعاصرة التى تسودها حكومات فاسدة لرأينا بوضوح كلّ هذه المفاسد التى أشار لها الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبة.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۹۱

الخطبة ۲۳۴

اشارة

رَوى ذِعْلَبُ اليمامى [اليمانى عَنْ أحمدَ بنَ قُتَيبَة، عَنْ عَبْداللَّه بنِ يَزيدِ، عَنْ مالِك بْنِ دَحْيَة، قالَ: كُنّا عِنْدَ أميرالْمُؤْمِنينَ عليه السلام، وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَهُ اخْتِلافُ النّاسِ فَقالَ ۷۲۶]:

نظرة إلى الخطبة

محور البحث فى كلام الإمام عليه السلام عوامل اختلاف الناس مع بعضهم وظاهر هذا الكلام أنّ نقص الناس وكمالهم فى العقول والغرائز مرهون بمدى طهارة طينتهم التى جبلت عليها طبيعتهم، وإن رأينا ظاهرياً تقارب البعض وانسجامهم أو تباعدهم وتفرقهم فبسبب قرب أرضهم (طبعاً يختزن هذا الكلام أسئلة متتالية سنخوض فى طرحها والرد عليها باذن اللَّه فى الشرح والتفسير).

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۹۳

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِئُ طِينِهِمْ وَذلِك أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا، وَحَزْنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ، فَتَامُّ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَمَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ، وَزَاكِى الْعَمَلِ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيبَةِ، وَتَائِهُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ، وَطَلِيقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ.

الشرح والتفسير: أساس الاختلاف

لا شك فى أنّ الناس مختلفون من الناحية الجسمية وكذلك من الناحية الروحية والفكرية والأخلاقية كما لا ريب فى أنّ هذا الاختلاف يمكن تغييره عن طريق التربية والتعليم. وعليه فالاختلاف لا يقود قط إلى سلب الاختيار ومسألة الجبر.

إلّا أنّ الكلام فى أصل هذه الاختلافات؟ لم البعض طويل القامة والآخر قصير، البعض جميل الوجه والآخر غير جميل، فئة ذات استعداد عالى واخرى ضعيفة وعاجزة، وطائفة كريمة وأخرى بخيلة.

نسب الإمام عليه السلام هذه الاختلافات إلى مواد خلق منها جسم الإنسان وقال: «إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِئُ ۷۲۷] طِينِهِمْ وَذَلِك أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً[۷۲۸] مِنْ سَبَخِ ۷۲۹] أَرْضٍ

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۳۹۴

وَعَذْبِهَا[۷۳۰]، وَحَزْنِ ۷۳۱] تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا[۷۳۲]، فَهُمْ عَلَی حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ یَتَقَارَبُونَ، وَعَلَی قَدْرِ اخْتِلَافِهَا یَتَفَاوَتُونَ».

وعلی ضوء هـذا الكلام فإنّ هـذه الاختلافات ناشئة من تباین مواد الأرض المختلفة، وبالنظر إلی اختلاف بقاع الأرض والمواد التی تترکب منها واختلاف ترکب الناس من تلک المواد، والتأثیر لاختلاف تلک المواد علی اختلاف روحیاتهم وأفکارهم وأخلاقهم کان هنـاک اختلافـات بین النـاس. وهنـا یرد سؤالان: الأـوّل: إنّ أبانـا آدم علیه السلام خلق من التراب وولـد النـاس لاحقـاً من نطفـة آدم وأولاده، ولیس من التراب.

والآـخر: ألا یقوی هـذا الکلام مـذهب الجبر الـذی یرغم أنّ کلّ إنسان مجبر علی الأفعال ولا یمکن تغییر ذلک؟ ونترک الإجابـة عن السؤال الثانی لمبحث التأملات فی آخر الخطبة. وهناک سبیلان للاجابة عن السؤال الأوّل:

الأوّل: إنّ الناس وإن ولـدوا بعـد آدم من نطفته؛ إلّاأنّ النطفة تترکب من مواد مختلفة تعود الجوانب الرئیسـیة فیها للأرض وتتغذی فی رعرعتهـا علی غـذاء الام لتبلغ مرحلـة الکمـال حتی تلـد، وغـذاء الام مهمـا کان یتألف من مواد الأرض، فالنباتات تخرج من الأرض والحیوانات تتناول النباتات وعلیه فنمو الجنین منذ کونه نطفة حتی تحوله إلی الکمال یستند جمیعاً إلی مواد الأرض.

وربّمـا یتضـح الموضوع أکثر بهـذا المثـال وهو أنّ الأشـجار المثمرة التی تنمو فی أراضٍ مختلفـة وکـذلک الحیوانات وبـذور الأطعمة مختلفـة تماماً؛ مثلًا، العنب الـذی ینمو فی بقعة أحلی وألطف من الآخر فی بقعة أخری وهکذا سائر الثمار، والناس کذلک، وحیث إنّ رابطة الجسم والروح بالنسبة لبعضها قریبة جدّاً فإنّ تفاوت هذه

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۳۹۵

المواد یؤثر فی روحیات الإنسان وخلقیاته.

الجواب الآـخر: بغضّ النظر عمـا قیـل، إن رکزنـا علی خلق جسم آدم من التراب فمن الممکن أیضـاً أن تحصل عـدّة نطف من المواد المرکبـة لوجود آدم حین تتکون النطفـة، ففی بعض الحالات، المـادة الفلانیـة ترد أکثر من النطفـة وفی بعضـها الآـخر أقـل، ومن هنا یختلف حتی الأولاد الـذین یلـدون من نفس الأب والام وفی مناخ واحـد وحتی التغذیـة الواحـدة للوالـدین؛ فهذا أشـجع وذاک أکرم وهـذا أضـعف وذاک أذکی، والقضـیّة المهمّة أیضاً أنّ المناخ یکوّن جانباً من وجود الإنسان؛ لکن الإمام علیه السـلام ذکر هنا أساس الاختلاف لیقتصـره علی اختلاف مواد الأـرض ولم یتطرق إلی المنـاخ، إمّا لقلـة تأثیره علی مواد الأرض أو أنّه یتأثر بها أیضاً، فالماء مالح فی الأراضی السبخة والهواء ملوث، بینما الماء حلو والهواء لطیف فی الأراضی السهلة.

طبعاً لا یخفی التأثیر الذی تلعبه أشـعة الشـمس، ولذلک تری أغلب الأفراد فی المناطق الاستوائیة من ذوی البشرة السوداء وبعکسها فی المناطق المعتدلة، وبالطبع لا یقتصر ذلک التأثیر علی لون البشرة، بل هناک تأثیر خاص للموقع الجغرافی بسبب اختلاف أشعة الشمس أو المناخ والأرض.

علی کـلّ حال، استناداً لما قیل یمکن التسـلیم لکلام الإمام علیه السـلام حسب دلالـة ظاهرة والـذی ینسـجم تماماً مع القواعـد العلمیة المعاصـرة، ولا حاجة إلی أن نقول المراد من (مبادئ طینهم) أرواح ونفوس الناس وتحمل سائر ألفاظ الإمام علیه السلام علی اختلاف الأـرواح؛ لا علی اختلاف الأجسام التی لها تأثیرها فی تفاوت الأخلاق والروحیات کما یفهم من کلمات ابن أبی الحدیـد فی شـرحه لنهج البلاغة.

ثم بیّن الإمام علیه السلام عدّة نماذج لتأثیر الجسم علی الأخلاق والفکر والفضائل النفسانیّة لیختتم هذا البحث بذکره لسبعة نماذج من العلاقة بین الجسم والروح والترکیب الظاهری بالخلق والطبع الباطنی فقال: «فَتَامُّ الرُّوَاءِ[۷۳۳] نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَمَادُّ

نفحات الولایة، ج۸، ص: ۳۹۶

الْقَامَةِ قَصِیرُ الْهِمَّةِ، وَزَاکِی الْعَمَلِ قَبِیحُ الْمَنْظَرِ، وَقَرِیبُ الْقَعْرِ[۷۳۴] بَعِیدُ السَّبْرِ[۷۳۵]، وَمَعْرُوفُ الضَّرِیبَةِ مُنْکَرُ الْجَلِیبَةِ، وَتَائِهُ ۷۳۶] الْقَلْبِ

مُتَفَرِّقُ اللَّبِّ، وَطَلِيقُ اللِّسَانِ حَدِيدُ الْجَنَانِ».

وما ورد بشأن العلاقات السبع بين الجسم والروح والمادة الجسمانية والأخلاق فى كلام الإمام عليه السلام قطعاً بصيغة قاعدة كلية لا يطالها الاستثناء، بل واردة فى أغلب الأفراد، ومن هنا لمسنا بأعيننا استثناءاتها.

العبارة «قَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ» وبالنظر إلى أنّ القعر هنا إشارة إلى قصر القامة، حيث ليست هناك من فاصلة بين الرأس والأقدام لديهم وكانت مفردة «وَقَرِيبُ الْقَعْرِ» مناسبة لهم، وبالنظر إلى أنّ السبر يعنى التعمق والاختبار فإنّ العبارة «بعيد السبر» إشارة إلى عمق الفكر وسعة الاطلاع.

كما يحتمل أن تكون العبارة «بَعِيدُ السَّبْرِ» إشارة إلى أنّ أولئك الأفراد يصعب معرفتهم. وهو المعنى الذى أقرّه ابن أبى الحديد وابن ميثم وبعض الشرّاح.

والعبارة «وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ» بالنظر إلى أنّ الضريبة تعنى السجيّة والخصلة والطبيعة والجليبة ما يقوم به الإنسان من عمل خلاف طبعه وكأنّه يجلبه من الخارج، فإنّ المفهوم هو أنّ طائفة من أولئك الناس الطاهرى الطبع يتعاملون خلاف طبعهم بفعل بعض العوامل الخارجية من قبيل التربية السيئة والوسط الملوث والدعاية السامة التى تفرز الدواعى الشيطانية.

والعبارة «وَتَائِهُ الْقَلْبِ» ذات مفهوم جربناه عادة فى حياتنا وحياة الآخرين وهو أنّ الأفراد الذين يعيشون الاضطراب إثر مختلف العوامل يفقدون قدرة التفكير المنظم فتضطرب بالطبع أفكارهم بحيث يتضح قلق قلوبهم من خلال اضطراب أفكارهم.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۹۷

والعبارة «وَطَلِيقُ اللِّسَانِ» ذات مفهوم مجرّب هو أنّ الخطباء الماهرين هم الأفراد ذوو القلوب الصلبة الذين لا يهابون شيئاً ويتسمون بالشجاعة ومن هنا كانوا ماهرين فى الخطابة.

تأمّلان

۱. صلة الروح بالجسم

صرّح أغلب الأعلام والفلاسفة بأنّ لروح الإنسان صلة بجسمه بحيث تنعكس خصائص كلّ منهما على الآخر، وعليه فليس من العجب أن تكون هنالك علاقة بين شكل الإنسان وقامته وسائر ميزاته البدنية وبين روحياته وأخلاقه.

وقد ذكر المفكرون منذ قديم الأيّام ولحد الآن تلك الصلات فى مصنفاتهم حتى انشق علم معرفة الهيئة، لكنهم يعترفون بأنّ تلك الصلات (صلة الأخلاق بالهيئات الجسمانيّة المختلفة) ليست كلّية، فهنالك العوامل الأخرى المؤثرة فى روحية الإنسان وخلقه بحيث يغلب تأثيرها أحياناً ويربك العلاقة السابقة؛ مثلا خلق الأب والأم وطبعهما، وتأثير المناخ المحلى والتعامل مع مختلف الأشياء حسب العمل والمهنة وأمثال ذلك، من شأنه التأثير فى خلقيات الإنسان فيربك أحياناً كلية صلات علم معرفة الهيئة.

على كلّ حال، فما ورد فى كلام الإمام عليه السلام آنفاً إشارة إلى جانب من علاقة الروح بالجسد ذكره كرد على سؤال بعض أصحابه بشأن اختلاف روحيات الناس، وما مر علينا بالطبع مبدأ كلى ولا يخلو من استثناء.

ومن هنا يتضح ما يرى من مطالب فى بعض الروايات على خلاف ما ذكر، على أنّه من تلك الاستثناءات كالحديث النبوى القائل «أُطْلُبِ الْخَيْرَ عِنْدَ حِسانِ الْوُجُوهِ»[۷۳۷].

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۹۸

فى حين ورد فى بعض الروايات ضمن خطبة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَيُّهَا النّاسُ إِيّاكُمْ وَخَضْراءُ الدِّمَنِ. قيلَ: يا رَسُولَ اللَّه وَما خَضْراءُ الدِّمَنِ؟ قالَ: الْمَرأةُ الْحَسْناءُ فى مَنْبَتِ السُّوء»[۷۳۸].

۲. الاختيار وصلة الروح بالجسد

السؤال الآخر الذى يرد هنا: إننا إن قبلنا العلاقة بين ملوحة التربة وحلاوتها وطبيعة الإنسان وإرتباط الهيئات الجسمانية بخلقيات البشر، فنتيجة ذلك ليس للأخيار قدرة إتيان المساوئ، ولا السيئين إتيان المحاسن وهذا هو مذهب الجبرية، والمعلوم على هذا الأساس إنكار الثواب والعقاب وعبثية بعثة الأنبياء، وبالتالى نفى عدالة اللّه تبارك وتعالى.

ولا تبدو الاجابة على هذا السؤال صعبة، فليس هناك من يزعم أنّ الكيفيات الجسمانية علة تامة لتلك الخلقيات فى الطبيعة البشريّة، وأنها مجرّد أرضية مساعدة. ويمكن ايضاح ذلك بهذا المثال. فالكل يقول بتأثير الوسط الاسرى أو البيئة على أعمال الإنسان، إلّاأنّ ذلك لا يعنى سلب إرادة الإنسان، وما ذلك سوى أرضية، ومن هنا نرى الكثير ممن تربّى فى اسرة سيئة لكنهم كانوا اناساً صالحين ومؤمنين. وبالعكس نرى بعض الأفراد السيئين ممن تربّى فى وسط صالح، بعبارة أخرى، فإنّ الجزء الأخير للعلة التامة إرادة الإنسان التى تؤدى إلى التأثير الغائى.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ من عاش وسطاً سيئاً وأجواء خلقية شاذة وسلك الطريق السليم فإنّ أجره وثوابه يفوق نظيره الذى يعيش وسطاً وبيئة صالحة.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۳۹۹

الخطبة ۲۳۵

اشارة

قَالَهُ وَهُوَ يَلِى غُسْلَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله وَتَجْهِيزَهُ ۷۳۹]

نظرة إلى الخطبة

أورد الإمام عليه السلام كما قيل، هذا الكلام حين وَلى غسل رسول اللّه صلى الله عليه و آله وتجهيزه، كلمات ملتاعة تثير الحزن وتعكس غاية لوعة الإمام عليه السلام آنذاك، فى حين ترك الآخرون جسد النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله واجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ليتآمروا على سلب خلافة النّبى صلى الله عليه و آله.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۰۱

بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى يَا رَسُولَ اللَّه لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوتِك مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِك مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْانْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاك وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيك سَوَاءً. وَلَوْ لَا أَنَّك أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَانْفَدْنَا عَلَيْك مَاءَ الشُّؤُونِ وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَقَلَّا لَك! وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَك رَدُّهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ! بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّك، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِك.

الشرح والتفسير: عظم مصيبة رحيل النّبى صلى الله عليه و آله

خاطب عليه السلام الجسد الطاهر للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقال: «بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى يَا رَسُولَ اللَّه لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِك مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِك مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْانْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ».

الجملة «بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى». المتداولة لدى العرب عند ابداء الحبّ لأحد، إشارة إلى أنّى أفديك بأبى وامى أعزّ أعزائى، لعل أب القائل

وامّه ليسا على قيد الحياة حين قوله ذلك الكلام كما الأمر كذلك فى هذه الخطبة، فذلك لا يقدح بمفهوم الكلام، فلهذه العبارة جانب كنائى ويشير إلى أنّ المخاطب عزيز إلى درجة أنّ الإنسان يفديه بأعزّ خاصته.

ورد فى بعض الروايات أنّ هذه العبارة عقوق للوالدين إن كانا على قيد الحياة ومؤمنين ۷۴۰].

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۴۰۲

إلّا أنّ ظاهر هذه الرواية حين لا- يكون المخاطب النّبى أو الإمام، لأنّ هذه العبارة إزاءهم مدعاة للفخر فضلًا عن أنّها ليست إهانة وعقوق.

ومن هنا كثيراً ما تشاهد هذه العبارة فى أغلب الزيارات، فى حين أنّ أغلب والدى الزائرين أحياء.

المفردات «نبوة»، «إنباء» و «أخبار السماء» ذات مفاهيم مختلفة: فالنبوّة إشارة إلى مقامه صلى الله عليه و آله، والإنباء أسلوب النبىّ العملى فى إبلاغ الرسالة والوحى، وأخبار السماء تلك التى لا ترتبط بالمسائل الشرعيّة من قبيل الأخبار الغيبيّة والحوادث المستقبليّة والملاحم.

على كلّ حال العبارات المذكورة أخبار صريحة فى خاتمية النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ودليل بيّن على عدم نزول الوحى بعد النّبى صلى الله عليه و آله وقد انقطعت هذه النعمة العظيمة التى عمّت العالم فى ظلّ وجود النبىّ برحيله، وهذا سرّ حزن أميرالمؤمنين عليه السلام.

ثم أشار عليه السلام إلى أمرين فقال: «خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً[۷۴۱] عَمَّنْ سِوَاك وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيك سَوَاءً».

كيف لا تكون مصيبة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله شاملة وهو رحمة للعالمين ووسيلة نجاة البشريّة من مختلف أنواع الانحرافات، فهو للجميع ويهتم بالجميع، فلابدّ أن يبكيه الجميع فى مصابه.

ومن جانب آخر أنّ المصاب يبدو أجلّ وأعزّ كلما كان الفقيد أعظم قدراً وأثراً، ولما كان النّبى صلى الله عليه و آله أكرم إنسان وأعز مخلوق كانت مصيبته تفوق جميع المصائب، وبعبارة أخرى تهون سائر المصائب إزاء مصابه.

وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام حين مصابه بالزهراء عليها السلام فخاطب النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

«قَلَّ يَا رَسُولَ اللَّه عَنْ صَفِيَّتِك صَبْرِى وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِى إلَّا أَنَّ فِى التَّأَسِّى لِى بِعَظِيمِ فُرْقَتِك وَفَادِحِ مُصِيبَتِك مَوْضِعَ تَعَزٍّ»[۷۴۲].

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۴۰۳

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إنْ اصِبْتَ بِمُصيبَةٍ فى نَفْسِك أوْ فى مالِك أوْ فى وَلَدِك فَاذْكُرْ مُصابَك بِرَسُولِ اللَّه فَإنَّ الْخَلائِقَ لَمْ يُصابُوا بِمِثْلِهِ قَطُّ»[۷۴۳].

ثم أشار عليه السلام إلى قضية أخرى فقال: «وَ لَوْ لَا أَنَّك أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا[۷۴۴] عَلَيْك مَاءَ الشُّؤونِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَقَلَّا لَك!».

وبالنظر إلى أنّ شؤون، جمع شأن التى تعنى هنا غدد الدموع فمراد الإمام عليه السلام لولا أنّك نهيتنا عن البكاء والجزع لبكيناك حتى ينضب ماء عيوننا، لكننا تعلمنا منك الصبر والجلد، فقد بكيت ولدك إبراهيم حين توفى لكنك لم تجزع، وهذا ما فعلته بمصاب عمّك حمزة ومن هنا علمتنا الصبر.

و «المماطل»: المدين الذى يؤخر أداء الدين، ويقال: داء المماطل للمرض الذى لا علاج له والذى يشبه ذلك المدين.

و «الكمد»: الحزن الباطنى، والمحالف: من يعاهد غيره ويفى بالعهد، فكمد محالف بإشارة إلى الحزن الباطنى الثابت.

ويشير ضمير المثنى فى (قلّا لك) إلى ذلك الداء والكمد؛ أىأنّ ألم مصابك وحزنه الدائم لا شىء أيضاً إزاء عظمة مصيبتك.

ثم قال عليه السلام: «وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَك رَدُّهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ!». فالبكاء والجزع لا يجدى نفعاً ولابدّ من الصبر والرضا برضى اللَّه.

ثم عبر فى الختام أيضاً عن حبّه للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله وتعلقه به فقال: «بِأَبِى أَنْتَ وَأُمِّى! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّك، وَاجْعَلْنَا مِنْ

بَالِكَ ۷۴۵]».

ومفهوم هذه العبارة أنّ روحك الطاهرة عرجت إلى الملكوت الأعلى جوار الربّ. فادع لنا هناك واسأل اللَّه قضاء حوائجنا واستحضرنا على الدوام.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۴۰۴

تأمّلان

۱. البكاء على الأعزّة

يستفاد من هذه الخطبة والروايات، عدم المنع من البكاء على مصاب الأعزّة.

والمنع يقتصر على الجزع والجحود، فقلب الإنسان بؤرة العواطف والتى تؤثر عليه سيما حين تشتد. فإذا فقد عزيزاً اضطرب القلب وجرت الدموع ويختنق الإنسان بعبرته وينطلق اللسان لبيان شوقه ولهفته للعزيز الفقيد، هذه الأمور جميعاً ليست ممنوعة، بل ممدوحة شريطة اقترانها بالصبر، والممنوع أن يجزع الإنسان ويضرب رأسه بالجدار ويخمش وجهه وينطلق لسانه بالباطل.

ففى الخبر: لما بلغ النّبى صلى الله عليه و آله استشهاد جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة (فى موقعة مؤتة) بكاهما وقال: «إِنَّهُما كَانا يُحدِّثانِى وَكُنتُ آنسُ بِهِما فَماتَا مَعاً»[۷۴۶].

كما ورد فى غزوة احد أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لما رجع إلى المدينة وكان يسمع كلّ بيت يبكى قتيله سوى بيت عمّه حمزة، غضب وقال: «وَلَكِن حَمزةَ لابَواكِى لَهُ».

فلما سمع أهل المدينة ذلك أقسموا أن لا يبكوا أحداً حتى يبكوا على حمزة. وقد استمرت هذه السّنّة حتى اليوم (حين حديث الإمام الباقر عليه السلام)[۷۴۷].

كما وردت عن المعصومين عليهم السلام عدّة روايات فى النهى عن الجزع، ومنها أنّ أميرالمؤمنين على عليه السلام قال: «إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَتْ عَلَيْكَ الْمَقاديرُ وَأَنْتَ مَأجُورٌ وَ إِنْ جَزِعْتَ جَرَتْ عَلَيْكَ الْمَقاديرُ وَأَنْتَ مَعْذورٌ»[۷۴۸].

لا- ينبغى أن ننسى أنّ الجزع ناهيك عن كونه نوعاً من جحود اللَّه، فهو ينطوى على آثار سيئة تصيب أعصاب الإنسان وتسوقه أحياناً إلى حدّ الجنون.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۴۰۵

۲. تجهيز النّبى صلى الله عليه و آله

لا خلاف فى يوم وفاة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث أجمعوا على وفاته يوم الاثنين ومشهور مذهب أهل‌البيت عليهم السلام أنّه دفن بعد ثلاثة أيّام.

ورغم ما يستفاد من الروايات باستحباب التعجيل فى دفن الميت؛ إلّاأنّ القضيّة تختلف حين يكون المتوفى شخص كرسول اللَّه صلى الله عليه و آله ويريد المسلمون أن يصلّوا عليه فوجاً فوجاً ويودعوه.

وكما يستفاد من الأخبار أنّهم كانوا يدخلون عليه عشرة عشرة ويصلّون عليه، ثم دفن هناك فى حجرته، حيث كان لكلٍّ رأيه فى دفن النّبى صلى الله عليه و آله فمنهم من قال: فى مكة، وآخر المدينة (فى البقيع أو فى صحن المسجد) فقال أميرالمؤمنين على عليه السلام:

«إنَّ اللَّه لَمْ يَقْبِضْ نَبِيّاً إلّافى أطْهَرِ الْبِقاعِ فَيَنْبَغى أنْ يُدْفَنَ فِى الْبُقْعَةِ الَّتى قُبِضَ فيها».

فَاتَّفَقَتِ الْجَماعَةُ عَلى قَوْلِهِ عليه السلام وَدُفِنَ فى حُجْرَتِهِ ۷۴۹]. كما قيل فيمن دخل القبر أنّه دخل على عليه السلام والفضل ابن العباس وشخصان آخران ۷۵۰].

على كلّ حال، فمما لا شك فيه أنّ تجهيز النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله بما فى ذلك غسله وتكفينه والصلاة عليه كان على يد على عليه السلام بينما سارع الآخرون إلى سقيفة بنى ساعدة وانهمكوا بالحديث عن الخلافة حتى قيل إنّ معزّى السقيفة لم يوفّقوا للصلاة على النّبى صلى الله عليه و آله. وللوقوف على المزيد بهذا الشأن يراجع كتاب بحار الأنوار: ج ۲۲، ص ۵۰۴.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۴۰۷

الخطبة ۲۳۶

اشارة

اقْتَصَّ فيهِ ذِكْرَ ما كانَ مِنْهُ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِى صلى الله عليه و آله ثُمَّ لِحاقُهُ بِه ۷۵۱]

نظرة إلى الخطبة

لا حاجة هنا لشرح الخطبة وفق نظرة كون كلامه عليه السلام غاية فى القصر والايجاز.

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۴۰۹

فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَأْخَذَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله فَأَطَأُ ذِكْرَهُ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ.

الشرح والتفسير: ذكر الحبيب

هذا الكلام كما ذكر المرحوم السيد الرضى جانب موجز من خطبة مفصلة للإمام عليه السلام فصّله الرضى لما رأى فيه من ظرافة فى عباراته من حيث الفصاحة والبلاغة. ويفهم من كتاب «تمام نهج البلاغة» أنّ هذا الكلام كان فى خطبة بيّن فيها الإمام مكانته من النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وشرح فى كلّ جانب منها صلته الوثيقة بالنبى صلى الله عليه و آله ولطفه به والذى تتضح فيه تماماً مكانة أهل البيت عليهم السلام ۷۵۲].

وهذا الكلام- كما أشرنا آنفاً- فى هجرة النّبى صلى الله عليه و آله إلى المدينة بعد ليلة المبيت وبقاء الإمام فى مكة لأداء ودائع النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلى الناس وانطلاقته خفية إلى المدينة بعيداً عن أنظار خصوم الدعوة الإسلاميّة.

فالإمام عليه السلام الذى عاش تلك المرحلة العصيبة إبان فراق زعيمه وأستاذه العزيز كان يعانى من فراقه الذى شقّ عليه وكلامه هنا يعكس ذلك حيث قال: «فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَأْخَذَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه و آله فَأَطَأُ ذِكْرَهُ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ».

يشير هذا الكلام إلى مدى لوعة الإمام عليه السلام على فراق النّبى صلى الله عليه و آله خلال تلك الفترة الوجيزة، فلا ينفك عن ذكره ويفصح عن مدى لوعته كمن فقد أعزّ أعزّته؛ لكن لا حيلة، فلابدّ أن يبقى ويؤدى إلى الناس ودائعهم عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله التى ائتمنوه

نفحات الولاية، ج۸، ص: ۴۱۰

عليها، فانطلق بعيداً عن أعين الأعداء إلى المدينة، ويستفاد من التواريخ الإسلاميّة أنّ جروحاً بليغة أصابت جسد الإمام إثر إمطاره بالحجارة ليلة هجرة النّبى وقد نام على فراشه؛ لكنّه تناسى كل تلك الجراح وكان لا يفكر سوى بحبيبه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

قال المرحوم السيد الرضى فى ختام هذا الكلام:
إنّ قوله عليه السلام: «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ» مِنَ الْكَلامِ الَّذى رَمى بِهِ إلى غايَتَى الْايجازِ وَالْفَصاحَةِ، أراد أنّى كُنْتُ أعْطى خَبَرَهُ صلى الله عليه و آله مِنْ بَدْءِ خُرُوجى إلى أنِ انْتَهَيْتُ إلى هذَا الْمَوْضِعُ، فَكَنّى عَن ذلِك بِهذِهِ الْكِنايَةِ الْعَجيبَةِ.
فللإمام عليه السلام نكته ظريفة ودقيقة فى العبارة «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ» والتى تابعها السيد الرضى وهى أنّ الإمام عليه السلام جعل ذكر النّبى صلى الله عليه و آله كالطيف الجميل الساحر الذى يعطر الأجواء، وكان الإمام يعيش ذلك الجو ليله ونهاره، كمن يقول لآخر: إنّ ذكرك هو بيتى وحياتى، ذكرك أزقة مدينتى.

تأمّل: قصّة الهجرة

إنّ قصة هجرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من أروع القصص التاريخيّة فى الإسلام، وذلك عندما أحس رؤوساء قريش بالخطر المغدق بهم إثر دعوته الشريفة، وخصوصاً لو استمرت هذه الدعوة بين أوساط الناس وبهذه الصورة الجديّة، فيؤدى لا شك إلى انكسار شوكتهم وقدرتهم وتحطم أوثانهم بل وتتحول مكة إلى سجن كبير لهم، وعليه اختاروا طريق القضاء عليه وعلى دعوته الرسالية، اختاروا فى التصدى لدعوته أحد الطرق الثلاثة، إمّا يسجنوه، أو ينفوه من مكة أو يقتلوه وهذا ما أشارت إلى الآية ۳۰ من سورة الأنفال.
ولكن أجمعوا على قتله ليلًا لأنّهم محصوا هذا الرأى واتفقوا عليه، ولكنّهم واجهوا مشكلة بنى عبدمناف فى طلب الثأر له وبذلك تقع فتنة عظيمة وصراع كبير
نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۱۱
بين قبائل مكة، ولهذا دعوا جميع القبائل ورؤوساء قريش وثبت رأيهم على على أن يضربوه بأسيافهم من أيدى جماعة من بطون مختلفة ليضيع دمه فى بطون قريش فلا- تطلبه نبو عبدمناف وبالتالى يرضوا بالدية، فحاصروا بيت النبى صلى الله عليه و آله وانتظر الصبح إلى أن ينجلى ظلام الليل، ثم يحملوا عليه حملة رجل واحد.
فخرج النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بأمر من اللّه تعالى من محاصرة القوم بصورة إعجازية ورحل ليلًا إلى المدينة (ولكن عن طريق غير طريق مكة والمدينة حتى لا تستطيع الأعداء اقتفاء أثره) وأمر على بن أبى طالب عليه السلام أن يبيت فى فراشه وذلك لأنّهم كانوا يترصدون البيت فعاينوا فيها شخصاً مسجى بالبرد الحضرمى الأخضر، فلم يشكوا أنّه هو فرصدوه ورمه ببعض الأحجار ليطمئنوا على أنّه لازال فى فراشه.
ولما أصبحوا دخلوا عليه الدار وسلوا بسيوفهم وحملوا عليه ظنّاً منهم أنّه رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأحاطوا بفراشه وفجأة وجدوا عليّاً عليه السلام فى فراشه فلمّا دنوا منه عرفوه فقالوا له: أين صاحبك؟ فقال عليه السلام: لا أدرى أو رقيباً كنت عليه؟
فعندما فشلت خطتهم غضبوا غضباً شديداً لأنّهم انتظروه إلى الصباح وألقوا اللائمة على أبى لهب الذى منعهم من الهجوم ليلًا (لأنّ الهجوم ليلًا كان عندهم مع وجود الأطفال والذرارى عيباً كبيراً).
وتحرك النبى من مكّة جهة الشمال إلى المدينة بدلًا عن الجنوب ووصل إلى جبل غار ثور واختفى فيه حتى لا تصل إليه أيدى الأعداء والمشركين، فخرج رجال قريش تبحث عنه فى أطراف مكّة ولكنّهم فشلوا ورجعوا إلى مكّة دون أن يعثروا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله وقد خرج من أيديهم وهاجر إلى المدينة[۷۵۳].
نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۱۳

الخطبة ۲۳۷

اشارة

فِی الْمُسارَعَةِ إِلَی الْعَمَل ۷۵۴]

نظرة إلی الخطبة

یستفاد من كتاب «تمام نهج البلاغة» أنّ هذه الخطبة- جانب من الخطبة الغرّاء- تعدّ من عجائب خطب الإمام علیه السلام حیث شیّع جنازةً ووسّد المیت فی اللحد وكان أهله یبكوه فخطب تلك الخطبة[۷۵۵].

وتتألف الخطبة فی الواقع من قسمین؛ الأوّل: عن المسارعة فی العمل واستغلال الفرص، فلعل الموت یفاجئ الإنسان وتفوت الفرصة ویغلق باب التوبة.

والقسم الثانی: وصایا فی مجاهدة هوی النفس وكیفیة الانتفاع بفرص الحیاة، فالخطبة بمجموعها ذات فائدة قصوی لسالكی سبیل السعادة.

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۴۱۵

القسم الأوّل

اشارة

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِی نَفَسِ الْبَقَاءِ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَالْمُدْبِرُ یُدْعَی وَالْمُسِیءُ یُرْجَی، قَبْلَ أَنْ یَخْمُدَ الْعَمَلُ، وَیَنْقَطِعَ الْمَهَلُ، وَیَنْقَضِیَ الأَجَلُ، وَیُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَصْعَدَ الْمَلَائِكَةُ.

الشرح والتفسیر: اغتنام الفرصة

شجّع الإمام علیه السلام بهذه العبارات الموجزة العمیقة المعنی جمیع مخاطبیه علی اغتنام الفرص وحذّر من أنّ هذه الفرص عابرة زائلة عاجلًا أم أجلًا، ولابدّ من السعی قبل الیأس والحسرة.

فأشار فی كیفیة اغتنام الفرص إلی خمسة أمور:

قال فی الأوّل: «فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِی نَفَسِ الْبَقَاءِ».

والعبارة «نَفَسِ الْبَقَاءِ» إشارة لطیفة إلی أنّ البقاء كأنّما یشبه فی الدنیا بالكائن الحی الذی یتنفس ولابدّ من استغلاله قبل أن ینقطع نفسه.

وقال فی الثانی: «وَ الصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ[۷۵۶]».

إشارة إلی إمكانیة الإضافة والإصلاح والتعدیل ما دامت الصحیفة مفتوحة.

وفی الثالث: «وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ».

إشارة إلی أنّ العودة قائمة ویمكن إطفاء نیران الذنوب المستعرة بماء التوبة مادامت أبوابها مفتوحة وتحصیلها واسع، فیلجأ الإنسان إلی اللّه ویفصح عن ندمه

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۴۱۶

ويسكب الدموع التى تفرزها التوبة النصوح والخالصة فيطفئ بها نيران الذنوب.

ورد فى «الكافى» عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام أنّه قال: «إنَّ آدَم عليه السلام قَالَ يارَبِّ سَلّطتَ عَليَّ الشَّيطانَ وَأجرَيتَهُ مِنّى مَجرى الدَّمِ، ما جَعَلتَ لِى شَيئاً، فَقَالَ: يا آدمُ جَعَلتُ لَکَ أنَّ مَن هَمَّ مِنْ ذُرّيّتِک بِسَيئةٍ لَم تُكتَبْ عَلَيهِ، فَإنّ عَمِلَها كَتَبتُ عَلَيهِ سَيئةً، وَمَنْ هَمّ مِنهُم بِحَسنَةٍ فَإن لَم يَعمَلهَا كَتَبتُ لَهُ حَسنةً فَإن هُو عَمِلَها كَتَبتُ لَهُ عَشراً، قَالَ: يارَبِّ زِدنِى، قَالَ: جَعَلتُ لَکَ أنَّ مَن عَمِلَ مِنهُم سَيئةً ثُمّ استَغفَرَ لَهُ غَفرتُ لَهُ، قَالَ: يارَبِّ زِدنِى، قَالَ: جَعَلتُ لَهُ التّوبَةَ- أو قال بسطت لهم التوبة- حَتّى تَبلُغَ النَّفس هَذِهِ، قَالَ: يارِبِّ حَسبِى»[۷۵۷].

وقال فى الأمر الرابع والخامس: «وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى وَالْمُسِيءُ يُرْجَى».

إشارة إلى الدعوة والأمل الذى تضمنته الآية الكريمة، قال تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَّحْمَةِ اللَّه إِنَّ اللَّه يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[۷۵۸].

وقال تعالى: «وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ»[۷۵۹].

وقال فى العبارة السادسة والسابعة والثامنة: «قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ[۷۶۰] الْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهَلُ ۷۶۱]، وَ يَنْقَضِىَ الأَجَلُ».

نعم، فما دام هنالك العمر فالعمل قائم والمهلة مبذولة والفرصة سانحة وكل ذلک يفنى حين مغادرة الإنسان لهذا العالم.

وقال فى التاسعة والعاشرة: «وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَصْعَدَ الْمَلَائِكَةُ».

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۱۷

القسم الثانى

اشارة

فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَأَخَذَ مِنْ حَىّ لِمَيِّتٍ، وَمِنْ فَانٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِم. امْرُؤٌ خَافَ اللَّه وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ. امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِى اللَّه، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّه.

الشرح والتفسير: كيفية اغتنام الفرصة

وعظ الإمام عليه السلام فى المقطع السابق من هذه الخطبة بعشر عبارات موجزة وعميقة المعنى، الجميع باغتنام الفرص قبل فوات الأوان.

ثم ذكر فى عشر أخرى طرق كيفية الاغتنام لتلك الفرص، فالقسم الأوّل فى الواقع وعظ وتحذير والثانى أسلوب للعمل. قال: «فَأَخَذَ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ،، وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ ومِنْ فَانٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِم».

تكرر الفعل الماضى (أخذ) فى هذه العبارات الأربع مرتين؛ لكنّه عنى الأمر. فقد أمر عليه السلام فى العبارة الاولى بضرورة استفادة كلّ إنسان من رصيد وجوده لإدخار الحسنات، حيث وهب اللّه الإنسان إمكانات وطاقات إن وظفها فى المسار الصحيح وفّرت له أسباب السعادة.

ورد عنه عليه السلام فى «غررالحكم» أنّه قال: «إنّ اللّيلَ وَالنَّهارَ يَعْمَلانِ فيک فَاعْمَلْ فيهِما وَيَأْخُذانِ مِنْک فَخُذْ مِنْهُما»[۷۶۲].

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۱۸

وقد ورد نفس هذا المعنى فى العبارة الثانية بصيغة أخرى، «وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ».

وأشـار فی العبارة الثالثـة والرابعـة إلی إمکانیـة التزود من هـذه الـدار الفانیـة إلی تلک الـدار الباقیـة ومن هـذه الحیاة الزائلـة إلی تلک الخالدة، ثم واصل کلامه قائلًا: «امْرُؤٌ خَافَ اللَّه وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَی أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ[۷۶۳] إِلَی عَمَلِهِ».

حیث بیّن علیه السـلام فی هاتین العبارتین ما ذکره فی العبارات السابقـة بصـیغة أخری ووعظ الجمیع بالانتفاع بهذه المهلة التی منحهم اللَّه ضرورة خشیته والابتعاد عن التقصیر.

ثم قال: «امْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَکَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِی اللَّه، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَی طَاعَةِ اللَّه».

فقـد شـبّه علیه السـلام نفس الإنسان بالدابة الجموح إن لم یکن زمامها کما ینبغی أقحمته فی وادی المعصـیة وحرفته عن مسار الطاعة عادة ما یسـتفاد من وسـیلتین للسـیطرة علی الدابّـة الجامحـة؛ إحـداهما، اللجام وهو حبل یوضع فی فم الدابـة ویوثق لیکون بیـد راکب الدابّـة، والزمام، الـذی یوضع فی أنفها ویمسـکه الراکب بحبل، ولما کان فم الدابة وأنفها من المواضع الحساسة فإنّه یمکن من خلالها إیقاف الدابّة أو سوقها إلی جهة من خلال تحریکه إلی تلک الجهة.

والعبارة «لجام» و «زمام» إشارة إلی ضـرورة تهیئـة اللجام والزمام الـذی یلیق بالنفس الجامحـة بحیث یمکن بواسـطته صدها عن الذنب والمعصـیة وسوقها إلی طاعـة اللَّه، وما أکثر الأفراد الذین یلجمون أنفسـهم بلجام ضـعیف وهزیل بحیث یفقدون هذا اللجام حین إثارة الشهوات فیقارفون أنواع المعاصی.

ولکـن مـا هی الوسـیلة اللازمـة للسـیطرة علی النفس؟ یمکـن الظفر بـالجواب فی مـا ورد مـن کلمـات الإمـام علی علیـه السـلام فی «غررالحکم» و «بحارالأنوار». فقد ذکر علیه السلام أنّ

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۴۱۹

القناعة عامل إصلاح النفس فقال: «اعْوَنُ شَیء عَلی صَلاحِ النَّفْسِ الْقَناعَةُ»[۷۶۴].

وفی موضع آخر عدّ التعصب وسیلة لإصلاحها فقال: «إذا صَعِبَتْ عَلَیْک نَفْسُک فَاصْعَبْ لَها تَذِلُّ لَک»[۷۶۵].

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۴۲۱

الخطبة ۲۳۸

اشارة

فی شَأْنِ الْحَکَمَیْنِ وَذَمِّ أَهْلِ الشّام ۷۶۶]

نظرة إلی الخطبة

تتکون هـذه الخطبـة فی الواقع من قسـمین، ذم الإمـام علیه السـلام فی القسم الأـوّل أهـل الشام ونعتهم بالجفاة القساة الـذین ینبغی أن یؤدَّبوا ویربَّوا ویخضع القاصر منهم لولایة العالِم، إنّهم لیسوا من المهاجرین والأنصار (العارفین بتعالیم الإسلام والحریصین علی بقائه).

وأشار علیه السلام فی القسم الثانی إلی قضیة التحکیم فبیّن أنّ أهل الشام اختاروا لهذه

نفحات الولایة، ج۸ ص: ۴۲۲

القضـیة عمرو بن العاص وهو أفضل من یحقق أطماعهم ومآربهم، واخترتم أبو موسـی الأشعری أبعدهم عن هدفکم، وکان علیکم أن توجهوا قبضة ابن عباس إلی صدر عمرو بن العاص لا بواسطة الضعفاء کأبی موسی الأشعری.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۲۳

القسم اوّل

اشارهٔ

جُفَاةٌ طَغَامٌ، وَعَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْب، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ.

لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدّارَ وَالْايمَانَ.

الشرح والتفسير: أتباع معاويهٔ

خاض الإمام عليه السلام هنا كما ذكرنا فى ذم أهل الشام وذكر صفاتهم التى تكشف عن مدى جهلهم وخبثهم فاستهل ذلك بخمس من صفاتهم قائلًا: «جُفَاةٌ[۷۶۷] طَغَامٌ ۷۶۸]، وَعَبِيدٌ أَقْزَامٌ ۷۶۹]، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْب ۷۷۰]، وَتُلُقِّطُوا[۷۷۱] مِنْ كُلِّ شَوْب ۷۷۲]».

ثم أضاف عليه السلام: «مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ ۷۷۳]، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ».

واختتم عليه السلام قائلًا: «لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا[۷۷۴] الدّارَ والْايمانَ».

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۲۴

وكما أشرنا سابقاً فإنّ هذا الكلام بعض كتاب كتبه الإمام عليه السلام ليطلع المسلمين على جميع الأحداث فى عصره وما سبقه ليكون تعليمات تبعث لجميع المناطق والتعريف بأهل الشام وأتباع معاويهٔ الذين تمردوا على إمام المسلمين وأجّجوا نيران صفّين وإيضاح سوء نيّتهم وكيفيهٔ اجتماعهم.

تأمّل: جهل أهل الشام

ما أورده الإمام عليه السلام بشأن جهل وحمق عسكر معاويهٔ (رغم كثرهٔ الأفراد الداعين فى أهل الشام) لمن القضايا التى تؤيدها سيرهٔ معاويهٔ ومن ذلك هاتان الواقعتان اللتان نقلهما المسعودى فى «مروج الذهب».

الواقعهٔ الاولى: إنّ رجلًا من أهل الكوفهٔ على بعير له قدم إلى دمشق فى حال منصرفهم عن صفّين فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتى أخذت منّى بصفّين، فارتفع أمرهما إلى معاويهٔ وأقام الدمشقى خمسين رجلًا بيّنهٔ يشهدون أنّها ناقته فقضى على الكوفىّ وأمره بتسليم البعير إليه.

فقال الكوفىّ: أصلحك اللّه إنّه جمل وليس بناقهٔ.

فقال معاويهٔ: هذا حكم قد قضى، ودسّ إلى الكوفىّ بعد تفرّقهم فأحضره وسأله عن ثمن البعير فدفع إليه ضعفه وبرّ وأحسن إليه وقال له: أبلغ عليّاً أنّى اقاتله بمائهٔ ألف ما فيهم من يفرّق بين الناقهٔ والجمل.

الواقعهٔ الثانيهٔ: ولقد بلغ من أمرهم من طاعتهم له (لمعاويهٔ) أنّه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفّين الجمعهٔ فى يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال. (وقَبل الناس وصلّوا الجمعهٔ فى يوم الأربعاء وهذا كان من جهل أهل الشام)[۷۷۵].

كما ورد فى الحديث أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله قال لعمار: (تقتلك الفئهٔ الباغيهٔ)، وقد

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۲۵

شهد عمار صفّين مع على عليه السلام حتى قتل، فلما اجتمع بعض الصحابة عند قتل عمار، وأنّ معاوية هو وأصحابه هم الفئة الباغية الذين قتلوا عمّار، قال عمرو بن العاص:

إنّ علياً هو الذى قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته [۷۷۶].

والعجيب أنّ البعض قبل هذا الرأى.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۲۷

القسم الثانى

اشارة

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِانْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمُ اخْتَرْتُمْ لِانْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ. وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّه بْنِ قَيْس بِالْامْسِ يَقُولُ: «إِنَّهَا فِتْنَةٌ، فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ». فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ، غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهَمَةُ.

فَادْفَعُوا فِى صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّه بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخُذُوا مَهَلَ الأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِىَ الْاسْلَامِ. أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى؟

الشرح والتفسير: أفضل اختيار وأسوأه

خاض الإمام عليه السلام فى القسم السابق فى التعريف بأهل الشام الذين اجتمعوا حول معاوية ليصفهم بأنّهم جهّال وأوباش وأشرار، وقال هنا رغم جهلهم وانحطاطهم لكنهم تفوقوا عليكم فى الجانب السياسى، فقد اختاروا للتحكيم من يضمن مصالحهم اللامشروعة (عمرو بن العاص) بينما إخترتم (أبو موسى الأشعرى) من يتحرك ضد مصالحكم ومصالح المسلمين، فهلمّوا وتلافوا أخطاءكم: «أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِانْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمُ اخْتَرْتُمْ لِانْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ».

ثم خاض عليه السلام فى التعريف بأبى موسى الأشعرى وركز على آخر فتنه دون الإشارة إلى سوابقه السيئة فقال: «وَانَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّه بْنِ قَيْس بِالْامْسِ يَقُولُ:

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۲۸

«إِنَّهَا فِتْنَةٌ»، فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ [۷۷۷]، وَشِيمُوا[۷۷۸] سُيُوفَكُمْ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلًا: «فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَه، وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهَمَةُ».

الطريف ما أورده المرحوم ابن ميثم فى شرحه لنهج البلاغة عن سويد بن غفلة أنّه قال: كنت مع أبى موسى الأشعرى على شاطىء الفرات فى خلافة عثمان فروى لى خبراً عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: سمعته يقول: «إنّ بَنى إسرائيل اختَلَفُوا فَلَم يَزلْ الاختِلاف بَينَهُم حَتّى بَعَثُوا حَكَمَينِ ضَالّين ضَلّا وَأضَلّا مَنْ اتّبَعَهُما»، فقلت له:

احذر يا أباموسى أن تكون أحدهما! قال: فخلع قميصه، وقال: أبرأ إلى اللَّه من ذلك كما أبرأ من قميصى هذا[۷۷۹].

ويريد بذلك أنّه لا يقبل التحكيم ويتبرأ منه، ولكنّه قَبل وحكم وأضلّ الناس مع عمرو ابن العاص، وبذلك صدق رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى كلامه هذا وما تنبأ به بإعجاز عن قوله (ضالّين ضلّا وأضلّا من أتبعهما).

وعقب كلّ هذا التحليل الدقيق اقترح على صحبه اقتراحاً نافعاً، وقال: «فَادْفَعُوا فِى صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّه بْنِ الْعَبَّاسِ، وَخُذُوا

مَهَلَ الأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِيَ ۷۸۰] الْاسْلَامِ».

ثم اختتم عليه السلام كلامه بهدف خلق الدافع لديهم وإثارة حسهم الدينى والإنسانى فقال: «أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى وَإِلَى صَفَاتِكُمْ ۷۸۱] تُرْمَى؟».

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۲۹

حقّاً لم يكن أبوموسى الأشعرى الأبله من يسعه مواجهة الماكر عمرو بن العاص وكان أفضل من يسعه مواجهته رجل قوى وواعٍ كابن عباس، إلّاأنّ مؤامرات معاوية وبعض الخونة من بطانة الإمام عليه السلام حالت دون ذلك.

كتب الكاتب الإسلامى المصرى عبدالكريم الخطيب فى كتابه «على بن أبى طالب»: وكان الإمام قد أعدّ ابن عباس ليلقى عمرو بن العاص، ولكن أصحاب الإمام اختلفوا عليه، وكان الأشعث بن قيس (المنافق) رأس الجماعة التى نازعت فى اختيار ابن عباس، والأشعث هو الذى مهّد التحكيم، وأكره هو وقومه عليّاً على قبوله .. ولا شك أنّ الصلة كانت قد توثقت بين معاوية والأشعث.

وهذا الذى سجله الخطيب يتفق تماماً مع ما نقلناه عن كتاب (على وبنوه) لطه حسين فى شرح الخطبة ۱۹، ج ۱، ص ۱۵۲: من أنّ الأشعث وابن العاص قد دبرا رفع المصاحف واختاروا ا لحكمين سلفاً[۷۸۲].

ثم ذكر المرحوم مغنية جانباً آخر من كلام عبدالكريم الخطيب فى كتابه: «كان ابن العاص صاحب مصلحة فى أى خير يصيبه معاوية من التحكيم، لأنّ الصك بملك مصر فى يده .. وليس لابن عباس شيء أن خلصت الخلافة لعليّ، وهل لأحد مع على مطمع؟ إنّ كلّ الذين يعملون مع على يعملون للّهلا له، فليس لهم عنده يد يرجون المثوبة عليها ولا من اللّه، فماذا يخشى القوم من ابن عباس إذن؟ إنّهم لا يخشون إلّاأن يرفع ابن العاص عن كيد مارد لا يفطن إليه إلّارجل أوتى مثل ما أوتى ابن عباس من ألمعية وذكاء[۷۸۳]. نهاية معركة صفين عن طريق رفع المصاحف على أسنة الرماح على هامش هزيمة جيش معاوية ومن ثم قضية التحكيم، لمن أفجع حوادث التاريخ الإسلامى، وكانت معاناة الإمام عليه السلام ومصابه بذلك بما لا يمكن وصفه والذى حصل من قبل جماعة دنيوية بعيدة عن الإيمان والتقوى.[۷۸۴]

نفحات الولاية ؛ ج۸ ؛ ص۴۲۹

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۳۱

الخطبة ۲۳۹

اشارة

يَذْكُرُ فيها آلَ مُحَمَّد صلى الله عليه و آله ۷۸۵]

نظرة إلى الخطبة

الخطبة فى الواقع قسم واحد ومحورها فضائل أهل البيت عليهم السلام ومكانتهم الرفيعة فى الامّة الإسلاميّة وإدراكهم الصحيح للدين وبالتالى ضرورة إتّباعهم وعدم مخالفتهم.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۳۳

هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ، لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا

يَخْتَلِفُونَ فِيهِ.

وَهُمْ دَعَائِمُ الْاسْلَام، وَوَلَائِجُ الْاعْتِصَام. بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ، وَانْزَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ مُقَامِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ. عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ. فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ.

الشرح والتفسير: آل محمد أركان الدين

ذكر عليه السلام فى هذه الخطبة الموجزة اثنتى عشرة فضيلة لأهل‌البيت عليهم السلام تثبت عظم منزلتهم وتسوق مخاطبيه لاتّباعهم. وهى الصفات التى تستوعب فضائل الإنسانية وتنطوى على مواصفات القيادة.

قال فى الصفة الاولى والثانية: «هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ»، فقد شبّه عليه السلام العلم والجهل هنا بكائنين حيين وأنّ آل محمد يهبون العلم الحياة ويميتون الجهل وبعبارة أخرى هم روح العلم وعنصر موت الجهل.

وهذا هو الحديث المعروف الذى ورد عن النّبى‌الأكرم صلى الله عليه و آله أنه قال: «أهْلُ بَيْتِى كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ»[۷۸۶].

كما ورد فى رواية أخرى عن ابن عباس أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله قال: «النُّجُومُ أمانٌ

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۴۳۴

لِاهْلِ الْارْضِ مِنَ الْغَرْقِ وَأهْلُ بَيْتِى أمانٌ لِامَّتى مِنَ الْاخْتِلافِ فَإذا خالَفَتْها قَبِيلَةٌ مِنَ الْعَرَبِ اخْتَلَفُوا فَصاروا حِزبَ إبْليس»[۷۸۷].

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى فقال: «يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ».

تشير العبارة «يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ» إلى علاقة وثيقة بين العلم والحلم، فالجاهل ليس حليماً وسرعان ما يغضب إزاء الأحداث المختلفة وما يطرح عليه من سؤال؛ أمّا العالم فحليم إزاء ذلك، وكذلك العلاقة بين الظاهر والباطن حيث إنّ حسن الظاهر فى الغالب والسلوك والتصرف يدلّ على حسن الباطن، وهكذا علاقة الصمت الذى يكشفه المنطق الحكيم وقد دلّت التجربة على أنّ مَن قلّ كلامه كان أكثر دقّة وصواباً فى الكلام كما ورد فى الحديث الشريف قالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه و آله: «إذا رَأَيْتُمُ الْمُؤمِنَ صَمُوتاً فَادْنُوا مِنْهُ فَإنّهُ يُلْقِى الْحِكْمَة»[۷۸۸].

ثم قال فى الصفة السادسة والسابعة: «لَا يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ».

ودليل ذلك واضح، فلهم من جانب مقام العصمة ومن جانب آخر الإحاطة التامة بأحكام اللَّه والوحى والسنّة، ومن كان كذلك فلا ينطلق خلاف الحق ولا يختلف فيه.

جاء فى الحديث النبوى المعروف: «عَلِيٌّ مَعَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مَعَهُ وَعَلى لِسانِهِ وَالْحَقُّ يَدُورُ حَيْثُ ما دارَ عَلِيٌّ».

وقرأ بتعبير آخر فى نفس الحديث قال صلى الله عليه و آله: «عَلِيٌّ مَعَ الْحَقِّ وَالْقُرآنِ، وَالْحَقُّ وَالْقُرآنُ مَعَ عَلِيٍّ وَلَنْ يَفْتَرِقا حَتّى يَرِدا عَلَيَّ الْحَوْضَ»[۷۸۹].

ونعلم أنّ أئمّة العصمة من ولد على عليه السلام ورثة علمه، ومن هنا فإنّهم لا يحيدون

نفحات الولايه، ج۸، ص: ۴۳۵

قط عن الحق.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «كِتابَ اللَّه فِيهِ نَبَأُ ما قَبْلِكُمْ وَخَبَرُ ما بَعْدِكُمْ وَفَصْلُ ما بَيْنَكُمْ وَنَحْنُ نَعْلَمُهُ»[۷۹۰].

فكيف يمكنهم الاختلاف فى الحق. فالاختلاف علامة الجهل، ومن كان عالماً بكلّ هذه الأمور يستحيل عليه الاختلاف.

ثم ذكر صفتهم الثامنة والتاسعة فقال: «وَهُمْ دَعَائِمُ الْاسْلَامِ، وَوَلَائِجُ [۷۹۱ الْاعْتِصَامِ».

وهكذا فالدين كالخيمة وأوتادها آل محمد، وكما تنهار الخيمة إذا زالت الأوتاد، فإن نحيّنا آل محمد عن الإسلام وقرأناه دونهم، إنهارت فروعه وأصوله.

وواصل عليه السلام كلامه ببيان الصفات الثلاث الأخيرة فقال: «بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ ۷۹۲]، وَانْزَاحَ ۷۹۳] الْبَاطِلُ عَنْ مُقَامِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ».

تشير هذه العبارة إلى الانحرافات التى حدثت بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لاسيما على عهد الخليفة الثالث، فقد أصبح بيت مال المسلمين لعبة بيد فئة من المتكالبين على الدنيا ومن بنى أُمية- ومنهم عدو الإسلام الأوّل، أى أبو سفيان- تسلّموا المناصب الحساسة فى الحكومة الإسلاميّة ففعلوا كلّ ما استطاعوا فعله وكانت نتيجة ذلك الثورة على الخليفة والتى أطاحت به وببطانته ۷۹۴] بمرأى ومسمع المهاجرين والأنصار دون أن يدافعوا عنه.

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۴۳۶

ولكن حين تسلّم الإمام على عليه السلام زمام الأمور عاد الحق إلى نصابه ونحى أتباع الباطل ولم يجرؤ أحد على الدفاع عن الوضع السابق ويصادر حقوق الطبقات المستضعفة والمحرومة ويغدقها على طلّاب الدنيا وذوى الأطماع. ولا- يقتصر هذا الأمر على أميرالمؤمنين عليه السلام بل لو تسلّم أئمّة أهل البيت عليهم السلام مقاليد الأمور لاتّبعوا ذلك النهج بفضل عصمتهم التى يستدل عليها بعدّة أدلة ومنها حديث الثقلين.

ثم اختتم الكلام بذكر صفتهم الأخيرة فقال عليه السلام: «عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ[۷۹۵] وَرِعَايَةٍ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ. فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ ۷۹۶] قَلِيلٌ».

قطعاً العلم بالدين له مراتب كالعلم بأىّ أمر آخر، المرحلة الأولى سماع ونقل الألفاظ والمرحلة الثانية فهم المعنى وإدراك المضمون والمرحلة الثالثة الإيمان واليقين العميق الذى ينفذ فى جميع كيان الإنسان ويسوقه للعمل، وأهل البيت عليهم السلام فى ذروة المرحلة الثالثة ومن هنا أوصى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأكّد على الامّة بالتمسك بالقرآن وأهل البيت من بعده ليأمنوا الضلال والغى.

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۴۳۷

الخطبة ۲۴۰

اشارة

قالَهُ لِعَبْدِ اللَّه بْنِ الْعَبّاسِ؛ وَقَدْ جاءَهُ بِرسالَة مِنْ عُثْمان، وَهُوَ مَحصُورٌ يَسْأَلُهُ فيهَا الْخُرُوجَ إلى مالِهِ بِيَنْبُع، لِيُقَلَّ هَتْفَ ۷۹۷] النّاسِ بِاسْمِهِ خِلافَةً، بَعْدَ أنْ كانَ سَأَلَهُ مِثْلَ ذلِك مِنْ قَبْلُ، فَقالَ عليه السلام ۷۹۸]

نظرة إلى الخطبة

مضمون هذه الخطبة واضح. فلما حاصر المسلمون عثمان فى بيته سنة ۳۵ ه وطالبوا بعزله من الخلافة، هتفت الجماعة أنّ الخلافة حق على بن أبى طالب، فرأى عثمان ابعاد على عليه السلام عن المدينة لمصادرة ذلك الهتاف، لذلك اقترحه على الإمام عليه السلام هذا فى الوقت الذى اقترحه سابقاً على الإمام عليه السلام ففعل.

ثم كتب للإمام عليه السلام بالعودة والدفاع عنه. فلما عاد اقترح عليه التوجه إلى ينبع

نفحات الولايه، ج۸ ص: ۴۳۸

فقال عليه السلام هذا الكلام: ما يريد عثمان إلّاأن يجعلنى جملًا ناضحاً فأقدم إن كانت مصلحته فى ذلك أو أخرج.

***

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۳۹

يَا ابْنَ عَبَّاس، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِى جَمَلًا نَاضِحاً بِالْغَرْبِ: أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ! بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ! وَاللَّه لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً.

الشرح والتفسير: خطأ آخر من أخطاء عثمان

قضية قيام المسلمين على عثمان، إحدى القصص المأساوية المؤسفة فى صدر الإسلام. فكانت تلك الحركة طبيعية جدّاً خلافاً لما يظنه المتعصبون، فعثمان سلّم جماعة من بنى أمية وقرابته الذين لم يكونوا من الصالحين، مناصب حساسة فى الدولة الإسلاميّة، ومن جانب آخر تصرّف فى بيت المال كما يتصرف فى أمواله الشخصية، فيهب بطانته ما يشاء، فى حين كان أغلب المسلمين يعيشون الحرمان.

وقد عمّت أصداء هذين الفعلين المشينين كلّ مكان وأدّيا إلى تلك الانتفاضة العارمة على عثمان، وإن كان علم تلك الانتفاضة طائفة من المصريين وأهل الكوفة؛ إلّا أنّ أهل المدينة تضامنوا معهم وصمت المهاجرون والأنصار ولم يهبّ للدفاع عنه سوى على عليه السلام، فالإمام عليه السلام وإن كان من أشد الناقمين على أفعال عثمان، لكنه لا يرى فى قتله مصلحة للُامّة الإسلاميّة.

على كلّ حال، كتب عثمان عدّة كتب متناقضة للإمام عليه السلام طلب منه أوّلًا الخروج من المدينة إلى ينبع، ثم طلب منه العودة، ثم كتب له أخيراً بالخروج من المدينة، وسبب ذلك التناقض أنّه ظنّ بادى الأمر بأنّ بقاء الإمام عليه السلام فى المدينة مدعاة

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۴۰

لتشجيع المسلمين على عزله ومبايعة الإمام عليه السلام للخلافة.

ثم خرج الإمام من المدينة، شعر عثمان أنّه لا يسع أحد الدفاع عنه سوى على عليه السلام وينقذه من أيدى الناقمين ولذلك طلب منه الرجوع إلى المدينة، وحين بلغه أنّ المسلمين هتفوا بالبيعة للإمام عليه السلام استولى عليه الخوف، فطلب من الإمام عليه السلام الخروج مرّة أخرى من المدينة، ولما كان حامل الكتاب هذه المرّة ابن عباس، خاطبه الإمام عليه السلام قائل: «يَا ابْنَ عَبَّاس، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِى جَمَلًا نَاضِحاً[۷۹۹] بِالْغَرْبِ ۸۰۰]: أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ!».

ثم أضاف عليه السلام قائلًا: «بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ!».

وتشير هذه القضية إلى أنّ ضغوط المسلمين كانت على درجة من الشدّة بحيث ارتبك عثمان وكان كلّ لحظة يتخذ قراراً وقد غفل فوات الأوان وقد انتهى عهد حكمه ولن يقبل المسلمون له عذراً فرأى نفسه مضطراً هنا للتعامل مع على الذى لا تخفى مكانته عند اللّه ورسوله والمسلمين.

الطريف أنّ عثمان لم يصدر مثل هذه الأوامر المتناقضة مع أحد آخر، فلم يكن للآخرين مثل ذلك الدور فى الوسط الإسلامى فكان حضورهم وغيابهم سيان فى التأثير.

ثم أشار عليه السلام فى الختام إلى قضية مهمّة فى أنّه بذل أقصى جهده فى الدفاع عن عثمان؛ الأمر الذى لم يفعله غيره ولا يسعه فعله فقال: «وَاللَّه لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً».

لعل هذه العبارة إشارة إلى أنّ الدفاع أكثر من الحد عمن إرتكب تلك الأفعال نوع من دعم الظلم وهو عمل غير جائز، هذا أفضل تعبير يمكن ذكره للعبارة السابقة

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۴۱

وإن ذكر ابن أبى الحديد وابن ميثم فى شرحهما احتمالين آخرين؛ الأوّل قوله عليه السلام:

(لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً)، لأنّ الوقوف بوجه أولئك الذين قاموا عليه ربّما يدعوهم للهجوم علىَّ فينالون منّى وهذا ذنب، الآخر: أخشى أن يؤدى دفاعى إلى بثّ الفرقة والخلاف فيصاب البعض بالأذى وهذا ذنب أيضاً، ولكن من الواضح أن أيّاً من هذين الاحتمالين لا يناسب العبارة.

ورد فى «العقد الفريد» أنّ ابن عباس قال: أرسل إلىَّ عثمان فقال لى: اكفنى ابن عمّك، فقلت: إنّ ابن عمّى ليس بالرجل يرى له، ولكنّه يرى لنفسه، فأرسلنى إليه بما أحببت، قال: قل له: فليخرج إلى ماله بينبع، فلا أغتمّ به ولا يغتمّ بى، فأتيته فأخبرته، فقال: ما اتّخذنى عثمان إلّاناضحاً، ثم أنشد:

فَكَيْفَ بِهِ أنّى أداوى جَراحَهُفَيُدْوى فَلا مَلَّ الدَّواءُ وَلَا الدّاءُ

إلى أن قال: فخرج على عليه السلام إلى ينبع، فكتب إليه عثمان حين إشتدّ عليه الأمر، أمّا بعد، فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين، وطمع فىَّ من كان يضعف عن نفسه، فأقبل إلىَّ، وكن لى أم علىَّ صديقاً أم عدوّاً[۸۰۱].

ويؤيد هذا الكلام ما ذكره السيد الرضى أنّ عثمان تناقض فى أوامره حين أربكه قيام المسلمين الكبير عليه.

نفحات الولايۀ، ج۸ ص: ۴۴۳

الخطبۀ ۲۴۱

اشارۀ

يَحُثُّ بِهِ أَصْحابَهُ عَلَى الْجِهاد[۸۰۲]

نظرۀ إلى الخطبۀ

هدف الإمام عليه السلام كما يتضح من الخطبۀ حثّ أصحابه على الجهاد، لكنه أورد أموراً دقيقۀ بعبارات موجزۀ تعكس عمق تدبيره للقضايا المتعلقۀ بالحكومۀ والجهاد.

نفحات الولايۀ، ج۸ ص: ۴۴۵

وَاللَّه مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ وَمُوَرِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمْهِلُكُمْ فِى مِضْمَارٍ مَحْدُودٍ، لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ، فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ، وَاطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ، وَلَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ. مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ، وَأَمْحَى الظُّلَمَ لِتَذَاكِيرِ الْهِمَمِ!

الشرح والتفسير: شمّروا واستعدوا للجهاد

صرّح صاحب «تمام نهج البلاغۀ» الذى ألف لجمع وإكمال الخطب التى جمعها المرحوم الرضى فى «نهج البلاغۀ» أنّ الإمام عليه السلام خطبها يوم صفّين ۸۰۳] ومضمون الخطبۀ يناسب هذا المعنى.

على كلّ حال فقد وعظ الإمام عليه السلام مخاطبيه بثلاث عبارات قصيرۀ لسماع رسالۀ الجهاد فقال: «وَاللَّه مُسْتَأْدِيكُمْ ۸۰۴] شُكْرَهُ وَمُوَرِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمْهِلُكُمْ ۸۰۵] فِى مِضْمَار[۸۰۶] مَحْدُود، لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ ۸۰۷]».

ورغم أنّ الشكر ذكر بصورۀ مطلقۀ فى هذه العبارۀ ومنسجمۀ مع إطلاقاته فى القرآن الكريم مثل: «وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ»[۸۰۸] ولكن يبدو هدف الإمام عليه السلام بيان

نفحات الولايۀ، ج۸ ص: ۴۴۶

الشكر الحكومى الذى أودعه اللّه الصالحين فى عصره عليه السلام ويؤكد ذلك العبارة الثانية «وَمُوَرِّثُكَمْ أَمْرَهُ».

فالأمر هنا بمعنى أمر الحكومة. ويتضح من هنا كيفية مناسبة الشكر للحث على الجهاد، لأنّ الجهاد الخالص والباسل تحفظه حكومة الصالحين وحفظ النعمة والانتفاع بها مساوٍ لشكرها.

العبارة «وَمُمْهِلُكُمْ فِى مِضْمَارٍ مَحْدُودٍ ...» إشارة لما ورد فى سائر خطب نهج البلاغة أنّه عليه السلام قال: «أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وَغَدَاً السِّبَاقَ وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ»[۸۰۹].

ثم اتجه الإمام عليه السلام صوب ذى المقدمة والنتيجة فقال: «فَشُدُّوا عُقَدَ[۸۱۰] الْمَآزِرِ[۸۱۱]، وَاطْوُوا[۸۱۲] فُضُولَ الْخَوَاصِرِ[۸۱۳]».

فالعبارتان «فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ، وَاطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ» كناية عن الاستعداد التام للقيام بالعمل، لأنّ الشخص الذى يحكم محزمه يقوى عموده الفقرى على الإتيان بالأعمال الشاقة، كما تسهل عليه الحركة والانتقال إن جمع ثوبه ووضعه تحت حزامه والذى كان عريضاً آنذاك، حتى اليوم الذى غاب فيه الثوب الطويل عن الرجال ما زال القول المتداول أنّ فلاناً شمّر عن ثياب الهمّة ليفعل كذا.

كما لم يستبعد بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد من العبارة «وَاطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ» ترك النهم فى الطعام وترهل البدن، إلّاأنّ التفسير الأوّل أنسب.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۴۷

ثم حذّر الإمام عليه السلام مخاطبيه بثلاث عبارات عميقة المعنى وفصيحة وبليغة وأوضح لهم سبيل الانتصار فقال عليه السلام بادئ الأمر: «ولَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ[۸۱۴]».

وقال عليه السلام: «مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ».

وقال عليه السلام: «وَأَمْحَى الظُّلَمَ ۸۱۵] لِتَذَاكِيرِ[۸۱۶] الْهِمَمِ!».

حيث أشار عليه السلام فى هذه العبارة الموجزة والعظيمة المضمون إلى بضعة أمور مهمّة للموفقية فى الحياة والإدارة منها:

۱. التحلى بالاستعداد على الدوام ومهما كانت الظروف أو حسب تعبير الإمام شدّوا المآزر ....

۲. مقاطعة الترف والدعة التى لا تؤدى سوى إلى الضعف والكسل.

۳. مواجهة دواعى النسيان التى تجعل الإنسان ضعيفاً وذليلًا ومسلوب المنهج.

۴. الارتقاء بمستوى الهمة ومكافحة كلّ ما يضعفها ويهبطها.

فإن راعى مدراء المجتمعات الإسلاميّة هذه الوصايا الأربع سيتغلبون قطعاً على جميع المشاكل.

تأمّل: آفات النهم والترف

ما ورد فى الخطبة بهذا الشأن ممّا ذكر مسهب فى الروايات. عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «لا تُميتُوا الْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعامِ وَالشَّرابِ فَإِنَّ الْقُلُوبَ تَمُوتُ كَالزُّرُوعِ إذا كَثُرَ عَلَيْهَا الْماءُ»[۸۱۷].

كما قال صلى الله عليه و آله: «الْقَلْبُ يَمُجُّ الْحِكْمَةَ عِنْدَ امْتِلاءِ الْبَطْنِ»[۸۱۸].

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۴۸

وقال عليه السلام: «مَنْ قَلَّ أَكْلُهُ صَفا فِكْرُهُ»[۸۱۹].

وأخيراً قال فى الحديث الرابع: «إِيّاكُمْ وَفُضُولَ الْمَطْعَمِ فَإِنَّهُ يَسِمُ الْقَلْبَ بِالْقَسْوَةِ وَيُبْطِىءُ بِالْجَوارِحِ لِلطّاعَةِ وَيُصِمُّ الْهِمَمَ عَنْ سَماعِ الْمَوْعِظَةِ»[۸۲۰].

وجاء فى رسالة أمير المؤمنين على عليه السلام إلى عثمان بن حنيف حين قيل له: كيف تقوى على الأعداء وهذا طعامك؟ فقال: «أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً وَالرَّوَاتِعُ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً وَالنَّبَاتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً»[۸۲۱].

وتعبير الإمام بالوليمة لا تقتصر على الطعام والشراب وهى كناية عن مطلق اللذة والمتعة، أنشد المتنبى بهذا الخصوص:

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعالیوَمَنْ طَلَبَ الْعُلی سَهَرَ اللّیالی

تَرُومُ الْعِزَّ ثُمَّ تَنامُ لَیْلًایَغُوصُ الْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّئالی

وسيرة مختلف الأقوام تؤيد ما ورد فى هذه الروايات والخطبة المذكورة، فالأقوام المثابرة والمجتهدة بلغت ذروة الاقتدار فى العالم؛ أمّا تلك الكسلة والمتقاعسة كانت متخلفة وفاشلة.

***

وأخيراً حيث اختتمت الخطب بهذه الخطبة فقد قال الرضى: وَصَلَّی اللَّه عَلی سَیِّدنا مُحَمَّدٍ النَّبِیِّ الْامِّیِّ وَعَلی آلِهِ مَصابیحِ الدُّجی وَالْعُروةِ الْوُثْقی وَسَلَّمَ تَسلیماً كَثیراً.

ونحمد اللَّه الذى وفقنا بعد أربع عشرة سنة من عمل دؤوب باختتام شرح خطب نهج البلاغة التى تعتبر أهم أجزاء نهج البلاغة بما يقارب ثلثيه.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۴۹

خصائص هذا الشرح

۱. شرح وتفسير جميع فصول وفقرات كلّ خطبة خلافاً لما ورد فى أغلب الشروح التى تقتصر على الأقسام المطلوبة.

۲. إرتباط عبارات وأقسام الخطبة وصلتها الوثيقة والمنطقية مع بعضها والتى اغمض عنها فى أغلب الشروح، ففسّروا كلّ قسم بصورة مستقلة دون الالتفات لارتباطها بما قبلها وبعدها.

۳. التركيز على الروح الحاكمة لجميع الخطبة وجميع الأبحاث فى إطارها وغض النظر عن المطالب الهامشية غير المرتبطة بالخطبة وإن كان يثير الوساوس.

۴. إرساء التأسيس للأصل فى تفسير العبارات؛ أى، استفادة مفهوم مستقل لكل عبارة خلافاً لما يشاهد فى بعض الشروح، حيث يعتبرون العبارات المتشابهة تأكيداً وينحّون اختلافاتها.

۵. إضافة مواضيع تكميلية مرتبطة بالخطبة بصورة منفصلة تحت عنوان (تأمّلات) بما فيها المسائل التاريخيّة والأخلاقيّة والاجتماعية والعقائدية و ....

۶. ذكر اسناد الخطبة بالاستفادة من المصادر التى بحثت اسناد نهج البلاغة.

۷. ذكر جوّ وخلاصة كلّ خطبة فى مستهلّ البحث تحت عنوان (نظرة إلى الخطبة).

۸. ذكر معانى المفردات الصعبة فى الحاشية بالاضافة إلى جذورها ومعانيها الأصلية والفرعية.

نفحات الولاية، ج۸ ص: ۴۵۰

۹. تناول الشرح بصورة مبسطة بما يخدم عامة الناس دون الهبوط بمستوى المواضيع.

۱۰. الالتفات إلى المطالب المهمّة التى وردت فى الشرح من خلال قبولها أو نقدها أو إكمالها.

۱۱. والغاية الأساسيّة من هذا الشرح، هى أن يكون قابلًا للاستفادة للجميع للخاص والعام والعالم والعامى، وكل يستفيد منه بحسب طاقته وقدرته العلميّة وفهم وإداركه.

[۱] (۱). سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة كثير من علماء الإسلام الذين عاشوا قبل وبعد السيد الرضى بشكل مرسل أو مسند، ويمكن ذكر أربعة أشخاص من الذين الذين عاشوا قبل السيد الرضى وهم:

أ) نقل أحمد بن محمّد بن خالد البرقى فى كتابه« المحاسن» قسماً من هذه الخطبة.

ب) أوردها النعمانى فى كتابه« الغيبة» بسندين.

ج) ذكرها الطبرى من علماء الإماميّة فى كتاب« المسترشد».

د) أوردها الشيخ المفيد فى كتابه« الإرشاد».

[۲] (۱). سورة الشعراء، الآية ۱۵۷.

[۳] (۲).« شِبَع» على وزن« عِلل» لها معنى مصدرى وتعنى الشبع بصورة تامة.

[۴] (۱).« السخط» ضدّ الرضا بمعنى الغضب.

[۵] (۲). زيارة الأربعين للإمام الحسين عليه السلام.

[۶] (۱). وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۴۱۰، ح ۴.

[۷] (۲).« عقر» من« العُقر» على وزن« قفل» تعنى فى الأصل أساس الشيء وإن استعملت فى الحيوان عنت البقر قطع أسفل الرجل وصرعه، كما تعنى نحر الناقة.

[۸] (۳). سورة الشعراء، الآية ۱۵۷.

[۹] (۱).« خارت» من« الخوار» على وزن« غبار» صوتت كخوار الثور والناقة وماشابه ذلك وخوّاره صيغة مبالغتها.

[۱۰] (۲).« السِّكَّة» الحديدة والمحراث.

[۱۱] (۳).« محماة» اسم مفعول من مادة« احماء» وضع الشيء على النار وتطلق« محماة» على الشيء الذى يحمى بالنار.

[۱۲] (۴).« تيه» الوادى الجاف كما وردت بمعنى الحَيْرَة.

[۱۳] (۱). سند الخطبة:

قال ابن أبى‌الحديد فى« شرح نهج‌البلاغة» أنّ تعبير السيّد الرضى عن فاطمة الزهراء عليها السلام ب« سيّدة نساء العالمين» اقتباس من خبر متواتر روى عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله بهذه العبارة أو عبارة أخرى تفيد نفس المعنى.

وقال صاحب« مصادر نهج البلاغة» بعد نقله لهذا الكلام: إنّ هذا الحديث(حديث سيّدة نساء العالمين) متواتر عند علماء الإماميّة؛ بل يعد جزءا من عقائدهم. ثم روى عدّة روايات عن العامّة بهذا الخصوص.

أمّا من روى هذه الخطبة من العلماء الذين عاشوا قبل السيّد الرضى، فهم كلّ من المرحوم الكلينى فى الجزء الأوّل من كتاب« الكافى»(بعبارات أكثر ممّا أوردها السيّد الرضى) والشيخ المفيد فى كتاب« المجالس» وروتها طائفة أخرى ممن عاش بعد السيّد الرضى مع اختلافات تفيد أنّهم استقوها من مصادر أخرى غير« نهج‌البلاغة»؛ مثل الطبرى فى« دلائل الإمامة» والشيخ الطوسى فى« الأمالى» وسبط ابن الجوزى فى« تذكرة الخواص» الذين ذكروا دفن الزهراء والأشعار التى أنشدها على عليه السلام فى وداعها. ثم نقل الكلام المذكور مع بعض الاضافات.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۹۳- ۹۸).

[۱۴] (۲). الجدير بالذكر أنّ الضمير فى« عند قبره» ورد بصيغة المذكر حيث يعود إلى النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ويقول: إنّه قال هذا الكلام حين دفن فاطمة الزهراء عليها السلام، وهذا يعنى أنّ السيّد الرضى يرى أنّ قبر الزهراء عليها السلام عند قبر النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

[۱۵] (۱). سورة البقرة، الآية ۱۵۶.

[۱۶] (۱). الكافى، ج ۱، ص ۴۶۱، باب مولد الزهراء عليها السلام، ح ۹.

[۱۷] (۲).« صفيّة» من مادة« صفو» على وزن« عفو» بمعنى الصافى والطاهر وصفىّ بمعنى المصطفى. وقد ذكرالإمام عليه السلام بنت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بصفتها صفية ليعكس علو شأنها وجلالة قدرها.

[۱۸] (۳).« تجلّد» من مادة« جلد»، على وزن« بلد» و« جلادة» التى تعنى الصبر والاستقامة و« تجلّد» هنا إشارة إلى التحمل والصبر على المصيبة.

[۱۹] (۴).« تأسّى» تأتى أحياناً بمعنى الاقتداء وأحياناً أخرى بمعنى الاغتمام والمعنى الثانى هنا أنسب، لأنّ الكلام عن الهم والغم والحزن وليس الاقتداء، وإن ذهب بعض الشرّاح إلى المعنى الأوّل ويبدو أنّ سبب خطأهم ما تعارف عليه فى الاستعمالات المتداولة.

[۲۰] (۱).« فادح» من مادة« فدح»، على وزن« فتح» بمعنى المثقل وتعنى هنا المصيبة الجلل.

[۲۱] (۲).« تعزّ» أو« تعزّى» بمعنى الصبر على المصيبة ومادته« عزاء».

[۲۲] (۳). بحارالأنوار، ج ۴۳، ص ۱۷۳، ح ۱۴. كما ورد هذا الحديث فى مصادر العامّة؛ مثل كتاب فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، ج ۲، ص ۶۲۳، ح ۱۰۶۷.

[۲۳] (۴).« وَسّد» من« وسادة»؛ والتى تعنى هنا وضع الوسادة تحت الرأس.

[۲۴] (۵).« ملحودة» من مادة« لحد» على وزن« عهد» بمعنى الشق الذى يجعل فى جهة من القبر ويوضع داخله الميت حتى لايصله التراب حين يمتلىء به القبر.

[۲۵] (۱). سير أعلام النبلاء، ج ۲، ص ۱۴۱؛ مجمع الزوائد، ج ۹، ص ۲۴۱.

[۲۶] (۲).« سرمد» دائم وطويل ويطلق السرمدى أحياناً على الشىء الذى له بداية وليس له نهاية.

[۲۷] (۳).« مُسَهَّد» من مادة« سهد» على وزن« صمد» بمعنى السهر وعدم النوم. جدير ذكره أنّ« مسهّد» وردت صفة للخبر« ليل» وقد قال الإمام عليه السلام أمّا ليلى فمسهد بدلًا من أن يقول أنّا على هذه الحالة، وهذا فى الواقع يشعر بالتأكيد.

[۲۸] (۴). بحار الأنوار، ج ۲۲، ص ۴۸۴، ح ۳۱.

[۲۹] (۱). بحارالأنوار، ج ۴۳، ص ۲۱۳، ح ۴۴.

[۳۰] (۲).« أحفها» من مادة« الإحفاء» بمعنى الإصرار فى السؤال والاستخبار.

[۳۱] (۱).« قال» من مادة« قَلى على وزن« وعى بمعنى المبغض ويطلق« قال» على الشخص المبغض لشىء.

[۳۲] (۲).« سئم» من« السآمة» على وزن« فلاحة» بمعنى الكسل والضجر ويطلق« سئم» على من يتصف بهذه الحالة.

[۳۳] (۳). الكافى، ج ۱، ص ۴۵۹، باب مولد فاطمة الزهراء عليها السلام.

[۳۴] (۱). فتح البارى فى شرح صحيح البخارى، ج ۷، ص ۸۴ وذكر البخارى هذا الحديث فى قسم دلائل النبوّة، ج ۶، ص ۴۹۱، وأواخر المغازى، ج ۸، ص ۱۱۰.

[۳۵] (۲). سورة التوبة، الآية ۶۱.

[۳۶] (۳). مستدرك الحاكم، ج ۳، ص ۱۵۴؛ مجمع الزوائد، ج ۹، ص ۲۰۳ وذكر الحاكم فى كتاب المستدرك أحاديث جامعة الشرائط التى صرّح بصحتها البخارى ومسلم.

[۳۷] (۴). مستدرك الحاكم، ج ۳، ص ۱۵۶.

[۳۸] (۱). سورة النور، الآية ۳۶.

[۳۹] (۲). الدر المنثور، ج ۶، ص ۲۰۳؛ تفسير سورة النور، روح المعانى، ج ۱۸، ص ۱۷۴.

[۴۰] (۳). الدر المنثور، ج ۶، ص ۶۰۶.

[۴۱] (۴). سورة الأحزاب، الآية ۳۳.

[۴۲] (۱). المصنف لأبن أبى شيبة، ج ۸، ص ۵۷۲، كتاب المغازى.

[۴۳] (۱). أنساب الأشراف، ج ۱، ص ۵۸۶، طبع دار المعارف، القاهرة.

[۴۴] (۲). الأعلام للزركلى، ج ۴، ص ۱۳۷.

[۴۵] (۳). الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص ۱۲، مطبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

[۴۶] (۴). المصدر السابق، ص ۱۳.

[۴۷] (۱). معجم المطبوعات العربية، ج ۱، ص ۲۱۲.

[۴۸] (۲). تاريخ الطبرى، ج ۲، ص ۴۴۳، طبعة بيروت.

[۴۹] (۱). العقد الفريد، ج ۴، ص ۹۳، طبع مكتبة الهلال.

[۵۰] (۱). الأموال، الحاشية ۴، نشر الكليات الأزهرية، كذلك ص ۱۴۴، طبعة بيروت، كما روى ذلك ابن عبد ربّه فى العقد الفريد، ج ۴، ص ۹۳ كما سيرد علينا.

[۵۱] (۲). ميزان الاعتدال، ج ۲، ص ۱۹۵.

[۵۲] (۳). المعجم الكبير للطبرانى، ج ۱، ص ۶۲، ح ۳۴، تحقيق حمدى عبدالمجيد السلفى.

[۵۳] (۱). العقد الفريد، ج ۴، ص ۹۳، طبع مكتبة الهلال.

[۵۴] (۲). الوافى بالوفيات، ج ۶، ص ۱۷، رقم ۲۴۴۴؛ الملل والنحل للشهرستانى، ج ۱، ص ۵۷، طبع دارالمعرفة، بيروت وللوقوف على ترجمة النظّام راجع كتاب« بحوث فى الملل والنحل»، ج ۳، ص ۲۴۸– ۲۵۵.

[۵۵] (۳). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۲، ص ۴۶ و ۴۷، طبعة مصر.

[۵۶] (۱). مروج الذهب، ج ۲، ص ۳۰۱، مطبعة دار الأندلس، بيروت.

[۵۷] (۲). ميزان الاعتدال، ج ۱، ص ۱۳۹، العدد ۵۵۲.

[۵۸] (۳). عبدالفتاح عبدالمقصود، على بن أبى طالب، ج ۴، ص ۲۷۶ و ۲۷۷.

[۵۹] (۱). الإمامة والخلافة، ص ۱۶۰ و ۱۶۱، تأليف مقاتل بن عطية مع مقدمة الدكتور حامد داود، استاذ جامعة عين شمس، الذى طبع بالقاهرة(مطبعة بيروت، مؤسّسة البلاغ).

[۶۰] (۱). بحارالأنوار، ج ۹۷، ص ۱۹۸، ح ۱۸.

[۶۱] (۲). من لايحضره الفقيه، ج ۲، ص ۵۷۲.

[۶۲] (۳). عيون أخبارالرضا عليه السلام، ج ۲، ص ۲۷۸، ح ۷۶.

[۶۳] (۱). دلائل الإمامة، ص ۱۳۴، ح ۴۳؛ بحارالأنوار، ج ۴۳، ص ۱۷۰، ح ۱۱. كتب المرحوم العلّامة المجلسى فى الشرح فى الصفحة ۲۱۵ بعد الحديث ۴۷:« فى الْخَبَرِ الصَّحيحِ أنَّها عاشَتْ بَعْدَ أَبيها خَمْسَةَ وَسَبْعينَ يَوْماً».

[۶۴] (۲). بحار الأنوار، ج ۴۳، ص ۱۷۰، ح ۱۱.

[۶۵] (۳). زاد المعاد، ص ۴۵۶.

[۶۶] (۴). كشف الغمّة، ج ۲، ص ۷۷؛ بحارالأنوار، ج ۴۳، ص ۷، ح ۸.

[۶۷] (۱). سند الخطبة:

ذكر بعض العلماء قبل وبعد السيّد الرضى، هذه الخطبة فى كتبهم؛ فقد رواها قبل السيّد الرضى، المرحوم الصدوق، فى« الأمالى» و«

عيون أخبار الرضا عليه السلام»، والمرحوم الشيخ المفيد فى كتاب« الإرشاد»(الأمالى للصدوق، ص ۱۷۲، ح ۱۷۴؛ عيون أخبارالرضا عليه السلام، ج ۲، ص ۲۶۷، ح ۵۶؛ الإرشاد، ج ۱، ص ۲۹۶) ورواها من بعد السيّد الرضى(بدون الاستناد لنهج البلاغة) المرحوم الطبرسى فى« مشكاة الأنوار» وورّام بن أبى فراس فى« مجموعة ورّام»(مشكاةالأنوار، ص ۴۶۷؛ مجموعة ورام، ج ۲، ص ۱۶۵).(مصادر نهجالبلاغة، ج ۳، ص ۹۸).

[۶۸] (۱).« مَجاز» من مادة« جواز» بمعنى العبور وأريد بها هنا الممر والعبور(وإن كان لها معنى مصدرى). ومن هنا يطلق المجاز فى الكلام كون المتكلم يتجاوز المعنى الحقيقي ويظفر بمعنى آخر يناسبه.

[۶۹] (۲). بحار الأنوار، ج ۱۴، ص ۳۱۹، ح ۲۱.

[۷۰] (۳). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۳۱.

[۷۱] (۱). روى هذا الحديث فى عوالى اللئالى، ج ۱، ص ۲۶۷، ح ۶۶ عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

[۷۲] (۲). الكافى، ج ۲، ص ۲۷۹، ح ۹.

[۷۳] (۱). سورة العنكبوت، الآيتان ۲ و ۳.

[۷۴] (۱). ظاهر هذه الجملة بصيغة مبتدأ وخبر، أى أنّ آباءَكم لله ويلزم من ذلك رحمة اللَّه عليهما.

[۷۵] (۲). سورة النحل، الآية ۹۶.

[۷۶] (۳). سورة البقرة، الآية ۲۴۵.

[۷۷] (۴). الكافى، ج ۵، ص ۶۷، ح ۱.

[۷۸] (۵). سورة البقرة، الآية ۱۶۷.

[۷۹] (۶). الكافى، ج ۴، ص ۴۲.

[۸۰] (۱). سند الخطبة:

ذكر هذه الخطبة عدد من الضالعين فى العلوم الإسلاميّة ممن عاش قبل السيد الرضى وبعده، ومنهم المرحوم الصدوق فى كتابه« الأمالى»، المجلس الخامس والسبعين(أمالى الصدوق، ص ۵۸۸، ح ۸۱۰). كما رواها الشيخ المفيد فى« المجالس» مرفوعة للإمام الباقر عليه السلام(أمالى المفيد، ص ۱۹۹، ح ۳۲) وببعض الإضافات فى كتاب« الإرشاد»(الإرشاد، ج ۱، ص ۲۳۴)، ورواها المرحوم الطبرسى فى« المشكاة»(مشكاة الأنوار، ص ۵۲۴) وبالنظر لبعض الاختلافات مع ما نقله الرضى يتضح أنّها اقتبست من طرق أخرى.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۹۹).

[۸۱] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۳۸۲، ح ۷.

[۸۲] (۲). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۳۲.

[۸۳] (۳).« حضرت» بمعنى« الحضور» وهى هنا إشارة إلى الفرص التى تنتظر الإنسان. واستعمال هذه المفردة بشأنالعظام كونه لا يريد خطابهم، بل يلتفت إلى حضورهم.

[۸۴] (۴).« كؤود» من مادة« كأد» بمعنى الشدّة والصعوبة وعقبة« كؤود» صعبة العبور.

[۸۵] (۵).« مهولة» من مادة« هول» بمعنى الخوف و« مهول» اسم مفعول؛ يعنى مخيف.

[۸۶] (۱). بحار الأنوار، ج ۷، ص ۱۲۶، ح ۳.

[۸۷] (۲). المصدر السابق، ص ۱۱۱، ح ۴۲.

[۸۸] (۳). سورة البلد، الآيات ۱۱- ۱۶.

[۸۹] (۴). سورة طه، الآيات ۱۰۵- ۱۰۷.

[۹۰] (۵). للوقوف على كلام المرحوم الشيخ المفيد والعلّامة المجلسى راجع كتاب بحار الأنوار، ج ۷، ص ۱۲۹.

[۹۱] (۱). سورة الحج، الآيتان ۱ و ۲.

[۹۲] (۲).« ملاحظ» جمع« ملحظ» مصدر ميمى، بمعنى النظر أو النظر بطرف العين.

[۹۳] (۳).« متيّة» من مادة« منى» على وزن« سعى» بمعنى التقدير وتطلق هذه المفردة على الموت كونه مقدراً على مصير الإنسان.

[۹۴] (۴).« دانية» بمعنى قريبة من مادة« دنوّ» على وزن« علوّ».

[۹۵] (۵).« مخالب» جمع« مخلب» أظافر الحيوانات أو الطيور.

[۹۶] (۶).« نشبت» من مادة« نشب» على وزن« غصب» بمعنى الانغماس.

[۹۷] (۷).« دهمت» من مادة« دهم» بمعنى باغتت.

[۹۸] (۸).« مفظعات» جمع« مفظعة» بمعنى الحادثة الشديدة أكثر من اللازم.

[۹۹] (۹).« معضلات» جمع« معضلة»؛ يعنى الشيء الذى يجعل الإنسان فى غاية الضيق كما يقال المعضلة للطريق الضيق.

[۱۰۰] (۱۰).« استظهروا» من« الاستظهار» بمعنى الاستعانة بالشخص أو الشيء، ومادته الأصلية« ظهر».

[۱۰۱] (۱). سند الخطبة:

المصدر الوحيد الذى ذكر هذه الخطبة قبل السيّد الرضى كما ورد فى« مصادر نهج البلاغة»، كتاب« نقض العثمانية» لأبى جعفر الاسكافى(م ۲۴۰) ويفهم من كلامه أنّه لم يشاهد بنفسه هذا الكتاب؛ بل استفاده من كلام ابن أبى الحديد فى« شرح نهج البلاغة»، ج ۷، ص ۳۶- ۴۱.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۰۲) كما رواها المرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ۳۲، ص ۲۱ عن« شرح نهج البلاغة» لابن أبى الحديد.

[۱۰۲] (۱).« نقمتما» من مادة« نقم» على وزن« قلم» تعنى فى الأصل الإنكار على الشخص أو الشيء؛ سواء باللسان أوبالعمل عن طريق العقاب ومنه الانتقام ووردت هنا بمعنى الإنكار اللفظى.

[۱۰۳] (۲).« أرجأتما» من« الإرجاء» بمعنى التأخير ومادتها الأصلية« رجاء» بمعنى الأمل وقد استعملت بهذا المعنى كون الإنسان يؤخر العمل فى أغلب المواقع بغية تحقيق الهدف.

[۱۰۴] (۳).« استأثرت» من« الاستئثار» يعنى خص النفس بالشيء الحسن. وفسّرت أحياناً بالاستبداد والاحتكار ومادتهاالأصلية« اثر» بمعنى العلامة.

[۱۰۵] (۱).« إربة» من مادة« أرب» على وزن« عرب» تعنى فى الأصل شدّة الحاجة التى يجهد الإنسان من أجل قضائها.

[۱۰۶] (۱). راجع كتاب« العين» و« لسان العرب» و« مجمع البحرين» ماده« أسوة». قال المرحوم الطبرسى فى« مجمعالبيان» فى ذيل الآية ۲۱ من سورة الأحزاب:« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّه أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»:« أى قدوة صالحة يقال: لى فى فلان أُسوة. أى لى به إقتداء ... اسم وضع موضع المصدر» وطبق هذا البيان« اسوة» بمعنى الإقتداء وله وضع الاسم المصدرى، ويشهد على ذلك تعبير القرآن:« فِي رَسُولِ اللَّه أُسْوَةٌ» ولم يقل:« رسول اللّه اسوة»، وكأن الاقتداء بشخص يوجد نوعاً من المساواة به فقد وردت اسوة بمعنى المساواة وهذا المراد بها فى هذه العبارة.

ومن هنا قال الإمام إنّما اقتديت برسول اللّه صلى الله عليه و آله وعملت بسيرته.

[۱۰۷] (۱).« عتبى» من مادة« عتب» على وزن« خطب» تعنى فى الأصل الانزعاج الباطنى وإذا وردت فى باب الأفعال عنت إزالة هذا الإنزعاج وبما أنّ عتاب الطرف المقابل أحد أسباب إطفاء غضبه، فإنّ العتبى ترد بمعنى العتاب وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة. والإمام عليه السلام يقول لطلحة والزبير ليس لكما حق عتابى والإنكار علي.

[۱۰۸] (۲). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۳۷۶.

[۱۰۹] (۱).« الأراضـى الخراجيـة» الأراضـى التى تقع بيد المسـلمين فى الفتوحات الإسـلاميّة وتوضع تحت تصـرف المزارعين ويؤخذ منهم بالمقابل ضرائب تدعى« الخراج» والذى يبدو كثيراً بالنظر لسعة تلك الأراضى.

[۱۱۰] (۱). سورة الزخرف، الآية ۴۳.

[۱۱۱] (۱). سورة الحجرات، الآية ۱۳.

[۱۱۲] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ۷، ص ۳۸- ۴۳.

[۱۱۳] (۲). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۶۱.

[۱۱۴] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۱، ص ۱۱- ۱۳.

[۱۱۵] (۱). سند الخطبة:

رواه عدد من المحدّثين والمؤرخين قبل السيّد الرضـى وبعده؛ مثل أبوحنيفة الدينورى فى كتاب« الاخبارالطوال»(ص ۱۶۵) ونصر بن مزاحم فى كتاب« صـفّين»(ص ۱۰۳) وسـبط بن الجوزى فى« تـذكرة الخواصّ»(ص ۱۴۲) وغيرهم.(مصادر نهـج البلاغة، ج ۳، ص ۱۰۳).

[۱۱۶] (۱).« احقن» من« الحقن» على وزن« الحمد» تعنى فى الأصل حفظ الشىء وإذا استعملت بشأن الدماء عنت منع إراقة الدماء.

[۱۱۷] (۲).« يرعـوى» من« رعو» على وزن« رعـد» بمعنى الامتنـاع والعودة عن الفعـل. جـدير ذكره أنّ المفردة« رعو» تسـتعمل أحيـاناً بصيغة الرباعى(رعوى على وزن دعوى وتفيد نفس المعنى السابق وقال بعض أرباب اللغة المفردة:« ارعوى» من المفردات النادرة ولم يشاهد مثلها فى صيغ الأفعال المعتلة. للمزيد راجع« لسان العرب» مادة« رعو».

[۱۱۸] (۳).« لهج» من مادة« لهج» على وزن« هرج» بمعنى التعلق والولع بالشىء والحرص عليه.

[۱۱۹] (۱). راجع« المصباح المنير» و« لسان العرب». وروى هذا المعنى المرحوم المحقق الخوئى فى شرحه لنهج‌البلاغة.

[۱۲۰] (۲). للوقوف على المزيد راجع الجزء الثالث من هذا الشرح.

[۱۲۱] (۳). الكافى، ج ۲، ص ۳۶۰، باب السباب، ح ۲ و ۳.

[۱۲۲] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۳۶۰، باب السباب، ح ۲ و ۳.

[۱۲۳] (۲). سورة ص، الآية ۷۸.

[۱۲۴] (۳). سورة آل عمران، الآية ۸۷.

[۱۲۵] (۴). سورة هود، الآية ۱۸.

[۱۲۶] (۵). سورة الرعد، الآية ۲۵.

[۱۲۷] (۶). سورة البقرة، الآية ۱۵۹.

[۱۲۸] (۱). سند الخطبة:

نقل الطبرى فى تاريخه فى حوادث سـنة ۳۷ للهجرة عبارة عن أميرالمؤمنين على عليه السـلام تشـبه عبارة بعض هذا الكلام؛ لكن ليس فى يوم صـفين بل فى موضع آخر ويتضح من ذلك أنّ الإمام عليه السـلام بين هذه العبارات فى عدّة مواضع.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۰۳).

[۱۲۹] (۱).« لا يهدّنى» من مادة« هدّ» على وزن« سدّ» تعنى فى الأصل الإنهدام والإنهيار المقرون بصوت شديد. ثم‌استعمل فى الأمور المعنوية فاطلق على الحزن الذى يعكر روح الإنسان من قبيل ما ورد فى العبارة المذكورة.

[۱۳۰] (۲).« أنفس» من مادة« نفس» على وزن« قفس» بمعنى الشـح وحفظ الشـىء وعـدم فقدان الأشـياء النفيسة التى لا يريد الإنسان فقدانها بسهولة.

[۱۳۱] (۱). لسان العرب، مادة« غلم».

[۱۳۲] (۱). سورة آل عمران، الآیة ۶۱.

[۱۳۳] (۱). سند الخطبة:

کان ممن رواها قبل المرحوم السیّد الرضی، نصر بن مزاحم فی کتاب« صفین»(وقعة صفین، ص ۴۸۴) وابن قتیبة الدینوری فی« الامامة والسیاسة»(ص ۱۰۴) والمسعودی فی« مروج الذهب»(ج ۲، ص ۴۰۰).(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۰۷).

[۱۳۴] (۱).« نهکتکم» من مادة« نهک» علی وزن« سفک» تعنی فی الأصل التآکل والقدم وتستعمل فی الموارد التی یتعب فیها الإنسان ویرهق.

[۱۳۵] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید، ج ۱۱، ص ۳۰ و ۳۱.

[۱۳۶] (۲). انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید، ج ۲، ص ۲۱۴.

[۱۳۷] (۱). سند الخطبة:

وردت عدّة مصادر ذکرت هذا الکلام ومنها الجزء الأوّل من أصول الکافی والجزء الأوّل من العقد الفرید والجزء الرابع من ربیع الأبرار واختصاص الشیخ المفید وتلبیس إبلیس لابن الجوزی وقوت القلوب لأبی طالب المکی(ورد جانب من هذه الخطبة فی بعض هذه الکتب). وقد التفت لهذه الخطبة العدید من العلماء وذکروها فی کتبهم لما تضمنته من جوانب تاریخیّة وأخلاقیّة وتربویّة.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۰۸).

[۱۳۸] (۱). قال بعض شرّاح نهج البلاغة، إنّ الجملة« کنت» زائدة هنا، والحال لیس الأمر کذلک، بل مراد الإمام علیه السلام منهابیان الاستمرار، لأنّ مفهوم العبارة ما الذی استفدته من هذه الدار وکانت لک لحد الآن.

[۱۳۹] (۱).« تقری» من« قراء» علی وزن« عباء» خدمة الضیف.

[۱۴۰] (۲).« تطلع» من« الطلوع» بمعنی الظهور والبروز وتعنی الاظهار من باب الإفعال.

[۱۴۱] (۳). سورة البقرة، الآیة ۱۸۰.

[۱۴۲] (۴). تفسیر القمی، ج ۲، ص ۲۰۳؛ وسائل الشیعة، ج ۹، ص ۴۷۶، ح ۱۲۵۳۳.

[۱۴۳] (۵). الکافی، ج ۶، ص ۵۲۶، ح ۷(باب سعة المنزل).

[۱۴۴] (۱). بحارالأنوار، ج ۷۳، ص ۱۵۳، ح ۳۰.

[۱۴۵] (۱).« استهام» من مادة« هیم» علی وزن« غیم» الحیرة والاضطراب والسیر نحو العبث و« استهام بک الخبیث» أضلّک الشیطان.

[۱۴۶] (۱). سورة الأعراف، الآیة ۳۲.

[۱۴۷] (۲).« جشوبة» الخشونة من مادة« جشب» علی وزن« جسب» ویقال للخبز دون غیره« جشب».

[۱۴۸] (۳).« یتبیّغ» من مادة« بیغ» علی وزن« بیع» یهیج، ویأتی أحیاناً بمعنی الکثرة والمعنی الأوّل هو المراد فی العبارة.

[۱۴۹] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید، ج ۱۱، ص ۳۶ و ۳۷.

[۱۵۰] (۲). سورة البقرة، الآیة ۱۴۳.

[۱۵۱] (۱). سورة القصص، الآیة ۷۷.

[۱۵۲] (۲). وسائل‌الشیعة، ج ۱۷، ص ۷۶، کتاب التجارة، ابواب مقدّماتها، باب ۲۸، ح ۱.

[۱۵۳] (۱). مستدرک الوسائل، ج ۱۲، ص ۳۲۳، ح ۱۴۲۰۵.

[۱۵۴] (۲). سفینة البحار، مادة« صوف».

[۱۵۵] (۱). انظر کتاب:« تجلی الحق» للمؤلّف وکتاب« ما یقول العارف والصوفی» لآیة اللّه المیرزا جواد الطهرانی رحمه الله وکتاب«

التعليم والتربية فى الإسلام» للشهيد العلّامة مرتضى المطهرى رحمه الله وشرح نهج‌البلاغة للعلّامة الخوئى رحمه الله« منهاج البراعة» ج ۱۳(ذيل هذه الخطبة) من ص ۱۳۲.

[۱۵۶] (۱). سورة الأعراف، الآية ۳۲.

[۱۵۷] (۲). سورة الأعراف، الآية ۱۵۷.

[۱۵۸] (۱). سند الخطبة:

ذكر صاحب« مصادر نهج البلاغة» أنّ هذا الكلام ورد بسند تام أو مرسل فى أغلب المصادر قبل« نهج البلاغة» ومنها كتاب« الكافى» و« تحف العقول» و« الخصال» للصدوق و« الغيبة» للنعمانى(الكافى، ج ۱، ص ۶۲، ح ۱؛ تحف‌العقول، ص ۱۹۳؛ الخصال، ص ۲۵۵، ح ۱۳۱؛ الغيبة للنعمانى، ص ۸۱، ح ۱۰) وسائر الكتب وبعد السيّد الرضى ونهج البلاغة كالتذكرة لسبط ابن الجوزى و« الاحتجاج» للطبرسى و« أربعين الشيخ البهائى»(تذكرة الخواص، ص ۱۳۳؛ الاحتجاج، ج ۱، ص ۲۹۳؛ أربعين البهائى، ص ۲۸۹).(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۱۱۵).

[۱۵۹] (۱). الكافى، ج ۱، ص ۶۲.

[۱۶۰] (۱).« فليتبوأ» من« بواء» على وزن« دواء» الرجوع والاطراق ويقال للموضع المستوى والمكان، والمعنى فليتهيأويسكن.

[۱۶۱] (۲).« مقعد» المكان والمحل وموضع الجلوس ويطلق أيضاً على الوسادة الصغيرة.

[۱۶۲] (۱). الاحتجاج، ج ۲، ص ۲۴۶.

[۱۶۳] (۲). مستدرك الحاكم، ج ۱، ص ۱۱۱ و ۱۱۳؛ سنن ابن ماجة، ج ۱، ص ۱۴.

[۱۶۴] (۱).« مُتصنّع» من مادة« صنع» على وزن« رُمح» من يحسن ظاهره ويبدى السيى حسناً.

[۱۶۵] (۲).« يتحرّج» من مادة« حرج» الخشية من الوقوع فى الذنب، باب تفعل.

[۱۶۶] (۳).« لقف» من مادة« لقف» على وزن« وقف» أخذ الشيء بسرعة وتناوله.

[۱۶۷] (۱).« زور» تعنى فى الأصل الميل عن الوسط إلى الطرف ولذلك يطلق على الكذب لأنّه انحراف عن الحق.

[۱۶۸] (۲). ذكره والد المرحوم الشيخ البهائى فى كتاب« أصول الأخيار إلى أُصول الأخبار»، ص ۳۰ بعنوان« المثل‌السائر» والمرحوم الملا صالح المازندرانى فى« شرح أصول الكافى»، ج ۱۲، ص ۵۶۰؛ ولكن قال فى كتاب« كشف الغمّة»، ج ۲، ص ۲۳۰ بعد ذكر هذه الجملة:« كما ورد فى الحديث والمثل».

[۱۶۹] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۱، ص ۴۱.

[۱۷۰] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۵، ص ۱۷۶.

[۱۷۱] (۲). شرح نهج البلاغة للمرحوم التسترى، ج ۷، ص ۲۱۲؛ تاريخ بغداد، ج ۱، ص ۲۷۵. وأضاف الخطيب البغدادى بعد نقله لهذا الحديث: لم أجده إلّابسند واحد وأغلب رجال هذا السند مجهولون.

[۱۷۲] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۱، ص ۴۴- ۴۶.

[۱۷۳] (۲). المصدر السابق، ص ۴۲.

[۱۷۴] (۱). كان ممن انتقد هذه النظرية من علماء العامّة« أحمد حسين يعقوب» فى كتاب نظرية عدالة الصحابة و« الشيخ محمود أبوريّة» فى كتاب شيخ المضيرة، وأبوهريرة.

[۱۷۵] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۱، ص ۴۷.

[۱۷۶] (۲). عيون أخبارالرضا، ج ۲، ص ۱۱۰؛ بحار الأنوار، ج ۴، ص ۱۱.

[۱۷۷] (۱). المراد من النبيذ الحلال أنّ المسلمين لما دخلوا المدينة أصيب البعض لبرودة الماء فأمر النّبى أن يلقى فى الظرف تمر

لتزول برودة الماء ولم يكن بالمقدار الذى يحيله خمراً ومن هنا قال فى ذيل الرواية:« وكل مسكر حرام».

[۱۷۸] (۲). وسائل الشيعة، ج ۱۰، باب ۴۱ من أبواب الذبح، ح ۷.

[۱۷۹] (۳). بحار الأنوار، ج ۲، ص ۲۷۲، ح ۷.

[۱۸۰] (۱). انظر المزيد فى النسخ، نفحات الولايه، ج ۱، ص ۲۳۹ و ۲۵۰ ذيل الخطبة الاولى وتفسيرالأمثل، ج ۱، ذيل الآية ۱۰۶ من سورة البقرة، وأسهب من ذلك فى كتاب أنوار الأصول، ج ۱، ص ۱۷۷.

[۱۸۱] (۱).« لم يهم» من مادة« وهم» مطلق الخيال والظن وتعنى أحياناً الظن الباطل والخطأ وهذا هو المعنى المراد.

[۱۸۲] (۲).« جنّب» من باب تفعيل ومادة« جنب تعنى حسب بعض مصادر اللغة، الحفظ والإبعاد بالمعنى اللازم‌والمتعدى والمعنى الثانى هو المراد.

[۱۸۳] (۱). شرح نهج البلاغة للتسترى، ج ۷، ص ۲۸۰.

[۱۸۴] (۲). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۷.

[۱۸۵] (۳).« طارئ» من« طروء» على وزن« غروب» حادث والخروج المفاجئ ومن هنا يقال للشخص الذى يرد حديثاً والزائر بغتة.

[۱۸۶] (۴). كانت هنالك عوامل أخرى تحول دون السؤال كالاشتغال بالعبادات ظنّاً منهم أنّهم مأمورون بها فقط أوالانهماك فى الدنيا التى تغفل الإنسان عن كلّ شيء.

[۱۸۷] (۱). الكافى، ج ۱، ص ۶۴، ح ۱.

[۱۸۸] (۱). سند الخطبة:

رواها الزمخشرى فى« ربيع الأبرار» ورغم اختلافها مع ما ورد فى« نهج البلاغة» فيتضح أنّه استقاها من مصدر آخر. كما ذكرها ابن الأثير فى كتابه اللغوى« النهاية» فى مادتى(يعجز) و(ازر) ويفيد اختلافها مع« نهج البلاغة» أنّه رواها من مصدر آخر(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۱۷) لابدّ من الالتفات إلى أنّ ابن الأثير أشار لهذه الخطبة فى مادة(ازر) و(يعجز) لكنه لم يُشر إليها- حسب المصادر- فى مادة(ازر).

[۱۸۹] (۱).« زاخر» من« زخور» المملوء و« بحر زاخر» البحر الممتلىء.

[۱۹۰] (۲).« متقاصف» الجماعة التى يدفع بعضها الآخر من مادة« قصف» على وزن« عصف» بالكسر وفى العبارة إشارة إلى الأمواج المتلاطمة التى يضرب بعضها البعض.

[۱۹۱] (۱).« اطباق» جمع« طَبَق» الطبقات على بعضها.

[۱۹۲] (۲).« ارتقاق» الاتصال من مادة« رتق» وضد ها« فتق».

[۱۹۳] (۳).« أرسى» من مادة« رسو» على وزن« مسح» الثابت والراسخ.

[۱۹۴] (۴).« اخضر» إشارة إلى عمق البحار التى تبدو لكثرة العمق بهذا اللون.

[۱۹۵] (۱).« مثعنجر» المليء بالماء من مادة« ثعجرة» على وزن« حنجرة» جريان الماء وما شابه.

[۱۹۶] (۲).« قمقام» البحر العظيم فى الأصل من مادة« قمقمة» على وزن« همهمة» بمعنى الجمع ومن هنا يقال قمقام للبحر العظيم والأحداث المهمّة التى تجمع فيها المشاكل الكثيرة.

[۱۹۷] (۱).« جبل» من مادة« جبل» على وزن« جبر» الخلق ومنه الجبل المعروف.

[۱۹۸] (۲).« جلاميد» جمع« جلمود» على وزن« خرطوم» الصخرة والجبل.

[۱۹۹] (۳).« نشوز» جمع« نشز» على وزن« نشر» التل وما ارتفع من الأرض. ولهذه المفردة معنى مصدرى: الامتناع عن الإتيان بالوظيفة كنشوز الزوجة عن الزوج.

[۲۰۰] (۴).« متون» جمع« متن» المحكم وتأتى بمعنى المستوى والمراد هنا المعنى الأوّل.

[۲۰۱] (۱).« أطواد» جمع« طود» الجبل الشامخ.

[۲۰۲] (۲).« أنهد» من« النهود» بمعنى الظهور والانفصال.

[۲۰۳] (۳).« أساخ» من« السوخ» على وزن« قول» الغوص فى الماء.

[۲۰۴] (۴).« انصاب» جمع« نصب» على وزن« كتب» الأجسام الأعلام وللنصب معنى المفرد أحياناً والجمع أخرى حسب ما ذكر المرحوم الطبرسى فى« مجمع البيان»، ج ۱۰، ص ۱۲۶.

[۲۰۵] (۵).« أشهق» من« الشهوق» الارتفاع و« اشهق» يعنى رفع.

[۲۰۶] (۶).« أنشاز» جمع« نشز» على وزن« مرض» من« النشوز» ذكرت سابقاً فى هذه الخطبة.

[۲۰۷] (۷).« ارّز» من مادة« رزّ» على وزن« حظّ» بمعنى ثبت.

[۲۰۸] (۸).« تميد» من« الميد» على وزن« صيد» الحركة والاضطراب.

[۲۰۹] (۹).« تسيخ» من« سوخ» فسّرت فى الخطبة.

[۲۱۰] (۱). مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۱۷.

[۲۱۱] (۲).« تكركر» من مادة« كركرة» على وزن« حنجرة» يرى البعض أنّها من مادة والبعض الآخر أنّها مادة مستقلة من الرباعى المجرّد وتعنى التكرار.

[۲۱۲] (۳).« تمخض» من مادة« مخض» على وزن« قرض» تعنى فى الأصل حركة اللبن لاستخراج الزبدة ثم اطلقت على كلّ حركة شديدة.

[۲۱۳] (۴).« ذوارف» من مادة« ذرف» على وزن« حرف» سيلان الدمع من العين أو مطلق السيل و« ذوارف» جمع« ذارفة» بمعنى الجارى والصافى.

[۲۱۴] (۱). سورة النازعات، الآية ۲۶. جدير ذكره أنّ هذه الآية القرآنية وردت فى سياق الخلقة وخلق السماء والأرض.

[۲۱۵] (۲). سورة فاطر، الآية ۲۸.

[۲۱۶] (۱). سند الخطبة:

لم يذكر صاحب« مصادر نهج البلاغة» سنداً لهذه الخطبة؛ لكن يستفاد من كتاب« تمام نهج البلاغة»(وأشرنا لذلك فى المتن) أنّ هذا الكلام كان ذيل الخطبة ۱۹۸ ولم يذكر هذا الكتاب سنداً آخر غير« نهج البلاغة».

[۲۱۷] (۱). تمام نهج البلاغة، ص ۴۹۱.

[۲۱۸] (۲).« نكوص» مصدر يعنى الانسحاب والتراجع.

[۲۱۹] (۳).« إبطاء» التأخير من مادة« بطؤ» على وزن« قفل».

[۲۲۰] (۱). صفين لنصر بن مزاحم، ص ۹۴ و ۹۵.

[۲۲۱] (۱). سند الخطبة:

لم يذكر سند هذه الخطبة فى المصادر المعروفة سوى« نهج البلاغة» وقد روى العلّامة المجلسى قسمها الأوّل عن« نهج البلاغة» فى الجزء الرابع من بحارالأنوار.

[۲۲۲] (۱).« متوهمين» من مادة« وهم» الظن والخيال كما تعنى التفكير وهذا هو المعنى المراد والشاهد على ذلك كلمة الفكر قبل ذلك.

[۲۲۳] (۱).« يرهقه» من مادة« رهق» على وزن« شفق» غشى الشيء أو القهر والغلبة كما وردت بمعنى تسلط الشيء.

[۲۲۴] (۱). بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۲۹۳.

[۲۲۵] (۱).« رتق» من« رتْق» على وزن« حتم» الاتصال.

[۲۲۶] (۲).« مفاتق» المواضع المنشقة جمع« مفتق» على وزن« مكتب» من مادة« فتق»(ضد رتق).

[۲۲۷] (۳).« ساور» من« المساورة» الغلبة والسيطرة من مادة« سور» على وزن« غور».

[۲۲۸] (۴).« حزونة» ضدّ سهولة، الخشن والغلظ فى الأرض.

[۲۲۹] (۵).« سرّح» من« التسريح» الترك والطرد ومن هنا يقال للطلاق تسريح ومادته الأصلية« سرح» و« سروح» الاطلاق والتحرير.

[۲۳۰] (۱). سند الخطبة:

روى الآمدى فى« غررالحكم» جانباً من هذه الخطبة مع اختلاف يدل على أنّه اقتبسها من مصدر آخر غير« نهج البلاغة».

[۲۳۱] (۱). هنالك عبارات فى كتاب« تمام نهج البلاغة» الذى أورد عبارات مكمّلة لهذه الخطبة تشير بوضوح إلى أنّ الضمير فى« إنّه» يرجع إلى اللَّه تعالى لا إلى القضاء والقدر(تمام نهج البلاغة، الخطبة ۲۲، ص ۲۹۹).

[۲۳۲] (۲).« نسخ» من« النسخ» على وزن« مسخ» تعنى فى الأصل انتقال الشىء ومن هنا يقال حين ينتقل الظل إثرحركة الشمس:« نسخت الشمس الظلّ» كما يقال لكتابة شىء على كتابة أخرى استنساخ، لأنّها تنقل المطلب. ومنه النسخ فى الأحكام لأنّ حكماً يحل محل آخر والنسخ فى العبارة إشارة إلى انتقال النطفة من الأب إلى الأب الآخر والذى تنتقل عن طريقه الصفات من الآباء إلى الأبناء.

[۲۳۳] (۳).« عاهر» الشخص الفاسق والفاجر.

[۲۳۴] (۴). مصباح المتهجّد، ص ۷۱۷.

[۲۳۵] (۵). بحار الأنوار، ج ۱۵، ص ۱۱۷؛ مجمع البيان، ج ۳- ۴، ص ۴۹۷.

[۲۳۶] (۱). بحار الأنوار، ج ۳۳، ص ۳۷۶؛ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۲، ص ۲۹۷.

[۲۳۷] (۲). الضمير« يقول» يعود إلى« اللَّه» الذى ذكر سابقاً والمعنى أنّ اللَّه يجعل لسانهم ناطقاً ويجرى عليه الخير.

[۲۳۸] (۱). سورة طه، الآية ۴۶.

[۲۳۹] (۲). سورة إبراهيم، الآية ۲۷.

[۲۴۰] (۳). سورة الفاتحة، الآية ۵.

[۲۴۱] (۱).« مستحفظين» من مادة« حفظ» من يحفظ مايودع إليه.

[۲۴۲] (۱).« رويّة» صفة مشبّهة من« رىّ» على وزن« حىّ» زوال العطش.

[۲۴۳] (۲).« بريّة» تركيب من الباء الجارّة و« ريّة» اسم المصدر من« رىّ» على وزن« حىّ» الرى من العطش.

[۲۴۴] (۱).« ينتقى» من« النقاوة» بمعنى الطاهر والخالص، وتعنى الاصطفاء والاختيار حين تأتى فى باب افتعال.

[۲۴۵] (۲).« التمحيص» التطهير والإخلاص وورد بهذا المعنى أيضاً من مادة« محص» على وزن« فحص»، وإن تضمن التمحيص تأكيداً أكثر ولما كان الامتحان سبب التنقية والتطهير فقد وردت هذه المفردة بمعنى الامتحان.

[۲۴۶] (۱).« الكرامة» تعنى فى الأصل الشرف، الشخصية، المثل، الاحترام والنعمة وما معناها فى العبارة فيرى البعض أنّها مفعول به فقال: مفهوم الجملة أنّه ينبغى على كلّ إنسان أن يقبل الكرامة الإلهيّة والنعمة بقبول هذه الصفات البارزة، وعليه فالكرامة بمعنى كرامة اللَّه وإشارة إلى نعمه، الاحتمال الآخر« كرامة» من قبيل المفعول له ومفهوم الجملة كلّ إنسان يقبل هذا الكلام للكرامة والمحبّة.

[۲۴۷] (۲).« قارعة» من مادة« قرع» بمعنى الضرب وقارعة تطلق على الحوادث المهمّة والصعبة؛ كالموت والزلزال. فأحد أسماء القيامة« القارعه» لأنّها تقترن بحوادث صعبة.

[۲۴۸] (۱).« يردى» من مادة« رَدْى» على وزن« رعد» بمعنى الهلكة، أو السقوط المقرون بالهلكة و« يردى»(من باب أفعال) يعنى

يهلك.

[۲۴۹] (۲).« حوبه» تعنى فى الأصل الحاجة التى تسوق الإنسان إلى المعصية، ثم اطلقت على مطلق المعاصى أو الكبائر.

[۲۵۰] (۱). سورة الأنبياء، الآية ۷.

[۲۵۱] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۱۵۹.

[۲۵۲] (۱). سند الخطبة:

ورد فى« مصادر نهج البلاغة» أنّ« السيّد ابن باقى» معاصر« المحقق الحلّى» ذكرها فى كتاب« الاختيار» كما فى« نهج البلاغة» سوى العبارة الأخيرة التى رواها بصيغة أخرى وأضاف لها سائر العبارات التى تشير إلى أنّه استقاها من مصدر آخر غير« نهج البلاغة». وسترد إشارات أخرى بمصادر هذا الدعاء فى ذيل الخطبة ۲۲۵.

[۲۵۳] (۱).« عروق» جمع« عرق» على وزن« حرص» مجارى الدم فى البدن واطلقت على أصل كلّ شىء وجذره.

[۲۵۴] (۲).« دابر» تعنى فى الأصل الظهر أو الشخص التابع ومن هنا يطلق على الأولاد والأجيال التى تعقب الإنسان« دابر».

[۲۵۵] (۱).« ملتبس» من مادة« لبس» على وزن« حبس» بمعنى الخطأ و« ملتبساً عقلى» بمعنى إرتباك الفكر والعقل.

[۲۵۶] (۱). خصال الصدوق، ج ۲، ص ۴۲۰، ح ۱۴.

[۲۵۷] (۲). بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۲۳.

[۲۵۸] (۱).« أضام» من« الضيم» على وزن« غيم» بمعنى الظلم والإذلال.

[۲۵۹] (۲).« أضطهد» من مادة« ضهد» على وزن« مهد» بمعنى قهر و« الاضطهاد» بمعنى التأكيد قى القهر.

[۲۶۰] (۳). سورة فاطر، الآية ۱۵.

[۲۶۱] (۱). سورة الأعراف، الآية ۱۷۸.

[۲۶۲] (۲). سورة آل عمران، الآية ۱۶۰.

[۲۶۳] (۳). بحار الأنوار، ج ۹۵، ص ۴۱۳، دعاء ليلة النصف من شعبان.

[۲۶۴] (۴).« تتابع» من مادة« تتابع»(مصدر باب تفاعل) بمعنى الحمل بسرعة نحو الشىء.

[۲۶۵] (۱). سند الخطبة:

ورد فى« مصادر نهج البلاغة» ذيل هذه الخطبة رواها قبل السيد الرضى المرحوم الكلينى فى« روضة الكافى»: ج ۸، ص ۳۵۲ عن الإمام الباقر عليه السلام. وما ورد فى« الكافى» أكثر ممّا ورد فى« نهج البلاغة» وتختلف بعض عباراته عمّا فى« نهج البلاغة» دون تغيير فى المعنى(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۲۹).

[۲۶۶] (۱).« تواصف» من مادة« وصف» بمعنى أنّ بعض الإشياء وصف لبعضها الآخر. وتعنى فى الخطبة أنّ الناس فى‌الكلام كلّ يؤدى بشأن الحق.

[۲۶۷] (۲).« تناصف» من مادة« نَصَفَ» على وزن« هدف» وعلى وزن« حرص» الانصاف ومعنى« تناصف» أنّ كلّ شخص يراعى الانصاف بحق الآخر.

[۲۶۸] (۳). سورة البقرة، الآية ۲۸۰.

[۲۶۹] (۴). سورة البقرة، الآية ۲۲۸.

[۲۷۰] (۱). أورد المرحوم العلّامة المجلسى رسالة الحقوق للإمام السجاد عليه السلام فى بحار الأنوار، ج ۷۱، ص ۱۰.

[۲۷۱] (۲). ورد فى كتاب الحج من« وسائل‌الشيعة»، باب تحت عنوان« حقوق الدابّة الواجبة والمندوبة» وهو مهم للغاية واشير لهذا المعنى فى الخطبة ۱۶۷.

[۲۷۲] (۱). سورة الأنعام، الآية ۱۲، وورد هذا التعبير فى الآية ۵۴ مع اضافة كلمة« ربّكم».

[۲۷۳] (۲). سورة آل عمران، الآية ۹.

[۲۷۴] (۱).« تتكافأ» يعنى تتساوى من مادة« كفؤ» على وزن« كفر» التساوى فى المقام والمنزلة والقدر، ثم اطلقت على كلّ شبيه ومثيل.

[۲۷۵] (۲).« رعيّة» من مادة« رعى» على وزن« سعى» بمعنى الحفظ والمراقبة والمراعاة. ومنه« الراعى» لأنّه يحفظالماشية ويقال للحاكم« راعى» لأنّه يرعى الناس ويطلق على الناس« رعية» لأنّهم تحت رعاية وحفظ الحكومة.

[۲۷۶] (۱).« اذلال» جمع« ذلّ» على وزن« ظلّ» بمعنى جادة محكمة ومستقيمة وبسبب كثرة المرور عليه أصبحتقوية، وأصل هذه الكلمة مأخوذة من« ذلّت».

[۲۷۷] (۱).« اجحف» من« الإجحاف» هضم حقوق الآخرين ومادته الأصلية« جحف» على وزن« محو» بمعنى إزالة الشيء.

[۲۷۸] (۲).« ادغال» إدخال ما يفسد الشيء. من مادة« دغل» على وزن« دخل» الدخول فى مكان خفية لاغفال الصيد.

[۲۷۹] (۳).« محاج» جمع« محجة» الجادة الواضحة والسوية من« الحج» بمعنى القصد فالإنسان يقصد دائماً الطريق الواضح.

[۲۸۰] (۱). بحار الأنوار، ج ۴۶، ص ۵۶، ح ۱۰.

[۲۸۱] (۲).« اقتحمت» من« الإقتحام» الإخفاء أو الدخول فى عمل دون تروٍّ وتعنى الاحتقار والازدراء ومادته« قحم» على وزن« فهم».

[۲۸۲] (۱). بحار الأنوار، ج ۲، ص ۴۴.

[۲۸۳] (۱). الفتوحات الإسلاميّة، احمد بن زينى دحلان(۲ مجلّد)، الطبع مؤسسة الحلبى القاهرة(۱۳۸۷ ق- ۱۹۶۸ م).

[۲۸۴] (۱). تمرّ علينا حين كتابة هذه السطور حادثتان مهمتان هزتا العالم الإسلامى: الاولى حادثة الإهانة الأليمة للنبى صلى الله عليه و آله بتلك الصور المستهجنة التى عكستها أجهزة الإعلام الغربية والتى انطلقت من الدانمارك لتعم أكثر البلدان الأوربية وموجة استنكار المسلمين التى عمّت العالم وقاطعوا بضائع تلك الدول حتى اضطروا للتراجع ودخلوا مرحلة الاعتذار.

أمّا الحادثة الثانية فكانت الجريمة التى انتهكت حرمة ضريح العسكريين عليهما السلام حيث استيقظ المسلمون يوم الأربعاء عام ۲۰۰۶ ليروا أيادى الاستعمار والاستكبار والعملاء الرعاع قد أحالوا الضريح إلى ركام من التراب من خلال خطة مدبرة مسبقاً، فأجج مشاعر العالم الإسلامى برمته دون الاقتصار على الشيعة، مستنكرة تلك الجريمة التى سعت لبث الفرقة بين المسلمين وإثارة الحرب الأهلية، جدير ذكره أنّ كلّ هذه الأمور كانت تهدف إلى مواجهة الحكومات الشعبية التى تسلمت الأمور فى العراق وفلسطين.« اللّهمَّ فَرِّقْ جَمْعَهُمْ وَشَتِّتْ شَمْلَهُمْ وَخُذْهُمْ أخْذَ عَزيز مُقْتَدِر».

[۲۸۵] (۱). الكافى، ج ۸، ص ۳۵۵.

[۲۸۶] (۲). المصدر السابق.

[۲۸۷] (۱).« اسخف» من« السخف» على وزن« قفل» و« سخافة» ضعف العقل والجهل.

[۲۸۸] (۲).« إطراء» من« الطراوة» الجديد، وتعنى المدح والثناء من باب الإفعال.

[۲۸۹] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۱۵۲.

[۲۹۰] (۲). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۳۴۷.

[۲۹۱] (۳). المصدر السابق، الكلمة ۴۶۲.

[۲۹۲] (۱). غرر الحكم، الحكمة ۲۶۹۶.

[۲۹۳] (۲). من لايحضره الفقيه، ج ۴، ص ۱۱.

[۲۹۴] (۱). عيون الحكم والمواعظ، ص ۱۱۷.

[۲۹۵] (۲). المصدر السابق، ص ۱۷۷.

[۲۹۶] (۳). المصدر السابق، ص ۴۰۹.

[۲۹۷] (۱).« بادرة» من« البـدور» على وزن« غروب» تعنى فى الأصل المسارعـة إلى القيام بعمل و« بادرة» الحركات السـريعة والخاطئة التى تصدر من الغاضب.

[۲۹۸] (۱). سورة يوسف، الآية ۳.

[۲۹۹] (۲). العقدالفريد، ج ۱، ص ۵۳،(طبق نقل شرح نهج البلاغة للمرحوم التسترى، ج ۶، ص ۴۴۷ و ۴۴۸).

[۳۰۰] (۳). المصدر السابق.

[۳۰۱] (۱). سورة يوسف، الآية ۲۴.

[۳۰۲] (۲). بحار الأنوار، ج ۶۰، ص ۳۲۹.

[۳۰۳] (۱). الكـافى، ج ۸، ص ۳۵۸، ح ۵۴۵. تتمـة هـذا البحث فى« الكافى» لطيفـة للغايـة فيمكن الرجوع إلى ماذكر. فقد اغضضـنا المواصلة حتى لانخرج عن اسلوبنا فى الشرح.

[۳۰۴] (۱). سند الخطبة:

ورد جانب من هـذه الخطبة فى الخطبة ۱۷۲ وجانب آخر فى الخطبة ۲۶ وكما مضى فى سند الخطبة ۱۷۲ يبدو أنّ هذه الخطبة جانب من رسالـة كتبهـا الإمام أواخر خلافته وبين فيها باختصار الحوادث التى وقعت عقب وفاة النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله حتى ذلك الزمان وأمر أن تقرأ على الناس.

وأضاف صاحب كتاب« مصادر نهـج البلاغة» أنّ المرحوم الكلينى فى كتاب« كشف المحجّة»(ص ۱۸۰) طبق نقل السيّد ابن طاووس فى كتاب الرسائل. ويحتمل أيضاً أنّ الإمام بين بعض هـذه الخطبـة فى مختلف المناسبات لأكثر من مرة.(مصادر نهـج البلاغـة، ج ۳، ص ۱۳۲).

[۳۰۵] (۱).« اكفؤوا» من« الإكفاء» بمعنى قلب الإناء بحيث يسكب كلّ ما فيه، ومادته الأصلية« كفـء» على وزن« دفع» بمعنى التولى.

[۳۰۶] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۹، ص ۳۰۷.

[۳۰۷] (۱).« رافد» من مادة« رفد» على وزن« ربط» بمعنى المعونة والعطاء والمساعدة.

[۳۰۸] (۲).« ضننت» من مادة« ضنّ» على وزن« فنّ» تعنى فى الأصل البخل الشديد؛ لكنها هنا التحفظ الشديد عن الشىء المطلوب.

[۳۰۹] (۳).« قـذى» هـذه المفردة تقابل تماماً الصـفاء والإخلاص ويطلق القذى على الأشـياء الملوثة التى تقع فى الماءوالشوك الذى يدخل فى العين ويؤذيها.

[۳۱۰] (۴).« شجى» من مادة« شجو» على وزن« هجو» بمعنى الحزن والشدة كما يطلق على ما يعترض حنجرة الإنسان.

[۳۱۱] (۵).« علقم» نبتة مرّة للغاية ويطلق عليها أيضاً« حنظل» وتطلق هذ المفردة على كلّ شىء مر.

[۳۱۲] (۶).« وخز» بمعنى اللسع والثقب والأذى.

[۳۱۳] (۷).« شفار» جمع« شفرة» على وزن« دفعة» السكين.

[۳۱۴] (۱). سند الخطبة:

قال صاحب« مصادر نهج البلاغة»، مصادر هذا الكلام هى مصادر الكلام السابق، لأنّ كلًا منه فصل من رسالة كتبها الإمام عليه السـلام وأمر بأن تقرأ على الناس(ليقفوا على ماحدث منذ وفاة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله حتى عصر خلافته). ثم قال:« لذلك ذكر هذا الكلام متصلًا بالكلام السابق فى بعض نسخ نهج البلاغة».(مصادر نهجالبلاغة، ج ۳، ص ۱۳۳).

[۳۱۵] (۱).« عَضّوا» من مـادة« عضّ» على وزن« سـدّ» تعنى فى الأصل العض بالأسـنان ثم اسـتعملت لمن يتابع عمله بجـد والعبارتان« عُضّوا على أسيافهم» من هذا القبيل.

[۳۱۶] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید، ج ۹، ص ۳۱۵.

[۳۱۷] (۲). المصدر السابق.

[۳۱۸] (۱). سند الخطبة:

رواها أبوالفرج الاصفهانی فی« الأغانی» والمبرّد فی« الکامل» وابن عبد ربّه فی« العقد الفرید» وابن الأثیر فی« النهایة».(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۳۵).

[۳۱۹] (۱).« وَتْر» علی وزن« سطر» و« وِتْر» علی وزن« فطر» بمعنی الجنایة أو الأذی ویطلق علی القصاص ووردت بهذا المعنی فی العبارة المذکورة.

[۳۲۰] (۲).« أفلتتنی» من« الإفلات» وردت بمعنی الخلاص والهروب وهی هنا الهروب.

[۳۲۱] (۱).« أتلعوا» من« الإتلاع» بمعنی مد العنق من مادة« تلع» علی وزن« طرب» بمعنی رفع العنق.

[۳۲۲] (۲).« وقصوا» من« الوقص» علی وزن« نقص» بمعنی الکسر.

[۳۲۳] (۱). روی المرحوم الکلینی فی کتاب« الکافی» حدیثاً مشهوراً فی شعب الذنوب ودوافعها عن الإمام زین العابدین علیه السلام جاء فی آخره:« فَقالَ الْأَنْبِیاءُ وَالْعُلَماءُ بَعْدَ مَعْرِفَةِ ذلِکَ: حُبُّ الدُّنْیا رَأسُ کُلِّ خَطیئَة».(الکافی، ج ۲، ص ۱۳۱، ح ۱۱، باب ذنب حبّ الدنیا).

[۳۲۴] (۲). شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید، ج ۱، ص ۲۴۷.

[۳۲۵] (۱). سند الخطبة:

نقل صاحب« مصادر نهج البلاغة» هذا الکلام عن« غرر الحکم» للآمدی باختلاف کبیر یدل علی أنّه رآها فی مصدر آخر غیر« نهج البلاغة».(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۳۶).

[۳۲۶] (۱).« الجلیل» بمعنی الکبیر أو القیم من« الجلال» بمعنی العظمة وهوهنا إشارة إلی الجسم الإنسانی القیم.

[۳۲۷] (۲).« غلیظ» تعنی فی الأصل الخشن وتعنی هنا الغلظة الأخلاقیّة التی تزول فی ظل الریاضة النفسیّة وتتحول إلی لطافة خلقیة.

[۳۲۸] (۱). سورة الحدید، الآیة ۲۸.

[۳۲۹] (۲).« تدافعت» من« التدافع» بمعنی الدفع والطرد وتعنی أحیاناً التماس البدنی والمعنی الأوّل هو المراد هنا من مادة« دفع» علی وزن« فخر» بمعنی الدفع.

[۳۳۰] (۳). سورة الأنعام، الآیة ۱۲۷.

[۳۳۱] (۱). سورة فاطر، الآیتان ۳۴ و ۳۵.

[۳۳۲] (۲). سورة الفجر، الآیات ۲۷- ۳۰.

[۳۳۳] (۳). سورة الانشقاق، الآیة ۶.

[۳۳۴] (۴). سورة التحریم، الآیة ۸.

[۳۳۵] (۱). سورة البقرة، الآیة ۱۵۶.

[۳۳۶] (۲). الکافی، ج ۲، ص ۵۳، ح ۲.

[۳۳۷] (۱). سورة آل عمران، الآیة ۱۶۹.

[۳۳۸] (۲). راجع خلاصة هذه الرسالة وسائر المناهج التی اعتمدها بعض کبار عارفی عصرنا فی کتاب الأخلاق فی القرآن، ج ۱، ص ۱۳۳.

[۳۳۹] (۳). سورة الکهف، الآیتان ۱۰۳ و ۱۰۴.

[۳۴۰] (۱). سند الخطبة:

أورد هـذا الكلام على بن محمـد شاكر الليثى فى كتاب« عيون الحكم والمواعظ» الذى ألفه سـنة ۴۵۳ للهجرة وكان متأخراً عن السيّد الرضـى؛ ولكن الاختلافات والتعبيرات فى عدّة عبارات من الخطبة تشـير إلى أنّها اقتبست من مصدر آخر غير« نهج البلاغة». كما فسّر ابن الأثير مفرداتها الصـعبة فى كتابه« النهاية»(واحتمالًا كان لديه مصدر آخر غير« نهج البلاغة»).(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۴۵ بتلخيص طفيف).

[۳۴۱] (۲). سورة التكاثر، الآيتان ۱ و ۲.

[۳۴۲] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۱، ص ۱۵۲ فصاعداً(بتلخيص).

[۳۴۳] (۱).« المرام» بمعنى الهدف والمطلوب ومن مادة« روم» على وزن« قوم» بمعنى الطلب والقصد.

[۳۴۴] (۲).« الزور» بمعنى الزائر ويطلق على المفرد والجمع.

[۳۴۵] (۳).« الخطر» تعنى أحياناً الأمر الخطير وأخرى الأمر المهم والمعنى الثانى هو المراد؛ أىأنّ هؤلاء كانوا يرون كثرة قبور موتاهم مهمة والحال هذا فخر بغيض وموهوم.

[۳۴۶] (۴).« أفظع» من مادة« فضاعة» بمعنى القبيح والبغيض.

[۳۴۷] (۵).« استخلوا» من مادة« خلوّ» على وزن« غلوّ» بمعنى الخلو والمضى.

[۳۴۸] (۶).« تنـاوشوا» من مادة« تناوش» ومن« نوش» على وزن« خوف» بمعنى تناول الشـىء بسـهولة أو بقوة والتناوش من مكان بعيد الأخذ عن بعد.

[۳۴۹] (۷).« خـوت» من مـادة« خـوى» على وزن« هوا» تعنى فى الاصـل خلت وتعنى أحيانـاً تهـدمت وهـذا هو المراد بهـا فى العبـارة المذكورة.

[۳۵۰] (۱).« جناب» من مادة« جَنْب» الضلع واستعملت بمعنى الجانب والناحية والطرف وجناب ذلّة فى العبارة بهذا المعنى.

[۳۵۱] (۲).« أحجى» من« حِجا» على وزن« رضا» العقل، وأحجى أعقل.

[۳۵۲] (۳). سورة الدخان، الآيات ۲۵- ۲۸.

[۳۵۳] (۴). بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۳۲۷.

[۳۵۴] (۵).« ربوع» جمع« ربع» على وزن« رفع» البيت والمسكن.

[۳۵۵] (۶).« ضلال» جمع« ضال».

[۳۵۶] (۱).« هام» جمع« هامة» أعلى الرأس.

[۳۵۷] (۲).« تستنبتون» من مادة« نبت» على وزن« ضبط» الإنبات وتعنى الزراعة.

[۳۵۸] (۳).« ترتعون» من مـادة« رتع»، على وزن« قطع» تعنى فى الاصـل الرعى وكـثرة اكـل الحيوانـات؛ ولكن تسـتعمل أحيانـاً بشـأن الإنسان بمعنى اللعب والمرح وكثرة الاكل والمعنى الثانى هو المراد فى العبارة.

[۳۵۹] (۴).« لَفَظُوا» من مـادة« لفـظ» لفظوا وطرحوا وغالبـاً مـا تعنى الطرح من الفم وبمـا أنّ الكلام يطرح من الفم فلـذلك يطلق عليه اللفظ والمعنى الأوّل هو المراد فى العبارة.

[۳۶۰] (۵).« بواك» جمع« باكية» تعنى فى الأصل بكاء النساء والعزاء.

[۳۶۱] (۶).« نوائح» جمع« نائحة» المرأة التى تنوح والاختلاف بينهما أنّ النواح بكاء وصوت وألفاظ وذكر مطالب بينما البكاء مفهوم عام.

[۳۶۲] (۱). سورة التوبة، الآية ۱۸.

[۳۶۳] (۱).« الغاية» النهاية وتعنی هنا الموت.

[۳۶۴] (۲).« فرّاط» من مادة« فرط» علی وزن« شرط» السرعة والعجلة و« فراط» جمع« فارط» تطلق غالباً علی متقدم القوم إلی الماء ثم اطلق علی کلّ من يتقدم فی أمر.

[۳۶۵] (۳).« مناهل» جمع« منهل» من مادة« نهل» علی وزن« أهل» موضع الشربة الأولی و« منهل» يقال لموضع ما لشرب الشاربة من النهر.

[۳۶۶] (۴).« مقاوم» جمع« مَقام» وقيل جمع« مَقامة» وکلاهما بمعنی مجلس.

[۳۶۷] (۵).« حلبات» جمع« حلبة» علی وزن« دفعة» الدفعة من الخيل فی الرهان.

[۳۶۸] (۶).« سوق» جمع« سوقة» علی وزن« کوفة» الرعية والناس من« سوق» علی وزن« فوق»؛ لأنّ الرعاة يسوقونهم إلی الأهداف المطلوبة.

[۳۶۹] (۱). سورة المؤمنون، الآية ۱۰۰.

[۳۷۰] (۲). بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۱۷.

[۳۷۱] (۳). المصدر السابق، ص ۲۱۴؛ صحيح الترمذی، ج ۴، کتاب صفة القيامة، باب ۲۶، ح ۲۴۶۰.

[۳۷۲] (۴).« فجوات» جمع« فجوة» الموضع الواسع ويعنی الفرجة وورد هنا بمعنی شق القبر.

[۳۷۳] (۵).« ضمار» الغائب أو المال الذی لا يؤمل رجوعه ومن مادة« ضمر» علی وزن« أمر» بمعنی الإخفاء.

[۳۷۴] (۶).« يحفلون» من مادة« حفول» تجمع الأفراد وورد بمعنی اللامبالاة بالشیء و« لا يحفلون» هنا تعنی لا يبالون.

[۳۷۵] (۷).« رواجف» جمع« راجفة» الزلازل ومن مادة« رجف» علی وزن« ربط» بمعنی الاضطراب والزلزال الشديد.

[۳۷۶] (۸).« قواصف» جمع« قاصف» بمعنی الرياح والعاصفة العاتية ومن مادة« قصف» علی وزن« وصف» الکسر.

[۳۷۷] (۹).« آلاف» جمع« أليف» بمعنی من يتعلق بالشیء ومن مادة« إلفة».

[۳۷۸] (۱).« ارتجال» بيان مطلب بدون مطالعة مسبقة ومن مادة« رجل» علی وزن« أجر» المشی علی القدمين واطلقت‌بهذا المعنی علی المبدع الذی يرتجل الکلام وکأنّه يمشی علی رجليه.

[۳۷۹] (۲).« صرعی» جمع« صريع» الشخص أو الجنازة الملقاة علی الأرض ومن جمع« صرع» علی وزن« فرع» الالقاء علی الأرض.

[۳۸۰] (۳).« سبات» من مادة« سبت» القطع والقص ثم وردت بمعنی الاستراحة بعد العمل ومن هنا يقال للنوم سبات.

[۳۸۱] (۴).« عری» جمع« عروة» القبضة.

[۳۸۲] (۵).« أفظع» من مادة« فظع» علی وزن« جزع» بمعنی أخوف وأرهب.

[۳۸۳] (۶).« مباءة» بمعنی المنزل تعنی فی الأصل الموضع الذی تعود إليه الجمال ومن مادة« بواء» علی وزن« دواء» الرجوع والاطراق.

[۳۸۴] (۱).« عيّوا» من مادة« عیّ» علی وزن« حیّ» العجز.

[۳۸۵] (۱).« کلحت» من« الکلوح» علی وزن« طلوع» الوجه العابس والمقطب.

[۳۸۶] (۲).« نواضر» من« نضرة» علی وزن« دفعة» الحسنة الباسمة المتفتحة.

[۳۸۷] (۳).« خوت» من« خواء» بمعنی تهدمت وتلاشت.

[۳۸۸] (۴).« اهدام» جمع« هدم» علی وزن« حرص» الثوب البالی والمرقع.

[۳۸۹] (۵).« تکاؤدنا» من« التکاؤد» المشقة ومادته« کأد» علی وزن« رعد».

[۳۹۰] (۶).« تهکمت» من« التهکّم» السقوط فی بئر وما شابه ذلک أو التهدم.

[۳۹۱] (۷).« الصموت» السکوت وفی العبارة مصدر له معنی وصفی.

[۳۹۲] (۱). سنن الترمذی، ج ۳، ص ۳۷۹؛ میزان الحکمهٔ، مادهٔ« قبر»، ح ۱۶۲۵۱.

[۳۹۳] (۲).« ارتسخت» من« الارتساخ» المبالغهٔ فی الرسخ ومن« الرسوخ» النفوذ.

[۳۹۴] (۳).« هوام» جمع« هامهٔ» الحشرات السامّهٔ؛ کالحیهٔ وتطلق علی کلّ نوع حشرهٔ.

[۳۹۵] (۴).« استکت» من مادهٔ« سک» علی وزن« حک» بمعنی صمت.

[۳۹۶] (۵).« الذلاقهٔ» الحدهٔ؛ ثم استعملت بمعنی اللسان وسرعهٔ النطق ویقال: خطیب ذلق للمتکلم الفصیح والبلیغ.

[۳۹۷] (۶).« همدت» من« الهمود» علی وزن« سجود» تعنی فی الأصل انطفاء النار. ثم استعملت بمعنی السکوت والسکون والتوقف عن العمل.

[۳۹۸] (۷).« عاث» من مادهٔ« عیث» علی وزن« حیف» أفسد کما ورد بمعنی التبذیر والمعنی الأوّل هو المراد فی العبارهٔ.

[۳۹۹] (۸).« جدید بلی» هنالک نوع من صناعهٔ البدیع فی العبارهٔ من خلال کلمهٔ جدید والتی تقابل البالی بصیغهٔ مضاف‌ومضاف إلیه ومعناه الفساد الجدید.

[۴۰۰] (۹).« سمّج» من« السماجهٔ» القبیح والمنفر و« سمج» علی وزن« خشن» تطلق علی من ینشد شیئاً بطریقهٔ قبیحهٔ.

[۴۰۱] (۱۰).« أشجان» جمع« شجن» علی وزن« کفن» الهموم.

[۴۰۲] (۱۱).« اقذاء» جمع« قذی» علی وزن« سجی ما یسقط فی العیون ویؤذیها من أجسام صغیرهٔ والتی تظهر کلّ ساعهٔ علی جسد المیت.

[۴۰۳] (۱۲).« غمرهٔ» تعنی فی الأصل الماء الجارف الذی یغطی الأشیاء ثم اطلق علی کلّ أمر شدید.

[۴۰۴] (۱).« العزیز» تعنی فی الأصل القوی والقادر ویلزمه نفی الذل عن الإنسان؛ ولکن لم یتضح لم فسّرها بعض‌الشراح بالجمال.

[۴۰۵] (۲).« أنیق» جمیل والماء الحسن والطیب الطعم.

[۴۰۶] (۳).« غذیّ» من« الغذاء» بمعنی الطعام و« غذیّ ترف» والمراد أنّه تغذی بالنعمهٔ علی أساس« ترف» التی تعنی‌النعمهٔ.

[۴۰۷] (۴).« ربیب» من مادهٔ« رَبّ» التربیهٔ والتدبیر، وعلیه« ربیب شرف» من تربی فی أحضان العزهٔ والاحترام.

[۴۰۸] (۵).« یتعلّل» من« تعلّل» یتناسی ویتشاغل.

[۴۰۹] (۶).« سلوهٔ» المعیشهٔ الطیبهٔ.

[۴۱۰] (۷).« ضنّ» البخل الشدید.

[۴۱۱] (۸).« غضارهٔ عیش» الحیاهٔ المفعمهٔ بالنعمهٔ.

[۴۱۲] (۹).« الشحاحهٔ» البخل وقیل: أعلی درجهٔ البخل. فالبخیل من یبخل عما فی یده، أمّا الشحیح فیبخل بمافی یده وما فی أیدی الناس.

[۴۱۳] (۱۰).« غفول» من مادهٔ« غفلت» الذی یغفل أو یوجب الغفلهٔ.

[۴۱۴] (۱).« حسکهٔ» من مادهٔ« حسک» علی وزن« فدک» نبات ذو أشواک یؤذی الإنسان بشدّهٔ وورد بمعنی البغض والکره‌والمعنی الأوّل هو المراد هنا.

[۴۱۵] (۲).« حتوف» جمع« حتف» الموت.

[۴۱۶] (۳).« کثب» من مادهٔ« کثب» علی وزن« کسب» بمعنی الاقتراب.

[۴۱۷] (۴).« بثّ» الحزن الشدید. ووردت بمعنی السعهٔ والتناثر والانتشار والمراد هنا المعنی الأوّل.

[۴۱۸] (۵).« النجیّ» الخفی والمستور ومن« نجوی الهمس فی الاذن.

[۴۱۹] (۶).« قارّ» بارد من مادهٔ« قرّ» علی وزن« حرّ» البرودهٔ.

[۴۲۰] (۷).« ثوّر» من مادة« ثوران» الهيجان.

[۴۲۱] (۸).« ممازج» الأشياء التى تمزج مع بعضها.

[۴۲۲] (۱).« معلّل» المعالج واخذت فى الأصل من« علة» بمعنى المرض.

[۴۲۳] (۲).« ممرّض» من مادة« مرض» المعالج.

[۴۲۴] (۳).« تعايا» من مادة« عىً» العجز.

[۴۲۵] (۴).« شجىّ» الغم من مادة« شجو» على وزن« هجو» الهم والغم.

[۴۲۶] (۱).« اسَى» الغم والحزن ووردت فى بعض النسخ« اسى»(بضم الهمزة) جمع« أسو» بمعنى الأسوة والمعنيان مناسبان فى الخطبة.

[۴۲۷] (۲).« فتصام» من مادة« صمّ» طرش الاذن و« تصام» تظاهر بالصمم.

[۴۲۸] (۳). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۱، ص ۱۶۷.

[۴۲۹] (۴).« غمرات» جمع« غمرة» مضى معناها فى الفقرة السابقة.

[۴۳۰] (۱). الكافى، ج ۳، ص ۲۶۰، ح ۳۸(بتلخيص).

[۴۳۱] (۱). بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۳۷، ح ۴۰.

[۴۳۲] (۲). نهج البلاغة، الخطبة ۵.

[۴۳۳] (۳). بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۷۲، ح ۵۰.

[۴۳۴] (۱).« آصال» جمع« اصُل» على وزن« رسل» وجمع أصيل من مادة أصل بمعنى العصر أو آخر النهار لأنّه يعتبر أصل الليل.

[۴۳۵] (۲). سورة النور، الآيتان ۳۶ و ۳۷.

[۴۳۶] (۳). سند الخطبة:

ذكر الآمدى فى حرف الألف من« غررالحكم» المقطع الأوّل من هذه الخطبة باختلاف مع ما ورد فى« نهج البلاغة»، ولم يرد مصدر آخر لهذا الجانب من الخطبة، ويدل الاختلاف على أنه أخذها من مصدر آخر غير« نهج البلاغة».(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۵۱).

[۴۳۷] (۱). سورة النور، الآيتان ۳۶ و ۳۷.

[۴۳۸] (۱).« ذكر» المراد به هنا ذكر اللَّه وهو على ثلاثة أنواع: القلبى، اللسانى والعملى فيتذكر اللَّه حين تتوفر مقدمات‌المعصية فيتركها. وقيل: الذكر يشمل ذكر اللَّه وكذلك القيامة والنبوّة والولاية.

[۴۳۹] (۲).« جلاء» إزالة الصدأ والايضاح والإنارة. ويقال للكحل جلاء كونه ينوّر العين.

[۴۴۰] (۳).« وقرة» من مادة« وقر» تعنى فى الأصل الثقل، ومن هنا يقال لتعظيم الأفراد توقير، وقد استعمل الوقر فى القرآن الكريم بمعنى ثقل السمع وهذا هو المعنى المراد هنا.

[۴۴۱] (۴).« عشوة» ضعف العين.

[۴۴۲] (۵). سورة الأنبياء، الآية ۵۰.

[۴۴۳] (۶).« ما برح» دائماً وأبداً.

[۴۴۴] (۷).« برهة» الزمان الطويل أو مدّة من الزمان.

[۴۴۵] (۱).« فلوات» جمع« فلاة» الصحراء القاحلة أو الواسعة.

[۴۴۶] (۱). بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۳۲۷.

[۴۴۷] (۲). المصدر السابق، ج ۶۷، ص ۲۰.

[۴۴۸] (۱). سورة الأنفال، الآية ۲۹.

[۴۴۹] (۲). سورة العنكبوت، الآية ۶۹.

[۴۵۰] (۳). سورة القصص، الآية ۷.

[۴۵۱] (۴). ورد في الحديث: لما دخل الكميت شاعر أهل البيت المعروف على الإمام الباقر عليه السلام وأنشد شعره المعروف:« مَنْ لِقَلْبٍ مُتَيَّمٍ مُسْتَهام» فلما فرغ قال له الإمام:« لاتَزالُ مُؤَيَّداً بِرُوحِ الْقُدُسِ ما دُمْتَ تَقول فينا»(وسائل الشيعة، ج ۱۰، باب ۱۰۵، أبواب المزار، ح ۴). اقتبس الإمام هذا الكلام عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الذى قاله لحسان بن ثابت لما أنشده« يُناديهِمْ يَوْمَ الْغَديرِ نَبِيُّهُمْ».(بحار الأنوار، ج ۳۷، ص ۱۵۰).

[۴۵۲] (۱). الكافي، ج ۲، ص ۱۳۱، ح ۱۱؛ الخصال، ص ۲۵، ح ۸۷.

[۴۵۳] (۱).« يهتفون» من مادة« هتف» على وزن« هتك» الصراخ بشخص.

[۴۵۴] (۱).« عدات» جمع« عدة» بمعنى الوعود وقوله عليه السلام:(وحققت القيامة عليهم عداتها) في الواقع نوع من المجاز، لأنّ الوعود الإلهيّة وعود الثواب والعقاب عالم تحققه هو عالم القيامة، وعليه فلا ينبغي تصور الحاجة إلى الحذف والتقدير.

[۴۵۵] (۱).« مثلتهم» من« التمثيل» على وزن« خليل» بمعنى التجسيد.

[۴۵۶] (۱).« مقاوم» جمع« مقام» المكانة المعنوية أو البدنية.

[۴۵۷] (۲).« دواوين» جمع« ديوان» الدفتر وتعني هنا صحيفة العمل.

[۴۵۸] (۳).« أوزار» جمع« وزر» على وزن« حرز» الحمل الثقيل وتعني هنا حمل المسؤوليات الثقال.

[۴۵۹] (۴).« النشيج» الاختناق بالبكاء وترجيع الصوت في الحنجرة إثر البكاء.

[۴۶۰] (۵).« تجاوبوا» من« التجاوب» أجاب بعضهم بعضاً وتشير هنا إلى جماعة يجلسون في مكان ويبكون معاً.

[۴۶۱] (۶).« النحيب» شدّة البكاء.

[۴۶۲] (۷).« يعجّون» من مادة« عج» على وزن« حج» الصياح.

[۴۶۳] (۸).« دُجى» جمع« دُجْية» على وزن« لقمة» الظلمة وتستعمل هذه المفردة أحياناً بمعنى المفرد.

[۴۶۴] (۱). سورة فصلت، الآية ۳۰.

[۴۶۵] (۲). سورة الفتح، الآية ۴.

[۴۶۶] (۳). سورة القمر، الآيتان ۵۴ و ۵۵.

[۴۶۷] (۴).« يتنسمون» من« النسيم» فالعبارة« يتنسمون» تعني أنّهم ينتظرون النسيم و« التنسُم» بمعنى التنفس.

[۴۶۸] (۵).« الأسى» الحزن.

[۴۶۹] (۶).« المنادح» جمع« مندوحة» الأرض الواسعة ثم اطلقت على كلّ نظام واسع فيه حرية.

[۴۷۰] (۱). وسائل‌الشيعة، ج ۱۶، ص ۹۹، ح ۲۱۰۸۲.

[۴۷۱] (۲). سورة المائدة، الآية ۱۰۵.

[۴۷۲] (۱). سورة طه، الآية ۱۴.

[۴۷۳] (۲). سورة العنكبوت، الآية ۴۵.

[۴۷۴] (۳). سورة المائدة، الآية ۹۱.

[۴۷۵] (۴). سورة يوسف، الآية ۱۰۴.

[۴۷۶] (۵). سورة الزخرف، الآية ۳۶.

[۴۷۷] (۶). سورة الأنبياء، الآية ۷.

[۴۷۸] (۷). سورة الرعد، الآية ۲۸.

[۴۷۹] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۴۹۸، ح ۱.

[۴۸۰] (۲). المصدر السابق، ص ۵۰۰، ح ۵.

[۴۸۱] (۳). المصدر السابق، ح ۲.

[۴۸۲] (۴). وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۱۵، كتاب الزكاة، باب تحريم منع الزكاة، ح ۲۰.

[۴۸۳] (۵). الكافى، ج ۲، ص ۴۹۹، ح ۵.

[۴۸۴] (۱). سورة الانفطار، الآية ۶.

[۴۸۵] (۲). سند الخطبة:

ذكر فى« مصادر نهج البلاغة» مصدرين يستفاد من القرائن أنّهم استقوا هذه الخطبة من مصدر غير« نهج البلاغة»: الأوّل« شرح نهج البلاغة» لابن أبى الحديد الذى ذكر بعضها باختلاف مع ما ورد فى« نهج‌البلاغة»، والآخر« غررالحكم» الذى أورد جانباً منها باختلاف مع ما ورد فى« نهج‌البلاغة».(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۱۵۵).

[۴۸۶] (۱).« أدحض» من« الإدحاض» ابطل وغلب ومن مادة« دحض» الغلبة.

[۴۸۷] (۲).« أبرح» من مادة« برح» على وزن« حرف» الشدّة كما وردت بمعنى الزوال والمعنى الأوّل هو المراد فى العبارة.

[۴۸۸] (۱). تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ۶ من سورة الانفطار.

[۴۸۹] (۲).« البلول» التحسن من المرض كما وردت بمعنى الغنى والنشاط.

[۴۹۰] (۳).« الضاحى» الشخص المعرض لضوء الشمس، من مادة« ضحو» على وزن« محو» التعرض لأشعة الشمس ويقال« ضحى» حين تتسع أشعة الشمس على الأرض.

[۴۹۱] (۴).« يمضّ» من مادة« مضّ» على وزن« حضّ» يؤلم.

[۴۹۲] (۵).« الجلد» من مادة« جلد» على وزن« بلد» القوّة أو التحمل.

[۴۹۳] (۱).« بيات» إن وردت هذه المفردة مصدراً عنت البقاء والمبيت ليلًا فى مكان وإن كان لها معنى الاسم عنت الليل وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

[۴۹۴] (۲).« التورّط» من مادة« ورط» على وزن« شرط» الإلقاء فى المستنقع و« قد تورّطت بمعاصيه» يعنى القيت بنفسى فى غضب اللّه بسبب المعاصى.

[۴۹۵] (۳).« سطوات» جمع« سطوه» القهر والغلبة والسلطة على الشىء.

[۴۹۶] (۴).« الكرى» النوم والنعاس.

[۴۹۷] (۵). سورة الأعراف، الآيتان ۹۷ و ۹۸.

[۴۹۸] (۱).« تمثّل» كما اشير إليه فى الخطبة السابقة من« المثول» على وزن« حلول» بمعنى التجسيد.

[۴۹۹] (۲).« يتغمّد» فى الأصل من« الغمد» على وزن« هند» بمعنى غطاء السيف و« تغمّد» الوضع فى الغطاء. ثم استعملت بمعنى الشمول واريد بها فى العبارة أن فضل اللّه عمّكم.

[۵۰۰] (۱).« كنف» من مادة« كنف» على وزن« حرف» بمعنى محفوظ.

[۵۰۱] (۲).« مطرف عين» من مادة« طرف» على وزن« حرف» إغماض العين وفتحها و« مطرف» مصدر ميمى بالمعنى المذكور.

[۵۰۲] (۱).« أيم» فى الأصل« أيمن» حسب بعض أرباب اللغة جمع« يمين» بمعنى القسم سقطت نونه ومعنى العبارة أقسم باللّه.

[۵۰۳] (۱).« عظات» جمع« عظة» بمعنى الموعظة والنصيحة وهى هنا كناية عن حوادث الدنيا المريرة التى تؤدى إلىاليقظة.

[۵۰۴] (۲).« آذنت» من« الإيذان» بمعنى الإعلان المقرون بالتهديد وأحياناً تعنى إعلان الحرب ثم وردت بمعنى الإعلان المطلق واطلاق الأذان كونه يعلن الدخول فى الصلاة.

[۵۰۵] (۱).« خاوية» اسم فاعل من مادة« خَوى» بمعنى خالى ويعنى أحياناً المتهدم.

[۵۰۶] (۲).« ربوع» جمع« ربع» على وزن« رفع» البيت والسكن كما وردت بمعنى المنطقة أو الجماعة من الناس والمعنى الأوّل هو المراد هنا.

[۵۰۷] (۳).« شحيح» من مادة« شحّ» على وزن« مخ» البخل مع الحرص الذى يصبح عادة لذلك يطلق« شحيح» أحياناً على الفرد الحريص على صديقه وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

[۵۰۸] (۱). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۳۱.

[۵۰۹] (۲). المصدر السابق، الخطبة ۲۲۶.

[۵۱۰] (۳). المصدر السابق، الكلمات القصار، الكلمة ۱۱۹.

[۵۱۱] (۴). المصدر السابق، الكلمة ۴۱۵.

[۵۱۲] (۵). المصدر السابق، الكلمة ۷۷.

[۵۱۳] (۱). سورة الزخرف، الآيات ۳۳- ۳۵.

[۵۱۴] (۲). سورة فاطر، الآية ۵.

[۵۱۵] (۳). نهج البلاغة، الخطبة ۸۲.

[۵۱۶] (۱).« راجفة» من مادة« رجف» على وزن« وقف» بمعنى الاضطراب والهزة الشديدة ولما كانت الأخبار التى تثيرالفتنة مدعاة لاضطراب المجتمع لذلك يقال لها أراجيف. وتشير هذه المفردة فى القرآن وهذه الخطبة إلى زلزلة الساعة.

[۵۱۷] (۲).« جلائل» جمع« جليلة» كلّ صفة عظيمة وشديدة.

[۵۱۸] (۳).« منسك» بمعنى العبادة وتعنى الدين والمعبد وهذا هو المراد بها فى العبارة.

[۵۱۹] (۴).« لم يُجْزَ» طبق ماورد فى المتن من مادة« جزاء» بمعنى الثواب؛ ولكن وردت فى بعض النسخ« لم يَجْرِ» من مادة« جريان»؛ يعنى لا يجرى أدنى خلاف فى عدالته وفى بعض النسخ الأخرى« لم يَجُرْ» من مادة« جور» إشارة إلى عدم جور اللّه فى جزاء الأعمال وفى نسخ« لَمْ يَجُزْ» من مادة« جواز»؛ يعنى لا يجوز أدنى خلاف فى مقام عدالة اللّه.

[۵۲۰] (۱).« هَمْس» بمعنى الصوت الخفى.

[۵۲۱] (۲). وسائل الشيعة، ج ۱۰، ص ۳۹۳، ح ۵ من باب ۶۶ من أبواب المزار وورد هذا المضمون باختلاف طفيف عنالنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى كتاب« روضة الواعظين».

[۵۲۲] (۳). سورة الصافات، الآيتان ۲۲ و ۲۳.

[۵۲۳] (۴). سورة الفرقان، الآيات ۱۷- ۱۹.

[۵۲۴] (۱).« داحضة» من« الدَحْض» على وزن« محض» بمعنى خاطئة ويقال« حجة داحضة» للدليل الضعيف الذى لاأساس له.

[۵۲۵] (۲).« علائق» جمع« علاقة»(بفتح العين) الروابط والتعلق ومعنى العبارة المذكورة أنّ الروابط مقطوعة يوم القيامة، وكذلك جمع« علاقة»(بكسر العين) الحبل والشماعة وأمثال ذلك فيكون معنى العبارة أنّ حبال الأعذار مقطعة يوم القيامة.

[۵۲۶] (۳). سورة المرسلات، الآية ۳۶.

[۵۲۷] (۴).« تحرّ» من« التحرى» البحث عن الأمر الأفضل.

[۵۲۸] (۵). سورة البقرة، الآية ۱۹۷.

[۵۲۹] (۶).« شم» من مادة« شَيْم» على وزن« دَيْم» التطلع إلى الشيء.

[۵۳۰] (۱).« مطايا» جمع« مطية» الدابّة.

[۵۳۱] (۲).« تشمير» من مادة« شمر» على وزن« تمر» تعنى فى الأصل رفع الكم والاستعداد لعمل ثم اطلق على مطلق الاستعداد والسعى.

[۵۳۲] (۳). وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۲۷۹، ح ۵ من الباب ۱۴، أبواب الصدقات.

[۵۳۳] (۱). سند الخطبة:

رواها المرحوم الشيخ الصدوق فى كتاب« الأمالى»، كما رواها بعد السيد الرضى، سبط ابن الجوزى فى كتاب« التذكرة» عن ابن عباس عن أميرالمؤمنين على عليه السلام، والزمخشرى فى« ربيع‌الأبرار»، وابن شهر آشوب فى« المناقب»، ويستفاد من كلام الصدوق فى« الأمالى» أنّ ما أورده المرحوم السيّد الرضى فى هذه الخطبة بعض ما ورد فى خطبة طويلة.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۵۹).

[۵۳۴] (۱). تمام نهج البلاغة، ص ۶۷۹، الطبعة الثانية.

[۵۳۵] (۲).« حسك»؛ يعنى الشوك. كما يطلق على شوك الصحراء أو داخل بدن السمكة.

[۵۳۶] (۳).« سعدان» نبات رعاة الإبل له شوك تشبه به حلمة الثدى.

[۵۳۷] (۴).« مسهّد» من« السهاد» على وزن« رقاد» بمعنى السهر و« مسهّد» من لا ينام الليل.

[۵۳۸] (۱).« مصفّد» من مادة« صفد» على وزن« صيد» المقيد و« صفاد» على وزن« عناد» تقال للحبل والقيد.

[۵۳۹] (۲).« حطام» من مادة« حطم» على وزن« حتم» بمعنى الكسر ويقال لمتاع الدنيا« حطام».

[۵۴۰] (۳).« قفول» مصدر بمعنى الرجوع والعودة ومفهوم العبارة كما ورد سابقاً طبق هذا المعنى، ولكن احتمل البعض أنّ« قفول» جمع« قفل» ومعنى العبارة كيف أظلم شخصاً تتآكل بسرعة أقفال ووشائج بدنه.

[۵۴۱] (۴).« الثرى» التراب.

[۵۴۲] (۱).« امْلَق» من« الإملاق» بمعنى الفقر ومادته الأصلية« مَلَق» على وزن« شفق» النعومة ويقال الفرد المتملق كونه يتخذ حالة الذلة والنعومة واستعملت بحق الفقير لهذه الحالة.

[۵۴۳] (۲).« استماحنى» من« الاستماحة» الاستعطاء.

[۵۴۴] (۳).« البُرّ» القمح.

[۵۴۵] (۴).« صاع» أحد الأوزان وهو أربعة امداد وكل مد أقل من نصف كيلو، سبعمائة وخمسون غراماً تقريباً.

[۵۴۶] (۱).« شُعث» جمع« أشعث» المجعد الشعر.

[۵۴۷] (۲).« غُبْر» جمع« أغبر» من عَلاه الغبار.

[۵۴۸] (۳).« عظلم» نبت يصبغ به ما يراد إسوداده.

[۵۴۹] (۴).« أصغيت» من« الإصغاء» السمع.

[۵۵۰] (۱).« دنف» السقم الشديد.

[۵۵۱] (۲).« ميسم» اسم آلة من مادة« وسم» الحرارة الشديدة؛ ولكن يبدو أنّها وردت هنا بصيغة المصدر بمعنى الحرارة.

[۵۵۲] (۳).« ثواكل» جمع« ثاكلة» الام فى عزاء ابنها وتستعمل أحياناً المرأة المعزاة.

[۵۵۳] (۴).« إنسانها» هنا بمعنى: صاحبها.

[۵۵۴] (۵).« سجرها» من« السجور» تعنى فى الاصل اشعال نار التنور ثم اطلقت على كلّ اشعال.

[۵۵۵] (۶).« تئن» من مادة« انن» الأنين والتألم.

[۵۵۶] (۷).« لظى» شعلة النار الخالصة والتى تكون شديدة الحرارة.

[۵۵۷] (۱). شرح نهج البلاغة للمرحوم مغنية، ج ۳، ص ۳۱۶.

[۵۵۸] (۲). سورة غافر، الآية ۷۱.

[۵۵۹] (۳). شرح نهج البلاغة ابن ابى‌الحديد، ج ۱۱، ص ۲۵۳.

[۵۶۰] (۴). بحار الأنوار، ج ۴۱، ص ۱۱۳ و ۱۱۴(روى المرحوم العلّامة المجلسى هذا الحديث عن ابن شهر آشوب).

[۵۶۱] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۱، ص ۲۵۰؛ شرح نهج البلاغة للمرحوم التسترى، ج ۶، ص ۵۲۳.

[۵۶۲] (۱).« طارق» من« الطروق» و« طرق» بمعنى الدق ويقال الطارق لمن يذهب ليلًا إلى آخر حيث الباب مغلق عادةولابدّ أن يدقه ليدخل.

[۵۶۳] (۲).« شنئت» من« الشنئان» على وزن« غثيان» البغض والكراهية و« شنئت» كرهت.

[۵۶۴] (۱). أشار الشيخ محمد عبدة إلى هذا المعنى فى شرحه لنهج‌البلاغة(ج ۲، ص ۲۱۸) وقال: كانت الملفوفة نوعاً من الحلواء أهداها إليه الأشعث بن قيس.

[۵۶۵] (۱).« هبول» صفة مشبهة، المرأة لا يبقى لها ولد فهى كثيرة البكاء.

[۵۶۶] (۱). الأقاليم السبعة،« أقاليم» جمع« إقليم» جزء من العالم أو البلد وقد قسم قدماء الجغرافيين العالم إلى سبعةأقاليم ولم تكن حدود تلك الأقاليم محددة لعدم وجود الخرائط الجغرافية الدقيقة عن العالم. على كلّ حال الأقاليم هى: الإقليم الأوّل، الهند. الثانى، بعض البلدان العربية والحبشة، الثالث، مصر والشام، الرابع، ايران. الخامس، الروم. السادس، الترك، السابع، الصين.(قاموس دهخدا، مادة أقليم). لعل هنالك تقسيماً آخر للجغرافيين وعلى كلّ حال مراد الإمام عليه السلام لو أعطيت كلّ مناطق الكرة الأرضيّة.

[۵۶۷] (۲).« جلب» الغطاء الذى يحيط بحبة القمح أو الشعير كما يطلق« جلب» على ما يغطى به الجرح بعد أن يبرأ.

[۵۶۸] (۳).« تقضمها» من مادة« قضم» على وزن« هضم» بمعنى العض والمضغ.

[۵۶۹] (۱).« سبات» من مادة« سبت» على وزن« وقت» التعطيل لأجل الاستراحة؛ ويطلق« سبات» على التوقف عن العمل وهذا هو المراد بها فى العبارة وتسمية السبت لدى العرب كون هذه التسمية فى الأصل جاءت من اليهود لأنّهم يعطلون أعمالهم فى يوم السبت.

[۵۷۰] (۱). شرح نهج البلاغة للمرحوم الخوئى، ج ۱۴، ص ۲۹۷، الطبعة القديمة.

[۵۷۱] (۲). كتاب بلاغات النساء، ص ۱۰۶ طبق نقل شرح نهج البلاغة للمرحوم التسترى، ج ۶، ص ۵۴۱.

[۵۷۲] (۱). سند الخطبة(الدعاء):

روى هذا الدعاء باضافات الراوندى فى كتاب« الدعوات» وجاء بعد قوله:« إنَّک عَلى كُلِّ شَىء قَدير»،« اللهمَّ اجْعَلْ أوّلَ كَريمَةٍ تَنْتَزِعُها مِنْ كَرائِمى وَأَوّلَ وَديعَةٍ تَرْتَجِعُها مِنْ وَدائِعِ نِعَمِک» وتشير هذه الإضافة إلى أنّ الراوندى اقتبس الدعاء من مصدر آخر غير« نهج البلاغة». كما ذكره باختلاف صاحب كتاب« الطراز»(السيّد اليمانى) وهذا يدل على أنّه أخذه من مصدر آخر. وضمّنه الإمام السجاد عليه السلام فى دعاء مكارم الأخلاق باختلاف طفيف يدلّ على أنّه كان معروفاً عند أهل‌البيت(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۶۰).

[۵۷۳] (۱).« صن» من« الصيانة».

[۵۷۴] (۲).« وجه» تعنى هنا الكرامة وإن كان معناها الأصلى هو الوجه.

[۵۷۵] (۳).« اليسار» من« اليسر» السهولة والغنى وهو المعنى المراد فى العبارة.

[۵۷۶] (۴).« جاه» القدر والمقام والشرف.

[۵۷۷] (۵).« اقتار» من« القتور» على وزن« فتور» المشقّة فى الإنفاق.

[۵۷۸] (۱). وردت هذه العبارة فی الروایات وتطلق بصیغة مثل معروف بتعبیرات مختلفة، مثل« صاحِبُ الْحاجَةِ لا یَرُومُ إلّا قَضاءها» أو« صاحِبُ الحاجَةِ أرعن لا یُرِیدُ إلّا قَضاءَها» أو« صاحِبُ الْحاجَةِ أعْمى وَلَو کانَ بَصیراً».(کشف‌الخفاء، العجلونی، ج ۲، ص ۱۸).

[۵۷۹] (۱). الکافی، ج ۲، ص ۲۶۳، ح ۱۲ من باب فضل فقراء المسلمین.

[۵۸۰] (۲). سورة فاطر، الآیة ۱۵.

[۵۸۱] (۳). الخصال، ج ۲، ص ۴۲۰، ح ۱۴.

[۵۸۲] (۱). بحار الأنوار، ج ۴۶، ص ۳۶.

[۵۸۳] (۲). سورة المنافقون، الآیة ۸.

[۵۸۴] (۳). بحار الأنوار، ج ۶۹، ص ۴۷، ح ۵۸، من باب فضل الفقر والفقراء.

[۵۸۵] (۱). وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۱۷، ح ۷.

[۵۸۶] (۲). بحار الأنوار، ج ۶۹، ص ۳۰.

[۵۸۷] (۳). المصدر السابق.

[۵۸۸] (۴). المصدر السابق، ج ۸۷، ص ۱۲.

[۵۸۹] (۱). سند الخطبة:

روى هذه الخطبة المتّقی الهندی من فقهاء العامّة فی کتاب« کنزالعمّال»(ج ۱۶، ص ۲۰۰، ح ۴۴۲۲۴) وقال: روى الدینوری وابن عساکر عن عبداللَّه بن صالح العجلی عن أبیه أنّ علی بن أبی‌طالب علیه السلام خطبنا یوماً فحمد اللَّه وأثنى علیه وصلّى على النبیّ ثم قال:« عِبادَ اللَّه لا تَغُرَّنَّکُمُ الْحَیاةُ الدُّنْیا فَإِنَّها دارٌ بِالْبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ ...» ورواها بإضافات سبط ابن الجوزی فی« تذکرة الخواصّ» وقال: تعرف هذه الخطبة(لفصاحتها وبلاغتها) ب« الخطبة البالغة». ثم قال: إنّ أبانعیم نقل بعضها فی کتاب الحلیة. وأضاف علیها الخطیب الخوارزمی فی کتاب« المناقب». قال صاحب« مصادر نهج البلاغة» بعد الإشارة إلى هذه المطالب: ولا نرى حاجة لذکر رواة الخطبة من علماء الإمامیّة بعد هذه الروایة الواسعة من کتب العامّة.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۶۷).

[۵۹۰] (۱).« غدر» له عدّة معانٍ متقاربة المکر والخداع وعدم الوفاء.

[۵۹۱] (۲).« نزّال» جمع« نازل» الضیف أو من یدخل مکاناً.

[۵۹۲] (۱).« تارات» جمع« تارة» على وزن« غارة» بمعنى الزمان وتأتی عادة بمعنى مرّة.

[۵۹۳] (۲).« متصرّفة» من« التصرف» التغیر.

[۵۹۴] (۳).« مستهدفة» من مادة« هدف» التی یصوب نحوها السهم.

[۵۹۵] (۴).« حمام» من مادة« حم» على وزن« غم» التقدیر ومن هنا یراد به الموت الذی قدره اللَّه ویعنی الطیر بالکسر.

[۵۹۶] (۱).« هامدة» من« الهمود» تعنی فی الأصل انطفاء النار وانخفاض الحرارة ثم اطلقت على انطفاء الصوت وهذا هوالمعنى المراد فی العبارة.

[۵۹۷] (۲).« عافیة» من مادة« عفو» زوال آثار الشیء کأن تهب الریح وتزیل ذرات الرمل وتمحوها عن النظر ومنه العفو الذی یعنی إزالة آثار الذنب.

[۵۹۸] (۳). سورة الفجر، الآیات ۶- ۱۳.

[۵۹۹] (۴). شرح نهج البلاغة للعلّامة الخوئی، ج ۱۴، ص ۲۳۰.

[۶۰۰] (۵). سورة الحجر، الآیة ۸۲.

[۶۰۱] (۱).« مشیّدة» من مادة« شید» على وزن« صید» جعل الشیء مرتفعاً و« شید» على وزن« بید» الجص وماشابه ذلک‌الذی یطلى به

البناء للزينة وعليه« اصول مشيدة»(بتشديد الياء) البناء المرتفع والمحكم و« مشيد»(على وزن شديد) أيضاً البناء المحكم وورد فى القرآن المجيد، فى سورة الحج، الآية ۴۵:« وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ».

[۶۰۲] (۲).« نمارق» جمع« نمرقة» على وزن« سنبلة» الوسادة الصغيرة التى يستند عليها.

[۶۰۳] (۳).« مسنّدة» من« السنود» على وزن« قعود» الاستناد و« مسنّدة» فى العبارة الشيء الذى يتكئ عليه.

[۶۰۴] (۴).« لاطئة» ملتصقة بالأرض من« اللطوء» على وزن« فروع» لصيقة بالأرض.

[۶۰۵] (۵).« ملحدة» من مادة« لحد» على وزن« مهد» دفن الميّت وهو جعل الشق وسط القبر أو جانبه.

[۶۰۶] (۶).« فِناء» الفضاء المفتوح امام البيت وهكذا كانت بيوت الكبار.

[۶۰۷] (۱).« كلكل» بمعنى الصدر.

[۶۰۸] (۲).« جنادل» جمع« جندلة» على وزن« مزرعة» الصخور.

[۶۰۹] (۳).« ثرى» التراب.

[۶۱۰] (۴). البيت للإمام الحسين عليه السلام، لما وضع أخاه الحسن عليه السلام فى لحده، انظر: مناقب آل أبى‌طالب عليه السلام، ج ۳، ص ۲۰۵؛ بحارالأنوار، ج ۴۴، ص ۱۶۰، ح ۲۹.

[۶۱۱] (۱). سورة غافر، الآية ۴۶.

[۶۱۲] (۲). سورة آل عمران، الآية ۱۷۰.

[۶۱۳] (۳). الكافى، ج ۳، ص ۲۴۳، باب فى أرواح المؤمنين، ح ۱.

[۶۱۴] (۱).« مضجع» الفراش والمنام وتعنى هنا القبر ومن مادة« ضجع» على وزن« ضرب» النوم على الجانب.

[۶۱۵] (۲).« تناهت» من« التناهى» الوصول إلى الغاية.

[۶۱۶] (۳).« بعثرت» من« البعثرة» على وزن« مرتبة» تعنى فى الأصل القلب رأساً على عقب والاستخراج ولما كانت القبور تقلب يوم القيامة عند إحياء الأموات ويظهر ما بداخلها فقد استعمل فى القيامة.

[۶۱۷] (۴).« تبلو» من مادة« بلاء» الامتحان وكون الامتحان سبب العلم فاستعملت بهذا المعنى.

[۶۱۸] (۱). سند الخطبة(الدعاء):

الكتاب الوحيد الذى ورد فيه هذا الدعاء ويشير إلى اقتباسها من مصدر آخر غير« نهج البلاغة» باضافات يتضح منها أنّه استقاها من مصدر آخر جمعها فى(الصحيفة العلوية الاولى) للعالم الفاضل السماهجى، كما وردت فى مصباح الشيخ الطوسى أنّ الإمام السجاد عليه السلام كان يدعو به بعد الركعة الثالثة عشرة والرابعة عشرة يوم الجمعة(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۱۷۰) السماهجى هو الشيخ عبداللّه بن صالح بن على أحمد البحرانى من سماهج قرية فى إحدى جزائر نواحى البحرين من علماء القرن الثانى‌عشر الهجرى، كان آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر وله مؤلفات منها الصحيفة العلوية الاولى، توفى سنة ۱۱۳۵(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۱، ص ۸۱).

[۶۱۹] (۱).« آنس» صيغة افعل التفضيل من مادة« انس» تعنى هنا أشد الانس وحقيقة الانس، الهدوء عند الشيء وقال البعض يقال الإنسان: لأنسه بالروح الاجتماعية.

[۶۲۰] (۲).« ملهوفة» المشتاق أو المضطر ومن مادة« لهف» على وزن« كهف» والمعنى الأوّل أنسب.

[۶۲۱] (۱). سورة ق، الآية ۱۶.

[۶۲۲] (۱).« فَهِهتُ» من« الفهاهة» على وزن« كرامة» العجز والنسيان.

[۶۲۳] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۱۵۳، ح ۱۷.

[۶۲۴] (۲). المصدر السابق، ج ۷، ص ۱۱.

[۶۲۵] (۱). جمعت وطبعت هذه المجموعة من قبل بعض المحققين فی مؤسسة أبحاث الروضة الرضوية فی‌خمسة أجزاء.

[۶۲۶] (۱). سند الخطبة:

لم ينقل جانب من هـذه الخطبة قبل السيّد الرضـی عن علی عليه السـلام سوی الطبری ضـمن قصة عن المغيرة بن شـعبة.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۷۱).

[۶۲۷] (۲). تاريخ الطبری، ج ۳، ص ۲۸۵، حوادث السنّة ۳۳ من الهجرة.

[۶۲۸] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبی الحديد، ج ۱۲، ص ۳.

[۶۲۹] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبی الحديد، ج ۱۵، ص ۹۸.

[۶۳۰] (۱).« قوّم» من« القيام» الصواب.

[۶۳۱] (۲).« أود» العوج من« الأود» علی وزن« قول» الإنحناء والإعوجاج.

[۶۳۲] (۳).« عمد» المرض وفی الأصل من مادة الجرح الذی يحصل فی ظهر الدابة من الركوب.

[۶۳۳] (۴).« خلف» تقال هذه العبارة حين يموت الإنسان قبل الحادثة من مادة« خَلْف».

[۶۳۴] (۱).« متشعبة» مختلفة ولها شعب.

[۶۳۵] (۱). سند الخطبة:

قـال المرحوم العلّامـة التستری فی شـرحه لنهج‌البلاغـة إنّ الأصـل فی هـذه الخطبـة مـا ذكره المرحوم الكلينی فی رسـائله ثم نقل هـذه الخطبة مع إضافات وقال: ذكرها باختلاف طفيف ابن قتيبة فی« الإمامة والسـياسة» وابراهيم الثقفی فی« الغارات» وابن رستم الطبری فی كتابه« المسترشد»(شرح نهج البلاغة للتستری، ج ۹، ص ۵۱۷).

[۶۳۶] (۱).« تداككتم» من مادة« دك» تعنی فی الأصل الأرض المنبسطة وحيث لابدّ أن تدق بإحكام فهی تعنی الدق‌وإذا وردت فی باب الأفعال عنت الإزدحام الشديد الذی يسبب التدافع.

[۶۳۷] (۲).« هيم» جمع« هائم» الشخص أو الحيوان الشديد العطش وتطلق علی العاشق الذی لا سبيل له للهروب.

[۶۳۸] (۱). سورة الفجر، الآيتان ۱۱ و ۱۲.

[۶۳۹] (۲). شرح نهج البلاغة للمرحوم مغنية، ج ۳، ص ۳۳۲.

[۶۴۰] (۳).« هدج» من مادة« هدج» علی وزن« نهج» مشی الضعيف والمضطرب وتستعمل عادة فی الكهول العجزة.

[۶۴۱] (۴).« تحامل» من مادة« تحامل»(مصدر باب تفاعل) القيام بعمل بالمشقّة والتكلّف.

[۶۴۲] (۵).« حسـرت» من مـادة« حسـر» علی وزن« حصـر» تعنی هنـا كشف النقـاب عن الوجه؛ إلّاأنّ المعنی الأصـلی التحقّی وأحياناً التعب.

[۶۴۳] (۶).« كعاب» و« كاعب» الناهدة وتشير إلی الفتيات.

[۶۴۴] (۱). سند الخطبة:

ذكر بعضها مع بعض التغييرات عدد من العلماء بعد السيّد الرضیّ بما يفيد أنّها أخذت من مصدر آخر غير« نهج‌البلاغة»:

۱. ابن الأثير فی عدّة موارد من كتاب« النهاية» ومنها فی مادة« خلس» و« عبل» و« حدم» و« دجی».

۲. أورد الآمدی جوانب كثيرة من هذه الخطبة فی كتاب« غررالحكم» مع اختلافات.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۷۵– ۱۷۶).

[۶۴۵] (۱).« سداد» من مادة« سد» علی وزن« حد» العمل الصحيح والكلام الصائب.

[۶۴۶] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۹۷.

[۶۴۷] (۳).« ملكة» تعنی هنا المعاصی التی تؤثر علی الإنسان.

[۶۴۸] (۱).« رغائب» جمع« رغيبة» الطلب المهم من مادة رغبة.

[۶۴۹] (۲). سورة الحجرات، الآية ۱۳.

[۶۵۰] (۳). سورة مريم، الآية ۶۳.

[۶۵۱] (۱).« هادئة» من مادة« هدوء» السكوت.

[۶۵۲] (۲). من عجائب الدهر أنّ المحقق الفاضل صاحب« منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة» المعروف بشرح الخوئى، المرحوم الحاج الميرزا حبيب اللَّه هاشمى الخوئى، مرض وتوفى لما بلغ هذه الخطبة، والعبارة« والعمل يرفع» ويدل هذا التزامن على قبول عمله عنداللَّه ورفعه إليه فواصل المحقق الجليل الشعرانى الشرح من الجزء الرابع إلى الرابع عشر ثم واصل تلميذه حسن زادة الأملى شرح الجزء الخامس عشر حتى التاسع عشر وشرح الجزءين الأخرين العشرين والحادى والعشرين بقلم المرحوم الحاج محمد باقر الكمرئى حتى انتهى الشرح.

[۶۵۳] (۱).« ناكس» من مادة« نكس» على وزن« حدس» قلب الشيء.

[۶۵۴] (۲).« خالس» الخاطف من مادة« خلس» على وزن« فلس» خطف الشيء بالحيلة والاختلاس بهذا المعنى.

[۶۵۵] (۳).« طيّات» جمع« طيّة» الجانب والجهة والهدف. من مادة« طيّ» على وزن« حيّ» الجمع والترتيب وتستعمل أحياناً بمعنى العبور وطى الطريق.

[۶۵۶] (۴).« قرن» الكفؤ فى الشجاعة.

[۶۵۷] (۵).« واتر» الجانى من مادة« وتر» على وزن« سفر» رامى السهم.

[۶۵۸] (۱).« تكنّف» من مادة« تكنّف» الإحاطة بالشيء.

[۶۵۹] (۲).« غوائل» جمع« غائلة» الشرّ والداهية.

[۶۶۰] (۳).« معابل» جمع« معبل» على وزن« مدخل» النصل الحاد.

[۶۶۱] (۴).« عدوة» العدوان.

[۶۶۲] (۵).« نبوة» الخطأ فى الضربة بالسيف والسهم ونحوه.

[۶۶۳] (۶). سورة آل عمران، الآية ۱۸۵.

[۶۶۴] (۷).« دواجى» جمع« داجية» الظلمة من مادة« دجوّ» على وزن« غلوّ».

[۶۶۵] (۸).« ظلل» جمع« ظلّة» على وزن« قلّة» السحابة.

[۶۶۶] (۹).« الإحتدام» الاشتداد من مادة« حدم» على وزن« حتم».

[۶۶۷] (۱۰).« حنادس» جمع« حندس» على وزن« قبرص» الظلمة الشديدة.

[۶۶۸] (۱).« غمرات» جمع« غمرة» على وزن« ضربة» الشدائد و« غمرات الموت» شدائد وصعاب الموت والاحتضار التى تصيب الإنسان فالغمرة تقال للماء الكثير الذى يأخذ الشيء.

[۶۶۹] (۲).« ارهاق» من مادة« رهق» على وزن« شفق» تغطية الشيء بالقهر والغلبة ويطلق على الأعمال الشاقة، جدير ذكره وردت فى بعض النسخ بدل« ارهاق»،« ازهاق» من مادة« زهوق» الاضمحلال والهلكة و« ازهاق الروح» فصل الروح عن البدن.

[۶۷۰] (۳).« الدجوّ» الظلمة كما ورد أعلاه.

[۶۷۱] (۴).« اطباق» جمع« طبق» وضع شيء على آخر كأنّ للظلمة طبقات تتراكم على بعضها.

[۶۷۲] (۵).« الجشوبة» الخشونة؛ سواء فى الطعام أو الكلام وما شابه ذلك.

[۶۷۳] (۶).« النجيّ» المناجي والذى يهمس فى الاذن من مادة« نجوى».

[۶۷۴] (۷).« النديّ» الجماعة الذين يجتمعون للمشورة أو الأحاديث المتعارفة.

[۶۷۵] (۸).« عفّى» أزال الأثر من مادة« عفىّ» له عدّة معانٍ بحكم باب التفعيل منها المحو.

[۶۷۶] (۹). شرح نهج البلاغة للمرحوم التسترى، ج ۱۱، ص ۲۷۵.

[۶۷۷] (۱). سورة البقرة، الآية ۱۵۶.

[۶۷۸] (۲). الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ص ۱۷۵.

[۶۷۹] (۳). تاريخ الطبرى، ج ۴، ص ۱۱۵.

[۶۸۰] (۱).« التأهّب» الاستعداد للشيء من« الاهبة» وله أحياناً معنى المصدر والاسم الجامد.

[۶۸۱] (۲). شرح نهج البلاغة للعلّامة الخوئى، ج ۱۴، ص ۴۱۹.

[۶۸۲] (۱). البيان والتبيين، ج ۳، ص ۱۴۸.

[۶۸۳] (۱).« احتلبوا» من« حلب» على وزن« طرب» و« حلب» على وزن« حرب» بمعنى استخراج الحليب.

[۶۸۴] (۲).« درّة» اللبن أو الحليب الكثير.

[۶۸۵] (۳).« غرّة» الغفلة والسهولة.

[۶۸۶] (۴).« أخلقوا» من مادة« اخلاق» القدم من مادة« خلق» على وزن« ورق» التآكل.

[۶۸۷] (۵).« جدّة» جديد ولهذه المفردة معنى الاسم.

[۶۸۸] (۶).« أجداث» جمع« جدث» على وزن« هوس» القبر.

[۶۸۹] (۷).« لا يحفلون» لا يبالون من مادة« حفل» على وزن« حرب» الاهتمام.

[۶۹۰] (۱). الكافى، ج ۳، ص ۲۲۸ باب زيارة القبور، ح ۴.

[۶۹۱] (۲).« نزوع» من مادة« نزع» على وزن« نذر» الفصل.

[۶۹۲] (۳).« لايركد» من مادة« ركود» السكون وانعدام الحركة.

[۶۹۳] (۱). سورة العنكبوت، الآية ۶۴.

[۶۹۴] (۱).« بادروا» من« المبادرة» الاسراع فى العمل أحياناً وأخرى السبق(تتعدى الاوّلى بدون« الى» وتتعدى الثانيةب« إلى»).

[۶۹۵] (۲).« ظهرانى» يعنى وسط شخصين أو أشخاص والأصل« ظَهْرين» تثنية« ظَهر» وكان للإنسان داعم من أمامهوخلفه إن كان وسط جماعة ثم أضيف له الألف والنون للتأكيد ونون التثنية حذفت عند الاضافة لتصبح« بين ظهرانى» وعليه« بين ظهرانى» أن يكون الإنسان بين أفراد يحمونه.(راجع مادة ظهر فى لسان العرب).

[۶۹۶] (۳). نهج البلاغة، الخطبة ۸۱.

[۶۹۷] (۱).« ذى قار» منطقة قرب البصرة وقعت فيها الحرب بين العرب والفرس قبل الإسلام.

[۶۹۸] (۲). محمّد بن عمر الواقدى من مفسّرى ومؤرّخى القرن الهجرى الثاني والمتوفى سنة ۲۰۷ هجرية.

[۶۹۹] (۳). سند الخطبة:

رغم أنّ المرحوم السيد الرضى نقل هذه الخطبة من كتاب« الجمل» للواقدى إلّاأنّ صاحب« مصادر نهجالبلاغة» ذكر أنّه رواها ابن عبد ربه المالكى فى« العقد الفريد» والمرحوم المفيد فى« الإرشاد». ورواها ابن أبى الحديد بصورة مفصلة فى شرحه لنهجالبلاغة(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۷۶).

[۷۰۰] (۱).« الشمل» الجمع وله أحياناً معنى اسم المصدر ويعنى الاجتماع.

[۷۰۱] (۲).« الواغرة» الحارة والساخنة من مادة« وغر» على وزن« فقر» شدّة الحرارة وهى تستعمل بمعنى البغض والعداء الشديد.

[۷۰۲] (۱).« الضغائن» جمع« ضغينة» العداوة الشديدة وتعنى فى الأصل التغطية المقرونة بالانحراف.

[۷۰۳] (۲).« القادحة» المشتعلة من مادة« قدح» على وزن« مدح» إشعال النار.

[۷۰۴] (۳). سورة الأنفال، الآيتان ۶۲ و ۶۳.

[۷۰۵] (۱). عبداللّه بن زمعة بن الأسود من أعدى أعداء النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله. عبداللّه ابن اخت ام سلمة وصهرها وقد قتل الإمام عليه السلام أباه وعمه وأخاه فى بدر(راجع دائرةالمعارف الشيعية للمرحوم الأعلمى: ج ۱۲ ص ۳۰۵ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد: ج ۱۳ ص ۱۰؛ وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى، ج ۵، ص ۱۹۲).

[۷۰۶] (۲). سند الخطبة:

المصدر الوحيد الذى عثر عليه صاحب كتاب المصادر فى هذه الخطبة غير نهج البلاغة، غررالحكم للآمدى فى حرف الألف باختلاف يفيد أنّه أخذها من مصدر آخر.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۷۸).

[۷۰۷] (۱).« جناة» الثمار التى تقطف من الشجرة وهى مفرد من مادة« جنا» على وزن« جفا».

[۷۰۸] (۲). انظر: جواهرالكلام، ج ۱۶، ص ۱۰۶؛ المعتبر المحقق الحلّى، ج ۲، ص ۶۳۱، كتاب الخمس.

[۷۰۹] (۱). سند الخطبة:

لما بلغ ابن أبى الحديد هذه الخطبة فى شرحه لنهج البلاغة قال: اعلم أنّ هذا الكلام بيّنه أميرالمؤمنين عليه السلام فى حادثة اقتضت ذلك حيث أمر ابن اخته جعدة بن هبيرة المخزومى أن يخطب بالناس، فصعد المنبر لكن(لجلالة الإمام وعظم الجماعة) لم يستطع الكلام ونزل. فصعد أميرالمؤمنين عليه السلام المنبر وأورد هذه الخطبة الطويلة التى ذكر السيد الرضى هنا بعضها(ويتضح من هذا الكلام أنّه أخذها من مصدر آخر). ورواها باختلاف المرحوم الكلينى فى« روضة الكافى» والآمدى فى« غررالحكم» كما رواها الزمخشرى فى الجزء الأوّل من كتابه« ربيع‌الابرار»(مصادر نهج البلاغة: ج ۳، ص ۱۷۹).

[۷۱۰] (۱).« بضعة»(بفتح الباء) و« بضعة»(بكسر الباء) القطعة من كلّ شيء ويقال أحياناً حين يكون الشخص شديد القرب من آخر:« هو بضعة منى».

[۷۱۱] (۲). سورة الرحمن، الآيات ۱- ۴.

[۷۱۲] (۱).« تنشّبت» من« النشوب» التثبت فى الشيء.

[۷۱۳] (۲).« عروق» جمع« عرق» على وزن« صدق» أصل الشيء وأساسه.

[۷۱۴] (۳).« تهدّلت» من مادة« هدل» على وزن« جدل» المعلقة بضعف وتطلق على الغصون النازلة والمعلقة.

[۷۱۵] (۱). انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۳، ص ۱۳ و ۱۴.

[۷۱۶] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱، ص ۲۴.

[۷۱۷] (۲). السابق طبق نقل المرحوم العلّامة المطهرى فى رحاب نهج البلاغة، ص ۲۸.

[۷۱۸] (۳). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۱، ص ۱۵۳.

[۷۱۹] (۱).« كليل» من مادة« كلّ» على وزن« حلّ» التعب والعجز والضعف والكليل التعبان والعاجز والضعيف.

[۷۲۰] (۱).« مصطلحون» اتفاق الأفراد على شيء، من مادة« صلح».

[۷۲۱] (۲).« إدهان» تعنى فى الأصل التدهين. ثم استعملت فى الخداع والمساومة على أمر مرفوض.

[۷۲۲] (۳).« عارم» سيىء الخلق من« العرامة» الخشونة وسوء الخلق والسيول الجارفة والموانع التى تقام لصدها فى الوديان.

[۷۲۳] (۴).« شائب» الكهل والعجوز من مادة« شيب» على وزن« غيب» الكهولة.

[۷۲۴] (۵).« مماذق» المرائى من مادة« مذق» على وزن« حذف» مزج اللبن بالماء.

[۷۲۵] (۱).« لا یعول» من مادهٔ« عول» علی وزن« قول» کفالهٔ الشخص، ومنه العیال.

[۷۲۶] (۱). سند الخطبهٔ:

رواه الزمخشری فی الجزء الأوّل من کتاب« ربیعالأبرار».(مصادر نهج البلاغهٔ، ج ۳، ص ۱۸۱).

[۷۲۷] (۱).« مبادیء» جمع مبدأ بدایهٔ کلّ شیء والمراد هنا العناصر التی تکون طینتهم.

[۷۲۸] (۲).« فلقهٔ» القطعهٔ من الشیء من مادهٔ« فلق» علی وزن« حلق» الشق وبما أنّ الشق یقسم القطع وردت فلقهٔ بمعنی القطعهٔ.

[۷۲۹] (۳).« سبخ» الأرض المالحهٔ.

[۷۳۰] (۱).« عذب» الحلو.

[۷۳۱] (۲).« حزن» إن استعملت فی الأرض عنت المتموجهٔ و« حزن» تعنی الغم من هذه المادهٔ.

[۷۳۲] (۳).« سهل» إن استعملت عنت المستویهٔ المنبسطهٔ ومنه أیضاً السهل أی البسیط.

[۷۳۳] (۱).« رواء» من مـادهٔ« ریّ» علی وزن« حی» تعنی فی الأصل الإرتواء ومن هنا یطلق رواء علی الفرد الحسن المنظرکأنّه کالنبات الذی ارتوی من الماء وحسن منظره.

[۷۳۴] (۱).« قعر» تعنی هنا الباطن ویطلق القعر علی آخر نقطهٔ فی الشیء.

[۷۳۵] (۲).« السبر» الاختبار والامتحان ویقال لمن یصعب الوقوف علی أسراره بسهولهٔ« بعید السبر».

[۷۳۶] (۳).« التائه» الحیران من مادهٔ« تیه» علی وزن« سعی» و« تیه» علی وزن« جیم» الحیرهٔ والضلال.

[۷۳۷] (۱). وسائل الشیعهٔ، ج ۱۴، ص ۳۷، ح ۴.

[۷۳۸] (۱). بحار الأنوار، ج ۱۰۰، ص ۲۳۶، ح ۲۲.

[۷۳۹] (۱). سند الخطبهٔ:

رواه عدد ممن عاش قبل السـید الرضـی ومنهم: أ) محمد بن حبیب(المتوفی سنهٔ ۲۴۵) أیقبل ولادهٔ السـید الرضی ب. ۱۱۴ سنهٔ فی« الأمالی».

ب) أبو اسحاق إبراهیم الزجاج(المتوفی سنهٔ ۳۱۱ أی ۴۸ سنهٔ قبل الرضی فی کتابه« الأمالی» عن برید المبرد.

ج) رواها الشـیخ المفیـد فی کتابه« الأمالی» بسـنده عن ابن عباس. قال صاحب« مصادر نهـج البلاغـهٔ»: لا شک أنّ هذا کلام علی علیه السلام وإن نسبت لغیره فی زهر الأداب فذلک من الوهم(مصادر نهجالبلاغهٔ، ج ۳، ص ۱۸۲– ۱۸۳).

[۷۴۰] (۱). وسائل الشیعهٔ، ج ۲، ص ۶۵۳، ح ۱.

[۷۴۱] (۱).« مسلّیاً» من مادهٔ« سلو» علی وزن« غلو» الهدوء بعد الشدهٔ.

[۷۴۲] (۲). نهج البلاغهٔ، الخطبهٔ ۲۰۲.

[۷۴۳] (۱). الکافی، ج ۳، ص ۲۲۰، ح ۲.

[۷۴۴] (۲).« انفدنا» من« النفاد» انتهاء الشیء و« انفاد» مصدر باب افعال الانتهاء.

[۷۴۵] (۳).« البال» الخاطر والقلب والحال.

[۷۴۶] (۱). من لا یحضره الفقیه، ج ۱، ص ۱۷۷، ح ۵۲۷.

[۷۴۷] (۲). المصدر السابق، ص ۱۸۳، ح ۵۵۳.

[۷۴۸] (۳). مستدرک وسائل الشیعهٔ، ج ۲، ص ۴۳۱، ح ۴۰.

[۷۴۹] (۱). تهذیب الأحکام، ج ۶، ص ۲– ۳.

[۷۵۰] (۲). بحار الأنوار، ج ۲۲، ص ۵۲۵.

[۷۵۱] (۱). سند الخطبة:

رواه ابن الأثير فى« النهاية» فى مادة« وطأ»« مصادر نهج البلاغة» ج ۳، ص ۲۳۴.

[۷۵۲] (۱). كتاب تمام نهج البلاغة، ص ۲۴۶، خطبه ۱۹(وردت هذه العبارة فى تتمة الخطبة، ص ۲۴۹).

[۷۵۳] (۱). انظر للمزيد من الاطلاع: شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد فى شرح ذيل الخطبة، وتفسير الإمام الحسن العسكرى عليه السلام وكتاب« فروغ أبدية» لآية اللّه جعفر السبحانى.

[۷۵۴] (۱). سند الخطبة:

كل ما ورد فى كتاب« مصادر نهج البلاغة» بالإضافة إلى« نهج البلاغة» فى سند الخطبة أنّ الآمدى روى العبارة الاولى من الخطبة فى« غررالحكم» باختلاف ويفيد أنّه كان لديه مصدر آخر ولو كان مصدره الوحيد« نهجالبلاغة» لما كان ذلك الاختلاف(مصادر نهجالبلاغة، ج ۳، ص ۱۸۵).

[۷۵۵] (۲). شرح الخطبة الغرّاء طبق نقل السيّد الرضى ذيل الخطبة ۸۳.

[۷۵۶] (۱).« المنشورة» الواسعة والمفتوحة من مادة« نشر» البسط.

[۷۵۷] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۴۴۰، ح ۱.

[۷۵۸] (۲). سورة الزمر، الآية ۵۳.

[۷۵۹] (۳). سورة الزمر، الآية ۵۴.

[۷۶۰] (۴).« يخمد» من« الخمود» على وزن« جحود» تعنى فى الأصل إنطفاء النار. ثم اطلقت على انتهاء كلّ شيء ومنهانهاية الحياة.

[۷۶۱] (۵).« مهل» جمع« مهلة» وتستعمل هذه الكلمة عادة فى أمور الخير.

[۷۶۲] (۱). غررالحكم، الرقم ۲۴۶۲.

[۷۶۳] (۱).« منظور» المهمل من مادة« نظر» التى لها معنيان: الأوّل الالتفات إلى الشيء والثانى الامهال.

[۷۶۴] (۱). غرر الحكم، ح ۸۹۸۴.

[۷۶۵] (۲). المصدر السابق، ح ۴۸۲۰.

[۷۶۶] (۱). سند الخطبة:

قال صاحب كتاب« مصادر نهج البلاغة»:« ذكرنا مصادر هذه الخطبة فى ذيل الخطبة ۲۶ والخطبة فصل من كتاب كتبه الإمام وأمر بقراءته فى مختلف المناطق» وإذا عدنا إلى مصادر الخطبة(الخطبة ۲۶) نجده قال هناك: هذه الخطبة جزء من خطب طويلة اقتطف السيد الرضى بعضها وذكرها جماعة من قبل السيد بما يختلف مع ما ذكره ومنهم« إبراهيم بن هلال الثقفى» فى كتاب« الغارات»،« ابن قتيبة» فى كتاب« الإمامة والسياسة»،« الطبرى» فى كتاب« المسترشد» و« الكلينى» فى كتاب الرسائل وقال هناك:« الخطبة ۲۳۶ هى عندنا جزء من الخطبة ۲۳۸ والدافع من الرسالة أنّه سئل عمن سبقه من الخلفاء. فكتب لهم هذه الرسالة وأوصاهم برص صفوفهم»(الغارات، ج ۱، ص ۳۱۲؛ الإمامة والسياسة، ص ۱۳۵ و ۱۷۶؛ المسترشد، ص ۴۲۶)(مصادر نهج البلاغة، ج ۱، ص ۳۹۰).

[۷۶۷] (۱).« جفاة» جمع« جافٍ» غليظ وفظّ جاهل.

[۷۶۸] (۲).« طغام» جمع« طغامة» الأوغاد والأوباش والأشرار وترد أحياناً بمعنى المفرد.

[۷۶۹] (۳).« أقزام» جمع« قزم» على وزن« خشن» الأفراد الأراذل.

[۷۷۰] (۴).« أوب» الناحية.

[۷۷۱] (۵).« تلقّطوا» من مادة« تلقّط» جمع الشيء من هنا وهناك.

[۷۷۲] (۶).« شوب» خلط الشيء بآخر. ولها معنى اسمى؛ أى الأشياء المخلوطة والمراد فى العبارة معناها الاسمى.

[۷۷۳] (۷).« يدرّب» من« التدريب» التمرين والتعويد لتعلم الشيء.

[۷۷۴] (۸).« تبوّؤا» من« التبوّأ» السكن فى مكان بقصد البقاء والدوام من مادة« بَوأ» بمعنى تساوى أجزاء المكان.

[۷۷۵] (۱). مروج الذهب، ج ۲، ص ۷۲ مطابق لما نقله المرحوم العلّامة الأمينى فى الغدير، ج ۱۰، ص ۱۹۵.

[۷۷۶] (۱). الغدير، ج ۱۰، ص ۱۹۶.

[۷۷۷] (۱).« أوتار» جمع« وتر» على وزن« سفر» السهم الذى يجمع طرفاه كالقوس فإذا سحب تقوس أكثر فإن اطلق قذف إلى الأمام وقطع الأوتار هنا كناية عن عدم الاطلاق.

[۷۷۸] (۲).« شيموا» من مادة« غيم» على وزن« عيب» سل السيف ووضعه فى الغمد.

[۷۷۹] (۳). ذكر هذه الرواية أوّلًا ابن أبى الحديد فى الجزء ۱۳، ص ۲۱۵ فى شرح الخطبة، ثم ذكرها المرحوم ابن ميثم والعلّامة التسترى فى شرحهما لهذه الخطبة.

[۷۸۰] (۴).« قواصى» جمع« قاصية» الطرف والناحية و« قواصى الإسلام» إشارة الى أطراف العراق والحجاز ومناطق أخرى تابعة لحكومة أميرالمؤمنين على عليه السلام.

[۷۸۱] (۵).« صفاة» مفرد وتعنى فى الأصل الحجر الصلد وتستعمل كناية عن القوّة وفسرت بأرض الحياة التى ينظمها الإنسان.

[۷۸۲] (۱). شرح نهج البلاغة للمرحوم مغنية، ج ۳، ص ۳۶۲.

[۷۸۳] (۲). المصدر السابق.

[۷۸۴] (۳). ورد المزيد بشأن الحكمين فى ذيل الخطب ۱۲۵، ۱۲۷، ۱۷۷.

[۷۸۵] (۱). سند الخطبة:

جاء فى مصادر نهج البلاغة أنّ هذا الكلام جزء من الخطبة ۱۴۵(حسب ترقيمنا ۱۴۷) التى تبدأ بالعبارة(فبعث اللَّه محمدا صلى الله عليه و آله) حتى يقول:(فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنّهم عيش العلم وموت الجهل) وأوردها السيد الرضى منفصلة. ورواها الكلينى فى« الكافى» باختلاف طفيف فى بعض الكلمات كما ذكرت فى آخرها بعض العبارات فى« محاضرات الادباء» للراغب الاصفهانى.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۷۶ و ۱۷۷).

[۷۸۶] (۱). ورد هذا الحديث فى مصادر الفريقين فقد رواه الذهبى فى ميزان الاعتدال، ج ۱، ص ۸۲؛ ابن حجر فى لسان الميزان، ج ۱، ص ۱۳۶.

[۷۸۷] (۱). مستدرك الحاكم، ج ۳، ص ۱۴۹.

[۷۸۸] (۲). بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۵۴.

[۷۸۹] (۳). روى المرحوم العلّامة الأمينى هذين الحديثين بعبارات متفاوتة لكنها قريبة المعنى من مختلف مصادر العامّة مثل: مناقب الخوارزمى؛ فرائد السمطين للحموينى؛ وربيع الأبرار للزمخشرى؛ والإمامة والسياسة لابن قتيبة.(الغدير، ج ۳، ص ۱۷۸ وما بعدها).

[۷۹۰] (۱). الكافى، ج ۱، ص ۶۱، ح ۹.

[۷۹۱] (۲).« ولائج» جمع« وليجة» من« الولوج» الدخول وتطلق على حامل أسرار الشخص أو جامعها ولكن ليس من أهله. ويقال وليجة لكل من يرد قوماً من الخارج ويحمل أسراره وهى قريبة المعنى من مفردة البطانة.

[۷۹۲] (۳).« نصاب» الأصل وموضع الرجوع والمكان المناسب لكل شىء وأساسه وبدايته. ثم اطلق على المقدار فى باب الزكاة وأمثال ذلك.

[۷۹۳] (۴).« انزاح» من مادة« زوح» على وزن« زوج» تعنى فى الأصل الرحيل من المكان. ثم اطلق على كلّ شىء يزال عن مكانه.

[۷۹۴] (۵). انظر: تاريخ الطبرى، ج ۳، ص ۴۴۰ و ۴۴۱.

[۷۹۵] (۱). لم ترد هذه المفردة بهذه الصيغة فى المصادر اللغوية وصحيحها« وعاء» ظرف الشيء ويبدو أنّ النسخةالأصلية كانت وعاء التى تلائم السماع فى العبارة اللاحقة.

[۷۹۶] (۲).« رعاة» جمع« راعٍ» المراعى.

[۷۹۷] (۱).« هتف» المناداة والصراخ والمراد هنا أنّ الامّة كانت تنادى بخلافة على عليه السلام وقيل:« هتف» تعنى الصوتالذى يسمع ولا يعرف قائله.

[۷۹۸] (۲). سند الخطبة:

ذكر ابن عبد ربه بعض هذا الكلام فى« العقد الفريد» وكتب أنّ علياً عليه السلام خرج من المدينة وذهب إلى ينبع(ينبع موضع قرب المدينة قرب البحر الأحمر الذى كان آنذاك بعضه لعلى وأوقفه) لكن عثمان كتب كتاباً آخر بعد مدّة قصيرة وطلب منه الرجوع إلى المدينة(ويدافع عنه) ثم قال صاحب كتاب نهج البلاغة: ذكر ذلك أيضاً المبرد فى« الكامل» وابن قتيبة فى« الإمامة والسياسة».(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۸۹).

[۷۹۹] (۱).« ناضح» الجمل الذى يحمل الماء من مادة« نضح» على وزن« نظم» رش الماء.

[۸۰۰] (۲).« غرب» بمعنى الدلو العظيمة.

[۸۰۱] (۱). شرح نهج البلاغة للمرحوم التسترى، ج ۹، ص ۲۵۴(بتلخيص طفيف).

[۸۰۲] (۱). سند الخطبة:

ذكر الآمدى فى« غررالحكم» بعض عبارات الخطبة بكلمات قصيرة(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۱۹۰).

[۸۰۳] (۱). تمام نهج البلاغة، ص ۴۶۵.

[۸۰۴] (۲).« مستأدى» الطالب من مادة أداء طلب أداء الشيء.

[۸۰۵] (۳).« ممهل» معطى المهلة.

[۸۰۶] (۴).« مضمار» الميدان الذى تضمر فيه الخيل للسباق كما وردت بمعنى اسم الزمان.

[۸۰۷] (۵).« سبق» المال الذى يقرر للفائزين بالسباق.

[۸۰۸] (۶). سورة البقرة، الآية ۱۵۲.

[۸۰۹] (۱). نهج البلاغة، الخطبة ۲۸.

[۸۱۰] (۲).« عقد» جمع« عقدة» ما تربط به الأشياء.

[۸۱۱] (۳).« مآزر» جمع« مئزر» على وزن منبر الثياب الداخلية.

[۸۱۲] (۴).« اطووا» من مادة« طى» معروف.

[۸۱۳] (۵).« خواصر» جمع« خاصرة» الضلع.

[۸۱۴] (۱).« وليمة» الطعام الذى يعدّ فى العرس. ثم اطلقت على كلّ طعام يعدّ فى الدعوة للضيافة وهى هنا كناية عن الترف.

[۸۱۵] (۲).« ظلم» جمع« ظلمة» العتمة.

[۸۱۶] (۳).« تذاكير» جمع« تذكار» على وزن« منقار» التذكير.

[۸۱۷] (۴). بحار الأنوار، ج ۶۳، ص ۳۳۱، ح ۷.

[۸۱۸] (۵). مجموعة ورام، ج ۲، ص ۱۱۹.

[۸۱۹] (۱). غرر الحكم، ح ۷۴۰۲.

[۸۲۰] (۲). بحار الأنوار، ج ۱۰۰، ص ۲۷، ح ۴۰.

[۸۲۱] (۳). نهج البلاغة، الرسالة ۴۵.

[الجزء التاسع]

مقدّمة

القسم الثانی من نهج‌البلاغة

القسم الثانی والمهمّ من نهج‌البلاغة یتضمّن رسائل وکتب الإمام أمیرالمؤمنین إلی الأولیاء، الأعداء، الامراء، قادة الجیش وبعض أبنائه، والتی تختزن فی مضـمونها مسائل فی غایة الأهمیة عن بناء الذات، التقوی، إدارة البلاد، النصیحة للأعداء وفتح المجال لهم للعودة إلی أحضان الحق، ومسائل مهمة أخری من هذا القبیل.

ومحتوی هذه الرسائل بدرجة من الحیویة والحرکة، کأنّها صدرت من الإمام فی هذا العصر ومن أجل المخاطبین فی زماننا هذا.

وهـذه الرسائـل، الـتی بإمکانهـا أن تکـون درسـاً لمختلـف شـرائح المجتمع وینتفع بهـا جمیع الأـفراد، تعتـبر من الکنوز الغالیـة للـتراث الإسـلامی ولسیرة أمیرالمؤمنین الإمـام علیّ علیه السـلام، ولیت جمیع السیاسـیین فی العالم یلتفتوا إلی أهمیتها ویعملوا علی اسـتثمارها لإصلاح الوضع العالمی والمجتمع البشری، ولیت أنّ هذه الرسائل قد وصلت إلینا کلّها.

وممّا یجدر ذکره أنّ عهد الإمام لمالک الأشتر الوارد فی نهج‌البلاغة «وهو الدسـتور العملی الذی أرسـله الإمام علیّ علیه السـلام لوالیه علی مصر مالک الأشتر وورد فی

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۶

نهج‌البلاغة برقم (۵۳) من رسائل الإمام» قـد ترجم إلی بعض اللغات الأجنبیّة وقد تمّ وضـعه فی هیئة الامم المتحدة کسـند تاریخی، و وقع مورد إعجاب وثناء لنواب وممثلی الدول المختلفة فی الامم المتحدة.

وهناک الکثیر من أمثال هـذه الرسالـة التاریخیة فی نهج‌البلاغة من بین ۷۹ رسالة وکتاب للإمام علی علیه السـلام، رغم أنّ کلّ واحدة منها تهدف لغرض خاص.

ومن الرسائل المهمّـِة فی هـذا الصـدد وصـیة الإمام علیه السـلام لابنه الإمام الحسن المجتبی علیه السـلام التی تتضـمن مسائل عرفانیـة، أخلاقیـة، وتعالیم لتهـذیب النفس، وکـذلک رسالة الإمام علیه السـلام المعروفة لعثمان بن حنیف التی یعترض فیها الإمام علیه السـلام علی والیه لحضورة ولیمةً لطبقة الأغنیاء والأشـراف، ورسالة الإمام علیه السلام المعروفة لشریح القاضی، ورسالة الإمام علیه السلام إلی «حارث الهمدانی»، ورسالة الإمام علیه السلام لأهل مصر التی أرسلها مع مالک الأشتر، وهناک رسائل متعددة کتبها الإمام علیه السلام لمعاویة بن أبی‌سـفیان وحذّره من العواقب الوخیمة لأعماله الشنیعة، وجمیع هذه الرسائل تعتبر من الوثائق التاریخیة التی قلّ نظیرها فی تراثنا الإسلامی.

***

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۹

الرسالة ۱

اشارة

إلى أهلِ الْكَوفَةِ، عِنْدَ مَسيرِهِ مِنَ الْمَدينَةِ إلَى الْبَصْرَةِ[۱]

نظرة إلى الرسالة

الحقيقة أنّ الغرض من كتابة هذه الرسالة يتمثّل فى ثلاثة أمور:

۱. إنّ الإمام علىّ عليه السلام أراد فى كتابه هذا أن يبيّن أنّ طلحة والزبير وعائشة الذين اتخذوا من قتل عثمان ذريعة لإثارة الناس ضدّه عليه السلام وتحركوا لتهيئة مقدّمات حرب الجمل مع عائشة، أنّهم شركاء فى قتل عثمان، فى حين أنّ الإمام عليه السلام كان قد دافع عنه بالمقدار الممكن.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۰

۲. إنّ جميع الناس قد بايعوا الإمام عليه السلام طواعية ورغبة وبدون أىّ شكل من أشكال الجبر والإكراه وإنّ المسلمين قد قبلوا بخلافته على الامّة الإسلاميّة.

۳. نظراً لما وقع من فتنة طلحة والزبير وعائشة، فإنّهم يتوجّب على أهل الكوفة أن يهبّوا لنصرة الإمام وإطفاء نار الفتنة من خلال الالتحاق بجيش الإمام.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۱

القسم الأول

اشارة

مِنْ عَبْدِاللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ، جَبْهَةِ الْأَنْصَارِ وَسَنَام الْعَرَب. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ. إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ اسْتِعْتَابَهُ، وَأُقِلُّ عِتَابَهُ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا الْعَنِيفُ.

وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ، وَبَايَعَنِى النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ.

الشرح والتفسير: حقيقة ما وقع فى حادثة قتل عثمان

بدأ الإمام علىّ عليه السلام فى هذه الرسالة، وطبقاً لما كان متداولًا فى ذلك العصر، بالتعريف بكاتب الرسالة والمخاطبين له، حيث قال: «مِنْ عَبْدِاللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ، جَبْهَةِ الْأَنْصَارِ[۲] وَسَنَامِ الْعَرَبِ».

ومن البيّن أنّ مراده من كلمة الأنصار هنا ليس أنصار النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله فى المدينة الذين يقعون فى مقابل المهاجرين، لأنّه لم يكن هناك فى الكوفة جبهة للأنصار وأخرى للمهاجرين، بل المراد من الأنصار هنا أنصار الإمام علىّ عليه السلام والتعبير ب «جبهة» إشارة إلى شرفهم وعلو مكانتهم، لأنّ الجبهة تعتبر من أشرف

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۲

أعضاء الإنسان.

كلمة «سنام» رغم أنّها فى الأصل بمعنى أعلى مكان فى ظهر الجمل، إلّاأنّها تطلق على كلّ شىء متميز وكلّ شخص ذى مكانة عالية

فی المجتمع.

ثم إنّ الإمام علیه السلام قال فی رسالته: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّی أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّی یَكُونَ سَمْعُهُ كَعِیَانِهِ».

هنا یثار هذا السؤال: لماذا اهتمّ الإمام علیه السلام فی هذه الرسالة قبل کلّ شیء بالبحث عن جذور حادثة مقتل عثمان؟

من المعلوم أنّ الإمام علیه السلام قد کتب هذه الرسالة إلی أهل الکوفة فی زمن إرهاصات معرکة الجمل، ونعلم أنّ مسألة الطلب بثأر عثمان کانت ذریعة استخدمها المخالفون وقوی التمرّد «طلحة، الزبیر، عائشة، وأنصارهم» وعندما یبیّن الإمام علیه السلام تفاصیل هذه المسألة بشکلّ واضح فإنّ ذلک من شأنه أن یدفع بأهل الکوفة للاشتراک مع الإمام من موقع الوضوح فی الرؤیة.

ثم أضاف الإمام علیه السلام: «إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَیْهِ».

وقد ذکر جمیع المؤرخین وعامّة المحقّقین تقریباً أنّ اعتراض الناس علی عثمان یعود إلی أمرین: التقسیم غیر العادل لبیت المال، والعطایا والمواهب الجزیلة لأقربائه وأرحامه، والآخر وضع المقالید الحساسة للحکومة الإسلامیّة بید أشخاص غیر کفوئین من أقربائه وأتباعه.

ثم أضاف الإمام علیه السلام: «فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِینَ أُكْثِرُ اسْتِعْتَابَهُ ۳]، وَأُقِلُّ عِتَابَهُ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَیْرُ أَهْوَنُ سَیْرِهِمَا فِیهِ الْوَجِیفُ ۴]، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا الْعَنِیفُ ۵]. وَكَانَ

مِنْ عَائِشَةَ فِیهِ فَلْتَةُ[۶] غَضَبٍ، فَأُتِیحَ ۷] لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ».

ویحتمل أیضاً فی تفسیر عبارة «اکثر استعتابه»[۸] أننی کنت أطلب من عثمان دائماً أن یهتمّ بکسب رضا الناس.

ثم أضاف علیه السلام: «وَبَایَعَنِی النَّاسُ غَیْرَ مُسْتَكْرَهِینَ وَلَا مُجْبَرِینَ، بَلْ طَائِعِینَ مُخَیَّرِینَ».

وفی الحقیقة أنّ الإمام علیه السلام بهذه العبارة الوجیزة والعمیقة المعنی أشار إلی ثلاث نقاط لیتیح للناس الحکم علی المتمردین بوضوح:

۱. إنّ الإمام علیه السلام کان من المدافعین عن عثمان وکان یرید له الصلاح والسیر فی الطریق القویم واطفاء نار الفتنة.

۲. إنّ طلحة والزبیر هما اللذان أشعلا نار الفتنة، وبالرغم من أنّ الانتفاضة ضد عثمان کانت عامّة وشاملة، ولکنّ طلحة والزبیر کانا ینفخان فی هذه النار ویمدّونها بالوقود، وکذلک الحال مع عائشة التی أثارت المهاجرین والأنصار فی مسجد النبیّ علی عثمان بجملة قصیرة عندما رفعت بیدها قمیص النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله ونعله کما ورد فی الروایة: «ولمّا بَلَغَ عائِشَةَ ما صَنَعَ عُثْمانُ بِعَمّارٍ فَغَضِبَتْ وأخْرَجَتْ شَعْراً مِنْ شَعْرِ رَسولِ اللَّهِ صلی الله علیه و آله وَنَعْلًا مِنْ نِعَالِهِ وَثَوْباً مِنْ ثِیابِهِ، وقَالَتْ: مَا أَسْرَعَ مَا تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِیِّكُمْ، وَهذا ثَوْبُهُ وشَعْرُهُ وَنَعْلُهُ لَمْ یَبْلَ بَعْدُ»[۹].

۳. إنّ البیعة التی بایعنی فیها المسلمون «وخلافاً للبیعة مع الخلیفة الأول والثانی والثالث» بیعة عامّة وشاملة ولم یجبر أحد علی بیعتی.

ومن هذا المنطلق بیّن الإمام علیه السلام معالم الحقیقة لیعلم الناس أنّه علی الحق وأنّ المتمرّدین والمناوئین له فی معرکة الجمل، علی باطل.

تأمّلان

۱. حکایة أبی موسی وتعبئة أهل الکوفة لنصرة الإمام علیه السلام

سبق وأنّ تعرّضنا فى الأقسام السالفة وبشكل وافٍ إلى وقائع خلافة عثمان والأخطاء الكبيرة التى ارتكبها فى مجال إدارة الحكومة الإسلاميّة والتى أدّت بالتالى إلى ثورة الناس عليه وانتهت بقتله، وكذلك تقدّم الكلام عن نقض طلحة والزبير لبيعتهم للإمام علىّ عليه السلام وتمرّدهم على خلافته، وكذلك واقعة بيعة الناس العامّة لأميرالمؤمنين عليه السلام ۱۰].

أمّا قصة كتابة رسالة إلى أهل الكوفة من قِبل الإمام عليه السلام فهى ذات تفاصيل متشعبة وقد أشار ابن أبى‌الحديد فى شرح نهج‌البلاغة بشكل موجز إلى هذه الحكاية، ويمكن الإشارة إلى خلاصة ما ورد فى كلامه:

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۵

ينقل ابن أبى‌الحديد عن محمد بن إسحاق أنّ الإمام علىّ عليه السلام أرسل محمد بن جعفر ومحمد بن أبى بكر إلى الكوفة، ولمّا قدما الكوفة استنفرا الناس، فدخل جماعة منهم على أبى موسى الأشعرى- وكان والياً على الكوفة فى زمن خلافة عثمان، وبعد مقتل عثمان أبقاه الإمام فى منصبه- ليلًا فقالوا له: أشِر علينا برأيك فى الخروج مع هذين الرجلين إلى علىّ عليه السلام، فقال أبوموسى الأشعرى- والذى كان رجلًا خبيثاً فى سريرته وقد تجلى خبثه فى هذا الموقع-: «أمّا سبيل الآخرة فالزموا بيوتكم، وأمّا سبيل الدنيا فاشخصوا معهما» فمنع بذلك أهل الكوفة من الخروج لنصرة الإمام عليه السلام.

وبلغ المحمَّدَين ذلك فأغلظا لأبى موسى الأشعرى، فقال أبوموسى: «واللّه إنّ بيعة عثمان لفى عنق علىّ وعنقى وعنقكما، ولو أردنا قتالًا ما كنّا لنبدأ بأحدٍ قبل قتلة عثمان»، فخرجا من عنده فلحقا بعلىّ عليه السلام فأخبراه الخبر، فكتب الإمام عليه السلام رسالة لأبى موسى الأشعرى، ولكنّ أبا موسى هدّد رسول الإمام بالقتل، وكتب الإمام رسالة أخرى لأبى موسى وأرسلها مع عبداللّه بن عباس ومحمد بن أبى بكر وعزله من منصبه.

ولكنّ أبا موسى الأشعرىّ استمرّ فى مخالفته لأوامر الإمام عليه السلام، ثم إنّ الإمام علىّ عليه السلام أرسل مالك الأشتر، فشخص الأشتر نحو الكوفة، فأقبل حتى دخلها والناس فى المسجد الأعظم، فجعل لا يمرّ بقبيلة إلّادعاهم وقال: اتبعونى إلى القصر، حتى وصل القصر، فاقتحمه وأبوموسى يومئذٍ يخطب الناس على المنبر ويثبّطهم، وعمّار يخاطبه، والحسن عليه السلام يقول: اعتزل عملنا وتنحّ عن منبرنا، لا امّ لك! فصاح به الأشتر: «أُخْرُجْ مِنْ قَصْرِنا لا امَّ لَکَ أَخْرَجَ اللَّهُ نَفْسَکَ فَوَاللَّهِ إِنَّکَ لَمِنَ الْمُنافِقِينَ قَدِيماً».

فلمّا رأى أبو موسى الأشعرى ضعف موقعه واهتزاز مكانته قال: أجّلنى العشيّة، قال: لقد أجّلتك ولا تبيتنّ فى القصر.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۶

وفى هذه الواقعة استطاع رُسل الإمام عليه السلام من تعبئة اثنى عشر ألف رجل من أهل الكوفة لنصرة الإمام عليه السلام وتوجّهوا إلى البصرة[۱۱].

۲. عند الإمتحان يكرم المرء أو يهان

من المعلوم أنّ غالبية أهل السنّة يذهبون إلى تنزيه الصحابة، يعنى أنّ جميع الصحابة بدون استثناء هم أشخاص مؤمنون وعادلون وسيرتهم نقيّة، وقد أفرط البعض فى هذا الأمر وسلك سبيل المبالغة إلى درجة أنّه ذهب إلى أنّ المخالف لأحد الصحابة هو زنديق وكافر، ومن هؤلاء ما ذكره «ابن حجر العسقلانى» فى كتابه «الإصابة» نقلًا عن أبى زرعة الرازى قال: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحد أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فاعلم أنّه زنديق وذلك أنّ الرسول حقّ والقرآن حقّ وما جاء به حقّ، وإنّما أدّى إلينا ذلك كلّه الصحابة وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنّة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة»[۱۲].

عندما يواجه هؤلاء المؤرّخون الحوادث التاريخية المسلّمة من قبيل واقعة الجمل وأنّ طلحة والزبير وعائشة قد أشعلوا نار الحرب أمام خليفة المسلمين الذى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار وقتل فى تلك الواقعة أكثر من عشرة آلاف رجل وعلى رواية قتل

سبعة عشر ألف فسوف يصاب بالحيرة والتردّد فی الجواب لتبرير هذا العمل، وكذلك عندما يرى أنّ معاوية بن أبی سفيان وقف بوجه خليفة المسلمين الإمام علیّ بن أبی طالب عليه السلام وما ترّتب على ذلك من حرب صفّين وتداعياتها المؤلمة ومقتل عشرات الاولوف من المسلمين وحتّى قتل بعض الصحابة، كعمّار بن ياسر على يد أتباع معاوية، فسوف يجد نفسه فی ورطة ومتاهة عجيبة.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۷

هؤلاء لا يستطيعون إنكار الحقائق التاريخية المسلّمة من جهة، ومن جهة أخرى لا يستطيعون التخلّی عن مقولة تنزيه الصحابة، ولذلك يتمسّكون بمنطق غريب.

فتارة يقولون: إنّنا لا ينبغی لنا أن نتحدّث عن الصحابة لأنّه «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ»[۱۳] بهذه الطريقة يوصدون نوافذ الفهم والإدراك على عقولهم، فهل يستطيع أیّ إنسان عاقل أن يغضّ بصره أمام الحقائق التاريخية التی تتضمّن بيان الكثير من المسائل التی نحتاجها فی عالمنا المعاصر؟

وتارة أخرى يقولون: إنّ الصحابة مجتهدون كلّهم، وإنّ كلّ فرد منهم قد عمل باجتهاده، فالإمام علیّ عليه السلام عمل باجتهاده وطلحة والزبير وعائشة ومعاوية عملوا أيضاً باجتهادهم ولذلك هم معذورون أمام اللَّه تعالى.

هؤلاء غفلوا عن أنّ الاجتهاد يتعلق بالمسائل النظرية التی تقع مورد الشك والتردد، وأمّا المسائل البديهية والمسلّمة فلا مجال للإجتهاد فيها، فهل يستطيع الشخص أن يقلب باجتهاده الليل إلى نهار أو النهار إلى ليل؟ إنّ مسألة حرب الجمل أو صفّين والتی تعتبر ثورة ضدّ الحكومة الإسلاميّة المقبولة لدى المسلمين، وسفك دماء المسلمين بدوافع دنيوية ونوازع نفسانية وحبّ المقام والمنصب، لا مجال للشك والتردد فی حرمته، فلا يقال حينئذٍ أنّ مثل هذا الشخص مجتهد فی ارتكاب هذا الفعل الشنيع، وإن أخطأ فی اجتهاده فهو معذور ومغفور!

لماذا لا يتخلّی هؤلاء الإخوة عن التعصّب ويعترفوا بأنّ صحابة النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله حالهم حال سائر الناس من وجود الصالح والطالح فيهم؟

لقد تحدّث القرآن الكريم فی سورة البقرة، التوبة، الأحزاب، المنافقين وفی موارد عديدة، عن المنافقين وذمّهم، فمن هؤلاء المنافقون؟ إنّ تعريف الصحابة المذكور ينطبق عليهم بشكل كامل، فلماذا يقول الإنسان شعراً يعجز عن الإتيان بالقافية كما يقول المثل؟

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۸

أليس من الأفضل القول بوجود جماعة فی زمان النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله من المنحرفين والفاسقين، وجماعة أخرى من الصالحين، والصالحون بدورهم على قسمين:

فجماعة منهم استقاموا فی خط الصلاح والخير والإيمان حتى بعد رحلة النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله، وجماعة منهم انحرفوا عن جادّة الصواب والحقّ بسبب الأطماع الذاتية، وقد اصيب العالم الإسلامی من جرّاء ذلك بمصائب كبيرة، أجل هؤلاء لم ينجحوا فی الامتحان الإلهّی بعد النبیّ الأكرم عليه السلام وسقطوا فی متاهات الضلالة وحبّ الدنيا.

وهكذا قيل: عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ۱۴].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۹

القسم الثانی

اشارة

وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمِرْجَلِ، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ، فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

الشرح والتفسير

يستطرد الإمام فى هذا القسم من الخطبة فى بيان ماهية المتمرّدين فى البصرة والموقدين لنار الفتنة ويطلب من أهل الكوفة أن يستعدّوا لنصرة الإمام ومواجهة هذا العدوان وإطفاء نار الفتنة، ولذلك ومن أجل تحريضهم وإيجاد حافز لهم يقول:
«وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ ۱۵] جَيْشَ الْمِرْجَلِ ۱۶]، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ ۱۷]».
والإمام عليه السلام يشير هنا إلى اعتراضه على جلوسهم غير مكترثين بما يدور فى عاصمة الإسلام المدينة المنوّرة التى عاشت الغليان والتقلّبات الكبيرة وقد تحرّك المؤمنون فى المدينة معى لإطفاء نار الفتنة التى أوقدها المناوئون فى البصرة.
ثم يضيف الإمام عليه السلام: «فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ».
نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۰
وكما أسلفنا قبل قليل أنّ المراد من «دار الهجرة» المدينة المنورة التى كانت معروفة بهذا الاسم، وقد عاشت أكبر هجرة فى تاريخ الإسلام وهى هجرة المسلمين والنبىّ من مكة إلى المدينة، وأمّا ما ذكره بعضهم من احتمال أن يكون المراد الكوفة أو كلّ بلاد الإسلام فهو احتمال بعيد جدّاً.
أمّا تشبيه المدينة بالقدر الموضوع على المرجل وفى حال الغليان فهو بسبب ما عاشته المدينة فى تلك الظروف من حوادث عصيبة وتداعيات خطيرة فى أواخر خلافة عثمان وبعد مقتله.
والتعبير بكلمة «قامت الفتنة على القطب» إشارة إلى فتنة طلحة والزبير وعائشة، الذين خططوا لعزل الإمام علىّ عليه السلام عن مركز الخلافة أو تجزئة بلاد الإسلام بحيث تكون المدينة والحجاز بيد الإمام علىّ عليه السلام، ويكون العراق والكوفة والبصرة بيد طلحة والزبير وعائشة، والشام من حصة معاوية، وهذه هى الفتنة العظيمة التى حذّر منها الإمام علىّ عليه السلام فى هذه الرسالة.
إنّ هذه الرسالة القصيرة الغزيرة المعنى أثّرت أثرها فى أهل الكوفة فخرج منها أكثر من اثنى‌عشر ألف رجل لنصرة الإمام عليه السلام فى معركة الجمل وتوجّهوا إلى البصرة، وكان لذلك دور مؤثر فى انتصار جيش الحقّ على المنافقين والناكثين فى معركة الجمل.
واللافت أنّ الطبرى ينقل فى تاريخه عن أحد الرواة ويدعى أبوالطفيل قال: قال علىّ عليه السلام: «يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل، فقعدت على نجفة ذى‌قار وأحصيتهم فما زادوا رجلًا ولا نقصوا رجلًا»[۱۸].

تأمّل: مصير الناكثين

إنّ كلّ مؤرخ ومحقّق، بل كلّ إنسان عارف بوقائع معركة الجمل، يعلم أنّ الإمام
نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۱
علىّ عليه السلام مضافاً إلى كونه منصوباً للخلافة بأمر النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، فإنّ جماهير المسلمين بايعوه للخلافة وقد استلم زمام الأمور ومقاليد الحكومة الإسلاميّة برصيد شعبى أقوى من الخلفاء السابقين، ولكن الطامعين بالثروة والمقام انتفضوا عليه وسفكوا فى سبيل تحقيق نوازعهم الذاتية دماء كثيرة، ومعلوم أنّ جميع هؤلاء المتمرّدين على الإمام من العصاة والمذنبين ولا يقبل لهم أىّ عذر فى محكمة العدل الإلهى.
ولكن الملفت للنظر أنّ ابن أبى‌الحديد فى «شرح نهج‌البلاغة» يتحدّث فى هذا المجال ويقول: «اختلف المتكلّمون فى حالها، أى

عائشـة، وحال من حضـر واقعـة الجمل، فقالت الإماميّـة: كفر أصـحاب الجمل كلّهم الرؤساء والأتباع، وقال قوم من الحشويـة والعامـة: إجتهدوا فلا إثم عليهم ولا نحكم بخطئهم ولا خطأ علىّ عليه السلام وأصحابه.

وقـال قوم من هؤلاـء: بـل نقول: «أصـحاب الجمـل أخطـأوا ولكنّه خطأ مغفور، وكخطأ المجتهـد فى بعض مسائل الفروع عنـد مَن قال بالأشبه، وإلى هذا القول يذهب أكثر الأشعرية»[۱۹].

وقـال أصـحاب المعتزلـة «وابن أبى‌الحديـد منهم»: «كـلّ أهل الجمل هالكون إلّامن ثبتت توبته منهم، قالوا: وعائشـة ممّن ثبتت توبتها، وكـذلك طلحـة والزبير، أمّا عائشـة فإنّها اعترفت لعلىّ عليه السـلام يوم الجمل بالخطأ، وسألت العفو، وقـد تواترت الرواية عنها بإظهار النـدم، وأنّهـا كـانت تقول: ليته كـان لى من رسول اللّه صـلى الله عليه و آله بنون عشـرة كلّهم مثل عبـدالرحمن بن الحارث بن هشام، وثكلّتهم، ولم يكن يوم الجمل! وأنّها كانت تقول:

ليتنى متّ قبل يوم الجمل، وأنّها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكى حتى تبلّ خمارها.

وأمّا الزبير فرجع عن الحرب معترفاً بالخطأ، لمّا ذكّره على عليه السلام بما ذكّره، وأمّا طلحة فحاله أيضاً حال الزبير ...»[۲۰].

نفحات الولايئ، ج۹، ص: ۲۲

وهنا يطرح هذا السؤال على ابن أبى‌الحديد وأمثاله، وهو أنّه إذا صدر عمل معيّن من شخص وأدّى إلى سفك دماء جماعة المسلمين، فهل يكفى إظهار الندم والتوبة أمام حقّ الناس العظيم أو ينبغى جبران هذا الحقّ؟

***

نفحات الولايئ، ج۹، ص: ۲۳

الرسالة ۲

اشارة

إلَيْهِمْ، بَعْدَ فَتْحِ الْبَصْرَةِ[۲۱]

نظرة إلى الرسالة

تقـدّم آنفـاً فى بحث سـند هـذه الرسالـة أنّها تمثّل مقطعاً صـغيراً من رسالـة مطوّلـة كتبها الإمام علىّ عليه السـلام بعـد معركـة الجمل، وتتضـمّن تقـدير أتعـابهم ومـا بـذلوه للإسـلام وأهـل بيت النـبىّ صـلى الله عليه و آله فى قبولهم دعوة الإمـام واشـتراكهم معه فى قمع المتمرّدين من أصحاب الجمل والثناء عليهم من موقفهم واستقامتهم فى هذا السبيل.

نفحات الولايئ، ج۹، ص: ۲۵

وَجَزَاكُمُ اللّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِى الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ.

الشرح والتفسير: إظهار الإمام عليه السلام رضاه عن أهل الكوفة

يتبيّن من هـذه العبـارة أنّ الإمـام يـدعو بهـا لأهـل الكوفـة ويشـكر قيامهم وأتعابهم ويثنى على مواقفهم ويصـفهم بعـدّة أوصاف مهمّة

ويقول: «وَجَزاكُمُ اللّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزى الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ».

وبديهىّ أنّ المخاطب فى الرسالة هم أهل الكوفة كما ذكر ذلك المرحوم السيد الرضىّ فى عنوان هذه الخطبة وتؤيّد ذلك القرائن الحالية أيضاً، فإنّ أهل البصرة انضمّوا فى غالبيتهم إلى جيش طلحة والزبير وقد ذمّهم الإمام عليه السلام فى خطب أخرى فى نهج‌البلاغة[۲۲]، ولكن أهل الكوفة هم الذين استجابوا لدعوة الإمام عليه السلام ونصروه فى هذه المعركة الحاسمة وبذلك استحقّوا الشكر والثناء.

أضف إلى ذلك أنّ المستوحى من مجموع الرسائل، كما سيأتى فى بحث الملاحظات نقلًا عن بعض مصادر أخرى، أنّ المخاطبين بهذه الرسالة هم أهل الكوفة.

وعبارة: «عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ» إشارة إلى أنّ قيامكم هذا لا يعتبر نصرة للإسلام والقرآن فحسب، بل نصرة لأهل‌البيت عليهم السلام أيضاً، وهذا يستوجب الثواب المضاعف لكم.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۶

ويصف الإمام عليه السلام أهل الكوفة فى هذه الرسالة بخمس صفات استحقّوا على أثرها دعاء الإمام لهم:

الأولى: العمل بطاعة اللّه عزّ وجلّ.

الثانية: أداء شكر نعمائه.

والثالثة: الاستماع لأوامره.

والرابعة: إطاعة أمره.

والخامسة: إجابة دعوته، وهذه كلّها فى الحقيقة تعبيرات مختلفة عن حقيقة واحدة.

تأمّل: النصّ الكامل لرسالة الإمام عليه السلام لأهل الكوفة

لقد أورد المرحوم السيّد الرضى، وطبقاً لمنهجه الانتقائى الذى اتّبعه فى «نهج‌البلاغة»، مقطعاً صغيراً جدّاًمن رسالة الإمام عليه السلام إلى أهل الكوفة، فى حين أنّ هذه الرسالة غزيرة المحتوى وعميقة المضمون، ومن الجدير أن يستعرضها كلّها فى هذه الفقرة، لأنّها تتضمّن فنوناً من البلاغة إضافة إلى نكات حساسة ومصيرية للمسلمين.

وقد أورد المرحوم العلّامة المجلسىّ فى «بحار الأنوار» نصّ هذه الرسالة نقلًا عن كتاب «الكافية فى ابطال توبة الخاطئة» (للشيخ المفيد) نقلًا عن أبى مخنف: ورد كتاب أميرالمؤمنين عليه السلام مع عمر بن سلمة الأرجىّ (الأرحبىّ) إلى أهل الكوفة، فكبّر الناس تكبيرة سمعها عامة الناس واجتمعوا لها فى المسجد، ونودى بالصلاة جامعة فلم يتخلفّ أحدٌ وقرأ الكتاب و فيه:

«بِسْمِ‌اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِاللَّهِ أَمِيرِالمُؤمِنينَ إلى قُرْظَةَ بْنِ كَعْبٍ (والى الكوفَةِ) وَمَنْ قِبَلَهُ مِنَ الْمُسْلِمينَ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ، فَإِنِّى أَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللّهَ الّذى لَا إِلهَ إِلّاهُوَ.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۷

أمّا بَعْدُ، فَإِنّا لَقِيْنا القَوْمَ النّاكِثِينَ لِبَيْعَتِنا وَالمُفارِقِينَ لِجَماعَتِنا، البَاغِينَ عَلَيْنا فِى امَّتِنا، فَحَجَجْناهُمْ فَحاكَمْنَاهُم إلى اللّهِ فأدَالَنا عَلَيْهِم، فَقُتِلَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ وقَد تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِما بالمَعْذِرَةِ وأقْبَلْتُ إِلَيهِما بالنَّصِيحَةِ واسْتَشْهَدْتُ عَلَيْهِما صُلَحاءَ الامَّةِ فَما أطاعا المُرْشِدِين وَلا أجابا النّاصِحِينَ.

وَلاذَ أهْلُ البَغْيِ بِعَائِشَةَ فَقُتِلَ حَوْلَها مِنْ أهْلِ البَصْرَةِ عَالَمٌ جَسِيمٌ وَضَرَبَ اللّهُ وَجْهَ بَقِيَّتِهِم فأدْبَروا فَما كانَتْ نَاقَةُ الحَجَرِ بأشْأَمَ عَلَيْهِم مِنْها على أهلِ ذِلِكَ المِصْرِ مع ما جَاءَتْ بِهِ مِنَ الحَوْبِ الكَبِيرِ فِى مَعْصِيَتِها رَبَّها ونَبِيَّها واغْتِرارَها فى تَفْرِيقِ الْمُسْلِمِينَ وسَفْكِ دِماءِ المُؤمِنِينَ

بِلا بَيِّنَةٍ وَلا مَعْذِرَةٍ وَلا حُجَّةٍ ظاهِرَةٍ.

فَلَمّا هَزَمَهُمُ اللّهُ أمَرْتُ أنْ لا يُتْبَعَ مُدْبِرٌ وَلا يُجازَ (وَلا يُجَهَّزَ) على جَرِيْحٍ وَلا يُكْشَفَ عَوْرَةٌ وَلا يُهْتَكَ سِتْرٌ ولا يُدْخَلَ دارٌ إلّابِإذْنٍ وآمَنْتُ النّاسَ.

وقَدِ اسْتُشْهِدَ مِنّا رِجالٌ صَالِحونَ ضاعَفَ اللّهُ حَسَناتِهِم ورَفَع دَرَجاتِهِم وأَثابَهُم ثَوابَ الصّادِقِينَ الصّابِرِينَ.

وجَزاكُمُ اللّهُ مِن أهْلِ مِصْرٍ عَنْ أهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أحْسَنَ جَزاءِ العَامِلِينَ بِطَاعَتِهِوالشّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ وَأَجَبْتُمْ إذا دُعِيْتُم فَنِعْمَ الإخْوانِ والأعْوانِ على الحَقِ أنْتُمْ والسَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكاتُهُ»[۲۳].

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۲۹

الرسالۀ ۳

اشارۀ

لشـريح بن الحارث قاضيه ۲۴] وَرُوِيَ أَنَّ شُرَيْحَ بْنَ الْحَارِثِ قَاضِيَ أَمِيرِالْمُؤْمِنِينَ عليه السـلام، اشْتَرَى عَلَى عَهْدِهِ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَاسْتَدْعَى شُرَيْحاً، وَقَالَ لَهُ:

نظرۀ إلى الرسالۀ

تعتبر هـذه الرسالـۀ فريدۀ فى حدّ ذاتها، وتبيّن موقف الإمام علىّ عليه السـلام من أحد قضاته المعروفين حين اشترى له داراً غاليۀ الثمن نسبيّاً، ومضـمون الرسالۀ أنّ الإمام عليه السـلام بعد أن يوبّخ شـريح على شرائه لهذه الدار، يكتب له سنداً ووثيقۀ لها، ولكنّ هذا السند ليس كالأسـناد المتداولۀ للدور والعقارات، بل سند زاخر بالعبر والدروس ويتضمّن تغيّر الدنيا وعدم الوثوق بها، ويشير إلى غفلۀ الناس عن هذا الأمر واغترارهم بزخارفها وأنّهم بعيدون عن حقيقۀ الأمر، ولو أنّ شريح القاضى

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۳۰

اطّلع على هذا السند الأخلاقىّ قبل شرائه الدار كما يقول الإمام عليه السلام فسوف يصرف النظر عن شرائها.

والسؤال الـذى يفرض نفسه: لماذا اتّخـذ الإمام عليه السـلام هذا الموقف المتشدّد من شـريح القاضـى؟ هل أنّ شـريح قد اشترى تلك الدار من مال الحرام ومن الرشاوى؟

نستبعد هـذا الاحتمال فى حين أنّ الإمام عليه السـلام قد جعله قاضـى الكوفۀ وهو بهذا الحال، أو يقال: إنّ الإمام علىّ عليه السـلام فى هـذه الرسالۀ يريد أن يقول أنّ الشـخص إذا تولّى منصب القضاء بما فيه من ولايۀ على نفوس وأموال وأعراض الناس، فلابدّ أن يعيش بعيداً عن زخارف الدنيا والتكالب على مطامعها، ويكون قدوۀ للناس فى هذا المجال.

***

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۳۱

القسم الأوّل

اشارۀ

بَلَغَنِی أَنَّکَ ابْتَعْتَ داراً بِثَمانِینَ دِینَاراً، وَکَتَبْتَ لَهَا کِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ فِیهِ شُهُوداً.

فَقَالَ لَهُ شُرَیْحٌ: قَدْ کَانَ ذَلِکَ یَا أَمِیرَ الْمُؤْمِنِینَ. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَیْهِ نَظَرَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ لَهُ:

یَا شُرَیْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَیَأْتِیکَ مَنْ لَایَنْظُرُ فِی کِتَابِکَ، وَلَا یَسْأَلُکَ عَنْ بَیِّنَتِکَ، حَتَّی یُخْرِجَکَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَیُسْلِمَکَ إِلَی قَبْرِکَ خَالِصاً. فَانْظُرْ یَا شُرَیْحُ لَا تَکُونُ ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَیْرِ مَالِکَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَیْرِ حَلَالِکَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْیَا وَدَارَ الْآخِرَةِ! أَمَا إِنَّکَ لَوْ کُنْتَ أَتَیْتَنِی عِنْدَ شِرَائِکَ مَا اشْتَرَیْتَ لَکَتَبْتُ لَکَ کِتَاباً عَلَی هَذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِی شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْقُ.

الشرح والتفسیر: من أین لک هذه الدار؟!

بعد أن استدعی الإمام علیه السلام شریح القاضی قال له: «بَلَغَنِی أَنَّکَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِینَ دِینَاراً، وَکَتَبْتَ لَهَا کِتَاباً، أَشْهَدْتَ فِیهِ شُهُوداً».

فَقَالَ لَهُ شُرَیْحٌ: «قَدْ کَانَ ذَلِکَ یَا أَمِیرَ الْمُؤْمِنِینَ».

قَالَ (الراوی): فَنَظَرَ إِلَیْهِ نَظَرَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ لَهُ:.

«یَا شُرَیْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَیَأْتِیکَ مَنْ لَایَنْظُرُ فِی کِتَابِکَ، وَلَا یَسْأَلُکَ عَنْ بَیِّنَتِکَ، حَتَّی یُخْرِجَکَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَیُسْلِمَکَ إِلَی قَبْرِکَ خَالِصاً».

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۲

وفی الحقیقة أنّ الإمام علیه السلام یرید أن یقول- فی کلامه هذا- لشریح: إنّک وإن دعیت لتثبیت هذه الدار باسمک ومن خلال السند والوثیقة لئلا یزاحمک علیها شخص آخر، ولکن عندما یأتی إلیک ملک الموت فإنّه لا یعتنی بهذه الوثائق، بل یأخذک رغماً عنک ویخرجک من هذه الدار، لأنّ هذه الأسناد والمستمسکات إنّما تنفعک فی أمور الدنیا لا فی أمر الآخرة، فلا تنفع الإنسان عندما یحین أجله ویتوجه إلی العالم الآخر.

وعبارة «شاخص» من الشخوص، بمعنی المسافر، ومفهوم الجملة هو: أنّک سوف تخرج من الدنیا إلی العالم الآخر کالمسافر.

واحتمل البعض أنّ کلمة «شاخص» تعنی الشیء البیّن والظاهر للعیان، والإنسان عندما یرحل من هذا الدنیا یُحمل علی الأکّف بشکل ظاهر للناس حیث یساق إلی قبره، ویحتمل أیضاً أنّ أحد معانی هذه الکلمة هو الشخوص وترکّز البصر علی شیء معیّن، وهذا یشیر إلی أنّ الکثیر من الناس عندما یحین أجلهم تشخص أبصارهم وتبقی مفتوحة بدون حرکة وکأنّه ینظر إلی نقطة معینة، ولکنّ المعنی الأوّل أنسب من الجمیع.

وجملة: «وَیُسْلِمَکَ إِلَی قَبْرِکَ خَالِصاً» إشارة إلی هذه الحقیقة وهی أنّ الإنسان لا یحمل من أمواله ودنیاه إلی القبر سوی الکفن.

وطبعاً هذا کلّه فی حال أنّه قد اشتری الدار من ماله الحلال والطیب والطاهر، ولکن إذا کان قد اشتراها من مال حرام ومشبوه، فإنّ المصیبة أعظم، ولذلک یشیر الإمام علیّ علیه السلام فی کلامه إلی هذه النقطة ویقول: «فَانْظُرْ یَا شُرَیْحُ لَاتَکُونُ ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَیْرِ مَالِکَ ۲۵]، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَیْرِ حَلَالِکَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْیَا وَ دَارَ الْآخِرَةِ».

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۳

وفی مقام الفرق بین جملة «مِنْ غَیْرِ مَالِکَ وجملة «مِنْ غَیْرِ حَلَالِکَ مع أنّهما متّحدان فی المعنی والمضمون ظاهراً، إلّاأنّه یمکن القول أنّ الجملة الاولی إشارة إلی المال الذی لا یعتبر من أموال الشخص ظاهراً، مثلًا یکون شریح قد اشتری هذه الدار ودفع ثمنها من بیت المال، وهذا المال لیس ماله ظاهراً وواقعاً، أمّا جملة: «مِنْ غَیْرِ حَلَالِکَ فهی إشارة إلی الأموال التی تعتبر من ماله ظاهراً وتحت تصرّفه، ولکنّه قد اکتسبها من طریق الرشوة وغیرها من الطرق المشبوهة والمحرمة.

وجملة: «قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْیَا» ربّما تشیر إلی أنّ المال الحرام یترتّب علیه آثار وضعیّة خطیرة ویؤدّی إلی شقاء الإنسان وایقاعه فی المهالک، کما ورد هذا المعنی فی الکلمات القصار لأمیرالمؤمنین علیه السلام حیث یقول: «الْحَجَرُ الْغَصْبُ فِی الدَّارِ رَهْنٌ عَلَی خَرَابِهَا»[۲۶] أو أنّه إشارة إلی أنّک یاشریح لو اشتریت هذه الدار من المال الحرام فإنّک عمّا قریب سوف تفتضح وتخسر الدنیا مضافاً

إلی خسرانک الآخرة.

ثم إنّ الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام یشیر إلی نقطة مرکزیة فی هذا المقام ویقول:

«أَمَا إِنَّکَ لَوْ کُنْتَ أَتَیْتَنِی عِنْدَ شِرَائِکَ مَا اشْتَرَیْتَ لَکَتَبْتُ لَکَ کِتَاباً عَلَی هَذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِی شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْقُ».

وجملة: «بِدِرْهَمٍ فَما فَوْقُ» یمکن أن یقصد بها أنّ الثمن درهم أو أکثر منه فی القلّة کما ورد فی تفسیر الآیة الشریفة: «إِنَّ اللَّهَ لَایَسْتَحْیِی أَنْ یَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا»[۲۷]. فهنا یقصد من هذا المثال الموجودات الصغیرة ظاهراً کالبعوض وما هو أصغر منها.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۵

القسم الثانی

اشارة

وَالنُّسْخَةُ هَذِهِ:

«هَذَا مَا اشْتَرَی عَبْدٌ ذَلِیلٌ، مِنْ مَیِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِیلِ، اشْتَرَی مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْفَانِینَ، وَخِطَّةِ الْهَالِکِینَ. وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ یَنْتَهِی إِلَی دَوَاعِی الْآفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِی یَنْتَهِی إِلَی دَوَاعِی الْمُصِیبَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّالِثُ یَنْتَهِی إِلَی الْهَوَی الْمُرْدِی، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ یَنْتَهِی إِلَی الشَّیْطَانِ الْمُغْوِی، وَفِیهِ یُشْرَعُ بَابُ هَذِهِ الدَّارِ. اشْتَرَی هَذَا الْمُغْتَرُّ بِالْأَمَلِ، مِنْ هَذَا الْمُزْعَجِ بِالْأَجَلِ، هَذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ، وَالدُّخُولِ فِی ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ، فَمَا أَدْرَکَ هَذَا الْمُشْتَرِی فِیمَا اشْتَرَی مِنْهُ مِنْ دَرَکٍ فَعَلَی مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوکِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمُزِیلِ مُلْکِ الْفَرَاعِنَةِ، مِثْلِ کِسْرَی وَقَیْصَرَ، وَتُبَّعٍ وَحِمْیَرَ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَی الْمَالِ فَأَکْثَرَ، وَمَنْ بَنَی وَشَیَّدَ، وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَادَّخَرَ وَاعْتَقَدَ، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ، إِشْخَاصُهُمْ جَمِیعاً إِلَی مَوْقِفِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ: إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ «وَخَسِرَ هُنالِکَ الْمُبْطِلُونَ» شَهِدَ عَلَی ذَلِکَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَی وَسَلِمَ مِنْ عَلَائِقِ الدُّنْیَا».

الشرح والتفسیر: وثیقة عدیمة النظیر

فی سیاق ما ورد فی القسم الأول من هذه الرسالة، وطبقاً لبعض الروایات فإنّ شریح القاضی طلب من الإمام علیه السلام وثیقة هذه الدار فأوصاه الإمام علیه السلام بأن یکتب

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۶

هذه الوثیقة بهذه العبارة: «هَذَا مَا اشْتَرَی عَبْدٌ ذَلِیلٌ، مِنْ مَیِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ ۲۸] لِلرَّحِیلِ، اشْتَرَی مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْفَانِینَ، وَخِطَّةِ[۲۹] الْهَالِکِینَ».

والجدیر بالذکر أنّ المتداول فی تنظیم الأسناد والمستمسکات لزوم رعایة ستّ جهات:

۱. اسم البائع والمشتری.

۲. عنوان الدار أو العقار مورد المعاملة.

۳. الحدود الأربعة لها وموقع الباب الرئیسی.

۴. الثمن والقیمة.

۵. تعیین المسؤول فی حالة انکشاف الغشّ والخلل.

۶. الشهود.

هنا نری أنّ الإمام علیّ علیه السلام فی هذه الوثیقة التی کتبها لشریح یبدأ بذکر صفات المشتری والبائع ثم یشیر إلی عنوان محلّ الدار

کما ذکر فی العبارهٔ أعلاه.

ثم إنّ الإمام علیه السلام أشار إلی الجههٔ الثالثهٔ: یعنی تعیین حدود الدار الأربعهٔ وقال:

«وَتَجْمَعُ هَـذِهِ الـدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِی إِلَی دَوَاعِی ۳۰] الْآفَاتِ، وَالْحَـدُّ الثَّانِی يَنْتَهِی إِلَی دَوَاعِی الْمُصِـيبَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّالِثُ يَنْتَهِی إِلَی الْهَوَی الْمُرْدِی، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِی إِلَی الشَّيْطَانِ الْمُغْوِی ۳۱]، وَفِيهِ يُشْرَعُ ۳۲] بَابُ هَذِهِ الدَّارِ».

وبما أنّ الإنسان یعیش فی هـذه الـدنیا محاطاً بأربعهٔ عوامل خطیرهٔ: أحدها: ما یصـیب الإنسان من آفات وبلایا، ومن السـیل والأمراض والحروب التی تفرض علی

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۳۷

الإنسان نفسـها، والآخر: المصائب التی یبتلی بها الإنسان فی داخله، من قبیل فقدان بعض أعضاء البدن أو موت الأعزّهٔ والأقرباء وأمثال ذلک من مصائب الدنیا، ومن جههٔ ثالثهٔ ورابعهٔ، ما یواجهه الإنسان من إفرازات الأهواء والشـهوات التی تضـغط علی الإنسان من داخله وتقوده إلی مهاوی الرذیلهٔ، والشیطان الذی یوسوس للإنسان من خارجه کما یقول الإمام علیه السلام عنه: «الشَّيْطَانِ الْمُغْوِی».

هـذه العوامـل الأربعـهٔ تحیـط بالإنسـان من کـلّ الجهـات، ویسـتطیع الإنسان من خلال تهـذیب النفس والسـیطرهٔ علی الأهواء والنوازع النفسانیـهٔ وکبـح جمـاح الشـهوات وبالتصـدّی بحزم لوسـاوس الشـیطان أن یخلّص نفسه من هـذین العـاملین الآـخرین، ولکنّ الآفـات والمصائب التی تصـیب جمیع الناس بلا استثناء غیر قابلهٔ للاجتناب، ولذلک یقول الإمام علیه السلام فی مورد آخر عن الدنیا أنّها: «دارٌ بِالْبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ»[۳۳].

والتعبیر ب «دَوَاعِی فیما یخّص الآفات والمصائب، إشارهٔ إلی الأسباب التی تحیط بالإنسان وتنغّص معیشته.

والتعبیر ب «الْهَوَی الْمُرْدِی إشـارهٔ إلی الأـهواء والشـهوات التی تقود الإنسان فی خطّ الضـلالهٔ والهلکـهٔ المادّیـهٔ والمعنویّـهٔ، لأنّ «ردی بمعنی الهلکهٔ أو الأهواء والنوازع النفسانیهٔ التی تسوق الإنسان نحو هاویهٔ السـقوط، لأنّ اتباع هوی النفس یؤدّی إلی أن یهوی الإنسان من مقام الإنسانیهٔ السامی ویسقط فی أعماق جهنّم.

وجملـهٔ: «وَفِيهِ يُشْـرَعُ بَابُ هَـذِهِ الـدَّارِ» إشـارهٔ إلی أنّ طریق نفوذ الشـیطان یکمن فی بـاب هـذه الـدار الخطیرهٔ، رغم أنّ سائر العوامل الأخری تؤثّر بدورها فی زعزعهٔ استقرار الإنسان وسوقه فی خطّ الرذیلهٔ والسقوط المعنویّ.

وفی سـیاق هذا الکلام یبیّن الإمام علیه السـلام القسم الرابع من هذه الوثیقهٔ ویقرّر أنّ المشتری لهذه الدار مَن یتّصف بالصفات التالیهٔ: «اشْتَرَی هَذَا الْمُغْتَرُّ بِالْأَمَلِ، مِنْ هَذَا

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۳۸

الْمُزْعَجِ بِالْأَجَلِ، هَذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ، وَالدُّخُولِ فِی ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ[۳۴]».

أی أنّ ثمن الدار هو أن یخرج الإنسان من عزّ القناعهٔ ویرتدی لباس الذّل والحرص وحبّ الدنیا.

إنّ عبارات الإمام علیه السـلام فی هذا المقطع من الرسالهٔ وأشکال التجانس والتضادّ الموجود فی هذه الجمل مثیرهٔ للإنتباه: «خروج» و «دخول»، «عزّهٔ» و «ذلّهٔ»، «قناعهٔ» و «حرص».

وفی العبارات أعلاه نشاهد کلمات من الجناس المطلوب مثل: «آفات» و «مصیبات» و «مردی» و «مغوی».

ثم إنّ الإمام علیه السلام یشرع فی بیان النقطهٔ الخامسهٔ المتعلّقهٔ بسند ملکیهٔ هذه الدار وتعیین المسؤول فی مقابل کشف الخلل والضرر والخسارهٔ الناشئهٔ منها ویقول: «فَمَا أَدْرَکَ هَذَا الْمُشْتَرِی فِيمَا اشْتَرَی مِنْهُ مِنْ دَرَکٍ فَعَلَی مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوکِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيـلِ مُلْـکِ الْفَرَاعِنَـةِ، مِثْـلِ کِسْـرَی وَقَيْصَـرَ، وَتُبَّعٍ وَحِمْيَرَ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَـالَ عَلَی الْمَالِ فَأَکْثَرَ، وَمَنْ بَنَی وَشَـيَّدَ، زَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَادَّخَرَ وَاعْتَقَدَ، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ».

إنّ روح کلاـم الإمـام علیه السـلام فی هـذا المقطع من الرسالـهٔ یقرر أنّه إذا اکتشف الإنسـان غشّـاً وفسـاداً أو عیباً ونقصاً فی المعاملـهٔ،

فینبغی أن یکون أحدهم مسؤولًا عن هذا الضرر والعیب، وکذلک إذا تبیّن أنّ المتاع أو البضاعة مغصوبة ومن أملاک الغیر، فیجب العمل طبقاً للعقد المکتوب فی المعاملة، وهنا یقول الإمام علیه السلام: ینبغی التوجّه بالمسؤولیة وجبران هذه النقائص إلی عزرائیل ملک الموت الذی بیده قبض أرواح الملوک وهدم الحکومات، والمزیل لملک الفراعنة والقیاصرة وأمثالهم من الجبابرة الذین قصروا همّتهم علی جمع الأموال وبناء القصور وتشیید المنازل الفخمة

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۹

والإکثار من استملاک الضیاع والعقار، فهؤلاء کلّهم محکومون بالفناء والزوال من واقع الحیاة.

«مبلبل من مادة «بلبلة» علی وزن «مزرعة» ولها معانٍ متعدّدة، فأحیاناً تأتی بمعنی التشویش والاضطراب، وأحیاناً أخری تأتی بمعنی الفرقة والتشرذم، و «ثالثة» بمعنیالفساد، وفی هذه العبارة الأنسب هوالمعنی الأخیر وهو الفساد والمرض الذی یترتّب علی سلب النفوس من جراء زوال الملک الوارد فی العبارة أعلاه.

وینبغی الالتفات إلی أنّ مفردة «کسری» الواردة فی کلام الإمام علیه السلام هی فی الأصل من «خسرو»، ولها مفهوم عامّ یشمل جمیع ملوک الفرس کما أنّ مفردة «قیصر» تستعمل لجمیع ملوک الروم، أمّا «تبع» فتستعمل لملوک الیمن وحِمیر (وکذلک لبعض الملوک فی الیمن) وکلّها تأتی بمعنی الملک والسلطان رغم تنوّع التعبیر لکلّ قوم من الأقوام.

وجملة: «مَنْ بَنَی وَشَیَّدَ» یحتمل فیه معنیان نظراً لوجود کلمة «تشیید» التی تأتی معنی تقویة البناء وکذلک علوّه وارتفاعه، ولا مانع من الجمع بینهما، أی الأشخاص الذین یشیدون الأبنیة والعمارات المرتفعة والقویّة.

وعبارة: «زَخْرَفَ وَنَجَّدَ» کل واحدة منها تشیر إلی نوع من أشکال الزینة، «زخرف» إشارة إلی تزیین البناء والعمارة، و «نجّد» إشارة إلی تزیین الوسائل والأدوات من قبیل الفرش والأثاث والستائر وأمثال ذلک.

جملة: «اعتقد» التثبت والترکیز والاهتمام بدقّة فی حفظ وتنظیم الأسناد والمدارک حیث یسعی طلّاب الدنیا بوسواس کبیر فی حفظ ذخائرهم وأموالهم من خلال هذه الأسناد وحفظها من عدوان الآخرین وإبعادهم عن ممتلکاتهم وهم یظنون أنّها باقیة لأبنائهم من بعدهم.

ثم إنّ الإمام علیه السلام فی سیاق هذه الوثیقة یقول: «إِشْخَاصُهُمْ [۳۵] جَمِیعاً إِلَی مَوْقِفِ

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۰

الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ: إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ «وَخَسِرَ هُنالِکَ الْمُبْطِلُونَ»[۳۶]».

وکلمة: «إشخاصهم» طبقاً للتفسیر أعلاه یقع مبتدأ، و «إِلَی مَوْقِفِ الْعَرْضِ» بمنزلة الخبر[۳۷] ولکن جمع من مفسّری «نهج‌البلاغة» ذهبوا إلی أنّ (إشخاص) مبتدأ مؤخّر، وجملة: «فَعَلَی مُبَلْبِلِ أجْسامِ الْمُلُوکِ ...» خبر مقدّم، وعلی ضوء ذلک یکون مفهوم الجملة: إنّ ملائکة الموت التی تزلزل أجساد الملوک والسلاطین وتقبض أرواحهم وتزیل سلطانهم هم المسؤولون عن کشف الخلل والفساد فی الأملاک الدنیویة یوم القیامة وعند موقف العرض والمیزان الأعمال.

أجل، إنّ جمیع أشکال القدرة والهیمنة معرّضة للزوال، وجمیع الثروات والأموال ستبقی بعد رحیل الإنسان من هذه الدنیا، «کُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِوَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَکُمْ یَوْمَالْقِیَامَةِ ...»[۳۸] ویحضرون إلیالحساب وینالون جزاءهم منالثواب والعقاب.

وفی ختام هذه الوثیقة یشیر الإمام علیه السلام، کما فی الأسناد والمدارک الدنیویة، إلی الشهود لهذه المعاملة المعنویة، ویقول: «شَهِدَ عَلَی ذَلِکَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَی وَسَلِمَ مِنْ عَلَائِقِ الدُّنْیَا».

وبما أنّ الشاهد یجب أن یکون عادلًا وثقة فإنّ الإمام علیه السلام یقول فی هذا الصدد:

إنّ العقل یمکنه أن یکون شاهداً علی هذا الأمر إذا خرج عن أسر الأهواء النفسانیة وتخلّص من العلائق المادیة والدنیویة التی من شأنها تکبیل العقل وحجبه عن درک الحقیقة.

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۴۱

وعلى هذه الأساس يبيّن الإمام علىّ عليه السلام بأجمل صورة وأبلغ بيان، الأركان السّتة لهذه السند المعنوىّ.

تأمّلان

۱. الباعث لكتابة السند

هذا السند العجيب الذين كتبه الإمام علىّ عليه السلام لأحد قضاته يستحقّ الدراسة والتمعّن من عدّة جهات:

الأولى: إنّ ثمانين ديناراً لهـذه الدار لم يكن بالثمن الباهض للدار، ولكن بما أنّ المشترى لهذه الدار أحد القضاة، ومعلوم أنّ القاضـى يقع دائماً فى دائرة الاتّهام والوساوس النفسانية، فمن هذه الجهة لم يرتضِ الإمام عليه السلام لشريح دفع هذا الثمن من المال للدار.

أضف إلى ذلـك فنحن نعلم أنّ عصـر حكومـة وخلافـة الإمـام عليه السـلام جاءت بعـد سـنوات مريرة وخطيرة من خلافـة عثمان التى اقترنت بمظاهر الإسـراف والتبذير بشـكل واسع لبيت المال، وتوجّه بعض رموز المجتمع الإسلامىّ للحياة المرفّهة، والتوغّل فى التجمّل والـثراء، ومن أجـل أن يتصـدّى الإمـام لهـذه الظـاهرة الخطيرة ويوقـف هـذا التيـار عنـد حـدّه، كـان يكـثر فى خطبه وكتبه الواردة فى «نهجالبلاغـة» من التحـذير من زخارف الـدنيا وبريقها الخادع واتّخـذ لنفسه أيضاً حياة الزهـد والتقشّف، وفى حين أنّه يقف على رأس الحكومـة الإسـلاميّة لم يكن مسـتعدّاً أبـداً أن يعطى لأخيه عقيل شـيئاً- ولو قليلًا- من بيت المال، وعنـدما أُخبر بأنّ واليه على البصـرة (عثمان بن حنيف) اسـتجاب لـدعوة أحـد أثرياء تلك المدينـة وجلس على مائدة يسـتطاب فيها أنواع الأطعمة وقد دعى معه طبقة من الأشـراف والأغنياء ولم يـدعَ إليها الفقراء، اغتمّ لـذلك بشـدّة وكتب إليه رسالة شديدة اللهجة يوبّخه فيها على عمله واسـتجابته لدعوة الأغنياء.

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۴۲

كلّ ذلك من أجل أن يغيّر الإمام علىّ عليه السلام تلك الثقافة الخاطئة والمنافية للتعاليم الإسلاميّة، ويعيد المسلمين إلى ثقافة الإسلام الأصـيلة التى عاشوها فى عصـر النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، ومعلوم أنّ شراء القصورالفخمة والبيوت المجلّلةالباهضة الثمن و التّى ربّما تكون أغلى بكثير من دار شـريح، كان متداولًا بين الطبقة المترفة من المسـلمين، ولكن هذه الرسالة كانت بمثابة إنذار للجميع أن يأخذوا حذرهم ويحسبوا حسابهم وخاصة من المنتسبين للحكومة الإسلاميّة ليكونوا على فاق تامّ مع توجّهات الحكومة الإسلاميّة.

ومعلوم أيضاً أنّ هـذه الرسالـة قـد انتشـرت فى ذلك الوقت بين الناس من يـد لأخرى وقـد اطّلع الكثير على مضـمونها وأنّ الإمام عليه السـلام كتب رسالة بهذه المضـمون إلى شريح القاضى، وبالتالى انتبه البعض إلى تطّلعات الإمام عليه السلام وربّما أدّى بالبعض الآخر أن يوفّق مسيرته وسلوكياته مع تعاليم الإمام عليه السلام خوفاً من اعتراض الناس.

هـذه الرسالـة لا تخّص ذلك العصـر والزمان، بل تمتـدّ بمضـمونها وفحواها إلى عصـرنا هـذا والمسـتقبل، وتصدّق على جميع الأجيال والعصور ولا تختصّ بطائفة معيّنة أو شريحة خاصّة من الناس.

نحن اليوم نرى بعض الأشـخاص يبذلون الكثير من الأموال لبناء الدور الفخمة ويتعبون أنفسـهم فى تشـييدها بأغلى الزينة ويشترون لها الكثير من الأثاث وغير الأثاث واللوازم غير الضـرورية ويجلبون لها من التحف والزخارف والأمور النفيسـة من شتّى بقاع العالم وأحياناً ينفقون عمرهم لبنـاء هـذه الـدار وربّمـا ينتهى عمرهم دون أن ينتهى البنـاء، وغنىّ عن البيـان أنّ مثـل هـذه النفقات الباهضـة لا يمكن للإنسان توفيرها من طريق مشروع، وبالتالى يكون وزرها وإثمها على عاتقه، بينما يستفيد منها الآخرون.

۲. من هو شريح؟

شريح بن الحارث، أبواميّة من قبيلة «بنى كندة» وما ذكره البعض من كونه شريح

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۴۳

بن هانى فهو خطأ، ولكن هناك بحث بين المؤرّخين هل أنّ شريح من الصحابة أم لا؟ فقد ورد فى كتاب «اسد الغابة»: أنّ شريح أدرك عصر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولكنّه لم يحضَ بلقائه، وقال بعضهم: إنّه لقى النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأسلم على يده وقال شريح:

يارسول اللَّه! أنا من اسرة كثيرة العدد فى اليمن، فقال النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله: فِاتِ بهم.

ولكنّه عندما أتى باسرته إلى المدينة كان النبىّ قد رحل من هذه الدنيا.

يقول ابن الأثير فى «اسدالغابة»: كان عمر بن الخطّاب قد نصبه قاضياً للكوفة وبقى على هذا المنصب إلى زمان أميرالمؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام، وقد أبقاه الإمام فى منصبه لسابقته فى هذا العمل، ولكن طبقاً للرواية المعتبرة الواردة فى كتاب «وسائل الشيعة»: أنّ الإمام عليه السلام اشترط عليه أن لا- يصدر حكماً دون اطّلاعه وإعلامه: «لَمّا ولّى أميرُالْمُؤْمِنينَ شُرَيْحاً القَضاءَ اشْتَرَطَ عَلَيْه أنْ لا يُنْفِذَ الْقَضاءَ حَتّى يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ»[۳۹].

وبقى شريح فى هذه المنصب إلى زمان الحجّاج.

وذهب جماعة من المؤرّخين أنّ شريحاً كان ذكياً وبارعاً، ولكنّ هذا لا يعنى أنّه لم يترکب بعض الأخطاء الفاحشة فى أمر القضاء والتى وردت موارد منها فى كتب الحديث ۴۰].

كتب الدميرى صاحب كتاب «حياة الحيوان»: قيل للشعبىّ (وهو من التابعين) يقال فى المثل «إنَّ شُرَيْحاً كانَ أدْهى مِنَ الثَّعْلَب وأحْيَل»، فما هذا؟

فقال: خرج شريح أيّام الطاعون إلى النجف، فكان إذا قام يصلّى يجىء ثعلب فيقف تجاهه ويحاكيه ويخيّل بين يديه ويشغله عن صلاته، فلما طال ذلك عليه نزع قميصه فجعله على قصبة وأخرج كميّه وجعل قلنسوته عليها، فأقبل الثعلب فوقف بين يديه على عادته فأتاه شريح من خلفه وأخذه بغتة فلذلك يقال: «إنَّ شُرَيْحاً كانَ

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۴۴

أدْهى مِنَ الثَّعْلَب وأحْيَل»[۴۱].

ويرى ابن خلكان أنّ شريحاً كان من التابعين رغم أنّه أدرك عصر الجاهلية وقال ابن خلكان: إنّ شريحاً جلس على كرسى القضاء خمس وستين عاماً وفى طيلة هذه المدة لم يترك القضاء سوى ثلاث سنوات فى زمن فتنة عبداللَّه بن الزبير، وقد استقال من منصبه فى زمان الحجّاج ولم يمارس القضاء إلى آخر عمره.

وذكر المؤرخون أنّه كان أمرداً.

أمّا فيما يخصّ عمره فهناك خلاف، حيث ذهب بعض إلى أنّه بلغ من العمر مائة وعشرين سنة، وذهب آخرون إلى عمره مائة وعشر سنوات، بينما ذكر آخرون أقلّ من هذا وأكثر.

ولا شكّ أنّ شريحاً قد اصيب فى خاتمة عمره بسوء العاقبة، وأحد الشواهد على ذلك القصّة التى يذكرها الطبرى فى تاريخه عن أبى مخنف، يقول: حدّثنى الصقعب ابن زهير عن عبدالرحمن بن شريح قال: سمعته يحدّث إسماعيل بن طلحة، قال:

دخلت على هانى بن عروة (فى زمن إمارة ابن زياد على الكوفة) فلمّا رآنى قال: يا للَّه، يا للمسلمين أهلكت عشيرتى فأين أهل الدين وأين أهل المصر، إيّاى يخلّون وعدوّهم وابن عدوّهم، والدماء تسيل على لحيته، إذ سمع الرجّة على باب القصر، وخرجت واتبعنى

فقال: يا شريح إنّى لأظنّها أصوات مذحج وشيعتى من المسلمين، إن دخل علىَّ عشرة نفر أنقذونى، قال: فخرجت إليهم ومعى حميد بن بكر الأحمرىّ- أرسله معى ابن زياد- وكان من شرطته وممّن يقوم على رأسه، وأيم اللّه لولا مكانه معى لكنت أبلغت أصحابه ما أمرنى به، فلمّا خرجت إليهم قلت: إنّ الأمير لمّا بلغه مكانكم ومقالتكم فى صاحبكم أمرنى بالدخول إليه، فأتيته ونظرت إليه فأمرنى أن ألقاكم وأن اعلمكم أنّه حىّ وأنّ الذى بلغكم من قتله كان باطلًا، فقال عمرو وأصحابه: فأمّا إذ لم يقتل فالحمد اللّه، ثم انصرفوا[۴۲].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۵

فلمّا انصرف الناس أقدم ابن زياد على قتل هانى، وفى الحقيقة أنّ شريحاً كان يعلم أنّ هانى فى خطر، فلماذا أمر أصحابه وأنصار بالعودة والانصراف وقدّم رضا ابن زياد على رضا اللّه عزّ وجلّ؟! إنّ المواقف غير المسؤولة أو السكوت المشبوه فى مقابل استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأسر ذرّيته وأهل بيته والمجىء بهم إلى الكوفة، كلّها شواهد أخرى على خبث طبعه وضعف نفسه واهتزاز إيمانه، فلو أنّ شريحاً لم يأمر قبيلة بنى مذحج بالعودة عندما أحاطوا بدار الإمارة، فإنّه من الممكن أن تتغيّر أوضاع الكوفة وتنقلب الموازين ضدّ قوى الكفر والانحراف ويكون مصير ثورة الإمام الحسين عليه السلام بشكل آخر[۴۳].

يستفاد من رواية أبى مخنف فى كتابه (مقتل الحسين) أنّ المختار عندما ولى أمر الكوفة عزل شريحاً من منصبه بسبب تقصيره فى أمر نصرة الإمام الحسين عليه السلام ۴۴].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۷

الرسالة ۴

اشارة

إلى بَعْضِ أُمَراءِ جَيْشِهِ ۴۵]

نظرة إلى الرسالة

إنّ مضمون هذه الرسالة بيّن وجلىّ، فالإمام علىّ عليه السلام يأمر فيها أحد قادة جيشه الذى كان يواجه فئة من المنحرفين والعصاة أن يأخذهم بالنصيحة والعودة إلى خطّ الطاعة والإيمان، فإن لم يقبلوا فيجب عليه استخدام القوّة فى سبيل إسكات هذا التمرد وإطفاء نار الفتنة.

وكما سنشير لاحقاً أنّ المخاطب لهذه الرسالة هو عثمان بن حنف والى البصرة والذى كان فى ذلك الوقت قائداً لجيش الإمام عليه السلام فى تلك المنطقة، ومن هنا عبّر السيّد الرضىّ فى عنوان هذه الرسالة أنّها: «إلى بَعْضِ أُمَراءِ جَيْشِهِ».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۹

فَإنْ عَادُوا إلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَاكَ الَّذِى نُحِبُّ، وَإنْ تَوَافَتِ الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إلَى الشِّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إلَى مَنْ عَصَاكَ، وَاسْتَغْنِ بِمَنِ انْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ، فَإنَّ الْمُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ.

الشرح والتفسير: يجب إقالة الضعفاء

قبل البحث فى تفسير هذه الرسالة لابدّ من الالتفات إلى شأن صدورها، فقد ذكر المرحوم الشيخ المفيد فى كتاب الجَمَل:

«لمّـا تمّ أمر البيعـة لأـميرالمؤمنين علىّ بن أبى طـالب عليه السـلام واتّفـق على طـاعته عامّـة بنى هـاشم و وجـوه المهـاجرين والأنصـار والتابعين بإحسان، وأيس طلحـة والزبير ممّا كانا يرجو انه بقتل عثمان من بيعـة الناس لأحـدهما بالإمامة، وتحقّقت عائشة بنت أبى بكر تمـام الأـمر لأـميرالمؤمنين عليه السـلام واجتمـاع النـاس عليه وعـدو لهم عن طلحـة والزبير و كـانت تعلم أن كثيراً من النـاس يميل لها لمكانها عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأنها من أمّهات المسلمين، و ....

ولمّا عرف طلحـة والزبير من حالها وحال القوم، عملا على اللحاق بها والتعاضـد على شـقاق أميرالمؤمنين عليه السـلام وسارا إلى مكّة خـالِعَيْن الطاعـة ومفارِقَين الجماعـة، فلما وردا إليها فيمن تبعهما من أولادهما وخاصـتهما، طافا بالبيت طواف العمرة وسـعيا بين الصـفا والمروة، وبعثا إلى عائشة عبداللَّه بن الزبير وقالا له: إمضِ إلى خالتك فاهدِ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۰

إليها السـلام منّا وقل لها: إنّ طلحة والزبير يقرء انك السلام ويقولان لك: إنّ أميرالمؤمنين عثمان قتل مظلوماً، وأنّ على بن أبى طالب ابتزّ الناس أمرهم وغلبهم عليه بالسـفهاء الـذين تولّوا قتل عثمان ونحن نخاف انتشار الأمر به، فإن رأيتِ أن تسيرى معنا، لعل اللَّه يرتق بك فتق هذه الامّة ويشـعب بك صدعهم ويلمّ بك شـعثهم ويصـلح بك امورهم، فأتاها عبداللَّه فبلّغها ما أرسلاه به، فأظهرت الامتناع من إجابتهما إلى الخروج عن مكة وقالت: يا بنى لم آمر بالخروج لكنى رجعت إلى مكة لأعلم الناس ما فعل بعثمان إمامِهم ....

فقال لها عبـداللَّه: فإذا كان هـذا قولك فى علىّ يا امّه، ورأيك فى قاتلي عثمان فما الـذى يقعـدك عن المساعدة على جهاد علىّ وقد حضرك من المسلمين من فيه غنىً وكفاية فيما تريدين! فقالت: يا بنىّ افكّر فيما قلتَ وتعود إلىّ ... ولما كان الغد أجابت إلى الخروج ....

إن عائشـة وطلحة والزبير لما ساروا من مكة إلى البصـرة أغذّوا السير مع من اتبعهم من بنى‌اميّة وعمال عثمان وغيرهم من قريش حتى صاروا إلى البصرة فنزلوا حفر أبى‌موسى فبلغ عثمان بن‌حنيف وهو عامل البصرة يومئذٍ وخليفة أميرالمؤمنين عليه السلام».

فكتب عثمان بن حنيف كتاباً لأميرالمؤمنين عليه السـلام يعلمه فيه بـدخول عائشـة وطلحـة والزبير البصـرة ويطلعه على مجريات الأمور فيها، فكانت هذه الرسالة- مورد البحث- جواباً على رسالة عامله عثمان بن حنيف، يأمره فيها والمخلصـين له من أهل البصرة بالوقوف بوجه المتمردين وقتالهم [۴۶].

والآـن نـأتى إلى شـرح هـذه الرسالـة، فالإمـام يقول فيها: «فَإنْ عَادُوا- أى المتمرّدين الـذين لم يمتثلوا الأوامر فى جيش طلحـة والزبير، فعليكم بتقديم النصحية لهم- إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَاکَ الَّذِى نُحِبُّ، وَإنْ تَوَافَتِ [۴۷] الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۱

الشِّقَاقِ والْعِصْيَانِ فَانْهَدْ[۴۸] بِمَنْ أَطَاعَکَ إِلَى مَنْ عَصَاکَ وَاسْتَغْنِ بِمَنِ انْقَادَ مَعَکَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ [۴۹] عَنْکَ .

والتعبير ب «ظِلِّ الطَّاعَةِ» تعبير لطيف ويشير إلى أنّ العصيان والتمرّد ومخالفة أوامر الحاكم الإسلامىّ حالها حال الشمس المحرقة، بينما الطاعة والسكينة وامتثال أوامر القادة العدول بمثابة الظلّ الوارف الذى يعمّ خيره المجتمع الإسلامىّ.

والفرق بين الشـقاق والعصـيان، أنّ الشـقاق بمعنى الفرقـة والانفصال، وأمّا العصـيان والتمرّد فشـىء أعلى وأشدّ من مجرّد الافتراق عن جماعة المسلمين.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير فى ختام هذه الرسالة إلى الدليل على أمره هذا ويقول:

«فَإنَّ الْمُتَکَارِهَ [۵۰] مَغِيبُهُ [۵۱] خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ».

وهـذا هو مـا ذكر القرآن الكريم عن بعض المنـافقين فى سورة التوبـة وقـال: «لَوْ خَرَجُوا فِيکُمْ مَّا زَادُوکُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَکُمْ يَبْغُونَکُمُ الْفِتْنَةَ»[۵۲].

فالعناصـر الضـعيفة التى تخاف من النزول إلى ساحـة القتال وتكره مواجهـة الأعـداء لا تزيـد الجيش الإسـلامىّ إلّاضـعفاً، وبالتالى فإنّ

غيابهم وعدم حضورهم أفضل من مشاركتهم فى المواجهة الحاسمة.

تأمّلان

۱. جرائم الناكثين فى معركة الجمل

يستفاد من تاريخ الطبرى وبعض الكتب الأخرى وكذلك فى خطبة ۱۷۲ التى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۲

سبق وأن شرحناها بالتفصيل أنّ عثمان بن حنيف بعد ورود طلحة والزبير وجيشهما إلى البصرة جاء إلى هذه المدينة ومعه أمر من الإمام علىّ عليه السلام بمواجهة المتمرّدين وعناصر الشغب فى البصرة إلى أن يأتى إليها الإمام عليه السلام بنفسه، ولكنّ أهل البصرة انقسموا إلى فئتين: فئة تقول بوجوب نصرة الإمام علىّ عليه السلام ضد مناوئيه، وفئة أخرى تؤيّد المخالفين والمتمرّدين وتقول بوجوب نصرة عائشة زوجة النبىّ وأنصارها، وكانت هناك بعض المناوشات بين هاتين الفئتين، والجدير بالذكر أنّ (جارية بن قدامة) وهو أحد رؤساء قبائل البصرة جاء إلى عائشة فقال: ياامّ المؤمنين، واللّه فإنّ قتل عثمان بن عفّان أهون من خروجكِ من بيتكِ على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، إنّه قد كان لك من اللّه ستر وحرمة فهتكتى ستركِ وأبحتى حرمتكِ، إنّه من رأى قتالك فإنّه يرى قتلكِ، إن كنتِ أتيتنا طائعة فارجعى إلى منزلكِ وإن كنتِ أتيتنا مستكرهة فاستعينى بالناس.

وعلى أيّة حال، فإنّ طلحة والزبير وأتباعهم كانوا قد لبسوا الدروع تحت لباسهم وجاؤوا إلى المسجد عند الفجر لإقامة صلاة الصبح، وجاء عثمان بن حنيف إلى المسجد وهو لا يعلم بمجريات الأمور ليصلّى بالناس أيضاً، فجاءه أنصار طلحة والزبير وسحبوه من ردائه وقدّموا الزبير للصلاة، وكانت طائفة من حراس بيت المال يدعون «السبابجة» أخرجوا الزبير من المسجد ووضعوا عثمان مكانه، ولكنّ أنصار الزبير هجموا عليهم ودفعوا عثمان بن حنيف وأتباعه من موقعهم، واستمرّ هذا التدافع والمناوشات إلى طلوع الشمس، فصاحت جماعة: ياأصحاب محمّد اتّقوا اللّه فإنّ الشمس قد أوشكت على الطلوع فكيف الصلاة؟ وأخيراً تغلّب الزبير وأنصاره وأقام الزبير صلاة الصبح بالناس، وبعد الصلاة هجم الزبير مع أنصاره المسلّحين على عثمان بن حنيف وأتباعه وقبضوا عليه وضربوه حتى كاد أن يموت ونتفوا شعر رأسه ولحيته وأهدابه، وعذّبوا جماعة من أنصاره وقتلوهم.

وقد أشار الإمام علىّ عليه السلام فى الخطبة ۱۷۲ إلى هذه القضيّة وقال: «فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۳

يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحَلَّ لِى قَتْلُ ذلِكَ الْجَيْشِ، كُلِّهِ»[۵۳].

وطبعاً فإنّ هذه المناوشات غير ما حدث من تنازع واختلاف بين طلحة والزبير على مسألة إمامة الصلاة، حيث كان كلّ منهما يريد إمامة الجماعة فتوسّطت عائشة بينهما وتقرّر أن يصلّى بالناس عبداللّه بن الزبير.

وقد ارتكب أتباع طلحة والزبير وعائشة فى هذة المدّة جرائم عجيبة، منها أنّهم قتلوا «السبابجة» الذين كان عددهم سبعين رجلًا وقيل: أربعة نفر، وقطعوا رؤوسهم بأمر من عائشة، وقد استمرّت هذه الأوضاع الدامية إلى أن جاء الإمام علىّ عليه السلام وجيشه وسحقوا المتمرّدين والناكثين فى معركة الجمل وقتل طلحة والزبير وأرسل الإمام عليه السلام عائشة مع جماعة من الحرس إلىالمدينة، وعاد الهدوء والأمن إلى البصرة[۵۴].

۲. على مَن يمكن الاعتماد؟

وقد أشار الإمام علىّ عليه السلام فى هذه الرسالة إلى نقطة مهمّة جديرة بتدبّر واهتمام جميع القادة والعسكريين، وهى أنّه لا ينبغى

الاعتماد على العناصر المهزوزة وضعيفة الإرادة فى حسابات المعركة، ولا ينبغى تحشيدهم لمجرّد تكثير السواد فى ميدان القتال، لأنّ ضررهم وخطرهم أكثر من نفعهم، فعدم حضور هؤلاء المزيّفين، فى ميدان القتال يوجب السكينة والطمأنينة فى قلوب المجاهدين وبالعكس فإنّ حضورهم ومشاركتهم تؤدّى إلى اهتزاز الموقف وتشويش النوايا واضطراب الدوافع.

وقد ورد فى القرآن الكريم ما يشبه هذا المعنى كما أسلفنا فى معركة تبوك (وكذلك معركة احد) وفى المورد الأول يقول القرآن الكريم: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۴

زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَهَ»[۵۵]. والفتنة هنا العمل على إيجاد الفرقة والنفاق وتمزيق الصف.

وبالنسبة لغزوة أُحد تقول الآية الشريفة بعدها: «لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كارِهُونَ»[۵۶] أى أنّ هؤلاء كان قد سبق أن طلبوا الفتنة وتشويش الأمور فى معركة احد.

وخلاصة الكلام، أنّ الآيات الشريفة أعلاه تبيّن لجميع المسلمين درساً مهمّاً وهو أنّه لا ينبغى لهم الاهتمام بزيادة عدد الجيش وكثرة الجنود، بل ينبغى الاهتمام بكسب واختيار الأشخاص الذين يتمتّعون بروح الإيمان والإخلاص مهما كان عددهم قليلًا، كما يظهر ذلك من الآيات الشريفة التى تتحدّث عن قصّة بنى اسرائيل وطالوت وجالوت: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ»[۵۷].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۵

الرسالة ۵

اشارة

إلى الأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ عامِلِ أَذْرَبيجان ۵۸]

نظرة إلى الرسالة

هذه الرسالة تشير فى الأساس إلى نقطة واحدة، وهى أنّ المقامات والمناصب فى الحكومة الإسلاميّة ليست وسيلة للوصول إلى المال والثروة وما إلى ذلك، بل هى أمانات إلهيّة يجب مراعاتها بدقة والالتزام بلوازمها من موقع الوعى والإيمان، ولهذا السبب لا ينبغى استخدام وسائل الإكراه ومنهج الاستبداد فى إدارة الامور وكذلك لزوم الاحتياط التام فى التعامل مع بيت المال.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۷

وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَلكِنَّهُ فِى عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعًى لِمَنْ فَوْقَكَ. لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِى رَعِيَّةٍ، وَلَا تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ، وَفِى يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّى أَلَّا أَكُونَ شَرَّ وُلَاتِكَ لَكَ، وَالسَّلَامُ

الشرح والتفسير: المناصب الحكوميّة فى الإسلام أمانة إلهيّة

كما أشرنا آنفاً أنّ السيد الرضى الذى أورد هذه الرسالة نقل مقطعاً من رسالة مفصلة وردت فى كتاب وقعة صفين، ويستفاد من هذه الرسالة أنّ الأشعث بن قيس وبسبب السوابقه السيئة كان يشعر بالقلق على موقعه بعد استلام الإمام علىّ عليه السلام مقاليد الخلافة فربّما عزله الإمام عليه السلام عن إمارة آذربايجان وبذلك اتّخذ من معركة الجمل وقتل عثمان ذريعة للتمرّد على حكومة الإمام عليه السلام، ومن أجل ذلك والحيلولة دون وقوع الفتنة، كتب له الإمام عليه السلام هذه الرسالة ليتدارك أمره وقد ذكر فى بدايتها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم مِنْ عَبْدِاللَّهِ عَلِيٍّ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ إِلَى الأشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ أَمَّا بَعْدُ، فَلَوْ لَاهَنَاتٌ وَهَنَاتٌ كُنَّ مِنْكَ لَكَنْتَ الْمُقَدَّمُ فِى هذَا الأَمْرِ قَبْلَ النَّاسِ وَلَعَلَّ آخِرَ أَمْرِكَ يَحْمَدُ أَوَّلَهُ، وَيَحْمِلُ بَعْضُهُ بَعْضاً، إِنِ اتَّقَيْتَ اللَّهَ- عَزَّ وَجَلَّ».

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام، فى سياق هذه الرسالة، أشار إلى قتل عثمان وبيعة الناس له وتمرّد طلحة والزبير ونقضهم البيعة له وأضاف: أنّهما أخرجا عائشة من بيتها إلى البصرة وأنّى قد سرت إليهم مع ثلّة من المهاجرين والأنصار حتى اصطفّ الجيشان

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۸

وتقابل جيش الحقّ مع زمرة المتمرّدين والمخالفين وطلبت منهم الكفّ عن التمرّد والعناد والعودة إلى البيعة والوفاء بالعهود، وقد أتممت عليهم الحجّة ولكنّهم لم يقبلوا إلّا بالقتال، وما كان من أمر المعركة ما كان ودارت عليهم الدائرة وجرح بعضهم وفرّ الآخرون، وقد أمرت أن لا- يجهز على المجروحين ولا- يتمّ تعقيب الهاربين وكل من ألقى سلاحه على الأرض ورجع إلى داره وأغلق بابه عليه فهو آمن ۵۹].

ثم إنّ الإمام عليه السلام فى هذه المقطع من الرسالة الذى ينقله السيّد الرضىّ يقول محذّراً بجملتين ذات معنى عميق: «وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ[۶۰] وَلكِنَّهُ فِى عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعًى لِمَنْ فَوْقَكَ».

التعبير أعلاه يبيّن رؤية الإسلام للمناصب الحكومية والمسؤوليات التى تقع على عاتق أصحاب الشأن السياسى، ومن وجهة نظر الإسلام أنّ رئيس الحكومة، الوزراء، الامراء، والولاة، ليسوا سوى امناء يتولّون إدارة أمور المجتمع الإسلامىّ ويتحمّلون الأمانة الإلهيّة فى هذا الشأن، فلا ينبغى استخدام هذه المناصب وسيلة لاحراز التفوق وتغليب المصالح الشخصية والتوصّل إلى المآرب الذاتية والفئوية بل ينبغى مراعاة هذه المسؤولية كالشخص الأمين الذى يجب عليه إعادة الأمانة سالمة إلى أهلها.

وقد ورد هذا المعنى فى روايات عديدة فى تفسير الآية الشريفة: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا»[۶۱]، فإنّ هذه الأمانة هى الولاية وحكومة الأولياء الصالحين ۶۲].

وطبعاً أنّ تفسير هذه الآية لا يعنى أنّ مفهوم الآية ينحصر فى أمر الحكومة

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۹

والإمامة، بل هى من المصاديق البارزة والمهمّة لهذا المفهوم الأخلاقى الواسع.

ثم إنّ الإمام عليه السلام بعد أن يتقدّم للأشعث بهذا الإنذار يبيّن ثلاث وظائف له بوصفه والياً، فيقول أوّلًا: «لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ ۶۳] فِى رَعِيَّةٍ[۶۴]».

بل يجب عليك العمل وفق الموازين الإلهيّة وما ورد فى تعاليم الإسلام عن حقوق اللَّه، لا أن تتصرّف كما يحلو لك، وتتعامل مع الرّعية كما يتعامل السيّد مع عبيده.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يقرّر الأمر الثانى ويقول: «وَلَا تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ». أى أنّه لا ينبغى لك فى الأعمال المهمّة والخطيرة أن تتسرّع وتقدم عليها بدون اطمئنان من النتائج.

ومع الالتفات إلى أنّ جملة «وَلَا تُخَاطِرَ» من مادة خطر، وأنّ كلمة خطير تستخدم للأمور المهمّة بسبب الأخطار المترتبة عليها، فيكون مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة هو اجتناب الإقدام على أىّ عمل مصيرىّ للناس والمجتمع إلّابعد التأمل والدقّة والمشورة، وإذا لزم الأمر يجب الاستئذان من الإمام والقائد الأعلى، لأنّه من أجل حفظ الأمانات المهمّة لابدّ من الامتناع من أى عمل خطير، وعلى ضوء ذلك فإنّ مفردة «وثيقة» تستوعب فى مضمونها التفكر والتأمل وكذلك المشورة والاستئذان من الإمام عند اللزوم.

وفى الأمر الثالث الذى أكّد عليه الإمام عليه السلام فيما يتّصل بحفظ الأموال وبيت‌المال،

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۶۰

قال عليه السلام: «وَفِى يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ».

وفی نهایـة هـذه الرسالـة یثیر الإمام علیّ علیه السـلام فی نفس والیه الطمأنینـة بأنّه إذا سار فی الخطّ السـلیم وحفظ هـذه الأمانة الإلهیّة ورعی شؤون هذه المسؤولیة فالإمام علیه السـلام لا یتعرّض له بأیّ مکروه وسیکون فی أمان من المؤاخذة، یقول: «وَلَعَلِّی أَلَّا أَکُونَ شَرَّ وُلَاتِکَ لَکَ وَالسَّلَامُ».

وبدیهیّ أنّ هذا التعبیر زاخر بالتواضع ومفعم بالابوّة.

تأمّلات

۱. دستور کامل

اللافت أنّ الإمام علیه السلام فی هذا المقطع القصیر من الرسالة بیّن جمیع ما ینبغی عمله لمسؤول سیاسیّ فی الحکومة الإسلامیّة، ففی البدایة بیّن حقیقة منصبه وماهیّة هذه المقام لیعیش الوالی الوعی الکامل بمقتضیات هذا المقام وأنّه لیس سوی أمین لا حاکم متسلّط علی رقاب الناس.

ثمّ یلفت الإمام علیه السلام النظر إلی أوّل شیء یصیب الولاة فی عملیّة الحکم وهو مسألة الاستبداد بالرأی وترجیح الرغبات الشخصیة والرؤی الذاتیـة علی منـافع الناس ومصالـح الامّـة، وخاصّـة أنّ الإمام علیه السـلام اسـتخدم فی هـذه العبارة مفردة «الرعیّـة» التی توحی بمفهوم ضرورة مراعاة هذه الطبقة ولزوم النظر فی مصالحهم وتقدیم النفع الجمعی فی سلّم الأولیات.

ثمّ إنّ الإمام علیه السـلام یأمر والیه بأن لا یحسب الأمور الاجتماعیـة المهمّة کالأمور الشخصـیّة، فلا ینبغی أن یتسـرّع فی اتّخاذ التدابیر الخطیرة بدون النظر إلی أبعادها وآثارها فیالمجتمع، وأن لایتصرّف من دون الاطمئنان والنظر إلی عواقبها وتداعیاتها.

وأخیراً أشار الإمام علیه السـلام إلی أحـد العوامل التی تؤدّی إلی فساد وانهیار الحکومات وهی مسألـة الأموال والثروات العامّـة واعتبر هذه الأموال «مال اللَّه» وهذا هو التعبیر

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۶۱

الـذی ورد فی القرآن الکریم عنـدما تحـدّث عن العبیـد الـذین تحرّروا من ربقـة الرّق والأـمر الشـرعی بإعطائهم المال الکافی لمزاولة العمل والکسب وأداء دیونهم فقال تعالی: «وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِی آتاکُم»[۶۵].

ثم إنّ الإمام علیه السـلام یأمر والیه بوصـفه أمیناً وخازناً لمال اللَّه ویأمره بالمحافظة علی هذا المال إلی أن یصل بید الإمام ویتمّ توزیعه علی مستحقیّه.

وفی ختـام الرسالـة یثیر الإمـام علیه السـلام الاطمئنان فی نفس والیه أنّه لو لم ینحرف عن جادّة الصواب ومسیر الحق فإنّه سـیکون فی أمان من المؤاخـذة والعقوبـة، ولکنّ الإمام علیه السـلام فی ذات الوقت یحـذّر من مغبّـة عـدم العمل بالنصائح الثلاث المذکورة لهذه الرسالة وأنّه ینبغی للأشعث أن ینتظر العواقب السّیئة من جرّاء عدم امتثال الأوامر.

وممّا یجـدر ذکره أنّ نصـر بن مزاحم یـذکر فی کتاب «صـفّین»: «لمّا کتب علیه السـلام إلی الأشـعث مع ماضـیه الأسود، قال الأشـعث لأصـحابه: قـد أوحشـنی وهو آخـذنی بمال آذربایجان، وأنا لاحق بمعاویة، فقالوا: الموت خیر لک من ذلک، أتدع مصـرک وجماعة قومک وتکون ذَنَباً لأهل الشام، فسار حتّی قدم علیه علیه السـلام». فانتبه الأشـعث إلی خطئه وجاء أخیراً إلی الإمام علیه السلام وسکن فی الکوفة»[۶۶].

۲. من هو الأشعث بن قیس؟

تقـدّم فی الجزء الأول من هـذه الدورة وفی ذیل الخطبة ۱۹ أنّ الإمام علیّ علیه السـلام کتب رسالة شدیدة اللهجة للأشـعث بن قیس،

وكتبنا شرحاً وافياً عن حال الأشعث واسمه الحقيقى، معدى كرب وبسبب شعره الجعد سمّى بالأشعث بحيث غلب على اسمه الأصلىّ وبقى هذا الاسم الثانى متداولًا ومعروفاً بين الناس.

وللأشعث ماضٍ أسود وسوابق سيئة كثيرة، فقد ارتكب الكثير من الجرائم فى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۶۲

عصر الجاهلية وتمّ أسره من قِبل أعداء قومه واضطرّ قومه إلى دفع مبلغ كبير كفدية لتحريره من الأسر.

أمّا تاريخه المظلم فيشير إلى أنّه كان من المنافقين، وكان فى زمان حكومة الإمام علىّ عليه السلام- كما يذكر ذلك بعض المؤرّخين- الأساس والأصل لجميع المفاسد والخلل فى المجتمع الإسلامىّ، وقد عمل مع عمرو بن العاص فى حرب صفّين لإيجاد النفاق والبلبلة فى صفوف جيش الإمام عليه السلام.

وقد نُصّب الأشعث بن قيس والياً على آذربايجان، وبعد ذلك أبقاه الإمام عليه السلام فى منصبه- طبقاً لرواية- مداراة له لئلّا يتوجّه إلى الشام ويلتحق بمعاوية.

واللافت أنّ أبابكر زوّج اخته ام فروة للأشعث ليأمن خطره، ولدت له هذه المرأة ثلاثة أبناء أحدهم محمّد الذى كان أحد قادة جيش ابن زياد فى كربلاء لمواجهة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وكانت للأشعث بنت تسمى جعدة، ونعلم جميعاً أنّها زوجة الإمام الحسن عليه السلام وقد أقدمت على قتل الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بالسّم، ومعلوم أنّ الأشعث أيضاً كان من الأشخاص الذين اشتركوا فى قتل أميرالمؤمنين الإمام علىّ عليه السلام [۶۷].

ونختم هذا الكلام بحديث عن أميرالمؤمنين علىّ عليه السلام حول الأشعث حيث قال عليه السلام مخاطباً الناس: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الْأَشْعَثَ لَايَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَإِنَّهُ أَقَلُّ فِى دِينِ اللَّهِ مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[۶۸].

والجدير بالذكر أنّ الأشعث أصبح والياً على آذربايجان فى عهد خلافة عمر ابن الخطاب وبقى فى هذا المنصب فى عهد عثمان وكذلك بقى فيه لمدّة معينة من خلافة الإمام علىّ عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۶۳

۳. آذربايجان فى خارطة البلاد الإسلاميّة سابقاً

يستفاد من كتاب «فتوح البلدان» للبلاذرى و «تاريخ الطبرى» و «معجم البلدان» للحموى بشكل إجمالىّ أنّ منطقة آذربايجان تمّ فتحها فى عام ۲۰ للهجرة تقريباً ودخلت فى دائرة البلاد الإسلاميّة، ولكن لم تمض فترة وجيزة حتّى قامت جماعة من الأقوام المعادية واستولت على تلك المنطقة، فبعث الخليفة الثانى الأشعثَ بن قيس واستطاع فتحها مرّة ثانية وبقى الأشعث والياً على تلك المنطقة.

أمّا حدود آذربايجان فى ذلك الوقت فكانت أوسع من آذربايجان الحالية حيث كانت تضمّ مضافاً إلى مدينة تبريز، خويى سلمان وارومية وأردبيل ومناطق من كيلان ومازندران أيضاً وكانت تمتد من جهة الغرب إلى الحدود الرسمية الحالية، يقول الحموى: «تعتبر هذه المنطقة مملكة عظيمة وتتمتع ببركات كثيرة وهى منطقة خضراء وفيرة المياه وفيها عيون كثيرة» ويقول اليعقوبى فى تاريخه: «إنّ معاوية كان يستلم فى كلّ عام ثلاثين ألف ألف درهم من خراج آذربايجان، وهذا يشير إلى وسع تلك المنطقة ووفرة خيراتها»[۶۹].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۶۵

الرسالة ۶

اشارة

إلى مُعاوِيَةَ[۷۰]

نظرة إلى الرسالة

كان الإمام علىّ عليه السلام يهدف من خلال هذه الرسالة إلى إتمام الحجّة على معاوية من خلال عدّة أمور:
الأول: إنّ بيعته من قِبل المهاجرين والأنصار حالها حال بيعة الناس للخلفاء السابقين (بل أفضل منها من جهات معيّنة) وعلى هذا الأساس لا يحقّ لأىّ‌شخص مخالفة هذه الحكومة الشرعية ويجب على الجميع الامتثال والطاعة والعمل على التنسيق معها لإدارة الأمور.
الثانى: إنّ الأشخاص الذين يقطنون فى المناطق البعيدة من منطقة البيعة يجب عليهم حال وصول خبر بيعة المهاجرين والأنصار لشخص معيّن أن يبايعوا بدورهم

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۶۶

كما بايعوا فى الماضى.
الثالث: إنّ كلّ شخص إذا أراد الخروج من دائرة هذه البيعة يجب إعادته إلى الطاعة، فإن امتنع وقاوم وتمرّد على الحكومة الشرعية فيجب على المسلمين التصدى له ومقاتلته.
الرابع: إنّ جعل قتل عثمان ذريعة للتمرّد وعدم البيعة أمر غير صحيح وغير معقول، لأنّ الإمام علىّ عليه السلام لم يتدخّل إطلاقاً فى قتل عثمان.
وفى الختام وطبقاً لما ورد فى كتاب نهج‌البلاغة، يدعو الإمام علىّ عليه السلام معاوية أن يبايع رسوله ووكيله جريربن عبداللّه ويعمل على إطفاء نار الحرب والفتنة بهذا العمل.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۶۷

إِنَّهُ بَايَعَنِى الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذلِكَ لِلَّهِ رِضًا، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى وَلَعَمْرِى، يَا مُعَاوِيَةُ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِکَ دُونَ هَوَاکَ لَتَجِدَنِّى أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّى كُنْتُ فِى عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَکَ! وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير

تقدّم فى بيان سند هذه الرسالة أنّ ما أورده السيّد الرضىّ من هذه الرسالة يمثّل مقطعاً من رسالة مطولة أرسلها الإمام علىّ عليه السلام بعد واقعة الجمل إلى معاوية بيد جرير بن عبداللّه البجلى وهو من مشاهير الصحابة.
وفى بداية هذه الرسالة كما أوردها صاحب نهج‌البلاغة الكامل رقم الكتاب ۲۹ ولم ينقله السيّد الرضىّ، جاء فيه أنّ الإمام بعد الحمد والثناء قال: «إِنَّهُ بَايَعَنِى الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ».
واللافت أنّ الإمام عليه السلام لم يشر فى هذا المورد لا إلى مسألة الغدير ولا إلى وصيّة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله فى حقّه والروايات الكثيرة الواردة فى إمامته وولايته على المسلمين، لأنّ معاوية يستطيع، إنكار كلّ هذه النصوص الجليّة، ولكنّ مسألة خلافة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۶۸

الخلفاء السابقين لم تكن مسألة قابلة للانكار، وفى الحقيقة أنّ استدلال الإمام عليه السلام استدلال جدلىّ كما فى الاصطلاح، حيث يتّخذ المتكلّم مسلّمات ومقبولات الطرف المقابل ويستدلّ بها ضدّه، ومن هذا المنطلق بما أنّ معاوية كان يرى نفسه من ولاة الخلفاء السابقين أبوبكر، عمر، وعثمان، فإنّه لا يستطيع إنكار مشروعية خلافتهم وكيفية وصولهم إلى سدّة الحكم والخلافة، وهذا الأمر هو ما وقع أيضاً للإمام علىّ عليه السلام فى خلافته بصورة أكمل وأتمّ، فإنّ عموم المهاجرين والأنصار بايعوا الإمام علىّ حتى طلحة والزبير اللذين نكثا البيعة بعد ذلك كانا من أوائل المبايعين للإمام فى أمر الخلافة، وكانت السنّة جارية فى ذلك العصر أنّ المهاجرين والأنصار فى المدينة إذا اختاروا شخصاً للخلافة فيجب على الغائبين والبعيدين عن المدينة أن يتّبعوا المهاجرين والأنصار فى مركز الخلافة، وعلى هذا الأساس لا يمكن لمعاوية أن يعترض على استدلال الإمام عليه السلام فى هذا الأمر.

ومن هنا فإنّ الإمام علىّ عليه السلام يقول فى هذا السياق: «وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذلِكَ للَّهِ رِضاً».

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستنتج من ذلك ويقول: «فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى .

وكما أسلفنا أنّ هذا الاستدلال يتّسم بالمنهج الجدلىّ والاستفادة من مسلّمات الطرف المقابل فى دحض حجّته، فلا ينبغى استنباط هذا المفهوم وهو أنّ الإمام عليه السلام ترك مسألة الإمامة المنصوبة وذهب إلى أنّ الإمامة هى من اختيار الناس لا من شؤون البارى تعالى وليست بوسيلة التنصيب الإلهىّ كما تصوّر ذلك بعض شرّاح نهج‌البلاغة، بل إنّ الطريق الوحيد للاستدلال فى مقابل معاوية لا يمكن بغير هذا المنهج الجدلى، ونرى كثيراً من قبيل هذا النحو من الاستدلال فى القرآن الكريم فيما يخصّ المجادلة مع المشركين.

وفى مقطع آخر من هذه الرسالة يذكر الإمام عليه السلام مسألة قتل عثمان التى جعلها

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۶۹

معاوية ذريعة للتمرّد فى مقابل الإمام عليه السلام كما سبقه بذلك طلحة والزبير أيضاً، يقول الإمام عليه السلام: «وَلَعَمْرِى، يَا مُعَاوِيَةُ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّى أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّى كُنْتُ فِى عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى ۷۱]، فَتَجَنَّ ۷۲] مَا بَدَالَكَ، وَالسَّلَامُ».

إنّ من القضايا العجيبة فى تاريخ صدر الإسلام أنّ جماعة كانوا فى زمن خلافة عثمان قد رفعوا لواء المخالفة الشديدة له، وحتى كان لهم دور مباشر أو غير مباشر فى قتله، ولكن بعد مقتل عثمان تغيّر مسارهم فجأة وأخذوا يطالبون بدمه وبالثأر له ويذرفون عليه وعلى مظلوميته دموع التماسيح، ومثل هذا التغيير فى المسار لا يعدّ أمراً عجيباً فى أمر السياسة، ولكن كيف يمكن تبرير مثل هذه السلوكيات عندما تصدر ممّن يدّعون الإسلام ويعتبرون أنفسهم من قادة المسلمين؟

إنّ حادثة قتل عثمان والعوامل التى أدت إلى إثارة الناس ضدّه وكذلك الحوادث التى وقعت فى هذه القضية التاريخية، وكذلك مسألة إجبار الثوّار عثمان على التوبة واعتزال الخلافة وقبول عثمان للتوبة وعدم قبوله الاعتزال عن مقامه وكذلك دفاع أميرالمؤمنين عليه السلام عنه ومنع الثوّار من قتله لئلّا تتّسع دائرة الفتنة وتعمّ جميع مناطق البلاد الإسلاميّة، وأيضاً كيفية قتل عثمان والحوادث التى وقعت بعد مقتله كلّها تعدّ من المسائل المهمّة فى تاريخ الإسلام، التى تستدعى الدقّة والتمعّن لاكتشاف الحقائق الكامنة فى طيّات التاريخ لهذه الواقعة.

وقد أسلفنا فى البحوث السابقة بعض الأمور عن حقيقة ما جرى فى هذه الواقعة فى الجزء الأول من هذه المجموعة فى شرح الخطبة الشقشقية وكذلك الجزء الثانى ذيل الخطبة الثلاثين، وكذلك ذيل الخطبة ۴۳ أيضاً.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۷۰

تأمّل: لماذا استدلّ الإمام عليه السلام بالشورى والبيعة؟

نعلم أنّ المسلمين قد اختلفوا فى مسألة الإمامة والخلافة بعد النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله على رؤيتين: فطبقاً لعقيدة الشيعة فإنّ الإمامة والخلافة بالنصّ، أى أنّ تعيين الإمام والخليفة بعد النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله يكون بالنصّ الإلهىّ من خلال بيان النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، وهناك آيات قرآنية تؤيّد هذه الرؤية وكذلك الأحاديث الشريفة الواردة فى هذه المجال من قبيل حديث الغدير، المنزلة، حديث الثقلين، مضافاً إلى أنّ الشيعة يقيمون أدلّة عقليّة على هذه المسألة ليس هنا مجال لاستعراضها[۷۳].

ولكن أهل السنّة ذهبوا إلى مقولة الشورى حيث يعتقدون بأنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ترك تعيين الخليفة بعده للُامة وقد تمّ تعيين الخليفة بعد النبىّ صلى الله عليه و آله من خلال شورى المهاجرين والأنصار وبيعة المسلمين وقد اتّخذ أبوبكر لهذا المقام فى سقيفة بنى ساعدة بحضور ثلّة قليلة من المهاجرين والأنصار، وأمّا عمر بن الخطاب فقد أصبح خليفة بتعيين من أبى بكر وانتخب عثمان بالخلافة بأربعة آراء من أعضاء الشورى الستّة الذين اختارهم عمر لهذا الغرض، وأمّا الإمام علىّ عليه السلام فقد بويع بعد مقتل عثمان من قِبل المهاجرين والأنصار وجمهور المسلمين عامة.

أمّا أنصار مدرسة الشورى فإنّهم عندما يصلون إلى الخطبة الشقشقية التى تثير علامات استفهام على خلافة الخلفاء الثلاثة الأوائل، فإنّهم يعترضون تارة على سند الرواية وأخرى على دلالتها، ولكن عندما يصلون إلى الرسالة السادسة المذكورة أعلاه، يشرحون صدرهم لها ويستقبلون ما ورد فيها ويعتبرونه دليلًا على حقّانية مذهبهم ورأيهم فى مسألة الخلافة فى حين أنّ كلًّا من هذه الرسالة وتلك الخطبة للإمام علىّ عليه السلام.

والنقطة المهمّة هنا هى أنّه لابدّ من الأخذ بنظر الاعتبار المخاطب للكلام

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۷۱

والنصّ، لأنّ عقائد المخاطب وأفكاره وتوجّهاته مؤثّرة كثيراً فى كيفية بيان المتكلّم، ففى الخطبة الشقشقية نرى أنّ المخاطب لها عموم الناس، ولكن المخاطب لهذه الرسالة هو معاوية نفسه.

كيف يمكن للإمام عليه السلام أن يستدلّ فى هذه الرسالة على حقّانيته فى مقابل معاوية بالنصّ، وهذا هو الشىء الذى يخالفه معاوية من الأساس، لابدّ من الاستفادة من دليل يعجز من إنكاره، ويجد نفسه مضطرّاً للتسليم أمامه، وليس ذلك سوى مسألة الشورى، أى الشورى التى انتخب على أساسها الخلفاء السابقون الذين نصبوا معاوية فى زمن خلافتهم على الشام.

وهذا هو الشىء الذى يعبّر عنه فى علم المنطق بفنّ الجدل، وهو بأن يتمسّك المستدلّ بمسلّمات الخصم ويستدلّ بها ضدّه وإن كان لايعتقد بها أو ليست مسلّمة لديه.

وهذا من قبيل أن نستدّل بالتوراة والإنجيل الحاليين فى مقابل اليهود والنصارى، وأنّه طبقاً لما ورد فى الآية الفلانية فى السفر الفلانى من كتابكم المقدّس فإنّ العقيدة التى تعتقدون بها فى هذا الشأن باطلة، مثلًا نقول: أنتم أيها المسيحيون تعتقدون بأنّ عيسى عليه السلام صلب ومات ودفن، وبعد عدّة أيّام بعث من قبره ورفع إلى السماء، وطبقاً لهذه العقيدة يجب القبول بمسألة رجعة الإنسان إلى هذه الحياة الدنيا رغم أننا لا نعتقد بمقتل المسيح عليه السلام.

وقد ورد فى القرآن الكريم مثل هذا النمط من الاستدلال، من قبيل ما ورد فى قصة إبراهيم عندما وقف أمام عبدة النجوم والقمر والشمس وقال لهم: «هذا رَبِّى» أو «هذا رَبِّى هذا أَكْبَر»[۷۴]، فقد وافقهم ظاهراً على ما يعتقدونه وما هو من المسلّمات لديهم، ولكن عندما أفلت هذه الكواكب استدلّ إبراهيم عليه السلام من افولها وغروبها على أنّها حادثة ومخلوقة، وبذلك أبطل حجّتهم وأجهض مزاعمهم.

ومن العجيب أنّ ابن أبى‌الحديد بالرغم من أنّه سلك مسلك الاعتدل فى الكثير

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۷۲

من المسائل، عنـدما یصل إلی هـذه الرسالـة یقول: «إعلم أنّ هذا الفصل دالّ بصـریح العبارة علی کون الاختیار طریقاً إلی الإمامة کما یـذکره أصـحابی المتکلّمون (أهل السـنّة ...) فأمّا الإمامیّة فتحمل هذا الکتاب منه علیه السـلام علی التقیّة وتقول: إنّه ما کان یمکنه أن یصـرّح لمعاویـة فی مکتوبه ببـاطن الحـال ویقول له: أنا منصوص علیّ من رسول اللّه صـلی الله علیه و آله، ومعهود علی المسـلمین أن أکون خلیفة فیهم بلا فاصلة، فیکون فی ذلک طعن علی الأئمّة المتقدّمین ....»[۷۵].

إنّ خطأ ابن أبی‌الحدید هو أنّه أوّلًا: لم یلتفت إلی مخاطب هذه الرسالة أبداً، وهو معاویة.

وثانیاً: أنّه خلط بین مسألـة الجـدل ومسألـة التقیّـة، فالشـیعة لا یقولون إنّ أمیرالمؤمنین علیه السـلام قـد سـلک مسـلک التقیّة فی مقابل معاویة، بل یقولون: إنّه استدلّ بما لا یمکن لمعاویة إنکاره ومخالفته، أی أنّ الإمام استدلّ بالأمور المسلّمة لدی معاویة ضدّه، وقد ورد فی نهج‌البلاغة عبارات أخری شبیهة أیضاً بما ذکر أعلاه، ویتبیّن جواب الجمیع ممّا قلنا آنفاً ولا حاجة للتکرار.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۷۳

الرسالة ۷

اشارة

إلَیْهِ أیْضاً[۷۶]

نظرة إلی الرسالة

تقدمّ فی بیان مدرک هذه الرسالة أنّها وقعت جواباً علی رسالة کتبها معاویة للإمام علیه السـلام فی أواخر معرکة صفین وکانت رسالة معاویة تتضـمن الوقاحة وعدم رعایة الأدب وتشیر إلی نقاط مختلفة أهمها عدم الاعتراف ببیعة المسلمین للإمام علیه السلام بذریعة أنّ أهل الشام لم یحضروا هذه البیعة ولم یوافقوا علیها، وقد أجاب الإمام جواباً حاسماً علی کلّ هذه التقوّلات والکلمات اللامسؤولة[۷۷].

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۷۵

أَمَّا بَعْـدُ، فَقَدْ أَتَتْنِی مِنْکَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ، نَمَّقْتَهَا بِضَـلَالِکَ، وَأَمْضَـیْتَهَا بِسُوءِ رَأْیِکَ، وَکِتَابُ امْرِئٍ لَیْسَ لَهُ بَصَـرٌ یَهْدِیهِ، وَلَا قَائِدٌ یُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَی فَأَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لَاغِطاً، وَضَلَّ خَابِطاً.

وَمِنْهُ: لِأَنَّهَا بَیْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَایُثَنَّی فِیهَا النَّظَرُ، وَلَا یُسْتَأْنَفُ فِیهَا الْخِیَارُ.

الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرَوِّی فِیهَا مُدَاهِنٌ.

الشرح والتفسیر: موعظة الضالّین!

بمـا أنّ معاویـة قـد تمسّـک فی رسالته للإمام علیه السـلام ببعض الآیات القرآنیـة لیعض الإمام علیه السـلام بالتقوی والورع!! منها قوله تعالی: «وَلَقَدْ أُوحِیَ إِلَیْکَ وَإِلَی الَّذینَ مِن قَبْلِکَ لَئِنْ أَشْـرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ وَلَتَکُونَنَّ مِنَ الْخاسِرینَ»[۷۸] وهذه الآیة کما هو معلوم لیس لها أیّ إرتباط بادّعاءات معاویة الباطلة، ولذلک یقول الإمام علیه السلام فی مطلع رسالته له:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَتْنِی مِنْکَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ[۷۹]، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ[۸۰]، نَمَّقْتَهَا[۸۱] بِضَلَالِکَ،

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۷۶

وَأَمْضَیْتَهَا[۸۲] بِسُوءِ رَأْیِکَ».

والتعبير ب (مُوَصَّلَةٌ) إشارة إلى عدم التجانس المشهود فى رسالة معاوية حيث يتمسّك ببعض الآيات القرآنية التى ليس لها أىّ علاقة بالمقصود، ومن جهة أخرى يتهمّ الإمام عليه السلام بشقّ عصا المسلمين وإيجاد الاختلاف بين الامّة، فى حين أنّ كلماته وعباراته تعتبر مصداقاً بارزاً لإثارة الخلاف وإيجاد الفتنة فى المجتمع الإسلامى.

وعبارة (رِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ) (مع الالتفات إلى أنّ «محبّرة» تعنى التزيين والتنميق) إشارة إلى أنّ معاوية كان يسعى بأىّ وسيلة ممكنة إلى إظهار أنّ الحقّ بجانبه، فأحياناً يتحدّث عن يوم القيامة والعذاب الإلهىّ، وأخرى عن مصالح المسلمين، وثالثة يتمسّك بالآيات القرآنية للدفاع عن مواقفه المتهرّئة.

وجملة: (نَمَّقْتَهَا بِضَلَالِكَ إشارة إلى أنّ العبارات الجميلة فى الظاهر هى ذاتها العبارات والكلمات التى كان يتوصّل بها المنافقون الضالّون لإظهار إيمانهم فى مقابل النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، وجملة (أَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ إمّا أن يكون المقصود بها أنّ إمضاء مثل هذه الرسالة لا يصدر إلّامن الإنسان المنحرف والسائر فى خطّ الضلالة والجهالة، أو يكون المعنى فيما لو أخذنا الإمضاء بمعنى الإرسال فيكون مفهومها أنّ فكرك المنحرف والباطل أجاز لك كتابة هذه الرسالة الوقحة للإمام وقائد المسلمين.

وفى سياق كلام الإمام عليه السلام فى رسالته، يبيّن الإمام مضمون رسالة معاوية وشخصيته الانتهازيّة فى عبارات قصيرة وزاخرة بالمعنى ويقول: «وَكِتَابُ امْرِئٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَأَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ[۸۳] لَاغِطاً[۸۴]، وَضَلَّ خَابِطاً[۸۵]».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۷۷

والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام فى هذه الجمل الثلاث استفاد من التجانس بين الثنائيات بشكل لازم وملزوم، فيقول فى الجملة الاولى: (لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ) وقال فى الجملة الثانية التى تعتبر نتيجة لما سبق: «قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَأَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ» وفى الجملة الثالثة التى تعتبر نتيجة للجملة الثانية يقول: «فَهَجَرَ لَاغِطاً، وَضَلَّ خَابِطاً»، أى يتحدّث فى خبط وهذيان بسبب الضلالة والسير فى متاهة الحيرة، والحقيقة كذلك، لأنّ نور الهداية إمّا أن ينبع من باطن الإنسان أو يحصل عليه الإنسان من خارجه من خلال التمسّك بالقادة الإلهيين والمرشدين الصالحين، وفى غير هذه الصورة فإنّ الإنسان يعيش الظلمات الباطنية والضلالة الخارجية التى تنشأ بسبب مشورة الأشخاص المنحرفين والانتهازيين، وهكذا ينحدر الإنسان فى هوّة الضلالة ومنزلقات الجهالة، فلا يملك حينئذٍ كلاماً منطقيّاً ولا تسير أعماله وفق التخطيط العقلانى المدروس.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يشير فى رسالته الجوابية إلى أحد اشتباهات معاوية الكبيرة التى ذكرها فى رسالته، فقد كتب معاوية فى رسالته أنّ بيعة المسلمين للإمام عليه السلام لم تكن صحيحة، لأنّ أهل الشام لم يقبلوا بها، فيقول الإمام فى مقام الجواب: «لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَايُثَنَّى فِيهَا النَّظَرُ[۸۶]، وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ. الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرَوِّى ۸۷] فِيهَا مُدَاهِنٌ ۸۸]»، يعنى أنّ بيعة الخلافة لا تقع سوى مرّة واحدة غير قابلة للتعديل ولا للتجديد.

وفى الحقيقة أنّ الإمام عليه السلام استدلّ فى هذا المقطع بإحدى المسلّمات فى مسألة الخلافة عند معاوية، لأنّه يعتقد بأنّ خلافة الخلفاء السابقين قامت على أساس آراء

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۷۸

المهاجرين والأنصار وأنّ الأشخاص الذين كانوا يعيشون بعيداً عن المدينة يجب عليهم احترام آراء المهاجرين والأنصار فى المدينة وإتّباعهم والقبول بمن اختاروه لهذه المقام، هكذا كانت سنّة الخلفاء السابقين، والإمام عليه السلام يقول: كيف تقبل برأى المهاجرين والأنصار وأهل الحلّ والعقد بالنسبة لما يتّصل بالخلفاء السابقين، ولكنّك تشكّك فى بيعتهم الآن مع أنّها أوسع وأشمل وأكثر امتداداً فى الوسط الجماهيرى من بيعة الخلفاء السابقين؟ أمّا عدم قبول أهل الشام فهذا يشير إلى أحد أمرين: إمّا أنّك ترى بطلان منهج الخلفاء السابقين، أو حالك حال المنافقين الذين يقبلون أحياناً بشيء وينكرونه أحياناً أخرى حسب المصالح وما تمليه عليهم مطامعهم

الشخصیة بعیداً عن واقع الإیمان وتعالیم الرسالة.

فلو وجب انتخاب جمیع المسلمین فی مختلف مناطق البلاد الإسلامیّة لقبول حکومة الإمام علیّ علیه السلام وتحقّق مشروعیتها فیلزمک أن تعتقد ببطلان حکومة الخلفاء السابقین وبالتالی فإنّ حکومتک تقتبس مشروعیتها منهم فستکون باطلة أیضاً.

وأشار الإمام علیه السلام فی جملة «لِأَنَّهَا بَیْعَةٌ وَاحِدَةٌ ...» إلی حقیقة حاسمة ومسلّمة فی التاریخ الإسلامی وهی أنّ البیعة کالبیع اللازم لا خیار فیه للفسخ ولا التکرار، فإذا وقعت البیعة فإنّها تقع مرّة واحدة وللأبد.

تأمّل: رسالة معاویة لأمیرالمؤمنین الإمام علیّ علیه السلام

مع الالتفات إلی أنّ رسالة الإمام علیه السلام المذکورة آنفاً ناظرة لرسالة سابقة أرسلها معاویة للإمام علیه السلام، ومن هنا لزم نقل نصّ رسالة معاویة المذکورة فی کتب التاریخ رغم أنّها وقحة جدّاً وخالیة من الأدب، ولذلک نعتذر قبل ذلک للقرّاء الکرام وخاصّة من الإمام أمیرالمؤمنین علیّ علیه السلام علی إیراد مثل هذه الرسالة والکلمات اللامسؤولة فیها:

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۷۹

«مِنْ عَبْدِاللَّهِ مُعَاوِیَةَ بْنِ أَبِی سُفْیَانَ إِلَی عَلِیِّ بْنِ أَبِی طَالِب:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَی یَقُولُ فِی مُحْکَمِ کِتَابِهِ «وَلَقَدْ أُوحِیَ إِلَیْکَ وَإِلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ وَلَتَکُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِینَ» إِنِّی أُحَذِّرُکَ اللَّهَ أَنْ تُحْبِطَ عَمَلَکَ وَسَابِقَتَکَ بِشَقِّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَتَفْرِیقِ جَمَاعَتِهَا فَاتَّقِ اللَّهَ وَاذْکُرْ مَوْقِفَ الْقِیَامَةِ وَاقْلَعْ عَمَّا أَسْرَفْتَ فِیهِ مِنَ الْخَوْضِ فِی دِمَاءِ الْمُسْلِمِینَ وَإِنِّی سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ یَقُولُ: «لَوْ تَمَالَأَ أَهْلُ صَنْعَاءَ وَعَدَنٍ عَلَی قَتْلِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِینَ لَأَکَبَّهُمُ اللَّهُ عَلَی مَنَاخِرِهِمْ فِی النَّارِ» فَکَیْفَ یَکُونُ حَالُ مَنْ قَتَلَ أَعْلَامَ الْمُسْلِمِینَ وسَادَاتِ الْمُهَاجِرِینَ بَلْهَ مَا طَحَنَتْ رَحَی حَرْبِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ وَذَوِی الْعِبَادَةِ وَالْإِیمَانِ مِنْ شَیْخٍ کَبِیرٍ وَشَابٍّ غَرِیرٍ کُلُّهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَی مُؤْمِنٌ وَلَهُ مُخْلِصٌ بِرَسُولِهِ مُقِرٌّ عَارِفٌ فَإِنْ کُنْتَ أَبَا حَسَنٍ إِنَّمَا تُحَارِبُ عَلَی الْإِمْرَةِ وَالْخِلَافَةِ فَلَعَمْرِی لَوْ صَحَّتْ خِلَافَتُکَ لَکُنْتَ قَرِیباً مِنْ أَنْ تُعْذَرَ فِی حَرْبِ الْمُسْلِمِینَ وَلَکِنَّهَا ما تَصِحَّ لَکَ أَنَّی بِصِحَّتِهَا وَأَهْلُ الشَّامِ لَمْ یَدْخُلُوا فِیهَا فَقَدْ وَاللَّهِ أَکَلَتْهُمُ الْحَرْبُ فَلَمْ یَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا کَالثَّمَدِ فِی قَرَارَةِ الْغَدِیرِ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ»[۸۹].

هذه الرسالة المسیئة وغیر المؤدّبة من جهة، والسخیفة من جهة أخری، تبیّن سوء طویّة معاویة وبطلان رأیه لأنّها أوّلًا: تتمسّک بآیة حبط الأعمال بسبب الشرک، فی حین أنّه لا یوجد فی الموضوع أدنی کلام عن الشرک، وبالنسبة لشقّ عصا المسلمین وإیجاد الفرقة بینهم علی فرض أن یکون صحیحاً لا یرتبط بمسألة الشرک، وهذا هو ما وصفه الإمام علیه السلام بأنّه: «مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ» أی أنّه کلام متشتّت وغیر متجانس فی مضامینه وعباراته.

ثانیاً: إنّ الإمام علیه السلام فی جوابه علی هذه الرسالة والذی لم یذکره السید الرضی فی نهج‌البلاغة یقول: إنّک أمرتنی بالتقوی وأنا أرجو أن أکون من أهل التقوی ولکننی

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۸۰

أعوذ باللَّه أن أکون ممّن یأمر الناس بالتقوی وفی ذات الوقت یجرّهم إلی المعصیة وطلب الدنیا (وأنت من هؤلاء).

ثالثاً: یقول الإمام علیه السلام فی مقام الجواب عن مسألة حبط الأعمال وسابقته فی الإسلام: إذا کنت قد خرجت مع ا لخارجین علی عثمان فجدیر بک هذا التحذیر لی، ولکنّی أری اللَّه تعالی یقول: «فَقَاتِلُوا الَّتِی تَبْغِی حَتَّی تَفِیءَ إِلَی أَمْرِ اللَّهِ»[۹۰]. فیجب علیک النظر بعقلک دون هواک لتعرف من هم أهل البغی هل نحن أم أنتم؟ وبدیهیّ أنّ أهل البغی هم أنت وجماعتک، لأنّ بیعتی وقعت فی المدینة من قِبل المهاجرین والأنصار وهی ملزمة لکم فی الشام، کما أنّ بیعة عثمان فی المدینة کانت ملزمة لکم أیضاً، فی حین أنّک کنت والیاً علی الشام من قِبل عمر بن الخطاب، وکما أنّها- بیعة عمر- کانت ملزمة لأخیک یزید فی حین أنّه کان والیاً علی الشام من قِبل أبی بکر.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يجيب عن هذه النقطة التى ذكرها معاوية، وهى مَن هو المسؤول عن شقّ عصا المسلمين؟ ويقول: يجب أن احذّرك وأنهاك عن هذا العمل، فقد أمرنى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بجهاد أهل البغى وخاطب أصحابه قائلًا: إنّ منكم من يجاهد على تأويل القرآن كما جاهد على تنزيله، وأشار إليَّ فى كلامه هذا وكنت أوّل شخص أطاع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى هذا الأمر.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستعرض الجواب عمّا تبقّى من الرسالة وهو المقطع الذى ذكره السيّد الرضىّ فى «نهج‌البلاغة» وسبق أن شرحناه.

وعلى ضوء ذلك يتبيّن صدق الإمام عليه السلام وصراحته فى موقفه من معاوية وكذلك، تتبيّن وقاحة وحمق معاوية من جهة أخرى.

وقد تمسّك الطغاة على امتداد التاريخ بهذا المنطق المتلوّن، وقد أورد القرآن الكريم ببيان جلىّ ذلك فى قصة موسى عليه السلام وفرعون وذلك عندما دعا موسى عليه السلام الفراعنة للتوحيد وترك الظلم والجور وقال فرعون: «إِنِّى أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۸۱

يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسادَ»[۹۱]، فى حين أنّ المفسد الحقيقىّ فى الأرض هو فرعون نفسه الذى كان يقتل حتّى الأطفال الأبرياء ويشقّ بطون الحوامل.

وفى ختام البحث يفرض علينا هذا السؤال نفسه، وهو أنّ معاوية مع علمه بكذبه فى محتوى رسالته، وأنّه هو الذى شقّ عصا المسلمين وأثار الغبار حول إجماع المسلمين على البيعة، وهو الذى سلك طريق الانحراف والتمرّد والطغيان على الحكومة الإسلاميّة، وإن كان له عمل صالح فى الماضى فقد أحبطه بما ارتكبه من حرب طاحنة ضد أميرالمؤمنين عليه السلام، وأنّه هو وأصحابه شركاء فى قتل عثمان لا الإمام علىّ عليه السلام، إذن فلماذا يتّخذ لنفسه شخصيّة محقّة ويكتب للإمام تلك الرسالة الزاخرة بالأكاذيب والدجل؟

ويتبيّن الجواب عن كلّ هذه الاستفهامات إذا عرفنا هذه الحقيقة، وهى أنّ معاوية لم يكتب فى الواقع هذا الكتاب للإمام علىّ عليه السلام بل كتبه لاستغفال أهل الشام وخلط الأوراق، وبذلك يريد أن يقول لهم إنّنى إنسان صالح وأرفع لواء الصلح والعدالة، ولكن علىّ بن أبى طالب عليه السلام لا يستمع لكلامى ولا يرضخ لواقع العدل والحقّ، وفى الحقيقة أنّ عمله هذا يشبه ما قام به من رفع المصاحف على الرماح فى معركة صفّين، ولم يكن معاوية وأصحابه يريدون تحكيم القرآن قطعاً، بل كانوا يريدون أن يخدعوا أهل الشام من جهة، ومن جهة أخرى العمل على إيجاد الفرقة والنفاق فى جيش الإمام علىّ عليه السلام.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۸۳

الرسالة ۸

اشارة

إلى جَريرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ الْبَجَلىّ لَمّا أرْسَلَهُ إلى مُعاوِيَة[۹۲]

نظرة إلى الرسالة

إنّ مضمون هذه الرسالة بيّنٌ وجلىّ تماماً، فالإمام عليه السلام يريد من رسوله جرير أن يتمّ الحجّة على معاوية وأخذ البيعة منه، إذا أراد البيعة للإمام عليه السلام، وإن لم يكن مستعدّاً للبيعة، فعليه أن يكون مستعدّاً لقتاله.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۸۵

أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا أَتَاکَ کِتَابِی فَاحْمِلْ مُعَاوِیَةَ عَلَی الْفَصْلِ، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خَیِّرْهُ بَیْنَ حَرْبٍ مُجْلِیَةٍ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِیَةٍ، فَإِنِ اخْتَارَ الْحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَیْهِ، وَإِنِ اخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بَیْعَتَهُ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسیر: حلّ المشکل بآلیات الصلح

جاء فی المصادر التاریخیة أنّ أمیرالمؤمنین علیّ بن أبی طالب علیه السلام أرسل جریر إلی معاویة لأخذ البیعة منه بهذا الکتاب، وقد أوصل جریر هذا الکتاب لمعاویة، أخذ معاویة یسوّف بالأمر ویتباطأ فی الجواب إلی أن ظنّ أصحاب أمیرالمؤمنین علیه السلام به سوءً واتّهموه بالتعاطف والتعاون مع معاویة، حتّی قال الإمام علیه السلام عنه: إنّ جریراً لبث عند معاویة طیلة هذه المدّة فإمّا أن یکون مذنباً أو مخدوعاً.

ومن هنا کتب الإمام علیه السلام هذه الرسالة لجریر حتّی لا یطیل المسألة ویوصد بذلک باب المماطلة علی معاویة وطلب منه أن یلزم معاویة بأحد أمرین: فإمّا البیعة أو الحرب، فالإمام یقول فی هذه الرسالة:

«أَمَّا بَعْدُ- بعد الحمد والثّناء الإلهیّ- فَإِذَا أَتَاکَ کِتَابِی فَاحْمِلْ مُعَاوِیَةَ عَلَی الْفَصْلِ ۹۳]، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خَیِّرْهُ بَیْنَ حَرْبٍ مُجْلِیَةٍ[۹۴]، أَوْ سِلْمٍ

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۸۶

مُخْزِیَةٍ[۹۵]، فَإِنِ اخْتَارَ الْحَرْبَ فَانْبِذْ[۹۶] إِلَیْهِ، وَإِنِ اخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بَیْعَتَهُ، وَالسَّلَامُ».

وعندما وصلت هذه الرسالة لجریر فی الشام سلّمها بید معاویة ونهض من مکانه وخطب بالناس وذکّرهم بقضیة عثمان وأنّ جمیع المسلمین بایعوا الإمام علیّ علیه السلام بدون تردّد، یعنی أننا لو خلّینا ومسألة الخلافة لم نکن نختار غیر الإمام علیّ علیه السلام.

تأمّل: من هو جریر بن عبداللَّه؟

یعتبر جریر بن عبداللَّه من مشاهیر الصحابة، ومن قبیلة بجیلة من قبائل الیمن، وبجیلة اسم امرأة معروفة فی تلک القبیلة حیث سمّیت قبیلتها باسمها، وتارة یسمّی الشخص بجلیّاً لانتمائه إلی هذه القبیلة، وقد جاء جریر فی السنة العاشرة للهجرة إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی رأس جماعة من مائة وخمسین رجلًا من قبیلة بجیلة، وأسلموا علی ید النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله فاستقبله النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله بکلّ احترام، وعندما مدّ یده للبیعة قال: أقبل بیعتک بشرط أن تشهد بالتوحید وتؤمن بالنبوّة وتقیم الصلاة وتؤتی الزکاة وتحب، الخیر للمسلمین وتصوم شهر رمضان وتطیع إمام المسلمین.

وسأله النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله عن أوضاع منطقته، فقال جریر: لقد ظهر الإسلام فی هذه المنطقة وکسر الناس الأوثان، فقال: وما حال صنم «ذوالخلصة»؟

فقال: هذا صنم کبیر بقی لحاله.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۸۷

فأمر النبیّ الأمر بتحطیم هذا الوثن، فتوجّه جریر مع مائتی نفر من قبیلته وبعد عدّة أیّام رجع إلی النبیّ وقال: واللَّه لقد حطّمته وأحرقته أمام أعین عابدیه.

وقد اشترک جریر مع قبیلته بجیلة فی معرکة القادسیّة، وکان سهمه کبیراً ومؤثراً فی الفتح، وبعد ذلک نصبّه عثمان والیاً علی منطقة همدان، وبعد قتل عثمان ووصول کتاب أمیرالمؤمنین علیه السلام إلیه دعا جریر الناس للبیعة للإمام علیّ علیه السلام، وبعد مدّة جاء إلی الکوفة، ولمّا کان یتمتّع بشهرة لدی أهل الشام اختاره الإمام علیه السلام لإیصال رسالته إلی معاویة وبعثه إلی الشام، ولکنّه لم یستطع أداء مهمّته بشکل صحیح وعاد إلی الکوفة فظنّ به أهل العراق سوءً واتّهموه بالتواطؤ مع معاویة، فاستاء جریر من ذلک وعزم

على التوجّه إلى جزيرة قرقيسا واختار العزلة هناك وترك النشاط السياسى والاجتماعى.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۸۹

الرسالة ۹

اشارة

إلى مُعاوِيَةِ[۹۷]

نظرة إلى الرسالة

بما أنّ هذه الرسالة بمثابة جواب على رسالة معاوية الوقحة والمهينة والمليئة بالخبث والشيطنة فإنّ رسالة الإمام عليه السلام هذه تجيب على شيطنة معاوية وخبثه وناظرة إلى الكشف عن زيف مدّعياته وأباطيله.

فى أحد مقاطع هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة، وهى أنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله عندما قام بالدعوة ونشر الرسالة الإلهيّة همّت جماعة من المشركين من قريش بقتل النبىّ، إلّاأنّ اللَّه تعالى أنقذه منهم ومنع عتاة قريش من إجهاض الرسالة،

نفحات الولاية ؛ ج۹ ؛ ص۸۹

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۹۰

وأنّ قريش كانت تتصدّر المتمرّدين والمخالفين لهذه الدعوة الجديدة.

وفى قسم آخر من الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقة وهى أنّ الرسول الأكرم عليه السلام كان يجعل أهل بيته فى ميدان القتال فى الخطّ الأول للمواجهة، وبذلك يحفظ أصحابه من الخطر من خلال تضحية وجهاد أهل بيته وأرحامه، والشاهد على ذلك استشهاد حمزة وجعفر وآخرين من بنى هاشم فى ميادين الجهاد ضدّ قوى الكفر والباطل، وهذا الكلام فى الحقيقة جواب على ادّعاء معاوية فى رسالته أنّ غير بنى هاشم كالخليفة الأول والثانى كانوا من أكثر الناس تحرّقاً للدعوة الجديدة واستعداداً للتضحية والفداء فى سبيل الإسلام.

وفى المقطع الثالث من الرسالة يظهر الإمام عجبه الشديد كيف أنّ الدهر جعله فى صفّ معاوية الذى لم يقدّم أىّ خدمة للإسلام ولا يملك أىّ سابقة فى الدين؟

وأخيراً وفى القسم الرابع من الرسالة يتحدّث الإمام عليه السلام عن عدم قبوله لطلب معاوية فيما يخصّ تحويل قتلة عثمان، لأنّه إذا تقرّر محاكمة وإنزال العقوبة بقتلة عثمان، فهذا من شأن الحكومة الإسلاميّة لا من شأن شخص متمرّد على الحكومة.

والجدير بالذكر أنّ لمعاوية فى رسالته وجواب الإمام علىّ عليه السلام عليها حكاية مثيرة ولا بأس من استعراضها من أجل الكشف بشكل أفضل عن مضمون رسالة الإمام عليه السلام لمعاوية، والحكاية كالتالى:

«كان أبو مسلم الخولانى وهو من أهل اليمن قد أدرك عصر الجاهلية ولكنّه لم يؤمن بنبىّ الإسلام أبداً وكان يعيش فى الغالب فى الشام، وقد جاء إلى معاوية مع جماعة من أهل الشام قبل حركة الإمام علىّ عليه السلام باتجاه صفّين وطلب منه أن يجتنب قتال علىّ

بن أبی طالب الـذی یتمّع بمقام شامـخ ومنزلـة کبیرة من جهـة قرابته للنبیّ وسابقته فی الإسـلام وهجرته، وقال له بأنّک لا تملک مثل هذا الموقع الاجتماعی والدینی الممتاز.

وفی مقام الجواب عن کلامهم توسّل معاویة بهذه الذریعة، وهی أنّ علیّ بن

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۹۱

أبی‌طالب قـد أجار قتلـة عثمان فلو أنّه دفعهم إلیه لیقتصّ منهم فإنّه سیمتنع من قتاله، فطلب أبومسلم وأتباعه أن یکتب هذ الطلب إلی الإمام علیّ علیه السـلام فی رسالة ویبعثها إلیه، فکتب معاویة رسالة بهذه المضـمون وسـلّمها إلی أبی مسـلم لیوصلها إلی أمیرالمؤمنین علیه السلام.

فجاء أبو مسلم بالرسالة إلی الإمام علیّ علیه السلام وسلّمها له بحضور جماعة من أصحابه ثم نهض واقفاً وتوجّه للإمام بالقول: إنّنی لا احبّ أن تکون ولایـة امور المسـلمین بیـد غیرک، ولکنّ عثمـان قتـل بغیر حقّ، فـادفع قتلته إلینا، فإن خالفک أحـد فنحن سـنکون فی اختیارک.

فأجـابه الإمـام علیه السـلام: ائتنی غـداً لتسـتلم جواب الکتاب، فجاء أبو مسـلم فی الیوم التالی لاسـتلام جواب الرسالـة، فرأی المسـجد حاشداً بالناس وکلّهم ینادی: نحن جمیعاً اشترکنا فی قتل عثمان.

واللافت أنّ اجتماع هـذا الجمهور الغفیر فی المسـجد کان بـدافع أنّ الناس تصوّروا أن یقوم الإمام علیه السـلام بتسـلیم قتلة عثمان إلی معاویـة لیزیل أیّة ذریعة یمکن لمعاویة التمسّک بها، ومن هنا اجتمع أنصار الإمام علیه السـلام وأتباعهم فی المسـجد لیؤکّدوا أنّ قاتل عثمـان لا یمثّل شـخصاً واحـد أو عـدّة أشـخاص معـدودین، ومع أنّ الإمام علیه السـلام لم یکن یقصـد أبـداً تسـلیم بعض الأشـخاص لمعاویة، فإنّ مثل هذا العمل لیس بالأمر الممکن عملًا.

وفی هذا الموقع سـلّم الإمام علیه السـلام جواباً مکتوباً لأبی مسـلم لینقله إلی الشام ویسـلّمه إلی معاویة، فقال أبو مسـلم فی نفسه: «الْآنَ طابَ الضِرابُ»[۹۸] أی حان الأوان للقتال طلباً للثأر بدم عثمان.

وتبیّن من ذلک أنّ أبا مسـلم وأتباعه کأنّهم لم یکونوا قد أدرکوا هذه الحقیقة وهی أوّلًا: أنّ قتل عثمان وقع بعد انتفاضة شـعبیة عارمة ضدّه بسبب أعماله وتصرّفاته

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۹۲

السلبیة فی إدارة الأمور، فلم یکن عمل شخص واحد أو عدد من الأشخاص.

وثانیاً: علی فرض أنّ الحکومـة الإسـلامیّة أرادت محاکمـة قتلـة عثمـان والاقتصـاص منهم، فـإنّ هـذه العمل لا یرتبط بشـخص متمرّد کمعاویة بل هو من شأن رئیس الحکومة الإسلامیّة الذی انتخب من قِبل المهاجرین والأنصار وبایعه الناس.

***

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۹۳

القسم الأوّل

اشارة

فَأَرادَ قَوْمُنا قَتْلَ نَبِیِّنا، وَاجْتِیاحَ أَصْلِنا، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ وَفَعَلُوا بِنَا الْأَفَاعِیلَ، وَمَنَعُونَا الْعَذْبَ، وَأَحْلَسُونَا الْخَوْفَ، وَاضْطَرُّونَا إِلَی جَبَلٍ وَعْرٍ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ، فَعَزَمَ اللَّهُ لَنَا عَلَی الـذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ، وَالرَّمْیِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ، مُؤْمِنُنَا یَبْغِی بِـذَلِکَ الْأَجْرَ، وَکَافِرُنَا یُحَامِی عَنِ

الْأَصْلِ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ.

الشرح والتفسير: بنو هاشم حماة الإسلام الأوائل

كما تقدّمت الإشارة إليه فإنّ هذه الرسالة تمثّل جواباً على رسالة معاوية، وبما أنّ معاوية فى بداية رسالته قد ارتدى قناع الصلاح والإيمان وأخذ يتحدّث عن الإسلام وعظمة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأعوانه وأنصاره، وسعى لرفع مكانة الخلفاء الثلاثة زيادة عن الحدّ من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ والد معاوية هو أبو سفيان العدوّ الأول للإسلام الذى أشعل نار الحروب ضد الإسلام والمسلمين، فالإمام فى هذا المقطع من الرسالة يقول:

«فَأَرَادَ قَوْمُنَا- قريش- قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَاجْتِيَاحَ ۹۹] أَصْلِنَا، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ ۱۰۰] وَفَعَلُوا بِنَا

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۹۴

الْأَفَاعِيلَ ۱۰۱]، مَنَعُونَا الْعَذْبَ ۱۰۲]، وَأَحْلَسُونَا[۱۰۳] الْخَوْفَ، وَاضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ[۱۰۴]، وَأَوْقَدُوا[۱۰۵] لَنَا نَارَ الْحَرْبِ».

هذه العبارات إشارة إلى مقطع مهمّ وعظيم من تاريخ الإسلام يبيّن فيها الإمام عليه السلام سلوك الأعداء وخاصة قبيلة قريش تجاه النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والرسالة الإلهيّة، فقد واجه النبىّ والمسلمون فى مكة صنوف الأذى من قريش والقذف بالحجارة والاستهزاء والتعذيب بمختلف الأشكال، وأخيراً عندما شعروا بالخوف من تقدّم الإسلام وامتداده فى القبائل العربية حوالى مكة، عزموا على محاصرة المسلمين الذين كانوا ثلّة قليلة، اجتماعياً واقتصادياً وكتبوا ذلك الكتاب المعروف بأن لايتواصل أىّ شخص من قريش وسائر العرب مع المسلمين ولا- يبيعونهم شيئاً ولا- يشتروا منهم ولا- يتزوّجوا منهم ولا يزوّجوهم، وختموا هذا العهد ووضعوه داخل الكعبة تأكيداً منهم على الالتزام بهذا الميثاق، والتجأ المسلمون إلى شعب أبى طالب ۱۰۶] الذى كان وادياً موحشاً ومليئاً بالأحجار وعاشوا هناك ثلاث سنوات من الحرمان الشديد تحت طائلة الحصار الاقتصادى، فكانت تلك الأيّام من أصعب الأيّام التى عاشها المسلمون مع النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله إلى درجة أنّ أصوات بكاء الأطفال والجائعين كانت تسمع من خارج الشعب، وأخيراً عندما أخبرهم النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۹۵

بواسطة أبى طالب أنّ الأرضة قد أكلت وثيقة العهد فى الكعبة سوى كلمة البسملة، فشعر الأعداء بالخوف الشديد واعتنق جماعة منهم الإسلام وطلب جماعة منهم أن يحرّروا المسلمين من هذا الحصار الآثم، وهكذا كسر طوق الحصار المضروب على المسلمين.

وجملة: «وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ إشارة إلى حياة المسلمين فى المدينة الذين خاضوا حروباً عديدة شنّها كفّار قريش عليهم. وعلى رأس قوى الكفر والشرك كان أبو سفيان والد معاوية، وكان الإمام علىّ عليه السلام فى جميع هذه الحروب يمثّل أبرز المضحّين والمجاهدين الذين دافعوا عن النبىّ والإسلام فى معركة بدر واحد والأحزاب وما إلى ذلك، وفى المقابل كانت اسرة معاوية لها النصيب الوافر فى إشعال نار هذه الحروب ضدّ النبىّ ورسالته السماوية، ومع كلّ ذلك يتحدّث معاوية عن عظمة الإسلام والنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وعن أعوانه وأنصاره ويثنى عليهم غاية الثناء ويذكر الإمام علىّ عليه السلام بوصفه حاسداً له ولأمثاله على مواقفهم المخزية.

وفى سياق هذه الرسالة يتقدّم الإمام عليه السلام لإبطال مزاعم معاوية الواهية فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين ويأخذ بيده إلى الماضى من تاريخ الإسلام والحوادث الواقعة فيه ويقول له: عندما تحرّك أعداء الإسلام ضدّ النبىّ والرسالة وحشدوا جميع قواهم لإجهاض الدعوة الجديدة، فإنّ اللَّه تعالى أراد الدفاع عن رسالته بواسطتنا «فَعَزَمَ اللَّهُ لَنَا عَلَى الذَّبِ ۱۰۷] عَنْ حَوْزَتِهِ، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ». (وفى ذلك الوقت كان بنوهاشم على مجموعتين وطائفتين، فطائفة منهم المؤمنون والأخرى الذين لم يلتحقوا بالإيمان والإسلام، وكلا الطائفتين هبّوا للدفاع عن الدين الحنيف «مُؤْمِنُنَا يَبْغِى بِذَلِكَ الْأَجْرَ، وَكَافِرُنَا يُحَامِى عَنِ الْأَصْلِ» أى يدافع عن عشيرته

وعن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله بخلفيات عشائرية وبدافع الرحم.

وجملة: «وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ كناية عن حفظ حريم الإسلام والنبىّ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۹۶

الأكرم صلى الله عليه و آله، لأنّ الرماة عادة يقفون خلف المتاريس للدفاع عن الجيش وحفظ أفراده، وعلى حدّ تعبير العلّامة المجلسى كلمة «وراء» فى هذا المورد ربّما تشير إلى معنى المقدّم والأمام لأنّ الوراء أحياناً تأتى بهذا المعنى، وربّما تأتى بمعنى الخلف كما أنّ الرماة بحسب اللزوم والموقع الذى يفرضه ميدان المعركة يقبعون أحياناً خلف الجيش وأحياناً أخرى يتقدّمون الجيش.

وجملة «وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ ذهب جماعة من مفسرى نهج‌البلاغة أنّ هذه العبارة إشارة إلى بعض رموز بنى هاشم مثل العباس، أبوطالب، وحمزة وأمثالهم الذين اشتهروا بالدفاع عن الإسلام والنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله حتى قبل اعتناقهم الإسلام بدافع الوفاء للقيم القبلية وعواطف الرحم والقرابة.

والملفت للنظر أنّ بعض المحقّقين ذهب إلى أنّه عندما فرضت قريش الحصار الاقتصادىّ على النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والمسلمين فى شعب أبى طالب كان بعض الأفراد من بنى هاشم ممّن لم يعتنق الإسلام لحدّ الآن كالعباس، وعقيل بن أبى طالب وأخيه طالب بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بن عبدالمطّلِب وابنه الحارث وأخيه أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب (هو غير أبى سفيان بن حرب) كانوا يعيشون مع المسلمين فى ذلك الشعب فى حين لم يعتنقوا الإسلام بعد[۱۰۸].

وطبعاً ذهب البعض إلى أنّ أبا طالب وحمزة كانوا قد اعتنقوا الإسلام قبل ذلك بمدّة إلّاأنّهما أخفيا إسلامهما لأسباب معيّنة.

هذا كلّه فى حين أنّ اسرة معاوية وأبى سفيان ومن لفّ لفّهم وكانوا يتآمرون على الإسلام والمسلمين جهاراً وخفية، وكأنّ معاوية قد نسى أو تناسى كلّ هذه القضايا التاريخية المسلّمة فى رسالته وأخذ يتبجّح بالدفاع عن الإسلام والمسلمين ويدّعى بأنّ بعض الأشخاص الذين لم يكونوا فى ميدان الجهاد والدفاع أنّهم من زمرة المدافعين عن الإسلام والنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۹۷

ولذلك يضيف الإمام عليه السلام: أمّا سائر أفراد قريش من غير بنى هاشم، ممَّن أسلم فلم يكونوا فى دائرة الخطر ولم يواجهوا ما واجهنا نحن من مصاعب لأنّهم كانوا يعيشون فى إطار التحالفات والمعاهدات «وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ[۱۰۹] مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ».

وعلى هذا الأساس يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمّة وهى أنّ حماة الإسلام الحقيقيين هم بنوهاشم الذين آمنوا باللّه ورسوله ودافعوا بأرواحهم ونفوسهم عن الإسلام والنبىّ، وحتّى من لم يسلم منهم كان يذبّ عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله احتراماً لمقامه ودفاعاً عن شرفه، أمّا سائر مكوّنات قريش من القبائل العربية ومنهم الخلفاء الثلاثة، الذين استعرض معاوية خدماتهم وتضحياتهم للإسلام، فلم يكونوا فى صفّ المدافعين عن النبىّ والإسلام أبداً.

وطبعاً لم يكن معاوية غافلًا أو جاهلًا بتاريخ الإسلام، بل كان يتغافل عن الوقائع التاريخية لتبرير رؤاه وأفكاره.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۹۹

القسم الثانى

اشارة

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ- إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِى أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ،

وَلَكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ، وَمَنِيَّتَهُ أَجِّلَتْ. فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِی مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِی، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِی الَّتِی لَايُدْلِی أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلَّا أَنْ يَدَّعِیَ مُدَّعٍ مَا لَاأَعْرِفُهُ، وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

الشرح والتفسير: حماة الإسلام الأوائل

يتحدّث الإمام عليه السلام فی هذا المقطع من الرسالة بالتفصيل ما أجملَ بيانه سابقاً ويبيّن من هم الأشخاص من بنی هاشم الذين بذلوا نفوسهم دفاعاً عن الإسلام وشربوا كأس الشهادة فی سبيل التصدّی لقوى الكفر والشرك، فی حين أنّ أشخاصاً ممَّن ذكرهم معاوية بوصفهم قادة الإسلام ومن روّاد الدفاع عن الرسالة الإلهيّة لم يصلوا إلى هذا المقام، يقول:

«وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ ۱۱۰] وَأَحْجَمَ ۱۱۱] النَّاسُ قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَى بِهِمْ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۰۰

أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ الْأَسِنَّةِ[۱۱۲]».

جملة: «احْمَرَّ الْبَأْسُ إشارة إلى اشتعال نار الحرب، وبما أنّ الحرب تشبّه عادة بالنار التی تحمرّ فی حال اشتدادها واستعارها، فلذلك استخدمت هذه الكناية، وقيل أيضاً أنّ الإحمرار هنا كناية عن كثرة سفك الدماء عند اشتداد المعركة والقتال.

إنّ العبارات المذكورة تشير إلى أنّ النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله وخلافاً للقادة العسكريين فی عالمنا المعاصر الذين يحتفظون بأبنائهم وأقربائهم فی الخطوط الخلفية عند مواجهة الخطر ويبعثون الغرباء إلى الصفوف الإماميّة من المعركة، يقدّم النبیّ أعزّ أرحامه وأقربائه إلى الصفّ الأوّل من جبهات الحرب والقتال ليثبت أنّه على يقين من رسالته وأنّه يسلك فی هذا السبيل حالات الانسجام التام بين أهدافه وسيرته ومستعدّ دوماً للتضحية فی سبيل الغايات الإلهيّة التی يصبو إليها ويهدف لتحقيقها فی واقع الحياة والمجتمع.

ثم إنّ الإمام عليه السلام فی سياق كلامه يذكر ثلاثة أشخاص من أقربائه وأرحامه الذين شاركوا فی الحروب وتصدّوا لقوى الكفر والانحراف ونالوا درجة الشهادة، أولهم «عبيدة بن الحارث» (وهو ابن عمّ النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله الذی استشهد يوم بدر)، والثانی «حمزة بن عبدالمطلب» عمّ النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله الذی استشهد يوم احد، والثالث «جعفر بن أبی طالب» ابن عمّ النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً الذی نال وسام الشهادة فی معركة مؤتة، يقول الإمام عليه السلام: «فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ».

«بدر» اسم بئر تقع بين مكة والمدينة وهی أقرب إلى المدينة، وسمّيت بهذا الإسم لأنّه اسم الحافر لها، وأمّا قصة استشهاد عبيدة بن الحارث على يد «عتبة ابن ربيعة» وأحد المشركين فهی:

عندما تقابل جيش المسلمين فی معركة بدر مع جيش الكفر والشرك نزل للبراز

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۰۱

ثلاثة أشخاص من شجعان المشركين، وفقاً لما كان متداولًا فی ذلك الزمان كمقدّمة للقتال والحرب، وهم عتبة وأخيه شيبة وابنه وليد، وطلبوا من المسلمين أن يبرز إليهم من يقاتلهم، فتطوّع لهذه المهمّة بعض الأنصار وتوجهوا إلى الميدان لمقابلة هؤلاء المشركين الثلاثة، ولكنّ المشركين قالوا: نحن نريد أكفاءنا من قريش، فالتفت النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله إلى حمزة وعبيدة والإمام علیّ عليهم السلام وقال: استعدّوا وتوجّهوا إلى هؤلاء الأعداء، فبرز عبيدة إلى عتبة وحمزة إلى شيبة وعلیّ إلى الوليد، أمّا الإمام علیّ عليه السلام فقد استطاع الإجهاز على الوليد بعد مناوشات قليلة، وأمّا حمزة فقد صرع شيبة، ولكن عبيدة الذی كان مسنّاً تقريباً بقی يقاتل عتبة، وأخيراً سقط عبيدة على الأرض وهو بالنزع الأخير وجیء به إلى النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله، فعندما رأى النبیّ قال: هل أنا شهيد، فقال له النبیّ صلى الله عليه و آله: نعم أنت شهيد فی سبيل اللّه.

أمّا حمزة بن عبدالمطلب فقد استشهد فی معركة احد التی وقعت بعد واقعة بدر فی السنة الثالثة للهجرة، وقتله شخص يدعى «وحشیّ»

وهو اسم على مسمّى وأمّا أسباب هذه المعركة فقد ذكر المؤرخون: إنّ المشركين بعد هزيمتهم فى معركة بدر رجعوا إلى مكة وأقسموا فيما بينهم (بقيادة أبى سفيان) أن يبيعوا بعض إبلهم ويجمعوا الأسلحة والعدّة للهجوم مرّة أخرى على المسلمين وكانت النتيجة أنّ المشركين استطاعوا من تحشيد ثلاثة آلاف نفر داخل وخارج مكة ومعهم مائتى فرس وثلاثة آلاف بعير وسبعمائة درع واستعدّوا للتوجّه إلى المدينة لمواجهة جيش الإسلام.

وقصة هذه الحرب فيها تفاصيل كثيرة، وإجمالًا نعلم أنّه بسبب اشتباه بعض المسلمين وتمرّدهم على أوامر النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله انتهت هذه المعركة بانكسار وهزيمة الجيش الإسلامى وجرح فيها النبىّ وكسرت رباعيته بحجر رماه به «عتبة ابن أبى وقاص» واستشهد حمزة بطل الإسلام وعمّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، وجاءت هند زوجة أبى سفيان وام معاوية ومعها جماعة من النسوة إلى الميدان فى نهاية المعركة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۰۲

وأخذت تمثّل بشهداء المسلمين، فكانت تقطع آذان وانوف هؤلاء الشهداء وتجعل منها عقداً لها، ثم إنّها جاءت إلى جسد حمزة وبقرت بطنه وأخرجت كبده ولاكته بأسنانها بقصد أكله ولكنّها لم تتمكّن من ذلك، فقذفت به خارجاً، ومن هنا كان المسلمون يطلقون على هند «آكلة الأكباد» ويسمّون معاوية «ابن آكلة الأكباد».

أمّا «جعفر بن أبى طالب فقد استشهد فى غزوة مؤتة، وهذه المعركة وقعت فى منطقة مؤتة على مقربة من الشام (الحدود الشمالية من جزيرة العرب) فى السنة الثامنة للهجرة وكانت بداية هذه الحرب أنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أرسل رسولًا من قِبله يدعى «الحارث بن عميرة» إلى حاكم «بُصرى» ودعاه إلى الإسلام، فعندما وصل منطقة مؤتة أمر حاكم بصرى بقتله، وهذا العمل يمثّل خرقاً للتقاليد الموجودة والعرف المتداول فى ذلك الوقت بالنسبة للرسل والمبعوثين، وهذه السنّة جارية لحدّ الآن فى الثقافاتالبشرية، وهذهالمصيبة ثقلت علىالمسلمين بحيث أنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله جهّز جيشاً من ثلاثة آلاف رجل بقيادة زيد بن حارثة وأمره بمواجهة أهل الشام.

وقد أمر النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه إذا استشهد زيد بن حارثة فإنّ جعفر هو الذى يتولى قيادة الجيش ويكون صاحب اللواء، وإذا استشهد جعفر بن أبى طالب، فصاحب اللواء عبداللَّه بن رواحة، وإذا استشهد عبداللَّه بن رواحة فإنّ على المسلمين أن يختاروا من بينهم رجلًا لقيادة الجيش.

وتحرّك الجيش الإسلامىّ حتّى وصل المحلّ الذى قتل فيه رسول النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ودعوا اولئك القوم إلى الإسلام، ولكن عندما اطّلع الأعداء على مجىء جيش الإسلام قاموا بتحشيد جيش عظيم بلغ عدده مائة ألف رجل، ولكن المسلمين لم يتردّدوا أو يجبنوا أمام هذا العدد الكبير من جيش الأعداء الذى لا يقارن مع قلّة عدد المسلمين، وبدأت الحرب، وخاض المسلمون معركة صعبة فى هذه المنطقة، وكما توقّع النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله فقد استشهد زيد بن حارثة وجعفر بن أبىطالب وعبداللَّه بن رواحة واحداً بعد الآخر وقطع الأعداء يدى جعفر، ولذلك

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۰۳

عندما أخبروا النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله بالحدث بعد ذلك قال: «إنَّ اللَّه قَدْ عَوَّضَهُ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِما فى الجَنَّةِ» فسمّى جعفر الطيار.

وأخيراً أخذ المسلمون يتداركون الأمر وأظهروا للأعداء أنّ هذا العدد من الجيش الإسلامىّ وهو ثلاثة آلاف رجل ما هو إلّامقدّمة لجيش الإسلام العظيم الذى سيصل عمّا قريب، وعلى ضوء ذلك رأى الأعداء أنّ الانسحاب أفضل وعاد المسلمون بخسائر محدودة إلى المدينة من دون أيّة هزيمة تفرض عليهم من الأعداء، وفى الحقيقة أنّ هذه الحرب انتهت بدون انتصار العدوّ على المسلمين.

وممّا تقدّم أعلاه يتبيّن بجلاء صدق كلمات الإمام عليه السلام فى رسالته، وكيف أنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله كان يقدّم أهل

بيته وأرحامه من بنى هاشم فى المعارك الطاحنة بين قوى الإيمان وقوى الكفر والشرك، بينما كان يعيش الآخرون فى الصفوف المتأخّرة خلافاً لما ذكره معاوية فى رسالته.

ويستمرّ الإمام عليه السلام فى رسالته مستخدماً اسلوب الكناية، والكناية أبلغ من التصريح فى إشارة إلى نفسه المباركة وأنّه أيضاً مشتاق إلى الشهادة فى سبيل الإسلام، ولكنّ اللّه تعالى لم يشأ له ذلك ولم يحن أجله ويقول: «وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِى أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ وَلَكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ وَمَنِيَّتَهُ أُجِّلَتْ».

وهذه العبارة تؤكد على الأمر الذى كثيراً ما ذكره الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وأنّه يشتاق إلى الشهادة كشوق الطفل الرضيع إلى لبن امّه كما قال: «وَ اللَّهِ لَابْنُ أَبى طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ»[۱۱۳]. أو ما ورد فى الأحاديث الشريفة بعد انتهاء معركة احد عندما جاء الإمام علىّ عليه السلام للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وهو مهموم وقال: لقد استشهد جماعة من المسلمين (ومنهم عمىّ حمزة) ولكنّى حرمت من الشهادة فقال له النبىّ صلى الله عليه و آله: «يا عَلىُّ أبْشِرْ فَإنّ الشَّهادَةَ مِنْ وَرائِكَ»[۱۱۴].

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۱۰۴

وبعد أن بيّن الإمام عليه السلام بأدلّة وشواهد قويّة دفاعه- هو وأهل بيته- المستميت عن الإسلام والنبىّ وأفضليّتهم على الآخرين، شرع بإظهار التعجّب ممّا أوقعه فيه الدهر، بمعنى أهل الدهر والناس الذين لم يدركوا هذه الحقائق وأنّه هو وأهل بيته مع كلّ هذه الفضائل قد جعلوه فى عرض من ليست له مثل تلك الامتيازات والسوابق فى تاريخ الإسلام، ولم يكن يملك أدنى امتياز فى الشخصية والإيمان والجهاد: فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِى مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِى، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِى الَّتِى لَايُدْلِى ۱۱۵] أَحَدٌ بِمِثْلِهَا».

وقد تصوّر البعض من هذه العبارة أنّها إشارة إلى أنّ الناس كانوا يقارنون بين الإمام علىّ عليه السلام ومعاوية فى حين أنّ مقصود الإمام عليه السلام يختلف عن هذا المعنى، فمراده فى الحقيقة ناظر إلى رسالة معاوية وما ذكره من أنّ الخلفاء الثلاثة السابقين كانت لهم من الفضائل والسوابق فى الإسلام حيث أخذ معاوية يتبجّح ويتفاخر بفضائل هؤلاء الخلفاء فى مقابل الإمام عليه السلام، والّا فإنّ معاوية لم يشر فى رسالته إلى سوابقه الإسلام، لأنّه أساساً لم يكن يملك أيّة سابقة حسنة فى تاريخ الإسلام وإن كانت له سابقة فهى سابقة سوء فى العداء للإسلام والمسلمين هو وقبيلته وآل بيت أبى سفيان.

وعلى أيّة حال فإنّ الإمام عليه السلام أبدى تعجّبه من أهل زمانه ومنهم معاوية كيف أنّهم يقرنونه مع الخلفاء السابقين عليه، وهذا الكلام فى الحقيقة يتناغم مع ما ورد فى الخطبة الشقشقية حيث يقول: «مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ». أى أعضاء شورى عمر بن الخطاب الذين جعلهم عمر بعده لاختيار الخليفة وجعل معهم الإمام علىّ عليه السلام كواحد من الشورى.

ولعلّ الأشخاص، الذين تصوّروا أنّ كلام أميرالمؤمنين عليه السلام هنا ناظر إلى مقارنته

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۱۰۵

مع معاوية، كانوا تحت تأثير عبارة أخرى من كلام الإمام عليه السلام وردت فى مورد آخر، ولكن إذا تمعّنوا فى هذه النقطة اللطيفة، وهى أنّ رسالة الإمام عليه السلام فى الواقع جواب على رسالة معاوية له، وفى تلك الرسالة تحدّث معاوية عن أفضليّة الخلفاء السابقين على الإمام عليه السلام، لزال هذا التوهّم، ومن هذا المنطلق يتبيّن أنّ مقصود الإمام عليه السلام هو ما ذكرناه آنفاً.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستمرّ فى كلامه بالكناية البليغة أيضاً ويقول: «إِلَّا أَنْ يَدَّعِىَ مُدَّعٍ مَا لَاأَعْرِفُهُ، وَلَا أَظُنُّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ»، أى أن يدّعى أحد بعض الفضائل لهؤلاء لا توجد لديهم فى الواقع ولست مطّلعاً عليها ولا أتصوّر أنّ اللّه تعالى أيضاً مطّلع عليها لأنّها أساساً غير موجودة لديهم.

وهذا يشبه ما ورد فى الآية الشريفة ۱۸ من سورة يونس حيث يقول تعالى: «قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَايَعْلَمُ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»، أى أنّ المشركين الذين يعبدون غير اللّه تعالى، ما لا يضرّهم ولاينفعهم يقولون:

هؤلاء شفعاؤنا عند اللَّه، فيردّ عليهم القرآن الكريم بأنّ اللَّه تعالى لا يعلم أنّ له مثل هؤلاء الشفعاء، لا فى السموات ولا فى الأرض.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى خاتمة الرسالة وبعد أن بيّن سوابق أهل البيت ومخالفيهم، يشكر اللَّه تعالى ويقول: «وَالْحَمْدُ للَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

وجملة: «فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ» لا تعنى أنّ الإمام عليه السلام يعلم بمصائر الناس وبأنّ الدهر يملك تأثيراً فى الحوادث الواقعة كما يعتقد الدهريون، بل مراده من الدهر هنا هو أهل الدهر الذين لم يعرفوا ولم يقدّروا مقام الإمام عليه السلام وما يقتضيه ويفرضه عليهم، حيث جعلوه قريناً لأشخاص لم يقدّموا أىّ شىء فى سبيل الإسلام ولم يكن لديهم أىّ امتياز فى تاريخهم، وعلى هذا الأساس كان عتب الإمام عليه السلام ناظر إلى أهل الزمان والدهر وإن كان الكلام متوجّهاً ظاهراً إلى الدهر نفسه.

وبعبارة أخرى أنّ حسن الدهر وقبحه يتمّ تشخيصه من خلال حسن الناس

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۰۶

وسوء أخلاقهم وسلوكهم كما يقول الشاعر:

يَعيبُ النّاسُ كُلُّهُمُ زَماناًوَما لِزَمانِنا عَيْباً سِوانا

نَعيبُ زَمانَنا وَالْعَيبُ فِيناوَلَوْ نَطَقَ الزَمانُ بنا هَجانا

ومفهوم جملة: «مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِى أنّ مثل هؤلاء الأشخاص لم يتقدّموا بخطوة كما تقدّمت أنا فى خطّ الرسالة والإيمان والحقّ، وهذا كناية عن أنّ الآخرين لم يقدّموا أيّة خدمة للإسلام كما قدّمت من تضحيات فى سبيل الدفاع عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والرسالة.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۰۷

القسم الثالث

اشارة

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إلَيْکَ، فَإِنّى نَظَرْتُ فِى هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِى دَفْعُهُمْ إلَيْکَ وَلَا إلَى غَيْرِکَ، وَلَعَمْرِى لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّکَ وَشِقَاقِکَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَکَ، لَايُکَلِّفُونَکَ طَلَبَهُمْ فِى بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ، وَلَا جَبَلٍلَا سَهْلٍ، إلَّا أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُکَ وِجْدَانُهُ، وَزَوْرٌ لَايَسُرُّکَ لُقْيَانُهُ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ.

الشرح والتفسير: ما أنت وقتلة عثمان؟!

نعلم أنّ معاوية كان قد طلب فى كتابه من الإمام عليه السلام أن يسلّم إليه قتلة عثمان، وهذا الطلب غير معقول وبعيد عن المنطق، لأنّه لو تقرّر أن يقدّم شخص إلى المحاكمة والقصاص بسبب قتله لإنسان برىء فإنّ هذا العمل من شأن إمام المسلمين وخليفتهم الشرعىّ، ويتمّ ذلك بموافقة أولياء الدم، لا شخص متمرّد ولا يعتبر من أولياء الدم، هذا فى صورة ما إذا ثبت أنّ المقتول كان بريئاً وأنّ القاتل أو القتلة مذنبون، ولذلك يقول الإمام فى مقابل طلب معاوية هذا: «وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إلَيْکَ، فَإِنّى نَظَرْتُ فِى هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِى ۱۱۶] دَفْعُهُمْ إلَيْکَ وَلَا إلَى غَيْرِکَ»، لأنّه لا علاقة لك بهذا الأمر، فلا أنت ولىّ الدم ولا الحاكم الإسلامىّ ليكون طلباً مشروعاً ومعقولًا.

وبـديهيّ أنّ مسألـة طلب الثأر بدم عثمان لم تكن سوى ذريعة لرفع لواء الفرقة والشـقاق ضدّ الإمام عليه السـلام والإمتناع من البيعة له، وهذه المسألة من ناحية تاريخية إلى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۰۸

درجـة من الوضوح بحيث كان يضـرب بها المثل بين الناس عنـدما يريدون أن يقولوا بأنّ فلاناً يتمسّک بشـيء لتبرير سـلوكه أو لدعم وجهة نظره فى مقابل المخالف، فيقال: «إنّ فلان جعل من القضـية كقميص عثمان» ومعلوم أنّ الإمام علىّ عليه السـلام لو سلّم لمعاوية بعض الأشـخاص المتّهمين بقتل عثمان فإنّ معاوية لم يكن يقنع بذلک، بل سيسـتمر بالمطالبة بآخرين ويتذرّع دوماً بمثل هذه الذريعة والحجّة لدعم وتقوية أركان حكومته فى الشام، وهذه الحالة تمثّل منتهى الخسّة والانتهازية فى مقابل إمام المسلمين.

أضف إلى ذلک فهناک الكثير من الأدلّة والشواهـد التى تدلّ على أنّ معاوية ليس له الحقّ بأن يطلب من الإمام عليه السـلام مثل هذا الطلب، والإمام عليه السـلام بـدوره لا ينبغى أن يهتمّ بمثل هذه الطلب، وعلاوة على ذلک أنّ مثل هذا الطلب لا يمكن أن يتحقق على أرض الواقع لأنّ انتفاضـة المسـلمين ضـدّ عثمـان كانت انتفاضـة عامـة وشاملـة والشاهـد على هـذا الكلام القصّـة التى يرويها الشارح البحرانى فى «شرح نهج‌البلاغة» حيث يقول:

«كما روى أنّ أباهريرة وأباالدرداء أتيا معاوية فقالا له: علام تقاتل عليّاً وهو أحقّ بالأمر منک لفضـله وسابقته، فقال معاوية: لست اقاتله لأنّـى أفضـل منه ولكن ليـدفع إليّ قتلـة عثمـان، فخرجـا من عنـده وأتيـا عليّـاً، فقالاـ له: إنّ معاويـة يزعم أنّ قتلـة عثمـان عنـدک وفى معسـكرک، فادفعهم إليه فإنّ قاتلک بعـدها علمنا أنّه ظالم لک، فقال علىّ عليه السـلام: إنّى لم أحضـر قتل عثمان يوم قتل ولكن هل تعرفان من قتله؟ فقالا: بلغنا أنّ محمّد بن أبى بكر وعمّار بن ياسر وعدىّ بن حاتم وعمر وبن الحمق وفلاناً وفلاناً ممّن دخل عليه.

فقال علىّ عليه السلام: فامضيا إليهم فخذوهم.

فأقبلا إلى هؤلاء النفر وقالا لهم: أنتم من قتلة عثمان وقد أمر أميرالمؤمنين بأخذكم. قال: فوقعت الصيحة فى المعسكر بهذا الخبر فوثب من عسكر علىّ أكثر

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۰۹

من عشـرة آلاف رجل فى أيديهم السيوف وهم يقولون: كلّنا قتلته، فبهت أبوهريرة وأبوالدرداء، ثم رجعا إلى معاوية وهما يقولان: لا يتمّ هـذا الأمر أبـداً، فأخبراه بالخبر، فإذا كان القائلون والمتعصـبون لهم بهذه الكثرة فكيف يمكنه عليه السـلام تسـليمهم وتمكين أحد منهم؟»[۱۱۷].

عنـدما يكون قتلـة عثمان بهـذا العـدد من الكثرة فهل يسـتطيع الإمام عليه السـلام أن يسلّمهم جميعاً أو يسـلّم أحدهم إلى معاوية على فرض أنّ معاوية ولىّ دم عثمان وأنّه يريد إقامة الحقّ والعدالة؟

ولكن بما أنّ معاويـة فى ختام رسالته هـدّد الإمام عليه السـلام بالقتال والحرب، فقـد أجابه الإمام عليه السـلام على هذا التهديد بالمثل وكتب فى ختام رسالته عبارة شديدة اللهجة زاخرة بأنواع الفصاحة والبلاغة وقال: «وَلَعَمْرِى لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّکَ ۱۱۸] شِقَاقِکَ ۱۱۹] لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيـلٍ يَطْلُبُونَکَ، لَايُكَلِّفُونَکَ طَلَبَهُمْ فِى بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ، لَاجَبَلٍ وَلَا سَـهْلٍ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُکَ وِجْـدَانُهُ، وَزَوْرٌ[۱۲۰] لَايَسُرُّکَ لُقْيَانُهُ ۱۲۱]، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ».

وهنا يـذكّر الإمام عليه السـلام بهـذه العبارة الحكيمـة معاوية بأنّ قتلة عثمان ليس كما تحسب أنّهم نفر قليل (على فرض أن يكونوا فى جيشـى) بل هم جماعة عظيمة سـيأتونک سـراعاً فلا تكلّف نفسک جهد البحث عنهم، أجل فعمّا قليل سـيأتونک تباعاً وسيواجهونک فى ميدان القتال وسـتعرف منهم ضربات السيوف والرماح وسوف تدور الدائرة عليک فلا تستطيع أن تتمسّک بعد ذلک بهذه الذريعة الواهية.

والواقع أثبت صحّة هذا الكلام ولولا بعض السذّج والمخدوعين فى جيش

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۱۰

الإمام علىّ عليه السلام الذين انطوت عليهم حيلة عمرو بن العاص فى رفع المصاحف على الرماح؛ لكان الإمام عليه السلام قد انتهى من معاوية وحكومته فى الشام وأزاح هذه الفتنة من واقع الامّة الإسلاميّة وأراح المسلمين منها.

تأمّل: كلام عن قتلة عثمان

بالرغم من أنّنا بحثنا أكثر من مرّة عن واقعة قتل عثمان والعوامل التى أدّت إلى انتفاضة المسلمين ضدّه، نرى من اللازم أيضاً الإشارة إلى نقطة أخرى فى هذا المجال بشكل موجز.

إنّ من بين أصحاب الإمام علىّ عليه السلام مَن شهد النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله لهم بالجنّة، وكانوا ممّن يرون أنّ عثمان يستحقّ القتل بسبب البدع التى اختلقها فى أيّام خلافته.

يقول نصر بن مزاحم فى كتابه (صفين): إنّ عمّار بن ياسر وقف فى أحد الأيّام فى معركة صفين بين أصحابه وقال: امضوا معى عباد اللَّه إلى قوم يطلبون فيما يزعمون بدم الظالم لنفسه، الحاكم على عباد اللَّه بغير ما فى كتاب اللَّه، إنّما قتله الصالحون المنكرون للعدوان، الآمرون بالإحسان، فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم ولو درس هذا الدين: لم قتلتموه؟ فقلنا: لإحداثه، فقالوا: إنّه ما أحدث شيئاً، وذلك لأنّه مكّنهم من الدنيا، فهم يأكلونها ويرعونها ولا يبالون لو سقطت عليهم الجبال، واللَّه ما أظنهم يطلبون دمه إنّهم ليعلمون أنّه الظالم، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبّوها واستمرأوها وعلموا لو أنّ صاحب الحقّ لزمهم لحال بينهم وبين ما يأكلون ويرعون فيها، ولم يكن للقوم سابقة فى الإسلام يستحقّون بها الطاعة والولاية، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قتل إمامنا مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً، وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون»[۱۲۲].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۱۱

وعندما يقرّ مثل هذا الرجل العظيم وهو عمّار بن ياسر الذى هو من أهل الجنّة بمشاركته بقتل عثمان ويستدلّ لذلك بما اختلقه عثمان من البدع الخطيرة فى الإسلام، فمن البديهىّ أنّ الإمام عليه السلام لا يسمح لنفسه بتسليم مثل هؤلاء الأشخاص من المهاجرين والأنصار والتابعين، إلى معاوية ليقتلهم.

إنّ الباعث على ثورة الناس ضدّ عثمان يمكن بيانه فى خمسة أمور:

۱. تعطيل الحدود والموازين الإلهيّة فى أيّام خلافة عثمان.

۲. تقسيم بيت المال بين بنى اميّة.

۳. تعيين أفراد من بنى اميّة فى المناصب الحسّاسة فى الحكومة الإسلاميّة.

۴. ضرب وجرح أصحاب النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله كعبداللَّه بن مسعود وعمّار بن ياسر.

۵. تبعيد ونفى الشخصيّات الإسلاميّة الكبيرة كأبىذرّ، مالك الأشتر، صعصعة ابن صوحان وأخيه، وعمرو بن الحِمَق الخُزاعى.

إنّ أمواج المخالفة والاعتراض ضدّ عثمان اتّسعت واشتدّت إلى درجة أنّ أفراداً كعبدالرحمن بن عوف الذى كانت له يد الطولى فى نصب عثمان واستلامه الخلافة فى مسألة الشورى الستّة الذين نصبهم عمر بن الخطاب لتعيين الخليفة من بعده، اعترض عليه وأصبح من مناوئيه، وينقل المؤرخون أنّ عبدالرحمن- لهذا الأسباب المتقدّمة- قطع علاقته مع الخليفة الثالث ولم يتحدّث معه إلى نهاية عمره، وحتى عندما جاء عثمان لعيادته وهو فى حال مرضه أعرض بوجهه عن الخليفة ولم يتحدّث معه بكلمة[۱۲۳].

ومن بين هؤلاء المعترضين على عثمان كانت عائشة زوجة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله تعترض أكثر من الآخرين على أعمال عثمان، وعندما أمر عثمان بضرب عمّار ابن ياسر أخرجت عائشة ثوب النبىّ ونعله وقالت: أيّها الناس! هذا ثوب النبىّ ونعله لم

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۱۲

يجفّا بعد وقد نسيتم سنّته.

وقد ذكر المؤرّخون عبارة مشهورة لعائشة فى حقّ عثمان حيث كانت تقول:

«اقْتُلُوا نَعْثَلًا قَتَلَ اللَّهُ نَعْثَلًا»[۱۲۴] وتقصد به عثمان بن عفّان.

ومن جملة المعترضين والمخالفين لعثمان، طلحة والزبير اللذان كانا ينتقدان سياسة عثمان وتصرّفاته كثيراً، ومن العجيب أنّ هذين الرجلين خرجا بعد ذلك ومعهما عائشة للطلب بدم عثمان فى مواجهة الخليفة الحقّ يعنى أميرالمؤمنين علىّ عليه السلام الذى بايعاه قبل ذلك وكان من أمر خروجهما ومعركة الجمل ما كان.

على أيّة حال فإنّ الأشخاص الذين حرّكوا الناس ضدّ عثمان بأقوالهم وبتحريضهم وبذلك مهّدوا الأرضية لقتل عثمان؛ أكثر من أن نحصيهم فى هذا المقال.

إنّ العوامل الخمسة المذكورة أعلاه جعلت الكثير من المسلمين فى المراكز الإسلاميّة كالكوفة والبصرة ومصر يتوجّهون إلى المدينة لأداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويجتمعون إلى أنصارهم ومؤيّديهم لبحث الأزمة فى مركز الخلافة ويجبروا الخليفة على التوبة والعودة إلى تعاليم الإسلام أو يعتزل سدّة الحكم ويفوّض أمر الخلافة إلى غيره، وبذلك حاصرت الجماهير بيت الخليفة وطلبوا منه التوبة بإرسالهم رسالة إليه.

وقد سعى عثمان الذى لم يكن يعلم بعمق الاعتراض الجماهيرى والسخط الشعبىّ إلى إنهاء الاضطرابات من خلال تعيين بعض الأشخاص من ذوى السعة كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص فى مركز الخلافة والقرار، ولكنّ الناس لم يقبلوا بهما ورفعوا نداء الاعتراض ضدّهما.

وبعد اشتداد الأزمة بدأ عثمان يتوسّط لدى أميرالمؤمنين عليه السلام لتخفيف وتهدئة الأوضاع المضطربة، وكان الإمام عليه السلام فى كل مرّة يعمل على تهدئة الأوضاع بتدابيره الحكيمة، ولكن للأسف كان عثمان فاقداً للإرادة القوية وكان خاضعاً بشكل تامّ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۱۳

لإرادة عناصر فاسدة فى جهاز الحكومة كمروان بن الحكم حيث كان يستشيره فى كل مرّة ولا يعمل بنصائح أميرالمؤمنين عليه السلام ولا يقيم لسعيه الإصلاحىّ وزناً.

وأخيراً قام المعترضون والثوّار بمحاصرة دار الخليفة ومنعوا عنه الماء فى هذه المرّة، وفى هذه الأثناء قام أميرالمؤمنين عليه السلام وبطلب من الخليفة ومساعدة بنى هاشم بنقل الماء بالقربة إلى دار الخليفة عثمان، حتى أنّ بعض أفراد بنى هاشم فى خضّم هذا الصراع اصيبوا بجراح من قِبل الثوّار والجمهور الذى يحاصر دار عثمان.

وقد كتب عثمان فى أيّام الحصار هذه رسالة إلى معاوية وطلب منه أن يرسل له المدد والعون ولكن معاوية لم يهتمّ لرسالة عثمان ولم يرتّب عليها أثر يذكر وكان يقول: إننى لا اخالف صحابة النبىّ، ولم يكن هدف المحاصرين بيت الخليفة قتله، بل كانوا يريدون استسلام عثمان وأعوانه ورضوخهم لمطالبهم من خلال منع الماء والطعام عنهم، ولكن سوء تدبير مروان بن الحكم الذى قتل أحد الثوّار أدى إلى تفاقم الأزمة وهجومهم على دار الخليفة.

وكانت شدّة الهجوم إلى درجة بحيث إنّ بنى امية الذين كانوا يحرسون الدار ويدافعون عن الخليفة وأعوانه، فضّلوا الهرب من الميدان، حيث قامت ام حبيبة زوجة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وبنت أبى سفيان «وكانت أيضاً من بنى اميّة بإخفائهم فى دارها»، ولكن ثلاثة أشخاص من أعوان الخليفة الذين لم يتمكّنوا من الفرار قتلوا على يد المهاجمين، وأخيراً قتل عثمان أيضاً على أيديهم، وفى هذ المجال كان لبعض الأفراد دور كبير فى هذه النهاية الدامية ومنهم: محمد بن أبى بكر وكنانة ابن بُشر التجيبى وسودان بن حمران المرادى وعمرو بن الحَمِق الخُزاعىّ وعمير ابن الصابى ۱۲۵].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۱۵

الرسالة ۱۰

اشارة

إلَيْهِ أيضَاً[۱۲۶]

نظرة إلی الرسالة

تتألف هذه الرسالة من أربعة أقسام:

القسم الأوّل ينصح الإمام علىّ عليه السلام معاوية ويحذّره من المصير الأليم يوم القيامة والعواقب الوخيمة المترتّبة على تصرّفاته المعادية والمغرضة، رغم أنّ الإمام عليه السلام يعتبره أسير الشيطان وأنّه لا أمل فى هدايته.

والقسم الثانى يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة، وهى أنّ معاوية كيف يستطيع إدارة أمور الامّة الإسلاميّة وتولّى شؤونها فى حين أنّه لا يملك أيّة سابقة محمودة فى تاريخ الإسلام ولا ينتمى إلى اسرة شريفة ومؤمنة؟!

وفى القسم الثالث منها يبيّن الإمام عليه السلام هذه الحقيقة وهى أنّه يدعو معاوية إلى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۱۶

ترک الناس وعدم إقحامهم فى الحرب وأن يأتى هو بنفسه إلى الميدان ليواجه الإمام عليه السلام بمفرده ويحسم بذلک مصير الامّة ويعيد إلى الأذهان ما مضى من تاريخ الإسلام حيث كان المسلمون يقاتلون إخوانهم وآباءهم وبنى عمومتهم على الإسلام والإيمان.

وأخيراً فى القسم الرابع من هذه الرسالة يطرح الإمام عليه السلام ذريعة معاوية فى الطلب بدم عثمان ويقول: إنّک تعلم جيداً من هو القاتل لعثمان، فلماذا لا تتوجّه إليه وتترک المسلمين وشأنهم؟ وفى نهاية الرسالة يقول: إننى أرى عمّا قريب صراخک وصراخ جيشک فى ميدان الحرب وسوف تلحق بک الهزيمة بعد الهزيمة وتضطرّ أخيراً إلى اللجوء إلى كتاب اللّه فى حين أنّک لا تؤمن به.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۱۷

القسم الأول

اشارة

وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إذَا تَكَشَّفَتْ عَنْکَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا. دَعَتْکَ فَأَجَبْتَهَا، وَقَادَتْکَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرَتْکَ فَأَطَعْتَهَا. وَإِنَّهُ يُوشِکُ أَنْ يَقِفَکَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لَايُنْجِيکَ مِنْهُ مِجَنٌّ، فَاقْعَسْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِکَ، وَلَا تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِکَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمْکَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِکَ، فَإِنَّکَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْکَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيکَ أَمَلَهُ، وَجَرَى مِنْکَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ.

الشرح والتفسير: نظرة إلی الافق الغائم

رأينا آنفاً أنّ هذه الرسالة تبتدىء بكلمات لم يذكرها السيّد الرضىّ فى «نهج‌البلاغة»، فالإمام عليه السلام فى بداية هذا الكتاب بعد

الحمـد والثناء على اللّه تعالى أشار إلى سـرعة انقضاء الـدنيا وزوال الحياة وخاطب معاويـة بالقول: يا معاوية أنت تدّعى شـيئاً لست من أهله، لا فى الماضـى ولا فى الحاضـر، ولا تملك الـدليل على إثبات مـدّعاك (جـدارتك بالحكومة والخلافة على المسـلمين) وليس لديك شاهد من القرآن الكريم أو من الأحاديث النبويّة الشـريفة، ثمّ إنّ الإمام عليه السـلام أخذ ينبّه معاوية على عواقب التكالب على الدنيا وزخارفها ويحذّره من الوقوف أمام اللّه تعالى يوم القيامة لعلّه ينتبه لخطئه ويرعوى عن سـلوكه ويتحرّك فى الصـراط المستقيم، يقول الإمام عليه السلام: «وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ ۱۲۷] مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۱۸

تَبَهَّجَتْ ۱۲۸] بِزِينَتِهَا وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا».

ثم يضـيف الإمام عليه السـلام: إنّ هذه الدنيا هى التىدعتك وخدعتك إلى بريقها وزخارفها وقد أجبتها وأسرعت إليها وسلّمت إليها قيادك وعقلك: «دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا، قَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا».

والإمام عليه السـلام فى هـذه العبارات يطرح تشبيهات رائعة للدنيا وبريقها ويشـبّهها بالملابس البرّاقة والملوّنة التى يلبسـها المرء ويزهو بهـا أمـام الآـخرين، أو بمثابـة الجلبـاب الـذى يغطّى به الإنسان رأسه، وزخارف الـدنيا تخـدع الإنسان ولـذّتها تجـذبه إلى خطّ الهاوية والضلالة، فالأشخاص الذين يتحرّكون فى خطّ الأهواء والشهوات والذين لا يعرفون حقيقة الدنيا سيقعون فى فِخاخِها سريعاً ومن أجل الاسـتفادة من زينتها ولذّاتها سـيجدون أنفسـهم مضـطرّين لاتّباع أوامرها والامتثال لمطالبها، وبذلك يبتعدون عن طريق الحقّ والإيمان ويتحرّكون فى متاهات الضلالة ومنزلقات الخطيئة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى عاقبة هذا المسار المنحرف ويقول: «وَإِنَّهُ يُوشِكُ ۱۲۹] أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لَايُنْجِيكَ مِنْهُ مِجَنٌ ۱۳۰]، فَاقْعَسْ ۱۳۱] عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَخُذْ أُهْبَةَ[۱۳۲] الْحِسَابِ، وَشَمِّرْ[۱۳۳] لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلَا تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ[۱۳۴] مِنْ سَمْعِكَ».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۱۹

ويتحـدّث الإمـام عليه السـلام فى هـذه العبارات عن جـذور الإنحرافات التى وقع فيها معاويـة وكـذلك يشـير إلى طريق الحلّ والعلاج حيث يقول: إنّ أفضل طريق لنجاتك من هذه المتاهة هو أن تعزل حكومة الشام وتأخذ الاهبة للحساب الإلهىّ.

وجملـة «شَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ إمّا إشارة إلى الحوادث الأليمـة والوخيمـة التى ستصـيب معاويـة وأعوانه فى هـذه الدنيا، أو إشارة إلى الحوادث والعاقبـة الأليمـة التى سـتلحق بهم فى الآخرة (والاحـتمال الثانى أنسب فى المقام) وعلى أية حال بما أنّ هذه الحوادث حتمية الوقوع فإنّ الإمام عليه السلام ذكرها بصيغة الماضى.

ثم إنّ الإمام عليه السـلام فى سياق كلامه لمعاوية يستعمل لغة التهديد ببعض الأمور المعنوية ويقول: إنّك إن لم تعمل بما أمرتك به وأرشـدتك إليه فـذلك لأنّك تعيش الغفلة عن العاقبة الوخيمة التى تنتظرك، وأنّ السبب فى ذلك طغيانك وغرورك بالنعمة «وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ ۱۳۵] قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، جَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ».

وقـد ذهب بعض المحقّقين إلى أنّ «إِلَّا تَفْعَلْ ...» إشارة إلى أنّ الإمام عليه السـلام يهـدد معاويـة فى هـذه العبارة بالحرب، ومراده من إعلامه هو الإعلام العملىّ، ولكن مثل هذا المفهوم لا يستوحى من أىٍّ من العبارات والجمل المذكورة قبل هذه الجملة وبعدها، بل إنّ مجموعة هذه الكلمات والعبارات توحى بالنصيحة وتثير فى المخاطب اليقظة والانتباه.

واللافت أنّ معاويـة قـد هدّد الإمام عليه السـلام فى رسالته بالحرب، ولكن الإمام عليه السـلام هدّده بسـيطرة الشـيطان عليه ووقوعه فى شباكه وحذّره من هذا المصير السيِء.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۲۱

القسم الثانى

اشارة

وَمَتى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ، وَوُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ؟ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ، وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ. وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِى غِرَّةِ الْأُمْنِيَّةِ، مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ.

الشرح والتفسير: حذارِ من الغفلة

فى هذا المقطع من الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى حقيقة عدم صلاحيّة معاوية وبنى امية لاستلام أمر الحكومة ومقاليد السلطة على الامّة الإسلاميّة حتى الحكومة على جزء من البلاد الإسلاميّة، لأنّه يعلم أنّ مسألة الطلب بدم عثمان وأمثالها ليست سوى ذريعة بيد معاوية لإيهام الناس واستغفالهم، بينما الغرض الأصلىّ منها أن يفرض حكومته وسيطرته على أهل الشام بوصفه حاكماً إسلاميّاً، يقول الإمام عليه السلام:

«وَمَتى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ، وَوُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ؟ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ، وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ ١٣۶]».

صحيح أنّ اسرة بنى امية وأسلافهم كانوا حكّاماً فى ما مضى على قريش، ولكنّ هذا الأمر يتعلّق بزمان الجاهلية وعصر الكفر والشرك، وعبارة «وُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ» تبيّن أنّ مقصود الإمام عليه السلام هو عصر ظهور الإسلام، لأننا نعلم أنّ بنى امية وعلى رأسهم أبى سفيان كانوا عند ظهور الإسلام يقفون فى الجبهة المخالفة للرسالة الجديدة وكانوا يدافعون عن الشرك والكفر ويسيرون فى خطّ الضلالة.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۲۲

وعبارة «سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ» و «وُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ» يمكن أن تكون من قبيل العطف والتفسير وأنّ كلا- هاتين الجملتين إشارة إلى الحكومة الإسلاميّة، ولكن يحتمل أيضاً أنّ عبارة «سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ» تتعلّق بمرحلة ما قبل الإسلام، وعبارة «وُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ» تتعلّق بما بعد ظهور الإسلام فى جزيرة العرب، لأنّ بنى امية قبل الإسلام لم يكونوا سوى ولاة أمر قبيلتهم فقط، فى حين أنّ كلمة الرعيّة توحى بالمعنى الواسع للكلمة، وبعبارة أخرى إنّ أهل مكة كانوا تحت زعامة عبدالمطلب وبعده تحت زعامة أبىطالب.

والإمام عليه السلام فى عبارته «بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ ...» يشير إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الحكومة ومسألة قيادة وزعامة الامّة الإسلاميّة تستلزم توفّر الشروط والضوابط ومنها أن يكون الشخص ذا سابقة فى الإسلام ويكون شريف النسب، فى حين أنّ معاوية هو ابن أبى سفيان الذى كان يقف فى خطّ المواجهة مع النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله إلى آخر لحظة، وقصّة تلوث ام معاوية معروفة ومشهورة فى كتب التاريخ.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يحذّر معاوية فى ثلاث جمل ويقول أولًا: «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ».

هذه الجملة يحتمل كونها إشارة إلى أنّ معاوية، وبسبب العوامل الوراثية السلبية الصالحة التى انتقلت إليه من أبيه وامّه، (أبى سفيان وهند آكلة الأكباد) وحركته فى خطّ الباطل والشرك ومواجهة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والرسالة الإلهيّة مع أبيه، قد وفّر الأرضية لنفسه للشقاء والانحراف والتوغّل فى خطّ الضلالة، وهذا ما لا يمكن الخلاص منه إلّابتهذيب النفس والسعى الجادّ فى تغير المسار.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يذكر فى الجملة الثانية «وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِى غِرَّةِ[۱۳۷] الْأُمْنِيَّةِ[۱۳۸]»، أى أنّ الغفلة الناشئة من الآمال والطموحات الموهومة تقود صاحبها فى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۲۳

طريق الشيطان والتمرّد على الحقّ.

وهـذه الجملـة ناظرة إلى ما أشارت إليه الروايات الإسـلاميّة مراراً، وهو أنّ الآمال العريضـة والطموحات البعيدة من شأنها إبعاد الإنسان عن طريق الحقّ وعن الإيمان باللَّه واليوم الآخر بحيث يغفل الإنسان حتّى عن واقعه وما يصلحه فى هذه الدنيا:

«وَأمّا طَولُ الأمَلِ فَيُنْسِى الْاخِرَةَ»[۱۳۹].

وفى الجملـة الثالثـة يقول الإمـام عليه السـلام: إنّى احـذّرك أن تكون ممّن يختلف ظـاهره عن باطنه، وتظهر للناس الإسـلام والإيمان، ولكنّك تبطن الشرك وعقائد الجاهلية (مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ).

وهذه الجملة إشارة إلى نفاق معاوية الذى يطالب بدم عثمان ويدافع عن مقام الخلافة فى الظاهر ولكنّه فى الباطن ليس له هدف سوى الحكومة على الشام، ونعلم أنّ حالة النفاق والازدواجية فى الشخصيّة لدى المنافقين هى أشدّ خطراً من الشرك، لأنّ المسلمين يعرفون تكليفهم الشـرعىّ فى مقابل المشـركين وأعداء الإسـلام فى حين أنّهم لا يعرفون الموقف الصـحيح من المنافقين بسـبب تستّرهم بقناع الإسلام والإيمان الظاهرىّ وطعنهم الإسلام من ورائه.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۲۵

القسم الثالث

اشارة

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَاخْرُجْ إِلَيَّ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ وَالْمُغَطَّى عَلَى بَصَـرِهِ! فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَـدِّكَ وَأَخِيـكَ وَخَالِـكَ شَـدْخاً يَوْمَ بَـدْرٍ، وَذَلِـكَ السَّيْفُ مَعِى، وَبِـذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَـدُوِّى، مَا اسْـتَبْدَلْتُ دِيناً وَلَا اسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً. وَإِنِّى لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِى تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ.

الشرح والتفسير: أنا أتحرّك دوماً فى خطّ الحقّ والهداية

يبيّن الإمام عليه السـلام فى هـذا المقطع من الرسالـة جواباً آخر على ما ذكره معاويـة فى رسالته، حيث هـدّد معاوية الإمام عليه السـلام بكلمـات وقحـة وغير مسؤولـة بـالحرب واتّهم الإمـام عليه السـلام بـأنّه قـد غطّى على عينه بحجاب الأنانيـة وأمّا قلبه قـد أصابه الصـدأ والرين!! وما يثير العجب أنّ شـخصاً من بقايا عصـر الجاهليـة وابن لأشدّ أعداء الإسـلام والمسـلمين يتحدّث بهذا الكلام مع من قد ملأ الإيمان قلبه وعاش منذ طفولته إلى نهاية عمره فى خدمة الإسلام والدفاع عن المسلمين ويعدّ أشجع العرب على الإطلاق.

وعلى أية حال، يقول الإمام عليه السـلام: «وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَاخْرُجْ إِلَيَّ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ، وَالْمُغَطَّى عَلَى بَصَرِهِ».

وهكذا نرى الإمام عليه السـلام فى هذه العبارة بدون أن يخاطب معاوية بمثل العبارات التى خاطبه بها، يجيب على تهديد معاوية جواباً حاسماً وقاطعاً بأنّك إذا كنت

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۲۶

صادقـاً فى تهديـدك بالحرب، فبـدلًا من سـفكك دماء المسـلمين من كلا الطرفين ينبغى عليك أن تأتى إلى الميـدان بمفردك وتقف أمـامى للنزال، ومعلوم أنّ معاويـة لاـ يجـد جواباً على مثل هـذه الاقتراح، لأنّه لم يكن يوم من الأيّام رجل الميـدان ولا يجـد فى نفسه الشجاعة الكافية لمواجهة الإمام عليه السلام فى مواقع الخطر.

ويـذكر الشـيخ مغنيـة فى كتابه الإمامـة والسـياسة نقطـة ملفتـة للنظر، وهى أنّ هـذه الرسالـة عندما وصـلت معاوية قال عمرو بن العاص

لمعاويـة: هـل تخشـى على نفسـک من مواجهـة علىّ بن أبى طـالب، فواللَّه لأذهب إليه حتّى لو قتلت ألف مرّة، وبـذلک برز عمرو بن العـاص فى حرب صـفّين فى مقابـل الإمـام عليه السـلام فمـا كان من الإمام إلّاأن ضـربه بقناته فسـقط على الأرض ولم يجـد عمرو بن العاص شـيئاً ينقـذه من الهلكة المحتومة سوى أن ينزع عنه لباسه ويبدى عورته، لأنّه يعلم أنّ الإمام يسـتحى من ذلک ويعود من حيث أتى، ويسلم بذلک عمرو من الهلكة.

ولهذا السبب قال معاوية بعد ذلک لعمرو بن العاص: أمران قد أنقذاک من الهلكة، الأول عورتک، والثانى حياء علىّ بن أبى طالب.

ثمّ إنّ الإمام عليه السـلام قال تأييـداً لكلامه «فَأَنَا أَبُوحَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّکَ وَأَخِيکَ وَخَالِکَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ، وَذَلِکَ السَّيْفُ مَعِى، وَبِذَلِکَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّى».

ونعلم أنّ «عتبة بن ربيعة» والد هند امّ معاوية قتل فى غزوة بدر فى مقابل «عبيدة بن الحارث» ابن عمّ الإمام علىّ عليه السـلام، فقد هبّ الإمام لمساعـدة عبيـدة فى هـذه الواقعـة وقتل عتبـة، وكان «شـيبة بن أبى سـفيان» أخو معاوية قد بارز فى هذه المعركة حمزة عمّ النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله وقد أعان الإمام عليه السـلام حمزة على قتله، وأمّا خال معاوية «الوليد بن عتبة» فقد بارز الإمام عليه السلام فى هذه الواقعة وقتله الإمام عليه السلام.

ومع الأخـذ بنظر الاعتبار أنّ كلمة «شدخ» بمعنى كسـر الشـىء الأجوف، فتعبير الإمام عليه السـلام هذا يبيّن هذه الحقيقة، وهى أنّ جدّ وخال وأخا معاوية قتلوا فى معركة بدر وأنّ جماجمهم كانت فارغة من العقل والتفكير السليم.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۲۷

وبالرغم من أنّ معاويـة اسـتخدم فى رسالته كلمات نابيـة وشديدة إلّاأنّها كانت خاوية وفاقدة للمحتوى، بينما اسـتخدم الإمام علىّ عليه السـلام عبارات أكثر انسـجاماً وقوّةً، وعميقـة المعانى، وبينما كان معاويـة يـدعو إلى الحرب بين طائفتين، كان الإمام علىّ عليه السـلام يدعوه إلى القتال منفردين، أى يطلب المبارزة بينه وبين معاوية وجهاً لوجه.

ورأينا أنّ معاوية يتحدّث فى رسالته عن مدّعيات خاوية دون إسـنادها بالمدارک التاريخية، بينما نرى أنّ الإمام علىّ عليه السـلام أخذ بيـد معاويـة إلى الماضـى من صدر الإسـلام وبيّن له سوابقه التاريخية فى معركة بدر وأنّه هو علىّ بن أبى طالب الذى قتل جدّه وأخاه وخاله وأئمّـة الكفر والشـرک من قبيلته، وأنّ سـيفه هو ذلک السـيف الذى مرّغ به انوف عتاة المشـركين والمردة من قوى الكفر، وأنّ قلبه هو ذلک القلب الشجاع الذى كان يقاتل به المشركين فى معارک صدر الإسلام.

ثمّ إنّ الإمام عليه السـلام يشـير إلى نقطـة أخرى وهى ثباته واسـتقامته فى خطّ الإسـلام والإيمان ويقول: لم أبتـدع فى الدين شـيئاً ولا اخترت نبيّاً غير نبىّ الإسـلام صـلى الله عليه و آله فأنا أتحرّک فى الطريق القويم والصـراط المسـتقيم: «مَا اسْتَبْدَلْتُ دِيناً، وَلَا اسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً.

وَإِنِّى لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِى تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ».

وهـذه إشارة إلى أنّ أباسـفيان وأذنابه وأعوانه دخلوا الإسـلام مكرهين يوم فتـح مكّة والشواهد التاريخية الإسـلاميّة تشـير إلى أنّهم لم يعتنقوا الإسلام أبداً، ولم يؤمنوا طواعية، ولذلک بعد استلام بنى امية أزمّة الحكم ومقاليد السلطة فى زمان الخليفة الثالث، سحق الكثير منهم أصـول الإسـلام وسنّة الرسول الأـكرم صـلى الله عليه و آله تحت أقـدامهم ونهبوا بيت مـال المسـلمين واسـتأثروا بفيئهم وحرموا بذلک الطبقة المستضعفة والمحرومة ممّا يستحقونه من هذه الأموال.

وقـد تبيّن ممّـا ذكر آنفـاً أنّ مراد الإمام عليه السـلام من قوله: «الَّذِى تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ»، يتعلّق بموقفهم بعـد قبولهم الإسـلام ظاهراً، أى أنّهم فى البداية قبلوا بالإسلام مكرهين، ثمّ عندما استلموا مقاليد السلطة نقضوا سنن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله واحدة بعد

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۲۸

الأـخرى، والشاهـد على هـذا الكلام أنّ الإمام عليه السـلام قال: «مَا اسْـتَبْدَلْتُ دِيناً، وَلَا اسْـتَحْدَثْتُ نَبِيّاً» أىّ أنّنى لم أغيّر ولم ابتـدع فى

الـدین شـیئاً، وعلی ضوء ذلک فإنّ ما ذهب إلیه جمع من شـرّاح نهج بالبلاغة فی جملة «تَرَکْتُمُوهُ طَائِعِینَ» وأنّها تعود إلی عدم قبولهم للإسـلام قبل فتـح مکـة، لا یبدو تفسـیراً صـحیحاً نظراً لما ذکره الإمام علیه السـلام عن نفسه، وخاصّةً أنّ مفردة «ترک» تقال فی مورد یکون الإنسان قد قِبل شیئاً قبل ذلک أو ذهب إلی مکان معیّن وترکه بعد ذلک.

تأمّلان

۱. مقارنة شجاعة الإمام علیه السلام بالأعداء

من النقاط الملفتـة للنظر ما ذکره أصـحاب السیر والتواریخ عن مقدار شـجاعة معاویة وعمرو بن العاص، فالمؤرّخ المعروف «الواقدی» وطبقاً لما نقله ابن أبیالحدید عنه فی شرح نهجالبلاغة یقول:

«قال معاویـة یوماً- بعـد اسـتقرار الخلافـة له- لعمرو بن العاص: یاأباعبـداللَّه لا أراک إلّاویغلبنی الضـحک، قال: بماذا؟ قال: أذکر یوم حمـل علیـک أبو تراب فی صـفّین فـأزریت نفسـک فرقـاً من شـبا سـنانه، وکشـفت سوءتـک له. قال عمرو بن العاص: أنا منک أشـدّ ضحکاً، إنّی لأذکر یوم دعاک إلی البراز فانتفخ سـحرک وربا لسانک فی فمک، وغصصت بریقک، وارتعدت فرائصک، وبدا منک ما أکره ذکره لک، فقال معاویة: لم یکن هذا کلّه، وکیف یکون ودونی عکّ والأشـعریّون!، قال: إنّک لتعلم أنّ الذی وصفت دون ما أصابک، وقـد نزل ذلک بک ودونک عکّ والأشـعریون، وکیف کانت حالک لو جمعکما مأقط الحرب. فقال: یاأبا عبداللَّه خض بنا الهزل إلی الجدّ «إنَّ الجُبنَ وَالفِرارَ مِنْ عَلِیٍّ لا عارَ عَلی أَحَدٍ فِیهِما»[۱۴۰].

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۱۲۹

۲. هل کان معاویة حاضراً فی معرکة بدر؟

یقول ابن أبیالحدید: سألت النقیب أبا زید (استاذه) عن معاویة، هل شـهد بدراً مع المشـرکین؟ قال: نعم، شهدها ثلاثة من أولاد أبی سفیان: حنظلـة، عمرو ومعاویـة، قتل أحدهم واسـر الآخر، وأفلت معاویة هارباً علی رجلیه وقد انتفخ رجلاه وورمت ساقاه، فعالج نفسـه شهرین حتی بریء.

قال النقیب أبوزیـد: ولا خلاف عنـد أحـد أنّ علیّاً علیه السـلام قتل حنظلة وأسـر عمراً أخاه ولقد شـهد بدراً وهرب علی رجلیه من هو أعظم منهما ومن أخیهما، عمرو ابن عبدودّ فارس یوم الأحزاب، شـهدها ونجا هارباً علی قدمیه وهو شـیخ کبیر وارتثّ جریحاً، فوصـل إلی مکة وهو وقیذ فلم یشهد احداً، فلما بریء شهد الخندق فقتله قاتل الأبطال، والذی فاته یوم بدر استدرکه یوم الخندق.

ثم قـال لی النقیب «رحمه اللَّه»: أما سـمعت نادرة الأعمش ومناظرته فقلت: ما أعلم ما تریـد؟ فقال: سأل رجل الأعمش وکان قـد ناظر صاحباً له: هل معاویة من أهل بدر أم لا؟ فقال له: أصلحک اللَّه، هل شهد معاویة بدراً، فقال: نعم من ذلک الجانب.

ویشـیر الإمام علیه السـلام أیضاً فی أحـد کتبه إلی قصّیـة فرار معاویـة ویقول: واذکر ما لست له ناسـیاً یوم قتلت أخاک حنظلة وجررت برجله إلی القلیب، وأسـرت أخـاک عمراً وجعلت عنقه بین سـاقیه رباطـاً، وطلبتـک، ففررت ولـک حصـاص فلولا ـ أنّی لا ـ أتبـع فـارّاً، لجعلتک ثالثهما[۱۴۱].

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۱۳۱

القسم الرابع

اشارة

وَزَعَمْتَ أَنَّکَ جِئْتَ ثائِراً بِدَمِ عُثْمانَ. وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَیْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاکَ إِنْ کُنْتَ طَالِباً، فَکَأَنِّی قَدْ رَأَیْتُکَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْکَ ضَجِیجَ الْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ، وَکَأَنِّی بِجَمَاعَتِکَ تَدْعُونِی جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ، إِلَی کِتَابِ اللَّهِ، وَهِیَ کَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ، أَوْ مُبَایِعَةٌ حَائِدَةٌ.

الشرح والتفسیر: المستقبل المظلم والافق المشؤوم للعدو!

وفی آخر قسم من رسالة الإمام علیه السلام لمعاویة یتحدّث الإمام علیه السلام مرّة أخری عن قصّة قتل عثمان التی جعلها معاویة ذریعة لتمرّده ومخالفته للإمام علیّ علیه السلام وطلب بالثأر لدم عثمان فیقول الإمام: «وَزَعَمْتَ أَنَّکَ جِئْتَ ثَائِراً[۱۴۲] بِدَمِ عُثْمَانَ. وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَیْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاکَ إِنْ کُنْتَ طَالِباً».

وهذا إشارة إلی أنّه إذا أردت من شارک بدم عثمان فاطلبه من أصدقائک طلحة والزبیر، وإذا کنت تطلب الأشخاص الذین ترکوه وحیداً ولم یمدّوا له ید العون ویغیثوه، فأنت الذی کتب إلیک عثمان یطلب منک ولم تجبه، لم تتقدّم خطوة فی هذا السبیل، وعلیه فأنت لست صادقاً بدعواک بطلب الثار لدم عثمان، وإن کنت صادقاً لزمک أن تسلک غیر هذا المسلک.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۱۳۲

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام یرسم مستقبل معاویة وأعوانه والحرب ضدّهم ویتنبأ له بالافق المظلم ویقول: «فَکَأَنِّی قَدْ رَأَیْتُکَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْکَ ۱۴۳] ضَجِیجَ الْجِمَالِ ۱۴۴] بِالْأَثْقَالِ».

وکما هو معلوم فإنّ هذه النبوءة قد تحقّقت علی أرض الواقع فی معرکة صفّین عندما ضیّق جیش الإمام الخناق علی جیش معاویة، ووصل مالک الأشتر علی مقربة من سرادق معاویة، ولم یبق إلّاالقلیل لیصل إلیه ویقتله، وفی ذلک الوقت ارتفع صراخ معاویة وأتباعه طالبین إنهاء القتال برفع المصاحف.

وفی تنبّؤ آخر یقول الإمام علیه السلام: «وَکَأَنِّی بِجَمَاعَتِکَ تَدْعُونِی جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ، إِلَی کِتَابِ اللَّهِ، وَهِیَ کَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ، أَوْ مُبَایِعَةٌ حَائِدَةٌ[۱۴۵]».

وهذا التنبُّؤ وقع أیضاً بشکل کامل عندما رأی جیش الشام أنّهم عاجزون عن مجابهة أنصار الإمام علیّ علیه السلام وعاشوا المحنة والقتل المتتابع فی صفوفهم، رفع جماعة منهم مع عمرو بن العاص المصاحف علی رؤوس الرماح وقالوا: إننا نسلّم أمرنا إلی کتاب اللَّه ونحتکم إلیه فی هذا الأمر، فی حین أنّ هذه الجماعة من أهل الشام لا یعتقدون بکتاب اللَّه ویکفرون بما أنزل اللَّه، لأنّهم لم یبایعوا إمام الحقّ، وفیهم جماعة أخری ممّن بایع الإمام علیه السلام ولکنّهم نکثوا بیعتهم خلافاً لجمیع الأصول والمبادیء الإسلامیّة المعروفة والتقالید العربیة، والتحقوا بمعاویة وأعداء الإمام فی هذه الواقعة.

وطبعاً ربّما یثیر البعض هذا السؤال، وهو أنّ تعبیر الإمام علیه السلام هذا یفتح المجال أمام استغلال الأعداء لکتاب اللَّه عندما یشاهدوا نهایتهم المخزیة علی الأبواب،

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۱۳۳

ولکنّ هذا الکلام غیر صحیح، لأنّ الإمام علیه السلام أشار بشکل مجمل إلی هذه الواقعة بحیث لم تکن هذه الإشارة المجملة مفهومة لدی معاویة وأتباعه، لأنّ هذا الکلام یتحدّث عن الدعوة إلی کتاب اللَّه فقط، رغم أننا الیوم نعرف تفاصیل الواقعة التاریخیة وما حدث فی معرکة صفّین من استغلال المصاحف لإنقاذ ما یمکن إنقاذه من فلول جیش الشام، فهذه الإشارة فی کلام الإمام تعتبر إشارة معبّرة.

تأمّل: التنبؤات الواقعة

إنّ تنبؤات الإمام علیّ عليه السلام فی هذه الرسالة التی كتبها لمعاوية قد تحقّقت على أرض الواقع بشكل تام، لأنّ القتال بدأ على أشدّه فی صباح يوم الثلاثاء من العاشر من شهر صفر سنة ۳۷ للهجرة بعد صلاة الصبح، فتقاتل الجيشان ودارت بينهما رحى الحرب، فكانت الدائرة على جيش الشام الذين تزعزعت مواقعهم وأحسّوا بالضعف والانهيار أمام جيش الإمام عليه السلام الذی كان يتقدّم بقيادة مالك الأشتر فی أرض المعركة، ولم يبق من انهيار جيش الشام وقتل معاوية أو أسره إلّاالقليل، يقول عمّار بن ربيعة: كان مالك الأشتر واقفاً بين أنصاره وأتباعه ويقول: «فداكم امّی وأبی وجميع عشيرتی، اهجموا عليهم هجمة واحدة ويفرح اللَّه لكم واعزّوا بذلك دينه، فانظروا إلیَّ حين أهجم عليهم فاهجموا بدوركم معی».
وهكذا كان مالك الأشتر غارقاً فی صفوف الأعداء يقاتل ببسالة وهو حاسر الرأس وقد وضع مغفره على قربوس السرج، وهو ينادی: اصبروا يامعشر المؤمنين فقد حمی الوطيس ... يقول ابن أبی‌الحديد: للّه‌من امّ قامت عن الأشتر لو أنّ إنساناً يقسم أنّ اللَّه تعالى ما خلق فی العرب ولا فی العجم أشجع منه إلّااستاذه علیّ عليه السلام لما خشيت عليه الإثم.
وأخيراً استطاع مالك الأشتر وأنصاره من تدمير صفوف جيش الشام وتحطيم
نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۳۴
كلّ مقاومة أمامهم وقتلوا حملة الألوية، فوصلوا إلى الخيام، وقد استمرّ القتال حتّى تلك الليلة التی سمّيت «ليلة الهرير»[۱۴۶].
وفی هذه المعركة كان مالك الأشتر قائداً على ميمنة الجيش، وابن عباس على الميسرة، والإمام علیّ عليه السلام بالقلب وقد لاحت بوادر النصر المؤزّر على ضدّ جيش الشام، وبلغ معاوية الخبر فطلب عمرو بن العاص وقال له: ياعمرو إنّما هی الليلة حتّى يغدو علیّ علينا بالفيصل، فماترى؟ قال: إنّ رجالك لا يقومون لرجاله، ولست مثله، هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافونك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون عليّاً إن ظفر بهم، ولكن إلقِ إلى القوم أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه اختلفوا، إدعهُم إلى كتاب اللَّه حكماً فيما بينك وبينهم، فإنّك بالغ حاجتك فی القوم، وإنّی لم أزل أُؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه.
فعرف معاوية ذلك وقال له: صدقت.
وهكذا وقع ما كان يخشى منه ممّا أسلفنا بيانه ۱۴۷].
نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۳۵

الرسالة ۱۱

اشارة

وَصّى بِها جِيشاً بَعَثَهُ إلَى الْعَدُوِّ[۱۴۸]

نظرة إلى الرسالة

نقرأ فی شرح سند هذه الرسالة أنّها تمثّل قسماً من رسالة أرسلها الإمام عليه السلام إلى رجلين من قادة جيشه عندما تحرّك الجيش نحو صفّين، وتقدّم أنّ الإمام عليه السلام جعل مالك الأشتر أميراً على هذين الرجلين.
ويتحدّث الإمام عليه السلام فی هذه الرسالة عن جميع الأمور الهامّة التی تتعلّق بأساليب القتال والدفاع فی مواجهة العدوّ وكيفية

الاستفادهٔ من الفرص وتجنب الوقوع فی كمین الأعداء وكیفیهٔ حمایهٔ أفراد الجیش فی اللیل عند استراحهٔ المقاتلین، وغیر

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۱۳۶

ذلک من المسائل الدقیقـهٔ التی تتّصل بمسؤولیات القیادهٔ العسـكریهٔ، والحقیقـهٔ أنّ دقهٔ نظر الإمام علیه السـلام هنا إلی درجهٔ من العمق بحیث أنّ هذه التوصیات والتعلیمات للإمام علیه السلام یمكن الاستفادهٔ منها فی الجیش الإسلامی فی كلّ عصر وزمان.

***

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۱۳۷

فَإِذَا نَزَلْتُم بِعَـدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ، فَلْیَكُنْ مُعَسْـكَرُكُمْ فِی قُبُـلِ الْأَشْـرَافِ، أَوْ سِـفَاحِ الْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ الْأَنْهَارِ، كَیْمَا یَكُونَ لَكُمْ رِدْءاً، وَدُونَكُمْ مَرَدّاً. وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِـدٍ أَوِ اثْنَیْنِ، وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِی صَیَاصِـی الْجِبَالِ، وَمَنَاكِبِ الْهِضَابِ، لِئَلَّا یَأْتِیَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَـةٍ أَوْ أَمْنٍ. وَاعْلَمُـوا أَنَّ مُقَدِّمَـةَ الْقَـوْمِ عُیُـونُهُمْ، وَعُیُونَ الْمُقَـدِّمَـةِ طَلَائِعُهُمْ. وَإِیَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ: فَـإِذَا نَزَلْتُمْ فَـانْزِلُوا جَمِیعـاً وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِیعاً، وَإِذَا غَشِیَكُمُ اللَّیْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً، وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً.

الشرح والتفسیر: الاستعداد الصحیح للجیش

یبیّن الإمام علیه السـلام فی هذه الرسالهٔ والتوصیـهٔ العسـكریهٔ سبعهٔ تعالیم وتوصـیات عسـكریهٔ مهمّهٔ، وكیفیهٔ المواجههٔ الدقیقهٔ لجیش الأعـداء، وضـمان النصـر علی العـدوّ، وهـذا یبیّن دقّهٔ نظر الإمـام علیه السـلام فی المسائـل التی تتّصـل بقیـادهٔ الجیش وترتیب وضـعه العسـكری فی میادین القتال. یقول الإمام علیه السلام: «فَإِذَا نَزَلْتُم بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ فَلْیَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِی قُبُلِ الْأَشْرَافِ ۱۴۹]، أَوْ سِفَاحِ ۱۵۰] الْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ[۱۵۱] الْأَنْهَارِ، كَیْمَا یَكُونَ لَكُمْ

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۱۳۸

رِدْءاً[۱۵۲]، وَدُونَكُمْ مَرَدّاً[۱۵۳]».

ویبیّن الإمـام علیه السـلام الغرض من هـذه التوصیـهٔ ویقول بـأنّ الجیش إذا كان یتّخـذ مواقع إلی جانب مرتفعات أو سـفوح الجبال أو شواطیء الأنهار، فمن البعید أن یسـتطیع العدوّ محاصـرهٔ الجیش الإسـلامی أو یباغته بالهجوم علیه من الخلف، وبذلک یستطیع الجیش المحافظهٔ علی استعداده الكامل وعدم حدوث الخلل والاهتزاز فی صفوفه.

ویبیّن الإمام علیه السلام فی هذا التوصیهٔ نقطتین فی مقام الاستدلال، الاولی أنّ مثل هذا الموقف یساهم فی تقویتكم ورصّ صفوفكم، والأخری أنّه یعیق هجوم العدوّ علیكم، ومفهوم الجملهٔ الثانیهٔ واضح لأنّ العدوّ فی مثل هذه الظروف لا یستطیع أن یهجم علی الجیش من الخلف، وأمّـا مفهوم الجملـهٔ الاولی فربّمـا یكون المراد أنّ الجیش إذا اتّخـذ موقعـاً إلی جانب المرتفع وسـفح الجبل، فإنّ حركته باتّجاه العدوّ سـتكون أسـهل وأیسر، وحركهٔ العدوّ باتّجاه الجیش الإسلامی ستكون أصعب وأعسر، وطبعاً مثل هذا الكلام إنّما یصدق فی موارد الأراضی الجبلیهٔ والتی تكثر فیها المرتفعات.

ویحتمل أیضاً فی معنی كلمهٔ «مردّاً» أن یكون المراد منها محل العودهٔ إذا أرادت مجموعهٔ منكم العودهٔ والتقهقر أمام العدوّ لفترهٔ معینهٔ لغرض الاستراحهٔ واستعادهٔ القوّهٔ فإنّ سفوح الجبال وأمثالها سیكون محلًا مناسباً لهذا الغرض والتهیؤ للهجوم مرّهٔ أخری علی العدوّ.

ولا ینبغی الغفلـهٔ عن هذه النقطهٔ، وهی أنّ اتّخاذ مثل هذا الموضع العسـكری یتمتّع بمیزهٔ ثالثهٔ، وهی أنّ الأفراد الجبناء من الجیش قلّما یستطیعون العثور علی مهرب للفرار من الزحف لوجود المانع الطبیعی خلفهم، فلا یجدون بدّاً من الصمود والمواجههٔ.

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۱۳۹

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام یشیر إلی التوصیهٔ الثانیهٔ، ویقول: «وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَیْنِ».

فتعدّد الجهات ومحاور القتال من شأنه إضعاف قوّة الجيش وبعثرة طاقاته فيكون من اليسير إيجاد ثغرة في صفوفه، ولهذا السبب فإنّ أحد فخاخ العدو في الماضي والحاضر لكسر مقاومة المخالفين، السعي لإيجاد جبهات متعدّدة في الميادين العسكرية أو السياسية لإضعاف قوّة الخصم وتشتيت طاقاته، وربّما لا يكون المراد من جبهتين مختلفتين بأن تكون جبهة واحدة إلى الشرق أو إلى الغرب مثلًا، بل يتمّ التحرّك على جبهتين بشكل دائرة تذهب مجموعة من جهة يمين العدو ومجموعة أخرى من جهة الشمال لمحاصرة العدوّ بشكل تامّ.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى التوصية الثالثة ويقول: «وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي ۱۵۴] الْجِبَالِ، وَمَنَاكِبِ ۱۵۵] الْهِضَابِ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ».

يشير الإمام عليه السلام في هذه التوصية إلى أمرين مهمّين لابدّ من الأخذ بهما بالحسبان، أحدهما قمم الجبال والأخرى أعالي الهضاب والمرتفعات، لأنّ هذه المواقع تتمتّع بإشراف كامل على جميع الجهات، فالشخص الناظر من هذا الموقع يستطيع رؤية جميع النقاط التي يتحرّك فيها الجيش.

والتعبير ب «مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ ناظر إلى احتمال هجوم الأعداء بغتة، ويكون من المنطقة المتوقعة منها، وعلى ضوء ذلك يجب على المراصد أن ترى جميع هذه النقاط.

ويشير الإمام عليه السلام في التوصية الرابعة إلى إحدى التقسيمات المهمّة للجيش التي

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۴۰

تشكّل المكوّنات الأساسية له، يقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وَعُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ».

وقد كان متداولًا في الماضي أنّ الجيش لا يتحرّك كلّه مرّة واحدة، بل تتحرّك مجموعة من الصفوة أمام الجيش بوصفها مقدمة له، ومن بين أفراد هذه المجموعة الشجعان وأكثر القوم خبرة بامور الحرب، واطّلاعاً على مسيرة الجيش بوصفهم مخبرين وطلائع الجيش الذين يمثّلون في الواقع القوى المعلوماتية والاستخباراتية لمركز القيادة، وبمجرّد الاطّلاع على وضع العدو ومكان تواجده يخبرون القيادة بذلك لاتّخاذ الموقف المناسب.

وفي التوصية الخامسة يحذّر الإمام عليه السلام بشدّة من الفرقة والاختلاف ويقول:

«وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ: فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً».

وبما أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه التوصيات والتعاليم العسكرية إلى «زياد بن النضر الحارثي» و «شريح بن هانيء» اللذين يمثّلان مقدّمة الجيش وطلائعه، فمراده من هذا الكلام هو أنّ مقدّمة الجيش يجب عليها اجتناب التسرّع ولزوم العمل من موقع الانسجام والتجانس لئلّا يدبّ فيهم الضعف والفتور.

ويبيّن الإمام عليه السلام في التوصية السادسة نمط وكيفية الاستراحة الليلية للجيش ويقول: «وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً[۱۵۶]» أي بصورة دائرية حول الجيش بحيث يكون الجيش في الوسط.

وهذا هو الشيء المتداول في التعاليم العسكرية في العالم المعاصر، سواء في ميدان القتال أو في غيره، بحيث يستدعي بعض أفراد الجيش ليقوم بواجب الحماية الليلية ومهمّة الخفر والعمل على مراقبة الأوضاع بالتناوب، سواءً في المعسكرات أو في الأماكن الحسّاسة والمراكز المهمّة داخل المدن، وبمحض الإحساس بالخطر،

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۴۱

يجب عليهم إنذار القيادة وإخبارها بتفاصيل الحدث، وهذا هو ما يطلق عليه في هذا العصر بقوى الحراسة.

وفي التوصية السابعة والأخيرة يوجّه الإمام عليه السلام خطابه إلى جميع أفراد الجيش بأن لا يغرقوا أثناء الاستراحة الليلة في نوم عميق كما هو حال النائم في بيته، ويقول: «وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً» كما يتمضمض الإنسان بالماء جرعة بعد جرعة.

وهذا بالضبط كما ينتظر الشخص مسافراً أو ضيفاً عزيزاً يريد القدوم عليه ليلًا، فنراه لا ينام بشكل عميق، بل تأخذه سِنة وينتبه، ثمّ يعود إلى النوم بشكل خفيف، ثمّ ينتبه أيضاً، فينبغى على جيش الإسلام أن يكون كذلك فى استراحته الليلية فى مقابل العدوّ لئلّا يباغته العدو ويُغير عليه ويستطيع إنزال أكبر الضرر والخسائر فى صفوف الجيش، وهذا هو معنى تشبيه النوم بالغرار أو المضمضة حيث يدير الشخص الماء فى فمه ولا يرتوى منه تماماً.

وطبعاً إنّ هذه النقاط السبعة الدقيقة فى بيان الإمام عليه السلام تمثّل توصيات لمقدِّمة الجيش وكيفية حركته باتّجاه المواجهة، وأمّا التوصيات والتعاليم التى تتّصل بميدان الحرب والقتال، فقد سبق أن بيّنها الإمام عليه السلام فى الخطب والرسائل السابقة (انظر الخطبة ۱۱ فى الجزء ۱، ص ۴۸۷، والخطبة ۶۶ فى الجزء ۳، ص ۹۱ فصاعداً، والخطبة ۱۲۴، الجزء ۵، ص ۲۵۷ فصاعداً).

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۴۳

الرسالة ۱۲

اشارة

وَصّى بِها مَعْقِلِ بْنِ قيسِ الرّياحى حينَ أنْفَذَهُ إلَى الشامِ
فى ثَلاثَةِ آلافٍ مُقَدّمةً لَهُ ۱۵۷]

نظرة إلى الرسالة

هذه الرسالة التى كتبها الإمام عليه السلام لأحد قوّاد جيشه تبتدىء كما فى سائر الرسائل الأخرى لقادة الجيش، فى التوصية بالتقوى والورع، والتأكيد على التقوى التى تمثّل أصلًا وأساساً لسعادة الإنسان ومسيرته المعنوية فى الحياة، ثمّ يبيّن الإمام بعض التوصيات فيما يتصل بتعبئة القوى وكيفية حركة الجيش باتّجاه العدو وبداية الإلتحام معه فى الميدان.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۴۴

ثمّ يؤكد الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة كراراً أن لا يبتدىء جيش الإسلام بالقتال وأن لا يقتربوا من العدو بحيث يتصوّرون أنّهم يريدون أن يهجموا عليهم ولا يبتعد عنهم بحيث يتبادر إلى ذهن العدوّ أنّ هذا التباعد ناشىء من الضعف والجبن، ويوصى أيضاً بعدم إنهاك الجنود فى المسير، فلابدّ من أخذ قسط من الراحة فى بداية الليل وفى أوقات السحر، وكذلك القيلولة فى وسط النهار حيث ترتفع درجات الحرارة و ...، وهناك وصايا أخرى فى هذه الرسالة كلّها تشير إلى الروح العالية للإمام عليه السلام وحبّه للصلح واستتباب الأمن وضرورة رعاية الأخلاق الإسلاميّة حتى فى مقابل العدوّ الغاشم.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۴۵

اتَّقِ اللَّهَ الَّذِى لَابُدَّ لَکَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا مُنْتَهَى لَکَ دُونَهُ. وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَکَ. وَسِرِالْبَرْدَيْنِ، وَغَوِّرْ بِالنَّاسِ، وَرَفِّهْ فِى السَّيْرِ، وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَكَناً، وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لَاظَعْناً، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَکَ، وَرَوِّحْ ظَهْرَکَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ

الْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ. وَلَا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِی، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ، قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ.

الشرح والتفسير: تعليمات ضرورية قبل التوجّه إلى الميدان

فی بداية هذه الرسالة يوصی الإمام عليه السلام قائد جيشه «معقل بن قيس» بتقوى اللّه تعالی ويقول: «اتَّقِ اللَّهَ الَّذِی لَابُدَّ لَکَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا مُنْتَهَى لَکَ دُونَهُ».

وهذه العبارات فی الحقيقة مقتبسة من التعاليم القرآنية حيث يقول تعالی:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ»[۱۵۸] و يقول فی آية أخرى: «وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى [۱۵۹].

أجل، فأينما تكونوا ومَن تكونوا فإنّه لابدّ أن تكون العاقبة لقاء اللّه عزّ وجلّ والحضور فی محكمة العدل الإلهیّ حيث يحاسب الإنسان على ما قدّم وأخّر فی حياته من أعمال وأقوال وسلوكيات فی حركة الحياة.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۴۶

وعندما يبتدیء الإمام عليه السلام رسالته بالتوصية بتقوى اللّه والتفكير بالمعاد، فإنّه يترتّب على ذلک آثار مختلفة، فإنّه من جهة يؤدّی إلى تطبيق وترجمة التعاليم والتوصيات الواردة فی هذه الرسالة بدقّة، ومن جهة أخرى، بما أنّ محتوى هذه الرسالة والبرنامج العسكری للجيش هو الجهاد فی سبيل اللّه والسير إلى اللّه، فإنّ التوصية بالتقوى من شأنها أن تبعث الروحية والمعنوية فی أفراد الجيش ويكونوا على استعداد تام لمقاتلة العدوّ والتصدّی لقوى الانحراف والضلالة بشكل أقوى.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى عشر نقاط عسكرية فيما يتّصل بإرسال القوّات إلى ميدان القتال وكيفية مقاتلة الأعداء ومجابهة قوى الباطل والتی هی فی الحقيقة تعتبر من مقدّمات النزال فيما يخصّ الاستعداد للحرب، ويقول فی البداية: «وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَکَ».

هذا هو الدستور الأول فی تعاليم الإسلام العسكرية، ويبيّن روحية الصلح وطلب السلم للإنسان المسلم الذی لا يحبّ البدء بالقتال، فما لم يبدأ العدوّ بالحرب والقتال فلا ينبغی للمسلمين أن يسبقوهم بالقتال، يقول القرآن الكريم فی هذا الصدد: «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»[۱۶۰].

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى الدستور الثانی والثالث والرابع ويقول: «وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ ۱۶۱]، وَغَوِّرْ[۱۶۲] بِالنَّاسِ، رَفِّهْ ۱۶۳] فِی السَّيْرِ»، أی أنّ المسير بالجيش ينبغی أن يتزامن مع الأجواء المناسبة فی وقت الصباح والعصر حيث يبرد الهواء نسبياً فی هذين الوقتين، فيما تكون الاستراحة عند وقت الظهيرة حيث ترتفع حرارة الجو، ومن

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۴۷

البديهیّ أنّ السير السريع والاستعجال فی لقاء العدوّ بدون ملاحظة حرارة الجوّ وبرودته ووقت الاستراحة من شأنه أن يثير فی أفراد الجيش التعب والضعف وبالتالی عدم مقاومة العدو ومجالدته بالشكل المطلوب.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى الدستور الخامس والسادس من هذه التوصيات ويقول: «وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَكَناً، وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لَاظَعْناً، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَکَ، رَوِّحْ ظَهْرَکَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ ۱۶۴] السَّحَرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ».

وهذا الكلام إشارة إلى ما ذكره القرآن الكريم فی أكثر من مورد حيث يؤكّد على أنّ اللّه تعالی جعل الليل مصدراً للسكون والدعة والراحة: «فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً»[۱۶۵]، ومثل هذا المضمون ورد فی سورة يونس فی الآية ۶۷، وسورة القصص، الآية ۷۳، وسورة غافر، الآية ۶۱ وغير ذلک من الآيات الشريفة.

وهنا ربّما يفرض هذا السؤال نفسه وهو أنّ القرآن الكريم ذكر حقيقة أنّ الليل مصدر السكون والراحة للإنسان، فی حين أنّ الإمام عليه السلام تحدّث عن بداية الليل واستثنى وقت السحر.

والجواب على هذا السؤال يتبيّن من خلال الإلتفات إلى هذه الحقيقة وهى أنّ المراد من الليل جميع ساعاته باستثناء السحر وهو الوقت القليل من آخره، ويستفاد من التعاليم الإسلاميّة فى العبادات فيما يتصّل بصلاة الليل أنّ آخر الليل مستثنى من هذا الوقت، وهو وقت التنبه واليقظة والحركة والجديّة والاستغفار والتوبة، فلا يشمله مفهوم الليل الذى جعله اللّه سكناً كما ورد فى الآية الشريفة: «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ»[۱۶۶].

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۱۴۸

وعندما يؤكّد الإمام عليه السلام على أوّل الليل، فالظاهر أنّ الكثير من الناس عندما يبتدئون بعمل معين وقت العصر، فإنّهم يستمرّون بالعمل إلى ساعات من الليل، فيقول الإمام عليه السلام: عندما يبتدىء الليل توقّف عن المسير، وقف للصلاة، ثمّ عليك بأخذ قسط من الراحة.

وذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ جملة «رَوِّحْ ظَهْرَكَ إشارة إلى لزوم إراحة الخيل والجمال التى يطلق عليها بالظهر لمناسبة الركوب، وذهب البعض الآخر إلى أنّه إشارة إلى الجمال المحمّلة بما يحتاجه الجيش من المؤن ولوازم السفر، ولكن لا مانع من أن يكون المراد كلا هذين الأمرين.

وينبغى الالتفات إلى أنّ أحد معانى «الظهر» الحيوانات التى يحمل عليها الإنسان لوازمه وحاجاته أويستخدمها للركوب أيضاً، وأمّا ما ذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ معنى الظهر يختصّ بالإبل التى تحمل المؤن، أو بالخيل التى يركب عليها الإنسان، فلا وجه له.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى الأمر السابع والثامن والتاسع من هذه التوصيات ويقول:

«فَإذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ ۱۶۷] الْحَرْبَ. وَلَا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِى».

عندما يقف قائد الجيش فى الوسط والمحور من القوّات العسكرية فإنّ ذلك من شأنه أن يمنح أفراد الجيش قوّة وعزماً واستقامة فى مواجهة العدو، ومن جهة أخرى يتيح له إيصال أوامره وتوصياته إلى أفراد الجيش كافّة.

وفى الدستور العاشر يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ ۱۶۸] عَلَى قِتَالِهِمْ، قَبْلَ

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۱۴۹

دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ[۱۶۹] إِلَيْهِمْ»، أى أنّ حالة العداء والبغض والكراهية للعدو لا ينبغى أن تكون الدافع على قتالهم قبل الإعذار ودعوتهم للصلاح وإتمام الحجّة عليهم.

تأمّل: من هو معقل بن قيس؟

ذكر بعض المؤرّخين أنّ معقل كان رجلًا شجاعاً من أهل الكوفة، وكان قائداً لأحد جيوش الإسلام فى زمن عمر بن الخطّاب، وكان من شيعة أميرالمؤمنين الإمام علىّ عليه السلام، وقد اختاره الإمام ليكون قائداً على إحدى الكتائب فى الجيش وفى معركة الجمل كان أحد امراء الجيش أيضاً، وأمّا بالنسبة لإيمانه وإخلاصه فيكفى أنّ أميرالمؤمنين علىّ عليه السلام عندما اجتمع بالجيش قبل معركة صفّين فى منطقة النخيلة فى منزل (على مقربة من الكوفة) ألقى الإمام عليه السلام خطبة بجيشه فيما يتّصل بالجهاد ضد المتمرّدين من أهل الشام، فقال معقل: «وَاللَّهِ يا اميرالْمُؤْمِنينَ لا يَتَخَلَّفُ عَنْكَ إلّاظَنينٌ وَلا يَتَرَبَّصُ بِكَ إلّامُنافِقٌ».

وورد فى بعض الروايات أنّ أحد الخوارج ويدعى «مستورد» برز لمعقل فى إحدى المعارك وكان بيد هذا الخارجىّ رمح وبيد معقل سيف، فطعن مستورد معقلًا برمحه، لكنّ معقل استطاع ضربه بالسيف على رأسه، وسقط الرجلان على الأرض صريعين، وفاز معقل بالشهادة وذهب مستورد إلى جهنّم وبئس المصير.

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۱۵۱

الرسالة ۱۳

اشارة

إلى أَميرَيْنِ مِنْ أُمَراءِ جَيْشِهِ ۱۷۰]

نظرة إلى الرسالة

تبيّن هـذا الرسالـة فى الحقيقـة أمرين: الأول: التوصـية التى أمر بهـا الإمام هـذين القائـدين فى الجيش فى اتّباع مالك الأشتر والحركة ضمن أوامره وقيادته، والآخر:

تبيّن بعض صفات مالك الأشتر التى جعلته جديراً ولائقاً لقيادة الجيش.

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۱۵۳

وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَى مَنْ فِى حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا، وَاجْعَلَاهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَايُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ وَلَا بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْ ءُ عَنْهُ أَمْثَلُ.

الشرح والتفسير: مالک الأشتر القائد الفذّ

يشير الإمام عليه السـلام فى هـذه الرسالـة التى كتبها إلى زياد بن النضـر و شـريح بن هانىء أنّ الوظيفة الاولى والمهمّة لهما هى اتّباع مالـك الأـشتر وأنّه منصوب من قِبل الإمام عليّهما وعلى سائر أفراد الجيش، ويقول: «وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَى مَنْ فِى حَيِّزِكُمَا[۱۷۱] مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا».

ثمّ يضيف عليه السلام: «وَاجْعَلَاهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً[۱۷۲]، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَايُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ ۱۷۳] وَلَا بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ ۱۷۴]، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ ۱۷۵]».

يستفاد من تعبير الإمام عليه السـلام أعلاه أنّ قائد الجيش ينبغى أن يكون مطّلعاً محافظاً بشـكل تامّ على أفراد جيشه كما يكون الدرع حافظاً لصاحبه من ضربات الحديد، وبذلك يتمكّن الجيش من التقليل من خسارته للحدّ الأدنى فى القتلى والجرحى.

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۱۵۴

والنقطة الأخرى فى هذه توصـية أنّ الإمام عليه السلام ذكر فيها أربع خصوصيات يتمتّع بها مالك الأشتر، بحيث إنّ القائد العسكرى لو اجتمعت فيه هذه الخصال فإنّه يكون جديراً بالقيادة ولائقاً بإمرة الجيش:

۱. أن لاـ يشـعر بالضـعف والوهن فى مقابـل هجوم العـدوّ والظروف الصـعبة الـتى يفرضـها الواقع العسـكرى عليه، بـل يتحلّى بـالجرأة والاستقامة كالجبل الراسخ أمام العواصف العاتية.

۲. أن لاـ يخطىء فى الحسابات العسـكرية بل يأخـذ بنظر الاعتبار جميع المواقع لقوّاته وقوّاتالعـدو ويتحرّك وفقاً لما يمليه عليهالواقع الميدانى لإحراز النصر على العدو.

۳. إنّ الـدقائق وحتى اللحظات ربّما تكون مصـيرية فى حسم المعركة وإحراز النصـر، وينبغى للقائد أن يتحرّك بدقّة وبسـرعة تامة فى الوقت المنـاسب دون أدنى تأخير أو اسـتعجال، فالقائـد الفـذ يجب أن يعرف هـذه اللحظات والـدقائق المصـيرية ويتحرّك وفقاً لهـذه الخبرة والتجربة الميدانية.

۴. وقـد تـأتى لحظـات فى ميـدان القتـال يكون فيهـا التبـاطؤ والتمهّل أفضل من العجلـة والتسـرّع، مثلًا عنـدما يتربّص أفراد الجيش فى

الكمين لإيقاع العدو فى المصيدة، فلو تسرّعوا فى إيقاعه فربّما يفلت من المصيدة ويحسّ بوجود كمين له، ففى مثل هذه الموارد ينبغى التعامل مع الحدث بأعصاب باردة.

ومعلوم أنّ القائد الذى يتمتّع بهذه السمات الأربع هو قائد فذّ ولائق لتسنّم قيادة الجيش وإحراز النصر، وهذه هى الصفات التى كان مالك الأشتر يتمتّع بها مضافاً إلى الصفات الأخرى أيضاً.

تأمّلان

۱. مالك الأشتر المدير والمدّبر الشجاع

بالنسبة لمالك الأشتر وسيرته وحالته فستحدّث عنه بإذن اللّه فى شرح الكتاب

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۵۵

المرقم ۵۳ من نهج‌البلاغة وهو الكتاب المعروف بعهد مالك الأشتر، وهنا نشير فقط إشارة موجزة إلى بعض صفاته وخصائصه الكريمة.

يتحدّث ابن أبى‌الحديد فى نهاية هذه الرسالة تحت عنوان «نُبَذٌ مِنَ الأقْوالِ الْحَكيمَةِ» عن بعض المسائل المتعلّقة بالإدارة وتدبير أمور المجتمع، ونقل فى هذا المجال كلمات عن شخصيّات متعدّدة، ثم قال فى ختام كلامه: لقد جمع أميرالمؤمنين عليه السلام من أصناف الثناء والمدح ما فرّقه هؤلاء فى كلماتهم بكلمة واحدة فى الأشتر وهى قوله: «لا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ وَلَا بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْ ءُ عَنْهُ أَمْثَلُ».

وفى ذيل هذا الكتاب يقول: وقد روى المحدّثون حديثاً يدلّ على فضيلة عظيمة للأشتر رحمه اللّه، وهى شهادة قاطعة من النبىّ بأنّه مؤمن. وذلك عندما كان أبوذرّ فى الربذة وقد حان أجله وكانت زوجته قد احتارت فى أمر موته وتجهيزه وغسله ودفنه وهى ترى نفسها وحيدة فى الصحراء القاحلة، فقال أبوذر لها: ما يبكيكِ، فقالت: ما لى لا أبكى وأنت تموت فى فلاة من الأرض .. فقال: أبشرى ولا تبكى فإنّى سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: «لا يموت بين امرأين مسلمين ولدان أو ثلاثة فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً» وسمعت أيضاً رسول اللّه صلى الله عليه و آله: ليموتن أحدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك النفر أحد إلّاوقد مات فى قرية وجماعة وأنا لا أشك فى ذلك الرجل، واللّه ما كذبت ولا كُذبت، فانظرى الطرق.

قالت ام ذرّ: قلت: أنّى وقد ذهب الحاجّ وتقطّعت الطرق! فقال: اذهبى فتبصّرى، قالت: فكنت أشتدّ إلى الكثيب، فأصعد فانظر، ثم أرجع إليه فأمرّضه، فبينا أنا وهو على هذه الحال إذ أنا برجال على ركابهم كأنّهم الرَّخم تخبّ بهم رواحلهم، فأسرعوا إلىَّ حتّى وقفوا علىَّ وقالوا: يا أمة اللّه! ما لكِ؟ فقلت: امرء من المسلمين يموت تكفّنونه؟ قالوا: ومن هو؟ قلت: أبوذرّ، قالوا: صاحب رسول اللّه صلى الله عليه و آله؟

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۵۶

قلت: نعم، ففدّوه بآبائهم وامهاتهم، وأسرعوا إليه حتّى دخلوا عليه، فقال لهم:

أبشروا، فإنّى سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: لنفر أنا فيهم: ليموتنّ أحدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك النفر أحد إلّاوقد هلك فى قرية وجماعة، واللّه ما كذبت ولا كُذّبت، ولو كان عندى ثوب يسعنى كفناً أو لامرأتى لم اكفّن إلّافى ثوب لى أو لها، وأنى أنشدكم اللّه ألّا يكفّننى رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً!

قالت: وليس فى أولئك النفر أحد إلّاوقد قارف بعض ما قاله، إلّافتىً من الأنصار قال: أنا اكفّنك ياعمّ فى ردائى هذا، وفى ثوبين معى فى عيبتى من غزل امّى، فقال أبوذرّ: أنت تكفّننى، فمات فكفّنه الأنصارىّ وغسّله النفر الذين حضروه وقاموا عليه ودفنوه ....

ثم ينقل ابن أبى‌الحديد عن ابن عبدالبرّ فى كتاب «الاستيعاب»، أنّ تلك الجماعة حضروا فجأة بعد وفاة أبى‌ذرّ وكان من جملتهم «حجر بن عدىّ» و «مالك الأشتر» وحجر بن عدىّ هو الذى قتله معاوية وكان من كبار رموز الشيعة ورجالهم ۱۷۶].

وهذا الحديث الشريف يدلّ دلالة واضحة على عظمة أبى ذرّ وكذلك مالك الأشتر، وسيأتى لاحقاً تفصيل أكثر عن هذه الشخصية الإسلاميّة العظيمة والذى يعدّ من أخلص أصحاب الإمام أميرالمؤمنين علىّ عليه السلام وقد ذكره الإمام فى أربعة مواضع أخرى من «نهج‌البلاغة»، منها ما ورد فى الكتاب ۳۴ و ۳۸ و الكلمات القصار ۴۴۳ وذيل الكتاب ۵۳ (عهد مالك الأشتر) الذى سوف يأتى تفصيل ذلك لاحقاً إن‌شاءاللَّه.

۲. شريح بن هانىء الحارثى وزياد بن النضر

سبق وأن ذكرنا أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة الموجزة والزاخرة بالمعانى لرجلين من قادة جيشه عندما أرسلهما إلى ميدان معركة صفّين، بالنسبة للشخص

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۵۷

الأول، يعنى شريح بن هانىء، يقول ابن عبدالبر فى «الاستيعاب»: كان من الأشخاص الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وهو من صحابة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ومن كبار أصحاب الإمام علىّ صلى الله عليه و آله وأنصاره المقرّبين الذين رافقوا الإمام فى جميع ميادين الحرب ۱۷۷].

وذكر الذهبى فى تاريخه: وفى سنة ثمان وسبعين ولّى الحجاج عبيداللَّه بن أبى بكرة سجستان فوجّه أبابرذعة، فأخذ عليه (على شريح) المضيق، وقتل شريح بن هانىء، وقال القاسم بن مخيمرة: ما رأيت حارثياً أفضل من شريح بن هانىء[۱۷۸].

أمّا بالنسبة لزياد بن النظر القائد الثانى من قادة جيش الإمام عليه السلام فالمرحوم المحقّق النمازى الشاهرودى يقول عنه فى «مستدرك علم رجال الحديث»: كان من أركان أصحاب أميرالمؤمنين عليه السلام أمّره أميرالمؤمنين على مذحج والأشعريين وأوصاه بوصايا، فقال: أوصيت ياأميرالمؤمنين حافظاً لوصيّتك مؤدّباً بأدبك، يرى الرشد فى نفاذ أمرك والغىّ فى تضييع عهدك، فبعث أميرالمؤمنين مع شريح ابن هانىء اثنى عشر ألفاً على مقدّمته، فلما سارا اختلفا وكتب كلّ منهما إليه يشكو صاحبه.

ويقول الطبرى فى تاريخه أنّه عليه السلام قال للأشتر: اجعل على ميمنتك زياداً، وعلى ميسرتك شريحاً .. وارسال أميرالمؤمنين عليه السلام إيّاه للاحتجاج مع الخوارج. وأضاف:

ويستفاد من ذلك كلّه علمه وكماله وديانته وعدالته ۱۷۹].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۵۹

الرسالة ۱۴

اشارة

لِعَسْكَرِهِ قِبَلَ لِقاءِ الْعَدُوِّ بِصِفّين ۱۸۰]

نظرة إلى الرسالة

هذه الرسالة حالها حال الرسائل السابقة تتضمّن سلسلة من التعاليم الأخلاقية والمثل الإنسانية فيما يتّصل بالحرب مع العدو، والتعاليم

المـذكورة هنا تبيّن روح العطف الإنسانى والرأفة الإسـلاميّة، وتدلّ على أنّه لا ينبغى الغفلة عن القيم الأخلاقية فى جميع الموارد، حتى فى ميدان الحرب، والتوصيات المتداولة فى العالم المعاصر بعد مرور أربعة عشر قرناً تعدّ بداية المسير فى طريق الأخلاق

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۶۰

والمعنويـة، وتتضـمن بعض ما ورد فى هـذه الرسالـة القيمـة من توصـيات أخلاقية، مع أنّ هذه التعاليم المعاصـرة لم تترجم على أرض الواقع العملى إطلاقاً.

وسـنلاحظ أنّ الإمـام عليه السـلام يؤكّـد كـثيراً على رعايـة النسـاء وأن لاـ يلحـق بهنّ أىّ ضـرر أو أذى حـتّى لـو شـتمن أفراد الجيش الإسـلامى، ونطقن بكلمات لا مسؤولة عن قادة الإسلام، وفى هذه التوصيات والإرشادات نرى أنّ أول ما يؤكّد الإمام عليه السلام عليه هو أن لا يبتدىء أصحابه بالقتال والحرب، وهذه التوصية نراها فى توصيات الإمام عليه السلام لأصحابه وأتباعه.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۶۱

لَـا تُقَـاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْـدَءُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْـدِ اللَّهِ عَلَى حُجَّةٍ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْـدَؤُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ. فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُـدْبِراً، وَلَا تُصِـيبُوا مُعْوِراً، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًى، وَإِنْ شَـتَمْنَ أَعْرَاضَـكُمْ، وَسَـبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ، فَـإِنَّهُنَّ ضَـعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْـأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ؛ إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِـالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْـرِكَاتٌ؛ وَإِنْ كَـانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ أَوِ الْهِرَاوَةِ فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ.

الشرح والتفسير: فصل آخر من القيم الأخلاقية فى الحرب

ثمّـة خلاف بين شـرّاح «نهجالبلاغـة» والمؤرّخين فى المخاطبين لهذه الرسالة هل هم أتباعه فى معركة الجمل أم فى صـفّين، المرحوم العلّامة المجلسـى فى بحار الأنوار[۱۸۱] يرى أنّ هـذه الوصـيّة ترتبط بمعركـة الجمل رغم أنّه نقلها فى مورد آخر فى ما يتّصل بمعركة صفّين، ويرى المسعودى فى مروج الذهب أنّ هذه الرسالة تعود إلى معركة الجمل.

وقد ذهب ابن ميثم فى شرح نهجالبلاغة لإيجاد حلٍّ لهذه المشكلة وقال:

«إنّه عليه السلام كان يوصى أصحابه فى كلّ موطن يلقون العدوّ فيه بهذه الوصية».

وذكر نصـر بن مزاحم فى كتاب صـفين والطبرى فى تاريخه قبل ابن ميثم هذا المعنى أيضاً، وبما أنّ محتوى هذه الرسالة يمثّل دستوراً عاماً للجيش الإسلامى،

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۶۲

فلا يبعد أن يكون هذا الكلام صحيحاً.

وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام فى هذه الرسالة يؤكّد على خمسة أمور:

الأوّل: يقول عليه السـلام: «لَـا تُقَـاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْـدَءُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْـدِاللَّهِ عَلَى حُجَّةٍ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْـدَؤُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ»، فأنتم من أتباع إمام يتفق على مشـروعيته وحقانيته البارى تعالى وجميع المؤمنين، فلا يكون بـدؤكم بالقتال حجّة لهم ضدّكم، وترككم لهم حتى يكون البادىء هو العدو يمّثل حجّة أخرى تدعم موقفكم ومشروعيتكم وحقانيتكم.

وهذه التوصـية قد تقدّم بها النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله أيضاً لجيش الإسـلام وكانت نتيجة ذلك كما بيّنه الإمام عليه السـلام فى هذا الكلام أنّ جيش الإسـلام يمتلك حجّتين وبرهانين ضدّ العدو، الأوّل أنّه تابع للنبىّ الأكرم أو الإمام الذى يتمتّع بمشروعية وحقانية تقوم على أساس الموازين الصـحيحة والمنطقية، والآخر أنّ العدو عندما يبتدىء الحرب والقتال يقدّم عملياً دليلًا آخر ضدّه، لأنّه يكون

سبباً فى قتل الأبرياء والسعى فى إشعال نار الفتنة وإيجاد الفساد فى الأرض وبالتالى يكون مصداقاً لمن حارب اللّه ورسوله، لأنّ كلّ شخص جرّد السلاح على الأبرياء من الناس وسفك الدماء، فهو محارب، وحينئذٍ سيكون مشمولًا للآية الشريفة: «إِنَّما جَزآءُ الَّذينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَساداً ...»[۱۸۲].

ومضافاً إلى ذلك يكون مصداقاً للآية الشريفة: «فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ»[۱۸۳].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتحدّث عن ثلاث توصيات مهمّة فى هذه المجال ويقول:

«فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِراً، وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِراً[۱۸۴]، وَلَا

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۱۶۳

تُجْهِزُوا[۱۸۵] عَلَى جَرِيحٍ».

إنّ هذه التوصيات الثلاثة تتّسم بالطابع الأخلاقى بشكل كامل لأنّ الغرض من الحرب هو كسر مقاومة العدو والتصدّى لحركته، لا مجرّد الانتقام، فالشخص الذى فرّ من الميدان وترك القتال فلا معنى لقتله، وكذلك الشخص العاجز الذى عجز عن المقاومة فإنّ الاجهاز عليه وقتله يتنافى مع المثل الإنسانية والقيم الأخلاقية، كالشخص الذى فقد سلاحه فى المعركة أو عجز عن القتال وحمل السلاح ضدّ الجيش الإسلامى، فلا يمثّل خطراً على أفراد الجيش، ومن هذا القبيل الجريح الذى سقط ولم تبق له قدرة على المقاومة والقتال، فالإجهاز على مثل هؤلاء يتقاطع مع المبادىء الإنسانية.

ويثير العلّامة التسترى فى شرح نهج‌البلاغة هذا السؤال هنا، وهو أنّه يستفاد من بعض الروايات كالرواية التى ينقلها الكلينى فى (الجزء الخامس من الكافى) أنّ الإمام عليّ عليه السلام أصدر مثل هذا الأمر فى معركة الجمل وأصدر أمراً بخلافه فى معركة صفّين وأذن بقتل الهاربين والمجروحين.

ولكن ورد فى رواية أخرى الجواب عن هذا السؤال، فالإمام الصادق عليه السلام يقول:

«لَيسَ لِأَهْلِ الْعَدْلِ أنْ يَتْبَعُوا مُدْبِراً وَلَا يَقْتُلُوا أَسِيراً وَلَا يُجهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ وَهَذَا إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ أَهْلِ الْبَغْىِ أَحَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِئَةٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا، فَإِذَا كَانَ لَهُمْ فِئَةٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا فَإِنَّ أَسِيرَهُمْ يُقْتَلُ وَمُدْبِرَهُمْ يُتْبَعُ وَجَرِيحَهُمْ يُجْهَزُ عَلَيْهِ»[۱۸۶].

وخلاصة الكلام أنّ رعاية هذه المبادىء الإنسانية والقيم الأخلاقية فى الحرب، ترتبط فى موارد يكون جيش العدو قد مُنىّ بالهزيمة وتبعثرت قواه وقدراته القتالية

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۱۶۴

ولا يحتمل فى شأنه العودة إلى الحرب والهجوم مرّة أخرى، ونعلم أنّ العدو فى معركة الجمل كان قد مُنى بالهزيمة بحيث لا يحتمل أن يعود للقتال مرّة أخرى.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه ويتعرّض لبيان التوصية الخامسة حيث يقول: «وَلَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًى، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ».

ويبيّن الإمام عليه السلام بعد ذلك علّة هذه التوصية ويقول: «فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ».

بما أنّ النساء يفقدن القدرة على القتال والمواجهة العسكريّة، فذلك من شأنه أن يكرّس الحقد فى قلوبهنّ فينطلقن بالسبّ والشتم للتنفيس عن هذا الحقد وإبراز العداء للطرف المقابل، وبما أنّ النسوة يتمتّعن بنفس ضعيفة وعقل ضعيف فستكون ترجمة انتقامهنّ من خلال السبّ والشتم والكلمات البذيئة، ولذلك لا ينبغى على ذوى العقل والحجى أن يردّوا عليهنّ بالمثل ويطلقوا ألسنتهم بالسبّ والشتم أيضاً، والمفروض أن يسمحوا لهنّ بتفريغ شحنات الغضب والحقد المكبوت من خلال السبّ والشتم حتّى تهدأ نفوسهنّ وتسكن عواطفهنّ، ومعلوم أنّ مواجهة مثل هذه النسوة بكلام مماثل فى مقابل كلماتهنّ من شأنه أن يثير فى أنفسهنّ العداوة والبغضاء أكثر ويهيج انفعالهنّ ضدّهم وربّما يدفعهنّ إلى الكفر.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وسنّته فى مقابل نساء المشركين ويقول: «إنْ كُنّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ» أى فى زمان النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة ثالثة فى هذ المجال ويقول: «وَإنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ[۱۸۷] أَوِ الْهِرَاوَةِ[۱۸۸] فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ ۱۸۹] مِنْ بَعْدِهِ».

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۱۶۵

فإذا كان الناس فى عصر الجاهلية يقفون هذا الموقف من المرأة، وعندما يؤمر المسلمون بحفظ النفس وعدم الانفعال فى مقابل المشركين، ففى عصر ظهور الإسلام وفى مقابل النسوة المسلمات الجاهلات يكون من الضرورىّ ضبط النفس واللسان بطريق أولى.

وعندما يأمر الإمام عليه السلام أفراد جيشه بهذا الأمر الأخلاقى فى مقابل النساء، فإنّه بنفسه قد سبق الآخرين بالعمل بهذه التوصية وتجسيدها على أرض الواقع، فقد ورد فى تاريخ معركة الجمل أنّه عندما انتصر الإمام علىّ عليه السلام وجيشه على المتمرّدين والناكثين، وبينما كان عليه السلام يسير فى أزقّة البصرة، كانت زوجة عبداللّه بن خلف (أحد رجال البصرة المعروفين) واقفة أمام باب بيتها فالتفتت للإمام وقالت: «يا قاتِلَ الْأَحِبَّةِ لا مَرْحَباً بِكَ أَيْتَم اللَّهُ مِنْكَ وَلَدَكَ كَما أَيْتَمْتَ بَنِى عَبْدِاللَّهِ بْنِ خَلَف» فلم يرد عليه السلام عليها، ولكنّه وقف وأشار إلى ناحية من دارها، ففهمت إشارته، فسكتت وانصرفت، وكانت قد سترت عندها عبداللّه بن الزبير ومروان بن الحكم، فأشار إلى الموضع الذى كانا فيه، أى لو شئت أخرجتهما! فلمّا فهمت انصرفت، وكان الإمام عليه السلام حليماً كريماً[۱۹۰].

تأمّلان

۱. مكانة المرأة فى نهج‌البلاغة

يلاحظ القارىء لكتاب نهج‌البلاغة أنّ الإمام عليه السلام يذمّ النساء فى عدّة موارد من الخطب والرسائل والكلمات القصار، وقد فسرّ بعض الجهلاء ذلك على أساس الضدّية للنساء وأنّ الإمام عليه السلام يتّخذ موقفاً سلبياً منهنّ، فى حين أنّ الشواهد والقرائن التى تقترن مع كلمات الإمام عليه السلام تشير إلى أنّ الإمام كان ناظراً لمجموعة خاصة من النسوة، مثلًا وردت بعض هذه العبارات بعد معركة الجمل حيث كانت إحدى

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۱۶۶

زوجات النبىّ قد عملت على إشعال نيران هذه الحرب الضروس، وهذا يشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان ناظراً لمثل هذه المرأة التى انحرفت عن مسارها الصحيح وأضحت آلة بيد الانتهازيين والعاملين فى الشأن السياسى كطلحة والزبير وهو الأمر الذى أدّى إلى سفك دماء آلاف المسلمين، وبعد أن خمدت نيران الحرب قام الإمام عليه السلام بإرسال هذه المرأة بغاية التكريم احتراماً للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله مع أخيها وجماعة من الحرس إلى المدينة.

وفى الرسالة مورد البحث أيضاً يتحدّث الإمام عليه السلام عن النسوة اللاتى يفتحن أفواههنّ بالسبّ والشتم وينطلقن من مواقع الانفعال ومواجهة جنود الإسلام بكلمات بذيئة، ويصفهنّ بأنّهن ضعاف العقول والنفوس.

فلو أخذنا بنظر الاعتبار القرائن الحالية والمقالية فى مثل هذه الموارد، فسوف يتبيّن الجواب عن هذه الإشكالات وعلامات الاستفهام.

ولذلك ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام فى كتاب أصول الكافى أنّه قال بعد الإشارة إلى وجود العيب والنقص فى طائفة من النسوة: «إلَّا الْمُسْلِمَاتُ مِنْهُنَّ»[۱۹۱].

وفى آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الامْرَأَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ غَيْرِ صَالِح»[۱۹۲].

وجاء فی حدیث مفصّل عن الإمام الصادق علیه السلام فی کتاب الکافی تقسیماً جلیّاً للنساء، حیث یقرّر الإمام الصادق علیه السلام أنّ فئة من النسوة سبب لسعادة الرجال، وفئة أخری منهنّ یورثن الندم والخسران یقول: «فَمَنْ یَظْفَرْ بِصَالِحِهِنَّ یَسْعَدْ وَمَنْ یُغْبَنْ فَلَیْسَ لَهُ انْتِقَام»[۱۹۳].

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۱۶۷

وهذه الروایات الثلاث المذکورة أعلاه، وکذلک روایات أخری فی هذا الباب من کتاب الکافی (باب أصناف النساء) تشکل قرینة واضحة علی ما اخترناه من تفسیر کلام الإمام علیّ علیه السلام فی نهج‌البلاغة فیما یتّصل بخصال النساء وأخلاقهنّ.

۲. الخلق الإسلامی فی مقابل العدو

إنّ ما ورد فی الرسالة أعلاه وبعض الرسائل السابقة واللاحقة أیضاً یبیّن بوضوح منهج الإسلام فی مواجهة العدو والأخلاق التی ینبغی للمجاهد المسلم أن یتحلّی بها فی میدان المعرکة، وهذا المنهج الذی یؤکّد علی المعاییر السلیمة والقیم الأخلاقیة فی مقاتلة الأعداء یتقاطع مع ما نراه فی المناهج المادّیة ومنهج أعداء الإمام علیه السلام الذین لا یراعون أیّ قید وشرط فی میدان القتال، ولا یلتزمون بأیّة قیمة أخلاقیة فی ساحة المواجهة، فنراهم یستخدمون أسوأ الوسائل ویرتکبون أبشع الأعمال من أجل الوصول لغایاتهم وتحقیق أهدافهم، ویسحقون أعلی المثل الإنسانیة والأخلاقیة تحت أقدامهم إذا لم تتحقّق لهم طموحاتهم، وهذا التباین والتفاوت یمکن ملاحظته بوضوح من خلال نمط واسلوب الإمام علیّ علیه السلام واسلوب معاویة فی السجال التاریخی بینهما.

وقد ذهب بعض المحللین فی الماضی والحاضر من الذین تأثّروا بالمذاهب المادیة والمصلحیّة أنّ هذا التفاوت یعدّ دلیلًا علی أفضلیّة سیاسة معاویة علی سیاسة الإمام علیه السلام.

وهنا لا بأس بالإشارة إلی کلام للجاحظ فی هذا المجال حیث یقول: ربّما رأیت بعض من یظنّ بنفسه العقل والتحصیل والفهم والتمییز وهو من العامة، ویظنّ أنّه من الخاصّة، یزعم أنّ معاویة کان أبعد غوراً من علیّ علیه السلام وأصحّ فکراً وأجود رؤیة وأبعد غایة وأدقّ مسلکاً، ولیس الأمر کذلک وسأرمی إلیک بجملة تعرف بها موضع غلطه والمکان الذی دخل علیه الخطأ من قبله، کان علیّ علیه السلام لا یستعمل فی حروبه

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۱۶۸

إلّا ما وافق الکتاب والسنّة، وکان معاویة یستعمل خلاف الکتاب والسنّة کما یستعمل الکتاب والسنّة، ویستعمل جمیع المکائد حلالها وحرامها، ویسیر فی حروبه بسیرة ملک الهند إذا لاقی کسری، وسیرة خاقان إذا لا قی رتبیل، وعلیّ یقول فی حروبه: «لا تبدأوهم بالقتال حتی یبدأوکم، ولا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا علی جریح ولا تفتحوا باباً مغلقاً» هذه سیرته فی ذی الکلاع وأبی الأعور السلمی وعمرو بن العاص وحبیب بن مسلمة وفی جمیع الرؤساء، کسیرته فی الحاشیة والحشو والاتّباع والسفلة، وأصحاب الحروب إن قدروا علی البیات بیّتوا وإن قدروا علی رضخ الجمیع بالجندل وهم نیام فعلوا، وإن أمکن ذلک فی طرفة عین لم یؤخروه إلی ساعة، وإن کان الحرق أعجل من الغرق لم یقتصروا علی الغرق ولم یؤخّروا الحرق إلی وقت الغرق، وإن أمکن الهدم لم یتکلّفوا الحصار، ولم یدعوا أن نصبوا المجانیق والعرادات، والنقب والتسریب والدبابات والکمین، ولم یدعوا دسّ السموم ولا التضریب بین الناس بالکذب وطرح الکتب فی عساکرهم بالسعایات وتوهیم الأمور ویجاش بعض من بعض وقتلهم بکلّ آلة وحیلة، وکیف وقع القتل، وکیف دارت بهم الحال، فمن اقتصر من التدبیر علی ما فی الکتاب والسنّة کان قد منع نفسه الطویل العریض من التدبیر وما لا یتناهی من المکائد، والکذب أکثر من الصدق، والحرام أکثر من الحلال.

فعلیّ علیه السلام کان ملجماً بالورع عن جمیع القول إلی ما هو للّه‌رضی، وممنوع الیدین من کلّ بطش إلّاما هو للّه‌رضی، ولا یرضی الرضا إلّافیما یرضاه اللّه ویحبّه، ولا یری الرضا إلّافیما دلّ علیه الکتاب والسنّة، دون ما یقول أصحاب الدهاء والنکراء والمکائد والآراء،

فلما أبصرَت العوامّ كثرة غرائب معاوية ظنّوا بقصر عقولهم وقلّة علومهم أنّ ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند علىّ عليه السلام ۱۹۴].

والنقطة المهمّة هنا والتى لا ينبغى الغفلة عنها، هى أنّ الإمام علىّ عليه السلام وجميع

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۶۹

الأولياء الإلهيين كانوا يهدفون فى سلوكياتهم فى الشأن السياسىّ والاجتماعىّ إلى حفظ القيم والمثل الإنسانية، ويرجّحونها حتّى على النصر فى ميدان القتال، لأنّ مثل هذا النصر على العدو مؤقّت، بينما القيم والمثل الإنسانية باقية، فلو نظرنا من هذه الزاوية إلى منهج الأنبياء والأولياء فسيتبيّن الجواب عن الكثير من الأسئلة وعلامات الإستفهام فى هذا المجال.

على سبيل المثال يتساءل البعض: لماذا لم يقتل الإمام علىّ عليه السلام عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة عندما تمكّن منهما وكان قادراً على أن يخلّص المجتمع الإسلامى من وجودهما، لمجرّد أنّ هذين الرجلين كشفا عن عورتهما؟

الجواب: إنّ الإمام علىّ عليه السلام يرى أنّ حفظ القيم الأخلاقية فى هذه الأمور أولى من قتل العدو، وربّما لا يستطيع الكثير من الناس تحمّل مثل هذا الموقف وحفظ التعاليم الإلهيّة والإنسانية من موقع الوعى والالتزام.

وفى عالمنا المعاصر نسمع الكثير من لزوم حفظ القيم والمبادىء الإنسانية فى ميادين الحرب، ولكن الكثير من الأسلحة التى تعتبر من جملة الأسلحة الممنوعة والمحرمة دولياً، وقد صدر المنع من استخدامها ضدّ المدنيين ومنع التعامل غير الإنسانى مع الأسرى، ولكننا نرى مراراً فى تاريخنا المعاصر عدم الالتزام بأىّ من هذه القوانين فى حالات الحرب من قبيل استخدام أسلحة الدمار الشامل كالقنابل الذرّية والأسلحة الكيمياوية ضد المدنيين والعزّل من الناس وتعذيب الأسرى بمختلف صنوف العذاب، ويمكن القول إنّ مثل هذه الأعمال تصدر من قِبل الفئات والجهات التى تدّعى الدفاع عن حقوق الإنسان أكثر من الفئات التى لا تعترف بها، وهذا بذاته يعتبر عملًا شنيعاً ومنكراً، لأنّ الإنسان عندما يدّعى الدفاع عن القيم وحقوق الإنسان ثمّ يرتكب خلاف ذلك على مستوى العمل والطبيق، فهذا يعنى النفاق، وأنّ مثل هؤلاء الأشخاص هم منافقون.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۷۱

الرسالة ۱۵

اشارة

كانَ يَقُولُ إذا لَقِيَ الْعَدوَّ مُحارِباً[۱۹۵]

نظرة إلى الرسالة

يتحدّث الإمام علىّ عليه السلام فى هذا الدعاء عن خلجات روحيّة تجاه الحرب ويبرز استياءه الشديد منها، ويشكو إلى اللَّه ورسوله صلى الله عليه و آله من كثرة الأعداء وتفرّق المسلمين عن حقّهم، وأخيراً يسأل اللَّه تعالى إقامة الصلح والعدالة وإنهاء الحروب والاقتتال.

هذا كلّه يشير إلى أنّ الإسلام لا يؤيّد الحرب إطلاقاً، ويعتبر أنّ الحرب أمر مفروض على البشر، لأنّ الأضرار والخسائر الوخيمة للحرب

ربّما تمتدّ لتنال الأجيال اللاحقة أيضاً، وخاصّة فى الحروب المعاصرة التى تتّسع آثارها المدمّرة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۷۲

إلى مديات قصوى أكثر بكثير من الماضى.

على سبيل المثال؛ نرى أنّ الحرب العالمية قد انتهت قبل عقود من الزمان ولكن لحدّ الآن يوجد الملايين من المعلولين والمتضرّرين من هذه الحرب فى مختلف بلدان العالم.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۷۳

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ، وَمُدَّتِ الْأَعْنَاقُ، وَشَخَصَتِ الْأَبْصارُ، وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ، وَأُنْضِيَتِ الْأَبْدَانُ. اللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ الشَّنَآنِ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَانِ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ».

الشرح والتفسير: دعاء جامع فى ساحة القتال

كما تقدّمت الإشارة إليه أنّ الإمام عليه السلام كان يقرأ هذا الدعاء عندما يواجه العدو فى ميدان الحرب، وهذا يدلّ على أنّ الإمام عليه السلام يهدف من ذلك لفت نظر أتباعه إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الغرض من الحرب ليس تحقيق الغلبة والنصر على العدوّ للتوصّل إلى الثروة والمقام ونيل المطامع الدنيوية، بل هو جهاد فى سبيل اللَّه ومن أهم العبادات الدينية، وينبغى أن يبتدىء المجاهد فى حركته فى ميدان القتال باسم اللَّه عزّ وجلّ ويطلب منه النصر على العدوّ، ويخطو فى هذا السبيل بنيّة خالصة وبقلب مفعم بالعشق الإلهىّ، ويهجم على العدو من موقع الاستقامة والإيمان والإخلاص.

يقول الإمام عليه السلام فى مطلع الدعاء: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ ۱۹۶] الْقُلُوبُ وَمُدَّتِ الْأَعْنَاقُ وَشَخَصَتِ ۱۹۷] الْأَبْصَارُ وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ وَأُنْضِيَتِ ۱۹۸] الْأَبْدَانُ».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۷۴

وهذا إشارة إلى أنّ الهدف النهائى للحرب مع قوى الباطل هو طلب رضا اللَّه تعالى، وأننا فى كلّ خطوة نخطوها فى هذا الطريق، فهى من أجلك وباتّجاهك.

أجل، فالمجاهدون المسلمون يهدفون من جميع أعمالهم وبرامجهم نيل رضا اللَّه تعالى وامتثال أمره، ولذلك يقول القرآن الكريم: «ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبيلِ اللَّهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنينَ* وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»[۱۹۹].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى سياق هذا الدعاء يشير إلى الباعث لهذه الحرب لدى العدو ليعلم أفراد الجيش الإسلامى بحقيقة الأمر فيكونوا على بيّنة من مواقعهم وغاياتهم ويقول: «اللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ الشَّنَآنِ، وَجَاشَتْ ۲۰۰] مَرَاجِلُ ۲۰۱] الْأَضْغَانِ ۲۰۲]».

وهذا إشارة إلى أنّ عناصر الحقد والبغضاء لدى هؤلاء الأعداء، والتى بقيت مكبوتة منذ زمان الجاهلية وصدر الإسلام بسبب ما حقّقه النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله من النصر المؤزّر عليهم، قد تجلّت وظهرت فى هذا الوقت، لأنّهم وإن أظهروا الإسلام وادّعوا الإيمان حسب الظاهر، ولكنّهم مازالوا يخفون الحقد والعداوة فى قلوبهم وقد وجد هؤلاء المنافقون الأرضية الخصبة بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لإبراز حقدهم الدفين وإظهار ضغائنهم ضدّ الإسلام والمسلمين.

فمن ينكر أن معاوية وهو ابن أبى سفيان العدو الأوّل للنبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله وابن هند

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۷۵

المعروفة بآكلة الأكباد، وأنصاره وأتباعه من المنافقين وأعداء الإسلام كانوا فى عصر ظهور الإسلام يواجهون الرسالة الإلهيّة من موقع الحقد والعداء الشديد وقد خلّفت المعارك فيهم أحقاداً بدرية وحنينية وغيرها.

وهذه الحقيقة بمثابة الدرس لأصحاب وأنصار الإمام عليه السلام ليعلموا من يقاتلون ولأىّ غرض يجاهدون.

وفى ختام هذا الدعاء يلتجىء الإمام عليه السلام مرّة أخرى إلى رحمة اللّه ولطفه ويعكس ذلك صفاء قلبه ونورانية باطنه وحبّه لجميع الخلائق حتى الأعداء منهم، ويقول: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا «رَبَّنَا افْتَحْ ۲۰۳] بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ»[۲۰۴]».

وهذه العبارات تعتبر غاية ما يعيشه الإمام علىّ عليه السلام من حالات اللطف والمحبّة حتّى بالنسبة للأعداء والمنحرفين والضالّين حيث يعبّر عنهم: «قَوْمِنا» وقوله: «غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا» بدلًا من قوله «ربنا انصرنا» وكذلك ما ورد من هذه العبارات «غَيْبَةَ نَبِيِّنَا» و «وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا» و «وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا» كلّها تشير إلى أنّ الغرض الأقصى للإمام علىّ عليه السلام يتلخّص إلى جذبهم إلى طريق الحقّ والصواب وأن يتّحد المسلمون صفّاً واحداً فى مقابل الأعداء.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۷۷

الرسالة ۱۶

اشارة

لِأَصْحابِهِ عِنْدَ الْحَرْبِ ۲۰۵]

نظرة إلى الرسالة

إنّ هذه الرسالة، والأصحّ هذا الكلام، لأميرالمؤمنين عليه السلام الذى تحدّث فيه لأصحابه فى ميدان الحرب يهدف لبيان فنون القتال وأسرار المجابهة والنصر على العدوّ لأصحابه وأنصاره، وقد رأينا فيما تقدّم من التوصيات العسكرية أنّها تمثّل تعاليم لكيفية الحركة والتوجّه إلى ميدان القتال واتّخاذ المواقع الحسّاسة فى مقابل العدو، والإمام فى هذه الكلام يبيّن فنون الحرب والقتال لأنصاره وجنوده، وفى المقطع الأخير من هذا الكلام يطرح الإمام عليه السلام فى الحقيقة جواباً عن سؤال ربّما يثيره البعض من أصحابه أو يدور فى خلجات قلبه، ويجيب عنه بأننا عندما نقاتل معاوية وأعوانه وأنصاره فإنّ ذلك لا يعتبر حرباً ضدّ المسلمين، فلو أنّ بنى امية

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۷۸

وعلى رأسهم أبا سفيان أظهروا الإسلام فى الماضى فإنّهم فى الحقيقة يتظاهرون بالإسلام ويتقنعون بالإيمان، ولذلك عندما وجدوا أعواناً وأنصاراً لإظهار الكفر والشرك ونزع رداء الإسلام لم يمتنعوا من الإعلان عن نواياهم والبوح بمكنوناتهم.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۷۹

لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطِّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا وَاذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى

الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ، وَالضَّرْبِ الطِّلَحْفِيِّ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. فَوَ الَّذِی فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَسْلَمُوا وَلَکِنِ اسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا الْکُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَیْهِ أَظْهَرُوهُ.

نفحات الولایة ؛ ج۹ ؛ ص۱۷۹

الشرح والتفسیر: تقویة عزائم الجند

یبیّن الإمام علیه السلام فی هذا الکلام الدقیق والزاخر بالمضامین العمیقة، ستّ توصیات عسکریة مهمّة وبعبارات بلیغة ومقتضبة.

یقول الإمام علیه السلام فی التوصیة الاولی والثانیة: «لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَیْکُمْ فَرَّةٌ[۲۰۶] بَعْدَهَا کَرَّةٌ[۲۰۷]، وَلَا جَوْلَةٌ[۲۰۸] بَعْدَهَا حَمْلَةٌ».

والمقصود من الجملة الاولی أنّ المقاتلین أحیاناً تفرض علیهم الظروف والتحدیّات الصعبة التراجع والانسحاب المؤقّت فیتوهّم العدو وجود ثغرة وضعف فیکم فیسارع فی ملاحقتکم، وفجأة یعود أفراد الجیش إلی تماسکهم ویحملوا

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۱۸۰

حملة واحدة علی العدو ویحطّموا قواه ویبعثروا صفوفه، وهذا فی الحقیقة نوع من الانسحاب التکتیکی المتداول فی الحروب المعاصرة، وأحیاناً یکون الإصرار علی المقاومة والثبات فی أرض المعرکة یکلّف الجیش غالیاً ولذلک یقول الإمام علیه السلام:

لاتأسفوا علی مثل هذا الفرار والتراجع الذی یستتبع الهجوم الصولة علی العدو، ویشیر الإمام علیه السلام فی الجملة الثانیة إلی حالات الجولة من هذه الجهة قبل ابتداء الهجوم، لأنّ الفارس الشجاع أحیاناً یضطرّ لتغییر مواقعه فی میدان القتال للعثور علی موقع مناسب للهجوم علی العدو، فیعثر علی المنفذ المناسب للحملة أو یتراجع لغرض إنهاک العدو واستنزاف طاقاته وأتعابه، وعلی ضوء ذلک فلا إشکال فی الفرار الذی یتبعه هجوم، ولا فی الجولات وتغییر المواقع التی تستتبع إیجاد ثغرة فی صفوف العدو والنفوذ منها لتحطیم قواه وقدراته الدفاعیة.

وبعبارة أخری أنّ بعض الأشخاص المغرورین تصوّروا أنّ الفرار یعدّ عیباً ونقصاً کیف ما کان، وکذلک تأخیر الهجوم علی العدوّ بجولات متعددة، فی حین أنّ کلّاً من هذه الأمور لا یعدّ عیباً أو نقصاً، بل هو نوع من أسالیب المواجهة التی تضمن فی الکثیر من الموارد النصر علی العدو.

ثم إنّ الإمام علیه السلام یأمر فی التوصیة الثالثة والرابعة ویقول: «وَأَعْطُوا السُّیُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطِّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا[۲۰۹]».

یعدّ السیف أهم سلاح یستخدم فی میدان القتال فی ذلک العصر، فعندما یواجه الفارس العدو بسیفه فینبغی الاستفادة القصوی من هذا السلاح وأداء حقّه فی الضرب والطعن.

وجملة «وَطِّئُوا لِلْجُنُوبِ ...» إشارة إلی أنّ ضرباتکم للعدو یجب أن تکون من الشدّة بدرجة تستتبع سقوط العدو علی الأرض فی الضربات الاولی وکأنّکم بهذا الضرب المتوازی والشدید قد أعددتم سلفاً مصارع أفراد العدو وأماکن سقوطهم

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۱۸۱

علی الأرض صرعی.

واحتمل البعض أنّ هذا الکلام إشارة إلی مواطن أفراد الجیش الإسلامی، یعنی أنّکم فی الوقت الذی ترومون تحقیق النصر علی العدو ینبغی أن تکونوا مستعدین للشهادة فی سبیل اللّه وتوطّنوا لأنفسکم مکاناً لمصرعکم وسقوطکم علی الأرض شهداء فی سبیل اللّه.

ولکن مع الالتفات إلی ما ورد فی الجملة السابقة والجملة اللاحقة فإنّ هذا المعنی بعید، لأنّ کلتا الجملتین تدعوان الجند إلی بانزال ضربات قاصمة بالعدو.

وفی التوصیة الخامسة والسادسة، التی تقع أیضاً فی سیاق الحدیث عن الضربات القاصمة علی العدو یقول الإمام علیه السلام:

«وَادْمُرُوا[۲۱۰] أَنْفُسَكَمْ عَلَى الطَّعْنِ ۲۱۱] الدَّعْسِي ۲۱۲]، وَالضَّرْبِ الطِّلَحْفِي ۲۱۳]».

الواقع أنّ الإمام عليه السلام فى هذه العبارة يدعو المقاتلين للاستفادة من جميع الأدوات المتداولة فى ذلك الزمان فتطعنوا بالرماح جسد العدو بحيث ينهار تماماً ويسقط على الأرض مضرّجاً بدمه وتضربوا بسيوفكم على هامات القوم بحيث يلفظوا أنفاسهم معها، ومن أجل تحقيق هذا الغرض لابدّ من تهييج أحاسيسكم وتفوير مشاعركم من خلال الاستعانة باللّه تعالى لأنّ النصر الحاسم إنّما يكون من نصيب الجماعة التى تقاتل بشدّة وتنزل ضربات سيوفها ورماحها على العدو بأشدّ قوّة.

وفى التوصية السابعة والأخيرة يقول: «وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۸۲

الأشخاص الذين يمارسون الصراخ والصياح فى ميدان القتال ربّما يتبادر إلى ذهن العدو أنّ ذلك ناشيء من خوفهم ووحشتهم، وبالتالى يؤدّى ذلك إلى رفع معنويات العدو من جهة، ومن جهة أخرى ربّما يفضى الصياح إلى استنزاف القوى الجسمية والفكرية لهؤلاء الرجال ويقلّل من قدرتهم على مقاومة العدو، ولهذا السبب يأمر الإمام عليه السلام بعدم صرف الطاقات فى الصياح والصراخ، والالتفات بشكل كامل إلى مواجهة العدو فى ميدان العمل والممارسة.

وطبعاً هذا العمل لا- يتنافى مع رفع الأصوات بالتكبير عند تحقّق النصر، وحتى التكبير ينبغى أن يكون محدوداً ومحسوباً ولا ينبغى الإفراط فيه لأنّ ذلك مخالف لهذا التوصية.

ولهذا السبب ورد فى كتب التاريخ عن واقعة بدر أنّ المشركين عندما شاهدوا جيش الإسلام بعددهم القليل فى مقابل جيش الكفر والشرك، تصوّروا أنّ مجموعة من المسلمين تكمن لهم خلف التلال حتى تسنح لهم الفرصة المناسبة ويهجموا على قوى الشرك، ولذلك أرسلوا عمر بن وهب للتحقّق فى هذا الأمر والبحث عن الكمين فى نواحى المنطقة، فتوجّه عمر بن وهب لاستطلاع الموقف ورأى أنّ مواقع جيش الإسلام مستحكمة ورصينة فرجع إلى موقعه وقال لقادة جيش الشرك: إنّ المسلمين ليس لديهم أىّ كمين أو مدد غير الثلّة الحاضرة فى الميدان، ولكننى أظنّ أنّ إبل يثرب المحمّلة ستحمل الموت لكم، ثم أضاف: «أَمَا تَرَوْنَهُمْ خُرْسٌ لَايَتَكَلَّمُونَ يَتَلَمَّظُونَ تَلَمُّظَ الْأَفَاعِى مَا لَهُمْ مَلْجَأٌ إِلَّا سُيُوفَهُمْ وَمَا أَرَاهُمْ يُوَلُّونَ حَتَّى يُقْتَلُوا وَلَا يُقْتَلُونَ حَتَّى يَقْتُلُوا بِعَدَدِهِمْ فَارْتَئُوا رَأْيَكُم»[۲۱۴].

ثم يبيّن الإمام عليه السلام فى ختام هذا الكلام نقطة أخرى وهى فى الواقع تعتبر جواباً عن سؤال مقدّر أو مذكوراً فى كلمات أصحابه عندما تصوّروا أنّ معاوية وأتباعه هم

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۸۳

من المسلمين، فكيف نقاتل المسلمين؟ فيقول الإمام عليه السلام: «فَوَ الَّذِى فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ[۲۱۵]، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ اسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ».

وعندما يختم الإمام عليه السلام بصفات اللّه تعالى ويؤكّد على انشقاق الحبّ تحت التراب وخلق الإنسان، ذلك يعود إلى أنّ هذه المظاهر فى عالم الخلقة تعتبر من أعجب الأفعال الإلهيّة، فالحبوب عندما توضع تحت التراب وهى مغلفة بقشرة قوية وصلبة وتصل إليها رطوبة التراب، فيكفى ذلك لأن تبعث فيها الروح والحركة فى داخلها حيث تبدأ النطفة بالنموّ وتظهر بعد ذلك السيقان الناعمة للنبات، هذه الساق اللطيفة عندما واجهت الضيق فى داخل إطار الحبّة كسرت هذا الإطار والقشرة وأخرجت رأسها من التراب وانفصلت عن امّها وأصلها واتّخذت سبيلها للنموّ والارتفاع إلى أن تصير بعد ذلك شجرة باسقة، وهكذا الحال فى نطفة الإنسان فى رحم الام، حيث يعيش الجنين خلقاً آخر ويتكامل تدريجياً ويتخذ لنفسه شكلًا جديداً من خلال سلسلة من التحوّلات المعقّدة والدقيقة والسريعة فى ذات الوقت ويتبدل الجنين إلى إنسان كامل، وعندما يجد الجنين أنّ رحم الام لا يكفى فى استمرار حياته ورشده ونموّه فإنّه يعزم على الخروج من الرحم ويغادر رحم امّه بهيجان ويخطو الخطوة الاولى نحو الولادة والمجىء إلى الدنيا.

إنّ التمعن فى ظاهرة نموّ النباتات وولادة البشر من شأنها أن تعرّف الإنسان أكثر على عظمة اللّه وقدرته اللامتناهية، ومن هنا نرى أنّ

النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله والأئمة المعصومین علیهم السلام یقسمون أحیاناً بهذه الصفات الإلهیّة، ولا ینبغی الغفلة عن أنّ هذه العبارات وردت فی زمن لم یتولد علم النبات وعلم الإجنّة.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۱۸۴

تأمّلان

۱. شواهد حیّة علی عقائد بنی امیّة الواقعیة

فی آخر کلمة من کلام الإمام علیه السلام مورد البحث یصرّح الإمام علیه السلام بأنّ مخالفه (معاویة وأتباعه)، لم یقبلوا بالإسلام طرفة عین، بل خضعوا له من موقع الإجبار والإکراه، ولذلک عندما وجدوا أنصاراً وأعواناً أظهروا کفرهم الباطنی.

وربّما یکون قبول هذا الکلام صعباً بالنسبة لبعض المسلمین من أهل السنّة، ولکن إلقاء نظرة إلی کتب الصحاح وسائر المصادر لأهل السنّة یدلّ علی هذه الحقیقة الحاسمة، ونحن هنا نستعرض بعض الروایات المذکورة فی مصادرهم المعروفة عن عقائد معاویة وأعماله دون أن نضیف إلیها شیئاً، ونترک الحکم علیها بعهدة القراء الأعزاء:

۱. ورد فی صحیح مسلم أنّ عبدالرحمن بن عبد ربّ الکعبة یقول: «دخلت المسجد (المسجد الحرام) فإذا عبداللّه بن عمرو بن العاص جالس فی ظلّ الکعبة والناس مجتمعون علیه، فأتیتهم فجلست إلیه، فقال: کنّا مع رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی سفر، فنزلنا منزلًا، فمنّا من یصلح خباءه ... فقلت له: هذا ابن عمک معاویة یأمرنا أن نأکل أموالنا بیننا بالباطل، ونقتل أنفسنا واللّه یقول: «یا أَیُّهَا الَّذینَ آمَنُوا لا تَأْکُلُوا أَمْوالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْباطِلِ ...» وقال: «وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَکُم ...»[۲۱۶] قال فسکت ساعة ثم قال: إطعه فی طاعة اللّه، واعصه فی معصیة اللّه ۲۱۷].

۲. ورد فی تاریخ الطبری أنّ النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله رآه (أباسفیان) مقبلًا علی حمار ومعاویة یقود به ویزید (أخو معاویة) یسوقه به، قال صلی الله علیه و آله: «لَعَنَ اللّهُ الْقائِدَ وَالرّاکِبَ وَالسائِقَ»[۲۱۸]. (وفی روایة أخری أنّ الذی کان قابضاً علی زمام الدابة هو عتبة أخو

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۱۸۵

معاویة ومعاویة کان یسیر خلفهم).

۳. وکذلک ورد فی تاریخ الطبری أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله أشار یوماً إلی مکان وقال:

یطلعُ من هذا الفج، رجل من امّتی یحشر علی غیر ملّتی، فطلع معاویة[۲۱۹].

۴. نقل ابن أبیالحدید فی شرح نهجالبلاغة عن کتاب أخبار الملوک: إنّ معاویة سمع مؤذّناً یقول: «أَشْهَدُ انْ لا الهَ إلّااللّهُ فقالها ثلاثاً، فقال المؤذّن: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللّهِ قال معاویة: للّهأبوک یاابن عبداللّه! ولقد کنت عالی الهمّة، ما رضیت لنفسک إلّاأن یقرن اسمک باسم ربّ العالمین ۲۲۰].

۵. ویروی أحمد بن حنبل فی مسنده عن عبداللّه بن بریدة أنّه قال: «دخلت أنا وأبی علی معاویة فأجلسنا علی الفرش ثمّ أُتینا بالطعام فأکلنا ثم أُتینا بالشراب، فشرب معاویة ثمّ ناول أبی (ثمّ قال:) ما شربته منذ حرّمه رسول اللّه صلی الله علیه و آله»[۲۲۱].

۶. یقول ابن أبیالحدید فی شرح نهجالبلاغة: «قَدْ طَعَنَ کَثیرٌ مِنْ أَصْحابِنا فی دینِ مُعاوِیَةَ وَلَمْ یَقْتَصِرُوا عَلی تَفْسیقِهِ وَقالُوا عَنْهُ: إنّه کانَ مُلْحِداً لا یَعْتَقِدُ النُّبُوَّةَ وَنَقَلُوا عَنْهُ فی فَلَتاتِ کَلامِهِ وَسَقَطاتِ أَلْفاظِهِ ما یَدُلُّ عَلی ذلِکَ»[۲۲۲].

۷. ولم تقتصر إشکالیة إیمان معاویة وأعماله علی هذا الحدّ، فطبقاً لما ذکره ابن عبد ربه فی العقد الفرید أنّ الحسن البصری قال: «علم معاویة واللّه إن لم یبایعه عمرو لن یتمّ له أمر، فقال له: یاعمرو، اتبعنی، قال: لماذا؟ للآخرة؟ فواللّه ما معک آخرة، أم للدنیا فواللّه لا

كان حتى أكون شريكك فيها، قال: فأنت شريكى فيها. قال:

فاكتب لى مصر وكورها، فكتب له مصر وكورها، وكتب فى آخر الكتاب: وعلى عمرو السمع والطاعة. قال عمرو: إنّ السمع والطاعة لا ينقصان من شرطه شيئاً، قال معاوية: لا ينظر الناس إلى هذا، قال عمرو: حتى يكتب، قال فكتب، واللّه ما يجد بدّاً

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۸۶

من كتابتها.

ودخل عتبة بن أبى سفيان على معاوية وهو يكلّم عمراً فى مصر، وعمرو يقول له: إنّما ابايعك بها لدينى، فقال عتبة: ائتمن الرجل بدينه فإنّه صاحب من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم»[۲۲۳].

۸. وينقل ابن الأثير أيضاً فى كامل التواريخ عن الحسن البصرى أنّه قال:

أربع خصال كنّ فى معاوية، لو لم تكن فيه إلّا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الامّة بالسيف حتى أخذ الإمرة من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده إبنه سكّيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»! وقتله حجراً.[۲۲۴] ۹. وطبقاً لما أورده البيهقى فى كتاب المحاسن والمساوى أنّ رجلًا من أهل الشام سأل ابن عباس وقال: من الناكثون، قال: الذين بايعوا علياً بالمدينة ثم نكثوا، فقاتلهم بالبصرة وهم أصحاب الجمل، والقاسطون معاوية وأصحابه والمارقون أهل النهروان ومن معهم، فقال الشامى: ياابن عباس ملأت صدرى نوراً وحكمة وفرّجت عنّى فرّج اللّه عنك، أشهد أنّ عليّاً رضى اللّه عنه مولاى ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة[۲۲۵].

۱۰. ونختم هذا المقطع من البحث بكلام عجيب أورده المسعودى فى مروج الذهب ونقله الزبير بن بكار فى الموفقيّات وابن أبى‌الحديد فى شرح نهج‌البلاغة (والملاحظ من بين هؤلاء الثلاثة نرى أنّ الزبير بن بكار لا يوافق الشيعة فى عقائدهم فحسب بل من المخالفين لهم) أنّ مطرف بن المغيرة بن شعبة يقول: دخلت مع أبى على معاوية وكان أبى يأتيه، فيتحدّث معه ثم ينصرف إلىّ ويذكر معاوية

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۸۷

وعقله ويعجب ممّا يراه منه، إذ جاء ذات ليلة وأمسك عن العشاء ورأيته مغتّماً فانتظرته ساعة وظننت أنّه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لى أراك مغتماً منذ الليلة؟

فقال: يا بنى جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: ماذا؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنّك قد بلغت سناً ياأميرالمؤمنين، فلو أظهرت عدلًا وطففت خيراً، إنّك قد كبرت ولو نظرت إلى إخوتك من بنى هاشم، فوصلت أرحامهم فواللّه ما عندهم اليوم شىء تخافه، وإن ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات، أىّ ذكر أرجو بقاءه، ملك أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: قال أبوبكر، ثم ملك أخو عدى فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّاأن يقول قائل: عمر، وإنّ ابن أبى كبشة ليصاح به كلّ يوم خمس مرات: (أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمّداً رَسُولُ اللَّهِ) فأىّ عمل يبقى؟ وأىّ ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك «لَا وَاللَّهِ إِلَّا دَفْناً دَفْنا»[۲۲۶]، (أى لابدّ من العمل لدفن هذا الاسم أو لدفن بنى هاشم إلى الأبد).

ومرّة أخرى نعيد القول أنّ جميع هذه الموارد المذكورة أعلاه ليست من مصادرنا، بل هى عين عبارات علماء أهل السنة فى شأن معاوية ولم نضف أىّ شىء عليها.

۲. فضائل الامام علىّ عليه السلام على لسان أعدائه

بالرغم من أنّ عمرو بن العاص كان مؤيّداً لمعاوية بشكل كامل ولولا حيلته الشيطانية لم ينتصر معاوية فى حربه مع الإمام عليه السلام

قطعاً، ولكنّه مع ذلك كان أصرح منه فی الكلام، وفی بعض المواقع يذكر بشكل صريح أفضلية الإمام علىّ عليه السلام على معاوية ويتحدّث عن شجاعة جيش الإمام عليه السلام فی أكثر من مورد.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۸۸

ينقل نصر بن مزاحم فی كتابه صفين أشعاراً عجيبة لعمر بن العاص يحقّر فيها معاوية بشدّة ويتحدّث فيها عن جيش الإمام علىّ عليه السلام يقول:

فَإِنْ وَرَدَتْ فَأَوَّلُهَا وُرُوداًفَإِنْ سَدَّتْ فَلَيْسَ بِذِی صُدُود

أی أنّ فرسان جيش معاوية عندما يردون ميدان المعركة فسوف نجدهم فی المقدّمة، فإذا تصدّوا لجيش العدو فلا أحد يستطيع مواجتهم والوقوف أمامهم.

ثم يضيف:

وَمَا هِیَ مِنْ أَبِی حَسَنٍ بِنُكْرٍوَلا هُوَ مِنْ مَسَائِكَ بِالْبَعِيدِ

أی أنّ فضائل علىّ ليست بالشیء المجهول وغير المعروف ونقاط ضعفك ليست بالبعيدة عن الأنظار.

ثم يشير عمرو بن العاص إلى طلب معاوية من أميرالمؤمنين علىّ بن أبی طالب عليه السلام فيما يتّصل بحكومة الشام ويقول:

وَقُلْتَ لَهُ مُقَالَةَ مُسْتَكِينٍضَعِيفِ الرُّكْنِ مُنْقَطِعِ الْوَرِيدِ

دَعَنَّ الشَّامَ حَسْبُكَ يَا ابْنَ هِنْدٍمِنَ السَّوْءاتِ وَالرَّأْیِ الزَّهِيدِ

وَلَوْ أَعْطَاكَهَا مَا ازْدَدْتَ عِزّاًوَلا لَكَ لَو أَجابَكَ مِنْ مَزِيدٍ

فلمّا بلغ معاوية قول عمرو دعاه فقال: ياعمرو، إننی قد أعلم ما أردت بهذا، قال:

ما أردت؟ قال: أردت تقبيح رأيی، وإعظام علىّ، وقد فضحك، قال: أما تقبيحی رأيك فقد كان، وأمّا إعظامی عليّاً فإنّك بإعظامه أشدّ معرفة منّی، ولكنك تطويه وأنا أنشره، أمّا فضيحتی فامرؤ لقی أبا الحسن ۲۲۷].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۸۹

الرسالة ۱۷

اشارة

إلى مُعاوِيَةَ جَواباً عَنْ كِتابٍ مِنْهُ إِلَيْهِ ۲۲۸]

نظرة إلى الرسالة

روی نصر بن مزاحم فی كتاب صفين، إنّ الإمام علىّ عليه السلام قال يوماً: سأتوجّه غداً إلى الميدان واقاتل هؤلاء القوم، فانتشر هذا الكلام فی صفوف جيش معاوية واستولی عليهم الخوف والذعر.

فكتب معاوية إلى علىّ عليه السلام مع رجل من السكاسك، يقال له: عبداللَّه بن عقبة وكان من ناقلة أهل العراق:

«أما بعد فإنّی ما أظنّك أن لو علمت أنّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا لميحبّها بعضنا على بعض، وإن كنّا قد غلبنا على قولنا فقد بقی لنا منها ما نندم على

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۹۰

ما مضى ونصلح به ما بقى، وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمنى لك طاعة ولا بيعة فأبيت ذلك علىَّ، فأعطانى اللَّه ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنّى لا أرجو البقاء إلّاما ترجو، ولا أخاف من الموت إلّاما تخاف وقد واللَّه فارقت الأجناد وذهبت الرجال، ونحن بنوعبدمناف فضل الأفضل لا يستذل به عزيز، ولا يسترق به الحرّ، والسلام».

فلما انتهى كتاب معاوية إلى علىّ عليه السلام قرأه ثم قال: العجب من معاوية ولكتابه، ثم دعا عبيد بن أبى رافع كاتبه وقال له: اكتب إلى معاوية ...[۲۲۹].

وطبعاً فإنّ السيد الرضى كما هو دأبه وعادته لم يذكر مطلع هذه الرسالة، ولكنّه أورد القسم المهم منها[۲۳۰].

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۱۹۱

القسم الأول

اشارة

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ فَإِنِّی لَمْ أَكُنْ لِأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ. وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ، أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ. وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِی الْحَرْبِ وَالرِّجَالِ فَلَسْتَ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنِّی عَلَى الْيَقِينِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِی طَالِبٍ، وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ، وَلَا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ. وَلَبِئْسَ الْخَلْفُ خَلْفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى فِی نَارِ جَهَنَّمَ.

الشرح والتفسير: المدين فى هيئة الدائن

سبق أن ذكرنا أنّ هذه الرسالة تعدّ جواباً لرسالة كتبها معاوية للإمام عليه السلام وتحدّث فيها عن بعض مطالبه، وحسب القاعدة فإنّ معاوية بقراءة مثل هذه الرسائل على المنابر أو على الجند إنّما يبغى تبرئة نفسه من الإثم الذى ارتكبه بحقّ المسلمين، وكذلك حسب القاعدة أنّ هذه الرسالة إن وصلت لأصحاب الإمام عليه السلام أيضاً ربّما يتأثر بها بعض السذّج من الناس، ومن هنا لم يجد الإمام عليه السلام بدّاً من كتابة رسالة جوابية للردّ على ما جاء فيها بشكل حاسم.

ولذلك نرى أنّ الإمام عليه السلام أشار فى هذه الرسالة إلى أربعة أمور محورية فى

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۱۹۲

مقابل أربعة ادّعاءات لمعاوية.

فى البداية يقول الإمام عليه السلام: «وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ فَإِنِّی لَمْ أَكُنْ لِأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ»، وكما هو معلوم أنّ معاوية طلب الشام دون أن يبايع أو يلتزم بطاعة أوامر الإمام عليه السلام.

ومنع الإمام عليه السلام بدوره يقوم على أساس الحكم الإلهى الذى يقرر منع الظالمين والمفسدين من تولّى أمور البلاد الإسلاميّة، وأنّه لا ينبغى أن تكون أىّ منطقة أو إمارة فى الحكومة الإسلاميّة بيد المنحرفين وقوى الفسق والجور، وهذا الحكم الشرعىّ لازال باقٍ على قوّته، فليست هذه المسألة من المسائل السياسية التى تتغيّر وفقاً لتغيّر الظروف وتبدّل المصالح.

وهذا الكلام فى الواقع يعدّ جواباً للأشخاص الذين يقولون: ألم يكن الأفضل أن يدع الإمام الشام بيد معاوية بشكل مؤقت ثم يعزله عن هذا المقام بعد استقرار حكومته واستتباب الأمن فيها؟

إنّ هؤلاء لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الإمام عليه السلام إذا أذعن لطلب معاوية وأوكل حكومة الشام إليه، (وطبقاً لبعض

الروايات أنّ معاويـة طلب حكومة مصـر أيضاً) وفسح المجال لمعاوية لتقوية أركان سلطته وسيطرته على منطقة الشام فإنّ إزاحته بعد ذلك ستكون مستحيلة، والحال نرى أنّ الإمام عليه السلام فى حرب صفّين كان قد اقترب من النصر الحاسم على جيش معاوية وشارف على دفع هذه الفتنة والشرّ من البلاد الإسلاميّة لولا سلوك بعض الجهلاء والانتهازيين ممّن كانوا فى جيش الإمام عليه السلام ظاهراً.

ثم يتحدّث الإمام عليه السلام فى المقطع الثانى من هذه الرسالة جواباً عن كلام معاوية الآخر ويقول: «وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ ۲۳۱] إِلَّا حُشَاشَاتِ ۲۳۲] أَنْفُسٍ بَقِيَتْ،

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۹۳

أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ».

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الجواب الثالث لمعاوية الذى قال فى رسالته: أنا وأنت فى هذه الحرب سيّان (وأننا كلينا نتبع هدفاً واحداً ونطلب أمراً واحداً، يقول الإمام فى مقام الجواب: «وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِى الْحَرْبِ وَالرِّجَالِ فَلَسْتَ بِأَمْضَى ۲۳۳] عَلَى الشَّكِّ مِنِّى عَلَى الْيَقِينِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ».

وهذا الكلام إشارة إلى وجود أمرين مختلفين بين أصحابى وأصحابك، فأصحابى يسيرون مع إمام عادل وعالم بتكليفه الشرعىّ وأنّهم يسيرون على بصيرة من حركتهم ودينهم، فى حين أنّك لا تملك هدفاً واضحاً سوى التوصّل إلى المال والمقام.

والآخر أنّ أصحابك حريصون على الدنيا وأنّك استطعت جرّهم إلى الميدان بالوعود المادية والمغريات الدنيوية عسى أن يصيبوا من الغنائم فى هذه المعركة، فى حين أنّ قادة جيشى لم يتحرّكوا طمعاً بالجائزة ولم يفكّروا فى هذا الأمر أيضاً.

وبتعبير آخر، أنّك لا ـ تملك اليقين على استحقاقك للخلافة والرئاسة على الناس، فى حين أننى على يقين من ذلك، وأنّ أتباعك يقاتلون طلباً للدنيا، فى حين أنّ أتباعى لا يهدفون من قتالك سوى نيل رضا اللَّه تعالى وإقامة الحكومة الإلهيّة العادلة على الأرض، ولهذين السببين نحن أكثر عزماً وأمضى سعياً منكم فى هذا المسير المعنوى، فى حين أنّك وأتباعك لا ـ تملكون هذه الروحية والمعنوية، ونتيجة ذلك أننا لسنا سواء فى هذا الأمر وأنّ النصر النهائى سيكون من نصيبنا قطعاً، وهكذا تحقّقت نبوءة الإمام عليه السلام ووصل جيش الإمام إلى مشارف النصر النهائى، ولكن للأسف فإنّ جماعة من الجهلة ومن بينهم ثلّة من المنافقين أجهضوا هذا النصر ولم يتحقّق ما كان الإمام يصبو إليه.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۹۴

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض للجواب عن الإدعاء الرابع لمعاوية ويقول: «وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ»، فهنا يتعرّف الإمام بهذه الحقيقة، وهى أننا جميعاً أبناء عبدمناف وهذا صحيح لا ريب فيه.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض للفوارق بينه وبين معاوية ويذكر منها خمسة أمور.

ففى البداية يشير إلى الشرف فى النسب، ويقول: «وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِالْمُطَّلِبِ، وَلَا أَبُوسُفْيَانَ كَأَبِى‌طَالِبٍ».

وهذا إشارة إلى أنّ جدّك الأعلى هو امية وجدّك الأدنى هو حرب، وأباك أبو سفيان، وكلّهم معروفون بين العرب بالشرّ والدناءة والخسّة، فى حين أنّ جدّى الأعلى هاشم وجدّى الأدنى عبدالمطلب وأبى أبو طالب، وكلّهم من سادات العرب ومن كرمائهم وأشرافهم، فكيف يمكن مقايسة هؤلاء بأولئك، والحال أنّهم ليسوا سواء.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى التفاوت الثانى والثالث، ويقول: «وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ ۲۳۴]، وَلَا الصَّرِيحُ ۲۳۵] كَاللَّصِيقِ ۲۳۶]».

وهو إشارة إلى أننى كنت من أوائل المهاجرين من مكة إلى المدينة مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولكنّك وأبا سفيان كنتما تعيشان فى ظلمات الشرك والكفر فى مكّة إلى أن فتحها جيش الإسلام وحكم النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله بإطلاق سراحك وسائر الأسرى من قومك عندما قال: «إذْهَبُوا فأنْتُمُ الطُّلَقاءُ».

ومن جهـة أخرى، فإنّ نسبنا معروف وصريح، ولكن نسبك غامض وفيه الكثير من الكلام، فبعض لا يرى أنّك ابن أبى سفيان بل الابن غير المشروع لمسافر بن أبى عمرو وهو من عبيد أبى سفيان، وطبعاً هذا الكلام لا يتنافى مع ما ذكره الإمام عليه السلام من أبى معاوية يعنى أبا سفيان لأنّ تلك الجملة قالها الإمام عليه السلام وهو يتماشى مع

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۹۵

الامور بحسب الظاهر، وهذه الجملة إشارة إلى أنّه لو تمّ البحث والتدقيق فى نسبك، فهناك كلام كثير فى ذلك.

ومع هذا فإنّ ابن أبى‌الحديد لا يرى هذا التفسير منسجماً مع الجملة الأخيرة وذهب لتفسير آخر لهذا العبارة وقال: المراد من الصريح هو الشخص الذى اعتقد بالإسلام اعتقاداً راسخاً، واللصيق هو الشخص الذى اعتنق الإسلام خوفاً من السيف أو بدافع حبّ الدنيا[۲۳۷].

وهذا التفسير وإن كان خلاف ظاهر العبارة، ولكن على فرض أن يكون صحيحاً فذلك يعنى أيضاً وجود تفاوت جلىّ بين الإمام عليه السلام ومعاوية فى هذا المجال.

ثمّ يتعرّض الإمام عليه السلام لذكر الفرق والاختلاف فى الصفات والأفعال الدينية والإنسانية بين الطرفين ويقول: «وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ ۲۳۸]».

وهذا إشارة إلى أنّ الاختلاف بيننا لا ينحصر بانتسابنا إلى بنى هاشم وانتسابك إلى بنى امية، فإنّ صفاتنا وأفعالنا أيضاً لا تقبل القياس والمقارنة، فنحن نسير دوماً فى خطّ الحقّ والخير والإيمان، بينما بنو امية يسيرون فى خطّ الباطل والشرّ، ونحن آمنّا بالإسلام والنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله من موقع الإخلاص، ولكنكم أظهرتم الإيمان والإسلام من موقع النفاق (والحوادث التاريخية تثبت ذلك).

ويقول الإمام عليه السلام فى نهاية هذه الفقرة: «وَلَبِئْسَ الْخَلْفُ خَلْفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى ۲۳۹] فِى نَارِ جَهَنَّمَ».

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لا يذمّ معاوية على انحراف أسلافه وجدّه وأبيه فقط، بل يؤكّد فى كلامه على أنّ هذا الابن يسير فى طريق آبائه الضالّين الذين ينتهى مصيرهم إلى النار.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۹۷

القسم الثانى

اشارة

وَفِى أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِى أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا بِهَا الذَّلِيلَ.

وَلَمَّا أَدْخَلَ اللَّهُ الْعَرَبَ فِى دِينِهِ أَفْوَاجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِى الدِّينِ: إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً، عَلَى حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ. فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: النبوّة افتخار كبير.

ويشير الإمام عليه السلام فى هذا القسم من كتابه إلى ما ذكره معاوية فى رسالته حيث قال: «لِبَعْضِنا فَضْلٌ عَلى بَعْض»، وأنّه لا فضل لأحدنا على الآخر، وعلى فرض وجود فضيلة فهى جزئية لا تعزّ الذليل ولا تذلّ العزيز، فيجيبه الإمام عليه السلام جواباً حاسماً ويقول: «وَفِى أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِى أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا[۲۴۰] بِهَا الذَّلِيلَ».

وهذا إشارة إلى أنّ الإسلام عندما انتشر فى الجزيرة العربية كان أمثال أبى‌سفيان وأبى جهل الذين حكموا الناس سنين متمادية من موقع الظلم والجور، أضحوا أذلّاء، بينما أعزّ الإسلام أمثال سلمان والمقداد وعمّار وياسر وبلال الذين

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۱۹۸

كانوا غالباً يعيشون أجواء الأسر والذلة والعبودية، فرفعهم الإسلام إلى أوج العزّة، وبذلك كيف تقول أنّ نبوّة نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله لم تؤثّر أثراً في هذا المجال.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام أخذ بيد معاوية وأرجعه إلى عصر النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله وكيف كان اعتناقهم للإسلام هو وأهل بيته، وقال: «وَلَمَّا أَدْخَلَ اللَّهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ: إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً».

وهو إشارة إلى فتح مكة كما يتحدّث القرآن الكريم عن ذلك ويقول: «إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دينِ اللَّهِ أَفْواجاً* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّابا»[۲۴۱]، في ذلك اليوم دخل الكثير من الناس الإسلام بدافع الإخلاص والإيمان وطهّروا قلوبهم من لوث عبادة الأصنام، ولكنّ المشركين المتعصّبين والانتهازيين الذين كانوا يحاربون الإسلام والدعوة الإلهيّة سنين متمادية اضطرّوا إعتناق الدين الجديد ظاهراً وأذعنوا مكرهين لهذه الحقيقة، فأبوسفيان وهو العدوّ الأول للإسلام وأبو معاوية كان من الأشخاص الذين اعتنقوا الإسلام ظاهراً، وكذلك أظهر أهل بيته وأقربائه الإسلام من موقع الإكراه ولم تؤمن قلوبهم.

ومنذ ذلك اليوم تغيّرت الخارطة وأخذ أعداء الإسلام يفكرون في إيجاد ثغرة في صفوف المسلمين، والنفوذ من خلالها إلى مواقع القرار والحكم، وليجلسوا في مجلس النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله، وعبارة «رغبة» المذكورة أعلاه إشارة إلى هذا المعنى، وهذه الرغبة لا تتنافى مع وجود «الرهبة» يعني أنّ قبولهم للإسلام اقترن فيه الخوف مع الأمل والرغبة في الوصول إلى المقام وسدّة الحكم في المستقبل.

فهل يمكن مقارنة مثل هذا الإسلام بإسلام أميرالمؤمنين الإمام عليّ عليه السلام الذي أسلم منذ بداية بعثة النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله وتصدّى للدفاع عن الرسالة والرسول في تلك الظروف الصعبة وصاحب النبيّ صلى الله عليه و آله في أيّام الوحدة والغربة؟

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۱۹۹

وعلى هذا الأساس يقول الإمام عليّ عليه السلام بعد ذلك: «عَلَى حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ».

وهذا الكلام يشير إلى تقسيم المسلمين إلى عدّة طوائف كما ورد ذلك في القرآن الكريم: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْه»[۲۴۲]، فهناك طائفة من السابقين في اعتناق الإسلام، والإمام عليه السلام من بين هؤلاء يعتبر من أسبق السابقين، وطائفة أخرى اعتنقوا الإسلام وهاجروا من مكة إلى المدينة، والطائفة الثالثة من أهالي المدينة الذين نصروا الدين والنبيّ واعتنقوا الإسلام وساروا في خطّ الرسالة، والطائفة الرابعة هم الجيل اللاحق الذين التحقوا بالمسلمين الأوائل عن رغبة وطواعية، وهنا أين نجد مكان معاوية في هذا الطوائف الأربع؟ نقول في مقام الجواب: لا مكان له إطلاقاً، والعجيب أنّ معاوية مع هذا الحال يقيس نفسه مع الإمام عليه السلام وبني هاشم ويرى نفسه في الإسلام في عرض الإمام عليّ عليه السلام! ولكن تاريخ الإسلام مليء بأمثال هذه العجائب والغرائب.

وفي الختام يحذّر الإمام عليه السلام معاوية ويقول: «فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا، وَالسَّلَامُ».

وهذا إشارة إلى أنّك بهذا الكلام تخدع نفسك، وأنّك بهذا القياس وبهذه المقارنة غير السليمة تفتح الباب للشيطان ليتسلّط على نفسك، وبالتالي تعيش الغفلة عن حقيقة موقعك، وتريدأن‌تنصّب نفسك بمكان‌رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله وبذلك تخسردنياك‌وآخرتك.

تأمّل: أتباع رسول اللّه صلى الله عليه و آله

يستفاد من‌الآية‌الشريفة ۱۰۰ من سورة براءة أنّ‌أتباع رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله على عدّة طوائف:

الطائفة الأولى: السابقون، وهم الذين سبقوا للإيمان واعتناق الإسلام والذين

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۰۰

آمنوا بالنبیّ الأكرم صلی الله عليه و آله أيّام وحدته وغربته فی بداية الدعوة، وبايعوه علی ذلك، ومن بين الأوائل من هؤلاء السابقين من النسوة خديجة الكبری عليها السلام، ومن بين الرجال علیّ بن أبی طالب عليه السلام، ثمّ التحق بهم جماعة آخرون، وهذا العنوان يعدّ افتخاراً كبيراً للإنسان لأنّه قدّم نفسه علی طبق الإخلاص للإسلام والنبیّ صلی الله عليه و آله فی الظروف الصعبة التی عاشها المسلمون الأوائل.

الطائفة الثانية: المهاجرون، وطبعاً فی السابقين مَن هم من المهاجرين أيضاً، وهؤلاء هم المسلمون الذين آمنوا بالنبیّ الأكرم صلی الله عليه و آله فی مكة وعندما ضاق عليهم الخناق ومارس المشركون فی حقّهم أنواع التعذيب والتضييق حتّی بات الخطر يهدّد النبیّ صلی الله عليه و آله، هاجروا مع النبیّ إلی المدينة، وهذا يعنی أنّهم تركوا جميع ما لديهم من أموال ودور ولوازم المعيشة والحياة وهاجروا مع أهلهم إلی المدينة التی ليس لهم فيها بيت ولا- وسائل المعيشة وبقوا هناك لسنين عديدة وهم يواجهون المشكلات والتحدّيات إلی أن فتح اللَّه عليهم وسارت الأمور علی ما يرام.

وطبعاً هناك جماعة أخری منالمسلمين هاجروا إلی الحبشة قبل هجرة المسلمين من مكة إلی المدينة هرباً من بطش قريش والمشركين، وبعد استقرار الإسلام فی المدينة عادوا من الحبشة والتحقوا بالنبیّ الأكرم صلی الله عليه و آله والمسلمين فی المدينة المنورة.

الطائفة الثالثة: الأنصار، وهم أهل المدينة الذين أسلموا واستقبلوا المهاجرين برحابة صدر وأسكنوهم فی بيوتهم رغم الحياة الصعبة التی كانوا يعيشونها غالباً فی المدينة وتواصلوا مع المهاجرين من موقع المواساة واقتسموا معهم كلّ ما لديهم من شؤون الحياة.

وطبعاً يوجد فی الأنصار سابقون وغير سابقين، والقرآن الكريم يشير إلی هذه الحقيقة ويقول: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرينَ وَالْأَنْصارِ[۲۴۳]»، يعنی أنّ الأنصار الذين آمنوا بالنبیّ الأكرم صلی الله عليه و آله فی البداية أو آمنوا به قبل ذلك فی مكة وفی منطقة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۰۱

تسمی «العقبة» علی مقربة من مكة، وبايعوه صلی الله عليه و آله قبل الهجرة، وهؤلاء الطوائف من المهاجرين والأنصار والسابقين يطلق عليهم عنوان: الصحابة.

الطائفة الرابعة: الأشخاص الذين لم يروا النبیّ الأكرم صلی الله عليه و آله وفی الحقيقة يمثّلون الجيل اللاحق من المهاجرين والأنصار، وهذا الجيل يطلق عليه فی المصطلح «التابعين» وهم الذين اتّبعوا الأنصار والمهاجرين فی الإيمان والإسلام، وذكرهم القرآن الكريم بقوله: «وَالَّذينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ»[۲۴۴] وبقوله: «وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ»[۲۴۵] و بقوله أيضاً: «وَالَّذينَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ»[۲۴۶]، وأفراد هذه الطائفة- كما ذكرنا آنفاً- لم يدركوا النبیّ الأكرم صلی الله عليه و آله ولم يروه، ولكنهم أدركوا الصحابة.

الطائفة الخامسة: تابعو التابعين؛ وهم الأشخاص الذين لم يدركوا الصحابة ولم يشاهدوا أحداً منهم، ولكنّهم فی الحقيقة تلامذة التابعين.

وهناك كلام كثير فی أنّ أفراد هذه الطوائف الخمس هل هم صالحون وعدول جميعاً، أو أنّ البعض منهم كان فی بداية الأمر من الصالحين والأخيار ولكنّه لم يستقم فی هذا المسار بعد ذلك وخاصّة بعد رحلة النبیّ الأكرم صلی الله عليه و آله؟ وقد بحثنا هذا الموضوع فی تنزيه الصحابة.

ومن المعلوم وجود أشخاص من هؤلاء المسلمين الأوائل كانوا فی وقت قد بلغوا ذروة الفضيلة والإيمان والالتزام بالمبادیء الإسلاميّة، ولكنّهم بعد ذلك اتبعوا هوی النفس وساروا فی خطّ الضلالة وحبّ الدنيا وسقطوا فی وحل الانحراف وشرك الشيطان ۲۴۷].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۰۳

الرسالة ۱۸

اشارة

إلى عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَبّاسٍ وَهُوَ عامِلُهُ عَلَى الْبَصْرَةِ[۲۴۸]

نظرة إلى الرسالة

يقول المرحوم ابن ميثم فى مقدّمة شرحه لهذه الرسالة أنّ ابن عباس بعد أن عيّنه أميرالمؤمنين عليه السلام على البصرة، أخذ يتعامل مع بنى تميم باسلوب العنف والغلظة، لأنّه كان يتذكر عداوتهم للإمام عليه السلام وجيش الإمام عليه السلام فى يوم الجمل، فقد كانوا من أتباع طلحة والزبير وعائشة فى ذلك اليوم، وقد هجم عليهم ابن عباس وأبعدهم عن البصرة، وكان يطلق عليهم أنّهم أتباع الجمل وأنصار عسكر (عسكر اسم جمل عائشة) وحزب الشيطان، ولكن هذا التعامل السيّء من ابن عباس ثقل على جماعة من الشيعة من بنى تميم، ومنهم جارية بن قدامة الذى كتب إلى الإمام عليه السلام رسالة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۰۴

يشكو فيها ابن عباس، وهذا هو الذى دعا الإمام عليه السلام أن يكتب لابن عباس هذه الرسالة مورد البحث.

وقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة إلى عدّة أمور:

الأول: أنّ بنى تميم قبيلة معروفة بالرجال الشجعان الذين كانوا من الشجاعة والجرأة بحيث لم يسبقهم إليها أحد لا فى زمان الجاهلية ولا فى صدر الإسلام.

والآخر: يقول الإمام عليه السلام أنّهم يتّصلون معنا بالرحم والقرابة، وصلة الرحم توجب علينا الإحسان إليهم والتعامل معهم من موقع الإكرام والاحترام.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى هذه النقطة، وهى أنّ ما يصدر منك على لسانك ويدك من خير وشرّ وما يترتّب عليها من نتائج حسنة وسيّئة، فإنّه سيمتد إليّ أيضاً لأنّنا شريكان فى ذلك، وعلى ضوء ذلك لابدّ من التعامل بآليات الأخلاق الكريمة مع بنى‌تميم.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۰۵

وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ، وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ، فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَقَدْ بَلَغَنِى تَنَمُّرُكَ لِبَنِى تَمِيمٍ، وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ بَنِى تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِى جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً، وَقَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهَا، فَارْبَعْ أَبَا الْعَبَّاسِ، رَحِمَكَ اللَّهُ، فِيمَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِى ذَلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّى بِكَ، وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِى فِيكَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: إطفاء نار الفتنة بماء المداراة

عندما جاء طلحة والزبير ومعهم عائشة إلى البصرة مع جماعة من الفاسدين والانتهازيين، ورفعوا هناك لواء التمرّد والمخالفة ضدّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، استقبلهم أهل البصرة وانضمّوا إليهم وشكّلوا معهم جيشاً كبيراً لمحاربة أميرالمؤمنين عليه السلام وأشعلوا نار الفتنة، ولكنّهم اندحروا وهُزموا على يد جيش الإمام علىّ عليه السلام فى واقعة الجمل، ولعلّهم كانوا يتوقّعون من الإمام بعد تحقيق النصر أن يأمر بقتل جماعة منهم، ولكنّ الإمام تعامل معهم بمنطق الحبّ والمودّة كما سبق أن تعامل النبىّ الأكرم عليه

السلام مع قريش فى فتح مكة، وهذا الأمر هو الذى أدّى إلى عودة الاستقرار والهدوء لمدينة البصرة، وفى بداية هذه الرسالة التى كتبها الإمام لواليه على البصرة ابن عباس يشير الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقة. «وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۲۰۶

إِبْلِيسَ، وَمَغْرِسُ ۲۴۹] الْفِتَنِ، فَحَادِثْ ۲۵۰] أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ».

أما قوله: «أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ، وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ» فهو إشارة إلى وجود أقوام من مختلف الأنحاء تعيش فى البصرة وتوجد بينهم مشاكل، وكذلك يواجهون مشاكل من القادمين إلى هذه المنطقة، ولعلّه لهذا السبب اختار طلحة والزبير وعائشة البصرة لإشعال نار الفتنة ضدّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، وخاصّة أنّ البصرة تعدّ أهم ميناء للعراق، والموانىء عادة تكون مستقرّ أقوام ومجاميع مختلفة ممّن يأتون إلى هذه المدينة من مناطق مختلفة، وهذا بدوره يؤدّى إلى وجود بعض الخلل والاشكاليّات فى أجواء هذه المناطق من الناحية الثقافية والاجتماعية، إلّاأن يخضع أهالى هذه المناطق إلى التعليم الأخلاقىّ والثقافى المستمرّ، وقد ذهب البعض إلى أنّ إبليس عندما هبط إلى الأرض كانت البصرة أوّل محلّ حطّ فيه قدمه، ولكن لا يوجد لدينا دليل لإثبات صحّة هذا المطلب.

المهم أنّ الإمام عليه السلام أمر ابن عباس أن يتّخذ أفضل الطرق لإعادة الهدوء والاستقرار انطلاقاً من مضمون الآية الشريفة: «ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَميمٌ* وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظيمٍ»[۲۵۱]. وهذا يعنى أنّ ابن عباس ينبغى له أن يستخدم اسلوب الإحسان معهم فى مقابل موفقهم السيّء يوم الجمل، لكى يغسل درن الأحقاد والكراهية ويجعلهم يعيشون الندم والخجل على ما بدر منهم، وربّما كانت مخالفتهم له بسبب خوفهم من العقوبة والانتقام، فعندما يتعامل معهم ابن عباس بالرأفة والرحمة، فهذا من شأنه أن يعيد إليهم روح الهدوء والطمأنينة ويزيل حالات الخوف والقلق.

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۲۰۷

ويقرّر الإمام عليه السلام هذا المعنى فى كلماته القصار، فى إشارة إلى أصل كلّى حيث يقول: «عاتِبْ أَخاكَ بِالْإِحْسانِ إِلَيْهِ وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعامِ عَلَيْهِ»[۲۵۲].

ثمّ يدخل الإمام عليه السلام بعد ذكر هذه المقدّمة إلى أصل المطلب ويقول: «وَقَدْ بَلَغَنِى تَنَمُّرُكَ ۲۵۳] لِبَنِى تَميمٍ، وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ».

ثم يذكر الإمام عليه السلام بعض الصفات والخصال لقبيلة بنى تميم تدلّ لياقتهم للعفو والصفح والاحترام.

يقول الإمام فى بيان الصفة الاولى منهم: «وَإِنَّ بَنِى تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ».

والتعبير بالنجم إشارة إلى أنّهم يتمّتعون دوماً بوجود شخصيات كبيرة وجديرة بالاحترام بحيث إنّه لو مات أحد فسيحلّ نجم آخر محلّه، ولهذا تتوفّر فى القبائل العربية دوماً رجال مدراء ومفكرون.

وفى الخصلة الثانية يشير الإمام عليه السلام إلى شجاعتهم ويقول: «وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ ۲۵۴] فِى جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ».

ومع الالتفات إلى أنّ كلمة «وَغْم» تعنى فى اللغة الحرب، وكذلك تعنى الحقد والحسد، فهذا الاحتمال الأخير وارد فى تفسير الجملة المذكورة وأنّهم جماعة تستبطن الحقد، ولو تصدّى لهم مَن يثير أمامهم الأذى والضرر فإنّهم يواجهونه بالمثل ويثيرون الفتنة حينئذٍ، ولكن بالنظر إلى ما تقدّم من كلام الإمام عليه السلام فى مدحهم فإنّ هذه التفسير بعيد عن سياقات الكلام.

وفى الخصلة الثالثة والأخيرة لهم يقول الإمام عليه السلام: «وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً[۲۵۵]، وَقَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا، وَمَأْزُورُونَ ۲۵۶] عَلَى قَطِيعَتِهَا».

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۲۰۸

وقد ذهب شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ العامل للقرابة النسبية والرحم بين بنى تميم وبنى هاشم أنّهما يشتركان فى الجد الأعلى وهو (إلياس بن مضر)، وطبقاً لهذا الكلام فإنّ هاشم يصل إلى إلياس بثلاثة عشر واسطة، وكذلك بنى تميم أيضاً يصلون إليه بوسائط كثيرة، ولكن بما أنّ الرحم فى الإسلام تحظى بأهمية بالغة، فالإمام عليه السلام يؤكّد على أنّ هذا المقدار من الوسائط الكثيرة بيننا

وبينهم لا يمنع من اعتبارهم من الأرحام والأقرباء، أضف إلى ذلك أنّ البعض ذهب إلى وجود رابطة سببية بين هاشم وتميم من طريق الزواج العائلى، وذهب بعض أيضاً إلى أنّ أحد زوجات الإمام علىّ عليه السلام واسمها ليلى بنت مسعود الحنظلية من بنى تميم؛ ولكن مع الالتفات أنّ الارتباط السببى لا يسمّى رحماً بل يقتصر الرحم على الرابطة النسبية، فإنّ هذين التفسيرين يبتعدان عن الحقيقة.

ويرى ابن أبى‌الحديد وبعض آخر من المؤرّخين فضائل الأخرى لبنى تميم حيث يستفاد من مجموعها أنّ هذه القبيلة تحظى بامتيازات كبيرة فى الواقع الاجتماعى العربى.

ويستفاد من سياق كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنّ مسألة صلة الرحم تحظى بأهمية كبيرة فى الإسلام بحيث إنّ هذا الحكم الإسلامى يمتدّ من الأرحام ويتناول حتّى

من كان يرتبط بفاصلة بعيدة من الآباء والأجداد، يقول الإمام عليه السلام: إنّك لو لم تحفظ هذه القرابة والرحم فستكون أمام اللّه مسؤولًا ومحكوماً وإن وصلتها فستكون مصدر الخير والبركة.

وفى ختام هذه الرسالة يأمر الإمام عليه السلام ابن عباس بمداراة المخالفين بشكل عامّ وبنى تميم بشكل خاصّ ويقول: «فَارْبَعْ [۲۵۷] أَبَا الْعَبَّاسِ، رَحِمَکَ اللَّهُ، فِيمَا جَرَى عَلَى لِسَانِکَ وَيَدِکَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيکَانِ فِى ذَلِکَ، وَکُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّى بِکَ، وَلَا يَفِيلَنَّ [۲۵۸] رَأْيِى فِيکَ، وَالسَّلَامُ».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۰۹

ويراد من الخير والشرّ: النفع والضرر، وهى الأعمال التى يمكن أن يترتب عليها الظلم أو الضرر، فالشرّ هنا ليس بمعنى الظلم والجور لأنّ ابن عباس لم يكن الوالى الظالم الذى يتعامل مع الناس بالظلم وسحق الحقوق.

واللافت للنظر أنّ الإمام عليه السلام فى هذه التوصية بمداراة المخالفين ورعايتهم يشير إلى هذه الحقيقة وهى أنّك وكيل عنّى، وأنّ كلّ عمل يصدر منك فسوف يكتب علىّ فكأنه صدر منّى، وعلى هذا الأساس ينبغى الاحتياط والتدبر فى الأمر، وهذا الكلام من قبيل أن يقال لعلماء الدين: انتبهوا إلى أعمالكم وتصرّفاتكم لأنّ كلّ عمل يصدر منكم سيكون منسوباً للدين والإسلام أيضاً.

وفى الجملة الأخيرة يحذّر الإمام عليه السلام ابن عباس أيضاً ويقول أنّك لو لم تسلك سبيل المداراة والمراعاة فربّما يتغيّر نظر إمامك عنك، وهذا دليل آخر على ضرورة العمل بتوصيات الإمام عليه السلام.

فى العبارة الواردة أعلاه يخاطب الإمام عليه السلام ابن عباس بكلمة «أبوالعباس» واستخدام الكنية متداول عند العرب وأنّهم إذا أرادوا أن ينادوا شخصاً باحترام فإنّهم لا يذكرون اسمه الأصلىّ بل ينادونه بكنيته أو بلقبه، فهنا راعى الإمام عليه السلام هذا الجانب فى احترام ابن عباس وخاطبه بكنيته.

تأمّل: خصائص أهل البصرة

ورد فى الخطب المتعدّدة من نهج‌البلاغة ومنها الخطبة ۱۳ و ۱۴، توبيخ وذمّ شديد لأهل البصرة، وكما رأينا فى الرسالة أعلاه أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام يتحدّث عن البصرة بأنّها معقل الشيطان ومحلّ نزول إبليس ومكان إثارة الفتن، ولكن بقرينة ما ورد فى بعض الروايات التى تمدح أهل البصرة كثيراً أعمّ من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، فكلام الإمام عليه السلام هنا ناظر لمقطع خاصّ من الزمان، وهو الزمان

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۱۰

الذى وقعت فيه معركة الجمل وسارع أهل البصرة لحماية الناكثين والمتمرّدين بقيادة طلحة والزبير، وأسفر ذلك عن مقتل الكثير من المسلمين.

وعلى ضوء ذلك فإنّ هذا الذمّ المذكور لا يدلّ على كلّ من دخل تلك المدينة أو كان من أهالى البصرة، فإنّه يملك تلك الصفات

الذميمة على امتداد التاريخ وأنّه ليس من أهل الفلاح والسعادة، وخاصّة عندما نرى وجود الكثير من العلماء والعرفاء والقرّاء والموالين لأهل البيت عليهم السلام في هذه المدينة.
وللتوضيح أكثر راجع الجزء الأول، ذيل الخطبة ١٣.

***

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١١

الرسالة ١٩

اشارة

إلى بَعْضِ عُمَّالِهِ ٢٥٩]

نظرة إلى الرسالة

يستفاد من تاريخ اليعقوبي و تاريخ البلاذري أنّ المخاطب بهذه الرسالة هو عمر بن أبي سلمة (مسلمة) الأرحبي الذي قيل إنّه كان والياً على فارس والبحرين ٢٦٠]، وأنّه كان يستخدم اسلوب العنف والشدّة مع بعض الفئات التي تحت ولايته من طائفة المجوس، وهؤلاء كتبوا رسالة يشكون فيها هذا الوالي، فاستاء الإمام عليه السلام من ذلك وكتب هذه الرسالة مورد البحث ودعاه لرعاية الاعتدال وترك اسلوب الشدّة معهم.
واللافت أنّ توصية الإمام عليه السلام في هذه الرسالة تخصّ غير المسلمين وهم الذين يطلق عليهم «أهل الذمّة» الذين يعيشون داخل البلاد الإسلاميّة بصورة سلمية، فينبغي أن يتعامل معهم الوالي والمسلمون من موقع الرأفة والمحبّة الإسلاميّة
نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١٢
ويحفظوا لهم نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، فالإمام عليه السلام لا يقبل أيّ شكل من أشكال العنف والشدّة في التعامل معهم.
ولكن بما أنّ الاقتراب منهم والتواصل معهم أكثر من اللازم ربّما يثير مشاكل أخرى في الجو الثقافي والاجتماعي فإنّ الإمام عليه السلام أمر هذا الوالي بضرورة التعايش بالاعتدال في هذا الشأن.

***

نفحات الولاية، ج ٩، ص: ٢١٣
أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ، وَالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ.
إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: شمول الرأفة الإسلاميّة لجميع الناس

رأينا فيما تقدّم آنفاً أنّ المخاطب بهذه الرسالة والى الإمام عليه السلام على فارس والبحرين وأنّه كان يستخدم اسلوب الشدّة والقسوة مع جماعة من المجوس الذين كانوا يعيشون فى تلك المنطقة، وبما أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون بعدالة الإمام عليه السلام وأخلاقه الحسنة، فلذلك كتبوا إليه هذه الرسالة يشكون من سوء معاملة الوالى، وفى هذه الرسالة العميقة المضمون والتى تعتبر دستوراً لجميع الولاة والامراء، يقول الإمام عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ ۲۶۱] أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ».

وقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات إلى أربع نقاط تتّصل بأعمال الوالى السيئة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۱۴

وسوء معاملته للرعيّة، فى البداية أشار الإمام عليه السلام إلى العنف، والأخرى إلى القساوة وعدم الشفقة، والثالثة تحقير هؤلاء الرعية، والرابعة سوء معاملته لهم، وبالرغم من أنّ هذه المفاهيم تتماثل وتقترب فى المضمون، لكن هناك فروق دقيقة بينها، ولذلك أشار الإمام عليه السلام إلى جميع هذه الأمور وأعلن بعد ذلك عن رأيه المبارك فى القضية، وهو أنّه من جهة ينبغى الالتفات إلى أنّ هؤلاء مشركون، لأنّ المجوس يعتقدون بالثنوية والمصدرين للخلق، وهما يزدان وأهريمن مصدرا الخير والشر، ورغم أنّ الزرادشتين فى هذا العصر يدّعون أنّهم موحّدون وغير مشركين، ولكن المنابع الدينية لهم تقرّر خلاف ذلك، وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام مع ملاحظة التفاوت الاعتقادى بينهم وبين المسلمين، ينهى عن الاقتراب منهم أكثر من الحدّ اللازم، وفى ذات الوقت يذكّر الوالى بهذه النقطة، وهى أنّ هؤلاء من أهل الذمّة يعنى أنّهم يعيشون مع المسلمين من موقع الصلح والسلم ويتعهدون باحترام الإسلام وأحكامه الإلهيّة، والحكومة الإسلاميّة بدورها تتعهد بالدفاع عنهم وعن أعراضهم وأموالهم وتتعامل معهم بلغة العطف والإحسان، وعلى هذا الأساس فإنّ استخدام القسوة وسوء التعامل معهم يعتبر منافياً للشرع والخلق الإسلامى.

ثم يبيّن الإمام عليه السلام هذه الحقيقة ويقول: «فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً[۲۶۲] مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ ۲۶۳] لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ، وَالْإِبْعَادِ الْإِقْصَاءِ. إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

وبديهىّ أنّ مثل هذا الأسلوب فى التعامل مع غير المسلمين الذين يعيشون فى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۱۵

ظلّ الحكومة الإسلاميّة بصلح وسلام يعتبر من أفضل أساليب المعاملة، ومن جهة يثير فى نفوسهم الطمأنينة والأمن ويزيح من أذهانهم أىّ تفكير فى التمرّد والطغيان، ومن جهة أخرى فإنّ هذا الاسلوب فى التعامل من قِبل الحاكم الإسلامى لا يمكن حمله على الضعف والعجز فى مواجهة المشاكل والتحدّيات والتى ربّما تكون مصدراً لإثارة القلاقل وتفعيل روح المشاكسة، ومن هذا المنطلق يرسم الإمام عليه السلام الأسلوب الأمثل فى التعامل مع الأقليات الدينية فى المجتمع الإسلامى.

ومن المعلوم أنّ ما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة لا ـ ينحصر بأشخاص معيّنين ولا ـ يختصّ بزمان ومكان، بل هو منهج مدروس ويمكن ترجمته على أرض الواقع الاجتماعى فى كلّ مورد ومجتمع إسلامى، بل يمكن القول إنّ الحكومة يجب أن تتعامل مع المسلمين أيضاً بمثل هذه المعاملة، فلو أظهرت فى مقابل الرعية الكثير من الليونة والتساهل أكثر من الحدّ، فربّما يحمل ذلك على ضعف هذه الحكومة، وبالتّالى يتجرّأ جماعة على القانون ولا يلتزموا بالمقرّرات الرسمية، ولو كان تنفيذ القوانين وإجراؤها باسلوب الشدّة والعنف، فإنّ ذلك ربّما يثير فى الناس الاعتراض والنفرة من الحكومة، وتنقطع بالتالى طبيعة التواصل بين الناس وبين الحكومة الإسلاميّة، وعلى أيّة حال فإنّ الإعتدال بين الرأفة والقسوة يعتبر أحد الأصول الثابتة للإدارة الناجحة وقيادة المجتمع.

بل نرى مثل هذا الأصل حتى بالنسبة للذات المقدّسة والسياسة الإلهيّة مع العباد، حيث أنّه تعالى قد جعل الناس يعيشون بين الخوف والرجاء، يقول القرآن الكريم:

«نَبِّئْ عِبادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذابِى هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ»[۲۶۴].

ونقرأ فی دعاء الافتتاح المعروف: «وَأَیْقَنْتُ أَنَّکَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ فِی مَوْضِعِ الْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ وَأَشَدُّ الْمُعَاقِبِینَ فِی مَوْضِعِ النَّکَالِ وَالنَّقِمَهْ».
وأثار بعض شرّاح نهج‌البلاغة هنا هذا السؤال، وهو کیف أنّ الإمام علیه السلام أصدر

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۱۶

مثل هـذا الأمر بالنسبة لغیر المسلمین وأنّه لا ینبغی تقریبهم أکثر من اللازم فی حین أنّ القرآن الکریم یقول بصراحة: «لا یَنْهاکُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذینَ لَمْ یُقاتِلُوکُمْ فِی الدِّینِ وَلَمْ یُخْرِجُوکُمْ مِنْ دِیارِکُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَیْهِم»[۲۶۵].
والجواب عن هذا الإشکال واضح، وهو أنّ الإمام علیّ علیه السلام لا ینهی عن الإحسان إلیهم، بل یأمر برعایة الإعتدال فیهم والتعامل معهم، فلا یقتربوا من الحاکم أکثر من الحدّ ویتجرّأوا علی المخالفة، ولایبعدهم عنه إلی حدٍّ یتسبّب فی امتعاضهم وطغیانهم.

تأمّل: الإسلام وأهل الذمّة

یمکننا تلخیص علاقة الإسلام والمسلمین بغیرالمسلمین فی أربع صور:
۱. أهل الذمّة: وهم أصحاب الکتب السماویة الذین یعیشون داخل البلاد الإسلامیّة علی شکل أقلّیات دینیة، وهؤلاء إذا لم یتظاهروا بالأمور المخالفة للقوانین الإسلامیّة، وتعاملوا مع المسلمین من موقع الاحترام، فیجب علی المسلمین أیضاً أن یعاملوهم باحترام کذلک، الحکومة الإسلامیّة أیضاً مکلّفة بحفظ نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، والذمّة تعنی العهد والمیثاق، وهو فی الحقیقة عهد منهم أن یعیشوا مع المسلمین بصلح وسلام، وأحد شروط الذمّة دفع ضرائب وجیزة تدعی ب «الجزیة» وفی مقابل هذه الضریبة القلیلة فإنّ الحکومة الإسلامیّة تقدّم لهم خدمات هامّة وجلیلة کما تقدّم فی الرسالة أعلاه، ورأینا أنّ أمیرالمؤمنین الإمام علیّ علیه السلام یکتب إلی أحد ولاته رسالة یعترض بها علیه من سوء معاملته لأهل الذمّة ویدعوه لتحسین سلوکه ومعاملته لهم.
وقد وردت أحکام أهل الذمّة فی الکتب الفقهیة ذیل کتاب الجهاد بشکل مفصّل.
۲. الکفّار الحربیون: وهؤلاء کما یتبادر من اسمهم، الأشخاص الذین یعیشون

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۱۷

حالة الحرب ضدّ المسلمین، ولهذا السبب لیس فقط لا یجب احترامهم، بل إنّ المسلمین مأمورون بجهادهم والتصدّی لهم ومقاتلتهم.
وقد وردت أحکام الکفّار الحربیین أیضاً فی الفقه الإسلامی فی کتاب الجهاد بشکل مفصّل أیضاً.
۳. الکفّار المعاهدون: وهم الذین لا یعیشون داخل البلاد الإسلامیّة، ولکنّهم تربطهم علاقات تجاریة وسیاسیة وغیر ذلک مع المسلمین، حیث یحترم کلّ طرف حقوق الطرف الآخر، والمصداق البارز لهؤلاء ما نراه فی الحال الحاضر من وجود علاقات سیاسیة بین المسلمین وبین جمیع البلدان الأخری فی العالم، حیث یتبادلون السفراء والخبراء وأمثال ذلک، وهؤلاء ینبغی التعامل معهم من موقع الاحترام أیضاً، سواء سافروا إلی داخل البلاد الإسلامیّة أو کانوا فی الخارج.
وقد وردت أحکام هذه الطائفة أیضاً فی کتاب الجهاد وفی کتب التفسیر، وخاصّة فی تفسیر سورة براءة.
۴. الکفّار المهادنون: وهم الأشخاص الذین یعیشون خارج البلاد الإسلامیّة ولا تربطهم مع المسلمین رابطة سیاسیة خاصة أو معاهدة معینة، ولکن فی ذات الوقت لا یواجهون المسلمین بالحرب والقتال، وقد أمر الإسلام بالنسبة لهؤلاء أن یتعامل معهم المسلمون بالإحسان وحسن الخلق، ومن ذلک ما ورد فی الآیة ۸ من سورة الممتحنة حیث أکّد القرآن الکریم علی أنّ اللَّه لا ینهی عن الإحسان لمثل هؤلاء الکفّار الذین لا یقاتلونکم ولا یخرجوکم من دیارکم.

***

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۱۹

الرسالة ۲۰

اشارة

إلى زِيادِ بْنِ أَبيهِ وَهُوَ خَليفَةُ عامِلِهِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَبّاسٍ عَلَى الْبَصْرَةِ، وَعَبْدُاللَّهِ عامِلُ أميرِالْمُؤْمِنينَ عليه السلام يَوْمَئِذٍ عَلَيْها وَعَلى كُورِ الْأَهْوازِ وَفارْسٍ وَكِرْمانٍ وَغَيْرِها[۲۶۶]:

نظرة إلى الرسالة

يستفاد من هذه الرسالة الواردة فى تاريخ اليعقوبى، وخاصة مع الالتفات إلى ما ورد فى مطلعها، أنّ «زياد» كان قد قصد خيانة بيت المال والامتناع من دفع جميع الخراج، فاطّلع الإمام عليه السلام على هذه القضية من خلال بعض جواسيسه وعيونه وكتب له هذه الرسالة الشديدة وأمره بدفع الخراج لبيت المال بشكل كامل وإرساله إلى الإمام عليه السلام وقد هدّده الإمام عليه السلام بأنّه إذا امتنع عن هذا العمل فإنّه سيواجه عقوبة شديدة.

وهذه الرسالة وأمثالها تبيّن أنّ الإمام عليه السلام قد جعل عمّال ومراقبين على جميع

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۲۲۰

الولاة والمسؤولين فى الحكومة حيث ينقلون له باستمرار ما يجرى فى الولايات من مسائل مهمّة، فلو أنّ أحد المسؤولين تجاوز حدود صلاحيته فإنّ الإمام سيتولّى تنبيهه.

***

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۲۲۱

وَإِنِّی أُقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِی أَنَّکَ خُنْتَ مِنْ فَیْءِ الْمُسْلِمِینَ شَیْئاً صَغِیراً أَوْ کَبِیراً لَأَشُدَّنَّ عَلَیْکَ شَدَّةً تَدَعُکَ قَلِیلَ الْوَفْرِ، ثَقِیلَ الظَّهْرِ، ضَئِیلَ الْأَمْرِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: إنذار شديد للمتخلّفين

يستفاد من تاريخ اليعقوبى أنّ الإمام عليه السلام فى بداية هذه الرسالة كتب إلى واليه زياد يقول: «إِنّ رَسُولی أَخْبَرَنی بِعَجَبٍ، زَعَمَ أَنّکَ قُلْتَ لَهُ فیما بَیْنَکَ وَبَیْنَهُ: إِنَّ الْأَکْرادَ هاجَتْ بِکَ فَکَسَرَتْ عَلَیْکَ کَسیراً مِنَ الْخَراجِ وَقُلْتَ لَهُ: لاتُعْلِمْ بِذلِکَ أَمیرَالْمُؤْمِنینَ».

ويستفاد جيداً من هذا المقطع من الرسالة أنّ زياداً تواطأ مع بعض الأكراد على تقليل الخراج، وكان يريد- من خلال الادّعاء بأنّ الأكراد قد امتنعوا من دفع الخراج بشكل كامل- أن يختلس بعض الخراج لحسابه الخاصّ ولا يرسله إلى بيت المال، فعلم الإمام عليه السلام بهذه المؤامرة وكتب له هذه الرسالة الشديدة وقال: «وَإِنِّی أُقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِی أَنَّکَ خُنْتَ مِنْ فَیْءِ الْمُسْلِمِینَ شَیْئاً صَغِیراً أَوْ کَبِیراً، لَأَشُدَّنَّ عَلَیْکَ شَدَّةً تَدَعُکَ قَلِیلَ الْوَفْرِ، ثَقِیلَ الظَّهْرِ ضَئِیلَ الْأَمْرِ، وَالسَّلَامُ».

إنّ تعبير الإمام عليه السلام فى مطلع هذا القسم حيث يقسم باللَّه قسماً صادقاً، لا يعنى أنّه ربّما يصدر قسم غير صادق من الإمام عليه السلام بل هو نوع من التأكيد على جدّية الإمام عليه السلام فى هذا الأمر.

والملاحظة الأخرى أنّ الإمام عليه السلام لم يصرّح له فى هذه الرسالة بأنّك ارتكبت

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۲۲۲

الخيانة، بل ذكر كلاماً مشروطاً بهذا المضمون، وهو أنه إذا بلغنى أنّك ارتكبت مثل هذه الخيانة ...، لأنّه إذا أراد كشف الحجاب فى مثل هذه الموارد عن عمل الشخص المتخلّف، فإنّ ذلك يدعوه للجرأة أكثر، فبلاغة الكلام تستدعى أن يكشف قليلًا عن الستار ويذكر الموضوع بشكل مشروط لئلّا يتجرّأ أكثر، ويعزم على الفرار بالأموال من تلك المنطقة.

وهنا نقطة جديرة بالالتفات فى كلام الإمام عليه السلام حيث يقول: إنّنى ساعاقبك عقوبة شديدة بحيث يترتّب عليها ثلاث بلايا: الاولى: أنّك ستعيش فى حياتك قليل الوفر من المال، والآخر ستكون سيّء السمعة فلا يأتمنك أحد على عمله وماله.

الثالث: أن تكون ثقيل الظهر، وربّما يكون مقصوده عليه السلام من ذلك ثقل المسؤولية فى الدنيا، أى أنّه يحمل على ظهره مسؤولية الخيانة وما يترتّب عليها من عقوبة، أو أن يعيش بصعوبة بالغة بسبب الفقر فلا يستطيع إدارة أموره الشخصية والمعاشية، واحتمل بعض الشرّاح أيضاً أنّ المراد من ثقل الظهر هنا المسؤولية الاخروية، كما ورد هذا المضمون فى قوله تعالى: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَّعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ»[۲۶۷].

والظاهر أنّ هذا الاحتمال بعيد عن المقصود، لأنّ الإمام عليه السلام يقول: إنّنى ساعاقبك بما يترتّب عليه هذه العواقب الثلاث، ونعلم أنّ المسؤولية يوم القيامة بسبب الخيانة حتمية ولا تحتاج لتشديد الإمام عليه السلام ولا ترتبط بإنزال العقوبة بحقّه.

وجملة «ضَئِيلَ الْأَمْرِ» مع الالتفات إلى أنّ كلمة «ضَئِيل تأتى بمعنى الحقير والضعيف والمهين، فإنّ مفهومها هو أنّك إذا ارتكبت الخيانة وعرف الناس منك ذلك، فسوف تعيش بعد ذلك بين الناس حقيراً ومهيناً وذليلًا.

وأساساً فإنّ الخيانة، لاسيّما الخيانة فى الأموال وخاصّة فى بيت المال، منشأ الفضيحة فى الدنيا والآخرة، وهذه الحقيقة لا تنحصر بزياد بن أبيه فى صورة خيانته

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۲۲۳

لبيت المال وما يترتّب على ذلك من العواقب الثلاث التى ذكرها الإمام عليه السلام له فى رسالته، بل هى المصير الذى ينتظر جميع الخائنين وخاصّة خونة بيت المال، فإنّ ظهورهم ستكون مثقلة بوزر الذنب والمسؤولية والعقوبة، وأنّ انتفاعهم فى هذا الحياة سيكون ضئيلًا وستكون شخصيتهم حقيرة ويعيشون الذلّة والمهانة بين الناس.

تأمّل: لماذا اختار الإمام عليه السلام زياداً لهذا المنصب

بالنسبة لسيرة «زياد بن أبيه» وتاريخ حياته، تطرح عدّة أسئلة وعلامات استفهام، الاولى: لماذا يقال عنه: زياد بن أبيه، والذى يحكى عن عدم مشروعية ولادته ونسبه، والآخر: لماذا اختاره الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام لهذا المنصب فى أيّام خلافته، أو على الأقلّ اختاره عبداللّه بن عباس لمثل هذا المقام مع معرفته بشخصيته معرفة دقيقة، بحيث انتهى به الأمر إلى ما انتهى إليه، وكان له ولُاسرته دور تخريبىّ فى تاريخ الإسلام؟

والجواب عن هذه الأسئلة سيأتى إن شاء فى ذيل الرسالة ۴۴ حيث يتناسب هذا الموضوع معه أكثر.

***

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۲۲۵

الرسالة ۲۱

اشارة

إلى زِيادٍ أيْضاً[۲۶۸]

نظرة إلى الرسالة

يستفاد من صدر هذه الرسالة الواردة فى كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى، أنّ بعض الأشخاص كتب إلى الإمام عليه السلام أنّ زياداً ارتكب أعمالًا مخالفة، ومن ذلك أنّه كان يجلس على موائد تكثر فيها أنواع الأطعمة وأنه كان يتعامل مع الآخرين من موقع التكبّر والغرور، والإمام عليه السلام فى هذه الرسالة حذّره من الإسراف والتكبّر وطلب الدنيا وأكّد له أن يهتمّ فى حياته بالآخرة.

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۲۲۷

فَدَعِ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِداً، وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً، وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ. أَ تَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ! وَتَطْمَعُ- وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ؛ تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالْأَرْمَلَةَ- أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: الإمام عليه السلام يحذِّر «زياد» مرّة أخرى

تقدّم آنفاً أنّ لهذه الرسالة مقدّمة يمكن من خلالها فهم ما أورده المرحوم السيّد الرضيّ لشرحها وتفسيرها، فقد ورد فى مقدّمة هذه الرسالة، أنّه كان بين سعد وزياد ملاحاة ومنازعة، وعاد سعد فشكاه إلى علىّ عليه السلام وعابه، فكتب علىّ عليه السلام إليه، أما بعد فإنّ سعداً ذكر أنّك شتمته ظلماً وهددته وجبهته تجبّراً وتكبراً، فما دعاك إلى التكبر وقد قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «الكِبْرُ رِدَاءُ اللَّهِ فَمَنْ نَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَهُ قَصَمَهُ»، وقد أخبرنى أنّك تكثر من الألوان المختلفة فى الطعام فى اليوم الواحد، وتدّهن كلّ يوم، فما عليك لو صمت للّه‌أيّاماً، وتصدّقت ببعض ما عندك محتسباً، وأكلت طعامك مراراً قفاراً، فإنّ ذلك شعار الصالحين! أفتطمع وأنت متمرّغ فى النعيم، تستأثر به على الجار والمسكين والضعيف والفقير والأرملة واليتيم، أن يحسب لك أجر المتصدّقين! وأخبرنى أنّك تتكلّم بكلام الأبرار، وتعمل عمل الخاطئين، فإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت، وعملك أحبطت، فتب إلى ربّك يصلح لك عملك، واقتصد فى أمرك

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۲۲۸

وقدّم إلى ربّك الفضل ليوم حاجتك، وادّهن غبّاً، فإنّى سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«ادّهِنُوا غَبّاً وَلَا تَدَّهَنُوا رَفَهاً»[۲۶۹].

ثمّ يأمره الإمام عليه السلام بالتصدّق فى سبيل اللَّه على الفقراء والمحرومين ويقول له أيضاً: إنّ كلامك كلام المحسنين ولكنّ عملك عمل المذنبين والعاصين، فلو كان هذا الأمر حقيقة فإنّك قد ظلمت نفسك وأحبطت عملك ۲۷۰].

ومع الالتفات إلى ما تقدّم أعلاه، نصل إلى شرح الرسالة طبقاً لما ذكره السيّد الرضيّ، فالإمام عليه السلام يأمر زياد بن أبيه بأربعة أمور فى عبارة موجزة وزاخرة بالمعنى، فيقول فى البداية: «فَدَعِ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِداً».

وهو إشارة إلى ما كان زياد يهتمّ به من جلب ألوان الأطعمة على مائدته ويتّخذ سبيل المترفين، وهذا الأمر يعتبر مذموماً لجميع المسلمين ولا سيّما للحكّام والولاة المنصوبين من قِبلهم.

وطبعاً فإنّ الإسراف لا ينحصر بالإكثار فى الأطعمة وأمثالها، بل الإسراف فى كلّ شىء مذموم فى الإسلام حتّى فى العبادات، حيث توجب أحياناً التعب والملل وزوال الرغبة فى العبادة والطاعة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «وَ إِنَّ الْقَصْدَ أَمْرٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّ السَّرَفَ أَمْرٌ يُبْغِضُهُ اللَّهُ حَتَّى طَرْحَكَ النَّوَاةَ فَإِنَّهَا تَصْلُحُ

لِلشَّيْءِ وَحَتَّى صَبَّكَ فَضْلَ شَرَابِكَ»[۲۷۱].

ثمّ يذكر الإمام عليه السلام التوصية الثانية ويقول: «وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً».

وهذا هو ما ورد فى القرآن الكريم مراراً كقوله تعالى: «وَمَا تُقَدِّمُوا لِانفُسِكُمْ مِنْ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۲۹

خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ»[۲۷۲].

ومورد آخر يقول تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بما تَعْمَلُونَ»[۲۷۳].

ومعلوم أنّ الإنسان إذا اعتقد بوجود حياة اخرى بعد هذه الحياة وأنّ احتياجه إلى الأموال والثروات فى ذلك الوقت أشدّ بكثير من حاجته فى الدنيا، من الواضح أنّه سيترك حالات الإسراف والتبذير والتجمّل، وينعطف على أعمال الخير ولا ينفق من هذه الأموال أكثر من الحدّ اللازم فى هذه الدنيا ويقوم بإرسالها أمامه إلى ذلك اليوم.

ثمّ يوصى الإمام عليه السلام بالأمر الثالث والرابع ويقول: «وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ».

والواقع أنّ ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى جملة: «وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً» بشكل إجمالىّ، قد فصّله فى الجملتين الأخيرتين، وفسّر جملة ذكر الغد فى هذه العبارة بإمساك المال إلّابمقدار الضرورة والحاجة ولزوم إرسال الفضل إلى آخرتك، وهو اليوم الذى تحتاج فيه إلى هذا المال بشدّة، وخاصّة أنّ الثروة ستتعرّض للفناء فى حياته، وإن لم يصبها شىء من النقصان والفناء، فإنّ الإنسان سيتركها عند الموت ولا يمكنه أن ينتفع بها بأدنى شىء ولا يستطيع أن يحملها معه إلى القبر، وحتّى أنّ بعض الأقوام الماضية الذين كانوا يدّخرون الكثير من الأموال النفيسة للسلاطين والملوك ويدفنونها معهم، فإنّهم فى الواقع يدّخرون كنوزاً من هذه الثروات للأجيال اللاحقة دون أن تعود بالنفع على أصحابها الموتى.

ومثل هذا المضمون ورد بتعبيرات شيّقة وعميقة المعنى فى وصيّة الإمام علىّ عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام (الكتاب ۳۱ من نهج‌البلاغة) حيث يقول: «فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۳۰

فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ».

إنّ ما ورد من الصفات الأربع أعلاه هو فى الواقع إشارة إلى ما ذكره بعض المطّلعين عن إسراف زياد بن أبيه وخيانته لبيت المال.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى من نقاط ضعف زياد، وهى التكبر والغرور فى مقابل المحرومين والمستضعفين من الناس ويقول: «أ تَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ!».

وبديهىّ أنّ الشخص الذى يتوقّع أن ينال ثواب المؤمنين، يجب عليه أن يعمل عملهم ولا يعيش التناقض والازدواجية فى السلوك والميول الباطنية، وهذا بالضبط كالمزارع الذى يطمع بالحصول على محاصيل وفيرة من أرضه الزراعية فى حين أنّه لم يبذر فيها ولم يسقها الماء.

وهنا يضع الإمام عليه السلام اصبعه على نقطة حسّاسة جدّاً، وهذا هو ما ورد فى كلامه عليه السلام فى كتاب غررالحكم حيث قال: «احْذَرِ الْكِبْرَ فَإِنَّهُ رَأسُ الطُّغْيانِ وَمَعْصِيَةُ الرَّحْمنِ»[۲۷۴].

وفى كلام آخر للإمام عليه السلام يقول: «أَقْبَحُ الْخُلُقِ التَّكَبُّرُ»[۲۷۵].

وقد ورد فى رواية أخرى عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام قالا: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»[۲۷۶].

ثمّ يعود الإمام عليه السلام ليتحدّث مرّة أخرى عن مسألة الإنفاق فى سبيل اللّه ويقول:

«وَتَطْمَعُ – وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ ۲۷۷] فِی النَّعِیمِ، تَمْنَعُهُ الضَّعِیفَ وَالْأَرْمَلَهَ[۲۷۸]– أَنْ یُوجِبَ لَکَ
نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۲۳۱
ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِینَ؟».

وهـذه الحالهٔ لا تختصّ بزیاد بن أبیه فقط، فالکثیر من الأشـخاص عندما یدعون اللَّه تعالی فإنّهم یسألونه ثواباً جزیلًا، ولکنّهم فی مجال العمل الذی ینتج مثل ذلک الثواب نراهم مقلّین ولا شـیء لدیهم فی مقابل هذا الطلب الکبیر، وفی‌الحقیقهٔ أنّ مثل هذا الطلب والدعاء هو نوع من النّفـاق والازدواجیـهٔ بین الرغبـات والأعمـال، وینبغی قلع هـذه الحالـهٔ من وجود الإنسـان للتوصّل إلی السـکینهٔ والانسـجام الروحیّ التام، فعنـدما تکون رغبات الإنسان متجانسـهٔ ومتناغمـهٔ مع سـلوکیاته وأعماله، یسـتطیع أن یکون الـدعاء حینئذٍ مقبولًا حتی لو طلب من اللَّه أکثر من ذلک.

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام یختم هذه الرسالهٔ ببیان قاعدهٔ کلّیهٔ تستوعب جمیع التوصیات السابقهٔ وتزید علیها، ویقول: «وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِیٌّ بِمَا أَسْلَفَ وَقَادِمٌ عَلَی مَا قَدَّمَ، وَالسَّلَامُ».

تأمّلان

۱. العلاقهٔ بین الأعمال والجزاء

یسـتفاد من التعالیم القرآنیهٔ ومفاهیم الوحی أنّ الأصل فی یوم القیامهٔ والحساب هو العلاقهٔ الموجودهٔ بین الأعمال وما یترتب علیها من الثواب والعقاب أو مشاهدهٔ الأعمال ونتائجها: «فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّهٍ خَیْراً یَرَهُ* وَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّهٍ شَرًّا یَرَهُ»[۲۷۹] فی حین أنّ الکثیر من الناس یعتقدون بأنّ الأصل فی ذلک الیوم هو العفو الإلهیّ والشفاعهٔ، ولهذا السبب لا یهتمّون بالأعمال کما ینبغی، وهذا النمط من التفکیر یقودهم أحیاناً إلی ترک الواجبات وارتکاب المحرّمات والتساهل فی
نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۲۳۲
الالتزام الواعی بمقتضـیات الرسالـهٔ والمسؤولیـهٔ، فالشـفاعهٔ حقّ وأنّ العفو الإلهیّ حقیقـهٔ لا ریب فیها، ولکنّ هذه الأمور لا تمثّل أصـلًا وأساساً للنجاهٔ یوم القیامهٔ، فذلک الیوم یسمیّ یوم الدین، أی یوم الجزاء واستلام نتائج الأعمال.

والإمام علیه السـلام فی الرسالـهٔ مورد البحث یؤکّد علی هذه المسألهٔ أیضاً ویقول: إنّ الإنسان یری جزاء الأعمال التی قدّمها لهذا الیوم فی الماضی، ویرد علی أمور کان قد ادّخرها له فی الدنیا.

فلو أنّنا جعلنا هذا المعنی أساساً وأصلًا فی حرکهٔ الحیاهٔ والفکر الدینی، فمن البدیهیّ أنّ أعمالنا ستکون أنقی وأطهر بکثیر.

۲. زیاد ابن أبیه الانتهازی

لقـد تحـدّث المؤرّخون کثیراً عن زیاد وابنه عبیداللَّه وعقائدهما المنحرفهٔ وأعمالهما السـیئهٔ، وسـیأتی بعض التفصـیل عن سـیرتهما فی ذیل الکتاب ۴۴ إن شاء اللَّه، ولکن من المناسب هنا أن نشیر إشارهٔ مقتضبهٔ إلی ما أورده ابن أبی‌الحدید فی هذا المورد، یقول:

«قلت: قبّح اللَّه زیاداً، فإنّه کافأ إنعام علیٍّ علیه السـلام وإحسانه إلیه واصـطناعه له بما لا حاجـهٔ إلی شـرحه من أعماله القبیحـهٔ بشـیعته ومحبّیه والإسـراف فی لعنه، وتهجین أفعـاله، والمبالغـهٔ فی ذلک بما قـد کان معاویـهٔ یرضـی بالیسـیر منه، ولم یکن یفعل ذلک لطلب رضـی معاویـهٔ، کلّا، بل یفعله بطبعه، ویعادیه بباطنه وظاهره، وأبی اللَّه إلّاأن یرجع إلی امّه ویصـحّح نسـبه، وکلّ إناء ینضح بما فیه، ثمّ جاء ابنه بعده فختم تلک الأعمال السیئهٔ بما ختم، وإلی اللَّه ترجع الأمور»[۲۸۰].
نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۲۳۳

الرسالة ۲۲

اشارة

إلى عَبْدِاللَّهِ بْنِ الْعَبّاسِ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى وَكانَ عَبْدُاللَّهِ يَقُولُ:
«مَا انْتَفَعْتُ بِكَلامٍ بَعْدَ كَلامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، كَانْتِفاعى بِهذا الْكَلامِ!»[۲۸۱]

نظرة إلى الرسالة

الغرض الأصلىّ من كتابة هذه الرسالة هو أنّ الإمام عليه السلام يلفت نظر مخاطبه ابن عبّاس، وبعبارة أخرى جميع السائرين فى طريق الحقّ، إلى هذه النقطة المهمّة وهى أنّ الإنسان لا ينبغى أن يفرح بما حصل عليه من مواهب مادّيّة وخيرات دنيوية عاجلة، ولا ينبغى أن يحزن على ما فقده منها، بل ينبغى أن يكون فرحه وسروره فى نيل المواهب المعنوية والأخروية، ويكون أسفه وحزنه على ما فقده من هذه

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۳۴

الأمور المعنوية.

إنّ روح هذه الرسالة هى انعكاس لما ورد فى القرآن الكريم فى سورة الحديد:
«لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ»[۲۸۲]، وعلى ضوء ذلك فإذا تحرّك الإنسان فى واقع الحياة على مستوى تجسيد هذه التوصية الغالية والعمل بها، فإنّ ذلك سيمنحه القدرة والثبات والاستقامة، بحيث لا يتزلزل ولا يصيبه الاهتزاز أمام العواصف العاتية والتحدّيات الصعبة التى يفرضها الواقع.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۳۵

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

الشرح والتفسير: السرور والحزن الموهومان

فى هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام فى مطلعها إلى نقطتين مهمّتين ومصيريّتين فى حياة الإنسان ويقول: «أَمَّا بَعْدُ- أى بعد الحمد والثناء-، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ ۲۸۳] مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ».

إنّ مواهب الدنيا على نحوين، فبعضها يحصل عليها الإنسان بسعيه وعمله ويفقدها بتكاسله وتماهله، والنحو الآخر، يحصل عليه الإنسان بدون سعى وبذل جهد، وأحياناً يفقد الإنسان مثل هذه المكاسب الدنيوية حتى لو سعى وبذل الجهد فى سبيل تحصيلها والاحتفاظ بها.

والقسم الأول يدخل فى دائرة اختيار الإنسان: والآية الشريفة: «وَأَنْ لَّيسَ لِلْإِنْسانِ إِلّا ما سَعى [۲۸۴] ناظرة إلى هذا المعنى، ولكن القسم الآخر يدخل فى دائرة القضاء والقدر الحتميين، وهو خارج عن دائرة اختيار الإنسان.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۳۶

والواقع أنّ الإمام عليه السلام يشير إلى هذه الحقيقة الحاسمة، وهى أنّ الكثير من الأمور التى توجب السرور والفرح للإنسان هى من القسم الثانى، وعلى أيّة حال، فالإنسان يحصل عليها وفقاً لما قدّر له فى دائرة القضاء والقدر الإلهيين، وعلى هذا الأساس فالفرح

والحرص عليها لا مبرّر له، كالشخص الذى يفرح بطلوع الشمس، وفى النقطة المقابلة هناك أمور لا يحصل عليها الإنسان مهما بذل من جهد وسعى فى سبيل ذلك، فلو أنّ الشخص عاش الحزن والغمّ بسبب ذلك فإنّ حزنه سيكون موهوماً ولا مبرّر له، كالشخص الذى يحزن لغروب الشمس واختفائها فى الافق.

والمواهب الماديّة أعمّ من الأموال، والثروات، والمقامات والمناصب، والنجاحات والإخفاقات، فقدان بعض الإمكانات والحصول عليها؛ هى من هذا القبيل غالباً، فلا يكون نيلها والحصول عليها اختيارياً ولا فقدانه وزوالها، ومن هنا لا ينبغى أن يكون الحصول عليها سبباً للفرح والسرور ولا فقدانها سبباً للتأسّف والحزن.

عندما ننظر إلى الحياة الدنيا بهذا المنظار ونرى النجاحات والإخفاقات من هذه الزاوية، فسوف لا تكون تلك النجاحات موجبة للفرح والسرور، ولا تكون الإخفاقات والفشل مصدراً للحزن والهمّ.

ثمّ يستمرّ الإمام عليه السلام فى بيان هذه الحقيقة ويقول: «فَلْيَكُنْ سُرُورُکَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِکَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا».

والدليل على ذلك واضح، فالمواهب المادية، الاختيارية منها أم غير الاختيارية، تسير بسرعة نحو الزوال والفناء، ولا يمكن الاعتماد عليها فى زمان وجودها، فهى معرّضة دوماً للآفات والنقصان وكذلك الحرمان منها معرّض للانتهاء وسرعة الزوال، فما يبقى للإنسان فى واقع الحياة هو المواهب الأخروية والمعنوية، فلذلك ينبغى أن يتأسّف على فقدانها ويحرص على نيلها واكتسابها.

ويقول الإمام عليه السلام فى ختام هذا الكلام وكنيتجة جليّة لما تقدّم: «وَمَا نِلْتَ مِنْ

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۲۳۷

دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ».

وفى الختام ينبغى الالتفات إلى هذه الحقيقة وهى أنّ مواهب الدنيا على قسمين، وأمّا مواهب اللآخرة فنوع واحد لا أكثر، فأمّا مواهب الدنيا فتارة يحصل عليها الإنسان بالسعى وبذل الجهد، وأحياناً بدون سعى وعمل، وعلى حدّ تعبير البعض:

«بما أنّ الإنسان عندما يحصل على نعم ومواهب أو يفقد هذه النعم فلا يعلم أنّها من أىّ القسمين هى، هل هى من القسم الأول أم الثانى، ولهذا السبب يقول الإمام عليه السلام:

«وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً»، فربّما تكون هذه النعم والمواهب من الأمور غير الاختيارية التى لا يحرم منها الإنسان أبداً، وكذلك «وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً» فلا خوف على حرمانك منها فربّما تكون من النوع الذى سيبقى معك إلى الأبد، ولكن ليكن همّك واهتمامك لما تقدّمه لآخرتك من سعى وعمل صالح، ففى ذلك اليوم لا تحصل على شىء إلّامن خلال ما تقدّمه لنفسك، فإن ليس للإنسان إلّاما سعى، وكما يقول الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج‌البلاغة: «لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ»[۲۸۵].

تأمّلان

۱. الجواب عن سؤال

ورد فى كلام الإمام عليه السلام فى الرسالة مورد البحث أنّ فرح الإنسان ينبغى أن يكون منصبّاً على ما يحصل عليه فى الآخرة، فى حين أننا نعلم أنّ الآخرة ستقع فى المستقبل لا فى الدنيا، ولكن ينبغى الالتفات إلى أنّه، أولًا: إنّ الكثير من الأمور المعنوية يحصل عليها الإنسان فى الحياة الدنيا وتمثّل نوعاً من الأمور الأخروية، من قِبل النجاح والتوفيق فى مسيرته المعنوية فى السلوك إلى اللّه.

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۲۳۸

ثانياً: إنّ هذه العبارة ناظرة إلى الأسباب والعوامل التى تؤدّى إلى الحصول على المواهب الأخروية، فالشخص الذى قدّم أعمالًا صالحة

وتحلّى بصفات محمودة فى هذه الدنيا يمكن القول أنّه قد حصل على المواهب الاخروية، كأنّه وفّر أسبابها فى هذه الدنيا، وبعبارة أخرى قد حصل على أسباب تلك المواهب الاخروية، وتحصيل الأسباب هو نوع من نيل المسببات.

٢. الإنسان فاعل مختار

لقد ثبت فى بحث الجبر والاختيار، وطبقاً للأدلّة العقلية والآيات الكثيرة الواردة فى القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام، أنّ الإنسان فاعل مختار فى أعماله، ومن المحال أن يكون الإنسان مجبوراً على المعصية والإثم، وأنّ اللَّه تعالى عادل فى حكمه وسيجزيه الجزاء العادل على ما قدّم من أعمال وسلوكيات، ولا يمكن أن يجبر الإنسان على الأعمال الصالحة، ثمّ يثيبه عليها بوصفه مستحقّاً للثواب، ولكن لا شكّ فى وجود بعض الأمور فى حياة الإنسان خارجة عن اختياره، واللَّه تعالى لا يعاقبه ولا يثيبه عليها بسبب ذلك، من قبيل الخصوصيات البدنية فى الإنسان ومنشأ ولادته ومَن هو أبوه وامّه وفى أيّ زمان ومكان يولد، وأمثال ذلك، فهذه الأمور ربّما تؤثّر فى صياغة عمل الإنسان وشخصيته، ولكنّ هذا التأثير لا يكون حتمياً وغير قابل للاجتناب، وبعبارة أخرى أنّ هذه الأمور ربّما توفّر للإنسان الأرضية المناسبة للأعمال الصالحة والطالحة ولكن الإنسان هو الذى سيفرض إرادته فى النهاية ويقوم بعمل معيّن أو يختار سلوك خاصّ بإرادته واختياره.

وبديهىّ أنّ الأشخاص الذين تتوفّر فيهم الأرضيّة المناسبة للأعمال الصالحة سيكون ثوابهم أقلّ من الأشخاص الذين لم تتوفّر لهم مثل هذه الأرضية، والعكس صحيح، فالأشخاص الذين تتوفّر فيهم الأرضية المساعدة لارتكاب الذنب إلّاأنّهم يجتنبون التورّط بالإثم ويعصمون أنفسهم من الذنب، فإنّهم يستحقّون الثواب أكثر

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۳۹

من الأشخاص الذين لم تتوفّر فيهم هذه الأرضية، ولتوضيح هذا المعنى يمكننا الاستعانة بمثالين فى هذا المجال، فالكثير من الناس يتوجّهون إلى المساجد، ولكنّ جار المسجد ليس على حدّ سواء من الثواب مع الشخص الذى يبتعد عن المسجد مسافة بعيدة.

المسلمون يصومون رمضان، ولكن ثواب الشخص الذى يملك مزاجاً قوياً وبنية مساعدة ليس على حدّ سواء مع الشخص الذى يملك بنية ضعيفة، وقد وردت تفاصيل هذا الموضوع فى الكتب الدينية المختصّة.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۴۱

الرسالة ٢٣

اشارة

قالَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ عَلى سَبيلِ الْوَصِيَّةِ لَمَّا ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَم لَعَنَهُاللَّهُ ٢٨۶]

الوصية فى نظرة عامة

هذه الوصيّة تتضمّن مع كونها موجزة، على أربعة أقسام:

القسم الأول: يوصى الإمام عليه السلام بالتمسّك بركنى الإسلام الأساسيين، وهما التوحيد والنبوّة ويقول: لا تسمحوا للشرك أن ينفذ

فى ثنايا حياتكم، ولا تغفلوا العمل بسنّة نبيّكم.

القسم الثانى: يتحدّث الإمام عليه السلام عن مسيرته فى هذه الحياة ويقسّمها إلى ثلاث مراحل، كلّ مرحلة منها تمثّل عبرة ودرساً للمخاطب، ويقول: فى الماضى كنت

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۴۲

أعيش بينكم سالماً، واليوم أنام فى فراش المرض، وغداً افارقكم، فهذه الأيّام الثلاثة عبرة لكم.

القسم الثالث: يشير الإمام عليه السلام إلى كيفية التعامل مع قاتله وأنّه ينبغى أن يقترن ذلك بكامل المحبّة والعطف، فلو أنّ الإمام عليه السلام بقى حيّاً فسيكون العفو لقاتله قربة له، وإذا نال الشهادة فإنّ أولياء الدم يمكنهم الاقتصاص من القاتل ومع ذلك يوصى الإمام عليه السلام بالعفو عنه.

وفى القسم الرابع: يبيّن الإمام عليه السلام كيفية مواجهته للموت ويقول: إننى لم أكره الموت أبداً بل كنت متعطّشاً له وفرحاً باستقباله.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۴۳

وَصِيَّتِی لَكُمْ: أَنْ لَاتُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً؛ وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه و آله فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ.

أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ! أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ. إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِی، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِی، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِی قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا: «أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ» وَاللَّهِ مَا فَجَأَنِی مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ؛ وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ؛ «وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ».

الشرح والتفسير: وصايا مهمّة

كما أشرنا فى ما سبق أنّ ما ذكره المرحوم السيد الرضى هنا يمثّل مقطعاً من كلام مفصّل تحدّث به الإمام عليه السلام فى آخر ساعة من عمره الشريف، حيث تمثّل هذه الوصية رأسمال معنوىّ وفكرىّ ثمين لجميع أفراد الامّة الإسلاميّة، ففى القسم الأول من هذه الوصيّة يقول عليه السلام: «وَصِيَّتِی لَكُمْ أَنْ لَاتُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً؛ وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه و آله فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ!».

ومع الالتفات إلى أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد فى هذه الوصية اجتناب الشرك مطلقاً، فإنّ ذلك يشير إلى نفى جميع مظاهر وحالات الشرك، سواء الشرك فى الذات والصفات والأفعال، أو الشرك فى العبادة وغيرها، فلو أنّ الإنسان عاش التوحيد الخالص من جميع أشكال الشرك، فإنّ ذلك من شأنه إضاءة وتنوير جميع أركان روحه

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۴۴

وشخصيّته، بحيث يكون وجوده ملكوتياً وروحانياً بكلّ ما فى الكلمة من معنى.

وفى الوصية الثانية يؤكّد الإمام عليه السلام على ضرورة عدم تضييع سنّة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ولزوم العمل بجميع ما ورد فيها، خلافاً للأشخاص الذين يتعاملون مع سنّة النبىّ من موقع الانتقاص، فيأخذون ببعض ويتركون بعضاً، فهم فى الواقع يخدعون أنفسهم، مثلًا لا- يلتزمون بحكم الجهاد الواجب والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إلّاأنّهم يقيمون صلاة والليل ويلتزمون بالنوافل، ولا يتورّعون عن ارتكاب المحرّمات والمنكرات، ومع ذلك يقيمون العزاء على سيّد الشهداء.

واللافت أنّ الإمام عليه السلام يشبّه هذين الأصلين الأساسيين أحياناً بعمود الخيمة، وأخرى بأنّهما سراجان يضيئان طريق الحقّ أمام الإنسان، فالخيمة الصغيرة تحتاج عادة إلى عمود واحد، ولكن الخيمة الكبيرة ربّما تحتاج إلى أكثر من عمود وعلى كلّ عمود ينصب

سراج للإنارة، وكما يقول البعض أنّ النور يخرج من تلك الأعمدة، وعلى أية حال فإنّ خيمة الدين لا يمكن إقامتها بدون هذين الأصلين والعمودين، ولا يمكن إنارة أجواء الحياة المعنوية للإنسان بدون هذين السراجين.

أمّا عبارة: «خَلَاكُمْ ذَمٌّ وكما ذكرنا فى الخطبة ۱۴۹ من الجزء الخامس أنّ العرب كان يضربون المثل بهذه الجملة ومفهومها، أنّه لا ذمّ ولا لوم عليكم لأنّكم أدّيتم تكليفكم وأنجزتم وظيفتكم، يعنى أنّكم عملتم بما أوصيتكم به، فلا إشكال يرد عليكم، وأمّا القائل الأول لهذه العبارة ولهذا المثل من هو؟ فقد ذكرنا تفصيل الكلام فى الجزء المذكور.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض فى القسم الثانى من هذه الخطبة وفى عبارات موجزة وعميقة المعنى، لبيان سيرة حياته وأنّها تعدّ درساً وعبرة لكم ويقول: «أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ».

يعنى أنا الذى فتحت خيبر وخضت معركة بدر والأحزاب وكنت فى ذلك الوقت رجلًا قوياً أذبّ عن الإسلام والمسلمين، وادافع عنكم، ولكنّ مرور الزمان قد أثّر

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۴۵

فىّ وغيّرنى، واليوم أرقد فى فراش الموت برأس دامٍ من ضربة ابن ملجم، وهذا الرأس المصاب يعتبر درساً لكم على عدم وفاء الدنيا، وغداً عندما ترون مكانى خالياً بينكم ستشعرون بحقيقة هذه الدنيا وتلمسون عدم اعتبارها، فإنّها أعرضت بكلّ سهولة عن ذلك الرجل الشجاع والبطل المقدام وسلّمته إلى أجله.

التاريخ البشرىّ نرى فيه الكثير من هذه الوقائع، وأنّ شخصيات كبيرة أو مجاميع قوية تغيّرت بمرور الزمان وبمدّة قليلة كلياً، ولم يبق لديهم من إمكانات وقدرات إلّا القليل الذى لا يفى بشىء، ويتحدّث لنا التاريخ أنّ نادر شاه كان فى ذروة العظمة عندما قصد الهجوم على بعض البلدان، فنام فى فراشه فجاءه الطبّاخ الذى كان مستاءً من نادر بشدّة ومعه سكين فقطع به رأسه وذبحه على فراشه وانتهى كلّ شىء فى الصباح الباكر.

والأوضح من الجميع تاريخ الأقوام السالفة الذى تحدّث عنه القرآن الكريم كراراً كالفراعنة ونمرود وقوم عاد وثمود، حيث عاشوا العظمة والقدرة إلّاأنّ ذلك لم يمنع من وقوعهم مورد الغضب الإلهىّ، وفى لحظات أصبحوا أثراً بعد عين ودفنتهم أمواج المشيئة الإلهيّة وسحقتهم الصيحة السماوية أو تحطّمت عروشهم وقصورهم بالزلزلة وأمثال ذلك.

وهذه المسألة لا تنحصر بالأشرار من هذا العالم، بل إنّ الأخيار والأبرار مشمولون لهذه السنّة الإلهيّة على السواء، وأنّ الدنيا لا تمثّل للجميع سوى وهماً زائلًا وهباء منثوراً.

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام فى القسم الثالث عن نظرته لقاتله ويوصى أبناءه وأصحابه وصيّة مفعمة بالمحبّة والشهامة ويقول: «إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا «أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»[۲۸۷]».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۴۶

وما ذكره الإمام عليه السلام فى الجملة الأخيرة مقتبس من الآية الشريفة من سورة النور، الواردة فى ذيل الآيات «الإفك» عندما اتّهمت جماعة من المنافقين زوجة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وتصدّى القرآن الكريم لتبرئة ساحتها من التهمة الشنيعة، فكان أن أقسم بعض أثرياء الصحابة أنّهم لا يمدّون يد العون بعد الحادثة إلى الأشخاص الذين ساهموا فى نشر هذه الشائعة الموهنة، فنزلت الآية الشريفة وأمرتهم بما ذكر آنفاً:

«أ لا- تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»، يعنى أنّكم كما تتوقّعون من اللَّه العفو والصفح فإنّ الآخرين أيضاً يتوقّعون منكم العفو والصفح فى مقابل العمل السيء الذى ارتكبوه فى حقّ زوجة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله.

ومعلوم أنّ القصاص فى الإسلام يعدّ أصلًا فى الأحكام والتعاليم السماوية على حدّ تعبير القرآن الكريم وأنّه بمثابة الحياة للمجتمع: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»[۲۸۸]، ولكن فى ذات الوقت ترك القصاص والعفو عن الجانى الذى يستحقّ

العفو، يعتبر فضيلة كبيرة ومرتبة عالية من السموّ الأخلاقى والإنسانى.

وأخيراً يتحدّث الإمام عليه السلام، فى القسم الرابع والأخير من وصيّته، عن موقفه من الموت والشهادة، وهذا هو الموقف الذى انعكس فى موارد عديدة من نهج‌البلاغة أيضاً وهو أننى ليس فقط لا أخشى من الموت بل أننى أعيش العشق للشهادة فى سبيل اللّه ويقول: «وَاللَّهِ مَا فَجَأَنِی مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ، وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ؛ «وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ»».

والعبارة الأخيرة مقتبسة من الآية الشريفة ۱۹۸ من سورة آل عمران، حيث يتحدّث القرآن الكريم فى مطلع الآية عن ثواب المتّقين ويختمها بالجملة المذكورة آنفاً.

وما جاء فى المقطع الأخير من هذه الوصية هو ما تحدّث عنه أميرالمؤمنين

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۴۷

علىّ عليه السلام مرّات عديدة كما فى نهج‌البلاغةوغيره، وهذا ليس شأن الإمام عليه السلام فحسب بل المؤمنين العاديين أيضاً لا يخافون الموت، وخاصّة إذا كان الموت مقترن بالشهادة، والأشخاص الذين يخافون من الموت إمّا أنّهم لا يؤمنين بالحياة بعد الموت ويتصوّرون أنّ الموت يعنى الفناء وزوال كلّ شىء ولذلك يخافون منه، أو يؤمنون بالحياة بعد الموت لكنّ صحيفة أعمالهم إلى درجة من الظلمة والتلوّث بحيث يعلمون أنّ مصيرهم بعد الموت هو بداية العذاب والألم، وأمّا الأشخاص الذين يؤمنون بالآخرة ويملكون صحيفة أعمال بيضاء ونقية، فلا مبرّر لخوفهم من الموت، بل على حدّ تعبير الإمام عليه السلام فى الخطبة ۵ من نهج‌البلاغة تكون علاقتهم بالموت أشبه بعلاقة الطفل الرضيع بثدى امه، أو أكثر: «وَاللَّهِ لَابْنُ أبىطالبٍ آنَس بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْیِ أُمِّهِ».

وطبقاً لما ورد فى الرواية المشهورة أنّ عبدالرحمن بن ملجم المرادى عندما ضرب الإمام عليه السلام فى محراب العبادة على امّ رأسه، قال الإمام عليه السلام: «فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَة».

ومع الالتفات إلى أنّ كلمة «قارب ، كما ورد فى لسان العرب وبعض الكتب اللغوية تعنى الشخص الذى يبحث عن الماء ليلًا أو الشخص الذى تفصله عن عين الماء مسير ليلة واحدة، فيستفاد من جملة «كَقارِبٍ وَرَدَ وَطالِبٍ وَجَدَ» الإشارة إلى أننى بالنسبة للموت والشهادة كالضمآن الذى يريد الوصول إلى منهل الماء أسرع، وقد نلت بغيتى ووجدت ضالّتى التى كنت أنتظرها سنين متمادية.

وما أشدّ التفاوت بين هذا الكلام وكلام المستكبرين الذين يعيشون بعيداً عن اللّه عزّ وجلّ والآخرة عندما يحين أجلهم ويقعون فى شباك الموت، فنراهم يرتجفون خوفاً ويصرخون هلعاً ويتمنّون العودة إلى الدنيا وهم فى حالة الذلّة والمهانة.

يقول السيد الرضى فى ختام هذه الرسالة: «قالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ:

أقولُ: وَقَدْ مَضى بَعْضُ هذا الْكَلامُ فيما تَقَدَّمَ مِنَ الْخُطَبِ، إلّا أنَّ فيهِ هاهُنا زِيادَةٌ أَوْجَبَتْ تَكْرِيرَهُ».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۴۸

تأمّلان

۱. القصاص أو العفو؟

رأينا آنفاً أنّ تشريع حكم القصاص فى الإسلام من أجل حفظ المجتمع البشرىّ من شرّ الأشرار، وكما ورد فى القرآن الكريم: «وَلَكُمْ فِى الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِى الْأَلْبابِ»[۲۸۹] والأشخاص الذين يعيشون فى زماننا هذا ويخالفون حكم القصاص فهم فى الواقع يترحّمون على الذئاب العاوية، ويسمحون للأبرياء أن يقعوا فى مصائد هذه الذئاب والوحوش الكاسرة ولا يهتمّون بذلك، فهناك أفراد من الأشرار فى المجتمع إذا شعروا بالأمن من القصاص فلا أحد يستطيع منعهم من ارتكاب أيّة جريمة فى حقّ الأبرياء، وأحد عوامل زيادة نسبة القتل فى بعض المجتمعات البشرية يعود إلى إلغاء حكم القصاص فى تلك المجتمعات.

ولكنّ الإسلام، ومن أجل التصدّى للعنف والعداون بالمقدار الممكن، يمنح الأشخاص الذين ارتكبوا جريمة القتل بدافع من الانفعال العفوىّ أو الغرور فرصة أخرى، حيث ضمّ إلى جانب حكم القصاص حكم العفو، وخيّر أولياء الدم بين القصاص والعفو، ولكن أولياء اللَّه يختارون دائماً الخيار الثانى، ولهذا السبب فقد أوصى الإمام عليه السلام أبناءه وأصحابه فى وصيّته مورد البحث العفو عن القاتل، ونعلم أنّ القاتل هو ابن ملجم.

وهنا يفرض هذا السؤال نفسه، وهو أنّ أولاد الإمام عليه السلام بعد توصية الإمام عليه السلام بالعفو عن القاتل لماذا رجّحوا خيار القصاص؟

الجواب عن هذا السؤال يتبيّن من خلال الالتفات إلى هذه النقطة وهى أنّ مشاعر الناس وعواطفهم الجيّاشة فى مقابل هذه الجريمة كانت إلى درجة من الشدّة بحيث أنّ العفو عن ابن ملجم سيتسبّب فى إثارة الاضطراب فى ذلك المجتمع، وعشّاق الإمام عليه السلام لا يملكون القدرة على تحمّل مثل هذا العفو، أضف إلى ذلك أنّهم

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۴۹

لو سجنوا ابن ملجم فإنّ الجماهير ستهجم حينئذٍ على السجن، وإذا أطلقوا سراحه فسيقطّعونه إرباً إرباً، إذن فالأفضل إجراء حكمالقصاص عليه ليعود الهدوء إلى المجتمع.

۲. معنى «لا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ»

إنّ أساس الإسلام يتمثّل فى ما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه الوصيّة مورد البحث، حيث أكّد على التوحيد وحفظ سنّة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله فالالتزام الواعى بمتطلّبات التوحيد فى جميع أبعاده وخاصة التوحيد فى العبودية والأفعال، من شأنه أن يكون مصدراً لجميع الخيرات والبركات، فاللجوء إلى ساحة كبريائه ورحمته الواسعة من شأنه أن يفعّل شفاعة الشفعاء أيضاً، فاللَّه تعالى هو الذى بيده مصائر العباد وأرزاقهم وموتهم وحياتهم، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، وهو على كلّ شىء قدير.

وأمّا حفظ سنّة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله كذلك لا يكون بالكلام فقط، بل لابدّ من تجسيدها على أرض الواقع والممارسة، ولكن للأسف الشديد فإنّ جماعة من المسلمين اكتفوا باسم الإسلام وغفلوا عن سنّة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله تماماً.

وجماعة أخرى فرضوا آراءهم وما توحى إليهم أهواؤهم على السنّة الشريفة من خلال القراءات الجديدة وأنماط التفسير بالرأى، ووضعوا أنفسهم وأفكارهم مكان السنّة النبوية، حتّى أنّ الإمام عليه السلام فى وصيّة أخرى له وهو على فراش الشهادة يقول:

«وَاللَّهَ اللَّهَ فِى الْقُرْآنِ، لَايَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ»[۲۹۰]، فأنتم قد تربّيتم فى ظلّ القرآن الكريم والتعاليم السماوية، فلا ينبغى الغفلة عنها ويعمل بها غيركم، ويتحلّى الآخرون بالأمان والصدق وتتلوّثون أنتم بالخيانة والكذب، وغيركم متّحدون فيما بينهم على أمر الدنيا، وأنتم مختلفون ومتفرّقون فى أمر دينكم.

ومن هنا فنحن نخشى أن يأتى ذلك اليوم الذى «لا يَبْقى مِنَ الْإِسْلامِ إِلّا إِسْمُهُ وَلا يَبْقى مِنَ الْقُرآنِ إِلّارَسْمُهُ»[۲۹۱].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۵۱

الرسالة ۲۴

اشارة

بِما يُعْمَلُ فى أموالِهِ، كَتَبَها بَعْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ صِفّين ۲۹۲]:

نظرة إلى الرسالة

يتبيّن من هذه الرسالة أن القسم الأكبر منها،- كما يفهم من سياقها،- وقف لا وصيّة، والوصيّة تشكّل قسماً صغيراً منها، وخلاصة ما ورد فيها أنّ متولّى الوقف هم أبناء أميرالمؤمنين علىّ عليه السلام الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وبعده الإمام الحسين الشهيد عليه السلام، وبيان صارف الموقوفة وكيفية تقسيمها وإدارة بساتين النخيل ويستفاد من مجموع هذه الوصيّة أنّ الإمام عليه السلام كان يملك بساتين نخل عديدة فى مناطق مختلفة، وامتلكها إمّا من خلال نصيبه من الغنائم الحربية أو بسعيه وجهده، وقد أوقفها جميعاً فى موارد الوقف العام ليتسنّى للجميع الاستفادة منها.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۵۲

ويشير الأخير منها إلى الجوارى وكيفية فتح الباب أمام تحريرهنّ وعتقهنّ.

ويستفاد أيضاً من كلام السيد الرضىّ فى ذيل هذه الرسالة أنّه كان شديد الاهتمام بهذه الرسالة حيث تتضمّن فصاحة عالية وبلاغة رائعة.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۵۳

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُاللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِى مَالِهِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، لِيُولِجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ. مِنْهَا: فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ الْحَسَنُ ابْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ، وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ. وَإِنَّ لِابْنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِى لِبَنِى عَلِيٍّ، وَإِنِّى إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَى ابْنَيْ فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَقُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ. وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِى يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ الْمَالَ عَلَى أُصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِىَ لَهُ، وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هَذِهِ الْقُرَى وَدِيَّةً حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً. وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِى- اللاتِى أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ- لَهَا وَلَدٌ، أَوْ هِىَ حَامِلٌ، فَتُمْسَكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِىَ مِنْ حَظِّهِ، فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِىَ حَيَّةٌ فَهِىَ عَتِيقَةٌ، قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا الرِّقُّ، وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ.

الشرح والتفسير: توصيات مدروسة لإدارة الموقوفات

سبق وأن أشرنا آنفاً إلى أنّ هذه الوصيّة تتّخذ شكل الوقف فى الأصل، ولذلك ورد فيها أركان الوقف، الموقوف عليهم، المتولّى و ... واحداً بعد الآخر.

بداية يتحدّث الإمام عليه السلام عن الوقف والغرض من الوقف، ويقول: «هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُاللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِىطَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِى مَالِهِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، لِيُولِجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۵۴

ويستفاد جيّداً من هذه العبارة أنّ أحد شروط الوقف قصد القربة حيث ذُكر هذا الشرط فى سند الوقف، وبعد ذلك مباشرة ذكر اسم الواقف.

أمّا الوصف بكلمة أميرالمؤمنين بعد أن ذكر الإمام عليه السلام اسمه المبارك، فهذا يشير إلى أنّ كتابة هذا السند من الوقف كان فى أيّام حكومته وخلافته رغم أنّ الإمام علىّ عليه السلام كان يعرف بأميرالمؤمنين من قِبل المطّلعين واولوالألباب بعد رحلة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله.

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام یبیّن فی قسم آخر من هذه الوصیّة «سند الوقف» أربع نقاط، والسیّد الرضیّ فصّلها بعبارة، «منها»: بیان الشخص المتولّی وحقّ التولیة ومصارف الوقف والأشخاص الذین یتولّون الوقف بعد وفاة أو استشهاد المتولّی الأول وهو القائم مقامه ویقول: «مِنْهَا: فَإِنَّهُ یَقُومُ بِذَلِکَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِیٍّ یَأْکُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَیُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَیْنٌ حَیٌّ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ».

وجملة: «یَأْکُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ» یمکن أن یکون إشارة إلی حقّ التولیة وربّما تکون إشارة إلی استفادة الموقوف علیهم منها، ولکنّ الاحتمال الأوّل أقرب إلی سیاق العبارة مع الالتفات إلی أنّ الأفعال فی الجمل المذکورة للمستقبل.

وجملة: «وَیُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ» أنّ هذه الموقوفة تتمتّع بجهة الوقف الخاص والوقف العام أیضاً، فبعضها یتعلّق بأبناء الإمام علیه السلام والقسم الآخر یتعلّق بجمیع المحتاجین والمسلمین.

وجملة: «وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ» إذا کان ضمیر «مصدره» یعود إلی الموقوفة فإنّ مفهومها أنّ الإمام الحسین علیه السلام یعمل فی منتوج ومحصول هذه الموقوفة عمل الإمام الحسن علیه السلام، وإذا کان الضمیر یعود إلی الإمام الحسن علیه السلام فإنّ مفهومه أنّ الإمام الحسین علیه السلام یتبع سیرة الإمام الحسن علیه السلام فیها، ورغم أنّ نتیجة کلا هذین الاحتمالین واحدة، إلّاأنّهما مختلفان فی المفهوم من السیاق، وعلی أیّة حال فالاحتمال الأوّل

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۵۵

یبدو أقوی من الثانی ۲۹۳].

ثم یبیّن الإمام علیه السلام شرحاً أوفی للموقوف علیهم ویقول: «وَإِنَّ لِابْنَیْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِیٍّ مِثْلَ الَّذِی لِبَنِی عَلِیٍّ».

ولهذه العبارة تفسیران: الأوّل، کما أشرنا إلیه آنفاً أنّ انتفاع الإمام الحسن والإمام الحسین علیهما السلام من حقّ التولیة لا یمنع انتفاعهما من محصول تلک الموقوفة علی أنهما من الموقوف علیهم، فالحسن والحسین علیهما السلام هما المتولیین للوقف وکذلک من زمرة الموقوف علیهم.

التفسیر الثانی: أنّه لا یوجد أیّ امتیاز وخصوصیة للاستفادة من الموقوفة من أبناء الإمام علیّ علیه السلام، سواء کانوا من أبناء فاطمة علیها السلام أم من نسل الزوجات الاخریات لأمیرالمؤمنین علیه السلام.

فالإمام علیه السلام فی هذه الجملة لم یقل: «أبنائی من نسل فاطمة» بل قال: ابنی فاطمة علیها السلام وهذا یشیر إلی غایة الاحترام للمقام الشامخ للزهراء علیها السلام.

وبعد ذلک یبیّن الإمام علیه السلام هذه النقطة، وهی أنّه لماذا جعل تولیة الموقوفة بید أبناء فاطمة لا سائر أبنائه الآخرین: «وَإِنِّی إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِیَامَ بِذَلِکَ إِلَی ابْنَیْ فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَقُرْبَةً إِلَی رَسُولِ اللَّهِ صلی الله علیه و آله، وَتَکْرِیماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِیفاً لِوُصْلَتِهِ».

والحقیقة أنّ الإمام علیه السلام بیّن فی هذه العبارة أربعة أدلّة مرتبطة ببعضها علی هذا الاختیار: ابتغاء وجه اللَّه، التقرّب إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، إکراماً واحتراماً له ولحرمته، والتشرّف بقرابته.

وعلی حدّ قول ابن أبی‌الحدید أنّه عندما یتمّ تسلیم الأمور إلی أقرب المقرّبین من الأشخاص الذین یتمتّعون باللیاقة والجدارة الکاملة، فإنّ قبول ذلک من قِبل

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۵۶

سائر الناس سیکون أقرب وأیسر، لأنّ الأقربون أکثر من أیّ شخص آخر علی معرفة بسنّة النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله ودینه وسنّته وأنّهم أجدر من الآخرین لحفظ هذه الرسالة والقیام بمتطلّباتها والدفاع عنها.

یقول ابن أبی‌الحدید فی شرح هذا الکلام: «ثم قال: إنّما فعلت ذلک لشرفهما برسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فتقرّبت إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، بأن جعلت لسبطیه هذه الرئاسة، وفی هذا رمز کنایة إلی من صرف الأمر عن أهل بیت رسول اللَّه صلی الله علیه و

آله، مع وجود من يصلح للأمر، أى كان الأليق بالمسلمين والأولى أن يجعلوا الرئاسة بعده لأهل قرابة رسول اللّه صلى الله عليه و آله وتكريماً لحرمته، وطاعة له، وتعظيماً لقدره صلى الله عليه و آله أن تكون ورثته سوقة يليهم الأجانب، ومن ليس من شجرته وأصله، ألاترى أنّ هيبة الرسالة والنبوّة فى صدور الناس أعظم إذا كان السلطان والحاكم فى الخلق من بيت النبوّة، وليس يوجد مثل هذه الهيبة والجلال فى نفوس الناس للنبوّة إذا كان السلطان الأعظم بعيد النسب من صاحب الدعوة عليه السلام»[۲۹۴].

وهنا ربّما يثير البعض هذا السؤال، وهو: لماذا لم يعيّن الإمام عليه السلام المتولين للوقف بعد الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام؟

الجواب: إنّ الإمام عليه السلام بيّن ذلك فى الروايات التى تذكر جميع هذه الوصيّة بشكل مفصل، ولكن السيد الرضى الذى انتهج منهج الانتقاء فى نقل كلمات الإمام عليه السلام حذف هذا القسم من الوصيّة، والخلاصة أنّ الإمام علىّ عليه السلام جعل تولية الوقف بعد الإمام الحسن والإمام الحسين صلى الله عليه و آله بيد سائر أبنائه، ولو لم يوجد بينهم شخص مناسب لهذا الأمر، فإنّه ينبغى أن يتولّى هذه الموقوفة رجال آخرين من آل أبى طالب، وإنّ فُقد من بينهم الشخص المناسب لتولّى هذا الأمر فتنتقل التولية إلى شخص آخر من بنى هاشم ۲۹۵].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۵۷

وفى المقطع الأخير من هذا السند والوصيّة بالوقف يتحدّث الإمام عليه السلام عن كيفية حفظ هذه الموقوفات ورعاية أمورها، ويأمر بأمرين فى هذا المجال، فيقول أوّلًا:

«وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِى يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُکَ الْمَالَ عَلَى أُصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِىَ لَهُ».

ويعتبر ما ذكره الإمام عليه السلام هنا قاعدة كليّة فى جميع الموقوفات، فينبغى أن يبقى أصل المال سالماً ويتمّ الانتفاع فقط من محصوله وثمرته فى الوقف، وهذا التعبير أحياناً يقال عند إجراء صيغة عقد الوقف، فيقال: «أنْ لايُباعَ وَلا يُوهَبَ»، ويقول كذلك فى تعريف الوقف: «الْوَقْفُ حَبْسُ الْعَينِ وَتَسْبيلُ الثَّمَرَةِ»، ولكن الإمام عليه السلام بيّن هنا هذا المطلب للتأكيد ولئلّا يفكّر الأشخاص من الموقوف عليهم ببيع أصل النخيل وينتفعوا من أثمارها.

التوصية الثانية يقول الإمام: «وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هَذِهِ الْقُرَى وَدِيَّةً حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً».

كلمة: «وَدِيَّةً» تعنى الفسائل الصغيرة التى تنمو إلى جانب النخلة وتمدّ جذورها تدريجياً وتشتدّ وتنمو حتّى يتمّ فصلها واقتطاعها من الأصل وغرسها فى مكان مناسب آخر، ولذلك ورد التعبير عنها ب «أَوْلَادِ نَخِيلِ ، وهذا العمل له فائدتان، الاولى: أن يتمّ إشغال الفضاءات الفارغة من بساتين النخيل بهذه الأغراس كما يقول الإمام عليه السلام: «تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً».

ومفهوم هذه العبارة، كما بيّن ذلك المرحوم السيد الرضى فى ختام هذه الوصية، أنّه يستفاد من هذه الأغراس الجديدة للنخيل بحيث يتمّ اشغال جميع أراضى بساتين النخيل بحيث يشكل تشخيصها على الناظر وهل أنّها هى النخيل السابقة، أم نخيل جديد؟

وعلى أيّة حال فإنّ تأكيد الإمام عليه السلام لإعمار هذه الموقوفات واتّساع رقعة الأراضى الزراعية جدير بالالتفات.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۵۸

والفائدة الأخرى، ما يقال من أنّ فسيل النخيل لو لم تقطع وتفصل من أصلها فى الوقت المناسب ويتمّ بيعها، فإنّها ربّما تسبب ضرراً للنخلة نفسها، ومن هذا المنطلق ينبغى حفظ هذه الأغراس إلى زمن معيّن ثمّ يتمّ اقتطاعها طبقاً لتوصية الإمام عليه السلام ومفاد سند الوقف وغرسها فى الأرض الزراعية ويتمّ الاستفادة منها فى ذلك البستان الموقوف.

وهذه التوصية لا ـ تختصّ بموقوفات الإمام عليه السلام فقط، بل تشمل جميع الموقوفات من هذا القبيل، رغم أنّ المتولّين النفعيين وللأسف يتصرّفون خلاف ذلك ويعرّضون بساتين النخيل للأضرار والآفات، لأنّ بساتين النخيل لو لم تمتلىء من النخيل فإنّ الحرارة والبرودة فى الفصول المختلفة من شأنها أن تعرّض النخيل للضرر أسرع، ولكن عندما تمتلىء بساتين النخيل من أشجار النخيل فإنّها

قلّما تصاب بالآفات وأشكال الضرر الأخرى.

وهذا الكلام لا يعنى غضّ النظر عن إيجاد فواصل لازمة بين أشجار النخيل فربّما يتسبّب عدم رعاية الفاصلة أيضاً إلى إضعاف النخيل والإضرار بهذه البساتين.

وضمناً ينبغى الالتفات إلى هذه النقطة، وهى أنّ أغراس النخيل يمكن أن تعدّ جزءاً من المنافع، فلا تشملها حرمة بيع الوقف، ولكن مع ذلك فالإمام عليه السلام يقول: إنّ بستان النخيل مادام يحتاج إلى هذه الأغراس فلا ينبغى بيعها إلى خارج البستان.

وفى ختام هذه الوصية، وبعد بيان المسائل المتعلّقة بالموقوفات، تعرّض الإمام عليه السلام للمسائل المتعلّقة بزوجاته من الجوارى، ويتحدّث عن بيان وضعهنّ ومصيرهنّ، بحيث يتمّ تحريرهنّ بعد وفاته، يقول: «وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِى- اللَّاتِى أَطُوفُ عَلَيْهِنَ ۲۹۶]- لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِىَ حَامِلٌ، فَتُمْسَكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِىَ مِنْ حَظِّهِ، فَإِنْ مَاتَ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۵۹

وَلَدُهَا وَهِىَ حَيَّةٌ فَهِىَ عَتِيقَةٌ، قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا الرِّقُّ، وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ».

وفى ذلك الزمان كان للإمام عليه السلام عدّة جوارى بحكم الزوجات، وكان له منهنّ أبناء أيضاً، ولعلّ غرض الإمام عليه السلام من زيادة الأبناء وكثرة النسل أن يزداد آل علىّ وبنو هاشم، وبذلك يتمّ الوقوف أمام تهديد الأعداء لهذا النسل المبارك ولا تتسبّب مؤامرات الأعداء فى انقراض هذه الذرّية الطاهرة.

وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصية بيّن حكم الجوارى اللاتى لهنّ ولد منه أو حاملات منه، وطبقاً للقاعدة الفقهية المعروفة التى يتّفق عليها جميع الفقهاء أنّ مثل هذه الجوارى والإماء يتمّ عتقهنّ من سهم الأولاد، أو بتعبير آخر إنهنّ جزء من نصيب الأبناء من الإرث فيتمّ عتقهنّ مباشرة بعد موت المالك، لأنّه لا يحقّ لأحد أن يملك أباه أو امّه.

وأمّا بالنسبة للإماء اللائى ليس لهنّ ولد، فلم يذكر لهنّ حكم فى هذه الوصية، ولكن ورد حكمها أيضاً فى روايات أخرى ذكرت هذه الوصية بشكل مفصّل كما وردت فى كتاب الكافى، وأنّ الإمام عليه السلام أمر بعتقهنّ جميعاً، ولكنّ السيد الرضىّ وبسبب منهجه فى التلخيص والانتقاء اكتفى بهذا المقطع من الوصية.

وهذا يشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يهتمّ بتحرير والعبيد والجوارى، وأنّه كان طيلة تاريخ حياته المباركة، وطبقاً لما ورد فى بعض الروايات اشترى وأعتق من كدّ يده ألف عبد «أَنَّهُ عليه السلام أَعْتَقَ أَلْفَ نَسَمَةٍ مِنْ كَدِّ يَدِهِ»[۲۹۷].

وهذه المسألة، أى اهتمام الإسلام فى تحرير العبيد تدريجياً، تعتبر مسألة كثيرة الأبعاد والتفاصيل، وتشير إلى أنّ الإسلام يرى أنّ الأصل فى الإنسان الحرية حتّى فى المجتمع الذى يعيش ثقافة العبودية والرّق، ولكن من اللازم إيجاد برنامج

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۶۰

مدروس وطويل الأمد للوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية الإنسانية، لأنّ الإعلام الفورى عن عتق جميع العبيد والإماء من شأنه إيجاد الخلل وخلق جوّ من الأزمة فى مفاصل المجتمع، وربّما يتسبّب أيضاً فى الإضرار وإهلاك الكثير من العبيد[۲۹۸].

وجملة: «فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا» إشارة إلى هذه الحقيقة، وهى أن لا يتصوّر أحد أنّ الجارية الحامل أو ذات الولد التى مات ولدها بعد موت المولى، فإنّ تلك الجارية تعود إلى حالتها السابقة من الرّق والعبودية، فالإمام عليه السلام يقول: (فإن مات ولدها وهى حيّة فهى عتيقة قد أفرج عنها وحرّرها العتق) يعنى أنّه لا يمكنها العودة إلى الحالة السابقة.

***

وفى ختام هذه الوصية يقول المرحوم السيّد الرضىّ: «قالَ الشَريفُ: قَوْلُهُ عليه السلام فى هذِهِ الْوَصِيَّةِ: «وألا يَبيعَ مِنْ نَخْلِها وَدِيَّةً»، الْوَدِيَّةُ: الْفَسيلَةُ، وَجَمْعُها وَدِىّ.

وَقَوْلُهُ عليه السلام: حتّى تُشْكِلَ أَرْضُها غِراساً» هُوَ مِنْ أَفْصَحِ الْكَلامِ، وَالْمُرادُ بِهِ أَنَّ الْأَرْضَ يَكْثُرُ فيها غِراسُ النَّخْلِ حَتّى يَراها النَاظِرُ

عَلى غَيْرِ تِلْـكَ الصِّفَـةِ الَّتى عَرَفَها بِها فَيُشْـكِلُ عَلَيْهِ أمْرُها وَيَحْسَـبُها غَيْرُها». وتعبير الإمام عليه السـلام بكلمـة «وَدِّيـة» تعنى غرس النخلة وجمعها «وَدى» (على وزن على).

وأمّا العبارة الأخرى للإمام عليه السـلام وهى قوله: «حَتّى تُشْكِلَ أَرْضُها غِراساً» فهى من أفصح الكلام، ومفهومها أنّ الأغراض والنخيل ينبغى أن تكون بدرجـة من الكثرة بحيث تغطّى أجواء بسـتان النخيـل، فكـلّ شـخص قـد شاهـد هـذا البسـتان فى السـابق يصـعب عليه تشخيص هذه النخيل والبستان ويتصوّر أنّه يشاهد بستاناً آخر ويسير فى حقل آخر.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۶۱

تأمّلان

۱. الجواب عن سؤالين

قد تثار بعض الأسئلة وعلامات الاستفهام على هذه الوصية ويقال:

۱. يسـتفاد من التعبير بالوصـيّة أنّ الإمـام عليه السـلام كـان يملك أموالًا طائلـة بحيث أنّه وقفها فى حياته، ولكن مع الالتفات إلى زهد الإمام عليه السلام المعروف، فمن أين حصل على مثل هذه الأموال؟

وكما أشـرنا قبل قليل أنّ الإمام عليه السـلام كان يملك ثلاثة مصادر ماليّة، أحدها: حصّته من الغنائم التى تعود لجميع جنود الإسـلام وأحياناً تشكّل مبلغاً كبيراً، الآخر: خراج الأراضى الخراجية الذى يتعلّق بعامّة المسلمين ولا يختصّ بالمحاربين، ومقدار هذا الخراج بعد الفتوحات الإسلاميّة ازداد بشكل كبير، وللإمام عليه السلام حصّته من هذا المورد المالى.

نفحات الولاية ؛ ج۹ ؛ ص۲۶۱

ثالث: أنّ الإمام عليه السـلام كان يعمل سـنين متماديـة بزراعة الأشـجار وغرس النخيل وقد أوجد بساتين عديدة بذلك، ثمّ جعله وقفاً خاصّاً وعامّاً، فبعض هذه البساتين والحقول أوقفها على أبنائه وذريته من آل أبى طالب وبنى هاشم، وبعضها الآخر أنفقه فى سبيل اللَّه، وما تبقّى من مال للإمام عليه السلام بوصفه ميراثاً له يعدّ مبلغاً ضيئلًا.

وقـد ورد فى الروايات أيضاً أنّ النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله كان يملك أموالًا وبساتين جعلها الخلفاء من جملـة أموال بيت المال بذريعة أنّ الأنبياء لا يورثون.

يقول ابن عبدربه فى الاستيعاب: «قُتِلَ عَلِيٌّ وَلا مالَ احْتَجَبَهُ وَلا دُنْيا أَصابَها»[۲۹۹].

وينقـل ابن أبى‌الحديـد أيضـاً عن بعض المخـالفين الـذين اعترضوا على الإمـام أميرالمؤمنين عليه السـلام وقالوا: «إنّ أبا بكر رحل من الـدنيا دون أن يترك ديناراً ولا درهماً، ولكن الإمام علىّ عنـدما غادر الـدنيا ترك الكثير من بساتين النخل، ثمّ يجيب ابن أبى‌الحـديد عن قولهم هذا ويقول: قد علم كلّ أحد أنّ عليّاً عليه السلام قد أستخرج عيوناً

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۶۲

بكـدّ يده فى المدينة وينبع وأحيى بها مواتاً كثيرة، ثمّ أخرجها عن ملكه وتصدّق بها على المسـلمين، ولم يمت وشـىء منها فى ملكه، ألا ترى إلى ما تتضـمّن كتب السير والأخبار من منازعة زيد بن علىّ وعبداللَّه بن الحسن فى صدقات علىّ عليه السلام ولم يورّث علىّ عليه السـلام بنيه قليلًا من المـال ولاـ كثيراً إلّاعبيـده وإمـاءه وسـبعمائة درهم من عطـائه، تركهـا ليشترى بهـا خادمـاً لأهله قيمتها ثمانية وعشرون ديناراً»[۳۰۰].

۲. السؤال الآخر: كيف يقول الإمام علىّ عليه السلام: إنّى جعلت الحسن متولّياً على الوقف فإذا مات وكان الحسين عليه السلام لا يزال

علی قید الحیاة فیقوم مقامه، فهل أنّ الإمام علیّ علیه السلام لم یکن یعلم عن طریق الغیب أنّ شهادة الإمام الحسین علیه السلام تقع بعد شهادة الإمام الحسن علیه السلام بعدّة سنوات؟

والجواب عن هذا السؤال وأسئلة کثیرة أخری من هذا القبیل یمکن اختصاره بجملة واحدة، وهی أنّ الأئمّة فی أعمالهم العادیة کانوا یعتمدون علی علمهم الشخصیّ الذی یکتسبونه من الوسائل الطبیعیة لا ـ من علم الغیب، کما کان النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله یعیش حیاته الطبیعیة کذلک، وکان أصحابه یعتمدون علی العلم الحاصل من القنوات العادیة، ولم یکن النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله أو الإمام یستخدم علم الغیب سوی فی بعض الموارد الاستثنائیة.

۲. أهمّیة الوقف فی الإسلام

إنّ اهتمام الإمام أمیر المؤمنین علیّ علیه السلام بأمر الوقف، وسبقه الآخرین فی هذا العمل الخیّر، یشیر بوضوح إلی الأهمیّة البالغة للوقف فی الإسلام.

ورغم أنّ الإسلام لم یبتدع مسألة الوقف، حیث کانت موقوفات کثیرة قبل الإسلام فی المذاهب والأدیان الأخری، ولکنّ الإسلام أولی أهمیّة لهذه المسألة وأکّد علیها بوصفها صدقات جاریة.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۶۳

ونقرأ فی حدیث عن أبی جعفر الباقر علیه السلام أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله مرّ برجل یغرس غرساً فی حائط له فوقف علیه فقال: «ألا أدُلّک علی غَرسٍ أَثبَتُ أصلًا وأسْرَعَ إیْناعاً وأطْیَب وأنْقی قال: بلی فِدَاک أبی وامّی یارسولَ اللّه، فقال صلی الله علیه و آله: إذا أصْبَحْتَ وَأمْسَیْتَ فَقُلْ: سُبْحانَ اللّهِ والحَمْدُ للّهِ ولا إلهَ إلّااللّهُ واللّهُ أکبَرُ، فإنّ لکَ بذلِکَ إن قُلْتَهُ بِکُلِّ تَسبیحَةٍ عَشْرَ شَجَراتٍ فی الجنَّةِ مِن أنواعِ الفَاکِهَةِ وَهُنّ مِنَ الباقِیات الصّالِحات».

قال الراوی: فقال الرجل: أشهدک یارسول اللّه أنّ حائطی هذا صدقة مقبوضة علی فقراء المسلمین من أهل الصّفة، فأنزل اللّه تبارک وتعالی: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطی وَاتَّقی وَصَدَّقَ بِالْحُسْنی فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْیُسْری»[۳۰۱]. وعلی ضوء ذلک فإنّ الوقف یعتبر سنّة إسلامیّة حسنة لمجمل الأعمال والأحکام الدینیة.

وجاء فی بعض الروایات عن جابر بن عبداللّه الأنصاریّ أنّ بعض الصحابة الصحابة کانوا یملکون أموالًا، ترکوها وقفاً لهم بعد موتهم.

ونقل الشیخ الطوسی فی الأمالی عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «خَیْرُ مَا یُخَلِّفُهُ الرَّجُلُ بَعْدَهُ ثَلَاثَةٌ: وَلَدٌ بَارٌّ یَسْتَغْفِرُ لَهُ وَسُنَّةُ خَیْرٍ یُقْتَدَی بِهِ فِیهَا وَصَدَقَةٌ تَجْرِی مِنْ بَعْدِهِ»[۳۰۲].

والأحادیث الشریفة فی هذا المجال کثیرة، وینبغی الالتفات إلی أنّ أحد الطرق للحیلولة دون تراکم الثروات وتکدیس الأموال، الاهتمام بإشاعة ثقافة الوقف، لأنّ الوقف من شأنه إخراج الأموال من قبضة أفراد معدودین ووضع منافعها وخیراتها تحت اختیار المحرومین والمحتاجین من الناس.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۶۵

الرسالة ۲۵

اشارة

کانَ یَکْتُبُها لِمَنْ یَسْتَعْمِلُه عَلَی الصَّدَقاتِ

قالَ الشریفُ: وَإنّما ذَکرنا هَنا جُمَلًا لِیُعْلَمَ بِها أنَّهُ علیه السلام کانَ یُقیمُ عِمادَ الْحَقِّ، وَیَشْرَعَ أمْثِلَةَ الْعَدْلِ، فی صَغیرِ الْأُمُورِ وَکَبیرِها وَدَقیقها وَجَلیلِها[۳۰۳]

نظرة إلی الرسالة

هذه الوصیّة التی کان الإمام علیه السلام یقدّمها عادة للعاملین علی جمع الزکوات وتشتمل علی نکات دقیقة ونقاط مدروسة تشیر إلی رعایة الأدب الإسلامی ورعایة العدالة القصوی فی شأن جمیع أفراد المجتمع الإسلامی، بل تمتد لتشمل حتی الحیوانات أیضاً.

فی المقطع الأوّل من هذه الوصیّة، یأمر الإمام علیه السلام العاملین علی الزکاة أن

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۶۶

یتحرّکوا فی عملهم بنیّة خالصة ومن موقع الالتزام بالتقوی، ولا یستخدموا اسلوب التهدید والإرعاب فی جبایة الحقوق الشرعیة، ولا یأخذوا من أیّ شخص أکثر من الحقّ الإلهیّ المفروض علیه.

وفی القسم الثانی من الوصیّة یشیر الإمام علیه السلام إلی نقاط دقیقة فیما یتّصل بتعاملهم مع الأشخاص الذین وجب علیهم دفع الزکاة من أموالهم، وأن یکون تعاملهم معهم فی غایة اللطف والمحبّة ورعایة الأدب الإسلامی.

وفی القسم الثالث یتحدّث الإمام علیه السلام عن کیفیة فرض حقّ اللَّه من أموال الناس عن طریق القرعة حتی لا- یقع أیّ إجحاف لأحد من الناس فی شأن.

وفی القسم الرابع یذکر الإمام علیه السلام توصیات متعدّدة بشأن حکم المعاملة مع الحیوانات التی أُخذت من المالکین بوصفها زکاةً، وهذه التوصیات کما سنری، أعلی وأسمی ممّا تدّعیه منظّمات حقوق الحیوان فی حمایة الحیوانات.

ویضیف المرحوم الکلینی بعد نقل هذه الرسالة عن الإمام الصادق علیه السلام عن علیّ بن أبی طالب علیه السلام أنّ الإمام الصادق علیه السلام بکی، ویقول الراوی برید بن معاویة: سمعت أبا عبداللَّه الصادق علیه السلام یقول: بعث أمیرالمؤمنین علیه السلام صلوات اللَّه علیه صدقة من الکوفة إلی بادیتها، فقال له: «انْطَلِقْ عَلَی تَقْوَی اللَّهِ وَحْدَهُ لَاشَرِیکَ لَهُ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَیْهِ کَارِهاً، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَکْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِی مَالِهِ ...»، ثمّ بکی أبوعبداللَّه علیه السلام وقال: «یابریدُ واللَّهِ ما بقیتْ للَّهحرمةٌ إلّاانتُهِکتْ، ولا عُمِلَ بکتابِ اللَّهِ، ولا بسُنَّةِ نَبیّهِ فی هذا العالَم، ولا اقیمَ فی هذا الخَلْقِ حَدٌّ مُنذُ قُبِضَ أمیرُالمُؤمِنین صَلوات اللَّه وسَلامه علیه، ولا عُمِلَ شَیٌء مِن الحَقِّ إلی یَوم النّاس هذا».

واللافت للنظر أنّ کاتب المصادر بعد أن ذکر هذا المقطع من کلام الإمام الصادق علیه السلام یقول: اقسم باللَّه تعالی أنّنی بکیت أکثر من مرّة عندما قرأتها فی نهجالبلاغة قبل أن أطّلع علی ما رواه صاحب الکافی من بکاء الإمام الصادق علیه السلام عند روایتها، والحمد للَّهربّ العالمین ۳۰۴].

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۶۷

القسم الأول

اشارة

انْطَلِقْ عَلَی تَقْوَی اللَّهِ وَحْدَهُ لَاشَرِیکَ لَهُ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَیْهِ کَارِهاً، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَکْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِی مَالِهِ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَی الْحَیِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَیْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْیَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَیْهِمْ بِالسَّکِینَةِ وَالْوَقَارِ؛ حَتَّی تَقُومَ بَیْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَیْهِمْ، وَلَا تُخْدِجْ بِالتَّحِیَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ اللَّهِ، أَرْسَلَنِی إِلَیْکُمْ وَلِیُّ اللَّهِ وَخَلِیفَتُهُ، لِآخُذَ مِنْکُمْ حَقَّ اللَّهِ فِی أَمْوَالِکُمْ، فَهَلْ لِلَّهِ فِی أَمْوَالِکُمْ مِنْ حَقٍّ

فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَا، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَکَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تَعْسِفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ فَخُذْ مَا أَعْطَاکَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ.

الشرح والتفسير: الثقهٔ بالجمهور فی جمع الضرائب الإسلاميّهٔ

يقدّم الإمام علیّ عليه السلام فی هذه الرسالهٔ دستوراً کلياً وشاملًا فی البدايهٔ وفی عبارات موجزهٔ للعاملين علی جمع الزکوات، ثمّ يتطرّق إلی الجزئيات والتفاصيل، وهذا بذاته أحد أساليب الفصاحهٔ والبلاغهٔ، يقول: «انْطَلِقْ عَلَی تَقْوَی اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيکَ لَهُ، وَلَا تُرَوِّعَنَ ۳۰۵] مُسْلِماً وَلَا تَجْتَازَنَ ۳۰۶] عَلَيْهِ کَارِهاً، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَکْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِی مَالِهِ».

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۲۶۸

يتحدّث الإمام عليه السلام فی هذا العبارات، مضافاً إلی الأمر بتقوی اللّه، عن ثلاثهٔ أمور مهمّهٔ، الأول: إنّ العاملين علی الزکاهٔ لا ينبغی لهم ترويع الناس واستخدام أساليب العنف والغلظهٔ، لأنّ المأمورين علی أخذ الضرائب فی الماضی کانوا عندما يدخلون إلی منطقهٔ معيّنهٔ فإنّ أهالی تلک المنطقهٔ يصيبهم الخوف والوحشهٔ لئلّا يطلب منهم المأمورون مبالغ باهظهٔ يعجزون عن دفعها ولا يطيقونها، ولکن عندما يستخدم المأمور اسلوب الرفق ويتعامل معهم بحسن الخلق، فليس فقط لا يخافون منه بل يستقبلونه بکلّ رحابهٔ صدر.

وفی التوصيهٔ الثانيهٔ يقول الإمام عليه السلام ليس فقط عدم ترويعهم، بل أن تتصرّف بشکل يفرحون بقدومک، فأنت مأمور من قِبل أمير رحيم ورؤوف، جواد وکريم، ومن هذا الموقع يفتحون لک صدورهم وقلوبهم ويکرمون قدومک إليهم.

وفی الجملهٔ الثالثهٔ يتحدّث الإمام عليه السلام، قبل أن يأمره بأخذ حقّ اللّه منهم بشکل کامل، يقول: لا تأخذ منهم أکثر من حقّ اللّه من أموالهم، وهذا تأکيد علی الالتزام بالتقوی واجتناب أخذ أموال الناس بدون مبرّر شرعیّ.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام بعد أنّ بيّن هذا الدستور الکلّی يتطرّق إلی التفاصيل، ويتحدّث عن کيفيهٔ تعامل العاملين علی الزکاهٔ مع الناس فی جبايهٔ الحقوق الإلهيّهٔ وکيفيهٔ التعامل معهم فی هذا المجال ويقول: «فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَی الْحَیِ ۳۰۷] فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ».

وهذه إشارهٔ إلی أنّه ينبغی لک أن لا تفرض نفسک علی الناس وتکلّفهم بما ليس من واجبهم، فربّما لا يکونوا فی سعهٍ من الحال بحيث يتقبّلون استضافتک، فی حين أنّ طبيعتهم استقبال الضيف حتّی لو لم يکن لديهم ما يقدّمونه، أو ربّما لا يريدون أن تطّلع علی وضعهم المالی عن قرب، أو أنّک لو دخلت علی أحدهم ضيفاً فربّما

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۲۶۹

يفضی ذلک إلی امتعاض الآخرين ويتصوّرون أنّ مبعوث الإمام عليه السلام تربطه مع صاحب الدار رابطهٔ خاصّهٔ ولذلک ترک القدوم عليهم والدخول إلی بيوتهم، وعلی ضوء ذلک يأمر الإمام عليه السلام عامله أن ينزل إلی جانب عيون الماء أو الآبار ويختار منها ما يقع فی طريقهم ومورد عبورهم، والواقع أنّ هذا المکان يمثّل مرکزاً لالتقاء جميع أفراد الحیّ، والظاهر أنّ المأمور علی جمع الصدقات لا يتوجّه إلی هذه المناطق منفرداً، بل يصطحب معه بعض الأفراد الذين يعينونه علی أموره ويحملون معه الخيمهٔ ولوازمها، والعلف وما إلی ذلک، فينصبونها إلی جانب غدير الماء أو العين ويقيمون فی ذلک المکان.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّکِينَةِ وَالْوَقَارِ؛ حَتَّی تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ».

ومعلوم أنّ التوجّه إلی القوم بسکينهٔ ووقار وإلقاء السلام والتحيّهٔ عليهم يثير فی قلوبهم الطمأنينهٔ ويتسبّب فی شرح صدورهم وزوال کلّ أشکال الخوف والرهبهٔ من قلوبهم.

والغرض من هذه التوصيات تطهير الذهنيهٔ فی العرف العامّ من الرسوبات التی اختزنتها الذاکرهٔ عن العشّارين وجباهٔ الضرائب فی عصر الملوک وامراء الظلم والجور، حيث يأمرون جباتهم وأزلامهم بأخذ الضرائب والعشور والخراج من الناس بأساليب خشنهٔ، فکان الناس

يتصوّرون أنّ وجود هؤلاء الجباة والعشّارين بمثابة البلاء السماوىّ عليهم.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار جملة «لَمّا تُخْدِجْ من «الخداج» (على وزن علاج) تعنى فى الأصل الجمل الذى يولد ناقص الخلقة أو قبل موعده، ثمّ اطلقت هذه الكلمة على كلّ أمر ناقص، ويستفاد من هذه العبارة أنّ الإمام عليه السلام يروم التأكيد على هذه الحقيقة، وهى أن لا يقصّر مبعوثه فى التحيّة والسلام وحسن الخلق فى التعامل مع المواطنين ولا يتعامل مع الناس كما يتعامل الكثير من المأمورين والمسؤولين

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۷۰

الحكوميين مع الجمهور من موقع الفوقية والتعالى وحتى أنّهم لا يردون عليهم جواب سلامهم، وبعبارة أخرى أنّ تعامل المأمورين مع الناس يجب أن ينطلق من موقع الودّية والصداقة وعلى مستوى واحد بينهما.

ثمّ ينطلق الإمام عليه السلام لبيان الجزئيات المتعلّقة بكيفية المطالبة بالزكاة بطريقة شيّقة فيقول فى البداية: «ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ اللَّهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ، لِآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ».

واللافت أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد فى هذه العبارة على ثلاثة أمور: أحدها: أنّ الناس هم عباد اللّه، الثانى: إنّ العاملين على جمع الزكوات هم مبعوثون من قِبل ولىّ اللّه وخليفة اللّه، الثالث: أنّ ما يطلبونه من الناس هو حقّ اللّه الموجود فى أموالهم.

إنّ مثل هذه العبارات من شأنها تحريك عواطف الإنسان وتجعلهم مستعدين لدفع الزكاة، بل يتحرّك المستمع تحت تأثير هذه العبارات لدفع ما عليه من الزكاة والضريبة من موقع العشق والشوق، ويفكّر فى نفسه أنّ مبعوث ولىّ اللّه قد جاء إلىَّ ودعانى بوصفى عبداللّه ولم يطلب منّى شيئاً سوى حقّ اللّه فى مالى.

وجملة: «فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مع العبارات اللاحقة تعتبر بحدّ ذاتها أحد الأساليب الراقية فى أخذ الضرائب، وأحياناً نرى فى بعض المناطق فى العالم المعاصر الإشارة إلى هذا الاسلوب المتحضّر، ويتلخّص فى الثقة بالناس والاعتماد على صدقهم، يعنى أنّ الجمهور يتعامل مع المسؤولين بصدق وأمانة ولذلك يسأل المأمور أفراد الشعب عن وجود زكاة فى أموالهم دون المطالبة بها مع إنكارهم، والتجربة أثبتت أنّ مثل هذا الاعتماد والثقة المتبادلة لها أثر مهمّ فى توطيد العلاقة بين الجمهور والمسؤولين، وعلى العكس من ذلك إذا افترض المسؤول الحكومى أنّ الناس يتعاملون معه بآليات الكذب والتزوير وبالتالى يتعامل معهم كالدائن فى مطالبته من المدين، فإنّ ذلك من شأنه تقويض الثقة والعلاقة بين الطرفين ويتسبّب فى دفع الناس لإخفاء أموالهم والتمويه على المسؤولين فى محاسباتهم لكى يتهرّبوا

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۷۱

من دفع مستحقّاتهم المالية للحكومة، وبعبارة معاصرة: ينبغى أن يفتحوا لهم دفترين:

دفتر لمحاسبة الأموال بمقدارها الحقيقىّ، ودفتر لمحاسبة المبالغ التى يدفعونها للمأمورين والعاملين على الزكاة.

وممّا يجدر ذكره أنّ الأعوام الأخيرة فى بلدنا (ايران) وفى عصرنا الحالى شهدت هذه التجربة الحضارية لأخذ الضرائب من قِبل العاملين، وكانت النتيجة تضاعف حجم الدخل السنوىّ لبيت المال من الضرائب.

وفى الاسلوب التقليدى الذى يتّبع فى مسألة الخمس يتمّ مراعاة هذا المطلب بشكل دقيق، وهو أنّ المؤمنين يتوجّهون لعلماء الدين بدوافع إلهيّة ونوايا صادقة ويقدّمون لهم ورقة حساب أموالهم ليعيّنوا لهم مقدار الخمس الواجب دفعه منها بدون أىّ إكراه وإجبار.

وطبعاً فإنّ ما قيل آنفاً، يعتبر أصلًا عامّاً بالنسبة لجميع من وجب عليه دفع الزكاة فى أموالهم، ولكن ربّما توجد بعض الاستثناءات فى الموارد أيضاً، فبعض الإنتهازيين وأصحاب النفوذ والقوّة ربّما يواجهون الحكومة الإسلاميّة من موقع الرفض ويمتنعون عن دفع زكاتهم، وفى مثل هذه الموارد يجب على الحكومة التصدىّ لهم وأخذ حقّ اللّه منهم بالقوّة لئلّا يتجرّأ الآخرون على الاقتداء بهم ويرفعوا لواء المعارضة، ولكن كما قلنا آنفاً فهذه تعدّ استثناءً من القاعدة.

ويستمرّ الإمام عليه السلام فى كلامه عن كيفية أخذ الزكاة: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَا، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ ۳۰۸] لَکَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تَعْسِفَهُ ۳۰۹] أَوْ تُرْهِقَهُ ۳۱۰]».

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۲۷۲

والأمر الجميل هنا أنّ الإمام عليه السلام يتحدّث بغايۀ اللطف والمحبّۀ عن الشخص الذى يعترف بوجود زكاۀ فى أمواله ويبيّن كيفيۀ التعامل معه فى أربع جمل قصيرۀ تتضمّن توصيات للعامل على جبايۀ المال، الأولى يقول: إنّه لا ينبغى لك أن تخيفه، مثلًا تقول له: إذا لم تدفع زكاتك بشكل كامل فسوف تتعرّض للعقوبۀ، والاخرى أن لا تأخذ منهم شيئاً باسلوب التهديد، والثالثۀ: أن لا تتشدّد فى أمر جبايۀ الزكاۀ، والرابعۀ: أن لا تثير له مشاكل ولا ترهقه فى المطالبۀ والحساب، يعنى يجب عليك أن تتعامل معه كالشريک الودود الذى يتعامل مع شريكه بآليۀ الصفح وغضّ الطرق، فعندما يعترف الطرف المقابل بوجود حقّ اللّه فى أمواله فإنّ هذا الاعتراف منه يستحقّ كلّ احترام ويعتبر بحدّ ذاته قيمۀ أخلاقيۀ وإنسانيۀ ينبغى الردّ عليها والتعامل معها بالمثل.

تأمّل: آداب جمع الزكاۀ وحقوق بيت المال

إنّ ما ورد أعلاه يمثّل جانباً من تعاليم الإسلام فى ما يتّصل بجمع الزكاۀ وأموال بيت المال وكيفيۀ التعامل مع أصحاب الأموال.

ونقرأ فى الآيات شريفۀ أنّ القرآن الكريم الذى أسّس لهذا مفهوم، يأمر النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله بأن يأخذ من المُتموّلين صدقۀ وزكاۀ تطهّرهم وتزكّيهم من لوث حبّ الدنيا والتكالب على الأموال والثروات، ثمّ يأمره بعد دفع الزكاۀ أن يصلّى عليهم ويدعو لهم لتكون صلاته ودعاءه لهم سكناً لنفوسهم: «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَکَ سَكَنٌ لَّهُم»[۳۱۱].

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۲۷۳

وفى هذا المجال وردت فى المصادر الحديثيۀ روايات عديدۀ تبيّن جزئيات وتفاصيل أخرى لآداب أخذ الزكاۀ، منها ما أورده العلّامۀ المجلسى فى (الجزء ۹۳ من بحار الأنوار فى الباب ۹ تحت عنوان أدب المصّدّق) وفيها أحاديث كثيرۀ فى عشر صفحات ۸۰ إلى ۹۰).

ومن ذلک أنّه ينقل: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه و آله نَهَى أَنْ يُحْلَفَ النَّاسُ عَلَى صَدَقَاتِهِمْ وَقَالَ: هُمْ فِيهَا مَأْمُونُونَ يَعْنِى أَنَّهُ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَالٌ تَجِبُ فِيهِ زَكَاةٌ وَلَمْ يُوجَدْ ظَاهِراً عِنْدَهُ لَمْ يُسْتَحْلَف»[۳۱۲].

وفى حديث آخر يرويه عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث أمر أحد أصحابه والمسؤول عن جمع الزكاۀ بتوصيات متعدّدۀ منها أنّه قال: «أَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِبَسْطِ الْوَجْهِ وَلِينِ الْجَانِبِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْزَمَ التَّوَاضُعَ وَيَجْتَنِبَ التَّكَبُّر»[۳۱۳].

وفى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً أنّه قال: «وَإِذَا كَانَ الْجَدْبُ أُخِّرُوا حَتَّى يُخْصِبُوا»[۳۱۴].

ونقل المرحوم الشيخ الحرّ العاملى أيضاً فى كتابه وسائل الشيعۀ الجزء ۶ فى كتاب الزكاۀ الباب ۱۴ أحاديث متعدّدۀ فى هذا المجال، ويستفاد من مجموع هذه الأحاديث أنّ الإسلام ينهى عن استخدام أىّ شكل من أشكال القوّۀ والإكراه فى عمليۀ جمع الضرائب والزكاۀ، ويوجب على العاملين استخدام اسلوب الرفق والمداراۀ لمن تجب عليهم الزكاۀ فى أموالهم، وبعبارۀ أخرى أنّ دفع الزكاۀ فى الإسلام يدخل فى إطار المسألۀ الإنسانيۀ والأخلاقيۀ، حيث يتسابق فى دفعها وأدائها المؤمنون لينتفعوا من بركاتها الماديّۀ والمعنويۀ، لا أنّ الزكاۀ تمثّل ديناً يتمّ أخذه من المدين بأىّ نحو من الأنحاء.

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۲۷۴

وطبعاً يتسبّب هذا النمط من التعامل الودود والإنسانى ببعض الأضرار، وقد أساء الإستفادۀ منه بعض الأشخاص الانتهازيين الذين لا يروق لهم دفع الحقوق الماليۀ، ولكنّ التجربۀ أثبتت أنّ البركات الماديّۀ والمعنويۀ فى هذا الأسلوب الإنسانى فى التعامل أكثر من ضرره ولاسيّما أنّنا نعلم أنّ دفع الزكاۀ وأمثالها يعتبر فى الإسلام نوعاً من العبادۀ حيث يعتبر الإسلام قصد القربۀ وهذا القصد إنّما

يتحقّق فى واقع الإنسان إذا اندفع الإنسان فى هذه العبادة من موقع الاختيار والرغبة وأسداها طواعية.

ينقل المرحوم الكلينى فى الجزء الثالث من الكافى فى باب «أدب المصّدّق» ثمان روايات فى هذا المجال تعكس فى مضامينها الرحمة والرأفة الإسلاميّة، ومن ذلك أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام عندما نصّب رجلًا من قبيلة بنى ثقيف والياً على منطقة فى ضواحى الكوفة، أمره بمحضر من الناس أن لا يقصّر فى جمع الخراج ولا يترك منه ولو درهماً واحداً، ثمّ قال له: إذا أردت التوجّه إلى تلك المنطقة أن تقدم علىّ. يقول ذلك الرجل: عندما ذهبت إليه قال لى: إنّ ما قلته لك فيما يخصّ الخراج إنّما هو لحفظ الظاهر: «إيّاكَ انْ تَضْرِبَ مُسْلِماً أوْ يَهُودِيّاً أوْ نَصْرانِيّاً فى دِرْهَمِ خَراجٍ أوْ تَبيعَ دابَّةَ عَمَلٍ فى دِرْهَمٍ، فَإنَّما أمِرْنا انْ نَأخُذَ مِنْهُمُ الْعَفْوَ»[۳۱۵].

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۲۷۵

القسم الثانى

اشارة

فَخُذْ مَا أَعْطَاکَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلَا عَنِيفٍ بِهِ. وَلَا تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلَا تُفْزِعَنَّهَا، وَلَا تَسُوأَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا، وَاصْدَعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. ثُمَّ اصْدَعِ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. فَلَا تَزَالُ كَذَلِکَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللَّهِ فِى مَالِهِ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ. فَإِنِ اسْتَقَالَکَ فَأَقِلْهُ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِى صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِى مَالِهِ. وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَلَا هَرِمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ، وَلَا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً، غَيْرَ مُعْنِفٍ وَلَا مُجْحِفٍ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ.

الشرح والتفسير: غاية الاحترام لمطالب الدافعين للزكاة

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام إذا كانت الزكاة، على الذهب والفضة أى الدرهم والدينار أو قيمة زكاة الغلّات منها، فخذ منها ما أعطاک ولا تناقشه فى زيادة أونقيصة فى المقدار، لأنّه قد وثق بک، فينبغى عليک أيضاً أن تثق به،: «فَخُذْ مَا أَعْطَاکَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضّةٍ».

وإن كان يملک ماشية وبقراً وإبلًا فلا تدخل عليها إلّابعد أن تستأذنه فى ماله،

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۲۷۶

لأنّ أكثر هذه الأنعام ملک له سوى ما تعلّقت به الزكاة وهو قليل: «فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ[۳۱۶] أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ».

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلَا عَنِيفٍ ۳۱۷] بِهِ، وَلَا تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلَا تُفْزِعَنَّهَا[۳۱۸]، وَلَا تَسُوأَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا».

والمقصود من هذه العبارة ضرورة احترام ملكية المالكين لهذه الأنعام، فلا تدخل على مكان الشياه أو الإبل بشكل عنيف بحيث تنفر هذه البهائم وتفزع منک، بل يجب عليک مداراتها ورعايتها فلا تتحرّک بشكل يبعث على خوفها وفزعها، لأنّ هذه الحيوانات وكذلک أصحابها يمكن أن يستاءوا من هذا الاسلوب، وهذا كلام يعبّر عن غاية الأدب والخلق الذى ورد فى توصية الإمام عليه السلام لعمّاله، بحيث إنّه لا يهمل حتّى حقوق الحيوانات عند جمع الزكاة، فكيف الأمر فيما يتّصل بحقوق الإنسان واحترام مشاعره وعواطفه؟!

ثمّ إنّ الإمام ومن أجل أن يقع التقسيم عادلًا فى اختيار الأغنام أو الإبل للزكاة ولا يثير اعتراض أصحاب الأموال، يوصى عامله بأن

یستخدم القرعة فی انتخاب مورد الزکاة حتّی لا یکون هناک إجحاف علی المالک ولا علی بیت المال وعندما یقترع علی الشیاه أو الإبل یخیّر صاحب المال فی هذا المال ویقول: «وَاصْدَعِ [۳۱۹] الْمَالَ صَدْعَیْنِ ثُمَّ خَیِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. ثُمَّ اصْدَعِ الْبَاقِیَ صَدْعَیْنِ، ثُمَّ خَیِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. فَلَا تَزَالُ کَذَلِکَ حَتَّی یَبْقَی مَا

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۷۷

فِیهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللَّهِ فِی مَالِهِ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ».

ثمّ یضیف الإمام علیه السلام: فإذا طلب صاحب المال أن تقیله حتّی یجری اقتراع جدید، فاقبل طلبه وأعد القرعة بعد أن تخلط الأنعام وتجری علیها مرّة أخری التقسیم والاقتراع حتّی تأخذ منها حقّ اللّه: «فَإِنِ اسْتَقَالَکَ [۳۲۰] فَأَقِلْهُ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا ثُم اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِی صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّی تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِی مَالِهِ».

وهنا ینبغی الالتفات إلی نقطتین هامتین: الأولی: أنّ مفهوم العبارة أعلاه لا یعنی أنّک فی حال التقسیم تعمل علی فصل الأغنام أو الإبل وتجعل الجیّدة منها فی جانب والمتوسّطة فی جانب آخر ثم تخیّر المالک بانتخاب أحدهما لأنّ الأغنام أو الإبل من جهة متداخلة ومخلوطة فی الظروف العادیة، ومن الطبیعی أنّه عند تقسیمها سیکون قسم منها إلی جانب والقسم الآخر فی جانب آخر، ومن جهة أخری أنّ هذا العمل نوع من الاقتراع، وتدخل فی مفهوم القرعة هذه الحقیقة، وهی أنّ التقسیم ینبغی أن یکون عادلًا، فلابدّ من إختیار أحدی الجهتین من خلال القرعة.

والنقطة الأخری، أننا نعلم أنّ عمر الإبل دخیل فی مقدار زکاتها، ولیست کزکاة الأغنام، وعلی هذا الأساس یجب مراعاة عمرها فی عملیة التقسیم، أو نقول أنّ هذا التقسیم ناظر إلی الأغنام والبقر.

ضمناً یستفاد من مجموع هذ الکلام أنّ دفع الزکاة یمکن أن یتمّ حسابه علی أساس القیمة (بقرینة التعبیر بالذهب والفضة فی مطلع هذا الکلام)، لأنّ هذا الکلام لا یتحدّث فقط عن زکاة الدرهم والدینار بل ناظر إلی مطلق الزکاة، ویمکن أن تؤخذ الزکاة من عین المال الذی تعلّقت به الزکاة.

ولابدّ من الالتفات إلی هذه النقطة، وهی أنّ الوارد فی الروایات الإسلامیّة

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۷۸

وکلمات الفقهاء أنّ الحیوانات الممتازة کالغنم والإبل الغالیة والأنعام الحامل والذکر منها الخاصّ بعملیة التلقیح مستثناة من ذلک، یعنی أنّ العاملین علی جمع الزکاة لا ینبغی أن یستثنوا هذه الأنعام من الزکاة لکسب رضا أصحاب هذه الحیوانات، بل یفوّضون أمرها لهم لیدفعونها عن طیب خاطر[۳۲۱].

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام یوصی عامله علی الزکاة أن لا یأخذ من الحیوانات من تشکو عیباً ویختار الناقص والزهید منها ویقول: «وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَلَا هَرِمَةً وَلَا مَکْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً[۳۲۲]، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ[۳۲۳]».

ومع الالتفات إلی أنّ کلمة «عَوْد» و «هَرِم» مترادفتان فی المعنی ویقصد بهما الحیوان المسنّ، ولکن «عود» تعنی الحیوان الذی تقدّم فی السن، و «هرم» بمعنی المتقدّم فی السنّ إلی درجة کبیرة بحیث لا یصلح لشیء.

أمّا «مهلوسة» فتارة تأتی بمعنی الحیوان المریض والمسلول وأخری بمعنی کلّ حیوان مریض، والأنسب المعنی الثانی، أمّا «ذات عوار» فتعنی الحیوان الذی یشکون عیباً ونقصاً، بأن یکون فاقداً للعین أو الاذن وما إلی ذلک.

والجدیر بالذکر أنّ الفقهاء ذهبوا إلی أنّ المقصود من هذا الحکم أنّه لو کان النصاب سالماً بأجمعه، فلا یمکن أخذ حیوان غیر سلیم من مکان آخر للزکاة بدل السلیمة، ولکن إذا کان جمیع النصاب مریضاً أومعیباً فلا مانع من أخذ الزکاة منها، ولا یشترط أن یأخذ للزکاة حیواناً سالماً، وکذلک إذا کان بعض النصاب معیباً

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۷۹

والبعض الآخر سالماً فتؤخـذ الزکـاة مـن السـالم والمعیـب، وهـذا یـدلّ علی رعایـة العدالـة الإسـلامیّة فی المسائـل المتعلّقـة بـأمور الزکاة[۳۲۴].

ومن المناسب أنّ نذکر هنا أن الإسـلام من جهة ینهی عن أخذ الحیوانات المعیبة والمسنّة والمریضة للزکاة، لأنّ ذلک یتنافی مع کون الزکـاة أمراً عبادیـاً وبمقتضـی قوله تعـالی: «لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّی تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ»[۳۲۵]، ینبغی علی الإنسـان المسـلم أن یخرج لزکاته الشـیء الطیّب والسـلیم، ومن جهـة أخری یأمر الإسـلام بوضع الأموال النخبـة والممتلکات الثمینـة بیـد أصـحابها ولا یؤخذ منها شـیء للزکـاة، لأنّ الکثیر من الناس ربّما یمتعضون ویستاؤون من هـذا العمل ویکونون مصـداقاً لقوله تعالی: «إِنْ یَسْأَلْکُمُوها فَیُحْفِکُمْ تَبْخَلُوا وَیُخْرِجْ أَضْغانَکُمْ»[۳۲۶]، وعلی هذا الأساس یراعی الحکم الإسلامی عملیة التعادل والتوازن فی مسألة دفع الزکاة بشکل کامل.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۸۱

القسم الثالث

اشارة

وَلَـا تَـأْمَنَنَّ عَلَیْهَـا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِـدِینِهِ، رَافِقـاً بِمَالِ الْمُسْـلِمِینَ حَتَّی یُوَصِّلَهُ إِلَی وَلِیِّهِمْ فَیَقْسِـمَهُ بَیْنَهُمْ، وَلَا تُوَکِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِـحاً شَـفِیقاً وَأَمِیناً حَفِیظاً، غَیْرَ مُعْنِفٍ وَلَا مُجْحِفٍ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ. ثُمَّ احْدُرْ إِلَیْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَکَ نُصَـیِّرْهُ حَیْثُ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِینُکَ فَأَوْعِزْ إِلَیْهِ أَلَّا یَحُولَ بَیْنَ نَاقَـةٍ وَبَیْنَ فَصِـیلِهَا، وَلَا یَمْصُـرَ لَبَنَهَا فَیَضُـرَّ ذَلِکَ بِوَلَـدِهَا؛ وَلَا یَجْهَـدَنَّهَا رُکُوباً؛ وَلْیَعْدِلْ بَیْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِی ذَلِکَ وَبَیْنَهَا، وَلْیُرَفِّهْ عَلَی اللَّاغِبِ، وَلْیَسْـتَأْنِ بِـالنَّقِبِ الظَّالِعِ، وَلْیُورِدْهَـا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُـدُرِ، وَلَا یَعْـدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَی جَوَادِّ الطُّرُقِ، وَلْیُرَوِّحْهَا فِی السَّاعَـاتِ، وَلْیُمْهِلْهَـا عِنْدَ النِّطَافِ وَالْأَعْشَـابِ، حَتَّی تَأْتِیَنَا بِإِذْنِ اللَّهِ بُدَّناً مُنْقِیَاتٍ، غَیْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ، لِنَقْسِـمَهَا عَلَی کِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِیِّهِ صلی الله علیه و آله فَإِنَّ ذَلِکَ أَعْظَمُ لِأَجْرِکَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِکَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسیر: الرأفة الإسلامیّة بالحیوانات

سبق أن رأینا أنّ الإمام علیّ علیه السـلام ذکر بعض التوصـیات اللازمـة فی کیفیـة أخـذ الزکاة من الأشـخاص الذین تعلّقت الزکاة فی أموالهم، وفی هـذا المقطع من الرسالـة یتحـدّث الإمـام علیه السـلام عن کیفیـة حفـظ هـذه الأموال وشـکل التعامل مع الحیوانات التی اخذت بعنوان الزکاة.

بدایـة یطرح الإمام علیه السـلام صـفات الأشـخاص المأمورین بنقل الزکاة إلی بیت المال، ویسـتعرض عـدّة خصال لهم، ففی الخصـلة الأولی والثانیة یقول الإمام علیه السلام «وَلَا تَأْمَنَنَ

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۸۲

عَلَیْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِینِهِ، رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِینَ حَتَّی یُوَصِّلَهُ إِلَی وَلِیِّهِمْ فَیَقْسِمَهُ بَیْنَهُمْ».

وعلی ضوء ذلـک فإنّ أهمّ شـرط فی مثل هـذا الموارد رعایـة الأمانـة وأن یکون العامل موثوقاً بـدینه، والشـرط الثانی أن یعیش الرفق والمـداراة بهـذه الأنعام، فإذا توفّر فی المتصـدّی لبیت المال والخزانـة هـذان الشـرطان، فلا مجال لظهور مشـکلة فی الأمور المالیة، ولا یتوقّع خیانة، ولا حدوث حیف وإفراط وتفریط فی مال المسلمین.

یواصل الإمام علیه السـلام استعراضه لصفات المسؤولین والمأمورین لنقل هذه الأمور فیطرح ثمانیة أوصاف لهم، ویقول: وَلَا تُوَکِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحاً شَفِیقاً وَأَمِیناً حَفِیظاً، غَیْرَ مُعْنِفٍ ۳۲۷] وَلَا مُجْحِفٍ ۳۲۸]، وَلَا مُلْغِبٍ ۳۲۹] وَلَا مُتْعِبٍ ۳۳۰]».

وبدیهی أنّ هذه الصـفات الثمانیة منسـجمة فیما بینها ومقتربة المعنی، فالراعی الناصح والمشـفق لا یشدّ علی الحیوانات فی المسیر ولا

يتعبها، لأنّه من جهة ستصيب هذه الأنعام مشقّة، ومن جهة أخرى فإنّ هذا الاسلوب مخالف للعدالة الإسلاميّة وربّما يؤدّى إلى التقليل من وزنها أو مرضها وبالتالى سيلحق الضرر بالمستهلكين أيضاً.

والجدير بالذكر أنّ هذه التوصيات من قِبل الإمام عليه السلام قد صدرت فى وقت لم يكن هناك أىّ كلام عن حقوق الحيوان بين العلماء والمفكّرين فى العالم، ولا كلام عن حقوق الإنسان أيضاً، ولكنّ الإسلام بوصفه ديناً زاخراً بالقيم الأخلاقية والمثل المتعالية فإنّه قرّر لزوم رعاية حرمة الحيوانات وحقوقها فى أحكامه وتعاليمه وأكّد على لزوم الرأفة بها (وسيأتى توضيح أكثر فى هذا المجال فى بحث التنبيهات).

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۸۳

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض لبيان توصية أخرى ويقول: «ثُمَّ احْدُرْ[۳۳۱] إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ».

وتنطلق هذه التوصية من دليلين: الأوّل: أنّه ربّما يوجد بعض المحتاجين والمحرومين الذين ينتظرون المساعدة من بيت المال، فلو أبطأ إيصال حقّهم إليهم فسيواجهون العسر والضيق ولا يمكنهم حلّ مشاكلهم، والآخر: أنّ تأخير إيصال هذه الأموال سيعرّضها للآفات، ومن أجل وقايتها من تلك الآفات لابدّ من الإسراع فى حملها إلى بيت المال وإيصالها إلى ولىّ أمر المسلمين.

وذهب بعض الشرّاح لنهج البلاغة إلى أنّ المستفاد من هذه العبارة عدّة أحكام فقهية، الأوّل، جواز نقل الزكاة من مدينة إلى أخرى، والآخر: أنّه لا يحقّ للمأمورين والعاملين على جمع الزكوات تقسيمها برأيهم، والثالث: أنّ الزكاة يجب إيصالها إلى ولىّ أمر المسلمين ويتمّ تقسيمها تحت نظره وإشرافه.

وبديهىّ أنّ هذا الحكم يتعلّق بالمناطق القريبة من مركز الحكومة والخلافة، وأمّا المناطق البعيدة التى لا يمكن نقل مال الزكاة إلى المركز إلّابصورة نقود، فلها حكم آخر، يعنى أنّ وكلاء الإمام عليه السلام يستطيعون جمع تلك الأموال وتقسيمها فى مراكزهم ومحلّ ولايتهم.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام كيفية نقل حيوانات الزكاة ويأمر عامله على الزكاة بعشرة أوامر دقيقة ويقول:

«فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ[۳۳۲] إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا[۳۳۳]، وَلَا

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۸۴

يَمْصُرَ[۳۳۴] لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بِوَلَدِهَا؛ وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِى ذَلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللَّاغِبِ، وَلْيَسْتَأْنِ ۳۳۵] بِالنَّقِبِ ۳۳۶] وَالظَّالِعِ ۳۳۷]».

ما ذكر أعلاه من كلام الإمام عليه السلام يتضمّن ستّة أقسام من توصيات الإمام عليه السلام فيما يتّصل برعاية حال حيوانات الزكاة، وهى توصيات إنسانية وأخلاقية وتدلّ على أنّ الإسلام يرى لزوم مراعاة حال الحيوانات أيضاً، فهذه الحيوانات لا تملك لساناً لبيان حالها، ولا قدرة على الدفاع عن نفسها.

ثمّ بيّن الإمام عليه السلام عدّة توصيات أخرى فى هذا المجال ويقول: «وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ[۳۳۸]، وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ[۳۳۹] الطُّرُقِ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِى السَّاعَاتِ وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ ۳۴۰] وَالْأَعْشَابِ ۳۴۱]، حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللَّهِ بُدَّناً[۳۴۲] مُنْقِيَاتٍ ۳۴۳]، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ».

فى هذه التوصيات الأربع الأخيرة يتحدّث الإمام عليه السلام عن مأكل ومشرب هذه الحيوانات، والغرض من ذلك أن لا تشعر هذه الحيوانات بالعطش والجوع فى مسيرها إلى مركز الخلافة وبيت المال، فينبغى أن تشرب فى مسيرها من الماء

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۸۵

بالمقدار الكافى ويسار بها فى الطرق التى تكثر فيها الأعشاب والنباتات لتأكل منها.

وهذه التوصيات مضافاً إلى الطابع الأخلاقى والإنسانى لها، تعود بالنفع إلى بيت المال والمحتاجين والمستحقّين لهذه الحقوق المالية،

ولـذلک يقول الإمـام عليه السـلام فی نهايـة هـذا الكلاـم: «حَتَّی تَأْتِيَنا بِإِذْنِ اللَّهِ بُدَّناً مُنْقِيات، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ»، أی تأتی هذهالحيوانات سالمة ونشطة وغير مجهدة من تعب الطريق.

وفی ختام هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلی الغرض النهائی من هذه التوصيات، ويقول: «لِنَقْسِمَهَا عَلَی كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صلی الله عليه و آله»، بين المحرومين والمستضعفين دون تدخّل المنافع الشخصية فی هذه العملية.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «فَإِنَّ ذَلِکَ أَعْظَمُ لِأَجْرِکَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِکَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

تأمّلان

۱. التأكيد علی إيصال أموال الزكاة إلی المحرومين

يؤكّد الإمام عليه السـلام فی هـذه الرسالـة النورانيـة ثلاث مرات علی هـذا الأمر، وهو أنّ أموال الزكاة بعد جمعها يجب تقسيمها بين المحرومين والمستضـعفين، ففی مورد يقول الإمام عليه السـلام: «مالُ الْمُسْلِمِينَ ، وفی مورد آخر يقول: «فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ وفی مورد ثالث يقول: «نُصَيِّرُهُ حَيْثُ امَرَ اللَّهُ ، فی ختام هذه الرسالة يقول: «نَقْسِمَها عَلی كِتابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ . وهذا التكرار، وإن كان علی حدّ قول ابن أبی‌الحديـد: مخـالف إبتـداءً لمقتضـيات البلاغـة والفصاحـة، ولكن نظراً إلی أنّ النـاس كـانوا يعيشون فی ذلک الوقت ذكريات زمان عثمان الـذی كان يوزّع بيت المال علی فئة معينة من الأشـخاص ويحرم منه المحتاجين والمعوزين، وأدّی ذلک إلی إشـتعال نار الفتنة والثورة عليه، فالإمام عليه السـلام فی هـذا المورد يكرّس حالة الطمأنينة والثقة فی قلوب الناس بتكرار هذه العبارة ثلاث مرات فی هذه الرسالة وأنّ غرضنا من ذلک و تقسيم مال المسلمين بينهم وإيصال حقوق المستحقّين إليهم.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۸۶

۲. حماية الحيوانات فی الإسلام

إنّ المجتمعات البشـرية كانت منـذ قـديم الأيّام تتعامل مع الحيوانات التی تنتفع منها من موقع الاحترام ومراعاة بعض الأصول والآداب فی ذلک، وفی بعض الموارد ربّما تصل هـذه العلاقة والتعامل إلی حدّ الإفراط وتتّخذ شـكلًا من أشـكال العبادة كما يلاحظ ذلک فی هـذا الزمـان بين جماعـة من الهنـدوس، حتّی تشـكّلت فی هـذا العصـر جمعيـات الـدفاع عن حقوق الحيوانـات وقرّروا لـذلک قوانين ومقرّرات لضـمان عدم تجاوز هذه الحقوق ضدّ الحيوانات، والأشخاص الذين لا يراعون هذه المقرّرات يتمّ الاعتراض عليهم، وبالرغم من أنّ هـذا الموضوع حاله حال سائر المواضـيع التی تتعلّق بحقوق الإنسان أو الـدفاع عن المعتقلين أو الأطفال وأمثال ذلک، اتّخـذت فی الكثير من الموارد صـبغة سياسـية وتبـدّلت إلی عصا غليظة لتخويف المعارضـيين السياسـيين، وأحياناً نراهم يغصـبون حقوق آلاف الأبرياء من الناس وينفقون مليارات من الدولارات علی صـناعة وتطوير أسـلحة الدمار الشامل، ولا يرتفع أیّ صوت بالاعتراض عليهم، ولكنّهم عندما يتعرّض حيوان للأذی مثلًا فإنّهم يرفعون عقيرتهم بالصراخ والعويل.

ولكنّ الإسـلام راعی فی هـذه المسائل حـدّ الاعتـدال منـذ البداية وأكّد علی توصـيات دقيقة بالنسـبة للحيوانات، بحيث أنّ كلّ إنسان منصف يری فی هذه التوصيات والمقرّرات جمالية وتعامل أخلاقی فی غاية اللطف.

وقـد ورد فی كتبنـا الروائيـة، أحـاديث كثيرة فی هـذا الباب، منها ما ورد فی الأبواب المتعلّقـة بالحـجّ فيما يتّصل بكيفيـة الاسـتفادة من الحيوانات للركوب فی مسير الحجّ تحت عنوان «ابْوابُ احْكامِ الدَّوابِّ فِی السَّفَرِ وَغَيْرِهِ».

وقد أورد المرحوم الشيخ الحر العاملي في كتاب وسائل الشيعة في الجزء الثامن تحت هذا العنوان روايات كثيرة في أكثر من خمسين باباً، وفيما يلي نستعرض بعض هذه الروايات التي أوردها في الباب الأول:

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۸۷

قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا خِصَالٌ: يَبْدَأُ بِعَلَفِهَا إِذَا نَزَلَ وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ إِذَا مَرَّ بِهِ وَلَا يَضْرِبُ وَجْهَهَا فَإِنَّهَا تُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا وَلَا يَقِفُ عَلَى ظَهْرِهَا إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يُحَمِّلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا وَلَا يُكَلِّفُهَا مِنَ الْمَشْيِ إِلَّا مَا تُطِيقُ»[۳۴۴].

وهذا إشارة إلى أنّ بعض الأشخاص الذين يركبون هذه الدوابّ عندما يتقابلون فيما بينهم أو يمرّون على أحد المشاة يتوقّفون للسلام والتحية والحديث مع بعضهم، فينبغي للراكب أن ينزل عن ظهر الدابة إلى أن ينتهي من كلامه مع صاحبه ثمّ يركب دابته ويكمل مسيرته، لأنّ مثل هذا التكليف إتعاب للدابة في حال توقّف الراكب بدون مبرّر، ولكن مثل هذا التوقّف وعدم نزول الفارس إذا كان في ميدان القتال، له ما يبرّره لوجود الخطر في نزول الفارس من مركبه.

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال بما يشبه هذا المضمون: «لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا سِتَّةُ حُقوق»[۳۴۵] وفي رواية أخرى ذكر سبعة حقوق.

إنّ العبارات الدقيقة الواردة في هذه الرواية تعكس هذا الحقيقة الحاسمة، وهي أنّ الإسلام لم يغفل عن أدقّ التفاصيل وجزئيات المسائل في هذا الموضوع، وأنّه قدّم أفضل التوصيات والتعاليم الإنسانية في هذا المجال، والكثير من الأشخاص عندما يواجهون بعض القصور من دوابّهم فإنّهم يسارعون في ضربها بالسوط، ولكنّ الإسلام أكّد على لزوم التعامل مع الدواب باسلوب حسن وعدم إلحاق الضرر والأذى بها، فنقرأ في حديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه توجّه أربعين مرّة من المدينة إلى مكة لزيارة بيت اللَّه الحرام وكان يركب الناقة، وفي طيلة هذه المدّة لم يضرب ناقته ولا سوطاً واحداً[۳۴۶].

وفي حديث معروف ومذكور في مصادر الشيعة وأهل السنّة: «إنّ امرأةً عُذِّبتْ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۸۸

في هِرَّةٍ قَد رَبَطتها حتّى ماتَتْ عَطشاً»[۳۴۷].

بل يستفاد من بعض الروايات أنّه لا ينبغي سبّ الحيوانات وشتمها[۳۴۸] وهذا يدلّ على أنّ الحيوانات تملك شعوراً وفهماً بحيث تتألم من السبّ والشتم، مضافاً إلى أنّ هذا الكلام البذيء من شأنه تلويث لسان الإنسان وفمه وربّما يصير تدريجياً عادة له ويتعامل مع الناس أيضاً بمثل هذا التعامل السيء.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۸۹

الرسالة ۲۶

اشارة

إلى بَعْضِ عُمَّالِهِ وَقَدْ بَعَثَهُ عَلَى الصَّدَقَةِ[۳۴۹]

نظرة إلى الرسالة

يحذّر الإمام عليه السلام في هذه الرسالة «مخنف بن سليم» من النفاق والإزدواجية في الشخصية، وينهاه عن سوء التعامل مع الناس وعدم الاهتمام والعناية بهم، وفي مقطع آخر من الرسالة يؤكّد الإمام عليه السلام على أنّك عامل لجمع الزكاة ولك سهم منها سندفعه

إليك، ولكن الباقى يتعلق بالمحتاجين والمستحقّين من هذه الامّة، فينبغى إيصاله لهم.

وفى ختام الرسالة يحذّر الإمام عليه السلام من أىّ شكل من الأشكال الخيانة فى الأمانة وأنّ خيانة الامّة وإمام الامّة تعدّ من أشنع الخيانات.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۹۱

القسم الأول

اشارة

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِى سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَاشَهِيدَ غَيْرُهُ، وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ. وَأَمَرَهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ أَخْلَصَ الْعِبَادَةَ وَأَمَرَهُ أَلَّا يَجْبَهَهُمْ وَلَا يَعْضَهَهُمْ، وَلَا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلًا بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمُ الْإِخْوَانُ فِى الدِّينِ، وَالْأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ.

الشرح والتفسير: التعامل الحسن مع دافعى الضرائب الإسلاميّة

يأمر الإمام عليه السلام فى المقطع الأول من هذه الرسالة بثلاثة أوامر لعامله على جمع الزكاة، وتبدأ كلّ واحدة من هذه التوصيات بجملة «امَرَهُ».

بداية يأمره الإمام عليه السلام بلزوم تقوى اللَّه تعالى فى الظاهر والباطن، العلانية والسرّ ويقول: «أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِى سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَاشَهِيدَ غَيْرُهُ، وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ».

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام فى هذه الجملة يشير إلى أحد أهمّ مصاديق التقوى، يعنى التقوى فى الأمور الخفية، أعمّ من النيّة الباطنية والأعمال الظاهريّة التى لا يراها سوى اللَّه تعالى، وهذا الأمر يعدّ من أهم الأمور التى لا يمكن تحقيقها وتحصيلها إلّامن خلال الإيمان باللَّه والاعتقاد بحضوره فى كلّ مكان وزمان، إنّ المشكلات التى تعيشها المجتمعات البشرية، والأزمات التى تصيب الناس، تتعلّق غالباً بهذه المسألة، فتؤخذ القرارات بمعزل عن أهل الخبرة وتنجز الأعمال بعيداً

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۹۲

عن أنظار الناس ويتمّ التضحية بالمنفعة العامة لصالح المنافع الشخصية غير المشروعة.

وعبارة: «حَيْثُ لَاشَهِيدَ غَيْرُهُ، وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ» ناظرة قطعاً للأشخاص العاديين غير الحاضرين فى خلوة الإنسان، ولكنّ الملائكة المأمورين بكتابة أعمال الإنسان يعيشون معه فى كلّ مكان وزمان ويراقبون أعماله وسلوكياته فى جميع الأوقات، والأعلى من الجميع الذات المقدّسة الحاضرة فى جميع أرجاء عالم الوجود ولا يخفى عليها شىء من صغائر الأمور وكبائرها.

ثمّ يأمره الإمام عليه السلام بالأمر الثانى ويقول: «وَأَمَرَهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ».

وهذا يعنى أنّ الإنسان يجب أن يكون موحّداً فى شخصيته حيث يتطابق ظاهره مع باطنه، لأنّ اختلاف الظاهر والباطن، والخلوة والجلوة، تعتبر مصداقاً بارزاً للنفاق، والمسلم ينبغى أن يكون بريئاً ونقيّاً من النفاق.

ثمّ يذكر الإمام عليه السلام كلاماً هو بمثابة الدليل على تلك التوصية ويقول: «وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ».

ومفهوم هذا الكلام أنّ الأشخاص الذين يختلف ظاهرهم عن سريرتهم، ولا تنسجم أقوالهم مع أفعالهم، هؤلاء خونة وغير مخلصين فى طاعة اللَّه، وهذه هى الحقيقة، فهل توجد خيانة أفضع من أن يقوم الإنسان بمزاولة أعمال حسنة بقصد الرياء أمام الناس، ولكنّه عندما

يخلو بربّه يسلك سلوكاً آخر، أو يقول بلسانه كلاماً مهذّباً ويعد الآخرين بوعود جميلة ويتحدّث عن الطهر والتقوى للناس ولكنّه على مستوى العمل والممارسة يتحرّك فى خطّ الهوى والانحراف ويتسبّب بالتالى بعدم ثقة الناس بالدّين وإضعاف الإيمان فى قلوبهم؟!

إنّ مثل هذه الأعمال السيئة مرفوضة ومذمومة من أىّ شخص، ولكنّها إذا صدرت من المسؤولين والمتولّين لُامور الناس فستكون أقبح وأشنع.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۹۳

ويشير الإمام عليه السلام فى هذه التوصية فى مسألة الإخلاص والأمانة إلى أمرين:

أحدهما: التجانس والإنسجام فى السرّ والعلن، والآخر: الإنسجام فى القول والفعل، والحقيقة أنّ الإخلاص يقوم على أساس هذين الركنين وأنّ المرائين من الناس يفقّدون الإلتزام بأحد هذين الركنين أو بكليهما.

وطبعاً فإنّ رعاية هذا الأصل بالنسبة للمسؤولين على بيت المال أهمّ وأشدّ من الآخرين حيث يجب أن يتحلّى المسؤولون بهاتين الصفتين، وهما الحفظ والأمانة.

ونقرأ فى حديث شريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَنْ خالَفَتْ سَرِيرَتُهُ عَلانِيَتَهُ فَهُوَ مُنافِقٌ كائِناً مَنْ كانَ وَحَيْثُ كانَ وَفى أىِّ أرْضٍ كانَ وَعَلى اىِّ رُتْبَةٍ كانَ»[۳۵۰].

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن لقمان الحكيم أنّه قال:

«لِلْمُنَافِقِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ: يُخَالِفُ لِسَانُهُ قَلْبَهُ وَقَلْبُهُ فِعْلَهُ وَعَلَانِيَتُهُ سَرِيرَتَه»[۳۵۱].

ثمّ يطرح الإمام عليه السلام فى توصيته الثالثة ثلاثة أوامر لعامله ويقول: «وَأَمَرَهُ أَلَّا يَجْبَهَهُمْ وَلَا يَعْضَهَهُمْ، وَلَا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلًا بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمُ الْإِخْوَانُ فِى الدِّينِ، وَالْأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ».

وهذه ملاحظات نفسية مهمّة جدّاً فى مسألة جمع الضرائب وحقوق بيت المال وترتبط بشكل خاصّ بجميع أمور الإدارة والحكومة، فالتعامل الجيّد مع الناس من شأنه تعميق أواصر المودّة والثقة المتبادلة بين الحكّام والمحكومين، وبالتالى تشجّع الناس على أداء الحقوق المالية والوظائف الشرعية عليهم وتجعل من المكلفّين أن يتقدّموا طواعية لدفع ما عليهم من تكاليف فى مقابل الحكومة أو المدراء، من دون حاجة لجهاز مخابرات ومأمورين غلاظ شداد ومحاكم تفتيش وما إلى ذلك، بعد أن يتحرّك الناس فى خطّ الإستقامة والمسؤولية والرسالة من موقع الوعى الكامل

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۹۴

بالوظيفة الشرعية، والتجارب الحديثة فى العصر الحاضر تؤيّد صدق هذا الكلام وصحّة هذا البيان.

صحيح أنّ البعض ربّما يسىء الاستفادة من هذه المسألة ولا يؤدّى ما عليه من حقوق لبيت المال، ولكنّ الخسارة المترتّبة على مثل هذا السلوك الحسن أقلّ بكثير ممّا لو كان التعامل معهم بآليّات الشدّة والعنف.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۹۵

القسم الثانی

اشارة

وَإِنَّ لَکَ فِى هذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَکَاءَ أَهْلَ مَسْکَنَةٍ، وَضُعَفَاءَ ذَوِى فَاقَةٍ، وَإِنَّا مُوَفُّوکَ حَقَّکَ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ،

وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّکَ مِنْ أَکْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً یَوْمَ الْقِیَامَةِ، وَبُؤْسَی لِمَنْ- خَصْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ- الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاکِینُ وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ وَالْغَارِمُونِ وَابْنُ السَّبِیلِ! وَمَنِ اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ وَرَتَعَ فِی الْخِیَانَةِ وَلَمْ یُنَزِّهَ نَفْسَهُ وَدِینَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَالْخِزْیَ فِی الدُّنْیَا، وَهُوَ فِی الْآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَی! وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِیَانَةِ خِیَانَةُ الْأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الْأَئِمَّةِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسیر: اعمل بحیث لا یشکوک المحرومون یوم القیامة

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام یشیر إلی نقطة مهمّة فی هذا الشأن بإمکانها أن تکون بمثابة الدلیل علی الکلام السابق، وهی أنّ عامل جبایة الزکاة لا ینبغی له الغفلة عن هذه الحقیقة، وهی أنّه بوصفه عاملًا علی جمع الزکوات له حقّ معیّن وسهم خاصّ من هذا المال، وأنّ الطوائف الأخری من المستحقّین للزکاة هم شرکاء معه فی هذا المال، فإنّ لم یراع حقّهم فی هذا المال فإنّ مصیره یوم القیامة سیکون وخیماً، یقول الإمام علیه السلام: «وَإِنَّ لَکَ فِی هذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِیباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَکَاءَ أَهْلَ مَسْکَنَةٍ، وَضُعَفَاءَ ذَوِی فَاقَةٍ، وَإِنَّا مُوَفُّوکَ حَقَّکَ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ».

و هذا الکلام إشارة إلی عدم معاملة أموال الزکاة کالمعاملات الخصوصیة أوالشخصیة، فطبقاً لصریح القرآن الکریم، أنّ هذه الأموال مشترکة بین ثمان طوائف من الناس.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۹۶

ویبیّن الإمام علیه السلام الآثار السیّئة والمضرّة للتخلّف عن هذه التوصیات ویقول:

«وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّکَ مِنْ أَکْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً یَوْمَ الْقِیَامَةِ».

وهو إشارة إلی أنّ الإنسان عندما یقف فی محکمة العدل الإلهیّ فربّما یواجه بعض الشاکین والمخالفین، ویستطیع أحیاناً کسب رضاهم بشکل من الأشکال وأحیاناً أخری یواجه آلافاً مؤلّفة من الشاکین والساخطین علیه بحیث لا یستطیع کسب رضا الجمیع، والأشخاص الذین یخونون بیت المال ویسرقون من الزکاة هم من هذه الفئة من الناس.

ویستمرّ الإمام فی بیان توصیاته فی هذا الشأن ویقول: «وَبُؤْسَی [۳۵۲] لِمَنْ- خَصْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ- الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاکِینُ وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ [۳۵۳]، وَالْغَارِمُونَ وَابْنُ السَّبِیلِ».

ومفردة «الْفُقَراء»، «المَساکین»، «السائِلون» و «المَدْفُوعُون» کلّها تشیر إلی جماعة المحتاجین والمحرومین مع هذا الفارق، وهو أنّ الکثیر من المفسّرین للقرآن یعتقدون بأنّ المسکین هو أسوء حالًا من الفقیر، وکأنّه من شدّة فقره بلغ حدّاً أن جلس علی الأرض، (لأنّ المسکین من السکون) فیجب علی المسؤولین أن یهتمّوا بشکل خاصّ برعایة هذه الشریحة من الناس، لأنّهم ربّما لا یظهرون حاجتهم ویمدّون أیدیهم إلی الناس وحتّی إلی بیت المال حیاءً وخجلًا، فی حین أنّ السائلین أزاحوا ستار الخجل والحیاء واضطرّوا لسؤال الناس ومدّوا أیدیهم لطلب المعونة والمساعدة، و (المدفوعون) هم الأشخاص الذین یعیشون الغنی وعدم الحاجة بالقوّة لا بالفعل، یعنی یملکون أموالًا کافیة، ولکنّ الغاصبین قد أخذوا منهم أموالهم وحرموهم من حقّهم وجعلوا منهم فقراء ومحتاجین.

وأمّا «الغارِمُون» فتعنی المدینین الذین عجزوا عن تسدید دیونهم إلی أصحابها،

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۲۹۷

أو الذین أعلنوا إفلاسهم، من الکسبة والتجّار، بدون تقصیر منهم.

وذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة، إلی أنّ «مَدْفُوعون» تعادل کلمة «فی سَبیلِ اللَّه» الواردة فی مصارف الزکاة باعتبار أنّ هؤلاء مدفوعون لأعمال معینة بمنطلقات دینیة إلهیّة، و «السائلون» تقع فی مقابل «فی الرقاب» الواردة فی الآیة الشریفة باعتبار طلبهم التحرّر من الرّق والعبودیة، وعلی ضوء ذلک مصارف الزکاة الثمانیة الواردة فی الآیة الشریفة ذکرت ستّة منها فی هذه الرسالة، وأحد مصارف الزکاة هو «العاملون علیها»، أی العاملین علی جمع الزکاة، فالإمام أشار إلی ذلک سابقاً، وبقی المورد الثامن من المستحقّین للزکاة وهو

المؤلفة قلوبهم حيث لم يرد فيه كلام الإمام عليه السلام بسبب أنّ هذا المورد لم يكن محلّ ابتلاء فى ذلك الوقت، مضافاً إلى أنّ العلّامة المجلسى ذكر بأنّ الإمام عليه السلام فى هذا الكلام لم يكن بصدد ذكر جميع الموارد الثمانية لمصارف الزكاة حتّى يتكلّف البعض تأويل كلمات الإمام عليه السلام بما يتّفق مع ما ورد فى الآية الشريفة.

ويطرح الإمام عليه السلام فى سياق كلامه استدلالًا متيناً فى ما يؤول إليه خونة بيت المال ومصيرهم السيّء فى الدنيا والآخرة ويقول: «وَمَن اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ، وَرَتَعَ [۳۵۴] فِى الْخِيَانَةِ، وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَ [۳۵۵] بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَالْخِزْىَ فِى الدُّنْيَا، وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى .

أمّا الذلّة والفضيحة فى الدنيا فتعود إلى أنّ الخيانات المتكرّرة لا تكاد تخفى على الآخرين فعاجلًا أم آجلًا سيفتضح الخائن وينظر إليه الناس بنظر الإزدراء والاحتقار ويلبس ثوب المذلّة والمهانة فى واقع الحياة والمجتمع، وأمّا فى الآخرة وعندما تقدّم للناس صحائف أعمالهم فذلك «يوم البروز» حيث تبرز الأعمال

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۹۸

الخفية وتنشر الملفّات وتذاع الأسرار على أهل المحشر، وهنا ستكون الفضيحة العظمى والخزى الأنكى.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لم يكتفِ هنا بالتعبير بالخيانة فى الأمانة فقط، بل إنّه اعتبر أنّ الاستخفاف و «اسْتَهانَ بِالْامانَةِ» يعدّ منقصة كبيرة وعيباً أخلاقياً، وهذا يعكس الأهمية الفائقة للأمانة.

يشير الإمام عليه السلام فى ختام هذه الرسالة إلى نقطة أخرى، وهى أنّ الخيانة تارةً تكون بالنسبة لشخص معيّن، وأحياناً أخرى ترتكب فى حقّ الامّة، ومعلوم أنّ الخيانة فى حقّ الامّة أقبح وأخطر من الاولى، يقول: «وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ [۳۵۶] الْغِش [۳۵۷] غِشُّ الْأَئِمَّةِ، وَالسَّلَامُ».

والعلّة فى ذلك واضحة، لأنّ الإنسان إذا ارتكب خيانة فى حقّ شخص أو عدّة أشخاص فربّما يندم يوماً ويتحرّك على مستوى البحث عن هؤلاء الأشخاص والاعتذار منهم وكسب رضاهم، ولكن إذا كانت الخيانة متوجّهة إلى الامّة فإنّ جبرانها سيكون عسيراً جدّاً وقد يكون محالًا، أضف إلى ذلك أنّ خيانة الامّة تفضى إلى الخيانة لإمام الامّة، وكسب رضا الإمام لا يعدّ أمر يسيراً.

وقد استفادالإمام عليه السلام فى هذه العبارة من مفردتين، احداهما: الخيانة، والآخرى:

الغشّ، وذلك من جهة أنّ الكثير من الخونة يستخدمون اسلوب الغشّ لإخفاء خيانتهم، وفى الحقيقة أنّهم يرتكبون مخالفتين، إحداهما الغشّ والأخرى الخيانة، ومن هذه الجهة أشار الإمام عليه السلام إلى كلا الأمرين، والسبّب فى أنّ الإمام عليه السلام ذكر الغشّ فيما يتّصل بالأئمّة، هو أنّ الخونة يخشون من الإمام وقادة الامّة، ولهذا السبب يخفون أعمالهم الشائنة وخيانتهم بطريقة الغشّ والخداع.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۲۹۹

تأمّلان

۱. الأصناف الثمانية لمستحقّى الزكاة

ورد فى القرآ الكريم فى الآية ۶۰ من سورة التوبة بيان للموارد الثمانية لمصرف الزكاة، تقول الآية الشريفة: «إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقابِ وَالْغارِمينَ وَفِى سَبيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ»، ويمكن اختزال هذه المصارف والموارد الثمانية فى ثلاثة أصول كليّة:

الأول: المحتاجون ويشمل الفقراء المساكين والعبيد الذين يعيشون التعب والإرهاق من شدّة العمل، والغارمين ومن واجه الضيق والإفلاس فى تجارته وعمله بدون تقصير منه، وكذلك من بقى فى طريق السفر بدون مؤنة أو مال، وهذه الطوائف الخمسة تعتبر من المحتاجين، فبعضهم يحتاج لمعاشه اليوميّ من الطعام والملبس والمسكن، وبعضهم يحتاج للمال لتسديد دينه، وثالث يحتاج للمال بسبب عجزه عن مواصلة سفره لعدم المال وفقدان المتاع (وإن كان فى وطنه غنياً وغير محتاج)، وبعضهم يحتاج لإنقاذ نفسه من قيود الرقّ والعبودية.

الطائفة الثانية: الأشخاص الذين يعملون فى شأن الضرائب وجمع الزكوات وحفظها وإيصالها إلى بيت المال فيجب أن يدفع لهم اجرة المثل لعملهم.

الطائفة الثالثة: المنافع العامة للمسلمين، نفقات الجهاد فى سبيل اللّه، بناء المساجد، تأسيس المدارس، نشر وتبليغ الرسالة الإلهيّة، ولتأليف قلوب غير المسلمين وجذبهم نحو الإسلام، فهذه المصارف تتمّ تغطيتها من مال الزكاة، وهذه الطوائف الثلاث وردت فى القرآن الكريم على شكل ثمانية موارد، وفى الحقيقة أنّ هذا الحصر فى استحقاقات الزكاة يستوعب جميع حاجات المجتمع الإسلامى، ولو تمّ دفع الزكاة (وكذلك الخمس) بشكل دقيق ومدروس، فإنّ قسماً مهمّاً من المشاكل المالية سيتمّ حلّها وسدّ أشكال الخلل الاقتصادى بهذه الطريقة، كما ورد هذا المعنى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۰۰

فى الروايات الشريفة، يقول الإمام الصادق عليه السلام «لَوْ أَنَّ النَّاسَ أَدَّوْا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ مَا بَقِیَ مُسْلِمٌ فَقِيراً مُحْتَاجاً ... وَإِنَّ النَّاسَ مَا افْتَقَرُوا وَلَا احْتَاجُوا وَلَا جَاعُوا وَلَا عَرُوا إِلَّا بِذُنُوبِ الْأَغْنِيَاء»[۳۵۸].

۲. الأمانة، أصل القيم الأخلاقية فى الإسلام

تعتبر الأمانة وإلى جانبها الصدق، أصلان مهمّان فى التعاليم الدينية والمفاهيم القرآنية، ولا ينعكس هذان الأصلان الأخلاقيان بشكل كبير فى القرآن الكريم والروايات الإسلاميّة فحسب، بل يعدّان من جملة تعاليم ومبادىء جميع الأنبياء عليهم السلام، فنقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيّاً إِلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ»[۳۵۹].

وهذان الأصلان إلى درجة من الأهمية بحيث أنّهما يعدّان من علائم الإيمان والتقوى الرئيسية، كما ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «لَا تَنْظُرُوا إِلَى كَثْرَةِ صَلَاتِهِمْ وَصَوْمِهِمْ وَكَثْرَةِ الْحَجِّ وَالْمَعْرُوفِ وَطَنْطَنَتِهِمْ بِاللَّيْلِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ»[۳۶۰].

وفى حديث مماثل يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لَا تَغْتَرُّوا بِصَلَاتِهِمْ وَلَا بِصِيَامِهِمْ فَإِنَّ الرَّجُلَ رُبَّمَا لَهِجَ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ حَتَّى لَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ وَلَكِنِ اخْتَبِرُوهُمْ عِنْدَ صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ»[۳۶۱].

وقد وردت مثل هذه المضامين المثيرة فى روايات أخرى كذلك.

والعلّة فى كلّ هذه التأكيدات لا تحتاج إلى كثير بيان، لأنّ أهمّ رأسمال المجتمع الإسلامى هو الاعتماد المتقابل والثقة المتبادلة بين أفراده، فلو انعدم هذا الاعتماد

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۰۱

وزالت الثقة بين الأفراد، فإنّ ذلك من شأنه إضعاف حالة التعاون وتوهين عنصر التكاتف بين الناس، والعامل الأساس فى تقوية الاعتماد والتكاتف بين الناس يتمثّل فى مبدأ الأمانة والصدق فى التعامل والتواصل فى فضاء المجتمع، لأنّ الخيانة والكذب يؤدّيان إلى انهدام صرح الاعتماد والثقة المتبادلة فيتحوّل المجتمع البشرىّ فى النهاية إلى صحراء مقفرة من المعنويات وتسود حينئذٍ شريعة

الغاب فلا يجد الإنسان مفرّاً من الجفاف المعنوىّ، وتتعمّق حالات الكراهية المتولّدة من حالات الصراع.

ومن أشنع أشكال الخيانة، كما أشار الإمام عليه السلام إلى ذلك فى هذه الرسالة، خيانة الامّة وخيانة بيت المال والحكومة الإسلاميّة، والتى تترتّب عليها آثار مدمّرة وعواقب وخيمة أشدّ بكثير من الخيانات الفردية.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۰۳

الرسالة ۲۷

اشارة

إلى مُحَمَّدِ بْنِ أبى‌بَكْرٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حينَ قَلَّدَهُ مِصْرَ[۳۶۲]

نظرة إلى الرسالة

ورد فى كتاب الغارات أنّ عليّاً عليه السلام لما أجاب محمّد بن أبى بكر رحمه الله بهذا الكتاب كان محمّد ينظر فيه ويتعلّمه ويقضى به، فلّما ظهر عليه عمرو بن العاص أخذ كتبه أجمع فبعث بها إلى معاوية بن أبى سفيان، وكان معاوية ينظر فى هذا الكتاب ويعجبه، فقال الوليد بن عقبة وهو عند معاوية لمّا رأى إعجاب معاوية به: مر بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال له معاوية: مه، يابن أبى معيط أنّه لا رأى لك، فقال له الوليد: إنّه لا رأى لك، أتريد أن يعلم الناس أنّ أحاديث أبى تراب عندك؟! تتعلّم منها وتقضى بقضائه؟! فعلام تقاتله؟! فقال معاوية: ويحك أتأمرنى أن أحرق علماً مثل هذا؟! واللَّه ما سمعت بعلم أجمع منه ولا أحكم ولا أوضح، فقال الوليد: إن كنت

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۰۴

تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله؟ فقال معاوية: لولا أنّ أبا تراب قتل عثمان ثمّ أفتانا لأخذنا عنه، ثم سكت هنيئة ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنّا لا نقول: إنّ هذه من كتب علىّ بن أبى طالب، ولكن نقول: إنّ هذه من كتب أبى بكر الصديق كانت عند ابنه محمّد بن أبى بكر.

فلم تزل تلك الكتب فى خزائن بنى امية حتى ولّى عمر بن عبدالعزيز فهو الذى أظهر أنّها من أحاديث علىّ بن أبى طالب عليه السلام.

ويضيف صاحب الغارات: فلما بلغ- يعنى استشهاد محمّد بن أبى‌بكر- علىّ ابن أبى طالب عليه السلام وأنّ ذلك الكتاب صار إلى معاوية اشتدّ ذلك عليه (يعنى لماذا مثل هذا الكتاب الرائع الزاخر باللؤلؤ والمرجان يقع بيد من ليسوا أهلًا لذلك)[۳۶۳].

وكيف كان، فإنّ هذه الرسالة طبقاً لما ذكره المرحوم السيد الرضى، تتضمّن عدّة مقاطع: الأول: أنّ الإمام عليه السلام يأمر بلزوم رعاية التواضع وإقامة العدل فى معاملة الناس والتواصل معهم من موقع الرأفة والمحبّة، وفى ذات الوقت الإهتمام بإبراز القوّة والقدرة فى مقابل قوى الجور والثروة.

وفى المقطع الثانى: يتحدّث الإمام عليه السلام بشكل كلّى وشامل عن إحدى صفات المتّقين فى تعاملهم مع الدنيا والنعم المادية فى عبارات بليغة وزاخرة بالمعانى العميقة، ويبيّن كيف أنّ هؤلاء المتّقين يستخدمون هذه النعم الإلهيّة فى الدنيا دون أن يتوّرطوا فى مهاوى الخطيئة ويقعوا فى شباك حبّ الدنيا.

ويشير الإمام عليه السلام فى المقطع الثالث، إلى نهاية الحياة وحلول الأجل ويتحدّث بكلمات بليغة بحيث أنّ التدقيق فى مضامينها والتمعّن فى معانيها من شأنه إيقاظ كلّ إنسان من سبات الغفلة.

ويلفت الإمام عليه السلام فى المقطع الرابع نظر محمّد بن أبى بكر إلى أهميّة وخطورة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۰۵

هذه المهمّة التى كلّفها به (أى حكومة مصر)، ويشير عليه ببعض التوصيات اللازمة فى هذ المجال.

وفى المقطع الخامس والأخير، يعود الإمام لبيان تحليل كلّى وشامل فى الحديث عن الفرق بين قادة الهدى والحقّ وقادة الضلال والباطل ويشير إلى خطر المنافقين فى المجتمع الإسلامى.

وبعد الالتفات إلى أنّ وثيقة العهد هذه مطوّلة بدرجة كبيرة لم يتمكّن السيد الرضىّ من ذكرها كلّها فى كتابه، ولذلك اختار بعض الفقرات والمقاطع منها، وقد وردت هذه الرسالة كلّها فى كتاب الغارات ونهج‌البلاغة الكامل وغيرهما.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۰۷

القسم الأول

اشارة

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَکَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَکَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَکَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِى اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، حَتَّى لَايَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِى حَيْفِکَ لَهُمْ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِکَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَائِلُکُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِکُمْ وَالْکَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَکْرَمُ.

الشرح والتفسير: حسن الخلق مع جميع الأفراد

كما تقدّمت الإشارة إليه آنفاً فإنّ القسم الأول من هذا الرسالة ناظر إلى سلسلة من التوصيات الأخلاقية التى أمر الإمام عليه السلام واليه محمّد بن أبى بكر بالالتزام بها فى تواصله وتعامله مع الناس، والواقع أنّ المسلمين جميعاً يجب أن يكونوا كذلك فى توثيق وشائج المودّة والعلاقة بينهم، وهذه التوصيات تتمثّل فى أربعة أمور:

الأوّل: لزوم رعاية المودّة والمحبّة لجميع الأفراد فى المجتمع، يقول الإمام عليه السلام:

«فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَکَ».

وهذا التعبير مقتبس من القرآن الكريم فى رسم كيفية تعامل النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله مع المؤمنين حيث تقول الآية الشريفة: «وَاخْفِضْ جَنَاحَکَ لِمَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»[۳۶۴]، وهذا تعبير كنائىّ مستوحىً من سلوك الطير مع فراخه، فعندما تأتى الفراخ إلى امّها فإنّ هذه الامّ ستفتح جناحها لهم وتجمع هؤلاء الفراخ تحت جناحيها إظهاراً

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۰۸

للمحبّة لها وحماية لهذه الفراخ من الأذى.

والأمر الثانى يقول الإمام عليه السلام: «وَأَلِنْ [۳۶۵] لَهُمْ جَانِبَکَ».

وهذا التعبير أيضاً من القرآن الكريم حيث يقول: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ»[۳۶۶].

وفى الأمر الثالث يقول الإمام عليه السلام: «وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ».

فلا ينبغى التعامل مع أىّ فرد من أفراد المجتمع بوجه عبوس وظاهر متجّهم، والحديث معهم بمنطق الاستعلاء والغرور، فإنّ هذا من شأنه إبعاد الناس عنك وتشتّتهم عن مركز القيادة، كما ورد هذا المعنى فى القرآن الكريم حيث يأمر نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله ويقول: «وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ»[۳۶۷].

والأمر الرابع ناظر إلى إقامة العدل فى جميع مناحى الحياة حتى فى جزئيات الأمور، يقول الإمام عليه السلام: «وَآسِ ۳۶۸] بَيْنَهُمْ فِى اللَّحْظَةِ[۳۶۹] وَالنَّظْرَةِ، حَتَّى لَايَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِى حَيْفِكَ ۳۷۰] لَهُمْ ۳۷۱] وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ ۳۷۲]».

وهذا إشارة إلى أنّه لو حضر عندك رجل ثرىّ وذو نفوذ مع رجل ضعيف ومعدم لتقضى بينهم، أو لغرض آخر، فينبغى عليك مراعاة العدالة بينهما إلى حدّ أنّك إذا نظرت لحظات معدودة لأحدهما فيجب أن تنظر إلى الآخر بهذا المقدار أيضاً ولا

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۳۰۹

تهتمّ وتصغى للغنىّ أكثر من اهتمامك وإصغائك للفقير والضعيف، فلو أنّك راعيت مقتضيات العدالة فى هذه الجزئيات الصغيرة فسوف تستطيع بطريق أولى رعاية العدالة فى الأمور الأهمّ ولا يتوقّع منك الظلم والجور والانحياز لفئة خاصّة على حساب فئة أخرى.

وهذا هو الحكم الشرعى فى باب القضاء الإسلامى وفى مورد رعاية القاضى للعدالة بين المتخاصمين حيث يجب عليه مراعاة المساواة والعدالة بين المتخاصمين فيما لو حضرا عنده، فلو أرادا الجلوس فعليهما أن يجلسا معاً، وإذا عزما على الوقوف، عليهما الوقوف سويّة، فلو أنّ القاضى سلّم على أحدهما فيجب عليه أن يسلّم على الآخر، وإذا نظر إلى أحدهما لحظات فعليه أن ينظر للآخر بذلك المقدار، وإصرار الإسلام على رعاية مثل هذه التوصيات والمقرّرات إنّما هو لمنع أىّ شكل من أشكال الظلم والجور، ولا نتصوّر أنّ مثل هذا القانون فى رعاية أصل العدالة موجود فى أىّ من القوانين القضائية فى عالمنا المعاصر وبمثل هذه الدقّة.

وقد ورد فى حديث نقله الكلينى فى الكافى عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «مَنِ ابْتُلِىَ بِالْقَضَاءِ فَلْيُوَاسِ بَيْنَهُمْ فِى الْإِشَارَةِ وَفِى النَّظَرِ وَفِى الْمَجْلِسِ»[۳۷۳].

ومثل هذا المعنى ورد أيضاً فى الرسالة ۴۶ من نهج‌البلاغة والتى كتبها الإمام عليه السلام لأحد عمّاله.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه وتوصياته ويذكر علّة هذا الحكم ويقول: «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ».

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۳۱۱

القسم الثانى

اشارة

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِى دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِى آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِىَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ؛ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ؛ وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِى دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللَّهِ غَداً فِى آخِرَتِهِمْ. لَاتُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ.

الشرح والتفسير: الدنيا والآخرة لمن يعيش البساطة والزهد

فى هذا المقطع من الرسالة تحدّث الإمام عليه السلام عن موضوع شامل فى بيان صفات المتقّين وامتيازاتهم وخصالهم ليكون ذلك

درساً لمحمّد بن أبى بكر ولسائر أهالى مصر، يقول الإمام عليه السلام بداية:

«وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِى دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُوا[۳۷۴] أَهْلَ الدُّنْيَا فِى آخِرَتِهِمْ».

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام تعرّض لشرح وتوضيح هذا العبارة فقال: «سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۳۱۲

مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِىَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ ۳۷۵]، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ»، (أى بعيداً عن التكلّف والتكالب على زخارف الدنيا فى تنميق المساكن وتزيين القصور). وأكلوها بأفضل ما اكلت (الطعام الحلال والبسيط والبعيد عن التلوّث والإسراف).

ومفهوم هذا الكلام لا يعنى أنّ المتقّين الزاهدين يهتمّون بالجلوس على الموائد الملوّنة والسكن فى القصور المجللة وارتداء الملابس الأنيقة، بل المراد من ذلك أنّ هؤلاء فى حياتهم البسيطة يتنعّمون منها كما يتنعّم أهل الدنيا، لأنّهم من جهة يسعون لتوفير ما يحتاجون إليه من المأكل والملبس والمسكن، وبالتالى فإنّهم يتنعّمون بها أيضاً، لأنّ الإنسان المحتاج عندما يحصل على مقصوده ويحقق مراده فإنّه يشعر باللذّة والراحة، كالإنسان الجائع عندما يأكل طعاماً بسيطاً، ومن جهة أخرى أنّهم يعلمون أنّ ما يملكونه قد حصلوا عليه من طريق حلال وأنّ اللَّه رزقهم هذه النعم بطريق مشروع، فلا تترتّب عليه العقوبة الاخروية، وبالتالى ينتفعون من هذه النعم والمواهب بروح هادئة وقلب مطمئن ومشاعر منفتحة.

والكثير من الأشخاص الذين يعيشون فى بيوت صغيرة ويملكون وسائل بسيطة من الأثاث ويأكلون ويلبسون ما توفّر لهم من الطعام الزهيد الثمن واللباس المناسب، يعيشون فى ذات الوقت معنويات عالية ولا يجدون فى أنفسهم امتعاضاً أو شكاية من حالهم، وبذلك يحسّون بالطمأنينة والهدوء النفسىّ فى واقع الحياة ويشعرون بالسعادة وطيب الخاطر، فى حين أنّ غالبية الأثرياء الذين يسكنون القصور المجللة ويملكون أفضل وسائل العيش ويجلسون على موائد ملوّنة وتجلب لهم أنواع الأطعمة؛ يعيشون الاضطراب والقلق فى حياتهم، وأحياناً تصيبهم الكآبة المزمنة والأمراض النفسية، والتجارب فى هذا الموضوع تؤكّد صحة ما ذكره الإمام علىّ عليه السلام فى العبارة أعلاه.

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۳۱۳

أضف إلى ذلك أنّ المتقين وبسبب حياتهم البسيطة والبعيدة عن الترف والتجمّل، عندما يحين أجلهم ويتركون الدنيا فإنّهم لا يشعرون بالحسرة فى قلوبهم عليها، ولكن المستهترين المتكبّرين والمترفين الذين عاشوا حياة الترف والتكالب على ملذّات الدنيا وزخارفها عندما يحين أجلهم فسوف يعيشون أشدّ الحسرات على ما سيتركونه من نعيم ولذّة، وبخاصّة إذا كانوا يعتقدون باليوم الآخر ويعلمون أنّهم سيحملون وزر هذه الثروات والخطايا على أعناقهم يوم القيامة.

غِنى النَّفسِ يُغنيها إذا كُنتَ قانِعاًوَلَيسَ بِمُغنيكَ الكَثيرُ مِنَ الحرصِ

وَإنَّ اعتِقادَ الهَمّ للخَيرِ جامعٌوقِلَّةَ هَمِّ المَرءِ تَدعُو إلى النَّقصِ

ويستمرّ الإمام عليه السلام فى كلامه عن خصال المتقّين ويقول: «ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ ۳۷۶]، وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِى دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللَّهِ ۳۷۷] غَداً فِى آخِرَتِهِمْ، لَاتُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ».

جملة: «لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ» إشارة إلى ما ورد فى الآية الشريفة: «لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ»[۳۷۸].

وجملة: «وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ» إشارة إلى قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ»[۳۷۹].

وذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ عبارة: «لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ» ناظرة لحال المتقين فى هذا الدنيا، فإنّهم وبسبب إيمانهم وحسن يقينهم وصلاح عملهم مستجابو الدعوة، فلا ينقص لهم شىء من لذّات الدنيا، ولكن هذا التفسير بعيد عن

الصواب، لأنّ الجملة بعد هذه العبارة تتحدّث عن الآخرة، وأمّا

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۱۴

حال المتقين فى الدنيا فقد ورد فى العبارات والجمل السابقة، وكما أسلفنا فإنّ هاتين الجملتين إشارة إلى ما ورد فى الآيات القرآنية بهذا المضمون.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۱۵

القسم الثالث

اشارة

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِى بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، خَطْبٍ جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لَايَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً أَوْ شَرٍّ لَايَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا! وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ؛ وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ. فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ. دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ وَلَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللَّهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً لِلَّهِ.

الشرح والتفسير: تحذيرات متوالية

يتحدّث الإمام عليه السلام فى المقطع من هذه الرسالة مرّة أخرى عن موضوع كلّى وعامّ يشمل مخاطبه محمّد بن أبى بكر وكذلك جميع الناس، وجاء فى مطلع هذه الرسالة التى ينقلها السيد الرضى، أنّ الإمام عليه السلام يأمر محمّد بن أبى بكر أن يقرأها على جميع الناس، يقول: «فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِى بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ ۳۸۰] جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لَايَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً، أَوْ شَرٍّ لَايَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً».

وقد قلنا مراراً أنّ الإنسان حتى لو شكّ فى أىّ أمر من الأمور فإنّه لا يشكّ فى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۱۶

الموت ونهاية الحياة، حيث يشمل جميع أفراد البشر بدون استثناء، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ الموت يمثّل بداية الحركة باتّجاه الآخرة، فينبغى للإنسان أن يأخذ العدّة ويتهيّأ لهذا السفر الطويل ويعمل على توفير ما يحتاجه لضمان سلامة مسيرته الأبدية.

ومن هذا المنطلق يعتبر الإمام علىّ عليه السلام الموت مرحلة مصيرية ومنعطف خطير فى حياة الإنسان حيث يقوده إلى إحدى جهتين، فإمّا الحياة الطيّبة الزاخرة بالسعادة والحبور والسلامة وهى الجنّة الخالدة التى جعلها اللَّه تعالى للصالحين من عباده، أو جهة العذاب الأليم والمصيرالسيّء الذى لا يمكن الخلاص منه والنجاة من آلامه أبداً، وكما أنّ الإنسان لا يعلم من أىّ الطائفتين سيكون مصيره فلذلك ينبغى له التزام الحذر والاحتياط فى هذا السفر الخطير.

وبالنسبة للفرق بين «أمرٍ عظيم» و «خَطْبٍ جَليل» ففى حين أنّ هاتين العبارتين متقاربتان فى المعنى فإنّ شرّاح نهج‌البلاغة على حدّ علمنا واطّلاعنا لم يتحدّثوا فى هذا المجال، ولكن ربّما تكون عبارة «أمر عظيم» إشارة إلى الانتقال من هذه الدنيا والسفر إلى العالم الآخر بدون إمكانية العودة، أمّا بالنسبة «خطب جليل» إشارة إلى حساب الأعمال وما يترتّب عليها من جزاء ومثوبة، ويحتمل أيضاً أنّ

«أمر عظيم» إشارة إلى جملة «خَيْرٌ لايَكُونُ مَعَهُ شَرّ أبداً» و «خطب جليل» الذى يوحى فى مفهومه بالمصيبة الكبيرة، هو إشارة إلى جملة «شَرّ لا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرُ أبداً».

وهنا يفرض هذا السؤال نفسه، وهو أنّ الإمام عليه السلام فى هذه العبارة قسّم الناس إلى طائفتين فقط، فطائفة ينعمون بالسعادة الأبدية ويعيشون حالات الخير والبركة التى لا يمتزج معها شرّ أبداً، وطائفة على العكس من ذلك، وهم الغارقون بالشرور المصائب، ولا يتاح لهم الحصول على خير أبداً، فى حين أننا نعلم بوجود طائفة ثالثة أيضاً وفقاً لما ذكره القرآن الكريم حيث يقول: «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»[۳۸۱].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۱۷

وقد أجاب شرّاح نهج‌البلاغة عن هذا السؤال بإجابات مختلفة، وأحياناً تكون مقترنة بالكثير من التعسّف والتكلّف، ولكن أوضح جواب هو أنّ الإمام عليه السلام فى هذا الكلام ناظر إلى أفراد متميّزين يسيرون فى خطّ الطاعة أو العصيان، وليس ناظراً إلى جميع الأفراد، وبعبارة أخرى أنّ مثل هذا الحصر هو حصر إضافىّ ناظر إلى المؤمنين الكاملين فى الإيمان الذين بلغوا الذروة فى مراتب الإيمان والإخلاص، وكذلك رموز الكفر والظلم، لا أنّه حصر حقيقىّ يشمل جميع الأفراد.

وقد ورد فى القرآن الكريم عبارات من هذا القبيل أيضاً، مثلًا نقرأ فى سورة هود: «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ* فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا ...* وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا»[۳۸۲].

وجاء فى حديث عن الإمام الجواد عليه السلام عن آبائه الكرام عليهم السلام: قيل لأميرالمؤمنين عليه السلام: صف لنا الموت فقال: «هُوَ أَحَدُ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ يَرِدُ عَلَيْهِ إِمَّا بِشَارَةٌ بِنَعِيمِ الْأَبَدِ وَإِمَّا بِشَارَةٌ بِعَذَابِ الْأَبَدِ وَإِمَّا تَحْزِينٌ وَتَهْوِيلٌ وَأَمْرُهُ مُبْهَمٌ، لَاتَدْرِى مِنْ أَىِّ الْفِرَقِ هُوَ فَأَمَّا وَلِيُّنَا الْمُطِيعُ لِأَمْرِنَا فَهُوَ الْمُبَشَّرُ بِنَعِيمِ الْأَبَدِ»[۳۸۳].

وفى آخر هذه الرواية ورد أيضاً أنّ بعض أفراد الطائفة الثالثة سيمكثون مدّة معينة فى النار ثمّ تشملهم شفاعة أهل البيت عليهم السلام، وطائفة منهم سينالون الشفاعة بعد مدّة طويلة.

ومن هنا يتبيّن ما ذهب إليه ابن أبى‌الحديد فى تفسير هذه العبارة بما يؤيّد مذهبه، حيث قال: «قوله: فإنّه يأتى بأمر عظيم ... نصّ صريح فى مذهب أصحابنا فى الوعيد، وأمّا من دخل النار من جميع المكلّفين فليس بخارج، لأنّه لو خرج منها لكان الموت قد جاء بشرّ معه خير، وقد نفى نفياً عاماً أن يكون مع الشرّ المعقب للموت خير البتة»[۳۸۴]، وهذا الكلام غير سديد ولا يتوافق مع سائر كلمات الإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۱۸

والآيات القرآنية الشريفة، والمراد هنا بيان حال طائفتين من المؤمنين الخالصين والكافرين كذلك، أمّا الأشخاص الذين ورد ذكرهم فى الآية الشريفة من سورة التوبة: «خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً»، فإنّهم قطعاً لم يكونوا مورد نظر الإمام عليه السلام فى هذه العبارة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام بيّن شرط دخول الجنّة وسبب دخول النار فى جملتين قصيرتين: «فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا، وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا».

وهذا يشير إلى أنّ الأصل فى تعيين مصير الإنسان هو العمل والسعى، لا الآمال والتمنّيات، فالأعمال هى التى تقود الإنسان إلى الجنّة أو إلى النار، فحتّى شفاعة الشفعاء تقع فى الهامش ولا تشكلّ أصلًا أساسياً فى النجاة.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام يقول هنا أنّ العاملين للجنّة هم أقرب الناس إليها، والعاملين للنار، أى السائرين فى خطّ المعصية والضلالة، هم أقرب الناس إلى النار، ولم يقل إنّ العاملين للأعمال الصالحة والأعمال السيئة، وهذا يعدّ كناية لطيفة عن أنّ العمل الصالح كأنّه هو الجنّة، والمعصية والذنب والعمل الطالح كأنه هو النار.

ثمّ يشيرالإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمّة، وهى أنّ الموت لا يترك أحداً ينجو منه ويتخلّص من الوقوع فى مصيدته، وبما أنّ

الأمر، كذلك فينبغى التزام الجدّية والاهتمام بهذا الأمر، يقول: وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ[۳۸۵] الْمَوْتِ، إنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُم مِنْ ظِلِّكُمْ الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ ۳۸۶]، وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ».

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۳۱۹

وأحد معانى عبارة «طُرَدَاءُ الْمَوْتِ هو أنّ الناس بمثابة الصيد الذى يتبعه الصياد، ومفهومها أنّ الصياد بدرجة من الخبرة والقدرة بحيث يصيد البشر سواءً هربوا منه أو لم يهربوا، فلا أحد يستطيع الخلاص من شراكه ومصائده، كما ورد هذا المعنى فى القرآن الكريم: «أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ»[۳۸۷].

وجملة «هُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ» إشارة إلى أنّ عوامل الموت تصحب الإنسان دوماً كالظلّ الذى يتحرّك مع الإنسان أينما ولّى، لأنّ للموت عوامل كثيرة فى عمق وجود الإنسان، أحدها السكتة القلبية أو انقطاع أحد الأوردة الدقيقة فى المخّ، أو دخول مقدار من الغذاء إلى جهاز التنفّس، وكلّ من هذه العوامل يمكن أن يؤدىّ بالإنسان إلى الموت، وفى خارج الإنسان هناك عوامل كثيرة للموت أيضاً منها الحوادث الأليمة كالزلازل والصواعق، السيول، الحشرات المضرّة، الحيوانات المفترسة، وما إلى ذلك من الأمور التى تهدّد حياة الإنسان بالخطر فلا يستطيع أن يهرب إلى مكان لا يوجد فيه شيء من هذا العوامل الخارجية والداخلية للموت.

وعبارة «ألزم» ربّما تكون بسبب أنّ الظلّ لا يصاحب الإنسان فى ظلمات الليل، ولكن عوامل الموت متوفّرة ليل نهار.

وجملة: «الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ» كناية عن أنّكم لا تملكون أيّة مقاومة فى مقابل سلطة الموت القاهرة كما هو حال الشخص الذى اخذ من شعر مقدّم رأسه بحيث يسلبه ذلك أىّ نوع من الحركة.

ويقرّر القرآن الكريم هذه الحقيقة فيما يتّصل بمصير المجرمين فى يوم القيامة ويقول: «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِى وَالْأَقْدام»[۳۸۸].

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۳۲۰

وجملة: «الدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ» إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الإنسان يتجاوز كلّ مرحلة من مراحل الحياة وكأنّها كالفراش الذى يطوى خلف الإنسان، بحيث يمكن إعادته لحالته السابقة، فالشيوخ لا يعودون إلى مرحلة الشباب، والشباب لا يعودون لمرحلة الطفولة، وعلى ضوء ذلك فإنّ كل لحظة تمثّل للإنسان موتاً وحياةً جديدة، الموت الذى لا يمكن معه العودة إلى الحالة السابقة.

وبعد أن بيّن الإمام عليه السلام ما سيواجهه الإنسان فى نهاية الحياة وبعد الموت من حوادث مهولة ومشاكل جسيمة، تحدّث عن عذاب النار والعاقبة الوخيمة لأهل الضلالة فى ذلك اليوم، وقال: «فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ».

وبالنسبة لعمق وادى جنّهم يكفى أن ننقل هذا الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله عندما كان مع أصحابه فى المسجد، فجأة سمعوا صوتاً مدويّاً، استولى عليهم الخوف، وقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «أتَعْرِفُونَ ما هذِهِ الهِدَّة»؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم، فقال: «حَجَر أُلْقِي مِنْ أعْلى جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعينَ سَنَةٍ، الآنَ وَصَلَ إلى قَعْرِها»[۳۸۹].

وبالنسبة لشدّة حرارة جهنّم يكفى أن ننقل ما ورد فى حديث شريف يقول عليه السلام:

«إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّم وَقَدْ أُطْفِئَتْ سَبْعِينَ مَرَّةً بِالْمَاءِ ثُمَّ الْتَهَبَتْ وَلَوْ لَاذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَ آدَمِيٌّ أنْ يُطِيقَهَا»[۳۹۰].

وعن أنواع العذاب وشدّته يوم القيامة يتحدّث القرآن الكريم ويقول: «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذاب»[۳۹۱].

ثم يضيف الإمام عليه السلام فى بيان عذاب النار: «دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ وَلَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ».

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۳۲۱

ونقرأ هـذا المضـمون فى القرآن الكريم: «وَقالَ الَّذينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكَمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذابِ ... قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلال»[۳۹۲].

وفى مورد آخر يقول القرآن الكريم: « «وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ»[۳۹۳].

وكـذلك فى آيـة أخرى يتحدّث القرآن الكريم عن امنيات أصحاب النار: «وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أ وَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمينَ مِنْ نَصير»[۳۹۴].

ويستفاد من رسالة الإمام عليه السلام هذه، والتى ذكرها بتمامها صاحب نهج‌البلاغة الكامل أنّ الإمام عليه السلام بعد أن ذكر الظروف الصـعبة والعـذاب الأـليم لأهـل النار، تعرّض لـذكر بعض النعم الإلهيّـة والرحمـة الواسـعة لأهل الجنّة ولم يـذكرها السـيد الرضـى فى نهج‌البلاغة تبعاً لنهجه فى التلخيص والانتقاء.

وفى هـذا السـياق يتحـدّث الإمام عليه السـلام بعـد أن يـذكر العـذاب الأليم لأهل النار، عن المواهب والنعم الإلهيّـة والنعيم الخالد فى الجنّة، وبذلك يقرّر الأصل الإسلاميّ المهمّ فى التعاليم الإلهيّة، وهى أن يعيش الإنسان بين حالات الخوف والرجاء، ويقول:

«وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللَّهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً لِلَّهِ».

فهنا يشـير الإمام عليه السـلام إلى مسألة مهمّة فى التعاليم الدينية، وهى مسألة الخوف والرجاء وضـرورة أن يعيش الإنسان حالة التعادل والتوازن فى ذلك، وكما سنرى فى بحث التذييل أنّ هذا المفهوم من شأنه أن يخلق فى الإنسان حالة من التوازن

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۳۲۲

فلاييأس من رحمـة اللَّه عندما يسـمع كلام الإمام فى وصف جهنّم وما فيها من العذاب الأليم، ولا يعيش حالة الأمن من العذاب عندما يسمع كلام الإمام عليه السلام فى وصف النعم والمواهب الإلهيّة لأهل الجنّة.

تأمّل: التعادل بين الخوف والرجاء

يعتبر الرجاء عاملًا أساسـياً لتفعيل حركـة الإنسان فى خطّ الصـلاح والسـعادة ويعـدّ بمثابـة المحرّك الـذى يـدفع الإنسان بهـذا الاتّجاه، ويمثّـل الخوف عاملًا كابحـاً لعناصـر الطغيـان والاـنحراف فى مسـيرة الإنسـان ونوازعه النفسـية، فكمـا أنّ وسائـل النقـل من العجلات والسـيارات إذا كانت فاقـدة للمحرّك فسوف تمتنع عليها الحركـة، وإذا كانت فاقـدة للكوابح فسوف يقودها ذلك إلى مهاوى خطيرة وعدم القدرة على تجنّب المطبّات والعوائق، فكلا هذين الأمرين يعدّان أصـلان رئيسـيان فى حركة الإنسان فى خطّ الصـلاح والفلاح، ولابـدّ أن يتوفّر فيهما عنصـرى التعادل والتوازن بحيث يتحرّك الإنسان فى خط الطاعـة والإيمان من جهة ويتجنّب المعاصـى والذنوب من جهة أخرى.

إنّ أهميـة هـذين العاملين فى وجود الإنسان وفى حياته تتجلّى بوضوح عنـدما نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السـلام يتحدّث فيه عن وصايا لقمان عليه السـلام ويـذكر منها أموراً عجيبـة ونصائـح قيّمة، يقول الحارث بن المغيرة، عن أبيه، عن الإمام الصادق عليه السـلام قـال: قلت له: مـا كان فى وصـيّة لقمان؟ قال: كان فيها الأعاجيب، وكان وأعجب ما كان فيها أن قال لابنه: «خَفِ اللَّهَ عزَّ وجَلّ خِيفَـةً لو جِئْتَهُ بِبِرِّ الثَّقَلَينِ لَعَـذَّبَكَ، وَارْجُ اللَّهَ رَجـاءً لَوْ جِئتَهُ بِـذُنوبِ الثَّقَلَينِ لَرَحِمَكَ»، ثم قال أبوعبـداللَّه عليه السـلام: كان أبى (يعنى الإمام الباقر عليه السلام) يقول: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا [وَ] فِي قَلْبِهِ نُورَانِ:

نُورُ خِيفَةٍ وَنُورُ رَجَاءٍ، لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا»[۳۹۵].

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۳۲۳

يقول ابن أبى‌الحديـد بعـد شـرحه لكلاـم الإمام عليه السـلام المـذكور آنفاً: إنّ عليّاً عليه السـلام أمر محمّـد بن أبى بكر أن يجمع بين

حسن الظنّ باللّه والخوف منه، وأنّ هـذا المقام السامى هو مقام لا يناله إلّاالصالحون والأبرار، وينقل حديثاً عن الإمام علىّ بن الحسين عليهما السلام يقول: «لَوْ أنْزَلَ اللّهُ عَزَّوَجَلَّ كِتاباً أنّه مُعَذِّبٌ رَجُلًا واحِداً لَرَجَوْتُ انْ اكُونَهُ اوْ انَّهُ راحِمٌ رَجُلًا واحِداً لَرَجَوْتُ انْ أَكُونَهُ»[۳۹۶].

وهـذه الكلمات تشير بوضوح إلى أنّ عدم التواصل وعدم التعادل بين حالات الخوف والرجاء فى واقع الإنسان يتسبّب فى تكريس حالات الغرور فى الإنسان والاغترار بسعة رحمة اللّه أو يقوده إلى اليأس من رحمة اللّه، وهذا بدوره يعدّ مانعاً يعيق الإنسان عن الحركة فى خطّ الطاعة والعبودية.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۲۵

القسم الرابع

اشارة

وَاعْلَمْ- يَا مُحَمَّدُ بْنَ أَبِى بَكْرٍ- أَنِّى قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِى فِى نَفْسِى أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلَا تُسْخِطِ اللَّهَ بِرِضَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِى اللَّهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ خَلَفٌ فِى غَيْرِهِ. صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ.

الشرح والتفسير: المهمّة الثقيلة

يتحدّث الإمام عليه السلام، فى هذا المقطع من الرسالة مخاطباً محمّد بن أبى بكر، عن أربع توصيات مهمّة، فى البداية يستعرض الإمام عليه السلام مقدّمة ويقول: «وَاعْلَمْ- يَا مُحَمَّدُ بْنَ أَبِى بَكْرٍ- أَنِّى قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِى فِى نَفْسِى أَهْلَ مِصْرَ».

«أجناد» جمع «جُند» وفى الأصل تعنى الجيش، ولكن أحياناً تطلق على المناطق فى البلد الإسلامى، أو على أهالى تلك المناطق، وعلى أيّة حال فإنّ هذه العبارة تشير بوضوح إلى أنّ الإمام عليه السلام كان ينظر إلى أهل مصر بعين الإحترام ويرى أنّهم من أكبر شعوب الامّة الإسلاميّة، لأنّ مصر أرض كبيرة وتاريخية وتملك حضارة قديمة ويعيش فيها اناس واعون وأذكياء وكادحين.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام أوّل وأهمّ توصية له، ويقول: «فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ [۳۹۷] أَنْ تُخَالِفَ عَلَى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۲۶

نَفْسِكَ»، أى أنّ المفروض بك أن تجاهد نفسك وتخالف هواك.

وجهاد النفس فرض على الجميع، ولكنّه أكثر وأشدّ لزوماً على الولاة والقادة ومن بيدهم القرار، لأنّ هؤلاء يعيشون دوماً الوساوس النفسانية والشيطانية، فلو أنّهم غلبوا فى هذا المجال وسيطرت عليهم الأهواء والشهوات فإنّ ذلك من شأنه إشاعة الظلم والفساد فى المناطق التى تحت إمرتهم وولايتهم.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام التوصية الثانية ويقول: «وَأَنْ تُنَافِحَ [۳۹۸] عَنْ دِينِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ».

وبديهىّ أنّ الإنسان المؤمن ينبغى أن يتحرّك بعد الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس، فى طريق الجهاد الأصغر والتصدىّ لقوى الكفر وأعداء الامّة لحفظ الدين وصيانة المقدّسات والمنافحة عن التعاليم السماوية، وفى هذا الأمر يؤكّد الإمام عليه السلام على أنّه لو لم تكن لدى الإنسان سوى ساعة من عمره أو من تواجده فى سدّة الحكم، فينبغى أن لا يكفّ عن الدفاع عن الدّين، ولا يبخل فى بذل الغالى والنفيس فى هذا السبيل.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام التوصيهٔ الثالثهٔ ويقول: «وَلَا تُسْخِطِ اللَّهَ بِرِضَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ».

فأحياناً يجد الإنسان نفسه بين طريقين، فطريق يتوجّه به إلى اللَّه تعالى وكسب رضاه، وطريق آخر يقوده لتحقيق رضا الناس، وفى هذا الطريق يطلب منه الناس أموراً أكثر من حقّهم، وهنا يتميّز المؤمنون الخلّص من غير المؤمنين، فالمؤمنون يتحرّكون دوماً فى خطّ الطاعهٔ وطلب رضا اللَّه تعالى، لأنّهم يعلمون أنّ نيل رضا اللَّه ورعايته من شأنه أن يمنحهم القوّهٔ والحيويهٔ ويمنع عنهم أيّ ضرر ولا يستطيع أيّ شخص أن يلحق بهم الإساءهٔ، فى حين أنّ السعى لكسب رضا بعض المتزلفين

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۳۲۷

والمتملّقين، والإعراض عن رضا اللَّه تعالى، سيجعلهم مكشوفين أمام البلايا وغير قادرين على الدفاع عن أنفسهم.

إنّ ما ذكره الإمام عليه السلام فى توصيته الثالثهٔ لمحمّد بن أبى بكر، ورد أيضاً فى روايهٔ أخرى بوصفه أحد علامات الإيمان الخالص، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «مِنْ صِحَّةِ يَقِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ لَايُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ»[۳۹۹].

والتجربهٔ أثبتت أنّ من يسلك هذا الطريق ويرجّح رضا المخلوق على حساب رضا الخالق سيُحرم رضا الخالق ورضا المخلوق أيضاً، وأمّا من يتحرّك فى طريق نيل رضا اللَّه تعالى، فربّما يتسبّب أحياناً فى غضب البعض وسخطهم عليه، ولكنّه فى النهايهٔ سيحصل على رضا اللَّه ورضا المخلوق أيضاً.

والأهمّ من ذلک ما ورد فى حديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «مَنْ طَلَبَ رِضَا مَخْلُوقٍ بِسَخَطِ الْخَالِقِ سَلَّطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ ذَلِکَ الْمَخْلُوقَ»[۴۰۰].

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام للتوصيهٔ الرابعهٔ لمحمّد بن أبى بكر فى مسألهٔ الصلاهٔ والتى تعتبر أهمّ ركن من أركان الإسلام، يقول: «صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِکَ تَبَعٌ لِصَلَاتِکَ».

وذكر الكثير من شرّاح نهج‌البلاغهٔ أنّ الإمام عليه السلام فى هذه التوصيهٔ بالصلاهٔ، ناظر إلى عدم التعجيل بالصلاهٔ قبل وقتها، مثلًا يصلّى صلاهٔ الظهر قبل الزوال ويصلّى صلاهٔ الصبح قبل طلوع الفجر، بسبب ما يجده من فراغ فى الوقت، ولكن مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ من النادر أن نرى أو نسمع شخصاً يصلّى صلاهٔ الظهر قبل وقتها أو يصلّى صلاهٔ الصبح قبل الفجر، لأنّ هذا المعنى مرفوض وغير مقبول من قِبل جميع الأفراد، فلا معنى لأن يصلّى المكلّف الصلاهٔ قبل وقتها وهو يعلم ببطلانها، ولذلک

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۳۲۸

يوجد هناک احتمال آخر فى تفسير هذه العبارهٔ، وهو أنّ كلام الإمام عليه السلام ناظر إلى أوّل الوقت وآخر الوقت، فيقول: إنّک لا تكن كالشخص الذى يصلىّ أوّل الوقت بسبب الفراغ، وإن كان مشغولًا فى عمل معيّن يؤجّل صلاته لوقت آخر، بل عليک بأن تقيم الصلاهٔ لوقتها على كلّ حال وتترک عملک من أجل الصلاهٔ.

وهذا فى الواقع إشارهٔ إلى ما هو متداول من الشعار المعروف، وهو أنّ الإنسان لا ينبغى أن يقول لصلاته أننى مشغول بعمل، بل يقول لعمله إننى مشغول بالصلاهٔ.

وبديهيّ أنّ الإلتزام بالصلاهٔ فى أوّل وقتها من شأنه أن يمنح الروح طراوهٔ ونورانيهٔ وأنّ نجاحه فى أعماله الأخرى يعود إلى إتيانه بالصلاهٔ فى وقتها حيث تضفى هذه الصلاهٔ بركاتها على حياهٔ المرء وفكره وروحه.

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه يقول: «إِنَّ الصَّلَاةَ إِذَا ارْتَفَعَتْ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ بَيْضَاءُ مُشْرِقَةٌ تَقُولُ حَفِظْتَنِي حَفِظَکَ اللَّهُ وَإِذَا ارْتَفَعَتْ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا بِغَيْرِ حُدُودِهَا رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعَکَ اللَّهُ»[۴۰۱].

وجملهٔ: «وَاعْلَمْ ...»، كما أشرنا إلى ذلک آنفاً يحتمل فيها معنيان، أحدهما: أنّ جميع أعمال الإنسان فى الدنيا تبع لصلاته، فإن أدى

الصلاة بشرائطها، فإنّ بركة هذه الصلاة ستمتدّ لتشمل سائر أعماله وحياته، والآخر: أنّ آثار هذه الصلاة ستتجلّى فى الآخرة، كما ورد فى الروايات: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ فَإِنْ قُبِلَتْ قُبِلَ مَا سِوَاهَا»[۴۰۲].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۲۹

القسم الخامس

اشارة

وَمِنْهُ: فَإِنَّهُ لَاسَوَاءَ، إِمَامُ الْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى وَوَلِيُّ النبىّ، وَعَدُوُّ النبىّ.

لَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله إِنِّي لَاأَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلَا مُشْرِكاً؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللَّهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللَّهُ بِشِرْكِهِ. لَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ.

الشرح والتفسير: الخوف على الامّة من فئة معينة

وفى آخر مقطع من هذه الرسالة، طبقاً لما أورده السيّد الرضىّ وما يستفاد من كلمة «منه»، أنّ ما ورد من كلام الإمام عليه السلام نهج‌البلاغة فى لا يمثّل جميع كلامه وتمام رسالته، بل يمثّل مقطعاً منها، والإمام يلفت النظر فى هذا المقطع إلى هذه الحقيقة الحاسمة والرئيسية ويقول: «وَمِنْهُ: فَإِنَّهُ لَاسَوَاءَ، إِمَامُ الْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى ۴۰۳] وَوَلِيُ النبىّ، وَعَدُوُّ النبىّ».

ومن المعلوم أنّ التعبير ب «إِمَامُ الْهُدَى فى هذه العبارة إشارة إلى نفسه الشريفة، وكلمة ب «إِمَامُ الرَّدَى إشارة إلى معاوية الذى رفع لواء المخالفة والتمرّد خلافاً لأمر النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وإرادة جميع المسلمين، وخاض غمار حروب دامية أدّت إلى سفك دماء المسلمين.

ومفردة «إمام» يراد بها فى الغالب إمام الحقّ، ولكن أحياناً تستعمل فى قادة الضلالة والباطل، كما ورد فى القرآن الكريم: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۳۰

النَّارِ»[۴۰۴]، أى الفراعنة.

والشاهد على أنّ المراد من كلمة «إِمَامُ الرَّدَى معاوية، فمضافاً إلى القرائن الحالية، هناك شواهد مذكورة فى موارد أخرى من هذه الرسالة لم ينقلها السيّد الرضىّ، وطبقاً لما ورد فى هذ الرسالة المذكورة فى كتاب نهج‌البلاغة الكامل، يقول الإمام عليه السلام: «إِيَّاكُمْ وَدَعْوَةُ الْكَذّابِ ابْنِ هِنْد».

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستند فى كلامه هذا إلى حديث عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله يقول:

«وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله: إِنِّي لَاأَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلَا مُشْرِكاً؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللَّهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ ۴۰۵] اللَّهُ بِشِرْكِهِ. وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَ مُنَافِقِ‌الْجَنَانِ ۴۰۶]، عَالِمِ‌اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ».

وهذه هى الحقيقة، فالمؤمنون الحقيقيون يمثّلون درعاً واقية للإسلام والامّة الإسلاميّة، والمشركون يمثّلون خطّ الباطل والضلالة، الذين عرفهم الناس بالانحراف وابتعدوا عنهم، فلو أنّ هؤلاء المشركين أرادوا التآمر على الإسلام، فالمؤمنون سيتصدّون لهم بإذن اللَّه ويقمعونهم، ولكنّ المشكلة الكبيرة التى يبتلى بها المجتمع الإسلامىّ وكل مجتمع بشرىّ تتمثّل فى الأعداء الذين يرتدون لباس الصداقة والمحبّة ويتظاهرون بتقديم الخدمة للآخرين، هؤلاء هم الانتهازيون والمنافقون الذين أظهروا للناس وجهاً جميلًا وأخفوا الوجه القبيح فى باطنهم وتستّروا بقناع الخير والصلاح، وبذلك تسنّى لهم النفود فى صفوف المسلمين والاطّلاع على أسرارهم، وأتاح

لهم ذلك أن يسدّدوا ضربتهم متى وجدوا الفرصة سانحة بالتمسّك بالآيات الإلهيّة وسنّة النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله فى الظاهر والكلام، ولكنّهم

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۳۱

على مستوى العمل يتحرّكون خلاف هذه التعاليم السماوية.

والمصداق البارز لهذا الكلام فى ذلك الزمان هو معاوية وأعوانه الذين رفعوا لواء المطالبة بدم عثمان الذى يعدّ خليفة النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله، وفى حال الاضطرار رفعوا المصاحف فوق الرماح، هؤلاء كانوا يقيمون الصلاة ويتحدّثون فى خطب صلاة الجمعة بكلام معسول وموافق نصوص الكتاب والسنّة، ولكنّهم فى ذات الوقت يعملون على إضعاف عقيدة الناس بإمام الهدى المنصوب من قبل اللَّه تعالى، ومن قبل المسلمين، ولا يتركون أىّ وسيلة إلّاواستخدموها فى تحقيق مآربهم وأغراضهم الذاتية من قتل الأبرياء ونهب أموال المسلمين والإغارة على المناطق الحدودية للعراق، وباستخدامهم لهذا الاسلوب استطاعوا أخيراً أن يصلوا إلى سدّة الحكم ويجلسوا مجلس رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ويتحدّثوا بخلاف ما أنزل اللَّه تعالى من تعاليم وأحكام.

تأمّلان

۱. خطر المنافقين

يتحدّث الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة عن وجود خطر مهمّ يهدّد محمّد بن أبى بكر وأهالى مصر، بل جميع شعوب وأقوام المجتمع الإسلامى، أى خطر المنافقين، ويقسّم الناس إلى ثلاث طوائف: المؤمنين، المشركين والمنافقين، ثمّ يقول: إنّ المؤمنين لا يشكّلون أىّ خطر للمجتمع الإسلامى لأنّ إيمانهم يمنعهم من أى عمل يثير الخلل ويورث الضرر بالإسلام والمسلمين، أمّا المشركون المعاندون الذين يتحرّكون فى خطّ التآمر والحرب ضدّ المجتمع الإسلامى، فخطر هؤلاء ليس بالمقدار المهم، ويمكن التصدّى لهم لإنّهم معروفون، والمؤمنون يأخذون حذرهم من حركات هؤلاء ويتصدّون لتآمرهم ويدفعون الخطر بذلك عن الامّة، ولكنّ المشكلة العسيرة تتمثّل فى المنافقين الذين يعيشون فى الوسط الدينى ويخالفون

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۳۲

المؤمنين ويتظاهرون بالتديّن إلّاأنّهم يخفون سيوفهم تحت ثيابهم كما فى المثل، فيتحدّثون بحديث يجذب قلوب المؤمنين وأفكارهم وعواطفهم فيظنّون أنّ هؤلاء المنافقين منهم وعلى ملّتهم، ولكنّهم فى اللحظات الحساسة وعندما تسنح الفرصة يقومون بإلقاء سمومهم وتسديد ضربة للإسلام والمسلمين.

وعلى رغم أنّهم يكتمون نفاقهم ويتحرّكون فى خطّ التخريب والتآمر بشكل خفىّ، فإنّ معرفتهم وتشخيصهم ليست بالأمر العسير، فالقرآن الكريم ذكر علامات عديدة لمعرفة أهل النفاق فى سورة البقرة وسورة المنافقون وبإمكان المؤمنين التعرّف عليهم واجتناب خطرهم ودسائسهم.

وقد تقدّمت بحوث مفصّلة عن جذور النفاق وطريقة عمل المنافقين على امتداد التاريخ، والأخطار التى تشكّلها هذه الفئة على الامّة الإسلاميّة، فى الخطبة ۱۹۴ (الجزء السابع من ص ۶۰۶ إلى ۶۱۹) وكذلك فى ذيل الخطبة ۲۱۰.

۲. رسالة غريبة من المعتضد العباسى

من غرائب العصر العبّاسیّ أنّ المعتضد العباسیّ أرسل رسالهٔ إلی جمیع الأقضیهٔ والنواحی، وقد ذکرها المؤرّخ المعروف الطبری فی تاریخه فی حوادث سنهٔ ۲۸۴ وأشار إلیها ابن الأثیر فی تاریخه الکامل (مع بعض الاختلاف فی التعبیر) وبدورنا ننقلها من شرح نهج‌البلاغهٔ لابن أبی‌الحدید الذی استعرضها بشکل مختصر.

یقول ابن أبی‌الحدید فی الجزء ۱۵ من شرح نهج‌البلاغهٔ فی ذیل هذه الرسالهٔ أنّ الإمام علیه السلام کتب هذه الرسالهٔ لمحمّد بن أبی بکر، ویقول الطبری: وفی (سنهٔ ۲۸۴) عزم المعتضد علی لعن معاویهٔ بن أبی سفیان علی المنابر، وأمر بإنشاء کتاب یقرأ علی الناس، فخوّفه عبید اللّه بن سلیمان (وزیره) اضطراب العامّهٔ، وأنّه لا یأمن أن تکون فتنهٔ، فلم یلتفت إلیه، فکان أوّل شیء بدأ به المعتضد من ذلک الأمر بالتقدّم إلی العامّهٔ بلزوم أعمالهم، وترک الاجتماع والعصبیهٔ، والشهادات عند السلطان إلّاأن

نفحات الولایهٔ، ج ۹، ص: ۳۳۳

یسألوا، ومنع القُصّاص عن القعود علی الطرقات، وأنشیء هذا الکتاب وعملت به نسخ قرئت فی الجانبین من مدینهٔ السلام فی الأرباع والمحالّ والأسواق، یوم الأربعاء لستٍ بقین من جمادی الاولی من هذه السنهٔ، ثمّ منع یوم الجمعهٔ لأربع بقین منه، ومنع القصّاص من القعود فی الجانبین، ومنع أهل الحلق من القعود فی المسجدین، ونودی فی المسجد الجامع بنهی الناس عن الاجتماع وغیره، وبمنع القصّاص وأهل الحلق والقعود، ونودی:

إنّ الذمّهٔ قد برئت ممّن اجتمع من الناس فی مناظرهٔ أو جدال، وتقدّم إلی الشراب الذین یسقون الماء فی الجامعین ألّا یترحّموا علی معاویهٔ، ولا یذکروه، وکانت عادتهم جاریهٔ بالتّرحم علیه.

وتحدّث الناس أنّ الکتاب الذی قد أمر المعتضد بإنشائه بلعن معاویهٔ یقرأ بعد صلاهٔ الجمعهٔ علی المنبر، فلمّا صلّی الناس بادروا إلی المقصورهٔ لیسمعوا قراءهٔ الکتاب، فلم یقرأ.

قیل: إنّ عبیداللّه بن سلیمان صرفه عن قراءته، وإنّه أحضر یوسف بن یعقوب القاضی، وأمره أن یعمل الحیلهٔ فی إبطال ما عزم المعتضد علیه، فمضی یوسف فکلّم المعتضد فی ذلک، وقال له: إنّی أخاف أن تضطرب العامّهٔ، ویکون منها عند سماعها هذا الکتاب حرکهٔ، فقال المعتضد: إن تحرکّت العامّهٔ أو نطقت، وضعت السیف فیهم، فقال: یاأمیرالمؤمنین، فما تصنع بالطالبیین الذین یخرجون فی کلّ ناحیهٔ، ویمیل إلیهم خلق کبیر، لقربهم من رسول اللّه صلی الله علیه و آله، ومافی هذا الکتاب من إطرائهم- أو کما قال- وإذا سمع الناس هذا کانوا إلیهم أمیل، وکانوا هم أبسط ألسنهٔ، وأثبت حجّهٔ منهم الیوم، فأمسک المعتضد فلم یرد إلیه جواباً، ولم یأمر بعد ذلک فی الکتاب بشیء، وکان من جملهٔ الکتاب بعد أن قدّم حمد اللّه والثناء علیه والصلاهٔ علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله:

أما بعد، فقد انتهی إلی أمیرالمؤمنین ما علیه جماعهٔ العامّهٔ من شبههٔ قد دخلتهم

نفحات الولایهٔ، ج ۹، ص: ۳۳۴

فی أدیانهم، وفساد قد لحقهم فی معتقدهم، وعصبیهٔ قد غلبت علیها أهواؤهم، ونطقت بها ألسنتهم، علی غیر معرفهٔ ولا رویّهٔ، قد قلّدوا فیها قادهٔ الضلالهٔ بلا بیّنهٔ ولا بصیرهٔ، وخالفوا السنن المتّبعهٔ، إلی الأهواء المبتدعهٔ، قال اللّه تعالی: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَیْرِ هُدىً مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَایَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ»[۴۰۷]، خروجاً علی الجماعهٔ، ومسارعهٔ إلی الفتنهٔ، وإیثاراً للفرقهٔ، وتشتیتاً للکلمهٔ، وإظهاراً لموالاهٔ من قطع اللّه عنه الموالاهٔ، وبتر منه العصمهٔ، وأخرجه من الملّهٔ، وأُوجبت علیه اللعنهٔ، وتعظیماً لم صغّر اللّه حقّه، وأوهن أمره، وأضعف رکنه، من بنی امیّهٔ، الشجرهٔ الملعونهٔ، ومخالفهٔ لمن استنقذهم اللّه من الهلکهٔ، وأسبغ علیهم النعمهٔ من أهل بیت البرکهٔ والرحمهٔ «وَاللَّهُ یَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ یَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ»[۴۰۸].

فأعظم أمیرالمؤمنین ما انتهی إلیه من ذلک، ورأی ترک إنکاره حرجاً علیه فی الدین، وفساداً لمن قلّده اللّه أمره من المسلمین، وإهمالًا لما أوجبه اللّه علیه من تقویم المخالفین، وتبصیر الجاهلین، وإقامهٔ الحجّهٔ علی الشاکّین، وبسط الید علی المعاندین، وأمیرالمؤمنین یخبرکم معاشر المسلمین، أنّ اللّه جلّ ثناؤه لمّا ابتعث محمّداً صلی الله علیه و آله بدینه، وأمره أن یصدع بأمره، بدأ

بأهله وعشیرته فدعاهم إلی ربّه، وأنذرهم وبشّرهم، ونصح لهم وأرشدهم، فکان من استجاب له، وصدّق قوله، واتّبع أمره نفر یسیر من بنی أبیه، من بین مؤمن بما أتی به من ربّه، وناصر لکلمته وإن لم یتبع دینه إعزازاً له، وإشفاقاً علیه، فمؤمنهم مجاهد ببصیرته، وکافرهم مجاهد بنصرته وحمیّته، یدفعون من نابذه، ویقهرون من عازّه وعانده، ویتوثّقون له ممّن کانفه وعاضده، ویبایعون من سمح بنصرته، ویتجسّسون أخبار أعدائه، ویکیدون له بظهر الغیب کما یکیدون له برأی العین، حتّی بلغ المدی، وحان وقت الاهتداء، فدخلوا فی دین اللّه وطاعته وتصدیق رسوله والإیمان به بأثبت بصیرة، وأحسن

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۳۵

هدی ورغبة، فجعلهم اللّه أهل بیت الرحمة، وأهل بیت الدین، أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهیراً، معدن الحکمة، وورثة النبوّة، وموضع الخلافة، أوجب لهم الفضیلة، وألزم العباد لهم الطاعة، وکان ممّن عانده وکذّبه وحاربه من عشیرته العدد الکثیر والسواد الأعظم، یتلقّونه بالضرر والتثریب، ویقصدونه بالأذی والتخویف، وینابذونه بالعداوة، وینصبون له المحاربة، ویصدّون من قصده، وینالون بالتعذیب من اتّبعه، وکان أشدّهم فی ذلک عداوة، وأعظمهم له مخالفة، أوّلهم فی کلّ حرب ومناصبة، ورأسهم فی کلّ إجلاب وفتنة، ولا یرفع علی الإسلام رایة إلّاکان صاحبها وقائدها ورئیسها أباسفیان بن حرب صاحب أحد والخندق وغیرهما، وأشیاعه من بنی امیّة الملعونین فی کتاب اللّه، ثمّ الملعونین علی لسان رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی مواطن عدّة، لسابق علم اللّه فیهم، وماضی حُکمه فی أمرهم، وکفرهم ونفاقهم، فلم یزل لعنه اللّه یحارب مجاهداً، ویدافع مکایداً، ویجلب منابذاً، حتی قهر السیف، وعلا أمر اللّه وهم کارهون، فتعوّذ بالإسلام غیر منطوٍ علیه، وأسرّ الکفر غیر مقلع عنه، فقبله وقبل ولده علی علم منه بحاله وحالهم، ثمّ أنزل اللّه تعالی کتاباً فیما أنزله علی رسوله یذکر فیه شأنهم، وهو قوله تعالی: «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِی الْقُرْآنِ»[۴۰۹]، ولا خلاف بین أحد فی أنّه تبارک وتعالی أراد بها بنی امیة.

وممّا ورد من ذلک فی السنّة، ورواه ثقات الامّة، قول رسول اللّه صلی الله علیه و آله فیه وقد رآه مقبلًا علی حمار ومعاویة یقوده ویزید یسوقه، فقال صلی الله علیه و آله: «لَعَنَ اللَّهُ الرَّاکِبَ وَالْقَائِدَ وَالسَّائِقَ».

ومنه ما روته الرواة عنه من قوله یوم بیعة عثمان: «تَلَقَّفُوهَا یَا بَنِی عَبْدِ شَمْسٍ تَلَقُّفَ الْکُرَةِ فَوَ اللَّهِ مَا مِنْ جَنَّةٍ وَلَا نَار» وهذا کفر صُراح یلحقه اللعنة من اللّه کما لحقت الذین کفروا من بنی‌اسرائیل علی لسان داود وعیسی بن مریم، ذلک بما عصوا وکانوا یعتدون.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۳۶

ومنه ما یُروی من وقوفه علی ثنیّة احد من بعد ذهاب بصره وقوله لقائده، هاهنا رمینا محمداً وقتلنا أصحابه.

ومنها الکلمة التی قالها للعبّاس قبل الفتح وقد عرضت علیه الجنود: «أصبح ملک ابن أخیک عظیماً» فقال العباس: ویحک، إنّه لیس بملک، إنّها النبوّة.

ومنها قوله یوم الفتح (فتح مکة) وقد رأی بلالًا علی ظهر الکعبة یؤذّن ویقول:

«أشْهَد أنّ مُحَمّداً رَسُولُ اللّه»؛ فقال أبو سفیان: لقد أسعد اللّه عتبة بن ربیعة إذ لم یشهد هذا المشهد.

ومنه الرؤیا التی رآها رسول اللّه صلی الله علیه و آله فوجم لها: قالوا: ما رئی بعدها ضاحکاً، رأی نفراً من بنی امیّة ینزون علی منبره نزوة القردة.

ومنها طرد رسول اللّه صلی الله علیه و آله الحکم بن أبی العاص لمحاکاته إیّاه فی مشیته، وألحقه اللّه بدعوة رسول اللّه صلی الله علیه و آله آفة باقیة حین التفت إلیه فرآه یتخلج یحکیه، فقال: «کُن کَما أنتَ»، فبقی علی ذلک سائر عمره.

وهذا إلی ما کان من مروان ابنه فی افتتاحه أوّل فتنة کانت فی الإسلام، واحتقابه کلّ دم حرام سُفک فیما قبلها أو اریق بعدها.

ومنها ما أنزله اللّه تعالی علی نبیّه صلی الله علیه و آله: «لَیْلَةُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»[۴۱۰]، قالوا:

ملک بنی امیّة.

ومنها أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال: «يَطلعُ مِنْ هذا الفَجّ رَجلٌ مِن امّتی يُحشرُ علی غيرِ مِلّتی»، فطلع معاويهٔ.

ومنها أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِى فَاقْتُلُوه» وذكر فی هذا الكتاب روايات قاصمهٔ علی معاويهٔ الواردهٔ فی الكتب التاريخيهٔ المشهورهٔ.

ومنها افتراؤه بالمحاربهٔ لأفضل المسلمين فی الإسلام مكاناً، وأقدمهم إليه سبقاً،

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۳۳۷

وأحسنهم فيه أثراً وذكراً، علیّ بن أبی طالب، ينازعه حقّه بباطله، ويجاهد أنصاره بضلالهٔ أعوانه، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولانه من إطفاء نور اللَّه، وجحود دينه «وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»[۴۱۱]، ويستهوی أهل الجهالهٔ، ويموّه لأهل الغباوهٔ بمكره وبغيه اللذين قدّم رسول اللَّه صلی الله علیه و آله الخبر عنهما، فقال لعمار بن ياسر: «تَقتُلُكَ الفِئةُ الباغِيةُ، تَدعُوهُم إلى الجَنَّةِ وَيَدْعُونَكَ إلى النّارِ»، مؤثراً للعاجلهٔ، وكافراً بالآجلهٔ، خارجاً من ربقهٔ الإسلام، مستحلّاً للدم الحرام، حتّی سفك فی فتنته، وعلی سبيل غوايته وضلالته ما لا يحصی عدده من أخيار المسلمين، الذّابين عن دين اللَّه، والناصرين لحقّه، مجاهداً فی عداوهٔ اللَّه، مجتهداً فی أن يعصی اللَّه فلا يُطاع، وتُبطل أحكامه فلا تقام، ويخالف دينه، فلابدّ أن تعلو كلمهٔ الضلال وترتفع دعوهٔ الباطل، وكلمهٔ اللَّه هی العليا، ودينه المنصور، وحكمه النافذ، وأمره الغالب وكيد من عاداه وحادّه المغلوب الداحض، حتّی احتمل أوزار تلك الحروب وما تبعها، وتطوّق تلك الدماء وما سفك بعدها، وسنّ سنن الفساد التی عليه إثمها وإثم من عمل بها، وأباح المحارم لمن ارتكبها، ومنع الحقوق أهلها، وغرّته الآمال، واستدرجه الإمهال.

وكان ممّا أوجب اللَّه عليه به اللعنهٔ قتله من قتل صبراً، من خيار الصحابهٔ والتابعين، وأهل الفضل والدين، مثل عمرو بن الحمق الخزاعیّ، وحجر بن عدیّ الكندیّ، وفيمن قتل من أمثالهم، علی أن تكون له العزّهٔ والملك والغلبهٔ، ثمّ ادّعاؤه زياد بن سميّهٔ أخاً، ونسبته إيّاه واللَّه تعالی يقول: «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ...»[۴۱۲]، ورسول االلَّه صلی الله علیه و آله يقول: «مَلْعُونٌ مَن ادَّعی إلی غيرِ أبيهُ أو انْتَمی إلی غَيرِ مَواليهِ»، وقال صلی الله علیه و آله: «الْوَلَدُ لِلفرَاشِ وللعَاهِرِ الحَجَر»، فخالف حكم اللَّه تعالی ورسوله جهاراً، وجعل الولد لغير الفراش و الحجر لغير العاهر، فأحلّ بهذه الدعوهٔ

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۳۳۸

من محارم اللَّه ورسوله ....

ومن ذلك إيثاره لخلافهٔ اللَّه علی عباده ابنه يزيد السكّير والخمير صاحب الديكهٔ والفهود والقردهٔ، وأخذ البيعهٔ له من خيار المسلمين بالقهر والسطوهٔ والتوعّد والإخافهٔ، والتهديد والرهبهٔ، وهو يعلم سفهه، ويطّلع علی رهقه وخبثه، ويعاين سكراته وفعلاته، وفجوره وكفره، فلما تمكّن- قاتله اللَّه- فيما تمكّن منه، طلب بثارات المشركين وطوائلهم عند المسلمين، فأوقع بأهل المدينهٔ فی وقعهٔ الحرّهٔ، الوقعهٔ التی لم يكن فی الإسلام أشنع منها ولا أفحش، فشفی عند نفسه غليله، وظنّ أنّه قد انتقم من أولياء اللَّه، وبلغ الثأر لأعداء اللَّه، فقال مجاهراً بكفره ومظهراً لشركه:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُواجَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَل ۴۱۳]

ثمّ أغلظ ما انتهك، وأعظم ما اجترم، سفكه دم الحسين بن علیّ علیه السلام، مع موقعه من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ومكانته ومنزلته من الدين والفضل والشهادهٔ له ولأخيه بسيادهٔ شباب أهل الجنّهٔ، اجتراءً علی اللَّه، وكفر بدينه، وعداوهٔ لرسوله، ومجاهرهٔ لعترته، واستهانهٔ لحرمته، كأنّما يقتل منه ومن أهل بيته قوماً من كفرهٔ الترك والديلم، ولا يخاف من اللَّه نقمهٔ، ولا يراقب منه سطوهٔ، فبتر اللَّه عمره، وأخبث أصله وفرعه، وسلبه ما تحت يده، وأعدّ له من عذابه وعقوبته ما استحقّه من اللَّه بمعصيته ....

ثمّ أضاف: أيّها الناس، إنّما أمر ليطاع، ومثل ليتمثّل، وحكم ليفعل، قال اللَّه سبحانه وتعالی: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعيراً»[۴۱۴] وقال: «أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۳۳۹

وَيَلْعَنُهُمُ اللّاعِنُونَ»[۴۱۵]، فالعنوا أيّها الناس من لعنه اللّه ورسوله، وفارقوا من لا تنالون القربۀ من اللّه إلّابمفارقته اللَّهُمَّ الْعَنْ أباسُفْيانَ بْنَ حَرْبِ بْنَ امَيَّۀَ، وَمُعَاوِيَۀَ بْنَ أبی سُفْیانَ، وَیَزِیدَ بْنَ مُعاوِیۀَ، وَمَرْوانَ بْنَ الحَکَمِ وَوِلْدَهُ وَوِلْدَ وُلدِه! اللَّهُمَّ الْعَنْ أَئِمَّۀَ الْکُفْرِ وَقَادَۀَ الضَّلَالِ وَأَعْدَاءَ الدِّینِ مُجَاهِدِی الرَّسُولِ وَمُعَطِّلِی الْأَحْکَامِ وَمُبَدِّلِی الْکِتَابِ وَمُنْتَهِکِی الدَّمِ الْحَرَامِ .

إلی قوله: ولا قوّۀ الا باللّه العلیّ العظیم»[۴۱۶].

ما ورد أعلاه یمثّل جانباً من الکتاب المطوّل الذی کتبه «المعتضد العبّاسیّ»، وجاء هذا الکتاب فی المصادر الإسلامیّۀ والتاریخیۀ المعروفۀ.

وبدیهی أنّ نقل رسالۀ المعتضد باللّه العباسیّ لا تعنی تأیید جمیع أعماله فی أیّام خلافته.

ونری من اللازم الإشارۀ إلی هذه النقطۀ، وهی أنّ مخالفۀ وزیر المعتضد «عبیداللّه بن سلیمان» لنشر هذه الرسالۀ کان بسبب انحرافه عن علیّ وآله علیه السلام فإنّ المؤرّخین ذکروا عنه فی ترجمۀ حیاته: «کانَ مُنْحَرِفاً عَنْ عَلِیٍّ علیه السلام» فکان خوفه من ثورۀ الناس لیس سوی ذریعۀ.

نفحات الولایۀ، ج۹، ص: ۳۴۱

الرسالۀ ۲۸

اشارۀ

إلی مُعاوِیَۀَ جَواباً[۴۱۷] قالَ الشَّرِیفُ: وَهُوَ مِنْ مَحاسِنِ الْکُتُبِ

نظرۀ إلی الرسالۀ

رأینا أنّ هذه الرسالۀ، کما ورد فی مطلعها فی نهج‌البلاغۀ، تمثّل جواباً علی أحد کتب معاویۀ إلی الإمام علیّ علیه السلام، وفیه یتحدّث معاویۀ بشکل غیر مؤدّب مع الإمام علیه السلام ولم یترک أیّ حرمۀ إلّاوانتهکها، وفی القسم الأول من رسالته یتحدّث عن عظمۀ نبیّ الإسلام صلی الله علیه و آله والرسالۀ الإلهیّۀ، ویجعل ذلک مقدّمۀ لبیان فضائل أصحاب النبیّ وأنصاره، ثمّ یتطرّق إلی فضائل الخلیفۀ الأوّل والثانی والثالث ویتحدّث عن مقام الأول والثانی وعن مظلومیّۀ الثالث ویتّهم الإمام علیه السلام بالمساهمۀ فی قتل عثمان،

نفحات الولایۀ، ج۹، ص: ۳۴۲

وکذلک یتّهمه بالحسد لأبی بکر وکراهیته لخلافۀ عمر، وفی جمیع هذه الرسالۀ یستخدم معاویۀ تعبیرات نابیۀ وکلمات موهنۀ، وفی ختامها یتّهم الإمام علیه السلام بوقاحۀ بأنّه معاند ولجوج ویقول: ادفع لنا قتلۀ عثمان واعمل علی تشکیل شوری لانتخاب خلیفۀ النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله فنحن لا نقبل ببیعتک ولا نطیعک، وسیکون جوابک هو السیف ونحن ماضون علی ذلک إلی النهایۀ.

ویتبیّن من عبارات هذه الرسالۀ أنّ معاویۀ کان یهدف إلی أمرین: الأوّل: أن یثیر غضب الإمام علیه السلام وإحساساته لیجیبه بکلام مماثل ویتّخذ ذلک ذریعۀ أخری إلی جانب قمیص عثمان لقتال الإمام، وکذلک إغراقه فی بیان فضائل الخلفاء الثلاثۀ واتّهام الإمام علیه السلام بالحسد لهم لیجیبه الإمام علیه السلام علی الضدّ من ذلک، وبالتالی یکون بیده حجّۀ ضدّ الإمام علیه السلام إلی جانب قمیص عثمان.

وهذا الكلام ليس استنباطاً ممّا ورد فى رسالة معاوية، بل هو أمر ورد بصراحة فى التاريخ الإسلامى على لسان عمرو بن العاص، يقول ابن أبى‌الحديد: إنّ عمرو ابن العاص قد أشار إلى معاوية أن يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب الأول ليستفزّا فيه الإمام علىّ عليه السلام ويستخفّاه ويحمله الغضب منه أن يكتب كلاماً يتعلّقان به فى تقبيح حاله وتهجين مذهبه، وقال له عمرو بن العاص: إنّ عليّاً رجل نزق تيّاه، فاستطمع منه الكلام بمثل الثناء على أبى بكر وعمر، فكتب معاوية الرسالة التى ذكرنا شيئاً منها آنفاً.

أمّا مضمون رسالة الإمام عليه السلام بنظرة عامة:

إنّ هذه الرسالة تشتمل على عدّة محطّات، فالإمام فى المحطّة الاولى يتعرّض لفضح ادّعاءات معاوية الواهية، ويقول فى جوابه: إنّ اللّه تعالى بعث محمداً لرسالته ونشر دينه وأيّده بأنصاره، والإمام فى هذه المقطع يبرز تعجّبه الشديد ويقول: وما أنت وهذه الأمور، فقصّتك مثل قصّة الشخص الذى يحمل التمر إلى هجر، وهذا المثل معروف لدى العرب، كما يدعو التلميذ استاذه إلى مسابقة علميّة مثلًا، فيقول له

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۳۴۳

الإمام عليه السلام إنّه يحسن بك أن تكفّ عن هذه الأقاويل ولا تحدّث بها أهلنا وقبيلتنا، فنحن أعلم منك بذلك.

وفى المحطّة الثانية، وبقصد التذكير بنعم اللّه تعالى، لا من أجل اطّلاع معاوية الذى يعلم بهذه الأمور، يتعرّض الإمام عليه السلام لبيان فضائل بنى هاشم وذكر حمزة سيّد الشهداء وجعفر الطيار، وفى الختام يقول: لو لم ينهَ اللّه تعالى عن مدح النفس، لذكرت لك فضائل كثيرة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجّها آذان السامعين.

وفى المحطّة الثالثة من هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة أساسية فى ادّعاءات معاوية، ويتعرّض للمقارنة بين بنى هاشم وبنى اميّة، ويقول: نحن تربطنا رابطة رحم مع النبيّ ونحن أهل بيته، وقد اعتنقنا رسالته ودينه قبل جميع الناس ونحن على معرفة بها أكثر من الآخرين، وبالتالى نحن أحقّ بالخلافة، فالمهاجرون يوم السقيفة استندوا إلى قرابتهم من رسول اللّه صلى الله عليه و آله ليدعموا موقفهم ضدّ الأنصار الذين كانوا يطمحون إلى الخلافة، فلو كان هذا الأمر دليلًا على الأولوية فنحن أحقّ منهم.

وفى المحطّة الرابعة من هذه الرسالة يتعرّض الإمام عليه السلام لنقد بعض عبارات معاوية غير المؤدّبة فى رسالته ويقول: لقد ذكرت فى رسالتك أنّنى كنت اقاد كالجمل المغشوش للبيعة، ولكنّك بهذا الكلام قد فضحت نفسك، لأنّ المسلم لا يجد فى نفسه غضاضة أن يقع مظلوماً مادام يجد نفسه مستقيماً فى حركته فى خطّ الرسالة والإيمان والمسؤولية، وأنّك تحدّثت عن عثمان وكيف كان سلوكى معه، فمَن هو الأكثر عداوة لعثمان؟ هل هو الشخص الذى انطلق للدفاع عنه ولمدّ يد العون له ونصيحته بتلبية حاجات الناس لإطفاء نار الفتنة وتهدئة الأُمور (إشارة إلى توصيات الإمام عليه السلام لعثمان) أو الشخص الذى طلب منه عثمان المعونة وامتنع منها وقبع ينتظر موته (إشارة إلى حال معاوية وموقفه من قتل عثمان).

نفحات الولاية ؛ ج ۹ ؛ ص ۳۴۳

ى المحطّة الخامسة والأخيرة من هذه الرسالة يقول الإمام عليه السلام فى مقام

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۳۴۴

الجواب عن تهديد معاوية بالهجوم والحرب: لقد أثرت فى نفسى الضحك، فأنت تهدّد أبناء عبدالمطّلب بالموت والحرب، فمتى رأيت أبناء عبدالمطّلب يهربون من القتال أو يخافون من السيف؟

***

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۳۴۵

القسم الأول

اشارة

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَانِی كِتَابُکَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللَّهِ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدَهِ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْکَ عَجَباً؛ إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِی نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِی ذَلِکَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ، أَوْ دَاعِی مُسَدِّدِهِ إِلَى النِّضَالِ. وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِی الْإِسْلَام فُلَانٌ وَفُلَانٌ؛ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَکَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْکَ ثَلْمُهُ. وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ! وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ! هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا! أَ لَاتَرْبَعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِکَ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِکَ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَکَ الْقَدَرُ! فَمَا عَلَيْکَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ!

الشرح والتفسير: كيف يجلس المحكوم للحكم والقضاء؟

كما تقدّمت الإشارة إليه، فإنّ هذه الرسالة التی يقول عنها الشريف الرضی من أبلغ وأجمل الرسائل، يتحدّث فيها أميرالمؤمنين عليه السلام عن مسائل مهمّة بعبارات بليغة وحاسمة لمعاوية.

فی البداية يشير الإمام عليه السلام إلى حديث معاوية عن عظمة النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله ورسالته السماوية ويقول: «أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَانِی كِتَابُکَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللَّهِ مُحَمَّداً صلى الله عليه و آله لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدَهِ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْکَ عَجَباً؛ إِذْ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۴۶

طَفِقْتَ [۴۱۸] تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ[۴۱۹] اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِی نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِی ذَلِکَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ، أَوْ دَاعِی مُسَدِّدِهِ [۴۲۰] إِلَى النِّضَالِ [۴۲۱]».

والإمام عليه السلام هنا لغرض بيان فساد وقبح كلام معاوية فيما يتّصل بوصف الإسلام وعظمة النبیّ الكريم صلى الله عليه و آله، وللإمام علیّ عليه السلام الذی يعتبر أوّل مسلم وأنّه نفس النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله والنقطة المحورية للإسلام بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله، يذكر مثلين كلّ واحد منهما أبلغ وأقوى من الآخر، فی البداية يذكر المثل العربی المعروف: «فُلَانٌ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرٍ» وهذا المثل يعود إلى تاجر كان قادماً من منطقة هجر (وهی إحدى مناطق البحرين) وفيها تكثر زراعة النخيل ويأتی إلى البصرة يشتری له بضاعة وينقلها إلى هجر، وكلّما بحث عن شیء يشتريه لم يجد أزهد سعراً من التمر، فاشتری برأسماله كلّه تمراً من البصرة وجاء به إلى هجر وادّخره فی مخزنه انتظاراً لغلاء سعر التمر، ولكن لسوء حظّه كان سعر التمر يهبط يوماً بعد آخر حتى فسد جميع التمر فی مخزنه، وتلف بذلک رأس ماله، فضرب به المثل ويقال لكلّ من يحمل شيئاً أو يتحدّث بأمر من الأمور عند من هو أعلم منه وأخبر به، وحال معاوية أيضاً يشبه ذلک التاجر الأحمق حيث أراد أن يبيّن للإمام علی عليه السلام عظمة الإسلام والنبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله فصدق عليه هذا المثل المعروف.

والمثال الثانی يشبّه الإمام عليه السلام معاوية بالرامی الناشیء الذی تعلّم الرماية عند استاذه ثمّ وقف أمام استاذه وأخذ يدعوه للبراز والمسابقة فی الرماية ليخبر استاذه ويمتحنه فی تسديد الرمية، وهذا هو ما يثير الضحک والسخرية.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۴۷

وذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ الإمام عليه السلام تحدّث من موقع التواضع بهذا التشبيه حيث شبّه معاوية بالتلميذ رغم سوء

أدب معاوية وجرأته على الإمام عليه السلام.

وعلى أيّة حال، فمَن يريد الاطّلاع على سيرة النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله وحقيقة الإسلام ورسالته الإلهيّة، فينبغى أن يستوحى ذلك من كلمات الإمام عليه السلام وسلوكياته، وما أقبح أن يطلب معرفة الإسلام من الطلقاء والبعيدين عن أجواء الرسالة والإيمان كمعاوية.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض لقسم آخر من رسالة معاوية وحديثه عن صحابة النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله ويشير إلى الخليفة الأول والثانى والثالث، ويقول: «وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؛ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ ۴۲۲]. وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ!».

وكما تقدّمت الإشارة إليه أنّ هدف معاوية من ذكر اسم الخليفة الأول والثانى والثالث وفضائلهم أن يثير حفيظة الإمام عليه السلام بحيث يجيبه بجواب من موقع الغضب فيتّخذه ذريعة ويتمسّك بها ضدّ الإمام عليه السلام، ولكنّ الإمام عليه السلام أجابه بكلام متين ومدروس جدّاً، بحيث أخرجه كلياً من دائرة القرار وأبعده عن هذا الشأن، والحقيقة أنّ الإمام عليه السلام يريد أن يقول له: أنت ابن أبى سفيان جرثومة الكفر ومحور الشرك والوثنية، والعدوّ الأوّل للإسلام والأصل لإشعال نيران الحروب والفتنة ضد النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله والمسلمين، وأنت قد رُبِّيتَ فى حضن هند آكلة الأكباد وأنّ اسرتك غريبة عن الإسلام والرسالة، والآن تريد أن تتحدّث عن صحابة النبيّ وتعيّن الفاضل والمفضول، وتجعل نفسك واحداً ممّن يرتبط بهذا الشأن!

ويضيف الإمام عليه السلام فى إدامة كلامه بشكل أبين وأقوى ويقول: «وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ!».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۴۸

وكأنّك قد نسيت أنّك يوم فتح مكة وانتصار المسلمين واستيلائهم على آخر معقل للكفر والشرك، كنت تحت رحمة سيوف المجاهدين ولم يكن لديك طريق للفرار، ولذلك أسلمت أنت وأبوك أبوسفيان من موقع التسليم والرضوخ، وقد منّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله عليكم وجعلكم من الطلقاء، والآن نصّبت نفسك على كرسى التحكيم بين صحابة النبيّ وجعلت من نفسك عارفاً بدرجاتهم ومكانتهم بين المهاجرين الأوّلين، والحقيقة أنّ من المخجل جدّاً أن يقوم شخص يملك هو واسرته مثل هذه السابقة السيّئة، بالتدخّل بمثل هذه الأمور ويجعل نفسه حكماً فى هذا الشؤون.

والواقع ينبغى توجيه حربة النقد إلى الأشخاص الذين جعلوا من معاوية يحتلّ هذه المكانة بعد النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله ونسوا سوابقه وجعلوه والياً على مقاطعة كبيرة من البلاد الإسلاميّة، أجل، فمعاوية نُصّب والياً على الشام فى زمان الخليفة الثانى ويتوجّه اللوم أيضاً إلى المسلمين الذين نسوا سوابق اسرة بنى أمية بهذه السرعة والفاصلة الزمنية القليلة، ورضخوا لحكومتهم ولم ينتفضوا ضدّهم، كلّ ذلك مع وجود روايات كثيرة عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله مذكورة فى المصادر الإسلاميّة المختلفة فى ذمّ بنى امية وبالتحديد معاوية، وبيان الخطر الذى يهدّد الإسلام والامّة الإسلاميّة من حكومتهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستمرّ فى كلامه ويقول من موقع التأكيد: «هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَ ۴۲۳] قِدْحٌ ۴۲۴] لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا».

وجملة: «حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا» مثل معروف بين العرب يعود أصله إلى أنّ طائفة من بنى الحنان أرادوا أن يلعبوا القمار فيما بينهم، وهيّأوا لذلك النصال، وكان نصيب جدّهم منها نصل غير صالح للرمى، فرمى بنصله من بين تلك النصال، وكان المقسم للنصال رجل أعمى، وعندما أصابت الرمية سهم من هذه السهام انتبه من الصوت أنّ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۴۹

تلك النصال زائفة أيضاً، فقال: «حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا» أى أنّ هذا النصل ليس من جنس النصال الأصلية، من خلال صوته، وانكشف

بذلك زيف هذه النصال، ثمّ ضرب به المثل لكلّ شخص أدخل نفسه فى جماعة لم يكن جديراً بهم، وجعل نفسه فى عرض فئة ليس من مستواهم، والإمام عليه السلام استخدم هذا المثل المعروف فى مورد معاوية، وأنّك تخلط نفسك مع جماعة لست منهم، فأنت من الكفّار الطلقاء الذين أطلق سراحهم النبىّ يوم فتح مكة، فما أنت والمجاهدين والمهاجرين الأولين؟[۴۲۵].

واللافت للنظر أنّ الإمام عليه السلام فى العبارة المذكورة أعلاه يقول بصراحة: أنت بهذه السوابق السيّئة تعتبر من زمرة المحكومين ومن الرعيّة، فكيف تجلس على كرسىّ الحكّام وتدّعى التحكيم فيما بينهم؟

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام للتأكيد ويقول: «أَلَا تَرْبَعُ ۴۲۶] أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِکَ ۴۲۷] وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِکَ ۴۲۸] وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَکَ الْقَدَرُ فَمَا عَلَيْکَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ!».

وفى الجُمَل الثلاث يحذّر الإمام عليه السلام معاوية فى البداية أن يعرف قدره ولا يمدّ رِجلَه أكثر من لحافه كما يقول المثل.

وفى الجملة الثانية يأمره الإمام عليه السلام بمعرفة نفسه: وعليك أن تعرف أنّك لست من أهل هذا الميدان وأنّك أعجز من أن تطلب زمام الحكومة والولاية على منطقة من البلاد الإسلاميّة أو تروم التمييز بين مراتب المهاجرين والأنصار وتقضى فى هذا الشأن، إذن الأفضل أن تجلس فى سلك المرتبة التى تليق بشأنك وإمكاناتك ولا تتجاوز عن حدودك (أى تجلس فى صفّالنعال ومكانالأحذية لا فى صدرالمجلس).

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۵۰

وفى الجملة الثالثة يقول: صحيح أنّ المهاجرين والأنصار استطاعوا تحقيق النصر والغلبة فى مواجهاتهم الحاسمة لقوى الكفر والشرك والوثنية، وأنّ أعداء الإسلام والمشركين انهزموا من الميدان، ولكن ذلك يتعلّق بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والصحابة، وما أنت وهؤلاء حتّى تتحدّث عن انتصار المسلمين وهزيمة الكفّار بوصفها أحد افتخاراتك!

وجملة: «فَمَا عَلَيْکَ ...» التى تبتدىء بفاء التفريع، إشارة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّك امرؤ تعيش التخلّف والتأخّر فى مراتب الإسلام حيث أسلمت ظاهراً أنت وأبوك أبوسفيان فى آخر لحظات الدعوة الإسلاميّة وانتصار الرسالة على قوى الشرك، فمن هذا المنطلق فأنت تقع كلياً خارج هذا البحث ولا يمكن أن تجلس للتحكيم بين المهاجرين الأولين وتعيين مراتبهم ودرجاتهم.

وفى الجملة الرابعة والأخيرة يضيف الإمام عليه السلام: «وَإِنَّکَ لَذَهَّابٌ فِى التِّيهِ، رَوَّاغٌ عَنِ الْقَصْدِ».

«التيه» فى الأصل بمعنى الحيرة، ثمّ اطلق على الصحراء التى لا يوجد فيها طريق للخروج منها، بحيث يبقى الإنسان حائراً فيها لا يهتدى سبيلًا، كما هو الحال فى صحراء سيناء فى سنوات «تيه» بنى اسرائيل حيث بقوا فى هذا التيه أربعين سنة.

والإمام عليه السلام فى هذه الجملة الأخيرة يرى أنّ مسار معاوية فى هذه القضية على خطأ من جهتين: الاولى: أنّه قد أوصل نفسه إلى وادٍ لا يمكن الخروج والنجاة منه وأنّ طريقه ومقصده غير معلوم، والأخرى: أنّه على فرض وضوح الطريق والمقصد، فإنّ معاوية لم يختر لنفسه الطريق القويم، بل انحرف عن هذا المسير وتوغّل فى دروب الضلالة والانحراف والتيه.

«روّاغ» صيغة مبالغة من مادة روغ (على وزن ذوق) وتعنى الحركات الانحرافية التى تقود صاحبها تارة إلى هذه الجهة وأخرى إلى تلك، فيقال: إنّ الثعلب يتحرّك بمثل هذه الحركة حتى لا يقع فى المصيدة، والإمام يقول لمخاطبه هنا: أنت تتحرّك دوماً من هذه الجهة إلى تلك الجهة من موقع المكر والحيلة ولا تتحرّك أبداً فى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۵۱

المسار الصحيح والطريق المعتدل، فأحياناً تدافع عن صحابة النبىّ، وأخرى تقف أمامهم وترفع لواء التمرّد ضدّهم وتدعو الناس للحرب وسفك الدماء.

***

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۳۵۳

القسم الثانی

اشارهٔ

أَلَما تَرَى غَيْرَ مُخْبِرٍ لَکَ، وَلَکِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُحَدِّثُ- أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلِکُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ: سَيِّدُالشُّهَدَاءِ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله بِسَبْعِينَ تَکْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ! أ وَلَا تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ- لِکُلٍّ فَضْلٌ- حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ: «الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ!» وَلَوْ لَامَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَزْکِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَکَرَ ذَاکِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ. فَدَعْ عَنْکَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا.

الشرح والتفسير: الامتيازات النادرهٔ

تبيّن فی المقطع السابق أنّ الإمام عليه السلام خيّب معاويهٔ فی بلوغ هدفه من الرسالهٔ، لأنّ معاويهٔ أراد من خلال استعراض سيرهٔ الخلفاء الثلاثهٔ أن يثير الإمام عليه السلام ليتحدّث بكلام ضدّهم ويجعل من هذا الكلام حجّهٔ وذريعهٔ كقميص عثمان، ولكنّ الإمام عليه السلام ذكر له بأنّک أجنبیّ وغريب عن الدخول فی مثل هذه المسائل فلا يحقّ لک أن تنصب نفسک حكماً بين المهاجرين والأنصار.

ثمّ إنّ الإمام فی هذا المقطع من هذه الرسالهٔ يستعرض فضائل أهل البيت عليهم السلام بأفضل تعبيرات وأبلغ الكلمات فيبطل ادّعاءات معاويهٔ بشكل غير مباشر، يقول الإمام عليه السلام: «أ لَاتَرَى- غَيْرَ مُخْبِرٍ لَکَ، وَلَکِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُحَدِّثُ- أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۳۵۴

فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلِکُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ وَخَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله بِسَبْعِينَ تَکْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ».

وقد ورد فی الروايات الإسلاميّهٔ أنّ النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله كان كلّما كبر تكبيرهٔ فی صلاته على جثمان حمزهٔ كبرت جماعهٔ من الملائكهٔ معه، وعلى ضوء ذلک جاءت أربعهٔ عشر طائفهٔ من الملائكهٔ بصورهٔ متتاليهٔ وصلّوا خلف رسول اللّه صلى الله عليه و آله على جنازهٔ حمزهٔ[۴۲۹].

على أيهٔ حال فإنّ غرض الإمام عليه السلام من هذا الكلام أنّنا لو شرعنا بذكر الفضائل وبدأنا من الشهادهٔ، فإنّ هذه الفضيلهٔ تعدّ من أبرز امتيازات قبيلتنا، لأنّ حمزهٔ سيّد الشهداء منّا، فصحيح أنّ جميع الشهداء يملكون مقاماً شامخاً عند اللّه وعند المؤمنين، ولكن مقام هذا الشهيد من بنی هاشم أعلى وأسمى من الجميع.

وطبعاً فإنّ هذا اللقب لحمزهٔ وهو سيّد الشهداء كان بالنسبهٔ لشهداء عصر النبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله وإلّا فإنّ مقام أميرالمؤمنين علیّ بن أبی طالب عليه السلام فی شهادته وشهادهٔ الإمام الحسين عليه السلام وشهداء كربلاء أعلى من ذلک، اللافت أنّ ابن أبی‌الحديد يتحدّث بمثل هذه الكلام عن شهادهٔ أميرالمؤمنين عليه السلام ۴۳۰].

ثمّ إنّ الإمام يستمرّ فی بيان فضائل أهل البيت عليهم السلام وبنی هاشم ويذكر فضيلهٔ أخرى لشهداء بنی هاشم وهی شهادهٔ جعفر الطيار ويقول لمعاويهٔ: «أ وَلَا تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ- وَلِکُلٍّ فَضْلٌ- حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ: «الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ».

وقد جاء فى شرح نهج‌البلاغة للمرحوم التسترى نقلًا عن المغازى للواقدى أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله دخل على أسماء- زوجة جعفر بن أبى طالب بعد استشهاده- فنعاه

نفحات الولايه، ج ۹، ص: ۳۵۵

إيّاها- إلى أن قال- ياأسماء ألا ابشّركِ؟ قالت: بلى، بأبى أنت وامّى، قال صلى الله عليه و آله: فإنّ اللّه عزّ وجلّ جعل لجعفر جناحين يطير بهما فى الجنّة، قالت: بأبى أنت وامّى يارسول اللّه، فأعلم الناس ذلك، فقام رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأخذ بيدى يمسح بيده على رأسى حتى رقى على المنبر، وأجلسنى أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يعرف عليه، فتكلّم وقال: «إنّ المَرْءَ كَثِيرٌ بأخِيهِ وابنِ عَمِّه، ألا إنَّ جَعْفراً قَدِ اسْتُشْهِدَ وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ جَناحَيْنِ يَطيرُ بِهِما فِى الْجَنَّةِ»[۴۳۱].

وبعد أنّ يستعرض الإمام علىّ عليه السلام هذين الموردين المتميّزين من فضائل بنى هاشم، يتحدّث ببيان كلّى، ويقول: «وَلَوْ لَامَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تَمُجُّهَا[۴۳۲] آذَانُ السَّامِعِينَ».

وهذا إشارة إلى أنّ فضائلنا أهل البيت عليهم السلام قد ملأت الخافقين وليست فضيلة واحدة أو عدد قليل من الفضائل، بل هى من الشهرة والشياع إلى درجة أنّه لا يعرفها المؤمنون فحسب، بل حتّى المنافقين والغرباء عن الإسلام على معرفة بها وقد سمعها الكثير من النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، وإن كنت (معاوية) لا تعرفها، ولكن نظراً لحمل البعض بذكر هذه الفضائل، على مدح الذات وتزكية النفس، فأنا أكتفى بهذا المقدار وأغضّ النظر عن سائر الفضائل الكثيرة، وأترك الحكم إلى المؤمنين وأصحاب النبىّ صلى الله عليه و آله الخاصين حيث يتواجد الكثير منهم لحدّ الآن بين المسلمين.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى نهاية هذا المقطع من الرسالة يهيب بمعاوية ويقول: «فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ[۴۳۳] فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا».

نفحات الولايه، ج ۹، ص: ۳۵۶

ويعترف شرّاح نهج‌البلاغة أنّ هذه الجملة بليغة جدّاً وعميقة المحتوى وتمثّل جواباً حاسماً وردّاً قاطعاً لكلام معاوية المتهاوى والهزيل. لأنّه مع الالتفات إلى أنّ كلمة «صَنائِع جمع صنيعة وتعنى الشىء المختار والمصطفى، ومن حاز بتربية واهتمام بالغ، يقول الإمام عليه السلام: لا شك، أنّ شمس النبوّة طلعت من دورنا، فإنّ اللّه تعالى قد اختار نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله من اسرتنا واصطفاه للرسالة واصطنعه وربّاه وتحمّل هذه المسؤولية الثقيلة فى ظلّ الوحى، وعندما بلغ ذروة الكمال والعلم والهداية، بعث لهداية الناس وتعليمهم، ونحن بدورنا ممّن اصطفاهم اللّه لسلوك هذا الطريق، وعلى ضوء ذلك فنحن ممن اصطفاهم اللّه وربّاهم واصطنعهم لتربية الناس وتعليمهم وإصلاح نفوسهم، ولذلك لا مجال لمقارنتنا بالآخرين، وأنت حينما تذكر بعض الأشخاص الذين ساروا فى خطّ الهداية والإيمان فإنّهم قد اهتدوا بهدايتنا وبنورنا.

وفى معنى جملة «صَنَائِعُ لَنَا» سلك البعض مسلك الإفراط فى ذلك وذهب إلى أنّ الناس مخلوقون ومصنوعون من قِبل أئمّة الهدى عليهم السلام أو أنّهم عبيد لهم، فى حين أنّ هذا الكلام لا يتناغم ولا يتجانس مع آيات القرآن الكريم، فالقرآن الكريم يتحدّث عن موسى عليه السلام ويقول: «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسى»[۴۳۴]، وفى مورد آخرى يقول:

«وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنى»[۴۳۵].

وللأسف فإنّ التفسير المذكور آنفاً قد أضحى ذريعة بين المخالفين للتشنيع على أتباع أهل البيت عليهم السلام واللافت أننا نقرأ فى حديث معتبر ورد فى كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام أنّ أبا الصلت دخل على الإمام الرضا عليه السلام وقال: ياابن رسول اللّه ما هذا الذى ينقل الناس عنكم؟ فقال له الإمام الرضا عليه السلام: ماذا يقولون؟ فقال: «إنَّكُمْ

نفحات الولايه، ج ۹، ص: ۳۵۷

تَدَّعُونَ أَنَّ النَّاسَ لَكُمْ عَبِيدٌ» فتعجّب الإمام عليه السلام من ذلك وقال: «اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ شَاهِدٌ

بِأَنِّی لَمْ أَقُلْ ذلِکَ قَطَّ وَلَما سَمِعْتُ أَحَداً مِنْ آبَائِی علیهم السلام قَالَ قَطَّ وَأَنْتَ الْعَالِمُ بِمَا لَنَا مِنَ الْمَظَالِمِ عِنْدَ هَذِهِ الْأُمَّهُ وَانَّ هَذِهِ مِنْهَا»[۴۳۶].

تأمّلان: فضائل حمزه سیّد الشهداء

بالنسبهٔ لشخصیهٔ حمزهٔ علیه السلام وخدماته الجلیلهٔ للإسلام والمسلمین وشهادته الألیمهٔ، فقد أورد المؤرّخون فی المصادر الإسلامیّهٔ بحوثاً کثیرهٔ فی هذا المجال ونشیر هنا إلی جملهٔ منها:

۱. جاء فی تفسیر فرات الکوفی: «یُدْفَعُ یَوْمَ الْقِیامَهِْ إلی عَلِیٍّ لِواءُ الْحَمْدِ وَإلی حَمْزَهَْ لِواءُ التَّکْبِیرِ وَإلی جَعْفَرَ لِواءُ التَّسْبیحِ»[۴۳۷].

۲. جاء فی تفسیر الإمام الحسن العسکری علیه السلام: «یَأتی بِالرُّمْحِ الَّذی کانَ یُقاتِلُ حَمْزَهُْ أعْداءَ اللَّهِ فِی الدُّنْیا فَیُناوِلَهُ إیَّاهُ وَیَقُولُ: یا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ ذد الْجَحیمَ عَنْ أوْلِیائِکَ بِرُمْحِکَ»[۴۳۸].

۳. وأورد ابن حجر العسقلانی فی کتابه الاصابهٔ فی تمییز الصحابهٔ: «حمزهٔ بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف القرشیّ الهاشمیّ، أبوعمارهٔ، عمّ النبیّ صلی الله علیه و آله وأخوه فی الرضاعهٔ، أرضعتهما ثویبهٔ مولاهٔ أبی لهب کما ثبت، وقریب من امّه أیضاً لأنّ امّ حمزهٔ هالهٔ بنت أهیب بن عبدمناف بن زهرهٔ، بنت عمّ آمنهٔ بنت وهب بن عبدمناف امّ النبیّ صلی الله علیه و آله.

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۳۵۸

ولد قبل النبیّ صلی الله علیه و آله بسنتین، وقیل: أربع، وأسلم السنهٔ الثانیهٔ من البعثهٔ، ولازم نصر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وهاجر معه ... ولقبّه النبیّ صلی الله علیه و آله أسد اللَّه، وسمّاه سیّد الشهداء، وقف علی حمزهٔ حین استشهد وقد مُثِّل به، فجعل ینظر إلیه منظراً کان أوجع قلبه فقال:

«رَحِمَکَ اللَّهُ ایْ عَمّ لَکُنْتَ وَصُولًا لِلرَّحِمِ فَعُولًا لِلْخَیْراتِ»[۴۳۹].

۴. وجاء فی کتاب اسد الغابهٔ فی معرفهٔ الصحابهٔ لابن الأثیر: «ولمّا عاد النبیّ صلی الله علیه و آله إلی المدینهٔ سمع النّوحَ علی قتلی الأنصار، (والحال کانت دار حمزهٔ قفرهٔ لأنّه کان من المهاجرین) فقال صلی الله علیه و آله: «لکِنَّ حَمْزَهَْ لا بَواکِیَ لَهُ». فسمع الأنصار، فأمروا نساءهم أن یندبن حمزهٔ قبل قتلاهم، ففعلن ذلک، قال الواقدی (المؤرّخ المشهور): فلم یزلن یبدأن بالندب لحمزهٔ حتّی الآن»[۴۴۰].

۵. وجاء فی کتاب مکارم الأخلاق أن فاطمهٔ الزهراء علیها السلام صنعت من تراب قبر حمزهٔ مسبحهٔ وکانت تذکر اللَّه بها[۴۴۱].

والروایات فی فضائل سیّد الشهداء حمزهٔ علیه السلام وتضحیاته ودفاعه عن النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله والإسلام فی أیّام الغربهٔ والمحنهٔ، وشجاعته فی میدان القتال کثیرهٔ، ونختم هذا المختصر بحدیث آخر نقله المرحوم الکلینی فی الکافی عن سدیر قال:

کنّا عند أبی جعفر (الباقر علیه السلام) فذکرنا ما أحدث الناس بعد نبیّهم صلی الله علیه و آله واستذلالهم أمیرالمؤمنین علیه السلام فقال رجل من القوم: أصلحک اللَّه فأین کان عزّ بنی هاشم وما کانوا فیه من العدد؟ فقال أبوجعفر (الباقر) علیه السلام: «وَمَن بَقِیَ مِنْ بَنی هاشِمِ إنّما کانَ جعفَرُ وَحَمزَهُْ فَمَضَیا وَبَقِیَ مَعَهُ رَجُلان ضَعِیفان ذَلیلان حَدیثا عَهدٍ بِالإسلام، عَباسٌ وعَقیلُ، وَکَانا من الطُّلقاء، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ حَمْزَهَْ وَجَعْفَراً کَانَا بِحَضْرَتِهِمَا مَا وَصَلَا إلَی مَا وَصَلَا إلَیْهِ، وَلَو کَانا شَاهِدَیْهِما لأَتْلَفا نَفسَیْهِما»[۴۴۲].

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۳۵۹

المرتبهٔ السامیهٔ لجعفر بن أبی طالب

وقد أشار الإمام علیه السلام فی رسالته مورد البحث إلی مقام جعفر بن أبی طالب علیه السلام بین شهداء الإسلام بکلمات دقیقهٔ

وعميقة المعنى، وقد ورد فى الروايات الإسلاميّة أيضاً عبارات مهمّة فى هذا الصدد، منها:

۱. ما ورد فى كتاب الكافى عن يوسف بن أبى سعيد قال: كنت عند أبى عبداللَّه الصادق عليه السلام ذات يوم فقال لى: «إذا كَانَ يَومُ القِيامةِ وَجَمعَ اللَّهُ تبارك وَتعالى الخَلائِقَ كَانَ نُوحٌ صلّى اللَّه عليهِ أوّلَ مَن يُدْعى بِهِ فَيُقالُ لَهُ: هَل بَلّغتَ؟ فَيقول: نَعم. فَيُقال لَهُ: مَنْ يَشهَد لَك؟ فَيقول: مُحمَّدُ بنُ عبدِاللَّه صلى الله عليه و آله. قال: فَيَخرُج نُوحٌ عليه السلام فَيتخطّى النّاسَ حتّى يَجيءَ إلى مُحمَّدٍ صلى الله عليه و آله وهُو عَلى كَثِيبِ المِسْكِ وَمَعَهُ عليٌّ عليه السلام وَهو قَولُ اللَّهِ عزّ وَجلّ: «فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفرُوا ...»[۴۴۳]، فَيقول نُوحٌ لِمُحمّدٍ صلى الله عليه و آله:

يامُحمَّدُ إنّ اللَّهَ تباركَ وَتعالى سَألَنِى: هَلْ بَلّغتَ؟ فَقلت: نَعم. فَقال: مَن يَشْهَدُ لَكَ؟

فَقلتُ: مُحمَّدٌ صلى الله عليه و آله، فَيقولُ: يا جَعفَرُ يا حَمزَةُ اذهَبا وأشْهَدا لَهُ أَنَّهُ قَد بَلّغَ. فقال أبوعبداللَّه (الصادق) عليه السلام: فَجَعفَرُ وَحَمزَةُ الشّاهِدانِ للأنبياء عليهم السلام بما بَلّغوا»، فقلتُ:

جعلت فداكَ فعلىّ أين هو؟ فقال عليه السلام: «هُوَ أَعْظَمُ مَنْزِلَةً مِنْ ذَلِكَ»[۴۴۴].

۲. وينقل ابن أبى‌الحديد عن أبى الفرج الإصفهانى فى كتاب مقاتل الطالبيين أنّ لجعفر فضائل كثيرة، وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا المجال، منها: أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لمّا فتح خيبر قدم جعفر بن أبى طالب من الحبشة، فالتزمه رسوله اللَّه صلى الله عليه و آله وجعل يقبل بين عينيه ويقول: «ما أدْرِى بِأيِّهِما اشَدُّ فَرَحاً بِقُدُومِ جَعْفَرٍ أمْ بِفَتْحِ خَيْبَرٍ؟»[۴۴۵].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۶۰

۳. ويروى ابن عساكر فى تاريخ دمشق أنّ الإمام علىّ عليه السلام كان أوّل رجل اعتنق الإسلام وبعده زيد بن حارثة ثمّ جعفر بن أبى طالب ۴۴۶].

۴. وفى كتاب الاصابة فى تمييز الصحابه ورد أنّ جعفر كان يهتمّ كثيراً بالفقراء والمحتاجين ويقدّم يد المعونة لهم ويتحدّث معهم، بحيث أنّ رسول اللَّه سمّاه «أبوالمساكين» وقال النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «أَشْبَهْتَ خَلْقِى وَخُلُقِى» ثمّ أضاف ابن عساكر: إنّ هذا الحديث رواه البخارى ومسلم فى كتابيهما[۴۴۷].

۵. وينقل ابن عساكر فى تاريخ دمشق أيضاً عن أنس بن مالك عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «نَحْنُ بَنُو عَبْدِالْمُطَّلِبِ سَادَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ: رَسُولُ اللَّهِ وَحَمْزَةُ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ وَجَعْفَرٌ ذُو الْجَنَاحَيْنِ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ»[۴۴۸].

وهناك روايات كثيرة فى فضائل جعفر بن أبى طالب عليه السلام، نختم هذا البحث برواية عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: «أوحى اللَّهُ عزَّ وجَلّ إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إنّى شَكَرْتُ لِجَعْفَرَ بن أبى طالبٍ أرْبَعَ خِصالٍ، فَدعاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه و آله فأخْبَرَهُ، فقال له: لَولا أنَّ اللَّهَ تَبارَك وتَعالى أخْبَرَك ما أخْبَرْتُك، ما شَرِبْتُ خَمْراً قَطُّ، لأنّى عَلِمْتُ أنّى إنْ شَرِبْتُها زالَ عَقْلِى، ومَا كَذَبْتُ قَطُّ لأنَّ الكَذِبَ يُنْقِصُ المُروَّةَ، ومَا زَنَيْتُ قَطّ لأنّى خِفْتُ أنّى إذا عَمِلتُ عُمِلَ بى، ومَا عَبَدْتُ صَمَناً قَطّ لأنّى عَلِمْتُ أَنَّهُ لا يَضُرُّولا يَنْفَعُ، قال:

فَضَرَب النَّبِيُّ صلى الله عليه و آله يَدَهُ عَلى عاتِقِه و قال: حَقٌّ على اللَّهِ عزَّ وَجَلَّ أن يَجْعَل لكَ جَناحَيْنِ تَطِيرُ بِهِما مع المَلائِكَةِ فى الجَنَّةِ»[۴۴۹].

مضافاً إلى كلّ ذلك من افتخارات جعفر وامتيازاته فإنّه كان رئيسَ المهاجرين إلى الحبشة، وعليه فإنّ جعفر كان قد هاجر الهجرتين (الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة) وصلّى إلى القبلتين (بيت المقدس فى بداية الإسلام والكعبة بعد مجيئه

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۶۱

إلى المدينة) وبايع البيعتين مع النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله (البيعة فى بداية الإسلام والبيعة فى فتح مكة) كما ورد ذلك فى الأحاديث الشريفة[۴۵۰].

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۳۶۳

القسم الثالث

اشارة

لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَلَا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِکَ أنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا؛ فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا، فِعْلَ الْأَكْفَاءِ، وَلَسْتُمْ! هُنَاکَ وَأَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ وَمِنَّا النبيّ وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ، وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ! فَإِسْلَامُنَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَاتُدْفَعُ، وَكِتَابُ اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «وَأُولُوا الْأَرْحام بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتابِ اللَّهِ» وَقَوْلُهُ تَعَالَى «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النبيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بالطَّاعَةِ. وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله فَلَجُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ.

الشرح والتفسير: نقاط مهمّة أخرى فى فضائل أهل البيت عليهم السلام

يشير الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة إلى نقاط مهمّة أخرى، ففى البداية يحذّر معاوية أن مِن تَصوُّر أن مجرّد الارتباط النسبى والسببى بين بنى‌هاشم وبنى اميـة دليل على التساوى فى المرتبـة والمكانـة، بل هو نوع من التفضلّ والإيثار من بنى‌هاشم يقول: «لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَلَا عَادِيُ

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۳۶۴

طَوْلِنَا[۴۵۱] عَلَى قَوْمِکَ أنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا؛ فَنَكَحْنَا وأَنْكَحْنَا، فِعْلَ الْأَكْفَاءِ[۴۵۲]، وَلَسْتُمْ هُنَاكَ!».

إنّما يتحدّث الإمام عليه السلام بهذا الكلام من جهـة أنّ لهجـة معاوية فى رسالته يستوحى منها أنّ بنى امية فى عرض واحد مع بنى هاشم، فى حين أنّ بنى هاشم يمثّلون مركز النبوّة ومحور الولاية، وأنّ بنى امية هم أئمّة الكفر وقادة الشرّ، ولكن عندما اعتنقوا الإسلام ظاهراً، فإنّ الإسلام فرض على المسلمين أن يتعاملوا فيما بينهم معاملة الأكفاء والأنداد، ومن هذا المنطلق تزوّج النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله امّ حبيبة بنت أبى سفيان، وزوّج النبىّ ابنته لعثمان بن عفان.

وينطلق الإمام عليه السلام فى كلامه لبيان الدليل الواضح والبرهان القاطع على التفاوت الفرق بين بنى هاشم وبنى امية ويقول: «وَأَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ وَمِنَّا النبيّ وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ (مثل أبى جهل)، وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ ۴۵۳] (أبوسفيان)، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ (الحسين والحسين) وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ (مروان أو عقبة بن أبى معيط)، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (فاطمة الزهراء)، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ (ام جميل زوجة أبى لهب واخت أبى سفيان)، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ!».

وعلى هذا الأساس يبيّن الإمام عليه السلام مكانـة بنى هاشم الساميـة وفضائح بنى‌امية وأتباعهم بالشواهد والقرائن التاريخية، بحيث لا يدع لأىّ‌أحد مجالًا لإنكار هذه الحقائق، وهذا هو معنى الفصاحة والبلاغة فى الكلام.

أمّا مقصود الإمام عليه السلام من «المُكذّب ، فهناک خلاف بين شرّاح نهج‌البلاغة

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۳۶۵

فذكروا تارة أشخاصاً مجهولين بوصفهم مكذّبين بحيث يتعجّب القارىء من ذلك، فى حين أنّ المُكذّب البارز فى تاريخ الإسلام هو أبو جهل، سواء قلنا إنّه من بنى اميـة أم لا، لأنّ الإمام عليه السلام فى هذا الكلام يستعرض فضائح بنى امية ومن حالفهم من العرب، وكان شريكاً معهم فى المواقف السلبية تجاه الدعوة والنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله.

وأمّا بالنسبة ل «أسد اللَّه فلا يوجد أىّ خلاف بين شرّاح نهج‌البلاغة أنّ المقصود منه حمزة سيد الشهداء عليه السلام والذى لقّبه النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله بهذا اللقب، أمّا «اسَد الأحْلاف فقد ذكروا احتمالات عديدة، فى حين أنّ أوضح مصداق له هو (أبو سفيان) الذى قاد قوى الكفر وجيوش الشرك ضدّ الإسلام فى حروب كثيرة وتحالف مع المشركين من العرب ضدّ الإسلام وكان آخرها معركة الأحزاب.

وهكذا بالنسبة للمراد من «صِبْيَةُ النَّارِ» فقد طرح شرّاح نهج‌البلاغة آراء مختلفة، ولكنّ الأنسب من الجميع أنّ المقصود منهم أبناء عقبة بن أبى معيط، وهو الذى تلقّى ضربات كثيرة فى معركة بدر وسقط على الأرض فلمّا وقعت عينه على النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله قال بصوت ضعيف: «مَنْ لِلصِبْيَةِ يا مُحَمّد؟» فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«النَّارُ»[۴۵۴].

وهو إشارة أنّكم تقتلون المسلمين ولا تفكّرون بأبنائهم وصبيتهم، لكنّك الآن تفكّر بأبنائك وصبيتك وأطفالك وهم الصبية الذين سيتحرّكون فى مسير الشرك والكفر تبعاً لأبيهم، ويقفون فى صفّ أعداء الإسلام ضدّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ودعوته السماوية، والتاريخ الإسلامى يحدّثنا أيضاً أنّ أبناء عقبة بن أبى معيط كانوا مصدر الشرّ والفتنة فى الامّة ومنهم الوليد بن عقبة.

والمقصود من «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ فشرّاح نهج‌البلاغة وسائر علماء الإسلام يتّفقون بالإجماع على أنّها فاطمة الزهراء عليها السلام، لأنّه كما ورد فى صحيح مسلم أنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله عندما حانت وفاته قال لفاطمة عليها السلام يواسيها ويطيّب خاطرها: «يَا

فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِى سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟»[۴۵۵].

ومثل هذا الحديث ورد أيضاً فى صحيح البخارى الجزء ۷، ص ۱۴۲ وجاء فى مسند أحمد و مستدرك الحاكم عبارة «سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِين بدل العبارة السابقة[۴۵۶].

أمّا «حمّالة الْحَطَب فقد وردت الإشارة إليها فى القرآن الكريم ويتّفق شرّاح نهج‌البلاغة ومفسّرو القرآن أنّ المراد بها امّ جميل زوجة أبى‌لهب، واخت أبى سفيان وعمّة معاوية.

ومن مجموع ما تقدّم آنفاً يتبيّن بوضوح المكانة المرموقة لأهل بيت النبىّ صلى الله عليه و آله وبنى هاشم، وكذلك مكانة بنى‌امية وأتباعهم، ومن خلال كلام الإمام عليه السلام تستفاد مسائل كثيرة أخرى أيضاً ويتّضح من خلال الملاحظات التى ذكرها الإمام عليه السلام فى كلامه هذا الجواب الحاسم لمعاوية وادّعاءاته الواهية.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام من أجل التأكيد على ما سبق يضيف: «فَإِسْلَامُنَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَاتُدْفَعُ»، الأعمال التى سبق أن قمنا بها فى الجاهلية والإسلام لا تخفى على أحد.

وهذا إشارة إلى أنّ الإسلام قد بدأ بنا وأننا كنّا أوّل المسلمين والمدافعين الحقيقيين عن الإسلام، وفى زمان الجاهلية أيضاً كنّا معروفين بحسن السمعة والأعمال الصالحة والأمانة بين جميع العرب قاطبة، ونقرأ فى رواية عن أحوال جعفر أنّ اللَّه تعالى قد مدحه للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله لأربع فضائل متميّزة له فى زمان الجاهلية، خلافاً لبنى امية والقبائل المتحالفة معهم الذين كانوا معروفين بالمكر والشيطنة والفساد وسفك الدماء.

وينقل المرحوم الشيخ مغنية فى شرحه لنهج البلاغة نقلًا عن كتاب عبقرية محمد للكتاب المصرى المعروف «العقاد» أنّ بنى هاشم كانوا دوماً معروفين

بالفضائل الأخلاقية والقيم الإنسانية والعقيدة السليمة، بعكس بنى امية المعروفين بالمكر وسوء الخلق، ونحن نرى هذا الإختلاف والتفاوت بين بنى هاشم وبنى امية فى كافّة الصفات الأخلاقية والمثل الإنسانية[۴۵۷].

واللافت أنّ ابن أبی‌الحدید یذکر بحثاً مطوّلًا من مائة صفحة تقریباً فی بیان هذه الفروقات، وفی الفصل الأول یتحدّث عن فضائل بنی هاشم بالمقارنة مع بنی امیة، أبناء عبدشمس، وفی الفصل الثانی یتحدّث عن الأمور التی یفتخر بها بنوامیة، وفی الفصل الثالث یجیب عن هذه الافتخارات المزعومة[۴۵۸].

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام بعد أن طرح هذه الأدلّة التاریخیة القویة یتوجّه نحو القرآن الکریم ویستعرض آیتین شریفتین لإثبات حقّانیة بنی‌هاشم ویقول: «وَکِتَابُ اللَّهِ یَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَی «وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلی بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللَّهِ»[۴۵۹] وَقَوْلُهُ تَعَالَی «إِنَّ أَوْلَی النَّاسِ بِإِبْرَاهِیمَ لَلَّذِینَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النبیّ وَالَّذِینَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِیُّ الْمُؤْمِنِینَ»[۴۶۰]».

والإمام علیه السلام فی تفسیر وتطبیق هذه الآیة یضیف: «فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَی بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَی بِالطَّاعَةِ».

وفی الواقع أنّ الإمام علیه السلام فی ذکره هاتین الآیتین أوصد جمیع الطرق علی معاویة، فإن کان المعیار فی خلافة النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله القرابة له، فنحن أولی من الجمیع بذلک لأنّنا أقرب للنبیّ صلی الله علیه و آله من سائر المسلمین، وإن کان المعیار هو المعرفة بتعالیم الرسالة والطاعة للأحکام والأوامر الشرعیة وأوامر النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله فنحن أعرف من الجمیع بذلک وأطوع له ولدینه من الآخرین، فی حین أنّ بنی امیة والأشخاص الآخرین الذین تربّعوا علی کرسیّ خلافة النبیّ صلی الله علیه و آله لا یملکون مثل

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۶۸

هاتین المیزتین لإحراز الأولویة.

وهنا یفرض هذا السؤال نفسه، وهو: هل أنّ القرابة لوحدها تصلح أن تکون دلیلًا علی الأحقّیّة والصلاحیة لخلافة النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله؟

الجواب: إنّ الإمام علیه السلام فی هذا الکلام ناظر إلی الاستدلال الذی طرحه أتباع الخلیفة الأوّل فی سقیفة بنی ساعدة، حیث استدلّوا بقرابته للنبیّ لإثبات أولویته للخلافة، فالإمام یقول: إذا کان هذا هو المعیار المقبول فنحن أقرب من الجمیع لرسول اللَّه علیه السلام، وبدیهیّ أنّ المعیار الأصلیّ هو ما ذکره الإمام علیه السلام فی العبارة الثانیة وهو الطاعة والسیر فی خطّ الامتثال للأوامر الإلهیّة والتعالیم الرسالیة، الطاعة المتولّدة من العلم والإیمان، فالشخص الذی یکون أعرف من الجمیع بدین النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله ویملک إیماناً أقوی من الآخرین، فإنّه جدیر بالخلافة وتولّی هذا المقام، ولهذا نحن نری أنّ الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام أجدر وألیق من الجمیع لإحراز هذا المنصب، وأعلی من ذلک أنّ اللَّه تعالی بسبب هذه الامتیازات الفردیة واللیاقات العالیة قد نصبه لهذا المقام واختاره إماماً للمسلمین.

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام یتعرّض لتوضیح أکثر عن هذه المسألة المذکورة آنفاً ویقول «وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَی الْأَنْصَارِ یَوْمَ السَّقِیفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صلی الله علیه و آله (لما احتجّ الأنصار علی المهاجرین لإثبات أحقّیتهم لتولّی الخلافة یوم السقیفة برسول اللَّه صلی الله علیه و آله) فَلَجُوا[۴۶۱] عَلَیْهِمْ، فَإِنْ یَکُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَکُمْ، وَإِنْ یَکُنْ بِغَیْرِهِ فَالْأَنْصَارُ عَلَی دَعْوَاهُمْ».

وفی الحقیقة أنّ الإمام علیه السلام یجیب عن ادّعاءات معاویة فیما یتّصل بالخلیفة الأوّل والثانی ویقول: لیس فقط أنّ بنی امیة لا یلیقون بخلافة النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله لأنّهم

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۶۹

لیسوا من المهاجرین ولیسوا من الأنصار، بل من الطلقاء، أی المشرکین الذین أطلقهم النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله یوم فتح مکة، فإنّ الخلفاء الأوائل أیضاً واستناداً إلی کلامهم، غیر جدیرین لتولّی هذا المنصب، لوجود من هو أجدر منهم، فإن کان معیار اللیاقة والجدارة، (وفقاً لاستدلالهم) القرابة للنبیّ فإنّ الإمام علیّ علیه السلام هو أقرب منهم للنبی الأکرم صلی الله علیه و آله، فهو ابن عم النبیّ وصهره، وإذا کان الآخرون یمثّلون أغصان شجرة النبوّة فالإمام علیّ علیه السلام هو ثمرة هذه الشجرة وکذلک الأئمّة من

أهل‌البیت علیهم السلام.

ومرّة أخرى نكرّر أنّ هذا الاستدلال فی الواقع هو بمسلّمات الخصم، والذی یعبّر عنه فی المنطق بالاستدلال الجدلیّ، یعنی أنّ المتكلّم یستند إلى مسلّمات الخصم ویخلع سلاحه منه.

تأمّلان

۱. قصّة السقیفة المثیرة!

یشیر الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الرسالة إلى قضیّة سقیفة بنی ساعدة المثیرة التی تمّ تشكیلها لتعیین الخلیفة بعد رسول اللّه صلى الله علیه و آله، ونحن ذكرناها مع استعراض المقاطع التاریخیة الحسّاسة استناداً للمصادر المعتبرة فی ذیل الخطبة ۶۷ تحت عنوان «مسألة الخلافة وقصّة سقیفة بنی ساعدة» بشكل مفصّل وكشفنا اللثام عن هذه المؤامرة العجیبة، وهنا نضیف عدّة نقاط:

الأولى: أنّ الطبری فی تاریخه وابن الأثیر فی الكامل صرّحا بأنّ جماعة الأنصار اجتمعوا فی سقیفة بنی ساعدة، فقالت جماعة منهم فی مقابل اقتراح عمر بالنسبة لبیعة أبی بكر: «لَا نُبَایعُ إِلَّا عَلِیّاً» (فی حین أنّ الإمام علیّ علیه السلام وبنو هاشم ومنهم الزبیر وكذلك جماعة أخرى من المهاجرین لم یكونوا حاضرین فی السقیفة، ویقول الطبری بعد ذكر هذا الكلام: بعد ذلك توجّه عمر لدار علیّ وكان فیه طلحة والزبیر

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۷۰

وجماعة من المهاجرین وقال: «وَاللَّهِ لَنُحْرِقَنَّ عَلَیْكُمْ أَوْ لَتَخْرُجُنَّ الَی الْبَیْعَةِ»[۴۶۲].

ومن الأشخاص الذین اشتركوا مع عمر فی هذا الهجوم على دار أمیرالمؤمنین علیه السلام أُسید بن خضیر وسلمة بن أسلم ۴۶۳].

وجماعة اخرى من الأنصار سارعوا بیعة أبی بكر عندما توصّلوا إلى بعض المقامات، منهم بشیر بن سعد الذی كان من المشاورین للخلیفة، والآخر أسید بن حضیر الذی تزعّم الحرس فی المدینة، والثالث سلمة بن أسلم الذی حصل على مقام المعاون لأسید[۴۶۴].

۲. فضائل بنی هاشم فی عصر الجاهلیّة والإسلام

تقدّم أنّ ابن أبی‌الحدید فی ذیل هذه الرسالة ذكر بحثاً مفصّلًا (من مائة صفحة تقریباً) فی بیان فضائل بنی هاشم بالمقارنة مع نقاط الضعف والقصور لبنی عبدشمس (عبدشمس هو والد امیّة).

منها: إنّ بنی هاشم قدّموا للإسلام شهداء عظام كالإمام علیّ وحمزة وجعفر علیهم السلام، فی حین أنّ فی بنی‌امیة أفراداً كالحكم بن العاص المعروف، بأنّه كان یسیر خلف النبیّ الأكرم صلى الله علیه و آله ویقلّد مشیته، فالتفت النبیّ الأكرم صلى الله علیه و آله ورآه ولعنه، وبعد ذلك لم یتمكّن من المشی بشكل سلیم ومعتدل.

والآخر أنّ أحد المعاهدات الرائعة فی عصر الجاهلیة (حلف الفضول) وهی المعاهدة التی عقدت من أجل الدفاع عن المظلومین وحمایة المستضعفین، وفی هذا المعاهدة اشترك بنو هاشم وقبائل أخرى من العرب، ولكن لم یشترك أیّ فرد من عبدشمس فیها.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۷۱

والثالث، أنّ بنی امیة قد ارتكبوا فی زمان الجاهلیة أعمالًا شائنة لم یرتكبها أحد من العرب، منها أنّ امیة زوّج إحدى زوجاته لابنه أبی عمرو، فی حین أنّ اسرة بنی هاشم لم تتلوّث بمثل هذه الأعمال السیئة.

وأيضاً كـان لعبـدالمطّلب- وهو من رموز وأكابر بنى هاشم- فضائل فريـدة، فقـد حفر بئر زمزم وأدام منهـج إسـماعيل وهاجر، وأولى أهميّة فائقـة لـدم الإنسان حيث جعل لديته مائة من الإبل، فلمّا جاء الإسـلام أمضـى هذا الحكم، وعندما هجم جيش أبرهة على مكة، فرّت عامّة قريش من مكة، ولكنّ عبدالمطلب الذى كان فى ذلك الوقت شاباً، قال: «وَاللَّهِ لَاأَخْرُجُ مِنْ حَرَمِ اللَّهِ»، وهناك فضائل كثيرة أخرى.

وللمزيد من الاطّلاع، راجع شـرح نهج‌البلاغة ابن أبى‌الحديد، ج ۱۵، ص ۱۹۸ إلى ۲۹۵. وقد أشار ابن أبى‌الحديد فى هذه الصفحات إلى بعض ما يزعم من مفاخر بنى امية ويجيب عنها.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۷۳

القسم الرابع

اشارة

وَزَعَمْتَ أَنِّى لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ.
وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا
وَقُلْتَ: إِنِّى كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ؛ وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِى أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِى دِينِهِ، وَلَا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ! وَهَذِهِ حُجَّتِى إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا، وَلَكِنِّى أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا.

الشرح والتفسير: هذه الأمور لا تخصّك!

يتعرّض الإمام عليه السـلام فى هـذا المقطع من الرسالة إلى مقطع من كلام معاوية الخاوى والمهزوز، حيث ذكر فى رسالته للإمام عليه السـلام: «أنّك حسـدت أبابكر وامتنعت من بيعته وكذلك حسدت عمر وحسدت عثمان أكثر من الجميع وفضـحت أعماله على الملأ وكنت شاكاً فى دينه وعقله وفهمه للأمور ...».

والإمام عليه السـلام يردّ عليه هـذه الإدّعاءات الواهيـة ويقول: «وَزَعَمْتَ أَنِّى لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ وَتِلْكَ شَكَاةٌ[۴۶۵] ظَاهِرٌ[۴۶۶] عَنْكَ عَارُهَا».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۷۴

من هـذا المنطلق يسـحب الإمـام عليه السـلام البسـاط من تحت معاويـة ويخرجه عن هـذا الميـدان، ويحسب ذلـك نوعـاً من الفضول والتـدخّل فى أمور الآخرين، ويقول: إننى إذا كانت لـدىّ مشـكلة مع الخلفاء فيجب عليهم أو أبنائهم أن يـدّعو مثل هـذا الإدّعاء، وأمّا أنت، فمن الطلقاء وقد قبلت بالإسلام مضطراً فى آخر مرحلة، فى فتح مكة، فلا حقّ لك فى التدخّل فى مثل هذه المواضيع.

ويستند الإمـام عليه السـلام فى كلامـه هـذا إلى عجز بيت لشـاعر عربى هـو (أبـو ذؤيب الهـذلى) الـذى كـان أدرك عصـر الجـاهلية والإسـلام، وعندما هاجر النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله إلى المدينة جاء إليه وأسلم على يده وصار من المسلمين الصالحين، وصدر البيت هو:

وَعَيَّرَها الْواشُونَ أنّى أُحِبُّها

فيقول إنّ سعاية الواشين بحبّه لها لا يعدّ عيباً، ولو كان هناك عيب وعار فهو بعيد عنك.

وهذا الشعر أضحى مثلًا يضرب به لمن يحسب أمراً سيّئاً في حين أنّه لا يرتبط به.

وجملة: «زَعَمْتَ تعني أوّلًا: أنّ هذه النسبة التي تدّعي أنني حسدت الخلفاء نسبة كاذبة وفرية واضحة، ولا سيما أنّك زعمت في كلامك أنني شريك في قتل عثمان، والحال أنني كنت أذبّ عنه وأنهى الناس عن قتله، وثانياً: على فرض أنّ هذه النسبة صحيحة فهي لا تتعلّق بك.

ويستمرّ الإمام عليه السلام في كلامه ويجيب عن قسم آخر ممّا كتبه معاوية في رسالته:

«وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ ۴۶۷] حَتَّى أُبَايِعَ؛ وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ!».

وهو إشارة إلى أنّك أولًا: تعترف بأنني وقعت مظلوماً وأنّ الآخرين ظلموا حقّي

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۷۵

في هذا المجال، فهذا يمثّل مدحاً لي وذمّاً للظالمين، وثانياً: أنّك أثبتّ أنّ خلافتهم لم تكن بإجماع الصحابة، في حين أنّك تدافع عن مثل هذه الخلافة وقلت: أنّ الخليفة الأول أقرب إلى اللَّه من الجميع وأعلى مكاناً، فكيف يمكن ذلك في حين أنّه ارتكب ظلماً بحقّ أوّل مسلم وأقرب الناس للنبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأعلمهم بدينه وأشدّهم دفاعاً عن رسالته؟ وهذا التناقض في كلامك دليل على خواء ادّعائك وضحالة فكرك.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام في شرح هذا الكلام: «وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ[۴۶۸] فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ، وَلَا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ!».

أجل، فالمصلحون والسائرون في طريق الحقّ على إمتداد التاريخ وقعوا بسبب دفاعهم عن الحقّ وعدم استسلامهم وإذعانهم للظالمين، مورد الظلم والجور، وهذا يعدّ افتخاراً لهم.

وهذا يعني أنّ هذا مثل هذه المظلومية لو كانت عيباً فيجب أن تقول إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله عندما جرح في معركة أحد وكسرت رباعيته على يد أنصار أبيك وشقّت بطن حمزة من قِبل امّك وأخرجت كبده ومضغته في فمها، أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله وحمزة عليه السلام يستحقّان الذمّ والتقريع وأنّ أباك ومشركي مكة وامّك هند جديرون بالمدح والتقدير!

ولكن هل يقبل أيّ عاقل مثل هذا الكلام؟ ولو تطلّعنا إلى ماضي التاريخ فإنّ الأنبياء الكبار إبراهيم ويحيى وزكريا والمسيح عليهم السلام وغيرهم وقعوا مورد الظلم والجور في طريق الاستقامة والدفاع عن الحق والرسالة الإلهيّة.

وفي ختام هذا المقطع من الرسالة يقول الإمام عليه السلام: «وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا، وَلَكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ ۴۶۹] مِنْ ذِكْرِهَا».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۷۶

وهو إشارة إلى أنّ المخاطب الحقيقي لكلامي هذا، الخلفاء الذين أجبروني على بيعتهم، ولكن بما أنّك قد طرحت هذه المسألة فرأيت من اللازم أن اجيب عنها بالمقدار اللازم.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۷۷

القسم الخامس

اشارة

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِى وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَـٰذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْـدَى لَهُ، وَأَهْـدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْـرَتَهُ فَاسْـتَقْعَدَهُ اسْتَكَفَّهُ، أَمْ مَنِ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ. كَلَّا واللّهِ لَ «قَدْ يَعْلَمُ اللّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلّا قَلِيلًا». وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَـذِرَ مِنْ أَنِّى كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْـدَاثاً؛ فَإِنْ كَانَ الـذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِى وَهِدَايَتِى لَهُ؛ فَرُبَّ مَلُومٍ لَاذَنْبَ لَهُ.

وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ

وَمَا أَرَدْتُ «إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِى إِلّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

الشرح والتفسير: المقصّر الأصلىّ فى قتل عثمان

ينطلق الإمام عليه السلام فى هذاالمقطع من رسالته من موقع الإجابة عن أحد أوصاف معاوية ويقول: «ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِى وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَـٰذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى ۴۷۰] لَهُ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ ۴۷۱]! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ ۴۷۲]

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۷۸

وَاسْتَكَفَّهُ، أَمْ مَنِ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ ۴۷۳] إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ».

إنّ تاريخ الإسلام يشهد بأنّ هذه التهمة التى نسبها معاوية للإمام علىّ عليه السلام بأنّه شارك فى دم عثمان أو لم يدافع عنه بالمقدار اللازم، هى تهمة واهية وكذب وافتراء محض، افتراها معاوية لخداع الناس والتعمية على أفكارهم، ومن هذه الجهة استخدم قميص عثمان الدامى لإثارة أحاسيس الجهلة والغوغاء ضدّ الإمام على عليه السلام، والحال أنّ الإمام علىّ عليه السلام نصح عثمان مراراً ودعاه لإصلاح أخطائه وتعديل سلوكياته وعدم تقسيم بيت المال بين بنى‌امية ومَن لفّ لّفهم وعدم تقليدهم المراكز الحساسة فى الحكومة الإسلاميّة، وأن يصغى لنداءات المحرومين، ولكن للأسف لم يقبل عثمان بكلّ هذه النصائح، بل أنّ الإمام علىّ عليه السلام عندما هجمت الجماهير الغاضبة على بيت عثمان أرسل أبناءه للدفاع عنه.

فى حين أنّ معاوية لم يتقدّم خطوة للدفاع عن عثمان مع أنّ عثمان كان قد كتب إليه رسالة يطلب منه إرسال قوّة خاصة من الشام إلى المدينة للدفاع عنه.

واللافت أنّ معاوية عندما تربّع على كرسىّ الخلافة، ذكروا أنّه لم يكن أحد أحبّ إلى معاوية أن يلقاه من أبى الطفيل الكنانى: وهو عامر بن واثلة، كان فارس أهل صفّين، وشاعرهم، وكان من أخصّ الناس بعلىّ كرم اللّه وجهه، فقدم أبو الطفيل الشام يزور ابن أخ له من رجال معاوية، فأخبر معاوية بقدومه، فأرسل إليه، فأتاه وهو شيخ كبير، فلّما دخل عليه، قال له معاوية: أنت أبو الطفيل عامر بن واثلة؟ قال نعم، قال معاوية: أكنت ممّن قتل عثمان أميرالمؤمنين، قال: لا، ولم أكن ممّن شهده

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۷۹

فلم ينصره، قال: ولِمَ؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار، فقال معاوية: أما واللّه! إنّ نصرته كانت عليهم حقّاً واجباً، وفرضاً لازماً، فإذا ضيّعتموه فقد فعل اللّه بكم ما أنتم أهله، وأصاركم إلى ما رأيتم.

فقال أبو الطفيل: فما منعك ياأميرالمؤمنين (يعنى معاوية) إذ تربّصت به ريب المنون أن تنصره ومعك أهل الشام؟ قال معاوية: أو ماترى طلبى بدمه، فضحك أبو الطفيل وقال: بلى ولكنّى وإيّاك كما قال عبيد بن الأبرص:

لا أَلْفِيَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبُنِىوَفِى حَيَاتِى مَا زَوَّدْتَنِى زَادِى ۴۷۴]

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام للتأكيد ولتوضيح ما تقدّم من كلامه السابق من عدم استجابة معاوية لدعوة عثمان لنصرته، والآن يلقى

باللائمة على الآخرين فى عدم الدفاع عنه ويقول: «كَلَّا وَاللَّهِ لَ «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ ۴۷۵] مِنْكَمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا»[۴۷۶]».

ونعلم أنّ هذه الآية نزلت فى شأن طائفتين من المنافقين، إحداهما اجتنبت الجهاد والقتال فى معركة الأحزاب ودعوا الآخرين لاجتناب الدخول فى الحرب، والأخرى الذين قالوا لإخوانهم من المسلمين هلّمُّ إلينا ولا تقحموا أنفسكم فى هذا الخطر، هؤلاء لم يكونوا من أهل الجهاد والقتال الأعداء ولا يشتركون فى مواجهة قوى الكفر والشرك إلّانادراً ومن موقع الإكراه وعدم الرغبة.

ويحتمل أيضاً أنّ هذه الآية الشريفة لا تشير إلى وجود طائفتين من المنافقين، بل تتحدّث عن حالة طائفة معينة تعيش حالتين، أى تشير إلى تلك الطائفة من المنافقين الذين عندما يكونون فى صفّ المجاهدين فى ميدان القتال يمتنعون من الحرب والجهاد، وعندما يتخلّفون عن الميدان يدعون الآخرين للتخلّف معهم وعدم

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۸۰

الاشتراك فى الحرب.

على أيّة حال فإنّ استشهاد الإمام عليه السلام بهذه الآية الشريفة إشارة إلى أنّك (معاوية) إذ تستخدم أساليب الدجل والتمويه أمام الناس فيما يتّصل بحادثة قتل عثمان، فإنّ اللّه تعالى لا يخفى عليه شىء، وأنّه يعلم أنّ عثمان طلب منك النصرة ولكنّك لم تتقدّم خطوة فى هذا السبيل (بل كنت مسروراً لمقتله) لعلّ الخلافة تصل إليك.

ومعلوم أنّ معاوية السياسىّ المحترف كان يعلم أنّ المهاجرين والأنصار إذا التزموا الصمت مقابل ثورة الناس ضدّ عثمان ولم يتحرّكوا على مستوى الدفاع عنه، فإن تدخل فى هذا الشأن وجاء مع جيشه للدفاع عن عثمان، فسيكون وجهاً لوجه مع المهاجرين والأنصار، وهذا المعنى يكلّفه غالياً فى المستقبل، ولهذا السبب لم يهتمّ بدعوة عثمان لنصرته، رغم أنّه بحسب الظاهر كان واليه ومتكاتفاً معه.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال، وهو أنّ الآية الشريفة المذكوة أعلاه (لآية ۱۸ من سورة الأحزاب) التى تتحدّث عن موقف المنافقين فى مقابل النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله ربّما تحسب مدحاً ضمتياً لعثمان، لأنّ الإمام عليه السلام فى هذا الكلام شبّهه بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله.

ولكنّ العبارات اللاحقة تشير إلى أنّ هذا التشبيه ناظر فقط لتشبيه معاوية بالمنافقين، وببيان آخر أنّ التشبيه هنا من طرف واحد، لأنّ الإمام عليه السلام فى سياق كلامه يقول: «وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّى كُنْتُ أَنْقِمُ ۴۷۷] عَلَيْهِ أَحْدَاثاً[۴۷۸]؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِى وَهِدَايَتِى لَهُ، فَرُبَّ مَلُومٍ لَاذَنْبَ لَهُ. وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ[۴۷۹] الْمُتَنَصِّحُ ۴۸۰]»، والأحداث تعنى البدع التى ارتكبها عثمان فى تقسيم بيت المال ووضع مقاليد

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۸۱

الأمور فى الحكومة الإسلاميّة بيد الانتهازيين وغير الجديرين، فيقول الإمام عليه السلام أنّه لا لوم علىَّ من إرشادى وهدايتى له ولو لامنى أحد فإنّى أفتخر به.

ويقول الإمام عليه السلام فى ختام كلامه: «وَمَا أَرَدْتُ «إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَما تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ إِلَيْهِ أُنِيبُ»[۴۸۱]».

ولا شكّ فى أنّ الإمام عليه السلام كان من الأشخاص المعدودين الذين رفضوا قتل عثمان ونهوا الناس عن ذلك، وقد أرسل ولديه (الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام) للدفاع عنه ۴۸۲].

وجاء فى تاريخ ابن عساكر: عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عبّاس قالوا: بعث عثمان بن عفّان المسور بن مخرمة إلى معاوية يعلمه أنّه محصور ويأمره أن يبعث إليه جيشاً سريعاً يمنع عنه، فلمّا قدم على معاوية وأبلغه ذلك ركب معاوية نجائبه ومعه معاوية بن خديج ومسلم بن عقبة، فسار من دمشق إلى عثمان عشراً فدخل المدينة نصف الليل فدقّ باب عثمان فدخل فأكبّ عليه فقبّل رأسه فقال عثمان: فأين الجيش؟ فقال معاوية: لا واللّه ما جئتك إلّافى ثلاثة رهط، فقال عثمان: لا وصل اللّه رحمك ولا أعزّ نصرك ولا

جزاک عنّی خیراً، فواللّه ما اقتل إلّا فیک ولا ینقم علیّ إلّامن أجلک.

فقال معاویة: بأبی أنت وامّی لو بعثت إلیک جیشاً فسمعوا به، عاجلوک فقتلوک قبل أن یبلغ الجیش إلیک، ولکن معی نجائب لا تساير ولم یشعر بی أحد فاخرج معی، فواللّه ما هی إلّاثلاث حتّی تری معالم الشام، فإنّها أکثر دار الإسلام رجلًا وأحسنه فیک رأیاً،

فقال عثمان: بئس ما أشرت، وأبی أن یجیبه إلی ذلک.

فخرج معاویة إلی الشام وقدم المسور یرید المدینة فلقی معاویة بذی المروة راجعاً إلی الشام، فقدم المسور علی عثمان وهو ذامّ لمعاویة غیر عاذر له، فلمّا کان

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۸۲

فی حصره الآخیر بعث المسور أیضاً إلی معاویة فأغذّ السیر حتّی قدم علیه فقال: إنّ عثمان بعثنی إلیک لتبعث إلی الرجال والخیول وتنصره بالحقّ وتمنع عنه الظلم، فقال معاویة: إنّ عثمان أحسن فأحسن اللّه به، ثم غیّر فغیّر اللّه به، فشددت علیه، وقال:

یامسور ترکتم عثمان حتی إذا کانت نفسه فی حنجرته قلتم: إذهب فادفع عنه الموت، لیس ذلک بیدی، ثمّ أنزلنی فی مشربة علی رأسه فما دخل علیّ حتّی قتل عثمان»[۴۸۳].

وجاء فی تاریخ الطبری فی حوادث سنة ۳۵ الهجریة أنّ الثوّار حاصروا دار عثمان محاصرة شدیدة وقطعوا عنه کلّ مدد حتّی الماء، «وَقَدْ کانَ یَدْخُلُ بِالشَّیْءِ مِمَّا یُریدُ»[۴۸۴] أی کان علیّ علیه السلام یأتیه بما یرید من الأمور.

ویذکر الطبری أیضاً فی هذا الکتاب: أنّ الناس عندما منعوا الماء والغذاء عن عثمان سخط علیّ علیه السلام بشدّة وقال لهم: یاأیّها الناس إنّ الذی تعملون لا یشبه أمر المؤمنین ولا أمرالکافرین، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادّة، فإنّ الروم وفارس عندما تؤسر تطعَم وتُسقی، وما تعرّض لکم هذا الرجل بماتستحلّون حصره وقتله؟[۴۸۵].

ویضیف الطبری بعد نقله لهذا الکلام: عندما عزم المسلمون علی مهاجمة عثمان منعهم من ذلک الحسن بن علیّ ... ومن کان معه من أبناء الصحابة[۴۸۶].

ولکن بما أنّ الإمام علیه السلام کان قد انتقد عثمان مراراً عدیدة قبل هذه الحادثة بسبب سوء أعماله، ونصحه مراراً أن یکفّ عن تلک التصرّفات الشائنة ویحضر أمام الناس ویستمع ویستجیب لمطالبهم الحقّة، فهذه الأمور أضحت فیما بعد ذریعة بید معاویة وأمثاله بأنّ الإمام علیه السلام کان یثیر الناس ضدّ عثمان، فیقول الإمام: إذا کان الإرشاد والنصیحة ذنباً (والحال أنّ مثل هذا الإرشاد یعدّ مصداقاً بارزاً للأمر بالمعروف

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۸۳

والنهی عن المنکر) فإنّی أعترف بهذا الذنب، ولکن لا أحد من المؤمنین یعتبر ذلک ذنباً، بل هو فریضة من فرائض الإسلام.

والجدیر بالذکر أنّ جملة «رُبَّ مَلُوم لا ذَنْبَ لَهُ هو مثل عربی معروف ویقال إنّ أوّل من نطق بهذه الکلمة «أکثم بن صیفی».

وجملة: «وَقَدْ یَسْتَفِیدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ تعنی أنّ الشخص أحیاناً یصرّ کثیراً علی تقدیم النصحیة إلی أن یکون متّهماً، وهذه العبارة عجز بیت شعر وصدره: «وَکَمْ سُقْتُ فی آثارِکُمْ مِنْ نَصیحَةٍ» وقیل إنّ هذا الشعر قاله شاعر یدعی الریاشی ۴۸۷].

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۸۵

القسم السادس

اشارة

وَذَکَرْتَ أَنَّهُ لَیْسَ لِی وَلِأَصْحابِی عِنْدَکَ إِلَّا السَّیْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَکْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ! مَتَی أَلْفَیْتَ بَنِی عَبْدِالْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاکِلِینَ

وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ

فَلَبِّثْ قَلِيلًا يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِى جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ؛ أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِى أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ «وَما هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ».

الشرح والتفسير: تهدّدنى بالحرب!

يشير الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من رسالته، وهو المقطع الأخير، إلى إحدى عبارات معاوية فى رسالته له عليه السلام حيث يهدّده فيها بالحرب، ويقول الإمام عليه السلام:

«وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِى وَلِأَصْحَابِى عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ[۴۸۸]! مَتَى أَلْفَيْتَ ۴۸۹] بَنِى عَبْدِالْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ ۴۹۰]، وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ، فَ لَبِّثْ قَلِيلًا

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۸۶

يَلْحَقِ الْهَيْجَا[۴۹۱] حَمَلْ».

وجملة: «لَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ» تعتبر مثلًا للشخص الذى يتحدّث بكلام متين وبعبارات قوية إلّاأنّه فجأة يقول كلاماً واهياً وسخيفاً، لأنّ تهديد الإمام علىّ عليه السلام وبنى هاشم وعبدالمطّلب بالحرب ممّا يضحك الثكلى، فهؤلاء رجال الميدان وأبناء السيف وأصحاب إقدام وصولة فى ميدان القتال، وأنت من جملة المهزومين فى معركة بدر والأحزاب وفتح مكة، ويشهد تاريخ الإسلام أنّك من الأشخاص الضعفاء والجبناء، ألا يكون تهديدك لى بالحرب مضحكاً؟ والجدير بالذكر أنّ جملة: «لَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ» تؤكّد على هذه النقطة، وهى أنّ الشخص إذا كان يضحك لبعض الأمور العادية فهذا ليس بالأمر المهم والمثير، ولكن الشخص الذى يعيش البكاء ويذرف الدموع، لو ضحك فى هذه الأثناء من كلمة أو عبارة، فيتبيّن أنّ هذه الكلمة مضحكة جدّاً.

وجملة: «لَبِّثْ قَلِيلًا يَلْحَقُ الْهَيْجاء حَمَلْ عجز بيت صدره «ما أحْسَنَ الْمَوْتِ إذَا الْمَوْتُ نَزَلَ .

ويعتبر هذا البيت مثلًا معروفاً لدى العرب، وأصله أنّ رجلًا من قبيلة «قشير» ويدعى «حمل بن بدر» كانت له إبل نهبت فى إحدى الحروب فى عصر الجاهلية، وكان هذا الرجل شجاعاً، فجاء ليلًا إلى هؤلاء الأعداء وأغار عليهم واستعاد إبله وقال هذا الشعر، ويعنى أنّك اصبر قليلًا فسيأتى حمل إلى الميدان، وهو لا يبالى بالموت، لأنّ الموت جميل دفاعاً عن الشرف.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يواصل كلامه ويهدّد معاوية بعبارات حاسمة وكلمات فى غاية الفصاحة والبلاغة ويقول: «فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِى جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ».

وهو إشارة إلى أننى سأقدم عليك فى طائفة من المقاتلين الذين أدّوا امتحانهم

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۸۷

فى الغزوات الإسلاميّة، وهم ثلاثة طوائف: المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان، ولكنّ الأشخاص الذين يتبعونك ويأتون معك للميدان هم المهزومون فى غزوات الإسلام وأبناؤهم ممَّن يعيشون لحدّ الآن رواسب الجاهلية ويسيرون فى خطّ الوثنية والضلالة وحبّ الدنيا.

وجملة: «مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ مقتبسة من الآية الشريفة: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدينَ فيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظيم»[۴۹۲].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يصف أنصاره وأصحابه بأوصاف دقيقة وكلمات بليغة ويقول:

أولًا: «شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ».

ثمّ يقول عليه السلام: «سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ ۴۹۳]»، أى أنّ غبارهم أثناء الحركة يغطّى الأجواء ويمنع رؤية الافق.

وفى الوصف الثالث يقول: «مُتَسَرْبِلِينَ ۴۹۴] سَرَابِيلَ الْمَوْتِ أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ».

وفى الوصف الرابع يقول: «وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ وسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا[۴۹۵] فِى أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ «وَما هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ»».

فى هذه الأوصاف الأربعة ذكر الإمام عليه السلام ما ينبغى ذكره فى المقام، فهو من جهة ذكر إيمانهم باللّه وعشقهم للشهادة ولقاء ربّهم، حيث تعدّ هذه الحالة من أهمّ

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۳۸۸

المحفّزات للجهاد فى سبيل اللّه تعالى، والآخر سابقتهم المنيرة فى الإسلام من قبيل مساهمتهم فى معركة بدر والتصدّى لأعداء الإسلام بسيوف هاشمية، أضف إلى ذلك ما التحق بهم من أعداد غفيرة من المؤمنين، والحقيقة أنّ تعبيرات الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة تعدّ من أفصح وأبلغ العبارات وأشدّها قوّة وحسماً.

وجملة: «مُرْقِلٌ تدّل على سرعة الزحف و «جَحْفَل تطلق على الجيش العظيم الذى يشارك فيه الكثير من الفرسان، وكلمة «سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ» تشير إلى أنّغبارهم قد ملأالخافقين، وكلّ ذلك إشارة إلى أنّ هذا الجيش سيأتيك مسرعاً إلى الميدان ولا يوجد أىّ تردّد فى نيّاتهم ولا شكّ فى غاياتهم، بل يتحرّكون باتّجاه ميادين الجهاد بعزم راسخ وعشق للشهادة فى سبيل اللّه تعالى.

وكلمة: «ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ» تعنى أنّ هؤلاء أبناء البدريين، وهم الذين اشتركوا فى معركة بدر وكأنّ هؤلاء قد تربّوا فى ذلك الميدان، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ جيش الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يضمّ الكثير من مجاهدى معركة بدر، فهذه العبارة مطابقة للواقع تماماً، وذهب بعض أنّ مفاد هذا العبارة أنّ جيش الإمام عليه السلام يضمّ جماعة من أبناء المحاربين فى معركة بدر، فى حين أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع سياقات كلام الإمام عليه السلام.

والمراد من «أخيك ؛ هو أخ معاوية: حنظلة بن أبى سفيان، ومقصوده من «خالَكَ ؛ الوليد بن عتبة خال معاوية، والمقصود من «جَدَّكَ ؛ جدّ معاوية لُامِّه وهو عتبة بن ربيعة، ومراده من «أهْلَكَ ؛ اسرة معاوية وهم جماعة من أبناء عمومته الذين اشتركوا مع قوى الكفر والشرك فى معركة بدر ضدّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والإسلام.

وجملة: «وَما هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» مقطع من آية ۸۳ من سورةهود، وتشير إلى العذاب الأليم الذى ينتظر قوم لوط، وهم القوم الذين كانوا أشدّ من جميع الأقوام المشركة عذاباً، لأنّ اللّه تعالى قلب مدنهم وقراهم عاليها سافلها ثمّ أمطر عليهم حجارة من سجّيل، تقول الآية الشريفة: «فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۳۸۹

وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ* مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ»[۴۹۶].

والجدير بالذكر أنّ نصر بن مزاحم ينقل فى كتابه صفّين أنّ سعيد بن قيس الصحابىّ المعروف قام يوماً بين أصحابه وخطب فيهم وقال: «إنّ أصحاب محمّد المصطفين الأخيار معنا، وفى حيزنا، فواللّه الذى هو بالعباد بصير أن لو كان قائدنا حبشيّاً مجدّعاً- إلّاأنّ معنا من البدريين سبعين رجلًا لكان ينبغى لنا أن تحسن بصائرنا وتطيب أنفسنا، فكيف وإنّما رئيسنا ابن عم نبيّنا، بدرىّ صدق، صلّى صغيراً وجاهد مع نبيّكم كبيراً، ومعاوية طليق من وثاق الاسار، وابن طليق، إلّاأنّه أغوى جفاةً فأوردهم النار، وأورثهم العار، واللّه مُحِلّ بهم الذلّ والصغار ..»[۴۹۷].

تأمّل: مدين فى لباس دائن!

هناك مثل معروف منذ القديم يقول: «إذا أردت أن لا تقع مديناً فكن دائناً» ومعاوية من الأشـخاص الذين استخدموا هذا المثل بكثرة، وتعتبر رسالته للإمام عليه السـلام هـذه «وتقـدّم آنفاً رسالـة الإمام عليه السـلام له جواباً عليها» مصـداقاً بارزاً لهذا المثل، لأنّ معاوية فى حين ارتكابه للكثير من السـلوكيات الخاطئة، ومع سوء سابقته فى الإسـلام، أخذ يتبجّح بالحقّانية ويكتب للإمام عليه السلام رسالة فيها الكثير من المطالبة بالحقّ.

ولو استطلعنا قائمة سوابقه الاجتماعية والأخلاقية وتصرّفاته السيئة فى مسيرته فى خط الضلالة، لرأينا:

۱. من حيث الاسـرة، فإنّ معاوية يتمتّع بوضع غريب، فوالده أبوسـفيان العدوّ الأول للإسـلام، وهو العامل الأساس لإشـعال نار الحروب ضدّ المسلمين، وامّه هند

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۹۰

المعروفة بآكلة الأكباد، المرأة التى جاءت إلى ميدان القتال فى معركة أحد وشـقّت بطن حمزة بن عبدالمطّلب عليه السـلام وأخرجت كبده ولاكته.

۲. من حيث الإيمان بالإسـلام فإنّ معاوية أسـلم فى آخر مرحلة من الدعوة، يعنى فى سنة فتح مكة، وتحت عوامل الإكراه، حيث أعلن هو وأبوه الإسلام ظاهراً.

۳. امتنع من البيعة لإمام المسلمين علىّ بن أبى طالب عليه السلام الذى بايعه المهاجرون والأنصار وجمهور عظيم من المسلمين.

۴. رفع لواء المخالفة ضدّ الحكومة الإسـلاميّة بذريعة الطلب بدم عثمان وجمع حوله مجاميع كثيرة من المنافقين والمطرودين فى زمان النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله.

۵. جعـل من بيت مال المسـلمين وسـيلة لتحقيق مآربه ومطامعه، فبنى قصـراً عظيماً كقصـر القياصـرة والملوك، ووزّع أموال بيت المال على وضّاع الأحاديث ورؤساء القبائل والأشخاص المتملّقين والمتزلّفين.

۶. لم يمتنع من سـفك دماء الأبرياء، فكان أن قتل محمّـد بن أبى بكر الرجل الصالـح ومالك الأشتر القائد الإسـلامىّ الفذّ، وعمّار بن ياسـر الصـحابى المعروف والمقرّب للنبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله، وكان يأمر جيشه بالإغارة على حدود العراق والقرى والقصبات العراقية ويقتل الكثير من الأبرياء.

۷. بالرغم من تقصيره فى الدفاع عن عثمان، ومع طلب عثمان النصرة منه، إلّاأنّه نصب نفسه ومطالباً بدمه وأخذ يطالب بالثأر له.

وهكـذا نرى أنّ معاويـة على الرغم من هـذه الأعمـال، يتحـدّث فى رسالته للإمام عليه السـلام بوصـفه دائناً لا مـديناً، فمن جهـة ينبرى للـدفاع عن أصـحاب النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله والمهاجرين والأنصار ويتحدّث عن أنّ ظهور النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله وبعثته هبـة إلهيّـة عظيمـة للنـاس، وأنّ الإمـام عليه السـلام كـان مقصّـراً فى نصـرة الصـحابة، ومن جهـة أخرى يتّهم الإمام عليه السـلام بالمشاركة فى دم عثمان، ومن جهة ثالثة يقول إنّ بيعة الإمام عليه السلام للخليفة الأوّل من موقع الإكراه تعدّ منقصة ومذمّة.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۹۱

ولكنّ الإمام عليه السـلام فى جوابه على هذه الأقاويل أجاب عنها بعبارات حاسمة وبليغة جدّاً وأجهض سعى معاوية فى التشويش على الذهنية العامة، وألفت نظره إلى ما كان عليه هو واسـرته فى زمان النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله ومشاركته هو وأقرباؤه من بنى امية ضدّ الإسلام والنبىّ فى معركة بدر، ومقتل الكثير من أرحامه بيد جنود الإسلام، وقال له بصراحة: إنّ ثناءك على النبىّ صلى الله عليه و آله وبيان أهمية بعثته لشـخص مثل علىّ بن أبى طالب إنّما هو من قبيل «حمل التمر إلى هَجَر»، ثمّ بيّن الإمام عليه السلام تقصير معاوية فى نصـرة عثمان، ورسم بعبارات جلّيـة وبليغـة حدود ومعالم اسـرة بنى هاشم وبنى امية فى الجاهلية والإسـلام، وجدارته لمقام الخلافة بعـد النبىّ الأـكرم صـلى الله عليه و آله بالأدلّـة والبراهين الجليّـة والقاطعـة، ويقول بالنسـبة لبيعته لأبى بكر، أنّك أردت الـذمّ ولكنّك مـدحت من حيث لا تشـعر، وأخيراً أجابه عن تهديـده بالحرب وقال له: إنّ تهديدك مضـحك ولا معنى له بالنسـبة لشـخص هو وليد

الحرب وقد تربّى وترعرع فى ميادين القتال والجهاد.

ومن مجموع ما تقدّم من شرح هذه الرسالة، وكما أشرنا إلى ذلك سابقاً، أنّ هذه الرسالة للإمام عليه السلام، كما يؤكّد شرّاح نهج‌البلاغة أيضاً، تعتبر من أروع الرسائل والكتب التى تبيّن أهداف الإمام عليه السلام وترسم آفاق رؤاه ومواقفه بأفضل وجه.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۹۲

الرسالة ۲۹

اشارة

إلى أَهْلِ الْبَصْرَةِ[۴۹۸]

نظرة إلى الرسالة

كما أوردنا فى بيان سند هذه الرسالة فى الهامش، أنّ هذه الرسالة ترتبط بالفتنة التى أثارها معاوية فى البصرة، والقصّة بشكل مختصر كالتالى: إنّ بعض أتباع معاوية بعد استيلاء عمرو بن العاص على مصر ومقتل محمّد بن أبى بكر قالوا له:

إبعث رجلًا إلى البصرة لإخراجها من ولاية علىّ بن أبى طالب، فقبل معاوية بهذا الاقتراح ووافق على ذلك. ونقل صاحب كتاب الغارات هذه الواقعة بهذا الشكل:

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۹۳

«بعد مقتل محمّد بن بكر واستيلاء عمرو بن العاص على مصر، سيّر معاوية عبداللَّه بن الحضرمى إلى البصرة وقاله له: إنّ جلّ أهلها يرون رأينا فى عثمان، وقد قتلوا فى الطلب بدمه، فهم لذلك حانقون، يودّون أن يأتيهم من يجمعهم وينهض بهم فى الطلب بثأرهم ودم إمامهم، فانزل فى مضر وتودّد الأزد، فإنّهم كلّهم معك، ودع ربيعة فلن يتحرّف عنك أحد سواهم، لأنّهم كلّهم ترابية فاحذرهم، فسار ابن الحضرمى حتّى قدم البصرة، وكان ابن عباس قد خرج إلى الكوفة (ليعزّى أميرالمؤمنين عليه السلام باستشهاد محمّد بن أبى بكر) واستخلف زياد بن أبيه على البصرة، فلمّا وصل ابن الحضرمى إلى البصرة نزل فى بنى تميم.

فرفع ذلك ابن عباس إلى أميرالمؤمنين عليه السلام فشاع فى الناس بالكوفة ما كان من ذلك، .. ثمّ إنّه عليه السلام دعا أعين بن ضبيعة المجاشعى وقال له: يا أعين ما بلغك أنّ قومك وثبوا على عاملى مع ابن الحضرمى بالبصرة يدعون إلى فراقى وشقاقى ويساعدون الضلّال الفاسقين علىَّ؟.

فقال أعين: لا تستأ ياأميرالمؤمنين ولا يكن ما تكره، ابعثنى إليهم فأنا لك زعيم، فنجح أعين تقريباً فى مهامّه ولكنّه لما أوى إلى رحله تبعه عشرة نفر يظنّ أنّهم خوارج، فضربوه بأسيافهم فقتلوه، ولمّا وصل خبر استشهاده إلى أميرالمؤمنين عليه السلام، دعا عليه السلام جارية بن قدامة (صاحب الكلمة النافذة) وكتب معه كتاباً فقال له: ياابن قدامة إقرأه على أصحابك، وما جاء فى نهج‌البلاغة سوى قسم من رسالة الإمام عليه السلام إلى الناس.

انهزم المخالفون والتجأ ابن الحضرمى إلى دار، فأحرقها ابن قدامة عليه وعلى أنصاره، فهلكوا جميعاً وخمدت نار الفتنة[۴۹۹].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۳۹۴

وَقَدْ كَانَ مِن انْتِشَارِ حَبْلِكَمْ وَشِقَاقِكَمْ مَا لَمْ تَغْبَوْا عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكَمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكَمْ. فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ الْمُرْدِيَةُ، وَسَفَهُ الآرَاءِ الْجَائِرَةِ، إِلَى مُنَابَذَتِي وَخِلَافِي، فَهَا أَنَا ذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي، وَرَحَلْتُ رِكَابِي. وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُم لَأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لَايَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعْقَةِ لَاعِقٍ؛ مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلَى بَرِيٍّ، وَلَا نَاكِثاً إِلَى وَفِيٍّ.

الشرح والتفسير: إطفاء نار الفتنة فی البصرة

ینطلق الإمام علیه السلام فی هذه الرسالة القصیرة والزاخرة بالمضمون العمیق والدقیق، من موقع العمل علی إطفاء نار الفتنة التی أثارها معاویة فی البصرة، وذلک استناداً إلی أصلین: الأول: التهدید الجدیّ والأکید لمَن یتحرّک علی مستوی نقض البیعة والعهد، ویذکّرهم أنّهم إذا لم یترکوا تآمرهم ویتخلّوا عن الفتنة فإنّه سیأتی إلیهم بجیش کبیر وسیقمعهم کما قمعهم فی معرکة الجمل، ثمّ یتحدّث عن أصل الرحمة والرأفة بالنسبة للأشخاص الذین التزموا بالوفاء للإمام علیه السلام أو أظهروا الندم علی أفعالهم السابقة، ویبشّرهم بأنّ أموالهم ونفوسهم وأعراضهم ستکون فی أمن وأمان من التعرّض للخطر.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۹۵

وبدایة یقول الإمام علیه السلام: «وَقَدْ كَانَ مِن انْتِشَارِ حَبْلِكُمْ ۵۰۰] وَشِقَاقِكُمْ ۵۰۱] مَا لَمْ تَغْبَوْا[۵۰۲] عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ».

والحقیقة أنّ الإمام علیه السلام بهذا الکلام یعمل علی إبطال حیلة معاویة وإجهاض تآمره هو وأتباعه، فقد کان معاویة عازماً علی إثارة أهالی البصرة ضدّ الإمام علیه السلام بتذکیرهم بمعرکة الجمل، ولکنّ الإمام علیه السلام بتذکیرهم بنتائج هذه المعرکة عَمِل علی إطفاء نار الفتنة والفساد، وقال لهم: أنّکم کنتم أهل الشقاق وقد تحرّکتم فی خطّ التمرّد والثورة ضدّ الخلافة الإسلامیّة، ولکن بعد أن حلّت بکم الهزیمة لم أصدر الأمر بقتلکم، ولم أسمح بتعقّب الهاربین منکم، وأصدرت العفو العام عنکم وصفحت عن المجرمین منکم، وقبلت الأشخاص الذین جاءوا إلیَّ نادمین وطویت صفحة الماضی، وتناسیت ما ارتکبوه من أعمال، وعلی هذا الأساس فینبغی أن تکونوا ممّن یلتزم بالقیم الأخلاقیة، ولا یردّ الجمیل بالإساءة ولا یقیم العلاقة مع أعدائه.

وجاء فی بعض الروایات أنّ الإمام علیّ علیه السلام بعد انتصاره فی معرکة الجمل أمر منادیاً ینادی بصوت عالٍ: «لَا تُتْبِعُوا مُوَلِّياً وَلَا تُجهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ»[۵۰۳].

ثم أمر منادیاً ینادی: «مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِن»[۵۰۴]، وهذا الأمر یشبه ما أصدره رسول اللّه صلی الله علیه و آله من العفو العام عند فتح مکة.

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام ولغرض إطفاء نار الفتنة هذه، تحدّث عن الشدّة والحسم فی مقابل الأشخاص المعاندین والانتهازیین وقال: فَإِنْ خَطَتْ ۵۰۵] بِكُمُ الْأُمُورُ الْمُرْدِيَةُ،

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۳۹۶

وَسَفَهُ الْآرَاءِ الْجَائِرَةِ، إِلَى مُنَابَذَتِي ۵۰۶] وخِلَافِي، فَهَا أَنَا ذَا[۵۰۷] قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي ۵۰۸]، وَرَحَلْتُ ۵۰۹] رِكَابِي».

ثمّ یضیف الإمام علیه السلام: «وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُم لَأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً[۵۱۰] لَا يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعْقَةِ لَاعِقٍ».

وهذا یعنی أننی فی معرکة الجمل لم أکن مستعدّاً لها من حیث العدّة والعدد وکانت إمکاناتی قلیلة فی تلک الواقعة، ولکننی الیوم أملک جیشاً منسجماً وکثیر العدّة والعدد، ویملک أفراد الجیش کلّ وسیلة قتالیة وآلة حربیة، وعلی ضوء ذلک فلو وقعت حرب فلا تقبل المقارنة مع تلک المعرکة السابقة، وسوف لا یکون محلّ لما بدرَ منّی من محبّة ورأفة بکم فی حرب الجمل، لأنّکم تناسیتم تلک الرأفة وتجرّأتم علی إمامکم، وکأنّ تلک المودّة وذلک الإحسان زاد من جرأتکم ووقاحتکم.

وجملـة: «لَعْقَـهٔ لاعِقٍ مع الالتفات إلى أنّ كلمـهٔ «لعقـهٔ» (على وزن قهوهٔ) بمعنى اللحس، و «لعقهٔ» (على وزن بقعهٔ)، المقدار من الشـيء الذي يحمل بالملعقهٔ، فهذا كنايهٔ على أنّ هذا المقدار قليل جدّاً، وفي المثل المتعارف كالقطرهٔ في البحر.

ولكن لئلّا يستغلّ العـدوّ هذا الكلام ويسـيء فهمه ويتصوّر أنّ الإمام عليه السـلام يهدّد جميع أهالي البصـرهٔ ويقول إنني سوف أحرق الأخصر واليابس واعاقب المحسن

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۳۹۷

والمسـيء يضـيف الإمام عليه السـلام: «مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَهِٔ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِذِي النَّصِيحَهِٔ حَقَّهُ، غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلَى بَرِيٍّ، وَلَا نَاكِثاً إِلَى وَفِيٍّ».

وجاء في بعض الروايات أنّ زياد بن أبيه- الـذي كان أحـد المعاونين والمستشارين لابن عباس والي البصـرهٔ، وعنـدما سافر ابن عباس إلى الكوفـهٔ لرؤيـهٔ الإمام عليه السـلام وتقديم التعازي بمناسـبهٔ استشـهاد محمّد بن أبي بكر، واسـتلم زمام أمور البصـرهٔ- خطب خطبهٔ حماسيّهٔ وهدّد فيها أهالي البصـرهٔ بأنني لا اميّز بين المذنب والبريء وسوف أخذ الأب بذنب ابنه، والجار بذنب جاره، وسأنزل العقاب الشديد بكم جميعاً إلّاأن تسلكوا في الطريق الصحيح [۵۱۱].

ويحتمـل أنّ هـذا الكلام وصـل إلى مسامع الإمام عليه السـلام، فأراد الإمام عليه السـلام بكلامه المـذكور آنفاً بيان سـعهٔ دائرهٔ العـدل الإسلامي وإصلاح ما صدر من زياد بن أبيه من الكلام المتقدّم.

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۳۹۹

الرسالهٔ ۳۰

اشارهٔ

إلى مُعاوِيَهٔ[۵۱۲]

نظرهٔ إلى الرسالهٔ

لم ينقـل المرحوم السـيّد الرضـيّ مطلع هـذه الرسالـهٔ، وقـد ابتـدأت الرسالـهٔ وفقاً لما ذكره ابن أبيالحديـد بعبارهٔ: «أمّا بَعْـدُ فَقَـدْ بَلَغَني كِتابُكَ تَذْكُرُ فيهِ مُشاغَبَتي».

وهذا التعبير يبيّن بوضوح أنّ الرسالهٔ لم تكن سوى رسالهٔ جوابيهٔ للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام على رسالهٔ معاويهٔ له، والتي يتّهم فيها الإمام عليه السـلام بخلق الفتنـهٔ، والظلم والجور، والإمام عليه السـلام يجيبه جواباً قاطعاً أنني أعمل بوظيفـهٔ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتصدّي للظالمين والملحدين والمنافقين على أساس تعاليم القرآن الكريم وأوامر اللَّه تعالى.

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۴۰۰

وبعد أنّ يبرّيء الإمام عليه السلام ساحته من هذه التهم الموهنهٔ يبدأ بتقديم النصح لمعاويهٔ، وهو ما نقله السيد الرضيّ في هذه الرسالهٔ.

يقول الإمـام عليه السـلام لمعاويـهٔ: ينبغي عليـك أن تتعرّف على طريق الحقّ الـذي وضـحت معـالمه وتبيّنت سُـبله، فلاـ عـذر لك في جهلـك به، ولاـ ينبغي لـك أن تنحرف عن مسـير الحقّ وتتحرّك في متاهات الحياهٔ وتسـلك دروب الضـلالهٔ فيسـلب اللَّه تعالى نعمه منك وينزل عليك عقابه وعـذابه، فحذار من المسـير في خطّ الأهواء النفسانيهٔ التي تقودك إلى وادي المهالك وتقحمك في مهاوي الكفر وترك الإيمان.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۰۱

فَاتَّقِ اللّهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَانْظُرْ فِی حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَاتُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَاماً وَاضِحَةً، وَسُبُلًا نَيِّرَةً، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً، وَغَايَةً مُطَّلَبَةً، يَرِدُهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُخَالِفُهَا الْأَنْكَاسُ؛ مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ، وخَبَطَ فِی التِّيهِ، وَغَيَّرَ اللّهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ. فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ، فَقَدْ بَيَّنَ اللّهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرّاً، وَأَقْحَمَتْكَ غَيّاً، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ.

الشرح والتفسير: ينبغی أن تفكّر بعاقبة أمرک!

من المناسب أن نورد هنا رسالة معاوية للإمام لغرض توضيح أهداف الإمام عليه السلام من رسالته الجوابية لمعاوية، وأنّ جواب الرسالة ناظر إلى النص الوارد فی الرسالة الاولى، ولكن للأسف لم تنقل هذه الرسالة، بحدود اطلاعنا، فی أیّ كتاب ومصدر، رغم أنّ رسالة الإمام عليه السلام تبتدیء بمقطع لم ينقله المرحوم السيّد الرضیّ، ومع الالتفات إلى هذا المقطع من الرسالة يتبيّن بشكل إجمالیّ مضمون رسالة معاوية أيضاً، لأنّ الإمام عليه السلام فی مطلع هذه الرسالة وطبقاً لما ورد فی كتاب «نهج‌البلاغة الكامل» يقول:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِاللّهِ عَلِیٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِی سُفْيَانَ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِی كِتَابُكَ تَذْكُرُ مُشَاغَبَتِی، وَتَسْتَقْبِحُ مُوَازَرَتِی، وَتَزْعَمُنِی

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۰۲

مُتَجَبِّراً، وَعَنْ حَقِّ اللّهِ مُقَصِّراً. فَسُبْحَانَ اللّهِ، كَيْفَ تَسْتَجِيزُ الْغِيبَةَ، وَتَسْتَحْسِنُ الْعَضِيهَةَ. فَإِنّی لَمْ أُشَاغِبْ إِلّا فی أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْیٍ عَنْ مُنْكَرٍ. وَلَمْ أَتَجَبَّرْ إِلّا عَلى بَاغٍ مَارِقٍ، أَوْ مُلْحِدٍ كَافِرٍ، وَلَمْ آخُذْ فِی ذَلِكَ إِلّا بِقَوْلِ اللّهِ- سُبْحَانَهُ-: «لَاتَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ»[۵۱۳] وَأَمَّا التَّقْصِيرُ فی حَقِّ اللّهِ- تَعَالى- فَمَعَاذَ اللّهِ وَإِنَّمَا الْمُقَصِّرُ فی حَقِّ اللّهِ- جَلَّ ثَنَاؤُهُ- مَنْ عَطَّلَ الْحُقُوقَ الْمُؤَكَّدَةَ، وَرَكَنَ إِلَى الأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعِةِ، وَأَخْلَدَ إِلَى الضَّلَالَةِ الْمُحَيِّرَةِ. وَمِنَ الْعَجَبِ أَنْ تَصِفَ، يَا مُعَاوِيَةُ، الِاحْسَانَ، وَتُخَالِفَ الْبُرْهَانَ، وَتَنْكُثَ الْوَثَائِقَ الَّتی هِیَ لِلّهِ- عَزَّ وَجَلَّ- طَلِبَةٌ، وَعَلى عِبَادِهِ حُجَّةٌ، مَعَ نَبْذِ الإِسْلَامِ، وَتَضْيِيعِ الأَحْكَامِ، وَطَمْسِ الأَعْلَامِ، وَالْجَرْیِ فِی الْهَوی، وَالتَّهَوُّسِ فِی الرَّدی».

أمّا ما أورد السيّد الرضیّ فی نهج‌البلاغة فهو:

إنّ الإمام عليه السلام بعد هذه المقدّمة أخذ ينصح معاوية ويعظه بطرق مختلفة ويتمّ الحجّة عليه، بداية يقول فی ثلاث جمل قصيرة وعميقة المعنى: «فَاتَّقِ اللّهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَانْظُرْ فِی حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَاتُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ».

الجملة الاولى: «فَاتَّقِ اللّهَ فِيمَا لَدَيْكَ ربّما تشير إلى مقام معاوية فی ولاية الشام، أو إلى أموال المسلمين فی يده، أو جميع نعم اللّه عليه، فالإمام عليه السلام هنا يحذّره من التمسّك بما ليس لك من المقام ويجب عليك إعادته إلى أصحابه وأن تستخدم نعم اللّه عليك فی طريق طاعته والسعی لنيل رضاه وإمتثال أمره.

والجملة الثانية: «وَانْظُرْ فِی حَقِّهِ عَلَيْكَ إشارة إلى أنّ اللّه تعالى له حقّ على عباده فی مقابل كلّ هذه النعم والمواهب التی أنعم بها عليهم، وهذا الحقّ الإلهیّ يستلزم أن يسير العبد فی خط الطّاعة والعبودية والامتناع عمّا نهی اللّه عنه، فلو أنّه لم يؤدّ هذا الحقّ فسوف يواجه العذاب الأليم فی الآخرة.

والجملة الثالثة: «وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَاتُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ ذهب جمع من شرّاح

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۰۳

نهج‌البلاغة إلى أنّها إشارة لمعرفة الإمام عليه السلام الواجب الإطاعة، فقد ورد فى الحديث المشهور: «مَنْ ماتَ وَلَمْ يَعْرِفْ امامَ زَمانِهِ فَقَدْ ماتَ مَيْتَةً جاهِلِيَّةً»[۵۱۴].

ويحتمل أيضاً فى تفسير هذه العبارة أنّها إشارة إلى جميع المعارف الإلهيّة والدينية التى لا يعذر الإنسان فى جهله بها، وعلى ضوء ذلك فالإمام عليه السلام يوصى معاوية بأن يتعرّف على أصول دينه وفروعه والتكاليف الشرعية التى يتوجّب عليه القيام بها أمام اللّه تعالى والناس.

ويتحرّك الإمام عليه السلام بعد ذلك من موقع الاستدلال على ما تقدّم من كلامه (فإنّك غير معذور فى حالة الجهل) ويضيف: «فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَاماً وَاضِحَةً، وَسُبُلًا نَيِّرَةً، وَمَحَجَّةً[۵۱۵] نَهْجَةً[۵۱۶]، وَغَايَةً مُطَّلَبَةً، يَرِدُهَا الْأَكْيَاسُ ۵۱۷]، وَيُخَالِفُهَا الْأَنْكَاسُ ۵۱۸]».

والإمام عليه السلام فى هذا الكلام يتمّ الحجّة على معاوية بأنّك يوم القيامة لا يمكنك أبداً أن تدّعى أنّ الطريق كان مظلماً وأنّ معالمه غير واضحة، ولذلك لم أعرف الحقّ والحقيقة، فيقول الإمام عليه السلام: إنّ أعلام هذا الطريق واضحة وآياته بيّنة من خلال ما ورد فى الآيات القرآنية من جهة، والأحاديث النبوية المعتبرة من جهة أخرى، والبراهين العقلية الساطعة من جهة ثالثة، وكلّها تمثّل علامات هذا الطريق المتوفّرة فى كلّ مكان منه، أضف إلى ذلك أنّ الجادة غير مظلمة «سُبُلًا نَيِّرَةً» فالطريق واضح ورحب ليس فيه مآزق ومنزلقات: «مَحَجَّةً نَهْجَةً» والغاية النهائية لهذا المسير نيل

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۰۴

السعادة الأبدية، وهذا المعنى لا يخفى على كلّ إنسان.

واللافت أنّ الإمام عليه السلام ذكر فى كلامه كلمة: «سُبُل جمع سبيل، وكذلك «مَحَجَّة» وتعنى الطريق الواسع والجادّة الواضحة، لأنّ الإنسان عادة يتحرّك من الطرق الفرعية ليوصل نفسه إلى الجادة الأصلية، ثم يتوجّه إلى مقصده وغايته، وإذا وردت «سُبل» بصيغة الجمع و «محجّة» بصورة مفرد فهى ناظرة إلى هذا المعنى وهو أنّ الطرق الفرعية التى يشرع الإنسان فيها حركته، متعدّدة، ولكنّ الجادّة الأصلية واحدة عادة.

أمّا عبارة «غَايَةً مُطَّلَبَةً» فتارة تقرأ بتشديد الطاء وأخرى بتشديد اللام، وجاء فى بعض النسخ «مطلوبة» وهى كلّها تعنى المطلوبة، فالإمام يقول: إنّ طاعة اللّه تعالى تمثّل هدفاً مطلوباً للإنسان، والمقصود منها نيل القرب من اللّه تعالى والوصول إلى السعادة الأبدية والنجاة فى الآخرة وتحصيل رضا اللّه تعالى وشمول لطفه ورحمته فى الدنيا، فالعقلاء وأولو الألباب يتحرّكون فى واقع الحياة لتحقيق هذا الهدف، لأنّهم غير مستعدّين للتضحية بالسعادة الأبدية ورضا اللّه تعالى لحساب تحصيل الأموال والمقامات والشهوات الدنيوية، كما ورد هذا المعنى فى الحديث الشريف عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «الْكَيِّسُ مَنْ أَحْيَا فَضَائِلَهُ وَأَمَاتَ رَذائلَهُ»[۵۱۹]، ونقرأ فى حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إِنَّمَا الْكَيِّسُ كَيِّسُ الْآخِرَةِ»[۵۲۰].

وفى مقابل ذلك فإنّ الأراذل من الناس لا يتحرّكون باتجاه هذا الهدف، وإنّما يقنعون بتحصل الملذّات الدنيوية الرخيصة ويطلبون الزخارف المادية المهزوزة والعناوين الاعتبارية، ويبيعون أغلى ما لديهم من متاع بأزهد الأثمان، وهذا بذاته دليل على سفاهتهم وحماقتهم.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۰۵

ويستمرّ الإمام عليه السلام فى كلامه محذّراً معاوية من مغبّة الانحراف عن الصراط المستقيم والإعراض عن طاعة اللّه تعالى، لأنّه: «مَنْ نَكَبَ ۵۲۱] عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ، خَبَطَ فِى التِّيهِ، وَغَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ».

فالإمام عليه السلام فى هذه الجمل الأربع، يشير فى البداية إلى نتيجة الانحراف عن مسير الطاعة، وهو البعد عن الحقّ والتوغّل فى دروب المتاهة والحيرة، وبالتالى يعيش الإنسان الحرمان من النعم الإلهيّة ويستحقّ حينئذٍ العقوبة والعذاب.

والجملتان الأوليان فى الواقع بمثابة المقدّمة، والجملتين الثالثة والرابعة بمثابة النتيجة وذى المقدمة، وكأنّ كلام الإمام عليه السلام هذا

إشارة إلى الآية الشريفة: «ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْم حَتَّى یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ»[۵۲۲].

ثمّ یضیف الإمام علیه السلام: «فَنَفْسَکَ نَفْسَکَ! فَقَدْ بَیَّنَ اللَّهُ لَکَ سَبِیلَکَ، وَحَیْثُ تَنَاهَتْ بِکَ أُمُورُکَ، فَقَدْ أَجْرَیْتَ إِلَى غَایَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةِ کُفْرٍ».

وهذا التعبیر فی الحقیقة مقتبس من القرآن الکریم: «عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ»[۵۲۳]، وتعبیر الإمام علیه السلام إشارة إلى أنّ هذا الطریق الذی سلکته لا ـ یقودک إلّاإلى الشقاء والخسران والکفر، فینبغی علیک الانتباه من نوم الغفلة والعودة إلى أحضان الحقّ وتعالیم الرسالة الإلهیّة.

وجملة: «قَدْ بَیَّنَ اللَّهُ لَکَ سَبِیلَکَ ، ذهب الکثیر من شرّاح نهج‌البلاغة بأنّ اللَّه تعالى قد بیّن لک سبیل النجاة، فی حین أنّ هذا المعنى قد ورد فی العبارات السابقة ولا حاجة للتکرار، فالمقصود من هذه العبارة شیء آخر، وهو أنّ الإمام علیه السلام یرید القول بأنّ اللَّه تعالى قد بیّن لک خطأ هذا المسیر الذی تسیر علیه وبیّن لک عواقبه السیئة، والعبارات اللاحقة أیضاً تؤیّد هذا المعنى.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۰۶

وفی المقطع الأخیر من الرسالة، طبقاً لما ذکره السید الرضی بیّن الإمام علیه السلام فی أربع جمل أخرى العواقب التی تنتظر معاویة والمترتبة على أعماله السیئة، ویقول:

«فَإِنَّ نَفْسَکَ قَدْ أَوْلَجَتْکَ ۵۲۴] شَرّاً، وَأَقْحَمَتْکَ ۵۲۵] غَیّاً[۵۲۶]، وَأَوْرَدَتْکَ الْمَهَالِکَ، وَأَوْعَرَتْ ۵۲۷] عَلَیْکَ الْمَسَالِکَ».

وکلّ جملة من هذه الجمل الأربع تبیّن أحد أبعاد العاقبة السیئة لأعمال معاویة وکلّ من سار على هذا الخطّ، فی البدایة التورّط فی عناصر الشرّ، وأیّ شرّ أشنع من أن تتلوّث ید الإنسان بدم الأبریاء من الناس والتلاعب ببیت المال وإعطاء مال المسلمین إلى غیر المستحقّین، وما أشدّ ضلالة الإنسان الذی یتجاوز حدوده ولا یعرف قدره ویدّعی منصب الخلافة وإمامة الامّة ویجلس مجلس النبیّ الأکرم صلى الله علیه و آله مع أنّه لا ـ یملک اللیاقة الکافیة والجدارة لإحراز هذا المقام، وأیّ مهلکة أخطر من حرکة الإنسان فی الطریق الذی یؤدّی به إلى جهنّم، وأیّ مشکلة أشدّ من أنّ الإنسان یرتکب الذنوب والآثام بحیث یوصد طریق العودة خلفه ویهدم جسور التوبة والإنابة إلى اللَّه ولا یتمکّن بعد ذلک من إصلاح الخلل.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۰۷

الرسالة ۳۱

اشارة

لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِیٍ علیهما السلام، کَتَبَهَا إِلَیْهِ «بِحاضِرَیْنِ»[۵۲۸]

عِنْدَ انْصِرافِهِ مِنْ صِفّینٍ ۵۲۹]

نظرة إلى الرسالة

تعتبر هذه الوصیة بعد عهد مالک الأشتر من أطول الرسائل والکتب للإمام ۵۳۰]

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۰۸

علیّ علیه السلام فی نهج‌البلاغة، وهی عبارة عن دورة کاملة من دروس الأخلاق وتهذیب النفس وتزکیتها وبیان معالم السیر والسلوک إلى اللَّه، وفی الحقیقة أنّها تتألّف من ثلاثین قسماً ومقطعاً.

والإمام عليه السلام فى المقطع الأول يخاطب نفسه وأبناءه بوصفه كاتب هذه الوصية ويعرّف نفسه للمخاطب بعبارات عميقة المضمون ومنسجمة مع روح هذه الوصية.

وفى المقطع الثانى يعرّف هذه الوصية بأنّها وصية والد متحرّق ومحبّ لأبنه الذى يملك له محبّة شديدة.

وفى المقطع الثالث إلى المقطع العاشر يوصى ولده بالتقوى ومطالعة سيرة الأسلاف وتاريخ القدماء والتوصية بالاحتياط فى جميع الأمور والتفقّه فى الدين والصبر والاستقامة فى مقابل المشكلات والتحديّات والتوكّل على اللَّه وتفويض الأمور إليه، والتوجّه إلى هذه الحقيقة وهى أنّ قلب الشابّ مستعدّ لاستلهام جميع التعاليم والتوصيات، والتأكيد على أنّ أباك قد اختتم تجارب العمر ووضعها تحت اختيارك بدون أن تتعب نفسك فى ذلك، ثمّ التوصية بالتمعّن أكثر فى كتاب اللَّه ومعرفة الحلال والحرام الإلهيين، وأخيراً الاقتداء بسنّة الصالحين وضرورة اجتناب الشبهات.

والمقطع الحادى عشر إلى المقطع العشرين يتحدّث الإمام عليه السلام عن كثرة مجهولات الإنسان فى مقابل معلوماته، ويحذّره من أىّ انحراف عن الحقّ ويؤكّد عليه لزوم اتّباع نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله وأنّ أىّ إنسان لا يصل إلى نتيجة صحيحة بدون التأسىّ به، ثمّ يؤكّد له على مسألة التوحيد وشرح بعض الصفات الإلهيّة، وأخيراً يرسم له معالم القصور فى الدنيا وعدم ثباتها بذكر مثال جميل فى هذا الشأن.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۰۹

ثمّ يبيّن لولده العزيز هذه الحقيقة، وهى أنّه لابدّ أن تجعل نفسك ميزاناً للحكم على الآخرين، فما كنت تحبّه لنفسك ينبغى أن تحبّه للآخرين وما تكره لها تكره لهم، ثمّ يتحدّث عن الآفات الأخلاقية المهمّة من قبيل الأنانية والعجب ويؤكّد له أنّ خدمة الخلق تمثّل زاداً ومتاعاً للآخرة، ويحذّره من الطريق الملىء بالمطّبات والمآزق فى سبيل النجاة لنيل السعادة الأخروية ويتحدّث أيضاً عن أهمية الدعاء وأنّه مفتاح جميع الخيرات والبركات، وأنّ الهدف والغاية من خلق الإنسان نيل الحياة الأبدية والسعادة الدائمة فى الآخرة، إلّاأن يعيش الإنسان أيّام معدودة فى هذه الدنيا ويجعلها هدفاً نهائياً له فى حركة الحياة.

وفى المقطع الحادى والعشرين إلى الثلاثين يذكر الإمام مسألة الموت وكيفية الانتباه من الغفلة ويحذره من السير فى خطّ أهل الدنيا، ويتحدّث كذلك عن سرعة انقضاء العمر وطرق تهذيب النفس ولزوم التوقّى من الآمال البعيدة والطموحات الزائفة، وضمناً يبيّن له سلسلة من المسائل الأخلاقية المهمّة، ثمّ يتحدّث عن كيفية معاشرة المؤمنين ويتحدّث عن نقاط مهمّة فى هذا المجال، ثمّ يتقدّم له بنصائح مهمّة فى مجال اجتناب الحرص والطمع فى تحصيل الرزق، وبعد ذلك يتحدّث الإمام عن بعض المسائل المهمّة المتعلّقة بحفظ حرمة النساء والتعامل الصحيح معهنّ، ثمّ يتحدّث عن المسائل المتعلّقة بإدارة الحياة والمعيشة وتقسيم العمل بين الأفراد، وأخيراً ينهى الإمام عليه السلام هذه الوصية بتفويض أموره إلى اللَّه عزّ وجلّ ويسأله خير الدنيا والآخرة.

وبالالتفات إلى ما تقدّم آنفاً، فإنّ القرّاء الأعزّاء لهذه الوصيّة سيطّلعون على مضامين عالية وتوصيات سامية فيما يتّصل بتربية النفوس وتهذيب القلوب.

والنقطة الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها فى هذا المورد، هو أنّ أغلب نسخ نهج‌البلاغة تقرّر أنّ المخاطب لهذه الوصية هو الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وهذا ما ورد فى غالبية طرق السند فى هذه الوصية (كما يقول العلّامة التسترى فى شرح

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۱۰

هذه الوصية المهمّة، وطرق السند بلغت خمس طرق)، ولكن هنا طريق واحد لرواية هذه الوصية يقرّر فيها أنّ المخاطب لها هو محمّد بن الحنفية، وبعض شرّاح نهج‌البلاغة يؤكّدون على المعنى الثانى، وأنّ المخاطب للوصية ليس هو الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ويستدلّون لذلك بأنّ بعض عبارات هذه الوصية لا يتناسب مع كون المخاطب هو الإمام المعصوم، فى حين أننا نعلم أنّ مثل هذه العبارات فى مقام الموعظة والنصيحة من الوالد لابنه هو اسلوب متداول وشائع، والمهمّ أنّ المخاطب لهذه الوصية وإن كان شخصاً

واحداً، إلّاأنّ المقصود هو جميع الشيعة والمسلمين فى العالم، بل جميع أبناء آدم، وكأنّ الإمام عليه السلام يتحدّث مع جميع أبناء البشر بوصفه أباً لهم وأنّ المخاطب له، وإن كان الإمام الحسن عليه السلام مباشرة، إلّاأنّ المخاطب الحقيقى جميع أفراد البشر.

وأمّا ما ذكره البعض من أنّ الإمام المعصوم عليه السلام مع توفّر مقام العصمة والإمامة لا يحتاج إلى نصيحة وموعظة، فهو اشتباه كبير لأنّ مقام الإمامة والعصمة الشامخ لا يتنافى إطلاقاً مع التأكيد على المسائل الأخلاقية المهمّة، ولهذا نرى أنّ الإمام علىّ عليه السلام وهو فى فراش الوفاة يعظ أبناءه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام ويقدّم لهما توصيات وتعاليم لم يكونا غافلين عنها.

وكذلك ما ذكره البعض من أنّ الإمام الحسن عليه السلام فى زمان صدور هذه الوصية كان قد بلغ من العمر أكثر من ثلاثين سنة وهو لا ـ يتناسب مع ما ورد فى هذه الوصية من عبارة: «وأمّا قلب الشابّ يتقبّل جميع التعاليم والإرشادات» وهذا خطأ أيضاً لأنّ الإنسان فى سنّ الثلاثين عاماً لايزال شاباً، أضف إلى ذلك أنّ المخاطب لهذه الوصية جميع أفراد البشر بوصفهم أبناء الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام.

وقد ورد فى كتاب الإمامة والسياسة فى قصّة السقيفة أنّ أباعبيدة الجراح عندما أراد إبعاد الإمام علىّ عليه السلام عن تولّى لخلافة قال: «يَابْنَ عَمّ إنّك حَديثُ السِّنّ وَهؤُلاءِ مَشيخَةُ قَوْمِكَ»[۵۳۱]، ونعلم أنّ الإمام عليه السلام كان عمره فى ذلك الوقت أكثر من ثلاثين عاماً.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۱۱

القسم الأوّل

اشارة

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً؛ إلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَايُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَحَلِيفِ الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَنُصُبِ الْآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ.

الشرح والتفسير: هذه الوصيّة ممّن وإلى من؟

هذا المقطع من الوصية يبيّن فى الحقيقة عنوان الوصية والمرسل لها، لأنّ المتداول فى كتابة الرسائل أن يكتب فى مستهلّ الرسالة عنوان الشخص المرسل والمرسل إليه، ويقال مِنْ فُلانٍ الى فُلانٍ؛ فالإمام عليه السلام بدلًا من ذكر اسمه واسم ولده الإمام الحسن المجتبى عليه السلام اكتفى بذكر صفات المرسل والمرسل إليه، ممّا يوفّر الأرضية المساعدة لتقبّل هذه المواعظ والنصائح.

بداية يطرح الإمام عليه السلام ستّ صفات لنفسه، ثمّ يذكر أربعة عشر صفة لولده لغرض تهيئة الأجواء بهذه الصفات، وأن يكون المخاطب على استعداد تامّ لطرح الموضوع.

فى البداية يقول: «مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ ۵۳۲]، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۱۲

لِلدُّنْيَا[۵۳۳]، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى وَالظَّاعِنِ ۵۳۴] عَنْهَا غَداً».

فالإمام عليه السلام عندما ينطلق بذكر هذه الصفات لنفسه يهدف منها تحقيق عدّة أمور:

الأوّل: أن يُفهم ولده بأنّنى عندما أكتب هذه الوصية لك فإنّنى أحمل معى تجارب كثيرة حصلت عليها بمرور الزمان، والآخر: أنّ القائل لهذه النصائح تحدّث بلغة التواضع ولم يتكلّم من موقع الفوقية والاستعلاء، وهذا من شأنه أن يؤثّر إيجاباً فى نفس المخاطب،

الثالث: أن يعلم ولده بأنّه عمّا قريب سيكون أباً ولابدّ أن يشعر بمسؤولية الوالد ويدرك هذه الحقيقة، ودرك هذه الحقيقة يجعله مستعدّاً لقبول هذه المواعظ.

والتعبير ب «فانِ (وهى فى الأصل «فانى» ولكن حذفت الياء لمزيد التجانس مع الجمل اللاحقة) إشارة إلى أنّنى قضيت الشطر الأكبر من عمرى، وأنا الآن فى مرحلة الرحيل من هذه الدنيا، لأنّ الإمام عليه السلام تحدّث بهذا الكلام فى وقت كان قد بلغ من العمر حسب الظاهر ستّين سنة.

وجملة: «الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ إشارة إلى الحوادث والأزمات الصعبة والحوادث المرّة والحلوة التى يواجهها الإنسان فى حركة الحياة والواقع.

وجملة: «الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ» تأكيد على أنّنى أسير فى منزلق نهاية العمر، وجملة:

«الْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا» إشارة إلى غلبة الحوادث والوقائع على إرادة الإنسان.

وجملة «السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى إشارة إلى أنّ المساكن التى نسكنها هى فى الغالب من بناء وتشييد السابقين، فأولئك بنوا هذا الدور ونحن سكنّا فيها وأحياناً نبنى ويسكنها اللاحقون.

وأخيراً جملة: «وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً» إشارة إلى قرب لحظة الرحيل من هذه الدنيا، يعنى أننى عندما أكتب لك هذه الوصية أعلم بجميع هذه الخصوصيات والمفارقات.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۱۳

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يصف مخاطبه بدون ذكر اسمه فى أربعة عشر صفة ويقول:

«إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَايُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ ۵۳۵] الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ[۵۳۶] الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ[۵۳۷] الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَحَلِيفِ ۵۳۸] الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَنُصُبِ الْآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ».

وأوّل وصف يصف الإمام عليه السلام ولده، وببيان آخر يصف جميع أفراد البشر هو أنّك فى هذا العالم تتحرّك لتحصيل ما لا يمكن تحصيله، لأنّ الإنسان يريد أن يعيش حياة خالية من جميع المشاكل وحالات القصور والألم، فى حين أنّ طبيعة الدنيا مقترنة بالمشاكل والآلام والمصائب «الْمُؤَمِّلِ مَا لَايُدْرِكُ .

وجملة: «السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ تعنى أنّ جميع أفراد البشر يسيرون فى طريق ينتهى إلى الموت والهلكة، كما يقول القرآن الكريم: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»[۵۳۹] ولا يوجد أىّ استثناء من هذه القاعدة.

وجملة «غَرَضِ الْأَسْقَامِ هى فى الحقيقة توضيح لما سبق، لأنّ الإنسان شاء أم أبى يواجه فى هذا الحياة حالات المرض وأنواع الأسقام فى طفولته وفى شبابه وفى شيخوخته بشكل من الأشكال.

والتعبير ب «وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ مع الأخذ بالحسبان أنّ «رهينة» تعنى الأسر والاختطاف، فهى إشارة إلى أنّ الإنسان يعيش دوماً فى أسر الأزمات وأنّ مرّ الزمان يأخذ بيده إلى المجهول ويتركه شاء أم أبى فى نهاية العمر ويسلّمه إلى القبر.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۱۴

وعبارة: «وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ مع الأخذ بالحسبان أنّ كلمة «رميّة» تعنى الشىء الذى يوضع غرضاً وهدفاً لرمى السهام، فهذه العبارة تشير إلى المصائب والبلايا التى تصيب الإنسان فى ماله ونفسه وأقربائه وأعزّته حيث تهجم عليه من كلّ جهة وتجعله غرضاً لها، فلا نكاد نرى أحداً لم يواجه طيلة عمره المصائب المختلفة، كما قال الإمام عليه السلام فى مورد آخر: «دارٌ بِالْبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ»[۵۴۰].

ومن عجائب الدنيا أنّ الإنسان غالباً لا يرى سهام المصائب وهى تتّجه نحوه ولا يرى مصدرها وكيف ابتلى بها، ولكنّه فجأة يفتح عينه ليرى حلول المصيبة به، وكما قال الشاعر:

وَلَوْ انَّنى أَرْمى بِنَبْلٍ، رَأَيْتُهاوَلكِنَّنى أَرْمى بِغَيْرِ سِهام ۵۴۱]

وجملـة: «وَعَبْـدِ الـدُّنْيا وَتَـاجِرِ الْغُرُورِ» إشـارة إلى أنّ الإنسان حاله حال العبـد يعيش فى أسـر الأهواء والشـهوات ويرفل فى قيود الآمال والمطامع الدنيويـة، وهـذه الأمور تأخـذ به من كلّ جانب، أمّا كونه تاجر الغرور، من جهة أنّه يتصوّر أنّ أمواله ورأس ماله الذى أتعب نفسه فى جمعه فى هـذه الـدنيا حقيقة موضوعية إلّاأنّه ليس سوى سـراب بقيعة وتشـكيلة من الخداع الغرور، فسوف يفقد هذه الأموال والثروات وقد يقبع الآخرون فى انتظارها.

وعبـارة: «غَرِيمِ الْمَنَايَـا» تشبيه للإنسان بالشـخص المـدين الـذى يطلبه الموت، فالموت يسـلب منه روحه ويضع جسـمه فى لحـد القبر، وكلمة: «أَسِيرِ الْمَوْتِ تبيّن هذا المضمون بشكل آخر، فأحياناً يقول: غريم الموت، وأخرى يقول: أسير الموت.

وعبـارة «حَلِيفِ الْهُمُومِ» و «قَرِينِ الْأَحْزَانِ إشارة إلى أنّ الإنسان يعيش طيلـة حياته مع أنواع الهموم والأحزان، همّ المعيشـة والرزق، همّ المرض، همّ فقدان الفرص، همّ خيانة بعض الأقربين والرفقاء، همّ مؤامرات الأعداء، فهل يمكن العثور

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۱۵

على شخص لم يقع طيلة عمره أسيراً لمثل هذه الهموم والغموم؟

ومن المناسب هنا الإشارة إلى قصّة الإسـكندر المعروفة، فعندما حان أجله وكانت امّه لا زالت على قيد الحياة، ويعلم أنّها سوف تحزن عليه بشـدّة، فكّر بـأمر لتخفيف حزنهـا وألمهـا، فقـال لهـا: يـا امّـاه إبكى علىَّ وأقيمى المأتم ولكن لاتبكى لوحـدك، بل ادعى معكِ جماعة يشاركونك فى هذا الأمر وليبكوا علىَّ لا على مصائبهمومشاكلهم.

فعملت هـذه الام بوصـيته بعـد موته وتوجّهت للجيران والأقرباء والأصـدقاء وكلّما سألت أحـداً منهم: هل أنّك خالٍ من الغمّ والحزن؟ فإنّه يذكر لها بعض همومه وأحزانه، فيقول أحدهم: ماتت زوجتى، والآخر يقول: مات ولدى، والثالث يقول:

إنّى خسرت فى تجارتى، الرابع يقول: إننى أعيش الأسقام والآلام، ففهمت الامّ أنّه لا يوجد شخص لا يعيش الحزن ولا تواجه الهموم، وحسب المثل المعروف: «الْبَلِيَّةُ إذا عَمَّتْ طابَتْ» فخفّت عليها حينئذٍ مصيبة فقد ولدها.

وعبارة: «نُصُبِ الْآفَاتِ وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ مع الأخذ بالحسبان أنّ كلمة «نُصُب تعنى الأغراض التى ينصبها الرماة لتسديد الرمية باتجاها، وكلمـة «صَـريع تعنى الشـخص المغلوب على أمره والـذى سـقط على الأرض، فالعبارة تشـير إلى الآفات والبلايا المختلفة التى تصـيب الإنسان من كلّ جهة وتجعله هدفاً لها، والشهوات التى تصرعه فى حياته ولا يستطيع التصدّى لها ومقاومتها.

وجملـة: «خَلِيفَـةِ الْأَمْوَاتِ إشـارة إلى أنّـك أيّهـا الإنسـان لا- تغفل عن أنّك خليفـة الأموات وسوف تلتحق بهم فى المسـتقبل القريب وسيحلّ آخرون محلّك، وهكذا تستمرّ هذه المعادلة فى حياة البشرية.

واللافت أنّ الإمام عليه السـلام قـد وصف نفسه بستّ صـفات، ولكنّه وصف ولـده بأربعة عشـر صـفة ممّا يواجهه كلّ إنسان فى حياته الدنيا من مشاكل وصعوبات، يعنى فى مقابل كلّ صفة وصف فيها نفسه، فقد وصف ولده بصفتين، وفى مقابل كلّ مشكلة واجهها فى حياته، فإنّ مخاطبه سيواجه مشكلتين.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۱۷

القسم الثانى

اشارة

أَمَّا بَعْـدُ، فَـإِنِّى فِيمَـا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَـارِ الـدُّنْيا عَنِّى، وَجُمُوحِ الـدَّهْرِ عَلَىَّ، وَإِقْبَـالِ الْآخِرَةِ إِلَىَّ، مَا يَزَعُنِى عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَاىَ، وَالْاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِى، غَيْرَ أَنِّى حَيْثُ تَفَرَّدَ بِى دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِـى، فَصَدَفَنِى رَأْيِى، وَصَـرَفَنِى عَنْ هَوَاىَ، وَصَـرَّحَ لِى مَحْضُ أَمْرِى، فَأَفْضَى بِى

إِلَى جِدٍّ لَایَکُونُ فِیهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَایَشُوبُهُ کَذِبٌ. وَوَجَدْتُکَ بَعْضِی، بَلْ وَجَدْتُکَ کُلِّی، حَتَّی کَأَنَّ شَیْئاً لَوْ أَصَابَکَ أَصَابَنِی، وَکَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاکَ أَتَانِی، فَعَنَانِی مِنْ أَمْرِکَ مَا یَعْنِینِی مِنْ أَمْرِ نَفْسِی، فَکَتَبْتُ إِلَیْکَ کِتَابِی مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِیتُ لَکَ أَوْ فَنِیتُ.

الشرح والتفسیر: علّة کتابة هذه الوصیة

فی هذه الفقرة من الوصیة یتحدّث الإمام علیه السلام فیها بادئاً من نفسه ویذکر الباعث له لکتابة مثل هذه الوصیة الأخلاقیة والإنسانیة، ویقول ما خلاصته: إنّی نظرت إلی نفسی فرأیت کوکب عمری متّجهاً نحو الافول، وینبغی أن أهتمّ بنفسی وأستعدّ لسفر آخرتی، ولکن بما أنّک تمثّل جزءاً من وجودی بل جمیع وجودی، فرأیت من الضروری أن اقدّم لک هذه التحذیرات والنصائح، ویقول الإمام علیه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِیمَا تَبَیَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْیَا عَنِّی، وَجُمُوحِ ۵۴۲] الدَّهْرِ عَلَیَّ وَإِقْبَالِ

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۱۸

الْآخِرَةِ إِلَیَّ، مَا یَزَعُنِی ۵۴۳] عَنْ ذِکْرِ مَنْ سِوَایَ، وَالاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِی ۵۴۴]».

وفی هذا السیاق یستنتج الإمام علیه السلام هذه النتیجة، أنّ هذا الاهتمام دعانی للتفکیر فی نفسی والانصراف عن سلوک طریق الأهواء النفسیة وبیّن لی حقیقة مصیری وأوصلنی هذا الأمر إلی مرحلة لا یشوبها اللعب والهزل، بل کلّها صدق وحقّ: «غَیْرَ أَنِّی حَیْثُ تَفَرَّدَ بِی دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِی، فَصَدَفَنِی ۵۴۵] رَأْیِی وَصَرَفَنِی عَنْ هَوَایَ، وَصَرَّحَ لِی مَحْضُ أَمْرِی، فَأَفْضَی ۵۴۶] بِی إِلَی جِدٍّ لَایَکُونُ فِیهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا یَشُوبُهُ کَذِبٌ».

وهذا إشارة إلی أنّ الإعراض عن الدنیا یوجب للإنسان الیقظة ویبعث فیه الانتباه لأنّه یری نفسه فی مرحلة الانتقال من هذه الدنیا، وهذا الأمر یقوده لاجتناب السقوط فی فخ الأهواء النفسانیة، وأن یفکّر بشکل جادّ بمصیره وعاقبته، ویجتنب أشکال اللهو واللعب ویحمل نفسه علی الصدق وطلب الحقیقة بعیداً عن کلّ أشکال التعصّب والتساهل، ویهتمّ بمستقبله وحیاته بعد الموت فیما یجمع له من زادٍ لسفر الآخرة.

وبهذه المقدّمة یهدف الإمام علیه السلام ظاهراً لتحقیق أمرین: الأوّل: أن یؤمن مخاطبه بشکل تامّ أنّ ما قاله آنفاً لیس بالهزل، بل هو جادّ تماماً فی هذا الکلام، ویمثّل نتیجة مطالعات عمیقة وتأمّلات فی وضعه الحالی والمستقبلی، والآخر أنّه یحذّر ولده من أنّه سیواجه مثل هذه الأمور فی المستقبل، ولا یبقی فی مرحلة الشباب

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۱۹

دائماً (رغم أنّ الشباب لیس عنصراً یثیر الاطمئنان والاعتماد فی الحیاة) وسوف لا ـ تمضی مدّة إلّاوتقترب قافلة عمرک وحیاتک للوصول إلی المنزل الآخیر، لئلّا یعیش ولده حالات الغرور بالشباب وتقوده عناصر الحیویة نحو الطغیان وینسی مستقبله ویغفل عن عاقبة أمره.

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام یلفت النظر إلی هذه النقطة، وأنّه لماذا فکّر بتقدیم النصح الکثیر لولده فی حین أنّ الإمام علیه السلام یعیش حالة الاهتمام بنفسه، ویقول: «وَوَجَدْتُکَ بَعْضِی، بَلْ وَجَدْتُکَ کُلِّی، حَتَّی کَأَنَّ شَیْئاً لَوْ أَصَابَکَ أَصَابَنِی، وَکَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاکَ أَتَانِی، فَعَنَانِی مِنْ أَمْرِکَ مَا یَعْنِینِی مِنْ أَمْرِ نَفْسِی، فَکَتَبْتُ إِلَیْکَ کِتَابِی مُسْتَظْهِراً[۵۴۷] بِهِ إِنْ أَنَا بَقِیتُ لَکَ أَوْ فَنِیتُ».

وعندما یعبّر الإمام علیه السلام بأنّک بعض من وجودی فالمعنی واضح، لأنّ الإبن یولد من الأب والامّ، وتتشکّل أجزاء بدنه من بدن والدیه، ولکن عندما یقول: ووجدتک جمیع وجودی، یمکن أن یکون إشارة إلی أنّک الإمام بعدی وخلیفتی فی هذا المقام، وعلی هذا الأساس فإنّ جمیع وجودی یتجلّی فیک، وتکون مرآة یتجلّی فیها کلّ وجودی.

ویحتمل أیضاً أنّ هذه الجملة إشارة إلی مجموعة الصفات الجسمانیة والروحانیة التی تنتقل من الآباء للأبناء بحکم قانون الوراثة، وأنّ

الأبناء سيتحلّون بالصفات الجسمانية والروحانية للآباء.

وهنا مثل عربى معروف يمثّل بيت شعر يقول فيه الشاعر:

إنّما أوْلادُنا بَيْنَناأكْبادُنا تَمْشى عَلَى الْأَرْضِ ۵۴۸]

وجاء فى شرح نهج‌البلاغة للمرحوم التسترى أنّ رجلًا أعرابياً مات ابنه فكفّنه ودفنه، ثمّ قال:

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۲۰

دَفَنْتُ بِنَفْسى بَعْضَ نَفْسى فَأَصْحَبَتْوَلِلنَّفْسِ مِنْها دافِنٌ وَدَفينٌ ۵۴۹]

وجملة: «حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً ...» وهى توضيح وبمثابة الدليل على كيفية أن يكون ابنه العزيز بعض وجوده أو كلّ وجوده فيقول: ومن هنا أجد أنّ كلّ مصيبة وكلّ ألم يصيبك فكأنّما يصيبنى حتّى لو أنّ الموت جاءك فكأنّه جاءنى، لأنّنى أرى كلّ شىء فى نفسى فيك، فأنت جميع كيانى ووجودى، وعلى أيّة حال فهذا الاهتمام من الإمام علىّ بأمر ولده يشكّل الباعث الأصلى لكتابة هذه الوصية المطوّلة التى تعتبر تشكيلة من أفضل المواعظ والإرشادات فى مجال التوحيد والمعاد، آداب الحياة، آداب تهذيب النفس، ورسم الطريق القويم والسلوك الصحيح فى الحياة مع المجتمع، وبما أنّ الإمام عليه السلام يمثّل أباً لجميع أفراد الامّة كما هو مقتضى الحديث النبوىّ المعروف: «أَنَا وَعَلِيٌّ أَبَوَا هَذِهِ الْأُمَّة»[۵۵۰] فإنّ المخاطب بهذه الوصية فى الحقيقة جميع أفراد الامّة.

وجملة: «إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ إشارة خلود مضمون هذه الرسالة ودوامها، والواقع هو كذلك، فبالرغم من مضىّ أكثر من ألف عام عليها، فإنّها لا زالت طريّة ويانعة وزاخرة بالحيوية والحركة، وهى المصداق البارز لقول تعالى: «كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا»[۵۵۱].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۲۱

القسم الثالث

اشارة

فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ- أَيْ بُنَيَّ- وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالْاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ. وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ.

الشرح والتفسير: أوثق وسيلة للنجاة

يستهلّ الإمام عليه السلام هذا المقطع من الرسالة بنصائح بنّاءة ومفعمة بالإيمان، ويقدّم فى أربع جمل قصيرة أربع توصيات لولده، وتمثّل هذه التوصيات عصارة جميع الفضائل ويقول: «فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ- أَيْ بُنَيَّ- وَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ».

إنّ التوصية بالتقوى هى التوصية التى جعلها جميع الأنبياء والأوصياء فى سلّم أولويات برامجهم فى حركة الحياة بعد الإيمان باللَّه، التقوى التى تمثّل الزاد والمتاع فى طريق الآخرة، ومعيار الفضيلة والامتياز لشخص على سائر الناس، ومفتاح الجنّة، والتقوى تعنى الخشية الباطنية والقلبية من اللَّه تعالى واجتناب كلّ أشكال الذنوب وارتكاب الآثام، والشعور والإحساس بالمسؤولية أمام اللَّه، ومن شأنها أنّ تخلق فى نفس الإنسان مانعاً وسدّاً يحول بينه وبين الذنوب، والمرتبة الأدنى منها هى العدالة، والمرتبة القصوى هى العصمة.

نفحات الولاية ؛ ج۹ ؛ ص۴۲۱

ى التوصية الثانية يشير الإمام عليه السلام إلى الالتزام الواعى بالأوامر الإلهيّة، وهذا هو الأمر الذى أكّد عليه القرآن الكريم مراراً بعنوان «أطِيعُوا اللَّهَ» والذى يعتبر من ثمار شجرة التقوى.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۲۲

وعبارة: «عِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ إشارة إلى أهميّة ذكر اللَّه، لأنّ الغفلة عن ذكر اللَّه تعنى خراب القلب وخواء الروح وجفاء العواطف ويصير الإنسان بالتالى ميداناً وملاذاً لجيش الشيطان، يقول القرآن الكريم: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»[۵۵۲] وهذا الإحياء للقلوب لا يتسنّى بالذكر اللفظى فقط، رغم أنّ الذكر اللفظى مهمّ جدّاً، بل الذكر العملى كما ورد ذلك فى الروايات الشريفة يقول الإمام الباقر عليه السلام: «ثَلَاثٌ مِنْ أشَدِّ ما عَمِلَ العِبادُ: إنصافُ المَرءِ مِن نَفسِهِ، وَمُواساةُ المَرءِ مِن أخِيه، وذِكْرُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ حالٍ ثمّ ذكر المقصود من ذلك وقال: «وَهُوَ أن يَذْكُرَ اللَّهَ عَزَجَلَّ عِنْدَ الْمَعْصِيَةِ يَهُمُّ بِهَا فَيَحُولُ ذِكْرُ اللَّهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَجَلَّ: «إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإذا هُمْ مُبْصِرُونَ»[۵۵۳].

وعبارة: «الاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ إشارة إلى التمسّك بتعاليم القرآن الكريم والذى يتضمّن مناهج لتحقيق السعادة فى واقع الحياة، ويشير القرآن إلى ذلك أيضاً بقوله:

«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا»[۵۵۴].

ونعلم أنّ المفسّرين ذكروا لكلمة حبل اللَّه فى هذه الآية الشريفة معانٍ كثيرة، فذهب بعض المفسرين إلى أنّ المراد منها القرآن الكريم، وذهب آخرون إلى أنّها تعنى الإسلام، ويعتقد بعض أنّ المقصود منها أهل بيت النبوّة، ولكن لا يوجد اختلاف وتباين بين هذه التفاسير، لأنّ «حبل اللَّه» تعنى الارتباط الوثيق باللَّه تعالى وتشمل جميع هذه المعانى المذكورة.

ولهذا يقول الإمام عليه السلام فى مواصلًا كلامه: «وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ إنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ».

والتعبير بالحبل إشارة إلى أنّ الإنسان بدون التربية الإلهيّة يهبط إلى الحضيض

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۲۳

ويسقط فى بئر الطبيعة، ولذلك لابدّ له من حبل متين يتمسّك به ويرقى بواسطته ليخرج من هذه البئر، وهذا الحبل هو القرآن والإسلام والعترة.

وبالنسبة للتقوى وأهميتها وآثارها فى حياة الإنسان وردت بحوث فى ذيل الخطبة ۱۵۷، الجزء ۶ ص ۱۷۲ فصاعداً، والخطبة ۱۶۱، ص ۲۷۴ فما بعد.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۲۵

القسم الرابع

اشارة

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا! فَإنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ

صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ.

الشرح والتفسير: أحى قلبک بالموعظهٔ

ينطلق الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصيهٔ ليستعرض اثنتى عشرهٔ موعظهٔ مهمّهٔ تتسبّب فى تكامل روح الإنسان وأخلاقه، وتجعله يعيش الحياهٔ المعنويهٔ والمثل الإنسانيهٔ.

بدايهٔ يقول: «أَحْيِ قَلْبَکَ بِالْمَوْعِظَهِٔ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَهِٔ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَهِٔ، وذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ ۵۵۵] بِالْفَنَاءِ».

ويبتدىء الإمام عليه السلام فى هذه التوصيات الستّ بإحياء القلب، والقلب فى هذا الموارد الروح والعقل والإدراک، فما لم يعش القلب هذه الحياهٔ المعنويهٔ فلن يستطيع

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۴۲۶

الإنسان أن يتقدّم خطوهٔ واحدهٔ باتجاه التكامل والسمّو والتعالى، ويتوقف عن المسير عند هذا الحدّ، فما يوجب الحياهٔ للقلب وينفخ فيه الروح، هو المواعظ والنصائح التى وردت فى القرآن الكريم والأحاديث النبويهٔ الشريفهٔ وروايات الأئمّهٔ المعصومين عليهم السلام وما يستوحيه الإنسان من حوادث الدهر وتاريخ الأقوام البشريهٔ.

وحقيقهٔ الموعظهٔ تتمثّل فى التوصيهٔ بالخيرات والمكرمات والتوقّى من السيئات والقبائح، فإذا انطلقت هذه المواعظ من القلب مقترنهٔ بالأدلهٔ والشواهد، وبنيّهٔ إسداء الخير للآخرين والشفقهٔ عليهم، فإنّها تسكن فى القلب وتؤثّر فى إحياء الروح والعواطف.

وجملهٔ: «أَمِتْهُ بِالزَّهَادَهِٔ» المراد القلب الذى يعيش أسير الأهواء والشهوات، فمثل هذا القلب يجب أن يموت بآليهٔ الزهد ويكسب له حياهٔ جديدهٔ بالموعظهٔ، وهذا التعبير بليغ وجذّاب جدّاً حيث يأمر الإمام عليه السلام أوّلًا بإحياء القلب ثمّ يأمر بإماتته، فالأمر الأوّل ناظر للأبعاد الإيجابيهٔ فى العقل والروح، والأمر الثانى ناظر للأبعاد السلبيهٔ وأن يكون العقل أسيراً فى براثن الشهوات، وفى الواقع أنّ الإمام عليه السلام يشبّه قلب الإنسان وروحه بالبستان الذى يحتوى على أشجار مثمرهٔ وأغصان زاهرهٔ وأزهار مختلفهٔ الألوان، وفى ذات الوقت هناک أعشاب وأشواک ضارّهٔ كثيرهٔ بين هذه الأشجار، فإحياء هذا البستان يعتمد على تنميهٔ تلک الأشجار والأزهار وقلع هذه الأشواک والأعشاب الضارّهٔ.

وبعد أن يحيى القلب بالموعظهٔ وتتمّ إزالهٔ العوائق والموانع بالزهد، تصل النوبهٔ لتقويهٔ القلب، فيقول الإمام عليه السلام: «وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ ، اليقين الذى يحصل عليه الإنسان من خلال النظر فى آفاق الخلق وأسرار الطبيعهٔ، أو من خلال العبادهٔ والعبوديهٔ للّه تعالى، وبعد تقويهٔ القلب باليقين يشتغل المؤمن بتنويره، وهو قول الإمام عليه السلام:

«وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَهِٔ» فالحكمهٔ والمعرفهٔ والعلم من شأنها أن تنير طريق السالک إلى اللّه وتمنحه المعرفهٔ بالمطبّات والعوائق التى تواجه المؤمن فى طريق المعنويهٔ.

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۴۲۷

وبما أنّ نفس الإنسان ربّما تتمرّد عليه وتسلک سبيل الطغيان والعصيان، فالإمام عليه السلام يرشدنا لكيفيهٔ كبح جماح هذه النفس، ويقول فى الجملهٔ الخامسهٔ والسادسهٔ: «وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ»، لأنّ الموت والإقرار بالفناء يعملان على تذليل هذا الجموح ويتعامل الإنسان مع الواقع والحياهٔ من موقع الإذعان والتسليم، وقد رأينا الكثير من الناس عندما يفقدون عزيزاً لهم فى حادثهٔ فجائيهٔ ويرون مشاركهٔ الناس من الأقرباء والمعارف فى التشييع ويحضرون فى مجالس العزاء والمأتم، فإنّ آثار التذلّل والتسليم باديهٔ على وجوه الجميع، وربّما يكون لهذه الحالهٔ تأثير مؤقّت، ولكن على أيّهٔ حال تشير إلى أنّ ذكر الموت والإقرار بالفناء إذا استمر لمدّهٔ طويلهٔ فذلک من شأنه كبح جماح النفس المتمرّدهٔ والسيطرهٔ على نوازعها وشهواتها.

وبعد أن طرح الإمام عليه السلام هذه التوصيات فى الجمل والعبارات السابقهٔ، يوصى ولده بأن يتمعّن ويتدبّر فى حوادث الدهر

والزمـان، ويرى المتغيّرات والتقلّبـات التى تطرأ بالليل والنهار: «وَبَصِّرْهُ فَجائِعَ الـدُّنْيا، وَحَـذِّرْهُ صَوْلَـةَ الـدَّهْرِ وَفُحْشَ ۵۵۶] تَقَلُّبِ اللَّيالِى وَالْأَيّام».

أحياناً تسدل الغفلة ستائرها على قلب الإنسان فيغرق فى دوّامة الأهواء والشـهوات بحيث لا يدرك الحقائق المتعلّقة بالحياة والسـعادة، ولا يتحرّك فى طريق العقل والسـلامة، فمن أجل إزاحة هذه السـتائر والحجب وإضاءة زوايا القلب وتنوير العقل، فلا شـىء أفضل من التـدبّر فى الحوادث المرّة والبلايا المؤلمـة للدنيا وكثرة التقلبات الفجائية فى الحياة وبالأخصّ ما يراه الإنسان فى حياة أصـحاب القدرة والسلطة فى العالم، كلّ ذلك من شأنه أن يفتح نوافذ القلب ويعيد إليه بصيرته.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۲۸

وعبارة: «فَجَائِعَ الـدُّنْيا» إشارة إلى فجائع الناس فى الدنيا، والتى تسـتتبع متغيّرات وتقلّبات كثيرة، أو الإشارة إلى الحوادث المرّة والأليمة التى يفرضها الواقع الصعب على الإنسان فى حركة الحياة.

وعبارة: «صَوْلَـةَ الـدَّهْرِ» مع الالتفات إلى أنّ «صَوْلَـة» بمعنى الهجوم الكاسح والحملة الحاسـمة، سواء كانت هذه الحملة من قِبل حيوان مفترس أو إنسـان قوىّ وغـاشم، فالعبـارة تشـير إلى الآفـات والبلايـا والأمراض وأشـكال الإخفاق التى يواجهها الإنسان فى واقع الحياة والتى تهجم عليه كالحيوان المفترس فى حين أنّه لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه وغير قادر على التصدّى لها ومقاومتها.

وجملـة: «فُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيـالِى وَالْـأَيّام» ، مع الإلتفـات إلى أنّ «فحش» تعنى كلّ عمل قبيـح وغير مقبول، فهى تشـير إلى أنّ مرور الزمان وتقلّب الليل والنهار من شأنه أن يثير تقلّبات مزعجة وتغيّرات مؤسـفة فى حياة الفرد والمجتمع البشـرىّ وتجعل من حياة الإنسان مظلمة ومشوّشـة، فلو تمعّن الإنسان فى هـذه الأمور وتـدبّر فى هـذه الحوادث والتقلّبات، فذلك من شأنه أن يمنحه مزيداً من البصـيرة بحقائق هذا العالم، ويدفعه للحركة فى الطريق الصحيح.

ثمّ إنّ الإمـام عليه السـلام يتعرّض لشـرح هـذه الحقيقـة ويقول: «وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَـارَ الْمَاضِـينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَـا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِى دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وعَمَّا انْتَقَلُوا وَأَيْنَ حَلُّوا[۵۵۷] وَنَزَلُوا».

وهذا المضمون هو ما ورد فى القرآن الكريم فى أكثر من آية، حيث قال تعالى:

«قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ»[۵۵۸].

ويقول أيضاً: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۲۹

يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ»[۵۵۹].

المهمّ، أنّ المرء يشاهـد فى زوايا هـذا العالم وفى الكثير من المناطق والمـدن والأرياف، آثار القـدماء من سـكنة هذه المعمورة، الآثار القديمـة والأطلال الباليـة التى عفى عليها الزمن، ولكنّها فى ذات كونها صامدة تنطق بألف لسان وتتحدّث معنا من موقع الاعتبار وتبيّن لنا حقيقـة هـذه الحياة الـدنيا، والكثير من الناس عنـدما يشاهـدون هـذه الآثار والأطلال يفتخرون بها على اعتبار أنّها آثار تاريخية تدلّ على وجود تمـدّن وحضارة لـدى أسـلافنا وأجدادنا، فى حين أنّ المرء ينبغى أن يسـتوحى منها دروس العبرة ويسترشد بتقلّبات الزمان بما ينفعه فى حياته ويكشف له الطريق.

ويتحـدّث الإمام عليه السـلام بعـد ذلك ويبيّن توضـيحاً أكثر لهـذه الحقيقـة: «فَإِنَّكَ تَجِـدُهُمْ قَـدِ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ».

أجل، فلو شـككنا فى كل شـىء فإنّنا لا نشكّ فى هذه الحقيقة الحاسـمة، وهى أنّنا بدون اسـتثناء سائرون على خطى القدماء وسنلاقى نفس المصير، فى ذلك اليوم الذى نودّع فيه الزوجة والأبناء الأصدقاء والمقامات وجميع وسائل الحياة ونتركها لغيرنا ونرحل.

تأمّلان

۱. الحياة وإعمار القلب

يشير الإمام عليه السلام فى مستهلّ هذه الفقرة من الوصية إلى إحياء القلب بواسطة الموعظة، وفى الفقرة السابقة أشار إلى عمران القلب، ومعلوم أنّ المقصود من القلب فى هذه العبارات وأمثالها ليس ذلك العضو الخاص من البدن والذى يقع فى الصدر، ووظيفته ضخّ الدم إلى جميع أعضاء البدن؛ بل المراد منه روح الإنسان وعقله كما ورد ذلك أيضاً فى المصادر اللغوية.

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۴۳۰

والروح الإنسانية هى التى يجب إعمارها وإصلاح الخلل فيها من خلال سلوك سبيل التقوى والإصغاء إلى المواعظ، لأننا نعلم أنّ الإنسان يملك ثلاث نفوس، وأحياناً أربع نفوس، النفس النباتية والتى تظهر آثارها فى نموّ الجسم والتغذية وتوليد النسل، النفس الحيوانية، التى تتولى، مضافاً لما سبق، الإحساس والحركة، فالأظافر وشعر الإنسان تملك روحاً نباتية فقط، ولهذا السبب لا يشعر بها الإنسان عندما تقطع فى عملية تقليم الأظافر وقصّ الشعر، ولكن اللحم والعضلات- مضافاً إلى أنّها تملك روحاً نباتية، فلها روح حيوانية أيضاً، فأدنى ضرر أو أذى يلحق بالإنسان تحسّ به هذه العضلات وتتألم، أمّا النفس الإنسانية، فإنّ أثرها البارز هو الإدراك والشعور والخلاقيّة والتفسير والتحليل للمسائل المختلفة، وهى حقيقة يملكها الإنسان مضافاً للنفس النباتية والحيوانية، وطبعاً هناك بعض الأشخاص الذين يملكون نفساً رابعة أيضاً وهى التى يطلق عليها بالنفس القدسية، وهذه تدرك الحقائق المجرّدة التى يعجز عن إدراكها الأفراد العاديون (أحياناً تطلق روح القدس على جبرئيل، وأحياناً أخرى على ملك أعظم منه) وقد ورد التعبير عنها فى بعض الروايات (روح الإيمان) ولعلّ ذلك إشارة إلى هذه المرتبة العالية للنفس الإنسانية.

وجاء فى حديث شريف عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إذا زَنَى الرَّجُلُ فارَقَهُ رُوحُ الإيمانِ»[۵۶۰]، إلّاأن يتوب ويتحرّك على مستوى جبران الخلل.

وجاء فى بعض الروايات أنّ روح القدس أعلى مرتبة من روح الإيمان وقد جاءت الأرواح الخمسة فيها[۵۶۱].

الروح الإنسانية أحياناً تكون بدرجة من القوّة والنفوذ بحيث تنير كافّة زوايا الإنسان وأبعاد شخصيته، وأحياناً أخرى تكون إلى درجة من الضعف بحيث يقال عنها أنّها ميّتة.

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۴۳۱

يقول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «التَّفَكُّرُ حَيَاةُ قَلْبِ الْبَصِيرِ»[۵۶۲]. وفى حديث آخر عنه عليه السلام يقول: «عَلَيْكُمْ بِالْفِكْرِ فَإِنَّهُ حَيَاةُ قَلْبِ الْبَصِيرِ وَمَفَاتِيحُ أَبْوَابِ الحِكْمَةِ»[۵۶۳].

وفى مقابل ذلك ورد عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَرْبَعٌ يُمِتْنَ الْقَلْبَ: الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ وَكَثْرَةُ مُنَاقَشَةِ النِّسَاءِ- يَعْنِى مُحَادَثَتَهُنَّ- وَمُمَارَاةُ الْأَحْمَقِ ... وَمُجَالَسَةُ الْمَوْتَى، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْمَوْتَى؟ قَالَ كُلُّ غَنِيٍّ مُتْرَفٍ»[۵۶۴].

وكذلك ورد فى الروايات عن الإمام أميرالمؤمنين علىّ عليه السلام أنّه قال: «لِقاءُ أهْلِ الْمَعْرِفَةِ عِمارَةُ الْقُلُوبِ وَمُسْتَفادُ الْحِكْمَةِ»[۵۶۵].

وفى رواية أخرى يقول عليه السلام: «عِمارَةُ الْقُلُوبِ فى مُعاشَرَةِ ذَوِى الْعُقُولِ»[۵۶۶].

ومن المعلوم، كما ورد فى الروايات أعلاه، أنّ قلب الإنسان أحياناً يكون بشكل خربة أو يكون سقيماً، وأحياناً أخرى يفقد جميع ملامح الإنسانية وقد يكون أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، والإمام عليه السلام فى وصيته مورد البحث يوصى الإنسان بإحياء قلبه وعمرانه والعمل على تعميره وتقوية معنويته، وذكر اللَّه عامل أساس لإحياء القلب والموعظة بدورها وسيلة وأداة لهذا الإحياء المعنوىّ.

۲. الوعّاظ الكثيرون

عنـدما يـدور الحـديث عن الواعظ فسوف يتبادر إلى الـذهن من هذه الكلمهٔ الإنسان المجرّب والحكيم والمتّقى والسالك سبيل الخير والإيمـان، الـذى استفاده من آيـات القرآن الكريم وروايـات المعصومين عليهم السـلام وتجـارب الآخرين ومطالعاته فى زيادهٔ الوعى بحقائق العالم وكيفيهٔ السير فى طريق معنويات والقيم، فى حين أنّ

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۴۳۲

الروايات الشـريفهٔ تـذكر وعّاظاً آخرين إلى جانب ذلك، ومنهم الحوادث المُرّهٔ والمصائب الأليمهٔ التى تصـيب الإنسان فى الدنيا، وهو ما يشير إليه الإمام عليه السلام فى قوله: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَهِٔ».

والواعظ الآخر للإنسان يتمثّل فى تاريـخ القـدماء وسـيرهٔ الأقوام الماضـيهٔ وأطلال القصور والقبور المندرسـهٔ والـديار المتروكـهٔ، والتى تتحدّث مع الإنسان بألف لسان وهى صامتهٔ، والإمام عليه السلام بهذه العبارات يشير إلى هذا الواعظ أيضاً.

الواعـظ الآخر الـذى يتحـدّث عنه الإمام عليه السـلام فى نهجالبلاغـهٔ فى (الخطبـهٔ ۱۸۸) أجسـاد المـوتى ويقول: «فَكَفَى وَاعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبين»[۵۶۷].

وقد نسـتوحى من كلمات أميرالمؤمنين عليه السـلام وعّاظاً آخرين يعبّر عنهم بالواعظ الباطنى، يعنى الوجدان اليقظ والضـمير الحىّ فى واقع الإنسـان وقلبه، يقول: «وَمَنْ كـانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِـظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ»[۵۶۸]، وهـذا الواعظ النفسانى هو ما ورد فى القرآن الكريم فى سورهٔ الشمس، قال تعالى «وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها* فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها»[۵۶۹].

الواعظ الآخر هو ما بيّنه الإمام موسـى الكاظم عليه السلام لهارون الرشيد عندما طلب هذا الأخير من الإمام عليه السلام موعظهٔ، فقال له الإمام عليه السلام كلاماً وجيزاً وعميق الغور: «ما مِنْ شَيْءٍ تَرَاهُ عَيْنَيْكِ إلّاوَفيهِ مَوْعِظَهٌٔ»[۵۷۰].

يعنى أنّ النجوم المتلألئهٔ فى السـماء، والشـمس والمضـيئهٔ، والقمر المنير، والظهر المحدودب للمسـنين، الشـعر الأبيض للشيوخ، أوراق الشجر اليابسهٔ فى فصل الخريف، والقبور المندرسهٔ للموتى، والقصور المتهاويهٔ للملوك، كلّها تتضمّن دروساً

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۴۳۳

وعبراً، وتنطق بالمواعظ فى سكوتها المطبق.

فلو أنّ هـارون نظر إلى الحوادث المثيرهٔ والتقلّبـات المذهلـهٔ فى تاريـخ بنىاميـهٔ وبنى العبـاس، فسوف يسـتوحى منهـا أفضل الـدروس وأعظم العبر.

ومن هذا المنطلق يكون كلام الإمام عليه السـلام فى هذه الوصيّهٔ: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَهِٔ» يتضمّن مفهوماً واسعاً بحيث يستوعب جميع عناصر الوعظ وكافّهٔ الوعّاظ.

يقول أبوالفرج الاصـفهانى فى كتـاب الأغـانى: كـانت الخرقـاء بنت النعمـان إذا خرجت إلى بِيعَتِهـا (محـلّ العبـادهٔ) يفرش لها الطريق بـالحرير والـديباج المغشّى بـالخزّ والوشـى، ثمّ تقبـل فى جواريهـا حتّى تصل إلى بِيعَتِها، وترجع إلى منزلها، فلمّا هلك النعمان نكبها الزمان، فأنزلها من الرفعهٔ إلى الذلّهٔ، فلمّا وفد سـعد القادسـيهٔ أميراً عليها وانهزم الفرس وقتل رسـتم، أتته فى حفدهٍٔ من قومها وجواريها عليهنّ المسوح والمقطّعات السود تطلب صِـلته، فقال لهنّ: أيتكنّ الخرقاء؟ قال: ها أنا ذى إنّ الـدنيا دار زوال ولا تـدوم على حال، كنّا ملوك هذا المصر يُجبى لنا خراجه ويطيعنا أهله مدى المدّهٔ والزمان، كذلك الدهر ليس يأتى قوماً بمسرّهٔ إلّاويعقبهم بحسرهٔ ثمّ قالت:

فبَينا نَسوس الناس والأمر أمرُناإذا نحنُ فيهم سوقهٌٔ ليس تعرف

فافٍّ لدنيا لا يدوم نعيمهاتقلّب تارات بنا وتصرّف]۵۷۱

وكـذلك ينقل عن محمـد بن عبـدالرحمن الهاشـمى قال: دخلت على امّى يوم أضـحىً وعندها امرأهٔ فى أثواب دنسهٔ، فقالت: أتعرف

هذه؟ قلت: لا، قالت: هى عنابهٔ ام جعفر البرمكى، فسلّمت عليها وقلت لها: حدثينى ببعض أمركم، فقالت:
أذكر لك جملهٔ فيها عبرهٔ لمن اعتبر، لقد هجم علىَّ مثل هذا اليوم وعلى رأسى أربعمائهٔ وصيفهٔ وأنا أزعم أنّ ابنى جعفر عاقّ فىَّ، وقد أتيتكم اليوم أسألكم جلدَى شاتين، شِعار ودثار[۵۷۲].

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۴۳۴

أَينَ كِسرى المُلوكُ أنُوشِروان، أم أينَ قَبلَهُ شَابُورُ؟
وَأخُو الحِضرِ إذ بَناهُ وَإذدجلهُ تُجبى إليهِ والخابُورُ
شَادَهُ مَرمَراً وَجَلّلهُ كَاساً وَللطّيرِ فِى ذراهُ وُكُورُ
وَتفكّر ربّ الخَورنقِ إذأَشرَفَ يَوماً وَللهدى تَفكِيرُ
سَرّهُ مُلكُهُ وَكثرهُ ما يَملِكُهُ وَالبَحرُ معرضاً والسَّديرُ
فارعوى قَلبهُ وقال: وَمَاغِبطهُ حىّ إلى المَماتِ يَصيرُ؟
وَبَنُوا الأصفرِ الكرام مُلُوك الأرضِ لَم يبقَ مِنهُم مَذكُورُ
ثُمَّ أضحَوا كأنّهُم ورق جفّفَألوت بِهِ الصّبا والدّبورُ[۵۷۳]

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۴۳۵

القسم الخامس

اشارهٔ

فَأَصْلِحْ مَثْوَاکَ، وَلَا تَبعْ آخِرَتَکَ بِدُنْيَاکَ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَاتَعْرِفُ، الْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُکَلَّفْ. وَأَمْسِکْ عَنْ طَرِيقٍ إذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ، فَإِنَّ الْکَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُکُوبِ الْأَهْوَالِ. وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَکُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْکِرِ الْمُنْکَرَ بِيَدِکَ وَلِسَانِکَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِکَ، وَجَاهِدْ فِی اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْکَ فِی اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ. وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ کَانَ، وَتَفَقَّهْ فِی الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَکَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَکْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِی الْحَقِّ.

الشرح والتفسير: الاستقامهٔ سبب تحقيق النصر والنجاح

يتحرّک الإمام عليه السلام فى مستهلّ هذا المقطع من الوصيهٔ ليستنتج ممّا تقدّم فى المقطع السابق من التوصيهٔ بمطالعهٔ أحوال القدماء والسير فى آفاق التاريخ، خمس نتائج ومواعظ مهمّهٔ، ويقول: «فَأَصْلِحْ مَثْوَاکَ، وَلَا تَبعْ آخِرَتَکَ بِدُنْيَاکَ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُکَلَّفْ وَأَمْسِکْ عَنْ طَرِيقٍ إذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ، فَإِنَّ الْکَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُکُوبِ الْأَهْوَالِ».
جملهٔ «أَصْلِحْ مَثْوَاکَ مع الالتفات إلى أنّ «مَثْوى تعنى المكان والمنزل والأخير، أى آخرتك، فهى تشير إلى أنّك يجب عليك أن تتحرّك فى هذه الدنيا من موقع النظر إلى الآخرهٔ والاهتمام بإعمارها.
ونقرأ فى دعاء يوم الثلاثاء من أدعيهٔ أيام الاسبوع للإمام علىّ بن الحسين عليهما السلام:
«وَأَصْلِحْ لِى آخِرَتِى فَإِنَّهَا دَارُ مَقَرِّى .

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۴۳۶

وجملهٔ: «لَا تَبعْ آخِرَتَکَ بِدُنْيَاکَ إشارهٔ إلى أنّ المتاع الثمين الذى يوصل الإنسان إلى دار السعادهٔ الأبديهٔ لا ينبغى أن تبيعه مقابل

ملذّات رخيصة وسريعة الزوال فى الدنيا، وهذا هو ما ذمّ عليه القرآن الكريم جماعة من اليهود وشجب أعمالهم حيث قال: «أولئِكَ الَّذينَ اشْتَرَوُا الْحياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ»[۵۷۴].

وجملة: «دَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَاتَعْرِفُ إشارة إلى أنّ الإنسان قد يتحدّث عن أمور لا يحيط بها علماً، وقد نهى القرآن الكريم عن هذا العمل مراراً، منه قوله تعالى: «وَلا تَقْفُ ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»[۵۷۵] وفى مورد اتباع وساوس الشيطان يقول: «إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ»[۵۷۶].

وعبارة: «وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ إشارة إلى أنّ لا ينبغى لك أن تتدخل فيما لا يخصّك ولا يعنيك، وبالتعبير المتداول (لا تكن فضولياً فى شؤون الآخرين) فما أكثر الأشخاص الذين واجهوا بسبب تدخّلهم فى شؤون الآخرين وفيما لا يعنيهم، مشاكل كثيرة وتورّطوا فى صراعات وخسروا الكثير ممّا يهمهم، وهذا هو ما أكّد عليه القرآن الكريم: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُم»[۵۷۷].

وآخر جملة: «وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ ...» إشارة لضرورة رعاية الاحتياط فى الشبهات، وهذا المعنى يعتبر أصلًا عقلائياً مسلّماً، فعندما يجد الإنسان نفسه فى مفترق طريقين، طريق يتميز بوضوح، خالى من العثرات والمطبّات، وطريق مظلم ومجهول، فالعقل يقول: لا ينبغى أن تسلك فى مثل هذا الطريق، لأنّك سوف تبتلى بعواقب سيئة، وحتّى لو وصلت لمقصدك من هذا الطريق، فإنّ مصيرك محفوف بالخوف والاضطراب، فينبغى للإنسان أن يسير بخطوات مطمئنة فى الطريق الواضح

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۳۷

وبحالة من الطمأنينة ليصل إلى مقصده وينال بغيته.

وهذا الأصل العقلائى ورد فى روايات كثيرة، منها ما وردت الإشارة إليه فى حديث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لَايُرِيبُكَ»[۵۷۸] وحديث طويل عن عمر بن حنظلة قال: سألت أباعبداللَّه الصادق عليه السلام: عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة ...

إلى أن قال عليه السلام: «إِنَّما الأُمورُ ثَلاثَةٌ: أَمْرٌ بَيِّنٌ رُشْدُهُ فَيُتَّبَعُ، وأَمْرٌ بَيِّنٌ غَيُّهُ فَيُجْتَنَبُ، وأَمْرٌ مُشْكِلٌ يُرَدُّ عِلْمُه إلى اللَّهِ وإلى رَسولِه، قال رسولُ اللَّه صلى الله عليه و آله: حَلالٌ بَيِّنٌ وحَرامٌ بَيِّنٌ وشُبُهاتٌ بَينَ ذلِكَ، فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهاتِ نَجا مِنَ المُحَرِّماتِ وَمَنْ أَخَذَ الشُّبُهاتِ ارْتَكَبَ المُحَرَّماتِ وهَلَكَ مِن حَيثُ لا يَعْلَم»[۵۷۹].

وبديهىّ أنّ كلّ هذه التوصيات والأوامر لا تتنافى مع مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإرشاد الجاهل، بل ترتبط بالموارد التى لا يملك الإنسان مسؤولية تجاهها، ولذلك يقول الإمام عليه السلام بعد هذه التوصيات: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ».

الجملةالاولى: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ إشارة إلى أنّ الإنسان عندما يأمر الآخرين بالمعروف ولا يكون من أهله فسوف يعيش تأنيب الضمير ويشعر بالخجل أمام وجدانه، أضف إلى ذلك أنّه يخجل من الناس عندما يقولون إنّه يأمر بالمعروف فى حين أنّه يرتكب المنكر، ومجموع هذه الأمور يقود الإنسان من خلال الأمر بالمعروف إلى مرتبة أخلاقية بحيث يجد نفسه تدريجيّاً يسير فى خطّ العاملين بالمعروف الذين يعيشون أجواء الفضيلة.

وجملة: «وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ ...» إشارة إلى مراتب النهى عن المنكر، وقد ذكر الإمام عليه السلام هنا مرتبتين لهذه المهمّة، جاء فى مورد آخر من كلمات الإمام عليه السلام القصار الإشارة إلى ثلاث مراحل ومراتب لها: الاولى: الإنكار بالقلب، والامتعاض الباطنى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۳۸

من المنكر، وذلك عندما يجد المؤمن نفسه فى مناخ غير مناسب ويعيش القهر والظلم من قِبل الظالمين وقوى الشرّ، فيجد يديه مقيّدة وفمه مكتوم.

المرحلة الثانية: الإنكار باللسان.

والمرحلة الثالثة: التصدّى العملىّ لمواجهة المنكرات والعمل على تطهير الإنسان والمجتمع منها، والكثير من الفقهاء يرون أنّ هذه المرحلة من وظائف الحكومة الإسلاميّة والحاكم‌الشرعىّ، بينما المرحلةالاولى والثانية تقع على عهدة عامّة المكلّفين.

وجملة: «وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ» ممكن أن تكون إشارة إلى المورد لا يؤثّر فيه النهى عن المنكر، ففى مثل هذا المورد يجب على الإنسان أن يترك مجالس المنكر ويبتعد عن المرتكبين للمعاصى والمنكرات.

ويحتمل أيضاً أنّ المراد النهى القلبىّ الذى يترك آثاره على ملامح الوجه، وهو أحد المراحل الثلاث للنهى عن‌المنكر، وقد ورد فى حديث عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ أَنْ نَلْقَى أَهْلَ الْمَعَاصِى بِوُجُوهٍ مُكْفَهِرَّةٍ»[۵۸۰]، ليعلموا من ملامح الغضب المرتسمة على وجوهنا أنّنا ننكر أعمالهم ولا نوافقهم فى سلوكياتهم.

ثمّ يستمرّ الإمام عليه السلام فى بيان هذه التوصيات والمواعظ ويقول: «وَجَاهِدْ فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِى اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ. وَخُضِ ۵۸۱] الْغَمَرَاتِ ۵۸۲] لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ».

ونعلم أنّ للجهاد مراحل ومراتب متعدّدة، سواءً كان المقصود الجهاد المسلّح ضدّ الأعداء، أو بمعنى السعى وبذل الجهد فى مسير الحقّ والعدالة، وبعض هذه المراحل لا تليق بالمجاهدين الحقيقيين، اللائق هم أن يحقّقوا فى واقعهم وذواتهم آخر

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۳۹

مرحلة وأعلى مرتبة من هذا السلوك المعنوى، ويبذلوا كلّ جهدهم وطاقتهم فى سبيل الثبات والاستقامة فى خطّ الإيمان والعبودية، وجملة: «جَاهِدْ فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ» إشارة إلى هذا المعنى.

أمّا جملة: «وَلَا تَأْخُذْكَ فِى اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِم» فهى إشارة إلى أنّه أحياناً يلتّف بعض الأراذل حول الإنسان المجاهد ويلومونه على مسلكه ويعيقون حركته فى طريق الحق، والإيمان، فالإمام عليه السلام يقول: لا ينبغى أن يكون هذا الذمّ والتوبيخ مانعاً لك من الاستقامة فى هذا الطريق، فعندما يتبيّن لك طريق الحقّ فسر فيه بعزم راسخ وتوكّل على اللَّه، ولا تهتمّ لأقاويل المبطلين، ولا تلتفت للوم اللائمين.

وبما أنّ طريق الحقّ يزخر بالمشكلات الكثيرة والمآزق الخطيرة، وأنّ السالكين فى طريق الحقّ لا يصلون إلى مقصدهم بدون مواجهة هذه الأزمات والمآزق، فالإمام عليه السلام يشبّه هذه المشاكل والمآزق بأمواج البحر العاتية «وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ» ويأمر بخوض هذه الغمرات وعدم التراجع عن هذه الأمواج للوصول إلى المطلوب ونيل الجواهر الحقيقية.

وهذا الكلام للإمام علىّ عليه السلام مقتبس من الآيات القرآنية الشريفة، فنقرأ فى الآية ۷۸ من سورة الحج: «وَجاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ» وفى الآية ۵۴ من سورة المائدة:

«يُجاهِدُونَ فِى سَبيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ».

وذهب الكثير من المفسّرين أنّ «حقّ الجهاد» تعنى إخلاص النيّة، ولكن ينبغى الالتفات إلى أنّ هذا المفهوم لا ينحصر بإخلاص النيّة، بل مراده أنّ أصعب مراحل الجهاد وهو جهاد النفس يتطلّب إخلاص النيّة.

وفى ختام هذه الفقرة يطرح الإمام عليه السلام نصيحتين مهمّتين أيضاً لولده، فيقول: «وَتَفَقَّهْ فِى‌الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ[۵۸۳] عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِى الْحَقِّ».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۴۰

ومع الالتفات إلى أنّ «تفقّه من مادة «فقه يعنى الفهم والإدراك، فمقصود الإمام عليه السلام من هذه الجملة «وَتَفَقَّهْ فِى الدِّينِ أنّه لابدّ من الوعى الكامل لحقائق الدين ومعرفة أصوله وفروعه من موقع العمق والتمعّن ولا تقنع بالفهم السطحى لقضايا الدين، بل عليك التعمّق فى هذه الأمور.

وجملة: «عَوِّدْ نَفْسَكَ ...» إشارة إلى أنّ الصبر والاستقامة فى مقابل المشكلات والتحدّيات لا تتوفّر للإنسان إلّامن خلال التمرّن

وتعويـد النفس على الثبات فى مواجهـهٔ الشدائـد، فينبغى عليك أن تمرّن نفسك على الثبات والصبر حتّى يضـحى لديك عادهٔ وملكهٔ راسخهٔ.

وعبارهٔ: «نِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِى الْحَقِّ» إشارهٔ إلى أنّ كلّ عمل جيّد ومطلوب يواجه عادهٔ موانع ومشاكل مختلفهٔ، فلو لم يتمسّک الإنسان بآليّهٔ الصبر والاستقامهٔ على الحقّ، فلا يستطيع أن يصل إلى نتيجهٔ مرضيهٔ من أىّ عمل إيجابىّ، فقطف الورد لا يتيسّر بدون تحمّل ألم الشوک، والحصول على العسـل من خليـهٔ النحـل يقترن غالبـاً بلسـعات الزنـابير، فلو لم يسـتقم الإنسـان فى خـطّ الحقّ والإيمـان مقابل المشاكل والتحدّيات الصعبهٔ التى يفرضها الواقع، فسوف لا يصل إلى أىّ هدف مقدّس فى حركهٔ الحياهٔ.

ومن المناسب هنا أن نستعرض بعض أشعار أبى الأسود الدؤلى فى هذا الصدد، يقول:

تَعَوّدتُ مَسَّ الضُّرِّ حَتّى أَلِفْتُهُوَأَسْلَمَنى طُولُ الْبَلاءِ إلَى الصَّبْرِ

وَ وَسَّعَ صَدْرى لِلْأَذى كَثْرَةُ الْأَذىوَكانَ قَديماً قَدْ يَضيقُ بِهِ صَدْرى

إذا أَنَا لَمْ أَقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ كُلَّ ماأُلاقيهِ مِنْهُ طالَ عَتْبى عَلَى الدَّهْرِ[۵۸۴]

تأمّلان

۱. رعايهٔ الاحتياط عند الإحساس بالخطر

يعدّ الاحتياط فى موارد الشك، أحد الأُصول المسلّمهٔ فى مذهبنا، وأحياناً يكون الاحتياط واجباً فى بعض الموارد، وأخرى مستحبّاً.

وأصل الاحتياط يمتدّ بجذوره إلى حكم العقل، ويقرّر العلماء فى علم الأصول هذا الاحتياط بأنّه دفع الضرر والمحتمل، وهنا بحث فى وجوبه بشكل مطلق أو بتوفّر بعض القيود والشروط، فالعقل يحكم بضرورهٔ اجتناب الأضرار المحتملهٔ والابتعاد عنها، والملفت أنّ نفس هـذه المسألهٔ وردت فى علم الكلام (العقائد) بوصـفها ركيزهٔ أساسـيهٔ للتحقيق فى المسائل الدينيهٔ والمسائل العقائديهٔ كالمبدأ والمعاد، وعلى هـذا الأساس يتمّ البحث عن مسألـهٔ وجود اللّه ومعرفـهٔ اللّه وأنّ ترک التحقيق فى هـذه المسائل ربّما تترتّب عليه أضـرار عظيمهٔ، ولهذا السبب يحكم العقل بضرورهٔ أن يتحرّک الإنسان من موقع البحث والتحقيق فيها.

ولا يكتفى الإمام عليه السـلام بمجرّد تقـديم النصـحيهٔ بالاحتياط فى هذه الفقرهٔ «وَأَمْسِکْ عَنْ طَرِيقٍ إذَا خِفْتَ ضَـلَالَتَهُ ..»، بل يتحرّک على مسـتوى الاستدلال وبيان هذه النصيحهٔ لولده بآليات الإقناع والبرهان ويقول: إنّ المسير فى طريق يخشى فيه من الوقوع فى مهاوى الضـلالهٔ، وربّما يقود الإنسان نحو الحوادث المهولـهٔ والمخوفـهٔ؛ فينبغى اجتناب سـلوک هـذا الطريق، لأنّ التوقّى والكفّ فى مثل هذه الموارد أفضل من الوقوع فى دوّامهٔ الحوادث الصعبهٔ وركوب الأهوال الخطيرهٔ.

وأساساً فإنّ الاحتياط، مع رعايهٔ الاعتدال فيه وعدم الإفراط، يعتبر فى جميع الموارد المعنويهٔ والماديهٔ، عمل منطقىّ ومعقول.

۲. الطريق لنيل الفضائل الأخلاقيهٔ

جملـهٔ: «وَعَوِّدْ نَفْسَکَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ إشارهٔ إلى أصل أخلاقىّ مهمّ، وهو أنّ الأشـخاص الذين لم يتلقّوا تربيهٔ أخلاقيهٔ مناسـبهٔ فى بدايهٔ أمرهم سيكون من

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۴۴۲

الصـعب عليهم تقبّل الأصول والقيم الأخلاقيـهٔ، وينبغى لهم أن يمارسوا فرض هـذه القيم على النفس بآليهٔ التكرار والتمرّن على ذلك،

وهـذا الفعـل المتكرّر، من شأنه أن يتسبّب فى صيرورة ذلك الأمر الأخلاقىّ عادة مستديمة، والاستمرار على هـذه العادة يجعل منها ملكـة نفسانية راسـخة فى واقع الإنسان، يعنى أنّ هذا الخلق سينفذ تدريجياً إلى أعماق روح الإنسان بحيث تشـهد تحوّلًا فى السلوك الأخلاقىّ.

وقـد ورد فى كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام فى كتاب غررالحكم: «الخَيْرُ عَادَةٌ» وأيضاً «العَادَةُ طَبْعٌ ثَانٍ ، وهـذه الكلمات إشارة إلى هذا المعنى مورد البحث.

أمّا الفرق بين التصبّر والصبر، فهو أنّ الشـخص الصابر هو واقعاً من أهل الصبر والاستقامة، أى يعيش هذه الملكة الراسخة، وأمّا التصبّر فيقال للشخص الذى لا يجد فى نفسه ملكة الصبر وليس من الصابرين، بل يدفع نفسه بهذا الاتّجاه.

وأساساً فالكثير من الفضائل الأخلاقيـة لا يحصل عليها الإنسان إلّابرياضـة النفس والتعوّد والتمرّن، وبما أنّ الصبر والاستقامة ومواجهة التحدّيات الصـعبة يعتبر رأس مال جميع النجاحات فى الحياة، وطبقاً لما ورد فى بعض الروايات أنّ الصبر بالنسـبة للإيمان كالرأس من الجسد، فلابدّ للإنسان من السعى الجادّ لتحصيل هذه الملكة والفضيلة السامية، وكما يقول الشاعر:

صَبراً لِما تُحدِثُ الأيّام مِن حَدثٍفَالدَّهرُ فِى جَورِهِ جارٍ عَلَى سُنَنِ

الصَّبرُ أَجمَلُ ثَوبٍ أنتَ لابِسهُلنازلٍ والتَّعزِّى أَحسَنُ السُنَنِ

وَهَوِّنِ الوَجدَ إنّى لا أرى أحَداًبِفرقَةِ الإلفِ يَوماً غَير مُمتَحنِ [۵۸۵]

وممّا ينسب لإميرالمؤمنين عليه السلام:

ألا فاصبِر عَلَى الحَدثِ الجَليلِوَداوِ جَواک بالصّبرِ الجَميلِ

وَلا تَيأس فإنّ اليأسَ كُفرٌلَعلَّ اللَّهَ يُغنى مِن قليلِ

وإنّ العُسرَ يَتبعُهُ يَسارٌوَقَولُ اللَّهِ أصدقُ كُلّ قيلِ [۵۸۶]

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۴۳

القسم السادس

اشارة

وَأَلْجِئْ نَفْسَکَ فِي أُمُورِکَ کُلِّهَا إِلَى إِلهِکَ، فَإِنَّکَ تُلْجِئُهَا إِلَى کَهْفٍ حَرِيزٍ، ومَانِعٍ عَزِيزٍ. وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّکَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ، أَکْثِرِ الاسْتِخَارَةَ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْکَ صَفْحاً، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَاخَيْرَ فِي عِلْمٍ لَايَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَايَحِقُّ تَعَلُّمُهُ.

الشرح والتفسير: لا تساهل فى هذه الوصيّة

وينطلق الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصية (القسم السادس) لبيان خمس توصيات مهمّة لولده وثمرة فؤاده.

بدايـة يطرح مسألـة التوكّـل على اللَّه ويقـول: «وَأَلْجِئْ [۵۸۷] نَفْسَـکَ فِي أُمُـورِکَ کُلِّهَـا إِلَى إِلهِـکَ، فَإِنَّکَ تُلْجِئُهَـا إِلَى کَهْفٍ [۵۸۸] حَرِيزٍ [۵۸۹]، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ».

إنّ التوكّل وليـد الإيمـان بالتوحيـد الأفعـالى، فعنـدما يعتقـد الإنسان أنّ جميع الأمور فى العالم بيـد اللَّه تعالى، ويؤمن بأنّ اللَّه مسبّب الأسـباب، فمن الطبيعى أن يلتجىء إليه فى جميع مشـاكله وحاجاته، وتسـكن إليه نفسه ويرى فيه ملاذاً آمناً لما يواجهه فى واقع الحياة من أزمات وتحدّيات.

والتوكّل لا يعنى التكاسل وأن يترك الإنسان السعى والعمل ويجلس بأمل لطف

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۴۴۴

اللَّه ورزقه، بل بمعنى أن يستخدم الإنسان جميع طاقاته وقدراته فى سبيل الوصول إلى أغراضه، ويتحرّك على مستوى إزاحۀ الموانع وحلّ المشكلات، ولكن بما أنّ بعض هذه المشاكل والأزمات ربّما يكون حلّها خارج طاقۀ الإنسان وفوق قدرته وإمكاناته، فإنّه يلتجىء إلى لطف اللَّه تعالى ورحمته الواسعۀ ويلوذ بقدرته المطلقۀ ليتسنّى له السيطرۀ على تلك المشاكل.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى مسألۀ الإخلاص ويقول: «وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّکَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ».

الإخلاص بدوره يعدّ من ثمرات الإيمان بالتوحيد الأفعالى أيضاً، لأنّ الإنسان عندما يعلم يقيناً بأنّه: «لا مُؤَثِّرَ فى الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ فيكون حينئذٍ الرزق والحرمان بيد اللَّه تعالى، وعندما يؤمن بهذا الأمر من موقع الاطمئنان القلبى فسوف لا يطلب شيئاً من غيره، ويتوجّه إليه بإخلاص وصفاء نيّۀ ويسأله حاجاته، ومن هنا فقد ورد فى الروايات الشريفۀ أنّ المرائين مشركون، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كُلُّ رِيَاءٍ شِرْکٌ إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِلنَّاسِ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى النَّاسِ وَمَنْ عَمِلَ لِلَّهِ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى اللَّهِ»[۵۹۰].

وتشير هذه الجملۀ ضمناً إلى هذه الحقيقۀ، وهى أنّ الإنسان لا ينبغى له أن يطلب حاجاته إلّامن البارى تعالى، وإن توجّه لغير اللَّه فى بعض الحاجات طبقاً لما يفرضه عالم الطبيعۀ من أسباب وعلل ماديۀ وطبيعيۀ، فيجب أن يعلم أيضاً بأنّ المؤثر الحقيقى هو اللَّه تعالى، وأنّ إرادته غالبۀ على كلّ شيء، وأنّ مشيئته مهيمنۀ على مشيئۀ عباده، فجملۀ «فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ»، تقرّر هذه الحقيقۀ الغيبيۀ.

وفى التوصيۀ الثالثۀ يقول الإمام عليه السلام: «وَأَكْثِرِ الاسْتِخَارَةَ»، أى اطلب من اللَّه الخير والصلاح فى الحياۀ.

وللاستخارۀ معنيان: أحدهما الاستخارۀ المتداولۀ بين الناس فى هذه الأيّام، فكلّ مشكلۀ يواجهها الإنسان ولا يستطيع حلّها بقوّۀ عقله أو بواسطۀ التشاور مع

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۴۴۵

أهله ورفاقه، فإنّه يتوجّه إلى اللَّه تعالى ويستشيره فى هذا الأمر، فالاستخارۀ هنا نوع من المشورۀ مع اللَّه تعالى، والمعنى الآخر للاستخارۀ أن يطلب الإنسان من اللَّه تعالى الخير والصلاح فى كلّ عمل يقدم عليه، يعنى أن يجعل اللَّه تعالى حاكماً على مصيره، فيتحرّك فى حياته من أجل الكسب والتجارۀ والزراعۀ وما إلى ذلك ولكنّ لسان حاله يقول: (أَسْتَخيرُ اللَّهَ بِرَحْمَتِهِ)، يعنى أطلب من اللَّه الخير والبركۀ والرحمۀ، وهذا النوع من الاستخارۀ ورد التأكيد عليه كثيراً فى الروايات الشريفۀ، منها ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَا اسْتَخَارَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ إِلَّا خَارَ لَهُ»[۵۹۱].

ثمّ يوصى الإمام عليه السلام ولده بأن يتعمّق فى فهم هذه الوصايا والنصائح، ولا يمرّ عليها مرور الكرام أو يتعامل معها بسطحيّۀ وتساهل، ويقول: «وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِى، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْکَ صَفْحاً[۵۹۲]».

ثمّ يقدّم الدليل لتأييد هذه الحقيقۀ، ويقسّم العلوم والمعارف إلى ثلاثۀ أقسام يقول: «فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَاخَيْرَ فِي عِلْمٍ لَايَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ».

فالعلوم النافعۀ هى العلوم التى تعين الإنسان فى مسيرته المعنويۀ والقرب إلى اللَّه، سواءً كانت فى مجال العقائد أو العبادات أو الأخلاق وما شاكل ذلك، وبذلك تحقّق له حياۀ كريمۀ فى هذه الدنيا وتنقذه من الفقر الذى يعدّ عاملًا رئيسياً للكفر والضلالۀ والانحراف.

والعلوم غير النافعۀ هى العلوم التى لا يجد الإنسان فيها خير الدنيا ولا خير

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۴۴۶

الآخرۀ، وأحياناً يستخدمها الإنسان لقضاء الوقت أو اللهو والتفاخر، كما ورد فى الحديث المعروف عن أبى الحسن موسى عليه السلام قال: «دَخَلَ رَسولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله المَسْجِدَ فإذا جَماعةٌ قد أطافوا برَجُلٍ، فقال: ماهذا؟ فقالوا: عَلّامَۀ. فقال: وما العَلّامَۀ؟ فقالوا له: أعلَمُ النّاسِ بأنْسابِ العَرَبِ ووَقائِعِها، وأيّامِ الجَاهليّةِ، والأَشْعارِ العَرَبيّةِ، قال:

فقـالَ النَّبِیُّ صـلی الله علیه و آله: ذَاکَ عِلْمٌ لَایَضُـرُّ مَنْ جَهِلَهُ وَلَا یَنْفَعُ مَنْ عَلِمَهُ، ثمّ قال النَّبِیُّ صـلی الله علیه و آله: إِنَّمَا الْعِلْمُ ثَلَاثَـةٌ: آیَةٌ مُحْکَمَةٌ أَوْ فَرِیضَةٌ عَادِلَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ وَمَا خَلَاهُنَّ فَهُوَ فَضْلٌ»[۵۹۳].

وبـدیهیّ أنّ العلوم والمعارف التی یحتاج إلیها الإنسان فی إعمار الـدنیا وقضاء حاجاته الدنیویـۀ، وتساهم فی نجاته من الفقر والمرض ومشکلاته الأخری، تعتبر من العلوم المفیدۀ أیضاً، لأنّها فی الواقع بمثابۀ مقدّمۀ لتلک الطوائف الثلاث من العلوم النافعۀ.

والقسم الثـالث من العلـوم، العلوم المضـرّۀ، من قبیـل علم السـحر والشـعوذۀ والعلوم الـتی ترتبـط بإنتـاج الوسائـل المحرّمـۀ مثـل الخمر والمخدّرات، وفی عالمنا المعاصـر نری أنّ هذه العلوم أکثر بکثیر من الماضی، منها العلوم التی تساهم فی صناعۀ أسلحۀ الدمار الشامل کالقنابل الذریۀ والأسلحۀ الکیمیاویۀ وأمثال ذلک، فتعلم مثل هذه العلوم وتعلیمها حرام فی الإسلام، لأنّها تکون مقدّمۀ للحرام.

تأمّل: العلوم النافعۀ وغیر النافعۀ

لا شکّ أنّ العلم نور وضیاء فی حیاۀ الإنسان، ولکنّ هذا لا یعنی أنّ جمیع العلوم مفیدۀ ومطلوبۀ.

وکما رأینا فی وصیۀ الإمام علیه السلام مورد البحث أنّ الإمام قد قسّم العلوم إلی ثلاثۀ أقسام:

نفحات الولایۀ، ج۹، ص: ۴۴۷

الأول: العلـوم الـتی تنفـع الإنسـان فی حیـاته، وأحیانـاً تکون ذات بعـد معنویّ من قبیـل العلوم والمعـارف الدینیـۀ والأحکـام الشـرعیۀ والأخلاق الإنسانیـۀ، وأحیاناً ذات بعد مادّی مثل جمیع العلوم التی یحتاج إلیها الإنسان فی حیاته الدنیویۀ ومعاشه، من قبیل علم الطبّ، الزراعـۀ، العلوم الدفاعیـۀ، الصـناعات الخفیفـۀ والثقیلۀ، وما إلی ذلک، وأنّه لولا توفّر هذه العلوم والمعارف وما یترتّب علی فقدانها من خلـل فی حیـاۀ الإنسـان المادیّـۀ، فـإنّ ذلک من شأنه أن یفرز مشاکل معنویـۀ کثیرۀ، وعلی وضوء ذلک فإنّ مثل هـذه العلوم تعتبر فی الإسـلام واجبـاً کفائیـاً، یعنی یجب علی کـلّ جماعـۀ أن یتوجّهـوا لطلب بعض هـذه العلوم لتـأمین جمیع حاجـات المجتمع الإسـلامی المادیۀ، ولو لم یتوفّر فی فرع من فروع هذه العلوم مَن یتصدّی له بالمقدار الکافی، فسیکون الوجوب عینیاً علی الأفراد.

وفی هذا السیاق لا ینبغی للمسلمین فی کلّ عصر وزمان، بخاصّۀ فی عصرنا هذا، أن یتخلّفوا عن الآخرین فی هذه العلوم، بل یجب أن یکونوا روّاداً للعلم والمعرفۀ کما کانوا کذلک فی القرون الاولی للإسلام.

الثـانی: العلوم المضـرّۀ، وهی العلوم التی یترتّب علیهـا تخریب النظـام الاجتمـاعیّ وهـدم سـلامۀ المجتمع وإعاقـۀ حرکـۀ المجتمع نحو التطوّر والتقدّم والإزدهار، کالعلوم التی تنتج أسلحۀ الدمار الشامل وتستخدم لصناعۀ المخدّرات والخمور وأمثالها.

الثالث: العلوم الزائفۀ وغیر المفیدۀ، أی أنّها غیر مضرّۀ وغیر نافعۀ، وقد ذکرنا نماذج منها فی شرح کلام الإمام علیه السلام.

***

نفحات الولایۀ، ج۹، ص: ۴۴۹

القسم السابع

اشارۀ

أَیْ بُنَیَّ، إِنِّی لَمَّا رَأَیْتُنِی قَدْ بَلَغْتُ سِـنّاً، وَرَأَیْتُنِی أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِـیَّتِی إِلَیْکَ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ یَعْجَلَ بِی أَجَلِی دُونَ أَنْ أُفْضِیَ إِلَیْکَ بِمَـا فِی نَفْسِـی، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِی رَأْیِی کَمَـا نُقِصْتُ فِی جِسْـمِی، أَوْ یَسْـبِقَنِی إِلَیْکَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَی وَفِتَنِ الـدُّنْیَا، فَتَکُونَ کَالصَّعْبِ النَّفُورِ.

وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أَلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ. فَبَادَرْتُکَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُکَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّکَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِکَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِکَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَکَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ.

الشرح والتفسير: الباعث لكتابة هذه الوصية

فی هذاالمقطع من الوصية وهو (المقطع السابع) ينطلق الإمام عليه السلام مرّة أخرى ليبيّن هدفه من كتابة هذه الوصية المطوّلة والزاخرة بالمواعظ النافعة، ويتألّف الهدف الذی يرسمه الإمام عليه السلام من قسمين، قسم يتمثّل فی وجود الإمام عليه السلام وإحساساته، وقسم آخر يتجسّد فی وجود الإمام الحسن عليه السلام، وخلاصة ما يريد الإمام عليه السلام قوله:

إنّنی بلغت سنّاً متقدمةً وربّما يكون قد حان أجلی، ولهذا السبب أقدمت على كتابة هذه الوصية لک، ومن جهة أخرى فأنت شابّ تملک الاستعداد لقبول الحقّ والإصغاء إلى المواعظ، وأخشى أن يتقدّم بک العمر وتفقد مثل هذا الاستعداد،

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۵۰

ولهاتين الجهتين بادرت لكتابة هذه الوصية.

بداية يقول الإمام عليه السلام: «أَیْ بُنَیَّ إِنِّی لَمَّا رَأَيْتُنِی قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً، وَرَأَيْتُنِی أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِی إِلَيْکَ».

ومعلوم أنّ عمر الإمام عليه السلام فی ذلک الوقت كان قد بلغ ستّين سنة أو أكثر قليلًا من ذلک، وكان عمر الحسن عليه السلام أكثر من ثلاثين عاماً ويملک فی ذلک الوقت مشاعر الشباب وإحساسات الفتوّة، وهذا يعتبر درساً لجميع الآباء تجاه أبنائهم، فعندما يتقدّم بهم العمر وقبل أن يحلّ أجلهم، أو يتجاوز الأبناء مرحلة الشباب ويفقدوا الاستعداد لتقبّل النصيحة وتغيير المواقف والسلوكيات، فاللازم على الآباء أن يتقدّموا لهم بمثل هذه التوصيات.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتقدّم بتوضيح أكثر ويقول: «وَأَوْرَدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِی أَجَلِی دُونَ أَنْ أُفْضِیَ ۵۹۴] إِلَيْکَ بِمَا فِی نَفْسِی، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِی رَأْيِی كَمَا نُقِصْتُ فِی جِسْمِی، أَوْ يَسْبِقَنِی إِلَيْکَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ[۵۹۵]».

وهنا نرى الإمام عليه السلام يتحدّث، لا من موقع كونه إماماً معصوماً ولا أنّ مخاطبه بوصفه ابنه المعصوم، بل بوصفه أباً مسنّاً ومحبّاً لولده الذی يخشى عليه أن يقع فی دوّامة الأهواء وفتن الدنيا ووساوس النفس، ويشير إلى أمرين، أحدهما يعود لنفسه، والآخر لولده، ويقول: إنّنی من جهة قد بلغ بی العمر سنّ الشيخوخة، وأخشى أن يحين أجلی وأفقد الحديث معک، ومن جهة أخرى أنّ التقدّم فی السنّ ربّما يضعف الذهن والفكر كما يضعف أعضاء البدن الأخرى، ومن جهة ثالثة، أخشى عليک الآفات المختلفة والوقوع فی شباک الشيطان والأهواء النفسانية ومغريات الدنيا،

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۵۱

وحينئذٍ ستزول الفرصة للموعظة وتقديم النصح.

وعلى أساس هذه الجهات بادرت لكتابة هذه الوصيّة لأصل إلى الغاية المطلوبة قبل فوات الأوان.

والعجيب أنّ ابن أبی‌الحديد فی شرح عبارات هذه الوصية، وعندما يبلغ حديث الإمام عليه السلام عن نفسه يقول: «إنّ هذه العبارات تشير إلى خلاف ما يعتقده الشيعة الذين يقولون أنّ الإمام معصوم فی مثل هذه الأمور ولا يواجه نقصاً فی فكره ولا قصوراً فی رأيه»[۵۹۶].

فی حين أنّ جميع القرائن، كما أسلفنا ذلک، تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام عندما يتحدّث بمثل هذا الكلام فإنّه لا ينطلق من موقع الإمامة والعصمة، بل من موقع الأب المسنّ والخبير والمجرّب الذی يتقدّم بالنصح لولده الشابّ الذی لم يجرّب الأمور بعد.

ولو أنّ ابن أبی‌الحدید التفت إلی کلام آخر للإمام علیّ علیه السلام فی نهج‌البلاغة أیضاً حیث یقول: «فَاسْأَلُونِی قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِی فَوَ الَّذِی نَفْسِی بِیَدِهِ لَاتَسْأَلُونِی عَنْ شَیْءٍ فِیمَا بَیْنَکُمْ وَبَیْنَ السَّاعَةِ»[۵۹۷]، فسوف یتبیّن له الجواب عن هذا التوهم.

وأیضاً یقول الإمام علیه السلام فی کلام آخر فی الخطبة ۱۸۹: «أَیُّهَا النَّاسُ سَلُونِی قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِی فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّی بِطُرُقِ الْأَرْضِ»، أجل، لو أنّ ابن أبی‌الحدید أخذ بنظر الحسبان هذا الکلام لأمیرالمؤمنین علیه السلام لما تحدّث بمثل ذلک الکلام.

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام یبیّن الدلیل والعلّة لطرح هذه الوصایا لولده الشابّ، ویقول:

«وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ کَالْأَرْضِ الْخَالِیَةِ مَا أُلْقِیَ فِیهَا مِنْ شَیْءٍ قَبِلَتْهُ».

وهذا الأمر قد ثبت بالتجربة مرّات عدیدة، بل هناک روایة صارت کالمثل تقول:

«الْعِلْمُ فِی الصِّغَرِ کَالنَّقْشِ فِی الْحَجَرِ»[۵۹۸] أی الخطّ والرسم الثابت والعمیق الذی لا

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۵۲

یزول أو یتغیّر بسهولة. ثمّ تضیف الروایة: وَالتَّعَلُّمُ فِی الْکِبَرِ کَالْخَطِّ عَلَی الْماءِ»،[۵۹۹] فی سرعة زواله وتغییره.

ثم إنّ الإمام یقدّم دلیلین آخرین ویقول: فَبَادَرْتُکَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ یَقْسُوَ قَلْبُکَ، وَیَشْتَغِلَ لُبُّکَ».

والحقیقة أنّ الإمام بیّن ثلاثة أدلّة لاختیاره لهذا الموقع والسنّ لتقدیم النصح والموعظة، منها، استعداد قلب الشابّ لتقبّل المواعظ، وقساوة القلب بسبب عدم التلوّث بالذنوب وعدم اشتغال الذهن بمشاکل الحیاة، وکلّ واحدة من هذه الجهات الثلاث کافٍ لوحده لاختیار هذا الوقت المحدّد، فکیف إذا اجتمعت هذه الجهات مع بعضها!

ثمّ یضیف الإمام علیه السلام: «لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْیِکَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ کَفَاکَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْیَتَهُ ۶۰۰] وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَکُونَ قَدْ کُفِیتَ مَئُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِیتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ».

ویشیر الإمام علیه السلام فی هذه الفقرة من الکلام إلی أهمیة الاستفادة من تجارب الآخرین، لأنّ الحیاة لیست سوی تجارب، والإنسان العاقل بدلًا من أن یجرّب کلّ شیء بنفسه ویترتّب علی ذلک أضرار ومشاکل کثیرة، فإنّه یستفید من تجارب الآخرین ویتعلّم منهم ما یعینه فی مسیرته بدون أن یدفع ثمن هذه التجارب، وبعبارة أخری، إنّ الأجیال اللاحقة من حیث انتفاعها بتجارب القدماء، تعیش أفضل حالًا منهم من حیث السعادة والخبرة فی مواجهة التحدّیات والظروف، فما اکتسبه القدماء بتعب وجهد کبیر فإنّ الجیل اللاحق ینتفع منه بدون تعب، وکما یقول الإمام: «کُفِیتَ مَؤُنَةَ الطَّلَبِ وَعُوفِیتَ مِنْ عَلاجِ التَّجْرِبَةِ».

ولذلک یقول الإمام علیه السلام فی ختام هذه الفقرة من الوصیة: «فَأَتَاکَ مِنْ ذَلِکَ مَا قَدْ کُنَّا

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۵۳

نَأْتِیهِ، وَاسْتَبَانَ لَکَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَیْنَا مِنْهُ»، فحصلت علیه بدون أن تتعب نفسک فی تحصیله، بل ربّما کان قد خفی عنک بعض الأمور ولکن بمرور الزمان استبانت لک، وهو إشارة إلی أنّ تجارب القدماء أحیاناً تقع بأیدی الجیل اللاحق بشکل کامل فینتفعون بصورة تامّة، وأحیاناً یکون القدماء قد سلکوا بعض الطریق وعلی الخلف أن یکمل المسیرة، وقد یحصل علی نتائج وثمار لم یحصل علیها القدماء.

وکما أشرنا سابقاً أنّ الإمام علیه السلام فی هذه الوصیة لا یتحدّث من موقع الإمامة ومقام العصمة، بل بوصفه رجلًا مجرّباً وخبیراً بالأمور الدنیا وتعقیداتها وینقل هذه التجارب من موقع الحرقة والشفقة علی ولده الذی یجده فی مواجهة التحدیات الصعبة وأعاصیر الحوادث والمتغیرات لینتفع من هذه التجارب، بل أحیاناً یکون الأب قد سار بعض الطریق وحصل علی بعض النتائج وعلی الابن إکمال هذه المسیرة والحصول علی نتائج أفضل.

تأمّل: معطیات التربیة فی سنّ الشباب

إنّ تاريخ الأنبياء يشير إلى أنّ الشباب هم الشريحة الاجتماعية الاولى الذين آمنوا بالرسالة الإلهيّة وتحرّكوا من موقع الدفاع عنها والالتزام الواعى بتعاليمها، ويحدّثنا القرآن الكريم فى موارد عدّة عن قصّة نوح عليه السلام وإيمان الشباب به وإعراض المسنّين الأثرياء عنه وعن رسالته السماوية، وكذلك يدلّنا تاريخ الإسلام على أنّ المؤمنين بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله كانوا فى الغالب من فئة الشباب.

والروايات الإسلاميّة تؤيّد هذه الحقيقة، فالإمام الصادق عليه السلام يقول لأحد أصحابه والذى توجّه إلى البصرة للدفاع عن مذهب أهل البيت عليهم السلام: «عَلَيْكَ بِالْأَحْدَاثِ فَإِنَّهُمْ أَسْرَعُ إِلَى كُلِّ خَيْر»[۶۰۱].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۵۴

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَهُوَ شَابٌّ مُؤْمِنٌ اخْتَلَطَ الْقُرْآنُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ»[۶۰۲].

وأيضاً ورد فى حديث آخر عنه عليه السلام أنّه قال: «بَادِرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالْحَدِيثِ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَكُمْ إِلَيْهِمُ الْمُرْجِئَةُ»[۶۰۳]، والمرجئة هم الذين لا يعتقدون بإمامة علىّ بن أبى طالب عليه السلام وأنّه خليفة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مباشرة.

ويستفاد من الفقرة الأخيرة من وصية الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة بوضوح تامّ.

والدليل على ذلك واضح، لأنّ قلب الشبّان من جهة نقىّ وخالٍ من أدران التلوّث بالعقائد الباطلة وحالات العناد والتعصّب، ولهذا السبب فهو كالأرض الصالحة للزراعة، الخالية من الأشواك والأعشاب الضارّة، فعندما يبذر فيها أىّ نوع من البذور، فإنّه ينمو بسرعة.

ومن جهة أخرى فإنّ الشاب قليل التعلّق بالأمور الدنيوية والماديّة، وقليل الانشغال بالأوهام والعناوين الزائفة التى من شأنها حجب القلب والعقل عن تقبّل الحقّ.

ومن جهة ثالثة فإنّ تعاليم الأنبياء وأحكام الدين الإلهىّ تتقاطع فى موارد كثيرة مع مطامع الشيوخ غيرالمشروعة، فهؤلاء غير مستعدّين للتنازل عن مطامعهم وطموحاتهم بسهولة، فى حين أنّ الشباب لا يعيشون هذه المشكلة ولا يواجهون هذا العائق.

يقول أحد الشعراء:

قَدْ يَنْفَعُ الأدَبُ الأحْداثَ فى مُهَلٍوَلَيْسَ يَنْفَعُ عِنْدَ الْكِبرِة الْأَدَبُ

إنَّ الْغُصُونَ إذا قَوَّمْتَهَا اعْتَدَلَتْوَلَنْ تَلينَ إذا قَوَّمْتَهَا الْخُشُبُ ۶۰۴]

***

القسم الثامن

اشارة

أَیْ بُنَیَّ، إِنِّی وَإِنْ لَمْ أَکُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ کَانَ قَبْلِی، فَقَدْ نَظَرْتُ فِی أَعْمَالِهِمْ، وَفَکَّرْتُ فِی أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِی آثَارِهِمْ، حَتَّی عُدْتُ کَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ کَأَنِّی بِمَا انْتَهَی إِلَیَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَی آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِکَ مِنْ کَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَکَ مِنْ کُلِّ أَمْرٍ نَخِیلَهُ، وَتَوَخَّیْتُ لَکَ جَمِیلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْکَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَیْتُ حَیْثُ عَنَانِی مِنْ أَمْرِکَ مَا یَعْنِی الْوَالِدَ الشَّفِیقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَیْهِ مِنْ أَدَبِکَ أَنْ یَکُونَ ذَلِکَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِیَّةٍ سَلِیمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِیَةٍ.

الشرح والتفسير: تجارب الآخرين وإطالة عمر اللاحقين

يشير الإمام عليه السلام فى مطلع هذه الفقرة من الوصيّة إلى نقطة فى غاية الأهمية، وهى ضرورة مطالعة ودراسة تاريخ القدماء وسيرة الأقوام السالفة فيما يصل إلينا من أخبارهم وأعمالهم ومن خلال ما تتركه لنا آثارهم (ولأطلال والقبور المندرسة والثروات الباقية و ...)

ويقول: «أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ».

وهو إشارة إلى أنّ الحياة ليست سوى تجربة، فلو أنّ المرء انتفع من تجارب الآخرين وتدبّر في أعمالهم والنتائج المترتّبة عليها، ونظر بعين العبرة إلى آثارهم وما بقى منهم فى مطاوى التاريخ، فإنّه سيعيش طيلة عمره وكأنّه عاش مع جميع

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۵۶

الأقوام والمجتمعات البشرية على امتداد التاريخ، منذ أن خلق اللّه آدم عليه السلام ولحدّ الآن.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام، لقد تدبّرت فى جميع أخبارهم وآثارهم، واخترت منها الصفوة، وعرفت النافع من الضارّ، والحسن من السيّء: «فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ ۶۰۵] وَتَوَخَّيْتُ ۶۰۶] لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ».

إشارة إلى أنّ مطالعة آثار القدماء والسير فى ثنايا تاريخهم وآثارهم لا يكفى فى التعلّم والاعتبار، بل ينبغى أن يكون الإنسان كالصرّاف الذى يستخلص من كلّ أمر الجيّد منه ويميّز بين الغثّ والسمين، والحسن والرديء ويلقى بالسيّء والرديء جانباً، وينتفع من الحسن والجيّد، فيقول الإمام عليه السلام: وقد اخترت لك الجميل من أعمالهم وصرفت عنك الرديء وألقيت به بعيداً.

وفى ختام هذه الفقرة من الوصيّة يبيّن الإمام عليه السلام الباعث له على هذه الوصية مرّة أخرى بقوله: «وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ ۶۰۷] الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ».

وهذا إشارة إلى أنّنى عندما أتعبت نفسى فى جمع تجارب القدماء وما تحدّث به التاريخ عن الامم السابقة، فقد استخلصت لك منها هذه المواعظ، والباعث لذلك أمران: الأوّل: أنّنى والدك الشفيق والمحبّ لك والطالب لسعادتك، والآخر: أنّك

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۵۷

شابّ وتعيش فى بداية العمر وتملك قلباً نقيّاً وروحاً طاهرة، فهذان الأمران يبرّران ما أتعبت نفسى من أجلك وييسّران كلّ عسير من أجل سعادتك وراحتك.

والواقع أنّ الإمام عليه السلام بهذا الكلام يعلّم جميع الآباء والمحبّين لأبنائهم أنّهم إذا كانوا يطلبون السعادة لأبنائهم فعليهم أن يتعاملوا معهم بآلية التربية مادامت قلوب الأبناء صافية ونقية وغير مكدّرة بمشاكل الحياة، ولاسيما أنّ تاريخ القدماء زاخر بالدروس والعبر وتقدّم للإنسان نماذج حسّية للمسير فى خطّ القِيَم الأخلاقية والمثل الإنسانية.

تأمّلان

۱. تشكيلة منسجمة من أسرار التاريخ

منذ اليوم الذى اخترع فيه الإنسان الخطّ واستطاع تدوين آثاره وتجاربه من خلال الكتابة، ابتدأ التاريخ البشرىّ، وانتقلت تجارب الأقوام السابقة إلى الأقوام اللاحقة بوصفها ميراثاً ثميناً مختزناً فى مطاوى التاريخ وثنايا القرون، فقد دوّن التاريخ عوامل النجاحات والإخفاقات التى أصابت الأقوام والمجتمعات البشرية، وبيّن أسباب اهتزاز السلطات والحكومات وعوامل انهيار الحضارات والحوادث الحلوة والمرّة التى يزخر بها تاريخ البشرية بحيث أنّ الأشخاص المطّلعين وأهل الخبرة يستطيعون رؤية مسيرة حياتهم الفردية والإجتماعية فى مرآة التاريخ دون أن يحتاجوا لخوض غمار تجارب جديدة وتكرار ما واجهته الأقوام السابقة اعتماداً على ما يستوحونه ويستفيدونه من تجارب الآخرين.

ومن هـذا المنطلق يستعرض القرآن الكريم فى آيـات كثيرة تاريـخ الأقوام السالفـة من موقع كونها عبرة للأحياء، ويتحـدّث عن هـذه الحقيقة بصراحة: «لَقَدْ كَانَ فِی قِصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِی الْأَلْبَابِ»[۶۰۸].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۵۸

ويتحدّث القرآن أيضاً فى بعض أخباره التاريخية من موقع كونها تمثّل دروساً وتختزن فى مطاويها عبراً يستوحى منها الناس ما ينفعهم فى حياتهم ومعيشتهم، ويختار منها «أَحْسَنُ الْقِصَصِ» ويقول: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْکَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْکَ هَذَا الْقُرْآنَ»[۶۰۹].

وأحياناً يحثّ القرآن الكريم مخاطبه على السير فى الأرض ومطالعة آثار الأقوام الماضية وما انعكس على حياتهم وسلوكياتهم فى التاريخ ويقول: «قُلْ سِيرُوا فِی الْأَرْضِ فَانظُرُوا کَيْفَ کَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ»[۶۱۰].

وفى هـذه الوصـية يشير الإمام عليه السـلام إلى نقطة مهمّة فيما يتّصل بالتاريخ البشـرىّ، وهى أنّ مطالعة تاريخ القدماء من موقع الدّقة والعمق، من شأنه أن يمنـح الإنسان عمراً خالـداً وكأنّ الإنسان الـذى يدرس حوادث التاريخ يعيش مع الأقوام البشـرية منذ أن خلق اللَّه آدم وإلى هذا اليوم، ويستوحى من تجاربهم وحالتهم ما يعينه فى مسيرته وحياته، ويمثّل له زاداً ومتاعاً لمواجهة الصعوبات والتحدّيات التى يفرضـها الواقع عليهم، والحقيقة أنّ مثل هذا التراث الثمين الذى حصل عليه الإنسان المعاصـر بنفقات زهيدة جدّاً، يعدّ متاعاً مهمّاً وزاداً ضروريّاً يمنحه الحركة والقدرة على مواصلة المسيرة.

ومن الطبيعىّ أن نجد بعض نقاط القصور والثغرات المهمّة فى التاريخ، وذلك بسـبب هيمنة قوى الاسـتكبار والسلطة لتشويه وتحريف حقـائق التاريـخ بمـا يصبّ فى صالحهـا، بحيث اسـتطاعوا تلويث مرآة التاريـخ فى موارد كثيرة و عملوا على إخضاع المؤرّخين بآليات الطمع والتهديـد لصياغة التاريـخ حسب رؤيتهم لا على أساس ما يعكسه الواقع التاريخى، وكنموذج بارز لهذا التحريف والتشويش ما قام به بنو امية من تحوير وتزييف لحقائق التاريخ.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۵۹

ولكنّ المحقّقين من أهـل الخِبرة والاطّلاع اسـتطاعوا من خلال توخّى الدّقـة فى ملاحظـة البرهان والشواهـد المتناثرة فى زوايا التاريخ ومطاوى الحوادث التاريخية، أن يميّزوا بين الصـحيح والسـقيم، الحقّ والباطل، وبما أنّ الكاذب ضـعيف الحافظة ويبتلى غالباً بالتناقض فى كلامه، استطاع هؤلاء المؤرّخون المخلصون من تمييز الماء الزلال من الكدر وتشخيص الحقيقة من الوهم والزيف.

ونتمنّى على أصـحاب السـلطة وقوى الهيمنة والاسـتكبار فى عالمنا المعاصر إلقاء نظرة إلى التاريخ، وعلى الأقلّ مطالعة مسيرة الملوك والسـلاطين السابقين وما كان مصـيرهم ليشاهدوا عن كثب مصيرهم فى المستقبل فى مرآة التاريخ ويتجنّبوا التعامل مع الشعوب بالظلم والجور والسحق الحقوق.

۲. كيف توصّل الإمام عليه السلام لتاريخ الأقوام الماضية؟

يستفاد من كلمات الإمام عليه السـلام فى هـذا المقطع من الرسالة أنّ الإمام عليه السـلام قد توصّل لفهم تاريخ القدماء من خلال أربع طرق: الأوّل: من خلال النظر فى أعمـالهم، ويمكن أن يكون ذلك إشارة إلى الأعمال والسـلوكيات التى انتقلت شـفوياً من جيل إلى جيل، ومن الآباء إلى الأبناء حتّى وصلت إليه.

الثانى: من خلال التفكّر والتدبّر فى أخبارهم المنعكسة والمدوّنة على صفحات التاريخ بشكل مكتوب.

الثـالث: من خلال السـير فى آثارهم والنظر إلى بقايا مـدنهم وأطلال قصورهم، أى القصور الخاويـة على عروشـها والخرائب والأطلال المتبقّيـة من مـدنهم، القبور المندرسـة ومـا إلى ذلك، حيث تتحـدّث هـذه الآثار والأطلال وهى صامتـة عن الحقائق التى تتعلّق بتلك الأقوام الماضـية، وتبيّن ما كانوا عليه من حياة وثقافـة وسـلوك وفكر، وقـد نقل إلينا العرفاء المطّلعون والشـعراء المتعمّقون أموراً كثيرة

عن تلكم الأقوام من خلال تدبّرهم وتأمّلهم فى هذه الآثار المتبقية.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۶۰

الطريق الرابع الذى استفاده منه الإمام عليه السلام لمعرفة حالات القدماء وتاريخهم يتمثّل فى العلم عن طريق الوحى النازل على النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وقد نقله النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله إلى أعزّ تلاميذه والوصىّ على رسالته وهو الإمام علىّ عليه السلام.

وبما أنّ المصادر الأخرى غير هذا المصدر الأخير، يقترن عادة بالأخطاء والتحريف واختلاط الأخبار الصحيحة والزائفة، فالإمام عليه السلام يقول: «فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ ... فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ ...».

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۶۱

القسم التاسع

اشارة

وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَاأُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِى الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِى هَذِهِ.

الشرح والتفسير

رغم أنّ هذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام (القسم التاسع) معطوف على الجملة السابقة أى: (أَنْ يَكُونَ ذِلِكَ وينبغى أن يمثّل قسماً شاخصاً، ولكن بما أنّ الإمام عليه السلام استعرض فى هذا المقطع المسائل المتعلّقة بالقرآن الكريم والتعاليم الإلهيّة فإنّه جعل ذلك قسماً مستقلّاً على حدة وقال: «وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ ۶۱۱] الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَاأُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ».

وممّا لا شكّ فيه أنّ أعلى ما ورد من تعاليم الإسلام من العقائد والأحكام والقيم

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۶۲

الأخلاقية، وردت فى القرآن الكريم، وأنّ سنّة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والمعصومين عليهم السلام بمثابة الشرح على فروع ومسائل تلك الأصول المبيّنة فى كتاب اللَّه، ومن هنا فالإمام يبتدىء فى تربية ولده من القرآن الكريم، ويوحى لجميع المسلمين أن ينتهجوا بتعليم وتربية أبنائهم هذا النهج من القرآن الكريم، حتّى لا يقعوا فريسة وساوس الشياطين من الجنّ والإنس.

والمقصود من «تأويله» هو تفسير القرآن، لأنّ القرآن الكريم يتضمّن بعض المواضيع المذكورة على سبيل الإجمال، فتحتاج لتوضيح وتفسير النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والإمام والعلماء والمطّلعون على عمق مداليل النصّ القرآنىّ من خلال القرائن الحالية والمقالية، والمراد من «شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ» العقائد الإسلاميّة بقرينة ذكر الأحكام بعده، رغم أنّ الشرائع والشريعة تطلق على الأصول والفروع، وعبارة «حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ» توضيح للأحكام، لأنّ العمدة فى الأحكام ما يتّصل بمسألة الحلال والحرام، رغم وجود أحكام أخرى

من قبيل المستحبّات والمكروهات والأحكام الوضعية أيضاً.

وجملة: «لَمَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ» إشارة إلى أنّنى أرى جميع حقائق الدين بعيدة عن أىّ خطأ واشتباه فى القرآن الكريم، وبذلك لا اسلِمك لسلوك طرق مشكوكة فى العقائد والأحكام، لأنّنى أعلم أنّ الكثير من المسلمين فى صدر الإسلام وبسبب نفوذ الأفكار الزائفة، انجذبوا نحو المذاهب الباطلة فى الأصول والفروع، وقد انعكس ذلك على تفسيرهم للآيات القرآنية وأخذوا يفسّرون القرآن برأيهم وبالاستناد لتلك الذهنية المشوّشة، وقد اتّجهوا فى معرفتهم لأحكام الإسلام نحو القياس والاستحسان والاجتهادات الظنية التى تفتقد للأساس المحكم والدعامة القوية، وفى المسائل الفرعية وقعوا فى أخطاء واشتباهات كثيرة وغرقوا فى دوامة البدع. والعبارات اللاحقة فى كلام الإمام عليه السلام شاهد على هذه الحقيقة.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۶۳

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى نقطة أخرى ويقول: «ثُمَّ أَشْفَقْتُ ۶۱۲] أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِى الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَاآمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ».

وخلاصة كلام الإمام عليه السلام هو أنّنى فى هذه الوصية بيّنت بالدليل والبرهان زيف العقائد الباطلة والآراء الموهومة رغم أنّ طرح مثل هذه العقائد الباطلة وشبهات المنحرفين ليس محبّباً، ولكنّ الضرورة تستوجب أن أطرح مثل هذه المقولات وأُجيب عنها، لأنّ هذا العمل أفضل من أن أقوم بإخفائها والتستّر عليها، وربّما تبتلى أنت بها فى يوم من الأيّام ولا يمكنك الإجابة عنها.

إنّ هذا الهاجس يعيشه جميع المعلّمين والمربّين من أهل العلم والاطّلاع، فإنّهم لو لم يطرحوا شبهات الضالّين فيخشى على الطرف المقابل ممّن يرومون تربيته وتعليمه أن يقع يوماً فى شباك هذه الشبهات، ومن هذا المنطلق يسعون لعرض تلك الشبهات، وعلى الأقلّ المهمّ منها بشكل كلّى والإجابة عنه بشكل حاسم.

وهذه العبارة يمكن أن تكون استمراراً لكلام الإمام عليه السلام حيث يعود إلى القرآن الكريم وبيان أهميته، فيقول: إنّنى استوحى من آيات القرآن الكريم الأدلّة والبراهين على بطلان هذه العقائد الفاسدة واقدّمها لك لئلّا تتورط يوماً بشبهات الفاسدين والمفسدين.

ويحتمل أن تكون هذه العبارة جملة مستقلّة، يعنى مضافاً إلى أننى أرى لزوم تعليمك كتاب اللَّه وتفسيره ومعرفة حلاله وحرامه وأحكامه، أرى أيضاً لزوم

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۶۴

الاستعانة بالبرهان والعقل لنقد الآراء الباطلة والعقائد الفاسدة لئلّا تسقط فى مصائد هؤلاء المنحرفين، وعبارة: «ثُمَّ أَشْفَقْتُ مع الأخذ بالحسبان أنّ كلمة «ثمّ» إشارة لمطلب جديد، فإنّها تتناسب أكثر مع التفسير الثانى.

وعلى حدّ قول الشيخ مغنية فى شرحه لنهج البلاغة، أنّ تعبيرات الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصية يؤكّد مرّة أخرى على هذه الحقيقة، وهى أنّ الإمام عليه السلام لم يطرح هذه التوصيات من موقع كونه إماماً، وأنّ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بوصفه خليفة وإماماً بعده، بل بوصفه أباً شفيقاً فى مقابل ولده المحتاج للتعليم والتربية، لأنّه كما سبقت الإشارة إليه، أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان قد بلغ من العمر فى ذلك الوقت أكثر من ثلاثين سنة، فهل يحتمل أن يكون الإمام علىّ عليه السلام قد غفل عن تعليم ولده القرآن إلى ذلك الوقت، ولم يطلعه على الآراء الباطلة والمذاهب الفاسدة؟ إنّ الإمام الحسن عليه السلام قد عاش أوّلًا فى أحضان والده، ثمّ بقى إلى جانبه كلّ هذه الأعوام الطويلة، مضافاً إلى استماعه لخطب والده الفصيحة والبليغة وما خصّه من علم ومعرفة وتعاليم إلهيّة أيضاً.

وفى آخر جملة من هذا المقطع من الوصية يبرز الإمام عليه السلام أمله فى أن تؤثّر هذه الوصايا أثرها بشكل كامل فى ولده ويقول: «وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ ۶۱۳]، أَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ ۶۱۴]، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِى هَذِهِ».

ويستفاد من عبارة الإمام عليه السلام: «فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِى هَذِهِ ، أنّ ما تقدّم من الأقسام التسعة لهذه الوصية تمثّل فى الحقيقة

مقدّمة لأصل الوصيّة، والغاية منها أن يستعدّ الابن بشكل كامل لتقبّل الوصايا الأصلية التى سيذكرها الإمام عليه السلام لاحقاً، فبدون التمهيد لها لا يمكن تحصيل النتائج المطلوبة المترتبة عليها.

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۴۶۵

القسم العاشر

اشارة

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ وَالاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، الصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لَابِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وَعُلَقِ الْخُصُومَاتِ.

وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالْاسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلَالَةٍ. فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ. وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ.

الشرح والتفسير: الحذر من سلوك الطرق المشكوكة

يقدّم الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصيّة نصائح مهمّة لولده، وأولها وأهمّها التوصية بتقوى اللَّه والقناعة بامتثال الفرائض والأحكام البيّنة والواضحة واجتناب المسير فى الطرق المشكوكة والسُبل المشبوهة، يقول: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ وَالاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالْأَخْذُ

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۴۶۶

بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ».

ولا شكّ أنّ تقوى اللَّه تعتبر على رأس الأولويات فى وصايا جميع أولياء اللَّه والزاد والمتاع لمسيرة الإنسان إلى الآخرة وجواز دخول الجنّة والمعيار لجميع امتيازات الإنسان وفضائله الأخرى، وعلى ضوء ذلك وردت التوصية بالتقوى فى جميع خطب صلاة الجمعة والتأكيد عليها، والتقوى هى حالة الخشية القلبية من اللَّه تعالى وتقبّل المسؤوليات الرسالية، ومن شأنها منع الإنسان من التلوّث بالذنوب والخطايا.

وجملة: «وَالاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لا تعنى أن يقنع الإنسان بالإتيان بالواجبات ويترك المستحبّات والسنن، وهى ما سيأتى لاحقاً من اجتناب الأمور المسكوت عنها فى الشريعة والتى لا يعيش الإنسان المسؤولية تجاهها، أو لا يتيسّر تحقيقها وإنجازها بسهولة، أو يستحيل على الإنسان نيلها، من قبيل المعرفة بحقيقة الذات المقدّسة.

وجملة: «وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ إشارة إلى النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والإمام علىّ عليه السلام وعبدالمطّلب وحمزة وأبى طالب وجعفر عليهم السلام.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض لذكر الدليل على هذه الحقيقة، ويقول: «فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا».

وهـذا الكلام أيضاً ناظر إلى أنّ الإنسان ينبغى أن يتحرّك على مستوى التحقيق فى المسائل المتعلّقـة بالدين والتى لا يعذر فى الجهل بهـا، بل يجب على الجميع الإطّلاع عليها، وهناك بعض الأمور الخارجـة عن قـدرة الإنسان وقابليته الذهنيـة والعقليـة، كمعرفـة الـذات المقدّسـة، فلاـ يوجـد أىّ نبىّ مرسـل قـد توصّـل إلى هـذه الحقيقـة، أو بعض الأمور التى وضـعها اللّه تعالى عن عاتق المكلّفين بلطفه وكرمه تخفيفاً منه لعباده، ولكن ربّما يكون الإنسان مكلّفاً بها فى حالة الإصرار عليها من

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۶۷

قبيل ما ورد فى قصّة بنى اسرائيل فيما يتّصل بذبح بقرة خاصّة، فلو لم يصرّ بنو اسرائيل على معرفة الجزئيات والتفاصيل، كان يكفيهم ذبـح أيّة بقرة، ولكن إصرارهم أكثر من اللازم أدّى إلى تكليفهم بذبح بقرة خاصّة وبأوصاف معيّنة وكان ذلك سبباً فى تورّطهم فى العسر والحرج.

وكذلك ما ورد فى مسألة الحجّ فى الحديث الشريف: خطب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال:

«إنّ اللّه كَتَبَ عَلَيكُم الحجّ» فقام عكاشة بن محصن، ويروى سراقة بن مالك، فقال:

أفى كلّ عام يارسول اللّه، فأعرض (رسول اللّه) عنه، حتّى عاد مرّتين وثلاثاً، فقال رسول اللّه: «وَيحَكَ وما يُؤمِنكَ أنْ أقولَ: نَعم، وَاللَّهِ لَو قُلتُ نَعم لَوجَبَتْ، وَلَو وَجَبَتْ ما اسْـتَطَعْتُم وَلَو تَركتُم كَفَرتُم، فـاترُكُونِى مـا تَركتُكُم، فإنّمـا هَلـكَ مَن كـانَ قَبلَكُم بِكـثرَةِ سُؤالِهِم واختِلافِهِم على أنبيائهِم، فإذا أمَرتُكُم بِشَىْءٍ فأتُوا مِنهُ ما اسْتَطَعتُم، وإذا نَهَيتُكُم عَن شىءٍ فاجْتَنِبُوهُ»[۶۱۵].

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال فى خطبة له: «إنَّ اللَّه حَدَّ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا وَفَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تَنْقُصُوهَا وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ لَمْ يَسْكُتْ عَنْهَا نِسْيَاناً فَلَا تَكَلَّفُوهَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَكُمْ فَاقْبَلُوهَا»[۶۱۶].

ثمّ قـال الإمام عليه السـلام فى هـذه الفقرة من الوصـيّة: «فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا، فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لَابِتَوَرُّطِ الشُّبُهَـاتِ، وَعُلَقِ الْخُصُومَاتِ. وَابْـدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِى ذَلِكَ بِالاسْـتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ، وَالرَّغْبَـةِ إِلَيْهِ فِى تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ ۶۱۷] فِى شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلَالَةٍ».

وعصارة كلام الإمام عليه السلام فى هذه الفقرة هى أنّ أمامك طريقين للوصول إلى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۶۸

الحقّ، أحـدهما: الطريق الـذى سـلكه السـلف الصالـح من أهل بيتك وبإمكانك الاسـتفادة من تجاربهـم الكثيرة، فهؤلاء سـلكوا طريقاً سهلًا وبعيداً عن الخطر نسبياً.

الطريق الثـانى: الاجتهـاد الشخصـىّ فى المسائل والقضايا التى تواجهها فى ميـدان الحياة، أى أن تـدخل بنفسك الميـدان، وتعمل على تشخيص الحقّ من الباطل، وتسلك هذا الطريق بأربعة شروط:

الأوّل: أن تتمعّن فى كـلّ أمرٍ وتتـدبّر عاقبته بدقّـة، والثانى: الابتعاد عن التورّط بالشـبهات أو التمسّك بحالات التعصّب أو الخصومـة، والثالث: أن تسـتعين باللّه تعالى وتطلب منه أن يمدّ لك يد العون فى هذا المسير، والرابع: أن تجتنب كلّ أمر مشكوك ربّما يقودك إلى التورّط فى الشبهات أو يجرّك إلى مهاوى الضلالة والانحراف.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السـلام فى إدامـة كلامه هـذه النقطـة، وهى أنّ كلامى النافع والمثمر والمؤثّر ليس كافياً، بل ينبغى توفّر الاسـتعداد والقابليـة على التقبّل فى وجودك، فإنّ ذلك يعـدّ من شـروط التأثير فى الكلام، وبعبارة أخرى، كما أنّ فاعليـة الفاعل تعـدّ شـرطاً فى التأثير، فإنّ قابلية القابل كذلك، ومن هذه الجهة يهيّء الإمام عليه السلام قلب ولده وروحه بتقبّل هذه الوصايا ويقول:

«فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِى ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ».

وبـديهىّ أنّ الأشـخاص الذين يعيشون قلوباً مظلمة ومشـحونة بحالات التعصّب والأهواء والشـهوات، ويعيشون حالة التشتّت فى الفكر والـذهن، فـإنّهم تـارة يفكّرون بحفظ مقامهم وأخرى بفكر جمع الأموال، وثالثـة بإشـباع الرغبات الرخيصـة وإرضاء النوازع النفسانيـة،

فمثل هؤلاء لا يقـدرون على الانتفاع من هـذه المواعظ وإصـلاح الخلل فى وجودهم وتعـديل مسارهم حتّى لو كان الواعظ لهم الإمام المعصوم، ومن هذه الجهة فإنّ الآيات القرآنية التى لا شكّ فى تأثيرها القاطع والحاسم، إنّما تؤثّر على جماعة تتوفّر فيهم حالة القبول، ولا تؤثّر فى الأشخاص الذين يعيشون

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۶۹

حالات العناد والخصومة، بل ربّما يكون لها أثر عكسـى، ونقرأ فى الآية ۱۲۴ و ۱۲۵ من سورة التوبـة: «وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُون».

وكما يقول الشاعر:

بَقَدرِ الكدّ تُكتَسَبُ المَعالیوَمَنْ طَلبَ العُلى سَهَر الليالى

يَغوصُ البحرَ مَنْ طلَب اللئالیویحظی بالسّیادةِ والنوالِ

ومَنْ طلبَ العُلى مِنْ غَيرِ كَدٍّأضاع العمرَ فِی طلبِ المُحالِ [۶۱۸]

ويستمرّ الإمـام عليه السـلام فى بيـان توصـياته لولـده ويقول: «وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ[۶۱۹]، وَتَتَوَرَّطُ[۶۲۰] الظَّلْمَاءَ وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ [۶۲۱]».

فالإمـام عليه السـلام هنا يحثّ ولـده أن يشـحذ همّته وإرادته لنيل النتيجـة المطلوبـة من هـذه الوصـية ويبتعـد مهما أمكن عن تشويش الخاطر والذهن، ويتحرّك بعزم جادّ وخطوات راسخة نحو الميدان، ويسلّم قلبه إلى كلام الإمام عليه السلام ليتسنّى له الوصول إلى برّ الأمان ومرفأ السـعادة الأبدية من خلال تجسيد هذه الوصايا والمواعظ على أرض الواقع النفسـى والسلوكى، وفى غير هذه الصورة فإنّ الإنسان يتعب نفسه بدون أن يحقّق المقصود وينال بغيته.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۷۱

القسم الحادى عشر

اشارة

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِى، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِى، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ، وَالْابْتِلَاءِ، وَالْجَزَاءِ فِى الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَاتَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ، يَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ! فَاعْتَصِمْ بِالَّذِى خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ.

الشرح والتفسير: كلّ شىء من اللَّه

يأمر الإمام عليه السـلام بدايةً فى هذا المقطع من وصيّته لولده أن يتمعّن فيما يقوله له ويتفهّم ما يرد فى هذه الوصيّة، ويقول: «فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِى».

وهـذه الجملـة فى الحقيقة تشـير إلى أهميّة الموضوع الذى سـيذكره الإمام عليه السـلام لاحقاً حيث يتطلّب من المخاطب تحرّى الدقّة والتدبّر الجاد.

ثمّ يشـير الإمام عليه السـلام إلى هـذه الحقيقـة، وهى أنّ كلّ ما فى هذا العالم من حياة وموت، صـحّة وسـقم، حوادث حلوة ومرّة، نِعم

وبلایا و ... کلّها من عند اللّه تبارک وتعالی الذی یدبّر الأمور بحکمته البالغة ومشیئته القاهرة، فلو لم یتعقّل الإنسان الحکمة من بعض الأمور والظواهر فی هذا العالم، فینبغی حملها علی قلّة اطّلاعه

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۷۲

وضآلة معلوماته، ویذعن لإرادة الحقّ ومشیئته، ویستسلم أمام قدرته وإرادته:

«وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِکَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِکُ الْحَیَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِیتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِیَ هُوَ الْمُعِیدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِیَ هُوَ الْمُعَافِی».

هـذا الکلام إشارة للتوحید الأفعالی وأنّ هـذا العالم لیس له سوی مبدأ واحد ومؤثّر فارد: «لا مُؤَثِّر فِی الْوُجُودِ إلَّا اللَّهُ» لا أنّ العالم یملک مبدأین مبدأ للخیر وآخر للشرّ، أو الیزدان والأهریمن کما یتصوّر الثنویون، وأساساً فإنّ الشرّ لا وجود له فی عالم الخلقة وکلّ ما هو موجود فهو خیر، أمّا الشرّ فأمر نسبیّ، علی سبیل المثال: لسع العقرب یعدّ وسیلة دفاعیة له فی مقابل أعدائه، مضافاً إلی أنّ سمّ الحشرات یحتوی علی دواء لشفاء بعض الأمراض، فمن هذه الجهة یکون هذا السمّ خیراً، ولو ابتلی أحد بلدغ العقرب أو بلدغ حشرة فإنّ هذا الشرّ ناشیء من جهله وعدم اطّلاعه علی الخطر.

ثمّ یشیر الإمام علیه السلام إلی عدم استقرار الدنیا واختلاط الجیّد والردیء والخیر والشرّ فیها، ویقول: «وَأَنَّ الدُّنْیَا لَمْ تَکُنْ لِتَسْتَقِرَّ إلَّا عَلَی مَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَیْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ، وَالابْتِلَاءِ، وَالْجَزَاءِ فِی الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَاتَعْلَمُ».

أجل، هذه طبیعة الدنیا التی خلقت بهذا الشکل وفقاً للحکمة الإلهیّة، لأنّ الإنسان إذا غرق دوماً فی النعمة والحبور فسوف یعیش الغفلة عن المصیر، وإذا ابتلی دوماً بالمشاکل والآلام فإنّ الیأس سیهیمن علی وجوده ویستولی علی فکره ویبتعد بذلک عن اللّه تعالی، ومن هنا فإنّ اللّه قد خلط بین هذین الأمرین لیعیش الإنسان حالات الیقظة والانتباه ویتحرّک فی مسیرة الحیاة المعنویة بالاستمداد من اللطف الإلهیّ.

وبما أنّ بعض الأفراد الجهّال یطلقون أحیاناً کلمات الاعتراض بسبب جهلهم وعدم اطّلاعهم علی الحکمة من حوادث العالم، یحذّر الإمام علیه السلام ولده ویقول: «فَإِنْ أَشْکَلَ عَلَیْکَ شَیْءٌ مِنْ ذَلِکَ فَاحْمِلْهُ عَلَی جَهَالَتِکَ، فَإِنَّکَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۷۳

عُلِّمْتَ، وَمَا أَکْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ، یَتَحَیَّرُ فِیهِ رَأْیُکَ، وَیَضِلُّ فِیهِ بَصَرُکَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِکَ».

وهذا یعنی أنّ الشخص الذی بإمکانه الاعتراض علی ما یشکل علیه هو الذی یعلم بجمیع الأمور ومطّلع علی کافّة التفاصیل، ویعرف فلسفة جمیع الحوادث والغرض منها، ثمّ یری أنّ أحد الأمور لا- تتوافق مع الحکمة والغرض من الخلقة فیحقّ له أن یفتح فمه بالاعتراض ویضع علامات الاستفهام، فی حین أنّ الإنسان لیس کذلک، فمعلوماته بالنسبة لمجهولاته کالقطرة بالنسبة للبحر، فهو فی بدایة عمره جاء إلی الدنیا ولا- یعلم شیئاً، ثمّ تدریجیاً یطّلع علی بعض الأمور ویعلم ببعض المسائل، وما أکثر الأمور التی لا یعلم الحکمة والغرض منها فی بدایة الأمر ثمّ بعد ذلک تبیّنت له الحکمة من هذا الشیء والغرض من هذه الظاهرة، فهل یحقّ للإنسان مع هذا العلم المحدود وهذا الکمّ القلیل من المعلومات التی یمتلکها، أن یعترض علی بعض الأمور التی لا یعلم الغرض منها؟

وفی ختام هذا المقطع من الوصیّة یأمر الإمام علیه السلام ولده بالتمسّک بالألطاف الإلهیّة والالتفات إلی الذات المقدّسة، فإنّه مفتاح للنجاة من کلّ هلکة، یقول: «فَاعْتَصِمْ بِالَّذِی خَلَقَکَ وَرَزَقَکَ وَسَوَّاکَ، وَلْیَکُنْ لَهُ تَعَبُّدُکَ، وَإِلَیْهِ رَغْبَتُکَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُکَ».

هذه التوصیات الأربع القصیرة والزاخرة بالمضمون، تضمن قطعاً سعادة کلّ إنسان، فالاعتصام والتمسّک بالألطاف الإلهیّة والتوجّه إلیه بالدعاء وطلب الحاجات والخشیة من عقابه، کلّ ذلک یقود الإنسان نحو مرفأ السلامة وساحل النجاة.

وقوله: «الَّذِی خَلَقَکَ وَرَزَقَکَ وَسَوَّاکَ مقتبس من الآیات القرآنیة الشریفة:

«الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّی وَالَّذِی قَدَّرَ فَهَدَی وَالَّذِی أَخْرَجَ الْمَرْعَی [۶۲۲]، فبدایة یشیر إلی أمر الخلقة، ثمّ مسألة الرزق، ثمّ التسویة فی عملیة الخلق، وتنظیم أجهزة الإنسان وأعضائه وقواه البدنیة والروحیة، فی حین أننا نعلم أنّ البدایة هو الخلق ثمّ التسویة

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۷۴

ثمّ الرزق، ولکن مع الالتفات إلی أنّ العطف فی الواو لا یعنی دائماً الترتیب، فلا نواجه مشکلة فی تفسیر هذه العبارة.

ویحتمل أیضاً أنّ نظر الإمام علیه السلام فی هذه العبارة مراحل تکامل الجنین ونموّ الطفل بعد ولادته، لأنّ النطفة عندما تستقرّ فی رحم الام فإنّها تتغذّی علی الرزق الإلهیّ المتوفّر فی رحم الام بشکل متناسب، ثمّ یطوی الجنین مراحل تکامله واحدة بعد الأخری إلی أن تحین ولادته، ویتبدّل غذاؤه من الدم فی الرحم إلی اللبن فی ثدی الام، وهکذا تنطوی مراحل التسویة والتکامل لمدّة طویلة، وعلی هذا الأساس یمکن القول أنّ الرزق الإلهیّ للإنسان یبدأ قبل طیّ مراحل التکامل والنموّ.

تأمّل: المقارنة بین علم الإنسان وجهله

لا شکّ أنّ الإنسان عندما یأتی إلی هذه الدنیا لا یعلم شیئاً من أمر الحیاة، رغم أنّه یملک استعداداً عجیباً لتقبّل المعارف واستلهام المعلومات، ویشیر القرآن الکریم إلی هذه الحقیقة أیضاً: «وَاللَّهُ أَخْرَجَکُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِکُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَیْئاً»[۶۲۳].

ثمّ إنّ الإنسان یبدأ فی التعلّم من خلال ثلاث طرق:

۱. طریق التجربة التی تتّخذ أشکال اللعب اللهو فی مرحلة الطفولة.

۲. طریق التعلیم والتربیة من قِبل الوالدین والمعلم.

۳. طریق تفتّح العلوم الفطریة (فطرة التوحید، الحسن والقبح العقلیین، الأمور الوجدانیة وأمثال ذلک) حیث تتجلّی ید القدرة الإلهیّة فی واقع الإنسان ووجدانه، وکلّما یتقدّم أکثر فی مسیرة الحیاة فإنّه یدرک سعة مجهولاته أکثر فأکثر، علی سبیل المثال أنّ علماء النجوم عندما کانوا ینظرون إلی الکواکب والنجوم فی السماء الفسیحة وبالوسائل الابتدائیة، کانوا یرون مقداراً محدوداً من هذه النجوم

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۷۵

والکواکب، وکانت تفاصیلها غامضة ومجهولة، وعندما تطوّرت أجهزة الرصد شاهدوا المجرّات العظیمة فی الفضاء الفسیح وکلّ واحدة منها تتألّف من ملایین أو ملیارات النجوم والکواکب، ومع اکتشاف مجرّة منها فإنّ عالماً من المجهولات یتجلّی لهؤلاء العلماء ویتحدّاهم، فلو استطعنا یوماً أن ننظر إلی بعض هذه النجوم بدقّة کاملة بواسطة التلسکوب، فإنّ عالماً من المجهولات یتجلّی لنا بالنسبة لهذه الکوکب، وعلی ضوء ذلک فکلّما یتقدّم العلم وتتطوّر الأجهزة التقنیة فإنّ افق معلوماتنا یتضاءل أمام جبل مجهولاتنا إلی أن یصل بنا الأمر إلی حدٍّ یقول عنه أحد الفلاسفة: «بلغت من العلم إلی مرتبة بحیث إنّنی علمت بأنّنی لا أعلم».

ولو رجعنا إلی القرآن الکریم وتدبّرنا الآیات التی تشیر إلی علم اللَّه تعالی المحیط بعالم الوجود، تقول الآیة: «وَلَوْ أَنَّمَا فِی الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ یَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ کَلِماتُ اللَّهِ»[۶۲۴].

وفی هذا السیاق یقول القرآن الکریم فی مورد آخر: «وَما أُوتِیتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِیلًا»[۶۲۵].

یقول العالم الفیزیائی المعروف أنشتاین: إذا اجتمعت جمیع علوم البشر منذ الیوم الأوّل ولحدّ الآن فی مکتبة شاملة ووضعناها فی مقابل مجهولات البشر فإنّ مقدار هذه المکتبة تکون بالنسبة لتلک المجهولات بمثابة صفحة واحدة من کتاب ضخم.

ومن هنا ندرک جیّداً من خلال النتیجة التی ذکرها الإمام علیه السلام فی العبارة أعلاه، أننا لو واجهنا بعض الأسئلة وعلامات الاستفهام بالمسائل المتعلّقة بالمبدأ والمعاد وأسرار الحیاة ولم نعثر علی جواب، فینبغی حمل ذلک علی جهلنا وقصور معلوماتنا ولا نطلق ألسنتنا بالإنکار والاعتراض، وهذه هی الحقیقة المؤیّدة من قِبل العقل والمنطق.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۷۷

القسم الثانی عشر

اشارة

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ صلى الله عليه و آله فَارْضَ بِهِ رَائِداً، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً. وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ- وَإِنِ اجْتَهَدْتَ- مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ.

الشرح والتفسير: اجعل من النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله مرشداً لک

يتحرّک الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من وصيّته لإبنه العزيز مشيراً إلى نقطتين مهمّتين، الاولى: أنّ نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله خير دليل وأفضل قائد يقود الإنسان فى طريق الصلاح والنجاح، والآخر: أنّ والده أميرالمؤمنين عليه السلام لم يألُ جهداً فى هدايته وإرشاده، ومن هذا المنطلق ينبغى عليه الإصرار فى هذا المسير اتّباعاً لهدى هذين القائدين.

يقول عليه السلام: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ صلى الله عليه و آله فَارْضَ بِهِ رَائِداً[۶۲۶]، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً».

وهذا التعبير يشير إلى أنّ الوحى السماوى الذى نزل على النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله يمثّل عصارة جميع تعاليم الوحى النازل على الأنبياء السابقين، ففى تلک الأعصار كان الوحى السماوى ينزل على الأنبياء السابقين وفقاً لقابليات أقوامهم ومتناغماً مع

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۴۷۸

ثقافة وعقلية ذلک العصر، ولكن فى عصر خاتم الأنبياء فقد نزل آخر خطاب إلهىّ للبشرية كافّة على قلبه المبارک.

إنّ المقارنة بين القرآن الكريم والتوراة و الإنجيل الحاليين (رغم امتداد يد التحريف إليهما) شاهد ناطق على هذا التفاوت العظيم، فبالنسبة لمعرفة اللَّه وأدلّة التوحيد والصفات الإلهيّة فإنّ القرآن الكريم طرح قضايا هامة على هذا الصعيد لا توجد فى أىّ من الكتب السماوية الأخرى، بل حتّى لا يوجد فيها عُشر معشارها، وبالنسبة للمسائل المتعلّقة بالمعاد، وعلى حدّ قول بعض المحقّقين يوجد ألفى آية فى القرآن تتحدّث عن المعاد وتفاصيله وحالاته، فالقرآن الكريم تحدّث فى هذا المجال بحيث لا يمكن تصوّر كلام آخر فى هذا الشأن، وفى البحوث الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والمسائل التى تتصّل بالحكومة وتاريخ القدماء، فالقرآن الكريم زاخر بهذه البحوث، ومن هنا يستوحى الإمام عليه السلام دليله فى كلامه المذكور أعلاه ويقول: لا يوجد أحد كالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله بيّن للناس تعاليم الوحى السماوى والمعارف الإلهيّة بهذه الصورة اليانعة، ولهذا ينبغى عليک أن تتمسّک بهذا القائد والمرشد بوصفه أفضل مرشد لطريق الخير والصلاح فى واقع الحياة.

وينبغى الالتفات إلى أنّ مفردة «رائد» فى الأصل تعنى الشخص الذى يذهب للبحث عن المرتع والماء للماشية والدوابّ، وعندما يكتشف وجود ماء وكلأ يعود ليخبر قومه، ثمّ توسّعوا فى استخدام هذه الكلمة وأطلقوها على الأشخاص الذين يمسكون بمقاليد الأمور فى حياة الناس.

«القائد» فى الأصل بمعنى الشخص الذى يمسک زمام الناقة ويقودها فى المسير، ثمّ اطلق على كلّ مَن يقود طائفة من البشر.

ويواصل الإمام عليه السلام تقسيم نصيحته لولده ويقول: «فَإِنِّي لَمْ آلُكَ ۶۲۷] نَصِيحَةً. وَإِنَّكَ

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۴۷۹

لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ- وَإِنِ اجْتَهَدْتَ- مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ».

إنّ هدف الإمام عليه السلام من هذا الكلام حثّ ولده لتقبّل هذه النصائح والالتزام الواعى بها من خلال تقديم دليلين: أحدهما: أنّ الإمام، وبسبب شفقته ومحبّته الشديدة له، لم ولن يدع رأياً نافعاً ونظراً مفيداً لولده إلّاوذكره، والآخر: أنّ ولده شابّ لا يمكن أن يحيط بالأمور كإحاطة والده الإمام علىّ عليه السلام، ومن هنا قيل: إنّ ما يراه الشاب فى المرآة، يراه الشيخ فى الآجر الخام.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۸۱

القسم الثالث عشر

اشارة

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ. أَوَّلٌ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ. عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ. فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، و عَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ: فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ.

الشرح والتفسير: الإيمان بالواحد الأحد

يتحدّث الإمام عليه السلام فى هذه الفقرة من الوصيّة عن أحد أدلّة التوحيد الذى يمثّل الركن الأساس والعمود الفقرى لجميع منظومة الدين، يقول: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ».

ويستعرض الإمام عليه السلام فى قراءة سريعة، الدليل على نفى الشريك وإثبات التوحيد بثلاثة أمور:

الأوّل: إذا كان للّهشريك فلابدّ أن يكون حكيماً، والإله الحكيم يجب أن يعرّف نفسه لعباده ويكشف لهم عن تعاليمه وأحكامه بواسطة الأنبياء الذين يرسلهم

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۸۲

للناس، فى حين أنّ جميع الأنبياء دعوا الناس لإله واحد، والآيات القرآنية والنصوص السماوية شاهد على هذا المطلب.

ومن جهة أخرى فلو كان هناك إله آخر فيلزم من ذلك أن تظهر آثار ملكه وسلطانه وقدرته على هذا العالم، فى حين أنّنا مهما دقّقنا النظر فى ظواهر هذا العالم فسنجد الوحدة والانسجام التامّ مهيمناً على جميع أركانه، وهذه الوحدة والتجانس من نواة الذرّة إلى المجرّات العظيمة، كلّها تسير وفق قانون واحد وتتحرّك وفق نظام متجانس ومنسجم، وهذا دليل على وحدة الخالق جلّ وعلا.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير فى سياق حديثه إلى سبع صفات من صفات البارى تعالى، بداية يقول: «وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ».

وهذه الصفة للذات المقدّسة تقع نتيجة الاستدلال الذى تقدّم به الإمام عليه السلام آنفاً من أنّه لو كان هناك معبود آخر غير اللّه تعالى لأرسل رسوله للناس وتجلّت آثار ملكه وسلطانه فى جميع أرجاء الكون والطبيعة، ولرأيت أفعاله وصفاته منعكسة على مرآة الخلقة والطبيعة، وبما أنّ الأمر ليس كذلك فنستنتج أنّه إله واحد.

أضف إلى ذلك أنّ اللّه تعالى فى القرآن الكريم وصف نفسه مرّات عدّة بالواحد الأحد، كما ورد نموذج من ذلك فى سورة التوحيد، وبما أنّ اللّه صادق ولا يعقل فى كلامه الكذب والغشّ والزيف، والتى هى حالات ناشئة من الحاجة والعجز واتّباع الأهواء، فلذلك يمكننا الاستناد لإثبات هذه الصفة وسائر الصفات على الأدلّة السمعيّة، أى الآيات والروايات القطعية.

الصفة الثانية يقول الإمام عليه السلام: «لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ».

وهذا هو التوحيد فى الحاكمية، الذى هو فرع من التوحيد الأفعالى، فالمالك واحد والحاكم واحد أيضاً، والدليل على ذلك واضح،

لأنه عنـدما نعتقد بأنّ اللّه هو الخالق، فمن الطبيعىّ أن يكون هو المالك والحاكم لا غير، وبخاصّة أنّ خالقية اللّه مسـتمرّة وفيضه دائم، يعنى أننا نُخلق لحظة بعد أخرى مثل ضوء القنديل أو السراج،

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۴۸۳

فلو انقطع ارتباطه بمع منبع الطاقـة، فسوف ينطفىء، أجل إنّ اللّه تعالى خالق فى كلّ يوم وكلّ لحظـة، إذن فهو الحاكم والمالك دوماً وأبداً.

ثمّ تحرّك الإمام عليه السلام لبيان الصفة الثالثة والرابعة ويقول: «وَلَا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ».

والـدليل على ذلك واضـح، لأننا نعلم أنّ اللّه واجب الوجود، وأنّ واجب الوجود حقيقـة ينبع وجودها من ذاتها إذا صـحّ التعبير، وعلى هـذا الأسـاس فـإنّ هـذا الوجود أزلىٌّ، ويجب أن يكون أبـديّاً أيضاً، والموجودات حادثـة لا تسـتقى وجودها من ذاتها، بل من موجود آخر، وسائر الموجودات فانية لأنّ وجودها لا ينبع من ذاتها بل يصل إليها الوجود من خارج ذاتها.

وتأسـيساً على ذلك يمكن استنباط الصفة الخامسة والسادسة ممّا تقدّم آنفاً، يقول الإمام عليه السلام: «أَوَّلٌ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ».

وهاتان الصفتان من لوازم أزلية وأبدية الذات المقدّسة، وناشئة من كون اللّه تعالى واجب الوجود.

وفى الصفة السابعة والأخيرة يقول الإمام عليه السلام: «عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ».

والـدليل على ذلك بيّن، فربوبيـة الـذات المقدّسـة أزليـة وأبديـة ولا بداية لها ولا نهاية، وأنّها تحيط بعالم الوجود بجميع أبعاده وآفاقه الممتـدّة، وعلى ضوء ذلـك فـإنّ هـذه الربوبيـة الواسـعة لاـ يمكن مشاهـدتها بـالعين، ولا تصوّرها بالـذهن، لأنّ ربوبيته غير محـدودة، واللامحدود لا يمكن الإحاط به بفكر الإنسان المحدود.

وبعـد أن يبيّن الإمـام عليه السـلام عظمـة اللّه تعـالى وتوحيـده وأزليته وأبـديته وإحاطـة ربوبيته على جميع الكائنـات فى عالم الوجود، يواصل كلامه فى وصيته لولده وينبّهه لصغره وضعفه وحاجاته الكثيرة فى مقابل قدرة اللّه المطلقة، ويقول: «فَإِذَا عَرَفْتَ

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۴۸۴

ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِى لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِى صِغَرِ خَطَرِهِ ۶۲۸]، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، و عَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ».

إنّ الصـفات الأربع التى يصف بها الإمام عليه السـلام ولده قابلة للتطبيق على جميع أفراد البشـر، فكلّ إنسان فى مقابل اللّه تعالى صغير وحقير وضـعيف وكثير الحاجات إلى ربّه، ولكن بشرط أن يعرف الإنسان ذلك فى نفسه ولا يغفل عن هذه الحقيقة، وإلّا فإنّه سيخرج عن طريق العبودية ويسـلك سبيل الطغيان والغرور، أجل فإنّ معرفة عظمة اللّه تعالى من جهة، ومعرفة صغر النفس وحقارتها فى مقابل الذات المقدّسة من جهة أخرى سبب وعامل أساس فى السير فى خطّ العبودية والطاعة، ونسيان هذه الحقيقة يعتبر منشأ الطغيان والظلم والعدوان.

يقول القرآن الكريم: «وَلا تَكُونُوا كَالَّذينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُون»[۶۲۹].

ثمّ إنّ الإمام عليه السـلام يبيّن معالم الطريق لولده وفلذّة كبده وكيفية الإتيان بالأعمال الصالحة ويقول: «فِى طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالْخَشْـيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ: فَإِنَّهُ لَم يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ».

ويلخّص الإمام عليه السلام فى هذا الكلام العمل الصالح فى ثلاثة أمور: الطاعة للّه، والخشية من عقوبته، والشفقة من غضبه وسخطه.

وبديهىّ أنّ الخشية والإشفاق فى مقابل عقوبة اللّه وسخطه يبعثان على الطاعة، ومن هنا فالإمام فى البداية يشير إلى طاعة اللّه تعالى، ثمّ يؤكّد على الدوافع والبواعث النفسية لتحقيق تلك الطاعة، وأمّا الفرق بين الخشية والإشفاق فكما أشرنا

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۴۸۵

أنّ الخشـية تعنى الخوف، ولكنّ الإشـفاق أو الشـفقة هى الخوف المقتـرن بالأمـل والرجـاء، وعلى ضوء ذلـك، فـالخوف من العقـاب

الإلهىّ ليس كالخوف من الحوادث المخوفة التى يفقد الإنسان فيها الأمل، بل هو خوف مقترن بالأمل بلطف اللَّه وعطفه وكرمه.

والمفهوم من جملة: «فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ ...» أنّك لا تحسب أنّ إطاعتك للَّه‌تعالى ستضيف شيئاً لجلاله وعظمته، أو أنّ اللَّه تعالى يحتاج إلى هذه الطاعة، على العكس، فأنت المحتاج له، لأنّه قد أمرك بما يحقّق لك سعادتك ونهاك عن القبائح والرذائل التى تقودك فى دروب الشقاء والمسكنة والذلّة.

وهذه العبارة دليل بيّن على الحسن والقبح العقليين، وللأسف فإنّ جماعة من المسلمين، الذين ابتعدوا عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام والتمسك بالكتاب والعترة، تحرّكوا فى هذه المسألة من موقع الإنكار والمخالفة، وأنكروا هذه المسألة البديهية والعقلية بسبب بعض البواعث والدوافع السقيمة.

تأمّلان

۱. العلاقة بين الآيديولوجية والرؤية الكونية

فى هذا المقطع من الرسالة، وبعد أن يبيّن الإمام عليه السلام سلسلة من الحقائق فيما يتّصل بالذات المقدّسة والصفات الالوهية، ويبيّن عجز وضعف الإنسان وقصوره عن الإحاطة بالعلوم والمعارف الأنفسية والآفاقية، يستنتج الإمام عليه السلام أنّه ينبغى على الإنسان أن يتحرّك فى خطّ العبادة والعبودية بما يليق بمقام الالوهية وبعظمة الذات المقدّسة وصغر الإنسان.

وهذا يعنى أنّ تكاليف الإنسان مرتبطة بشكل وثيق مع الحقائق الموضوعية، أى أنّ القوانين تنطلق دائماً من قلب الحقائق، وأنّ ما ينبغى وما لا ينبغى وليد الوجود والعدم، وبعبارة أخرى، أنّنا نستنبط من هذه المعرفة والحقائق الموجودة فيما يتّصل بغنى اللَّه وفقر الإنسان، لزوم عبادته والامتثال لأوامره وتطبيق أحكامه، وهذا هو البحث المهم الذى يطرح عادة فى موضوع الارتباط بين الآيديولوجية والرؤية

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۴۸۶

الكونية وحيث يطرح هذا التساؤل: هل هناك ثمّة ارتباط بينهما؟

إنّ الرؤية الكونية هى عبارة عن المعرفة بالحقائق، والآيديولوجية فى هذا المورد تعنى الأحكام والقوانين الناتجة باعتقادنا من قلب هذا العالم والحقائق الموجودة فى الطبيعة.

ومن هنا يتبيّن الجواب عن شبهة من يقول: إنّ الأحكام الشرعية أمور اعتبارية ولا ترتبط بالحقائق أو الأمور التكوينية، فالإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصيّة يشطب بخطّ البطلان على هذه الشبهة، لأنّ الفصل بين هذين الأمرين يلغى أىّ اعتبار للأحكام الشرعية، فالحكم إنّما يكون له قيمة إذا كان مرتبطاً بالحقائق الموضوعية، وهذه هى فلسفة الأحكام التى تمنحها اعتباراً وقيمة، وهذه العلاقة الوطيدة بين الحكم الشرعىّ والحقيقة الموضوعيّة هى التى تعمل على تجسيد الحكم وترسيخه.

والأحكام التعبّدية أيضاً غير مستثناة من هذا القانون، فجميع هذه الأحكام تتوافق مع المصالح والمفاسد الواقعية، رغم أنّنا أحياناً لا نعرف الحكمة منها، لأنّه فى غير هذه الصورة نواجه الترجيح بلا مرجّح، وعلماء الشيعة جميعاً يتّفقون على هذا لرأى.

والآيات القرآنية والروايات الشريفة أيضاً تصرّح بوجود مثل هذه العلاقة بين الأحكام الشرعية والواقع الموضوعى.

مثلًا، نقرأ فى القرآن الكريم فى سورة المائدة: «يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّما يُريدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنْتَهُونَ»[۶۳۰]، وهكذا نرى أنّ اللَّه تعالى فى هذه الآيات الكريمة بعد يبيّن موارد الضرر الواقعى للأرجاس، كالخمر و القمار، ويذكّر

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۸۷

المسلمين أنّ هذه الأمور من عمل الشيطان، ويبيّن الحكم الواقعی لها وينهی المؤمنين عن ارتكاب شرب الخمر والميسر، ثمّ يستعرض مرّة أخری الحقائق الموضوعية التی تساهم فی تحقيق السعادة للإنسان وأنّ عمل الشيطان فی الحقيقة هو إثارة العداوة والبغضاء والابتعاد عن ذكر اللَّه وترك الصلاة.

وبالنسبة للصوم ورد أيضاً: «صُومُوا تَصِحُّوا»[۶۳۱] وفی مورد آخر يبيّن القرآن الغاية من الصوم ويقول: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون»[۶۳۲].

وفی الحقيقة أنّ جميع الروايات الشريفة الواردة فی باب علل الشرائع، تعدّ دليلًا واضحاً علی هذا المدّعی.

٢. بداية الخلقة ودوام الفيض

رأينا فی كلمات الإمام عليه السلام الناطقة فی هذا المقطع من الرسالة أنّ الذات المقدّسة تعتبر مبدأ كلّ شیء بدون بداية لها، ونهاية كلّ شیء بدون نهاية لها، ويصطلح علی هذا المفهوم الأزلية والأبدية، وهنا يفرض هذا السؤال نفسه: هل أنّ للمخلوقات حدوثاً زمانياً؟ يعنی أنّ اللَّه فی زمان كان موجوداً ولم تكن المخلوقات موجودة (وطبعاً التعبير بالزمان هنا من باب التسامح، لأنّ الزمان بنفسه إمّا مخلوق أو نتيجة حركة المخلوقات) كما ورد فی بعض العبارات: «كانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَیءٌ»[۶۳۳] فإذا كان الأمر كذلك فإنّ مسألة دوام الفيض يواجه مشكلة هنا، لأنّ مفهوم هذا الكلام أنّ اللَّه تعالی كان فيّاضاً منذ البدء إلّاأنّه كان متوقّفاً عن الفيض، فی حين أن الفيض ملازم للذات المقدّسة وعدم الفيض يعدّ نقصاً.

والجواب علی هذا السؤال: إنّ العالم له حدوث ذاتیّ، يعنی إذا قلنا بوجود

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۸۸

المخلوقات دائماً وأبداً، فذلك المخلوق بدوره يستند فی وجوده إلی الذات المقدّسة ومرتبط بالقدرة الإلهيّة، لا أنّه واجب الوجود، كما أنّ نور الشمس مرتبط بشكل وثيق بالشمس، فإذا كانت الشمس موجودة دائماً وتشعّ بنورها فی كلّ آن، فمع ذلك تعتبر الشمس أصلًا ونورها فرعاً.

وبعبارة أخری أنّ كلمة «مع» فی جملة «كانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَیءٌ» تبيّن هذه الحقيقة وهی أنّ اللَّه تعالی كان منذ الأزل ولم يكن معه شیء بنفس المستوی وبذات الكينونة (لا بواسطته).

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۸۹

القسم الرابع عشر

اشارة

يَا بُنَیَّ إِنِّی قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا. إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلًا خَصِيباً وَجَنَاباً مَرِيعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ الْمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَیْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَماً، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً. وَلَا شَیْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ. وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ

إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ.

الشرح والتفسير: السالكون طريق الآخرة

ينطلق الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصيّة لبيان مكانة الدنيا والآخرة فى منظار المتألّهين من خلال مثالين جميلين، ويقول: «يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا».

إنّ للأمثلة دور مهم جدّاً فى فهم وإدراك المسائل المعقّدة والمفاهيم الغامضة سواء العقلية منها أو الحسّية، فيستطيع المخاطب من خلال المثال فهم هذه المسائل

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۹۰

من موقع العمق والوضوح فى الرؤية، وبذلك يتمّ تشويقه وحثّه لأداء الأعمال المفيدة والخيرة والابتعاد عن الرذائل والقبائح.

والقرآن الكريم يستخدم كثيراً الأمثلة الجميلة والعميقة المغزى، حيث تشكّل الأمثلة قسماً مهماً من الآيات القرآنية، ونرى فى كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام فى نهج‌البلاغة أمثلة كثيرة وذات معانٍ عميقة أوردها الإمام عليه السلام فى خطبه ووصاياه بغاية الفصاحة والبلاغة.

بعد أن يذكرالإمام عليه السلام هذه المقدّمة يستعرض مثالين للدنيا والآخرة فيقول أوّلًا:

«إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ[۶۳۴] الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ[۶۳۵] نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ ۶۳۶]، فَأَمُّوا[۶۳۷] مَنْزِلًا خَصِيباً[۶۳۸] وَجَنَاباً[۶۳۹] مَرِيعاً[۶۴۰]، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ[۶۴۱] الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ[۶۴۲] الْمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ».

فأهل الآخرة يعلمون أنّهم فى سفر وأنّ ما يواجهونه من أتعاب وآلام وجشوبة العيش ومعاناة الطريق إنّما هى حالات مؤقّتة وبمثابة الثمن الذى يدفعونه لتحصيل السعادة الدائمة والوصول إلى منزل القرار والاستقرار والراحة الأبديّة فتكون هذه الأمور والصعوبات بالنسبة لهم هيّنة ويسيرة، ولذلك يقول الإمام عليه السلام بعد ذلك:

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۹۱

«فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَماً وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً. وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ».

أجل، فهذا هو نمط تفكير المؤمنين الصالحين وأولياء اللَّه الذين يسيرون فى مسلك الطاعة والمعنوية، لأنّ هؤلاء لا ينجذبون أبداً لزخارف الدنيا ولا ينخدعون ببريقها، بل إنّ الدنيا تمثّل لهم مجموعة من الأتعاب والآلام والهموم والغموم وحالات التوتّر التى تفرضها حالات الصراع والنزاع، فى حين أنّ الإيمان بالمعاد والجنّة والنعيم الخالد والاعتقاد بالوعد الإلهىّ يوحى لهم بأنّهم سيواجهون غداً مستقبلًا مشرقاً ويرفلون بالنعيم المادىّ والمعنوىّ بعيداً عن كلّ أشكال الهمّ والغمّ والألم، والأهمّ من ذلك أنّهم يصلون إلى مقام القرب الإلهىّ وهذا هو الذى يجعلهم يتقبّلون الصعاب والآلام فى هذا المسير بكلّ رحابة صدر ويتحمّلون كلّ مشقّة فى هذا الطريق لأنّهم متوجّهون إلى كعبة الحبيب، فجميع ما يجدونه من وخز الأشواك فى الطريق يكون بالنسبة لهم كفراش الحرير وتتبدّل المرارة إلى عذوبة.

ثمّ يستعرض الإمام عليه السلام المثال الثانى فيما يخصّ أهل الدنيا والمتشبّثين بزخارفها وملذّاتها ويقول: «وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ ۶۴۳] عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ».

أجل، فهم يعلمون أنّ مصيرهم فى النهاية النار والعذاب الأليم، فتكون الدنيا بالنسبة لهم بجميع مشاكلها وآلامها عذبة ومريحة جدّاً، ولهذا السبب يخافون من الموت ويخشون حلول الأجل، خوفاً من المستقبل المظلم، كما أخبر القرآن الكريم عن طائفة من بنى

اسرائيل ممّن يعيشون حبّ الدنيا: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۴۹۲

أَنْ يُعَمَّرَ»[۶۴۴].

وكذلك ورد فى حديث معروف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ وَالْمَوْتُ جِسْرُ هَؤُلَاءِ إِلَى جِنَانِهِمْ وَجِسْرُ هَؤُلَاءِ إِلَى جَحِيمِهِمْ»[۶۴۵].

وفى هذا الصدد روايهٔ عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عندما سأله أحدهم: «مَا بَالُنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ وَلَا نُحِبُّهُ؟». فأجابه: «إِنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَتَكُمْ وَعَمَرْتُمْ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ النُّقْلَةَ مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ»[۶۴۶].

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۴۹۳

القسم الخامس عشر

اشارهٔ

يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَاتُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَاتَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَاتُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.

الشرح والتفسير: نظرهٔ واحدهٔ لمصلحهٔ الفرد والجماعهٔ

يشير الإمام عليه السلام فى هذه الفقرهٔ من وصيّته لأحد أهمّ الأصول الأخلاقيهٔ والمثل الإنسانيهٔ ويقول: «يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ».

والميزان عادهٔ ذو كفّتين، والوزن الصحيح يتمّ عندما تكون الكفّتان متساويتين فى الخطّ الافقى، وهذا الكلام إشارهٔ إلى أنّه ينبغى عليك أن تحبّ للآخرين ما تحبّه لنفسك، وما تكره لنفسك فينبغى أن تكرهه للآخرين لتتساوى كفّتا الميزان فى عرض واحد.

ثمّ يوضّح الإمام عليه السلام هذا الأصل الأخلاقى المهم فى سبع جمل ويبيّن أبعاده وزواياه المختلفهٔ:

يقول الإمام عليه السلام فى الجملهٔ الاولى والثانيهٔ: «فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا».

وفى الجملهٔ الثالثهٔ: «وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَاتُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ».

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۴۹۴

وفى الجملهٔ الرابعهٔ: «وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ».

ويقول فى الجملهٔ الخامسهٔ: «وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ».

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام فى الجملهٔ السادسهٔ: «وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ».

وأخيراً وفى الجملهٔ السابعهٔ يقول: «وَلَا تَقُلْ مَا لَاتَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَاتُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ».

وهو إشارهٔ إلى أنّك كما لا تحبّ أن يستغيبك الناس أو يتّهمونك بأمر معيّن أو يخاطبونك بكلمات نابيهٔ ويذكرونك بألقاب قبيحهٔ، أو يتحدّثون عنك بكلمات تسوؤك وتثير غضبك، فينبغى عليك أن لا تتحدّث عن الآخرين بآليّات الغيبهٔ والتهمهٔ والسبّ والشتم وما إلى ذلك، أو تتلّفظ بكلمات لا مسؤولهٔ تؤذى الآخرين وتسيء إليهم.

والحقیقـة أنّ هـذا الأصل الأخلاقیّ المهمّ بالتفاصیل والأغصان السبعة التی ذکرها الإمام علیه السلام لو طبّق فی أیّ مجتمع وعمل به الناس فی تواصلهم وتعاملهم فیما بینهم، لساد الصلح والأمن فی أجواء ذلک المجتمع وزالت کلّ أشکال النزاع والصراع، ووصلت الملفّات القضائیة فی المحاکم إلی الحدّ الأدنی، وبلغت المحبّة والتعاون والتکاتف الحدّ الأقصی فی واقع الحیاة والمجتمع، لأنّ جمیع المشاکل الاجتماعیة تنشأ من أنّ البعض یرید کلّ شیء لنفسه ولا یفکّر إلّافی نفعه وراحته وسعادته، ویتوقّع من الآخرین أن یتعاملوا معه بالقیم والعدل ولکنّه لا یجد فی نفسه أیّ التزام بهذه القیم، ویرید أن یکون حرّاً تجاه الآخرین، أو لا یقیم وزناً لحیثیة الآخرین وراحتهم وسعادتهم، أو یهتمّ براحة الآخرین ولکن لا بمقدار ما یهتمّ لنفسه، فیرید لنفسه الحدّ الأقصی من النفع والسعادة والراحة، وللآخرین الحدّ الأدنی.

وما ذکره الإمام علیه السلام فی بیان هذا الأصل الأخلاقی لم یرد بهذه السعة والشمول فی کلام أیّ شخصیة علمیة أخری، رغم أنّ جذور هذا الأصل کما یقول الشیخ

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۹۵

مغنیة فی شرحه لنهج البلاغة ذیل هذا الکلام للإمام علیه السلام، موجود بشکل إجمالی فی تراث القدماء.

یقول مغنیة: «ولا نعرف أوّل من نطق بهذه الذهبیة ... وأیّاً کان فهی لجمیع الناس، لأنّ الحبّ معناه الأخوة والإنسانیة والتکامل والتضامن والقوة والنجاح، وبالحبّ تستقیم الحیاة، ولا معنی لحیاة بلا حبّ، وأیضاً لا معنی للکراهیة إلّاالحرب والشقاق والفشل والتخلف»[۶۴۷].

وقد ورد فی تعالیم الإسلام هذا المضمون أیضاً وطرحه النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله بصیاغة جمیلة ورائعة، فقد ورد فی الحدیث الشریف أنّ النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله کان راکباً دابّته وهو یرید بعض غزواته، فجاء إلیه أعرابیّ فأخذ یغمز راحلته فقال: «یا رَسُولَ اللّهِ عَلِّمْنی عَمَلًا أدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ».

فقال صلی الله علیه و آله: «مَا أَحْبَبْتَ أنْ یَأْتِیَهُ النَّاسُ إلَیْکَ فَأْتِهِ إلَیْهِمْ وَمَا کَرِهْتَ أنْ یَأْتِیَهُ النَّاسُ إلَیْکَ فَلَا تَأْتِهِ إلَیْهِمْ خَلِّ سَبِیلَ الرَّاحِلَةِ»[۶۴۸].

وجاء فی حدیث آخر فی سیرة النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله أنّهُ جاء شابّ إلی النبیّ صلی الله علیه و آله فقال له: أتأذن لی بالزنا، فنهره الأصحاب وأغلظوا علیه، فأدناه النبیّ صلی الله علیه و آله منه وقال له:

«أتُحِبُّ أن یُزْنی بامِّکَ أو اخْتِکَ أو بِنْتِکَ أو خَالَتِکَ أو عَمَّتِکَ؟» قال الشابّ: لا یارسول اللّه، فقال له: «کُلُّ النّاسِ کذلِکَ»، ثمّ وضع یده المبارکة علی صدره: «اللّهُمَّ اغْفَرْ ذَنْبَه وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ» وبعد ذلک لم یره أحد وهو جالس إلی امرأة أجنبیة[۶۴۹].

وینبغی الالتفات إلی هذه النقطة أیضاً، وهی أنّ الإمام علیه السلام فی العبارة السابعة من الکلام المذکور یقول علی سبیل المقدّمة: «وَلَا تَقُلْ مَا لَاتَعْلَمُ وَإنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ». وهذا

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۹۶

إشارة إلی أنّ معلوماتک وإن کانت محدودة وقلیلة فاقنع بها ولا تتدخّل فی أمور لا تعلم بها، فإنّ ذلک سیقودک إلی متاهات الخطأ والانحراف.

***

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۹۷

القسم السادس عشر

اشارة

وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الْأَلْبَابِ، فَاسْعَ فِی کَدْحِکَ، وَلَا تَکُنْ خَازِناً لِغَیْرِکَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدِیتَ لِقَصْدِکَ فَکُنْ أَخْشَعَ مَا تَکُونُ لِرَبِّکَ.

الشرح والتفسیر: لا تکن خازناً لغیرک

فی هـذا المقطع من الوصیـة النورانیـة یشیر الإمـام علیه السـلام إلی أربع فضائل أخری ویوصـی بها ولـده وفلـذة کبـده الإمام الحسـن المجتبی علیه السلام.

بدایة یقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الْأَلْبَابِ».

وهـذا یعنی أنّ الإنسان المعجب بنفسه لا یـدرک الحقائق الموضوعیة عن نفسه وعن الآخرین، فهذه الصـفة الذمیمة تسدل حجاباً علی عقله، ولیست فقط تغطّی عیوبه بل یری عیوبه ورذائله نقاط قوّة وعناصـر کمال لنفسه، وأحیاناً یعیش عمره فی هذا الوهم ویغادر الدنیا دون أن یتحرک لإصلاح الخلل والعیب.

وعلی حدّ تعبیر الشیخ مغنیـة فی شـرحه لنهـج البلاغـة، أنّ العجب کـالخمر من حیث إنّهمـا یسـکران الإنسـان، والسـکران حاله حال المجانین وینبغی الابتعاد عنه والفرار منه.

وقد ورد فی القرآن الکریم والروایات الإسـلامیّة فی ذمّ العجب والغرور نصوص کثیرة، منها ما ورد فی الآیة ۸ من سورة فاطر: «أَفَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَـناً فَإِنَّ اللَّهَ یُضِلُّ مَنْ یَشاءُ وَیَهْـدِی مَنْ یَشاءُ فَلا تَـذْهَبْ نَفْسُکَ عَلَیْهِمْ حَسَـراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلیمٌ بِما یَصْـنَعُونَ»، فهـذا الشخص بسبب العجب یری سوء عمله حسناً وکأنّه یری الحقیقة

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۴۹۸

والواقع، ولکنّ اللّه تعالی یقول عنه أنّه ضالّ وغیر جدیر بالهدایة ویوصـی النبیّ الأکرم صـلی الله علیه و آله أن لا یتحسّـر ویأسف علی مثل هؤلاء.

وقـد وردت فی کلمـات أمیرالمـؤمنین علیـه السـلام تعبیرات وکلمـات عجیبـة عـن العجـب والغرور، فی مـورد یقـول: «العُجْبُ آفَةُ الشَّرَفِ»[۶۵۰] وفی مورد آخر یقول: «آفَةُ اللُّبِ العُجْبُ»[۶۵۱].

وفی مورد آخر یقول: «العُجْبُ یُفْسِدُ العَقْلَ»[۶۵۲].

وفی مورد آخر یقول: «ثَمَرَةُ العُجْبِ البَغْضَاءُ»[۶۵۳].

وأخیراً یقول: «العُجْبُ رَأْسُ الحَمَاقَةِ»[۶۵۴].

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام یواصل کلامه ویستعرض الوصیّة الثانیة ویقول: «فَاسْعَ فِی کَدْحِکَ».

نفحات الولایة ؛ ج۹ ؛ ص۴۹۸

ذا هو الأمر الذی ورد التأکید علیه کثیراً فی الروایات الإسلامیّة إلی درجة أننا نقرأ فی الحدیث النبویّ المعروف: «مَلْعُونٌ مَنْ أَلْقَی کَلَّهُ عَلَی النَّاسِ»[۶۵۵].

لو أنّ جمیع المسـلمین وبخاصّـة الشـبّان عملوا بهـذه التوصـیة فلا أحـد سـیکون محتاجاً للآخرین سوی العجزة والمعوقین، وبدیهیّ أنّ المجتمع الإسـلامی سـیتحرّک فی خطّ الرقیّ والتقـدّم ویحرز حالـة من الإزدهار الاقتصادی والحضاری بـدرجات عالیة، بل إنّ البلدان الإسلامیّة سوف لا تکون أداة طیّعة للبلدان الأجنبیة، لأنّ ذلک لا ینتج لهم سوی الذلّة والمهانة والتبعیّة.

وذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى معنى آخر لهذه العبارة وقالوا: إنّ المقصود

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۴۹۹

منها السعى والكدح فى طريق الإنفاق، فكلمة «كدح» تعنى أنّ الإنسان يكدح ويتعب نفسه فى البذل، وفى هذه الصورة تكون هذه العبارة مقدّمة لما يأتى بعدها، ولكن يبدو أنّ التفسير الأوّل أصحّ.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام التوصية الثالثة، ويقول: «وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ».

ويشير بذلك إلى أنّ الأشخاص الذين يتعبون أنفسهم فى جمع الأموال والثروات ولا ينفقونها فى سبيل اللّه، هم من المساكين الذين يتعبون أنفسهم فى جمع وحفظ الأموال وينتفع بها الورثة، وفى القيامة يحاسبون عليها بينما يلتذّ بها وينتفع بها الآخرون، أى الورثة الذين لا يعيشون أحياناً أىّ مودّة واهتمام بالمورث وصاحب المال، ولا ينفقون منها فى سبيل اللّه لحساب صاحبها، بل أحياناً يوبخونه ويذمّونه بأنه لم يترك لهم ثروة كافية، وحتى لو كان الورثة من الأشخاص الصالحين واستثمروا هذه الأموال فى طريق الطاعة والصلاح، فمع ذلك ستكون حسرة على صاحب المال لأنّه أتعب نفسه من أجلها بينما ربح ثوابها الآخرون، وهذا هو ما وردت الإشارة إليه فى الروايات الإسلاميّة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآية الشريفة: «كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ»[۶۵۶]. قال: «هُوَ الرَّجُلُ يَدَعُ مَالَهُ لَايُنْفِقُهُ فِى طَاعَةِ اللَّهِ بُخْلًا ثُمَّ يَمُوتُ فَيَدَعُهُ لِمَنْ يَعْمَلُ فِيهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ أَوْ فِى مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنْ عَمِلَ بِهِ فِى طَاعَةِ اللَّهِ رَآهُ فِى مِيزَانِ غَيْرِهِ فَرَآهُ حَسْرَةً وَقَدْ كَانَ الْمَالُ لَهُ وَإِنْ كَانَ عَمِلَ بِهِ فِى مَعْصِيَةِ اللَّهِ قَوَّاهُ بِذَلِكَ الْمَالِ حَتَّى عَمِلَ بِهِ فِى مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[۶۵۷].

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام لبيان التوصية الرابعة ويقول: «وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ».

وهذا يعنى أنّ جميع النعم والمواهب الإلهيّة تستحقّ من العبد الشكر، وأىّ نعمة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۰۰

أعظم على الإنسان من الهداية لطريق الخير والصلاح مع أنّ مجاميع كثيرة من الناس ساروا فى خطّ الضلالة والمتاهة، وشكر كلّ نعمة يجب أن يتناسب مع تلك النعمة، وشكر نعمة الهداية يستلزم الخضوع للحقّ تعالى وإطاعة أوامره ونواهيه.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۰۱

القسم السابع عشر

اشارة

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لَاغِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الارْتِيَادِ، وَقَدْرِ بَلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِى حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِى يَوْمِ عُسْرَتِكَ.

الشرح والتفسير: الآخرون يحملون متاعک إلى الآخرة!

فى هذه الفقرة من الوصية يتحدّث الإمام عليه السلام عن طول سفر الآخرة وحاجة الإنسان الشديدة للزاد والمتاع لهذا السفر من

الطاعات وأعمال الخير وخاصّة الإنفاق فى سبيل اللّه.

بداية يقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَکَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ».

إنّ طريق الدنيا مهما كانت طويلة وشاقّة فإنّها بالنسبة لطريق الآخرة سهلة وميسورة، وطريق الآخرة مليء بالمنعطفات والمطبّات وتحتاج لمجاهدة النفس وتربيتها على الفضائل الأخلاقية، وأحياناً يستغرق سلوك هذا الطريق سنوات طوال.

وبعد هذا التحذير ينبّه الإمام عليه السلام إلى لزوم تهيئة الزاد والمتاع لهذا السفر المليء

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۰۲

بالمخاطر ويقول: «وَأَنَّهُ لَاغِنَى بِکَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الارْتِيَادِ[۶۵۸]، وَقَدْرِ بَلَاغِکَ ۶۵۹] مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ».

إنّ الأصل والأساس فى هذا الزاد والمتاع هو ما ورد فى القرآن الكريم يقول:

«وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى [۶۶۰].

وعبارة: «حُسْنِ الْارْتِيادِ» مع الالتفات إلى أنّ كلمة «الارتياد» تعنى الطلب، فالمراد من العبارة حسن الطلب، أو بكلمة أخرى التدبير وإبتغاء المنهج الصحيح فى سلوك الطريق (أى فى تهيئة الزاد والمتاع لسفر الآخرة).

وعبارة: «خِفَّةِ الظَّهْرِ» إشارة إلى ما ذكره القرآن الكريم، حيث يقول: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَّعَ أَثْقالِهِم»[۶۶۱]، فالإمام عليه السلام يوصى ولده أن لا يكون مثل هؤلاء الأشخاص الذين يحملون أوزارهم وأوزار الآخرين على ظهورهم، فالمؤمن يسعى لتخفيف حمله ما أمكنه ذلك.

وسبق أن ذكرنا فى شرح الخطبة الحادية والعشرين أنّ الإمام عليه السلام تحدّث عن هذا المضمون بعبارة وجيزة جدّاً وعميقة المغزى وقال: «تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا»، فى الماضى وعندما كانت القوافل تسير فى طرق صعبة وتصل إلى منعطفات خطيرة فإنّ المثقلين يعجزون عن مواصلة الطريق، وبما أنّ القافلة لا- تستطيع التوقّف بسببهم، فإنّها تستمرّ فى مسيرتها، ويبقى هؤلاء- وحدهم فى الصحراء ويكون مصيرهم نهباً لقطاع الطرق وطعاماً لذئاب البرارى.

وبعد هذه المقدّمة الوجيزة والعميقة المعنى يطرح الإمام عليه السلام مسألة الإنفاق فى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۰۳

سبيل اللّه وأنّه أهمّ زاد ومتاع ليوم القيامة ويقول: «فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِکَ فَوْقَ طَاقَتِکَ، فَيَکُونَ ثِقْلُ ذَلِکَ وَبَالًا عَلَيْکَ».

ويشير بذلك إلى أنّك لا تدّخر لنفسك أكثر ممّا تحتاجه فى حياتك ومعاشك بحيث تستطيع الإجابة يوم القيامة عنه، لأنّ ما تجمعه من هذه الدنيا سيكون ثقيلًا عليك فى الآخرة، فالحمل الذى لا تنتفع به فى هذا المسار سوف لا يجديك سوى التعب والعناء.

ثمّ يدعو الإمام عليه السلام للإنفاق فى سبيل اللّه بعبارات رائعة وجذّابة فيقول: «وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَکَ زَادَکَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيکَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ».

ثمّ يضيف: «فَلَعَلَّکَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ ۶۶۲]».

وفى ختام هذا المقطع من الوصية يستخدم الإمام عليه السلام عبارات أخرى لترغيب المخاطب إلى الإنفاق فى سبيل اللّه ويقول: «وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَکَ فِى حَالِ غِنَاکَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَکَ فِى يَوْمِ عُسْرَتِکَ».

وحصيلة الكلام أنّ الإنسان العاقل ينبغى أن يستثمر وجود نمطين من الناس:

الشخص الذى يتبرّع بحمل زاد الإنسان على كتفه مجاناً ويوصله بفرح وسرور إلى المنزل المقصود، والآخر الشخص الذى يستقرض من الإنسان بعض أمواله فى حال عدم حاجته إليه ويسدّده له فى وقت هو بأمسّ الحاجة إليه، أجل، هكذا حال الأشخاص الذين يتحرّكون فى الإنفاق فى سبيل اللّه، وهذا التعبير عن هؤلاء يعتبر أبلغ وأجمل تعبير يجسّد فى طياته القيم الأخلاقية الرفيعة.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۰۴

والتعبير الثانى مقتبس من القرآن الكريم ويقول: «مَنْ ذَا الَّذى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثيرَة»[۶۶۳]، وطبعاً فالآية الشريفة تضيف نقطة أخرى على مسألة القرض، وهى أنّ اللَّه تعالى هو الذى يستقرض من عباده، ثمّ يسدد لهم أضعافاً مضاعفة.

والتعبير الأول يحتمل أن يكون من الآيات الشريفة فى سورة البلد، تقول الآيات: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعامٌ فِى يَوْمٍ ذى مَسْغَبَةٍ ...»[۶۶۴].

والجدير بالالتفات أنّ المرحوم الصدوق ينقل فى كتابه علل الشرائع رواية رائعة مناسبة للكلام الوارد فى الوصية مورد البحث، يقول سفيان بن عُيَيْنَة قال: رأى الزهرىّ (من التابعين المعروفين) علىّ بن الحسين عليه السلام ليلة باردة مطيرة وعلى ظهره دقيق وهو يمشى، فقال له: ياابن رسول اللَّه ما هذا؟ قال: «أُرِيدُ سَفَراً أُعِدُّ لَهُ زَاداً أَحْمِلُهُ إِلَى مَوْضِعٍ حَرِيز»، فقال الزهرىّ: فهذا غلامى يحمله عنك، فأبى قال: أنا أحمله عنك فإنّى أرفعك عن حمله، فقال علىّ بن الحسين: «لَكِنِّى لَاأَرْفَعُ نَفْسِى عَمَّا يُنْجِينِى فِى سَفَرِى وَيُحْسِنُ وُرُودِى عَلَى مَا أَرِدُ عَلَيْهِ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ اللَّهِ لَمَّا مَضَيْتَ لِحَاجَتِكَ وَتَرَكْتَنِى». فانصرف عنه، فلمّا كان بعد أيّام قال له: ياابن رسول اللَّه لست أرى لذلك السفر الذى ذكرته أثراً، قال: «بَلَى يَا زُهْرِيُّ لَيْسَ مَا ظَنَنْتَ وَلَكِنَّهُ الْمَوْتُ وَلَهُ كُنْتُ أَسْتَعِدُّ إِنَّمَا الْاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ تَجَنُّبُ الْحَرَامِ وَبَذْلُ النَّدَى وَالْخَيْرِ»[۶۶۵].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۰۵

القسم الثامن عشر

اشارة

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَئُوداً، الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُثْقِلِ، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالًا مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبَطَكَ بِهَا لَامَحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، «فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ»، وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ.

الشرح والتفسير: ضع عن كتفك همّ يومك!

يعود الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصية النورانية ليتحدّث مرّة أخرى فى مسألة سفر القيامة الطويل والمليء بالمخاطر والعقبات، ويبيّن معالم هذا المسير بدقّة متناهية، ويتحدّث عن وسيلة النجاة فيه.

بداية يقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً[۶۶۶]، الْمُخِفُ ۶۶۷] فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُثْقِلِ ۶۶۸]، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالًا مِنَ الْمُسْرِعِ».

والمراد من العقبة الكؤود والمنعطف الخطير فى هذا المسار إمّا الموت وسكراته، أو عالم البرزخ، أو جسر الصراط (ويحتمل أن يكون جميع ذلك).

وبديهىّ أنّه لإحراز السلامة فى عملية العبور من هذه المآزق والمنعطفات الخطيرة ينبغى التخفيف من الأثقال، والإسراع فى المسير، لأنّه فى مثل هذه

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۰۶

المنعطفات الخطيرة يكثر قطاع الطرق أو الحيوانات المفترسة التى يواجهها الإنسان فى هذا الطريق وتعيقه عن إكمال المسير.

وهذا التعبير أيضاً مقتبس من القرآن الكريم حيث يقول: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ* ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ* فَكُّ رَقَبَةٍ* أَوْ إِطْعامٌ فِى يَوْمٍ ذى مَسْغَبَةٍ ...»[۶۶۹].

وذهب بعض المفسّرين فى شرح هذه الآيات أنّ العقبة تعنى هوى النفس، وذهب آخرون إلى المآزق والمنعطفات الخطيرة يوم

القيامة، وكلام الإمام عليه السلام هنا يتناسب مع الثانى.

ويواصل الإمام عليه السلام حديثه عن هذا المسير المعنوى ويقول: «وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ».

ثمّ يضيف: «فَارْتَدْ[۶۷۰] لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ ۶۷۱] وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ ۶۷۲]».

والجدير بالذكر أنّ جملة: «لَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ» قالها لأول مرّة رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقد ورد فى الحديث الشريف عنه صلى الله عليه و آله: «لَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ وَمُنَغِّصِ الشَّهَوَاتِ»[۶۷۳].

وجملة: «وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ»، تعكس حقيقة جليلة أشارت إليها الآيات القرآنية والروايات الشريفة بشكل واسع، القرآن الكريم يقول: «حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّى أَعْمَلُ صالِحاً فيما تَرَكْتُ كَلَّا ...»[۶۷۴].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۰۷

ونقرأ فى الخطبة ۱۸۸ من نهج‌البلاغة فى حديث الإمام عليه السلام عن الموتى ويقول:

«لَا عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالًا وَلَا فِى حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَاداً».

أجل، إنّ هذا المنزل فى يوم القيامة وما بعد الموت غير قابل للعودة، كما أنّ الوليد المعوق لا يستطيع أبداً العودة إلى رحم امّه لينمو من جديد بشكل صحيح ولا يمكن للثمرة التى انفصلت عن الشجرة أن تعود إلى غصنها، فالأشخاص الذين يغادرون هذا العالم إلى عالم البرزخ لا يستطيعون أبداً العودة إلى الدنيا، وأهل البرزخ بدورهم عندما ينتقلون إلى القيامة لا يستطيعون العودة إلى عالم البرزخ، وهذا تحذير لنا جميعاً بأن نعلم أنّنا ربّما سنواجه لحظة وينتهى كلّ شىء وتوصد أمامنا أبواب التوبة ولانستطيع تحصيل الزاد والمتاع، فنغادر الدنيا بقلوب مليئة بالحسرات.

***

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۰۹

القسم التاسع عشر

اشارة

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِى بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِى الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِى قَبُولِ الْإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وَبَابَ الاسْتِعْتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَايَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ. ثُمَّ جَعَلَ فِى يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ. وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّىْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْمَالُ لَايَبْقَى لَكَ

وَلَا تَبْقَى لَه.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۱۰

الشرح والتفسير: فتح أبواب التوبة والدعاء أمام الإنسان

فى هذا المقطع من الوصية النورانية يشير الإمام عليه السلام إلى عدّة مواضيع مهمّة ويقول: ينبغى عليك أن تهتمّ بمسألة الدعاء، فالدعاء يمثّل قضية مصيرية فى حياتك: «وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِى بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَکَ فِى الدُّعَاءِ، وَتَکَفَّلَ لَکَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَکَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَکَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَکَ».

وفى هذه العبارات يشير الإمام عليه السلام إلى نقاط عدّة لتشويق المخاطب للدعاء، فيقول أوّلًا: يجب أن تطلب حاجاتك ممّن يملك جميع الأمور وبيده مقاليد السماوات والأرض ويستطيع أن ينعم عليك بالرزق والعطايا، وبكلمة واحدة أن تدعو من يملك جميع الكائنات، وعلى ضوء ذلك تكون فى طلبك ودعائك قريباً من الإجابة.

وفى الجملة الثانية يقول: إنّ اللَّه تعالى أذن لك بالدعاء، أى فى الحقيقة أنّه دعاك لتأتى إلى ساحة قدسه وتسأله من فضله وكرمه وتدعوه وتناجيه، وهذا يمثّل غاية اللطف والرحمة بحيث أنّه تعالى دعا المحتاجين إليه وقال: تعالوا إلىَّ واطلبوا منّى، وهذا المعنى أشارت إليه الآيات القرآنية فى قوله تعالى: «قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لا دُعاؤُكُم»[۶۷۵].

وفى الجملة الثالثة يقول: إنّ اللَّه تعالى قد ضمن لك استجابة الدعاء، وهذا أيضاً إشارة لقوله تعالى: «ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُم»[۶۷۶] وغيرها من الآيات الشريفة.

وفى الجملة الرابعة يتوسّع الإمام عليه السلام فى هذا الموضوع وأنّ اللَّه تعالى قد تجاوز مسألة الإذن فى الدعاء، بل أمرك أن تسأله وتدعوه وتطلب من لطفه ورحمته ويعطيك وينعم عليك ويرحمك، وهذا ما ورد فى الآيات الشريفة، نظير: «وَاسْئَلُوا

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۱۱

اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَليماً»[۶۷۷].

وفى الجملة الخامسة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَکَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُکَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْکَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَکَ إِلَيْهِ».

وهذا إشارة إلى أنّ الدين الإسلامىّ يقوم على أساس أن البشر يستطيعون إقامة علاقة مباشرة مع اللَّه تعالى بدون توسّط أحدٍ من العباد، كما هو الحال فى الصلاة التى نصلّيها كلّ يوم، فإنّنا من بدايتها إلى انتهائها وبخاصّة فى سورة الفاتحة نتحدّث مع اللَّه تعالى بشكل مباشر بدون أية واسطة بيننا، وهذا يعدّ افتخاراً كبيراً للإسلام والمسلمين حيث فتح الإسلام طريق الارتباط المباشر مع اللَّه للجميع، والآيات القرآنية شاهدة على هذا المعنى، لا سيّما الآيات الشريفة التى تبتدىء بكلمة «ربّنا».

على العكس من ذلك بعض المذاهب الباطلة التى تشترط وجود واسطة من المرشد وشيخ الطريقة بين العبد وربّه وأحياناً لا يجيدون إقامة ارتباط مباشر مع اللَّه تعالى.

وهنا يثار هذا السؤال، وهو أنّ مسألة الشفاعة فى الإسلام، أى شفاعة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والإمام المعصوم عليه السلام وصالح المؤمنين، وردت بكثرة فى الآيات القرآنية والروايات الشريفة حيث تدلّ على شفاعة الشفعاء فى الدنيا والآخرة، ألا تتنافى مثل هذه الشفاعة مع الارتباط المباشر مع اللَّه تعالى؟

والجواب على هذا السؤال يتّضح بالالتفات إلى نقطتين:

الاولى: إنّ هذاالمعنى لا ينفى وجود الارتباط المباشر، بل إنّ الارتباط المباشر باللَّه تعالى محفوظ فى محلّه، والمسلمون يرتبطون باللَّه فى كلّ يوم وليلة بشكل مباشر فى صلاتهم ودعائهم، والشفاعة بدورها لها مكانة خاصّة وثابتة، وبعبارة أخرى أنّ كلا الطريقين يوصلان الإنسان برحمة اللَّه ولطفه ولا تقاطع بينهما حيث

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۱۲

يجتمعان فى إيصال العبد لربّه.

الثانية: وردت فى الآيات القرآنية الإشارة إلى هذه النقطة فى أكثر من مورد وهى أنّ الشفاعة بدورها إنّما تتحقّق بإذن اللَّه، وعلى ضوء ذلك فالشخص الذى يتوسّل بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام ويطلب منهم الشفاعة، يجب عليه إلى جانب ذلك أن يطلب من اللَّه الإذن لهم بالشفاعة، فإذن الشفاعة يعتبر مكمل للارتباط المباشر باللَّه تعالى.

وببيان آخر، إنّنى أطلب قضاء حوائجى من اللَّه تعالى مباشرة، ولكن أحياناً تكون الحاجة معقدة ومهمّة، أو إنّنى ملوّث بالذنوب بدرجة أشعر معها أنّنى لا أستطيع نيل بغيتى وتحقيق مرادى لوحدى ومن خلال الدعاء فقط، هنا أتوسّل بالأولياء الإلهيين الذين لهم مكانة واعتبار عند اللَّه تعالى أن يشفعوا لى عند اللَّه تعالى بإذن اللَّه، على سبيل المثال، نرى أنّ إخوة يوسف بعد ما ارتكبوا تلكم الجرائم فى أخيهم شعروا بأنّ ذنبهم عظيم إلى درجة أنّهم لا يستطيعون طلب العفو بشكل مباشر من أخيهم يوسف عليه السلام أو من اللَّه تعالى، وبذلك توسّلوا بأبيهم وقالوا: «يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِين»[۶۷۸].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام بعد أن يطرح مسألة الدعاء يتعرّض لمسألة التوبة ويتحدّث عنها بكلمات بليغة وزاخرة بالمضامين العالية ويبيّن أنّ اللطف الإلهىّ يشمل المذنبين التائبين، ويؤكّد هذا المعنى فى ثمان جمل:

۱. «وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ»، حيث فتح أمامك أبواب التوبة مع إساءتك.

۲. «وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ»، فأخّر العقوبة لعلّك تتوب من ذنبك.

۳. «وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ»، كما هو حال الأشخاص الذين يعيشون حبّ الانتقام من التائبين ويواجهونهم باللوم والتوبيخ والتقريع.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۱۳

۴. «وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى ، وليس كما يتعامل بعض أصحاب النفوس الضعيفة الذين يتحرّكون على مستوى فضح الطرف المقابل بأدنى زلّة.

۵. «وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِى قَبُولِ الْإِنَابَةِ»، بخلاف ما يتعامل به أصحاب الشخصيات الهزيلة مع الآخرين.

۶. «وَلَمْ يُنَاقِشْكَ ۶۷۹] بِالْجَرِيمَةِ»، بل يصفح عنك ومن دون استعتاب ومؤاخذة.

۷. «وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ ۶۸۰] عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً»، ومهما كان ذنبك عظيماً ووزرك ثقيلًا فإنّ اللَّه تعالى فتح باب العودة والتوبة والإنابة إليك، وجعل هذه العودة حسنة لك، والأهمّ من ذلك أنّه جعل سيئتك واحدة، وضاعف حسنتك إلى عشر حسنات.

۸. «وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وَبَابَ الاسْتِعْتَابِ ۶۸۱]»، أى أنّ اللَّه تعالى فتح باب العودة إليه دائماً.

هذه العبارات فى الحقيقة مقتبسة من الآيات القرآنية الكريمة التى تتحدّث عن التوبة وآثارها والألطاف الإلهيّة بالنسبة للتائبين والمنيبين.

والقرآن الكريم يقول: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَميعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»[۶۸۲].

وفى مورد آخر يتحدّث عن قبول التوبة ويقول: «وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ»[۶۸۳].

وفى مورد آخر يتحدّث عن عدم تعجيل العقوبة للمذنبين ويقول: «وَرَبُّكَ الْغَفُورُ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۱۴

ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ»[۶۸۴].

وفيما يخصّ عدم اليأس من رحمة اللَّه يتحدّث القرآن الكريم بعبارات زاخرة باللطف ومفعمة بالمحبّة، يقول للنبىّ صلى الله عليه و آله: «قُلْ يا عِبادِىَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ»[۶۸۵].

وبالنسبة لتبديل السيئات بالحسنات يقول تعالى: «إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ»[۶۸۶].

وما يخصّ كتابة السيئات بمقدارها وكتابة الحسنات بعشر أمثالها يقول تعالى:

«مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ»[۶۸۷].

ومن المعلوم أنّ التوبـة تعتبر أوّل خطوة في طريق السـلوك إلى اللَّه تعـالى ومن هنا يعتبر السالكون إلى اللَّه التوبـة أوّل منزل من منازل هـذا الطريق، وعندما نرى أنّ الإمام عليه السـلام يذكر التوبة بعد الدعاء، فذلك لأنّ التوبة أيضاً نوع من الدعاء، أى الدعاء لطلب العفو والرحمـة من اللَّه تعالى، وما لم يتقـدّم الإنسان بهذه الخطوة، لن يغسل عن روحه وقلبه غبار الذنوب، وما لم يزح حجاب المعصـية عن عين قلبه، فإنّ سلوك هذا الطريق يكون عسيراً أو غير ممكن.

ونقرأ في الأدعية وروايات المعصومين عليهم السـلام أيضاً إشارات كثيرة وتعبيرات لطيفة عن هذا الموضوع، وذلك ما ورد في مناجاة التـائبين (وهى أوّل مناجاة من المناجَيات الخمسـة عشر للإمام زين العابـدين عليه السـلام) فنقرأ: «إلهى أَنْتَ الَّذِى فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً إِلَى عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ فَقُلْتَ: «تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً» فَمَا عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ الْبَابِ بَعْدَ فَتْحِه».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۱۵

أجل، فالإمام عليه السـلام بوصفه مرشداً مطّلعاً مجرّباً يأخذ بيد ولده الشابّ ويسير به في هذا الطريق من منزل لآخر إلى حيث الوصول إلى منزل القرب الإلهى.

ثمّ يواصـل الإمام عليه السـلام كلامه لولـده ويوصـيه بالـدعاء والمناجاة للَّهوطلب الحاجـة إليه، ويقول: «فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ ۶۸۸] إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ۶۸۹] ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ».

ففى هـذه الفقرة من كلاـم الإمام عليه السـلام يعلّم الإمام ولـده كيفيـة المناجاة والابتهال مع إلى اللَّه تعالى ويقول: اطلب حاجتك منه تعالى وافتـح له قلبك وأبرز له هواجسك ومكنوناتك، وتحـدّث معه عن معاناتك وهمومك، واطلب منه المعونة في جميع أمورك، فهذه الأمور الخمسة تشكّل محاور مناجاة العباد مع ربّهم وقد أشار إليها الإمام عليه السلام بعبارات بليغة وموجزة.

ثمّ إنّ الإمـام عليه السـلام بيّن لولـده كيفيـة الطلب من اللَّه تعالى وعـدّد له مواهبه ونعمه المهمّـة التى ينبغى للإنسان أن يطلبها من اللَّه تعالى دائماً ويقول: «وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَايَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ».

فهنا نرى الإمام عليه السـلام بعد أن يؤكّد على أنّ اللَّه تعالى يملك مواهبَ ونعماً في خزائن رحمته ولا يستطيع أىّ مخلوق إعطاء هذه النعم للإنسان، يشير الإمام عليه السلام إلى ثلاث من هذه النعم:

۱. العمر الطويل، الذى يتيح للإنسان أن يتحرّك على مستوى بناء ذاته وتزكية نفسه وزيادة حسناته.

۲. الصحّة والسلامة، وبدون هذه الصحّة والسلامة فلا يترتّب على زيادة العمر

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۱۶

سوى مزيد من الألم والمعاناة وأحياناً يؤدى إلى الابتعاد عن اللَّه والإعراض عن رحمته.

۳. الرزق الوفير، لأـنّ الإنسـان بـدون إمكانـات ماليـة غير قـادر على أداء الكثير من الحسـنات والخيرات، من قبيـل صـلة الرحم، كفـالة الأيتام، إعانة المحتاجين، بناء المدارس، المستشـفيات، نشـر علوم الإسـلام ومعارف أهل البيت عليهم السـلام، ضيافة المؤمنين وما إلى ذلك.

وطبعاً هذا في صورة أن يكون المقصود من الأرزاق في هذه العبارة الأرزاق المادية، ولكن إذا توسّـعنا في مفهوم الرزق بحيث يشـمل العلوم والمعارف، النفوذ الإجتماعى، القوى الجسمية والنفسية وما شاكل ذلك، فسوف يكون المطلب أوضح وأبين.

وممّـا لاـ شـك فيه أنّ طول العمر وصـحة البـدن وسـعة الرزق تتصل بشـكل وثيق بسـعى الإنسان وجهـده بأن يراعى المسائل الصـحية

ويجتنب عوامل الضـرر وموجبات المرض، ويتحرك فى واقع الحياة بطلب الرزق، ولكن بشكل عام فإنّ هذه الأمور مرتبة بمشيئة اللّه تعالى، والعوامل التى يفرضها ويقرّرها البارى فى عالم الغيب وهى خافية علينا، وعلى حدّ تعبير الإمام عليه السلام: إنّها من خزائن رحمة اللّه تعالى الذى لا يقدر على إعطائك غيره.

ويشير القرآن الكريم إلى هذا الموضوع أيضاً فى حديثه عن دعاء النبىّ إبراهيم عليه السلام وقوله: «الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ* وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى يَسْقِينِ* وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ* وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ»[۶۹۰].

ومن المعلوم أنّ المواهب الإلهيّة لا تنحصر بزيادة العمر وصحة البدن وسعة الرزق، ولكن لا شكّ أنّ الأركان الأصلية لهذه النعم والمواهب الإلهيّة تتمحور حول هذه الأمور الثلاثة، لأنّ الأصل والعمدة فى أعمال الخير ينبثق من هذه الأمور.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۱۷

وفى بيان مفاتيح هذه الخزائن الإلهيّة يقول الإمام عليه السلام: «ثُمَّ جَعَلَ فِى يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ».

ويتبيّن من هذا الكلام أنّ الدعاء والابتهال إلى اللّه تعالى له تأثير كبير فى نيل المطلوب والانتفاع بالنعم المتوفّرة فى هذه الخزائن اللامتناهية ويتبيّن أيضاً دور الدعاء فى فتح أبواب هذه الخزائن الغيبية.

وطبعاً فالدعاء يستلزم توفّر شروطه، منها أن يبذل الإنسان جهده بما لديه من إمكانات فى هذا السبيل، ثمّ يتوسّل بالدعاء لما ليس له قدرة عليه وما هو خارج عن إمكاناته.

ثمّ يخرج الإمام عليه السلام بهذه النتيجة: «فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ ۶۹۱] رَحْمَتِهِ».

ومعلوم أنّ خزائن اللّه تمثّل مجموعة النعم المادية والمعنوية للمخلوقات، وأنّ مفتاح أبواب هذه الخزائن هو الدعاء، وبكلمة أخرى أنّ الإمام عليه السلام شبّه نعم اللّه تعالى بمطر الرحمة حيث يستطيع الإنسان أن يستمطر هذه الرحمة الإلهيّة من سماء القدرة الإلهيّة المطلقة واللطف الإلهىّ العميم على أرض وجوده ويروى ظمأ قلبه وعطش روحه.

وجاء فى حديث آخر عن أميرالؤمنين عليه السلام: «الدُّعَاءُ مَفَاتِيحُ النَّجاحِ وَمَقَالِيدُ الْفَلَاحِ وَخَيْرُ الدُّعَاءِ مَا صَدَرَ عَنْ صَدْرٍ نَقِيٍّ وَقَلْبٍ تَقِيٍّ»[۶۹۲].

وهنا يثار سؤال مهمّ ومعروف، والإمام عليه السلام يجيب عنه بلا فصل، وهو: لماذا لا تستجاب الكثير من أدعيتنا، أو تتأخّر الإجابة مدّة طويلة، فلو كان الدعاء يفتح أبواب رحمة اللّه، فلماذا لا يفتح هذا المفتاح الباب أو يستغرق فتحها مدّة من الزمان؟ فى حين أنّ الآيات الشريفة التى تعتبر الدعاء مفتاح الإجابة مطلقة وشاملة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۱۸

لجميع الحالات، ففى مورد يقول القرآن الكريم: «ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُم»[۶۹۳]، وفى مورد آخر يقول: «وَإِذا سَأَلَكَ عِبادى عَنِّى فَإِنِّى قَريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعان»[۶۹۴].

ويجيب الإمام عليه السلام عن هذا السؤال بالإشارة إلى أربع نقاط:

الاولى: أحياناً تكون نيّة الداعى ملوّثة ولا يصدر الدعاء عن قلب نقىّ وطاهر من الذنوب، يقول: «فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ».

وهذا الحديث الشريف الذى قرأناه آنفاً مذكور فى كتاب الكافى وأنّ الدعاء إنّما يستجاب إذا صدر من قلب نقىّ وطاهر، وعلى هذا الأساس إذا لم تستجب بعض الأدعية ويستجاب البعض الآخر، فذلك ناشىء من تلوّث النيّة، والروايات التى تقرّر أنّ أحد شرائط استجابة الدعاء التوبة من الذنوب، تشير إلى هذا المعنى أيضاً.

وأشار الإمام عليه السلام إلى المانع الثانى فى قوله: «وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ».

وبيان آخر أنّ اللَّه تعالى قـد يؤخّر اسـتجابة دعاء عبـده ليبقى العبـد فترة أطول أمام باب بيته، وبالتالى يحصل على مواهب أكثر وأوفر وذلك بسبب محبّة اللَّه لهذا العبد.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى المانع الثالث من استجابة الدعاء ويقول: «وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا».

وهو إشارة إلى أنّك ربّما تطلب شيئاً قليلًا وتافهاً من اللَّه تعالى ولكنّ اللَّه بمقتضى عظمته وسعة رحمته لا يستجيب لك ولا يعطيك ما تطلب، بل يعطيك خيراً منه عاجلًا أو آجلًا، كالشخص الذى يتوجّه لشخص كريم فيطلب منه داراً وضيعة مثلًا ولكن ذلك الكريم لا يقبل ويمتنع عن إعطائه ما يريد، لأنّه سيعطيه فيما بعد داراً أوسع وأفضل ممّا طلب.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۱۹

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام السبب الرابع لعدم استجابة الدعاء، والذى يعتبر أهمّ سبب فى ذلك، يقول: «أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ».

فالكثير من الناس وبسبب عدم اطّلاعهم على عواقب الأمور يطلبون مسائل وحاجات من اللَّه تعالى بإصرار وإلحاح، فى حين أنّ هذا الطلب فيه هلاكه وفساده، وبما أنّ اللَّه تعالى عالم بعواقب الأمور، فإنّه لا يستجيب مثل هذا الدعاء، ولكنّه لا يخيّب أمل عبده، فيعطيه ما فيه فلاحه ونفعه.

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة أيضاً ويقول: «وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ»[۶۹۵].

ونقرأ فى حديث شريف عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: إِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَاداً لَايَصْلُحُ لَهُمْ أَمْرُ دِينِهِمْ إِلَّا بِالْغِنَى وَالسَّعَةِ وَالصِّحَّةِ فِى الْبَدَنِ فَأَبْلُوهُمْ بِالْغِنَى وَالسَّعَةِ وَصِحَّةِ الْبَدَنِ فَيُصْلِحُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ وَإِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ لَعِبَاداً لَايَصْلُحُ لَهُمْ أَمْرُ دِينِهِمْ إِلَّا بِالْفَاقَةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالسُّقْمِ فِى أَبْدَانِهِمْ فَأَبْلُوهُمْ بِالْفَاقَةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالسُّقْمِ فَيُصْلِحُ عَلَيْهِمْ أَمْرُ دِينِهِمْ»[۶۹۶].

وهناك نماذج جليّة على امتداد التاريخ وحتّى فى زمان صحابة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأئمّة الهدى عليهم السلام تحكى عن وجود بعض الأفراد من ذوى الذهنية الضيّقة يطلبون من اللَّه تعالى وبإصرار ويتوسّلون إليه بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أو الأئمّة المعصومين عليهم السلام أن يوسّع فى رزقهم، وبعد الإصرار والطلب من النبىّ صلى الله عليه و آله أو الإمام أن يدعو لهم بسعة الرزق تفضى بهم سعة الرزق إلى حالة من الطغيان والتمرّد، بل ينطق بعض هؤلاء بكلمات يستشمّ منها الإرتداد عن الدين والإيمان كما فى القصة المعروفة عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى الذى كان يصرّ على النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أن يدعو له بالمال الوفير،

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۲۰

وكان النبىّ يعلم بحاله ومستقبله وكان يقول له: «قَلِيلٌ تُؤَدِّى شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُه»، أليس من الأفضل أن تتأسّى بالنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وتقنع بحياة بسيطة؟ ولكنّ ثعلبة بقى مصرّاً على طلبه، وأخيراً دعا له النبىّ وحصل على ثروة كبيرة من ميراث خلّفه له أحد أرحامه، فاشترى بهذا المال ماشية، وازدادت وكثرت تدريجياً حتّى أصبح من العسير الاحتفاظ بها فى المدينة، فاضطرّ ثعلبة إلى الخروج إلى خارج المدينة وعلق بحياته المادية حتّى ترك صلاة الجماعة والجمعة خلف النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله خلافاً لعادته السابقة حيث كان يشترك فى جميع صلوات النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله.

وبعد مدّة أرسل إليه النبىّ من يقبض منه زكاة أمواله، فامتنع ثعلبة من دفع الزكاة واعترض على أصل تشريع هذا الحكم الإلهىّ وقال: هل هذا إلّاالجزية التى تؤخذ من أهل الكتاب، نحن أسلمنا لئلّا ندفع الجزية، وعندما وصل خبره إلى النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله قال: «يا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ»[۶۹۷].

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه فى مسألة الدعاء ويصل إلى نتيجة مهمّة ويقول:

«فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْمَالُ لَايَبْقَى لَكَ وَلَا تَبْقَى لَهُ».

تأمّل: شروط استجابة الدعاء

قد يتصوّر البعض أنّ عبارات من قبيل: «ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُم»[۶۹۸] مطلقة وغير مقيّدة بأىّ قيد وشرط وأنّ الإنسان عندما يدعو بأىّ دعاء فعليه أن يتوقّع الإجابة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۲۱

وأنّ اللَّه تعالى سيستجيب له هذا الدعاء بلطفه وكرمه، فى حين أنّ الأمر ليس كذلك، فقد ورد فى روايات عدّة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام شروط عدّة لاستجابة الدعاء، منها التوبة وصفاء القلب، يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إِيَّاكُمْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدٌ مِنْكُم رَبَّهُ شَيْئاً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يَبْدَأَ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ وَالْمِدْحَةِ لَهُ وَالصَّلَاةِ عَلَى النبىّ وَآلِهِ ثُمَّ الْاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ وَالتَّوْبَةِ ثُمَّ الْمَسْأَلَةِ»[۶۹۹].

والشرط الآخر أن يعيش الداعى حياة الطهر والنقاء، خاصّة من الأطعمة المحرّمة والكسب الحرام كما ورد عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْتَجَابَ دُعَاؤُهُ فَلْيُطَيِّبْ مَطْعَمَهُ وَمَكْسَبَه»[۷۰۰].

فى حين أنّ الكثير من الناس فى حال الدعاء لا يعيشون حالة التوبة ولا يجتنبون الأطعمة المحرّمة أو الملوّثة، ثمّ يتوقّعون أن يستجيب اللَّه تعالى لهم دعاءهم.

وكذلك من شروط الدعاء السعى وبذل الجهد فى طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فالأشخاص الذين يشاهدون مظاهر المنكر والذنب ولا يثير ذلك فيهم أىّ ردّة فعل، فلا يحقّ لهم أن يتوقّعوا استجابة دعائهم، كما ورد فى الحديث الشريف عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «وَلَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللَّهُ شِرَارَكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ»[۷۰۱].

وجاء فى الحديث الشريف أنّ رجلًا جاء إلى أميرالمؤمنين عليه السلام وشكا إليه عدم استجابة دعائه، وقال: لماذا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فذكر الإمام عليه السلام فى هذا الحديث الشريف ثمانية شروط لاستجابة الدعاء، وقد ورد بعضها فى الأحاديث المذكورة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۲۲

أعلاه ۷۰۲].

ولمزيد من التوضيح راجع كتاب «المفاتيح الجديدة» ص ۲۱ إلى ۲۵ والتفسير الأمثل فى ذيل الآية الشريفة: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ...»[۷۰۳].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۲۳

القسم العشرون

اشارة

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّکَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَالِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لَالِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّکَ فِی قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ، وَأَنَّکَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِی لَايَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرِ أَنْ يُدْرِکَکَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَکَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَکَ وَبَيْنَ ذَلِکَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَکَ.

الشرح والتفسير: الغاية من الخلق

یتحدّث الإمام علیه السلام فی هذه الفقرة من الوصیة عن عدّة أمور مهمّة حول الغایة من خلق الإنسان وحقیقة الدنیا والحیاة وموقف الإنسان فی مقابل الموت، حیث تمثّل کلّ هذه التوصیات تحذیراً لولده وجمیع الأشخاص الذین یقرأون هذه الوصیّة.

بدایة یقول: «وَاعْلَمْ یا بُنَیَّ أَنَّکَ إِنَّما خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَالِلدُّنْیا وَلِلْفَنَاءِ لَالِلْبَقَاءِ وَلِلْمَوْتِ لَالِلْحَیَاةِ».

فی منظار الإسلام والأدیان الإلهیّة أنّ الهدف من خلق الإنسان لیس هو الحیاة فی هذه الدنیا، بل إنّ هذه الحیاة تعتبر ممرّاً وقنطرةً یعبر منها الإنسان إلی الآخرة، وسوقاً للتجارة لکسب الزاد والمتاع، ونهایة هذه الحیاة الدنیویة ستنتهی إلی الموت والفناء، ولا یبقی حتی الأنبیاء الإلهیّون.

وبالنسبة للغرض من خلق الإنسان وردت تعبیرات مختلفة فی الآیات والروایات الشریفة، والقرآن الکریم یقول فی سورة الذاریات: «وَما خَلَقْتُ الْجِنَ

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۵۲۴

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ»[۷۰۴].

وعلی هذا الأساس فإنّ الهدف من خلق الإنسان کما تبیّن الآیة الشریفة هو العبودیّة والعبادة للّه‌تعالی.

ویقول فی الآیة الثانیة من سورة الملک: «الَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَیاةَ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

ومن المعلوم أنّ الاختبار الإلهیّ یهدف إلی تحسین عمل الإنسان فی واقع الحیاة والعبودیّة لتهذیب النفوس، ونتیجة کلّ ذلک نیل السعادة الأبدیّة فی الآخرة، ومن هذا المنطلق تعود جمیع الأهداف إلی هدف واحد.

ثمّ یشیر الإمام علیه السلام إلی النقطة الثانیة، یعنی حقیقة الدنیا ومکانتها فی الرؤیة الکونیة ویقول: «وَأَنَّکَ فِی قُلْعَةٍ[۷۰۵] وَدَارِ بُلْغَةٍ[۷۰۶]، وَطَرِیقٍ إِلَی الْآخِرَةِ».

وهنا یبیّن الإمام علیه السلام الهدف من خلق الإنسان وکذلک ماهیة الحیاة الدنیویة، فالهدف من خلق الإنسان ضمان الحیاة السعیدة فی الآخرة لا مجرّد الحیاة فی هذه الدنیا، ومن هنا فإنّ نهایة الحیاة الدنیا هی الفناء لا البقاء، وعلی حدّ تعبیر القرآن:

«وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَیَوانُ»[۷۰۷]، وهذا المعنی انعکس فی الکثیر من الآیات القرآنیة.

أمّا تعبیر الإمام علیه السلام عن الدنیا بأنّها «قُلْعة» (وهی المحلّ والمنزل الذی ینبغی مغادرته)، وعبارة «بُلغة» (المحلّ الذی ینبغی التزوّد منه وتحصیل الزاد والمتاع) فهذه الحقیقة انعکست أیضاً فی الآیات القرآنیة من قبیل قوله تعالی: «إِنَّکَ مَیِّتٌ

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۵۲۵

وَإِنَّهُمْ مَیِّتُونَ»[۷۰۸].

«کُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ»[۷۰۹].

«کُلُّ مَنْ عَلَیْها فانٍ»[۷۱۰].

فکلّ هذه الآیات ناظرة إلی هذا المعنی، وکذلک قوله تعالی:

«وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزَّادِ التَّقْوی [۷۱۱] یشیر أیضاً إلی دار «دار بلغة».

وعندما ننظر إلی الدنیا والآخرة من هذه الزاویة وبهذا المنظار الذی بیّنه الإمام علیه السلام فی هذه العبارة، فإنّ رؤیتنا للحیاة ستتبدّل، فلا یبقی أثر للحرص والطمع، وسوف تزول الآمال الطویلة والطموحات الموهومة، وینتهی التکالب علی حطام الدنیا والنزاع مع أهلها لجمع الأموال والثروات ولا یبقی معنی للبخل واکتناز الأموال، بل کلّ شیء یکون للّه‌وفی سبیل اللّه ومن أجل نیل رضا اللّه تعالی ولتحقیق السعادة الأبدیة فی الآخرة.

ویشیر الإمام علیه السلام فی النقطة الثالثة إلی هذه الحقیقة، وهی أنّ الموت من ورائک وسوف تقع فی شباکه حتماً، فلا مفرّ منه لکلّ حیّ: «وَأَنَّکَ طَرِیدُ[۷۱۲] الْمَوْتِ الَّذِی لَا یَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا یَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِکُهُ».

والتعبير ب «طريد» يعنى الشخص الهارب ممّن يتعقّبه، أو الصيد الذى يتعقّبه الصيّاد، وهذا تعبير بليغ جدّاً، وكأنّ الإنسان فى بداية عمره يفرّ من الموت الذى يريد اصطياده، فتارةً يصطاده فى مرحلة الطفولة، وأخرى فى مرحلة الشباب، وثالثة فى مرحلة الشيخوخة، فلا أحد يستطيع النجاة والهرب من هذا الصياد كما يقول القرآن الكريم: «أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ»[۷۱۳].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۲۶

وفى آية أخرى يقول: «قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ»[۷۱۴].

أجل، فالإنسان مهما شكّ فى أىّ شىء فإنّه لا يستطيع الشكّ فى هذه الحقيقة الحاسمة، وهى أنّه سيأتى اليوم الذى لابدّ أن يرحل من هذا العالم، وهذا اليوم غير معلوم، لا فى تاريخه ولا فى الساعة أو الدقيقة، فربّما يكون بعيداً وربّما يكون قريباً جدّاً، اليوم أو غد، والملفت أنّه لا يوجد أىّ استثناء لهذا القانون، فأصحاب القدرة والثروة والأطبّاء الحاذقون وحتّى الأنبياء والأولياء يخضعون لهذا القانون، والقرآن الكريم يخاطب النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله بقوله: «إِنَّکَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ»[۷۱۵].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى نقطة مهمّة هى آخر تحذير فى هذا المقطع من الوصيّة ويقول: «فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَکَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَکَ بَيْنَ ذَلِکَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَکَ».

وفى هذا التحذير والإنذار يلفت الإمام عليه السلام نظر ولده إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ زمان الموت مبهم وغير معلوم فى كلّ الأحوال، فأحياناً يرتكب الإنسان معصيةً وينوى التوبة وتطهير صحيفة أعماله من لوث هذه المعصية بعد ذلك، ولكنّ الموت يفاجئه بغتةً ويسلب منه هذه الفرصة، وكلّنا رأينا أو سمعنا فى حياتنا بعض الأشخاص الذين أرادوا القيام بأعمال حسنة أو سيئة ولكنّ الموت باغتهم فى تلك اللحظة فلم يستطيعوا إنجاز ما عزموا عليه، ولم ينالوا بغيتهم.

وفى هذه الأيّام التى نكتب فيها شرحاً لهذه الوصيّة سمعنا خبراً من أجهزة الإعلام أنّ مهرجاناً اقيم فى بلدنا لأحد العلماء المعروفين، وقد اشترک فى ذلک المهرجان جماعة من الشخصيات والمدعوين وجلس ذلک العالم وهو ينتظر بفارغ الصبر استلام الجائزة، وفجأة فى ذلک المكان حان أجله واصيب بسكتة قلبية، وانتهى كلّ شىء[۷۱۶].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۲۷

ونقرأ فى رواية المفضّل المعروفة أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول للمفضّل: إذا كنت تسأل لماذا جعل اللَّه تعالى مدّة حياة الإنسان مستورة وخفيّة وربّما حان أجله فى ساعة يمارس فيها الإثم ويقترف المعصية؟ فالجواب: الغرض من ذلک أنّ الإنسان، مع أنّه لا يعرف زمان موته، إلّاأنّه يتحرّک فى خطّ المعصية وارتكاب الإثم، ولو كان يعلم زمان موته وحدود أجله، وكان يأمل بطول البقاء، فإنّه سيتجرّأ على المعاصى أكثر، ومن هنا فإنّ توقّع الموت فى كلّ لحظة وعلى أيّة حال أفضل من اطمئنانه بالبقاء، وعندما نرى أنّ هذا الانتظار لا ينفع مع بعض الناس فإنّه مؤثّر قطعاً فى البعض الآخر، حيث يبتعدون عن الذنوب والمعاصى ويتحرّكون فى خطّ الطاعة والمسؤولية والأعمال الصالحة، وينفقون أموالهم على الفقراء والمساكين ويهتمّون ببناء آخرتهم وإعمارها[۷۱۷].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۲۹

القسم الحادى والعشرون

اشارة

يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِى بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَکَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَکَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَکَ، وَلَا يَأْتِيَکَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَکَ. وَإِيَّاکَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَکَ اللَّهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَکَ عَنْ

نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَکَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا. نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا. سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا. سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا.

الشرح والتفسير: الدنیا الخدّاعة وأهلها

فی هذا المقطع من الوصیّة یحذّر الإمام علیه السلام ولده من الرکون إلی الدنیا ویؤکّد علیه أن یذکر الموت ویستعدّ له ولا یغترّ بأفعال وسلوکیات أهل الدنیا.

بدایة یقول: «يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَکَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَکَ ۷۱۸]، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَکَ ۷۱۹]، وَلَا يَأْتِيَکَ

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۵۳۰

بَغْتَةً فَيَبْهَرَکَ ۷۲۰]».

وهذه هی الحقیقة الواضحة التی یعیش غالبیة الناس الغفلة عنها، فالجمیع یعلم أنّ عمر الإنسان لیس له تاریخ محدّد حسب الظاهر، وأنّه ربّما یواجه الموت فی کلّ لحظة وفی کلّ زمان، بسبب الحوادث الخارجیة أو الحوادث الباطنیة (الأمراض المفاجئة) علی مستوی الفرد والجماعة، والکثیر من الناس یدرکون هذه الحقیقة ویرون ظاهرة الموت، إلّاأنّهم غافلون عنها، وأحیاناً یغرقون فی تفکیر عمیق عندما یشترکون فی مجالس العزاء لأحد المفقودین من أعزّائهم وأرحامهم، وربّما قرّروا فی تلک اللحظة التهیّؤ لسفر الآخرة والاهتمام لتحصیل الزاد لهذا السفر المصیریّ، ولکنّهم ما أن یخرجوا من ذلک المجلس حتّی یوضع هذا القرار فی زاویة النسیان.

ویؤکّد الإمام علیه السلام فی کلامه هذا علی أنّک لاینبغی أن تنسی هذه الحقیقة الملموسة، وعلیک بالاستعداد لاستقبال الموت، واحذر من أن یباغتک فجأة وأنت غیر مستعدّ له.

ومرّ علینا قول الإمام علیه السلام فی الخطبة ۱۱۴ فی نهج‌البلاغة: «فَبَادِرُوا الْعَمَلَ وَخَافُوا بَغْتَةَ الْأَجَلِ».

وفی الدیوان المنسوب للإمام أمیرالمؤمنین علیّ علیه السلام نقرأ أشعاراً عمیقة المعنی فی هذا المجال منها:

يا مَنْ بِدُنْيَاهُ اشْتَغَلَقَدْ غَرَّهُ طُولُ الْأَمَل

الْمَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةًوَالْقَبْرُ صُنْدُوقُ الْعَمَل

ویواصل الإمام علیه السلام کلامه فی تحذیر ولده من الاغترار بالدنیا والانخداع بأعمال أهلها فإنّهم کالحیوانات المفترسة یتکالبون علی ملذّاتها وزخارفها، ویقول: «وَإِيَّاکَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ[۷۲۱] أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ ۷۲۲] عَلَيْهَا».

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۵۳۱

ثمّ یذکر دلیلین لهذا الکلام ویقول: «فَقَدْ نَبَّأَکَ اللَّهُ عَنْهَا وَنَعَتْ ۷۲۳] هِيَ لَکَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَکَ عَنْ مَسَاوِيهَا».

وهنا آیات عدّة فی القرآن الکریم تتحدّث عن وهمیّة الدنیا وعدم ثباتها، منها:

«وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً»[۷۲۴].

وهذا المثال ناظر للأشخاص الذین یطوون مراحل العمر المختلفة (الطفولة والشباب والشیخوخة)، ولکنّ الکثیر منهم لا یصلون لمراحل متقدّمة، بل یحین أجلهم ویغادرون الدنیا فی المراحل الاولی أو المتوسطة لأسباب وعوامل مختلفة.

وأمّا قوله: «وَنَعَتْ هِيَ لَکَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَکَ عَنْ مَسَاوِيهَا»، فالمقصود أنّ الدنیا تحدّثت معک بلسان الحال، وهذا ما ورد فی

كلام آخر للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: «أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا ...
مَتى غَرَّتْكَ! أ بِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَى، أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى »[۷۲۵].

وكما قال الشاعر:

هِيَ الدُّنْيا تَقُولُ لِمَنْ عَلَيْهاحَذارِ حَذارِ مِنْ بَطْشى وَفَتْكى
فَلا يَغْرُرْكُمْ حُسْنُ ابْتِسامِيفَقَولى مُضْحِكٌ وَالْفِعْلُ مُبْكى ۷۲۶]

أجل، فبريق الدنيا يثير فى الإنسان النشاط والحركة، ولكن عندما يتعمّق الإنسان فى حالاتها، يرى كثرة المتغيّرات فيها، وعدم وفائها وعدم ثباتها على حال، ويقوده التفكّر والتدبّر فى أمرها للبكاء والحزن.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۳۲

ويستطرد الإمام عليه السلام فى كلامه فى بيان الدنيا وحالاتها، فيقسّم أهل الدنيا إلى أربع طوائف ويقول: «فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ[۷۲۷]، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ[۷۲۸]، يَهِرُّ[۷۲۹] بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا، نَعَمٌ ۷۳۰] مُعَقَّلَةٌ[۷۳۱]، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ[۷۳۲]».

والحقيقة أنّ هذا التقسيم رائع ودقيق جدّاً:

إنّ الإمام عليه السلام يشبّه طائفة من الناس من أهل الدنيا بالكلاب التى اجتمعت حول جيفة وكلّ واحد منها يريد الاستحواذ عليها، فينبح على سائر الكلاب ويريد إبعادها عن هذه الجيفة، والمصداق البارز لهذه الطائفة الأثرياء والمترفين الذين يعيشون الغفلة عن اللّه تعالى ويسعون دوماً لجمع الثروات واكتناز الأموال وإقصاء الآخرين عن طريقهم، فأحياناً يصرخون بوجوههم، وأُخرى يلتجئون إلى المحاكم ويسعون من خلال المحامين المنحازين أن يستحوذوا على أموال الآخرين بصيغ قانونية، ونرى مثل هذه الحالة من التنافس بين الحكومات والدول من خلال الحرب الباردة وأجهزة الإعلام الكاذب حيث يسعون لاحتكار أسواق بلدان العالم الثالث والهيمنة والسيطرة على ثروات الشعوب الأخرى.

وطائفة من أهل الدنيا يتمثّلون فى عصرنا بالحكومات الاستكبارية وأصحاب القدرة والنفوذ، (أو الأثرياء الذين يدعمون مثل هذه الحكومات) فنراهم يعيشون دوماً حالات التنافس غير المشروع ويسعون لنهب مصادر الثروة من الآخر، وفى كثير من الأحايين يشعلون الحروب المدمّرة من أجل التوصّل إلى مقصودهم، ويسفكون دماء الآف الأبرياء ويدمّرون المدن والقرى، أجل، هؤلاء الذئاب العاوية

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۳۳

يتصارعون فيما بينهم على جيفة الدنيا، ويسحق الأقوياء منهم حقوق الضعفاء، ويتحرّك الكبار فى إزاحة الصغار من طريقهم.

أمّا الطائفة الثالثة، فهم جماعة لا يملكون شيئاً من النفوذ والقدرة، ولكن نراهم لا يمتنعون من أية ذلّة من أجل تحقيق متاع الدنيا، فيتعاملون مع أصحاب النفوذ والمستكبرين من موقع العبودية والخنوع والخضوع.

الطائفة الرابعة تعيش كالحيوانات المتمرّدة والمتوحّشة التى تعيش فى البرارى والقفار، وعلى حدّ تعبير الإمام عليه السلام فى كلامه: «قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا سُرُوحُ ۷۳۳] عَاهَةٍ[۷۳۴] بِوَادٍ وَعْثٍ ۷۳۵]».

ثمّ يضيف: «لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلَا مُسِيمٌ ۷۳۶] يُسِيمُهَا، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى فَتَاهُوا[۷۳۷] فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، اتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا».

هؤلاء هم الفئة التى تعيش فى كلّ زمان بخاصّة فى عالمنا المعاصر، حيث تتّخذ من العالم ميداناً لجولاتها وتتحرّك فى كلّ مكان على مستوى الإفساد والتخريب، ويعيشون حالة الشغف اللامحدود بالمال والثروة والجاه والمقام، قد أعموا عيونهم عن رؤية الحقائق، وأصمّوا آذانهم عن سماعهم كلمة الحقّ وغرقوا فى النعم المادية من الذهب والثروات والمجوهرات والدرهم والدينار، وهؤلاء عبدة الدرهم والدينار الذين يشعلون نار الحرب من أجل تحقيق مطامعهم الدنيوية، وأحياناً يصنعون أسلحة الدمار الشامل ويبيعونها بأثمان

باهظة لهذا وذاك ويوقدون نار الفتنة بينهم، فهؤلاء أضحوا العوبة بيد الدنيا والدنيا العوبة بيدهم، ومن هذه الجهة نسوا اللّه

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۳۴

والمعاد واليوم الآخر تماماً.

والإمام عليه السلام فى هذه الكلمات يحذّر ولده وفلذة كبده من هذه الطوائف الأربع ويدعوه بالابتعاد عنهم، ليس لكونه ابن الإمام فقط، فالمخاطب للإمام عليه السلام يمتدّ ليشمل جميع أفراد البشر.

و «عقول فى جملة «قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا» جمع عقل وهو الفهم والدراية، ولكنّ البعض ذهب إلى أنّها جمع عقال (وهو الحبل الذى يعقل به الجمل) وحينئذٍ يكون مفهوم العبارة: هؤلاء قد أضلّوا الضوابط التى تضبط أمورهم فى الحياة، وبذلك يعيشون الحيرة والتيه فى صحراء الحياة، ولكن مع الالتفات إلى الجملة الثانية «وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا» فإنّ المعنى الأوّل أنسب، مضافاً إلى أنّ «عقول» جمع عقل لا جمع عِقال، لأنّ جمع عقال «عُقل» على وزن قفل و «عُقُل» على وزن كُتب.

وعلى أيّة حال فالتقسيم الذى ذكره الإمام عليه السلام لأصناف أهل الدنيا وطوائفهم المختلفة يعتبر تقسيماً دقيقاً ورائعاً بحيث يستطيع المرء تشخيص هذه الفئات بسهولة ويتحرّك بحذر ويقظة بعيداً عنهم، وهذه الطوائف والفئات:

۱. فئة الفوضويين وأصحاب وسائل الإعلام المضلّلة.

۲. فئة الوحوش الذين يتكالبون على ثروات الدنيا ويرومون السيطرة عليها.

۳. فئة العبيد الذين يتحرّكون فى خطّ الذلّة والمهانة من أجل التوصّل إلى المال والمقام.

۴. فئة الأراذل وأتباع الشهوات الذين تركوا عقولهم وساروا فى متاهات الحياة، وهؤلاء يعبدون الذهب والفضة والدرهم والدينار، وغايتهم من الحياة إشباع الغرائز وطلب الملذّات الرخيصة.

ج ج

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۳۵

القسم الثانى والعشرون

اشارة

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلَامُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ، يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ! وَاعْلَمْ يا بُنَىَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً.

الشرح والتفسير: السائرون بمركب الليل والنهار

فى هذا المقطع من الوصية يحذّر الإمام عليه السلام مرّة أخرى ولده العزيز من هجوم الموت ونهاية العمر، ويقول: رُوَيْداً[۷۳۸] يُسْفِرُ[۷۳۹] الظَّلَامُ».

والمقصود من الظلام فى هذه العبارة الجهل بحال الدنيا وتقلّباتها حيث يتصوّر بعض الجهّال ثباتها وديمومة حالاتها، ولكن لا تمضى فترة حتّى يواجهون الموت بهيئته الموحشة.

ثمّ يشبّه الإمام عليه السلام، أهل هذا العالم بالمسافرين الذين يتحرّكون باتّجاه المنزل المقصود ويقول: «كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ[۷۴۰]».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۳۶

ثمّ يضيف: «يُوشِكُ ۷۴۱] مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ»، فمن يسير بسرعة فى هذا السفر يوشك أن يصل إلى الموت.

والمراد من «مَنْ أَسْرَعَ جميع أفراد البشر لا طائفة خاصّة، لأنّ جميع الناس يتحرّكون بسرعة باتّجاه المنزل النهائى، وهو نهاية الحياة.

ويطرح الإمام عليه السلام تشبيهاً جميلًا عن الناس فى هذا العالم ويقول: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ ۷۴۲] اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً[۷۴۳]».

وهو إشارة إلى أنّ الحركة باتّجاه نهاية العمر هى حركة إجباريّة وحتميّة لا اختياريّة، فالجميع يركبون مطيّة الزمان ويتحرّكون بيد التقدير الإلهىّ، وسرعان ما يصلون- شاؤوا أم أبوا- إلى نقطة النهاية، وإن كان الكثير منهم يعيشون الغفلة عن هذا المصير.

وهناك تعابير أخرى وردت فى سائر كلمات الإمام عليه السلام فى هذا المجال، منها قوله: «أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكْبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ»[۷۴۴].

ويقول فى مورد آخر: «نَفَسُ الْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ»[۷۴۵].

وفى حديث آخر يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «إنّ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ يَعْمَلانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فيهما وَيَأْخُذانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُما»[۷۴۶].

وينقل ابن أبىالحديد فى هذا المورد قصّة جميلة عن أستاذه ويقول: واستقرأنى أبو الفرج محمّد بن عبّاد (رحمه اللَّه) وأنا يومئذ حدث، هذه الوصيّة فقرأتها عليه من

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۳۷

حفظى، فلما وصلت إلى هذا الموضع صاح صيحةً شديدة وسقط، وكان جبّاراً قاسى القلب (أى لا يتأثّر بسرعة بالمواعظ)[۷۴۷].

تأمّل: السالكون إلى العالم الآخر!

فى هذه العبارات يشبّه الإمام عليه السلام الناس بالمسافرين الذين يركبون مراكب سريعة، وهذه المراكب تقودهم إلى المنزل المقصود والنهائىّ، ولا شكّ أنّ جماعة من هؤلاء المسافرين يتوقّفون فى محطّات وسط الطريق، وجماعة أخرى يستمرّون فى مسيرتهم إلى آخر عمرهم الطبيعى، والعجيب أن لا أحد يعلم فى أىّ محطة يتوقّف وينزل.

وهناك أمران مسلّمان فى هذا السفر، أحدهما: أنّ هذا السفر غير اختيارىّ وأنّه يملك نهاية مقرّرة سلفاً، فجماعة يطوون هذا السفر فى حال الغفلة والسكر والنوم، وجماعة آخرون يتحرّكون من موقع اليقظة والانتباه، وهناك جماعة ثالثة يتحرّكون بحالة من اليقظة تارة والغفلة تارة أخرى، وبعد نزولهم فى محطّات الطريق سيجدون نعماً وفيرة وبركات كثيرة فى كلّ محطة، فيتزوّدون منها لمواصلة المسيرة، فأمّا من يطوى طريقه فى حال الغفلة والنوم، أو لا يدرك جيّداً مواقعه فى هذا الطريق، وكما ورد فى الحديث الشريف: «النّاسُ نِيامٌ إذا ماتُوا انْتَبِهُوا»[۷۴۸]، فإنّهم يصلون إلى المنزل النهائى بأيدٍ خالية وجعبة خاوية.

والأمر الآخر: إنّ الأنبياء والرسل الإلهيين مكلّفون بتحذير هؤلاء المسافرين وإثارة انتباهم فى هذا الطريق ويهتفون بالغافلين والنائمين أن يستيقظوا من غفلتهم وينتبهوا من غفوتهم ويتزوّدوا من المنازل والمحطّات فى أثناء الطريق بما يحتاجونه

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۳۸

لمواصلةالمسير، لأنّهم عندما يصلون إلى المقصد فلا يمكنهم حينئذٍ توفير ما يحتاجون من وسائل ومتاع، والأهمّ من ذلك أنّ طريق العودة من هذا المسير موصدة وممتنعة.

فجماعة يؤمنون بهذه التوصيات والنصائح ويستقبلون كلام الأنبياء والأولياء بكلّ عواطفهم وقلوبهم، وجماعة أخرى يتعاملون مع هذه التعاليم السماوية من موقع الانكار، أو يستمعون إليها من غير تطبيق، وعندما يصلون إلى المقصد سيجدون الحقيقة الحاسمة أمامهم، فترتفع أصواتهم بالحسرة ويقولون: «يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِين»[۷۴۹]، ولكن، ولات حين مناص.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۳۹

القسم الثالث والعشرون

اشارة

وَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّکَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَکَ، وَلَنْ تَعْدُوَأَجَلَکَ، وَأَنَّکَ فِی سَبِیلِ مَنْ کَانَ قَبْلَکَ. فَخَفِّضْ فِیالطَّلَبِ. وَأَجْمِلْ فِیالْمُکْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَی حَرَبٍ؛ فَلَیْسَ کُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا کُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ. وَأَکْرِمْ نَفْسَکَ عَنْ کُلِّ دَنِیَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْکَ إِلَی الرَّغَائِبِ، فَإِنَّکَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِکَ عِوَضاً. وَلَا تَکُنْ عَبْدَ غَیْرِکَ وَقَدْ جَعَلَکَ اللَّهُ حُرّاً. وَمَا خَیْرُ خَیْرٍ لَایُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَیُسْرٍ لَایُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ؟! وَإِیَّاکَ أَنْ تُوجِفَ بِکَ مَطَایَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَکَ مَنَاهِلَ الْهَلَکَةِ. وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا یَکُونَ بَیْنَکَ وَبَیْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّکَ مُدْرِکٌ قَسْمَکَ، وَآخِذٌ سَهْمَکَ، وَإِنَّ الْیَسِیرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَکْرَمُ مِنَ الْکَثِیرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ کَانَ کُلٌّ مِنْهُ.

الشرح والتفسیر: لا تذلّ نفسک أبداً

فی هـذا المقطع من الوصیّة یشیر الإمام علیه السلام إلی ستّ نقاط مهمّة تمثّل کلّ واحدة منها نصیحة للسائرین فی طریق الحقّ والمعنویة، ولکن قبل ذلک یذکر الإمام علیه السلام مقدّمة ویقول: «وَاعْلَمْ یَقِیناً أَنَّکَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَکَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَکَ»، أنت لا تستطیع أن تتجاوز ما تقرّر من عمرک، فأنت تسیر فی نفس الطریق الذی سار فیه القدماء، فأولئک ماتوا وذهبوا لحال سبیلهم وأنت سوف تلحق بهم.

ثمّ یستنتج الإمام علیه السلام هذه التوصیة: «فَخَفِّضْ [۷۵۰] فِی الطَّلَبِ وَأَجْمِلْ [۷۵۱] فِی

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۵۴۰

الْمُکْتَسَبِ».

جملة: «لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَکَ تبیّن حقیقة واضحة وهی أنّ کلّ إنسان فی هذا العالم لن یستطیع أنّ یحقّق جمیع آماله وطموحاته فی أرض الواقع والحیاة، ومن هذا المنطلق لا معنی للحرص فی طلب الرزق والإصرار فی تحصل المکتسبات الدنیویة.

وجملة «وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَکَ إشارة إلی أنّ عمر الإنسان محدود علی أیّة حال ولا أحد یستطیع أن یغادر هذا العالم قبل وقته المقرّر وقبل حلول أجله، فإذا کان الأمر کذلک، فلماذا یحرص الإنسان علی اکتساب الأموال ویستنزف طاقاته أکثر من اللازم فی اقتناء المادیات.

ولفظتا: «خَفِّضْ و «أَجْمِلْ کلاهما تشیران إلی هذه الحقیقة، وهی لزوم ترک الحرص لاکتساب الرزق، فالمفروض أن یسلک الإنسان طریق الاعتدال والتأنیّ فی الطلب، وهذا التعبیر لا یعنی أبداً ترک السعی وبذل الجهد لاکتساب الرزق الحلال.

ویواصل الإمام علیه السلام کلامه فی بیان هذه الحقائق من موقع الاستدلال علیها یقول:

«فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَی حَرَبٍ [۷۵۲]؛ فَلَیْسَ کُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا کُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ».

ومثل هذا المضمون ورد فی حدیث شریف عن النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«اجْمِلُوا فی طَلَبِ الدُّنْیا فَإنَّ کُلًّا مُیَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ»[۷۵۳].

وعبارة: «رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إلی حَرَبٍ تعتبر علی حدّ قول بعض الکتّاب، من أمثال العرب، والمقصود أنّ السعی الکثیر ربّما یؤدّی إلی عکس الغرض، وفی ذلک یقول الشاعر:

اقسمُ باللّهِ لَمَصُّ النَّوی‌وَشربُ ماء القُلُبِ المالحة

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۵۴۱

أحسنُ بالإنسانِ مِن ذلِّهِوَمِن سُؤالِ الأوجهِ الكالحة

فاستغنِ باللّه تكن ذا غنىً مغتبطاً بالصفقةِ الرّابحة[۷۵۴]

ويقول الآخر:

لا تَبخَلَنّ بِدُنيا وَهي مُقبلةٌفَلَيسَ يَنقُصها التَّبذِيرُ والسَّرفُ

وَإن تَوَلّتْ فَأحرى أن تَجودَ بهافَالحمدُ مِنها إذا مَا أدبَرتْ خَلفُ ۷۵۵]

وقوله: «فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ ... وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ ...» في الواقع بمثابة الدليل على ما ورد في العبارات السابقة في لزوم رعاية الاعتدال في طلب الرزق وتشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ السعي الحثيث لا يعني دوماً زيادة الرزق، ولا أنّ رعاية الاعتدال والتأنيّ قلّة الرزق، بل إنّ اللطف الإلهي يقرّر أنّ من توكّل على اللّه وترك الحرص والطمع وسعى في طلب الرزق بشكل معتدل، فإنّه سيعيش حياة أفضل مقترنة بالسكينة والاستقرار أكثر، ومثل هؤلاء يفتحون المجال للآخرين ليتحرّكوا في طلب الرزق ولا يتعاملون مع الناس من موقع الإقصاء والتهميش أو يضيّقون الخناق عليهم في هذا السبيبل.

ويتحدّث الإمام عليه السلام في التوصية الثانية ويقول: «وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ[۷۵۶] وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ ۷۵۷]، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ ۷۵۸] بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً».

وهذا إشارة إلى أنّ بعض الرغبات والذنوب النفسانية تتطلّب أحياناً تنازل الإنسان عن كرامته وشخصيّته، فالجدير بالإنسان الذي يعيش الكرامة والحرية أن لا يخضع لمثل هذه الرغبات، ولا يرد نفسه في هذا المسير، فلا ينبغي للإنسان أن

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۴۲

يهين نفسه ويحقّق رغباته عن الشخصية أو يتنازل عن طموحاته المعنوية لحساب الميول المادية والدنيوية.

وكما قال الشاعر:

مَا اعْتاضَ باذِلٌ وَجهَهُ بِسُؤالِهِعِوَضاً وَلَوْ نالَ الْغِنى بِسُؤالِ

وَإذَا النَّوالُ إِلَى السُّؤالِ قَرَنْتَهُرَجَحَ السؤالُ وَخَفّ كُلُّ نَوالِ

وهذا يعني أنّ الإنسان إنّما يريد المال لحفظ حيثيته وسمعته، ولكن لا ينبغي أن ينفق من حيثيته وماء وجهه لكسب المال، ولا يجدر بالإنسان أن يلهث وراء الأمور الماديّة على حساب اهتزاز شخصيته وسمعته.

ويواصل الإمام عليه السلام توصياته لولده ويقول في التوصية الثالثة، ويقول: «وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرّاً».

وهذه العبارة من أهمّ وأروع وصايا الإمام عليه السلام التي ينبغي أن تكتب بماء الذهب وتجعل نصب العين دائماً، أجل إنّ اللّه تعالى خلق الإنسان حرّاً ولا ينبغي أن يستبدل هذه الحرية بأيّ أثمان ماديّة، بل أحياناً ينبغي أن يعيش الإنسان بإمكانات محدودة ويقنع بالمعاناة والمشقّة حفظاً لماء الوجه ولا يذلّ نفسه ويخضع لمشيئة الآخرين ويتعامل معهم من موقع الخنوع.

وهذا الكلام صادق بالنسبة للأفراد والشعوب كذلك، فما أكثر الشعوب والأقوام الضعيفة والمتخلّفة المستعدّة لبذل حريتها وكرامتها من أجل عوض زهيد، والمستكبرون وقوى الاستعمار يعرفون نقطة الضعف هذه في الشعوب المتخلفة ويعملون على تكريس واقعها المتخلّف للإستيلاء على ثرواتها واستعبادها، بل إنّهم يتحرّكون على مستوى فرض ثقافتهم الخاطئة على هذه الشعوب مقابل بعض المساعدات الاقتصادية الزهيدة، وأحياناً يسلبون منهم دينهم وإيمانهم.

ولكنّ الأشخاص الذين يعيشون قوّة الشخصية، والشعوب الحرّة يرجّحون الموت على حياة العبودية والذلّة.

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۴۳

وهذه التوصية في الحقيقة من نتائج ولوازم التوصية السابقة التي يقول فيها الإمام عليه السلام: «وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ ...».

وأحد المصاديق البارزة لهذا الموضوع هو ما تجلّى في نهضة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه في كربلاء حيث قال الإمام الحسين

عليه السلام فى هذه الواقعة التاريخية الهامة «ألا وَإنَّ الدعيَّ بْنَ الدَّعى قَدْ رَكَز بَيْنَ اثْنَتَيْنِ بَيْنَ السِلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَهَيْهاتَ مِنَّا الذِّلَّةِ»[۷۵۹].

ويطرح الإمام الصادق عليه السلام هذا المضمون بكامل أبعاده وجهاته ويبيّن أنّ الشخصية الحرّة ينبغى أن تتوفّر فيها خمس خصال قال: «خَمْسُ خِصَالٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَثِيرُ مُسْتَمْتَعٍ: أَوَّلُهَا الْوَفَاءُ وَالثَّانِيَةُ التَّدْبِيرُ وَالثَّالِثَةُ الْحَيَاءُ وَالرَّابِعَةُ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْخَامِسَةُ وَهِيَ تَجْمَعُ هَذِهِ الْخِصَالَ الْحُرِّيَّةُ»[۷۶۰].

وفى التوصية الرابعة يقول الإمام عليه السلام: «وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَايُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ».

وهذا يعنى أنّ البعض ومن أجل التوصّل إلى غايتهم ومقصودهم يستخدمون كلّ وسيلة تتيح لهم ذلك وتيسّر لهم تحقيق مطلبهم، فى حين أنّ تعاليم الإسلام تقرّر أنّ التوصّل إلى الغايات والأهداف لابدّ أن يكون من طريق مشروع وصحيح، وببيان آخر، (الغاية لا تبرّر الوسيلة) وكذلك لا ينبغى لغرض تحصيل السعادة والراحة التوجّه إلى المقدّمات والوسائل التى تضيق الخناق على الإنسان وتجعله يعيش الضغوط النفسية والمالية.

وقد فسّرنا العبارة أعلاه بشكل جملة خبرية، ولكن البعض فسّرها بصيغة الجملة الاستفهاميّة، وطبقاً لهذا التفسير سيكون معنى العبارة: ماذا ينفع ذلك الخير الذى لا يحصل عليه الإنسان إلّابطريق الشرّ؟ وماذا تنفع الراحة التى تتأتّى بطريق المعاناة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۴۴

والعسر؟ ومن الواضح أنّ نتيجة كلا التفسيرين واحد رغم تفاوت البيان وصياغة البلاغة.

ويشبه هذا المعنى ما ورد فى كلمات الإمام عليه السلام القصار، حيث يقول: «مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ وَمَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ»[۷۶۱].

ويستطرد الإمام عليه السلام فى بيان وصيته ويخاطب ولده فى خامس توصية من هذه التوصيات: «وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ ۷۶۲] بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ ۷۶۳] الْهَلَكَةِ».

وهنا يشبّه الإمام عليه السلام موارد الطمع بمنزلة المطايا والدوابّ الجامحة والمتمرّدة التى إذا ركبها الإنسان فسوف يفقد زمامه واختياره وربّما تقوده إلى وادى الهلكة، والتعبير «مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ» فيه إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الإنسان يتوجّه لمنبع الماء لإرواء عطشه، ولكنّ المنبع الذى تقوده إليه مطايا الطمع ليس فقط لا يروى عطشه منها، بل لا يوجد ماء أساساً وتوجد بدله موارد الهلكة.

وقد جرّبنا فى حياتنا مرات عديدة هذا، والتاريخ بدوره يشهد على صحة هذا الكلام وهو أنّ الأشخاص الذين يعيشون حالات الطمع يواجهون الفشل والإخفاق فى حياتهم، لأنّ الطمع يعمى عين الإنسان عن رؤية الحقيقة ويصمّ اذنه عن سماع النصحية، ولا يسمح بتشخيص الطريق القويم من المتاهة، ومحلّ النجاة من الهاوية، بل يمكن القول إنّ أغلب الأشخاص الذين يشتغلون فى الشأن التجارى وأمثال ذلك، والذين يواجهون الإخفاق والإفلاس فى نهاية المطاف فالسبب فى ذلك يعود إلى حالة الطمع والجشع فيهم.

ويشبه هذا المعنى ما ورد الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام المذكور فى كتاب بحار الأنوار حيث يقول: «الطَّمَعُ خَمْرُ الشَّيْطَانِ يَسْتَقِي بِيَدِهِ لِخَوَاصِّهِ فَمَنْ

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۴۵

سَكِرَ مِنْهُ لَايَصْحُو إِلَّا فِي أَلِيمِ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ مُجَاوَرَةِ سَاقِيهِ»[۷۶۴].

وفى حديث آخر يقول رسول اللّه صلى الله عليه و آله «الطَّمَعُ يُذْهِبُ الْحِكْمَةَ مِنْ قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ»[۷۶۵].

ونقرأ فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «مَا هَدَمَ الدِّينَ مِثْلُ الْبِدَعِ، وَلَا أَفْسَدَ الرَّجُلَ مِثْلُ الطَّمَعِ»[۷۶۶].

ثمّ ينطلق الإمام ليبيّن التوصية السادسة والأخيرة فى هذا المقطع من الوصية ويقول: «وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ».

ويستند الإمام عليه السلام فى هذا التوصية إلى مسألة أخلاقية مهمّة وهى أنّ الإنسان مهما أمكن لا ينبغى أن يقيّد نفسه رهن إحسان

الآخرين ومنّتهم، بل يجب عليه الاعتماد على ما يملكه من إمكانات وطاقات لينال حصّيته من النعم والمقدرات الإلهيّة، فإذا نال نصيباً أقلّ من هذا الطريق، فإنّه أفضل من النصيب الأوفر إذا كان من خلال الاستعانة بالآخرين وقبول منّتهم، وفى الحقيقة النصيب الأقلّ مع حفظ كرامة الإنسان وشخصيته ومقامه يعتبر فى الحصيلة أكثر من تلك الحصّة الأخرى، لأنّ الإنسان فى هذه الحالة يحفظ شخصيته وكرامته ولا يبذل منها شيئاً لا يمكن إرجاعه بعد ذلك.

وعلى رغم أنّ عبارة الإمام عليه السلام فى هذه الفقرة مطلقة وتشمل عدم الخضوع لمنّة أىّ شخص حتّى لو كان من المحبّين والمشفقين عليه، كالأب والابن والأخ الذين يتقبّلون أىّ طلب ويستجيبون لأىّحاجة برحابة صدر، ولكن من الواضح أنّ

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۴۶

الإمام عليه السلام فى هذا الكلام يرى أنّ شخصية الإنسان تتعرّض بالسؤال والطلب من الآخرين إلى الخلل والاهتزاز، وعادة ما يقترن السؤال مع الذلّة أو المنّة.

والشاهد على هذا الكلام ما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه:

«قَالَ يَوْماً رَجُلٌ عِنْدَهُ: اللَّهُمَّ أَغْنِنَا عَنْ جَمِيعِ خَلْقِكَ. فَقَالَ: أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: لَاتَقُلْ هَكَذَا، وَلَكِنْ قُل: اللَّهُمَّ أَغْنِنَا عَنْ شِرَارِ خَلْقِكَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَايَسْتَغْنِى عَنْ أَخِيهِ»[۷۶۷].

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال لولده الإمام الحسن:

«يَا بُنَىَّ إذَا نَزَلَ بِكَ كَلَبُ الزَّمَانِ وَقَحْطُ الدَّهْرِ فَعَلَيْكَ بِذَوِى الْأُصُولِ الثَّابِتَةِ وَالْفُرُوعِ النَّابِتَةِ مِنْ أَهْلِ الرَّحْمَةِ وَالْإِيثَارِ وَالشَّفَقَةِ، فَإِنَّهُمْ أَقْضَى لِلْحَاجَاتِ وَأَمْضَى لِدَفْعِ الْمُلِمَّات»[۷۶۸].

وبيان آخر أنّ الإنسان كثيراً ما يكون قادراً على أداء عمل معيّن ولكن بسبب الكسل وطلب الراحة فإنّه يطلب المعونة من الآخرين ويضع كَلّه عليهم، وهذا العمل مذموم وقبيح، ولكن فى بعض الموارد لا يتيسّر العمل ونيل المقصود إلّابآلية التعاون والتكاتف، ففى مثل هذه الموارد لا إشكال فى طلب المساعدة من الآخرين، لأنّ حياة الإنسان مقترنة دوماً بعنصر التعاون فى حركة المجتمع.

وجملة: «وَإِنْ كانَ كُلٌّ مِنْهُ فى الحقيقة إشارة إلى التوحيد الأفعالى للذات المقدّسة وأنّه على فرض أن يطلب الإنسان المعونة والمساعدة من الآخرين (فيما لا ينبغى طلب المعونة فيه) ثمّ يمدّون له يد العون، فلو دقّقنا النظر فى هذا المورد أيضاً لرأينا أنّه حتّى هذا المورد من قِبل اللَّه تعالى، لأنّ الإنسان لا يملك شيئاً فى واقعه حتى يعطيه لغيره، فما يملك فهو من اللَّه تعالى وما حصل عليه فإنّه قد اكتسبه بإذن اللَّه وبما أودع اللَّه فيه من قوّة وقدرة.

يقول المرحوم مغنية فى شرح نهج‌البلاغة ذيل هذه التوصية لأميرالمؤمنين عليه السلام

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۴۷

نقلًا عن الشيخ محمد عبده العالم المصرى المعروف، فى جمل قصيرة وعميقة المضمون، يقول: لا يوجد كلام يقع مؤثّراً فى قلب الإنسان أفضل من هذا الكلام، الكلام الذى يتسبّب بقوّة التأثير وإصابة الحقّ بحيث ينقل القارىء المؤمن من هذه الدنيا وأهلها ويجعل جميع همّه متوجّهاً إلى اللَّه تعالى.

وكما يقول الشاعر:

وَيحَكِ يا نَفسُ دَعِىمَا عِشتِ ذُلَّ الطَّمعِ
وَارضى بِما جرى بِهِحُكمُ القَضاءِ واقنَعِى
إِيّاكِ والميلَ إلىشَيطانِكِ المُبتَدِعِ
واقتَصِدى واقتَصِرى كى تَرتَوى وَتَشبَعى
أينَ السّلاطِينُ الالىمِنْ حِميَرٍ وتُبَعِ

شَادُوا الحُصُونَ فَوق کُلِّ کُلّ شَاهِقٍ مُرتفعِ

لَم یَبقَ مِنْ دِیارهِمغیرَ رُسُوم خُشَّعِ

کَفی بذاک واعظاًوزاجراً لِمَن یعی

حَسبُکِ یا نَفسُ اقبَلیٖنُصْحی وَلا تُضیّعی ۷۶۹].

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۵۴۹

القسم الرابع والعشرون

اشارة

وَتَلَافِیکَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِکَ أَیْسَرُ مِنْ إِدْرَاکِکَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِکَ، وَحِفْظُ مَا فِی الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِکَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِی یَدَیْکَ أَحَبُّ إِلَیَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِی یَدَیْ غَیْرِکَ. وَمَرَارَةُ الْیَأْسِ خَیْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَی النَّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَیْرٌ مِنَ الْغِنَی مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ فِیمَا یَضُرُّهُ! مَنْ أَکْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَکَّرَ أَبْصَرَ. قَارِنْ أَهْلَ الْخَیْرِ تَکُنْ مِنْهُمْ، وَبَایِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ، بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ! وَظُلْمُ الضَّعِیفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ! إِذَا کَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً کَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً. رُبَّمَا کَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دوَاءً، وَرُبَّمَا نَصَحَ غَیْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ. وَإِیَّاکَ وَالاتِّکَالَ عَلَی الْمُنَی فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْکَی وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَیْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَکَ. بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَکُونَ غُصَّةً. لَیْسَ کُلُّ طَالِبٍ یُصِیبُ، وَلَا کُلُّ غَائِبٍ یَئُوبُ. وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ. وَلِکُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ یَأْتِیکَ مَا قُدِّرَ لَکَ.

التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ یَسِیرٍ أَنْمَی مِنْ کَثِیرٍ! لَاخَیْرَ فِی مُعِینٍ مَهِینٍ، وَلَا فِی صَدِیقٍ ظَنِینٍ. سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَکَ قَعُودُهُ، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَیْءٍ رَجَاءَ أَکْثَرَ مِنْهُ، وَإِیَّاکَ أَنْ تَجْمَحَ بِکَ مَطِیَّةُ اللَّجَاجِ.

الشرح والتفسیر: سبع وعشرون موعظة ثمینة

یستعرض الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من وصیته النورانیة مجموعة منسجمة ومتجانسة من النصائح المتنوّعة لولده الإمام الحسن المجتبی علیه السلام والتی تتضمّن کلّ

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۵۵۰

واحدة منها نقطة مهمّة فی حیاة الإنسان وسلوکه الأخلاقی، وتشکّل بمجموعها منهاجاً مفصّلًا لتحقیق الحیاة السعیدة لکلّ فرد.

بدایةً یقول الإمام علیه السلام: «وَتَلَافِیکَ ۷۷۰] مَا فَرَطَ[۷۷۱] مِنْ صَمْتِکَ أَیْسَرُ مِنْ إِدْرَاکِکَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِکَ».

وهذا یعنی أنّ الإنسان إذا امتنع عن التحدّث بشیء ثمّ علم بعد ذلک أنّ صمته کان خطأً فإنّه یستطیع فوراً تلافی هذا النقص وتدارک هذا الخلل، فی حین أنّه إذا کان قد تحدّث بکلام ثمّ فهم بعدُ أنّ هذا الکلام خطأ، فإنّ تدارک هذا الخطأ غیر ممکن، کالماء الذی اریق علی الأرض، فإنّ جمعه غیر ممکن حینئذٍ.

ویستعرض الإمام علیه السلام فی إدامة کلامه الطریق الصحیح للوصول إلی هذا المقصود بذکر المثال، ویقول: «وَحِفْظُ مَا فِی الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِکَاءِ».

«الوِعاء» الظرف الذی یوضع فیه الشیء، والمراد به هنا القلب وروح الإنسان، «الوکاء» الحبل الذی تشدّ به فوهة القربة، وهو إشارة إلی لسان الإنسان وفمه، فلو أنّ الإنسان ملک لسانه ومنطقه، فإنّه لا تصدر منه کلمات نابیة ولا مسؤولة قد توجب له الندم بعد صدورها منه.

ثمّ يتطرق الإمام عليه السلام للتوصية الثانية ويقول: «وَحِفْظُ مَا فِی يَدَيْکَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِی يَدَیْ غَيْرِکَ».

وهو إشارة إلى أنّ الكثير من الناس وبسبب حالات الإسراف والتبذير فى الأموال، يفقدون ما لديهم من ثروة، ويضحون محتاجين للآخرين، ويفقدون عزّتهم ومكانتهم، ولو أنّ الإنسان سلک طريق الاعتدال والاقتصاد فى حياته فإنّه لا يحتاج إلى الآخرين، ومن هذا المنطلق فإنّه التوصية المذكورة لا تدعو للبخل أبداً، بل تعنى الدعوة للاعتدال وترک الإسراف والتبذير.

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۵۱

ثمّ يتطرق الإمام عليه السلام للتوصية الثالثة التى ترتبط بما قبلها ويقول: «وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ». أى «اليأس» ممّا فى أيدى الناس أفضل من الطلب إليهم.

والمراد من «اليأس» فى هذه العبارة هو حالة من قطع الأمل بالآخرين من موقع الاختيار بحيث إنّ الإنسان يوصد على نفسه باب الطلب من الناس، وهذا العمل وإن كان صعباً وشاقّاً، ولكنّه يمنح الإنسان العزّة والشرف والكرامة، ولهذا يقول الإمام عليه السلام، إنّ مثل هذه المرارة أفضل من حلاوة الطلب والسؤال إلى الناس.

وعبارة «الْيأس عَمّا فى أيْدِى النَّاسِ بوصفها قيمة وفضيلة أخلاقية وردت فى روايات عدّة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام منها ما ورد فى رواية عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «وَخَيْرُ الْمَالِ الثِّقَةُ بِاللَّهِ وَالْيَأْسُ عَمَّا فِی أَيْدِی النَّاسِ»[۷۷۲].

وهذا الكلام لا يعنى أنّ الإنسان يعرض عن التعاون والتكاتف مع الناس فى أمور الحياة، وأنّ الحياة الاجتماعية لا تقوم إلّاعلى أساس التعاون، بل المراد أن لا ينظر المرء إلى أموال الناس بعين الطمع ولا يجعل الناس كَلّاً، بل يسعى لكسب معاشه بنفسه.

وكما يقول الشاعر:

وَإنْ كانَ طَعْمُ الْيَأْسِ مُرّاً فَإِنَّهُ أَلَذُّ وَأَحْلى مِنْ سُؤالِ الْأَراذِلِ

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام فى التوصية الرابعة ويقول: «وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ».

العفّة فى اللغة وموارد استعمالها عند علماء الأخلاق لا تعنى ضبط النفس من حيث الغريزة الجنسية، بل ضبط النفس عن كلّ ذنب، وجاءت فى الجملة أعلاه بهذا المعنى، لأنّ البعض لا يمتنع من اقتراف أىّ ذنب ومعصية فى جمع الثروة والمال من هذه الجهة أو تلك، أمّا المؤمنون الذين يعيشون الطهر والنقاء القلبى ربّما يجمعون

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۵۲

ثروة أقلّ، من خلال الطرق المشروعة والبعيدة عن كلّ أنواع الإثم والعدوان، والإمام يقول: إنّ هذا الأخير أفضل وأرجح من السابق.

ويستطرد الإمام عليه السلام فى بيان التوصية الخامسة ويقول: «وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ»، لأنّ الإنسان أكثر اهتماماً وتشدّداً لحفظ أسراره من الآخرين، لأنّ إفشاء هذه الأسرار يوجب له الضرر والخسارة، وقد يتسبب فى هتک حرمته وفضح شخصيته، فى حين أنّ الآخرين ربّما لا يتضرّرون من إفشاء سرّه، ومن هذا المنطلق إذا أراد الإنسان حفظ أسراره، فيجب أن يضعها فى مكنون صدره ويحكم إغلاق بابه، كما ورد ذلک فى كلمات الإمام عليه السلام القصار: «صَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ».

وفى التوصية السادسة يقول الإمام عليه السلام: «وَرُبَّ سَاعٍ [۷۷۳] فِيمَا يَضُرُّهُ».

وهذا إشارة إلى أنّ سعى الإنسان يجب أن يكون مدروساً ومحسوباً، وببيان آخر، أنّ السعى يجب أن يقترن بالتدبير، حتى لا ينعكس الأمر عليه ويقطع أصله بسيفه، وهذا يعدّ من أسوء أنواع المصائب.

وفى التوصية السابعة يقول الإمام عليه السلام: «مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ[۷۷۴]».

أجل، فأحد فوائد الصمت، عدم التورّط فى شباک الكلام الركيک والموهن، وقد ثبت بالتجربة أنّ الأشخاص الثرثارين يتحدّثون بكلمات كثيرة ليس لها معنى ولا مفهوم، لأنّ الكلام المحسوب والمدروس يحتاج إلى فكر ومطالعة، فى حين أنّ الثرثارين ليس لديهم مجال للتفكير، والإمام فى غرر الحكم يبيّن العواقب السيئة الكثيرة لظاهرة الثرثرة وما يترتّب عليها ويقول: «مَنْ كَثُرَ كَلامُهُ

زَلَّ»[۷۷۵]، وهـذا الأمر يؤدّى إلى سـقوط شخصـيته من أعين الناس ويتسبّب فى ذلّته وفضيحته، بخلاف الأشـخاص الـذين يتحدّثون بكلام قليل ومدروس، فإنّ ذلك من شأنه أن يمنحهم

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۵۵۳

مكانهٔ مرموقهٔ وسمعهٔ حسنهٔ فى أنظار الناس وكما يقول الشاعر:

وَالصَّمتُ أجملُ للفتىمَا لَم يَكُن عىّ يُشينُه

وَالقَولُ ذو خَطلٍ إذامَا لَم يَكُن لبّ تُعينُه

وفى الوصيهٔ الثامنهٔ يقول الإمام عليه السلام: «وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ»، أى أبصر حقائق الحياهٔ وسلك الطريق القويم فى حياته.

إنّ أهمّيهٔ التفكّر فى أمور الدنيا والآخرهٔ ليست شيئاً خافياً على أحد، فجميع الأفراد الذين حقّقوا نجاحاً فى حياتهم سلكوا هذا الطريق.

يقول القرآن الكريم فى هذا المجال: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ* فِى الدُّنْيا وَالْآخِرَهْ»[۷۷۶].

وفى التوصيهٔ التاسعهٔ يقول الإمام عليه السلام: «قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ».

وهذا إشارهٔ إلى أنّ تأثير المجالسهٔ والمعاشرهٔ لا يقبل الإنكار، فمجالسهٔ الأشـرار تقود الإنسان إلى وادى الهلكهٔ والشـقاء، بينما مجالسهٔ الأخيار تقوده نحو فضاء السعادهٔ والنجاهٔ، وفى الآيات القرآنيهٔ إشارات جليّهٔ على هذا المعنى، يقول تعالى:

«وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يا وَيْلَتى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِى وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا»[۷۷۷].

وجاء فى الحديث الشريف المشهور عن النبىّ الأكرم عليه السلام يقول: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ وَقَرِينِهِ»[۷۷۸].

وهذا هو المعيار الأفضل لمعرفهٔ شخصيهٔ الإنسان المعقّدهٔ والغامضهٔ من خلال

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۵۵۴

النظر إلى قرينه وصديقه، كما ورد ذلك فى حديث عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام:

«فَمَنِ اشْتَبَهَ عَلَيْكُمْ أَمْرُهُ وَلَمْ تَعْرِفُوا دِينَهُ فَانْظُرُوا إِلَى خُلَطَائِهِ فَإِنْ كَانُوا أَهْلَ دِينِ اللَّهِ فَهُوَ عَلَى دِينِ اللَّهِ وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ فَلَا حَظَّ لَهُ مِنْ دِينِ اللَّهِ»[۷۷۹].

ويقول عليه السلام فى التوصيهٔ العاشرهٔ: «بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ».

ويتحدّث القرآن الكريم عن الأشـخاص الـذين يـأكلون أموال اليتامى بأنّهم يأكلون النار فى بطونهم: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ ناراً»[۷۸۰]. وهكـذا بالنسـبهٔ للأطعمـهٔ المحرّمـهٔ فإنّها تشـبه أموال اليتامى من هـذه الجهـهٔ، وقد ورد فى الروايات أنّ من جملهٔ موانع استجابهٔ الدعاء، تناول الأطعمهٔ الحرام، وقد أشرنا قبل ذلك إلى حديث نبوىّ فى هذا المجال.

ويواصـل الإمام عليه السـلام بيان توصيات ولـده ويقول فى التوصـيهٔ الحاديـهٔ عشـر: «وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْم»، لأنّه غير قادر على الـدفاع عن نفسه، وينقل الكلينى فى كتاب الكافى عن الإمام الباقر عليه السـلام أنّ قال: «لَمَّا حَضَـرَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ الْوَفَاةُ ضَـمَّنِى إِلَى صَدْرِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ أُوصِيكَ بِمَا أَوْصَانِى بِهِ أَبِى عليه السلام حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَبِمَا ذَكَرَ أَنَّ أَبَاهُ أَوْصَاهُ بِهِ، قَالَ: يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَظُلْمَ مَنْ لَايَجِدُ عَلَيْكَ نَاصِراً إِلَّا اللَّهَ»[۷۸۱].

وبـديهىّ أنّ الظلم قبيـح تجاه كـلّ إنسان، ولكن إذا ظلم رجل شـخصاً ثريّاً وسـرق مقـداراً من ماله، فرغم أنّ هـذا العمل يعـدّ مخالفهٔ أخلاقيهٔ، إلّاأنّه لا يتسبّب فى إلحاق أذىً وضرر كبير لصاحب المال، بخلاف ما لو سرق من فقير ماله.

وفى التوصيهٔ الثانيهٔ عشر يقول الإمام عليه السلام: «إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً[۷۸۲] كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً».

إنّ أصل مناهج الحياهٔ يقوم على أساس المداراهٔ والليونهٔ والانعطاف، فأحياناً

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۵۵۵

یوجد بعض الأشخاص من سیّئی الاستفادهٔ من هذا السلوک الإنسانی، فتزداد حالات العنف فیهم، فمع مثل هؤلاء الأشخاص یکون استخدام العنف الطریق الوحید لإصلاحهم، والجملهٔ اللاحقهٔ فی الحقیقهٔ بمثابهٔ علّهٔ لهذه الجملهٔ، فهناک موارد یکون الدواء فیها مزیداً فی العلّهٔ والمرض، ویکون تحمّل الألم دواءً وعلاجاً لهذا المریض کما قال الشاعر:

ألا فاصبر عَلَی الحَدثِ الجَلیلِوَداوِ جَواک بالصّبرِ الجَمیلِ

وَلا تَیأس فإنّ الیأسَ کُفرٌلَعلَ اللَّهَ یُغنی مِن قلیلِ

وإنّ العُسرَ یَتبعُهُ یَسارٌوَقولُ اللَّهِ أصدقُ کُلّ قیلِ

وهذا یعنی أنّ الجراح التی یتوقّف علاجها علی الکیّ بالنار، فمن المعلوم أنّ استخدام الرقی والأدویهٔ مرّهٔ أخری تکون عبثاً، وربّما تتسبّب فی زیادهٔ المرض، وبعکس ذلک تارهٔ یکون المرض عارضاً علی الإنسان بحیث یتسبّب فی شفاء المریض من أمراض أهمّ وأخطر.

وفی الوصیهٔ الثالثهٔ عشر یقول الإمام علیه السلام: «وَرُبَّمَا نَصَحَ غَیْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَ ۷۸۳] الْمُسْتَنْصَحُ ۷۸۴]».

وهذا إشارهٔ إلی أنّه لا ینبغی إساءهٔ الظنّ بکلام الأشخاص ممّن لیسوا من أهل النصح، وأحیاناً تصدر منهم کلمات حکیمهٔ ونصیحهٔ نافعهٔ، علی العکس من ذلک تارهٔ یصدر من أهل النصح والصلاح خیانهٔ فی نصیحتهم بسبب الخطأ أو الحسد أو عوامل أخری، وعلی ضوء ذلک لا ـ ینبغی أن نقبل کلامهم بدون تدبّر، بل ینبغی فی کلا الحالتین العودهٔ إلی حکم العقل والعمل علی تمییز الکلام النافع من غیر النافع لهؤلاء الناصحین من خلال الشواهد والقرائن.

ینقل العلّامهٔ المجلسی فی بحار الأنوار روایهٔ مشهورهٔ وجمیلهٔ فی هذا المجال،

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۵۵۶

عن أبی جعفر الباقر علیه السلام قال: لمّا دعا نوح علیه السلام ربّه عزّ وجلّ علی قومه أتاه إبلیس لعنه اللَّه فقال: یا نوح إنّ لک عندی یداً اریـد أن اکافیک علیها، فقال له نوح علیه السلام: إنّه یبغض إلیَّ أن یکون لک عندی یدٌ فما هی؟ قال: بلی، دعوتَ علی قومک فأغرقتهم، فلم یبق أحد اغویه، فأنا مستریح حتّی یظهر قرن آخر واغویهم، فقال نوح علیه السلام:

ماالـذی تریـد أن تکافئنی به؟ (وفی بعض الروایات أن اللَّه عزّ وجلّ أوحی إلی نوح أن کلّمه واسأله فإنّی سانطقه بمحجّهٔ علیه، إلّاأنّ نوح علیه السلام لم یقبل أن یکلّمه)[۷۸۵] قال إبلیس: «اذْکُرْنِی فِی ثَلَاثِ مَوَاطِنَ فَإِنِّی أَقْرَبُ مَا أَکُونُ إِلَی الْعَبْدِ إِذَا کَانَ فِی إِحْدَاهُنَّ: اذْکُرْنِی إِذَا غَضِبْتَ، وَاذْکُرْنِی إِذَا حَکَمْتَ بَیْنَ اثْنَیْنِ، اذْکُرْنِی إِذَا کُنْتَ مَعَ امْرَأَةٍ خَالِیاً لَیْسَ مَعَکُمَا أَحَدٌ»[۷۸۶].

وهذا الحدیث فی الحقیقهٔ یبیّن أحد المصادیق الواضحهٔ لکلام الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام.

وفی التوصیهٔ الرابعهٔ عشر یقول الإمام علیه السلام: «وَإِیَّاکَ وَالاتِّکَالَ عَلَی الْمُنَی فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْکَی ۷۸۷]».

المقصود من کلمهٔ «المُنی الآمال الطویلهٔ والعریضهٔ التی هی إلی الخیالات والأوهام أقرب، والأشخاص الذین یعیشون هذه الحالهٔ من الاعتماد علی الآمال البعیدهٔ والطموحات الخیالیهٔ فإنّهم یستنزفون قواهم الفعّالهٔ ویهدرون طاقاتهم الحیویهٔ، ثمّ لا یصلون إلی شیء، ومن جههٔ أخری الاعتماد علی هذه الآمال یستنزف عصارهٔ فکر الإنسان وعمره لحساب الوهم ویصرفه عن التفکیر فی المعاد والحیاهٔ الآخرهٔ.

وهذا ما ورد فی الحدیث المشهور عن النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله وکذلک عن الإمام

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۵۵۷

أمیرالمؤمنین علیه السلام فی نهج‌البلاغهٔ، قال: «أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَیْکُمُ اثْنَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَی وَطُولُ الْأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَی فَیَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَیُنْسِی الْآخِرَةَ»[۷۸۸].

وفی التوصیهٔ الخامسهٔ عشر یقول الإمام علیه السلام: «وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ».

إشـارة إلى أنّ الإنسان عنـدما يجمع التجارب التى اكتسبها من واقع الحياة ومن الآخرين، ومع الالتفات إلى القاعـدة المعروفـة: «حُكْمُ الْأَمْثالِ فيما يَجُوزُ وَفيما لايَجُوزُ واحِـد»، والحـديث المعروف: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَايُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ»[۷۸۹] فـإنّ ذلك من شأنه أن يمنح الإنسان القدرة على مواجهة الحوادث والمستجدّات بأساليب صحيحة، ويتعاطى معها من خلال ما اكتسبه من تجارب قديمة، وبالتالى يستطيع تفادى الكثير من الأخطاء والتخلّص من الكثير من الأزمات.

إنّ الكثير من القواعـد العقليّـة الكليّـة مستوحاة من هـذه التجارب الجزئية، (وفقاً لقاعدة الاسـتقراء المنطقية) وطبعاً فهذه التجارب تارة تتعلّق بالإنسان نفسه، وأخرى يستقيها الإنسان من تجارب الآخرين، وهـذا كما يسـمّى «نُورٌ عَلى نُورٍ»، ومن هـذه الجهـة يهتمّ المـدراء والقادة بمطالعة تاريخ القدماء ليستوحوا منه الدروس والعبر.

وخلاصة الكلام أنّ الإنسان إذا تحرّك فى حياته على مستوى حفظ تجاربه والاستفادة من تجارب الآخرين، فإنّه يستطيع استخدامها فى الموارد المشابهـة دون أن يكرّر أخطاءه الماضية، وكـذلك يستخلص قانونـاً كلياً من الموارد الجزئيـة لنفسه وللآخرين فى جميع شؤون الحياة.

ورد فى رسالة الإمام عليه السلام المرقّمة ۷۸ من نهج‌البلاغة تعبيراً أشدّ فى هذا المجال، يقول عليه السلام: «فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَة».

والتوصية السادسة عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۵۸

وهـذا إشارة إلى أنّ التجارب تارة تمنـح الإنسان نفعاً مادياً، وأخرى نفعاً معنوياً، وأنّ أفضل التجارب هو ما نفع الإنسان على المستوى المعنوى والأخلاقى.

وفى كلمات الإمام عليه السلام القصار: «لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ»[۷۹۰].

وفى التوصية السابعة عشر يقول عليه السلام: «بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً».

والفرصـة يعنى توفير المقـدّمات للتوصّل إلى المقصود، وأحياناً يكون للإنسان مقصـد مهمّ ولكن لم تتوفّر مقـدّماته، وفجأة وفى لحظة تتهيّأ وتتوفّر هـذه المقـدّمات، فحينئذٍ ينبغى عليه المسارعة فى الاسـتفادة من هذه اللحظة قبل فوات الأوان، وإيصال نفسه إلى المقصد، فـإذا غفـل عن ذلك وأفلت الفرصـة من يـديه، فربّما لا تتوفّر أبـداً فى المسـتقبل تلك الظروف لتحقيق الغايـة والوصول إلى الهـدف، والفرص مثل الرياح الموافقـة التى تهبّ باتّجاه المقصد، فلو لم ينتفع الملّاح فى السـفينة الشـراعية من هذه الفرصة، فربّما يبقى ساعات وأيّاماً على سطح البحر دون أن يتحرّك فى المسير الصحيح، ويتحوّل ضياع تلك الفرصة إلى غصّة.

وجاء فى الحديث المشهور عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا»[۷۹۱].

وورد فى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله قال: «مَنْ فُتِحَ لَهُ بابٌ مِنَ الْخَيْرِ فَلْيَنْتَهِزْهُ فَإِنَّهُ لا يَدْرى مَتى يُغْلَقُ عَنْهُ»[۷۹۲].

وقـد وردت بهـذا المضـمون روايـات كـثيرة عـن المعصـومين عليهم السـلام وفى عبـارات الأعـاظم، ونختم هـذا الفصـل بحـديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «أَشَدُّ الْغُصَصِ فَوْتُ الْفُرَصِ»[۷۹۳].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۵۹

وفى التوصية الثامنة عشر يقول الإمام عليه السلام: «لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَؤوبُ».

وهاتان الجملتان بمثابـة العلّة للتوصـية بالمبادرة واسـتغلال الفرص قبل فوات الأوان، لأنّ الإنسان إنّما يصل إلى مقصوده فيما لو سـعى لتوفير الأرضيـة اللازمة والظروف المناسـبة للنجاح، وفى غير هذه الصورة فإنّ سـعيه سيكون عقيماً، وكلمة «غائب» يمكن أن تشير إلى الفرص الضائعة التى لا تعود أبداً، وفى ذات الوقت يمكن أن تكون توصـية مستقلّة وإشارة إلى أنّ الإنسان لا ينبغى أن يتوقّع أن يصل إلى نتيجة من سعيه وعمله دائماً، وببيان آخر أن لا يصاب باليأس والقنوط ممّا يواجهه من إخفاقات فى حركة الحياة.

نفحات الولاية ؛ ج۹ ؛ ص۵۵۹

ى الوصية التاسعة عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ».

والمقصود من الزاد هنا هو زاد التقوى والمتاع لسفر الآخرة، فلو أنّ الإنسان أضاع هذا الزاد فإنّه سيفسد معاده وتضيع آخرته.

وفى التوصية العشرين يقول: «وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ».

وذلك إشارة إلى أنّ الإنسان عندما يقدم على أىّ عمل، يجب أن يتدبّر فى عاقبته، ولا يتحرّك فى طريق ويقوم بعمل دون تفكير ومحاسبة، فلو كانت عاقبته حسنة فإنّه يقدم عليه وإلّا فلا.

وجاء فى غرر الحكم عن الإمام أميرالمؤمنين علىّ عليه السلام هذه العبارة مع إضافة، يقول: «وَلِكُلِّ أمْرٍ عاقِبَةٌ حُلْوَةٌ اوْ مُرَّةٌ»[۷۹۴].

وفى التوصية الحادية والعشرين يقول الإمام عليه السلام: «سَوْفَ يَأْتِيکَ مَا قُدِّرَ لَکَ».

والمقصود أنّه لا ينبغى أن يعيش الإنسان الحرص بدون مبرّر، وهذا لا يعنى أنّ الإنسان يترك السعى لطلب المعاش وتحسين ظروف الحياة، بل الغرض من ذلك أن

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۶۰

يجتنب الجهد العقيم والسعى غير المثمر، وجميع الروايات التى تشير إلى تقدير الرزق، ناظرة إلى هذا المعنى.

وفى التوصية الثانية والعشرين يضيف الإمام عليه السلام: «التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ[۷۹۵]».

فالتاجر لا يـنتفع ويربح من تجارته دائماً، وكما يقال إنّ التجارة نوع من الحظّ، ومن هنا فالإنسان ينبغى أن يتحلّى بالشجاعة ويتوكّل على اللّه ولا يخشى من الأضرار المحتملة ولا يفقد أمله من مواجهة الضرر والخسارة، فالتاجر يجب أن يسعى ويبذل جهده فى هذا السبيل مع التدبّر فى معطيات هذا المسير ومخاطره، ولكن إذا واجه ضرراً وخسارة، فلا ينبغى له أن يتألم ويحزن.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة إشارة إلى الأبعاد المعنوية للتجارة، لأنّ التاجر تتلوّث أمواله أحياناً بالحرام وتواجه سعادته الخطر من ذلك، وعلى ضوء ذلك يجب عليه الانتباه من الوقوع فى هذه الأخطار وخاصّة فى عصرنا الحاضر الذى ازدادت فيه الأموال الحرام والتجارة غير المشروعة وأحياناً تسدل الأرباح الوفيرة حجاباً على عقل الإنسان وتقود التاجر إلى التورّط فى مهاوى الذنوب والانحراف.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستعرض التوصية الثالثة والعشرين ويقول: «وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ».

إشارة إلى أنّ الإنسان لا ينبغى أن ينظر إلى كمية الأعمال والأفعال، بل المهمّ الكيفية والنوعية، فكم من الأعمال القليلة وبكيفية أفضل وإخلاص أوفر تعطى ثماراً أكثر، يقول القرآن الكريم: «الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»[۷۹۶].

وهنا احتمال آخر فى تفسير هذه الجملة، وهى أنّ الإنسان لا ينبغى أن يهتمّ فى حياته المادّية بزيادة رأس ماله وثروته، وربّما يكون الرأسمال القليل حلالًا

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۶۱

وطاهراً، وفى التالى ينمو ويزداد بشكل أكبر، يقول القرآن الكريم: «وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِّباً لِّيَرْبُوَا فِى أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَما آتَيْتُم مِّنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ»[۷۹۷].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يطرح التوصية الرابعة والعشرين ويقول: «لَا خَيْرَ فِى مُعِينٍ مَهِينٍ ۷۹۸]، وَلَا فِى صَدِيقٍ ظَنِينٍ ۷۹۹]»، لأنّ الصديق المهين إذا كان يعيش الحقارة والدناءة فإنّ عمله هذا سيكون مقترناً غالباً بالمنّ، مضافاً إلى أنّ شخصية الإنسان ستواجه الاهتزاز فى أنظار الناس، لأنّه يتخّذ من الشخص الدنىء معيناً ورفيقاً، والصديق المتّهم وإن أدّى حقّ الصداقة والزمالة، فإنّه يتسبّب فى توجّه التهمة إلى صديقه ويسىء إلى سمعته، وهنا ينبغى على العاقل أن يغضّ نظره عن معونته وعطائه.

وفى التوصيۀ الخامسۀ العشرين يقول الإمام عليه السلام: «سَاهِلِ [۸۰۰] الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَکَ قَعُودُهُ».

وهو إشارة إلى أنّه من الممكن أن لا تعود مثل هـذه الفرصـۀ فى المسـتقبل، ويحتمل أيضاً فى تفسـير هـذه الجملۀ أنّ الدهر إذا تعامل معك من موقع المداراة فعليك أن تداريه أيضاً وكما قال الشاعر:

إذا الدَّهْرُ أعْطاكَ الْعِنانَ فَسِرْ بِهِرُوَيْداً وَلا تَعْنَفْ فَيُصْبِحُ شامِساً

وفى التوصيۀ السادسۀ والعشرين يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ».

فأحياناً تتوفّر نعم كثيرة لـدى الإنسان، ولكن حالـۀ الطمع وطلب المزيـد تدفعه من أجل اكتساب المزيد من النعم والثروات، أن يخاطر بحياته وبإمكاناته، وهذا العمل يتقاطع مع العقلانيۀ، من قبيل أنّ الإنسان يضع ماله بيد أشخاص لا يعرفون

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۵۶۲

شيئاً من أمر التجارة والمضاربـۀ، طمعاً فى ما وعـدوه من أرباح وفيرة، فتكون النتيجـۀ أنّه ليس فقط لا يربـح شـيئاً، بل يفقد أصل رأس ماله أيضاً.

وأخيراً وفى التوصـيۀ السابعـۀ والعشـرين (فى هـذا المقطع من الوصـيّۀ) يقول الإمـام عليه السـلام: «وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَـحَ [۸۰۱] بِکَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ».

اللجاج هو أن الإنسان يصـرّ على كلامه الباطل أو سـلوكه المنحرف الـذى ثبت له بطلانه، خوفاً من اهتزاز شخصـيته أمام الآخرين، فى حين أنّ الإنسان فى مثل هذه الموارد لو تعامل مع الحقيقۀ من موضع التواضع والإذعان لها، فإنّه سـيكسب المزيد من السمعۀ فى أنظار الناس.

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «إِيَّاکَ وَاللَّجَاجَةَ فَإِنَّ أَوَّلَهَا جَهْلٌ وَآخِرَهَا نَدَامَةٌ»[۸۰۲].

وفى حديث آخر يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «لا مَرْكَبَ أَجْمَحَ مِنَ اللَّجاجِ»[۸۰۳].

والحقيقۀ أنّه لو قرأ الإنسان هذه الوصايا السبع والعشرين فقط فى هذه الوصيۀ والتى وردت بعبارات موجزة وعميقۀ المحتوى، وتحرّك على مستوى تطبيقهـا وتجسـيدها فى واقع الممارسـۀ والعمـل، فسوف يعيش السـعادة المنشودة، ولو أنّ المجتمع جسّـد هـذه المواعظ والنصائح فلا شكّ أنّ مثل هذا المجتمع سيعيش الحيويۀ والنشاط والسعادة والإزدهار.

نفحات الولايۀ، ج۹، ص: ۵۶۳

القسم الخامس والعشرون

اشارة

احْمِلْ نَفْسَکَ مِنْ أَخِيکَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّين، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّکَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْکَ وَإِيَّاکَ أَنْ تَضَعَ ذلِکَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ. لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِکَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَکَ، وَامْحَضْ أَخَاکَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّى لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً. وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَکَ، فَإِنَّهُ يُوشِکُ أَنْ يَلِينَ لَکَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّکَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ. وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيکَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِکَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذلِکَ يَوْماً مَا. وَمَنْ ظَنَّ بِکَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ.

الشرح والتفسير: الإحسان فى مقابل الإساءة!

ينطلق الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الوصية لبيان وظيفة الإنسان فى مقابل إخوانه وأصدقائه وكيفية التواصل معهم من موقع حسن الخلق، وذلك بتقديم عدّة توصيات، يقول بدايةً:

«احْمِلْ نَفْسَکَ مِنْ أَخِيکَ عِنْدَ صَرْمِهِ ۸۰۴] عَلَى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ ۸۰۵] عَلَى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۶۴

اللَّطَفِ ۸۰۶] وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ ۸۰۷] عَلَى الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّکَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْکَ».

فى هذه التوصية يحذّر الإمام عليه السلام ولده من الردّ بالمثل فيما يواجهه من نفور ولامبالاة من أصدقائه، وضمناً يوصيه بستّ جمل بليغة تتضمّن بلاغة الجناس، بأنّ الردّ بالمثل من شأنه أن يهدّد أساس المودّة والصداقة بين الأصدقاء، فيفقد المرء صديقه بسبب ذلك، ولكن كلّما تعامل مع الإساءة بالإحسان ومع اللامبالاة بالمودّة، فسوف يدرك صديقه خطأه ويخجل من نفسه ويتحرّك على مستوى جبر الخلل وتقوية وترسيخ دعائم المحبّة والمودّة أكثر فأكثر.

والعبارات التى يستخدمها الإمام عليه السلام فى هذه الفقرات تمثّل فى الحقيقة شرحاً لما ورد فى القرآن الكريم فى قوله: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَکَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَميمٌ* وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظيم»[۸۰۸].

ورغم أنّ هذه الآية نزلت فى مورد الأعداء، ولكن ممّا لا شك فيه أنّها صادقة على الأصدقاء أيضاً، فسيرة النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وأئمّة الهدى عليهم السلام وعلماء الدين الكبار تشير إلى هذه الحقيقة أيضاً إلّافى موارد استثنائية، وأنّهم كانوا لا يواجهون العدوان والإساءة من الأصدقاء والأعداء بالمثل، إلّافى موارد خاصّة ونادرة.

وبما أنّ بعض السذّج وذوى الفكر الضيّق ربّما يسيئون هذا السلوک الإنسانى معهم، فالإمام عليه السلام استثنى هذه الفئة من هذه القاعدة وقال: «وَإِيَّاکَ أَنْ تَضَعَ ذَلِکَ فِى غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ».

والفرق بين جملة «وَإِيَّاکَ أَنْ تَضَعَ ...» وجملة «أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ ...» أنّ الجملة الثانية

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۶۵

تشير إلى الأشخاص الذين يعيشون الحقد والعناد، وأنّ الاحسان إليهم فى مقابل إساءتهم قد تتسبّب فى زيادة جرأتهم وعدوانهم، فيكون الإحسان إليهم كالإحسان إلى الذئب، ولكنّ الجملة الاولى ناظرة إلى الأشخاص الذين لا يعيشون مثل هذه الحالة، ولكن ربّما يقودهم الإحسان إليهم فى مقابل إساءتهم أن يتصوّروا خطأً أنّهم أخيار وأنّ عملهم جيّد وليس فيه إشكال.

والتعبير ب «احْمِلْ فى بداية هذه التوصية إشارة إلى أنّ عملية الإحسان فى مقابل الإساءة وإن كانت صعبة على الإنسان، ولكن ينبغى عليه أن يتحمّل ذلک ويحمل هذه القضية على نفسه.

ويقول الإمام عليه السلام فى التوصية الثانية: «لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِکَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَکَ».

فهذا العمل يعدّ من جملة النفاق، حيث يطرح الإنسان المودّة مع صديقه ومع عدوّ صديقه أيضاً، فهذا هو اسلوب الأشخاص الذين لا يعيشون واقع الصداقة وحقيقة المودّة، وغرضهم من ذلک الانتفاع والمصلحة الشخصية من كلا الطرفين، فلا يمتنعون فى هذا السبيل من الوقوع فى مثل هذا التناقض والسلوک والعواطف.

وطبعاً هذا فى مورد تكون عداوة العدوّ ناشئة من ظلمه وعدوانه، لا أنّ الصديق مقصّر وقد ارتكب إساءة فى حقّه بحيث أدّى ذلک إلى معاداته.

وكذلک يصدق هذا الكلام فى مورد لا يكون الغرض من إقامة علاقة مع عدوّ الصديق إصلاح ذات البين، فإن كان المقصود من المودّة معه إصلاح ذات البين فإنّه ليس فقط عمل غير ذميم بل عمل إنسانى ممدوح.

وممّا يجدر ذكره أنّ توصية الإمام عليه السلام فى هذا الباب لا تتناول الأشخاص فقط، بل تشمل الفئات والشعوب والدول أيضاً، رغم

أنّ الكثير من الدول فى العالم المعاصر يطرحون المودّة والصداقة مع كلا طرفى النزاع دون أن يقصدوا من ذلك المصالحة بينهما، بل هدفهم من ذلك استغلال هاتين الدولتين المتخاصمتين لضمان

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۶۶

مصالحهم الشخصيه، فيقيمون روابط سياسية واقتصادية مع الأصدقاء ومع الأعداء على حدّ سواء، واللافت للنظر أنّهم لا يخفون ذلك، بل يصرّحون بإقامة مثل هذه العلاقة العميقة معنا، وكذلك مع أعدائنا فى ذات الوقت.

ففى روايـة أنّ رجلًا قـدم على أميرالمؤمنين عليه السلام فقال: ياأميرالمؤمنين إنّى احبّك واحبّ فلاناً، وسمّى بعض أعـدائه فقال عليه السلام: «أمّا الآنَ فأنتَ أعْوَر، فإمّا أنْ تَعْمى وإمّا أن تُبْصِر»[۸۰۹].

وفى بعض الروايات أنّه ذكر معاوية.

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قاله له رجل: إنّ فلاناً يواليكم إلّا أنّه يضعف عن البراءة من عدوّكم، فقال الإمام عليه السلام: «هَيْهَاتَ، كَذَبَ مَنِ ادَّعَى مَحَبَّتَنَا وَلَمْ يَتَبَرَّأْ مِنْ عَدُوِّنَا»[۸۱۰].

ويقول القرآن الكريم مخاطباً النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشيرَتَهُم»[۸۱۱].

ثمّ يقول الإمام عليه السلام فى هذه الفقرة من الوصيّة: «وَامْحَضْ [۸۱۲] أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً».

وهو إشارة إلى أنّ بعض الأصدقاء يمتنعون أحياناً من بذل النصيحة خوفاً من إزعاجنا وامتعاضنا فيخفون الحقائق عنّا، فهؤلاء فى الواقع ليسوا مخلصين فى نصحهم ومودّتهم، لأنّه لو نصحوا شخصاً وحذّروه من مغبّة عمل معين واستاء مؤقتاً من ذلك، ولكنّه سلم من خطر أو ضرر بسبب هذه النصيحة، فإنّ ذلك أفضل بكثير

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۶۷

من اختيار السكوت وتركه يواجه المشاكل والأخطار بسبب ذلك السلوك الخاطىء.

وللأسف فإنّ الكثير من الأشخاص، وبسبب هذه الملاحظات، يصرفون النظر عن تقديم النصح فى الموقع المناسب، فيبتلون بسخط اللَّه تعالى والخيانة لخلق اللَّه.

ولذا يقول الإمام الصادق عليه السلام فى حديث شريف: «أَحَبُّ إِخْوَانِى إِلَيَّ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِى»[۸۱۳].

يعنى أنّ الإنسان العاقل ليس فقط لا يتألم من بيان عيوبه من قِبل الآخرين، بل ينبغى أن يحثّهم على بيانها وذكرها، ليستطيع إصلاح العيب والخلل.

وفى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «اتَّبِعْ مَنْ يُبْكِيكَ وَهُوَ لَكَ نَاصِحٌ وَلَا تَتَّبِعْ مَنْ يُضْحِكُكَ وَهُوَ لَكَ غَاشٌّ»[۸۱۴].

ويقول الإمام عليه السلام فى التوصية الرابعة: «وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّى لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً[۸۱۵]».

فهنا نرى أنّ الإمام عليه السلام يشبّه الغضب بالدواء المرّ الذى يتجرّعه الإنسان على مضض ولهذا يتناوله جرعة بعد جرعة، ولكنّ عاقبته الشفاء من المرض، ونهايته حلوة ومريحة، وهكذا حال كظم الغيض وتجرّع الغضب، لأنّه ينقذ الإنسان من الوقوع فى هوّة الندم والخجل والأضرار الكثيرة المترتّبة على حالة السخط والحدّة فى صورة عدم ضبط الإنسان لنفسه.

وفى الكافى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «قالَ لِى أبى: يَا بُنَيَّ مَا مِنْ شَيْءٍ أَقَرَّ لِعَيْنِ أَبِيكَ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ عَاقِبَتُهَا صَبْرٌ وَمَا مِنْ شَيْءٍ يَسُرُّنِى أَنَّ لِى بِذُلِّ نَفْسِى حُمْرَ

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۶۸

النَّعَمِ»[۸۱۶].

وفی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام یقول: «مَنْ کَظَمَ غَیْظاً وَلَوْ شاءَ أنْ یُمْضِیَهُ أمْضاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ یَوْمَ الْقِیامَةِ رِضاهُ»[۸۱۷].

ویضیف الإمام علیه السلام فی التوصیهٔ الخامسهٔ ویقول: «وَلِنْ ۸۱۸] لِمَنْ غَالَظَکَ ۸۱۹] فَإنَّهُ یُوشِکُ أنْ یَلِینَ لَکَ».

الکثیر من الأشخاص یسلکون سبیل العنف فی حال الغضب والسخط، وتزداد وتیرهٔ الحدّهٔ وتتفاقم حالهٔ الغضب حتّی تصل أحیاناً إلی مواقع الخطر، ولکن إذا أمسک الإنسان زمام نفسه وکظم غیظه وضبط حدّهٔ الغضب بإرادته، وبدلًا من استخدام آلیهٔ العنف فإنّه یستخدم آلیهٔ المداراهٔ والانعطاف، فلیس فقط تزول حالهٔ الصراع والنزاع مع الطرف الآخر، بل تحلّ المودّهٔ والمحبّهٔ محلّها، کما ورد هذا المعنی فی القرآن الکریم حیث تؤکّد الآیهٔ الشریفهٔ علی لزوم الإحسان فی مقابل الإساءهٔ لتحویل الطرف المقابل من عدوّ إلی صدیق وتقول: «ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَبَیْنَهُ عَداوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمیمٌ* وَما یُلَقّاها إلَّا الَّذینَ صَبَرُوا وَما یُلَقّاها إلَّا ذُو حَظٍّ عَظیمٍ»[۸۲۰].

ثمّ یتحدّث الإمام علیه السلام فی التوصیهٔ السادسهٔ عن التفضّل علی العدوّ، ویقول:

(وَخُذْ عَلَی عَدُوِّکَ بِالْفَضْلِ فَإنَّهُ أحْلَی الظَّفَرَیْنِ»، أی الظفر عن طریق العنف والقوّهٔ، والظفر عن طریق المحبّهٔ والمودّهٔ.

وهذه الجملهٔ فی الحقیقهٔ تأکید علی ما تقدّم من توصیات، ولکنّها تتمتع ذات جمال أخّاذ فی صیاغتها، یقول: ربّما تنتصر علی عدوّک بآلیات العنف والقوهٔ، ولکن

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۵۶۹

یمکنک أن تحقّق هذا النصر من خلال إبراز المحبّهٔ والمودّهٔ، ومعلوم أنّ الطریق الثانی أحلی وأحسن عاقبهٔ، لأنّک فی المستقبل ستعیش فارغ الذهن عن خوف الانتقام من العدوّ فی حین أنّک إذا انتصرت علیه باستعمال القوّهٔ، فسوف تتوقّع فی کلّ وقت ظهور نزاع جدید باستخدام القوّهٔ من قِبل العدوّ، وبعبارهٔ أخری، أنّ العدوّ سیبقی فی الطریق الأول عدوّاً، فی حین أنهّ فی الطریق الثانی سیتبدّل إلی صدیق.

ینقل أبوالفرج الاصفهانی فی کتاب مقاتل الطالبیین قصّهٔ جمیلهٔ فی هذا المجال عن الإمام موسی بن جعفر علیه السلام قال: إنّ رجلًا من ولد عمر بن الخطّاب کان بالمدینهٔ یؤذی أبا الحسن موسی علیه السلام ویسبّه إذا رآه، ویشتم علیاً علیه السلام، فقال له بعض جلسائه یوماً: دعنا نقتل هذا الفاجر، فنهاهم الإمام موسی الکاظم علیه السلام عن ذلک أشدّ النهی وزجرهم أشدّ الزجر، فسأل عن العمری، فذُکر له أنّه یزرع بناحیهٔ من نواحی المدینهٔ، فرکب إلیه فوجده فی مزرعهٔ له، فدخل المزرعهٔ بحماره، فصاح به العمری:

لا ـ توطئ زرعنا، فتوطّأه أبو الحسن موسی علیه السلام بالحمار حتّی وصل إلیه، فنزل وجلس عنده وباسطه وضاحکه وقال له: «کَمْ غَرِمتَ فِی زَرْعِکَ هذا؟» (أی صرفت علی زرعک).

فقال العمری: مائهٔ دینار، فقال الإمام علیه السلام: «وَکَمْ تَرجُو أن تُصِیبَ؟» (أی تربح من الزرع).

قال العمری: لست أعلم الغیب، فقال الإمام علیه السلام له: «إنّما قُلتُ لکَ کَمْ تَرجُو أن یَجِیئُکَ فِیه»، قال العمری: أرجو أن یجیئنی فیه مائتا دینار.

فأخرج الإمام الکاظم علیه السلام صرّهٔ فیها ثلاثمائهٔ دینار وقال: «هذا زَرْعُکَ علی حَالِهِ واللَّهُ یَرزُقُکَ فِیه ما تَرْجُو».

فقام العمری فقبّل رأسه وسأله أن یصفح عن فرطه (أی ما فرّط فی حقّ الإمام علیه السلام) فتبسّم إلیه أبو الحسن علیه السلام وانصرف.

قال الراوی: وراح الإمام الکاظم علیه السلام إلی المسجد فوجد العمرّی جالساً، فلمّا

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۵۷۰

نظر إلیه قال: «اللَّهُ أعْلَمُ حَیْثُ یَجْعَلُ رِسالَتَه»، فوثب أصحاب العمرّی إلیه، فقالوا له:

ما قصّتک، قد کنت تقول غیر هذا؟

قال العمرى: قد سمعتم ما قلت الآن، وجعل يدعو لأبى الحسن الإمام الكاظم عليه السلام، فخاصموه وقاطعهم، فلمّا رجع أبوالحسن عليه السلام إلى داره، قال لجلسائه الذين سألوه فى قتل العمرى: أيّما كان خيراً، ما أردتم أو ما أردت، إنّنى أصلحت أمره بالمقدار الذى عرفتم وكفيت شرّه ۸۲۱].

ويقول الإمام فى التوصية السابعة: «وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْماً مَا».

وهذا يعنى أنّ الإنسان ينبغى أن يسير فى مسألة الصداقة فى خطّ الاعتدال، ولا يفشى أسراره كلّها لصديقه، حتّى لا يتورّط فيما لو انقلبت هذه الصداقة يوماً ما إلى عداوة ويواجه الضرر والخسارة، وهكذا بالنسبة للحالة الأخرى، فالإنسان لا ينبغى أن يقطع صلته تماماً مع صديقه ويهدم كلّ الجسور خلفه، لأنّه ربّما يندم ويريد إعادة العلاقة مع الطرف الآخر، ولكنّه لا يجد طريقاً لمدّ جسور الثقة معه.

وهذا المضمون ورد بشكل أشمل فى كلام آخر لأميرالمؤمنين عليه السلام (طبقاً لما ورد فى بحارالانوار) قال: «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا»[۸۲۲].

وينقل ابن أبى‌الحديد عن بعض العلماء هذا المعنى ببيان آخر قال: «إذا هَوَيْتَ فَلا تَكُنْ غالِياً وَإذا تَرَكْتَ فَلا تَكُنْ قالِياً»[۸۲۳].

وفى التوصية الثامنة والأخيرة من هذا المقطع من الوصية يقول الإمام عليه السلام: «وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ».

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۵۷۱

وهو إشارة إلى أنّ شخصاً لو كان يظن أنّك من أهل الخير والبذل والعطاء وطلب منك شيئاً أو استعان بك على أمر، فعليك أن تصدّق ظنّه وتثبت له أنّك عند حسن ظنّه.

ومثل هذا السلوك يمتاز بمزيّتين؛ فمن جهة يكرّس حسن ظنّ الناس بالشخص، ومن جهة أخرى يقوده حسن الظنّ فى طريق الخير والصلاح.

وقد يصادف كثيراً أن يأتى بعض الأشخاص لدى المرء ويقولون: إننا نواجه مشكلة ونعتقد أنّ حلّها بيدك، فهنا يجب على الإنسان أن يسعى لحلّ مشكلة هؤلاء ويؤكّد لهم صدق ظنّهم ولا يتبدّل حسن الظنّ إلى سوء الظن.

***

نفحات الولايهٔ، ج۹، ص: ۵۷۳

القسم السادس والعشرون

اشارة

وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ. وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ، وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ، وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ. وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ.

الشرح والتفسير: لا تضيّع حقّ الصديق

فى هذا المقطع من الوصية النيّرة يطرح الإمام عليه السلام كما فى القسم السابق، ستّ نصائح مهمّة فى عبارات موجزة لولده الإمام الحسن المجتبى عليه السلام يقول أوّلًا: «وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ بَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ».

وهذا يعنى أنّ جميع الإخوة والأصدقاء يتوقّعون من أصدقائهم احترام حقوقهم، ولو شاهدوا خلاف ذلك فإنّ من شأنه تعريض أركان

الاخوّة والصداقة إلى الاهتزاز، ولكن للأسف فإنّ بعض الأشخاص يفكّرون بخلاف هذه الطريقة ويحسبون أنّهم إذا لم يراعوا حقّ الأخ والصديق والرفيق، فذلك ليس بالأمر المهمّ ويتوقّعون من الطرف الآخر القبول والإغماض، في حين أنّ هذا خطأ كبير، لأنّ مثل هذه السلوكيات الجافّة وهذه اللامبالاة للحقوق إذا لم تؤثّر عاجلًا في إضعاف وشائج المودة، فإنّها بالتدريج تعرّض دعائم الاخوّة والصداقة إلى الضعف والاهتزاز.

وهذا الكلام من قبيل ما لو أنّ شخصاً مديناً لعدد كبير من الناس وكان يسعى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۷۴

لإرضاء الآخرين وكسب ودّهم، ويغفل عن مطالبات أصدقائه ويعتقد أنّ هذه اللامبالاة بحقوقهم لا يترتّب عليها شيء.

وفي التوصية الثانية يضيف الإمام عليه السلام ويقول: «وَلَا يَكُنْ أَهْلُکَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِکَ».

أي لا ينبغي أن تتعامل مع أهلك بآليات الإساءة بحيث يقفون منك موقفاً سلبياً ويتمنّون موتك وزوال النعمة عنك.

وهناك احتمال آخر في تفسير هذه الجملة أيضاً، وهو أنّه لا ينبغي أن تبذل كلّ اهتمامک لأصدقائك وتغفل عن أهلك واسرتک وتتركهم يعيشون في حالة من الشقاء والمعاناة.

الكثير من الأشخاص يصرفون جلّ أوقاتهم مع الأصدقاء والزملاء ويعيشون معهم غالباً في أجواء المحبّة ويبذلون لهم كلّ مساعدة، ولكنّهم يحرمون اسرتهم من هذه المودّة والصفاء أو القيام بمسؤوليات الاسرة.

ونقرأ في حديث عن الإمام أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام قال: «يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يُوَسِّعَ عَلَى عِيَالِهِ كَيْلَا يَتَمَنَّوْا مَوْتَه»، فجدير بالإنسان عندما يحصل على نعمة أن يرفه على عياله ولا يضيّق عليهم، حتّى لا يقفوا منه موقفاً سلبياً.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام في ذيل هذه الرواية يقول: «الأسيرُ (العائلة) عيالُ الرَّجُلِ وَيَنبغِي للرّجلِ إذا زِيدَ فِي النّعمةِ أنْ يَزيدَ اسَراءَهُ فِي السِّعةِ عَليهُم، ثمّ قال: إنّ فُلاناً أنعَم اللَّهُ عَليهِ النّعمةَ، فَمَنعَها اسَراءَهَ وَجَعلَها عندَ فُلانٍ، فَذهبَ اللَّهُ بِها»[۸۲۴].

وفي التوصية الثالثة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ[۸۲۵] عَنْکَ».

لأنّ مثل هذه العلاقة تقود الإنسان إلى مهاوي الذلّة والمهانة، وصحيح أنّه طبقاً للتوصيات السابقة فأنّه يجب على الإنسان أن يحتفظ بالعلاقة مع الشخص الذى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۷۵

قطع علاقته به؛ ولكن هذا المعنى إنّما يصحّ فيما لو وقف الطرف المقابل موقفاً إيجابياً منه، ولكن إذا تعامل معه من موقع التحقير واللامبالاة، فلا ينبغي على الإنسان أن يذّل نفسه ويتوجّه إليه ويتوسّل به، بل ينبغي أن يغضّ النظر عنه، فالإنسان كما يقول المثل يجب أن يضحّى لمن يهتمّ به.

وفي التوصية الرابعة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوکَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِکَ مِنْکَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْکَ عَلَى الْإِحْسَانِ».

وهذا إشارة إلى أنّ الطرف المقابل مهما سعى لقطع العلاقة معك، فينبغي عليك أن تصرّ على توثيقها وتقويتها، وكلّما رأيت منه إساءة، فيجب أن تقابلها بالإحسان.

وطبعاً هذا في مورد الأشخاص الذين تؤثّر فيهم المحبّة والإحسان، وعلى هذا الأساس لا تتنافى مع الجمل السابقة.

وفي التوصية الخامسة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْکَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَکَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِکَ».

وهذا يعني أنّ الإنسان لا ينبغي أن يستاء كثيراً في مقابل حالات الظلم التي يواجهها، ولا يدع لليأس أن يتخّذ طريقاً له في حياته، بل عليه أن يعتقد بأنّ هذا الظالم الذى قصّر في حقّه وظلمه، إنّما يظلم نفسه وينفع المظلوم في نهاية المطاف حيث يحمل وزر المظلوم على ظهره يوم القيامة، والحقيقة أنّ ضرر الظلم يصيب مرتكبه ويخفّف عن كاهل المظلوم وزره.

وهذا الكلام يشبه ما ورد فى الروايات فى باب الغيبة وأنّ أحد العلماء سمع رجلًا يغتابه ويتحدّث عنه بسوء، فأهدى إليه هدية، فتعجّب ذلك الرجل فقال له هذا العالم: سمعت أنّ حسناتك قد انتقلت إلى صحيفة أعمالى، وقد تقبّلتَ سيّئاتى، وأنا بدورى أشكرك على هذه الخدمة وهذا الإحسان إليَّ.

وهذا الكلام لا يعنى أنّ الإنسان ينبغى أن يلتزم الصمت فى مقابل الظالمين ولا يتصدّى لهم بالاعتراض، لأنّنا نعلم أنّ شعار الإسلام هو: «لا تَظْلِمُونَ وَلا

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۷۶

تُظْلَمُونَ»[۸۲۶]، ونعلم أنّ الإمام علىّ عليه السلام ذكر فى وصيته لأبنائه وهو فى فراش الشهادة قال: «كُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً»[۸۲۷] بل المقصود أنّ الإنسان عندما يقع مظلوماً ولا يملك القدرة على ردّ الظلم والتصدّى للظالم، لا ينبغى له اليأس والتشاؤم وإطلاق كلمات اللعن والتأوّه، والشاهد على هذا الكلام ما ورد فى الحديث المشهور عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله عندما سرق أحدهم عقد عائشة وأخذت عائشة بلعن السارق، فقال لها النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «لا تَمْسَحِى عَنْهُ بِدُعائِكَ»[۸۲۸]، أى لا تدرئى عنه العذاب بهذا اللعن، فعليك بضبط نفسكِ ولسانكِ عنه واعلمى أنّه قد ظلم نفسه وإنّ اللَّه تعالى سيثيبكِ على صبركِ وتحمّلكِ.

وهنا توجد نقطة دقيقة ينبغى الالتفات إليها، وهى أنّ الظالم كالسارق مثلًا، عندما يورد الضرر والخسارة المالية على المظلوم من جهة ويجعله يعيش الحزن والألم الروحىّ من جهة أخرى، فإنّ اللَّه تعالى يثيبه على كلا الأمرين، ولكن لو دعا المظلوم على من ظلمه وأخذ يلعنه باستمرار ليشفى غيض قلبه ويهدّىء من غيضه، فمن الطبيعى أن يخفّف ذلك من عذاب الظالم.

فيتبيّن ممّا تقدّم أنّ ما ذهب إليه بعض شرّاح نهج‌البلاغة كابن أبى‌الحديد من اتّخاذ السكوت فى مقابل ظلم الظالمين كقاعدة كليّة، خطأ كبير، بل ينبغى القول أنّ هذا المورد يعدّ استثناءً وناظر إلى موارد خاصّة، وأمّا الأصل الكلّى فى الإسلام فهو أن لا يقع الإنسان مظلوماً ولا ظالماً.

وأخيراً يقول الإمام عليه السلام فى التوصية السادسة من هذا المقطع من الوصية:

«وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ».

وهذه النصيحة مقتبسة من القرآن الكريم حيث قال: «هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۷۷

الْإِحْسانُ»[۸۲۹].

وذهب بعض الشرّاح إلى أنّ هذه الجملة لا تعتبر كلاماً مستقلًّا، وقالوا: إنّها استمرار للتوصية السابقة، وأنّ الإمام عليه السلام يقول: إنّ الظالم إنّما يضرّ نفسه وينفعك، ومن هذا منطلق فالشخص الذى أوصل إليك النفع لا ينبغى أن تسوءه (من خلال الدعاء عليه وإظهار التظلّم بشكل متكرّر).

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۷۹

القسم السابع والعشرون

اشارة

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ. مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. اسْتَدِلَّ عَلَى

مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ؛ وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَاتَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِى إِيلَامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ، الْبَهَائِمَ لَاتَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ. اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُوم بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ. مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ، وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ. الْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ. مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ. وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ، بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ. قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً. لَيسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ. أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ. مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ.

لَيسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ. إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ. إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ.

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۸۰

الشرح والتفسير: ثمان وعشرون موعظة أخرى

فى المقطع السابع والعشرين من هذه الوصية الرائعة يشير الإمام عليه السلام إلى ثمان وعشرين موضوعاً مهمّاً من موقع النصيحة، وبذلك يزيد من ثراء وعمق هذه الوصية.

الاولى: يتحدّث الإمام عليه السلام أولًا عن مسألة الرزق حيث يتحرّك الكثير من الناس طلباً له بحالة من الحرص والولع ويقول: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ».

وهذه الجملة، بقرينة ما ورد فى جملة مشابهة لها وأكثر تفصيلًا فى كلمات الإمام عليه السلام القصار[۸۳۰]، ناظرة إلى أنّ الإنسان لا ينبغى أن يعيش الحرص والوله بالرزق، ولا ينبغى أيضاً أن يتكاسل فى طلبه.

ومراد الإمام عليه السلام من الرزق الذى يجب على الإنسان أن يطلبه، هو الكسب والعمل اليومىّ فى طلب المعاش، مثل، الزراعة، الصناعة، التجارة وأمثال ذلك، ومراده من الرزق الذى يطلب الإنسان ويأتيه وإن أعرض عنه الإنسان أو لم يطلبه، الهدايا أو التجارة والأرباح التى يصيبها الإنسان من غير احتساب، وعلى ضوء ذلك إذا ضاق عليه القسم الأول من الرزق فلا ينبغى أن ييأس من لطف اللَّه بل يتوقّع، مع استمراره فى الحركة والسعى والكسب، أن يرزقه اللَّه من حيث لا يحتسب.

وعندما يرى الإنسان فى عالم الخلقة موارد كثيرة من الرزق من النوع الثانى، فإنّ هذا الأمل سيقوى ويتعمّق فى قلبه، ففى يوم كان الجنين فى عالم الرحم يأتيه رزقه من خلال المشيمة والحبل السرّى المتّصل برحم الام، وبعد ولادته يأتيه رزقه من صدر امّه لإدامة حياته وما يحتاجه بعد ولادته من الغذاء، يقول القرآن الكريم: «وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي‌الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى‌اللَّهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ»[۸۳۱].

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۵۸۱

وعندما يسير الإنسان فى خطّ التقوى والورع ويجتنب الأموال والأرباح المحرّمة، فإنّ اللَّه تعالى يبشّره بسعة الرزق ويقول: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب»[۸۳۲].

ومن جهة أخرى نشاهد فى عالم الخلقة وجود أرزاق كثيرة وضرورية لحياة الإنسان وبشكل وافر، بمقتضى رحمانية اللَّه تعالى لجميع أفراد البشر أعمّ من المؤمن والكافر، فنور الشمس وبركات الأرض، والأمطار، والاوكسجين فى الفضاء ممّا لا يستطيع الإنسان فى الحياة بدونها، فكلّها من الأرزاق والنعم الإلهيّة التى أنعم اللَّه بها على الإنسان ممّا لم يطلبه ويتحرّك فى سبيل كسبه.

ويقول القرآن الكريم أيضاً: «وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ»[۸۳۳].

ويقول أيضاً: «وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها»[۸۳۴].

وبالرغم من أنّ هذه الآية الشريفة، ومن خلال القرائن الموجودة فيها، ناظرة فقط إلى قطرات المطر، ولكن الآية السابقة لها تملك مفهوماً أوسع وأشمل بحيث تشمل نور الشمس الذى يعدّ العلّة الرئيسية لكلّ حركة فى الكرة الأرضية كحركة الرياح والهواء الذى يعتبر مصدر حياة جميع الأحياء أيضاً.

وفى تاريخ القدماء نقرأ أحياناً بعض القصص التى تكشف عن الحوادث التى تعتبر مصداقاً حيّاً فى الرزق الذى يطلب الإنسان دون أن يطلبه أو يتوقّعه، فمن ذلك ما ذكره ابن أبى‌الحديد فى شرحه لهذه الجملة عن عماد الدولة (من سلاطين آل بويه): والقصة هى: دخل عماد الدولة أبوالحسن بن بويه مدينة شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت وأجلاه عنها، وهو فقير لا مال له، فساخت إحدى قوائم فرسه فى الأرض، فنزل عنها وابتدرها غلمانه وخلّصوها، فظهر لهم فى ذلك الموضع نقب

وسيع، فأمرهم بحفره، فوجدوا فيه أموالًا عظيمة وذخائر لابن ياقوت، ثمّ استلقى يوماً آخر على ظهره فى داره بشيراز التى كان ابن ياقوت يسكنها، فرأى حية فى السقف، فأمر غلمانه بالصعود إليها وقتلها، فهربت منهم ودخلت فى خشب الكنيس، فأمر من يقلع الخشب وتستخرج وتقتل، فلما قلعوا الخشب وجدوا فيها أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت.

واحتاج أن يفصّل ويخيط ثياباً له ولأهله، فقيل: هاهنا خيّاط حاذق كان يخيط لابن ياقوت، وهو رجل منسوب إلى الدين والخير، إلّاأنّه أصمّ لا يسمع شيئاً أصلًا، فأمر بإحضاره فاحضر وعنده رعب وهلع، فلمّا أدخله إليه كلّمه فقال: أريد أن تخيط لنا كذا وكذا قطعة من ثياب، فارتعد الخياط واضطرب كلامه وقال: واللَّه يا مولانا ما له عندى إلّاأربعة صناديق ليس غيرها، فلا تسمع قول الأعداء فىَّ، فتعجّب عماد الدولة وأمر بإحضار الصناديق فوجدها كلّها ذهباً وحلية وجواهر، وديعة لابن ياقوت [۸۳۵].

الثانية: والنصيحة الثانية للإمام عليه السلام يقول: «مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى».

وهذا إشارة إلى أنّ الأشخاص من ضعفاء النفوس عندما يحتاجون إلى هذا وذاك، فإنّهم يعرضون حاجتهم بالكثير من حالات الذلّة بحيث تتعرّض شخصيتهم للاهتزاز، ولكن عندما يعيشون القدرة وعدم الحاجة، فإنّهم يتعاملون مع المحتاجين من موقع الازدراء واللامبالاة، وكلا هاتين الصفتين من الرذائل الأخلاقية، فينبغى للإنسان عند الحاجة أن يحفظ مناعة الطبع والعزّة فى نفسه، وعند القدرة وعدم الحاجة لا يبخل فى اللطف وإظهار المحبّة والتواضع للمحتاجين.

وذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة[۸۳۶] إلى أنّ هذا الكلام ناظر إلى مورد فى الآية

الشريفة: «حَتَّى إذا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِريحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها ريحٌ عاصِفٌ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرينَ* فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إذا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ»[۸۳۷].

وعلى هذا الأساس فإنّ العبارات أعلاه ناظرة إلى العلاقة بين الخلق والخالق فى حين أنّ الأمر ليس كذلك، والظاهر أنّ هذه الجمل والعبارات ناظرة إلى العلاقة بين المخلوقين أنفسهم، لأنّ الخضوع أمام الخالق محمود على أيّة حال.

ولا- يخفى أنّ المراد من الخضوع فى هذا المورد ليس هو التواضع المعقول، بل التواضع المقترن بالذلّة والحقارة، والمراد من الجفاء، إظهار الكراهية وعدم الاحترام، وأمثال ذلك.

ونقرأ فى الحديث الشريف عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعَ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِمَا عِنْدَ اللَّهِ وَأَحْسَنُ مِنْهُ تيهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ اتِّكَالًا عَلَى اللَّهِ»[۸۳۸].

ويقول أحد الشعراء فى هذا المجال:

خُلْقانِ لاأرْضاهُما لِفَتى تيهُ الْغِنى وَ مَذَلَّةُ الْفَقْرِ

فَإذا غَنَيْتَ فَلا تَكُنْ بَطِراًوَ إذا افْتَقَرْتَ فَتِه عَلَى الدَّهْرِ

الثالثة: «إِنَّمَا لَکَ مِنْ دُنْيَاکَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاکَ ۸۳۹]».

وهذا إشارة إلى أنّ الثروات الدنيوية تذهب وتروح، وأحياناً قد يترك الإنسان آلافاً مؤلّفة منها للورثة، ويبقى حسابها ووزرها عليه فى الآخرة، ويتمتّع بها الآخرون فى الدنيا، فهذه الأموال لا تعتبر مالًا حقيقياً للإنسان، والمقدار الذى يعتبر

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۸۴

ملكه فى‌الحقيقة هو ما استخدمه لإصلاح آخرته وأرسله أمامه إلى حياته بعد الموت.

ونقرأ فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام قوله: «لِكُلِّ امْرِئٍ فِى مَالِهِ شَرِيكَانِ:

الْوَارِثُ وَالْحَوَادِثُ»[۸۴۰].

ونقرأ فى حديث آخر عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِى مَالِى وَهَلْ لَکَ مِنْ مَالِکَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ وَمَا عَدَا ذَلِکَ فَهُوَ مَالُ الْوَارِثِ»[۸۴۱].

يعنى أنّ المال الحقيقى للإنسان يكون على قسمين: قسم يستفيد منه بمصارفه ومعيشته فى الدنيا، وقسم آخر يجعله ذخيرة لآخرته ويوم معاده، وسائر أمواله موهومة ربّما تسلب منه فى بعض الحوادث، ولو بقى منها شىء فهو نصيب الورثة.

الرابعة: يشير الإمام عليه السلام هنا إلى نقطة أخرى، وجدير بالإنسان أن يتذكّرها كلّ يوم وهى قوله: «وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ ۸۴۲] مِنْ يَدَيْکَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْکَ».

الكثير من الأشخاص عندما يفقدون المال والمقام الذى كانوا يملكونه تراهم يرتفع عويلهم وصراخهم ويتحسّرون على ذلك أيّاماً طوالًا، وربّما شهوراً وأعواماً مديدة، ولكنّهم بالنسبة للأموال والمقامات التى لم يحصلوا عليها أبداً لا يعيشون تجاهها هذه الحالة، فى حين أنّنا إذا دقّقنا النظر فإنّ كلا الحالين سواء، فالتقدير الإلهىّ قضى بأنّ هذا المال أو المقام يكون من نصيبى لمدّة سنة أو عدّة سنوات ثم يزول إلى غيرى، بحسب الأسباب الظاهرية أو الغيبية، فما الفرق بين البقاء والحدوث؟ فإذا لم نجزع على غير المقدّر حدوثه فلماذا لا نعيش هذه الحالة فى حال فقدانه؟ وطبعاً أحياناً يتصوّر الإنسان أنّ هذا المال أو المقام لابدّ أن يبقى عنده

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۸۵

أكثر من المدّة المقدرّة، ولكن بحسب عالم الأسباب والمسبّبات فإنّ هذا التصوّر مجرّد خيال باطل، والتأسّف عليه مثل تأسّف الشخص الذى رأى فى منامه أنّه يملك مالًا ومقاماً وعندما يستيقظ فإنّه يجزع على ما ذهب من يده فى منامه.

الخامسة: يشير الإمام عليه السلام فى هذه التوصية إلى نقطة مهمة أخرى ويقول:

«اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ».

وهذا يعنى وجود سلسلة من القوانين الكلية الحاكمة على عالم الوجود وعلى المجتمعات البشرية، ولها فى كلّ زمانٍ مصاديق فى أرض الواقع، ولكن كلّ هذه المصاديق والموارد مشمولة لتلك القوانين الكلية، وعليه فالإنسان بإمكانه- من خلال مطالعة حالات القدماء والمجتمعات الماضية بل وحتّى مراجعة ما واجهه من حوادث ومتغيّرات فى سنوات عمره الماضية- أن يتعرّف على المسائل التى تواجهه فى الحاضر والمستقبل من خلال المقارنة، لئلّا يتورّط بعناصر الخطأ والضرر والخسران.

وهذا الكلام يشبه ما ورد عن الإمام عليه السلام فى خطبة أخرى حيث قال: «عِبَادَ اللَّهِ إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِى بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِين»[۸۴۳]، وهذا الكلام متداول فى تعبيراتنا اليوميّة حينما نقول: التاريخ يعيد نفسه.

وفى ذيل الخطبة يتحدّث الإمام عليه السلام عن كيفية تكرار التاريخ، وقد تحدّثنا فى شرحها تحت ستّة عناوين: الزوال السريع للنعم، عدم ثبات الحوادث فى العالم، عدم وفاء الدنيا وأهلها، الغرور والإخفاقات الناشئة عنه، تغيّر الحالات والروحيات لدى الأفراد بحيث إنّ أقرب المقرّبين ربّما يتحوّل إلى أخطر الأعداء، وأخيراً أنّ الذى يبقى ويعدّ ذكرى جميلة للإنسان فى هذا العالم، أشكال الإحسان

والمحبّة والإخلاص، وما يؤدّي إلى اللعن ويسبّب السمعة السيئة للإنسان هو الظلم والجور وسلب الحقوق.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۸۶

أجل، هذه الأمور كلّها تتكرّر حالياً كما وقعت في السابق، ومن هنا فإنّ العقلاء من الناس هم الذين يطالعون ماضيهم وتاريخ القدماء من بعمق وتمعّن ويستلهموا منها الدروس والعبر.

السادسة: يقول: «وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَاتَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ، وَالْبَهَائِمَ لَاتَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ».

وهو إشارة إلى أنّ الناس على نحوين: فبعض يتّعظ بأدنى تفكير وتنبيه ويلتفت إلى خطئه ويسعى لإصلاحه، هؤلاء هم الأشخاص الواقعيون، ولكنّ البعض الآخر لا يتّعظ بسهولة إلّاإذا وصلت السكّين إلى العظم فما لم يشعروا بالتوبيخ والتحقير والذمّ أو يواجهوا الضرر والخسارة نتيجة أعمالهم، فإنّهم لا يرعون عن غيّهم، فهؤلاء حالهم حال الأنعام والبهائم التي لا تتعلّم إلّابالضرب، ولا تسكن وتترك الجموح إلّا بالسوط.

السابعة: يشير الإمام عليه السلام إلى توصية مهمّة أخرى ويقول: «اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ».

إشارة إلى أنّ الحياة عبارة عن مجموعة من الحوادث المرّة والحلوة، وكلّ وقت تهجم على الإنسان الغموم والأحزان، تارة على شكل هموم اجتماعية وأخرى سياسية وثالثة مادية أو عائلية، فالإنسان إذا رضخ وخنع أمام هجوم هذه الهموم فسوف يعيش الإخفاق والفشل في حياته، ولكنّه يستطيع التغلّب على هذه الهموم والتحدّيات بالاستعانة بقوّتين:

الاولى: قوّة الصبر والاستقامة، وأن يعلم أنّه سواء صبر أو لم يصبر، فإنّ مثل هذه الحوادث خارجة عن اختياره، فإذا كانت هذه الهموم ناشئة من جهله وتساهله في الأمور، فعليه تغيير المسار وإصلاح الخلل، فلو التزم بآلية الصبر فإنّه يكون عند اللَّه مأجوراً وسليماً أيضاً، وإن ترك الصبر فإنّ حوادث الدهر تستمرّ في مسيرتها ويفقد الأجر والثواب.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۸۷

والأخرى، أن يجّهز الإنسان نفسه بقوّة اليقين، وعلى حدّ تعبير القرآن الكريم يقول: «قُلْ لَّنْ يُصيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا»[۸۴۴]، ومعلوم أنّ التقديرات الإلهيّة تنطلق من موقع الحكمة والتدبير الإلهي، سواء علمنا بهذه الحقيقة أم لم نعلم، وبالتالي نستطيع بهاتين القوّتين التصدّي لواردات الهموم وتسكين خلجات النفس وترطيب أجواء الحياة.

ينقل المرحوم مغنية في شرحه لنهج البلاغة قصة مفيدة ويقول: ومن جملة ما قرأت أنّ رجلًا أحس بضعف وانحراف في صحّته، ولمّا عرض نفسه على الطبيب قال له أنّه مريض بسرطان الدم، وأنّه يموت بعد مدة قصيرة، فلم ينزعج وتحدّى المرض، وقال في نفسه: لا فرق بين أن أموت فجأة أو بإنذار سابق، ومضى في عمله كأن لم يكن شيء، استمرّ فيه حتى الآن، ولو أنّه استسلم للوساوس لخارت قواه وأمسى طريح الفراش ينتظر الموت في كلّ لحظة، ومعنى هذا أنّه يموت في اليوم مرّات، ولمّا قيل له: كيف تعمل وأنت على هذه الحال؟ قال: اجرّب الحكمة القائلة: خير الدواء العمل ۸۴۵].

ويقول لقمان الحكيم أيضاً في مواعظه الجميلة لولده: «وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»[۸۴۶].

الثامنة: يقول: «مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ».

وهذا يعني أنّ إحراز السلامة في الدين والدنيا يمرّ من خلال الاعتدال، وأنّ كلّ إسراف وتفريط يقود الإنسان إلى دروب الضلالة والشقاء والإخفاق، وأنّ الصراط المستقيم الذي ندعو اللَّه تعالى كلّ يوم في صلاتنا أن يهدينا إليه، هو صراط الاعتدال والاستقامة.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۸۸

التاسعة: «وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ ۸۴۷]». أي حاله حال أقرباء الإنسان وأرحامه.

وهذا إشارة إلى أنّ رابطة الصداقة تارة تكون قوية إلى درجة أنّها تحلّ محلّ رابطة القرابة والنسب، بل تارة تكون أقوى من ذلك، وهناك مثل معروف يقول أنّه سئل شخص: أيّهما أفضل الصديق أم الأخ؟ فقال: الأخ الصديق أفضل، وهناك مثل معروف أيضاً لدى

العرب حيث يقال: «الصَّديقُ نَسيبُ الرُّوحِ وَالْأَخُ نَسيبُ الْبَدَنِ»[۸۴۸].

وقـد نسـتوحى من هـذا الكلام هـذه النتيجـة، وهى أنّ ذات الحقوق المقرّرة للأرحام والأقرباء ينبغى أخذها بنظر الاعتبار من الأصدقاء الجيّدين أيضاً.

العاشرة: يقول: «وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ».

وهو إشـارة إلى الأشـخاص الـذين يظهرون المحبّـة والعشق والعلاقـة فى حضور المرء، ولكن ربّما لا يكون ذلك علامـة حقيقيـة على صـدقهم وصـداقتهم، فالصـديق الواقعى إنّمـا يتبيّن فى غياب صـديقه ويراعى حقوقه فى غيبته كما فى حال حضوره ويتحـدّث عنه فى غيبته كما يتحدّث أمامه.

الحادية عشر: يشير الإمام عليه السلام فى هذه التوصية إلى نقطة مهمّة أخرى ويقول:

«وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى»، فكما أنّ الأعمى لا يرى ما حوله من الأجسام حتّى لو كانت قريبة منه ومجاورة له، فإنّ اتّباع الدنيا والسالكين فى خطّ الأهواء محرومون من الحقائق الجليّة، لأنّ حجاب الهوى يعتبر أشدّ الحجب ظلاماً ولا توجد آفة للمعرفة أضـرّ وأسوء من هذه الآفة.

يقول القرآن الكريم: «أ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْديهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أ فَلا تَذَكَّرُونَ»[۸۴۹].

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۸۹

ويصـرّح الإمام عليه السـلام فى رسالة له لأحد أصـحابه بهذه الحقيقة ويقول: «فَارْفُضِ الدُّنْيا فَإِنَّ حُبَّ الدُّنْيا يُعْمِى وَيُصِمُّ وَيُبْكِمُ وَيُذِلُّ الرِّقَاب»[۸۵۰].

الثانية عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ».

وهو إشارة إلى أنّ العلاقات الجسديـة لا تـدلّ دائماً على العلاقـة القلبية والتجانس الفكرى بين الأقرباء، فأحياناً يكون البعيد أقرب إلى الإنسان من قريبه، فالمهمّ وجود ارتباط قلبىّ وعلاقـة روحيـة بين الطرفين، فلو لم يجـد الإنسان مثل هـذه العلاقـة لدى أرحامه وأقربائه فبإمكانه البحث عنها فى غيرهم.

ونقرأ فى القرآن الكريم: «يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ»[۸۵۱].

الثالثة عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ».

الأمر الـذى يخرج الإنسان من عتمـة الغربة، المحبّة، والأشـخاص الذين لا يعيشون المحبّة من قبل الآخرين يواجهون الوحشة والوحدة، ولهـذه الغربـة عوامل مختلفـة، فأحياناً يقود الكبر والغرور والأنانية صاحبها إلى زاوية الوحدة وتبعد الناس عنه، وأخرى عناصـر الحسـد والحدّة، وتارة حالات عدم الوفاء وعوامل أخرى.

ومن هـذا المنطلق، ولأجل التخلّص من وحشـة الغربـة، ليس لنا طريق سوى تطهير نفوسـنا من الرذائل الأخلاقية والتحلّى بالفضائل التى توفّر لنا أصدقاءً مخلصين وإخوة صالحين.

الرابعة عشر: فى هذه التوصية يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة فى غاية الأهميّة ويقول: «مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ»، لأنّ طريق الحقّ واسع ومعبّد ونورانى، أمّا

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۹۰

طريـق الباطـل فملىء بـالعثرات والمطبّات والمنعطفـات الخطيرة والمـآزق الضـيّقة، والسـائرون فى طريـق الحقّ يتحرّكون بسـرعة نحو مقصـدهم وهـدفهم، لأنّ عالم الوجود يتحرّك فى طريق الحقّ، ومَن كان منسـجماً مع عالم الوجود فإنّه يتحرّك فىهذا المسـير أيضاً، ولكن السـالكون طريق الباطـل كمن يسـبح عكس التّيـار، ومَن يخـالف مسار الطبيعـة وقوانين الوجود، يوقع نفسه فى مآزق عمليـة ولا

يصل إلى نتيجة.

أضف إلى ذلک فإنّ مسير الحقّ كالجادّة الواضحة التى نصبت عليها علامات المرور التى ترشد السالكين فيه لمعرفة وضع المسير، ولكن طريق الباطل يفتقر لكلّ هذه الأمور، ولذلک يقود السالک فيه إلى مهاوى الضلالة ومتاهات الحيرة.

الخامسة عشر: يشير الإمام عليه السلام فى هذه الفقرة إلى موضوع معروف ومهمّ ويقول: «وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ».

وبهذا المضمون وردت عبارة أخرى للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى كتاب غرر الحكم، قال: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَءً عَرَفَ قَدْرَهُ وَ لَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ»[۸۵۲].

والتجربة تشير إلى أنّ الأشخاص الذين تجاوزوا حدودهم ولم يعرفوا قدرهم، أثاروا الناس ضدّهم، بحيث أنّ الناس ليس فقط لم يعترفوا لهم بمقامهم الزائف الذى يدّعون، بل سلبوا منهم موقعهم الذى يستحقّون، والسبب واضح، لأنّ الناس يرون فى هؤلاء المدّعين الطوبائيين والذين يعيشون حالات النرجسية والغرور أنّهم أشخاص انتهازيون وخونة، وأحياناً حمقى وسفهاء، ولهذا لا يحسبون لهم أية قيمة، ولكنّ الأشخاص الذين يعيشون الصدق والنزاهة والقانعين بحقّهم، يعتبرهم الناس شخصيات محترمة ويمنحونهم المكانة اللائقة ويراعون حقّهم فى واقع الحياة الاجتماعية.

السادسة عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَکَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ».

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۹۱

وهو إشارة إلى أنّ التمسّک بالوسائل الماديّة واللجوء إلى المخلوقين والطلب منهم، طريق لا يعتمد عليه، وربّما لا يوصل إلى نتيجة مطلوبة، فهذه الأسباب لا يوثق بها فى تحصل المراد، والأصل الثابت والأساس القائم والخالد هو البارى تعالى الذى لا يمكن لأىّ شيء مخالفة مشيئته وقدرته المطلقة، وعلى ضوء ذلک فالشخص الذى يلتجيء إلى الذات المقدّسة فإنّه يلتجيء إلى حرز حريز وملاذ أمين غير قابل للزوال والاهتزاز، وهذا هو التوحيد الأفعالى الذى يقرّر: «لا مُؤَثِّرَ فِى الوُجودِ إلّا اللَّهُ». والقرآن الكريم يقول: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ باللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَکَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى [۸۵۳].

وذهب بعض إلى أنّ المراد من الوسيلة الإيمان والقرآن الكريم، ولكن من الواضح أنّ الجملة لها مفهوم واسع تشمل جميع الوسائل التى تقرّب الإنسان إلى للّه تعالى.

ومعلوم أنّ هذا الكلام لا يعنى أن نترک عالم الأسباب والمسبّبات، ولا يعنى أيضاً ترک التوسّل بالمعصومين، لأننا إذا توسّلنا بالمعصومين وبالأسباب الطبيعية وكان نظرنا إلى ما ورائها من القدرة الإلهيّة، وكان نظرنا إلى مسبّب الأسباب، فمثل هذا التوسّل وطلب الشفاعة من هؤلاء الأولياء يمثّل تقرّباً إلى اللّه تعالى وهو من المصاديق البارزة للعلاقة الوثيقة مع الذات المقدّسة.

السابعة عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَمَنْ لَمْ يُبَالِکَ فَهُوَ عَدُوُّکَ».

وطبعاً فالمراد الشخص الذى يرتبط مع الإنسان بنحو من الارتباط، وربّما ادّعى المحبّة والمودّة، ولكن عندما تحين لحظة الدفاع عن الحقّ والعرض والسمعة، فإنّه يواجه هذا الموقف من موقع اللامبالاة وبحالة من البرودة، وهذا يشير إلى أنّه غير صادق فى إظهار المحبّة والصداقة، بل يضمر نوعاً من العداوة فى داخله ونفسه.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۹۲

وعلى ضوء ذلک، فلا داعى لحمل هذه الجملة على أنّها ناظرة للعلاقة بين الناس والحكّام، والقول بأنّ بعض الناس- فيما يتّصل بالشأن السياسىّ والاجتماعى وما إلى ذلک- لا يتحرّكون على مستوى الانسجام مع برنامج الحكومة ويتعاملون مع الخطط والمناهج التى تقرّرها الدولة من موقع اللامبالاة وعدم الاهتمام، فهؤلاء فى الحقيقة مخالفون لهذا النظام وأعداء لذلک المنهج [۸۵۴]، وبخاصّة إذا رأينا أنّ أجواء هذه الوصية لا يرتبط بمقولة العلاقة بين الحاكم والمحكومين، بل بين أفراد المجتمع أنفسهم.

الثامنة عشر: يقول الإمام عليه السلام فى هذه التوصية المثمرة: «قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً».

وهذا يعنى أنّ الإنسان أحياناً يسعى للتوصّل إلى هدفه وغايته، ويطمع أن ينال بغيته، في حين أنّ اللّه تعالى يعلم أنّ ذلك مضرٌّ له وفيه خسارته، وبذلك يحرمه من تحقيق غايته، وفى هذا المورد، وإن لم يصل هذا الشخص ظاهراً إلى غايته وهدفه، إلّا أنّه في الحقيقة حصل على الهدف الحقيقى وهو السلامة والمنفعة الحقيقية الكامنة في وجدانه، وعلى ذلك لا ينبغى أن يعيش الإنسان حالات اليأس وفقدان الأمل فى عدم الوصول إلى النتيجة ويحسب أنّ ذلك خسارة وإخفاقاً، بل تعدّ هذه الظاهرة فى كثير من الموارد نجاحاً وتوفيقاً.

التاسعة عشر: يقول الإمام عليه السلام: «لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ».

هناك احتمالات عدّة فى تفسير هذه العبارة: الاحتمال الأول: إنّه إذا كنت تعتقد بأنّ البعض ذو شخصية كاملة حسب الظاهر ولا نقص ولا عيب فيه، فلا تغترّ بهذه الحالة الظاهرية، لأنّه ربّما كانت هناك عيوب خفيّة لم تظهر لك، وعليه ينبغى الاحتياط على كلّ حال، وهذا ما ذهب إليه جماعة من شرّاح نهج‌البلاغة.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۹۳

الاحتمال الثانى: إنّ الإنسان إذا رأى فى نفسه أنّه سليم من كلّ عيب ونقص ظاهراً، فلا يغترّ بذلك، لأنّ الكثير من العيوب لا تظهر للإنسان إلّابالتأمّل والتفكّر والدقّة، كما ذكروا فى حالات بعض العظماء أنّه بعد ثلاثين سنة مثلًا انتبه فجأة ومن خلال حادثة معيّنة، إلى وجود بعض العيوب فى نفسه.

الاحتمال الثالث: إذا كانت لديك عيوب ونقاط ضعف وترى أنّك أدنى وأقلّ مرتبة من الآخرين بسبب ذلك، فلا تقلق، بل عليك بإصلاح نفسك وسدّ هذه الثغرات فى شخصيتك، لأنّ الآخرين يملكون عيوباً أيضاً ويسعون لإخفائها عن الآخرين.

وبديهىّ أنّ هذه التفاسير لا تتقاطع فيما بينها، وربّما تجتمع كلّها فى مفهوم هذه الجملة، وإن كان التفسير الأول أنسب حسب الظاهر.

العشرون: يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ».

يعنى إذا فقدت فرصة فلا تحزن، لأنّ الفرصة أحياناً تأتى بشكل مفاجىء بحيث أنّ الإنسان لا يوفّق للاستفادة منها، رغم أنّه لابدّ من السعى الجادّ لاستغلال الفرص، ولو أنّ الناس استطاعوا استغلال جميع الفرص بدون أن تزول فرصة، فإنّ حياة البشر ستتغيّر وتختلف كثيراً عمّا عليه الآن.

وهذ الكلام النورانى يمنحنا درساً كبيراً، لأننا كثيراً ما رأينا بعض الأشخاص الذين يعيشون التحسّر طيلة عمرهم على فقدان فرصة، ويقولون: إذا كنت قد عملت ذلك العمل فى اليوم الفلانى فسأكون كذا وكذا، أو ليت أنّى كنت مستيقظاً فى تلك الساعة ولم أفقد تلك الفرصة، هؤلاء وبدلًا من التفكير بالمستقبل يتحسّرون دائماً على الماضى.

الحادية العشرون: فى هذا التوصية يطرح الإمام عليه السلام موضوعاً مهمّاً آخر ويقول: «وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ».

وهذا يشير إلى لزوم التدبّر فى أعمال أهل الخبرة والمطّلعين من الناس، فلا تتصوّر أنّهم يتحرّكون فى مسيرهم بدون ارتكاب خطأ، وكذلك عليك بالدقّة فى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۹۴

أعمال الجهلة والسطحيين من الناس ولا تظنّ أنّهم جميعاً على خطأ فى مسيرهم، فربّما لا يصل الخبير إلى مقصوده بسبب بعض العوامل، فى حين يحصل الجاهل على غايته.

ونقرأ فى رواية عن الإمام علىّ بن موسى الرضا عليهما السلام عن آبائه عن جدّه رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «كَلِمَتَانِ غَرِيبَتَانِ فَاحْتَمِلُوهُمَا، كَلِمَةُ حِكْمَةٍ مِنْ سَفِيهٍ فَاقْبَلُوهَا وَكَلِمَةُ سَفَهٍ مِنْ حَكِيمٍ فَاغْفِرُوهَا»[۸۵۵].

وجاء فى الأمالى، فى ذيل هذا الحديث: «فَإِنَّهُ لَاحَكِيمَ إِلَّا ذُو عَثْرَةٍ وَلَا سَفِيهَ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ»[۸۵۶].

الثانية والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّکَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ».

وهـذا يعنى أنّ الخير يحتـاج إلى مقـدّمات، وأنّ الإنسان يجب أن يتعجّل هـذه المقـدّمات، فى حين أنّ الشـرّ فى كلّ زمان وفى جميع الظروف لا يحتاج إلى مقدّمات بل هو ممكن الصدور من أىّ شخص.

وربّما يراد من هـذه العبارة أنّك لا تتعجّل فى العقوبة والتوبيخ والمؤاخذة لو كنت على حقّ، لأنّ ذلك متيسّـر فى كلّ زمان، وستشـعر بالندم بعد ذلك، فى حين أنّ طريق العودة موصد.

ويحتمل أيضاً فى تفسـير العبارة مورد البحث أنّ هـذه الجملة كناية عن ترك كلّ أشـكال الشـرّ والإساءة بدون حقّ، من قبيل أن يقول أحـد الأشـخاص مثلًا: لقـد تـألمت بشـدّة إلى درجـة أنّنى قرّرت الانتحـار، فنحن نقول له: إنّ الانتحار لا يفوتك، وأنّه ممكن فى كلّ زمـان، فتعال لنعثر على طريق لإصـلاح مشـكلاتك والبحث عن الحلول الناجعـة لها، ومعلوم أنّ مفهوم هـذا الكلام لا يعنى أنّ عليك الانتحار بعد ذلك، بل هو كناية عن تركه.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۹۵

الثالثة والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ».

هـذه العبارة إشارة إلى أنّه كما ينتفع الإنسان من الارتباط مع العقلاء فإنّه ينتفع كذلك من القطيعة مع الجّهال (وطبقاً لهذا المعنى فإنّ الجاهل والعاقل بمنزلة المفعول لقطيعة وصلة).

ويحتمل أيضاً فى تفسـير هـذه العبارة أنّ الجاهل إذا قطع علاقته معك فلا تحزن لذلك لأنّه بمنزلة أن يقوم عاقل بايجاد رابطة معك، وبالتالى فأنت تتخلّص من شرّه وضرره بقطع علاقته معك (وطبقاً لهذا التفسير فإنّ الجاهل والعاقل فى هذه العبارة لهما موقع الفاعل).

الرابعة والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ».

والجملـة الاولى إشارة إلى أنّ أىّ نعمة من نعم الدنيا لا يمكن أن يعتمد عليها، فأشـكال النجاحات، والانتصارات، والثروات، والجمال والحُسن، المحبوبيـة والمكانـة الاجتماعيـة، وسائر المواهب المادية الأخرى معرّضة للزوال فى كلّ لحظة، والأشـخاص الذين يعتمدون على هـذه الأمور فسوف يواجهون فجأة خيانـة الـدنيا لهم، وسـتؤخذ منهم هـذه النعم والمواهب واحدة بعد الأخرى، وهذا من قبيل أنّ الإنسان يبنى فى مسير السيل داراً فخمة، يحتمل فى كلّ لحظة أن يأتى سيل عظيم ويجرف معه تلك الدار وينقضها، وعلى ضوء ذلك فالمراد من الزمان هنا الدنيا والمواهب المادية والنعم الدنيوية.

والمراد من الجملـة الثانيـة أنّ الإنسـان يرى أهميّـة الـدنيا فى عينه ويتحرّك لتحصـيل النعم الماديـة فيهـا بأىّ طريق كان وبأيّـة وسـيلة، وبديهى أنّ مثل هذا الشخص سيعيش الذلّة والمهانة ويسقط فى أنظار الناس.

ويحتمـل أيضـاً فى تفسـير الجملتين أعلاه أنّ المقصود من الزمان، أهل الزمان، يعنى أنّ الإنسان لا ينبغى له أن يثق بجميع أهل زمانه، لأنّه ربّما يطعن من الخلف ويواجه الغدر والخيانة، والمراد من تعظيم الزمان هو تعظيم أهل الزمان وبخاصّة

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۵۹۶

أصـحاب القدرة والثروة وصـنّاع القرار والمسـتكبرين، فالاعتماد على هؤلاء وتعظيمهم يتسـبّب فى إضـعاف شخصية الإنسانة وسقوطه، ولـذلك نرى أنّ الكثير من الأكابر والعلماء السابقين كانوا يحرّمون الاقتراب من الحكّام الجائرين والطواغيت، ويحـذّرون الشخصـيات المحترمة من إقامة علاقة وطيدة مع السلاطين، وما نرى فى ترجمة حال الأكابر القدماء من شكواهم من فساد الزمان، فمقصودهم فساد أهل زمانهم [۸۵۷].

ونقرأ فى الأشعار المنسوبة لعبدالمطّلب:

يَعِيبُ النَّاسُ كُلُّهُمُ زَمَاناًوَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَاوَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ بِنَا هَجَانَا

وَإِنَّ الذِّئْبَ يَتْرُكُ لَحْمَ ذِئْبٍوَيَأْكُلُ بَعْضُنَا بَعْضاً عِيَاناً[۸۵۸]

الخامسة والعشرون: یقول الإمام علیه السلام فی هذه العبارة من وصیّته الرائعة: «لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ».

وهو إشارة إلی أنّه لا ینبغی للأنسان أن یتوقّع الوصول إلی مقصده وتحقیق هدفه دائماً بحیث لو أنّه لم یحقّق النتیجة المرجوّة یصاب بالیأس، أو أنّ الأشخاص الذین یرتکبون بعض الأخطاء التی تعیقهم عن تحقیق هدفهم، یقعون ضحیّة الذمّ والتقریع والتوبیخ، فالبشر غیر معصوم ویحتمل فی حقّه الخطأ والاشتباه (سوی المعصومین علیهم السلام).

والغرض من هذا الکلام تسلیة الخاطر وتقویة الإرادة من بعض الإخفاقات التی یواجهها الإنسان فی حرکة الحیاة والاحتفاظ بالأصدقاء والمدراء وعدم نبذهم بسبب بعض الأخطاء والهفوات.

ویحتمل أیضاً أنّ المقصود من هذه العبارة أنّ کلّ رامٍ لا یوفّق لإصابة الهدف، بل

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۵۹۷

الرامی الماهر والمجرّب هو الذی ینجح فی إصابة الهدف.

ولا یبعد أن یکون المقصود من هذه العبارة کلا المعنیین المذکورین.

السادسة والعشرون: فی هذه التوصیة المبارکة یتعرّض الإمام علیه السلام لمسألة تغییر الأوضاع وتبدّل الظروف فی زمانه ویقول: «إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ».

وهذا یعنی أنّ أوضاع المجتمع تدور حول محور وضع الحکّام وأصحاب السلطة والقدرة، فلیس فقط أنّ «النّاسُ عَلى دينِ مُلُوكِهِم» یمثّل حقیقة واقعیة، بل إنّ أغلب حرکات وسکنات الناس تدور حول محور نوع الحکومات ونمط إدارة النظام السیاسی، فلو کان الحکّام من أهل الخبرة والتقوی والعدالة، فإنّ الناس یتحرّکون فی خطّ التقوی والعدالة، وإن کانوا من الظلمة والقساة وأهل الجور، فإنّ ذلک سینعکس علی جمیع روحیات المجتمع ونفسیات أفراده، ولهذا السبب کان الأنبیاء الإلهیون یسعون قبل کلّ شیء لإقامة الحکومة العادلة لیتیسّر لهم إصلاح الناس فی ظلّ مثل هذه الحکومة، أمّا الأشخاص الذین یعتقدون بفصل الدین عن السیاسة، فهم بعیدون جدّاً عن الحقیقة والصواب، لأنّ ترویج الدین ونشر التعالیم السماویة لا یمکن بدون إصلاح الحکومة، ومن هنا فإنّ النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله تحرّک علی مستوی تشکیل الحکومة الإسلامیّة فی أوّل فرصة سنحت له لیستطیع التأثیر فی الامّة وتبلیغ الرسالة بشکل صحیح من خلال آلیات القدرة ویعمل علی استبدال الثقافة الجاهلیة بثقافة سلیمة وإنسانیة، وبخاصّة ما نراه فی عالما المعاصر من تأثیر وسائل الإعلام فی أفکار الناس وکذلک البرامج المتعلّقة بالتعلیم والتربیة من المراحلة الابتدائیة إلی المستویات العالیة کلّها بید الحکومات أو العناصر المرتبطة بالحکومة، فهل یمکن بدون الأخذ بزمام هذه الأمور من إصلاح المجتمع وتطهیره من عناصر الفساد والرذیلة؟

ویتبیّن ممّا تقدّم آنفاً أنّ المراد من الزمان، تغییر أفراد المجتمع، والمراد من تغییر السلطان تغییر حالات السلطان.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۵۹۸

قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إذَا صَلَحَا صَلَحَتْ أُمَّتِي وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَتْ أُمَّتِي، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ هُمَا؟ قَالَ الْفُقَهَاءُ وَالْأُمَرَاءُ»[۸۵۹].

وجاء فی بعض المصادر التاریخیة أنّ انوشیروان استدعی یوماً عمّاله علی القری والقصبات وبیده درّة ثمینة یقلّبها، فقال: أیّ شیء أضرّ بارتفاع السواد وادّعی إلی محقّه؟ أیّکم قال ما فی نفسی جعلت هذه الدرّة فی فیه.

فقال بعضهم: انقطاع الشرب، وقال بعضهم: احتباس المطر، وقال بعضهم: استیلاء الجنوب وعدم الشمال، (غلبة ریاح الجنوب وعدم هبوبها من الشمال)، فقال لوزیره (بوذرجمهر): قل أنت فإنّی أظنّ عقلک یعادل عقل الرعیّة کلّها أو یزید علیها، فقال:

تغیّر رأی السلطان فی رعیّته، وإضمار الحیف لهم والجور علیهم.

فقال: للّه‌أبوک بهذا العقل أهّل آبائی أجدادی لما أهّلوک له، فدفع إلیه الدرّة وجعلها فی فیه ۸۶۰].

السابعة والعشرون: یقول الإمام علیه السلام: «سَلْ عَنِ الرَّفِیقِ قَبْلَ الطَّرِیقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ».

وقد أثبتت التجربة صحّة کلام الإمام علیه السلام هذا، فالناس قد جرّبوا ذلک مراراً لأنّ الستار والحجاب یزول غالباً فی السفر وتبرز بواطن الأشخاص ومکنوناتهم، فلو کان رفیق السفر شخصاً وقحاً وغیر متورّع أو کان بخیلًا وسیّء الخلق مع الآخرین، فإنّ ذلک من شأنه أن یسلب الراحة والهناء من أصدقائه فی السفر، وهکذا بالنسبة إلی الجار السیّء فإنّه یسلب الراحة من الإنسان حتّی وهو فی داره.

ونقرأ فی حدیث شریف عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «کانَ إذا سافَرَ یَقُولُ: مَنْ کانَ یُسیءُ إلی جارِهِ فَلا یَصْحَبْنا لِأنّ الْجارَ رَفیقٌ مُلازِمٌ»[۸۶۱].

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۵۹۹

یقول المرحوم التستری فی شرحه لنهج البلاغة نقلًا عن کتاب تاریخ بغداد: کان لمحمّد بن میمون أبی‌حمزة السکری ۸۶۲] (من مشاهیر عصره) جار أراد أن یبیع داره، فقیل له: بکم، قال: بألفین (دینار) عن الدار، وألفین (دینار) عن جوار أبی حمزة، فبلغ ذلک أبا حمزة فوجّه إلیه أربعة آلاف (دینار)، فقال: خذ هذه ولا تبع دارک ۸۶۳].

الثامنة والعشرون: یقول الإمام علیه السلام فی هذه الفقرة الأخیرة من وصیّته الزاخرة بالقیم والنصائح المفیدة: «إِیَّاکَ أَنْ تَذْکُرَ مِنَ الْکَلَامِ مَا یَکُونُ مُضْحِکاً، وَإِنْ حَکَیْتَ ذَلِکَ عَنْ غَیْرِکَ».

لأنّ مثل هذا الکلام یزیل هیبة الإنسان من جهة، ومن جهة أخری یقترن غالباً بالغیبة أو السخریة من الآخرین من ذوی الوجاهة فی المجتمع، ومن هنا سیکون مثل هذا الکلام باعثاً للإضرار بالإنسان فی الدنیا وفی الآخرة، سواء کان هذا الکلام من عنده أو نقلًا عن شخص آخر، فلا فرق فی الغیبة أو السخریة أن تکون من إبداع الشخص نفسه أو حکایة عن غیره.

وطبعاً فإنّ هذا لا یعنی أنّ الإنسان یجب أن یترک کلّ أشکال المزاح المشروع والفکاهة اللطیفة، أو أن یجلس فی المجالس بوجه عبوس ومکفهرّ، لأننا نعلم أنّ النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله وأئمّة أهل البیت علیهم السلام والعلماء الکبار کانوا یمزحون فیما بینهم ویتحدّثون باللطائف والفکاهة أحیاناً، بل وردت التوصیة بالمزاح فی السفر أکثر للتخفیف من ضغط المشاکل والصعوبات التی یواجهها الإنسان فی سفره، یقول العلّامة السید بحر العلوم فی أشعاره الفقهیة:

وَ اکْثِرِ الْمِزاحَ فِی السَّفرِ إذالَمْ یُسْخِطِ الرَّبَّ وَ لَمْ یَجْلِبْ أذیً

وهذا الکلام مقتبس من الحدیث النبویّ الشریف، قال النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله: «وَأَمَّا

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۶۰۰

الَّتِی فِی السَّفَرِ فَبَذْلُ الزَّادِ وَحُسْنُ الْخُلْقِ وَالْمِزاحُ فِی غَیْرِ الْمَعَاصِی»[۸۶۴].

وخلاصة الکلام أنّ هذه الأمور تعتبر حسنة وجمیلة إذا کانت فی حدّ الاعتدال، وإن تجاوزت الحدّ أو أدّت إلی إهانة الآخرین وظهور المتکلّم بمظهر المهرّج فی أنظار الناس أو قاده هذا الکلام إلی ارتکاب الذنوب ممّا یسخط اللّه تعالی؛ فمثل هذا الکلام والمزاح یکون منهّیاً عنه فی الشرع والعرف.

والإنصاف أنّ من بین هذه النصائح الثمانیة والعشرین التی ذکرها الإمام علیه السلام فی عبارات قصیرة وعمیقة المعنی وتمثّل کلّ واحدة منها درساً مهمّاً فی حرکة الحیاة المادیة والمعنویة للإنسان؛ تعتبر من أروع ما ورد فی النصائح والمواعظ وجدیر أن تکتب بماء الذهب وتعلّق أمام أنظار الجمیع، سلام اللّه وصلواته علی روحک الطاهرة وکلماتک الزاهرة یا أمیرالمؤمنین علیه السلام.

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۶۰۱

القسم الثامن والعشرون

اشارة

وَإِيَّاکَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ. وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِکَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِکَ مَنْ لَايُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَکَ فَافْعَلْ. وَلَا تُمَلِّکِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، لَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ. وَلَا تَعْدُ بِکَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعْهَا فِی أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا.

وَإِيَّاکَ وَالتَّغَايُرَ فِی غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذَلِکَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ.

الشرح والتفسير: السلوک العادل والحکيم مع المرأة

وفی القسم الثامن والعشرين من هذه الوصية التاريخية يتحدّث الإمام عليه السلام بالقضايا التاريخية المتعلّقة بالنساء ويوصی ولده بثمان وصايا.

بداية يقول: «وَإِيَّاکَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ ۸۶۵] وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ».

ويبيّن الإمام عليه السلام فی مطاوی هذه النصائح والتوصيات الثمان العلّة وراء هذه التوصيات والتی بإمکانها الإجابة عن جميع الأسئلة وعلامات الاستفهام التی تثار حول هذه التوصيات، فالإمام يقول: لأنّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة (مديرة ومسيطرة).

ومن المعلوم أنّ مثل هذا الکائن اللطيف لا يستطيع أن يکون طرفاً للمشورة فی

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۶۰۲

المسائل المهمة، ومعلوم أيضاً أنّ کلّ حکم عام له استثناءات، وما من عام إلّاوقد خصّ، وفی هذا المورد ثمة نساء يملکن من العزم والإرادة والرأی الثاقب بحيث يوازين الرجال من أهل الخبرة، أضف إلى ذلک أنّ القضايا العاطفية والأحاسيس النفسانية تتغلّب على النساء، وهذا هو الأمر الذی يؤثّر عليهن فی مقام المشاورة.

ثمّ يتعرّض الإمام عليه السلام للتوصية الثانية ويقول: «وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِکَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ».

ومثل هذه التوصية وردت فی الآية ۳۱ من سورة النور: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ».

وهذا يشير إلى حقيقة مخالفة لتصوّر الکثير من الناس، فجميع أشکال الفتنة وحالات الإرباک فی الأخلاق والمجتمع، لا تنطلق من نظر الرجال إلى النساء، بل إنّ الکثير منها ناتج عن نظر النساء إلى الرجال ووسوستهنّ وترغيبهنّ، والإمام عليه السلام قدّم هذه التوصية وأمر بلزوم حجبهنّ لمنع مثل هذه الفتنة.

وبديهی أنّ هذا الأمر السلبی لا يشمل جميع النسوة بل ناظر إلى النسوة الضعيفات الإيمان أو المتحلّلات خلقياً.

وفی التوصية الثالثة يقول: «وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِکَ مَنْ لَايُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ»، فلا ينبغی إدخال الأشخاص غير الموثوقين فی خلقهم والتزامهم الدينی عليهنّ، فذلک أشدّ وأشنع من خروجهنّ إلى الملأ العام.

وفی التوصية الرابعة التی تعتبر تتّمة للتوصية السابقة يقول الإمام عليه السلام: «وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَکَ فَافْعَلْ».

وهو إشارة إلى هذه الحقيقة، وهی أنّ من الضروریّ أن يطلبن حاجتهنّ منک فقط لا من غيرک، وحتّى لو أردن شيئاً من الآخرين فذلک يکون عن طريقک وبواسطتک، أی أنّ أیّ ارتباط بين النساء والآخرين ربّما يتبدّل فی کثير الموارد إلى علاقة فاسدة، ولابدّ من قطع مثل هذا الارتباط، فعليک بتحکيم وتوثيق علاقتک بأهلک

نفحات الولايه، ج۹، ص: ۶۰۳

ونسائک فی جميع الموارد، ومن هذا المنطلق تتمّ الاستجابة من جهة إلى جميع ما يطلبن، ومن جهة أخرى يتمّ قطع الروابط غير السليمة مع الآخرين.

ويستعرض الإمام عليه السلام التوصية الخامسة بقوله: «وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ[۸۶۶]».

وهذا يعنى أنّ النساء وبسبب ما يملكن من الحالات العاطفية واللطائف الروحية لا يستطعن تولى الأمور الصعبة وإدارة القضايا المعقدّة، وعلى ضوء ذلك لابدّ من تحديد دائرة عملهنّ فى المسائل الخاصّة بهنّ لا المسائل المتعلّقة بالآخرين وبخاصّة ما يتّصل بالمناصب الحسّاسة والثقيلة فى المجتمع الإسلامى.

أمّا العلة التى ذكرها الإمام عليه السلام لمثل هذه التوصيات فهى علّة حسّاسة ودقيقة جدّاً تنسجم وتتناغم مع البناء الروحى والجسمى للمرأة، رغم أنّ بعض المتأثّرين بالغرب غير مستعدّين لقبول هذه الحقيقة، ولكنّهم على مستوى العمل يسعون لتجسيد هذه التوصيات فى واقعهم العائلى، حتّى فى الغرب ومع طرح شعار المساواة بين الرجال والنساء لعقود من الزمان فإنّهم على مستوى العمل والممارسة يسلكون سبيلًا آخر، بحيث قلّما تستطيع إمرأة استلام مقاليد الأمور فى المناصب الحسّاسة، ونسبة النسوة اللاتى يحرزن مثل هذه المناصب الحسّاسة إلى النسوة اللاتى لا يستطعن ذلك، ربّما لا تصل حتّى إلى ۵٪.

وخلاصة الكلام أنّ رعاية العدالة بين النساء والرجال ورفع أشكال التمييز والإجحاف رغم أنّه يعتبر حقيقة ملموسة، ولكن لا يمكن تنظيم قوانين المجتمع بحيث تتقاطع مع التكوين النفسى والجسمى للمرأة، وإطلاق الشعارات التى تدعو لمثل هذه المساواة، هى مجرّد شعارات برّاقة ومضلّلة ويقصد بها الرياء والتظاهر ولا تتّصل بالحقائق الموضوعية على أرض الواقع النفسىّ للمرأة.

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۶۰۴

وفى التوصية السادسة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تَعْدُ[۸۶۷] بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا».

وهذا يعنى أنّها كلّما تتعامل مع الآخرين من موقع الاحترام والإكرام ربّما تتولّد علاقة عاطفية بينهما، هذه الرابطة يمكن أن تكون منشأ للفساد فى المستقبل.

وفى التوصية السابعة التى ترتبط بما سبقها من توصية، يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تُطْمِعْهَا فِى أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا»، لأنّ مثل هذه الشفاعات ربّما تكون أيضاً منشأ للعلاقة العاطفية، فيكون ضررها وفسادها أكثر من نفسها.

والخلاصة أنّه لابدّ من حفظ احترام المرأة ولكن بحدودها، ولا تتجاوز إلى غيرها، سواءً على مستوى قبول شفاعتها أو بدون ذلك، لأنّ لهذه الأمور آثاراً سلبية على المستوى النفسىّ وتبعث على تشجيعهن لإيجاد العلاقة مع الآخرين.

ويذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة فى تفسير جملة: «وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا» أنّ المقصود أن لا يحترمها الرجل أكثر من اللازم، بل يقتصر تكريمهنّ بمقدار معيّن، ولكن هذا التفسير لا يتناسب مع سياق هذه الجملة وكلماتها، والظاهر أنّ المراد منها هو ما تقدّم آنفاً.

وفى التوصية الثامنة (والأخيرة فى هذا المقطع من هذه الوصية) يقول الإمام عليه السلام:

«وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ[۸۶۸] فِى غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ ۸۶۹]».

ممّا لا شكّ فيه أنّ كلّ إنسان وبخاصّة النساء، لا يرتكبون مخالفة حفظاً للسمعة، والاهتمام بالوجاهة لدى الناس، ولكن إذا عاش الأقرباء والأزواج حالات الغيرة اللامبرّرة وأساؤوا الظنّ بهنّ إلى درجة الاتّهام فإنّ ذلك من شأنه خرق حجاب العفّة وخلق حالة من اللامبالاة بالقيم والعرف لديهنّ، فتقول هذه المرأة: الآن وقد فضحنى

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۶۰۵

واتّهمنى زوجى بدون مبرّر فما الداعى لأن أحفظ نفسى واهتمّ بسمعتى وعفّتى، فلأفعل ما أشاء فليكن ما يكون، وهذا الكلام لا يختصّ بالنساء فقط، بل يمتدّ ليشمل الأبناء، الشركاء، الخدم والأصدقاء أيضاً، فكلّ سوء الظنّ غير المبرّر يبعث على تشجيع الطرف الآخر للتلوّث والسقوط فى مهاوى الفساد والرذيلة، وسبق أن ذكرنا أنّ كلّ شىء جيّد وحسن إذا كان بصورة الاعتدال حتّى حالات الغيرة والتعصب لحفظ القيم.

تأمّل: مكانة المرأة فی المجتمع

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أمرين:

۱. ثمّة شعارات كثيرة فی عالمنا المعاصر بالنسبة لمقولة المساواة بين الرجل والمرأة، حيث تنعقد مؤتمرات دولية ومعاهدات ولوائح تزداد يوماً بعد آخر، والتأكيد على عدم وجود أيّ تفاوت بين الجنسين، ومن هذا المنطلق بإمكان كلّ من الرجل والمرأة تحمّل المسؤوليات الإجتماعية، سواءً ما يتصل بالقضاء أو قيادة الجيش أو إدارة الحرب، أو الرحلات الفضائية، أو الرحلات العلمية للتحقيق والبحث فی أعماق البحار، والخلاصة أن يتولّى الرجل والمرأة جميع أشكال الإدارة على جميع الصعد والمستويات.

والعجيب هنا، أنّهم عندما تصل النوبة لمرحلة التطبيق والعمل فإنّ الفوارق تبرز بشكل جلیّ، فالرجال يستلمون الإدارة على المستويات العليا والمتوسطة إلّافی موارد نادرة ومحدودة جدّاً، فلا يسمحون للنساء بتولّی هذه المناصب الحسّاسة والورود إلى هذه الميادين، ولا يختلف الحال أيضاً فی البلدان الاوربية والأمريكية، فعندما يسألون أنّ هذه الظاهرة تتضمّن تناقضاً فی القول والعمل، ولماذا يختلف مستوى التطبيق عن تلكم الادّعاءات الرنّانة والشعارات البراقة؟ فلا جواب لديهم.

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۶۰۶

وهذا التناقض وليد التفاوت بين الحقائق الموجودة على الأرض والشعارات التی تطلق فی عالمنا المعاصر وفی المحافل والمؤتمرات، فمن أجل كسب آراء النساء فی الانتخابات السياسية وإسكات اعتراضهنّ يرفعون شعار المساواة ويصرّون عليه بحجّة الدفاع عن حقوق المرأة، ولكنّهم فی مرحلة العمل يجدون أنفسهم مرغمين لقبول هذه الحقيقة، وهی أنّ بنية النساء من حيث المستوى الجسمی والنفسی يختلف عن الرجال، فكلّ واحد من الجنسين خلق لمسؤولية معيّنة وكلّ واحد منهما إنسان يملك حقوقاً فردية واجتماعية، ولكن أن نقول أنّهما يملكان قابليات وملكات متساوية وقادرون على تولّی جميع المسؤوليات، فهو خطأ كبير.

يقول الفيزيائی والجرّاح الفرنسی المعروف (الكسيس كارل) الذی ألّف كتباً معروفة وله شهرة عالمية، يقول فی كتابه «الانسان ذلك المجهول»: إنّ الرجل والمرأة بحكم قانون الخلقة، يختلفان فی التشكيلة البنيوية، وهذا الاختلاف والتفاوت يسری إلى الوظائف والحقوق ... ولعدم الالتفات إلى هذه النقطة الأصلية والمهمّة فإنّ أنصار حقوق المرأة يتصوّرون أنّ كلا الجنسين بإمكانهما امتلاك مستوى واحد من حيث التعليم والتربية و المشاغل والمسؤوليات المختلفة، فالمرأة فی الحقيقة تختلف عن الرجل من جهات عدّة، فكلّ خلية من خلايا البدن، وكذلك الأجهزة وخاصّة الشبكة العصبية، تحمل علائم جنس صاحبها، ثمّ يضيف: إنّ القوانين الفسيولوجية أيضاً، حالها حال القوانين الفلكية وعالم الطبيعة، ثابتة وغير قابلة للتغيير، ولا يمكن إيجاد التغيير فيها برغبة البشر، فنحن مجبورون على قبولها كما هی عليه (لا كما نريد).

ثمّ يختم كلامه بهذه العبارة: ينبغی على النساء أن يتحرّكن باتّجاه مواهبهنّ الطبيعية ويسرن فی طريقهنّ الخاصّ بهنّ بعيداً عن حالات التقليد الأعمى للرجال، ووظيفة المرأة فی سبيل تكامل البشرية أكثر بكثير من الرجال، ولا ينبغی التسامح

نفحات الولاية، ج ۹، ص: ۶۰۷

والتساهل فی هذا الأمر[۸۷۰].

والملفت أنّه فی سنة ۱۹۹۵ اجتمع عشرات الآلاف من أعضاء مؤسّسات الحقوق الرسمية وغير الرسمية فی بكّين عاصمة الصين لتدوين وثيقة على أساس المعاهدات الدولية لمحو جميع أشكال التمييز ضدّ النساء، وإمضاء هذه المعاهدة التی تمّ تنظيمها مسبقاً، ولكن بعض مواد هذه اللائحة كانت من البطلان والزيف لدرجة أنّ الكثير من المنظّمات والمجامع فی العالم اعترضت عليها، وبعض المشتركين فی ذلك المؤتمر تركوا الجلسة، ومنهم السيدة شارون هير النائبة فی برلمان كندا ورئيسة الهيئة الكندية المشاركة فی ذلك المؤتمر، حيث قامت من مكانها وتوجّهت بالخطاب إلى الصحفيين وقالت: «إنّ التساوی المقصود فی وثيقة بكّين لا ـ يأتی

بالتساوى الحقيقى للنساء، وأنا أعود لبلدى بأوّل طائرة وأسعى لحفظ الفوارق بين الرجل والمرأة (وبتبعها المسؤوليات المختلفة)، فهذا التفاوت موجود فى أصل الخلقة، وهذه الفوارق هى التى ستحفظنا»[۸۷۱].

وتفصيل هذه المسألة خارج عن عهدة هذا البحث المختصر، ويكفى القول إجمالًا بأنّ هذه الشعارات البرّاقة ليس أنها لاتحلّ مشكلة لنساء العالم، فحسب بل تترتّب عليها آثار مخرّبة أيضاً[۸۷۲].

وعلى ضوء ذلك ينبغى القبول بالحقائق المتعلّقة بكلا الجنسين بعيداً عن الشعارات الخاوية وتخطيط المناهج والبرامج على أساسها ووضع كلّ واحد من الجنسين فى موقعه الاجتماعى اللائق به بدون أن نقبل بأىّ ظلم وتحقير للنساء.

۲. ما ورد فى كلمات الإمام علىّ عليه السلام فى هذه الوصية وفى بعض خطبه والكلمات القصار كان مورد بحث ونقاش من جهة بعض الكتّاب والمفكّرين، فهل

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۶۰۸

أنّ مفهوم هذه العبارات فى رسائل الإمام عليه السلام وخطبه يعكس موقفاً سلبياً من المرأة؟

وعندما نبحث فى جذور هذه الخطب والرسائل ونقارن بينها وبين الحوداث التاريخية فى ذلك الوقت، فسوف يتبيّن أنّ كلّ هذه التعبيرات غير ناظرة لجميع النسوة، بل إشارة لفئة خاصّة من النسوة ممّن كانت مصدر مفاسد اجتماعية وعائلية، وبخاصّة مع الالتفات إلى أنّ بعض كلمات الإمام علىّ عليه السلام فى هذا الشأن صدرت بعد واقعة الجمل، ونعلم أنّ حرب الجمل، وهى الحرب التى راح ضحيتها وفقاً لرواية، سبعة عشر ألف مسلم، قد أشعل فتيلها إمرأة أو أنّها اشتركت وساهمت فى إشعالها.

وعلى ضوء ذلك، فنظر الإمام عليه السلام فى هذه المقولات يتّجه لمثل هؤلاء النسوة، وبكلمة أخرى أنّ خطاب الإمام عليه السلام فى هذه الموارد ليس موجبة كليّة بل موجبة جزئية.

والشاهد على هذا الكلام رؤية القرآن فى ما يخصّ النساء، وعلى سبيل المثال نشير إلى قوله تعالى: «وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»[۸۷۳].

فلو كانت النسوة جميعهنّ ناقصات العقول، فكيف تتحقّق هذه السكينة والمودّة والرحمة بين الزوجين؟

وفى آية أخرى يقول تعالى: «هُنَّ لِباسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَّهُن»[۸۷۴].

فلو كانت النساء يملكن صفات سلبية فقط فكيف، يعبّر القرآن على أنّهنّ زينة لأزواجهنّ والعامل فى حفظ هؤلاء الأزواج؟

وفى آية آخرى نقرأ: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً

نفحات الولاية، ج۹، ص: ۶۰۹

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»[۸۷۵].

وفى الآية ۳۵ من سورة الأحزاب يستعرض القرآن الكريم عشر فئات من المؤمنين الصالحين والنساء الصالحات ويعدهم فى نهاية المطاف بأجر عظيم: «إِنَّ الْمُسْلِمينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقينَ وَالصَّادِقاتِ وَالصَّابِرينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمينَ وَالصَّائِماتِ وَالْحافِظينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ وَالذَّاكِرينَ اللَّهَ كَثيراً وَالذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظيماً».

وثمّة بحوث كثيرة فى هذا المجال لا يسع المقام استعراضها لأنّها خارجة عن موضوعنا، ولكنّنا لحسن الختام نعود لكلام الإمام علىّ عليه السلام فى هذا المقطع من الوصيّة حيث قال: «إنّ الْمَرْأَةَ رَيْحانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرِمانَةٌ». ونعلم أنّ الورد والرياحين تملك فى حدّ ذاتها مزايا كثيرة، فهى عنصر لخلق السكينة والراحة النفسية، وكذلك تعتبر زينة، ولها فوائد كثيرة أخرى، ولكن فى ذات الوقت فهى كائن لطيف ورقيق بحيث إذا تركت بدون رعاية كافية فسوف يصيبها الذبول والجفاف، فالحقيقة أنّ هذه الجملة إشارة إلى أنّ المشاعر والعواطف للنساء هى الغالبة، فى حين أنّ العقل للرجال غالب على العواطف والأحاسيس، وبديهى أنّ هذين الجنسين بهذه

الخصوصیات إذا اجتمعا وعملا سویاً فإنّ ذلک من شأنه تقویهٔ نظام الاسرهٔ وتعمیق وشائج العلاقهٔ بین أفراد المجتمع.

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۶۱۱

القسم التاسع والعشرون

اشارهٔ

وَاجْعَلْ لِکُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِکَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَی أَلَّا یَتَوَاکَلُوا فِی خِدْمَتِکَ وَأَکْرِمْ عَشِیرَتَکَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُکَ الَّذِی بِهِ تَطِیرُ، وَأَصْلُکَ الَّذِی إِلَیْهِ تَصِیرُ، وَیَدُکَ الَّتِی بِهَا تَصُولُ.

الشرح والتفسیر: تقسیم المسؤولیات

فی هذا المقطع من الوصیهٔ یؤکّد الإمام علی توصیتین مهمّتین فی مجال الإدارهٔ والتعاون، وفی الحقیقهٔ أنّ هذه التوصیهٔ لا تتعلّق بولده البارّ، بل بجمیع أفراد البشر بوصفه والداً شفیقاً لجمیع الناس.

بدایهً یقول الإمام علیه السلام: «وَاجْعَلْ لِکُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِکَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَی أَلَّا یَتَوَاکَلُوا[۸۷۶] فِی خِدْمَتِکَ».

إنّ تقسیم العمل یعدّ من أهم أصول ومبادیء الإدارهٔ الناجحهٔ، لأنّه بدون ذلک فإنّ العمّال والموظفین یتواکلون غالباً ویتوقّعون من الآخرین أن یقوموا بالمسؤولیات الملقاهٔ علی عاتقهم، وعندما یتأخّر العمل ویتباطأ الإنتاج فإنّ کلّ فرد منهم یستطیع تبریر عمله فی مقابل مؤاخذهٔ ربّ العمل بأنّه کان یظن أنّ هذا العمل من مسؤولیهٔ آخرین، وإذا سئل الآخرون عن ذلک فإنّهم یجیبون بنفس الجواب، ولکن عندما یتمّ تقسیم العمل والمسؤولیات، فإنّ کلّ شخص یعلم أنّه مسؤول عن

نفحات الولایهٔ، ج۹، ص: ۶۱۲

عمله الخاصّ ویبذل جهده للقیام به بأفضل وجه، وهذه التوصیهٔ تدلّ علی أنّ الإمام علیه السلام ملتفت تماماً لمبادیء الإدارهٔ، ؤویوصی بها ولده.

وفی عصر النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله کانت هذه المسألهٔ علی رأس الأولویات، سواء فی الحرب أو فی غیرها، فیتمّ انتخاب رجل لقیادهٔ میمنهٔ الجیش وآخر لقیادهٔ المیسرهٔ وثالث یکون مقرّه فی قلب الجیش، وهو الذی یعیّن المسؤولیات ویصدر الأوامر، وهکذا بالنسبهٔ لجمع الزکاهٔ، فثمّهٔ عمّال مأمورون بهذه المهمّهٔ، وکذلک لکسب المعلومات عن وضع العدو حیث یتمّ إختیار أفراد خاصّین لهذا الغرض، وهکذا فی سائر أمور إدارهٔ البلد الإسلامی فی جمیع أبعاده السیاسیهٔ والاجتماعیهٔ والثقافیهٔ وما إلی ذلک، حیث یتمّ اختیار أفراد واعین وملتزمین یقومون بهذه المهام.

وفی التوصیهٔ الثانیهٔ یقول الإمام علیه السلام: «وَأَکْرِمْ عَشِیرَتَکَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُکَ الَّذِی بِهِ تَطِیرُ، وَأَصْلُکَ الَّذِی إِلَیْهِ تَصِیرُ، وَیَدُکَ الَّتِی بِهَا تَصُولُ ۸۷۷]».

ونری أنّ الإمام علیه السلام فی هذه العبارهٔ یشبّه الأقرباء والأرحام بثلاثهٔ أشیاء کلّ واحدٍ منها ناظر إلی زاویهٔ خاصّهٔ، فثمّهٔ تشبیه بالجناح وتشبیه بالأصل وثالث بالید.

والتشبیه الأول یشیر إلی التقدّم والإزدهار والرقیّ فی ظلّ التکاتف والتعاون بین أفراد العشیرهٔ، والتشبیه الثانی یشیر إلی عدم الشعور بالوحدهٔ فی مقابل التحدّیات المفروضهٔ، والتشبیه الثالث یشیر إلی مواجههٔ الأعداء والتصدّی لهم بمساعدهٔ أفراد العشیرهٔ والأقرباء.

وفی الحقیقهٔ أنّه کما أنّ المجتمع الکبیر فی ظلّ التکاتف والتعاون بین أفراده یصل إلی مراتب متقدّمهٔ من التطور والرقی والإزدهار، فکذلک المجتمع الصغیر المتکوّن من العشیرهٔ والأقرباء الموجودین فی قلب المجتمع الکبیر، فإنّه بالتعاون والتکاتف بین أفراده،

یعیش المجتمع التآخی والنجاح والتغلّب علی الصعاب، وحتی القبائل فی الجاهلیـة أیضاً أدرکت هـذه الحقیقة، ولذلک کانت العلاقة القبلیة

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۶۱۳

واعتماد الفرد علی قبیلته یساهم بشکل أساس فی التغلّب علی المشاکل والأزمات التی تواجه العرب فی عصر الجاهلیة، وطبعاً مع فارق أنّ العرب فی عصـر الجاهلیة کانوا یدافعون عن القبیلة، والقبیلة تدافع عن أفرادها بدون النظر إلی مسألة الحقّ والباطل، والعدل والظلم، أی بـدون قیـد أو شرط، ولکن فی الإسـلام أضـحی هـذا الدفاع المتقابل بین الفرد وقبیلته محدوداً بحدود الحقّ والعدالة، فالدفاع عن الباطل أضحی مرفوضاً حتّی فی مقابل الأخ والام والأخت وأمثالهم.

وفی القسم الرابع من الخطبة ۳۲ وفی الجزء الثانی من هذا الکتاب ثمّة بحث متعمّق فی هذا المجال.

ویورد ابن أبیالحدیـد بعض النماذج من دفاع القبیلـة عن أفرادها المظلومین ویبیّن أنّ هـذه الحمایة کانت مؤثّرة کثیراً، ومن ذلک أنّ الفرزدق کان لا ینشـد بین یـدی الخلفاء والامراء إلّاقاعـداً، فـدخل علی سـلیمان بن عبـدالملک یوماً، فأنشده فخراً به وبآبائه، وقال من جملته:

تاللّهِ ما حمَلتْ مِن ناقةٍ رَجُلًامِثلی إذا ریح لفّتنی علی الکوری

فقـال سـلیمان: هـذا المـدح لی أم لک؟ قال: لی ولک یاأمیرالمؤمنین. فغضب سـلیمان وقال: قم فأکمل ولا تنشـد بعـده إلّاقائماً، فقال الفرزدق: لاـ واللّه أو یسـقط علی الأـرض أکثری شـعراً، فقال سـلیمان: ویلی علی الأحمق ابن الفاعلـة، لا یکنّی، وارتفع صوته، فسـمع ضوضاء بالباب، فقال سلیمان: ما هـذا؟ قیل: بنو تمیم علی الباب، قالوا: لاینشـد الفرزدق قائماً وأیدینا فی مقابض سـیوفنا، قال: فلینشـد قاعداً[۸۷۸].

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۶۱۵

القسم الثلاثون (القسم الأخیر)

اشارة

اسْتَوْدِعِ اللَّهَ دِینَکَ وَدُنْیاکَ، وَاسْأَلْهُ خَیْرَ الْقَضَاءِ لَکَ فِی الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَالدُّنْیا وَالْآخِرَةِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسیر: ضع کلّ ودیعة عند اللّه

وأخیراً یتحدّث الإمام علیه السلام فی آخر هذه الوصیة وأقصرها مخاطباً ولده ویذکر توصیتین تجمعان کلّ شی فی ثنایاهما.

یقول الإمام علیه السلام بدایةً: «اسْتَوْدِعِ ۸۷۹] اللَّهَ دِینَکَ وَدُنْیاکَ».

ثمّ یضیف: «وَاسْأَلْهُ خَیْرَ الْقَضَاءِ لَکَ فِی الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَالدُّنْیا وَالْآخِرَةِ، وَالسَّلَامُ».

وبـدیهیّ أنّه لا أحـد أفضل وأحسن من اللّه تعالی لحفظ دین الإنسان ودنیاه، ولا أحـد أحسن منه فی تأمین أفضل المقـدّرات والعطایا لدنیا الإنسان وآخرته، فالذات المقدّسة مصدر جمیع الخیرات ومنبع کافّة البرکات، وکلّ ما یملکه المخلوقون فهو صادر منه، کما نقرأ فی القرآن الکریم: «بِیَدِکَ الْخَیْرُ إِنَّکَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدیرٌ»[۸۸۰].

ولا شکّ أنّ الإنسان یواجه فی دنیاه ودینه الکثیر من الآفات والمزالق والمآزق،

نفحات الولایة، ج۹، ص: ۶۱۶

وطبعـاً فإنّ الآفـات الـتی تمسّ الـدین أکـثر، وهـذه الآفـات إلی درجـة من الکـثرة والتنوّع بحیث أنّ التغلّب علیهـا لاـ یتیسّـر للإنسـان

إلّابالاستعانة بالذات المقدّسة واللجوء إلى صاحب القدرة المطلقة

قال الشاعر:

تَوكَّل عَلَى الرّحمنِ فِى الأمرِ كُلِّهُفَما خَابَ حَقّاً مَنْ عَلَيهِ تَوكّلا

وَكُنْ وَاثِقاً بِاللَّهِ وَاصبِرْ لِحُكمِهِتَفُزْ بِالّذى تَرجُوهُ مِنْهُ تَفَضُّلا[۸۸۱]

***

نكتب هذه الكلمات الأخيرة من الجزء التاسع ونحن على أعتاب إطلالة عيد الغدير الأغرّ من سنة ۱۴۲۸ ه ق، وختاماً نترنم بهذا الدعاء الرائع ونقول:

«الْحَمْدُللَّهِ الَّذى جَعَلَنا مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِوِلايَةِ مَوْلانا أميرِالْمُؤْمِنِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْمَعْصُومينَ عليهم السلام».

نهاية الجزء التاسع

---

[۱] (۱). سند الرسالة:

طبقاً لنقل ابن أبى‌الحديد وما ورد فى الروايات أنّ الإمام علىّ عليه السلام عندما تحرك من المدينة باتجاه البصرة وصل فى مسيره إلى منطقة الربذة، وهناك أرسل محمد بن جعفر بن أبى طالب و(امّه أسماء بنت عميس) مع محمد بن أبى بكر بهذه الرسالة إلى أهل الكوفة، وقد وردت بعض الاضافات فى ذيل هذه الرسالة وفقاً لنقل ابن أبى‌الحديد حيث يشير إلى وجود مصدر آخر لهذه الرسالة.

وأورد(ابن قتيبة) فى كتاب« الإمامة والسياسة» هذه الرسالة مع بعض الإضافات، ونقلها الشيخ المفيد فى كتاب،« الجمل» الذى تمّ تأليفه قبل السيد الرضى، ولكنه قال: إنّ الإمام علىّ عليه السلام أرسل هذه الرسالة بواسطة الإمام الحسن عليه السلام وعمّار بن ياسر إلى أهالى الكوفة.

وذكرها المرحوم الشيخ الطوسى أيضاً فى الأمالى مع بعض التفاوت، ومن الواضح أنّ السيد الرضى لم ينقل جميع ما ورد فى الرسالة، بل اقتطف منها ما ذكره فى كتابه(انظر: مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۱۹۴).

[۲] (۱).« الجبهة» فى الأصل بمعنى أعلى الوجه، وما بين الجبينين، وبما أنّ هذا المكان يعدّ من الأعضاء الشريفة والبارزة فى البدن فتطلق هذه الكلمة على الجماعة القوية الذين يتحركون لجلب الخير أو دفع الشر، وكذلك تطلق على رئيس الجمعية.

[۳] (۱).« استعتاب» من مادة« عتبى» بمعنى اللوم والتوبيخ، وبهذا المفهوم نعاتب الطرف الآخر حتى يرضى، ثماستعمل بمعنى طلب الرضا.

[۴] (۲).« وجيف» من مادة« وجف» على وزن« وقف» تعنى الاضطراب والاهتزاز، وبما أنّ الإنسان بمسيره السريعيواجه حالة من الاهتزاز والاضطراب فى حركته، استعملت هذه المفردة بمعنى السرعة أيضاً.

[۵] (۳).« حِداء» وكذلك« حُداء» على وزن« دعاء» بمعنى اطلاق الصوت فى مسير القافلة لتسريع حركة الابل ثم اطلقت على كلّ ما يبعث على التحرك لأداء عمل معين.

« عنيف» من مادة« عنف» وتعنى الغلظة والشدّة فى الاسلوب والعمل.

[۶] (۱).« فلتة» تعنى صدور العمل بشكلّ عفوى وبدون تدبير مسبق، و« فلتات اللسان» الكلام الذى يصدر من الإنسان من موقع الغفلة

والعفوية بدون تأمل.

[٧] (٢).« اتيـح» من مادة« تيح» على وزن« شـيء» بمعنى الاسـتعداد لأداء عمل معين، وجملة« فاتيح له قوم» تعنى أنّ جماعة من الناس استعدوا لقتل عثمان.

[٨] (٣). وفى هذه الصورة يكون ضـمير« اسْتِعْتابَه» ضـمير للفاعل ومفعوله محذوف، يعنى« اسْتِعْتابَهُ مِنَ الناسِ» فى‌حين على التفسـير الأول يكون الضمير مفعولًا ويتناسب أكثر مع الجملة اللاحقة.

[٩] (۴). بحار الأنوار، ج ٣١، ص ١٩۴.

[١٠] (١). إنّ قصـة قتل عثمان ومعركة الجمل وأبعادها وعواملها وتداعياتها تعتبر قصة ذات تفاصـيل وفروع كثيرة ومطولة، وقد سـبق أن استعرضـنا فى الأجزاء السابقـة لهـذه المجموعـة بعض الأبعاد المهمّـة لهذه الواقعة التاريخية، وهنا نذكر قائمة للقراء الأعزاء لمصادر هذه الواقعة فى هذا الكتاب يتسنى لهم مراجعتها والإحاطة بكافّة أبعاد وخفايا هذه الواقعة:

أ) عوامل ثورة المسلمين ضد عثمان، ج ١، ص ٣٧١ إلى ٣٧۶.

ب) حوادث معركة الجمل، ج ١، ص ٣٨٩ إلى ٣٩١.

ج) قتل عثمان وعدم مشاركة الإمام علىّ عليه السلام ودور طلحة والزبير فى تحريك الجمهور، ج ٢، ص ٣٠.

د) تحليل آخر حول قضية مقتل عثمان، ج ٢، ص ٢٣٢ تا ٢۴١.

ه) دور طلحة والزبير فى معركة الجمل، ج ٢، ص ٢۵١.

و) الأعمال التى قام بها عثمان وأدت إلى سخط الناس عليه، ج ٢، ص ۴٨٨.

ز) بحث آخر حول دور طلحة وتحريك الناس على قتل عثمان، ج ۶، ص ۵٢٧.

[١١] (١). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ١۴، ص ٨- ٢١.

[١٢] (٢). الإصابة، ج ١، ص ١٧.

[١٣] (١). سورة البقرة، الآية ١٣۴.

[١۴] (١). ورد فى تنزيه الصحابة توضيحات أخرى فى ذيل الخطبة الثالثة، ج ١، ص ٣٧۶ وما بعدها وفى ج ۴، ص ٣٢٠ وذيل الخطبة ٩٧، و ج ۵، ص ۵١٨ وذيل الخطبة ١٣۵، وكذلك ورد فى كتاب« الشيعة تجيب»، بحث مفصل ووافى حول هذا الموضوع.

[١۵] (١).« جاشَتْ» من مادة« جيش» على وزن« حيف» بمعنى الغليان والهيجان.

[١۶] (٢).« مِرْجَل» بمعنى القِـدر سواء كان مصـنوعاً من الفخار أو من النحاس وما إلى ذلك، ولـذلك عندما يسـيطر الغضب والحدّة على الإنسان يقال:« جاشت مراجله».

[١٧] (٣).« قطب» فى الأصل بمعنى الحديـدة التى توضع فى وسط حجر الطاحونة كمحور لدوران الحجر العلوى حوله، ثم اطلق على كلّ أمر يكون له دور محورى فى قضية معينة.

[١٨] (١). تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ۵١٣.

[١٩] (١). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ١۴، ص ٢۴.

[٢٠] (٢). المصدر السابق، ج ١٧، ص ٢۴.

[٢١] (١). سند الرسالة:

إنّ ما أورده السـيّد الرّضـى فى هـذه المقام يمثّل مقطعاً من رسالـة مطّولـة نسبياً أرسـلها الإمام عليه السـلام بعد فتح البصـرة إلى أهالى الكوفـة:« مِنْ عَبدِ اللَّهِ على بن أبى طالبِ إلى قُرظَةَ بِن كَعبِ(أحد صـحابة النبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله المشـهورين الذى ارسـل إلى الكوفة) وَمَنْ قِبلهِ مَنَ المُسلِمِينَ سَلام عَليكُم فإنّى أُحمد إليكمُ اللَّهَ الذى لا إله إلّاهُو ...».

وقد کتب هذه الرسالهٔ کاتب الإمام علیه السلام عبیداللّه بن رافع فی سنهٔ ۳۶ من الهجرهٔ، وقد أوردها الشیخ المفید فی کتابه« النصرهٔ» من کتاب« الجمل» للواقدی(مصادر نهج‌البلاغهٔ، ج ۳، ص ۱۹۵).

وقد جاء فی کتاب نهج‌البلاغهٔ الکامل، ص ۷۸۸، أنّ الإمام علیه السلام أرسل هذه الرسالهٔ بعد فتح البصرهٔ مع« زحر بن قیس الجعفی» إلی أهالی الکوفهٔ ومطلع الرسالهٔ:« مِنْ عَبِدِ اللَّهِ علی بن أبی‌طالبِ أمِیرالمُؤمِنین إلی أهل الکوفهٔ».

[۲۲] (۱). نهج‌البلاغهٔ، الخطبهٔ ۱۳ و ۱۴.

[۲۳] (۱). بحارالانوار، ج ۳۵، ص ۲۵۲، ح ۱۹۸.

[۲۴] (۱). سند الرسالهٔ:

لقد نقل المرحوم الصدوق فی« الأمالی»(قبل نهج‌البلاغهٔ) قصّهٔ هذه الرسالهٔ، ولا تختلف عمّا ورد فی« نهج‌البلاغهٔ» إلّابتفاوت یسیر، والأشخاص الذین أوردوا هذه الرسالهٔ بعد السیّد الرضیّ نقلوها مع بعض الاختلاف ممّا یشیر إلی وجود مصادر أخری لهذه الرسالهٔ قبل« نهج‌البلاغهٔ» للسیّد الرضیّ ومن ذلک ما أورده سبط ابن الجوزی فی« تذکرهٔ الخواص»، وکذلک القاضی القضاعی فی« دستور معالم الحکم» والشیخ البهائی فی کتاب« الأربعین»(مصادر نهج‌البلاغهٔ، ج ۳، ص ۱۹۹).

[۲۵] (۱). ورد فی بعض النسخ« مِنْ غَیْرِ مالِکِها» وهو إشارهٔ إلی عملیهٔ الغصب، ولکن مع الالتفات إلی جملهٔ« مِنْ غَیْرِحَلالِکَ» یبدو أنّ الکاف فی« غَیْرِ مالِکِ» للخطاب.

[۲۶] (۱). نهج‌البلاغهٔ، الکلمات القصار، ۲۴۰.

[۲۷] (۲). سورهٔ البقرهٔ، الآیهٔ ۲۶.

[۲۸] (۱).« ازعج» من« إزعاج» یعنی دفعه ورفعه لتحریکه.

[۲۹] (۲).« خطّهٔ» فی الأصل بمعنی الأرض التی یختارها الإنسان ویضع لها علامات وحدوداً للدلالهٔ علی حیازتها، وهی فی الأصل من مادهٔ« خطّ»، ثم استخدمت بمعنی المنطقهٔ والناحیهٔ، وجاءت فی الجملهٔ أعلاه بهذا المعنی الأخیر.

[۳۰] (۳).« داوعی» جمع« داعیهٔ» بمعنی السبب والعلّهٔ.

[۳۱] (۴).« المغوی» اسم فاعل من« الإغواء» بمعنی المضِلّ.

[۳۲] (۵).« یشرع» من مادهٔ« شرع» وتستخدم فی هذه الموارد بمعنی الانفتاح.

[۳۳] (۱). نهج‌البلاغهٔ، الخطبهٔ ۲۲۶.

[۳۴] (۱).« ضراعهٔ» تعنی الذلّهٔ(ولها معنی مصدری وکذلک اسم المصدر)؛ وهذه المفردهٔ تعنی أیضاً التواضع.

[۳۵] (۱).« إشخاص» بمعنی إحضار، إرسال وسوق، وفی العبارهٔ أعلاه الأنسب هو المعنی الأول.

[۳۶] (۱). سورهٔ غافر، الآیهٔ ۷۸.

[۳۷] (۲). من جملهٔ القرائن المؤیدهٔ لهذا الرأی وجود قرینتین:

أ) ورد فی الرسالهٔ أعلاه فی کتاب دستور معالم الحکم لابن سلامهٔ، ص ۱۳۷ أنّها تنتهی إلی« وتبع وحمیر» بدون جملهٔ« إشخاصهم ...» فی حین أنّ الرسالهٔ متواصلهٔ.

ب) ورد فی کتاب حلیهٔ الألیاء، ج ۸، ص ۱۰۲ جملهٔ« إشخاصهم» بهذه الصورهٔ:(وأشخصهم ...) والذی یشیر إلی أنّها جملهٔ منفصلهٔ عن الجملهٔ السابقهٔ.

[۳۸] (۳). سورهٔ آل عمران، الآیهٔ ۱۸۵.

[۳۹] (۱). وسائل‌الشیعهٔ، ج ۱۸، ص ۶، ح ۱، الباب ۳ من أبواب صفات القاضی.

[۴۰] (۲). الکافی، ج ۷، ص ۳۸۵، ح ۵.

[۴۱] (۱). منهاج البراعة فی شرح نهج‌البلاغة، ج ۱۷، ص ۱۵۸؛ سفینة البحار، مادة شرح.

[۴۲] (۲). تاریخ الطبری، ج ۴، ص ۲۷۴ فی باب حوادث سنة ۶۰ ه.

[۴۳] (۱). انظر: الاصابة فی معرفة الصحابة، ج ۲، ص ۷۰، ترجمة حال الحسین بن علی علیه السلام.

[۴۴] (۲). یستفاد من التواریخ أنّ شریحاً عاد بنفسه فی زمان الحجاج، ولکنّه استقال من منصبه بعد ذلک ووافق الحجاج علی استقالته. ولمزید من التوضیح راجع: الاستیعاب، ص ۵۹۰ و شرح نهج‌البلاغة لابن أبی‌الحدید، ص ۲۸ و ۲۹.

[۴۵] (۱). سند الرسالة:

هذه الرسالة التی أوردها الشریف الرضی تمثّل مقطعاً من الرسالة التی أرسلها الإمام علیه السلام لبعض امراء جیشه وقد ذکرها سبط ابن الجوزی فی کتاب تذکرة الخواص بشکل موسع ومختلف، ومن الواضح تماماً أنّه اقتبسها من مصدر آخر غیر نهج‌البلاغة، ولکن ابن الجوزی فی أول الباب السادس من کتابه یقول: کل کلام أنقله عن علی ابن أبی‌طالب فی هذا الکتاب نقلًا باسنادی المتصل إلی الإمام علیه السلام نفسه.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۰۱).

[۴۶] (۱). الجمل، ص ۱۲۲.

[۴۷] (۲).« توافت» من مادة« وفا» وتعنی المصافحة والاجتماع والتلاقی، والمراد من الجملة أعلاه أنّه إذا اجتمعت‌الحوادث وتظافرت فیما بینها واستمر المخالفون علی تمردهم.

[۴۸] (۱).« انهد» صیغة أمر من« النهود» بمعنی الظهور والارتفاع والقیام بأداء عمل معین.

[۴۹] (۲).« تقاعس» من مادة« قعس» علی وزن« فحص» وبمعنی التماهل والتواکل وإلقاء المسؤولیة علی الآخرین والتراجع عن القیام بالوظیفة والتکلیف أو الحرب.

[۵۰] (۳).« المتکاره» تعنی الشخص الذی یکره القیام بعمل معین ویعیش حالة السخط وعدم الرضا منه، وهی من مادة« کره».

[۵۱] (۴).« مغیبة»:« مغیب» و« مشهد» مصدر میمی بمعنی الغیبة والحضور.

[۵۲] (۵). سورة التوبة، الآیة ۴۷.

[۵۳] (۱). نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۷۲.

[۵۴] (۲). ولمزید من التوضیح انظر: تاریخ الطبری، ج، ۳ فی باب حوادث سنة ۳۶ و شرح نهج‌البلاغة لابن أبی‌الحدید، ج ۹، ص ۳۰۵ إلی ۳۲۳.

[۵۵] (۱). سورة التوبة، الآیة ۴۷.

[۵۶] (۲). سورة التوبة، الآیة ۴۸.

[۵۷] (۳). سورة البقرة، الآیة ۲۴۹.

[۵۸] (۱). سند الرسالة:

من جملة الأشخاص الذین أوردوا هذه الرسالة: نصر بن مزاحم فی کتاب صفین، نقل هذه الرسالة من مطلع کلام الإمام علیه السلام، ومع الأخذ بالحسبان أنّ نصر بن مزاحم کان یعیش قبل السیّد الرضیّ بقرنین من الزمان تقریباً، مضافاً إلی أنّه ذکر هذه الرسالة بشکل کامل، فیتبیّن من ذلک أنّه نقلها من مصادر أخری.

ونقلها أیضاً« ابن عبد ربّه» مع بعض الإضافات وابن قتیبة فی کتابه الإمامة والسیاسة باختصار یسیر بالنسبة لما أورده نصر بن مزاحم.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۰۲).

[۵۹] (۱). نهج‌البلاغة الکامل، ص ۸۰۳؛ وقعة صفین، ص ۲۰.

[۶۰] (۲).« طعمة» تعنی الشیء المطعوم والمأکول، ولکن تأتی علی سبیل الکنایة، مثلًا یقال عن الشخص الفلانی خبیث الطعمة، یعنی

أنّ كسبه وعمله غير مشروع، وفى الرسالة أعلاه وردت بمعنى ما يعتاش به الإنسان.

[۶۱] (۳). سورة النساء، الآية ۵۸.

[۶۲] (۴). انظر: تفسير نور الثقلين، ذيل الآية المذكورة؛ والكافى، ج ۱، ص ۲۷۶ باب أنّ الإمام يعرف الإمام الذى يكون من بعده.

[۶۳] (۱).« تفتات» فى الأصل من مادة« فوت»، التى تأتى أحياناً بمعنى فقد الشىء وأخرى بمعنى السبق، وطبقاً للمعنى الثانى عندما تأتى من باب افتعال تعنى الاستبداد والتزمت بالرأى، وكأنّه يسبق الآخرين فى اختيار مقصوده، ويحتمل أيضاً أنّ هذه المفردة من مادة« فأت»(بالهمزة)، وتأتى أيضاً بمعنى التفرد والاستبداد.

[۶۴] (۲).« رعية» صفة مشبهة بمعنى المراعاة، من مادة« رعى» وهى فى الأصل تعنى رعى الأغنام والذى يقترن عادة بالمراعاة والمحافظة عليها، وهذا التعبير يشير إلى أنّ الدولة فى الحكومة الإسلاميّة مكلّفة بخدمة الناس والمحافظة عليهم ومراعاة حقوقهم، وقد ورد فى الحديث النبوى المعروف:« كُلُّكُمْ راعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعَيَّتِهِ» وهو إشارة إلى هذا المعنى، أى أنّ جميع الناس يجب أن يرعى أحدهم الآخر ويتعامل معه من موقع المسؤولية ومراعاة الحقوق والواجبات، والحديث المذكور ورد فى بحار الأنوار و جامع الأخبار وفى كتب أهل السنّة صحيح البخارى و مسند أحمد ومصادر أخرى).

[۶۵] (۱). سورة النور، الآية ۳۳.

[۶۶] (۲). شرح نهج‌البلاغة العلّامة التسترى، ج ۸، ص ۷.

[۶۷] (۱). انظر: الكافى، ج ۸، ص ۱۶۷، ح ۱۸۷.

[۶۸] (۲). بحارالانوار، ج ۲۹، ص ۴۲۰ ولمزيد التوضيح فى ترجمة الأشعث راجع الجزء الأول من هذا الكتاب، ذيل الخطبة ۱۹.

[۶۹] (۱). انظر إلى كتاب تاريخ اليعقوبى، ج ۲، ص ۲۳۳ و تاريخ الطبرى فى حوادث سنة ۲۲ و كذلك معجم البلدان الحموى، ج ۱، ص ۱۲۸ وفتوح البلدان للبلاذرى، ج ۲، ص ۴۰۰.

[۷۰] (۱). سند الرسالة: تمثّل هذه الرسالة مقطعاً من رسالة مطولّة أرسلها الإمام عليه السلام لمعاوية وبعثها مع« جرير بن عبداللَّه البجلى» وفى جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيّد الرضى، نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة، وابن عبد ربه فى العقد الفريد. مضافاً أنّ الطبرى فى تاريخه ينقل هذه الرسالة ويذكر قصّة مفصّلة عنها فى الجزء الثالث من تاريخه فى حوادث سنة ۳۶. وابن عساكر فى تاريخ مدينة دمشق فى شرح حال معاوية(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۰۹).

[۷۱] (۱).« تتجنى» فى الأصل من ال« جناية»، وإذا كانت من باب تفعّل فإنّها تعنى أنّ شخصاً يريد أن يلقى بالجريمةعلى الآخر فى حين أنّ ذلك الشخص لم يرتكبها وهذا هو معنى التهمة.

[۷۲] (۲).« تجنّ» هذه المفردة فعل أمر من« تجنّى» كما سبق ذكره ومفهوم الجملة أنّك يا معاوية تعلم بأنّ انتساب قتل عثمان إلىَّ مجرّد تهمة فإذا كان الأمر كذلك فقل ما شئت وتحدّث بما بدا لك.

[۷۳] (۱). ولمزيد من هذه الأدلة القرآنية والروائية والعقلية راجع نفحات القرآن، ج ۹.

[۷۴] (۱). سورة الأنعام، الآيتان ۷۷ و ۷۸.

[۷۵] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۴، ص ۳۶ و ۳۷.

[۷۶] (۱). سند الرسالة: من جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيّد الرضىّ ابن أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح والمبرد فى الكامل ونصر بن مزاحم فى كتاب صفين، هؤلاء نقلوا الرسالة مورد البحث بتفاوت يسير، وهذه الرسالة فى الحقيقة رسالة جوابية أرسلها الإمام عليه السلام إلى معاوية جواباً على رسالته المليئة بالعبارات الوقحة والكلمات المنكرة فى أثناء معركة صفين، بل كتبها فى أواخر هذه الحرب(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۱۱).

[۷۷] (۲). سيأتى ذكر رسالة معاوية فى نهاية هذا البحث.

[۷۸] (۱). سورة الزمر، الآية ۶۵.

[۷۹] (۲).« موصّلة» تعنى أمور متنافرة وغير مرتبطة تمّ جمعها فى مورد واحد، وهى من مادة« وصل» أى ربط.

[۸۰] (۳).« محبّرة» وتعنى تزيين الشيء من مادة« حبر» على وزن« ابر» وتعنى بفتح الأول التزين و« حبر» بكسر الأول تعنى الجمال.

[۸۱] (۴).« نمّق» من« التنميق» بمعنى التزيين؛ ولكن الثلاثى لها« نمق» على وزن« نقد» تعنى الكتابة، وعندما تأتى من باب التفعيل تعنى التزيين.

[۸۲] (۱).« أمضيت» من« الإمضاء» وتعنى الإرسال والإجراء والتنفيذ لشيء، وبما أنّ إمضاء السند أو الوثيقة يعتبر نوعاً من إنفاذها وإجرائها، فهذه المفردة تطلق على هذا العمل.

[۸۳] (۲).« هجر» من مادة« هجر» على وزن« زجر» وتعنى الهذيان.

[۸۴] (۳).« لاغط» من مادة« لغط» على وزن« وقت» بمعنى إثارة الفوضى واللغو والشغب.

[۸۵] (۴).« خابط» من مادة« خبط» على وزن« وقت» وتعنى المتحير والسائر بدون هدف معين.

[۸۶] (۱).« النظر» تعنى هنا التأمل والتدبر، يعنى أنّ البيعة بعد انعقادها غير قابلة للتأمل والتشويه(هذا فى صورة أن‌تكون« فى» متعدية.

[۸۷] (۲).« مروّى» الشخص الذى يشك ويتردد فى أمر ويفكر ويتأمل فيه وهى من« التروية»، وتأتى أحياناً بمعنى‌شرب الماء وإزالة الظمأ، وأخرى بمعنى المطالعة والتأمل فى شيء.

[۸۸] (۳).« مداهن» تعنى المتملق والمنافق والمتزلف.

[۸۹] (۱). مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۱۱ ونقل ابن أبى‌الحديد هذه الرسالة أيضاً مع اختلاف يسير فى: ج ۱۴، ص ۴۲.

[۹۰] (۱). سورة الحجرات، الآية ۹.

[۹۱] (۱). سورة غافر، الآية ۲۶.

[۹۲] (۱). سند الرسالة:

من الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيّد الرضيّ، نصر بن مزاحم فى كتاب صفين وابن عبد ربه فى كتاب العقد الفريد(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۱۱).

[۹۳] (۱).« الفصل» فى الأصل بمعنى الفرقة والانفصال، ويطلع على الحكم القطعى الذى يصدر من القاضى وغيرالقاضى، لأنّه يفصل بين المتخاصمين ويميّز المسائل المشتبه بها.

[۹۴] (۲).« مجلية» من« الإجلاء» بمعنى إخراج من الوطن وأصله من« جلاء» بمعنى الوضوح والظهور، ولذلك يطلق على الخروج من المدينة وكأنّ الشخص كان مختفياً فيها ومع خروجه يظهر ويبرز إلى العيان، و« الجلاء» بمعنى تلميع الشيء وصقله، وكذلك نوع من ظهور اللون الحقيقى المستور تحت الصدأ.

[۹۵] (۱).« مخزية» من مادة« خزى» من باب افعال و« الخزى» تعنى الفضيحة والذلة، ولعل أصلها من الفضيحة التى تسبب الذلة، وذهب جماعة من أرباب اللغة إلى أنّ جذره الأصلى سوء حال النتائج من وقوع البلاء والفضيحة والذلّة.

[۹۶] (۲).« فانبذ» من مادة« نبذ» على وزن« نصر» فى الأصل بمعنى القاء الشيء بعيداً لعدم اعتباره أو لكونه غير ذى قيمة، وأحياناً تأتى بمعنى الاعلام وكأنّ المتكلّم يطرح الكلمات إلى الطرف المقابل سواء كان هذا امضاء لعهد أو اعلاناً لحرب أو شيئاً آخر، وفى الجملة أعلاه ورد بمعنى إعلان الحرب.

[۹۷] (۱). سند الرسالة:

يقول مؤلف كتاب مصادر نهج‌البلاغة بعد بيان كيفية كتابة هذه الرسالة، هذه القصّة مشهورة فى كتاب صفين لنصر بن مزاحم، وأمّا ما ذكره السيد الرضى فيمثّل قسماً ختامياً للرسالة، ثم أضاف: وقد نقل هذه الرسالة كتّاب آخرون أيضاً فى كتبهم، ومنهم:

۱. ابن عبد ربه فی العقد الفرید.

۲. البلاذری فی کتاب انساب الأشراف.

۳. الشیخ المفید فی کتاب الفصول المختارهٔ وقد أورد مقطعاً منها.

۴. الخطیب الخوارزمی فی کتاب المناقب(والجدیر بالذکر أنّ الثلاثهٔ المتقدمین کانوا یعیشون قبل السید الرضی)(مصادر نهج‌البلاغهٔ، ج ۳، ص ۲۱۷).

[۹۸] (۱). شرح نهج‌البلاغهٔ لابن أبی‌الحدید، ج ۱۵، ص ۷۳ إلی ۷۵.

[۹۹] (۱).« اجتیاح» تعنی الإهلاک، وهدم وتخریب، وأصلها من« جوح» علی وزن« قوم» وتأتی بهذا المعنی المذکور.

[۱۰۰] (۲).« هموم» جمع« همّ» بمعنی الأحزان، وأشکال القلق والاضطراب، التخطیط والتدبیر، وهنا وردت بمعنی التآمر من قِبل قریش ضد النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله وهو یفضی إلی الغم والحزن الشدید، وأصل هذه المفردهٔ بمعنی القصد، وبما أنّ القصد فی کثیر من الموارد یقترن بالقلق والحزن، فجاء بمعنی القلق والحزن أیضاً.

[۱۰۱] (۱).« الأفاعیل» جمع« أفعال» وهو جمع« فعل»، وفی هذه الموارد وردت بمعنی الأعمال الکبیرهٔ وأشکال التآمروالدسیسهٔ.

[۱۰۲] (۲).« العذب» بمعنی الرواء الهنیء، وتارهٔ یقصد به البعد الظاهری، والبعد الباطن والمعنوی.

[۱۰۳] (۳).« احلسونا» أصلها« حلس» علی وزن« حرص» وتعنی القماش الناعم الذی یوضع تحت أقتاب الإبل، وفی الحقیقهٔ یلتصق ببدن الإبل، ثم اطلق علی کل شیء یلازم شیئاً آخر، مثلًا، یقال: فلان حلس البیت؛ یعنی أنّه لا یخرج من بیته، والجملهٔ أعلاه« أحْلَسُونَا الْخَوْفَ» تعنی أنّ الأعداء فرضوا علینا حالات الخوف والرعب الدائم.

[۱۰۴] (۴).« وعر» الأرض الصعبهٔ والملیئهٔ بالأحجار وغیر المعبدهٔ.

[۱۰۵] (۵).« اوقدوا» أصلها من« الإیقاد» بمعنی اشعال النار وهی من« الوقود» بمعنی إشعال الشیء.

[۱۰۶] (۶). خلافاً لما یتوهم البعض من أنّ شعب أبی طالب هو محل قبر أبی طالب الذی یقع الآن علی مقربهٔ من جسرالحجون، لأنّه تفصله فاصلهٔ کبیرهٔ مع المسجد الحرام والکعبهٔ، وشعب أبی طالب کان وادیاً إلی جانب جبل أبی‌قبیس، ولذلک ورد فی التواریخ أنّ صوت بکاء أطفال المسلمین من شدّهٔ جوع والآلام الآخری کان یسمع لیلًا فی المسجد الحرام من ذلک الوادی.

[۱۰۷] (۱).« ذب» بمعنی دفع وأبعد ودافع.

[۱۰۸] (۱). منهاج البراعهٔ فی شرح نهج‌البلاغهٔ، ج ۱۷، ص ۳۶۵.

[۱۰۹] (۱).« خلو» بمعنی خواء الشیء وکونه عاریاً.

[۱۱۰] (۱).« البأس» فی الأصل بمعنی الشدّهٔ والقوّهٔ والقدرهٔ، وتأتی بمعنی المشکلات الکبیرهٔ والحرب، وجملهٔ« لا بأس‌به» أی« لا مشکلهٔ فیه» وجملهٔ أعلاه« احمَرّ الْبَأسُ» إشارهٔ إلی شدّهٔ ضراوهٔ الحرب.

[۱۱۱] (۲).« احْجَم» أصلها من« حجم» علی وزن« رجم» بمعنی الامتناع عن عمل معین، وجملهٔ« أحْجَمَ النَّاسُ» بمعنی أنّهم امتنعوا من الدخول إلی میدان الحرب.

[۱۱۲] (۱).« أسنهٔ» جمع« سنان» بمعنی رأس الرُمح.

[۱۱۳] (۱). نهج‌البلاغهٔ، الخطبهٔ ۵.

[۱۱۴] (۲). المصدر السابق، الخطبهٔ ۱۵۶.

[۱۱۵] (۱).« لا ـ یدلی» من« الإدلاء» وتعنی الاظهار والاعلان، ویقال:« أدلی برأیه» یعنی أظهر رأیه، وهی فی الأصل من مادهٔ« دلو»، وعندما تأتی من باب الإفعال تکون بمعنی ارسال الدلو إلی البئر لسحب الماء، ثم اطلقت علی أی اظهار للرأی.

[۱۱۶] (۱).« یسعنی» من« الوُسع» بمعنی القدرهٔ علی عمل معین، وإمکانیهٔ العمل.

[۱۱۷] (۱). ترجمة شرح نهج‌البلاغة ابن میثم، ج ۴، ص ۶۲۸، ومثل هذه الروایة وردت بتفاوت یسیر فی کتاب الفتوح لابن أعثم الکوفی، ج ۳، ص ۶۱، ونقلنا عن أبی‌مسلم الخولانی مثله.

[۱۱۸] (۲).« غیّ» و« غوایة» بمعنی ضلال وإضلال بمعنی الوقوع فی المتاهة.

[۱۱۹] (۳).« شقاق» بمعنی الفرقة والنفاق وعدم الانسجام، وهی بالأصل الشق وانفصال الجانبین فی الشیء.

[۱۲۰] (۴).« زَور» تارة تأتی بمعناها المصدری وتعنی اللقاء والملاقاة، وأحیاناً تأتی بمعنی الزائر، وفی الجملة وردت بالمعنی الأول.

[۱۲۱] (۵).« لقیان» و« لقاء» مصدر بمعنی الملاقاة.

[۱۲۲] (۱). صفین، ص ۳۱۹.

[۱۲۳] (۱). انساب الأشراف البلاذری، ج ۵، ص ۵۷؛ تاریخ الطبری، ج ۵، ص ۱۱۳؛ العقد الفرید، ج ۲، ص ۲۵۸ و ۲۶۱ و ۲۷۲.

[۱۲۴] (۱). النهایة لابن الأثیر الجزری، ج ۵، ص ۸۰ و شرح نهج‌البلاغة لابن أبی‌الحدید، ج ۲، ص ۷۷ و ج ۶، ص ۲۱۵.

[۱۲۵] (۱). تاریخ الطبری، ج ۵، ص ۱۱۸ وما بعدها و کامل لابن الأثیر، ج ۳، ص ۷۰ وما بعدها. لتحقیق أکثر انظر إلی کتاب فروغ ولایة عن الاستاذ جعفر السبحانی، ص ۳۲۷- ۳۳۵ و شرح نهج‌البلاغة لابن أبی لحدید، ج ۲، ص ۱۲۹ تا ۱۵۸، ذیل الخطبة ۳۰.

[۱۲۶] (۱). سند الرسالة:

نقل هذه الرسالة نصر بن مزاحم فی کتاب صفین قبل السیّد الرضیّ، وبعد السید الرضی ذکرها ابن عساکر فی کتاب تاریخ دمشق فی شرح حال معاویة، وما ذکره السیّد الرضیّ فی نهج‌البلاغة لا یمثّل جمیع هذه الرسالة، فالرسالة تبتدیء بمقدّمة وردت فی کتاب مصادر نهج‌البلاغة(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۲۰).

والرسالة المذکورة لها خاتمة وردت فی کتاب نهج‌البلاغة الکامل.

[۱۲۷] (۱).« جلابیب» جمع« جلباب» علی وزن« مفتاح»(وهذه المفردة ترد بکسر الجیم وفتحها وتعنی العباءة، قطعةالقماش التی تغطّی جمیع البدن، وتطلق علی الثوب الواسع والطویل).

[۱۲۸] (۱).« تبهّجت» من مادة« بهج» و« بهجة» بمعنی الجمال والطراوة، و« والتبهّج» بمعنی الشعور بالفرح بسبب رؤیة الجمال.

[۱۲۹] (۲).« یوشک» من مادة« وشک» علی وزن« کبت» تعنی الإسراع فی المشی، وعلیه فإنّ کلمة« یوشک» تدلّ علی أنّالأمر الفلانی سرعان ما یتحقق(والصحیح« یوشِک» بکسر الشین، وتارة تأتی بفتحها).

[۱۳۰] (۳).« مجنّ» بمعنی الدرع.

[۱۳۱] (۴).« أقعس» صیغة أمر من مادة« قعس» علی وزن« نفس» وفی الأصل بمعنی بروز الصدر إلی الأمام وانبعاج الظهر، ثم اطلقت علی کل تکاسل واهمال فی عمل معین، وجاءت فی العبارة أعلاه بهذا المعنی، یعنی: یجب علیک یامعاویة أن تتراجع عن الخلافة.

[۱۳۲] (۵).« أهبة» بمعنی تهیئة وسائل العمل.

[۱۳۳] (۶).« شمّر» من ال« تشمیر» وأصلها من« شمر» علی وزن« تمر» بمعنی جمع الأمور وقطف الثمار والاستعداد لقدوم قادم، وتعنی فی التهیؤ لأداء عمل معین.

[۱۳۴] (۷).« غواة» جمع« غاوی» المضل.

[۱۳۵] (۱).« مترف» هو الشخص الذی یملک نعماً ومواهب کثیرة، وبما أنّ ذلک قد یسبب غالباً الطغیان فالمترفین همالأشخاص الأثریاء الذین یعیشون حالة الطغیان والتمرّد.

[۱۳۶] (۱).« باسق» بمعنی المرتفع من« البسوق» علی وزن« طلوع».

[۱۳۷] (۱).« غرّة» بمعنی الغفلة والجهل وعدم الاطلاع والغرور.

[۱۳۸] (۲).« الامنیّة» بمعنی الأمل، وأصلها« منی» علی وزن« رمی» بمعنی التقدیر والفرض ویطلق علی الأمال تمنیوالامنیة بسبب أنّ

الإنسـان يقـدر لنفسه الكثير من الأمور فى عـالم الخيـال ويتعلق بها قلبه، ومفردهٔ امنيـهٔ تأتى غالباً فى موارد الطموحات والأمال البعيـدهٔ والتى لا تتحقق فى الواقع العملى.

[۱۳۹] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۳۳۵، ح ۳.

[۱۴۰] (۱). ومن النقاط التاريخيهٔ الملفتهٔ للنظر ما وقع نظير هذه القصهٔ عن بسر بن ارطاهٔ الذى يعتبر من شجعان العرب، فينقل ابن عبد البر فى كتابه الاستيعاب(ج ۱، ص ۱۶۴) أنّ بسـر كان حاضراً مع معاويهٔ فى صفّين، فشجّعه معاويهٔ على قتال أميرالمؤمنين وقال:« كان بسـر من الأبطـال الطغـاهٔ وكـان مع معاويـهٔ بصِّفين، فأمره أن يلقى علياً عليه السـلام فى القتال، وقال له: إنّى سـمعتك تتمنّى لقاءه، فلو أظفرك اللَّه به وصـرعته حصـلت على الـدنيا والآخرهٔ، ولم يزل يشـجّعه ويمنّيه حتى رأى عليّاً عليه السـلام فى الحرب، فقصـده والتقيا فصـرعه علىّ عليه السـلام، وعرض له معه مثل ما عرض له مع عمرو بن العاص فى كشف السوأهٔ»(شـرح نهجالبلاغهٔ لابن أبىالحديد، ج ۶، ص ۳۱۶ و ۳۱۷).

[۱۴۱] (۱). شرح نهجالبلاغهٔ لابن أبىالحديد، ج ۱۵، ص ۸۴- ۸۵.

[۱۴۲] (۱).« ثائر» بمعنى المطالب بـدم المقتول، وهى من مادهٔ« ثأر» على وزن« سأل»، وعندما تطلق هذه الكلمهٔ علىبعض المعصومين عليهم السلام،« يا ثاراللَّه» يعنى الشخص الذى ينتقم للَّهلا لفرد معين أو قبيلهٔ.

[۱۴۳] (۱).« عضّ» من« العضّ» بمعنى الامساك بالأسنان.

[۱۴۴] (۲).« جمال» جمع« جمل» بمعنى الإبل؛ مثل« جبال» جمع« جبل».

[۱۴۵] (۳).« حائدهٔ» بمعنى المائلهٔ عن الطريق المستقيم من مادهٔ« حيد» على وزن« صيد» أى الميل إلى أحدى الجهات، وهذه المفردهٔ تأتى بمعنى نقض البيعهٔ.

[۱۴۶] (۱).« هرير» فى اللغهٔ بمعنى عواء الكلب عند التألم، وهذا إشارهٔ إلى أنين أهل الشام وصراخهم فى تلك الليلهٔ.

[۱۴۷] (۲). انظر: شرح نهجالبلاغهٔ لابن أبى الحديد، ج ۲، ص ۲۰۵- ۲۵۶.

[۱۴۸] (۱). سند الرسالهٔ:

لقـد أورد هذه الرسالهٔ نصـر بن مزاحم الذى كان يعيش ۲۰۰ سـنهٔ قبل السـيد الرضـى فى كتابه صفين، والحسن ابن شعبهٔ الحرّانى فى تحف العقول والدينورى فى كتاب الاخبار الطوال. وابن ميثم البحرانى الذى يعدّ أحد شرّاح نهجالبلاغهٔ أورد هذه الرسالهٔ مع إضافات مهمّهٔ وهذا يشير إلى وجود مصادر غير نهجالبلاغهٔ(مصادر نهجالبلاغهٔ، ج ۳، ص ۲۲۴).

وصـرّح صـاحب المصادر إلى أنّ هـذه الرسالـهٔ تمثّل قسـماً من رسالـهٔ مطولّـهٔ أرسـلها الإمام عليه السـلام إلى زياد بن النضـر الحارثى وشريح بن هانىء من قوّاد جيش الإمام علىّ عليه السلام. وقد وردت هذه الرسالهٔ أيضاً فى كتاب نهجالبلاغهٔ الكامل برقم ۱ من رسائل الإمام أميرالمؤمنين علىّ عليه السلام فى ص ۹۴۵.

[۱۴۹] (۱).« أشراف» جمع« شرف» على وزن« هدف» بمعنى المكان المرتفع والتعبير ب« قبل الأشراف» يعنى أمامالمرتفعات.

[۱۵۰] (۲).« سـفاح» فى الأصل معنى انهمار الماء وجريانه، ثم اطلق على جانب الجبل، لأنّ الماء ينهمر منه، وتأتى هـذه المفردهٔ كنايهٔ عن الزنا.

[۱۵۱] (۳).« اثناء» جمع« ثنى» على وزن« صنف» بمعنى الملتوى والمطاوى، وهذه المفردهٔ« اثناء» تأتى بمعنى وسط الشىء.

[۱۵۲] (۱).« ردء» بمعنى المعين والنصير.

[۱۵۳] (۲).« مردّ» تأتى تارهٔ بمعنى المانع وأخرى بمعنى محل العودهٔ، فى الجملهٔ أعلاه كما ذكرنا فى الشرح، تأتى بكلا المعنيين.

[۱۵۴] (۱).« صياصـى» جمع« صيصـيهٔ» أو« صيصهٔ» وهو فى الأصل بمعنى المشط الذى يستخدمه الحائك لتعديل وتنظيم القماش، أو الظفر الزائـد فى أقـدام بعض الطيور، ثم اطلق على القلاع المحكمهٔ على قمم الجبال وكذلك تطلق على قمّهٔ الجبل، وفى العبارهٔ أعلاه

وردت بمعنى الأخير.

[۱۵۵] (۲).« مناكب» جمع« منكب» على وزن« مغرب» بمعنى الأكتاف، بالنظر إلى أنّ الهضاب جمع هَضَبَة(على وزن عَقَبَة) تأتى بمعنى الجبال المسطحة التى تفتقد القمم، فإنّ« مناكب الهضاب» تعنى الأقسام العليا من هذه التلال المرتفعة والتى هى بمثابة الاكتاف للجبل.

[۱۵۶] (۱).« كفة» جمعها« كفاف» بمعنى الشيء المدوّر، وكفّة الميزان يراد بها هذا المعنى أيضاً حيث تكون بشكل دائرى.

[۱۵۷] (۱). سند الرسالة:

جاء فى كتاب مصادر نهج‌البلاغة أنّ الحرب بين الإمام عليه السلام وأهل الشام عندما وصلت إلى المدائن أرسل الإمام علىّ عليه السلام معقل بن قيس الرياحى مع ثلاثة آلاف مقاتل كمقدمة للجيش باتجاه الشام وأوصاه بوصايا عدّة اختار منها الشريف الرضى بعضها، والبعض الآخر ذكره نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، ولا شك أنّ السيد الرضى نقل هذه الوصية من مصدر آخر غير كتاب صفين لنصر بن مزاحم.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۲۶).

ثم أضاف: إنّ المرحوم ابن ميثم فى شرحه لنهج البلاغة نقل إضافات لما أورده السيد الرضى، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر غير نهج‌البلاغة للشريف الرضى(شرح نهج‌البلاغة لابن ميثم، ج ۴، ص ۳۸۰۹.

والعجب أنّ كتاب نهج‌البلاغة الكامل أورد كلمتين اضافيتين فقط على ما ذكره السيد الرضى فى نهاية هذه الوصية(نهج‌البلاغة الكامل، ص ۷۴۴).

[۱۵۸] (۱). سورة البقرة، الآية ۲۲۳.

[۱۵۹] (۲). سورة النجم، الآية ۴۲.

[۱۶۰] (۱). سورة الانفال، الآية ۶۱.

[۱۶۱] (۲).« بردين» تثنية« برد» بمعنى البرودة ضد الحر، وهذا إشارة إلى الصبح والعصر حيث يبرد الهواء نسبياًوتنخفض درجة الحرارة.

[۱۶۲] (۳).« غوّر» من مادة« غور» على وزن« قول» وردت فى المصادر اللغوية بمعنيين، الأول، النوم فى منتصف النهاروالذى يعبر عنه بالقيلولة، والثانى، التوغل إلى باطن الشيء وعمقه، وفى الجملة يراد بها الأول، وأحياناً يقصد بهذه المفردة الحملة والهجوم والإغارة أيضاً.

[۱۶۳] (۴).« رفّه» من« الترفيه» و« رفوه» بمعنى الراحة والهدوء فى الحياة، والرفاه يرد أيضاً كأحد المصادر لهذه المفردة.

[۱۶۴] (۱).« ينبطح» من مادة« بطح» على وزن« فتح» بمعنى الامتداد والتوسع، وجملة« يَنْبَطِحُ السَحَرُ» يعنى امتدادالسحر وظهور علاماته، وهذه المفردة تأتى أحياناً بمعنى الاضطجاع على الأرض.

[۱۶۵] (۲). سورة الأنعام، الآية ۹۶.

[۱۶۶] (۳). سورة آل عمران، الآية ۱۷.

[۱۶۷] (۱).« ينشب» من« النشوب» على وزن« سجود» بمعنى المواجهة والتدخل فى عمل الشيء، وأحياناً تأتى بمعنى بدء اشتعال نار الحرب، و« انشاب» من باب إفعال بمعنى غرز المخالب فى بدن الطرف المقابل، وأحياناً تأتى بمعنى إشعال نار الحرب.

[۱۶۸] (۲).« شنآن» مصدر بمعنى الخصومةوالعداوة.

[۱۶۹] (۱).« اعذار» بمعنى اتمام الحجة وايصاد طريق الاعتذار على الطرف المقابل.

[۱۷۰] (۱). سند الرسالة:

وردت هذه الرسالة فى تاريخ الطبرى(ج ۳، ص ۵۶۴) وفى كتاب صفين لنصر بن مزاحم ص ۱۵۳.

وأورد صاحب کتاب مصادر نهج‌البلاغة أنّ هـذین المؤرخین کانا یعیشان قبل السـید الرضـی، وجاء فی تاریـخ الطبری أنّ الإمام علیه السـلام کتب هـذه الرسالـة لزیاد بن النضـر وشـریح بن هانیء من قادة مقدّمة جیشه عندما کانا یتوجّهان إلی صـفّین، وعندما اقتربا من جیش معاویـة التقیا بأحد أفراد جیشه ویدعی أبو الأعور السـلمی ودعیاه للالتحاق بجیش الإمام علیّ علیه السـلام والطاعة له، ولکنّه لم یقبل بذلک، فوصل خبر هذا اللقاء إلی الإمام علیه السلام فأرسل الإمام مالک الأشتر وجعله قائداً للجیش ومعه هذه الرسالة إلیهما.

[۱۷۱] (۱).« حیّز» تعنی المکان والناحیـة، وهی من مادة« الحیازة» بمعنی تملّک الشـیء والاستیلاء علیه وإحراز الأولویة فی التصـرّف به.

[۱۷۲] (۲).« مجنّ» بمعنی الدرع، من مادة« جنّ» علی وزن« فن» بمعنی التغطیة.

[۱۷۳] (۳).« سقطة» بمعنی الانحراف والسقوط.

[۱۷۴] (۴).« احزم» من مادة« حزم» علی وزن« نظم» بمعنی تحکیم العمل واتقانه.

[۱۷۵] (۵).« امثل» بمعنی أفضل.

[۱۷۶] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبی الحدید، ج ۱۵، ص ۱۰۰(مع تلخیص).

[۱۷۷] (۱). الاستیعاب، ج ۲، ص ۷۲.

[۱۷۸] (۲). تاریخ الإسلام الذهبی، ج ۵، ص ۴۲۳.

[۱۷۹] (۳). مستدرکات علم رجال الحدیث، ج ۳، ص ۴۵۵.

[۱۸۰] (۱). سند الرسالة:

صرّح صاحب کتاب مصادر نهج‌البلاغة أنّ هذه الرسالة نقلت عن الإمام علیه السلام بالتواتر، فقد تحدّث الإمام علیه السلام عدّة مرات بهذه التوصیات لأصحابه وأنصاره، ومن المؤرخین الذین نقلوا هذه الرسالة قبل السید الرضی، الطبری فی تاریخه المعروف فی سنة ۳۷ عن عبد الرحمن بن جندب عن أبیه بأنّ الإمام علیّ علیه السـلام کان یوصی أنصاره بهذه التوصیات فی کل مواجهة وقتال مع الأعداء، وکـذلک نقلهـا نصـر بن مزاحم فی کتـاب صـفین بهـذا المضـمون، وذکرهـا المرحوم الکلینی أیضاً فی کتاب فروع الکافی فی کتاب الجهاد من الراوی نفسه(عبـدالرحمن بن جنـدب عن أبیه)، وکـذلک نقلها المسـعودی فی مروج الذهب وابن أعثم الکوفی فی کتاب الفتوح؛ ثم أضاف مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ کل هؤلاء الرواة کانوا یعیشون قبل السید الرضی فلا نحتاج لذکر اسماء الأشخاص الذین نقلوا هذه الرسالة عن الإمام علیه السلام بعد السید الرضی(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۱۷).

[۱۸۱] (۱). بحار الأنوار، ج ۳۲، ص ۳۱۳.

[۱۸۲] (۱). سورة المائدة، الآیة ۳۳.

[۱۸۳] (۲). سورة البقرة، الآیة ۱۹۴.

[۱۸۴] (۳).« معور» فی الأصل من مادة« عار» و« عور» علی وزن« غور» بمعنی العیب والنقص، ثم اطلقت علی المناطق‌الضعیفة والنقاط القابلـة للنقص، والمعور: الشـخص الذی لا یسـتطیع الدفاع عن نفسه ویتعرّض للضـرر فی مقابل هجوم مخالفه، وسـمیت الآلة التناسـلیة بالعورة لأنّ اظهارها یورث العیب والعار لصاحبها.

[۱۸۵] (۱).« لا تُجْهِزُوا» من« الإجهاز» بمعنی التسریع وقتل المجروحین وإنهاء حیاتهم، وهذا یشبه ما یطلق علیه حالیاً برصاصة الرحمة.

[۱۸۶] (۲). الکافی، ج ۵، ص ۳۳، ح ۲.

[۱۸۷] (۱).« فَهر» بمعنی قطعة من الحجر الصافی والأملس بمقدار قبضة الید، و« فِهر» علی وزن« شـعر» تطلق علی الأحجار التی تطحن بها الأدویة.

[۱۸۸] (۲).« هراوة» بمعنی قطعة من الخشب کالعصا الغلیظة.

[۱۸۹] (۳).« عقب» الولد سواء كان ذكراً أم انثى.

[۱۹۰] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبی‌الحدید، ج ۱۵، ص ۱۰۵.

[۱۹۱] (۱). الکافی، ج ۵، ص ۵۰۵، ح ۴.

[۱۹۲] (۲). وسائل‌الشیعة، باب ۸۹ من أبواب مقدمات النکاح، ح ۲.

[۱۹۳] (۳). الکافی، ج ۵، ص ۳۲۳، ح ۳ باب أصناف النساء.

[۱۹۴] (۱). شرح نهج‌البلاغة العلّامة التستری، ج ۱۳، ص ۵۱۴.

[۱۹۵] (۱). سند الدعاء: هذا الدعاء ورد فی عدّة مصادر معروفة قبل المرحوم السیّد الرضی، ومنها کتاب صفین لنصر بن مزاحم حیث نقله بأربعة أسانید عن الإمام علیّ علیه السلام وفیه اضافات معتبرة أکثر مما أورده السید الرضی.

وقد ذکر المرحوم الشیخ المفید أیضاً فی کتاب النصرة وقال: إنّ الإمام علیه السلام دعا بهذا الدعاء یوم الجمل.

وفی کتاب صفین لعبد العزیز بن یحیی الجلودی أیضاً طبقاً لنقل المرحوم العلّامة المجلسی.(والسیّد ابن طاووس فی مهج الدعوات). أنّ الروایات أعلاه تشیر أحیاناً إلی أنّ هذا الدعاء ورد فی معرکة الجمل وأحیاناً أخری فی معرکة صفین ویوم الهریر، ویستفاد من بعضها أنّ الإمام علیه السلام کان عندما یرید الورود إلی میدان القتال فی کل مرّة یقرأ هذا الدعاء(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۲۰).

[۱۹۶] (۱).« أفضت» من« الإفضاء» و« فضاء» بمعنی الوصول إلی الشیء، وکأنّه ورد فی دائرة فضائه وأجوائه.

[۱۹۷] (۲).« شخصت» من« الشخوص» بمعنی تحدیق العین بالشیء بحیث أنّ سواد العین ثابت والجفن لا یتحرک.

[۱۹۸] (۳).« أُنضیت» من« الإنضاء» بمعنی إضعاف بدن الإنسان أو الحیوان وجعله نحیفاً، وتأتی بمعنی الاستنزاف والاستهلاک والإساءة أیضاً.

[۱۹۹] (۱). سورة التوبة، الآیتان ۱۲۰ و ۱۲۱.

[۲۰۰] (۲).« جاشت» من مادة« جیش» علی وزن« عیش» بمعنی الغلیان، وهذا المفردة تطلق علی الغلیان الظاهری للأشیاء وکذلک الغلیان المعنوی والباطنی، مثل غلیان الغم والحزن فی داخل الصدور.

[۲۰۱] (۳).« مراجل» جمع« مرجل» علی وزن« منبر» بمعنی القدور.

[۲۰۲] (۴).« أضغان» جمع« ضغن» وهو الحقد.

[۲۰۳] (۱).« افتح» من مادة« فتح» تأتی أحیاناً بمعنی النصر وأخری بمعنی فتح الباب أو القفل، وثالثة بمعنی التحکیم، وکلّها تشترک بنوع من فتح الشیء المغلق.

[۲۰۴] (۲). سورة الأعراف، الآیة ۸۹.

[۲۰۵] (۱). سند الرسالة:

هذا الکلام فی الحقیقة یمثّل مقطعاً من کلام الإمام علیه السلام لأصحابه فی أحد أیّام معرکة صفین، ویستفاد من کلام ابن أبی‌الحدید أنّه استمرار للخطبة ۶۲(وفقاً للترقیم الوارد فی نهج‌البلاغة لصبحی الصالح الخطبة ۶۴). وعلی أیة حال فمن جملة الأشخاص الذین نقلوا هذه الخطبة قبل السید الرضی المرحوم الشیخ الکلینی فی کتاب الکافی، کتاب الجهاد فی عدّة عبارات، وذکر نصر بن مزاحم أیضاً فی کتاب صفین مقطعاً منه، والعجب أنّ الوارد فی کتاب نهج‌البلاغة الکامل مقطع من هذا الکلام لا کله،(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۳۲).

[۲۰۶] (۱).« فرّة» وتعنی المرّة من الفرار.

[۲۰۷] (۲).« کرّة» بمعنی المرّة من العودة الهجوم علی العدو، ومن هنا سمی الإمام علی علیه السلام بالکرّار لأنّه کان یکثر من العودة

إلى العدو والهجوم عليه.

[۲۰۸] (۳).« جولة» بمعنى الدوران فى الميدان والتحرك من هذه الجهة إلى تلك.(وهذه المفردة تأتى بمعنى المصدر واسم المصدر أيضاً، وذهب بعض إلى أنّ« جولة» تعنى الفرار لمدّة قصيرة، ولكن مع الالتفات إلى سياق كلام أميرالمؤمنين عليه السلام أعلاه فإنّ هذا المعنى مستبعد.

[۲۰۹] (۱).« مصارع» جمع« مصرع» بمعنى محل سقوط الشخص.

[۲۱۰] (۱).« اذمُرُوا» فعل أمر من مادة« ذمر» على وزن« أمر» بمعنى التثوير وتهييج النفس على فعل معين.

[۲۱۱] (۲).« الطَعْن» بمعنى ادخال الرمح فى بدن العدو، وهذه المفردة تأتى كناية أيضاً ويراد بها إبراز عيوب الشخص والتنقيص من شخصيته.

[۲۱۲] (۳).« دعسىّ» من مادة« دعس» على وزن« درس» بمعنى إملاء، وتأتى أحياناً بمعنى التأثير، وهذا المفردة عندما تأتى بمعنى إدخال الرمح فى بدن العدو وكأنّ الرمح قد ملأ جوف العدو وأثر فى بدنه.

[۲۱۳] (۴).« طلحف» بمعنى الشديد.

[۲۱۴] (۱). بحار الأنوار، ج ۱۹، ص ۲۵۲.

[۲۱۵] (۱).« نسمة» بمعنى الإنسان وأحياناً تأتى بمعنى الروح، وأخرى تطلق على كل موجود ذى روح، وأصلها من‌النسيم وهو الريح الخفيفة والناعمة.

[۲۱۶] (۱). سورة النساء، الآية ۲۹.

[۲۱۷] (۲). صحيح مسلم، ج ۶، ص ۱۸.

[۲۱۸] (۳). تاريخ الطبرى، ج ۸، ص ۱۸۵، مطبعة مؤسسة الأعلمى، بيروت.

[۲۱۹] (۱). تاريخ الطبرى، ج ۸، ص ۱۸۶، مطبعة مؤسسة الأعلمى، بيروت.

[۲۲۰] (۲). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۰، ص ۱۰۱.

[۲۲۱] (۳). مسند أحمد، ج ۵، ص ۳۴۷.

[۲۲۲] (۴). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۵، ص ۱۲۹.

[۲۲۳] (۱). العقد الفريد، ج ۵، ص ۸۷.

[۲۲۴] (۲). كامل التواريخ، ج ۳، ص ۴۸۷.

[۲۲۵] (۳). المحاسن والمساوىء، ص ۴۳ طبعة بيروت(مطابق نقل شرح إحقاق الحق، ج ۱۵، ص ۶۲).

[۲۲۶] (۱). الموفقيات، ص ۵۷۶، طبعة وزارة الاوقاف بغداد، سنة ۱۳۹۲؛ مروج الذهب،، ج ۲، ص ۴۲۹، طبعة بيروت، سنة ۱۹۸۲؛ شرح نهج‌البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۵، ص ۱۲۹.

[۲۲۷] (۱). وقعة صفين، ص ۴۷۲.

[۲۲۸] (۱). سند الرسالة:

يقول صاحب كتاب مصادر نهج‌البلاغة: ذكر هذه الرسالة جماعة من المؤرخين قبل السيد الرضى فى كتبهم، منهم: نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، البيهقى فى المحاسن والمساوىء، ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة، المسعودى فى مروج الذهب وابن اعثم الكوفى فى كتاب الفتوح، وطبقاً لما ذكره نصر بن مزاحم أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة قبل ليلة الهرير بيومين أو ثلاثة أيّام(وليلة الهرير هى الليلة الأخيرة من معركة صفين حيث استمر القتال وخلافاً للمعتاد حتى الليل واستمرت الحرب بين الطرفين إلى الصباح من يوم غد وظهرت علائم الهزيمة على جيش معاوية)(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۳۴).

[۲۲۹] (۱). مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۳۸.

[۲۳۰] (۲). انظر إلى كتاب نهج‌البلاغة الكامل، ص ۸۵۲.

[۲۳۱] (۱). طبقاً لبعض‌الروايات أنّ عددالقتلى فى حرب صفين من‌جيش‌معاوية ۴۵ ألفاً، ومن جيش‌الإمام عليه السلام ۲۵ ألفاً.

[۲۳۲] (۲).« حُشاشات» جمع« حشاشة» بمعنى النفس الأخير.

[۲۳۳] (۱).« امضى» بمعنى شدة التأثر والنفود فى الإقدام والعمل وهى من« المضىّ» بمعنى العبور والمرور.

[۲۳۴] (۱).« طليق» بمعنى الأسير المتحرر من« الطلاق» بمعنى التحرر والإنفلات.

[۲۳۵] (۲).« صريح» تطلق على الشخص الذى يملك نسباً خالصاً وواضحاً.

[۲۳۶] (۳).« لصيق» يقع على الضد من صريح، ويعنى الشخص غير واضح النسب والذى ينسب لشخص أو قبيلة ويلتصق به.

[۲۳۷] (۱). انظر: شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۵، ص ۱۱۸.

[۲۳۸] (۲).« مُدغل» بمعنى المفسد والمثير للفتنة من مادة« دغل» بمعنى الفتنة والفساد.

[۲۳۹] (۳).« هوى» من« الهُوِىّ» بضم الهاء وتشديد الياء، وهى فى الأصل السقوط من مرتفع، وبما أنّ نتيجته الهلكةوالموت، فلذلك تطلق هذه المفردة على الهلكة أيضاً.

[۲۴۰] (۱).« نعشنا» من مادة« نعش» بمعنى رفع الشىء، ويقال للتابوت نعش الميت لأنّه مرتفع عن الأرض أو أنّه مرفوععلى الأيدى، والمراد من الجملة أعلاه أنّ الأشخاص الذين يعيشون الذلة والمهانة أضحوا بالإسلام وفى ظل الإيمان أعزاء.

[۲۴۱] (۱). سورة النصر، الآيات ۱- ۳.

[۲۴۲] (۱). سورة التوبة، الآية ۱۰۰.

[۲۴۳] (۱). الجدير بالذكر أنّ القراءة المشهورة أن تقرأ كلمة الأنصار بالكسر لأنّها عطف على المهاجرين لا بالضمة على‌أساس أنّها عطف على السابقين.

[۲۴۴] (۱). سورة التوبة، الآية ۱۰۰.

[۲۴۵] (۲). سورة الجمعة، الآية ۳.

[۲۴۶] (۳). سورة الحشر، الآية ۱۰.

[۲۴۷] (۴). أوردنا بحثاً كافياً فى موضوع تنزيه الصحابة فى التفسير الأمثل، ذيل الآية ۱۰۰ من سورة التوبة تحت عنوان: هل أنّ جميع الصحابة صالحون؟ وكذلك فى ذيل الخطبة الشقشقية الخطبة الثالثة من نفحات الولاية، ج ۱، تحت عنوان« هل أنّ جميع الصحابة سلكوا طريق رسول اللّه عليه السلام؟» وكذلك فى هذا الجزء من شرح نهج‌البلاغة، وللمزيد من الاطلاع يمكنكم مراجعة كتاب« الشيعة تجيب» فى بحث تنزيه الصحابة.

[۲۴۸] (۱). سند الرسالة:

ذكر صاحب كتاب مصادر نهج‌البلاغة حول هذه الرسالة: إنّ ابن الميثم نقل هذه الرسالة فى شرح نهج‌البلاغة ولكن سياق كلامه يدلّ بوضوح على أنّه نقل هذه الرسالة من مصدر غير نهج‌البلاغة، وكذلك نقل بعض مقاطع هذه الرسالة أبوهلال العسكرى فى كتاب الصناعتين والباقلانى فى إعجاز القرآن والسيّد أمير يحيى العلوى فى كتاب الطراز، ومع الالتفات إلى التفاوت الموجود بين هذه المنقولات يتبين وجود مصادر غير نهج‌البلاغة(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۴۱).

[۲۴۹] (۱).« مغرس» فى الأصل بمعنى محلّ غرس الأشجار. ثم اطلق على محل ظهور كلّ شىء.

[۲۵۰] (۲).« حادث» صيغة أمر من« المحادثة» بمعنى المراقبة والتحقيق وإزالة الصدأ، يعنى غسل القلوب وتطهيرها من درن الأحقاد ورسوبات النزاعات السابقة.

[۲۵۱] (۳). سورة فصلت، الآيتان ۳۴ و ۳۵.

[۲۵۲] (۱). نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، ۱۵۸.

[۲۵۳] (۲).« تنمّر» بمعنى الغضب الشديد وسوء المعاملة، من مادة« نمر» على وزن« كبد» وهو الحيوان المعروف.

[۲۵۴] (۳).« وغم» وهذه المفردة تأتى بمعنى الحرب وكذلك بمعنى الحقد.

[۲۵۵] (۴).« ماسّة» بمعنى القريبة والحميمة من مادة« مسّ» وهو إتصال الأبدان.

[۲۵۶] (۵).« مأزورون» بمعنى المذنبون من مادة« وزر» وهو الذنب.

[۲۵۷] (۱).« أربع» من« الربوع» بمعنى المداراة وضبط النفس.

[۲۵۸] (۲).« يفيل» من مادة« فيل» على وزن« ميل» بمعنى الخطأ أو الضعف.

[۲۵۹] (۱). سند الرسالة:

نقلت هـذه الرسالـة فى الكتب والمصادر التاريخية قبل السيـد الرضـى، ومن جملة هذه المصادر ما أورده البلاذرى(المتوفى ۲۷۹) فى كتاب انساب الأشـراف البلاذرى، وابن واضح(المعروف باليعقوبى المتوفى ۲۸۴) فى تاريخه مع تفاوت وإضافات يسيرة لما ورد فى نهج‌البلاغة(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۴۲).

[۲۶۰] (۲). شرح نهج‌البلاغة لابن ميثم، ذيل الرسالة المذكورة.

[۲۶۱] (۱).« دهاقين» جمع« دهقان» وأصل هـذه الكلمة فارسيـة« دهكان» أو« دهبان» بمعنى كبير القرية الرئيس، الزعيم، وأحياناً تطلق على كل فلاح، ولكن الأنسب فى العبارة أعلاه المعنى الأول، لأنّ الرؤساء وكبار القرية هم الذين يكتبون الشكاوى.

[۲۶۲] (۱).« جلباب» بكسـر وفتـح الجيم، ذكروا لهـذه الكلمـة معانٍ مختلفة فتارة تأتى بمعنى العباءة والملحفة، وأخرى‌المقنعة وغطاء الرأس، والثالثة الثوب الطويل والواسع، وفى الرسالة مورد البحث قصد بها الكناية، والمراد الغطاء واللباس المعنوى الذى يرتديه المدير والقائد لجماعة من الناس حيث يوصيه الإمام عليه السلام بلزوم التحلّى بحالة تقترن فيها الشدة باللين.

[۲۶۳] (۲).« داوِل» صيغة أمر من« المُداولة» بمعنى تحويل الأمر من شخص لآخر بإدارته وإدارة الأمر واستبدال شىء‌بشىء أو شخص بدل شخص آخر، والمراد من هذه المفردة من العبارة أعلاه أن تتعامل معهم أحياناً بالمودة والمحبة وأخرى بشىء من القسوة والشدّة.

[۲۶۴] (۱). سورة الحجر، الآيتان ۴۹ و ۵۰.

[۲۶۵] (۱). سورة الممتحنة، الآية ۸.

[۲۶۶] (۱). سند الرسالة:

ذكر هـذه الرسالـة قبل السيـد الرضـى، البلاذرى فى كتاب انساب الأشـراف، واليعقوبى فى تاريخه(مع تفاوت يسير) وقد أشار كتاب مصادر نهج‌البلاغة إلى الكتاب الأول ثم أضاف أنّ هذه الرسالة نقلها البيهقى فى المحاسن والمساوىء(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۳۳).

[۲۶۷] (۱). سورة العنكبوت، الآية ۱۳.

[۲۶۸] (۱). سند الرسالة:

نقل هـذه الرسالـة البلاذرى فى كتاب انساب الأشـراف، وفى الحقيقـة أنّ ما ذكره السيـد الرضـى فى نهج‌البلاغة يعتبر قسـماً من رسالة مطولّة أرسـلها الإمام عليه السـلام لزياد بن أبيه، وقـد أورد كتاب مصادر نهج‌البلاغة هذا المصدر فقط للرسالة(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۳۳).

ونقلها ابن أبى‌الحديد فى شرح نهج‌البلاغة ذيل الرسالة ۴۴ عن البلاذرى فى أنساب الأشراف مع اختلافات عدّة، وبما أنّ هذا التفاوت كبير نسبياً فمن البعيد حمله على اختلاف النسخ، ولعلّ ابن أبى‌الحديد كان يملك مصدراً آخر لهذه الرسالة حيث نقلها بكلّ تفاصيلها

وشرحها.

[۲۶۹] (۱). نقل المرحوم الحرّ العاملی صاحب کتاب وسائل الشیعهٔ فی الجزء الأول، الباب ۱۰۲ فی آداب الحمام روایات کثیرهٔ حول کیفیهٔ الاستفادهٔ من أنواع الدهون لتسبیط الشعر وتنعیم الوجه والبدن بما کان متداولًا فی ذلک الزمان ومستحباتها ومکروهاتها، ویستفاد من تعبیر الإمام علیه السلام فی التعبیر أعلاه أنّ الإکثار من استخدام هذه الدهون کان مسلک الأشراف والأثریاء والمترفین فی ذلک العصر.

[۲۷۰] (۲). ذکر هذا المضمون البلاذری فی انساب الأشراف، وابن أبی‌الحدید فی شرح نهج‌البلاغهٔ(ج ۱۶، ص ۱۹۶).

[۲۷۱] (۳). بحار الأنوار، ج ۷۱، ص ۳۴۶.

[۲۷۲] (۱). سورهٔ البقرهٔ، الآیهٔ ۱۱۰.

[۲۷۳] (۲). سورهٔ الحشر، الآیهٔ ۱۸.

[۲۷۴] (۱). غرر الحکم، ح ۲۶۰۹.

[۲۷۵] (۲). المصدر السابق، ح ۲۸۹۸.

[۲۷۶] (۳). الکافی، ج ۲، ص ۳۱۰.

[۲۷۷] (۴).« المتمرّغ» هو الشخص الذی اضطجع علی التراب وألصق بدنه به، من« التمرّغ». بمعنی التقلّب فی التراب.

[۲۷۸] (۵).« ارْمَلَهٔ» المرأهٔ التی توفی زوجها، و« ارْمَل» الرجل الذی توفیت زوجته، وتأتی أحیاناً بمعنی فقدان الزاد والمتاع، وفی الأصل بمعنی« رمل» وکأنّ مثل هؤلاء الأشخاص ولشدّهٔ عجزهم وفقرهم وحاجتهم التصقوا بالأرض وبالرمل، وتطلق مفردهٔ« أرامل» علی المساکین أیضاً.

[۲۷۹] (۱). سورهٔ الزلزال، الآیتان ۷ و ۸.

[۲۸۰] (۱). شرح نهج‌البلاغهٔ لابن أبی‌الحدید، ج ۱۵، ص ۱۳۹، ذیل الکتاب ۲۱.

[۲۸۱] (۱). سند الرسالهٔ:

یقول صاحب کتاب مصادر نهج‌البلاغهٔ: إنّ هذه الرسالهٔ وردت فی روایات متواترهٔ، وقد نقلها کثیرون قبل السید الرضی وبعده فی کتبهم، ومن الأشخاص الذین نقلوا هذه الرسالهٔ قبل السید الرضی، نصر بن مزاحم فی کتابه صفین، والمرحوم الکلینی فی روضهٔ الکافی والبلاذری فی انساب الأشراف والیعقوبی فی تاریخه وبعد المرحوم السیّد الرضی جماعهٔ أخری أیضاً، ویستفاد من مجموع ذلک أنّ هذه الرسالهٔ مشهورهٔ ومعتبرهٔ جدّاً(مصادر نهج‌البلاغهٔ، ج ۳، ص ۲۳۴).

[۲۸۲] (۱). سورهٔ الحدید، الآیهٔ ۲۳.

[۲۸۳] (۱).« درک» وردت هذه الکلمهٔ فی أکثر نسخ نهج‌البلاغهٔ« دَرَک» علی وزن« سَنَد» ولکن وردت فی بعض النسخ« دَرْک» علی وزن« عَدْل» وکلیهما یقصد بهما معنی واحد وهو تحصیل الشیء ونیل المراد.

[۲۸۴] (۲). سورهٔ النجم، الآیهٔ ۳۹.

[۲۸۵] (۱). نهج‌البلاغهٔ، الکلمات القصار ۱۰۵.

[۲۸۶] (۱). سند هذا الکلام: ذکر هذه الوصیهٔ المرحوم الکلینی فی کتاب الکافی مع بعض التفاوت وقال: عندما ضُرب الإمام علیه السلام بالسیف فی محرابه، تجمّع بعض المصلین حول فراشه فقال أحدهم: یاأمیرالمؤمنین علیه السلام أوصنا، فقال: اتونی بوسادهٔ لأتکیء علیها ثم تحدّث بکلام معروف ومذکور فی المصادر وقد أورد السید الرضی قسماً منه.

وأورد قسماً من هذه الوصیهٔ المسعودی فی مروج الذهب وکذلک فی کتاب إثبات الوصیهٔ وابن عساکر فی تاریخه، الحوادث التی تتعلق باستشهاد الإمام علی علیه السلام.

[۲۸۷] (۱). سورة النور، الآية ۲۲.

[۲۸۸] (۱). سورة القصاص، الآية ۱۷۹.

[۲۸۹] (۱). سورة البقرة، الآية ۱۷۹.

[۲۹۰] (۱). نهج‌البلاغة، الكتاب ۴۷.

[۲۹۱] (۲). كمال الدين وتمام النعمة: ۶۶، كفاية الأثر: ۱۵.

[۲۹۲] (۱). سند الوصيّة: طبقاً لما ورد فى مصادر نهج‌البلاغة أنّ الشيخ الكلينى نقل هذه الوصية فى كتاب فروع الكافى، ج ۷، ص ۴۹ عن عبدالرحمن بن الحجاج(ولكن ما ورد فى الكافى يختلف كثيراً عمّا أورده السيد الرضى فى نهج‌البلاغة) ونقلها الشيخ الطوسى بعد الشريف الرضى فى كتاب التهذيب.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۵۴).

ويستفاد من كتاب نهج‌البلاغة أنّ هذه الوصية أكثر بكثير ممّا أورده السيد الرضى، وفى الحقيقة أنّ ما ورد فى نهج‌البلاغة يعتبر مقطعاً صغيراً من هذه الوصية، ولكن هذا المقطع عميق فى المعنى ودقيق فى العبارات والمضمون.(ولمزيد من الاطلاع انظر كتاب نهج‌البلاغة، ص ۹۸۸).

[۲۹۳] (۱). إنّ الرواية المذكورة فى كتاب الكافى بدل هذه الرواية تشير إلى أنّ التفسير الثانى أنسب، لأنّ المذكور فى الكافى:« وَإنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ ... وَإنَّ حُسَيْناً يَفْعَلُ فيهِ مِثْلَ الّذى أمَرتُ بِهِ حَسَناً» ومفهومه أنّ الإمام الحسين عليه السلام يسلك فى إجراء هذه الوصية بالنسبة للوقف، ذات البرنامج والمنهج الذى يسلكه الإمام الحسن عليه السلام.(الكافى، ج ۷، ص ۵۰).

[۲۹۴] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۵، ص ۱۴۹.

[۲۹۵] (۲). وللمزيد من الاطلاع راجع فروع الكافى، ج ۷، ص ۵۰.

[۲۹۶] (۱). عبارة« أطوف عليهن» تعبير كنائى جميل للمواقعة الجنسية، لأنّه يفهم من كلمة الطواف نوع من الإلتواء والدوران وعندما تأتى هذه الكلمة مع على يقصد بها الدروان حول الشىء وخاصة أنّ هذا التعبير طبقاً لما ذكره لسان العرب يستخدم عادة فى الحركات الليلة، وإذا كان القصد منها الحركة فى النهار لابدّ من المجىء بقرينة.

[۲۹۷] (۱). بحار الأنوار، ج ۴۱، ص ۳۲، ح ۳.

[۲۹۸] (۱). وللمزيد من الاطلاع انظر: تفسير الأمثل، ذيل آيات ۱- ۳ من سورة محمّد.

[۲۹۹] (۱). الاستيعاب، ج ۳، ص ۱۱۲۶.

[۳۰۰] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۵، ص ۱۴۶.

[۳۰۱] (۱). بحارالأنوار، ج ۱۰۰، ص ۱۸۲، ح ۴، والآيات ۵- ۷ من سورة الليل.

[۳۰۲] (۲). وسائل الشيعة، ج ۱۳، كتاب الوقوف والصدقات، باب ۱، ح ۱۰.

[۳۰۳] (۱). سند الوصيّة:

نقل هذه الرسالة بسند معتبرة المرحوم الكلينى فى كتابه الكافى فى باب« آدب المصّدّق» من كتاب الزكاة، وكذلك شيخ الطائفة الشيخ الطوسى فى باب« الزيادات فى الزكاة» بنفس سند الكلينى، ونقلها صاحب كتاب الغارات(إبراهيم الثقفى) بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام. يقول صاحب كتاب مصادر نهج‌البلاغة: إنّ هذه الوصية كانت معروفة بين العلماء قبل السيد الرضى ومن جملة الأشخاص الذين أشاروا إليها الشيخ المفيد فى المقنعة. ثم أضاف: من الأشخاص الذين نقلوها بعد السيد الرضى ابن إدريس فى السرائر عن المقنعة، والزمخشرى فى ربيع الأبرار مع تفاوت يسير(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۵۷).

[۳۰۴] (۱). مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۵۸.

[۳۰۵] (۱).« لا- تروعنّ» من مادة« روع» على وزن« قول» بمعنى الخوف والرعب، وذهب بعض العلماء إلى أنّ« روع» ربّماتعنى شدّة

الخوف.

[۳۰۶] (۲).« تجتازنّ» من« الإجتياز» وتعنى العبور.

[۳۰۷] (۱).« حىّ» تأتى أحياناً بمعنى ذى الروح، وأخرى بمعنى القبيلة، لأنّ مجموع القبيلة بمثابة الإنسان الحى‌الواحد، وتستعمل أيضاً فى اللغة المتداولة بمعنى المنطقة السكنية من المدينة.

[۳۰۸] (۱).« انْعَم» من« الإنعام» تأتى أحياناً بمعنى اعطاء النعمة، وأخرى بمعنى قول كلمة نعم، وفى الجملة موردالبحث جاءت بالمعنى الأخير، بقرينة الجملة ما قبلها:« فَإنْ قالَ قائِلٌ لا».

[۳۰۹] (۲).« تَعْسِف» من مادة« عسف» على وزن« كسب» وفى الأصل بمعنى سلوك طريق المتاهة، ثم اطلق على الظلم والجور، لأنّه مصداق سلوك طريق المتاهة.

[۳۱۰] (۳).« ترهق» من« الإرهاق» وأصلها من مادة« رهق» على وزن« شفق» وهى فى الأصل بمعنى التغطية أو تغطية الشىء بالقوة والغلبة، وتأتى فى كثير من الموارد بمعنى التعسير والأخذ بشدّة، وفى الجملة مورد البحث جاءت بهذا المعنى.

[۳۱۱] (۱). سورة التوبة، الآية ۱۰۴.

[۳۱۲] (۱). بحار الأنوار، ج ۹۳، ص ۸۵.

[۳۱۳] (۲). المصدر السابق.

[۳۱۴] (۳). المصدر السابق.

[۳۱۵] (۱). الكافى، ج ۳، ص ۵۴۰، ح ۸.

[۳۱۶] (۱).« ماشية» فى الأصل الطريق الذى يُسار عليه، من مادة« مشى»، ثم اطلقت على الدواب والأنعام من الإبل والبقر والغنم، ولكن تطلق غالباً على الأغنام وجمعها مواشي، وفى العبارة مورد البحث المقصود منها البقر والغنم بقرينة ذكر الإبل بعدها.

[۳۱۷] (۲).« عنيف» بمعنى الخشن والصعب، من مادة« عنف» على وزن« قفل».

[۳۱۸] (۳).« لا تفزعنّ» من مادة« فزع» بمعنى خاف وارتعد، وعندما تأتى من باب إفعال تكون متعدّية وتعنى التخويف والترهيب.

[۳۱۹] (۴).« اصدع» من مادة« صدع» على وزن« صبر» وتعنى الشق والفصل بين شيئين، وهذه المفردة« صدع» تأتى اسم‌مصدر وتعنى القسم المنفصل عن الشىء.

[۳۲۰] (۱).« استقال» من« الإستقالة» بمعنى طلب فسخ العقد أو ما اتفق عليه، وأصلها من القيلولة وهو النوم القليل فى‌وسط النهار للاستراحة، وبما أنّ الإنسان عندما يندم على عقد معين فإذا فسخه وألغاه فربّما يؤدى ذلك إلى امتعاضه وتأثره فاستخدمت كلمة« إقالة» والمطالبة بهذا العمل يدعى« استقالة».

[۳۲۱] (۱). انظر: جواهر الكلام، ج ۱۵، ص ۱۶۰.

[۳۲۲] (۲).« مهلوسة» من« الهُلاس» على وزن« غبار» و« هَلْس» على وزن« درس» بمعنى مرض السل، وعلى ضوء ذلك فإنّ« مهلوس» هو الحيوان المبتلى بهذا المرض، ولكن تارة يراد بهذه المفردة كل نوع من المرض، ويذهب بعض أرباب اللغة إلى أنّ« هلاس» تعنى الأمراض التى تسبب الضعف والنحافة فى البدن، وبما أنّ مرض السل الذى يصيب الإنسان يجعله نحيفاً وضعيفاً فاطلقت هذه الكلمة على هذا المرض.

[۳۲۳] (۳).« عَوار» من مادة« عار» و« عور» على وزن« غور» بمعنى العيب والنقص، وبما أنّ اظهار العضو التناسلى يعد عيباً للشخص فاطلقت كلمة« عورة» على هذا العضو، وتطلق هذه المفردة أيضاً على الدار غير المصبوغة واللباس المعيوب.

[۳۲۴] (۱). انظر: جواهر الكلام، ج ۱۵، ص ۱۳۵.

[۳۲۵] (۲). سورة آل عمران، الآية ۹۲.

[۳۲۶] (۳). سورة محمد، الآية ۳۷.

[۳۲۷] (۱).« مُعنف» من مادة« عنف» على وزن« قفل» وتعنى أخذ الشيء بشدة وعنف.

[۳۲۸] (۲).« مُجحف» من« الإجحاف» وأصله من« جحف» على وزن« حرف» بمعنى الإصرار على إضرار الطرف المقابل.

[۳۲۹] (۳).« مُلغب» من« اللغوب» وتعنى التعب والإرهاق، وعندما تأتى من باب إفعال تكون متعدية وتعنى إتعاب الآخر.

[۳۳۰] (۴).« مُتعب» من مادة« تعب» ومعناها واضح، ولكن إذا جاءت من باب إفعال فإنّها تكون متعدّية وبمعنى إتعاب الآخر، وهى قريبة المعنى من« ملغب»؛ ولكن ذهب بعض إلى أنّ« لغوب» تعنى التعب النفسى والارهاق الروحى فى حين أنّ التعب يقصد به ما يشمل التعب البدنى أيضاً.

[۳۳۱] (۱).« احدُرْ» من مادة« حدر» على وزن« حرف» بمعنى التحرك بسرعة، وكذلك تعنى جرّ الشيء من الأعلى إلىالأسفل، وهنا المراد بها المعنى الأول يعنى جمع زكاة الحيوانات والإتيان بها بسرعة إلينا لنوصلها إلى المستحقّين.

[۳۳۲] (۲).« اوعِز» من مادة« وعز» على وزن« وعظ» بمعنى الاقتراح والتوصية لآخر بعمل معين.

[۳۳۳] (۳).« فصيل» بمعنى ولد الإبل الذى فطم عن الرضاع، ومن مادة« فصل» وهو فصل الطفل عن امّه فى الارتضاع، ولكن مع الالتفات إلى أنّ الإمام عليه السلام أمر بعد هذه الجملة أن لا يحلب جميع ما فى الضرع من اللبن لينتفع به الفصيل، فيستفاد من ذلك أنّ المقصود من الفصيل هنا ولد الناقة الذى على وشك أن يفصل ويفطم ولكنّه لحدّ الآن لم يفطم(وعلى حدّ تعبير الادباء هو مجاز بعلاقة الأوّل والمشارفة).

[۳۳۴] (۱).« لا يمصر» من مادة« مصر» على وزن« نصر» بمعنى حلب جميع ما فى الضرع من اللبن.

[۳۳۵] (۲).« يَسْتأنِ» من مادة« أنْى» على وزن« امر» وتعنى الإمهال، وعندما تأتى من باب الاستفعال فتعنى الانتظار والمداراة.

[۳۳۶] (۳).« نقب» هو الجمل الذى يصعب عليه المشى لتهرؤ باطن خفّه.

[۳۳۷] (۴).« ظالع» من مادة« ظَلع» على وزن« زرع» وتعنى الناقة العرجاء.

[۳۳۸] (۵).« غَدر» جمع« غدير» تعنى بركةالماء.

[۳۳۹] (۶).« جوادّ» جمع« جاده» تعنى الطريق الواسع.

[۳۴۰] (۷).« نطاف» جمع« نطفه» بمعنى الماء الزلال.

[۳۴۱] (۸).« الاعْشاب» جمع« عُشب» على وزن« قفل» بمعنى النباتات الخضراء.

[۳۴۲] (۹).« بُدّن» جمع« بادن» بمعنى الحيوان البدين.

[۳۴۳] (۱۰).« مُنقيات» جمع« مُنقية» بمعنى الحيوان الكثير الدسم.

[۳۴۴] (۱). وسائل الشيعة، ج ۸، أبواب أحكام الدواب، باب ۹، ص ۳۵۰، ح ۱.

[۳۴۵] (۲). الكافى، ج ۶، ص ۵۳۷، ح ۱.

[۳۴۶] (۳). المصدر السابق، باب ۱۰، ص ۳۵۳، ح ۹.

[۳۴۷] (۱). كنزالعمال، ح ۴۳۶۹۵؛ وسائل‌الشيعة، باب ۵۳ من أحكام الدواب. ص ۳۹۷.

[۳۴۸] (۲). تهذيب الأحكام، ج ۴، ص ۱۶۴، ح ۴.

[۳۴۹] (۱). سند الرسالة:

طبقاً لما أورده القاضى النعمان المصرى(المتوفى ۳۶۳) فى كتاب دعائم الإسلام، أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة إلى« مخنف بن سلَيم الازدى» أحد قادة جيشه، وما ذكره القاضى النعمان فى كتابه المذكور يعتبر متناً مختصراً بالنسبة لما أورده السيد الرضى فى نهج‌البلاغة، والحاج النورى فى كتابه مستدرك الوسائل فى كتاب الزكاة الباب ۱۲ الحديث ۳، والظاهر أنّ مؤلف كتاب مصادر

نهج‌البلاغة لم ينقل عن مصدر آخر قبل السيد الرضى غير هذين المصدين.

[۳۵۰] (۱). بحار الأنوار، ج ۶۹، ص ۲۰۷.

[۳۵۱] (۲). المصدر السابق، ص ۲۰۶، ح ۷.

[۳۵۲] (۱).« بؤسى» يعنى شدّة المحنة وسوء الحالة وتكون ناتجة أحياناً من الفقر وأحياناً بسبب عوامل أخرى، وهذه‌الكلمة من قبيل« بأساء» و« وبؤس» على وزن« قفل».

[۳۵۳] (۲).« مدفوعون» يعنى الأشخاص الذين منعوا عن حقّهم.

[۳۵۴] (۱).« رَتَعَ» من مادة« رتع» على وزن« فتح» بمعنى تناول الطعام والشراب الكثير وخاصة فى فصل الربيع وفى‌القرى والأرياف، ولكن المعنى الواسع للكلمة يطلق على كل أكل وشرب حتى ما أكلت الحيوانات فى الصحراء، ومن هنا اطلقت كلمة مرتع على المناطق التى يكثر فيها علف المواشى.

[۳۵۵] (۲).« أَحَلَّ» من« الحلول» بمعنى الدخول، وعندما تأتى من باب إفعال فتعنى إدخال.

[۳۵۶] (۱).« أَفظع» من« الفظاعة» بمعنى القبيح جدّاً.

[۳۵۷] (۲).« الغش» تأتى أحياناً بكسر العين وأخرى بفتحها، فعندما تأتى بكسر العين تكون اسم مصدر وتعنى الخداع والحيلة والخيانة، وإذا جاءت بفتح العين فتكون مصدراً وتعنى عمل الخيانة والمكر.

[۳۵۸] (۱). وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۴، باب ۱، ح ۶، من أبواب الزكاة.

[۳۵۹] (۲). الكافى، ج ۲، ص ۱۰۴، ح ۱.

[۳۶۰] (۳). الأمالى، الشيخ الصدوق، ص ۳۰۰، ح ۶.

[۳۶۱] (۴). الكافى، ج ۲، ص ۱۰۴، ح ۲.

[۳۶۲] (۱). سند الرسالة:

ذكر صاحب كتاب مصادر نهج‌البلاغة أنّ هذا العهد نقله قبل السيد الرضى، إبراهيم بن هلال الثقفى فى كتابه الغارات وابن شعبة الحرانى صاحب كتاب تحف العقول فى كتابه هذا، ونقله بعد السيد الرضى الشيخ الطوسى فى الإمالى والطبرى فى بشارة المصطفى وآخرون.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۶۵).

ويستفاد من كتاب الغارات وكتاب نهج‌البلاغة الكامل أنّ هذا العهد المطول أكثر بكثير ممّا أورده السيد الرضى، حيث اقتصر السيد الرضى على نقل مقطع خاص منه.

[۳۶۳] (۱). الغارات، ص ۲۵۱؛ وهذا الكلام نقله ابن أبى‌الحديد بشكل مختصر فى شرحه لنهج البلاغة(ج ۶، ص ۷۹) وصاحب كتاب نهج‌البلاغة الكامل، در ص ۹۰۳، بعد ذكره لهذا العهد بشكل كامل.

[۳۶۴] (۱). سورة الشعراء، الآية ۲۱۵.

[۳۶۵] (۱).« أَلِنْ» من« اللين» على وزن« حين» بمعنى السهولة.

[۳۶۶] (۲). سورة آل عمران، الآية ۱۵۹.

[۳۶۷] (۳). سورة آل عمران، الآية ۱۵۹.

[۳۶۸] (۴).« آس» من« المواساة» وتعنى التساوى بين الأطراف من جميع الجهات.

[۳۶۹] (۵).« لحظة» النظرة الخاطفة من زاوية العين، خلافاً ل« نظرة» التى تعنى النظر بجميع العين، والعبارة أعلاه تشير إلى أنّ الحاكم ليس فقط يساوى بين الرعية بالنظر المباشر وبجميع العين، بل حتى باللحظات وبطرف العين.

[۳۷۰] (۶).« حيف» الانحراف عن الحق والظلم والجور، سواء فى مقام القضاء أو الحكم أو فى الأمور الأخرى.

[۳۷۱] (۷). الضـمير فی« لهم» يعود إلی« العظمـاء» والجملـة تعنی أنّ الأقويـاء لاـ ينبغی أن يطمعوا فی حكمك لصالحهمعلی حساب حقوق الآخرين وظلم الرعيّـة، وأمّا عودة الضـمير إلی« الرعيّـة» فبعيد جدّاً لأنّ« اللام» ينبغی أن تكون بمعنی علی، مضافاً إلی أنّ كلمة« الرعيّـة» و« ضـعفاء» لم تردا فی العبـارات السابقـة لتسويغ عودة الضـمير عليهمـا، ولو كان المقصود ما ورد فی بدايـة الرسالـة فسـتكون الفاصلة بعيدة.

[۳۷۲] (۸). ضـمير« عليهم» يعود إلی« ضـعفاء» و« علی» جـاءت هنـا بمعنی اللاـم، يعنی أنّ الضـعفاء لاـ ييأسون من مراعاة العدالـة فی حقوقهم، وجاء فی بعض النسخ حرف الباء بدلًا من« علی» وهو أنسب ظاهراً.

[۳۷۳] (۱). الكافی، ج ۷، ص ۴۱۳، ح ۳.

[۳۷۴] (۱). الضـمير فی« لَمْ يُشـارِكُوا» يعود إلی المتقّين، ومفهوم الجملـة أنّ المتقّين فی الآـخرة لاـ يشاركون فی عـذاب أهل الـدنيا والمجرمين، ولكن ورد فی بعض النسخ وكذلك النسخة المصححة لنهج البلاغة« لَمْ يُشارِكْهُم» وهی أكثر تناسباً مع المضمون، وتعنی أنّ أهل الدنيا لا يشاركون فی الآخرة المتقين فی نعيمهم فی حين أنّ أهل الدنيا يشتركون مع المتقين فی دنياهم بشكل معقول.

[۳۷۵] (۱).« مُتْرَف» تعنی، كما تقدّم فی شرح الرسالة ۱۰، الأثرياء المغرورين الذين يعيشون حالة الطغيان.

[۳۷۶] (۱).« المبلّغ» تعنی فی الجملة الزاد والمتاع الذی يوصل الإنسان إلی مقصده وهو من« البلوغ» بمعنی الوصول.

[۳۷۷] (۲).« جيران اللَّه» كنايـة عن علوّ المقـام، لأنّ اللَّه تعالی ليس له دار خاصّـة ليكون له جيران، فالعبارة تشـير إلی القرب المعنویّ من اللَّه تعالی.

[۳۷۸] (۳). سورة يس، الآية ۵۷.

[۳۷۹] (۴). سورة فصلت، الآية ۳۱.

[۳۸۰] (۱).« خطب» بمعنی الحادثة المهمّة، ولكن تأتی غالباً للحوادث المؤلمة.

[۳۸۱] (۱). سورة التوبة، الآية ۱۰۲.

[۳۸۲] (۱). سورة هود، الآيات ۱۰۵- ۱۰۸.

[۳۸۳] (۲). بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۵۴.

[۳۸۴] (۳). شرح نهج‌البلاغة لابن أبی‌الحديد، ج ۱۵، ص ۱۶۶.

[۳۸۵] (۱).« طرداء» جمع« طريـد» وقيـل إنّهـا جمع« طريـدة» من« الطرد» بمعنی الإبعاد، وتأتی للشـخص المحكوم بالنفیوالتبعيـد عن المنطقة، أو الصيد الذی يتبعه الصياد ولا يزال يبعده عن مكانه الأصلی.

[۳۸۶] (۲).« نواصی» جمع« ناصية» بمعنی الشعر فی مقدم الجبين(ولا تعنی الجبين نفسه) وذكر بعض أرباب اللغة وهم قلة أنّ« ناصية» تعنی القسم المقـدّم من الرأس أو الشـعر، وبعضـهم ذهب إلی أنّ الأصل فيها مقـدّم الرأس والشـعر فی مقـدم الرأس يطلق عليه ناصـية بمناسـبة نموّه علی هذا القسم المقدّم، ولكن موارد اسـتعمال هذه الكلمة فی القرآن الكريم يشير بوضوح إلی أنّ المعنی الأول أنسب، لأنّ الوارد فی القرآن فی الكثير من الأدعيـة اسـتعمال كلمـة الناصـية بهـذا المعنی وخاصـة مع كلمـة أخـذ، ومعلوم أنّ ما يمكن أخذه والامساك به هو الشـعر فی مقـدم الرأس بحيث يضـطر صاحبه للتسـليم والاذعان لا الجبين نفسه الـذی لا يمكن الامساك والأخذ به، وضمناً فقد وردت عبارة الأخذ بالناصية فی كثير من الموارد كناية عن التسلط علی الطرف المقابل.

[۳۸۷] (۱). سورة النساء، الآية ۷۸.

[۳۸۸] (۲). سورة الرحمن، الآية ۴۱.

[۳۸۹] (۱). منهاج البراعة، ج ۱۹، ص ۸۹ ومثله فی المعنی ورد فی عوالی اللئالی، ج ۱، ص ۲۸۰.

[۳۹۰] (۲). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۲۸۸، ح ۲۱.

[۳۹۱] (۳). سورة النساء، الآية ۵۶.

[۳۹۲] (۱). سورة غافر، الآية ۴۹ و ۵۰.

[۳۹۳] (۲). سورة الزخرف، الآية ۷۷.

[۳۹۴] (۳). سورة فاطر، الآية ۳۷.

[۳۹۵] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۶۷، باب الخوف والرجاء، ح ۱.

[۳۹۶] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۵، ص ۱۶۷.

[۳۹۷] (۱).« محقوق» من مادة« حق» تعنى فى هذا المورد الجدير واللائق.

[۳۹۸] (۱).« تنافح» من« المنافحة» بمعنى الدفاع عن الشىء، وأصله من« نفح» على وزن« فتح» التى تأتى دائماً بمعنى‌النسيم الملائم والرائحة العطرة، وأحياناً أخرى بمعنى دفع الشىء، وجاءت« منافحة» بهذا المعنى.

[۳۹۹] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۵۷، ح ۲.

[۴۰۰] (۲). بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۱۵۶، ح ۱۳۲.

[۴۰۱] (۱). الكافى، ج ۳، ص ۲۶۸، باب من حافظ على صلاته، ح ۴.

[۴۰۲] (۲). المصدر السابق.

[۴۰۳] (۱).« الردى» من مادة« ردى» على وزن« رأى» بمعنى الهلكة أو السقوط من مرتفع، المقترن مع الهلكة.

[۴۰۴] (۱). سورة القصص، الآية ۴۱.

[۴۰۵] (۲).« يقمع» من مادة« قمع» على وزن« منع» بمعنى التغلب على الطرف المقابل وإذلاله وكبته.

[۴۰۶] (۳).« جَنان» بفتح الجيم تعنى القلب، و« جِنان» جمع« جِنة» بمعنى البستان والزاهر والحديقة الغناء، وكلّها تعود فى الأصل لكلمة« جن» على وزن« فن» بمعنى المغطى والمختفى، وبما أنّ القلب يختفى فى باطن الصدر، وأرض بستان تختفى تحت الأشجار الباسقة فاطلقت هذه الكلمة على هذه الموارد.

[۴۰۷] (۱). سورة القصص، الآية ۵۰.

[۴۰۸] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۰۵.

[۴۰۹] (۱). سورة الاسراء، الآية ۶۰.

[۴۱۰] (۱). سورة القدر، الآية ۳.

[۴۱۱] (۱). سورة التوبة، الآية ۳۲.

[۴۱۲] (۲). سورة الأحزاب، الآية ۵.

[۴۱۳] (۱). هذا الشعر ل« عبداللَّه بن زبعراء» الذى كان من ألد أعداء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأنشد هذا الشعر مع أشعار أخرى يوم احد بعد استشهاد طائفة من المسلمين من قبيلة الخزرج، وقد أنشده يزيد فى حادثة كربلاء ومقصوده أنّ بنى امية ليتهم كانوا أحياء ليسمعوا بكاء وعويل أهل البيت وذرارى الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه.

وقد نقل الطبرى فى تاريخه أبياتاً أخرى ليزيد فى رسالة المعتضد العباسى رغم أنّ ابن أبى‌الحديد حذف منه بعض الأبيات منها:

فَاهَلّوا وَاسْتَهَلّوا فَرَحاًثُمَّ قالُوا يا يَزيدُ لا تَشَلْ

لَعِبَتْ هاشِمُ بِالْمُلْكِ فَلاخَبَرٌ جاءَ وَلا وَحْىٌ نَزَلْ [۴۱۴] (۲). سورة الأحزاب، الآية ۶۴.

[۴۱۵] (۱). سورة البقرة، الآية ۱۵۹.

[۴۱۶] (۲). تاريخ الطبرى، ج ۸، ص ۱۸۲- ۱۸۹ و شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۵، ص ۱۷۳- ۱۸۰.

[۴۱۷] (۱). سند الرسالة:

يقول مؤلف كتاب مصادر نهج‌البلاغة(المرحوم السيّد عبد الزهراء الحسينى الخطيب): إنّ هذه الرسالة من الرسائل الشهيرة للإمام على عليه السلام والنص بليغ إلى درجة أنّه يغنينا عن البحث فى سندها(وبديهى أنّ مثل هذا النص لا يصدر من غير الإمام) مضافاً إلى أنّ ابن اعثم الكوفى الذى كان يعيش قبل السيد الرضى ذكر هذه الرسالة فى كتابه الفتوح مع بعض الإضافات.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۷۸)، وفى مكان آخر يقول بالنسبة لهذه الرسالة: وقد نقلها بعض الكتّاب قبل السيد الرضى مع بعض التفاوت من مصادر آخرى غير نهج‌البلاغة، منهم القلقشندى فى كتاب صبح الأعشى والنويرى فى نهاية الارب(المصدر السابق، ص ۲۷۵).

[۴۱۸] (۱).« طفقت» من مادة« طفق» على وزن« طبق» بمعنى الابتداء بعمل معين والشروع به.

[۴۱۹] (۲).« بلاء» يعنى الامتحان والاختبار، وبما أنّ البلاء يأتى أحياناً بواسطة النعمة، وأخرى بواسطة المصيبة، هذه المفردة تأتى بمعنى النعمة والمصيبة كليهما، وفى الجملة مورد البحث جاءت بمعنى النعمة.

[۴۲۰] (۳).« مسدِد» من مادة« سداد» على وزن« نهاد» يعنى المحكم والثابت القوى، ومن هنا اطلقت هذه الكلمة على السدّ لأنّه يمثّل جداراً ثابتاً وقوياً، ومسدد تعنى الشخص الذى يعلم الآخر الثبات والاستقامة.

[۴۲۱] (۴).« نضال» يعنى المجابهة بالرمى بين شخصين، ثم اطلقت على كلّ أشكال المبارزة والمجابهة والنزاع.

[۴۲۲] (۱).« ثَلْم» فى الأصل بمعنى الكسر والشق، ومعنى الاسم المصدرى لهذه المفردة هو الشق والعيب، ثم اطلقت على كل شكل من الاضرار والخسارة، وفى الجملة أعلاه وردت بمعنى الضرر والخسارة.

[۴۲۳] (۱).« حنّ» من« الحنين» بمعنى اطلاق الصوت بالتأوه من موقع الحزن.

[۴۲۴] (۲).« قدح» بمعنى السهم قبل أن يكتمل صنع رأسه المدبب.

[۴۲۵] (۱). اقتبس من بحار الأنوار، ج ۳۳، ص ۶۵.

[۴۲۶] (۲).« تَرْبَعُ» من مادة« ربع» على وزن« رفع» بمعنى التوقف والإنتظار، وجملة« ألا تَرْبَع» يعنى لماذا لا تتوقف‌وتترک الأمر.

[۴۲۷] (۳).« ظَلْع» بمعنى مشى الأعرج، وجملة« ارْبَعْ عَلى ظَلْعِكَ» مثل سائد بين العرب يقال للشخص الذى لا يستطيع عمل معين ويتجه عبثاً لتحقيقه، فيقال له اسكن ولا تتلف وقتک.

[۴۲۸] (۴).« ذَرْع» بمعنى فتح اليد والفاصلة بين اليدين، و« قُصُورِ ذَرْع» كناية عن الضعف والعجز.

[۴۲۹] (۱). ورد هذا الحديث(سبعين تكبيرة) بشكل إجمالى فى الكافى(ج ۳، ص ۱۸۶، باب من زاد على خمس تكبيرات، ح ۳)، ولكن ما ورد أعلاه من أنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله صلّى أربعة عشر صلاة بأربعة عشر من الملائكة ورد فى شرح نهج‌البلاغة لابن ميثم.

[۴۳۰] (۲). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۵، ص ۱۹۳.

[۴۳۱] (۱). شرح نهج‌البلاغة للتسترى، ج ۳، ص ۱۱۱؛ شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۵، ص ۷۱.

[۴۳۲] (۲).« تَمَجُّ» من مادة« مج» على وزن« حج» بمعنى قذف شىء من السوائل من الفم، ثم استخدمت هذه المفردة فى سماع الكلام غير الملائم، والجملة أعلاه تعنى أنّ الآذان لا تمتنع ولا تأبى استماع هذه الفضائل بل تقبلها.

[۴۳۳] (۳).« رَمِيّة» بمعنى الصيد الذى يناله الإنسان بالرمى، وجمعه« رمايا»، وجملة« مَنْ مالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ» إشارة إلى الشخص الذى يطلب صيداً ويجعله ذلک الصيد ينحرف عن مساره الأصلى وربّما يتيه فى الصحراء، فيقول الإمام عليه السلام بهذا الكلام لمعاوية إنّ أشخاصاً مثل عمرو بن العاص يطلبون صيداً من المقام والمال والجاه، ولذلک انحرفوا عن جادة الحق ولا- ينبغى أن تسلم زمام أمورک بيد هؤلاء الظالمين.

[۴۳۴] (۱). سورة طه، الآية ۴۱.

[۴۳۵] (۲). سورة طه، الآية ۳۹.

[۴۳۶] (۱). عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ۲، ص ۱۸۴.

[۴۳۷] (۲). سفينة البحار، مادة حمزة.

[۴۳۸] (۳). المصدر السابق.

[۴۳۹] (۱). الإصابة، ج ۱، ص ۳۵۴.

[۴۴۰] (۲). اسد الغابة، ج ۲، ص ۴۸.

[۴۴۱] (۳). مكارم الأخلاق، ص ۲۸۰؛ بحار الأنوار، ج ۸۲، ص ۳۳۳، ح ۱۶.

[۴۴۲] (۴). الكافى، ج ۸، ص ۱۸۹، ح ۲۱۶(مع تلخيص يسير).

[۴۴۳] (۱). سورة الملك، الآية ۲۷.

[۴۴۴] (۲). الكافى، ج ۸، ص ۲۶۷، ح ۳۹۲.

[۴۴۵] (۳). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۵، ص ۷۲. ونقل هذا الحديث ابن عساكر فى تاريخ دمشق، ج ۶، ص ۶۷.

[۴۴۶] (۱). مختصر تاريخ دمشق، ج ۶، ص ۶۶.

[۴۴۷] (۲). الإصابة، ج ۱، ص ۲۳۷، ترجمة حياة جعفر بن أبى طالب.

[۴۴۸] (۳). مختصر تاريخ دمشق، ج ۶، ص ۶۸.

[۴۴۹] (۴). من لا يحضره الفقيه، ج، ۴، ص ۳۹۷، ونقل هذا الحديث ابن عساكر فى مختصر تاريخ دمشق، ج ۶، ص ۶۷ أيضاً.

[۴۵۰] (۱). سفينة البحار، مادة جعفر.

[۴۵۱] (۱).« طَوْل» بمعنى الإمكانات والقدرة الماليهٔ، ورد بمعنى الفضل والعطاء أيضاً، وفى الأصل« طول» فى مقابل« عرض»، لأنّ القدرة الماليهٔ أو الجسمية نوع من الطول وقدرة الإنسان و« ذى الطَول» بمعنى العطاء والجود، وعلى هذا الأساس أنّ عبارة« عادِىّ طَوْلِنا» فى الجملة أعلاه بمعنى العطايا الدائمة.

[۴۵۲] (۲).« الأَكْفاء» جمع« كفؤ» على وزن« قفل» بمعنى الترادف والتساوى فى الشخصية.

[۴۵۳] (۳).« الأحْلاف» جمع« حلف» على وزن« جلف» بمعنى العهد والميثاق و« حلف» على وزن« حرف» تعنى القسم‌واليمين، وبما أنّ العهد يتمّ توكيده بالقسم فسميت هذه العملية بالحلف.

[۴۵۴] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۵، ص ۱۹۷.

[۴۵۵] (۱). صحيح مسلم، ج ۷، ص ۱۴۳ و ۱۴۴.

[۴۵۶] (۲). مسند أحمد، ج ۳ ص ۸۰؛ مستدرك الحاكم، ج ۳، ص ۱۸۶.

[۴۵۷] (۱). فى ظلال نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۴۷۱.

[۴۵۸] (۲). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۵، ص ۱۹۸- ۲۹۵.

[۴۵۹] (۳). سورة الأنفال، الآية ۷۵.

[۴۶۰] (۴). سورة آل عمران، الآية ۶۸.

[۴۶۱] (۱).« فَلَجوا» من مادة« فلْج» على وزن« فتح» بمعنى الانتصار والنجاح، و« فَلَج» على وزن« حرج» اسم مصدر بمعنى‌النصر، ومفردة« فلج» على وزن« خرج» تعنى الشق والفاصلة بين شيئين وأحياناً يتسبب فى الشلل والقعود عن الحركة والمشى بشكل غير سليم.

[۴۶۲] (۱). تاريخ الطبرى، ج ۲، ص ۴۴۳(حوادث سنة ۱۱).

[۴۶۳] (۲). سفينة البحار، مادة أسد.

[۴۶۴] (۳). انظر: كتاب الإمامة والسياسة، ص ۹ وما بعدها.

[۴۶۵] (۱).« شكاة» و« شكْو» و« شكاء» و« شكوى» فى الأصل تعنى المرض، ثم اطلقت على كل عيب ونقص، والشكاية تعنى اظهار الألم والتظلم.

[۴۶۶] (۲).« ظاهر» عندما تتعدى بحرف عن تعنى الزوال والانتهاء، وجملة« ظاهر عَنْكَ عارُها» تعنى أنّ ذلك العار والعيب لا يصيبك ولا ينتسب إليك.

[۴۶۷] (۱).« المخشوش» فى الأصل يقال للجمل الذى ثقب أنفه وادخل فيه حبل أو خشبة متصلة بحبل، فعندمايسحب ذلك الحبل يميل هذا الحيوان معه حيثما مال، لأنّه لا يستطيع مقاومة الألم الناشىء من جرّ هذا الحبل.

[۴۶۸] (۱).« غضاضة» بمعنى النقصان والعيب، وهى من مادة« غض» وتعنى التنقيص والتقصير.

[۴۶۹] (۲).« سنح» من« السنوح» على وزن« فتوح» بمعنى التذكر والفهم.

[۴۷۰] (۱).« أعدى» بمعنى أشد عداوة، وهى فى الأصل من مادة عداوة.

[۴۷۱] (۲).« مقاتل» جمع« مقتل» بمعنى محل القتل أو الموضع الخاص من بدن الإنسان الذى إذا اصيب فإنّه يؤدى إلى موت الإنسان وقتله.

[۴۷۲] (۳).« فاسْتَقْعَده» يستفاد من مجموع القرائن الموجودة فى هذه العبارة أنّ ضمير الفاعل يعود إلى عثمان وضمير الفاعل يعود إلى الإمام عليه السلام يعنى أنّ عثمان لم يقبل بدعم الإمام عليه السلام ودفاعه عنه، وكان قد طلب من الإمام عليه السلام أن يسكت ويجلس فى مكانه ويترك الدفاع عنه، ولكن البعض عكسوا هذا المعنى وقالوا: إنّ الإمام عليه السلام طلب من عثمان أن يجلس ويترك السلوكيات الخاطئة ويستجيب لمطالب الناس، ولكن هذا المعنى بعيد، فعندما ندقق فى فاء التفريع فى« فاسْتَقْعده» نرى أنّ المعنى الأول أقرب وأوضح.

[۴۷۳] (۱).« بث» فى الأصل بمعنى نشر وفرق و« منون» بمعنى الموت، وعلى ضوء ذلك فإنّ جملة« بَثّ الْمَنونَ» يعنى وفرّ أسباب الموت.

[۴۷۴] (۱). الإمامة والسياسة، ج ۱، ص ۲۱۴.

[۴۷۵] (۲).« المعوقين» من مادة« عَوْق» على وزن« فوق» بمعنى المنع والانصراف عن عمل معين، و« عائق» تعنى« المانع» و« معوق» بمعنى ما يمنع من الشيء.

[۴۷۶] (۳). سورة الأحزاب، الآية ۱۸.

[۴۷۷] (۱).« انقم» من مادة« نقم» على وزن« قلم» فى الأصل بمعنى إنكار الشيء. ثم استحدمت بمعنى الإنتقام والانتقاد، وفى هذا المورد جاءت بالمعنى الثانى.

[۴۷۸] (۲).« احداث» جمع« حدث» على وزن« عبث» وتعنى كل شيء جديد، وتأتى بمعنى البدعة، وجاءت هنا بهذا المعنى الأخير.

[۴۷۹] (۳).« الظنّة» بمعنى التهمة من« الظنّة»، بمعنى إساءة الظن.

[۴۸۰] (۴).« المُتنصّح» تعنى الشخص الخيّر والذى ينصح الآخرين بكثرة.

[۴۸۱] (۱). سورة هود، الآية ۸۸.

[۴۸۲] (۲). الإمامة والسياسة، ج ۱، ص ۵۹؛ تاريخ مدينة دمشق، ج ۳۹، ص ۴۱۸.

[۴۸۳] (۱). تاريخ مدينة دمشق، ج ۳۹، ص ۳۳۷.

[۴۸۴] (۲). تاريخ الطبرى، ج ۳، ص ۴۱۶ إلى ۴۱۸.

[۴۸۵] (۳). المصدر السابق.

[۴۸۶] (۴). المصدر السابق.

[۴۸۷] (۱). شرح نهج‌البلاغة للعلّامة التسترى، ج ۹، ص ۶۱۱.

[۴۸۸] (۱).« استعبار» من مادة« عبر» على وزن« ابر» بمعنى البكاء وذرف الدموع.

[۴۸۹] (۲).« الفيت» من« الإلفاء» بمعنى العثور على الشىء فجأة.

[۴۹۰] (۳).« ناكلين» جمع« ناكل» وهو الإنسان الضعيف والجبان الذى يتراجع عن العمل المقرّر، من« النكول» ويعنى الخوف والتراجع.

[۴۹۱] (۱).« هيجاء» بمعنى الحرب، لأنّ الإنسان يعيش حالة الهيجان فى الحرب.

[۴۹۲] (۱). سورة التوبة، الآية ۱۰۰.

[۴۹۳] (۲).« قتام» بمعنى الغبار.

[۴۹۴] (۳).« مُتسربِلين» فى الأصل من« سربال» وهو الثوب، ومتسربل يقال للشخص الذى يرتدى ثوباً، وهنا يشبه‌الإمام عليه السلام الشهادة بالثوب الذى يرتديه المحاربون من جيشه على أبدانهم، وهو ثوب الافتخار والزينة.

[۴۹۵] (۴).« نصال» جمع« نصل» على وزن« نسل» ويعنى رأس السهم أو ذؤابة السيف.

[۴۹۶] (۱). سورة هود، الآيتان ۸۲ و ۸۳.

[۴۹۷] (۲). صفين، ص ۲۳۶.

[۴۹۸] (۱). سند الرسالة:

تتعلق هذه الرسالة بالفتنة التى أشعل فتيلها معاوية فى البصرة بواسطة شخص يدعى ابن الحضرمى، وغايته من ذلك التسلط على البصرة حيث أمر معاوية باستغلال الأحقاد المترسبة لدى أهل البصرة من المهزومين فى معركة الجمل وكذلك استغلال قضية مقتل عثمان بن عفان لتثوير الناس فى البصرة واخراجها من دائرة حكومة أميرالمؤمنين عليه السلام، ولكن لم يحالفهم التوفيق، حيث قتل ابن الحضرمى فى هذه الواقعة، وقد ذكر الواقعة« إبراهيم الثقفى» فى كتابه المعروف الغارات، وبعد أن هدأت هذه الفتنة أرسل الإمام عليه السلام هذه الرسالة إلى أهالى البصرة بواسطة بعض أصحابه، وينبغى الالتفات إلى أنّ كتاب« الغارات» تمّ تأليفه قبل السيد الرضى، ومن هنا فإنّه اقتبس هذه الرسالة من مصدر آخر غير نهج‌البلاغة.(وصاحب هذا الكتاب إبراهيم بن هلال الثقفى المتوفى فى سنة ۲۸۳)(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۷۹).

[۴۹۹] (۱). لمزيد الاطلاع انظر: الغارات، ج ۲، ص ۳۷۳- ۴۱۲.

[۵۰۰] (۱).« حَبْل» أصله بمعنى العهد والذمة، ثم اطلق على كل شىء مفتول، وجملة« انْتِشارُ حَبْلِكُم» كناية عن التفرق‌وتشتت الجماعة.

[۵۰۱] (۲).« شقاق» فى الأصل تعنى العداوة والكراهية، وهنا جاءت بمعنى نقض العهد وترك البيعة.

[۵۰۲] (۳).« تغبوا» من« الغباوة» بمعنى الجهل والغفلة، وعلى ضوء ذلك فإنّ جملة« لَمْ تَغْبَوْا عَنْه» تعنى أنّكم لستم غافلين عنه.

[۵۰۳] (۴). الكافى، ج ۵، ص ۳۲.

[۵۰۴] (۵). المصدر السابق، ص ۱۲، ح ۲.

[۵۰۵] (۶).« خطت» من« الخَطو» على وزن« خَتم» بمعنى تقديم القدم فى المشى، و« خطوة» بمعنى تقديم القدم مرّةواحدة بحيث توجد فاصلة بين القدم فى حال المشى، وهذه المفردة تتعدى بالباء ويكون مفهوم الجملة مورد البحث أنّ الأفكار المهلكة والآراء السخيفة والمفسدة تقودكم إلى المخالفة والتمرد.

[۵۰۶] (۱).« مُنابَذة» بمعنى المخالفة والمجابهة، وهى فى الاصل من« النبذ» بمعنى الإلقاء بعيداً وكأنّ الشخص فى‌مخالفته للآخر يدفع

به إلى المجابهة بعيداً عن الصلح والمواءمة.

[۵۰۷] (۲).« ها أنا ذا» عبارة مركبة من ثلاث كلمات:« ها» للتنبيه، و« أنا» ضمير المتكلم الواحد و« ذا» اسم إشارة ومفهوم الجملة أنّكم على علم بى وتعرفونى.

[۵۰۸] (۳).« جِياد» جمع« جواد» وهى الخيل الممتازة.

[۵۰۹] (۴).« رَحَلْت» من مادة« رحل» على وزن« نخل» بمعنى وضع القتب على الإبل، و« ركاب» تعنى الإبل.

[۵۱۰] (۵).« وَقْعَة» بمعنى الهجمة فى الحرب.

[۵۱۱] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۶، ص ۴.

[۵۱۲] (۱). سند الرسالة:

جاء فى كتاب مصادر نهج‌البلاغة أنّ ابن أبى‌الحديد فى شرحه وابن ميثم فى شرحه لنهج البلاغة ذكرا هذه الرسالة مع إضافات قيمة لا توجد فى نهج‌البلاغة، وهذه الحقيقة تشير إلى وجود مصادر أخرى لهذه الرسالة كانت بين أيديهما، مضافاً إلى وجود بعض التفاوت بين نقل ابن أبى‌الحديد وابن ميثم مما يشير إلى أنّ لكل منهما مصدر مستقل اقتبس منه هذه الرسالة، وقد أورد العلوى فى كتابه الطراز بعض مقاطع هذه الرسالة بتعبيرات متفاوتة عن تعبيرات السيد الرضى، وهذا بدوره يدلّ على وجود مصدر آخر لهذه الرسالة.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۲۷۰).

[۵۱۳] (۱). سورة المجادلة، الآية ۲۲.

[۵۱۴] (۱). ورد هذا الحديث الشريف بهذه العبارة فى كتب الشيعة، مثل: وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۴۹۲، ح ۲۳، باب ۳۳ من أبواب كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفى كتب أهل السنّة ورد بتعابير مشابهة عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله من قبيل:« مَنْ ماتَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ إمامٌ فَميتَتَهُ ميتَةً جاهِلَيَّةً».(المعجم الكبير، ج ۱۰، ص ۲۸۹).

وفى حديث آخر عن معاوية بن أبى سفيان أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:« مَنْ ماتَ بِغَيْرِ إمامٍ ماتَ ميتَةً جاهِلَيَّةً»(مسند أحمد، ج ۴، ص ۹۶).

[۵۱۵] (۲).« مَحَجَّة» بمعنى الجادة الواسعة والطريق المستقيم والواضح.

[۵۱۶] (۳).« نَهْجَة» تارة تأتى بمعنى اسم المصدر وتعنى المنهج، وأخرى بمعناها الوصفى وتعنى الواضح والبين.

[۵۱۷] (۴).« اكْياس» جمع« كيس» بمعنى الذكى والمنتبه والحكيم.

[۵۱۸] (۵).« الأنْكاس» جمع« نكس» على وزن« حرص» ويعنى الإنسان الضعيف والذليل والجاهل، من مادة« نكس» على وزن« عكس» وتعنى المنقلب وجعل عالى الشىء سافله.

[۵۱۹] (۱). غرر الحكم، ص ۳۲۲، ح ۷۴۶۴.

[۵۲۰] (۲). بحار الأنوار، ج ۷۱، ص ۱۶۲.

[۵۲۱] (۱).« نكب» من« النكب» على وزن« نقب» وتعنى الانحراف فى المسير، و« ناكب» هو الشخص الذى انحرف عن‌الطريق وأعرض عنه، ومن هذه الجهة يقال لمن أعرضت الدنيا عنه أنّه منكوب وأصابته نكبة.

[۵۲۲] (۲). سورة الأنفال، الآية ۵۳.

[۵۲۳] (۳). سورة المائدة، الآية ۱۰۵.

[۵۲۴] (۱).« أَوْلَجَتْك» من« الإيلاج» و« ولوج» بمعنى دخول شىء وروده، وعلى ضوء فإنّ« اوْلَجَتْكَ شَراً» من باب إفعال‌وتأخذ مفعولين ومفهومها أنّ نفسك جرّتك إلى الشر وادخلتك فيه.

[۵۲۵] (۲).« أَقْحَمَتك» من« الإقحام» بمعنى قذف الشىء فى داخل شىء آخر، وهذا الفعل أيضاً يأخذ مفعولين ومعنى الجملة أنّ

نفسک قد قذفت بک فی طريق الضلالة ومتاهة الفتنة.

[۵۲۶] (۳).« غیّ» بمعنی الضلالة والانحراف.

[۵۲۷] (۴).« أَوْعَرَتْ» من« الإيعار» و« وعر» علی وزن« وقت» فی الأصل بمعنی الصعوبة والعسر والحرج، وجملة« أَوْعَرَتْ عَلَيْکَ الْمَسالِکَ» تعنی أنّها صعّبت عليک العثور علی طرق النجاة، ولهذا يقال للأرض المليئة بالأحجار والمطبات أنّها أرض وعرة و« وعير».

[۵۲۸] (۱). تقرأ هذه المفردة تارة بصورة تثنية(بفتح الراء) وأخری بصورة جمع(بکسر الراء). وفی الصورة الاولی تشير إلی مکان معيّن بين حلب و قنّسرين من أراضی الشام، وفی الصورة الثانية يمکن أن تکون إشارة إلی ذلک المکان باعتبار حضور أقوام مختلفة فيه.

[۵۲۹] (۲). سند الرسالة:

تعتبر هذه الرسالة کما يقول صاحب کتاب مصادر نهج‌البلاغة، من أشهر رسائل ووصايا الإمام

[۵۳۰] (۳) أميرالمؤمنين عليه السلام والتی ذکرها جماعة من أبرز علماء الإسلام فی کتبهم قبل ولادة السيد الرضی، منهم المرحوم الشيخ الکلينی فی کتاب الرسائل والمرحوم الحسن بن عبداللّه العسکری(من أساتيذ الشيخ الصدوق) فی کتاب الزواجر والمواعظ، وصاحب کتاب عقد الفريد فی موضعين من کتابه فی باب مواعظ الآباء للأبناء، والحسن بن علی بن شعبة فی کتاب تحف العقول، ضمن بيانه لکلمات الإمام أمير المؤمنين علی عليه السلام، والشيخ الصدوق بدوره نقل أيضاً مقاطع من هذه الوصية فی موردين من کتاب من لا يحضر الفقيه، ونقلها بعد السيّد الرضی جماعة کثيرون فی کتبهم منهم: المرحوم السيّد ابن طاووس فی آخر کتاب کشف المحجة، ضمن بيان أنّ هذه الوصية وردت بأسناد متعددة، ومجموعة الأسناد التی أوردها هؤلاء العلماء فی کتبهم لهذه الرسالة تصل إلی ستة طرق وأسناد(ويتبيّن من مجموعة هذه الطرق والاسناد لهؤلاء العلماء أنّ انتساب هذه الرسالة إلی الإمام علی عليه السلام لا يبقی مجالًا للشک والتردد، أضف إلی ذلک أنّ محتوی هذه الرسالة والوصية إلی درجة من القوة والمتانة بحيث لا يمکن صدورها من غير المعصوم).(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۳۰۷- ۳۱۱).

[۵۳۱] (۱). الإمامة والسياسة، ج ۱، ص ۲۹.

[۵۳۲] (۱).« زمان» فی الأصل يراد به الوقت المعروف الذی يشمل الأوقات القصيرة والطويلة، ولکن بما أنّ الزمان فی‌هذه الدنيا يقترن بالحوادث المختلفة المرّة والحلوة، فهذه المفردة تشير أحياناً إلی هذا المعنی، و« المُقِرُّ لِلزّمان» إشارة إلی الشخص الذی يعيش الإذعان والقبول بهذه الحقيقة وهی أنّ الدنيا دار حوادث ومتغيّرات، ولکنّه عملًا لا ينسجم مع هذه الحوادث.

[۵۳۳] (۱). ورد فی الکثير من النصوص والشروح لنهج البلاغة بعد هذه الصفة صفة أخری وهی« الذامُّ لِلدُّنْيا» وحينئذٍ تبلغ صفات الدنيا فی هذا المقطع إلی سبع صفات.

[۵۳۴] (۲).« الظّاعِن» بمعنی المنتقل، من« الظعن» علی وزن« طعن» وتعنی الانتقال من مکان إلی آخر.

[۵۳۵] (۱).« الغرض» بمعنی الهدف الذی يوضع ليرميه المتسابقون والرماة.

[۵۳۶] (۲).« رهينة» من الرهن وهو الثبات ودوام الشیء، والرهينة جمعها رهائن وهی ما يرهن ويحتسب فيه الشیء فی‌مقابل ثمن.

[۵۳۷] (۳).« رمية» عبارة أخری عن« غرض» و« هدف»(صفة مشبهة بمعنی المفعول).

[۵۳۸] (۴).« حليف» بمعنی المتفق والذی يجتمع معه بميثاق، من مادة« حلف» علی وزن« حرف» وهو القسم واليمين.

[۵۳۹] (۵). سورة آل عمران، الآية ۱۸۵.

[۵۴۰] (۱). نهج‌البلاغة، الخطبة ۲۲۶.

[۵۴۱] (۲). القائل هو لبيد بن ربيعة الجعفری، وهو من المعمرين، انظر: کمال الدين و تمام النعمة، ص ۵۶۵، بحارالأنوار، ج ۵۱، ص ۲۴۵.

[۵۴۲] (۱).« جُمُوح» بمعنی التمرد والطغیان، و« جَمُوح» علی وزن« قبول» وفی الأصل تعنی الحیوان المتمردوالمنفلت، ثم اطلقت علی کل إنسان منفلت ومتمرد بل تطلق أیضاً علی الحوادث والقضایا التی تخرج عن اختیار الإنسان.

[۵۴۳] (۱).« یَزَع» من مادة« وزع» علی وزن« وضع» بمعنی المنع والاعاقة عن شیء.

[۵۴۴] (۲).« ما وَرائی» إشارة إلی أهل الدنیا، المقامات، الثروات وأمثال ذلک، وغرض الإمام علیه السلام من ذلک بیان هذه الحقیقة وهی أنّ الالتفات إلی قرب الانتقال من هـذه الـدنیا منعنی من المیل للأمور الدنیویـة وجعلنی ملتفتاً لمصـیری ومسـتقبلی، والعجیب أنّ بعض شـرّاح نهجالبلاغة ذکروا فی معنی« ما وَرائی» أنّها تعنی الآخرة، فی حین أنّ مفهوم هذه العبارة یکون بهذه الصورة: إنّ الإلتفات إلی نهایة عمری شغلنی عن الاهتمام بأمر الآخرة، وهذا التفسیر مجانب للصواب.

[۵۴۵] (۳).« صدف» من مادة« صدف» علی وزن« حذف» بمعنی الإعراض عن شیء.

[۵۴۶] (۴).« أَفْضی» من« الإفضاء» و« فضاء» وتعنی الوصول إلی شیء وکأنّه دخل إلی فضائه وجوّه.

[۵۴۷] (۱).« مستظهرا» من« الإستظهار» بمعنی طلب المعونة والنصرة من شخص أو شیء.

[۵۴۸] (۲). شرح نهجالبلاغة لابن أبیالحدید، ج ۱۶، ص ۶۱.

[۵۴۹] (۱). شرح نهجالبلاغة التستری، ج ۸، ص ۳۳۰.

[۵۵۰] (۲). بحار الأنوار، ج ۱۶، ص ۹۵.

[۵۵۱] (۳). سورة ابراهیم، الآیتان ۲۴ و ۲۵.

[۵۵۲] (۱). سورة الرعد، الآیة ۲۸.

[۵۵۳] (۲). بحار الأنوار، ج ۹۰، ص ۱۵۱، ح ۶ والآیة ۲۰۱ من سورة الأعراف.

[۵۵۴] (۳). سورة آل عمران، الآیة ۱۰۳.

[۵۵۵] (۱).« قرّر» من« التقریر» وتـأتی بمعنیین، الأـول، التثبت ووضع الشـیء فی محلّه، والآـخر بمعنی دفع شـخص للإقرار والإعتراف بشیء معین، وفی الجملة مورد البحث جاءت بالمعنی الثانی، یعنی اجعل قلبک یقرّ ویعترف بفناء الدینا.

[۵۵۶] (۱).« فحش» یقال لکل عمل خرج عن حدّ الاعتدال واتجه نحو القبح، ولذلک تطلق هذه الکلمة علی جمیعالمنکرات والقبائح الفاضحة، فیقال« فحش» و« فحشاء»، رغم أنّ هذه المفردة تستخدم فی عرفنا المعاصر فی مورد الانحرافات الجنسیة(وأحیاناً تأتی کلمة فحش بمعناها المصدری وأخری یراد منها اسم المصدر).

[۵۵۷] (۱).« حَلُّوا» من مادة« حلّ» تأتی أحیاناً بمعنی فتـح العقدة وحل المشـکلة، وأخری الدخول إلی مکان معین، وفی الجملة أعلاه جاءت بالمعنی الثانی.

[۵۵۸] (۲). سورة الروم، الآیة ۴۲.

[۵۵۹] (۱). سورة الحج، الآیة ۴۶.

[۵۶۰] (۱). الکافی، ج ۲، ص ۲۸۰، باب الکبائر، ح ۱۱.

[۵۶۱] (۲). انظر: الکافی، ج ۲، ص ۲۸۲، باب الکبائر، ح ۱۶.

[۵۶۲] (۱). میزان الحکمة، ح ۱۷۰۳۰.

[۵۶۳] (۲). المصدر السابق، ح ۱۷۰۳۱.

[۵۶۴] (۳). الخصال، ص ۲۲۸.

[۵۶۵] (۴). غرر الحکم، ص ۴۳۰، ح ۹۷۹۵.

[۵۶۶] (۵). المصدر السابق، ص ۴۲۹، ح ۹۷۷۴.

[۵۶۷] (۱). نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۸۸.

[۵۶۸] (۲). نهج‌البلاغة، الکلمات القصار ۸۹.

[۵۶۹] (۳). سورة الشمس، الآیتان ۷ و ۸.

[۵۷۰] (۴). بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۳۲۴.

[۵۷۱] (۱). شرح نهج‌البلاغة للعلّامة التستری، ج ۸ ص ۳۳۲.

[۵۷۲] (۲). المصدر السابق، ص ۳۳۳ ونقل هذه القصة أیضاً المرحوم المحدّث القمی فی تتمة المنتهی، ص ۲۴۸.

[۵۷۳] (۱). آداب النفس، ج ۱، ص ۱۰۴ و ۱۰۵.

[۵۷۴] (۱). سورة البقرة، الآیة ۸۶.

[۵۷۵] (۲). سورة الاسراء، الآیة ۳۶.

[۵۷۶] (۳). سورة البقرة، الآیة ۱۶۹.

[۵۷۷] (۴). سورة المائدة، الآیة ۱۰۵.

[۵۷۸] (۱). بحار الأنوار، ج ۲، ص ۲۵۹، ح ۷.

[۵۷۹] (۲). الکافی، ج ۱، ص ۶۸، ح ۱۰.

[۵۸۰] (۱). الکافی، ج ۵، ص ۵۸، ح ۱۰.

[۵۸۱] (۲).« خض» صیغة أمر من« الخوض» علی وزن« حوض» فی الأصل بمعنی الدخول التدریجی فی الماء، ثم استخدم کنایة عن الورود أو الشروع فی کل عمل.

[۵۸۲] (۳).« غمرات» جمع« غمرة» علی وزن« ضربة» وأصلها من« غمر» وتعنی زوال أثر الشیء، ثم استخدمت فی الماء الکثیر الذی یغطی جمیع جهات الشیء، یقال:« غمرة» و« غامر» ثم اطلقت علی کل ابتلاء شدید وجهل یغمر الإنسان ویحیط به من کل جانب و« غمرات الموت» بمعنی الشدائد التی یواجهها المحتضر فی حالات الموت.

[۵۸۳] (۱).« تصبّر» من مادة« صبر» بمعنی الاستقامة وضبط النفس، والفرق بین التصبّر والصبر أنّ الشخص الصبور هو واقعاً من أهل الصبر والاستقامة، وأمّا التصبّر فیقال فی مورد الشخص الذی لم یصبح من أهل الصبر فعلًا، بل یرید أن یملک هذه الحالة النفسیة والفضیلة الأخلاقیة.

[۵۸۴] (۱). معجم الأدباء، ج ۱۲، ص ۳۸ نقلًا عن شرح نهج‌البلاغة للعلّامة التستری، ج ۸ ص ۳۸۱.

[۵۸۵] (۱). معجم حکمة العرب، ص ۲۳۸.

[۵۸۶] (۲). انظر: تاریخ مدینة دمشق، ج ۴۲، ص ۵۲۴، البدایة والنهایة، ج ۸ ص ۱۱.

[۵۸۷] (۱).« ألجیء» من« الإلجاء» وأصلها من« الجوء» بمعنی الاحتماء بالشیء، و« الجاء» تعنی دفعه لطلب اللجوءوالحمایة من الطرف الآخر.

[۵۸۸] (۲).« کهف» بمعنی الغار الواسع وثم اطلقت علی کل شیء ملاذ وملجأ یلجأ إلی الإنسان.

[۵۸۹] (۳).« حریز» بمعنی المحافظ وهو من مادة« حرز» علی وزن« فکر» ویعنی حفظ الشیء.

[۵۹۰] (۱). الکافی، ج ۲، ص ۲۹۳، ح ۳.

[۵۹۱] (۱). بحار الأنوار، ج ۸۸، ص ۲۲۴، ح ۴.

[۵۹۲] (۲).« صفح» فی الأصل بمعنی الجانب والطرف المواجه للشیء، ومعناه المصدری الإعراض وصرف النظر عن الشیء، وبما أنّ صرف الإعراض عن الشیء تارة بدفاع العفو الصفح وأخری بسبب الغضب والاستیاء، فهذه المفردة تستعمل بکلا المعنیین، وضمناً

ينبغى الالتفات إلى أنّ فاعل تـذهبنّ هو الوصيـة، ومعنى الجملـة أنّ وصـيتى لا ينبغى أن تنسـى بسـبب الاهمال والإعراض عنها، أى لا تتعامل معها من موقع اللامبالاة والتساهل، وجاء فى بعض النسـخ كلمـة« عنها»، بدلًا من عنك، وفى هذه الصورة سـيكون فاعل تذهبنّ المخاطب، أى الإمام الحسن عليه السلام.

[۵۹۳] (۱). الكافى، ج ۱، ص ۳۲، ح ۱.

[۵۹۴] (۱).« أفضـى» من« الإفضـاء» وأصـلها« فضـاء» بمعنى الوصول للشـىء وكأنّه دخل فى جوه وفضائه، ثم اطلقت علىمفهوم إلقاء مطلب معين وتعليمه لآخر وكأنّ المتكلّم ألقى هذا المفهوم فى فضاء فكرالمخاطب.

[۵۹۵] (۲).« نَفور» فى الأصل بمعنى الحيوان الهارب الذى نفر من شيء مخوف، ثم اطلقت على كل إنسان يهرب من شيء.

[۵۹۶] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۶، ص ۶۶.

[۵۹۷] (۲). نهج‌البلاغة، الخطبة ۹۳.

[۵۹۸] (۳). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۶، ص ۶۷.

[۵۹۹] (۱). شرح نهج البلاغة، ابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۶۷.

[۶۰۰] (۲).« بغيـة» بمعنى الطلـب، من مـادة« بغى» على وزن« نفى»، ويقـول الراغب فى مفرداته إنّ هـذه الكلمـة تعنى أحيانـاً مفهـوماً ايجابياً وهو طلب الخيرات، وأخرى مفهوماً سلبياً وهو تجاوز حدّ العدالة والميل لجهة الظلم والباطل.

[۶۰۱] (۱). الكافى، ج ۸، ص ۹۳.

[۶۰۲] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۶۰۳، ح ۴.

[۶۰۳] (۲). المصدر السابق، ج ۶، ص ۴۷، ح ۵.

[۶۰۴] (۳). القائل هو سابق البربرى، انظر: جامع البيان العلم و فضله، ص ۸۳.

[۶۰۵] (۱).« نخيل» من« النخل» فى الأصل تعنى الغربال الذى يستخدم فى تطهير الدقيق من الشوائب والنخالة، ثماطلقت كلمة« نخيل» على كـل شـىء تمت تصـفيته وتنقيته، والمراد من العبـارة أعلاه أننى اخترت لك الشـىء النقى والمصـفى من تاريـخ وسيرة القـدماء وتركت الأمور المظلمـة والكـدرة جانباً، وينبغى الالتفات إلى أنّ« نخيل» بهـذا المعنى لها جهـة وصـفية، وهى غير« نخيل» جمع« نخل» وهى شجرة التمر.

[۶۰۶] (۲).« توخيت» من« الوخْى» على وزن« نفى» بمعنى قصد الشيء والتوجه إليه، و« توخى» فى هذا المورد جاءت بمعنى الانتخاب والاصطفاء.

[۶۰۷] (۳).« مقتبَل» بمعنى مطلع وبداية كل شيء، وهى من« الإقتبال» وتعنى الشروع بالأمر والابتداء عمل معين.

[۶۰۸] (۱). سورة يوسف، الآية ۱۱۱.

[۶۰۹] (۱). سورة يوسف، الآية ۳.

[۶۱۰] (۲). سورة الروم، الآية ۴۲.

[۶۱۱] (۱).« شرائع» جمع« شريعة» وفى الأصل بمعنى الشاطيء والمحل الذى يرد منه الإنسان إلى النهر ليشرب، لأنّ سطح الأنهار عادة يقع أسفل من سطح الأرض، ولـذلك يتمّ تعـديل الشاطيء بشـكل انسيابى وتـدريجى أو على شـكل مـدرجات ليستطيع الناس من الوصول إلى الماء بسـهولة. ثمّ اطلقت هذه المفردة على الأحكام السـماوية والشرعية والتعاليم الإلهيّة للناس، أعمّ من العقائد والأحكام والأخلاق، وارتباطهـا بالمعنى الأصـلى واضـح، لأنّ الإيمان والتقوى والعـدل والصـلح حالها حال ماء الحياة للإنسان وتحقيق السـعادة الأبدية والطريق الوصول إليها من خلال الشرعية الإلهيّة.

[۶۱۲] (۱).« شـفقة» تأتى فى مثل هـذه الموارد مرادفـة للخوف، فى حين أنّ معناها الأصـلى على حدّ قول بعض الادباءالتوجّه للشـىء

المقترن بـالخوف، أو بعبـارة أخرى الخوف مقترن بـالحبّ والاـحترام والأمـل، لأنّ هـذه الكلمـة فى الأصل من مادة« شـفق» وهو ضوء الصبح الباكر الممتزج بالظلام، غاية الأمر أنّ هذه المفردة إذا جاءت مع« من» المتعدّية فإنّ جهة الخوف ستكون غالبة فى العبارة مورد البحث، وعندما تأتى متعدّية بحرف« فى» و« على»، فإنّ المودّة والشفقة ستكون الغالبة، كأن يقول الإنسان لصديقه:« انَا مُشْفِقٌ عَلَيْكَ».

[۶۱۳] (۱). مفردة« رشد» فى الأصل بمعنى السير نحو المقصد، وجملة« راشداً مَهْدِياً» دعاء يقال عند توديع المسافر، يعنى إن شاء اللّه ستصل إلى مقصودك وتهتدى إلى مرادك.

[۶۱۴] (۲).« قصـد» تأتى أحياناً بمعنى النيّة، وأخرى بمعنى سلوك الطريق المستقيم والمعتدل بعيداً عن الافراط والتفريط، و« قَصْدُ السبيل» تعنى الجادة التى يسلكها الإنسان للوصول إلى مقصده.

[۶۱۵] (۱). بحار الأنوار، ج ۲۲، ص ۳۱.

[۶۱۶] (۲). وسائل‌الشيعة، ج ۱۸، ص ۱۲۹، ابواب صفات قاضى، باب ۱۲، ح ۶۱.

[۶۱۷] (۳).« اوْلَجتك» من« الإيلاج» وأصـلها« ولوج» بمعنى الـدخول فى مكان محـدود، وعنـدما تأتى من باب إفعال تكون متعديـة، وعليه فإنّ« أوْلَج» يعنى ادخال شخص أو شيء آخر.

[۶۱۸] (۱). مجانى الأدب، ص ۴۷.

[۶۱۹] (۲).« عَشْواء» فى الأصل بمعنى الجمل الأعشى وضعيف البصر، ولهذا يضل الطريق ويتمايل نحو اليمين‌واليسار، ثم اطلقت على كل إنسان يسير بهذه الكيفية.

[۶۲۰] (۳).« تَتَوَرَّطَ» من« التورط» على وزن« توكّل» وتعنى السقوط فى مكان يصعب الخلاص منه أو يستحيل الخروج منه.

[۶۲۱] (۴).« أَمْثَل» من« المثول» على وزن« طلوع» بمعنى الأفضل والأحسن و« أماثل» و« مُثُل» على وزن« كتب».

[۶۲۲] (۱). سورة الأعلى، الآيات ۲- ۴.

[۶۲۳] (۱). سورة النحل، الآية ۷۸.

[۶۲۴] (۱). سورة لقمان، الآية ۲۷.

[۶۲۵] (۲). سورة الأسراء، الآية ۸۵.

[۶۲۶] (۱).« رائـد» من مادة« رود» على وزن« عود»، وكما ورد فى المتن أنّ الأصل فيها بمعنى السعى وبـذل الجهـد للعثور على الماء والكلأ، ثم اطلقت على كل سعى للعثور على شـيء، والحـديث الشـريف« الرّائدُ لا يَكْذِبُ أهْلَهُ»، ناظر إلى هذا المعنى، وبما أنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله كان فى صدد تحقيق السعادة لأنصاره وأتباعه فيقال عنه أنّه« رائد».

[۶۲۷] (۱).« آل» صيغة المتكلم الواحد، من مادة« ألْو» على وزن« دلو» وهى فى الأصل بمعنى التقصير، وجملة« لم آلك‌نصيحة» تعنى لم اقصر فى اسداء النصح إليك، واللافت أنّ هذا الفعل لازم لا يأخذ مفعول، رغم أنّ البعض تصور أنّه يأخذ مفعولين، المفعول الأول هو ضـمير الخطاب« آلك» والمفعول الثانى« نصيحة»، فى حين أنّ النصيحة تمييز وضمير الخطاب متعلق بمحذوف وهو فى الأصل« لَمْ آلُ لَكَ».

[۶۲۸] (۱).« خطر» فى هذا المورد يعنى القدر والمنزلة.

[۶۲۹] (۲). سورة الحشر، الآية ۱۹.

[۶۳۰] (۱). سورة المائدة، الآيتان ۹۰ و ۹۱.

[۶۳۱] (۱). بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۲۶۷، ح ۴۶.

[۶۳۲] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۸۳.

[۶۳۳] (۳). بحار الأنوار، ج ۵۴، ص ۲۳۸.

[۶۳۴] (۱).« خَبَرَ» فعل ماضی من« الخُبر» علی وزن« قفل» بمعنی الاطّلاع علی الحدث، وأحیاناً تأتی بمعنی الاختبارللاطلاع علی الخبر.

[۶۳۵] (۲).« سَفْر» جمع مسافر.

[۶۳۶] (۳).« جَدیب» بمعنی الجاف وبدون ماء وعلف، وهو من مادة« جَدَب» علی وزن« جلب».

[۶۳۷] (۴).« أمّوا» من مادة« امّ» علی وزن« غم» بمعنی القصد.

[۶۳۸] (۵).« خصیب» بمعنی کثیر النعمة والماء والنبات، من مادة« خصب» علی وزن« جسم» وهو زیادة النعمة وکثرتها.

[۶۳۹] (۶).« جناب» بمعنی الناحیة.

[۶۴۰] (۷).« مریع» بمعنی کثیر النعمة والخیر، من مادة« مرع» علی وزن« رأی» وهو الکثرة والوفرة، و« أَرْضٌ مَریعَةٌ» الأرض الکثیرة المحصولات الزراعیة.

[۶۴۱] (۸).« وعثاء» من مادة« وعث» علی وزن« درس» بمعنی الرمال الناعمة التی تدخل فیها الأقدام وتمنع الشخص من إدامة المسیر، أو یعسر علیها المشی، ثم اطلقت علی جمیع المشکلات التی تعیق الإنسان فی حرکة الحیاة، و« وَعْثاءُ الطَّرِیقِ» إشارة إلی مشکلات السفر.

[۶۴۲] (۹).« جُشُوبَة» بمعنی الخشونة والغلظة.

[۶۴۳] (۱).« أَفْظَع» بمعنی غیر مقبول، من« الفَظاعة» وهی الشناعة والغلظة.

[۶۴۴] (۱). سورة البقرة، الآیة ۹۶.

[۶۴۵] (۲). بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۵۴.

[۶۴۶] (۳). معانی الأخبار، ص ۳۹۰.

[۶۴۷] (۱). فی ظلال نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۵۰۲.

[۶۴۸] (۲). الکافی، ج ۲، ص ۱۴۶، باب الانصاف والعدل، ح ۱۰.

[۶۴۹] (۳). مجمع الزوائد للهیثمی، ج ۱، ص ۱۲۹. وهذا الحدیث ذکره المرحوم المحدّث القمی فی کتابه منتهی الآمال فی فصل الفضائل الأخلاقیة للنبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله.

[۶۵۰] (۱). غرر الحکم، ص ۳۰۹، ح ۷۱۰۳.

[۶۵۱] (۲). المصدر السابق، ص ۶۵، ح ۸۴۸.

[۶۵۲] (۳). المصدر السابق، ح ۸۴۶.

[۶۵۳] (۴). المصدر السابق، ص ۳۰۹، ح ۷۱۰۶.

[۶۵۴] (۵). المصدر السابق، ح ۷۰۹۶.

[۶۵۵] (۶). الکافی، ج ۵، ص ۷۲، ح ۷.

[۶۵۶] (۱). سورة البقرة، الآیة ۱۶۷.

[۶۵۷] (۲). الکافی، ج ۴، ص ۴۲، ح ۲.

[۶۵۸] (۱).« ارتیاد» من مادة« رَود» علی وزن« قَوم» فی الأصل تعنی الذهاب والمجیء مع المداراة والملاءمة فی طلب‌الشیء، وبالنسبة لمشتقاتها تارة تغلب جهة الطلب وأخری جهة الرفق والمداراة، ومفردة« إرادة» مشتقة من هذ الأصل أیضاً.

[۶۵۹] (۲).« بلاغ» بمعنی الشیء الذی یوصل الإنسان إلی مقصده.

[۶۶۰] (۳). سورة البقرة، الآیة ۱۹۷.

[۶۶۱] (۴). سورة العنكبوت، الآية ۱۳.

[۶۶۲] (۱). بالنسبة للضمير« تَطْلبُه» وجملة« فلا تَجِدْهُ» هناك خلاف بين شرّاح نهج‌البلاغة في عودة هذا الضمير، فالاحتمال الأول أنّه يعود إلى الشخص الفقير والمحتاج فكأنّه يحمل على أكتافه الصدقات والمثوبات ويسلمها يوم القيامة لصاحبها، والاحتمال الآخر أنّه يعود على المال نفسه، يعني سيحين الوقت الذي تطلب مالًا لانفاقه في سبيل اللّه وليس لديك مال، ولكن التفسير الأول أرجح كما ذكرنا في المتن، وجملة« وَاغْتَنِم» شاهد على ذلك.

[۶۶۳] (۱). سورة البقرة، الآية ۲۴۵.

[۶۶۴] (۲). سورة البلد، الآيات ۱۱- ۱۴.

[۶۶۵] (۳). بحار الأنوار، ج ۴۶، ص ۶۵، ح ۲۷.

[۶۶۶] (۱).« كؤود» بمعنى الطريق الشاق وصعب العبور، من مادة« كئد» على وزن« عهد» بمعنى شدّة وصعوبة والعسر.

[۶۶۷] (۲).« مخفّ» يعني الشخص الذي يحمل حملًا حفيفاً، من« خفّ» على وزن« صف» بمعنى الخفيف.

[۶۶۸] (۳).« مثقل» يعني الشخص الذي يحمل حملًا ثقيلًا، من مادة« ثقل».

[۶۶۹] (۱). سورة البلد، الآيات ۱۱- ۱۴.

[۶۷۰] (۲).« ارْتَد» يعني انتخب واختر لك، من« الإرتياد» كما ذكرنا في تفسيرها سابقاً.

[۶۷۱] (۳).« مُسْتَعْتَب» مصدر ميمي، يعني الاعتذار وطلب رضا، من مادة« عتب» على وزن« عطف» وله معانٍ متعددة وأحدها الرضا والبهجة، والشخص الذي يعتذر للشخص المقابل يطلب في الحقيقة رضاه وعفوه، ولذلك تستعمل هذه المفردة بمعنى الاعتذار.

[۶۷۲] (۴).« مُنْصَرف» مصدر ميمي بمعنى العودة.

[۶۷۳] (۵). مستدرك الوسائل، ج ۲، ص ۱۰۴، ح ۱۶.

[۶۷۴] (۶). سورة المؤمنون، الآية ۹۹ و ۱۰۰. وأشار إليها في الآيات ۲۸ من سورة الانعام و ۳۷ من سورة فاطر أيضاً.

[۶۷۵] (۱). سورة الفرقان، الآية ۷۷.

[۶۷۶] (۲). سورة غافر، الآية ۶۰.

[۶۷۷] (۱). سورة النساء، الآية ۳۲.

[۶۷۸] (۱). سورة يوسف، الآية ۹۷.

[۶۷۹] (۱).« لَمْ يُناقِشْكَ» من« المناقشة» بمعنى الدقّة والتشدد في الحساب، ومن هنا اطلقت هذه المفردة على المناظرة الدقيقة والمباحثات الكلاميّة الشائكة.

[۶۸۰] (۲).« نُزُوع» بمعنى الانفصال عن شيء، ومن هنا اطلقت كلمة« نزع» على حالة الإنسان في سكرات الموت لأنّهالحظات انفصال الروح عن الجسد.

[۶۸۱] (۳).« الاستعتاب» مرّ تفسيرها في القسم الثامن عشر من هذه الوصية.

[۶۸۲] (۴). سورة النور، الآية ۳۱.

[۶۸۳] (۵). سورة الشورى، الآية ۲۵.

[۶۸۴] (۱). سورة الكهف، الآية ۵۸.

[۶۸۵] (۲). سورة الزمر، الآية ۵۳.

[۶۸۶] (۳). سورة الفرقان، الآية ۷۰.

[۶۸۷] (۴). سورة الأنعام، الآية ۱۶۰.

[۶۸۸] (۱).« أفضيت» من« الإفضاء» و« فضاء» وتأتى بمعنى الوصول إلى شيء وكأنّما دخل فى فضائه وجوّه.

[۶۸۹] (۲).« ابثثته» من مادة« بَثّ» بمعنى فرق ونشر، وهنا جاءت بمعنى نشرت له عن سرّك وأظهرت عن مكنوناتك.

[۶۹۰] (۱). سورة الشعراء، الآيات ۷۸- ۸۱.

[۶۹۱] (۱).« شَآبيب» جمع« شؤبوب» على وزن« بهلول» بمعنى هطول المطر بغزارة وأحياناً تأتى بمعنى كل شدّة.

[۶۹۲] (۲). الكافى، ج ۲، ص ۴۶۸، ح ۲.

[۶۹۳] (۱). سورة غافر، الآية ۶۰.

[۶۹۴] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۸۶.

[۶۹۵] (۱). سورة البقرة، الآية ۲۱۶.

[۶۹۶] (۲). أصول الكافى، ج ۲، ص ۶۰، ح ۴.

[۶۹۷] (۱). انظر: تفسير مجمع البيان والقرطبى والطبرى و تفسير الأمثل و كتب أخرى فى ذيل الآية الشريفة ۷۵ إلى ۷۸ من سورة التوبة.

[۶۹۸] (۲). سورة غافر، الآية ۶۰.

[۶۹۹] (۱). مستدرك الوسائل، ج ۵، ص ۲۱۶، ح ۱۱ وكتب عديدة أخرى.

[۷۰۰] (۲). بحار الأنوار، ج ۹۰، ص ۳۷۲.

[۷۰۱] (۳). أصول الكافى، ج ۵، ص ۵۶، ح ۳.

[۷۰۲] (۱). سفينة البحار، ج ۱ بحث الدعاء.

[۷۰۳] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۸۶.

[۷۰۴] (۱). سورة الذاريات، الآية ۵۶.

[۷۰۵] (۲).« قُلعَة» لها معانٍ كثيرة: وتطلق على الإنسان الضعيف والشخص العاجز عن حفظ نفسه على سرج الجواد، ولا يقدر على حفظ أمواله فلا تبقى بيده، كذلك تطلق كلمة« قُلعة» على المكان الذى ينبغى مغادرته، وفى العبارة أعلاه جاءت بالمعنى الأخير، وأصلها من مادة« قلع» و« يقلع».

[۷۰۶] (۳).« بُلْغة» بمعنى الزاد المتاع الذى يوصل الإنسان إلى مقصده، وهو من« البلوغ» و« بلاغ»، لأنّ الزاد يبلغ الإنسان إلى مقصده.

[۷۰۷] (۴). سورة العنكبوت، الآية ۶۴.

[۷۰۸] (۱). سورة الزمر، الآية ۳۰.

[۷۰۹] (۲). سورة العنكبوت، الآية ۵۷.

[۷۱۰] (۳). سورة الرحمن، الآية ۲۶.

[۷۱۱] (۴). سورة البقرة، الآية ۱۹۷.

[۷۱۲] (۵).« طريد» بمعنى« مطرود» أو الصيد الذى يتبعه الصياد وهو من مادة« طرد» بمعنى دفعه إلى الهرب.

[۷۱۳] (۶). سورة النساء، الآية ۷۸.

[۷۱۴] (۱). سورة الأحزاب، الآية ۱۶.

[۷۱۵] (۲). سورة الزمر، الآية ۳۰.

[۷۱۶] (۳). كان المرحوم الدكتور باقر آية اللّه زاده الشيرازى استاذاً قديراً فى مجال الترميم والعمران، وله إعتقادات دينية قوية وعميقة، وقد ابتدأ بهذه الآية الشريفة« إِنَّا لَانُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا»(الكهف، الآية ۳۰) فى محاضرته فى ذلك المهرجان.

[۷۱۷] (۱). انظر: بحار الأنوار، ج ۳، ص ۸۴(مع التلخيص والنقل بالمعنى).

[۷۱۸] (۱).« حذر» بمعنى التوقّى من الخطر والانتباه فى مقابل المستجدّات.

[۷۱۹] (۲).« أزر» فى الأصل من« إزار» وهو اللباس، وبخاصة اللباس الذى يرتديه الإنسان على وسطه، وبهذه المناسبة توحى هذه الكلمة بالتأييد والقدرة وامتلاك القوة.

[۷۲۰] (۱).« يبهر» من« البهر» على وزن« بحر» بمعنى حالة تجعل الإنسان مبهوتاً أمام الشيء.

[۷۲۱] (۲).« إخلاد» من« الخُلد» و« خلود» بمعنى السكون المستمر فى مكان واحد، و« الاخْلادِ إلَى الْارْضِ» بمعنى إلالتصاق بها، و« الإِخْلادِ إلَى الدُّنْيا» يعنى التمسك بأمور الدنيا والتشبث بها.

[۷۲۲] (۳).« تكالب» يمعنى الهجوم لتحصيل شيء، وهى فى الأصل من مادة« كلب».

[۷۲۳] (۱).« نعت» من مادة« نعى» على وزن« سعى» وتعنى الإخبار بموت شخص.

[۷۲۴] (۲). سورة الكهف، الآية ۴۵.

[۷۲۵] (۳). نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، ۱۳۱.

[۷۲۶] (۴). إرشاد القلوب، ج ۱، ص ۲۱.

[۷۲۷] (۱).« عاوِيَة» بمعنى الكلاب التى تعوى.

[۷۲۸] (۲).« ضارِيَة» بمعنى المتوحشة، وهى من مادة« ضرو» على وزن« ضرب» وتعنى حالة التوحش فى النفس.

[۷۲۹] (۳).« يَهِرّ» من« الهرير» وتعنى العواء والنباح.

[۷۳۰] (۴).« نعَم» الدواب وغالباً تطلق هذه الكلمة على الإبل(وتأتى هذه المفردة أحياناً بمعنى المفرد أو أخرى بمعنى‌الجمع، وفى هذه الجملة تشمل الإبل والبقر والغنم).

[۷۳۱] (۵).« مُعَقَّلةٌ» وهى المشدودة بالعقال، والعقال حبل خاصّ تربط به رجل البعير حول ركبته.

[۷۳۲] (۶).« مُهْمَلَة» يعنى المتروكة، وهنا تعنى الحيوان المتروك لحاله.

[۷۳۳] (۱).« سُرُوح» جمع« سرح» على وزن« شرح» وهو الحيوان الذى ترك فى الصحراء ليأكل ويرعى.

[۷۳۴] (۲).« عاهة» بمعنى الآفة والعيب.

[۷۳۵] (۳).« وَعْث» يعنى الطريق التى يسير فيها الشخص بصعوبة.

[۷۳۶] (۴).« مُسيم» وهو الشخص الذى يسوق الحيوانات للرعى، وهى من« السوْم» على وزن« صوم» ويعنى الرعى.

[۷۳۷] (۵).« تاهوا» من« التيه» وهو الحيرة والتيه.

[۷۳۸] (۱).« رُويداً» من مادة« رود» على وزن« عَود» فى الأصل تعنى الغدو والرواح والسعى لأداء عمل معيّن بلطافة وليونة، وهذه المفردة تأتى بمعنى المصدر وتقترب من التصغير، يعنى أملهنى وفترة وجيزة، والسبب فى نصب رويداً أنّها مفعول مطلق لفعل محذوف، وكأنّها فى الأصل يقال:« أَمْهِلْ إِمْهالًا قَلِيلًا».

[۷۳۹] (۲).« يُسْفِر» من مادة« سفر» على وزن« فقر» وتعنى كشف الغطاء وإزاحة اللثام، ولذلك يقال للمرأة غير المحجّبة سافرة، وتستعمل هذه الكلمة فى طلوع الصبح وكأنّ الصبح يكشف عن لثامه ويزيح نقابه ويشرق، وهنا ظلام فاعل، وفى‌الحقيقة أنّه شبّه‌الصبح بموجود نورانىٍّ قد حجب بظلمات‌الجهل‌ولكن يوشك أن يزاح‌النقاب عنه.

[۷۴۰] (۳).« أَظعان» تأتى أحياناً جمع« ظعينة» بمعنى الهودج الذى يوضع على الجمل أثناء السفر للركوب، وورود الأظعان يعنى أنّ المسافرين أوشكوا على الوصول.

[۷۴۱] (۱).« يُوشِك» من مادة« وَشْك» على وزن« فقر» وتعنى السير السريع، وعلى ضوء ذلك فإنّ مفهوم هذه العبارة أنّ‌اللحوق

سرعان ما يتحقق(والصحيح فى يوشكك أن تقرأ بكسر الشين وأحياناً تقرأ بفتحها).

[۷۴۲] (۲).« مَطيّة» من مادة« مطو» على وزن« عطف» تعنى الحركة الجدية لغرض النجاة فى المسير.

[۷۴۳] (۳).« وادع» هو الشخص الذى يجلس بهدوء وسكون، وهذه الكلمة من« الوداعة» أى السكون والهدوء.

[۷۴۴] (۴). نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، ۶۴.

[۷۴۵] (۵). المصدر السابق، ۷۴.

[۷۴۶] (۶). غرر الحكم، ح ۲۷۸۹.

[۷۴۷] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۶، ص ۹۱.

[۷۴۸] (۲). بحار الأنوار، ج ۴، ص ۴۳.

[۷۴۹] (۱). سورة الأنعام، الآية ۲۷.

[۷۵۰] (۱).« خفّض» من مادة« خفض» يعنى جرّ الشىء إلى الأسفل فى مقابل رفعه إلى الأعلى، وهنا جاءت بمعنى‌الطلب القليل وترك الطمع فى الكثير.

[۷۵۱] (۲).« أجمل» من« الإجمال» وهو الإعتدال فى العمل وعدم الافراط.

[۷۵۲] (۱).« حَرَب» وهى الغارة، وهنا جاءت بمعنى الفعل المبنى للمجهول يعنى من ابتلى بالغارة عليه.

[۷۵۳] (۲). كتاب السنة، عمرو بن ابى عاصم، ص ۱۸۲.

[۷۵۴] (۱). شرح نهج‌البلاغة، ج ۱۸، ص ۲۱۳، والقائل هو بشر بن الحرث المعروف ب(بشر الحافى) انظر: الكنى والألقاب، ج ۲، ص ۱۶۹.

[۷۵۵] (۲). معجم كنوز الأمثال والحكم العربية، ص ۶۲.

[۷۵۶] (۳).« دَنيّة» الشىء الحقير والوضيع، من مادة« الدناءة» بمعنى الوضاعة.

[۷۵۷] (۴).« رغائب» جمع« رغيبة» وتعنى الشىء المطلوب والمرغوب.

[۷۵۸] (۵).« تعتاض» من« الإعتياض» وتعنى أخذ العوض عن شىء وفى الأصل من« عوض».

[۷۵۹] (۱). اللهوف، ص ۹۷؛ بحار الأنوار، ج ۴۵، ص ۸.

[۷۶۰] (۲). الخصال، ج ۱، ص ۲۸۴، ح ۳۳.

[۷۶۱] (۱). نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، ۳۸۷.

[۷۶۲] (۲).« تُوجِفُ» من« الإيجاف» وتعنى السير بسرعة، وهى فى الأصل من« وَجْف» على وزن« حذف» وتعنى الحركة السريعة، وبما أنّ هذه الكلمة وردت فى العبارة أعلاه متعدية بالباء فتعنى الحث على سرعة المسير.

[۷۶۳] (۳).« مَناهل» جمع« مَنْهل» وهو منبع الماء.

[۷۶۴] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۱۶۹، ح ۶.

[۷۶۵] (۲). كنزالعمّال، ج ۳، ص ۴۹۵، ح ۷۵۷۶.

[۷۶۶] (۳). بحارالأنوار، ج ۷۵، ص ۹۲، ح ۹۸.

[۷۶۷] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۱۷۲، ح ۵.

[۷۶۸] (۲). المصدر السابق، ج ۹۳، ص ۱۵۹، ح ۳۸.

[۷۶۹] (۱). روضات الجنات، ج ۷، ص ۸۹ و ۹۰.

[۷۷۰] (۱).« تلافى» من مادة« لفى» على وزن« نفى» وتعنى الجبر والتعويض و« الفاه» بمعنى وجده وعثر عليه.

[۷۷۱] (۲).« فرط» من« الفرط» على وزن« شرط» يعنى التقصير فى أداء العمل، و« إفراط» التطرف وتجاوز الحد.

[۷۷۲] (۱). تهذيب الأحكام، ج ۶، ص ۳۷۸، ح ۲۷۳.

[۷۷۳] (۱).« ساع»« ساعى» الجاد فى العمل، من مادة« سعى».

[۷۷۴] (۲).« اهجر» من« الهجر» على وزن« فجر» وفى الأصل بمعنى الابتعاد والانفصال. ثم استخدمت فى معنى هـذيان المريض، لأنّ الكلام فى تلك الحال غير مطلوب ومبعد.

[۷۷۵] (۳). غرر الحكم، ۴۱۱۹.

[۷۷۶] (۱). سورة البقرة، الآيتان ۲۱۹ و ۲۲۰.

[۷۷۷] (۲). سورة الفرقان، الآيات ۲۷- ۲۹.

[۷۷۸] (۳). أصول الكافى، ج ۲، ص ۳۷۵، ح ۳.

[۷۷۹] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۱، ص ۱۹۷، ح ۳۱.

[۷۸۰] (۲). سورة النساء، الآية ۱۰.

[۷۸۱] (۳). كافى، ج ۲، ص ۳۳۱، ح ۵.

[۷۸۲] (۴).« خُرْق» وتعنى العنف والشدّة(ضد الرفق والمداراة).

[۷۸۳] (۱).« غشّ» من مادة« غش»(بكسر الغين) بمعنى الخيانة.

[۷۸۴] (۲).« المستنصَح»(إذا جاء بصيغة اسم مفعول) تعنى الشخص الذى تُطلب النصيحة منه.

[۷۸۵] (۱). بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۲۸۸، ح ۱۰.

[۷۸۶] (۲). المصدر السابق، ص ۳۱۸، ح ۲۰.

[۷۸۷] (۳).« نَوْكى جمع« أنوك» على وزن« ابتر» وهو الشخص الجاهل والأحمق.

[۷۸۸] (۱). نهج‌البلاغة، الخطبة ۴۲ وفى بحار الأنوار، ج ۲، ص ۳۵، ح ۳۷ أيضاً مع اختلاف يسير عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله.

[۷۸۹] (۲). بحار الأنوار، ج ۱۹، ص ۳۴۵.

[۷۹۰] (۱). نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، ۱۹۶.

[۷۹۱] (۲). بحار الأنوار، ج ۶۵، ص ۲۲۱.

[۷۹۲] (۳). كنز العمال، ح ۴۳۱۳۴.

[۷۹۳] (۴). غرر الحكم، ۱۰۸۱۸.

[۷۹۴] (۱). غرر الحكم، ۱۰۹۱۳.

[۷۹۵] (۱).« مخاطر» الذى يلقى نفسه فى الخطر.

[۷۹۶] (۲). سورة الملك، الآية ۲.

[۷۹۷] (۱). سورة الروم، الآية ۳۹.

[۷۹۸] (۲).« مهين» وهو الحقير والضعيف، وأصلها« مهانة».

[۷۹۹] (۳).« ظنين» وهو الشخص المتهم، والأصل من« ظنّ» وتأتى بصيغة اسم المفعول.

[۸۰۰] (۴).« ساهل» فعل أمر من« مساهلة» بمعنى المداراة.

[۸۰۱] (۱).« تجمح» فعل مضارع من« الجموح» بمعنى التمرد والنفور والعصيان.

[۸۰۲] (۲). بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۶۹، ح ۶.

[۸۰۳] (۳). غررالحكم، ح ۱۰۶۴۳.

[۸۰۴] (۱).« صَرْم» بمعنى القطع والفصل، وهنا جاء بمعنى قطع العلاقة مع الآخر وهى فى مقابل الصلة وتوثيق العلاقةمع الآخر.

[۸۰۵] (۲).« صُدود» مصدر بمعنى المنع.

[۸۰۶] (۱).« اللَّطَف» على وزن« شرف» وفى بعض النسخ على وزن« قفل» وتعنى إظهار المحبّة والإحسان إلى الطرفالمقابل.

[۸۰۷] (۲).« جمود» وتعنى فى هذه العبارة البخل، فى مقابل البذل والعطاء.

[۸۰۸] (۳). سورة فصلت، الآيتان ۳۴ و ۳۵.

[۸۰۹] (۱). بحار الأنوار، ج ۲۷، ص ۵۸، ح ۱۷.

[۸۱۰] (۲). المصدر السابق، ح ۱۸.

[۸۱۱] (۳). سورة المجادلة، الآية ۲۲.

[۸۱۲] (۴).« امحَضْ» من« المحض» على وزن« وعظ» بمعنى إخلاص الشىء وتنقيته، وتستعمل فى مورد النصيحةوتعنى طلب الخير للطرف المقابل الخالى من أى شائبة وغرض شخصى.

[۸۱۳] (۱). أصول الكافى، ج ۲، ص ۶۳۹، ح ۵.

[۸۱۴] (۲). المصدر السابق، ص ۶۳۸، ح ۲.

[۸۱۵] (۳).« مغبّة» العاقبة، وأصلها من« غَبّ» وأحياناً تأتى هذه المفردة فى مورد الأعمال والتى تعنى عدم التوالى أو الانقطاع بين فترة وأخرى، كما ورد فى الحديث الشريف عن النبىّ الأكرم عليه السلام أنّه قال لبعض أصحابه:« زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حُبّاً».(مستدرك الوسائل، ج ۱۰، ص ۳۷۴، ح ۱۲۲۱۰).

[۸۱۶] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۱۱۰، ح ۱۰.

[۸۱۷] (۲). المصدر السابق، ح ۶.

[۸۱۸] (۳).« لِن» فعل أمر، من« اللين» على وزن« صين» وتعنى المرونة وعدم القساوة.

[۸۱۹] (۴).« غالظ» من« الغلظة» وهى الخشونة(وتقع على الضد من الليونة والانعطاف).

[۸۲۰] (۵). سورة فصلت، الآيتان ۳۴ و ۳۵.

[۸۲۱] (۱). مقاتل الطالبيين، ص ۳۳۲. وأورد هذه القصة المرحوم العلّامة المجلسى بشكل أوسع فى بحار الأنوار، ج ۴۸، ص ۱۰۲، ح ۷(مع اختلاف يسير).

[۸۲۲] (۲). بحار الأنوار، ج ۷۱، ص ۱۷۷، ح ۱۴.

[۸۲۳] (۳). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۶، ص ۱۱۰.

[۸۲۴] (۱). الكافى، ج ۴، ص ۱۱، ح ۳.

[۸۲۵] (۲). مفردة« زهد» سواء كان متعدية ب« فى» أو ب« عن» تعنى فى كلا الأمرين عدم الاهتمام والاعتناء، والزاهد إنّما يقال له زاهد لأنّه لا يعتنى بزخارف الدنيا ولا يهتم بمتطلباتها.

[۸۲۶] (۱). سورة البقرة، الآية ۲۷۹.

[۸۲۷] (۲). نهج‌البلاغة، الرسالة ۴۷.

[۸۲۸] (۳). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۶، ص ۱۱۱.

[۸۲۹] (۱). سورة الرحمن، الآية ۶۰.

[۸۳۰] (۱). نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، ۳۷۹.

[۸۳۱] (۲). سورة هود، الآية ۶.

[۸۳۲] (۱). سورة الطلاق، الآيتان ۲ و ۳.

[۸۳۳] (۲). سورة الذاريات، الآية ۲۲.

[۸۳۴] (۳). سورة الجاثية، الآية ۵.

[۸۳۵] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ۱۶، ص ۱۱۴.

[۸۳۶] (۲). المصدر السابق، ص ۱۱۵.

[۸۳۷] (۱). سورة يونس، الآيتان ۲۲ و ۲۳.

[۸۳۸] (۲). نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، ۴۰۶.

[۸۳۹] (۳).« مثوى» كما أشرنا سابقاً أنّها تعنى المكان والمنزل، وهنا جاءت بمعنى منزل الآخرة.

[۸۴۰] (۱). نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، ۳۳۵.

[۸۴۱] (۲). بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۱۳۸، ح ۶.

[۸۴۲] (۳).« تَفَلّت» من« الفلت» على وزن« فقر» وفى الأصل بمعنى الخلاص، وتأتى أيضاً بمعنى الأمور التى تصدر من‌الإنسان بشكل عفويّ وبدون تأمّل.

[۸۴۳] (۱). نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۵۷.

[۸۴۴] (۱). سورة التوبة، الآية ۵۱.

[۸۴۵] (۲). شرح نهج‌البلاغة للشيخ مغنية، ج ۳، ص ۵۲۶.

[۸۴۶] (۳). سورة لقمان، الآية ۱۷.

[۸۴۷] (۱).« مناسب» من مادة« نسب» وجاءت هنا بمعنى الأقرباء.

[۸۴۸] (۲). شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ۱۶، ص ۱۱۷.

[۸۴۹] (۳). سورة الجاثية، الآية ۲۳.

[۸۵۰] (۱). أصول الكافي، ج ۲، ص ۱۳۶، ح ۲۳.

[۸۵۱] (۲). سورة التغابن، الآية ۱۴.

[۸۵۲] (۱). غرر الحكم، ح ۴۶۶۶.

[۸۵۳] (۱). سورة البقرة، الآية ۲۵۶.

[۸۵۴] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد و شرح نهج‌البلاغة الشيخ مغنية.

[۸۵۵] (۱). من لا يحضره الفقيه، ج ۴، ص ۴۰۶، ح ۵۸۷۹.

[۸۵۶] (۲). الأمالى للشيخ الصدوق، ص ۵۸۹، ح ۱۰.

[۸۵۷] (۱). ذكرنا مفهوم فساد الزمان أكثر فى نفحات الولاية فى الجزء الثانى ذيل الخطبة ۳۲.

[۸۵۸] (۲). بحار الأنوار، ج ۴۹، ص ۱۱۱.

[۸۵۹] (۱). بحار الأنوار، ج ۲، ص ۴۹، ح ۱۰.

[۸۶۰] (۲). شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ۱۶، ص ۱۲۱.

[۸۶۱] (۳). بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۲۶۶، ح ۳.

[۸۶۲] (۱). كان هذا الشخص فى زمانه من شيوخ خراسان وكان عالماً وخبيراً وكريماً وذا فكاهة فى كلامه ولهذا لقبّب« السكرى».(اعلام الزركلى).

[۸۶۳] (۲). شرح نهج‌البلاغة العلّامة التسترى، ج ۸، ص ۴۵۵ ووردت هذه الرواية أيضاً فى كتاب تهذيب الكمال، ج ۲۶، ص ۵۴۸ عم تاريخ بغداد.

[۸۶۴] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۲۶۶، ح ۳.

[۸۶۵] (۱).« أفن» بمعنى النقصان وقلّة الفكر والعقل.

[۸۶۶] (۱).« قهرمان» كلمة فارسية فى الأصل وانتقلت إلى اللغة الغربية وتعنى المدير والمدبّر والشخص الذى يتولى أمور النفقة، وأحياناً تأتى بمعنى البطل والشجاع أيضاً.

[۸۶۷] (۱).« لا تعد» أى لا تتجاوز الحد، من مادة« عدو» على وزن« سرو» وهو تجاوز الحد.

[۸۶۸] (۲).« التغاير» من« الغيرة» بمعنى الشدة فى العمل لحفظ النواميس أو رأس المال المهم للآخرين.

[۸۶۹] (۳).« ريب»(مع الالتفات إلى فتح الياء) جمع« ريبة» على وزن« غيبة» بمعنى الشك وسوء الظن.

[۸۷۰] (۱). الإنسان ذلك المجهول، ص ۱۰۰ وما بعدها.

[۸۷۱] (۲). نقلًا عن تقرير وصفى لمؤتمر بكين، من كتاب الشورى الثقافية الاجتماعية للنساء(شوراى فرهنگى اجتماعى زنان)، ص ۱۰.

[۸۷۲] (۳). وللمزيد من الاطلاع انظر: دائرة المعارف للفقه المقارن، ج ۱، ص ۸۴- ۸۹.

[۸۷۳] (۱). سورة الروم، الآية ۲۱.

[۸۷۴] (۲). سورة البقرة، الآية ۱۸۷.

[۸۷۵] (۱). سورة النحل، الآية ۹۷.

[۸۷۶] (۱).« يتواكلوا» من« التواكل» و« وكالة» و« تواكل» هو أن يعتمد الشخص فى أموره وأعماله على شخص آخر ويلقى بالمسؤولية عليه.

[۸۷۷] (۱).« تصول» من« الصولة» على وزن« دولة» بمعنى الهجوم والحملة فى الميدان.

[۸۷۸] (۱). شرح نهج‌البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۶، ص ۱۲۸.

[۸۷۹] (۱). وردت هذه الكلمة فى موارد كثيرة من نهج‌البلاغة بصيغة المتكلم بدلًا من صيغة الأمر« استَوْدِع» و« اسأل» وتعنى أننى أضع دينك ودنياك وديعة عند اللَّه وأسأله تعالى أفضل ما قسم وقدّر لك فى الدنيا والآخرة، وطبعاً فإنّ مفهوم كلا العبارتين واحد فى الحقيقة، رغم أنّ النسخة الأخيرة أنسب حسب الظاهر وخاصة مع الالتفات إلى كلمة« لك».

[۸۸۰] (۲). سورة آل عمران، الآية ۲۶.

[۸۸۱] (۱). مجانى الأدب، ج ۲، ص ۹.

[الجزء العاشر]

الرسالة ۳۲

اشارة

إِلى معاوية[۱]

نظرة عامّة للرسالة

تتشكل هذه الرسالة (طبقاً لما أورده السيّد الرضى فى نهج البلاغة) من ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: يتضمّن نصيحة لمعاوية، النصيحة المقترنة بالتوبيخ والتحذير من إضلال الناس وإعادتهم إلى عصر الجاهليّة، وأنّه ينبغى عليه أن يتدبّر فى عاقبة هذا الأمر.

وفى القسم الثانى، يتحدّث الإمام عليه السلام عن الأشخاص الذين يحيطون بمعاوية وهم

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ۶

السائرون فى خط الضلالة والانحراف ويعيشون التفاخر القومى والقبلى ويتّبعون معاوية على هذا الأساس، ولكن ثمّة جماعة من أهل البصيرة عندما اطّلعوا على مسلك معاوية المشبوه والفاسد تركوا التعاون معه وأداروا ظهورهم إليه وأنابوا اللَّه تعالى، وفى ختام هذا المقطع من الرسالة، يدعو الإمام على عليه السلام معاوية إلى الالتزام بتقوى اللَّه والورع وعدم اتّباع الشيطان ويذكّره بأنّ الدنيا فانية وغير ثابتة على كلّ حال وأنّ الآخرة قريبة.

وفى القسم الثالث، يدعو معاوية إلى الالتزام بتقوى اللَّه والورع وعدم اتّباع الشيطان ثم يلفت نظره إلى إقتراب أجله وأنّه عما قريب سوف يواجه صحيفة أعماله فى محكمة العدل الإلهيّة.

***

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٧

وَأَرْدَيْتَ جِيلًا مِنَ النَّاسِ كَثِيراً؛ خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، وَتَتَلاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ، فَجَازُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ إِلَّا مَن فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ وَهَرَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ. فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَالْآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، والسَّلَامُ

الشرح والتفسير: لا تهلک نفسک ولا الناس

اشارة

ما أورده السيّد الرضى من هذا الكتاب يمثّل مقطعاً من رسالة كان الإمام على عليه السلام قد أرسلها لمعاوية، ويتحدّث الإمام عليه السلام فى مطلعها، طبقاً لنقل المؤرخ المعروف المدائنى، من موقع النصيحة والتحذير من الغرور بالدنيا الخداعة والمتقلبة وأن يلتزم بالتقوى ويعلم أنّ اللَّه تعالى للظالمين بالمرصاد، فالدنيا سريعاً ما تنقلب عليه وتعرض عنه وسيواجه حينئذٍ الحسرة والندامة، فينبغى عليه فى هذا السن المتقدمة من العمر أن يفكر فى نهاية حياته واقتراب أجله وأن لا يعمل شيئاً يكون وبالًا عليه يوم القيامة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام تعرض لهذا الموضوع، وهو أنّك ستتحمل، مضافاً لمسؤوليّة ضلالك وانحرافك، مسؤوليّة إضلال جمهور من الناس، وكما ذكر السيّد الرضى فإنّ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٨

الإمام عليه السلام يقول فى مستهل حديثه:

«وَأَرْدَيْتَ ٢] جِيلًا[٣] مِنَ النَّاسِ كَثِيراً؛ خَدَعْتَهُمْ

بِغَيِّکَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِى مَوْجِ بَحْرِکَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، وَتَتَلاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ».

وهـذه إشارة إلى أنّ معاويـة يتحمل مسؤوليّة انحراف جمهور غفير من المسـلمين الذين خدعهم بمكره وغيّه وسوف يقف يوم القيامة ليجيب عن ذلک.

وعبارة

«مَوْجِ بَحْرِکَ»

تعبير لطيف عن الحوادث والأزمـات التى تشبّه عـادة بـأمواج البحر، وهى الحوادث الصـعبة التى يصـعب مواجهتها والتصـدى لها، لأنّ الأمواج العاتيـة كالجبال فى البحر تقـذف بالبشـر من هنا إلى هناک كالريشـة فى مهبّ الريـح، وأحياناً تقتلعهم فى مطاويها ودواماتها ويعيش الإنسان فى تلک اللحظات الحرجة الظلمة والشدّة بحيث تسودّ الدنيا فى عينيه.

والتعبير ب

«الظُّلُمَاتُ» وَ «الشُّبُهَاتُ»

إشـارة إلى أعمـال معاويـة من قبيـل طرح مسألـة قتـل عثمـان والـدفاع عنه، ورفع قميصه الـدامى وإثارة الناس ضـد الإمام عليه السـلام والخليفة بالحقّ لرسول اللّه صـلى الله عليه و آله، وكذلک (والعياذ باللّه) الأمر بلعن الإمام على عليه السلام على المنابر وسبّه وشتمه فى المحافل، فهل هناک ظلمة أشدّ من هذا، أو شبّهة أوحش من هذه؟

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى نتيجة هذه الأساليب الماكرة والشبهات المضللة ويقول:

«فَجَازُوا[۴] عَنْ وِجْهَتِهِمْ، وَنَكَصُوا[۵] عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا[۶]

عَلَى أَحْسَابِهِمْ ۷]»

، أى أنّ هذه الأمور أدّت إلى عودة بعض الناس عن الحقّ إلى

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۹

زمان الجاهليّة وأعرضوا عن الإسلام والرسالة الإلهيّة وأخذوا يتفاخرون بالحسب والنسب كما كان العرب يتفاخرون فى الجاهليّة.

ونعلم أنّ معاويـة كـان من بقايـا العصـر الجاهلى، وأبوه أبوسـفيان العـدو الأوّل للإسـلام والنّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله وأنّ غالبية الحروب والفتن ضـد الإسـلام كانت بقيادة أبى سـفيان، وقد أعلن أبوسـفيان الإسـلام ظاهراً وأخذ ينتظر اليوم الذى تملک فيه بنو اميّة مقاليـد الأـمور ويسـيطروا على أجهزة الحكومـة الإسـلاميّة ويجلسون مجلس النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله وحينئـذٍ يتحركون على مستوى إعادة الناس إلى قيم وثقافة الجاهليّة، ويذكر التاريخ أنّ هؤلاء قد نجحوا فى مسعاهم غاية النجاح، ولولا حادثة عاشوراء ومقتل الإمام الحسين عليه السـلام وأصـحابه فى كربلاء ويقظة المسـلمين فى ظلّ هذه الحوادث الدامية بحيث لم تسـتمر حكومتهم أكثر من ثمانين عاماً، فإنّه لا يعلم أحد ما سيجرى على الإسلام والمسلمين.

ثمّ يسـتثنى الإمـام عليه السـلام طائفـة من أهـل الشـرف والـدين والإيمـان، هؤلاء من الـذين انخـدعوا بأساليب معاويـة وكلامه البراق، ولكنّهم عنـدما رأوا عن كثب أعمـاله وعرفـوا حقيقـة أمره أعرضوا عنه والتحقوا بالإمـام على عليه السـلام وأصـحابه يقول الإمـام عليه السلام:

«إِلَّا مَن فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فَإِنَّهُمْ فَارَقُوکَ بَعْدَ مَعْرِفَتِکَ وَهَرَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ مُوَازَرَتِکَ ۸]، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عِنِ الْقَصْدِ».

مفردة

«إلّا»

استثناء من

«جيل»

التى قالهـا الإمام عليه السـلام فى مطلع الرسالـة وإشار إلى المخـدوعين والمغرورين الـذين تأثروا بشـبهات معاويـة من قبيل شـبهة قتل عثمان والمطالبة بدمه وشـبهات أخرى والتحقوا به، ولكنّهم عندما رأوا أعماله وسلوكياته عن كثب وشاهدوا فساد أعوانه وأنّهم عموماً من بقايا عصر الجاهليّة أو من أبنائهم،

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۰

فالتفتوا بسـرعة إلى خطئهم وغفلتهم وابتعدوا عنه، هذه الفئة رغم أنّهم قلّة فى مقابل الكثير ممّن اتّبعه، ولكن مقامهم الكريم يستوجب أن يذكرهم الإمام عليه السلام بوصفهم أهل البصائر والسائرون فى طريق الحقّ والمنيبون إلى اللّه تعالى.

ويذكر المحقق التسترى فى شرحه لنهج البلاغة ذيل الخطبة ۱۵۵ أسماء جماعة من أهل البصائر الذين التحقوا بالإمام على عليه السلام فى معركة صفين ومنهم: ابن عم عمرو بن العاص وابن اخته شرحبيل، وعبداللّه بن عمرو العنسى، وكذلك جماعة من قراء القرآن ۹].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى المقطع الثالث من هذه الرسالة يوصى معاوية بتقوى اللّه ويقول:

«فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِى نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ ۱۰] الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ ۱۱]، فَإِنَّ الدُّنْيَا

مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَالْآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَالسَّلَامُ».

ورغم أنّ معاوية بعد شـهادة الإمام على عليه السـلام بقى على قيد الحياة عشرين سنة، ولكن مع الالتفات إلى أنّ عمره ستون فى ذلك الزمان الـذى كتبه الإمام عليه السـلام هذه الرسالة فإنّه قد مضـى عليه الشـطر الأكبر من حياته وكل شـخص فى مثل هذا العمر لابدّ أن يفكر فى نهاية عمره وعاقبته.

وجملة

«وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ»

، تشـير إلى أنّ معاويـة قد سـلّم زمام أموره بيد الشـيطان، فالإمام عليه السـلام يوصـيه بأن يمسك زمامه ولا يترك الشـيطان يقوده فى دروب الضـلالة والانـحراف، لأنّ نهايـة عمره قريبـة وأهم شـىء فى حيـاة الإنسـان هو حسن العاقبـة حيث يمكنه حلّ مشكلاته بهـذه الطريقة.

والعجب أنّ مثل هؤلاء الجبّارين عنـدما يحين أجلهم، كما هو حال فرعون عندما غمرته أمواج النيل، ينتبهون من غفلتهم وفى حين أنّه قد ولّى وقت جبران

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۱

الأخطـاء وتغير المسار فلا ينفع النـدم والحسـرة، وربّما لو عادوا لساروا فى نفس الخط وكما يقول القرآن الكريم: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»[۱۲].

يقول ابن كثير فى كتاب «البداية والنهاية»: عندما اشـتد المرض بمعاوية ويأس من شفائه ورأى نفسه مشرفاً على الموت أخذ ينشد هذه الآبيات:

لَعَمْرى لَقَدْ عَمَّرْتُ فِى الدَّهْرِ بُرْهَةًوَدانَتْ لِى الدُّنْيا بِوَقْعِ الْبَواتِرِ

وَأُعْطِيتُ حُمْرَ الْمالِ وَالْحُكْمِ وَالنُّهىوَلى سُلِمَتْ كُلُّ الْمُلُوكِ الْجَبابِرِ

فَأَضْحَى الَّذى قَدْ كانَ مِمَّا يَسُرُّنى كَحُكْمٍ مَضى فِى الْمُزْمَناتِ الْغَوابِرِ

فَيا لَيْتَنى لَمْ أعْنِ فِى الْمُلْكِ ساعةًوَلَمْ أَسْعَ فِى لَذاتِ عيشِ نواضِرِ

وَكُنْتُ كَذى طِمْرَيْنِ عاشَ بِبُلْغَةٍفَلَمْ يَكُ حَتّى زارَ ضيقَ الْمَقابِرِ

ولا يبعد أنّ لقب «ذى طمرين» إشارة إلى الإمام أميرالمؤمنين عليه السـلام حيث يتأسف معاوية على أنّه لم يختر طريقه ولم يسلك فى

طريق الحقّ، لأنّ هذه الكلمة قد وردت فى كلام الإمام على عليه السلام نفسه فى الرسالة ۴۵ من نهج البلاغة حيث يقول:

«أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ ...».

ولكن التأسف والتحسر فى مثل هذه المواقع كاذب، فلو زالت الأزمة وحلّت المشكلة لعادوا إلى حالهم السابق وتحركوا فى نفس الخط.

تأمّل

رسائل متوالية

يستفاد من شرح ابن أبى الحديد لهذه الرسالة وجود مراسلات بين أميرالمؤمنين على عليه السلام ومعاوية فى هذا المقطع الزمنى وبلغت بمجموعها خمس رسائل من قِبل الإمام عليه السلام وأربع رسائل من قِبل معاوية، وفى كلّ رسالة كان معاوية يزداد وقاحة وجرأة على الإمام عليه السلام، والعجيب أنّه يتحدّث عن نفسه وكأنّه من أولياء اللّه المقرّبين

نفحات الولاية، ج۱۰، ص: ۱۲

وقد نسى ماضيه وحاضره وأخذ يتحدّث فى رسائله بكلمات نابية وعبارات وقحة.

والملفت أنّ ابن أبى الحديد بعد نقله لهذه الرسائل يتحدّث بما خلاصته:

«وأعجب وأغرب ما جاء به الدهر، وإن كانت عجائبه وبدائعه جمّة، أن يفضى أمر على عليه السلام إلى أن يصير معاوية نداً له ونضيراً مماثلًا يتعارضان الكتاب والجواب، ويتساوى فيما يواجه أحدهما صاحبه، ولا يقول له على عليه السلام كلمة إلّاقال مثلها، وأخشن مسّاً منها، فليت محمّداً صلى الله عليه و آله كان قد شاهد ذلك عياناً لا خبراً أنّ الدعوة التى قام بها وقاسى أعظم المشاق فى تحملها، وكابد الأهوال فى الذب عنها، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتها وشيّد أركانها وملأ الأفاق بها، خلصت صفواً وعفواً لأعدائه الذين كذبوه لما دعا إليها، وأخرجوه عن أوطانه لما حض عليها وأدموا وجهه وقتلوا عمّه وأهله، فكأنّه كان يسعى لهم، ويدأب لراحتهم كما قال أبوسفيان فى أيّام عثمان وقد مرّ بقبر حمزة وضربه برجله وقال: يا أبا عمارة، إنّ الأمر الذى اجتلدنا عليه بالسيف أمس فى يد غلماننا اليوم يتلاعبون به، ثمّ آل الأمر إلى أن يفاخر معاوية علياً كما يتفاخر الأكفاء والنضراء ...».

إذا عَيَّرَ الطائى بِالْبُخْلِ مادِرٌوَقَرَّعَ قُسّاً بِالْفَهاهَةِ باقِلٌ

وَقالَ السُّها لِلشَّمْسِ أَنْتَ خَفيةٌوَقالَ الدُّجى يا صُبْحَ لَوْنُکَ حائِلٌ

وَفاخَرْتَ الْأَرْضُ السَّماءَ سَفاهَةًوَکاثَرْتِ الشُّهُبِ الْحِصى وَالْجَنادِلُ

فَيا مَوْتُ زُرْ إنَّ الْحَياةَ ذَميمَةٌوَيا نَفْسُ جِدى إنَّ دَهْرَکَ هازِلٌ [۱۳]

نفحات الولاية، ج۱۰، ص: ۱۳

الرسالة ۳۳

اشارة

إلى قُثَم بْنِ الْعَبّاسِ وَهُوَ عامِلُهُ عَلى مَکَّةَ[۱۴]

نظرة عامّة للرسالة

تتشكل هذه الرسالة من قسمين:

القسم الأوّل: يمثّل تحذيراً من الإمام عليه السلام إلى قثم بن العباس واليه على مكّة

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۴

وينبه إلى أنّ جماعة من أزلام معاوية ممن باعوا بدينهم بدنياهم أرسلهم معاوية في موسم الحج ليثيروا الفتنة وليعملوا على تغيير الواقع لصالح معاوية على حساب إضعاف المؤيدين للإمام عليه السلام، وقد تحدّث الإمام في هذه الرسالة عن أزلام معاوية بكلمات دقيقة وبليغة حيث نجد نظائر هؤلاء في كلّ عصر وزمان وخاصّة في عصرنا الحاضر.

وفي القسم الثاني يوصيه أن يأخذ جانب الحيطة والحذر في مقابل هذه المؤامرة الخطيرة ولا يعمل شيئاً يحتاج بعده إلى الإعتذار وطلب الصفح.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۵

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي- بِالْمَغْرِب- كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْعُمْيِ الْقُلُوبِ، الصُّمِّ الْأَسْمَاعِ، الْكُمْهِ الْأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ؛ وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ، وَلَا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ. فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ، وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ، وَالتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ. وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً، وَلَا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلًا، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: راقب أوضاع مكّة بدقّة

اشارة

كما أشرنا آنفاً أنّ هذه الرسالة أرسلها الإمام عليه السلام إلى قثم بن العباس عندما وصل الخبر إلى الإمام عليه السلام من مكّة من قبل بعض عيونه وجواسيسه، أنّ معاوية بعث جماعة من أهل الشام لإشاعة الأكاذيب وتسميم الأجواء ضد أميرالمؤمنين عليه السلام في أيّام الحج، ويستفاد من كلام ابن الأعثم الكوفي في الفتوح أنّ معاوية أرسل جيشاً مكوّناً من ثلاثة آلاف رجل ومعهم العدّة الكاملة بشكل خفي إلى مكّة ليقوموا بإنتفاضة عندما تسنح الفرصة المناسبة ويواجهوا أنصار الإمام علي عليه السلام ويربكوا أوضاع الحج.

وكيف كان فالإمام في مستهل هذه الرسالة يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي ۱۵]

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۶

بِالْمَغْرِب ۱۶]- كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ ۱۷] أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ».

ثمّ يذكر صفاتهم في ثلاث جمل مختصرة وأعمالهم في أربع، ويقول:

«الْعُمْيِ ۱۸]

الْقُلُوبِ، الصُّمِ ۱۹] الْأَسْمَاعِ، الْكُمْهِ ۲۰] الْأَبْصَارِ».

وهذا الكلام في الحقيقة مقتبس من الآية الشريفة في قول تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَايَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ»[۲۱].

وكمـا ورد فى تفسـير الآيـة الشـريفة أيضـاً أنّ طرق معرفـة الإنسان ثلاثـة: العقل، الـذى يفكر ويتـدبر به، العين التى يرى بها الحوادث المختلفـة، والتجارب المتنوعـة، والاذن، التى يسـمع بها العلوم النقليّة، والأشـخاص الذين يفقدون هذه الأعضاء الثلاثة فإنّ جميع طرق المعرفة ستكون موصدة أمامهم.

أجـل، فمعاويـة اختـار هؤلاء البعيـدين عن اللَّه والأزلام الـذين اختـاروا الضـلالة على الهـدى، والـدنيا على الآخرة، ومهمتهم أن يبثوا الإشاعات المغرضة والأكاذيب الملفقة ويرتكبوا ما يحلوا لهم من ذنوب وآثام للوقيعة بأتباع أميرالمؤمنين عليه السلام وإثارة الفتنة فى صفوف حجاج بيت اللَّه الحرام.

ثمّ تحدّث الإمام عليه السلام عن أعمالهم وقال:

«الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ ۲۲] الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ،

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۷

وَيُطِيعُونَ الَمخْلُوقَ فِى مَعْصِيةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ ۲۳] الدُّنْيا دَرَّهَا[۲۴] بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ».

وبديهى أنّ الأشـخاص الذين يعيشون العمى فى القلب، والصـمم فى الأسماع لا ينتبهون إلى هذه الأمور ومن أجل التمويه على الناس يخلطـون الحقّ بالباطـل، ومن أجـل كسب رضـا المخلوق ونيـل الجوائز والعطايـا لاـ يطيعون أمر اللَّه ولاـ يمتثلون لتعـاليمه، ومن أجل تحصيـل متـاع الـدنيا يبيعون رأسـمالهم الـدينى، هؤلاء الـذين بلغ العمش فى بصـيرتهم إلى درجـة أنّهم لاـ يرون سوى دنياهم الفانيّة والملذات الرخيصة ويغفلون عن الآخرة وما فيها من المواهب المعنويّة والماديّة العظيمة والأبديّة، ولهذا السبب لا يعيرون أهمّية للآخرة ويبيعونها بأبخس الأثمان من أمور الدنيا.

وبديهى أنّ معاوية لا يختار أبداً الأشـخاص الذين يملكون بعض الإيمان ولهم سابقة فى الإسـلام لهذه لأعمال الشـنيعة، بل يبحث عن الأشـخاص الذين لا يملكون ذرة من الإيمان أو العقل أو الوجدان، فهم عبيد وغلمان وضعوا أرواحهم فوق أكفّهم سمعاً وطاعة لأوامر السلطان، وهذا هو منهج جميع حكّام الجور وقوى الاستكبار والهيمنة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السـلام أشار إلى هـذه الحقيقة، وهى أنّ كلّ إنسان يعمل الخير أو يقترف المنكر فسوف يثاب ويعاقب حسب عمله، يقول:

«وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ، وَلَا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ».

وهذا المفهوم مقتبس من الآيات الشريفة قال تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه»[۲۵].

وهو إشارة إلى أنّ هؤلاء عندما يتحركون فى خط خلق الفتنة وإيجاد المفسدة

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۸

والاختلاف بين المسلمين لا ينالون فى نهاية المطاف سوى الشر والفساد وسوف تصل إليهم وإلى زعيمهم هذه النار وتحرقهم.

ثمّ يخاطب الإمام عليه السلام قثم بن العباس ويقول:

«فَأَقِمْ عَلَى مَا فِى يَدَيْکَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ ۲۶]، وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ ۲۷]، وَالتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ».

وبهـذه الطريقـة يثير فيه الإمام عليه السـلام العزيمـة والروحيـة وتقوية الإرادة لأداء المهمّة الملقاة على عاتقه فى مقابل مؤامرات معاوية وأتباعه من أهل الشام ويؤكّد له ضمناً أنّه مشرف وناظر لأعماله.

وبهـذا البيان الموجز والعميق فى محتواه يبيّن الإمام عليه السـلام شـروط القائد الموفق والوالى الناجح، كسـعة آفاق التفكير، الاسـتقامة والصـمود فى مقابل الحوادث والتحـديات، وحبّ الخير للناس، والإطاعـة لإمامه ومقتـداه وإمتثال أوامره، ومعلوم أنّ هـذه الشـروط إذا توفرت فى كلّ مدير أو قائد فسوف يكون مُوفّقاً فى عمله وإدارته وباستطاعته مواجهة مؤامرات الأعداء وإحباطها.

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام فی ختام هذه الرسالۀ یذکر تحذیراً آخر لعامله ویقول:

«وَإِیَّاکَ وَمَا یُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَلَا تَکُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً[۲۸]، وَلَا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلًا[۲۹]، وَالسَّلَامُ».

ثمّـۀ مثـل معروف متـداول بین النـاس یقولون: «إنّ الاعتـذار لا یعیـد ماء الوجه للإنسان» فصـحیح أنّ الإنسان ینبغی أن یعتـذر للطرف المقابل من خطئه وما صـدر منه من خطیئۀ وزلـۀ، ولکن یجب الالتفات إلی أنّ هـذا الإعتذار لا یعید مکانۀ الإنسان إلی سابق عهدها، فالأفضل أن یعیش الإنسان الانتباه والحذر لئلا یضطر

نفحات الولایۀ، ج ۱۰، ص: ۱۹

للإعتـذار، وکـذلک یجب أن یکون مسـلطاً علی نفسه ویملـک شخصـیّۀ قویّـۀ بحیث لا یتأثر باقبال أو إدبار النعم الدنیویّـۀ، ولا یکون کالأشـخاص من الضـعفاء النفـوس بحیث یفرحـون بشـدّۀ لأدنی نجـاح إلی درجـۀ أنّهم یخرجـون عن طورهم وفی المقابـل یتـأثرون ویغتمون من أدنی اخفاق وفشل إلی درجۀ أنّهم یفقدون مشاعرهم ولا یسیطرون علی أنفسهم.

وعندما ننظر إلی هذه الرسالۀ المختصـرۀ للإمام علیه السـلام من موقع الدقّۀ والعمق فسوف نری أنّها تتضمن کلّ شیء، وهذه آیۀ جلیۀ من آیات الفصاحۀ والبلاغۀ لکلام الإمام علیه السلام وتشیر إلی سعۀ إطلاعه ومعرفته بجمیع الأمور السیاسیّۀ والاجتماعیّۀ والأخلاقیّۀ.

تأمّل

من هو قثم بن العباس؟

«قثم» فی الأصل «قاثم» بمعنی الشـخص الکریم الجواد «ثمّ سـقطت ألفه» وهذا الاسم یعتبر بالنسبۀ لقثم ابن العباس اسماً علی المسمی، لأنّـه کـان مـن الأجاویـد والکرمـاء المشـهورین، وهـو ابن عـم النّبی الأـکرم صـلی الله علیـه و آله والإمـام علی علیه السـلام وابن أخ عبـدالمطلب وامّه ام الفضل لبابـۀ بنت الحارث أحـد أصـحاب رسول اللّه صـلی الله علیه و آله، وذکروا أنّ امّه کانت بعـد خدیجۀ أول امرأۀ اعتنقت الإسـلام، وجاء فی کتب الرجال والتواریخ أنّ القثم کان رجلًا قویاً وذو فضائل، وفی زمان خلافۀ الإمام علی علیه السـلام کـان والیـاً علی المدینـۀ لمـدّۀ معینـۀ ثمّ صـار والیـاً علی مکّۀ من قِبـل الإمـام علیه السـلام وظّل فی هـذا المنصب إلی زمان استشـهاد أمیرالمؤمنین علیه السلام، وفی سنۀ ۳۸ للهجرۀ اختیر أمیراً للحجاج من قِبل الإمام أمیرالمؤمنین علی علیه السلام ویقال إنّ أمیرالمؤمنین عندما ضربه ابن ملجم فی محراب مسجد الکوفۀ، کان قثم حاضراً فی المسجد وهو الذی قبض علی ابن ملجم وهو یحاول الفرار.

نفحات الولایۀ، ج ۱۰، ص: ۲۰

وفی أیّام معاویۀ بسبب صداقته مع سعید بن عثمان والی خراسان توجه قثم إلی خراسان وحضر فی حرب ضد الکفّار فی سمرقند ونال درجۀ الشهادۀ هناک ۳۰].

نفحات الولایۀ، ج ۱۰، ص: ۲۱

الرسالۀ ۳۴

اشارۀ

إلی مُحَمّدِ بْنِ أبی بَکْرٍ لَمَّا بَلَغَهُ تَوَجُّدُهُ مِنْ عَزْلِهِ بِالْأَشْتَرِ
عَنْ مِصْرَ، ثُمَّ تُوفی الأشترُ فی تَوَجُّهِهِ إِلی هُناکَ

قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَيْها[۳۱]

نظرة عامّة للرسالة

نعلم أنّ معاويـة بعد قصة التحكيم كان يروم إثارة القلاقل فى المناطق الخاضـعة لسـيطرة حكومة الإمام على عليه السـلام، فكان يهجم على المناطق الحدوديّة من جهة، ومن جهة أخرى كان قد أعطى عهداً لعمرو بن العاص بسبب خدماته الجليلة له أنّه إذا نجح فى تولى الخلافـة واسـتلام زمام الحكومـة الإسـلاميّة فإنّه سـيعطيه مصـر، ومن أجل تحقيق هـذه الغاية بذل هذان الرجلان جهوداً كبيرة فى هذا السبيل.

وكان الإمام على عليه السـلام قد شـعر بأنّ محمّد بن أبى بكر واليه على مصـر وإن كان رجلًا أميناً، إلّاأنّ مصـر تحتاج إلى رجل أقوى وأشدّ منه وأكثر تجربة ليقف فى

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۲۲

مواجهة مؤامرات معاوية، ولذلك اختار مالك الأشتر لهذا الأمر وكتب له عهده المعروف ب «عهد مالك الأشتر».

وعندما اطلّع معاوية على هذا الخبر وأنّ مالك الأشتر توجه إلى مصر أصابه القلق من ذلك ودبّر له مكيدة لقتله قبل وصوله إلى مصر، فأمر أحـد جواسـيسه الـذى كان على إرتباط وثيق بآل عمرو بن العاص، أن يقتل مالكاً بالسم بأيـة صورة، فجاء هذا الرجل إلى مالك وأظهر له المودة وعرّف نفسه أنّه من شـيعة الإمـام على عليه السـلام ومن أتباع أهل البيت عليهم السـلام وتحـدّث له عن فضائل الإمام وبنى هـاشم إلى أن صـدّقه مالـك ووثق به واعتقـد أنّه واقعـاً من أتباع أهل البيت عليهم السـلام وفى ذلك الوقت أهـدى هـذا الرجل طعاماً مسـموماً لمالك «والمعروف أنّه كان عسـلًا مسـموماً» وعندما تناول مالك من هذا العسل شـعر بالتسـمم، وقبل وصوله إلى مصر توفى فى منطقة يقال لها «قلزم».

وعنـدما وصل خبر تنصـيب مالك الأشتر والياً على مصـر إلى محمّـد بن أبى بكر، بدا منه تأثراً من ذلك، فكتب له الإمام عليه السـلام الرسالة أعلاه ليرفع قلقه ويزيل استياءه وأبقاه فى منصبه ۳۲].

وعلى ضوء ذلك فإنّ الغرض من هـذه الرسالة رفع ما خالج محمّد بن أبى بكر من تأثر واستياء من جراء تنصـيب مالك الأشتر مكانه، وقد أكد له الإمام عليه السـلام فى هذه الرسالة أنّه راضٍ تماماً عن أفعاله وأنّ استبداله بمالك الأشتر لا يعنى أنّه قد قصّر فى مهمته بل لغرض كان محمّـد بن أبى بكر يعلم به أيضاً، وكـذلك تهـدف هذه الرسالة لتقوية إرادة محمّد بن أبى بكر وتحكيم موقفه فى مقابل العدو لحفظ حكومة مصر، ويوصيه الإمام عليه السلام بالتوكل على اللَّه والاستقامة فى طريق التصدى للأعداء.

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۲۳

أَمَّا بَعْـدُ، فَقَـدْ بَلَغَنِى مَوْجِـدَتُکَ مِنْ تَسْـرِيح الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِکَ، وَإِنّى لَمْ أَفْعَلْ ذلِکَ اسْـتِبْطَاءً لَکَ فِى الْجَهْدِ، وَلَا ازْدِيَاداً لَکَ فِى الْجِدِّ وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِکَ مِنْ سُلْطَانِکَ لَوَلَّيْتُکَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْکَ مَؤُونَةً وَأَعْجَبُ إِلَيْکَ وِلَايَةً.

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِى کُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْـرَ کانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِـحاً، وَعَلَى عَـدُوِّنَا شَدِيداً نَاقِماً، فَرَحِمَهُ اللَّهُ! فَلَقَدِ اسْـتَکْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلَاقَى حِمَامَهُ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ؛ أَوْلَـاهُ اللَّهُ رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ! فَأَصْـحِرْ لِعَـدُوِّکَ، وَامْضِ عَلَى بَصِـيرَتِکَ، وَشَـمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَکَ، وَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّکَ، وَأَکْثِرِ الْاسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَکْفِکَ مَا أَهَمَّکَ، وَيُعِنْکَ عَلَى مَا يُنْزَلُ بِکَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: تطييب خاطر محمّد بن أبى بكر

لقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة المختصرة إلى عدّة نقاط مهمّة فقال أوّلًا:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِى مَوْجِدَتُکَ ۳۳] مِنْ تَسْرِيحِ ۳۴] الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِکَ ۳۵]، وَإِنّى لَمْ أَفْعَلْ

ذلِکَ اسْتِبْطَاءً[۳۶] لَکَ فِی الْجَهْدِ، وَ لَاازْدِیَاداً لَکَ فِی الْجِدِّ».

وبهذا الکلام سعی الإمام علیه السلام لتطییب خاطر محمّد بن أبی بکر وأکّد له أنّه راضٍ

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۲۴

عن عمله وأنّ هذا التغییر والاستبدال لا یعنی أبداً أنّ محمّد بن أبی بکر مقصّر فی عمله، أو أنّ الإمام علیه السلام مستاء منه.

ثمّ واصل الإمام علیه السلام کلامه مخاطباً لمحمّد بن أبی بکر لتهدئهٔ نفسه أکثر ورفع أی التباس فی ذهنه وقال:

«وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ یَدِکَ مِنْ سُلْطَانِکَ لَوَلَّیْتُکَ مَا هُوَ أَیْسَرُ عَلَیْکَ مَؤُونَةً وَأَعْجَبُ إِلَیْکَ وِلَایَةً».

وفی الحقیقهٔ أنّ الإمام علیه السلام بذکره لهاتین النقطتین، وهما أنّه راضٍ من جههٔ عن أعمال محمّد بن أبی بکر، ومن جههٔ أخری أنّه لو عزله عن موقع معین فإنّه سیختار له موقعاً أفضل، وبذلک رفع أی إلتباس وقلق من والیه علی مصر.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغهٔ إلی أنّ مراد الإمام علیه السلام من هذه العبارهٔ أنّه سیعطیه مکاناً أفضل وأیسر مؤنهٔ، وهی ولایهٔ حکومهٔ خراسان أو بلاد فارس أو الیمن، لأنّ جمیع مناطق البلاد الإسلامیّهٔ فی ذلک الوقت ما عدا الشام، کانت تحت حکومهٔ الإمام علی علیه السلام ۳۷].

ثمّ ذکر الإمام علیه السلام السبب فی اختیاره لمالک الأشتر والیاً علی مصر، لیرفع من جههٔ الشبههٔ عن ذهن محمّد بن أبی‌بکر، ومن جههٔ أخری یلفت نظره إلی بعض نقاط الضعف والقصور فی شخصیّته لیتمکن من إصلاحها واستبدالها بنقاط قوّهٔ، یقول:

«إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِی کُنْتُ وَلَّیْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ کانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحاً، وَعَلَی عَدُوِّنَا شَدِیداً نَاقِماً[۳۸]، فَرَحِمَهُ اللَّهُ! فَلَقَدِ اسْتَکْمَلَ أَیَّامَهُ، وَلَاقَی حِمَامَهُ ۳۹]، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ؛

أَوْلَاهُ ۴۰] اللَّهُ رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ!».

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۲۵

والحقیقهٔ أنّ مالک الأشتر رحمه الله کان کذلک، بلاءه المشهود فی صفین ودفاعه الحاسم عن الإمام علیه السلام فی مواقع مختلفهٔ ووفاءه المطلق واستقامته فی جمیع الحوادث الصعبهٔ التی وقعت فی ذلک العصر، کلّها شاهد حی علی صحهٔ کلام الإمام علیه السلام فی حق الأشتر، فقد کان الأشتر هو القائد الفذ الذی جعل جیش معاویهٔ فی صفین یصل إلی حدّ الهزیمهٔ الکاملهٔ، ولکن مؤامرهٔ رفع المصاحف علی الرماح أجهضت سعیه وأعاقت تحقیق النصر علی معاویهٔ.

یقول ابن أبی الحدید فی شرحه لنهج البلاغهٔ عند وصوله لجملهٔ

«فَرَحِمَهُ اللَّهُ»

: «ولست أشک بأنّ الأشتر بهذه الدعوهٔ یغفر اللَّه له ویکفّر ذنوبه ویدخله الجنّهٔ، ولا فرق بینها وبین دعوهٔ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله،

وَیاطُوبیٰ لِمَنْ حَصَلَ لَهُ مِنْ عَلِیٍّ علیه السلام بَعضُ هَذا»[۴۱].

وقد تحدّث الإمام علیه السلام فی رسائل عدّهٔ فی نهج البلاغهٔ عن مالک الأشتر بوصفه شخصیّهٔ ممتازهٔ وعالی الهمهٔ، وهذا الثناء یشیر إلی أنّ للأشتر مکانهٔ سامیهٔ عند الإمام علیه السلام الذی کان یکنّ له الحبّ والاحترام، وقد تحدّثنا فی شرح الرسالهٔ ۱۳ عن بعض فضائل مالک الأشتر وامتیازاته النادرهٔ، وسنشیر فی ذیل هذه الرسالهٔ والرسائل أخری أیضاً إلی أمور أخری عن هذه الشخصیّهٔ الإسلامیّهٔ الفذهٔ.

ثمّ یشیر الإمام علیه السلام إلی نقطهٔ ثالثهٔ: ولکن الآن حیث استشهد مالک ولا أعرف أفضل منک لتولی هذا المنصب فعلیک بالبقاء فیه والاستعداد لمواجههٔ العدو بشجاعهٔ وبصیرهٔ:

«فَأَصْحِرْ[۴۲] لِعَدُوِّکَ، وَامْضِ عَلَی بَصِیرَتِکَ، وَشَمِّرْ[۴۳] لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَکَ».

وجملة «
فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّکَ
» إشارة إلى هذه النقطة، وهى أنّ الإمام عليه السلام أكد عليها فى خطبة الدعوة للجهاد حيث قال:
«وَقُلْتُ لَكُمُ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أنْ يَغْزُوكُمْ فَوَاللَّهِ مَا غُزِىَ
نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۶
قَوْمٌ قَطُّ فِى عُقْرِ دَارِهِمْ إلَّا ذَلُّوا».
وجملة
«وَامْضِ عَلَى بَصِيرَتِکَ»
أمر بضرورة التزام الحذر التام والانتباه الكامل فى مقابل مؤامرات العدو وأن يتحرك بدقّة متناهية لإبطال مساعيه وإجهاض مؤامرته.
وجملة «
وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَکَ
» إشارة من جهة إلى أنّك لا تبدأ بالحرب، ومن جهة أخرى إذا بدأك العدو بالحرب فاستعد لدحره ودفع خطره وكن على أهبة الاستعداد بشكل دائم.
وهذه التوصيات الثلاث للإمام عليه السلام لا تخصّ محمّد بن أبى بكر فقط بل تشمل جميع المسلمين فى كلّ زمان ومكان، فإذا عملوا بها فذلك سيقودهم إلى النصر المحتم.
وفى ختام الرسالة يدعوه الإمام عليه السلام للتوجه إلى اللّه تعالى والتوسل به فبيده مفتاح جميع المشكلات ولا يمكن تحقيق أى هدف إلّابمعونته، ويقول الإمام عليه السلام:
«وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّکَ، وَأَكْثِرِ الْاسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِنْكَ عَلَى مَا يُنْزَلُ [۴۴]
بِکَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ».
ومعلوم أنّ مثل هذا الإيمان والاعتقاد وهذا التوجه للذات المقدّسة لا يورث الإنسان الأثر المعنوى الكبير فحسب، بل يمنحه القوّة الروحية والاستقامة فى العمل والنشاط فى المشاعر والانفتاح، وهذه هى الأمور التى تتسبب فى إنتصار جيش المسلمين على قوى الكفر والضلالة فى عصر النّبى الإسلام عليه السلام فى حين أنّ المسلمين كانوا أقل عدداً وعدّة من أعدائهم.
نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۷

تأمّل

من هو محمّد بن أبى بكر؟

محمّد بن أبى بكر، كما يتبيّن من اسمه، هو ابن الخليفة الأوّل، ومع إنتمائه لمثل هذا الأب، كان يعيش العشق الشديد للإمام على بن أبى طالب عليه السلام ومستعد لكلّ أشكال التضحية فى سبيله، وبدوره فالإمام على عليه السلام أيضاً كان يعتمد على محمّد بن أبى بكر اعتماداً كاملًا، ومن هذه الجهة اختاره على مصر، ولكنه استشهد على يد عمّال معاوية وقد تأثر الإمام عليه السلام كثيراً بمقتله.
وسبق أن ذكرنا سيرته وترجمة حياته فى ذيل الخطبة ۶۸ من الجزء الثالث من هذا الكتاب [۴۵].
ج ج
نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۹

الرسالة ۳۵

اشارة

إلى عَبْدِاللَّهِ بْنِ الْعَبّاسِ، بَعْدَ مَقْتَلِ مُحَمّدِ بْنِ أبىبَكْرٍ[۴۶]

نظرة عامّة للرسالة

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة الموجزة إلى ثلاث نقاط:

الاولى: أنّه أبلغ ابن عباس بشهادة محمّد بن أبى بكر فى مصر على يد أزلام معاوية وتحدّث عن محمّد بوصفه ابن له ورجلًا صالحاً وشجاعاً ومدافعاً عن الحقّ.

والثانية: أشار الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة، وهى أنّه كان يتوقع مثل هذا الأمر، وبذلك طلب من أهل العراق أن يهبوا لمساعدة محمّد سرّاً وعلانية بكل سرعة ولكن مع الأسف فإنّ العناصر الانتهازية وأصحاب الادعاءات الجوفاء لم يصغوا إلى هذه الدعوة وبالتالى وقعت هذه المصيبة فى أرض مصر واستشهد محمّد على أثرها.

والثالثة: يدعو الإمام عليه السلام اللَّه تعالى من قلب متحرق يحكى عن الحزن الشديد

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۰

الذى جرح قلب الإمام عليه السلام، والإمام هنا يسأل اللَّه تعالى أن يخلصه من هؤلاء الناس من ضعفاء الإيمان والمعرضين عن الحقّ ويقسم أنّه لولا عشقه للشهادة لما أحبّ أن يبقى يوماً واحداً مع هؤلاء الناس.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۱

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِىبَكْرٍ- رَحِمَهُاللَّهُ- قَدِ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَداً نَاصِحاً، وَعَامِلًا كَادِحاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَرُكْناً دافِعاً. وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلَى لَحَاقِهِ، وَأَمرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً، وَعَوْداً وَبَدْءاً، فَمِنْهُمُ الآتِى كَارِهاً، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِباً، وَمِنْهُمْ الْقَاعِدُ خَاذِلًا. أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِى مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلًا؛ فَوَاللَّهِ لَوْلَا طَمَعِى عِنْدَ لِقَائِى عَدُوِّى فِى الشَّهَادَةِ؛ وَتَوْطِينِى نَفْسِى عَلَى الْمَنِيَّةِ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَلْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْماً وَاحِداً، وَلَا أَلْتَقِى بِهِمْ أَبَداً.

الشرح والتفسير: شكوى من الأتباع الضعفاء

كما هو الملاحظ فى عنوان هذه الرسالة، أنّ الإمام عليه السلام يخاطب فيها عبداللَّه بن العباس، وكان فى ذلك الزمان والياً من قِبل الإمام عليه السلام على البصرة، وفى مطلع هذه الرسالة يخبره الإمام عليه السلام عن سقوط مصر بيد جيش معاوية واستشهاد محمّد بن أبىبكر ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِىبَكْرٍ- رَحِمَهُاللَّهُ- قَدِ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُهُ ۴۷]».

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۲

ثمّ يضيف:

«وَلَداً[۴۸] نَاصِحاً، وَعَامِلًا كَادِحاً[۴۹]، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَرُكْناً دافِعاً».

وهـذه الصـفات الأربع لشخصـية محمّـد بن أبی بكر متجلية بشـكل واضح فی سـيرته وشخصـيّته وتعكس هذه العبارات عن جملة من فضائله، فی البداية يشير إلی كونه من أهل الخير وبمنزلة الابن له، فمحمّد لم يكن فقط الابن الروحانی للإمام علی عليه السلام، بل مع الالتفات أنّ امّه أسماء تزوجت بعد وفاة أبی بكر من الإمام علی عليه السلام وكان محمّد قد تربی فی حجر الإمام عليه السلام فإنّه يعدّ بمثابة الابن للإمام عليه السلام ۵۰].

ثمّ يشير الإمام إلی صـفة العامل الكادح لمحمّد فی منصب الوالی علی مصـر وأنّه كان ماضـی الهمة وشديد العزيمة ومدبّراً خبيراً، ثمّ يتعرض الإمام عليه السـلام لمواقف محمّد فی مقابل الأعداء ويقول عنه أنّه كان سـيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً، وبعد ذلك يشير الإمام عليه السـلام إلی لجوء محمّـد باتخاذ تـدابير دفاعيـة فی مقابل هجوم الأعـداء والحوادث المؤسـفة ويشـبهه بالعمد القوی والأساس الصـلب والركن الدافع الذی يمنع البناء من الإنهيار ويدفع عنه البلايا والأخطار.

ومن أجل أن لا يتوهم أحد أنّ الإمام عليه السلام قصّر فی الدفاع عن محمّد بن أبی بكر وحفظه يقول:

«وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ ۵۱] النَّاسَ عَلَى لَحاقِهِ، وَأَمرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ

الْوَقْعَةِ[۵۲]، وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً، وَعَوْداً وَبَدْءاً[۵۳]، فَمِنْهُمُ الآتِی كَارِهاً، وَمِنْهُمُ

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۳

الْمُعْتَلُ ۵۴] كَاذِباً، وَمِنْهُمُ الْقَاعِدُ خَاذِلًا[۵۵]».

وينقل الطبری فی تاريخه فی حوادث سنة ۳۸ أنّ الإمام عليه السـلام فی هذه الأثناء دعا أهل الكوفة إلی التجمع: فقام علیٌّ بالناس وقد أمر فنودی الصلاة الجامعة، فاجتمع الناس فحمد اللّه وأثناء عليه وصلی علی محمّد صلی الله عليه و آله، ثمّ قال:

«أمّا بَعـدُ فَإنّ هٰـذا صَـرِيخُ مُحَمّد بنِ أَبِی بَكرٍ وَأخوانُكُم مِنْ بلادِ مِصـرَ قَدْ سَارَ إلَيهم ابنُ النَّابِغَةِ عَدوَّ اللّهِ ووَلِّی مَنْ عَادَ اللّهَ، فَلا يَكُونَنَّ أَهـلُ الضَّلالِ إلی بَاطِلِهِم وَالرُّكُونِ إلی سَبِيلِ الطَّاغُوتِ أَشَدُّ إجتِمَاعاً مِنْكُم عَلی حَقِّكُم هَـذا، فَإنَّهُم قَدْ بَدَأُوكُم وَإخوانُكم فِی الغَزو فَعَجِّلُوا إلَيهِم المُواسَاةَ وَالنَّصرَ عِبادُ اللّهِ إنَّ مِصـرَ أَعظُم مِنَ الشَّام وَأَكثَر خَيراً وَخَير أهلًا فَلا تُغلَبُوا عَلی مِصـر فَإنَّ بَقَاءَ مِصـر فِی أيدِيكُم عَزٌّ لَكُم وَكَبتٌ لِعَدوِّكُم اخرجُوا إلی الجُرعَةِ بَينَ الحِيرَةِ وَالكُوفَةِ، فَوافُونِی بِها هَناكَ غداً إنْشَاءاللّه».

ثمّ يضـيف الطبری: فلمـا كـان من الغـد خرج يمشـی فنزلهـا بكرة، فأقام بها حتی التصق النهار يوم ذلك فلم يوافيه منهم رجل واحـد، فرجع، فلمّا كان من العشية بعث إلی أشراف الناس فدخلوا عليه القصر وهو حزين كئيب فقال:

«الحَمْـدُ للّهِ عَلی مَا قَضـی مِن أَمرٍ وَقَد قَدّرَ مِن فِعلٍ وَابتَلانی بِكُم أَيَّتُها الفُرقَةُ مِمَن لايُطيعُ إذا أَمرتُ وَلا يُجِيبُ إذا دَعوتُ، لاأَبَاً لِغَيرِكُم مَاذا تَنتَظِروا بِصَبرِكُم وَالجِهادِ عَلی حَقِّكُم».

(والقسم المهم من هذه الخطبة أوردناه فی ۱۸۰ من الجزء السادس من هذا الكتاب).

وينقـل الطبری فی قسم آخر من كلامه هـذا الحـديث عن أميرالمؤمنين عليه السـلام قاله بعـد استشـهاد محمّـد بن أبی بكر حيث أخذ يوبخ أتباعه بشدّة ويقول:

«دَعَوتُكُم إلی غِياث إخوانِكُم مُنذُ بِضعٍ وَخمسِينَ لَيلَةً فَتَجَرجَرتُم جَرجَرةَ الجَمَلِ

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۴

الأَشدقِ وَتَثاقَلتُم إلی الأَرضِ تَثَاقُلَ مَنْ لَيسَ لَهُ نُيّةٌ فِی جِهادِ العَدوّ وَلا اكتسابِ الأجرِ ...»[۵۶].

وهـذه الطوائف الثلاث الـذين يتحـدّث عنهم الإمام عليه السـلام لا ينحصـر تواجـدهم فی ذلك العصـر، توجـد مثل هذه الشخصـيّات الهزيلة والنفوس المريضـة فی كـلّ عصـر وزمـان وينخرطون فی أحـد هـذه الطوائف الثلاث، فالأشـخاص الـذين يواجهون المصاعب ويحضـرون إلی الميـدان كارهين لا يوفّقون للقيام بأی عمل إيجابی، والفئـة الثانيـة هم الـذين ينسلون من ميدان المواجهات بتبريرات وأعـذار مختلفـة لابعاد أنفسـهم عن مواجهـة العـدو، والفئة الأخيرة هم الذين يخالفون الحضور فی الميدان بصـراحة ويحرضون الناس

على القعود معهم، فالويـل للمجتمع الـذى تكون فيه الغالبيـة من الناس من هـذه الطوائف الثلاث، فمهما اوتى القادة لهـذا المجتمع من قدرة وعزم وحنكة فى إدارة الأمور فإنّهم وبسبب عدم توفر الأنصار والأتباع الذين يعيشون روح التضحية والشجاعة والمسؤوليّة، فإنّهم لا يحققون أى نتيجة لمجتمعم ولا ينجحون فى تجسيد طموحاتهم وتطلعاتهم على أرض الواقع المجتمعى.

إنّ التدبّر فى الآيات القرآنيّة يرشدنا إلى أنّ هذه الطوائف الثلاث كانت موجودة أيضاً فى عصـر رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، رغم أنّ جماعة المؤمنين المخلصين كانت هى الغالبة.

يقـول القرآن الكريم بالنسـبة للطائفـة الاـولى فى ذلـك العصـر: «يُجَادِلُونَـكَ فِى الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ»[۵۷].

وفيما يخص الطائفـة الثانيـة يسـتعرض القرآن الكريم قضايا معركة الأحزاب ويقول: «وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً»[۵۸].

أمّا بالنسبة للطائفة الثالثة فيقول: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۵

وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَاتَنفِرُوا فِى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ»[۵۹].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام ينطلق بالدعاء ويتوجّه إلى اللّه تعالى من أعماق قلبه ويسأله أن يخلصه من هذا الواقع الأليم:

«أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِى مِنْهُمْ فَرَجَاً عَاجِلًا».

ولغرض التأكيد على هذه الحقيقة يضيف الإمام عليه السلام:

«فَوَاللَّهِ لَوْلَا طَمَعِى عِنْدَ لِقَائِى عَدُوِّى فِى الشَّهَادَةِ؛ وَتَوْطِينِى ۶۰] نَفْسِى عَلَى الْمَنِيَّةِ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَلْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْماً وَاحِداً، وَلَا أَلْتَقِى بِهِمْ أَبَداً».

إنّ نذالة هؤلاء الأتباع وخسّـتهم وصلت إلى درجة أنّ الإمام عليه السلام بما يملك من صبر واستقامة بحيث بقى خمس وعشرين عاماً فى زاوية البيت وفى الحلق شـجى وفى العين قذى كما يقول الإمام عليه السـلام نفسه وقد تحمل ذلك، ولكن فى هذه المدّة القصـيرة من خلافته واجه الإمام عليه السـلام ضغوطات وصعوبات بحيث إنّه تمنى أن لا يبقى مع هؤلاء الناس ولا يوماً واحداً، وما يدعوه للبقاء معهم هو شوق الشهادة فى سبيل اللّه تعالى.

ومثل هذا الكلام ذكره الإمام عليه السلام فى الخطبة ۱۱۹ حيث قال:

«وَاللَّهِ لَوْلَا رَجَائِى الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِى الْعَدُوَّ- وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِى لِقَاؤُهُ- لَقَرَّبْتُ رِكابِى ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ ...».

تأمل

روعة البلاغة فى هذه الرسالة

تعتبر هذه الرسالة من أفصح وأبلغ رسائل وكتب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام والتى كتبها بعبارات موجزة وكلمات بليغة بحيث أدّى حقّ المطلب تماماً.

وقد تأثر ابن أبى الحديد كثيراً بفصاحة وبلاغة هذه الرسالة فقال فى شرحه لهذه

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۶

الرسالـة: «انظر إلى الفصاحـة كيف تعطى هـذا الرجل قيادها، وتملّكه زمامها، وأعجب لهذه الألفاظ المنصوبة يتلوا بعضـها بعضاً كيف

تواتيه وتطاوعه، سِلسلة سهلة تتدفق من غير تعسّف ولا تكلّف، حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال:

«يَوْماً وَاحِداً، وَلَا أَلْتَقِي بِهِمْ أَبَداً».

وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا فى كتاب أو خطبة جاءت القرائن والفواصل تارة مرفوعة، وتارة مجرورة، وتارة منصوبة، فإن أرادوا قَسْرَها بإعراب واحد ظهر منها فى التكلّف أثرٌ بيّن، وعلامة واضحة، وهذا الصِّنف من البيان أحد أنواع الإعجاز فى القرآن، ذكره عبدالقاهر، قال: انظرْ إلى سورة النّساء وبعدها سورة المائدة، الاولى منصوبة الفواصل، والثانية ليس فيها منصوب، ولو مزجت إحدى السورتين بالاخرى لم يمتزجا، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما.

ثمّ إنّ فواصل كلّ واحد منهما تنساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعى لا الصناعة التكلّفية، ثمّ انظر إلى الصفات الموصوفات فى هذا الفصل، كيف قال:

«وَلَداً نَاصِحاً»

،، «وَعَامِلًا كَادِحاً»، «وَسَيْفاً قَاطِعاً»، «وَرُكْناً دافِعاً»،

لو قال: «ولداً كادحاً» و «عاملًا ناصحاً»، وكذلك ما بعده لما كان صواباً، ولا فى الموقع واقعاً، فسبحان اللَّه من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة! أن يكون غلامٌ من أبناء عرب مكّة، ينشأ بين أهله، لم يخالط الحكماء، وخرج أعرفَ بالحكمة ودقائق العلوم الإلهيّة من إفلاطون وأرسطو، ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانيّة، لأنّ قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط، ولم يربّ بين الشجعان، لأنّ أهل مكّة كانوا ذوِى تجارة، ولم يكونوا ذوى حرب، وخرج أشجعَ من كلّ بشرٍ مشى على الأرض، قيل لخَلف الأحمر[۶۱]: أيّما أشجع عَنبسة وبِسطام أم علىّ بن أبى طالب؟ فقال: إنّما يذكر عَنبسة وبسطام مع البَشر والناس، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة، فقيل له: فعلى كلّ حال، قال: واللَّه لو صاح فى وجوههما لماتا قبل أن يحمل عليهما، وخرج أفصحَ سَحبان

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۳۷

وقُسّ، ولم تكن قريش بأفصح العرب، كان غيرها أفصح منها، قالوا: أفصح العرب جُرْهم وإن لم يكن لهم نَباهة، وخرج أزهد الناس فى الدنيا، وأعفّهم، مع أنّ قريشاً ذوو حرص ومحبّة للدنيا، ولا غرو فيمن كان محمّد صلى الله عليه و آله مربّيه ومخرُجه، والعناية الإلهيّة تمدّه، وترفُدُه أن يكون منه ما كان»[۶۲].

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۳۹

الرسالة ۳۶

اشارة

إلى أخيهِ عَقيلِ بن أبى طالب، فى ذِكْر جَيْشٍ أنْفَذَه إلى بَعْضِ الْأَعْداءِ وَهُوَ جَوابُ كِتابٍ كَتَبَهُ إلَيْهِ عَقيلُ ۶۳]

نظرة عامّة للرسالة

ورد فى المصادر التاريخيّة فى قصّة هذه الرسالة أنّ معاوية بعد واقعة التحكيم سمع أنّ الإمام على عليه السلام عازم مرّة أخرى على مواجهته وقتاله، فخاف خوفاً شديداً وأخذ يعمل فى إضعاف معنويات أهل الكوفة والعراقيين من خلال برنامج إعلامى مدروس ومن ذلك أنّه أرسل الضحاك بن قيس مع ثلاثة آلاف نفر إلى العراق وقال له: «سرّ حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها مااستطعت، فمن

وجدته من الأعراب فى طاعة علىٍّ فأغر عليه، وإن وجدته له مصلحة (أى معهم السلاح) أو خيلًا فأغر عليها، وإذا أصبحت فى بلدة فأمسى فى أخرى، ولا تقيمن لخيل وبلغك أنّها

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۴۰

سرحت إليك لتلقاها فتقاتلها».

فأقبل الضحاك ونهب الأموال وقتل من لقى من الأعراب ...

فوصلت أخبار حملة الضحاك إلى عقيل وهو فى مكّة، فقلق من ذلك وكتب كتاباً لأخيه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حين بلغه خذلان أهل الكوفة وتقاعدهم عنه:

«لعبداللَّه على أميرالمؤمنين من عقيل بن أبى طالب، سلام عليك فإنّى أحمد إليك اللَّه الذى لا إله إلّاهو، أمّا بعد فإنّ اللَّه حارسك من كلّ سوء، وعاصمك من كلّ مكروه، وعلى كلّ حال إنى فقد خرجت إلى مكّة معتمراً فلقيت عبداللَّه بن سعد بن أبى سرح، فى نحو من أربعين شاباً من أبناء الطلقاء،- عرفت المنكر فى وجوههم- فقلت إلى أين يا أبناء الشائنين، أبمعاوية تلحقون؟ عداوة واللَّه لنا منكم قديماً ظاهرة غير مستنكرة، تريدون بها اطفاء نور اللَّه، وتبديل أمره فأسمعنى القوم وأسمعتهم.

ثمّ قدمت مكّة فسمعت أهلها يتحدّثون: أنّ الضحاك بن قيس أغار على الحيرة، فاحتمل من أموالها ما شاء ثمّ إنكفأ راجعاً سالماً، فأُف لحياة فى دهر جرأت عليك الضحاك، وما الضحاك! إلّافقع بقرقر وقد وطئت، وقد توهمّت- حيث بلغنى ذلك- أنّ شيعتك وأنصارك خذلوك، فاكتب إلىَّ- يابن امى- برأيك، فإن كنت الموت تريد تحملت إليك بولد أخيك، وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت ومتنا معك إذا مت، فواللَّه ما أُحب أن أبقى فى الدنيا بعدك فواقاً، واقسم بالأعزّ الأجل إنّ عيشاً أعيشه بعدك فى هذه الدنيا لغير هنىء ولا مرىء، ولا نجيع، والسلام عليك ورحمة اللَّه وبركاته»[۶۴].

فكتب إليه الإمام عليه السلام هذه الرسالة جواباً له واطمئنه على أنّ جيش الضحاك قد هرب مولياً ومُنى بهزيمة منكرة وقتل منهم من قتل، فسّر عقيل لذلك.

والملفت للنظر أنّ مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغة بعد أن يورد هذه الرسالة (رسالة عقيل للإمام عليه السلام) يقول: مع الأخذ بالحسبان أنّها وقعت فى أواخر عمر الإمام على عليه السلام وأنّ عقيل قد كتب هذه الرسالة له وبثّ فيها من شجونه وعواطفه ممّا

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۴۱

يحكى عن محبّة شديدة وطاعة مطلقة لأوامر أخيه الإمام على عليه السلام، فما يقال من أنّ عقيل ترك أخيه أميرالمؤمنين عليه السلام والتجأ إلى معاوية، ادّعاء محض واكذوبة فاضحة.

وتشير هذه الرسالة إلى عدّة أمور:

۱. هجوم جماعة من أتباع معاوية على أطراف الكوفة ومواجهتهم لجيش الإمام على عليه السلام الذى أدى إلى إندحارهم وفرارهم.

۲. شكوى الإمام عليه السلام من قريش وأنّهم هم الذين وقفوا فى مواجهة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله والرسالة الإلهيّة واتحدوا ضد الرسالة الإلهيّة وأنّهم اتفقوا على معاداة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام.

۳. رأى الإمام عليه السلام بالنسبة للأشخاص الذين نكثوا بيعته والتحقوا بعدوّه وأنّه يجب التصدى لهم وجهادهم إلى أن يعودوا إلى الحقّ.

۴. التذكير بهذه الحقيقة، وهى أنّ إقبال وإدبار الأفراد لا يؤثر على روحياته ومعنوياته، فهو صامد كالجبل الشامخ فى مقابل الأعداء ولا يأبه لكثرة التحديات والمؤامرات ولا يضعف لما يواجهه من مصائب ومصاعب.

***

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۴۳

القسم الأول

اشارهٔ

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذلِکَ شَمَّرَ هَارِباً، وَنَکَصَ نَادِماً، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، وَقَدْ طَفَّلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلَا وَلَا، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضاً بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ، فَلَأْياً بِلَأْيٍ مَا نَجَا. فَدَعْ عَنْکَ قُرَيْشاً وَتَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلَالِ وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ وَجِمَاحَهُمْ فِي التِّيهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله قَبْلِي، فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي الْجَوَازِي! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي.

الشرح والتفسير: قصّهٔ الضحاک بن قيس

كما رأينا آنفاً أنّ هذه الرسالهٔ عبارهٔ عن جواب من الإمام عليه السلام لأخيه عقيل بن أبى طالب فيما يتصل بحملهٔ الضحاک بن قيس على أطراف الكوفهٔ وهزيمتهم وفرارهم، ومن هنا فإنّ الضمير فى «إليه» يعود إلى الضحاک، رغم أنّ بعض شرّاح نهج البلاغهٔ يعتقدون أنّ هذه القصهٔ تتعلق بحملهٔ «بسر بن ارطاهٔ» على اليمن، والأعجب من ذلک أنّ بعضهم ذهب إلى أنّ الضمير يعود إلى معاويهٔ فى حين أنّ كلا هذين المعنيين بعيدان عن الصواب.

وعلى أيهٔ حال، فالإمام عليه السلام فى مطلع هذه الرسالهٔ، الذى حذفه السيّد الرضى اختصاراً (وطبقاً لما ورد فى كتاب تمام نهج البلاغهٔ ومصادر نهج البلاغهٔ) بعد أن حمد اللَّه أثنى عليه ودعا بالخير لعقيل أعلن له أنّ رسالته وصلت إليه بواسطهٔ

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۴۴

عبداللَّه بن عبيد الأزدى وفهم منها الإمام عليه السلام قلق عقيل من حملهٔ الضحاک على أطراف الكوفهٔ.

ومن أجل رفع هذا القلق كتب الإمام عليه السلام هذه الرسالهٔ لأخيه عقيل يشرح له حادثهٔ حملهٔ جيش معاويهٔ بقيادهٔ الضحاک ويقول له:

«فَسَرَّحْتُ ۶۵] إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً[۶۶]

مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذلِکَ شَمَّرَ هَارِباً، وَنَکَصَ ۶۷] نَادِماً، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ،

وَقَدْ طَفَّلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ».

«كَثيفاً»

يعنى المزدحم والجمع الغفير، وطبقاً لبعض الروايات فإنّ عدد جيش الإمام عليه السلام فى هذه الحملهٔ أربعهٔ آلاف نفر من الرجال المستعدين لانزال العقاب بالأعداء والذين ينقضون كالصقر، ولهذا السبب قرر أزلام معاويهٔ وثلول الضحاک الفرار على القرار وندموا على هجومهم وعدوانهم على أطراف الكوفهٔ، ولكن جيش الإمام عليه السلام ظلّ يتعقبهم إلى أن أوشكت الشمس على المغيب، حيث يبيّن الإمام عليه السلام فى العبارات اللاحقهٔ أخطار هذه المواجههٔ.

وعبارهٔ

«مِنَ المُسلِمينَ»

إشعار إلى أنّ الجيش المعادى وقائدهم الأصلى فى الشام ليسوا من المسلمين.

وجملهٔ

«شمّر هارباً»

یقصد بها السخریة من الضحاک، لأنّ شمّر تأتی عادة بمعنی الشخص الذی یرفع کمیه استعداداً للقیام بعمل مهم لا للفرار والنکوص وهو ما اختاره الضحاک فی هذه المواجهة الحاسمة.

وجملة «

طَفَّلَتِ الشَّمْسُ

» مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «طفول» بمعنی الاقتراب، فالجملة إشارة إلی أنّ الجیشین التقیا عندما أوشکت الشمس علی الافول فی الافق، والتعبیر ب «

الْإِیَابِ

» کنایة عن أنّ الشمس تطلع فی الصباح الباکر وکأنّها تخرج من

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۴۵

مقرها وفی وقت العصر تعود إلی مکانها الأوّل، وهذا تعبیر لطیف عن ظاهرة غروب الشمس.

ثمّ یواصل الإمام علیه السلام کلامه عن هذه الواقعة ویقول:

«فَاقْتَتَلُوا شَیْئاً کَلَا وَلَا، فَمَا کَانَ إِلَّا کَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّی نَجَا جَرِیضاً[۶۸] بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ ۶۹]، وَلَمْ یَبْقَ مِنْهُ غَیْرُ الرَّمَقِ، فَلَأْیاً بِلَأْیٍ مَا نَجا».

والجدیر بالذکر أننا أشرنا إلی هذه الواقعة ذیل الخطبة ۳۹، وهذه الرسالة متناغمة مع مضامین تلک الخطبة.

وعبارة

«کَلَا وَلَا»

تعنی أنّ هذا العمل تمّ انجازه بسرعة وانسجام تام کما فی لفظة «لا ولا»، وفی بعض عبارات العرب یقال: «لا وذا»، وکلیهما إشارة إلی المدّة القصیرة من الزمان، کما یقال فی المثل: «کلمح البصر».

وعبارة

«بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ»

، والمخنق تعنی ما یشیر إلی الرقبة والحنجرة التی تتعرض للخنق بضغط یسیر، وهو إشارة أنّ جیش الإمام علیه السلام أوصلوا الضحاک وجیشه إلی حدّ الموت بحیث لم یبق منهم سوی رمق ضئیل، وهذه العبارة متداولة فی اللغة العربیة وفی اللغات الاخری فعندما یواجه الشخص علی رقبته ضغوطاً شدیدة یقال إنّه بلغ به الخناق، أو ضیق علیه الخناق.

واللافت أنّ إبراهیم الثقفی ینقل فی کتابه «الغارات» واقعة معینة تتضمن تفسیراً وشرحاً لعبارة الإمام علیه السلام فی قوله:

«وَلَمْ یَبْقَ مِنْهُ غَیْرُ الرَّمَقِ»،

ویقول: عندما هرب الضحاک من «حجر بن عدی» قائد جیش الإمام علی علیه السلام شعر بالعطش الشدید، لأنّه أضل إبله التی تحمل الماء، وعرضت علیه سِنة من النوم فی ذلک الوقت، وبذلک انحراف عن الطریق، وعندما انتبه من نومه لم یجد من جیشه سوی عدّة نفر ولم

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۴۶

یکن معهم شیء من الماء، فأرسل بعضهم لطلب الماء ولکنّهم لم یعثروا علی شیء، وفجأة ظهر رجل وقال له الضحاک: یاعبداللّه أننی عطشان فاسقنی، فقال: واللّه لا أسقیک حتی تدفع لی ثمنه، فقال الضحاک: وما ثمنه؟ فقال: ثمن الماء دینک، ثمّ واصل حکایة القصة إلی وصلوا لجماعة کان معهم الماء وشربوا منه ۷۰].

وعبارة

«لَأْياً بِلَأْيٍ»

، ومع الالتفات أنّ لأى تعنى الشدّة، فمفهوم هذه العبارة أنّ الضحاك ومن بقى معه من فلول جيشه واجهوا الشدة بعد الشدّة إلى أن نجوا بجلودهم من الهلكة.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام فى مقطع آخر من رسالته لعقيل أنّ عبداللّه بن سعد، أخ عثمان بن عفان من الرضاعة، كان يسير مع أربعين رجلًا من شباب قريش باتجاه غير معلوم، فسأله عقيل: إلى أين تذهبون يا أبناء أعداء النّبى، هل تريدون اللحاق بمعاوية؟ هنا يقول الإمام عليه السلام: وأمّا حديثك عن مخالفة قريش لى فإنّ قريش بجميع مساعيها فى طريق الضلال والشرك والعداء لا زالوا يتحركون فى متاهات الضلالة والشقاق:

«فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَتَرْكَاضَهُمْ ۷۱] فِى الضَّلَالِ وَتَجْوَالَهُمْ ۷۲] فِى الشِّقَاقِ ۷۳] وَجِمَاحَهُمْ ۷۴]

فِى التِّيهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِى كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله قَبْلِى».

ثمّ يضيف:

«فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّى الْجَوَازِى! فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِى، وَسَلَبُونِى سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّى».

جملة:

«فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّى الْجَوَازِى!»

، مع الالتفات إلى أنّ الجوازى جمع جازية، وتعنى الجزاء والمكافأة على العمل، فمفهوم الجملة أنّ جزاء أعمال قريش

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۴۷

سيصيبهم عمّا قريب وسيواجهون عاقبة أعمالهم السيئة هذه، وهذه الحقيقة بمثابة الدعاء عليهم لأنّهم لم يراعوا حقّ رحمه وقرابته منهم ولم يسمحوا للإمام عليه السلام بتسلم مقاليد الخلافة التى قررها اللّه تعالى له عليه السلام وأكد عليها النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله والضامنة لسعادة المسلمين فى الدنيا والآخرة.

أجل، هؤلاء كانوا فى عصر النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله من ألد أعدائه وأعداء الرسالة السماوية وكانوا يشعلون نيران الحروب ضد الإسلام وكانت قريش المحور لهذه الفتن والحروب وتتزعم هذه الحروب وكانت آخر من أسلم أو استسلم للنّبى الأكرم عليه السلام فى حين أنّ إسلام الكثير منهم يعدّ إسلاماً صورياً لا حقيقياً.

وبعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله سلكوا ذات الطريق والمنهج مع خليفته ووصيه الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، بل إنّهم كانوا أشدّ وأنكى على الإمام عليه السلام لما كانوا يعيشونه من حالات الحقد والانتقام ضده.

ونقرأ فى الحديث الشريف للنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال يوماً مخاطباً لعلى بن أبى طالب عليه السلام وهو يبكى ويذرف الدموع:

«ضَغَائِنُ فِى صُدُورِ أقوَامٍ لايُبْدُونَها لَکَ إلَّا مِنْ بَعدِى»[۷۵].

وقد أوردنا فى ذيل الخطبة ۱۷۲ من الجزء الثالث من هذا الكتاب فى بيان شكوى الإمام عليه السلام إلى اللّه تعالى من قريش، بحثاً مفصلًا عن عداوة قريش للإمام على عليه السلام.

وعبارة

«ابْنِ أُمِّى»

، عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله إمّا من جهة أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله والإمام على عليه السلام كليهما من أبناء فاطمة المخزومية بنت عمرو بن عمران ام عبداللّه والد النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وام أبى طالب (والد أميرالمؤمنين) أو من جهة أنّ

فاطمة بنت أسد ام أميرالمؤمنين عليه السلام وكان فى ذاك زمان النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله تحت تكفل أبى‌طالب وقامت بتربية النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله كامّه، ولذلك قال النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله عنها:

«فاطِمَةُ أُمّى بَعْدَ أُمّى».

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۴۹

القسم الثانى

اشارة

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِى فِى الْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأيِى قِتَالُ الْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقى اللَّهَ؛ لَا يَزِيدُنِى كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِى عِزَّةً، وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّى وَحْشَةً، وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ- وَلَو أَسْلَمَهُ النَّاسُ- مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً، وَلَا مُقِرّاً لِلضَّيْم وَاهِناً، وَلَا سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَلَا وَطِىءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُتَعَقِّدِ، وَلكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُوبَنِى سَلِيم:

فَإِنْ تَسْأَلِينِى كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِى صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ

يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِى كَآبَةٌ فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

الشرح والتفسير: لا أكف عن مقارعة الخائنين

إنّ كلام الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة ناظر إلى ما ذكره عقيل فى نهاية كتابه إليه وقد سبق ذكره حيث يقول: «فاكتب لى يابن امى برأيك، إن كنت الموت تريد فحملت إليك بنى أخيك وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت ومتنا معك إذا مت ...»، أى أنّك إذا أردت قتال هؤلاء الناكثين للبيعة فأمرنا لنقاتلهم معك فى هذا السبيل، فكتب له الإمام عليه السلام من قوله:

«وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِى فِى الْقِتَالِ، فَإِنَّ رَأيِى قِتَالُ الْمُحِلِّينَ [۷۶] حَتَّى أَلْقى اللَّهَ».

وكلمة

«محلّين»

إمّا أنّها تشير إلى الأشخاص الذين نقضوا بيعتهم للإمام ورفعوا

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۵۰

لواء التمرد والفتنة فى البصرة ووقعة الجمل والأشخاص الذين التحقوا بهم بعد ذلك، أو إشارة إلى قوى الضلالة فى الشام الذين أحلّوا سفك الدماء فى معركة صفين والذين استمروا فى نفس المسار الشيطانى، أو إشارة إلى الطائفتين.

ثمّ يتحرك الإمام عليه السلام ليبيّن عزمه الراسخ وإرادته الجازمة لأخيه عقيل فى قتال هؤلاء المتمردين ويؤكّد له أنّ كثرة المخالفين له والخارجين عليه لا تؤثر شيئاً فى عزمه وإرادته ويقول:

«لَا يَزِيدُنِى كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِى عِزَّةً، وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّى وَحْشَةً».

وهذا الشعار، الذى ينطلق من موقع العمق الفكرى والشعور الوجدانى والمقتبس من الآيات الشريفة: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ...»[۷۷]، أو «فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِى ...»[۷۸]، وأمثالها، تشير إلى أنّ أولياء اللّه والعظماء من رجال الحقّ وبالاعتماد على الذات المقدّسة، لا يشعرون بشىء من الوحشة من كثرة مخالفيهم ولا يعيشون حالات الغرور من جموع الموافقين، فلو أنّ جميع المسلمين اتّخذوا كلام الإمام عليه السلام هذا شعاراً لهم فى حياتهم وسلوكياتهم، فمن بالبديهى أنّهم لا يصابون بالاهتزاز والخور فى مقابل الغزو السياسى

والعسكرى والثقافى للغرب وسيحققون النجاحات فى جميع هذه الجبهات.

ثمّ يخاطب الإمام عليه السلام أخيه فى كلام زاخر بالحيوية والعمق ويقول:

«وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ- وَلَو أَسْلَمَهُ النَّاسُ- مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً، وَلَا مُقِرّاً لِلضَّيْمِ ۷۹] وَاهِناً، وَلَا سَلِسَ ۸۰] الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَلَا وَطِیءَ[۸۱] الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُتَعَقِّدِ».

فى هذه العبارات الأربع يبيّن الإمام عليه السلام المراحل المختلفة للتسليم والإذعان فى

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۵۱

مقابل العدو، أحدها أسوأ من الأخرى الأولى أن يتّخذ اسلوب التضرع والخشوع والتوسل فى مقابل العدو، والأخرى أن يخشى قدرة العدو ويشعر بالضعف والخور ويستسلم له، والثالثة، أنّه مضافاً إلى الاستسلام يفقد زمام أموره من يده ويسلم قياده لعدوه ليرى رأيه فيه

«وَلَا سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ»

، وأخيراً يحنى ظهره ليركبه العدو ويسوقه إلى حيث يريد

«وَلَا وَطِیءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ».

ما أروع هذه العبارات الدقيقة والحيّة التى تحكى عن غاية الفصاحة والبلاغة فى كلام الإمام عليه السلام وأنّ الإمام ينفى عنه نفسه أى شكل من أشكال الاستسلام والخضوع فى مقابل العدو.

وكلمة

«متقعد»

وردت فى بعض النسخ «مقتعد»، وتعنى الشخص الذى اختار مكاناً للجلوس والقعود، وهو إشارة إلى راكب الدابة الذى يركب دابته ولا يستفيد منها فى المسير فقط، بل فى جميع حاجاته، فتارة يقف ويتحدّث إلى شخص آخر، وأخرى يشترى حاجات من السوق وهو راكب، وأحياناً يعطى شيئاً لآخر وأمثال ذلك، والخلاصة أنّه جالس على مركبه ويقوم بأعماله ووظائفه دون أن يهتم لهذه الدابة وثقله.

وفى ختام هذه الرسالة، ومن أجل التأكيد أكثر على عزمه الراسخ وإرادته الصلبة فى مقابل العدو، يستشهد الإمام عليه السلام بشعر شاعر من طائفة بنى تميم ويقول: إنّ حالى

كَمَا قَالَ أَخُوبَنِى سَلِيمٍ:

فَإِنْ تَسْأَلِينِى كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِىصَبُورٌ عَلَى رَيْبِ ۸۲] الزَّمَانِ صَلِيبُ ۸۳]

يَعِزُّ عَلَىَّ أَنْ تُرَى بِى كَآبَةٌ[۸۴] فَيَشْمَتَ ۸۵] عَادٍ[۸۶] أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۵۲

وهنا خلاف فى الشاعر الذى ينسب إليه هذا الشعر، فابن أبى الحديد ينسبه فى شرحه لنهج البلاغة إلى عباس بن مرداس السلمى، ولكنّه يقول إننى لم يجده فى ديوانه.

يقول المحقق التسترى فى شرحه لنهج البلاغة: «قال بن أبى الحديد: الشعر نسب إلى العباس بن مرداس السلمى، ولم أجده فى ديوانه»[۸۷].

قلت: بل الظاهر أنّ هذين البيتين لصخر بن عمرو السلمى، قال فى الأغانى كان صخر طعن فى جنبه فى حرب، فمرض قريباً من حول وقد نتأت فى موضع الطعنة قطعة مثل الكبد، فأحمسوا له شعرة، ثمّ قطعوها لعله يبرأ، فسمع أن أخته تقول:

كيف كان صبره؟ فقال: بهاتين البيتين»[۸۸].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۵۳

الرسالة ۳۷

اشارة

إلى معاوية[۸۹]

نظرة عامّة للرسالة

هـذه الرسالـة، كمـا ورد فى تمام نهـج البلاغـة فى بحث سـندها، تبتـدىء بكلام لم يـذكره السيّد الرضـى للاختصار، ولكن من أجل استيعاب محتوى الرسالـة وفهم مضامينها لابـدّ من اسـتعراض المقطع الأوّل منها، وقبل ذلك ينبغى الالتفات إلى هـذه النقطة، وهى أنّ هذه الرسالة لم تكن رسالة ابتدائية من الإمام عليه السلام لمعاوية بل هى جواب عن رسالة أرسلها معاوية للإمام عليه السلام، ورغم أنّ نص رسالـة مفقود ولم يتعرض له أحـد من شـرّاح نهـج البلاغـة ولكن يتبيّن من جواب الإمام عليه السـلام إجمالًا أنّ معاويـة أشار فى رسالته إلى ثلاثة أمور:

الأوّل: إنّه استند فى إثبات حقانيّته أنّه منصوب من قبل عمر بن الخطاب لهذا المقام.

والآخر: أنّه اقترح على الإمام عليه السلام أن يضع بيده وتحت اختياره الشام ومصر وأن

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۵۴

يوافق الإمام عليه السلام على أن تكون الخلافة من بعد الإمام له.

الثالث: أنّه اتّهم الإمام عليه السلام بالمشاركة فى قتل عثمان وادّعى المطالبة بثأره والانتقام من قاتله.

فكتب إليه الإمام عليه السلام جواباً على ذلك يقول:

«أمّا بعـد، فإنَّ الـدُّنيا حُلوَةٌ خَضِـرَةٌ ذَاتُ زِينَـةٍ وَبَهجَـةٍ، لَمْ يَصْبُ إِلَيهَا أَحِـدٌ إِلّا شَـغَلَتْهُ بزِينَتِها عَمَّا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ مِنهَا وَبِالآخِرةِ أُمِرنا، وَعَلَيهَا حُثِثنا فَدَعْ، يا مُعاوِيةُ، مَا يَفْنى اعْمَلْ لِمَا يَبقى واحْذَرْ المَوْتَ الَّذِى إِلَيهِ مَصِيرُكَ، وَالحِسابَ الَّذِى إِلَيهِ عَاقِبَتُكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ- تَعالى- إذا أَرَدا بِعَبْدٍ خَيْراً حَالَ بَينهُ وَبَينَ مَا يَكْرَهُ، وَوَفَّقَهُ لَطَاعَتِهِ، إذا أَردا بِعَبْدٍ سُوءاً أَغْرَاهُ بالدُّنيَا، وَأَنسَاهُ الآخِرةَ، وَبَسَـطَ لَهُ أَمَلَهُ، وَعَاقَّهُ عَمَّا فِيهِ صَـلاحُهُ وَقَـدْ وَصَـلَنِى كِتابُكَ فَوَجَـدْتُكَ تَرْمِى غَيرَ عَرَضِكَ، وَتَنْشُـدُ غَيرَ ضَالَّتِكَ، وَتَخْبِطُ فِى عَمَايَةٍ وَتَتِيهُ فِى ضَلالَـةٍ وَتَعْتَصِمُ بِغَيرَ حُجَّةٍ، وَتَلُوذُ بِأَضْـعَفِ شُـبهَةٍ فَأَمَّا سُؤالِكَ إِلَيَّ المُتارَكَـةَ وَالاقرارَ لَكَ عَلَى الشَّام، فَلَو كُنْتُ فاعِلًا ذَلِكَ اليَومَ لَفَعَلتُهُ أمسِ، وَأَمَّا قَولُـكَ: إِنَّ عُمَرَ وَلّاكَـا، فَقَـدْ عَزَلَ مَنْ كَـانَ وَلّـاهُ صَـاحِبُهُ، وَعَزَلَ عُثمَـانُ مَن كَانَ عَمَرُ وَلّاهُ وَلَمْ يُنصَب لِلنَّاسِ إمامٌ اِلّا مِنْ صَالِحِ الأُمَّةِ مَا قَدْ كَانَ ظَهَرَ لِمَنْ كَانَ قَبلَهُ، أو خَفِى عَنْهُم عَيبُهُ، والأمرُ يَحْدُثُ بَعْدَهُ الأَمرُ، وَلِكُلِّ وَالٍ رأى واجتِهادٌ ...»[۹۰].

***

وما ذكره السيّد الرضى فى نهج البلاغة يمثّل المقطع التالى من هذه الرسالة.

وعلى أية حال بالإمكان تقسيم ما ورد من الرسالة فى نهج البلاغة إلى قسمين:

الأوّل: توبيخ معاوية بسبب اتباعه لهوى النفس وتجاهله الحقائق الموضوعية وإنكاره العهود الإلهيّة.

والثانى: الجواب عن ادّعاءات معاوية فى المطالبة بدم عثمان ومطالبته الإمام عليه السلام بتسليم قاتله.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۵۵

فَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَشَدَّ لُزُومَکَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَهِ، وَالْحَیْرَهِ الْمُتْعِبَهِ مَعَ تَضْیِیعِ الْحَقَائِقِ وَاطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ، الَّتِی هِیَ لِلَّهِ طِلْبَهٌ، وَعَلَی عِبَادِهِ حُجَّهٌ. فَأَمَّا إِکْثَارُکَ الْحِجَاجَ عَلَی عُثْمانَ وَقَتَلِتِهِ، فَإِنَّکَ إِنَّما نَصَرْتَ عُثْمانَ حَیْثُ کَانَ النَّصْرُ لَکَ، وَخَذَلْتَهُ حَیْثُ کَانَ النَّصْرُ لَهُ، والسَّلَامُ.

الشرح والتفسیر: ما أنت والطلب بدم عثمان؟

اشارهٔ

کما أشرنا آنفاً أنّ المؤرخین وکتّاب السیر وللأسف لم یذکروا، بحدود علمنا، نص رسالهٔ معاویهٔ للإمام علیه السلام، رغم أنّ بعض مقاطع تلک الرسالهٔ یمکن استیحاؤها من جواب الإمام علیه السلام له، وفی هذا المقطع من رسالهٔ الإمام علیه السلام نری أنّ الإمام یوبخ معاویهٔ بشدّهٔ بسبب اتباعه للأهواء المطامع الموهومهٔ التی تقوده إلی متاهات الحیرهٔ، ویتبیّن أنّ معاویهٔ کان قد کتب للإمام علیه السلام کلمات وقحهٔ وتجرأ علی الإمام بعبارات لا مسؤولهٔ، ومن هنا یقول له الإمام علیه السلام:

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَشَدَّ لُزُومَکَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَهِ، وَالْحَیْرَهِ الْمُتْعِبَهِ مَعَ تَضْیِیعِ الْحَقَائِقِ وَاطِّرَاحِ ۹۱] الْوَثَائِقِ، الَّتِی هِیَ للَّهِ طِلْبَهٌ، وَعَلَی عِبَادِهِ حُجَّهٌ».

فالإمام علیه السلام فی هذه العبارهٔ الوجیزهٔ والعمیقهٔ المعنی یلخص علل وعوامل انحراف معاویهٔ عن جادهٔ الحقّ بأربعهٔ أمور، الأوّل: اتّباع الأهواء والنوازع النفسانیّهٔ، والآخر: اتّباع عوامل الحیرهٔ وسبل المتاههٔ، والثالث: غض النظر عن

الحقائق الموضوعیهٔ، والرابع: نقض العهود والمواثیق الإلهیّهٔ.

وبدیهی أنّ کلّ واحد من هذه العوامل من شأنه أن یقود الإنسان إلی مهاوی الضلالهٔ والتردی فی وادی السقوط الأخلاقی، فکیف إذا اجتمعت کلّها فی شخص واحد؟!

إنّ الحقائق التی أشار إلیها الإمام علیه السلام فی هذه الرسالهٔ، والتی ضیّعها معاویهٔ تعدّ من الخصائص المنحصرهٔ بشخص الإمام علی علیه السلام فی العصر الأوّل للإسلام والذی کان مع النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله منذ بدایهٔ الدعوهٔ إلی آخر أیّام النّبی المبارکهٔ، وفی المقابل نسیان معاویهٔ لسوابقه فی عصر الجاهلیّهٔ وما ارتکبه أبوه وامّه من أعمال شنیعهٔ بحیث لا یسع أی عاقل أن یقارنه بالإمام علی علیه السلام مع تلک الخصوصیات الفذهٔ والخصال الممتازهٔ التی اجتمعت فیه، ومع کلّ ذلک یرید معاویهٔ أن یخلف الإمام علی علیه السلام فی مسند الحکومهٔ والخلافهٔ ویطمح أن تکون له السیطرهٔ فی حیاهٔ الإمام علی قسم عظیم من البلاد الإسلامیّهٔ.

«وثائق»:

أی العهود والمواثیق، وهی إشارهٔ إلی المواثیق التی اخذت من الإنسان المؤمن بأن یسیر فی خط الطاعهٔ والتسلیم لأحکام اللَّه تعالی، وجملهٔ

«الَّتِی هِیَ للَّهِ طِلْبَهٌ»

، بما أن طلبهٔ تعنی المطلوب، فهی إشارهٔ إلی أنّ اللَّه تعالی یطالب عبیده بالوفاء بجمیع هذه العهود والمواثیق.

فمن جههٔ فإنّ کلّ إنسان مؤمن، وبمقتضی قوله تعالی: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَهَ عَلَی السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَیْنَ أَنْ یَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ کَانَ ظَلُوماً جَهُولًا»[۹۲]، یحمل الأمانهٔ الإلهیّهٔ فی حیاته، ومن جههٔ أخری وبمقتضی قوله تعالی: «قُلْ أَطِیعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْکَافِرِینَ»[۹۳]، مطالب بإطاعهٔ أوامر اللَّه ورسوله، ومن جههٔ ثالثهٔ وبمقتضی قوله تعالی: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یَا

بَنِی آدَمَ أنْ لَاتَعْبُدُوا الشَّیْطَانَ إِنَّهُ لَکَمْ عَدُوٌّ مُبِینٌ»[۹۴]، مطلوب منه ترک عبادة الشیطان واتّباع وساوسه، فکل هذه الأمور متضمنة فی ثنایا المواثیق الإلهیّة وقد أتمّ اللَّه حجّته علی عباده بمقتضی هذه الآیات الشریفة.

ویتابع الإمام علیه السلام فی المقطع الثانی من هذه الرسالة کلامه فی توبیخ معاویة ویقول:

«فَأَمَّا إِکْثَارُکَ الْحِجَاجَ ۹۵] عَلَی عُثْمانَ وَقَتَلَتِهِ، فَإِنَّکَ إِنَّما نَصَرْتَ عُثْمانَ حَیْثُ

کَانَ النَّصْرُ لَکَ، وَخَذَلْتَهُ حَیْثُ کَانَ النَّصْرُ لَهُ، والسَّلَامُ».

فالإمام علیه السلام یتعجب من هذا الادعاء الواهی لمعاویة وکأنّه یری نفسه ولی دم عثمان، فیقول له الإمام علیه السلام بتعبیر شیق وبلیغ، بأنّک أنت الذی منعت نصرک لعثمان وخذلته، لأننا نعلم، والتاریخ أیضاً شاهد علی هذا المعنی، بأنّ عثمان طلب النصرة والمعونة من معاویة وأن یرسل له معاویة جیشاً لیذب عنه وینصره، ولکن معاویة أمر الجیش بالاقتراب من المدینة وعدم دخولها وکأنّه یرید أن یقتل عثمان ویهییء الأرضیة اللازمة لتولی الخلافة ثمّ یقول للناس إننی أرسلت جیشاً لنصرته ولکنّ الجیش تأخر عن الوصول للمدینة.

یقول البلاذری المؤرخ المعروف: «لمّا أرسل عثمان إلی معاویة یستمده، بعث یزید بن أسد القسری، جدّ خالد بن عبداللَّه بن یزید أمیرالعراق وخال له: إذا أتیت ذاخُشب فأقم بها، ولا تتجاوزها، ولا تقل: الشاهد یری ما لا یری الغائب، فإنّنی أنا الشاهد وأنت الغائب.

قال الراوی: أقام بذی خُشب حتی قتل عثمان، فاستقدمه حینئذٍ معاویة فعاد إلی الشام بالجیش الذی أرسل معه».

ویضیف البلاذری هنا: «وإنّما صنع ذلک معاویة لیقتل عثمان فیدعو إلی نفسه»[۹۶].

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۵۸

والملفت أنّ الشیخ مغنیة فی شرحه لنهج البلاغة بعد أن ذکر هذه القصة قال:

«تشهد جمیع المواقف من سیرة معاویة أنّ هذه الحادثة، وفیما سبق نقلناها عن المؤرخین والباحثین القدمی والجدد، أنّ معاویة خذل عثمان فی حیاته وطلب منه أن یجعله ولیَّ دمه، وأنّه بعد أن تمّ له الأمر تجاهل عثمان ودم عثمان، وأنّه کان یستقبل قتلته ویجیزهم بالأموال (انظر کتاب معاویة، العقاد، ص ۱۵۰ الطبعة الثالثة سنة ۱۹۶۶)»[۹۷]. یعنی أنّ جمیع الشواهد التاریخیّة فی سیرة معاویة تشهد أنّ هذهالروایة عین الحقیقة والواقع، ولکن عندما هدأت الأوضاع ورأی معاویة أنّ الطلب بدم عثمان ذریعة جیدة لدعوة الناس إلیه، رفع قمیص عثمان وأخذ بالبکاء والنحیب وإثارة أحاسیس الناس، والأعجب من ذلک أنّه عندما استشهد الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام وجلس معاویة علی مسند الخلافة، لیس فقط لم یترک قتلة عثمان، بل استقبلهم برحابة صدر وأجزل لهم العطاء.

تأمل

رسالة معاویة إلی ابن عباس وجوابه

ومن النقاط الملفتة للنظر أنّ ابن أبی الحدید أورد فی ذیل هذه الرسالة مورد البحث رسالة معاویة إلی ابن عباس فی أیّام صلحه مع الإمام الحسن المجتبی علیه السلام حیث دعاه إلی بیعته، ومن جملة ما ذکر له فی هذه الرسالة: «ولعمری لو قتلتک بعثمان رجوت أن یکون ذلک للّهرضاً، وأن یکون رأیاً صواباً، فإنّک من الساعین علیه، والخاذلین له، والسافکین دمه، وما جری بینی وبینک صلح فیمنعک منّی ولا بیدک أمان».

ولکن ابن عباس لم یشعر بالخوف من تهدید معاویة وأجابه جواباً حاسماً

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۵۹

ومطولًا يقول فيه: «وأمّا قولك إنى من الساعين عليه، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بينى وبينك صلح فيمنعك منّى، فأقسم باللّه لأنت المتربص بقتله، والمحبّ لهلاكه، والحابس الناس عنه على بصيرة فى أمره، ولقد آتاك كتابه وصريخه يستغيث بك ويستصرخ، فما حفلت به، حتى بعثت إليه معذراً بأجرة، أنت تعلم أنّهم لن يتركوه حتى يُقتل، فقُتل كما كنت أردت، ثمّ علمت عند ذلك أنّ الناس لن يعدلوا بيننا وبينك، فطفقت تنعى عثمان وتلزمنا دمه، وتقول: قتل مظلوماً، فإن يك قتل مظلوماً فأنت أظلم الظالمين، ثمّ لم تزل مصوّباً مصعّداً، وجاثماً ورابضاً؛ تستغوى الجهّال، وتنازعنا حقّاً بالسفهاء حتى أدركت ما طلبت ... «وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ»»[۹۸] (وهذه الجملة الآية مقتبس من الآية ۱۱۱ من سورة الأنبياء).

ويستفاد من رسالة معاوية إلى ابن عباس، وكذلك رسالته للإمام عليه السلام، أنّه كان ينسب بكلّ وقاحة، ما كان سهيماً فيه للوصول إلى أهدافه ومطامعه، لأىشخص يريد لكى يثير إحساسات العامّة من الناس ضده ويجعله يستسلم لمطالبه ويذعن لخلافته، فى حين أنّ جميع الشواهد التاريخيّة تشير إلى أنّ معاوية كان فى باطنه يرغب فى قتل عثمان ولم يتقدم خطوة لنصرته، مع أنّ عثمان طلب منه بصراحة النصرة والمساعدة، وعلى حدّ تعبير محمّد بن مسلمة الأنصارى الذى كتبه فى جواب معاوية، أنت فى حياة عثمان لم تقدم على نصرته بل نصرته بعد موته:

«وَلَئِن كُنْتَ نَصرتَ عُثْمانَ مَيِّتاً لَقَدْ خَذَلْتَهُ حَيّاً»[۹۹].

وذكرنا فى الجزء الأوّل من هذا الكتاب، ص ۴۲۱، والجزء الثانى، ص ۴۸۰، والجزء الثالث، ص ۲۲۶، تفاصيل جديرة بالنظر فيما يخص رسالة الإمام عليه السلام لمعاوية لبيعته والإشارة إلى علل وعوامل مقتل عثمان.

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۶۱

الرسالة ۳۸

اشارة

إلى أَهْلِ مِصْرَ لَمَّا وَلّى عَلَيْهِمُ الْأَشْتَرَ[۱۰۰]

نظرة عامّة للرسالة

نعلم بأنّ الإمام عليه السلام كتب رسالة وسلّمها لمالك الأشتر وفيها يذكر المناهج العمليّة والأساليب الإداريّة فى المجالات المختلفة فى قضايا الحكومة والإدارة، وهذه الرسالة المعروفة ب «عهد مالك الأشتر» وردت فى نهج البلاغة، الكتاب ۵۳، وسيأتى بيانها وشرحها، وقد كتب رسائل أخرى أيضاً إلى أهل مصر عندما أرسل إليهم مالك الأشتر والياً على مصر، وإحدى هذه الرسائل هى ما سنبحثه الآن، والأخرى المرقمة ۶۲ فى نهج البلاغة، ويتبيّن من جميعها ما كان لمالك الأشتر من مقام وشخصيّة قويّة وإيمان عميق وأنّه إنسان قوى وشجاع ومدير ومدبّر ومخلص.

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۶۲

والرسالة مورد البحث تتشكل من قسمين:

القسم الأوّل: يتضمّن مدح وتمجيد أهالى مصر، الذين هبّوا للدفاع عن الإسلام فى وقت ساد فيه الظلم والفساد المجتمعات البشرية وانطفأت جذوة الحقّ والعدالة فى الامّة وشاعت المنكرات والقبائح فى فضاء البلاد الإسلاميّة.

وفى القسم الثانى: يستعرض شخصيّة مالك الأشتر بوصفه رجلًا يتمتع بإمتيازات ومواهب ممتازة بحيث تجعله جديراً بالولاية والإمارة،

ويـذكره في هـذه الرسالـة بعبارات راقية قلّما ذكر الإمام عليه السـلام أحداً بهذه الصـفات، وبعد ذلك طلب الإمام من أهالى مصـر أن يتواصلوا معه من موقع الطاعة لأوامره والتقدير لشخصيّته.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۶۳

القسم الأول

اشارة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْمُقِيمِ و الظَّاعِنِ، فَلا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ.

الشرح والتفسير: المصريون الذين غضبوا للَّه

يستهل الإمام عليه السلام رسالته لأهالى مصر، كما تمّت الإشارة إليه، بوصف بليغ لهؤلاء المؤمنين، ويقول:

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ ۱۰۱] عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْمُقِيم

والظَّاعِنِ ۱۰۲]، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ».

وفيما يتصل بوقت صدور هذه العبارات الواردة فى الرسالة يتفق جميع شرّاح نهج البلاغة أنّها تشير إلى عصر كان عبداللَّه بن أبى سرح المجرم المعروف والياً على مصر من قِبل عثمان بن عفان، فقـد سـلك هذا الوالى ومعه أزلامه وأعوانه طريق الظلم والجور على أهالى مصـر بعيـداً عن التعاليم الرساليّة والأحكام الإسـلاميّة، فلم يعترف عملًا بالأمر المعروف والنهى عن المنكر ولا اتّخذ خطوات عمليّة فى هذا المجال.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۶۴

ولا ننسـى أنّ عبد بن أبى سـرح كان من جملة كتّاب الوحى فى بداية الأمر ولكن بسـبب خيانته فقد سخط عليه النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ونزلت آيـة من القرآن فى ذمّه، فكـان أن ارتـد عن الإسـلام والتحق بالمشـركين وأخـذ يتـآمر ضـد الإسـلام، وعنـدما فتح المسـلمون مكّـة كان هذا الرجل أحد الأفراد المعدودين الذى أمر النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله بقتلهم، ولكن بما أنّ عبداللَّه أخو عثمـان من الرضاعـة فقـد أخفـاه عثمـان فى داره، ثمّ جـاء به إلى النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله وطلب منه الأمان له، فأعرض النّبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله بوجهه عنه وكرر عثمـان طلبه هـذا ثلاث مرات، وأخيراً وافق النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله على طلبه، وعندما غادر عثمان ومعه عبداللَّه من عند النّبى قال النّبى صلى الله عليه و آله لمن حوله من أصحابه:

«لَقَد صَمَتُّ لَيَقُومَ إِلَيهِ بَعضُكُم فَيَضرِبَ عُنُقَ»

، فقام رجل من الأنصار وقال:

«فَهلّاً أَومَأتَ إِلَيَّ يارَسُولاللَّه»

، فقال النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

«إنّ النَّبِيَّ لايَقتُل بِالإشارة»[۱۰۳].

وعلى أيّة حال فإنّ أهل مصر ثاروا ضد هذا الرجل الخائن، ولكنّه صمد لهم وتمسك بمنصبه بقوّة، ومن هنا تحركت جماعة من ألفى رجل من مصر باتجاه المدينة يطالبون عثمان بعزله، ولكنّ عثمان، ليس فقط لم يعزل هذا الوالى بل كتب إليه كتاباً وأرسله مع غلامه يتحدّث فيه عن لزوم معاقبة رؤوس المعترضين ويوصيه باعدامهم أمام الملأ ـ ويعاقب البعض الآخر بشدّة ليكونوا عبرة للآخرين، فاكتشف الثوّار المصريون هذه الرسالة وارتفعت أصوات اعتراضهم ضد عثمان وقالوا: يجب علينا العودة إلى المدينة لعزل عثمان من سدّة الخلافة.

وفى ذلك الوقت كانت جماعات كثيرة قد أقبلت من الكوفة والبصرة وكانوا يحملون معهم اعتراضات وشكاوى مماثلة، أضف إلى ذلك أنّ الكثير من المهاجرين والأنصار كان يرون أنّ عثمان، وبسبب أعماله السلبية، غير جديرة بخلافة المسلمين وينبغى عزله، ولكنّ عثمان ثبت فى موقعه وأصرّ على البقاء فى الخلافة وفى هذا المقام، وتسبب ذلك بسيادة الغضب وسخط الثائرين عليه وأخيراً

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۶۵

استطاعوا قتله على يد أبى حرب الغافقى المصرى، وذهب بعض المؤرخين إلى أنّ قاتله أشخاص آخرون ۱۰۴]، هذا فى حين أنّ الإمام على عليه السلام أرسل ولديه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام إلى دار عثمان لمنع دخول الناس إليها، لأنّ الإمام على عليه السلام لم يكن موافقاً على قتل عثمان، رغم أنّه كان يعتقد بلزوم عزل عثمان.

وأمّا ما يرتبط بالرسالة مورد البحث وما ورد فيها من تقدير وتبجيل من الإمام على عليه السلام لأهالى مصر فبعض المؤرخين استنبط من هذه الرسالة أنّ الإمام عليه السلام كان موافقاً على قتل عثمان.

يقول ابن أبى الحديد فى هذا المورد: «هذا الفصل يشكل علىّ تأويله، لأنّ أهل مصر هم الذين قتلوا عثمان، وإذا شهد أميرالمؤمنين عليه السلام أنّهم غضبوا للَّهحين عصى فى الأرض، فهذه شهادة قاطعة على عثمان بالعصيان، وإتيان المنكر، ويمكن أن يقال إن كان متعسّفاً: إنّ اللَّه تعالى عصى فى الأرض لا ـ من عثمان، بل من وُلاته وأمرائه وأهله، وذهب بينهم بحق اللَّه، وضربت الجور سرادقه بولايتهم وأمرهم على البر والفاجر، والمقيم والضاعن، فشاع المنكر، وفقد المعروف».

ثمّ يضيف ابن أبى الحديد: «ويبقى أن يقال: هب أنّ الأمر كما تأولت، فهؤلاء الذين غضبوا للَّهإلى ماذا آل أمرهم؟ أليس الأمر آل إلى أنّهم قطعوا المسافة من مصر إلى المدينة فقتلوا عثمان؟ فلا ـ تعدوا حالهم أمرين: إمّا أن يكونوا أطاعوا اللَّه بقتله فيكون عثمان عاصياً مستحقاً للقتل، أو يكونوا اسخطوا اللَّه تعالى بقتله، فعثمان إذاً على حقّ، وهم الفسّاق العصاة، فكيف يجوز أن يبجّلهم أو يخاطبهم خطاب الصالحين؟ ويمكن أن يجاب على ذلك بأنّهم غضبوا للَّه، وجاءوا من مصر، وأنكروا على عثمان تأميره الامراء الفسّاق، وحصروه فى داره طلباً أن يدفع إليهم مروان ليحبسوه، أو يؤدّبوه على ما كتبه فى أمرهم، فلما حُصِر طمع فيه مبغضوه وأعداؤه

نفحات الولاية ؛ ج ۱۰ ؛ ص ۶۶

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۶۶

من أهل المدينة وغيرها، وصار معظم الناس إلباً عليه، وقلّ عدد المصريين بالنسبة إلى ما اجتمع من الناس على حصره، ومطالبته بخلع نفسه، وتسليم مروان وغيره من بنى اميّة إليهم، وعزل عمّاله والاستبدال بهم، ولم يكونوا حينئذٍ يطلبون نفسه، ولكن قوماً منهم ومن غيرهم تسوروا داره، فرماهم بعض عبيده بالسهام، فجرح بعضهم، فقادت الضرورة إلى النزول، والاحاطة به، وتسرع إليه واحد منهم وقتله، ثمّ إنّ ذلك القاتل قُتِل بالوقت، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم وشرحناه، فلا يلزم من فسق ذلك القاتل وعصيانه أن يفسق الباقون، لأنّهم ما أنكروا إلّاالمنكر، وأمّا القتل فلم يقع منهم، ولا ـ راموه ولا ـ أرادوه، فجاز أن يقال: إنّهم غضبوا للَّه، وأن يثنى عليهم ويمدحهم»[۱۰۵].

وقد وافق بعض شرّاح نهج البلاغة على هذا الكلام والتقرير، ويظهر من كلماتهم أنّ هذا الكلام خالٍ من التكلّف، لأنّ القرائن

التاريخيّة من جهة تشير إلى أنّ الإمام على عليه السلام لم يؤيد أحداً على قتل عثمان بل كان مانعاً عن قتله، رغم أنّه كان يعترض بشدّة على أعمال عثمان وتسليطه أفراد من بنى اميّة الفاسدين على أموال وأرواح المسلمين، ومن جهة أخرى أنّ الرسالة مورد البحث تشير إلى أنّ قيام أهالى مصر يستحق الثناء والتبجيل، ويمكن الجمع بين هذين الأمرين بما ذكر آنفاً وأنّ كلام الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة لا يدلّ اطلاقاً على مدح قتلة عثمان ۱۰۶].

وضمناً فقد بيّن الإمام فى هذه الرسالة خصوصيات المجتمع الفاسد فى عبارات موجزة وذلك بقوله: إنّ مثل هذا المجتمع هو الذى تظهر فيه المعاصى والمنكرات وتتكرس فيه حالات الجور والظلم لتستوعب جميع الأخيار والأشرار، فلا أمان لأحد لا فى المدن ولا فى البرارى وأنّ الرذائل ستشتد وتقوى على حساب الفضائل.

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۶۷

القسم الثانى

اشارة

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُم عَبْداً مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَلَا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ، أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ، فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيما طَابَقَ الْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، لَا كَلِيلُ الظُّبَةِ، وَلَا نَابِى الضَّرِيبَةِ؛ فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِمُوا، فَإِنَّهُ لَا يُقْدِمُ وَلَا يُحْجِمُ، وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِى؛ وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِى لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ.

الشرح والتفسير: نصبت عليكم والياً مقتدراً وبصيراً بالأمور

ينطلق الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من رسالته لأهالى مصر من موقع التمجيد والتعريف بمالك الأشتر، وبعد أن يصفه بست صفات ممتازة جدّاً، يأمر أهالى مصر بالطاعة له ويدعوهم لامتثال أمره وكأنّ هذا الأمر بالطاعة مقترن بالدليل على ذلك.

بداية يقول الإمام عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُم عَبْداً مِنْ عِبَادِ اللَّهِ»

. المجىء بكلمة «عبد» نكرة يراد به التعظيم والإشارة إلى أنّ مالك الأشتر فى مقام العبودية للّه تعالى جدير بهذا المقام، والإمام عليه السلام يصفه بأهم وأعلى صفة للإنسان وهى مقام العبودية للّه، وهذا هو ما نقوله فى صلاتنا اليومية لمقام النبوة والرسالة، حيث نقول فى التشهد:

«أشهد أنّ محمّداً عبده ورسولُه»

، وهذه هى الحقيقة التى يفتخر بها

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۶۸

الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ويقول:

«كَفى بِى عِزّاً أن أَكُونَ لَكَ عَبداً»[۱۰۷].

يتابع الإمام عليه السلام وصفه لمالك الأشتر ويذكر الصفة الثانية والثالثة بقوله:

«لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَلَا يَنْكُلُ ۱۰۸] عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ ۱۰۹]».

وهذان الوصفان فى الحقيقة من أهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها الإنسان لتحقيق النصر على العدو، والاستعداد الدائم فى زمان

الخوف من هجوم العدو وعدم الخشية من حيله ومكره، ولا كثرة عدده وعدّته، وهو ما يلزم القائد الفذ والزعيم المقدام، والتاريخ يشهد أنّ القادة والامراء الذين هزموا بالمعارك لم يكونوا يتمتعون باحدى هاتين السمتين، فإمّا أنّهم غفلوا عن مكر العدو، أو قادهم الخوف من العدو إلى الهزيمة والذلّة.

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام للصفة الرابعة ويقول:

«أَشَدَّ عَلَى الْفُجّارِ مِنْ حَرِيقِ النّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ ۱۱۰]».

عبارة «

حَرِيقِ النّارِ

» تعتبر فى الحقيقة أبلغ تعبير لبيان الهجمات الشرسة لمالك الأشتر على الأعداء فى ميادين القتال، لأنّه ليس كمثل النار فى الإفناء والإهلاك، فالماء يغرق، والحجر يكسر، ولكن النار تحرق وتحوّل الشيء إلى رماد.

وينقل المحقق التسترى فى شرحه نهج البلاغة عن كتاب (صفين لنصر بن مزاحم) خرج رجل من أهل الشام- فى معركة صفين- قلّما رؤى أطول وأعظم منه وشجاعاً مقداماً فدعا إلى المبارزة طبقاً للعادة المتداولة فى الحروب فى ذلك الزمان، فلم يخرج إليه إنسان من جيش أميرالمؤمنين عليه السلام لمبارزته أو الخروج له- وخرج إليه مالك الأشتر فقتله، فقال رجل منهم: اقسم باللّه لأقتلنّ قاتلك، فحمل

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۶۹

على مالك الأشتر فضربه، فإذا هو بين يدى فرسه وحمل أصحابه فاستنقذوه جريحاً، فقال أبو رفيقة السهمى:

«كان هذه ناراً فصادفت إعصاراً»

، أى أنّه لم يقاوم أمام الإعصار[۱۱۱].

ثمّ يخرج الإمام عليه السلام بنتيجة من هذه الأوصاف المذكوره لمالك الأشتر ويقول:

«فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيما طَابَقَ الْحَقَّ».

وبديهى أنّ العبد المخلص للّه‌تعالى والمنتبه لمخططات العدو والذى لا يجفل ولا ينكل عن الأعداء بل يهجم عليهم كالنار أو الصاعقة، هو الشخص الذى ينبغى إطاعة أمره والاصغاء لتوجيهاته، والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام يقول:

«فِيما طَابَقَ الْحَقَّ»

، وهو إشارة إلى أنّه لا أحد من البشر معصوم سوى الأنبياء والأوصياء ومن هنا فإنّ إطاعة أوامره يجب أن يكون محدوداً فى إطار مطابقة الحقّ، وعلى ضوء ذلك فالإمام عليه السلام يوصى بهذه التوصية حتى لأقرب المقربين منه، ولذلك يقول ابن أبى الحديد فى شرحه لهذه العبارة: «وهذا يشير إلى القدرة الإيمانيّة والصلابة الروحية للإمام بحيث إنّه لا يرى التساهل والتسامح حتى بالنسبة لأحب الأفراد إليه، ولذلك يقيد إطاعة أمره بهذا القيد، لأنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله قال:

«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِى مَعصِيَةِ الخَالِقِ»[۱۱۲].

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام للصفة الخامسة للمال الأشتر ويقول:

«فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، لَا كَلِيلُ ۱۱۳] الظُّبَةِ[۱۱۴]، وَلَا نَابِى ۱۱۵] الضَّرِيبَةِ»[۱۱۶].

جملة:

«سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ»

تعدّ أفضل تعبير عن رجل شجاع كمالك الأشتر

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۷۰

من حيث قوّة شكيمته ورسوخ عقيدته وشدّة بطشه بالأعداء.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ سيف اللّه لقب خالد بن وليد، ولكنّهم اختلفوا فى مَن لقّبه بهذا اللقب، فذهب بعض إلى أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله هو الذى منحه هذا اللقب، ولكنّ ابن أبى الحديد يصرّح بأنّ الصحيح أنّ هذا اللقب لخالد قد لقّبه به أبوبكر بسبب حروبه مع أهل الردّة ومسيلمة الكذاب وانتصاره عليهم، ولكننا نعلم أنّ خالد بن وليد كان قد اقترف أعمالًا سيئة وتصرفات سلبية كثيرة ولا- يقبل المقارنة مع مالك الأشتر وهو الرجل الشجاع والصادق والمخلص، والجدير بالذكر أنّ ابن الأثير يقول: «عندما قتل خالد مالك بن نويرة (بدون مبرر شرعى) وتزوج من زوجته، غضب عمر عليه وقال لخالد، قتلت مسلماً ثمّ نزوت على امرأته، اقسم واللّه لأرجمنّك بأحجارك، وأصرّ على أبى بكر أن يقتص من خالد بسبب قتله مالك بن نويرة، ولكن أبا بكر قال فى جوابه: لقد فعل خالد وأخطأ ولكننى لا أشيم سيفاً سلّه اللّه على المشركين»[۱۱۷] (وهذا هو السبب الذى دعى البعض إلى أن يلقّبوه بسيف اللّه، ولكن يا لهذا السيف!!).

ثمّ يستطرد الإمام عليه السلام بذكر نتيجة لهذا الاستدلال ويقول:

«فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِمُوا».

ثمّ يصف الإمام عليه السلام الأشتر بالصفة السادسة والأخيرة ويقول:

«فَإِنَّهُ لَا يُقْدِمُ وَلَا يُحْجِمُ ۱۱۸]، وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِى؛ وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِى لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ ۱۱۹] عَلَى عَدُوِّكُمْ».

وبديهى أنّ مالك الأشتر لم يكن يصدر أوامر وتوصيات من الإمام عليه السلام فى

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۷۱

الأمور الجزئية وفى التفاصيل مع تلك الفاصلة الكبيرة بين مصر والعراق والكوفة، هذا يعنى أنّ الإمام عليه السلام قد علّمه مبادىء عامّة وأصولًا كلّية (كما ورد فى عهده المعروف للمالك الأشتر فى الرسالة ۵۳ كما سيأتى لاحقاً) وفوّض معرفة الفروع والتفاصيل لمالك من خلال ردّها إلى تلك الأصول الكلّية، وهذا هو الاجتهاد بمعناه الصحيح وهو: ردّ الفروع إلى الأصول.

إنّ هذه الصفات الست إذا توفرت فى أى شخص فإنّه سيبلغ مرتبة الإنسان الكامل الجامع لجميع الكمالات المادية والمعنويّة والظاهريّة والباطنيّة.

وبذلك يقول الإمام عليه السلام فى آخر جملة من هذه الرسالة: بالرغم من أننى أود أن يكون مالك الأشتر معى، ولكننى

«وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِى لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ».

فى هذه العبارة يصرّح الإمام عليه السلام بأنّه بالرغم من أنّ مالك الأشتر يعدّ ضرورياً ولازماً فى جيشه وتحت قيادته، ولكن لأهميّة مصر من حيث سعتها وتاريخها وأهلها الواعين والملتزمين بالقيم والرسالة فإننى آثرتكم على نفسى وتنازلت لكم عن قائد مقدام هو مالك الأشتر، وهذا من جهة يبيّن مكانة الأشتر السامية، ومن جهة أخرى، يبيّن أهميّة مصر وأهلها.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۷۳

الرسالة ۳۹

اشارة

إلى عَمْرو بْنِ الْعاص ۱۲۰]

نظرة عامّة للرسالة

هذه الرسالة مليئة بالتوبيخ الشديد من قِبل الإمام عليه السـلام لعمرو بن العاص حيث يوبخه الإمام عليه السلام لخضوعه واتباعه الأعمى لمعاوية ويصف معاوية أيضاً بالصفات اللائقة به.

والقسم الآخر من هـذه الرسالـة يتضـمن تهديـداً من الإمام عليه السـلام لعمرو ومعاوية ويقول: لو أنى انتصـرت عليكما فساعاقبكما بما تستحقان وإن لم أنتصر فإن العقاب الإلهى ينتظركما.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۷۴

والجدير بالذكر، طبقاً لما ورد فى كتاب تمام نهج البلاغة، أنّ لهذه الرسالة مطلع وخاتمة فى عبارات قليلة لم يذكرهما السيّد الرضى، فبدايتها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيم مِنْ عَبـدِ اللَّهِ عَلىٍّ أَمِيرِالمُؤمِنِينَ إِلى الأَبتَرِ عَمْرِو بْنِ العـاصِ بِنِ وَائِلٍ، شَـانِىء مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ فِى الجاهِلِيَّةِ وَالإِسلامِ، سَلامٌ عَلى مَنْ اتَّبَعَ الهُدى

، وخاتم الرسالة:

«وَاللَّهِ حَسْبُكُما وَكَفَى بِانتِقامِهِ إنتِقَاماً وَبِعَقَابِهِ عِقَاباً السَّلامُ لأَهلِهِ»[۱۲۱].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۷۵

فَإِنَّکَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَکَ تَبَعاً لِدُنْيَا امْرِىءٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ؛ اتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ يَلُوذُ بِمَخَالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاکَ وَآخِرَتَکَ! وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ. فَإِنْ يُمَكِّنِّى اللَّهُ مِنْکَ وَمِنِ ابْنِ أَبِى سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتما،، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: لقد بعت دينک بدنيا غيرک!

يتحرّك الإمام عليه السلام فى مستهل رسالته من موقع التوبيخ واللوم لعمرو بن العاص ويقول له:

«فَإِنَّکَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَکَ تَبَعاً لِدُنْيَا امْرِىءٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ ۱۲۲]،

يَشِينُ ۱۲۳] الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ ۱۲۴] بِخِلْطَتِهِ ۱۲۵]».

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ جملة:

«يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ»،

إشارة إلى ما أمر به معاوية من سبّ الإمام على عليه السـلام وبنى هاشم فى المجالس، حيث كان هؤلاء الأعاظم وطيلة سنوات متمادية يسبّون فى مجلس معاوية ومجالس أخرى،

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۷۶

ولكنّ معنى العبـارة المـذكورة لا ينحصـر بهـذا المعنى، بل إنّ عمرو بن العاص كان، مضافاً إلى ذلك، يهزأ من الشخصـيّات المرموقة من أنصار الإمام على عليه السـلام وشـيعته ويتحـدّث معهم لـدى حضورهم فى مجلس معاويـة بكلمات ركيكـة وعبارات نابيـة قاصداً بـذلك إهـانتهم والسـخرية منهم، وفى المقابـل كان الكثير منهم يردونه بجواب قاطع وحاسم من دون الاعتناء بالأخطار المحدقة بهم بسبب جرأتهم فى حضور معاوية، وعلى كلّ حال فإنّ معاوية كان رجلًا سىء الكلام وهاتكاً للحرمة.

ومن ذلك أنّ «جارية بن قدامة» كما ينقل العقد الفريد، دخل يوماً إلى مجلس معاوية فقال له معاوية: «ما كان أهونَكَ على أهلِك إذ سَمَّوك جارية! قال: ما كان أهونَك على أهلِك إذ سَمَّوكَ مُعاوية! وهى الانثى من الكلاب، قال: لا امّ لك! قال: امّى وَلَدتْنى للسُّيوف التى لَقِيناكَ بها فى أيدينا، قال: إنّك لَتُهدِّدنى، قال: إنَّك لم تَفْتَتِحْنا قَسراً، ولم تَمْلِكنا عَنوةً، ولكنّك أعطَيتنا عَهداً وَميثاقاً، وأعطيناك سَمعاً وطاعة، فإن وَفّيت لنا وَفَّينا لك، وإن فَزِعت إلى غير ذلك، فإنّا تَركنَا وراءنا رجالًا شِداداً، وألسنَةً حُدَاداً، قال معاوية: لا كَثّر اللّه فى الناس أمثالك، قال جارية: قُلْ مَعرُوفاً ورَاعنا، فإنّ شَرَّ الدُّعاء المُحتَطب»[۱۲۶].

وجملة:

«وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ»،

إشارة إلى أنّه يقال فى مجلسه كلام تافه وركيك إلى درجة أنّ الإنسان العاقل يعدّ سفيهاً فى ذلك المجلس، وهذه هى نتيجة المشاركة فى مجلس يحضره معاوية ورفاقه.

هذه الأوصاف الأربع التى وصف بها الإمام عليه السلام معاوية، بإمكانها تجسيد شخصيّة معاوية بكل وضوح وتبيّن من يدعى خلافة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ومن يجلس على منبره، والأعجب من ذلك حال الأشخاص الذين قرأوا سيرته وتاريخه ومع ذلك يعتبرونه من الصحابة الأجلاء لرسول اللّه صلى الله عليه و آله ولا يبيحون أية إهانة تلحق به! هذه نتيجة التعصب الأعمى الذى يجر الإنسان إلى كثير من البلايا والآفات.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۷۷

ويتابع الإمام عليه السلام خطابه لعمرو بن العاص:

«فَاتّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ؛ اتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ ۱۲۷] يَلُوذُ بِمَخَالِبِهِ ۱۲۸]، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ ۱۲۹] فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ!».

وعادة فى مثل هذه الموارد يتمّ التشبيه بالثعلب الذى يتحرك تبعاً للأسد المفترس لينتفع من فضلات مائدته وبقايا فريسته، ولكن الإمام عليه السلام استخدم التشبيه بالكلاب بدل الثعلب، لإظهار شدّة دنائة ووقاحة عمرو بن العاص، ونعلم أنّ عمرو بن العاص هو الشخص الذى لم يكن قادراً على تولى الحكم والإمارة بنفسه، ولكن من خلال مكره ودهائه فى تقديم الخدمة لمعاوية بحيث أنّه أعطاه أخيراً ولاية مصر، فكان أن خسر الدنيا، لأنّه لم يبق له سمعة فيها، وخسر الآخرة بما لا حاجة لبيانه.

وجاء فى كتاب تاريخ اليعقوبى أنّ عمرو بن العاص عندما دنت منه الوفاة نظر إلى أمواله الكثيرة (وقد صعب عليه أن يفارقها جميعاً ويذهب خال اليدين) فقال لابنه: «ودّ أبوك أنّه كان مات فى غزاة ذات السلاسل، إنّى قد دخلت فى أمور ما أدرى ما حجّتى عند اللّه فيها»، ثمّ نظر إلى ماله فرأى كثرته وقال: «ياليته كان بعراً ياليتنى مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنة، أصلحت لمعاوية دنياه وأفسدت دينى، آثرت دنياى وتركت آخرتى، عمى علىَّ رشدى حتى حضرنى أجلى، كأنّى بمعاوية قد حوى مالى وأساء فيكم خلافتى»[۱۳۰].

ويواصل الإمام عليه السلام توبيخه لعمرو ويقول:

«وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ».

إشارة إلى أنّك كنت تملك الدنيا والآخرة لأنّك تملك الاستعداد الكافى للفوز بهما، ولكنّك للأسف قد سرت فى طريق الباطل وتوغلت فى الرذيلة فى حين أنّ

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۷۸

الكثير من الناس يمكنهم وبواسطة ذكائهم وقابلياتهم أن يعيشوا السعادة فى الدنيا ويتنعمون بها بطريق حلال دون أن يضرّ ذلك بآخرتهم ولكنّهم قد يخطئون المسار ويتنكبون عن الطريق.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال وهو: لو أنّ عمرو بن العاص كان قد أذعن للحق، فهل سيعطيه الإمام عليه السلام ما أراد، مثلًا يعطيه إمارة

مصر، فى حين أنّ سيرة الإمام على عليه السلام تأبى ذلك؟

وفى مقام الجواب عن هذا السؤال يمكن القول: إنّ عمرو بن العاص إذا كان واقعاً يطلب الحقّ ويسير فى الصراط المستقيم ويعيش تقوى اللّه تعالى، فإنّه بما لديه من ذكاء ومواهب يكون جديراً بهذا المقام فلا يبعد أنّ الإمام عليه السلام سيكلفه بتولى هذا المنصب، أضف إلى ذلك أنّ المراد بجملة: «ما طلبت» ليس فقط حكومة مصر، بل أن يملك الإنسان المقام اللائق حتى لو كان مقاماً أدنى من حكومة مصر.

وفى ختام هذه الرسالة ينطلق الإمام عليه السلام من موقع التهديد لمعاوية وعمرو ويقول:

«فَإِنْ يُمَكِّنِّى اللَّهُ مِنْکَ وَمِنِ ابْنِ أَبِى سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتَما، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَالسَّلَامُ».

وقد أورد بعض شرّاح نهج البلاغة فى هذا المورد بحثاً يتلخص فى أنّ الإمام عليه السلام إذا كان قد انتصر على معاوية وعمرو بن العاص فهل سيقتلهما، أو أنّه سيعفو عنهما، أو سيعاقبهما بعقوبة أخرى؟ ورغم أنّ الكلام عن مسألة لم تقع إطلاقاً لا يعدّ ذا فائدة، ولكن من المعلوم أنّ الإمام عليه السلام إذا كان يعفو عنهما فإنّه لا ـ يعفو عن حقّ الناس، وما إرتكباه من جرائم وجنايات فى سبيل تحقيق مطامعهما فى الرئاسة والدنيا، والشاهد على هذا الكلام ما ورد فى ذيل هذه الرسالة وروايات أخرى قال:

«فَإِنْ يُمَكِّنِّى اللَّهُ مِنْکَ وَمِنِ ابْنِ أَبِى سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتَما، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا».

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۷۹

تأمّلان

۱. عمرو بن العاص فى الجاهليّة والإسلام

يقول العالم المصرى المعروف «محمّد عبدة» فى شرحه لنهج البلاغة فى مستهل هذه الرسالة: «من مآسى الزمن ومهازله فى الوقت نفسه أنّ عمرو بن العاص هو الذى أرسلته قريش إلى نجاشى الحبشة يطالب بتسليم جعفر بن أبى طالب ومن معه من المهاجرين، وردّهم إلى مكّة لترى فيهم قريش رأيها، وأنّ عمرو بن العاص نفسه هو الذى قاتل على بن أبى طالب فى صفين، فبنفس الروح التى قاتل بها ابن أبى طالب الأوّل، قاتل بها ابن أبى طالب الثانى، وهكذا كانت محنة الإسلام فى أنّ الذين قاتلوه لدى ظهوره عادوا يقاتلونه بعد انتصاره، فتلبس بلباس الإسلام نفسه.

ثم يضيف هذا العالم المصرى: وقد كان لعمرو بن العاص ما أراد من أن يكون له مصر طعمة خالصة، وذلك صورة من صور حكم ابن العاص بمصر.

ثم ينقل عن المقريزى وهو من أشهر مؤرخى القرن التاسع قوله: خلف عمرو بن العاص سبعين بهاراً دنانير، والبهار جلد ثور، وبلغه إردبان بالحصرى، هذا ما انتهى إليه أمر الإسلام: سبعون بهاراً دنانير منهوبة من أقوات الشعب وأرزاقه يخلفها وال واحد»[۱۳۱].

۲. بعض أعمال معاوية

نقل ابن أبى الحديد فى شرحه لهذه العبارة من كلام الإمام عليه السلام:

«ظَاهِرٍ غَيُّهُ»

، يقول: «فأمّا قوله عليه السلام فى معاوية: «ظاهر غيّه»، لا ريب فى ظهور ضلاله وبغيه، وكلّ باغٍ هاوٍ، أمّا

«مَهْتُوكٍ سِترُهُ»

فإنّه كان كثير الهزل والخلاعة، صاحب جلساء وسمار، ومعاوية لم يتوقّر ولم يلزم قانون الرئاسة إلّامنذ خرج على أميرالمؤمنين عليه

السلام،

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۸۰

واحتـاج إلى النـاموس والسـكينة، وإلّـا فقـد كان فى أيّام عثمان شديـد التهتك موسوماً بكلّ قبيـح، وكان فى أيّام عمر يستر نفسه قليلًا خوفاً منه، إلّاأنّه كان يلبس الحرير والـديباج، ويشـرب فى آنيـة الـذهب والفضـة، ويركب البغلات ذوات السـروج المحلاة بها وعليها جلال الديباج والوشـى، وكان حينئذٍ شاباً وفيه نزق الصبى وأثر الشبيبة وسـكر السلطان والإمرة ونقل الناس عنه فى كتب السير أنّه كان يشـرب الخمر فى أيّام عثمان فى الشام، وأمّا بعـد وفاة أميرالمؤمنين واسـتقرار الأمر له فقد اختلف فيه، فقيل: إنّه شـرب الخمر فى ستر، وقيل: أنّه لم يشربه، ولا خلاف فى أنّه سمع الغناء وطرب له وأعطى ووصل عليه أيضاً»[۱۳۲].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۸۱

الرسالة ۴۰

اشارة

إلى بَعْضِ عُمّالِهِ ۱۳۳]

نظرة عامّة للرسالة

من هو المخاطب فى هذه الرسالة؟ لم يتحمل بعض الشـرّاح عناء الفحص عنه وبيّنوا ذلك بصورة إجماليّة، ولكن يسـتفاد من البلاذرى فى «أنسـاب الأشـراف» وابن الدمشـقى فى «جواهر المطالب»، أنّ المخاطب بهـذه الرسالـة هو عبـداللّه بن العباس الـذى كان والياً على البصرة.

توضيـح ذلك، طبقاً لما نقله هـذان المؤرخان، كتب أبو الأسود رسالة بهذا المضـمون إلى أميرالمؤمنين عليه السـلام: إنّ اللّه تعالى قد جعلـك واليـاً أمينـاً لنـا عارفاً بوظيفتك، وقـد اختبرناك ورأيناك أميناً تريـد خير الامّـة وتؤدّى حقّها للبيت المال ومعرضاً عن الـدنيا، وأنّك لم تنفق من أموال هذه الامّة شيئاً لنفسك ولم تقبل رشوة، ولكنّ ابن عمّك تصرف فى أموال بيت المال بدون علمك، ولم أر من السليم أن أكتمك هذا الأمر ولهذا كتبت لك هذا الكتاب.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۸۲

وفى مقـام الإمـام عليه السـلام الجواب عن هـذه الرسالـة إلى أبى الأسود الـدؤلى يشـكره فيها على موقفه هـذا، ثمّ كتب الرسالـة مورد البحث إلى ابن عبـاس ۱۳۴]، ويتحـدّث فيهـا معه بلغـة التوبيـخ واللوم ولكن ليس على محمـل على القطع واليقين، بل ورد كلامه عليه السـلام فى هـذه الرسالـة بأنّه إذا كان ما وصـلنى صـحيحاً وقـد عصـيت أمرى ولم يؤدّ حقّ الأمانـة ... وكذلك أمره بأن يرسل له فوراً حساب بيت المال، وفى ختام الرسالة يحذّره من الحساب الإلهى الذى هو أدق وأعظم من حساب الناس.

ولكن تردد بعض شـرّاح نهج البلاغـة فى كون هـذه الرسالـة إلى ابن عبـاس، واعتبر مقـامه بشـهادة التاريـخ مقاماً شامخاً أن يكون قد إرتكب مثل هذه الأعمال.

والجـدير بالذكر أنّ البلاذرى بعد ذكره لرسالة أبى الأسود ورسالة الإمام عليه السـلام لابن عباس قال: إنّ ابن عباس كتب كتاباً للإمام على وصرح فيها أنّ الخبر المذكور غير صحيح (ومن أخبرك بهذا الخبر إمّا أنّه أخطأ فى ذلك أو لديه غرض معين).

أمّا نص رسالة ابن عباس للإمام عليه السلام:

«أمّا بَعد فَإِنَّ الَّذِی بَلَغَکَ عَنِی باطِلٌ وَأنا لِما تَحتَ یَدی أحوطُ وَأضبَطُ فَلا تُصَدِّقْ عَلی الإظناءِ رَحِمَکَ اللَّهُ وَالسَّلام».

وسیأتی المزید من التوضیح فی هذا الموضوع فی الرسالهٔ الآتیهٔ.

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۸۳

أَمَّا بَعْـدُ، فَقَـدْ بَلَغَنِی عَنْـک أَمْرٌ، إنْ کُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَـدْ أَسْـخَطْتَ رَبَّـک، وَعَصَـیْتَ إمَامَـک، وَأَخْزَیْتَ أَمَانَتَـک. بَلَغَنِی أَنَّـک جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَیْک، وَأَکَلْتَ مَا تَحْتَ یَدَیْک، فَارْفَعْ إلَیَّ حِسابَک، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسابَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسابِ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسیر: سخط اللَّه وعصیان الإمام

یقول الإمام علیه السلام فی مستهل هذه الرسالهٔ القصیرهٔ والمثیرهٔ:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِی عَنْک أَمْرٌ، إنْ کُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّک، وَعَصَیْتَ إِمَامَک، وَأَخْزَیْتَ ۱۳۵] أَمَانَتَک».

فی هـذه العبـارهٔ الموجزهٔ نری أنّ الإمام علیه السـلام تحـدّث مع مخاطبه ابن عباس (أو شـخص آخر) بعبارات من موقع الاحتیاط، فلم یقـل إنّـک قـد إرتکبت إثمـاً فی هـذه الأعمـال بـل یحـذّره بـأنّه إذا ما وصـلنی من الخبر صـحیحاً فأنت مسؤول أمام اللَّه تعالی وأمام إمامک، وقد افتضحت أمام الناس والامّهٔ.

ما أبلغ وأدقّهٔ هذا التعبیر بأنّ الإنسان وبسبب إرتکابه لبعض الأمور تسقط شخصیته ومکانته أمام اللَّه والإمام والناس أجمعین.

وجملهٔ

«وَأَخْزَیْتَ أَمَانَتَک»

ربّما تشیر إلی الأمانهٔ فی المقام والمنصب أی مقام

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۸۴

الولایهٔ، وفیها إشارهٔ إلی أنّ عملک یتضـمّن فضیحتک فی أمر الولایهٔ، أو إشارهٔ إلی الأمانهٔ والاعتبار والحیثیهٔ فی نظر الناس، أی أنّک فضحت نفسک أمام الخلق فلا اعتبار لک بینهم.

ثمّ یبیّن الإمام علیه السلام توضیحاً أکثر فی هذا المجال وهو فی الحقیقهٔ تفصیل بعد الإجمال، وتبیین بعد الابهام، یقول:

«بَلَغَنِی أَنَّک جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَیْک، وَأَکَلْتَ مَا تَحْتَ یَدَیْک».

وجملهٔ

«جَرَّدْتَ الْأَرْضَ»

أی جعلته عاریـهٔ وجرداء ربّما تکون إشارهٔ إلی أنّک أخـذت المحصولات الزراعیـهٔ للأراضـی الخراجیّـهٔ لنفسک، وکذلک یمکن أن تکون إشـارهٔ إلی تخریبه للأراضـی الزراعیّـهٔ بسـبب سوء تـدبیره، واحتمل بعضـهم أنّ الأرض هنا بمعنی أرض بیت المال، یعنی أنّک أخذت الأموال الموجودهٔ فی بیت المال وجعلته خالیاً، ولکن الاحتمال الأوّل والثانی أقوی حسب الظاهر.

والجـدیر بالإلتفات إلی أنّ کلمهٔ «جرّدت» من مادهٔ «جرید» ویعنی تعریهٔ الشـیء، ومن هنا قیل للجراد «جراد» لأنّه یعری الأرض ویأکل الأشجار ویجعل الأرض والأشجار عاریهٔ.

وفی ختام هذه الرسالهٔ یقول علیه السلام:

«فَارْفَعْ إِلَیَّ حِسَابَک، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ وَالسَّلَامُ».

وبـدیهی أنّ حسـاب النـاس أحیانـاً یخـالطه الاشـتباه والغفلـهٔ، وأحیانـاً یسـتطیع المرء إخفاء بعض النواقص عنهم، فی حین أنّ الحساب الإلهی لا یمسّه الخطأ والاشـتباه، ولا یسـتطیع أی شـخص إخفاء أعماله فی حکمهٔ العدل الإلهیّهٔ، کما یقول القرآن الکریم: «یا بُنَیَّ إِنَّها إِنْ تَکُ مِثْقالَ حَبَّهٍٔ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَکُنْ فی صَخْرَهٍٔ أَوْ فِی السَّماواتِ أَوْ فِی الْأَرْضِ یَأْتِ بِهَا اللَّهُ»[۱۳۶].

والمراد من الحساب الذى أشار إليه الإمام عليه السلام حساب ما يتجمع فى بيت المال

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۸۵

أعم من محصولات الأراضى الخراجيّهٔ والزكاهٔ والغنائم وأمثال ذلك، إذ أنّ الوالى مكلّف أن يكتب للإمام عليه السلام مجموع المكتسبات وكذلك النفقات، ليتبيّن هل هناك حيف واختلاس فى بيت المال أم لا؟

***

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۸۷

الرسالهٔ ۴۱

اشارهٔ

إلى بَعْضِ عُمّالِهِ ١٣٧]

نظرهٔ عامّهٔ للرسالهٔ

هذه الرسالهٔ كما سيأتى بيانه بشكل تفصيلى فى نهايهٔ هذا البحث، كتبها الإمام عليه السلام لعبد بن عباس كما هو معروف، وفيها يوبّخه الإمام على عدم رعايهٔ الموازين الصحيحهٔ فى بيت المال، وكذلك يهيب به كالأب المتحرق الذى يرى ابنه يسير فى طريق الخطأ والزيغ، ويدعوه إلى إصلاح المسير والعودهٔ إلى الطريق القويم، ومن هنا يوجّه الإمام عليه السلام لابن عباس كلمات لاذعهٔ ويخاطبه بلغهٔ التأنيب والتوبيخ.

وفى القسم الأوّل من هذه الرسالهٔ يذكره الإمام عليه السلام بإحسانه له أنّه كان يعتبره من

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۸۸

خواصه وقد أوكل إليه أحد المناصب المهمّهٔ فى حكومته، أى منصب والى البصرهٔ.

وفى القسم الثانى يشير الإمام عليه السلام إلى إساءهٔ هذا الوالى ويوبّخه على عدم رعايهٔ موازين العدل فى أمر بيت المال ويأمره بتقوى اللَّه تعالى وإعادهٔ أموال المسلمين إلى بيت المال.

وفى القسم الثالث، يقسم الإمام عليه السلام لو أنّ ولديه الحسن والحسين عليهما السلام مع شدّهٔ قربهما إليه، قد إرتكب مثل هذا العمل فإنّ سيقف منهما موقفاً حازماً ولا يتسامح معهما فى هذا الأمر.

وفى القسم والرابع والأخير من هذه الرسالهٔ يحذّه الإمام عليه السلام ويبيّن له فناء الحياهٔ الدنيا وعدم ثباتها وأنّه سيرحل منها عمّا قريب، وسيحضر فى محضر محكمهٔ العدل الإلهى وعليه أن يجيب على ما إرتكبه من أعمال سيئهٔ وأنّه سيندم حين ذاك على الكثير من أعماله حيث لا ينفع الندم.

أمّا بالنسبهٔ للمخاطب فى هذه الرسالهٔ وهل أنّه عبد اللَّه بن عباس حقيقهٔ، وهو من أصحاب الإمام على عليه السلام المعروفين، أم أنّه أخوه عبيداللَّه أم شخص آخر؟ هناك خلاف كثير بين المؤرخين وشرّاح نهج البلاغهٔ وعلماء الرجال، وسنشير إلى هذه المسألهٔ فى ختام هذه الرسالهٔ وسنبيّن ما هو الأقرب فى نظرنا.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۸۹

القسم الأوّل

اشارة

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّی کُنْتُ أَشْرَکْتُکَ فِی أَمَانَتِی، وَجَعَلْتُکَ شِعَارِی وَبِطَانَتِی، وَلَمْ یَکُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِی أَوْثَقَ مِنْکَ فِی نَفْسِی لِمُوَاسَاتِی وَمُوَازَرَتِی وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَیَّ، فَلَمَّا رَأَیْتَ الزَّمَانَ عَلَی ابْنِ عَمِّکَ قَدْ کَلِبَ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِیَتْ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَنَکَتْ وَشَغَرَتْ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّکَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِینَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِینَ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِینَ، فَلَا ابْنَ عَمِّکَ آسَیْتَ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَّیْتَ. وَکَأَنَّکَ لَمْ تَکُنِ اللَّهَ تُرِیدُ بِجِهَادِکَ، وَکَأَنَّکَ لَمْ تَکُنْ عَلَی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّکَ، وَکَأَنَّکَ إِنَّمَا کُنْتَ تَکِیدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْیَاهُمْ، وَتَنْوِی غِرَّتَهُمْ عَنْ فَیْئِهِمْ، فَلَمَّا أَمْکَنَتْکَ الشِّدَّةُ فِی خِیَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْکَرَّةَ، وَعَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَیْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَیْتَامِهِمُ اخْتِطَافَ الذِّئْبِ الْأَزَلِّ دَامِیَةَ الْمِعْزَی الْکَسِیرَةَ، فَحَمَلْتَهُ إِلَی الْحِجَازِ رَحِیبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ غَیْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، کَأَنَّکَ لَاأَبَا لِغَیْرِکَ حَدَرْتَ إِلَی أَهْلِکَ تُرَاثَکَ مِنْ أَبِیکَ وَأُمِّکَ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوَمَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ!

الشرح والتفسير: ألا تؤمن بالمعاد؟!

فی بدایة هذه الرسالة یشیر الإمام علیه السلام إلی تعاطفه وحبّه لهذا الوالی ویذکّره بخدماته ومؤازرته له فی مواقع الشدّة لیثیر فیه الشعور بالندم ممّا اقترفه من خطئة یقول علیه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّی کُنْتُ أَشْرَکْتُکَ فِی أَمَانَتِی، وَجَعَلْتُکَ شِعَارِی ۱۳۸]

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۹۰

وَبِطَانَتِی ۱۳۹]، وَلَمْ یَکُنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِی أَوْثَقَ مِنْکَ فِی نَفْسِی لِمُوَاسَاتِی وَمُوَازَرَتِی ۱۴۰]

وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَیَّ».

یشیر الإمام علیه السلام فی هذه العبارات المقتضبة إلی ثلاث نقاط فیما یتصل بهذا الوالی:

۱. إنّ هذا الوالی کان سهیماً ومؤازراً للإمام علیه السلام فی إدارة وتدبیر أمر الحکومة والامّة وکان یملک أحد أهم المناصب الحساسة فی الدولة.

۲. أنّه کان محرم أسرار الإمام علیه السلام ومن بطانته والموثوقین فی الامور.

۳. کان هذا الوالی من أکثر الولاة قرباً واعتماداً لدی الإمام علیه السلام من بین جمیع أقربائه وأرحامه، ومن هذه الجهة لم یکن یتوقع فی مقابل کلّ هذا الاعتماد والمحبّة أن یقوم بعمل سلبی تجاه حکومة الإمام.

ثمّ یستعرض الإمام علیه السلام مخالفات والیه وعامله ویبتدیء الکلام بالقول:

«فَلَمَّا رَأَیْتَ الزَّمَانَ عَلَی ابْنِ عَمِّکَ قَدْ کَلِبَ ۱۴۱]، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِیَتْ،

وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَنَکَتْ ۱۴۲] وَشَغَرَتْ ۱۴۳]، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّکَ ظَهْرَ الْمِجَنِ ۱۴۴] فَفَارَقْتَهُ مَعَ

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۹۱

الْمُفَارِقِینَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِینَ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِینَ، فَلَا ابْنَ عَمِّکَ آسَیْتَ ۱۴۵]، وَلَا

الْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ».

وجملة

«قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّکَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ»

تعنى فى معناها الحرفى: قلبت الدرع لابن عمّک على باطنه، وهى كناية عن إعراضه عن الإمام عليه السلام، لأنّ المجاهدين فى ميدان الحرب عندما يواجهون الطرف الآخر وجهاً لوجه يلبسون الدروع أمامهم ويكون ظهر الدرع فى الواجهة، ولكن فى حالة الهرب يكون باطن الدرع فى مواجهتهم، ومن هذه الجهة استخدمت هذه الحالة كناية عن الشخص الذى يعرض عن شخص آخر أو عن شيء.

وفى الجمل الخمس الاولى يرسم الإمام عليه السلام حالة الزمان: صعوبة الظروف فى المحيط الاجتماعى، جرأة العدو فى الحرب، عدم اهتمام الناس بأمر الأمانة، عدوان الامّة على الأحكام الإلهيّة.

ثمّ يستعرض الإمام عليه السلام مخالفات ابن عمّه معه من أبعاد مختلفة وذلک فى عدّة جمل: الإعراض عن الإمام، التماهى مع المناوئين، خذلانه للإمام وعدم نصرة الحقّ، الانسياق مع الخاذلين وخيانته لبيت المال مع الخائنين، وعلى ضوء ذلک فإنّ جميع هذه الصفات التى أطلقها الإمام عليه السلام بهذه الجمل البليغة والزاخرة بالمعنى جسد الإمام حالات هذا الوالى الذى خذل الإمام فى ساعات المحنة، ونرى الإمام عليه السلام بيّن الجملتين الآخرتين بفاء التفريع: مفارق الإمام مع المفارقين والخيانة فى الأمانة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتحرک لرصد أعمال هذا الوالى ويتحدّث معه بلغة الوجدان لإثارة أحاسيسه الدينيّة بهذه العبارات:

«وَكَأَنَّکَ لَمْ تَكُنِ اللَّهَ تُرِيدُ بِجِهَادِکَ، وَكَأَنَّکَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّکَ، وَكَأَنَّکَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنْوِى غِرَّتَهُمْ ۱۴۶] عَنْ فَيْئِهِمْ».

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۹۲

بداية يشكک الإمام عليه السلام، فى هذه الجمل الثلاثة، فى إخلاص نيّة هذا الوالى فى أمر الجهاد، ثمّ يشكّک الإمام فى كون أعماله تستند إلى الدليل والبيّنة الشرعيّة، وأخيراً يشبّه الإمام عليه السلام عمله بمن يريد إغفال الناس وخداع الامّة لسلب حقوقهم من بيت المال.

ولعل هذا الوالى (سواء كان ابن عباس أو غيره) عند قراءته لهذه العبارات والجمل يستيقظ ضميره ويتحرک على مستوى إعادة أموال بيت المال.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه لهذا الوالى ويقول:

«فَلَمَّا أَمْكَنَتْکَ الشِّدَّةُ فِى خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ[۱۴۷]، وَعَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ[۱۴۸]، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمُ اخْتِطَافَ ۱۴۹] الذِّئْبِ الْأَزَلِ ۱۵۰] دَامِيَةَ[۱۵۱] الْمِعْزَى ۱۵۲] الْكَسِيرَةَ[۱۵۳]، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ ۱۵۴] الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ ۱۵۵] مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّکَ لَاأَبَا لِغَيْرِکَ حَدَرْتَ ۱۵۶] إِلَى أَهْلِکَ تُرَاثَکَ مِنْ أَبِيکَ وَأُمِّکَ».

هذه العبارات البليغة فى خطاب الإمام عليه السلام ناطقة بالمعنى وتشبيه الإمام لحالة

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۹۳

هذا الشخص صريح وشديد ولا يمكن تصور بيان المقصود بأبلغ من هذه العبارات الدقيقة والكلمات المتماسكة.

عبارة تعبير به

«أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ»

و

«عَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ»

» و

«اخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ»

وتشبيهه بالذئب الذى يجرح ويدمى المعزى الكسيرة، وكذلك قوله:

«تُرَاثَکَ مِنْ أَبِيکَ وَأُمِّکَ»

وكأنّه يحسب أنّ بيت المال كميراث ورثه من والديه، كلّها جمل معبرةعن شناعة وقباحة هذا العمل الذى يقام به هذا الوالى.

جمله

«لَا أَبَا لِغَيْرِکَ ...»

تعدّ نوعاً من الاحترام لذلك الوالى، لأنّه عندما تحقير شخص: «لا أبا لك» ومن هذا المنطلق فالإمام عليه السلام فى الوقت الذى يخاطب فيه هذا الوالى بتلك العبارات اللاذعة والتوبيخات القارعة، فإنّه لايزال يحترمه بالمقدار اللازم.

وبعبارة تعبير به

«تُرَاثَکَ مِنْ أَبِيکَ وَأُمِّکَ»

تعبير جميل يقال فى هذه الموارد بالنسبة للشخص الذى يقع على أموال ويتصرف بها دون وازع فيقال له: كأنّ هذا المال إرثاً ورثه من أبيك وامّك.

وفى ختام هذا المقطع من الرسالة يظهر الإمام عليه السلام تعجبه الشديد من هذا السلوك المنحرف لعامله ويقول:

«فَسُبْحَانَ اللَّهِ! أ مَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوَمَا تَخَافُ نِقَاشَ [۱۵۷]

الْحِسَابِ!».

وهذه إشارة إلى أنّ الشخص الذى يؤمن بالقيامة والمعاد ويعتقد حقّاً ما ورد فى قوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»[۱۵۸].

لا ينبغى أن يتصرف فى أموال بيت المال مثل هذا التصرف الذميم، فمثل هذا العمل يتقاطع مع الإيمان والاعتقاد بالمعاد الحساب، أو أن يكون إيمانه ضعيفاً إلى درجة وكأنّه قد نسى يوم القيامة وما سيوجهه من حساب على أعماله.

نفحات الولايۀ، ج ۱۰، ص: ۹۵

القسم الثانى

اشارۀ

أَيُّهَا الْمَعْدُودُ- كَانَ- عِنْدَنَا مِنْ أُولِى الْأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَطَعَاماً.

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّکَ تَأْكُلُ حَرَاماً وَتَشْرَبُ حَرَاماً، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ! فَاتَّقِ اللَّهَ وَارْدُدْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّکَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِى اللَّهُ مِنْکَ لَأُعْذِرَنَّ إِلَى اللَّهِ فِيکَ، وَلَأَضْرِبَنَّکَ بِسَيْفِى الَّذِى مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلَّا دَخَلَ النَّارَ! وَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِى فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِى هَوَادَةٌ، وَلَا ظَفِرَا مِنِّى بِإِرَادَةٍ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِى أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِى، أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِى، فَضَحِّ رُوَيْداً، فَكَأَنَّکَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى، وَعُرِضَتْ عَلَيْکَ أَعْمَالُکَ بِالْمَحَلِّ الَّذِى يُنَادِى الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ «وَلاتَ حِينَ مَناصٍ».

الشرح والتفسير: لا أتسامح فى بيت المال حتى مع أولادى

فی هذا المقطع من الرسالهٔ یواصل الإمام علیه السلام توبیخه وإعتراضه الشدید لعامله ویقول:

«أَیُّهَا الْمَعْدُودُ- کَانَ- عِنْدَنَا مِنْ أُولِی الْأَلْبَابِ، کَیْفَ تُسِیغُ ۱۵۹] شَرَاباً وَطَعَاماً.

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۹۶

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّکَ تَأْکُلُ حَرَاماً، وَتَشْرَبُ حَرَاماً، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ وَتَنْکِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْیَتَامَی وَالْمَسَاکِینِ وَالْمُؤْمِنِینَ وَالْمُجَاهِدِینَ الَّذِینَ أَفَاءَ[۱۶۰] اللَّهُ عَلَیْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ،

وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ!».

والتعبیر ب «کان» ناظر إلی الماضی إلی أنّک کنت عندنا فی السابق من العقلاء وأهل الحزم والحنکهٔ، ولکنّک بهذا العمل الذی صدر منک، فقدت ذلک الموقع ولم تعدّ کما کنت فی السابق.

جمله

«کَیْفَ تُسِیغُ ..»

إشارهٔ إلی أنّ جمیع حیاتک ومعیشتک ستختلط بالحرام وسیکون مأکلک ومشربک من مال المقتصد من بیت المال، فلا یجوز لک تناول شیء من هذا المأکل والمشرب، وهکذا فی الجواری التی تشتریها بهذا المال الحرام أو الزوجات التی تدفع لهنّ المهر من هذا المال الحرام کلّ ذلک یتسبب فی أن تکون حیاتک العائلیّهٔ ومعیشتک ملوثهٔ بالحرام.

جمله

«مِنْ أَمْوَالِ الْیَتَامَی وَالْمَسَاکِینِ ...»

إشارهٔ إلی أنّه إذا کانت هذه الأموال متعلقهٔ بأشخاص أثریاء فإنّ قبح هذا العمل وغصب هذه الأموال کان أقلّ شناعهٔ، وأمّا إذا کان الغصب من متعلّقاً بأموال الیتامی والمحرومین والمجاهدین فی سبیل للّه فسیکون أقبح وأشنع بمراتب عدیدهٔ.

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام بعد هذا التوبیخ المطول یستنتج من ذلک:

«فَاتَّقِ اللَّهَ وَارْدُدْ إِلَی هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ».

ثمّ یتحرک الإمام علیه السلام فی خطابه لهذا الوالی بلغهٔ التهدید الشدید، ویقول:

«فَإِنَّکَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْکَنَنِی اللَّهُ مِنْکَ لَأُعْذِرَنَ ۱۶۱] إِلَی اللَّهِ فِیکَ، وَلَأَضْرِبَنَّکَ بِسَیْفِی الَّذِی مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلَّا دَخَلَ النَّارَ!».

وهذه إشارهٔ إلی أنّنی لا أسل سیفی إلّافی سبیل اللّه وفی مقابل أعدائه من قوی

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۹۷

الظلم والکفر والانحراف، وأیّما شخص ضربته بسیفی هذا فإنّ مصیره الحتمی سیکون إلی النار وبئس المصیر.

وهنا ربّما یثار هذا السؤال، ولماذا یستحق الشخص المختلس لشیء من بیت المال للإعدام، فی حین أنّ الوارد فی الحدود الإسلامیّهٔ أنّ مثل هذا السارق لا یستحق إلّاإجراء حدّ السرقهٔ علیه، مضافاً إلی أنّ إجراء حدّ السرقهٔ علی هذا المورد بعید أیضاً، لأنّ من شروط حدّ السرقهٔ أن تقع السرقهٔ من حرز، یعنی أن یکون السارق قد سرق المال من حرز أو حزانهٔ مقفولهٔ، ویقوم السارق بکسر هذا القفل ویسرق ما فیه وحینئذٍ یترتب علیه حدّ السرقهٔ، ونعلم أنّ الوالی مسلط علی بیت المال ولیس المال فیه مقفل وفی حرز.

وفی مقام الجواب عنه هذا السؤال یمکن القول، أوّلًا: أنّ مثل هذه السرقهٔ مقترنهٔ مع إنکار الحرمهٔ، وبعبارهٔ أخری أنّ هذا المختلس کان یری حلیهٔ مثل العمل وهذا بدوره نوع من إنکار الضروری من الدین.

وثانیاً: إنّ الإمام علیه السلام قال:

«وَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِی فَعَلْتَ، مَا کَانَتْ لَهُمَا عِنْدِی هَوَادَةٌ[۱۶۲]، وَلَا ظَفِرَا مِنِّی بِإِرَادَةٍ، حَتَّی آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِیحَ ۱۶۳]

الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا».

وبدیهی أنّ مراد الإمام علیه السلام لا یعنی أبداً أن یقوم الإمام الحسن والحسین علیهما السلام بغصب أموال بیت المال، بل المراد بیان المبالغهٔ فی هذا المطلب وأنّه لا أحد مصون عن العقاب فی حال تخلفه عن الحقّ والعدالهٔ.

وببیان آخر أنّه یستفاد من القضیّهٔ الشرطیّهٔ التی تبتدیء بکلمهٔ «لو» وأمثالها لا یعنی احتمال وقوع الشرط، لأنّ مثل هذه التعبیرات ربّما تقال لتأکید المطلب حتی فی الأمور المستحیلهٔ، کما ورد فی الآیهٔ الشریفهٔ: «قُلْ إِنْ کانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۹۸

الْعابِدینَ»[۱۶۴] وهذا التعبیر یدلّ علی تأکید النفی لمقولهٔ الجهلاء من أهل الکتاب الذین ینسبون الولد للّه‌تعالی.

ویبیّن الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من کتابه من موقع التأکید علی أنّ المسائل العاطفیّهٔ لا ینبغی أبداً أن تتدخل فی الأحکام الإلهیّهٔ ولا ینبغی أن یکون التعامل وفقاً للروابط علی حساب الضوابط، کما ورد فی القرآن الکریم فی مسألهٔ إجراء الحد الشرعی: «وَلا تَأْخُذْکُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فی دینِ اللَّهِ»[۱۶۵]، وفی مورد إجراء الحقوق یقول تعالی: «یا أَیُّهَا الَّذینَ آمَنُوا کُونُوا قَوَّامینَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلی أَنْفُسِکُمْ أَوِ الْوالِدَیْنِ وَالْأَقْرَبینَ إِنْ یَکُنْ غَنِیًّا أَوْ فَقیراً فَاللَّهُ أَوْلی بِهِما»[۱۶۶].

ثمّ یدخل الإمام علیه السلام من طریق آخر لإیقاظ هذا الوالی العاصی من غفلته ویتحدّث معه بلهجهٔ الواثق وبلغهٔ مؤثرهٔ ویقول:

«وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِینَ مَا یَسُرُّنِی أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِی، أَتْرُکُهُ مِیرَاثاً لِمَنْ بَعْدِی».

وهذه إشارهٔ إلی أنّ الأموال الکثیرهٔ حتی لو کانت حالًا وقد اکتسبها الإنسان بطرق مشروعهٔ لا ـ توصل الإنسان إلی مرفأ السعادهٔ والراحهٔ، فکیف بها إذا کان قد استولی علیها بطریق حرام، لأنّه لا سبیل له فی إنفاقها سوی أن یترکها میراثاً لمن بعده، فیکون وزره ووباله علیه ولذته ونعیمه للآخرین، فهل من العقل أن یقدم الإنسان علی مثل هذا العمل؟! فکیف الحال لو کان قد جمع هذا المال من طرق حرام وغیر مشروعهٔ فیما یترتب علی ذلک من مصائب ووبال علی صاحبه.

وفی هذا السیاق ورد فی کتاب الکافی عن النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه کان یدعو بهذا الدعاء:

«اللَّهُمَّ ارْزُقْ مُحَمَّداً وَآلَ مُحَمَّدٍ وَمَنْ أَحَبَّ مُحَمَّداً وَآلَ مُحَمَّدٍ الْعَفَافَ وَالْکَفَافَ وَارْزُقْ مَنْ أَبْغَضَ مُحَمَّداً وَآلَ مُحَمَّدٍ الْمَالَ وَالْوَلَدَ»[۱۶۷].

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۹۹

وفی ختام هذه الرسالهٔ یشیر الإمام علیه السلام إلی نهایهٔ الحیاهٔ والحوادث التی سیواجهها الإنسان بعد مماته لغرض إیقاظ وجدان هذا الوالی وتحریک عناصر الخیر فی نفسه ویبیّن له الخطر الکامن فی هذا الطریق الذی سلکه، یقول:

«فَضَحِّ ۱۶۸]

رُوَیْداً، فَکَأَنَّکَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَی ۱۶۹]، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَی ۱۷۰]، وَعُرِضَتْ عَلَیْکَ أَعْمَالُکَ

بِالْمَحَلِّ الَّذِی یُنَادِی الظَّالِمُ فِیهِ بِالْحَسْرَةِ، وَیَتَمَنَّی الْمُضَیِّعُ فِیهِ الرَّجْعَةَ (وَلاتَ حِینَ مَناصٍ)[۱۷۱]».

وهنا نری أنّ الإمام علیه السلام أمیرالمؤمنین هو ذلک المعلم الیقظ والقائد الفذ یسعی لتنبیه مخاطبه بهذه العبارات الشدیدهٔ، ویلفت نظره إلی ما سیواجهه فی ساعات الموت ومن ثمّهٔ الدفن تحت التراب والحضور فی ساحهٔ المحشر للحساب فی محکمهٔ العدل الإلهی وما سیعیشه من حالات الندم الشدید وتمنیه العودهٔ للدنیا ولکن بعد فوات الأوان کما تشیر إلی ذلک الآیهٔ الشریفهٔ: «وَّلَاتَ حِینَ مَنَاصٍ»[۱۷۲].

تأمّل

من هو ابن عباس؟

نفحات الولایة، ج۱۰، ص: ۱۰۰

لا شک أنّ ابن عباس معروفاً فی الامّة الإسلامیّة ولدی المذاهب المختلفة من الشیعة وأهل السنّة، معروفاً فی العلم والمعرفة والفضل حتی أنّه لقّب ألقاب مثل «حبر الامّة» و «ترجمان القرآن» وقد أورد المؤرخون فی سیرته أنّه کان قد حضر عند رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وهو فی ریعان شبابه وقد سمع من النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله الکثیر من الأحادیث الهامة والمذکورة فی الکتب المعتبرة، وکان ابن عباس مشهوراً بتفسیر القرآن ومن أصحاب الرأی والنظر وکان التلمیذ المخلص للإمام علی علیه السلام والمحب له.

ومن هذه الجهة عندما یصل العلماء وشرّاح نهج البلاغة إلی هذه الرسالة یترددون فی کون المخاطب لها هو ابن عباس، فهذه الرسالة تتضمّن أشدّ أنواع التوبیخ والذم من الإمام علی علیه السلام لمخاطبه وأنّه یتهمه بالخیانة فی بیت المال والاستیلاء علی مبالغ کبیرة من هذا المال ونقله من البصرة إلی الحجاز.

وبخاصیة إذا أخذنا بنظر الحسبان الجواب الحاد والجریء الذی کتبه ابن عباس فی جوابه عن هذه الرسالة وقد ورد فی کتب التاریخ، فإنّ المسألة ستتعقد أکثر.

ومن هذه الجهة انقسم المؤرخون الذین أوردوا هذه الرسالة فی کتبهم إلی ثلاث طوائف:

الطائفة الاولی تقول: إنّ ابن عباس وإن کان یتمتع بمقام جلیل ویعتبر من أصحاب النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله المرموقین وقد أدرک النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی شبابه وصباه، إلّا أنّ ذلک لا یعنی أنّه معصوم من الخطأ وأنّه من البعید صدور مثل هذا الزیغ فی حقّه، وطبقاً للمثل المشهور: «الجواد قد یکبو» فإنّ غیر المعصوم ربّما یزل مثل هذه الزلّة مهما کان یملک من مقام ووجاهة.

وطائفة أخری یعتقدون أنّ المخاطب لهذه الرسالة هو أخو ابن عباس، أی عبیداللَّه بن عباس أو شخص آخر، ویستشهدون لذلک بعدّة شواهد وقرائن تاریخیّة تؤکّد أنّ ابن عباس لم یقم بهذا العمل أبداً.

وهناک طائفة ثالثة لم تستطع أن تتخذ لها موقفاً فی هذه المسألة مثل ابن أبی الحدید، الذی مرّ علیها مرور الکرام وترکها فی إبهامها ولم یکشف اللثام عن

نفحات الولایة، ج۱۰، ص: ۱۰۱

غموضها، حیث قال: «قد أشکل علیَّ أمر هذا الکتاب، فإنّ أنا کذّبت النقل وقلتُ:

هذا الکلام موضوع علی أمیرالمؤمنین علیه السلام، خالفت الرواة، فإنّهم قد أطبقوا علی روایة هذا الکلام عنه، وقد ذکر فی أکثر کتب السیرة: إنّ صرفته إلی عبداللَّه بن عباس صدنی عنه ما أعلمه من ملازمته إطاعة أمیرالمؤمنین علیه السلام فی حیاته وبعد وفاته، وإن صرفته إلی غیره لم أعلم إلی مَن أصرفه من أهل أمیرالمؤمنین علیه السلام، والکلام یشعر بأنّ الرجل المخاطب من أهله وبنی عمّه، فأنا فی هذا الموضع من المتوفقین»[۱۷۳].

ولکن الطائفة الاولی لم تقبل بهذا الکلام وذهبوا إلی أنّ المخاطب لهذه الرسالة للإمام علیه السلام هو ابن عباس مع حفظ جلالة قدره ومقامه.

ومن جملة هؤلاء «ابن میثم» یقول فی شرحه لنهج البلاغة: «وإعلم أنّ هذین القولین لا مستند لهما، أمّا الأوّل: فهو مجرّد استبعاد أن یفعل ابن عباس ما نسب إلیه، ومعلوم أنّ ابن عباس لم یکن معصوماً وعلی علیه السلام لم یکن یراقب فی الحقّ أحداً ولو کان أعزّ

أولاده كما تمثّل بالحسن والحسين عليهما السلام فى ذلك، فكيف بابن عمّه، بل يجب أن تكون الغلظة فى الأقرباء فى هذا الأمر أشدّ.

ثمّ إنّ غلظته عليه وعتابه له لا يوجب مفارقته إيّاه، لأنّه عليه السلام كان إذا فعل أحد من أصحابه ما يستحق به المؤاخذة أخذه به سواء كان عزيزاً أو ذليلًا قريباً منه أو بعيداً، فإذا استوفى حقّ اللّه منه أو تاب إليه ممّا فعل عاد فى حقّه إلى ما كان عليه كما قال: «القوى عندى ذليل حتى آخذ الحقّ منه والذليل عندى عزيز حتى آخذ الحقّ له»، فلا يلزم إذن غلظته على ابن عباس ومقابلته إيّاه بما يكره مفارقة له وشقاقه على ما بينهما من المحبّة الوكيدة والقرابة.

وأمّا الثانى: فإنّ عبيداللّه كان عاملًا له عليه السلام فى اليمن ولم ينقل عنه مثل ذلك»[۱۷۴].

أمّا من ذهب إلى القول الثانى فإنّه يرى أنّ عظمة مقام ابن عباس لا ينسجم أبداً

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۰۲

مع مضمون هذه الرسالة لأنّه «حبر الامّة» وبحر عميق من العلم والفضل وكان من أتباع وأنصار الإمام على عليه السلام ومتفانياً فى خدمته والدفاع عنه فى أيّام المحنة التى لم يكن للإمام عليه السلام من أنصار إلّابعدد أصابع اليد، وحتى فى معركة صفين عندما طرحت مسألة التحكيم نرى أنّ الإمام عليه السلام اختاره لأمر التحكيم فى مقابل رجل داهية وشيطان وهو عمرو بن العاص (رغم أنّ جماعة من الجهلة والسفهاء اعترضوا على هذا الاقتراح ورشحوا إلى ذلك المنصب رجل سفيه مثلهم وهو أبوموسى الأشعرى وأصروا على الإمام عليه السلام فى قبوله) أجل فإنّ دلالة قدر ابن عباس ومقام الشامخ لا تتناسب ولا تنسجم مع إرتكابه لمثل هذه الأعمال.

ولكن هؤلاء لم يبيّنوا على وجه التحديد من هو المخاطب لهذه الرسالة، أضف إلى ذلك فهناك قرائن وشواهد أخرى تنفى أن يكون المخاطب لهذه الرسالة هو ابن عباس، ومن ذلك أنّهم ذكروا:

۱. جاء فى الأمالى للسيد المرتضى أنّ عمرو بن عبيد جاء إلى سليمان العباسى فسأله سليمان: هل سمعت بشعر الإمام على عليه السلام قال فى ابن عباس: إنّه يفتنا فى كلّ أمر ولكنّه يأخذ أموالنا فى ليلة واحدة؟

فأجابه عمرو: لا يمكن أن يقول الإمام على عليه السلام مثل هذا الكلام عن ابن عباس وأنّ ابن عباس لم يترك الإمام على عليه السلام أبداً وكان حاضراً معه وإلى جواره إلى ساعة استشهاده، بل كان حاضراً أيضاً فى واقعة صلح الإمام الحسن عليه السلام.

۲. وأضاف عمرو بن عبيد: كيف يعقل أن تجتمع كلّ تلك الأموال الكثيرة فى بيت مال البصرة مع أنّ الإمام على عليه السلام كان بحاجة ماسة إلى المال وكان يوزع ما يتجمع فى بيت المال على المحتاجين والفقراء فى كلّ اسبوع حتى يفرغ كلّه ويأمر بكنس بيت المال كلّ يوم سبت، فمع هذه الحالة كيف يمكن لابن عباس أن يجمع كلّ هذه الأموال فى بيت مال البصرة؟ فمع الأخذ بنظر الاعتبار حاجة الناس إلى المال فإنّ ابن عباس كان قد نقل هذا المال إلى الكوفة.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۰۳

۳. يروى الطبرى فى تاريخه فى حوادث سنة أربعين عن أبى عبيدة أنّ ابن عباس كان والياً على البصرة إلى زمان استشهاد الإمام على عليه السلام ثمّ جاء إلى الكوفة واشترك فى مراسم صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية ثمّ عاد إلى الكوفة وجمع متعلقاته وأخذ معه قليلًا مبلغاً زهيداً من بيت المال وقال: أخذه هذا المبلغ من بيت المال بوصفه حقّاً لى وكراتب أخذه من بيت المال (ثمّ توجه إلى الحجاز).

۴. يروى المرحوم المحقّق التسترى فى شرحه لنهج البلاغة أنّ ابن عباس كان فى البصرة عند استشهاد الإمام على عليه السلام جاء إلى الكوفة من فوره عندما سمع الخبر والتحق بالإمام الحسن عليه السلام، ولما قام الإمام الحسن بالقاء خطبة فى صبيحة اليوم الذى استشهد فيه أبوه، قام ابن عباس بأخذ البيعة من أهل الكوفة للإمام الحسن عليه السلام واستجاب الناس له ۱۷۵].

۵. على فرض أنّ هذه القصّة تتعلق بابن عباس، ولكن ورد فى بعض الروايات أوّلًا، أنّ الأموال المختلسة كانت قليلة، وثانياً: أنّ الإمام

عليه السـلام عنـدما أرسل له هذه الرسالة قام ابن عباس بإعادة المال فوراً وإعتذر من الإمام على ما صدر منه وقبِل الإمام إعتذاره، كما يظهر يروى المرحوم التسترى عن اليعقوبى أنّ ابن عباس تصرف بمقدار من بيت المال، فكتب أميرالمؤمنين عليه السلام برده فردّه، ثمّ ينقل مثل هذا المعنى عن سبط ابن الحوزى الذى يقوله فى نهايته: ثمّ ندم واعتذر إلى على عليه السـلام وقَبل الإمام عليه السلام عذره [۱۷۶].

***

النتيجـة: مع وجود اختلاف فى الروايات فى شأن هـذه القصّـة وأحياناً تكون الروايات متناقضـة، فكيف يمكن التصديق بأنّ رجلًا مهماً وشخصيّة مرموقة كابن عباس وهو حبر الامّة والعالم والفقيه والمعروف يرتكب مثل هذا العمل بهذه

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۰۴

الضخامة التى ينسبها إليه المخالفون.

ألا يحتمل أنّ عمّال بنى اميّـة وأزلام معاويـة الـذين وضـعوا الأحاديث الكثيرة فى مقابل حفنة من المال لتأييد حكومة بنى اميّة أو لذم مخالفيهم، حتى أنّهم نسـبوا إلى النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أحاديث موضوعة على لسان ابن عباس وبخاصّة ما ورد فى الروايات أنّ معاويـة كـان يلعن بعـد الصـلاة كـلّ من: الإمـام على والحسن والحسـين عليهم السـلام وابن عبـاس ومالك الأشتر وقيس بن عبادة (رحمهم اللّه تعالى)[۱۷۷].

يقول مؤلف كتاب معجم رجال الحـديث بعـد نقله لهذه الأقوال: ومن مجموع ما قيل عن ابن عباس يسـتفاد أنّه كان رجلًا جليل القدر ومدافعاً عن أميرالمؤمنين والإمام الحسن والحسين عليهم السلام كما ذكر العلّامة الحلى وابن داود فى كتبهما الرجاليّة، وينقل المحدّث القمى عن الشهيد الثانى بعد ذكر بعض الأحاديث الواردة فى ذم ابن عباس قوله: إنّ جميع هذه الأحاديث ضعيفة.

وذكر المرحوم صاحب المعالم فى كتابه «تحقيق طاووسـى»- بعد ذكره لمحبّة وإخلاص ابن عباس لأميرالمؤمنين عليه السـلام ونصرته له ودفـاعه عنه، الـذى لا يقبل الشك أو الترديـد فيه: ليس من المسـتبعد أن يقوم بعض الأشـخاص بحسـد ابن عباس وينسـبوا له هـذه الأقاويل الباطلة.

ومن هنا فإنّ أغلب علماء الرجال من الشـيعة وأهل السـنّة يذهبون إلى صـحة واعتبار الأحاديث التى يرويها ابن عباس ولا يعتنون بمثل هـذه الشـبهات عنه، وعلى ضوء ذلك لابـدّ من القول إنّ المخاطب لهـذه الرسالـة شـخص آخر غير ابن عباس، رغم أننا لا نكاد نعرفه بشـكل دقيق، أمّـا التعبير الوارد فى هـذه الرسالـة عن المخـاطب ابن عمّه فحاله حال ما يقال فى الكلام للمخاطب بأنّه أخ وأمثال ذلك فهو كناية عن شدّة العلاقة والرفقة، ومن هذه الجهة لم يورد السـيّد الرضـى اسم ابن عباس، مع أنّ فى الكثير من الموارد الأخرى يذكر المخاطبين لكتب الإمام عليه السلام، واكتفى فى هذا

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۰۵

المورد بعبارة: إلى بعض عمّاله.

ونختم الكلام هنا بحـديث ينقله المرحوم العلّامـة المجلسـى فى بحار الأنوار فى تاريـخ أميرالمؤمنين عليه السـلام وجاء فى هذه الرواية عن رجـل من أهـل الطائف قال: أتينا ابن عبّاس رحمـة اللّه عليهما نعوده فى مرضه الـذى مات فيه، قال: فاغمى عليه فى البيت، فاخرج إلى صـحن الـدار، قـال، فأفـاق فقـال: إنّ خليلى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله قـال: إنّى سأهجر هجرتين، وإنّى سأخرج من هجرتى، فهـاجرت هجرة مـع رسول اللّه صـلى الله عليه و آله وهجرة مع على عليه السـلام، وإنّى سـأعمى فعميت، وإنّى سـأغرق فأصـابنى حكّة فطرحنى أهلى فى البحر فغفلوا عنّى فغرقت، ثمّ اسـتخرجونى بعد، وأمرنى أن أبرأ من خمسة: من الناكثين وهم أصـحاب الجمل، ومن القاسـطين وهم أصـحاب الشام، ومن الخوارج هم أهل النهروان، ومن القدريـة وهم الـذين ضاهوا النصارى فى دينهم، فقالوا: لا قـدر، ومن المرجئة الذين ضاهو اليهود فى دنيهم فقالوا: اللّه أعلم، قال: ثمّ قال:

«اللّهُمَّ إنّی أحیی عَلی مَا حَیّ عَلیهِ عَلیُّ بنُ أَبی طَالِبٍ علیه السلام، وَأَموتُ عَلیْ مَا مَاتَ عَلیهِ عَلیُّ بنُ أبِی طَالب علیه السلام»

قال: ثمّ مات ۱۷۸].

والجدیر بالذکر أنّ قبر ابن عباس موجود فی الطائف وإلی جانبه مسجد فخم اطلق علیه اسمه.

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۰۷

الرسالهٔ ۴۲

اشارهٔ

إلی عُمَرِ بْنِ أبی‌سَلَمَهِٔ المَخْزُومی وَکانَ عامِلُه عَلَی الْبَحْرَیْنِ فَعَزَلَهُ وَاسْتَعْمَلَ نُعْمانَ بْنِ عَجْلانِ الزُّرَقی مَکانَه ۱۷۹]

نظرهٔ عامّهٔ للرسالهٔ

یخطاب الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام فی هذه الرسالهٔ عامله علی البحرین عمر بن أبی سلمهٔ (ابن ام سلمهٔ زوجهٔ النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله)، وفیها یثنی الإمام علیه السلام علی خدماته وحسن سیرته ویدعوه للمشارکهٔ فی قاتل المناوئین فی صفین، وقد عیّن الإمام بدله النعمان بن عجلان وهو من زعماء قبیلهٔ بنی عجلان.

ومن أجل أنّ لا یتکدر خاطر ابن أبی سلمهٔ أو یستاء من هذا التبدیل، فقد کتب له الإمام علیه السلام فی هذه الرسالهٔ عبارات الشکر والمدیح وخاطبه بلغهٔ مفعمهٔ بالمحبّهٔ من قبیل:

«وَأحْبَبْتُ أنْ تَشْهَدَ مَعِی، فَإِنَّکَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَی جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَهِٔ عَمُودِ الدِّینِ».

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۰۸

ونستوحی من کلمات الإمام علیه السلام فی هذه الرسالهٔ النمط الأفضل فی کیفیّهٔ التعامل مع هذه المسائل وعزل بعض المسؤولین ونصب آخرین مکانهم.

***

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۰۹

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّی قَدْ وَلَّیْتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرَقِیَّ عَلَی الْبَحْرَیْنِ، وَنَزَعْتُ یَدَکَ بِلَا ذَمٍّ لَکَ، وَلَا تَثْرِیبٍ عَلَیْکَ؛ فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلَایَهَٔ، وَأَدَّیْتَ الْأَمَانَهَٔ، فَأَقْبِلْ غَیْرَ ظَنِینٍ، وَلَا مَلُومٍ، وَلَا مُتَّهَمٍ، وَلَا مَأْثُومٍ، فَلَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِیرَ إِلَی ظَلَمَهِٔ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِی، فَإِنَّکَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَی جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَهِٔ عَمُودِ الدِّینِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسیر: أحسنت! لقد أدّیت الأمانهٔ

اشارهٔ

ینطلق الإمام علیه السلام فی مستهل هذه الرسالهٔ بقوله:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّی قَدْ وَلَّیتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ، الزُّرَقِیَّ عَلَی الْبَحْرَیْنِ، وَنَزَعْتُ یَدَکَ».

ولکن بما أنّ عمر بن أبی سلمهٔ رجلًا طیباً ومخلصاً ومدیراً ومدبّراً وربّما یتأثر سلبیاً بهذا التغییر فی المنصب یخاطبه الإمام علیه السلام

فى ثمان جمل قصيرة وعميقة المعنى ويؤكّد له أنّ مثل هذا التبديل فى الوظيفة لا يعنى إطلاقاً صدور خطأ من جانبه وبذلك يرفع ما قد يخالجه من قلق فى هذا الشأن.

يقول الإمام عليه السلام:

«بِلَا ذَمٍّ لَکَ، وَلَا تَثْرِيبٍ ۱۸۰] عَلَيْکَ، فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلَايَةَ، وَأَدَّيْتَ

الْأَمَانَةَ فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ ۱۸۱]، وَلَا مَلُومٍ، وَلَا مُتَّهَمٍ، وَلَا مَأْثُومٍ ۱۸۲]».

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۱۰

ونرى أنّ الإمام عليه السلام فى هذه التعبيرات يؤكّد له بشكل كامل أنّ هذا التغيير فى المسؤوليّة ليس بسبب تقصيره فى أدائه لوظيفته بل لأنّه يريد إلقاء مسؤوليّة أهم على عاتقه.

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام لمضمون هذه المسؤوليّة الجديدة ويقول:

«فَلَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِى، فَإِنَّکَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ[۱۸۳] بِهِ عَلَى

جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

إنّ سيرة عمر بن أبى سلمة وسوابقه الجليلة ووفاءه للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى جميع حالات بيان ذلك فى شرح حاله، وكلّها شاهد على هذا المعنى.

وجملة

«أَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِى ...»

لا تعنى الاستشهاد فى سبيل اللّه مع الإمام عليه السلام، بل بمعنى حضوره مع الإمام فى ميادين القتال والجهاد.

وجملة

«مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ ...»

، تبيّن أنّ عمر بن أبى سلمة رجلًا شجاعاً ومدبّراً وحازماً ووفياً للإمام عليه السلام، وعبارة:

«جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ»

تشير إلى أنّ عمر بن أبى سلمة يتمتع بمقام كبير ومكانة جليلة إلى درجة أنّ الإمام عليه السلام يستعين به لإقامة عمود الدين والتصدى لقوى الظلم والانحراف.

تأمّل

التعرّف على عمر بن أبى سلمه المخزومى والنعمان بن عجلان؟

كما ورد فى نص الرسالة أنّ عمر بن أبى سلمة كان والياً على البحرين من قِبل أميرالمؤمنين عليه السلام قبل النعمان بن عجلان الذى جعله الإمام والياً على البحرين بعده، ومن اللازم التعرف على هذين الرجلين بشىء من الاختصار.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۱۱

أمّا عمر بن أبى سلمة فأمّه أمُّ سلمة زوجة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله المعروفة، وقد ولدت من زوجها السابق هذا الابن، وأبوه أبوسلمة، وقد ولد هذا الابن فى السنة الثانية من الهجرة إلى الحبشة، لأنّ أباه كان من المهاجرين إلى الحبشة وقد توفى بعد عمر طويل نسبياً فى عام ۸۳ ه للهجرة فى عهد خلافة عبد الملك بن مروان، وقد روى بعض الأحاديث عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله

[۱۸۴].

وقـد كـان عمر بن أبى سـلمة مع الإمام على عليه السـلام فى معركـة جمل وكانت امّه تحثه على نصـرة الإمام على، وقـد كتبت للإمام رسالة ودفعتها إلى ابنها يوصـلها إلى الإمام عليه السلام: وجاء فى مضمونها لو أنّ الجهاد كتب على النساء لجئت لُاقاتل معك الأعداء، ولكننى أرسلت إبنى هذا بدلًا منّى.

ثمّ إنّ أميرالمؤمنين على عليه السـلام عيّنه واليـاً على البحرين وبلاد فارس فى أيّام خلافته، ويكفيه فخراً أنّه قـد تربى فى أحضان النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وسار فى خط الولاية وفى نصرة الإمام على عليه السلام ۱۸۵].

وجاء فى بعض الروايات أنّ عمر بن أبى سـلمة كان من الأشـخاص الذين نقلوا الحديث الشريف عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فيما يتصل بإمامة الاثنى عشر[۱۸۶].

أمّا النعمان بن عجلان فكان من صـحابة النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله ومن كبار الأنصار وكان شاعراً وخطيباً بارعاً، ومن جملـة ما أنشده فى يوم السـقيفة بعد أن أثنى على مواقف الأنصار فى مواطن مختلفة ونصـرتهم للإسلام والنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ذكر فى قصيدته بيتين من الشعر فى الدفاع عن الإمام على ونصرته:

وَكَانَ هَوانا فِى عَلىٍّ وَإنَّهُلأَهلٌ لَها مِنْ حَيث تَدْرِى وَلا تَدْرِى

وَصَىُّ النَّبىِّ المُصْطَفى وَابنُ عَمِّهِوَقَاتِلُ فُرسَانَ الضَّلالةِ وَالكُفْرِ

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۱۲

وبسـبب هـذه السوابق الجليلـة عيّنه الإمام على عليه السـلام على حكومة البحرين بعد عمر بن أبى سـلمة ووضع بيده بيت المال، ولكن للأسف أنّ الأموال الكثيرة تدفع بالإنسان نحو منزلقات الخطيئة والمفسدة، قام هذا الوالى باعطاء مبلغ كبير من بيت المال لكلّ فرد من أفراد قومه وقبيلته يـأتيه إلى البحرين فلما وصل خبر ذلك إلى أميرالمؤمنين عليه السـلام، كتب له كتاباً توبيخياً وطلب منه أن يرفع إليه حساب بيت المال، ولكن بما أنّ النعمان لم يتمكن من حساب الأموال بشـكل صـحيح ودقيق، فقد أخذ ما تبقى من بيت المال وهرب إلى الشام والتحق بمعاوية[۱۸۷].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۱۳

الرسالة ۴۳

اشارة

إلى مَصْقَلَةِ بْنِ هُبَيْرَةِ الشَيْبانى وَهُوَ عامِلُهُ

عَلى أَرْدِشيرخُرّة[۱۸۸]

نظرة عامّة للرسالة

هـذه الرسالة تشـبه ما ورد فى الكتاب ۴۱، وخلاصـتها أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السـلام كتب إلى والٍ آخر يـدعى مصـقلة بن هبيرة الشـيبانى رسالـة توبيخيـة وشديدة اللهجة، لأنّ الخبر وصل إلى الإمام عن أنّ مصـقلة يتلاعب فى بيت المال ويهب منه إلى أفراد قبيلته بدون حساب وكتاب، فالإمام عليه السلام يلومه بشدّة على هذا العمل، وينصحه أن لا يبيع آخرته بدنياه، ولا دينه بالدينار، ولكن الإمام لا يتهمه بشكل قطعى فى هذه الرسالة، بل يقول: إذا كان ما بلغنى عنك صحيحاً فأنت قد إرتكبت خطأ كبيراً واسخطت إلهك.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۱۵

بَلَغَنِی عَنْکَ أَمْرٌ إِنْ کُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلَهَکَ، وَعَصَیْتَ إِمَامَکَ: أَنَّکَ تَقْسِمُ فَیْءَ الْمُسْلِمِینَ الَّذِی حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخُیُولُهُمْ، وَأُرِیقَتْ عَلَیْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِیمَنِ اعْتَامَکَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِکَ، فَوَ الَّذِی فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَئِنْ کَانَ ذَلِکَ حَقّاً لَتَجِدَنَّ لَکَ عَلَیَّ هَوَاناً، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِی مِیزَاناً، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّکَ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْیَاکَ بِمَحْقِ دِینِکَ، فَتَکُونَ مِنَ الْأَخْسَرِینَ أَعْمَالًا. أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَکَ وَقِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِینَ فِی قِسْمَةِ هَذَا الْفَیْءِ سَوَاءٌ: یَرِدُونَ عِنْدِی عَلَیْهِ، وَیَصْدُرُونَ عَنْهُ.

الشرح والتفسیر: جمیع المسلمین سواسیة فی بیت المال

اشارة

یستفاد من عنوان هذه الرسالة وکذلک ما ورد فی الخطبة ۴۴ من هذا الکتاب، أنّ مصقلة بن هبیرة الشیبانی کان أحد عمّال الإمام علیه السلام وکان والیاً علی قسم مهم بلاد فارس یسمی «اردشیر خرة» ویشمل عدّة مدن وقری، وکما یقول ابن أبیالحدید کان مصقلة من أحفاد نزار بن معد بن عدنان ۱۸۹].

وکانت لمصقلة بن هبیرة قصّة فیما یتصل بأسری بنی ناجیة وقد وردت تفاصیلها فی الخطبة ۴۴ إذ أنّ بنی ناجیة کانوا من النصاری الذین أسلموا بعد الفتح وبقیت جماعة منهم علی نصرانیتهم أو أنّهم ارتدوا علی الإسلام، وبعد هزیمة أصحاب الجمل فی البصرة بایع الناس فی تلک المنطقة لأمیرالمؤمنین علیه السلام سوی بنی

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۱۶

ناجیة الذین جهّزوا جیشاً لمقاتلة الإمام، فأرسل لهم أمیرالمؤمنین، معقل بن قیس وهزمهم وأسر جماعة منهم، وعندما حملوا الأسری إلی الکوفة وصلوا فی طریقهم إلی منطقة «اردشیر خرة» وکان فیها مصقلة والیاً علیها من قِبل الإمام علی علیه السلام، فاشتراهم مصقلة من معقل وکان عددهم خمسمائة نفر ودفع فی مقابل ذلک غرامة تساوی خمسمائة ألف درهم وأطلق سراحهم ثمّ دفع هذا المبلغ من أموال بیت المال علی أساس أنّه قرض یقترضه من بیت المال ویسدده بعد ذلک ولکنّ مصقلة أخذ یسوف فی تسدید الدین، ثمّ إنّه جاء بعد مدّة إلی الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام فی الکوفة ودفع له مبلغاً من المال وهو یتوقع أن یعفو الإمام عن الباقی ولکن الإمام لم یقبل بذلک، لأنّه ربّما تکون موافقته وتنازله عن الحقّ المذکور بدعة بحیث یتداع إلی الأذهان ما کان یفعله عثمان بصرفه فی بیت المال، وبما أنّ مصقلة کان یخشی من عدالة الإمام ومطالبته ببقیة المال رجح الهرب إلی الشام والالتحاق بمعاویة.

ومهما یکن من أمر فإنّ الرسالة مورد البحث تشیر أیضاً أنّ مصقلة کان من أتباع مدرسة عثمان بن عفان وکان یوزع أموال بیت المال علی أقربائه وأرحامه قبل حادثة أسری بنی ناجیة، وعندما وصل خبره إلی الإمام علیه السلام کتب له الإمام الرسالة مورد البحث.

وتشیر هذه الرسالة إلی ثلاثة نقاط فی غایة الأهمیّة الاولی أنّه یقول:

«بَلَغَنِی عَنْکَ أَمْرٌ إِنْ کُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلَهَکَ، وَعَصَیْتَ إِمَامَکَ».

وهذه العبارة التی ذکرها الإمام علیه السلام بشکل مقتضب تشیر إلی أنّ الإمام کان قد سمع خبراً عن مصقلة لم یجزم بصحته وأنّه اتّخذ جانب الاحتیاط لئلا یتهم شخصاً بریئاً.

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام یبیّن بشکل واضح ومفصّل الخبر المذکور ویقول:

«أَنَّکَ تَقْسِمُ فَیْءَ الْمُسْلِمِینَ الَّذِی حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ، وَخُیُولُهُمْ وَأُرِیقَتْ عَلَیْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِیمَنِ اعْتَامَکَ ۱۹۰]

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۱۷

مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِکَ».

ومعلوم أنّ مصقلة إذا كان قد إرتكب مثل هذا العمل فإنّه يكون قد اقترف عملًا شنيعاً، لأنّه أنفق المال الذى يعتبر حصيلة دماء المجاهدين والشهداء من أجل تقوية مكانته الاجتماعيّة فى قومه.

ويتابع الإمام عليه السلام خطاب لمصقلة فى القسم الثانى من هذه الرسالة ويقول:

«فَوَ الَّذِى فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ[۱۹۱]، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقّاً لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَاناً، وَلَتَخِفَّنَ عِنْدِى مِيزَاناً».

وهكذا نرى أنّ الإمام عليه السلام فى هذه العبارات يتخذ مرّة أخرى جانب الاحتياط فى الحكم على المتهم فربّما وقع بعض الخطأ والاشتباه فى نقل المخبرين وبالتالى ستتعرض سمعة رجل مؤمن إلى الاهتزاز والهتك، ويقول الإمام: إنّه إذا كان هذا الخبر صحيحاً فستسقط من عينى ويخف ميزانك عندى.

ونلاحظ أنّ الإمام عليه السلام فى هذا المورد لا يهدده بعقوبة قاسية ولكنّه يخاطبه بآلية التوبيخ المعنوى التى تعدّ أقسى وأشد من العقوبة الظاهريّة.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه لمصقلة ويتحدّث معه بلغة النصيحة الصريحة والعميقة المغزى ويقول:

«فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ ۱۹۲] دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا».

وبديهى أنّ أى إنسان عاقل ومؤمن لا ينبغى أن يرجح حقّ أقربائه على حقّ اللّه تعالى، ويهتم لمصالحهم على حساب طاعة اللّه، فلا ينبغى لأىإنسان عاقل أن يستبدل رأس مال دينه الذى يقوده إلى الجنّة ويعتبر سبب نجاته فى الآخرة، بمتاع

نفحات الولايۀ، ج ۱۰، ص: ۱۱۸

الدنيا والزائل والرخيص، وعبارة: «

الْأَخْسَرِينَ

» إشارة إلى أنّ الإنسان يبيع أثمن ما لديه من بضاعة ومتاع بأزهد وأرخص ثمن.

وبما أنّ مصقلة ربّما كان يظن أنّ عطاءه لأقربائه من بيت المال يدخل تحت عنوان صلة الرحم وأنّه بعمله هذا يتحرك فى خط الفضيلة والإحسان، نرى أنّ الإمام عليه السلام تحدّث عن ذلك بعبارة:

«الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا»

، ولعلّه إشارة إلى مورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»[۱۹۳].

ثمّ يشير الإمام عليه السلام فى ختام هذه الرسالة إلى نقطة مهمّة من تعاليم الإسلام وأحكامه فيما يتصل بحقوق المسلمين فى بيت المال ويقول:

«أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِى قِسْمَةِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ: يَرِدُونَ عِنْدِى عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ».

وجملة «

يَرِدُونَ عِنْدِى عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ»

نظر إلى أنّ كلمة «ورود» و «صدور» ترتبط فى الأصل بورود العطشى إلى شريعة المال ثمّ حملهم الماء ثمّ عودتهم إلى مكانهم، فالإمام عليه السلام يشير هنا إلى هذه النقطة، وهى أنّ بيت المال كالنهر كبير الذى أجراه اللّه تعالى للمسلمين وهم فيه سواء، وكل شخص يرد هذا النهر من هذا الطريق يروى ظمأه وينتفع منه ثمّ يخرج منه.

وعبارة «

عِنْدِی

» لا ـ تعنی أنّه ینبغی حمـل جمیع أموال بیت المـال إلی الإمـام علیه السـلام أنّ الواجب علی المسـلمین أن یتوجهوا من المنـاطق القریبهٔ والبعیـدهٔ إلی مرکز الحکومـهٔ وإلی الإمـام لـدفع مـا علیهم من حقوق الشـرعیهٔ ثمّ العودهٔ إلی مناطقهم، المراد أنّ هـذا العمل یجب أن یکون طبق البرنامـج الـذی احـدده لـک وتحت إشـراف، لا أن یقوم عمّالی ووکلائی بتقسـیم بیت المال وفق ما یرونه وبوحی میولهم ورغباتهم.

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۱۹

وعلی أیّهٔ حـال فهـذه الجملـهٔ تشـیر إلی أنّ بیت المال یجب أن یقسّم بین المسـلمین بصورهٔ متساویـهٔ کما کان الحال فی عصـر النّبی الأکرم صـلی الله علیه و آله ولا یکون مثلما کان فی عهد الخلیفهٔ الثانی الذی کان یرجح العرب علی العجم، الأشـراف والصحابهٔ علی الآخرین، أو مثل عصـر عثمان الذی کان یقسّم بیت المال بین أقربائه وأرحامه من بنی امیّهٔ بتمییز سافر بین المسـلمین والإشـکال الذی وقع فیه مصقلهٔ هو أنّه کان متأثراً بثقافهٔ عصر عثمان حیث کان یری امتیازاً خاصّاً علی سائر المسلمین.

وممّا یجدر ذکره أنّ أموال بیت المال فی هذا المورد لا تختص بالزکاهٔ وأمثالها التی ترتبط بالأصناف الثمانیهٔ من المستحقین کما ورد فی الفقه، بل یقصد بها أموال الخراج علی الأراضـی المفتوحهٔ فی ذلک الیوم، حیث کان الولاهٔ یضـعون الضرائب والخراج علی جمیع الأراضـی المذکورهٔ بنسبهٔ عادلهٔ وکان جمیع المسلمین فی ذلک سواء، لأنّ هذه الأراضی قد فتحت عنوهٔ بأید المجاهدین ولا فرق فی هذا الأمر بین الغنی والفقیر والعرب والعجم، خلافاً لأموال الزکاهٔ التی تختص بالفقراء والمساکین وباقی الطوائف المستحقین لها، وبما أنّ غالبیهٔ الأموال التی تجتمع فی بیت المال من أموال الخراج، ولذلک یطلق علیها عبارهٔ أموال بیت المال.

ومعلوم أنّ المناطق والأراضـی فی البلاد الإسـلامیّهٔ تختلف فی میزان الخراج والضـرائب المترتبهٔ علیها، ففی بعض لمناطق حیث تکون الأراضـی زراعیّهٔ وبسـتاتین کثیرهٔ المحصول، فـالخراج علیهـا یکون کثیراً، وفی بعض المناطق أقلّ من ذلک حیث یصـرف خراج مثل هذه المناطق علی أهلها ولا یستحق نقلها مرکز الخلافهٔ.

ومن هـذه الجهة یقول الإمام علیه السـلام: علی فرض أنّک وزعت خراج تلک المنطقهٔ علی جمیع الناس، فمع ذلک کان عملک هذا مجانباً للصواب، لأنّ هذا الخراج یتعلق بجمیع المسـلمین، سواءً من کان فی منطقتک أم فی منطقتنا، فجمیع المسلمین ینبغی أن ینتفعوا ویستفیدوا من هذا المال بصورهٔ عادلهٔ ومتساویهٔ.

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۲۰

تأمّل

جواب مصقلهٔ للإمام علیه السلام

ورد فی بعض الروایات أنّ مصـقلهٔ بعد أن استلم رسالهٔ الإمام علیه السلام إلیه کتب له رسالهٔ جوابیهٔ یبرىء فیها نفسه، یقول فی رسالته للإمام:

«أمّـا بعـد، فقـد بلغنی کتـاب أمیرالمؤمنین فلیسـأل إن کـان حقّاً فلیعمل علی عزلی بعـد نکالی، فکلّ مملوک لی حرّ، وعلیَّ أیّام ربیعهٔ ومضر، إن کنت رزئت من عملی دینـاراً، ولا ـ درهمـاً، ولا ـ غیرهـا، منـذ وُلیته إلی أن ورد علیَّ کتاب أمیرالمؤمنین، ولتعلمنّ أنّ العزل أهون علیَّ من التهمـهٔ، فلمـا قرأ- الإمام علیه السـلام- کتابه قال: ما أظنّ أباالفضل إلّاصادقاً»[۱۹۴]، (یعنی أنّ المخبرین قـد أخطأوا فی إخبارهم).

ولکن یستفاد من بعض الروایات أنّ معاویة بعد استشهاد الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام اختار مصقلة أن یکون والیاً علی طبرستان (مازندران فی هذا العصر) ولکن مصقلة قتل قبل أن یصل إلی تلک المنطقة ولم یعد من سفره هذا أبداً، بحیث صار ذلک مضرب مثل بین الناس، فعندما لا یرید المرء القیام بعمل معین یقول: انتظر حتی یعود مصقلة من طبرستان ۱۹۵].

وقد کتابنا بحوث مفصلة عن مصقلة ذیل الخطبة ۴۴.

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۲۱

الرسالة ۴۴

اشارة

إلی زِیادِ ابْنِ أَبیهِ وَقَدْ بَلَغَهُ أنَّ مُعاوِیَةَ کَتَبَ إلَیْهِ

یُریدُ خَدیعَتَهُ بِاسْتِلْحاقِهِ ۱۹۶]

نظرة عامّة للرسالة

إنّ قصّة هذه الرسالة تبدأ من وصول خبر إلی الإمام علی علیه السلام أنّ معاویة أرسل إلی زیاد بن أبیه رسالة یدعی فیها أنّه أخوه الحقیقی، وعلی هذا الأساس ألحق معاویة زیاد بن أبیه الولد غیر المشروع بأبی سفیان، وأراد بهذه الطریقة أن یخدع زیاد ویتمکن من جذبه إلیه لتحقیق أهدافه وغایاته.

الإمام علی علیه السلام فی هذه الرسالة یحذّر زیاد بن أبیه الذی کان فی ذلک الزمان والیاً علی بلاد فارس من قِبل الإمام، بأنّ هذه الخطة هی خطة شیطانیّة مدروسة من قِبل معاویة فلا ینبغی أن تقع فی حباله وتنخدع برسالته، فکل ابن یرتبط بعلاقة

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۲۲

البنوة بأبیه وامّة فی البیت الذی ولد فیه، وحتی النسبة غیر المشروعة التی تقوم علی أساس ادّعاء شخص مثل أبی سفیان بأنّ زیاد من نطفته لا تثبت حقیقة، وعندما وصلت الرسالة إلی زیاد قبل کلام الإمام وهدأت نفسه، رغم أنّ زیاد بعد استشهاد الإمام التحق بمعاویة بسبب هذه الخدیعة مع إضافة بعض التهدید لزیاد.

ولکن المستفاد من کتب التاریخ أنّ ام زیاد کانت جاریة لطبیب معروف عند العرب یدعی «حارث بن کلدة» والتی تزوجت من عبد یدعی «عبید» وحسب الظاهر کان زیاد نتیجة ذلک الزواج، ولذلک یقال له: زیاد بن عبید، ولکن بما أنّ والده کان عبداً وغلاماً غیر معروف فرجح بعضهم أن یقال عن زیاد «زیاد بن أبیه» والظاهر أنّ زیاد نفسه لم یکن یأبی هذا الاسم، ولکنّه بعد إلحقه معاویة بأبی سفیان ادّعی أنّه أخوه کان یقال له: زیاد بن أبی سفیان، والحقیقة أنّ کلّ الإنسان یستولی علیه العجب والحیرة من هذه الوقاحة بأنّ شخصاً یدعی لنفسه خلافة رسول اللّه صلی الله علیه و آله ومع ذلک یصرح بأنّه أخ لابن الزنا، والأمر الآخر المثیر للعجب أنّ المحیط الاجتماعی فی ذلک الوقت إلی درجة من التلوث والتشوه بحیث قبل زیاد بن أبیه هذا الادّعاء.

***

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۲۳

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِیَةَ کَتَبَ إِلَیْکَ یَسْتَزِلُّ لُبَّکَ، وَیَسْتَفِلُّ غَرْبَکَ، فَاحْذَرْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّیْطَانُ: یَأْتِی الْمَرْءَ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ

يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ. وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِی سُفْيَانَ فِی زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَنَزْغَةٌ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ: لَايَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدَفَّعِ، وَالنَّوْطِ الْمُذَبْذَبِ.

فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادٌ الْكِتَابَ قَالَ: شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَلَمْ تَزَلْ فِی نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ.

قال الرضی، قوله عليه السلام: «الواغِل» هُوَ الَّذی يَهْجُمُ عَلَى الشُّرْبِ لِيَشْرِبَ مَعَهُمْ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ، فَلا يَزالُ مُـدَفَّعاً مُحاجزاً. و «النَّوْطُ الْمُذَبْذَبِ»: هُوَ ما يُناطُ بِرَحْلِ الرَّاكِبِ مِنْ قُعْبٍ أوْ قَدَحٍ أوْ ما أشْبَهَ ذلِکَ، فَهُوَ أَبَداً يَتَقَلْقَلُ إذا حَثَّ ظَهْرَهُ وَاسْتَعْجَلَ سَيْرُهُ.

الشرح والتفسير: إحذر من أغوائهم!

اشارة

طبقاً لما ورد فی كتاب تمام نهج البلاغة، أنّ الإمام عليه السلام فی مستهل هذه الرسالة يخاطب زياد بن أبيه ويشوقه على الصبر والاستقامة فی مقابل الوساوس الشيطانيّة التی تنبعث هنا وهناک، ثمّ يقول:

«وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْکَ يَسْتَزِلُ [۱۹۷] لُبَّکَ [۱۹۸]،

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۲۴

وَيَسْتَفِلُ [۱۹۹] غَرْبَکَ [۲۰۰]، فَاحْذَرْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ».

ويستفاد من هذه العبارات وعبارات أخرى وردت فی الرسائل السابقة، أنّ جواسيس الإمام عليه السلام كانوا ينتشرون فی جميع البلاد الإسلاميّة، حتى أنّهم كانوا يصلون إليه الرسائل الخاصّة التی تصل إلى ولاته من قِبل الأعداء، ليستطيع الإمام التصدی للخطر فی الوقت المناسب، ونرى أنّ الإمام عليه السلام فی مطلع هذه الرسالة يحذّر زياد بن أبيه من شيطنة معاوية وأن يتخذ جانب الحيطة والحذر من مكره ودسائسه.

ثمّ يضيف فی توضيح ذلک:

«يَأْتِی الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ [۲۰۱] غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلِبَ [۲۰۲] غِرَّتَهُ [۲۰۳]».

وهذا الكلام للإمام عليه السلام مقتبس من الآية الشريفة ۱۷ من سورة الأعراف حيث تتحدّث عن قول الشيطان: «ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْديهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرينَ».

والمقصود أنّ الشيطان يستخدم كلّ وسيلة لخداع الناس وإغوائهم، فأحياناً يستخدم آلية التطميع أو أخرى التهديد وثالثة الشهوات والأهواء والنوازع النفسانيّة، ورابعة عن طريق الآمال والتمنيات والمناصب والمقامات الموهومة والعناوين البراقة، والغاية من كلّ ذلک تنحصر بأمر واحد، ألا وهو إغواء الإنسان وسوقه فی متاهات الضلالة والهلكة.

وقد استخدم شيطانِ الشام هذا الاسلوب أيضاً وسعى إلى خداع الناس كلّ بحسب طريقته الخاصّة لجذبهم إليه والاستفادة منه فی مسار تحقيق مطالبه وشهواته.

وينقل عن أحد العرفاء أنّه قال: ما من صباح إلّاقعد لی الشيطان على أربعة

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۲۵

مراصد من بين يدی ومن خلفی وعن يمينی وعن شمالی، أمّا بين يدی فيقول لا تخف فإنّ اللّه غفور رحيم، فأقرأ: «وَإِنِّی لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى [۲۰۴] وأمّا خلفی فيخوّفنی الضيقة على مخلفی فأقرأ: «وَما مِنْ دابَّةٍ فِی الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها»[۲۰۵]، وأمّا عن قبل يمينی فيأتينی من جهة الثناء، فأقرأ: «وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقين»[۲۰۶]، وأمّا من قبل شمالی فيأتينی من قبل الشهوات فأقرأ: «وَحيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ»[۲۰۷]،[۲۰۸].

ووقد ورد فی الروایات فیما یتصل بهذه الجهات الأربع للشیطان ما خلاصته: «ما روی عن أبی جعفر علیه السلام قال: « «ثُمَّ لَآتِیَنَّهُمْ مِنْ بَیْنِ أَیْدیهِمْ»

، معناه، اهَوّنُ عَلَیهِم أمْرَ الآخِرَهْ،

«وَمِنْ خَلْفِهِمْ»

، آمُرُهُم بِجَمعِ الأمَوالِ، وَالبُخلَ بِها عَنِ الحُقُوقِ لِتَبقی لِوَرثِتِهِم،

«وَعَنْ أَیْمانِهِمْ»

أفسُدُ عَلَیِهم أمَر دِینِهِم بِتَزیینِ الضّلالهِ، وَتَحسِینِ الشُّبهَهِ،

«وَعَنْ شَمائِلِهِمْ»

بِتَحبِیبَ اللّذاتِ إلیهِم، وَتَغلِیبِ الشّهواتِ عَلی قُلُوبِهِم ...»[۲۰۹].

أجل، فإنّ وساوس شیاطین الجن والإنس تهجم علی الإنسان من کلّ باب لإغواءه وإضلاله.

وهنا ربّما یطرح هـذا السؤال وهو: لماذا لم تذکر النصوص جهة الفوق والتحت فی مسألة إتیان الشـیطان؟ ذهب بعضـهم إلی أنّ ذلک بسـبب أنّ جهـة العلو هی جهـة الرحم، لأـنّ الرحمـة الإلهیّـة تنزل دائماً من هـذه الجهـة علی الإنسان، وأمّا جهـة التحت سبب الخوف والوحشة، فلو أنّ شخصاً خرج من باطن الأرض ودعا الإنسان إلی عمل معین وذلک من شأنه إخافة هذا الإنسان والاستیحاش منه.

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۲۶

ویحتمل أنّ الشـیاطین یأتون إلی الناس بشـکل طبیعی، ونعلم أنّه لا أحـد یأتی إلی شـخص آخر من جهـة الفوق والتحت، بل یأتیه من إحدی جوانبه الأربعة.

نفحات الولایة ؛ ج ۱۰ ؛ ص۱۲۶

ّ إنّ الإمام علیه السلام تعرض فی سیاق کلامه لادعاء معاویة فی الحاق زیاد بن أبیه به (بوصفه أخاه) واستدل علی بطلان هذا الادّعاء بدلیل منطقی وقال:

«وَقَدْ کَانَ مِنْ أَبِی سُفْیَانَ فِی زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَهٌ[۲۱۰] مِنْ حَدِیثِ النَّفْسِ، وَنَزْغَهٌ[۲۱۱] مِنْ نَزَغَاتِ الشَّیْطَانِ: لَایَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلَا یُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ».

وقول الإمام علیه السلام «فلتة» من قِبل أبی سفیان إشارة إلی ما ذکره ابن أبی الحدید فی شرحه نقلًا عن کتاب «الاستیعاب» لابن عبد البر قال: إنّ عمر بعث زیاد فی إصلاح فساد واقع فی الیمن، ولما رجع من جهته خطب عند عمر خطبة لم یُسمع مثلها، وأبوسفیان حاضر، وعلی علیه السلام وعمرو بن العاص، فقال عمرو بن العاص: للّهأبو هـذا الغلام، لو کان قرشیاً لساق العرب بعصاه، فقال أبو سفیان: إنّه لقرشی، وإنی لأـعرف الـذی وضعه فی رحم امّه، فقال علی علیه السلام: ومن هو؟ قال: أنا. فقال: مهلًا یا أباسفیان (أی اسکت)! وجاء فی روایة أخری أنّه علیه السلام قال: اسکت یا أباسفیان فإذا سمعک عمر فإنّه سیسارع فی عقابک.

وجاء فی روایة ثالثة أنّ عمرو بن العاص قال له: إذا کنت تعلم أنّ زیاد ابنک، فهلا تستلحقه، قال: أخاف هذا العیر الجالس أن یخرق علیَّ إهابی ۲۱۲].

ومن المعلوم أنّ أبا سفیان لاـ یستطیع إثبات أنّ نطفة زیاد من عنده بسبب إرتکابه لعمل منکر مع ام زیاد، بل اعتمد علی الظّن والتخمین، ولکنّه تحدّث بلسان بکل صلافة ووقاحة عن ذلک فی حضور الإمام علی علیه السلام وآخرین، ولهذا السبب

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۲۷

یذکّر الإمام علی فی رسالته مورد البحث زیاد بن أبیه بأنّ مثل هذه الادّعاءات الشیطانیّة لا تعتبر معیاراً لإثبات النسب فی الإسلام، ومن

هـذه الجهـة لا يمكنك أن ترث أبا سـفيان أبـداً، لأنّ ابن الزنا لا يرث من أبيه وامّه شـيئاً (وأنت بـدورك لم تـدعِ ميراثاً لنفسك منه) وعلى ضوء ذلك لاينبغي أن تسلم نفسك لوساوس معاوية الشيطانيّة.

وفي ختام الرسالة يقول الإمام عليه السلام:

«وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدَفَّعِ ٢١٣]، وَالنَّوْطِ الْمُذَبْذَبِ».

وبعبارة أخرى إنّ معاويـة إذا أراد أن يـدعى إخوتك له من هذا الطريق ووافقته على ذلك، فسوف لن تكون ابناً لأبى سـفيان ولا أخاً لمعاويـة بل تكون وسـمة عار لك أيضاً بأنّك ابن زنا، حتى أنّك لا تنال ميراثاً من تلك العائلة الغريبة عنك ولا تحسب ابن مشـروعاً لها، رغم أنّ إخوة معاوية الذى إرتكب الكثير من أعمالًا قبيحة والشنيعة لا تعدّ افتخاراً لك.

والجدير بالذكر أنّ هذه الرسالة وطبقاً لما أورده المرحوم السيّد الرضى فى ذيلها كانت مؤثرة فى قلب زياد إلى درجة أنّه قال:

«فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادٌ الْكِتَابَ قَالَ: شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ».

ثمّ إنّ معاويـة أبقى زياد بن أبيه فى موقعه والياً على بعض بلاد فارس، ثمّ نقله والياً على العراق ووضع تحت تصـرفه منطقـة مهمّـة من العراق، وكانت هذه الوصـمة باقية فى زياد ابن أبيه بسـبب حبّه لجاه والمقام بحيث إنّ هذا الهاجس قاده آخر المطاف إلى وادى الشر والشيطنة.

ويحتمل أيضاً فى تفسير هذه العبارة من كلام زياد بن أبيه أنّ مقصود زياد هو أنّ أبا سفيان شهد بهذا الأمر قطعاً بأننى من نطفته، وهذا المعنى بقى فى نفسه إلى زمان الحاق معاوية لزياد به.

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٢٨

يتحدّث السيّد الرضى فى هذا المورد عن تفسير بعض اللغات الغامضة:

«قـال الرضـى، قوله عليه السـلام: «الواغِـل» هُوَ الَّذى يَهْجُمُ عَلَى الشُّرْبِ لِيَشْـرِبَ مَعَهُمْ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ، فَلا ـ يَزالُ مُـدَفَّعاً مُحاجِزاً. و «النَّوْطُ الْمُذَبْذَبِ»: هُوَ ما يُناطُ بِرَحْلِ الرَّاكِبِ مِنْ قُعْبٍ أوْ قَدَحٍ أوْ ما أشْبَهَ ذلِكَ، فَهُوَ أَبَداً يَتَقَلْقَلُ إذا حَثَّ ظَهْرَهُ وَاسْتَعْجَلَ سَيْرُهُ».

تأمّل

قصّة نسب زياد المعقدة

فى هذا المورد كلام كثير، إلى درجة أنّ بعض شـرّاح نهج البلاغة كتب فى هذا الموضوع عشـرات الصـفحات، ونشير فى هذا المورد إلى عدّة مسائل:

١. هل أنّ زياد ابن زنا؟

ما يسـتفاد من الرسالة أعلاه هو أنّ الإمام عليه السـلام نفى ادّعاء أبى سـفيان وكذلك معاوية بأنّ زياد الابن غير المشروع لأبى سفيان، وقال إنّ هذا ادّعاء شيطانى، وفى ظاهر الشرع بأنّ كلّ ولد يلحق بأبيه وامّه اللذين تربطهما رابطة الزواج ويولد الولد فى ذلك البيت.

مضافاً إلى أننا نعلم أنّ الإمام عليه السـلام نصب زياد والياً من قِبله على فارس، وهـذا المنصب يسـتلزم بمفهومه إجازته لإمامـة الجمعة والجماعـة، فكيف يمكن أن يختـار الإمـام عليه السـلام شـخصاً لهـذا المقام وهو ابن زنا، فى حين أننا نعلم أنّ مشـروط إمامـة الجمعة والجماعة طهارة المولد.

ومن جهة أخرى، فقد ورد فى التواريخ فيما يتصل بواقعة كربلاء وعاشوراء أنّ الإمام سيّد الشهداء عليه السلام قال:

«أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيَّ قَدْ تَرَكَنِى بَيْنَ السِّلَّةِ وَالذِّلَّةِ ... هَيْهَاتَ مِنِّى الذِّلَّةُ»[٢١٤].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۲۹

أمّا ما هو المقصود بكلمة «الدعیّ» فی نظر اللغة، بذهب بعض إلی أنّ المراد هو ابن الزنا، ولكن عندما نراجع كتب اللغة نجد أنّ لهذه الكلمة مفهوماً عاماً وتعنی من يدعی البنوة، وكذلك تطلق علی الشخص المتهم بنسبه، وجاء فی لسان العرب:

الدعی يعنی من يدعی له البنوة، وكذلك الابن الذی ينسب لغير أبيه.

يقول القرآن الكريم: «وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُم»[۲۱۵] وعلی هذا الأساس فربّما أراد الإمام عليه السلام أنّ القول بأنّ زياد قد ولد فی اسرة حقيرة لا شأن لها كما يولد العبيد، وقد نسب إلی غير أبيه لغرض كسب المكانة والموقع فی المجتمع.

ويحتمل أيضاً أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بيّن الحكم الظاهری للمسألة، وهو «الْوَلَدُ لِلْفِرَاش» ولكن الإمام الحسين عليه السلام ذكر حقيقة الأمر وأنّ زياد ابن غير مشروع.

وأمّا لابن زياد المسألة أوضح وأجلی فی أنّه ابن غير مشروع وأنّ امّه مرجانة المشهورة بالفجور، ومن هذه الجهة وطبقاً لما ورد فی تواريخ كربلاء، خاطبت الحوراء زينب عليها السلام ابن زياد عندما رام توبيخها وذمّها بقولها له: «يابن مرجانة».

ويحتمل أيضاً فی المقام من «الدعی بن الدعی» يزيد وأبيه معاوية وأنّه إشارة إلی نسبهما المتلوث.

۲. والد زياد ووالدته

المعروف أنّ والد زياد كان عبداً يدعی عبيد وقد تزوج من جارية «حارث بن كلدة» من أطباء العرب المعروفين واسمها سميّة، وقد ولد زياد فی بيتها، رغم أنّ أبا سفيان ومن بعده معاوية سعيا إلی تبنی زياد واعتباره ابناً لأبی سفيان، وأمّا ما يقال من أنّ سميّة كانت من ذوات الأعلام (أی النسوة المعروفات بالفحشاء والزنا) فهو

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۳۰

بعيد، لأنّ جارية طبيب معروف كحارث بن كلدة لا يمكن أن تكون من ذوات الأعلام كما هو المعروف.

ولكن ورد فی كتب التاريخ أنّ أباسفيان توجه فی سفر إلی الطائف وطلب من شخص يدعی أبومريم، وهو من الأشخاص السيیء الصيت امرأة فاحشة ليمارس معها الجنس، فقدم له أبو مريم سميّة امّ زياد، وقالت له: دع زوج عبيد يعود من الصحراء وينام فی البيت وسوف أتی إليك، ثمّ إنّها جاءت إلی أبی سفيان ومارست الجنس معه، ولعل أبا سفيان عندما قال أنّه زياد ابنی كان ناظر إلی هذه الواقعة.

۳. قصّة استلحاق معاوية لزياد

إنّ قصّة الحاق معاوية لزياد بآل أبی سفيان واتخاذه أخاً له تعدّ من عجائب تاريخ الإسلام، يقول الشيخ المصری المعروف محمّد عبده فی شرحه لنهج البلاغة:

إنّ قصّة زياد بن أبيه قصّة غريبة تدعو الإنسان إلی التأمل، لأنّ معاوية نسبه إلی لأبی سفيان ليكون أخاًه مدعياً أنّ أبا سفيان عاشر امّه سميّة وهی زوجة رجل آخر، فأنجبت زياداً منها.

ثمّ يضيف: وأغرب ما فی القصّة أنّ ادّعاء هذه الاخوة (غير المشروعة) وقعت فی مجلس علنی ورسمی وبتحقيق الادّعاء علی رؤوس الأشهاد فلم يخجل منه زياد، موازناً بين مغانم هذه الإخوة وبين إزدراء الناس له، ففضل إخوة الخليفة علی سلامة العرض، وهكذا فی سبيل السلطة لم يكن الرجل ذوالنخوة يخجل من أن يثلم عرضه إذا كان فی هذه منفعة (ولو بشكل غير مشروع علی سلامة وصحة نسبه، أجل، فمثل هذه الأمور مهدت الطريق السلطة والمقام هذا الرجل المتكبر، فلم يخجل من تعرض شرفه ونسبه إلی الاهتزاز فی مقابل المنافع التی يجنبها من ذلك)[۲۱۶].

ونضيف نحن، أنّ الأعجب من ذلك أنّ المحيط الإسلامی الذی أوجده النّبی

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۳۱

الأكرم صلى الله عليه و آله ولم يمض عليه أكثر من نصف قرن تعرض للتلوث والتشويه بسبب تصرفات بنى اميّة إلى درجة أنّ الخليفة يتجرأ بتثبيت مثل هذا المنكر فى الملأ العام، فالويل للمسلمين إذا سقطوا فى أسر مثل هذه الحكومات الجاهلة والملوثة.

وعلى أية حال فالقصّة كما يلى: روى المدائنى فى كتاب فتوح الإسلام: إنّ معاوية لما أراد استلحاق زياد وقد قدم عليه الشام جمع الناس وصعد المنبر، وأصعد زياد معه وأجلسه بين يديه على المرقاة التى تحت مرقاته، وحمد اللّه وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها الناس، إنى قد عرفت نسبنا أهل البيت فى زياد، فمن كان عنده شهادة فليقم بها، فقام ناس فشهدوا أنّه ابن أبى سفيان، وأنّهم سمعوا ما أقرّ به قبل موته، وقام أبو مريم السلولى، وكان خماراً فى الجاهليّة، فقال: أشهد ياأميرالمؤمنين أنّ أباسفيان قدم علينا بالطائف، فأتانى فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً فلما أكل قال: يا أبا مريم، أصب لى بغياً، فخرجت فأتيت بسميّة، قلت لها: إنّ أبا سفيان ممن عرفت شرفه وجوده، وقد أمرنى أن أصيب له بغياً، فهل لك؟ فقالت: نعم، يجيىء الآن عبيد بغنمه وكان راعياً فإذا تعشّى، ووضع رأسه أتيته، فرجعت إلى أبى سفيان فأعلمته، فلم نلبث أن جاءت تجرّ ذيلها فدخلت معه، فلم تزل عنده حتى أصبحت، فقلت له لما انصرفت: كيف رأيت صاحبتك، قال خير صاحبة ولولا ذَفَر فى أبطيها، فقال زياد من فوق المنبر: يا أبا مريم لا تشتم امّهات الرجال فتشتم امّك، فلما انقضى كلام معاوية ومناشدته، قام زياد، وأنصت الناس فحمد اللّه وأثنى عليه ثمّ قال: يا أيّها الناس إنّ معاوية والشهود قد قالوا ما سمعتم، ولست أدرى حقّ هذا من باطله وهو والشهود أعلم بما قالوا، إنّما عبيد أب مبرور ووالٍ مشكور، ثمّ نزل (الظاهر أنّ المراده من الوالى هو المعاوية)[۲۱۷].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۳۲

۴. نظرة لسيرة زياد بن أبيه

كما تمّت الإشارة إليه آنفاً فقد كان زياد فى الأصل يدعى زياد بن عبيد، وكان أبوه عبداً وراعياً وكانت امّه جارية أبى حارث بن كلدة الطبيب العربى المعروف، وأحياناً يقال له: زياد بن أبيه، وأخرى زياد بن امّه، لأنّ أباه عبد وليس له مكانة اجتماعيّة فى الناس، وبعد أن ألحقه معاوية بنفسه صار يقال له زياد بن أبى سفيان وكان منذ صباه ذكياً وخطيباً مفوهاً وبليغاً، ولد فى الطائفة فى عام فتح مكّة، وقيل إنّه ولد فى عام الهجرة وقال آخرون أنّه ولد يوم بدر، ولكنّه لم يشاهد النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وكان مع أميرالمؤمنين عليه السلام فى جميع حروبه، وبقى مع الإمام الحسن عليه السلام إلى زمان صلحه مع معاوية، وبعد ذلك خدعه معاوية وطلب منه المجيىء إليه وتوفى زياد فى الكوفة فى شهر رمضان عام ۵۳ فى سن ۵۶ (وذهب بعضهم إلى أنّ عمره أكثر من ذلك أو أقل).

أمّا سيرة حياته فتتشكل من مرحلتين متفاوتين تماماً، المرحلة الاولى كان يتحرك فى خط الحقّ، وكان رجلًا موثوقاً ومديراً مدبراً، ولهذا السبب عيّنه الإمام على عليه السلام والياً له على فارس، وقد أدار المنطقة بشكل جيد وكا يجمع الخراج بأفضل صورة ويرسله إلى أميرالمؤمنين عليه السلام فبلغ ذلك إلى معاوية واشتد عليه هذا الأمر، فكتب له رسالة وذكر له فى مضمونها: أمّا بعد فإنّه غرّتك قلاع تأوى إليها ليلًا، كما تأوى الطير إلى وكرها، وأيّما اللّه لولا انتظار بك واللّه أعلم به لكان لك منّى ما قاله العبد الصالح: «فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّاقِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ»[۲۱۸] وكتب فى أسفل الكتاب شعر من جملته:

تَنسى أَبَاكَ وَقَد شَالَتْ نُعُومَتُهُإذا يَخطب النّاسَ وَالوَالِى لَهُم عُمَرُ

فلمّا ورد الكتاب على زياد قام فخطب الناس وقال: العجب من ابن آكلة الأكباد

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۳۳

ورأس النفاق، يهددنى وبينى وبينه ابن عم رسول اللّه صلى الله عليه و آله وزوج سيدّة نساء العالمين وأبى السبطين، وصاحب الولاية والمنزلة والإخاء فى مئة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان، أما واللّه لو تخط هؤلاء أجمعين إلىَّ لوجدنى أحمر مخشن ضراباً بالسيف.

ثمّ كتب زياد رسالة إلى أميرالمؤمنين على عليه السلام وبعث بكتاب معاوية معها: فكتب إليه الإمام على عليه السلام يقول: «أمّا بعد، فإنّى قد وليتك وأنا أراك لذلك أهلًا، فإنّه قد كانت من أبى سفيان فلتة فى أيّام عمر من أمانى التيه وكذب النفس، لم تستوجب بها ميراثاً ولم يستحق بها نسباً، وأنّ معاوية كالشيطان الرجيم يأتى المرء من بين يديه من خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذره ثمّ احذره ثمّ احذره والسلام».

أمّا المرحلة الثانية من حياته اختلفت تماماً عن المرحلة السابقة، وبتعبير معاصر أنّه انقلب ۱۸۰ درجة على ما كان سابقاً، وهذه المرحلة تبتدىء منذ أن خدعه معاوية بواسطة المغيرة بن شعبة، وقد استغل معاوية نقطة الضعف فى زياد هو حبّه للجاه والمقام، فدعاه إليه بعد قضية صلح الإمام الحسن عليه السلام وادّعا إخوته (أنّه ابن غير مشروع لأبى سفيان) وولاه حكومة فارس، ثمّ وسع دائرة نفوذه وألحق بولايته الولاية على الكوفة والعراق، فما كان من زياد من أجل تثبيت حكومته والتصدى للثورات الشعبية ضد معاوية وأزلامه، إلّاأن بدأ بقمع الأصوات المناوئة لحكومة بنى اميّة، وبخاصة الشيعة الموالين لأهل البيت عليهم السلام فكان يستخدم فيهم القتل والقمع والشدّة بأقصى صورها، وقد إرتكب معهم جرائم لا تعدّ ولا تحصى بحيث إنّه شوّه تاريخ الإسلام بأفعاله، ومن ذلك أنّه قبض على «حجر بن عدى» كان رجلًا شجاعاً ومؤمناً ومن شيعة الإمام على عليه السلام المخلصين ومشهوراً بالصلاح والنقاء ومن صحابة النّبى المعروفين، ومعه جماعة من أصحابه وأرسلهم إلى الشام، وقد أمر معاوية بقتل هذا الرجل الصالح فى منطقة «مرج عذراء» وذلك أضاف صفحة سوداء أخرى إلى صفحات حياته السوداء، وقد وصل به الأمردرجة أنّ الحسن البصرى الذى لم تكن له علاقة جيداً مع الإمام على عليه السلام قال فى حقه: إنّ معاوية قد إرتكب ثلاثة أمور، كلّ

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۳۴

واحدة منها تكفى لهلاكه، الأول، أنّه سلط السفهاء والجهلاء على المسلمين ووضع بيدهم مقاليد الحكم والسلطة، والثانى الحاقه لزياد بنفسه خلافاً لقول النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث قال: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» والثالث: قتله لحجر بن عدى، فالويل له من حجر وأصحاب حجر[۲۱۹].

ونحن نقول أيضاً: نعوذ باللَّه من سوء العاقبة وتورط الإنسان فى فخاخ الشياطين من الجن والإنس أن يفارق الحياة فى حال الكفر والضلالة والجريمة.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۳۵

الرسالة ۴۵

اشارة

إلى عُثْمانِ بْنِ حُنَيْفِ الأَنْصارى- وَكانَ عامِلُهُ عَلَى الْبَصْرَةِ وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ دُعى إلى وَليمَةِ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِها، فَمَضى إِلَيْها- قَوْلُهُ ۲۲۰]

نظرة عامّة للرسالة

تعتبر هذه الرسالة من الرسائل المهمّة جدّاً فى نهج البلاغة والتى تتضمّن دروساً ومعطيات كثيرة للسالكين فى طريق الحقّ والإيمان وبخاصّة أولياء الأمور والمسؤولين فى البلدان الإسلاميّة وتتضمّن جهات عدّة:

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۳۶

۱. بدايـة يخاطب الإمام عليه السـلام واليه على البصـرة عثمان بن حنيف ويخبره بخبر مشاركته فى ضـيافة أحـد أشـراف البصـرة، وفى تلك الضـيافة التى لم يشترك فيها سوى الأثرياء والمتوّلين، جلبت إلى المائدة شتى أصـناف الطعام والمأكولات المتنوعة، والإمام هنا يوبّخه على مشاركته فى مثل هذه المائدة.

۲. وفى القسم الثانى من الرسالة يذكر الإمام عليه السلام أنّ كلّ إنسان ينبغى أن يقتدى فى حياته بإمامه وقائده، ثمّ يبيّن له سيرة حياته وسلوكه بوصفه إماماً للمسلمين وكيف أنّه اكتفى من الدنيا بردائين قديمين وبقرصين من الخبز ولم يدخّر لنفسه ثروة ومالًا من زخارف الدنيا، ولكنّه يؤكّد له بأننى لا أتوقع أن تعيش كما أنا أعيش فى واقع الحياة، ولكن أتوقع منك البساطة والزهد فى الحياة وأن لا تنسى حالات التقوى والنزاهة.

۳. وفى قسم آخر من هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى قصّة فدك ويقول: الشيء الوحيد الذى كان فى أيدينا من مال الدنيا هو «فدك» وقد استولى عليها الحساد وأعداء أهل بيت النّبى صلى الله عليه و آله، ورغم أننى لا احتاج لفدك ولغير فدك، فنهاية حياتنا جميعاً الموت، وسيكون بيتنا هو القبر الضيق والمظلم.

۴. وفى مقطع آخر من هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمّة وهى أنّ بساطتى فى المعيشة ليست بسبب أننى لا أتمكن من التوصل إلى الدنيا وتحصيل المواهب والنعم المادية فيها، بل بسبب ما أتولاه من وظيفة خطيرة ومسؤوليّة كبيرة فى عهدتى، والتى تتمثّل فى منصب الإمامة وزعامة المسلمين، وهذا المقام يستوجب أن اشارك الناس الضعفاء فى صعوبات الحياة ومشاكلها، فلا أبيت شبعاناً فى حين يوجد من ينام جائعاً فى أطراف البلد الإسلامى.

۵. وفى مقطع آخرى يجيب الإمام عليه السلام عن هذا السؤال، وهو أنّه ربّما يقول البعض: إذا كان على بن أبى طالب يأكل من هذا الطعام البسيط فهذا من شأنه أن يكون الإمام ضعيفاً فى قوّته البدنيّة بحيث لا يستطيع مقارعة الشجعان فى ميادين

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۳۷

القتال، ولكن حالى كالشجرة البرية التى تواجه صعوبة ومشقّة فى الماء والغذاء ولكنّها قويّة وصلبة أمام التحديات.

۶. وفى آخر مقطع من هذه الرسالة (والتى حذف السيّد الرضى بعضاً من مقاطعها وفقراتها) يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا بلغة المعرض عنها ويعلن بصوت عالٍ أنّه بريء من زخارفها وجواذبها، وبعد أن يثنى الإمام على الأشخاص الذين يتحركون من موقع المسؤوليّة والالتزام بالتكاليف والقيم الإنسانيّة أمام اللَّه تعالى ويحيوا الليل بالعبادة، يخاطب مرّة أخرى عثمان بن حنيف ويوصيه بتقوى اللَّه ويدعوه إلى سلوك مسلك الزهد والبساطة فى الحياة يضمن له النجاة فى الآخرة من النار.

***

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۳۹

القسم الأوّل

اشارة

أَمَّا بَعْدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِى أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ! وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.

الشرح والتفسير: دعوة الوالى إلى مأدبة فاخرة!

اشارة

فى المقطع الأوّل من هذه الرسالة يخاطب الإمام عليه السلام عثمان بن حنيف الأنصارى، الذى يعدّ من أصحاب النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله الأجلاء وقد اختاره أميرالمؤمنين ليكون والياً على البصرة ويتحدّث معه بلغة التوبيخ ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ، يَا ابْنَ حُنَيْفٍ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ ۲۲۱] الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ!».

«فتية» جمع «فتى» فى الأصل تعنى الشاب اليافع، وأحياناً تطلق على المسن الذى يملك النشاط والبهجة فى حياته، وفى هذه العبارة تعنى رجل من الأشراف.

«مادبة» من مادة «أدب» وتعنى الدعوة الرسمية المعتبرة التى تراعى فيها الآداب.

و «جفان» جمع «جفنة» (على وزن وزنة) وتعنى الآنية الكبيرة المخصصة

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۴۰

للطعام، وهذا التعبير يشير إلى أنّ المجلس المذكور كان مجلساً ضخماً وقد دعيت إليه جماعة من الأشراف وجيىء إلى المائدة بأنواع الأطعمة اللذيذة.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام:

«وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ ۲۲۲] مَجْفُوٌّ[۲۲۳]، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ».

هنا نرى أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد أنّ العيب الكبير فى هذه المأدُبة أنّها منحصرة بالأغنياء فقط، فلو أنّ تلك الأطعمة المتنوعة واللذيذة كانت تشمل الجياع والمحرومين ليأكلوا منها فليست فى ذلك مشكلة كبيرة، ومن هذه الجهة فإنّ هذه المائدة كانت مليئة بشتى أنواع الأطعمة اللذيذة والمأكولات المتنوعة، ومن جهة أخرى أنّ الأثرياء فقط هم المدعون لهذه المائدة دون المحرومين، ولو أضفنا إلى ذلك دعوة عثمان بن حنيف إلى هذه المائدة فسيتضاعف الإشكال.

ونستوحى من سياق هذه الرسالة أنّ الإمام عليه السلام يطرح إشكالًا رابعاً فى دعوة واليه إليها ويتمثّل فى وجود أموال مشتبه فى هذه المأدبة، لأنّ الإمام عليه السلام يضيف إلى ذلك قوله:

«فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ ۲۲۴] مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ ۲۲۵]، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ».

والنقطة الملفتة للنظر، أنّ الإمام عليه السلام كان يهتم بمراقبة عمّاله وولاته بشكل دقيق وينظر إلى حركاتهم وسلوكياتهم، لئلا ينحرف الوالى أدنى انحراف وأن لا توجد فيه أيّة نقطة ضعف حتى المشاركة فى ضيافة غير مناسبة له، بحيث إنّ الإمام عليه السلام يرسل له رسالة مطولة وزاخرة بالنصائح المختلفة ويحذّره من مغبة مثل هذه السلوكيات الخاطئة، وربّما لانجد فىالعالم أجمع مثل هذا التوجيه الدقيق والضبط فى إدارة الأمور.

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۴۱

ومن بين كتب الإمام عليه السلام ورسائله إلى عمّاله ربّما نجد الكثير من مثل هذه الرسالة، وكلّها تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان فى غاية التدبير ومنتهى الدقّة فى أمر إدارة الحكومة.

والملاحظة الأخرى أنّ الإمام عليه السلام يرى فى هذه الرسالة أنّ الولاة والمسؤولين فى الحكومة الإسلاميّة ينبغى أن يقفوا إلى جانب

الناس وجمهور المستضعفين والمحرومين وأن لا يعتنوا أبداً بالطبقة المترفة الذين تزداد توقعاتهم وتقل معونتهم، والتجارب تؤكد على أنّ المحرومين المستضعفين هم أوّل المدافعين عن الدين والبلاد الإسلاميّة فى مواقع الخطر والظروف الصعبة.

تأمّل

من هو عثمان بن حنيف؟

جاء فى كتاب «الأعلام للزركلى»: «عثمان بن حنيف بن وهب الأنصارى الأوسى، أبوعمرو! من أصحاب النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله شهد احداً، وما بعدها، وبسبب ورعه ونزاهته ولاه الخليفة الثانى على السواد مسؤولًا على الأراضى الخراجيّة فى العراق، ثمّ ولاه على البصرة، ولما نشبت فتنة الجمل (بين عائشة وعلى) دعاه أنصار عائشة إلى الخروج معهم على على، فامتنع، فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، واستأذنوا به على عائشة فأمرتهم بإطلاقه، فلحق بعلى وحضر معه الواقعة ومعركة الجمل، ثمّ سكن الكوفة وتوفى فى خلافة معاوية»[۲۲۶]، وقال البعض الآخر: توفى فى زمن خلافة معاوية فى المدينة.

واللافت أنّ ابن عبدالبر ذكر فى كتابه «الاستيعاب» أنّه عندما فتح المسلمون العراق، تشاور الخليفة الثانى مع أصحابه فيمن يرسله إلى العراق ليكون والياً عليه، فاتفق الجميع على اختيار عثمان بن حنيف وقالوا: إنّه يستطيع إدارة ما هو أكبر من

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۴۲

ذلك، لأنّه يملك من البصيرة والعقل والمعرفة والتجربة الكثير[۲۲۷].

وجاء فى كتاب «مستدركات علم رجال الحديث» أنّ عثمان بن حنيف وأخاه سهل بن حنيف كانا من جملة اثنى عشر نفر الذين اعترضوا على أبى بكر وانتقدوا أعماله، ثمّ يضيف: إنّ عثمان وأخاه سهل كانا من شرطة الخميس فى عهد الإمام على عليه السلام وهم الذين ضمن الإمام على لهم الجنّة[۲۲۸].

وجاء فى اسد الغابة: أنّ عثمان بن حنيف قال: إنّ رجلًا ضرير البصر أتى النّبى صلى الله عليه و آله، فقال: ادع اللَّه أن يعافينى، فقال صلى الله عليه و آله: إن شئت دعوة وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: ادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء:

«اللّهُمّ إنِى أسئَلُكَ وَأتَوَجّهُ إلَيكَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ نَبِيِّ الرَّحمَةِ يا مُحَمَّد إنِّى تَوَجَّهتُ بِكَ إلى رَبِّى فِى حاجَتِى هَذِهِ لِتَقضِى لِى اللّهُمّ فَشفَعهِ فِيّ»[۲۲۹].

ونختم هذا المقطع بكلام للإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام (طبقاً لما ورد فى رجال المامقانى): «وعدّه مولانا الإمام الرضا عليه السلام من الباقين على منهج نبيّهم صلى الله عليه و آله من غير تغيير ولا تبديل»[۲۳۰].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۴۳

القسم الثانى

اشارة

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً، يَقْتَدِى بِهِ وَيَسْتَضِىءُ بِنُورِ عِلْمِهِ؛ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ، أَلَا وَإِنَّكُمْ لَاتَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِى بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ. فَوَ اللَّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِى ثَوْبِى طِمْراً، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ، وَلَهِىَ فِى عَيْنِى أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ

مَقِرَةٍ.

الشرح والتفسير: لم أدّخر من الدنيا شيئاً لنفسى

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه لعثمان بن حنيف وأمثاله فى هذا المقطع من الرسالة ويشير إلى عدّة نقاط مهمّة لإيقاظ عناصر الخير والإيمان فى وجدان عامله، يقول بداية:

«أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُوم إِمَاماً، يَقْتَدِى بِهِ وَيَسْتَضِىءُ بِنُورِ عِلْمِهِ».

وهذه إشارة إلى أنّ الإنسان فى مسيرة حياته المعقدة وسلوكه المادى والمعنوى لايستطيع أنيتحرك لوحده ومن دون إرشادوإقتداء بقدوة صالحة، فالإنسان إمّا أنيكون فى ذاته يملك جميع الملاكات واللياقات اللازمة ليكون إماماً للناس أو أن يقتدى بمن تتوفر فيه هذه الملكات والقابليات اللائقة، وإلّا فإنّه سيسير فى متاهات الضلالة والحيرة.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام:

«أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ ٢٣١]، وَمِنْ طُعْمِهِ

نفحات الولايه، ج ١٠، ص: ١۴۴

بِقُرْصَيْهِ ٢٣٢]».

المشهور أنّ هذين الثوبين كانا من الكرباس والقرصين من خبز الشعير، وهما يشكلان طعام الإمام عليه السلام اليومى، وقرص واحد لوجبة الظهر والآخر للعشاء، وهذا فى الحقيقة اقتداء برسول اللّه صلى الله عليه و آله الذى يقتدى به الإمام على عليه السلام، كما فى ورد فى الحديث الشريف:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّه مَا اتَّخَذَ قَمِيصَين وَلَا إِزَارَيْن وَلَا زَوْجَيْنِ مِنَ النِّعَالِ»[٢٣٣].

خلافاً لأهل الدنيا والمترفين من الناس، الذين يملكون أحياناً عشرات الأنواع من الألبسة والأحذية، بل إنّ بعضهم لا يلبسون لباساً فاخراً لأكثر من مرّة أو بعض المرات ثمّ يتركوه جانباً، وأحياناً نراهم ينقلون من صناديق والحقائب المليئة بالملابس من مكان لآخر عند انتقالهم من منازلهم، وأمّا موائدهم الملونة فحدّث عنها ولا حرج.

وبما أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم أنّ من النادر أن يستطيع أى إنسان أن يعيش مثل هذه الحياة الصعبة ويرضى بشظف العيش وخاصّة فيما لو كان من كبار المسؤولين وأصحاب المناصب الذين يملكون الإمكانات الكثيرة فإنّه يتعرض لهذه النقطة بالذات ويقول:

«أَلَا وَإِنَّكُمْ لَاتَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِى بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ».

وهذه إشارة إلى أنّه لا يتوجب عليكم أن تعيشوا مثل هذه الحياة الصعبة وحالات الزهد الشديد، ولكن لا ينبغى أن تغفلوا عن أربع نقاط، وبذلك تعينوننى فى أمر الحكومة وإدارة هذه البلاد الإسلاميّة الواسعة.

نفحات الولايه، ج ١٠، ص: ١۴۵

الاولى: التوصية بالورع، وتعنى فى الحقيقة حالة التقوى فى حدودها العالية، ثمّ التوصية ب «الاجتهاد» يعنى بذل الجهد والسعى فى طريق حفظ العدل وحماية المحرومين، والثالثة: «العفة» بمعنى حفظ النفس فى مقابل الشهوات والنوازع المختلفة، والرابعة: «السداد» يعنى انتخاب الطريق الصحيح والمستقيم فى اجتناب فى الطرق المختلفة التى تقود الإنسان إلى المتاهة والضلالة.

ومعلوم أنّ المسؤولين فى البلاد الإسلاميّة لو التزموا بهذه الأمور الأربعة وتحركوا فى سلوكهم الفردى والاجتماعى بمستويات الطبقة الوسطى من الناس لا أكثر، فإنّ كلّ شىء سيكون فى محله وستنحل الكثير من العقد المستعصية فى أمر الحكومة ويعيش عامّة الناس حالات الرضا عن هؤلاء المسؤولين.

ثمّ یشیر الإمام علیه السلام إلی نقطة ثالثة لتکون عبرة لجمیع الولاة والعمّال فی حکومته، ویقول:

«فَوَاللَّهِ مَاکَنَزْتُ مِنْ دُنْیَاکُمْ تِبْراً[۲۳۴]، وَلَاادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً[۲۳۵]، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِی ثَوْبِی طِمْراً، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا کَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ».

وهذه إشارة إلی أنّنی لست کبعض أهل الدنیا الذین یدّخرون من زخارف الدنیا ومتاعها ویتظاهرون بالزهد والتقوی فإنّ ظاهری وباطنی واحد، فأنا لا أملک من المال والثروة لاظاهراً ولاباطناً، ولست من المرائین والمتظاهرین بالزهد وترک الدنیا.

والملفت أنّ الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الرسالة یحدد الإمکانات المادیة للدنیا فی أربعة أشیاء: أحدها، الذهب والفضة حیث یجمع الناس الدینار والدرهم ویدّخرونها ویفرحون لکمیة ما یدّخرون، والآخر، الأموال المتنوعة التی تعدّ رأس المال لهم من قبیل الخیول والإبل ووسائل المعیشة والدور والفرش والأثاث وما إلی ذلک، الثالث: الملابس الفاخرة والمتنوعة، والرابع: الأراضی الزراعیة والبیوت

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۴۶

والقصور، یقول الإمام علیه السلام: إننی لم أتوجه فی حیاتی إلی أیّ من هذه الأمور الأربعة (فی حین أنّ بإمکانی ذلک).

والعبارة الأخیرة فی هذه الرسالة تعکس غایة التواضع والزهد لدی الإمام علیه السلام، بأن یلفت نظر مخاطبه أو مخاطبیه لهذه المسألة المهمّة، وهی أن لا یتلوثوا بالحیاة المترفة لطبقة الأشراف بل یعیشون حالة المواساة للمحرومین والمعوزین وینخرطون فی معیشتهم وحیاتهم مع هذه الطبقة المحرومة من المجتمع.

«أَتَانٍ دَبِرَةٍ»

، تطلق علی الدواب التی جرح ظهرها من کثرة الأحمال والعمل الشاق، ولهذا السبب لا تأکل کما ینبغی وتفتقد شهیتها للطعام (والجدیر بالذکر أنّ بعض نسخ نهج البلاغة لم ترد فیها هذه الجملة والجملة التی بعدها ولم یذکرها الشرّاح فی شروحهم لنهج البلاغة).

وفی ختام هذا المقطع من الرسالة یتحدّث الإمام علیه السلام عن عدم اهتمامه بالدنیا وأنّها فی نظره لیست ذات قیمة إطلاقاً ویقول بمضمون عمیق:

«وَلَهِیَ فِی عَیْنِی أَوْهَی وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ[۲۳۶] مَقِرَةٍ[۲۳۷]».

وتوضیح ذلک أنّ لشجرة البلوط أنواع وأقسام، إحداها أنّها تثمر ثمرة مُرّة ومضافاً إلی مرورتها فإنّها قاسیة وصلبة، وبسبب قساوتها یستخدمها الدباغون فی دباغة الجلود.

وبدیهی أن تناول مثل هذه الثمرة المرّة والقاسیة غیر مستساغ أبداً ومن یضعها فی فمه یضطر للفظها فوراً، وهذا التشبیه یعدّ من أقوی وأبلغ تشبیهات نهج البلاغة عن حال الدنیا، حیث إنّ الإمام علیه السلام جسد باطن وحقیقة الدنیا فی قالب هذا المثال، وتأتی لاحقاً مثل هذه العبارات فی نهج البلاغة.

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۴۷

القسم الثالث

اشارة

بَلَی! کَانَتْ فِی أَیْدِینَا فَدَکٌ مِنْ کُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَیْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِینَ، وَنِعْمَ الْحَکَمُ اللَّهُ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَکٍ وَغَیْرِ فَدَکٍ. وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِی غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِی ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِیبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِیدَ فِی فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ

يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ؛ وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ. وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ- وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ- أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى، وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍوَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَ أَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ!.

الشرح والتفسير: كيف أكون أميرالمؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر؟

اشارهٔ

ومع الالتفات إلى ما تقدم بيانه من قول الإمام آنفاً:

«وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً»

يستعرض الإمام في هذا المقطع مسألهٔ «فدك» المؤلمهٔ بوصفها استثناء لما ذكره قبل

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۴۸

قليل، وكذلك لغرض التأكيد على عدم اعتنائه للدنيا من جهة، ومن جهة أخرى إشارة إلى أشكال الظلم والجور التي تعرض لها الإمام من قِبل مناوئيه:

«بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ ۲۳۸] عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ ۲۳۹] عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ».

ونعلم أنّ «فدك» تقع على مقربة من قلاع خيبر، حيث جاء أهالي المنطقة بعد فتح خيبر وصالحوا النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله على نصف قرية فدك بدون أن قتال، فأعطى النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله بساتين فدك في حياته إلى ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، وبما أنّ محصول فدك ربّما يساعد أميرالمؤمنين عليه السلام في أمر الخلافة، قام المنافسون بعد رحلة النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله بأخذها بسرعة من يد فاطمة الزهراء عليها السلام وطردوا عمّالها على تلك البساتين ولم يعيدوها لها أبداً، وهو ما سيأتي شرحه في ختام هذه الرسالة إن شاء اللّه.

والمراد من جملة جمله

«كَانَتْ فِي أَيْدِينَا ...»

هي مدّة أربع سنوات منذ فتح خيبر إلى رحلة النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

وجملة

«فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ ...»

إشارة إلى الغاصبين لمقام الحكومة والخلافة حيث دخلوا بفدك وتمسكوا بها خوفاً من وقوعها بيد بني هاشم، ممّا يعرّض حكومتهم للاهتزاز والضعف.

وجملة

«وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ ...»

إشارة إلى بنى هاشم فعندما رأوا مناوئيهم مصرين على غصب فدك لم يستمروا بمطالبتهم لفدك وتركوها لهم، وبذلك أظهروا عدم اهتمام واعتنائهم بهذا الأمر.

وجملة

«نِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ»

، جملة عميقة المعنى وإشارة إلى الحوادث المؤلمة التى وقعت بعد تداعيات فدك، فهنا يفوّض الإمام عليه السلام أمر الحكم فى هذه المسألة إلى اللّه

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۴۹

يوم القيامة، واللافت أنّه لم ينقل عن الإمام عليه السلام أنّه استعاد فدك فى أيّام حكومته وخلافته حيث كان بإمكانه ذلك.

ومن أجل أن لا يتصور أحد أنّ الإمام عليه السلام يرغب فى تملك فدك فى نفسه، يتابع الإمام القول:

«وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ. وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا[۲۴۰] فِی غَدٍ جَدَثٌ ۲۴۱] تَنْقَطِعُ

فِی ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِیبُ أَخْبَارُهَا».

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام فى هذا الحديث بتوضيح أكثر ويتحدّث عن القبر ونهاية حياة الإنسان ويقول:

«وَحُفْرَةٌ لَوْ زِیدَ فِی فُسْحَتِهَا وَأَوْسَعَتْ یَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا[۲۴۲]

الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ[۲۴۳]، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاکِمُ».

وهذه إشارة إلى أنّ القبر عادة يكون حفرة صغيرة لا تتسع لأكثر من جسد الإنسان، بل أحياناً يتمّ إدخال الميت إلى هذه الحفرة بصعوبة بالغة، وعلى فرض أنّ الحافر للقبر عمل على توسيع حفرة القبر بنفسه أو بطلب من الورثة، فمع ذلك لا ينفع الميت شيئاً، لأنّه لابدّ من ملء ثغرات الحفرة بالحجر والطين وتغطية جميع نوافذه وثغراته بشكل كامل، فالإنسان الذى يعيش مثل هذا المصير كيف يرتبط قلبه بمال الدنيا وبساتينها وزينتها وقصورها؟

وما ورد فى الروايات أنّ المرء إذا شعر بالحزن والغم فعليه بزيارة أهل القبور للتخفيف عن غمّه وحزنه، فربّما يكون ناظراً إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الغم عادة ما يكون بسبب المال والمقام والدنيوى، وعندما يصل الإنسان إلى آخر منزل فى حياته ويرى مصيره فى نهاية هذه الحياة وأنّه سيودع يوماً جميع ما يملكه من أموال ومقام وجاه، ويكتفى بعدّة قطع من الكفن يأخذها معه إلى القبر فذلك من شأنه أن

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۵۰

يزيح من قلبه هذا الغم والغصة.

وينقل المرحوم المحقّق التسترى قصّة فى هذا المجال عن المرحوم السيّد نعمة اللّه الجزائرى، وربّما كان لهذه القصّة جانب التمثيل يقول: «أنّ رجلين تنازعا فى دار فانطق اللّه لبنة من جدار تلك الدار، فقالت: إنّى كنت ملكاً من ملوك الأرض ملكت الدنيا ألف سنة، فلمّا صرت تراباً أخذنى خزّاف بعد ألف سنة فصيّرنى خزفة فبقيت ألف سنة، ثمّ أخذنى فصيّرنى لبنة، وأنا فى هذا الجدار منذ كذا وكذا، فَلِمَ تتنازعان فى هذه الدار؟»[۲۴۴].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يبيّن درساً نافعاً لكلّ سالك إلى اللّه تعالى ويتحرك فى طريق الصلاح والنجاة يوم المعاد ويقول:

«وَإِنَّمَا هِیَ نَفْسِی أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَی لِتَأْتِیَ آمِنَةً یَوْمَ الْخَوْفِ الْأَکْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَی جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ ۲۴۵]».

الرياضة فى حقيقتها تطويع النفس وتدجينها وأحياناً تستخدم هذه الكلمة فى مورد الحيوانات الجموحة، وأخرى فى مورد النفس المعاندة وغير السلسلة القيادة، واليوم تستعمل هذه الكلمة بمعنى الرياضة البدنيّة، واللافت أنّ الإمام عليه السلام مع مقامه السامى والعظيم فى أمر تصفية النفس وتنقية الروح والسلوك فى مدارج الكمال المعنوى والسير إلى اللّه تعالى والوصول إلى مقام لا يرى فيه

سوى اللّه تعالى ومع ذلك يقول:

«هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا ...»

، ويشير فى ذلك إلى نقطتين: الاولى: أنّ الإنسان مهما سعى لرياضة نفسه والحركة فى عمليّة بناء الذات، فإنّه لا ينبغى أن يطمئن إلى هذه الحيّة الرقطاء النائمة وعليه أن يعيش الحذر الدائم من خطرها ويقظتها.

والاخرى: أنّ الإمام عليه السلام عندما يتحدّث بمثل هذا الكلام مع كونه قد حاز تلك المقامات والمراتب الجليلة فى الكمال المعنوى، فينبغى على الآخرين أن يحسبوا حسابهم ولا يغفلوا من أخطار النفس الشريرة والأمارة.

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۵۱

ومن اللازم الإشارة إلى هذه النقطة أيضاً، وهى أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد أنّ الغاية من رياضة النفس بآلية التقوى هى تحصيل الأمن يوم القيامة ويوم الخوف الأكبر والنجاة من المنزلقات التى تقود الإنسان إلى وادى جهنّم، وهذا يعنى أنّ تحصيل حالة الأمن هذه لا تتيسر إلّامن خلال رياضة النفس وتطويعها على أمور الخير والطاعة والعبودية، وقد ورد فى الروايات الإسلاميّة أنّ جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، أى أنّه أشدّ وأعظم من جهاد الأعداء فى ساحات القتال والحرب.

وهذا الكلام فى الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم حيث يقول: «الَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ»[۲۴۶].

وعبارة «مزلق» يمكن أن تكون إشارة إلى جسر الصراط، لأنّ المستفاد من الآيات والروايات الشريفة أنّ الصراط عبارة عن جسر ممتد على نار جهنّم أنّ عبوره بسلام صعب جدّاً حيث ينزلق منه المنحرفون وأهل الضلالة ويسقطون فى جهنّم.

يقول القرآن الكريم: «وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا* ثُمَّ نُنَجِّى الَّذينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظّالِمينَ فيها جِثِيًّا»[۲۴۷].

وبما أنّ رياضة النفس على نحوين: فتارة، يروض الإنسان نفسه لعدم وجود أدوات تحصيل الحياة الدنيويّة وافتقاده لوسائل المعيشة المرفهة، وأحياناً أخرى يروض الإنسان نفسه بدفاع من الإيمان والإرادة والعزم على تهذيب النفس فى عين قدرته على نيل جميع المواهب المادية والدنيويّة، ولذلك يتابع الإمام عليه السلام قوله فى هذا الشأن لئلا يتصور أحد أنّ الإمام يروض نفسه على الشاكلة الاولى يقول:

«وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ ۲۴۸]، وَنَسَائِجِ ۲۴۹] هَذَا

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۵۲

الْقَزِّ[۲۵۰]. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي ۲۵۱] إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ- وَلَعَلَ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَاطَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ-».

وكما أشرنا آنفاً، فالإمام عليه السلام فى هذا المقطع يشير إلى الوظيفة الثقيلة للولاة والمسؤولين فى البلاد الإسلاميّة وأنّهم لا ينبغى أن يطمعوا فى الأطعمة اللذيذة والملابس الفاخرة ويتحركوا على مستوى التكالب على حطام الدنيا فى حين أنّهم يحتملون أو يعلمون بوجود أشخاص جياع وعرات فى شتى أصقاع البلاد الإسلاميّة.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى الأبعاد العاطفيّة، وهذا فى الحقيقة يمثّل بُعداً ثالثاً لهذه الموضوع، ويقول:

«أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً[۲۵۲] وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى ۲۵۳]، وَأَكْبَادٌ حَرَّى ۲۵۴]، أَوْ أَكُونَ

كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ[۲۵۵]

وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُ ۲۵۶] إِلَى الْقِدِّ![۲۵۷]»

جملة

«وَحَوْلَکَ أَکْبَادٌ تَحِنُّ إِلَی الْقِدِّ!»

فسّرها غالبیة شرّاح نهج البلاغة کما أوردناها آنفاً، وقالوا: إنّ الناس فی سنوات القحط والمجاعة یصل بهم لأمر من الجوع أحیاناً أن یأکلوا الجلود غیر المدبوغة للحیوانات، وهذه الجملة إشارة إلی هذا المعنی، وذهب بعضهم إلی أنّ المراد من

«تَحِنُّ إِلَی الْقِدِّ!»

إشارة إلی المثل

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۵۳

المعروف حیث یقال: إنّ الشخص الفلانی التصق جلد بطنه بظهره من الجوع، («القد» یعنی الجلد، و «تحن» المیل والانحناء)، وذهب آخرون إلی أنّ کلمة «القد» یعنی القطع من اللحم التی یضعها العرب سابقاً أمام الشمس لتجف ویدّخرونها إلی أیّام القحط والحاجة، ویبدوا أنّ التفسیر الأوّل أنسب.

وعلی أیّة حال، فربّما تکون جمیع هذه المعانی والتفاسیر واقعیة أو تکون للمبالغة.

یقول الشاعر:

نَظَرتُ إلی الدُّنیا بِعَینِ مَرِیضَةٍوَفکرةُ مَغرورٍ وَتَدبِیرُ جاهِلٍ

فَقُلتُ هِی الدُّنیا الَّتی لَیسَ مِثلُهاوَنافَستُ مِنها فِی غِرورٍ بَاطِلٍ

وَضیّعتُ أَحقاباً أمامِی طَویلَةٌبَلذَّاتِ أَیّامٍ قِصارٍ قَلائِلٍ [۲۵۸]

ثمّ یتابع الإمام علیه السلام کلامه عن ترویضه لنفسه وزهده ویبیّن ذلک بتوضیح أکثر ویقول:

«أَ أَقْنَعُ مِنْ نَفْسِی بِأَنْ یُقَالَ: هَذَا أَمِیرُ الْمُؤْمِنِینَ، وَلَا أُشَارِکُهُمْ فِی مَکَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَکُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِی جُشُوبَةِ[۲۵۹] الْعَیْشِ!».

هنا یذکر الإمام علیه السلام للمعیشة البسیطة ثلاث حِکم ویشیر إلیها بشکل إجمالی:

الاولی: أنّ المؤمن ینبغی أن یضع یوم القیامة والحساب والکتاب والحشر نصب عینه وبالتالی یعیش الزهد فی هذه الحیاة.

والأخری أنّ مسؤولیّة قیادة الامّة واستلام مقالید الأمور وخاصّة فی حالات العسر والشدّة التی یعیشها الناس من الناحیة المادیة، توجب علی الإمام علیه السلام أن یختار التقشف فی الحیاة لمواساة الناس وذلک لغرض تقویة الجانب المعنوی والروحی لهؤلاء المحرومین الذین یقولون: إذا کان لباسنا مثلًا من کرباس یشبه لباس مولانا وإمامنا، وإذا کان طعامنا بسیط جدّاً ویتکون من ماء وخبز الشعیر فإنّ هذا الطعام یشبه طعام مولانا وإمامنا، فذلک یتسبب فی تسکین خاطرهم ویدفعهم إلی الاطمئنان بأنّ قائدهم وإمامهم یعیش همومهم ویفکر فی حلّ مشکلاتهم.

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۵۴

الثالثة: مع غض النظر عن المسائل المتعلقة بیوم القیامة والمسؤولیّة الإلهیّة الملقاة علی الأئمّة والزعماء فی الامّة الإسلامیّة فإنّ المسائل العاطفیّة والقیم الأخلاقیّة لا تبیح للإنسان أن یجلس علی مائدة زاخرة بألوان الطعام والشراب فی حین أنّ جیرانه یعیشون الجوع والحرمان وأحیاناً یبیتون ولیس عندهم خبز للعشاء.

وهنا ربّما یثار هذا السؤال، لماذا لا نری مثل هذا المنهج للإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام لدی بعض الأئمّة الآخرین فی العصور اللاحقة، وما هو السر فی هذا الاختلاف؟

وسیأتی بعد قلیل جواب هذا السؤال إن شاء اللَّه تعالی.

تأمّل

قصّة فدک المحزنة

«فدک» اسم لقریة تقع شرق خیبر تقریباً وتفصلها عن خیبر أقل من ثمانیة فراسخ، ومع المدینة أکثر من عشرین فرسخاً، وکانت فدک فی زمن النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله عامرة وتتضمّن عیوناً زاخرة بالمیاه وبساتین النخل ومزارع وقلعة، وتعدّ فدک أحد المنازل التی ینزل فیها المسافرون القادمون من الشام إلی المدینة، وهذا الأمر أدی إلی إزدهارها من الناحیة الاقتصادیّة.

یقول الطبری فی تاریخه: خرج علی بن أبی طالب علیه السلام فی مائة رجل إلی فدک إلی حی من بنی سعد بن بکر، وذلک أنّه بلغ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّ لهم جمعاً یریدون أن یمدّوا یهود خیبر فسارهم إلی اللیل وکمن النهار وأصاب عیناً، فأقرّ لهم أنه یبعث إلیهم خیبر یعرض علیهم نصرهم علی أن یجعلوا ثمر خیبر.

فلمّا سمع بهم أهل فدک قد صنعوا ما صنعوا- شعروا بتقصیرهم فی هذه الواقعة وخافوا من عاقبة أمرهم- بعثوا إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یسألونه أن یسیرهم بحقن دمائهم لهم ویبذلوا الأموال، ففعل وکان بینهم وبین رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی ذلک مُحیّصة بن سعود

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۵۵

أخو بنی حارثة، فلمّا نزل أهل خیبر علی ذلک سألوا رسول اللَّه أن یعاملهم بالأموال علی النصف، وقالوا نحن أعلم بها منکم وأعمر لها فصالحهم رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی النصف وأننا إذا شئنا أن نخرجکم اخرجناکم فصالحه أهل فدک علی مثل ذلک فکانت خیبر فیئاً للمسلمین وکانت فدک خالصة لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله لأنّهم لم یجلبوا علیها بخیل ولا رکاب ۲۶۰].

وجاء فی شواهد التنزیل للحسکانی عن ابن عباس أنّه قال: عندما نزلت الآیة «وَآتِ ذَا الْقُرْبی حَقَّهُ»[۲۶۱] أعطی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فدکاً لفاطمة علیها السلام ۲۶۲].

وینقل الشوکانی فی تفسیره ما یقارب هذا المعنی ۲۶۳].

وبعد هذه الحادثة صارت فدک بید عمّال الزهراء علیها السلام، ومن هذا المنطلق ومن جهة أنّ فدکاً هبّة من النّبی لفاطمة، کانت فاطمة علیها السلام قد استلمت فدکاً، ومن هنا یقول الإمام علیه السلام:

«بَلَی کَانَتْ فِی أَیْدِینَا فَدَکٌ»

، وهو شاهد علی ما أسلفنا، کما أنّ جملة «إنّ أبابکر انتزع من فاطمة فدکاً» المذکورة فی «تاریخ المدینة المنورة[۲۶۴]» شاهد آخر علی هذا المدعی.

والعجیب أنّ الخلیفة الأوّل بعد رحلة النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله استولی علی فدک بدون أیّة مقدمات وأخرجها من ید فاطمة علیها السلام، وقد اعترض علیه أمیرالمؤمنین وفاطمة الزهراء علیهما السلام بشدّة علی هذا العمل، ولکن أبابکر أجاب: مَن یشهد لکما أنّ فدک لفاطمة؟

فأجاب الإمام علی علیه السلام: یاأبا بکر تحکم فینا بخلاف حکم اللَّه فی المسلمین؟

قال: لا، قال علیه السلام: فإن کان فی ید المسلمین شیء یملکونه، ثمّ ادّعیت أنا فیه، من

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۵۶

تسأل البیّنة، قال: إیّاک کنت أسأل البیّنة، قال: فما بال فاطمة سألتها البیّنة علی ما فی یدها وقد ملکته فی حیاة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وبعده، ولم تسأل المسلمین البیّنة علی ما ادعوها شهوداً کما سألتنی فی ما ادّعیت علیهم، فسکت أبوبکر[۲۶۵].

وکان عمر بن الخطاب حاضراً فی المجلس ورأی سکوت أبی بکر وأنّ سکوته ربّما ینتهی بضررهما، فقال:

«یَا عَلِیُّ دَعْنَا مِنْ کَلَامِکَ، فَإِنَّا لَانَقْوَی عَلَی حُجَّتِکَ، فَإِنْ أَتَیْتَ بِشُهُودٍ عُدُولٍ، وَإِلَّا فَهُوَ فَیْءٌ لِلْمُسْلِمِینَ، لَاحَقَّ لَکَ وَلَا لِفَاطِمَةَ

فِيه»[۲۶۶].

وهـذه الحادثـة التاريخيّة فيها الكثير من التعقيدات والتفاصـيل وجميع الشواهد تشـير إلى أنّ الخليفة فى ذلك الوقت كان قد عزم على الاستيلاء على هـذا المنبع الاقتصادى وغصـبها من أهل البيت عليهم السـلام لئلا يكون سـبباً لتقويـة موقفهم واقتـدارهم، وقـد ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«لَمَّا وُلِّىَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِى قُحَافَةَ قَالَ لَهُ عُمَرُ إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ هَذِهِ الدُّنْيَا لَايُرِيدُونَ غَيْرَهَا، فَامْنَعْ عَنْ عَلِىٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْخُمُسَ، وَالْفَيْءَ، وَفَدَكاً، فَإِنَّ شِيعَتَهُ إِذَا عَلِمُوا ذَلِكَ تَرَكُوا عَلِيّاً وَأَقْبَلُوا إِلَيْكَ»[۲۶۷].

وعلى أيّة حال فإنّ مركز الخلافة فى ذلك الوقت أخذ فدكاً من فاطمة الزهراء عليها السلام لمجرّد عدم الدليل على مالكية الزهراء لفدك، ولو كان هناك دليل فينحصر فى ميراثها من النّبى صلى الله عليه و آله فى حين أنّ النّبى قال:

«نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُوَرِّثُ وَمَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»

وهكذا تمّ انتزاع فدك من فاطمة عليها السلام.

فى حين أنّ هذا الحديث وبهذه الصورة موضوع بلا شك والصحيح هو ما ورد فى أحاديث أهل السنّة وأهل البيت عليهم السلام:

«أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورِثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ اخَذَ بِحَظِّهِ»[۲۶۸]

وهو كناية عن أنّ الأموال التى تركها الأنبياء لذويهم لا تعتبر ذات قيمة بالنسبة لميراثهم العلمى.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۵۷

ومهمـا يكن من أمر فـإنّ المخالفين ومن أجل الحيلولـة دون حصول أهل البيت عليهم السـلام على الإمكانات الماليّـة، صادروا فـدكاً، تارة بذريعـة حـديث موضوع، وأخرى أنّ فاطمة عليها السـلام لا تملك البيّنه الكافية لإثبات ملكيتها على فدك، هذا فى حين أنّهم لم يمنعوا نساء النّبى صلى الله عليه و آله من نصيبهنّ من الميراث ممّا تركه النّبى، وقـد ورد فى حـديث معروف فى صـحيح البخـارى وغيره: «إنّ فاطمـة ابنـة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سـألت أبـا بكر بعـد وفاة رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله أن تقسم لها ميراثها ما ترك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فيما أفاء اللَّه عليه، فقال أبوبكر: إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: لا نورث ما تركناه صدقة، فغضبت فاطمة بنت رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله فهجرت أبابكر فلم تزل مهاجرته حتى توفيت»[۲۶۹]، رغم أنّهم كانوا قد سمعوا من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قوله:

«فَاطَمُةُ بِضَعَةٌ مِنّى فَمَنْ أَغضَبَها أَغضَبَنِى»[۲۷۰].

وفى حديث آخر عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِغَضَبِكِ وَيَرضَى لِرِضاكِ»[۲۷۱].

وأمّا مصير فـدك فى زمان حكومـة الإمام أميرالمؤمنين على عليه السـلام فكما ورد فى نص هـذه الرسالة مورد البحث أنّ الإمام على عليه السـلام فى أيّام خلافته قد أغمض عينه عن فدك ولم يتحرك بصدد اسـتعادتها من غاصـبها، وبديهى أنّ هذا العمل لم يكن عن رضا قلبى بل بسبب زهد الإمام عليه السلام فى الدنيا وإعراضه عمّا كان الأعداء يصرون عليه من امتلاكهم لفدك، وجملة

«نِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ»

الواردة فى نصر الرسالة تدل بوضوح على هذا المعنى.

وقد جاء فى التواريخ أنّ عثمان بن عفان فى زمن خلافته أعطى فدكاً لمروان بن الحكم، وذهب بعضهم إلى أنّها بقيت بيد أبناء مروان إلى زمان عمر بن عبدالعزيز الأموى الذى كان ينهج منهجاً ملائماً نسبياً مع أهل بيت النبوّة عليهم السلام، وقد أمر واليه

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۵۸

على المدينة «عمر بن حزم» أن يعيد فدكاً لأبناء فاطمة عليها السلام فكتب إليه والى المدينة فى جوابه، إنّ أبناء فاطمة كثر وقد تزوجوا

مع طوائف كثيرة فأيّاً منهم اعطى فدكاً؟

فغضب عمر بن عبدالعزير وكتب إليه كتاباً شديداً بهذه المضمون: عندما أمرك بأمر، مثلًا أن تذبح شاة، فتقول فى جوابى، هل هذه الشاة قرناء أم غير قرناء، وإن أمرتك أن تذبح بقرة فستسأل منّى ما لونها؟ (أى أنّك تتذرع بحجج بنى اسرائيل) وعندما يصل إليك كتابى هذا فادفع فدكاً لأولاد فاطمة من على ۲۷۲].

ولكن لم تمض مدّة حتى جاء يزيد بن عبدالملك الأموى للخلافة وغصب فدكاً مرّة أخرى، وعندما انقرض بنو اميّة استولى بنو العباس على سدّة الحكم، أمر الخليفة العباسى أبوالعباس السفاح، إعادة فدك إلى عبداللّه بن الحسن بن على بوصفه وكيلًا عن بنى فاطمة، ولكنّ أباجعفر المنصور الذى جاء بعده أخذ فدكاً من بنى الحسن، وقام المهدى العباسى باعادتها إليهم، ولكن موسى الهادى الخليفة العباسى قام بغصبها مرّة أخرى، واستمر الأمر على هذا المنوال إلى زمن هارون الرشيد[۲۷۳].

يقول الحائرى القزوينى صاحب كتاب «فدك»: إنّ المأمون العباسى واستناداً لرواية أبى سعيد الخدرى بأنّ النّبى قد وهب فدكاً لفاطمة عليها السلام، أمر باعادة فدك لأبناء فاطمة ولكن المتوكل العباسى الذى جاء بعده وبسبب ما يحمله من حقد شديد على أهل البيت عليهم السلام عاد وأخذ فدكاً منهم ۲۷۴].

وعلى ضوء ذلك تبدلت مسألة فدك إلى قضية سياسية وكل من جاء على سدّة الحكم كان يتخذ موقفاً منها وفق خلفياته السياسيّة[۲۷۵].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۵۹

القسم الرابع

اشارة

فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِى أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ، هَمُّهَا عَلَفُهَا؛ أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَکَ سُدًى أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ! وَكَأَنِّى بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِى طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ». أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً وَأَبْطَأُ خُمُوداً.

وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ. وَاللَّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِى لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا. وَسَأَجْهَدُ فِى أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ.

الشرح والتفسير: لست كالبهيمة المربوطة!

يشير الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة إلى أربع نقاط مهمّة، الاولى: أنّه يشير إلى هدفه من الزهد الشديد والتقشف الشامل ويقول:

«فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِى أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ[۲۷۶]، هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا[۲۷۷]، تَكْتَرِشُ ۲۷۸]

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۶۰

مِنْ أَعْلَافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا».

والحقّ أنّ بعض الناس فى هذا العالم يعيشون كما تعيش الدواب والحيوانات، فجماعة تعيش الترف والثراء ولا تشعر بحياة الفضيلة

فأقصـى همهم فى الحياة هو الطعام الكثير واللذيد، وبعضهم من الطبقة الفقيرة ولكنّهم يتحركون فى طلب الدنيا ويبحثون عن الملذات الرخيصة فهم كالحيوانات المرسلة فى المرتع تبحث عن العلف، ومن المعلوم أنّ كلا هاتين الطائفتين مذمومتين رغم أنّ أحدهما أشنع من الأخرى والعجب أنّ كلا هاتين الطائفتين من الحيوانات لا تعلم بمصـيرها وأنّها سوف ترسل غـداً إلى المذبح ويسـتفاد من لحومها أو يستفاد من ظهورها للحمل والركوب، أو تصطاد من قِبل الحيوانات المفترسة.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى النقطة الثانية:

«أَوْ أُتْرَكَ سُدًى ۲۷۹] أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ

الضَّلَالَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ ۲۸۰] طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ![۲۸۱]».

فى هـذا المقطع من الرسالـة يتحـدّث الإمام عليه السـلام عمّا يتصل بالغرض من خلق الإنسان وينفى عنه خمسة أمور: الأوّل: أن يكون حال الإنسان حال سائر الحيوانات السائبة أو المعلوفة التى همها علفها.

والآخر: أن لا يكون هناك أى غرض من خلقه ويترك لحاله.

والثالث: أن يكون الغرض من خلقه اللعب واللهو.

والرابع: أن يكون سبباً لإضلال الآخرين وإغوائهم.

والخامس: أن يتحرك الإنسان نفسه فى وداى الحيرة والضلالة، وعندما تنتفى جميع هذه الأمور الخمسة، نستنتج أنّ الإنسان خلق لغاية سامية وهدف مهم وليس

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۶۱

ذلك سوى القرب من اللّه تعالى وتحصل الكمال الإنسانى والفضائل النفسانيّـة، ومن المعلوم أنّ خلق هـذا العالم وكل ما فيه من النعم والمواهب الإلهيّـة لو لـم تكن له غايـة سوى ذلـك فإنّ هـذا الخلق سـيكون عبثياً ومخالفاً للحكمـة، ولكن اللّه حكيم ولا تنسـجم هـذه الأغراض الباطلة والأمور التافهة مع حكمته سبحانه.

إنّ كلامـ الإمـام عليه السـلام هـذا مقتبس فى الحقيقـة من آيـات القرآن الكريم، وذلـك فى قوله تعـالى: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسـانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى* أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّنْ مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى [۲۸۲].

وبـديهى أنّ اللّه تعالى الـذى خلق الخلق على مراحل عـدّة وبكل هـذه العجائب التى سـخرها للإنسان فى مظاهر الطبيعة كانت له غاية سامية وهدف كبير.

ويقول تعالى فى موردآخر: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْناكُمْ عَبَثاًوَأَنَّكُمْ إِلَيْنالاتُرْجَعُونَ»[۲۸۳].

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام النقطة الثالثة فيما يتصل بكلامه السابق وكأنّه فى مقابل الجواب عن إشكال مقدّر، حيث يقول:

«وَكَأَنِّى بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِىطَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ، وَمُنَازَلَةِ[۲۸۴] الشُّجْعَانِ».

هذا المعنى الحاكم على الذهنية العامّة والذى يقرر وجود رابطة بين القوّة الجسـمانيّة والأغذيـة الدسـمة واللذيذة، يبعث على تصور أنّ الإنسان إذا اكتفى فى طعامه بخبز الشـعير وأمثاله فإنّه سـيكون ضـعيفاً ولا يقوى على شىء ولا يستطيع الصمود طويلًا فى ميادين القتال والحرب.

هنا يتحرك الإمام عليه السلام من موقع الجواب عن هذا الإشكال ويضرب لذلك مثالين جميلين ويقول:

«أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرَّوَاتِعَ ۲۸۵] الْخَضِرَةَ أَرَقُّ

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۶۲

جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ[۲۸۶] أَقْوَى وَقُوداً[۲۸۷] وَأَبْطَأُ خُمُوداً[۲۸۸]».

فالأشـجار «التى تقوم على سـاق» والنباتـات «من قبيـل الحشـائش والأزهـار» لو كـانت فى الصـحارى والبرارى الجافـة فإنّها ستزداد قوّة

وصموداً، في حين أنّ الأشجار والنباتات التي تنمو على شواطىء الأنهار وتستقي من الماء بشكل دائم فإنّما ستكون ضعيفة ولا تقوى على الصمود، ومن هذه الجهة فالأشخاص الذين يعيشون الترف والنعم الوفيرة فإنّهم سيعيشون حالات الضعف وعدم القدرة على الصمود بوجه التحديات الصعبة، أمّا الأشخاص الذين يكبرون في خضم المشكلات والأزمات فإنّهم يملكون من القوّة والاستقامة الشيء الكثير.

ومن هذه الجهة نرى أنّ الجيوش المعاصرة تفرض تمارين شاقّة على أفرادها وجنودها لرفع مقدرتهم القتاليّة ومستوى صمودهم في الأجواء الصعبة، وإحدى الحِكم من صيام شهر رمضان المبارك أنّ روح الإنسان وجسمه يزدادن قوّة وقدرة على تحمل مشاكل الحياة وصعوباتها.

وطبعاً هذا لا يعني أنّ الإنسان لا يتناول الطعام والغذاء بشكل كافٍ ويعيش معيشة المرتاضين الذين يكتفون من طعامهم بحبّة واحدة، بل المراد أنّ الإنسان لا ينبغي أن يعيش معيشة الترف ويهتم باللذيذ المتنوع من الأطعمة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام وتأييداً لكلامه السابق:

«وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ».

فقد كان النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله يعيش عيش الزهد والبساطة، ولكنه مع ذلك كان في غاية الشجاعة ولم يكن من هو أقرب إلى العدو من النّبي في ساحات الوغى، وفي معركة أُحد التي فرّ فيها الآخرون صمد النّبي صلى الله عليه و آله، وأنا بدوري كنت تلميذاً لهذه المدرسة الإلهيّة وتابعاً لهذا النّبي العظيم صلى الله عليه و آله وذراعه اليمنى.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۶۳

كما ورد هذا المعنى في الكلمات القصار في نهج البلاغة حيث يقول عليه السلام:

«كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ»[۲۸۹].

والشاهد الناطق على هذا الكلام ما ورد في آية المباهلة حيث جعلت من الإمام على عليه السلام نفس النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله، وكذلك الأحاديث الشريفة الواردة عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله طبقاً لما نقله «الكنجي الشافعي»: أنّ أحد الصحابة سأل من النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله: فأيّهم (من الأصحاب) أحبّ إليك؟ فقال: علي بن أبي طالب، فقال: لِمَ؟ فقال:

«لِأَنَّه خُلِقْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ»

، وينقل في هذا الكتاب عن المعجم عن الطبراني أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله قال:

«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى وَخَلَقنى وَعَلِيّاً مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ»[۲۹۰].

أمّا قصّة إبلاغ سورة براءة عندما أرسل النّبي أبابكر لإبلاغها للمشركين في مكّة في موسم الحج، ثمّ استدعى النّبي أبابكر وأخذها منه وأعطاها للإمام على عليه السلام، فإنّها معروفة في كتب التاريخ، فعندما عاد أبو بكر إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: بأبي أنت وامّي: هل نزل فيَّ شيء؟ (فما سبب أخذك سورة براءة منّي) فقال النّبي صلى الله عليه و آله: لا:

«وَلَكِن لَايُبَلِّغْ عَنِّي غَيرِي أَوْ رَجُلٌ مِنِّي»[۲۹۱].

وقد ورد هذا الحديث الشريف في مسند أحمد بن حنبل بصورة أبلغ وأوضح فقد قال النّبي صلى الله عليه و آله لأبي بكر: إنّ جبرائيل جاءني وقال:

«لَن يُؤَدِّيَ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ»[۲۹۲].

عبارة

«كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ ...»

) إشارة إلى أنّ نور إيماني وقوّتي وقدرتي كلّها مستمدة ومقتبسة من نور إيمان النّبي وقوّته وقدرته، والتعبير ب

«وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ»

إشارة إلى أنّ العضد كلّما كان قوياً ومحكماً فإنّ الذراع أيضاً ستكون قوية بدورها.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۶۴

ثمّ يتابع الإمام عليه السلام كلامه من موقع التأكيد على شجاعته:

«وَاللّهِ لَوْ تَظاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِى لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا».

ولم يسمع بمثل هذا الكلام من أى شخص قبل ذلك، ومعلوم أنّ الإمام على عليه السلام لا يتحدّث بذلك من موقع المبالغة بل إنّ ما يقوله هو عين الواقع، وقد أثبت هذه الحقيقة فى ميادين الجهاد والقتال ضد قوى الشرك والباطل، فمن معركة بدر إلى احد والخندق والغزوات الأخرى كان على بن أبى طالب عليه السلام هو الشخص الذى لم يدر ظهره للأعداء ولم يتردد أو يرتعب من كثرة الأعداء وتظافرهم عليه، إلى درجة أنّه لقّب بكونه

«كرّار غير فرّار»

. وقد ورد عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله هذا التعبير فى قصّة فتح خيبر بعد أن توجه الآخرون لفتح قلاع خيبر ولم يفلحوا فى ذلك، فقال النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

«لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَرَّارٌ غَيْرُ فَرَّارٍ لَايَرْجِعُ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»[۲۹۳].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام وفى النقطة الرابعة والأخيرة من هذا المقطع من الرسالة يقول:

«وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا. وَسَأَجْهَدُ فِى أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ ۲۹۴]، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ[۲۹۵] مِنْ بَيْنِ حَبِ

الْحَصِيدِ[۲۹۶]».

وجملة

«أُطَهِّرَ الْأَرْضَ»

إشارة جلية إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ وجود أمثال معاوية على سطح الأرض من شأنه تلويثها، وما لم يتمّ إزالة هذا التلوث عن الإرض والحياة فإنّها لا تتطهر.

والتعبير ب

«الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ»

إشارة إلى أنّ أفكار معاوية مقلوبة، فهو يرى

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۶۵

الحق فى نظره باطل والباطل فى نظره حقّ.

وعبارة

«الْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ»

إشارة إلى أنّ معاوية ليس فقط أفكاره مقلوبة بل إنّ سلوكياته وظاهره البشرى يعيش الانتكاسة فى سلوكياته وأعماله.

وأمّا عبارة

«حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ»

فهى إشارة إلى أنّ الزراع عندما يحصدون زرعهم، فغالباً ما يختلط المحصول من الحبوب الجيدة مع بعض الأتربة والأحجار صغيرة، حيث يقوم الزراع بإخراج هذه الشوائب من بين الحبوب لينتفع بها الإنسان، وأنا بدورى ينبغى أن اطهر المسلمين وفضاء المجتمع

الإسلامی من هذه الشخصيّات التافهة والزائدة لتخليص الإسلام والمسلمين منهم.

وربّما يطرح البعض هـذا السؤال: هل أنّ هذا الكلام للإمام عليه السـلام ينسـجم ويتناسب مع اقتدائه بالنبی الأكرم صـلی الله عليه و آله الذی بعث رحمة للعالمين؟

وفی مقام الجواب نقول: نعم، فإنّ الرحمـة تكون لازمة فی مواقعها والشدّة أو الغضب فی موقعه، فمن الخطأ اسـتخدام الرحمة إذا كان المورد يسـتدعی الشدّة والحزم، ومن الخطأ أيضاً التعامل بآليات العنف والشدّة إذا كان الموقع يسـتدعی الرحمة والشفقة، وسيرة النّبی الأكرم صـلی الله عليه و آله أيضاً شاهـدة علی هـذا المعنی، ففی معركـة اُحـد كان النّبی صـلی الله عليه و آله يـدعو لهؤلاء المخالفين ويقول:

«اللّهم إهدِ قَومِی فَإنّهُم لايَعلَمُونَ»

، ولكنّه فی قصّة نقض يهود بنی قريضة لعهودهم ومواثيقهم استخدم اسلوب الشدّة والعنف.

وفی الحقيقـة أنّ الإمـام علی عليه السـلام قـد تعلم هـذه الحقيقـة الواضـحة من القرآن الكريم حيث يقول تعـالی: «يـا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ»[۲۹۷]، ويقول فی مكان آخر: «فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ»[۲۹۸].

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۶۷

القسم الخامس

اشارة

وَمِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ آخِرُهُ:

إِلَيْكِ عَنِّی يَا دُنْيَا فَحَبْلُكِ عَلَی غَارِبِكِ، قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ، وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِی مَدَاحِضِكِ. أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ، فَهَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ! وَاللَّهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً، وَقَالَباً حِسِّيّاً، لَأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللَّهِ فِی عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِی الْمَهَاوِی، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَی التَّلَفِ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ، إِذْ لَاوِرْدَ وَلَا صَدَرَ! هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لَايُبَالِی إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلَاخُهُ.

اعْزُبِی عَنِّی! فَوَ اللَّهِ لَاأَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِی، وَلَا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِی.

الشرح والتفسير: أيّتها الدنيا ابتعدی عنّی!

اشارة

القسم الأخير من هذه الرسالة (حيث قسمناها إلی ثلاثة أقسام) هو ما يستهله السيّد الرضی رحمه الله بالقول:

«وَمِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ آخِرُهُ».

فالإمام عليه السـلام فی هـذا المقطع من الرسالـة، ومن أجل أن لا يسـقط مخاطبه عثمان بن حنيف وجميع مخاطبيه علی إمتداد التاريخ البشری، فی مصائد النوازع النفسانيّة والمقامات الدنيويّة أو يتورط فی اتّباع الملذات الرخيصة، يقول له الإمام عليه السلام بتعبير

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۶۸

فی غاية الروعة والبلاغة والجمال الأدبی:

«إِلَيْكِ عَنِّى ٢٩٩] يَا دُنْيَا فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ ٣٠٠]

قَدِ انْسَلَلْتُ ٣٠١] مِنْ مَخَالِبِكِ ٣٠٢]، وَأَفْلَتُّ ٣٠٣] مِنْ حَبَائِلِكِ ٣٠۴]، وَ اجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ ٣٠۵]».

ونرى أنّ الإمام عليه السلام فى هذه العبارات القصيرة يشبّه الدنيا بأربعة أشياء، الأوّل: أنّ الدنيا تشبه الناقة التى ربّما تكون جذابة وحلوبة، ولكنّ صاحبها عندما يريد تركها لترعى فى المرتع فإنّه يضع لجامها على ظهرها أو رقبتها، فترى هذه الناقة نفسها أنّها صارت حرّة من صاحبها فتبتعد عنه وتنشغل بالرعى فى المرتع.

وفى التشبيه الثانى، يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا بالسبُع الذى يروم صيد الفريسة بمخالبه القوية والخطيرة ويمزقها، ويقول الإمام عليه السلام: وأنا قد أفلتّ نفسى من مخالب هذا الحيوان المفترس فلا يصل إلىّ بعد ذلك.

وفى التشبيه الثالث، يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا بالصياد الذى نشر حبائله وشراكه لصيد الحيوانات أو الطيور، فيقول الإمام: لقد عرفت جيداً هذه المصائد والشراك وتخلصت منها فلا أقع فيها أبداً.

وفى التشبيه الرابع، يشبّه الإمام عليه السلام الدنيا بالمنزلق الخطير والوادى السحيق الذى يحتوى على مزالق كثيرة، منها: الشهوات، المال والمقام، الزوجة والأبناء، والعناوين البراقة والماديات المغرية، فيقول الإمام عليه السلام: لقد ابتعدت عن هذه المزالق جميعاً، ومن هذه الجهة فإننى لا أسقط فى حبالها ولا فى مخالبها ولا فى منزلقاتها.

ثمّ يتابع الإمام عليه السلام خطابه للدنيا ويقول:

«أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١۶٩

بِمَدَاعِبِكِ ٣٠۶]! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ! فَهَا هُمْ رَهَائِنُ ٣٠٧] الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ ٣٠٨]

اللُّحُودِ[٣٠٩]!».

وهذا الكلام مقتبس من العديد من الآيات القرآنيّة التى تتحدّث عن الأقوام السابقة، الذين كانوا يملكون القدرة والجاه والثروة والإمكانات المادية الوفيرة، ولكنّهم جميعاً تورطوا فى العذاب الإلهى بسبب عصيانهم وتمردهم على الحقّ والرسالة، وباتوا مدفونين تحت التراب بحيث لا يسمع لهم أدنى صوت ولا يملكون أدنى حركة، ونقرأ فى الآية ٩۶ من سورة مريم: «وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً».

ونقرأ فى الآية ١٢٨ من سورة طه: «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى .

بَاتُوا عَلَى قُلَلِ الأجبالُ تَحرُسهُمغُلبُ الرّجالِ فَما أغنتهُمُ القُللُ

واستُنزِلُوا بَعدَ عِزٍّ عَنْ مَعاقِلِهِمفاودعُوا حُفراً يا بِئسَ ما نَزلُوا

ناداهُمُ صارخٌ مِنْ بَعدِما قُبرواأين الأسرةُ والتيجانُ والحُللُ

أين الوجُوهِ الّتى كانتْ مُنَعمَةًمِن دُونها تُضربُ الأستارُ والكلل

فأفصحَ القبرُ عَنهم حينَ ساءلَهمتَلكَ الوجُوه عَليها الدودُ يقتتلُ

قَد طالَ ما أكلُوا دهراً وما شَربُواواصبحُوا بَعدَ طولِ الأكلِ قَد اكلُوا

وَطالَما عَمروا دوراً لتحصنَّهُمففارقَوا الدّورَ والأهلينَ وانتقلوا

وَطَالَما كَنزوا الأموالَ وادخروافَخلّفوها على الأعداءِ وارتحلُوا

أضحتْ منازِلُهم قفراً معطلةًوساكِنُوها إلى الأجداثِ قَد رَحلُوا[٣١٠]

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ١٧٠

وينقل المرحوم العلّامة التسترى قصّة تتضمّن دروساً وعبرة عن الأمالى للشيخ الصدوق وخلاصتها: «انطلق ذو القرنين يسير فى البلاد

حتى مرّ بشيخ يقلّب جماجم الموتى، فوقف عليه بجنوده، فقال له: أخبرنى أيّها الشيخ لأىشىء تقلّب هذه الجماجم، قال: لأعرف الشريف من الوضيع، والغنى من الفقير فما عرفت، وإنّى لأقلبها منذ عشرين سنة، فانطلق ذوالقرنين وتركه، وقال: ما عنيت بهذا أحداً غيرى»[۳۱۱].

ثمّ يخاطب الإمام عليه السلام الدنيا بعبارات حكيمة ومثيرة ويقول:

«وَاللَّهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً، وَقَالَباً حِسِّيّاً، لَأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللَّهِ فِى عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِى الْمَهَاوِى ۳۱۲]، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ، إِذْ

لَا وِرْدَ[۳۱۳] وَلَا صَدَرَ[۳۱۴]».

وبديهى أنّ الدنيا، بمعنى المواهب المادية والظواهر الطبيعية لا ـ تملك قلباً ولا ـ فكراً ولا ـ إرادة واختياراً، بل مجرّد وسائل وآليات يستخدمها الإنسان لنيل السعادة فى حركة الحياة، أو يغرق فى مستنقع الشقاء والعناء فيما لو سار فى خط الرذيلة وقصر اهتمامه ونظره بها، أضف إلى ذلك أنّ الدنيا بهذا المعنى ليست شيئاً يمكن إجراء الحدّ الإلهى عليها، ولكن الغاية التى يتوخاها الإمام عليه السلام من هذا الكلام هى الكناية اللطيفة والتشبيه الظريف لإيقاظ عقول المغرورين بها وتنبيه الغافلين عن الحقائق الغيبية ليتحركوا على مستوى تصحيح مسيرتهم والعودة إلى عقولهم وفطرتهم والاعتبار من تاريخ الامم السابقة وإصلاح مستقبلهم بالاقتباس من دروس التاريخ.

وهذا الكلام فى الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم الذى يذكر هذا المعنى بشكل آخر، فالآيات القرآنيّة تخاطب جميع أفراد البشر وتدعوهم لدراسة تاريخ الأقوام

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۷۱

السالفة الذين تورطوا فى دوامة البلايا والعذاب بسبب غفلتهم وغرورهم وكان مصيرهم الهلاك وقد دفنوا هم وثرواتهم تحت الأنقاظ، فنقرأ فى الآيات القرآنيّة قوله تعالى: «لَقَدْ كانَ فى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى الْأَلْبابِ»[۳۱۵].

ويقول تعالى فى مورد آخر: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَريمٍ* وَنَعْمَةٍ كانُوا فيها فاكِهينَ* كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرينَ* فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرينَ»[۳۱۶].

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه بطرح تشبيهات أخرى لحال الأشخاص الذين خدعوا بالدنيا والأشخاص الذين تخلصوا من شراكها وأفلتوا من حبالها، ويقول:

«هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ ۳۱۷] زَلِقَ ۳۱۸]، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ ۳۱۹] غَرِقَ، وَمَنِ ازْوَرَّ[۳۲۰] عَنْ

حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لَايُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ ۳۲۱]، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ

انْسِلَاخُهُ».

فى هذا المقطع الكلام النورانى للإمام عليه السلام يشبّه المواهب المادية فى الدنيا بثلاثة أمور، بداية يتحدّث عن المزالق التى تواجه الإنسان فى كلّ زمان واحتمال سقوطه فى هذه المزالق، وهى المقامات الدنيويّة والثروات المادية والشهوات النفسانيّة، فلو أنّ الإنسان غفل قليلًا عن هذه الأمور فإنّه سيتلوث بالحرام ويقع أسيراً فى شراك الأهواء والنوازع النفسانيّة.

والآخر، أنّ الإمام عليه السلام يشبّه الدنيا بالبحر المواج الذى يصعب جدّاً عبوره بسلام، والكثير من الأحايين تكون أمواج الأهواء والشهوات إلى درجة من الشدّة والتلاطم بحيث إنّها تبتلع الإنسان وتغرقه فى دوامتها.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۷۲

والتشبيه الثالث يشبّه الإمام عليه السلام زخارف الدنيا وبريقها الخداع بالمصائد والفخاخ، بحيث إنّ الإنسان إذا استطاع اجتناب هذا البريق الخداع فإنّه سيوفق لنيل السعادة ومرتبة القرب الإلهى، وخلاصه منها بذاته يشكل له أكبر افتخار وانتصار فى حركة الحياة مهما

واجه فی ذلک من صعوبات وتحدیات.

ثمّ یشبّه الإمام علیه السلام الدنیا بالیوم الذی یوشک علی الانتهاء وأنّ الشمس توشک علی الغروب لسرعة انتهائها وزوالها، کما یقول الشاعر:

حُکْمُ المنِیَّةِ فِی البَرِیَّةِ جارِیما هذِه الدُّنیا بِدارِ قَرارِ

بَینا یَری الإنسانُ فِیها مُخبراًحتَّی یُری خَبَراً مِنَ الأَخبارِ

طُبِعَتْ عَلی کَدرٍ وَأَنتَ تُرِیدُهاصَفواً مِنَ الأقدارِ والأکدارِ

وَمُکلّفُ الأیّامَ ضِدَّ طِباعِهامَتَطلّبٌ فِی الماءِ جَذوةَ نارِ

وَإذا رَجَوتَ المُستَحیلَ فإنّماتَبنِی الرّجاءَ عَلی شَفِیرِ هاوٍ

فَالعیشُ نَومٌ وَالمنِیَّةُ یَقظَةٌوَالمرءُ بَینهما خیالٍ سارِ

فَاقضوا مَآرِبَکُم عِجالًا إنّماأعمارُکُم سَفراً مِنَ الأَسفارِ

ونقرأ فی حدیث رواه المرحوم الکلینی فی کتاب «الکافی» عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال:

«اصْبِرُوا عَلَی طَاعَةِ اللَّهِ وَتَصَبَّرُوا عَنْ مَعْصِیَةِ اللَّهِ فَإِنَّمَا الدُّنْیَا سَاعَةٌ فَمَا مَضَی فَلَیْسَ تَجِدُ لَهُ سُرُوراً وَلَا حُزْناً وَمَا لَمْ یَأْتِ فَلَیْسَ تَعْرِفُهُ فَاصْبِرْ عَلَی تِلْکَ السَّاعَةِ الَّتِی أَنْتَ فِیهَا فَکَأَنَّکَ قَدِ اغْتَبَطْتَ»[۳۲۲].

وفی ختام هذا المقطع من الرسالة یخاطب الإمام علیه السلام الدنیا ویقول:

«اعْزُبِی ۳۲۳]

عَنِّی! فَوَاللَّهِ لَاأَذِلُّ لَکِ فَتَسْتَذِلِّینِی، وَلَا أَسْلَسُ ۳۲۴] لَکِ فَتَقُودِینِی».

ولحدّ الآن لم یرد فی الکتب والمدونات والخطب أنّ شخصاً خاطب الدنیا بمثل

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۷۳

هذا الخطاب واستدعاها إلی محاکمتها بهذه القوّة والحزم وبالتالی أثبت إدانتها وزیفها وتخلص من شراکها ومصائدها.

أجل، فالشخص الوحید الذی بإمکانه أن یحاکم الدنیا بهذه الطریقة ویخاطبها بهذا الخطاب الشدید القاطع هو الذی استطاع إنقاذ نفسه من براثنها، وضرب علی صدرها بید الإعراض والطرد مع انفتاح جمیع الطرق أمامه لتحصیل المآرب الدنیویّة، ولکنّه لم یستسلم لها ولجواذبها بأیة صورة.

وهذا لکلام یتضمّن جواباً حاسماً علی من یقول إنّ الدنیا قد أجبرتنا علی التصرف علی سلوک طریق الشر والرذیلة، فالإمام علیه السلام یقول: مادام الإنسان ملتزماً بمقتضیات الإیمان والقیم ولم یستسلم للدنیا من موقع الإذعان والخضوع فإنّها لا تستطیع إذلاله وإجباره علی إرتکاب الخطیئة، فصحیح أنّ الدنیا بکلّ ما فیها من الجواذب والزخارف تستهوی الإنسان وتدعوه لمواقعتها، ولکنّها لا تجبر أحداً أبداً علی اتباعها والتسلیم لمطالبها، کما یتحدّث القرآن الکریم عن الشیطان ویقول:

«وَقالَ الشَّیْطانُ لَمَّا قُضِیَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَکُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُّکُمْ فَأَخْلَفْتُکُمْ وَما کانَ لِیَ عَلَیْکُمْ مِّنْ سُلْطانٍ إِلّا أَنْ دَعَوْتُکُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لی فَلا تَلُومُونی وَلُومُوا أَنْفُسَکُمْ»[۳۲۵].

تأمّل

طلاق الدنیا

ما یبیّنه الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من الرسالة فی صدد محاکمته للدنیا وأنّها لو کانت شخصاً مریئاً وقالباً حسیاً لأجری حدود

اللّه تعالى عليها بسبب خداعها وإغوائها للكثير من الناس، يدعونا لتذكر حديث شريف آخر للإمام على عليه السلام يشير فيها إلى أنّه فى عالم المكاشفهٔ رأى الدنيا وقال: «إنّى كنت بفدك فى بعض حيطانها، وقد صارت لفاطمهٔ عليها السلام قال: فإذا أنا بامرأهٔ قد قحمت علىَّ بجمالها فشبهتها ببثينهٔ

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۷۴

بنت عامر الجحمى وكانت من أجمل نساء قريش، فقالت: ياابن أبى طالب هل لك أن تتزوّج بى فاغنيك عن هذه المسحاهٔ، وأدلّك على خزائن الأرض، فيكون لك الملك ما بقيت ولعقبك من بعدك؟ فقلت لها: من أنتِ حتى أخطبك من أهلك؟

فقالت: أنا الدنيا، قال فقلت لها، فارجعى وأطلبى زوجاً غيرى وأقبلت على مسحاتى وأنشأت:

«لَقَدْ خَابَ مَنْ غَرَّتْهُ دُنْيا دَنِيَّهٌوَمَا هِىَ إنْ غَرَّتْ قُرُوناً بِنَائِلِ

أَتَتْنَا عَلَى زِیِّ الْعَزِيزِ بُثَيْنَهٔوَزِينَتُهَا فِى مِثْلِ تِلْكَ الشَّمَائِلِ

فَقُلْتُ لَهَا غُرِّى سِوَایَ فَإِنَّنِىعَزُوفٌ عَنِ الدُّنْيا وَلَسْتُ بِجَاهِلٍ

وَمَا أَنَا وَالدُّنْيا فَإنَّ مُحَمَّداًأَحَلَّ صَرِيعاً بَيْنَ تِلْكَ الْجَنَادِلِ

وَهَبْهَا أَتَتْنِى بِالْكُنُوزِ وَدُرِّهَاوَأَمْوَالِ قَارُونَ وَمُلْكِ الْقَبَائِلِ

أ لَيْسَ جَمِيعاً لِلْفَنَاءِ مَصِيرُهَاوَيَطْلُبُ مِنْ خُزَّانِهَا بِالطَّوَائِلِ

فَغُرِّى سِوَایَ إنَّنِى غَيْرُ رَاغِبٍبِمَا فِيكِ مِنْ مُلْكٍ وَعِزٍّ وَنَائِلِ

فَقَدْ قَنِعَتْ نَفْسِى بِمَا قَدْ رُزِقْتُهُفَشَأْنَكِ يَا دُنْيا وَأَهْلَ الْغَوَائِلِ

فَإنِّى أَخَافُ اللّهَ يَوْمَ لِقَائِهِوَأَخْشَى عَذَاباً دَائِماً غَيْرَ زَائِلٍ [۳۲۶]

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۷۵

القسم السادس

اشارهٔ

وَايْمُ اللّهِ- يَمِيناً أَسْتَثْنِى فِيهَا بِمَشِيئَهِٔ اللّهِ- لَأَرُوضَنَّ نَفْسِى رِيَاضَهًٔ تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً، وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِى كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَهًٔ دُمُوعَهَا. أَتَمْتَلِئُ السَّائِمَهُٔ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ؟ وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَهُٔ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِیٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ! قَرَّتْ إذاً عَيْنُهُ إذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَهِٔ بِالْبَهِيمَهِٔ الْهَامِلَهِٔ، وَالسَّائِمَهِٔ الْمَرْعِيَّهِٔ!

الشرح والتفسير: هل الغرض الأكل والنوم فقط؟

اشارهٔ

يواصل الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من رسالته المباركهٔ، كلامه فيما تقدّم عن عدم اهتمامه بالدنيا وزخارفها ويقول:

«وَايْمُ اللّهِ ۳۲۷]- يَمِيناً أَسْتَثْنِى فِيهَا بِمَشِيئَهِٔ اللّهِ- لَأَرُوضَنَّ نَفْسِى رِيَاضَهًٔ[۳۲۸] تَهِشُّ ۳۲۹] مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً[۳۳۰]، وَلَأَدَعَنَ

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۷۶

مُقْلَتِى ۳۳۱] كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ ۳۳۲] مَعِينُهَا[۳۳۳]، مُسْتَفْرِغَهًٔ دُمُوعَهَا».

فى المرحلة الاولى يقسم الإمام عليه السلام ليبيّن جديّة هذا الأمر وللتأكيد على أهميّته وفى المرحلة الثانية، يقول إن شاء مراعاة للأدب مع اللَّه تعالى كما أمر القرآن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله بهذا الأمر، تقول الآية الشريفة: «وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فاعِلٌ ذلِكَ غَداً* إِلّا أَنْ يَشاءَ اللَّه»[۳۳۴].

وفى المرحلة الثالثة: يتحدّث الإمام عليه السلام عن عزمه الراسخ على ترويض نفسه رياضة شديدة وقاسية، وهذا يحكى عن قوّة إرادة الإمام وسلطته العجيبة على نفسه، فما أشق الرياضة التى يفرضها الإنسان على نفسه بحيث تتحمل الجوع الشديد، وبالتالى تفرح فرحاً شديد إذا قدّم لها يوماً قرصاً من الخبز وقليلًا من الملح.

وفى المرحلة الرابعة: يخبرنا الإمام عليه السلام عمّا يعيشه من عشق للَّه‌تعالى وخوف عميق من الذات المقدّسة بحيث إنّه يتواصل فى البكاء إلى أن لا تنضب عينه من الدموع

«وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِى كَعَيْنِ مَاءٍ، نَضَبَ مَعِينُهَا مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا»

، ومعلوم أنّ مثل هذه الحالة لا تتوفر عند أى شخص إلّاالنوادر، والإمام عليه السلام نفسه يشير إلى هذه الحقيقة فى مقطع آخر من هذه الرسالة، بأنّكم لا تستطيعون أن تفرضوا على أنفسكم مثل هذه الرياضات الشاقة ولكن أعينونى بالورع والتقوى والصلاح فى حركة الحياة.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال: لماذا كلّ هذا البكاء الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى كلامه؟ قطعاً إنّ هذا البكاء هو بكاء الشوق من جهة، وبكاء الخوف من جهة أخرى، الشوق إلى العالم الأعلى والملكوت والقرب من اللَّه تعالى والعشق لصفات الكمال والجمال الإلهى، والخوف من حرمان هذه لنعم والمواهب الإلهيّة.

نفحات الولاية ؛ ج‌۱۰ ؛ ص۱۷۷

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۷۷

إنّ رجال اللَّه يعيشون دوماً بين حالات الخوف والرجاء، وبالتالى يدفعهم ذلك إلى البكاء شوقاً وخوفاً، فكيف بالإمام على عليه السلام وهو إمام العارفين ومقتدى السالكين فى طريق الحقّ والمعنويّة؟

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستعرض فى العبارات التالية جملة من التشبيهات الأخرى ويقول:

«أَ تَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ[۳۳۵] مِنْ رِعْيِهَا[۳۳۶] فَتَبْرُكَ ۳۳۷]؟ وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ[۳۳۸] مِنْ عُشْبِهَا[۳۳۹] فَتَرْبِضَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِه فَيَهْجَعَ ۳۴۰]! قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ[۳۴۱]، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ[۳۴۲]!».

وبالرغم من أنّ الإمام عليه السلام فى هذه العبارات يتحدّث عنه نفسه، ولكن كلامه فى الواقع درس لأبناء الدنيا الذين لا همّ لهم فى الحياة سوى التمتع بالملذات الرخيصة، فهم يشبهون الأغنام والدواب التى لا تهتم إلّاللأكل والعلف والنوم والراحة، فما أقبح بالإنسان أن يهبط من أوج عظمة الإنسانيّة ويدرج نفسه مع الحيوانات وينزل بمستواه إلى مصاف الدواب السائمة فى المراتع، وكما يقول الشاعر:

أَتَعمى عَنِ الدُّنيا وَأنتَ بَصيرُوَتَجهلُ ما فِيها وَأنتَ خَبيرُ
وتُصبِحُ تبنِيها كَأَنَّكَ خَالِدُوَأنتَ غَداً عَمّا بَنيتَ تَسيرُ
وَترفَعُ فِى الدُّنيا بناءَ مُفاخِروَمَثواكَ بيتُ فِى القُبُورِ صَغيرُ
وَدُونَكَ فاصنَعْ كُلَّما أنتَ صانِعُفإنَّ بُيُوتَ الميتِينَ قُبُورُ[۳۴۳]

تأمّل

الرياضة المشروعة وغير المشروعة

إنّ مسألة رياضة النفس ومنذ القديم تقسّم إلى قسمين: رياضة البدن، ورياضة النفس، أمّا رياضة البدن فتتمثّل فى أنواع الألعاب الرياضية التى تمتد فى التاريخ البشرى ولها سابقة تاريخيّة طويلة، وحتى المسابقات العالمية الحالية مقتبسة من عصر اليونان القديم ومناطق اخرى من العالم، وأمّا رياضة النفس والتى تتحقق عن طريق ترك المشتهيات النفسانيّة وتؤدّى إلى تقوية روح الإنسان وإرادته وتمتد كذلك فى التاريخ، فهى المعروفة عن المرتاضين الهنود، وحقيقة هذه الرياضية هى أنّ الإنسان بتركه وإعراضه عن رغباته النفسانيّة وعدم استسلامه لجواذب الشهوة بإمكانه أن يحصل على قوّة عظيمة بحيث أحياناً يستطيع انجاز أعمال خارقة للعادة.

وطبعاً الرياضيات النفسانيّة بدورها تنشعب فى هدفها والغرض منها إلى: أهداف مادية، وأخرى معنويّة، أمّا الأهداف المادية فتتمثّل بالقدرة على الإتيان بأعمال خارقة للعادة والتوصل من خلالها إلى بعض المنافع الدنيويّة وتحصيل الجاه والمقام، وأمّا الهدف المعنوى فهو القرب من اللّه تعالى وتطهير الروح من الرذائل الأخلاقيّة وتحكيم إرادة الإنسان على شهواته وضبط رغباته وترك ما تدعوه إليه نفسه من الرذائل والمنكرات.

وما ورد من كلام الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة ناظر إلى القسم الثانى من الرياضية المعنويّة فى قوله:

«إِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ»

، وقوله:

«لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ».

وقد ذكر ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة فى ذيل الخطبة ۲۲۰ (الخطبة ۲۱۴ فى شرح ابن أبى الحديد) بحثاً مفصلًا فى موضوع رياضة النفس وأقسامها وتحدّث فى تأثير الجوع فى صفاء النفس ونقائها، ثمّ نقل كلمات الفلاسفة والحكماء فى المكاشفات التى تحصل للإنسان من رياضة النفس، وضمن كلامه

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۷۹

بالاستشهاد بأبيات من أشعار الشعراء فى هذه المجال.

ونقرأ فى الأحاديث الشريفة عن أميرالمؤمنين على عليه السلام الإشارة إلى هذه المسألة ومن ذلك ما ورد فى «غرر الحكم» عن الإمام على عليه السلام:

«مَنْ استَدامَ رَياضَةِ نَفْسِهِ إنْتَفَعَ»[۳۴۴].

وفى حديث آخر فى هذا الكتاب قوله:

«الشَّريعَةُ رِياضَةُ النَّفْسِ»[۳۴۵].

وجاء فى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى خبر عن وصايا الخضر النّبى لموسى عليهما السلام أنّه قال:

«رِضْ نَفْسَكَ عَلى الصَّبرِ تَخْلَص مِنَ الإثم»[۳۴۶].

ونقرأ فى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله

: «جَوّعُوا بُطُونَكُم وَأظمِئُوا أكبادَكُم وَأعْرُوا أجْسَادَكُم وَطَهِّرُوا قُلُوبَكُم عَسَاكُم أنْ تُجاوزُوا المَلأ الأعلى [۳۴۷].

ولكن أحياناً يسلك بعض الناس فى رياضة النفس طريق الإفراط والانحراف، فيقومون برياضات شاقة جدّاً وأحياناً خطيرة وغير مشروعة، وقد ذكر الغزالى فى «إحياء العلوم» نماذج منها ويوجد الكثير منها مذكور فى الكتب الصوفية.

ومن ذلك أنّ «الشبلى» كان له سرداب ينزل إليه ومعه مجموعة من العصى وكلّما غفل قلبه عن الذكر يضرب نفسه بهذه العصى حتى

تتكسر، وأحياناً عندما تنكسر جميع العصى يربط يديه ورجليه بالجدار ويعلقها بالمسامير[۳۴۸].

وذكروا فى حالات «الشيخ أبو سعيد» الصوفى المعروف، أنّه لما كان شاباً كان ينهض من فراشه بهدوء بعد ما ينام أهل بيته ويتوجه إلى المسجد، وكانت هناك بئر فى زاوية المسجد، فيشد عصاً بحبل من وسطها ويشدّ قدمه بالطرف الآخر من الحبل، ثمّ يضع العصا على حافة البئر وينزل إلى البئر ويبقى إلى الصباح معلقاً من

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۸۰

قدمه فى البئر ويقرأ القرآن ۳۴۹].

وحكى عن حالات «أبى بكر الشبلى»: كان فى بداية أمره مشغولًا بالرياضة فى سنوات مديدة وكان يضع الملح فى عينه لئلا ينام ۳۵۰]، وهناك الكثير من هذا القبيل من الأعمال لدى المتصوفة.

ومثل هذه الرياضات الخطيرة تعتبر من النقاط السلبية والسلوكيات غير المشروعة فى نظر الإسلام ويجب الاجتناب عنها تماماً، ويشاهد فى حالات المرتاضين الهنود وبعض الصوفية مثل هذه الرياضات غير المشروعة التى لا تتفق مع تعاليم الإسلام، ولكن أفضل رياضة تتمثّل فى اجتناب أى شكل من الأشكال المعاصى والذنوب ومن ثمّة ترك بعض المشتهيات النفسانيّة من المباحات، وقد ورد هذا المعنى فى سيرة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأئمّة الهدى عليهم السلام وأصحابهم، فكانوا أحياناً يلبسون الخشن من الثياب ويقنعون بالأطعمة البسيطة جدّاً، وينهضون للصلاة والعبادة فى ساعات الليل، ومثل هذه الرياضيات تزيد من نورانيّتهم وتعمق من معنويتهم.

وقد ورد فى الخطبة ۲۰۹ فى نهج البلاغة (الجزء الثامن من هذا الكتاب) قصّة إفراط وتفريط أخوين هما (علاء بن زياد وعاصم بن زياد) حيث كان أحدهما يعيش حياة مرفهة وناعمة والآخر قد ترك العمل والكسب تماماً وانشغل بالعبادة فى زاوية البيت، وقد نهاهما الإمام عليه السلام عن كلا هذين المسلكين، ولمزيد من التوضيح انظر الجزء الثامن، من هذا الكتاب ذيل الخطبة ۲۰۹.

وخلاصة الكلام أنّ مسألة الرياضة الشرعية وردت فى نهج البلاغة وكذلك وردت فى الكثير من الروايات الشريفة عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل البيت عليهم السلام، ولا شك فى ترتب الآثار الإيجابيّة من هذه الرياضة المشروعة على روح الإنسان فيما يتصل بزيادة نورانيّته معنويّته، ولكن ذلك لا يعنى أنّ مثل هذه الرياضيات محبذة

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۸۱

للجميع، ومن هذه الجهة ورد فى العديد من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الاذن فى تناول الطيبات والانتفاع من النعم الحلال وشكر اللَّه تعالى على ما وهبه للإنسان من هذه النعم والملذات: «يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّى بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ»[۳۵۱].

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۸۳

القسم السابع

اشارة

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا، فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ، «أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». فَاتَّقِ اللَّهَ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ، وَلْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ، لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ.

الشرح والتفسير: أيّها الوالى! إحذر المشاركة فى مثل هذه الضيافة!

اشارة

فى المقطع السابع والأخير من هـذه الرسالـة يتحـدّث الإمام عليه السـلام فى توصـيف بليغ عن حياة الإنسان الكامل، وبتعبير آخر: أفراد حزب اللّه، ويذكر لهم ثلاثة أعمال وأربع صفات، يقول:

«طُوبَى ۳۵۲] لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ ۳۵۳] بِجَنْبِهَا

بُؤْسَهَا[۳۵۴] وَهَجَرَتْ فِى اللَّيْلِ غُمْضَهَا[۳۵۵]، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى ۳۵۶] عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۸۴

وَتَوَسَّدَتْ ۳۵۷] كَفَّهَا».

وهـذه إشـارة إلى أنّ الأشـخاص المحبـوبين عنـد اللّه تعـالى هم الـذين يتحركون فى سلوكهم اليومى من موقع أداء الفرائض الـدينيّة والتكـاليف الفرديـة والاجتماعيّـة، وفى ساعـات الليـل يخلون مع ربّهم ويطرقون باب رحمته ويبتهلون إليه بالـدعاء والمناجاة، وعنـدما يغلبهم النوم يقنعون باستراحة مختصـرة، لا على الفرش الوفيرة والغالية والوسادات الناعمة بل يضـطجعون على الأرض ويضـعون يدهم تحت رؤوسهم كوسادة.

وهـذه إشارة إلى أنّ العابـد ليس هو الشـخص الذى يقضـى ليله ونهاره بالعبادة وهو قابع فى زاوية البيت، بل العابد هو الشـخص الذى يؤدّى فرائضه الفرديـة والاجتماعيّـة فى النهار، ويتجه فى الليل إلى اللّه تعالى ويقوم بفروض الصـلاة والعبادة، وقد ورد فى حديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام وأنّه قال:

«مَنْ عَمِلَ بِمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ»[۳۵۸].

وبهذا المضمون وبشكل أشمل ورد فى الحديث الشريفة عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«يَا عَلِيُّ ثَلَاثٌ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهِنَّ فَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ وَمَنْ وَرِعَ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ مِنْ أَوْرَعِ النَّاسِ وَمَنْ قَنِعَ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ»[۳۵۹].

وجملة

«افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا»

إشارة إلى غاية القناعة لدى هؤلاء بحيث إنّهم لا يطمعون فى فرش مريحة ونوم هنىء، أضف إلى ذلك أنّ مثل هذه الفرش ربّما تعيق الإنسان عن النهوض فى أوقات السحر للعبادة والابتهال للّه‌تعالى.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه فى وصف حالات هؤلاء الأخيار ويقول: إنّ هؤلاء

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۸۵

الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع يعيشون خوف المعاد:

«فِى مَعْشَرٍ أَسْهَرَ[۳۶۰] عُيُونَهُمْ

خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ ۳۶۱] عَنْ مَضَاجِعِهِمْ ۳۶۲] جُنُوبُهُمْ، وَهَمْهَمَتْ ۳۶۳] بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ،

وَتَقَشَّعَتْ ۳۶۴] بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ».

فمثـل هـذا الخوف من الحساب والقيامـة أسـهر عيونهم ومنع أبـدانهم من الإخلاد إلى النوم وجعل شـفاههم تتمتم بـذكر ربّهم وأنّهم لكثرة استغفارهم تقشعت وتساقطت ذنوبهم:

«وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ»

، وهـذه العبـارات فی الحقیقـة مقتبسـة من القرآن الکریم کمـا ورد فی صـفات المؤمنین الحقیقیین قوله تعـالی: «تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ»[۳۶۵].

وفی مورد آخر یقول تعالی: «کانُوا قَلیلًا مِنَ اللَّیْلِ ما یَهْجَعُونَ* وَبِالْأَسْحارِ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ»[۳۶۶].

ویتـابع الإمـام علیه السـلام کلامه مسـتفیداً من الآیـة الشـریفة من القرآن الکریم فی وصف هؤلاء المتقین بصـفة «حزب اللَّه»: «أُولئِکَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»[۳۶۷].

وأخیراً یختم الإمـام علیه السـلام رسـالته المنیرة والمثمرة بهـذه الجمـل یخاطب بها عثمان بن حنیف وجمیع السائرین فی خط الفضـیلة والطالبین للسعادة ویقول:

«فَاتَّقِ اللَّهَ یَاابْنَ حُنَیْفٍ، وَلْتَکْفُفْ ۳۶۸] أَقْرَاصُکَ، لِیَکُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُکَ».

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۸۶

لأنّ التلوث بمثل هـذه الضـیافات الثقیلة والموائد المجللة، التی لا طریق للجائعین إلیها، والتی یدعی إلیها الأشـراف والأثریاء فقط وهم غالبـاً من الملوثین بالأـموال الحرام، ویبعـدک عن ذکر اللَّه والمعـاد والالتفـات إلی المحرومین وتزیـد من ثقـل ذنوبـک وتسـبب لک المشاکل یوم القیامة.

وجاء فی تاریـخ «مروج الـذهب»: ذکر الفضل بن الربیع (وزیر المهدی): دخل شـریک (بن عبداللَّه) القاضـی علی المهدی (العباسـی) یومـاً، فقال له: لابـدّ أن تجیبنی إلی خصـلة من ثلاث خصال، قال: وما هی یاأمیرالمؤمنین؟ قال: إمّا أن تلی القضاء، أو تحـدّث ولـدی وتعلّمهم، أو تأکل عندی أکلة، ففکر ثمّ قال: الأکلة أخفهنّ علی نفسـی، فاحتبسه وقدّم إلی الطبّاخ أن یطبخ له ألواناً من المخ المعقود بالسـکر والطبرزذ والعسل، فلمّا فرغ من غـذائه قال له القیم علی المطبـخ، یاأمیرالمؤمنین لیس یفلـح الشـیخ بعـد هـذه الأکلـة أبداً، قال الفضل بن الربیع: فحـدّثهم شـریک بعـد ذلک، وعلّم أولادهم، وولی القضاء لهم، وقـد کتب بارزاقه إلی الجهبنـد فضایقه فی النقص، فقال له الجهبند: إنّک لم تبع بزّاً، قال له شریک: بلی واللَّه لقد بعت أکبر من البز، لقد بعت دینی ۳۶۹].

أجـل، ربّما تکون للقمـة من طعام حرام هـذه الآثار السـلبیة العجیبـة فی الإنسان، فلو أنّ شـریک تعامل مع هـذه المسألـة بآلیات العقل واکتفی بتعلیم أبناء الخلیفة فربّما استطاع تعلیمهم معارف الإسلام وحقیقة الرسالة الإلهیّة لیدفع ظلمهم وجورهم فی المستقبل.

تأمّلان

۱. الزهد والانتفاع من المواهب الإلهیّة

بعد المطالعة الدقیقة لهذه الرسالة ربّما یثار هذا السؤال: هل أنّ الإسلام یحرم

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۱۸۷

التلـذذ بالأطعمـة والمأکولـات اللذیـذة والحضور فی هـذه الموائـد الفخمـة، أو أنّ هـذا العمل حلال فی نفسه؟ وهل هناک تقاطع بین الزهد الإسـلامی والاسـتفادة من النعم الإلهیّة الدنیویّة؟ الکلام فی هذا المجال متشـعب ومفصّل، ولکن یمکن تقدیم عصارة لمثل هذا الموضوع فنقول:

وردت روایات کثیرة فی تشویق المسلم للزهد فی الدنیا منها:

«الزَّهادَةُ فِی الدُّنیَا لَیسَتْ بِتَحرِیمِ الحَلالِ وَلا إِزالَةِ المَالِ وَلَکنّ الزَّهادَةَ فِی الدُّنیا أنْ لا تَکُونَ بِمَا فِی یَدِیکَ أَوثَقُ مِمَّا فِی یَدِ اللَّهِ»[۳۷۰].

وجاء فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علی علیه السلام یقول:

«الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ»[۳۷۱].

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ لَايُحَاسِبُ اللَّهُ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنَ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ وَثَوْبٌ يَلْبَسُهُ وَزَوْجَةٌ صَالِحَةٌ تُعَاوِنُهُ وَتُحْصِنُ فَرْجَهُ»[۳۷۲].

ويتبيّن من هـذه الروايـة الشـريفة أنّ الانتفاع من هـذه المواهب لا يتنافى مع الزهـد أبـداً، وكذلك ما ورد من الآيات الروايات فى هذا الباب ممّا يستدعى استعراضها وبيانها لتأليف كتاب مستقل عنها.

ولكن فى مقابـل هـذه النصوص هنـاك روايات أخرى تـدعو الإنسان إلى ترك لـذات الـدنيا وتمـدح ترك التلـذذ والتنعم بالمواهب الإلهيّة الكثيرة، منها:

مـا ورد فى حـديث معروف عن الإمـام على عليه السـلام قـاله ليلـة استشـهاده بعـد أن تنـاول فطوره المكوّن من خـبز وملـح وترك ما سواهما، قال مخاطباً إبنته:

«يَا بُنَيَّةُ مَا مِنْ رَجُلٍ طَابَ مَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ وَمَلْبَسُهُ إِلَّا طَالَ وُقُوفُهُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[۳۷۳].

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۸۸

وجاء فى حديث آخر فى كتاب «كنز العمال» عن أميرالمؤمنين على عليه السلام أنّه قال:

«فِى حَلالِها حِسابٌ وَفِى حَرامِها عِقَابٌ، فَدَعِ الحَلالَ لِطُولِ الحِسَابِ ودَعِ الحَرامَ لِطُولِ العَذابِ»[۳۷۴].

ويبدو أنّ الجمع بين هذه الآيات والروايات ممكن بإحدى هذه الطرق التالية:

۱. إنّ الاستفادة من المواهب الإلهيّة حكم لعامّة الناس، والتوجه نحو الزهد والترغيب فيه هو حكم للخواص.

۲. إنّ روايـات الزهـد تهـدف إلى التخفيف من اسـتغلال الآيـات والروايـات من الطائفـة الاـولى، وتمنع الإنسـان من الإفراط فى تناول الأطعمة والإكثار من الملذات الحلال، لئلا يغرق الإنسان فى هذه الملذات فتعيقه بالتالى عن سلوك طريق الهداية والمعنويّة.

۳. إنّ أوليـاء الـدين يمثّلون الاـسوة والقـدوة للناس فى سـيرتهم وحياتهم، فينبغى أن يعيشوا معيشـة ضـعفاء الامّـة ولمواساة المحرومين والتخفيف عن صعوبة معيشتهم.

۴. إنّ سـلوك طريق الزهـد يمنـح جميع الأـفراد حتى غير الأوليـاء مزيـداً من الهـدوء الروحى والصـفاء النفسـى، لأـنّ الغرق فى النعمة والرفاهية تثقل الروح وبخاصة فيما لو كان الآخرون يعيشون فى شغف العيش، فهذه الحالة متنافية مع القيم ومذمومة من جهة عاطفية.

۵. نظراً لما يترتب على الحلال من حساب يوم القيامة، فقد رجحت جماعة من المؤمنين الحياة البسيطة على المعيشة المرفهة لئلا يطول وقوفهم يوم القيامة للحساب.

وبالنسبة لحقيقة الزهد والجمع بين هذه التعاليم الإسلاميّة من جهة، والانتفاع من المواهب الإلهيّة الواردة فى الآيات والروايات الشريفة المـذكورة آنفاً من جهـة أخرى راجع ما ورد فى ذيل الخطبـة ۸۱ فى الجزء الثالث من هـذا الكتاب وكـذلك يمكنك مراجعـة كتاب دائرة المعارف للفقه المقارن، الجزء الثانى (بحث الزهد والتنمية الاقتصاديّة).

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۱۸۹

۶. مضافاً إلى ما تقـدّم فإنّ التحرك فى خط الزهـد والإعراض عن الـدنيا وملـذاتها يعتبر أحد العوامل الرئيسـية فى تربية الروح وتزكية النفس كما ورد شرحه فى بحث رياضة النفس من هذه الرسالة.

۲. من هم حزب اللّه؟

ما ذكر الإمام عليه السلام فى نهاية هذه الرسالة عن حزب اللّه، مقتبس من آيات القرآن الكريم:

وقد وردت هذه العبارة فى آيتين من القرآن الكريم، الاولى فى آية ۵۶ من سورة المائدة، يقول تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ

آمَنُوا[۳۷۵] فَإِنَّ حِزْبَ‌اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ».

ونرى فى هذه الآية الشريفة أنّ قبول الولاية الإلهيّة والأولياء الإلهيين تعدّ من صفات حزب اللّه.

وجاء فى الآية ۲۲ من سورة المجادلة: «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فى قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدينَ فيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

فى الآية الاولى ورد وصف أفراد حزب اللّه، كما أشرنا إلى آنفاً بوصف قبولهم لولاية اللّه ورسوله والأولياء الإلهيين، وفى الآية الثانية ورد وصفهم بأنّهم «يبغضون فى اللّه»، أو يعادون أعداء الحقّ، ويستفاد من مجموع هاتين الآيتين أنّ مسألة «الحبّ فى اللّه» و «البغض فى اللّه» على أساس أنّهما من أركان من يتصف بكونه من حزب اللّه، وما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة بأنّ حزب اللّه هم القائمون فى

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۹۰

الأسحار والعابدون والزاهدون فى الحقيقة متقبس من القرآن وكون هذه الصفات من قبيل اللازم والملزوم.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۹۱

الرسالة ۴۶

اشارة

إلى بَعْضِ عُمالِهِ ۳۷۶]

نظرة عامّة للرسالة

تمثّل هذه الرسالة فى الواقع دستوراً عملياً لأحد عمّال الإمام على عليه السلام وولاته فى حكومته، وتتضمّن جمل قصيرة وزاخرة بالمعانى العميقة حيث يدعو الإمام مخاطبه بأداء وظيفته والقيام بمسؤوليّته، وتتكوّن هذه الرسالة من ثلاثة مقاطع:

فى المقطع الأوّل يشيّد الإمام عليه السلام بشخصيّة هذا الوالى ويشيد بمكانته المرموقة ليثير فى نفسه الاستعداد لقبول هذه المسؤوليّة المهمّة.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۹۲

وفى المقطع الثانى يوصيه الإمام عليه السلام بالتواضع فى مقابل الرعيّة والتعامل معهم باسلوب اللطف والملائمة وسعة الصدر.

وفى المقطع الثالث يشير الإمام عليه السلام لزوم رعاية العدالة والمساواة بين الناس حتى فى الإشارة والنظرة والتحية لئلا يطمع أصحاب الثروة والقوّة فى عمليّة التميز، وييأس الضعفاء من إجراء العدالة.

وذكروا أنّ من جملة الأشخاص المخاطبين لهذه الرسالة هو مالك الأشتر رحمه الله وقد أوردها الشيخ المفيد فى الأمالى، صفحة ۷۹، والمؤرخ المعروف الطبرى فى تاريخه الجزء الرابع، صفحة ۷۱ فى حوادث سنة ۳۸.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۹۳

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّکَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الْأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ. فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَهَمَّکَ، وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ، وَارْفُقْ مَا کَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لَاتُغْنِى عَنْکَ إِلَّا الشِّدَّةُ، وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَکَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَکَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَکَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِى اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّى لَايَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِى حَيْفِکَ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِکَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: عامل الناس بالرفق!

أشرنا آنفاً فى ذكر سند هذه الرسالة أنّ المخاطب لها حسب الظاهر مالك الأشتر، والعبارات الواردة فيها والثناء والتجليل فى هذه الرسالة يتناسب مع شخصيّة مرموقة مثل مالك الأشتر، رغم أنّ الكثير من شرّاح نهج البلاغة لم يذكروا المخاطب فيها واكتفوا بالإجمال.

يستعرض الإمام عليه السلام فى القسم الأوّل من هذه الرسالة لهذا الوالى عدّة صفات حسنة ويثنى عليه ثناءاً جميلًا ممّا يعمق فيه الاعتماد على النفس ويكرس فيه القدرة والإرادة على حلّ المشكلات ومواجهة التحديات يقول الإمام عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّکَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ[۳۷۷] بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ ۳۷۸] بِهِ نَخْوَةَ[۳۷۹] الْأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۹۴

لَهَاةَ[۳۸۰] الثَّغْرِ[۳۸۱] الْمَخُوفِ».

وهذه التعبيرات تشير إلى أنّ الإمام عليه السلام اختار لتولى الأمور جماعة من الشجعان وأصحاب المعرفة والدراية والتدبير ليساعدوه فى هذه الأمور الثلاثة، أى إقامة أركان الدين، وقمع المتمردين والفاسدين، وحفظ الثغور والمواقع الخطيرة على حدود البلاد الإسلاميّة، وكان مخاطب هذه الرسالة، أى مالك الأشتر، أحد هؤلاء الولاة والامراء الموثوقين لدى الإمام.

وكأنّ الإمام عليه السلام يريد أن يقول: إذا أوكلتك لهذا الأمر وفوّضت إليك مسؤوليّة تدبير مصر وإقامة الأحكام الدينيّة فيها ولمنع تعديات قوى الظلام والانحراف وحفظ الثغور فى مقابل التهديد الخطير الذى يتمثّل بجيش الشام وأتباع معاوية فإنّ ذلك بسبب لياقتك وجدارتك فى هذه الأمور، والحقيقة أنّ مالك الأشتر كان كذلك كما بيّنه الإمام عليه السلام فى هذه الجمل الموجزة والعميقة المغزى.

إنّ الحوادث التى وقعت لمالك الأشتر وذكرها المؤرخون فى كتبهم شاهد حى على هذه الحقيقة.

ومن ذلك عندما أراد الإمام على عليه السلام قتال المتمردين فى واقعة الجمل، أرسل عمّار بن ياسر إلى الكوفة لتحشيد الناس للالتحاق والانضمام إلى جيش الإمام على عليه السلام يقول الراوى: «واللَّه إنّى لفى المسجد يومئذٍ وعمّار يخاطب أبا موسى ويقول له ذلك القول (ويعبىء الناس للمشاركة فى جيش الإمام ولكن أبا موسى الأشعرى كان واقفاً على المنبر ويثبط الناس) إذ خرج علينا غلمان لأبى موسى وقالوا: يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر وضربنا وأخرجنا، فنزل أبوموسى

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۹۵

فدخل القصر، فصاح به الأشتر اخرج من قصرنا لا امّ لك أخرج اللَّه نفسك، فواللَّه أنّك لمن المنافقين قديماً، قال: أجّلنى هذه العشية. قال: هى لك ولا تبيتنّ فى القصر الليلة، ودخل الناس ينتهبون متاع أبى موسى، فمنعهم الأشتر وأخرجهم من القصر، وقال: إنّى قد أخرجته فكّف الناس عنه»[۳۸۲].

وكذلك ورد فى كتب التاريخ: عندما وصل الإمام على عليه السلام فى مسيره إلى صفين، إلى أرض الرقة، فكان لابدّ لهم من عبور

النهر، ولكن الناس لم ينصبوا الجسر للإمام عليه السلام وجيشه، (وكأنّهم كانوا يرتبطون بعلاقة خاصّية بمعاوية) فعزم الإمام أن يعبر النهر من جسر منبج ۳۸۳] (هو بعيد عن هذا المكان) فقال الأشتر لأهالى تلك المنطقة: اقسم باللَّه إذا لم يعبر أميرالمؤمنين هذا الجسر ولم تحضروا له جسراً ليمر عليه فاعاقبكم بسيفى هذا وأقتل رجالكم واخرب دياركم وآخذ أموالكم، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: هذا الأشتر فهو يفى بقسمه قوموا واحضروا الجسر، فلما أحضروا الجسر وهيئوه عبر جيش الإمام أجمعه عليه، وكان الأشتر آخر نفر عبر عليه.

على أية حال فالإمام عليه السلام بعد هذه العبارات الهادفة والدقيقة يطرح على مالك الأشتر دساتير وتوصيات مهمّة فى مجال التعامل مع الناس، بداية يقول:

«فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَهَمَّکَ».

وهذه إشارة إلى أنّ الأصل والأساس فى كسب النجاح والتوفيق فى إدارة البلاد وتدبير أموره هو الإستعانة بالذات المقدّسة وطلب المعونة والتسديد منه.

وفى التوصية الثانية يقول:

«وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ ۳۸۴] مِنَ اللِّينِ».

وهو إشارة إلى أنّ أمر الحكومة وتدبير الولاية وإجراء البرامج الاجتماعيّة لا

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۹۶

تتحقق من خلال الاعتماد على آليات الشدّة والعنف فقط، بل ينبغى على الوالى أن يخلط الين بالشدّة، لأنّ اسلوب الشدّة والقهر يتسبب فى نفور الناس وعداوتهم وربّما لا يصل إلى نتيجة، ولو استخدم الوالى آليات اللطف والملائمة والليونة دوماً فإنّ الكثير من الأفراد لا ـ يأخذون عمله على محمل الجد وربّما يؤدّى ذلك إلى تكاسلهم وتواكلهم وبالتالى فشل المشروع، وهذا هو ما ورد فى منهج الأنبياء الإلهيين من كون كلّ نبى (مبشراً ونذيراً) والقرآن الكريم يؤكّد من جهة أنّ اللَّه تعالى فى موضوع العفو الرحمة أرحم الرحمين وفى موضوع الجزاء والنقمة أشدّ المعاقبين.

والتوصية الثالثة تبيّن ما هو الأصل بين الرفق والشدّة وما هى مواردهما، يقول الإمام عليه السلام:

«وَارْفُقْ مَا کَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لَاتُغْنِى عَنْکَ إِلَّا الشِّدَّةُ».

وعلى هذا الأساس فالأصل فى المناسبات بين الوالى والرعيّة، بل يأتى هذا الأصل فى جميع أشكال الإدارة، هو الرفق والمداراة، ولكن إذا كان البعض يستغلون هذا اللين والرفق ويسيئون الاستفادة من مداراة المدير والوالى لهم، فهنا لابدّ من استخدام الشدّة.

وقد ورد فى الحديث الشريف المعتبر أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«إِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يُوضَعْ عَلَى شَىْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نُزِعَ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا شَانَهُ»[۳۸۵].

إنّ المَكارِمَ أخلاقٌ مُطَّهرةٌفَالدِّينُ أَوّلُها والعِقلُ ثانيها

والعلمُ ثَالثُها والحِلمُ رابِعُهاوالجُودُ خَامِسُها والعُرفُ سَادِسُها

وَالبِرُّ سَابِعُها والصّبرُ ثَامِنُهاوالشُّكرُ تَاسِعُها واللّينُ عَاشِرها[۳۸۶]

***

يُخاطِبُنى السَّفِيهُ بِكُلِّ قُبحٍوَأَكرَهُ أن أَكُونَ لَهُ مُجِيباً

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۱۹۷

يَزيدُ سَفاهةً وَأَزيدُ حِلماً كَعُودٍ زَادهُ الإحراقُ طِيباً[۳۸۷]

وحالياً نشاهد أنّ أفضل الطرق لمواجهة المفاسد الاجتماعيّة والتصدى لأشكال الجنوح والانحراف والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر استخدام آليات المحبّة والخطاب المنطقى المقترن بالأدب والمداراة، فإنّ غالبية الناس يتحركون بالاتجاه الصحيح بهذا الأسلوب، ولكن هناك قلّة من الناس لا ينفع معها سوى الشدّة ولا ينتهون عن سلوكياتهم الخاطئة إلّاباّليات القهر والقوّة.

فى التوصية الرابعة والخامسة والسادسة يقول الإمام عليه السلام:

«وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ».

وهذه التوصيات فى الحقيقة مقتبسة من الآيات القرآنيّة الشريفة، فالقرآن يخاطب النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ويقول: «وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنينَ»[۳۸۸].

ويقول فى آية أخرى: «فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُم»[۳۸۹].

وفى التوصية السابعة والأخيرة يقول الإمام عليه السلام:

«وَآسِ ۳۹۰] بَيْنَهُمْ فِى اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّى لَايَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِى حَيْفِكَ ۳۹۱]، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ، وَالسَّلَامُ».

وهذه التوصية تشمل المدراء والولاة فى المجتمع الإسلامى، وكذلك تشمل القضاة أيضاً حيث ورد فى كتاب القضاء أنّ هذه الأمور من وظائف القضاة، ولعل ذلك ينحصر بتعاليم الإسلام، بأن ينظر القاضى أو الوالى بنظرة واحدة للجميع، فلو قام احتراماً لواحد من المتخاصمين أو المراجعين يجب عليه القيام للجميع، وإذا سلّم على بعضهم ينبغى أن يسلّم على الجميع بصورة واحدة، بل لا ينبغى له أن ينظر

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۹۸

إلى بعضهم بجميع بصره وينظر إلى الآخر بطرف عينه، فمثل هذه التوصية تعنى أن يحسب الآخرين حسابهم ويعلموا أنّ هذا المكان هو مكان يراعى فيه موازين العدل والانصاف ولا ينبغى أن يتوقع أحدهم التمييز فى الأمور المهمّة.

***

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۱۹۹

الرسالة ۴۷

اشارة

لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهما السلام لَمَّا ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ لَعَنَهُ اللَّهُ ۳۹۲]

نظرة عامّة للرسالة

هذه الوصيّة فى الواقع تعتبر أحد الوصايا الشاملة والمهمّة للإمام على عليه السلام عندما كان فى سرير الشهادة، ومخاطب هذه الوصيّة ولداه الحسن والحسين عليهما السلام، بل جميع الشيعة وأتباع آل البيت عليهم السلام وتتضمّن عدّة فصول مهمّة:

الفصل الأوّل، يوصى الإمام عليه السلام إبنيه بتقوى اللَّه وعدم اهتمام بزخارف الدنيا، والدفاع المظلومين وحماية حقوقهم فى مقابل

الظالمين.

وفى الفصل الثانى، يصـرّح الإمام عليه السـلام بأنّ مخاطبه هو جميع أبنائه وأهله وكل من تصل إليه هذه الوصـيّة إلى يوم القيامة، ومرّة أخرى يؤكّد الإمام فى وصيّته على التقوى ونظم الامور والإصلاح بين الناس.

نفحات الولايةً، ج ۱۰، ص: ۲۰۰

وفى الفصل الثالث، يشـير الإمام عليه السـلام إلى عـدّة مسائل مهمّة، منها الدعوة لكفالة الأيتام وحفظ حقوق الجيران، والعمل بالقرآن والاهتمام بإقامة الصـلاة والحج والجهاد بالنفس والمال واللسان وتوثيق العلاقة بين الأفراد واجتناب الكراهية والفرقة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وفى الفصل الأخير يخاطب عليه السـلام أبناء عبدالمطلب مؤكّداً لهم أنّهم بعد استشـهاده ينبغى أن يمتنعوا من سـفك دماء المسـلمين بذريعـة مقتله والانتقام له، ويحمل المسؤوليّـة فقط على قاتله الذى يجب القصاص فى حقّه، ثمّ يوصـيهم باجتناب المثلة بعد القصاص من القاتل ولزوم دفنه.

***

نفحات الولايةً، ج ۱۰، ص: ۲۰۱

القسم الأوّل

اشارة

أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا، وَقُولَا بِالْحَقِّ وَاعْمَلَا لِلْأَجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً.

الشرح والتفسير: كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً!

هذه هى الوصيّة الثانية للإمام على عليه السلام فى فراش الوفاة (وقد سبق ذكر وصيّة أخرى للإمام فى الكتاب رقم ۲۳).

وكما أشـرنا آنفاً، أنّ الإمام عليه السـلام تحدّث بهذا الكلام فى فراش الوفاة وكتب هذه الوصيّة، ونعلم أنّ الإنسان فى مثل هذه الحالة يهتم ببيان الأمور المهمّـة لـديه بعبارات موجزة، ولم تكن وصـيّة الإمام هـذه تتعرض لكيفيـة تقسيم أمواله وثرواته، لأنّه لم يترك مالًا وثروة لورثته، وإن كـان يملـك مبلغاً من المال فقـد جعله وقفاً للمسـلمين، وتتركز هـذه الوصـيّة حول القيم الأخلاقيّـة والمثل الإنسانيّة والتكاليف الدينيّة فى واقع الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، وبالرغم من أنّ المخاطب فى هذا المقطع من الوصـيّة، الحسن والحسـين عليهما السلام، ولكن بقرينة المقطع الثانى من الوصية فإنّ الآخرين أيضاً مخاطبون بهذا الخطاب المهم.

وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام فى المقطع الأوّل لهذه الوصيّة يوصى ولديه بسبعة أمور مهمّة:

الأوّل يقول عليه السلام:

«أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللَّهِ».

نفحات الولايةً، ج ۱۰، ص: ۲۰۲

أجـل، كمـا قلنـا مراراً أنّ التقوى تعنى الاحسـاس بالمسؤوليّـة الباطنيّـة فى مقابل الأوامر الإلهيّـة، فهى تمثّل عصارة تعاليم جميع الأنبياء والأولياء وبدونها لا يسـتطيع أى شـخص الخلاص من الوساوس الشيطانيّة والأهواء النفسانيّة، فمفتاح الجنّة هو التقوى، والمركب الذى

يركبه السائل فى مراتب السلوك المعنوى والقرب الإلهى هو الورع.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى الوصيّة الثانية والثالثة يقول:

«وَأَلَّا تَبْغِيا[۳۹۳] الدُّنْيا وَإِنْ بَغَتْكُما،

وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِیَ ۳۹۴] عَنْكُمَا».

ومعلوم أنّ الدنيا ذات أبعاد وأقسام مختلفة: قسم منها ضرورى لحياة الإنسان وبقائه، والقسم الآخر يتمثّل فى وسائل الترفيه بالشكل المعقول، ولكن القسم الذى يتضمّن أكثر من ذلك والإنسان يتجه نحوه بدافع الأهواء والتفاخر وأمثال ذلك، وبديهى أنّ الإمام عليه السلام لا ينهى عن القسم الأوّل والثانى، بل هو ناظر إلى القسم الثالث، كما ورد هذه المعنى فى القرآن الكريم: «وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ»[۳۹۵] وقطعاً إذا تحرك الإنسان بهذا الاتجاه من طلب الدنيا فإنّ ذلك يبعده عن اللّه والآخرة ويدفعه للتلوث بأنواع الذنوب والمعاصى.

وعندما يقول الإمام عليه السلام:

«وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِیَ عَنْكُمَا»

، فالعلّة فى ذلك جلية لأنّ التأسف على شيء فقده الإنسان فى الماضى لا يعيده إليه، هذا أوّلًا، وثانياً، إنّ هذه الحالة السلبية فى النفس من شأنها إعاقة الفعاليات الإيجابيّة وعدم تركيز الاهتمام لحفظ ما يملكه الإنسان حالياً.

وهذا الكلام فى الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم ويقول: «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ»[۳۹۶].

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۲۰۳

ونقرأ فى حديث عميق المعنى، أنّ رجلًا كان يصلّى مع النّبى صلى الله عليه و آله، فلمّا انصرف قال النّبى صلى الله عليه و آله:

«هَذا رَجُلٌ مِنْ أَهلِ الجنّةِ»

، قال عبداللّه بن عمرو، فأتيته فقلت:

ياعمّاه الضيافة، قال: نعم، فإذا له خيمة وشاة ونخل، فلمّا أمسى خرج من خيمته فاحتلب العنز واجتنى لى رطباً ثمّ وضعه، فأكلت معه فبات نائماً وبت قائماً، وأصبح مفطراً وأصبحت صائماً، ففعل ذلك ثلاث ليال، فقلت له: رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال فيك: إنّك من أهل الجنّة، فأخبرنى ما عملك؟ قال: فائت الذى أخبرك حتى يخبرك بعملى، فأتيت رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فقال: ائته فمره أن يخبرك، فقلت: إنّ رسول اللّه يأمرك أن تخبرنى، قال: أمّا الآن فنعم، قال: لو كانت الدنيا لى فأخذت منّى لم أحزن عليها، ولو اعطيتها لم أفرح بها، ولا أبيت وفى قلبى غل على أحد، قال عبداللّه: لكنّى واللّه أقوم الليل وأصوم النهار، ولو وهبت لى شاة فرحت بها، ولو ذهبت لحزنت عليها، واللّه لقد فضلك اللّه علينا فضلًا بيّناً[۳۹۷].

أجل، هكذا هى طبيعة الدنيا، فيوم لك ويوم عليك، فلا إقبالها يوحى بالاطمئنان لها ولا إدبارها يثير التأسف عليها.

ونقرأ فى حديث آخر عن ابن عباس أنّه قال: لم أنتفع بعد كلام رسول اللّه صلى الله عليه و آله بانتفاعى بكتاب كتبه على بن أبى طالب عليه السلام فإنّه كتب إلىَّ:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْمَرْءَ يَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ وَيَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تَكُن بِهِ فَرِحاً وَمَا فَاتَكَ مِنْها فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ حُزْناً وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالسَّلَامُ»[۳۹۸].

وفى التوصية الرابعة والخامسة يقول عليه السلام:

«وَقُولَا بِالْحَقِّ، وَاعْمَلَا لِلْأَجْرِ».

أمّا نصرة الحقّ والالتزام الواعى بقول الحقّ وفقد ورد فى آيات متعددة من القرآن الكريم ومن ذلك ما ورد فى سورة «العصر» الأمر

بالتواصى بين المؤمنين

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۰۴

بالحق: «وَتَواصَوا بِالحَقّ».

والجدير بالذكر أنّ الحقّ له معنى واسع جدّاً ويشمل كلّ حقيقة عقائدية وأخلاقيّة وحكمية والتعاليم والأحكام الإلهيّة وحقوق الناس فيما بينهم، والحقّ المتقابل بين الحاكم والرعيّة، أو بين السلطة والشعب، وحقّ الإنسان على نفسه وما إلى ذلك.

وأمّا للعمل والأجر والثواب الإلهى فهذا يعنى إخلاص النيّة وأن لا ينظر الإنسان إلى ما فى أيدى الناس بعين الطمع، وأن يحصر فكره ونظره بالثواب الإلهى ويؤدّى كلّ عمل بنيّة خالصة للّه‌تعالى.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام فى التوصية السادسة والسابعة إلى مسألة فى غاية الأهميّة، ويقول:

«وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً».

وهذه التوصية فى الحقيقة تأكيد على لزوم نصرة الحقّ والدفاع عنه كما ورد فى العبارات السابقة، وما حقّ أعظم من أن يعين الإنسان المظلوم فى مقابل الظالم، ليصل المظلوم إلى حقّه ويجتنب الظالم ظلمه، واللافت للنظر أنّ الظالم والمظلوم فى هاتين الجملتين مطلقان فلا يختصان بالمسلمين، ومن هذه الجهة فإنّ كلّ مظلوم فى العالم يجب على المسلمين الدفاع عنه ونصرته، ويجب عليهم التصدى لكلّ ظالم وجائر فى هذا العالم، ولو أنّ منظمات حقوق الإنسان اهتمت بتطبيق هذين الأمرين فقط، فإنّ الدنيا ستتحول إلى جنّة، ولكننا نرى أنّ هؤلاء الذين يدّعون الدفاع عن حقوق الإنسان يقفون مع الظالم عندما تتعرض منافعهم غير المشروعة للخطر، ويقفون ضد المظلوم، رغم أنّهم يرفعون لواء حماية المظلومين والتصدى للظالمين فى الظاهر.

ونقرأ فى حديث عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«مَنْ أَصْبَحَ لَايَهُمُّ بِظُلْمِ أَحَدٍ غَفَرَ اللَّهُ مَا اجْتَرَمَ»[۳۹۹].

وفى الحقيقة أنّ أكثر الذنوب تعدّ نوعاً من أنواع الظلم والشخص الذى يجتنب

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۰۵

الظلم بجميع أشكاله هو الذى يتخلص من الذنوب كافّة.

ونقرأ فى حديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«وَمَنْ أَخَذَ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ كَانَ مَعِى فِى الْجَنَّةِ مُصَاحِبا»[۴۰۰].

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى «غررالحكم» يقول:

«أحْسَنُ العَدْلِ نُصْرَةُ المَظْلُومِ»[۴۰۱].

وكذلك نقرأ عن الإمام زين العابدين عليه السلام فى دعاء ۳۸ من الصحيفة السجاديّة (بوصفه قدوة لعامّة الناس):

«اللَّهُمَّ إِنِّى أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ مَظْلُومٍ ظُلِمَ بِحَضْرَتِى فَلَمْ أَنْصُرْه».

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۰۷

القسم الثانى

اشارة

أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وَلَدِى وَأَهْلِى وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِى ۴۰۲]، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَنَظْمِ

أَمْرِكُمْ، وَصَلَاحِ ذَاتِ ۴۰۳] بَيْنِكُمْ، فَإِنِّى سَمِعْتُ جَدَّكُمَا صلى الله عليه و آله يَقُولُ: «صَلَاحُ ذَاتِ

الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ».

الشرح والتفسير: أفضل الأعمال صلاح ذات البين!

فى هذا المقطع من الوصيّة يوسع الإمام عليه السلام دائرة مخاطبيه لتمتد إلى أبعد من ولديه الحسن والحسين عليهما السلام، وهم أهله وجميع أرحامه ومن تصل إلى أيديهم هذه الوصيّة إلى يوم القيامة ليقعوا جميعاً فى دائرة هذا الخطاب الإيمانى، فيقول:

«أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وَلَدِى وَأَهْلِى وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِى، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّى سَمِعْتُ جَدَّكُمَا صلى الله عليه و آله يَقُولُ: (صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ)».

وهكذا نرى أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد فى هذا المقطع من الوصيّة على أمور ثلاثة:

الأوّل: التأكيد مرّة على الالتزام والواعى بمقتضيات التقوى والورع، فطريق النجاة لا

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۰۸

يتيسر للإنسان إلّامن خلال التقوى، التى تعتبر زاد الإنسان ومتاعه فى سفره إلى الآخرة وكذلك تعتبر معيار شخصيّة الإنسان وكرامته أمام اللَّه تعالى بمقتضى قوله:

«إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...»[۴۰۴].

والأمر الثانى: يوصى الإمام عليه السلام ولديه بنظم أمورهم فى حركة الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، وهذا يشمل النظم فى الأبعاد الأمنيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة وفى العبادة، وكذلك ما يرتبط بالاسرة والتعليم والتربية للأبناء ونعلم أنّ بقاء عالم الوجود مرتبط بشكل وثيق بما فيه من نظام محكم فى ظلّ التدبير الإلهى، فلولا وجود النظم فى الأفلاك والمجرات السماوية لما بقى عالم الكون والطبيعة ولسارع إلى الانحلال والاندثار، ولو أنّ بدن الإنسان وما فيه من أجهزة وأعضاء تتحرك فى إطار من النظم الدقيق لسارعت الأمراض إليه وإرتبك عمل هذه الأجهزة المختلفة ولمات الإنسان فى وقت قصير، وكل مجتمع يفتقد النظم اللازم فإنّه يتعرض للفناء والانقراض، وكل إنسان يسلك فى خط العشوائيّة والعبثيّة بعيداً عن النظام فى حركة الحياة فلا يصل إلى نتيجة مهما كان يملك من قابليات وإمكانات كثيرة.

وعلى سبيل المثال يوجد فى دم الإنسان أكثر من عشرين نوعاً من العناصر المعدنيّة وشبه المعدنيّة ترتبط فيما بينها برابطة خاصّة ولكل واحد منها مهمّة خاصّة يؤدّيها فى البدن، فلو أنّ هذه التركيبات والعناصر تغيّرت قليلًا من الناحية الكميّة والكيفيّة فستظهر علائم الأمراض على الإنسان، ولهذا السبب فإنّ جميع الأطباء ومن أجل تشخيص جذور المرض الأصليّة يعملون على تحليل دم المريض فى المختبر ليروا فى أى قسم يوجد الخلل والنقص.

وفى المسائل الفلكيّة نرى أحياناً أنّ المنجمين وعلماء الفلك يتنبؤن بشكل دقيق بالخسوف وأنّه سيقع فى الساعة الفلانيّة والدقيقة الفلانيّة فى المكان الفلانى من الكرة الأرضية وذلك قبل عدّة أشهر من وقوع الخسوف أو الكسوف، ويجتمع فى

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۰۹

تلك المنطقة جماعات كثيرة فى لحظة وقوع الكسوف لرصد الشمس فى ذلك الوقت، فلولا وجود نظم دقيق حاكم على عالم الوجود لما أمكن لعلماء الفلك أن يتنبأوا بمثل هذه الأمور، بل إنّهم يتنبؤون بالظواهر الكونيّة قبل آلاف السنين من وقوعها.

والآن لو أنّ الإنسان أراد فى علاقاته الاجتماعيّة أن يسلك طريقاً اللانظم واللامبالاة فسيكون قطعة غير متجانسة مع عالم الوجود، ومثل هذا الشىء الاستثنائى وغير المنسجم من مظاهر الطبيعة محكوم بالفناء والزوال.

أمّا صلاح ذات البين والحديث الذى نقله الإمام عليه السلام عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله بأن إصلاح ذات البين أفضل من الصلاة والصوم، فالعلّة فى ذلك جلية، لأنّه لولا مسألة إصلاح ذات البين والعمل على رفع الكدورات وإزالة العداوات وتبديل حالات

الكراهية إلى حالات المحبّة والمودّة بين أفراد المجتمع الواحد، لسادت حالات التشتت والفرقة والتزلزل بينهم، وهذا بدوره يقود المجتمع كما يقول القرآن إلى الفشل والتناحر.

ولهذا السبب كان إصلاح ذات البين من أفضل العبادات بل ورد فى الروايات الشريفة أنّ المصلح بمنزلة المجاهد فى سبيل اللّه:

«جَعَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه و آله اجْرَ الْمُصْلح بَيْنَ النَّاسِ كَاجْرِ الْمُجاهِدِ عِنْدَ النّاسِ»[۴۰۵].

ولا ـ شك ولا ريب فى أنّ الجهاد يوجب عزّة الإسلام، والشخص الذى يتحرك فى واقعه الاجتماعى من أجل إيجاد حالات التفاهم والتواصل بين الناس ويسوق المجتمع الإسلامى نحو التوحد والاتحاد فإنّ عمله هذا يتسبب فى عزّة الإسلام والمسلمين.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«صَدَقَةٌ يُحِبُّهَا اللَّهُ إِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا وَتَقَارُبُ بَيْنِهِمْ إِذَا تَبَاعَدُوا»[۴۰۶].

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حديثاً معروفاً، عندما قال مخاطباً المفضّل (وهو أحد أصحاب الإمام):

«إِذَا رَأَيْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ شِيعَتِنَا مُنَازَعَةً فَافْتَدِهَا مِنْ مَالِى»،

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۱۰

أى أصلح بينهما وارفع النزاع ولو كان بدفع مبلغ من المال لهما، ولذلك نقر أ فى الرواية عن أبى حنيفة سابق الحاج قال: مرّ بنا المفضّل وأنا وختنى [۴۰۷] نتشاجر فى ميراث، فوقف علينا ساعة ثمّ قال لنا: تعالوا إلى المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا من عنده حتّى إذا استوفى كلّ واحد منّا من صاحبه، قال: أمّا إنّها ليست من مالى، ولكن أبوعبداللّه عليه السلام أمرنى إذا تنازع رجلان من أصحابنا فى شىء أن أصلح بينهما وأفتديها من ماله، فهذا من مال أبى عبداللّه عليه السلام ۴۰۸].

ونختم هذا البحث بحديث آخر من جملة الأحاديث الكثيرة الواردة فى هذا المجال، قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«ألا أُخْبِرُكُمْ بِأفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيامِ وَالصَّلاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ إصْلاحُ ذاتِ الْبَيْنِ فَإنَّ فَسادَ ذاتِ الْبَيْنِ هِىَ الْحالِقَةُ»[۴۰۹].

وبعد أن ينقل العلّامة المجلسى الحديث النبوى الشريف الوارد فى كلام الإمام عليه السلام مورد البحث، ينقل عن أمالى الشيخ الطوسى بعد ذكره لهذه الرواية:

«المراد صلاة التطوّع والصوم»[۴۱۰] وكأنّ توضيح الشيخ الطوسى فى هذا الكلام يعتمد على رواية معتبرة عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصوم»[۴۱۱].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۱۱

القسم الثالث

اشارة

اللَّهَ اللَّهَ فِى الْأَيْتَامِ، فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ. وَاللَّهَ اللَّهَ فِى جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِى بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ وَاللَّهَ اللَّهَ فِى الْقُرْآنِ، لَايَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ. وَاللَّهَ اللَّهَ فِى الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ. وَاللَّهَ اللَّهَ فِى بَيْتِ رَبِّكُمْ، لَاتُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا، وَاللَّهَ اللَّهَ فِى الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ. وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ. لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ.

الشرح والتفسير: وصايا هامّة على فراش الشهادة!

اشارة

يقدّم الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصيّة عشر توصيات مهمّة فيما يتصل بالمسائل الاجتماعيّة والعباديّة والأخلاقيّة، وفي ستة موارد منها يستهلها الإمام عليه السلام بكلمة «اللَّه اللَّه» وذلك للدلالة على غاية الاهتمام والتأكيد، وبداية يشرع الإمام من الأيتام ويقول:

«اللَّهَ اللَّهَ فِي الْأَيْتَامِ، فَلَا تُغِبُّوا[۴۱۲] أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ».

وفيما يتصل بالاهتمام في أمر اليتامى فقد ورد في القرآن الكريم والروايات

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۱۲

الشريفة تأكيدات كثيرة بهذا المضمون، ممّا يعكس الروح الإنسانيّة وحالات التكافل الاجتماعي وحماية الضعفاء في التعاليم والأحكام الإسلاميّة.

فنقرأ في الآية ۹ من سورة النساء قوله تعالى: «وَلْيَخْشَ الَّذينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا».

ويقول في الآية بعدها: «إِنَّ الَّذينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ في بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعيراً».

وورد في حديث معروف عن النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«مَنْ مَسَحَ عَلى رَأْسِ يَتيمٍ كانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمُرّ عَلى يَدِهِ نُورٌ يَوْمَ الْقِيامَةِ»[۴۱۳].

أجل، فإنّ روح اليتامى عطشى للمحبّة، فتأثير المحبّة والمداراة لهؤلاء الأطفال اليتامى لا يفوقه أي إكرام واحترام لهم.

وفي حديث مشهور آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إنّ الْيَتيمَ إذا بَكى اهْتَزَّ لِبُكائِهِ عَرْشُ الرَّحْمنِ»[۴۱۴].

وجاء في ذيل هذا الحديث أنّ اللَّه تعالى يخاطب ملائكته ويقول:

«إنّ اليتيمَ إذا بَكى اهتزّ لِبُكائِهِ عَرشُ الرّحمنِ، فَيقُولُ اللَّهُ لِملائكتِه: يا مَلائكتِي! مَنْ أبكى هذا اليتيمَ الّذي غُيّب أبُوه فِي التّراب؟ فَتقُولُ المَلائكةُ، أنتْ أعلمُ، فَيقُولُ اللَّهُ تعالى:

يامَلائكتِي! فإنّي اشهِدُكُم أنّ لِمَن أَسكَتَه وَأرضاهُ أنْ أرضيهِ يَومَ القِيامةِ».

وجاء في كتاب الكافي، جيء إلى أميرالمؤمنين عليه السلام عسل وتين من همدان وحُلوان ۴۱۵] فأمر العرفاء أن يأتوا باليتامى، فأمكنهم من رؤوس الأزقاق يلعقونها وهو يقسمها قدحاً قدحاً، فقيل له: ياأميرالمؤمنين ما لهم يلعقونها، فقال الإمام عليه السلام:

«إِنَّ الْإِمَامَ أَبُو الْيَتَامَى وَإِنَّمَا أَلْعَقْتُهُمْ هَذَا بِرِعَايَةِ الْآبَاءِ»[۴۱۶].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۱۳

والملفت أنّ أباالطفيل (الصحابي المعروف ومن الأتباع المخلصين للإمام علي عليه السلام) يقول: «رأيت عليّاً عليه السلام يدعو اليتامى فيطعمهم العسل، حتى قال بعض أصحابه: لوددت أني كنت يتيماً»[۴۱۷].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام في وصيّته الثانية يؤكّد على ضرورة الاهتمام بحقّ الجيران ويقول:

«اللَّهَ اللَّهَ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ. مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ ۴۱۸]».

وجملة

«فَإِنَّها وصِيَّةِ نَبِيِّكُمْ»

، إمّا من باب حذف المضاف، وهي في الأصل:

«فإنّها محل وصّية نبيّكم»

، أو من باب التأكيد بأنّهم عين وصيّته، من قبيل أن يقال:

زيد عدل، أو نقول مثلًا: الشخص الفلاني عين العدالة.

والتعبير ب «ظنّ» في جملة در جمله

«حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ»

، بأن يكونوا شركاء في الميراث إمّا على مستوى التأكيد ومن خلال ما سمعوه من تكرار توصية النّبي بالجيران، أو يراد بها المعنى الحقيقي، وأنّهم حسبوا واقعاً أنّ مقام الجيران إلى درجة يمكن أن يلحقوا بالأرحام والأقرباء ويكونون شركاء في الميراث.

وعلى أيّة حال فالجار في الإسلام يتمتع باحترام خاص خلافاً لما نراه في عالم اليوم والحياة المادية في المجتمعات المعاصرة، فربّما عاش رجلان عشرين سنة جيراناً ولكن أحدهما لا يعرف الآخر بتاتاً.

إنّ فلسفة احترام الجار في الإسلام جلية وواضحة، لأنّ الإسلام دين اجتماعي بامتياز، فتعاليمه ناظرة إلى تجمع الاسرة، تجمع الأقرباء والأرحام، تجمع الجيران، تجمع أهالي المدينة، تجمع المواطنين في البلد الواحد، فكل واحد من أفراد هذه التجمعات له مكانة خاصّة في الإسلام، فلو أنّ الجيران كانوا يهتمون واقعاً ببعضهم

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۱۴

البعض ويتشاركون الأفراح والأحزان فيما بينهم فإنّ الحياة ستكون حلوة وهنيئة وسيمنح هذا التواصل والتكاتف أفراد الجيران القوّة والروحية بحيث تمكنهم من التغلب بسهولة على المشاكل والتحديات الصعبة التي يفرضها الواقع، فاليوم يواجه هذا الجار مشكلة معينة فينهض سائر الجيران لمساندته وتقديم المعونة إليه لحل هذه المشكلة، وغداً تكون نوبة الجار الآخر ويتداعى له الجيران بالمعونة وهكذا.

ونقرأ في حديث عميق المغزى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«هَلْ تَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ مَا تَدْرُونَ مِنْ حَقِّ الْجَارِ إِلَّا قَلِيلًا أَلَا لَايُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَنْ لَايَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ فَإِذَا اسْتَقْرَضَهُ أَنْ يُقْرِضَهُ وَإِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّأَهُ وَإِذَا أَصَابَهُ شَرٌّ عَزَّاهُ لَا يَسْتَطِيلُ عَلَيْهِ فِي الْبِنَاءِ يَحْجُبُ عَنْهُ الرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَإِذَا اشْتَرَى فَاكِهَةً فَلْيُهْدِ لَهُ فَإِنْ لَمْ يُهْدِ لَهُ فَلْيُدْخِلْهَا سِرّاً وَلَا يُعْطِي صِبْيَانَهُ مِنْهَا شَيْئاً يُغَايِظُونَ صِبْيَانَهُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجِوَارِ وَحَقُّ الْقَرَابَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقَّانِ حَقُّ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجِوَارِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ الْكَافِرُ لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ»[۴۱۹].

ونقرأ في الآية ۳۶ من سورة النساء أنّ القرآن الكريم بعد التأكيد على الإحسانالوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين، يؤكّد على الإحسان للجيران القريبن والبعيدين، يقول: «وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى وَالْجارِ الْجُنُبِ».

واللافت ما ورد في حديث شريف عن النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله وأميرالمؤمنين عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام أنّ حدّ الجار يتمثّل في أربعين منزلًا من الجهات الأربع [۴۲۰].

وممّا يجدر ذكره أنّ هذا الحديث الشريف لا يعني أن نحسب أربعين داراً من كلّ جهة في خط مستقيم بحيث يكون المجموع ۱۶۰ منزلًا، وأن لا تحسب المنازل الواقعة بين هذه الخطوط المستقيمة حتى لو كانت على مقربة من دار الشخص، بل

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۱۵

المراد أنّ دائرة الجيران تمتد لشعاع أربعين منزلًا من كلّ جهة، ونعلم أنّ مساحة الدائرة تساوي ضرب نصف القطر في عدد ۱۴/ ۳، ويتبيّن في حساب بسيط أنّ المجموع يبلغ قرابة خمسة آلاف بيتاً، فجميع هذه البيوت والدور، وفق ما ورد في الحديث الشريف، تعتبر من الجيران، أي أنّها مدينة مكونة من عشرين ألف نفر.

ونختم هذا الكلام بذكر قصّة تاريخيّة، ينقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة أنّ رجلًا يدعى أبوالجهم باع داره وكان في

جواره سعيد بن العاص بمائة ألف درهم، فلمّا أحضرها المشترى قال (أبوالجهم) له: هذا ثمن الدار، فأعطنى ثمن الجوار، فقال المشترى: أى جوار قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشترى أحد جواراً قط، قال: ردّ علىَّ دارى، وخذ مالك، لا أدع جوار رجل إن قعدت سأل عنّى وإن رآنى رحّب بى، وإن غبت عنه حفظنى، وإن شهدت عنده قرّبنى، وإن سألته قضى حاجتى، وإن لم أسأله بدأنى، وإن نابتنى نائبة فرج عنّى، فبلغ ذلك سعيداً فبعث إليه مائة ألف درهم، وقال: هذا ثمن دارك، ودارك لك [۴۲۱].

ونقرأ فى التوصية الثالثة أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد على العمل بالقرآن والالتزام بتعاليمه وأحكامه ويقول:

«وَاللَّهَ اللَّهَ فِى الْقُرْآنِ، لَايَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ».

وهذا الكلام إشارة إلى أنّكم لا ينبغى أن تقنعوا بتلاوة القرآن وتجويده وتغفلوا عن مضامينه وتعاليمه، فى حين أنّ الأجانب يتحركون فى حياتهم من موقع العمل بمضامين القرآن وتعاليم الإسلام، مثلًا، عندما يعرضون بضاعتهم فى السوق يراعون الصدق والأمانة فى معاملاتهم ولكنّكم لستم كذلك، أو أنّهم يلتزمون بعهودهم ومواثيقهم وأنتم تنقضون العهود ولا تلتزمون بالمواثيق فيما بينكم، وأولئك يسعون بجديّة لتحصيل وكسب العلوم المختلفة وإيجاد حالة النظم والانضباط فى علاقاتهم ولكنّكم لا تهتمون لذلك فتبقون فى ركب التخلف والتبعية، كما نشاهد هذا الحال- وللأسف- فى بعض المجتمعات البشرية والإسلاميّة وأنّهم يعملون على وضع

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۱۶

شارة وعلامة الشركات الأجنبيّة على منتوجاتهم ومصنوعاتهم ويبيعونها فى السوق، وهذا يعنى أنّ الناس تعتمد وتثق بالبضاعة الأجنبيّة ولكنهم لا يعتمدون على منتوجاتهم، والأجانب يسعون دائماً فى خط التطور العلمى ويبذلون الجهود الكبيرة فى سبيل التقدم والإزدهار، فى حين أنّ الكثير من الشعوب الإسلاميّة يعيشون الغفلة وحالة الاسترخاء والتكاسل وكأنّهم نيام، وهذا الأمر مؤلم جدّاً ومؤسف.

وقد ورد فى الحديث الشريف أنّ زياد بن لبيد جاء إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال له النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أمراً ثمّ أضاف شيئاً وقال:

«ذَلِكَ عِندَ أوان ذِهابِ العُلم»

، فقلنا:

وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا وأبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال:

«ثَكَلَتْكَ امّكَ يا زِياد! إنْ كُنتُ لأراكَ أفضلُ رَجل بِالمَدينةِ، أوَلَيسَ هَذِهِ اليَهودُ والنّصارى يَقرَأُونَ التَّوراةَ والإنجيلَ وَلا يَعمَلُونَ بِشىءٍ مِمّا فِيها»[۴۲۲]

. يعنى اخشوا يوماً تكونوا مثلهم.

وقد وردت تعبيرات فى غاية الأهميّة فيما يتصل بأهميّة القرآن الكريم فى النصوص القرآنيّة والروايات الإسلاميّة، فنقرأ فى خطب نهج البلاغة كلاماً مطولًا وعميقاً فى هذا الشأن وقد سبق أن ذكرناه فى البحوث السابقة، ولكنّا نكتفى هنا بذكر مقطع من الخطبة ۱۸۲ التى أوردناها فى الجزء السابع من هذا الكتاب، وأنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يتأسف ويتأوه على فراق إخوته وأحبّته ويذكرهم بهذه العبارات:

«أَوِّهِ عَلَى إِخْوَانِىَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ أَحْيَوُا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ»[۴۲۳].

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه فى هذه الوصية ويتحدّث فى التوصية الرابعة عن الصلاة ويبيّن أهميتها ويقول:

«وَاللَّهَ اللَّهَ فِى الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ».

وقد ورد هذا التعبير بعمود الدين بشكل واسع فى روايات المعصومين عليهم السلام ومن

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۱۷

ذلك ما ورد عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إِنَّ عَمُودَ الدِّينِ الصَّلَاةُ وَهِيَ أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ فَإِنْ صَحَّتْ نُظِرَ فِى عَمَلِهِ وَإِنْ لَمْ تَصِحَّ لَمْ يُنْظَرْ فِى بَقِيَّةِ عَمَلِهِ»[۴۲۴].

ويبيّن الإمام الباقر عليه السلام هذا المعنى بشكل واسع ويقول:

«الصَّلَاةُ عَمُودُ الدِّينِ مَثَلُهَا كَمَثَلِ عَمُودِ الْفُسْطَاطِ إِذَا ثَبَتَ الْعَمُودُ ثَبَتَتِ الْأَوْتَادُ وَالْأَطْنَابُ وَإِذَا مَالَ الْعَمُودُ وَانْكَسَرَ لَمْ يَثْبُتْ وَتِدٌ وَلَا طُنُبٌ»[۴۲۵].

والدليل على ذلك أنّ الصلاة تربط الإنسان بالبارى تعالى وتقوى فيه العلاقة بينه وبين ربّه وتحيي فيه روح التقوى والإيمان، ومن هنا فإنّها تردع الإنسان من اقتراف الفحشاء والمنكرات وتمنحه القدرة والقوّة على الإتيان بسائر الطاعات والعبادات الأخرى ومن هذه الجهة تبقى خيمة الدين منصوبة فى حياة الإنسان المعنويّة، وأمّا ترك الصلاة فإنّه يقود الإنسان إلى نسيان اللّه، والغفلة عنه ومن يغفل عن اللّه تعالى فإنّه يتلوث بكل عمل قبيح.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام فى التوصية الخامسة أهميّة الحج إلى بيت اللّه، ويقول:

«وَاللَّهَ اللَّهَ فِى بَيْتِ رَبِّكُمْ، لَاتُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا».

وذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ جملة

«لَمْ تُنَاظَرُوا»

إشارة إلى ابتعادكم عن نظر اللطف الإلهى بسبب عدم اهتمامكم ببيته، أو ابتعادكم عن نظرة تعظيم الناس لكم، بسبب تفرّق المسلمين وضعفهم فيما لو تركوا البيت الحرام، ولكنّ الظاهر أنّ المراد من التناظر فى هذه العبارة هو الإمهال، وذلك إشارة إلى أنّ المهلة الإلهيّة ستنقضى وسيحل عليكم العذاب ۴۲۶].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۱۸

ونقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِماً مَا قَامَتِ الْكَعْبَةُ»[۴۲۷].

والروايات الشريفة التى تتحدّث عن أهميّة الحج وزيارة بيت الحرام إلى درجة من الكثرة والاستفاضة أنّها خارجة عن إطار هذا المختصر، فنكتفى هنا بذكر جملة واحدة من هذه الروايات كخاتمة لهذا البحث:

يقول أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام: قلت لأبى عبداللّه: إنّ رجلًا استشارنى فى الحج وكان ضعيف الحال (من الجهة الماليّة أو البدنيّة) فأشرت إليه أن لا تحج، فقال عليه السلام:

«مَا أَخْلَقَكَ ۴۲۸] أَنْ تَمْرَضَ سَنَةً»

، قَالَ: فَمَرِضْتُ سَنَةً[۴۲۹].

حكى عن رجل السياسة فى بريطانيا ويدعى (غلادستون) أنّه قال: مادام المسلمين يقرأون القرآن ويطوفون بالكعبة ويذكروا اسم محمّد كلّ صباح ومساء على المآذن، فإنّ النصرانيّة فى خطر محدق، فعليكم أن تحرقوا القرآن وتهدموا الكعبة وتمحو اسم محمّد من الآذان.

وفى التوصية السادسة يقول الإمام عليه السلام:

«وَاللَّهَ اللَّهَ فِى الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ».

والمراد من الجهاد بالأنفس، الحضور فى ميادين القتال والتصدى لأعداء الإسلام والمسلمين للحفاظ على الإسلام والبلدان الإسلاميّة فى مقابل تحديات الأعداء وعدوانهم، وأمّا الجهاد بالأموال فيتمثّل بالمساعدات المادية والماليّة لتعبئة الجيوش الإسلاميّة فى الأزمنة

القدیمـة ومـدّها بالمؤن والعتاد اللازم، وفی هـذا العصـر یشـمل الجهاد بالأموال جمیع أشـکال المساعـدات فیما یتصل بالأمور الثقافیّة والاجتماعیّة

نفحات الولایة، ج۱۰، ص: ۲۱۹

والاقتصادیّـة لتقویـة دعـائم الإسـلام فی واقع المجتمعـات الإسـلامیّة، وأمّـا الجهاد باللسان فیتمثّل بالـدفاع المنطقی والخطاب العقلانی والتبلیغ المستمر لنشـر تعالیم الإسـلام وأحکامه، والیوم یسـتفاد فی هـذا السبیل من جمیع وسائل الارتباط الجمعی فی العالم والأجهزة الحدیثة فی هذا الشأن.

ویعتبر الجهاد قانوناً عاماً فی عالم الطبیعـة، لأنّ جمیع الموجودات الحیّـة، سواءً من النباتات أو الحیوانات والأحیاء الأخری تتحرک فی مواجهتها للموانع والمعیقات بآلیة الجهاد لتستمر فی حیاتها وتزیح المعیقات من أمامها.

وفی طبیعة الخلقة فی هذا العالم، فإنّ کلّ موجود یستبطن فی ذاته آفة ونقصاً، ولو لم یناضل ویکافح من أجل التغلب علی تلک الآفة فإنّه سرعان من یصیبه العطب ولا یمکنه الاستمرار فی حرکة التکامل وإدامة الحیاة.

إنّ جـذور الأشـجار، ولغرض الحصول علی الماء والغذاء، تتجه دائماً إلی أعماق الأرض، وعند وصولها إلی مانع کالحجر فإنّها تحاول النفوذ فیه وتحطیمه أو الالتفاف علیه والاسـتمرار فی حرکتها، وأحیاناً نری أنّ الجـذور الرقیقـة للنباتات تنفذ إلی الموانع الصـلبة وحتی الفولاذیة وتثقبها.

ولا نبتعـد کثیراً فإنّ أبـداننا تعیش حالة الجهاد فی اللیل والنهار، لأنّ المیکروبات تنفذ إلی البدن من أربع طرق: الماء، الهواء، والغذاء، والجلـد (فی حال وجود جرح أو خدش)، فلولا وجود القوی الدفاعیة للبدن المتمثّلة فی خلایا الدم البیضاء وتصدیها لهذه المکروبات فربّما یصاب الإنسان فی یوم واحد بأنواع الأمراض والأسقام، ولکنّ هذا الجهاد الصامت والعمیق هو الذی یحفظ لنا سلامتنا وصحتنا.

والمجتمعات التی لا تتحرک فی خط الجهاد والتصدی للأعداء فإنّها سـتواجه فی مدّة قصـیرة الهلاک والفناء، أو تنحدر نحو الضـعف والذلة والمهانة.

ونقرأ فی حدیث عن النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«مَنْ تَرَکَ الْجِهَادَ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ذُلّاً وَفَقْراً فِی مَعِیشَتِهِ وَمَحْقاً فِی دِینِهِ»

ثمّ قال:

«إِنَّ اللَّهَ أَعَزَّ أُمَّتِی بِسَنَابِکِ خَیْلِهَا وَمَرَاکِزِ

نفحات الولایة، ج۱۰، ص: ۲۲۰

رِمَاحِهَا»[۴۳۰].

ونقرأ فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علی علیه السلام أنّه قال:

«وَاللَّهِ مَا صَلَحَتْ دُنْیَا وَلَا دِینٌ إِلَّا بِهِ (بالجهاد)»[۴۳۱].

وبالنسبة لأهمیّة الجهاد فقد تحدّثنا فی البحوث السابقة عن هذا الموضوع، ومن ذلک ما ورد فی ذیل الخطبة ۲۷ من الجزء الثانی من هذا الکتاب.

ثمّ یواصل الإمام علیه السلام توصیاته لبنیه وشیعته ویأمرهم بأربعة أمور مهمّة، ویقول فی البیان الأوّل والثانی:

«وَعَلَیْکُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ».

ثمّ یطرح البیان الثالث والرابع ویقول:

«وَإِیَّاکُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ».

«تواصـل» من مادة «وصل»، ویشـمل کلّ أشـکال الإرتباط المعنوی والمادی والعقلانی والعاطفی، أمّا «تباذل» فهو من مادة «بـذل» وهو

من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّ إحدى طرق تمتين العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد، البذل والمعونات المادية للمحتاجين والإنفاق على الآخرين بما يحقق لأفراد المجتمع التكاتف وتوثيق العلاقة فيما بينهم.

«تدابر» من مادة «دَبر» (على وزن عبد) يعنى الإعراض عن الآخر إظهاراً للكراهية والعداوة، لأنّ المعرض عن الآخر يعطيه ظهره، و «تقاطع» يراد به كلّ أشكال قطع العلاقة مع الآخرين، وهاتان المفردتان تقعان على الضد من المفردتين الأوليتين وهما من قبيل ذكر الخاص بعد العام، لأنّ التدابر يعنى الإنفصال الكامل، والتقاطع يشمل كلّ نوع من قطع الرابطة.

إنّ مسألة توثيق علائق المودّة والمحبّة بين الأفراد تارة تكون باللسان وأخرى عن طريق اللقاءات والزيارات المتبادلة، وهى مسألة فى غاية الأهميّة فى التعاليم الإسلاميّة، كما أنّ الكراهية والتنافر وقطع العلاقات مذموم فى نظر الإسلام، وقد

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۲۱

وردت أحاديث كثيرة فى ذم الهجران والتنافر فى المنابع الروائية المعتبرة، وأحياناً يشعر القارىء لها بقشعريرة لشدّة مضامينها.

وقد أورد المرحوم الكلينى فى كتاب «الكافى» حديثاً شريفاً عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أَيُّمَا مُسْلِمَيْنِ تَهَاجَرَا فَمَكَثَا ثَلَاثاً لَا يَصْطَلِحَانِ إِلَّا كَانَا خَارِجَيْنِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا وَلَايَةٌ فَأَيُّهُمَا سَبَقَ إِلَى كَلَامِ أَخِيهِ كَانَ السَّابِقَ إِلَى الْجَنَّةِ يَوْمَ الْحِسَاب»[۴۳۲].

ونقرأ فى هذا الكتاب أيضاً رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«لَا يَزَالُ إِبْلِيسُ فَرِحاً مَا اهْتَجَرَ الْمُسْلِمَانِ فَإِذَا الْتَقَيَا اصْطَكَّتْ رُكْبَتَاهُ وَتَخَلَّعَتْ أَوْصَالُهُ وَنَادَى يَا وَيْلَهُ مَا لَقِيَ مِنَ الثُّبُورُ»[۴۳۳].

بل يمتد الأمر إلى أبعد من ذلك، فالشخص الذى يرى نفسه مظلوماً وأنّ الطرف الآخر ظالم له يجب عليه أيضاً السعى لتطوير الرابطة معه والسعى للتصالح وإزالة غبار وافرازات الظلم، كما نقرأ هذا فى حديث آخر فى كتاب «الكافى» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«لَا يَفْتَرِقُ رَجُلَانِ عَلَى الْهِجْرَانِ إِلَّا اسْتَوْجَبَ أَحَدُهُمَا الْبَرَاءَةَ وَاللَّعْنَةَ وَرُبَّمَا اسْتَحَقَّ ذَلِكَ كِلَاهُمَا فَقَالَ لَهُ مُعَتِّبٌ جَعَلَنِيَ اللَّهُ فِدَاكَ هَذَا الظَّالِمُ فَمَا بَالُ الْمَظْلُومِ قَالَ لِأَنَّهُ لَايَدْعُو أَخَاهُ إِلَى صِلَتِه»[۴۳۴].

وهذه إشارة إلى لزوم التحرك على مستوى حلّ المشكلة بصورة سلميّة ومنطقيّة فيما بينهما.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى التوصية التاسعة والعاشرة فى كلامه يقول:

«لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ».

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۲۲

هنا ربّما يطرح هذا السؤال نفسه: هل هناك رابطة معنويّة وغيبيّة بين حكومة الأشرار وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أم توجد رابطة ظاهريّة وملموسة بينهما؟

الظاهر أنّه من الممكن إثبات العلاقة بينهما بصورة منطقيّة، لأنّ أحد المصاديق المهمّة للأمر المعروف والنهى عن المنكر تتمثّل فى التصدى لقوى السلطة والحكومة فيما لو إرتكبوا مخالفات شرعية ودستورية، فيجب على عامّة الناس تذكيرهم بواجباتهم ومطالبتهم للحكّام العمل وفق مقتضيات العدل والشرع، فلو أنّ الناس تركوا هذين الأمرين ووجد الحكّام أنفسهم أحراراً فى ما يتصرفون وفيما يسلكون دون أى اعتراض من أحد عليهم، فذلك من شأنه أن يزيدهم جرأة وجسارة على التوغل فى خط الانحراف والظلم، وبالتالى يتسلط الأشرار على المجتمع الإسلامى.

ولكن لماذا لا يستجاب الدعاء لرفع شرّ حكّام الجور والشرّ؟ فذلك لما ورد فى الروايات الإسلاميّة أنّ المصيبة والبلاء إذا كان بسوء اختيار الإنسان نفسه وتقصيره، فالدعاء لرفعه لا يكون مستجاباً ويقال له: هذه نتيجة أعمالك، لماذا تصرفت مثل هذا التصرف وارتكبت العمل الفلانى الذى تسبب لك بهذه العاقبة السيئة؟

والملفت للنظر ما ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام أنّ الأخيار أيضاً فى مثل هذه الظروف إذا دعوا لا يستجاب لهم: «فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ»[۴۳۵].

تأمل

أهمّية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وردت بحوث كثيرة وموسعة فى النصوص القرآنيّة والروايات الشريفة بالنسبة لأهميّة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونكتفى هنا بذكر روايتين فى هذا الشأن:

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىَ عَنِ

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۲۲۳

الْمُنْكَرِ سَبِيلُ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْهَاجُ الصُّلَحَاءِ فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَائِضُ وَتَأْمَنُ الْمَذَاهِبُ وَتَحِلُّ الْمَكَاسِبُ وَتُرَدُّ الْمَظَالِمُ وَتُعْمَرُ الْأَرْضُ وَيُنْتَصَفُ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَيَسْتَقِيمُ الْأَمْر»[۴۳۶].

وجاء فى ذيل هذا الحديث أنّ اللَّه عزّ وجلّ أوحى إلى شعيب النّبى عليه السلام أنّى معذّب من قومك مائة ألف نفر، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم، فقال شعيب عليه السلام: ياربّ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى اللَّه عزّ وجلّ إليه:

«دَاهَنُوا أَهْلَ الْمَعَاصِى وَلَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِى»[۴۳۷].

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىُ عَنِ الْمُنْكَرِ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فَمَنْ نَصَرَهُمَا أَعَزَّهُ اللَّهُ وَمَنْ خَذَلَهُمَا خَذَلَهُ اللَّهُ»[۴۳۸].

والتعبير ب «خلقان» فى الواقع نوع من التشبيه، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد منه الخلق (بضم الخاء) ويعنى الخصلة فى ذات الإنسان، ولكنّ هذا الاحتمال بعيد ظاهراً بقرينة ما ورد فى ذيل الحديث.

وعلى أيّة حال فإنّ مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الأمور التى أكّدت عليها التعاليم السماوية وعمل بهذه الوظيفة الأنبياء والأولياء الإلهيين وقد أمروا جميع الناس بأداء هذه الوظيفة الشرعية.

وفى ختام هذا المقطع من هذه الوصيّة، لأبدّ من الإعتراف بصراحة أنّ هذه التوصيات العشر المذكورة أعلاه لو تجسدت فى حياة المسلمين على مستوى التطبيق والممارسة فإنّها تضمن لهم العزّة والقدرة والرفعة فى الدنيا، والسعادة الأبديّة فى الآخرة ولا يتوقع من شخصيّة نموذجيّة كأميرالمؤمنين عليه السلام فى وصيّته وهو على فراش الشهادة غير هذه التوصيات التى تتضمن سعادة الدنيا والآخرة للمسلمين.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۲۵

القسم الرابع

اشارة

ثُمَّ قَالَ:

يَا بَنِى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَاأُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: «قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ». أَلَا لَاتَقْتُلُنَّ بِى إِلَّا قَاتِلِى. انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ

مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّی سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلی الله علیه و آله یَقُولُ: «إِیَّاکُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْکَلْبِ الْعَقُورِ».

الشرح والتفسیر: توصیة الإمام علیه السلام المؤکدة حول قاتله!

فی هذا المقطع الأخیر من هذه الوصیّة یتوجّه الإمام علیه السلام بکلامه نحو أقربائه وأرحامه من أبناء عبدالمطلب ویوصیهم بثلاثة أمور مهمّة فیما یتصل بقاتله، وهذا یعکس عظمة الإمام علیه السلام وسعة صدره تجاه أعدائه ومناوئیه.

بدایة یقول:

«ثُمَّ قَالَ: یَا بَنِی عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَاأُلْفِیَنَّکُمْ ۴۳۹] تَخُوضُونَ ۴۴۰] دِمَاءَ الْمُسْلِمِینَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: «قُتِلَ أَمِیرُ الْمُؤْمِنِینَ». أَلَا لَاتَقْتُلُنَّ بِی إِلَّا قَاتِلِی».

ومثل هذه المسألة تحدث کثیراً علی إمتداد التاریخ، عندما یقتل زعیم کبیر أو ملک من الملوک فإنّ جماعة من أتباعه یسلکون سبیل التعصب والانتقام ویقومون بمجزرة کبیرة، وجماعة أخری تغتنم الفرصة لتسویة حسابتهم الشخصیّة من

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۲۶

مخالفیهم فیکثروا فیهم القتل وسفک الدماء بهذه الذریعة، کما ورد فی التاریخ الإسلامی عندما قام أتباع الخلیفة الثانی بعد مقتله علی ید أبی لؤلؤة بالانتقام له من ذویه وأقربائه وقتلوا عدداً منهم، وکذلک عندما قتل مصعب بن الزبیر أخا عبیداللَّه بن زیاد، فنذر عبیداللَّه أن یقتل مائة نفر من قریش، فقتل منهم ثمانین نفر، ثمّ أخبروه بأنّ مصعب قد قتل ثمّ بعث برأسه إلی عبدالملک، فهدأت نفسه حینذاک ۴۴۱]، ولکن الإمام علیه السلام برؤیته الحکیمة وافقه الواسع وقف أمام هذا العمل، ولذلک لم تحدث بعد استشهاده تسویة حسابات شخصیّة باسمه ولم یتعرض المجتمع فی ذلک الوقت لمثل هذه الحوادث الدامیة والفوضی المدمرة.

ویتابع الإمام علیه السلام کلامه مع أقربائه ویصدر الأمر الثانی لهم ویقول:

«انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ».

والملفت للنظر أنّ الإمام علیه السلام یوصی بإقامة العدل بالنسبة لقاتله حتی فی کیفیة القصاص، لئلا یتحرک شیعته بدافع التأثر الشدید علی مقتله ویعاملون قاتله بالقتل الفجیع والمثلة ولا یکتفوا بالقصاص العادل.

وقد سبق وأن قرأنا فی الکتاب رقم ۲۳ أنّ الإمام علیه السلام یقول:

«إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِیُّ دَمِی وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِیعَادِی وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِی قُرْبَةٌ وَهُوَ لَکُمْ حَسَنَةٌ فَاعْفُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ یَغْفِرَ اللَّهُ لَکُمْ».

ونستوحی من هذه العبارات أنّ الإمام علیه السلام کان راغباً فی العفو عن قاتله ولکن الظروف والمستجدات فی ذلک المحیط الاجتماعی لا تسمح قطعاً بالعفو عن القاتل، ولذلک یوصی الإمام علیه السلام هنا بالحدّ الأدنی من القصاص.

والجدیر بالذکر ما ورد فی «تاریخ الطبری» وکذلک فی «الکامل» لابن الأثیر، أنّ قاتل الإمام علی علیه السلام، عبد الرحمن بن ملجم قال قبل استشهاد الإمام علیه السلام: شحذته- سیفی هذا- أربعین صباحاً وسألت اللَّه أن یقتل به شرّ خلقه، فقال الإمام علیه السلام له:

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۲۷

«أَنْتَ أَشقَی خَلقِ اللَّهِ وَقَدْ قَتَلْتَ نَفسَکَ بِسَیفِکَ»[۴۴۲].

ثمّ یوصی الإمام علیه السلام بوصیّته الثالثة والأخیرة ویقول:

«وَلَا تُمَثِّلُوا[۴۴۳] بِالرَّجُلِ، فَإِنِّی

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلی الله علیه و آله یَقُولُ: «إِیَّاکُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْکَلْبِ الْعَقُورِ»[۴۴۴]».

إنّ المثلة بوصفها حالة إنتقامیة وغیر إنسانیّة کانت متداولة فی عصر الجاهلیّة، ولذلک قام العرب المشرکون فی معرکة احد بقتل

حمزة سيّد الشهداء وعمّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، حيث لم يكتف العدو بقتله بل شّق صدره بوحشيّة وقساوة فظيعة وأخرج كبده أو قلبه وقطع اذنه وأنفه، وعندما شاهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله شهادة عمّه حمزة بن عبدالمطلب، تألم لذلك كثيراً وقال: «اللّهمّ لَكَ الحَمدُ وَإليكَ المُستَعانُ عَلى ما أرى ثمّ

قال:

«لَئِن ظَفرتُ لأُمُثِلنّ وَلأمَثِلَنّ وَلأمَثِلَنّ»

وعلى رواية أخرى أنّه قال:

«لأمَثِلَنّ بِسَبعِينَ مِنهُم»

فنزلت الآية: «وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرينَ»[۴۴۵]، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«أصبرُ أصبرُ»[۴۴۶]

(يعنى ولا أنتقم).

ونعلم جيداً أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله بعد فتح مكّة كان يملك القدرة الكاملة على الانتقام من أعدائه والمجرمين بأشدّ أنواع الانتقام ولكنّه آثر العفو والصفح عنهم، أضف إلى ذلك ما ورد فى حديث عن أحد الصحابة أنّه قال:

«مَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه و آله خُطْبَةً أَبَداً إِلَّا أَمَرَنَا فِيهَا بِالصَّدَقَةِ وَنَهَانَا عَنِ الْمُثْلَة»[۴۴۷].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۲۹

الرسالة ۴۸

اشارة

إلى مُعاوِيَةَ[۴۴۸]

نظرة عامّة للرسالة

بداية لابدّ من الإشارة فى شأن صدور هذه الرسالة كما ذكر ذلك صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة وأنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى أحد أيّام معركة صفين حيث اشتد فيه القتال، وضع عمامة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على رأسه وقال: أيّها الناس من أراد أن يتعامل مع اللَّه فى هذا اليوم فليستعد، فقام معه عشرة آلاف نفر أو أكثر فاستعدوا للقتال مع الإمام، ثمّ إنّ الإمام عليه السلام قرأ أبياتاً من الشعر الحماسى وهجم على جيش الشام، وكذلك حمل مَن معه حملة رجل واحد وشقّوا صفوف جيش الشام، فعندما رأى معاوية هذا الحال ركب جواده واستعد للفرار، ولكن عمرو بن العاص أوصاه بأن يرفع المصاحف على الرماح ويدعو جيش الإمام عليه السلام بالخضوع لحكم القرآن،

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۳۰

وهذا الأمر أدى إلى وقوع الاختلاف فى صفوف جيش العراق، وفى ذلك الوقت كتب معاوية كتاباً للإمام على عليه السلام وخلاصته: لقد طالت بنا الحرب وكل واحد منّا يراى الحقّ بجانبه، وقد قتل جماعة كثيرة من الناس وإنّى أخاف أن يكون المستقبل أسوء من ذلك وسنكون غداً مسؤولين أمام اللَّه عن هذا الأمر، فإنّا أدعوك لما فيه صلاح الامّة وحفظ دمائها ودفع الفتنة والعداوة، وذلك أن نختار رجلين ممن نرضاهما لأمر التحكيم أحدهما من أنصارى والآخر من أنصارك ليحكموا طبقاً لحكم اللَّه فاتق اللَّه وارض بحكم

القرآن والسلام.

فكتب إليه الإمام عليه السلام في مقام الجواب هذه الرسالة، التي تشتمل على نصائح لمعاوية وتحذيره من عاقبة أعماله التي ستقوده للندم والخسران، وهذه هي عاقبة كلّ مَن سار في خط الشيطان وأذعن لدعوته وسلّم زمام أموره بيده.

وفي القسم الآخر من هذه الرسالة، يعلن الإمام عليه السلام قبوله بمسألة حكمية القرآن، لا من أجل دعوة معاوية، بل بسبب عظمة القرآن وحرمته.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۳۱

وَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ يُوتِغَانِ الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُبْدِيَانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا عَلَى اللّهِ فَأَكْذَبَهُمْ، فَاحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَاذِبْهُ. وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلَامُ.

نفحات الولاية ؛ ج ۱۰ ؛ ص ۲۳۱

الشرح والتفسير: نصيحة جامعة لمعاوية

يشير الإمام عليه السلام في هذه الرسالة الموجزة والعميقة المعنى إلى عدّة نقاط مهمّة ذكّر بها معاوية بأنّه إذا استمع لنصيحة الإمام عليه السلام من كلّ قلبه وتحرك على مستوى العمل لتطبيقها فإنّه لم يكن ليحدث كلّ هذا الفساد في العالم الإسلامي وسوف لا يتسنى لشجرة بني اميّة المشؤومة في النمو والرشد في البلاد الإسلاميّة المقدّسة.

بداية يتحدّث الإمام عليه السلام في نصيحته بشكل عام ويقول:

«وَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ[۴۴۹]

يُوتِغَانِ [۴۵۰] الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيُبْدِيَانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ».

أجل، لا شيء أشنع وأسوء من الظلم والكلام الباطل، لأنّه يخدع الإنسان ويوقعه

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۳۲

في وادي الهلكة والمتاهة بحيث لا طريق له للعودة للإيمان والصلاح وبالتالي سيخسر دينه ودنياه، وسيفتضح لدى عامّة الناس ويعرفونه بالفساد والإفساد.

وفي النقطة الثانية يقول الإمام عليه السلام:

«وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ».

يعتقد الكثير من شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه الجملة إشارة إلى مطالبة معاوية بدم عثمان، لأنّ الأشخاص الذين رجحوا السكوت وتركوا نصرة عثمان فهم شركاء في قتله، ولكنّهم ومن أجل التشويش على العوام وتحميقهم والتوصل إلى مآربهم الدنيئة رفعوا لواء الثأر لدم عثمان وطلبوا من الإمام عليه السلام أن يسلّمهم قتلة عثمان ليقتصوا منهم، ولكن الإمام عليه السلام يقول: إنّك بهذا العمل لن تصل إلى مقصودك وأنت وأعوانك شركاء في قتل عثمان ولا يمكنكم المطالبة بدمه والقصاص من قتلته.

ويحتمل أيضاً في معنى هذه العبارة أنّ المراد من جملة

«مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ»

، هو حكومـة الشـام التى يطالب بها معاويـة من الإمام عليه السـلام، فالإمام عليه السـلام يقول: إننى لا أسـمح لک أبـداً بتولى حكومة الشام، والشاهد على هذا الاحتمال ما ورد سابقاً فى الرسالة رقم ١٧.

وهناک احتمال آخر أيضاً طرحه بعض الشـرّاح فى هذا المورد، وهو أنّ الإمام عليه السـلام يقول: أنت لن تصل إلى مرادک من الدنيا وأنّ حكومتـک مع مـا فيها من الحوادث والمشـكلات سـتمر بسـرعة وتقودک إلى الهلكـة، والشاهـد على هـذا المعنى ما أورد بعض المؤرخين فى نقلهم لهذه الرسالة من جملة قبل هذه الجملة حيث يقول الإمام عليه السلام فيها:

«فَاحْذَرِ الدُّنْيا فَإِنَّهُ لَافَرَحَ فِى شَىْءٍ وَصَلْتَ إِلَيْهِ مِنْهَا وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّکَ غَيْرُ مُدْرِکٍ مَا قُضِىَ فَوَاتُه ...»[۴۵۱].

ثمّ يشير الإمام عليه السلام فى النقطة الثالثة من رسالته محذّراً معاوية لينتبه من غفلته ويقول:

«وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَأَلَّوْا[۴۵۲] عَلَى اللَّهِ فَأَكْذَبَهُمْ».

نفحات الولايه، ج ١٠، ص: ٢٣٣

ويرى أغلب شـرّاح نهـج البلاغـة أنّ هذه الجملة إشارة إلى طلحة والزبير وأنصارهما الذين أشـعلوا نار حرب الجمل للتوصل إلى مقام الخلافـة وسدة الحكم، فهؤلاء تعاهدوا فيما بينهم بأنّهم لا يتركوا هذا الأمر حتى يحصـلوا على حكومة البصـرة وإن اسـتطاعوا أكثر من ذلک فإنّهم يوسعون سلطانهم على المناطق الأخرى ولكنّهم بأجمعهم أخفقوا فى تحقيق مبتغاهم وقد قتل زعماؤهم وانهزم الباقون، أمّا عائشـة التى كانت من قادة هـذه الفتنـة والحرب، فقد عفى عنها الإمام عليه السـلام وعادت إلى المدينة فى حالة الخجل والندم، وعلى ضوء ذلک فإنّ جملة «

فَأَكْذَبَهُمْ»

، تعنى أنّ اللَّه تعالى فضحهم وأكذب احدوثتهم وأبرز خديعتهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى النقطة الرابعة يحذّر معاوية ويذكّره بقيام الساعة وأنّه سيرى عاقبة أمره وأعماله فى ذلک اليوم، يقول:

«فَاحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ[۴۵۳] فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ[۴۵۴] عَاقِبَةَ

عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ ۴۵۵] الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ ۴۵۶] فَلَمْ يُجَاذِبْهُ».

أجـل، فى ذلـک اليوم يفرح الصـالحون ويغتبط المؤمنون، ولكنّهم فى الوقت نفسه يتأسـفون على ما فاتهم من أيّام وساعات لم يعملوا فيها عملًا صالحاً ولم يزدادوا من الصالحات والخيرات، أمّا الأشـرار فإنّهم سـيعيشون الندم الشديد بسـبب إرتكابهم للسيئات ولما يرونه أمام أعينهم من عذاب أليم على ما إجترحوه فى الدنيا.

ويطلق القرآن الكريم على يوم القيامة بأنّهُ «يوم الحسرة» ويقول: «وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ

نفحات الولايه، ج ١٠، ص: ٢٣۴

الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الْأَمْرُ وَهُمْ فى غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»[۴۵۷].

ويقول فى الإية ۵۴ من سورة يونس: «وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ».

وقـد ورد فى بعض نسـخ نهـج البلاغـة كلمـة «يغتبط» بصورة مبنى للمجهول وتعنى أنّ الصالحين سـيقعون مورد غبطـة الآخرين، وهذا التعبير أنسب مع مفهوم الغبطة.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه بعد النصائح المثيرة ويبيّن الهدف الأصلى من هذه الرسالة ويقول:

«وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاکَ أَجَبْنَا، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلَامُ».

ومعلوم أنّ معاوية لم يكن من أهل القرآن، والشواهد التاريخيّة تدلّ على أنّه لم يكن يؤمن بالقرآن إيماناً سليماً، بل كان يتخذ القرآن وسيلة للخلاص من الهزيمة القطعية والتوصل إلى أهدافه وغاياته المشؤومة.

جاء فى كتاب «صفين»: عندما رفع أهل الشام المصاحف على الرماح، قال أميرالمؤمنين عليه السلام:

«عِبادَ اللَّهِ إنّى أَحَقُّ مَنْ أجابَ إلى كِتابِ اللَّهِ وَلكنَّ مُعاوِيَةَ وَعَمْرَو بْنَ الْعاصِ وَابْنَ أبى مُعيطٍ وَحَبيبَ بْنَ مُسْلِمَةٍ وَابْنَ أَبى سَرْحٍ لَيْسُوا بِأَصْحابِ دِينٍ وَلا قُرآنٍ إنّى أعْرَفُ بِهِمْ مِنْكُمْ صَحِبْتَهُمْ أطْفالًا وَصَحِبْتُهُمْ رِجالًا فَكانُوا شَرَّ أطْفالٍ وَشَرَّ رِجالٍ»[۴۵۸].

ويتبيّن من هـذه العبـارة أنّ الإمـام عليه السـلام لم يكن راضيـاً بمثـل هـذا التحكيم الكـاذب للقرآن الكريم، ولكنّ جماعـة من أنصاره وأتباعه الجهلة فرضوا على الإمام عليه السلام هذه القضية، وعندما شاهدوا العاقبة السيئة لهذا التحكيم ندموا على ذلك، والعجيب أنّهم اعترضوا على الإمام لقبوله أمر التحكيم!

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۲۳۵

الرسالة ۴۹

اشارة

إلى مُعاوِيَةَ أيْضاً[۴۵۹]

نظرة عامّة للرسالة

كما ورد فى بحث سند هذه الرسالة فالمخاطب لها- كما يعتقد الكثير من المؤرخين والشارحين- هو عمرو بن العاص، وقد صرّح بهذا المعنى الدينورى فى كتابه «الأخبار الطوال»، ونصر بن مزاحم فى كتاب «صفين»، أضف إلى ذلك أنّ قسماً من هذه الرسالة قد حذفها السيّد الرضـى عند انتقائه لبعض المواضـيع منها ولكنّه يذكر بأنّ الإمام عليه السلام فى ذلك المقطع المحذوف حذّر عمرو بن العاص بصراحة من اتّباعه لمعاوية.

وعلى أيّـة حال، فالمخاطب لهـذه الرسالـة أيّاً كان، يتحـدّث الإمام عليه السـلام معه بكلامه البليغ ومواعظه المثيرة أن لا ينخدع بالدنيا، فالـدنيا لاـ ترضـى أصـحابها أبـداً فيما يطمعون للوصول إليه ويزداد حرصـهم للتوصل إلى مبتغاهم، وضـمناً يوصـيه الإمام بالاعتبار من تاريخ الأقوام السابقة.

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۲۳۷

أَمَّا بَعْـدُ، فَإنَّ الدُّنْيَا مَشْـغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَـيْئاً إلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا، وَلَهَجاً بِهَا، وَلَنْ يَسْـتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ! وَلَوِ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير: الحرص على الدنيا لا يوصلك إلى شىء!

فى هذه الرسالة وبعد أن يحمد الإمام عليه السلام البارى تعالى ويثنى عليه يلفت نظر المخاطب «سواءً كان معاوية أو عمرو بن العاص» إلى أمور مهمّة.

بداية يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا».

لأنّ عمـل الـدنيا وسـلوكها إلى درجـة من التعقيـد والتنوع والمثير للتشويش بحيث إنّ الإنسان إذا اتّجه نحوها فإنّها ستشـغله فى جميع عمره ووقته حتى يغفـل عن الاهتمـام بسـلامته وراحته والقيام بوظائفه تجاه زوجته وأبناءه وأصـدقائه وأرحامه، وأكثر من ذلك تشـغله

عن أداء الفرائض الإلهيّة والتكاليف الشرعية، حتى يصل الأمر بأصحابها فيما لو كانوا من أهل الصلاة أن يؤدّوا صلاتهم فى آخر وقتها ويفكرون فى أثناء الصلاة فى أمورهم الدنيويّة، ويستعجلون باتمامها بعيداً عن حالات التوجه القلبى إلى اللّه تعالى فى صلاتهم، وأحياناً يخرجون من بيوتهم فى الصباح الباكر فى طلب الدنيا وأبناؤهم يغطون فى نوم عميق، وعندما يعودون فى الليل يرون أطفالهم نيام كذلك، وهذه طبيعة أصحاب الدنيا وحياتهم.

نفحات الولايه، ج ١٠، ص: ٢٣٨

وفى المقطع الثانى يتعرض الإمام عليه السلام لمسألة خطيرة وهى حالة الحرص لدى أصحاب الدنيا ويقول:

«وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا، وَلَهَجاً[۴۶٠] بِهَا، وَلَنْ يَسْتَغْنِىَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا».

وقد ورد فى بعض الروايات تشبيه الدنيا بماء البحر المالح، الذى كلّما شرب منه العطشان إزداد عطشاً، وهذا ما ورد فى حديث عن الإمام الكاظم عليه السلام يقول:

«مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ مَاءِ الْبَحْرِ كُلَّمَا شَرِبَ مِنْهُ الْعَطْشَانُ ازْدَادَ عَطَشاً حَتَّى يَقْتُلَهُ»[۴۶١].

ويتحدّث القرآن الكريم عن هذه الحالة ضمن قصّة بليغة تتلخص فى أخوين متخاصمين جاءا إلى النّبى داود عليه السلام فقال أحدهما «إنَّ هذا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنى فِى الْخِطابِ»[۴۶٢].

فحكم داود عليه السلام بينهما وقال: «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ ...»[۴۶٣].

هذه القصّة تشير إلى أنّ أصحاب الدنيا يعيشون الحرص والولع إلى درجة إلى أنّهم لايرضون للآخرين أنيتملكوا أدنى شىء حتى لوكانوا إخوتهم. وكما يقولالشاعر:

زيادَةُ المرءِ فى دُنياهُ نُقصانُوَربحهُ غير محض الخيرِ خُسرانُ

وَكُلُّ وجدانِ خطٍّ لانبات لهَفإنّ مَعناهُ فى التّحقيقِ فُقدانُ

ياعامراً لِخرابِ الدّهرِ مُجتهداًباللّهِ هلْ لِخرابِ العُمرِ عمرانُ

ياخادمَ الجِسمِ كَمْ تَسعى لِخدمتِهِفأنتَ بِالنّفسِ لا بِالجسمِ إنسانُ

وُذو القناعةِ راضٍ فى معيشتِهِوَصاحبَ الحرصِ إن أثرى فغضبانُ

هما رضيعا لبانٍ حكمةٍ وتُقىوَساكنا وطنٍ مالٍ وطغيانُ

نفحات الولايه، ج ١٠، ص: ٢٣٩

وجاء فى الحديث القدسى المعروف:

«لَوْ كانَ لِابْنِ آدَمَ وادِيانِ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغى إلَيْهِما ثالِثاً وَلا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنَ آدَمَ إلَّاالتُّرابُ»[۴۶۴].

وقال الشاعر:

وَيحَكِ يا نَفسُ دعىمَا عِشتِ ذلّ الطّمع

وَارضى بِما جرى بِهِحُكمُ القَضاءِ واقتَنعى

إيّاكِ والميلَ إلىشَيطانكِ المُبتَدع

واقتَصدى واقتَصرىكى تَرتَوى وَتَشبَعى

أينَ السّلاطِينُ الاولىمِنْ حميَرٍ وتّبع

شَادُوا الحُصُونَ فَوقَ كُلّ شَاهِقٍ مُرتفع

لَم يَبقَ مِنْ دِيارِهِمغيرَ رِسُومٍ خُشّعِ

كَفا بذاك واعظاًوزاجراً لِمَن يعى

حَسبُكَ يا نَفسُ اقبلی نُصحی ولا تُضيّعی ۴۶۵]

وحالـة الحرص فی الحقيقـة نوع من الجنون، لأنّ الكثير ممَن يعيشون هـذه الحالـة يملكون كلّ ما يمنحهم الرفاهيـة والراحـة فی الحياة بحيث إنّهم يستطيعون بما يملكونه من العيش إلى آخر حياتهم بشكل جيـد ومريح، ولكنّ جنود الحرص لا يدعهم يعيشون فی راحة وتدعوهم باستمرار إلى بذل مزيد من الجهد والتعب لتحصيل المزيد والمزيد بحيث إنّهم لو اعطوا جميع ما فی الدنيا لتمنّوا أن يكون لهم ما فی السموات أيضاً.

ولذلك نقرأ فی دعاء بعض الأئمّة المعصومين عليهم السلام:

«أَعُوذُ بِكَ يَا رَبِّ مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَايَخْشَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لَايُسْمَع»[۴۶۶]

وفی الحقيقة فالحرص يعتبر المنبع

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۴۰

الأصل لجميع المشكلات والمصاعب وما يترتب عليها من نتائج أليمة وعواقب سيئة.

ونختم هذا البحث بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بَاباً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيا إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْحِرْصِ مِثْلَهُ»[۴۶۷].

وفی المقطع الأخير يقول الإمام عليه السلام:

«وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ![۴۶۸]».

أجـل، فإنّه لا تمضـى مـدّة حتى يجـد الإنسان نفسه وهو يودع ما تعب فی تحصـيله من الأموال النفيسـة والمملوكات والأشياء الجميلة ويتركها جميعاً ويكتفی بحصّته من هذه الثروات وهی الكفن حيث يذهب معه إلى قبره.

ويتحـدّث القرآن الكريـم عـن قصـور الفراعنـة ومـا تركـوه مـن بسـاتين ومزارع وعيـون وقرى مزدهرة، ويقـول: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَريمٍ* وَنَعْمَةٍ كانُوا فيها فاكِهينَ* كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرينَ»[۴۶۹].

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه فی هذه الرسالة ويشير إلى النقطة الرابعة:

«وَلَوِ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِىَ، وَالسَّلَامُ».

إنّ الاعتبار من مصير السابقين يعدّ من المسائل المهمّة التی ورد التأكيد عليها فی القرآن الكريم وأحاديث نبیّ الإسـلام صلى الله عليه و آله وأئمّة الدين عليهم السلام.

يقول القرآن الكريم: «أَ فَلَمْ يَسيرُوا فِی الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتی فِی الصُّدُورِ»[۴۷۰].

وأساساً فإنّ قسماً مهمّاً من الآيات القرآنيّة التی تتحدّث عن تاريخ الأقوام السابقة ناظر إلى هذه المسألة، لأنّه لا درس ولا عبرة أبلغ من دورس التاريخ

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۴۱

والحوادث الواقعـة فی طيات التاريـخ البشـرى، ولكن الكثير من الناس، كما يقول القرآن الكريم يمرّون على هـذه الآيات والآثار دون التـدبر فيها وكسب العبرة منها، فيمرّون على آثار القدماء وأطلال الأقوام الغابرة لغرض النزهة والترويح عن النفس فقط، واليوم نرى أنّ صناعة السـياحة تتسع وتزدهر وفی الغالب ينظر السيّاح إلى الآثار التاريخيّة بوصفها آثار فنية وتعكس حضارة أولئك القوم ومقدراتهم الفنية وإمكاناتهم العمرانيّة ويفتخرون بذلك دون أن يطالعوا مستقبلهم وما سيكون مصيرهم من خلال هذه الآثار والأطلال.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۴۳

الرسالة ۵۰

اشارة

إلى أُمَرائِهِ عَلَى الْجَيْشِ [۴۷۱]

نظرة عامّة للرسالة

تتشكل هذه الرسالة أساساً من ثلاثة مقاطع:

المقطع الأوّل: يتحدّث الإمام عليه السلام عن حقّ اللَّه تعالى على أولياء الأمور ومن بيدهم مقاليد الولاية والسلطة، فلا ينبغى أن تكون هذه القدرة والسلطة عاملًا لغفلتهم عن حاجات الناس وإبعادهم عنهم، بل ينبغى استثمار هذه القدرة للانفتاح على الناس والاقتراب منهم والسعى فى قضاء حوائجهم.

وفى المقطع الثانى: يخاطب الإمام عليه السلام قادة جيشه ويقول: إننّى أحسبكم بطانتى وإخوانى ولا أكتمكم سرّاً، (سوى الأسرار العسكرية والحربية) وأستشيركم فى المسائل التى ليس فيها حكم إلهى مسلّم واؤُدى حقّكم كاملًا، وفى مقابل ذلك يجب

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۴۴

عليكم أن تتحركوا فى خط الطاعة لأوامرى التى تصبّ فى خدمة الامّة الإسلاميّة ولا تتوانوا عن خدمة المسلمين ولا تمتنعوا عن أى تضحية وإيثار.

وفى المقطع الثالث: يتحدّث الإمام عليه السلام عن الأشخاص الذين سلكوا طريق المخالفة والعناد وتمردوا على طاعة إمامهم، ويهددهم بالعقوبة القاسية.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۴۵

القسم الأوّل

اشارة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَى الْوَالِى أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ، وَلَا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفاً عَلَى إِخْوَانِهِ.

الشرح والتفسير: لا يبعدنّكم المقام عن الناس!

يتحدّث الإمام عليه السلام فى المقطع الأوّل من هذه الرسالة إلى زعماء جيشه بوصفهم «أصحاب المسالح» أى المحافظين للثغور ويقول:

«مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ».

«المسالح» جمع «مسلحة» وتعنى الحد والثغر، والحدود عادة هى المناطق التى تقع فى أطراف البلاد، وربّما تتعرض لهجوم من قِبل العدو، ولهذا السبب فإنّ الحكومات تضع قسماً مهماً من قواتها المسلحة فى هذه المناطق لتأمن من هجوم الأعداء المباغت على هذا البلد، وهذا التعبير يشير إلى أنّ الاهتمام بالثغور وتحصين الحدود يعتبر من أهم وظائف القوات المسلحة والجيش فى الإسلام.

ثمّ يشرع الإمام عليه السلام من نفسه ويبيّن حقوق الوالى بشكل عام، وفى المقطع الآخر يشير إلى موارد خاصّة بالتحديد كشرح وبيان لهذا المجمل ويذكرها واحداً بعد الآخر.

وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة يشير إلى نقطتين مهمتين:

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۴۶

الأولى: قوله:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَى الْوَالِى أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ، وَلَا طَوْلٌ [۴۷۲] خُصَّ بِهِ».

وهذه إشارة إلى أنّ الوالى أو القائد يجب أن يكون إلى درجة من قوّة الشخصيّة وبناء الذات لا يغيّره المنصب ولا يضيع نفسه فى حال وصوله إلى القدرة ويحمله على العجب والغرور والأنانيّة، وبالتالى يعيش حالات الاستبداد والتفرعن كما هو الحال فى غالبية زعماء الدنيا وقادتها الماديين، فإنّهم قبل وصولهم إلى مسند القدرة والسلطة يتحدّثون للناس بكلمات لطيفة ويعيشون حالة البساطة والشعبية، ولكنّهم عندما يصلون إلى مسند السلطة ينسون كلّ شيء وتبدأ حالات الاستبداد تتضخم لديهم، ولكنّ أولياءاللّه والأشخاص الذين يسيرون فى خطهم مصونون من هذا الخطر.

فى المقطع الثانى يضيف الإمام عليه السلام:

«وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفاً عَلَى إِخْوَانِهِ».

وتشير هذه العبارة إلى أنّ الإنسان الجالس فى مسند الرئاسة والقدرة ليس فقط لا ينبغى له الاستبداد والابتعاد عن الناس بل بعكس ذلك يجب عليه كلّما إزدادت نعمة اللّه عليه أن يقترب من الناس أكثر فأكثر، ويتواصل معهم من مواقع المحبّة والشفقة وهم الذين يصفهم الإمام عليه السلام بأنّهم «إخوانه» لأنّ شكر هذه النعمة لا يتيسر إلّا من هذا الطريق.

وعلى هذا الأساس فالإمام عليه السلام يقرّ لمخاطبيه فى البداية بحقّهم فى مطالبة الإمام بأداء حقوقهم، ثمّ يبيّن الإمام فى المقطع اللاحق من هذه الرسالة حقّه عليهم.

وقد ورد فى كتاب «غررالحكم» عن أميرالمؤمنين عليه السلام:

«إنَّ حَوائِجَ النَّاسِ إلَيْكُمْ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَاغْتَنِمُوها وَلا تَمَلُّوها فَتَتَحَوَّلَ نَقِماً»[۴۷۳].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۴۷

القسم الثانى

اشارة

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِى أَلَّا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرّاً إِلَّا فِى حَرْبٍ، وَلَا أَطْوِىَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلَّا فِى حُكْمٍ، وَلَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَقِفَ بِهِ

دُونَ مَقْطَعِهِ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِی فِی الْحَقِّ سَوَاءً فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِکَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَیْکُمُ النِّعْمَةُ، وَلِی عَلَیْکُمُ الطَّاعَةُ؛ وَأَلَّا تَنْکَصُوا عَنْ دَعْوَةٍ، وَلَا تُفَرِّطُوا فِی صَلَاحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَی الْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِیمُوا لِی عَلَی ذَلِکَ لَمْ یَکُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَیَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ مِنْکُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلَا یَجِدُ عِنْدِی فِیهَا رُخْصَةً، فَخُذُوا هَذَا مِنْ أُمَرَائِکُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ مَا یُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَکُمْ. وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسیر: حقوق الإمام وحقوق القادة

فی هذا المقطع من الرسالة یفصل الإمام علیه السلام ما أجمله وبیّنه بشکل عام ومغلق فی المقطع السابق.

بدایة یشیر إلی حقوق الرعیّة علیه ویؤکّد علی خمسة حقوق، وأوّل هذه الحقوق یقول علیه السلام:

«أَلَا وَإِنَّ لَکُمْ عِنْدِی أَلَّا أَحْتَجِزَ[۴۷۴] دُونَکُمْ سِرّاً إِلَّا فِی حَرْبٍ».

ومعلوم أنّ إخفاء الأسرار عن الأصحاب والأعوان یعدّ نوع من عدم الثقة والاعتماد علیهم، وفی الکثیر من الموارد یتسبب فی إساءة الظن أو خلق رؤی

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۴۸

وتفاسیر مختلفة لحادثة معینة، ولکن إذا کان الإمام علیه السلام أو القائد یتواصل مع أعوانه بشکل مستمر علی مستوی إخبارهم بالحوادث الواقعة، فإنّ ذلک من شأنه توطید عناصر الثقة وتقویة التعاطف فیما بینهم، فیتراجع سوء الظن والتشویش الذهنی إلی الحد الأدنی، وطبعاً هناک موارد لابدّ للإمام والوالی من کتمان السر، وذلک فی القضایا العسکریة وأمثالها، لأنّ العدو إذا علم بتفاصیل الخطط العسکریة للطرف المقابل فسیتدبر أموره ویستعد بشکل کامل للمقاومة وسیکون بإمکانه أن یحبط الخطة قبل الموعد المقرر، ومن هذه الجهة نری أنّ القادة العسکرین علی إمتداد التاریخ یخفون برنامجهم القتالی إلی آخر لحظة لیتمکنوا من توجیه الضربات القاصمة إلی العدو بالاستفادة من عنصر المباغتة.

وفی تاریخ حروب النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله وغزواته نری هذا الأصل بوضوح، وعلی حدّ قول المؤرخ المعروف الطبری: وکان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، قلّ ما یخرج فی غزوة إلّا کنی وأخبر أنّه یرید غیر الذی یسعی له ...[۴۷۵]. یعنی ما کان یخبر أصحابه وأنصار بمقصده وغایته النهائیة.

وأحیاناً کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله إذا أراد سفراً إلی الحرب روّی بغیره، کما روی أنّه لمّا نوی غزوة بدر کتب للسریة کتاباً فی المدینة، وأمرهم أن یخرجوا من المدینة إلی صوب مکّة یومین أو ثلاثة ثمّ ینظروا فی الکتاب ویعملوا بما فیه ...[۴۷۶]، ومعلوم أنّ النّبی لو کان یبیّن له فی بدایة الأمر مراده ومقصوده فإنّ هذا الخبر بدوره سینتشر ویشیع فی کافّة أرجاء المدینة ویسارع الجواسیس فی إیصال هذا الخبر إلی العدو فیستعدون للقاء المسلمین وربّما تنقلب موازین المعرکة ویتغیر مصیر الحرب.

ثمّ یشیر الإمام علیه السلام فی الحقّ الثانی للناس علی الوالی ویقول:

«وَلَا أَطْوِیَ [۴۷۷]

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۴۹

دُونَکُمْ أَمْراً إِلَّا فِی حُکْمٍ».

وهذا هو أصل المشورة الوارد فی القرآن الکریم والروایات الإسلامیّة بشکل واسع وهو ما یؤکّد علیه الخبراء وأصحاب الشأن السیاسی فی عالمنا المعاصر وإن کانوا یمارسون شیئاً آخر علی مستوی العمل، فالمشورة مع الأصحاب والأنصار والأتباع یمنحهم قوّة فی الشخصیّة واحساساً فی المسؤولیّة وتحکیماً للروابط العاطفیّة، أضف إلی ذلک أنّ المشورة تسبب (فی غیر المعصومین) إلی التقلیل من الأخطاء إلی الحدّ الأدنی.

أمّا فی مسألة القضاء وعند صدور الحکم، فیجب علی القاضی أن یصدر حکمه بحزم وقوّة، وفی حدیث عن الإمام الصادق علیه السلام:

«إِذَا كَانَ الْحَاكِمُ يَقُولُ لِمَنْ عَنْ يَمِينِهِ وَلِمَنْ عَنْ يَسَارِهِ مَا تَرَى مَا تَقُولُ فَعَلَى ذَلِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أَلَّا يَقُومُ مِنْ مَجْلِسِهِ وَتُجْلِسُهُمْ مَكَانَهُ»[۴۷۸].

مضافاً إلی ذلک إذا کان القاضی یفشی ما فی ذهنه من الحکم الشرعی فربّما تتحرک عناصر مختلفة لتغییر رأیه أو توهینه وممارسة بعض الضغوطات علیه لإجباره علی تغییر الحکم.

ثمّ یشیر الإمام علیه السلام إلی الحقّ الثالث والرابع ویقول:

«وَلَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ».

والفرق بین هذین الحقّین یتبیّن من خلال مثال بسیط، فلو تقرر أن یؤذن لشخص بالسکن فی دار لمدّة شهر واحد ومعین، فلا ینبغی تأخیر إسکانه عن هذا الشهر، والآخر، أنّه لا ینبغی تقلیص المدّة قبل انتهاء الشهر، ونتیجة کلا الأمرین أن تؤدّی الحقوق کاملة دون زیادة أو نقیصة.

وفی الحقّ الخامس والأخیر یقول الإمام علیه السلام:

«وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً».

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۵۰

وطبعاً فمراد الإمام علیه السلام أنّ الوالی أو القائد یتعامل مع جمیع الأفراد بشکل مساوٍ دون الأخذ بنظر الاعتبار مواقعهم الاجتماعیّة وامتیازاتهم المادیة، وعلی ضوء ذلک فإنّ هذا الکلام لا یعنی أنّه فی حال اختلاف الظروف والمقامات فإنّ الأفراد یقفون علی حدٍّ سواء أمام القائد، من قبیل أن یکون شخص أحد قواد الجیش، والآخر رجل عادی، وثالث والیاً علی منطقة، وآخر حارساً لبنایة المحافظة، وآخر یتولی حراسة بنایة حکومیّة، أو یکون أحدهم طبیباً والآخر مضمداً، أو یشتغل أحدهم بالأعمال الثقیلة ولأیّام متوالیة ویتولی الآخر أعمالًا سهلة وفی مدّة قصیرة، فمن البدیهی أنّ حقوقهم المالیّة لا تکون سواسیة، ولکن إذا کان رجلان یعملان عملًا واحداً فیجب أن تکون اجرتهم واحدة، رغم أنّ أحدهم من عائلة عریقة ومعروفة، والآخر رجلًا عادیاً من عائلة غیر معروفة.

وبعد أن ذکر الإمام علیه السلام هذه الحقوق الخمسة للناس علی القائد أو الإمام، تعرض لبیان حقوقه للناس وأشار إلی أربعة حقوق.

الأوّل یقول:

«فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ».

فعندما اؤدی هذه التکالیف الحقوقیّة التی علیَّ تجاهکم فإنّ نعمة اللَّه: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»[۴۷۹]، ستکون کاملة علیکم، ولی حقّ الطاعة علیکم، ویجب علیکم إطاعة أوامری التی تضمن لکم سعادة الدنیا والآخرة، وتحفظ مصالحکم الفردیّة والاجتماعیّة.

ثمّ یبیّن الإمام علیه السلام الحقّ الثانی ویقول:

«وَأَلَّا تَنْكُصُوا[۴۸۰] عَنْ دَعْوَةٍ».

إنّ هذا الأمر الثانی بالنسبة للأمر الأوّل من قبیل ذکر العام بعد الخاص، لأنّ المخاطب فی هذه الرسالة هم قادة الجیش، الذین ینبغی علیهم إطاعة أوامر الإمام وخاصّة فیما یتعلق بالدعوة إلی الجهاد.

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۵۱

ثمّ یشیر الإمام علیه السلام إلی الحقّ الثالث ویقول:

«وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ».

الکثیر من الأشخاص الذین یتحرکون بحسب الظاهر فی مسیر الطاعة وتلبیة دعوة الإمام والقائد، فإنّهم بسبب التکاسل والتواکل لا

يحققون النتيجة المطلوبة، بل الإمام عليه السلام يعتبر هذا الأمر كحقّ مستقل من حقوق الوالى على الرعيّة ليعلم الجميع أن إطاعة الأمر شىء، واعتباره أمراً جديّاً شىء آخر.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ هذه الجملة إشارة إلى مسألة الجهاد حيث أكّد الإمام عليه السلام على أنّ وظيفة قادة الجيش الاستفادة من كلّ فرصة لدفع الأعداء وترك حالة التكاسل والتقصير فى هذا الشأن.

وأخيراً يبيّن الإمام عليه السلام الحقّ الرابع والأخير ويقول:

«وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ [۴۸۱]

إِلَى الْحَقِّ».

وهذه إشارة إلى أنّ التضحية فى مقام الدفاع عن البلد الإسلامى تعتبر وظيفة لازمة وتكليف واجب، أى التضحية ا لى درجة بذل النفس فى سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين، ويعتبر هذا الأمر أحد الحقوق للوالى أو الإمام على قادة الجيش والمسؤولين الأمنيين فرداً فرداً.

تاريخ الإسلام زاخر بمظاهر الإيثار والتضحية وخوض الغمرات للوصول إلى الحقّ، وكمثال على ذلك:

ما ورد فى «تاريخ الطبرى» فى حوادث سنة ۳۷: أنّ عمّار بن ياسر خرج إلى الناس فقال: اللّهم إنّك تعلم أنّى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هذا البحر لفعلته، اللّهم إنّك تعلم أنّى لو أعلم أن رضاك أن أضع ظُبّة سيفى فى صدرى ثمّ أنحنى عليها حتى تخرج من ظهرى لفعلت، وإنّى لا أعلم اليوم عملًا هو أرضى

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۲۵۲

لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم أنّ عملًا من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته [۴۸۲].

وجاء فى «سيرة ابن هشام» أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم أن يمنعوا عيرهم- واتجهوا نحو «بدر»- فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش (وكان يروم من ذلك اختبار مدى استعداد أنصاره وأصحابه للقتال) ... ثمّ قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول اللَّه، امض لما أراك اللَّه، فنحن معك واللَّه لا نقول لك كما قالت بنواسرائيل لموسى: «إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ»[۴۸۳]. ولكن إذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله خيراً ودعا له به، ثمّ قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: أشيروا علىَّ أيّها الناس، وإنّما يريد الأنصار، وذلك أنّهم عدد الناس، وأنّهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يارسول اللَّه إنّا برآء من ذمامك حتى تَصِل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمّتنا، نمنعك ممّا نمنع أبناءنا ونساءنا، فكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلّا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم، فلما قال ذلك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، قال له سعد بن معاذ: واللَّه كأنّك تريدنا يارسول اللَّه، قال: أجل، قال: فقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عُهودنا ومَواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يارسول اللَّه لما أردتَ فنحن معك، فوالذى بعثك بالحقّ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخُضته لخضناه معك ما تخلف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، فإنا لصُبّر فى الحرب، صُدُق فى اللقاء، لعل اللَّه يُريك منّا ما تقرّ عينُك، فسِر بنا على بركة اللَّه، فَسُر رسول اللَّه بقول سعد ونشّطه ذلك ...[۴۸۴].

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۲۵۳

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى المقطع الثالث من كلامه يخاطب المتخلفين بلغة التهديد ليقرن البشارة مع الإنذار ويقول:

«فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَ [۴۸۵] مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً».

وفى الواقع أنّ الإمام عليه السلام فى هذا المورد يقرر عقوبتين للمتخلفين، عقوبة معنويّة وعقوبة ظاهرية، أمّا العقوبة المعنويّة فسقوط قدرهم ومقامهم عند الإمام عليه السلام إلى درجة الحضيض، وأمّا العقوبة الظاهريّة فهى التعزير البدنى الذى يقرره الإمام بحقهم، ومعلوم أنّ البشارة والإنذار لو لم يقترنا فى أمر الإدارة والمسؤوليّة وخاصّة فى إدارة الحرب والدفاع، فإنّها ستفقد مصداقيتها وفائدتها فى ضبط الأمور.

وفى الختام يشير الإمام عليه السلام إشارة مختصرة ودقيقة فيما يتصل بما ذكر آنفاً ويقول:

«فَخُذُوا هَذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ.

وَالسَّلَامُ».

وجملة

«فَخُذُوا هَذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ»

إشارة إلى الحقوق الخمسة التى بيّنها الإمام عليه السلام فى مستهل كلامه أنّه يعطيهم الحقّ بأن يطالبوا هذه الحقوق من قادتهم وامرائهم، وجملة

«أَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ..»

، إشارة إلى الحقوق الأربعة التى طالب بها الإمام عليه السلام منهم، وهى الحقوق التى تصب فى صالحهم ومن أجل إصلاح أمورهم.

ونرى أنّ الإمام عليه السلام فى هذا المورد يستخدم كلمة «امراء» بصيغة الجمع، ويشير بذلك إلى نفسه والقادة أو الأئمّة الذين سيأتون بعده بالحق، ويستلمون زمان الأمور بالحقّ، لا أنّ المراد قادة الجيش، لأنّهم هم المخاطبين بهذا الكلام.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۵۵

الرسالة ۵۱

اشارة

إلى عُمّالِهِ عَلَى الْخِراجِ ۴۸۶]

نظرة عامّة للرسالة

يشير الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة إلى عدّة نقاط مهمّة: ففى المقطع الأوّل يتحدّث الإمام عن الثواب المترتب على أتعاب وجهود الجامعين للخراج وما يتحملوه فى هذا السبيل من مشقّة، ويتحدّث الإمام عليه السلام عن ذلك بوصفه ذخيرة يوم المعاد.

وفى المقطع الثانى من هذه الرسالة يوصى الإمام عليه السلام بشكل أكيد برعاية العدل والمحبّة للناس عند أخذ الخراج منهم وينهى عن أى شكل من الأشكال الإجحاف والتعدى والإضرار بهم، حتى بالنسبة لغير المسلمين الذين لا يعينون العدو على المسلمين يوصى الإمام أيضاً بهذه الوصية فى حقّهم.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۵۶

وفى المقطع الأخير يدعوهم إلى تقديم فروض الشكر على النعم الإلهيّة ولزوم نصرة الدين الإلهى بجميع ما لديهم من قوّة وقدرة.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۵۷

القسم الأوّل

اشارة

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ الْخَرَاجِ:
أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ يَسِيرٌ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَاعُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ.

الشرح والتفسير: حذارِ من ظلم الناس!

اشارة

المراد بأصحاب الخراج هم المأمورون على جمع خراج الأراضى المفتوحة عنوة، وتوضيح ذلك: عندما ينتصر المسلمون على الأعداء فإنّ أراضيهم ستكون من الناحية العمليّة ملكاً للمسلمين، ولكن المسلمين فى الغالب يدعون هذه الأراضى بأيد أصحابها الأصليين، وفى مقابل ذلك عليهم أن يدفعوا مبلغاً من المال أو مقداراً معيناً من محاصيل تلك الأراضى بوصفها ضريبة أو اجرة تؤخذ منهم ولا يكون هذا المبلغ ثقيلًا وكثيراً عادة، وهذه المسألة بدأت منذ عصر النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله بفتح خيبر، ثمّ استمرت فى الفتوحات الإسلاميّة الأخرى ويشكل الخراج الجزء الأهم من بيت المال فى ذلك الوقت، وهو مبلغ له شأن ويتعلق بجميع المسلمين، وطبعاً هناك عمّال ومسؤولون آخرون يتولون جمع الزكاة من المسلمين لتصرف على حاجات جيش الإسلام والقضاة والفقراء والمحتاجين.

والإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة يؤكّد على عدّة أمور:

الأوّل: يحذّر الإمام عليه السلام أصحاب الخراج بأن لا يغفلوا عن العالم الآخر وما

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۵۸

سيسيرون إليه بعد الموت، فالغفلة عن هذا الأمر ستفقد الإنسان الاستعداد له، يقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا».

ونقرأ فى الروايات الشريفة أنّ أعقل الناس هو الشخص الذى يفكر بما بعد الموت:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَكْيَسَكُمْ أَكْثَرُكُمْ ذِكْراً لِلْمَوْتِ»[۴۸۷]

، وهذا يعنى أنّ الإنسان ما لم يفكر فى سفر الآخرة فإنّه لا يهيىء لنفسه وسائل هذا السفر الخطير وسيخرج من الدنيا خالى اليدين.

وفى الإمر الثانى يخاطب الإمام عمّاله على الخراج ويقول:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ يَسِيرٌ وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ».

هل أنّ مقصود الإمام عليه السلام من هذه العبارة سعى هؤلاء فى جمع الخراج فقط، أم يشمل جميع التكاليف الواجبة على الإنسان؟ يحتمل كلا الأمرين، ومع الالتفات إلى أنّ الجملة السابقة عامّة وتشمل جميع الأعمال فإنّ الاحتمال الثانى أنسب حسب الظاهر، وهذا فى الواقع إشارة إلى مضمون الآيات الشريفة: «وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»[۴۸۸]، و «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ»[۴۸۹].

أجل، فإنّ اللّه تعالى جواد وكريم وفى مقابل أعمالنا الصغيرة يعطينا الثواب العظيم.

وفى الأمر الثالث يشير الإمام عليه السلام إلى موضوع يتعلق بترك الظلم، ويقول:

«وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللّهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ».

وهـذه إشارة إلى أنّ للظلم والجور عقوبـة شديدة قطعاً، وفى تركه ثواب جزيل أيضاً، وعلى هذا الأساس ينبغى على الإنسان ترك مثل هذه السلوكيات الظالمة

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۵۹

ليس فقط بسبب خوفه من عقوبتها، بل من أجل تحصيل الثواب على تركها أيضاً.

ونقرأ فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام فى نهج البلاغة ما يشبه هذا المعنى والمضمون بتعبير أوسع وأبلغ حيث يقول:

«لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللّهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَلَّا يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ»[۴۹۰].

تأمّل

ماذا يعنى الخراج؟

كلمـة «خراج» و «خرج» مأخوذة فى الأصل من «خروج»، وتعنى ما يتحصل من مال شـخص أو من أرضه الزراعية، وذهب بعضـهم إلى أنّ كلمة «الخراج» تعنى مال الإجارة للأراضـى، يقول الراغب فى كتاب «المفردات»: الخراج يطلق غالباً على الضرائب التى توضع على الأراضـى الزراعية والبساتين، وعلى أيّة حال فإنّ هذه الكلمة فى اصـطلاح الفقهاء تعنى الضـرائب الموضوعة على الأراضـى الخراجيّة، أى الأراضـى التى اخذت من الكفّار بالحرب والقتال، وأحياناً تطلق على ما يتحصل من الأراضى المزروعة التى تعتبر قسماً من الأنفال، والقسم الأوّل يتعلق بجميع المسلمين، والقسم الثانى يختص بالحاكم الإسلامى.

وجاء فى بعض كتب أهل السنّة أنّ الخراج فى اصطلاح الفقهاء له معنيان عام وخاص، فالخراج- بالمعنى العام- هو الأموال التى تتولى الدولـة أمر جبايتها وصـرفها فى مصاريفها، وأمّا الخراج- بالمعنى الخاص- فهو الوظيفة أو (الضـريبة) التى يفرضـها الإمام على الأرض الخراجيّة النامية[۴۹۱]، وأحياناً تطلق هذه الكلمة على الجزية من غير المسلمين أيضاً.

وبالنسبة لمصرف الخراج فقد ذهب فقهاء الشيعة إلى أنّ الخراج يجب صرفه

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۶۰

لمصالح المسلمين العامّة، من قبيل بناء الجسور وحفظ الأمن والطرق ومساعدة الفقراء والمساكين ومركبات الجنود والمقاتلين والقضاة وقادة الجيش وسائر ما تحتاج الحكومة فى إدارتها والعمل بمسؤولياتها[۴۹۲].

وطبعاً يحـدث كثيراً أنّ قسـماً مهمـاً من الخراج يقسم بين المسـلمين الحاضـرين بشـكل مسـاوى فى الحكومات العادلـة (مثل حكومة أميرالمؤمنين الإمام على عليه السلام) وبصورة غير مساوية (مثل خكومة الخلفاء).

أمّا دليل التساوى فى القسمة، فهو أنّ الأراضى الخراجيّة التى يجمع منها الخراج، ملك لعامّة المسلمين وجميعهم يشتركون فى ملكيتها بشـكل متساوٍ، والمراد من التساوى، عـدم الفرق بين الأفراد بحسب مكانتهم الاجتماعيّـة، بأنّ فلاناً شـيخ قبيلة والآخر شخصـيّة معروفة، وثـالث عامـل بسـيط ومـا إلى ذلك، بل يتمّ التقسـيم حسب المسؤوليّات الملقاة على عاتق الأشـخاص، من قبيل القضاء وقيادة الجيش وولاية المدن والمناطق وأمثال ذلك، فهذا ممّا يدعو للتفاوت قطعاً فى أمر القسمة.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۶۱

القسم الثانى

اشارة

فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلاءُ الْأُمَّةِ، وَسُفَراءُ الْأَئِمَّةِ وَلَا تُحْشِمُوا أَحَداً عَنْ حاجَتِهِ، وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ، وَلَا تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِى الْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا، وَلَا عَبْداً، وَلَا تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ وَلَا تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلٍّ وَلَا مُعَاهَدٍ، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلَاحاً يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَايَنْبَغِى لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِى أَيْدِى أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ. وَلَا تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلَا الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ، وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلَا دِينَ اللَّهِ قُوَّةً، وَأَبْلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

الشرح والتفسير: رعاية إنصاف فى أخذ الخراج

يبيّن الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة بعض جزئيات المسائل والأوامر والنواهى الخاصّة بالعاملين على جمع الخراج بعد أن ذكر سلسلة من الكليات فى كلامه السابق.

بداية يقول الإمام عليه السلام:

«فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ».

والمراد من

«فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُم

كما ورد الروايات الشريفة، أن يرضا

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۶۲

الإنسان للآخرين ما يرضاه لنفسه ويحبّ لهم ما يحبّ لنفسه ويكره لهم ما يكره لها، وبعبارة أخرى كما أنّه يحبّ أن يأخذ حقّه منهم فيجب عليه أن يعطيهم حقوقهم عليه أيضاً.

ونقرأ فى رواية جاء رجل أعرابى النّبى صلى الله عليه و آله وهو يريد بعض غزواته، فأخذ بغرز راحلته فقال:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِى عَمَلًا أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ»

، فقال:

«مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَأْتِهِ إِلَيْهِمْ وَمَا كَرِهْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَلَا تَأْتِهِ إِلَيْهِمْ»

، قال ذلك وأضاف:

«خَلِّ سَبِيلَ الرَّاحِلَةِ»

(أى أنّك حصلت على جميع ما تريد فى هاتين الجملتين)[۴۹۳].

ويشير الإمام عليه السلام فى كلامه هذا إلى ثلاثة مناصب لعمّال الخراج ويترتب عليها ثلاث مسؤوليّات مهمّة تقع على عاتقهم:

الأوّل: أنّهم

«خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ»

يعنى الحافظون على أموال المسلمين لإنفاقها فى مصاريفها، والآخر: أنّهم

«وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ»

وهذا يعنى أنّ مسؤوليّتهم أخذ حقوق الناس من الأشخاص الذين وجب الحقّ عليهم فى ذمّتهم بشكل كامل، والثالث: أنّهم

«سُفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ»

إذ ينبغى لهم أن يتخلّقوا بأخلاق أئمّتهم ويسلكوا مع الناس مسلك أئمّتهم فى التواصل الإنسانى والتعامل الأخلاقى مع الناس، ومن هذا المنطلق فأخذ المال وكذلك حفظها والالتزام بالأخلاق الحسنة مع الناس تعتبر من مسؤوليّات العاملين على الخراج.

ثمّ ينهى الإمام عليه السلام هؤلاء العاملين عن ستة أمور، الأمر الأوّل، يقول عليه السلام:

«وَلَا تُحْشِمُوا[۴۹۴] أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ».

وهذا يعنى أنّ الواجب عليكم أن تتعاملوا مع الناس بحيث لا يخجلون من

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۲۶۳

عرض حاجتهم عليكم، مثلًا إذا كانت بعض الشياه محببة لديهم، أو أنّ بعض المحاصيل الزراعيهٔ مورد اهتمامهم، فعليكم أن تسلكوا معهم بحيث يمكنهم إظهار مقاصدهم أمامكم وعليكم بأخذ الخراج والزكاة من مورد آخر.

أمّا النهى الثانى فيقول عليه السلام:

«وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ».

وهذه إشارة إلى أنّهم لو كانت لديهم مطالب مشروعة فى كيفيهٔ تقسيم الأموال وتقسيم الخراج، فينبغى مراعاتها والاستجابة لهم.

وفى النهى الثالث، يمنعهم الإمام عليه السلام من أخذ وسائل الحياة الضروريهٔ (وهى مستثنيات الدين) ويقول:

«وَلَا تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِى الْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا وَلَا عَبْداً».

ويعتبر هذا الحكم من الأحكام الإنسانيّة والأخلاقيّة فى التعاليم الإسلاميّة، وذلك أنّ الإسلام لا يسمح حتى للمدينين أن يتخلوا عن ضروريات الحياة والمعيشة لهم لأداء الدَّين، بل لو كان له مال آخر لزم تسديد الدَّين من ذلك المال، وإن لم يكن لديه مال آخر وجب إمهاله إلى زمان السعة والقدرة على أداء الدين.

ويقول الإمام عليه السلام فى النهى الرابع:

«وَلَا تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ».

وبعبارة أخرى أنّ أى نوع من أنواع العنف والإكراه ممنوع فى مجال أخذ حقّ بيت المال، والتجربة تشير إلى أنّ أساليب العنف فى أداء الديون تأتى بنتيجة عكسيهٔ، وبعكس ذلك فاسلوب المحبّة واللين يزيد من أموال بيت المال.

والتعبير ب «درهم» يمكن أن يكون إشارة إلى الأموال الصغيرة، يعنى فى المال الصغير وفى جزئيات الأمور لا ينبغى التعامل مع الناس بمنطق الخشونة والقوّة، وذهب بعض الشرّاح إلى احتمال أن يكون المراد من «درهم» فى هذه الجملة، جنس المال، يعنى لا يحقّ لكم أن تضيقوا على الناس من أجل أخذ الأموال منهم.

ويقول الإمام عليه السلام فى النهى الخامس:

«وَلَا تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، مُصَلٍّ وَلَا

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۲۶۴

مُعَاهَدٍ[۴۹۵]، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلَاحاً يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَايَنْبَغِى لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِى أَيْدِى أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ».

وهذه الجملة إشارة إلى المنافقين والانتهازيين الذين يملكون السلاح والمركب ويجعلونها فى خدمة أعداء الإسلام، ففى مثل هذه الموارد يحقّ لهؤلاء العاملين أخذ هذه الوسائل منهم دون دفع ثمنها وقيمتها إليهم، لأنّ دفع ثمنها يمنحهم أيضاً القوّة والقدرة لتنفيذ

مخططاهم وبرامجهم المعادية، وفى الحقيقة إنّ مثل هذا العمل هو نوع من المصادرة المشروعة للأموال، الذى أذن فيه الإمام عليه السلام بالنسبة لبعض الأشخاص المستثنون عن القاعدة، ولكن أموال سائر المسلمين وغير المسلمين من أهل الذمّة محفوظة ويجب احترام مالكيتهم لها.

صحيح أنّ هذا الموضوع لا يرتبط بمسألة الخراج، ولكن فى الواقع وظيفة أخرى ربّما يواجهها العاملون بالخراج وبالتالى ينبغى عليهم العمل بها.

وثمة بحث فى الفقه الإسلامى فى باب المكاسب المحرمة حول حرمة إعانة الظالمين، وكذلك يوجد بحث فى عدم جواز بيع الأسلحة لأعداء الإسلام، حيث ورد النهى عن هذا الأمر واستدل عليه بالأدلة العامّة والخاصّة، ومفهوم هذه الآيات والروايات أنّه لو رأينا سلاحاً أو مركباً بيد أحد الأشخاص ونعلم أنّه سيعطيه فى المستقبل القريب لأعداء الإسلام ويستخدمونه ضد المسلمين، فيجب منعه من ذلك، وهذا هو الأمر الذى أصدره الإمام عليه السلام فى هذه التوصية، وبعبارة أخرى أنّ هذا العمل نوع من النهى عن المنكر بشكله العملى.

وأخيراً يقول الإمام عليه السلام فى النهى السادس:

«وَلَا تَدَّخِرُوا[۴۹۶] أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلَا

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۶۵

الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلَا دِينَ اللَّهِ قُوَّةً»[۴۹۷].

وفى هذه العبارة الواردة بصورة النهى يصدر الإمام عليه السلام أربعة أوامر: النصيحة لبعضهم البعض، وحسن الخلق والسلوك مع جند الإسلام، والسعى فى طريق مدّ يد العون للرعية، والعمل على مستوى تقوية دعائم الدين الإسلامى، ومع الالتفات إلى أنّ المخاطب فى هذه الجملة هم عمّال الخراج، يتبيّن أنّ الواجب عليهم فى مسير أداء مسؤوليّتهم، الاهتمام بالتكاليف الأخرى الواجبة عليهم أيضاً.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الجملة:

«وَلَا تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً»

أنّ الأنفس هنا تعنى ذات الشخص، وذهب آخرون إلى أنّها تعنى نفوس الآخرين، والظاهر أنّ المعنى الثانى أنسب.

ومعلوم أنّ عمّال الخراج لو عملوا بهذه الوظائف الأربع، أى أنّهم تحركوا فى علاقتهم فيما بينهم من موقع التواصى والتناصح وكذلك تعاملوا مع الرعيّة وجنود الإسلام بآلية اللطف وحسن الخلق، وعزموا فى نيّاتهم على تقوية الدين الإسلامى وتوطيد الرسالة الإلهيّة، فإنّ المجتمع الإسلامى سيشهد إزدهاراً كبيراً وتطوراً مهمّاً.

وفى ختام هذه الرسالة يبيّن الإمام عليه السلام آخر توصية لعمّاله على الخراج ويقول:

«وَأَبْلُوا[۴۹۸] فِى سَبِيلِ اللَّهِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ ۴۹۹] عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ».

وهذه إشارة إلى أنّ الاعتماد على اللّه ضرورى لتحقيق النجاح وكسب الموفقيّة

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۶۶

فى تجسيد هذه التوصيات على أرض الواقع ولزوم الاستعانة باللّه تعالى فى سلوك خط الإيمان والعمل الصالح والالتزام الواعى بهذه القيم الأخلاقيّة والمثل الإنسانيّة.

وعبارة

«فَإِنَّ اللَّهَ»

(والفاء للتفريع) إشارة إلى أنّ إتيان هذه الأمور وترجمتها على مستوى التطبيق يمثّل نوعاً من شكر اللّه تعالى على نعمه، ونحن مدينون

فى هذا الحال لألطاف البارى تعالى الذى وفقنا لإنجاز هذه التكاليف والوظائف.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۶۷

الرسالة ۵۲

اشارة

إلى أمَراءِ الْبِلاد فى مَعْنَى الصَّلاةِ[۵۰۰]

نظرة عامّة للرسالة

كما هو بيّن من عنوان الرسالـة، فإنّ المخاطب لها امراء البلاد، لأنّهم من جهـة يتولّون الأمور الدينيّة للناس، وكذلك أمورهم الدنيويّة، مضافاً إلى إمامة الجمعة والجماعة أيضاً، ومحتوى هذه الرسالة يبيّن فى الحقيقة أمرين: أحدهما، أوقات الصلوات الخمس بشكل دقيق ومتى يأتى المسلم بكل واحدة منها، والآخر أنّ إمام الجماعة يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار أضعف المأمومين ويصلّى طبقاً لهذا المعيار.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۶۹

أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ الْعَنْزِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيَّةٌ فِى عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرْسَخَانِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَى مِنًى وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْغَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ، وَصَلُّوا بِهِمْ صَلَاةَ أَضْعَفِهِمْ وَلَا تَكُونُوا فَتَّانِينَ.

الشرح والتفسير: آداب الصلاة وأوقاتها!

اشارة

تقدّم آنفاً أنّ الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة يخاطب امراء البلاد، وهؤلاء الامراء هم أئمّة الجمعة والجماعة أيضاً، ويبيّن لهم أوقات الصلوات اليوميّة.

بداية يشرع الإمام عليه السلام من صلاة الظهر ويقول:

«أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ[۵۰۱] الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ ۵۰۲] الْعَنْزِ[۵۰۳]».

كلمة «حتّى» إشارة إلى نهاية وقت فضـيلة الظهر، كما هو ظاهر التعبير بهذه الكلمة، ومفهومها أنّ الإمام عليه السلام بيّن فى هذه العبارة نهاية وقت فضيلة الظهر فقط،

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۷۰

وقـد ورد فى بعض الروايات أنّه بمقدار ذراع، ومقدار الذراع لا يختلف كثيراً عن مربض العنز عندما تتمدد الشاة على الأرض، فيقترب مقدار المربض من مقدار الذراع، ولو كانت كلمة «حتّى» تعنى «حين»[۵۰۴] ويقصد بها تعيين المدّة والزمان، فالظاهر أنّ المعنى يكون بداية وقت الفضـيلة، ومفهومها أنّ وقت صـلاة الظهر من أوّل الزوال إلى أن يكون ظلّ الشاخص (أى الظل الذى يظهر من لحظة زوال الشـمس عنـد الظهر) بمقدار ذراع، فيمكن تأخير صـلاة الظهر إلى ذلك الوقت، إمّا لغرض إتيان صـلاة النافلة أو لغرض اجتماع الناس

لصلاة الجماعة.

وطبعاً فإنّ ابتداء وقت صلاة الظهر لا يكون قبل هذه الأمور وهو ما ذكره القرآن الكريم بصراحة وقال: «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ»[۵۰۵].

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام آخر وقت فضيلة صلاة العصر ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيَّةٌ فِی عُضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرْسَخَانِ».

وهناک خلاف کبير فی وقت صلاة العصر بين فقهاء أهل السنّة والوارد فی کتبهم الفقهية، ولکن المعروف بين علماء الشيعة أنّ وقت صلاة الظهر من ابتداء زوال الشمس من دائرة نصف النهار، (وطبعاً بعد مضی مقدار من الوقت اللازم للإتيان بنافلة الظهر)، وانتهاء وقتها إلی زمان يکون ظل الشاخص (الظلّ الذی يظهر بعد زوال) بمقدار الشاخص نفسه، ثمّ يبدأ وقت فضيلة صلاة العصر ويمتد إلی زمان يکون فيه ظلّ الشاخص ضعفی الشاخص (وطبعاً طول وقصر الشاخص فی هذه المسألة لا يتفاوت).

وما ذکره الإمام عليه السلام فی الجملة أعلاه يشير إلی نهاية وقت فضيلة صلاة العصر، ولا يختلف هذا المقدار مع ما هو معروف بين فقهائنا.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۷۱

فی المرحلة الثالثة أشار الإمام عليه السلام إلی وقت صلاة المغرب وقال:

«وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَی مِنًی .

وبما أنّ وقت إفطار الصائم وحرکة الحجاج من عرفات معلوم فی نظر عامّة الناس حيث تبدأ الحرکة مع غروب الشمس، فالإمام عليه السلام يجعل هذا الأمر مقياساً للوقت.

وتأخير صلاة المغرب والإفطار إلی زمان زوال الحمرة المشرقيّة من وسط السماء يمثّل فی الواقع نوعاً من الاحتياط، والوقت هو غروب الشمس (وذلک طبعاً فی نظرنا ونظر جماعة من فقهاء أهل البيت عليهم السلام).

وهنا يکتفی الإمام عليه السلام فی الواقع بما هو معروف ومشهور بين عامّة المسلمين فی الوقت الذی يفطر فيه الصائم ويتحرک الحجاج من عرفات.

وفی المرحلة الرابعة يشير الإمام عليه السلام إلی وقت صلاة العشاء ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَی الشَّفَقُ إِلَی ثُلُثِ اللَّيْلِ».

ولابدّ من معرفة المراد من الشفق، وهل هو الحمرة المغربية (أی الشعاع الأحمر الذی يظهر من جهة المغرب بعد اختفاء قرص الشمس)، أو البياض الشفاف الذی يظهر بعد اختفاء ذلک الشعاع الأحمر ويبقی لمدّة من الوقت؟ کلا الاحتمالين واردان فی تفسير کلام الإمام عليه السلام، لأنّ الشفق يطلق علی کلا هذين الأمرين، ولکن المشهور بين علماء الشيعة هو المعنی الأوّل، وفی هذا العصر فأهل السنّة يجعلون المعنی الثانی ملاکاً للعمل غالباً، رغم أنّ الفقهاء الأربعة مختلفون فيما بينهم فی هذه المسألة.

وفی المرحلة الأخيرة والخامسة يشير الإمام عليه السلام إلی بداية وقت صلاة الصبح ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمُ الْغَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ».

ومعلوم أنّ المستفاد من آيات القرآن الکريم والمشهور بين الفقهاء هو أنّ ابتداء صلاة الصبح من زمان طلوع الصبح الصادق، أی البياض الواسع الذی يظهر إلی جانب الافق، ويتفق العلماء فی هذه المسألة، ولکن بما أنّ النهوض من داخل المدن والتوجه إلی خارجها أو الصعود علی سطوح المنازل والنظر إلی الخارج لمعرفة

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۷۲

طلوع الفجر الصادق لا يعدّ أمراً ميسوراً، فقد بيّن الإمام عليه السلام معياراً أيسر من ذلک، وهو أن تخف حدّ الظلام قليلًا ويخالط الجو

بعض إشراقات الفجر بحيث يرى الشخص صاحبه الواقف إلى جانبه ويعرفه، أضف إلى ذلك فإنّ حضور الناس لصلاة الجماعة يتطلب مقداراً أكثر من الوقت، ولذلك يتطابق هذا المعنى مع ما ذكره الإمام عليه السلام.

وفى الختام يصدر الإمام عليه السلام لهم هذا الأمر فى كيفية صلاة الجماعة ويقول:

«وَصَلُّوا بِهِمْ صَلَاةَ أَضْعَفِهِمْ وَلَا تَكُونُوا فَتَّانِينَ».

إنّ أهميّة هذا الموضوع إلى درجة أنّ أميرالمؤمنين على عليه السلام يروى حديثاً عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ويقول: آخر ما فارقت عليه حبيب قلبى صلى الله عليه و آله أن قال:

«يا عَلِيُّ إذا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ أَضْعَفِ مَنْ خَلْفَكَ»[۵۰۶].

وعندما أرسلنى رسول اللّه صلى الله عليه و آله (لنشر الإسلام) إلى اليمن، سألته: كيف اصلّى بالناس فقال:

«صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيما»[۵۰۷].

وقد ورد هذا المعنى فى عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر حيث أوصاه الإمام بهذه الوصيّة.

«فتّان» من مادة «فتنه» وفى الأصل تعنى وضع الذهب فى النار ليخلص من الشوائب، وبهذه المناسبة استخدمت هذه الكلمة فى معانٍ مختلف، منها الابتلاء والامتحان، الخداع، البلاء والعذاب، والأذى والألم، والكلمة فى عبارة الإمام عليه السلام تتناسب مع المعنى الأخير، ولا يبعد أن يكون المراد هو الخداع أيضاً، ويمكن الجمع بين هذين المعنيين أيضاً.

وطبعاً فإنّ هذا الكلام لا يعنى أن تصلّى صلاتك بشكل سريع بحيث تضرّ بأركان الصلاة وواجباتها، أو لا يتمكن الضعفاء بسبب هذه السرعة أن يلتحقوا بك فى ركوعهم وسجودهم وقيامهم وقعودهم، وهذا ما أشارت إليه الروايات الشريفة،

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۷۳

منها ما ورد فى عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر حيث أمره بهذه التوصية:

«فَلَا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلَا مُضَيِّعاً»

. أجل، لابدّ من رعاية الاعتدال والتوازن فى جميع الأمور.

وينبغى الالتفات إلى هذه النقطة، وهى أنّ التوصية بالرغم من كونها واردة فى خصوص الصلاة، ولكن يمكن سراية هذا المفهوم إلى سائر العبادات بل إلى جميع البرامج الاجتماعيّة، فيجب أن تكون البرامج الإسلاميّة فى الأبعاد العباديّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، والأخلاقيّة، من حيث التطبيق بحيث لا تثقل على كاهل الناس ولا تتسبب فى خروجهم عن الدين، ولا أن تؤدى السرعة والعجلة فيها إلى تفريغها من محتواها ومضمونها.

وكذلك من الجدير بخطباء أئمّة الجمعة المحترمين، وكذلك المسؤولين عن مجالس الدعاء والابتهال ومجالس العزاء مراعاة هذا الأصل، فلا يسرعوا فى خطبهم وأدعيتهم ومراسيم العزاء بحيث تسلب روحها ومضمونها، ولا يؤتى بها بشكل متأخر ومطول بحيث تؤدى إلى تعب الحاضرين ومللهم.

تأمّل

أداء الصلوات الخمس فى ثلاثة أوقات

نعلم أنّ الصلوات اليومية فى عصر رسول اللّه صلى الله عليه و آله وكذلك فى عصر الأئمّة المعصومين عليهم السلام كان تقام بشكل منفصل وفى الأوقات الخمسة وفى وقت الفضيلة، واليوم لو صلّينا الصلوات اليومية فى خمسة أوقات لكان أفضل، ولكن مع ذلك فإنّ

النّبی الأكرم صلی الله علیه و آله جمع بین صلاتی الظهر والعصر، وكذلك بین المغرب والعشاء فی أسفاره بدون أن یكون هناك عذر خاص (من قبیل الحر الشدید والبرد الشدید والمطر)، مضافاً إلی ذلك فقد اتفق مراراً فی حیاة النّبی الأكرم صلی الله علیه و آله أنّه صلی الله علیه و آله جمع بین الصلاتین بدون أی عذر وقال: احبّ الرخصة علی امّتی حتی أنّهم إذا رغبوا فی الجمع بین الصلاتین أمكنهم ذلك.

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۷۴

ولكن مع الأسف فإنّ جمع غفیر من علماء أهل السنّة أصرّوا علی الفصل بین الصلوات الخمس والإتیان بها بشكل منفصل، وهذه المسألة أدت إلی حدوث مشاكل كثیرة وخاصة فی وقت العصر، لأنّ حیاة الناس قد تغیّرت فی العصر الحاضر، فالكثیر من العمّال الذین یعملون فی المعامل والمصانع، وكذلك الموظفین الذین یشتغلون فی الإدارات الرسمیة والشركات وبخاصّة طلاب الجامعات وحضورهم فی قاعات الدرس صار بشكل لا یستطیع المسلم الإتیان بالصلوات الیومیة فی الأوقات الخمسة بسهولة، وهذا الأمر تسبب فی ترك الكثیر منهم للصلاة.

ونعلم قطعاً أنّ الإسلام دین الرحمة وبمقتضی النبوی المعروف:

«بُعِثْتُ بالشَّریعَةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ»

فإنّه قد فتح طریقاً للحل أمام هؤلاء الأشخاص حتی لا یتورطوا فی ترك الصلاة من جهة، ولا یبتلوا بالصعوبة والمشقّة البالغة.

والعجیب أنّ فی مصادر أهل السنّة المعروفة: ك «صحیح مسلم، صحیح البخاری، سنن الترمذی، موطأ مالك، مسند أحمد، سنن النسائی، مصنّف عبدالرزاق» وكتب أخری وهی كلّها من المصادر والمنابع المعروفة والمشهور لدیهم، هناك ثلاثون روایة فی باب الجمع بین صلاة الظهر والعصر أو صلاة المغرب والعشاء بدون السفر والمطر وخوف الضرر، ولكنّ هؤلاء الإخوة قد تغافلوا عنها جمیعاً وشددوا أمر الصلاة علی الناس وبخاصّة الشباب منهم.

وهذه الروایات واردة من طریق خمسة رواة معروفین:

۱. ابن عباس.

۲. جابر بن عبداللَّه الأنصاری.

۳. أبو أیوب الأنصاری.

۴. عبداللَّه بن عمر.

۵. أبو هریرة.

وسنشیر فیما یلی إلی جملة منها:

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۷۵

۱. نقل سعید بن جبیر عن ابن عباس أنّه قال:

«صَلّی رَسُولُ اللَّهِ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمیعاً بِالْمَدینَةِ فِی غَیْرِ خَوْفٍ وَلا سَفَرٍ»

یقول أبو زبیر: سألت سعید بن جبیر، لِمَ فعل ذلك رسول اللَّه صلی الله علیه و آله؟ فقال سعید: سألت (یعنی هذا السؤال) ابن عباس كما سألتنی فقال:

«أرَادَ أنْ لا یُحرِجَ أحَداً مِنْ امَتِهِ»[۵۰۸].

۲. یقول جابر بن زید: قال ابن عباس:

«صَلّی النَّبیُّ سَبعَاً جَمِیعَاً وَثَمانَیَاً جَمِیعَاً»[۵۰۹]

، وهی إشارة إلی أنّ النّبی الأكرم صلی الله علیه و آله جمع فی صلاته بین الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

۳. جاء فی «مصنّف» عبد الرزاق أنّ عبد اللَّه بن عمر قال:

«جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ مُقیماً غَیرَ مُسافِرٍ بَیْنَ الظُّهْرِ وَالعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ فَقالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ: لِمَ تَرَى النبیُ فِعْلَ ذلِکَ؟ قالَ: لأنْ لا یَحرِجَ أُمَّتَهُ إنْ جَمَعَ رَجُلٌ»[۵۱۰].

۴. ویروی عبداللَّه بن مسعود:

«جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ بَینَ الأولی وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشاءِ فَقیلَ لَهُ صلی الله علیه و آله فَقالَ: صَنَعْتُهُ لِأنْ لا تَکُونَ أمَّتی فِی حَرَجٍ»[۵۱۱].

۵. وروی أبو هریرة أیضاً:

«جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ بَیْنَ الصَّلاتَیْنِ فِی الْمَدینَةِ مِنْ غَیْرِ خَوْفٍ»[۵۱۲].

وکما قلنا آنفاً أنّ الروایات الواردة فی هـذا الباب أکثر من هـذا المقدار، وخلاصة ما ورد فیها أنّ النّبی الأکرم صـلی الله علیه و آله قد جمع فی بعض المواضع بین صلاة الظهر والعصر أو بین صلاة المغرب والعشاء فی حین لم تکن هناک مشکلة خاصّة کالمطر أو السفر أو الخوف من العدو، ولم یکن الهدف من ذلک سوی التوسعة علی الامّة ورفع العسر والحرج، فهل یصح مع هذا الحال أن یستشکل البعض فی مسألة الجمع ویقول بأنّ

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۷۶

الجمع متعلق بموارد الاضطرار؟ لماذا نغض النظر عن رؤیة الحقائق الشرعیة ونرجح أفهامنا ومسبوقاتنا الفکریة علی قول رسول اللَّه صلی الله علیه و آله الصریح فی هـذا الأمر وبالتالی نثقل هـذه العبادة علی کاهل الامّة؟ وعنـدما یأذن اللَّه ورسوله بالرخصة فی شیء فلماذا لا یأذن المتعصبون فی هذه الامّة؟ لماذا لا یریدون من الشباب المسلمین أن یؤدّوا صلواتهم الیومیّة وهی أهم وظیفة الإسلامیّة فی کلّ الأحوال فی جمیع الأماکن فی داخل البلاد الإسلامیّة وخارجها فی الجامعات والإدارات والمعامل والأسواق؟

نحن نعتقد أنّ الإسلام یمتد لکلّ زمان ومکان إلی نهایة الدنیا، ومعلوم أنّ النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله کان یری بنظره الواسع حال جمیع مسلمین فی العالم وفی جمیع الأعصار والحقب الزمنیة، وأنّهم إذا کانوا مقیدین بالصلوات فی خمسة أوقات فإنّ ذلک من شأنه أن یشقّ علی امّته ویدعو جماعة منهم لترک الصلاة، ولذلک صدر الإمر الإلهی إلیه أن یخفف عن امّته ویوسع دائرة الرخصة فی هذا الشأن.

والجدیر بالذکر أنّ الفخر الرازی فی تفسیر قوله تعالی: «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوکِ الشَّمْسِ إِلی غَسَقِ اللَّیْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ کانَ مَشْهُوداً»[۵۱۳] یقول بصراحة:

واعلم أنّه یتفرع علی هذین القولین بحث یکون المذکور فی الآیة ثلاثة أوقات:

وقت الزوال، ووقت أوّل المغرب، ووقت الفجر، وهـذا یقتضی أن یکـون الزوال وقتاً للظهر والعصر، فیکـون هـذا الوقت مشترکاً بین هـاتین الصـلاتین، وأن یکون أوّل المغرب وقتاً للمغرب والعشاء، فیکون هـذا الوقت مشترکاً أیضاً بین هاتین الصلاتین، فهـذا یقتضی جواز الجمع بین الظهر والعصر وبین المغرب والعشاء مطلقاً.

وقد بیّن أنّه دلّ الدلیل علی أنّ الجمع فی الحضر من غیر عذر لا یجوز، توجب أن یکون الجمع جائزاً بعذر السفر وعذر المطر وغیره ۵۱۴]، وهذا ما یقال من الاجتهاد

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۷۷

فی مقابل النص.

وکما قلنا فی بدایة هذا البحث أنّ رعایة وقت الفضیلة والإتیان بکل صلاة فی هذه الأوقات الخمسة مسنون وأولی، رغم أنّ الجمع بین الصلاتین یعتبر رخصة، ومن هذه الجهة فالإمام علیه السلام بیّن أوقات الصلاة الخمس بشکل منفصل.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۷۹

الرسالة ۵۳

اشارة

كَتَبَهُ لِلْأَشْتَرِ النَّخَعى لَمّا وَلّاهُ عَلى مِصْرَ وَأَعمالِها
حينَ اضْطَرَبَ أَمْرُ أَميرِها مُحَمَّدُ بْنُ أبىبَكْرٍ وَهُوَ
أَطْوَلُ عَهْدٍ كَتَبَهُ وأَجْمَعُهُ لِلْمَحاسِنِ ۵۱۵]

نظرة عامّة للرسالة

(المهمّة جدّاً لمالك الأشتر)

خمسون نكتة مهمّة فى عهد واحد

من أجل إدراك أهميّة هذا العهد الشريف، وقبل أن نتوغل فى دراسة محتواياته ومضامينه، ينبغى الالتفات إلى عدّة أمور:[۵۱۶]

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۸۰

إنّ هـذه الرسالة المطولة والعميقة المضامين تعدّ من أهم ما ورد من كتب ورسائل فى نهج البلاغة وناظرة لجميع أبعاد وجهات الإدارة والتـدبير لأمور الحكومـة وتحتوى على أصول ثابتـة وقواعـد متماسـكة لاـ يطرأ عليهـا القِـدم ولاـ تبلى أبـداً وترسم فى مضامينها كافّة تفاصيل الحياة السياسيّة والإدارية فى الحكومة الإسلاميّة.

۱. ممّا يجـدر ذكره أنّ ابن أبى الحديد فى ذيل الخطبة القصـيرة رقم ۶۸ (وقد ورد شـرح هذه الخطبة سابقاً وفى شرح بن أبى الحديد الخطبـة تحت رقم ۶۷) ينقـل عن إبراهيم الثقفى صـاحب كتاب «الغارات» رسالـة مفصـلة وطويلـة نسبياً أنّ الإمام على عليه السـلام قد كتب إلى محمّد بن أبى بكر برنامجاً أخلاقياً لتهذيب النفوس وتطهير القلوب وتقوية عنصـر التقوى فى الإنسان، وفى ذيل هذه الرسالة ينقـل هـذا المؤرخ (صـاحب كتاب الغارات) كان محمّـد بن أبى بكر ينظر فيه ويتأدّب بآدابه- كان يحمل معه هـذه الرسالـة فى مصر ويطالعهـا بين الحين والآـخر ويتمسك بآدابها ويلتزم بما ورد فيها من التعاليم- فلما ظهر عليه عمرو بن العاص، أخـذ كتبه أجمع فبعث بها إلى معاوية، فكان معاوية ينظر فى هذا الكتاب ويتعجب منه.

ثمّ قال: إنّ الوليد بن عقبة (أخا عثمان من امّه وهو الذى نزلت فى حقّه آية «إن

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۸۱

جـاءكم فـاسق ..» حيث أطلق عليه القرآن وصف الفـاسق) وكـان حاضـراً عنـد معاويـة وقـد رأى اعجـابه به، فقـال لمعاويـة: مر بهـذه الأحـاديث أن تحرق. فقال معاويـة: مه، لا رأى لك! فقال الوليـد: أفمن الرأى أن يعلم الناس إنّ أحاديث أبى تراب عندك تتعلم منها! فقال معاويـة: ويحك أتأمرنى أن أحرِق علماً مثل هذا! واللّه ما سـمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم. فقال الوليد: إن كنت تعجب من عمله وقضـائه فعلاـم تقاتله؟ فقال: لولا أنّ أبا تراب قتل عثمان ثمّ أفتانا لأخـذنا عنه. ثمّ سـكت هينهـة، ثمّ نظر إلى جلسائه وقال: إنّا لا نقول: إنّ هذه من كتب على بن أبى طالب، ولكن نقول:

هذه من كتب أبى بكر الصديق كانت عند ابنه محمّد، فنحن نظر فيها، ونأخذ منها.

قال: فلم تزل تلك الكتب فى خزائن بنى اميّة حتى ولى عمر بن عبدالعزيز، فهو الذى أظهر أنّها من أحاديث على بن أبى طالب عليه السلام.

والجدير بالذكر أنّ ابن أبى الحديد بعد أن نقل هذا الكلام عن صاحب «الغارات» يقول: «الأليق أن يكون الذى كان معاوية ينظر فيه ويعجب منه، ويفتى به ويقضى بقضاياه وأحكامه هو عهد الإمام على عليه السلام إلى الأشتر، فإنّه نسيج وحده، ومنه تعلّم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة (والحال أن كتاب الإمام عليه السلام لمحمّد بن أبى بكر يتضمّن مجموعة من المسائل الأخلاقية) وهذا العهد صار إلى معاوية لما سمّ الأشتر ومات قبل وصوله إلى مصر، فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيق مثله (يعنى الكتاب العهدى) أن يقتنى فى خزائن الملوك»[۵۱۷].

وعلى ضوء ذلك فإنّ ابن أبى الحديد يعتقد بأنّ هذه الرسالة التاريخيّة الفريدة، التى كان معاوية يستفيد منها ولم يظهر ذلك لأحد وبعده انكشف الستار عنها بواسطة عمر بن عبدالعزيز، هى ما نحن بصدده من عهد أميرالمؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر.

ونحن بدورنا نؤيد نظر ابن أبى الحديد بصورة كاملة، لأنّ القرائن والشواهد المختلفة تشهد على هذا المعنى.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۸۲

۲. يقول الكاتب المسيحى المعروف «جورج جرداق» فى كتابه «الإمام على صوت العدالة الإنسانيّة»: «إلّا أنّه من الصعب على المرء أن يجد الإنسان اختلافاً بين هذا العهد العلوية والوثيقة الدوليّة لحقوق الإنسان، فليس من أساس بوثيقة حقوق الإنسان إلّاوتجد له مثيلًا فى دستور ابن أبى طالب، وهذا إلى إطار من الحنان الإنسانى العميق يحيط به الإمام دستوره فى المجتمع، ولا يحيط الامم المتحدة وثيقتها بمثله»[۵۱۸].

وينبغى الالتفات إلى أنّ لائحة حقوق الإنسان العالمية قد تمّ تدوينها بعد ألف وثلاثمائة عام من تدوين عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر، أضف إلى ذلك أنّ اللائحة العالمية قام بتدوينها جماعة من المفسّرين من شتى بلدان العالم ومع ذلك فإنّها تحتوى على بعض النقائص ونقاط الضعف والقصور، وأهمّها أنّها فارغة من المسائل المعنويّة والقيم الإنسانيّة السامية.

۳. ومن أجل الإحاطة بأهميّة هذه الرسالة والعهد مورد البحث ينبغى الإشارة إلى مكان مسؤوليّة مالك الأشتر، أى أرض مصر.

يتفق المؤرخون تقريباً أنّ منطلق الحضارات البشريّة تمتد بجذورها إلى منطقة الشرق، ومنها أرض مصر التى وجدت فيها الحضارة قبل غيرها من البلدان بآلاف السنين، فقد وطد المصريون دعائم التمدن البشرى إلى درجة أنّ «ويل دورانت» يسمى هذه المنطقة بأنّها مهد الحضارة البشرية، ومن هذه الجهة نرى أنّ الأنبياء الإلهيين الذين أرسوا دعائم التمدن المادى والمعنوى فى الامم البشرية جميعهم قد بعثوا من هذه المنطقة، ثمّ إمتدت دعوتهم إلى نقاط أخرى من العالم.

ويقول المؤرخ المذكور فى الجزء الأوّل من تاريخه المعروف ب «قصّة الحضارة» بعد أن خصص عشرات الصفحات حول الحضارة المصرية القديمة: إنّ الآثار المهمة الباقية منذ ذلك الوقت ولمدّة آلاف السنين وبرغم المتغيرات فى هذه العصور

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۸۳

والحقب الزمنية لا زالت باقية، وهذه علامة أخرى عن عظمة هذه الحضارة القديمة.

لقد كانت مصر تمثّل إحدى المراكز العلمية والحضارية المهمّة فى العالم، وخاصّة مدينة الاسكندرية التى تعد- وفقاً للمدارك والاسناد التاريخيّة- أحد أهم هذه المراكز العلميّة، ولم يقتبس أهالى مصر علوم اليونان فحسب، بل أضافوا إليها علوماً كثيرة أخرى، ففى الحقيقة أنّ مصر لم تكن بمثابة محافظة أو منطقة من الحكومة الإسلاميّة، بل دولة كبيرة وواسعة يقطن فيها شعب متمدن.

وقد دخلت مصر فى عام ۱۹ للهجرة فى زمان الخليفة الثانى تحت لواء الإسلام بواسطة الجيش الإسلامى الذى أرسله الخليفة الثانى لفتحها، ومنذ ذلك الزمان والمصريون يعيشون فى ظلّ الإسلام وقد تقبلوا، كالايرانيين، هذا الدين الجديد الذى يملك ثقافة قوية

وتظهر على تعاليمه معالم الحقانيّة، ولكن للأسف فإنّ بعض الحكّام الظلمة أمسكوا بمقاليد السلطة فى مصر من قِبل الخلفاء ومنهم: عبداللَّه بن أبى سرح ۵۱۹] الذى تولى ولاية مصر فى زمان عثمان وتسبب ظلمه وجوره على أهالى مصر فى انتفاضتهم على الوضع السائد، وكما نعلم أنّ هذه الانتفاضة إمتدت إلى المدينة، وقد زادت أخطاء الخليفة الثالث فى الطين بلة، وعملت على تعميق الخلل والشعور بالاستياء لدى عامّة الناس، ومن ذلك ما أصدره عثمان من عزل عبداللَّه وكتب فيها كتاباً وسلّمه إلى الثوار ليعودوا إلى مصر، ولكنّه أرسل رسالة أخرى إلى عبداللَّه بن أبى سرح يأمره فيها بقتل هؤلاء الثوار فى حال عودتهم إلى مصر، وقد وقعت هذه الرسالة بيدهم فى وسط الطريق، فعادوا من فورهم ووقعت حادثة قتل عثمان.

أمّا الإمام على عليه السلام فإنّه من أجل جبران الأخطاء المذكورة، أرسل فى بداية الأمر محمّد بن أبى بكر لحكومة مصر، ولما ثبت عملياً أنّه لا يستطيع تحمل هذه

نفحات الولايۀ، ج ۱۰، ص: ۲۸۴

المسؤوليّة الثقيلة، أمر الإمام عليه السلام شخصاً آخر يملك القدرة والحكنة والحزم فى الأمور، وهو مالك الأشتر، لهذه المهمّة وأرسل معه هذه الرسالة والعهد مورد البحث لترتيب وإدارة أوضاع هذا البلد الكبير وأرسله إلى مصر، ولكن للأسف فإنّ جريمة معاوية منعت من تحقق هذا البرنامج الإنسانى العظيم على أرض الواقع وأن يتنفس أهالى مصر السعداء ممّا لاقوه من الولاة السابقين.

***

مهما يكن من أمر فهذا الكتاب الذى كتبه الإمام عليه السلام لمالك الأشتر يتشكل فى نظرة إجماليّة من عدّة أقسام ومقاطع، وربّما أمكن تقسيمه من زاوية معينة إلى خمسين قسماً.

۱. القسم الأوّل، يلخص الإمام عليه السلام الهدف الأساس من إرساله مالك الأشتر إلى مصر فى أربعة أمور: الاهتمام الكامل بجمع الخراج، والتصدى لأعداء مصر، وإصلاح أهلها، وإعمار هذا البلد.

۲. التأكيد على لزوم رعاية التقوى قبل كلّ شيء، وبيان أهميّتها ودورها فى حياة الإنسان.

۳. مجاهدة النفس وتهذيبها.

۴. الفات نظر مالك الأشتر إلى منطقة عمله ومحل مسؤوليّته.

۵. النصيحة له بالتحرک فى خط العمل الصالح واجتناب البخل.

۶. السعى وبذل لجهد لكسب رضا الرعيّة وعامّة الناس.

۷. النهى عن التمرد على الأوامر الإلهيّة.

۸. بيان طريقة مواجهة حالات الكبر والغرور الناشئة من تولى المقام والمنصب.

۹. رعاية العدل والإنصاف فى كلّ الأحوال، واجتناب كلّ شكل من أشكال الظلم والجور التى تسبب فى تغيير النعم والمواهب الإلهيّة وتبديلها.

۱۰. ينبغى أن يكون أحبّ الأشياء إليه جلب رضا عامّة الناس لا الخواص منهم.

نفحات الولايۀ، ج ۱۰، ص: ۲۸۵

۱۱. الحذر من وساوس الانتهازيين والنمامين والسعى فى إسدال الستار على عيوب الناس.

۱۲. لزوم المشورة فى الأعمال والنشاطات فيما يتصل بتدبير الأمور، والحذر من مشورة الأشخاص البخلاء والجبناء وأهل الدنيا.

۱۳. عزل المتولين السابقين والمسؤولين الظالمين وتوثيق الرابطة مع أصحاب الورع والصدق والإيمان.

۱۴. تشويق المحسنين والصالحين وتوبيخ المسيئين وعقابهم.

۱۵. كسب حسن ظنّ الناس من خلال الإحسان إليهم، والتخفيف من ثقل الضرائب عليهم.

۱۶. احترام الآداب والتقاليد الحسنة للقدماء.

۱۷. استمرار مجالسة العلماء وأهل الخبرة والتشاور معهم.

۱۸. تقسيم الرعيّة إلى طوائف متعددة وخدمة كلّ طبقة منهم وفق حاجاتهم ومواقعهم الذاتيّة والاجتماعيّة.

۱۹. التأكيد بشدّة على رعاية الطبقة المحرومة والمعدمة.

۲۰. بيان خصائص القادة العسكريين والمسؤولين فى الجيش الإسلامى.

۲۱. الاهتمام الخاص بسوابق الأشخاص والعوائل الصالحة وذات السمعة الحسنة.

۲۲. خصوصيات القادة الكبار.

۲۳. التأكيد على أصل العدالة، الذى يتواصل مع روحية القادة والزعماء وهو قرة عين لهم.

۲۴. الثناء على الأعمال الحسنة للصالحين والمحسنين لتقوية عناصر الخير فى المجتمع الإسلامى ولتشويق الجميع على عمل الخير والإحسان.

۲۵. قياس قيمة عمل كلّ شخص بدون الالتفات إلى مكانته الاجتماعيّة.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۸۶

۲۶. الرجوع إلى الكتاب والسنّة فى حل المشكلات واستنباط الأحكام.

۲۷. ذكر شروط القضاة والصفات اللازمة التى يجب توفرها فيهم.

۲۸. الإشراف على الأحكام القضائيّة التى يصدرها القضاة فى حقّ المحكومين وتأمين نفقاتهم ومعيشتهم فى الحياة بشكل كامل لمنع التورط فى عمليّة الرشوة.

۲۹. بيان المعيار فى انتخاب الولاة والقادة فى البلاد ودفع حقوقهم الماليّة بشكل كاف ووضع العيون (الجواسيس) لضبط أعمالهم.

۳۰. وضع خطة لعمليّة الخراج والضرائب والاهتمام بعمران المنطقة وإحيائها قبل الاهتمام بجمع الخراج.

۳۱. بيان الخصوصيات المتعلقة بالمدراء والمسؤولين عن الاسناد والوثائق وموظفيهم وتقسيم العمل بينهم بشكل دقيق.

۳۲. الاهتمام التام بوضع التجّار وأصحاب الصناعات والأشخاص الذين يتحركون فى خدمة الناس على مستوى نقل أو إنتاج ما يحتاجونه، والإشراف الدقيق على المعاملات والأسعار والتصدى لظاهرة الاحتكار.

۳۳. التأكيد أكثر على الاهتمام بالطبقة المحرومة والضعيفة ولزوم التواصل معهم والاطلاع على وضعهم.

۳۴. لزوم الاهتمام بوضع الأيتام والعجزة.

۳۵. تعيين وقت خاص للقاء العامّة من الناس والإذن لهم بمقابلة المسؤولين بشكل مباشر.

۳۶. تعيين وقت خاصّ آخر للموظفين والمسؤولين من أجل حلّ مشكلاتهم الخاصّة.

۳۷. تنظيم برنامج دقيق للأعمال اليومية المختلفة.

۳۸. الاهتمام بإقامة الفرائض الدينيّة وخاصّة صلاة الجماعة وكيفية إقامتها وتعيين وقت خاص للارتباط مع البارى تعالى.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۸۷

۳۹. عدم الابتعاد عن الناس والاحتجاب عنهم مدّة طويلة.

۴۰. كيفية التعامل مع الأصحاب الخاصين والمطلعين على أسرار الدولة.

۴۱. الرعاية الدقيقة لحقوق جميع الأفراد، سواءً كانوا من منطقة قريبة أو بعيدة.

۴۲. تقديم عذر موجّه وتبرير معقول فى مقابل ما يعيشه الناس من شحة فى الموارد وظهور المشكلات ممّا يودّى إلى سوء الظن بالولاة.

۴۳. قبول دعوة الأعداء للصلح وفى ذات الوقت رعاية حالة الحذر فى مقابلهم مع إحترام العهود والمواثيق التى تعقد معهم.

۴۴. الاجتناب بشدّة عن سفك دماء البرياء.

۴۵. اجتناب كلّ أشكال العجب والأنانيّة والغرور.

۴۶. الحذر من إظهار المن على الرعيّة.

۴۷. اجتناب التسرع والعجلة فى الأعمال.

۴۸. اجتناب الرشوة وأخذ حقّ الخاص فى المشتركات.

۴۹. الاهتمام بمطالعة سيرة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأنبياء الإلهيين فى جميع الأمور المتعلقة بالحكومة.

۵۰. وأخيراً الدعاء لنفسه ولمالك الأشتر وطلب الرحمة والتوفيق له من اللّه تعالى.

ويمكن من زاوية معنية وضع جميع هذه الأمور فى عشرة محاور:

۱. بيان أهميّة المسؤوليّة الملقاة على عاتق مالك الأشتر.

۲. التنبيهات الأخلاقيّة العامّة فى مجال الحكومة وتدبير الأمور.

۳. تقسيم الرعيّة وشرائح المجتمع المختلفة إلى عدّة فئات وطوائف، من القوى العسكرية إلى عمّال جباية الضرائب والموظفين لدى الحكومة والقضاة والتجّار وأصحاب الصنائع وتعيين الوظائف والخصوصيات المتعلقة بكل فئة منهم.

۴. الاهتمام الكبير فيما يتصل بالطبقات المحرومة.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۸۸

۵. لزوم تعيين وقت لمواجهة ولقاء عامّة الناس، أى الانفتاح على العامّة وفتح الباب لهم ولارباب الحاجات.

۶. اختيار مشاورين أقوياء ومن أهل الخبرة.

۷. التصدى لكلّ أشكال الرشوة والامتيازات الذاتية.

۸. الاهتمام بأمر الصلح مع العدو وفى ذات الوقت أخذ جانب الحذر منه واجتناب كلّ أشكال سفك الدماء بدون دليل.

۹. الاهتمام بأمر إقامة الفرائض الدينيّة لعموم الناس.

۱۰. الدعاء لتحقيق النجاح والتوفيق فى أداء المسؤوليات واستمداد من اللّه تعالى فى هذا الشأن.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۸۹

القسم الأوّل

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِکَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِى عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ: جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا، أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَإِيْثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِى كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِى لَايَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ. وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير: التوصية الاولى التقوى وجهاد النفس

اشارة

ينطلق الإمام عليه السلام فى القسم الأوّل من هذه الرسالة بذكر اسم اللَّه الرحمن الرحيم والاستمداد منه، ويقول:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، مَالِکَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِى عَهْدِهِ إِلَيْهِ، حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ. جِبَايَةَ[۵۲۰] خَرَاجِهَا،

وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا».

نفحات الولاية ؛ ج ۱۰ ؛ ص ۲۸۹

تبدىء الإمام عليه السلام فى مستهل هذه الرسالة بالاعتراف بالعبوديّة للّه‌تعالى، ثمّ كونه أميرالمؤمنين، ليتبيّن أنّ قيادة المؤمنين ودعامتهم إنّما تتجسد فى أرض الواقع فى

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۹۰

ظلّ العبودية للّه‌تعالى لا فى ظلّ الحالات والدوافع الذاتيّة والشخصيّة، ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام الأهداف الأربعة لهذه المسؤوليّة والمهمّة التى ندب إليها مالك الأشتر:

الهدف الأوّل: يشير الإمام عليه السلام إلى الأمور الماليّة والاقتصاديّة وهو ما ورد التعبير عنه بالخراج، فصحيح أنّ الخراج يعنى الضرائب الموضوعة على الأراضى المفتوحة عنوة بيد المسلمين، ولكنّها فى هذا المورد تمتد لدائرة واسعة وتشمل جميع الأمور الماليّة المتعلقة بالحكومة الإسلاميّة، أعم من الخراج والزكاة والجزية والخمس وأمثال ذلك.

الهدف الثانى: يتحدّث الإمام عن مسألة القوّة العسكرية والدفاعية وقوى الأمن فى البلد الإسلامى ويؤكّد على حفظ استعدادهم لدفع هجمات الأعداء، لأنّه ما لم يتمّ ترتيب أمور هؤلاء فإنّ الأمن لا يتحقق فى فضاء المجتمع ولا يعيش الناس راحة البال فى معيشتهم وأعمالهم.

الهدف الثالث: يشير الإمام عليه السلام إلى إصلاح الأمور الاجتماعيّة والثقافيّة، ومنها إيجاد الباعث على أعمال الخير وإزالة منابع الفساد الأخلاقى وتثبيت الأمن فى مجال الكسب والعمل وتأمين حقوق الأفراد ونظم ما يتصل بالأمور القضائيّة، رغم أنّ البعض تصور أنّ الجملة:

«اسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا»

تختص بإصلاح الأمور المادية للناس، ولكن من البعيد يكون نظر الإمام عليه السلام مقتصراً على هذا المورد، بل ناظر إلى إصلاح جميع الأمور الماديّة والمعنويّة.

وبعض العبارات الواردة فى كلام الإمام عليه السلام فى هذه الرسالة تشير إلى أنّ الإمام ناظر فى هذا المورد بشكل عام وواسع بحيث يشمل جميع المسائل الأخلاقيّة والاجتماعيّة من قبيل قوله:

«ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ فَإِنَّ ذَلِکَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ».

الهدف الرابع: يتحدّث الإمام عليه السلام عن إعمار البلاد ويشمل ذلك إصلاح جميع ما يتعلق بأمور الزراعة والصناعة والتجارة، رغم أنّ الوارد فى هذه الرسالة يختص بمسألة الصناعة والتجارة والكسب والعمل، ولم يرد كلام عن الزراعة، ولكن مع

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۹۱

الأخذ بنظر الحسبان أنّ مصر بلد زارعى وأنّ أهالى مصر يولون اهتماماً كبيراً بمسألة الزراعة، فكأنّ الإمام عليه السلام لم يجد حاجة

لذكرها واقتصر على الإشارة إلى المشاكل الصناعيهٔ والتجاريهٔ، ولكن عندما يتحدّث عن أخذ الخراج يأمر مالك الأشتر بأن يقوم، في ذات الوقت الذي يأخذ الخراج، بمراقبهٔ عمليّهٔ الأعمار واستصلاح الأراضي واجتناب التشدد مع الزرّاع بما يتسبب في قلّهٔ المحاصيل الزراعيهٔ.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يواصل استعراضه لهذه الأصول الأخلاقيّهٔ الأربعهٔ مخاطباً مالك الأشتر، والتي تشكل في الحقيقهٔ الأركان الأصليّهٔ المعنويّهٔ للحكومهٔ.

بدايهٔ يقول:

«أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ».

إنّ خطب الإمام عليه السلام ورسائله وكلماته القصار في نهج البلاغهٔ زاخرهٔ بأمر التوصيهٔ بالتقوى، التي تمثل رأس مال سعادهٔ الإنسان في الدنيا والآخرهٔ، فالتقوى تعني الاحساس بالمسؤوليّهٔ الباطنيّهٔ واجتناب كلّ أشكال الإثم والذنب والتعدي والإجحاف، وبعبارهٔ أخرى أنّ التقوى تمثّل حالهٔ معنويّهٔ كابحهٔ، تتولى حفظ مسيرهٔ الإنسان في طريق الحقّ وتضمن عدم انحرافه عن الصراط المستقيم، ومعلوم أنّ مسؤوليّهٔ الإنسان كلّما إزدادت وثقلت فإنّها تستدعي حالهٔ أعمق وأقوى من التقوى.

وفي التوصيهٔ الثانيهٔ يقول الإمام عليه السلام:

«وَإِيْثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ:

مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لَايَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَايَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا».

«الفرائض» و «السنن» تعني عادهٔ الواجبات والمستحبات، وقيل: إنّ «الفرائض» هي الواجبات الواردهٔ في كتاب اللّه، و «السنن» هي الأحكام والواجبات الورادهٔ في السنّهٔ الشريفهٔ وكلام النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله، وفي هذه الصورهٔ تكون جملهٔ:

«مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ ..»

شاملهٔ للأمر بإطاعهٔ النّبي في بيان الأحكام الإلهيّهٔ أيضاً، فيحتمل في معنى هاتين المفردتين أنّ «الفرائض» إشارهٔ إلى الواجبات المهمّهٔ، و «السنن» إشارهٔ إلى الواجبات التي تأتي بالدرجهٔ الثانيهٔ بعدها.

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۲۹۲

ويتبيّن من عبارهٔ

«وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا ..»

أنّ طريق سعادهٔ الدنيا والآخرهٔ منحصر في هذا المسلك وأنّ الطرق الأخرى تقود الإنسان في خط الضلالهٔ والمتاههٔ، وطبعاً فهذا لا يعني نفي الإدراكات العقليّهٔ والحاق الهدايهٔ الباطنيّهٔ بها، لأنّ من جملهٔ الأمور التي ورد التأكيد عليها في كتاب اللّه اتّباع العقل، وهو ما ورد في عشرات الآيات الكريمهٔ.

وفي التوصيهٔ الثالثهٔ يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ».

التعبير بنصرهٔ اللّه تعالى بالقلب واليد واللسان، كما ذكر بعض الشرّاح، إشارهٔ إلى ما يتصل بالقلب من الاعتقادات، واليد إشارهٔ إلى جهاد الأعداء، واللسان إشارهٔ إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن البعض يعتقد أنّ القلب لا يشير فقط إلى العقائد، بل إلى حالات النفور الباطني من القبائح والرذائل والعشق لأعمال الخير أيضاً، وكذلك بالنسبهٔ لليد فليست إشارهٔ لجهاد الأعداء فقط، بل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مورد الحاجهٔ لمقدمات عمليّهٔ والتي تدخل عادهٔ في وظائف الحكومهٔ الإسلاميّهٔ، وأمّا اللسان فيشمل جميع أشكال التعليم والتربيهٔ الصحيحهٔ مضافاً إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

. عبارهٔ

«قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ ..»

إشارة إلى ما ورد فی الآیات القرآنیّة الشریفة الناظرة إلى هذا المعنى، ومن ذلک ما ورد فی الآیة ۷ من سورة محمّد: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُم».

وفی التوصیة الرابعة یقول الإمام علیه السلام:

«وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا[۵۲۱] عِنْدَ الْجَمَحَاتِ ۵۲۲]، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ».

والحقیقة أنّ هذه التوصیات والدساتیر الأخلاقیّة الأربع تمثّل برنامجاً کاملًا

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۹۳

لضمان سعادة جمیع الناس، فلو أنّ روح التقوى وحالة الورع تعمقت وتجذرت فی النفس، وتحرک الإنسان بعدها فی خط إطاعة الأوامر الإلهیّة واتّباع التعالیم الواردة فی الکتاب والسنّة وتصدى لمواجهة المفاسد الاجتماعیّة والقبائح الأخلاقیّة ومؤامرات الأعداء بالقلب والید واللسان وکسر صنم الأهواء النفسانیّة، فمثل هذا الإنسان هو الإنسان الکامل وهو المخاطب بقول تعالى: «یا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ»[۵۲۳].

وجملة

«فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ..»

اقتباس من قوله تعالى: «وَما أُبَرِّئُ نَفْسِی إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّی»[۵۲۴]. (سواءً کانت هذه الجملة واردة على لسان یوسف علیه السلام أم على لسان زوجة عزیز مصر، وعلى أیة حال فإنّ القرآن قد أمضى هذه المقولة).

ورغم أنّ الکثیر من المتقین یخشون من وساوس الشیطان، ولکن هوى النفس والوساوس الشهوانیّة والنوازع النفسانیّة أخطر من ذلک بکثیر، ولعل هذا هو السبب فی أنّ الإمام علیه السلام یلفت نظر مالک الأشتر إلى هذه المسألة أکثر.

وصحیح أنّ المؤمنین المخلصین والأولیاء الإلهیین قد تجاوزوا مرحلة النفس الأمارة إلى النفس اللوامة ومنها إلى النفس المطمئنة، ولکنّ هذا لا یعنی أنّ نفوسهم الأمارة قد ماتت ولا حاجة إلى الحذر من أخطارها ودسائسها.

تأمّل

أخطار النفس الأمارة

من المعلوم أنّ کبار العلماء والمفسّرین، وبالاستلهام من آیات القرآن الکریم، قالوا بوجود مراحل ثلاث للنفس الإنسانیّة فی حرکتها المعنویّة فی خط التکامل:

النفس الأمارة، النفس اللوامة، النفس المطمئنة.

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۹۴

أمّا النفس الأمارة فإشارة إلى الأهواء والشهوات المتمردة التی تأمر الإنسان دوماً بسلوک طریق الرذیلة وإرتکاب المنکرات، والنفس اللوامة إشارة إلى حالة الندم الحاصل بسبب إرتکاب الإثم والمعصیة، وتنمو وتشتد هذه النفس من خلال تقویة روح التقوى فی الإنسان، أمّا النفس المطمئنة فهی المرحلة العالیة من تکامل الروح الإنسانیّة بحیث تصل إلى مرتبة تخضع لها جمیع الأهواء والنوازع النفسانیّة بشکل کامل من خلال آلیات الضبط العقلی والإیمانی.

ویرسم الإمام زین العابدین علی بن الحسین علیه السلام فی المناجاة الثانیة من المناجاة الخمسة عشر المعروفة، النفس الأمارة بکل وضوح ویشکو إلى اللّه تعالى منها بهذه الکلمات (بوصفه قدوة لعموم الناس) ویقول:

«إلَهِی إلَیْکَ أَشْکو نَفْساً بِالسُّوءِ أَمّارَةً وَإِلَی الْخَطِیئَةِ مُبادِرَةً وَبِمَعاصِیکَ مُولَعَةً وَبِسَخَطِکَ مُتَعَرِّضَةً تَسْلُکَ بِی مَسالِکَ الْمَهالِکِ وَتَجْعَلُنِی عِنْدَکَ أَهْوَنَ هالِکٍ کَثِیرَةَ الْعِلَلِ طَوِیلَةَ الْأَمَلِ إنْ مَسَّهَا الشَّرُّ تَجْزَعُ وَإِنْ مَسَّهَا الْخَیْرُ تَمْنَعُ مَیّالَةً إلَی اللَّعْبِ وَاللَّهْوِ مَمْلُوَّةً بِالْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ تُسْرِعُ بِی إلَی الْحَوْبَةِ وَتُسَوِّفُنِی بِالتَّوْبَةِ».

أجل فهذه معالم وخصائص النفس الأمارة على نحو الدقّة، ويستفاد من الروايات الشريفة أنّ النفس الأمارة تزيّن للإنسان الذنوب وتقبح له الخيرات والطاعات، وعندما يرتكب الإنسان تلك القبائح والذنوب وتتجلى أمامه عواقب تلك الذنوب، تنكشف عن عينه ستائر الغفلة، وأحياناً يوصد من خلفه باب العودة والإنابة فلا سبيل له للتوبة من الرذائل والمنكرات.

يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام (كما ورد فی غرر الحكم) فی كلام موجز أنّ:

«النَّفْسُ الأَمّارَةُ الْمُسَوِّلَةُ تَتَمَلَّقُ تَمَلُّقَ الْمُنافِقِ وَتَتَصَنَّعُ بِشَیْمَةِ الصِّدیقِ الْمُوافِقِ حَتَّی إذا خَدَعَتْ وَتَمَكَّنَتْ تَسَلَّطَتْ تَسَلُّطَ الْعَدوِّ وَتَحَكَّمَتْ تَحَكُّمَ الْعُتُوِّ فَأَوْرَدَتْ مَوارِدَ السَّوْءِ»[۵۲۵].

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۹۵

ومن هنا أوصى الأولياء وعلماء الأخلاق أن يراقب الإنسان هذه النفس مراقبة دقيقة لئلا يتورط فی شراكها وينخدع بخداعها، ويقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فی كلام آخر (طبقاً لما ورد فی غرر الحكم):

«إنَّ هذِه النَّفْسِ لَأَمّارَةٌ بِالسُّوءِ فَمَنْ أهْمَلَها جَمَحَتْ بِهِ إلَی الْمَآثِمِ»[۵۲۶].

فالنفس الأمارة تعتبر فی الحقيقة أهم وسائل الشيطان وأدواته فی إغواء الإنسان، فلو أنّ الإنسان تخلص من شراكها ومصائدها فإنّه يتخلص كذلك من شرّ الشيطان وتسويلاته.

أهميّة بلاد مصر

تعتبر مصر أحد أقدم مراكز الحضارة البشرية وأقدم مهد للتمدن فی التاريخ البشری، وهناك آثار تاريخيّة مهمّة فی بلاد مصر احتار العلماء فی كيفية تشييدها وبنائها حتى مع الأخذ بنظر الاعتبار الوسائل والأجهزة الحديثة، وكأنّ مقولة أنّ هذه الأرض كانت من قديم الأيّام من أكثر البلدان تطوراً وإزدهاراً فی العالم حقيقة لا غبار عليها.

والمدارك والأسناد التاريخيّة تشير إلى أنّ مصر كانت ذات حضارة مزدهرة منذ عشرة قرون قبل ميلاد المسيح، فكانت تحتوی على مدارس كبيرة ومكتبات ومراكز للتحقيق العلمی، وقد إقترنت الحضارة المصرية باليونانيّة من قديم الأزمان وكانت العلوم والمعارف متبادلة بينهما.

ومن النعم الإلهيّة الكبيرة على هذا البلد التاريخی، نهر النيل العظيم الذی يسقى أراضی مصر الواسعة، ولولا هذا النهر العظيم فإنّ قسماً عظيماً من أراضی هذا البلد ستتعرض للجفاف والتصحر، وتغدوا صحراء قاحلة لا زرع فيها.

وفی السنة العشرين من الهجرة وفی زمن الخليفة الثانی استولى المسلمون على

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۲۹۶

هذا البلد، ومن عجائب التاريخ أن عمر بن الخطاب منع من دخول جيش الإسلام إلى مصر، ولكن عمرو بن العاص جهز جيشاً وتحرك بنفسه إلى مصر فوصل الخبر إلى عمر بن الخطاب، وقد كان يخشى أنّ جيش الإسلام إذا دخل مصر فسوف يتحد الرومان والمصريون ويهزموا الجيش الإسلامی، ولذلك كتب كتاباً إلى عمرو بن العاص وأرسله بيد عقبة بن عامر، وعندما وصل عقبة بن عامر إلى عمرو بن العاص وهو على مقربة من مصر، لم يسمح عمرو بن العاص لعقبة باللقاء به ولم يستلم الكتاب منه إلى أن دخل إحدى المدن الساحلية فی مصر، ثمّ التفت إلى عقبة وقال:

هات الكتاب، فدفع إليه الكتاب، وكان عمر بن الخطاب قد كتب فيه أنّك إذا لم تدخل مصر فعليك بالعودة فوراً، فقال عمرو بن

العاص لجنوده: هل أنّ هـذا المكان هو مصـر أو خارج مصـر فقالوا: لقـد دخلنا مصـر، فقال: إنّ الخليفة قد أمر أننا إذا لم ندخل مصـر فعلينـا بـالعودة، ولكننـا الآن فى مصـر ويجب علينـا المضـى والتقـدم، ولكن عمرو بن العـاص واجه مشـكلة فى فتـح مصـر وخاف من الهزيمـة، فكتب إلى عمر بن الخطاب وطلب منه إرسال التعزيزات والمعونات، فجهّز الخليفـة الثانى جيشاً من اثنى عشـر ألف نفر وأمّر عليهم عدد من رجال الإسلام الشجعان وأرسله لنصرته، وأخيراً فتحت مصر واعتنق المصريون الإسلام بشوق بالغ، وأنتجت مصر الكثير من علماء الإسلام فى فنون العلم المختلفة وفتحت المدارس الإسلاميّة فيها واحدة بعد الأخرى وازدهر العلم فى هذا البلد.

ومن امتيازات مصـر أنّ محبّى أهل البيت عليهم السـلام وعشّاق المذهب العلوى كثيرون فيها، وحتى أنّ أهل السنّة فى مصـر يعشـقون أهـل الـبيت عليهم السـلام ويزورون «رأس الحسـين» و «المرقـد المنسوب للحوراء زينب» فيهـا حيث أضـحى مزاراً عاماً لسـكنة تلك الديار.

ولولا تدخل السياسة، لأمكن القول إنّ مصر بإمكانها أن تكون وسيلة جيدة لإيجاد الوحدة والاتحاد بين المذاهب الإسلاميّة، والشاهد على هذا المدعى الفتوى

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۹۷

المعروفة التى أصدرها «الشيخ شلتوت» عن اتّباع فقه الإماميّة وأنّ هذا الفقه يقع فى عرض مذاهب أهل السنّة الأربعة ويجوز العمل به.

وعلى أيّة حال فبسبب أهميّة هذا البلد الإسـلامى، اختار الإمام أميرالمؤمنين عليه السـلام أقوى شخصيّة من أنصاره وأصحابه وأعرفهم وأشـجعهم، وهـو مالـک الأـشتر، لإـدارة أمـور هـذا البلـد وكتـب إليه العهـد المعروف وهـو مـورد البحث الـذى يشـمل أدقّ التعـاليم والتوصيات فى مسألة إدارة الحكومة والولاية وسلّمه إليه.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۲۹۹

القسم الثانى

اشارة

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِـکُ أَنِّى قَـدْ وَجَّهْتُکَ إِلَى بِلَادٍ قَـدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَکَ، مِنْ عَـدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِکَ فِى مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَـاةِ قَبْلَـکَ، وَيَقُولُونَ فِيـکَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَـدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُـنِ عِبَادِهِ، فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الـذَّخَائِرِ إِلَيْکَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِـحِ، فَامْلِکْ هَوَاکَ، وَشُـحَّ بِنَفْسِکَ عَمَّا لَايَحِلُّ لَکَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ. وَأَشْعِرْ قَلْبَکَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَکَ فِى الـدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَکَ فِى الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِى الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِکَ وَصَـفْحِکَ مِثْلِ الَّذِى تُحِبُّ وَتَرْضَـى أَنْ يُعْطِيَکَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَـفْحِهِ، فَإِنَّکَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِى الْأَمْرِ عَلَيْکَ فَوْقَکَ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاکَ! وَقَدِ اسْتَكْفَاکَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلَاکَ بِهِمْ.

الشرح والتفسير: احترام حقوق جميع المواطنين!

يتابع الإمام عليه السلام توصياته العميقة والشاملة التى ورد بعضها فى القسم الأوّل من العهد، ويخاطب الإمام عليه السلام مالک الأشتر مشيراً إلى عدّة نقاط خاصّة، بداية يقول:

«ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّى قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِى مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۰۰

قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ».

ثمّ يضيف عليه السلام:

«وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ».

فى هذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام يشير الإمام من باب المقدّمة إلى وضع مصر (وقطعاً لا ينحصر بمصر) وأنّه قد كانت قبلك حكومات عادلة وجائرة، الحكومة العادلة من قبيل حكومة مصر فى عصر النّبى يوسف عليه السلام، وأمّا حكومة الجور فتتمثّل فى الكثير من الفراعنة منهم فرعون المعاصر للنّبى موسى بن عمران عليه السلام.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى هذا الموضوع المهم، وهو أنّ معيار تقييم الحكومات من حيث العدل والجور يرتبط بأفكار عامّة الناس وتصوّرهم عن حكومتهم، وهذا هو المتداول فى هذا العصر من أنّ رأى الشعب هو الميزان، رغم أنّ الغالب فى مقام العمل لا يؤخذ به تماماً، ولكن فى ذلك العصر وعندما تحدّث الإمام عليه السلام بهذا الكلام، قلّما كان شخص يعتقد بهذه العقيدة وكان الناس يتصورون أنّ الحكومة لا يمكن أن تتحقق وتدوم إلّاباّليات الاستبداد، والاستبداد بدوره مقترن بالظلم والجور.

وقد جاء فى كلمات العلماء:

«ألْسِنَةُ الْخَلْقِ أقْلامُ الْحَقِّ»

أو

«ألْسِنَةُ الرَّعِيَةِ أقْلامُ الْحَقِّ إلَى الْمُلُوكِ»

وهما بمعنى واحد، وهو أنّ كلام جمهور الناس يعتبر قلم الحقّ تعالى الذى يكتب توصياته ورسائله إلى الملوك والقادة، أو أنّ اللَّه تعالى بهذه الوسيلة يخاطبهم ويكاتبهم، وعلى أيّة حال فالغاية من ذلك أنّ الحكم الصادر من عامة الناس ومن الوعى الجمعى للُامّة هو المعيار الجيد لمعرفة قيمة الحكومات وصلاحيتها ومصداقيتها.

وطبعاً أحياناً تقوم الحكومات من خلال التبليغ الكاذب والتظاهر والرياء بتحريف وتشويش أفكار الناس، أو تقوم بعمليّة غسيل الأدمغة، ففى مثل هذه الموارد يكون الرأى العام مريض ويفقد أثره المطلوب فى القضاوة.

ومهما يكن من أمر فمن الجدير بقادة المسلمين الحاليين أن يكتبوا عبارة:

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۰۱

«وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ»

، بماء الذهب ويضعونها نصب أعينهم ويقرأونها كلّ يوم ويحفظونها فى قلوبهم، ومن أجل تحقيق هذا المضمون يجب عليهم إبعاد المتملقين والانتهازيين من حولهم ولاـ يكتفون بشهادة أنصارهم وأصحابهم فقط، بل يعرفون صلاحيتهم ومصداقيتهم من خلال الإتصال المباشر مع الناس عامّة.

وجاء فى كتب التاريخ أنّ بعض القادة القدماء كان راغباً فى إقامة العدالة فى حكمه فأحياناً كان يلبس ملابس أخرى ويخرج متنكراً ويطوف فى المناطق المختلفة فى المدينة وخاصّة فى المناطق المحرومة، ويدرس الأمور والأوضاع عن كثب بدون استخدام الوسطاء.

ثمّ يصدر الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من عهده ست توصيات مهمّة لمالك الأشتر ويقول:

«فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ».

ويقول القرآن الكريم: «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً»[۵۲۷].

وفى آية أخرى يقول: «الَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»[۵۲۸].

وفى تفسير آخر أنّ العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ويعمل على ترسيخ العقائد السليمة فى واقع الإنسان وقلبه.

ونقرأ فى سورة العصر: «إِنَّ الْإِنْسانَ لَفى خُسْرٍ* إِلَّا الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ»[۵۲۹].

وفى التوصية الثانية والثالثة يقول الإمام عليه السلام

«فَامْلِكْ هَوَاکَ، وَشُحَ ۵۳۰] بِنَفْسِکَ عَمَّا لَا

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۰۲

يَحِلُّ لَکَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ».

إنّ ضبط الأهواء النفسانيّة وكبح جماحها، والذى يؤكّد عليه الإمام عليه السلام، هو أن يستطيع الإنسان عند فوران الشهوة وثورة الغريزة أن يضبطها ويجعلها تحت إرادته، وبعكس ذلک إذا سيطر هوى النفس على فكر الإنسان وعقله وقواه وملكاته الأخرى فإنّه سيقود صاحبه إلى وادى الهلكة والخسران.

ونقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«احْذَرُوا أَهْوَاءَكُمْ كَمَا تَحْذَرُونَ أَعْدَاءَكُمْ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْدَى لِلرِّجَالِ مِنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَحَصَائِدِ أَلْسِنَتِهِمْ»[۵۳۱].

وجاء فى حديث آخر فى «غرر الحكم» عن الإمام أميرالمؤمنين على عليه السلام:

«أمْلِكُوا أنْفُسَكُمْ بِدَوام جِهادِها»[۵۳۲].

فالشح بالنفس فى مقابل المحرمات لا يعنى سوى أن يتصرف الإنسان كالبخيل الذى لا يجد فى نفسه رغبة فى إنفاق الدرهم والدينار من أمواله على الآخرين، فمثل هذا الإنسان يقف فى مقابل المحرمات كالبخيل فلا يعطى من نفسه شيئاً يؤدّى به إلى خسرانه دينه وإيمانه ويبعده عن طريق الإنصاف والصلاح، سواءً فى الأمور التى يجد فى نفسه ميلًا إليها أم فى الأمور التى لا يشتهيها.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام فى التوصية الرابعة إلى مسألة مهمّة جدّاً تعكس عظمة القوانين الإسلاميّة ويطرح أمراً لم يكن له وجود فى ذلک العصر فى المجتمعات البشرية، ويقول:

«وَأَشْعِرْ قَلْبَکَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ».

ومعلوم أنّ «أشعر» من مادة «شعار» وشعار فى الأصل يطلق على الملابس التحتانيّة للإنسان والتى تلتصق مباشرة ببدنه، واختيار الإمام عليه السلام لهذا التعبير يشير إلى أنّ قلبک يجب أن يلتصق بالرحمة والمحبّة واللطف بالنسبة للرعية.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۰۳

ولعلّ الفرق بين الرحمة والمحبّة واللطف، أنّ الرحمة تمثّل المرتبة الاولى من الصداقة وحسن الخلق، والمحبّة فى مرتبة أعلى منها، واللطف يمثّل آخر مرتبة من التعاطف مع الآخرين، وربّما يكون التفاوت فى هذه المراتب بالنسبة لمواقع أفراد المجتمع والرعيّة، فبعضهم يستحق الرحمة، والبعض الآخر فمن هو أنفع للناس فإنّه جدير بالمحبّة، والأشخاص الذين يخدمون الناس ويسعون فى إيصال الخير أكثر فإنّهم جديرون باللطف.

وقد ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«لَا تَصْلُحُ الْإِمَامَةُ إِلَّا لِرَجُلٍ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ وَحُسْنُ الْوِلَايَةِ عَلَى مَنْ يَلِى حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ كَالْوَالِدِ الرَّحِيمِ»[۵۳۳].

ويتحدّث الإمام عليه السلام فى التوصية السادسة من موقع التأكيد على ما مرّ فى التوصية الرابعة ويقول:

«وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً[۵۳۴] تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ:

إِمَّا أَخٌ لَکَ فِى الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَکَ فِى الْخَلْقِ».

ولا شک ولا ريب فى أنّ أركان الحكومة الصحيحة والمقتدرة والعادلة هى التى تمتد سيطرتها على قلوب الناس وعواطفهم لا على

أساس القوّة والسیف، فالولاة الذین یحكمون علی قلوب الناس ویملكون عواطفهم فإنّ المجتمع یعیش الأمن والأمان، أمّا من كان یحكم بآلیات القوّة والقهر فإنّهم یعیشون هاجس الخطر دائماً.

ومن أجل تشویق مالك الأشتر علی أمر الحكومة علی القلوب والعواطف یأمر الإمام علیه السلام بالتعامل مع الرعیّة بلغة الرحمة والمحبّة واللطف، ثمّ یبیّن الإمام علیه السلام النقطة المقابلة لذلك، وهی الحكومة التی تقوم علی أساس البطش والقوّة ویكون الحاكم فیها كالحیوان المفترس یأكل حقوق الرعیّة ویحسبها غنیمة له، ثمّ یختار الإمام

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۰۴

أفضل دلیل علی هذه التوصیات، وهو أنّ الرعیّة فی الحكومة الإسلامیّة لیس خارجة عن اثنین: فالغالبیة مسلمون، ونعلم أنّ الإسلام یقرر أنّ المسلم أخو المسلم، أو أقلّیة من غیر المسلمین الذین یعیشون مع المسلمین حیاة سلمیة، وهم بشر ویتصفون بالإنسانیّة، والإنسان یجب أن یتعامل مع الإنسان الآخر بآلیة المحبّة والمودّة.

وهذا الكلام فی الحقیقة یشطب بخط البطلان علی التبلیغات المسمومة للأعداء الذین یقولون: إنّ المسلمین لا یعترفون بحق الحیاة لغیر المسلمین ویعتقدون أنّ جمیع الأفراد من غیر المسلمین یجب أن یقتلوا أو یسلموا كرهاً، أجل فإنّ كلام الإمام علیه السلام المذكور أعلاه یقرر أنّ جمیع أفراد البشر وأتباع الأدیان والمذاهب الأخری بإمكانهم أن یعیشوا مع المسلمین حیاة سلمیة وطیبة ویتمتعون فی داخل البلاد الإسلامیّة فی ظلّ قوانین الإسلام بكافة حقوقهم وتكون نفوسهم وأموالهم وأعراضهم وحیثیاتهم محفوظة، خلافاً لما نراه فی عالمنا المعاصر، فحتی الاختلاف فی لون الجلد فی بعض الدول التی تدعی التقدم والحضارة كأمریكا یكون سبباً للتمییز العنصری، وخلافاً لما یتبجحون به فی إعلاناتهم السیاسیّة فإنّ البیض هناك یكرهون السود غالباً، والمراكز الاجتماعیّة للبیض منفصلة عن مراكز السود وهم غیر مستعدین للتعاون فی الكثیر من المسائل الاجتماعیّة.

ثمّ یبیّن الإمام علیه السلام حقیقة تعتبر من أهم تعالیم وتوصیات الإدارة الناجحة ویقول:

«یَفْرُطُ[۵۳۵] مِنْهُمُ الزَّلَلُ ۵۳۶]، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَیُؤْتَی عَلَی أَیْدِیهِمْ فِی الْعَمْدِ وَالْخَطَإ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِی تُحِبُّ وَتَرْضَی أَنْ یُعْطِیَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ».

وبدیهی أنّ كلّ إنسان غیر معصوم من الخطأ والزلل (سوی المعصومین علیهم السلام) وأنّ

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۰۵

الكبیر والصغیر، والعالم والجاهل كلّ واحد منهم یبتلی بما یتناسب مع حاله بالأخطاء، ولا أحد بإمكانه أن یدعی أنّه بریء من الخطأ والزیغ، بل ورد فی حالات بعض الأنبیاء الإلهیین أنّهم كانوا یرتكبوا أحیاناً ترك الأولی، ورغم أنّه لیس بذنب ومعصیة، ولكنّه غیر لائق بمقامهم.

وهكذا أحیاناً یفقد الإنسان حالته العادیة بسبب بعض الآلام والمتاعب الجسمیّة والروحیّة، وفقدان الأعزّة، الفشل فی العمل وأمثال ذلك، ففی مثل هذه الحالة یسلك عادة فی دروب الزیغ والخطأ.

وبما أنّ الإمام علیه السلام یرید لمالك الأشتر الولایة والحكومة علی جمهور كبیر من الناس، یعنی أهالی مصر، فإنّه یأمره بالعفو عن الزلل والخطأ (فی الموارد المیسورة والممكنة)، ومن أجل إثارة الباعث فی نفسه علی هذا العمل وتقویته فی نفسه یذكره الإمام بأخطائه وزلاته فی مقابل الباری تعالی، ویقول: ألا ترغب فی أن یعطیك اللّه من عفوه وصفحه ویتجاوز عن أخطائك وسیئاتك؟ إذن فعلیك بالعفو والصفح عن خطایا الرعیّة ولا تشدد علیهم، وطبعاً هذا فی الموارد التی لا یكون فیها العفو والصفح موجباً للاخلال فی النظم وتضیع حقوق المظلومین.

ونقرأ فی تاریخ صدر الإسلام عندما شاعت قضیة الإفك بین المسلمین بواسطة المنافقین واتّهم جماعة منهم زوجة النّبی الأكرم صلی الله علیه و آله بالانحراف عن جادة الشرف والعفّة، فإنّ جماعة من المؤمنین، سلكوا، عمداً أو سهواً، فی مسیر إشاعة هذه التهمة،

فنزلت الآيات القرآنيّة ونهت بشدّة عن هذا السلوك الشائن، بحيث إنّ بعض المسلمين عزموا على قطع رابطتهم مع هؤلاء الأشخاص من مثيرى الفتنة ومروجى الإشاعة، ويحرمونهم من معوناتهم المادية، فنزلت الآية الشريفة: «وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَى وَالْمَساكينَ وَالْمُهاجِرينَ فِى سَبيلِ اللّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحيمٌ»[۵۳۷].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۰۶

والفرق بين العفو الصفح، أنّ العفو يعنى صرف النظر عن العقاب على الخطأ والزلل، وأمّا الصفح فى مثل هذه الموارد فهو إزالة العقوبة على الخطأ من ذهنه ووضعها فى زاوية النسيان.

وجملة:

«يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ ..»

لا- تعنى أنّه يجب على الوالى أن يأخذ بيد المخطئين ويهديهم سواء السبيل كما ذكر ذلك بعض الشرّاح، بل بمعنى أنّ الأعمال الخاطئة تجرى على أيديهم.

ثمّ يتحرك الإمام على مستوى التوضيح والتأكيد أكثر ويقول:

«فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِى الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ! وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ».

فالإمام عليه السلام فى هذه العبارة يؤكّد على هذه الحقيقة، وهى أنّ كلّ شخص يحكم على جماعة فهو بدوره يقع تحت حكومة شخص آخر، فإذا كنت حاكماً على مصر، فعليك بالانتباه بأننى حاكم عليك ومراقب لأعمالك، فإذا كنت حاكماً عليك فينبغى أن أنتبه إلى أنّ اللّه تعالى حاكم علينا، ومعلوم أنّ الالتفات إلى هذا الأمر يؤدّى بالإنسان أن يتعامل مع الناس بآليات العفو والصفح والمحبّة ما أمكنه ذلك لكى يتوقع بالتالى عفو الحاكم عنه وأعلى من ذلك يتوقع العفو الإلهى عنه.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۰۷

القسم الثالث

اشارة

وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ، لِحَرْبِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَايَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً، وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّى مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِى الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ. وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِىءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ! إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ فِى عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِى جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

الشرح والتفسير: لا تكن مغروراً أبداً!

يواصل الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من كتابه لمالك الأشتر ويوصيه بسبع توصيات مهمّة أخرى.

بداية يقول::

«وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ، لِحَرْبِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَايَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ».

المراد من الحرب مع اللَّه، كما ذكر الكثير من شرّاح نهج البلاغة، هو الظلم والجور على عباد اللَّه وتضييع حقوقهم ولا- يشمل كلّ معصية وإثم، وصحيح أنّ جميع الذنوب قبيحة وذميمة، ولكن التعبير بالحرب مع اللَّه يعنى أكبر من ذلك.

والشاهد لهذا المعنى ما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام عن

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۰۸

رسول اللَّه صلى الله عليه و آله

: «لَقَدْ أَسْرَى رَبِّى بِى فَأَوْحى إِلَيَّ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ مَا أَوْحَى وَشَافَهَنِى إِلَى أَنْ قَالَ ۵۳۸] لِي يَا مُحَمَّدُ مَنْ أَذَلَّ لِي وَلِيّاً فَقَدْ أَرْصَدَنِى بِالْمُحَارَبَةِ وَمَنْ

حَارَبَنِى حَارَبْتُهُ»[۵۳۹].

ويستدل الإمام عليه السلام لعدم الحرب مع اللَّه بأمرين: أحدهما، الحاجة إلى عفوه ورحمته، والآخر، اجتناب عقوبته وعذابه.

وفى التوصية الثانية والثالثة يقول عليه السلام:

«وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَ ۵۴۰]

بِعُقُوبَةٍ».

وهذا الكلام إشارة إلى أنّك يجب أن تلتزم جانب العفو ما أمكنك ذلك وقلل من موارد العقوبة، لأنّ أثر العقوبة إذا كان نافعاً لمدّة قصيرة فإنّ أثر العفو يمتد لمدّة طويلة.

وطبعاً فإنّ هذا الحكم يصدق على غالبية الناس، ولكن لدى بعض الناس- وهم أقليّة تكون نتيجة العفو والصفح عكسية ويتحمل الجناة ذلك على محمل الضعف والخوف من قِبل الوالى، فلابدّ من استخدام الشدّة والقوّة مع هؤلاء.

وفى التوصية الرابعة يقول عليه السلام:

«وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ[۵۴۱] وَجَدْتَ مِنْهَا

مَنْدُوحَةً[۵۴۲]».

ومعلوم أنّ الإنسان عندما يملكه الغضب فإنّه يفقد إعتداله الفكرى، وقد جرّبنا مراراً بأنّ كلّ قرار نتخذه فى ذلك الوقت سيثبت خطأه بعد ذلك، وحتى أعقل الناس

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۰۹

ربّما يتحول فى صورة الغضب والحدّة إلى أجهل الناس، والمعروف بين العامّة من الناس أنّهم يقولون: عندما أغضب فإنّ الدم يغطى على عينى ويحول بينى وبين رؤية الأشياء فأرتكب العمل الفلانى، وهذا فى الحقيقة إشارة إلى هذه الحالة.

ولذلك ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«الغَضَبُ يُرْدِى صاحِبَهُ وَيُبدِى مَعايِبَهُ»[۵۴۳].

وجاء فى حديث آخر عنه عليه السلام أيضاً:

«بِئْسَ الْقَرِينُ الْغَضَبُ يُبْدِى الْمَعَائِبَ وَيُدْنِى الشَّرَّ وَيُبَاعِدُ الْخَيْرَ»[۵۴۴].

وهذه الحقيقة تتضح أكثر عندما يأتى بعض الأشخاص من طرف واحد ويتحدّثون للوالى بكلام معين، فلو عزم على أمر فى هذا الحال فسوف يندم، فيجب التريث قليلًا وسماع حجّة الطرف المقابل، فربّما يختلف الحال بعد هذا التحقيق.

ومن هذا المنطلق ينبغى العمل وفقاً للمثل المعروف: «عند الغضب لا عقوبة ولا أمر ولا تصميم».

فى التوصية الخامسة ينهاه الإمام عليه السلام بشدّة عن حالة الغرور والفخر ويقول:

«وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّى مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ ۵۴۵] فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ[۵۴۶] لِلدِّينِ وَتَقَرُّبٌ

مِنَ الْغِيَرِ[۵۴۷]».

ولا شك أنّ أحد الآفات الخطيرة لمسألة الحكومة والولاية، الغرور والكبر والاستبداد، وكما قال الإمام عليه السلام أنّ ذلك ترتب عليه ثلاثة أمور خطيرة، الأوّل: أن

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۱۰

يفسد فكر الإنسان وتنقلب لديه الحقائق ويتخذ قرارات عجولة وغير عادلة ومجانبة للصواب، والآخر، أنّ الإنسان يتورط بأنواع المعاصى والذنوب والظلم ممّا يوهن إيمانه ودينه، والثالث، أنّ هذه الحالة تتسبب فى إيجاد متغيرات كثيرة فيما يتصل بعلاقة الحكومة مع الناس والكثير من الإنتفاضات والثورات على إمتداد التاريخ البشرى تنبع من هذه القضية.

وبخلاف ذلك إذا كان الوالى متواضعاً وأخرج من ذهنه ريح الغرور والتكبر، فسوف يعتدل فكره ويتصرف بحكمة وكذلك لا يلوث نفسه بالذنوب ولا- يضعف إيمانه، ومن جهة أخرى يحفظ علاقته الحميمة مع الناس، وهذه العلاقة هى الأصل والأساس للحكومة الصالحة حيث تمنح الحكومة القدرة والهيمنة.

ويقول الإمام عليه السلام فى كلماته القصار فى «غررالحكم» عبارة مثيرة فى مصير المغرورين وعاقبتهم الوخيمة:

«طُوبى لِمَنْ لَمْ تَقْتُلْهُ قاتِلاتُ الْغُرُورِ»[۵۴۸].

وفى مورد آخر يقول:

«سُكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ أبْعَدُ إفاقَةً مِنْ سُكْرِ الْخُمُورِ»[۵۴۹].

أجل، فإنّ سكر الشراب ربّما يزول بعد يوم أو ليلة، ولكن سكر الغرور ربّما يستمر إلى خمسين عاماً.

ويشير الإمام عليه السلام فى آخر الخطبة التالية من نهج البلاغة إلى جماعة من المنافقين والانتهازيين الذين تمردوا عليه ويقول:

«زَرَعُوا الْفُجُورَ وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ وَحَصَدُوا الثُّبورَ».

وبما أنّ عمل الأطباء الواعين لا يقتصر على تشخيص وعلاج الألم والمرض، بل يمتد إلى إراءة طرق العلاج أيضاً، ويعدّ ذلك من الأركان الأصليّة لبرنامجهم الطبى، والإمام عليه السلام وهو الطبيب الإلهى، فى هذه الرسالة بعد أن يذكر آفات الغرور، يشير إلى طريق علاجها ويقول:

«وَإِذَا أَحْدَثَ لَکَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِکَ أُبَّهَةً[۵۵۰] أَوْ

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۱۱

مَخِيلَةً[۵۵۱]، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْکِ اللَّهِ فَوْقَکَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْکَ عَلَى مَا لَاتَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِکَ، فَإِنَّ ذَلِکَ يُطَامِنُ ۵۵۲] إِلَيْکَ مِنْ طِمَاحِکَ ۵۵۳] وَيَکُفُّ عَنْکَ مِنْ غَرْبِکَ ۵۵۴] وَيَفِيءُ إِلَيْکَ بِمَا عَزَبَ ۵۵۵] عَنْکَ مِنْ عَقْلِکَ».

فالإمام عليه السلام فى هذه العبارات البليغة والعميقة المعنى، يقرر أنّ النظر إلى عظمة ملك اللّه تعالى وقدرته الواسعة من شأنه أن يخلف ثلاثة آثار إيجابية للمغترين بقدرتهم:

الأوّل: أنّه ينزلهم عن مركب الغرور.

والآخر: يخفف من شدّة عملهم.

والثالث: يعيد إليهم عقلهم الذى أسدل عليه الغرور ستار الغفلة.

أجل، فإنّ أقوى الأفراد يجد نفسه فى مقابل الحوادث والمظاهر الطبيعية التى تحدث بأمر اللّه كالريشة فى مهب الريح، وقد سمعنا كثيراً أنّ السلاطين المستبدين قد أخذهم الأجل بين عشية وضحاها بسكتة قلبية مختصرة، ونعلم أنّ هذه العارضة تنشأ من إنسداد بعض الشعيرات فى القلب ويترتب عليه جلطة دموية، أو يموت بسبب السرطان، وهو ليس سوى طغيان خلية من خلايا البدن الضعيفة

أو بواسطة المكروب أو فيروس الـذى لا ـ يرى بالعين المجردة، وأحياناً تحـدث زلزلـة وتهـدم جميع قصورهم، أو يهب اعصار ليحطم جميع مـا لـديهم، أو يأتى سـيل عظيم ويأخـذ معه كلّ ما لـديهم، وهكـذا، هـذه كلّها إشارات صـغيرة على قـدرة اللَّه المطلقـة، فلو أنّ الإنسان تفكر فى هذه الأمور، فإنّه سيكون متواضعاً وبعيداً عن حالات الغرور فى

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۱۲

أى مقام ومنصب كان.

إنّ التاريخ لا يذكر حكومة وسلطة أعلى من سـلطة النّبى سليمان عليه السلام، فالقرآن يتحدّث عن سليمان عندما حان أجله فلم يمهله الموت حتى يجلس على الأرض بـل أخـذ روحه وهو واقف متكىء على عصـاه وودع جميع مـا لـديه من إمكانـات عظيمـة فى لحظة واحدة ولم يعلم بموته أحد من الناس إلّابعد أن أكلت الإرضة عصاه فاختلّ تعادله وسقط على الأرض.

ثمّ إنّ الإمام عليه السـلام، وفى التوصية السابعة، يتحدّث من موقع التأكيد على الأمور المذكورة آنفاً لغرض إزاحة حالة الغرور والتكبر عن الولاة والامراء من خلال التهديد بالعقوبة الإلهيّة ويقول:

«إِيَّاکَ وَمُسَامَاةَ[۵۵۶] اللَّهِ فِى عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِى

جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ ۵۵۷]».

وفى الحقيقـة فـإنّ الأشـخاص الـذين ملكهم الغرور والتكبر يـدّعون عملًا أنّهم فى سـياق واحـد مع اللَّه تعالى، فى حين أنّهم لا يمثّلون سوى ذرات تافهـة فى مقابل بحر العظمـة الإلهيّـة، والعقوبـة المترتبـة على مثل هـذا الغرور والشـموخ العبثى هو أنّ اللَّه تعالى سـيذلهم ويهينهم، وإذا التفت المتكبرون والمغرورون إلى نهاية عملهم فسوف ينزلون من مركب الغرور والكبر.

وقد وردت أحاديث شريفة فى هذا المجال عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وسائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

فنقرأ فى حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال عندما سئل عن:

«أَدْنَى الْإِلْحَادِ»

. فقال عليه السلام:

«إِنَّ الْكِبْرَ أَدْنَاهُ»[۵۵۸].

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً:

«الْكِبْرُ رِدَاءُ اللَّهِ فَمَنْ نَازَعَ اللَّهَ شَيْئاً مِنْ ذَلِکَ أَكَبَّهُ اللَّهُ فِى النَّارِ»[۵۵۹].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۱۳

ومعلوم أنّ جميع هذه الأمور بسبب الآثار والتداعيات السلبيّة الفرديّة والاجتماعيّة التى تسـتولى على الشـخص المغرور والمتكبر، وقد ورد روايات متعددة أنّ الكبر يتسبب فى تجاهل الإنسان للحق ويواجه أهل الحقّ من موقع التوبيخ والذم ويسحق حقوق الناس ۵۶۰].

ونختم هذا الكلام بحديث شريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«الْكِبْرُ أَنْ تَتْرُکَ الْحَقَّ وَتَتَجَاوَزَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَتَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ وَلَا تَرَى أَنَّ أَحَداً عِرْضُهُ كَعِرْضِکَ وَلَا دَمُهُ كَدَمِکَ»[۵۶۱].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۱۵

القسم الرابع

اشارة

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِکَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِکَ، وَمَنْ لَکَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِکَ، فَإِنَّکَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ

كَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

الشرح والتفسير: إحذر من لعنة المظلومين!

فی هـذا المقطع من رسالة الإمام علیه السـلام لمالک الأشتر یوصـیه الإمام علیه السـلام بعبارات بلیغة ومحکمة بإقامة العدالة ورفع کلّ أشکال التمییز:

«أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِکَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِکَ، وَمَنْ لَکَ فِیهِ هَوًی ۵۶۲] مِنْ رَعِیَّتِکَ».

ومعلوم أنّ المراد من الانصـاف بالنسـبة للّه‌تعـالی، إطاعـة أوامره ونواهیه، والإنصـاف بالنسـبة للنـاس ترک کـلّ أشـکال التمییز والمیل لبعض الأفراد دون البعض، کما هو الحال فی سـیرة غالبیة المسؤولین والقادة فی الماضـی والحاضـر، فعندما یصـلون إلی مسـند القدرة والسـلطة یمنحـون أقـاربهم وأصـدقاءهم امتیـازات خاصّـۀ دون سـائر النـاس، وهـذا التمییز یتسـبب فی أنواع من الخلـل والإربـاک فی الحکومات.

وینبغی الالتفات إلی أنّ «الانصاف» من مادة «نصف» الذی یطلق علی نصف کلّ شـیء، وبما أنّ العدالة تؤدی إلی قیام الإنسان بتقسیم حقوقه الاجتماعیّة بینه وبین

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۱۶

الآخرین بالعدالـة، فمن هـذه الجهـة یطلق علیه «انصـاف» وبعبـارة أخری أنّ الانصـاف هو أن یحبّ الإنسـان للآخرین ما یحبّ لنفسه وأقربائه وأصدقائه، ویکره للآخرین ما یکره لنفسه والأشخاص المتعلقین به.

ونقرأ فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال:

«سَیِّدُ الْأَعْمَالِ ثَلَاثَةٌ إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِکَ حَتَّی لَاتَرْضَی بِشَیْءٍ إِلَّا رَضِیتَ لَهُمْ مِثْلَهُ»[۵۶۳].

وأمّا الانصاف بالنسبة للّه‌تعالی فهو أن یقسم الإنسان المواهب الإلهیّة بشـکل عادل، فنصـفها ینفقها فی سبیل اللَّه ویبقی النصف الآخر لنفسه، وهکذا یقسم وقته وفکره وإمکاناته الأخری بهذا المنوال حتی یراعی علی الأقل الانصاف وإن لم یصل إلی حدّ الإیثار.

ومن الطبیعی أنّ هـذا العمل لیس بالهین والیسیر، لأنّ الإنسان یمیل دوماً نحو ترجیـح کفّـة نفسه وأقربائه علی کفّـة الآخرین، ومن هنا ورد فی الخبر عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال لأحد أصحابه:

«ألا اخْبُرُکَ بِأشَدِّ ما فَرَضَ اللَّهُ عَلی خَلقِهِ»

، قلت:

بلی. قال:

«إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِکَ وَمُوَاسَاتُکَ أَخَاکَ وَذِکْرُ اللَّهِ فِی کُلِّ مَوْطِن ...»[۵۶۴].

والفرق بین الانصاف والمواساة، هو أنّ الانصاف یکون فی مورد الحقوق، والمواساة تقع فی جمیع مواهب الحیاة ونعم اللَّه تعالی علی الإنسان.

ویتابع الإمام علیه السلام کلامه ویذکر دلیلًا علی قوله، وهذا الدلیل مرکب، فی الحقیقة، من صغری وکبری ونتیجة ویقول:

«فَإِنَّکَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ! وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ کَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ ۵۶۵] حُجَّتَهُ، وَکَانَ لِلَّهِ حَرْباً حَتَّی یَنْزِعَ ۵۶۶] أَوْ

یَتُوبَ».

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۱۷

ومن الواضح أنّ ترك الانصاف وممارسة أى شكل من أشكال التمييز يعتبر من الظلم الفاحش والجلى، ونعلم أنّ اللّه تعالى عادل وحكيم وعدوّ للظالمين ونصير للمظلومين، والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد على هذا المعنى، وهو أنّ اللّه تعالى إذا خاصم أى شخص فإنّه لا يقبل منه أى عذر وحجّة، والتعبير

«أَدْحَضَ حُجَّتَهُ»

إشارة إلى هذا المعنى، وربّما يملك الشخص المذنب بعض الأعذار غير الموجّهة فى ذنوب أخرى ويشمله لطف اللّه تعالى وتكون أعذاره مقبولة بغفارية البارى تعالى، ولكن بالنسبة للظلم والجور لا يقبل منه أى عذر وذريعة، والطريق الوحيد للنجاة من خصومة اللّه تعالى وعقوبته أن يرفع الإنسان يده من الظلم ويتوب من أعماله هذه ويعيد حقوق الناس إليهم ويجبر ما فات من أعماله.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام فى سياق كلامه هذا يبيّن العقوبة الشديد للظالمين وأنّها لا تشبهها أية عقوبة أخرى:

«وَلَيسَ شَىْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ ۵۶۷]، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ».

وهذا الكلام يعدّ تحذيراً شديداً للظالمين ليعلموا أنّ عقوبتهم لا تنحصر بيوم القيامة، بل سيواجهون جزاء أعمالهم فى هذا العالم أيضاً، وليس فقط فى مدّة طويلة بل فى مدّة قصيرة، أجل فإنّ ما يسرع فى تغيير النعم الإلهيّة وينزل العقوبة والعذاب الإلهى هو الإقامة والاستمرار على الظلم والإصرار على العدوان وسحق الحقوق.

ونقرأ فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«ما مِنْ أَحَدٍ يَظلِمُ بِمَظلَمَةٍ إلّا أَخَذَهُ اللّهُ بها فِى نَفْسِهِ وَمَالِهِ ...»[۵۶۸].

وجاء فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام فى غرر الحكم:

«مَنْ عَمِلَ بِالجَورِ عَجّلَ اللّهُ هُلْكَهُ»[۵۶۹].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۱۸

وكذلك ورد فى رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إنّ اللّهَ عَزّ وَجلّ أَوحى إِلى نَبِىٍّ مِنْ أَنبيائِهِ فِى مَملَكَةِ جَبّارٍ مِنَ الجَبّارينَ أَنْ ائت هَذا الجَبّار فَقُل لَهُ: إِنَّنِى لَمْ أَستَعْمِلْكَ عَلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ وَاتِّخَاذِ الْأَمْوَالِ وَإِنَّما اسْتَعْمَلْتُكَ لِتَكُفَّ عَنِّى أَصْوَاتَ الْمَظْلُومِينَ، فَإِنِّى لَمْ أَدَعْ ظُلَامَتَهُمْ وَإِنْ كَانُوا كُفَّاراً»[۵۷۰].

يقول ابن عباس، الذى اقتبس الكثير من علومه من النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله والإمام على عليه السلام: «علمت من القرآن الكريم أنّ الظلم والجور يخرب البيوت، ثمّ أشار إلى هذه الآية: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ...»[۵۷۱]»[۵۷۲].

وجاء فى حديث عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«أسرَعُ الخَير ثَواباً البِرُّ وَصِلَةُ الرَّحمِ وَأسرَعُ الشَّر عُقوبَةً البَغى وَقَطيعَةُ الرَّحمِ»[۵۷۳].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۱۹

القسم الخامس

اشارة

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِى الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِى الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِى مَؤُونَةً فِى الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِى الْبَلَاءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ. وَإِنَّمَا

عِمَادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ.

الشرح والتفسير: كن مع جمهور الناس!

يلفت الإمام عليه السلام النظر فى هذا المقطع من الرسالة إلى نقطة مهمّة ومؤثرة فى حياة الإنسان وبخاصّة المجتمعات البشرية المعاصرة وكيفية عمل الحكومات، ويقول:

«وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا[۵۷۴] فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ».

وبديهى أنّ القوانين والمقررات التى تملك هذه الخصوصيات الثلاث تكون أشمل من حيث الحقوق، وكذلك أشمل من حيث رعاية العدل، وأفضل فى كسب رضا عامّة الناس، فإنّها ستقع مورد رضا اللَّه تعالى والخلق، وعندما يكون اللَّه تعالى

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۲۰

راضياً عن حكومة معينة وخلق اللَّه راضون كذلك، فإنّ ذلك يضمن بقائها ودوامها.

وهذا الكلام يعنى أنّ المهم هو تحقيق رضا الغالبية الساحقة من الناس لا الأقليّة من أصحاب الثروة من الانتهازيين الذين يعيشون فى بلاط الحاكم أو السلطان.

ويقول الإمام عليه السلام فى سياق كلامه:

«فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ ۵۷۵] بِرِضَى الْخَاصَّةِ،

وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ».

ما ورد من الجمل القصيرة أعلاه يمثّل فى الواقع البنية التحتانيّة للحكومات الثابتة والمستقرة، فأفراد المجتمع ينقسمون عادة إلى قسمين: فئة هى الأقليّة من الأثرياء الذين يتمسكون بأطراف القادة والزعماء ويبرزون لهم مظاهر الإخلاص والتضحية بدافع التملق ويهتمون دائماً بمنافعهم الذاتية ومصالحهم الشخصيّة، وفى مقابل هناك الغالبية من الناس الذين تقع على أيديهم تحريك عجلة الحياة فى المجتمع، هؤلاء يعملون ويتعبون أنفسهم أكثر من الآخرين ويحبّون بلدهم ويتفانون فى خدمته أكثر من الطائفة الاولى، فلو أنّ الطائفة الاولى لم تكن راضية عن الوالى والحاكم وكانت الطائفة الثانية راضية ومسرورة، فلا تحدث مشكلة أو إرباك فى فضاء المجتمع، لأنّ مشاكل المجتمع تحلّ عادة بيد جمهور الناس ولا تؤثر صرخات الأقليّة فى تغيير مسار المجتمع، ولكن إذا رجّح الوالى رضا الطائفة الاولى وهم الأقليّة على حساب غضب عامّة الناس وسخطهم، فحينذاك تتعرض أركان الحكومة للاهتزاز والضعف.

وفيما لو استمر سخط العامّة فسوف ينتهى بهم الأمر إلى الثورة والانتفاضة ضد الحكومة.

إنّ سيرة نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله والإمام على عليه السلام تعدّ أفضل نموذجاً حياً لهذه المسألة، فقد تحركا دوماً فى خط مواساة المحرومين ومساعدة ودعم الطبقة المتوسطة من

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۲۱

أفراد المجتمع ولم يهتما بمخالفة الخواص الذين يرون منافعهم فى خطر.

وهذا هو الأمر الذى يطلق عليه فى هذا العصر بالديمقراطية الشعبية، أو الديمقراطية الدينيّة، ولكن ربّما يكتفى السياسيون أحياناً بالألفاظ والظاهر لا بالحقيقة والواقع، فالديمقراطية فى الحقيقة تعتبر مفهوماً قديماً ولكنّهم أظهروه للناس بقوالب جديدة من الألفاظ والكلمات.

ونرى فى هذه الأيّام نوعاً من الأساليب الشيطانيّة المشبوهة من قِبل هذه الطائفة من الخواص الذين يتحركون، وبواسطة استخدام وسائل الاتصالات الجمعية، لخداع الرأى العام وكما يقال: يقومون بغسل الأدمغة بحيث يتصور الناس أنّ مطالب الخواص هى ما

يريده عامّة الناس، ولكن مع قليل من الدقّة يمكن كشف هذا الزيف والخداع فى مقولاتهم.

وأحياناً يستخدمون اسلوباً آخر، وهو أن يفتحوا الباب على مصراعيه للملذات والأهواء والغرائز البدنيّة ويعملون على إلهاء الناس بهذه الأمور لكى لاـ يعرف الناس حقيقة ما يجرى فى المجتمع والحكومة، فلو أنّ الأشخاص العارفين بهذه الأمور والمخلصين للشعب يتحركون على مستوى تنبيه الناس وإيقاظهم من غفلتهم لئلاـ يسقطوا فى هذه المصيدة، فسوف تنفتح عيون الناس على الحقيقة ويتحركون على مستوى الثورة ضد النظام الحاكم ويلقوا بهؤلاء الانتهازيين فى مزبلة التاريخ.

وبما أنّ هذه المسألة تتمتع بأهميّة كبيرة فى الإسلام، فالإمام عليه السلام عليه السلام فى سياق كلامه يتعرض لشرح أكثر لهذا الموضوع ويبحث فى تفاصيل هذه المسألة ويذكر صفات تلك الطائفة من الخواص، وكذلك يذكر خصوصيات الطائفة الأخرى من عامّة الناس والعاملين فى المجتمع، وبداية يتحدّث الإمام عن الصفات الذميمة للخواص المغرورين ويذكر لهم سبع صفات:

يقول عليه السلام فى الصفة الاولى والثانية:

«وَلَيس أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ».

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۲۲

فهؤلاء يتوقعون الكثير من الوالى ومطالباتهم لا تعدّ ولا تحصى ولا تمتلىء جيوبهم بسهولة، وعند بروز المشكلات والأزمات يسحبون أنفسهم ويتراجعون إلى الوراء ويقولون بأنّ حفظ البلد والتضحية فى سبيله تقع على عهدة العامّة من الناس، ويتصورون أنّهم طبقة ممتازة من الصفوة والنخبة الذين يتكفّلون مهمّة الإشراف وإبداء الرأى فقط.

وفى الصفة الثالثة يقول عليه السلام:

«وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ».

لأنّهم يعتقدون بأنّهم شريحة ممتازة ونخبة مفضلة لا ينبغى أن يجعلوا فى عرض الآخرين فى أى برنامج ومشروع.

ويقول الإمام عليه السلام فى بيان الصفة الرابعة:

«وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ ۵۷۶]».

لأنّهم يرون أنفسهم دائمين ومتفضلين، أضف إلى ذلك أنّهم من المقربين للولاة والحكّام وبإمكانهم أن يطرحوا مطالبهم مرات ومرات، بخلاف الجمهور من عامّة الناس الذين يطرحون مطالبهم باصرار أقل بكثير، وأساساً لا مجال لهم عادة للوصول إلى الحكّام والمسؤولين.

وفى الصفة الخامسة والسادسة يقول عليه السلام:

«وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ».

لأنّهم لا يرون العطاء والبذل خدمة من قِبل الحاكم تستحق الشكر بل إنّه أداء للدَّين، وفى مقابل الدَّين لا يستحق المدين شكراً ولا ثناءً، فهم يتصورون غالباً أنّه لولاـ نصرتهم للنظام وإشرافهم على أمر الحكومة، فإنّ هذه الحكومة لا يمكنها أن تستمر فى حياتها وتمارس دورها فى السيادة والهيمنة، ومن هذا المنطلق يرون لأنفسهم حقّ الحياة على الحكومة، فمهما اعطوا من المال والحقوق فهو قليل بحقّهم.

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۲۳

ومن هذا المنطلق أيضاً لو لم تتمّ الاستجابة لمطاليبهم فإنّهم قلّما يقبلون العذر فى هذا المنع، ويرون أنّ جميع الأعذار فى هذا المجال غير مقبولة وغير مبررة وأحياناً يكون العذر أقبح من الذنب.

وفى الصفة السابعة والأخيرة يقول الإمام عليه السلام:

«وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ ۵۷۷]

الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ».

لأنّهم عاشوا حياة الرفاهية والنعمة وقلّما واجهوا المشكلات والتحديات، فلم يشتد لهم عود الصبر والاستقامة، على عكس الجماهير الكادحة في المجتمع الذين تربوا في أجواء المشكلات والأزمات وبنوا ذواتهم في بوتقة المحن والابتلاءات فصاروا كالفولاد في القوّة والمتانة.

والحقيقة أنّه لا ـ يوجد وصف أفضل وأبلغ وأكثر شفافية لهؤلاء القلّة من الخواص المغرورين بامتيازاتهم والذين يعاملون الناس من موقع الاستعلاء والفوقيّة، ونعلم جيداً أنّ جميع هذه الخصائص والصفات ناشئة من تصوراتهم الموهومة عن امتيازاتهم الذاتية وحاجة الحكومة لهم وأفضليتهم على سائر طبقات المجتمع، وهذه الأوهام والخيالات الطوباوية، قادتهم إلى هذه المنزلقات والمتاهات.

أمّا خصائص الجماهير الكادحة في المجتمع الإسلامي، وحسب تعبير الإمام عليه السلام عامة الناس، فتتلخص في ثلاثة أمور: يقول عليه السلام:

«وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ [۵۷۸]

الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ [۵۷۹] لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ».

ما أبلغ هذه العبارات وما أعمق مدلولها، فلولا دفاع العامّة من الناس فإنّ أصول الدين وفروعه ستطوى في عالم النسيان ويصيب الخلل والإرباك مفاصل المجتمع

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۲۴

الإسلامي، فلا توجد قوّة للدفاع أمام هجوم الأعداء، ومن هذا المنطلق فإنّ الحكومة يجب أن لا تهتم بادعاءات الأقليّة المترفة وتحصر اهتمامها ورعايتها بالطبقة التي يتوقف عليها بقاء الدين والدنيا وهي الأساس والأصل في حركة المجتمع نحو الإزدهار والتطور.

ويستفاد من مجموع عبارات الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة أنّ الجماهير الكادحة من الناس تتمتع بعشر خصائص، وقد ذكر الإمام عليه السلام ثلاثة منها في المقطع مورد البحث وسبعة منها ذكرها الإمام عليه السلام عند بيان الصفات الذميمة للخواص المغرورين، وهي كالتالي:

۱. أنّهم خفيفو المؤنة في حالات الاستقرار الاجتماعي.

۲. أنّهم يشمرون عن سواعدهم ويمدون يد العون في الحكومة في وقت الأزمات والمشكلات.

۳. أنّهم يفرحون من سلوك الوالي في خط الانصاف ورعاية الحقوق للجميع.

۴. عندما يطلبون شيئاً ممّا يحتاجونه في واقع الحياة لا يصرّون كثيراً على مطالبهم.

۵. إنّهم يواجهون الهداية والنعمة بالشكر والثناء.

۶. يقبلون العذر فيما لو وجدت موانع أمام تحقيق مطالبهم.

۷. يتمتعون بالصبر والاستقامة في مقابل المشكلات والتحديات.

وعبارة

«وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ»

إشارة إلى أنّ هذه الشريحة من الجماهير الكادحة هي الركن الأساس للمجتمع الإسلامي، وهذا ما ورد في روايات أخرى بوصفهم «السواد الأعظم»، وبعبارة أخرى لو أخذنا بنظر الاعتبار انفكاك أفراد المجتمع فإنّه لا يبقى هناك مفهوم للمجتمع والامّة، ولكن إذا توفرت عناصر التلاحم بين الأفراد، كما هو حال البناء الذي تشتد أواصره بقليل من الجص أو الاسمنت، فإنّ مفهوم المجتمع سيتحقق في الواقع الخارجي، وهذا الأمر لا يتسنى إلّامن خلال هذه

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۲۵

الجماهیر الکادحة فی جو المجتمع والامّة.

وجملة

«فَلْیَکُنْ صِغْوُکَ لَهُمْ، وَمَیْلُکَ مَعَهُمْ»

مقتبسة فی الواقع من القرآن الکریم، وذلک فی خطابه للنّبی الأکرم صلی الله علیه و آله: «وَاصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذینَ یَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِیِّ یُریدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَیْناکَ عَنْهُمْ تُریدُ زینَةَ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِکْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَکانَ أَمْرُهُ فُرُطاً»[۵۸۰].

ولیس النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله فقط مأموراً بالاعتماد علی هذه الطبقة الفاعلة والتواصل معهم، بل إنّ جمیع الأنبیاء السابقین کانوا کذلک، فالقرآن الکریم یتحدّث عن النّبی نوح علیه السلام، عندما تجمع حوله بعض الشبّان المؤمنین واعترض علیه جماعة من الأثریاء وأصحاب المواقع الاجتماعیّة أنّک إذا أردت أن ندخل فی دینک فیجب أن تطرد هؤلاء الفتیة من حولک، فأمره اللَّه تعالی أن یقول لهم: «وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذینَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلکِنِّی أَراکُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ* وَیا قَوْمِ مَنْ یَنْصُرُنی مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَکَّرُونَ»[۵۸۱].

تأمّل

أنواع الحکومات

قسّم بعض العلماء الحکومات والنظم السیاسیّة علی إمتداد التاریخ البشری إلی أربعة أقسام:

۱. الحکومة المستبدة: وهی الحکومة التی تحکم فیها شخص واحد علی المجتمع ویدیره بوحی من أفکاره الخاصّة دون الخضوع لقانون، فیفرض إرادته علی جمیع الأفراد (مثل حکومة رؤوساء القبائل فی العصور القدیمة).

۲. الحکومة الملکیة: وفیها یکون الحاکم شخص واحد، ولکنّها تملک قانوناً

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۲۶

ونظاماً لتیسیر الأمور وتدبیر الحکومة.

۳. حکومة الأشراف (الاریستوقراطیة) وهی الحکومة التی یتولی أمرها طبقة الأشراف والنبلاء فی المجتمع.

۴. الحکومة الدیمقراطیة: وفیها یکون الشعب هو الحاکم الحقیقی لنفسه، ومن هنا یختار الشعب نوّابه وحکّامه من خلال صنادیق الاقتراع، ویتولی هؤلاء الوکلاء والنوّاب ترتیب المسائل القانونیّة والقضائیّة والإجرائیّة، وأحیاناً تکون الانتخابات بواسطة، وأخری دون واسطة.

وطبعاً فالحکومة الإلهیّة، أی حکومة الأنبیاء والأئمّة المعصومین علیهم السلام، تتمتع بمکانة خاصّة، وذلک أنّهم منصوبون من قِبل اللَّه تعالی لهذه الحکومة ویهدفون لما فیه خیر المجتمع وصلاح الناس، ومعلوم أنّ هؤلاء الأولیاء، ومن أجل تیسیر عملهم وکسب تأیید الجمهور، یستخدمون فی الکثیر من المواقع عنصر البیعة، ومع بیعة الناس للحاکم الإلهی تزداد مشروعیة هذه الحکومة، وهذا الأمر تحقق بشکل کبیر فی حکومة النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله وأمیرالمؤمنین علیه السلام.

***

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۲۷

القسم السادس

اشارة

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِکَ مِنْکَ، وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَکَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَائِبِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ فِی النَّاسِ عُیُوباً، الْوَالِی أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَکْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْکَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَیْکَ تَطْهِیرُ مَا ظَهَرَ لَکَ، وَاللَّهُ یَحْکُمُ عَلَی مَا غَابَ عَنْکَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ یَسْتُرِ اللَّهُ مِنْکَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِیَّتِکَ. أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ کُلِّ حِقْدٍ، وَاقْطَعْ عَنْکَ سَبَبَ کُلِّ وِتْرٍ، وَتَغَابَ عَنْ کُلِّ مَا لَایَضِحُ لَکَ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَی تَصْدِیقِ سَاعٍ فَإِنَّ السَّاعِیَ غَاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِینَ.

الشرح والتفسير: عليک بستر العيوب!

اشارة

فی هذا المقطع من الرسالة یتحدّث الإمام علیه السلام عن أهمیّة الستر علی الناس من قِبل الوالی والتأکید بأنّ وظیفة الوالی لا تنحصر بمکافحة العیوب الظاهرة، بل ینبغی اجتناب التجسس علی الناس والتوغل فی أمورهم الشخصیّة لمعرفة عیوبهم الباطنیة وکذلک الابتعاد عن الأشخاص الذین یتحرکون علی مستوی کشف عیوب الناس وفضحهم، یقول علیه السلام:

«وَلْیَکُنْ أَبْعَدَ رَعِیَّتِکَ مِنْکَ وَأَشْنَأَهُمْ ۵۸۲] عِنْدَکَ، أَطْلَبُهُمْ

لِمَعَایِبِ النَّاسِ».

وعادة تجتمع حول الوالی أو الحاکم جماعة من هؤلاء الانتهازیین، الذین یبحثون عن عیوب الناس ونقاط الضعف والقصور فیهم من أجل التقرب إلی الوالی والقائد، فیهتکوا أستار الآخرین ممّا یبعث علی تشویش ذهن الوالی بالنسبة لهم

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۲۸

ویعیش سوء الظن بالنسبة لکلّ فرد من الأفراد، فالإمام علیه السلام یقول: یجب أن تبعد هذه الجماعة عن نفسک لأنّهم یتسببون فی إرباک الحکومة، فمن جهة یخلقون جو الفرقة والاختلاف بین الناس، ومن جهة أخری یقومون بتوهین العلاقة بین الوالی والرعیّة، ومن جهة ثالثة یغرسون سوء الظن فی فضاء المجتمع الإسلامی.

أجل، ینبغی علی الوالی أن یسلک معهم بهذه الطریقة حتی لا یتصور أحد أنّه، ومن خلال النمیمة وافشاء عیوب الناس، یتقرب إلی الوالی ویکون من بطانته.

ولتأکید هذا المعنی یبیّن الإمام علیه السلام دلیلًا فی هذا الشأن ویقول:

«فَإِنَّ فِی النَّاسِ عُیُوباً، الْوَالِی أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَکْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْکَ مِنْهَا».

ویضیف علیه السلام:

«فَإِنَّمَا عَلَیْکَ تَطْهِیرُ مَا ظَهَرَ لَکَ وَاللَّهُ یَحْکُمُ عَلَی مَا غَابَ عَنْکَ».

وقد ورد فی الحدیث الشریف عن النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«لَا یُبْلِغْنِی أَحَدٌ مِنْکُمْ عَنْ أَصْحَابِی شَیْئاً فَإِنِّی أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَیْکُمْ وَأَنَا سَلِیمُ الصَّدْرِ»[۵۸۳].

إنّ ما أشار إلیه الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من کلامه یبیّن هذه الحقیقة، وهی أنّ غالبیة الناس لهم نقاط ضعف تخفی علی الآخرین، فلو أنّ نقاط الضعف هذه ظهرت للملأ فإنّ هذا من شأنه إشاعة حالة سوء الظن بین الناس، والوالی بدوره سیعیش سوء الظن

بالنسبة للرعية، وهذه الحالة من سوء الظن، والتى أشار إليها النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً فى حديثه، من شأنها تقطيع أوصال المجتمع وتخريب الوحدة بين أفراده وإضعاف عنصر الثقة فيما بينهم، فلايعيش مثل هذا المجتمع التكاتف والتواصل بين الأفراد، وبينهم وبين الوالى، وهذا هو ما ورد فى القرآن الكريم من النهى بصراحة عن التجسس والبحث عن عيوب الناس الخفية تقول الآية:

«وَلا تَجَسَّسوا»[۵۸۴].

إنّ الواجب على الوالى أن يتصدى لمن يمزق ستار الحياء ويتجاهر بالفسق والفجوز ولا يأبى من إظهار عيوبه للناس، ويتعامل معه بآليات الاصلاح السلمى

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۲۹

ومن خلال الموعظة والنصيحة، ولو لم يوفّق من هذا الطريق فإنّه يستخدم القوّة والشدّة ويقيم الحدود الإلهيّة فيما يتعلق بهذا الشخص، فذلك بمثابة العمليّة الجراحية الضرورية لإدامة حياة المجتمع.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام وفى سياق كلامه يتحدّث عن هذا الموضوع من جهة أخرى ويقول:

«فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْکَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِکَ».

وهو إشارة إلى أنّ الإنسان ينبغى عليه ستر عيوب الناس ليستر اللَّه عيوبه، وهذا بمثابة الثواب الإلهى فى الدنيا، وهناك ثواب أعظم ينتظره فى الآخرة.

وقد ورد فى حديث شريف عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«مَن سَتَرَ أخاهُ فِى فَاحِشَةٍ رَآها عَلَيهِ سَتَرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنيا وَالآخرَةِ»[۵۸۵].

وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله:

«كَانَ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامٌ لَهُمْ عُيُوبٌ فَسَكَتُوا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ فَأَسْكَتَ اللَّهُ عَنْ عُيُوبِهِمُ النَّاسَ فَمَاتُوا وَلَا عُيُوبَ لَهُمْ عِنْدَ النَّاس»[۵۸۶].

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه وخطابه لمالک الأشتر ويأمره بأربعة أمور أخرى، بداية يقول:

«أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ[۵۸۷]».

ومن المعلوم أنّ هناک عوامل مختلفة ربّما تثير العداوة بين الناس والوالى، فيجب على الوالى الأخذ بمقتضيات الحذر والانتباه إلى جذور هذه المسألة ونزع فتيل هذا الحقد والعداوة من صدورهم وذلک من خلال سلوكه الحسن معهم والتواصل معهم بشكل يمتص هذه العقد والأحقاد من نفوسهم.

ويحتمل أيضاً فى معنى هذه الجملة أنّ الوالى عليه أن يترک حالات الحقد على الناس، ولو أنّ أحداً إرتكب مخالفة فلا يضمرها فى قلبه بحيث تتحوّل إلى عقدة، بل عليه أن يتناساها، وقديماً قيل: لا تنسى الخير الذى جاءک من الناس وعليک جبرانه فى الوقت المناسب ولا تتذكر إساءتهم لک وتعيش حالات الانتقام تجاههم،

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۳۰

ولكن المعنى الأوّل أنسب للعبارة.

ويقول الإمام عليه السلام فى التوصية الثانية:

«وَاقْطَعْ عَنْکَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ[۵۸۸]».

لأنّنا نعلم أنّ العداوات لا تحدث بدون سبب، إمّا أن تكون بسبب سوء المعاملة أو تضييع الحقوق أو التكبر والفخر على الآخرين وأمثال ذلک، فعندما يتمّ قلع هذه العوامل والأسباب فإنّ العداوات فى جو المجتمع تتبدل إلى محبّة ومودة.

ويقول الإمام عليه السلام فى التوصية الثالثة:

«وَتَغَابَ ۵۸۹] عَنْ كُلِّ مَا لَايَضِحُ ۵۹۰] لَکَ».

وهذه إشارة إلى أنّه لا ينبغى لك الاصرار على التدخل فى تفاصيل حياة الناس وأعمالهم، وعليك بالتغافل مهما أمكنك ذلك، فإنّ التدخل فى جزئيات حياة الأفراد يعيقك عن الاهتمام بالمسائل الكلّية والهامة ويعمق الخلافات والعداوات فى فضاء المجتمع.

وفى التوصية الرابعة والخامسة يقول الإمام عليه السلام:

«وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ [۵۹۱]

فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ [۵۹۲]، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ».

ونعلم أنّ النمام هو الشخص الذى ينقل الأخبار الصحيحة والسقيمة بين الأفراد ليوقع بينهم الشقاق ويزرع بذور العداوة فى صدورهم، وقديماً قالوا:

وَقَد قَطَعَ الواشُون ما كَانَ بَينناوَنحنُ إلى أنْ نُوصِلَ الحَبلَ أحوجُ

رَأوا عَورَةً فاستَقبلُوها بِألبِهِمفَلم يَنهَهُم حِلمٌ وَلَم يَتَحرَّجُوا

وَكَانُوا اناساً كُنتُ آمنُ غَيبَهُمفراحُوا على ما لا نُحبُّ وأدلَجُوا

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۳۱

وبعكس ذلك فقد أذن الإسلام فى عمليّة إصلاح ذات البين بالكذب لقلع فتيل العداوة وإزاحة غبار الكدورة عن القلوب، وبعبارة أخرى: على المسلم أن يصب الماء على نيران الخلاف والفرقة لا أن يضيف إليها حطباً ويزيدها اشتعالًا.

ونقرأ فى الحديث الشريف عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«أ لَاأُنَبِّئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْمَعَايِبَ»[۵۹۳].

تأمّل

موارد الاستخبارات والتستر على عيوب الناس

ربّما يثار هذا السؤال بعدما رأينا ما يقوله الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الرسالة فيما يتصل بالتستر على الناس وطرد النمامين الذين يتحركون لفضح الناس أمام الوالى، والسؤال هو: إذن لماذا وضع النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله والإمام أميرالمؤمنين عليه السلام نفسه العيون والجواسيس فى شتى نقاط البلاد الإسلاميّة، والذين كانوا يوصلون إليه أخبار الامراء والولاة الخفية والجلية، فهل يعتبر هذا العمل مخالفاً لمسألة التستر؟

أضف إلى ذلك أنّه ورد فى التعاليم الإسلاميّة فيما إذا استشارك شخص حول أحد الأفراد، فلو كنت تعرف منه بعض العيوب الخفية فعليك أن تذكر ذلك لمن يستشيرك فيه وأنّ هذه المسألة من الأمور المستثناة من الغيبة.

ولا يخفى الجواب عن مثل هذا السؤال، لأنّ كلام الإمام عليه السلام فيما يتصل بالتستر وعدم الكشف عن عيوب الناس، يخص العيوب الشخصيّة والخصوصيّة التى لا تؤثر فى مصير الامّة أو يكون لها تأثير خفيف جدّاً، ولكن عندما تتعرض مصالح الامّة والنظام الإسلامى للخطر ويدور الحديث حول وجود مؤامرة تستهدف مصالح النظام والامّة، فهنا يكون لهذه المسألة حكم آخر، وبديهى أنّ الواجب فى هذه

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۳۲

الحالة هو التحقيق والتجسس وإيصال الخبر إلى الوالى لئلا يتسبب فى إيجاد الإرباك والخلل فى المجتمع الإسلامى وربّما تسفك بسببه الدماء وتنهب به الأموال وتنتهك به الحرمات، ففى هذا المورد لا مكان للتستر عن العيوب ونقاط القصور والتقصير.

وهكذا إذا أراد المسلم أن يقدم على عمل معين، سواء يتعلق بأمر الزواج، أو المشاركة فى تجارة، أو اختيار شخص لوظيفة وأمثال

ذلـک، وسأل شـخص خبیر ومطلع واسـتشاره فی ذلک، فهنا یعتبر التستر علی ذلک الشـخص نوعاً من الخیانـهٔ، فلا یحق للمسـتشار أن یکتم عیوب الطرف الآخر الذی استشاره صاحبه فی هذه الأمور.

وعلی ضوء ذلک یتبیّن الحد الفاصل بین لزوم التستر علی عیوب الناس وحرمهٔ فضحهم وکشف أسرارهم، وبین عمل الاستخبارات فی الأمور الاجتماعیّهٔ والسیاسیّهٔ وفی مقام المشورهٔ.

***

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۳۳۳

القسم السابع

اشارهٔ

وَلَـا تُـدْخِلَنَّ فِی مَشُورَتِـکَ بَخِیلًـا یَعْـدِلُ بِـکَ عَنِ الْفَضْـلِ، وَیَعِـدُکَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَاناً یُضْـعِفُکَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِیصاً یُزَیِّنُ لَکَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّی یَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ.

الشرح والتفسیر: إحذر هؤلاء المستشارین!

اشارهٔ

یتحـدّث الإمام علیه السـلام فی هذا المقطع من رسالته وعهده عن مسألهٔ المشاورین للوالی وصـفاتهم وخصائصـهم، والملفت للنظر أنّ الإمـام لاـ یتحـدّث عن لزوم المشورهٔ لأـنّه یعتبر أمراً مسـلّماً ومطلوبـاً بـأن یکون للوالی مسـتشارون أکفـاء فی شؤون الإـدارهٔ السیاسـیّهٔ والعسـکریّهٔ، لیسـتطیع من خلال الاسـتفادهٔ من أفکارهم وآرائهم أن یختار الطریق الأفضل لتـدبیر الأمور ویبتعـد بذلک عن الإسـتبداد بالرأی والاعتماد فقط علی أفکاره الفردیهٔ، وبالتالی یمکنه مراعاهٔ مصالح الرعیّهٔ مع المشورهٔ بالمقدار الممکن.

یقول الإمام علیه السـلام محذّراً مالک الأشتر من مشاورهٔ ثلاث فئات ویبیّن له الآثار والتداعیات السـیئهٔ لهذه المشورهٔ، وذلک بعبارات بلیغهٔ وموجزهٔ ویقول:

«وَلَـا تُـدْخِلَنَّ فِی مَشُورَتِـکَ بَخِیلًـا یَعْـدِلُ بِکَ عَنِ الْفَضْلِ، وَیَعِـدُکَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَاناً یُضْـعِفُکَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِیصاً یُزَیِّنُ لَکَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ» [۵۹۴].

وفی الحقیقهٔ فإنّ الإمام علیه السلام یوصی بالتحلی بثلاث قیم وملکات مهمّهٔ ومؤثرهٔ

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۳۳۴

علی مسـتوی التـدبیر والإدارهٔ: السـخاء، الشـجاعهٔ والقناعـهٔ، وبـدیهی أنّ اسـتشارهٔ الشـخص البخیل سـیقف حائلًا أمام السـخاء والکرم، ومشاورهٔ الجبان من شأنها اضـعاف عزیمهٔ وجرأهٔ الرجل الشـجاع، وأمّا استشارهٔ الحریص فإنّها تضعف القناعهٔ وتثیر فی الإنسان الطمع، وبالتالی تقوده هذه الصفات والحالات السلبیهٔ إلی ظلم الرعیّهٔ.

ومن جهـهٔ أخری فإنّ البخلاء یعیقون کلّ عمل من شأنه الترفیه والترویح عن الرعیّهٔ، وأمّا فی الأمور الدفاعیهٔ العسـکریهٔ فالجبناء یضعون العصی فی عجلات المواجههٔ مع الأعداء ویضخمون خطرهم ویحبّذون للوالی حالهٔ الخنوع، وأمّا فی الأمور الاقتصادیّهٔ فالحریص یقف حائلًا أمام الإزدهار الاقتصادی، وعلی هـذا الأساس فالمشاورون للوالی یجب أن یتمّ انتخابهم بما ینتفع بهم فی شؤون إدارهٔ البلاد ومدّ

يد العون للوالى وتقوية عزيمته وإرادته ويحذرونه من الأمور التى تؤدّى إلى إرباك المجتمع وتعريض مصالح الناس للخطر.

وفى ختام هذا البحث يؤكّد الإمام عليه السلام على البحث فى جذور هذه الصفات الذميمة ويقرر أنّها تمتد إلى أصل واحد ويقول:

«فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ[۵۹۵] شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ».

فى هذه العبارة يدرس الإمام عليه السلام هذه المسألة من زاوية سيكولوجيّة عميقة ويقول: إنّ البخلاء لا يبخلون بشىء من مالهم إلّابسبب سوء ظنّهم باللّه بأنّه سيمنعهم من فضله ومواهبه ويتصوّرون أنّهم إذا أنفقوا اليوم من أموالهم فإنّهم سيكونون غداً فقراء ومحتاجين، أمّا الجبناء فإنّهم يسيئون الظنّ باللّه فى وعده للمؤمنين بالنصر على أعدائهم ويتصوّرون أنّهم إذا لم يتراجعوا فى المعركة فربّما

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۳۵

بقوا لوحدهم وهلكوا فى مواجهة العدو، أمّا الأشخاص الذين يعيشون الحرص على المال والثروة، فإنّهم لا يملكون حالة التوكل على اللّه، وفى الحقيقة أنّهم يسيئون الظن بقدرة اللّه تعالى.

والآيات القرآنيّة بدورها شاهدة على هذه الحقيقة، ففى مورد يقول القرآن:

«الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا»[۵۹۶].

وفى آية أخرى يقول: «وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»[۵۹۷].

وفى مورد ثالث يقول: «وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»[۵۹۸].

وما ورد من كلام الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة، يماثل ما ورد فى كلام النّبىالأكرم صلى الله عليه و آله فى وصيته للإمام على عليه السلام. فنقرأ فى كتاب «علل الشرائع» حديثاً عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله يخاطب الإمام على عليه السلام ويقول::

«يَا عَلِيُّ لَاتُشَاوِرْ جَبَاناً فَإِنَّهُ يُضَيِّقُ عَلَيْكَ الْمَخْرَجَ وَلَا تُشَاوِرِ الْبَخِيلَ فَإِنَّهُ يَقْصُرُ بِكَ عَنْ غَايَتِكَ وَلَا تُشَاوِرْ حَرِيصاً فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ شَرَّهَا وَاعْلَمْ يَا عَلِيُّ أَنَّ الْجُبْنَ وَالْبُخْلَ وَالْحِرْصَ غَرِيزَةٌ وَاحِدَةٌ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ»[۵۹۹].

تأمّل

أهمّيّة المشورة فى حياة الإنسان

إنّ مسألة المشورة والاستشارة تعدّ من أهم المسائل الاجتماعيّة، والدليل على ذلك واضح، لأنّ المشكلات الاجتماعية وحتى الشخصيّة تكون فى الغالب معقدة

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۳۶

ومشوشة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فكل واحد من الأفراد يملك رأياً وفكراً ربّما يختلف عن الآخرين ويرى المسألة من زاوية واحدة، فلو اجتمعت الآراء والعقول لحلّ مشكلة معينة فربّما نحصل على حلول ناجعة للمشاكل الفرديّة والاجتماعيّة.

ومن هذه الجهة نقرأ فى حديث شريف فى «غرر الحكم» عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام:

«حَقٌّ عَلَى العَاقِلِ أنْ يُضيفِ إلى رَأيهِ رَأيَ العُقَلاءِ وَيَضُمِّ إلىْ عِلمِهِ عُلُومَ الحُكَماءِ»[۶۰۰].

وبديهى كلّما إزداد الأمر أهميّة وخطورة فإنّ أهميّة المشورة ستزداد أيضاً، والتجربة تدل على أنّ الأشخاص الذين يتحركون فى أعمالهم المهمّة بآلية المشورة والتباحث مع العقلاء وأهل الخبرة فى هذا الشأن فإنّهم قلّما سيواجهون الخلل والفشل، وبعكسهم المستبدون برأيهم الذين يشعرون بالاستغناء عن أفكار الآخرين نرى أنّهم فى الغالب يتورطون فى أخطاء وأخطار تعود عليهم بالضرر

الفاحش، ولذلك نقرأ فى كلمات الإمام عليه السلام النورانيّة:

«مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِى عُقُولِهَا»[۶۰۱].

وجاء فى حديث عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنّه قال:

«مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ إِلَّا هُدُوا إِلَى رُشْدِهِمْ»[۶۰۲].

وروى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه نقل من التوراة هذه الحكمة:

«مَنْ لَمْ يَسْتَشِرْ يَنْدَم»[۶۰۳].

ولا فرق أن يستشير الإنسان من هو أعلم وأعقل منه أو يستشير من هو أدنى منه فى المرتبة كما ورد عن على بن الجهم قال: كنّا عند أبى الحسن الرضا عليه السلام

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۳۷

فذكرنا أباه قال:

«كَانَ عَقلُهُ لا يُوازِن بِهِ العُقُول، وَرَبَّما شَاورَ الأسوَدَ مِن سُودانِهِ، فَقيَل لَهُ: تُشاوُر مِثلَ هَذا؟ فَقالَ إِنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعالى رُبَّمَا فَتَحَ عَلَى لِسَانِه»[۶۰۴].

والملفت للنظر أنّ الغرض من المشورة، مضافاً إلى ما تقدّم بيانه من التأكيد البالغ على الاستشارة، أنّ المستشار يفكر فى المسألة بنزاهة وبفكر خالص فى ذلك الموضوع فى حين أنّ صاحب المشكلة الذى يفكر بمنافعه، فإنّ فكره مشوب بالأهواء والمنافع الذاتية:

«إنّما حُضَّ عَلى المُشاوَرةِ لأنَّ رَأى المُشيرِ صَرفٌ وَرَأى المُستَشِيرِ مَشُوبٌ بِالهَوى [۶۰۵].

كما ورد فى كلام الإمام على عليه السلام فى هذا العهد: لا يصح استشارة أيّا كان، فالمستشار يجب أن يكون فرداً عاقلًا ومؤمناً لا يريد إلّاالخير لصاحبه، ولذلك نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إنّ المشورة لا تكون إلّابحدودها، فمن عَرَفَها بِحُدُودِها وَإِلّا كَانْ مَضَرَّتَها عَلى المُستَشِير أَكثَرَ مِن مَنفَعَتِها لَهُ:

أَوَّلُها: أَنْ يَكونَ الّذِى يُشاوُره عَاقِلًا.

وَالّثانِيةُ: أَنْ يَكونَ حُرّاً مُتديّناً.

الثّالُثة: أَنْ يَكونَ صَديقاً مُؤاخياً.

الرّابعة: أَنْ تُطلِعَهُ عَلى سِرِّكَ فَيَكُونَ عِلمُهُ بِهِ كَعِلمِكَ بِنَفسِك، ثُمَّ يَستر ذَلِكَ وَيَكتُمُهُ، فاَنَّهُ إِذا كَانَ عَاقِلًا انتَفعَت بِمشوَرتِهِ، وإِذا كَانَ حُرّاً مُتديّناً جَهَدَ بِنَفسِهِ فِى النّصِيحَةِ لَكَ، وَإذا كَانَ صَديقاً مُواخياً كَتَمَ سِرَّكَ».

وقال فى ختام كلامه عليه السلام:

«إذا أطلَعتَهُ عَلَيهِ، وَإذا أطلَعتَهُ عَلى سِرِّكَ كَانَ عِلمُهُ بِهُ كَعِلمِك، وَتَمَّتْ المَشورَةُ وَكَمُلتْ النَّصِيحَةُ»[۶۰۶].

وفى عالمنا المعاصر أضحت المشورة والشورى أوسع بكثير من السابق،

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۳۸

فأحياناً يظنّ الإنسان أنّ اتساع أمر المشورة من شأنه إصلاح أحوال الدنيا فى حين أنّ مجالس الشورى هذه- وللأسف- ترتبط بصبغة سياسية وتتحرك فى خط المنافع الفردية أو الفئوية، وفى الحقيقة أنّها تفقد الخلوص والقداسة، والشاهد على ذلك أنّ الكثير من الأشخاص أو الفئات يسعون من خلال بذل نفقات باهظة ليكونوا نوّاباً ينتخبهم الناس لمثل هذه المجالس، وهذا يبيّن بوضوح أنّ هدفهم ليس تأمين مصالح الامّة، بل بما يعود عليهم أنفسهم بالنفع عاجلًا أم آجلا.

والكلام عن المشورة كثير ومفصّل، والغاية هنا مجرّد إشارة مختصرة فى هذا الباب وفى صفات المستشار الذى يتولى مسؤوليّة ثقيلة فى هذا الأمر، ونختم هذا البحث بحديث شريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«مَنِ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُؤْمِنُ فَلَمْ يَمْحَضْهُ النَّصِيحَةَ سَلَبَهُ اللَّهُ لُبَّهُ»[۶۰۷].

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۳۳۹

القسم الثامن

اشارهٔ

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِکَ مَنْ کَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَکَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِکَهُمْ فِي الْآثَامِ فَلَا يَکُونَنَّ لَکَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ أُولَئِکَ أَخَفُّ عَلَيْکَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَکَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْکَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِکَ إِلْفاً، فَاتَّخِذْ أُولَئِکَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِکَ وَحَفَلَاتِکَ، ثُمَّ لْيَکُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَکَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَکَ وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَکُونُ مِنْکَ مِمَّا کَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذَلِکَ مِنْ هَوَاکَ حَيْثُ وَقَعَ. وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ؛ ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوکَ وَلَا يَبْجَحُوکَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ کَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ.

الشرح والتفسیر: الوزیر الجید والوزیر السیىء!

بعد أن بیّن الإمام علیه السلام صفات المستشارین فی المقطع السابق، فإنّه یتحدّث فی هذا المقطع عن خصائص الوزراء والمعاونین فی الحکومهٔ، ففی البدایهٔ یعرّف الإمام علیه السلام الأشخاص الذین یملکون صفات سلبیهٔ، ثمّ یتحدّث عن الواجدین للصفات الحسنهٔ والإیجابیهٔ، ثمّ یطرح توصیاته اللازمهٔ فیما یتصل بکیفیهٔ التعامل معهم، یقول علیه السلام:

«إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِکَ مَنْ کَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَکَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِکَهُمْ فِي الْآثَامِ فَلَا يَکُونَنَّ لَکَ بِطَانَةً[۶۰۸]».

نفحات الولایهٔ، ج ۱۰، ص: ۳۴۰

فی هذه العبارهٔ یشیر الإمام علیه السلام إلی مسألهٔ حسن السابقهٔ وسوء السابقهٔ، ولزوم التحقیق فی سوابق الأشخاص الذین یروم اختیارهم لمناصب مهمّهٔ ومسؤولیّات ثقیلهٔ، وهذا هو المتعارف علیه فی عالمنا المعاصر فیما یتصل بملف وسوابق المسؤولین.

ثمّ یذکر الإمام علیه السلام الدلیل علی ذلک بشفافیهٔ ویقول:

«فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ[۶۰۹]، وَإِخْوَانُ
الظَّلَمَةِ».

وهذه إشارهٔ إلی أنّ الشخص الذی عاش مع الظالمین وساند الجائرین والأشرار فإنّ هذه الصفهٔ الذمیمهٔ ستتحول فی نفسه ملکهٔ وسجیهٔ، فحتی لو أظهروا التوبهٔ والإنابهٔ فإنّهم لا یصلحون للوثوق بهم وبخاصهٔ مع وجود الأفراد اللائقین فی المجتمع الإسلامی الذین لا یملکون مثل هذه السوابق السیئهٔ، ولذلک یقول الإمام علیه السلام فی سیاق کلامه:

«وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ ۶۱۰] وَأَوْزَارِهِمْ ۶۱۱] وَآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً
عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ».

ویستفاد من هذه العبارهٔ أنّ الأشخاص الذین یملکون نقطهٔ سوداء واحدهٔ فی ملف أعمالهم السابقهٔ، فلا ینبغی اختیارهم للأعمال المهمّهٔ کالوزارات وأمثالها، بل ینبغی أن یکون تاریخهم وسابقتهم الحسنهٔ واضحهٔ للجمیع.

وفی ختام هذا الکلام یستنتج الإمام علیه السلام هذه النتیجهٔ:

نفحات الولاية ؛ ج ۱۰ ؛ ص ۳۴۰

«أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً وَأَحْسَنُ لَکَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى ۶۱۲] عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً[۶۱۳] فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۴۱

خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ ۶۱۴]».

فی هذه العبارات الموجزة والعميقة فی معناها يطرح الإمام عليه السلام أربع نقاط القوّة للذين ليس لهم سابقة سيئة فی تاريخهم وحياتهم، ويقول:

۱. أنّ هؤلاء الأفراد لا يثقلون على كاهل الوالی فی النفقات، لأنّهم فی السابق لم تكن لهم منافع غير مشروعة مع حكّام الجور والظلم ليتوقعوا أكثر من حقهم.

۲. أنّ مساهمتهم فی تحمل المسؤوليّة أفضل وأكبر لأنّ نياتهم خالصة فی هذا السبيل وما يقدمونه من معونة فی أمور تحمل المسؤوليّة يقصدون بها الخير للناس والقربة إلى اللّه.

۳. أنّ حبّهم للوالی أكثر من غيره، لأنّهم يتفقون معه فی الفكر والدوافع والنيّات ممّا يتسبب فی فوران محبّتهم وشدّة تعاطفهم مع الوالی.

۴. أنّ هؤلاء لا يرتبطون برابطة مشبوهة مع الأجانب والغرباء، فلا يتواصلون إلّا معک ولا يرون سواک.

ومن الجلی أنّ أنصار الظلمة السابقين ليسوا فقط غير صالحين للتعاون معهم، بل بما أنّ الناس يعرفون سوابقهم السيئة ممّا يؤدّی إلى ضعف اعتمادهم على الوالی وعدم التعاون معه بشكل جيد.

وينقل ابن أبی الحديد هذه القصة بعد أن يروی هذا الخبر الوارد فی الروايات:

«يُنادی يَومَ القِيامَةِ أَينَ مَنْ بَرى لَهُم- أی للظَّالِمينَ- قَلَما»

أتی الوليد بن عبدالملک برجل من الخوارج، فقال له: ما تقول فی الحجّاج؟ قال: ما عَسيت أن أقول فيه، هل هو إلّاخطيئة من خطاياک، وشرر من نارک؟ فلعنک اللّه ولعن الحجّاج معک، وأقبل يشتمهما، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبدالعزيز فقال: ما تقول فی هذا؟ قال: ما أقول فيه، هذا رجل يشتمكم، فإمّا أن تشتموه كما يشتمكم، وإمّا أن تعفو عنه، فغضب

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۴۲

الوليد وقال لعمر: ما أظنّک إلّاخارجياً، فقال عمر: وما أظنّک إلّامجنوناً، فقام وخرج مغضباً، ولحقه خالد بن الريّان صاحب شرطة الوليد، فقال له: ما دعاک إلى ما كلّمت به أميرالمؤمنين، لقد ضربت بيدی إلى قائم سيفی أنتظر متى يأمُرنی بضرب عنقک، قال: أو كنت فاعلًا لو أمرک؟ قال: نعم، فلمّا استخلف عمر جاء خالد بن الريان فوقف على رأسه متقلّداً سيفه، فنظر إليه وقال: يا خالد، ضع سيفک، فإنّک مطيعنا فی كلّ أمر نأمرک به- وكان بين يديه كاتب كان للوليد، فقال له: ضع أنتَ قلمک، فإنّک كنت تضرّ به وتنفع، اللّهم إنّی قد وضعتهما فلا ترفعهما، قال: فواللّه ما زالا وضيعَين مهينين حتى ماتا[۶۱۵].

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام مسألة حسن السابقة فی الوزراء والمسؤولين تطرق إلى ذكر الصفات والخصوصيات لدى الجيدين منهم، بداية يقول:

«ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَکَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَکَ».

وفی الخصوصية الثانية يقول:

«وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْکَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذَلِکَ مِنْ هَوَاکَ حَيْثُ وَقَعَ».

وهذه إشارة إلى أنّک لو سلكت سبيل الخطأ أحياناً فإنّهم سوف لا يساعدونک فی ذلک، لتكون منتبهاً وتتجنب التورط فی الخطأ

والضـلالة وتعود إلى خط الصواب، وبعبارة أخرى أنّهم يملكون شخصيّة مستقلة وتفكيراً مستقلًا، فهم يعينونك فى الحقّ ولا يعينونك فى الباطل.

وفى الخصوصية الثالثة والرابعة يقول الإمام عليه السلام:

«وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ».

«الورع» يعنى التقوى فى حدّها الأعلى، و «الصدق» هو الإخلاص فى المشورة وإيصال الأخبار الحسنة والسيئة للوالى.

وعبارة «

بِمُرِّ الْحَقِ

» الواردة فى العبارة أعلاه، تبيّن أن بيان الحقّ أحياناً يكون

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣۴٣

مستساغاً وحلواً ولكن فى الكثير من الأوقات يكون مرّاً وصعباً، ولكنّه بمثابة الدواء الشافى الذى ربّما يكون مرّاً لشاربه بصورة مؤقتة، إلّاأنّه يبعد عن الإنسان المرض الخطير، وهذه إحدى الاختبارات للخواص والمعاونين للوالى، وذلك بأن يملكون الجرأة والشجاعة لقول الحقيقة للحاكم ولو كانت مرّة ولكنّها مفيدة، فلا يخشون سخط الحاكم لأجل قول الحقيقة.

وفيما لو سلك الحاكم طريق الخطيئة والزيغ فإنّ ذلك يشكل امتحاناً آخر لبطانته، بأن يتحلوا بالشجاعة اللازمة ولا يعينونه أو يتماهوا معه فى هذا الطريق بل يعيدونه إلى صوابه وينبهونه من غفلته ولا يتبعونه اتّباع الأعمى ويرجحون رضاه على رضا اللَّه والخلق.

وفى ختام هذا المقطع من التوصيات يقول الإمام عليه السلام فيما يتصل بالوزراء والمعاونين:

«ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ[۶۱۶]، وَتُدْنِى مِنَ الْعِزَّةِ[۶۱۷]».

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «رضهم» من مادة «رياضة» فإنّه فى هذا المورد تعنى التمرين والتربية، وجملة «يطروك» من مادة «اطراء» بمعنى المدح والثناء الكثير، و «يبجحوك» ما مادة «بجح» (على وزن فرح) وتعنى الفرح، وغرض الإمام عليه السلام أنّه لا ينشرح صدرك وينفتح وجهك فى مقابل مدح المداحين، فلا ينبغى أن تظهر السرور لذلك، سواء فيما يتصل بأعمالك الحسنة أو ترك الأعمال السيئة، لأنّ تكرار هذا العمل من قِبل الحاشية سيؤدّى تدريجاً إلى التأثير فى قلب الوالى، وزرع الغرور والعجب فى نفسه، ومعلوم أنّ الغرور بذاته منبع الكثير من الانحرافات الخطيرة.

وجاء فى الحديث الشريف عن ابن عباس أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«لا تُطرُونى

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣۴۴

كَمَا أَطرَتْ النّصارى عِيسى بنَ مَريم إنّما أنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبدُهُ»[۶۱۸].

ونقرأ فى رواية معروفة:

«احْثُوا فِى وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ الْتُرَاب»[۶۱۹].

وجاء فى حديث عن أميرالمؤمنين على عليه السلام فى كتاب «غرر الحكم»:

«إيَّاكَ أنْ تَثنِى عَلى أَحَدٍ بِما لَيسَ فِيهِ فَإنْ فَعَلَهُ يَصدُقُ عَنْ وَصفِهِ وَيُكَذِّبُكَ»[۶۲۰].

ومعلوم أنّ هذا العمل ليس باليسير بأنّ تتحدّث البطانة والحاشية مع الحاكم بدون خوف وخشية منه وبدون توقع للصلة والثواب، فيمحضوه النصيحة ويخبروه بالحقائق دون أن يخافوا بطشه ولا يتوقعون ماله ورضاه، وهذا هو شأن الموحّدين الحقيقيين.

وكما قال الخطيب المعروف: إنّ النصيحة للملوك هى من شأن من لا يخاف ولا يطمع.

وطبعاً فإنّ هذا الكلام يعدّ توصية أكيدة لجميع المسؤولين فى مراكز القدرة والسلطة بأن يعلّموا مشاوريهم وبطانتهم على قول الحقّ

وأن يكونوا مستعدين لقبول الحقائق المرّة[۶۲۱].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۴۵

القسم التاسع

اشارة

وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ! وَأَلْزِمْ كُلّاً مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَئُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ. فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلًا. وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ. وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ. وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا. وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

الشرح والتفسير: إحيى السنن الحسنة

يوصى الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة العهدية لمالك الأشتر بعدّة وصايا أخرى.

بداية يؤكّد الإمام عليه السلام على الإحسان للمحسنين وإنزال العقوبة بالمسيئين ويقول:

«وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۴۶

الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً[۶۲۲] لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ وَأَلْزِمْ كُلّاً مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ».

ما يبيّنه الإمام عليه السلام فى هذه التوصية يعتبر أحد الأصول المهمّة للإدارة الجيدة، من إدارة اللَّه تعالى والأنبياء للبشرية إلى إدارة ربّ الاسرة لعائلته وأبنائه.

القرآن الكريم يأمر النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالبشارة والإنذار ويعتبره «مبشراً» و «نذيراً»، وكذلك وعد اللَّه تعالى الصالحين بالثواب الجزيل والنعيم الدائم فى الجنّة، ووعد المسيئين بالنار والعذاب الأليم.

وهذا الأصل موجود فى جميع الأقوام البشرية مع تنوعهم واختلافهم فى العقائد والثقافات والأنظمة الحكوميّة، ويندرج تحت عنوان الترغيب والترهيب، والدليل على ذلك بيّن، لأنّ استمرار عمليّة الإحسان وإسداء المعروف للآخرين يتطلب تحفيز الباعث النفسى، ومنع المخالفات أيضاً يستدعى وجود المحفز والباعث، فربّما تؤثر الدوافع المعنويّة والعقائد الدينيّة فى هذا المجال، ولكن هذا الدوافع لا تتوفر فى جميع الأفراد، أضف إلى ذلك فإنّ وجود مسألة الثواب والعقاب من قِبل الوالى والحاكم من شأنه تجميد البواعث السلبية وترشيد الدوافع الخيرة.

وجملة «
وَأَلْزِمْ كُلّاً
...» إشارة لطيفة لهذه النقطة، وهى أنّ المرء عندما يتقبل شيئاً لنفسه فلا مسوغ لأن يقوم الحاكم بمنعه، فالمحسن اختار الثواب لنفسه،

والمسيىء اختار العقاب لنفسه، ومن هذا المنطلق ينبغى اعطاء كلّ ذى حقّ حقّه.

والأهم من ذلك أنّ الإحسان للمحسنين يؤثر على عمل المسيئين ويرغبهم فى ترك الإساءة، وعقوبة المسيئين تدعو بدورها المحسنين للإستمرار فى إحسانهم كما ذكر الإمام عليه السلام فى كلام آخر له فى نهج البلاغة:

«ازْجُرِ الْمُسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ»[۶۲۳].

وهذه إشارة إلى أنّ المسيىء عندما يرى نفسه محروماً من الثواب المادى

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۴۷

والمعنوى للمحسنين ينتبه إلى خطئه ويثوب إلى رشده وربّما يتوب من عمله ويرتدع عن سلوكه.

ويتابع الإمام عليه السلام كلامه فى بيان التوصية الثانية ويبيّن أفضل وسيلة لجلب حسن الظّن تجاه الوالى وكسب محبّة الرعايا له ويقول:

«وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَئُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيسَ لَهُ قِبَلَهُمْ».

والتعبير ب «

مَا لَيسَ لَهُ قِبَلَهُمْ

» مع الالتفات إلى أنّ «قِبَل» تأتى أحياناً بمعنى «عند» وأحياناً أخرى بمعنى «القدرة»، يمكن أن يكون معنى الجملة: الشىء الذى ليس عندهم (وليس فى عهدتهم) أو الشىء الذى لا يقدرون عليه ولا يطيقونه ۶۲۴].

وهذه الحقيقة قد أثبتتها التجارب الكثيرة، فالوالى إذا كان يفكر بأمر الرعيّة، وتحرك المسؤولون للتخفيف عن الضرائب التى تثقل كاهلهم ولم يحمّلوهم ما ليس فى طاقتهم من الوظائف والتكاليف، فإنّ ذلك من شأنه تقوية الرابطة العاطفيّة وتوثيق العلاقة بينهم وبين الحكومة، هذه العلاقة الحميمة يمكنها أن تلعب دوراً فاعلًا فى حلّ الأزمات والمشاكل المعقدة.

وهنا نقطة مهمّة أيضاً، وهى أنّ الإمام عليه السلام يتحدّث عن عوامل حسن الظن للوالى برعيته لا حسن ظن الرعيّة بالوالى، فى حين أنّ المناسب حسب الظاهر أن يكون التعبير الأوّل فى مثل هذه الموارد أنسب، ولكن مراد الإمام عليه السلام التأكيد على أنّ الولاة وزعماء الامّة يسدون الخير والمعروف للرعية إلى درجة أنّهم يطمئنون إلى تأييدهم ووفائهم لهم.

وعلى هذا الأساس يقول الإمام عليه السلام فى سياق كلامه:

«فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِى ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً[۶۲۵] طَوِيلًا».

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۴۸

وبديهى أنّ الوالى عندما يسىء الظن برعيته فإنّه يحتمل دوماً أن يثور الناس ضده أو يتعاملون معه بآليات التآمر والخيانة، وهذا التذكير والموقف السلبى من الرعيّة يجعله يعيش دائماً حالات التوجس والخوف وعدم الاطمئنان، ولكن عندما يطمئن الوالى لوفاء الرعيّة له وتأييدهم لحكومته فإنّه سيتحرك على مستوى تدبير ونظم الأمور وإعمار البلاد ودفع شرّ الأعداء براحة بال وثقة بالنفس.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام شرحه لهذه التوصية بعبارات بليغة أخرى يقول:

«وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ ۶۲۶] عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ».

وهذه إشارة إلى أنّ الإحسان للرعية يسبب حسن الظن بهم، فكلما زاد إحسانك لهم زاد حسن الظن بهم، وكما أنّ الإساءة لهم تتسبب فى سوء الظن، فكلما إزدادت الإساءة إزداد سوء الظن أيضاً.

وجاء فى كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة: «كان ابن عباس يقول: ما رأيت رجلًا أوليته معروفاً إلّاأضاء بينى وبينه، ولا رأيت رجلًا أوليته

سوءً إلّا أظلم ما بينى وبينه»[۶۲۷].

ونستوحى ممّا تقدم هذه النتيجة، وهى أنّ الأشخاص الذين وقعوا مورد العقوبة والمؤاخذة، مهما كان الدليل والمسوغ، فإنّ على الوالى والحاكم أن يلتزم جانب الحذر منهم ويتجنب حسن الظن بهم.

نفحات الولايۀ، ج ۱۰، ص: ۳۴۹

يذكر الإمام عليه السلام فى سياق كلامه نقطة مهمّة أخرى، ويحذر مالك الأشتر من نقض السنن والتقاليد الصالحة، ويقول:

«وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ[۶۲۸] هَذِهِ

الْأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ».

وتأتى كلمة «سنّة» على معنيين: فأحياناً يراد منها العادات والتقاليد الموروثة من الأسلاف والقدماء، وهذه بدروها على قسمين: حسنة وسيئة، كما ورد هذا المعنى فى الحديث الشريف المعروف عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

«مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً عَمِلَ بِها مَنْ بَعْدَهُ كانَ لَهُ أجْرُهُ وَمِثْلُ أُجُورِهِمْ مِنْ غَيْرِ أنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِها بَعْدَهُ كانَ عَلَيْهِ وِزْرُهُ وَمِثْلُ أوْزارِهِمْ مِنْ غَيْرِ أنْ يَنْقُصَ مِنْ أوْزارِهِمْ شَيْءٌ»[۶۲۹].

والمعنى الثانى للسنّة: كلام النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وفعله وتقريره، وكلام الإمام عليه السلام فى هذه العبارة ناظر إلى المعنى الأوّل بقرينة جملة:

«وَلا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ ...»

مثلًا: أن يقوم شخص أو جماعة فى كلّ اسبوع معين من السنة بوصفه اسبوع الإحسان إلى اليتامى أو اسبوع تنظيف المساجد، أو غرس أنواع الأشجار دون أن ينسبوا هذا الأمر للشرع المقدّس وتبقى هذه السنّة الصالحة ويعمل بها جملة من الناس وتفرز معطيات حسنة على المستوى العام، فالإمام عليه السلام يأمر مالك الأشتر بأن لا ينقض مثل هذه السنن الخيرة بل يترك الناس يعملون بها وينتفعون من بركاتها.

وطبعاً إذا كانت السنن فاسدة ومفسدة من قبيل ما كانت متداولًا فى زمان الجاهليّة من ظاهرة الثأر والانتقام ووأد البنات وأمثال ذلك، فينبغى التصدى لمثل هذه السنن الخرافية والخاطئة وغير الإنسانيّة.

ويشير تاريخ الإسلام إلى أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله قد أمضى السنن الصالحة للقدماء

نفحات الولايۀ، ج ۱۰، ص: ۳۵۰

ولم ينقضها أبداً، من قبيل السنن التى تركها عبدالمطلب فى قومه، ولكنّه حارب السنن الخرافية والسيئة ودعا إلى تركها ونبذها.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام هذا الموضوع بصورة أخرى ويقول:

«وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِى تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا».

وفى الحقيقة يريد الإمام عليه السلام القول: إنّ السنن الصالحة للقدماء لا ينبغى لك نقضها لا بصورة مباشرة ولا من خلال إيجاد العوائق أمامها ليتركها الناس، بل عليك بحفظ هذه السنن والتقاليد لينتفع الناس منها فى حال ممارستها والمداومة عليها.

وحول أهميّة السنن الحسنة وفرقها مع البدع وكذلك مع السنن السيئة وإفرازاتها فى المجتمعات البشرية، سنتحدّث عن ذلك فى خاتمة هذا البحث.

وفى آخر توصية الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الرسالة العهدية، يأمر الإمام عليه السلام مالك الأشتر بأن يكون إلى جانب العلماء والحكماء ويقول:

«وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ[۶۳۰] الْحُكَمَاءِ، فِى تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ

النَّاسُ قَبْلَكَ».

وفی الحقیقة فإنّ الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من وصایاه لمالک الأشتر یؤکّد له السعی فی الاستزادة من العلم والمعرفة فیما یتصل بالأحکام والموضوعات وذلک من خلال الإرتباط بالعلماء وأهل الخبرة ومجالستهم حتی یتعرف أکثر علی الأحکام الإلهیّة وکیفیة إدارة الأمور فی حکومته وینتفع من تجاربهم فی تشخیص الموضوعات المهمّة، وعندما تزداد معرفة الوالی بالنسبة لهذین القسمین، فإنّ ذلک من شأنه إصلاح أمر البلاد وبقاء السنن الحسنة للماضیین فی واقع الحیاة الاجتماعیّة.

وینقل الشیخ الکلینی فی الجزء الأوّل من اصول الکافی فی باب تحت عنوان

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۵۱

«بابُ مُجالَسَةِ الْعُلَماءِ وَصُحْبَتِهِمْ» عدّة روایات فی هذا المجال، منها:

عن الإمام صادق علیه السلام فی حدیث أنّه قال:

«لَمَجْلِسٌ أَجْلِسُهُ إِلَی مَنْ أَثِقُ بِهِ أَوْثَقُ فِی نَفْسِی مِنْ عَمَلِ سَنَةٍ»[۶۳۱].

وفی حدیث آخر عن لقمان ینصح فیه ابنه ویقول:

«یا بُنَیَّ اختَرِ المَجالِسِ عَلی عَینِکَ فإنْ رَأَیتَ قَوماً یَذکُرُونَ اللَّهَ جَلَّ وَعَزّ فاجلِس مَعَهُم فإنْ تَکُنْ عَالِماً نَفَعَکَ عِلْمُکَ، وإنتْ تَکُنْ جاهِلًا عَلّمُوکَ، وَلعلّ اللَّهُ أنْ یُظِلّهُم برحمَتِهِ فَیَعُمُّکَ مَعَهُم، وَإذا رَأَیتَ قَوماً لایَذکُرُونَ اللَّهَ فَلا تَجلِس مَعَهُم، فإنْ تَکُنْ عَالِماً لَمْ یَنفَعُکَ عِلمُکَ، وإنْ کَنتَ جَهلًا یَزیدُوکَ جَهلًا، وَلعلّ اللَّهُ أنْ یُظلّهم بعُقُوبَةٍ فَیَعُمُّکَ مَعَهُم»[۶۳۲].

وفی الدعاء المعروف بدعاء أبی حمزة الثمالی یتحدّث الإمام زین العابدین علیه السلام عن عوامل سلب التوفیق ویقول:

«أَوْ لَعَلَّکَ فَقَدْتَنِی مِنْ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ فَخَذَلْتَنِی».

ومن جملة برکات مجالسة العلماء ومحادثتهم أنّ الإنسان لا ینسی علومه ومعارفه، ولو لم یعرف شیئاً فإنّه سیتعلمه کما ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام فی کلام آخر له، قال:

«مَنْ أَکْثَرَ مُدارَسَةَ الْعِلْمِ لَمْ یَنْسَ ما عَلِمَ وَاسْتَفْادَ ما لَمْ یَعْلَمْ»[۶۳۳].

تأمّل

سبب ظهور السنن

کلمة «سنّة» فی الأصل من مادة «سنّ» (علی وزن فن) وتعنی إجراء الماء علی الوجه، ثمّ اطلقت علی کلّ أمر فیه جریان وسریان، وتشمل جمیع العادات والآداب الحسنة والسیئة من قِبل شخص أو فئة فی المجتمع، ولهذا السبب قسمت إلی سنّة حسنة وسیئة، مثلًا: اقرار برنامج مستمر فی کلّ عام من أجل إکرام الیتامی، أو المصالحة بین المتخاصمین والمتشاحنین، هذا یعتبر سنّة حسنة، وأمّا ما جرت علیه

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۵۲

عادة العرب فی الجاهلیّة من وأد البنات فی التراب أو ما علیه بعض الشبّان فی عصرنا الحاضر من اللعب بالمواد المتفجرة فی یوم الأربعاء من آخر کلّ سنة یعتبر سنّة سیئة.

وقد ورد فی الروایات الإسلامیّة بحوث کثیرة عن الأشخاص الذین یضعون سنّة حسنة أو سنّة سیئة، وقد تقدّمت بعض النماذج والأمثلة عن هذه المسألة فی البحوث السابقة، وقد ورد التأکید فی هذه الروایات علی أنّ من یضع سنّة حسنة فله أجر وثواب بقدر الأشخاص الذین یعملون بها دون أن ینقص من ثوابه شیء، وأمّا الأشخاص الذین یضعون سنّة سیئة فإنّهم یحملون وزراً بعدد الأشخاص الذین

يعملون بها وتكتب فى صحيفة أعمالهم دون أن يقل من عقوبة المرتكبين لهذه الأعمال السيئة، وهذا فى الواقع من قبيل التسبيب والتعاون على الخير والشر، لأننا نعلم أنّ الإنسان تارة يقوم بعمل بشكل مباشر وأخرى بالتسبيب بإيجاد سنّة حسنة أو سيئة ممّا يدعو الآخرين للإقتداء به.

ومعلوم أنّ مسألة السنن والتقاليد الاجتماعيّة لا ـ ترتبط بالبدع كما تصور بعض الوهابيين المتعصبين، لأنّ البدعة هى ما ينسب إلى الشارع المقدّس والقرآن الكريم وسنّة نبى وليست منها، ولكن السنن والتقاليد المتداولة هى نوع من البدع العرفيّة والاجتماعيّة دون إسنادها إلى الشرع المقدّس، فلو أنّها كانت تصب فى مسير أهداف الشريعة المقدّسة، مثل إكرام اليتامى ومساعدة المحرومين فهى سنّة حسنة ومحبّذة وإذا كانت على خلاف ذلك مثل وأد البنات فى الجاهليّة فهى سنّة سيئة وغير محبّذة.

ومن هنا يتبيّن ما عليه الوهابيون المتعصبون من موقفهم المخالف لبعض المظاهر العرفية والدينيّة من قبيل الاحتفال بميلاد النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو إقامة مراسم العزاء على الأموات، وهو ناشىء من سوء فهمهم وخلطهم السنّة بالبدعة، فى حين أنّ الروايات التى تتحدّث عن السنّة الحسنّة والسيئة واردة فى كتبهم ومدوّناتهم ۶۳۴].

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۵۳

القسم العاشر

اشارة

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَايَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْض، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْض فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِى الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِى كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه و آله عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً.

الشرح والتفسير: الطبقات الاجتماعيّة المختلفة

اشارة

فى هذا المقطع من عهد الإمام عليه السلام المعروف يتطرق الإمام لأحد أهم البحوث الاجتماعيّة والسياسيّة ويقسم الناس فى المجتمع إلى سبع طبقات أو سبع شرائح وفئات، وقبل أن نستعرض هذه الأقسام والفئات نشير إلى هذه النقطة التى أشار إليها بعض شرّاح نهج البلاغة، وهى أنّ الإنسان خلق اجتماعياً «مدنى بالطبع» لأنّه من جهة يعيش حاجات متنوعة وكثيرة لا يستطيع كلّ فرد لوحده أن يؤمن هذه الحاجات، مضافاً إلى أنّ كلّ فرد لا يقنع بحياة تسير على وتيرة واحدة، بل إنّ المجتمع البشرى يسير دائماً نحو التحوّل والتكامل، وهذا التكامل يستدعى تنوع الحاجات وزيادتها، ومن أجل حلّ المشكلات وإشباع هذه الحاجات المتنوعة لا يوجد طريق عقلائى سوى أن تقوم كلّ جماعة بإشباع بعض هذه الحاجات، ويتمّ التبادل مع الآخرين فى واقع الحياة الاجتماعيّة لينتفع الجميع من عملهم وأتعابهم،

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۵۴

فجماعة منهم يتولون مسؤوليّة النظم والأمن، وجماعة أخرى يهتمون بالزراعة والرعى لتأمين المواد الغذائيّة، وفئة منهم يختصون بأمر التعليم وتربية الأبناء والجيل الناشىء، وفئة يتجهون نحو الصناعات المختلفة، آخرون يتكفلون مسألة الطب وعلاج المرضى، وجماعة

يأخذون على عاتقهم أمر القضاء وفصل الخصومات و ... الخ.

وقد وصل الحال فى هذا العصر إلى حدٍّ أنّ تأمين حاجات البشر فى مورد واحد يستدعى وجود مئات أو آلاف الفروع التخصصية، وكل جماعة يعملون فى فرع خاص منها.

وعلى هذا الأساس قسّم الإمام عليه السلام المجتمع إلى سبع طبقات، وهى فى الواقع سبعة أعمدة لخيمة الحياة الاجتماعيّة، رغم وجود طبقات أخرى أيضاً يمكن فرضها فى واقع المجتمع، ولكن العمدة والأساس هى سبع طبقات أو سبع شرائح اجتماعيّة.

يقول الإمام عليه السلام: «يا مالك» اعلم أنّ الناس فى المجتمع أو البلد يتشكلون من فئات متعددة وأنّ كلّ فئة منهم لا تستغنى فى صلاحها إلّابالأخرى، وكل واحد منها تحتاج إلى أخرى.

فجماعة يمثّلون جنود اللّه (وهم الذين يتكفّلون حفظ الأمن والنظام فى المجتمع ويتولون الدفاع عنه فى مقابل الأعداء).

وفئة أخرى هم الكتّاب من العامّة والخاصّة (ومسؤوليتهم حفظ الحسابات الماليّة للحكومة وتنظيم الميزانيّة وتثبيت الأسناد والوثائق وتعليم وتربية الناس).

وفئة ثالثة هم القضاة الذين يتولون إقامة العدل والفصل بين الخصومات وإحقاق الحقوق.

وفئة أخرى هم العاملون بالانصاف والرفق، وهم الموظفون فى الدوائر الحكوميّة.

وفئة تتولى أخذ الجزية والخراج من غير المسلمين الذين يعيشون فى ظلّ الحكومة الإسلاميّة، (ويدفعون الضرائب فى مقابل حفظ أنفسهم وأموالهم من قِبل الحكومة الإسلاميّة).

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۵۵

والمسلمون الذين يعملون فى الأراضى الخراجيّة ويدفعون خراجها إلى الدولة.

وجماعة أخرى من التجّار وأهل الصنائع، وجماعة من الطبقة السفلى من المحرومين والمساكين (والعجزة والمسنين الذين لا يقدرون على الكسب والعمل:

«وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَايَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِى الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ».

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إشارة إجماليّة لحقوق ووظائف كلّ منها، ثمّ يفصّل الكلام عن خصوصيات وصفات ووظائف وحقوق كلّ واحدة من هذه الفئات والطبقات.

ويقول عليه السلام فى إشارة إجماليّة:

«وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِى كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً».

ومعلوم أنّ المراد من جنود اللّه هم أفراد الجيش الذين يتولون حفظ الثغور وحدود البلد الإسلامى فى مقابل هجوم الأعداء.

أمّا الفئة الثانية التى عبّر عنها الإمام عليه السلام بكتّاب العامّة والخاصّة، فالكتّاب الخاصّة هم الذين يكتبون الكتب الرسمية للوالى والمسؤولين ويحفظون أسرار الحكومة ويوقّعون على العقود المهمّة كعقود الصلح وأمثالها، وأمّا الكتّاب العامّة فهم جميع الموظفين الذين يتولون أمر حساب النفقات والواردات لخزينة الدولة ويتولون أمور القروض وتسديدها ويجمعون مطالب الناس، وربّما يشمل هذا المعنى فى عصرنا مراكز التعليم والتربية للشبّان والفتيات.

أمّا قضاة العدل فيشمل جميع الموظفين فى جهاز القضاء الإسلامى وعلى رأسه القضاة.

وأمّا عمّال الانصاف والرفق، فهو إشارة للُامراء والولاة على المحافظات لإدارة المدن والمناطق المختلفة فى البلد الإسلامى، وإضافة كلمة «الإنصاف والرفق»

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۵۶

إشارة إلى أنّه يجب انتخابهم من بين الأشخاص الذين يتمتعون بهاتين الصفتين:

الانصاف من خلال إيصال الحقوق إلى أصحابها، وكذلك يتعاملون مع الناس بآليات الرفق والمداراة والمحبّة.

وأمّا أهل الجزية والخراج فهى إشارة إلى فئتين من المواطنين فى البلد الإسلامى، فأهل الجزية إشارة إلى غير المسلمين من أهل الكتاب الذين يعيشون فى كنف الحكومة الإسلاميّة ويدفعون ضرائب سنوية، وهى فى الغالب مبلغ زهيد، للحكومة، وفى مقابل ذلك تتولى الحكومة الإسلاميّة الدفاع عن حقوقهم وحفظ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

والقسم الثانى هم الزراع الذين يتولون زراعة الأراضى المتعلقة بالمجتمع الإسلامى، (وتدعى الأراضى الخراجيّة) ويقومون بأمور الزراعة والبستنة فى مقابل دفع مبلغ من المال فى كلّ عام بعنوان الخراج، وهو فى الواقع ثمن اجرة تلك الأراضى.

أمّا التجّار وأهل الصناعات الذين يذكرهم الإمام عليه السلام بوصفهم شريحة مهمّة من شرائح المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت وكذلك فى هذا العصر، الإمام يوصى بعدّة وصايا فى هذه الرسالة العهدية فيما يتعلق بهم.

وآخر فئة من الفئات السبع هى الطبقة السفلى ويتشكلون من العجزة والمسنين والمعاقين وأهل الحاجات الخاصّة الذين يؤكّد الإمام عليه السلام كثيراً فى هذه الرسالة على ضرورة الاهتمام بأمورهم أكثر من أى فئة أخرى من هذه الفئات السبع التى ذكرها الإمام عليه السلام فى كلامه.

تأمّل

الشرائح الاجتماعيّة

يعبر عنها أحياناً الطبقات الاجتماعية، كلمة «طبقة» فى اللغة تأتى لمعانٍ كثيرة

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۵۷

متقاربة، من قبيل: جماعة، مرتبة، نسل، صنف، وطبقات الأرض أو طبقات البناية، وفى هذا المقطع من الرسالة جاءت بمعنى الشريحة الاجتماعيّة، ولكنّ هذه المفردة تستخدم فى عصرنا الحاضر للإشارة إلى الفئات التى تعلو كلّ واحدة منها على الأخرى فى الامتيازات والمقامات، ومن هنا فإنّ الحياة الطبقية تشير إلى الحياة التى يعيش فيها جماعة من الأثرياء وجماعة من الفقراء فى المجتمع، ومن هذه الجهة يتبادر إلى الذهن مفهوم سلبى عن هذه الكلمة، وطبعاً فإنّ هذا المفهوم السلبى ليس هو المعنى اللغوى فى الأصل، وكلام الإمام عليه السلام بدوره لا يشير إلى هذا المعنى السلبى للطبقيّة.

وهذه الكلمة من مادة «طَبَق» وتعنى المساواة بين شيئين، ولذلك تستخدم كلمة المطابقة والتطابق بهذا المعنى.

وربّما يتصور البعض وجود مجاميع وفئات أخرى فى المجتمع البشرى لا ـ ينضوون تحت أى عنوان من هذه العناوين السبعة، ومن ذلك: طبقة العمّال، الاستخبارات، عمّال الحسبة، وهم الأشخاص الذين يتولون الإشراف على الأمور الأخلاقيّة فى المجتمع والمسؤولين عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأمثال ذلك.

ولكن مع التدقيق فى المسألة يمكننا إدخال كلّ هذه الفئات تحت مجموعة من هذه المجاميع السبع المذكورة، مثلًا عمّال الحسبة يدخلون تحت مظلّة جماعة القضاة، والعمّال يندرجون فى فئة «أَهْلَ الصِّناعَات»، والكسبة يدخلون تحت عنوان التجّار، وأفراد الاستخبارات تحت عنوان «عُمّالُ الإنْصافِ وَالرِّفْق».

***

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۳۵۹

القسم الحادى عشر

اشارهٔ

فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللَّهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ. ثُمَّ لَاقِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِى يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ. ثُمَّ لَاقِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا. وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِى الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لَايَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ. ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ. وَفِى اللَّهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِى حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ، وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِى مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالِاهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ.

الشرح والتفسير: الأواصر بين الطبقات الاجتماعيّهٔ

أشار الإمام عليه السلام فى المقطع السابق من هذه الرسالهٔ إشارهٔ إجماليّهٔ شاملهٔ إلى سبع فئات أساسيّهٔ فى المجتمع الإسلامى، ثمّ شرع فى هذا المقطع والمقاطع التاليهٔ بشرح الوظائف والمسؤوليّات الملقاهٔ على عاتق على كلّ واحدهٔ من هذه الفئات، وبما أنّ قوات الأمن والجيش تعدّ أهم ركن من أركان المجتمع فقد بدأ الإمام عليه السلام

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۳۶۰

بهذه الشريحهٔ.

يقول عليه السلام:

«فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللَّهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ، وَعِزُّ[۶۳۵] الدِّينِ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ».

فى هذه الجمل الوجيزهٔ يبيّن الإمام عليه السلام خمسهٔ نتائج ايجابيهٔ ومعطيات مهمّهٔ لوجود أفراد الأمن والجيش المخلصين.

الأوّلى: أنّهم حصون الرعيّهٔ، وهذا يعنى أنّ البلاد ومن أجل حفظها من خطر الأعداء تحتاج إلى حصن حصين وملجأ آمن، وهذا الحصن والملجأ يتمثّل بأفراد الجيش الإسلامى المقتدر، لأنّ كلّ أشكال الضعف والفتور فى القوات العسكريهٔ يؤدّى إلى طمع الأعداء ويورث أنواع المشكلات للمجتمع الإسلامى، وفى الماضى وبما أنّ الأسلحهٔ كانت بسيطهٔ جدّاً وابتدائيهٔ فإنّ وجود الحصون والقلاع القويهٔ من شأنه أن يمنع الكثير من الأخطار والأضرار، رغم أنّ وجود هذه الحصون فى هذه الأيّام ومع تطور الأسلحهٔ من طائرات حربيهٔ وصواريخ ومدافع بعيدهٔ المدى لم يعدّ مؤثراً كثيراً فى ميزان القوى.

الثانيهٔ: يعتبر الإمام عليه السلام أنّ الجيش زينهٔ القيادهٔ والحكومهٔ، لأنّ الحاكم أو القائد يحضى باحترام عامّهٔ الناس ويملك القدرهٔ والنفوذ فى أمر الولايهٔ، وهذه القدرهٔ تتمثّل فى الدرجهٔ الاولى بوجود جيش قوى ومطيع لأوامر القيادهٔ.

الثالثهٔ: أنّ الجيش سبب عزّهٔ الدين وقدرته، وهذه إشارهٔ واضحهٔ إلى هذه الحقيقهٔ، وهى أنّ الأمور المعنويّهٔ للناس لا تتيسر من دون وجود جيش قوى وفاعل، وقسم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإحقاق الحقوق وإجراء الحدود وبسط العدل وإقامهٔ القسط، يحتاج إلى القدرهٔ الكافيهٔ لتجسيدها وترجمتها

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۶۱

على الأرض والواقع الاجتماعى، وهذا مرتبط بوجود جيش قوى.

الرابعة: يتحدّث فيها الإمام عليه السلام عن حالة الأمن الذى يتحقق بواسطة الجيش القوى، ويشير إلى أنّ الجيش القوى ليس فقط يتولى اخراج العدو من أراضى المسلمين: بل «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم»[۶۳۶]، أى يخيف أعداء الداخل أيضاً، أو بمعنى أنّ الجنود فى هذا المورد أعم من قوى الأمن والجيش، أو يراد بذلك أنّ الحكومة الإسلاميّة وفى موارد استثنائية لا تتمكن فيها قوات الأمن والشرطة من تحقيق الأمن فى ربوع المجتمع الإسلامى، فإنّها تعتمد على الجيش فى هذا الأمر لتحقيق الأمن فى فضاء المجتمع.

الخامسة: يقول الإمام عليه السلام: إنّهم قوام الرعيّة، وربّما تكون هذه الجملة بمثابة النتيجة لما سبق بيانه فى الجمل الأربع السابقة، ويحتمل أيضاً أن تكون جملة مستقلة، والمراد منها أنّ الجيش فى الكثير من المواقع يهب لمساعدة الناس فى الزلازل والسيول والحوادث الطبيعية الصعبة، بحيث تضطر الدولة للإستعانة بقوات الجيش لمساعدة الناس.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام الإرتباط الوثيق بين هذه الفئة من المجتمع مع الفئات الأخرى ويتحدّث عن الرابطة بين الجيش وعمّال الخراج:

«ثُمَّ لَاقِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِى يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ».

ويستفاد من تاريخ الإسلام أنّ الجيش الإسلامى لم يكن فى عصر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بشكل شريحة منفصلة ومستقلة عن المجتمع، بل إنّ كلّ أفراد المجتمع من الشبّان والشيوخ، الكبار والصغار الذين يستطيعون حمل السلاح يهبون للدفاع عن الإسلام والمسلمين فى مقابل الأعداء ويتّجهون مع النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلى ميادين الحرب والقتال، وفى الغالب يهيئون سلاحهم ودوابهم بأنفسهم، ومعلوم أنّ النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۶۲

وقبل حركة الجيش نحو ميدان القتال يأمر بتجهيز الزاد والمتاع لأفراد الجيش من طريق الزكاة والتبرعات التى يقدّمها المسلمون فى سبيل اللَّه.

ولكن فى العصور اللاحقة وبعد أن اتسعت الدولة الإسلاميّة وإمتدت إلى مساحات وبلدان كبيرة ولضطرت الحكومة لتجهيز جيش مدرّب ومهنى لمقابلة الأعداء، واضطر المسلمون لتنظيم جيشهم وتوفير المعسكرات اللازمة له [۶۳۷].

وأساساً فإنّ مدينة الكوفة عرفت بأنّها «كوفة الجند» وكانت بمثابة معسكر كبير للجيش الإسلامى.

طبعاً كان الأفراد العاديون يلتحقون بالجيش فى المواقع الحساسة ويؤدّون دورهم تحت عنوان الجهاد فى سبيل اللَّه والذى هو وظيفة جميع الأفراد القادرين على الجهاد.

على أيّة حال فإنّ هذه الفئة التى وضعت نفسها فى خدمة الإسلام وحفظ ثغور المسلمين والدفاع عن حياضهم ينبغى أن يعيش أفرادها الطمأنينة وفراغ البال من معيشتهم وممّا يحتاجونه فى حياتهم المادية، ولذلك وضع الإسلام ضرائب خاصّة تدعى بالخراج وكذلك وضع سهماً من الزكاة بعنوان: فى سبيل اللَّه، لهؤلاء الجند.

والجمل الثالث المذكوة أعلاه ربّما تكون إشارة إلى حاجات الجند المختلفة، فجملة

«الَّذِينَ يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ»

إشارة للحاجات التى تتصل بالحرب والقتال من قبيل السلاح والمركب.

وجملة:

«وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ»

إشارة لتأمين ضروريات الحياة.

وجملة:

«وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ»

إشـارة إلى الأـمور الترفيهيـة، وذهب بعض الشـرّاح إلى أنّ المراد من هـذه الجملـة أنّ أفراد الجيش لابـدّ أن يكـون لهم مرتب مسـتمر وحقوق ماليّة من شأنها رفع جميع حاجاتهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يبيّن إرتباط هاتين الفئتين مع الفئة الثالثة والرابعة والخامسة، أى

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣۶٣

القضاة والموظفين والمحاسبين، ويقول:

«ثُمَّ لَاقِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ[۶٣٨]، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا».

وفى الواقع أنّ الإمام عليه السـلام فى هـذه العبارة النورانيّة أدغم ثلاث فئات من الفئات الاجتماعيّة فى صـنف واحد، وبعنوان الصـنف الثالث فى مقابل الصنفين السابقين، أى الجيش وعمّال الخراج، وذكر لكلّ واحد من هذه الأصناف أثر اجتماعى مهم.

فبالنسـبة للقضاة يقول عليه السـلام: إنّهم يعملون على إحكام العقود، لأنّه لولا إشرافهم ومراقبتهم لهذه العقود والمواثيق فإنّ الكثير من الناس يجدون الفرصة فى عدم الالتزام بعهودهم، ولكن وجود المحاكم العادلة يعمل على ضـبطهم والتزامهم بالعقود، لأنّهم سيكونون ملاحقين من قبل المحاكم ويعاقبون على مخالفتهم.

ويتحـدّث الإمـام عليه السـلام عن العمّـال أى المـوظفين والولاـة والمسؤولين الـذين يتولون الإشـراف على جمع المنـافع، فصـحيح أنّ المأمورين على جمع الضرائب والخراج يتحركون على مستوى جمعها وإرسالها لبيت المال، ولكن المشرف على أعمالهم وسلوكياتهم هم العمّال، يعنى الولاة ورؤساء مجالس المحافظات والنواحى التابعة لهم.

ويبيّن الإمـام عليه السـلام فائـدة وجود الكتّـاب، وذلك فى ضـبط الأمور العامّـة والخاصّـة والنفقات وحساب بيت المال والميزانيّـة فى الحكومة الإسـلاميّة، وعندما تتضامن وتتكاتف هذه الفئات الثلاثة فسيتمّ إصـلاح أمر الخراج والضـرائب، ومع إصلاحها سيتمّ إصلاح وضع الجنود وقوات الحرس والأمن.

وذهب بعض شـرّاح نهج البلاغة إلى أنّ هذه الفئات الثلاثة صنف واحد وتتلخص فى القضاة والعمّال، وما ورد فى الجمل الثلاثة يعود إلى القضاة، فى حين أنّهم ثلاث

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣۶۴

فئات اجتماعيّة قطعاً، وسـبق أن أشار إليها الإمام عليه السـلام فى كلامه، وفى هذا المورد أيضاً، ذكر الإمام عليه السلام وظيفة وبرنامج كلّ واحدة منها، بالرغم من وجود الارتباط القريب والوثيق بينها، ومن هنا ذكرت هذه الفئات بوصفها صنف ثالث.

وربّما يطرح هذا السؤال نفسه، وهو أنّ الإمام عليه السلام سبق وأن أشار إلى صنفين، وطرح مسألة جمع الخراج بوصفها الصنف الثانى فكيف يكون العمّال هنا واحدة من الفئات الثلاثة التى يتشكل منها الصنف الثالث؟

والجـواب على هـذا السـؤال أنّ الإمـام عليه السـلام كـان يتحـدّث فى بدايـة كلامـه عن الجيش والمزارعين الـذين يزرعون الأراضـى الخراجيّـة ويدفعون الخراج إلى الحكومة، ولكنّه فى هذا المورد يتحدّث عن عمّال الدولة، أى الولاة والمحافظين الذين يقع على عاتق أمر الإشراف على جمع الخراج ويتصدى موظفيهم لجمعه.

والجـدير بالـذكر أنّ العمّـال جمع «عامل» وردت فى كلمات الإمام عليه السـلام كرات عديـدة ويراد بها منصب المحافظ والقائم مقام وغير ناظر إلى ما ورد فى القرآن الكريم فى مورد الزكاة من قوله: «

عامِلِينَ عَلَيْها

» أى المأمورون على جمع الزكاة.

والتعبير ب «

خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا

» إشارة إلى أنّ عمل الكتّاب تارة يتحدد فى إثبات وضبط المسائل السرّيّة، وأخرى يرتبط بإثبات النفقات والموارد الماليّة الاعتيادية، فهؤلاء يتولون وظيفة حفظ الاسناد والوثائق وترتيبها، وكذلك حساب النفقات والواردات.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام إرتباط فئة أخرى مع الأصناف السابقة ويقول:

«وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِى الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ ۶۳۹]، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ ۶۴۰] بِأَيْدِيهِمْ مَا لَايَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ».

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۶۵

ومعلوم أنّ جملة: «

فِيمَا يَجْتَمِعُونَ

...» و «

يُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ

» إشارة إلى التجّار والكسبة الذين يقع على عاقتهم تجميع وتوفير ما يحتاجه الناس من المناطق القريبة والبعيدة وعرضها فى الأسواق ووضعها تحت اختيار المستهلكين، ولكن جملة «

وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ

...» إشارة إلى أهل الصنائع الذين يوفرون بتعبهم وعملهم الوسائل التى تحتاجها الناس فى معيشتهم، وذلك بصناعتها بأيديهم (طبقاً لظروف ذلك الزمان) ويضعونها فى اختيار من يحتاجها من الناس.

وربّما يتصور البعض أنّ التجّار ليس لهم دور مهم فى حياة الناس، فلا يقومون بعمل إنتاجى ولا صناعى، ولا يعملون بالزراعة والرعى، فكيف جعلهم الإمام عليه السلام من أركان المجتمع البشرى، ولكن إذا كان التاجر ملتزماً بالقيم الإيمانيّة والأخلاقيّة فإنّه يلعب دوراً مهماً فى نسيج المجتمع، لأنّه من جهة يقوم بتوفير الأجناس والبضائع من مناطق مختلفة من العالم لا تتوفر فى مناطق أخرى، فلو أنّ الناس أرادوا الانتفاع من جميع النعم والبركات الإلهيّة على الأرض، فينبغى أن تتولى جماعة نقل هذه البضائع التى يحتاجها الناس من نقطة إلى أخرى، وهذه الجماعة هم التجّار، ومن جهة أخرى ففى الموارد التى يتولى فيها أهالى المدينة الواحدة إنتاج ما يحتاجونه من البضائع واللوازم المعيشية فإنّ المنتجين فى الغالب لا يستطيعون عرض ما ينتجونه فى السوق ويبيعونه إلى المشترين، بل يضطرون لبيع منتوجاتهم جملة واحدة لشخص يملك رأس مال كافٍ، ويتولى ذلك الشخص بيعها إلى الكسبة فى السوق، والكسبة بدورهم يبيعونها إلى المشترين.

ومن جهة ثالثة فإنّ الكثير من المحاصيل الزراعية والمنتوجات الصناعية التى ربّما لا يتسنى لها التصريف والبيع فى محل إنتاجها وينبغى جمعها وعرضها على السوق، فهنا يجب أن تتولى جماعة هذا العمل على أساس أنّه من الصادرات

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۶۶

والواردات، وهذه الجماعة هم التجّار وبخاصة المحاصيل التى تحتاج فى حفظها وإدخارها إلى مخازن مجهّزة خارجة عن عهدة المنتج وأرباب الصناعات، فالتجّار لهم دور مهم فى هذه الأمور الثلاثة، وهذا يعنى أنّ وجود هاتين الواسطتين «التجّار والكسبة» ضرورى لغرض تداول أموال المحاصيل والمنتوجات بشكل صحيح، ولكن إذا تعددت الوسائط وأرادت كلّ جماعة أن تستغل التجار

بدون أن توفر عملًا إيجابياً وتريد زيادة ثمن البضاعة أو المنتوجات الزراعية والصناعية، أو يقوم بعض التجّار والكسبة باحتكار البضائع أو تداولها من يد إلى أخرى وتشكيل سوق سوداء بأثمان زائفة ووهميّة، فذلك يعدّ انحرافاً فى التداول الاقتصادى للمال ولا يرتبط بمسألة التجارة.

ولهذا السبب نرى أنّ جميع الحكومات جعلت إحدى الوزارات باسم وزارة التجارة من أجل الإشراف على أمر التجارة، بل تساهم فى مدّ يد العون للتجار واعطائهم رؤوس أموال لازمة للقيام بعمليّة الصادرات والواردات، وهذا العمل يمثّل فى الواقع حلقة مكملة لعمل أصحاب الصناعة والزراعة والرعى.

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام عن الطبقة الدنيا فى المجتمع ويقول:

«ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ ۶۴۱] وَمَعُونَتُهُمْ».

ومن المعلوم أنّ فى كلّ مجتمع بشرى هناك أفراد لا ـ يستطيعون العمل والكسب وهم مستهلكون فقط، وذلك بسبب الشيخوخة، المرض المزمن، الإعاقة فى الأعضاء، وبسبب الحوادث المختلفة، المتخلفون ذهنياً وعقلياً وأمثالهم من ذوى الحاجات الخاصّة، فالكثير من أفراد هذه الفئة كانوا فى السابق وفى أيّام الشباب يعيشون سلامة الجسم والروح ومن المنتجين والفاعلين فى المجتمع، ولكن بسبب مرور الزمان والحوادث المختلفة صاروا بهذه الحالة، فلا ـ العقل ولا ـ الوجدان يقبل أن يهمل هؤلاء ولا تتمّ حمايتهم على المستوى الاجتماعى والاقتصادى، ولهذا السبب

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦٧

نجد فى كافة أقطار الدنيا أنّهم يفتحون حساب خاصّاً لهؤلاء المقعدين ويخصصون قسماً من ميزانيّة الدولة لانفاقه عليهم ويفتحون لهم مراكز لاحتضانهم وحمايتهم، وقد وردت التوصيات الأكيدة فى الإسلام فيما يتصل بالتواصل مع هذه الفئة المحرومة، وقد فرضت الشريعة الإسلاميّة سهماً خاصاً لهم من الخمس والزكاة.

أضف إلى ذلك لو اهملت هذه الشريحة فإنّ ذلك من شأنه إفراز مشكلات مهمّة لباقى الشرائح والفئات الأخرى فى المجتمع، فمن جهة ربّما يسعى أفراد هذه الفئة المحرومة ومن أجل تأمين معيشتهم، لإرتكاب جرائم مختلفة وسلوك طريق الانحراف والجنوح، أو ترى الفئات الأخرى حال هؤلاء فيؤثر ذلك على معنوياتهم ويفكرون فى أنّهم إذا حلّ بهم يوماً ما حلّ بهؤلاء فماذا يكون مصيرهم؟ ولكن عندما يرون أنّ الحكومة والمجتمع سيعتنى بهم ويهب لحمايتهم فى حال إعاقتهم وعجزهم عن العمل والكسب، فإنّهم سيعيشون الأمل فى مستقبلهم.

وعبارة «

أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ ...

» إشارة إلى طائفتين: أهل الحاجة هم الأشخاص الذين يعملون للكسب وتوفير المعيشة ولكنّ عائدهم المالى لا يسدّ نفقاتهم، وأهل المسكنة إشارة إلى العجزة والمقعدين الذين ليس لهم وارد مالى ولا يتمكنون من العمل مطلقاً.

وبعد أن ذكر الإمام عليه السلام وضعية الترابط بين هذه الطبقات الاجتماعيّة، أشار إلى نقطة مهمّة وقال:

«وَفِي اللَّهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ».

وهذه إشارة إلى أنّ جميع هذه الطبقات والفئات ومن أجل التوصل لتحقيق مرادهم، فإنّهم يستمدون المعونة من مصدرين: الأول: مصدر الخلق والرزق، وهو اللّه الذى خلق كلّ هذه المواهب والنعم والإمكانات فى هذا العالم، وكل واحدة من هذه الفئات بإمكانها الانتفاع من هذه المواهب من خلال السعى وبذل الجهد، هذا بحسب عالم التكوين، أمّا بحسب عالم التشريع، فالحكومة الإسلاميّة موظفة بمدّ يد العون لجميع هذه الفئات لإيصالها إلى مقاصدها، لأنّ الحكومة تملك القدرة الماليّة

نفحات الولاية، ج ١٠، ص: ٣٦٨

من جهة، وتملك من جهة أخرى أخرى القدرة التنفيذيّة، وبإمكانها من خلال هاتين القدرتين مساعدة جميع الطبقات الاجتماعيّة.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه فى كيفية أداء الوظيفة الشرعية للوالى بصورة صحيحة، ويقول:

«وَلَيس يَخْرُجُ الْوَالِى مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالِاهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ، وَتَوْطِين ۶۴۲] نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ
ثَقُلَ».

وفى الواقع ذكر الإمام عليه السلام ثلاثة شروط لنجاح الوالى فى أداء وظيفته فى مقابل هذه الفئات الاجتماعيّة وقال: الشرط الأوّل: السعى وبذل الجهد فى هذا السبيل، الشرط الثانى: الاستمداد من لطف اللّه وكرمه، والشرط الثالث: الاستعداد لتحمل الصعاب والمشكلات فى هذا الطريق، ومعلوم أنّ الوالى إذا توكل على اللّه تعالى وسعى جاهداً ومخلصاً، ولم يتردد فى طريق أداء الوظيفة من مواجهة المشكلات والتحديات، فإنّه سينجح فى عمله وسيكتب له التوفيق فى إدارته.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۶۹

القسم الثانى عشر

اشارة

فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِى نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لَايُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ. ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِى الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ، وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ؛ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ. ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِى نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ. وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَايَسْتَغْنُونَ عَنْهُ.

الشرح والتفسير: شروط قادة الجيش

فى هذا المقطع من الرسالة العهدية يتحدّث الإمام عليه السلام بالتفصيل عن شروط قادة الجيش، وهذا من قبيل ذكر التفصيل بعد الاجمال، وفى المجموع يذكر الإمام عليه السلام أربعة عشر صفة لقادة الجيش، ويقول:

«فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِى نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً[۶۴۳]، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً».

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۷۰

وهذه الصفات الثلاث اللازم توفرها فى قادة الجيش، تؤدى: أوّلًا: أن يعيش القائد العسكرى هاجس الحقّ ويفكر فى نصرة الدين واعلاء كلمة التوحيد ونصرة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله والإمام عليه السلام، وثانياً: أن يسعى فى هذا الطريق من موقع الإخلاص والتفانى، ثالثاً: يعمل على تدبير أمور الجيش بآليات المداراة والعقلانيّة والخبرة الكافية.

مفردة «حلم» فى هذا المورد يمكن أن تشير إلى العقل ۶۴۴] ويحتمل أن تأتى بمعنى الصبر وضبط النفس، ولكن الجمل اللاحقة تقوى المعنى الثانى.

وبعد أن يذكر الإمام عليه السلام هذه الصفات الثلاث يشير إلى صفتين أخريين، وهما فى الواقع من باب التفصيل للصفة الأخيرة، يقول:

«مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ».

وبديهى أنّ مراده عليه السلام ليس التساهل وقبول العذر فى مقابل المسائل المهمّة والمصيرية بل المراد التسامح فى مقابل الأخطاء الجزئية التى ربّما يمكن صدورها من جميع الأفراد، فالقائد العسكرى يجب أن يتعامل مع هذه الأخطاء بدم بارد وبآليات التسامح وقبول العذر.

وفى سياق هذا الكلام يتعرض الإمام عليه السلام للصفة الرابعة ويقول:

«وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو[۶۴۵] عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لَايُثِيرُهُ ۶۴۶] الْعُنْفُ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ».

وهذه الصفات الأخلاقيّة من شأن الأشخاص الذين يتمتعون بشخصية قوية وشجاعة، فمثل هؤلاء يتعاملون مع الضعفاء من موقع المحبّة والشفقة، ويتحركون لحمايتهم ومدّ يد العون إليهم، أمّا فى مقابل أصحاب القدرة والثروة فإنّهم يقفون موقفاً صلباً ولا يطأطؤون برؤوسهم لهم، ويحلّون المشاكل التى تواجههم بآليات

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۷۱

العقل والتدبير والحزم، ولا يبدون حالات الضعف والتراجع أمام أى شخص وأى عمل.

وبعد أنّ بيّن الإمام عليه السلام هذه الصفات التسع، يشير إلى ثمان صفات أخرى لابدّ أن يتمتع بها القائد اللائق أو الوالى المحنك، ويقول:

«ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِى الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ، وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ».

«مُرُوءَاتِ

» جمع «مروة» من مادة «مَرء» وتأتى عادة بمعنى أصحاب الشخصيّة المتميزة.

«أَحْسَابِ

» جمع «حَسَب» إشارة إلى أصالة النسب والأبعاد الإيجابية فى الوراثة، كأن نقول إنّ الشخص الفلانى من طائفة بنى هاشم ومن السادات المحترمين.

«أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ

» إشارة إلى الاسر والعوائل النظيفة والمرموقة فى المجتمع.

و «

السَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ

» ناظرة إلى الاسر التى تملك سمعة حسنة، ليس فقط فى هذه الأيّام بل فى الماضى بسبب أعمالهم الصالحة بحيث إنّهم تركوا سمعة حسنة فى الذهنية العامّة.

«النَّجْدَةِ

» فى الأصل تعنى الارتفاع وفى هذا المورد تعنى الرفيع فى المقام والكبير فى الروح والعالى فى مكانته الاجتماعيّة.

«الشَّجَاعَةِ

» وتعنى من يملك الجرأة فى مواجهة الصعوبات.

«السَّخَاءِ

» يعنى الكرم والجود.

و «

السَّمَاحَةِ

» تعنى سعة الصدر والتحلى بالحُلم.

وعلى هذا الأساس فإنّ لكلّ وحدة من هذه الكلمات الثمان معنىً مختلفاً وتشير إلى إحدى الفضائل والصفات المتميزة للإنسان، رغم أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۷۲

ذهبو إلى أنّ بعض هذه الكلمات مترادفة، مثل: «النجدة» و «السخاوة»، وكذلك:

«السخاء و «السماحة»، وهكذا فى «أحساب» و «أهل البيوتات الصالحة».

وعبارة «

أَلْصِقْ

» إشارة إلى الروابط القريبة والعلاقات الوثيقة، وهذا يعنى لزوم إيجاد رابطة عميقة مع هذه الجهات التى تملك هذه الخصائص المتميزة لغرض اختيار قادة الجيش منها.

ولا شك أنّ الأشخاص الذين يملكون مثل هذه الصفات المتميزة يكونون جديرين بالاعتماد عليهم ويتحركون بفاعليّة أكثر فى مسألة كسب النصر والظفر.

أمّا الحسب والوراثة وحسن السابقة والأعمال التى تشير إلى الحلم والشجاعة والسخاء والفتوة فإنّها تصلح أن تكون دليلًا على شخصيّة صاحبها السامية، وفى الحقيقة فإنّ الإمام عليه السلام فى هذا المورد يتحدّث بمنطق علم النفس والتحليل النفسى ليتمكن مالك الأشتر من اختيار أفضل الرجال لقيادة الجيش.

ومن هذه الجهة يواصل الإمام عليه السلام كلامه ويقول:

«فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ ۶۴۷] مِنَ الْكَرَمِ،

وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ».

كلمة «

عُرْف

» إشارة إلى جميع أنواع المحاسن والفضائل، وهذه المفردة من مادة «عرفان» و «معرفة» وتأتى بمعنى المعروف أيضاً، وبما أنّ الفضائل معروفة لدى عقل الإنسان وروحه، فقد وردت التعبير عنها بالمعروف أو العرف، خلافاً للقبائح والرذائل التى لا تتناسب وفطرة الإنسان النقيّة، فهى أمور منكرة وغير معروفة، فيقول الإمام عليه السلام فى هذه العبارة إنّ الأشخاص الواجدون لهذه الصفات الثمان يمثّلون مركزاً مجسّداً للفضائل والصفات الإنسانيّة المتميزة.

وبعد أنّ ذكر الإمام عليه السلام هذه الصفات المهمّة والمتميزة، يتحرك على مستوى بيان أربع توصيات لقادة الجيش فيما يتصل بسلوكهم ونشاطهم بداية يقول:

«ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا».

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۷۳

وعلى ضوء ذلك فقائد الجيش ينبغى أن يتعامل مع القادة فى المراتب الأدنى، بل مع جميع أفراد الجيش، كالوالد الحنون والامّ العطوف، ويتواصل معهم من موقع المحبّة والسؤال والاستفسار عن حاجاتهم وتعميق العلاقة العاطفيّة معهم فيما يتسبب فى بقاء وفائهم وإخلاصهم وطاعتهم لقائد الجيش وثباتهم فى ميدان القتال.

ويضيف الإمام عليه السلام فى التوصية الثانية:

«وَلَا يَتَفَاقَمَنَ ۶۴۸] فِى نَفْسِكَ شَىْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ».

وهذه إشارة إلى أنّ خدماتک مهما تکن کبيرة وکثيرة فينبغى أن تعدّها صغيرة وتفکر فى الإتيان بالأفضل منها.

وفى التوصية الثالثة يقول عليه السلام:

«وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ ۶۴۹] بِهِ وَإِنْ قَلَّ».

ثمّ يقيم الإمام عليه السلام دليلًا لهذه المقولة (وهى الاهتمام بالأمور الکليّة والجزئيّة لقادة الجيش والجنود) ويقول:

«فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَکَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِکَ».

وفى التوصية الرابعة يقول عليه السلام:

«وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّکَالًا عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِکَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَايَسْتَغْنُونَ عَنْهُ».

وهذه النقطة جديرة بالانتباه والتدقيق، وهى أنّ القادة بل جميع مدراء المجتمع الإسلامى لا- ينبغى أن يغفلوا عن الأمور الصغيرة والکبيرة، أو يهتموا فقط بالأمور الکبيرة والمصيرية ويعتنوا بالحاجات المهمّ-ة للمجتمع، بل يضعون کلّ واحدة فى مکانها، لأنّه أحياناً تکون الغفلة عن الأمور الفرعية مضرّة بقدر الغفلة عن الامور الکلّية.

والنقطة الملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام فى جميع المسائل السابقة وبدلًا من اهتمامه

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۷۴

بمسائل التعليم والعسکرى والامور المتعلقة بالأسلحة وأمثال ذلک يهتم بالأمور المعنويّة والأبعاد الروحية لقادة الجيش، لأنّ العنصر الأساس فى تحقيق النصر هو هذه الأمور رغم أنّ الأمور الأخرى لها مکانها المناسب.

فى عالمنا المعاصر قلّما يُبحث، فى مسألة اختيار القادة العسکرين ومدراء المجتمع، عن الخصائص العائليّة والصفات المعنويّة وحالات الکرم والتقوى والطهارة من الرذائل فى شخصيّة الأفراد، ومن هذه الجهة حدثت الکثير من الخيانات الکبيرة من قِبل هؤلاء المدراء والمسؤولين الکبار.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۷۵

القسم الثالث عشر

اشارة

وَلْيَکُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِکَ عِنْدَکَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِى مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَکُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِى جِهَادِ الْعَدُوِّ؛ فَإِنَّ عَطْفَکَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْکَ، وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِى الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ. وإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ، وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ، وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْکِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ، فَافْسَحْ فِى آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِى حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ کَثْرَةَ الذِّکْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاکِلَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ اعْرِفْ لِکُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تَضُمَّنَّ بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ، وَلَا يَدْعُوَنَّکَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا کَانَ صَغِيراً، وَلَا ضَعَةُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا کَانَ عَظِيماً.

الشرح والتفسير: أفضل قادة الجيش

فی هـذا المقطع من الرسالـة یتـابع الإمـام علیه السـلام توصـیاته فی اختیـار قادة الجیش، ویتجه نحو الاهتمام بأمر الجنـد وأفراد الجیش ویوصی مالک الأشتر باختیار القادة والضباط من الذین یهتمون بأمر الجیش بشکل أفضل، یقول علیه السلام:

«وَلْیَکُنْ آثَرُ[۶۵۰]

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۷۶

رُءُوسِ جُنْدِکَ عِنْدَکَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِی مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَیْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ ۶۵۱]، بِمَا یَسَعُهُمْ

وَیَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ ۶۵۲] أَهْلِیهِمْ، حَتَّی یَکُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِی جِهَادِ

الْعَدُوِّ».

وفی عالمنا المعاصـر نری أنّ العلاقة بین قادة الجیش والجنود تتمیز بالجفاف وانعدام الاحساس العاطفی، وتکون العلاقة عسکریة أکثر منها عاطفیـة، فمثل هذه العلاقة تدور فی الغالب حول محور العقوبة والسـجن والتهدید، فی حین أنّ الإمام علیه السـلام أکد قبل أربعة عشر قرناً علی أن تکون العلاقة عاطفیة، وینبغی علی قادة الجیش أن یأخذوا بنظر الاعتبار مشاکل الجنود وحتی مشاکل عائلاتهم أیضاً ویوفروا لهم معیشـة مقبولـة وبالمقدار الممکن، کیما یتحرک الجنود فی میدان القتال بالترکیز علی مسألة الجهاد وقتال الأعداء لا غیر، وبدیهی أنّ مثل هذا الجیش سیکون أقرب لتحقیق النصر والغالبة.

عنـدما ینظر الجیش بعین إلی میـدان المعرکة وبالعین الأخری إلی الأهل والأولاد ویعیشون القلق تجاههم فإنّ إرادتهم علی قتال العدو ستضعف وترتبک.

واللافت أنّ الإمام علیه السـلام راعی فی حیاته الشخصـیّة الحـد الأعلی من الزهد وقد أمر الولاة والقادة أیضاً بهذه التوصـیة، وقد سـبق الحـدیث عن ذلک فی شـرح رسالة الإمام علیه السـلام لعثمان بن حنیف، ولکن بالنسـبة للمجموعات الخاضـعة لکفالته أوصـی بتوفیر المعیشة الکافیة والمعقولة.

ثمّ یتحدّث الإمام علیه السلام فی مقام بیان العلة لهذه التوصیة یقول:

«فَإِنَّ عَطْفَکَ عَلَیْهِمْ یَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَیْکَ».

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۷۷

ومع الالتفات إلی أنّ الضمیر فی

«عَلَیْهِم»

و

«قُلُوبَهُم»

یعود إلی أفراد الجیش ظاهراً، فإنّ معنی هـذا الکلام: عندما تتواصل مع أفراد الجیش بالمحبّة من خلال محبتک قادة الجیش فإنّ أفراد الجیش سیمنحوک حبّهم ووفائهم من صمیم القلب ۶۵۳].

ثمّ یواصل الإمام علیه السلام هذا الکلام ویشیر إلی نقطة مهمّة هی السبب فی دوام الحکومة والدولة، ویقول:

«وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَیْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِی الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِیَّةِ».

وهـذه إشـارة إلی أنّ إقامـة العـدل والقسط تتسبب فی تقویـة العلاقات العاطفیّـة بین الناس من جهـة، والقادة والولاة من جهـة أخری، ولذلک یعتبر إقامة العدل أفضل وسیلة لحفظ الحکومة ودوامها.

ثمّ یشیر الإمام علیه السلام إلی عوامل ظهور المودّة والمحبّة من قِبل الناس تجاه الوالی ویقول:

«و إِنَّهُ لَاتَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ».

وسـلامة الصـدور إشارة إلی حسن الظن ونفی کلّ أشـکال الحقـد والعـداوة، وبـدیهی أنّ الرعیّـة إذا کانت تملک حسن الظنّ بأعمال

الولاة والمسؤولين ولم يشعروا نحوهم بأى حقد وعداء، فإنّ مظاهر المحبّة والوفاء تجاه الحكومة ستظهر جليّاً.

وربّما تكون هذه العبارة إشارة إلى الكثير من الناس وبحكم الاجبار والخوف يتحركون على مستوى المدح والثناء للوالى والمسؤولين فى حين أنّهم لا ـ يعيشون سلامة الظهر وحسن الظن بهم، فالمودة الواقعية لا ـ تظهر إلّاإذا كانت القلوب تعيش المودة والمحبّة تجاه المسؤولين.

ويضيف الإمام عليه السلام:

«وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ، وَقِلَّةِ

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۷۸

اسْتِثْقَالِ ۶۵۴] دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ[۶۵۵] انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ».

واللافت للنظر أنّ الإمام عليه السلام ولأجل بقاء واستمرار الحكومات لا يعتمد على عنصر الاقتدار الظاهرى وتسلط الجيش وقوى الأمن والاستخبارات على الناس، بل يعتمد تماماً على قلوب الناس والبعد العاطفى لهم ويهتم بكيفية كسب محبّتهم وجذبهم، فى حين أنّ الكثير من الحكومات فى الماضى وحتى فى الحال الحاضر يعتقدون أنّ بقاءهم على رأس السلطة منوط بالقدرة الظاهريّة على الناس، ونرى غالباً أنّ الناس الذين يعيشون عدم الرضا عن الحكومة بمجرّد أن تتوفر لهم الفرصة فإنّهم يثورون ضد الحكومة ويزيحونها ويلقونها فى مزبلة التاريخ.

وجاء فى شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى أنّ الزهرى قال: دخلت يوماً على عمر بن عبدالعزيز، فبينا أنا عنده إذا أتاه كتاب من عامله أنّ المدينة قد احتاجت إلى مرمّة، فقلت له: إنّ بعض عمّال على بن أبى طالب كتاب بمثل هذا، فكتب عليه السلام إليه:

«أمَّا بَعْدُ، فَحَصِّنْها بِالْعَدْلِ وَنَقِّ طُرُقَها مِنَ الْجَوْرِ»

فكتب (عمر بن عبدالعزيز) ذلك إلى عامله ۶۵۶].

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام عن مسألة التشويق المادى ويقول:

«فَافْسَحْ فِى آمَالِهِمْ ۶۵۷]».

للآمال مفهوم واسع يشمل جميع الحاجات الضرورية والترفيهيّة، وبديهى أنّ قادة الجيش والجنود إذا لم يعيشوا راحة البال والفكر من جهة تأمين معيشتهم فإنّ أداءهم العسكرى فى ميدان القتال سيشهد الضعف والفتور.

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۷۹

ويتحدّث الإمام عليه السلام فى سياق كلامه هذا عن التشويق النفسى والمعنوى ويقول:

«وَوَاصِلْ فِى حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ[۶۵۸] مِنْهُمْ فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ[۶۵۹] الشُّجَاعَ وَتُحَرِّضُ ۶۶۰] النَّاكِلَ ۶۶۱] إنْ شَاءَ اللَّهُ».

ومعلوم أنّ مسألة تشويق أفراد الجيش اللائقين والفعّالين سيقع مؤثراً فى تطوير وتفعيل النشاطات الاجتماعيّة، وخاصّة أنّه يحضى فى عالمنا المعاصر بالأهميّة القصوى، فاختيار الاستاذ النموذجى، والعامل النموذجى، والمزارع النموذجى، والقادة المثاليين وإعطائهم لوحات التقدير والجوائز الكبيرة وذكر أسمائهم فى أجهزة الإعلام العام يدخل كلّه فى هذا الباب.

والجدير بالذكر أنّ مثل هذا التشويق، كما ذكر الإمام عليه السلام فى كلامه أعلاه، له أثر من جهتين: فمن جهة يحثّ الأفراد اللائقين على العمل والفعّاليّة، ومن جهة أخرى يؤثر على الأفراد الكسالى الذين يرون أنفسهم فى هذا الحال منكسرين فيفكرون فى تغيير سلوكهم وتنشيط أدائهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتابع فى كلامه هذا، أى فى مسألة التشويق، ليتعرض لتوضيح أكثر فى هذا المجال ويقول:

«ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تَضُمَّنَ ۶۶۲] بَلَاءَ

امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ».

فى هـذه العبارات الثلاث والتى تتضـمّن كلّ واحـدة منها إشارة نقطة خاصّة فى ذات الوقت مكملة للأخرى، يؤكّد الإمام عليه السـلام لمالك الأشتر أن يكون منتبهاً ومراقباً

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۸۰

لأعمال وسـلوكيات من هم تحت إمرته ويقـدّر لهم أتعابهم، فإذا قام أحـدهم بعمل مهم فينبغى أن ينسب له ذلك العمل، ومضافاً إلى لزوم معرفة الشخص الجيد والذى يقدّم خدمة جليلة للجيش، أن يتعرف بدقّة على مقدار خدمته أيضاً.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام توصيتين اخريين فى سياق إكمال هذه التوصيات ويقول:

«وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيراً وَلَا ضَعَةُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيماً».

وبعبارة أخرى أن تنظر إلى العمل نفسه ثمّ إلى العامل، بخلاف ما هو متـداول لـدى غالبيـة الناس أنّهم ينظرون إلى العامل أولًا ثمّ إلى عمله، وهذا الأمر يتسبب فى وقوع الخطأ فى تقييم أعمال الأشخاص.

والجـدير بالـذكر أنّ الإمام عليه السـلام فى هـذا المقطع من كتابه لمالك الأشتر يبيّن فى البدايـة الصـفات البارزة فى قادة الجيش، ثمّ يبيّن التوصـيات اللازمـة بالنسبـة لأـفراد الجيش، وبعـد ذلـك يتحـدّث عن عامّـة الرعيّـة، وفى الختـام يتحـدّث مرّة أخرى عن المسائل المتعلقة بتشويق وحثّ قادة الجيش ويبيّن توصياته المؤكّدة لهم.

ومن هنا يبـدو أنّ الإمام عليه السـلام فى ثنايا البحوث المتعلقـة لقادة الجيش وجنوده وبشـكل جملة معترضة، يتوجه فى كلامه مخاطباً جميع أفراد المجتمع الإسلامى.

***

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۸۱

القسم الرابع عشر

اشارة

وَارْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تنازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» فَالرَّدُّ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ.

الشرح والتفسير: طرق حلّ المشكلات

اشارة

فى هـذا المقطع من الرسالـة بيّن الإمـام عليه السـلام وظيفـة مالك الأشتر فيما يتصل بأحكام الشـرع، وكما يقال فى الشـبهات الحكميّة وطريق الكشف عن الأحكام الإلهيّـة فى المسائل المتعلقـة بالجيش والحرب والصـلح وسائر المسائل التى تتصل بشأن الحكومة وإدارة البلاد حيث يدعوه الإمام عليه السلام للاجتهاد فى الأحكام الإلهيّة من خلال استفادة من المنابع الأصليّة، لأنّه يرى فيه القابلية لمثل هذا الاستنباط الشرعى يقول عليه السلام:

«وَارْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ».

ثمّ يستند الإمام عليه السلام إلى الآية الشريفة ويقول:

«فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ»[۶۶۳]».

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۸۲

ثمّ يضيف عليه السلام:

«فَالرَّدُّ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ».

وجملة «

ما يُضْلِعُكَ

» مع الالتفات إلى أنّ «ضَلْع»؛ (على وزن منع) فى الأصل تعنى الحمل الثقيل الذى يجعل حامله يميل من هذه الجهة إلى الأخرى وهذه إشارة إلى أنّ كلّ حكم مشكل ومعقد يواجهه الإنسان لابدّ له لحمله من مراجعة الكتاب والسنّة.

وكلمة

«خُطُوب»

جمع «خطب» (على وزن ختم) ويعنى الأمر المهم، تطلق على أى نوع من الأعمال، وهذه إشارة إلى أنّ الإنسان المؤمن يجب عليه، سواءً فى الأمور الهامة أم فى الأمور العادية، الرجوع إلى نصوص الكتاب أو السنّة أو العمومات والإطلاقات، فيما لو واجه مشكلة فى حكم من الأحكام الشرعية ويستوحى من النصوص الشريفة الحلول لتلكم المشاكل.

وعبارة

«أُولِى الأَمْر»

تعنى أصحاب الاختيار وذوى الشأن، وهذه إشارة إلى الأئمّة المعصومين عليهم السلام ومصداقها البارز فى ذلك الوقت الإمام على عليه السلام نفسه.

وعبارة

«مُحْكَمُ كِتابِهِ»

إشارة إلى محكمات الآيات القرآنيّة التى لا شك ولا شبهة فى مفهومها وتفسيرها.

وعبارة

«السنّة الجامعة غير المفرّقة»

إشارة إلى الأحاديث النبوية وسيرة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله المقبولة والمشهورة بين المسلمين ولا يتسبب الأخذ بها الخلاف والفرقة بأى شكل من أشكال.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال: لماذا لم يتحدّث الإمام عليه السلام عن دليل العقل والإجماع اللذين يعتبران من الأدلّة القطعيّة فى عمليّة الاستنباط الفقهى فى دائرة الأدلّة الأربعة المعروفة؟

والجواب عن هذا السؤال بيّن، لأنّ الكتاب والسنّة أيدا بصراحة حجّية دليل العقل وحجّية الإجماع أيضاً، سواءً قلنا بأنّ الإجماع يعدّ دليلًا مستقلًا أو أنّه يعود إلى السنّة وكلام المعصوم.

نفحات الولايه، ج ۱۰، ص: ۳۸۳

تأمّل

من هم اولوا الأمر؟

بالنسبة لتفسير «اولوا الأمر» هناك خلاف بين المفسّرين، فالمفسّرون من أهل السنّة يرون أنّ أولى الأمر هم القادة والولاة والحكّام فى كلّ عصر، والعجيب أنّهم لم يقولوا بوجود استثناء من هذه القاعدة، وبالتالى يجب على المسلمين اتّباع كلّ شكل من أشكال الحكومة حتى لو كانت حكومة المغول والتتر، ولكن بعض المفسّرين المتأخرين منهم، الذين يتمتعون بافق أوسع وذهن أرحب كصاحب تفسير «المنار» و «فى ظلال القرآن»، يعتقدون بأنّ المراد من أولى الأمر هم نوّاب الشعب والعلماء وأصحاب المناصب الذين لهم دور مهم فى حياة الناس، ولكنّهم يشترطون بأن لا يسير هؤلاء بخلاف مقررات الإسلام وأحكامه.

هذا والحال أنّ البعض الآخر يحصر اولوا الأمر بالعلماء والزعماء المعنويين فقط، وذهب آخرون إلى أنّ أولى الأمر هم الخلفاء الأربعة عشر ولازمه عدم وجود أولوا الأمر فى الأزمنة الأخرى

وذهب بعضهم إلى أنّ الصحابة من أولى الأمر أيضاً، حيث يرد عليه نفس الإشكال والايراد.

ولكنّ المفسّرين الشيعة متفقون بأنّ أولى الأمر هم أئمّة المعصومين عليهم السلام فقط وهم قادة الخلائق إلى اللَّه فى جميع الأمور الماديّة والمعنويّة، والدليل على ذلك واضح، وهو أنّ إطاعة أولى الأمر الوارد فى الآية الشريفة مطلقة، وبديهى أنّ الطاعة المطلقة للشخص الذى يتورط فى الذنب أو الخطأ لا معنى لها، وخاصّة أنّ أولى الأمر معطوفة مباشرة على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وجملة «اطيعوا» التى جاءت قبل ذلك تشمل الإطاعة للنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأولى الأمر على حدّ السواءً.

والجدير بالذكر أنّ بعض المفسّرين من أهل السنّة تحركوا فى هذا المورد من موقع الانصاف واعترفوا بهذه الحقيقة، يقول الفخر الرازى فى تفسيره فى ذيل هذه

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۸۴

الآية: «إنّ قوله «وأولى الأمر منكم» يدلّ عندنا على أنّ إجماع الامّة حجّة والدليل على ذلك أنّ اللَّه تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم فى هذه الآية، ومَن أمر اللَّه بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابدّ وأن يكون معصوماً من الخطأ، وإذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر اللَّه اجتماع الأمر والنهى فى الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنّه محال، فثبت أنّ اللَّه تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم، وثبت أنّ كلّ من أمر اللَّه بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ فثبت قطعاً أنّ أولى الأمر المذكورة فى هذه الآية، لابدّ أن يكون معصوماً»، وبما أنّ الفخر الرازى لم يعتقد بعصمة أئمّة أهل البيت عليهم السلام يقول: «ذلك المعصوم إمّا مجموع الامّة أو بعض الامّة، لا جائز أن يكون بعض الامّة لأنا بيّنا أنّ اللَّه تعالى أوجب طاعة أولى الأمر فى هذه الآية قطعاً (وهم الامّة)»[۶۶۴]. النتيجة أنّ أولى الأمر يقصد به الإجماع!

ولكن الفخر الرازى غفل عن هذه النقطة، وهى أنّ القرآن الكريم يقول إنّ المسائل المشكلة والمعقدة التى تواجهكم فى الحياة، عليكم حلّها بواسطة إطاعة أولى الأمر، ومن المعلوم أنّ المسائل مورد الاتفاق محدودة ومعدودة ولا يمكن حلّ جميع المشكلات عن طريق تحصيل اتفاق جميع أفراد الامّة أو علمائها، أضف إلى ذلك أنّ المستفاد من الآية الشريفة أنّ المسلمين يجب أن يذعنوا لحكومة أولى الأمر، وحكومة مجموع الامّة واتفاقهم غير ممكن حتى لو استخدمنا آلية الانتخابات لاختيار نوّاب الامّة لمثل هذه الأمور، فقلّما يمكن أن يتفق الناس على اختيار هؤلاء النوّاب، ومن هذا المنطلق فإنّ إطاعة أولى الأمر بمعنى حكّام البلاد الإسلاميّة مجانب للصواب.

يبقى سؤال مهم، وهو أنّ أولى الأمر بمعنى الإمام المعصوم لم يكن موجوداً فى زمان النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله فكيف أمر القرآن الكريم باطاعتهم؟

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۸۵

والجواب عن هـذا السؤال بیّنٌ، لأنّ المخاطبین لهذه الآیة لیسوا فقط الأشـخاص الذین کانوا فی زمن النّبی الأکرم صـلی الله علیه و آله وفی عصـر نزول هـذه الآیـة، بل الآیـة ناظرة لجمیع الأزمنـة والعصور، ولـذلک فجمیع القادة والحکّام مشـمولون لمـدلول الآیة، وحتی الفخر الرازی الذی یری أنّ أولی الأمر تعنی إجماع المسلمین، یری أیضاً أنّ المعیار هو تحقیق الإجماع فی کلّ عصر وزمان.

وینبغی القول أنّ المنابع الإسلامیّة، من الشیعة وأهل السنّة، ذکرت روایات عدیدة فی أنّ المراد من أولی الأمر علی بن أبی طالب علیه السلام (بوصفه المصداق الکامل)[۶۶۵].

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۸۷

القسم الخامس عشر

اشارة

ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُکْمِ بَیْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِیَّتِکَ فِی نَفْسِکَ، مِمَّنْ لَاتَضِیقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَلَا تُمَحِّکُهُ الْخُصُومُ، وَلَا یَتَمَادَی فِی الزَّلَّةِ، وَلَا یَحْصَرُ مِنَ الْفَیْءِ إِلَی الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَی طَمَعٍ، وَلَا یَکْتَفِی بِأَدْنَی فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ؛ وَأَوْقَفَهُمْ فِی الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَی تَکَشُّفِ الْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُکْمِ، مِمَّنْ لَا یَزْدَهِیهِ إِطْرَاءٌ. وَلَا یَسْتَمِیلُهُ إِغْرَاءٌ وَأُولَئِکَ قَلِیلٌ، ثُمَّ أَکْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَافْسَحْ لَهُ فِی الْبَذْلِ مَا یُزِیلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَی النَّاسِ. وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَیْکَ مَا لَایَطْمَعُ فِیهِ غَیْرُهُ مِنْ خَاصَّتِکَ، لِیَأْمَنَ بِذَلِکَ اغْتِیَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَکَ. فَانْظُرْ فِی ذَلِکَ نَظَراً بَلِیغاً، فَإِنَّ هَذَا الدِّینَ قَدْ کَانَ أَسِیراً فِی أَیْدِی الْأَشْرَارِ، یُعْمَلُ فِیهِ بِالْهَوَی، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْیَا.

الشرح والتفسیر: یجب أن یتصف القضاة بهذه الصفات الاثنی عشر!

یتحدّث الإمام علیه السلام فی هذا المقطع من رسالته لمالک الأشتر عن موضوع مهم فی شأن القضاة، ویجعله بحثاً مستقلًا عن البحوث السابقة، للإشارة إلی مسألة الاسـتقلال القضائی المتداولة فی عالمنا المعاصـر والذی یحضی بأهمیّة کبیرة حیث تکون السلطة القضائیة قوّة مستقلة فی عرض السلطة التنفیذیّة (الحکومة) والسلطة التشریعیة (البرلمان)، مضافاً إلی ذلک فإنّ الإمام علیه السلام ذکر خصائص القضاة بعد ذکر خصائص قادة الجیش ممّا یوحی إلی أنّ الجیش الإسلامی یحفظ الامّة فی مقابل

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۸۸

الأجانب، والسـلطة القضائیـة تحفظ الامّة فی مقابل المخاصـمات والنزاعات الداخلیّة، وبعبارة أخری أنّ أحدهما یؤدّی دور حفظ الامّة من الخارج، والآخر حفظ الامّة من الداخل.

بدایة یقول علیه السلام:

«ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُکْمِ بَیْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِیَّتِکَ فِی نَفْسِکَ».

وهـذا التعبیر یوحـی أنّ الحـاکم فی مورد اختیـار القضاة یجب أن یختار الأفضل والأجـدر منهم، لأنّ مسألـة القضاء أمر حساس وخطیر جدّاً وأنّ الأفضل والأجدر من الجمیع هو الذی یستطیع تولی هذا المنصب.

وجملة

«اخْتَرْ»

تشـیر إلی أنّ القضاة لا ینتخبون بآراء الناس، کما هو المتداول فی بعض البلدان المعاصـرة، بل یختارهم القائد والإمام بشکل مباشر أو

بواسطة الأفراد الموثوقين، لأنّ مسألة صلاحية القضاة ليست شيئاً يمكن الرجوع فيه إلى آراء الناس للحكم فى ذلك.

ثمّ يعدد الإمام عليه السلام اثنى عشر صفة لابدّ من توفرها فى القاضى، وهذا فى الواقع من قبيل التفصيل بعد الاجمال، ويشير إلى من هو الأفضل والأجدر لحيازة هذا المنصب المهم:

۱. يقول عليه السلام:

«مِمَّنْ لَاتَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ».

وهذه إشارة إلى أنّ معرفة القاضى فيما يتصل بالمسائل المختلفة والقوانين الإسلاميّة ومعرفة الموضوعات إلى درجة من التعقيد فى كلّ مسألة بحيث ينبغى للقاضى معرفة طريق الحلّ فيها ولا يواجه مشكلة فى هذا الأمر، وبعبارة أخرى أن يكون عارفاً بأحكام الشرع من جهة، وله معرفة فى تشخيص الموضوعات أيضاً من جهة أخرى، ليستطيع ردّ الفروع على الأصول واستنباط الفروع من الأصول، وهذه الصفة لا توجد إلّافى المجتهدين المبرزين.

۲. ويقول عليه السلام فى بيان الصفة الثانية:

«وَلَا تُمَحِّكُهُ ۶۶۶] الْخُصُومُ».

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۳۸۹

يعنى أن يملك من سعة الصدر بحيث لو تنازع المتخاصمين فى مجلسه وارتفعت أصواتهم فلا- يثيره ذلك ولا- يخرجه عن حدّ الاعتدال، بل يصدر الحكم الإلهى العادل فى حقّهما مهما كانا وشرسين وعدمى الإدب.

۳. ويقول الإمام عليه السلام فى بيان الصفة الثالثة للقضاة الموثوقين واللائقين:

«وَلَا يَتَمَادَى ۶۶۷] فِى الزَّلَّةِ».

ومعلوم أنّ الشخص اللجوج والمعاند عندما يرتكب خطأ ويلتفت إلى هذا الخطأ لا يجد فى نفسه استعداداً للاعتراف بهذا الخطأ وتغيير مساره والعودة إلى الصراط المستقيم، وهذا بدوره يتسبب فى أن يصدر أحكاماً جائرة وغير واقعية، وهو من الظلم المتعمد وغير القابل للمغفرة.

ويتحدّث القرآن الكريم عن جماعة من الكفّار: «وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَّلَجُّوا فى طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ»[۶۶۸].

وكثيراً من يؤثر العناد والتعصب فى فكر الإنسان إلى درجة أنّه يرى الباطل حقّاً والحقّ باطلًا، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام:

«اللِّجاجُ يُفْسِدُ الرَّأْىَ»[۶۶۹]

ويقول فى مورد آخر:

«اللِّجاجُ أَكْثَرُ الْأَشْياءِ مَضَرَّةً فِى الْعاجِلِ وَالْآجِلِ»[۶۷۰].

۴. ويقول عليه السلام فى بيان الصفة الرابعة:

«وَلَا يَحْصَرُ[۶۷۱] مِنَ الْفَىْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ».

وهذه الصفة فى الحقيقة وجه آخر لعدم العناد واللجاج، وبعبارة أخرى هى نتيجة لها، فالإنسان إذا لم يتحرك فى خط اللجاج والعناد وتبيّن له الحقّ فى المسألة فإنّه

نفحات الولايهٔ، ج ۱۰، ص: ۳۹۰

سيعود إليه بكل سهولة ويصلح جميع تداعيات الخطأ الذى اقترفه، وبعبارة أخرى هو الشخص الذى يملك الشجاعة للاعتراف بخطئه وإصلاح هذا الخطأ والاشتباه، ومثل هذه الشجاعة تعتبر من أهم أغصان الفضيلة الإنسانيّة.

۵. قوله عليه السلام:

«وَلَاتُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ».

وبديهى أنّ القاضى إذا كان يعيش حالات الطمع، حتى فى أدنى مستوياته فبالإمكان إغوائه بسهولة عن طريق تقديم الرشوة وبالتالى منعه من إصدار الحكم بما يتفق مع الحقّ فى الحكم.

ونقرأ فى حديث شريف عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام:

«رَأْسُ الْوَرَعِ تَرْكُ الطَّمَعِ»[۶۷۲].

ونقرأ أيضاً فى الكلمات القصار لأميرالمؤمنين عليه السلام:

«أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ»[۶۷۳].

وببيان آخر، مع الالتفات إلى أنّ الإشراف يعنى النظر إلى الشىء من جهة العلو فهذا الكلام من الإمام عليه السلام يشير إلى أنّ الإنسان الطامع من شأنه أن يسقط من ذروة الفضيلة إلى هوة الرذيلة.

۶. قوله عليه السلام:

«وَلَا يَكْتَفِى بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ».

وهذه إشارة إلى أنّ القاضى ينبغى، فى مجال فهم المسائل، أن يملك من سعة الصدر بحيث يحيط بجميع جوانب المسألة، سواءً فى الشبهات الحكميّة أم فى الشبهات الموضوعيّة، ويحقق فى شروط المتخاصمين الذين حضرا عنده فى القضاء والحكم بينهما، ثمّ بعد ذلك يصدر حكمه من موقع الوضوح فى الرؤية.

۷. يقول عليه السلام:

«وَأَوْقَفَهُمْ فِى الشُّبُهَاتِ».

ونعلم، كما ورد فى الحديث النبوى المعروف، أنّ الأمور على ثلاثة أنحاء: فمنها ما يكون الحقّ فيها جليّاً، والآخر ما يكون الباطل فيها جليّاً، ولكن القسم الثالث هو

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۹۱

الشبهات، يعنى الأمور التى لا يتسنى للإنسان الاحاطة بها بسهولة، ففى مثل هذه الموارد يجب أخذ جانب الاحتياط، والشخص الذى يتحرك فى وادى الشبهات فسوق يقوده ذلك إلى دورب المحرمات والغرق فى المتاهات، والشخص الذى يجتنب الشبهات فإنّه يترك المحرمات الواقعية بشكل أفضل ويجتنبها.

يقول رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«حَلَالٌ بَيِّنٌ وَحَرَامٌ بَيِّنٌ وَشُبُهَاتٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ نَجَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَنْ أَخَذَ بِالشُّبُهَاتِ ارْتَكَبَ الْمُحَرَّمَاتِ وَهَلَكَ مِنْ حَيْثُ لَايَعْلَمُ»[۶۷۴].

وهذا الكلام لا يعنى أنّ القاضى يمتنع من إصدار الحكم لأنّ وظيفته الشرعية فصل الخصومة وانهاء النزاع، بل المراد أن يتوقف ويحتاط ويدرس جميع جوانب المسألة ويزيل ظلمة الشبهات بنور العلم والمعرفة، وأحياناً يقوم بمصالحة طرفى النزاع فيما تدعوه مواقف الاحتياط.

۸. يقول عليه السلام:

«وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ».

إنّ أهم عمل القاضى التحقيق فى أدلّة الطرفين، فيأخذ بالأدلة القوية والمقبولة، ويمتنع عن قبول الأدلّة الضعيفة والمهزوزة.

ويحتمل أيضاً أنّ مراده من هذه الجملة أنّ القاضى يجب أن يتحرك أكثر من أى شخص آخر فى البحث عن الدليل، بمعنى أنّه أحياناً لا يوجد أى دليل حسب الظاهر فى المسألة مورد الخصومة ليبيّن الحقّ فى المسألة، ولكن القاضى يستطيع ومن خلال البحث والتدقيق فى زوايا القضيّة، أن يعثر على أدلّة قوية لكشف الحقّ من الباطل، كما هو الحال فى الكثير من قضاء أميرالمؤمنين عليه

السـلام، إذ أنّ الإمام علیه السـلام ومن خلال اسـتخدام أسالیب نفسیة یستطیع إمّا فی أخذ الاعتراف والإقرار من المجرم، وإمّا أن یتوفر له العلم من مجمل القرائن والشواهـد المتوفرة، مثلًا فی قصّـِهْ اختلاف امرأتین علی طفل واحد، وإصـرار کلّ واحدة منهما علی أنّ هذا الطفل هو ابنها،

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۹۲

فحسب القاعـدة یجب علی القاضـی فی هـذا المورد اللجوء إلی القرعـة للفصل بینهما، ولکن الإمام علیه السـلام تحرک علی مسـتوی البحث عن الأدلّة، فأمر بأن یأتوا له بالسیف وقال: سوف أشق هـذا الولد إلی نصـفین، فکل واحدة منکما تأخذ نصـفاً من هذا الطفل، فصاحت الام الحقیقیـة بأننی تنازلت عن حقّی فادفعوا هـذا الطفل إلی المرأة الاخری، فعرف الإمام علیه السـلام بهـذه الطریقة المدعی الحقیقی من الکاذب، وهناک الکثیر من هذه الأمثلة فی قضایا أمیرالمؤمنین علیه السلام وقضائه [۶۷۵].

۹. وقوله علیه السلام:

«وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً[۶۷۶] بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْم».

فی الکثیر من الحالات یکون لکلّ واحـد من الطرفین المتخاصـمین أدلّـة وشواهد عدیدة ویطرحها بالتالی علی القاضـی ممّا یسـبب له إزعاجاً وإرهاقاً، وإذا کان القاضـی ضـیق الصدر وسریع الانفعال فسیقوم بطردهما، وما أکثر الأدلّة الواقعیة التی تبقی طی الکتمان بهذا العمل، ولکن إذا کان یملک سعة الصدر ولا ینفعل بسهولة فإنّه یستطیع إعادة الحقّ إلی أهله.

یجب علی القاضی أن یمنح طرفی النزاع مقداراً کافیاً من الوقت لیبیّنا له ما أمکنهما من الشواهد والأدلّة لإثبات الدعوی.

نفحات الولایة ؛ ج ۱۰ ؛ ص۳۹۲

. وقوله علیه السلام:

«وَأَصْبَرَهُمْ عَلَی تَکَشُّفِ الْأُمُورِ».

وبـدیهی أنّ القاضـی لو کان عجولًا ومتسـرعاً فسوف لا تتضـح لدیه حقیقة الأمر وبخاصّة فی الدعاوی المعقدة، ولکن إذا کان یتحلّی بالصبر والتریث ولا یصدر حکمه النهائی بسـرعة، فإنّه یستطیع بشکل أفضل أن یکشف الستار عن وجه الحقّ فی المسألة، وهذا الکلام لا یعنی أنّ الملفات القضائیّهْ، کما هو الحال فی زماننا، یتمّ تأخیرها إلی أیّام وشـهور عدیـدة بحجّـهْ التحقیق فی الملف، وأحیاناً یتأخر الحکم

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۹۳

فی قضـیة معینة لسـنوات عدیدة، وخاصّة إذا قام المحامون بوضع العصی لإعاقة عجلة الحکم، فأحیاناً وبذریعة بسیطة یتمّ تأخیر إصدار الحکم فی القضیة فی الحکم.

۱۱. قوله علیه السلام:

«وَأَصْرَمَهُمْ ۶۷۷] عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُکْمِ».

وهـذه إشارة إلی أنّ الاحتیاط الـذی یمارسه القاضـی والصبر فی مقابل بیان حجج الطرفین والتحقیق فی الأدلّة لا یعنی أنّه سـیتردد فی مقـام إنشاء الحکم ویبتلی بالوساوس ویوکل إنشاء الحکم إلی غـدٍ وبعـد غـد، بل ینبغی أن یکون کالسـیف الصارم فی الحزم وفصـل الخصومـة بإنشاء الحکم القاطع ولا یفکر بتـداعیاته وآثاره فیما بعـد، لأنّ إنشاء الحکم عادة یقع بنفع أحـد الطرفین ویؤدّی بالتالی إلی امتعاض الطرف الآخر وعـدم رضاه وسـیلجأ للمحامین والأصـدقاء وأحیاناً للقبیلة والطائفة لفرض رأیه علی القاضـی، وهذه المسألة من اللوازم الطبیعیة للقضاء، ومَن یفکر فی هذه الأمور ویتحرک علی مسـتوی الاحتیاط فی إصدار الحکم لا ینبغی أن یجلس علی کرسـی القضاء.

۱۲. وفی آخر صفة من الصفات القاضی اللائق یقول الإمام علیه السلام:

«مِمَّنْ لَا یَزْدَهِیهِ ۶۷۸] إِطْرَاءٌ[۶۷۹] وَلَا یَسْتَمِیلُهُ ۶۸۰] إِغْرَاءٌ[۶۸۱]».

وغیر خفی عن البیان أنّ الأشخاص المغرورین والمعجبین بأنفسهم عندما یسمعون عبارات المدح والثناء والتمجید من قِبل البعض تجاههم، فربّما ینحرفون عن مسیر الحقّ ویؤثر حبّ الذات فی میلهم إلی جهة المداحین، وبسبب هذه العلاقة النفسیة یحکم هذا القاضی بما یصبّ فی نفع هذا الشخص ظلماً وعدواناً، وهنا یؤکّد

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۹۴

الإمام علیه السلام أنّ مثل هؤلاء الأشخاص لیسوا جدیرین بمنصب القضاء بین المسلمین حتی لو توفرت فیهم الصفات الأخری

ثمّ إنّ الإمام علیه السلام بعد أن ذکر هذه الصفات الإثنی عشر، التی کلّ واحدة منها أهم من الأخری یتوجه نحو القضاة الذین یستطیعون، عند مواجهة أعقد المسائل وأصعب الملفات، من تشخیص الحقّ من الباطل بکل شجاعة وفطنة ویحکمون وفق ما توفر لدیهم من أدلّة وشواهد ویعید الحقّ إلی صاحبه حتی لو کان من أضعف الأفراد فی المجتمع، وکان مخالفه من أقوی الأفراد، وطبعاً کما قال الإمام علیه السلام فی نهایة حدیثه عن هذه الصفات:

«وَأُولَئِکَ قَلِیلٌ».

ولکن المهم للوالی أن یدرس جمیع جوانب المسألة بصبر وأناة وللعثور علی هذا القلیل مَن تتوفر فیهم هذه الشروط من بین المرشحین لهذا المنصب ووضعه علی کرسی القضاء بین المسلمین.

وبعد أن ذکر الإمام علیه السلام خصوصیات وصفات القاضی اللائق، تحدّث عن وظائف الوالی فی مقابل هؤلاء القضاة ویأمره بثلاثة أوامر مهمّة جدّاً.

بدایة یقول علیه السلام:

«ثُمَّ أَکْثِرْ تَعَاهُدَ[۶۸۲] قَضَائِهِ»

، وهذه إشارة أنّه مهما کان هؤلاء القضاة واجدین لهذه الصفات ومورد الاعتماد، فمع ذلک وبما أنّ مسألة القضاء مهمّة جدّاً وربّما یبتلی القاضی بالخطأ والزیف أو الانحراف، فمن الضروری أن ترسل بعض المفتشین لیحققوا فی الأحکام القضائیّة الصادرة عنهم، أو تتولی هذه المسألة بنفسه وتحقق عن کثب فی بعض الأحکام القضائیة لهم، ومثل هذا العمل یمنح القاضی قوّة فی التزامه الواعی بقیم العدالة.

طبعاً فإنّ هذا الکلام لا یعنی وجود مسألة الاستئناف والتمییز فی نظام القضاء الإسلامی بل بمعنی أنّ الوالی لو عثر علی خطأ مسلّم فی الحکم وجب علیه ابطاله وتجری إعادة التحقیق مرّة أخری.

نفحات الولایة، ج ۱۰، ص: ۳۹۵

وفی التوصیة الثانیة یقول علیه السلام:

«وَافْسَحْ لَهُ فِی الْبَذْلِ مَا یُزِیلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَی النَّاسِ».

وهذه إشارة إلی أنّ أحد عوامل الفساد فی السلطة القضائیّة، قلّة الحقوق المالیّة للقضاة والموظفین فی الجهاز القضائی، فینبغی أن یضع الوالی لهم مخصصات ورواتب شهریة کبیرة لیتنسی لهمالعیش بشکل معقول وشریف ولایفکروا بعد ذلک بقبولالرشوة.

یقال إنّ فی بعض البلدان فی هذا العصر یصدرون صکاً أبیضاً ویسلّموه للقضاة لیکتبوا فیه أی رقم یریدونه لتمریر المسألة لصالحهم.

وهذا الکلام، سواءً کان صحیحاً أو مبالغ فیه أو کان کاذباً یعکس لنا هذه الحقیقة، وهی أنّ القاضی یجب أن یکون له نصیب من بیت المال یتناسب مع حیاته ومعیشته.

والجدیر بالذکر أنّ الإمام علیه السلام بالنسبة لمسألة تأمین الحقوق المالیّة لضمان معیشة محترمة، سواءً بالنسبة للقضاة أم بالنسبة لقادة

الجيش كما تقدّم سابقاً، يبرز الإمام عليه السلام حساسية شديدة تجاه هذه المسألة، فصحيح أنّ جميع الموظفين والمسؤولين وحتى أفراد الجهاز القضائى وأفراد الجيش الإسلامى يجب أن تتوفر لهم معيشة كافية، ولكنّ تأكيد الإمام عليه السلام على هاتين الفئتين بالخصوص يشير إلى لزوم الاهتمام أكثر بأعمال هاتين الفئتين من أجل حفظ الحدود والثغور وكذلك من أجل حفظ حقوق الناس.

ثمّ يتطرق الإمام عليه السلام للتوصية الثالثة ويقول:

«وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْکَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِکَ لِيَأْمَنَ بِذَلِکَ اغْتِيَالَ ۶۸۳] الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَکِ».

وهذه النقطة مهمّة، وهى أنّ القاضى يجب أن يعيش الحرية الكاملة فى إنشاء الحكم العادل ولا ينبغى أن يخضع تحت أية ضغوط اجتماعيّة وفئويّة، وهذا لا يتسنى إلّاإذا كان القاضى أقرب الناس إلى الوالى والقائد، لأنّه لو كان هناك أفراد

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۹۶

أقرب منه إلى الوالى، فسوف لا يشعر القاضى بالأمن من حكمه وقضائه، فربّما يتوجه الخصم إلى حاشية السلطان ويسعى فى تشويه سمعة القاضى لديه فيضطر القاضى إلى إصدار حكمه وفقاً لما يريده الخصم، وبعبارة أخرى يجب أن يكون القضاة مصونين من كلّ جهة ليحفظوا لهم استقلالهم القضائى.

وبعد هذه التوصيات الثلاث يقول الإمام عليه السلام مؤكّداً:

«فَانْظُرْ فِى ذَلِکَ نَظَراً بَلِيغاً».

وكلمة

«ذلِکَ»

ربّما تشير إلى التوصية الأخيرة أو إلى التوصيات الثلاث بل حتى إلى الصفات الاثنى عشر للقاضى، بمعنى ينبغى أن تنظر بدقّة فى اختيار القضاة وكذلك فى التحقيق فى أعمالهم ورفع حاجاتهم وضمان حريتهم فى ممارسة دورهم القضائى.

وفى نهاية هذا المقطع من الكلام يتجه الإمام عليه السلام لذكر الدليل على كلّ هذه التأكيدات التى سبق ذكرها، ويقول:

«فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِى أَيْدِى الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا».

ومعلوم أنّ هذا الكلام يشير إلى زمان الخليفة الثالث عثمان حيث أمسك بعض الأفراد الفاسدين والمفسدين من بنى اميّة وبنى مروان زمام السلطة والقدرة ونهبوا أموال بيت‌المال ولم‌تكن مسألة حفظ الإسلام والرسالة الإلهيّة مطروحة فى قاموسهم.

أمّا أنّ الفساد الإدارى والمالى فى زمن عثمان قد امتد بشكل واسع فى تفاصيل وأبعاد الحكومة فلا يشك أحد من المؤرخين فى ذلك، غاية الأمر أنّ بعض علماء أهل السنّة ومن أجل حفظ مكانة عثمان قالوا: كان رجلًا ضعيفاً لم يتمكن من السيطرة على هذه الجماعة الشريرة وبالتالى فلت زمام الأمور من يديه وتولى رجال بنى اميّة الحكم، ومن هنا فهو معذور!! وأمّا الكلام فى معقوليّة مثل هذا العذر، فهى مسألة أخرى.

وقد أشار الإمام عليه السلام فى الخطبة الشقشقية إلى هذه المسألة حيث قال:

«وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ».

نفحات الولاية، ج ۱۰، ص: ۳۹۷

ملاحظة: قمنا بتقسيم عهد مالك الأشتر رحمه الله التاريخى إلى ثلاثين مقطعاً، تحدّثنا عن ۱۵ مقطعاً منها فى الجزء العاشر، وسيأتى الكلام عن ۱۵ مقطع آخر فى الجزء الحادى عشر، وذلك لحفظ التعادل فى صفحات الكتاب.

ولا يسعنى فى هنا إلّاأن نذكر صديقنا العزيز المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ محمّد جعفر الإمامى الذى واكبنا إلى آخر لحظة ثمّ وافاه الأجل ولبى دعوة الحقّ وانتقل إلى رحمة اللَّه الواسعة، وكذلك الصديق الوفى المرحوم حجّة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ إبراهيم البهادرى حيث انتقل إلى رحمة قبل فترة وجيزة، وكان المرحومين من المخلصين والمتقين والمؤمنين وباحثين

ومحققين جادين فى عملهما وعالِمين عاملَين، فبقيت ذكرياتهم فى خواطرنا ولا ـ ننساهم إنشاءاللَّه، ونسأل اللَّه الغفور الرحيم أن يجعلهما فى غريق رحمته الواسعة.

اللّهم! لك الحمد ولك الشكر على هذه النعمة العظيمة أن وفقتنا لإكمال هذا المشروع المبارك وإدامة شرح نهج البلاغة حتى أتممنا الجزء العاشر منه ببركة مولى الموحدين- عليه آلاف التحية والثناء- وقريباً سنقدم للقرآء الأعزاء الجزء الحادى عشر منه، والذى به ينتهى قسم الكتب والرسائل فى نهج البلاغة، وفى القريب العاجل سنقدم للطبع الأجزاء الخاصّة بشرح وتفسير الكلمات القصار للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وبذلك يكتمل هذا الشرح الجامع فى أربعة عشر جزءً (

بحول اللَّه وقوّته وبمنّه وكرمه

). نهاية الجزء العاشر

ربيع‌الأوّل ۱۴۳۱ ه- ۲۰۰۹ م

---

[۱] (۱). سند الرسالة:

لم ينقل فى مصادر نهج البلاغة سند خاص لهذه الرسالة سوى ما ذكره ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة فى مقدمة هذه الرسالة وصرّح فى ختامها أنّ ما ذكر السيّد الرضى فى نهج البلاغة يمثّل مقطعاً من رسالة الإمام على عليه السلام والتى ذكرها أبوالحسن على بن محمّد المدائنى بكاملها، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر غير نهج البلاغة لدى ابن أبى الحديد حيث نقل عنه عبارات اخرى لهذه الرسالة(على بن محمّد المدائنى من مؤرخى فى القرن الثالث الهجرى وتوفى فى سنة ۲۲۵، وقد ورد فى بعض العبارات أنّ الطبرى والبلاذرى نقلوا عنه فى كتبهم التاريخيّة، وقيل إنّ اسم الكتاب فتوحات الإسلام، طبقاً لنقل ريحانة الأدب ونقلًا عن دائرة المعارف دهخدا(بالفارسية)، مادة مدائنى).

[۲] (۱).« أرديت» من مادة« إرداء» بمعنى إهلاك.

[۳] (۲).« جِيل» الجماعة والصنف والنسل.

[۴] (۳).« جاوزوا» من مادة« جواز» وتعنى العبور والعدول.

[۵] (۴).« نَكَصُوا» من مادة« نكوص»، بمعنى العودة والرجوع.

[۶] (۵).« عَوَّلُوا» من مادة« تعويل» وهى الاعتماد والاتكال.

[۷] (۶).« أَحْسَاب» جمع« حَسَب» على وزن« نَسَب» تأتى أحياناً بمعنى الفضائل التى تنسب للآباء والأجداد ويفتخربها الإنسان، وأحياناً أخرى تعنى الصفات البارزة والملكات المشهودة للإنسان نفسه كالشجاعة والسخاء والعلم والمعرفة.

[۸] (۱).« مُوَازَرَة» من مادة« وزر» تعنى الحمل الثقيل، وإنّما سمى الوزير وزيراً لأنّه يحمل مسؤوليّة ثقيلة على عهدته، وموازرة تأتى أيضاً بمعنى المعاونة والمساعدة، لأنّ الإنسان عندما يعين الشخص الآخر فإنّما يحمل قسماً من عمله ومسؤوليّته على عهدته.

[۹] (۱). انظر: شرح نهج البلاغة، للعلّامة التسترى، ج ۱۰، ص ۲۶۹.

[۱۰] (۲).« جَاذِبِ» صيغة أمر، يعنى مأخوذ من مادة« جذب» بمعنى جر الشىء إلى نفسه.

[۱۱] (۳).« قِيَاد» بمعنى زمام، وأصلها من« قيادة» وهى الزعامة وتولى أمور الآخرين.

[۱۲] (۱). سورة الأنعام، الآية ۲۸.

[۱۳] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۱۳۶.

[۱۴] (۱). سند الرسالة: ورد فى مصادر نهج‌البلاغة أنّ ابن أبى الحديد وابن مثيم فى شرحهما لنهج البلاغة ذكرا فى شأن صدور هذه الرسالة: أنّ معاوية أرسل جماعة من أهل الشام بشكل خفى إلى مكّة فى موسم الحج لدعوة الناس للإنضمام إليه واطاعته والتمرد على الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أو تقوية هذه الشبهة فى الأذهان أنّ الإمام على عليه السلام هو قاتل عثمان أو على الأقل لم يمد له العون والنصرة فى الموقع المناسب، وفى كلا الحالتين فإنّ على بن أبى طالب لا يصلح لمقام الإمامة والخلافة، وكذلك يتحدّثون عن كرم معاوية وسخائه وما إلى ذلك، وعندما وصل هذا الخبر إلى الإمام على عليه السلام كتب هذه الرسالة إلى واليه على مكّة قثم بن عباس وحذره من هذه المؤامرة.

ثمّ إنّ صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة يستنتج ممّا تقدم أنّ ابن أبى الحديد وابن ميثم كانا يملكان مصدراً آخر غير نهج البلاغة(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۱۹)، ولكن لا يبعد أنّهما أخذا هذا الكلام من كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى المتوفى سنة ۳۱۴، حيث أورد هذا الكلام فيما يتصل بهذه الرسالة(الفتوح، ج ۴، ص ۲۲۰- ۲۲۲).

واللافت وجود سند آخر لهذه الرسالة فى كتاب« الغارات» وهو كتاب الذى تمّ تأليفه فى القرن الثالث وقبل ولادة السيّد الرضى بسنوات، وهو يختلف عمّا أورده السيّد الرضى، ولكنّ أساس كلا الرسالتين واحد(الغارات، ج ۲، ص ۵۰۹).

[۱۵] (۱).« عين» أصلها فى اللغة العضو المبصر فى الوجه، ولكن بما أنّ عناصر الاستخبارات فى الحكومة بمثابة العين‌لرئيس الحكومة فاطلقت هذه الكلمة عليهم.

[۱۶] (۱).« المغرب»: فى هذه العبارة تعنى الشام لأنّها تقع شمال غرب العراق.

[۱۷] (۲).« الْمَوْسِم» من مادة« وَسَمَ» على وزن« رسم» فى الأصل تعنى جعل علامة، ثمّ اطلقت على محل الاجتماع أو زمان الاجتماع، لأنّ ذلك المحل أو الوقت علامة على ذلك التجمع، وتطلق هذه الكلمة ولا سيما فى الفقه على أيّام الحج.

[۱۸] (۳).« العمى»، جمع« أعمى .

[۱۹] (۴).« الصم»، جمع« أصم».

[۲۰] (۵).« الكُمه»، جمع« أكمه».

[۲۱] (۶). سورة الأعراف، الآية ۱۷۹.

[۲۲] (۷).« يلبَسُون» من مادة« لَبَسَ» على وزن« حَبَسَ» وهو التشويش وخلط الأمور، و« لُبس» على وزن« خُمس» تعنى‌اللباس والملبس.

[۲۳] (۱).« يَحْتَلِبُونَ» من مادة« حَلَبَ» على وزن« حَمَدَ» بمعنى اخراج اللبن من الضرع.

[۲۴] (۲).« دَرَّ» بمعنى اللبن أو اللبن الكثير، وبمعناها المصدرى تعنى هطول المطر أو السوائل الأخرى

[۲۵] (۳). سورة الزلزلة، الآيتان ۷ و ۸.

[۲۶] (۱).« الصَّلِيب» من مادة« صلب» على وزن« صبح» الشدّة والصلابة فى كلّ شىء، وإنّما يقال للصليب« صليب» لأنّه يستخدم فى صنعه أخشاب صلبة لتعليق المصلوب.

[۲۷] (۲).« اللَّبِيب» هو صاحب العقل والفهم، وأصلها من« لُب» وتعنى الدماغ والمخ.

[۲۸] (۳).« بَطِرَ» هو الشخص الغارق فى النعمة، وأصلها من« بطَرْ» على وزن« نظَر».

[۲۹] (۴).« فَشِلَ» وهو الشخص الكسول والضعيف وأصلها من« فشل» على وزن« نظر» يعنى الضعف والاستكانة أو الضعف المقترن بالخوف.

[۳۰] (۱). مكاتيب الأئمّة، الاستيعاب، اسد الغابة، ولغةنامه دهخدا(بالفارسية).

[۳۱] (۱). سند الرسالة: نقل هذه الرسالة قبل السيّد الرضى أبو الحسن المدائنى، والظاهر أنّه نقلها من كتاب فتوحات الإسلام، وإبراهيم بن الثقفى فى كتاب« الغارات»، والطبرى فى تاريخه فى حوادث سنة ۳۸، والبلاذرى فى شرح حال الإمام على عليه السلام فى كتابه« أنساب الأشراف»(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۲۲).

[۳۲] (۱). اقتبس من: مصادر نهج البلاغة وكتب أخرى.

[۳۳] (۱).« مَوْجِدَة» بمعنى الغضب والاستياء.

[۳۴] (۲).« تَسْرِيح» ارسال الشخص لطلب شيء وأداء عمل معين، وتستعمل لكلّ تحرير وإزالة القيود، ومن هنا يطلق على الطلاق بأنّه تسريح لأنّ الزوج يطلق ويسرح زوجته من قيود الزوجيّة.

[۳۵] (۳).« عَمَل» فى هذا المورد تعنى الولاية والامارة، ولذلك يقال للوالى أنّه« عامل»، فى الرسالة السابقة قرأنا أنّها رسالة من الإمام على عليه السلام إلى قثم بن العباس» عامله على مكّة.

[۳۶] (۴).« اسْتِبْطَاء» ضد الاسراع، أى تأخر فى سيره، بطيءً من مادة« بطء» على وزن« كُفر».

[۳۷] (۱). انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۱۴۴.

[۳۸] (۲).« نَاقِم» المنكر والمعترض، وإذا كان اعتراضه على مستوى العمل والممارسة فتعنى الانتقام من مادة« نَقَم» على وزن« قلم».

[۳۹] (۳).« حِمَام» من مادة« حَمَّ» على وزن« غمّ» بمعنى الشيء المقدر، وبما أنّ الموت يعدّ تقديراً إلهيّاً على الإنسان فلذلك يطلق عليه الحمام.

[۴۰] (۴).« أَوْلى من مادة« ولاية» وتعنى الشخص الذى يكلّف بعمل معين أو يوضع فى اختياره شيء، وهنا جاءت بالمعنى الثانى، يعنى أنّ اللّه تعالى يضع رضاه وجنّته التى تعتبر نتيجة رضا اللّه تعالى فى اختيار مالك الأشتر.

[۴۱] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۱۴۴.

[۴۲] (۲).« أَصْحِرَ» فعل أمر من مادة« اصحار» وتعنى الخروج والظهور فى الصحراء.

[۴۳] (۳).« شَمِّر» من مادة« تشمير»، وأصل شمّر على زون« تمر» وتعنى الجمع وحسب المنتوج والاستعداد لعمل معين.

[۴۴] (۱).« يُنْزَلُ» بصيغة فعل المضارع من باب« إفعال» وفاعلها اللّه تعالى، ولكن فى هذا المورد لا يتناسب هذا المعنى، ولذلك وردت هذه الجملة فى الكثير من نسخ نهج البلاغة بصيغة« نزل» وبصيغة الفعل الماضى بدون الإسناد الى اللّه، ولكنّ بعض الكتّاب ذكرها بصيغة الفعل المضارع من الثلاثى المجرّد، أى« ينزل» بفتح الياء لا من باب الإفعال بضم الياء.

[۴۵] (۱). انظر: نفحات الولاية، ج ۳، ص ۷۶.

[۴۶] (۱). سند الرسالة: من جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيّد الرضى، الطبرى فى تاريخه بتفاوت يسير فى حوادث سنة ۳۸، وكذلك إبراهيم بن هلال الثقفى فى كتابه« الغارات»(نقلًا عن مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۲۶).

[۴۷] (۱).« نَحْتَسِب» من مادة« احتساب» و« حسبة» بمعنى استلام الأجر، وعليه فإنّ« إحتساب» تأتى بمعنى طلب الأجر، رغم أنّ« إحتساب» فى الأصل تعنى كلّ عمل يعمله الإنسان بنيّة التقرب إلى اللّه تعالى ويجعله فى حسابه فى الآخرة، ومعناه بالملازمة طلب الأجر من اللّه تعالى(لمزيد من الاطلاع راجع كتاب مقاييس اللغة ولسان العرب).

[۴۸] (۱).« وَلَداً» ذكر البعض أنّ ولداً منصوب بوصفه عطف بيان، والبعض الآخر ذهب إلى أنّه بدل من ضمير المفعول فى« نحتسبه»، ولكن لا يمكن أن يكون مفعولًا ثانياً لنحتسب، لأنّ معنى الجملة سيتبدل.

[۴۹] (۲).« كَادِح»، وهو الشخص الذى يبذل الكثير من الجهد والسعى، وأصلها من« كدح» على وزن« مدح» بمعنى السعى الحثيث والعمل الجاد.

[۵۰] (۳). وامّ محمّد أسماء بنت عميس الخثعمية وهى اخت ميمونة زوج النّبى صلى الله عليه و آله، وأُخت لبابة ام الفضل وعبداللّه

زوج العباس بن عبدالمطلب، وكانت من المهاجرات ا لى أرض الحبشة، وهى إذ ذاك تحت جعفر بن أبى طالب فولدت له هناك محمّد بن جعفر، عبداللّه، عوناً، ثمّ هاجرت المدينة، فلمّا قتل جعفر تزوجها أبوبكر، فولدت له محمّد بن أبى بكر هذا، ثمّ مات أبوبكر فتزوجها الإمام على عليه السلام وولدت له يحيى بن على ولا خلاف فى ذلك.(شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۱۴۲).

[۵۱] (۴).« حَثَثْتُ» بمعنى التشويق والإثارة.

[۵۲] (۵).« الْوَقْعَةِ»، الحادثة، وأحياناً تأتى بمعنى وقوع الحرب والقتال، وهنا قصد منها المعنى الثانى.

[۵۳] (۶).« عَوْداً» و« بِدءاً» تعنى كما ورد فى بعض كتب اللغة أولًا وآخراً، وفى بعضها بمعنى تكرار الشىء، وهنا يحتمل فيها كلا المعنيين.

[۵۴] (۱).« الْمُعْتَل» تعنى المريض، وأحياناً تعنى الشخص الذى يعتذر لفعله ويأتى بمبررات لتسويغ فعله.

[۵۵] (۲).« خَاذِل» وهو الشخص الذى يمتنع من مدّ يد العون إلى الآخر وبالتالى يؤدّى إلى ذلّة ومهانة الطرف المقابل.

[۵۶] (۱). تاريخ الطبرى، ج ۴، ص ۸۱-/ ۸۳.

[۵۷] (۲). سورة الأنفال، الآية ۶.

[۵۸] (۳). سورة الأحزاب، الآية ۱۳.

[۵۹] (۱). سورة التوبة، الآية ۸۱.

[۶۰] (۲).« تَوْطِين» تعنى تهيئة الشىء، وأصلها من« وطن» على وزن« بطن» وتعنى اختيار الوطن، وبما أنّ كلّ إنسانعندما يختار محلًا للسكن فإنّما يهيىء نفسه للحياة فى ذلك المكان، فالتوطين يعنى التهيؤ.

[۶۱] (۱). خلف الأحمر من علماء القرن الثانى للهجرة وهو صاحب اليد الطولى فى الشعر والأدب والتاريخ.

[۶۲] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۱۴۵ و ۱۴۶(مع التلخيص).

[۶۳] (۱). سند الرسالة: جاء فى مصادر نهج البلاغة أنّ هذه الرسالة نقلها قبل السيّد الرضى، إبراهيم بن الثقفى فى كتابه« الغارات»، وأبو الفرج الاصفهانى فى كتاب« الأغانى» وابن قتيبة الدينورى فى كتاب« الإمامة والسياسة».(مصادر نهجالبلاغة، ج ۳، ص ۳۳۲). وتقدّم شرح أكثر عن سند هذه الرسالة فيما يتصل بالخطبة ۲۹ للإمام على عليه السلام فى الجزء الثانى من هذا الكتاب(نفحات الولاية، ج ۲، ص ۱۳۵).

[۶۴] (۱). مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۲۹ و ۳۳۰.

[۶۵] (۱).« سَرَّح» من مادة« تسريح»، وكما تقدّم فى شرح الرسالة ۳۴ أنّها تعنى ارسال شخص لعمل معين، وتستعمل أيضاً بمعنى مطلق الارسال والتحرير.

[۶۶] (۲).« كَثِيف»، يعنى الغليظ والكثير الملتف، وأصلها من« كثافة».

[۶۷] (۳).« نَكَصَ»، من مادة« نكص» على وزن« مكث»، والنكوص يعنى التراجع والعودة.

[۶۸] (۱).« جَرِيض» هو شخص المختنق من شدّة الحزن أو الهيجان.

[۶۹] (۲).« الُمخَنَّق» هو محل الخنق، من مادة« خنق» على وزن« حرب» وهو الضغط على المخنق أو ضغط رقبة الشخص.

[۷۰] (۱). الغارات، ج ۲، ص ۴۳۹.

[۷۱] (۲).« تَرْكَاض» هو الركض الشديد، من مادة« ركض» على وزن« ضرب»، والتركاض صيغة مبالغة للركض.

[۷۲] (۳). تجوال، بمعنى كثرة الجولان والتراكض فى الميدان.

[۷۳] (۴). الشقاق، بمعنى العداوة والمخالفة والانفصال.

[۷۴] (۵).« الجماح» بمعنى التمرد، و« جموح» على وزن« قبول» وأصله بمعنى الحيوان المتمرد والمنفلت، ثمّ استعملت فى الإنسان المتمرد والحوادث التى ليست باختيار الإنسان وإرادته إطلاقاً.

[۷۵] (۱). مجمع الزوائد، الهيثمى، ج ۹، ص ۱۱۸؛ كنز العمال، ج ۱۳، ص ۱۷۶، ح ۳۶۵۲۳.

[۷۶] (۱).« الْمُحِلِّينَ» جاء فى صحاح اللغة أنّ« المحل» يقال للشخص الذى ينقض عهده وينكث بيعته ويخرج من إطاره.

[۷۷] (۱). سورة الزمر، الآية ۳۶.

[۷۸] (۲). سورة المائدة، الآية ۴۴.

[۷۹] (۳).« ضَّيْم» بمعنى الظلم والجور ويأتى مصدره على هذا الوزن أيضاً، ويعنى ايقاع الظلم على الآخر وقهره والتغلب عليه.

[۸۰] (۴).« سَلِسَ» المطيع والمنقاد، وأحياناً تأتى بمعنى السهل واليسير.

[۸۱] (۵).« وَطِيءَ» صفة مشبهة بمعنى اللين والملائم.

[۸۲] (۱).« رَيْبِ» تأتى أحياناً بمعنى الشك وأخرى بمعنى الحوادث المشكلة والتحديات الصعبة.

[۸۳] (۲).« صَلِيب» تعنى المحكم والشديد، وأصلها من« صلب».

[۸۴] (۳).« كَآبَة»، تعنى الحزن والغم والانكسار الناشىء منه.

[۸۵] (۴).« يَشْمَت» من مادة« شماة» وهى فرح العدو.

[۸۶] (۵).« عَاد» يعنى العدو، من مادة« عداوة».

[۸۷] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۱۵۲.

[۸۸] (۲). شرح نهج البلاغة، للعلّامة التسترى، ج ۷، ص ۵۰۲.

[۸۹] (۱). سند الرسالة: لهذه الرسالة مطلع حذفه السيّد الرضى طبقاً لمنهجه فى الانتقاء، وقد اقتصر على ذكر ذيل هذه الرسالة، وقد نقل المرحوم ابن ميثم وابن أبى الحديد صدر هذه الرسالة كما سنشير إلى ذلك لاحقاً، وهذا يشير إلى أنّهما عثرا على مدرك ومصدر غير نهج البلاغة ذكر فيه صدر الرسالة(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۳۲).

[۹۰] (۱). تمام نهج لبلاغة، ص ۸۳۸؛ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۱۵۳.

[۹۱] (۱).« اطِّرَاحِ» من مادة« طرح» يعنى إلقاؤه بعيداً.

[۹۲] (۱). سورة الأحزاب، الآية ۷۲.

[۹۳] (۲). سورة آل عمران، الآية ۳۲.

[۹۴] (۱). سورة يس، الآية ۶۰.

[۹۵] (۲).« الْحِجَاج» يعنى المجادلة للتغلب على الطرف المقابل.

[۹۶] (۳). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۱۵۴.

[۹۷] (۱). فى ظلال نهج البلاغة، ج ۳، ص ۵۴۹.

[۹۸] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۱۵۴.

[۹۹] (۲). صفين، ص ۷۶.

[۱۰۰] (۱). سند الرسالة: نقل هذه الرسالة جماعة من المؤرخين والعلماء عاشوا قبل السيّد الرضى، فى كتبهم، منهم: الطبرى فى تاريخه المعروف فى حوادث سنة ۳۸ للهجرة، والشيخ المفيد فى كتابيه الاختصاص والأمالى، وابن الهلال الثقفى فى موردين من كتاب« الغارات»، ففى المورد الأوّل نقلها عن صعصة بن سوحان وفى المورد الثانى عن المدائنى عن أحد غلمان مالك الأشتر، قال: عندما توفى مالك الأشتر(فى طريقه إلى مصر بسبب السم) رأوا رسالة مشدودة إلى رجليه وهذه الرسالة من الإمام أميرالمؤمنين عليه

السلام إلى أهالى مصر(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۳۳۶).

[۱۰۱] (۱).« سُرَادِق» أصلها فارسية بمعنى الخيم التى تتخذ لتشكيل المجالس المختلفة وأحياناً تنصب فى باحة الدار، وأخرى بشكل مستقل.

[۱۰۲] (۲).« الظَّاعِن» هو المنتقل من محل لآخر، من مادة« ذعن» على وزن« طعن» وهو الانتقال.

[۱۰۳] (۱). انظر: سيرة ابن هشام، والاستيعاب، ابن عبدالبر.

[۱۰۴] (۱). لمزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع راجع هذا الكتاب(نفحات الولاية الجزء الثانى استناد لما ورد فى‌تاريخ الطبرى).

[۱۰۵] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۱۵۶.

[۱۰۶] (۲). شرح نهج البلاغة، لابن ميثم وفى ظلال نهج البلاغة.

[۱۰۷] (۱). بحار الأنوار، ج ۹۱، ص ۹۴، ح ۱۰.

[۱۰۸] (۲).« لَا يَنْكُل» فى الأصل من مادة« نكول» ويعنى التراجع عن خوف، وأحياناً تطلق على كلّ تراجع من أداء عمل معين.

[۱۰۹] (۳).« الرَّوْع» الخوف والوحشة، وأحياناً تأتى بمعنى التخويف والترهيب.

[۱۱۰] (۴).« مَذْحِج» قبيلة فى اليمن، ويعتبر مالك الأشتر من رؤوساء تلك القبيلة ثمّ جاء إلى المدينة ومنها إلى الكوفة وأضحى من جملة شيعة أميرالمؤمنين عليه السلام الخاصين وأتباعه المخلصين.

[۱۱۱] (۱). شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى، ج ۷، ص ۶۰۴.

[۱۱۲] (۲). كنز العمال، ج ۵، ص ۷۹۲، ح ۱۴۴۰۱.

[۱۱۳] (۳).« كَلِيل» هو الضعيف والعاجز، من مادة« كَلَّ» على وزن« حَلَّ».

[۱۱۴] (۴).« الظُّبَة» حافة السيف والرمح والخنجر.

[۱۱۵] (۵).« نَابِى» هو السيف الكليل الذى لا يعمل، والكلمة فى الأصل من« نوبة» على وزن« ضربة» وهو المكان المرتفع، وبما أنّ السيف الكليل لا يدخل فى الموضوع ويقف فى أعلاه فقيل عنه« نابى».

[۱۱۶] (۶).« الضَّرِيبَة» بمعنى المضروب والمحل الذى وجهت له ضربة.

[۱۱۷] (۱). انظر: الكامل، لأبن الأثير، ج ۲، ص ۳۵۸؛ اسد الغابة، ج ۴، ص ۲۷۷ فى ترجمة حياة مالك بن نويرة.

[۱۱۸] (۲).« يُحْجِمُ» من مادة« احجام» و« حجم» على وزن« رجم» فى الأصل بمعنى تكميم فم الحيوان، ثمّ اطلقت على‌كل منع وإعاقة لعمل معين.

[۱۱۹] (۳).« شَكِيمَة» هى اللجام الذى يوضع فى فم الدابة ويمنعها من أن تتحرك بما يخالف إرادة صاحبها، وفى الجملة أعلاه إشارة إلى أنّ مالك الأشتر يكبح جماح عدوكم ويمنعه من التحرك.

[۱۲۰] (۱). سند الرسالة: من جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة فى كتبهم قبل السيّد الرضى، نصر بن مزاحم فى كتاب صفين مع تفاوت يسير، وطبعاً هذا الكلام ذكره ابن أبى الحديد، ولكنّ بعض المحققين الذين قرأوا كتاب نصر بن مزاحم قالوا: لا وجود لهذه الرسالة بهذه الصورة فى نسخة كتاب نصر بن مزاحم الذى بين أيدينا(راجع شرح نهج البلاغة، للعلّامة التسترى، ج ۷، ص ۵۱۴، والغدير، ج ۲، ص ۱۳۰، ويضيف العلّامة الأمينى فى الغدير أنّ ما بين أيدينا من كتاب نصر بن مزاحم يمثّل مقطعاً خاصاً منه، وأصل الكتاب أكثر بكثير ممّا بين أيدينا وقد حذف الكثير منه عند طبعه)، ومن جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة بعد السيّد الرضى فى كتابهم ابن الجوزى الحنفى فى كتاب« تذكرة الخواص» والطبرسى فى« الاحتجاج».(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۳۷).

[۱۲۱] (۱). تمام نهج البلاغة، الرسالة ۴۶، ص ۸۲۶.

[۱۲۲] (۱).« مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ» هو الشخص الذى شقّة حجب الحياء لشدّة استهانته ودنائته، وأصلها من« هتك» يعنى الشق‌والتمزيق.

[۱۲۳] (۲).« يَشِين» من مادة« شين» على وزن« عين» بمعنى يقبح.

[۱۲۴] (۳).« الْحَلِيم» تعنى فى مثل هذه الموارد العاقل، من مادة« حَلم» على وزن« ربع» وتعنى العقل.

[۱۲۵] (۴).« بِخِلْطَتِهِ» من مادة« خلطة» بمعنى المعاشرة والاختلاط.

[۱۲۶] (۱). أنساب الأشراف، ج ۵، ص ۶۲(مع التخليص).

[۱۲۷] (۱).« الضِّرْغَام»، يعنى الأسد.

[۱۲۸] (۲).« مَخَالِب» من مادة« مخلب» على وزن« منبر» أظافر الحيوان المفترس.

[۱۲۹] (۳).« فَرِيسَة»، الصيد، من مادة« فرس» على وزن« فقط» بمعنى القتل.

[۱۳۰] (۴). تاريخ اليعقوبى، ج ۲، ص ۲۲۲، وللمزيد من الاطلاع انظر شرح الخطبة ۸۴ من هذا الكتاب، ج ۳.

[۱۳۱] (۱). شرح نهج البلاغة، لمحمّد عبده، فى أوّل الرسالة المذكورة.

[۱۳۲] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، ج ۱۶، ص ۱۶۱.

[۱۳۳] (۱). سند الرسالة: ذكر هذه الرسالة العقد الفريد(ابن عبد ربه المتوفى، ۳۲۸ ه)(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۵۵) والعجيب أنّ الشارح المعروف ابن ميثم لم يذكر هذه الرسالة فى شرحه لنهج البلاغة.

[۱۳۴] (۱). أنساب الأشراف البلاذرى، ص ۱۶۹؛ جواهرالمطالب ابن الدمشقى، ج ۲، ص ۷۹.

[۱۳۵] (۱).« أَخْزَيتَ» من مادة« خِزْى» على وزن« حزب» فى الأصل تعنى الإنكسار الروحى والخجل، الذى تصيب الإنسان إمّا من ناحية ذاتية وبشكل حياء مفرط، أو من ناحية أخرى يفرض على الإنسان من خارجه وهذه المفردة تارة تأتى بمعنى السقوط فى البلاء، وأخرى الفضحية والخجل الناشىء منه.

[۱۳۶] (۱). سورة لقمان، الآية ۱۶.

[۱۳۷] (۱). سند الرسالة: أورد ابن قتيبة(المتوفى سنة ۲۷۶) مقاطع من هذه الرسالة فى كتاب عيون الأخبار، والبلاذرى(المتوفى ۲۷۹) فى كتاب أنساب الأشراف، وابن عبد ربه(المتوفى ۳۲۸) فى العقد الفريد، وهؤلاء جميعاً عاشوا قبل السيّد الرضى، ومن الأشخاص الذين جاءوا بعد السيّد الرضى وذكروا هذه الرسالة فى كتبهم، أحمد بن محمّد بن الميدانى فى مجمع الأمثال، وسبط بن الجوزى فى تذكرة الخواص.

يقول ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة: اتفق الرواة على أنّ هذه الرسالة من الإمام على عليه السلام وقد وردت فى أكثر الكتب التاريخيّة.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۴۴).

[۱۳۸] (۱).« شِعار» يطلق على الملابس الداخليّة التى تلتصق بشعر بدن الإنسان، ومن هذه الجهة تطلق هذه الكلمةعلى صاحب السرّ ومحرم الأسرار، فى مقابل« دثار» وتعنى اللباس الخارجى، ومفردة« شعار» لها معنى آخر وهو العلامة، وكذلك تطلق على الكلمات والعبارات التى تشير إلى أهداف القوم والجماعة، وقد وردت فى الرسالة أعلاه بالمعنى الأوّل.

[۱۳۹] (۱).« بِطانَة» وتعنى أيضاً الملابس الداخليّة، فى مقابل« ظهارة» وتعنى اللباس الخارجيّة، وكذلك تطلق كلمةبطانة على أصحاب السرّ من الأصدقاء الموثوقين، ومراد الإمام عليه السلام من هذه المفردة المعنى الأخير.

[۱۴۰] (۲).« مَوازَرَة» تعنى المعاونة من مادة« وِزر» بمعنى الثقل، لأنّ الشخص الذى يساعد الآخر بأنّه يحمل ثقله على ظهره، ومن هذه الجهة اطلقت كلمة وزير على معاون الملك أو الزعيم.

[۱۴۱] (۳).« كَلِبَ» فعل ماضى من مادة« كلب» على وزن« قلب» وفى الأصل تعنى الحصان بالمهميز.(المهميز شىء لهنصل مدبب يوضع إلى قطب الحصان فيستفاد منه الراكب لحث الفرس على السرعة) وكَلِب تعنى هنا الشدّة والصعوبة.

[۱۴۲] (۴).« فَنَكَتْ» فعل ماضى من مادة« فَنَك» على وزن« قلب» وتعنى العدوان والتمرد واللجاجة.

[۱۴۳] (۵).« شَغَرَتْ» فعل ماضی من مادهٔ« شَغر» علی وزن« صبر» وتعنی عدم الملجأ ما یدافع به.

[۱۴۴] (۶).« المَجِنَّ» تعنی الدرع من مادهٔ« جَن» علی وزن« فن» وتعنی التغطیهٔ، لأنّ الدرع یغطی الإنسان من ضربات العدو.

[۱۴۵] (۱).« آسَیْتَ» من مادهٔ« مُواساهٔ» وتعنی المعاونهٔ والمساعدهٔ.

[۱۴۶] (۲).« غِرَّهٔ» وتعنی الخدعهٔ والإغفال.

[۱۴۷] (۱).« کَرَّهٔ» تعنی الهجوم.

[۱۴۸] (۲).« الوَثْبهٔ» من مادهٔ« وَثْب» علی وزن« وصف» تعنی الانتصار، ثمّ استعملت بمعنی القفز للامساک بشیء.

[۱۴۹] (۳).« اخْتِطَاف» تعنی أخذ الشیء بسرعهٔ.

[۱۵۰] (۴).« الأَزَلّ» من مادهٔ« زَلَل» تعنی الإنسان أو حیوان الذی یملک أفخاذاً ضعیفهٔ، وبما أنّ مثل هذا الشخص باستطاعته الرکض بسرعهٔ فاطلقت هذه الکلمهٔ بمعنی السریع وفی العَدُو.

[۱۵۱] (۵).« دَامَیَهٔ» تعنی المجروحهٔ والتی یخرج منها الدم، من مادهٔ« دَم».

[۱۵۲] (۶).« المِعزَی» فصیلهٔ من الغنم والیشاه.

[۱۵۳] (۷).« الکَسِیرَهٔ» التی تکسر عظمها، وعندما تستعمل فی الأغنام وأمثالها تأتی بمعنی المکسورهٔ الید أو الرجل.

[۱۵۴] (۸).« رِحِیب» بمعنی الواسع من مادهٔ« رُحب» علی وزن« قفل» وتعنی السعهٔ، ورحیب الصدر یقال للشخص الباردالمزاج والذی یملک سعهٔ الصدر وعدم المبالاهٔ فی مواجههٔ المثیرات.

[۱۵۵] (۹).« مُتَأَثِّم» الشخص الذی یشعر بالذنب.

[۱۵۶] (۱۰).« حَدَرْتَ» من مادهٔ« حَدْر» علی وزن« قدر» بمعنی الهبوط والنزول إلی الأسف، وبما أنّ النزول عادهٔ یتمّ بسرعهٔ، فاطلقت هذه الکلمهٔ علی السرعهٔ أیضاً.

[۱۵۷] (۱).« نِقَاش» بمعنی الدقّهٔ والتصعّب فی الحساب.

[۱۵۸] (۲). سورهٔ الزلزلهٔ، الآیتان ۷ و ۸.

[۱۵۹] (۱).« تَسِیغ» من مادهٔ« سَوْغ» علی وزن« قوم» بمعنی الهنییء وتطلق عادهٔ علی الأطعمهٔ والأشربهٔ، ولکنّهاتستعمل کنایهٔ فی أمور أخری أیضاً.

[۱۶۰] (۱).« أَفَاءَ» من مادهٔ« فَیء» بمعنی العودهٔ، وکأنّ الأموال التی بید الکفّار ذات طابع غصبی، فعندما تغنمهاالمسلمون منهم فإنّها تعود إلی أصحابها الأصلیین.

[۱۶۱] (۲).« أعذرن» من مادهٔ« إعذار» بمعنی إظهار الشخص لعذره.

[۱۶۲] (۱).« هَوَادَهٔ» بمعنی اللیونهٔ والصلح والعلاقهٔ بالشخص، وهنا جاءت بمعنی الأوّل.

[۱۶۳] (۲).« أُزِیحَ» من مادهٔ« إزاحهٔ» تعنی الإزالهٔ.

[۱۶۴] (۱). سورهٔ الزخرف، الآیهٔ ۸۱.

[۱۶۵] (۲). سورهٔ النور، الآیهٔ ۲.

[۱۶۶] (۳). سورهٔ النساء، الآیهٔ ۱۳۵.

[۱۶۷] (۴). الکافی، ج ۲، ص ۱۴۰، ح ۳. وردت روایات أخری فی هذا الباب وفی هذا الموضوع.

[۱۶۸] (۱).« ضَحَّ» صیغهٔ أمر من مادهٔ« تَضْحیهٔ» وفی الأصل تعنی رعی الأغنام عند طلوع الشمس، وجملهٔ« فَضَحَّ رُوَیْدَاً» تطلق علی مورد یکون المقصود منه أنّ الأغنام تتحرک ببطء فی المرتع إلی أن تشبع تماماً، ثمّ استخدمت هذه الجملهٔ فی الموارد التی یقصد منها الحفظ والهدوء.

[۱۶۹] (۲).« مَدَى» تعنى نهاية العمل والوصول إلى سنين المتقدمة.

[۱۷۰] (۳).« الثَّرَى» تعنى التراب.

[۱۷۱] (۴). مفردة« لاتَ» تعنى للنفى، وفى الأصل« لا» النافية، واضيفت لها تاء التأنيث للتأكيد،« مناص» من مادة« نوص» وتعنى الملجأ والملاذ، يقال: إنّ العرب عندما يواجهون حادثة صعبة وموحشة وحاصّة فى الحروب يكررون هذه الكلمة ويقولون: مناص، مناص، يعنى أين الملجأ، أين الملجأ؟ وبما أنّ هذه المفهوم يقترن مع الهرب والفرار، فإنّه يستخدم أحياناً محلّ الفرار والمهرب، ومن هذه الجهة فإنّ جملة« ولاتَ حِينَ مَناصٍ» تعنى: لا يوجد طريق للفرار والنجاة.

[۱۷۲] (۵). سورة ص، الآية ۳.

[۱۷۳] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۱۷۲.

[۱۷۴] (۲). شرح نهج البلاغة، لابن ميثم، ج ۵، ص ۹۰.

[۱۷۵] (۱). انظر: شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى، ج ۸، ص ۸۹.

[۱۷۶] (۲). المصدر السابق، ص ۹۲، نقلًا عن تذكرة الخواص، ص ۱۵۰..

[۱۷۷] (۱). انظر: معجم رجال الحديث، ج ۱۰، ص ۲۳۸، به نقل عن الطبرى.

[۱۷۸] (۱). بحار الأنوار، ج ۴۲، ص ۱۵۲، ح ۲۰.

[۱۷۹] (۱). سند الرسالة: جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغة: من الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيّد الرضى: ابن واضح اليعقوبى(المتوفى ۲۸۴) فى تاريخه المعروف، والبلاذرى(المتوفى ۲۷۹) فى كتابه أنساب الأشراف است.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۴۶).

[۱۸۰] (۱).« تَثْرِيب» من مادة« ثَرْب» على وزن« سرو» فى الأصل تعنى الجلد الذى يغطى المعدة والأمعاء، وعندما تأتى هذه المفردة من باب تفعيل(تثريب) تعنى إزاحة هذه الجلدة، ثمّ استخدمت بمعنى اللوم والتوبيخ والتقريع، وكأنّ الإنسان بهذا العمل يكشف غطاء الذنب عن وجه الطرف المقابل.

[۱۸۱] (۲).« ظَنِين» تعنى المتهم، من مادة« ظنة» أى التهمة، والفرق بينها وبين المتهم فى العبارة المذكورة ربّما يكون بأنّ سوء الظن بالمتهم أكثر وأشد من الظنين، وتستخدم فى موارد توجد فيها قرائن على إتهام الشخص.

[۱۸۲] (۳).« مَأْثُوم» تعنى الشخص الذى ذكرت له ذنوب، ولكن« آثم» تعنى الشخص المذنب وكليهما من مادة« إثم» على وزن« اسم» ويعنى الذنب.

[۱۸۳] (۱).« اسْتَظْهِر» من مادة« استِظهار» ويعنى طلب المعونة من الشخص الآخر والإطمئنان لمساعدته.

[۱۸۴] (۱). الإستيعاب، ح ۱۸۸۲، فى شرح حال عمر بن أبى سلمة.

[۱۸۵] (۲). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۱۷۳.

[۱۸۶] (۳). عيون الأخبار، ج ۱، ص ۳۸، ح ۸.

[۱۸۷] (۱). انظر: مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۴۵ و ۳۴۶.

[۱۸۸] (۱). سند الرسالة: ذكر هذه الرسالة قبل السيّد الرضى، البلاذرى فى كتابه أنساب الأشراف، وكذلك وردت فى تاريخ اليعقوبى(ابن واضح) مع تفاوت يسير، وجاء فى الخطبة ۴۴ الجزء الأوّل من هذا الكتاب موارد أخرى من سيرة مصقلة وحياته.

[۱۸۹] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۳، ص ۱۲۷.

[۱۹۰] (۱).« أَغْتام» من مادة« إعتيام» ومن مادة« عيم» على وزن« عيب» فى الأصل تعنى العطش والرغبة بتناول اللبن، وبما أنّ الإنسان عندما يشعر بميل شديد نحو شيء فإنّه يسعى إلى اختيار أفضل أنواعه، وكلمة« عيمة»(بكسر الميم) تعنى كلّ شيء جيد ومختار من

الشیء، وعلیه فإنّ جملة« اعتامک» تعنی أنّهم اختاروک.

[۱۹۱] (۱).« النَّسَمَة» فی الأصل بمعنی التنفس ویقال لهبوب الریح الملائمة« نسیم» وأحیاناً تطلق علی نفس الإنسانأو روحه.

[۱۹۲] (۲).« مَحْق» تعنی المحو والهلاک.

[۱۹۳] (۱). سورة الکهف، الآیتان ۱۰۳ و ۱۰۴.

[۱۹۴] (۱). تاریخ الیعقوبی، ج ۲، ص ۲۰۱.

[۱۹۵] (۲). فتوح البلدان البلاذری، ج ۲، ص ۴۱۱.

[۱۹۶] (۱). سند الرسالة: أورد هذه الرسالة قبل السیّد الرضی، المدئنی(فی کتاب فتوح الإسلام)، والجدیر بالذکر أنّ الروایة التی ینقلها المدائنی تختلف الروایة التی نقلها السیّد الرضی نهج البلاغة، ویشیر إلی أنّ السیّد الرضی لم یأخذ هذه الروایة بل من مصدر آخر، ونقلها بعد السیّد الرضی، ابن الأثیر فی کتابه الکامل فی حوادث سنة ۴۴، وفی أسد الغابة، وابن عبدالبرّ فی الاستیعاب فی شرح حال زیاد.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۵۲).

[۱۹۷] (۱).« یَسْتَزِلّ» من مادة« زَلل» علی وزن« قمر» بمعنی الخطأ، و« یستزل» یعنی أنّه یرید أن یوقع الآخر فی الخطأ.

[۱۹۸] (۲).« لُبّ» فی الأصل بمعنی المخ فی کلّ شیء، ویقال للعقل« لبّ».

[۱۹۹] (۱).« یَسْتَفِلُّ» من مادة« فَلل» علی وزن« قمر» بمعنی کسر الشیء أو التقلیل من حدّة السکین.

[۲۰۰] (۲).« غَرْب» بمعنی النشاط، وکذلک التصمیم.

[۲۰۱] (۳).« لِیَقْتَحِم» من مادة« اقتِحام» بمعنی إدخال الشیء بالقوّة فی شیء آخر.

[۲۰۲] (۴).« یَسْتَلِب» من مادة« استِلابة» بمعنی النهب والغارة والسرقة، وأصلها من« سلب».

[۲۰۳] (۵).« غِرّة» بمعنی الغفلة والتساهل.

[۲۰۴] (۱). سورة طه، الآیة ۸۲.

[۲۰۵] (۲). سورة هود، الآیة ۶.

[۲۰۶] (۳). سورة الأعراف، الآیة ۱۲۸.

[۲۰۷] (۴). سورة سبأ، الآیة ۵۴.

[۲۰۸] (۵). بهج الصباغة، ج ۱۴، ص ۳۷۲.

[۲۰۹] (۶). مجمع البیان، ذیل الآیة ۱۷ من سورة الأعراف.

[۲۱۰] (۱).« فَلْتَة» من مادة« فَلت» علی وزن« ثبت» فی الأصل بمعنی فقدان الشیء، ولذلک تطلق هذه الکلمة علی الکلامالذی یصدر من الإنسان بدون دقّة ویفلت من فمه وتقال:« فلتة»، وکذلک تطلق علی الحوادث الفجائیّة وبدون تأمّل.

[۲۱۱] (۲).« نَزْغَة» من مادة« نَزغ» علی وزن« نظم» بمعنی الدخول فی عمل بقصد الإفساد وإیجاد النزاع بین الناس، و« نزغات شیطان» تقال للوساوس الشیطانیّة التی توقع النزاع بین الأفراد.

[۲۱۲] (۳). شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید، ج ۱۶، ص ۱۸۰.

[۲۱۳] (۱).« مُدَفَّع» من مادة« دفع»، تعنی الشخص الذی یمنع من عمل معین.

[۲۱۴] (۱). بحار الأنوار، ج ۴۵، ص ۸۳.

[۲۱۵] (۱). سورة الأحزاب، الآیة ۴.

[۲۱۶] (۱). شرح نهج البلاغة عبده، ذیل الرسالة ۴۴، ص ۴۵۸.

[۲۱۷] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید، ج ۱۶، ص ۱۸۷.

[۲۱۸] (۱). سورة النمل، الآية ۳۷.

[۲۱۹] (۱). ما ورد أعلاه مقتبس من كتاب الاستيعاب، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، وتنقيح المقال، للعلّامة المامقانى وشرح نهج البلاغة، للعلّامة التسترى، فراجع.

[۲۲۰] (۱). سند الرسالة: صرّح صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة بأنّ الصدوق ذكر قسماً من هذه الرسالة فى كتاب الأمالى قبل السيّد الرضى، والجدير بالذكر أنّ السيّد الرضى فى شرحه لهذه الرسالة يقول فى عدّة موارد وفى رواية أخرى ورد كذا وكذا، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر عنده نقل منه هذه العبارة المتفاوتة، بل إنّه فى أحد الموارد يقول: إنّ جماعة نقلوا هذه العبارة بكذا وكذا، والتعبير بالجماعة جدير بالتأمل، مضافاً إلى ذلك فإنّ مقاطع من هذه الرسالة وردت فى كتب متعددة بعد السيّد الرضى كخرائج للقطب الراوندى، وروضة الواعظين للفتال النيسابورى، والمناقب لابن شهر آشوب، وربيع الأبرار للزمخشرى مع اختلاف يسير، هذا الاختلاف يشير إلى مصادر أخرى لديهم(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۷۳).

وقد أورد هذه الرسالة« البرّى»(المتوفى قرن ۷) فى كتاب الجوهرة فى نسب الإمام على، ص ۸۱، مع بعض الإضافات.

[۲۲۱] (۱). جملة« تستطاب لك» بمعنى أنّه يطلق لك جلب الأنواع الجيدة واللذيذة من الأطعمة، وهى من مادة« طيب» بمعنى الطاهر واللذيذ والجيد.

[۲۲۲] (۱).« عائل» بمعنى من له عيال محتاجين إليه.

[۲۲۳] (۲).« مجفوّ» بمعنى المحروم والشخص الذى لم يعطى حقّه.

[۲۲۴] (۳).« تقضمه» من مادة« قضم» على وزن« فهم» بمعنى مغض الطعام فى الفم، وأحياناً تأتى بمعنى الأكل، و« مقضم» يطلق على الطعام فى الفم.

[۲۲۵] (۴).« فالفظه» من مادة« لفظ» بمعنى اخراج الطعام من الفم، ويقال للألفاظ لأنّها تخرج من الفم.

[۲۲۶] (۱). الأعلام الزركلى، ج ۴، ص ۲۰۵.

[۲۲۷] (۱). الاستيعاب، ج ۳، ص ۸۹.

[۲۲۸] (۲). مستدركات علم رجال الحديث، ج ۵، ص ۲۱۳.

[۲۲۹] (۳). اسدالغابة، ج ۳، شرح حال عثمان بن حنيف، رقم ۳۵۷۱. وقد ورد ما يشبه هذا المعنى فى مسند أحمد، ج ۴، ص ۱۳۸؛ ومستدرك الحاكم، ج ۱، ص ۵۱۹. ويقول الحاكم بعد نقل هذا الحديث: إنّ هذا الحديث صحيح السند رغم أنّ البخارى ومسلم لم ينقلاه،(ليت المخالفين الجاهلين يتمسّكون لا أقل بمبانيهم الروائية ليعلموا مدى وقوعهم فى الاشتباه).

[۲۳۰] (۴). رجال المامقانى، شرح حال عثمان بن حنيف.

[۲۳۱] (۱).« طمر» تعنى الثواب الخلق والقديم، وفى الأصل من مادة« طمر» على وزن« أمر» ويعنى تغطية الشىء، وأمّااستخدام الإمام عليه السلام لهذه الكلمة بصيغة التثنية فمن أجل أنّ أحدهما يشير إلى الثوب والآخر إلى اللباس الداخلى.

[۲۳۲] (۱).« قُرص» فى الأصل بمعنى الشىء المدور، ولذلك يطلق على الشمس والقمر والخبز المدور فيقال قرص الخبز أو قرص الشمس، والتثنية فى عبارة الإمام عليه السلام إشارة إلى طعام يوم واحد، لأنّ كثير من الناس فى ذلك الزمان يتناولون الطعام فى اليوم والليلة مرّتين.

[۲۳۳] (۲). فى ظلال نهج البلاغة، ج ۴، ص ۱۶.

[۲۳۴] (۱).« تبر» قطعات الذهب والفضة قبل أن تصنع منها الزينة أو تكون مسكوكة.

[۲۳۵] (۲).« وفر» يقول أرباب اللغة أنّها تعنى المال الكثير من مادة« وفور» بمعنى الزيادة والكثرة، وأحياناً تطلق على كلّ شىء الكثير.

[۲۳۶] (۱).« عفصة» تارة تطلق على شجرة البلوط، وأخرى عل ثمرتها، وهذه المادة يترشح منها سائل أبيض ومضافاً إلى مرارته فإنّه

قابض.

[۲۳۷] (۲).« مقر» تـارة تـأتى بمعنى المر، وأخرى بمعنى الحـامض، وفى هـذا المورد جـاءت بمعنى الأـوّل، وهى تأكيـد على مفهوم« عفصة».

[۲۳۸] (۱).« شحت» من مادة« شحّ» على وزن« نُه» بمعنى البخل المصاحب للحرص.

[۲۳۹] (۲).« سخت» الجود والسخاء.

[۲۴۰] (۱).« مظانّ» جمع« مظنة» بمعنى المكان الذى يضم أو يطمئن الإنسان بوجود الشيء يطلبه فيه.

[۲۴۱] (۲).« جدث» بمعنى القبر.

[۲۴۲] (۳).« اضغط» من مادة« اضغات» بمعنى العصر من مادة« ضغت» على وزن« وقت» بمعنى استخدام القوّة فى الشيءوالضغط عليه.

[۲۴۳] (۴).« المدر» يقال للطين الصلب الملتصق ببعضه مثل قطعة الآجر.

[۲۴۴] (۱). شرح نهج البلاغة، للعلّامة التسترى، ج ۵، ص ۳۴۰.

[۲۴۵] (۲).« المزلق» بمعنى زحلق من مادة« زلق» على وزن« شفق» بمعنى التزحلق.

[۲۴۶] (۱). سورة الأنعام، الآية ۸۲.

[۲۴۷] (۲). سورة مريم، الآيتان ۷۱ و ۷۲.

[۲۴۸] (۳).« القمح» بمعنى الحنطة.

[۲۴۹] (۴).« نسائج» جمع النسيج بمعنى المنسوج.

[۲۵۰] (۱).« القزّ» بمعنى الحرير.

[۲۵۱] (۲).« جشع» بمعنى الحرص والطمع، وتأتى أحياناً بمعنى الحرص الشديد.

[۲۵۲] (۳).« مبطان» هو الشخص الذى إمتلأت بطنه من الطعام، من مادة« بطن» وهذه المفردة صيغة مبالغة.

[۲۵۳] (۴).« غرثى» تعنى الجوعان(وصيغة المفرد المؤنثة وجاء صفة للبطون).

[۲۵۴] (۵).« حرّى» بمعنى العطشان من مادة« حرارة».

[۲۵۵] (۶).« بطنة» كثرة الأكل(من مادة« بطن»).

[۲۵۶] (۷).« تحنّ» من مادة« حنين» بمعنى التمايل والاستعطاف لإلفات النظر.

[۲۵۷] (۸).« قـدّ» تعنى الجلـد أو مـا يشـبه القربـة التى التوضع فيهـا السوائـل، وتطلق أحيانـاً على قطعات اللحم الجاف التى توضع فى القربـة، ويقال عنها« قـدّ»، وهـذا الشـعر لحاتم الطائى صاحب الكرم المعروف لدى العرب(شـرح نهجالبلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۲۸۸).

[۲۵۸] (۱). إرشاد القلوب، للديلمى، ص ۲۲.(شعر أبى العتاهية).

[۲۵۹] (۲).« جشوبة» بمعنى الخشونة والعنف.

[۲۶۰] (۱). تاريخ الطبرى، ج ۳، ص ۱۵۴.

[۲۶۱] (۲). أوردت هـذه الآيـة فى سورة الأسـراء الآية ۲۶، وهى مدنيـة كما صـرح بـذلك علماء أهل السـنّة، رغم أنّ الآيـة« فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ»(سورة الروم، الآيـة ۳۸) مكيـة كما ذهب إليه البعض، وذهب الآخرون بـدون الالتفات إلى التفاوت بين الآيتين إلى مكية الآية الثانية ليتخذوها ذريعة فى نفى حادثة فدك.

[۲۶۲] (۳). شواهد التنزيل، ص ۱۶۸.

[۲۶۳] (۴). تفسير فتح القدير، ج ۳، ص ۲۲۴.

[۲۶۴] (۵). تاريخ المدينة المنورة، ج ۱، ص ۱۹۹.

[۲۶۵] (۱). بحار الأنوار، ج ۲۹، ص ۱۲۹.

[۲۶۶] (۲). الاحتجاج، للطبرسى، ج ۱، ص ۹۲.

[۲۶۷] (۳). بحار الأنوار، ج ۲۹، ص ۱۹۴.

[۲۶۸] (۴). سنن الدارمى، ج ۱، ص ۹۸؛ سنن ابن ماجة، ج ۱، ص ۸۱، ح ۲۲۳؛ الكافى، ج ۱، ص ۳۲، ح ۲.

[۲۶۹] (۱). صحيح البخارى، ج ۳، ص ۳۵ باب غزوة خيبر.

[۲۷۰] (۲). المصدر السابق، ج ۴، ص ۲۱۰؛ بحار الأنوار، ج ۲۹، ص ۳۳۶.

[۲۷۱] (۳). مستدرك الحاكم، ج ۳، ص ۱۵۳؛ المعجم الكبير، للطبرانى، ج ۲۲، ص ۴۰۱.

[۲۷۲] (۱). فتوح البلدان البلاذرى، ص ۳۸.

[۲۷۳] (۲). زهرا برترين بانوى جهان(الزهراء سيدة نساء العالمين).

[۲۷۴] (۳). فدك، ص ۶۰.

[۲۷۵] (۴). ولمزيد من الإطلاع انظر حول فدك: صحيح البخارى؛ مستدرك الحاكم، تاريخ الطبرى، سنن ابن ماجة وكتاب فدك، تأليف باقر المقدسى؛ وكتاب فدك فى التاريخ تأليف آية اللَّه الشهيد السيّد باقر الصدر؛ وكتاب بحار الأنوار، ج ۲۹.

[۲۷۶] (۱).« المربوطة» تعنى فى هذا المورد الحيوان الذى يربط لغرض زيادة سمنه ولحمه.

[۲۷۷] (۲).« تقمّم» بمعنى أخذ جميع ما يحتاج للسفر من طعام ومتاع، وفى الأصل من مادة« قمّ» على وزن« غمّ» وتعنى تنظيف الدار وتعديلها، وكذلك تطلق على قطف الرياحين والنباتات بشكل كامل بواسطة شفاه الحيوان.

[۲۷۸] (۳).« تكترش» من مادة« كرش» على وزن« كرج» وتعنى معدة الحيوانات، وعليه فإنّ« إكتراش» تعنى امتلاء المعدّة.

[۲۷۹] (۱).« سدى» بمعنى الباطل وعدم الفائدة.

[۲۸۰] (۲).« اعتسف» من مادة« اعتساف» بمعنى أداء العمل بدون فكر وهداية وإرادة، وتعنى الانحراف عن الجادة أيضاً.

[۲۸۱] (۳).« المتاهة» اسم مكان من مادة« تيه» بمعنى الحيرة والضلالة.

[۲۸۲] (۱). سورة القيامة، الآيات ۳۶- ۳۹.

[۲۸۳] (۲). سورة المؤمنون، الآية ۱۱۵.

[۲۸۴] (۳).« منازلة» بمعنى المقاتلة والحرب، من مادة« نزول» فالشخص المقاتل ينزل إلى الميدان فى مقابل خصمه ويقاتله.

[۲۸۵] (۴).« الرواتع» جمع« راتع» وهنا جاءت معنى الشجرة المزدهرة، من مادة« رتع» على وزن« نفع» بمعنى الأكل من المرتع.

[۲۸۶] (۱).« العذية» تطلق على الأرض البعيدة عن الماء، ولا يرويه إلّاماء المطر.

[۲۸۷] (۲).« وقود» بمعنى الحطب.

[۲۸۸] (۳).« خمود» أى انطفاء النار ثمّ اطلقت على كلّ شيءٍ يهدأ ويسكن من نشاطه وفعاليته.

[۲۸۹] (۱). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۹ من الكلمات الغريبة للإمام عليه السلام.

[۲۹۰] (۲). كفاية الطالب، ص ۳۱۵ وما بعده طبقاً لنقل شرح نهج البلاغة، للعلّامة التسترى، ج ۷، ص ۴۶۸ و ۴۶۹.

[۲۹۱] (۳). تذكرة الخواص، ص ۳۷.

[۲۹۲] (۴). مسند أحمد، ج ۱، ص ۱۵۱.

[۲۹۳] (۱). بحار الأنوار، ج ۳۱، ص ۲۵۹؛ تاريخ اليعقوبى، ج ۲، ص ۵۶.

[۲۹۴] (۲).« المركوس» أى المنقلب، من مادة« ركس» على وزن« عكس» أى انقلاب الشيء ظهر على عقب، أو وضع الشيء برأسه

على الأرض.

[۲۹۵] (۳).« المدرة» قطعة الطين الجاف.

[۲۹۶] (۴).« الحصيد» بمعنى النبات المحصود من مادة الحصاد.

[۲۹۷] (۱). سورة التوبة، الآية ۷۳.

[۲۹۸] (۲). سورة آل عمران، الآية ۱۵۹. ويقول الفخر الرازى فى تفسيره لسورة الحمد، ج ۱، ص ۲۳۵:« لقد اشتهر أنّ النّبى صلى الله عليه و آله لمّا كسرت رباعيته قال:« اللّهّم إهد قومى فإنّهم لا يعلمون».

[۲۹۹] (۱).« إليك عنّى» جملة تتشكل كلّ واحد منهما ظاهراً من جار ومجرور، فى حين أنّ« إليك» اسم فعل بمعنى« أبعد». ويحتمل أن تكون جملة لفعل مقدّر وهو« أرجع» و« أبعد»، يعنى« أرجع إليك وأبعد عنّى».

[۳۰۰] (۲).« غارب» بمعنى المحل الذى يقع على ظهر ورقبة الناقة، ويأتى بمعنى الرقبة وآخر نقطة من الظهر.

[۳۰۱] (۳).« انسللت» من مادة« سلّ» على وزن« حلّ» بمعنى سحب واخراجه بهدوء.

[۳۰۲] (۴).« مخالب» جمع« مخلب» على وزن« منبر» تطلق على أظافر الطيور والوحوش.

[۳۰۳] (۵).« أفلتّ» من مادة« فلت» على وزن« برف» بمعنى الخلاص والتحرر.

[۳۰۴] (۶).« حبائل» جمع« حبالة» بمعنى المصيدة والشرك.

[۳۰۵] (۷).« مداحض» جمع« مدحض» على وزن« مركز» بمعنى منزلق.

[۳۰۶] (۱).« مداعب» جمع« مدعبة» على وزن« مكتبة» بمعنى المزاح والمداعبة.

[۳۰۷] (۲).« رهائن» جمع« رهينة».

[۳۰۸] (۳).« مضامين» جمع« مضمون» فى‌الأصل تعنى الجنين فى باطن امّه، ثمّ اطلقت على كلّ شىء فى مطاوى شىء آخر.

[۳۰۹] (۴).« اللحود» جمع« لحد» على وزن« مهد» ويعنى الشق الذى يقع فى أسفل القبر ويوضع الميت فيه.

[۳۱۰] (۵). الأنوار البهية، ص ۲۴۴.

[۳۱۱] (۱). شرح نهج البلاغة للعلّامة التسترى، ج ۶، ص ۳۹۰؛ بحار الأنوار، ج ۱۲، ص ۱۷۵.

[۳۱۲] (۲).« المهاوى» جمع« مَهوى» و« مَهواة» يعنى الوادى ويطلق على كلّ مكان خطر يتعرض فيه الإنسان للهلكة.

[۳۱۳] (۳).« ورد» تعنى فى الأصل الوصول إلى حافة النهر، ثمّ اطلقت على كلّ وصول أو دخول.

[۳۱۴] (۴).« صدر» ضد« ورد» يعنى الخروج من الشاطىء ثمّ اطلقت على كلّ أنواع من الخروج.

[۳۱۵] (۱). سورة يوسف، الآية ۱۱۱.

[۳۱۶] (۲). سورة الدخان، الآيات ۲۵- ۲۹.

[۳۱۷] (۳).« دحض» بعنى منزلق.

[۳۱۸] (۴).« زلق» من مادة« زلق» على وزن« دلق» بمعنى التزحلق.

[۳۱۹] (۵).« لجج» جمع« لجة» على وزن« حجّة» بمعنى القسم العظيم المتلاطم من البحر.

[۳۲۰] (۶).« ازورّ» من مادة« ازورار» بمعنى الجنوح والانحراف من شىء، وهو من مادة« الزيارة».

[۳۲۱] (۷).« مناخ» فى الأصل بمعنى المحل الذى يبرك فيه الإبل، ثمّ اطلقت على كلّ محل للإستقرار.

[۳۲۲] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۴۵۹، ح ۲۱.

[۳۲۳] (۲).« اعزُبى» أى ابتعدى عنّى من مادة« عزوب» على وزن« غروب» بمعنى الابتعاد عن الشىء، ويطلق على من لم‌يتزوج أعزب لأنّه بعيد عن الحياة العائليّة.

[۳۲۴] (۳).« أسلس» من مادة« سلاسة» بمعنى المطيع وتأتى أحياناً بمعنى السهل والميسور.

[۳۲۵] (۱). سورة إبراهيم، الآية ۲۲.

[۳۲۶] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۳۶۳.

[۳۲۷] (۱).« أيم اللّه» بمعنى« اقسم باللّه»، وقيل إنّها فى الأصل من« أيمن» جمع يمين بمعنى القسم، وألفه ألف وصل، وتقرأ أحياناً بالفتح وأخرى الكسر، ثمّ حذفت النون منها وصارت« أيم اللّه»، وأحياناً تحذف الياء أيضاً ويقال:« امُ اللّه» وعلى أيّة حال نظراً لأنّ هذه العبارة جمع، فإنّها تدلّ على القسم المؤكّد.

[۳۲۸] (۲).« رياضة» فى الأصل بمعنى ترويض وتطويع النفس أو البدن وتربيته، ومن هذه الجهة يقال للرياضات الجسمانيّة والنفسانيّة بأشكالها المختلفة« رياضة» ويقال للبستان روضة من جهة أنّ الإنسان يهتم بتنظيمها وترتيبها وفق برنامج مدروس لتكون مزدهرة وخضراء.

[۳۲۹] (۳).« تهش» من مادة« هشاشة» على وزن« حوالة» بمعنى الفرح التبسم.

[۳۳۰] (۴).« مأدوماً» من مادة« إدام» بمعنى المرق(الشى الذى يأكل مع الخبز) وعليه فإنّ« مأدوم» الشىء الذى يؤكل على شكل مغمس بالمرق.

[۳۳۱] (۱).« مقلة» يطلق على كرة العين بأجمعها، وأحياناً يراد منها سواد العين فقط.

[۳۳۲] (۲).« نضب» من مادة« نضوب» فى الأصل بمعنى ذهاب الماء فى الأرض وجفاف البئر أو الغدير، وهذه المفردة تستعمل أحياناً فى مورد العين أيضاً عندما يجف دمعها.

[۳۳۳] (۳).« معين» من مادة« معن» على وزن« طعن» بمعنى جريات الماء و« ماء معين» يراد منها الماء الجارى، ثمّ استخدمت فى جريان الدموع من العيون.

[۳۳۴] (۴). سورة الكهف، الآيتان ۲۳ و ۲۴.

[۳۳۵] (۱).« السائمة» الحيوان الذى يترك ليرعى فى الصحراء، من مادة« سوم» على وزن« قوم».

[۳۳۶] (۲).« رعيها» تعنى العلف الذى يأكله الحيوان أثنا الرعى، من مادة« رعى» على وزن« وحى».

[۳۳۷] (۳).« تبرك» من مادة« بُروك» بمعنى الاستقرار والهدوء على الأرض.

[۳۳۸] (۴).« الربيضة» قطيع الغنم وأمثال ذلك عندما يعود مع الراعى إلى محل استقراره أى الحضيرة. من مادة« ربض» و« ربوض» على وزن« قبض» و« قبوض» أى جمع الحيوان ليده ورجله للجلوس على الأرض.

[۳۳۹] (۵).« عشب» النباتات الرطبة فى مقابل الحشيش وهو النباتات الجافة.

[۳۴۰] (۶).« يهجع» من مادة« هجوع» على وزن« ركوع» بمعنى النوم الخفيف.

[۳۴۱] (۷).« الهاملة» الحيوان المتروك من مادة« همل» على وزن« حمل» بمعنى ترك الحيوان بدون راعى.

[۳۴۲] (۸).« المرعية» اسم مفعول من مادة« رعى» على وزن« سعى» وهو الحيوان الذى يساق للمرعى.

[۳۴۳] (۹). مجانى الأدب، ج ۲، ص ۳۷.

[۳۴۴] (۱). غرر الحكم، ح ۴۸۰۹.

[۳۴۵] (۲). المصدر السابق، ح ۴۷۹۱.

[۳۴۶] (۳). كنز العمّال، ح ۴۴۱۷۶.

[۳۴۷] (۴). ميزان الحكمة، ح ۷۵۴۱.

[۳۴۸] (۵). تذكرة الأولياء، ج ۱، ص ۲۳۵.

[۳۴۹] (۱).« تاریخ تصوف» للدکتور الغنی، ص ۳۶۱، بالفارسیة.

[۳۵۰] (۲). تذکرة الأولیاء، ج ۲، ص ۱۶۴.

[۳۵۱] (۱). سورة المؤمنون، الآیة ۵۱.

[۳۵۲] (۱).« طوبی» مؤنث« أطیب» ولها معنیً واسع وتشمل أطهر وأفضل الخیرات والطیبات، وفی مثل هذه المواردتشبه الدعاء للآخرین.

[۳۵۳] (۲).« عرکت» من مادة« عرک» علی وزن« أرک» فی الأصل تعنی التمرغ ثمّ اطلقت علی کلّ ما یؤثر علی کلّ شیء وینتهی لفنائه وزواله.

[۳۵۴] (۳).« بؤس» یعنی کلّ أشکال الانزعاج والمساءة وهی فی مقابل النعمة والراحة.

[۳۵۵] (۴).« غمض» من مادة« غموض» بمعنی غض النظر عن الشیء وعدم رؤیته، ثمّ اطلقت علی حالة النوم، لأنّ الإنسان یغمض عینه فیه، وفی الجملة أعلاه قصد بها هذا المعنی.

[۳۵۶] (۵).« کری» یعنی النوم.

[۳۵۷] (۱).« توسّد» من مادة« وسادة» بمعنی المتکأ والمخدة.

[۳۵۸] (۲). الکافی، ج ۲، ص ۸۴، ح ۷.

[۳۵۹] (۳). من لا یحضره الفقیه، ج ۴، ص ۳۵۸، ح ۵۷۶۲.

[۳۶۰] (۱).« أسهر» من مادة« سهر» علی وزن« سفر» بمعنی الیقظة.

[۳۶۱] (۲).« تجافت» من مادة« تجافی» بمعنی التنحی والابتعاد ومادته الأصلیّة« جفاء» بمعنی أبعاد الشیء.

[۳۶۲] (۳).« مضاجع» جمع« مضجع» بمعنی محل النوم.

[۳۶۳] (۴).« همهمت» من مادة« همهمة» بمعنی الکلام بصورة همس.

[۳۶۴] (۵).« تقشّعت» من مادة« تقشّع» علی وزن« توقع» ویعنی التلف والتفرق من مادة« قشع» علی وزن« مشق» بمعنی الرفع والدفع.

[۳۶۵] (۶). سورة السجدة، الآیة ۱۶.

[۳۶۶] (۷). سورة الذاریات، الآیتان ۱۷ و ۱۸.

[۳۶۷] (۸). سورة المجادلة، الآیة ۲۲.

[۳۶۸] (۹).« ولتکفف» من مادة« کفّ» بمعنی المنع، ولکن فی الکثیر من نسخ نهج البلاغة وشروحها وردت« وَلْتَکْفِکَ» من مادة« کفایة» یعنی أنّ أقراص الخبز کافیة لک فلا تقصد الموائد الفاخرة والأطعمة الملونة.

[۳۶۹] (۱). مروج الذهب، ج ۳، ۳۱۰.

[۳۷۰] (۱). ورد هذا الکلام عن النّبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی سنن الترمذی، ص ۲۴۴۳. وکذلک ورد هذا الحدیث فی وسائل الشیعة ج ۱۱، ص ۳۱۵، ح ۱۳ باب استحباب الزهد فی الدنیا وحد الزهد عن الإمام الصادق علیه السلام أیضاً.

[۳۷۱] (۲). نهج البلاغة، الخطبة ۸۱.

[۳۷۲] (۳). بحار الأنوار، ج ۷۹، ص ۲۹۹.

[۳۷۳] (۴). المصدر السابق، ج ۴۲، ص ۲۷۶.

[۳۷۴] (۱). کنز العمال، ح ۸۵۶۶.

[۳۷۵] (۱). المؤمنون هنا، بقرینة الآیة السابقة إشارة إلی أمیرالمؤمنین الإمام علی علیه السلام وهی آیة الولایة واعطاء الإمام خاتمه فی حال الرکوع، وعلی فهذه الآیة نازلة فی شأنه علیه السلام.

[۳۷۶] (۱). سند الرسالة: أجمل الکثیر من شرّاح فی من هو المخاطب فی هذه الرسالة، ولکنّ صاحب کتاب(مصادر نهج البلاغة) یری أنّ المخاطب لها هو مالک الأشتر، وکذلک ذکره صاحب کتاب(تمام نهج البلاغة) ویضیف صاحب المصادر: عندما عاد الإمام علی علیه السلام من صفین أرسل مالک الأشتر إلی منطقة حکومته وإدارته« منطقة الجزیرة»(وفقاً لما ورد فی معجم البلدان أنّ الجزیرة منطقة فی العراق تقع بین نهری دجلة والفرات) وعندما انتهت قضیّة التحکیم وتغیرت أوضاع مصر أرسل الإمام علی علیه السلام مالک الأشتر إلی مصر بدلًا من محمّد بن أبی بکر وأرسل معه هذه الرسالة وقال: إنّ هذه المهمّة لا یقوم بها إلّاأنت، وأعطاه رسالة العهد التی ستأتی فی الرقم ۵۳.

ومن الأشخاص الذین نقلوا هذه الرسالة قبل السیّد الرضی، إبراهیم بن هلال الثقفی فی کتاب الغارات، وکذلک البلاذری فی أنساب الأشراف، والطبری فی تاریخه فی حوادث سنة ۳۸، ومن الأشخاص الذین ذکروا هذه الرسالة بعد السیّد الرضی، ابن الأثیر فی کتابه« الکامل».(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۷۶).

[۳۷۷] (۱).« استظهر» من مادة« استظهار» بمعنی طلب المعونة والمساعدة.

[۳۷۸] (۲).« أقمع» من مادة« قمع» علی وزن« قرض» بمعنی انصراف الشخص من إنجاز هدفه، وبمعنی القهر والضغط علی الشخص للاستسلام، و« مِقمعة» تعنی العمود الحدیدی الذی یضرب به الشخص أو الحیوان المتمرد علی رأسه لمنعه من التمرد.

[۳۷۹] (۳).« نخوة» التکبّر والغرور.

[۳۸۰] (۱).« لهاة» بمعنی اللسان الصغیر، ثمّ اطلقت علی المخنق والحنجرة کما ورد فی الجملة أعلاه.

[۳۸۱] (۲).« الثغر» یعنی حدود البلد وفی الأصل بمعنی کلّ شقّ.

[۳۸۲] (۱). تاریخ الطبری، ج ۳، ص ۵۰۱، حوادث سنة ۳۶.

[۳۸۳] (۲).« منبج» علی وزن« مجلس» اسم مدینة من مدن الشام.

[۳۸۴] (۳).« ضغث» علی وزن« حرص» تعنی قبضة من الأعواد الرفیعة مثل سیقان الحنطة والشعیر أو محمل التمر فی النخلة، ویأتی بمعنی حزمة من حطب أو نبات الجاف أیضاً، وأحیاناً تطلق علی المنامات المضطربة، وهنا وردت بمعنی مجموعة من عوامل اللین.

[۳۸۵] (۱). الکافی، ج ۲، ص ۱۱۹، ح ۶.

[۳۸۶] (۲). مجانی الأدب، ج ۲، ص ۴۸.

[۳۸۷] (۱). مجانی الأدب، ج ۲، ص ۱۰۱.

[۳۸۸] (۲). سورة الحجر، الآیة ۸۸.

[۳۸۹] (۳). سورة آل عمران، الآیة ۱۵۹.

[۳۹۰] (۴).« آس» من مادة« مواساة» تعنی وقوع الأشیاء فی صف واحد والتساوی فی المرتبة.

[۳۹۱] (۵).« حیف» الانحراف عن الحقّ والعدالة.

[۳۹۲] (۱). سند الرسالة: نقل هذه الوصیّة جماعة کثیرة قبل السیّد الرضی، ومنهم أبومخنف(لوط بن یحیی طبقاً لنقل مقاتل الطالبیین) وأبو حاتم السجستانی فی کتاب المعمرون، والطبری فی تاریخه المعروف فی حوادث سنة ۴۰، والکلینی فی کتاب الکافی، والمسعودی فی مروج الذهب، والشیخ الصدوق فی من لا یحضره الفقیه، وجماعة آخرون.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۷۹- ۳۸۱).

[۳۹۳] (۱).« تبغیا» و« بغت» کلاهما من مادة« بغاء» علی وزن« سناء» بمعنی طلب الشیء.

[۳۹۴] (۲).« زوی» من مادة« زیّ» علی وزن« حیّ» وتعنی الإبعاد والنهی، وفی الجملة أعلاه« زوی» بمعنی اخذ.

[۳۹۵] (۳). سورة الحدید، الآیة ۲۰.

[۳۹۶] (۴). سورة الحديد، الآية ۲۳.

[۳۹۷] (۱). تفسير در المنثور، ذيل الآية ۱۰ من سورة الحشر.

[۳۹۸] (۲). ميزان الحكمة، ج ۳، باب الحزن، ح ۳۷۸۹. وللاطلاع أكثر انظر الرسالة ۲۲ من هذا الكتاب.

[۳۹۹] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۳۳۲، ح ۸.

[۴۰۰] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۳۵۹.

[۴۰۱] (۲). غرر الحكم، ص ۴۴۶، ح ۱۰۲۱۰.

[۴۰۲] (۱). جاء فى رواية وفقاً لما ذكر صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة: عندما عاين الطبيب المعروف فى الكوفةالإمام عليه السلام قال: أنا آيس من بقاءك وحياتك، فأمر الإمام عليه السلام بأن يأتوا له بدواة وقلم.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۷۹).

[۴۰۳] (۲).« ذات» فى الأصل بمعنى الخلقة والبنية وأساس الشىء، وإن جاء فى اصطلاح الفلاسفة بمعنى عين الشىءوحقيقته، ومن هذه الجهة فإنّ إصلاح ذات البين أو صلاح ذات البين إشارة إلى إزالة الكدورات والأحقاد من الأصل والأساس.

[۴۰۴] (۱). سورة الحجرات، الآية ۱۳.

[۴۰۵] (۱). تفسير الثعلبى، ج ۹، ص ۸۰.

[۴۰۶] (۲). الكافى، ج ۲، ص ۲۰۹، ح ۱.

[۴۰۷] (۱). الختن، زوج بنت الرجل وزوج اخته.

[۴۰۸] (۲). الكافى، ج ۲، ص ۲۰۹، ح ۳ و ۴.

[۴۰۹] (۳). كنز العمّال، ح ۵۴۸۰؛ مجموعة ورام، ج ۱، ص ۳۹.

[۴۱۰] (۴). بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۴۴.

[۴۱۱] (۵). المصدر السابق، ص ۴۳.

[۴۱۲] (۱).« تغبوا» من مادة« غَبّ» على وزن« حد» بمعنى العاقبة، وهذه المفردة تأتى أحياناً فى مورد الأعمال والأمور التى يؤتى بها بشكل غير متوالى، من قبيل ما ورد فى الحديث الشريف عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال لبعض أصحابه:« زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حُبّاً»(مستدرك الوسائل، ج ۱۰، ص ۳۷۴، ح ۱۲۲۱۰).

[۴۱۳] (۱). مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۰۶.

[۴۱۴] (۲). المصدر السابق.

[۴۱۵] (۳). من بلاد كردستان قريبة من بغداد.

[۴۱۶] (۴). الكافى، ج ۱، ص ۴۰۶، ح ۵.

[۴۱۷] (۱). بحار الأنوار، ج ۴۱، ص ۲۹.

[۴۱۸] (۲).« سيورثهم»« ورث»(صيغة الثلاثى المجرّد) تعنى أخذ الميراث، ولكن« ورّث» من باب التفعيل تعنى اعطاء الميراث أو ترك الميراث.

[۴۱۹] (۱). مستدرك الوسائل، ج ۸، ص ۴۲۴، ح ۱۴.

[۴۲۰] (۲). انظر: وسائل الشيعة، ج ۸، ص ۴۹۱، آداب العشره، باب ۹۰.

[۴۲۱] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۷، ص ۹.

[۴۲۲] (۱). بهج الصباغة، ج ۱۱، ص ۸۰.

[۴۲۳] (۲). نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۲.

[۴۲۴] (۱). التهذيب، ج ۲، ص ۲۳۷، ح ۵.

[۴۲۵] (۲). بحار الأنوار، ج ۷۹، ص ۲۱۸، ح ۳۶.

[۴۲۶] (۳). ذكر المرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ۴۲، ص ۲۵۱، وجماعة من شرّاح لنهج البلاغة معنى الجملة كما ذكرناه فى المتن، وبهذا المعنى ورد فى مجمع البحرين، ولكن جماعة من الأكابر كالفيض الكاشانى فى الوافى، والمحقق السبزوارى فى ذخيرة المعاد، والسيّد أحمد العاملى فى مناهج الأخيار فى شرح الاستبصار فسّروا جملة:« لم تناظروا» بمعنى« لم تمهلوا».

[۴۲۷] (۱). الكافى، ج ۴، ص ۲۷۱.

[۴۲۸] (۲). ورد فى بعض نسخ الوسائل« ما أخلفك».

[۴۲۹] (۳). الكافى، ج ۴، ص ۲۷۱، ح ۱.

[۴۳۰] (۱). تهذيب الأحكام، ج ۶، ص ۱۲۳، ح ۸.

[۴۳۱] (۲). الكافى، ج ۵، ص ۸، ح ۱۱.

[۴۳۲] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۳۴۵، ح ۵.

[۴۳۳] (۲). المصدر السابق، ص ۳۴۶، ح ۷.

[۴۳۴] (۳). المصدر السابق، ص ۳۴۴، ح ۱.

[۴۳۵] (۱). الكافى، ج ۵، ص ۵۶، ح ۳.

[۴۳۶] (۱). الكافى، ج ۵، ص ۵۵، ح ۱.

[۴۳۷] (۲). المصدر السابق.

[۴۳۸] (۳). المصدر السابق، ص ۵۹، ح ۱۱.

[۴۳۹] (۱).« ألفينكم» من مادة« لفو» على وزن« لهو» فى الأصل بمعنى فصل الشىء عن غيره، مثل فصل اللحم عن‌العظم، والفاء هنا بمعنى العثور على الشىء فجأة.

[۴۴۰] (۲).« تخوضون» من مادة« خوض» فى الأصل بمعنى الغمس فى الماء، ثمّ اطلقت على الدخول العميق والتوغل فى كلّ شىء حتى فى البحوث العلمية.

[۴۴۱] (۱). انظر: شرح نهج البلاغة، للعلّامة التسترى، ج ۱۱، ص ۸۷.

[۴۴۲] (۱). تاريخ الطبرى، ج ۴، ص ۱۱۱؛ الكامل، لابن الأثير، ج ۳، ص ۳۹۰.

[۴۴۳] (۲).« تمثّلوا» من مادة« مثل» على وزن« أصل» بمعنى قطع وفصل أعضاء البدن فى العقوبة.

[۴۴۴] (۳).« عقور» بمعنى المتوحش والهارى، وهى صيغة مبالغة من مادة« عقر» على وزن« عقد» بمعنى إصابته بجرح، وهذه المفردة تستخدم غالباً فى الكلاب، ولكن أحياناً تطلق على حيوانات أخرى.

[۴۴۵] (۴). سورة النحل، الآية ۱۲۶.

[۴۴۶] (۵). التفسير الأمثل، ذيل الآية ۱۲۶ من سورة النحل، نقلًا عن تفسير العياشى والدر المنثور والميزان.

[۴۴۷] (۶). بحار الأنوار، ج ۱۰۱، ص ۲۱۶، ح ۴.

[۴۴۸] (۱). سند الرسالة: ذكر هذه الرسالة نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، وكذلك نقلها نصر بن مزاحم فى كتابه عن ابن دَيزيل وكلاهما كان يعيشان قبل السيّد الرضى، وكذلك ذكر أحمد بن أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح وكان أيضاً قبل السيّد الرضى وأوردها بشكل أكثر تفصيلًا ممّا أورده السيّد الرضى، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر لهذه الرسالة.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۸۳ و ۳۸۴).

[۴۴۹] (۱).« الزور» على وزن« كور» فى الأصل من مادة« زور» على وزن« غور» وتعنى القسم العلوى من الصدر، ثم اطلقتعلى كل شيء ينحرف عن الحد الوسط، وبما أنّ الكلام الباطل منحرف عن الحق يقال له« زور»، وشهادة الزور تعنى شهادة الكذب والباطل.

[۴۵۰] (۲).« يوتغان» من مادة« وتغ» على وزن« وجب» بمعنى هالك وفاسد، وعندما تأتى من باب الأفعال تعنى إهلاك وإفساد.

[۴۵۱] (۱). انظر: بحار الأنوار، ج ۳۲، ص ۵۳۷.

[۴۵۲] (۲).« تـألوا» من مـادة« اليّـة» على وزن« عطيـة» بمعنى القسم واليمين، وعنـدما تأتى من باب تفعّل(كما فى مورد البحث) تعنى صـدور القسم من الطرفين، وفى بعض نسـخ نهـج البلاغة ورد كلمة« تأولوا» بدلًا من هذه المفردة، وهنا تعنى التفسـير بالرأى، يعنى أنّ جماعة ولغرض التوصل إلى غاياتهم يأولون آيات القرآن وفقاً لميولهم وأهوائهم النفسانيّة.

[۴۵۳] (۱).« يغتبط» من مادة« غبطة» وتعنى الفرح والسرور، وأحياناً تأتى بمعنى الحسد،(ولكن ليس الحسد بمعنىالسلبى يعنى تمنى سلب النعمة من الآخر، بل بمعنى الحصول على النعم التى حصل عليها الآخرون).

[۴۵۴] (۲).« أحمد» من مادة« حمد» بمعنى من يليق للمدح والثناء.

[۴۵۵] (۳).« أمكن» من مادة« إمكان» وهنا جاءت بمعنى التسهل وتوفير وسائل العمل، وبالتالى السيطرة على الشيء أو الشخص.

[۴۵۶] (۴).« قياد» تعنى اللجام، من مادة« قيادة» أى الرئاسة والزعامة.

[۴۵۷] (۱). سورة مريم، الآية ۳۹.

[۴۵۸] (۲). صفين، ص ۴۸۹.

[۴۵۹] (۱). سـند الرسالة: ذكر هذه الرسالة ابن أعثم الكوفى فى كتاب الفتوح، والدينورى(المتوفى ۲۸۲) فى أخبار الطوال، ونصر بن مزاحم فى كتاب صفين وكلّهم عاش قبل السيّد الرضى، وقال جماعة من المؤرخين وشرّاح نهج البلاغة بأنّ المخاطب لهذه الرسالة هو عمرو بن العاص(ولمزيد من التوضيح انظر: مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۸۴).

[۴۶۰] (۱).« لهج» بمعنى العلاقة الشديدة والافتتان فى مقابل شيء.

[۴۶۱] (۲). الكافى، ج ۲، ص ۱۳۶، ح ۲۴.

[۴۶۲] (۳). سورة ص، الآية ۲۳.

[۴۶۳] (۴). سورة ص، الآية ۲۴.

[۴۶۴] (۱). روضة الواعظين، ج ۲، ص ۴۲۹.

[۴۶۵] (۲). روضات الجنات، ج ۷، ص ۸۹ و ۹۰.

[۴۶۶] (۳). الكافى، ج ۲، ص ۵۸۶، ح ۲۴.

[۴۶۷] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۳۱۹، ح ۱۲.

[۴۶۸] (۲).« أبرم» من مـادة« إبرام» بمعنى لف الحبل وتقويته، ثمّ إمتـد هـذا المعنى ليشـمل كلّ عمل محكم ومتقن، وضـده النقض، ويعنى فتح العقدة وإضعاف قوّة الشيء.

[۴۶۹] (۳). سورة الدخان، الآيات ۲۵- ۲۸.

[۴۷۰] (۴). سورة الحج، الآية ۴۶.

[۴۷۱] (۱). سـند الرسالة: ذكر هذه الرسالة قبل السيّد الرضـى نصر بن مزاحم فى كتاب صفين(مع تفاوت يسير)، وبعد السيّد الرضى ذكرها الشـيخ الطوسـى فى الأمالى مع اختلاف يسـير أيضاً.(مصادر نهـج البلاغة، ج ۳، ص ۳۸۷) ومن الأشـخاص الذين ذكروا هذه الرسالة قبل السيّد الرضى أبو جعفر الإسكافى(المتوفى ۲۲۰) فى كتاب المعيار والموازنة، ص ۱۰۳.

[۴۷۲] (۱).« طَوْل» على وزن« قول» بمعنى النعمـة ومن مـادة« طُول» على وزن« نور» ويبيّن إمتـداد الشـىء، وبما أنّ النعم الإلهيّـة تعتبر

إمتداداً وجودياً لواهب النعم، فاطلقت هذه المفردة عليها.

وهذه الكلمة تطلق أحياناً على المقدرة الماليّة أو على كلّ مقدرة، و« اولو الطول» تعنى الأثرياء من الناس.

[۴۷۳] (۲). غرر الحكم، ص ۴۴۸، ح ۱۰۳۰۱.

[۴۷۴] (۱).« احتجز» من مادة« حجز» على وزن« عجز» ومعناه فى الأصل المنع وإيجاد الفاصلة، ثمّ اطلقت على عمليّة الإخفاء والتستر الذى يمنع من مشاهدة الشىء أو الإطلاع عليه.

[۴۷۵] (۱). تاريخ الطبرى، ج ۲، ص ۳۶۶ وقائع سنة التاسعة للهجرة.

[۴۷۶] (۲). شرح نهج البلاغة لابن ميثم، ج ۵، ص ۱۲۹.

[۴۷۷] (۳).« أطوى» من مادة« طى» فى الأصل تعنى إخفاء الشىء، والمعنى الآخر لكلمة« طى» لفّ الشىء ومن هذهالجهة اطلقت على السير فى الطريق« طى طريق» ولا يبعد أنّ كلا المعنيين يعودان لجذر واحد.

[۴۷۸] (۱). الكافى، ج ۷، ص ۴۱۴، ح ۶.

[۴۷۹] (۱). سورة المائدة، الآية ۳.

[۴۸۰] (۲).« تنكصوا» من مادة« نكص» على وزن« مكث» تعنى العودة من الشىء أو المكان، وبما أنّ التمرد وعدم الطاعة نوع من العودة عن طريق الطاعة، استخدمت هذه الكلمة بهذا المعنى.

[۴۸۱] (۱).« غمرات» جمع« غمرة» على وزن« ضربة» فى الأصل من غمر وبمعنى إزالة أثر الشىء، ثمّ استخدمت فى الماءالكثير الذى يغطى جميع الوجه الشىء وظاهره، ويقال: غمرة وغامر، وفى العبارة أعلاه جاءت بمعنى أمواج الشدائد والمشكلات.

[۴۸۲] (۱). تاريخ الطبرى، ج ۴، ص ۲۶.

[۴۸۳] (۲). سورة المائدة، الآية ۲۴.

[۴۸۴] (۳). سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۲۶۶ و ۲۶۷؛ الكامل، لابن الأثير، ج ۲، ص ۱۲۰.

[۴۸۵] (۱).« أعوجّ» من مادة« عَوج» على وزن« حرج» وتعنى انحراف الشىء وميلانه و« عِوج» بكسر العين، اسم مصدر وتشمل كلّ أشكال الانحراف والاعوجاج، وتطلق أحياناً بمعنى الانحرافات المعنويّة والعمليّة وجاءت فى العبارة أعلاه بهذا المعنى.

[۴۸۶] (۱). سند الرسالة: ذكر هذه الرسالة قبل السيّد الرضى نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، بشكل رسالتين وقد وردتا فى مكانين مختلفتين من هذا الكتاب مع تفاوت يسير عمّا أورده السيّد الرضى.(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۳۸۹)، وكذلك ذكرها أبوجعفر الإسكافى الذى كان يعيش قبل السيّد الرضى فى كتابه المعيار والموازنة، ص ۱۲۲، ولكنّه ذكر مقاطع من هذه الرسالة تشبه الرسالة مورد البحث، ولكن يحتمل كونها رسالة أخرى، وفى كتاب تمام نهج البلاغة، ص ۷۷۶ توجد رسالة شبيهة لرسالة أبى جعفر الإسكافى.

[۴۸۷] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۱۷۸.

[۴۸۸] (۲). سورة الحج، الآية ۷۸.

[۴۸۹] (۳). سورة البقرة، الآية ۱۸۵.

[۴۹۰] (۱). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۹۰.

[۴۹۱] (۲). الموسوعة الفقهية الكويتية، ج ۱۹، ص ۵۲.

[۴۹۲] (۱). انظر: جواهر الكلام، ج ۲۲، ص ۲۰۰.

[۴۹۳] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۱۴۶، ح ۱۰.

[۴۹۴] (۲).« تحشموا» من مادة« احشام» وفى الأصل« حشم» على وزن« كرم» بمعنى إخجال الطرف الآخر، وعندما تأتى من باب

الإفعال، تشير إلى هذا المعنى أيضاً، وأحياناً تأتى بمعنى الاغضاب أيضاً، وفى الجملة أعلاه المعنى الأوّل أنسب، و« حشمت» على وزن« حكمت» تعنى الحياء والخجل، وأحياناً بمعنى اللياقة أيضاً.

[۴۹۵] (۱).« معاهد» تستعمل فى معنيين، أحدهما أهل الذمّة والأقلّيات الدينيّة فى داخل البلدان الإسلاميّة الذين يعيشون بسلام مع المسلمين، والآخر: الكفّار الذين يعيشون خارج البلدان الإسلاميّة وتربطهم مع المسلمين رابطة العهد والميثاق، وفيما نحن فيه فالمراد المعنى الأوّل.

[۴۹۶] (۲).« تدّخروا» من مادة« ذخيرة» وعندما تأتى من باب إفتعال تتبدل الدال إلى ذال، والتاء فى باب افتعال تتبدل أيضاً إلى دال، وعليه فإنّ« لا تدخروا» تعنى لا تذخروا ولا تبقوا فى أنفسكم نصيحة.

[۴۹۷] (۱). وردت فى بعض الروايات هذه الجملة وما بعدها فى رسالة الإمام عليه السلام إلى قادة جيشه.(من كتاب صفين لنصر بن مزاحم، ص ۱۲۵)، والتعبير بالجند يتناسب مع هذا النقل.

[۴۹۸] (۲).« ابلوا»(من باب إفعال) بمعنى السعى وبذل الجهد لأداء الشىء، وأحياناً تأتى بمعنى الامتحان والاختبار أوالتحلل والانحلال، وفى هذا المورد جاء بالمعنى الأوّل.

[۴۹۹] (۳).« اصطنع» من مادة« اصطناع» بمعنى طلب الشىء، وأحياناً تأتى بمعنى صناعة الشىء وتربيته، وهنا جاءت بالمعنى الأوّل.

[۵۰۰] (۱). سند الرسالة: جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ هذه الرسالة ذكرها أبومنصور الثعالبى من المعاصرين للسيّد الرضى فى الباب الثالث من كتاب« الإعجاز والإيجاز» مع تفاوت ملفت، وقد ذكر صاحب المصادر هذا التفاوت، وفى المجموع يستنتج أنّ الثعالبى(قطعاً) لم يأخذ هذه الرسالة من نهج البلاغة للسيّد الرضى.(مصادر نهج‌البلاغة، ج ۳، ص ۳۹۰).

[۵۰۱] (۱).« تفىء» من مادة« فىء» يعنى العودة والرجوع.

[۵۰۲] (۲).« مربض» من مادة« ربض» على وزن« نبض» بمعنى جلوس الحيوان على صدره على الأرض، وبما أنّ الحيوانات تجلس بهذه الصورة فى الحضيرة غالباً فإنّ المربض يأتى بمعنى الحضيرة محل استراحة الأغنام والماعز.

[۵۰۳] (۳).« عنز» الانثى من الماعز، والماعز يطلق على كلّ أشكال هذا الحيوان، وأحياناً يأتى بمعنى الحيوان الذى يملك الشعر من الأنعام لا الصوف، وقصير الذَنَب.

[۵۰۴] (۱). ورد فى بعض نسخ نهج البلاغة بدل كلمة« حتى» حين. مثل كتاب اختيار مصباح السالكين، ص ۵۳۹ وكتاب‌حدائق الحقائق، ج ۲، ص ۵۱۷.

[۵۰۵] (۲). سورة الاسراء، الآية ۷۸.

[۵۰۶] (۱). من لا يحضره الفقيه، ج ۱، ص ۲۸۳، ح ۸۷۰.

[۵۰۷] (۲). بحار الأنوار، ج ۳۳، ص ۶۰۷.

[۵۰۸] (۱). صحيح مسلم، ج ۲، ص ۱۵۱، باب الجمع بين الصلاتين فى الحضر، ح ۴۵ و ۵۰.

[۵۰۹] (۲). صحيح البخارى، ج ۱، ص ۱۴۰، باب وقت المغرب.

[۵۱۰] (۳). مصنّف عبدالرزاق، ج ۲، ص ۵۵۶.

[۵۱۱] (۴). المعجم الكبير الطبرانى، ج ۱۰، ص ۲۱۹، ح ۱۰۵۲۵.

[۵۱۲] (۵). مسند البزاز، ج ۱، ص ۲۸۳.

[۵۱۳] (۱). سورة الاسراء، الآية ۷۸.

[۵۱۴] (۲). التفسير الكبير، للفخر الرازى، ج ۲۱، ص ۲۷.

[۵۱۵] (۱). سند الرسالة العهدية: هذه الرسالة المعروفة بعهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر من أشهر كتب ورسائل أميرالمؤمنين

عليه السلام والغنية عن التعريف ولا تحتاج لذكر السند، وهذه الرسالة وردت فى كتب كثيرة قبل السيّد الرضى وكذلك بعده، وفى الحقيقة أنّ شهرة هذه الرسالة أسمى وأعلى من أن تحتاج إلى شرح مداركها.

[۵۱۶] (۲) ولكنّ صاحب كتا ب مصادر نهج البلاغة يصرّح أنّ جماعة من الأكابر قبل السيّد الرضى، مثل الحسن بن على بن شعبة(المتوفى ۳۳۲) ذكرها فى كتاب تحف العقول، وذكرها القاضى النعمان المصرى(المتوفى ۳۶۷) فى كتاب دعائم الإسلام، وذكرها بعد السيّد الرضى، الرجالى المعروف النجاشى فى كتابه« الفهرست» فى شرح حال الأصبغ بن نباتة، وكذلك الشيخ الطوسى فى كتابه الفهرست، والنويرى فى نهاية العرب مع اختلاف يسير، وابن عساكر(المتوفى ۵۷۱) فى تاريخ مدينة دمشق حيث ذكر مقاطع منها.

والجدير بالذكر أنّ العلماء والكتّاب كتبوا شروحاً كثيرة جدّاً على هذه الرسالة، منهم: ۱. آداب الملوك نظام العلماء، ۲. أساس السياسة للواعظ المعروف الشيخ محمّد الكجورى الملقب بسلطان المتكلّمين. ۳. التحفة السليمانية للسيّد ماجد البحرانى(المتوفى بعد ۱۰۹۷). ۴. الراعى والرعيّة للكاتب الاستاد توفيق الفكيكى. ۵. السياسة العلوية تأليف عبدالواحد آل مظفر. ۶. شرح عهد أميرالمؤمنين لمحمّد باقر بن صالح القزوينى. ۷. شرح عهد أميرالمؤمنين للعلّامة المجلسى(المتوفى ۱۱۱۱). ۸. شرح عهد أميرالمؤمنين للميرزا حسن بن السيّد على القزوينى(المتوفى ۱۳۵۸). ۹. شرح عهد أميرالمؤمنين للميرزا محمّد بن سليمان التنكابنى. ۱۰. شرح عهد أميرالمؤمنين الشيخ هادى بن محمّد حسين القائينى. ۱۱. شرح الفاضل. ۱۲. الفرمان المبارك لجواد. ۱۳. نصايح الملوك للمولى أبى الحسن العاملى. ۱۴. مقتبس السياسة وسياج الرئاسة. ۱۵. القانون الأكبر فى شرح عهد الإمام للأشتر للسيّد مهدى السويج. ۱۶. مع الإمام على فى عهده لمالك الأشتر للعلّامة الشيخ محمّد باقر الناصرى(مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۴۲۶) وهناك شروح كثيرة أخرى كتبت فى عصرنا الحاضر، وقد سمعنا فى الأخبار أنّ هذه الرسالة ترجمت إلى لغات مختلفة ووضعت فى مبنى الامم المتحدة بعنوان سند تاريخى ووزعت على نوّاب دول العالم فى الامم المتحدة.

[۵۱۷] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۶، ص ۷۲ و ۷۳.

[۵۱۸] (۱). مصادر نهج البلاغة، ج ۳، ص ۴۲۵.

[۵۱۹] (۱). كتبنا فى شرح حال عبد اللَّه أبى سرح- الأخ الرضاعى لعثمان- فى الإسلام، فى ذيل الرسالة ۳۸ من الجزءالتاسع من هذا الكتاب.

[۵۲۰] (۱).« جباية» مثل جمع الزكاة وأموال بيت المال وأمثال ذلك، وفىالأصل من مادة« جباوة» على وزن« عداوة» وتعنى الجمع أو التجميع.

[۵۲۱] (۱).« يزع» من مادة« وزع» على وزن« وضع» بمعنى المنع النفس وحفظها من الجنوح والجموح، وأحياناً تأتى بمعنى جمع الأفراد حول بعضهم، لأنّ ذلك يمنعهم من التفرق والانتشار.

[۵۲۲] (۲).« الجمحات» جمع« جمحة» على وزن« صدقه» بمعنى الحوادث أو عوامل التمرد والعناد.

[۵۲۳] (۱). سورة الفجر، الآية ۲۷.

[۵۲۴] (۲). سورة يوسف، الآية ۵۳.

[۵۲۵] (۱). غرر الحكم، ح ۴۶۸۳.

[۵۲۶] (۱). غررالحكم، ح ۴۷۷۹.

[۵۲۷] (۱). سورة الكهف، الآية ۱۱۰.

[۵۲۸] (۲). سورة فاطر، الآية ۱۰.

[۵۲۹] (۳). سورة العصر، الآيتان ۳ و ۴.

[۵۳۰] (۴).« شحّ» فى الأصل بمعنى البخل المقترن بالحرص، بحيث يصير عادة للإنسان، وهاتان الصفتان من الرذائل الأخلاقيّة

المهمّـة، وذكر بعض مفسّرى القرآن أنّ« شحّ» أشـد من البخـل، والاسـتفادة من هـذه المفردة من كلام الإمام عليه السـلام إشارة إلى الالتزام بشدّة على اجتنابك للحرام وحفظ نفسك من هذه الرذيلة كما يمنع البخيل أمواله وثروته من بذلها للناس.

[۵۳۱] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۳۳۵، ح ۱.

[۵۳۲] (۲). غرر الحكم، ح ۴۸۹۸.

[۵۳۳] (۱). الكافى، ج ۱، ص ۴۰۷، ح ۸.

[۵۳۴] (۲).« ضارياً» تعنى المتوحش، من مادة« ضرو» على وزن« ضرب» وفى الأصل بمعنى الهجوم الشديد على شخص أو شيء، ومن هذه الجهة اطلقت هذه الكلمة على هجوم الأغنام على الزرع أيضاً.

[۵۳۵] (۱).« يفرط» مـن مـادة« فرط» على وزن« شـرط» بمعنى العجلـة والتسـرع فى أداء العمـل. وهـذه المفردة تسـتخدم فىمـورد أن يتحرك الشخص للتسابق فى عمل معين.

[۵۳۶] (۲).« زلل» و« زلة» على وزن« غلة» بمعنى الخطأ والزيغ.

[۵۳۷] (۱). سورة النور، الآية ۲۲.

[۵۳۸] (۱). هـذا التعبير يساوق ما ورد فى القرآن الكريم:« وَما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرای حِجابٍ أَوْيُرْسِلَ رَسُولًا»(سورة الشورى، الآية ۵۱).

[۵۳۹] (۲). الكافى، ج ۲، ص ۳۵۳، ح ۱۰.

[۵۴۰] (۳).« تبجحنّ» من مادة« بجح» على وزن« وجب» بمعنى الفرخ والافتخار.

[۵۴۱] (۴).« بـادرة» الأفعـال والحركـات المتسـرعة التى تصـدر من الإنسـان فى حالاـت الغضب والحـدّة، من مادة« بـدور» علىوزن« صدور» وتعنى السرعة فى العمل.

[۵۴۲] (۵).« مندوحـة» بمعنى الوسع وطريق الحل من مادة« ندح» على وزن« مدح» وهذه المفردة ربّما تأتى اسم مفعول وتعنى المكان الذى تمّت توسعته، أو المكان الواسع.

[۵۴۳] (۱). غرر الحكم، ح ۶۸۹۲.

[۵۴۴] (۲). المصدر السابق، ح ۶۸۹۳.

[۵۴۵] (۳).« إدغال» من مادة« دغل» على وزن« عقل» بمعنى الدخول فى مكان بشـكل خفى، وبما أنّ الفاسدين و المفسدين يدخلون بهـذه الصورة عادة، فإنّ هذه الكلمة تسـتبطن غالباً معنى الفساد، و« دغل» على وزن« قمر» بمعنى الفساد، وأحياناً تأتى بمعنى الشـخص المفسد، وفى العبارة أعلاه جاءت بمعنى الفساد.

[۵۴۶] (۴).« منهكـة» من مادة« نهك» على وزن« مدح» بمعنى المتعب والمضـعف، وتطلق كلمة منهكة على الضـعف والعجز أو على أسباب الضعف والعجز.

[۵۴۷] (۵).« غيَر» بمعنى الحوادث المغيرة للحال جمع« غيرة» على وزن« غيبة».

[۵۴۸] (۱). غرر الحكم، ح ۷۱۷۵.

[۵۴۹] (۲). المصدر السابق، ح ۵۷۵۰.

[۵۵۰] (۳).« ابّهة» بمعنى العظمة، وأحياناً تأتى بمعنى الكبر والغرور، وفى الجملة أعلاه وردت بهذا المعنى.

[۵۵۱] (۱).« مخيلة» بمعنى العُجب والأنانيّة.

[۵۵۲] (۲).« يطامن» من مادة« طمأنة» ويعنى إمتصاص الغيظ وتهدئت النفس وانزال الشيء إلى الأسفل.

[۵۵۳] (۳).« طماح» بمعنى التمرد.

[۵۵۴] (۴).« غرب» بمعنى الشدّة والحدّة.

[۵۵۵] (۵).« عزب» بمعنى الغائب.

[۵۵۶] (۱).« مساماة» بمعنى طلب العلو والمقابلة فى المثل.

[۵۵۷] (۲).« مختال» يعنى المتكبر والمغرور من مادة« خُيَلاء» على وزن« جهلاء» وتعنى التخيلات التى تدعو الإنسان لكى يتصور نفسه كبيراً وعظيماً.

[۵۵۸] (۳). الكافى، ج ۲، ص ۳۰۹، ح ۱.

[۵۵۹] (۴). المصدر السابق، ح ۵.

[۵۶۰] (۱). انظر: الكافى، ج ۲، باب الكبر.

[۵۶۱] (۲). بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۹۰، ح ۳.

[۵۶۲] (۱).« هوى» بمعنى الميل والعلاقة.

[۵۶۳] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۱۴۴، ح ۳.

[۵۶۴] (۲). المصدر السابق، ص ۱۴۵، ح ۸.

[۵۶۵] (۳).« ادحض» من مادة« دحض» على وزن« محض» وتعنى بطلان الشيء، وعندما تأتى من باب إفعال تعنى إظهارالبطلان، وإبطال الحجّة فى مورد بمعنى عدم قبول العذر.

[۵۶۶] (۴).« ينزع» من مادة« نزع» على وزن« نظم» يعنى قلع وفصل الشيء وتركه، وينبغى الالتفات إلى أنّ التناسب فى الجملة أعلاه يقتضى أن تكون« أو» بمعنى الواو، وجاء فى بعض نسخ نهج البلاغة واو بدل« أو».

[۵۶۷] (۱).« المضطهدين» جمع« مضطهد» بمعنى المظلوم، من مادة« ضهد» على وزن« مهد» وتعنى الظلم.

[۵۶۸] (۲). الكافى، ج ۲، ص ۳۳۲، ح ۱۲.

[۵۶۹] (۳). غرر الحكم، ح ۸۰۴۷.

[۵۷۰] (۱). الكافى، ج ۲، ص ۳۳۳، ح ۱۴.

[۵۷۱] (۲). سورة النمل، الآية ۵۲.

[۵۷۲] (۳). التفسير الأمثل، ذيل الآية ۴۲ من سورة الكهف.

[۵۷۳] (۴). سنن ابن ماجة، ج ۲، باب البغى، ح ۴۲۱۲، ص ۱۴۰۸.

[۵۷۴] (۱).« أوسط» من مادة« وسط» بمعنى فى هذا المورد الأفضل من الأشياء، لأنّ الشيء الذى يقع فى الحد الوسطوالاعتدال هو الأفضل والأكمل، يقول القرآن الكريم فى سورة القلم الآية ۲۸:« قالَ أَوْسَطُهُمْ أ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ»، أى أعقلهم، وجاء فى لسان العرب:« أوسط الشيء أفضل الشيء وخياره».

[۵۷۵] (۱).« يُجحِف» من« اجحاف» ومن مادة« جحف» على وزن« جهل» فى الأصل بمعنى نزل جلد الشيء، ثمّاستخدمت هذه الكلمة بمعنى الايقاع فى المشقّة وتخريب الشيء واعطابه.

[۵۷۶] (۱).« الحاف» من مادة« لحف» على وزن« حرف» فى الأصل تعنى تغطية الشيء ووضع الستار عليه، ثمّ استخدمت للاصرار على شيء، وكأنّه يصرّ عليه إلى درجة أنّه يغطى جميع وجود الطرف الآخر.

[۵۷۷] (۱).« ملمات» من مادة« لمّ» على وزن« غم» تعنى تجميع الشيء، ثمّ استخدمت للحوادث الشديد والمؤلمة، وكأنمثل هذه الحوادث تجمع فكر الإنسان وتلفت نظره إليها.

[۵۷۸] (۲).« جماع» فى الأصل مصدر وفى مثل هذه الموارد تأتى بمعنى الوصف يعنى الجامع والمجمع.

[۵۷۹] (۳).« صغو» تعنی المیل إلی الشیء.« صغو» بفتح الصاد وکسرها تأتی بمعنی واحد کما ذهب إلیه جماعهٔ من المحققین.

[۵۸۰] (۱). سورهٔ الکهف، الآیهٔ ۲۸.

[۵۸۱] (۲). سورهٔ هود، الآیتان ۲۹ و ۳۰.

[۵۸۲] (۱).« اشنأهم» من مادهٔ« شنأ» علی وزن« شمع» وتعنی الحقد والعداوهٔ.

[۵۸۳] (۱). بحار الأنوار، ج ۱۶، ص ۲۳۰.

[۵۸۴] (۲). سورهٔ الحجرات، الآیهٔ ۱۲.

[۵۸۵] (۱). کنز العمّال، ح ۶۳۹۲.

[۵۸۶] (۲). بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۲۱۳، ح ۴.

[۵۸۷] (۳).« حقد» العداوهٔ المخبوءهٔ فی قلب الشخص وینتظر الفرصهٔ لإظهارها وإبرازها.

[۵۸۸] (۱).« وتر» علی وزن« فکر» و« وتر» علی وزن« سطر» کلیهما بمعنی الوحید والمنفرد، وبما أنّ الإنسان عندما یقتل فإنّ أقرباءه یجدونه وحیداً، ومن الطبیعی أن یضمروا الحقد فی قلوبهم، فاستخدمت هذه المفردهٔ بمعنی اضمار الحقد والعداوهٔ، وهو المراد فی الجملهٔ أعلاه.

[۵۸۹] (۲).« تَغَاب» فعل أمر من مادهٔ« تغابی» بمعنی تغافل من مادهٔ« غباوهٔ» بمعنی الجهل وعدم العلم، وکأنّ الشخص الذی یتغافل فکأنّه جاهل بذلک الشیء.

[۵۹۰] (۳).« یضح» من مادهٔ« وضوح» بمعنی وضوح الشیء.

[۵۹۱] (۴).« ساع» من مادهٔ« سعی» فی الأصل بمعنی کلّ حرکهٔ ونشاط لإنجاز عمل معین، ولکن فی هذه الموارد یطلق علی الشخص الذی یسعی فی النمیمهٔ وذکر عیوب الآخرین.

[۵۹۲] (۵).« غاشّ» بمعنی الخائن والمسیء من مادهٔ« غِشّ» بمعنی الخیانهٔ والإساءهٔ.

[۵۹۳] (۱). الکافی، ج ۲، ص ۳۶۹، ح ۱.

[۵۹۴] (۱).« الشره» بمعنی الحرص الشدید.

[۵۹۵] (۱).« غرائز» جمیع غریزهٔ بمعنی الطبیعهٔ والقریحهٔ والدوافع المتمرکزهٔ فی باطن الإنسان أو الحیوانات الأخری، وهی من مادهٔ« غرز» علی وزن« قرض» بمعنی ثقب الشیء أو إحداث ثقب فیه وکأنّ باطنه یثقب وتوضع الغریزهٔ فی ذلک المکان.

[۵۹۶] (۱). سورهٔ البقرهٔ، الآیهٔ ۲۶۸.

[۵۹۷] (۲). سورهٔ آل عمران، الآیهٔ ۱۳۹.

[۵۹۸] (۳). سورهٔ التغابن، الآیهٔ ۱۶.

[۵۹۹] (۴). علل الشرایع، ج ۲، ص ۵۵۹، ح ۱. وینبغی الالتفات إلی أنّه عندما یقول الإمام علیه السلام« غرائز شتی» وفی کلام النّبی صلی الله علیه و آله« غریزهٔ واحدهٔ» وذلک بسبب النظرهٔ من زوایا مختلفهٔ إلی هذه المواضیع الثلاثهٔ وهی بحسب الظاهر منفصلهٔ عن بعضها ولکنّها فی الواقع تعود إلی أصل واحد.

[۶۰۰] (۱). غررالحکم، ح ۴۹۶.

[۶۰۱] (۲). نهج البلاغهٔ، الکلمات القصار، الکلمهٔ ۱۶۱.

[۶۰۲] (۳). بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۱۰۵، ح ۴.

[۶۰۳] (۴). المصدر السابق، ج ۷۴، ص ۴۳، ح ۱۳.

[۶۰۴] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۱۰۱، ح ۲۵.

[۶۰۵] (۲). غرر الحكم، ح ۱۰۰۴۹.

[۶۰۶] (۳). بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۱۰۲، ح ۳۰.

[۶۰۷] (۱). بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۱۰۴، ح ۳۶.

[۶۰۸] (۱).« بطانـة» فى الأصل بمعنى الملابس الداخليّـة(ضـد« ظهارة» وهى الملابس الخارجيّـة) ثمّ استخدمت هذه المفردة بمعنى الشخص الموثوق لدرجة حفظ الأسرار، محرم السرّ.

[۶۰۹] (۱).« الأثمة» جمع« آثم» بمعنى المذنب.

[۶۱۰] (۲).« آصار» جمع« اصـر» على وزن« مصر» فى الأصل بمعنى الحفظ والحبس، ثمّ اطلقت على الأعمال الثقيلة التى تمنع الإنسان من النشاط والفعاليّة وكذلك تطلق على الذنوب التى تثقل كاهل الإنسان، وفى الجملة أعلاه قصد بها هذا المعنى.

[۶۱۱] (۳).« أوزار» جمع« وزر» على وزن« مصـر» فى الأصـل بمعنى الحمـل الثقيل، وتطلق على الـذنوب الكبيرة التى تثقل مسؤوليّتها كاهل الإنسان، وذهب البعض إلى أنّ الوزر ذنوب أكبر وأثقل من الاصر.

[۶۱۲] (۴).« احنى» فى الأصل بمعنى عطف وإلفات نظر أو الشيء، والعطف هنا بمعنى المحبّة.

[۶۱۳] (۵).« الف» بمعنى الفة وانس.

[۶۱۴] (۱).« حفلات» جمع« حفـل» على وزن« حرب» فى الأصل يعنى المحل الـذى يتجمع فيه الماء، ثمّ اطلق على المحل والمجلس الذى يجتمع فيه كثير من الناس، ويقال للمجلس محفل أيضاً.

[۶۱۵] (۱). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۷، ص ۴۳.

[۶۱۶] (۱).« الزهو» بمعنى التكبر والعجب.

[۶۱۷] (۲).« العزة» فى هذا المورد تعنى الغرور، وجاء فى بعض النسخ« غِرة» واستعمالها فى هذا المعنى أوضح.

[۶۱۸] (۱). الموطأ، ج ۱، ص ۱۲ وكتب أخرى.

[۶۱۹] (۲). من لا يحضره الفقيه، ج ۴، ص ۱۱.

[۶۲۰] (۳). غرر الحكم، ص ۴۶۶، ح ۱۰۷۳۵.

[۶۲۱] (۴). تحدّثنا عن المدح والثناء فى غير محلّه وحالات التملق والتزلف بشكل مفصّل فى الجزء الثامن ذيل الخطبة ۲۱۶.

[۶۲۲] (۱).« تَدْريب» بمعنى الاعتياد على شيء أو عمل معين، وفى هذا المورد تعنى التشويق فى مقابل« تزهيد».

[۶۲۳] (۲). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۷۷.

[۶۲۴] (۱). رغم أنّ البعض يعتقد بأنّ« قِبل» إذا اضيفت للضمير فإنّها تعنى القرب، وإذا استعملت منفصلة تعنى القدرة والقوّة.

[۶۲۵] (۲).« نَصَب» بمعنى التعب والمشقّة، من مـادة« نَصْب» على وزن« نصـر» وتعنى إثبـات الشـىء، مثلًا عنـدما يضـعون الرمـح فى الأرض ويثبتونه يقال نصب الرمـح، وبما أنّ التعب يؤدّى إلى توقف الإنسان عن العمل فاطلقت هـذه الكلمـة عليه، ويطلق على أعـداء أهل البيت عليهم السلام نواصب لأنّه رفعوا لواء العداوة لهم.

[۶۲۶] (۱).« بَلاء» الاختبار والامتحان، وأحياناً يكون الاختبار بواسـطة النعم وأخرى بواسـطة المصائب، من هذه الجهةتطلق كلمة بلاء بمعنى النعمـة وبمعنى المصـيبة أحيانـاً أخرى، وفى الجملـة أعلاـه اريـد بهـا كلاـ المعنيين أى بعنوان حسن البلاء وسوء البلاء(وهـذه المفردة من مادة« بَلى يَبْلُو»).

[۶۲۷] (۲). عيون الأخبار، لابن قتيبة، ج ۱، ص ۶۴، حسب نقل شرح نهج البلاغة، للعلّامة التسترى، ج ۸، ص ۵۱۹.

[۶۲۸] (۱).« صُدُور» تعنى المتقدمين ومن كان يجلس فى الصدر، وكذلك مسلمى صدر الإسلام.

[۶۲۹] (۲). كنزالعمال، ح ۹۱۰، ووقد ورد مثل هذا الحديث فى المصادر الشـيعية عن الأئمّة المعصومين عليهم السـلام بطرق مختلفة

وبتعبيرات متفاوتة. انظر: بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۲۵۷ و ۲۵۸.

[۶۳۰] (۱).« مُناقَشَة» من مادة« نقش» فی الأصل تعنی اخراج الشوک من البدن بواسطة المنقاش، ثمّ اطلقت علی کلّ بحث دقيق وحساب كامل، وعليه فإنّ مناقشة الحكماء تعنی البحث الدقيق مع العلماء.

[۶۳۱] (۱). الكافی، ج ۱، ص ۳۹، ح ۵.

[۶۳۲] (۲). المصدر السابق، ح ۱.

[۶۳۳] (۳). غرر الحكم، ص ۴۹، ح ۲۷۳.

[۶۳۴] (۱). سنن البيهقی، ج ۴، ص ۱۷۶؛ مسند أحمد، ج ۴، ص ۳۶۲.

[۶۳۵] (۱).« عزّ» و« عزيز» من مادة« عزت» تعنی فی اللغة كلّ شیء يصعب الوصول إليه، ومن هذه الجهة يقال للأرض التی يصعب عبورها أو إيجاد الشق فيها أرض« عُزاز»، وكذلک يطلق علی كلّ شیء يصعب الوصول إليه بسبب قلّته فيقال عزير، وكذلک يطلق علی الأشخاص الأقوياء الذين يصعب التغلب عليهم أو يستحيل الغلبة عليهم، ولذلک تأتی« عزة» بمعنی القدرة والندرة، وأيضاً بمعنی الثمين، وفی العبارة أعلاه جاءت بمعنی القدرة.

[۶۳۶] (۱). سورة الأنفال، الآية ۶۰.

[۶۳۷] (۱). بحثنا حول الخراج بشكل مفصل فی ذيل الرسالة ۵۱.

[۶۳۸] (۱).« مَعاقِد» جمع« مَعْقِد» علی وزن« مسجد» فی الأصل بمعنی محل العقدة فی الخيط أو الحبل، ثمّ اطلقت علی كل معاملة وعقد اعتباری لمناسبة وجود عقدة تربط بين الطرفين، والجذر الأصلی لها« عقد» بمعنی ربط الطرفين.

[۶۳۹] (۱).« مَرافِق» جمع« مرفق» علی وزن« مسجد» وكذلک جمع« مرفق» علی وزن« محور» ويعنی الأمور التی ينتفع بها الإنسان.

[۶۴۰] (۲).« التَّرَفُّق» يعنی الاستفادة والانتفاع من الشیء، وجملة(ما لايَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ) إشارة إلی أنّ اللَّه تعالی قد خلق للإنسان قابليات وملكات مواقع اجتماعيّة مختلفة، فكثير من الأعمال التی يستطيع البعض القيام بها لا يستطيع البعض الآخر، وهذه هی طبيعة الحياة الاجتماعيّة، بحيث إنّ كلّ شخص يشتغل بعمل ينسجم مع استعداده وطاقاته، والآخرون ينتفعون من عمله وينتفع بدوره من أعمالهم وطاقاتهم.

[۶۴۱] (۱).« رِفْد» يعنی العطاء والعفو.

[۶۴۲] (۱).« توطين» يعنی دفع الشخص باتجاه معين و« توطين النفس» يعنی جعل النفس تعمل العمل الفلانی، فی الأصل من مادة وطن، وكأنّ الإنسان يجعل هذا العمل وطناً له ويتوقف فيه، وتأتی هذه المفردة أحياناً بمعنی الاعتياد علی شیء أيضاً.

[۶۴۳] (۱).« جيب» فی الأصل بمعنی الشق فی الثوب من جهة الصدر، وبما أنّ هذا القسم من الثوب يكون علی الصدر، والصدر بدوره مجاور للقلب، فستخدم هذه المفردة علی الصدر وأحياناً أخری علی القلب.

[۶۴۴] (۱). يقول القرآن الكريم فی الكافرين:« أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ».(سورة الطور، الآية ۳۲).

[۶۴۵] (۲).« يَنْبو» من مادة« نَبْو» علی وزن« نذر» فی الأصل بمعنی عدم تأثير السيف والسهم وأمثال ذلک، ثمّ اطلقت علی عدم التوافق وعدم التسليم، وفی العبارة أعلاه قصد بها هذا المعنی.

[۶۴۶] (۳).« لا يُثيرُهُ» من مادة« إثارة» بمعنی تحريک الشیء أو دفعه باتجاه معين.

[۶۴۷] (۱).« جِماع» كما قلنا سابقاً إنّها فی الأصل مصدر، وفی هذه الموارد جاءت بمعنی الوصف أی الجامع والمجمع.

[۶۴۸] (۱).« لَا يَتَفَاقَمَنَّ» من مادة« تفاقُم» بمعنی الكبير والخطير، من مادة« فقم» علی وزن« فهم».

[۶۴۹] (۲).« تَعاهَدْتَهُمْ» من مادة« تعاهُد» ومن مادة« عهد» وأحياناً تأتی بمعنی إيجاد العقد والمعاهدة، وأخری بمعنی القوامة علی الشیء وبالاهتمام به، وما جاء فی بعض الروايات أنّ المسلم عندما يدخل إلی المسجد يتعاهد النعالين، إشارة إلی هذا المعنی

والتحقيق فى نعليه لئلاـ يكونـا ملوثتـان، وجاء فى حـديث شـريف عن النّبى الأكرم صـلى الله عليه و آله:« تَعَاهَـدُوا نِعَالَكَمْ عِنْـدَ أَبْوَابِ مَسَاجِدِكُمْ»(بحار الأنوار، ج ۸۰، ص ۳۶۷). وجاءت فى العبارة أعلاه بهذا المعنى أى الاهتمام بأمر الجيش.

[۶۵۰] (۱).« آثَر» صيغة أفعل التفضيل، وتعنى الأفضل، من مادة« إيثار» وتعنى أفضلية الآخر وترجيحه على النفس.

[۶۵۱] (۱).« جِدَة» بمعنى القدرة الماليّة، وهذه المفردة مصدر من مادة« وجود».

[۶۵۲] (۲).« خُلُوف» جمع« خَلْف» بمعنى من يبقيه المسافر فى بيته ووطنه ويتركهم ويسافر، وعادة تطلق على النساءوالأطفال والصـغار والعاجزين.

[۶۵۳] (۱). انظر إلى أنّ هـذا الكلاـم ينطلق من العلاقـة العاطفيّـة بين قـادة الجيش والجنود ولاـ ينطلق من علاقـة مالـك الأشتر بأفراد الجيش، ولـذلك جـاء مرجع الضـمائر أعلاه بشـىء من عـدم الاتساق والتناسب، ولكن إذا التفتنا إلى هـذه الحقيقـة وهى أنّ المرحوم السيّد الرضى قد حذف العبارات والجمل التى تقع فى مطاوى هذا الكلام وهى الجمل التى وردت فى كتاب« تحف العقول» وكذلك كتاب« تمام نهـج البلاغة» فحينئذٍ يتبيّن أنّ الإمام عليه السـلام كان قد أوصـى مالك الأشتر بالاهتمام بأمور قادة الجيش وقال:« ثُمَّ وَاتِرْ إِعْلَامَهُمْ ذَاتَ نَفْسِـكَ فى إِيثَـارِهِمْ وَالتَّكْرِمَـةِ لَهُمْ، وَالِارْصَادِ بِالتَّوْسِـعَةِ وَحَقِّقْ ذَلِكَ بِحُسْنِ الْفِعَالِ وَالأَثَرِ وَالْعَطْفِ فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِم». وبذلك يتبيّن أنّ ضمائر الجمع تعود إلى قادة الجيش وعلاقة مالك الأشتر بهم.« فتدبّر».

[۶۵۴] (۱).« اسْتِثْقال» من مادة« ثِقْل».

[۶۵۵] (۲).« استبطاء» بمعنى المشى الخفيف من مادة« بُطْء» على وزن« قطب».

[۶۵۶] (۳). شرح نهج البلاغة، للعلّامة التسترى، ج ۸، ص ۵۳۸. وردت هذه القصّة فى تاريخ اليعقوبى، ج ۲، ص ۳۰۶.

[۶۵۷] (۴). يتصور أحياناً أنّ ضـمير فى« آمالِهِم» وضمائر الجمع التى تأتى بعد ذلك ينبغى أن تعود إلى الرعيّة، لوجود ضمائر مشابهة قبل ذلك تعود جميعها عليهم، ولكن القرائن الموجودة فى عبارة(كلمة شجاع وناكِل) تشير إلى أنّ الجمل تعود إلى المسائل المتعلقة بقادة الجيش. مضافاً إلى ذلك أنّ المرحوم السيّد الرضـى عنـدما انتقى هذه الجمل والعبارات، حذف الجمل فى الوسط، فى حين أنّ هـذه الجملة تبيّن عودة هذه التوصـيات إلى قادة الجيش، وجاء فى كتاب« تحف العقول» بعد ذكر جملة« انقِطاعِ مُدَّتِهِم»:« ثُمَّ لا تَكْلَنْ جُنُودَكَ إلى مَغْنَم وَزَعْتَهُ بَيْنَهُمْ».(تحف‌العقول، ص ۸۹).

[۶۵۸] (۱).« بَلاء» الاختبار والامتحان، وأحياناً يكون الاختبار بواسـطة النعم وأخرى بواسـطة المصائب، من هذه الجهةتطلق كلمة بلاء بمعنى النعمـة وبمعنى المصـيبة أحيانـاً أخرى، وفى الجملـة أعلاـه اريـد بهـا كلاـ المعنيين أى بعنوان حسن البلاء وسوء البلاء(وهـذه المفردة من مادة« بَلى يَبْلُو»).

[۶۵۹] (۲).« تهزّ» من مادة« هزّ» على وزن« حظّ» بمعنى التحريك الشديد والتثوير.

[۶۶۰] (۳).« تَحرّضْ» من مادة« تحريض» بمعنى الترغيب لعمل معين أو لشىء وإيجاد الدافع له.

[۶۶۱] (۴).« النّاكِل» يعنى الشخص الجبان أو المتكاسل والمتراجع عن العمل، من مادة« نكول» بمعنى الخوف والتراجع.

[۶۶۲] (۵).« لا تضـمّنّ» من مادة« تضمّن» على وزن« تعهد» بمعنى أخذ الشىء وتحمل مسؤوليّته، وفى الجملة أعلاهإشارة إلى أنّك لا ينبغى أن تجعل نقاط قوّة شخص إلى آخر وتضمه إليه.

[۶۶۳] (۱). سورة النساء، الآية ۵۹.

[۶۶۴] (۱). تفسير الفخر الرازى، ج ۱۰، ص ۱۴۴، مطبعة مصر، سنة ۱۳۵۷.

[۶۶۵] (۱). لمزيد من الاطلاع على هذه الأحاديث انظر: إحقاق الحقّ، ج ۳، ص ۴۲۵ والتفسير الأمثل، ذيل الآية ۵۹ من سورة النساء.

[۶۶۶] (۱).« تُمَحِّكُهُ» من مادة« مَحْك» على وزن« مكر» بمعنى اللجاجة والعناد والتعدى.

[۶۶۷] (۱).« يَتَمادى من مادة« تمادى ومن مادة« مَدى» على وزن« دوا» ويعنى الاستمرار والدوام والإصرار على عمل شىء.

[۶۶۸] (۲). سورة المؤمنون، الآية ۷۵.

[۶۶۹] (۳). غرر الحكم، ص ۶۵، ح ۸۵۳.

[۶۷۰] (۴). المصدر السابق، ص ۴۶۳، ح ۱۰۶۴۰.

[۶۷۱] (۵).« لايَحْصَر» من مادة« حصر» على وزن« نصر» ويعنى الوقوع فى مضيقة، وكثيراً ما تطلق على التوقف والعجز عن الاستمرار فى الكلام، وفى العبارة وردت بكلا المعنيين.

[۶۷۲] (۱). غرر الحكم، ص ۲۷۲، ح ۵۹۵۴.

[۶۷۳] (۲). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۱۹.

[۶۷۴] (۱). الكافى، ج ۱، ص ۶۸، ح ۱.

[۶۷۵] (۱). وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۲۱۲، ح ۱۱؛ بحار الأنوار، ج ۴۰، ص ۲۵۲، ح ۲۶، ولاطلاع أكثر انظر: وسائل الشيعة، ج ۱۸، كتاب القضاء الباب ۲۱.

[۶۷۶] (۲).« تَبَرُّم» من مادة« برم» فى الأصل بمعنى حياكة الحبل وأمثاله، ثمّ اطلقت على كلّ شىء يثير التعب والملل، وفى العبارة أعلان وردت بمعنى الانزعاج الشديد والتعب.

[۶۷۷] (۱).« أصْرَم» من مادة« صرم» على وزن« سرد» بمعنى قطع الشىء، وتأتى أحياناً للقطع المعنوى والقاطعيّة والحزم فى إدارة الأمور.

[۶۷۸] (۲).« يَزْدَهيه» من مادة« إزدهاء» ويعنى العجب والغرور والأنانية.

[۶۷۹] (۳).« إطْراء» بمعنى المدح والثناء الكثير والتبجيل.

[۶۸۰] (۴).« يَشتَميلُهُ» من مادة« استمالة» بمعنى جذب الشخص أو الشىء نحوه.

[۶۸۱] (۵).« اغراء» فى الأصل بمعنى الصاق شىء بشى آخر، ثمّ استخدمت بمعنى التشويق والتحريك لإنجاز لعمل معين، وفى الجملة أعلاه وردت بمعنى التشويق الكثير.

[۶۸۲] (۱).« تَعاهَدْ» بمعنى التحقيق والدراسة وقد ورد ذكر هذه المفردة فيما سبقها من الصفحات.

[۶۸۳] (۱).« اغْتِيال» فى الأصل بمعنى إغفال الشخص الإضرار به، وأحياناً تطلق على القتل غدراً، وفى العبارة أعلاه وردت بالمعنى الأوّل.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع " القائمیّة "الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله" الشمس آباذی – "رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز" القائمیّة "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثّقلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی" القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّـة الحاليّـة لهـذا المركز، شـَعبيّـة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتـُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّـها لا تـُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّـة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.